تاريخ الأدب العربي
٨
عصر
الأندلس
دكتور شوقي ضيف
عصر
الدول والإمارات
ليبيا - تونس - صقلية
تاريخ الأدب العربي
٤
دكتور شوقي ضيف
العصر العباسي الثاني
٣
دكتور شوقي ضيف
العصر العباسي الأول

تاريخ
الأدب
العربى
١

دكتور شوقى ضيف

العصر الجاهلى

دار المعارف

العصر الجاهلى

تأليف

الدكتور شوقى ضيف

الطبعة الحادية عشرة

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

العصر الجاهلىّ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

للباحثين المحدثين من عرب ومستشرقين كتبٌ مختلفة فى تاريخ الأدب العربى أدّتْ كثيراً من الفائدة والنفع منذ ظهورها ، غير أن من الحق أنه ليس بين هذه الكتب ما يبسط الحديث فى أدبنا وأدبائنا على مرّ التاريخ من الجاهلية إلى العصر الحديث بَسْطاً مفصلا دقيقاً . وأغزرُ هذه الكتب وأحفَلُها مادة كتابُ «تاريخ الأدب العربى» لبروكلمان ، وهو دائرة معارف جامعة ، لا تقتصر على الحديث عن شعرائنا وكُتّابنا ، بل تُفيض فى الكلام عن فلاسفتنا وعلمائنا من كل صَنْف وعلى كلّ لون ، مع استقصاء آثارهم المطبوعة والمخطوطة فى مشارق الأرض ومغاربها والإشارة إلى ما كُتب عنهم قديماً وحديثاً. وهذه العناية من وصف التراث العربى جميعه جعلتْ بروكلمان لا يُعْنَى عناية مفصلة ببحث العصور والظواهر الأدبية ولا يبحث شخصيات الأدباء بحثاً تاريخيًّا نقديًّا تحليليًّا، إذ شغلته عن ذلك مواد كتابه المتنوعة الكثيرة .

وإذن فأنا لا أبالغ إذا قلت إن تاريخ أدبنا العربى يفتقر إلى طائفة من الأجزاء المبسوطة تُبْحَثُ فيها عصوره من الجاهلية إلى عصرنا الحاضر كما تبحث شخصياته الأدبية بحثاً مُسْهباً ، بحيث ينكشف كل عصر انكشافاً تامًّا ، بجميع حدوده وبيئاته وآثاره وما عمل فيها من مؤثرات ثقافية وغير ثقافية ، وبحيث تنكشف شخصيات الأدباء انكشافاً كاملا ، بجميع ملامحها وقسماتها النفسية والاجتماعية والفنية .

وقد حاولتُ أن أنهض بهذا العبء، وأنا أعلم ثِقَلَ المئونة فيه ، فإن كثيراً من الآثار الأدبية القيمة لا يزال مخطوطاً لما يُنْشَر ،وكثيراً مما نُشر فى حاجة إلى أن يعاد نشره نشراً علميًّا . وهناك بيئات أدبية يغمرها غير قليل من الظلام، إما لقلة ما بين أيدينا من تراثها الأدبى ، وإما لأن الباحثين لم يكشفوا دروبها ومناجمها كشفاً

كافياً . يُضاف إلى ذلك أن تحليل آثار الأدباء وتقويمها ليس عملا سهلا ، لكثرة ما يداخلها من عناصر الحياة والفن المتشابكة ، ولأنها تتألف من معان وأساليب جميلة ، وهي لا تخضع خضوعاً مطلقاً لقواعد العلم وقوانينه ، حقًّا تخضع للطريقة العلمية ، ولكن باستمرار تظل فيها جوانب خاضعة للذوق ونفاذ البصيرة والإحساس المرهف . وذلك كله مما يضاعف الجهد على من يريد تأريخ أدبنا العربي تأريخاً مفصلا دقيقاً على اختلاف عصوره وتفاوت بيئاته ، غير أنه يضاعف في الوقت نفسه لذّته فيه ، إذ يرى أمنيته في إتقان عمله بعيدة عسيرة ، لا يمكنه بلوغها إلا بشق النفس ، فيَجِدّ ويُلحّ ، ويمضي في الجِدّ والإلحاح ، حتى يظفر بما يريد ، مؤمناً بأنه لا يقول الكلمة الأخيرة فيما يبحثه ، إذ البحثُ الأدبيّ لا يعرف الكلمة الأخيرة في مسألة من مسائله .

ومعنى ذلك أن هذا الجزء من تاريخ أدبنا العربي الخاص بالعصر الجاهلي — والذي ستتلوه أجزاء أخرى تتناول بقية عصور هذا التاريخ — لا أزعم أنه يحمل إلى القراء الصورة الأخيرة لهذا العصر ، كما لا أزعم أن الأجزاء التالية ستحمل الصورة الأخيرة للعصور المتعاقبة . وإنما أزعم أن هذه الصورة هي التي استطعت رسمها مع ما بذلت من جهد واصطنعت من نهج وتحرّيت من دقّة ، وقد يأتي بعدي منْ يعدّل في جانب من جوانبها بما يهتدي إليه من حقائق أدبية غابتْ عني في بعض العصور أو بعض البيئات والشخصيات الأدبية . وتلك طبيعة الأبحاث يكمل بعضها بعضاً ولا تزال في نمو مطرد . والله أسأل أن يلهمني السداد في القول والفكر والعمل ، وهو حسبي ، ونعم الوكيل .

القاهرة في ٢٠ من ديسمبر سنة ١٩٦٠ شوقي ضيف

تمهيد

١

كلمة أدب

كلمة أدب من الكلمات التى تطور معناها بتطور حياة الأمة العربية وانتقالها من دور البداوة إلى أدوار المدنية والحضارة . وقد اختلفت عليها معان متقاربة حتى أخذت معناها الذى يتبادر إلى أذهاننا اليوم ، وهو الكلام الإنشائى البليغ الذى يُقْصَد به إلى التأثير فى عواطف القراء والسامعين ، سواء أكان شعراً أم نثراً .

وإذا رجعنا إلى العصر الجاهلى ننقِّب عن الكلمة فيه لم نجدها تجرى على ألسنة الشعراء ، إنما نجد لفظة آدب بمعنى الداعى إلى الطعام ، فقد جاء على لسان طرفة بن العبد[1] :

نحن فى المَشْتاةِ ندعو الجَفَلَى لا ترى الآدبَ فينا يَنْتَقِرْ[2]

ومن ذلك المأدُبة بمعنى الطعام الذى يُدْعَى إليه الناس . واشتقوا من هذا المعنى أدُبَ يأدُب بمعنى صنع مأدُبة أو دعا إليها .

وليس وراء بيت طرفة أبيات أخرى تدل على أن الكلمة انتقلت فى العصر الجاهلى من هذا المعنى الحسى إلى معنى آخر ، غير أننا نجدها تُسْتَخْدَم على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم فى معنى تهذيبى خلقى ، ففى الحديث النبوى : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى »[3] ويستخدمها شاعر مخضرم يسمى سهم بن حنظلة

---

(١) انظر ديوان طرفة (طبعة آلوارد) القصيدة رقم ٥ بيت ٤٦ .

(٢) المشتاة : الشتاء ، الدعوة الجفلى : العامة ، الآدب : الداعى إلى الطعام ، لا ينتقر : لا يختار أناساً دون آخرين .

(٣) انظر النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير (طبع القاهرة ١٣١١ هـ) ج ١ ص ٣ .

الغَنَوى بنفس المعنى إذ يقول (١) :

لا يمنعُ الناسُ منِّى ما أردتُ ولا   أعطيهمُ ما أرادوا حُسْنَ ذَا أدبا

وربما استُخدمت الكلمة فى العصر الجاهلى بهذا المعنى الخلقى، غير أنه لم تصلنا نصوص تؤيد هذا الظن . وذهب « نالينو » إلى أنها استخدمت فى الجاهلية بمعنى السنّة وسيرة الآباء مفترضاً أنها مقلوب دأب، فقد جمع العرب دأباً على آداب كما جمعوا بئراً على آبار ورأياً على آراء، ثم عادوا فتوهموا أن آداباً جمع أدب، فدارت فى لسانهم كما دارت كلمة دأب بمعنى السنة والسيرة ، ودلوا بها على محاسن الأخلاق والشيم (٢) . وهو فرض بعيد، وأقرب منه أن تكون الكلمة انتقلت من معنى حسى وهو الدعوة إلى الطعام إلى معنى ذهنى وهو الدعوة إلى المحامد والمكارم ، شأنها فى ذلك شأن بقية الكلمات المعنوية التى تستخدم أولا فى معنى حسى حقيقى ، ثم تخرج منه إلى معنى ذهنى مجازى .

ولا نمضى فى عصر بنى أمية حتى نجد الكلمة تدور فى المعنى الخلقى التهذيبى ، وتضيف إليه معنى ثانياً جديداً، وهو معنى تعليمى فقد وجدت طائفة من المعلمين تسمى بالمؤدِّبين ، كانوا يعلمون أولاد الخلفاء ما تطمح إليه نفوس آبائهم فيهم من معرفة الثقافة العربية ، فكانوا يلقّنونهم الشعر والخطب وأخبار العرب وأنسابهم وأيامهم فى الجاهلية والإسلام . وأتاح هذا الاستخدام الجديد لكلمة الأدب أن تصبح مقابلة لكلمة العلم الذى كان يُطلَق حينئذ على الشريعة الإسلامية وما يتصل بها من دراسة الفقه والحديث النبوى وتفسير القرآن الكريم .

وإذا انتقلنا إلى العصر العباسى وجدنا المعنيين التهذيبى والتعليمى يتقابلان فى استخدام الكلمة ، فقد سمى ابن المقفع رسالتين له تتضمنان ضروباً من الحكم والنصائح الخلقية والسياسية باسم « الأدب الصغير » و « الأدب الكبير » . وبنفس هذا المعنى سمى أبو تمام المتوفى سنة ٢٣٢ هـ/ ٨٤٦ م الباب الثالث من ديوان

---

(١) انظر الأصمعيات (طبع دار المعارف) رقم ١٢ بيت ٣٠ .

(٢) تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بنى أمية لكارلونالينو (طبع دار المعارف) ص ١٤ وما بعدها .

الحماسة الذى جمع فيه مختارات من طرائف الشعر ، باسم باب الأدب . وينطبق هذا المعنى تمام الانطباق على كتاب الأدب الذى عقده البخارى المتوفى سنة ٢٥٦هـ/ ٨٧٠ م فى مؤلفه المشهور فى الحديث والمعروف باسم الجامع الصحيح ، كما ينطبق على كتاب الأدب الذى صنفه ابن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ هـ/٩٠٨ م. وفى هذه الأزمنة أى فى القرنين الثانى والثالث للهجرة وما تلاهما من قرون كانت الكلمة تطلق على معرفة أشعار العرب وأخبارهم ، وأخذوا يؤلفون بهذا المعنى كتباً سموها كتبَ أدب مثل « البيان والتبيين للجاحظ » المتوفى سنة ٢٥٥هـ وهو يجمع ألواناً من الأخبار والأشعار والخطب والنوادر ، مع ملاحظات نقدية وبلاغية كثيرة . ومثله كتاب « الكامل فى اللغة والأدب للمبرد » المتوفى سنة ٢٨٥ هـ وقد وجَّه اهتمامه إلى اللغة لا إلى البلاغة والنقد كما صنع الجاحظ ، وقدم فيه صوراً من الرسائل النثرية التى ارتقت صناعتها فى تلك العصور ، جاء فى مقدمته : « هذا كتاب ألفناه يجمع ضروباً من الآداب ما بين كلام منثور وشعر مرصوف ومثل سائر وموعظة بالغة واختيار من خطبة شريفة ورسالة بليغة ». ومما أُلِّفَ فى الأدب بهذا المعنى كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ والعقد الفريد لابن عبد ربه المتوفى سنة ٣٢٨ هـ وزهر الآداب للحصرى المتوفى سنة ٤٥٣ هـ .

ولم تقف الكلمة عند هذا المعنى التعليمى الخاص بصناعتى النظم والنثر وما يتصل بهما من الملح والنوادر ، فقد اتسعت أحياناً لتشمل كل المعارف غير الدينية التى ترقى بالإنسان من جانبيه الاجتماعى والثقافى ؛ فقد جاء على لسان الحسن ابن سهل المتوفى سنة ٢٣٦ هـ : « الآداب عشرة ، فثلاثة شهرجانية[١] ، وثلاثة أنوشروانية[٢] ، وثلاثة عربية ، وواحدة أربت عليهن ، فأما الشهرجانية فضرب العود ولعب الشطرنج ولعب الصوالج ، وأما الأنوشروانية فالطب والهندسة والفروسية ، وأما العربية فالشعر والنسب وأيام الناس ، وأما الواحدة التى أربت عليهن فمقطعات الحديث والسمر وما يتلقاه الناس بينهم فى المجالس »[٣] . وبهذا المعنى الواسع نجدها عند إخوان الصفا فى القرن الرابع للهجرة ، فقد دلوا بها فى رسائلهم إلى جانب

---

(١) الشهرجانية : نسبة إلى الشهارجة أو الشهاريج وهم أشراف الفرس .

(٢) الأنوشروانية : نسبة إلى كسرى أنوشروان ملك الفرس من سنة ٥٣١–٥٧٩ م.

(٣) انظر زهر الآداب للحصرى (طبع مصر) ج ١ ص ١٤٠ .

علوم اللغة والبيان والتاريخ والأخبار على علوم السحر والكيمياء والحساب والمعاملات والتجارات[١] . ولا نصل إلى ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ ﻫ حتى نجدها تطلق على جميع المعارف دينية وغير دينية ، فهى تشمل جميع ألوان المعرفة وخاصة علوم البلاغة واللغة ، ومن ثم قال : « الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارهم والأخذ من كل علم بطرف »[٢] .

ومنذ القرن الثالث للهجرة نجد الكلمة تدل — فيما تدل عليه — على السنن التى ينبغى أن تراعى عند طبقة خاصة من الناس ، وألّفت بهذا المعنى كتب كثيرة مثل أدب الكاتب لابن قتيبة وأدب النديم لكشاجم المتوفى حوالى سنة ٣٥٠ ﻫ . وتوالت كتب مختلفة فى أدب القاضى وأدب الوزير وأخرى فى أدب الحديث وأدب الطعام وأدب المعاشرة وأدب السفر إلى غير ذلك . على أن أكثر ما كانت تدل عليه مقطعات الأشعار وطرائف الأخبار .

وأخذت الكلمة منذ أواسط القرن الماضى تدل على معنيين : معنى عام يقابل معنى كلمة Littérature الفرنسية التى يطلقها الفرنسيون على كل ما يكتب فى اللغة مهما يكن موضوعه ومهما يكن أسلوبه ، سواء أكان علماً أم فلسفة أم أدباً خالصاً ، فكل ما ينتجه العقل والشعور يسمى أدباً . ومعنى خاص هو الأدب الخالص الذى لا يراد به إلى مجرد التعبير عن معنى من المعانى ، بل يراد به أيضاً أن يكون جميلا بحيث يؤثر فى عواطف القارئ والسامع على نحو ما هو معروف فى صناعتى الشعر وفنون النثر الأدبية مثل الخطابة والأمثال والقصص والمسرحيات والمقامات .

---

(١) راجع الرسالة السابعة من القسم الرياضى فى رسائل إخوان الصفا .

(٢) مقدمة ابن خلدون (طبعة المطبعة البهية) ص ٤٠٨ .

٢

تاريخ الأدب

واضح الآن أن تاريخ الأدب لأمة من الأمم إما أن يلتزم فيه المؤرخ المعنى العام لكلمة أدب ، فيؤرخ للحياة العقلية والشعورية فى الأمة تاريخاً عامًّا ، وإما أن يلتزم المعنى الخاص ، فيؤرخ للشعراء والكتّاب تاريخاً خاصًّا بالأدب ونشأته وتطوره وأهم أعلامه ، ولعل أهم من أرخوا لأدبنا بالمعنى الأول بروكلمان فى كتابه «تاريخ الأدب العربى»،ونسج على منواله جرجى زيدان فى كتابه المسمى بتاريخ آداب اللغة العربية . ونراهما يعرضان لتاريخ الحياة الأدبية والعقلية عند العرب فى نشأتها وتطورها مع الترجمة للفلاسفة والعلماء من كل صنف والشعراء والكتاب من كل نوع . ومن غير شك يتقدم بروكلمان جرجى زيدان فى هذا الصدد بسبب المادة الغنية التى يحتويها كتابه ، فقد أحصى إحصاء دقيقاً أدباء العرب وعلماءهم وفلاسفتهم مع ذكر آثارهم المطبوعة والمخطوطة وما كُتب عنهم قديماً وحديثاً ، مبيناً مناهجهم ومكانتهم فى الفن أو العلم الذى حذقوه ، مع نبذة عن كل فن وعلم ومدى ما حدث له من تطور ورقى .

ومؤرخ الأدب العربى إما أن ينهج هذا النهج الواسع ، وإما أن ينهج النهج الثانى الذى أشرنا إليه ، فيقف بتاريخه عند الشعراء والكتاب مفصّلا الحديث فى شخصياتهم الأدبية وما أثر فيها من مؤثرات اجتماعية واقتصادية ودينية وسياسية ، ومتوسعاً فى بيان الاتجاهات والمذاهب الأدبية التى شاعت فى كل عصر . ومن المحقق أن المؤرخ للأدب العربى بمعناه الخاص يأخذ الفرصة كاملة كى يؤرخ لهذا الفرع المونق من فروع الأدب بالمعنى العام ، وهو الفرع الذى يُراعَى فيه الجمال الفنى والتأثير فى ذوق القارئ والسامع وإثارة ما يمكن أن يثار فى نفسيهما من مشاعر وعواطف متباينة . فهو يؤرخ للأدب الخالص تاريخاً مفصلا لا يكتفى فيه بالنبذ الموجزة عن الاتجاهات والفنون الأدبية ولا بالتراجم المجملة عن الشعراء والكتاب ، على نحو ما يصنع بروكلمان فى تاريخه العام ، بل يكتب فى ذلك الفصول الواسعة مطبّقاً المناهج الحديثة فى دراسة الأدب الخالص ومن أنتجوه من الأدباء .

وكان من آثار سيطرة العلوم الطبيعية والتجريبية فى القرن الماضى على العقول الغربية أن نادى بعض مؤرخى الأدب هناك بوجوب تطبيق مناهجها وقواعدها على الدراسات الأدبية ، وحاول نفر منهم أن يضع للأدب قوانين كقوانين الطبيعة ، وتقدم سانت بيف (Sainte-Beuve) يدعو إلى العناية بشخصيات الأدباء وتعقُّب حياتهم المادية والمعنوية ومؤثراتها ، حتى نتبين ما ينفرد به الأديب وما يشترك فيه مع سواه من الأدباء ، فإذا تبينا الطرفين أمكن أن نضع الأدباء فى فصائل وأسَر على نحو ما يصنع علماء النبات إذ يرتبونه فى أنواع وفصائل نباتية مختلفة . وبالمثل يضع مؤرخو الأدب أصحابه فى طبقات وفصائل على أساس ما يقوم بين الأديب وفصيلته من تشابه ، وهو تشابه تستخلص منه قوانين الأدب العلمية وما يمتاز به أصحاب كل فصيلة من خصائص وصفات . وتلاه تين (Taine) يقرر أن هناك قوانين ثلاثة يخضع لها الأدب فى كل أمة وهى الجنس والزمان والمكان ، وكأنه أراد أن يحوِّل تاريخ الأدب إلى ضرب من التاريخ الطبيعى ، فأدباء كل أمة يخضعون لهذه القوانين الثلاثة خضوعاً جبرياً ملزماً ، فلكل جنس خواصه ، ولكل زمان أحداثه وظروفه الاقتصادية والسياسية والثقافية ، ولكل مكان ميزاته الإقليمية والجغرافية ، وتلك هى مؤثرات الأدب ، بل قوانينه التى تطبع الأدباء بطوابعها الدقيقة . ولاحظ مؤرخو الأدب ونقاده أنه تجاهل شخصيات الأدباء وفرديتهم ومواهبهم وأصالتهم ، ولو أن قوانينه صحيحة لكان كل أديب صورة مطابقة للأدباء الآخرين ، ولما تميز أديب من سواه . والواقع يثبت عكس ذلك فلكل أديب شخصيته التى تجعل منه أديباً بعينه ، له مقوماته .

وبجانب هذين المنهجين فى دراسة تاريخ الأدب وجد منهج ثالث عند برونتيير (Brunetière) الذى فُتن بمذهب داروين المعروف فى التطور ونشوء الكائنات العضوية وارتقائها ، وكان (سبنسر) سبقه إلى نقله من العضويات إلى المعنويات ، وطبقه على الأخلاق والاجتماع ، فحاول هو أن يطبقه على الأدب وفنونه المختلفة ، واختار لهذا التطبيق ثلاثة فنون ، هى : المسرح والنقد الأدبى والشعر الغنائى ، فتتبع كلا فى نشأته ونموه وتطوره وما عمل فيه من مؤثرات ، وذهب إلى أن الفنون الأدبية مثل الكائنات الحية تخضع للتطور ، وقد يتولد بعضها من بعض

على نحو ما تولد الشعر الغنائى الرومانسى فى القرن التاسع عشر من الوعظ الدينى الذى شاع بفرنسا فى القرن السابع عشر ، فهذا الشعر لم يتطور عن شعر مماثل له ، سبقه ، وإنما تطور أو تولّد عن فن آخر على نحو ما يتطور أو يتولد كائن عضوى من كائن آخر .

وهذه الموجة الحادة التى اندفع خلالها هؤلاء المؤرخون فى القرن التاسع عشر يريدون أن يلحقوا تاريخ الأدب بالعلوم الطبيعية ويطبقوا عليه قواعدها لم تلبث أن هدأت فى أوائل هذا القرن العشرين بتأثير نمو العلوم الإنسانية ، فإن هذه العلوم أثبتت أن عالم الإنسان يخضع لقوانين أعمق من القوانين الطبيعية وأن تاريخ الأدب ينبغى أن لا يلحق بالعلوم الطبيعية وإنما يلحق بالدراسات الإنسانية مثل التاريخ والقانون والسياسة وعلمى الاجتماع والنفس . وسرعان ما أخذ مؤرخو الأدب ونقاده يطبقون على الأدب نظريات اللاشعور الفردى وعُقَد الجنس ومكبوتاته واللاشعور الجماعى ورواسب الحياة الإنسانية البدائية التى تتجلى فى الأساطير وما يتصل بها والعلاقات الاجتماعية والإنتاجية .

وسنحاول أن نؤرخ فى أجزاء هذا الكتاب للأدب العربى بمعناه الخاص مفيدين من هذه المناهج المختلفة فى دراسة الأدب وأعلامه وآثاره ، فنقف عند الجنس والوسط الزمانى والمكانى الذى نشأ فيه الأديب ، ولكن دون أن نبطل فكرة الشخصية الأدبية والمواهب الذاتية التى فسح لها سانت بيف فى دراساته . وكذلك لن نبطل نظرية تطور النوع الأدبى ، فما من شك فى أن الأنواع الأدبية تتطور من عصر إلى عصر ، وقد يتولد بعضها من بعض فيظهر نوع أدبى جديد لا سابقة له فى الظاهر ، ولكن إذا تعمقنا فى الدرس وجدناه قد نشأ من نوع آخر مغاير له ، على نحو ما يلاحظ ذلك مَن يدرس فن المقامة فى العصر العباسى ، فإنها فى رأينا تولدت من فن الأرجوزة وما ابتغى به أصحابه فى العصر الأموى عند رؤبة ونظرائه من تعليم الناشئة والموالى ألفاظ اللغة العربية الغريبة وتراكيبها العويصة . فاقتران هذه الغاية بالأرجوزة يلفتنا إلى نفس الغاية فى المقامة عند بديع الزمان والحريرى وما بين الفنين من صلات وروابط . ولابد أن نستضىء فى أثناء ذلك بدراسات النفسيين والاجتماعيين وما تلقى من أضواء على الأدباء وآثارهم . وبجانب ذلك لابد أن نقف

عند أساليب الأدباء وتشكيلاتهم اللفظية وما تستوفى من قيم جمالية مختلفة ، ولابد من المقارنة بين السابق واللاحق فى التراث الأدبى العربى جميعه .

٣

تقسيمات تاريخ الأدب العربى وعصوره

أكثر من أرخوا للأدب العربى وزعوا حديثهم فى هذا التاريخ على خمسة عصور أساسية ، هى (١) عصر الجاهلية أو ما قبل الإسلام (٢) والعصر الإسلامى من ظهور الرسول صلى الله عليه وسلم إلى سقوط الدولة الأموية سنة ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م وهو العصر الذى تكونت فيه الدولة العربية وتمت الفتوح الإسلامية . ومن المؤرخين من يقسم هذا العصر قسمين ، فهو إلى نهاية عصر الخلفاء الراشدين يسمى عصر صدر الإسلام ، وما يليه إلى آخر الدولة الأموية يسمى العصر الأموى . (٣) والعصر الثالث هو عصر العباسيين أو العصر العباسى ويستمر إلى سقوط بغداد فى يد التتار سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م. ويقسم بعض المؤرخين هذا العصر قسمين : العصر العباسى الأول ويمتد نحو مائة عام ، والعصر العباسى الثانى ويستقل ببقية العصر . ومن المؤرخين من يقسمه ثلاثة أقسام ، يبقى فيها على القسم الأول بنفس الاسم ، أما العصر العباسى الثانى فيقف به عند سنة ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م وهى السنة التى استولى فيها بنو بويه على بغداد والتى أصبحت الخلافة العباسية منذ تاريخها اسمية فقط ، ويمتد العصر العباسى الثالث إلى استيلاء التتار على بغداد . وقد يقسم بعض المؤرخين هذا العصر العباسى الثالث قسمين ، فيقف بالقسم الأول عند دخول السلاجقة بغداد سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م ويستقل القسم الثانى أو العصر العباسى الرابع ببقية العصر . (٤) وباستيلاء التتار على بغداد يبدأ العصر الرابع ويستمر إلى نزول الحملة الفرنسية بمصر سنة ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م (٥) ثم العصر الحديث الذى يمتد إلى أيامنا الحاضرة .

وسنبقى فى كتابنا على العصرين الأولين ، أما العصر الثالث وهو العصر العباسى فسندخل عليه بعض التعديل ، وذلك أننا سنبقى على قسمين منه : عصر عباسى أول ينتهى بانتهاء خلافة الواثق سنة ٢٣٢ هـ ، وعصر عباسى ثان ينتهى باستيلاء

البويهيين على بغداد سنة ٣٣٤ هـ . ومن هذا التاريخ إلى نهاية العصور الوسطى نبتدئ عصراً رابعاً نمده إلى العصر الحديث وهو عصر الدول والإمارات ، فقد تفككت أوصال الدولة العباسية وظهرت إمارات وخلافات ودول كثيرة كإمارات الفرس فى إيران وما وراءها وسيف الدولة الحمدانى فى حلب والفاطميين ثم الأيوبيين والمماليك والعثمانيين فى مصر والأمويين ثم ملوك الطوائف والمرابطين والموحدين ومن خلفوهم فى الأندلس . وحرىّ أن يبحث الأدب العربى فى هذا العصر الرابع ويؤرَّخ فى كل إقليم على حدة ، فيكون هناك جزء لإيران والعراق وجزء لمصر والشام والجزيرة العربية وجزء للأندلس وبلاد المغرب ، وقد ينمو البحث وتتولد أجزاء أخرى ، حتى إذا انتهينا من ذلك أرخنا للعصر الخامس وهو العصر الحديث وقسمناه بدوره أجزاء على البلاد العربية .

ولا أشك فى أن هذا التقسيم الجديد لعصور الأدب العربى أكثر دقة ومطابقة لتطوره وللظروف المختلفة التى أثرت فيه فإن بغداد لم تعد منذ القرن الرابع الهجرى تحتل المكانة الأولى فى الحركات الأدبية ، بل لقد نافستها فى الشرق والغرب مدن كثيرة تفوقت عليها فى النهوض بالشعر والنثر تفوقاً واضحاً .

الفصل الأول

الجزيرة العربية وتاريخها القديم

١

صفة الجزيرة العربية[1]

تشغل جزيرة العرب الجنوب الغربى لآسيا ، وقد سماها أهلها جزيرة لأن الماء يدور بها من ثلاث جهات فى جنوبيها وغربيها وشرقيها ، فهى شبه جزيرة ، وليس فى الأرض شبه جزيرة تضاهيها فى المساحة . ويرى علماء الجيولوجيا أنها كانت متصلة بإفريقية فى الزمن المتعمق فى القدم ، ثم فصلهما منخفض البحر الأحمر الذى يمتد فى غربيها ، كما يرون أنه كان يغطى جزءاً منها فى العصر الجليدى مروج خضراء ، وكانت تجرى بها بعض أنهار ، ولا تزال تشهد عليها أودية جافة عميقة. ويطلّ عليها فى الجنوب المحيط الهندى وفى الشرق بحر عُمان وخليج العرب. وتترامى متوغلة فى الشمال على حدود فلسطين وسوريا غرباً والعراق وبلاد الجزيرة شرقاً .

وكان جغرافيو اليونان والرومان يقولون إنها ثلاثة أقسام : العربية الصحراوية والعربية الصخرية أو الحجرية والعربية السعيدة ، أما العربية الصحراوية فلم يعيّنوا حدودها ولكن يفهم من كلامهم أنهم كانوا يطلقونها على البادية الشمالية التى تصاقب بلاد الشام غرباً وتمتد شرقاً إلى العراق والحيرة . وكانت تقع فى شماليها مملكة تدمر التى حكمتها أسرة الزبّاء المشهورة . وأما العربية الصخرية فكانوا يطلقونها على شبه جزيرة سيناء والمرتفعات الجبلية المتصلة بها فى شمالى الحجاز وجنوبى البحر الميت ، وهى التى أقام فيها النبط مملكتهم واتخذوا مدينة سلع « بطرا »

---

(١) انظر فى صفة الجزيرة العربية كتب الجغرافية العربية و كتاب تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على (طبع بغداد) ج ١ ص ٨٦ وما بعدها وكتاب تاريخ العرب (مطول) لفيليب حتى (الترجمة العربية) ج ١ ص ١٥ ومابعدها وكتاب «قلب جزيرة العرب» لفؤاد حمزة

حاضرة لهم ، وامتدت هذه المملكة فى عهد الحارث الرابع أوائل القرن الأول للميلاد إلى دمشق ، غير أن الرومان استولوا عليها سنة ١٠٦ م . أما العربية السعيدة فكانت تشمل وسط الجزيرة وجنوبيها ، أو بعبارة أخرى كل ما وراء القسمين الأول والثانى . وربما دل ذلك من بعض الوجوه على أن هذا القسم الثالث كان يدين بالولاء للدول الجنوبية مثل معين وسبأ .

ويقسم جغرافيو العرب الجزيرة إلى خمسة أقسام ، هى : تهامة والحجاز ونجد والعروض واليمن ، وتهامة هى المنطقة الساحلية الضيقة المطلة على بحر القُلْزُم أو البحر الأحمر . وتسمى فى الجنوب باسم تهامة اليمن ، وقد يبلغ عرضها فى بعض الأمكنة خمسين ميلا ، وكان العرب القدماء يسمونها الغَوْر لانخفاض أرضها ، وهى أرض رملية شديدة الحرارة ، وقد قامت بها بعض المرافئ والثغور مثل الحديدة فى اليمن ومثل جدة وينبع فى الحجاز . ويقع فى شماليهما ثغر صغير يعرف باسم الوجه ، ويظن أنه كان ثغر مدينة الحِجْر المعروفة الآن باسم مدائن صالح . وفى جنوبى الوجه قرية الحوراء وربما كانت هى الموضع الذى أرسى فيه إليوس جالوس القائد الرومانى بجيوشه سنة ٢٤ ق .م وهى الغزوة التى أراد بها أن يفتح بلاد اليمن وباءت بالفشل الذريع .

وتمتد فى شرقى تهامة سلسلة جبال السَّراة من الشمال إلى الجنوب فاصلة بينها وبين هضبة نجد ومؤلفة إقليم الحجاز المعروف ، وتكثر فى هذا الإقليم الأودية والمناطق البركانية ، والحرَّات وهى أراض رملية تعلوها قمم البراكين . وإذا وجدت فى هذه الأراضى آبار وعيون آذنت بالخصب وقيام القرى الكبيرة مثل المدينة أو يثرب ووادى القُرى فى شماليها وهو يقع بينها وبين العُلا وكانت تسمى قديماً دادان . ومن مدن هذا الوادى قُرْح وكانت تقام بها سوق عظيمة فى الجاهلية ومدينةُ الحِجْر أو مدائن صالح وقومه من ثمود . ونزل اليهود ببعض قرى هذا الوادى مثل خَيْبر وفَدَك ، وامتدوا إلى تَيْماء فى الشمال ويثرب فى الجنوب . وكان ينزل فى هذه الجهات قبل الإسلام قبائل عُذْرة وبَلِيّ وجُهَيْنة ، وقُضاعة وكانت تمتد عشائرها إلى شبه جزيرة سيناء . وعثر المنقبون فى وادى القرى على نقوش عربية جنوبية وأخرى شمالية كالثمودية واللحيانية . وأهم مدن الحجاز مكة واسمها

عند بطليموس مكربا (Macoraba) وكانت قبل الإسلام تمسك بزمام القوافل المصعدة إلى البحر الأبيض والمنحدرة إلى المحيط الهندى ، وكان بها الكعبة بيت أصنامهم حينئذ فكان العرب يحجون إليها ويتّجرون فى أسواقها ويبتاعون ما يحتاجون إليه . وعلى بعد خمسة وسبعين ميلا إلى الجنوب الشرقى من مكة تقع الطائف ، وقد أقيمت على ظهر جبل غَزْوان ، وتحف بها أودية وآبار كثيرة أتاحت للمملكة النباتية أن تزدهر هناك من قديم ، وقد عُثر فيها على نقوش ثمودية .

وينبسط الحجاز شرقاً فى هضبة نجد الفسيحة التى تنحدر من الغرب إلى الشرق حتى تتصل بأرض العَروض وهى بلاد اليمامة والبحرين . ويسمى العرب جزءها المرتفع مما يلى الحجاز باسم العالية ، أما جزؤها المنخفض مما يلى العراق فيسمونه السافلة ، بينما يسمون شرقيها إلى اليمامة باسم الوشوم وشماليّها إلى جبلى طيئ : أجأ وسلمى باسم القَصيم ، وهو عندهم الرمل الذى ينبت الغَضا وهو ضرب من الأثْل ، وإليه يُنْسَبُ أهل نجد فيسمون أهل الغضا . وشمالى نجد صحراء النفود وهى تشغل مساحة واسعة ، إذ تبتدئ من واحة تيماء وتمتد شرقاً نحو ٣٠٠ ميل وتزخر بكثبان من الرمال الحمراء ، تتخللها مراع فسيحة . وإذا اقتربت من العراق مدت ذراعاً لها نحو الجنوب ، فتفصل بين نجد والبحرين متسمية باسم الدهناء أو رملة عالج وهى منازل قبيلتى تميم وضبّة فى الجاهلية والإسلام ، حتى إذا أحاطت باليمامة انبطحت فى الرُّبْع الخالى وهو صحراء واسعة قاحلة يظن أنها تبلغ نحو خمسين ألف ميل مربع ، وهى تفصل بين اليمامة ونجد من جهة وبين عُمان ومَهرة والشِّحْر وحضرموت من جهة ثانية ، وتندمج فيها صحراء الأحقاف التى تمتد إلى الغرب فاصلة اليمن من نجد والحجاز . وهذه الصحارى التى تطوق نجداً فى الشمال والشرق والجنوب قفار متسعة ، وخيرها القسم الشمالى إذ تكسوه الأمطار فى الشتاء حلة قشيبة من النباتات والمراعى . ووراء هذا القسم فى الشمال بادية الشام وهى كثيرة الأودية والواحات وبادية العراق أو بادية السماوة ، وواضح أنهما لا تعدان من نجد .

وتشمل العروض اليمامة والبحرين وما والاهما . وعَدّ ياقوت فى معجم البلدان اليمامة من نجد ، وكانت عند ظهور الإسلام عامرة بالقرى ، مثل حجْر وكانت حاضرتها ، ومثل سدوس ومنفوحة وبها قبر الأعشى ، ويقال إنها كانت موطن

قبيلتى طَسْم وجديس البائدتين . وقد عُثر فيها على نقوش سبئية متأخرة . وتمتد البحرين من البصرة إلى عُمان وبها كانت تنزل قبيلة عبد القيس فى الجاهلية ، وهى تشمل الآن الكويت والأحْساء وجزر البحرين وقطر ، وتكثر فى هذا الإقليم الآبار والمياه وخاصة فى الأحساء ، ومن مدنه القديمة هَجر وفى أمثالهم «كجالب التمر إلى هجر» ، والقَطيف وكانت تسمى أيضاً الخطّ وإليها تنسب الرماح الخطية . وفى جنوبى البحرين عمان ومن مدنها صُحار ودَبا وكان بها سوق مشهورة فى الجاهلية . وعُرف سكان هذه المنطقة من قديم بالملاحة واستخراج اللآلئ .

أما القسم الخامس من الجزيرة وهو اليمن فيطلق على كل الجنوب ، فيشمل حَضْرموت ومَهْرة والشِّحْر ،وقد يطلق على الزاوية الجنوبية الغربية من الجزيرة، وهو الإطلاق المشهور الآن . وتتألف اليمن من أقسام طبيعية ثلاثة : ساحل ضيق خصب هو تهامة اليمن وجبال موازية للساحل هى امتداد سلسلة جبال السراة ثم هضبة تفضى إلى نجد ورمال الربع الخالى ،وبها كثير من الأودية والسهول والثمار والزروع بفضل أمطار الرياح الموسمية الغزيرة وقد وصفها القرآن الكريم بأنها «جنّتان عن يمين وشمال» . وأتاح ذلك لسكانها أن يقيموا فيها دولا وحضارة منذ أواخر الألف الثانى قبل الميلاد إلى أوائل القرن السادس الميلادى . ويسمى قسمها الشمالى المجاور للحجاز باسم عَسير ، وكانت تنزله قبيلة بَجيلة فى الجاهلية ومن أشهر مدن اليمن زَبيد وظَفار وصنعاءوعدنونَجْران. ومن أشهر وديانها تَبالة وبيشة وكانت به مأسدة . وتمتد شرقى اليمن حضرموت على ساحل بحر العرب ، فإقليم مهرة ، والشِّحْر ومعناه فى اللغة الجنوبية الساحل ، وتنمو فى جباله أشجار الكُنْدُر وهو اللُّبان الذى اشتهر به جنوبىّ بلاد العرب فى الجاهلية .

ومناخ الجزيرة فى جملته حار شديد الحرارة ، وتكثر فى نجد رياح السموم التى تهب صيفاً ، فتشوى الوجوه شيًّا ، وألطف رياحها الرياح الشرقية ويسمونها الصَّبا ، وأكثرَ شعراؤهم من ذكرها . أما ريح الشمال فباردة وخاصة فى الشرق إذ تتحول إلى صقيع فى كثير من الأحيان . والأمطار عامة قليلة إلا فى الجنوب حيث تهطل أمطار الرياح الموسمية فى الصيف ، وإلا فى الشمال الغربى حيث تهطل أمطار الرياح الغربية شتاء . وكثيراً ما يتحول المطر إلى سيول جارفة فى اليمن وشمالى الحجاز ؛ وقد

وصف امرؤ القيس فى معلقته سيلا جارفاً حدث بالقرب من تيماء حيث كانت منازل بنى أسد . وتقل الأمطار فى الداخل ولقلتها سموها غَيْثاً وحَياً (من الحياة) واستنزلها الشعراء على ديار معشوقاتهم وقبور موتاهم . ومتى احتبست الأمطار جفت الأرض وأجدبت وحلّ الهلاك والفناء على القطعان والرِّعاء . ولطول ما كان يحدث لهم من ذلك سموا الجدب سنة ، فيقولون : أصابتنا سنة أتت على الأخضر واليابس . ومن أجل ذلك كثرت عندهم الرحلة فى طلب العُشْب والكلأ ، فترحل القبيلة بإبلها وأغنامها إلى مراع جديدة . وليس فى الجزيرة بحيرات إلا ما يقال من أن هناك بحيرة مالحة فى الرّبْع الخالى ، وليس بها كذلك غابات ولا أنهار جارية .

وفى الجنوب والشرق وقرى الحجاز واليمامة تكثر الزروع والثمار وتتناثر بعض الفواكه ، وقد اشتهرت اليمن وما والاها قديماً بأشجار اللبان والطيب والبخور ، كما اشتهرت حديثاً بأشجار البن ، وتشتهر الطائف بالكروم ، ولم يكونوا يعتمدون عليها وحدها فى الخمر بل كانوا يعتمدون أيضًا على مدن الشام . والنخلة أهم الأشجار فى الجزيرة كلها. ويتردد على ألسنة شعراء نجد ذكر طائفة من الأزهار على رأسها العَرار والخُزَامى وطائفة من الأشجار على رأسها الغَضا والأثْل والأرْطى والسِّدْر (الطَّلح) والحنظل والضَّال والسَّلَم .

أما الحيوان فقد صور شعراؤهم كثيراً من أليفه مثل الخيل والإبل والأغنام ووحشيِّه مثل الأوعال والظباء والنعام والغزال والزراف وحمار الوحش وأتُنه وثور الوحش وبقره ومثل الأسد والضبع والذئب والفهد والنمر . ودارت الطيور الجارحة على ألسنتهم مثل الحدأة والصقر والنسر والغراب ، وقلما وصفوا منهلا دون أن يذكروا القَطا وهو يشبه الحمام . وذكروا كثيراً الجراد ، وتحدثوا عن النَّحْل واشتهرت به هذيل التى كانت تعنى ببيوته وخلاياه . ومن زواحفهم الثعبان والعقرب والوَرَل والضبّ ، وفى أمثالهم : « أعقد من ذنب الضبّ » .

٢

الساميون(١)

تطلق كلمة الساميين على مجموعة من الشعوب فى الشرق الأوسط دلت القرابة بين لغاتها على أنها كانت فى الأصل تتكلم بلهجات متقاربة تطورت إلى لغات سمّيت جميعاً باسم السامية أخذاً من اسم سام بن نوح الذى ورد ذكره فى التوراة، وهى تسمية اصطلاحية ، فليس هناك أمة تسمى بالأمة السامية إنما هناك صلات لغوية بين طائفة من اللغات تدل على أنها ترجع إلى أصل لغوى واحد ، إذ تتشابه فى أصول أفعالها وأزمانها وفى كثير من أصول الكلمات والضمائر والأعداد . وقد قسمها علماء اللغات إلى شمالية وجنوبية وقسموا الشمالية إلى شرقية وغربية ، أما الشرقية فاللغة الأكدية (البابلية والأشورية) وأما الغربية فاللغة الأوجريتية (لغة نقوش رأس شمرا) والكنعانية (الفينيقية والعبرية والمؤابية) ثم الآرامية . وقسموا الجنوبية إلى عربية شمالية وهى الفصحى وعربية جنوبية وهى لغة بلاد اليمن وما والاها فى الزمن القديم ، ثم الحبشية .

وتساءل العلماء عن المهد الأصلى لأسلاف الناطقين بهذه اللغات السامية المختلفة ، وتعددت إجاباتهم فى هذا الصدد ، فمن قائل إنهم نشأوا مع الحاميين فى موطن واحد ، لعله فى شمالى إفريقية أو فى ناحية الصومال ، ومنه هاجر الساميون إلى بلاد العرب عن طريق باب المندب أو عن طريق شبه جزيرة سيناء ، ومن قائل إنهم نشأوا مع الآريين فى أواسط آسيا أو فى أرمينية ، ومن قائل إنهم نشأوا فى شمالى سوريا ، ومن قائل إنهم نشأوا فيما بين النهرين . ومهما يكن المهد القديم لأصل نشأتهم الذى يتعمق فى عصور ما قبل التاريخ فإن الباحثين يتفقون على أن موطنهم فى العصور التاريخية هو الجزيرة العربية ، فقد نزلوا بها واستقروا فيها

(١) راجع فى الساميين وموطنهم الأول وأسرهم تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ج ١ ص ١٤٨ وما بعدها وتاريخ العرب(مطول) لفيليب حتى ج ١ ص ٨ وما بعدها ومقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة لطه باقر (الطبعة الثانية) ج ١ ص ١١٥ وما بعدها و ج ٢ ص ٢٣٢ – ٣٠٦ .

وعاشوا حياة مشتركة اكتسبوا خلالها هذا التشابه فى لغاتهم .

ودفعهم جدْب الجزيرة وخصب ما حولها من العراق والشام واليمن إلى الهجرة فى موجات يتلو بعضها بعضاً فى فترات متباعدة وكأنما كانت الجزيرة تشبه خزاناً كبيراً يفيض على ما حوله فى الحين بعد الحين . وأول موجة فاضت من هذا الخزان موجة الأكديين (البابليين والأشوريين) خرجت من الجزيرة إلى العراق فى أواخر الألف الرابع ق . م وأوائل الثالث فوجدت هناك السومريين وقد عاشوا مدة تحت حكمهم ، تأثروا فيها بلغتهم ودينهم وعاداتهم وكل ما سبقوهم إليه فى الحضارة والعمران . ولا نمضى طويلا فى النصف الثانى من الألف الثالث ق.م حتى نجدهم يقيمون مملكة لهم يتخذون حاضرتها مدينة أكّد كان أهم ملوكها سرجون الأول (فى حدود ٢٣٥٠ ق.م) الذى مد فتوحه حتى وسعت دولته العراق والجزيرة والشام ، فكانت تلك أول دولة سامية عُرفت فى الشرق الأوسط . ولم تلبث أن انهارت ، فقامت على أنقاضها دويلات مستقلة ، وتقدمت دولة بابل فى أوائل الألف الثانى ق . م فأعادت الأمور إلى نصابها ، ومن أشهر ملوكها حمورابى الذى تولى الملك فى القرن الثامن عشر ق.م وكان سياسيًّا ومشرعاً عظيماً، واشتهر بين المؤرخين بمسلته التى سجل عليها فى ثلاثمائة سطر شريعته ، وهى تصور تصويراً دقيقاً القانون البابلى القديم . وامتازت هذه الدولة بشخصية سامية حية ، فقد ازدهر القانون فى عهدها وازدهر الأدب بفرعيه من الشعر والقصص . على أننا لا نمضى طويلا حتى تفد أمم غير سامية من الشرق — هم الكشيون — فتخرِّب بابل؛ ولا يلبث الحيثِّيون وهم من أمم آسيا الصغرى أن يقضوا عليها فى أوائل القرن السادس عشر ق.م. وبينما كانت بابل تعانى من الكشيين والحيثيين كان إخوانهم الذين هاجروا معهم من الجزيرة العربية ويمموا نحو الشمال فيما بين النهرين وهم الأشوريون ينهضون ، ومعنى ذلك أنهم من نفس الموجة الأكدية . وتاريخهم يتضح منذ القرن الرابع عشر ق.م وقد اتخذوا نينوى فى بعض عصورهم حاضرة لهم ، وكانت دولتهم حربية عسكرية ، واستعمروا الشام وآسيا الصغرى واستولوا على بابل وحاربوا مصر ، ولغتهم الأشورية تخالف البابلية فى بعض خصائصها ، وقد ازدهرت فى عهدهم علوم الطب والفلك والرياضيات كما ازدهرت فنون الأدب. ولا نصل إلى القرن السابع ق.م

حتى تنهكهم حروبهم ، ويهجم عليهم الميديون من هضبة إيران ، ويستولوا على حاضرتهم نينوى . فتستقل عنهم بابل وتقوم بها الدولة البابلية الحديثة أو دولة الكلدانيين (٦٢٦ — ٥٣٨ ق.م) الذين اشتهروا بإتقانهم لعلم الفلك كما اشتهر ملكهم بختنصر بتخريبه لبيت المقدس . وسرعان ما يقضى عليهم الفرس بقيادة كورش سنة ٥٣٨ ق.م ويخضعون لدولتهم المعروفة بالكيانية . ويدور الزمن دورة وإذا الإسكندر المقدونى فى القرن الرابع ق . م يستولى على الشرق الأوسط ، وبذلك ينتهى تاريخ هذه الموجة السامية القديمة موجة الأكديين من بابليين وأشوريين .

والموجة السامية الثانية التى خرجت من الجزيرة العربية هى موجة الكنعانيين ، وقد بدأت فى خروجها منذ أوائل الألف الثانى ق. م ويممت الشام وسواحل البحر الأبيض الشرقية ، وأسست هناك مدناً تجارية مثل صَيْدا وصور وجُبَيْل وبيروت . وكان اليونان يسمون أهل السواحل من هذه الموجة باسم الفينيقيين ، وقد أسسوا لهم مستعمرات فى إفريقية وآسيا الصغرى والأندلس وهم الذين اخترعوا الخط الأبجدى وعنهم انتشر فى العالم . ومن هذه الموجة الأوجريتيون الذين تغلغلوا فى شمالى سوريا وقد وصلتنا عنهم نقوش رأس شمرا فى شمالى اللاذقية وفيها شعر وحكم . ومن هذه الموجة أيضاً المؤابيون الذين استقروا فى شرقى الأردن وأسسوا به مملكة فى القرن العاشر ق . م ، وكذلك منها العبريون الذين استقروا فى فلسطين منذ القرن الثالث عشر ق.م وقد استولى الأشوريون على مملكتهم الشمالية فى القرن السابع ق.م. وهدم بختنصر ملك بابل حاضرتهم أورشليم فى القرن السادس ق.م وأجْلَى سكانها إلى بابل . ولا تلبث الآرامية أن تغلب على لغتهم ، إلا أنهم ظلوا يحافظون عليها فى تعاليمهم الدينية وفى بعض كتاباتهم .

والآراميون هم ثالث الموجات السامية الكبيرة التى خرجت من الجزيرة العربية قبل الميلاد ، وقد بدأ خروجهم منذ منتصف الألف الثانى ق.م. والمظنون أنهم كانوا بدواً رحَّلا يتنقلون شمالى صحراء النفود فى باديتى الشام والعراق ويتغلغلون إلى خليج العقبة غرباً وجنوبى الفرات شرقاً . وقد استطاعوا أن يكوّنوا لهم إمارة بين بابل والخليج العربى ، عرفت باسم كلد ومنها أخذ اسم الكلدانيين . ونراهم فى القرن الثالث عشر ق.م ينزحون إلى أراضى الرافدين دجلة والفرات فى الشمال ، ويعرف

هؤلاء النازحون باسم آرام النهرين . ولا نلبث أن نراهم فى القرنين الحادى عشر والعاشر ق.م يبلغون أوج قوتهم فيغيرون على شمالى الشام ويكونون به دويلات صغيرة بين حلب وجبال طوروس ، وقد استولوا على دمشق وأسسوا بها مملكة اشتبكت فى حروب طويلة مع الفينيقيين والعبريين . وكان لها دور مهم فى شئون التجارة فقد كانت قوافلها الصلة بين العراق والشام وآسيا الصغرى ، وكانت تلتقى فى شمالى الحجاز بقوافل اليمن وقوافل الثموديين من الحجازيين . وظلت للآراميين هذه الأهمية التجارية بعد سقوط دويلاتهم ، فإنها سرعان ما سقطت إذ لم تكن تجمعها وحدة سياسية تشد من أزرها أمام هجمات الأشوريين ، فقضوا عليها واحدة بعد أخرى. وقد أخذوا عن الفينيقيين أبجديتهم بسبب اختلاطهم بهم فى التجارة وكتبوا بها لغتهم . ولما سقطت دويلاتهم تفرقوا فى ممالك غربى آسيا ، فكان ذلك سبباً فى انتشار لغتهم وثقافتهم وحضارتهم ، إذ وجدت أمم العراق وإيران سهولة فى أبجديتهم ، مما جعل الدولة الكيانية تتخذها إحدى لغاتها الرسمية ، وقد أصبحت اللغة اليومية للأشوريين والبابليين والعبريين والفينيقيين ، وربما كان من الأسباب المهمة فى ذلك سهولة نحوها بالإضافة إلى سهولة أبجديتها . وتقوم الحرب بين الفرس والروم ويتخذون من بلادهم ميداناً لها ، فيتأثرون بحضارتيهما ، وبذلك أصبحوا ورثة الحضارات القديمة فى هذا المحيط : الحضارة الفارسية والرومانية والبابلية والأشورية والفينيقية. وقد كُتبت الأناجيل بالآرامية إذ كان يستخدمها حواريو المسيح كما كتبت بها معظم المؤلفات الدينية للكنائس الشرقية ، ولها لهجات عدة ، أهمها اللغة السريانية التى كانت منتشرة فيما بين النهرين ، وقد اتخذتها المسيحية لغة أدبية لها ، وهى اللغة التى كان يدرس بها الطب والعلوم الطبيعية بجانب اليونانية فى مدارس الرُّها فيما بين النهرين ومدرسة جُنْدَيْسابور الفارسية وغيرهما . ومن لهجاتها أيضاً لهجة الصابئة فيما بين النهرين . وقد ظلت بلهجاتها المختلفة لغة حية فى الشرق الأوسط إلى أن جاء الإسلام فقضت عليها وعلى لهجاتها لغةُ القرآن الكريم ، وإن ظلت معروفة فى بعض البيئات .

والموجة السامية الأخيرة هى موجة العرب الجنوبيين وما تفرع عنها من موجة حبشية ، وقد بدأت فى أواخر الألف الثانى ق.م متجهة إلى الجنوب وساحل المحيط

الهندى . ويظهر أن جماعات ممن نزلت فى تهامة اليمن هاجرت إلى السواحل الإفريقية ، بقصد التجارة وتغلغلت فى هضبة الحبشة وكونت هناك مملكة ، نشبت بينها وبين العرب الجنوبيين سلسلة من الحروب انتهت بقضائها على دولتهم فى سنة ٥٢٥ م . وقد اعتنق حكامها المسيحية منذ القرن الرابع الميلادى .

٣

العرب الجنوبيون[١]

تقسم الظروف الطبيعية بلاد العرب قسمين كبيرين ، تفصل بينهما صحراوات واسعة ، تجعل حياة كل منهما تختلف عن الأخرى . فبينما تحضر الجنوبيون كان الشماليون فى الحجاز ونجد يعيشون معيشة بدوية ، إذ كانوا فى الجملة بدواً رُحَّلا ينتقلون وراء مساقط الغيث ومواضع العُشْب والكلأ. ونشأت عن ذلك فروق واسعة بين القسمين المتناقضين فبينما ظل الشماليون يحيون فى الغالب حياة بدوية إلا ما تسرب إليهم من الحضارات الأجنبية المجاورة فى العراق والشام نهض الجنوبيون بحضارة لا تزال حصونها وهياكلها وقلاعها وأبراجها قائمة لم تندثر اندثاراً تامًّا . وقد استطاعوا أن يَشيدوا سَدَّ مأرب لحبس الماء فى فصل الأمطار ، مما يدل على أنه كان لديهم نظام محكم لتدبير شئون الزراعة وتوزيع المياه ، فقد أقاموا السدود والصهاريج ، وكانت أرضهم مهيأة لتزدهر فيها حياة نباتات وأشجار واسعة بفضل مياه الأمطار الموسمية وطرق الرى الصناعية . ونشأت بينهم وبين بلاد العراق والشام ومصر علاقات تجارية واسعة فقد كانت قوافلهم تجوب الصحراء العربية شرقاً وشمالا منذ الألف الثانى ق . م تحمل توابل الهند ورقيق إفريقية وأفاويه اليمن وعُروضها من اللُّبان والطيب والبخور وتعود محمَّلة بعُروض البلاد التى تتجر فيها .

وكان المعروف عن هؤلاء العرب الجنوبيين قليلا ، فهو لا يتجاوز إشارات

---

(١) انظر فى أصل تسمية العرب باسمهم كتاب تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ١٦٩/١ وراجع فى تاريخ العرب الجنوبيين كتاب التاريخ العربى القديم لطائفة من المستشرقين ترجمة فؤاد حسنين على (نشر وزارة التربية والتعليم) وانظر تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ٣٧٥/١ ، ٨/٢ – ٢٧٦ ، ١٣٦/٣ – ٢١٤ .

وردت عنهم فى العهد القديم وفى بعض الآثار المصرية والبابلية والأشورية وفى كتابات المؤرخين والجغرافيين من اليونانيين والرومانيين ، ثم ما كتبه العرب عنهم بعد الإسلام ، وتختلط به الأساطير . وظل تاريخهم غير واضح إلى أواسط القرن الماضى ، فقد جد علماء الغرب فى قراءة نقوشهم المنثورة على الأبراج والهياكل والنُّصُب والأحجار ، وهى مكتوبة بخط يسمى الخط المُسْنَد ، وهو خط سامى قديم ، وقد عرف هؤلاء العلماء اللغة التى كتبت به ولهجاتها ، فهى لغة سامية قريبة من الحبشية والعربية الشمالية ، انبثقت فيها لهجتان أساسيتان هما المعينية والسبئية .

ومن هذه النقوش استطاع الباحثون أن يعرفوا الحضارة العربية الجنوبية بدياناتها وآلهتها وأنظمتها الحكومية ودولها وملوكها ، واستقر بينهم أنه كانت هناك خمس ممالك هى مملكة مَعين وكانت حاضرتها معين فى الجوف اليمنى ثم مملكة سبأ فى جنوبها وعاصمتها مأرب ، ومملكة قتَبان فى الجنوب الغربى لسبأ وعاصمتها تِمْنَع ، والمملكة الأوْسانية جنوبى قتبان ، ثم مملكة حضرموت وحاضرتها شَبْوة . ويظهر أنه كان للمعينيين دولة قوية منذ القرن الثانى عشر ق . م وقد سيطروا على القتبانيين والحضرميين . أو بعبارة أدق سيطروا على طريق القوافل التجارية لا فى الجنوب فحسب ، بل أيضاً على طول الطريق إلى الشمال . فقد وجدت نقوش معينية فى شمالى الحجاز بدادان فى منطقة العُلا الحالية وفى الحِجْر أو مدائن صالح ، مما يدل على أنهم أنشأوا فى هذه الجهات مراكز لقوافلهم التجارية كى تحميها . وأغلب الظن أنه كان لهم بها حاميات نزلت بها بعض عشائرهم . ومع مرور الزمن غلبت عليهم طوابع العرب الشماليين . فكانوا بذلك أول من حمل الحضارة الجنوبية إلى إخوانهم فى الشمال .

ولا نصل إلى القرن السابع ق.م. حتى يغلب السبئيون على المعينين ويمدوا سلطانهم بعد ذلك على الاتحاد الجنوبى كله ، كما يمدونه على مراكز المعينيين فى الشمال ، وقد تحولت إلى أيديهم أزمة القوافل التجارية ، واتخذوا مأرب حاضرة لهم ، وقصة سَدّها وخرابه مشهورة ، وكذلك قصة ملكتها بلقيس مع سليمان عليه السلام . وحدث حوالى سنة ٢٧٠ ق.م أن أنشأ بطليموس الثانى أسطولا بحريًّا فى البحر الأحمر يحمل إلى مصر عُروض الهند وإفريقية الشرقية فأحدث ذلك اضطراباً فى

شئون السبئيين الاقتصادية ، ونازعهم ملوك رَيْدان أصحاب ظَفارِ وغلبوا عليهم وعلى الدول الجنوبية منذ سنة ١١٥ ق.م. وكانوا يتلقبون باسم ملوك سبأ وذى ريدان وحضرموت واليمنات ، وهم الحميريون . ودولتهم آخر الدول العربية الجنوبية ، ولا نصل إلى سنة ٢٤ ق. م حتى نجد إليوس جالوس والى الرومان على مصر يجهز حملة كبيرة لفتح بلاد الحميريين والاستيلاء على ما بأيديهم من مفاتيح تجارة التوابل والأفاويه ، وفشلت حملته فشلا ذريعاً . غير أن الرومان اتجهوا إلى الملاحة فى البحر الأحمر، ويقال إنهم استولوا على ميناء عدن واتخذوها قاعدة لتموين سفنهم ، فشلّوا بذلك تجارة الحميريين وساءت أحوالهم الاقتصادية ، فأهملوا شئونهم العمرانية ، وأخذ الخراب يدبّ فى البلاد ، وظهر لهم خصم ثان هو ملوك الحبشة الذين حاربوهم واستولوا على بلادهم فى منتصف القرن الرابع الميلادى وظلوا بها نحو عشرين عاماً ، عادت بعدها الدولة الحميرية ، ولكنها لم تعد إلى سابق قوتها ، فإن القبائل الشمالية أخذت تُغير عليها كما أخذ كثير من عشائرها يهاجر إلى الشمال . وفى نقوشهم ما يدل على أن الأعراب نزلوا بديارهم منذ القرن الرابع الميلادى واستقروا فيها ، وقد أخذت لغتهم تتغلب فى بعض الجهات على لغة البلاد الأصلية كما أن من هاجر من عرب الجنوب إلى الشمال غلبت عليه لغة الشماليين ، مما أعد لانتصار العربية الشمالية على العربية الجنوبية فى أواخر العصر الجاهلى .

وفى هذه الأثناء تغلغلت اليهودية فى الجزيرة العربية منذ اضطهد أباطرة الرومان اليهود فى القرن الأول للميلاد ، واندفعت بعثات دينية مسيحية إلى الجنوب ، واعتنقت مدينة نجران فى القرن الخامس هذا الدين الجديد ، وربما كان السبب فى هذه البعثات المنافسة الشديدة بين فارس وبيزنطة . وأفزع ملوك حمير تغلغل النصرانية فى ديارهم ، خوفاً من تحولها إلى البيزنطيين ، فناهضوها وأيضاً فإنهم كانوا يخافون من ملوك الحبشة المسيحيين أن يدخلوا عن طريقها بلادهم . ونشب هناك صراع حاد بين اليهودية والنصرانية ، ولا نلبث أن نرى ذا نواس آخر الملوك الحميريين يعتنق اليهودية ويحاول القضاء على المسيحيين فى نجران ، فأوعزت بيزنطة إلى النجاشى أن يغزو اليمن ، فغزاها سنة ٥٢٥ واستولى عليها وضمها إلى بلاده . وظل هذا الاحتلال الحبشى نحو خمسين عاماً ، ثارت فيها اليمن ثورات عنيفة ، وأخيراً استنجد

أهلها بالفرس أعداء بيزنطة ، فردوا الأحباش وظلوا بها حتى سنة ٦٢٨ م إذ اعتنق باذان عاملهم الإسلام . وبذلك ينتهي التاريخ القديم للعرب الجنوبيين .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل على أن عرب الجنوب لعبوا دوراً واسعاً فى تاريخ الحضارة العربية القديمة ، وكانت حضارتهم عربية صافية لم تأتهم من الخارج ، بل نمت وتطورت فى الداخل ، إذ كان لهم قوانينهم وأنظمتهم ودساتيرهم ، وكان لهم قَدَمٌ راسخة فى عمارة القصور والهياكل وتشييد السدود. وكانوا يؤلهون السيارات الفلكية والنجوم، وأثرت دياناتهم الوثنية فى العرب الشماليين إذ يُظَنّ أنهم أخذوا عنهم — كما أخذوا عن الآراميين — عبادة الكواكب ، وكانت تقوم على أساس ثالوث هو القمر واسمه عند المعينيين وَدّ ، وكان إلههم الأكبر ، وتليه الشمس التى اعتبروها زوجه وهى اللات ، ومنهما ولد عثتر أو العُزّى أى الزهرة أو ڤينوس . وبجانب هذا الثالوث كان عندهم آلهة أخرى ترمز لبعض النجوم أو بعض الطير أو بعض مظاهر الطبيعة ، وكانوا يقدمون لها القرابين ويبنون الهياكل ويقوم عليها كهنة ذوو نفوذ كبير . ويظهر أنه كان لهم أدب دينى كثير ، إلا أن الإسلام قضى عليه كما قضى على الأدب الوثنى فى الشمال . وقد حملوا مع قوافلهم وهجراتهم دينهم وحضارتهم إلى العرب الشماليين ، فأثروا فيهم آثاراً بعيدة . وظلوا حتى ظهور الإسلام يشكلون عنصراً مبايناً لهم ، على الأقل من حيث النَّسَب ، فكانوا يُدْعَوْن القحطانيين أو اليمنيين ، بينما دُعى عرب الشمال باسم العدنانيين أو النزاريين . ويلاحظ أن قبائلهم المهاجرة اختارت فى الأكثر جوار الأمم المتحضرة ، فنزلت غسان وقضاعة ومن إليهما فى الشام ونزلت لخم فى العراق . ومنهم من نزل فى داخل الجزيرة وأظهر ميلا إلى التحضر والاستقرار كالأوس والخزرج فى المدينة وكندة فى الشمال . على أن من تم منهم اندماجه فى البدو تلاشت فيه هذه النزعة مثل طيئ فى جبلى أجأ وسلمى . ومن يتعقب القبائل القحطانية فى الإسلام يرى أنها كانت تحترم النظام المطلق ، بينما كان يمقته النزاريون .

٤

العرب الشماليون[1]

هم العرب العدنانيون الذين كانوا يسكنون فى الحجاز ونجد وتمتد عشائرهم وقبائلهم إلى باديتى الشام والعراق ، وقد ظلوا يعيشون معيشة صحراوية بدوية تعتمد فى أكثر الأحيان على رعى الإبل والأغنام . ولم تهيئ لهم هذه الحياة الاستقرار فى سكنى دائمة ، إلا حيث توجد بعض الواحات فى الحجاز . ويظهر أنهم أنشأوا فى بعض الأزمنة مملكة لهم بالجوف (دُومة الجندل) فى أقصى الشمال بين العراق والشام ، وقد خضعت لنفوذ الأشوريين إذ نرى ملوكهم يفخرون بالانتصار عليها كما نراهم يفخرون بالانتصار على الثموديين فى شمالى الحجاز حيث كانوا يقيمون فى العُلا والحِجْر (مدائن صالح) . وقد اتخذ نابونيد آخر ملوك دولة بابل الثانية أو الحديثة تيماء حاضرة له من سنة ٥٥٠ إلى سنة ٥٤٥ ق.م مما يدل على أنه كان بها حضارة زاهية .

وكل الدلائل تدل على أن العرب الشماليين لم يتجمعوا قبل الميلاد فى وحدة سياسية تجمع شملهم ، فقد كانت طبيعة بلادهم تدفعهم إلى التشتت والتفرق والانقسام ،ولم يهتدوا فى أثناء ذلك بهدى كهدى الإسلام يجمع كلمتهم ويؤلف بينهم ، ويجعل منهم دولة واحدة ، تلعب دوراً واضحاً فى التاريخ القديم . وقد كشفت نقوش آرامية فى تيماء الواقعة شمالى مدائن صالح تدل على أنه قامت فيها مستعمرة آرامية تجارية فى القرن الخامس ق.م . وكان للمعينيين مستعمرة فى ناحية « العُلا » شمالى الحجاز ، كُشفت فيها نقوش معينية كثيرة ، وكانت تسمى معين مُصْران ، وكان سكانها من عرب الجنوب ،وقد نقلوا إليها عباداتهم وهياكلهم المقدسة ، وما زالوا ناشطين فى التجارة ، حتى نشأت دولة النبط فى سلع «بطرا» ، فكانت هى التى تنقل تجارة الجنوبيين إلى الشام ومصر ، حتى إذا دالت دولتهم فى مستهل القرن الثانى الميلادى حملها اللحْيانيون الذين كانوا ينزلون فى دادان (العلا الحالية) .

---

(١) انظر فى تاريخ العرب الشماليين كتاب تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ١ / ٢٢٠– ٣٧٤ ، ٢ / ٢٧٧ وما بعدها ، ٣ / ٥ ومابعدها ، ٣ / ٤٢٣ وما بعدها .

واللحيانيون عرب شماليون ، كتبوا نقوشهم بالخط المعينى المسند مما يدل على أثر الجنوبيين فيهم ، ولعلهم كانوا يختلطون بقوم منهم ، وقد كتب الثموديون ، الذين كانوا يقيمون هم أيضًا فى شمالى الحجاز وكانوا عرباً مثلهم ، بهذا الخط الجنوبى ، الذى انتشر إلى منازل العرب فى الصفا بحوران جنوبى دمشق ، مما يؤكد علاقة وثيقة بين هذه الأجزاء وعرب الجنوب حين كانوا يسيطرون على طريق القوافل التجارية من القرن الثامن إلى القرن الثالث ق.م وهو القرن الذى قامت فيه إمارة عربية فى شمالى الجزيرة هى إمارة النبط ، فقد كان أهل هذه الإمارة يأخذون عن الجنوبيين تجارتهم ويحملونها بدورهم إلى الشام ومصر ، واتخذوا « بطرا » حاضرة لهم ، هكذا ورد اسمها عند اليونان ولعله ترجمة لاسمها الذى جاء فى التوراة وهو « سلع » ، وكانت الحِجْر (مدائن صالح) حاضرتهم فى الجنوب بينما كانت بُصْرى حاضرتهم فى الشمال . ويظهر أن قبائل من هؤلاء النبط كانت قد سبقت إلى الإغارة على بلاد الآراميين شمالا ، فتحضرت بحضارتهم واستخدمت كتابتهم الآرامية فى نقوشها ، بينما ظلت تتكلم العربية فى أحاديثها اليومية . وبذلك نلتقى عند هؤلاء النبط بنقوش عربية كتبت بالخط الآرامى على نحو ما التقينا عند اللحيانيين والثموديين بنقوش عربية كتبت بالخط المعينى المسند ، غير أن الخط الآرامى هو الذى انتصر فقد تطورت نقوشه حتى انتهت إلى الخط العربى الذى أشاعه الإسلام .

والمظنون أن الأنباط لم ينزحوا من نجد إلى شمالى الحجاز ، بل نزحوا من بادية الشام ، واستطاعوا أن ينهضوا بحضارة راقية لا تزال تدل عليها آثارهم فى بطرا حاضرتهم الكبيرة . وقد ظلت دولتهم نحو أربعة قرون ، من القرن الثالث ق.م. إلى أوائل القرن الثانى الميلادى ، وكانت العلاقة بينهم وبين البطالسة ثم بينهم وبين الرومان حسنة ، إذ حالفاهم ولم يتعرضا لاستقلالهم حتى كانت الفتنة اليهودية على عهد طيطوس ، فقضى الرومان على استقلالهم وضموا بلادهم إلى دولتهم الرومانية سنة ١٠٦ للميلاد .

وعاد العرب الشماليون إلى الظهور فى مملكة تدمر شمالى بادية الشام فى أثناء القرنين الثانى والثالث الميلاديين ، وكانت السيادة فيها لهم ، غير أن السكان كان

أكثرهم من الآراميين . ووقفت تدمر صامدة خلال المنافسة الشديدة بين روما والفرس لحظة حياد التزمتها ، زادت فى قوتها ومنعتها ، وأصبحت من أهم المراكز التجارية . وبلغ من علو شأنها أن استولى ملكها أذينة على سوريا كلها واعترف به الرومان إمبراطوراً على المشرق ، إلا أنهم عادوا فنكثوا عهودهم فى عهد زنوبيا (الزَّباء) إذ حاربوها وقضوا عليها سنة ٢٧٣ م ودمروا تدمر فلم تقم لها بعد ذلك قائمة . وظلت سيرة هذه الملكة وأبيها أذينة فى ذاكرة العرب إلى ما بعد الإسلام ، وإن شابتها الأسطورة وبعدت عن أساسها التاريخى الصحيح .

٥

النقوش ونشأة الكتابة العربية (١)

لا يكاد يخلو حَجر فى جنوبى الجزيرة العربية وقلبها وشماليها من نقش تذكارى نقشه كتاب محترفون أو غير محترفين من الرعاة ورجال القوافل ، يذكرون فيه أسماء آلهتهم متضرعين إليها أن تحميهم ، وقد يذكرون ما يقدمون إليها من قرابين ، وقد يكتبونها على قبورهم مسجلين أسماءهم وأسماء عشائرهم وما قام به الميت من أعمال وقد يودعونها بعض قوانينهم وشرائعهم .

ولا تخلو ديار أمة سامية من هذه النقوش التى أتاحت لعلماء الساميات اكتشاف تاريخ هذه الأمم من جهة وقيام دراسة اللغات السامية وخصائصها ومعرفة تطورها ومقارنتها بغيرها من أخواتها من جهة ثانية . وبذلك وقفوا وقوفاً دقيقاً على حقائق هذه اللغات وحضارات أهلها وثقافاتهم ودياناتهم وكل ما اتصل بهم من رقى وتطور على مر العصور والأزمان .

---

(١) انظر هنا كتاب أصل الخط العربى وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام لخليل يحيى نامى (بحث فى مجلة كلية الآداب المجلد الثالث ، العدد الأول) وكتاب تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ج ١ ص ١٠ و ج ٣ ص ٤٢٣ وما بعدها ، ج ٧ ص ٣٦ وما بعدها وكتاب تاريخ الأدب العربى لبلاشير (ترجمة إبراهيم الكيلانى – طبع دمشق) ج ١ ص ٧٠ وما بعدها .

وقد عُرف الأكديون فى العراق بخطهم المسمارى أو الإسفينى ، بينما عرف عرب الجنوب بخطهم المسند ، ومنه نشأ الخط الحبشى وخطوط اللهجات العربية الشمالية القديمة وهى اللحيانية والثمودية والصفوية . واللحيانيون – كما قدمنا – قبيلة عربية شمالية ، كانت تسكن فى منطقة العلا ، ونراهم يستعملون « ها » أداة للتعريف بدلا من أل ، وقد اختُلف فى تاريخهم ، فمن الباحثين من يرجعهم إلى القرون الأولى ق.م ومنهم من يتأخر بهم إلى ما بعد الميلاد ، بل منهم من يتأخر بهم إلى القرن الخامس إذ ضعفوا وتلاشوا فى قبيلة هذيل . وعدّهم الهمدانى من بقايا جُرْهم ، ولعله يشير بذلك إلى صلتهم باليمنيين ويظهر أنهم كانوا يدينون لهم بالولاء . أما الثموديون فيعود تاريخهم إلى ما قبل الميلاد بعدة قرون ، وقد عاشوا إلى ما بعد الميلاد وكانت منازلهم كما مرّ بنا فى الحِجْر (مدائن صالح) وحولها ، ويظهر أنهم أصيبوا بكارثة عظيمة ، فثارت بهم بعض الزلازل أو بعض البراكين ، وفى القرآن الكريم « فأخذتهم الرَّجْفَة فأصبحوا فى دارهم جاثمين » . وقد خلّفوا كثيراً من النقوش كتبوها بالخط المسند المعينى . وهم مثل اللحيانيين والصفويين كانوا يستخدمون « ها » أداة للتعريف بدلاً من أل . وأما الكتابات الصفوية فعُثر عليها فى الحرّة الواقعة بين جبل الدروز وتلول أرض الصفا . وكلمة الصفويين لا تعنى شعباً معيناً أو قبيلة معينة ، إنما هى اصطلاح حديث للدلالة على تلك الكتابات التى عُثر عليها فى تلك الجهات . وقد عُرف من دراستها أنها كتبت بالخط المعينى وأنها لهجة عربية قديمة كالثمودية واللحيانية ، وكثير من نقوشها يرجع إلى القرون الأولى للميلاد ، ويظهر أن من كتبوها كانوا بين التبدى والتحضر ، فمنهم البدو الرعاة ومنهم الفلاحون ، ولهم قرى ومزارع ، وربما كان لهم تجارات .

وهذه النقوش الصفوية والثمودية واللحيانية عربية كما قدمنا برغم أنها كتبت بالخط المعينى الجنوبى ، فخصائصها اللغوية قريبة من خصائص العربية التى نزل بها القرآن الكريم ، وإن اختلفت عنها فى أداة التعريف وفى بعض الصفات اللغوية ، إلا أنها على كل حال تصور طوراً من أطوار اللغة العربية الشمالية ، وقد احتوت على كثير من أسماء الرجال وأسماء الآلهة والأصنام .

وبجانب هذه النقوش نجد نقوشاً أخرى بالخط النبطى ، وهى تنتشر فى بطرا

حاضرة ملكهم وما حولها وفى الحجْر حاضرتهم الجنوبية وبُصْرى بحوران فى الشام عاصمتهم الشمالية وما يتصل بهذه الجهات فى شرقى الأردن وجبل الدروز ، وقد مر بنا أنهم كانوا الصلة بين العرب الجنوبيين وحوض البحر المتوسط ، وبلغ من قوتهم أن كان يخشاهم اليهود وبقية أمم الشام حتى أهل روما كانوا يخشونهم ، فعملوا على القضاء على دولتهم حتى تم لهم ذلك كما قدمنا سنة ١٠٦ للميلاد . ولم ينته بذلك تاريخهم ، فنقوشهم تستمر إلى القرن الثالث الميلادى ، ويظهر أنهم تلاشوا بعد ذلك فى العرب. وكانوا يتكلمون فى أحاديثهم اليومية العربية ، إلا أنهم اختلطوا بالآراميين عن طريق التجارة وأخذوا عنهم أبجديتهم أو خطهم وكتبوا به نقوشهم ، ولذلك قد يعدهم بعض الباحثين من الآراميين ، ولكن من المحقق أنهم كانوا عرباً يتخاطبون بالعربية .

ولما سقطت دولتهم وانتشروا فى الحجاز ونجْد أخذ شيوخ العرب وأمراؤهم يتخذون خطهم فى كتابة نقوشهم وهجروا الخط اللحيانى والثمودى والصفوى . وسرعان ما تطور هذا الخط النبطى الآرامى إلى الخط العربى الذى كُتب به القرآن الكريم والمؤلفات الإسلامية . وهناك روايات عند المؤرخين المسلمين تزعم أن الخط العربى منشؤه الحيرة وأنه نُقل منها إلى مكة والحجاز. غير أن هذه الروايات لا تتفق ووثائق النقوش التى كشفت فى الحجاز ودرسها علماء اللغات السامية ، فقد وجدوا نقوشاً حجازية وغير حجازية تصور انتقال الخط الآرامى إلى خط نبطى ، ثم انتقال هذا الخط إلى الخط العربى . والمعروف أن الحيرة قبيل الإسلام كانت نصرانية وكانت تزخر بالثقافة السريانية ، كما كانت تكتب بالخط السريانى قلم المسيحيين فى هذه الأنحاء . ولا يعقل أن يكونوا هم الذين تطوروا بالخط النبطى واشتقوا منه الخط العربى ، لأنه لم يشع فى ديارهم ولأنه كان خط الوثنيين فى شمالى الحجاز . وقد يكون مرجع هذا الوهم فى روايات المؤرخين الإسلاميين أن الخط الكوفى نما وازدهر فى الكوفة ، فظنوا أن هذه البيئة هى التى ابتكرت الخط العربى وأنه نما وتطور فى الحيرة .

والحق أنه إنما حدث له هذا النمو والتطور فى الحجاز نفسها ، فقد كانت بها حياة تجارية مزدهرة ، جعلتهم يأخذون الخط المعينى أولا ، ويتطورون به إلى

خطوطهم اللحيانية والثمودية والصفوية . ثم لما ظهرت مملكة النبط واستخدمت الخط الآرامى وتطورت به ، وتفرق أهلها بعد سقوطها فى داخل الجزيرة وعلى طول طريق القوافل التجارية نشروا قلمهم النبطى ، فهجَر عرب الحجاز القلم المعينى وأخذوا يحاولون النفوذ من الخط النبطى إلى خطهم العربى الجديد متطورين به ضروباً من التطور حتى أخذ شكله النهائى .

وليست المسألة مسألة فرض واحتمال ، وإنما هى مسألة نقوش حملت إلى علماء الساميات الدليل القاطع الذى لا مطعن فيه على هذه الحقيقة ، فقد عثروا على نقوش فى شمالى الحجاز وعلى طول طريق القوافل إلى دمشق تثبت تطور الخط النبطى تطوراً سريعاً إلى الخط العربى . وأهم هذه النقوش على الترتيب نقش عثر عليه ليتمان فى قرية أم الجمال غربى حوران ، ويرجع تاريخه إلى سنة ٢٧٠ م وهو لفهر بن سُلَىْ الذى كان مربياً لجذيمة ملك تنوخ ، وخطه نبطى إلا أنه يمتاز بظهور روابط بين الحروف . ويليه نقش النمارة الذى اكتشفه دوسو وماكلر سنة ١٩٠١ على بعد ميل من النمارة القائمة على أطلال معبد رومانى شرقى جبل الدروز ، بالقرب من الأماكن التى عُثر فيها على الكتابات الصفوية ، وقد كُتب شاهداً لقبر ملك من الملوك اللخميين يسمى امرأ القيس بن عمرو ، وأُرِّخ بشهر كسلول من سنة ٢٢٣ بتقويم بُصْرى وهو يوافق شهر كانون الأول (ديسمبر) من سنة ٣٢٨ م وهذا نصه :

تى نفس مر القيس بر عمرو ملك العرب كله ذو أسر التج
وملك الأسدين ونزرو وملوكهم وهرَّب مذحجو عكدى وجا
بزَّجى فى حبج نجران مدينة شمر وملك معدو ونزل بنيه
الشعوب ووكلهن فرسو لروم فلم يبلغ ملك مبلغه
عكدى . هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسلول بلسعد ذو ولده

ويلاحظ أن الكاتب بدأه فى السطر الأول بكلمة تى الإشارية التى للمؤنث لأنها داخلة على نفس ولعلها هنا بمعنى جسد ، وقد استخدم ذو بمعنى الذى ، وهى لغة معروفة بين بعض القبائل مثل طيئ ، كما استخدم كلمة أسر بمعنى عصب وعقد ، وهو من معانيها فى المعاجم العربية . وقد حذف الألف من كلمة « التاج » ،

ولم يكونوا يثبتونها حينئذ . وليس فى هذا السطر كلمة غريبة سوى بر التى استخدمها الكاتب بمعنى ابن وهى آرامية. ونراه فى السطر الثانى يضيف واواً إلى نزرو ومذحجو وفقاً لكتابة النبط التى تضيف إلى الأعلام الواو . أما عكدى فلعلها عكديا ، حذفت منها الألف ، وفى المعاجم العكد : القوة . و يريد بالأسدين قبيلتى أسد . ونراه فى السطر الثالث يستخدم كلمة بزجى من فعل زجا بمعنى دفع أى باندفاع ، ومعنى حبّج فى المعاجم أشرف وكأنها استعملت فى النص مصدراً بمعنى مشارف أو حدود ، وشمر من الملوك الحميريين . واستخدم كلمة نزل بنيه الشعوب بمعنى جعلهم على الشعوب . وفى السطر الرابع ووكلهن بإضافة نون التوكيد إلى الفعل بعد الضمير . ومعنى العبارة ووكله الفرس والروم . وفى السطر الخامس بلسعد ذو ولده أى ليسعد الذى ولده .

وواضح أن النص يمثل طوراً من أطوار اللغة العربية التى نزل بها القرآن الكريم فكلماته جميعاً عربية ما عدا كلمة بر الآرامية ، وقد استخدمت فيه أل أداة للتعريف . وإذا أردنا أن نكتبه ونقربه إلى لغتنا اليوم كتبناه على هذا النحو :

هذه نفس (قبر) امرئ القيس بن عمرو ملك العرب كلها الذى عقد التاج
وملك قبيلتى أسد ونزاراً وملوكهم وشتت مذحجاً بالقوة وجاء
باندفاع (بانتصار) فى مشارف نجران مدينة شمر . وملك معدا وولى بنيه
الشعوب ، ووكّله الفرس والروم ، فلم يبلغ ملك مبلغه
فى القوة . هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ من كسلول ، ليسعد الذى ولده

ولعل فى هذا النص ما يدل على أن اللغة العربية التى سيشرفها القرآن الكريم بنزوله فيها كانت قد أخذت تبسط سلطانها إلى شمالى بلاد العرب منذ أوائل القرن الرابع الميلادى . وتوجد الروابط بين الحروف فى هذا النص وتتخذ الحروف شكلا أكثر استدارة .

ولهذا النص أهمية تاريخية بعيدة ، فهو يحدثنا عن ثانى ملوك الحيرة جدود المناذرة ويذكر أنه ملك قبيلتى أسد وقبيلة نزار وملوكهم ، وشتت قبيلة مذحج ، وانتصر على جموع نجران . ولعل هذه أول إغارة ثابتة تاريخيًّا لعرب الشمال على عرب الجنوب ومدينتهم نجران . ويحدثنا النص أيضاً أنه ملك معدًّا وولى بنيه على الشعوب

والقبائل الكبيرة ، وقد عقد المعاهدات مع الفرس والروم ، ولم يبلغ ملك مبلغه فى القوة . وليس هذا كله ما يحدثنا به النص ولا كل دلالته ، فوراء ذلك دلالة أعمق ، إذ يقول هذا الملك ملك العرب كلهم ، وتلك – ولا ريب – أول محاولة فى إيجاد وحدة سياسية للعرب الشماليين ، بعد أن دمر الرومان دولتيهم فى بطرا وتدمر . على أن إمارة الحيرة لم تلبث أن خضعت للفرس ، وقد خضع الغساسنة فى الشام للبيزنطيين وأخذت البعثات المسيحية تغزو الشمال فى غربيه وشرقيه . ولعل ذلك ما جعل العرب يلتفون حول مكة ، وخاصة بعد أن فقدت اليمن استقلالها واحتلها الحبشة ثم الفرس . وقد نقلوا إليها من الجنوب والشمال أصنامهم ، فكانت دار كعبتهم وعبادتهم الوثنية ، وأخذت تقوم بما كانت تقوم به اليمن من نقل التجارة وعروضها بين المحيط الهندى وحوض البحر المتوسط .

ونمضى بعد نقش النمارة نحو مائة وثمانين عاماً ، فنلتقى فى زبد الواقعة جنوبى شرق حلب بنقش وُجد على باب أحد المعابد هناك أُرِّخ سنة ٥١٢ م وفيه نرى خصائص الكتابة العربية الجاهلية تتكامل . ومن غير شك حدثت تطورات متعددة بينه وبين نقش النمارة ، أعدَّت لهذه الصيغة العربية الخالصة التى نجدها فيه أو بعبارة أدق فى خطِّه . وعلى شاكلته نقش حَرَّان اللَّجا الذى عُثر عليه فى الشمال الغربى لجبل الدروز جنوبى دمشق وهو مؤرخ بسنة ٥٦٨ م .

ومعنى هذا كله أن الخط العربى نشأ وتطور شمالىّ الحجاز ، وأنه لا يرجع فى نشأته وتطوره إلى بلاد العراق ، فتلك الوثائق السابقة دليل لا يرقى إليه الشك فى أنه نشأ من الخط النبطى وتطور حتى أخذ صيغته النهائية فى أوائل القرن السادس الميلادى فى تلك البيئة الوثنية العربية الخالصة . وهو يختلف اختلافاً تامًّا عن الخط الكوفى ذى الزوايا الذى يُرْسَم فى أشكال مستديرة . فالحجاز هو موطنه ، وهو الذى نشره فى محيط العرب الشماليين على طول الدروب والطرق التى كانت تسلكها قوافل المكيين التجارية .

الفصل الثانى

العصر الجاهلى

١

تحديد العصر

قد يتبادر إلى الأذهان أن العصر الجاهلى يشمل كل ما سبق الإسلام من حقب وأزمنة ، فهو يدل على الأطوار التاريخية للجزيرة العربية فى عصورها القديمة قبل الميلاد وبعده . ولكن من يبحثون فى الأدب الجاهلى لا يتسعون فى الزمن به هذا الاتساع ، إذ لا يتغلغلون به إلى ما وراء قرن ونصف من البعثة النبوية ، بل يكتفون بهذه الحقبة الزمنية ، وهى الحقبة التى تكاملت للغة العربية منذ أوائلها خصائصُها ، والتى جاءنا عنها الشعر الجاهلى . ولاحظ ذلك الجاحظ بوضوح إذ قال : « أما الشعر (العربى) فحديثٌ الميلاد صغير السن ، أول من نهَجَ سبيله وسهَّل الطريق إليه امرؤ القيس بن حُجْر ومهلهل بن ربيعة .. فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له — إلى أن جاء الله بالإسلام — خمسين ومائة عام ، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتى عام » [١]. وهى ملاحظة دقيقة ، لأن ما قبل هذا التاريخ فى الشعر العربى مجهول ، ونفس تاريخ العرب الشماليين يشوبه الغموض منذ قضى الرومان على دولتيهم فى بطرا وتدمر ، إلا بعض أخبار فارسية وبيزنطية قليلة وبعض نقوش عثر عليها علماء الساميات ، وتشير تلك النقوش والأخبار إلى إمارات الغساسنة فى الشام والمناذرة فى الحيرة ومملكة كندة فى شمالى نجد ، غير أن معلوماتنا عن هذه الإمارات فيما وراء القرن السادس الميلادى محدودة ، وهى إنما تتضح فى العصر الجاهلى الذى نتحدث عنه ، إذ حَمل إلينا العرب كثيراً من الأخبار عن تلك الإمارات وأمرائها الذين كانوا يستولون فيها على الحكم ، كما حملوا إلينا كثيراً من

---

(١) الحيوان للجاحظ (طبعة الحلبى) ١ / ٧٤ .

الأخبار عن مدن الحجاز وخاصة مكة بيت الكعبة المقدسة ، وكذلك عن القبائل وما كان بينها من أيام وحروب .

من أجل هذا كله نقف بالعصر الجاهلي عند هذه الفترة المحدودة أى عند مائة وخمسين عاماً قبل الإسلام ، وما وراء ذلك يمكن تسميته بالجاهلية الأولى ، وهو يخرج عن هذا العصر الذى ورثنا عنه الشعر الجاهلي واللغة الجاهلية ، والذى تكامل فيه نشوء الخط العربي وتشكله تشكلا تاماً كما قدمنا فى غير هذا الموضع . فذلك العصر المتميز الواضح فى تاريخ العرب الشماليين هو العصر الجاهلي .

وينبغي أن نعرف أن كلمة الجاهلية التى أطلقت على هذا العصر ليست مشتقة من الجهل الذى هو ضد العلم ونقيضه [1] ، إنما هى مشتقة من الجهل بمعنى السفه والغضب والنزق ، فهى تقابل كلمة الإسلام التى تدل على الخضوع والطاعة لله جلّ وعز وما يطوى فيها من سلوك خلقى كريم . ودارت الكلمة فى الذكر الحكيم والحديث النبوى والشعر الجاهلي بهذا المعنى من الحميّة والطيش والغضب ، فى سورة البقرة : (قالوا أتتخذنا هزُواً قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) وفى سورة الأعراف : (خُذ العفو وأمرْ بالعرف وأعرضْ عن الجاهلين) وفى سورة الفرقان : (وعبادُ الرحمن الذين يمشون على الأرض هَوْناً ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) . وفى الحديث النبوى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لأبى ذرّ وقد عيّر رجلا بأمه : « إنك امرؤ فيك جاهلية » . وفى معلقة عمرو بن كلثوم التغلبي :

ألا لا يجهلنْ أحدٌ علينا فنجهلَ فوق جَهْل الجاهلينا

وواضح فى هذه النصوص جميعاً أن الكلمة استُخْدمت من قديم للدلالة على السفه والطيش والحمق . وقد أخذت تطلق على العصر القريب من الإسلام أو بعبارة أدق على العصر السابق له مباشرة وكل ما كان فيه من وثنية وأخلاق قوامها الحمية والأخذ بالثأر واقتراف ما حرّمه الدين الحنيف من موبقات .

---

(١) انظر مادة جاهلية فى دائرة المعارف الإسلامية .

٢
الإمارات العربية فى الشمال (الغساسنة ـ المناذرة ـ كندة)

ليس بين أيدينا وثائق توضح فى دقة نشأة هذه الإمارات ، التى ظهرت على صفحة التاريخ إثر قضاء الرومان على تدمر ، فتاريخها قبل العصر الجاهلى أو قبل أواخر القرن الخامس الميلادى يحيط به الغموض ، ويظهر أن الرومان وخلفاءهم البيزنطيين اتخذوا من الغساسنة فى الشام إمارة تحجز بينهم وبين البدو وغاراتهم وتساعدهم فى حروبهم ضد الفرس ومن كان يؤيدهم من عرب المناذرة أو الحيرة فى العراق . وبالمثل اتخذ الساسانيون ملوك الفرس من دولة المناذرة درعاً تحميهم من غارات البدو وجنوداً تقف فى صفوفهم فى أثناء حروبهم ضد الرومان والبيزنطيين والغساسنة . وبين الطرفين قامت إمارة كندة فى شمالى نجد ، وكانت تدين بالولاء فيما يبدو للملوك اليمن الحميريين : ملوك سبأ وذى ريدان ويمنات .

والغساسنة[١] يعودون فى رأى نسّابى العرب إلى أصل يمنى ، فهم من عرب الجنوب الذين نزحوا إلى الشمال مع قبائل أخرى كثيرة أهمها جُذام وعاملة وكلب وقضاعة . وقد أقاموا إمارتهم فى شرقى الأردن ، ولم يتخذوا لها حاضرة بعينها فتارة تكون حاضرتهم الجَوْلان أو الجابية ، وتارة تكون جَلولاء أو جلّق بالقرب من دمشق . وقد يكون فى ذلك ما يدل على أنهم ظلوا بدواً يرحلون بخيامهم وإبلهم وأنعامهم من مكان إلى مكان فى تلك الأنحاء . ويقال إنهم أول نزولهم بالشام اصطدموا بعرب يسمون الضجاعمة ، تغلبوا عليهم ، وأصبحوا سادة تلك المنطقة التى حلوا فيها ، وقرّبهم الرومان منهم والبيزنطيون ومنحوهم ألقاباً رسمية من ألقابهم .

ويزعم مؤرخو العرب أن مؤسس سلالتهم جفنة بن عمرو مُزَيْقِياء ، ولذلك

---

(١) انظر فى الغساسنة تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء لحمزة الأصفهانى ، وكتاب « أمراء غسان » لنولدكه ترجمة قسطنطين زريق وبندلى جوزى ، وتاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ٤ / ١١٨ وما بعدها ومحاضرات فى تاريخ العرب لصالح أحمد العلى ١ / ٤٤ وتاريخ سورية ولبنان وفلسطين لفيليب حتى (نشر دار الثقافة ببيروت) ١ / ٤٤٦ .

يسمون آل جَفْنة ، وأول ملك من ملوكهم يمكن الاطمئنان إلى أخباره من الوجهة التاريخية هو جبلة الذى غزا فلسطين سنة ٤٩٧ للميلاد ، وخلفه ابنه الحارث (٥٢٨ – ٥٦٩) ويسمى أحياناً الحارث بن أبى شمر ، وقد لعب دوراً مهماً فى حروب الإمبراطور جستنيان ضد الفرس وعرب العراق ، فأنعم عليه بالإكليل ، واعترف بسيادته المطلقة على جميع العرب فى الشام ومنحه لقب فيلارك ومعناه شيخ القبائل ، ولقب البطريق ، وهو أعظم الألقاب فى الدولة البيزنطية بعد لقب الملك . وقد اشتبك مع المنذر بن ماء السماء أمير الحيرة فى حروب طاحنة ، وقع فى أثنائها أحد أبنائه فى قبضته سنة ٥٤٤ فقدمه المنذر ضحية للعُزَّى . وثأر الحارث لنفسه فى يوم حَليمة بالقرب من قنسرين سنة ٥٥٤ إذ أوقع بالمنذر موقعة فاصلة قُتل فيها ، وفى أمثال العرب : « ما يوم حليمة بسرّ » .

وتعد أيام الحارث بن جبلة أزهى أيام مرت بالغساسنة ، إذ امتد سلطانهم من بطرا إلى الرصافة شمالى تدمر . وكانوا قد دخلوا فى المسيحية منذ القرن الرابع الميلادى ، وزار الحارث القسطنطينية ، فاستقبل استقبالا حافلا ، واستطاع أن يقنع أولى الأمر هناك بتعيين يعقوب البرادعى أسقفا على الكنيسة المونوفيستية السورية فنشر عقيدته فى سوريا وبين الغساسنة . وخلفه ابنه المنذر (٥٦٩ – ٥٨١) فسار سيرته فى تأييد العقيدة المونوفيستية التى لم تكن تتفق مع عقيدة البيزنطيين الرسمية ، كما سار سيرته فى حروبه مع المناذرة ، فاشتبك مع قابوس ملك الحيرة منذ سنة ٥٧٠ فى سلسلة معارك أهمها معركة عَيْن أُباغ وفيها انتصر عليه انتصاراً حاسماً تغنى به الشعراء طويلا . وتدل الدلائل على أن خلافاً نشب بينه وبين البيزنطيين ، لعل مرجعه إلى تأييده للعقيدة المونوفيستية ، وربما خافوا منه أن يثور عليهم كما ثارت الزباء على الرومان من قبل ، فحرموه من الإعانات التى كانوا يقدمونها إليه وإلى أبيه ، وقلبوا له ظهر المجنّ ، ولكنهم عادوا إلى مصالحته ، حتى إذا حانت لهم فرصة منه قبضوا عليه ونفوه إلى صقلية ، وثار أبناؤه بقيادة النعمان عليهم ، غير أنه لقى نفس المصير حوالى سنة ٥٨٤ .

ومنذ هذا التاريخ تمزقت وحدة الغساسنة ، إذ تجزأت إمارتهم أجزاء ، على كل جزء أمير كبير أو صغير ، ويلمع اسم الحارث الأصغر ، ويظهر أن جيوشه كانت

تشتبك مع القبائل النجدية فى حروب دامية ، وقد أسّر فى إحداها شأساً أخا علقمة ابن عَبَدة الشاعر التميمى المشهور ، فرحل إليه يمدحه(١) رجاء أن يفك أخاه من أسره ، ونراه يذكر فى مديحه معاركه وما كان ينزله بأعدائه من خسائر ، يقول :

كأنهمُ صابتْ عليهم سحابةٌ ... صواعقُها لطَيْرهنَّ دَبيبُ(٢)

فلم تَنْجُ إلا شَطْبةٌ بلجامها ... وإلا طِمِرٌّ كالقناة نَجيب(٣)

وإلا كَمِىٌّ ذو حِفاظٍ كأنّه ... بما ابتلَّ من حَدِّ الظُّباتِ خضِيب(٤)

وأنت أزلتَ الخُنْزُوانةَ عنهمُ ... بضربٍ له فوق الشُّئون دَبيبُ(٥)

وأنتَ الذى آثارُه فى عدوِّه ... من البؤس والنُّعْمَى لهن نُدوب(٦)

وكان لابنيه النعمان وعمرو جيوش قوية ، تجوب نجداً والصحراء الشمالية وتدين لها القبائل بالطاعة ، ويظهر أن جيوش عمرو اشتبكت فى حروب مع بنى أسد وبنى فزارة ، ووقع كثير من أسرى القبيلتين فى يد عمرو ، فقصده النابغة الذبيانى يمدحه متوسلا إليه فى فكاكهم ، فأكرمه ، كما أكرمه أخوه النعمان ، ودبّج فيهما مدائح كثيرة ، لعل أروعها قصيدته البائية التى يقول فيها(٧) :

إذا ما غزوا بالجيش حلَّقَ فوقهم ... عَصائبُ طيرٍ تهتدى بعصائبِ

ولا عيبَ فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فُلولٌ من قِراعِ الكتائبِ

---

(١) يذكر أكثر الرواة أن علقمة إنما قصد بقصيدته الحارث بن جبلة (انظر ديوان علقمة بشرح الشنتمرى طبع الجزائر سنة ١٩٢٥ ص ٢٥) وراجع القصيدة فى المفضليات. وقد دحض نولدكه هذه الرواية ذاهباً إلى أن القصيدة فى مديح الحارث الأصغر . انظر جواد على ١٤٣/٤ .

(٢) صابت : مطرت، يقول أصابتها الصواعق فلم تقدر على الطيران فدبت تطلب النجاة .

(٣) الشطبة : الفرس الطويلة ، والطمر : الفرس المتحفزة للوثوب ، شبهها بالقناة فى الضمور .

(٤) الكمى : الشجاع ، والظباة : جمع ظبة وهى حد السيف ، وخضيب : مصبوغ بالدماء .

(٥) الخنزوانة : الكبر ، وشؤون الرأس : ملتقى عظامها .

(٦) ندوب : جروح .

(٧) مختار الشعر الجاهلى لمصطفى السقا (طبع الحلبى) ص ١٥٩ .

وعمرو وهو ممدوح حسان بن ثابت ، وقد كان ينزل به وبغيره من أمراء الغساسنة ، وله فيه مطولة مشهورة يقول فى تضاعيفها(١) :

أولاد جَفْنَةَ حول قَبْرِ أبيهمُ ... قبر ابن ماريةَ الكريم المُفْضِلِ
بِيضُ الوجوه كريمةٌ أحسابهم ... شُمُّ الأُنوف من الطِّراز الأَولِ

وعلى نحو ما كان ينزل به كان ينزل بجبلة بن الأيهم الذى لحق الفتوح الإسلامية ، وحارب فى صفوف الروم ، ثم أسلم وعاد فتنصَّر فى عهد عمر بن الخطاب ، ورحل إلى بيزنطة . ويقال إنه حين أسلم دخل المدينة فى موكب حافل من حاشيته وكان يضع على رأسه تاج أجداده تزينه لؤلؤتان كانتا فيما مضى قُرطين لأم الحارث بن جبلة .

وفى أخبار الغساسنة المتأخرين ما يدل على أنهم كانوا يصيبون حظوظاً من الترف والنعيم ، فقد وصف حسان بن ثابت مجلساً من مجالس جبلة بن الأيهم ، فقال : « لقد رأيت عشر قيان : خمس روميات يغنين بالرومية بالبرابط ، وخمس يغنين غناء أهل الحيرة . . . وكان يفد إليه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها . وكان إذا جلس للشراب فُرش تحته الآس والياسمين وأصناف الرياحين ، وضُرب له العنبر والمسك فى صحاف الفضة والذهب ، وأُتى بالمسك الصحيح فى صحاف الفضة ، وأوقد له العود المندى إن كان شاتياً ، وإن كان صائفاً بطِّن بالثلج وأُتى هو وأصحابه بكساء صيفية ، يتفضل هو وأصحابه بها فى الصيف ، وفى الشتاء الفراء الفَنَك وما أشبهه . ولا والله ما جلست معه يوماً قط إلا خلع علىَّ ثيابه التى عليه فى ذلك اليوم(٢) » .

ويقابل الغساسنة فى الشام المناذرة(٣) فى العراق ، وهم من لَخْم ، ويعود بها النسابون إلى أصل يمنى ، هى وبعض قبائل عربية نزلت هناك مثل تنوخ . وقد

---

(١) ديوان حسان (طبعة ليدن) ص ١٦ .
(٢) أغانى (ساسى) ١٦/١٤ .
(٣) انظر فى المناذرة تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ٤/٥ — ١١٧ ، وتاريخ العرب (مطول) لفيليب حتى (الترجمة العربية) ١/١٠٧ ومحاضرات فى تاريخ العرب لصالح أحمد العلى ١/١٥ وما بعدها .

احتذى الفرس الساسانيون معهم سياسة الرومان والبيزنطيين أعدائهم التقليديين مع عرب الشام . وربما كان جذيمة الأبرش أهم ملك أسطورى ظهر فى هذه الأنحاء قبل اللخميين ، ويقال إنه كان يعاصر الزباء ، وخلفه ابن أخته عمرو بن عدى اللخمى وهو رأس المناذرة . وتاريخهم أكثر وضوحاً من تاريخ الغساسنة ، وربما كان ذلك يرجع إلى أن ملوك الفرس دونوا تاريخهم ، فأخذه عنهم العرب ، على أن ابن الكلبى يزعم أنه استخرج تاريخهم من بيَع الحيرة وأديرتها .

وكان هؤلاء العرب العراقيون ينزلون فى الخيام أولا ، ثم تحولوا إلى قرية فى الجنوب الشرقى من النجف الحالية ، كانت تقع فى منطقة خصبة يرويها نهر الفرات ، وهى الحيرة (تحريف لكلمة حرتا فى السريانية ومعناها المخيم أو المعسكر) وسرعان ما نصب عليها الساسانيون المناذرة ليحموهم من غارات البدو وليساعدوهم فى حروبهم ضد الرومان والبيزنطيين وأحلافهم من الغساسنة عرب الشام . ويقال إن سابور (٢٤١ — ٢٧٢) هو الذى نصب عمرو بن عدى ، وتتابع من بعده خلفاؤه من بيته ، وربما كان ابنه امرؤ القيس الذى عُثر على نقشه فى النمارة كما أسلفنا يدين بالولاء للفرس والروم جميعاً . أما من خلفوه فكانوا يدينون بهذا الولاء للفرس وحدهم . ومن أهمهم النعمان الأعور أو السائح ، وكان له جيش قوى يتألف من كتيبتين هما الشهباء والدوسر ، واشتهر ببنائه قصرى الخورنق والسدير ، ونرى الملك الساسانى الذى كان يعاصره وهو يزدجرد الأول (٣٩٩ — ٤٢٠) يرسل أكبر أبنائه إليه ، لينشأ فى قومه ، وليتعلم الفروسية والصيد ، وهو بهرام جور . ولما توفى يزدجرد أراد الفرس إقصاءه عن العرش فتدخل النعمان ، وأيده بجيش مكنه من استرداد عرشه ، فأعلى ذلك من شأن المناذرة والحيرة . وهيأ لها موقعها فى طرق القوافل أن كانت مركزاً مهمًّا للتجارة ، فعاش المناذرة معيشة يسودها غير قليل من الترف ، بسبب التجارة التى كانوا يشاركون فيها وبسبب ما كان عندهم من حياة زراعية . ومن غير شك يسبق المناذرة الغساسنة فى الرخاء ، ولعل ذلك ما جعل حياتهم أكثر استقراراً بالقياس إلى غساسنة الشام ، كما جعلهم أكثر حضارة ورقيًّا .

وأزهى عصورهم عصر المنذر بن ماء السماء (حوالى ٥١٤ — ٥٥٤ م) وقد

ساءت العلاقات بينه وبين قُباذ ملك الفرس فى أوائل حكمه ، ولعل ذلك يرجع إلى أن قباذ اعتنق المزدكية واتخذها ديناً رسمياً للدولة وحاول أن يفرضها على المناذرة فأبى المنذر ، فعزله وولى مكانه الحارث بن عمرو أمير كندة ، ولكن الأمور سرعان ما تطورت فتوفِّى قباذ، وخلفه كسرى أنو شروان وكان يكره المزدكية والمزدكيين ، فأعاد المنذر إلى حكم الحيرة ، ونشبت بينه وبين الحارث الكندى وأبنائه سلسلة حروب قضت عليهم جميعاً . وربما كان من أسباب القضاء عليهم استيلاء الحبش على اليمن وانحلال ملك الحميريين هناك ، منذ سنة ٥٢٥ . ومهما يكن فقد تحولت قبائل نجد وشرقى الجزيرة إلى الحيرة، فدان معظمها للمنذر بالولاء ، ويظهر أنه مدّ سلطانه إلى عُمان كما تحدثنا بذلك الأخبار . وقاد منذ عاد إلى عاصمته سنة ٥٢٩ حروباً طاحنة ضد الغساسنة والبيزنطيين كُتب له النصر فى كثير منها ، ونستطيع أن نقف على مدى انتصاراته فى هذه الحروب من معاهدة عُقدت بين البيزنطيين والفرس سنة ٥٣٢ أدّوا له فيها ما أدّوه للفرس من أموال . واشتهر بين العرب بأن كان له يومان : يوم نعيم ويوم بؤس ، فكان أول من يطلع عليه فى اليوم الأول يعطيه مائة من الإبل ، وأول من يطلع عليه فى اليوم الثانى يقتله ، وممن قتله فى هذا اليوم المشئوم عبيد بن الأبرص ، ويقولون إنه راجع نفسه ، فأقلع عن هذه العادة السيئة ، ويقال أيضاً إنه قَتل — وهو ثمل — نديمين له ، فلما صحا من سكره وعرف ما قدمت يداه ندم وأمر ببناء صومعتين عليهما ، وهما الغَرِيّان اللذان يذكران فى أشعار العرب . وقد يكون هذا كله من باب الأسطورة ، وربما كان الغريان نصْبين من الأنصاب التى كان العرب الوثنيون يهرقون دماء الأضحيات والذبائح عندها . وما زال المنذر يشن الحرب على الغساسنة حتّى قتل فى يوم حليمة كما أسلفنا .

وخلفه ابنه عمرو بن هند (٥٥٤—٥٦٩م) وينسب إلى أمه فى بعض الروايات دير هند فى الحيرة ، وربما كانت نصرانية ، أما هو فكان وثنيًّا على دين آبائه ، وكان طاغية مستبدًّا ، وفيه يقول أحد الشعراء[1] :

أَبَى القلبُ أَنْ يَهْوى السَّديرَ وأهله وإن قيل عيشٌ بالسَّدِيرِ غريرُ

---

(١) أغانى (طبعة الساسى) ١٢٦/٢١ .

به البَقُّ والحُمَّى وأُسْدُ خَفِيَّةٍ　　　وعمرو بن هندٍ يَعْتَدى ويجورُ

ولقّبه العرب بالمحرِّق لأنه نذر أن يقتل مائة رجل من تميم حرقاً وبرَّ بنذره فى يوم أوارة باليمامة . واشتبك مع تغلب وطيئ فى بعض معاركه ، ويظهر أن سلطانه امتد على قبائل كثيرة فى شرقى نجد وشماليها وغربيها ، وكان بحكم استبداده يتعرض له كثير من الشعراء بالهجاء ، وقصته مع طرفة والمتلمس مشهورة . وينسب إليه شعر كان ينظمه ، وقد أصبحت الحيرة فى عهده مركزاً أدبيًّا مزدهراً ، إذ كان يجزل العطاء للشعراء ، فوفد عليه كثيرون منهم عمرو بن قميئة والمسيَّب بن علَس والحارث بن حِلِّزة وعمرو بن كلثوم التغلبى الذى يقال عنه إن ابن هند لقى مصرعه على يده ثأراً لكرامة أمه ليلى حين أهينت فى بيته .

وولى أمرَ الحيرة بعد عمرو قابوس ثم المنذر الرابع ، ولم تطل مدّتهما ، وبذلك نصل إلى النعمان الثالث ابن المنذر الرابع المكنى بأبى قابوس (٥٨٠ — ٦٠٢) وقد نشأ فى حِجْر أسرة مسيحية هى أسرة عدى بن زيد العِبادى ، ولعل ذلك سبب تنصره فهو أول من تنصَّر من ملوك الحيرة الوثنيين . وكان سلطانه يمتد إلى البحرين وعُمان ، وكانت له قوافل تجارية أو لطائم تجوب الجزيرة . وسار سيرة عمرو بن هند فى رعايته للشعراء ، فوفد على بابه منهم كثيرون مثل أوس بن حَجر والمنخل اليشكرى ولبيد والمثقِّب العبدى وحجْر بن خالد الذى يقول فيه[1] :

سمعتُ بفعل الفاعلين فلم أجد　　　كمثل أبى قابوسَ حزمًا ونائلا

وهو ممدوح النابغة الذبيانى ، وله فيه غير قصيدة ، وحدثت جفوة بينهما ، بسبب وفود النابغة على الغساسنة ، وأرسل له بمجموعة طريفة من قصائده يعتذر إليه وهى من أجود ما خلّف الجاهليون ، وفى إحداها يقول :

نُبِّئت أن أبا قابوسَ أوعدنى　　　ولا قرارَ على زأْرٍ من الأَسدِ

وكان الشعراء يتعرضون له بالهجاء أحياناً وينالون منه ، على نحو ما نرى عند يزيد بن الخذّاق الشنّى من بنى عبد القيس[2] وعبد قيس بن خُفاف البُرْجُمِىّ

---

(١) الحيوان ٣/٥٨ والمرزوقى على ديوان الحماسة (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١٦٤٠ .

(٢) انظر المفضليات (طبع دار المعارف) رقم ٧٨ ، ٧٩ .

التميمى[١] . ويظهر أن النعمان لم يكن سهل القياد ، ويقال إنه قتل عدى بن زيد فضاق به كسرى الثانى ملك الفرس واستدرجه إلى حاضرته بالمدائن ، وألقاه فى غيابة السجن ، ثم قتله ، ويقال إنه رمى به تحت أرجل الفيلة فمزقته إرباً . ولم يولّ الفرس بعده أحداً من هذا البيت فقد نصبوا على الحيرة إياس بن قبيصة الطائى ، وثارت قبيلة بكر حمية للنعمان على إياس والفرس وهزمتهما شر هزيمة فى يوم ذى قار . وبقيت الأمور مضطربة حتى استولى على الحيرة خالد بن الوليد سنة ٦٣٣ م .

واحتلت الحيرة وأمراؤها حيزاً كبيراً فى أقاصيص العرب وأخبارهم وأشعارهم فطالما تحدثوا عن الغريّين وقصرى الخَوَرْنق والسَّدير، وطالما قصوا عن أمرائهم الحقيقيين والأسطوريين مثل جَذيمة الأبرش. ويظهر أن المناذرة عرفوا من تقاليد الملك أكثر مما عرف الغساسنة ، وكانوا أوسع منهم سلطاناً إذ دانت لهم بالطاعة اليمامة والبحرين وعمان وقبائل العراق وعلى رأسها بكر وتغلب وكذلك كثير من قبائل نجد وخاصة بعد انحلال مملكة كندة . وعلى نحو ما أكثر الشعراء فى مديح النعمان بن المنذر وأسلافه أكثروا من استعطافهم حتى لا تغزوهم جيوشهم[٢] وقد يشكون من ثقل الضرائب ومما كانوا يدفعون ويؤدون من الإتاوات فى أسواق العراق وفى غير أسواق العراق [٣].

وكل الدلائل تدل على أن الحياة كانت مزدهرة فى الحيرة قبيل الإسلام ، وكان أكثر سكانها من القبائل العربية ، وكان يجاورهم العِباديون من النصارى ، ويظهر أنهم كانوا أخلاطاً من العرب وغير العرب . كما كان يجاورهم الأحلاف من بعض العرب ومن النبط : سكان العراق من بقايا الأكديين والآراميين ، وكانوا يحترفون الزراعة ، وكانت هناك جالية فارسية ، تمتهن بعض المهن والحرف ، ويظن أنه كان هناك بعض اليهود . وكانت الحيرة كما قدمنا سوقاً تجارياً كبيراً ، وكل ذلك أعدّ لأن تتحضر ، وأن تتأثر بالثقافة الهيلينية الفارسية التى كانت تعم فى تلك الأنحاء .

---

(١) الحيوان ٤/٣٧٩ .

(٢) الأصمعيات (طبعة دار المعارف) رقم ٥٨ .

(٣) المفضليات رقم ٤٢ البيت ١٦ — ٢٧ وقارن مع رقم ٤١ البيت ١٧ .

وبين إمارة الحيرة وإمارة الغساسنة قامت إمارة ثالثة فى شمالى نجد كان أمراؤها يدينون — فيما يظهر — بالولاء لليمن ، وهى إمارة كندة[1] ، ويرجع النسابون بها — كما رجعوا بالغساسنة والمناذرة — إلى عرب الجنوب ، وقد ظلت شعبة كبيرة منها تقيم فى مواطنها الأصلية بحضرموت إلى أن جاء الإسلام . وعُثر على نقوش تؤكد قيام هذه الإمارة الكندية فى القرن الرابع الميلادى .

وأشهر ملوكها فى القرن الخامس حُجْر الملقب بآكل المُرار ، وقد استطاع أن يفرض سيادته على القبائل الشمالية فى نجد وأن يمد نفوذه إلى اليمامة وتخوم إمارة المناذرة ، ويقال إن بكراً وتغلب دانتا له بالطاعة . وخلفه ابنه عمرو المقصور ، وقد يكون فى هذا اللقب ما يدل على أن سلطانه كان محدوداً ، وفى عهده نقضت بكر وتغلب ولاءهما له ، ولم تلبث الحرب أن استعرت بين القبيلتين أربعين عاماً ، وهى حرب البسوس المشهورة .

وأعقبه ابنه الحارث ، وفى عهده بلغت كندة ذروة مجدها ، فقد خضعت له قبائل نجد ، ولجأت إليه بكر وتغلب فأصلح بينهما ، وأقام على بكر ابنه شرحبيل وعلى تغلب ابنه معديكرب كما أقام على أسد ابنه حُجْراً وعلى قيس عيلان ابنه سلمة ، وعقد محالفة بينه وبين إمبراطور بيزنطة ، ووجه همه إلى الإغارة على المناذرة وزوج أخته المنذر بن ماء السماء ، وانتصر فى غير موقعة . ولم يلبث قباذ ملك الفرس أن خلع المنذر وعينه والياً على الحيرة كما مر بنا فى غير هذا الموضع ، غير أن قباذ لم يلبث أن توفى ، فعاد ابن ماء السماء إلى الحيرة ، ويقال إنه أوقع بالحارث هزيمة نكراء ، قتل فيها وقُتل معه أكثر من أربعين أميرًا من بيته . ودس المنذر بين أبنائه ، فتحاربوا وسقط شرحبيل وسلمة فى ميادين الحرب وجُنّ معد يكرب ، وانتقضت قبيلة أسد على حُجْر أبى امرئ القيس وقد حاول أن يسترد ملك أبيه ولكن المنذر كان له بالمرصاد ، ففشلت محاولاته وباءت بالخذلان ، ويقال إنه رحل إلى إمبراطور بيزنطة يستعين به فى محاربة المنذر خصمه ، غير أنه لم يعد

---

(١) انظر فى كندة وأمرائها Olinder, The Kings of Kinda وتاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ٣/٢١٥ — ٢٧٣ ومحاضرات فى تاريخ العرب لصالح أحمد العلى ١/٦٨ وتاريخ العرب (مطول) لفيليب حتى ١/١١٤ وما بعدها .

من رحيله ، فقد مات دون أمنيته ، وشعره يفيض بالحقد على ابن ماء السماء وأصحابه الحيريين ، بينما يفيض شعر عبيد بن الأبرص شاعر بنى أسد بالسخرية منه وبيان عجزه عن استرداد ملك آبائه مع الوعيد الشديد والتهديد .

٣

مكة وغيرها من مدن الحجاز (١)

فى منتصف الطريق المعبَّد للقوافل بين اليمن والشام تقوم مكة فى واد من أودية جبال السَّراة ، تحفه الجبال الجرداء من كل جانب ، وقد وصفها القرآن الكريم بأنها « بوادٍ غير ذى زرْع » . وهى تتراءى لنا فى العصر الجاهلى ممسكة بزمام القوافل التجارية ، كما تتراءى لنا أكبر مركز دينى للوثنية الجاهلية . ويقال إنه كان يسكنها فى غابر الأزمنة قبائل من جُرْهم وبقايا من الأمم البائدة ، ثم نزلتها قبيلة خزاعة اليمنية حين هاجر كثير من القبائل اليمنية إلى الشمال ، ولعلها نزحت إليها لتسيطر على هذا المركز التجارى المهم . ولا نصل إلى منتصف القرن الخامس حتى يظهر بها قصىّ ومعه قبيلة قريش فيستولى عليها ويخرج منها خزاعة . ولا يعرف بالضبط أصل قريش ، وهل هى من عرب نجد أو من العرب الأنباط الذين تراجعوا ناحية الجنوب أمام غزو الرومان لبلادهم . وقد دعم مكانتها غزو الأحباش المسيحيين لليمن ، فتحولت أفئدة العرب الوثنيين إليها ، وفزعت أرستقراطيتهم الشمالية والجنوبية إلى هذا المركز البعيد عن أعدائهم ، وحاول أبرهة والى الحبشة على اليمن أن يستولى عليها سنة ٦٧٠ أو ٦٧١ فباءت حملته بالفشل الذريع ، فزاد ذلك فى تقديس العرب لها وإعظامها وعدِّها رمزاً لاستقلالهم وعزتهم وقوتهم ، إذ لم تدِنْ لأى ملك أجنبى ، وفى ذلك يقول حرب بن أمية (٢) :

أبا مَطَر هلمَّ إلى صلاحٍ فتكفيكَ النَّدامى من قريشِ

(١) انظر فى هذه المدن تاريخ العرب قبل الإسلام ٤/١٨١ وما بعدها وصالح أحمد العلى ص ٧٧ وما بعدها وفيليب حتى ١/١٤٤ وما بعدها ودائرة المعارف الإسلامية وكتابى مكة والطائف قبل الهجرة ، للامنس .

(٢) الحيوان للجاحظ ٣/١٤١ وصلاح هنا : مكة .

فتـأمنَ وَسْطهم وتعيش فيهم   أَبا مطرٍ هُديتَ لخير عَيشٍ
وتنزلَ بلدةً عزّتْ قديمًا   وتأمن أن يزورك ربُّ جَيش

وقد هيأ لها التصادم المستمر بين الفرس والروم أن تزدهر بها التجارة ، فقد كان الطريق بين العراق والشام مقفلا ، وكانت أكثر تجارة الشمال والجنوب تهبط فيها . وكانت قوافلها تجوب الصحراء العربية إلى الجنوب فى اليمن وحضرموت وإلى الشرق فى الحيرة وإلى الشمال حيث تذهب إلى بُصْرى فى الشام وإلى غزة ومصر . وفى الوقت نفسه كانت راعية الكعبة وأصنامها وأوثانها ، وبذلك كان أهلها أشرف العرب وكان كثير منهم يعترفون لهم بالسيادة ، يقول ابن الفقيه : « إن أهل مكة لم يؤدوا فى الجاهلية إتاوة قط ، ودانت لهم خُزاعة وثقيف وعامر بن صعصعة ، وفرضوا على العرب قاطبة أن يطرحوا أزواد الحِلّ إذا دخلوا الحرم ، وهم بعد أعزّ العرب ، يتأمّرون عليهم قاطبة »[1] وكانوا يأخذون منهم إتاوة تسمى الحريم إذا نزلوا فى بلدهم[2] كما كانوا يأخذون إتاوة من التجار الأجانب إذا ألموا بهم ، وكان ينزلها بيزنطيون وفرس للتجارة[3] يدل على ذلك الصحابيان الجليلان : صُهَيْب الرومى وسلمان الفارسى .

وكل ذلك يؤكد مكانتها وزعامتها على العرب ، فهى بيت تجارتهم وبيت كعبتهم المقدسة ، فيها يقيمون أعيادهم الدينية ، كما يقيمون أسواقهم التجارية كسوق عُكاظ ومجنّة وذى المجاز . ولم تكن أسواقاً تجارية فحسب ، بل كانت أسواقاً أدبية أيضاً ، تعرض فيها سلع الشعر ، فيتنافس الشعراء ويقوم بينهم المحكّمون من أمثال النابغة فيحكمون للمتفوق ببراعته . وبذلك هيأت لحركة أدبية واسعة النطاق ، سيطرت فيها لغتها بحكم مكانتها الدينية وتنقلها بتجارتها فى أسواق العرب خارج ديارها ، فأصبحت لغة الأدب الرفيعة .

ولعل فى هذا كله ما يدل على عظم شأنها فى الجاهلية ، وقد زعم لامنس فى

(١) كتاب البلدان لابن الفقية (طبعة أوربا) ص ١٨ .

(٢) الاشتقاق لابن دريد ص ١٧٢ وأخبار مكة للأزرق (طبعة أوربا) ص ١٧٥ .

(٣) انظر O'leary, Arabia Before Muhammad (London, 1927) P.184 وراجع مروج الذهب للمسعودى (طبعة باريس) ١٤٨/٢

كتابه عنها أنها كانت جمهورية كجمهورية البندقية التجارية[1] ، وقد وقف طويلا عند ملئها ونظامها التجارى المعقد ، ومعروف أنه كان بها ملأ يجتمع بدار الندوة ، وهو مجلس شيوخ مصغر ، لم يكن يدخله إلا من بلغ أربعين سنة ، وكانوا يختارون على ما يظهر حسب ثرائهم وخدماتهم التى يؤدونها وهم سادة بطونها فى البطاح وكانوا ينظرون فى شئونها التجارية والدينية . وكانت تشبه مصرفاً كبيراً ، به المكاييل والموازين والبيع الحاضر والمؤجل والربا وصنوف المضاربة المختلفة . واشتهر فيها بيتان بالثراء هما بيتا الأمويين والمخزوميين ، وكان للأولين أكثر قافلة بدر ، ولعل ذلك ما جعل أبا سفيان يرأسها ، وفى الاشتقاق لابن دريد معلومات طريفة عن ثروات المخزوميين وكان منهم من يسمى ربَّ مكة[2] . ولم يكن الثراء خاصاً بهذين البيتين فقد كان عبد الله بن جُدْعان وهو من تَيْم ثريًّا ثراء مفرطاً ، وشبهه بعض الشعراء بقيصر ، فقال[3] :

يوم ابن جُدْعان بجنْب الحَزْوَرَه كأنه قَيْصَرُ أو ذو الدَّسْكره

وكان كثير من العرب يرى سادة قريش فوق آل جفنة الغساسنة ، بل فوق كسرى وآل كسرى ، وكانوا يقصدونهم بالمديح طلباً للعطاء والنوال ، ومديح أميه بن أبى الصلت فى عبد الله بن جدعان مشهور .

وبهذا كله كانت مكة أهم مدينة عربية فى الجاهلية إذ كانت مثابة للعرب وأمناً . وكان مجتمعها يتألف من قريش البطاح الذين ينزلون حول الكعبة ، وهم : هاشم وأمية ومخزوم وتيمُ وعدى وجُمَح وسهم وأسد ونوفل وزهرة ، وكانوا أصحاب النفوذ فيها ، ومن قريش الظواهر الذين ينزلون وراءهم ومعهم أخلاط من صعاليك العرب والحلفاء والموالى ، والعبيد وكان أكثرهم من الحبشة ، ويظهر أنهم كانوا كثيرين كثرة مفرطة ، ولعل مما يدل على كثرتهم أن هنداً بنت عبد المطلب أعتقت فى يوم واحد أربعين عبداً من عبيدها[4] ، وكانوا يقومون على حرف ومهن كثيرة . ومن غير شك كان يعيش سادة قريش معيشة مترفة ، بحكم ثرائهم واتصالهم بالفرس

(١) Lammens, LaMecque,P.175

(٢) الاشتقاق ص ٦٠ و٩٢ .

(٣) معجم ما استعجم للبكرى (طبعة السقا) مادة حزورة ٢ / ٤٤٤ . والحزورة : الرابية .

(٤) المحاسن والأضداد ص٧٧ وقارن بالأغانى (طبعة دار الكتب) ١ / ٦٥ .

والروم ، ويقال إنهم كانوا يصيفون فى الطائف ويشتون فى جدة ، ونجد فى سورة الزخرف استهزاء بمن ينشأ فى الحلية والزينة(١) . ويقال أيضاً إن عبد المطلب جد الرسول صلى الله عليه وسلم دُفن فى حُلَّتين قيمتهما ألف مثقال من الذهب(٢) . ومن يقرأ أخبار قوافلهم التجارية يخيل إليه أن مكة كانت قافلة كبيرة مقيمة ، تخرج منها القوافل إلى الجنوب والشمال والشرق ، ودعاهم ذلك إلى أن يعقدوا معاهدات بينهم وبين القياصرة (٣) والنجاشيين والأكاسرة(٤) ، كما دعاهم إلى عقد معاهدات بينهم وبين القبائل التى كانوا يمرون بها فى طرقهم التجارية(٥) .

ولكن هذا جميعه ينبغى أن لا يجعلنا نبالغ مبالغة لامنس ، فنظن أن مكة كانت جمهورية بالمعنى الكامل للجمهورية ، فمع نمو العلاقات التجارية والاقتصادية فيها كان مجتمعها قبلياً ، فهو لا يعدو اتحاد عشائر ارتبط بعضها ببعض فى حِلْف لغرض سدانة الكعبة من جهة والقيام على تجارة القوافل من جهة أخرى . ولا سلطان لعشيرة على عشيرة ، بل كل عشيرة تتمتع بالحرية التامة ولا طاعة عليها لأحد ، وكل ما هناك أن اشتراكهم فى مصلحة واحدة خفف من غلواء هذه الحرية ، ولكنه تخفيف لا يخرج بنظام الجماعة القرشية عن النظام المعروف فى القبائل الجاهلية ، ووجود مَلأ فيها أو مجلس شيوخ لا ينقض هذه الحقيقة . إذ لم يكن عمله يعدو عمل مجالس القبائل ، فقد كان فى كل قبيلة مجلس يتكون من رؤساء العشائر ، ينظر فى شئونها حسب قوانين العرف والعادة ، ولكنه لم يقض على حرية الأفراد ، فقد كان كل فرد متمتعاً بحريته ، مع شعوره بحقوق الجماعة أو حقوق القبيلة . وهذا نفسه هو النظام الذى كان سائداً فى مكة قبل الإسلام ، فللفرد حريته وللجماعة عليه حقوق لا تتناقض مع هذه الحرية .

وإلى الجنوب الشرقى من مكة على بعد خمسة وسبعين ميلا تقوم الطائف على ارتفاع يبلغ نحو ستة آلاف قدم وسط رياض وبساتين تجعلها أشبه ما تكون بقطعة من رياض الشام ، وجعلها ارتفاعها طيبة الهواء ، فكان القرشيون كما قدمنا يصطافون فيها حيث يجدون كل الثمرات كما يجدون الخمر الصافية . وكانت

(١) سورة الزخرف ، آية رقم ١٨ .
(٢) تاريخ اليعقوبى (طبعة أوربا) ٢/ ١٣ .
(٣) اليعقوبى ١/ ٢٨٠ والطبرى (طبعة أوربا) ١/ ١٠٨٩ .
(٤) اليعقوبى ١/ ٢٨٢ والطبرى نفس الصفحة السابقة .
(٥) اليعقوبى ١/ ٢٨٠ .

تنزلها قبيلة ثقيف الوثنية ، وهناك قصة تزعم أنها من بقايا ثمود ، وربما كان لهذه القصة أصل صحيح ، وأن الثموديين حين تقوضت إمارتهم فى الشمال هاجروا إلى الطائف كما هاجر اللحيانيون إلى منازل هذيل بين مكة والمدينة ، وقد يدل على ذلك أننا نجد النسابين يذكرون من بطون هذيل بنى لحيان ، وكأنهم ظلوا يحتفظون فى أحد بطونهم باسمهم القديم . ولم تكن حياة الثقفيين تختلف عن حياة القبائل البدوية النجدية فى شىء سوى ما أتاحته لهم زروعهم وثمارهم من الاستقرار على نحو ما استقرت قريش فى مكة .

ونمضى إلى شمالى مكة على بعد نحو ثلاثمائة ميل ، فنلتقى بيثرب التى ذكرها بطليموس فى جغرافيته كما ذكرتها الكتابات المعينية ، وهى تقوم فى واد خصب ، تكتنفه مرتفعات يعلو بعضها بعضاً ، وتكثر الآبار والعيون فى هذا الوادى كثرة أتاحت له أن يصبح واحة جميلة تكتظ بالنخيل والأشجار والزروع ، مع الجو المعتدل ، إلا فى بعض فترات الصيف ، إذ تشتد بها الحرارة ، ولكنها لا تبلغ حرارة مكة القاسية.

ويقال إن العمالقة أول من سكنوا المدينة أو يثرب ، وظلوا بها حتى نزلها اليهود فى القرن الثانى الميلادى على أثر اضطهاد الرومان لهم فى فلسطين ، والمظنون أنهم الذين سموها باسم المدينة (مدينتا) وهو اسم آرامى . وقد ظلوا على دين آبائهم إلى أن جاء العرب هَدْىُ الإسلام الحنيف ، واتخذوا العربية فى حياتهم اليومية ، وإن ظلوا يحتفظون بالعبرية فى طقوسهم الدينية وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم زيد بن ثابت أن يتعلم لسانهم ولغتهم[١] ، وظهر بينهم غير شاعر كان ينظم بالعربية مثل كعب بن الأشرف[٢].

وما زال هؤلاء اليهود مسيطرين على المدينة حتى وفدت عليهم قبائل الأوس والخزرج الأزدية من الجنوب ، فأصبحوا هم سادتها الحقيقيين ، وقد اتخذوا العربية الشمالية لساناً لهم ، وكانوا وثنيين يحجون إلى مكة وأصنامها ، مثلهم مثل بقية العرب . ولم يكونوا يعتمدون على التجارة مثل المكيين ، إنما كانوا يعتمدون

(١) انظر البلاذرى (طبعة أوربا) ص ٤٧٤ .

(٢) راجع فى شعراء اليهود بالمدينة السيرة النبوية لابن هشام وطبقات الشعراء لابن سلام ، والأغانى ١٩/٩٧ ، ١٠٦ .

على زروع بلدهم وثمارها ، بينما كان اليهود يقومون على الحرف والصناعات ، وخاصة صناعة الأسلحة والأقمشة . ويظهر أن النصرانية كانت معروفة هناك ففى السيرة أن شخصاً كان بها يسمى عبد عمرو بن صيفى خرج على الرسول وحاربه مع قريش ، وكان قد ترهب فى الجاهلية ولبس المسوح[1] .

وتدل دلائل مختلفة على أن حياة الأوس والخزرج لم تكن تختلف فى شىء عن حياة البدو فى الخيام ، مع أنهم سكنوا آطام المدينة . ومن أكبر الدلالة على ذلك أنهم كانوا يتحاربون على نحو ما تتحارب القبائل البدوية ، وأكبر الظن أن اليهود هم الذين عملوا على الوقيعة ونشر العداوة والبغضاء بينهم ، حتى يشغلوهم عنهم ، وكانوا يصنعون لهم الأسلحة التى استخدموها فى تلك الحروب الدامية. وفى كتب التاريخ والأدب أيام ومواقع لهم كثيرة مثل يوم سمير ويوم حاطب ويوم السرارة ويوم فارع ويوم الربيع ويوم البقيع ويوم معبّس ومضرّس ويوم الفجار ويوم بُعاث .

وتحرجت الظروف تحرجاً شديداً بين الأوس والخزرج حتى غدا كأنه من المستحيل أن يكفوا عن هذه الأيام والحروب وكأنما تعاهدوا على الفناء ، لولا أن نزل بينهم الرسول صلى الله عليه وسلم فأصبحوا بنعمة الله إخواناً إذ دخلوا فى دينه الحنيف أفواجاً ، وتحولوا إليه يشدون أزره وينصرونه حتى أضاءت بتعاليمه الجزيرة العربية من جميع أطرافها ومسالكها ودروبها .

وكان لليهود فى شمالى المدينة قرى خاصة بهم أشهرها خيبر وفدك وتيماء ، وما زالوا بها حتى أخرجهم عمر من الجزيرة فأصبحت عربية خالصة . والمظنون أن هؤلاء اليهود مثلهم مثل يهود المدينة نزلوا فى هذه القرى حين اضطهدهم الرومان منذ أوائل القرن الثانى الميلادى ، واتخذوا العربية لساناً لهم ، وعبروا بها عن عواطفهم ، فجرى الشعر على ألسنة نفر منهم ، لعل أشهرهم السموءل صاحب حصن الأبلق بتيماء وكان معاصراً لامرئ القيس ، ويقال إن أمه كانت عربية من غسان ، ولعل ذلك العرق فيه هو الذى أنطقه بالشعر العربى ، وكان أخوه شعية شاعراً مثله . ومن المؤكد أن عرب الجاهلية لم يكونوا يطمئنون إلى هؤلاء اليهود جميعاً ، ولذلك لم يؤثروا فى حياتهم الدينية فقد ظلوا بعيدين عنهم .

---

(١) السيرة النبوية (طبعة الحلبى) ٢/ ٢٣٤.

٤

القبائل البدوية

يقسم النسابون هذه القبائل، بل قبائل العرب الشمالية جميعها ، قسمين كبيرين : قسم عدنانى مضرى ، هو عرب الشمال المنحدرون من عدنان ونزار ومضر، وقسم قحطانى ينحدر من قحطان (ولعله يقطان المذكور فى الإصحاح العاشر من التوراة) وقد هاجر هذا القسم من الجنوب ، من اليمن وحضرموت وعاش بين العرب الشماليين .

وتشكك بعض المستشرقين فيما ساقه رواة الأخبار من هذا التقسيم وما يندرج فيه من أنساب القبائل الشمالية عامة[1] ، وقالوا إنه من وضع القرن الأول للهجرة وما كان من منافسات بين مكة التى نُسبت إلى عدنان والمدينة التى نُسب العرب فيها من الأوس والخزرج إلى قحطان ، وتداخلت عوامل سياسية واقتصادية مكّنت من انتشار فكرة هذا التقسيم ، كما مكّنت من ترتيب الأنساب العربية فى نظامها المعروف . ويبالغ بعض المستشرقين فينكر جملة أن يكون عرب الجنوب قد هاجروا إلى الشمال ، ويظن ذلك حديث خرافة .

ولكن من يرجع إلى الشعر الجاهلى يجد فيه الفخر باليمنية والقحطانية والعدنانية والمضرية ، كما يجد فيه العصبيات مشتعلة بين القبائل على أساس الاشتراك فى الدم وفى أب واحد أو أم واحدة ، ومن التحكم أن نجرى وراء ظنون لا دليل عليها . وحقًّا اختلف النسابون فى أصل بعض القبائل وهل هى عدنانية أو قحطانية مثل خُزاعة وقضاعة وخَثْعم ولكنه اختلاف محدود ، والرأى الصحيح أن هذه القبائل قحطانية . ومن الثابت الذى لاشك فيه أن القحطانيين هاجروا بتأثير ظروف اقتصادية وسياسية إلى الشمال ، وأن هذه الهجرات بدأت منذ أزمان مبكرة ، فقد كان المعينيون على ما يظهر يضعون حاميات فى طرق قوافلهم التجارية ، ولما ضعفت الدولة الحميرية : دولة سبأ وذى ريدان وحضرموت واليمنات هاجر كثير من

---

(١) راجع فى ذلك تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ١ / ٢٢٠ وما بعدها وتاريخ الأدب العربى لبلاشير ١ / ٢١ وما بعدها والفصل الأول من كتاب سميث :
Kinship and Marriage in Early Arabia.

الجنوبيين إلى الشمال ، وخاصة بعد سيل العرم الذى خرب سدّ مأرب . ويؤكد ذلك أننا نجد للقبيلة الواحدة فروعاً وشعباً مختلفة فى الجزيرة العربية ، فكندة التى هاجرت إلى الشمال وأسست لها مملكة أو إمارة فى شمالى نجد كانت لا تزال بقيّتها الكبرى تقيم فى حضرموت حين ظهور الإسلام ، ونجد فى أسماء رجالها نفس الأسماء الجنوبية مثل شرحبيل بن الحارث ومعديكرب أخيه ، كما مر بنا فى الحديث عن إمارة كندة . وكانت عشائر من إياد لا تزال تنزل فى شمالى نجران بينما يممت عشائر منها حوض الفرات ، أما الأزد فقد توزعت عشائرها بين شمالى اليمن وعُمان ، والمدينة حيث أقام الأوس والخزرج ، وشمالى الجزيرة فى الشام حيث نزل بنو غسان(١) . وفى هذا دلالة واضحة على أن هجرة الجنوبيين إلى الشمال لا يعترّيها الشك . وهاجرت تنوخ إلى البحرين ، ثم استقرت فى جنوبى العراق حيث أسست أهم عشائرها ، وهى لخم ، دولة المناذرة فى الحيرة . ولما نزحت قبائل همدان من حضرموت إلى الجوف اليمنى بين مأرب ونجران هاجرت قبيلة طيئ إلى الشمال واستقرت فى جبلى أجأ وسلمى . وهاجرت قبائل أخرى إلى شمالى الحجاز وانتشرت فى بادية الشام وأهمها قضاعة وبَهْراء وجُهَيْنة وبَلِىّ التى نزلت فى مساكن ثمود وجُذام وكلب وعاملة اللائى نزلن فى حدود فلسطين وعُذْرة التى نزلت بالقرب من تيماء ووادى القرى . وممن هاجر من الجنوب أيضاً خُزاعة وكانت مستقرة قبيل الإسلام فى منطقة مكة وبَجيلة وكانت تنزل جنوبى الطائف .

ويقابل هذا القسم القحطانى اليمنى قسم عدنانى مضرى ، ومن أهم قبائله قريش فى مكة ، وثَقيف فى الطائف ، وعبد القيس فى البحرين ، وبنو حنيفة فى اليمامة ، وتميم وضبّة فى صحراء الدهناء ، وبكر وعشائرها الكثيرة التى تمتد من الشمال الشرقى للجزيرة إلى اليمامة والبحرين ، ويرد إليها النسابون بنى حنيفة وبنى عِجْل وشيبان وذُهْل ، ثم تغلب وكانت تتوغل أكثر من بكر فى شمالى الجزيرة صوب الشرق ، وكان يجاورها بنو النمر ، بينما كانت تنزل أسد فى شمالى نجد وتنتشر عشائرها إلى تيماء . ومن هذه القبائل العدنانية أيضاً كنانة وهُذَيْل بالقرب من مكة ،

(١) انظر مادة إياد والأزد فى دائرة المعارف الإسلامية وكذلك مادة خثعم .

وقيس عيلان فى نجد ، وأهم قبائلها هوازن ، وسليم ، وعامر وعشائرها كلاب وعقيل وقُشَيْر ومزينة وبنو سعد ، وغطفان وفرعاها الكبيران : عبس وذُبْيان . وفى المفضليات قصيدة طريفة للأخنس بن شهاب يحصى فيها منازل كثير من هذه القبائل[١] .

وهذه الأنساب التى قدمناها كان يؤمن بها العرب إيماناً شديداً ، وظلوا على هذا الإيمان فى الإسلام ، فتكتلوا على أساسها فى مجموعتين كبيرتين : مجموعة قحطانية يمنية ، ومجموعة مضرية عدنانية ، وكان التنافس شديداً بين الطرفين ، وكثيراً ما جرَّ إلى منازعات فى الكوفة والبصرة كما جر إلى حروب فى الجيوش المقاتلة فى أقصى الشرق بخراسان وفى أقصى الغرب بالأندلس ، فكانت تتجمع عشائر كل فريق حين تصطدم مصلحة عشيرة يمنية بمصلحة عشيرة مضرية ، وسرعان ما تنشب بين الفريقين معارك دامية .

ومن المؤكد أن عرب الجاهلية كانوا يتمسكون بهذه الأنساب التى أجملناها وعنهم ورثها أبناؤهم فى الإسلام ، وهى تؤلف علماً واسعاً عند العرب هو علم الأنساب ، وكأنهم رأوا فى النسب ما نراه نحن الآن فى الوطن ، فكل قبيلة تؤمن بنسبها وتعتز به وبأنها تعود إلى أصل واحد ، فهى من دم واحد ولحم واحد ، ومن أجل ذلك عبروا عن القرابة باللُّحْمة كما عبروا عن عشائرهم وفروعهم بالبطن والفخذ.

وهذه القبائل جميعها المتبدية منها والمستقرة فى مدن كمكة والحيرة كانت تتحد فى نظمها السياسية ، وهى نظم قبلية ، تقوم على أساس القبيلة واشتراك أبنائها فى أصل واحد وموطن واحد ، وهو موطن متنقل مع المراعى ، وكذلك اشتراكها فى تقاليد وعُرْف تتمسك بهما تمسكاً شديداً . وكان الرباط الذى يوثق الصلة بين أفراد القبيلة هو العصبية ، وهى عصبية قبلية ، ليس فيها شعور واضح بالجنس العربى العام ، وحقًّا تكونت عندهم إمارات فى الشمال ، ولكنها ظلت تقوم على أساس العصبية القبلية ، وإن بدا فى تضاعيفها شعور ضئيل بالوحدة ، لا بين القبائل الشمالية فحسب ، بل بينها وبين القبائل الجنوبية ، فقد كان أمراء هذه الولايات من العرب الجنوبيين كما يقول رواة الأخبار والنسابون ، وإنما نقول

(١) المفضليات ، القصيدة رقم ٤١ .

شعوراً ضئيلا ، لأن أصحاب هذه الإمارات لم ينفذوا فعلا إلى فكرة الأمة العربية أو الجنس العربى بحيث يجمعون العرب تحت لواء واحد ، إنما كل ما هناك اتحاد قبلى ، له رئيس .

ومن الاتحادات التى كانت تجمعهم اتحادات الأحلاف ، ويُظَنُّ أن هذه الاتحادات لعبت دوراً كبيراً فى تكوين القبائل إذ كانت تنضم العشائر الضعيفة إلى العشائر القوية الكبيرة لتحميها وترد العدوان عنها ، يقول البكرى : « فلما رأت القبائل ما وقع بينها من الاختلاف والفرقة وتنافس الناس فى الماء والكلأ ، والتماسهم المعاش فى المتسع ، وغلبة بعضهم بعضاً على البلاد والمعاش واستضعاف القوى الضعيف ، انضم الذليل منهم إلى العزيز ، وحالف القليل منهم الكثير ، وتباين القوم فى ديارهم ومحالهم ، وانتشر كل قوم فيما يليهم »[١] ومن القبائل التى تمثل ذلك خير تمثيل قبيلة تنوخ فى العراق ، فقد انضم إليها وتلاشى فيها كثير من القبائل والعشائر العراقية[٢] .

وبمجرد أن تدخل القبيلة فى حِلْفٍ يصبح لها على أحلافها كل الحقوق ، فهم ينصرونها على أعدائها ويردون كيدهم عنها فى نحورهم . وقد تنفصل بعض قبائل الحلف لتنضم إلى حلف آخر يحقق مصالحها ، ومن ثم كنا نجد دائماً أحلافاً تضعف ، وتحل محلها أحلاف أخرى . وقبائل قليلة لم تدخل فى أحلاف ، ولذلك سميت باسم جمرات العرب ، لما كان فيها من شجعان يكفونها فى الحروب ، على أن هذا كثيراً ما كان يؤول بها إلى أن تنهك فى المعارك ، أما القبائل المتحالفة فكانت تهاب لخشونة مسّها . وأصل الحِلْف والتحالف من كلمة الحَلِف بمعنى اليمين الذى كانوا يقسمونه فى عهودهم ، وكانوا يغمسون أيديهم فى أثناء عقد أحلافهم فى طيب أو فى دم ، وكانوا يقولون[٣] : الدم الدم والهدم الهدم ، لا يزيد العهد طلوع الشمس إلا شدًّا وطول الليالى إلا مدًّا ، ما بَلَّ بحر صوفة وأقام رَضْوَى فى مكانه ، إن كان جبلهم رضوى وإلا ذكروا ما يجاورهم من جبال . وربما أوقدوا النار عند تحالفهم ، ودعوا الله على من ينكث العهد بالحرمان من منافعها ، ويقال إن قبائل مرة بن

---

(١) معجم ما استعجم للبكرى (طبعة السقا) ٥٣/١ .

(٢) انظر مادة تنوخ فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٣) انظر الحيوان للجاحظ ٣/٤ .

عوف الذبيانيين تحالفت عند نار ودنوا منها حتى محشتهم (أحرقتهم) فسمي حلفهم باسم المحاش . ومن الأحلاف المشهورة فى مكة حلف المطيَّبين وقد تعاقد فيه بنو عبد مناف وبنو زهرة وبنو تَيْم وبنو أسد ضد بنى عبد الدار وأحلافهم ، ويقال إنهم غمسوا أيديهم فى جفنة مملوءة طيباً . وأكرمُ من هذا الحلف حلف الفضول وفيه تحالفت قبائل من قريش على أن لا يجدوا بمكة مظلوماً إلا نصروه وقاموا معه حتى تُردَّ عنه مظلمته . ومن أحلاف العرب المشهورة حلف الرِّباب ، وهم خمس قبائل : ضبة وثور وعُكْل وتيم وعدى ، وحلف عبس وعامر ضد ذبيان وأحلافها من تميم وأسد وحلف الحُمْس بين قريش وكنانة وخزاعة .

وكان لهذه القبائل جميعاً المتحالفة وغير المتحالفة مجلس يضم شيوخ عشائرها[١] وهو ندوتهم ، التى ينظرون فيها شئون قبيلتهم. وكان كل فرد يستطيع أن يحضره وأن يتحدث فيه ، ولم يكن له موعد معين ، وفى العادة كانوا يجتمعون مساء وكلما حزب أمر أو ظهر ما يدعو إلى الاجتماع ، فيتناقشون ويتحاورون ، وقد يخطبون ، أو يستمعون إلى بعض ما ينظمه شعراؤهم ، وفى أثناء ذلك يدلى سادتهم بحِكَمهم وتجاربهم فى الحياة ، وإلى ذلك يشير زهير بن أبى سُلْمى إذ يقول فى مديح هَرِم بن سنان وقومه[٢] :

وفيهم مقاماتٌ حسانٌ وجوههم   وأنديةٌ يَنْتَابُها القولُ والفعلُ
وإن جئتهم ألفيتَ حول بيوتهم   مجالس قد يُشْفَى بأحلامها الجهل

وكانت قرارات هذه المجالس نافذة ، فجميع أفراد القبيلة تذعن لها ولا تشذ عليها .

وغالباً ما يتقدم شيوخَ القبيلة شيخ كبير مجرب ، هو سيدها ، له حنكة وحكمة وسداد فى الرأى وسعة فى الثروة ، وهو الذى يقود القبيلة فى حروبها ويقسم غنائمها ويستقبل وفود القبائل الأخرى ، ويعقد الصلح والمحالفات ، ويقيم الضيافات ، غير أنه ينبغى أن لا يفهم من ذلك أنه كانت له أو لشيوخ القبيلة سيادة واسعة ،

---

(١) انظر فى مجالس القبيلة وحقوق سيدها وواجباته القسم الثالث من كتاب لامنس : Le Berceau de l'Islam.

(٢) ديوان زهير (طبعة دار الكتب المصرية) ص ١١٣ .

فسيادته رمزية ، وإذا بغى كان جزاؤه جزاء كُليب التغلبى حين بغى وطغى على أحلافه من بكر ، فقتلوه ، مما كان سبباً فى نشوب حرب البَسوس المشهورة .

فالسيد فى القبيلة إنما هو الشخص الألمعى الذى حنكته التجارب ، وغالباً ما يرث سيادته عن آبائه ، حتى يتم له الحسب الرفيع ، وليس له أى حقوق سوى توقيره ، أما واجباته فكثيرة ، فلابد فيه من الشجاعة والكرم والنَّجْدة وحفظ الجوار وإعانة المعوز والضعيف ، ولا بد أن يتحمل أكبر قسط من جرائر القبيلة وما تدفعه من ديات ، ولا بد أن يكون حليما متسامحاً ، وإلى ذلك كله يشير معاوية سيد بنى كلاب حين يقول[1] :

إنِّى امرؤٌ من عُصْبةٍ مشهورةٍ ... حُشُدٍ لهم مجدٌ أَشَمٌّ تَليدُ[2]

أَلفَوا أَباهم سيدًا وأَعانهم ... كرمٌ وأَعمامٌ لهم وجدود

إذ كل حىٍّ نابتٌ بأُرومةٍ ... نبتَ العِضاه فماجدٌ وكسيدُ[3]

نعطى العشيرة حقَّها وحقيقها ... فيها ونغفر ذنبها ونسود

وإذا تحمَّلنا العشيرةُ ثِقْلَها ... قمنا به وإذا تعود نعود[4]

وإذا نوافق جُرْأَةً أو نَجْدَةً ... كنا ، سُمَىَّ ، بها العدوَّ نكيد[5]

بل لا نقول إذا تبوَّأَ جيرةً ... إن المحلَّة شِعْبُها مكدود[6]

وواضح أن السيد فى رأى معاوية لابد أن يكون شريف الأصل والأرومة ، من عشيرة لها مجد فسيح الفناء ، ولا بد أن يرعى حقوق هذه السيادة ، وهى الحلم والصفح عن السفهاء وكظم الغيظ مع العفو والمغفرة ، ولا بد له أن يبذل المال والنفس فى جنايات القبيلة وأن يسارع إلى النجدة والحرب وأن يكون كريماً مضيافاً ،

---

(١) المفضليات ، القصيدة رقم ١٠٤ .

(٢) الحشد : الذين يحتشدون ويجتمعون للملمات ، والتليد : القديم .

(٣) الأرومة : الأصل ، العضاه : شجر ضخم من أشجار البادية ، الماجد : ذو المجد ، والكسيد : الدون .

(٤) الثقل : الغرم والدية .

(٥) سمى : مرخم سمية ، وحذف ياء النداء .

(٦) الشعب : ما انفرج بين جبلين ، مكدود : فى ضيق وشدة . يقول إنه لا يعتذر لأضيافه بما يلم به من شدائد .

إذا نزل به جار أضافه وأعانه وحفظ له كل ما يمكن من حقوق الجوار . وكان من أهم مايقوم به السيد إصلاح ذات البَيْن فى القبيلة ولَمّ شعثها ، مستعيناً فى ذلك بشيوخها وأصحاب الشرف فيها . ودائماً لا بد له من استشارتهم ، بل لا بد له من أن يستمع إلى كل فرد من أفراد القبيلة ، فهم جميعاً أكفاء يتساوون فى الحقوق . ومن أهم ما يدل على هذه المساواة نظام الإجارة ، وهى حق التوطن فى القبيلة ، إذ كان لكل فرد فيها أن يجير من يشاء ، وإذا أجار شخصاً أصبحت قبيلته ملزمة به ، وأصبح له ما لأفرادها من حقوق ، وعليه ما عليهم من واجبات .

وكان أفراد القبيلة جميعاً يضعون أنفسهم فى خدمتها وخدمة حقوقها ، وعلى رأسها حق الأخذ بالثأر ممن سولت له نفسه من القبائل الأخرى أن يعتدى على أحد أبنائها ، فكل فرد فيها يضحى لها بنفسه كما يضحى لها بماله ، فهى حياته وكيانه ، وهو مع اعتزازه بفرديته وشخصيته وحريته يعيش لها وداخل إطارها ، مدفوعاً فى ذلك بعصبية شديدة ، وهى عصبية سيطرت على نفوسهم ، وقدسوها تقديساً كان أعظم من تقديسهم للشعائر الدينية ، فتلك الشعائر تشركهم فيها قبائل أخرى ، أما شعائر العصبية القبلية فإنها خاصة بالقبيلة وأبنائها الذين يجمعهم دم واحد ونسب واحد . وربما تسامح الواحد منهم فى دينه ، إذ لم يكن يهمه فى كثير من الأحوال ، أما فى العصبية فإنه لا يتسامح فى أى واجب من واجباتها ، ومن خير ما يصور ذلك قول دُرَيْد بن الصِّمَّة[1] :

وما أنا إلا من غَزِيَّةَ إن غَوَت غويتُ وإن تَرْشُدْ غزية أَرشدِ

فغيه ورشده مرتبطان بعشيرته غزية ، فإن ضلت ضل معها وأمعن فى ضلاله ، وإن اهتدت اهتدى معها وأمعن فى هداه .

وكانت القبيلة من جانبها تعطى لأبنائها عليها نفس الحقوق ، فهى تنصرهم فى الملمات التى تنزل بهم ظالمين أو مظلومين ، فحسب أحدهم أن يستغيث فإذا السيوف مشرعة ، وإذا الدماء تتصبب على أتفه الأسباب . وقد تحولوا بسبب اختصامهم على المراعى واتخاذهم الغزو وسيلة من وسائل عيشهم إلى ما يشبه كتائب حربية ،

(١) الأصمعيات (طبع دار المعارف) ص١١٢
وانظر المرزوقى على الحماسة ٢ / ٨١٥ .

فكل قبيلة مستعدة دائماً للحرب والجلاد والإغارة على من حولها من البدو والحضر ، وهى دائماً شاكية السلاح حتى تحمى حماها ومنازلها وآبارها ومراعيها ، ولذلك كانت الشجاعة مثلهم الأعلى ، فدائماً يفتخرون ببطولتهم وبعدد من قتلوا فى حروبهم مما يدور فى أشعارهم ويدور معه اعتدادهم بسيوفهم اليمانية والهندية ، ولبعضها أسماء اشتهرت بينهم ، وكما يعتدون بسيوفهم نراهم يعتدون برماحهم وقسيهم ودروعهم وتروسهم وبيضاتهم أو خوذاتهم ، وأشاد فرسانهم بالخيل إشادة بالغة وسموها أسماء كثيرة .

٥

حروب وأيام مستمرة

لعل أهم ما يميز حياة العرب فى الجاهلية أنها كانت حياة حربية تقوم على سفك الدماء حتى لكأنه أصبح سُنَّة من سننهم ، فهم دائماً قاتلون مقتولون ، لا يفرغون من دم إلا إلى دم ، ولذلك كان أكبر قانون عندهم يخضع له كبيرهم وصغيرهم هو قانون الأخذ بالثأر ، فهو شريعتهم المقدسة ، وهى شريعة تصطبغ عندهم بما يشبه الصبغة الدينية ، إذ كانوا يحرِّمون على أنفسهم الخمر والنساء والطيب حتى يثأروا من غرمائهم . ولم يكن لأى فرد من أفراد القبيلة حق ولا ما يشبه الحق فى نقض هذه الشريعة ولا فى الوقوف ضدها أو الخروج عليها ، فما هى إلا أن يُقْتَلَ أحد منهم ، فإذا سيوف عشيرته مسلولة ، وتتبعها العشائر الأخرى فى قبيلته ، تؤازرها فى الأخذ بثأرها ، ويتعدد القتل والثأر بينها وبين القبيلة المعادية ، وتتوارثان الثارات حتى يتدخل من يصلح بينهما ويتحمل الديات والمغارم ، ولم يكونوا يقبلونها إلا بعد تفاقم الأمر وإلا بعد أن تأتى الحرب على الحرث والنسل ، أما قبل ذلك فكانوا يعدونها سُبَّة وعاراً ، وفى ذلك يقول عبد العُزَّى الطائى[1] :

(١) حماسة البحترى (طبع بيروت) ص ٢٨ وانظر ٢٩ ، ٣١ والمرزوقى على الحماسة ٢١٥/١ – ٢١٦ وراجع المفضليات ، القصيدة رقم ٤٢ البيت ١٥ والأصمعيات القصيدة رقم ٤٤ البيت ١ ، ٢ .

إذا ما طلبنا تَبْلَنا عند معشَرٍ ... أبينا حِلاب الدَّرِّ أو نشربَ الدَّما[١]

فهم لا يرضون بالدية ويرونها ذلاً ما بعده ذل أن يستبدلوا بالدم الإبل وألبانها، فالدم لا يشفيهم منه إلا الدم، وكأنما أصبح سفكه غريزة من غرائزهم لا تزايلهم، فهم يطلبونه وهم يتعطشون إليه تعطشاً شديداً على شاكلة تأبط شرًّا إذ يقول[٢]:

قليلُ غِرار النوم أكبر همِّه ... دَمُ الثأْر أو يلقى كَمِيًّا مُسَفَّعا

فأكبر ما يهمّ به وينصب له طلبُ الثأر ولقاء بطل سفعت وجهه الهواجر. وأكثر حروبهم كان يجرها نزاع بين بعض الأفراد فى قبيلتين مختلفتين، إما بسبب قتل أو بسبب إهانة، أو بسبب اختلاف على حد من الحدود، وحينئذ تشتبك عشيرتا هؤلاء الأفراد، وتنضم إلى كل عشيرة عشائر قبيلتها، وقد تنضم أحلافهما، فتنتشر نيران الحرب بين قبائل كثيرة، وصور ذلك شاعر الحماسة إذ يقول[٣]:

الشيء يبدؤه فى الأَصل أصغرهُ ... وليس يَصْلَى بكل الحرب جانيها

والحربُ يلحق فيها الكارهون كما ... تدنو الصِّحاح إلى الجَرْبَى فتُعْديها

فهى تبدأ صغيرة ضعيفة، ثم تقوى وتستحكم وتعظم بمرور الزمن، فتصبح لها عدوى كعدوى الجرب، لا يفلت منها راغب فيها ولا كاره، فالجميع يصطلون بنارها، بل يترامون فيها ترامى الفراش، فهى أمنيتهم ومبتغاهم، يقول زهير[٤]:

إذا فزعوا طاروا إلى مستغيثهم ... طوالَ الرماح لا ضِعافٌ ولا عُزْل[٥]

فإن يُقْتلوا فيُشْتَفَى بدمــائهم ... وكانوا قديمًا من مناياهمُ القتلُ

فجميعهم يطيرون إلى المستغيث بخيلهم ورماحهم، وتدور رحى الحرب فيقتلون

---

(١) التبل: الثأر، وحلاب الدر: كناية عن الإبل التى تحلب وتشرب ألبانها.

(٢) المرزوقى على حماسة أبى تمام ٢/٤٩٢ غرار النوم: قليله، والكمى: الشجاع.

(٣) المرزوقى ١/٤٠٧.

(٤) ديوان زهير ص ١٠٢.

(٥) الأعزل مفرد عزل: من لا سلاح له، وفزعوا: أغاثوا.

من أعدائهم ويشفون حقدهم ويقتل منهم أعداؤهم ويشفون غليلهم . يقول دريد ابن الصمة[١] :

وإنا لَلَحْمُ السيفِ غيرَ نَكيرةٍ ونُلْحمه حينًا وليس بذى نُكْرِ[٢]
يُغارُ علينا واترين فيُشْتَفَى بنا إن أُصِبْنا أَو نُغير على وِتْرِ[٣]
قسَمْنا بذاك الدهرشَطرين بيننا فما ينقضى إلا ونحن على شَطْر

ومثلُ قبيلة دريد قبائلُ العرب جميعها ، فهم طعام السيوف ، يطعمونها أعداءهم ، ويطعمهم أعداؤهم لها فى غير نكران، فهم دائماً واترون موتورون ، وحياتهم مقسومة على هذين الحدين وإلى هذين الشطرين . ولم يكونوا يرهبون شيئاً مثل الموت حتْفَ الأنف بعيداً عن ميادين القتال ، ميادين الشرف والبطولة ، حيث يموتون طعناً بالسيوف والرماح ، وحيث تتناثر أشلاؤهم وتأكلها السباع ، يقول الشنفرى[٤] :

ولا تَقْبُرونى إنَّ قبرى محرَّمٌ عليكم ولكن أَبْشِرِى أُمَّ عامرِ

فهو يتمنى أن لا يقبر ، وأن يترك بالعراء فى ساحة الحرب تنوشه السباع ، ويبشر أم عامر وهى الضبع بجسده ، حتى يخلد فى سجل قتلى الجاهلية المجيد .

وكانوا يسمون حروبهم ووقائعهم أياماً ، لأنهم كانوا يتحاربون نهاراً ، فإذا جنّهم الليل وقفوا القتال حتى يخرج الصباح . وأيامهم وحروبهم كثيرة ، وهى تدور فى كتب الأدب والتاريخ ، ويقال إن أبا عبيدة المتوفى سنة ٢١١ للهجرة صنف فى ألف يوم ومائتين منها كتاباً اعتمد عليه من جاءوا بعده ، ولم يصلنا هذا الكتاب ، وإنما وصلنا شرحه لنقائض جرير والفرزدق وفيه طائفة كبيرة منها . وألف فيها من بعده كثيرون أحصاهم ابن النديم فى المقالة الثالثة من الفن الأول بكتابه الفهرست . وفى كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى وشرح حماسة أبى تمام للتبريزى منثورات منها كثيرة . وعقد لها ابن عبد ربه فى العقد الفريد وابن الأثير

(١) المرزوقى ٢/٨٢٥ .
(٢) نكيرة ونكر : نكران وامتراء ، ونلحمه : نطعمه اللحم .
(٣) الوتر : الثأر ، واترين : قاتلين ومسببين الوتر .
(٤) المرزوقى ٢/٤٨٧ .

فى الجزء الأول من كتابه الكامل والنويرى فى نهاية الأرب فصولا طويلة ، وكذلك صنع الميدانى فى الفصل التاسع والعشرين من كتابه مجمع الأمثال إذ تناول منها مائة واثنين وثلاثين يوماً ضبط أسماءها وذكر القبائل التى اشتركت فى كل منها .

وتسمَّى هذه الأيام والحروب غالباً بأسماء البقاع والآبار التى نشبت بجانبها مثل يوم عَيْن أباغ وكان بين المناذرة والغساسنة ومثل يوم ذى قار وكان بين بكر والفرس ويوم شِعْب جبلة وكان بين عبس وأحلافها من بنى عامر وذبيان وأحلافها من تميم . وقد تسمى بأسماء ما أحدث اشتعالها مثل حرب البسوس وحرب داحس والغبراء .

ومن أيامهم المشهورة يوم خَزاز وكان بين ربيعة واليمن من مَذْحج وغيرهم ، ويوم طَخْفة بين المنذر بن ماء السماء وبنى يربوع ، ويوم أُوارة الأول بينه وبين بنى بكر ويوم أوارة الثانى بين ابنه عمرو بن هند وبنى تيم ، ويوم ظهر الدَّهْناء بين بنى أسد وطيء ، ويوم الكُلاب الأول بين بنى بكر وعشائر من تميم وضبة بقيادة شرحبيل ابن الحارث الكندى وبين تغلب والنمر وبهراء بقيادة أخيه سلمة وأيام الأوس والخزرج ومرّ ذكرها فى غير هذا الموضع ، ويوم حَوْزة الأول بين سُلَيم وغطفان ، ويوم اللِّوى بين غطفان وهوازن ، ويوم الكلاب الثانى بين تميم وبنى عبد المدان النجرانيين ويوم الوَقيط بين تميم وربيعة وكذلك يوم جَدود وذى طُلوح والغبيط وزُبالة ومبايض والجفار ، ويوم الرَّحْرَحان بين قيس وتميم وكذلك الصرائم والمروت والنِّسار ، ويوم الشقيقة بين ضبة وبنى شيبان ، ويوم بُزاخة بين ضبة وإياد ، ويوم دارة مَأْسَل بينها وبين بنى عامر . وكانوا لا يقتتلون فى الأشهر الحرم ، ومع ذلك وقعت فيها بعض مناوشات تسمى بأيام الفِجار بين كنانة وهوازن يومها الأول ، أما يومها الثانى فكان بين كنانة وقريش وبين بنى عامر وتبعت ذلك أيام أخرى . وسنقف قليلا عند حرب البسوس وحرب داحس والغَبْراء لأنهما من أشهر حروبهم وأطولها زمناً .

أما حرب البسوس فقد اشتعلت بين قبيلتى بكر وتغلب فى أواخر القرن الخامس الميلادى ، وكان سببها اعتداء كليب سيد تغلب — وكان قد طغى واشتد بغيه — على ناقة للبسوس خالة جَسّاس بن مرة سيد بنى بكر ، إذ رمى ضرعها بسهم ،

فاختلط لبنها بدمها . ولما علم جساس بما حدث ثار لكرامته ، وسنحت له فرصة من كُلَيب فقتله ، ودارت رحى حرب طاحنة ظلت — فيما يقال — أربعين سنة، فكثرت أيامها مثل يوم عُنَيْزة وكان سجالا بين الطرفين ، ويوم واردات وكان لتغلب على بكر ويوم قضَّة (تحلاق اللمم) وفيه انتصرت بكر . ولما أنهكت الحرب الفريقين لجآ إلى الحارث بن عمرو الكندى ، فأصلح بينهما ، وأقام كما مرَّ بنا على بكر ابنه شرحبيل وعلى تغلب ابنه سلمة . ونمت فى العصور الإسلامية أساطير حول هذه الحرب وبطلها التغلبى المهلهل أخى كليب ، وألفت عنه قصة شعبية باسم « الزير سالم » .

وأما حرب داحس والغبراء فكانت فى أواخر العصر الجاهلى ، وكان السبب فى نشوبها سباقا على رهان بين الفرسين ،فسميت باسميهما ، وكان قد أجراهما سيدا عبس وذبيان : قيس بن زهير وحذيفة بن بدر . وأوشك داحس أن يفوز ، غير أن رجلا من ذبيان كان قد كمن له ، فاعترضه ونفَّره ، فعدل عن الطريق ، وبذلك سبقته الغبراء . وأبى قيس أن يعترف بهذا السبق وطُلب الرهان المضروب ، وحدث صدام بين الفريقين لم تلبث الحرب أن اندلعت على إثره ، وظلت سنوات طويلة حتى تدخل سيدان من ذبيان هما هرم بن سنان والحارث بن عوف المرِّى ، فتحملا ديات القتلى . وبذلك وضعت الحرب أوزارها بين القبيلتين ومن كان قد انضم إليهما من الأحلاف ، فقد انضمت عامر إلى عبس بينما انضمت تميم وأسد إلى ذبيان . وعلى نحو ما نمت الأساطير حول المهلهل بطل حرب البسوس نمت حول عنترة بطل هذه الحرب ، وكان من عبس ، فألفت عنه قصة شعبية مشهورة لا نبعد إذا قلنا إنها تحولت إلى إلياذة كبرى للعرب وفروسيتهم الرائعة .

الفصل الثالث

الحياة الجاهلية

١

الأحوال الاجتماعية

كانت القبيلة فى العصر الجاهلى تتألف من ثلاث طبقات : أبناؤها وهم الذين يربط بينهم الدم والنسب ، وهم عمادها وقوامها ، والعبيد ، وهم رقيقها المجلوب من البلاد الأجنبية المجاورة وخاصة الحبشة ، والموالى ، وهم عُتَقاؤها ، ويدخل فيهم الخلعاء الذين خلعتهم قبائلهم ونفتهم عنها لكثرة جرائرهم وجناياتهم . وكانوا يعلنون هذا الخلع على رؤوس الأشهاد فى أسواقهم ومجامعهم ، وقد يستجير الخليع بقبيلة أخرى فتجيره ، وبذلك يصبح له حق التوطن فى القبيلة الجديدة ، كما يصبح من واجبه الوفاء بجميع حقوقها ، مثله مثل أبنائها .

ومن هؤلاء الخلعاء طائفة الصعاليك المشهورة ، وكانوا يمضون على وجوههم فى الصحراء ، فيتخذون النهب وقطع الطريق سيرتهم ودأبهم ، على نحو ما نعرف عن تأبط شرًّا والسُّلَيْك بن السلكة والشَّنْفَرَى . على أن منهم من كان يظل فى قبيلته لفضل فيه مثل عروة بن الوَرْد ، وكان كريماً فياضاً ، وأُثر عنه أنه كان يجمع إلى خيمته فقراء قبيلته عَبْس ومعوزيها ومرضاها ، متخذاً لهم حظائر يأوون فيها ، قاسماً بينه وبينهم مغانمه(١) .

وهذا الخلع إنما كان يحدث فى حالات شاذة ، أما بعد ذلك فإن أفراد القبيلة كانوا متضامنين أشد ما يكون التضامن وأوثقه ، وهو تضامن أحكم عُراه حرصهم على الشرف وقد تكونت حوله مجموعة من الخلال الكريمة ، لعل خير كلمة تجمعها هى كلمة المروءة التى تضم مناقبهم ، من مثل الحلم والكرم والوفاء وحماية الجار وسعة الصدر والإعراض عن شتم اللئيم والغَضّ عن العوراء .

---

(١) أغانى (طبعة دار الكتب) ٣ / ٧٨ ومابعدها .

ولم تكن خصلة عندهم تفوق خصلة الكرم ، وقد بعثها فيهم حياة الصحراء القاسية وما فيها من إجداب وإمحال فكان الغنى بينهم يَتَفَضَّلُ على الفقير ، وكثيراً ما كان يذبح إبله فى سنين القحط ، يطعمها عشيرته ، كما يذبحها قرير العين لضيفانه الذين ينزلون به أو تدفعهم الصحراء إليه . ومن سُنَنهم أنهم كانوا يوقدون النار ليلا على الكُثْبان والجبال ، ليهتدى إليهم التائهون والضالون فى الفيافى ، فإذا وفدوا عليهم أمَّنوهم حتى لو كانوا من عدوهم . ويدور فى شعرهم الفخر بهذه النيران وأن كلابهم لا تنبح ضيوفهم لما تعودت من كثرة الغادين والرائحين ، يقول عوف بن الأحوص(١) :

ومستنبحٍ يخشى القَواء ودونه ... من الليل بابا ظُلمةٍ وسُتورها(٢)
رفعتُ له نارى فلما اهتدى بها ... زَجَرْتُ كلابى أن يَهِرَّ عَقورُها(٣)
فلا تسأَلينى واسأَلى عن خليقتى ... إذا ردَّ عافى القِدْر من يستعيرها(٤)
تَرَىْ أَن قِدْرى لا تزال كأَنها ... لذى الفَرْوَة المَقْرور أُمٌّ يزورها(٥)
مبرَّزةٌ لا يُجْعَلُ السِّترُ دونها ... إذا أُخْمد النيرانُ لاح بَشيرها(٦)
إذا الشَّوْلُ راحتْ ثم لم تَفْدِ لحمها ... بأَلْبانها ذاق السِّنانَ عَقِيرُها(٧)

واشتهر عندهم بالكرم الفياض كثيرون(٨) ، مثل حاتم الطائى الذى ضُربت الأمثال بكرمه ، وهو يصوره فى كثير من شعره كقوله(٩) :

إذا ما بخيلُ الناسِ هَرَّتْ كلابُهُ ... وشقَّ على الضيفِ الغريبِ عَقورُها

(١) المفضليات رقم ٣٦ والحيوان للجاحظ (طبعة الحلبى) ٥/١٣٦ .
(٢) مستنبح : من ينبح حتى ترد عليه الكلاب ، فيعرف أن حيا قريباً منه ، القواء : الفلاة . . .
(٣) يهر : ينبح نبحاً خفيفاً ، العقور : العاض .
(٤) عافى القدر : مستعيرها .
(٥) ذو الفروة : السائل ، المقرور : الذى اشتد به البرد .
(٦) بشيرها هنا : ضوءها .
(٧) الشول : الإبل العظيمة التى لا تحلب ، راحت : رجعت ، يقول إذا رجعت الإبل من مراعيها عقرها لأهل الحى والضيفان .
(٨) انظر فى أجواد الجاهلية كتاب المحبر لابن حبيب (طبع حيدر آباد) ص ١٣٧ .
(٩) الحيوان ١/٣٨٣ .

فإنى جبانُ الكلب بيتى موطَّأٌ جوادٌ إذا ما النفسُ شَحَّ ضميرها

وكانوا لا يقدرون شيئاً كما يقدرون الوفاء ، فإذا وعد أحدهم وعداً أوفى به وأوفت معه قبيلته بما وعد ، ومن ثم أشادوا بحماية الجار لأنه استجار بهم وأعطوه عهداً أن ينصروه . وجعلهم ذلك يعظمون الأحلاف فلا ينقضونها مهما قاسوا بسببها من حروب. وبلغ من اعتدادهم بهذه الخصلة أن كانوا يرفعون لمن يغدر منهم لواء فى مجامعهم وأسواقهم ، حتى يلحقوا به عار الأبد . يقول الحادرة لصاحبته سمية[1] :

أَسُمَىَّ ـ ويحك ـ هل سمعتِ بغَدْرَةٍ رُفع اللواءُ لنا بها فى مَجْمَعِ

وليس هناك خلة تؤكد معنى العزة والكرامة إلا تمدحوا بها ، فهم يتمدحون بإغاثة الملهوف وحماية الضعيف والعفو عند المقدرة ، كما يتمدحون بالأنفة وإباء الضّيم ، وكيف يقبلون الضيم ، وهم أهل حرب وجلاد ، يقول المتلمِّس[2] :

إنَّ الهوانَ حمارُ الأهل يعـــرفه والحرُّ ينكره والرَّسْلَةُ الأُجُدُ[3]

ولا يُقيم على خَسْفٍ يُرادُ به إلا الأذلاَّن: عَيْرُ الأهل والوَتِدُ[4]

هذا على الخَسْف معقولٌ برُمَّتِهِ وذا يُشَجُّ فلا يبكى له أَحَدُ

فهم لا ينكرون شيئاً مثل إنكارهم للهوان والضيم ، فهما السوأة الكبرى والمثلبة العظمى إذ يعنيان الذل وأن القبيلة استبيحت فلم تعد تستطيع الدفاع عن كرامتها . وكل شيء إلا الهوان ، وكان أقل شعور به يثيرهم ، على نحو ما مر بنا من ثورة عمرو بن كلثوم على عمرو بن هند حين علم بإهانة أمه فى بلاطه ، وكان نازلا معها عنده ، فاستل سيفه وقتله ، وتغنى شعراء تغلب طويلا بهذا الحادث مفاخرين بعزتهم . وكان للشجاعة والفروسية عندهم منزلة ليس فوقها منزلة ، بحكم حروبهم الدائرة التى لا تنى ولا تفتر .

وكان سادتهم يمثلون هذه الخصال جميعاً فى أقوى صورها ، مضيفين إليها

(١) المفضليات ص ٤٥ .
(٢) حماسة البحترى ص ٢٠ .
(٣) الرسلة : الناقة الذلول ، الأجد : الموثقة الخلق.
(٤) العير : الحمار .

حنكة وحكمة بالغة، وقد اشتهر من بينهم حُكّام تجاوزت ألمعيتهم حدود قبائلهم[١]، مثل عامر بن الظَّرب وأكثم بن صيفي، وكانت تفزع إليهم القبائل في خلافاتها الكبيرة التي يصعب حلها في دائرة قبائلهم وشيوخهم، وقد يفزعون فيها إلى الكهنة والعرّافين .

على أن هناك آفات كانت تشيع في هذا المجتمع الجاهلي، لعل أهمها الخمر واستباحة النساء والقمار، ونحن نجد الخمر تجري على كل لسان، وقد اشتهر بالحديث عنها وعن كئوسها ودنانها وحوانيتها ومجالسها أعشى قيس وعدي بن زيد العبادي الحيريّ، وعرض لها كثيرون في أشعارهم مفاخرين بأنهم يحتسونها ويقدمونها لرفاقهم . وأكثر من كان يتجر بها اليهود والنصارى، وكانوا يجلبونها لهم من بُصْرى وبلاد الشام ومن الحيرة وبلاد العراق، ويقال إنهم كانوا يضربون خيامهم في بعض الأحياء أو في بعض القرى ويضعون فوقها راية تعلن عنهم، فيأتيهم الشباب ليشربوا وليسمعوا بعض القيان ممن يصاحبنهم . وكان من الشباب من يدمن عليها حتى تنفر منه قبيلته، وقد تخلعه لما يتدنّى فيه من رذائل، على نحو ما يروى عن البرّاض ابن قيس الكناني أحد أدلاّء القوافل في الجاهلية، إذ كان سكّيراً فاسقاً، فخلعه قومه وتبرأوا منه[٢] . ويقول طرفة في معلقته :

وما زال تَشْرابي الخمورَ ولذتي ... وبَيْعي وإنفاقي طريفي ومُتْلَدِي[٣]

إلى أن تحامتْني العشيرةُ كلها ... وأُفْرِدْت إفرادَ البعير المعبَّد[٤]

ولولا ثلاثٌ هن من عيشة الفتى ... وجَدِّك لم أحفل متى قام عُوَّدى[٥]

فمنهن سَبْقُ العاذلات بشَرْبةٍ ... كُمَيْت متى ما تُعْلَ بالماء تُزْبِدِ[٦]

---

(١) انظر في حكام العرب كتاب المحبر ص ١٣٢ .

(٢) أغاني (طبعة الساسي) ١٩/٧٥ .

(٣) الطريف : المال الحديث، والمتلد : المال القديم .

(٤) تحامتني : تجنبتني، المعبد : الأجرب .

(٥) عود : جمع عائد أو عائدة، ويقصد من يعودونه عند الوفاة ويبكونه . والجد : الحظ والبخت .

(٦) الكميت : الخمر، يقول إنه يباكر شرب الخمر قبل انتباه العواذل .

وكرِّى إذا نادى المضافُ محنَّبًا كسِيدِ الغَضَا نبَّهْتَهُ المتورِّدِ(١)
وتقصيرُ يومِ الدَّجْنِ والدَّجْنُ معجبٌ ببَهْكنَةٍ تحت الخِباء المعمَّدِ(٢)

وواضح أنه يجعل من خلال الفتى هذه الخصال الثلاث ، وهى الخمر والفروسية أو الشجاعة فى الحرب والتمتع بالنساء .على أن هذه الفتوة التى يصورها طرفة كانت تتسامى عند كثير من فرسانهم مثل عنترة ، بل حتى من صعاليكهم مثل عروة ابن الورد وسنعرض لذلك فى موضع آخر .

ومهما يكن فقد كانت الخمر وما يتبعها من استباحة النساء شائعة فى هذا العصر ، وكان يشيع معها القمار أو الميسر ، وكانت عادتهم فيه أن يذبحوا ناقة أو بعيراً ، ويقسموا ما يذبحونه عشرة أجزاء ، ثم يأتوا بأحد عشر قدحاً ، يجرون عليها قمارهم ، وكانوا يجعلون لسبعة منها نصيباً إن فازت ، وعلى أصحابها غُرْمٌ إن خابت ، وأكبرها نصيباً يسمى المُعَلَّى . أما الأربعة الباقية فلاحظَّ لها حتى إن فازت .

وأكبر الدلالة على شيوع هذه الآفات بينهم الآيات الكثيرة التى هاجمتها فى القرآن الكريم وما وضعه الإسلام لها من عقاب صارم حتى يكفَّ العرب عنها ، وقد شدد فى عقوبة استباحة النساء ، وأكثر من النهى عن الخمر والميسر من مثل قوله تعالى : (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما) وقوله جلَّ وعز : (إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون) وقد وصف الخمر بأنها (رجس من عمل الشيطان) . ونجد فى الحديث النبوى نهياً كثيراً عنها وأن الله لعنها ولعن عاصرها ومعتصرها وشاربها (٣) وقد جعل لها

---

(١) المضاف : الخائف المذعور ، والمحنب : الفرس الذى فى قوائمه أو ضلوعه انحناء قليل ، والسيد : الذئب ، والغضا : شجر ، نبهته : هيجته ، المتورد : الجرىء . يقول : إذا استغاث به خائف عطف فرسا يسرع فى عدوه إسراع ذئب الغضا الجرىء حين تهيجه .

(٢) الدجن : الغيم ، البهكنة : المرأة الجميلة ، المعمد : المرفوع بالعماد .

(٣) انظر كتاب الأشربة فى سنن أبى داود وابن ماجة والنسائى والبخارى ، وراجع دائرة المعارف الإسلامية فى مادة خمر .

الرسول صلى الله عليه وسلم حدًّا : أربعين جلدة ، ولما وجد عمر أن بعض العرب لا يزال يتورط فى شربها رفع حدها إلى ثمانين .

وهذا كله يشهد شهادة قاطعة بانتشار هذه الآفات بين عرب الجاهلية ، وفى أخبار الأعشى أنه لما سمع بالرسول صلى الله عليه وسلم رغب فى الوفود عليه بالمدينة ومديحه ، وعلمت قريش فتعرضت له تمنعه ، وكان مما قاله له أبو سفيان إنه « ينهاك عن خِلال كلها بك رافق ولك موافق » فلما سأله عنها أجابه : الزنا والقمار والخمر ، فعدل الأعشى عن وجهته[١] . وعلى نحو ما هاجم الإسلام هذه الآفات هاجم قانونهم الدموى المقدس : قانون الأخذ بثأر ، فهدمه هدماً وأبطله إبطالا إذ جعل حقه للدولة لا للأفراد، وأقام لهم نظاماً سماويًّا رفيعاً لمجتمعهم ليس هنا محل بحثه .

وحتى الآن لم نتحدث عن المرأة ومكانتها فى هذا المجتمع ، وقد كان هناك نوعان من النساء : إماء وحُرّات ، وكانت الإماء كثيرات ، وكان منهن عاهرات يتخذن الأخْدان ، وقينات يضربن على المزهر وغيره فى حوانيت الخمارين ، كما كان منهن جوار يخدمن الشريفات ، وقد يرعين الإبل والأغنام . وكن فى منزلة دانية ، وكان العرب إذا استولدوهن لم ينسبوا إلى أنفسهم أولادهن ، إلا إذا أظهروا بطولة تشرفهم على نحو ما هو معروف عن عنترة بن شداد ، فإن أباه لم يلحقه بنسبه إلا بعد أن أثبت شجاعة فائقة ردّت إليه اعتباره .

وكانت الحرة تقوم بطهى الطعام ونسج الثياب وإصلاح الخِباء، إلا إذ كانت من الشريفات المخدومات ، فإنه كان يقوم لها على هذه الأعمال بعض الجوارى . وتدل دلائل كثيرة على أن بنات الأشراف والسادة كان لهن منزلة سامية ، فكن يخترن أزواجهن ، ويتركنهم إذا لم يحسنوا معاملتهن[٢] . وبلغ من منزلة بعض شريفاتهن أنهن كن يحمين من يستجير بهن ويرددن إليه حريته إذا استشفع بهن ، على نحو ما ردت فكيهة إلى السُّلَيْك بن السلكة حريته حين وقع أسيراً فى يد عشيرتها من بنى عوار[٣] . وكانوا يعدونها جزء لا يتجزأ من عرضهم ، ولم يكن شىء

(١) الأغانى (طبعة دار الكتب) ٩/١٢٦. والأمالى ٢/١٠٦ والمحبر ص ٣٩٨ .
(٢) انظر الأغانى ١٠/١٣ وما بعدها
(٣) الأغانى (طبعة الساسى) ١٨/٣٧ .

يثيرهم كَسَبْى نسائهم وهم بعيد عن الحى ، فكانوا يركبون وراءهم كل وَعْر حتى يلحقوا بهن وينقذوهن ويغسلوا عار سبيهن عنهم ، وهو عار عندهم ليس فوقه عار .

وكانوا يصحبونهن معهم فى الحرب ، وكن يشددن من عزائمهم بما ينشدن من أناشيد حماسية ، حتى إذا قتل فارس ندبنه ندباً حاراً حاضّات على الأخذ بثأره والانتقام من قتلته . وتلمع فى هذا الجانب أسماء كثيرات على رأسهن الخنساء ومراثيها فى أخويها صخر ومعاوية مشهورة . وكن يَستشطن غضباً إذا رضيت العشيرة بأخذ الدية ، حقناً للدماء ، على نحو ما تصور ذلك كبشة أخت عمرو بن معد يكرب ، وقد قُتل أخ لها[1] :

فإن أنتمُ لم تثأروا واتّدَيْتُمُ فمشُّوا بآذان النَّعَام المصلَّمِ[2]

فهى ترى أن عشيرتها إن قبلت الدية فى أخيها أعطتْ عن يد وهى صاغرة صَغار الأسرى الذين تُجدَعُ آذانهم ، بل صَغار النعام المصلم المقطوعة آذانه . وتقول أم عمرو بنت وَقْدان فى أخ لها قُتل وقد فكرت عشيرتها فى قبول ديته[3] :

إن أنتمُ لم تطلبوا بأخيكمُ فذَروا السِّلاح ووحِّشوا بالأَبْرَقِ

وخذوا المكاحل والمَجاسد والبسوا نُقَبَ النساءِ فبئس رهط المُرْهَقِ[4]

فهم إن لم يثأروا لأخيها حقٌّ عليهم أن يلقوا السلاح ويمضوا على وجوههم إلى مكان بعيد بالأبرق ، فيتزيوا بزى النساء ، ويتعطروا ويتزينوا بزينتهن . وكانوا يفرون من الحرب حين لا يكون من الفرار بد ، إلا أن تكون معهم النساء ويروهن فارات وقد حسرن عن وجوههن ، حينئذ يثبتون فى المعركة ويناضلون حتى الذَّماء الأخير[5] :

وكان جمالهن يثيرهم ، وينطق ألسنتهم بوصفه ووصف ما كن يتزين به من

---

(١) المرزوقى ١/٢١٨ وقارن الأصمعيات ص ١٥٧ .

(٢) اتديتم : أخذتم الدية ، وآذان النعام مصلمة خلقة .

(٣) المرزوقى ٣/١٥٤٦ .

(٤) المجاسد : جمع مجسد وهو الثوب المشبع صبغة ، والنقب : جمع نقبة ، وهى إزار المرأة .

(٥) المرزوقى ١/١٧٧ .

طيب وحلى وثياب على نحو ما تصور ذلك معلقة امرئ القيس إذ يقول :

وتُضحى فَتيتُ المسك فوق فراشها ... نَؤُومُ الضُّحى لم تَنْتَطِقْ عن تفضّلِ

ويقول المنخّل اليشكرى في فتاته[1] :

الكاعب الحَسْناء تَـرْ ... فُلُ في الدِّمَقْسِ وفى الحَرير

ولم يقفوا عند جمالها الجسدى ، فقد فطنوا إلى جمالها المعنوى وما تتحلى به من شيم وخصال كريمة ، على نحو ما يقول الشَّنْفَرى في زوجته أميمة[2] :

لقد أعجبتْنى لاسَقوطا قِناعُها ... إذا ما مشتْ ولا بذات تلفُّتِ

تبيت ـبُعَيْد النوم ـتُهدى غَبوقها ... لجاراتها إذا الهديَّةُ قَلَّتِ[3]

تحلّ بمنجاة من اللوم بيتَها ... إذا ما بيوتٌ بالمذمة حُلَّتِ

كأَن لها فى الأَرض نِسْيًا تَقُصُّه ... على أَمِّها وإن تكلمك تَبْلَتِ[4]

أميمةُ لا يُخْزى نَثاها حَليلَها ... إذا ذُكرالنسوان عَفَّتْ وجَلَّتِ[5]

إذا هو أمسى آبَ قُرَّةَ عينهِ ... مآب السعيد لم يَسَلْ أين ظَلَّتِ[6]

فصاحبته وقور خجول ، لا يسقط قناعها فى أثناء سيرها ولا تلتفت حولها ، وهى كريمة مؤثرة تؤثر جاراتها فى الجدب بغَبوق اللبن ، وقد حصَّنت بيتها عن كل لوم أو ذم يلحقها ، وهى شديدة الحياء ، ومن أجل ذلك لا ترفع رأسها عن الأرض فى مسيرها ، حتى ليظن من يبصرها أنها تبحث عن شىء ضاع منها . وإذا اعترضها شخص وكلمها أوجزت ومضت لقصدها وغرضها . وإن الحديث العَطِر عنها فى العشيرة ليملأ زوجها زهواً وخيلاء ، إنها مثال العفة والجلال . وإنه ليرفعها عن كل شك وتهمة ، فإذا أمسى وعاد إليها من المرعى أو بعد رحلته

---

(١) الأصمعيات ص ٥٥ .

(٢) المفضليات رقم ٢٠ .

(٣) الغبوق : اللبن الذى يشرب فى العشى .

(٤) النسى : الشىء المنسى أو المفقود ، تقصه : تتعقب أثره ، أمها بفتح الهمزة : قصدها . تبلت : أوجزت .

(٥) النثا : الحديث عن الشخص ، الحليل : الزوج .

(٦) آب : رجع .

الطويلة عاد قرير العين بها سعيداً ، فلا يسألها أين كانت لأنها موضع ثقته .

وتدور فى كتب الأدب قصص وأشعار كثيرة تصور هُيام بعضهم بهن ، وكانوا دائماً يفتتحون قصائدهم بذكرهن وما كان لهم من ذكريات معهن فى بعض المعاهد والمنازل ، ويمزجون ذلك بالدموع ، على نحو ما يقول امرؤ القيس فى مطلع معلقته :

قفا نَبْكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ بسِقْطِ اللِّوَى بين الدَّخول فحَوْمَلِ

فالمرأة لم تكن فى الجاهلية مهملة ، بل كان لها قدرها عندهم ، كما كان لها كثير من الحرية ، فكانت تمتلك المال وتتصرْف فيه كما تشاء ، وقصة اتجار الرسول صلى الله عليه وسلم فى أموال السيدة خديجة أم المؤمنين مشهورة . وقد دعم الإسلام هذه الحرية ، فحرم أن تُعْضَلَ المرأة وتمنع من الزواج بعد وفاة زوجها كما حرم زواج المَقْت ، وهو أن يجمع الرجل بين أختين ، وحرم الشِّغار ، وهو أن يتزوج شخصٌ أخت صديق له على أن يزوجه أخته ، وأيضاً فإنه حرم أن يتزوج الابن امرأة أبيه بعد موته أو أن يتزوج عدة رجال امرأة واحدة ، إلى غير ذلك مما كانوا يبيحونه . وتلك كانت عادات عندهم ، وهى تلازم الأمم فى عصور بداوتها ، ولكن ينبغى أن لا نفهم منها أن المرأة كانت مهدرة الحقوق فى الجاهلية ، أما ما سجله عليهم القرآن الكريم من وأدهم للبنات فى قوله تعالى : (وإذا بُشِّرَ أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّر به أيمسكه على هُون أم يَدُسُّه فى التراب ألا ساء ما يحكمون) فأكبر الظن أن من كانوا يصنعون ذلك منهم أجلاف قساة القلوب كانوا يخشون عليهن من الفقر أو السبى ، إذ كان سباؤهن كثيراً فى الجاهلية ، وكانوا يعدون ذلك سُبَّة ما بعدها سبة .

٢

المعيشة

لم يكن العرب يعيشون فى الجاهلية معيشة واحدة ، فقد عُرفت الزراعة فى الجنوب والشرق وواحات الحجاز مثل يثرب وخيبر وفى الطائف ووادى القُرى . وعاش أهل مكة على التجارة ، إذ كانوا يحملون عُروضها وسلعها بين حوضى المحيط الهندى والبحر المتوسط . وكانت قوافلهم تجوب الصحراء شمالا وجنوباً فى طرق معلومة كما كانت تجوبها شرقاً فى طريقين معروفين : طريق إلى الخليج الفارسى من شرقى مكة وكان يمر بمدينة الرياض الحالية ، وطريق ثان كانوا يذهبون فيه شمالا إلى خَيْبر ، ثم يخترقون الصحراء فى وادى الرُّمَّة ، ويظن أنه كان مجرى نهر فى عصور ما قبل التاريخ ، ومنه يهبطون إلى الحيرة . وكان يصحبهم فى هذه القوافل أدلاّء يحمونهم الضلال فى مجاهل الصحراء [1] ، ومن أشهرهم فُرات ابن حيان ، كما كان يصحبهم خفراء يحمون قوافلهم من ذؤبان البادية وقراصنتها أو صعاليكها الذين تعودوا النهب والسلب[2] ، وقد يبلغون ثلاثمائة عداًّ ، ومن أهم القبائل التى كانوا يخشون ذؤبانها قبيلتا هُذَيْل وفَهْم . وكانوا ينقلون من الجنوب : من اليمن وحوض المحيط الهندى وإفريقية الشرقية اللُّبان والطيب والبخور والجلود وثياب عدن النفيسة وتوابل الهند ورقيق إفريقية والصمغ والعاج ، كما كانوا ينقلون من الطائف الزبيب ومن مناجم بنى سليم الذهب . كل ذلك كانوا ينقلونه إلى حوض البحر المتوسط ويعودون محملين بالأسلحة والقمح والزيوت والخمر والثياب القطنية والكتانية والحريرية[3] .

فكة فى الجاهلية كانت مدينة تجارية عظيمة ، وكان بها الكعبة أكبر معابد العرب حينئذ ، فكانوا يحجون إلى أصنامهم وأوثانهم فيها ، وتقيم لهم قريش الأعياد والأسواق كسوق عكاظ [4]، وكانت أكبر أسواقهم ، وكانوا يقيمونها فى نجد

---

(١) المغازى للواقدى (طبع كلكتا) ص٣٦ ، ١٩٦ ، والمحبر ص ١٨٩ .

(٢) المحبر ص ٢٦٤ .

(٣) انظر مكة فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٤) راجع فى تحقيق عكاظ رسالة بعنوان موقع عكاظ لعبد الوهاب عزام (طبع دار المعارف).

بالقرب من عرفات من منتصف ذى القعدة إلى نهايته ، ولم تكن سوق تجارة فحسب ، بل كانت سوقاً للخطابة والشعر أيضاً ، وقد استمع فيها الرسول صلى الله عليه وسلم إلى قُس بن ساعدة وهو يخطب فى الناس . وقالوا إنه كانت تقام للنابغة فيها قُبّة ويفد عليه الشعراء يعرضون شعرهم ، فمن أشاد به طار اسمه . وكثيراً ما كانوا يفتدون الأسرى فيها وتدفع الديات ، وأيضاً كثيراً ما كانت تقوم المفاخرات والمنافرات . وعُرف غير واحد بأن الناس كانوا يحتكمون إليه فيها ، ويذكر فى هذا الصدد أناس من تميم مثل الأقرع بن حابس . ومعنى ذلك كله أن عكاظاً كانت أشبه بمؤتمر كبير للعرب ، فيه يجتمعون وينظرون فى خصوماتهم ، ومنازعاتهم ، وكل ما يتصل بهم من شئون . ومن أسواق قريش أيضاً ذو المجاز بالقرب من عكاظ ، وكانت تظل هذه السوق منعقدة إلى نهاية الحج .

وبجانب هاتين السوقين الكبيرتين كان للعرب أسواق أخرى كثيرة يميرون فيها كما يريدون ويشترون ويبيعون ، ومن أهمها سوق دَوْمة الجندل فى شمالى نجد وسوق خيبر وسوق الحيرة وسوق الحِجْر باليمامة وسوق صُحار ودَبا بعمان وسوق المشقَّر بهَجر وسوق الشِّحر وسوق حضرموت وسوق صنعاء وعدن ونجران . وكان لكل سوق من هذه الأسواق وقت معلوم تعقد فيه(١) .

ولم يكن عرب نجد يفيدون من هذه الأسواق فقط البيعَ والشراء فإن قوافل عُروضها القرشية وغيرها كانت تجعل الكثيرين منهم جُعْلا نظير حمايتها ، وكانت تتخذ منهم الخفراء والأدلاء ، فتنفحهم بأموالها . على أنه ينبغى أن لا نظن أن أهل مكة جميعاً كانوا أثرياء ، فقد كان بجانب الأثرياء فقراء وصعاليك كثيرون ، وكان الفرق شاسعاً بين ثراء السيد الشريف وفقر المعوز البائس ، كما كان بها رقيق كثير .

ووراء المجتمع المكى كان يعيش العرب فى تهامة ونجد وصحراء النفود وبوادى الشام والدهناء والبحرين معيشة بدوية تعتمد على رعى الأغنام والأنعام . وكانوا لا يفضلون شيئاً على حياتهم الرعوية البدوية ، لا يفضلون الزراعة ولا الصناعة ، بل يحتقرونهما ويزدرونهما ، فلا حياة مثل حياتهم حياة البساطة والحرية التى

---

(١) انظر فى أسواق الجاهلية كتاب المحبر ص ٢٦٣ ، واليعقوبى ١/٣١٣ وتاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ٤/٢٢٣ .

لاتُحَدّ . ووقفت الصحراء تحميهم وتحرس تقاليدهم ولغتهم وتقيم أسواراً من دونهم ودون هذه الحياة الصحراوية ، وهى حياة كان غذاؤهم فيها بسيطاً ، فقليل من الشعير يكفيهم ، وإذا أضيف التمر واللبن فذلك غذاء رافه ، وكان لباسهم بسيطاً كغذائهم ، وهو ليس أكثر من ثوب طويل يضمه فى وسطه منطقة وقد تلفه عباءة ، وغطاء للرأس يمسكه عقال .

ولكن لا تظن أن هذه الحياة البسيطة كانت سهلة ، فقد كانت الصحراء مليئة بالمخاوف والمخاطر ، إذ فيها غير قليل من الوحوش والسباع والحشرات والحيات ، وفيها القفار الجرداء الزاخرة بالخنادق والمهاوى ورياح السموم ، وفيها حنادس الليل المظلم المخيف التى كانت تلقى فى روعهم بالخيالات والأوهام وما تمثل لهم من السّعالى والجن والغيلان . وفى تضاعيف ذلك كان العرب يتربص بعضهم ببعض ، إذ كانت حياتهم كما قدمنا حياة حربية دامية ، وكاد أن لا يكون هناك حى أو عشيرة بل أسرة إلا وهى واترة موتورة .

وقد تحولت هذه الحياة الحربية من بعض وجوهها إلى مصدر من مصادر رزقهم ، إذ كانوا يتخذون الغزو وسيلة من وسائل عيشهم ، وهو عيش مشوب بالضنك والشظف وهذا الصراع العنيف الذى كانوا يخوضونه ضد مخاطر الصحراء ومن يترصدهم من الأعداء ، وصوّر ذلك تصويراً طريفاً تأبط شرّاً فى كلمة له ، فقال (١) :

يظلُّ بِمَوْمَاةٍ ويُمْسى بغـيرها ... جَحِيشًا ويَعْرَوْرِى ظهورَ المهالكِ (٢)

ويَسْبق وَفْدَ الريح من حيث يَنْتَحِى ... بمُنْخَرِقٍ من شدِّهِ المتدارك (٣)

إذا خاط عينيه كرى النوم لم يزل ... له كالئٌ من قلب شيحانَ فاتك (٤)

ويجعل عينيـه رَبِيئةَ قلبه ... إلى سَلَّةٍ من حَدِّ أخضرَ باتكِ (٥)

(١) المرزوقى ١/٩٥ وأمالى القالى ٢/١٣٨ وزهر الآداب ٢/١٨ .

(٢) يظل هنا : يغدو ، الموماة : الفلاة ، جحيشاً : منفرداً ، يعرورى : يركب .

(٣) وفد الريح : أولها ، ينتحى : يقصد ، منخرق : سريع ، يقصد العدو السريع ، الشد : العدو ، المتدارك : المتلاحق .

(٤) خاط عينيه كرى النوم : نام ، الكالئ : الرقيب ، الشيحان : الجاد فى الأمر .

(٥) الربيئة : الرقيب والديدبان ، والسلة : الواحدة من سل السيف ، والأخضر : السيف ، والباتك : القاطع .

إذا هزَّه فى عَظْمِ قِرْنٍ تَهلَّلَتْ نَواجِذُ أفواه المنايا الضَّواحِكِ [١]

يرى الوحشةَ الأُنْسَ الأنيسَ ويَهْتَدِى بحيث اهتدتْ أُمُّ النجومِ الشَّوابكِ [٢]

وتلك كانت حياة أكثرهم ، فهم يقطعون مفازة فى النهار ، فإذا جَنَّهم الليل وجدتهم فى مفازة أخرى وقد ركبوا ظهور المهالك والمعاطب ، لا يستصحبون رفيقاً غالباً سوى أرجلهم التى تعودت العدو السريع . وهم دائماً مفزَّعون حتى فى النوم ، فإذا ناموا لم ينم قلبهم بل ظل يكلؤهم ويرعاهم خيفة عدو راصد من وحش أو إنسان ، بل إن النوم لا يكاد يلم بعيونهم إلا غراراً ، فهى معلقة بسيوفهم التى لا تلبث أن تستقر فى صدور من يهجمون عليهم ، فيضحك الموت ويكشر عن أنيابه الغلاظ . وعلى هذه الشاكلة هم دائماً مستوحشون ، بل إنهم ليؤثرون الوحشة ويستحبونها إذ يرون فيها الأنس ، فأنسهم فى التفرد بالفلوات والقفار التى تمرسوا بها وعرفوا مسالكها ودروبها معرفة تجعلهم لا يضلون قصدهم ، كما لا تضل الشمس قصدها ، بل يهتدون دائماً إليه .

وهذه الحياة القاسية المخوفة هى التى دفعتهم إلى الإشادة باحتمال الشدائد والجرأة والشجاعة ، فإن القبيلة إن لم يكن لها حماة يذودون عنها تخطفتها القبائل من حولها وفنيت فيها . وكان أهم حيوان أعانهم على احتمال هذه الحياة المجهدة البعير الذى يتحمل — مثلهم — مشاق الصحراء ولا يرهقه عطش ولا جوع ولا ما يحمله من أثقال . فهو رفيقهم المفضل الذى يوافقهم ، ولذلك طالما أشادوا به فى شعرهم . وكثيراً ما يصفون معه الحيوانات التى تصادفهم من مثل أُتن الوحش وحمارها وبقر الوحش وثورها والنعام والظباء . وكان فرسانهم ينفقون أيامهم على صهوات الجياد يرتادون بها مجاهل الصحراء ويلقون عليها الأعداء ، وقد يتخذونها لصيد الوحش على نحو ما يصور لنا ذلك امرؤ القيس فى معلقته وزهير فى لاميته [٣] .

وكان صيد الحيوان الشغل الشاغل لكثيرين منهم ، فكانوا يدربون الكلاب عليه ويضرُّونها تضرية ، حتى تصبح من الجوارح الفاتكة ، وفى شعرهم قطع كثيرة تصف المعارك التى كانت تنشب بينها وبين الأتن وحمارها أو البقر وثورها .

---

(١) القرن : الكفء والنظير ، تهللت : تلألأت وأشرقت .

(٢) أم النجوم : الشمس .

(٣) انظر ديوان زهير ص١٢٤ وما بعدها .

وفى معلقة لبيد وصف بارع لأتن وحمارها ، ثم لبقرة وحشية تعقبها الرماة بنبلهم ، ولما يئسوا أن يصيبوا منها مقتلا أرسلوا فى إثرها جوارح الكلاب فنشبت معركة حامية قتلت فيها البقرة كلبتين هما كَسابِ وسُخام ، يقول :

حتى إذا يئسَ الرماةُ وأرسلوا غُضْفًا دواجِنَ قافلا أعْصامها[١]

فلحِقْنَ واعتكرتْ لها مَدْرِيَّةٌ كالسَّمْهريَّة حَدُّها وتمامها[٢]

لتذودهنَّ وأيقنتْ إن لم تذد أن قد أَحَمَّ مع الحتوف حِمامُها[٣]

فتقصَّدتْ منها كَسابِ فضُرِّجَتْ بدمٍ وغودر فى المكَرِّ سُخامُها[٤]

ولأوس بن حجر قصيدة فائية[٥] وصَف فيها حمار الوحش وصفاً بديعاً ، ثم وصف الصائد وصفاً مسهباً ، أرانا فيه ناموسه وكيف كان يختبئ للوحش على عين ، حتى إذا ورد الحمار ختله بسهمه ، غير أنه أخطأه .

ويظهر أن صيد الوحش لم يكن هم شجعانهم وفرسانهم ، إنما كان هم فقرائهم ومعوزيهم ، ولذلك كان يأتى فى المرتبة الثانية من غزوهم ونهبهم اللذين يدلان على بطولتهم واستبسالهم ، ولعل ذلك ما جعل عمرو بن معد يكرب يهجو قوماً بأنهم يعيشون على الصيد ، إذ يقول[٦] :

أبنى زيادٍ أنتمُ فى قومكم ذَنَبٌ ونحن فُروعُ أصلٍ طَيِّبِ

نَصِلُ الخميسَ إلى الخميسِ وأنتمُ بالقَهْر بين مُرَبِّقٍ ومُكَلِّبِ[٧]

حِيدٌ عن المعروف سعىُ أبيهمِ طلبُ الوعولِ بوَفْضَةٍ وبأَكْلُبِ[٨]

وكما كانوا يصيدون الوعول أو الماعز الجبلى كانوا يصيدون الوحش ، ويتردد وصفهم له فى أشعارهم تردداً واسعاً ، وهو تردد أتاح للجاحظ فى حيوانه سيولا

(١) الغضف : الكلاب المسترخية الآذان ، الدواجن : الضاريات وقيل المعلمات ، وقافلا : يابساً ، والأعصام : قلائد من أدم تجعل فى أعناق الكلاب .

(٢) اعتكرت : رجعت وعطفت ، والمدرية القرون الحادة ، والسمهرية : الرماح .

(٣) الحمام : الموت ، وأحم : حان .

(٤) تقصدت : قتلت من قوطم رماه فأقصده .

(٥) انظر ديوانه بتحقيق محمد يوسف نجم (طبع دار صادر ببيروت) رقم ٣٠ .

(٦) حيوان ٢/٣٠٩ .

(٧) الخميس : الجيش . المربق : الصائد بالربقة وهى العروة فى الحبل ، والمكلب : الصائد بالكلاب .

(٨) الوفضة : جعبة للسهام من أدم .

من هذه الأشعار .

وتلك كانت معيشتهم بين صيد للوحش وصيد للإنسان ورعى للأنعام والأغنام ، فتلك موارد رزقهم ، وليس معنى ذلك أنهم كانوا متساوين فى هذا الرزق ، فقد كان فى كل قبيلة السادة الذين يملكون مئات الإبل والفقراء الذين لا يملكون شيئاً . وتحول كثير من هؤلاء الفقراء إلى قطاع للطرق يسلبون وينهبون ويقتلون على نحو ما هو معروف عن تأبط شرًّا والشنفرى وأضرابهما . وما كان يقوم به هؤلاء الذؤبان أو الصعاليك كانت تقوم به القبائل برمتها أحياناً حين تكفّ السماء عنهم غيثها وتجدب ديارهم وتُمْحل ، فلا يكون أمامهم سوى الغزو وشن الغارات ، ولعل ذلك هو الذى دفعهم دفعاً إلى الإشادة بالكرم والكرماء ، وقد أشادوا طويلا بهذه الفضيلة كما أسلفنا ، وهى إشادة طبيعية فى هذه الصحراء المقفرة المهلكة ، التى يحفُّ بها المحل والجدب من كل جانب .

٣

المعارف

ليس بين أيدينا ما يدل على أن العرب الجنوبيين أورثوا عرب الشمال حضارة واضحة ، ويظهر أنهم لم يخْطوا فى طريق الحضارة خطى واسعة ، فقد كان عندهم علم بالزراعة وهندسة إرواء الأرض وإقامة المدن ، ولم يكن عندهم ثقافة ذات معالم بينة ، وحتى من وجهة التنظيم السياسى كان يعمهم النظام الإقطاعى ، ولذلك حينما ضعفت دولتهم الأخيرة دولة سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمنات أو الدولة الحميرية تحولوا سريعاً إلى قبائل بدوية .

ومما لا ريب فيه أن العرب الشماليين كانوا على صلة بالحضارات المجاورة ، فقد كان تجّار مكة يدخلون فى مصر والشام وبلاد فارس ، وكان الحيريون يتصلون مباشرة بالفرس ، كما كان الغساسنة يتصلون بالروم ، وقد تنصروا ، وشاعت النصرانية فى قبائل الشام والعراق ، ونزل بينهم كثير من اليهود فى الحجاز واليمن . وكل ذلك معناه اتصال العرب الشماليين بالأمم المجاورة وحضاراتها ، ولكن يبدو أن ذلك كان يجرى فى حدود ضيقة وأنه وقف فى جمهوره عند تأثرات بسيطة كأن يأخذوا عن الفرس والروم بعض فنون الحرب أو يعرفوا بعض أخبارهم وأساطيرهم ، فى السيرة

النبوية أن قريشاً حين جمعت العرب ــ بعد موقعة أحد ــ لغزو المدينة أشار سَلمان الفارسى على الرسول صلى الله عليه وسلم أن يحفر الخندق ، حتى لا يستطيعوا اقتحام المدينة عليه ، وكأنه كان أعلم مَنْ حوله بأساليب الحرب[١]. وفى السيرة أيضاً أن النضر بن الحارث كان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رُسْتم وإسْفِنْديار، فكان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم (وهو لا يزال فى مكة) مجلساً فذكر فيه الله وحذر قومه ما أصاب مَنْ قبلهم من الأمم من نقمة الله خلَفه فى مجلسه إذا قام، ثم قال : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه ، فهلم إلى فأنا أحدثكم أحسن من حديثه ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس وأبطالهم الأسطوريين[٢] .

فالعرب الشماليون لم يكونوا منقطعين عن التأثيرات الحضارية الأجنبية ، غير أنه ينبغى أن لا نبالغ فى تصور ما وصل إليهم من هذه التأثيرات ، فقد كانوا لا يزالون فى طور السذاجة البدوية ، وكل ما يمكن أن يقال إنهم كانوا فى نهاية هذا الطور . وقد وقف من قديم قوم يقارنون بينهم وبين الشعوب المتحضرة من حولهم كالفرس والروم ، وكان على رأسهم الشعوبية ، وهى مقارنات تقوم على التحكم ، لأنها تقارن بين بدو ومتحضرين ، وقد مر الفرس والروم بطور بداوة كما مر العرب ، ولم يكن لهم فيه حضارة ولا نظر علمى دقيق . ومثل هذه المقارنات ما بعثه الغربيون منذ القرن الماضى من الموازنة بين الساميين جميعاً عرباً وغير عرب وبين الآريين ، على نحو ما هو معروف عن رينان[٣] ، فقد ذهبوا يزعمون أن الآريين هم الجنس المفضل الذى أحدث الحضارة ،وكأنهم يريدون أن يبرِّروا صنيع ساستهم واستعمارهم للشعوب السامية . . وهى نظرية لا تؤيدها الحقائق العلمية الخالصة ، إذ لا يستطيع أحد أن يثبت نقاء سلالة جنسية بعينها ، لها نسب صريح ، وأيضاً فإن هذه النظرية تتناسى أثر البيئة والظروف التى تلم بالشعوب ، ومن المحقق أن الحضارة الإنسانية ليست من عمل جنس واحد ، فقد تعاونت على تكوينها أجناس متباينة ، ولكل جنس فيها نسبه المتعادلة . ويدخل فى هذه المقارنات المضللة ما نجده عند ابن خلدون

---

(١) السيرة النبوية (طبعة الحلبى) ٣/٢٣٥ .

(٢) السيرة النبوية ١/٣٢١ .

(٣) انظر تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ١/١٦٨ .

من حكمه على العرب بأنهم ليسوا أصحاب صناعات ولا علوم[١] ، لأن ذلك إنما ينطبق عليهم فى الجاهلية ، أما فى الإسلام فقد عرفوا الصناعات ونهضوا فى الميادين العلمية والفلسفية نهضة كانوا فيها أساتذة العالم فى عصوره الوسيطة . ويقول أوليرى : إن العربى مادى ، ضيق الخيال والعواطف[٢] ، وكأنه يتجاهل أدبهم وما يزخر به من أخيلة ومشاعر ، وهو تعميم جنسى لا دليل عليه ، وكأنما قادته إليه نظرية الأجناس البشرية وما يدعو إليه أصحابها من تفوق الجنس الآرى على ما سواه من أجناس .

وندع هذه المقارنات المضللة وما سقط منها من أحكام خاطئة إلى بيان ما كان لدى العرب فى الجاهلية من معارف ، لعل أهمها علمهم بالأنساب والأيام وما ينطوى فى ذلك من المناقب والمثالب ، مما سجله العباسيون فى مجلدات ضخمة . وكأنهم رأوا فى ذلك كله تاريخهم ، فكانوا يروونه ويحفّظونه أبناءهم ، واشتهر عندهم كثيرون فى هذا الباب من أبواب الرواية .

ويلى هذا النوع من المعارف معرفتهم بالنجوم ومطالعها وأنوائها وأمطارها ، يقول الجاحظ : « وعرفوا الأنواء ونجوم الاهتداء لأن من كان بالصحاصح الأماليس[٣] — حيث لا أمارة ولا هادى مع حاجته إلى بعد الشقة — مضطر إلى التماس ما ينجيه ويُؤْديه[٤] ، ولحاجته إلى الغيث وفراره من الجدب وضنه بالحياة اضطرته الحاجة إلى تعرف شأن الغيث ، ولأنه فى كل حال يرى السماء وما يجرى فيها من كوكب ويرى التعاقب بينها والنجوم الثوابت فيها وما يسير منها مجتمعاً وما يسير منها فارداً[٥] ، وما يكون منها راجعاً ومستقيماً. وسُئلت أعرابية فقيل لها : أتعرفين النجوم ؟ قالت : سبحان الله أما أعرف أشباحاً وقوفاً علىّ كل ليلة . ووصف أعرابى لبعض أهل الحاضرة نجوم الأنواء ونجوم الاهتداء ونجوم ساعات الليل والسعود والنحوس ، فقال قائل لشيخ عِبادى كان حاضراً : أما ترى هذا الأعرابى

---

(١) المقدمة (طبع المطبعة البهية) ص ٢٥٢ وفى مواضع متفرقة .

(٢) فجر الإسلام لأحمد أمين (الطبعة الأولى) ص ٣٩ نقلا عن كتاب أوليرى : Arabia Before Muhammad.

(٣) الصحاصح : الأرض المستوية ، الأماليس : التى ليس بها ماء ولا شجر .

(٤) يؤديه : يعينه .

(٥) فارداً : منفرداً .

يعرف من النجوم ما لا نعرف ؟ قال : من لا يعرف أجذاع[١] بيته[٢]؟ !» .
وهى معرفة أداهم إليها فرط الحاجة ، ويقول صاعد بن أحمد المتوفى سنة ٤٣٥ هـ :
« كان للعرب معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغايبها وعلم بأنواء الكواكب وأمطارها على حسب ما أدركوه بفرط العناية وطول التجربة لاحتياجهم إلى معرفة ذلك فى أسباب المعيشة لا على طريق تعلم الحقائق ولا على سبيل التدرب فى العلوم[٣] » .

وبهذا القياس نفسه كانت معارفهم الطبية ، فقد عرفوها بالتجربة مثل الكى بالنار وفوائد بعض العقارات النباتية . وكان ينتشر بينهم فى تضاعيف ذلك كثير من الخرافات كإيمانهم بأن دم السادة يشفى من الكلب وأن عظام الميت تشفى من الجنون وأن روحاً شريرة تحلّ فى المريض ، وكانوا يتداوون منها بالعزائم والرُّقى . فطبهم كان قاصراً ولم يكن مبنيًّا على قواعد عقلية ، وحقًّا ما يقول ابن خلدون : « للبادية . . طب يبنونه فى غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص ، متوارثة عن مشايخ الحى وعجائزه ، وربما يصح منه البعض ، إلا أنه ليس على قانون طبيعى ولا على موافقة المزاج ، وكان عندُ العرب من هذا الطب كثير ، وكان فيهم أطباء معروفون كالحارث بن كَلَدة وغيره[٤] » . ومن أهم معارفهم الطبية معارفهم البيطرية ، وخاصة فيما اتصل بالخيل والإبل ، فقد عرفوا شياتها وما يزينها ويعيبها وما يتصل بذلك من علل وأمراض وأدواء كالجرب وما كانوا يداوونه به . وقد تحدثوا طويلا عن حيواناتهم وخصائصها حديثاً بل أحاديث أفاد منها الجاحظ فى حيوانه ، غير أنه يعلق على ذلك بقوله : « وإنما أعتمد على ما عند الأعراب ، وإن كانوا لم يعرفوا شكل ما أحتاج إليه منها من جهة العناية والفلاية[٥] ولا من جهة التذاكر والتكسب ، ولكن هذه الأجناس الكثيرة ما كان منها سبعاً أو بهيمة أو مشترك الخلق فإنما هى مبثوثة فى بلاد الوحش من صحراء أو واد أو غائط أو غَيْضة أو رملة أو رأس جبل ، وهى فى منازلهم ومناشئهم ، فقد نزلوا كما ترى بينها وأقاموا معها . . وربما بل كثيراً ما يُبْتلون بالناب والمخلب وباللدغ واللسع والعض والأكل ، فخرجت بهم الحاجة إلى تعرف حال الجانى والجارح والقاتل

(١) الأجذاع : سيقان النخل تجعل سقفاً للخيمة.
(٢) الحيوان ٦/٣٠ .
(٣) طبقات الأمم لصاعد (طبع بيروت) ص ٤٥ .
(٤) المقدمة ص ٣٤٦ .
(٥) الفلاية : النظر العلمى .

وحال المجنى عليه والمجروح والمقتول، وكيف الطلب والهرب ، وكيف الداء والدواء لطول الحاجة ولطول وقوع البصر ، مع ما يتوارثون من المعرفة بالداء والدواء[١] » . وكانت لهم عناية خاصة بالفراسة والقيافة ، وهى تتبع الأثر فى الأرض والرمل ، ولهم فى ذلك أقاصيص طويلة ، وطبيعى أن تنمو عندهم القيافة ليتعقبوا من يضل منهم فى الصحراء ، أو ليتعقبوا الأعداء الذين يغيرون عليهم وينهبون أموالهم ونساءهم فى غيبتهم عن أحيائهم .

وهذه الضروب جميعها من المعرفة ضروب أولية ، تقوم على التجربة الناقصة ولا تؤسَّس على قاعدة ولا على نظرية ، فهم فى جمهورهم بدو ، ليسوا أصحاب علم ولا نظر عقلى مؤسس على أسلوب علمى . ولعله من أجل ذلك شاعت عندهم العيافة وهى التنبؤ بملاحظة حركات الطيور ، وقد اشتهر بها بنو أسد وبنو لِهْب ، وكانوا يتيامنون بها ويتفاءلون إن جرت يمنة ويتشاءمون إن جرت يَسْرة، ولهم فى الطِّيرة أحاديث كثيرة ، قال الجاحظ : « وأصل التطير من الطير إذا مرَّ بارحاً (ميامناً) وسانحاً (مياسراً) أو رآه يتفلى وينتف ، حتى صاروا إذا عاينوا الأعور من الناس أو البهائم أو الأعضب أو الأبتر زجروا عند ذلك وتطيروا . . فكان زجر الطير هو الأصل، ومنه اشتقوا التطير ، ثم استعملوا ذلك فى كل شىء . . وللطيرة سمت العرب المنهوش بالسليم والبرِّية بالمفازة وكنوا الأعمى أبا بصير والأسود أبا البيضاء وسموا الغراب بحاتم . والغراب أكثر من جميع ما يتطيَّر به فى باب الشؤم»[٢]. ولإيمانهم بباب الطيرة كانوا يستقسمون بالأزلام والقداح، وهى سهام، كانو يكتبون عليها عبارات يصدرون عنها مثل الآمر والناهى والمتربص،وهى غير أزلام القمار وقداحه .

وكل هذا يدل على أن التسبيب العقلى عندهم كان ضعيفاً ، وأنهم كانوا لا يحسنون ربط المسببات بأسبابها ربطاً محكماً ، وهذا طبيعى فقد كانوا فى طور البداوة ، فلم يكونوا يفهمون الارتباط بين العلة والمعلول، وكانوا لا يتعمقون فى بحث الأشياء ، إنما كانوا ينظرون إليها نظراً عارضاً أو خاطفاً . يقفون عند الجزئيات ، ولا يتعلقون بمدركات كلية أو نظرات شاملة فكل ذلك لا يطوف بالدائرة التى يحيونها دائرة الحياة الفطرية الساذجة . وحقًّا شاعت عندهم الحكمة ، ولكن لا بمعناها

---

(١) الحيوان ٦/٢٩ . (٢) الحيوان ٣/٤٣٨ وما بعدها .

الذى عُرفت به فى العصور الإسلامية وهو الفلسفة ، وإنما بمعنى الخبرة المحدودة التى تصورها عبارة من العبارات القصيرة . ومن أمثالهم « فى بيته يؤتى الحكم » وهو من يحكم بين الناس فى منافراتهم ومفاخراتهم وخصوماتهم . وربما اشتقت الكلمة من هذا المعنى ، فالحكم هو العاقل المجرب الذى يحقق بحكمه العدل ويمنع الخصام . وكذلك كانت الحكمة ، فهى تنبئ عن معرفة الشخص بالحياة ، ووقوفه على طرقها المستقيمة التى تهدى سبيل الرشاد .

وكثرت الحكم والأمثال عندهم ، وألفت فيها كتب ضخمة فى العصر العباسى ، من أشهرها كتاب « جمهرة الأمثال » للعسكرى و « مجمع الأمثال » للميدانى . واشتهر عندهم حكماء كثيرون كانوا يفصلون بينهم ، ويتناقلون ما يجرى على ألسنتهم من وصايا وتعاليم يفيدون منها فى حياتهم ، يقول الجاحظ : « ومن القدماء ممن كان يذكَر بالقدر والرياسة والبيان والخطابة والحكمة والدهاء والنَّكْراء (الفطنة) لقمان بن عاد ولقيم بن لقمان ومجاشع بن دارم وسَليط بن كعب بن يربوع . . ولؤى بن غالب وقس بن ساعدة وقصى بن كلاب . ومن الخطباء البلغاء والحكام والرؤساء أكثم بن صيفى وربيعة بن حِذار وهرم بن قُطْبة وعامر بن الظَّرب ولبيد بن ربيعة »[1] . وللقمان سورة فى القرآن الكريم ، ويقال إنه كانت له حكم معروفة عند الجاهليين جمعوها فى صحيفة تدعى مجلة لقمان ، فى أخبار سُوَيْد بن الصامت أنه «قدم مكة حاجًّا أو معتمراً ، فتصدَّى له رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاه إلى الله عز وجل وإلى الإسلام ، فقال له سويد : لعل الذى معك مثل الذى معى ، فقال له رسول الله : وما الذى معك ؟ قال : مجلة لقمان ، يعنى حكمة لقمان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اعرضْها على ، فعرضها عليه ، فقال : إن هذا الكلام حسن ، والذى معى أفضل منه : قرآن أنزله الله علىّ ، وهو هدى ونور ، فتلا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن ودعاه إلى الإسلام ، فلم يبعد ، وقال إن هذا القول حسن ، ثم انصرف ، وقدم المدينة على قومه ، فلم يلبث أن قتلته الخزرج ، فكان رجال من قومه يقولون : إنا لنراه مات مسلماً ، وكان قتلُه يوم بُعاث[2] » .

---

(١) البيان والتبيين (طبعة عبد السلام هارون) . ٣٦٥/١

(٢) أسد الغابة ٣٧٨/٢ .

وتمتلئ كتب الأمثال والأدب بما دار على لسان لقمان وغيره من حكماء الجاهلية من حكم، مثل قول أكثم: « مقتلُ الرجل بين فكّيه » وقول عامر بن الظرب : « رب زارع لنفسه حاصد سواه » . وفى الشعر الجاهلى كثير من هذه الحكم ، وهى تُذْكَرُ فى ثنايا كلامهم من مثل قول طرفة فى معلقته :

أَرى العَيْشَ كَنْزًا ناقصًا كلَّ ليلةٍ ... ومَا تَنْقُصِ الأَيامُ والدَّهْرُ يَنْفَدِ

وممن اشتهر بهذه الحكم الأفوه الأودى ولبيد وعَبيد بن الأبرص . وفى خاتمة معلقة زهير طائفة كبيرة منها على شاكلة قوله :

وأَعلمُ عِلْمَ اليومِ والأَمس قبله ... ولكنني عن علم ما فى غد عَمِ

ومن لا يصانعْ فى أُمور كثيرة ... يضرَّس بأَنياب ويوطأْ بمنْسِمِ[1]

ومن لا يَذُدْ عن حَوْضِه بسلاحِهِ ... يهدَّم ومن لا يَظْلم الناس يُظْلَمِ

ومن هاب أَسبابَ المنية يلقها ... ولو رام أَسباب السماء بسُلَّم

ومهما تكن عند امرئٍ من خليقةٍ ... وإن خالها تخفى على الناس تُعْلم

وكان أكثر حكمهم يستقى من مروءتهم وسُنَنها التى وصفناها فيما مر من حديثنا ، وهى تجرى مجرى التعاليم التى ينبغى أن يأخذوا بها فى حياتهم . وقد وقف شعراؤهم كثيراً عند فكرة الحياة والموت والدهر وما يرمى به الناس . وكانوا يرون أنه لا مفر من الموت ولا حيلة منه ، فلا ينفع إزاءه صحة ولا شباب ولا قوة ، وكثيراً ما يذكرون مَنْ سبقهم إليه متخذين من ذلك عظتهم، يقول قُسّ بن ساعدة[2] :

فى الذاهبين الأَوَّ ... لين من الشعوب لنا بَصَائِرْ

لما رأيت مواردًا ... للموت ليس لها مصادرْ

ورأيت قومى نحوها ... تسعى الأَصاغرُ والأَكابر

لا يرجعَنْ قومى إلـ ... ـىَّ ولا من الباقين غابر

(١) المصانعة : الترفق والمداراة ، يضرس : يعض ، المنسم : خف البعير .

(٢) حماسة البحترى ص ٩٩ وانظر البيان والتبيين ١ / ٣٠٩ .

أيقنــتُ أنى لا محــا لة حيث صار القومُ صائرْ

وكثيراً ما يتسعون بهذه النظرة ، فيخرجون عن إفناء الزمان لعشائرهم وقبائلهم إلى إفنائه للدول والملوك من حولهم ، فالليالى والدهر والأزمان فى كل وقت تهدم جداراً كبيراً إما من ملك أو دولة ، وحتى الأنبياء وسليمان الذى سُخِّرت له الجن تلفتْ نفوسهم جميعاً وهلكوا كما هلك من قبلهم ، ويهلك من بعدهم[(١)] .

ودائماً يكررون أن الدهر بالمرصاد وأنه لا يؤمَنُ فى صباحه ومسائه ، ولهم فى عتابه على فجيعته لهم بالأهل محاورات طريفة ، كقول زهير إن صح أنه له[(٢)] :

يا من لأقوامٍ فُجِعتُ بهم كانوا ملوك العُرْب والعُجْم

استأْثر الدهرُ الغداةَ بهم والدهــرُ يرمينى ولا أرمِى

لو كان لى قِرْنًا أُناضلُهُ ما طاش عند حَفِيظةٍ سهمى[(٣)]

أو كان يعطى النِّصْفَ قلت له أحرزْتَ قسمك فالْهُ عن قسمى[(٤)]

يا دهر قد أكثرتَ فَجْعَتَنا بسَرَاتنــا ووقَرْتَ فى العظم[(٥)]

وسلبتنا ما لستَ مُعْقبنا يا دهر ما أَنصفتَ فى الحكم

وعلى هذه الشاكلة كان لهم ضرب من التفكير فى حقائق الحياة والموت ، كما كان لهم حكم كثيرة مقتبسة من حقائق مجتمعهم ومعاشهم . وليس فى ذلك كله فلسفة ، ولكن فيه البساطة والفطرة وما يدل على حنكتهم وتجربتهم الحسية الواقعية .

---

(١) حماسة البحترى ص ٨٣ وانظر المفضليات ص ٢١٧ .

(٢) حماسة البحترى ص ١٠٥ وانظر الديوان (طبعة دار الكتب) ص ٣٨٥ .

(٣) الحفيظة : الغضب .

(٤) النصف : العدل .

(٥) السراة : السادة ، وقرت : صدعت .

٤

الدين[1]

كانت كثرة العرب فى الجاهلية وثنية تؤمن بقوى إلهية كثيرة تنبثّ فى الكواكب ومظاهر الطبيعة ، وفى أسماء قبائلهم ما يدل على أنهم كانوا قريبى عهد بالطوطمية (Totemism) إذ تلتف جماعة حول الطوطم تتخذه حاميها والمدافع عنها من مثل كلب وثور وثعلبة . وقد آمنوا بقوى خفية كثيرة فى بعض النباتات والجمادات والطير والحيوان ، وليس بصحيح ما يزعمه رينان من أنهم كانوا موحدين[2] ، فقد كانوا يشركون مع الله آلهة أخرى كما جاء فى القرآن الكريم ،وكانوا يتعبدون لأصنام وأوثان كثيرة اتخذوها رمزاً لآلهتهم ،ويفيض كتاب الأصنام لابن الكلبى فى بيان هذا الجانب . ويظهر أن عبادة النجوم والكواكب دخلت عندهم من قديم ، وقد جاءتهم من الصابئة وبقايا الكلدانيين ، كما جاءتهم من لدن عرب الجنوب الذين كانوا يرجعون بآلهتهم إلى ثالوث مقدس ، كما مر بنا ، هو القمر أو وَدّ ، والشمس أو اللات ، والزهرة أو العُزّى . ونراهم يقدسون النار ، ويظهر ذلك فى إيقادهم لها عند أحلافهم ، واستمطارهم السماء وتقديم القرابين إليها[3] ويقال إن المجوسية كانت متفشية فى تميم وعُمان والبحرين وبعض القبائل العربية[4] ، والمجوس كما نعرف ثَنَوْية يؤمنون بإلهين يدبران العالم هما النور والظلمة أو الخير والشر .

وكانت عبادة الأصنام منتشرة بينهم انتشاراً واسعاً ، وقد صوروها أو نحتوها رمزاً لآلهتهم ، وقد يرون فى بعض الأحجار والأشجار والآبار ما يرمز إليهم ، ففى أخبارهم أن العُزّى كانت لغطفان ، وهى شجرة بوادى نخلة شرقى مكة ، وقد قطعها خالد بن الوليد ، وهو يقول :

---

(١) انظر فى ديانات الجاهليين الجزءين الخامس والسادس من تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على
وكتاب روبرتسن سميث :
Lectures on the Religion of the Semites.
وبقايا الوثنية العربية لولهوزن : — Reste Arabischen Heidentums.
والأساطير العربية قبل الإسلام لمحمد عبد المعيد خان وتاريخ العرب القديم ترجمة فؤاد حسنين على .

(٢) راجع جواد على ٥/٢٠ وما بعدها و ٥/٥٣ وما بعدها حيث يذكر رأى رينان وآراء غيره من المستشرقين .

(٣) انظر الحيوان ٤/٤٦١ وما بعدها .

(٤) جواد على ٦/٢٨٤ وما بعدها .

يا عُزّ كُفْرانك لا سُبْحانكِ   إني رأيت الله قد أهانك[١]

ويشير القرآن الكريم إلى بعض آلهتهم ورموزها من أصنامهم وأوثانهم ، فيقول جل وعز : (أفرأيتم اللات والعُزَّى ومَناة الثالثة الأخرى) ويقول سبحانه وتعالى : (ولا تذَرُنَّ وَدًّا ولا سُواعاً ولا يغوثَ ويعوق ونَسْراً) . وكانت عبادة اللات أو الشمس شائعة بين العرب الجنوبيين وفى الحجاز ، وكان معبدها فى الطائف ، ويقال إنه كان صخرة مربعة بيضاء بنَتْ عليه ثقيف بيتاً وكانت قريش وجميع العرب يعظمونه[٢] ، ويتردد فى أسمائهم وهب اللات وعبد شمس ، وعبد العزى ومثلها مثل اللات فى تعظيم قريش والعرب لها وتقديسها . وكانت مناة صخرة منصوبة على ساحل البحر بين المدينة ومكة ، وربما كان فى اسمها ما يدل على أنها ترمز إلى إله الموت ، فهى إلهة القضاء والقدر ، وكانت معظمة عند هُذَيْل وخُزاعة والعرب جميعاً وخاصة الأوس والخزرج إذ « كانوا يحجون إلى مكة ، ويقفون مع الناس المواقف كلها ، ولا يحلقون رءوسهم ، فإذا نفروا أتوا مناة وحلقوا رءوسهم عندها ، لا يرون لحجهم تماماً إلا بذلك »[٣] . ووَدّ كما قدمنا من الآلهة الجنوبية ، وهو يؤلف مع اللات والعزى ثالوث الأب والأم والابن ، وكان صنمه بدومة الجندل ، وظل منصوباً هناك إلى أن جاء الله بالإسلام[٤] . وكان سُواع صنم هذيل وكنانة ، وهو حجر كانوا يعبدونه هم وعشائر كثيرة من مضر[٥] ، وربما كان فى اسمه ما يدل على أنه إله الشر والهلاك ، ويغوث وهو صنم مذحج وعشائر من مراد وهوازن[٦] . وكان يعوق صنم هَمْدان وخولان وما والاهما من القبائل[٧] . وفى اسمه واسم يغوث ما يشير إلى أرواح حافظة ، فمعنى يغوث يعين ، ومعنى يعوق يحفظ

---

(١) الأصنام لابن الكلبى ص ١٧ وما بعدها ومادة العزى فى معجم البلدان .

(٢) الأصنام ص ١٦ والمحبر لابن حبيب ص ٣١٥ ومعجم البلدان فى اللات .

(٣) الأصنام ص ١٤ وأخبار مكة للأزرقى (طبعة المطبعة الماجدية) ١/٧٣ ومعجم البلدان فى مناة والمحبر ص ٣١٦ .

(٤) الأصنام ص ٥٥ وما بعدها والمحبر ص ٣١٦ ومعجم البلدان فى « ود » .

(٥) الأصنام ص ٥٧ ومجمع البيان فى تفسير القرآن للطبرسى ١٠/٣٦٤ ومادة رهاط ، حيث أقاموه ، فى معجم ما استعجم للبكرى ومعجم البلدان لياقوت .

(٦) الأصنام ص ١٠ ، ٥٧ والمحبر ص ٣١٧ والطبرسى ١٠/٣٦٤ ومعجم البلدان فى يغوث .

(٧) الأصنام ص ١٠ ، ٥٧ والطبرسى ١٠/٣٦٤ ويعوق فى معجم البلدان .

ويمنع . وكان نسر معبود حمير[١] ، وانتشرت عبادته فى الشمال، ويشير اسمه فى وضوح إلى الطائر المعروف باسمه ، وفى الطبرسى : «كان وَدّ على صورة رجل وسواع على صورة امرأة ويغوث على صورة أسد ويعوق على صورة فرس ونسر على صورة نسر من الطير»[٢] .

ووراء هذه الأصنام التى ذكرها القرآن الكريم أصنامٌ كثيرة كانت تتعبد لها قريش والقبائل العربية فى الجاهلية ، ويقال إنه كان فى الكعبة عند فتح الرسول صلى الله عليه وسلم لمكة ثلاثمائة وستون صنماً[٣] ، وكان أعظمها عند القرشيين هُبَل : «وكان من عقيق أحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى ، وجعلتها له قريش من ذهب : وكان فى جوف الكعبة قدامه سبعة قِداح ، مكتوب فى أحدها : «صريح» والآخر : «مُلْصَق». فإذا شكّوا فى مولود أهدوا إليه هدية ، ثم ضربوا بالقداح (السهام) فإن خرج (صريح) ألحقوه بأبيه، وإن خرج (ملصق) دفعوه . وقدْحٌ على الميت ، وقدح على الزواج .. وإذا اختصموا فى أمر أو أرادوا سفراً أو عملا أتوه فاستقسموا بالقداح عنده ، فما خرج عملوا به وانتهوا إليه .. وعنده ضَرب عبد المطلب بالقداح على ابنه عبد الله»[٤] . وباسمه كان ينادى أبو سفيان فى معركة أحد ويصيح : اعْلُ هبل .

ومن أصنام قريش المشهورة إساف ونائلة ، ويقال إنهما كانا شخصين أتيا أعمالا سيئة فمُسخا حجرين ، وعبدهما الناس ، وكان أحدهما ملاصقاً للكعبة ، وثانيهما فى موضع زمزم ، ويقال إن إسافا كان بإزاء الحجر الأسود وكانت نائلة بإزاء الركن اليمانى[٥] . ومن أصنامهم مَناف وبه سمى عبد مناف .

ومن الأصنام المشهورة رضا وتَيْم وشمس لتميم وذو الخَلَصَة وهو صنم خَثْعم وبَجيلة وأزد السراة ، ويقال إنه كان مروة بيضاء منقوشة عليها كهيئة التاج ، وكان موضعه بتَبالة وله بيت يحجون إليه[٦] . وذو الشَّرَى وكان له معبد ضخم فى

---

(١) الأصنام ص ٥٧ والطبرسى ١٠/٣٦٤ ومادة نسر فى معجم البلدان واللسان وتاج العروس .

(٢) الطبرسى ١٠/٣٦٤ .

(٣) انظر الجزء الثانى من ابن الأثير فى ذكر فتح مكة .

(٤) الأصنام ص٢٨ والطبرسى ١٠/٣٦٤ .

(٥) الأصنام ص ٢٩ والمحبر ص ٣١٨ والطبرسى ١٠/٣٦٤ .

(٦) الأصنام ٣٤ ، ٤٧ والأزرقى ١/٢٥٦ والمحبر ص ٣١٧ .

سلع (بطرا)[١] ويظهر أن عبادته قديمة ، وهو يقابل الإله ديونيسيوس عند اليونان إله الخصب والخمر .

وكانوا يتخذون عند هياكل هذه الأصنام والأوثان أنصاباً من حجارة يصبّون عليها دماء الذبائح التي يتقربون بها إلى آلهتهم ، وكانوا يقدسون هذه الأنصاب ويعدونها مقرّاً لبعض الأرواح . وفى القرآن الكريم : (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجْسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) . والأزلام هى القداح كما مر بنا .

وفرق بين الصنم والوثن ، فالصنم يكون غالباً تمثالا ، أما الوثن فيكون غالباً حجراً ، وقد يسمى الصنم بالوثن ، يقول ابن الكلبى : « واستهترت العرب فى عبادة الأصنام ، فمنهم من اتخذ بيتاً ومنهم من اتخذ صنما ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت نصب حجراً أمام الحرم وأمام غيره مما استحسن ثم طاف به كطوافه بالبيت . . فكان الرجل إذا سافر فنزل منزلا أخذ أربعة أحجار ، فنظر إلى أحسنها ، فاتخذه ربًّا وجعل ثلاثة أثافىّ لِقدْره ، وإذا ارتحل تركه ، فإذا نزل منزلا آخر فعل مثل ذلك . وكانوا ينحرون ويذبحون عند كلها ويتقربون إليها »[٢] .

وهذه البيوت التى اتخذوها لأصنامهم كان منها كعبات كبيرة يحجون إليها ككعبة ذى الخَلَصة وهى الكعبة اليمانية وكعبة الطائف وهى بيت صنمهم اللات ، وأشهر كعباتهم كعبة مكة حارسة الوثنية فى الجاهلية ، وهى التى وصلتنا عنها تفاصيل كثيرة توضح ما كانوا يتخذون فى حَجّهم إليها من شعائر . وكانوا يطوفون بها أسبوعاً ويسعون بين الصفا والمروة ، ويُظَنّ أنه كان على كل منهما صنم ، ويقال إنه كان على الصفا إساف وعلى المروة نائلة . وكانوا يقفون بعرَفة ويفيضون منها إلى المزدلفة ثم مِنى . وكانت إفاضتهم فى عرفة عند غروب الشمس ، أما فى المزدلفة فعند شروقها ، وكان يتولّى الإجازة فى الأولى بعض التميميين . وفى الكعبة الحجر الأسود وكانوا يتبركون به ويتمسحون بأركان الكعبة جميعها . ويقال إن طوافهم بأصنامهم كان سبعة أشواط وكانوا يختلفون فى طوافهم ، فمنهم من يطوف عرياناً وهم الحلة[٣] ، ومنهم من يطوف فى ثيابه وهم الحُمْس[٤] من قريش

(١) الأصنام ص ٢٧ وتاج العروس واللسان فى مادة الشرى .
(٢) الأصنام ص ٣٣ .
(٣) المحبر ص ١٨٠ وما بعدها .
(٤) المحبر ص ١٧٩ والأزرقى ١/١١٤ .

وكنانة وخزاعة، ويصور لنا الأزرق طواف العريان بقوله : « يبـدأ بإساف فيستلمه (يعتنقه) ثم يستلم الركن الأسود ، ثم يأخذ عن يمينه ويطوف ويجعل الكعبة عن يمينه ، فإذا ختم طوافه سبعاً استلم الركن (حيث الحجر أو الحطيم) ثم استلم نائلة ، فيختم بها طوافه ، ثم يخرج فيجد ثيابه كما تركها لم تمس فيأخذها ، فيلبسها ،ولا يعود إلى الطواف بعد ذلك عُرْياناً[1] » .

وقد أبطل الإسلام العرى فى الطواف ، كما أبطل كثيراً من تقاليد الحُمْس[2] .

وكان من تقاليدهم رمى الجمرات فى مِنى وتقديم العتائر أو الضحايا وذبحها عند الأصاب وكذلك تقديم الهدايا من الزروع والغلات ، وفى القرآن الكريم : (وجعلوا لله مما ذَرأ من الحَرْث والأنعام نصيباً، فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشُركائنا فما كان لشركائهم فلا يصلُ إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون) . وتدل الآية الكريمة على أنهم كانوا يجعلون لله نصيباً ، ثم يعودون فيجعلونه لآلهتهم الصغرى أو لأصنامهم . وذكر القرآن الكريم البَحيرة والسائبة والوَصيلة والحام ، وأولاها الناقة أو الشاة يحرّمون لبنها والانتفاع بها ، والثانية مايسيّب (يترك) نذراً للآلهة فلا يمنع من ماء ولا كلأ ، والثالثة ناقة أو شاة تحمل سبعة أبطن ، فإذا كان السابع ذكراً ذُبح وأكل منه الرجال والنساء ، وإن كان أنثى استحيوه ، وإن ولدت توأماً : ذكراً وأنثى قالوا وصلت أخاها وحرّموا ذبحه على أنفسهم . أما الحام فالبعير ينتج عشرة أبطن من صُلبه ، ويقولون : قد حمى ظهره فلا يركب ولا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى .

ويظهر أنه كانت عندهم طقوس كثيرة فى نذورهم وقرابينهم ، وقد هدمها الإسلام هدماً ، وأيضاً كانت هناك شعائر وطقوس كثيرة فى الحج نفسه لعل أهمها التلبية ، يقول ابن حبيب : « وكانوا يلبّون إلا أن بعضهم كان يشرك فى تلبيته ، وكان نسك قريش لإساف ، تقول : لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك .وكان لكل قبيلة بعدُ تلبية ، فكانت تلبية من نسك للعزى : لبيك اللهم لبيك ، لبيك وسعديك ما أحبّنا إليك . وكانت تلبية من نسك للات : لبيك اللهم لبيك ، لبيك ، كفى ببيتنا بنيّة ، ليس بمهجور ولا بلية ، لكنه من تربة زكية ، أربابه من صالحى البرية . . . وكانت تلبية من نسك لَود :

(١) الأزرق ١/١١٤ .

(٢) الأزرق ١/[illegible] وما بعدها .

لبيك اللهم لبيك ، لبيك معذرة إليك . وكانت تلبية من نسك لذى الخلَصة : لبيك اللهم لبيك ، لبيك بما هو أحب إليك . . .[١] ».

وجعلوا للحج أربعة أشهر معلومات ، سموها الأشهر الحرم ، وهى رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، وكان الحج إلى مكة فى ثالثها ، وفى اسمه ما يدل على أن الحج المعظم للكعبة القرشية كان فيه . وكانت هذه الأشهر حراماً عندهم فلا يستباح دم ، ولا تنشب حروب ، إلا ما كان من حرب الفجار ، وعُدّت انتهاكاً عظيماً لحرمات البيت . وكأنما كانت هذه الأشهر هدنة لهم ، ومُعيناً لبعدائهم عن الأماكن المقدسة فى الوصول إليها دون أن تُمَسّ نذورهم . وكانوا فيها يتجرون ويميرون ويقيمون أسواقهم كسوق عكاظ .

وكانت هناك جماعات تقوم على سِدانة بيوتهم المقدسة ، ويسمونها الحجابة ، وكانت فى مكة لبنى عبد الدار ، وبجانب هؤلاء السَّدَنة كهان كانوا يدّعون معرفة الغيب وأنه سُخِّر لهم طائف من الجن يسترق لهم السمع فيعرفون ما كُتب للناس فى ألواح الغد . وممن عُرف بذلك سَطيح الذئبى وشِقّ بن مصعب الأنمارى وعوف بن ربيعة الأسدى وسلمة الخزاعى وسواد بن قارب الدوسى وعُزّى سلمة[٢] . ونجد بجانب الكهنة كاهنات مثل الشعثاء والكاهنة السعدية والزرقاء بنت زهير وكاهنة ذى الخلَصة[٣] . وفى أخبار الإسلام الأولى ما يدل على أنه كان يلحق ببيوت الأصنام بغايا ، وكانوا سبباً فى ثورة بحضرموت قضى عليها أمية بن أبى المهاجر لعهد أبى بكر الصديق[٤] .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل على أنهم كانوا يؤمنون إيماناً واسعاً بالأرواح وأنها تحل فى كل ما حولهم من مظاهر الطبيعة ، وكان منها أرواح خيرة ، هى الملائكة وأرواح شريرة هى الشياطين . وفى القرآن الكريم : (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم ستُكتب شهادتهم ويسألون) . فكانوا

---

(١) المحبر ص ٣١١ .

(٢) السيرة النبوية (طبع الحلبى) ١/١٥ والكامل لابن الأثير (طبع ليدن) ١/٣٠١ وأغانى (طبعة دار الكتب) ٩/٨٤ وطبعة الساسى ١٥/٧٠ والسيرة الحلبية (طبع بولاق) ١/٥ .

(٣) انظر مجمع الأمثال للميدانى ١/٩١ ، ١/٢٢٣ ، ٢/٥٤ .

(٤) المحبر ص ١٨٤ .

يزعمون أنها بنات الله ، وكانوا يعدونها — كأصنامهم — من شفعائهم عند الله وشركائه . وحكى القرآن اعتقادهم فى ذلك إذ يقول جلّ وعز : (ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقرّبونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون) . وفى القرآن سورة للجن وكانوا يخافونها ويتعبدونها ويجعلون بينها وبين الله نسبًا ، يقول جل وعز : (وجعلوا لله شركاء الجن ، وخلقهم ، وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون) . وفى أساطيرهم أو قل فى معتقداتهم أن الجن هى التى تصد الثيران عن الماء حتى تمسك البقر عن الشرب فتهلك . يقول الجاحظ : وكانوا إذا أوردوا البقر فلم تشرب إما لكدر الماء أو لقلة العطش ضربوا الثور ليقتحم الماء ، لأن البقر تتبعه[1] ، فكانوا إذا امتنعت ظنوا ذلك من عمل الجن وإيحائهم . ولهم فيها كثير من الأساطير ، عرض لها الجاحظ فى الجزء السادس من حيوانه ، فتحدث عن مواطنها فى رأيهم وأنها تركب النعام والظباء والحشرات وأنها تتصوَّر فى صور كثيرة ، وتتوالد مع الناس ، وقد تستهويهم وتتملهم أو تخبلهم ، ويُسْمَع ليلا عزيفهم وهتافهم . ومنهم من يألف الكهان ويخدمهم وهو الرَّئىّ ، ومنهم من صورته على نصف صورة الإنسان ويسمى شِقًّا ، ولكل شاعر شيطانه الذى ينفث فيه الشعر . ومنهم السعلاة ، والغول وهى من سباعهم ، ويزعم تأبط شرًّا فى شعر يضاف إليه أنه لقيها فى ليلة مظلمة وهو يسعى فى فلاة ، فنازلها وما زال بها حتى قتلها وهو لا يعرفها ، يقول[2] — إن صح أنه قائله — :

فلم أنفكّ متكئًا عليها ... لأَنظر مصبحًا ماذا أتانى
إذا عينان فى رأسٍ قبيحٍ ... كرأْس الهِرّ مشقوق اللسانِ
وساقا مُخْدَجٍ وشَواة كلبٍ ... وثوبٌ من عَباءٍ أو شِنان[3]

وهؤلاء الوثنيون كانوا ينكرون الرسل وأن هناك إلهاً واحداً قال جلّ وعز : (وعجبوا أن جاءهم منذرٌ منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشىء عُجاب ، وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن

(١) انظر الحيوان ١/ ١٨ وما بعدها .
(٢) الأغانى (ساسى) ١٨/ ٢١٢ .
(٣) مخدج : ناقص الخلق ، الشواة : الأطراف ، الشنان : جلد القربة البالى .

هذالشيء يُراد، ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق) . وكانوا لا يؤمنون ببعث ولا نشور يقول جلّ ذكره : (وقالوا إنْ هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين) وقال : (وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون) وقال : (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) .

ولا نصل إلى أواخر العصر الجاهلى حتّى نجد استعداداً لفكرة الإله الواحد، وخاصة عند طائفة كانت تدعى باسم الحُنَفاء ، وكانت تشك فى الدين الوثنى القائم وتلتمس ديناً جديداً يهديها فى الحياة . يقول ابن إسحق : « اجتمعت قريش يوماً فى عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه ويَنْحرون له ويعكفون عنده ويديرون (يطوفون) به ، وكان ذلك عيداً لهم فى كل سنة يوماً ، فخلص منهم أربعة نفر نجيًّا، ثم قال بعضهم لبعض : تصادقوا وليكتمْ بعضكم على بعض قالوا أجل، وهم ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ،وعبيد الله ابن جحش . . . وعثمان بن الحويرث . . . وزيد بن عمرو بن نفيل . . . فقال بعضهم لبعض : تعلمون والله ما قومكم على شيء، لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم، ما حجرٌ نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ،يا قوم التمسوا لأنفسكم ديناً ، فإنكم والله ما أنتم على شيء . فتفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم ، فأما ورقة بن نوفل فاستحكم فى النصرانية . . وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتّى أسلم . . وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر ملك الروم فتنصر . . وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف فلم يدخل فى يهودية ولا نصرانية وفارق دين قومه، فاعتزل الأوثان والميْتة والدم والذبائح التى تذبح على الأوثان.. وقال أعبد ربَّ إبراهيم »[1] ومعروف أنه أسلم وكان من الصحابة الأولين المقدمين .

وأكبر الظن أن كلمة حنيف معناها المائل عن دين آبائه كما يدل على ذلك اشتقاقها ، ولم يكن هؤلاء الحنفاء فى مكة وحدها ، فقد كانوا منتشرين فى القبائل ، إذ تعدّ كتب الأدب والتاريخ منهم قس بن ساعدة الإيادى وأبا ذَرٍّ الغفارى وصِرْمة

(١) السيرة النبوية ١/ ٢٣٧ .

ابن أبي أنس أحد بني النجار في المدينة وعامر بن الظرب العَدْواني وخالد بن سنان العبسي وأمية بن أبي الصَّلْت الثقفي وعمير بن جندب الجُهَنِي . ويمكن أن ندخل فيهم كثيرين ممن حرَّموا على أنفسهم في الجاهلية الخمر والسكر والأزلام [1] مثل عبد المطلب بن هاشم وقيس بن عاصم التميمي وحنظلة الراهب ابن أبي عامر غسيل الملائكة . ولا نرتاب في أن صنيع هؤلاء إنما كان شكًّا في حياتهم الدينية، وكل ذلك يؤكد أن الوثنية الجاهلية كانت على وشك الانحلال ، فما انبلجت أضواء الإسلام ، حتى اعتنقه العرب ودخلوا فيه أفواجاً .

٥

اليهودية والنصرانية

لا نصل إلى العصر الجاهلي حتى نجد اليهود منتشرين في اليمن والحجاز [2] ، والمظنون أنهم هاجروا من موطنهم الأصلي في فلسطين إلى الجزيرة على أثر اصطدامهم بالقيصر طيطوس (Titus) وهدمه للهيكل سنة ٧٠ للميلاد ، وكذلك اصطدام القيصر هدريان بهم سنة ١٣٢ ففي هذه الأثناء فر كثير منهم إلى الحجاز ، وسقط غير قليل منهم إلى اليمن . وقد تكون هجراتهم أقدم من ذلك ، ولكن ليس بين أيدينا نصوص وثيقة ، نعرف منها بالضبط مراحل وفودهم على الجزيرة سواء في الحجاز أو اليمن ، وحتى هجراتهم في أيام طيطوس وهدريان غير واضحة تماما .

وقد استطاع يهود اليمن في أوائل العصر الجاهلي أو بعبارة أخرى في أوائل القرن السادس الميلادي أن يؤثروا في ملك من ملوك التبابعة هو ذو نُواس ، وأن يدخلوه في دينهم ، وقد دفعوه دفعاً إلى التنكيل بنصارى نجران وتحريقهم ، وفي ذلك نزلت الآيات الكريمة : (قُتِل أصحاب الأخْدود النارِ ذات الوقود إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود وما نَقَموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) .

---

(١) المحبر ص ٢٣٧ .

(٢) راجع في اليهودية بجزيرة العرب كتاب تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على الجزء السادس وكذلك كتاب مرجليوث : The Relation between Arabs and Israelites Prior to the Rise of Islam.

وربما كان السبب الحقيقى فى استجابته لليهود أنه كان يخشى من تغلغل النصرانية فى بلاده وأن يفتح ذلك الأبواب لنصارى الحبشة ، فيستولوا عليها بدون مقاومة . على أن الأحباش سرعان ما انتقموا لإخوانهم ، فأزالوا دولة ذى نُواس سنة ٥٢٥ وظلوا نحو خمسين عامًا ، حتى أجلاهم عنها أهلها بمساعدة الفرس .

ويظهر أن هذه الفترة التى قضاها الأحباش النصارى هناك كانت سببًا فى تفرق اليهود وخروج كثيرين منهم من اليمن وتشتتهم فى البلاد . ولكن ظلت بقايا هناك ، دخل كثيرون منها فى الإسلام من مثل كعب الأحبار ووهب ابن منبه ، ولهما فى الإسرائيليات التى شاعت بين المسلمين ومؤرخيهم أثر كبير .

وأهم من يهود اليمن يهود الحجاز ، وكانوا قبائل وجماعات كثيرة انتشرت فى واحات الحجاز : يثرب وخَيْبر ووادى القرى وتَيْماء ، وكان فى يثرب منهم عشائر كثيرة أهمها بنو النَّضير وبنو قريظة وبنو قَيْنُقاع وبنو بَهْدل ، وقد نزل بينهم الأوس والخزرج كما قدمنا ، وفرضت القبيلتان عليهم سيادتهما . وكانوا يشتغلون بالزراعة والصياغة والحدادة وصناعة الأسلحة ونسج الأقمشة ، وكانوا يعمدون عمدًا إلى الإيقاع بين القبيلتين العربيتين ، فاشتبكتا فى حروب دامية ، حتى جمعهما الرسول صلى الله عليه وسلم على الإسلام ، فأصبح أفرادها بنعمة الله إخوانًا متحابين . وناهض اليهود الرسول ، فكانوا يثيرون معه مناقشات ومجادلات صوَّرها القرآن الكريم ، وذهبوا يحاولون الوقيعة بين المسلمين ، ويؤلبون عليهم قريشًا وغير قريش ، مما اضطر الرسول عليه السلام إلى إجلائهم عن المدينة . وفى السيرة النبوية لابن هشام وطبقات ابن سعد ما يدل على أنهم كانوا يتدارسون دينهم فى دار ندوة لهم تسمى المدراس وأنهم كانوا يقرأون التوراة والمِشْنة والزبور (مزامير داود) بلغتهم القديمة العبرية ، ولكنهم اتخذوا العربية لغتهم اليومية ، ونظم فيها بعضهم شعرا عربيًّا .

وعلى نحو ما تعرب يهود يثرب تعرب يهود خيبر ووادى القرى وفدك وتيماء ، واشتهر بينهم غير شاعر كالسموأل بن عادياء ، وقد قاوموا الإسلام وأظهروا له العداوة والبغضاء ، فحاربهم الرسول ، وانتصر عليهم ، ولم يلبث عمر أن أمر بإجلاء كل من ليس له عهد منهم ، فخرج جمهورهم من الجزيرة ، ولم يبق منهم إلا نفر قليل . وليس بين أيدينا ما يدل أى دلالة على أنهم خلفوا آثاراً واضحة فى الجاهليين ،

فقد ظل العرب الشماليون بعيدين عنهم وعن دينهم ، لا يتأثرون به فى قليل ولا كثير ، وإن حاول بعض المستشرقين إثبات هذا التأثير [١] .

وقد انتشرت النصرانية فى اليمن وشمالى الجزيرة الغربى والشرقى [٢] ، ويُظَنّ أن انتشارها فى اليمن بدأ منذ القرن الرابع الميلادى ، وكان من أهم الأسباب فى انتشارها هناك بعثات دينية كان يشجعها القياصرة ، ولعلهم أرادوا بذلك النفوذ إلى فرض سلطانهم على البلاد وتحول كنوز قوافلها إليهم . ولا نصل إلى العصر الجاهلى حتى نرى النصرانية منتشرة فى نجران وغيرها ويظهر أن نجران كانت أهم مواطنها ، وقد نكبهم ذو نواس نكبته المشهورة التى أشرنا إليها فيما أسلفنا ، ودخل الأحباش بقيادة أبرهة ، فدُعمت النصرانية واعتنقها كثيرون ، وبُنيت لها كنائس فى غير مدينة . ومن أشهر كنائسها كنيسة نجران ، وفى السيرة النبوية أن وفداً منها قدم على الرسول صلى الله عليه وسلم وكان فيه العاقب والسيد ، وهما الرئيسان السياسيان كما كان فيه أسقفهم وحَبْرهم أبو حارثة بن علقمة ، وكان « قد شرف فيهم ودرس كتبهم حتى حسن علمه بدينهم ، فكانت ملوك الروم من النصرانية قد شرفوه وموّلوه وأخدموه وبنوا له الكنائس » [٣] . ويقال إن أبرهة أنشأ كنائس كثيرة فى مدن اليمن ، واهتم بزينتها وزخرفتها ، أشهرها القليس فى صنعاء ، وهى تعريب لكلمة Ecclysia اليونانية بمعنى الكنيسة ، ويقال إنه « نقشها بالذهب والفضة والفسيفساء وألوان الأصباغ وصنوف الجواهر . . وكان ينقل إليها آلات البناء كالرخام المجزّع والحجارة المنقوشة بالذهب . . ونصب فيها صلباناً من الذهب والفضة ومنابر من العاج والآبنوس » [٤] . ويظهر أنه استعان فى بنائها بأنقاض من قصور ملوكهم السابقين ومعابدهم القديمة ، وقد حولها المسلمون إلى مسجد لا يزال قائماً إلى اليوم .

وكانت النصرانية منتشرة بين عرب الشام من الغساسنة وغيرهم مثل عاملة وجُذام وكلب وقضاعة ، وكانوا على مذهب اليعاقبة أو المنوفيستيين ، وهم القائلون بأن

---

(١) انظر جواد على ٦/٩١ وما بعدها وكذلك ص ١٧٧ وما بعدها .

(٢) انظر فى النصرانية بجزيرة العرب تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ، الجزء السادس ، والنصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية للويس شيخو .

(٣) انظر وفد نجران فى سيرة ابن هشام ٢/٢٢٢ .

(٤) مادة القليس فى معجم البلدان لياقوت وتفسير الطبرى ٣٠/١٩٣ .

للمسيح طبيعة واحدة وأقنوماً واحداً . ولذلك يسمون أصحاب الطبيعة الواحدة ، وصاحب هذا المذهب هو يعقوب البرادعى المولود حوالى سنة ٥٠٠ للميلاد ، وقد دخل فى مذهبه — كما قد منا — الغساسنة ومَنْ والاهم من عرب الشام .

ونفذت النصرانية إلى عرب العراق أيضا إلى تغلب وإياد وبكر ، وتغلغلت فى الحيرة على الرغم من ملوكها الوثنيين فكان يعتنقها بها العباديون ، وأغلب الظن أنهم سموا بذلك تمييزاً لهم من جيرانهم الوثنيين ، فهم عباد الله . ولم يكونوا يعاقبة كعرب الشام ، وإنما كانوا غالباً نساطرة نسبة إلى نسطوريوس (Nestorius) المتوفى سنة ٤٥٠ للميلاد وكان يرى أن للمسيح طبيعتين أو أقنومين : أقنوم الناسوت وأقنوم اللاهوت . وقد تأخرت الهيئة الحاكمة من آل المنذر فى التنصر ، ويقال إن هندا أم عمرو بن المنذر ابتنت ديراً هناك ويقال بل بَنَتْه هِنْد بنت المنذر ، وقد دخل أخوها النعمان فى النصرانية ، وهو آخر المناذرة .

وكان الرقيق الحبشى الذى تزخر به مكة نصرانيًّا ، ويظن أنه كان بها جالية من الروم النصارى[١] ، ويقال إنه كان بها عبدان نصرانيان أصلهما من عين التمر[٢] وإنه كان بها جوار روميات[٣] ، ويقال إن شماسا زار مكة فى الجاهلية[٤] ، وكان يعيش فى مَرّ الظهران راهب مسيحى[٥] . ويزعم اليعقوبى أن قوما تنصروا من قريش قبيل الإسلام منهم ورقة بن نوفل وعتبة بن أبى لهب وعثمان بن الحويرث الأسدى[٦] . والمظنون أنه كان فى المدينة بعض النصارى ، وإليهم يشير حسان فى رثائه للرسول صلوات الله عليه — إن صح أنه له — إذ يقول[٧] :

فرحتْ نصارى يثربٍ ويهودُها   لما تَوارى فى الضريح الملحَدِ

وكانت النصرانية منتشرة فى طيئ ودومة الجندل . وهى على هذا النحو كانت تختلف عن اليهودية التى لم تذع فى القبائل . على أنه ينبغى أن لا نبالغ فى تصور من تنصَّروا من العرب قبل الإسلام ، ونظن أنهم قاموا بتعاليم النصرانية قياماً دقيقا ،

---

(١) O'Leary, Arabia Before Muhammad p. 184.

(٢) أسباب النزول للواحدى ص ٢١٢ .

(٣) أسد الغابة ١/٣٨٧ ، ٤/ ٢٣٢ ، ٥/١٩٤ ، ٤٦٢ .

(٤) ابن هشام ١/٣٤٩ وأسد الغابة ٣/٣٧٥

(٥) السيرة الحلبية ١/٧٥ .

(٦) تاريخ اليعقوبى ١/٢٩٨ .

(٧) ديوان حسان (طبعة هرشفلد) ص ٥٩ .

فقد عرفوا الكنائس والبيع والرهبان والأساقفة والصوامع ، ولكنهم ظلوا لا يتعمقون فى هذا الدين الجديد ، وظلوا يخلطونه بغير قليل من وثنيتهم ، وربما كان مما يوضح ذلك خير توضيح قول عدى بن زيد العِبادى[١] :

سعى الأعداءُ لا يأْلون شرًّا   علىَّ وربِّ مكة والصَّليبِ

فهو يجمع فى قسمه بين رب مكة الوثنية ورب الصليب ، وكذلك كان أكثر العرب من النصارى ، فهم مسيحيون وثنيون فى الوقت نفسه . ومن يقرأ شعره لا يجد فيه فكرة التثليث المعروفة فى النصرانية .

والحق أن نصارى العرب فى الجاهلية إنما عرفوا ظاهرًا من دينهم ، وقلما عرفوا حدوده ، وقد سقطت إلى أشعارهم وأشعار الوثنيين أنفسهم كلمات ومصطلحات كثيرة منه ومن شخوصه وطقوسه ، فنذ امرئْ القيس وقوله[٢] :

يضيىءُ سَناه أو مصابيح راهبٍ   أهان السَّليط فى الذُّبال المفتَّل

والشعراء يرددون ذكر الرهبان ومحارب كنائسهم ، يقول الأعشى[٣] :

كدُمْيَــةٍ صُوِّر محرابها   بمُذْهَبٍ ذى مَرْمَرٍ مائرِ

وطالما تحدثوا عن نواقيسهم وقَرْعها فى أواخر الليل ، يقول المرقِّش الأكبر فى بعض شعره[٤] :

وتسمع تزقاءً من البوم حولنـــا   كما ضربتْ بعدالهدوِّ النواقسُ[٥]

وعرض النابغة الذبيانى فى مديحه للغساسنة لتدينهم ، ولبعض أعيادهم كعيد الشعانين ويسميه السَّباسب إذ يقول فيهم[٦] :

رقاقُ النِّعال طَيِّبٌ حُجُزَاتُهُمْ   يحيَّوْن بالريحان يوم السَّباسِبِ

---

(١) أغانى (طبعة دار الكتب) ٢ / ١١١ .

(٢) ديوان امرئْ القيس (طبعة دار المعارف) ص ٢٤ . و والسليط : الزيت .

(٣) الديوان (طبعة جاير) القصيدة رقم ١٨.

(٤) المفضليات (طبعة دار المعارف) ص ٢٢٥ .

(٥) التزقاء : الصياح. والهدو : أوائل الليل.

(٦) مختار الشعر الجاهلى للسقا ص ١٦٢ .

وذكر أوس بن حجر عيد الفصح الذى كانوا يحتفلون به فيوقدون المشاعل ويضيئون الكنائس بالقناديل والمصابيح ، يقول[١] :

عليه كمصباح العزيز يَشُبُّه لفِصْحٍ ويحشوه الذُّبالَ المفتَّلا

وجرى على لسانهم كثير من أسماء الأنبياء ، من مثل داود ، وكان يشتهر عندهم بنسجه للدروع المتينة القوية ، ومن ثَمَّ يقول سلامة بن جندل فى وصف بعض الدروع[٢] :

مُدَاخَلةٍ من نسج داود شَكُّهـــا كحَبِّ الجَنا من أُبْلُمٍ متفلِّقِ[٣]

وقد يتحدثون عن ملكه فى صدر حديثهم عن الملوك البائدين وكيف يعتدى الدهر على الناس فلا يبقى ولا يذر.

ويكثر فى شعر الأعشى وأمية بن أبى الصلت وعدى بن زيد القصَصُ عن الأنبياء وسيرهم قصصاً نظن ظنًّا أنه موضوع . وهو إن قُبل من عدى النصرانى فإنه لا يقبل من الأعشى ، وكان وثنيا . وتبدو فى شعر بعض الشعراء نزعة إلى التفكير فى الحياة والموت على نحو ما أسلفنا فى غير هذا الموضع ، كما يبدو فى شعر نفر منهم إيمان بالله ، كقول عَبيد بن الأبرص فى معلقته — إن صح أنه له — :

من يسألِ الناسَ يَحْرِمـــوهُ وسائلُ اللهِ لا يَخيبُ

ويزعم بعض المستشرقين أن الرواة الإسلاميين هم الذين وضعوا لفظة الجلالة فى شعر الجاهليين بدلا من كلمة اللات التى تتفق معها فى الوزن[٤] . وفى معلقة زهير :

فلا تكتمُنَّ اللهَ ما فى نفوسكم ليخفى ومهما يُكْتَمِ اللهُ يعلم
يؤَخَّر فيوضعْ فى كتاب فيُدَّخَرْ ليوم الحساب أو يعجَّل فيُنْقَمِ

(١) ديوان أوس ص ٨٤ .

(٢) الأصمعيات (طبعة دار المعارف) ص ١٥٠ .

(٣) مداخلة : محكمة النسج ، شكها : أحكمها ، الأبلم : بقلة لها قرون بها حب يابس .

(٤) جواد على ٦/ ٣٠٥ .

فالله يعلم خائنة الصدور وما تخفى ، ويعاقب كل إنسان على ما قدمت يداه عاجلا أو آجلا فى يوم الحساب ، وإذا صح البيتان لزهير كان ذلك دليلا على أنه ممن تحنفوا قبل الإسلام .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل على أن وجود النصرانية فى الجزيرة قد أثر فى الشعراء آثاراً مختلفة لا فى شعرائها الخاصين بل أيضًا فى بعض الشعراء الوثنيين ، وكان من آثار ذلك ظهور جماعات المتحنفين ، وتسربُ فكرة البعث والحساب إلى نفر من الجاهليين .

الفصل الرابع

اللغة العربية

١

عناصر سامية مغرقة فى القدم[1]

أشرنا فى غير هذا الموضع إلى أن اللغات السامية تتشابه فى كثير من الكلمات والضمائر والأعداد تشابهاً يثبت القرابة بينها ، وهو تشابه يفيدنا فى معرفة نمو كل لغة من هذه اللغات وتطورها على مر التاريخ حتى تشكلت فى صورتها الأخيرة . وقد أبلى علماء الساميات بلاء مشكوراً فى الدراسة المقارنة لهذه اللغات من حيث الصيغ والألفاظ والتصريف والإعراب والأصوات ، وهى دراسة تفيدنا فائدة جُلّى فى التأريخ لكثير من الظواهر اللغوية ومعرفة قديمها من حديثها . فإن لاحظنا تشابهاً بين لغتين من هذه اللغات فى ظاهرة بعينها ورجعنا إلى اللغات الأخرى ووجدنا نفس التشابه كان معنى ذلك أن الظاهرة قديمة وأنها ترتقى إلى العصر الذى كانت هذه اللغات متحدة فيه . وقد يقع التشابه فى الظاهرة فى لغتين غير متجاورتين ، فإما أن يرجع إلى أصل قديم ، وإما أن يكون ثمرة تطور تاريخى فى كل منهما أدّى إلى نفس النتيجة ، أما إذا كانتا متجاورتين كالعربية والآرامية فإما أن تكون الظاهرة قديمة ترجع إلى أزمان اتحادهما ، وإما أن تكون إحداهما تأثرت الأخرى . ولعل فى هذا ما يدل على أن أسلافنا توسعوا أكثر مما ينبغى حين درسوا الدخيل فى عربيتنا ، فوقفوا عند ألفاظ كثيرة وقالوا إنها سريانية آرامية ، غير ملتفتين إلى أن طائفة من هذه الألفاظ ترجع إلى الأصل السامى القديم ، فلا يقال إن العرب أخذوها من السريان ولا إن السريان أخذوها من العرب ، بل يقال إنها من الكلمات السامية

---

(١) راجع فى هذه العناصر كتاب « التطور النحوى للغة العربية » لبرجشتراسر (طبع القاهرة ١٩٢٩) والجزء السابع من تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ومحاضرات خليل يحيى نامى بكلية الآداب فى جامعة القاهرة .

القديمة التي تداولها الساميون في زمان اتحادهم قبل تفرق لهجاتهم وتطورها إلى لغات مستقلة لها مشخصاتها وسماتها الصرفية وغير الصرفية .

ونضرب مثالا آخر أثار ضجة واسعة بين المستشرقين ، وهو ما زعمه ڤولرز من أن القرآن الكريم كان في بادئ الأمر غير مُعْرب ، إذ كان بلهجة قريش الدارجة ، وهي لهجة — فيما يزعم — كانت غير معربة ، وكانت تختلف عن لهجة الشعر الجاهلي الخاضعة لقواعد النحو والعربية ؛ ومضى يقول إن النحاة المتأخرين هم الذين صاغوه في لغة البدو المعربة . وقد رفض كثير من المستشرقين وعلى رأسهم بوهل ونولدكه وجاير هذا الرأي رفضا باتًّا[١] ، ويقول يوهان فك : « أما أن أقدم أثر من آثار النثر العربي وهو القرآن قد حافظ أيضًا على غاية التصرف الإعرابي فهذا أمر وإن لم يكن من الوضوح والجلاء بدرجة الشعر الذي لا تترك أساليب العروض والقافية مجالا للشك في إعراب كلماته ، إلا أن مواقع كلام القرآن الاختيارية لا تترك أثراً للشك فيه كذلك ، انظر مثلا آية ٢٨ من سورة فاطر : (إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ) وآية ٣ من سورة التوبة : (أن الله برىء من المشركين ورسولُه) وآية ١٢٤ من سورة البقرة : (وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه) وآية ٨ من سورة النساء : (وإذا حضر القسمةَ أولو القربى) فمثل مواقع الكلمات في هذه الآيات . . . لا يمكن أن يكون إلا في لغة لا يزال الإعراب فيها حيًّا صحيحاً . يُضاف إلى ذلك شهادة القرآن نفسه في مثل آية ١٣٠ من سورة النحل : (وهذا لسان عربي مبين) وصريح من هذا أنه لم يقم عند محمد ومعشره فرق هام بين لغة القرآن وبين لغة العرب أي قبائل البدو »[٢] .

ومما يثبت بطلان رأي ڤولرز أيضا أنه لم يُعْرف عن قبيلة عربية من القبائل الشمالية أنها اتخذت لهجة دارجة خالية من قواعد النحو والعربية . وقد نسي أو تناسى أن قراءات القرآن الشريف توقيفية عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولو أنه قرأه على الصحابة في لهجة غير معربة لقضى على اللهجات المعربة من حوله . وعلى الرغم من وضوح فساد هذا الرأي وبطلانه نجد كاله (Kahle) يحاول أن يدلل

---

(١) انظر مادة قرآن في دائرة المعارف الإسلامية وتاريخ القرآن لنولدكه وكتاب العربية ليوهان فك ص ٣ وما بعدها .

(٢) العربية ليوهان فك ص ٣ .

على صحته ، تارة بما وجده من نصوص متأخرة تحثّ على مراعاة الإعراب فى ترتيل القرآن ، وتارة بما يزعمه من أن قرّاء القرآن الأولين رحلوا لمخالطة عرب البادية ، حتى يفقهوا قواعد شعرهم النحوية والصرفية ويطبّقوها على الذكر الحكيم[١] ، وهو يستمد فى الشطر الثانى لقوله وزعمه من ڤولرز ، أما الشطر الأول فواضح البطلان ، لأن هذه النصوص إنما تشير إلى مخافة العلماء فى عصور اللهجات العامية المولدة من أن يهجم بعض العامة على قراءة القرآن قراءة غير معربة .

وإذا رجعنا إلى تاريخ اللغات السامية وعرضنا هذه المسألة تبين لنا أنها تفقد السند التاريخى ، فإن الإعراب فى الفصحى ليس خاصة مستحدثة نشأت بين بعض قبائل العرب وفى بعض لهجاتهم البدوية بعد أن لم تكن موجودة ، وإنما هو خاصة سامية قديمة تشترك فيه مع العربية الأكدية ، كما تشترك فى بعضه الحبشية وغيرها من اللغات السامية . وحدث فى سنة ألف وتسعمائة وتسع وعشرين أن اكتشف العلماء فى رأس شمرا بالقرب من اللاذقية نقوشاً كثيرة ترجع إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد فى موضع كان يعرف قديماً باسم أوجريت (Ugarit) وجدّوا فى حل رموزها ، وسرعان ما وجدوها تقرب من اللغات السامية ومن العربية القديمة ، فسموها باسم موضعها تمييزاً لها ، ولاحظوا أن هذه اللغة الأوجريتية يشيع فيها الإعراب مثل العربية ، وأيضاً فإنهم وجدوا فيها ظواهر المنع من الصرف ، وكان المظنون أنه خاصة عربية .

ومعنى ذلك أنه ثبت بين علماء الساميات أن ظاهرتى الإعراب والمنع من الصرف قديمتان فى اللغات السامية وأن العربية احتفظت بهما ، بينما فقدتهما مع الزمن أكثر هذه اللغات ، فهما ليستا من الظواهر المستجدة ، بحيث يمكن أن ينسبا إلى بعض قبائل البدو كما وهم ڤولرز وكاله ، وإنما هما من الظواهر السامية القديمة ، وليس بين أيدينا نص واحد يشهد بأن قريشاً أو بعض قبائل العرب الشماليين ضعف عندهم الإعراب فأهملوه فى لهجتهم الخاصة ، بل كان الإعراب عامًّا بينهم جميعاً فى الشرق والغرب ، وفى الحجاز ونجد وغير الحجاز ونجد ، فمن الخطأ البين أن يزعم زاعم أن الإعراب كان مهملا فى لغة قريش ، فإن ذلك مجرد حدْس لا قيمة له .

---

(١) راجع ما ساقه عبد الحليم النجار من تعليقات فى كتاب العربية المذكور .

ومن ظواهر العربية التى أكدت اللغةُ الأوجريتية أنه قديم ظاهرة التعريف بأل ، وهى تقابل حرف الهاء الذى كان يستخدمه العبريون والآراميون فى التعريف ، وكان الأولون يلحقونه ببدء الكلمة والأخيرون يلحقونه بآخرها . وكان أصحاب النقوش الصفوية من قدماء العرب يجارون العبريين فى استخدام هذا الحرف فى التعريف ومثلهم الثموديون واللحيانيون . واستخدم النبط فى نقوشهم أل استخداماً واسعاً ، إذ نراهم يضعونها مع أسماء آلهتهم مثل الله واللات والعُزَّى ، وقد تحذف الألف منها فى الكتابة فيكتبون وهب الله وعبد الله هكذا وهب لهى وعبد لهى بإشباع الكسرة ومدها بحيث تتولد منها الياء ، ويقول اللغويون إن الأزد يشبعون حركات الإعراب ومعنى ذلك أن الإشباع قديم فى العربية . ويدل حذف الألف فى مثل وهب لهى أن النبط كانوا يسهلون الهمزة ولا يحققونها على نحو ما أثر عن قريش وأهل الحجاز فى عدم تحقيق الهمزة لا فى أل وحدها بل فى كلمات كثيرة ، فيقولون فى اسأل : سَلْ . وكل ذلك معناه أن أداة التعريف فى العربية قديمة وأن تسهيل الهمزة حدث قبل العصر الجاهلى ، إذ كانت تميل إليه بعض القبائل العربية ممن كانوا يسكنون فى غربى الجزيرة مثل النبط والحجازيين .

وإذا أخذنا نقارن بين صيغ الفعل فى العربية وصيغه فى اللغات السامية وجدنا همزة التعدية فى صيغة أفعل العربية تشيع فى اللغتين الحبشية والسريانية ، بينما تعبِّر العبرية والسبئية وبعض اللهجات الآرامية عنه بالهاء ، فهفعل عندهم تقابل أفعل فى العربية ، وكان اللحيانيون والثموديون يستخدمون الصيغتين جميعا . وفى الوقت نفسه نجد النقوش اليمنية ما عدا السبئية ، ونقصد المعينية والقتبانية والأوْسانية والحضرمية تعبِّر عنه بسفعل ، وتعبر عنه الأكدية بشفعل واحتفظت العربية على نحو ما نعرف بالسين فى وزن استفعل ، ومن ثم ذهب ليتمان إلى أن أداة التعدية كانت فى الأول سيناً ، ثم صارت شيناً فى الأكدية ، وصارت السين هاء عند بعض الساميين ، ثم صارت الهاء همزة فى العربية والسريانية والحبشية[1] . ولعل من الطريف أن من يرجع إلى العربية يجد فيها بقايا من هذه الصيغ جميعا كصيغة هراق

(١) انظر مقالة ليتمان عن « بقايا اللهجات العربية فى الأدب العربى » بالجزء الأول من المجلد العاشر فى مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ص ٢٥ وما بعدها .

الماء بمعنى أراقه . يقول ابن يعيش : « اعلم أنهم قالوا أهراق فمن قال هراق فالهاء عنده بدل من همزة أراق على حد هردت أن أفعل فى أردت ونظائره »[١] وكأنه كان بينهم من يجمع فى التعدية بين الهمزة والهاء ، ومن يكتفى بإحداهما فى مثل هذه الكلمة ، ويظهر أن هذا كان كثيراً إذ ينص ابن يعيش على أن له نظائر متعددة ، فيقولون هراح فى أراح وهنار فى أنار وهكذا . وفى القاموس المحيط الهذروف كعصفور : السريع ، وهذرف : أسرع . ومعنى ذلك أن بين الأسماء صيغا احتفظت بتلك الهاء لأنها اشتقت من أفعالها ، يقول صاحب القاموس : « الهِجْزَع كدرهم : الجبان لأنه من الجزع » .

أما وزن سفعل الذى استخدمته بعض اللهجات العربية الجنوبية القديمة كالمعينية فإن العربية احتفظت به فى صيغة استفعل . وفى المزهر من مزيد الثلاثى هفعل فى مثل هلقم إذا أكبر اللقم وسفعل فى مثل سنبس بمعنى نبس[٢] . ويمكن أن يُرَدَّ إلى هذه الصيغة كثير من الأفعال التى تبتدئ بالسين ، كما يرد إلى صيغة هفعل كثير من الأفعال التى تبتدئ بالهاء ، فهدر مثلا يمكن أن يكون أصلها در وأضيفت إليها الهاء وخففت الراء ، وسكن أصلها كان من كان التامة ، ثم حذفت الألف . وبهذا القياس يمكن أن ننعم النظر فى بعض الكلمات المبدوءة بالشين فنردها إلى صيغة شفعل الأكدية ، فشسع يمكن أن يكون أصلها شوسع من وسع وشوّش من وشّ وهكذا . وكأن العربية كانت تستخدم فى بعض أزمنتها القديمة كل هذه الصيغ ، ثم تطورت بصيغة هفعل إلى أفعل وآثرتها معرضة عن الصيغ الأخرى لأنها أخف فى النطق وأيسر .

ومن الظواهر التى تتقارب فيها العربية من أخواتها السامية الضمائر ، إذ نرى مثلا : أنا تختص بالمتكلم مع زيادة مميزات عددية أو جنسية فى بعض اللغات ، بينما تختص التاء بضمير الرفع المتصل ، وقد تخلفها الكاف كما فى الأكدية ، على نحو ما جاء على لسان بعض الرجاز يهجو ابن الزبير[٣] :

يا بن الزبير طالما عصيكا ... وطالما عَنَّيْتنا إليكا

فقال عصيك بدلا من عصيت . وكما تتشابه اللغات السامية فى الضمائر تتشابه فى

---

(١) شرح المفصل للزمخشرى ١٠/٥

(٢) المزهر للسيوطى ٢/٤٠ .

(٣) النوادر فى اللغة لأبى زيد (طبعة بيروت) ص١٠٥ وأنساب الأشراف للبلاذرى ١١/٤٨ .

أسماء الصلة والإشارة ، ويدل الاسم الموصول « ذو » عند الطائيين على أن الأسماء الموصولة كانت فى الأصل أسماء إشارة ، وهو فى الحبشية « ذ » وفى السريانية « د » ، و« دى » فى النقوش النبطية . وأيضاً فإن هذه اللغات تتشابه فى كثير من حروف العطف وحروف الجر وأدوات الاستفهام وفى الميل إلى المخالفة بين الذكر والأنثى رغبة فى الازدواج كما يتضح فى العدد ومخالفته للمعدود فى الجنس وفى تأنيث الفعل مع جمع التكسير المذكر .

وتشترك العربية مع أخواتها السامية فى أن الأسماء الثنائية أقدم أسمائها ، وفى العربية أمثلة كثيرة منها احتفظت بها ، وقد أخذت — كأخواتها — تشتق منها الثلاثى وغيره أو تولدهما ، ومن أقدم ما اتبعته فى ذلك تضعيف الحرف الثانى أو زيادة واو أو ياء فى أوله أو زيادة حرف لين فى وسطه أو نهايته . وقد تتكرر المادة الثنائية مثل حصحص وصرصر وسلسل . ولعلماء الساميات أبحاث فى الكلمات التى تشترك فيها العربية مع غيرها من اللغات السامية والتى يمكن أن تعد من أقدم عناصرها ، وهم يردون بعضها إلى أسماء الإنسان وأحواله مثل ذكر وأنثى وأب وأم وابن وبنت وأخ وبعل وبكر وأمة وضرة ، ومن الأفعال القديمة المتعلقة بهذه الأسماء : ولد وملك . ومن هذه الأسماء المشتركة أسماء الحيوانات مثل نمر وذئب وكلب وخنزير وإبل وثور وحمار ونسر وعقرب وذباب ومعها فعل نبح . ومن أسماء النباتات عنب وثوم وقثاء وكمون وزرع وسنبلة . ومن أعضاء البدن رأس وعين وأذن وأنف وفم ولسان وسن وشعر ويد وظفر وركبة وكتف وذنب وقرن وعظم وكرش وكبد وكلية ونفس ودم ، ومعها سمع وطعم . وصفات مثل شيب ويمين وموت وقبر . ومن أجزاء العالم سماء وشمس وكوكب وأرض وحقل وماء ومنبع وبئر ، ومما يتبعها ظل ويوم وليلة وبرق ولهب . ثم بعض أسماء البيت وأقسامه وما يتبعه مثل بيت وعمود وعرش وقوس وحظ أصل معناه السهم وحبل وإناء ومما يتبعها من الأفعال رمى . ومن المأكولات والمشروبات قمح ودبس وسكر ويتبعها طحن وطبخ وقلى . وإلى جانب ذلك عدد كبير من الأفعال والأسماء مثل كان ونشأ وعلا وقدم وقرب وبكى وصرخ وأخذ وذكر وسأل وبشر ورحم وبل ونقل ونقب وصغر ورعى وسقى وركب ونظر وفقد وسلم وذبح وبارك ووقر ، ومثل اسم وكل وأسماء العدد إلى العشرة والمائة(١) .

---

(١) راجع فى ذلك كله برجشتراسر ص ١٤٠ وما بعدها .

وهناك أسماء وأفعال تشترك فيها العربية مع اثنتين أو ثلاث أو أربع من اللغات السامية، والحكم فى مثل هذه الكلمات مشكل، فإما أن تكون من الكلمات السامية الأصلية، أو تكون بعض الفروع اختصت بها بعد تفرقها، بمعنى أنها نشأت بينها، وتكونت فى زمن متأخر. ومن علماء الساميات من يظن أن ماتنفرد به العربية من كلمات لا توجد فى أخواتها السامية هو من السامى الأصيل احتفظت به بينما سقط من أخواتها، ويذهب برجشتراسر إلى أن « هذا بعيد عن الاحتمال للغاية ولا يجوز افتراضه إلا على فرض كون اللغة العربية أقرب إلى اللغة السامية الأم من أخواتها . . وهذا من الأوهام التى لاسبب لها، فإن اللغة العربية ترقت رقياً بعيداً بالقياس إلى أخواتها الساميات . . ولا بد من أن نفترض أن اللغة العربية اخترعت ألوفا من الكلمات الجديدة ولا عجب فى ذلك بعد ما شاهدناه مراراً من ميلها إلى التخصص وإلى اختراع العبارات الجديدة المحدودة »[١] ويضرب مثلين لذلك : كثرة ما اخترعته فى باب الإبل وأوصافها وشياتها وأمراضها وأدوائها من أسماء، ومثل ثان هو ما اخترعته من أدوات النفى، إذ تشترك مع اللغات السامية فى أداته الأساسية « لا » ثم تنفرد بما اشتقته من أدوات كثيرة لا يوجد منها فى أخواتها سوى ليس، إذ نجد فيها لم بزيادة الميم وحذف الألف، ولما بزيادة ما على لم، ولن بزيادة النون، وأضافت إلى ذلك أدوات جديدة هى ما وإن وغير، وبذلك عددت وظائف النفى ونوعتها .

ومعنى كل ماقدمنا أن هناك عناصر فى العربية ترجع إلى أقدم أزمنتها، وأخرى جديدة، وقد عقد ليتمان مقالين طويلين[٢] بحث فيهما أسماء الأعلام فى اللغات السامية متخذاً منها ما يدل على تاريخها وصيغها وأديانها وعاداتها . ولاحظ أن منها أسماء مركبة وأسماء مفردة وأسماء اسمية وأسماء فعلية وأسماء دينية وأسماء دنيوية وأسماء مكانية وأسماء زمانية وأسماء تخص أمنية أو فرحاً أو صفة أو دعاء وأسماء لرجال مشهورين أو نساء مشهورات، بالإضافة إلى أسماء أجنبية . ومن طريف ما لاحظه أن النبط كانوا يلحقون فى كتاباتهم ونقوشهم الواو بآخر الأعلام أحيانا، يقول : والواو هذه تشير إلى أن الاسم معرب، وأما الأسماء المبنية فكتبوها بلا واو فى آخرها . وأخذ

---

(١) برجشتراسر ص ١٤٢ .

(٢) انظر مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة المجلد العاشر، العدد الثانى، والمجلد الحادى عشر، العدد الأول .

العرب بعد ذلك هذه الواو من الخط النبطى فألحقوها بعمرو فرقاً بينه وبين عمر[١] وقارن مقارنات واسعة بين الأعلام فى العربية منذ الجاهلية وبين لهجاتها القديمة من صفوية ونبطية ، وأدلى فى هذا الصدد بملاحظات جيدة .

وعلى هذا النحو لا يزال علماء الساميات يقارنون مقارنات طريفة بين العربية الجاهلية وما سبقها من لهجات كتبت فى نقوش قديمة ، كما يقارنون بينها وبين العربية الجنوبية اليمنية وغيرها من أخواتها السامية محاولين استخلاص عناصرها وظواهرها المغرقة فى القدم ، والتى جدّت على مر التاريخ . وقد لاحظوا أنها هى والحبشية واللهجات اليمنية القديمة تُكثر من جموع التكسير كثرة مفرطة ، كما لاحظوا أنها هى والعربية الجنوبية أو اليمنية تتميزان بوجود حرف الظاء فيهما ، ومما يميزها أيضاً حرف الضاد ، ولهم كلام كثير فيه وفى مخرجه ، وتبادله مع الظاء واللام فى بعض الكلمات .

٢

لهجات عربية قديمة[٢]

عثر علماء الساميات على نقوش أربع لهجات عربية قديمة، منها ثلاث كُتبت بالخط المسند الجنوبى ، وهى اللهجة الثمودية واللّحْيانية والصّفوية ، وواحدة كتبت بالخط الآرامى ، وهى اللهجة النبطية . وقد جاء ذكر ثمود فى القرآن الكريم مراراً ، وكانوا ينزلون فى مدائن صالح وما حولها ، وتمتد عشائرهم غرباً إلى البحر الأحمر وشرقاً إلى جبلى أجأ وسلمى ، وقد تردد ذكرهم عند الإغريق والرومان وفى كتابات أشورية ترجع إلى القرن الثامن قبل الميلاد . وترجع نقوشهم التى عُثر عليها إلى القرون الأخيرة قبل الميلاد والقرون الأولى بعده، وهى تنتشر فى كثير من البلاد ، فهى فضلا عن وجودها فى أماكن إقامتهم وسكناهم نجدها مبثوثة فى الطائف وطورسيناء ومصر بوادى الحمامات ، وربما كان فى ذلك ما يدل على أن أهلها

(١) مجلة كلية الآداب ، المجلد العاشر ، العدد الثانى ص ٤٣ .

(٢) انظر فى هذه اللهجات الجزء السابع من تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ومقالة ليتّمان فى العدد الثانى من الجزء العاشر بمجلة كلية الآداب، وكذلك مقالته : « لهجات عربية شمالية قبل الإسلام » فى الجزء الثالث من مجلة مجمع اللغة العربية .

كانوا أصحاب تجارة واسعة . ونقوشهم قصيرة وجمهورها مما كتبوه أو نقشوه ليسجلوا أسماءهم للذكرى ، وقليل منها أدعية لآلهتهم ، وهى صعبة القراءة لأن خطهم مشتق من الخط المسند الجنوبى ، مثلهم مثل اللحيانيين والصفويين ، وهو خال من الشكل ومن علامات الإشباع والحركات والتشديد . ومما يزيد فى صعوبته أيضاً ، أو بعبارة أدق مما يزيد فى صعوبة الأحكام اللغوية عليه أن جميع نقوشه بضمير الغائب وأنهم كثيراً ما يحذفون منه بعض الحروف كالنون من ابن والضمير من « لى » وأيضاً فإنه تختلط به آثار عبرية وآرامية .

وهذه النقوش مع أنها كُتبت بالخط المسند الجنوبى نقوشٌ للعرب الشماليين ، فاللغة التى تعبِّر عنها عربية شمالية ، ويتضح ذلك فى تراكيبها الصرفية والنحوية وفى اشتقاقات أفعالها وأزمنتها . ونجد عندهم صيغة المثنى بجانب صيغة الجمع كما نجد نفس أسماء الإشارة والأسماء الموصولة والضمائر وحروف الجر من مثل اللام والباء وإلى وعلى وحرف العطف واو . غير أن أداة التعريف الشائعة عندهم هى الهاء لا أل ، وكذلك الشأن عند اللحيانيين والصفويين ، أما عند النبط فهى أل ، ومن هنا يصح أن نطلق على الأولين اسم أصحاب لهجات الهاء ، وهم فى ذلك يتطابقون مع العبريين ، وأيضاً فإنه يشيع عند الثموديين واللحيانيين تعدية الفعل الثلاثى بالهاء بدلا من الهمزة ، مثلهم فى ذلك مثل العبريين والسبئيين ، على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع .

واللهجة القديمة الثانية هى اللهجة اللِّحْيانية نسبة إلى منازل أهلها من بنى لحيان الذين ذُكروا فى نقوشها ، وقد عثر عليها علماء الساميات منثورة فى شمالى الحجاز بمنطقة العُلا الحالية ، وكانت حاضرتهم تسمى دادان بالقرب من مدائن صالح ، ويختلف الباحثون فى تاريخهم وهل كانوا قبل الميلاد أو بعده ، بل منهم من يتأخر بهم حتى القرن الخامس للميلاد . وتلقانا فى نقوشهم نفس الصعوبات التى تلقانا فى نقوش الثموديين من نقص الشكل وحروف العلة والمد والتشديد . وهم يعرِّفون بالهاء على شاكلة الثموديين ، وقد يعرفون بأل أو باللام على شاكلة العربية الجاهلية ، وقد يجمعون بينهما مثل هلحمَى بمعنى الحمى . وهم يستبقون بين صيغ الفعل على صيغتى هفعل وسفعل ونراهم يلحقون بالماضى تاء التأنيث كما نراهم يشيرون بالذال

وذه وذات . ومن أسمائهم الموصولة من وما وذو المعروفة فى لهجة طيء . ومن آلهتهم التى يرددون ذكرها بعل والعُزَّى ومناة وودّ وإلهة. ومن أسمائهم عبد ودّ وعبد شمس وعبد منّاة وبعيث وعمر وطود . ومن ألفاظهم رب ويوم وبيت وحية وشيعة وحرة ورتاج وإيلاف وكبير وقديس وصانع ونحاس ووارث وعابد ومقدر ومنعم . وهم يكنون وينسبون على نحو ما نعرف فى الفصحى ، وأيضاً نجد عندهم التذكير والتأنيث والإفراد والتثنية والجمع السالم والمكسر وهم يجمعون الذكور بالواو والنون والياء والنون كما يجمعون الإناث بالألف والتاء . ومن أدوات الجر والإضافة عندهم الباء واللام وفى ومن ومع وقبل وبعد وتحت ولدى وخلف ، ونراهم ينفون بلا .

أما اللهجة الصفوية فقد نسبت إلى جبل الصَّفاة القائم فى شرقى حوران ببادية الشام ، ولم توجد النقوش به ، وإنما وجدت فى الحرّة الواقعة بينه وبين حوران ، ولم ينسبها علماء الساميات إليها بحيث يقولون النقوش الحرية مخافة اللبس لأن الجزيرة العربية تمتلىء بحرات كثيرة ، لذلك رأوا نسبتها إلى الجبل المذكور ، واتخذوه علماً عليها ، وقد عثروا على نقوش منها فى مواضع أخرى كالحرة الواقعة فى جنوبى دمشق والصالحية على الفرات . وواضح أنها لا تنسب إلى قوم بأعيانهم أو إلى أمكنة بعينها ، إنما هى تسمية اصطلاحية . وخطّها مشتق من الخط المسند الجنوبى كاللهجتين السابقتين ولذلك يصادف العلماء فيه نفس الصعوبات التى أشرنا إليها ، ومما يزيدها صعوبة أن رسوم حروفها تتشابه فالباء تشبه الظاء والخاء تشبه التاء وكذلك تشبه اللام النون والهاء الصاد ، وقد يبدأ الكاتب من اليمين إلى اليسار وقد يعكس الاتجاه فيبدأ من اليسار إلى اليمين .

ونقوشهم قصيرة وشخصية ، وقد يضمنونها وثائق تمليك أو أدعية للآلهة ، وقد يذكرون تاريخ نقشها فيؤرخونه بتاريخ بُصْرى أو ببعض حروب النبط والروم . وهى تسبق الميلاد وتمتد بعده قرونا . ونرى أداة التعريف الشائعة عندهم الهاء ، وقد وردت عندهم أسماء قليلة معرفة بالألف واللام مثل الأوس والعبد . وتشيع عندهم إضافة المنعوت إلى النعت على شاكلة الحبشية والعبرية المتأخرة وبعض اللهجات الجاهلية ، فيقولون مثلا « جبل الأحمر » بدلا من الجبل الأحمر ، ويتبع اسم الإشارة المشار إليه ولا يتقدمه فيقولون أو يكتبون « جو ، ذ » أى هذا الوادى ، بالضبط

كما نصنع فى عاميتنا المصرية فنقول « النهاردا » بدلا من هذا النهار . وتلقانا عندهم ذو الطائية التى تُستخدم اسماً موصولا فى مثالها المشهور « بئرى ذو حفرت وذو طويت » أى الذى حفرت والذى طويت .

وهذه اللهجة بصفة عامة أقرب إلى عربية الجاهليين من اللهجتين اللحيانية والثمودية سواء فى الضمائر واستخدام العدد أو فى أسماء الأعلام وصيغ الفعل ، فنحن لا نجد عندهم هفعل ، بينما نجد الفعل المبنى للمعلوم والمبنى للمجهول ، وهى تتشابه مع العربية الفصحى فى تصريف الأفعال ومصادرها ففعّل مصدره تفعيل أو تفعلة وفاعل مصدره فِعال أو مفاعلة وأفعل مصدره إفعال وانفعل مصدره انفعال وهلم جراً . ونراها تدخل تاء التأنيث على الكلمة للفرق بين المذكر والمؤنث ، وتشيع فيها أدوات الجر المعروفة فى العربية الفصيحة ، وتعطف بالواو والفاء ، وتنادى بها وبيا . والحروف جميعها هى نفس حروف عربيتنا عدداً ، ويشيع تسهيل الهمزة فيها ، وخاصة فى أول الكلمة فعندهم ونس بدلا من أنس وودم بدلا من أدم . وكانت قبيلة هذيل تصنع نفس الصنيع فتقول وشاح بدلا من إشاح . ومن ذلك أنهم يقولون واكل بدلا من آكل على نحو ما نصنع فى لهجاتنا العربية المعاصرة ، وهم لا يدغمون الحرف الثانى مع الثالث فى الأسماء المشتقة من الفعل المضاعف مثل ظن فيقولون أو يكتبون ظانن ، بالضبط كما ننطق فى عاميتنا مادد بدلا من مادّ . ومن أفعالهم المنقوصة التى احتفظت بها العربية : شتى وبنى وأتى ونجا ورعى ودعى ، ودائماً لام الفعل الناقص عندهم ياء . ومن العبارات التى وردت فيها هذه الأفعال : « نجى من هسلطان » أى نجى من السلطان و « رعى هضأن » أى رعى الضأن و « هأبل » أى الإبل و « همعز » أى المعز و « هبقر » أى البقر . وفى نقش من نقوشهم « ورعى هأبل سنة مرق نبط جوذ » أى رعى الإبل سنة مرق النبط بهذا الوادى . ومعنى كلمة مرق فى النقش مر ، وهى تستخدم بنفس هذا المعنى فى لهجاتنا المصرية . ومن آلهتهم رضا واللات ومناة وبعل وشيع هقوم أى شيع القوم وهو إله مشهور عند النبط ، قيل إنه لا يشرب الخمر وكذلك عابدوه .

ولو أنه جاءتنا نماذج طويلة من نقوش الصفويين وأبناء عمومتهم الثموديين

واللحيانيين لأمكن الحكم بدقة على لهجاتهم جميعاً ، فى صورة واضحة ، ومن المؤكد أنها تصور ضروباً من نمو العربية وتطورها فى طريق اكتمالها ، ومن المهم أن نعرف أن هذه النقوش جميعاً تنتهى بالقرن الثالث الميلادى . وأقرب منها إلى فصحانا نقوش النبط الذين عاشوا فى شمالى الحجاز وكونوا لهم إمارة اتخذوا مدينة سَلْع (بطرا — Petra) حاضرتها الكبرى ، وموقعها الآن وادى موسى فى جنوبى فلسطين . وكان لهم فى الجنوب حاضرة صغرى هى الحِجْر وموضعها الآن يسمى مدائن صالح ، وكان لهم فى الشمال حاضرة صغرى ثانية هى بُصْرى بحوران فى الشام . وظلت هذه الإمارة مزدهرة من القرون الأخيرة قبل الميلاد إلى سنة ١٠٦ م ، كما قدمنا ، إذ قوّضها الرومان ، غير أن النبط عادوا إلى الظهور ثانية فى تدمر وكونوا بها إمارة ظلت إلى سنة ٢٧٣ إذ خشى الرومان من اتساع سلطان أمرائها ، فحاربوا ملكتها زنوبيا ، وما زالوا بها حتى أسروها ودمروا حاضرتها تدميرا . وبذلك ينتهى تاريخ النبط ، ويظهر أنهم لعبوا دوراً واسعاً فى التجارة ، فقد كانت قوافلهم تتسلم العُروض من عرب الجنوب ومن الثموديين واللحيانيين وتحملها إلى العراق وحوض البحر المتوسط .

والنبط عرب شماليون كانوا يتكلمون العربية الشمالية فى أحاديثهم اليومية ، غير أنهم اختلطوا بالآراميين ، وكتبوا بأبجديتهم فظهرت فى نقوشهم آثار آرامية كثيرة ، إذ نراهم يستعيرون منهم بعض كلماتهم وقد يبقون فى خطهم على بعض خصائص لغتهم . وهم كذلك خالطوا الروم والمصريين والعبريين ، فظهرت فى نقوشهم أسماء قليلة أخذوها منهم ، يمكن أن تكون هذه الأسماء لأشخاص روميين ومصريين وعبريين عاشوا فى إمارتهم .

وتمتد نقوش النبط فى الأنحاء التى سيطروا عليها ، وقد كتبوها بالخط الآرامى المشتق من الخط الفينيقى ، وهى منثورة فى الحِجْر ووادى موسى وتيماء وشرقى الأردن وسيناء وحوران بُصْرى ودمشق وصيدا وجبل الدروز ، وتنتهى بالقرن الثالث الميلادى مثلها مثل النقوش السابقة . وكثير منها عثر عليه علماء الساميات فى القبور وعلى أبوابها وفوق الصخور ، وهى تكتظ بذكر قرابينهم وما نذروه لآلهتهم ، وقد يؤرخون لها بأسماء ملوكهم ، وكثيراً مايؤرخونها بالسنة التى انتهت فيها دولتهم الأولى وهى سنة ١٠٦ .

وأصحاب هذه النقوش من النبط يختلفون اختلافاً واضحاً عن أصحاب المجموعة السابقة من اللحيانيين والثموديين والصفويين فى استخدامهم لأداة التعريف العربية ، فبينما كان يشيع عند الأولين استخدام الهاء فى التعريف كما قدمنا كان يشيع عندهم استخدام أل المعروفة فى فصحانا ، على أنهم قد يجارون الآراميين فى تعريفهم الكلمات بإلحاق ألف فى نهايتها فقد نجدهم يكتبون القبر « قبرا » والمسجد « مسجدا » ولكن الغالب عليهم استخدام أداة التعريف العربية « أل » . وربما صنعوا ذلك فى كتابتهم فحسب ، مجاراة للآراميين الذين أخذوا منهم خطّهم وأبجديتهم ، أما فى حياتهم اليومية ولغتهم الدارجة فكانوا يستخدمون أل كما يدل على ذلك شيوعها فى كتابتهم . وقد ميزوا فى نقوشهم كما قدمنا بين الأعلام الممنوعة من الصرف والمصروفة فكانوا يضيفون للأخيرة واواً دلالة على تنوينها ، مما بقيت آثاره فى الخط العربى فى مثل عمرو وعمر .

وهاتان الظاهرتان : أى استخدام أل فى التعريف والواو فى آخر الأعلام المصروفة يقرِّب بين هذه اللهجة والفصحى الجاهلية. ومما يلاحظ أنهم يكتفون أحيانا فى كتابة أل باللام وحدها فيقولون أو يكتبون عبد البعل هكذا عبد لبعلى بحذف الألف ، وكأنهم سهلوها وجعلوها همزة وصل لا قطع . وإذا رجعنا إلى خصائص هذه اللهجة وجدناها حقًّا شديدة الصلة باللغة الجاهلية ، فهى لا تكاد تفترق عنها فى أبواب الضمير والفعل وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة والنسبة والتصغير وحروف الجر والعطف وكذلك الشأن فى التذكير والتأنيث للاسم والفعل . ونجدهم يذكرون بين آلهتهم الله جلّ وعز . وتدور فى نقوشهم كلمات عربية كثيرة مثل سلام ونذر ونذور وحب وخلد وحسن ولطف ورءوف وسعود ومرأة وأمة وعبد ورب وسعد ، ويتقدم اسم القبيلة لفظ أل أو بنى مثل آل قصى وبنى سهم .

واستخرج ليتمان من نقوشهم ثلاثمائة اسم تتفق مع الأسماء العربية وهى مدونة فى كتابه : (Nabataean Inscriptions) من مثل أمين ، أمة ، أمة الله ، أوس ، إياس ، أوس الله ، أوس البعل ، بدر ، بكر ، تيم ، تيم الله ، تيم ذوشرا (يعنى عبد ذى الشرا) جذيمة ، جرم ، جمل ، حجر ، حارث ، حارثة ، حنظل ، حيان ، رجب ، زيد ، سبع ، سعد ، سلم ، مسلم ، سكينة ، سمية ، أسود ، صعب ،

عدى ، عقرب ، على ، عمر ، عمير ، عميرة ، عياض ، غالب ، غانم ، غوث ، مغير ، فهر ، قصى ، كعب ، لخم ، مجد ، امرؤ الله ، امرؤ القيس ، معن ، مالك ، نصر ، نزار ، نعيمة ، نقيب ، تنوخ ، هانئ ، وائل ، وحش ، ورد ، وهب ، وهبان ، وهب الله .

والنبطية بذلك كله تعد وثيقة الصلة بعربية الجاهلية ، وهو طور قريب منها قرباً شديداً . ومن المؤكد أن العرب أخذوا يتطورون بلغتهم تطوراً سريعاً فى القرون الأولى للميلاد بالضبط كما أخذوا يتطورون بالخط النبطى مشتقين منه خطهم العربى على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع .

٣

نشوء الفصحى

ليس من السهل تحديد الزمن الذى اتخذتْ فيه لغتنا العربية شكلها النهائى الذى تصوره الفصحى الجاهلية ، وهو شكل كامل النضج سواء من حيث الإعراب والتصريف والاشتقاق أو من حيث التنويع الواسع فى الجموع والمصادر وحروف العطف وأدوات الاستثناء والنفى والتعريف والتنكير والانتهاء بالممنوع من الصرف إلى نظام تام منضبط مضافاً إلى ذلك احتفاظها بحروف ومخارج لم تحتفظ بها لغة سامية احتفاظاً كاملا ، وهى الثاء والخاء والذال والظاء والضاد والغين .

وهذه الصورة التامة لفصحانا لم تصل إليها إلا بعد مراحل طويلة من النمو والتطور ، وقد رأينا نماذج منها فى نقوش كتبت بأبجدية مشتقة من أبجدية المسند الجنوبى ، وهى نقوش الثموديين واللحيانيين والصفويين ، ونقوش أخرى كتبت بأبجدية الآراميين ، وهى نقوش النبطيين ، غير أنها جميعاً لا تصور هذا التكامل الذى انتهت إليه الفصحى ، والذى تمثله نصوص العصر الجاهلى منذ أواخر القرن الخامس الميلادى ، وأوائل السادس ، فهل تم لها ذلك التشكل النهائى مع ظهور الشعر الجاهلى أو أن ذلك تمّ فى حقب أبعد منه ؟ .

ليست الإجابة على هذا السؤال سهلة يسيرة ، لسبب بسيط أو طبيعى ، وهو

أنه ليس بين أيدينا نقوش كثيرة ، نستطيع أن نعرف منها بالضبط الزمن الذى يعد بدءاً حقيقياً للفصحى . وحقاً عثر علماء الساميات كما قدمنا فى غير هذا الموضع على نقوش تمتد من أواخر القرن الثالث الميلادى إلى القرن السادس، غير أنها قليلة ، ثم هى قصيرة ، وأكثرها فى أمور شخصية ، وليس بينها نص أدبى أو نص طويل يمكن أن نتبين فى تضاعيفه جملة الخصائص اللغوية لتلك اللغة التى كان يتحدث بها كتبة هذه النقوش، وجميعها على لسان الشخص الثالث الغائب، وليس بينها نص على لسان مخاطب أو متكلم، وهى تخلو خلواً تاماً من الشكل والحركات وحروف العلة وعلامات الإعراب .

على أن من يرجع إلى هذه النقوش يجدها تقترب اقتراباً شديداً من فصحانا ، وقد وقفنا فى الفصل الأول عند أقدمها وهو نقش النمارة المؤرخ بسنة ثمان وعشرين وثلاثمائة ، وهو لامرئ القيس ثانى ملوك الحيرة ، وُضع على قبره فى النمارة شرقىّ جبل الدروز ، وقد لاحظنا أن كاتبه استخدم كلمة بر الآرامية بدلا من ابن العربية ، غير أن النقش بعد ذلك تام فى عروبته سواء من حيث الأسماء والأفعال ، أو من حيث استخدام أداة التعريف العربية أل . وأيضاً فإن خطه المكتوب به مع اشتقاقه من الخط النبطى يعد مقدمة للخط العربى . إذ توجد فيه الروابط بين الحروف كما تتخذ الحروف فيه شكلا أكثر استدارة .

ولعلنا لا نبعد إذ اتخذنا هذا النقش بَدْءًا لتكون الفصحى، وقد لُقِّب امرؤ القيس فيه بلقب ملك العرب ، وهى أول مرة نعثر فيها على هذا اللقب ، وقد يكون فى ذلك ما يدل دلالة واضحة على أن العرب أخذوا يفكرون فى إنشاء وحدة سياسية لهم منذ هذا التاريخ ، وكانوا قبله لا يفكرون فى هذه الوحدة ولا فى أن يستقلوا بخط خاص بهم يميزهم أو يميز كتابتهم من كتابة المسند الجنوبية وكتابة الآراميين الشمالية .

ومعنى ذلك أننا نتخذ من هذا النقش رمزاً لإحساسهم إحساساً عميقا بوجوب اتحادهم إزاء الدول التى كانت تناهضهم فى الشمالين الغربى والشرقى ، ونقصد دولتى الروم والفرس، فقد قضى الروم على دولة أسلافهم من النبط فى سَلْع وتدمر وفرضوا سيادتهم على القبائل العربية المجاورة لهم ، وبالمثل فرض الفرس سيادتهم

على الحيرة وقبائل العراق . وهذا فى الشمال ، أما فى الجنوب فقد هاجم الحبش اليمن واستولوا عليها فى أواسط القرن الرابع لمدة عشرين عاماً ، وعادوا فى سنة ٥٢٥ فاستولوا عليها .

والذى لا ريب فيه أن هذه الأحداث جعلت العرب يشعرون أنهم مهددون فى الشمال والجنوب ، وليس ذلك فحسب ، فإنهم رأوا الديانتين اليهودية والنصرانية وكذلك الديانة الفارسية المجوسية ، رأوا كل هذه الديانات تغزو دينهم . وكان هذا كله حافزاً لهم أن يقاوموا من يريدون أن يتخطفوهم ، فنمت شخصيتهم السياسية ، وأخذوا يكونون لهم إمارات مختلفة فى الشمال ، يتجمعون حولها ، والتفت قلوبهم وأهواؤهم حول مكة بيت أصنامهم وكعبتهم الكبرى . وفى هذه الأثناء أخذوا يسقطون إلى الجنوب منذ القرن الرابع ليؤازروا إخوانهم اليمنيين فى مقاومة عدوهم المشترك من الأحباش ، وكان اليمنيون يرحبون بهم ، لما يقدمونه لهم من عون ومساعدة .

وليس هذا كل ما نلاحظه ، فنحن نلاحظ أيضاً أن زمام القوافل التجارية يتحول إلى مكة ، فلم يعد بيد اليمنيين المهددين بالأحباش ولم يعد بيد النبط المهددين بالروم ، وإنما أصبح بيد المكيين البعيدين عن الدولتين ، وربما كانوا يرجعون فى أصولهم إلى النبط ، وكأنما هبطوا إليها بعيداً عن الروم وجيوشهم وما يبغون من فرض سيادتهم عليهم . والمظنون أن الثموديين هبطوا بدورهم إلى الطائف ، أما اللحيانيون فسقطوا إلى منازل هذيل .

وفى هذه الأثناء أخذت شخصية هؤلاء العرب الشماليين اللغوية تنمو نمواً سريعاً ، كما أخذ خطهم هو الآخر ينمو فى سرعة ، على نحو ما يصور لنا ذلك نقش زبد المؤرخ بسنة ٥١٢ للميلاد . وزبد خربة بين قنسرين ونهر الفرات ، ونقشها مكتوب بثلاث لغات : العربية واليونانية والسريانية ، وهو يتضمن أسماء أشخاص بنوا كنيسة بموضعه ، وأهميته ترجع إلى أن خصائص الخط العربى الجاهلى تتكامل فيه . ومن المؤكد أنه حدثت تطورات مختلفة فى الحقبة الممتدة بينه وبين نقش النمارة هيأت له هذه الصيغة الخطية النهائية . وعلى مثاله نقش حران اللّجا المؤرخ بسنة ٥٦٨ للميلاد ، وقد وُجد على باب معبد بنوه فى الشمال الغربى لجبل الدروز جنوبى دمشق ، وجميع كلماته وعباراته عربية ، وهو يمضى على هذا النحو :

« أنا شرحيل (شرحبيل) بر (بن) ظلمو (ظالم) بنيت ذا المرطول (المعبد) سنة ٤٦٣ بعد مفسد (خراب) خيبر بعم (بعام) » . وهو يشير إلى غزو أحد أمراء غسان لخيبر ، وقد ألحقت بكلمة ظالم واو وفقاً لقواعد النبط فى كتابة أعلامهم المنصرفة ، وحذف حرف العلة من كلمة « عام » وهى نفس الصورة المألوفة فى الأقلام الإسلامية الأولى .

ونرى من ذلك أن الخط العربى تكامل مع أوائل القرن السادس كما تكاملت الفصحى نفسها وأخذت شكلها النهائى بشهادة نصوص الشعر الجاهلى التى يرجع أقدمها إلى أواخر القرن الخامس ، فمنذ هذا التاريخ تقاربت لهجات القبائل ، وأصبحت هناك لغة أدبية عامة ، هى الفصحى ، ينظم بها شعراء العرب جميعاً شعرهم. وتدل دلالات كثيرة على أن هذه اللغة أخذت تنتشر لا بين القبائل الشمالية وحدها ، تلك التى عاشت فى الشمال ، فقد حملتها إلى الجنوب القبائل التى تسقط فيه ، وانجذب كثير من الجنوبيين إلى المحيط اللغوى الشمالى ، وخاصة من كانوا يجاورون الشماليين مثل سكان نجران وقبائل الأزد فى جنوبى الحجاز .

ومعنى ذلك أنه كان يعاصر اكتمال الفصحى حركة تعريب قوية فى الجنوب ، ولسنا نريد أن نبالغ فى هذه الحركة فإنها إنما كانت تتناول القبائل الشمالية من هذا الجنوب ، أما فى داخل اليمن وفى ظَفار فقد كانت اللغة الجنوبية لا تزال سائدة كما تدل على ذلك نقوشهم . ونستطيع الآن أن نفهم قول أبى عمرو بن العلاء : « ما لسان حمير وأقاصى اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا »[1] فإنه ينص على أن لسان اليمنيين الداخليين ومن يجرى مجراهم هو الذى يخالف لسان العرب الشماليين . بل لعلنا لا نبعد إذا قلنا إن اليمنيين الداخليين أنفسهم أخذوا فى التعرب ، فإن من يرجع إلى وثيقة أبرهة التى دونها سنة ٥٤٣ للميلاد عند ترميمه لسد مأرب[2] يلاحظ تواً تقارباً فى الكلمات أسماء وأفعالا من اللغة الشمالية ، وحقاً تحتفظ الوثيقة بجملة الخصائص اللغوية للغة الجنوبية ، لكننا نجد فى تضاعيفها صيغاً تشبه الصيغ

---

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام (طبعة دار المعارف) ص ١١ .

(٢) انظر هذه الوثيقة فى الجزء الأول من المجلد الرابع من مجلة المجمع العلمى العراقى وتعليق جواد على عليها .

العربية شبهاً تاماً ، من مثل : « كن لهو خلفتن وقسد » أى كان له خليفة وقاسد ، وكلمة قاسد معناها قائد فى اللغة الجنوبية .

فنحن لا نصل إلى العصر الجاهلى الذى نتحدث عنه حتى نجد الفصحى قد تكاملت وتكامل معها خطها ، وأخذت تغزو العربية الجنوبية ، وتنتصر عليها انتصارات تختلف قرباً وبعداً ، فهى فى الجهات القريبة منها تكتسحها اكتساحاً ، وهى فى الجهات البعيدة تؤثر تأثيراً يختلف قوة وضعفاً . على أنه ينبغى أن نعترف بأن اليمينيين كانوا فى نقوشهم يحافظون على لغتهم القديمة المرتبطة بدينهم وآلهتهم ، اما فى حياتهم اليومية وخاصة فى أطرافهم الشمالية فإنهم كانوا يتحدثون بعربيتنا الفصحى .

٤

لهجات جاهلية(١)

على الرغم من شيوع لغة أدبية عامة فى العصر الجاهلى كانت هناك لهجات كثيرة تميزت بها بعض القبائل ، وظلت آثارها واضحة على ألسنتها إلى القرن الثانى للهجرة ، فسجلها اللغويون ، غير أنهم لم يعنوا غالباً بنسبة هذه اللهجات إلى أصحابها فقد كانت تهمهم الصحة اللغوية من حيث هى ، وكأنهم يريدون التنبيه على ما يخالف اللغة الأدبية العامة التى نزل بلسانها القرآن الكريم . ونحن لا ننكر أنهم نصوا أحياناً على القبيلة التى تنطق اللهجة الشاذة ، ولكنهم لم يعمموا ذلك فيما حملوه إلينا بحيث أصبحنا أمام ركام واسع من لهجات لا نستطيع تعيين القبيلة أو القبائل التى كانت تنطق بها إلا فى الندرة والحين بعد الحين ، فمن ذلك الكشكشة والكسكسة ، وهما تخصان ضمير المخاطبة ، إذ كان بعض تميم وأسد ، وقيل أيضاً بعض بنى ربيعة يلحقون بكاف المخاطبة شيناً فى الوقف ، وفى الوصل أحياناً ، فيقولون : رأيتكش وعليكش وبكش وكانت بعض قبائل ربيعة تلحق السين بدل

---

(١) انظر فى هذه اللهجات كتاب المزهر للسيوطى فى مواضع متفرقة وكتاب الصاحبى فى فقه اللغة لأحمد بن فارس ومقالة ليتمان بمجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، المجلد العاشر ، العدد الأول وكتاب Ancient West-Arabian لرابين .

الشين فتقول رأيتكس وعليكس وبكس ، وكان منهم من يحذف الكاف ويضع مكانها الشين أو السين .

ومن ذلك العنعنة، وهى فى تميم وبعض قيس وأسد، إذ يجعلون الهمزة عيناً فى بعض الكلمات، فيلفظون استعدى بدلا من استأدى، ويلفظون أعدى بدلاً من آدى ، ويقال إن بعض بنى طيء كان يقول دَأْنى عوضًا عن دعنى . وكان هناك من يلفظ لعل لأن ، بإبدال اللام أيضا نوناً ، وقالوا بدلا من أنْ وأنَّ عنْ وعنَّ .

وتقرب من العنعنة الفحفحة، وكانت فى هُذَيْل إذ تبدل الحاء عيناً، ويقال إن بنى ثَقيف كانوا يصنعون صنيع الهذليين فى ذلك فيقولون فى حتّى عتّى . وهذه اللهجات جميعاً كانت تشيع فى بعض القبائل الشمالية المضرية ، ومثلها التضجع وهو الإمالة ، إذ كانت تميم وقيس وأسد تميل إلى إمالة الألف ، وكان الحجازيون ينطقونها بتفخيم فلا يُميلون . ويظهر أن ذلك لم يكن عامًّا فى القبيلة الواحدة ، فقد كان بعض الأفراد يميل وبعضهم لا يميل، يقول سيبويه: « اعلم أنه ليس كل من أمال الألفات وافق غيره من العرب ممن يميل ، ولكنه قد يخالف كل واحد من الفريقين صاحبه فينْصِبُ بعضٌ ما يُميل صاحبه، ويُميل بعضٌ ما ينصب صاحبه . وكذلك من كان النصب فى لغته لا يوافق غيره ممن ينصب، ولكن أمره وأمر صاحبه كأمر الأولين فى الكسر (الإمالة) فإذا رأيت عربياً كذلك فلا ترينه خلَّط فى لغته ولكن هذا من أمرهم » . ونستطيع أن نمد ملاحظة سيبويه إلى اللهجات الشاذة التى حكيناها ، فمن الممكن أن يكون بعض أفراد القبيلة قد تبع اللغة الأدبية العامة ، بل من الممكن أن تكون بعض العشائر فى قبيلة بعينها قد هجرت لهجة قبيلتها ، ولعل هذا هو سبب اختلاط نسبة هذه اللهجات عند اللغويين إذ نرى بينهم اختلافاً فى الكشكشة مثلا هل كانت فى تميم أو كانت فى بكر أو كانت فى قيس أو كانت فيهم جميعاً ، وأغلب الظن أن مرجع هذا الاختلاف إلى ما لا حظه سيبويه فى الإمالة من أن عشيرة أو أفراداً فى قبيلة تميل قد لا تميل ، وبالمثل يمكن أن يكون ذلك نفسه حدث فى اللهجات الشاذة التى رويت عن بعض القبائل المضرية .

وقد نسب اللغويون إلى قبائل مضرية وأخرى قحطانية ما سموه الاستنطاء إذ

كانت قبائل هذيل وقيس والأزد والأنصار فى يثرب تبدل العين نوناً فى مثل أعطى فتقول أنطى ، وأغلب الظن أن هذا ليس إبدالا كما لاحظ ليمان ، وإنما هما فعلان مختلفان .

وهناك لهجات نسبها اللغويون إلى القحطانيين ، من ذلك التلتلة فى قُضاعة وبَهْراء إذ يكسرون الفعل المضارع فيقولون : تِعلمون وتِكتبون وتِنجحون كما نصنع فى عاميتنا المصرية . ومن ذلك العجعجة فى قضاعة إذ يجعلون الياء المشددة جيما ، فيقولون تميمج فى تميمى ، وقال ابن فارس إن إبدال ياء المتكلم جيما وُجد عند بنى تميم ، وقال الزمخشرى إن بنى حنظلة التميميين كانوا يبدلون الياء المشددة لصيغة النسبة جيما مشددة .

ونسب الرواة إلى قبيلة كلب اليمنية ما سموه الوهم ، وهو كسر الهاء فى ضمير الغائبين وإن لم يكن قبلها ياء ولا كسرة فيقولون : منهِم وعنهِم وبينهِم . وسُمع عن قوم منهم ما سمى بالوكم إذ يكسرون الكاف فى ضمير المخاطبين إذا سبقها ياء أو كسرة ، فيقولون : عليكِم وبكِم بكسر الكاف فيهما . واشتهرت حمير وأهل اليمن وبعض عشائر طيىء بالطمطمانية ، وهى إبدال لام التعريف ميما ، فيقولون فى السهم والبر والصيام : امسهم ، وامبر ، وامصيام ، وهذا ليس إبدالا ، وإنما هى لهجة يمنية ، إذ كانوا يعرِّفون بالألف والميم ، ولعل فى ذلك ما يدل على صحة ما ذهب إليه النسابون من أن طيىء قبيلة يمنية ، ولا تزال لذلك بقية فى عاميتنا المصرية إذ نقول بدلا من البارحة إمبارح وأول امبارح . ومما ينسب إلى بعض القبائل اليمنية الشَّنْشنة إذ يجعلون كاف الخطاب شينا مطلقاً ، فيقولون بدلا من لبيك اللهم لبيك لبيش اللهم لبيش ، وهم فى ذلك يلتقون بأصحاب الكشكشة فى بعض وجوهها من المضريين . وينسب إلى بعض الحميريين أنهم كانوا يجعلون السين تاء فى بعض الكلمات فيقولون : النات بدل الناس . ويستشهد اللغويون على ذلك بقول علباء بن أرقم :

يا قبَّح الله بنى السِّعلات عمرو بن يربوعٍ شرار الناتِ
ليسوا أَعِفَّاء ولا أكياتِ

وواضح أنه استعمل النات بدل الناس والأكيات بدل الأكياس . على أن هذا الشاعر ليس حميريًّا وإنما هو من بكر ، وأكبر الظن أنه اضطر لذلك من أجل القافية ورويِّها .

وفى كتب اللغة كثير من هذه اللهجات الشاذة التى كانت تنفرد بها بعض القبائل ، وقد عقد السيوطى فى المزهر فصلا لألفاظ اختلفت فيها لغة تميم والحجازيين ، ويمكن أن نمد هذا الفصل للبحث فيما كان بين القبائل الشرقية والغربية من خلافات لغوية .

ولعل أهم ما سجله اللغويون من فروق بين التميميين والحجازيين أن الأولين كانوا يحققون الهمزة وكان الثانون يسهّلونها فمثل سأل يسأل سؤالا عند الأولين يقابل سال يسلُ سوالا عند الثانين ، ومثل رثأت وعباءة ونبئ عند الأولين يقابل رثيت وعباية ونبى عند الثانين . ويظهر أن ذلك لم يكن يطرد فى كل الكلمات ولا على جميع الألسنة فى الجانبين المتقابلين من الجزيرة . وكان التميميون يدغمون الحرف الثانى فى الثالث فى أمرٍ مثل ردّ ، بينما كان يفك الحجازيون الإدغام فيقولون : ارْدُدْ ، وهذه أيضًا فيما نظن كانت مسألة حِسٍّ ، فكان بين الفريقين من يجارى الفريق الآخر . ومما اشتهر بينهما من فروق إهمالُ ما عند التميميين فى نحو ما زيد قائم وإعمالها عند الحجازيين فيقولون ما زيد قائما ، ومن ذلك أيضاً أن الحجازيين كانوا يُجرْون « هلمّ » مجرى أسماء الأفعال مثل صه ، فيلزمونها طريقاً واحداً فى مخاطبة المفرد والمفردة والاثنين والاثنتين والجماعتين ، فيقولون : هلم يا رجل وهلم يا امرأة وهلم يا رجلان وهلم يا امرأتان وهلم يا رجال وهلم يا نساء ، أما التميميون فكانوا يجرونها مجرى الأفعال ، فيقولون : هلم وهلمى وهلما وهلموا وهلممن يا نسوة ، وبلغة الحجازيين نزل القرآن الكريم فى قوله تعالى : « والقائلين لإخوانهم هلمّ إلينا » . ومن ذلك أمس عند الحجازيين فإنها تلزم البناء على الكسر ، أما التميميون فكانوا يقولون أمسُ فى الرفع وأمسَ بفتح السين فى الجر والنصب . ومن ذلك هيهات فإنها تلزم فتح التاء عند الحجازيين بينما تلزم الكسر عند التميميين فيقولون هيهات ، ورُوى فيها الإعراب بالحركات . ومن ذلك تنوين الترنم فى قوافى الشعر ، فقد كان الحجازيون يطلقون القافية ، ليفرقوا بين الشعر الذى يغنّى والكلام المنثور ، وكان التميميون يبدلون المدّ فى القافية نونا ، على نحو ما عُرف عن جرير فى قصيدته :

أَقِلِّى اللوم عـــاذل والعِتابَنْ وقولى إن أَصبتُ لقد أَصابَنْ

فقد أبدل المدّ نوناً فى « العتابن » و « أصابن » وهو يحذف فى لغة الحجازيين ، فيصبح البيت على هذا النمط :

أقلى اللوم عـاذل والعتابا   وقولى إن أصبتُ لقد أصابا

وروى اللغويون كثيرًا من اختلاف الفريقين فى همس الحركات والجهر بها ومدّها ، فبينما يمد الحجازيون الألف فى مثل كلاب يقصرها التميميون فيقولون كلب ، وبينما يقول الأولون ناداه يقول الثانون : ندَّهُ ، وبذلك ننطق فى عاميتنا المصرية ، ويقول الحجازيون خمس عشرةَ بتسكين الشين وتميم تفتحها ، ومنهم من يكسرها ومن يثقلها ، ويقول الحجازيون يبطش بكسر الطاء ويقول التميميون يبطش بضمها ، ويقول الحجازيون مرية بكسر الميم ويقول التميميون مرية بضمها ، ويقول الحجازيون الحج بكسر الحاء ويقول التميميون الحج بفتحها ، ويقول الحجازيون تخذت وتخذت ويقول التميميون اتخذت ، ويقول الحجازيون قلنسية بالياء ويقول التميميون قلنسوة بالواو ، ويقول الحجازيون ينقدالدراهم ويقول التميميون ينتقد ، ويقول الحجازيون القير ويقول التميميون القار ، ويقول الحجازيون الكراهة ، ويقول التميميون الكراهية ، ويقول الحجازيون ليلة ضحيانة (مصحية) ويقول التميميون إضحيانة ، ويقول الحجازيون منذ ويسقط التميميون النون فيقولون مذ ، ويقول الحجازيون برأت من المرض بفتح الراء فى الفعل ويقول التميميون برئت بكسرها ، ويقول الحجازيون أنا منك بَراء ، ويقول التميميون برىء ، ويقول الحجازيون قلوت القمح وأقلوه قلواً ويقول التميميون قليته وأقليه قِلّى ، ويقول الحجازيون لى بك إسوة وقدوة بكسر أولهما ويضمه التميميون فيقولون أسوة وقدوة بالضم ، ويقول الحجازيون : الشفع والوتر بفتح الواو فى الوتر ، ويكسرها التميميون فيقولون الوتر ، ويقول الحجازيون وكدت والتميميون أكدت .

ولعل خير مرجع يصور الاختلافات بين الفريقين هو قراءات القرآن الكريم ، فمثلا فى قوله تعالى : (فنظرة إلى ميسرة) قرأ الجمهور نظرة بكسر الظاء وهى لغة قريش ، وقرأ مجاهد والضحاك نظرة بسكون الظاء وهى لغة تميم ، وقال جلّ ذكره : (ورضوان من الله أكبر) وقرئت رضوان بكسر الراء وهى لغة الحجازيين وقرئت بضمها وهى لغة تميم وبكر ، وقال تبارك وتعالى : (وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى) وقرأ الجمهور كسالى بضم الكاف وهى لغة الحجازيين ، وقرأها الأعرج بالكسر وهى لغة تميم وأسد ، وقال : (وليجدوا فيكم غلظة) وقرأ الجمهور غلظة

بكسر الغين وهي لغة الحجازيين ، وقرأها السلمي وأبو حَيْوة بالضمة ، وهي لغة تميم ، وقال : (إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما) وقرأ الجمهور يستحيي بياءين ، وهي لغة أهل الحجاز وقرأ ابن كثير يستحي بياء واحدة ، وهي لغة تميم ، وقال : (ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل) وقرئت الرسل بتسكين السين وهي لغة الحجازيين ، وقرئت بضمها وهي لغة التميميين ، وقال : (وإن أحْصرتم فما استيسَر من الهدى) وقرئت الهدى بتسكين الدال وتخفيف الهاء ، وهي لغة أهل الحجاز وقرئت بكسر الدال وتشديد الياء ، وهي لغة تميم ، وقال : (وآتوا حقه يوم حَصاده) وقرئت الحصاد بكسر الحاء وهي لغة الحجازيين وبفتحها وهي لغة تميم وقيس ، وقال تبارك وتعالى : (وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطاً أمماً) وقرئت عشرة بتسكين الشين وهي لغة الحجازيين وقرئت بكسرها وهي إحدى لغات تميم فيها كما قدمنا .

وهناك لهجات كثيرة نسبت إلى بعض القبائل ، فقد قالوا إن بنى مازن كانوا يبدلون من الباء ميماً ، فيقولون : باسمك بدلا من ما اسمك ، ويقولون بكة بدلا من مكة والبوباة بدلا من الموماة وهى الفلاة ، ويقال إن اطبأن بدلا من اطمأن لغة فى بنى أسد . ولا نعرف بالضبط أكان ذلك يشيع فى كل الكلمات الميمية أو أن ذلك كان خاصًّا ببعض الكلمات . ويقال إن بعض بنى تميم كان ينطق أثاثى بدلا من أثافى جمع أثفية ، ولعل كلمة تم بمعنى فم عند إخواننا الشاميين قد تطورت عن ثم ، فقلبت الفاء فيها أولا ثاء ثم أصبحت مع الزمن تاء تخفيفا . ويقال إن بنى عبد القيس فى البحرين كانوا يقولون رنز بدلا من رز وأرز ، كما كانوا يقولون إنجاص فى إجاص ، ويقال إن بعض بنى تميم كانوا يقولون فى أفلت أفلط بالطاء ، ويقال إن قريشاً كانت تقول التابوت بينما كان الأنصار فى يثْرب يقولون التابوه ، ويروى عن بعض الطائيين أنهم كانوا يقلبون تاء الجمع المؤنث هاء فى الوقف فيقولون البناه والأخواه فى البنات والأخوات . ويقال إن بعض ربيعة كانوا يقولون دكر فى ذكر ، على نحو ما نعرف فى عاميتنا ، ويقال أيضًا إن بعض التميميين كانوا يبدلون السين صاداً فى مثل سوق وساق ، وفى عاميتنا راص بمعنى رأس . وتتبادل الضاد والظاء فى كثير من الكلمات ، ففى لغة تميم فاضت نفسه ، وفى لغة الحجازيين

والقيسيين والطائيين فاظت نفسه بالظاء . ومن هذه اللهجات أن طيئاً كانت تفتح الفعل اليائى فى مثل بقى ورضى فتقول بَقَى ورضى ، وكانوا يقولون فى مثل توصية وجارية وناصية مما ياؤه مفتوحة توصاة وجاراة وناصاة . وأثر عن هذيل أنها كانت تستخدم متى حرف جر بمعنى من ، وأنها كانت مثل كنانة والحجازيين تقول نعم بكسر العين بدلا من نَعَم وأنها كانت تكسر الباء فى ابن فتقول ابِن ، وأنها كانت تقول إشاح فى مثل وشاح ، ومر بنا أنها كانت تقلب الحاء عيناً فى مثل حتى ، فتقول عتى ، وأنها كانت تقول فى مثل أعطى أنطى ، وكانت تقلب الألف ياء فى مثل عصاى وهواى وفتاى فتقول عصىّ وهوى وفتىّ وكانت تنطق مثل قال و باع إذا بنيا للمجهول قول وبوع بقلب الألف واواً ، وكانت لا تشبع كسرة المنقوص بل تهمسها وتخطفها كما جاء فى بعض القراءات : (والليل إذا يَسْر) بدون ياء .

وقد عقد أحمد بن فارس فى كتابه « الصاحبى » فصلا حاول فيه أن يضبط اختلاف لهجات العرب ، فقال : « اختلاف لغات العرب من وجوه : أحدها الاختلاف فى الحركات كقولنا نستعين بفتح النون وكسرها ، قال الفراء هى مفتوحة فى لغة قريش وأسد ، وغيرهم يقولونها بكسر النون . ووجه آخر : الاختلاف فى الحركة والسكون مثل قولهم معكم بفتح العين وتسكينها . ووجه آخر ، هو الاختلاف فى إبدال الحروف نحو أولئك وأولالك . . ومنها قولهم أن زيداً وعنّ زيداً . ومن ذلك الاختلاف فى الهمز والتليين نحو مستهزئون ومستهزون . ومنها الاختلاف فى التقديم والتأخير نحو صاعقة (فى لغة الحجازيين) وصاقعة (فى لغة التميميين) . ومنها الاختلاف فى الحذف والإثبات نحو استحييت واستحيت وصددت وأصددت . ومنها الاختلاف فى الحرف الصحيح يُبْدَلُ حرفاً معتلا نحو أما زيد وأيما زيد. ومنها الاختلاف فى الإمالة والتفخيم فى مثل قضى ورمى ، فبعضهم يفخم وبعضهم يميل . ومنها الاختلاف فى الحرف الساكن يستقبله مثله ، فنهم من يكسر الأول ومنهم من يضم فيقول : (اشترُوا الضلالة) و (اشترِو الضلالة) . ومنها الاختلاف فى التذكير والتأنيث فإن من العرب من يقول هذه البقر وهذه النخيل ، ومنهم من يقول هذا البقر وهذا النخيل . ومنها الاختلاف فى الإدغام نحو مهتدون ومهدّون . ومنها الاختلاف فى الإعراب نحو ما زيد قائماً وما زيد قائم ، وإن هذين وإن هذان ،

وهذان بالألف دائماً لغة لبنى الحارث بن كعب . . ومنها الاختلاف فى صورة الجمع نحو أسرى وأسارى . ومنها الاختلاف فى التحقيق والاختلاس نحو يأمركم بضم الراء وتسكينها ونحو عُنى له بتسكين الفاء وكسرها . ومنها الاختلاف فى الوقف على هاء التأنيث مثل هذه أمة وهذه أمتْ . ومنها الاختلاف فى الزيادة نحو أنظرُ وأنظورُ » وقال ابن فارس إنه « يقع فى الكلمة الواحدة لغتان كقولهم الحصاد والحَصاد بكسر الحاء وفتحها ، ويقع فى الكلمة ثلاث لغات نحو الزُّجاج والزَّجاج والزِّجاج بضم الزاى وفتحها وكسرها ، ويقع فى الكلمة أربع لغات... ويكون فيها خمْس لغات نحو الشَّمال والشَّمَل والشَّمْل والشَّمْأل والشَّيْمل . ويكون فيها ست لغات نحو قسطاس بضم القاف وكسرها وبإبدال السين صادا مع ضم القاف وقُسْتاط وقِسَّاط وقُسَّاط .

ووراء هذه الاختلافات فى نطق الكلمات كان بينهم اختلاف كثير فى التعبير عن بعض المسميات مما نشأ عنه كثْرة المترادفات فى العربية مثل الذهب والعسجد والغيث والمطر والقمح والبُرّ ، قال الجاحظ فى البيان والتبيين : « القمح لغة شامية والحنطة لغة كوفية والبر لغة حجازية » ويقول المفسرون فى تفسير قوله تبارك وتعالى : (وفومها) الفوم هو الحنطة . وكما يكون الترادف فى الأسماء يكون فى الأفعال مثل تقاتلوا وتعاركوا وتحاربوا وتواقعوا وتخاصموا . وكثيراً ما ينشأ الترادف من اختلافات لهجاتهم فى حذف بعض الحروف أو إبدال بعضها ببعض مثل جدث وجدف بمعنى القبر ومثل تابوت وتابوه وثابوت ومثل ادكر واذكر وساط وشاط بمعنى اختلط ، ومثل لثام ولفام فى لغة ومثل سجعت الحمامة وسجحت بالحاء ومثل حظوة وحظة فى لغة .

والترادف فى العربية كثير كثْرة مفرطة ، وهو يُرَدُّ فى جمهوره إلى اختلاف اللهجات واختلاف القبائل فيما وضعته للمعانى الحسية والذهنية من أسماء وأفعال ، فإن اللغويين جمعوا كل ما دار على ألسنة القوم ، وبذلك اتسعت مادة المعجم العربى اتساعاً شديداً ، وهو فى حقيقته معجم عدة لهجات ، نُظمت فى سلك واحد هو العربية ، وحقًّا ميَّز اللغويون فى مباحثهم الشواذ والشوارد والنوادر والمنكر والمتروك وغير الفصيح وساقوا فى ذلك شواهد احتفظ السيوطى فى المزهر بكثير منها ،

ولكنهم حين ألفوا المعاجم حشدوها فيها جميعاً . وقد ذهبوا يحصون أسماء السيف مثلا ويقولون إنها خمسون ، وبالمثل أحصوا أسماء الأسد والفرس والبعير ، وأمدتهم الاختلافات اللغوية بين القبائل بمدد لا ينفد أو بعبارة أدق لا يكاد ينفد فى ذلك كله . ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن لغة من اللغات لا يمكن أن تجارى العربية فى هذا الباب : باب الترادف ، فهو باب واسع فيها ، وقد أعدها ليشيع فيها أسلوب من التكرار الصوتى والترادف الموسيقى عند الجاحظ وأضرابه .

ومما يرجع أيضاً إلى اللهجات الجاهلية وتباين التعبير فيها عن المسميات وتعدده بابُ الأضداد ، إذ نجد كلمة واحدة تستعملها قبيلة بمعنى ، ثم تشيع عند قبيلة ثانية لا بمعنى مغاير له فحسب ، بل بمعنى مضاد يناقضه ، مثل جلل بمعنى عظيم فإننا نجد المعاجم تنصّ على أنها تأتى بمعنى حقير ، ومن ذلك الجَوْن يوصف به الأسود والأبيض ويدلّ عليهما ، ومثله البَسْل بمعنى الحلال والحرام . وعلى شاكلة التضاد فى الأسماء قد يكون التضاد فى الأفعال فتعبر عن معنيين متناقضين مثل رجا بمعنى رغب وخاف ومثل شرى بمعناها الذى نعرفه وهو اشترى وبمعنى باع الذى يضاده . وتكثر الأضداد لنفس السبب الذى كثرت من أجله المترادفات ، وهو أنها ليست من استعمال قبيلة واحدة ، وقد أفرد اللغويون لها بسبب كثرتها أبحاثاً وكتباً مثل كتاب الأضداد لابن الأنبارى . ونحن إنما نقصد ما يتضح فيه التضاد مما مثلنا به ، فإن اللغويين وسّعوا مفهوم الضد ، حتى شمل ما يكون بين استعمالين من فروق ضئيلة فى المعنى مثل ناء بمعنى حمل ، وبمعنى حمل بمشقة ، وأيضا فإنهم أدخلوا فى الأضداد ما نشأ عن المجاز والاستعارة ، كاستخدام العرب كلمة السليم للملدوغ بأفعى تفاؤلا . فهذا ونحوه لا يُعَدّ من الأضداد بمفهومها اللغوى الدقيق ، إنما الذى يعد من الأضداد مثل ما ذكرناه ومثل الرهوة بمعنى الارتفاع والانحدار ومثل الصّريم بمعنى الليل والصبح والصارخ بمعنى المغيث والمستغيث والزبية للمكان المرتفع ولحفرة الأسد . ومرجع ذلك كما قلنا أنهم كانوا فى الجزيرة متباعدين ، فقد تطلق قبيلة كلمة على مسمى ، ولا تسمع بها القبيلة البعيدة ، فتضعها لمسمى يضاده ويكون ذلك اتفاقاً ومحض مصادفة ، قال أبو عبيد فى باب الأضداد من كتابه الغريب المصنف : سمعت أبا زيد بن أوس الأنصارى

يقول : « السُّدْفة فى لغة تميم الظلمة والسدفة فى لغة قيس الضوء .. ولمقت الشيء ألمقه لمقاً إذا كتبته فى لغة بنى عقيل وسائر قيس يقولون لمقته بمعنى محوته »[١]. وعن ابن دريد : « خرج رجل من بنى كلاب أو من سائر بنى عامر بن صعصعة إلى ذى جَدن (من أقيال حمير) فأطْلع إلى سطح ، والملك عليه ، فلما رآه الملك اختبره ، فقال له : ثِبْ أى اقعد ، فقال : ليعلم الملك أنى سامع مطيع ، ثم وثب من السطح . قال الملك : ما شأنه ؟ فقالوا له : أبيت اللّعْن ! إن الوثب فى كلام نزار الطفر (القفز) فقال الملك : ليست عربيتنا كعربيتهم »[٢]. ولم يكن هذا التضاد بين لغة نزار الفصحى ولغة الجنوبيين الحميرية فحسب ، بل كان أيضًا فى كثير من الكلمات التى كانت تدور على ألسنة القبائل الشمالية لتباعد أوطانها .

ولا نريد أن نمضى فى تصوير الاختلافات بين لهجات القبائل فى الجاهلية أكثر من ذلك ، لسبب طبيعى وهو أننا لا نستطيع أن نستوعبها فى صحف معدودة ، إنما أردنا أن نكشف عن بعض جوانبها ليتضح أنه كانت فى الجاهلية لهجات كثيرة ، سجل منها اللغويون أطرافاً ، ومن غير شك لم يسجلوها جميعاً لأنها لم تكن تعنيهم فى حد ذاتها ، إنما كان يعنيهم التنبيه على ما يخالف الفصحى التى نُظم بها الشعر الجاهلى ونزل بها القرآن الكريم ، ومن أجل ذلك لم ينصُّوا فى أكثر الأحوال على القبيلة التى كانت تنطق باللهجة الشاذة ، وأيضًا فإنهم مع نَصِّهم أحياناً على القبيلة لا نستطيع أن نتبين كما قدمنا هل كل أفرادها كانوا يصطنعون تلك اللهجة أو أن ذلك كان خاصًّا ببعض عشائرها أو ببعض أفرادها . ولعل فى هذا كله ما يوضح صعوبة دراسة اللهجات الجاهلية ، فعلى الرغم من مادتها الوفيرة التى جمعها اللغويون تظل غير واضحة ويظل المجال واسعاً فيها للظن والتخمين ، وخاصة حين نحاول أن نضع حدوداً للهجة قبيلة بعينها كلهجة تميم أو لهجة هذيل . ونفس القدماء اضطربوا فى نسبة كثير مما نسبوه إلى القبائل ، فتارة يجعلونه لتميم أو لعشيرة تميمية وتارة يجعلونه لقيس أو لعشيرة قيسية ، وأخرى يجعلونه لقضاعة أو عشيرة يمنية ، وقد يُشْركون بين قبائل متباعدة فى الظاهرة اللغوية الواحدة .

---

(١) المزهر ١/٣٨٩ .

(٢) المزهر ١/٣٩٦ .

٥

سيادة اللهجة القرشية

يدل ما بين أيدينا من شعر جاهلى دلالة قاطعة على أن القبائل العربية الشمالية اصطلحت فيما بينها على لهجة أدبية فصحى كان الشعراء على اختلاف قبائلهم وتباعدها وتقاربها ينظمون فيها شعرهم ، فالشاعر حين ينظم شعره يرتفع عن لهجة قبيلته المحلية إلى هذه اللهجة الأدبية العامة ، ومن ثم اختفت جملة الخصائص التى تميزت بها كل قبيلة فى لهجتها فلم تتضح فى شعر شعرائهم إلا قليلا جدًّا .

وقد اختلفت آراء[1] المستشرقين فى هذه اللهجة التى كان الشعراء يتخذونها لغة لشعرهم ، فقال نولدكه إن الاختلافات بين اللهجات فى الأجزاء الأساسية من جزيرة العرب ، مثل الحجاز ونجد وإقليم الفرات ، كانت قليلة ، وقد تركبت منها جميعاً هذه اللهجة الفصحى . وتبعه جويدى يقول إنها ليست لهجة معينة لقبيلة بعينها ، إنما هى مزيج من لهجات أهل نجد ومن جاورهم . وذهب فيشر إلى أنها لهجة معينة ، ولكنه لم ينسبها إلى قبيلة من القبائل . وذهب نالينو إلى أنها لغة القبائل التى اشتهرت بنظم الشعر والتى جمع اللغويون والنحاة من أهلها مادتهم اللغوية وشواهدهم ، وهى قبائل معدّ التى جمع ملوك كندة كلمتها تحت لواء حكم واحد قبل منتصف القرن الخامس الميلادى . وفى رأيه أنها تولدت من إحدى اللهجات النجدية ، وتهذبت فى زمن مملكة كندة ، وصارت اللغة الأدبية السائدة بين العرب . ويرى هارتمان وڤولرز أنها لهجة أعراب نجد واليمامة وقد أدخل فيها الشعراء تغيرات كثيرة ، ومضى ڤولرز يزعم أن بقية بلاد العرب كانت تتكلم لغة مخالفة ، ليصل إلى رأيه الذى سبق أن دحضناه ، وهو أن القرآن الكريم نزل بلغة شعبية مكية ، ثم كُتب بعد ذلك بالأسلوب الفصيح . وزعم بروكلمان أن الفصحى كانت لغة فنية قائمة فوق اللهجات وإن غذتها جميعا[2] .

---

(١) راجع فى هذه الآراء مقالة جواد على عن لهجات العرب قبل الإسلام فى كتاب الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة (نشر مكتبة النهضة فى القاهرة) .

(٢) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان (طبع دار المعارف) ١/٤٢ .

وعلى ضوء من رأى نالينو حاول بلاشير أن يقيم حدوداً لهذه اللهجة الأدبية معتمداً على القبائل التى كان يأخذ عنها اللغويون والنحاة مادتهم ، وهى تميم وقيس وأسد وهذيل وعُلْيا هوازن وبعض العشائر الكنانية والطائية ، وجعل هذه الحدود محصورة بين خطَّين يمتد أحدهما على مسافة بضعة أميال من جنوبى مكة متجها شرقا إلى الخليج العربى فى البحرين ويمتد ثانيهما فى الشمال من ضواحى يثرب إلى شمالى الحيرة . وذهب يزعم أن الفصحى مشتقة من الشعر الجاهلى والقرآن معاً وأن القرآن لا يستند على اللهجة المكية وإنما على لغة هذا الشعر ، وهى لغة تولدت من لهجة محلية ارتفعت إلى مرتبة لغة أدبية ، ولم يبين لنا هذه اللهجة التى تسامت على أخواتها ولا أسباب تساميها ، ومضى يشكك فى أن تكون لهجة قريش هى التى حققت لنفسها هذا التسامى[١] .

وواضح أن كل هذه الآراء تعتمد على الفرض والحَدْس ، وقد أراد بها أصحابها أن يناقضوا أشد المناقضة ما استقر فى نفوس أسلافنا من أن هذه اللهجة الفصحى إنما هى لهجة قريش التى نزل بها الذكر الحكيم ، يقول أبو نصر الفارابى : « كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسموعاً وأبينها إبانة عما فى النفس »[٢] ويقول أحمد بن فارس نقلا عن إسماعيل بن أبى عبيد الله : « أجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالِّهم أن قريشاً أفصح العرب ألسنة وأصفاهم لغة ، وذلك أن الله جلّ ثناؤه اختارهم من جميع العرب واصطفاهم واختار منهم نبىّ الرحمة محمداً صلَّى الله عليه وسلم فجعل قريشا قُطَّان حرمه وجيران بيته الحرام ، وولاته ، فكانت وفود العرب من حُجَّاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج ، ويتحاكمون إلى قريش فى أمورهم . . وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم ، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلائقهم التى طُبعوا عليها ، فصاروا بذلك أفصح العرب ، ألا ترى أنك لا تجد فى كلامهم عنعنة تميم ولا عجرفية[٣] قيس

(١) انظر تاريخ الأدب العربى لبلاشير ١/٧٧ وما بعدها .

(٢) المزهر للسيوطى ١/٢١١ .

(٣) العجرفية : التقعر وطلب الغريب الوحشى من الكلام .

ولا كَشكشة أسد ولا كسكسة ربيعة »(١) . ويقول ابن خلدون « كانت لغة قريش أفصح اللغات العربية وأصرحها لبعدها عن بلاد العجم من جميع جهاتهم فصانها بعدها عن الأعاجم من الفساد والتأثر بأساليب العجم » حتى إن سائر العرب على نسبة بُعْدهم من قريش كان الاحتجاج بلغتهم فى الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية »(٢) .

وفى رأينا أن المستشرقين جانبهم التوفيق فى الحدس والفرض حين رفضوا نظرية العرب فى أن الفصحى هى عين اللهجة القرشية ، فقد ذهبوا يطلبونها فى لهجات القبائل النجدية ، متناسين أن شيوع لهجة بعينها لا بد أن تقترن به حالة سياسية أو روحية أو حضارية ، تهيئ لها هذا الشيوع والانتشار ، بحيث تصبح لغة الفكر والشعور للجماعة الكبيرة ، فتتخذها أداة لأدبها بينما تظل وحداتها الصغيرة تتحدث فى حياتها بلغاتها المحلية . وما تزال اللغة الأدبية فى الذيوع ، حتى تظفر بتلك اللغات المحلية التى تستخدم فى الحياة اليومية العملية .

ونحن إذا طلبنا سبباً لتفوق لغة قبيلة فى نجد على جميع اللغات واللهجات المجاورة لها أعوزنا ذلك كما أعوز المستشرقين ، بينما إذا طلبنا ذلك فى قريش وجدنا أسباباً كثيرة تعين عليه ، فقد كانت مهوى أفئدة العرب فى الجاهلية ، وكان لها عليهم نفوذ واسع بسبب مركزها الدينى الروحى والاقتصادى المادى ، إذ كانت حارسة الكعبة بيت عبادتهم ، وكانت قوافلها تجوب أنحاء الجزيرة العربية ، وكان العرب يجتمعون إليها فى أعيادهم الدينية وفى أسواقها القريبة والبعيدة .

ومعنى ذلك أن هناك أسباباً دينية واقتصادية أعدت لهجةَ مكة لتسود اللهجات القبلية فى الجاهلية ، وقد تداخلت فيها أسباب سياسية ، فإن القبائل العربية كانت ترى تحت أعينها هجوم الدول المجاورة من الفرس والروم والحبش على أطرافها ، كما كانت ترى هجوم الديانتين المسيحية واليهودية على دينها الوثنى ، فتجمعت قلوبها حول مكة ، وهوت أفئدتها إليها . وبذلك كله تهيأ للهجة القرشية أن يعلو سلطانها فى الجاهلية اللهجات القبلية المختلفة ، وأن تصبح هى اللغة الأدبية التى يصوغون فيها أدعيتهم الدينية وأفكارهم وأحاسيسهم . وقد تدل على ذلك بعض

(١) انظر الصاحبى فى فقه اللغة (طبعة المؤيد) ص ٢٣ .

(٢) راجع الفصل الثانى والثلاثين من القسم السادس فى مقدمة ابن خلدون ص ٤٠٩ .

الدلالة سوقُها عكاظ ، فقد كانت سوقاً أدبية كما كانت سوقاً تجارية ، وكان الخطباء يرتجلون فيها خطبهم وينشد الشعراء قصائدهم ، ولم يُرْوَ ذلك عن سوق سواها ، ومما يدعم هذا الدليل ما قاله الرواة من أن العرب « كانت تعرض أشعارها على قريش ، فما قبلوه منها كان مقبولا ، وما ردوه منها كان مردوداً ، فقدم عليهم علقمة بن عَبَدة التيمى ، فأنشدهم قصيدته : " هل ما علمت وما استودعت مكتوم " فقالوا : هذا سمط الدهر ، ثم عاد إليهم العام المقبل فأنشدهم قصيدته : " طحابك قلبٌ فى الحسان طروب " فقالوا : هاتان سمطا الدهر »[1] .

وإذن فنحن لا نعدو الواقع إذا قلنا إن لهجة قريش هى الفصحى التى عمت وسادت فى الجاهلية لا فى الحجاز ونجد فحسب ، بل فى كل القبائل العربية شمالا وغرباً وشرقاً ، وفى اليمامة والبحرين ، وسقطت إلى الجنوب وأخذت تقتحم الأبواب على لغة حمير واليمن وخاصة فى أطرافها الشمالية حيث منازل الأزد وخثعم وهمدان وبنى الحارث بن كعب فى نجران . ومما يؤكد ذلك أن الوفود اليمنية التى وفدت على الرسول صلى الله عليه وسلم لم يحدّثنا رواة الأخبار والسيرة النبوية أنها كانت تجد صعوبة فى التفاهم معه ، وأيضاً فإنه كان يرسل إليهم دعاة يعظونهم ويعلمونهم الشريعة الإسلامية من مثل معاذ بن جبل ، ولو أنهم لم يكونوا يعرفون العربية الفصحى لكان إرسال هؤلاء الدعاة عبثاً . وكل هذه دلائل تدل على أن حركة تعريب واسعة فى الجنوب حدثت قبيل الإسلام .

أما فى الشمال فقد كانت الفصحى معروفة فى كل مكان ، وكان الشعراء يتخذونها لغة لشعرهم ، ومما يدل على ذلك دلالة قاطعة سرعة استجابتهم للقرآن الكريم ودعوته ، فإنهم كانوا يفهمونه بمجرد سماعه ، فإذا عرفنا أنه نزل بلغة قريش تحتم أن تكون هى اللغة الأدبية التى كانت سائدة . أما ما يردده اللغويون من أن القرآن الكريم نزل على سبع لغات منها خمس بلغة العَجُز من هوازن ، وهم الذين يقال لهم عُليا هوازن مثل سعد بن بكر بن معاوية وثقيف فذلك فى رأيى إنما هوتفسير منهم للحديث النبوى : « أُنْزل القرآن على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسّر منه » فقد فسروا الحروف باللغة أو اللهجة ونظروا فوجدوا لهجات العرب ولغاتها

---

(١) أغانى (ساسى) ١١٢/٢١ .

كثيرة ، فاختاروا منها سبعاً هى أفصحها ، وهى التى كان يرحل إليها اللغويون لجمع مادتهم اللغوية الصحيحة ، وقد اختلفوا فى بعضها . وفى رأينا أن الحديث لا يراد به تخصيص ، وإنما يراد به الترخيص لقبائل العرب أن تقرأه بلهجاتها المختلفة متى جاءت بها الرواية الصحيحة من مدّ وإمالة وتحريك للحروف وتسكين وتشديد تسهيلا عليهم وتيسيراً حتى لا يجدوا مشقة وثقلا فى نطق بعض ألفاظه . روى الرواة عن أبى حاتم السجستانى أنه قال فى كتابه الكبير فى القراءات : « قرأ علىّ أعرابىّ بالحرم (الذين آمنوا وعملوا الصالحات طيبى لهم وحسن مآب) فقلت : طوبى ، فقال : طيبى ، فلما طال علىّ قلت : طوطو قال : طى طى »[1]. فلم يستطع أن يثنى طبعه لأن لهجته القبلية فى مثل طوبى مما وزنه فعلى تنطقه طيبى على وزن فعلى بكسر الفاء ، فتقلب الواو ياء والضمة فى أول الكلمة كسرة . ولم ينفع فى الأعرابى لَفْتُ أبى حاتم ولا تمرينه له على نطق طوبى . ولمثل ذلك تعددت قراءات القرآن الكريم ، تخفيفاً للمشقة عليهم فى تلاوته . وفعلا قرأوه بلهجاتهم ، المرخّص بها ، وكان ذلك سبب اختلاف قراءاته التى دونها العلماء .

ونعتقد أن تفسير الحديث بأن القرآن نزل بسبع لغات معينة هى أفصح لغات العرب هو الذى ضلل المستشرقين ، فإنهم ظنوا أنه نزل بلغات قبائل نجدية ولم ينزل بلغة قريش ، وكأنهم لم يلاحظوا أن نفس هذه القبائل التى عينها اللغويون هى أقرب القبائل إلى قريش ، ومن هنا جاءت فصاحتها ، ولعل ذلك هو الذى جعل الطبرى يذهب إلى أن لغة قريش نفسها كانت تستوعب الأحرف السبعة التى أشار إليها الحديث النبوى. وليس بمعقول أن يترك الرسول لغة قومه الذين بُعث فيهم إلى لغات أقوام آخرين ، وفى القرآن الكريم نفسه : (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه) فالقرآن بشهادته إنما نزل بلغة قريش ، وما دام المستشرقون يسلمون بأنه نزل بالفصحى ، مع استثنائنا لفولرز وأضرابه ، فإن هذه الفصحى إذن هى نفس لغة قريش التى لم يكن بها عوج من لغات أو لهجات شاذة كالعنعنة والكشكشة وكسر أول المضارع .

(١) الخصائص لابن جنى بتحقيق محمد على النجار (طبع دار الكتب المصرية) ١/٧٥ - ٧٦ .

وربما كان من الأسباب التى ضللت المستشرقين أيضًا ودفعتهم عن محجّة الصواب أنهم وجدوا اللغويين حين أخذوا يجمعون مادتّهم اللغوية يرحلون إلى قبائل نجدية منحازين عن قريش ، وكأنهم نسوا أن الزمن قد تغير وأن مكة دخلها أعاجم كثيرون فى الإسلام وأن الفصحى فيها فى أثناء القرن الثانى قرن جمع اللغة وتدوينها دخلتها شوائب من الأعاجم والموالى الذين كثروا فيها كثرة مفرطة . ومن أجل ذلك رحل اللغويون إلى قبائل نجد التى كانت لا تزال تحتفظ بصفاء لغتها . وقد شاع أن أفصح العرب لعصرهم عُلْيا هوازن وسفلى تميم وأسد وكنانة وهذيل . ويوضح أبو نصر الفارابى السبب فى أنهم اقتصروا على تلك القبائل فى جمع اللغة فيقول : « والذين عنهم نُقلت العربية وبهم اقتُدى وعنهم أُخذ اللسان العربى من بين قبائل العرب هم قيس وتميم وأسد فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل فى الغريب وفى الإعراب والتصريف ، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم . وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حَضرى قط ولا عن سُكان البرارى ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم ، فإنه لم يؤخذ لا من لخم ولا من جُذام لمجاورتهم أهل مصر والقبط ، ولا من قضاعة وغسّان وإياد لمجاورتهم أهل الشام ، وأكثرهم نصارى يقرءون بالعبرانية ، ولا من تغلب والنمر فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ، ولا من بكر لمجاورتهم للنبط والفرس ، ولا من عبد القيس وأزد عُمان لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ، ولا من بنى حنيفة وسكان اليمامة ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدءوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم[١] » .

فاللغويون فى القرن الثانى حين أقبلوا على القبائل النجدية يجمعون منها مادتّهم إنما كانوا يتحرّون الينابيع التى لا تزال نقية صافية ، وليس فى عملهم ما يشكك أى تشكيك فى لغة مكة فى أثناء العصر الجاهلى وفترة نزول القرآن الكريم ، فقد التمسوا بغيتهم فى القبائل المجاورة لقريش مثل كنانة وهذيل وبعض عشائر قيس .

---

(١) المزهر ٢١١/١ .

ومن المؤكد أن الفوارق فى الجاهلية بين لهجة مكة ولهجات هذه القبائل كانت ضئيلة وأن هذه الفوارق كانت تتسع كلما ابتعدنا جنوباً أو شرقاً أو شمالا . على أنه ينبغى أن لا نبالغ فى تصورها ، فإن الشعراء تضافروا منذ أوائل العصر الجاهلى على إذاعة اللهجة المكية فى قبائلهم بما كانوا ينظمون فيها من أشعارهم .

ومعنى ذلك أن لهجة قريش لم يبدأ ذيوعها وانتشارها بين العرب فى الإسلام عن طريق القرآن الكريم كما ظن ذلك بعض الباحثين ، فقد كانت ذائعة منتشرة بينهم منذ العصر الجاهلى ، بل منذ أوائله ، فأقدم نصوصه كأحدثها نُظم بهذه اللهجة القرشية التى اتخذوها لغة أدبية عامة لهم ، والتى سُمّيت بعد بالفصحى ، فقد كانوا يشعرون بروعتها ، فاندفعوا يحاكونها ، وقد امتلأت نفوسهم بأهلها ومكانتهم الروحية والاقتصادية والسياسية . ومن غير شك بلغ انتشار هذه اللهجة الذروة فى الإسلام ، فقد أقبل العرب فى كل مكان شمالا وجنوباً على الارتشاف من أفاويق لغته ، وقد أخذ يعمّمها لا فى أنحاء الجزيرة القاصية وحدها ، بل فى كل بلد إسلامى شرقاً وغرباً ، فإذا أعلامها تخفق على الدروب من أواسط آسيا إلى مشارف المحيط الأطلسى .

الفصل الخامس

رواية الشعر الجاهلي وتلوينه

١

رواية العرب للشعر الجاهلى

مرّ بنا فى غير هذا الموضع أن العرب الشماليين نمو الخط النبطى وتطوروا به إلى خطهم العربى منذ أوائل الجاهلية أو لعلهم وصلوا إلى ذلك قبل فجرها ، فقد وُجدت نقوش مختلفة تشهد بذلك، ونرى شعراءهم يشيع عندهم تشبيه الأطلال ورسوم الديار بالكتابة ونقوشها من مثل قول المرقّش الأكبر (١) :

الدَّارُ قَفْرٌ والرسومُ كما رقَّشَ فى ظهر الأَديم قَلَم

ويقال إنه كان يحسن الكتابة وإنه كتب على بعض الرّحال قصيدة له حين وقع أسيراً فى يد بعض العرب(٢) ، ويقول سلامة بن جندل(٣) :

لمن طلَلٌ مثل الكتاب المنمَّقِ خلا عَهْدُهُ بين الصُّلَيْب فمُطْرِقِ

ولعله يقصد بالكتاب الصحيفة ، ويقول لبيد فى مطلع معلقته :

عَفَتِ الديارُ محلُّها فمُقَامُها بِمِنًى تـأَبَّدَ غَوْلُها فرِجامُها(٤)

فمدافعُ الرَّيان عُرِّىَ رَسْمُها خَلَقًا كما ضمِنَ الوُحِيَّ سِلامُها(٥)

وجلا السيولُ عن الطلول كأَنها زُبُرٌ تُجِدُّ متونَها أقلامُها(٦)

---

(١) المفضليات (طبع دار المعارف) ص ٢٣٧ ، رقش : زين ونمق .

(٢) الأغانى (طبعة دار الكتب) ٦/١٣٠.

(٣) الأصمعيات (طبعة دار المعارف) ص ١٤٦ والصليب ومطرق : موضعان .

(٤) عفت : درست وامحت ، تأبد : توحش ، والمحل : حيث يحل القوم . والمقام : المجلس ، ومنى : موضع بحمى ضرية ، والغول والرجام : جبلان أو موضعان .

(٥) مدافع الريان : موضع ، والرسم : آثار الديار ، وخلقا : دروسا، والوحى : جمع وحى وهو الكتابة ، والسلام : الحجارة الرقيقة.

(٦) الزبر : جمع زبور وهو الكتاب ، وتجد : تجدد .

فهو يشبه رسوم الديار بالوحى أو الكتابة فى الحجارة الرقيقة ، ويقول إن السيول جلت التراب عن الطلول ، حتّى لكأنما آثار الديار كتبٌ طمست فأعيد بعضها على بعض وتُرك ما تبيَّن منها ، فهى مختلفة . ويقول الأخنس بن شهاب التغلبى (١) :

لإبنة حِطَّان بن عَوْفٍ منازلٌ   كما رقَّش العنوانَ فى الرَّقِّ كاتبُ

ويقول الحارث بن حِلِّزة اليشكرى البكرى(٢) :

لمن الديار عَفَوْن بالحُبْس   آياتُهـا كمهارق الفُرْسِ

ويدور هذا التشبيه كثيراً فى أشعارهم ، مما قد يدل على أن كثيرين منهم كانوا يعرفون الكتابة ، بل إن فريقاً منهم ، كما يقول الرواة ، كان يعرف الكتابة الفارسية على نحو ما حدثونا عن لقيط بن يعمر الإيادى وعدى بن زيد العبادى(٣). ومما لا شك فيه أن الكتابة كانت شائعة فى الحواضر وخاصة فى مكة التاجرة . وفى السيرة النبوية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل فداء الأسرى القرشيين الكاتبين فى بدر أن يعلِّم الأسير منهم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة(٤)، وكان مَنْ يكتبون بين يديه الوحى وفيما يعرض من أموره وأمور المسلمين فى عقودهم ومعاملاتهم كثيرين(٥) . فالكتابة كانت معروفة بل كانت شائعة فى الجاهلية ، ورُويت أخبار متفرقة تدل على أن بعض الشعراء استخدمها بلاغاً شعريًّا لقومه فى بعض ما حزبه من الأمر(٦) . وغلاكرنكو فزعم أن نظم الشعر فى الجاهلية كان مرتبطاً بها وبمعرفتها بدليل اختلاف القراءات للفظة الواحدة ، وأيضا فإن استخدام الشاعر لبعض القوافى النادرة يدل على أنه كان يلاحظ العين أكثر مما يلاحظ الأذن(٧) .

---

(١) المفضليات ص ٢٠٤ والرق : الجلد الرقيق .

(٢) المفضليات ص ١٣٢ والحبس بتثليث الحاء : موضع ، وآياتها : علاماتها ، والمهارق : الصحف .

(٣) أغانى ٢/١٠١ وطبعة الساسى ٢٠/٢٤ والشعر والشعراء (طبعة دار المعارف) ١/١٨٠ .

(٤) طبقات ابن سعد ٢/١ : ١٤ .

(٥) الوزراء والكتاب للجهشيارى (طبعة الحلبى) ص ١٢ .

(٦) انظر الباب الثانى . فى كتاب مصادر الشعر الجاهلى لناصر الدين الأسد (طبع دار المعارف) .

(٧) انظر مقالة له بعنوان The Use of Writing for the Preservation of Ancient Arabic Poetry نشرت مع مقالات أخرى فى كتاب : A Volume of Oriental Studies to E.G. Browne, Edited by J.W. Arnold.

وأكبر الظن أن اختلاف القراءة إنما نشأ فى عصر التدوين أو بعبارة أخرى فى القرن الثانى للهجرة ، وأيضاً فإن الشعر فن سمعى ، وليس فنًّا بصريًّا .

والحق أنه ليس بين أيدينا أى دليل مادى على أن الجاهليين اتخذوا الكتابة وسيلة لحفظ أشعارهم ربما كتبوا بها بعض قطع أو بعض قصائد ، ولكنهم لم يتحولوا من ذلك إلى استخدامها أداة فى نقل دواوينهم إلى الأجيال التالية ، فقد كانت وسائلها الصعبة من الحجارة والجلود والعظام وسَعف النخل تجعل من العسير أن يتداولها الشعراء فى حفظ دواوينهم ، إنما حدث ذلك فى الإسلام ، بفضل القرآن الكريم وما أشاعه من كتابة آيه وتحوُّل جمهور العرب معه من أميتهم الكبيرة إلى قارئين يتلون . ولا نكاد نمضى طويلا فى العصر الإسلامى حتى تتحول العربية من لغة مسموعة فحسب إلى لغة مسموعة مكتوبة ، وهو تحول شارك فيه العرب والمستعربون . وكل ما بين أيدينا من روايات عن كتابة بعض الأشعار فى الجاهلية إنما يدل على أن الكتابة كانت معروفة ، وخاصة فى البيئات الآخذة بشىء من الحضارة ، ونقصد المدن مثل مكة والمدينة والحيرة ، ولكنه لا يدل بحال على أنها اتُّخذتْ أداة لحفظ الشعر الجاهلى ودواوينه ، ولو أنهم كان لهم كِتاب جمعوا فيه أطرافاً من أشعارهم لما أطلق الله جل وعز على القرآن اسم الكتاب ، فلا كتاب لهم من قبله لا فى الدين ولا فى غير الدين .

أما ما يقال من أن المعلقات كانت مكتوبة ومعلقة فى الكعبة فن باب الأساطير ، وهو فى حقيقته ليس أكثر من تفسير فسر به المتأخرون معنى كلمة المعلقات ، فقد جاء فى العقد الفريد أنه بلغ من شغف العرب بالشعر أن « عمدتْ إلى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم ، فكتبتها بماء الذهب فى القباطى المدرجة وعلقتها فى أستار الكعبة ، فمنه يقال : مذهَّبة امرئ القيس ومذهبة زهير . . والمذهبات السبع ، وقد يقال لها المعلقات »[1] ولو أنهم تنبهوا إلى المعنى المراد بكلمة المعلقات ما لجأوا إلى هذا الخيال البعيد ، ومعناها : المقلَّدات والمسمَّطات ، وكانوا يسمون فعلا قصائدهم الطويلة الجيدة بهذين الاسمين وما يشبههما[2] ، وقد

---

(١) العقد الفريد (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٦/١١٩ .

(٢) البيان والتبيين ٢/٩ .

نفى ابن النحاس الأسطورة فقال : « لم يثبت ما ذكره الناس من أنها كانت معلقة على الكعبة[١] » .

ونستطيع أن ندخل فى هذا الباب باب الأساطير ما يُرْوَى عن حماد الراوية من أن النعمان بن المنذر المتوفى سنة ٦٠٢ للميلاد « أمر فنُسخت له أشعار العرب فى الطنوج — الكراريس — ثم دفنها فى قصره الأبيض ، فلما كان المختار بن أبى عُبَيْد (حوالى سنة ٦٧ هـ) قيل له : إن تحت القصر كنزاً ، فاحتفره ، فأخرج تلك الأشعار ، فمن ثَمَّ أهل الكوفة أعلم بالشعر من أهل البصرة[٢] » ويقول ابن سلام : « وقد كان عند النعمان بن المنذر منه (من شعر العرب فى الجاهلية) ديوان فيه أشعار الفحول وما مُدح هو وأهل بيته به ، فصار ذلك إلى بنى مروان ، أو صار منه[٣] » . ويكفى أن يكون أصل الخبر حماداً المتهم فى روايته لنشك فيه ، بل إنه يحمل فى أطوائه ما يجعلنا نتهمه ، فهو ينتهى عنده إلى تعليله به كيف أن أهل الكوفة أعلم بالشعر من أهل البصرة ، وكأنما ساقه حماد الكوفى لبيان سابقة الكوفة على البصرة فى الشعر القديم والعلم به ، والمنافسةُ بين البلدتين فى هذا الباب معروفة .

وإذا كان القرآن الكريم على قداسته لم يُجْمَعْ فى مصحف واحد إلا بعد وفاة الرسول ، وبعد مشاورة بين أبى بكر رضوان الله عليه والصحابة ، فذلك وحده كاف لبيان أن العرب لم تنشأ عندهم فى الجاهلية فكرة جمع شعرهم أو أطراف منه فى كتاب ، إنما نشأ ذلك فى الإسلام وبمرور الزمن . أما فى الجاهلية فكانوا يعتمدون فيه على الرواية وكان الشاعر يقف فينشد قصيدته ، ويتلقاها عنه الناس ويروونها .

ومعنى ذلك أن النهر الكبير الذى فاض بالشعر الجاهلى إنما هو الرواية الشفوية ، وقد ظلت أزماناً متتالية فى الإسلام ، ويدل على ذلك أقوى الدلالة أن الحديث النبوى ظل فى أغلب أحواله يعتمد على الرواية والمشافهة إلى نهاية القرن الأول للهجرة . وإذا كان الحديث بما له من قدسية لم يعمدوا إلى تدوينه تدويناً عامًّا إلا بعد مرور

(١) انظر معجم الأدباء لياقوت فى ترجمة حماد ١٠/٢٦٦ .

(٢) راجع الخصائص لابن جنى (طبعة دار الكتب) ١/٣٩٢ ومعجم البلدان لياقوت فى القصر الأبيض .

(٣) طبقات فحول الشعراء لابن سلام (طبعة دار المعارف) ص ٢٣ .

نحو قرن على الهجرة الشريفة فأولى أن يكونوا قد تبعوا ذلك فى الشعر الجاهلى ، ولم يكن ركناً فى الشريعة الإسلامية ولا كانت تقوم عليه حاجاتهم الدينية الملحة . ومَنْ يرجع إلى شعرهم يجد شعراءهم يذكرون دائماً الرواية وأنها وسيلة انتشاره فى القبائل ، فهى الوسيلة التى كانوا يعرفونها وقد نفذ شعرهم من خلالها إلى آفاق الجزيرة ، يقول المسيَّب بن عَلَس[1] :

فلأهدينَّ مع الرياح قصيدةً ... منى مُغَلْغَلَةً إلى القَعْقاعِ[2]
تَرِدُ المياه فما تزال غريبةً ... فى القوم بين تمثُّل وسماعِ

فقصيدته تنتشر فى القبائل ، ويرددها الناس مستمعين إليها ومتمثلين بأبياتها ، ويقول عَميرة بن جُعَل نادماً على هجائه لقومه وشيوعه فى العرب وأنه لم تعد له حيلة فى رده[3] :

نَدِمْتُ على شَتْم العشيرة بعدما ... مضتْ واستتبَّتْ للرواة مذاهِبُهْ
فأصبحتُ لا أستطيع دَفْعًا لما مضى ... كما لا يردُّ الدَّرَّ فى الضَّرْعِ حالِبُهْ

فرواية الشعر فى العصر الجاهلى كانت هى الأداة الطيعة لنشره وذيوعه ، وكانت هناك طبقة تحترفها احترافاً هى طبقة الشعراء أنفسهم ، فقد كان مَنْ يريد نظم الشعر وصوغه يلزم شاعراً يروى عنه شعره ، وما يزال يروى له ولغيره حتى ينفتق لسانه ، ويسيل عليه ينبوع الشعر والفن . ونصَّ صاحب الأغانى على سلسلة من هؤلاء الشعراء الرواة الذين يأخذ بعضهم عن بعض ، وقد بدأها بأوس بن حجر التميمى ، فعنه أخذ الشعر ورواه حتى أجاد نظمه زهيرُ بن أبى سلمى المزنى ، وكان له راويتان كعب ابنه والحطيئة ، وعن الحطيئة تلقن الشعر ورواه هُدْبة بن خَشْرم العُذْرى ، وعن هدبة أخذ جميل صاحب بثينة ، وعن جميل أخذ كثيِّر صاحب عزّة[4] .

---

(١) المفضليات ص ٦٢ .

(٢) مع الرياح : يريد أنها تذهب كل مذهب ، مغلغلة : نافذة تنفذ فى الناس وتسلك إليهم السبل البعيدة .

(٣) الشعر والشعراء ٢/٦٣٢ وقارن مع المفضليات ص ١٠٠ .

(٤) أغانى (طبعة دار الكتب) ٨/٩١ .

نحن إذن بإزاء مدرسة تامة من الشعراء الرواة تتسلسل فى طبقات أو حلقات ، وكل حلقة تأخذ عن سابقتها وتسلم إلى لاحقتها ، ومن أهم ما يلاحظ فى هذه المدرسة أن شعراءها أو رواتها كانوا من قبائل مختلفة فى شرقى الجزيرة وغربيها . ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن شعراء القبيلة الواحدة كان يروى خلفهُم شعر سلفهم ، ونصّ القدماء على ذلك فى غير شاعر ، فقالوا إن الأعشى كان راوية لخاله المسيَّب بن علس وكان يأخذ منه[1] وقالوا إن أبا ذؤيب الهذلى كان راوية لساعدة ابن جُؤْية الهذلى[2] ، ومَن يقرأ ديوان الهذليين يجد أواصر فنية قوية تجمعهم وتربط بينهم . وعلى هذا القياس توجد وشائج واضحة بين شعراء قيس بن ثعلبة ، فطرفة يروى للمرقش الأصغر عمه ويأخذ عنه ، ويروى هذا عن عمه المرقش الأكبر ويحتذى على شعره ، وأيضاً فإن طرفة كان يروى عن خاله المتلمِّس الذى رُبِّى فى أخواله من بنى يشكر . وقد لا تكون القبيلة الجامعةَ الواصلة ، فقد يجمع بين الشعراء سلوك فى الحياة كالصعاليك أو الفرسان فيروى بعضهم لبعض ، ويأخذ بعضهم عن بعض ، على نحو ما نلاحظ عند تأبط شرًّا والشنفرى أو عند أبى دؤاد الإيادى وزيد الخيل .

ولو أن الرواة لم يرووا لنا هذه الصلات الجامعة أو الرابطة بين الشعراء الجاهليين لحدسناها حدساً من اتفاقهم على تقاليد فنية واحدة مهما شرّقنا وغربنا فى الجزيرة ، وهى تقاليد جاءت من تمسكهم بنماذج أسلافهم لا يحيدون عنها ولا ينحرفون ، فهى دائماً الإمام المتبع ، وهمّ كل شاعر أن يتقن معرفتها عن طريق ما يحفظ من شعر أستاذه وشعراء قبيلته ، بل أيضاً شعراء القبائل الأخرى . ولم يكن الشعراء وحدهم الذين يهتمون برواية هذا الشعر ، فقد كان يشركهم فى ذلك الاهتمام أفراد القبيلة جميعهم ، لأنه يسجل مناقب قومهم وانتصاراتهم فى حروبهم كما يسجل مثالب أعدائهم ، وإلى ذلك أشار بعض بنى بكر معيِّراً تغلب لكثرة تردادها لقصيدة واحدة هى معلقة عمرو بن كلثوم ، وكأن ليس لها شعر سواها ، يقول[3] :

أَلْهَى بنى تَغْلِبٍ عن كل مكرمةٍ   قصيدةٌ قالها عمرو بن كلثومِ

---

(١) الشعر والشعراء ١/١٢٧ والموشح للمرزبانى ص ٥١ .

(٢) الشعر والشعراء ٢/٦٣٥ .

(٣) أغانى ١١/٥٤ .

يروونها أبدًا مذ كان أولهم ... يا للرِّجال لشعرٍ غير مشئومِ

ولم يكن أبناء القبيلة وحدهم الذين يُشيعون شعر شعرائها ، فقد كان كثير من أفراد القبائل الأخرى يشتركون معهم فى إشاعته، إذ كان بينهم جم غفير من الحفظة، كانوا يتناقلون الشعر وينشدونه فى محافلهم ومجالسهم وأسواقهم ، إذ لم يكن لهم شاغل سواه، وكان يسجل مآثرهم ومثالبهم وأنسابهم وأيامهم وأخبارهم، ومن ثَمّ قال عمر بن الخطاب: «كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه»[١] فهو كل علمهم وكل حياتهم .

وجاء الإسلام فانكبّوا على تلاوة القرآن الكريم ، ولكن لم ينسوا شعرهم أبداً ، حتّى منذ بدء الدعوة الإسلامية ، فقد كان الرسول عليه السلام يستحث حسان ابن ثابت وغيره من شعراء الأنصار على هجاء قريش والرد على شعرائها ، وكان كثيراً ما يستنشد الصحابة الشعر ، حتّى شعر أعدائه من مثل أمية بن أبى الصَّلْت ، قال الشريد بن سُوَيد الثقفى : « استنشدنى النبى صلى الله عليه وسلم شعر أمية بن أبى الصلت فأنشدته ، فأخذ النبى صلى الله عليه وسلم يقول : هيه، هيه، حتّى أنشدته مائة قافية »[٢] . وكان أبو بكر نسابة راوية للشعر الجاهلى ، وكان يتمثل به أحياناً فى خطابته كخطبته المشهورة فى يوم السَّقيفة ، وكذلك كان عمر ، وقلما كان يترك وافداً عليه من قبيلة دون أن يسأله عن بعض شعرائها ، وفيه يقول ابن سلام : « كان لا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد فيه بيت شعر »[٣] .

وهذا نفسه شأن الصحابة جميعاً ، فقد كانوا كثيراً ما يتناشدون الأشعار ويقصون بعض الأخبار عن جاهليتهم ، قال جابر بن سمرة : « جالست رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، أكثر من مائة مرة ، فكان أصحابه يتناشدون الأشعار فى المسجد وأشياء من أمر الجاهلية ، فربما تبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم »[٤] .

ومعنى ذلك أن رواية الشعر الجاهلى كانت مستمرة فى صدر الإسلام ، وقد أخذت تظهر عوامل تشدّ من أزرها وتقوى من شأنها، فقد أخذت تنشأ منذ

---

(١) طبقات فحول الشعراء ص ٢٢ .

(٢) ابن سعد ٥/٣٧٦ وخزانة الأدب ١/٢٢٧ والمزهر ٢/٣٠٩ .

(٣) البيان والتبيين ١/٢٤١ .

(٤) طبقات ابن سعد ١/٢ : ٩٥ وما بعدها .

تدوين عمر للدواوين حاجة شديدة لمعرفة الأنساب ، إذ كانت تلعب دوراً مهمّاً في رواتب الجند الفاتحين وفي مراكز القبائل بالمدن الجديدة التي خطّطوها مثل البصرة والكوفة . وكان بين العرب قديماً من يشتهرون بمعرفة الأنساب ، ولكن في هذا العصر الإسلامي إلى تمامه يصبح لهؤلاء النسابين شأن خطير ، إذ كان العرب يرجعون إليهم في معرفة أصولهم ، وكثيراً ما كانوا يسوقون لهم قطعاً من الشعر تحدد نسبهم ، ومن أشهرهم عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل ودغفل والنَّخار بن أوس العذري[١] .

ونحن لا نصل إلى الحرب التي نشبت بين علي ومعاوية حتّى تشتعل العصبيات القبلية اشتعالا لم تَخْبُ نيرانه حتّى نهاية العصر الأموي ، وكان الشعر الوقودَ الجزل لهذه العصبيات ، فأخذت كل قبيلة تُعْنَى برواية شعرها الجاهلي الذي يصور مناقبها ومثالب خصومها ، ويتناقله أبناؤها ، فهو جعبة سهامهم التي يوجهونها إلى خصومهم . ومن غير شك كان ذلك أكبر عون على حفظ الشعر الجاهلي ، فقد حملته القبائل طوال القرنين الأول والثاني حتّى أدوه إلى العلماء الذين عنوا بتدوينه[٢] .

وكانت الدولة الأموية عربية النزعة ، فعملت على حفظ هذا التراث ، بما كانت تروى منه ، نجد ذلك عند معاوية وعبد الملك بن مروان وغيرهما من الخلفاء ، وكانوا كثيراً ما يسألون وفود القبائل التي تفد عليهم عن بعض شعرائها ، وقد ينشدون بيتاً ويسألون عن صاحبه وقصيدته ، ومن تحسن إجابته تحسن له جائزتهم[٣] ، وكان أبناؤهم على غرارهم « وكانوا ربما اختلفوا في بيت من الشعر أو خبر أو يوم من أيام العرب فيبردون فيه بريداً إلى العراق »[٤] يسألون علماءها عن صحة الأمر فيه وصوابه . وأقام لهم آباؤهم غير مؤدب يرويهم أشعار الجاهلية وأيامها وأخبارها ، ويلقانا هؤلاء المؤدبون في كل مكان يؤدبون الناشئة ، وفي البيان والتبيين فصل طويل يحصى فيه أسماءهم .

ومما يدخل في عناية الأمويين بالشعر الجاهلي ما يُرْوَى عن معاوية من شغفه بالمسامرة ومعرفة أخبار الماضين ، مما جعله يستدعي عُبيد بن شَرِيَّة الجرهمي من

---

(١) انظر في هؤلاء النسابين وفيما نسوقه هنا من اتصال رواية الشعر الجاهلي حتّى القرن الثاني الباب الثالث من كتاب مصادر الشعر الجاهلي .

(٢) راجع مصادر الشعر الجاهلي ص ٢٣١ وما بعدها .

(٣) انظر الأغاني ٣/٩١ .

(٤) التصحيف والتحريف للعسكري ص ٤

صنعاء اليمن ، ويتخذه سميراً له يسأله عن الأخبار المتقدمة والملوك السالفة ، وهاله ما عنده من العلم بذلك ، فاتخذ غلماناً يقيدون فى دفاتر ما يذكره من سير الملوك وأخبارها ووقائع العرب وأيامها فى الجاهلية وأشعارها[١] .

ومنذ وقت مبكر فى صدر الإسلام نرى القصاص يجلسون للعظة فى المسجد الجامع ، وكانوا كثيراً ما ينثرون الأشعار الجاهلية التى تتصل بوعظهم فى تضاعيف قصصهم ، وقد أخذت تنشأ جماعة مثل أبان بن عثمان بن عفان وعروة بن الزبير تُعنَى بغزوات الرسول وما قيل فيها من الشعر ، وأخذ يظهر بجانبهم جماعة تعنى بأخبار العرب الماضين وما كان يجرى على ألسنة شعرائهم . وفى أثناء ذلك كان الشعراء الإسلاميون أنفسهم يعنون عناية شديدة برواية الشعر القديم ، وبلغ من اهتمام بعضهم بذلك أن أصبح مؤدبا للناشئة يرويِّها الشعر القديم على نحو ما نعرف عن الكميت والطرماح[٢] . ولم يكن هناك شاعر مبرز إلا وهو يروى للجاهليين وينشد من شعرهم ، وفى كتب الأدب إشارات مختلفة إلى ما أخذه العلماء عن أمثال ذى الرمة والفرزدق وجرير ورؤبة من هذا الشعر[٣] ، وصوّر الفرزدق مدى روايته ومعرفته للشعر الجاهلى ، فقال فى بعض قصيده[٤] :

وهب القصائدَ لى النوابغُ إذ مضوا ... وأبويزيد وذو القروح وجَرْوَلُ[٥]

والفحلُ علقمةُ الذى كانتْ له ... حُلَلُ الملوك كلامُه لا يُنْحَلُ

وأخو بنى قيسٍ وهُنَّ قَتَلْنَه ... ومُهَلْهِلُ الشعراء ذاك الأَوَّلُ[٦]

والأَعشيان كلاهما ومُرَقِّشٌ ... وأخو قُضاعةَ قولهُ يُتَمَثَّلُ[٧]

وأخو بنى أَسَدٍ عَبِيدٌ إذ مضى ... وأبو دُؤَادٍ قوله يتنخَّلُ

(١) انظر مصادر الشعر الجاهلى ص ١٥٩ والفهرست ص ١٣٢ .

(٢) البيان والتبيين ١/ ٢٥١ ، ٢/ ٣٢٣ .

(٣) مصادر الشعر الجاهلى ص ٢٢٥ وما بعدها .

(٤) نقائض جرير والفرزدق ص ٢٠٠ والديوان (طبع القاهرة) ص ٧٢٠ .

(٥) النوابغ : النابغة الذبيانى والجعدى والشيبانى . وأبو يزيد : المخبل ، وذو القروح : امرؤ القيس ، وجرول : الحطيئة .

(٦) أخو بنى قيس : طرفة ، وهن قتلنه : يريد القوافى ، لأنه قتل بسبب بعض أهاجيه .

(٧) الأعشيان : أعشى بنى قيس وأعشى باهلة . وأخو قضاعة : أبو الطمحان القينى .

وابنا أبى سُلْمَى زهيرٌ وابنُـــه وابن الفُرَيْعَة حين جَدَّ المِقْوَلُ[١]
والجعفرىُّ وكان بِشْرٌ قبـــله لى من قصائده الكتابُ المُجْمَل[٢]
ولقد ورثتُ لآل أوسٍ منطقًا كالسُّمّ خالط جانبيه الحَنْظَلُ[٣]
والحارثىُّ أخو الحِماس ورِثْتُهُ صَدْعًا كما صَدَعَ الصَّفاةَ المِعْوَل[٤]

ويخيل إلى الإنسان أنه لم يبق عربى فى العصر الإسلامى وما وليه من أوائل العصر العباسى إلا وهو يروى الشعر الجاهلى ، إن هو تحدث أو وقف خطيباً ، وتمثُّل الحجاج بالشعر فى خطابته ذائع مشهور . وإذا كنا لاحظنا فى الجاهلية أن الرواة الموصوفين بهذا الاسم كانوا عادة من الشعراء ، فإننا نلاحظ فى العصر الإسلامى نشوء طائفة من الرواة ، لم يكونوا ممن يحسنون نظم الشعر ، فهم لا يروونه لغرض تعلمه ، وإنما يروونه لغرض نشره فى الناس وإذاعته ، وإليهم يشير جرير بقوله فى وصف بعض قصائده[٥] :

خروجٍ بأفواه الرواة كأنها قَرَا هُنْدُوانىٍّ إذا هُزَّ صَمّما[٦]

وفى أخباره أنه كان له رواة يلزمونه ويأخذون عنه شعره ، وكذلك كان الفرزدق . ولم يكونوا يروون شعرهما فحسب بل كانوا ينقحونه ويهذبونه ، فعن شيخ من هذيل قال : « جئت الفرزدق . . ودخلت على رواته فوجدتهم يعدلون ما انحرف من شعره . . ثم أتيت جريراً . . وجئت رواته وهم يقوّمون ما انحرف من شعره وما فيه من السناد »[٧] . وفى رأينا أن ظهور هذه الطبقة من الرواة إنما نشأ من العناية الشديدة برواية الشعر القديم والحديث ، وكأنما لم يعد للناس من شغل وراء هذه العناية ، فمنهم من يتخصص برواية شعر المعاصرين ومنهم من يتخصص برواية الشعر الجاهلى كيونس بن متّى راوية الأعشى[٨] .

---

(١) ابن الفريعة : حسان بن ثابت .
(٢) الجعفرى : لبيد ، وبشر هو بشر بن أبى خازم .
(٣) أوس : أوس بن حجر .
(٤) الحارثى : النجاشى .
(٥) النقائض ص ٤٣٠ .
(٦) قرا : متن ، والهندوانى : السيف .
(٧) أغانى (طبعة دار الكتب) ٢٥٦/٤ وما بعدها .
(٨) راجع فى تحقيق اسم هذا الراوى مصادر الشعر الجاهلى ص ٢٣٨ وما بعدها .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل أوضح الدلالة على أن رواة لا يحصيهم العدّ حملوا الشعر الجاهلى إلى عصور التدوين ، فقد حافظت القبائل عليه كما حافظ كثير من الأفراد وخاصة الشعراء والرواة ، وبذلك أسلموه للأجيال التالية ، وإن كان قد شابه شيء من الانتحال والوضع على نحو ما سنعرض لذلك فى غير هذا الموضع ، ومن غير شك سقط منه كثير فى أثناء اجتيازه هذا الطريق الزمنى الطويل ، يقول ابن سلام : « لما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر ، فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب، وألْفَوْا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك وذهب عليهم منه كثير »[١] .

٢

رواة محترفون

ونحن لا نصل إلى نهاية العصر الإسلامى ومطلع العصر العباسى حتى تنشأ طبقة من الرواة المحترفين الذين يتخذون رواية الشعر الجاهلى عملا أساسيًّا لهم ، وتختلط فى هذه الطبقة أسماء عرب وموال ، وأسماء قرّاء للقرآن الكريم وغير قراء ، وهم جميعاً حضريون ، عاشوا غالباً فى البصرة والكوفة . ولم يكونوا يقفون عند رواية الشعر القديم مجردة ، بل كانوا يضيفون إليها كثيراً من الأخبار عن الجاهلية وأيامها ، وكانوا يتخذون لأنفسهم حلقات فى المسجد الجامع يحاضرون فيها الطلاب وفى أثناء ذلك يشرحون لهم بعض الألفاظ الغريبة ، أو يفسرون لهم ظروف النص التاريخية .

وأهمُّ هؤلاء الرواة أبو عمرو بن العلاء وحماد الراوية وخلف الأحمر ومحمد ابن السائب الكلبي والمفضل الضبي ، وقد استقوا روايتهم من القبائل والأعراب البدو ، وكان بعضهم يرحل إلى نجد أحياناً ليستقى الأشعار والأخبار الجاهلية من ينابيعها الصحيحة، وكان بين البدو أنفسهم مَنْ هاجر إلى الكوفة والبصرة حيث هؤلاء الرواة العلماء ليمدهم بما يريدون . وقد أظهروا فى عملهم مهارة منقطعة النظير ، إذ تحولوا يجمعون المادة الجاهلية جميعها ، وكان من أهم الأسباب فى ذلك تفسير

---

(١) ابن سلام ص ٢٢ .

ألفاظ القرآن الكريم ، فقد جرت عادة المفسرين منذ ابن عباس على الاستشهاد بالشعر الجاهلى فى شرح ألفاظ الذكر الحكيم ، وأيضاً فقد انبرت جماعات تحاول وضع قواعد العربية وجمع ألفاظها ، واعتمدت فى ذلك اعتماداً شديداً على الشعر الجاهلى فهو مادة اللغة ومادة قواعدها وقوانينها التى ينبغى أن تتَّبع . على أن هاتين الغايتين سرعان ما انفصلتا عن عمل الرواة ، وأصبحوا يقصدون لجمع هذا الشعر فى ذاته ومن أجل نفسه، وقد حملته إليهم الموجة الحادة من روايته فى أثناء العصر الإسلامى، ومن المهم أن نعرف أنهم قلما يذكرون مَنْ حملوا عنهم هذا الشعر ، فهم يغفلون أسانيدهم إلا قليلا[١] .

ولا نكاد نمضى فى العصر العباسى حتى يكوّن هؤلاء الرواة مدرستين متقابلتين: مدرسة فى الكوفة ومدرسة فى البصرة ، وعُرف الأولون بأنهم لا يتشددون فى روايتهم تشدد الأخيرين، ومن ثم تضخمت رواياتهم ودخلها موضوع ومنتحل كثير . ولعل من الطريف أن نعرف أن الكوفة عُرفت فى الحديث النبوى بالوضع والانتحال أيضاً حتى كان مالك بن أنس يسميها دار الضَّرْب يريد أنها تضرب الأحاديث وتصنعها كما تُضْرَبُ الدراهم والدنانير وتصنع . يقول أبو الطيب اللغوى : « والشعر بالكوفة أكثر وأجمع منه بالبصرة ، ولكن أكثره مصنوع ومنسوب إلى من لم يقله وذلك بيِّن فى دواوينهم »[٢] . وندَّد بهم البصريون كثيراً ، وبادلهم الكوفيون نفس التنديد ، فكان كل منهما يشكِّكُ فى الآخر[٣]، ولكن إذا صفينا هذه التشكيكات والتنديدات اتضح لنا أن رواية البصرة فى جملتها أوثقُ من رواية الكوفة . وليس معنى ذلك أن رواة الكوفة فى الجملة كانوا متهمين بخلاف رواة البصرة ، فبين الطرفين جميعاً متهمون ، وموثَّقون أحاطوا روايتهم بسياج من الأمانة والدقة والتحرى .

وربما كان السبب الحقيقى فى تقدم البصرة على الكوفة فى الرواية أن رأس رواتها وهو أبو عمرو بن العلاء كان أميناً ، بينما كان رأس رواة الكوفة حماداً ، وكان متهماً كثير الوضع ، لا يوثَق بما يرويه . وكان أبو عمرو من مؤسسى المدرسة النحوية فى البصرة ، وأحد القراء السبعة الذين أُخذتْ عنهم تلاوة الذكر الحكيم ، وُلد سنة ٧٠ للهجرة ، وتوفى سنة ١٥٤ وقيل سنة ١٥٩ : « وكان أعلم الناس بالغريب

---

(١) انظر مصادر الشعر الجاهلى ص ٢٥٥ وما بعدها .

(٢) مراتب النحويين ص ٧٤ .

(٣) مصادر الشعر الجاهلى ٤٣٤ وما بعدها .

والعربية وبالقرآن والشعر وبأيام العرب وأيام الناس وكانت كتبه التى كتبها عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتاً له إلى قريب من السقف . . ثم إنه تقرأ أى تنسك فأحرقها»[١] وهو إحراق لايغير من الأمر شيئاً فإن ما رواه حمله عنه تلاميذه البصريون، وكان إمامهم وقلوبهم . ويحكى عنه أنه قال : « ما زدتُ فى شعر العرب إلا بيتاً واحداً ، يعنى ما يُروَى للأعشى من قوله :

وأنكرتْنى وما كان الذى نكرتْ من الحوادث إلا الشَّيْبَ والصلَعا »[٢]

وحاول بعض الباحثين التشكيك فى روايته لهذا الاعتراف[٣] ، وهو اعتراف يوثق روايته ويزيدها قوة، وفى سيرته ما يدل دلالة قاطعة بأنه كان ثقة ؛ فقد كان تقيًّا صالحاً ، وكان أحد الأعلام الذين أُخذت عنهم تلاوة القرآن الكريم . أما حماد رأس رواة الكوفة فكانَ من الموالى ، وُلد سنة ٩٥ للهجرة ، وتوفى سنة ١٥٦ وقيل بل سنة ١٦٤ ويقال إنه : « كان فى أول أمره يتشطر ويصحب الصعاليكَ واللصوص ، فنقبَ ليلة على رجل ، فأخذ ماله ، وكان فيه جزء من شعر الأنصار ، فقرأه حماد ، فاستحلاه وتحفظه ، ثم طلب الأدب والشعر وأيام الناس ولغات العرب بعد ذلك وترك ما كان عليه ، فبلغ فى العلم ما بلغ »[٤] وربما كان مما يصور هذا العلم ومداه ما يُروَى عن مروان بن أبى حفصة من قوله : « دخلت أنا وطُرَيْح ابن إسماعيل الثقفى والحسين بن مُطَيِّر الأسدى فى جماعة من الشعراء على الوليد ابن يزيد (١٢٥ — ١٢٦) هـ وهو فى فُرش قد غاب فيها ، وإذا رجل عنده كلما أنشد شاعر شعراً وقف الوليدَ بن يزيد على بيت بيت من شعره وقال : هذا أخذه من موضع كذا وكذا ، وهذا المعنى نقله من موضع كذا وكذا من شعر فلان ، حتى أتى على أكثر الشعراء ، فقلت : من هذا ؟ فقالوا حماد الراوية[٥] » ويُروَى عن الهيثم بن عدى أنه كان يقول : « ما رأيت رجلا أعلم بكلام العرب من حماد »[٦] . وهذه المعرفة الواسعة بكلام العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها وأيامها جعلتهم يطلقون

---

(١) انظر البيان والتبيين ١/٣٢١ .

(٢) الأغانى (طبعة دار الكتب) ٣/١٤٣.

(٣) انظر مقالة مرجليوث The Origins of Arabic Poetry فى صحيفة الجمعية الآسيوية الملكية عدد يولية سنة ١٩٢٥ ص ٤٢٩ وتاريخ الأدب العربى لبلاشير ١/١١١ .

(٤) الأغانى ٦/٨٧ .

(٥) الأغانى ٦/٧١ .

(٦) انظر ترجمته فى معجم الأدباء لياقوت ١٠/٢٦٥ .

اسم الراوية علماً عليه ، ويروى أن الوليد بن يزيد سأله بم استحققت هذا اللقب فقيل لك الراوية ؟ فقال : « بأنى أروى لكل شاعر تعرفه يا أمير المؤمنين أو سمعت به ، ثم أروى لأكثر منهم ممن تعرف أنك لم تعرفه ولم تسمع به ، ثم لا أُنْشَدُ شعراً قديماً ولا محدثاً إلا ميزت القديم منه من المحدث ، فقال الوليد : إن هذا العلم وأبيك كثير ، فكم مقدار ما تحفظ من الشعر ؟ قال كثيراً ، ولكنى أنشدك على كل حرف من حروف المعجم مئة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من شعر الجاهلية دون شعر الإسلام ، قال : سأمتحنك فى هذا ، وأمره بالإنشاد ، فأنشد الوليد حتى ضجر ، ثم وكّل به مَن استحلفه أن يصدقه عنه ، ويستوفى عليه ، فأنشده ألفين وتسعمائة قصيدة للجاهليين ، وأخبر الوليد بذلك ، فأمر له بمئة ألف درهم »[1] . وقد يكون فى هذا الخبر ضرب من المبالغة ، غير أنه يصوِّر مدى ما استقر فى أذهان معاصريه عن معرفته وروايته للشعر الجاهلى .

ومن سوء حظ الكوفة أن كان هذا الراوية البارع فاسد المروءة فاسقاً ماجناً زنديقاً[2] ، وكان شاعراً يحسن صوغ الشعر وحوكه[3] فكان ينظم على لسان الجاهليين ما لم ينطقوا به ، وكثُر منه ذلك حتى عُرف به واشتهر ، يقول الأصمعى : جالسته فلم أجد عنده ثلاثمائة حرف ولم أرْضَ روايته ، ويقال إنه مدح بلال بن أبى بردة المتوفى بعد سنة ١٢٦ بقصيدة ، وكان ذو الرمة حاضراً ، فقال له : إنها ليست لك ، وسرعان ما اعترف بأنها جاهلية[4] ويقال إنه قدم عليه مرة ، فقال له : ما أطرفتنى شيئاً ؟ فعاد إليه فأنشده القصيدة التى فى شعر الحطيئة بمديح أبى موسى الأشعرى (جد بلال) فقال بلال : ويحك يمدح الحطيئة أبا موسى ولا أعلم به وأنا أروى شعرَ الحطيئة ! ولكن دعها تذهب فى الناس[5] وقصته فى مجلس أمير المؤمنين المهدى مع المفضل الضبى مشهورة ، فقد زاد ثلاثة أبيات فى مطلع قصيدة زهير : (دع

---

(١) الأغانى ٦/٧١ ومعجم الأدباء ١٠/٢٥٩.

(٢) الحيوان ٤/٤٤٧ والأغانى ٦/٧٤ وأمالى المرتضى ١/١٣١ ولسان الميزان ٢/٣٥٣، ٣/١٧٣ .

(٣) المزهر ٢/٤٠٦ حيث يذكر أن الأصمعى روى شيئاً من شعره، وانظر الأغانى ٥/٢٠٩ حيث يروى له أبياتاً محكمة الصنعة.

(٤) الأغانى ٦/٨٨ .

(٥) طبقات فحول الشعراء ص ٤٠ — ٤١ وحاول ناصر الدين الأسد أن يصحح نسبة القصيدة للحطيئة لرواية المدائنى ورواة ديوان الحطيئة لها ، ولكن ذلك لا يكفى لصحة نسبها .

ذا وعد القول فى هرم) فأنكرها المفضل ولما سأله عنها المهدى بكل يمين محرجة اعترف بأنه أضافها من عنده ، فأمر المهدى أن ينادَى فى الناس بإبطال روايته لكذبه وبصحة رواية المفضل مواطنه[١]. وحاول بعض الباحثين التشكيك فى القصة[٢]، لأن المهدى ولى سنة ١٥٨ بعد وفاة حماد ، ولكن هناك من تأخروا بوفاته إلى سنة ١٦٤ كما قدمنا ، وربما أخطأ الرواة فى تعيين الزمان والمكان ، إذ ذكروا أن القصة حدثت فى قصر عيساباذ الذى بناه المهدى فى سنة ١٦٤ بينما أرخوا لها بسنة ١٥٨ . وحتى على فرض بطلان هذه القصة فإن هذا البطلان لا يدفع التهمة عن حماد ، كما لا يدفعها ما يذكره بعض هؤلاء الباحثين من أن اتهامه الواسع قد يرجع إلى المنافسة بين البصرة والكوفة ، فسيرته كانت سيرة شخص سيىء السيرة خلقياً ودينياً ، وما كان ابن سلام البصرى ليقول فيه : «كان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الراوية ، وكان غير موثوق به : كان ينحل شعر الرجل غيره ، وينحله غير شعره ويزيد فى الأشعار »[٣] بعامل المنافسة والعصبية ، ونفسُ البصريين الذين اتهموه وثقوا رواية مواطنه ومعاصره المفضَّل الضبي . فليست المسألة مسألة منافسة بين بلدين ، وإنما هى حقيقة واقعة ، ونفسُ الرواة الأثبات من بلدته كانوا يشركون البصريين فى نفس التهمة ، فابن الأعرابى الكوفى يروى عن المفضل أنه قال : « قد سُلِّط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده ، فلا يصلح أبداً ، فقيل له وكيف ذلك ؟ أيخطئ فى روايته أم يلحن ؟ قال : ليته كان كذلك ، فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب ، لا ، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله فى شعره ويُحمل ذلك عنه فى الآفاق فتختلط أشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد وأين ذلك ؟ »[٤] .

فالتهمة لم تكن بصرية خالصة ، بل كانت بصرية كوفية ، وربما بالغ بعض البصريين فقال عنه إنه كان يلحن ويكسر الشعر ويصحِّف ويكذب[٥] ، ولكن

(١) الأغانى ٦/٨٩ وما بعدها .
(٢) انظر مقدمة لايل للمفضليات ص ١٨ ومابعدها ومقالة بريتلش فى مجلة O.L.Z. عدد ١٩٢٦ ص ٨٢٩ وما بعدها ومصادر الشعر الجاهلى ص ٤٤٢ .
(٣) ابن سلام ص ٤٠ .
(٤) الأغانى ٦/٨٩ ومعجم الأدباء ١٠/٢٦٥ .
(٥) الأغانى ٦/٨٩ وانظر ٨/٢٨٣ .

بعد تجريد التهمة من مبالغاتها تظل عالقة به . ولذلك ينبغى أن لا نقبل شيئاً مما يروى دون أن يأتينا عن الرواة الثقات ، وكذلك ينبغى أن نتشكك فيما يرويه تلاميذه مثل ابن كناسة المتوفى سنة ٢٠٧ وخلف الأحمر راوية البصرة المشهور إذ كان قد أكثر الأخذ عنه[١]، ويُرْوَى أنه كان يعطى حماداً المنحول فيقبله منه ويرويه[٢] .

ومن رواة الكوفة الذين عاصروا حماداً واشتهروا بالوضع برزخ العروضى وكان من أكذب الناس فى الرواية[٣] ومثله جنّاد وكان يخلط فى الأشعار ويصحف ويلحن[٤] . وإذا كانت الكوفة أصيبت بمثل هؤلاء الرواة الوضاعين الذين ينحدرون من أصول غير عربية فقد كان من ورائهم رواة ثقات على رأسهم المفضل بن محمد ابن يَعْلى الضبى المتوفى حوالى سنة ١٧٠ للهجرة وكان عالماً علماً دقيقاً بأشعار الجاهلية وأخبارها وأيامها وأنساب العرب وأصولها ، ويُجمع الرواة كوفيين وبصريين على توثيقه ، وقد خلف مجموعة كبيرة من أشعار الجاهليين هى الملقبة بلقب المفضليات ، وهى أروع ما بأيدينا من نصوص الشعر الجاهلى ووثائقه التى لا يَرْقى إليها الشك .

وإذا ولينا وجوهنا نحو البصرة فى الحقبة التى تلت أبا عمرو بن العلاء وجدنا بها خلفاً الأحمر الذى تُسَدَّد إليه سهام الاتهام، ولم يكن يقل عن حماد فى معرفته بأشعار العرب وأخبارها، بل لعله يتقدمه ، إذ كان شاعراً مبرِّزاً ، وكان بصيراً بالشعر ، وأصل أبويه من فرغانة فهو من الموالى ، وُلد سنة ١١٥ للهجرة وتوفى حوالى سنة ١٨٠ وفيه يقول ابن سلام : « اجتمع أصحابنا أنه كان أفرس الناس ببيت شعر وأصدقهم لساناً ،وكنا لانبالى إذا أخذنا عنه خبراً أو أنشدنا شعراً ألاّ نسمعه من صاحبه »[٥] غير أن شهادة ابن سلام له لا تعفيه من التهمة الشديدة التى سُلِّطت على روايته ، وقد شهد هو نفسه بها إذ زعم كما قدمنا أنه كان يعطى حماداً المنحول من الشعر ويزيفه عليه فيرويه ، ويقال إنه هو الذى وضع اللامية المنسوبة إلى الشَّنفرى[٦] :

---

(١) مراتب النحويين ٤٧ ، ٧٢ .

(٢) الأغانى ٦/٩٢ .

(٣) إنباه الرواة ١/٢٤٢ والفهرست (طبعة مصر) ص ١٠٧ .

(٤) انظر ترجمته فى معجم الأدباء لياقوت وراجع الفهرست ص ١٣٥ .

(٥) ابن سلام ص ٢١ .

(٦) الأمالى ١/١٥٦ .

أقيموا بنى أمى صُدورَ مَطِيِّكمْ فإنى إلى قومٍ سواكم لأَمْيَلُ

كما وضع اللامية الأخرى المنسوبة إلى تأبط شرًّا أو إلى ابن أخته[١] :

إنَّ بِالشِّعْب الذى دون سَلْعٍ لقتيلا دَمُهُ ما يُطَلُّ

وتصدّى له الأصمعى مرارًا يتهمه بالوضع والنحل ، فقال إنه « وضع على شعراء عبد القيس شعرًا موضوعًا كثيرًا ، وعلى غيرهم ، عبثًا بهم ، فأخذ ذلك عنه أهلُ البصرة وأهل الكوفة »[٢] وعرض مرة لرواة الكوفة يصفهم بأنهم يتقبلون كل ما يرد عليهم ، فقال : « رواة غير منقّحين ، أنشدونى أربعين قصيدة لأبى دُؤاد الإيادى قالها خلف الأحمر ، وهم قوم تعجبهم كثرة الرواية ، إليها يرجعون وبها يفتخرون »[٣] . ويظهر أن البصريين كانوا يتحامون روايته ، بينما كان يحملها الكوفيون رواة حماد وأضرابه ، ويقول المبرد فيه موضحاً ذلك : « لم يُرَ أحد قط أعلم بالشعر والشعراء منه ، وكان به يُضْرَب المثل فى عمل الشعر ، وكان يعمل على ألسنة الناس ، فيشبّه كل شعر يقوله بشعر الذى يضعه عليه ، ثم نسك فكان يختم القرآن فى كل يوم وليلة ، وبذل له بعض الملوك ما لا عظيما خطيرًا على أن يتكلم فى بيت شعر شكوا فيه ، فأبى ذلك وقال : قد مضى لى فى هذا ما لا أحتاج إلى أن أزيد فيه . وعليه قرأ أهل الكوفة أشعارهم ، وكانوا يقصدونه لما مات حماد الراوية لأنه كان قد أكثر الأخذ عنه ، وبلغ مبلغاً لم يقاربه حماد . فلما تقرّأ ونسك خرج إلى أهل الكوفة فعرّفهم الأشعار التى قد أدخلها فى أشعار الناس ، فقالوا له : أنت كنت عندنا فى ذلك الوقت أوثق منك الساعة ، فبقى ذلك فى دواوينهم إلى اليوم »[٤] .

وواضح من ذلك أن الكوفة هى التى حملت رواية خلف بالإضافة إلى رواية حماد ، أما البصرة فقد حمل فيها بعض الرواة روايته ، ولكن الكثرة وعلى رأسها الأصمعى رفضتها . والأصمعى يقوم فى البصرة مقام المفضل الضبى فى الكوفة ، وقد أشاد معاصروه ومن تلاهم بسعة علمه بالجاهلية

---

(١) انظر العقد الفريد ٦/١٥٧ والحيوان ١/١٨٢ وانظر مصادر الشعر الجاهلى ص ٤٥٨ وما بعدها .

(٢) مراتب النحويين ص ٤٧ .

(٣) الموشح للمرزبانى ص ٢٥١ وما بعدها

(٤) مراتب النحويين ص ٤٧ .

وأشعارها وأخبارها ، ووثقوه وعدّلوه ، وإن كان ذلك لم يمنع بعض منافسيه من النَّيْل منه ، ولكنه نيل مردود، فقد كان فى الذروة من الثقة والأمانة ، وهو عربى صليبة، ولد حوالى سنة ١٢٢ للهجرة وتوفى سنة ٢١٥ وقيل سنة ٢١٦، أو ٢١٧ ، وفيه يقول ابن جنِّى : « وهذا الأصمعى هو صَنَّاجة الرواة والنقلة، وإليه محط الأعباء والثقلة . . . كانت مشيخة القراء وأماثلهم تحضره وهو حدث لأخذ قراءة نافع عنه ، ومعلوم قدر ما حذف من اللغة فلم يثبته ، لأنه لم يقو عنده إذلم يسمعه، وإما إسفافُ مَنْ لاعلم له وقول من لامُسْكة به إن الأصمعى كان يزيد فى كلام العرب ويفعل كذا ويقول كذا فكلام معفوٌ عليه غير معبوء به »[1] ويقول أبو الطيب اللغوى : « فأ ما ما يحكيه العوام وسُقَّاط الناس من نوادر الأعراب ويقولون: هذا مما افتعله الأصمعى . . وأنى يكون الأصمعى كما زعموا وهو لا يفتى إلا فيما أجمع عليه العلماء ويقف عما ينفردون به عنه، ولا يجوِّز إلا أفصح اللغات ويلجُّ فى دفع ما سواه[2]». وله مجموعة مشهورة من الشعر القديم هى الأصمعيات وهى كالمفضليات ثقة ودقة ، ورُويت عنه دواوين كثيرة أشهرها الدواوين الستة : دواوين امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة بن عَبَدة الفحل .

وكان يعاصره عالمان كبيران هما أبو زيد وأبو عبيدة ، وكان أبو زيد يُعْنَى بجمع اللهجات واللغات الشاذة وتوفى وقد قارب المائة ، سنة ٢١٤ أو ٢١٥ ، وهو عربى أنصارى خزرجى ، أما أبو عبيدة معمر بن المثنى فولد حوالى سنة ١١٠ وتوفى حوالى سنة ٢١١ وهو من الموالى وكانت فيه نزعة شعوبية صارخة ، ولكن الرواة وثقوه[3] وينبغى أن لا نتبعهم فى توثيقه وأن نقدم عليه الأصمعى وأبا زيد ، وكان يهتم بالأنساب والأيام ، وشرح نقائض جرير والفرزدق شرحه المشهور .

وكان بجانب هؤلاء الذين تحدثنا عنهم رواة يختلفون ثقة وتجريحًا مثل الهيثم ابن عدى المتوفى سنة ٢٠٦ وكان يهتم بالأخبار التاريخية وتشوب التهمة روايته، وأكثر منه تهمة فى هذا الباب محمد بن السائب الكلبى المتوفى سنة ١٤٦ للهجرة وابنه هشام المتوفى سنة ٢٠٤ وهما من كبار الوضاعين ويروى عن هشام أنه كان يقول : « كنت

(١) الخصائص ٣/٣١١ .
(٢) مراتب النحويين ص ٤٩ .
(٣) إنباه الرواة ٣/٢٨٠ .

أستخرج أخبار العرب وأنسابهم وأنساب آل نصر بن ربيعة (المناذرة) ومبالغ أعمار مَنْ ولى منهم لآل كسرى وتاريخ نسبهم من كتبهم بالحيرة »[١] . وينتظم فى سلك هؤلاء المؤرخين الواقدى والمدائنى .

وخلف بعد مَنْ قدَّمنا تلاميذهم من رواة القرن الثالث ،وعلى رأسهم أبوعمرو الشيبانى المتوفى سنة ٢١٣ وابن الأعرابى المتوفى سنة ٢٣١ هـ الكوفيان وكان وراءهما كثير من الرواة فى بلدتهم مثل محمد بن حبيب وابن السكيت المتوفى حوالى سنة ٢٤٤ وثعلب المتوفى سنة ٢٩١ . وانتهت الرواية فى البصرة إلى أبى سعيد الحسن ابن الحسين السكرى المتوفى سنة ٢٧٥ وإليه يرجع الفضل فى جمع كثير من الدواوين الجاهلية ، وهو يجمع بين الروايتين البصرية والكوفية .

ويتضح من كل ما أسلفنا أن رواية الشعر الجاهلى أُحيطت بكثير من التحقيق والتمحيص ، وأنه إن كان هناك رواة متهمون ، فقد كان لهم العلماء الأثبات بالمرصاد أمثال المفضل الكوفى والأصمعى البصرى ، وما مَثَلُ الشعر الجاهلى فى ذلك إلا مثل الحديث النبوى ، فقد دخله هو الآخر وضع كثير ، ولكن العلماء استطاعوا تمييز صحيحه من زائفه ، وقدَّموا لنا كتب الصحيح الستة المشهورة ، وكذلك الشأن فى الشعر فقد دخله فساد كثير ، ولكن أصحابه الأثبات استطاعوا — فى مهارة بالغة — أن يميزوا صحيحه من زائفه ، غير تاركين منفذاً إلى ذلك سواء فى سَنَد الرواة أو فى المتن نفسه ، بل إن ابن سلام ليقدّمهم على علماء الحديث فى هذا الباب ، يقول : « حدثنى يحيى بن سعيد القطّان قال : رواة الشعر أعقل من رواة الحديث ، لأن رواة الحديث يروون مصنوعاً كثيراً ، ورواة الشعر ساعة ينشدون المصنوع ينتقدونه ويقولون هذا مصنوع »[٢] .

فينبغى أن لا نتخذ من كثرة الاتهامات فى بيئة الرواية اللغوية مزلقاً إلى الطعن فى الشعر الجاهلى عامة ، إنما نطعن على ما طعن الرواة الثقات فيه حقاً ، ونضيف إليه ما يهدينا بحثنا الحديث إلى تزييفه . أما بعد ذلك فتبقى عامة ما رواه أثباتهم كالمفضل والأصمعى صحيحة . وكانا يتحريان تحرياً شديداً .

---

(١) تاريخ الطبرى (طبعة ليدن) القسم الأول ص ٧٧٠ .

(٢) ذيل الأمالى ص ١٠٥ .

فلنهمل إذن من الشعر الجاهلى ما جاءنا منه عن أمثال حماد وخلف الأحمر وكذلك ما جاءنا منه عن طريق أصحاب الأخبار المتزيدين أمثال عُبيد بن شَرِيَّة ومحمد بن السائب الكلبي وابنه هشام وما وضعه القصاص عن العرب البائدة ، وأيضاً ينبغي أن نهمل ما اختلف فيه الرواة ، أما ما اتفقوا عليه أو جاءنا عن أثباتهم فينبغي أن نقبله . وكانوا يأخذون بهذا القياس ، يقول ابن سلام : « وليس لأحد — إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه (من الشعر) — أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صحفى »(١) ويقول : « قد اختلفت العلماء فى بعض الشعر كما اختلفت فى بعض الأشياء ، أما ما اتفقوا عليه فليس لأحد أن يخرج منه »(٢) . واحتفظ ابن سلام فى طبقاته بمادة وفيرة من نقد البصرة للرواية والرواة ، فهو تارة يعدّ للشاعر القصائد الصحيحةَ النسبةِ إليه ، وتارة يقف عند بيت أو أبيات بعينها تنسب لشاعر من الشعراء الجاهليين وينص على أنها منتحلة ، فمن الضرب الأول قوله عن طرفة وعَبيد بن الأبرص : « ومما يدل على ذهاب الشعر وسقوطه قلةُ ما بقى بأيدى الرواة المصححين لطرفة وعبيد بن الأبرص اللذين صحَّ لهما قصائد بقدر عشر . ونرى أن غيرهما قد سقط من كلامه كلام كثير ، غير أن الذى نالهما من ذلك أكثر ، وكانا من أقدم الفحول فلعل ذلك لذاك ، فلما قلّ كلامهما حُمل عليهما حَمْل كثير »(٣) ثم عاد فوسَّع الشك فى شعر عبيد فقال فيه : « قديم الذكر عظيم الشهرة ، وشعره مضطرب ذاهب ، لا أعرف له إلا قوله :

أَقْفَــرَ من أهله ملحوبُ فالقُطَبِيَّــاتُ فالذَّنوبُ

ولا أدرى ما بعد ذلك »(٤) . ومن الضرب الثانى إنكاره أن يكون النابغة هو الذى قال :

فأُلفيتُ الأمانةَ لم تَخُنْها كذلك كان نوحٌ لا يخونُ

وقد عقب على إنكاره بأن أهل العلم أجمعوا على أن النابغة لم يقل هذا(٥) ،

---

(١) طبقات فحول الشعراء ص ٦ .
(٢) نفس المصدر والصفحة .
(٣) ابن سلام ص ٢٣ .
(٤) ابن سلام ص ١١٦ .
(٥) ابن سلام ص ٤٩ وما بعدها .

وعلى هذا النحو صفّى علماءُ الرواية واللغة الشعرَ الجاهليّ من شوائب كثيرة علقت به ، وإن كنا لا ننكر فى الوقت نفسه أنهم تناولوا أشياء منه بالتنقيح ، غير أن ذلك كان فى حدود ضيقة ، كأن يبدلوا كلمة مكان كلمة ، أو يقيموا بعض الألفاظ على سنن لهجة قريش ، فقد كانت تسقط على لسان الشعراء أحيانا أشياء من لهجاتهم القبلية ، فكانوا يصلحونها ، وقد يصلحون عروض بعض القصائد ، ولكنهم بصفة عامة حافظوا على جوهر هذا الشعر محافظة تشهد لهم بالدقة وأنهم استطاعوا أن ينقلوا غير قليل منه إلى أجيالهم والأجيال التالية فى صورة تكاد تكون مطابقة تمام المطابقة لأصوله .

٣

التدوين

مرّ بنا أن العرب لم يدوّنوا شعرهم فى الجاهلية ، وأن ما يذكر من أخبار عن كتابة بعض شعرائهم لمقطوعات لهم ، إن صحّ ، فإنه لا يدل على أنهم فكروا فعلا فى تدوين أشعارهم ، إنما هى قطع تكتب على رَحْل أو على حجر أو جلد لإنباء القبيلة أو بعض أفرادها بحادث . وقد نفينا أن يكونوا علقوا المعلقات فى الكعبة وكذلك رفضنا رواية حماد عن تدوين النعمان بن المنذر لأشعار العرب وما مُدح به هو وأهل بيته. ومن الأدلة على ذلك أننا لا نجد راوياً ثقة يزعم أنه نقل عن قراطيس كانت مكتوبة فى الجاهلية ، كما أننا لا نجد راوياً ثقة يزعم أن شاعراً فى الجاهلية ألقى قصيدته من صحيفة مدونة ، إنما كانوا ينشدون شعرهم إنشاداً ، ومَنْ كان منهم يُعِدّ قصيدته فى حَوْل أو أقل من حول كان يعدها فى نفسه ، ويرددها فى ذاكرته ، ثم ينشدها ، ويَحْملها الناس عنه ، ومن ثم قال الجاحظ : « وكل شىء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام . . فما هو إلا أن يصرف (العربى) وهمه إلى جملة المذهب وإلى العمود الذى إليه يقصد ، فتأتيه المعانى أرسالا (أفواجا) وتنثال عليه الألفاظ انثيالا ، ثم لا يقيّده على نفسه »[1] .

---

(١) البيان والتبيين ٣ / ٢٨ .

وظل هذا شأن العرب فى صدر الإسلام ، فهم يتناشدون الشعر ولا يقيِّدونه إلا قليلا وفى ظروف خاصة ، حتى مُصِّرت الأمصار ، وراجعت العرب الأشعار ، وأخذت فكرة التدوين تسلك طريقها فى تسجيل غزوات الرسول وأحاديثه وفى تقييد بعض الأخبار التاريخية ، فدوّن زياد بن أبيه كتاباً فى المثالب ، ودوّن عروة ابن الزبير غزوات النبي عليه السلام وحروبه ، ودوّن معاوية أخبار عبيد بن شريّة أو بعبارة أدق أمر غلمانه بتدوينها ، وأخذ بعض الصحابة والتابعين يدوّن أحاديث الرسول عليه السلام . وقد يكون فى تدوين الأحاديث ما ينير لنا الطريق فى تدوين الشعر ، فإن كثيراً من الصحابة والتابعين كان ينكر تدوينها ، ولم تدوّن تدويناً عاماً إلا على رأس المائة ، وكذلك نستطيع أن نقول إنه على الرغم من اهتمام القبائل بشعرها الجاهلى وشعرائها الذين يعدون مناط شرفها وفخارها لما يسجلون من مناقبها وأمجادها ومثالب خصومها فإنها لم تعمد إلى تدوين هذا الشعر إلا فى حقبة متأخرة من عصر بنى أمية .

ويظهر أنهم لم يكونوا يدوِّنون أشعار شعرائهم وحدها ، بل كانوا يدونون معها أخبارهم ، ولعل أقدم إشارة إلى هذه المدوَّنات ما أسلفنا من رواية أصحاب الأخبار عن حماد فى أول تعلقه بالشعر من أنه نقبَ ليلة على رجل ، فأخذ ما عنده وكان فيما أخذه جزء من شعر الأنصار ! ويزعم حماد أن الوليد بن يزيد أرسل فى طلبه ، فقال فى نفسه : « لا يسألنى إلا عن طرفيه : قريش وثقيف ، فنظرت فى كتابى قريش وثقيف »[1] ويُرْوى عن ثعلب أن الوليد بن يزيد جمع ديوان العرب وأشعارها وأنسابها ولغاتها ، وأنه طلب لذلك من حماد وجنَّاد الكوفيين ما عندهما من هذا الديوان ، ثم رد إليهما ما أخذه منهما »[2] .

وإن صحت هذه الأخبار كانت دليلا على أنه أخذت تظهر مع أوائل القرن الثانى مدونات تاريخية للقبائل لعلها هى التى أعدَّت فيما بعد لتدوين الرواة أشعار كل منها على حدة بنفس الصورة التى نعرفها لديوان هذيل .

ونمضى بعد عصر الوليد بن يزيد فيلقانا أبو عمرو بن العلاء ، وكان يعتمد على الرواية ، ولكنه كان يقيِّد إلى جانبها كثيراً من الأشعار والأخبار حتى قالوا إن

---

(١) الأغانى ٦/٩٤ . (٢) الفهرست ص ١٣٤ .

كتبه ملأت بيتاً له إلى قريب من السقف ، ثم تقرّأ (تنسك) فأحرقها كلها ، يقول الجاحظ : « فلما رجع بعدُ إلى علمه الأول لم يكن عنده إلا ما حفظه بقلبه ، وكانت عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية[١] » . وكان حماد على ما يظهر يُعنَى بالرواية أكثر من عنايته بالكتابة ، بل لعله لم يكن يعنى بالكتابة ، إنما كتب عنه تلاميذه ، يقول صاحب الفهرست : « لم يُرَ لحماد كتاب ، وإنما روى عنه الناس وصُنِّفت الكتب بعده[٢] » . وتُرْوَى للمفضل الضبي كتب صنَّفها ، فيها أشعار وأخبار[٣] ومن المؤكد أنه لم يكتب مفضلياته ، وإنما أنشدها تلاميذه فحملوها عنه .

ولعلنا لا نخطئ إذا قلنا إن الرواة الأولين لم يدوِّنوا ما رووه لطُلاَّبهم ، ولم يكن هذا شأن رواة الشعر وحدهم ، بل كان شأن رواة التاريخ الجاهلي جميعهم مثل محمد بن السائب الكلبي فإن ابنه هشاماً هو الذى حمل مادة أخباره ودوَّنها فى كتبه ، ونفس الخليل بن أحمد لم يخلف كتاباً فى النحو ، بل أملى إملاءات جمع منها سيبويه كتابه المشهور . وكانوا يتأثرون فى ذلك برواة الحديث ، وربما كانت الحاجة عندهم أمسّ ، لأن الشعر يحتاج إلى تلقين حتى لا يلحن فيه مَنْ ينشده ، ولذلك كانوا ينبذون فى أواخر القرن الثانى وأوائل الثالث من يلحن فيه بأنه صحفى يأخذ عن الصحف ، ولا يأخذ شفاها عن مشيخة العلماء باللغة والشعر . ومن ثم ضعّفوا مَنْ يروى عن المدونات ولم يقبلوا روايته إلا أن يكون قد أخذها عن شيخ ، ولذلك ضعّف ابن سلام رواية من يتداولون الشعر القديم من كتاب إلى كتاب ، يقول : « ليس لأحد أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صحفى » .

والرواة التالون لهؤلاء الرواة المتقدمين هم الذين يرجع الفضل إليهم فى تدوين الشعر الجاهلى تدويناً منهجياً قائماً على التوثيق والتجريح ، وعلى رأسهم الأصمعى ، وقد حصر اهتمامه فى جمع الشعر الجاهلى فى دواوين ومجموعات صحيحة . وكان هؤلاء الرواة المدوِّنون لا يكتفون بالسماع من جِلَّة الرواة السابقين ، فكانوا يرحلون إلى الصحراء العربية ليتوثقوا مما يروونه على نحو ما هو معروف عن الأصمعى

---

(١) البيان والتبيين ١/٣٢١ .

(٢) الفهرست (طبعة المطبعة الرحمانية) ص ١٣٥ .

(٣) إنباه الرواة (طبعة دار الكتب المصرية) ٣/٣٠٢ .

نفسه وعن أبى عمرو الشيبانى الذى يقال إنه دخل البادية ومعه دَستيجتان من حبر، فما خرج حتى أفناهما بكتْب سماعه عن العرب[١] .

وكان بعض الأعراب يفد على الحواضر وقد يقيم فيها ليسدّ هذه الحاجة عند الرواة. والمهم أنهم لم يكتفوا بالاعتماد على ذاكرتهم صنيعَ الرواة من قبلهم ، بل كانوا يدوِّنون ما يسمعونه ويحتفظون به ويقرءون منه فى مجالسهم وينقله عنهم طلابهم . وأخذت موجة هذا التدوين تتسع اتساعاً شديداً ، ويستطيع من يرجع إلى الفهرست وكتب التراجم أن يطلع على هذا النشاط التأليفى الذى لا يكاد يبلغه الحصر والعد ، فقد ترك هشام بن محمد الكلبى نحو مائة وأربعين كتاباً، وكانت كتب المدائنى لا تقل عنها عدداً، بينما خلف الهيثم بن عدى خمسين مصنفاً ، وأكثر كتبهم يعد مفقوداً ومن بينها ما يشير إلى عناية بالشعر ككتاب أخبار خزاعة للمدائنى وأخبار طيئ للهيثم ، وقد نُشر الأصنام لابن الكلبى وهو يمتلىء بالشعر الجاهلى مما يدل على أنه كان يملأ كتبه به .

على أنه يلاحَظُ إزاء هؤلاء المؤرخين أن كثيراً منهم لم يكن دقيقاً فيما يجمع من شعر ، ولعل ابن إسحق صاحب السيرة النبوية أشهرهم فى هذا الباب ، وقد تصدَّى له ابن سلام فى طبقاته ، فقال : « وكان ممن أفسد الشعر وهجّنه وحمل كل غُثاء منه محمد بن إسحق بن يسار ، مولى آل مخرمة بن المطلب بن عبد مناف ، وكان من علماء الناس بالسِّيَر . . فقبل الناسُ عنه الأشعار ، وكان يعتذر منها ويقول : لا علم لى بالشعر أوتَى به فأحمله . ولم يكن ذلك له عذراً . فكتب فى السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط وأشعار النساء فضلا عن الرجال ، ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود فكتب لهم أشعاراً كثيرة ، وليس بشعر إنما هو كلام مؤلف معقود بقواف ، أفلا يرجع إلى نفسه ، فيقول : من حَمل هذا الشعر ومن أدّاه منذ آلاف السنين والله تبارك وتعالى يقول : (فقُطع دابرُ القوم الذين ظلموا) أى لا بقية لهم ، وقال أيضاً : (وأنه أهلك عاداً الأولى وثمودَ فما أبقى) وقال فى عاد : (فهل ترى لهم من باقية) وقال : (وقروناً بين ذلك كثيراً) وقال : (ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قومِ نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله) »[٢] .

---

(١) نزهة الألباء للأنبارى ص ٦٣ .
(٢) ابن سلام ص ٨ وما بعدها .

وقال ابن سلام أيضًا فى ابن إسحق : « فلو كان الشعر مثل ما وُضع لابن إسحق ومثل ما رواه الصحفيون ما كانت إليه حاجة ولا فيه دليل على علم »(١) وتعقب ابنُ هشام فى سيرته ابنَ إسحق وردّ كثيراً مما روّى ، أو صحح نسبته .

وواضح أن هذه المنتحلات من الشعر المنسوب إلى عرب الجاهلية الأولى ليس لها أدنى قيمة ، فقد ردها الرواة المحققون ، ومع ذلك يتعلق بها بعض الباحثين المحدثين ليشككوا فى الشعر الجاهلى عامة ، مع أن القدماء رفضوها وردوها ، كما رفضوا وردوا رواية المتهمين من الرواة أمثال حماد وخلف . وليس معنى ذلك أننا نريد أن نوسع الأبواب فنقبل كثرة ما يُروى عن الجاهليين ، بل نحن نضيقها تضييقًا شديداً ، فلا نقبل إلا ما أورده الثقاة مثل أبى عمرو بن العلاء والمفضل الضبى والأصمعى ، فجملة ما رووه وثيقٌ .

ولا نبالغ إذا قلنا إن ما رواه هؤلاء الثقات لا يزال مادة غُفْلا لم يدرس ولم يفحص ، وقد خلّف من بعدهم خلفٌ أتموا تدوين الشعر الجاهلى وأشهرهم فى الكوفة أبو عمرو الشيبانى وابن الأعرابى وقد اشتهر الأول بأنه جمع أشعار نيف وثمانين قبيلة ، وكان كلما عمل شعر قبيلة منها وأخرجه للناس كتبَ مصحفًا وجعله فى مسجد الكوفة ، وطبيعى أن يُخرج دواوين القبائل راوٍ كوفى لأن بيوتات العرب وأشرافها كانوا فى الكوفة ولم يكونوا فى البصرة ، ومن غير شكٍّ كانوا من أهم الأسباب التى أعانت على حفظ الشعر الجاهلى وروايته إلى أن دُوّن فى القرن الثانى . ويظهر أن الكتب الخاصة بالقبائل لم تكن تكتفى برواية الأشعار بل كانت تضم إليها غير قليل من أخبارهم وأيامهم ، وربما كان هذا هو السبب فى أننا نرى مؤرخيهم ينثرون فى تاريخهم أشعاراً كثيرة كأنهم يرون أنها سنده وعماده ، على نحو ما تصور ذلك كتب المدائنى والواقدى وابن الكلبى . وكان رواة الشعر يمزجون برواياتهم كثيرًا من الأخبار التاريخية على نحو ما نرى فى شرح النقائض لأبى عبيدة . وقد بقى من دواوين القبائل ديوان هذيل برواية السكرى المتوفى سنة ٢٧٥ وفيه تختلط الأشعار بالأخبار ، ومن خير ما يصور ذلك فيه ديوان أبى ذؤيب .

ويدل كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى أنهم دونوا من هذه الأشعار

---

(١) ابن سلام ص ١١ .

والأخبار تراثاً كبيراً ، ومعروف أنه يقع فى واحد وعشرين مجلداً ضخماً وأن للجاهليين فيه حظاً موفوراً . وهو يسوق هذه المادة الجاهلية الشعرية التاريخية مقترنة بأسناد ،تصور مصدرها ، محتاطاً إزاء رُواته أشد الحيطة ، فمن عُرف بكذبه نبّه عليه ، وحتّى من عُرف بصدقه كان يراجع روايته على روايات معاصريه ودواوين الشعراء ، مبالغة فى الدقة والتحرى . والكتاب مؤلف حقاً فى القرن الرابع الهجرى ، ولكنه يستمد من رواة القرنين الثانى والثالث الهجريين كما يتضح من أسانيده ، فهم الذين جمعوا هذا التراث الجاهلى الضخم ، وأتاحوا لمن جاءوا بعدهم أن يؤلفوا مؤلفاتهم الكبرى ، سواء أكانت مجموعات شعرية أو أمالى أو أخبارا وتراجم . بل لقد بدأ منذ القرن الثالث تأليف هذه الكتب الجامعة مثل حماسة أبى تمام والبيان والتبيين للجاحظ والكامل للمبرد وعيون الأخبار لابن قتيبة وكتابه الشعر والشعراء .

وربما كان السكرى أهم راوٍ ظهر فى النصف الثانى من القرن الثالث ، فقد رُويت عنه دواوين كثيرة ، وهو يجمع فى روايته بين الروايتين الكوفية والبصرية إذ أخذ عن ابن حبيب وابن السكيت الكوفيين كما أخذ عن الرياشى وأبى حاتم السجستانى البصريين . ونمضى فى القرن الرابع الهجرى ، فيتكاثر التأليف والتدوين على نحو ما هو معروف عن ابن دريد وابن الأنبارى والقالى والمرزبانى ،وعملهم كما ذكرنا مشتق من عمل رواة القرن الثالث ، ونراهم يهتمون — مثل أبى الفرج الأصبهانى فى أغانيه — بالسند ، فهم لا يكتفون غالباً بالراوى القريب الذى سمعوا منه ، بل يسلسلون الرواة حتّى نصل إلى أبى عمرو بن العلاء أو إلى المفضل الضبى مثلا . وبذلك قدموا لنا — صنيعَ سابقيهم — مادة الشعر الجاهلى بكل ما تحمل من أسباب ضعف أوثقة ، وكان كثير منهم لا يزال يرحل إلى البادية صنيعِ الرواة المتقدمين.

٤

قضية الانتحال

واضح مما قدمنا أن الشعر الجاهلى دخل فيه انتحال كثير ، وقد أشار إلى ذلك القدماء مرارًا وتكرارًا ، وحاولوا جاهدين أن ينفوا عنه الزيف وما وضعه الوُضّاع متخذين إلى ذلك مقاييس كثيرة ، وبلغ من حرصهم فى هذا الباب أن أهمل ثقاتهم كل ما رُوى عن المتهمين أمثال حماد وخلف ، وكان الأصمعى خاصة لهم بالمرصاد ، كما كان المفضل الضبى من قبله ، وتتابع الرواة الأثبات بعدهما يحققون ويمحصون فى التراث . ومن أهمهم فى هذا الجانب ابن سلام ، فقد دوّن فى كتابه « طبقات فحول الشعراء » كثيرًا من ملاحظات أهل العلم والدراية فى رواية الشعر القديم من أساتذة المدرسة البصرية التى ينتسب إليها ، وأضاف إلى ذلك كثيرًا من ملاحظاته الشخصية .

وهذا الكتاب فى الحقيقة هو أول كتاب أثار فى إسهاب مشكلة الانتحال فى الشعر الجاهلى ، وقد ردها إلى عاملين : عامل القبائل التى كانت تتزيد فى شعرها لتتزيد فى مناقبها ، وعامل الرواة الوضاعين ، يقول : « لما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها استقلّ بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائعهم ، وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار ، فقالوا على ألسن شعرائهم ، ثم كانت الرواة بعدُ فزادوا فى الأشعار »[١] .

فالقبائل كانت تتزيد فى أشعارها وتروى على ألسنة الشعراء ما لم يقولوه ، وقد أشار ابن سلام مراراً إلى ما زادته قريش فى أشعار الشعراء ، فهى تضيف إلى شعرائها منحولات عليهم ، وقد أضافت كثيراً إلى شعر حسان[٢] . ويذكر أن من أبناء الشعراء وأحفادهم من كان يقوم بذلك ، مثل داود بن متمم بن نُوَيْرة ، فقد استنشده أبو عبيدة شعر أبيه متمم ، ولاحظ أنه لما نفد شعر أبيه جعل يزيد فى الأشعار ويضعها ، وإذا كلامٌ دون كلام متمم ، وإذا هو يحتذى على كلامه ، فيذكر المواضع التى ذكرها متمم والوقائع التى شهدها ، فلما توالى ذلك علم أبو عبيدة ومن كانوا معه أنه يفتعله »[٣] .

ولعل فى هذا ما يدل على أن الرواة من مثل أبى عبيدة كانوا يراجعون ما يرويه

---

(١) ابن سلام ص ٣٩ وما بعدها .
(٢) ابن سلام ص ١٧٩ ، ٢٠٤ ومابعدها .
(٣) نفس المصدر ص ٤٠ .

القبائل ، وكانوا يرفضون منه ما يتبين لهم زيفه ، إما بالرجوع إلى أصول صحيحة أو إلى أذواقهم وما يحسنون من نقد الشعر ومعرفتهم بالشاعر ونظمه ، ويسوق لنا ابن سلام شكا فى قصيدة أبى طالب التى روتها قريش فى أشعارها والتى يمدح بها الرسول صلى الله عليه وسلم[١] ، ومعنى ذلك أنهم نظروا فى شعر قريش فقبلوا منه ورفضوا[٢] . وهم يفحصون ويحققون فى شعر المدينة كما فحصوا وحققوا فى شعر قريش وغيرها من القبائل .

ويقدم لنا ابن سلام طائفتين من الرواة كانتا ترويان منتحلا كثيرًا وتنسبانه إلى الجاهليين ، طائفة كانت تحسن نظم الشعر وصوغه وتضيف ما تنظمه وتصوغه إلى الجاهليين ، ومثَّل لها بحماد ، ورأينا فيما مر بنا أشباها له فى جنَّاد وخلف الأحمر . وطائفة لم تكن تحسن النظم ولا الاحتذاء على أمثلة الشعر الجاهلى ، ولكنها كانت تحمل كل غثاء منه وكل زَيْف ، وهم رواة الأخبار والسير والقصص ، من مثل ابن إسحق راوى السيرة النبوية إذ كانت تُصْنَع له الأشعار ويُدخلها فى سيرته دون تحرز أو تحفظ ، منطقا بالشعر العربى من لم ينطقوه من قوم عاد وثمود والعماليق وطسم وجديس .

ورفض ابن سلام والأصمعى وأضرابهما رواية الطائفتين جميعاً ، فلم يقبلوا شيئا مما يرويه أشباه حماد إلا أن يأتيهم من مصادر وثيقة ، وكذلك لم يقبلوا شيئا مما يرويه ابن إسحق لا عن الأمم البائدة فحسب ، بل عن عرب الجاهلية أنفسهم ، إلا أن يجدوه عند رواة أثبات ، يقول ابن سلام وقد ذكر أبا سفيان بن الحارث أحد شعراء قريش الذين كانوا يناقضون حسان بن ثابت وشعراءَ المدينة : إن شعره فى الجاهلية « سقط ولم يصل إلينا منه إلا القليل » ثم علق على ذلك بقوله : « ولسنا نعدّ ما يروى ابن إسحق له ولا لغيره شعراً ، ولأن لا يكون لهم شعر أحسن من أن يكون ذاك لهم[٣] ». فهم كانوا يرفضون جملة ما يرويه ابن إسحق وأشباهه من مثل عبُيد بن شَرِيَّةَ وينحونه عن طريقهم ، يقول ابن سلام : « وليس يُشْكل على أهل العلم زيادةُ الرواة ولا ما وضعوا ولا ما وضع المولدون[٤] » مما حمله رواة القصص والأخبار من شعر غَثٍّ « لا خير فيه ولا حجة فى عربيته ولا أدبٌ يستفاد ولا معنى

(١) ابن سلام ص ٢٠٤ .
(٢) ابن سلام ص ٢٠٥ .
(٣) ابن سلام ص ٢٠٦ .
(٤) ابن سلام ص ٤٠ .

يستخرج ولا مثل يضرب ولا مديح رائع ولا هجاء مقذع ولا فخر معجب ولا نسيب مستطرف[١] » .

ففي الشعر الجاهلي منتحل لا سبيل إلى قبوله ، وفيه موثوق به وهو على درجات منه ما أجمع عليه الرواة[٢] ومنه ما رواه ثقات لا شك في ثقتهم وأمانتهم ، من مثل المفضل والأصمعي وأبي عمرو بن العلاء . وقد يغلب المنتحلُ الموثوقَ به ، ولكن ذلك لا يخرج بنا إلى إبطال الشعر الجاهلي عامة ، وإنما يدفعنا إلى بحثه وتمحيصه مهتدين بما يقدم لنا الرواة الأثبات من أضواء تكشف الطريق .

وقد لفتت هذه القضية ، قضية انتحال الشعر الجاهلي أنظار الباحثين المحدثين من المستشرقين والعرب ، وبدأ النظر فيها نولدكه[٣] سنة ١٨٦٤ وتلاه آلوَرْدْ حين نشر دواوين الشعراء الستة الجاهليين : امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعلقمة وعنترة فتشكك في صحة الشعر الجاهلي عامة ، منبّها إلى أن عددا قليلا من قصائد هؤلاء الشعراء يمكن التسليم بصحته ، مع ملاحظة أن شكا لا يزال يلازم هذه القصائد الصحيحة في ترتيب أبياتها وألفاظ كل منها . وتابع كثير من المستشرقين آلوارد في موقفه الحذر من قبول كل ما يُرْوَى للجاهليين ، أمثال موير وباسيه وبروكلمان . وكان مرجليوث أكبر من أثاروا هذه القضية في كتاباته إذ كتبَ فيها مقالا مفصلاً نشره في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية بعدد يولية سنة ١٩٢٥ جعل عنوانه كما مرّ بنا (أصول الشعر العربي : The origins of Arabic Poetry) ونراه[٤] يستهله بموقف القرآن الكريم من الشعر متحدثاً عن بدء ظهوره ونشأته وآراء القدماء في ذلك ، ثم ينتقل إلى الحديث عن حفظه ، وينفي أن تكون الرواية الشفوية هي التي حفظته ، وقد بينا آنفاً بأدلة لا تُدْفَعُ كيف أن سلسلة روايته لم تنقطع حتى عصر التدوين ولكن مرجليوث يذهب هذا المذهب ، ليقول إنه لم تكن هناك وسيلة لحفظه سوى الكتابة ، ثم يعود فينفي كتابته في الجاهلية ليؤكد أنه نُظم في مرحلة زمنية تالية للقرآن الكريم ! . ويقف بإزاء الرواة المتهمين أمثال حماد وجنّاد وخلف الأحمر وما كان يطعن به بعض الرواة في بعض ، ليزعم أن الوضع في هذا الشعر كان

(١) ابن سلام ص ٥ .

(٢) ابن سلام ص ٦ .

(٣) انظر في مناقشة المستشرقين لقضية الانتحال ، تاريخ الأدب العربي لبلاشير ١/١٧٦ وما بعدها .

(٤) لخص ناصر الدين الأسد هذه المقالة في كتابه مصادر الشعر الجاهلي تلخيصاً دقيقاً ص ٣٥٣ وما بعدها .

مستمراً . ويقول إنه لا يمثل الجاهليين الوثنيين ولا من تنصروا منهم ، فأصحابه مسلمون لا يعرفون التثليث المسيحي ولا الآلهة المتعددة ، إنما يعرفون التوحيد والقصص القرآني وما في الإسلام من مثل الحساب ويوم القيامة وبعض صفات الله . وفي كتاب الأصنام لابن الكلبي من الشعر الجاهلي ما ينقض زعمه نقضاً ، أما الشعر المصبوغ بصبغة إسلامية بحتة فنسلم بأنه موضوع ، ووضعه ينحصر فيه ، ولا يبطل ما وراءه من أشعار جاهلية . وينتقل مرجليوث من ذلك إلى اللغة فيلاحظ أنها لغة ذات وحدة ظاهرة ، وهي نفس لغة القرآن الكريم التي أشاعها في العرب ، ويقول ولو أن هذا الشعر صحيح لمثّل لنا لهجات القبائل المتعددة في الجاهلية كما مثل لنا الاختلافات بين لغة القبائل الشمالية العدنانية واللغة الحميرية في الجنوب . وأسلفنا في غير هذا الموضع أن لغة القرآن الفصحى كانت سائدة في الجاهلية وأن الشعراء منذ فاتحة هذا العصر كانوا ينظمون بها وأنها كانت لهجة قريش ، وسادت بأسباب دينية واقتصادية وسياسية . فكان الشعراء ينظمون فيها متخلين عن لهجاتهم المحلية على نحو ما يصنع شعراء العرب في عصرنا على اختلاف لهجات بلدانهم وأقاليمهم . أما أن الشعر الجاهلي لا يمثل اللغة الحميرية فهذا طبيعي لأنها ليست لغته ، وقديماً قال أبو عمرو بن العلاء: ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا[١] وقد أخذت الفصحى كما قدمنا تقتحم الأبواب على هذه اللغة في الجاهلية نفسها ، بحيث نستطيع أن نقول إن تعريب الجنوبيين بدأ منذ عهود مبكرة . وآخر أدلة مرجليوث على مزاعمه أن النقوش المكتشفة للممالك الجاهلية المتحضرة وخاصة اليمنية لا تدل على وجود أي نشاط شعري فيها ، فكيف أتيح لبدو غير متحضرين أن ينظموا هذا الشعر بينما لم ينظمه من تحضروا من أهل هذه الممالك . ودحض بروينلش هذا الدليل لأن نظم الشعر لا يرتبط بالحضارة ولا بالثقافة والظروف الاجتماعية ، وهناك فطريون أو بدائيون لهم شعر كثير مثل الإسكيمو[٢] .

والحق أن مرجليوث جانبه الصواب في دعواه ، ولذلك هبّ كثير من المستشرقين يردون عليه ، مثل بروينلش ولايل ، واحتج عليه الأخير في مقدمته للمفضليات بأن من وضعوا هذا الشعر — على فرض التسليم بذلك — كانوا يحاكون نماذج سابقة

---

(١) ابن سلام ص ١١ . (٢) بلاشير ص ١٨٠ .

وتقاليد أدبية موروثة قلدوها وحاكوها . ونفس هذه المحاكاة تدل على وجود أصل كانوا يحاكونه ، إذ لا يمكن أن يحاكوا شيئاً لم يبق منه ما يتيح لهم هذه المحاكاة ، وإذن فلا بد أن يكون هناك شعر جاهلي عرفه الإسلاميون وحاكوه ، وحقًّا دخله انتحالُ أمثالِ حماد وخلف ، ولكن وراء انتحالهم شعر صحيح ، ينبغي أن نهتدي في معرفته بالرواية الوثيقة وصفاته الشخصية والأسلوبية المميزة . ونراه يعود إلى هذا الموضوع في مقدمته لديوان عبيد بن الأبرص ، فيؤكد أن رواية هذا الشعر استمرت حية نشطة من الجاهلية إلى أن دُوِّن نهائيًّا في العصر العباسي ، وقد يكون أصاب قصائده بعض التغيير ولكن من يرجع إلى المعلقات مثلا يجد لكل منها شخصيتها الواضحة التي تنفرد بها والتي تثبت أنها لصاحبها ، وأعاد ما قاله في المقدمة الأولى من أن تقاليد شعر القرن الأول الهجري تُلزم بوجود الشعر الجاهلي الذي يشترك معها في نفس التقاليد ، وأيضا فإن فيه من الألفاظ الغريبة ما لم يكن يستخدَم في عصر هؤلاء الرواة ممن دونوه مما يدل دلالة قاطعة على أنه صحيح في جوهره .

ونضيف إلى ذلك أن في الشعر الجاهلي صوراً من الأساليب والتراكيب الملتوية التي تخرج على الصورة النحوية الطبيعية ، مما يدل على قدمها وأنها ليست من صنع العباسيين وأيضاً فإن فيه صورة لتهتك خلقي لا يمكن أن تقوم إلا في نفس وثني ، على نحو ما يلقانا في معلقة امرئ القيس وحديثه عن المرضع وبسطه لجوانب متعته بالمرأة .

ولا يزال المستشرقون إلى اليوم يختلفون في قبول هذا الشعر بحذر والشك فيه شكًّا معتدلا أو متطرفاً ، وممن أدلى بدلوه منهم في هذا الموضوع بلاشير في الجزء الأول من كتابه : تاريخ الأدب العربي ، إذ تحدث طويلا مبينا بل مجسما الشبهات ، وبينما يحاول الاعتدال أحيانا إذا به يهجم هجوماً عنيفاً[1] . ومن ألوان هجومه قوله : « نحن نجد في النصوص المذكورة أن الشعراء أيا كان عصرهم أو قبائلهم يستعملون لغة موحدة منزهة بصورة عامة عن كل أثر لهجي ، خاضعة لقواعد تركيبية ، هي بصورة مجملة قواعد نحاة البصرة ، ولا شك في أن القصائد الجاهلية جُرِّدت بتأثير الرواة الكبار عن كثير من الظواهر اللهجية ، كما أن التثبيت الكتابي بدوره أتم توحيد اللغة وحتى الأسلوب[2] » ويقول : « كل شيء يدعونا إلى الاعتقاد بأن كبار الرواة ومعهم علماء العراق قد أجروا في الشعر القديم إصلاحات ذات صبغة

(١) بلاشير ص ١٨٣ وما بعدها .
(٢) بلاشير ص ١٨٨ .

جمالية[١] » ثم يقول : « والمدهش هو تعدد الروايات واتساعها داخل كل بيت ، ولا ريب فى أنها ناشئة عن ضعف الذاكرة فى أثناء الرواية الشفوية وأن عدداً قليلا منها ناشئ عن عدم اكتمال طريقة الكتابة أو عن استبدالات فى المترادفات . وما من شىء يجيز لنا التأكيد بأن هذه الفروق الجزئية ليست قديمة ولا تصعد إلى ظهور الأثر نفسه[٢] » وينتهى من ذلك إلى أن « دراسة النصوص الشعرية (يقصد الصحيحة) تقودنا إلى وضع مبدأ يقضى بعدم امتلاكنا أى أثر شفوى فى شكله الأصيل . . ونحن نعلم لكى تتم المأساة أن المقلدات قد امتزجت بالأصول القديمة التى يختلف تحريفها قلة أو كثرة دون أن نتمكن فى كثير من الأحيان من كشف هذه الانتحالات[٣] » .

وواضح أن بلاشير يزعم أن الأصول الصحيحة للشعر الجاهلى اختلطت بالنماذج والقصائد الموضوعة اختلاطاً يتعذر معه أن تميَّز ، وهو زعم مبالغ فيه ، لأن هذه الأصول كما قدمنا وصلتنا عن رواة ثقات ، وأجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على توثيقها ، بحيث لا يرقى إليها الشك . وهو يزعم أيضا أن الرواة ونحاة البصرة عدّلوا فى هذه الأصول بما يتمشى مع القواعد النحوية البصرية من جهة والقواعد الجمالية الأسلوبية من جهة ثانية ، ويتخذ دليله على ذلك خلو القصائد الجاهلية من ظواهر اللهجات القبلية ، وقدّمنا أن هذه الظواهر كانت فعلا تكاد تكون منعدمة فى الجاهلية نفسها لأن الشعراء فى القبائل المختلفة اصطلحوا على أن ينظموا شعرهم بلهجة قريش ، واتخذوها لغة لشعرهم ، ومن أجل ذلك لم يسقط من لهجتهم فى أشعارهم إلا أشياء قليلة جداً ، سجلها هؤلاء النحاة البصريون ، وإلا ففيم هذه الشواذ النحوية التى تمتلئ بها كتبهم . ولم يكن رواة البصرة ونحاتها وحدهم الذين يروون هذا الشعر ، بل كان يرويه معهم رُواة الكوفة ونُحاتها ، وكانوا مولعين بإثبات الشواذ واعتبارها أصولا يقاس عليها . أما أن هؤلاء الرواة جميعاً أدخلوا فى الشعر الجاهلى إصلاحات ذات صبغة جمالية ، تقوم على متانة اللفظ وجزالته ، فهى دعوى تستلزم ضرباً من الدور ، إذ كانوا يرجعون فى هذه الإصلاحات إلى المقاييس الجمالية المبثوثة فى هذا الشعر الجاهلى والتى تقوم على الرصانة والجزالة ،

(١) بلاشير ص ١٨٩ .
(٢) بلاشير ص ١٨٩ .
(٣) بلاشير ص ١٩٢ .

ثم يصلحونه على أساسها ، وبذلك يجعلهم بلاشير يدورون ، وهو دورٌ باطل ، تنقضه طبيعة الأشياء . والحق أن ثقاتهم نقلوا إلينا هذا الشعر بكل صفاته الجمالية وما داخله من عيوب تركيبية أو شواذ نحوية أو لغوية. على أننا نسلّم بمايقوله بلاشير من أن القصائد أصابها بعض التغيير فى أثناء سفرها الطويل من الجاهلية إلى عصر التدوين ، فقد يستبدل الراوى بكلمة أخرى ترادفها ، وقد يغيب عن ذاكرته بعض الأبيات ، وقد يخالف فى ترتيب أبيات القصيدة فيقدم فيها أو يؤخر . غير أن ذلك لا يخلّ بصحة ما حمله ورواه العلماء الثقات الذين نَصُّوا على المنتحل المصنوع على نحو ما يصور لنا ذلك كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام .

وإذا تركنا المستشرقين إلى العرب المحدثين والمعاصرين وجدنا مصطفى صادق الرافعى يعرض هذه القضية قضية الانتحال فى الشعر الجاهلى عرضًا مفصلا فى كتابه « تاريخ آداب العرب » الذى نشره فى سنة ١٩١١ ولكنه لا يتجاوز فى عرضه — غالبا — سَرْدَ ما لاحظه القدماء[1] ، ونحن نحمد له استقصاءه لملاحظاتهم كما نحمد له ما وقف عنده من شعر الشواهد للمذاهب النحوية والكلامية ، فقد لاحظ ما دخل هذا الشعرَ من بعض الوضع ، وهو وضع سجله القدماء أنفسهم ولم يفتهم التنبيه عليه .

وخلفَ مصطفى الرافعى طه حسين فدرس القضية دراسة مستفيضة فى كتابه « الشعر الجاهلى » الذى أحدث به رجة عنيفة أثارت كثيرين من المحافظين والباحثين فتصدوا للرد عليه . ولم يلبث أن ألف مصنفه « فى الأدب الجاهلى » الذى نشره فى سنة ١٩٢٧ وفيه بسط القول فى القضية بسطاً أكثر سعة وتفصيلا ، إذ زودها ببراهين جديدة ، وقد خصص لها فى مصنفه أربعة كتب ، هى الكتاب الثانى والثالث والرابع والخامس ، ونراه يعنى فى الكتاب الثانى ببيان الأسباب التى تحمل على الشك فى الشعر الجاهلى ، ويقدم بين يديها نتيجة بحثه فيقول : « إن الكثرة المطلقة مما نسميه أدباً جاهليًّا ليست من الجاهلية فى شىء ، وإنما هى منتحلة بعد ظهور الإسلام ، فهى إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين ، وأكاد لا أشك فى أن ما بقى من الأدب الجاهلى الصحيح

(١) انظر الطبعة الثانية من هذا الكتاب ص ٢٧٧ وما بعدها .

قليل جداً ، لا يمثل شيئاً ولا يدل على شيء، ولا ينبغي الاعتماد عليه فى استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلى[١] » .

وواضح أنه يُبقى فى الشعر الجاهلى على بقية صحيحة ، وإن كانت فى رأيه قليلة ، ولا تعطينا الصورة الأدبية الوثيقة لهذا الشعر . وقد مضى يبسط الأسباب التى تدفع الباحث إلى الشك فيه واتهامه، وردها إلى أنه لا يصور حياة الجاهليين الدينية والعقلية والسياسية والاقتصادية ، كما أنه لا يصور لغتهم وما كان فيها من اختلاف اللهجات ، وتباينها بلهجاتها من اللغة الحميرية . أما من حيث حياتهم فيقول إنه عرضها على القرآن الكريم ، فوجده يمثلها من جميع جوانبها المذكورة تمثيلا قويًّا ، فهو يجادل اليهود والنصارى والصابئة والمجوس ويهاجمهم كما يهاجم الوثنيين والوثنية ، ويُطْلعنا فى تضاعيف ذلك على جملة معتقداتهم ، بينما نجد الشعر — كما يقول — بريئا أو كالبرىء من الشعور الدينى القوى والعاطفة المتسلطة على النفس . وقياس الشعر الجاهلى فى هذا الجانب على القرآن الكريم مردود أو منقوض ، لأن القرآن كتاب دينى يريد أن يجمع العرب على الإسلام ، فطبيعى أن يعرض لدياناتهم ويناقشها ، ويبين ما فيها من ضلال ، بخلاف الشعر ، فإن شاعراً لم يَدْعُ لدين جديد، ومع ذلك فإن فى كتاب الأصنام لابن الكلبى ذخيرة كبيرة من الشعر تصور حياتهم الوثنية تصويراً دقيقاً .

وينتقل إلى حياتهم العقلية فيلاحظ أنها غير واضحة فى الشعر المنسوب إليهم ، وكأنه يطلب إليهم حياة عقلية راقية أو معقدة، وكانوا فى جمهورهم بدْوًا لم يتحولوا إلى طور فكرى منظم ، وقد عرضنا فى غير هذا الموضع لذلك الطور وما يمثله من أشعارهم . ومعنى ذلك أن حياتهم العقلية الفطرية ماثلة فى شعرهم . ويخرج من ذلك إلى أن حياتهم السياسية لا تتضح فى أشعارهم ، مع أنهم كانوا على اتصال بمن حولهم من الأمم ، مما يوضحه القرآن الكريم فى سورة الروم ، إذ يعرض علينا العرب شيعتين : شيعة تنتصر للروم وشيعة تنتصر للفرس . وهذا فى الواقع لا يصدق على العرب جميعاً ، إنما يصدق على قريش وقوافلها التجارية التى كانت تنزل فى بلاد الدولتين . ومع ذلك فقد كان شعراء نجد والحجاز يتصلون بالغساسنة من أتباع

(١) فى الأدب الجاهلى (الطبعة الأولى) ص ٦٤ .

الروم والمناذرة من أتباع الفرس ويمدحونهم ويهجونهم . ولما نشبت الحروب بين قبيلة بكر والفرس قبيل الإسلام هدّدهم شعراء هذه القبيلة وتوعدوهم طويلا على نحو ما هو معروف عن الأعشى مثلا .

ويتحدث عن حياتهم الاقتصادية وأننا لا نظفر بشيء ذى غناء فى شعرهم يمثل لنا هذه الحياة ، بينما يمثل لنا الذكر الحكيم العرب طائفتين : طائفة الأغنياء المستأثرين بالثروة وطائفة الفقراء المعدمين ، وليس فى الشعر ما يصور ذلك كما يقول ، إنما فيه أن العرب جميعاً أجواد كرام ، على حين يُلح القرآن الكريم فى ذم البخل والبخلاء . وهذا القياس أيضًا لا يستقيم ، لسبب بسيط ، وهو أن شعر الصعاليك طافح بما يصور النضال بين الأغنياء والفقراء[1] ، وأيضا فإن شعراءهم إذا كانوا قد أكثروا فى مدحهم وفخرهم من ذكر الكرم فإنهم أكثروا فى هجائهم من ذكر البخل وشح النفس . ولا بد أن نلاحظ أن كثيراً من القرآن نزل فى قريش التاجرة التى بلغ كثير منها مبلغاً عظيما فى الثراء والتى كان يشيع فيها الربا أضعافاً مضاعفة .

ووقف طه حسين طويلا إزاء لغة الشعر الجاهلى ولاحظ أنه لا يصور اللغتين الشائعتين فى الجزيرة : لغة الحميريين الجنوبية ولغة العدنانيين الشمالية ، بل هو يضيف إلى الجنوبيين أشعاراً بلغة الشماليين . وحقًّا أن ما يضاف إلى من كانوا فى أقصى الجنوب وداخل اليمن منتحل ، أما من كانوا منهم يجاورون الشماليين فقد تعربوا فى الجاهلية مثل مذحج وبلحارث بن كعب . على أنه يطرد القياس فيتشكك فى شعراء القبائل اليمنية التى هاجرت من مواطنها الأصلية فى الجنوب إلى الشمال مثل كندة وشاعرها امرئ القيس . ومما لا شك فيه أن هذه القبائل هاجرت إلى الشمال قبل العصر الجاهلى وتعرّبت ، فهى ليست يمنية ولا جنوبية من الوجهة اللغوية ، وإنما هى شمالية . وقد وقف عند لهجات الشماليين فى الجاهلية ، تلك التى تمثّلها قراءات القرآن الكريم ، ولاحظ أن الشعر الجاهلى لا يمثلها ، واتخذ من ذلك مطعناً فى صحته ، ومر بنا فى غير هذا الموضع أن لهجة قريش عمّت فى الجزيرة منذ أوائل القرن السادس الميلادى واتخذها الشعراء لغة أدبية لهم ، ينظمون

---

(١) الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى ليوسف خليف (طبع دار المعارف) ص١٣٢ وما بعدها و ص ٢٢٧ وما بعدها .

فيها أشعارهم مرتفعين غالبا عن لهجات قبائلهم المحلية ، فلا محل للتساؤل عن هذه اللهجات فى شعر الجاهليين ، ولا موضع لاتخاذ ذلك دليلا على أنه منتحل موضوع . ونراه يتشكك فى شعر الشواهد التعليمية على ألفاظ القرآن والحديث والمذاهب الكلامية ، غير أن هذه الشواهد أبيات فردية ، واتهامها ينبغى أن ينحصر فيها وأن لا يتعداها إلى الشعر الجاهلى عامة .

ويخرج طه حسين فى مصنفه من هذا الكتاب الثانى إلى الكتاب الثالث ، فيتحدث عن أسباب نَحْل الشعر ويبسطها بسطاً معتمداً على ملاحظات القدماء ، ونراه يردها إلى السياسة والدين والقصص والشعوبية والرواة ، أما السياسة وأراد بها العصبية القبلية فرآها تلعب دوراً واضحاً فى شعر قريش والأنصار ، إذ أضافت قريش إلى نفسها أشعاراً كثيرة ، وقد استكثرت بنوع خاص من الشعر الذى يهْجَى به الأنصار . وواضح أن هذا لم يكن غائباً عن ابن سلام ، فقد نص عليه وحذّر منه كما أسلفنا ، كما حذر من أشعار وضعتها قريش على لسان حسان . على أن الأشعار جميعها التى وقف طه حسين عندها ليست جاهلية ، وإنما هى إسلامية .

وينتقل إلى الدين فيبين دوره فى هذا النحل متشككاً فى الأشعار التى يقال إنها نُظمت فى الجاهلية إرهاصًا ببعثة الرسول ، مما رواه ابن إسحق واحتفظ به ابن هشام فى سيرته ، ومثله ما يضاف إلى الجن والأمم القديمة البائدة . ومرّ بنا رَفْضُ ابن سلام لهذه الأشعار وما يماثلها . وتشكك فيما أضيف إلى شعراء اليهود والنصارى من أشعار ، وكذلك ما أضيف إلى عدى بن زيد العبادى ، ولم يكن القدماء فى غفلة عن ذلك(١) . ونراه يتحدث عن القصص والقصاص وأثرهم فى وضع الشعر ، ومرّ بنا تنبيه ابن سلام على ذلك عند ابن إسحق وأضرابه . ويعرض للشعوبية وما يمكن أن تكون قد نحلت الجاهليين من أشعار ، لتثبت على لسانهم مثالبهم التى تدعيها ، كما تثبت ثناءهم على الأعاجم . وقد تشكك فى هذا الشعر الكثير الذى يضيفه الجاحظ إلى الجاهليين فى مصنفه الحيوان ، ليدل على اتساع معرفتهم فى هذا العلم : علم الحيوان ، عصبية لهم ، والحق أن هذا لم يكن من أهداف الجاحظ ، فهو نفسه ينفى عنهم العلم الدقيق بالحيوان ، إذ يقول إن معارفهم فيه معارف أولية ، وإنه إنما دار فى أشعارهم لأنه كان مبثوثاً تحت أعينهم وأبصارهم

(١) انظر ابن سلام ص ١١٧ .

فى ديارهم[١] . ويختم هذا الكتاب بالوقوف عند الوضاعين من الرواة أمثال حماد وخلف ، ومرّ بنا كيف أن القدماء كانوا لهم بالمرصاد . ومعنى ذلك كله أنه فى هذا الكتاب إنما يردّد ما نص عليه العلماء السابقون من قضايا ، يريد أن يتسع بها لنقض الشعر الجاهلى جميعه ، وهى إنما تنقض جوانب منه ، وينبغى أن نقف عندها ، وأن لا نذهب مذهب التعميم ، فإن القدماء إنما ذكروا هذا كله ليدلوا على ما أحاطوا به رواية الشعر الجاهلى من سياج قوى ، حتى نميز الصحيح من الزائف والوثيق من المنحول .

ويمضى طه حسين فى مصنفه إلى الكتاب الرابع ، وهو دراسة تطبيقية لبيان الانتحال فى شعر طائفة من شعراء اليمن وربيعة ويبدأ فى دراسته بامرئ القيس ويتشكك فى شعره ، لأنه يمنى وشعره قرشى اللغة ، ثم هو شعر مضطرب ركيك . ومرّ بنا أنه كان يمنى الجنس ، ولكنه كان قرشى اللغة ، أما أن شعره ركيك والوضع فيه كثير فقد كان يغنيه عن هذا الظن ما يُرْوى عن الأصمعى من أنه قال : « كل شىء فى أيدينا من شعر امرئ القيس فهو عن حماد الراوية إلا نُتَفاً سمعتها من الأعراب وأبى عمرو بن العلاء »[٢] . ونراه ينتقل إلى علقمة الفحل فيشك فى شعره ، وقد كان ابن سلام لا يثبت له سوى ثلاث قصائد[٣] . وشك فى شعر عبيد بن الأبرص ، وأسلفنا أن ابن سلام لم يكن يعرف له سوى معلقته (أقفر من أهله ملْحوب) وكان يقول إن شعره مضطرب ذاهب . ومضى طه حسين على هذا النحو يشك فى شعر عمرو ابن قميئة ومهلهل وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة وطرفة والمتلمس والأعشى معتمداً على الأحكام الذاتية ، ولو أنه استقصى آراء الرواة الثقات لأعانه ذلك كثيراً فى تحقيق أشعارهم جميعاً .

وننتقل مع طه حسين فى مصنفه إلى الكتاب الخامس ، وهو خاص بشعراء مضر ، فنراه لا يستبعد أن يكون هناك شعراء مضريون وشعر مضرى ، غير أنه لا يلبث أن يستدرك قائلا : « لكننا لا نشك أيضًا فى أن هذا الشعر قد ذهب وضاعت كثرته ، ولم يبق لنا منه إلا شىء قليل جداً لا يكاد يمثل شيئاً ، وهذا المقدار القليل الذى بقى لنا من شعر مضر قد اضطرب وكثر فيه الخلط والتكلف

---

(١) الحيوان ٦/٢٩ وما بعدها .
(٢) مراتب النحويين ص ٧٢ .
(٣) ابن سلام ١١٦

والنحل، حتى أصبح من العسير جداً إن لم يكن من المستحيل تخليصه وتصفيته[١]».
ويضيف إلى ذلك أن من الخطأ أن نكتفى فى الحكم على الشعر المضرى بالسند ومن يحمله من الرواة، أو بالغرابة والسهولة، ذاهباً إلى أن الباحث فى هذا الشعر ينبغى أن يحكِّم فيه مقياساً مركباً من خصائص فنية يشترك فيها طائفة من الشعراء بحيث يكونون مدرسة كمدرسة أوس بن حجر التى تتألف منه ومن زهير وابنه كعب والحُطيئة، فإن لهذه المدرسة من الخصائص الفنية المشتركة ما يؤكد صحة شعرها وسلامته من الوضع والانتحال. وكأنه بذلك يهدم شكوكه الواسعة فى الشعر الجاهلى، فقد رجع أخيراً يسلم بصحة بعض جوانبه ودواوينه. على أننا لا نسلم له بطرد هذا المقياس فى تلك المدرسة نفسها، فقد لاحظ القدماء أن شعر أوس بن حجر اختلط بشعر ابنه شُرَيْح[٢]، واختلف الرواة فى بعض ما نُسب إليه من شعر هل هو له أو لعَبيد ابن الأبرص الأسدى[٣]، وسنرى فى درسنا لزهير أن من الخطأ أن نقبل رواية الكوفيين لديوانه، فقد حَمَلت زيادات كثيرة، شك القدماء فى أطراف منها، ونفس الرواية البصرية سنرفض قطعا وأشعارا منها، على الرغم من أنها جاءتنا عن الأصمعى بل سنرى الأصمعى نفسه يشك فى ثلاث قصائد مثبتة فى روايته.

والحق أن الشعر الجاهلى فيه موضوع كثير، غير أن ذلك لم يكن غائباً عن القدماء، فقد عرضوه على نقد شديد، تناولوا به رواته من جهة وصيغه وألفاظه من جهة ثانية، أو بعبارة أخرى عرضوه على نقد داخلى وخارجى دقيق. ومعنى ذلك أنهم أحاطوه بسياج محكم من التحرى والتثبت، فكان ينبغى أن لا يبالغ المحدثون من أمثال مرجليوث وطه حسين فى الشك فيه مبالغة تنتهى إلى رفضه، إنما نشك حقًّا فيما يشك فيه القدماء ونرفضه، أما ما وثقوه ورواه أثباتهم من مثل أبى عمرو بن العلاء والمفضل الضبى والأصمعى وأبى زيد فحرى أن نقبله ما داموا قد أجمعوا على صحته. ومع ذلك ينبغى أن نخضعه للامتحان وأن نرفض بعض ما رووه على أسس علمية منهجية لا لمجرد الظن، كأن يُرْوَى لشاعر شعرٌ لا يتصل بظروفه التاريخية، أو تجرى فيه أسماء مواضع بعيدة عن موطن قبيلته، أو يضاف إليه شعر إسلامى النزعة، ونحو ذلك مما يجعلنا نلمس الوضع لمسا.

(١) فى الأدب الجاهلى ص ٢٧٠.
(٢) الحيوان ٦/٢٧٩.
(٣) ابن سلام ص ٧٦ – ٧٧.

٥

أهم مصادر الشعر الجاهلى

رأينا علماء البصرة والكوفة ورواتهما يجمعون مادة الشعر الجاهلى ، وقد توزعتها منتخبات عامة ودواوين مفردة للشعراء وأخرى للقبائل غير كتب الطبقات والتراجم وكتب التاريخ واللغة . وسنحاول وصف طائفة منها وبيان مقدار الثقة بها . ونبدأ من المنتخبات العامة بالمعلقات ، وقد مر بنا أنها لم تعلق بالكعبة كما زعم بعض المتأخرين ، وإنما سميت بذلك لنفاستها أخذا من كلمة العلق بمعنى النفيس ، ويقال إن أول من رواها مجموعة فى ديوان خاص بها حماد الراوية[١] ، وهى عنده سبع : لامرئ القيس وزهير وطرفة ولبيد وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة وعنترة . ونراها عند صاحب الجمهرة سبعا أيضا ، غير أنه أسقط اثنين من رواية حماد هما الحارث ابن حلزة وعنترة وأثبت مكانهما الأعشى والنابغة ، وربما أضاف حماد الحارث فى مقابلة عمرو بن كلثوم التغلبى لأن ولاءه كان فى بكر . على أننا لا نمضى فى عصر التبريزى حتى نجده يجعلها فى شرحه لها عشرا جامعا بين الروايتين ومضيفاً قصيدة عبيد بن الأبرص : (أقفر من أهله ملحوب) .

وقد عنى الشراح بهذه المجموعة ، فشرحوها مرارا ، وطبع من شروحهم شرح الزوزنى المتوفى سنة ٤٨٦ هـ . وقد كتبه على رواية حماد ، ثم شرح التبريزى المتوفى سنة ٥٠٢ . وأكبر الظن أن حمادا لم يأخذ حريته كاملة فى قصائد مجموعته ، فقد كانت على ما يظهر معروفة بين العرب ، على أنه ينبغى مقابلتها على دواوين أصحابها ورواياتها الوثيقة .

والمجموعة الثانية فى المنتخبات هى المفضليات ، نسبة إلى جامعها المفضل الضبى راوى الكوفة الثقة ، وقد نشرها ليال بشرح ابن الأنبارى ، وهى مائة وست وعشرون قصيدة أضيف إليها أربع قصائد وجدت فى بعض النسخ ، وفى مقدمة الشرح

(١) انظر ترجمة حماد فى معجم الأدباء ١٠/٢٦٦ .

سند كامل لها يرفعه ابن الأنبارى إلى ابن الأعرابى تلميذ المفضل وربيبه ، ويقول ابن النديم « هى مائة وثمانية وعشرون قصيدة ، وقد تزيد وتنقص وتتقدم القصائد وتتأخر ، بحسب الرواية عن المفضل ، والصحيحة التى رواها عنه ابن الأعرابى [١] » ومعنى ذلك أن فى أيدينا أوثق نسخة للمفضليات . وتعلّق عبد السلام هرون وأحمد شاكر ناشراها فى دار المعارف بنص عن الأخفش يزعم أنها كانت ثمانين ألقاها المفضل على المهدى ، وزاد فيها الأصمعى أربعين ، ثم زاد البقية بعض تلاميذه [٢] ، وربما جاء الأخفش اللبس [٣] من أن الأصمعيات تلتقى معها فى تسع عشرة قصيدة ، وأيضًا فقد وجد الرواة يقولون إن أبا جعفر المنصور حين عهد إلى المفضل بتثقيف ابنه المهدى بالشعر القديم اختار له ثمانين قصيدة ، فلما وجدها قد زادت عن الثمانين ووجدها تلتقى مع الأصمعيات فى بعض القصائد ظن أن الأصمعى وتلاميذه هم الذين أضافوا فيها هذه الزيادات ، ولو أنه اطلع على رواية ابن الأعرابى خصم الأصمعى لزايله هذا الوهم ، وكأن المفضل اختار أولا ثمانين ألقاها على المهدى ، ثم زادها إلى مائة وثمان وعشرين كما جاءت فى رواية تلميذه ابن الأعرابى .

وهى موزعة على سبعة وستين شاعراً منهم سبعة وأربعون جاهليًّا وعلى رأسهم المرقشان الأكبر والأصغر والحارث بن حلِّزة وعلقمة بن عبَدة والشَّنْفرى وبشر بن أبى خازم وتأبط شرًّا وعوف بن عطية وأبو قيس بن الأسلت الأنصارى والمسيَّب وبينهم امرأة من بنى حنيفة ومجهول من اليهود ومسيحيان هما عبد المسيح بن عَسلة الشيبانى وتتضح مسيحيته فى اسمه ، ثم جابر بن حُنَى التغلبى ، ونراه يقول فى مفضليته :

وقد زعمتْ بَهْرَاءُ أن رماحنا رماحُ نصارى لا تخوض إلى الدَّمِ

ولو لم يصلنا من الشعر الجاهلى سوى هذه المجموعة الموثقة لأمكن وصف تقاليده وصفًا دقيقاً ، فقد مثَّلت جوانب الحياة الجاهلية ودارت مع الأيام والأحداث

---

(١) الفهرست ص١٠٢ .

(٢) ذيل الأمالى ص١٣١ .

(٣) ذهبنا إلى أنه لبس ، وربما كان بعامل التنافس بين البصريين والكوفيين ، فالأخفش البصرى يريد أن يقول إن المفضليات من صنع البصريين والكوفيين جميعاً لما كان لها من شهرة فى عصره فاقت شهرة الأصمعيات .

وعلاقات القبائل بعضها ببعض وبملوك الحيرة والغساسنة ، وانطبعت فى كثير منها البيئة الجغرافية . وقد جاء فيها غير قليل من الكلمات المندثرة التى لم ترد فى المعاجم اللغوية[١] على كثرة ما أثبتت من الألفاظ المهجورة ، مما يرفع الثقة بها ويؤكدها .

والمجموعة الثالثة من كتب المنتخبات العامة الأصمعيات نسبة إلى الأصمعى راويها ، وقد نشرها آلورد (Ahlwardt) عن نسخة سقيمة فى برلين سنة ١٩٠٢ وأعاد نشرها عبد السلام هرون وأحمد شاكر عن نسخة للشنقيطى نقلها عن أصل قديم وهى نشرة علمية جيدة ، وقد بلغ عدد قصائدها ومقطوعاتها اثنتين وتسعين ، وهى موزعة على ٧١ شاعراً منهم نحو ٤٠ جاهلياً على رأسهم امرؤ القيس والحارث ابن عباد ودريد بن الصِّمَّة وأبو دؤاد الإيادى وذو الإصبع العُدْوانى وسلامة بن جَنْدل وطرفة وعروة بن الورد وقيس بن الخطيم ، وبينهم يهوديان هما شعبة بن الغريض والسموأل . وهذه المجموعة كسابقتها فى الثقة بها وعلو درجتها ، وقد جاء فيها أيضاً كثير من الكلمات المهجورة التى لم تثبتها المعاجم[٢] ، غير أنها لم تلعب الدور الذى لعبته المفضليات فلم يتعلق بها الشرّاح ، ولعل ذلك يرجع إلى قلة غريبها بالقياس إلى المفضليات ، وأيضاً فإن الأصمعى لم يَرْوِ كثيراً من القصائد كاملة ، بل اكتفى بمختارات منها .

والمجموعة الرابعة جمهرة أشعار العرب لأبى زيد محمد بن أبى الخطاب القرشى ، ولا نجد اسمه بين الرواة المشهورين ، غير أنه يتضح من مقدمته لكتابه وما نقله عن الرواة أن بينه وبين رواة القرن الثانى جيلين أو ثلاثة ، فالوسائط بينه وبينهم فى السند غير بعيدة ، ولذلك نظن أنه كان يعيش فى أواخر القرن الثالث أو أوائل القرن الرابع ، وقد ذكره ابن رشيق المتوفى سنة ٤٦٣ للهجرة فى كتابه العمدة[٣] كما ذكره السيوطى فى المزهر[٤] والبغدادى فى الخزانة[٥] . والجمهرة تضم تسعاً وأربعين قصيدة طويلة موزعة على سبعة أقسام ، فى كل قسم سبع قصائد ، والقسم الأول خاص بالمعلقات ، وقد أخذ فيها برواية أنها سبع ، وأسقط منها معلقتى الحارث وعنترة ووضع مكانهما معلقتى الأعشى والنابغة ، ويلى هذا القسم المجمهرات وهى

(١) انظر الفهرس الثالث الملحق بالمفضليات (طبع دار المعارف) .
(٢) انظر الفهرس الثالث الملحق بالأصمعيات .
(٣) العمدة ١/٦٠ .
(٤) المزهر ٢/٤٨٠ .
(٥) الخزانة ١/١٠ ، ٦١ ، ٢/٥٥ .

لعبيد بن الأبرص وعدى بن زيد وبشر بن أبى خازم وأمية بن أبى الصلت وخداش ابن زهير والنمر بن تولب وعنترة وألحقت قصيدته فى النسخة المطبوعة بالمعلقات خطأ. ويلى ذلك المنتقيات أى المختارات ، ثم المذهبات وجميعها لشعراء من الأنصار جاهليين أو مخضرمين ، وربما قُصد باسمها أنها تستحق أن تكتب بالذهب ، ثم عيون المراثى ، ثم المشوبات ، وهى لمخضرمين ، شابهم الكفر والإسلام ، ثم الملحمات وجميعها لإسلاميين . وهى مجموعة غنية بالقصائد الطويلة ولكنها غير موثقة الرواية ، فلا بد فى الاعتماد عليها من مقابلتها على روايات صحيحة . وطُبعت الجمهرة مرارًا فى بيروت والقاهرة .

ومثل هذه المجموعة فى ضعف سندها مختارات ابن الشجرى المتوفى سنة ٥٤٢ للهجرة ، وهى مختارات من شعر جاهلى وإسلامى ، موزعة على ثلاثة أقسام وأهم مَنْ فى القسم الأول الشنفرى وطرفة ولقيط الإيادى والمتلمِّس ، أما القسم الثانى فمختارات من دواوين زهير وبشر بن أبى خازم وعَبيد بن الأبرص ، وأما القسم الثالث فمختارات من ديوان الحطيئة . وطُبعت هذه المجموعة بالقاهرة .

وتدخل فى هذه المختارات دواوين الحماسة ، وقيمتها أدبية أكثر منها تاريخية ، إذ لا يعرِّفنا أصحابها بمصادرهم وأشهرها ديوان الحماسة لأبى تمام المتوفى حوالى سنة ٢٣١ للهجرة وقد شُرح مرارًا ، ومن شروحه المطبوعة شرح المرزوقى وشرح التبريزى وهو يفيض بالإشارات التاريخية . ونصَّ المرزوقى على أن أبا تمام أصلحَ فى الشعر الذى رواه ، يقول : « إنك تراه ينتهى إلى البيت الجيد فيه لفظة تشينه ، فيَجْبُر نقيصته من عنده ، ويبدل الكلمة بأختها فى نقده ، وهذا يبين لمن رجع إلى دواوينهم ، فقابل ما فى اختياره بها[1] » . وحماسته موزعة على عشرة أبواب أكبرها باب الحماسة وبه سماها ، وهى مقطوعات لجاهليين وإسلاميين وعباسيين ، وقلما روَى فيها قصائد كاملة . وتلى هذه الحماسة فى الأهمية حماسة البحترى المتوفى سنة ٢٨٤ هـ وهى مقطوعات قصيرة موزعة على مائة وأربعة وسبعين بابا ، وأكثر أبوابها فى نزعات خلقية ، ولم يُعْنَ القدماء بشرحها . ولابن الشجرى صاحب

(١) شرح ديوان الحماسة للمرزوقى (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١/ ١٤ .

المختارات حماسة طُبعت فى حيدر آباد ، وأغلب منتخباتها من الشعر الجاهلى . وطبعت أخيراً حماسة الخالديين أو الأشباه والنظائر للأخوين سعيد الخالدى المتوفى سنة ٣٥٠ ومحمد المتوفى سنة ٣٨٠ ولا تزال الحماسة البصرية لعلى بن أبى الفرج البصرى المتوفى فى القرن السابع غير مطبوعة ، وفى دار الكتب المصرية مخطوطتان منها.

وإذا تركنا هذه المختارات إلى الدواوين المفردة لقينا منها دواوين الشعراء الستة الجاهليين : امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة وقد نشرها ألوارد ، إلا أنه لم يكتف برواية الأصمعى التى احتفظ بها شرح الشنتمرى ، بل أضاف إليها زيادات هى فى الأكثر منحولات ، ولا نزال فى حاجة إلى نشر شرح الشنتمرى المتوفى سنة ٤٧٦ وقد استخرج منه مصطفى السقا شرحه على تلك الدواوين والتزم روايته فى المجموعة التى سماها باسم مختار الشعر الجاهلى . وطُبع ديوان امرئ القيس طبعات مختلفة لعل أهمها الطبعة الأخيرة بدار المعارف ، وقد جمع فيها أبو الفضل إبراهيم رواياته جميعها وقارن بينها مقارنات دقيقة . ونشرت دار الكتب المصرية ديوان زهير بشرح ثعلب ، غير أن من حققوه لم يقابلوا بين هذه الرواية الكوفية ورواية الأصمعى البصرية التى يحتفظ بها الشنتمرى فى شرحه . وطُبعت دواوين أخرى مثل ديوان النابغة وطرفة ولبيد وعروة بن الورد وحاتم وعلقمة والشنفرى وأوس بن حجر ، إلا أن أكثر هذه الدواوين لا يزال فى حاجة إلى نشرة علمية جيدة . وقد نشر لايل ديوانى عبيد بن الأبرص وعامر بن الطفيل ، وهناك دواوين مخطوطة لما تنشر .

أما دواوين القبائل التى جمع منها الشيبانى نيفاً وثمانين ، وعُنى السكرى بكثير منها ، ففقدت فى الطريق[1] ، ولم يبق منها إلا قطع من ديوان هذيل نشرت فى خمس مجموعات ، أربع منها فى أوربا وهى من صنعة أبى سعيد الحسن بن الحسين السكرى ، طُبعت أولاها فى لندن سنة ١٨٥٤ بتحقيق كوزجارتن وطبعت الثانية فى برلين سنة ١٨٨٧ بتحقيق ڤلهاوزن ، وطُبعت الثالثة وهى خاصة بديوان أبى ذؤيب فى هانوفر سنة ١٩٢٦ بتحقيق يوسف هل ، وفى سنة ١٩٣٣ نشر القطعة

---

(١) انظر فى تحقيق هذه الدواوين مصادر الشعر الجاهلى ص٥٤٣ وما بعدها .

الرابعة فى ليبزج ، وهى تتداخل مع القطعة الخامسة التى نشرتها دار الكتب المصرية ، ويظهر أن هذه القطعة الأخيرة اختلطت فيها نسخة السكرى بنسخة أخرى مختصرة ولذلك كان يقل فيها الشرح وإسناد الرواية . ويعنى عبد الستار فراج —بمراجعة محمود شاكر— بتحقيق أشعار الهذليين من صنعة السكرى وقد نشرت منه مكتبة دار العروبة جزءين . ومن الحق أن القطع التى وصلتنا من شرح السكرى غاية فى النفاسة لا لأنه يضمنها أخباراً وشروحاً فحسب ، بل أيضاً لأنه يقفنا وقوفا دقيقا على مصادره ، إذ يذكر دائما الإسناد فى القصيدة وألفاظها وأبياتها مثبتاً ما اختلف فيه الرواة البصريون وعلى رأسهم الأصمعى والكوفيون وعلى رأسهم ابن الأعرابى وأبو عمرو الشيبانى ومن جاء بعدهم من البغداديين مثل عبد الله بن إبراهيم الجمحى ، ومن بين من ينقل عنهم أبو عبيدة . ومنه نعرف أن الأصمعى كان ينقل عن مصدر من نفس القبيلة هو عمارة بن أبى طرفة الهذلى . وبذلك كانت هذه القطع التى رواها السكرى من ديوان هذيل لا تقل ثقة ولا قيمة تاريخية عن المفضليات والأصمعيات .

ومن الكتب الجيدة التى تشتمل على شعر جاهلى كثير شرح النقائض لأبى عبيدة ، فقد أنشد فيه كثيرًا من الشعر الذى قيل فى أيام العرب ، وحذا حذوه مَن كتبوا فى أيام العرب مثل ابن الأثير فى كامله وابن عبد ربه فى عقده . ومن الكتب الجيدة أيضًا طبقات الشعراء لابن سلام ، ومر بنا أنه أودع فيه دراسة دقيقة للشعر الجاهلى صحيحه ومصنوعه . أما كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة فربما كان خير ما فيه مقدمته التى يحاول أن يربط فيها شعراء عصره بالمثل الجاهلية القديمة ، أما بعد ذلك فالكتاب فقير فى تراجمه وما يُطوى فيها من أخبار وأشعار غير مسندة إلى رواتها . وهناك كتبُ أدب ألفت فى البصرة مثل البيان والتبيين والحيوان للجاحظ والكامل للمبرد ، ومن الخير أن نردّ ما بها من شعر إلى روايات بصرية صحيحة ، حتى نكون أكثر طمأنينة ، ويجرى مجراها ما فى أمالى اليزيدى ومجالس ثعلب من أشعار . وينبغى أن نتلقى كتب الأدب البغدادية مثل عيون الأخبار لابن قتيبة بحذر ، ومثلها أمالى أبى على القالى ففيها انتحال كثير . ومن المختصرات التى تفيد فى المراجعة كتاب المؤتلف والمختلف للآمدى ومعجم الشعراء للمرزبانى وكتابه الموشّح نفيس فى التعرف على كثير مما

وُضع على الشعراء الجاهليين . وهناك أشعار جاهلية كثيرة فى كتب النقد مثل نقد الشعر لقدامة والصناعتين لأبى هلال العسكرى والوساطة بين المتنبى وخصومه للجرجانى والعمدة لابن رشيق ، ومثلها مثل الشواهد المبثوثة فى كتب اللغة والنحو ينبغى التوثق منها بالرجوع إلى المصادر الأصلية الوثيقة . أما ما جاء فى كتب السير والأخبار والتاريخ كسيرة ابن هشام وتاريخ الطبرى ومغازى الواقدى فينبغى أن نرفضه إلا أن تدعمه روايات صحيحة .

وإذا كنا فقدنا كثيراً من الدواوين المفردة ودواوين القبائل وما كان بها من أخبار وأشعار فإن كثيراً من ذلك احتفظ به أبو الفرج الأصبهانى فى كتابه الأغانى الذى ترجم فيه للشعراء من القرن السادس إلى القرن التاسع للميلاد ترجمات غنية ، سجل فيها كثيراً من المادة التى فُقدت ، وكان له ذوق عالم ناقد بصير ، فساق من الكتب التى سبقته أطرفَ ما فيها من أخبار وأشعار ، ولم يسقها مفردة ، بل ساقها بأسانيدها التى ترجع بها إلى مصادرها ورواتها الأوائل مثل الأصمعى وأبى عبيدة وابن الأعرابى وأبى عمرو والشيبانى والهيثم بن عدى وخالد بن كلثوم وابن الكلبى وأضرابهم ، ومَنْ خلفوهم من جيلة الرواة والمصنفين ، وإذا تعددت الروايات فى الخبر ذكرها جميعاً ، وكثيراً ما يقف ليفحص ما ينقله ، فيرفض رواية لأن راويها ابن الكلبى أو ابن خرداذبة أو غيرهما من المتهمين . وقد يشك فى مقطوعة أو قصيدة تنسب لشاعر من الشعراء ، فيرجع إلى ديوانه فى رواياته المختلفة ، وينص على أنه وجدها أو لم يجدها . وقد يعرض الخبر على التاريخ ليتوثق منه . وفى تضاعيف ذلك يسوق آراء الرواة والنقاد فى الشعراء وشعرهم . والحق أنه أكبر مصدر لتاريخ الشعر الجاهلى وأصحابه ، فإذا أضفنا له الأصمعيات والمفضليات وديوان هذيل وما صح من الدواوين المفردة كنا أمام مادة خصبة للبحث والدراسة فى الجاهليين وأشعارهم وأخبارهم .

ومن الكتب المتأخرة التى احتفظت ببعض ما فُقد من الروايات والمصنفات القديمة خزانة الأدب للبغدادى المتوفى سنة ١٠٩٣ للهجرة ، وهو شرح على شواهد الرضى شارح كتاب الكافية لابن الحاجب ، وفيه تراجم دقيقة لبعض الجاهليين وملاحظات على بعض أشعارهم من حيث الانتحال والصحة . ومثله فى هذا الاتجاه شرح السيوطى على شواهد المغنى لابن هشام .

الفصل السادس

خصائص الشعر الجاهلى

١

نشأة الشعر الجاهلى وتفاوته فى القبائل

لا ريب فى أن المراحل التى قطعها الشعر العربى حتى استوى فى صورته الجاهلية غامضة ، فليس بين أيدينا أشعار تصور أطواره الأولى ، إنما بين أيدينا هذه الصورة التامة لقصائده بتقاليدها الفنية المعقدة فى الوزن والقافية وفى المعانى والموضوعات وفى الأساليب والصياغات المحكمة ، وهى تقاليد تلقى ستاراً صفيقاً بيننا وبين طفولة هذا الشعر ونشأته الأولى فلا نكاد نعرف من ذلك شيئاً . وحاول ابن سلام أن يرفع جانباً من هذا الستار فعقد فصلا [١] تحدث فيه عن أوائل الشعراء الجاهليين ، وتأثر به ابن قتيبة فى مقدمة كتابه الشعر والشعراء ، فعرض هو الآخر لهؤلاء الأوائل ، وهم عندهما جميعاً أوائل الحقبة الجاهلية المكتملة الخلق والبناء فى صياغة القصيدة العربية ، وكأن الأوائل الذين أنشأوا هذه القصيدة فى الزمن الأقدم ونهجوا لها سُننها طواهم الزمان . وفى ديوان امرئ القيس [٢] .

عُوجا على الطَّلل المُحيل لأننا ... نبكى الديار كما بكى ابنُ خِذامِ

ولا نعرف من أمر ابن خذام هذا شيئاً سوى تلك الإشارة التى قد تدل على أنه أول من بكى الديار ووقف فى الأطلال .

وتتراءى لنا مطولات الشعر الجاهلى فى نظام معين من المعانى والموضوعات ، إذ نرى أصحابها يفتتحونها غالباً بوصف الأطلال وبكاء آثار الديار ، ثم يصفون رحلاتهم فى الصحراء وما يركبونه من إبل وخيل ، وكثيراً ما يشبهون الناقة فى

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام (طبع دار المعارف) ص ٢٣ وما بعدها .

(٢) ديوان امرئ القيس (طبع دار المعارف) ص ١١٤ وعوجاً : اعطفا . المحيل : الذى أتى عليه أحوال . لأننا هنا : لعلنا .

سرعتها ببعض الحيوانات الوحشية ، ويمضون فى تصويرها ، ثم يخرجون إلى الغرض من قصيدتهم مديحاً أو هجاء وفخراً أو عتاباً أو اعتذاراً أو رثاء . وللقصيدة مهما طالت تقليد ثابت فى أوزانها وقوافيها ، فهى تتألف من وحدات موسيقية يسمونها الأبيات وتتحد جميع الأبيات فى وزنها وقافيتها وما تنتهى به من روىٍّ .

وتلقانا هذه الصورة التامة الناضجة للقصيدة الجاهلية منذ أقدم نصوصها، وحقًّا توجد قصائد يضطرب فيها العروض ولكنها قليلة ، من ذلك قصيدة عَبيد بن الأبرص الأسدى[1] :

أَقْفَـــر من أهله ملحوبُ ... فالقُطَبِيَّـــاتُ فالذَّنوبُ

فهى من مخلَّع البسيط ، وقلما يخلو بيت منها من حذف فى بعض تفاعيله أو زيادة على نحو ما نرى فى الشطر الأول من هذا المطلع ، وعلى غرارها قصيدة تنسب لامرئ القيس مطلعها[2] :

عينـــاك دمعهما سِجَالُ ... كأن شـــأْنيهما أَوْشـــالُ

ومثلهما فى هذا الاضطراب قصيدة المُرَقِّش الأكبر[3] :

هل بالديار أن تُجيب صَمَمْ ... لو كان رَسْمٌ ناطقًا كلَّمْ

فهى من وزن السريع ، وخرجت شطور بعض أبياتها على هذا الوزن كالشطر الثانى من هذا البيت :

ما ذَنْبُنا فى أن غَزَا مَلِكٌ ... من آل جفنة حازمٌ مُرْغم

فإنه من وزن الكامل . وعلى هذه الشاكلة قصيدة عدى بن زيد العبادى[4] :

تعرف أمسِ من لَميسَ الطَّلَلْ ... مثل الكتاب الدارس الأَحْوَلْ

---

(١) انظر القصيدة فى المعلقات العشر وفى ديوان عبيد . وملحوب والقطبيات والذنوب : أسماء مواضع .

(٢) الديوان ص ١٨٩ سجال : جمع سجل أى صب بعد صب . شأنيهما : مثنى شأن وهو مجرى الدمع . أو شال : جمع وشل وهو الماء القليل .

(٣) المفضليات (طبع دار المعارف) ص ٢٣٧ .

(٤) أغانى (طبعة دار الكتب) ٢/١٥٣ .
الأحول : الذى أتى عليه أحوال وسنوات كثيرة .

فهي من وزن السريع وخرجت بعض شطورها على هذا الوزن كالشطر الثانى من هذا البيت :

أنعِمْ صباحًا عَلْقَمَ بنَ عَدِىْ أثويتَ اليومَ أمْ تَرْحَلْ

فإنه من وزن المديد . ويماثل هذه القصيدة فى اختلال الوزن قصيدته(١) :

قد حان أن تَصْحُوَ أو تُقْصِرْ وقد أتى لما عهدتَ عُصُرْ

ومن هذا الباب نونية سُلَمِىّ بن ربيعة التى أنشدها أبو تمام فى الحماسة(٢) :

إن شِــوَاءً ونَشْــوَةً وخَبَبَ البـــازلِ الأَمونِ

فقد لاحظ التبريزى والمرزوقى أنها خارجة عن العروض التى وضعها الخليل . واضطرابُ هذه القصائد فى أوزانها مما يدل على صحتها وأن أيدى الرواة لم تعبث بها . ومعروف أن الزحافات تكثر فى الشعر الجاهلى ، بل فى الشعر العربى بعامة ، ومما كان يشيع بينهم الإقواء ، وهو اختلاف حركة الروى فى القصيدة كقول امرئ القيس فى معلقته يصف جبل أبان :

كأَنّ أَباناً فى أفانين وَدْقِهِ كبيرُ أُناسٍ فى بِجادٍ مزمَّلُ(٣)

فقد ضم اللام فى نهاية البيت ، وهى مكسورة فى المعلقة جميعها . وفى رأينا أن احتفاظ الشعر الجاهلى بهذه العيوب العروضية مما يؤكد صحته فى الجملة وأن الرواة لم يصلحوه إصلاحاً واسعاً ، كما يزعم بعض المحدثين .

ومهما يكن فليس بين أيدينا أشعار تصور مرحلة غير ناضجة من نظام الوزن والقافية فى الجاهلية ، فإن نفس هؤلاء الشعراء الذين رُوِيت عنهم تلك القصائد المضطربة فى وزنها رُوِى عنهم قصائد كثيرة مستقيمة فى وزنها وقوافيها ، مما يدل على أن ذلك كان يأتى شذوذاً وفى الندرة . وزعم بعض القدماء والمحدثين أن الرجز أقدم أوزان الشعر العربى ، وأنه تولد من السجع ، مرتبطاً بالحُداء ووقع أخفاف الإبل

(١) الفصول والغايات لأبى العلاء ص ١٣١ .

(٢) انظر التبريزى على الحماسة ٣/٨٣ والمرزوقى رقم ٤٠٨ . والخبب : ضرب من السير . البازل : الناقة المسنة . الأمون : الموثقة الخلق .

(٣) أفانين : ضروب وأنواع . الودق : المطر . البجاد : كساء مخطط . مزمل : متدثر .

فى أثناء سيرها وسُرَاها فى الصحراء ، ومنه تولدت الأوزان الأخرى[١] ، غير أن هذا مجرد فرض . وكل ما يمكن أن يقال هو أن الرجز كان أكثر أوزان الشعر شيوعاً فى الجاهلية ، إذ كانوا يرتجلونه فى كل حركة من حركاتهم وكل عمل من أعمالهم فى السلم والحرب ، ولكن شيوعه لا يعنى قدمه ولا سبقه للأوزان الأخرى ، إنما يعنى أنه كان وزناً شعبياً لا أقل ولا أكثر . وكان الشعراء الممتازون فى الجاهلية لا ينظمون منه ، إنما ينظمون فى الطويل والبسيط والكامل والوافر والسريع والمديد والمنسرح والخفيف والوافر والمتقارب والهزج ، وإن كان نظمهم فى الثلاثة الأولى أكثر وأوسع .

والحق أنه ليس بين أيدينا شىء من وزن أو غير وزن يدل على طفولة الشعر الجاهلى وحِقبه الأولى ، وكيف تمّ له تطوره حتى انتهى إلى هذه الصورة النموذجية التى تلقانا منذ أوائل العصر الجاهلى أو بعبارة أخرى منذ أوائل القرن السادس الميلادى . ولم تكن تختص بهذا الشعر فى الجاهلية قبيلة دون غيرها من القبائل الشمالية عدنانية أو قحطانية ، وآية ذلك أننا نجد الشعراء موزعين عليها ، فمنهم من ينتسب إلى القبائل القحطانية مثل امرئ القيس الكندى وعدىّ بن رَعْلاء الغسانى[٢] والحارث بن وَعْلة الجرمىّ القضاعى[٣] ومالك بن حَريم الهَمْدانىّ[٤] وعبد يغوث الحارثى النَّجْرانى[٥] والشَّنْفرى الأزدى[٦] وعمرو بن معد يكرب المَذْحجى[٧] ، أما من ينسبون إلى مضر وربيعة فأكثر من أن نسميهم ، وعلى شاكلتهم من ينسبون إلى الأوس والخزرج القحطانيين فى المدينة . ونحن لا نستطيع أن نحصى من جرى لسانهم بالشعر حينئذ ، فقد كانوا كثيرين ، وكانت تشركهم فيه النساء مثل الخنساء ، وكان ينظمه سادتهم وصعاليكهم . ويخيل إلى الإنسان أن الشعر لم يكن يستعصى على أحد منهم ، وعدّ ابن سلام فى طبقاته أربعين من فحولهم وفحول المخضرمين وقد جعلهم فى عشر طبقات وجعل فى كل طبقة أربعة ، وأضاف إليهم

(١) انظر الجزء الأول من تاريخ الأدب العربى لبروكلمان (طبع دار المعارف) ص٥١ .

(٢) الأصمعيات (طبع دار المعارف) ص ١٧٠ .

(٣) المفضليات (طبع دار المعارف) ص ١٦٤ .

(٤) الأصمعيات ص ٥٦ .

(٥) المفضليات ص ١٥٥ .

(٦) المفضليات ص ١٠٨ .

(٧) الأصمعيات فى مواضع متفرقة .

أربعة من أصحاب المراثى كما أضاف تسعة فى مكة وخمسة فى المدينة وخمسة فى الطائف وثلاثة فى البحرين، وعدّ لليهود ثمانية. ومن يرجع إلى هؤلاء الشعراء يجد بينهم البدوى والحضرى كما يجد بين البدْو اليمنى والربّعى والمضرى .

وترجم أبو الفرج فى الأغانى لكثيرين منهم، وتراجمه هو الآخر إنما تقف عند مقدّميهم الذين دوّنتْ شهرتهم، ووراءهم كثيرون لم يترجم لهم، يعدون بالمئات على نحو ما يصور لنا ذلك المؤتلف والمختلف للآمدى ومعجم الشعراء للمرزبانى . ومن غير شك سقط من ذاكرة الرواة أسماء كثيرين لم يسجلوهم، ويشهد لذلك قول ابن قتيبة : « والشعراء المعروفون بالشعر عند عشائرهم وقبائلهم فى الجاهلية والإسلام أكثر من أن يحيط بهم محيط أو يقف من وراء عددهم واقف ، ولو أنفد عمره فى التنقير عنهم واستفرغ مجهوده فى البحث والسؤال ، ولا أحسب أحداً من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعر إلا عرفه ولا قصيدة إلا رواها » [١] . ومن يقرأ فى كتاب المؤتلف والمختلف للآمدى يجده يقول كثيراً إن شاعراً بعينه لم يجد له شعراً ولا ذكراً فى ديوان قبيلته [٢] . فدواوين القبائل لم تستقص هؤلاء الشعراء استقصاء دقيقاً .

والذى لا ريب فيه أن حظ القبائل المضرية من هذا الشعر الجاهلى كان أوفر من حظ القبائل الربّعية والقحطانية ، واقرأ فى الأغانى والمفضليات والأصمعيات فستجد لمضر الكثرةَ الكثيرة من الشعر والشعراء ، وهى كثرة يؤيدها تاريخها فى الإسلام ، فقد تفوقت القبائل التى نزلت فى العراق على قبائل الشام والأخرى التى نزلت فى مصر وبلاد المغرب والأندلس ، لأنها كانت فى جمهورها مضرية بينما كانت تلك فى معظمها قحطانية .

وكان حظ القبائل المضرية من الشعر متفاوتاً ، وكذلك كانت القبائل الربعية والقحطانية ، فقبائل كل مجموعة ليست سواء فيه ، ومثلها المدن فمكة كانت قليلة الشعر [٣]، وأقل منها نصيباً فيه اليمامة[٤] . ووقف الجاحظ فى حيوانه عند جانب

---

(١) انظر مقدمة لكتابه الشعر والشعراء . (طبع دار المعارف) ص ٤ .

(٢) راجع المؤتلف والمختلف ص ٢٣ ، ٣٨ ، ٦٨ ، ١٥٨ ، ١٦٣ ، ١٧١ ، ١٨٧ ، ١٩٢ – ١٩٣ .

(٣) ابن سلام ص ٢١٧ .

(٤) ابن سلام ص ٢٣٤ .

من حظوظ القبائل وتفاوتها فى ذلك فقال : « وبنو حنيفة "سكان اليمامة" مع كثرة عددهم وشدة بأسهم وكثرة وقائعهم وحسد العرب لهم على دارهم ، وتُخومهم وسط أعدائهم ، حتى كأنهم وحدهم يعدلون بَكْراً كلها ، ومع ذلك لم نر قبيلة قط أقل شعراً منهم . وفى إخوتهم عِجْلٌ قصيد ورجز وشعراء ورجّازون. وليس ذلك لمكان الخِصْب وأنهم أهل مدر وأكّالو تمر ، لأن الأوس والخزرج كذلك، وهم فى الشعر كما قد علمت . وكذلك عبد القَيْس النازلة قرى البحرين ، فقد نعرف أن طعامهم أطيب من طعام أهل اليمامة . وثقيف " سكان الطائف " أهل دار ناهيك بها خصباً وطيباً ، وهم وإن كان شعرهم أقل فإن ذلك القليل يدل على طبع فى الشعر عجيب . وليس ذلك من قبل رداءة الغذاء ، ولا من قلة الخصب الشاغل والغنى عن الناس ، وإنما ذلك على قدر ما قسم الله لهم من الحظوظ والغرائز . . وبنو الحارث ابن كعب (سكان نجران) قبيل شريف يجرون مجارى ملوك اليمن ومجارى سادات الأعراب أهل نجد ، ولم يكن لهم فى الجاهلية كبير حَظّ فى الشعر ، ولهم فى الإسلام شعراء مفلقون . . وقد يحظى بالشعر ناس ويخرج آخرون ، وإن كانوا مثلهم أو فوقهم . . وقد كان فى ولد زُرارة (جد بطن من تميم) لصُلْبه شعر كثير كشعر لقيط وحاجب وغيرهما من ولده . ولم يكن لحذيفة ولا حِصْن ولا عُيينة بن حصن ولا لحمَل بن بدْر شعر مذكور » [١].

ومن المحقق أنه فُقد كثير من الشعر الجاهلى ، إذ عدتْ عليه عوادى الرواية وتلك الرحلة الطويلة التى قطعها من الجاهلية إلى عصور التدوين ، ويُرْوَى عن أبى عمرو بن العلاء أنه كان يقول : « ما انتهى إليكم مما قالته العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير [٢] » . ونحن لا نبالغ مبالغة أبى عمرو ، فقد بقى منه كثير ألِّفت فيه مجلدات ضخام ، إذ حافظت القبائل بكل ما استطاعت على قصائده الطوال ومقطعاته القصار وكثير من أبياته المفردة ، وما زالت تحافظ عليه ، حتى أسلمته إلى أيدى رواة أمناء سجلوه ودونوه .

---

(١) الحيوان ٤ / ٣٨٠ وما بعدها .

(٢) ابن سلام ص ٢٣ .

٢

الشعر الجاهلى شعر غنائى

من المعروف أنه يوجد عند الغربيين منذ اليونان أنواع مختلفة من الشعر ، يردها نقادهم إلى أربعة أضرب ، شعر قصصى وتعليمى وغنائى وتمثيلى ، ويمتاز الضرب الأول بأن قصائده طويلة ، فالقصيدة منه تمتد إلى آلاف الأبيات ، وتتوالى فيها حلقات من الأحداث تنعقد حول بطل كبير ، وقد يوجد بجانبه أبطال ، ولكن أدوارهم ثانوية . وهى فى حقيقتها قصة إلا أنها كتبت شعراً ، فالتسلسل القصصى فيها دقيق والانتقال بين أجزائها منطقى محكم ، وهى قصة تفسح للخيال مجالا واسعاً ، ولذلك كانت تكثر فيها الأساطير والأمور الخارقة ، وكانت الآلهة تظهر فيها عند اليونان بدون انقطاع . وخير ما يمثلها عندهم الإلياذة لهوميروس وقد نقلها إلى العربية منذ فاتحة هذا القرن سليمان البستانى ، ولكثير من الأمم القديمة والحديثة قصائد قصصية تشبهها ، فللرومان الإنيادة لفرجيل ، وللهنود الرامايانا والمهابهاراتا وللفرس الشهنامة للفردوسى وللألمان أنشودة الظلام وللفرنسيين أنشودة رولان .

والشاعر فى هذا الضرب القصصى لا يتحدث عن عواطفة وأهوائه ، فهو شاعر موضوعى ينكر نفسه ، ويتحدث فى قصته عن بطل معتمداً على خياله ، ومستمداً فى أثناء ذلك من تاريخ قومه ، وكل ما له أنه يخلق القصة ويرتب لها الأشخاص والأشياء ، ويجمع لها المعلومات ، ويكوّن من ذلك قصيدته ، وعادة ينظمها من وزن واحد لا يخرج عنه . ولم تعرف الجاهلية هذا الضرب من الشعر القصصى ، وهى كذلك لم تعرف الضرب الثانى من الشعر التعليمى الذى ينظم فيه الشاعر طائفة من المعارف على نحو ما نعرف عند هزيود الشاعر اليونانى وقصيدته « الأعمال والأيام» التى يصور فيها فصول السنة والحياة الريفية ، وعند هوراس الشاعر الرومانى فى قصيدته « فن الشعر » التى نظمها فى قواعد الشعر ونقده ، وكما هو معروف عن أبان بن عبد الحميد شاعر البرامكة فى قصيدته التى نظم فيها أحكام الصوم والزكاة . وكذلك لم يعرف الجاهليون الشعر التمثيلى الذى يعتمد على مسرح وعلى حركة وعمل معقد وحوار طويل بين الأشخاص ، تتخلله مشاهد ومناظر مختلفة .

فهذه الضروب الثلاثة من الشعر لم يعرفها الجاهليون ، فشعرهم منظومات قصيرة قلما تجاوزت مائة بيت ، وهو شعر ذاتى يمثل صاحبه وأهواءه ، على حين الضروب السابقة جميعاً موضوعية ، فالشاعر فيها لا يتحدث عن مشاعره وأحاسيسه إنما يتحدث عن أشياء خارجة عنه ، سواء حين يقص أو حين يعلّم أو حين يمثّل ، فهو فى كل ذلك يُغفل نفسه ولا يقف عندها ، إنما يقف عند جانب قصصى تاريخى يحكيه أو علمى تهذيبى يرويه أو تمثيلى مسرحى يؤدّيه ، متجرداً عن شخصه وما يتصل بذاته وأهوائه وعواطفه .

ولكن إذا كان الشعر الجاهلى يختلف عن ضروب الشعر الغربية القصصية والتعليمية والتمثيلية ، فإنه يقترب من الضرب الرابع الغنائى ، لأنه يجول مثله فى مشاعر الشاعر وعواطفه ، ويصوّره فرحاً أو حزيناً ، وقد وُجد من قديم عند اليونان ، إذ عرفوا المدح والهجاء والغزل ووصف الطبيعة والرثاء ، وكان يُصْحَبُ عندهم بآلة موسيقية يُعْزَفُ عليها تسمى (لير Lyre) ومن ثَمَّ سموه (Lyric) أى غنائى .

وإذن فنحن لا نبعد حين نزعم أن الشعر الجاهلى جميعه غنائى ، إذ يماثل الشعر الغنائى الغربى من حيث إنه ذاتى يصور نفسية الفرد وما يختلجه من عواطف وأحاسيس ، سواء حين يتحمس الشاعر ويفخر أو حين يمدح ويهجو أو حين يتغزل أو يرثى أو حين يعتذر ويعاتب ، أو حين يصف أى شىء مما ينبثُّ حوله فى جزيرته . وليس هذا فحسب ، فهو يماثل الأصول اليونانية للشعر الغنائى الغربى من حيث إنه كان يغنَّى غناء ، ويظهر أن الشعراء أنفسهم كانوا يغنون فيه ، فهم يروون أن المهلهل غنىّ فى قصيدته :

طفلةٌ مــا ابنةُ المحلَّلِ بيضا ءُ لعوبٌ لذيذةٌ فى العناقِ[1]

ومعنى ذلك أن الشعر الجاهلى ارتبط بالغناء عند أقدم شعرائه . ومن حين إلى حين نجد أبا الفرج الأصبهانى يشير إلى أن شاعراً جاهليًّا تغنَّى ببعض شعره من مثل السُّليك بن السُّلكة[2] وعلقمة بن عَبدة الفحل والأعشى ، وكان يوقّع

(١) انظر الأغانى (طبعة دار الكتب) ٥/٥١ وما فى البيت زائدة ، وطفلة : رخصة ناعمة .

(٢) أغانى (طبعة الساسى) ١٨/١٣٤ .

شعره على الآلة الموسيقية المعروفة باسم الصَّنج، ولعله من أجل ذلك سمى صنَّاجة العرب (١) . ويقول أبو النجم فى وصف قينة (٢) :

تَغَنَّىْ فإن اليوم يومٌ من الصِّبا ببعض الذى غَنَّى امرؤُ القيس أو عمرو

وهو يقصد بعمرو ، عمرو بن قَميئة . ويقول حسان بن ثابت (٣) :

تَغَنَّ بالشعر إمَّا كنتَ قائله إن الغنـــاء لهذا الشعر مضمارُ

فالغناء كان أساس تعلم الشعر عندهم ، ولعلهم من أجل ذلك عبروا عن إلقائه بالإنشاد، ومنه الحُداء الذى كانوا يحدون به فى أسفارهم وراء إبلهم ، وكان غناء شعبيًّا عامًّا .

ويقترن هذا الغناء عندهم بذكر أدوات موسيقية مختلفة كالمِزْهر والدفّ وكانا من جلد وكالصَّنْج ولعله هو نفسه الآلة الفارسية المعروفة باسم الجنك، وكالبَرْبط وهو آلة موسيقية وترية شاعت فى بلاد الإغريق، ويقص علينا علقمة بن عَبَدة أنه وفد على بلاط الغساسنة فاستمع عندهم إلى قيان بيزنطيات يضربن على البرابط (٤) وكانوا كذلك فى الحيرة يستمعون إلى القيان وهن يضربن على الآلات الموسيقية الفارسية . وأدخلوا كثيراً من هؤلاء القيان إلى جزيرتهم من مثل خُلَيْدة وهُرَيْرة فى اليمامة (٥) والأخيرة هى صاحبة الأعشى التى ذكرها فى معلقته ، ويروى الرواة أنه كان بمكة قينتان لعبد الله بن جُدْعان جلبهما من بلاد الفرس وكانتا تغنيان الناس (٦) وفى أخبار غزوة بدر أنه لما نصح أبو سفيان قريشاً أن تعود قبل أن يوقع الرسول عليه السلام بها قال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نردَ بدراً فنقيم عليه ثلاثا ونَنْحر الجزُر ونطعم الطعام ونُسْقَى الخمور وتعزف علينا القيانُ وتسمع بنا العرب (٧) . وفى السيرة النبوية أن الرسول أمر يوم فتح مكة بقتل رجل يسمى ابن خَطَل كان مسلماً ثم ارتد وهرب إلى مكة ، وكان له قينتان تغنيان بهجاء الرسول ، فأمر بقتلهما ، فقُتلت

---

(١) أغانى (طبعة دار الكتب) ٩/١٠٩ وانظر ترجمته فى الشعر والشعراء ١/٢١٤ .

(٢) الشعر والشعراء ١/٦٠ .

(٣) العمدة لابن رشيق (طبعة أمين هندية) ٢/٢٤١ .

(٤) أغانى (ساسى) ١٦/١٤ .

(٥) أغانى (طبعة دار الكتب) ٩/١١٣ .

(٦) أغانى (طبعة دار الكتب) ٨/٣٢٧ .

(٧) أغانى (طبعة دار الكتب) ٤/١٨٢ .

إحداهما ، وفرّت الأخرى[١] . ومر بنا أن أهل يثْرب حين وفد عليهما النابغة أمروا إحدى القيان أن تغنى بشعر له فيه إقواء ، حتى يقف على ما فيه من عيب [٢] . ويكثر ذكر هؤلاء القيان فى شعر الشعراء كما يكثر ذكر ما كنّ يضربن عليه من آلات الطرب ، كقول علقمة فى ميميته [٣] :

قد أشهد الشَّرْب فيهم مِزْهَرٌ رَنِمٌ والقوم تصرعهم صهْباء خُرْطومُ

ويقول الأعشى فى معلقته :

ومستجيبٍ تخال الصَّنج يسمعه إذا تُرَجِّع فيه القَيْنَةُ الفُضُلُ[٤]

ولطرفة فى معلقته وصف طويل لإحدى هؤلاء القيان . ولعل فى ذلك كله ما يدل على أن الغناء فى الجاهلية تأثر بعناصر أجنبية كثيرة .

وكان نساؤهم يؤلفن ما يشبه الجوقات ويتغنين فى حفلاتهم لاعبات على المزاهر[٥] ، وفى الطبرى أن النبى صلى الله عليه وسلم سمع ذات يوم عزفاً بالدفوف والمزامير ، فسأل عنه ، فعرف أنه عُرْس[٦] ، وأكبر الظن أنهن كن يقرنّ هذا العزف بأناشيد كأناشيد الزفاف المعروفة عند اليونان والرومان . وكن يؤلفن فى الحروب جوقة كبيرة تحمّس وتثير ، ففى الطبرى والأغانى أن هنداً بنت عتبة ونسوة من قريش كن يضربن على الدفوف فى غزوة أحد وكانت هند تغنى فى تضاعيف هذا العزف بمقطوعات على شاكلة قولها [٧] :

إن تُقبلوا نعانقْ ونفرشِ النَّمارِقْ[٨]
أو تدبروا نفارق فراقَ غيرِ وامق[٩]

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (طبعة الحلبى) ٤/٥٣ .

(٢) أغانى (طبعة دار الكتب) ١١/١٠ .

(٣) المفضليات ص ٤٠٢ والشرب : جمع شارب ، رنم : مترنم ، والصهباء : الخمر ، والخرطوم أول ما ينزل منها صافياً .

(٤) المستجيب : العود ، واستماع الصنج له كناية عن اتساق أنغامهما . الفضل : اللابسة ثوباً واحداً .

(٥) العمدة ١/٣٧ .

(٦) الطبرى (طبعة أوربا) ١/١١٢٦ .

(٧) أغانى (طبعة الساسى) ١٤/١٦ وتاريخ الطبرى ١/١٤٠٠ .

(٨) النمارق : جمع نمرقة وهى الطنفسة والوسادة الصغيرة .

(٩) وامق : محب .

وبجانب هذا الغناء العام كان عندهم غناء دينى يرتلونه فى أعيادهم الدينية ، على نحو ما مر بنا من تلبياتهم ، فكانوا يرددون مثل « أشرق ثبير كيما نُغير » . وكانوا فى أثناء تقديم ذبائحهم وصبّ دمائها على الأنصاب المقدسة عندهم يتغنون غناء لعله هو أصل غناء النَّصْب الذى شاع بينهم فى الجاهلية . وربما كان فى اسم الداجنة والمدجنة ، وهى القينة تغنى فى الدَّجْن وحين ظهور الغيم فى صفحة السماء[1] ما يدل على أنهم كانوا إذا عزّهم المطر وغلبهم الجدْب توجهوا بالغناء إلى آلهة الغيث والخصب .

ومعنى كل ما قدمنا أن الشعر فى الجاهلية كان يُصْحَبُ بالغناء والموسيقى ، فهو شعر غنائى تام ، ويظهر أن الغناء لم يكن ساذجاً حينذاك ، فقد عرفوا منه ضروباً مختلفة ، يقول إسحق الموصلى : « غناء العرب قديماً على ثلاثة أوجه : النَّصْب والسِّناد والهزَج ، فأما النصْبُ فغناء الركبان والقينات وهو الذى يستعمل فى المراثى ، وكله يخرج من أصل الطويل فى العروض ، وأما السناد فالثقيل ذو الترجيع الكثير النغمات والنبرات ، وأما الهزَجُ فالخفيف الذى يُرْقَصُ عليه ويُمْشَى بالدفّ والمزمار فيطرب ويستخف الحليم . هذا كان غناء العرب قديماً ، حتى جاء الله بالإسلام وفُتحت العراق وجُلب الغناء الرقيق من فارس والروم وتغنوا الغناء المجزّأ المؤلف بالفارسية والرومية وغنّوا جميعاً بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير »[2] .

ولعل فى اقتران النصب بالمراثى ما يدل على ما قلناه من أنه كان غناء دينيًّا ، فهم يتغنون به فى الموت ، أما السناد فلعله الغناء الذى كان يقترن ببعض الآلات الموسيقية ، وأما الهزج فغناء خفيف كان يقترن بالرقص والدف والمزامير ، وهو غناء حفلاتهم ، ولعلهم كانوا يؤثرون فيه الوزن الذى يساعد على الحركة المعروف باسمه بين أوزان الشعر وهو وزن الهزج ، كما كانوا يستخدمون فيه الرَّمل والرجز ليطابق الشعر ما يريدون من رقص وسرعة فى الحركة .

وعلى هذا النحو نظم شعراء الجاهلية شعرهم فى جو غنائى مشبه لنفس الجو الذى نظم فيه اليونان شعرهم الغنائى فقد كان الشاعر يغنى شعره ، وقد يوقّع هذا الغناء على

(١) انظر مادة دجن فى لسان العرب وغيره من معاجم اللغة . وراجع المفضليات ص١٣٠ .

(٢) العمدة لابن رشيق (طبعة أمين هندية) ٢٤١/٢ .

بعض الآلات الموسيقية . وقد يقوم له بالغناء فى شعره قيان وجوقات مختلفة ترقص وتعزف فى أثنائه . ويظهر أن الشعر أخذ فى أواخر هذا العصر يستقل عن الغناء والموسيقى ، فكان بعض الشعراء لا يغنيه ، وإنما ينشده إنشاداً ، والإنشاد مرتبة وسطى بين الغناء والقراءة .

ونحن إذا رجعنا إلى هذا الشعر وجدنا بقايا الغناء والموسيقى ظاهرة فيه ظهوراً بيناً، ولعل القافية هى أهم هذه البقايا التى احتفظ بها ، فهى بقية العزف فيه ورمز ما كان يصحبه من قَرْع الطبول ونقر الدفوف . ومثلها التصريع فى مطالع القصائد وما كان يعمد إليه الشعراء أحياناً من تقطيع صوتى لأبياتهم كقول امرئ القيس فى معلقته يصف الفرس :

مِكَرٍّ ، مِفَرٍّ ، مُقْبلٍ ، مُدْبِرٍ ، معًا كجُلْمُودِ صَخْرٍ حطَّه السَّيْلُ مِنْ عَلِ

ويكثر هذا التقطيع فى أشعارهم ، ومن يرجع إلى معلقة لبيد التى يستهلها بقوله :

عفتِ الديارُ محلُّهــا فمُقامها بِمِنًى تأبَّدَ غَوْلُها فرِجامُها

يجده على شاكلة هذا المطلع يلائم كثيراً بين الكلمتين الأخيرتين ، وكأن للبيت قافيتين : داخلية ، وخارجية ، وكأنه يريد أن يهيئ لنفسه أو لمن يتغنى بقصيدته أن يرتفع بصوته فى كلمتين متتاليتين . ولا نشك فى أن صور الأوزان المتنوعة التى يمتاز بها الشعر الجاهلى إنما حدثت بتأثير هذا الغناء ، وقد نفذوا منه إلى ضروب من التجزئة فى بعض الأوزان ، كمجزوء الكامل والمديد ، بل نفذوا إلى أوزان خفيفة كثيرة كالمتقارب والرمل والهزج . وبدون ريب إنما كثرت التجزئة والتعديل فى الرجز لأنه كان وزناً شعبياً وكان كثير الدوران فى حُدائهم وفى كل ما يتصل بهم من حركة وعمل كحفر الآبار والمتح منها ومبارزة الأقران واستصراخ العشائر ، فكثر فيه الحذف وكثر التحريف والتعديل كثرة مفرطة ، حتى زعم الخليل أنه ليس من أوزان الشعر (١)، وهو شعر غير أن التغنى به تغنياً كثيراً حُداءً وغير حداء أحدث فيه تغيرات شتى .

(١) انظر باب الرجز فى العمدة لابن رشيق .

٣

الموضوعات

لعل أقدم من حاولوا تقسيم الشعر العربى جاهلياً وغير جاهلى إلى موضوعات ألّف فيها ديواناً هو أبو تمام المتوفى حوالى سنة **٢٣٢** للهجرة ، فقد نظمه فى عشرة موضوعات ، هى الحماسة ، والمراثى ، والأدب ، والنسيب ، والهجاء ، والأضياف ومعهم المديح ، والصفات ، والسير ، والنعاس ، والملح ، ومذمة النساء . وهى موضوعات يتداخل بعضها فى بعض فالحديث عن الأضياف إما أن يدخل فى المديح أو فى الحماسة والفخر ، والسير والنعاس يدخلان فى الصفات ، كما تدخل مذمة النساء فى الهجاء ، أما الملح فغير واضحة الدلالة . وجاء فى باب الأدب بما يدل على أنه يقصد به المعنى التهذيبى ، غير أنه أنشد فيه أبياتاً فى وصف الخمر ، وأغفل إغفالا تامًّا باب العتاب والاعتذار .

ووزّع قدامة فى كتابه نقد الشعر هذا الفن على ستة موضوعات ، هى المديح والهجاء والنسيب والمراثى والوصف والتشبيه وحاول بعقله المنطقى أن يرد الشعر إلى بابين أو موضوعين هما المدح والهجاء . فالنسيب مديح وكذلك المراثى ، ومضى يعين المعانى التى يدور حولها المديح ، وهى فى رأيه الفضائل النفسية . ونجد نفس المحاولة فى تضييق موضوعات الشعر واضحة فى كتاب نقد النثر ، فهو مديح وهجاء وحكمة ولهو ، ويدخل فى المديح المراثى والافتخار والشكر واللطف فى المسألة ويدخل فى الهجاء الذم والعتاب والاستبطاء والتأنيب ، كما يدخل فى الحكمة الأمثال والزهد والمواعظ ، أما اللهو فيدخل فيه الغزل والطّرْد وصنعة الخمر والمجون .

وجعل ابن رشيق موضوعات الشعر فى كتابه العمدة تسعة ، وهى النسيب ، والمديح ، والافتخار ، والرثاء ، والاقتضاء والاستنجاز ، والعتاب ، والوعيد والإنذار ، والهجاء ، والاعتذار . ومن السهل أن يُرَدّ موضوع الاقتضاء والاستنجاز إلى المديح ، والوعيد والإنذار إلى الهجاء ، وأن يضم العتاب إلى الاعتذار ، وأيضاً فإنه نسى موضوع الوصف . ويقول أبو هلال العسكرى : « وإنما كانت أقسام الشعر فى الجاهلية خمسة : المديح والهجاء والوصف والتشبيه والمراثى ، حتى زاد النابغة فيها قسماً

سادساً وهو الاعتذار فأحسن فيه [١] » وهو تقسيم جيد غير أنه نسى باب الحماسة، وهو أكثر موضوعات الشعر دوراناً على لسانهم .

ولا نستطيع أن نرتب هذه الموضوعات فى الشعر الجاهلى ترتيباً تاريخيًّا ، ولا أن نعرف كيف نشأت وتطورت ، فإن الأصول الأولى لهذا الشعر انطمرت كما قدمنا فى ثنايا الزمن ، وإن كنا نستطيع أن نظن ظنًّا أنها تطورت من أناشيد دينية كانوا يتجهون بها إلى آلهتهم ؛ يستعينون بها على حياتهم فتارة يطلبون منها القضاء على خصومهم ، وتارة يطلبون منها نصرتهم ونصرة أبطالهم ، ومن ثم نشأ هجاء أعدائهم ومدح فرسانهم وسادتهم ، كما نشأ شعر الرثاء وهو فى أصله تعويذات للميت حتى يطمئن فى قبره ، وفى أثناء ذلك كانوا يمجدون قوى الطبيعة المقدسة التى تكمن فيها آلهتهم والتى تبعث فيهم الخوف ، ومعنى هذا كله أن موضوعات الشعر الجاهلى تطورت من أدعية وتعويذات وابتهالات للآلهة إلى موضوعات مستقلة[٢] .

ويظهر أنه كانت لا تزال فى نفوسهم بقية من هذه الصلة القديمة بين الشعر ودعاء الآلهة ، يدل على ذلك أكبر الدلالة ما جاء فى القرآن الكريم من كثرة الربط بين الشعر والسحر وتعاويذ الكهنة فقد كانوا يرمون الرسول فى بدء دعوته تارة بأنه شاعر وتارة ثانية بأنه كاهن وتارة ثالثة بأنه ساحر (وقالوا إن هذا إلا سحر مبين) وردّ عليهم القرآن دعواهم الكاذبة مراراً فى مثل : (وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين) ومثل : (إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون تنزيلٌ من رب العالمين) . ويقول جلَّ وعز فى سورة الشعراء : (وما تنزلتْ به الشياطين وما ينبغى لهم وما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزولون) وبعد ذلك : (هل أنبئكم على من تنزّل الشياطين ، تنزل على كل أفاك أثيم ، يُلقون السمع وأكثرهم كاذبون ، والشعراء يتبعهم الغاوُون ألم تر أنهم فى كل واد يَهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظُلموا وسيعلم الذين ظَلموا أىّ منقلب ينقلبون) .

وواضح أن القرآن الكريم يحكى على ألسنتهم ما كانوا يؤمنون به من العلاقة بين

---

(١) ديوان المعانى ١/٩١ .

(٢) انظر تاريخ الأدب العربى لبروكلمان (طبع دار المعارف) ١/٤٤ وما بعدها .

الشعر والكهانة والسحر ، وكانوا يزعمون أن الشياطين تنزلُ على الشعراء كما تنزل على الكهان . وزعموا أن الأعشى كان له شيطان ينفث فى وعيه الشعر يسمَّى مِسْحلا وأن شاعراً كان يهاجيه يسمى عمرو بن قَطَن ، كانت له تابعة من الجن اسمها جُهُنَّام[1] .

وظل بعض الشعراء فى الإسلام يزعم أن له تابعاً من الجن ، ويؤكد الأسطورة أبو النجم فيزعم أن لكل شاعر شيطاناً إما أنثى وإما ذكراً ، يقول[2] :

إنى وكلُّ شاعرٍ من البشَرْ شيطانُه أنثى وشيطانى ذكَرْ

وفى أخبارهم أن الشاعر كان إذا أراد الهجاء لبس حُلَّة خاصة ، ولعلها كحلل الكهان ، وحلق رأسه وترك له ذؤابتين ودهن أحد شِقّى رأسه وانتعل نعلا واحدة[3] ونحن نعرف أن حلق الرأس كان من سننهم فى الحج ، وكأن شاعر الهجاء كان يتخذ نفس الشعائر التى يصنعها فى حجه وأثناء دعائه لربه أو لأربابه ، حتى تصيب لعناتُ هجائه خصومه بكل ما يمكن من ألوان الأذى وضروب النحس المستمر .

فالهجاء فى الجاهلية كان لا يزال يُقرَن بما كانت تقرن به لعناتهم الدينية الأولى من شعائر ، ولعلهم من أجل ذلك كانوا يتطيرون منه ويتشاءمون ويحاولون التخلص من أذاه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . ونحن نعرف أن الغزو والنهب كان دائراً بينهم ، غير أن المغيرين إن أغاروا ونهبوا إبلا بينها إبل لشاعر ، وتعرض لهم يتوعدهم بالهجاء اضطرُّوا اضطراراً إلى ردها أو على الأقل يردون ماله هو وإبله . يروى الرواة أن الحارث بن وَرْقاء الأسدى أغار على عشيرة زهير ، واستاق فيما استاق إبلاً له وغلاماً ، فنظم زهير أبياتاً يتوعده بالهجاء المقذع ، يقول فيها[4] :

ليأتينَّك منى منطقٌ قَذعٌ باقٍ كما دنَّس القُبْطِيَّةَ الوَدَكُ

(١) انظر المؤتلف والمختلف ص ٢٠٣ ومادة جهم فى لسان العرب ، والحيوان ٢٢٦/٦ والقصيدتين رقم ١٥ ، ٣٣ فى ديوان الأعشى

(٢) الحيوان ٢٢٩/٦ .

(٣) امالى المرتضى (طبعة عيسى الحلبى) ١٩١/١ .

(٤) مختار الشعر الجاهلى للسقا ص ٢٥٥ وديوان زهير (طبعة دار الكتب المصرية) ص ١٨٣ . القذع : القبيح . القبطية : كل ثوب أبيض . الودك : الدسم .

ففزع الحارث ورد عليه ما سلبه منه (١) . وواضح أن زهيراً يستخدم فى وصف هجائه المنتظر كلمة الدنس، فهو سيلحق به عن طريق هجائه الرِّجْس والإثم . ويروى أن رجلا يسمى زُرْعة بن ثوب من بنى عبد الله بن غطفان خدع غلاماً من عشيرة مزرّد بن ضِرار الشاعر يسمى خالداً كان يرعى إبلا لأبويه فاشتراها منه بغنم واستاقها ، ورجع الغلام إلى أبويه فأخبرهما بما فعل ، فقال أبوه : هلكت والله وأهلكتنا، وركب إلى مزرّد وقصَّ عليه القصة ، فقال مزرّد : أنا ضامن لك أن تُرَدَّ عليك بأعيانها ، وأنشأ قصيدة طويلة يتوعدفيها زرعة ، ويطلب إليه أن يرد الإبل ، ونراه يعوِّذها بهجائه ، فهى إن لم ترد ستكون ناراً تأتى على الأخضر واليابس عند زرعة وقومه وسيصيبها الجرب والأمراض المستعصية ، يقول (٢) :

فيا آلَ ثَوْبٍ إنما ذَوْدُ خالد كنار اللَّظَى، لاخير فى ذَوْدِخالدِ (٣)
بهن دُروءٌ من نُحازٍ وغُدَّةٌ لها ذَربات كالثُّدِىِّ النواهدِ (٤)
جَرِبْنَ فما يُهْنَأْنَ إلا بغَلْقةٍ عَطينٍ وأبوالِ النساء القواعدِ (٥)

وقد تحولوا يصبُّون أهاجيهم ولعناتهم على خصومهم هم وعشائرهم ، فلم يسلم منها أحد من أشرافهم ، يقول الجاحظ : « وإذا بلغ السيد فى السؤدد الكمال حسده من الأشراف من يظن أنه الأحق به ، وفخرتْ به عشيرته فلا يزال سفيه من شعراء تلك القبائل قد غاظه ارتفاعه على مرتبة سيد عشيرته فهجاه ، ومن طلب عيباً وجده فإن لم يجد عيباً وجد بعض ما إذا ذكره وجد من يغلط فيه ويحمله عنه . ولذلك هُجى حصن بن حذيفة ، وهجى زُرَارةُ بن عُدَس وهجى عبد الله بن جُدْعان وهجى حاجب بن زُرارة . وإنما ذكرت لك هؤلاء لأنهم من سؤددهم وطاعة القبيلة لهم لم يذهبوا فيمن تحت أيديهم من قومهم ومن حلفائهم وجيرانهم مذهب كليب بن ربيعة ولا مذهب حذيفة بن بدر ولا مذهب عُيَيْنة بن حصن ولا مذهب لقيط بن زرارة . . فإن هؤلاء وإن كانوا سادة فقد كانوا يظلمون (٦) » وبمقدار ما

---

(١) أغانى ١٠ / ٣٠٧ وما بعدها .
(٢) المفضليات ص ٧٩ .
(٣) الذود : الجماعة القليلة من الإبل .
(٤) دروء : جمع دره وهو النتوء . والنحاز : داء يصيب الإبل بالسعال . الغدة : طاعون الإبل . الذربات : جمع ذربة وهى رأس الخراج ، النواهد : النواهض .
(٥) يهنأن : يطلين . الغلقة : شجر يدبغ به الجرب . عطين يريد أنه لا يدبغ بها إلا بعد العطن ، القواعد : العجائز .
(٦) الحيوان ٢ / ٩٣ .

كان فى القبيلة من شرف وأشراف كان هجاؤها عندهم ، إذ كانوا لا يزالون يتعرضون لها ولأشرافها بأقبح الهجاء وأقذعه ، يقول الجاحظ أيضاً :

« إذا استوى القبيلان فى تقادم الميلاد ، ثم كان أحد الأبوين كثير الذَّرْء (النسل) والفرسان والحكماء والأجواد والشعراء، وكثير السادات فى العشائر وكثير الرؤساء فى الأرحاء (القبائل الكبيرة) وكان الآخر قليل الذَّرْء والعدد ولم يكن فيهم خير كثير ولا شر كثير تَخملوا أو دخلوا فى غمار العرب وغرقوا فى معظم الناس وكانوا من المغمورين ومن المنسيين فسلموا من ضروب الهجاء . . وسلموا من أن يُضْرَب بهم المثل فى قلة ونذالة، إذ لم يكن (منهم) شر وكان محلهم من القلوب محل من لا يغيظ الشعراء ولا يحسدهم الأكفاء . . وإذا تقادم الميلاد . . . وكان فيهم خير كثير وشر كثير ومثالب ومناقب لم يسلموا من أن يُهْجَوْا ويضرب بهم المثل . ولعل أيضاً أن تنفق لهم أشعار تتصل بمحبة الرواة وأمثال تسير على ألسنة العلماء . فيصير حينئذ من لا خير فيه ولا شر أمثل حالا فى العامة ممن فيه الفضل الكثير وبعض النقص ولاسيما إذا جاوروا من يأكلهم وحالفوا من لا ينصفهم كما لقيت غَنِىّ أو باهلة . . فمن القبائل المتقادمة الميلاد التى فى شطرها خير كثير وفى الشطر الآخر شرف وضعة مثل قبائل غطفان وقيس عَيْلان ومثل فزارة ومرّة وثعلبة ومثل عَبْس وعبد الله بن غطفان ثم غنىّ وباهلة واليَعْسوب والطفاوة ، فالشرف والخطر فى عبس وذبيان ، والمبتلى والملىّ والمحروم والمظلوم مثل باهلة وغنىّ مما لقيتْ من صوائب سهام الشعراء وحتى كأنهم آلة لمدارج الأقوام ينكبُّ فيها كل ساع ويعثر بها كل ماش . وربما ذكروا اليعسوب والطفاوة وهاربة البَقْعاء (من ذبيان) وأشجع الخنثى ببعض الذكر . . وجلُّ معظم البلاء لم يقع إلا بغنى وباهلة وهم أرفع من هؤلاء وأكثر فضولا ومناقب . حتى صار من لاخير فيه ولا شر عنده أحسن حالا ممن فيه الخير الكثير وبعض الشر . . ومن هذا الضرب تميم بن مرّ وثَوْر وعُكْل وتَيْم ومزينة ، فى عكل وتيم ومُزَيْنة من الشرف والفضل ما ليس فى ثور ، وقد سلمت ثور إلا من الشىء اليسير ، مما لا يرويه إلا العلماء ، والتحف الهجاء على عكل وتيم . وقد شعّثوا بين مزينة شيئاً . . وقد نالوا من ضبّة مع ما فى ضبة من الخصال الشريفة . . ولأمر ما بكت العرب بالدموع الغزار من وقع الهجاء . كما بكى مخارق بن شهاب وكما بكى

علقمة بن عُلاثة وكما بكى عبد الله بن جُدْعان من بيت لخداش بن زهير»[١] .

وفى السيرة النبوية أن الرسول صلى الله عليه وسلم طلب إلى شعراء المدينة أن يعينوه بأهاجيهم فى قريش ، ويروى أنه قال لحسان بن ثابت ، وقد أخذ فى هجاء القرشيين : «لشعرك أشد عليهم من وقع النَّبْل» وفى ذلك ما يصور مدى أثر الهجاء فى نفوس العرب ، فقد كان سلاحاً لا يقل عن أسلحتهم فى القتال ، ولذلك قرنه عبد قَيْس ابن خفاف البرجمى إلى ما يَلْقَى به أعداءه من سيف ورمح ودرع ، يقول[٢] :

فأصبحتُ أعددتُ للنائبا ... ت عِرْضًا بريئًا وعَضْبا صَقيلا[٣]

ووَقْعَ لسانٍ كحد السِّنانِ ... ورُمحًا طويل القناة عَسُولا[٤]

وسابغةً من جيادِ الدُّرو ... عِ تسمع للسيف فيها صَليلا

كماء الغَدِير زَفَتْه الدَّبُورُ ... يَجُرُّ المدجَّجُ منها فُضولا[٥]

فاللسان كان يَنْكأ بهجائه فى الأعداء نكأ السيوف والرماح . ويخيل إلى الإنسان كأنما تراصّ شعراء القبائل بجانب فرسانها وشجعانها فى صفوف ، وقد أخذ كل منهم يَريش سهام هجائه ويرمى بها أعداءه من الأشراف والقبائل ، وكل يحاول أن يكون سهمه أنفذَ السهام وأصماها . حتى لا تقوم للشريف وقبيلته قائمة . وكانوا ينتهزون فرصة تلاقيهم فى الأسواق وخاصة سوق عُكاظ ، فينشدون أهاجيهم لتذيع ، وليلحقوا بخصومهم كل ما يريدون من خزى وعار ، وفى ذلك يقول راشد بن شهاب اليشكرى لقيس بن مسعود الشيبانى[٦] :

ولا تُوعِدنِّى إننى إن تُلاقنى ... معى مَشْرِفىٌّ فى مضاربه قَضَمْ[٧]

وذمٌّ يُغَشِّى المرءَ خِزيًا ورهطه ... لدى السَّرْحة العَشَّاء فى ظلها الأَدَمْ[٨]

وهو يشير إلى سرحة أو شجرة عظيمة كانت بعكاظ ، حيث تقام السوق

---

(١) الحيوان ١/٣٥٧ – ٣٦٣ .

(٢) المفضليات ص ٣٨٦.

(٣) العضب : السيف القاطع ، والصقيل : المصقول الحاد .

(٤) العسول : اللين المصمى .

(٥) زفته : حركته ، الدبور : ريح غربية تقابل الصبا ، المدجج : تام السلاح ، ويجر منها فضولا كناية عن أنها سابغة تفضل عن أطرافه .

(٦) المفضليات ص ٣٠٨ .

(٧) المشرفى : السيف ، وقضم : فلول من كثرة الطعن .

(٨) السرحة : الشجرة ، العشاء ، الخفيفة .

الكبيرة هناك ويضرب العرب قباب الأدم ، وتجتمع العشائر من أنحاء الجزيرة ومعها شعراؤها وما يحملون فى حجورهم من حجارة الهجاء .

ودار هجاؤهم على كل ما يناقض مُثلهم التى صورناها فى غير هذا الموضع ، وقد قلنا إنه كانت تجمعها كلمة المروءة ، وهى تعنى عندهم فضائلهم من الشجاعة والكرم وحماية الجار والوفاء والنجدة وطلب الثأر ، وما هى إلا أن يدخل الشاعر فى الهجاء فإذا هو يخلّص القبيلة وأشرافها من كل هذه الفضائل وما يتصل بها فهى لا تكرم الجار ولا تحميه ، وهى تفرّ فى الحروب وتقعد عن الأخذ بثأرها . ولا يكتفى الشعراء الهجاءون بذلك بل يتعرضون لمخازى القبيلة فى حروبها وأيامها التى ولت على أدبارها فيها منهزمة منكسة الأعلام ، واقرأْ فى المفضليات قصيدة ربيعة بن مقروم رقم ٣٨ فستراه يذكر أمجاد قبيلته فى أيام بزاخة والنِّسار وطَخْفة والكُلاب وذات السُّلَيْم ، واقرأ قصائد بشر بن أبى خازم الأسدى فى المفضليات أيضاً فستجده يفصل الحديث عن حروب قومه مع بنى عامر فى يوم النسار ومعهم ومع أحلافهم من تميم فى يوم الجفار وما أنزلوا بهم من خسائر فى الرجال ، وتعرض لانتصاراتهم على كثير من القبائل مثل جَرْم والرباب وجُذام وبنى سليم وبنى كلاب وبنى أشجع ومرة بن ذبيان . ولم يكونوا يقفون عند ذلك ، بل كانوا يقذفون فى الأعراض ويطعنون فى الأنساب ، متعرضين للأمهات على نحو ما نرى عند الجُمَيْح الأسدى فى هجاء بنى عامر وقد غدروا بأسدى منهم وقتلوه فقال يعيرهم بما غدروا ، مفدّياً أمهم سلمى استهزاء بهم لما ألحقوا بها من العار ، ثم عاد فادّعى عليها البغاء [1] :

سائلْ معدًّا مَنِ الفوارسُ لا أَوْفَوْا بجيرانهم ولا غنِموا
فِدًى لسَلْمى ثوبايَ إذ دَنس الـ قومُ وإذ يَدْسَمون ما دَسِمُوا [2]
أنتم بنو المرأة التى زعم الـ نَّاسُ عليها فى الغَىِّ ما زعموا

واسترسل يَصِمها أبشع الوصم بأبيات ثلاث لا نستطيع التمثل بها لإمعانه فى الفحش . وكثيراً ما يتعرضون لشخص فيزعمون أنه دعىٌّ فى قومه زَنيم . وشاع بينهم هذا الضرب من الوقوع فى الأعراض ، مما نجد آثاره فيما بعد عند جرير والفرزدق

---

(١) المفضليات ص ٤١ .
(٢) ثوباى : أراد نفسه . يدسمون : من الدسم وهو الدنس . يقول ذلك تهكماً واستهزاء بهم وبأمهم.

فى العصر الإسلامى ، وكأنما أصبح همّ الهاجى أن يضرب عدوه الضربة القاضية ، حتى لو كان شريفاً معروفاً بكثرة المناقب كما يلاحظ الجاحظ ، بل لكأن مناقبه كانت تؤذيهم ، فكانوا يلطخونه بالعار ما وجدوا إلى ذلك سبيلا ، ومن ثَمّ لا نعجب حين نجد شاعراً يزعم أن النعمان بن المنذر لم يولد لرشدة ، فهو ليس سليل المناذرة إنما هو سليل صائغ بالحيرة ، يقول فيه عبد قَيْس بن خُفاف البُرْجمى (١) :

لعنَ الله ثم ثَنَّى بلَعْنٍ ابنَ ذا الصائغ الظلومَ الجهولا
يجمع الجيشَ ذا الأُلوف ويغزو ثم لا يرزأُ العدوَّ فَتيلا(٢)

وكان النعمان كثير الوقائع فى قبائل العرب وخاصة عبد القيس فتعرض له شاعرها يزيد بن الحذّاق بهجاء كثير يتوعده وينذره ويخيفه ، يقول فى بعضه (٣) :

نعمانُ إنك خائنٌ خَدِعٌ يُخْفِى ضميرُك غير ما تُبْدِى

وقصة هجاء المتلمس وطرفة لعمرو بن هند مشهورة .

ولم يكن جمهور هجائهم يُفْرَدُ بالقصائد، بل كانوا يسوقونه غالباً فى تضاعيف حماستهم وإشادتهم بأمجادهم وانتصاراتهم الحربية، ولا نُبعد إذا قلنا إن الحماسة أهم موضوع استنفد قصائدهم، فقد سعرتهم الحروب، وأمدّها شعراؤهم بوقود جَزْل من التغنى ببطولتهم وأنهم لا يرهبون الموت ، فهم يترامون عليه تحت ظلال السيوف والرماح مدافعين عن شرف قبائلهم وحماها . ويرتفع هذا الغناء بل قل هذا الصياح فى كل مكان ، بحيث يخيل إلينا أنه لم يكن هناك صوت سواه ، ولعل ذلك ما دفع أبا تمام إلى أن يسمى مجموعته من أشعارهم وأشعار مَنْ خلفوهم باسم الحماسة ، فهى التى تستنفد أشعارهم وقصيدهم ، وهى ديوانهم الذى يسطِّر تاريخهم ومناقبهم ومفاخرهم ، وهل هناك فخر أعلى من فخر الشجاعة والتنكيل بالأعداء . واقرأْ فى المفضليات والأصمعيات فستجد هذا الفخر وما يطوى فيه من حماسة يدور على كل لسان ، وستجد الشاعر فيه يتحدث دائماً عما تعتز به قبيلته من الأخذ بأوتارها ومن تضييق الخناق على أعدائها، وهو يعدد أيامها مشيداً بحسبها ونسبها وصبْرها فى

(١) الحيوان ٤/٣٧٩ .

(٢) يرزأ : ينقص ، والفتيل : الهنة فى شق النواة .

(٣) المفضليات ص ٢٩٦ .

الملمَّات وكرمها فى الجدب وحمايتها للجار وإغاثتها للملهوف ، وفى أثناء ذلك يصوِّب سهام الهجاء إلى نحور أعدائهم ، وكأنه يريد أن يقضى عليهم قضاء مبرماً .

ونحس فى هذه الحماسة أثر الموجدة الشديدة والحقد البالغ على خصومهم ، فهم دائماً يتعرضون لهم يهددونهم ويتوعدونهم انتقاماً مروِّعاً ، وكان أشد ما يهيجهم أن يقتل منهم قتيل ، فحينئذ تهيج القبيلة ويهيج شعراؤها هياجاً لا حدَّ له ، فإذا ثأرت لنفسها وشفتْ غلَّها وحقدها أخذ شعراؤها ينشدون أناشيد النصر من مثل قصيدة دُرَيْد بن الصِّمَّة التى يتغنى فيها بأنه ثأر من قتلة أخيه عبد الله ، ومع ذلك لا يزال يتوعدهم ، يقول (١) :

ويا راكباً إما عرَضْتَ فبلِّغَنْ ... أبا غالبٍ أن قد ثأَرْنا بغالبِ (٢)
قتلتُ بعبد الله خير لِدَاتِه ... ذُؤابَ بن أسماء بن زيد بن قاربِ (٣)
فلليوم سُمِّيتُم فَزارةُ فاصبروا ... لوَقْعِ القَنَا تَنْزون نَزْوَ الجَنادبِ (٤)
تكُرُّ عليهم رَجْلَتِى وفوارسى ... وأُكْرِهُ فيهم صَعْدَتى غير ناكبِ (٥)
فإن تُدْبِرُوا يأْخذْنَكم فى ظهوركم ... وإن تُقْبِلوا يأْخذْنكم فى التَّرائبِ (٦)
وإن تُسْهِلوا للخيل تُسْهِلْ عليكمُ ... بطعنٍ كإيزاغ المَخاض الضواربِ (٧)
ومُرَّةَ قد أخرجْنَهم فتركْنَهم ... يروغون بالصَّلعاءِ روغَ الثعالبِ (٨)
وأشجعَ قد أدركْنهم فتركنهم ... يخافون خَطْفَ الطير من كل جانبِ
وثعلبةَ الخُنْثَى تركنا شريدهم ... تَعِلَّةَ لاهٍ فى البلاد ولاعبِ
فليت قبورًا بالمخاضة أخبرَتْ ... فتُخبرَعنا الخُضْرَ خُضْرَ مُحاربِ (٩)

(١) الأصمعيات ص ١١٧ .
(٢) عرضت : أتيت العروض ، يريد مكة والمدينة وما حولها .
(٣) لدات : جمع لدة وهو الترب والكفء .
(٤) النزو : الوثب ، الجنادب : ضرب صغير من الجراد .
(٥) رجلتى : جمع راجل ضد الفارس الراكب ، وهم المشاة . والصعدة : القناة . غير ناكب : غير عادل عنهم .
(٦) الترائب : عظام الصدر .
(٧) تسهلوا : تنزلوا السهل من الأرض . المخاض : الحوامل من النوق ، الضوارب : اللواقح ، وإيزاغها أن ترمى ببولها شبه رشاش الطعنة من الدم ببولها ورشاشه .
(٨) يروغون : يذهبون هنا وهناك . الصلعاء موضع هو مكان معركته مع مرة .
(٩) المخاضة : موضع من ديار ذبيان ، وخضر محارب : قبيلة .

رَدَسْناهمُ بالخيل حتى تملَّأتْ عَوافى الضباع والذئاب السَّواغبِ[١]
ذرينى أطوِّفْ فى البلاد لعلنى ألاقى بإثْرٍ ثُلَّةً من محاربِ[٢]

وواضح أنه يتشفى من قتلة أخيه، فقد ظفر مع جمع من قبيلته بأعدائه من فزارة ، فأخذتهم سيوفهم من أمام ومن وراء ، ومسهلين فى الأرض . ويصور ما لقيته مُرَّة فى الحرب من بلاء شديد وكيف هربت أشجع وكيف نكلوا ببنى ثعلبة وبنى محارب ، حتى شبعت منهم الضباع . ويتهددهم بأنه سيعيد الكرَّة عليهم . وفى كل مكان يدوِّى مثل هذا النشيد ، ومن روائعهم فى هذا الباب معلقة عمرو بن كلثوم ، وفيها يصيح بانتصارات قومه وأيامهم المُعْلَمة المشهورة من مثل قوله :

متى ننقل إلى قومٍ رَحانا يكونوا فى اللِّقاء لها طَحِينا
يكون ثِفالُها شرقىَّ نجدٍ ولُهْوَتُها قضاعةَ أجمعينا[٣]
نُطاعن ما تراخى الناسُ عنا ونضرِبُ بالسيوف إذا غُشينا
بِسُمْرٍ من قَنَا الخَطِّىِّ لُدْنٍ ذوابلَ أو ببيضٍ يَعْتَلِينا[٤]
نشقُّ بها رءُوسَ القوم شَقًّا ونُخْلِيها الرِّقاب فَتَخْتَلينا
كأن جماجمَ الأبطالِ فيها وُسوقٌ بالأماعز يرتمينا[٥]
وَرِثنا المجد قد علمتْ مَعَدٌّ نطاعن دونه حتى يبينا[٦]
ونحن إذا عمادُ الحىِّ خَرَّت على الأحْفاض نمنع من يلينا[٧]
نجذُّ رءُوسهم فى غير وِتْرٍ فما يدرون ماذا يتَّقونَا[٨]

---

(١) ردسناهم : رميناهم ، العوافى : الجائعة ، وكذلك السواغب .
(٢) الثلة : الجماعة من الناس .
(٣) الثفال : خرقة توضع تحت الرحى لاستقبال ما يطحن ، اللهوة: القبضة من الحب.
(٤) توصف الرماح بالسمرة لذبولها ، وقنا الخطى : نسبة إلى الخط وهى بلدة كانت على ساحل البحرين تشتهر بصناعة القنا ، اللدن : المرنة . البيض : السيوف .
(٥) الأماعز : الأراضى الصلبة ، الوسوق : جمع وسق وهو الحمل .
(٦) يبين : يتضح .
(٧) العماد : جمع عمود، خرت: سقطت، الأحفاض : متاع البيت ، يقصد بذلك رحلة الحى للحرب .
(٧) الوتر : الثأر ، ونجذ : نقطع .

كأن سيوفنـــا فينـــا وفيهم مخاريقٌ بأيدى لاعبينا(١)
كأن ثيابنـــا منـــا ومنهم خُضِبْن بأُرْجوانٍ أو طُلينا(٢)

والمعلقة جميعها صياح شديد على هذا النحو الذى يرفع فيه قبيلته تغلب على كل من حولها فى نجد شرقيها وغربيها ، فكل من حدثته نفسه منهم بقتالها كان مصيره الهلاك والدمار ، ويقول إن حياتهم سلسلة من الحروب ، ويصف أسلحتهم التى يذيقون بها أعداءهم كئوس الموت المرة ، ومدَّ فخره إلى قبائل معد كلها بما يجذون من رءوس شجعانها ، واعترف لأعدائه بشجاعتهم ، فالسيوف فى أيديهم وأيدى أعدائهم كأنها مخاريق بأيدى لاعبين ،وهم يقتلون فيهم ، كما يُقْتَل من قومه ، فثيابهم جميعاً ملطخة بالدماء . وليس عمرو وحده الذى يصف خصومه بالشجاعة ، فهناك كثيرون اشتهروا بهذا الإنصاف ، وتسمى قصائدهم المنصفة وفى الأصمعيات أمثلة منها طريفة ،من مثل قول المفضَّل النُّكْرى يصف موقعة بين عشيرته من بنى نكرة بن عبد القيس وعشيرة عمرو بن عوف ، يقول (٣) :

كأن هَزيزنا يوم التقينا هَزيزُ أباءةٍ فيها حريقُ(٤)
وكم من سيدٍ منـــا ومنهم بذى الطَّرْفاء منطقهُ شَهيقُ(٥)
فـأشبعْنا السباع وأشبعـــوها فراحتْ كلهـــا تَئِقٌ يَفُوقُ(٦)
فأبكيْنـــا نساءَهمُ وأبكوا نساءً ما يسوغُ لهن رِيق
يُجاوبْنَ النِّياحَ بكل فَجْرٍ فقد صَحِلَتْ من النَّوْح الحُلوق(٧)

وطبيعى وهم يصورون هذه الملاحم أن يصفوا أسلحتهم على نحو ما تقدم عند عمرو بن كلثوم، وهناك كثيرون يطيلون فى وصفها ووصف الخيل التى يركبونها فى اللقاء . وممن اشتهر بينهم بوصف الأسلحة أوس بن حَجر فى لامية له مشهورة أطال فيها فى تصوير سيفه ورمحه ودرعه وقوسه ، ويلقانا هذا الوصف كثيراً فى المفضليات

---

(١) المخاريق: المناديل تلف ويلعب بها ، لعبة كانت عندهم .
(٢) الأرجوان : صبغ أحمر .
(٣) الأصمعيات ص ٢٣٣ وما بعدها .
(٤) الهزيز : الصوت ، الأباءة : أجمة الغاب.
(٥) ذو الطرفاء : موضع المعركة .
(٦) تئق : ممتلئ ، يفوق : يأخذه البهر .
(٧) صحلت : بحت .

والأصمعيات[١] ، كما يلقانا معه وصفهم للخيل وكانوا يلقبونها بالأسماء ، وممن اشتهر في هذا الوصف أبو دُؤاد الإيادي وزيد الخيل وعمرو بن معد يكرب وغيرهم من فرسانهم المعدودين ، وتزخر المفضليات والأصمعيات بهذا الوصف عند من سميناهم وغيرهم .

وفي الحق أن هذا اللون من شعرهم ليس شعر قوة وبطولة فحسب ، فقد تغنوا فيه بكريم الشيم وكل ما اتخذوه مثلا رفيعاً لهم في حياتهم وسلوكهم ، من كرم ووفاء وغير كرم ووفاء ، فعلى نحو ما صوروا فيه بطولة وشجاعة نادرة صوروا كثيراً من الفضائل الحميدة على شاكلة ما نقرأ في ميمية ربيعة بن مقروم إذ يقول[٢] :

وإن تسأليني فإني امــرؤٌ أُهين اللئيمَ وأَحْبُو الكريما
وأَبْني المعاليَ بالمكرُماتِ وأُرْضي الخليل وأُرْوِي النديما
ويحمد بَذْلي له مُعْتفٍ إذا ذمَّ من يَعْتَفِيه اللئيما[٣]
وأَجْزي القُروضَ وفاءً بهــا ببُؤْسَى بَئيسي ونُعْمى نَعيما[٤]
وقومي فإنْ أَنت كذَّبْتني بقوليَ فاسْئلْ بقومي عليما
يُهينون في الحق أموالهم إذا اللَّزَباتُ انْتحَيْن المُسِيما[٥]
طوالُ الرماح غداة الصباحِ ذَوُو نَجْدَةٍ يمنعون الحريما

وهو يذكر في البيت الثاني أن من شيمه أن يروي نديمه بالخمر ، ويكثر في حماستهم تمدحهم بأنهم يسقون ندماءهم الخمر وأنهم يأخذون حظهم من الغناء وسماع القيان ولعب الميسر[٦] ، وكأن في ذلك إعلاناً عن كرمهم وبذلهم على نحو ما تقدم في غير هذا الموضع عن طرفة وفتوته . وربما كان ذلك هو أصل ذكر الخمر ووصفها في الشعر الجاهلي على نحو ما هو معروف عن الأعشى وعدي بن زيد

---

(١) انظر المفضليات ص ٩٥ وما بعدها ورقم ٦٤ و ٧٥ والأصمعيات رقم ٦٢ و ٦٥ .
(٢) المفضليات ص ١٨٣ .
(٣) المعتفي : السائل في غير طلب .
(٤) البؤس والبئيس بمعنى ، يقول يجزي بالسيئة مثلها وكذلك الحسنة .
(٥) اللزبات : الشدائد ، انتحى : قصد ، المسيم : الكثير الإبل والغنم ، اشتقه من السائمة .
(٦) المفضليات رقم ١١٣ ، ١٢٠ .

العبادى ، فقد تحولا بها من هذا الباب إلى وصفها فى ذاتها وصفاً طريفاً .

ومن الموضوعات التى تتصل اتصالا واضحاً بالحماسة الرثاء ، فقد كانوا يرثون أبطالهم فى قصائد حماسية يريدون بها أن يثيروا قبائلهم لتأخذ بثأرهم [١] ، فكانوا يمجدون خلالهم ويصفون مناقبهم التى فقدتها القبيلة فيهم ، حتى تنفر إلى حرب من قتلوهم . وكان يشرك الرجال فى ذلك النساء ، فقد كن ما يزلن يَنُحْنَ على القتيل حتى تثأر القبيلة له . ويظهر أنه كان يشيع عندهم ضرب من (التعديد) الذى نعرفه فى مصر ، فما تزال امرأة تنوح ويرد عليها صواحبها ، وقد حدثنا الرواة أن الخنساء كانت تخرج إلى عكاظ فتندب أخويها صخراً ومعاوية ، وكانت هند بنت عتبة أم معاوية تحكيها نائحةً أباها [٢] . وفى هذا الخبر ما يدل على أن النساء لم يكن يندبن موتاهن يوماً أو أياماً ، بل كن يُطلن ذلك إلى سنين معدودات ، ويقال إنهن كن يحلقن شعورهن ويلطمن خدودهن بأيديهن وبالنعال والجلود ، وكن يصنعن ذلك على القبر وفى مجالس القبيلة والمواسم العظام . ولعل فى حلق رءوسهن ما يجمع بينهن وبين الهجائين كما قدمنا وما يشهد بأن هذا الرثاء إنما هو تطور عن تعويذات كانت تقال للميت وعلى قبره حتى يطمئن فى لحده . وبمر الزمن تطور الرثاء عندهم إلى تصوير حزنهم العميق إزاء ما أصابهم به الزمن فى فقيدهم ، فتلك التعويذات أصبحت وخاصة عند نسائهم بكاء ونواحاً وندباً حارًّا . ونجد بجانب هذا الندب ضرباً من الرثاء يقوم على تأبين الميت والإشادة بخصاله وصفاته ، وما نشك فى أن الصورة القديمة لهذا التأبين هى تلك النقوش التى عثروا عليها فى أنحاء مختلفة من الجزيرة ، وقد تحدثنا عنها فيما أسلفنا ، وكانوا يكتبون فيها أسماءهم وألقابهم وبعض أعمالهم تمجيداً لذكراهم وتخليداً لها ، وتحولت هذه الصورة الساذجة إلى هذا التأبين الواسع الذى نجده عند الجاهليين . وقد ذهبوا يضمنون إليه صورة من العزاء والدعوة إلى الصبر على الشدائد ، فالموت كأس دائرة على الجميع ، ولا مردّ لحكم القضاء .

وقام بالقسط الأكبر من ندب الميت وبكائه النساء ، فكن يشققن جيوبهن عليه ويلطمن وجوههن ويقرعن صدورهن ويعقدن عليه مأتماً من العويل والبكاء ، ومن خير ما يصور ذلك كتاب « مراثى شواعر العرب » للويس شيخو ، وسابقتهن

---

(١) المفضليات رقم ١٠٩ .
(٢) الأغانى (طبعة دار الكتب) ٤ / ٢١٠ .

التى لا تنازَعُ هى الخنساء ، فقد قُتل أخوها معاوية فى بعض المعارك ، فارتفع نشيجها وبكاؤها عليه ، وقُتل أيضًا أخوها صخر فاتسع الجرح والتاعت لوعة شديدة ، ومن رائع ما ندبت به صخراً :

قَذًى بعينكَ أم بالعين عُوَّارُ ... أم ذرفَتْ أن خلتْ من أهلها الدارُ(١)
كأن عينى لذكراهُ إذا خَطرتْ ... فَيْضٌ يسيل على الخدّين مِدْرارُ(٢)
فالعين تبكى على صَخْرٍ وحقٌّ لها ... ودونه من جديد الأرض أسْتارُ(٣)
تبكى خُناسُ وماتنفكُّ ماعَمَرَتْ ... لها عليه رنينٌ وهْى مِقْتَارُ(٤)
بكاء والهةٍ ضَلَّتْ أليفتَها ... لها حَنينان: إصْغارٌ وإكبارُ(٥)
ترْعَى إذا نَسِيَتْ حتى إذا ذكرتْ ... فإنما هى إقبالٌ وإدبارُ
وإن صَخْرًا لَتأْتَمُّ الهُدَاةُ بِهِ ... كأنه عَلَمٌ فى رأسه نارُ(٦)

ولعل من الطريف أن بعض شعرائهم كان إذا أحسّ داعى الموت ندب نفسه ووصف ما يصنعه به أهله بعد الموت من تَرْجيل شعره ووضعه فى مدارج الكفن ، ثم لَحْده ودفنه ، وتنسَبُ للممزّق العبدى أو ليزيد بن الخذّاق قطعة يصور فيها هذا المصير الذى ينتظره ، يقول فيها (٧) :

هل للفتى من بنات الدهر من واقِ ... أم هل له من حِمام الموت من راقِ(٨)
قد رجّلونى وما رُجِّلْتُ من شَعَثٍ ... وألبسونى ثيابًا غير أخْلاقِ(٩)
وأرسلوا فتيةً مِن خيرهم حسبًا ... ليُسْندوا فى ضريح التُّرْب أطْباقى(١٠)

---

(١) العوار : الرمد ، ذرفت : قطرت قطراً متتابعا .
(٢) مدرار : كثير .
(٣) الأستار : الأحجار ، وكنت بجديد الأرض عن أنه مات حديثاً .
(٤) خناس : الخنساء ، مقتار : ضعيفة .
(٥) الإصغار : خفض الصوت بالحنين ، والإكبار : رفعه .
(٦) العلم : الجبل .
(٧) المفضليات : ص ٣٠٠ .
(٨) بنات الدهر : أحداثه ، حمام الموت : دنوه .
(٩) الترجيل : تسريح الشعر ، الأخلاق : الممزقة .
(١٠) الأطباق : المفاصل .

وكانوا يكثرون من تأبين من يموتون منهم فى ميادين الحرب ، وقد يضمنون هذا التأبين هجاء لاذعاً لخصومهم وفخراً بعشيرتهم ومآثرها وأيامها ، على نحو ما نجد فى قصيدة المرقش (١) :

هل بالديار أن تجيب صَمَمْ   لو كان رسْمٌ ناطقًا كلَّمْ

فقد بدأها بالغزل وخرج منه إلى الرثاء ، فمديح بعض ملوك الغساسنة ، ثم فخر بقومه ، وهجا أعداءهم . وقد يجعلون القصيدة خالصة للتأبين ، على نحو ما صنع دُرَيْد بن الصِّمة فى مرثية أخيه عبد الله (٢) .

أَرثَّ جَديدُ الحَبْلِ من أمِّ مَعْبَدِ   بعاقبةٍ وأخلفتْ كلَّ موعِدِ

وقد استهلها على هذه الشاكلة بالغزل ، ثم مضى يرثى أخاه مصوراً مصرعه وولهه به وجزعه ومتحدثاً عن خلاله الحميدة من الشجاعة والجود والمضاء والصبر والحزم .

ولم يؤبنوا أبطالهم من القتلى فحسب ، بل فسحوا فى مراثيهم لتأبين أشرافهم وإن ماتوا حتف أنوفهم ، فخراً بهم واعتزازاً بمناقبهم وأعمالهم ومآثرهم . وقد نجدهم يستنزلون لهم الغيث من السماء حتى تصبح قبورهم رياضاً عطرة . ومن رائع تأبينهم مرثية أوس بن حَجر لفَضالة بن كَلَدَة الأسدى ، وفيها يقول (٣) :

أيَّتُها النفسُ أجْمِلِى جَزَعَا   إن الذى تحذرينَ قد وقعا
إن الذى جمَّع السماحة والنَّ   جْدةَ والحزمَ والقُوَى جُمَعا
الألمعىَّ الذى يظنُّ لك الـ   ظنَّ كأنْ قد رأى وقد سمعا (٤)
المخلفَ المتلفَ المرزَّأَ لم   يُمْتَعْ بضعفٍ ولم يَمُتْ طَبِعَا (٥)
أوْدَى وهل تنفعُ الإشاحةُ من   شىء لمن قد يحاول البِدَعَا (٦)

(١) المفضليات ص ٢٣٧ .
(٢) الأصمعيات ص ١١١ ، أرث : أخلق . بعاقبة : بآخرة .
(٣) ديوان أوس بن حجر ص ٥٣ والأغانى ١١/٧٤ .
(٤) الألمعى : حاد الذكاء ، يريد أنه يحدس الأمور فلا يخطىء وأنه فطن صادق الظن جيد الفراسة .
(٥) المرزأ : الذى تصيبه الرزايا فى ماله لكرمه ، يمتع : يصاب ، الطبع : اللئيم .
(٦) أودى : مات ، الإشاحة : الجد فى طلب الشىء ، البدع : الأمور الغريبة .

وكانوا أحياناً حين يذكرون الموت يتأسون ويتعزون عنه بأنه حوض لا بد من وروده وقد سبقهم إليه الأجيال الماضية من ملوك وغير ملوك (١) :

وعلى هذا النحو ألمّ الشاعر الجاهلى بجوانب الرثاء الثلاثة من الندب والتأبين والعزاء ، وكان رثاؤه غالباً يتعلق بأفراد وقلما تعلق بمجموعة من الفرسان ، ومن هذا القليل قصيدة أصمعية لأبى دؤاد الإيادى يرثى فيها من أودى من شباب قبيلته وكهولهم ، ونراه يقول فى مطلع رثائهم (٢) :

لا أعدُّ الإقتارَ عُدْمًا ولكنْ فَقْدُ مَنْ قد رُزِئْتُهُ الإعْدامُ

ويستمر يبكى فيهم الرءوس العظام وخلالهم من التأنى والرفق والكرم وطيب الأرومة وشجاعة الأسْد وما يخلط فرط حِدّتهم من أحلام وعقول راجحة ، ويقول إنهم أصبحوا هاماً وصَدى ، إذ كانوا يعتقدون أن عظام الميت تتحول هامة تطير وصَدى ما يزال يقول اسقونى :

سُلِّطَ الدهرُ والمَنُونُ عليهم فلهم فى صَدَى المقابر هامُ

فعلى إثرهم تَسَاقَطُ نفسى حسراتٍ وذكرهم لى سَقام

وبجانب هذا الرثاء كان عندهم مديح واسع يتمدحون فيه بمناقب قبائلهم وسادتها . وكانوا كثيراً ما يمدحون القبيلة التى يجدون فيها كرم الجوار متحدثين عن عزتها وإبائها وشجاعة أبنائها وما فيهم من فتك بأعدائهم وإكرام لضيوفهم ورعاية لحقوق جيرانهم (٣) .

وكان بعض السادة تمتد مآثرهم إلى من حولهم من القبائل فكان يتصدّى لهم شعراؤها يمدحونهم لمكرماتهم التى أدّوها ، كأن يفتكّوا أسيراً، على نحو ما صنع خالد بن أنمار بابن أخت المثقب العبدى ، فكان جزاؤه منه مدحة جيدة ، يقول فيها(٤) :

---

(١) المفضليات ص ٢١٧ .

(٢) الأصمعيات ص ٢١٥ .

(٣) المفضليات ص ٣٠٥ ، ٣٧١ .

(٤) المفضليات ص ٢٩٤ ، مترع : ملآن . ربعى الندى : نسب نداه إلى الربيع كناية عن كثرته وإمراعه ، والندى : الكرم . ويقول إن مجلسه غير لطم فهو لا يتلاطم فيه ، إنما هو مجلس سكون وحلم .

مُتْرَعُ الجَفْنَةِ رِبْعِيُّ النَّدَى　　حَسَنٌ مجلسُـــه غيرُ لُطَمْ

ولا نصل إلى أواخر العصر الجاهلى حتّى يتخذ الشعراء المديح وسيلة إلى الكسب ، فهم يتقدمون به على السادة المبرزين وملوك المناذرة والغساسنة يمدحونهم وينالون جوائزهم وعطاياهم الجزيلة . وأخذوا فى أثناء ذلك يعنون بهذه القصائد عناية بالغة حتّى تحقق لهم ما يريدون من التأثير فى ممدوحيهم . واشتهر بذلك زهير والنابغة وحسان ابن ثابت ، أما زهير فاختص بأشراف قومه ، وأما حسان فاختص بالغساسنة ، ولعلقمة بن عَبَدة فيهم مفضلية بديعة نظَمها فى الحارث الأصغر يتشفع لأخيه وقد وقع فى يديه أسيراً [١] . أما النابغة فخص النعمان بن المنذر بمدائحه ، وتصادف أن وقع بعض قومه أسرى فى أيدى الغساسنة ، فأقبل عليهم يمدحهم ويتشفع فيهم ، مما كان سبباً فى غضب النعمان بن المنذر عليه ، وسرعان ما أخذ يقدم له اعتذارات هى من أروع ما دبّجه الجاهليون

ومعنى ذلك أن الاعتذار نشأ نشوءاً من المديح وفى ظلاله ، وإن كانت تتداخل فيه عاطفة الخوف مع عاطفة الشكر والرجاء . ومما ينحو نحو الاعتذار ما ظهر عندهم من فنون عتاب كان ينشئه بعض الشعراء ملامة لما قد يصيبه من أذى الأقارب على نحو ما نجد عند ذى الإصبع العَدْوانى [٢] والمتلمّس [٣] .

ولكن عتابهم واعتذارهم قليل ، أما المديح فكثير كثرة مفرطة ، إذ رحل به الشعراء إلى الملوك والأشراف يمتارون به ، ويرجعون إلى أهليهم بحُجْر الحقائب . ويظهر أن المناذرة خاصة كانوا يتخذونه وسيلة للدعاية لهم فى القبائل ، فكثر الشعراء حولهم وأخذ يموج بهم بلاطهم منذ عمرو بن هند ، فقد قصده كثيرون من أمثال المثقب العبدى ، الذى لجأ إليه يمدحه بعد إيقاعه بقبيلته ، وممن رحل إليه المتلمس والممزق العبدى وطرفة والمسيب بن علس . وكان النعمان بن المنذر ممدحاً للشعراء ومن بديع ما نُظم فيه قول حُجْر بن خالد [٤] :

سمعتُ بفعل الفاعلين فلم أجِدْ　　كفعل أبى قابوسَ حزمًا ونائلا

(١) المفضليات ص ٣٩٠ وما بعدها .
(٢) انظر قصيدته فى المفضليات برقمى ٢٩ ، ٣١ .
(٣) الأصمعيات رقم ٩٢ .
(٤) الحيوان ٣ / ٥٨ .

يُساقُ الغَمامُ الغُرُّ من كل بلدةٍ　　إليك فأضحى حول بيتك نازلا
فإن أنت تهلك يهلك الباعُ والنَّدَى　　وتُضْحى قلوصُ الحمدِ جَرْباءَ حائلا[1]
فلا ملكٌ ما يبلغنَّك سَعْيُه　　ولا سوقةٌ ما يمدحنَّك باطلا

وانتهى هذا الفن من فنون شعرهم إلى الأعشى فأصبح حرفة خالصة للمنالة والتكسب ، إذ لم يترك ملكاً ولا سيداً مشهوراً فى أنحاء الجزيرة إلا قصده ومدحه وفخّم شأنه معرضاً بالسؤال .

وإذا تركنا المديح إلى الغزل وجدناه موزعاً بين ذكريات الشاعر لشبابه ووصفه للمرأة ومعروف أن أول صورة تلقانا فى قصائدهم هى بكاء الديار القديمة التى رحلوا عنها وتركوا فيها ذكريات شبابهم الأولى ، وهو بكاء يفيض بالحنين الرائع ، ومرَّبنا أنهم يردونه إلى شاعر قديم سبق امرأ القيس هو ابن خِذام ، وربما كان فى ذلك ما يدل على أن هذا الجزء من غزلهم يسبق فى قدمه الأجزاء الأخرى فيه .

ونراهم يقفون عند المرأة فيصفون جسدها ، ولا يكادون يتركون شيئاً فيها دون وصف له ، إذ يتعرضون لجبينها وخدها وعنقها وصدرها وعينها وفمها وريقها ومعصمها وساقها وثديها وشعرها ، كما يتعرضون لثيابها وزينتها وحليها وطيبها وحيائها وعفتها[2] ، وقد يتعرضون لبعض مغامراتهم معها ، وهى مغامرات تحوَّل بها بعض الرواة إلى قصص غرامية على نحو ما قصّوا عن حب المرقش الأكبر لأسماء والأصغر لفاطمة بنت المنذر وعن حب المنخَّل اليشكرى للمتجردة زوج النعمان ، وله قصيدة رائعة رواها الأصمعى وهى تجرى على هذا النمط[3] :

ولقد دخلتُ على الفتا　　ةِ الخِدْرَ فى اليوم المَطيرِ
الكاعبِ الحسناء تَرْ　　فل فى الدِّمَقْسِ وفى الحريرِ
فدفعتُها فتدافعتْ　　مَشْيَ القطاةِ إلى الغَدِيرِ

(١) الباع : الشرف ، الندى : الكرم . القلوص : الناقة الشابة . الحائل : التى حمل عليها فلم تلقح .

(٢) المفضليات رقم ٢٠ .

(٣) الأصمعيات رقم ١٤ .

ولَثَمْتُهــا فتنفَّسَتْ كتنفُّس الظَّبْى البَهِيرِ[١]

فدنتْ وقالت يا مُنَ خَّل ما بجسمك من حَرورِ

ما شفَّ جسمي غير حُبِّ كِ فاهدئى عنى وسيرى

و وقف الشعراء طويلا يصورون حبهم للمرأة وما يذرفون من دموعهم على شاكلة قول بشر بن أبي خازم[٢]:

فظللتَ من فَرْط الصَّبابة والهوى طَرِفًا فؤادُك مثلَ فعل الأَيْهَم ِ[٣]

وكانت ذكراها لاتزال تلم بهم ، ومن ثَمَّ أكثروا الحديث عن طيفها وما يثيره فى أنفسهم من تباريح الحب[٤] ولهم فى وصف هذه الذكرى وماتصنع بهم شعر كثير يصفون فيه صبابتهم على شاكلة قول المرقِّش الأصغر[٥] :

صحا قلبُه عنها ، على أن ذِكْرَةً إذا خطرتْ دارتْ به الأَرضُ قائما

وكانوا كثيراً ما يصفون ظُعنها ، وهى ترحل فى الجزيرة من موضع إلى موضع ، وكانت الرحلة أساساً فى حياتهم ، فهم يرحلون وراء منابت الغيث ، وينتقلون معها حيث حلت ، وفى معلقة زهير وصف طويل لهذه الظعن ، وربما فاقه فى هذا الوصف المثقِّب العبدى فى قصيدته[٦] :

أفاطمُ قبل بَيْنِكِ مَتِّعينى ومَنْعُكِ ما سأَلتُ كأَن تَبينى

فإنى لو تخالفنى شِــمالى خلافَكِ ما وصلتُ بها يَمينى

وقد مضى يصف ظعنها ويتتبع سيرها وما تصنع هى وصواحبها فى قلوب الرجال وهن يظهرن بكلَّة ويسدلن أخرى ويرسلن براقعهن على وجوههن وذوائبهن على ظهورهن :

---

(١) البهير : من البهر وهو ما يعترى الإنسان والحيوان عند السعى الشديد من النهج وتتابع الأنفاس .

(٢) المفضليات ص ٣٤٦ .

(٣) طرفاً : يطرف هنا وهناك ، الأيهم : المجنون .

(٤) المفضليات ص ٣٩ ، ١١٣ والأصمعيات ص ٥٧ ، ٢٤٦ .

(٥) المفضليات ص ٢٤٥ .

(٦) المفضليات ص ٢٨٨ .

أرَيْنَ محاسنًا وكَنَنَّ أُخرى　　من الأَجْياد والبَشَرِ المصونِ

ويقول إنهن كن يمددن أعناقهن مستشرفات للنظر وصاحبته بينهن تفوقهن حسناً وجمالا. وكن كطبيعة النساء فى كل عصر ينصرفن عن الشَّيب ومن قلّ ماله[1]. ولذلك كثر عتابهم معهن، وخاصة من حيث ما يأخذنه عليهم من البذل الذى يذهب بأموالهم، ودائماً نراهم يحتجون عليهن بأن خلود المرء فى بذله لا فى ثرائه[2]. وقد يصورون فى تعلقهم بالمرأة ضرباً من المتاع الحسى، على نحو ما يصور ذلك طرفة فى معلقته وكذلك امرؤ القيس، ومرد ذلك إلى ضرب شاع عندهم من الفتوة، فهم يتملحون بأنهم يغالون من المرأة ما يريدون، وكانوا وثنيين ولم يكن هناك دين يردعهم. على أن منهم من كان يتسامى فى غزله حتى يمكن القول بأن الغزل العذرى له أصول فى الجاهلية عند عنترة وأضرابه.

ومن المؤكد أن المرأة الحرة لم تكن ممتهنة عندهم، بل كانت فى المكان المصون، وكان الشاعر يستلهمها شعره، ولذلك كان يضعها فى صدر قصيده، ونحس عند كثيرين منهم، وخاصة فرسانهم من مثل عنترة، أنهم يقدمون مغامراتهم فى الكرم وفى الحرب لها لينالوا حبها، وكان أكثر ما يشجيهم ويبعث الموجدة فى قلوبهم أن تؤسر وتسبى، فكان لا يقر لهم قرار إلا أن يعودوا بها مكرمة إلى ديارهم.

ومن موضوعات شعرهم المهمة الوصف، وقد وصفوا كل شىء وقعت عليه أعينهم فى صحرائهم، وفى العادة يذكرون ذلك بعد غزلهم وتشبيبهم إذ يخرج الشعراء إلى وصف رحلاتهم فى الصحراء، فيتحدثون عن قَطْعهم للمفاوز البعيدة، فوق إبلهم، ويأخذون فى وصفها وصفاً مسهبا على نحو ما هو معروف عن طرفة فى وصفه لناقته بمعلقته وقد كاد أن لا يترك فيها عضواً ولا جزءاً دون وصف وتصوير، والمفضليات والأصمعيات تزخر بأحاديثهم عنها ومقدار ما كانوا يرون فيها من جمال وكانوا يشبهونها بالقصور ويشبهون قوائمها بالأعمدة وقد يشبهونها بالسفن والقناطر ويشبهون قوائمها بجذوع الطلح ويديها بالصخر الغليظ أو بيدى السابح، وصوتها

(١) المفضليات ص ٣٥، ١٨٦، ٤١٨.　　بيت ٤ وما بعده ورقم ٥٩ ورقم ١٠٤ بيت ١١، ١٢.

(٢) المفضليات ص ١١٨، ص ١٢٥.

بصوت القصب وخفافها بالمطارق . وقد يشبهونها بالجبل ويشبهون صدرها بالطريق . وكانوا يشبهونها بكثير من الحيوان مثل الظليم والثور وحمار الوحش ، وحينئذ يستطردون إلى وصف هذه الحيوانات وما يكون من عراك بينها وبين كلاب الصيد[١]، يقول الجاحظ : « ومن عادة الشعراء إذا كان الشعر مرثية أو موعظة أن تكون الكلاب هى التى تقتل بقر الوحش، وإذا كان الشعر مديحاً وقال كأن ناقتى بقرة من صفتها كذا أن تكون الكلابُ هى المقتولة . ليس على أن ذلك حكاية عن قصة بعينها ولكن الثيران ربما جرحت الكلاب وربما قتلتها . وأمافى أكثر ذلك فإنها تكون هى المصابة والكلاب هى السالمة والظافرة وصاحبها الغانم »[٢]. وكأنهم كانوا يتخذون قتل الكلاب فى المديح رمزاً لأعداء الممدوح ، وكانوا فعلا يشبهونهم بالكلاب[٣] .

وعلى نحو ما أكثروا من وصف الإبل أكثروا من وصف الماعز كما أكثروا من وصف الخيل وشبهوها بضروب من السباع المنعوتة بالمخالب وطول الأظفار . ولامرئ القيس قطعة بديعة بمعلقته يصف فيها فرسه الذى اتخذه للصيد ، وفيها يقول :

له أَيطلا ظَبْىٍ وســـاقا نعامَة   وإِرْخاءُ سِرْحانٍ وتقْريب تَتْفُلِ[٤]

يقول أبو عبيدة : « ومما يشبه خلقه من خلق النعامة طول وظيفها[٥] وقصرُ ساقيها وعُرْى نِسْيَيها[٦] ومما يشبه من خلقه خلق الأرنب صغر كعبيها ،ومما يشبه من خلقه خلق الحمار الوحشى غلظ لحمه وظمأ فصوصه وسَراته[٧] وتمحُّص[٨] عصبه وتمكن أرساغه[٩]وعرض صَهوته[١٠].. ومما يشبه من خلقه خلق الكلب هَرَتُ[١١] شِدقه وطول لسانه وكثرة ريقه وانحدار قَصَّه[١٢] وسبوغ ضلوعه وطول ذراعيه ورُحْب

(١) انظر فى ذلك معلقة لبيد والمفضليات رقم ١٧ بيت ٦٤ وما بعده حيث وصف مزرد صائداً مسيأ كلابه الستة .

(٢) الحيوان ٢/ ٢٠ .

(٣) الأصمعيات ص ١٣٠ .

(٤) أيطلا الظبى : خاصرتاه ، الإرخاء : سير السرحان وهو الذئب . والتتفل : الثعلب ، وتقريبه : قفزه ووثبه .

(٥) الوظيف : مستدق الساق والذراع .

(٦) النسى : عرق فى الساق .

(٧) ظمأ هنا : ضمور ، الفصوص : ملتقى كل عظمتين ، سراته : أعلاه .

(٨) تمحص : شدة .

(٩) الرسغ فى الحيوان : المستدق بين الحافر وموصل الوظيف من اليد والرجل .

(١٠) الصهوة : مقعد الفارس على الفرس .

(١١) هرت : اتساع .

(١٢) قصه : صدره .

جلده ولُحوق[١] بطنه »[٢] . وكثيراً ما وصفوا كلاب الصيد وسموها أسماء كثيرة . ولأبى زُبَيْد الطائى قصيدة طريفة يصور فيها معركة بين كلب له وأسد ، وقد حطمه الأسد حطماً[٣] ، وكما ذكروا الأسد ووصفوه وصفوا الذئب كقول طُفَيْل الغَنوى وقد شبّه فرسه بذئب[٤] :

كسِيدِ الغَضا العادى أَضَلَّ جِراءَهُ   على شَرَفٍ مُسْتَقْبِلَ الريحِ يَلْحَبُ[٥]

وذكروا الهر والديك والخنزير فى وصفهم لنشاط الناقة فقال أوس بن حجر[٦] :

كأن هِرًّا جَنيبًا عند مَغْرِضها   والتفَّ ديكٌ برجليهـا وخِنْزيرُ

وقد ذكروا كثيراً الضباع والرخم والعقبان والنسور والغربان وأكلها القتلى[٧] كما ذكروا الحُبارى والضبّ واليربوع والجرذان والجراد والأرانب والضفادع والوعول أو المعز الجبلية . وتعرضوا كثيراً لوصف الحيات والأفاعى ، ويشبه عنترة نفسه إزاء بعض أعدائه بأسود قد علق فيه نابه ، ويقول فى بعض وصفه له[٨] :

رَقُود ضُحَيَّاتٍ كأَن لسـانه   إذا سمع الأَجراسَ مكحالُ أَرْمَدَا[٩]

وعلى نحو ما وصفوا الحيوان والزواحف وصفوا الطير ، وكثيراً ما يستطردون من وصف فرسهم بالعُقاب إلى وصفها[١٠] ، وكانوا يذكرون الغراب كثيراً ويتشاءمون به ، وفيه يقول عنترة[١١] :

ظعَنَ الذين فراقَهم أَتوقَّعُ   وجرى بِبَيْنِهمُ الغرابُ الأَبْقَعُ[١٢]

---

(١) لحوق : ضمور .
(٢) الحيوان ١ / ٢٧٥ .
(٣) الحيوان ٢ / ٢٧٤ والأغانى ١١ / ١٣٢ .
(٤) الحيوان ٤ / ٤١٦ .
(٥) السيد : الذئب ، والغضا : نبت ، وذئاب الغضا أخبث الذئاب ، أضل جراءه : فقد أولاده فهو يسرع فى عدوه ، يلحب : يمر مرا سريعاً .
(٦) الحيوان ١ / ٢٧٧ وديوان أوس ص ٤٢ جنيباً : يجنبها ، مغرضها : موضع الحزام منها ، وإنما ذكر الهر لأنه يجمع العض بالناب والخمش بالمخالب ، يصفها بشدة تفزعها لفرط نشاطها .
(٧) المفضليات ص ٣٠٤ وانظر ص ٢٥٢ والأصمعيات ص ١١٩ ، ١٧٤ ، ٢٣٤ والحيوان ٧ / ٢١ .
(٨) الحيوان ٤ / ٣٠٨ .
(٩) رقود الضحى ، ذاك من شأن الأفاعى تنام فى الضحى وتستيقظ فى الظلام ، والأجراس : الأصوات ، مكحال الأرمد : ما يكتحل به ، جعل لسانه كالمكحال فى دقته وسواده .
(١٠) الحيوان ٦ / ٣٣٩ وما بعدها .
(١١) الحيوان ٣ / ٤٤٢ ومختار الشعر الجاهلى ص ٣٩٢ .
(١٢) الأبقع : الأسود .

حرق الجناح كأنَّ لَحْيَىْ رأسه جَلمانِ بالأخبار هَشٌّ مولع(١)

إن الذين نَعَبْتَ لى بفراقهم هم أسهروا ليلى التِّمامَ فأوجعوا(٢)

وكانوا يذكرون القطا والجراد والعصافير والنمل والعنكبوت والحمام ونوْحَه وما يهيج فيهم من شوق وشَجا . وقد أفاض الجاحظ بكتابه الحيوان فيما جاء على ألسنتهم من وصف ذلك كله وتصويره. وينبغي أن لا نعتد بما جاء فيه من قصص أسطورى عن طوق الحمامة والديك والغراب والهدهد والحيات مما ساقه على لسان أمية بن أبى الصلت، فقد حُمل عليه شعر كثير وضعه القصاصون والرواة . وقد استرعى الجاحظ كثرةُ ما جاء على ألسنتهم من وصف فلواتهم(٣) ووصف البرد وقوارصه والحر وهواجره (٤) وما يجرى فى ديارهم أحياناً من خصب بعد مطر غزير (٥) ، وفى معلقة امرئ القيس قطعة طويلة يصف فيها سيلا عَرِماً نزل فى مواطن بنى أسد بالقرب من تيماء ، ويتردد هذا الوصف فى شعره وشعر شاعرهم عَبيد بن الأبرص .

وكما أكثروا من ذكر الخصب ورطوبة النبات ولدونة الأغصان وكثرة الماء أكثروا من وصف الجدب. وطالما وصفوا وعوثة الصحراء ومخاوفهم فى لياليها من الجن والشياطين . وكادوا لا يتركون شيئاً يتصل بهم إلا وصفوه ، فوصفوا الرعى والمراعى ، ووصفوا الأسلحة والحروب ، ووصفوا الخمر وأوانيها وسقاتها ومجلسها وأثرها ، وكانوا يُقحمونها كما قدمنا فى حماستهم ، ويفتخرون بأنهم يسقونها الصحاب والرفاق على صوت القيان ومع نَحْر الجزور ، يقول ثعلبة بن صُعَيْر فى حماسية له(٦) :

أسُمَىَّ ما يُدْريكِ أنْ رُبَّ فِتْيَةٍ بيض الوجوه ذوى نَدًى ومآثرِ

باكرْتهم بسِباء جَوْنٍ ذارعٍ قبلَ الصباح وقبل لَغْوِ الطائر(٧)

---

(١) حرق : أسود ، وشبه لحييه بالجلمين لأنه يخبر بالفرقة كما يقطع الجلمان أو المقراضان.

(٢) نعب : صاح ، ليل التمام : الشديد الطول .

(٣) الحيوان ٦/٢٥٥ وانظر الأصمعيات رقم ٦١ بيت ٢٩ وما بعده والمفضليات رقم ٧٥.

(٤) الحيوان ٥/٧٣ ، ٥/٧٨ وما بعدها وانظر المفضليات رقم ١٢٠ بيت ٥٠ ، ٥١.

(٥) الحيوان ٣/١٢٠ والمفضليات ص ٣٣٥.

(٦) المفضليات ص ١٣٠ .

(٧) السباء : اشتراء الخمر، الجون : الزق الأسود. الذارع : المختلط بالماء .

فقَصَرْتُ يومهمُ برنَّةِ شارِفٍ وسماعِ مُدْجِنَةٍ وجَدْوَى جازرِ[١]

وهذه الموضوعات التى قدمناها جميعاً كانت تتداخل فى القصيدة الطويلة وكان يتداخل معها ضرب من الحكم والمعانى التهذيبية، فالشاعر ما يزال يُدْلى فى تضاعيف قصيدته بتجاربه، وقد يفرد لها مقطوعات، إذا اتجه بها إلى تقديم وصية لبنيه، على نحو ما صنع عمرو بن الأهتم فى وصيته لابنه التى يستهلها بقوله[٢] :

وإن المجد أوَّلُهُ وعُورٌ ومصدر غِبِّه كرمٌ وخِيرُ[٣]

وممن كثرت الحكمة فى شعرهم زهير والأفوه الأودى وعلقمة بن عَبَدة، وهى تكثر فى ميمية الأخير وتتوالى فى أبيات متعاقبة من مثل قوله[٤] :

الحمدُ لا يُشْتَرى إلا له ثَمَنٌ مما يَضِنُّ به الأقوامُ معلومُ
والجود نافيةٌ للمال مَهْلَكَةٌ والبخلُ باقٍ لأهليه ومذموم
وكلُّ حِصْنٍ وإن طالتْ سلامته على دعائمــه لا بُدَّ مهدوم

ويلخص لنا رأى الجاهليين فى المرأة وما تطلبه من الرجل، فيقول فى بائيته[٥] :

فإن تسألونى بالنساء فإننى بَصيرٌ بأدْواء النساء طَبيبُ
إذا شاب رأسُ المرء أو قلَّ مالُه فليس له من وُدِّهن نَصِيبُ

ويظهر أن الحكمة قديمة عندهم، فنحن نجدها فى معلقة عَبيد بن الأبرص، وفيها يقول :

وكلُّ ذى غَيْبَــةٍ يَئُوبُ وغائبُ الموت لا يئوبُ

ويقول عَبْدة بن الطبيب[٦] :

والمرءُ ساعٍ لأمرٍ ليس يُدْرِكهُ والعيشُ شُحٌّ وإشفاقٌ وتأميلُ

(١) الشارف : الناقة ، ورنتها : صوتها عند النحر . المدجنة : القينة تغنى يوم الدجن والغيم . وجدوى الجازر : عطاياه من أطايب اللحم .
(٢) المفضليات ص ٤١٠ وانظر القصيدة رقم ١١٦ .
(٣) غبه : عاقبته، الخير: الكرم .
(٤) المفضليات ص ٤٠١ .
(٥) المفضليات ص٣٩٢ .
(٦) المفضليات ص١٤٢ .

ويقول عدى بن رَعْلاء الغسانى [١] :

ليس من ماتَ فاستراح بمَيْتٍ إنما الميْتُ ميِّتُ الأَحْيَاء

وتلك هى الموضوعات الأساسية التى تنظم فى سلك القصيدة الجاهلية ، فالشاعر يبدؤها بالتشبيب أو النسيب بالأطلال والديار ، ويصف فى أثناء ذلك حبه ، ثم يصف رحلته فى الصحراء ، وهى أول ما يقدمه للمرأة من ضروب جرأته ، وحينئذ يصف ناقته أو فرسه ، وقد يؤخرهما إلى نهاية القصيدة ، ويقدم عليهما غرضه من الحماسة أو الهجاء أو الرثاء أو المديح ، مفتنًّا فى أثناء ذلك فى وصف ما يقع تحت عينه ، وناثراً حكمه وتجاربه .

٤

الخصائص المعنوية

لعل أول ما يلاحَظ على معانى الشاعر الجاهلى أنها معان واضحة بسيطة ليس فيها تكلف ولا بعد ولا إغراق فى الخيال سواء حين يتحدث عن أحاسيسه أو حين يصور ما حوله فى الطبيعة ، فهو لا يعرف الغلو ولا المغالاة ، ولا المبالغة التى قد تخرج به عن الحدود المعتدلة .

ومرجع ذلك فى رأينا أنه لم يكن يفرض إرادته الفنية على الأحاسيس والأشياء بل كان يحاول نقلها إلى لوحاته نقلا أميناً ، يُبْقِى فيه على صورها الحقيقية دون أن يُدخل عليها تعديلا من شأنه أن يمسّ جواهرها . ومن أجل ذلك كان شعره وثيقة دقيقة لمن يريد أن يعرف حياته وبيئته برملها ووديانها ومنعرجاتها ومراعيها وسباعها وحيوانها وزواحفها وطيرها . وعرف القدماء ذلك فكلما تحدثوا عن عادات الجاهليين وألوان حياتهم استشهدوا بأشعارهم ، وحينما كتب الجاحظ كتاب الحيوان وجد فى هذه الأشعار مادة لا تكاد تنفد فى وصفه ووصف طباعه وكل ما يتصل به من سمات ومشخصات . ومعنى ذلك أن الشاعر الجاهلى لم يغتصب الحيوان لنفسه ،

---

(١) الأصمعيات ص ١٧١ .

فيسكب عليه من خياله ما يحيله عن حقيقته ، ونستطيع أن نلاحظ ذلك فى وصفه للمعارك الدائرة بينهم ، إذ نراه يعترف بهزيمة قومه إن هُزِموا[1]، وبفراره إن ولَّى الأدبار ونكص على أعقابه[2]،وفى أثناء ذلك لا يبخل على أعدائه بوصف شجاعتهم وبلائهم فى الحروب ، ولهم فى ذلك قصائد تلقب بالمنصفات ، مرّ الحديث عنها .

وجاءهم ذلك من أنهم لا يبدلون فى الحقائق ولا يعدِّلون فى علاقاتها ومعانيها ، بل يخضعون لها ويضبطون خيالاتهم وانفعالاتهم إزاءها . ونحن بهذا الوصف إنما نقصد إلى جمهور أشعارهم ، فقد تندّ بعض أبيات تحمل ضرباً من المبالغة ، ولكن ذلك يأتى شاذًّا ونادراً . ونظن ظنًّا أن شيوع هذه الروح فيهم هو الذى طبع أفكارهم بنزعة تقريرية ، إذ تعودوا أن يسندوا أقوالهم بذكر الحقيقة عارية دون خداع يموِّهها أو طلاء يزيفها . ومن هنا كانت معانيهم محددة تحديداً يبرزها فى أتم ما يكون من ضياء ، ومن ثَمَّ تبدو فى كثير من جوانبها كأنها شىء راسخ ثابت . ويتضح ذلك فى حِكَمهم التى تصور أحكاماً سليمة وخبرات صائبة كما يتضح فى جوانب كثيرة من تأبينهم ومديحهم وغزلهم وحماستهم ، إذ يقدم الشاعر المعانى منكشفة كأنها أشياء صلبة محسوسة ، فهى حقائق تُسْرَدُ سرداً وقلما شابها الخيال ، إلا ليزيدها إمعاناً فى الوضوح والجلاء . واقرأْ فى أشعاره فستجد معانيه حسية ، واضحة ، لا يقف بينك وبينها أى غموض أو أشراك ذهنية تضل فى ممراتها وشُعَبها الفكرية ، إذ يعرض عليك هذه المعانى دائماً مجسمة فى أشخاص أو فى أشياء. وخُذْ فضائلهم التى طالما أشادوا بها فى حماستهم ومراثيهم ومدائحهم ، فستجدها دائماً تساق فى مادة الإنسان الحسية ، فهو لا يتحول بها إلى معنى ذهنى عام يصور إحساسه بالبشرية جميعها فى هذه الفضيلة أو تلك ، فالكرم مثل البخل والوفاء وغيرهما من الفضائل والرذائل لا بد أن يقترن بشخص معين يتحدثون عنه .

وهذه النزعة فى الشاعر الجاهلى جعلته لا يحلل خواطره ولا عواطفه إزاء ما يتحدث فيه من حب أو غير حب ، فهو لا يعرف التغلغل فى خفايا النفس الإنسانية ولا فى أعماق الأشياء الحسية . وتتضح هذه النزعة فى نفس خياله وتشبيهاته فهو ينتزعها من عالمه المادىّ ، ولنرجعْ مثلا إلى تشبيهاته للمرأة فهو يشبهها بالشمس

(١) انظر مثلا المفضليات رقم ١٠٨ .
(٢) المفضليات رقم ٣٢ بيت ١ – ٣ .

والبدر والبيضة والدرّة والدُّمْية والرمح والسيف والغمام والبقرة والظبية والقطاة، ويشبه أسنانها بالأقْحوان وبنانها بالعنَم وثغرها بالبلُّور وخدها وترائبها بالمرآة وشعرها بالحبال والحيات والعناقيد ووجهها بالدينار وثديها بأنف الظبي ورائحتها بالمسك وبالأترجة وريقها بالخمر وبالعسل وعينها بعين البقرة والغزال وعَجُزَها بالكثيب وساقها بالبرْدية . أما الرجل فيشبهه بالبحر وبالغيث وبالأسد وبالذئب وبالعقاب وبالبعير وبالبدر والقمر وبالرمح والسيف وبالثور والتيس والضبع وبالأفعوان والحية وبالكلب والحمار وبالصخرة وبالصقر وبالفحل .

وعلى هذه الشاكلة من الحسية في التشبيه الشعرُ الجاهلي جميعه ، فالشاعر يستقي في أخيلته من العالم الحسي المترامي حوله . وجعلهم تمسكهم بهذه الحسية إذا وصفوا شيئاً أدقّوا النظر في أجزائه ، وفصّلوا الحديث فيها تفصيلا شديداً ، وكأنما يريدون أن ينقلوه إلى قصائدهم بكل دقائقه ، وكأن الشاعر نحات لا يصنع قصيدة وإنما يصنع تمثالا ، فهو يستوفي ما يصفه بجميع أجزائه وتفاصيله الدقيقة . وخير مثل لذلك وصف طرفة لناقته في معلقته فقد نعت جميع أعضائها وكل دقيقة فيها وجليلة. ولم يترك منها شيئاً دون وصف أو بيان .

وهذه الحسية فيهم جعلتهم لا يتسعون بمعانيهم ، بل جعلتهم يدورون حول معانٍ تكاد تكون واحدة ، وكأنما اصطلحوا على معان بعينها ، فالشعراء لا ينحرفون عنها يمنة ولا يسرة ، فما يقوله طرفة في الناقة يقوله فيها غيره ، وما يقوله امرؤ القيس في بكاء الديار يقوله جميع الشعراء ، واقرأ حماسية كمعلقة عمرو بن كلثوم فستجد الشعراء الحماسيين لا يكادون يأتون بمعنى جديد . وقل ذلك في غزلهم ومديحهم ورثائهم فالشعراء يتداولون معاني واحدة وتشبيهات وأخيلة واحدة. ومن ثَمَّ تَبْدو في أشعارهم نزعة واضحة للمحاكاة والتقليد، وجنى عليهم ذلك ضيقا واضحا في معانيهم، غير أنه من جهة ثانية أتاح لهم التدقيق فيها وأن يجلوها ويكشفوها أتم كشف وجلاء . واقرأْ في المفضليات والأصمعيات فستجد دائماً نفس المعاني ، وستجد أيضاً براعة نادرة في إعادتها وصوغها صوغاً جديداً ، فكل شاعر يحاول أن يعطيها شيئاً من شخصيته، وخُذْ مثلا تشبيه المرأة بالظبية ، فشاعر يشبهها تشبيهاً عاديًّا ، وشاعر يشبهها بها وهي تمد عنقها إلى شجر السَّلم الناضر ، يريد أن يستّم بذلك منظراً بديعاً

للظبية ، يقول علباء بن أرقم(١) :

فيوما تُوافينـا بوجهٍ مُقَسَّمٍ ... كأنْ ظبيةٍ تَعْطُو إلى ناضِرِ السَّلَمْ

وثالث يشبه جيدها بجيد الظبية فى استوائه وطوله وجماله ، يقول الحادرة(٢) :

وتصدَّفتْ حتى اسْتَبَتْكَ بواضحٍ ... صَلْتٍ كمُنْتصِبِ الغزال الأَتْلَعِ

ورابع يجعل وجه الشبه حَور العين ، وخامس يجعله فى التنفس كقول المنخّل اليشكرى :

ولثمتُهـا فتنفَّسَتْ ... كتنفس الظبى البَهِيرِ

وما يزال كل شاعر يضيف تفصيلا جديداً. وخُذْ مثلا تصويرهم للرجال بالكواكب والنجوم ، يقول عامر المحاربى(٣) :

وكنا نجومًا كلما انقضَّ كوكبٌ ... بدا زاهرٌ منهنَّ ليس بأَقْتما

ويقول طُفَيل الغنوى فى مديح قوم(٤) :

نجومُ ظلامٍ كلما غاب كوكبٌ ... بَدا ساطعًا فى حِنْدس الليل كوكبُ

ويقول لقيط بن زُرارة وقد أضاف إلى هذا المعنى زيادة بديعة(٥) :

وإنى من القوم الذين عرفتمُ ... إذا مات منهم سَيِّدٌ قام صاحبُهْ

نجومُ سماءٍ كلما غارَ كوكبٌ ... بدا كوكبٌ تأْوى إليه كواكبه

أَضاءتْ لهم أحسابُهم ووجوههم ... دُجَى الليل حتى نظَّم الجَزْعَ ثاقبه(٦)

وألمَّ النابغة بهذه الصورة فنقلها نقلة جديدة ، إذ قال فى النعمان بن المنذر مقارناً بينه وبين الغساسنة(٧) :

(١) الأصمعيات ص ١٧٨ ومقسم : من القسام وهو الجمال ، وأن فى كأن زائدة ، تعطو : تتناول ، والسلم : من أشجار البادية .

(٢) المفضليات ص ٤٤ وتصدفت : أعرضت . بواضح : يريد بعنق ناصع جميل ، وصلت : مشرق ، الأتلع : طويل العنق .

(٣) المفضليات ص ٣٢١ الأقتم : من القتام وهو الغبار .

(٤) الحيوان ٣/٩٤ .

(٥) الحيوان ٣/٩٣ .

(٦) الجزع : خرز فيه سواد وبياض

(٧) الحيوان ٣/٩٥ ومختار الشعر الجاهلى ص ١٧٥ .

وإنك شمسٌ والملوك كواكبٌ إذا طلعتْ لم يَبْدُ منهن كوكبُ

ومعنى ذلك أن ضيق الدائرة فى معانيهم لم يحل بينهم وبين النفوذ منها إلى دقائق كثيرة ، فقد تحولوا يولدونها ويستنبطون منها كثيراً من الخواطر والصور الطريفة .

وملاحظة ثانية هى أنهم لم يعرضوا علينا معانيهم الحسية جامدة ، بحيث تنشر الملل فى نفوسنا ، فقد أشاعوا فيها الحركة ، وبذلك بثّوا فيها كثيراً من الحيوية ، وما من شك فى أن هذه الحركة مشتقة من حياتهم التى لم تكن تعرف الثبات والاستقرار ، فهم دائماً راحلون وراء الغيث ومساقط الكلأ ، ومن ثَمّ كانوا إذا وصفوا الحيوان وصفوه متحركاً لا واقفاً جامداً ، وارجعْ إلى وصف طرفة لناقته فستجده يصفها وهى سائرة به فى طريق إلى غاية تصبو إليها نفسه ، يقول :

أمونٍ كألْواح الإرَان نَسَأْتُها على لاحبٍ كأنه ظَهْرُ بُرْجُدِ[1]

وهو يشبه الطريق بكساء مخطط ، يجد فيه جمالا ، كما يجد فيها روعة وبهاء ، فيستمر فى وصفها وكأنه تدلَّه بها حبًّا، فهو لا يترك شيئاً دون أن يقيده ، وكأنه يصنع لها تمثالاً يريد أن يحفره حفراً فى أذهان العرب الذين كانوا يعجبون بنوقهم ويودون لو أتيح لهم من ينْصبها لهم تمثالا بديعاً . وعلى هذا النحو كانوا يصفون خيولهم وكانوا ينتقلون منها ومن وصف النوق إلى وصف النعام وبقر الوحش وثورها والأُتن وحمارها ويصورونها لنا وهى تجرى فى الصحراء تطلب الماء، والصائد إما فى طريقها بكلابه أو على الماء مستتراً منها ، وما تلبث أن تنشب معركة هائلة لا تقل عن معاركهم هولا .

وطبيعى أن يفيض هذا الجزء من قصائدهم بحركة واسعة ، فالحركة أساسه ، وقد يُدخلون هذه الحركة فى المقدمة نفسها ، فالشاعر لا يكتفى بالوقوف بالأطلال وبكاء الديار ، بل كثيراً ما يصور ظُعن حبيبته وصواحبها فى القافلة ، وقد خرجت تطلب مرعى جديداً ، فلا تزال متنقلة من موضع إلى موضع وعينُ الشاعر بإزائها تسجل هذه الرحلة الدائبة تسجيلا بديعاً .

---

(١) أمون : موثقة الخلق ، والإران : تابوت لموتاهم ، ونسأتها : زجرتها ، اللاحب : الطريق البين الواضح الذى أثر فيه المشى . البرجد : كساء مخطط شبه به طرائق الطريق وما فيه من تعاريج وخطوط وآثار .

وهذه الحركة فى حياتهم التى تعنى عدم الثبات والاستقرار ، و بالتالى تعنى عدم التوقف عند شيء و إطالة النظر فيه هى التى جعلت معانيهم سريعة ، أو على الأقل كانت من أهم البواعث على سرعتها ، فالشاعر لا يقف طويلا عند المعنى الذى يلم به بل لا يكاد يمسه حتى يتركه إلى معنى آخر . فحياته لا تثبت ولا تستقر ، وهو كذلك فى معانيه لا يثبت ولا يستقر ، بل ينتقل من معنى إلى معنى فى خفة وسرعة شديدة . ومن ثَمَّ غلب عليه الإيجاز ، فهو لا يعرف الإطناب ولا ما يتصل به من هدوء وسكون ، ولعل هذا هو الذى جعل البيت فى قصائدهم وحدة معنوية قائمة بنفسها ، وتتألف القصيدة من الأبيات أو البيوت المستقلة التى يكتفى فيها كل بيت غالباً بنفسه ، غير متوقف على ما يسبقه ولا على ما يلحقه إلا نادراً .

وربما كان هذا هو السبب الحقيقى فى أن القصيدة الطويلة لا تلمّ بموضوع واحد يرتبط به الشاعر ، بل تجمع طائفة من الموضوعات والعواطف لا تظهر بينها صلة ولا رابطة واضحة ، وكأنها مجموعة من الخواطر يجمع بينها الوزن والقافية وتلك هى كل روابطها ، أما بعد ذلك فهى مفككة ، لأن صاحبها لا يطيل المكث عند عاطفة بعينها أو عند موضوع بعينه . ومن أجل ذلك زعم بعض النقاد أن الاستطراد أساس فى الشعر الجاهلى ، ومن حقنا أن نعطيه اسماً جديداً مشتقًّا من حياته ، وهو التنقل السريع .

وما أشبه القصيدة عندهم بفضائهم الواسع الذى يضم أشياء متباعدة لا تتلاصق ، فهذا الفضاء الرحب الطليق المترامى من حولهم فى غير حدود هو الذى أملى عليهم صورة قصيدتهم ، فتوالت الموضوعات فيها جنباً إلى جنب بدون نسق ولا نظام ولا محاولة لتوجيه فكرى : إنما هى موضوعات أو أشكال متجاورة يأخذ بعضها برقاب بعض فى انطلاق غريب كانطلاق حياة الشاعر فى هذا الفضاء الصحراوى الواسع الذى لا يكاد يتناهى ولا يكاد يحد ، والذى تتراءى فيه الأشياء متناثرة غير متجاورة .

على أن هذه الحركة قد أتاحت لشعرهم ضرباً من الروح القصصية ، لا نراه ماثلا فى وصفهم للحيوان الوحشى فحسب ، بل نراه أيضًا فى وصف الصعاليك لمغامراتهم على نحو ما تعرض علينا ذلك تائية الشنفرى التى أنشدها المفضَّل الضبىّ والتى يستهلها بقوله[1] :

(١) المفضليات ص١٠٨ ، وأجمعت : عزمت أمرها ، واستقلت : ارتحلت .

ألا أُمُّ عمرو أجمعتْ فاستقلَّتِ وما ودَّعتْ جيرانَها إذ تولَّتِ

فإنه يقص علينا بعد غزلها الطريف قصة غزوة له مع بعض رفاقه من الصعاليك، وهو لا يسردها فى إجمال، بل يسرد تفاصيلها، إذ يذكر أنهم أعدّوا العُدَّة للغزو والسلب، يحملون قِسِيَّهم الحمر، وقد خرجوا من واديين: مِشْعل والجَبا راجلين، وقد حمل زادهم تأبط شرًّا الصعلوك المشهور، وكان يقتّر عليهم فى الطعام خشية أن تطول بهم الغزوة فيهلكوا جوعاً. ويصف لنا الشنفرى جعبة السهام التى كانت معهم، وكيف أنهم كانوا يحملون حُساماً صارماً، بل سيوفاً قاطعة كأنها قِطَع الماء فى الغدير لمعاناً، بل كأنها أذناب البقر الصغير تحركه، وقد نهلت وعَلَّتْ من دماء مُحْرِمٍ ساق هَدْيَه إلى الكعبة، فقتلوه دون غايته وأخذوا ما معه، كما قتلوا بعض من كانوا يرافقونه، ومن لم يُقتَل أخذوه أسيراً. ويُنهى القصة مفتخراً بشجاعته وأنه لا يرهب الموت.

ويكثر الصعاليك من قَصَصٍ مثل هذه المغامرة، ويلقانا فى حماسياتهم كثير من وصف معاركهم، وقد يحاولون سَرْدها، وهو سرد تتمشى فيه الروح القصصية على نحو ما تمثّل ذلك معلقة عمرو بن كلثوم وقصائد بشر بن أبى خازم فى المفضليات، إذ يتحدث فيها حديثاً مفصلا عن يومى النِّسار والجُفار، فالقَصَص يتخلل شعرهم، وقد أفردوا له فى مطوَّلاتهم قطعة وصف الحيوان الوحشى. ونراه ماثلا فى غزلهم على نحو ما مر بنا فى غزلية المنخّل اليشكرى، وإنما تمثلنا بقطعة منها، وهو ماثل فى غزل المرقِّش الأصغر مما رواه صاحب المفضليات. فإذا قلنا بعد ذلك كله إن معانيهم كان يسودها فى بعض جوانبها ضرب من الروح القصصية لم نكن مبالغين، وهى روح لم تتسع عندهم، فقد أضعفتها حركتهم وميلهم إلى السرعة والإيجاز. وبذلك لم يظهر عندهم ضرب من ضروب الشعر القصصى، فقد ظل شعرهم غنائيًّا ذاتيًّا، يتغنى فيه الشاعر بأهوائه وعواطفه، غير محاول صُنْعَ قصة، يجمع لها الأشخاص والمقومات القصصية، ويرتبها ترتيباً دقيقاً، فإن شيئاً من ذلك لم يخطر بباله، إذ كان مشغولا بنفسه، لا يهمه إلا أن يتغنى بها وبمشاعره.

٥

الخصائص اللفظية

من أهم ما يلاحظ على الشعر الجاهلي أنه كامل الصياغة ، فالتراكيب تامة ولها دائماً رصيد من المدلولات تعبر عنه ، وهي في الأكثر مدلولات حسية ، والعبارة تستوفي أداء مدلولها ، فلا قصور فيها ولا عجز . وهذا الجانب في الشعر الجاهلي يصور رقيًّا لغويًّا ، وهو رقي لم يحدث عفواً فقد سبقته تجارب طويلة في غضون العصور الماضية قبل هذا العصر ، وما زالت هذه التجارب تنمو وتتكامل حتى أخذت الصياغة الشعرية عندهم هذه الصورة الجاهلية التامة ، فالألفاظ توضع في مكانها والعبارات تؤدّي معانيها بدون اضطراب .

وقد يكون من الأسباب التي أعانتهم على ذلك أن الشعراء كما أسلفنا كانوا يرددون معاني بعينها ، حتى لتتحول قصائدهم إلى ما يشبه طريقاً مرسوماً ، يسيرون فيه كما تسير قوافلهم سيراً رتيباً ، وكانوا هم أنفسهم يشعرون بذلك شعوراً دقيقاً ، مما جعل زهيراً يقول بيته المأثور — إن صح أنه له — :

ما أرانا نقول إلا مُعارا ... أو مُعادًا من لفظنا مكرورا

فهو يشعر أنهم يبدئون ويعيدون في ألفاظ ومعان واحدة ، ويجرون على طراز واحد ، طراز تداولته مئات الألسنة بالصقل والتهذيب ، فكل شاعر ينقّح فيه ويهذب ويصفي جهده حتى يثبت براعته . ولم تكن هناك براعة في الموضوعات وما يتصل بها من معان إلا ما يأتي نادراً ، فاتجهوا إلى قوالب التعبير ، وبذلك أصبح المدار على القالب لا على المدلول والمضمون ، وبالغوا في ذلك ، حتى كان منهم من يُخرج قصيدته في عام كامل ، يردّد نظره في صيغها وعباراتها حتى تصبح تامة مستويه في بنائها[1] .

وربما دل ذلك على أن مطولاتهم لم تكن تُصْنَعُ دفعة واحدة ، بل كانت تصنع على دفعات ، ولعل هذا هو سبب تكرار التصريع في طائفة منها ، ولعله أيضاً السبب

---

(١) البيان والتبيين ٢ / ٩ وما بعدها .

فى تفككها واختلاف عواطفها ، فقد كان الشاعر يصنعها فى أزمنة مختلفة . وأغلب الظن أنه كان إذا صنع قطعة عرضها على بعض شعراء قبيلته و بعض من يلزمه من رواته ، فكانوا يروونها بصورة ، وما يلبث أن يعيد فيها النظر فيبدل فى بعض أبياتها ، يبدل كلمة بكلمة ، وقد يحذف بيتاً . ومعنى ذلك أن صناعة المطولات أعدت منذ العصر الجاهلى لاختلاف الرواية فيها بسبب ما كان يدخله صاحبها عليها من تعديل وتنقيح . وفى أسماء شعرائهم وألقابهم ما يدل على البراعة فى هذا التنقيح وما يطوى فيه من تجويد ، فقد لقبوا امرأ القيس بن ربيعة التغلبى بالمهلهل لأنه أول من هلهل ألفاظ الشعر وأرقها[١] ولقبوا عمرو بن سعد شاعر قيس بن ثعلبة بالمرقش الأكبر لتحسينه شعره وتنميقه[٢] ولقبوا ابن أخيه ربيعة بن سفيان بالمرقش الأصغر ، كما لقبوا طفيلاً بالمحبر لتزيينه شعره[٣] ، ولقبوا علقمة بالفحل لجودة أشعاره[٤] ولقبوا غير شاعر بالنابغة فى شعره ، ومن ألقابهم التى تدل على احتفالهم بتنقيح الشعر المثقب والمتنخل . وقد استطاعوا حقاً أن يبهروا العصور التالية بما وفروه لأشعارهم من صقل وتجويد فى اللفظ والصيغة .

ونحن نعرف أن الصيغة فى الشعر صيغة موسيقية ، وقد أسلفنا كيف أحكموا هذه الصيغه ، فقد كان الشاعر يتقيد فى قصيدته بالنغمة الأولى ، وما زالوا يصفون فى نغم القصيدة ، حتى استوى استواء كاملا ، سواء من حيث اتحاد النغم أو اتحاد القوافى وحركاتها ، وبرعوا فى تجزئة الأوزان حتى يودعوا شعرهم كل ما يمكن من عذوبة وحلاوة موسيقية على نحو ما نلاحظ فى غزلية المتنخل اليشكرى السابقة . وحقاً هو فى جمهوره جزل ، ولكنها جزالة تستوفى حظوظاً من الجمال الفنى ، ولذلك ظلت ماثلة فى شعرنا العربى عند شعرائه الممتازين إلى عصورنا الحديثة . واقرأ فى حوليات زهير وقصائده المطولة وفى غيره من المبرزين أمثال النابغة وعلقمة الفحل والمرقشين والأعشى وطرفة والمتلمس وعنترة ودريد بن الصمة وسلامة بن جندل والحادرة والمثقب العبدى فستجدك أمام قصائد باهرة ، قد أحكمت صياغتها وضبطت أدق ضبط ، وسنعرض قطعاً منها فى حديثنا عن الشعراء ، لنصور براعتهم

(١) أغانى (طبعة دار الكتب) ٥٧/٥ .

(٢) انظر المفضليات (طبعة لايل) ٤١٠/١ ، ٤٨٥

(٣) المفضليات ٤١٠/١ .

(٤) أغانى (طبعة الساسى) ١١٢/٢١ .

فى هذا الجانب وكيف حققوا لموسيقاهم مهما جزُلت وتضخمت كل ما يمكن من بهاء ورونق .

وقد استعانوا منذ أقدم أشعارهم ، لغرض التأثير فى سامعيهم ، بطائفة من المحسنات اللفظية والمعنوية ، وأكثرها دوراناً فى أشعارهم التشبيه ، فلم يصفوا شيئاً إلا قرنوه بما يماثله ويشبهه من واقعهم الحسى ، فالفرس مثلا يشبَّه من الحيوان بمثل الظبى والأسد والفحل والوعل والذئب والثعلب ويشبَّه من الطير بالعقاب والصقر والقطاة والباز والحمام ، ويشبه بالسيف والقناة والرمح والسهم وبالأفعوان والحبل والهراوة والعَسيب والجِذْع وتشبَّه ضلوعه بالحصير وصدره بمداك العروس وغرته بخمار المرأة والشيب المخضوب ومنخره بالكِير وعَرْفه بالقصبة الرطبة وحافره بقَعْب الوليد وعنقه بالرمح والصعدة وعينه بالنقرة والقارورة ولونه بسبائك الفضة وارتفاعه بالخباء . وكل هذه الأوصاف والتشبيهات مبثوثة فى المفضليات والأصمعيات ، ويعرض علينا امرؤ القيس فى وصفه لفرسه بمعلقته طائفة طريفة منها . وعلى نحو ما لاحظنا آنفاً كانوا يحاولون الإطراف فى التشبيه ، حتى يخلبوا ألباب سامعيهم ، وقد يقعون على صور نادرة كتصوير المتنخل اليَشْكرى لغدائر بعض النساء بأنها كالحيات ، يقول[1] :

يَعكُفْنَ مثل أساودِ الـ ـتَّنُّوم لم تُعْكَفْ لزُورِ[2]

وكانوا يشبهون المرأة بالبدر والشمس ، وألمَّ سُوَيد بن أبى كاهل بهذا التشبيه ، وحاول أن يخرجه إخراجاً جديداً فقال[3] :

حرّةٌ تَجْلُو شَتِيتًا واضحًا كشعاع الشمس فى الغَيْم سَطَعْ[4]

فجعل أسنان صاحبته المفلجة البيضاء كشعاع الشمس يبزغ من خلال الغيم . وكانوا يشبهون الرمح بالجمر ولهبه ، وألمَّ عميرة بن جُعْل بهذا التشبيه فأضاف إليه إضافة جديدة ، إذ قال[5] :

---

(١) الأصمعيات ص ٥٤ .

(٢) يعكفن : يمشطن شعرهن ، والأساود : الأفاعى ، والتنوم : شجر ، ولم تعكف لزور كناية عن عفتهن .

(٣) المفضليات ص ١٩١ .

(٤) الشتيت : المتفرق يريد أسنانها المفلجة ، واضحاً : أبيض .

(٥) المفضليات ص ٢٥٩ ، والرديني : الرمح.

جمعتُ رُدَيْنِيًّا كأنَّ سِنانَهُ　　سَنا لهب لم يَتَّصِلْ بدُخانِ

وكان الجاحظ يعجب إعجاباً شديداً بوصف عنترة لبعض الرياض وتصويره للذباب وحركة جناحيه حين يسقط ، إذ يقول[1] :

جادَت عليها كلُّ عَيْنٍ ثَرَّةٍ　　فتركْنَ كلَّ حديقةٍ كالدِّرْهَمِ[2]
فترى الذبابَ بها يُغَنِّى وحده　　هَزِجًا كفعل الشارب المترنِّم
غَرِدًا يَحُكُّ ذِراعَه بذراعِهِ　　فعلَ المُكِبِّ على الزِّنادِ الأَجْذمِ[3]

فقد شبه قرارات الروضة وحُفَرها بالدراهم ، وشبه صوت الذباب بصوت الشارب المترنم ، وما زال يطلب صورة نادرة حتى وقع على الصورة الأخيرة إذ شبه الذباب فى حركة أجنحته الدائبة حين يسقط برجل مقطوع اليدين يقدح النار من عودين أو زَنْدين فلا تقتدح ، فيستمر فى قدحه لا يفتر .

وبجانب التشبيهات الكثيرة التى تلقانا فى شعرهم نجد الاستعارة بفرعيها من التصريحية والمكنية ، وهى مبثوثة فى أقدم أشعارهم . نجدها عند امرئ القيس ومعاصريه كما نجدها عند من جاءوا بعده ، ومن أمثلتها الطريفة عند امرئ القيس تصويره طول الليل وفتوره وبطئه ببعير جاثم لا يريم ، إذ يقول فى معلقته مخاطباً الليل :

فقلتُ له لما تمطَّى بصُلْبِهِ　　وأردفَ أعجازًا وناءَ بكَلْكَلِ[4]

وأنشد ابن المعتز فى كتابه « البديع » كثيراً من استعاراتهم مثل قول أوس بن حَجر :

وإنى امرؤٌ أعددتُ للحرب بعدما　　رأيتُ لها نابًا من الشرِّ أعْصَلا[5]

وقول عَلقمة بن عَبدة :

بل كلُّ قوم وإن عَزُّوا وإن كرموا　　عَريفُهم بأثافى الشرِّ مَرْجُومُ[6]

---

(١) الحيوان ٣/٣١٢ ومختار الشعر الجاهلى للسقا ص ٣٧١ .

(٢) العين الثرة هنا : السحابة غزيرة المطر ، وشبه الحديقة بالدرهم فى استدارته .

(٣) الأجذم : مقطوع اليدين .

(٤) الكلكل : الصدر .

(٥) الأعصل : المعوج فى صلابة .

(٦) العريف : الرئيس ، والأثافى : الحجارة التى تنصب عليها القدر ، استعارها لنوائب الدهر .

وقول طُفَيل الغَنَوى فى وصف ناقته :

وجعلتُ كورى فوق ناجيــةٍ   يقتاتُ شَحْمَ سَنامها الرَّحْلُ (١)

وقول الحارث بن حِلِّزة اليشكرى :

حتى إذا التفَعَ الظِّبــاء بأَطْ   راف الظِّلال وقِلْنَ فى الكُنُسِ (٢)

وفى شعرهم كثير من هذه الاستعارات الطريفة ، وسنعرض لطائفة منها ومن التشبيهات فى دراستنا لشعرائهم المبرزين ، وكانوا يضيفون إلى ذلك عناية ببعض المحسنات التى شاعت فى الشعر العباسى وكثُر استخدامها فيه حتى اتخذها بعض الشعراء مذهباً يطبقها على جميع أبياته أو جمهورها ، ونقصد الطباق والجناس ، فلهما أصول فى الجاهلية ، ونحن نجدهما عند امرئ القيس فى وصفه لفرسه إذ يقول :

مِكَرٍّ مفَرٍّ مُقْبلٍ مُدْبرٍ معًا   كجلمود صَخْرٍ حطَّهُ السَّيْلُ من عَلِ
كُمَيْتٍ يَزِلُّ اللِّبْدُ عن حالِ مَتْنِهِ   كما زَلَّتِ الصَّفْوَاءُ بالمتنزَّلِ (٣)

والطباق واضح فى البيت الأول ومثله الجناس فى البيت الثانى . وقد أنشد المفضل الضبى لعبد الله بن سلمة الغامدى قصيدة كَثُر فى آخرها الجناس كثْرة مفرطة ، حتى لكأننا بإزاء شاعر عباسى من شعراء البديع ، يقول عبد الله(٤) :

ولقد أصاحبُ صاحبًا ذا مَأْقَةٍ   بِصِحابِ مُطَّلِعِ الأَذَى نِقْرِيسِ (٥)

ولقد أُزاحم ذا الشَّذَاةِ بِمِزْحَمٍ   صَعْبِ البُدَاهَةِ ذى شَذًا وشَرِيسِ (٦)

(١) الكور : الرحل ، ناجية : ناقة سريعة.

(٢) التفعت الظباء بالظلال : دخلت فيها واكتنت من الحر . وقلن : أمضين القائلة وهى نصف النهار . والكنس : جمع كناس وهى حفرة تحفرها الحيوانات الوحشية فى أصل شجرة لتستتر فيها .

(٣) الكميت : الأحمر فى سواد ، يزل : يسقط ، يريد أنه أملس المتن . الصفواء : الصخرة الملساء ، المتنزل : النازل عليها .

(٤) المفضليات ص ١٠٧ .

(٥) المأقة : حدة الغضب ، وصحاب : مصدر صاحب ، مطلع الأذى : مالك له فى استعلاء ، والنقريس : الحاذق .

(٦) ذا الشذاة : ذا الأذى . بمزحم : شديد المزاحمة . صعب البداهة : شديد المفاجأة . والشذا : الأذى ، والشريس : الشراسة .

ولقد أداوى داءَ كلِّ مُعَبَّدٍ بِعَنِيَّةٍ غَلَبَتْ على النِّطِّيسِ[1]

فقد جانس فى البيت الأول بين أصاحب وصاحبا وصحاب ، وجانس فى البيت الثانى بين أزاحم و بمزحم والشذاة وشذا وأدخل حرف الشين على كلمة شريس ، وجانس فى البيت الأخير بين أداوى وداء .

وتلك كلها محسنات كان الشاعر الجاهلى يُعْنَى بها حتى يؤثر فى نفوس سامعيه ويخلب ألبابهم ، وهى تصور مدى ما كان يودعه قصيدته من جهد فنى ، وبخاصة من حيث التصوير ودقته وبراعته ، فقد كان ما يزال يجهد خياله حتى يأتى فيه بالنادر الطريف .

---

(١) المعبد : البعير الأجرب ، أراد به الشرير . العنية : من أدوية الجرب . النطيس كالنطاسى : الطبيب الماهر .

الفصل السابع

امرؤ القيس

١

قبيلته وأسرته[١]

امرؤالقيس من قبيلة كندة ، ومن بيت السيادة فيها ، وهى قبيلة يمنية[٢] كانت تنزل فى غربى حضرموت ، وهاجرت منها جماعة كبيرة إلى الشمال مع هجرات اليمنيين المعروفة ، واستقرت جنوبى وادى الرُّمَّة الذى يمتد من شمالى المدينة إلى العراق . وقداحتلت كما مرَّ بنا مكاناً بارزاً فى نجد منذ أواسط القرن الخامس للميلاد ، فإننا نجد على رأسها أميراً يسمى حُجْراً آكل المُرار[٣] تعاقبت الإمارة فى بنيه من بعده ، ويظهر أنه استطاع أن يفرض سيادته على كثير من القبائل الشمالية ، وأنه كان يدين بالطاعة لملوك حمير اليمنيين[٤] .

وهذه الإمارة الكندية النجدية كانت تقابل إمارة المناذرة فى الحيرة والغساسنة فى الشام ، وقد أدى وقوعها بينهما ومحاولتها بسط نفوذها على قبائل معد من حولها إلى أن تصطدم بالإمارتين المجاورتين لها جميعاً ، وهو اصطدام تُرْوَى أخباره منذ قيام حجر آكل المرار ، إذ كثيراً ما كان يشتبك فى حروب مع الغساسنة[٥] . وما زال يمد رقعة ملكه حتى بلغت حدود المناذرة ، ويتوفَّى فيخلفه ابنه عمرو ويحافظ على ما ورث عن أبيه من سلطان ، ويُصهر إليه ملك الحيرة[٦] مما يدل على اتساع نفوذه ، ويعقبه

---

(١) راجع فى كندة وأمرائها كتاب أوليندر السالف ذكره .

(٢) انظر فى ذلك الاشتقاق (طبعة جوتنجن) ٢١٨/٢ والأغانى ٧٧/٩ وهناك من يزعم أن كندة قبيلة عدنانية (انظر الأغانى طبعة دار الكتب ٧٩/١٣ والمفضليات طبعة لايل ٤٢٧/١) ولكن هذا الزعم غير صحيح ، ويدل على ذلك دلالة قاطعة أننا نجد فى أسماء أعلامها كما قدمنا نفس الأسماء اليمنية مثل شرحبيل ومعديكرب ابنى الحارث .

(٣) آكل المرار لقب لحجر ، وأصله فحل الإبل يأكل نبتاً مرا يسمى المرار ، فكأنهم أرادوا به حجراً الفحل .

(٤) الأغانى (طبع الساسى) ٢٨/١٥ وابن خلدون ٢٧٣/٢ وجواد على ٢٢٠/٣ .

(٥) الأغانى ٨٢/١٥ ومابعدها .

(٦) تاريخ الطبرى (طبعة أوربا) ٩٠٠/١ وحمزة الأصفهانى ص ٦٩ .

ابنه الحارث ، وهو أهم أمراء هذه الأسرة ، والمظنون أنه بدأ حكمه حوالى سنة ٤٩٠ للميلاد . ويذكر المؤرخون البيزنطيون أنه كان كثير الإغارة على الحدود الرومانية وكان يقود غاراته ابناه حُجْر ومعد يكرب ، وقد أغار على فلسطين الرومانية فى عامى ٤٩٧ و ٥٠١ للميلاد [١] .

ولا نتقدم فى القرن السادس حتى يعظم سلطان الحارث فى نجد . وحدث أن غضب قُباذ ملك الفرس على المنذر بن ماء السماء أمير الحيرة بسبب رفضه لمذهب المزدكية ، كما مر بنا فى غير هذا الموضع ، فعزله وولى على الحيرة مكانه الحارث ختنه [٢] ، فتحقق له حلم آبائه بتقويض الإمارة اللخمية ، وولّى أبناءه على القبائل ، فجعل — كما تقول بعض الروايات — حُجْراً على أسد وغطفان ، وشرحبيل على بكر ومعد يكرب على تغلب وسلمة على قيس [٣] .

وسرعان ما تطورت الأحداث ، فإن الأحباش استولوا على اليمن وتوفى قُباذ وخلفه كسرى أنوشروان سنة ٥٢٨ وكان يكره مزدك والمزدكية ، فاضطهد أنصارها فى بلاده ، وأعاد المنذر بن ماء السماء إلى الحيرة عاصمته ، وقد أدار مع الحارث معارك طاحنة ، انتهت بقتل الحارث . وتبع المنذر أبناءه يوقع بهم ويؤلب القبائل عليهم ، وسرعان ما سقط معديكرب وسلمة فى معركة تعرف بيوم أُوارة الأول [٤] ويقال إن معد يكرب أصابه الجنون ، وكان شرحبيل قد سقط قبل ذلك فى معركة بينه وبين أخيه سلمة تعرف بيوم الكُلاب الأول [٥] .

أما حُجْر وهو أبو امرئ القيس فقتلته قبيلة بنى أسد ، ويَرْوى صاحب الأغانى أربع روايات مختلفة فى قتله [٦] ، أما الأولى فقد رواها عن هشام بن الكلبى (المتوفى سنة ٢٠٤ هـ) وهى تزعم أن حجراً كان له على بنى أسد إتاوة يؤدونها كل عام ، فلما قُتل أبوه أرسل إليهم جُباته فمنعوهم وضربوهم ضرباً مبرحاً ، فسار إليهم حجر بجند من ربيعة وقيس وكنانة ، فاستسلموا له ، فأخذ سادتهم ، وجعل يقتلهم بالعصا

---

(١) انظر فى ذلك تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ٣/٢٤٥ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٣٨ وما بعدها .

(٣) نفس المصدر ص ٢٤٣ وما بعدها .

(٤) نقائض جرير والفرزدق (طبعة بيفان) ص ٨٨٧ وتاريخ ابن الأثير ١/٢٢٨ .

(٥) الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٢/٢٠٨ وما بعدها والمفضليات (طبعة لايل) ١/٤٢٨ وابن الأثير ١/٢٢٧ ومعجم البلدان لياقوت ٧/٢٦٩ .

(٦) أغانى (طبعة دار الكتب) ٩/٨٢ .

ــ فسمُّوا عبيدَ العصا ــ وأباح أموالهم ، وطردهم من منازلهم فى جنوبى وادى الرُّمَّة إلى تهامة ، وحبس سيدهم عمرو بن مسعود الأسدى ، وشاعرهم عبيد بن الأبرص وقد استعطفه بقصيدة يقول له فيها :

أنت المليكُ عليهـــمُ   وهمُ العبـــيدُ إلى القِيامه

فأثر ذلك فى نفس حُجْر ، وعفا عنهم ، ولكنهم أضمروا له الانتقام ، وأصابوا منه غِرّة ، فقتلوه فى قُبَّته ، ونهبوا ما كان معه من أموال .

والرواية الثانية رواها أبو الفرج عن أبى عمرو الشيبانى (المتوفى سنة٢١٣هـ) وهى تزعم أن حجراً خاف على نفسه من بنى أسد ، فاستجار بعُوَيْر بن شِجْنة التيمى لبنته هند وأهله ، ثم مال على بعض بنى سعد بن ثعلبة فأدركه عِلْباء بن الحارث الأسدى ، وغافله ، وقتله .

والرواية الثالثة رواها أبو الفرج عن الهيثم بن عدى (المتوفى سنة ٢٠٦) وهى تذكر أن حجراً لما استجار عُوَيْر بن شِجْنة لبنيه وأهله تحول عن بنى أسد فأقام فى عشيرته كندة مدة ، وجمع لبنى أسد منهم جمعاً عظيما ، وأقبل مُدِلاًّ بمن معه من الجنود ، فتآمرت بنو أسد بينها ، وقالوا : والله لئن قهركم هذا ليحكمن عليكم حكم الصبى ! وما خير عيش يكون بعد قهر وأنتم بحمد الله أشدّ العرب فموتوا كراماً . فساروا إلى حجر وقد ارتحل نحوهم فلقوه ، فاقتتلوا قتالاً عنيفاً ، وكان صاحب أمرهم عِلباء بن الحارث فحمل على حجر فطعنه ، فقتله ، وانهزمت كندة وفيهم يومئذ امرؤ القيس بن حجر ، فهرب على فرس له شقراء ، وأعجزهم . وقد قتلوا من أهل بيته طائفة وأسروا أخرى وملأوا أيديهم من الغنائم ، وأخذوا جوارى حُجر ونساءه وكل ما كان معه من أموال ، واقتسموا ذلك جميعه .

أما الرواية الرابعة فرواها أبو الفرج عن ابن السِّكِّيت (المتوفى سنة ٢٤٤) وهى تزعم أن حجراً أقبل بعد موت أبيه راجعاً إلى بنى أسد ، وكان قد أساء ولايتهم . وتشاورت بنو أسد فيه ، وأجمع أمرهم على إعلان الحرب عليه ، وخرج إليه بعض شجعانهم ، فقتلوا من كان يقدم ركبه من غلمانه وسبوا جواريه . وعلم حجر بذلك فقاتلهم غير أنهم هزموه وأسروه ، ووثب منهم فتى كان له عنده ثأر ، فقتله .

والرواية الأولى رواية هشام الكلبي ، وهو متهم فيما يرويه ، فهى رواية ضعيفة ، ومما يدل على فسادها قصيدة عَبيد التى ذُكر فى تضاعيفها يوم القيامة : ومن أين له بمعرفة هذا اليوم الذى جاء فى القرآن الكريم وهو جاهلى وثنى ؟ . ومثلها الروايتان الثانية والرابعة ، فأثر الافتعال فيهما واضح ، لسبب بسيط ، وهو أن حجرًا يموت غيلة ، ولا نرى عشيرته كندة تثأر له أو تشتبك من أجله فى حرب مع بنى أسد . لذلك نرجح الرواية الثالثة رواية الهيثم بن عدى ، وهى تتفق مع ما ردده عبيد بن الأبرص فى شعره مراراً من أن قبيلته نكّلت بكندة وصاحبها حجر ، وكان عبيد معاصراً للحوادث وشاهد عيان لها ، ومن قوله فى ذلك يخاطب امرأ القيس[1] :

وركْضُك لولاه لقيتَ الذى لَقُوا فذاك الذى أنجاك مما هنالكا

وهو يشير بذلك فى وضوح إلى فرار امرئ القيس من المعركة التى قُتل فيها أبوه ، ونراه يصف هذه المعركة ، ويصرح بهزيمة كندة فيها وقَتْل حُجْر إذ يقول معرّضاً بامرئ القيس وساخراً من وعيده وتهديده لقومه[2] :

ياذا المخوِّفنا بقَتْـ ـل أبيه إذلالاً وحَيْنا[3]
أزعمتَ أنك قد قتلـ ـتَ سَرَاتنا كذباً ومَيْنا[4]
هــلاَّ على حُجْر ابن أمِّ قَطام تبكى لا علينا
هلا سألت جموع كنـ ـدةَ يوم ولَّوا أين أينا
أيام نضربُ هامهم ببواترٍ حتى انحنينا[5]

ويتكرر فى ديوان عبَيد وصف نهاية حجر ومُلك كندة على أسد بهذه الصورة مراراً [6] مما يدل على أن رواية الهيثم بن عدى أكثر قربًا إلى الصحة والصدق وأن الروايات الأخرى دخلها الفساد والانتحال .

---

(١) ديوان عبيد بن الأبرص (طبعة لايل) ص ٥٣ .
(٢) الديوان ص ٢٧ .
(٣) الحين : الموت .
(٤) السراة : السادة ، المين : الكذب .
(٥) السيوف البواتر : القاطعة .
(٦) انظر ديوان عبيد القصائد رقم ٤ ، ١٧ ، ٢٦ .

٢

حياته

تتردد فى كتب الأدب أسماء مختلفة لامرئ القيس ، فيسمى حُنْدجًا وعديًّا ومُلَيْكة[١] ، ويُكنى بأبى وهب وأبى زيد وأبى الحارث ويلقّب بذى القروح والملك الضّليل[٢] ، وأشهر ألقابه امرؤ القيس ، والقيس من أصنامهم فى الجاهلية كانوا يعبدونه وينتسبون إليه . وأبوه حُجْر بن الحارث كما مر بنا . أما أمه ففاطمة بنت ربيعة أخت كليب ومهلهل التغلبيين[٣] . ووهم بعض الرواة فى نسبه ، فقالوا إنه امرؤ القيس بن السِّمْط بن امرئ القيس بن عمرو الكندى ، وإن أمه تَمْلِك بنت عمرو بن زُبَيْد بن مَذْحج من رهط عمرو بن معد يكرب[٤] . وهو خلط أوقعهم فيه تشابه اسمه مع اسم هذا الشاعر ، وكان فى الجاهلية ستة عشر شاعراً كلهم يتسمى باسم امرئ القيس .

ولا نعرف سنة مولده ، ويظن أنه وُلد فى أوائل القرن السادس للميلاد ، وليس بين أيدينا أى شىء واضح عن نشأته وكيف أمضى أيامه الأولى فى شبابه إلا أخباراً تغلب عليها الأسطورة ، من ذلك مارواه[٥] هشام الكلبى إذ يزعم أن أباه حجراً طرده وآلى (أقسم) أن لا يقيم معه أنفة من قوله الشعر ، وكانت الملوك تأنف من ذلك ، فكان يسير فى أحياء العرب ومعه أخلاط من شُذّاذ القبائل : من طيئ وكلب وبكر ابن وائل ، فإذا صادف غديراً أو روضة أو موضع صيد أقام فذبح لمن معه فى كل يوم وخرج إلى الصيد ، فتصيَّد ثم عاد ، فأكل وأكلوا معه ، وشرب الخمر ، وسقاهم ، وغنته قيانه . ولا يزال كذلك حتى ينفد ماء ذلك الغدير ، ثم ينتقل عنه إلى

---

(١) انظر جواد على ٣/٢٥٣ و Olinder ص ٩٥ وشرح المعلقات السبع للزوزنى ص ١ وما بعدها والمؤتلف والمختلف للآمدى ص ٩ وجمهرة أشعار العرب ص ٢٠ والمزهر للسيوطى ٢/٤٢٢ وشرح شواهد المغنى له ص ٦ .

(٢) الأغانى ٩/٧٨ وانظر ترجمته فى الشعر والشعراء لابن قتيبة (طبعة دار المعارف) ١/٥٢ وما بعدها .

(٣) أغانى ٩/٧٧ .

(٤) أغانى ٩/٧٧ .

(٥) أغانى ٩/٨٧ وما بعدها .

غيره . فأتاه خبر أبيه ومقتله وهو بدَمّون من أرض اليمن ، أتاه به رجل من بنى عِجْل يقال له عامر الأعور أخو الوصّاف ، فلما أتاه بذلك قال :

تَطاول الليلُ عليَّ دَمُّونْ دَمُّونُ إنا معشرٌ يمانونْ

وإننا لأهلنـــا محبُّون

ثم قال : ضيَّعني صغيراً وحمَّلني دمه كبيراً ، لا صَحْوَ اليوم ولا سكر غداً ، اليوم خمرٌ وغداً أمرٌ . فذهبت مثلا ، ثم قال :

خليليَّ لا فى اليوم مَصْحًى لشاربٍ ولا فى غدٍ إذ ذاك ما كان يُشْرَبُ

ثم شرب سبعاً ، فلما صَحِيَ آلى أن لا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً ولا يدَّهن بدهن (طيب) ولا يقرب النساء حتى يدرك بثأره ، فلما جَنَّه الليل رأى برقاً ، فقال :

أَرِقتُ لبَرْقٍ بليلٍ أهـلّْ يضيء سَناه بأعلى الجبَلْ
أتانى حديثٌ فكَذَّبْتُـهُ بأمرٍ تزعزعُ منه القُلَلْ[1]
بقتل بنى أسدٍ ربَّهم ألا كلُّ شيء سواه جَلَلْ[2]
فأين ربيعةُ عن ربِّها وأين تميمٌ وأين الخَوَل[3]
ألا يحضرون لدى بابِه كما يحضرون إذا ما أكل

وواضح أن هذا الخبر يخالف رواية الهيثم بن عدى السابقة فى مقتل حُجْر والتى تذكر أن امرأ القيس كان مع أبيه فى حربه لبنى أسد وأنه فرّ حين هُزمت كندة وقتل أبوه ، فهو من منحولات ابن الكلبى . ومثله الخبر الذى ساقه ابن قتيبة ، إذ يقول إن أباه طرده لما صنع فى الشعر بفاطمة ابنة عمه ما صنع ، وكان لها عاشقاً ، فطلبها زماناً فلم يصل إليها ، وكان يطلب منها غرّة ، حتى كان منها يوم الغدير بدارة جُلْجل ما كان فقال قصيدته : (قفا نَبْكِ من ذكرى حبيب ومنزل) فلما بلغ ذلك أباه دعا مولى يقال له ربيعة ، فقال له : اقتل امرأ القيس وائتنى بعينيه ،

---

(١) القلل : قمم الجبال .
(٢) جلل هنا : هين .
(٣) الخول : العبيد .

فذبح جُؤْذرا[١] ، فأتاه بعينيه . وندم حجر على ذلك ، فقال : أبيت اللعن ! إنى لم أقتله ، قال : فأتنى به . . فردّه إلى أبيه ، فنهاه عن قول الشعر ، ثم إنه قال قصيدته : (ألا انعم صباحاً أيها الطلل البالى) فبلغ ذلك أباه فطرده ، فبلغه مقتل أبيه بدَمّون[٢] . وواضح أن هذا الخبر يلتقى بسابقه ويكتمل بنفس أسلوبه فهو منتحل، صُنع تعليقاً وتوضيحاً لبعض أبيات معلقته التى يذكر فيها صاحبته فاطمة ويذكر معها يوم دارة جُلْجل . ومثل هذين الخبرين ما قاله بعض الرواة من أن أباه طرده لتغزله ببعض نسائه .

والحق أن هذه الأخبار ظاهرة الانتحال هى وكل ما يتصل بها من أشعار يسوقونها على لسانه ، وكأن ابن الكلبى وغيره من الرواة استلهموا ما تدل عليه أشعاره الصحيحة من أنه كان صبًّا بالشراب والصيد ومغازلة النساء ، فلفقوا هذه الأخبار ، وضمنوها بعض الأشعار . وفاتهم أنه عاش فى عصر الوثنية وأنه كان أميراً من أسرة تفرض سيادتها على كثير من القبائل فلا عجب أن يحيا حياة لاهية لا تتورع عن الإثم .

على أن الدهر لم يلبث أن قلب لهذا الفتى العاكف على الصيد واللهو ظهر المجنّ ، فإذا أبوه يقتل ، وإذا هو موتور ، لا بد له من أخذ ثأره على عادة العرب ، ولا بد أن يجاهد فى سبيل استرداد ملك آبائه وملك كندة قبيلته على بنى أسد قَتَلة أبيه . ويظهر أن بنى أسد خافوا العاقبة، فأرسلوا إليه — فى رواية للخليل بن أحمد — وفداً للمفاوضة ، وعرض عليه الوفد إحدى ثلاث : القصاص أو الفداء أو النَّظِرة (الإمهال)حتى تضع الحوامل ، فتُعقَد الرايات وتكون الحرب ، فقال : « لقد علمت العربُ أن لا كفء لحُجْر فى دم ، وإنى لن أعتاض به جملا أو ناقة ، فأكتسب بذلك سُبّة الأبد، وفتّ العَضُد ،وأما النظرة فقد أوجبتها الأجنّة فى بطون أمهاتها ، ولن أكون لعطبها سببا، وستعرفون طلائع كندة من بعد ذلك تحمل القلوب حَنَقاً وفوق الأسنة عَلَقا(دما) ورويداً ينكشف لكم دُجاها عن فرسان كندة وكتائب حمير ، فنهضوا عنه[٣] » وقد عرفوا أنه طالبهم .

---

(١) الجؤذر : ولد البقرة الوحشية .

(٢) انظر الشعر والشعراء ١/٥٤ وشرح شواهد المغنى للسيوطى ص ٦ .

(٣) الأغانى ٩/١٠٣ وما بعدها .

ويلقانا قصص كثير عن طلبه لبنى أسد ، وأكثره مما رواه ابن الكلبي [١] ، إذ يزعم أنه ارتحل حتى نزل بكرا وتغلب فسألهم النصر على بنى أسد ، وعلمت بنو أسد بما يدبِّر لهم ، فارتحلوا ولجئوا إلى بنى كنانة ، فاختلطوا بهم. وأقبل امرؤ القيس بمن معه من بكر وتغلب حتى انتهى إلى بنى كنانة ، وهو يحسبهم بنى أسد ، فوضع السلاح فيهم ، فأعلموه أنهم ليسوا طَلِبَتَهُ . وكان بنو أسد قد عرفوا قدومه بمن معه ، فرحلوا ، فتبعهم حتى لحقهم ، وقاتلهم ، حتى كثرت الجرحى والقتلى فيهم ، وحَجز الليل بينهم ، فهربت بنو أسد، فلما أصبحت بكر وتغلب أبوا أن يتبعوهم ، وقالوا له : قد أصبت ثأرك ، وانصرفوا عنه . ومضى لوجهه حتى لحق حمير ، فاستنصر أزْدَ شنوءة فأبوا أن ينصروه، فنزل بقَيْل (أمير) يدعى مَرْثد الخير الحميرى فأمدَّه بخمسمائة رجل ، وتبعه شذاذ من العرب واستأجر من القبائل رجالا ، فسار بهم إلى بنى أسد ، ويقال إنهم عادوا فتركوه ، ويقال إنه لجأ إلى عمرو بن المنذر ابن ماء السماء وذكَر ما بينهما من صهر فأجاره ، وبلغ المنذر مكانه فطلبه ، فهرب . وفى رواية إن المنذر ألحَّ فى طلبه ووجه الجيوش إليه فلجأ إلى الحارث بن شهاب من بنى يربوع بن حنظلة ، فأرسل إليه المنذر مائة من رجاله ينذره بالحرب إن لم يسلم امرأ القيس ومن معه من بنى آكل المُرار . فخرج امرؤ القيس على وجهه حتى نزل فى أرض طيئ وقيل بل نزل قبلهم على سعد بن الضِّباب الإيادى فأجاره ، ثم تحول عنه إلى المعلَّى بن تَيم الطائى ، فأكرمه . وولى وجهه نحو عشيرة بنى نَبْهان الطائية، فبذلت له من مالها ، ثم خرج عنها فنزل بعامر بن جُوَيْن الطائى . وكان المنذر لا يزال يتبعه ، فتحول عن طيئ إلى رجل من بنى فزارة يسمى عمرو بن جابر فدله على السموأل بن عادياء صاحب حصن الأبلق بتيماء ، فلجأ إليه . وهنا يزعم ابن الكلبي وغيره من الرواة أنه طلب منه أن يكتب له إلى الحارث بن جبلة الغسانى بالشام ليوصِّله إلى قيصر ، واستودعه أهله وأمواله وما كان معه من سلاح . ومضى حتى انتهى إلى قيصر فى القسطنطينية ، وهو حينئذ جوستنيان فأكرمه ورفع منزلته ، وضم إليه جيشاً كثيفاً . ولما فصَل اندسّ إلى جوستنيان رجل من بنى أسد يقال له الطمّاح فقال له : « إن امرأ القيس غَوِيّ عاهر ، وإنه لما انصرف عنك بالجيش ذكر أنه

(١) الأغانى ٩/٩٠ وما بعدها .

كان يراسل ابنتك ويواصلها، وهو قائل فى ذلك أشعاراً يشهِّرها بها فى العرب ، فيفضحها ويفضحك . فبعث إليه القيصر حينئذ بحُلّة وَشْيٍ مسمومة منسوجة بالذهب ، وقال له : إنى أرسلت إليك بحلتى التى كنت ألبسها تكرمة لك ، فإذا وصلتْ إليك فالبسْها باليمن والبركة ، واكتبْ إلىّ بخبرك من منزل منزل . فلما وصلت إليه لبسها واشتد سروره بها ، فأسرع فيه السم وسقط جلده ، فلذلك سُمِّى ذا القُروح ، وقال فى ذلك :

لقد طمَح الطمَّاحُ من بُعد أرضه ليُلْبسنى مما يلبِّس أبؤسا[1]
فلو أنها نفسٌ تموت سَوِيَّةٌ ولكنها نفسٌ تساقط أنفسا

فلما صار إلى بلدة من بلاد الروم تدعى أنقرة احتُضر بها ، فقال :

رُبَّ خُطْبَةٍ مُسْحَنْفِرَهْ وطَعْنَةٍ مُثْعَنْجِـرَه[2]
وجَفْنَــةٍ مُتَحَيِّرَه حَلَّتْ بأَرض أنقره[3]

ورأى قبر امرأة من أبناء الملوك ماتت هناك فدُفنت فى سفح جبل يقال له عَسيب فسأل عنها، فأُخبِر بقصتها فقال :

أجارتَنا إن المزار قريبُ وإنى مقيمٌ ما أقام عَسِيبُ
أجارتنا إنا غريبان ها هنا وكلٌّ غريبٍ للغريب نَسِيبُ

ثم مات فدفن إلى جنب المرأة ، فقبره هناك ! » .

وهذه الأخبار عن امرئ القيس بعد مقتل أبيه ومصيره رويتْ فى جملتها عن ابن الكلبى المتهم فيما يرويه ، والتلفيق فيها بين واضح . ويمكن أن يكون لها أصل ، تشهد به الحوادث ، وهو أن يكون امرؤ القيس حاول عبثاً استرداد ملك آبائه ، ولكنه مات دون تحقيق غايته . ومن الممكن أيضاً أن يكون قد حاول اللجوء إلى الحارث بن جبلة الغسانى وأنه أوصله إلى جوستنيان فى القسطنطينية ، غير أنه مات فى الطريق . ومن المحقق أن قصة ثأر جوستنيان لشرفه منه قصة منتحلة ، نسجها القصاص حين

(١) يريد بالأبؤس مالبسه من الحلة المسمومة.

(٢) مسحنفرة : مسهبة ، مثعنجرة : سائلة .

(٣) جفنة متحيرة : ممتلئة طعاماً ودسماً .

وجلوه فى شعره يفخر بمغامراته الغرامية ، وكأنهم أرادوا أن لا يخلوه فى القسطنطينية من ضرب من ضروب هذه المغامرات الجريئة ، وقد تمادوا فجعلوه يدخل مع القيصر الحمام وقالوا إنه كان ينادمه ، وإن ابنته نظرت إليه فعشقته وواصلته .

والحق أن القصص لعب دوراً واسعاً فى حياة امرئ القيس ، بحيث طُمست معالمها ، سواء قبل مقتل أبيه أو بعده ، ومن ثَمّ ذهب طه حسين إلى أن حياته بتفاصيلها وبما تزعمه من ذهابه إلى قيصر وموته فى رجوعه من عنده إنما هى تمثيل لحياة عبد الرحمن بن الأشعث الكندى الذى ثار على الحجاج وحاول الاستعانة بملك الترك ، وأخفق فى مسعاه[1] . وفيما ذهب إليه طه حسين ضرب من المبالغة والخيال البعيد .

وإذا رجعنا إلى المؤرخين البيزنطيين لم نجد عندهم أى إشارة إلى امرئ القيس ابن حُجْر الكندى وزيارته لبيزنطة وطلبه النصرة منها ضد المنذر بن ماء السماء ، وقد ورد عند «بروكوبيوس» اسم شخص يدعى قيساً اقترن اسمه بغزو الحبشة لليمن سنة ٥٢٤ للميلاد ، ويقال إن القيصر طلب منه أن يقود الجيوش ضد الفرس ، وذكر « نونوسوس » أن جوستنيان كلفه بالسفارة لديه[2] . ومن ثم ظن كوزان دى برسفال أن قيسا المذكور عند هذين المؤرخين هو امرؤ القيس[3] ، وخاصة حين رآه يزور القسطنطينية ، وأكبر الظن أن هذا مجرد تشابه فى الأسماء .

على أن بعض المصادر التاريخية اليونانية ذكرت فى صراحة اسم شخص يدعى امرأ القيس كان من العرب التابعين لملوك الفرس ، وقد جعل يغير على القبائل فى شمالى الحجاز ويبسط سلطانه عليها وقد استطاع أن يستولى على جزيرة يوتابه Iotabe — جزيرة تيران الحالية فى مدخل خليج العقبة — ويطرد منها عمال المكوس من الروم ، وعاد فرأى أن يصانع الروم ، مخافة غزوهم له ، فأرسل إلى بيزنطة أسقف العرب الذين خضعوا لحكمه سنة ٤٧٣ للميلاد ، ليفاوض قيصر فى أن يعينه حاكماً على جنوبى الأردن وساحل خليج العقبة ، ويمنحه لقب فيلارك . ونجح الأسقف فى

---

(١) فى الأدب الجاهلى ص ٢١١ وما بعدها .

(٢) جواد على ٣/٢٦٥ وما بعدها .

(٣) انظر جواد على فى نفس الصفحة .

سفارته ، ودعا القيصر امرأ القيس لزيارة عاصمته ، وبالغ فى إكرامه ، وعاد إلى بلاده[١] .

وواضح ، مما تذكره تلك المصادر اليونانية عن هذا الأمير وأنه كان من العرب التابعين لملوك الفرس ، أنه كان من اللخميين ، ولعل من الطريف أن محمد بن حبيب يذكر فى كتابه « المحبر » أن فيروز ملك الفرس (٤٥٧ — ٤٨٣ م) هو الذى نصب امرأ القيس بن المنذر اللخمى ملكاً ، وإذا رجعنا إلى ملوك الحيرة فى هذا التاريخ لم نجد بينهم من يتسمى بهذا الاسم ، وفى ذلك ما يؤكد ما تذكره المصادر اليونانية من أنه كان ملكاً فى شمالى الحجاز ، وكأنه بدأ كما تقول المصادر اليونانية موالياً للفرس ، ثم استقل عنهم ، وأصفى ولاءه للروم . ومرّ بنا فى أخبار الحارث الكندى أنه استطاع أن يفرض سلطانه على القبائل العدنانية فى الشمال ، ومر بنا أيضاً أنه كان يُغير فى أواخر القرن الخامس على تخوم الروم ، وكان يقود هذه الغارات ابناه حُجر ومعد يكرب . وقد يكون فى ذلك ما يدل على أن الحارث استطاع أن يقضى على امرئ القيس اللخمى فى شمالى الحجاز وسواحل خليج العقبة ، وكأنه قضى على اللخميين فى غربى الجزيرة ، ومر بنا أنه استطاع أن يخضع إمارة الحيرة لسلطانه ؛ فكأنه قضى على دولتهم فى الغرب والشرق ، وإن كان ذلك لم يدم طويلا ، إذ سرعان ما ظهر المنذر بن ماء السماء يمده كسرى أنو شروان بجيوشه ، فقضى على خصمه الكندى ، وعادت الإمارة اللخمية الشرقية ، أما الإمارة الغربية فلم تعد ، فقد دخلت أملاكها فى ملك الغساسنة .

وإنما أطلنا فى بيان ذلك لندل على أن أخبار امرئ القيس بن حجر الكندى اختلطت فى ذاكرة العرب بأخبار امرئ القيس اللخمى[٢] ، ومن هنا كنا نظن ظنًّا أن امرأ القيس الشاعر الكندى لم يزر قيصر بيزنطة ، وكنا ندفع هذه القصة

---

(١) انظر جواد على ٣/٢٦٧ وما بعدها .

(٢) وبسبب من هذا الخلط قال هيار فى ترجمته له بدائرة المعارف الإسلامية : عمل الإمبراطور جستنيان بنصيحة الحارث بن جبلة الغسانى والى بادية الشام فدعا امرأ القيس إلى القسطنطينية حوالى عام ٥٣٠ م ليستعين به على الفرس ومكث هذا الشاعر طويلا بالقسطنطينية ، ثم استعمل على الشام وعلى القبائل التى تعيش هناك على الحدود ومن ثم لقب بلقب فيلارك أى الوالى ولكنه توفى فى أنقرة بين عامى ٥٣٠ و ٥٤٠ فى أثناء رحيله لتولى منصبه.

الطويلة التى نسجت حول مقتله . غير أننا لا نرتاب فى أنه حاول أن يأخذ بثأر أبيه ولكن محاولاته ذهبت أدراج الرياح. ولم يلبث أن مات ، ولا نعرف بالضبط تاريخ موته ، ويغلب أن يكون بين سنتى ٥٣٠ و ٥٤٠ فإن القبائل انتقضت على أبيه وأعمامه منذ سنة ٥٢٨ وهى السنة التى توفِّى فيها أو قُتل جده الحارث .

٣

ديوانه

طُبع ديوان امرئ القيس مراراً ، وكان أول من طبعه دى سلان (De Slane) بباريس سنة ١٨٣٧ وقد أخرجه من مخطوطتين لكتاب « دواوين الشعراء الستة » للشنتمرى ، وهى دواوين امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة بن عَبَدة ، ومعروف أن الشنتمرى يحتفظ فى شرحه لهذه الدواوين برواية الأصمعى ، وبعد أن ينتهى منها فى كل شاعر يضيف إليها بعض الزيادات من روايات أخرى . وقد نشر دى سلان الديوان باسم « نزهة ذوى الكيس وتحفة الأدباء فى قصائد امرئ القيس » وجرَّدَ نشرته من شرح الشنتمرى .

وعُنى المستشرق ألوارد (Ahlwardt) بنشر الدواوين الستة فى سنة ١٨٧٠ ولم يأخذ برواية الشنتمرى فى ديوان امرئ القيس ، فقد نشره من نسخة مروية عن السكرى ، وألحق به غير قصيدة ومقطوعة مما وجده منسوباً إليه فى كتب الأدب والتاريخ. وطُبع الديوان بعد ذلك من صنعة أبى بكر البطليوسى فى مصر والهند وإيران. وأخرجه حسن السندوبى فى نشرة مرتبة على حروف المعجم ساق فيها كل ما وجده منسوباً إليه فى الكتب الأدبية والتاريخية . كما أخرجه مصطفى السقا مع بقية الشعراء الستة معتمداً على رواية الشنتمرى فى مجموعته التى سماها « مختار الشعر الجاهلى ».

وفى سنة ١٩٥٨ نشر محمد أبو الفضل إبراهيم الديوان نشرة علمية جديدة بدار المعارف فى القاهرة ، واعتمد فى نشرته على طائفة من المخطوطات ، استطاع من خلالها أن يوزعه على رواياته . وبدأ برواية الأصمعى نقلا عن نسخة الشنتمرى التى تضم الدواوين الستة كما قدمنا والتى تحتفظ بسند وثيق يصل بين الشنتمرى والأصمعى ، فهى رواية موثقة، وهى تشتمل على ثمان وعشرين قصيدة ومقطوعة

بشرح الشنتمرى ، وأتبعها بتسع عشرة قصيدة ومقطوعة من رواية الطوسى وهى رواية كوفية ، ويلى ذلك زيادات من هذه الرواية نصّ الطوسى على انتحالها ، وتقع فى ٣٢ قصيدة ومقطوعة . ثم زيادات من نُسَخ السكرى وابن النحاس المصرى وأبى سهل عن بعض الكوفيين . وبذلك تبلغ قصائد الديوان ومقطوعاته مائة . وقد ألحق بها أبو الفضل تخريجاً دقيقاً . وإذا أخذنا نبحث فى هذه الروايات لاحظنا توًّا أن أعلاها فى الثقة رواية الشنتمرى عن الأصمعى ، فهى موصولة السند ، وقد تلاها زيادات من روايات كوفية ، وبمجرد النظر فى تخريجها نجد كثيراً منها شك فيه الرواة ، ومعنى ذلك أن هذه الزيادات ليست وثيقة ، ولا يصح الأخذ بمضمونها والاعتماد عليها ، ومثلها الزيادات الأخرى عن السكرى وابن النحاس وأبى سهل.

وإذن فالرواية التى ينبغى أن نناقش الديوان ونفحصه على أساسها هى رواية الأصمعى ، وقبل مناقشتها ينبغى أن نلاحظ الشُّبَه العامة التى تحوم حول شعر امرئ القيس ، ولعل أهمها ما جاء على لسان الأصمعى نفسه إذ رُوى عنه أنه كان يقول : « كل شىء فى أيدينا من شعر امرئ القيس فهو عن حماد الراوية إلا نتفاً سمعناها من الأعراب وأبى عمرو بن العلاء »[١] وحماد فى أشعاره يقابل ابن الكلبى فى أخباره فأكثرها من منحوله . وفى الموشح للمرزبانى : « يقال إن كثيراً من شعر امرئ القيس لصعاليك كانوا معه ، وعن الرياشى يقال إن كثيراً من شعر امرئ القيس ليس له ، وإنما هو لفتيان كانوا يكونون معه مثل عمرو بن قميئة وغيره »[٢] .

ولا بد أن نضيف إلى ذلك قدم عهد امرئ القيس ، فقد بعدت الرواية بينه وبين عصور التدوين ، وقد أديل من قومه ، ولم يعد لهم شأن منذ زوال دولة آبائه . ولا بد أن نضيف أيضاً أنه كان فى العصر الجاهلى كثير من الشعراء الذين تسموا باسم امرئ القيس ، حتى يقال إنهم بلغوا ستة عشر ، وقد تداخل شعرهم فى شعره . وينبغى أن لا ننسى أبداً أن رواية الأصمعى بشهادته غير وثيقة ، لما دخلها من رواية حماد . وأمامنا الرواة الآخرون غير الأصمعى يلاحظون كثرة ما دخل من انتحال فى شعر امرئ القيس حتى لنرى الطوسى يفرد لذلك فصلين فى نسخته ، فصل يذكر فيه القديم المنحول ، وفصل يفرده للمستحدث المصنوع .

---

(١) مراتب النحويين ص٧٢ . (٢) الموشح ص ٣٤ وانظر ابن سلام ص ١٣٤ .

نحن إذن بإزاء شاعر زُيِّفت أخباره وزيف عليه كثير من أشعاره ، ولذلك ينبغي أن نتلقى رواية الأصمعي بغير قليل من الحذر والاحتراس، وأول ما يلقانا فيها معلقته ، وهي بين المعلقات التي يقال إن حماداً أول من رواها ، غير أن روايته لها شُفعت بروايات أخرى لرواة موثقين فقد رواها المفضل الضبي ورواها الأصمعي إلا أنه أنكر منها أربعة أبيات ، وهي التي تبتدئ بقوله :

وقِرْبَة أقوامٍ جعلت عصامَها على كاهل مني ذَلولٍ مُرَحَّلِ[١]

لأنها لا تشاكل شعره ، إنما تشاكل شعر الصعاليك ، ومن ثَمَّ نسبها بعض الرواة إلى تأبط شراً[٢] . وتليها قصيدته (ألا عِمْ صباحاً أيها الطلل البالي) وهي من روح القصيدة السابقة ، ولم يشك فيها الرواة ، فهي وثيقة عند المفضل الضبي والأصمعي وأبي عبيدة، ولذلك كنا نثبتها له . أما القصيدة الثالثة (خليليَّ مُرَّا بي على أم جُنْدب) التي يقال إنه نظمها استجابة لزوجته أم جندب حتى تحكم بينه وبين علقمة الفحل أيهما أشعر فإن القدماء شكوا فيها واتهموها هي وما يطوى فيها من قصة أم جندب[٣] على أن من الرواة من لاحظ أنها اختلطت بقصيدة على وزنها ورويها لعلقمة بن عبدة[٤] ، ولعل هذا هو الذي جعل بعض الرواة يصنع قصة المعارضة وأن أم جندب حكمت بين الشاعرين ، غير ملاحظين أن علقمة كان يعيش في أوائل القرن السابع ، فهو ليس من معاصري امرئ القيس .

والقصيدة الرابعة (سمالك شوق بعد ما كان أقصرا) تصف رحلته إلى قيصر وصفاً مسهباً ، ويكفي ذلك لردها لأن كل ما يتصل بهذه الرحلة مما وضعه ابن الكلبي وأضرابه . وشك الأصمعي نفسه في القصيدة الخامسة (أعنّى على برْق أراه وميضٍ) وقال إنها تنسب في بعض الروايات لأبي دُؤَاد الايادي[٥] . ويمكن أن نقبل القصيدة السادسة (غشيت ديار الحيِّ بالبكرات) وربما كانت مما قاله بعد مقتل أبيه . أما القصيدة السابعة (ألا إن قوماً كنتمُ أمس دونهم) وهي في مديح عُوَيْر بن

---

(١) عصام القربة : الحبل الذي تحمل به ، مرحل : تعود الرحلة .

(٢) انظر ديوان امرئ القيس (طبع دار المعارف) ص ٣٧٢ .

(٣) الموشح ص ٣٠ .

(٤) ديوان امرئ القيس ص ٣٨١ وانظر كتاب الخيل لأبي عبيدة ص ١٣٦ .

(٥) الديوان ص ٧٢ .

شِجْنة التيمى فلم يروها الطوسى بين ما رواه عن المفضل الضبى (١) ، ولذلك كنا ندفعها لأنها لم تثبت فيما يظهر عند المفضل . وشك أبو عبيدة فى القصيدة الثامنة (لمن طللٌ أبصرته فشجانى) وقال إنها محمولة عليه (٢) . والقصيدة التاسعة (قفا نبك من ذكرى حبيب وعرفان) تذكر خشبات كان يُحمَلُ عليها فى مرضه، فهى تتصل بقصة رحلته إلى قيصر ، وهى لذلك لا يمكن الاطمئنان إلى صحتها . والمقطوعة العاشرة (دع عنك نهباً صيح فى حَجَراته) قيلت فى مديح نَبْهَانىٍّ أجاره فى أثناء طوافه فى القبائل ومطاردة المنذر له وربما كانت صحيحة . والقصيدة الحادية عشرة (أرانا موضعين لأمر غيب) جيدة ، وهى مما رواه الأصمعى عن أبى عمرو ابن العلاء (٣) . أما القصيدة الثانية عشرة (أماوىّ هل لى عندكم من معرّس) فقد روى أبو عمرو الشيبانى أنها لبشر بن أبى خازم الأسدى (٤) . والقصيدة الثالثة عشرة (ألما على الرّبع القديم بعسعسا) تشير بعض أبياتها إلى قصة الحلة المسمومة ، ولذلك كنا نرفضها . ويمكن أن نقبل القصيدة الرابعة عشرة التى نظمها فى مديح سعد بن الضباب الإيادى حين أجاره والتى يستهلها بقوله (لعمرك ما قلبى إلى أهله بحُرّ) وهى مما أثبته له الأصمعى وأبو عبيدة والمفضل جميعاً . وكذلك يمكن أن نقبل المقطوعة الخامسة عشرة (لمن الديار غشيتها بسُحام) وهى فى عتاب سُبَيع بن عوف ومما قاله بعد مقتل أبيه .

أما المقطوعة السادسة عشرة(يا دار ماويّة بالحائل)فقد أنكرها الطوسى وقال عن أحمد بن حاتم إنه لم يجد أحداً من الرواة يعرفها (٥) . ولا ريب فى أن المقطوعة السابعة عشرة (رب رام من بنى ثُعَلٍ) محمولة عليه، لأنها تصف عمرو بن المسبح الطائى ورميه للصيد، وكان من أرمى العرب له ، وزمنه متأخر عن زمن امرئ القيس ، إذ وفد على الرسول صلى الله عليه وسلم فيمن وفد عليه من العرب (٦) . والمقطوعة الثامنة عشرة (يا هند لا تَنْكحى بوهة) أنكر الآمدى نسبتها إليه ، وقال إنها لامرئ القيس بن مالك الحميرى (٧) . أما المقطوعة التاسعة عشرة (ألا قبح الله البراجم كلها) التى نظمها فى

(١) الديوان ص ٣٩٧ .
(٢) الديوان ص ٣٩٨ .
(٣) الديوان ص ٤٠٢ .
(٤) الديوان ص ٤٠٤ .
(٥) الديوان ص ٤١١ .
(٦) الاشتقاق لابن دريد (طبعة جوتنجن) ٢/ ٢٣٢ .
(٧) معجم الشعراء ص ١٢ وانظر الديوان ص ٤١٣

هجاء قبائل من تميم حين خذلت عمه شرحبيل فى يوم الكلاب فقد كان ابن الأعرابى لايعرفها[1]. وأما المقطوعة رقم ٢٠ (إن بنى عوف ابتنوا حَسَباً) التى قالها فى مديح عُوَيْر بن شِجْنة فيمكن أن تكون صحيحة . وأما المقطوعة رقم ٢١ (والله لا يذهب شيخى باطلا) فأغلب الظن أنها منتحلة لأنهم يروون أنه قالها حين بلغه مقتل أبيه ومرَّ بنا فى رواية الهيثم بن عدى أنه كان حاضراً مقتله . وقد أنكر الأصمعى المقطوعة رقم ٢٢ (ألا إلا تكن إبلٌ فمعزى)[2]. ويمكن أن تكون المقطوعة رقم ٢٣ (ألا يا لهف هند إثر قوم) التى يقال إنه نظمها حين أخطأ بنى أسد وأوقع ببنى كنانة صحيحة ، ومثلها المقطوعة رقم ٢٤ التى يمدح فيها المعلّى الطائى والمقطوعة الخامسة والعشرون وأختها السادسة والعشرون ، وهما مما نظمه فى أثناء مطاردة المنذر له . أما المقطوعة السابعة والعشرون (ديمة هَطْلاء فيها وَطف) فمما رواه الأصمعى عن أبى عمرو ابن العلاء عن ذى الرمة[3] ، وهى لذلك من شعره الوثيق ، أما الثامنة والعشرون التى تدور على إجازة الشطور بينه وبين التوءم اليشكرى ، بحيث يقول امرؤ القيس شطراً ويتم البيت التوءم فأغلب الظن أنها من صنع الرواة ، ولعل اتهامها هو الذى جعل الطوسى لا يرويها بين ما أسند روايته إلى الراوى الثبت المفضل الضبى .

وإذن لا يبقى صحيحاً من رواية الأصمعى سوى القصيدتين الأوليين ، وهما مطولتان ، ومثلهما فى الصحة والثقة القصيدة الحادية عشرة والمقطوعة السابعة والعشرون لأنهما رُويتا عن أبى عمرو بن العلاء ، وتظل بعد ذلك المقطوعات أرقام ٦ ، ١٠ ، ١٤ ، ١٥ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ قابلة لأن تكون صحيحة . على أن كثرتها الكثيرة نُظمت — إن صحت — بعد مقتل أبيه ، يتعرض فيها لمن أجاروه ومن ردوه ، وقد رُويت طائفة منها على لسان ابن الكلبى فى أثناء حديثه الذى رواه له صاحب الأغانى عن طلب امرئ القيس لبنى أسد واستعدائه القبائلَ عليهم ، ولذلك قلنا إنها يمكن أن تكون صحيحة . وكأنما الثابت الصحيح له إنما هو المعلقة أو القصيدة الأولى فى ديوانه ، وتاليتها ، ثم ما أنشده له أبو عمرو بن العلاء ، أو بعبارة أخرى القصيدة الحادية عشرة والمقطوعة السابعة والعشرون .

---

(١) الديوان ص ٤١٤ .

(٢) الديوان ص ١٣٧ .

(٣) الديوان ص ١٤٤ .

٤

شعره

حاول طه حسين أن يردّ شعر امرئ القيس جميعه ، لأنه يمنى من كندة وشعره قرشيّ اللغة ، وقد مرّ بنا فى غير هذا الموضع أن كندة إن كانت يمنية الجنس فقد كانت عدنانية اللغة ، كما مر بنا أن لغة قريش هى التى سادت وذاعت منذ أوائل العصر الجاهلى على لسان جميع الشعراء الشماليين سواء منهم من ينتسب إلى القبائل العدنانية ومن ينتسب إلى القبائل اليمنية ، وقد أسلفنا أن أشعاره وأخباره دخلها وضعٌ كثير . غير أن هذا كله لا ينتهى بنا إلى إنكار شعره جملة ، وقد رأينا أننا لم نُبْقِ منه إلا على قلة قليلة .

ولعل أول ما يلاحظ على هذه الأشعار القليلة أنها تنقسم قسمين واضحين : قسما نظمه قبل مقتل أبيه وقسما نظمه بعد مقتله . أما القسم الأول فلا يعدو المعلقة ، والمطولة الثانية فى ديوانه (ألا عِمْ صباحاً أيها الطلل البالى) وهما جميعاً مما رواه الأصمعى والمفضل الضبى وأبو عبيدة كما يتبين من تخريجهما فى طبعة الديوان بدار المعارف . وإذا رجعنا إلى المعلقة وجدنا فيها جزءاً خاصًّا بوصف البرق والمطر والسيول ، ونجد نفس الموضوع فى القطعة السابعة والعشرين التى رواها أبو عمرو بن العلاء عن ذى الرمة . ولعل فى ذلك ما يؤكد صحة هذا الجزء على الأقل . ونحن نعرف أن امرأ القيس شبّ فى ديار بنى أسد بالقرب من تيماء[1] ، وأن عبيد بن الأبرص كان يعاصره ، وقد اشتهر بين الرواة بوصفه للمطر وإحسانه فيه[2] . واجتماعهما على هذا الوصف دليل بيِّن على صحة ما ينسب إلى امرئ القيس منه .

ومعنى ذلك أن المعلقة تحمل بين ثناياها ما يؤكد نسبتها إلى امرئ القيس ، وهو يستهلها بقوله :

قفا نَبْكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ بِسِقْطِ اللِّوَى بين الدخول فحَوْمَلِ[3]

(١) لعل من أكبر الدلالة على ذلك الأمكنة التى يذكرها فى معلقته فجميعها من منازل بنى أسد .

(٢) ابن سلام ص ٧٦ .

(٣) السقط : منقطع الرمل ، واللوى حيث يلتوى ويرق . وإنما خص منقطع الرمل وملتواه لأنهم كانوا لاينزلون إلا فى صلابة من الأرض ، والدخول وحومل : موضعان .

وقد عدّ القدماء هذا المطلع من مبتكراته ، إذ وقف واستوقف وبكى وأبكى من معه وذكر الحبيبَ والمنزل ، ثم أخذ يصور لنا كيف كان أصحابه يحاولون أن ينفّسوا عنه ، وهو غارق فى ذكرياته وبكائه وإرسال دموعه وزفراته وانتقل انتقالا سريعاً يقصُّ علينا مغامراته مع النساء ، وكأنه يريد أن يستثير صاحبته فاطمة وأن يزرع الغيرة فى قلبها ، فهو يذكر لها بعض صواحبه اللائى أبكينه وبرّح به حبهن مثل أم الحُوَيْرث وأم الرَّباب ، ثم يفيض فى وصف يوم عُنَيْزة مصوراً كيف كان ينال منها وكيف كانت تدلُّ عليه أحياناً ، وفى أثناء ذلك يتعهر ولا يتستّر ، فيقول لعنيزة بيته المشهور :

فمثلكِ حُبْلَى قد طرقتُ ومُـرْضِعاً ... فألْهَيْتها عن ذى تمائمَ مُغْيَلِ [١]

ثم يعود فيبثُّ فاطمة حبه مصوراً دلالها ، ومعاتباً لها عتاباً رقيقاً ، فى ثلاث الأبيات البديعة :

أفاطمَ مهلا بعضَ هذا التدلُّلِ ... وإن كنتِ قد أزمعتِ صَرْمى فأجْملى [٢]

وإن كنتِ قد ساءَتْك منى خليقةٌ ... فسُلِّى ثيابى من ثيابكِ تَنْسُلِ [٣]

أغرَّكِ منى أن حبـك قاتلى ... وأنك مهما تأمُرى القلبَ يَفْعَلِ

وما ذرفَتْ عيناك إلا لتَقْدَحِى ... بِسَهْمَيْكِ فى أعْشارِ قلبٍ مُقَتَّلِ [٤]

وما يلبث أن يرجع إلى استثارة فاطمة بمغامرة جريئة له مع مَنْ كنى عنها ببيضة خِدْرٍ لا يرام خباؤها ، مصوراً كيف اقتحم إليها الأهوال والأحراس وكيف انتحى

---

(١) التمائم : جمع تميمة وهى العوذة تعلق على الصبى ، المغيل : المرضع .

(٢) بعض هذا التدلل : أى كفى عن بعضه ، وأزمعت : عزمت ، وأجملى : من التجمل وهو ترك ما يقبح .

(٣) سلى ثيابى من ثيابك : انزعى أمرى من أمرك ، وتنسل : تسقط .

(٤) ذرفت العين : سال دمعها ، الأعشار : القطع ، يقول : ما بكيت إلا لتجرحى قلباً مكسراً .

بها ناحية من الحى يتبادلان فيها الصبابة والغرام ، يقول :

وبَيْضةِ خِدْرٍ لا يُرَامُ خِباؤُها ... تمتَّعْتُ من لَهْوٍ بها غيرَ مُعْجَلِ (١)

تجاوزتُ أَحراساً وأهوالَ مَعْشَرٍ ... علىَّ حِراصٍ لو يُشِرُّون مَقْتَلِي (٢)

إذا ما الثُّرَيَّا فى السماء تعرَّضَتْ ... تعرُّضَ أثناءِ الوشاحِ المفصَّلِ (٣)

فجئتُ وقد نَضَتْ لنومٍ ثيابها ... لَدى السِّتْرِ إلا لِبْسَةَ المُتَفَضِّلِ (٤)

فقالتْ يمينُ الله مالكَ حِيلَةٌ ... وما إنْ أرى عنكَ العَمايةَ تَنْجَلى (٥)

خرجتُ بها تمشى تجرُّ وراءنا ... على أَثَرَيْنَا ذَيْلَ مِرْطٍ مُرَحَّلِ (٦)

فلما أَجزْنا ساحةَ الحيِّ وانتحى ... بنابَطْنُ حِقْفٍ ذِى رُكامٍ عَقَنْقَلِ (٧)

إذا التفتتْ نحوى تضوَّعَ ريحُها ... نسيمَ الصَّباجاءتْ برَيَّا القَرَنْفُلِ (٨)

إذا قلتُ هاتِى نَوِّلِينى تمايلتْ ... علىَّ هَضِيمَ الكَشْحِ رَيَّا المُخَلْخَلِ (٩)

فهو يذكر خِدْرَها وأحراسها ومنعتها، وكيف وصل إليها وقد استعدَّت للنوم وما كان بينه وبينها من حوار، وكيف أطاعته وخرجت معه من الحى إلى مكان بعيد لا تراهما فيه العيون ، وكيف كانت تعفِّى آثار أقدامهما بأذيال ثوبها الموشى ، واسترسل يصف محاسنها ومفاتن جسدها وأطرافها ، مصوراً كيف تستصبى الرجال وتعبث بقلوبهم .

---

(١) شبه صاحبته بالبيضة لبياضها ورقتها .

(٢) يشرون : يظهرون .

(٣) يقول : تجاوزت هذه الأحراس حين مالت الثريا المغيب فأرتك جانباً منها على نحو ما ترى من جانب الوشاح حين يتلقاك بناحية منه ، والمفصل : الذى جُعل بين كل خرزتين فيه لؤلؤة .

(٤) نضت : نزعت . اللبسة : هيئة اللباس . المتفضل : اللابس ثوباً واحداً .

(٥) العماية : الغواية والجهالة .

(٦) المرط : إزار من خز ، المرحل : الموشى .

(٧) أجزنا : قطعنا ، والساحة : الفناء . والحقف : المعوج من الرمل ، وركام : بعضه فوق بعض ، وعقنقل : منعقد متداخل . والواو فى وانتحى زائدة لأنها جواب لما .

(٨) تضوع : انتشر . الريا : الرائحة .

(٩) هضيم : ضامر ، الكشح : الخاصرة، وريا المخلخل : أى أن موضع الخلخال من ساقيها ممتلىء .

ومن يقرأ هذه المغامرات القصصية عند امرئ القيس تفد على ذهنه توًّا مغامرات ابن أبي ربيعة فى غزله ، لا من حيث حواره مع النساء وحكايته لأحاديثهن وكلامهن فحسب ، بل أيضاً من حيث وصف الدبيب إليهن فى الليل ومنعة أحراسهن على نحو ما تصور ذلك رائيته المشهورة :

أَمِنْ آل نُعْمٍ أنتَ غادٍ فَمُبْكِرُ   غداةَ غَدٍ أم رائحٌ فَمُهجِّرُ

وقد لاحظ طه حسين هذا التشابه فى غزل الشاعرين ، فأنكر ما ينسب إلى امرئ القيس من هذا الغزل القصصى الصريح وقال إنه انتُحل انتحالا ، انتحله بعض القصاص على غرار ما وجدوا منه عند ابن أبي ربيعة(١) . وليس هناك ما يمنع أن يكون ابن أبي ربيعة قد عرف غزل امرئ القيس وتأثر به كما تقضى طبيعة التأثر إذ يتأثر اللاحق بالسابق ، ومن التحكم أن نرفض ذلك ، ولعل خيراً من هذا الرفض أن نقارن بين صنيعي الشاعرين فى وصف مثل هذه المغامرات وننفذ إلى ما بينهما من فروق ، فكلاهما حقًّا يتحدث عن زيارته لصواحبه وما يتجشم فيها من أهوال ، وما يكون بينه وبينهن من لهو ، غير أننا نلاحظ عند عمر كما تصور ذلك رائيته تفنناً فى رقة النجوى وفى كلف صواحبه به ، بينما يمضى امرؤ القيس فى وصف مغامراته مع النساء وصفاً حسيًّا حتى ليتحول فى بعض جوانبه إلى صورة من التهتك الخلقى الفاحش ، على نحو ما أشرنا إلى ذلك فى حديثنا عن قضية الانتحال .

وكل ما يمكن أن يقال أن هذا المنحى من القصص الغرامى منحى قديم بدأه امرؤ القيس ونمّاه من بعده الأعشى(٢) ، ثم كان العصر الأموى فتعلق به عمر بن أبي ربيعة وأضرابه . ولعل من الطريف أنه لا يتضح عند امرئ القيس فى المعلقة وحدها ، فمثلها المطولة (ألا عِمْ صباحاً أيها الطَّلَلُ البالى) فإنها تذهب نفس المذهب الذى رأيناه فى المعلقة ، وهو يفتتحها بالوقوف على أطلال سلمى ، ثم يفيض فى وصف مغامراته وعبثه الفاجر مع بعض النساء بالضبط على نحو ما رأينا فى المعلقة ، يقول :

(١) فى الأدب الجاهلى ص ٢٢١ .

(٢) ابن سلام ص ٣٥ .

سموتُ إليها بعد ما نام أهلُها ... سموَّ حَبابِ الماء حالا على حالِ (١)
فقالتْ : سَباكَ اللهُ إنكَ فاضحي ... ألستَ ترى السُّمَّار والناسَ أحوالي (٢)
فقلتُ : يمينَ اللهِ أبرحُ قاعدًا ... ولو قطَّعوا رأسي لديكِ وأوصالي
فلما تنازعْنـا الحديثَ وأسمحتْ ... هَصرتُ بُغصْنٍ ذي شماريخَ ميَّالِ (٣)
وصِرْنا إلى الحُسْنَى ورقَّ كلامُنـا ... ورُضْت فذَلَّتْ صعبةً أيَّ إذلالِ (٤)
فأصبحتُ معشوقاً وأصبح بَعْلُها ... عليه القتامُ سَيِّئَ الظنِّ والبالِ (٥)
يَغِطُّ غطيطَ البَكْرِ شُدَّ خِناقُهُ ... ليقتلني والمرءُ ليس بقتَّالِ (٦)
أيقتلني والمَشْرَفِيُّ مُضـاجعي ... ومسنونةٌ زرْقٌ كأنْياب أغْوالِ (٧)

وكأن امرأ القيس هو الذى سبق إلى هذا الغزل الفاحش الصريح ، وتبعه الشعراء من بعده وإن لم يبلغوا مبلغه من الفحش والصراحة وقد تبعوه فى تشبيبه الذى يودعه مقدمات قصائده وما يطوى فيه من بكاء ولوعة .

ورجع فى معلقته بعد حديثه عن بَيْضة الخِدر يصف لصاحبته شقاءه بحبها وأنه لا يستمع فيه إلى نصيحة ناصح ، ولا إلى عذل عاذل ، ويصور كيف يقتحم إليها الليل المخوف ، ويسترسل فى وصفه فيقول :

وليلٍ كموج البحر أرْخَى سُدولَهُ ... علىَّ بأنواع الهموم ليَبْتَلِي (٨)
فقلت له لـما تمطَّى بصُلْبِهِ ... وأردفَ أعجازًا وناء بكلْكَلِ (٩)

---

(١) سموت إليها : يريد نهضت إليها شيئاً فشيئاً لئلا يشعر أحد بمكانى فكنت مثل حباب الماء يعلو بعضه بعضا فى رفق ومهل .

(٢) سباك : باعدك وأذهب عقلك .

(٣) تنازعنا : تبادلنا ، وأسمحت : انقادت وسهلت . وهصرت : جذبت : وأراد بالغصن قامتها وبالشماريخ شعرها شبهه بشماريخ النخل لكثرته وغزارته .

(٤) رضت : أذللت ، وذلت : لانت .

(٥) القتام : الغبار يريد أن بعلها ساءه ما رآه من ميلها إليه فأصبح كأنه مغبر كاسف الحال .

(٦) يغط : يردد صوتاً كصوت البكر وهو الشاب من الإبل يشد حبل فى خناقه ، فيسمع له غطيط ، كأنه يريد أن يقول إنه يردد صوتاً كصوت البعير المختنق .

(٧) المشرفى : السيف ، والمسنونة الزرق : السهام .

(٨) السدول : الستور .

(٩) تمطى : امتد . بصلبه : بظهره . وفى رواية بجوزه والجوز : الوسط . والكلكل : الصدر ، وناء : نهض .

أَلا أَيُّها الليلُ الطويلُ أَلا انْجَلِي بِصُبْحٍ وماالإصباحُ فيكَ بأَمْثَلِ [١]
فيالكَ من ليلٍ كأَنَّ نجومه بكلِّ مُغارِ الفَتْلِ شُدَّتْ بِيَذْبُلِ [٢]
كأَنَّ الثُّرَيَّا عُلِّقَتْ فى مَصَامِها بأَمْرَاسِ كَتَّانٍ إِلى صُمِّ جَنْدَلِ [٣]

فهو يتصور الليل بسواده وهمومه كأنه أمواج لا تنتهى ، ويحس كأنه طال وأسرف فى الطول حتى ليظن كأن نجومه شُدَّت بأسباب وأمراس من الجنادل والجبال فهى لا تتحرك ولا تزول ، كأنما سُمِّرتْ فى مكانها ، فهى لا تجرى ولا تسير ، وقد ردَّد الشعراء بعده هذا المعنى طويلا . ونراه يخرج منه إلى وصف فرسه وصيده ولذاته فيه ، وكأنه يريد أن يضع بين يدى صاحبته فروسيته وشجاعته ومهارته فى ركوب الخيل واصطياد الوحش ، يقول :

وقد أَغْتَدِى والطيرُ فى وُكُناتِها بمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الأَوابِدِ هَيْكَلِ [٤]
مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ معاً كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ من عَلِ [٥]
كُمَيْتٍ يَزِلُّ اللِّبْدُ عن حال مَتْنِهِ كما زَلَّتِ الصَّفْوَاءُ بالمتنَزَّلِ [٦]
مِسَحٍّ إذا ما السابحاتُ على الوَنَى أَثَرْنَ غُباراً بالكَدِيدِ المُرَكَّلِ [٧]

(١) انجلى : انكشف . وما الإصباح بأمثل : يريد أنه مهموم فى الليل وفى الصبح .
(٢) مغار : شديد . يذبل : جبل .
(٣) المصام : مكانها الذى لا تبرحه ، والأمراس : جمع مرس وهو الحبل . والجندل : الحجارة الكبيرة ، والصم : جمع أصم وهو الصلب الشديد .
(٤) الوكنات : المواضع التى تأوى إليها الطير ليلا ، والمنجرد : الفرس قصير الشعر ، الأوابد : الوحش ، هيكل : ضخم .
(٥) الجلمود : الصخرة الصلبة ، حطه : أسقطه .
(٦) الكميت : الفرس الأحمر فى سواد . يزل : يسقط ، حال المتن : موضعه من وسط الظهر ، الصفواء : الصخرة الملساء ، المتنزل : النازل عليها .
(٧) مسح : عداء يصب الجرى صبا ، السابحات : الخيل المسرعة . الونى : الضعف والفتور . الكديد : ما غلظ من الأرض ، المركل : الذى ركلته الخيل بحوافرها . يريد أن حوافره لا تكاد تمس الأرض ، وهى لذلك لا تثير بها غباراً كما تصنع السابحات .

على العَقْبِ جَيَّاشٍ كأَن اهتزامَهُ ... إذَا جَاشَ فيه حَمْيُهُ غَلْىُ مِرْجَلِ(١)
يُطِيرُ الغُلامَ الخِفَّ عن صهواتِه ... ويُلْوِى بأَثواب العنيفِ المُثَقَّلِ(٢)
دَريرٍ كخُذْروفِ الوليد أَمرَّه ... تقلُّبُ كَفَّيْهِ بخيطٍ مُوَصَّلِ(٣)
له أَيطلا ظَبْيٍ وساقا نعـامةٍ ... وإرْخاءُ سِرْحانٍ وتقريبُ تَتْفُلِ(٤)
كأَنَّ على الكِتْفَيْنِ منه إذا انْتَحَى ... مَدَاكَ عَروسٍ أو صَرَايةَ حَنْظَلِ(٥)

وهو وصف رائع لفرسه الأشقر ، فقد صور سرعته تصويراً بديعاً ، وبدأ فجعله قيداً لأوابد الوحش إذا انطلقت فى الصحراء فإنها لا تستطيع إفلاتاً منه كأنه قيد يأخذ بأرجلها . وهو لشدة حركته وسرعته يخيل إليك كأنه يفر ويكرّ فى الوقت نفسه وكأنه يقبل ويدبر فى آن واحد ، وكأنه جلمود صخر يهوى به السيل من ذروة جبل عال ، وإن لبْده لشدة حركته ليسقط عنه وينزلق كما تنزلق الصخرة من منحدر بعيد . وهو يصبُّ الجرى صبًّا، ويسبق كل الخيل سبقاً ، لا يثير غباراً ولا نقعاً ، إنما هو أن يحركه راكبه فإذا به يغلى غليان القدر لا ينى ولا يفتر ، وإذا راكبه لا يستطيع الثبات عليه ، وما أشبهه فى سرعة انطلاقه بلعبة الخذروف الدوارة التى يلعب بها الصبيان ، إذ يَصلونها بخيط ويسرعون فى إمرارها إسراعاً . وهو فرس ضامر كأنه ظبى نافر ، فله خاصرتاه النحيلتان ، بل لكأنه نعامة خفيفة فله ساقاها الضئيلتان الصلبتان ، وهو يهوى فى الأرض كأنه الذئب الفزع ، ويقفز كأنه الثعلب الخائف ، وإذا اعترضك خُيِّل إليك للمعانه وبريقه أنك تنظر إلى مَداك عروس أو صَراية حنظل . واستطرد امرؤ القيس يتحدث عن صيده ، فوصف سرباً من بقر الوحش عنّ لهم فى الصحراء مصوراً كيف قيّده فرسه ، فإذا هو يلحق بأوائله

(١) العقب : جرى بعد جرى ، اهتزامه : صوت جوفه عند الجرى ، الحمى : الغلى ، المرجل : القدر .

(٢) يطير : يسقط ، الخف : الخفيف ، والصهوات : موضع اللبد من ظهره ، ويلوى بأثواب العنيف : يذهب بها . العنيف : الأخرق ، المثقل : الذى لا يحسن الركوب .

(٣) درير : سريع ، خيط موصل : وصلت أجزاؤه ، أمره : أمضاه .

(٤) السرحان : الذئب ، التتفل : الثعلب والإرخاء : العدو ، التقريب : القفز .

(٥) مداك العروس : حجر تسحق عليه طيبها فيبرق، شبه به الفرس فى بريقه . الصراية : حنظلة صفراء براقة .

تاركاً وراءه ما تخلف منه . فصادوا ما ابتغوا ، وأخذ الطهاة يعدون لهم طعامهم بين مشوى ومطبوخ . وانتقل من ذلك إلى وصف الأمطار والسيول التى ألمت بمنازل قومه بنى أسد بالقرب من تيماء فى شمالى الحجاز ، يقول :

أحارِ ترَى بَرْقاً كأنَّ وميضَه ... كَلَمْعِ اليدين فى حَبِىٍّ مُكَلَّلِ (١)
يضِىءُ سَناهُ أو مصابيحُ راهبٍ ... أهانَ السَّليطَ فى الذُّبالِ المفتَّلِ (٢)
قعدتُ له وصحبتى بين حامرٍ ... وبين إكام بُعْدَ ما مُتَأَمَّلِ (٣)
وأضحى يَسُحُّ الماءَ عن كل فِيقةٍ ... يكبُّ على الأذقان دَوْحَ الكَنَهْبَلِ (٤)
وتَيْماءَ لم يترك بها جِذْعَ نَخْلَةٍ ... ولا أُطُماً إلا مَشِيدا بجَنْدَلِ (٥)
كأن طَمِيَّةَ المُجَيْمِرِ غُدْوَةً ... من السَّيْلِ والغُثَّاء فَلْكَةُ مِغْزَلِ (٦)
كأن أَباناً فى أفانين وَدْقِهِ ... كبيرُ أُناسٍ فى بِجادٍ مُزَمَّلِ (٧)
وألقى بصحراء الغَبيط بَعاعَهُ ... نُزُولَ اليمانى ذى العِياب المخوَّلِ (٨)
كأن سِباعا فيه غَرْقَى غُدَيَّةً ... بأَرْجائه القصوى أنابيشُ عُنْصلِ (٩)

---

(١) حار : ترخيم حارث يعنى يا حارث ، وميض البرق : لمعانه . الحبى من السحاب : المتراكم ، وكذلك المكلل ، وقيل الحبى : الدانى من الأرض .

(٢) السنا : الضوء ، السليط : الزيت ، الذبال : الفتائل ، وأهانه هنا : أكثر منه ، ويروى أمال بمعنى رعى ، وهى أجود .

(٣) حامر وإكام : موضعان ، بعد ما متأمل : تأملته من مكان بعيد .

(٤) الفيقة : ما بين الحلبتين : يريد أنه يسح ثم يسكن ثم يسح . وعن : معناها هنا بعد ، يكب على الأذقان : يسقط ويلقى على الوجه ، الكنهبل : ماعظم من شجر العضاه ، والدوح : جمع دوحة وهى الشجرة كثيرة الورق والأغصان .

(٥) الأطم : البيت .

(٦) طمية : جبل ، المجيمر : أرض لبنى فزارة ، الغثاء : ما يحمله السيل من فتات الأشجار . وفلكة المغزل : ما استدار فوق رأسه .

(٧) أبان : جبل ، أفانين : ضروب . الودق : المطر ، البجاد : كساء مخطط ، ومزمل : صفة لكبير أناس أى أنه متدثر بثيابه ملتف بها .

(٨) الغبيط : موضع ، البعاع : الثقل ، العياب : الحقائب ، المخول : كثير المتاع والغلمان الذين يصحبونه .

(٩) غدية : حين يصبح الناس ، وأنابيش العنصل : جذور البصل البرى .

على قَطَنٍ بالشَّيْم أيمنُ صَوْبِهِ وأَيْسَرُهُ على السِّتار فيَذْبُلِ[١]
أَلْقَى بِبُسْيانٍ مع الليل بَرْكَهُ فأنزل منه العُصْمَ من كل منزلِ[٢]

وقد استهل القطعة بوصف وميض البرق وتألقه فى سحاب متراكم ، وشبّه هذا التألق واللمعان بحركة اليدين إذا أشير بهما أو كأنه مصابيح راهب يتوهج ضوؤها بما يمدها من زيت كثير . ويصف كيف جلس هو وأصحابه يتأملونه بين حامر وإكام ، والسحاب يسحّ سحاً ، حتى لتقتلع سيوله كل ما فى طريقها من أشجار العِضاه العظيمة . وتلك تيماء لم تترك بها نخلا ولا بيتاً، إلا ما شيّد بالصخر ، فقد اجتثت كل ما مرت به وأتت عليه من قواعده وأصوله . وهذا طمية جبل المجيمر التفت به السيول وما تحمل من غثاء ، حتى لكأنه فلكة مغزل . وذاك أبان بما غطاه من هذا السيل والغثاء يشبه شيخاً ملتفاً فى كساء مخطط . وقد ألقى بصحراء الغبيط ثِقْله فنشّر به من النباتات والأزهار ما يشبه ضروب الثياب الزاهية الألوان التى ينشرها التاجر اليمانى حين يعرضها للشراء . وما زالت السيول تفيض حتى علت آجام السباع فغرقت فى لججها وتراءت رءوسها للعين كأنها جذور البصل البرى . وقد تراكم السحاب وملأ أقطار السماء حتى ليظن مبصره أن أيمنه على قطن جبل بنى أسد وأيسره على الستار ويذبل مما يلى بلاد البحرين ، وعمّ المطر جبل بسيان حتى أنزل منه الأوعال التى كانت مستقرة به .

ولامرئ القيس مقطوعة فى الغيث والسيل تلتقى فى كثير من معانيها وصورها بهذه القطعة ، وهى ذات الرقم ٢٧ فى ديوانه ، وقد مر بنا أن أبا عمرو بن العلاء رواها عن ذى الرمة ، وهى تمضى على هذا النحو :

دِيمَةٌ هَطْلَاءُ فيهـا وَطَفٌ طَبَقُ الأَرض تَحَرَّى وتَدُرّْ[٣]

(١) قطن : اسم جبل فى ديار بنى أسد ، الشيم : النظر إلى البرق والمطر. الستار و يذبل: جبلان .

(٢) بسيان : جبل ، والبرك : الصدر ، العصم : الأوعال .

(٣) الديمة : المطر الدائم ، هطلاء : كثيرة الهطل ، والوطف : الدنو من الأرض . طبق الأرض : تطبقها وتعمها لكثرة مطرها .تحرى : تعمد إلى الأمكنة وتثبت فيها . وتدر : يكثر ماؤها وترسل درّها .

تخْرِجُ الوَدَّ إذا ما أشْجَذَتْ ... وتُواريه إذا مــا تَشْتَكِرْ (١)

وتَرَى الضَّبَّ خفيفاً ماهرا ... ثانيــا بُرْثُنَهُ ما يَنْعَفِــرْ (٢)

وترى الشَّجْرَاء فى رَيِّقِهِ ... كرءوسٍ قُطِّعتْ فيها الخُمُرْ (٣)

ســاعةً ثم انتحاها وابِلٌ ... ساقِطُ الأكناف واهٍ مُنْهَمِرْ (٤)

راحَ تَمْرِيه الصَّبا ثم انْتَحَى ... فيه شُؤْبوبُ جنوبٍ مُنْفَجِرْ (٥)

ثَجَّ حتى ضــاق عن آذِيِّهِ ... عَرْضُ خَيْمٍ فجُفافٍ فَيُسُرْ (٦)

قــد غدا يحملنى فى أنْفِهِ ... لاحقُ الإطْلَــيْنِ محبوكٌ مُمَرّ (٧)

وهو يصور فى هذه المقطوعة منظراً يماثل المنظر السابق ، فالمطر ينهمر حتى يعم الأرض من حوله ، وهو يدرُّ لها ويدنو منها بأهدابه، وحيناً يُقلع فتبدو الأوتاد من الأرض ولا يلبث أن يعود وتكثر سيوله فتتوارى عن الأنظار . وتُتْرَعُ القيعان فيخرج الضبُّ من جحره يعدو عدواً سريعاً لما يرى من كثرة المطر . وما تزال السيول تتدفق حتى تغمر الأشجار بل حتى لا يبدو منها إلا أعاليها ، فتتراءى كأنها رءوس معممة قطعت فى ساحة حرب عنيفة . وظل المطر على هذا الانصباب الشديد فترة لم تنكشف بعدها السماء ، فقد ألقت السحب بوَبْلها وأثقالها تستدرُّها ريح الصبا الشمالية . ولم تلبث ريح الجنوب أن هبّت فانهمرت الأمطار وعلت السيول حتى ضاقت بها خَيْم

---

(١) الود : الوتد ، أشجذت : أقلعت وسكنت . تشتكر : تحتفل ويكثر مطرها . وقيل الود اسم جبل .

(٢) خفيفاً ماهراً : يريد مسرعاً فى عدوه . وبرثن الضب :كالإصبع للإنسان . ومايتعفر : لايصيبه العفر والتراب ، يقصد أنه لا يلصق بالتراب لخفة عدوه .

(٣) الشجراء : الأرض ذات الشجر الكثير، ريق المطر : أوله ، يريد أن المطر يغمر الأشجار فلا يبدو منها إلا أعاليها ، فتتراءى كأنها رءوس قطعت وفيها الخمر وفيها العمائم .

(٤) انتحاها: قصدها . وابل : مطر غزير ، ساقط الأكناف : دان من نواحى الأرض . واه: متخرق ، منهمر : منسكب .

(٥) راح : عاد بالمطر فى آخر النهار . تمريه : تحركه وتديره . الشؤبوب : دفعة المطر ، والجنوب: ريح . منفجر: سائل .

(٦) ثج : سال . الآذى : الموج . وخيم وجفاف ويسر : مواضع .

(٧) يحملنى فى أنفه : يريد فى أنف المطر أى أوله . لاحق الإطلين : فرس ضامر الكشحين ، محبوك: موثق الخلق ومثله ممر ،وأصله من الحبل الممر، وهو المحكم الفتل .

وجُفاف ويُسر .

وأكبر الظن أنه قد اتضحت الآن الموضوعات الأساسية التى كان ينظم فيها امرؤ القيس شعره قبل مقتل أبيه ، وهى التشبيب ، والغزل القصصى الصريح ، ووصف الطبيعة المتحركة بما فيها من خيل ووحش والطبيعة الصامتة بما فيها من أمطار وسيول . فتلك هى الموضوعات التى تستغرق أشعاره الأولى . وتجمعها المعلقة جميعاً ، بينما تقف المطولة الثانية (ألا عم صباحاً أيها الطلل البالى) عند التشبيب والقصص المادى، ووصف الوحش والفرس ،وهو فى أثناء وصفهما يعرض لصيده وما يجده فيه من لذة ومتاع ولهو .

وكُتب لامرئ القيس أن لا تجرى حياته على هذه الوتيرة من الفراغ الذى يعد لاقتناص اللذات فى اتباع المرأة واللهو بها والمتعة بركوب الخيل والصيد عليها وتملّى مناظر الطبيعة ، فقد قُتل أبوه ، وانقلبت حياته من حياة لاهية إلى حياة جادة ومحاولة عاثرة فى الأخذ بثأر أبيه ورَجْع سلطان كندة على بنى أسد ، وكأنه كان يحس ما ينتظره حين قال فى مطولته (ألا عم صباحاً أيها الطلل البالى) :

كأنِّىَ لم أركبْ جَوادا للذّةٍ ... ولم أتبطَّن كاعبا ذاتَ خَلْخال

ولم أَسْبَأِ الزِّقَّ الرَّوِىَّ ولم أقل ... لخيلىَ كُرِّى كَرَّةً بعد إجفالِ[١]

ولعله نظم هذه القصيدة فى إبان الدورة الثانية من حياته .

ونحن لا ننتظر منه فى هذه الدورة سوى الحزن والألم العميق ، فهذا أبوه حُجْر يُقْتل وهؤلاء أعمامه يلقون نفس المصير ،ومن قبلهم قُتل جده الحارث . وهو يسعى فى سبيل الأخذ بثأر أبيه، والمنذر بن ماء السماء يطلبه وتتحاماه القبائل والعشائر وهو يتنقل فيما بينها يستغيث ولا مغيث . وربما لقى فى أول الأمر شيئاً من العون ، ولكن ذلك لم يستمر، فقد ازوروا عنه ، وهو يطلب من يجيره ، وعين المنذر تتبعه وسيف المنذر مُصْلَتٌ يلمع أمام عينيه . فكان طبيعيًّا أن يشكو الدهر وأن يتحدث عن مصيره . وهنا تلقانا مقطوعة رواها الأصمعى عن أبى عمرو بن العلاء، تصور حزنه على آبائه

(١) أسبأ : أشترى . الزق : دن الخمر .
الروى : المملوء ، الإجفال : الانهزام فى سرعة.

وما تجمَّع عليه من البلاء، وهى ذات الرقم الحادى عشر فى ديوانه ، وفيها يقول :

أرانا مُوضِعين لأَمْرِ غَيْبٍ ونُسْحَرُ بالطَّعام وبالشرابِ(١)
عصافيرٌ وذِبَّانٌ ودُودٌ وأَجْرَأ من مُجَلِّحَة الذئاب(٢)
وكلُّ مكارم الأَخلاق صارتْ إليه هِمَّتى وبه اكتسابى
فبعضَ اللومِ عاذلتى فإنى ستكفينى التجاربُ وانتسابى
إلى عِرق الثَّرَى وَشَجَتْ عروقى وهذا الموتُ يسلبنى شبابى(٣)
ونفسِى سوف يَسْلبها وجِرْمى فيُلْحقنى وشيكا بالتُّرابِ
أَلم أُنْضِ المَطِىَّ بكل خَرْقٍ أمقِّ الطول لمَّاع السَّراب(٤)
وأَركب فى اللُّهام المَجْر حتى أنال مآكلَ القُحَمِ الرِّغاب(٥)
وقد طوَّفْتُ فى الآفاق حتى رَضِيتُ من الغنيمة بالإِيابِ
أَبعدَ الحارثِ الملك بن عمرو وبعد الخير حُجْرٍ ذى القِباب(٦)
أُرَجِّى من صروف الدَّهر لِيناً ولم تَغْفُلْ عن الصُّمِّ الهِضاب(٧)
وأَعلمُ أنَّنى عمَّا قليلٍ سأَنْشَبُ فى شَبَا ظُفُرٍ وناب(٨)
كما لاقى أَبى حُجْرٌ وجَدِّى ولا أَنْسى قتيلا بالكُلاب(٩)

فقد ضاع منه الماضى بكل أحلامه ، وهو ينظر أمامه فى الأفق البعيد بل القريب ، فلا يرى إلا وادى العدم الذى يشدُّ إليه الناس جميعاً رحالهم ، وهم

(١) موضعين : مسرعين . لأمر غيب : يريد الموت المغيب . ونسحر بالطعام : نتلهى ونخدع .

(٢) مجلحة الذئاب : المصممة التى لا ترجع عما تريد .

(٣) وشجت : اشتبكت واتصلت . ويشير بعرق الثرى إلى آبائه الذين ماتوا .

(٤) أنض : أهزل بطول الرحلة . الخرق : الفلاة . أمق الطول : واسع الطول .

(٥) اللهام : الجيش الكثيف . المجر : الكثير . المآكل هنا : الغنائم ، القحم : جمع قحمة من الاقتحام ويريد التزاحم فى شدة . الرغاب : الواسعة .

(٦) القباب : الخيام الكبيرة .

(٧) الصم المصمتة : الجبال . الهضاب : الصلبة .

(٨) شبا كل شىء : حده . أنشب : أعلق .

(٩) قتيل موقعة الكلاب هو عمه شرحبيل .

يتعللون عنه بالطعام والشراب ، وهو فى انتظارهم ، وهم جادون فى المسير إليه . ويتصغر الناس وتصغر أطماعهم فى عينه ، ويراهم ضعافاً كالعصافير والذباب والدود، ومع ذلك يسقطون على أطماعهم كالذئاب الضارية . ويطلب إلى عاذلته أن تكف عن لومه لتركه اللهو ، فإن التجارب غيرت شخصيته خلال ما مر به من أهوال الحياة . وهو ينتسب ، فلا يجد أمامه إلا موتى ، وهو يترقب نفس الأجل المحتوم ، وكأنه شخص آخر سوى هذا الشخص الذى كان يركب الخيل وينضيها فى الفلاة الواسعة ، والذى كثيراً ما انتظم فى جيوش أبيه الكثيفة، يغنم المغانم الكبيرة . وها هو اليوم يطوف فى الآفاق وراء مجده المضيّع فلا يظفر إلا بالخيبة واليأس القاتل . وماذا يرجو بعد هذه الصخور الصلبة من آبائه وقد واراها التراب. إنه ينتظره نفس المصير ، فالموت يفتح فاه ، وأظفاره وأنيابه توشك أن تفترسه افتراساً كما افترست جده الحارث وأباه حجراً وعمه شرحبيل يوم الكُلاب .

والمقطوعة رائعة لأنها تصور لنا إحساسه بعبث الكفاح ضد المنذر وكيف كان هذا الإحساس يتعمقه فى تلك الفترة من حياته . وليس له بعد ذلك أشعار تستحق الوقوف عندها سوى بعض مقطوعات قصيرة تتداخل فيها رواية الأصمعى مع رواية هشام بن الكلبى ، وفيها يمدح ويهجو بعض من كانوا يكرمون جواره أو يسيئون هذا الجوار فلا يمدون يد العون إليه ، وهى شظايا صغيرة لا توضح منهجاً فى مديح ولا هجاء .

وأكبر الظن أن فيما قدمنا ما يدل على قيمة امرئ القيس ، فهو الذى نهج للشعراء الجاهليين من بعده الحديثَ فى بكاء الديار والغزل القصصى ووصف الليل والخيل والصيد والمطر والسيول والشكوى من الدهر ، ولعله سُبق بأشعار فى هذه الموضوعات ، ولكنه هو الذى أعطاها النسق النهائى ، مظهراً فى ذلك ضروباً من المهارة الفنية ، جعلت السابقين جميعاً يجمعون على تقديمه ، سواء العرب فى أحاديثهم عنه أو النقاد فى نقدهم للشعر الجاهلى ، يقول ابن سلام : « سبق امرؤ القيس إلى أشياء ابتدعها ، استحسنها العرب واتبعته فيها الشعراء ، منها : استيقاف صحبه والبكاء فى الديار ورقة النسيب وقرب المأخذ، وشبّه النساء بالظباء والبيض وشبّه الخيل بالعقبان والعصى ، وقيّد الأوابد ، وأجاد فى التشبيه ، وفصّل بين النسيب وبين

المعنى ، وكان أحسن طبقته تشبيهاً »(١) .

وواضح أن هذه الفقرة من كتاب طبقات فحول الشعراء تقرر أن امرأ القيس هو الذى فتح للجاهليين أبواب التسيب والغزل ووصف النساء والخيل، وهى تضيف إلى ذلك قرب المأخذ، بحيث جعل العبارات قريبة المنال لايشوبها عسر ولا صعوبة، وأيضاً تضيف أنه فصل بين النسيب والمعنى ، فلم يخلطه بشىء ، بل أسهب فيه وأفرده عما يليه .

وكل من يقرأ المعلقة وما أثبتناه له من شعر يلاحظ استواءً فى العبارات واتساقاً فى ترتيب الألفاظ ، مما يدل على أنه كان يملك أعنة اللغة فى يده ، وقليل جدًّا ما قد نلاحظه عنده من بعض النبو كقوله السابق فى المعلقة :

أحارِ ترى بَرْقًا كأن وميضَه   كلمع اليدين فى حَبِىٍّ مُكلَّل

يضىء سَناه أو مصابيحُ راهبٍ   أهان السَّليط فى الذُّبال المفتَّل

فقد كان ترتيب السياق ونسقه يقتضيان أن يُكمل وصفه للبرق بأنه فى حبى مكلل وسحاب متراكم وأنه يضيء سناه ، ثم يشبهه بلمع اليدين ومصابيح الراهب . ولكن على كل حال مثلُ هذا قليل فى شعره ، إذ قلما نجد فيه اضطراباً فى ترتيب ألفاظه ومعانيه .

وحقًّا ما تقوله الفقرة السابقة عند ابن سلام من أنه أحسن طبقته تشبيهاً ، فتشبيهاته جيدة، وهى تتراكم فى المعلقة وفى قصيدته (ألا عم صباحاً أيها الطلل البالى) تراكماً يجعله حقًّا صاحب فن التشبيه فى العصر الجاهلى فالتشبيهات تتلاحق فى صفوف متعاقبة ، وقد عقد لها ابن سلام فصلا فى طبقاته(٢) ، استمده فى جملته من القصيدتين السالفتين . وأول ما يلاحظ فى هذه التشبيهات أنها مستمدة من واقعه الحسى ، وارجعْ إلى تشبيهاته فى المرأة ، فستراه يشبهها بالبيْضَة فى بياضها ورقتها ، كما يشبهها بالدُّرَّة والبقرة الوحشية، أما ترائبها فكالمرآة وأما شعرها الغزير فكعِذْق النخلة المتداخل ، وأما خصرها فليِّن كالزمام ، وأما ساقها فكالبردىّ فى بياضه ،

(١) ابن سلام ص ٤٦ وانظر الشعر والشعراء ١/٥٧ .

(٢) انظر ابن سلام ص ٦٧ وما بعدها .

وأما أصابعها فكمساويك شجر الإسْحل . وكل هذه الأوصاف مبثوثة فى المعلقة . وإذا تركنا حديثه فيها عن المرأة إلى حديثه عن الفرس وجدناه يشبهه بخُذْروف الوليد ومَداك العروس وصَراية الحنظل والصخرة الملساء تسقط من عل ، كما يشبهه بالظبي فى خاصرتيه والنعامة فى ساقيه والذئب فى عَدْوه والثعلب فى تقريبه وقفزه . ونحس دائماً أنه يحاول أن يطرف سامعه بما يورد عليه من الصور الغريبة ، كقوله :

كأنَّ دماءَ الهاديات بنَحْرِهِ عُصارةُ حِنَّاءٍ بشيبٍ مرجَّلِ(١)

فدم الوحش الذى صاده امرؤ القيس يلطّخ صدر الفرس فيتراءى كأنه عصارة حنَّاء صُبغ بها شيب ، إذ لايكاد يفترق عن الخضاب فى شىء . ويخرج من ذلك إلى وصف السيل والمطر ، فيفزع إلى التشبيه الكثير ، كأنه لا يرى الشعر شيئاً بدونه ، وهو لذلك يوشىٌّ به كل شىء يعرض له فى المعلقة ، سواء حين يصف الثريا أو يصف الليل ، وقد أبدع فى وصفه لقطعه وأجزائه ، فهى ماتنى تتدافع وتتلاحق غير منتهية ، وألم بالوحش ، فشبه بقره بعذارى دوار ، يقول :

فعنَّ لنا سِرْبٌ كأنَّ نِعَاجَه عَذارَى دُوَارٍ فى المُلاءِ المذيَّلِ(٢)

وبذلك عكس الصورة فشبه البقر بالنساء ، وهو تشبيه مقلوب ، تبعه فيه الشعراء ، وأصبح ضرباً من ضروب الخيال التى ينسجونها .

وننتقل معه إلى مطولته (ألاعم صباحاً أيها الطلل البالى) فتلقانا نفس تشبيهاته للمرأة التى لقيتنا فى معلقته ، فهى كالظبية وبيضة النعامة ، بل هى كالتمثال الجميل يقول :

ويارُبَّ يومٍ قد لهوتُ وليلةٍ بـآنسةٍ كأنَّها خطُّ تمثالِ

ويشبه وجهها فى إشراقه بالمصباح ، ويقول إنها لينة ممتلئة كحِقْف الرمل أو ما استدار منه ، ويشبهها بالغصن فى اعتدال قوامها وتثنيها ، أما شعرها فكشماريخ النخل فى تداخله وغزارته . ويعرض لليل ونجومه فيشبهها بمصابيح رهبان ، ويحدثنا

(١) الهاديات : المتقدمات من بقر الوحش . مرجل : مسرح .

(٢) السرب : القطيع . النعاج هنا : بقر الوحش . ودوار : صنم كانوا يطوفون به فى الجاهلية . المذيل : الطويل السابغ .

عن شجاعته وأنه لا يرهب زوج مَن يغازلها ولا تهديده ، فيقول :

أيقتُلني والمشرفيُّ مُضاجعي   ومسنونةٌ زُرْقٌ كأنْياب أغْوالِ

وهى صورة طريفة ، لأنها تقوم على التخييل والوهم . ويخرج إلى وصف فرسه فيشبهه بالهراوة أو العصا فى ضموره وصلابته ، ويقول إنه ذَعر به قطيعَ بقر ، يجرى البياض والسواد فى سيقانه ، حتى لكأنها وشى برود يمانية بديعة . ويعود إلى فرسه ، فيشبهه بعُقاب تنقضّ انقضاضاً على فريستها ، ويقول إن هذه العقاب تصيد الطير وتحمله إلى وكرها ، فتأكله إلا قلوبه ، فنها الطرى الغضّ ، ومنها الجاف المتقبض ، ويُعمل خياله ، وما يلبث أن يقول :

كأنَّ قلوبَ الطير رَطْباً ويابِساً   لدى وَكْرها العُنَّابُ والحشَفُ البالى

وواضح أنه يشبه القلوب الرطبة بالعناب واليابسة بالحشف البالى أو التمر الردىء الجاف ، وهو تشبيه كان القدماء يعجبون به لأن امرأ القيس استطاع أن يلائم ملاءمة خيالية بين أشياء متعددة . ويُرْوَى عن بشار أنه قال : ما زلت أحسد امرأ القيس على جَمْعه فى هذا البيت بين تشبيه شيئين بشيئين ، حتى قلت :

كأن مُثارَ النَّقْعِ فوق رءوسنا   وأسيافَنا ليلٌ تهاوَى كواكبه[1]

فجمعت فيه بين ثلاثة وثلاثة[2] .

ولعلنا لا نُبعد بعد ذلك كله إذا قلنا إن امرأ القيس هو الذى ألهم الشاعر العربى على مر العصور فكرة التشبيه ، بل هو الذى وجهه إلى الإسراف فى استخدامه ، حتى عُدَّ ذلك ضرباً رشيقاً من ضروب الزخرف والبديع[3] . وبجانب هذا التشبيه نجد عنده بعض أمثلة للاستعارة المكنية والتصريحية ، وهو يأتى بها فى قلة ، من ذلك قوله فى المعلقة يخاطب الليل :

فقلت له لما تمطَّى بصُلْبِهِ   وأردَفَ أعجازًا وناءَ بكَلْكَلِ

---

(١) النقع : الغبار .

(٢) الأغانى (طبعة دار الكتب) ٣/١٩٦ .

(٣) انظر كتاب البديع لابن المعتز (طبعة كراتشقوفسكى) ص ٥٨ وما بعدها .

فقد استعار صورة البعير لهذا الليل الذى لا يزول . ومضى فاستعار صورة القيد لفرسه ، فسماه قيد الأوابد فهى لا تفوته ، على نحو ما مر بنا فى بيته :

وقد أغْتدى والطيرُ فى وُكُناتها — بمنجردٍ قَيْدِ الأوابد هَيْكلِ

وإذا صحت رواية[١] أمال بدلا من أهان فى قوله يصف البرق :

يضىء سناهُ أو مصابيحُ راهبٍ — أمال السَّليطَ فى الذُّبال المفتَّلِ

كان البيت يتضمن استعارة بديعة ، لأن من معانى أمال رعى ، وكأنه استعار صورة رعى الأنْعام للنبات لما يفْنيه الذبال من الزيت شيئاً فشيئاً . وإذا تركنا معلقته إلى مطولته (ألاانعم صباحاً) وجدناه يستعير للحُلِىّ على نَحْر صاحبته وتوهجه صورةَ الجَمْر ، يقول :

كأنَّ على لبَّاتها جَمْرَ مُصْطَلٍ — أصاب غَضاً جَزْلا وكُفَّ بأجْذالِ[٢]

ومن الحق أن الاستعارة قليلة فى أشعاره ، ولكنها على كل حال مبثوثة فيها ، مثلها مثل لونى البديع المسميين بالطباق والجناس ، ومن أمثلة طباقه قوله فى المعلقة يصف غدائر صاحبته :

غدائرهُ مستشزراتٌ إلى العُلا — تضلُّ المَدارى فى مُثَنًّى ومُرْسَلِ[٣]

وقوله يصف فرسه :

مكرٍّ مفرٍّ مقبلٍ مدبرٍ معاً — كجُلمود صَخْر حَطَّه السَّيل من علِ

ومن أمثلة الجناس قوله فى غزله :

وإن كنتِ قد ساءتْك منى خليقةٌ — فسُلِّى ثيابى من ثيابك تَنْسُلِ

وقوله :

ألا أيها الليلُ الطويلُ ألا انْجَلِى — بصُبْحٍ وما الإصباحُ فيك بأمْثَلِ

---

(١) ابن المعتز ص ٧ .

(٢) الغضا : من أشجار نجد . الجزل : الكثير ، كف : مد . الأجذال : أصول الشجر . يقول إنه جمر لايزال متقداً ، لأن بجواره مصطلياً يقلبه ويتعهده ومن حوله أصول شجر الغضا وعيدانه لا يزال يمد بها النار .

(٣) مستشزرات : مفتولات ، المدارى : الأمشاط .

وبجانب ذلك كله نجده يعنى بالتلاؤم بين ألفاظه ، فقلما تلقانا فيها لفظة نابية فى حروفها ، وأيضاً نجد عنده عناية واضحة بموسيقاه ، ولعله من أجل ذلك كان يكثر من التصريع على نحو ما صنع فى المعلقة فقد صرَّع فيها مراراً ، كما فى بيته الذى أنشدناه آنفاً والذى يخاطب فيه الليل . وفى الحق أن الموسيقى تطَّرد فى المعلقة اطراداً ، فلا نحس بنشاز ، سوى الزحافات التى يكثر منها على شاكلة قوله :

فجئت وقد نَضَتْ لنومٍ ثيابها لَدَى السِّتْرِ إلا لِبْسَةَ المتفضِّلِ

فإن التفعيلة الثانية فى حشو البيت « مفاعلن » وليست مفاعيلن . وإذا قرأنا فى المعلقة قوله :

مكرٍّ مفرٍّ مقبلٍ مدبرٍ معـًا كجلمود صخرٍ حطَّه السَّيْلُ من عَلُ

بضم لام القافية — وهذا ما يقتضيه القياس النحوى تقول : من أسفل الجبل ومن علُ أى من أعلاه فتضم اللام على نية حذف المضاف إليه — أصبح فى البيت إقواء ، وهو يكثر فى الشعر الجاهلى وخاصة قديمه . وأيضاً إذا قرأنا وصفه للسيل وغثائه الملتف بجبل أبان فى قوله :

كأن أباناً فى أفانين وَدْقه كبيرُ أناسٍ فى بِجادٍ مـزمَّلُ

بضم اللام فى كلمة « مزمل » وهو ما يقتضيه القياس النحوى لأنها صفة لكلمة كبير أناس المرفوعة أصبح فى هذا البيت هو الآخر إقواء ، إذ اختلفت حركة الروىّ ، فأصبحت مرفوعة بينما هى فى بقية القصيدة مجرورة . ويظهر أن هذا لم يكن يكثر عنده .

والحق أنه يعد أباً للشعر الجاهلى بل للشعر العربى جميعه ، فقد استوى عنده فى صورة رائعة ، سواء من حيث سبقه إلى فنون أجاد فيها ، أو من حيث قدرته على الوصف والتشبيه ، وقد مضى يعنى بأخيلته ومعانيه وألفاظه مما نجده ماثلا فى استعاراته وبعض طباقاته وجناساته ، وبذلك أعد الشعراء من بعده للعناية بحُلًى معنوية ولفظية مختلفة .

الفصل الثامن

النابغة الذبيانى

١

قبيلته

النابغة من قبيلة ذُبْيَان الغَطفانية القيسية، إذ تنتسب إلى بَغيض بن رَيْث بن غطفان بن سعد بن قَيْس عَيْلان، وإلى بغيض تنتسب أيضاً قبيلة عَبْس. ومن أهم عشائر ذبيان وبطونها بنو فَزارة وبنو مرَّة وبنو سعد، ومن فزارة بنو مازن، وبنو بدر وفيهم كانت رياسة فزارة فى الجاهلية، ومنهم حذيفة بن بدر وأخوه حَمل. ومن بنى مرة بنو غيظ وبنو سَهم وبنو صِرْمة وبنو خُصَيْلة وبنو نُشْبة وبنو يربوع عشيرة النابغة، وسيدا بنى مرة غير مدافَعين هَرِم بن سنان والحارث بن عوف ممدوحا زهير بن أبى سُلْمى.

وتظهر قبيلة ذبيان وعشائرها على مسرح التاريخ الجاهلى مع حرب داحس والغَبْراء التى نشبت بينها وبين أختها عبس واستمرت فيما يقول الرواة نحو أربعين عاماً امتدت فيما يُظنّ من سنة ٥٦٨ إلى سنة ٦٠٨ للميلاد. ومرّ بنا أن السبب فى نشوبها سباق داحس والغبراء، وكان داحس جواداً لقيس بن زهير سيد بنى عبس، وكانت الغبراء فرساً لحَمل بن بدر سيد بنى فزارة. وسبق داحس إلا أن الفزاريين أقاموا له كميناً فى نهاية الشوط نفَّره عن غايته، فسبقته الغبراء. واستشاط قيس غضباً، وطلب الرهان، وبعث حَمل ابنه يطلب منه الرهان المضروب — وقتله قيس. فاستعرت نيران الحرب بين القبيلتين، واشترك فيها أحلافهما، فكان مع عبس بنو عامر، وكان مع ذبيان بنو تميم وبنو أسد، ودارت سلسلة معارك طاحنة، من أهمها يوم المريقب وكان لعبس على ذبيان، وفيه قتَل عنترة ضمضما أبا حُصَين المرى والحارث بن بدر، وممن قُتل فيه أيضاً عوف بن بَدْر، ويوم ذى حسى وكان لذبيان على عبس، ويوم جَفْر الهباءة وكان لعبس

على ذبيان وفيه قُتل حذيفة وحَمل ابنا بدر، ورثاهما قيس خصمهما رثاء حاراً، يقول في بعضه[1] :

شفيتُ النفسَ من حَمَلِ بن بَدْرٍ ... وسيفي من حُذَيْفَةَ قد شفاني

شفيتُ بقتلهم لغليل صَـدْري ... ولكني قطعتُ بهم بَناني

وثأرتْ ذبيان لنفسها في معركة الجراجر أو ذات الجراجر. ثم تجمعت ذبيان وأحلافها من تميم وأسد كما تجمعت عبس وعامر، واشتبكت الفئتان في يوم شِعْب جبلة، وفيه دارت الدوائر على ذبيان وأحلافها، إذ أثخنت فيهم عبس وعامر القتل فقُتل لَقيط بن زُرارة التيمي وأسر أخوه حاجب. ولم تلبث ذبيان أن أوقعت بعبس وعامر في يوم شعواء وقعة منكرة. ورأت عبس أن تقف هذه الحروب التي أتت على الأبطال والرجال، فأرسلتْ وفداً إلى ذبيان يطلب الصلح، ولقي الوفد سيدي بني مرة: الحارث بن عَوْف وهَرِم بن سنان، فحملا قومهما على الصلح، وتحمَّلا ديات القتلى، ويقال إنها بلغت ثلاثة آلاف بعير. وبذلك وضعت هذه الحروب أوزارها، ويُظَن أنه لم يُكْتَبْ للنابغة أن يرى انفضاضها، فقد توفّي قبل ذلك بقليل.

وبينما كانت ذبيان تدير رحى هذه الحروب كانت تدير رحى حروب أخرى مع الغساسنة، وكان يؤازرها أحلافها من بني أسد، ولعل في ذلك ما يدل على أن القبيلتين جميعاً كانتا تدينان بالولاء للمناذرة خصوم الغساسنة، فهم يشرعون سيوفهم ويشهرونها في وجوه خصومهم، وكانوا آونة ينتصرون عليهم وآونة ينهزمون وتمتلىء أيدي الغساسنة بأسراهم، مما اضطر النابغة على نحو ما سنرى بعد قليل أن ينزل بالغساسنة ويستعطفهم حتى يردوا إلى هؤلاء الأسرى حريتهم.

وتدل دلائل مختلفة على أن عشائر ذبيان لم تكن دائماً في رفاق ووئام، فهي تتجمع لحرب عبس والغساسنة، ثم تعود فتتناحر داخلياً، على نحو ما تصور ذلك أشعار بشَامة بن الغدير والحصين بن الُحمام المري وزَبَّان بن سيَّار الفزاري والنابغة، إذ يشيرون إلى بعض المنازعات بين تلك العشائر، وقد يشيرون إلى معارك وقعت بينها، فمن ذلك قول الُحصَين بن الُحمام عقب معركة بين عشيرته بني سهم وبين بني صِرْمة، وفيها انتصر الأولون[2] :

---

(١) عيون الأخبار ٣/٨٨ والمرزوقي على الحماسة ١/٢٠٣ وسمط اللآلي للبكري ٣٠٥.

(٢) المفضليات (طبع دار المعارف) ص٦٥ والهام: الرءوس.

صَبرنا وكان الصبرُ فينا سجيّةً بأسيافنا يقْطَعْنَ كفًّا ومِعْصَما
يُفَلِّقْنَ هاماً من رجالٍ أعزّةٍ علينا وهم كانوا أعقَّ وأظلما

ونجد يزيد بن سنان أخي هرم بن سنان يطلق زوجه ، وكانت ابنة النابغة ، ويثير على عشيرتها يربوع عشيرتي خصيلة ونُشْبة ، عاقداً بينهما حلفاً سمى حلف المحاش ، وما يزال بيربوع حتى يجليها عن ديارها إلى ديار بني عُذْرة ، وفي ذلك يقول النابغة :

جَمِّعْ مَحَاشَكَ يا يزيد فإنني أعددتُ يَرْبُوعاً لكم وتميما
حَلِبَتْ عليَّ بطونُ ضِنَّةَ كلها إنْ ظالما فيهم وإن مظلوما[1]

فلم تكن عشائر ذبيان على صفاء دائمًا ، بل كثيراً ما كانت تتحارب وتتقاتل ويعتزل بعضها بعضاً ، وقد تترك عشيرة منازلها إلى منازل جيرانها من عُذْرة وغير عذرة .

وكانت ذبيان كغيرها من قبائل غطفان تعبد في الجاهلية العُزّى وتتخذ لها كعبة تحج إليها ، وتقدم لها النذر والقرابين ، وقد هدمها خالد بن الوليد بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم . ومعنى ذلك أن ذبيان ظلت على وثنيتها حتى دخلت في الإسلام الحنيف .

٢

حياته

هو زياد بن معاوية بن ضِباب بن جناب[2] بن يَرْبوع ، وأمه عاتكة بنت أنيس من بني أشجع الذبيانيين ، فهو ذبياني أباً وأمّاً ، وكان يكنى بأبي أمامة وأبي ثمامة[3] ، وهما ابنتاه ، كما كان يلقب بالنابغة ، وبهذا اللقب اشتهر . واختلف الرواة في سبب تلقيبه به ، فقيل لقوله في بعض شعره : (فقد نبغتْ لنا منهم شئون) وقيل لأنه قال الشعر بعد أن كبرتْ سنه ومات قبل أن يُهْتَر ويذهب عقله[4] .

---

(١) ضنة : عشيرة من عذرة .
(٢) هكذا في ترجمته بالأغاني (طبعة دار الكتب) ٣/١١ وفي شرح التبريزي للمعلقات العشر جابر بن يربوع بدلا من جناب بن يربوع.
(٣) انظر الأغاني ٣/١١ وترجمته في الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٠٨/١ وما بعدها .
(٤) الأغاني ٤/١١ وراجع الشعر والشعراء ١٠٨/١ وشرح المعلقات العشر للتبريزي .

ونظن ظنًّا أنه سمى بذلك لنبوغه فى شعره وتفوقه فيه ، ومن أكبر الدلالة على ذلك أننا نجد مجموعة من الشعراء المخضرمين والإسلاميين تلقّب بنفس اللقب مثل النابغة الجعدى والنابغة الشيبانى والنابغة التغلبى ، ويميّز هو منهم باسم النابغة الذبيانى .

ولسنا نعرف شيئاً واضحاً عن نشأته ولا عن شبابه ، وكل ما يحرص الرواة على قوله هو أنه كان من أشراف ذبيان وبيوتاتهم ، وقد يكون فى مصاهرة يزيد أخى هرم ابن سنان له وهو من أشراف ذبيان ما يقطع بذلك . وإذا كنا نجهل نشأته وشبابه فإن فى شعره وأخباره ما يصور لنا الشطر الثانى من حياته ، وهو شطر بدأه بالنزول على النعمان بن المنذر أمير الحيرة[1] ولزومه له يمدحه ويتغنى بمناقبه . ومعروف أن قبائل نجد كانت تدين بالولاء للمناذرة منذ قضوا على دولة كندة ، وكانت تدخل ذبيان فى هذا الولاء ، فطبيعى أن يقصد شاعرها النابغةُ النعمانَ بن المنذر وأن يُضْفى عليه مدائحه . وسُرَّ النعمان بوفوده عليه ، فقربه منه ونادمه ، وأجزل له فى العطايا والصلات ، حتى أصبح شاعره الفذّ ، وكان بلاطه يموج بالشعراء من أمثال أوس ابن حَجَر التميمى والمثقّب العبدى ولبيد العامرى ولكن أحداً منهم لم يكرمه إكرام النابغة ، وقد صور ذلك فى معلقته ، إذ يقول :

الواهب المائةَ المِعْكاءَ زيَّنها ... سَعْدَانُ تُوضِحَ فى أوبارها اللِّبَدِ[2]

والأُدْمَ قد خُيِّسَتْ فُتْلا مرافقُها ... مشدودةً برِحال الحِيرة الجُدُدِ[3]

والرّاكضاتِ ذيولَ الرَّيْطِ فانقَها ... بَرْدُ الهواجرِ كالغِزْلانِ بالجرَدِ[4]

والخيْلَ تَمْزَعُ غَرْباً فى أعِنَّتِها ... كالطَّيْرِ تنجو من الشُّؤْبوب ذى البَرَدِ[5]

---

(١) واضح أننا لم نعتد بما ذهب إليه بعض الرواة من أن النابغة لحق عمرو بن هند ومدحه بقصيدة مطلعها :

أتاركة تدللها قطام ... وضنا بالتحية والكلام

وأغلب الظن أنها منتحلة عليه ، وهى ليست على كل حال فى رواية الأصمعى للديوان ، وروى الشنتمرى عن أبى عبيدة أنه مدح بها عمرو بن الحارث الغسانى .

(٢) المعكاء : الغلاظ القوية ، ويريد الإبل . توضح : موضع . السعدان : مراع . لبد الشعر : ما تلبد منه .

(٣) الأدم : النوق البيض . خيست : ذللت . فتلا مرافقها : كناية عن قوة خلقها ومتانتها .

(٤) الراكضات : الساحبات . الريط : ثوب طويل . فانقها : نعمها . الجرد : موضع .

(٥) تمزع غرباً : تسح سحا شديداً . الشؤبوب : السحاب أو دفعات مطره .

فقد كان يعطيه المائة من الإبل الموثقة الخلق المذللة كما كان يعطيه القطيع من الخيل ، غير الجوارى المنعمات . على أن حادثاً حدث اضطره إلى مغادرة بلاط المناذرة والتوجه توًّا إلى بلاط الغساسنة ، إذ أوقعوا بذبيان وأحلافهم من بنى أسد وقعة منكرة على أثر تعديهم على وادى ذُقر الحصيب ، وكانوا قد حموه ومنعوا أن ترتاده القبائل ، وارتادته ذبيان وأسد ، فنكلوا بهما تنكيلا فظيعاً ، وسبوا كثيراً منهما ومن نسائهما . فألم النابغة ألماً شديداً صوّره فى قوله :

لقد نهيتُ بنى ذبيانَ عن أُقُرٍ ... وعن تربُّعِهم فى كل أَصْفار(١)

وقلتُ يا قوم إن اللَّيْثَ منقبضٌ ... على برَائنه لوثْبـة الضارِى(٢)

لا أعرفَنْ رَبْرَباً حُوراً مدامعُها ... كأَنَّ أبكارها نِعاجُ دُوَّارِ(٣)

ينظرْنَ شَزْراً إلى من جاء عن عُرُضٍ ... بأوجهٍ منكرات الرِّقِّ أحرارِ(٤)

يَذْرين دَمعاً على الأَشفار منحدراً ... يأْمُلْنَ رِحْلَةَ حِصْنٍ وابن سَيَّارِ(٥)

وواضح أنه يصور نساء ذبيان وقد أسرن ، وهن يذرفن الدموع ويتلفتن يميناً وشمالا ، لعل بطلى قومهما حِصْن بن عيينة وزَبَّان بن سيار يقدمان بالجيوش ، فيخلصانهن من ذل الأسر والعار ، وفى بعض الروايات أنه كان بينهن إحدى بناته. وعرض لما صنعت جيوش الغساسنة ببنى أسد ، فقال فى قصيدة أخرى مصوِّراً ما أصابهم من الجهد والبلاء :

لم يبق غيرُ طريدٍ غيرِ مُنْفَلِتٍ ... وموثَقٍ فى حِبال القِدِّ مسلوبِ(٦)

أو حُرَّةٍ كمهاة الرَّمْل قد كُبِلتْ ... فوق المعاصم منها والعراقيب(٧)

---

(١) أقر : واد . تربعهم : إقامتهم وقت الربيع . أصفار : شهور الربيع جمع صفر .

(٢) البراثن : الأظفار . الضارى : متعود الافتراس .

(٣) الربرب : القطيع من بقر الوحش تشبه النساء به . حورا : جمع حوراء ، وهى العين الجميلة واضحة البياض والسواد . النعاج : إناث البقر . دوار : اسم صنم كن يطفن به فى الجاهلية .

(٤) النظر الشذر : النظر بمؤخر العين . عرض : جانب .

(٥) الأشفار : جمع شفر ، وهو هدب العين.

(٦) القد : شراك كانوا يشدون به الأسير .

(٧) المهاة : البقرة الوحشية . المعصم : موضع السوار .

تدعو قُعَيْناً وقد عَضَّ الحديدُ بها ... عَضَّ الثِّقافِ على صُمِّ الأنابيبِ (١)

ولم يجد النابغة بدًّا من أن يسعى إلى الغساسنة وأن يمدحهم ، حتّى يكفّوا عن قومه ، ويردوا الحرية إلى من سبوه منهم ، فنزل بعمرو بن الحارث الأصغر بن الحارث الأعرج بن الحارث الأكبر بن جبلة ، ومدحه مدحاً رائعاً كما مدح أخاه النعمان . وأكبرا سفارته لديهما ، فعفوا عن أسراه ، وكان جزاؤهما من النابغة مديحه الرائع لهما ، وظل عندهما يبالغان فى إكرامه ويبالغ فى مديحهما ، محاولا بكل ما استطاع أن لا يعودا إلى حرب قومه أو حرب أحلافهم . وقد مر بنا أن عشيرته يربوع كانت تنزل أحياناً فى بنى ضنة العذريين وعشائرها من بنى حُنّ ، فتوسع لهم فى ديارها ومراعيها ، وحدثت النعمان نفسه بغزوهم ، فتعرض له النابغة يخوِّفه منعتهم ومنعة ديارهم ، ولما رأى منه إصراراً شديداً أرسل إلى عشيرته يدعوها أن تعين بنى حُنّ ، فأعانتها ومُنيت جيوش الغساسنة بالهزيمة ، وفى ذلك يقول :

لقد قلت للنعمان يوم لقيتُه ... يريد بنى حُنٍّ ببُرْقةِ صادرِ (٢)

تجنَّبْ بنى حُنٍّ فإن لقاءهم ... كريهٌ وإن لم تلقَ إلا بصابرِ (٣)

عظامُ اللُّهى أولادُ عُذْرةَ إنهم ... لَهاميمُ يَسْتَلْهونها بالحناجرِ (٤)

وهم منعُوا وادى القُرَى من عدوهم ... بجمعٍ مُبِيرٍ للعدوِّ المُكاثِرِ (٥)

وعلى هذا النحو كانت سفارته لدى الغساسنة ذات فوائد جليلة لقومه وأحلافهم ، وما زال يرعى مصالحهم عندهم حتّى توفِّى عمرو ثم أخوه النعمان ، فرأى أن يعود إلى النعمان بن المنذر ، وكان قد غضب عليه غضباً شديداً ، إذ كان يتخذه داعية له فى قومه ، وكان يرى فى نزوله بالغساسنة ما يدفع ذبيان إلى أن تخرج على ولائها له ، فهذا شاعرها وشريفها النابغة يلجُّ فى مديح خصومه . وكأنه يعلن بذلك ولاءه وولاء قبيلته لهم .

(١) قعين : عشيرة من أسد . الثقاف : خشبة تقوم بها الرماح . الأنابيب : كعوب الرماح .

(٢) برقة صادر : موضع .

(٣) صابر : شجاع فى الحرب .

(٤) اللهى هنا : المال . لهاميم : جمع لهموم وهو الضخم العظيم . يستلهونها : يبتلعونها ، يصفهم بعظم الحلوق وكثرة الأكل وضخم الأجسام .

(٥) مبير : مهلك .

وبذلك كان ذنب النابغة عظيما ، وقد أخذ يدفع عن نفسه فى اعتذاراته المشهورة التى قدمها إلى النعمان ، فعفا عنه ، وعاد إلى بلاطه من جديد ، وحظى برضاه ونائله الغَمْر إلا أن كسرى لم يلبث أن غضب على النعمان ، فاستدعاه سنة ٦٠٢ للميلاد ، وألقى به فى غياهب السجن حتى مات ، ويقال بل ألقى به تحت أرجل الفيلة .

وواضح أننا لم نأخذ بالروايات(١) التى رواها القدماء فى سبب مفارقة النابغة لبلاط النعمان بن المنذر ووفوده على الغساسنة ، فقد زعموا أنه إنما فارق النعمان خوفاً على حياته ، فإن بعض الشعراء الذين نفسوا عليه مكانته عنده صنعوا على لسانه شعراً هجاه به هجاء مقذعاً ، وفى بعض الروايات أنه كان لأحدهم سيف قاطع كثير الفرند والجوهر ، فذكر النابغة ذلك للنعمان فأخذه ، واضطغن صاحبه على النابغة فوشَى به إلى النعمان وحرضه عليه . وفى رواية أن النابغة وصف زوج النعمان المتجردة وصفاً استقصى فيه أعضاءها ، فغار منه المنخل اليشكرى وكان يهواها ، فوسوس إلى الأمير أن هذا الوصف لا يقوله إلا من جرّب ، فغضب النعمان ، وعلم النابغة فهرب إلى الغساسنة . وسنرى فيما بعد أن قصيدته فى المتجردة موضوعة .

وفى الحق أن كل هذه الروايات وما تضم من أشعار مخترعة ، اخترعها الرواة ليفسروا اعتذارات النابغة التى تنبىء بأنه جنَى جناية عظيمة ، وأن هناك وشاة أوقعوا بينه وبين النعمان بن المنذر ، ولم تكن هذه الوشاية إلا وفوده على الغساسنة أعداء النعمان وما صاغه من المديح فيهم ، وقد كان يهمّ النعمان أن لا تضع الحرب أوزارها بينهم وبين ذبيان وقبائل نجد الغربية . فلم يكن ذنب النابغة عند النعمان ذنباً شخصيًّا ، وإنما كان ذنباً سياسيًّا . وقد عاد إليه يطلب الصفح والعفو ، لا لأنه بلغه أنه عليل كما تزعم بعض الروايات(٢) .

ونعتقد أن سفارته لقومه فى بلاطى المناذرة والغساسنة هى التى أقلت الإشارات فى شعره إلى حروب داحس والغبراء ، إذ لم يشترك فى وقائعها . ومع ذلك نراه فى بعض شعره يأسى لتحول عبس إلى عامر ومفارقتها لديار أبناء عمومتها من ذبيان ، يقول :

أَبلغْ بنى ذُبْيانَ أَنْ لا أَخاً لهم　　بعَبْسٍ إذا حَلُّوا الدِّماخَ فأَظْلَما(٣)

---

(١) الأغانى ١١/١٢ وما بعدها وانظر ترجمته فى الشعر والشعراء .

(٢) أغانى ١١/٢٩ .

(٣) الدماخ : جبال . أظلم : موضع . يشير بهما إلى منازل بنى عامر .

هُمُ يَردون الموتَ عند لقائهِ ... إذا كان وِرْد الموت لابُدَّ أكْرَما

وكأنه يحرّض قومه أن يعودوا إلى السِّلْم مع عبس مستنصرين بها ضد أعدائهم، ففيها شجاعة وجرأة وإقدام وغَنَاء فى الحروب . وليس فى شعره أى إشارة لوعيد أو تهديد لعبس، وكأنه كان يبقى على القربى والرحم بينه وبينها، فهو لا يتوعدها غارة ولا يندد بالوقائع التى انتصرت فيها قبيلته . ولكن إذا كان قد ترك عبساً فقد تعرض لعامر حليفتها يهددها ويهدد سادتها وأبطالها من مثل زُرْعة بن عمرو وعامر بن الطفيل بغارات شعواء لقومهما تُسْبَى فيها الأطفال والنساء . وحاول زرعة وبعض بنى عامر أن يدفعوا ذبيان لنقض ما بينها وبين أسد من حلف وعقد حتى تُحقَن الدماء، وعلم النابغة بذلك وأن عُيَيْنة بن حِصْن وبعض الذبيانيين يفكرون فى الأمر، فتولى غضباً ينشد القصائد مسفها بنى عامر وعيينة وداعياً قومه إلى الوفاء بما بينهم وبين أسد من العهود والعقود، وفى ذلك يقول قصيدته :

قالتْ بنو عامرٍ خالوا بنى أسدٍ ... يا بُؤْسَ للجهل ضَرَّارًا لأقوامِ (١)

يَأْبى البلاءُ فلا نبْغى بهم بدلا ... ولا نريد خِلاءً بعد إحكامِ (٢)

وتوجه إلى عيينة يعنفه تعنيفاً شديداً فى قصيدة أخرى، يقول فى تضاعيفها :

إذا حاولتَ فى أسدٍ فجورًا ... فإنى لستُ منك ولستَ منى

وهو موقف يدل على نبله وحرصه على الوفاء، ويدخل فى ذلك مدحه لبنى أسد وإشادته بشجاعتهم وبلائهم فى الحروب .

وجميع أخباره وأشعاره الصحيحة تدل على أنه كان سيداً شريفاً من سادات قومه، فهو لا يتفتّى تفتّى امرئ القيس وطرفة وأضرابهما، بل يتراءى سيداً وقوراً ذا خلق وشيم كريمة، فهو لا يتدنى فى سفاهة ولا يتبذل فى مجون . وفى أشعاره بعض إشارات مسيحية، وقد جاءه ذلك من إقامته الطويلة فى الحيرة ولدى الغساسنة وكأنه استمع إلى بعض ما يقوله الأحبار والرهبان، ولكن لا شك فى أنه كان على دين

(١) خالوا : من المخالاة وهى نقض العهد . الخلاء : نقض العهد كالمخالاة .

(٢) البلاء : يقصد بلاءهم معهم فى الحرب .

آبائه يتعبَّد العُزَّى وغيرها من آلهتهم الوثنية، ويختلف معهم إلى الحج بمكة، وفى معلقته :

فلا لعمرُ الذى مسَّحْتُ كَعْبتَه ... وما هُرِيقَ على الأَنْصاب من جَسدِ

فهو يقدس الدماء التى كانت تُصَبُّ على الأنصاب .

وكان فيه حكمة، وهى مبثوثة فى شعره، ويقول ابن حبيب إنه ممن حرَّم الخمر والأزلام فى الجاهلية[1] . وهو بذلك كله يبدو سيداً وقوراً . ويظهر أنه نال شهرة واسعة فى عصره لا عند أمراء الحيرة والغساسنة فحسب بل أيضاً فى داخل الجزيرة وبين الشعراء، إذ كانوا يعرضون عليه فى المواسم والأسواق أشعارهم . قال صاحب الأغانى : «كان يُضْرَبُ للنابغة قُبَّة من أدَم بسوق عكاظ، فتأتيه الشعراء، فتعرض عليه أشعارها . وحدث ذات مرة أن أنشده الأعشى أبو بصير، ثم حسان بن ثابت ثم أنشدته الشعراء، ثم أنشدته الخنساء بنت عمرو بن الشَّريد :

وإن صَخْرًا لتأتمُّ الهداةُ بهِ ... كأنه علَمٌ فى رأسه نارُ[2]

فقال : والله لولا أن أبا بصير أنشدنى آنفاً لقلت إنك أشعر الجن والإنس، فقام حسان فقال : والله لأنا أشعر منك ومن أبيك، فقال له النابغة : يا بن أخى أنت لا تحسن أن تقول :

فإنك كالليل الذى هو مُدْرِكى ... وإن خِلْتُ أن المنتأَى عنك واسعُ

خطاطيفُ حُجْنٌ فى حِبالٍ متينةٍ ... تَمُدُّ بها أيدٍ إليك نوازِعُ[3]

فخَنس حسان لقوله[4] » . وفى رواية أخرى أنه لما غضب حسان وقال له أنا أشعر منك ومن أبيك قال له حيث تقول ماذا ؟ قال : حيث أقول :

لنا الجَفَنات الغُرُّ يَلْمَعْن بالضُّحى ... وأسيافُنا يَقْطُرْنَ من نجـدةٍ دما

---

(١) المحبر لابن حبيب (طبع حيدر آباد) ص ٢٣٨ .

(٢) العلم هنا : الجبل .

(٣) خطاطيف : جمع خطاف وهو حديدة حجناء تستخرج بها الدلاء من البئر، حجن : جمع حجناء وهى المعوجة. نوازع : جواذب . ويقصد قصائده التى يستعطفه بها .

(٤) أغانى ١١/٦ .

ولدنا بنى العَنْقاء وابنَىْ محرقٍ   فأكرمْ بنا خالاً وأكرمْ بنا ابْنَمَا[١]

فقال له النابغة : أنت شاعر ولكنك أقللت أجفانك وأسيافك وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك[٢] . وأكبر الظن أن هذه الزيادة فى تلك الرواية من عمل بعض اللغويين الذين يذهبون إلى أن جمع المؤنث السالم ووزن أفعال فى جمع التكسير يدلان على القلة . وفى الحقيقة لم يفتخر حسان بالأبناء دون الآباء ، بل لقد افتخر بالآباء، وإن كان عبّر بكلمة ولدنا، فهى مماحكة لفظية ، وما كان النابغة ليعمد إلى مثل هذه المماحكة والمغالطة . والمهم فى الخبر أنه كان يحكم بين الشعراء فمن أشاد به تألق نجمه ومن أزرى به خمل ذكره .

وقد رجع إلى قبيلته بعد موت النعمان بن المنذر سنة ٦٠٢ وأمضى فيها بقية حياته ، ويظهر أنه لم يعش طويلا ، فليس فى أشعاره أى شىء يتصل بانتهاء حروب داحس والغبراء سنة ٦٠٨ ولو أنه حضر نهايتها لأشاد بموقف سيدى قبيلته : هرم بن سنان والحارث بن عوف فى حقن الدماء بما تحملا من ديات ، ومن ثمّ كان لا يبعد عن الصواب ما زعمه لويس شيخو من أنه توفى سنة ٦٠٤[٣] .

٣

ديوانه

لعل أقدم نشرة لديوان النابغة نشرة ديرنبورج له فى المجلة الآسيوية (١٨٦٨ — ١٨٦٩) وقد استخرجها من شرح الشنتمرى للدواوين الستة ، وهى دواوين امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة بن عبدة . وسبق أن قلنا فى حديثنا عن ديوان امرئ القيس إن هذا الشرح يحتفظ برواية الأصمعى لتلك الدواوين ، وبعد أن يفرغ منها يضيف إليها بعض قصائد من رواية الكوفيين . وقد اعتمد ديرنبورج فى نشرته لديوان النابغة على مخطوطتين من شرح الشنتمرى وجدهما فى

(١) العنقاء : جد الخزرج الأول . محرق : هو الحارث بن جبلة الغسانى ، ومعروف أن الغساسنة كالخزرج من الأزد ، ولذلك يفخر بهم كما يفخر بقومه .

(٢) أغانى (طبعة دار الكتب) ٩/ ٣٤٠ والموشح للمرزبانى ص ٦٠ .

(٣) شعراء النصرانية ص ٦٤٠ .

باريس ومخطوطة ثالثة وجدها فى فينا وهى بشرح البطليوسى . وقد نَشر فى سنة ١٨٩٩ ملحقاً للديوان فى المجلة الآسيوية نقله عن مخطوطة فى مجموعة شيفر وجد بها زيادات جديدة .

ونشر الديوان آلورد فى مجموعة الدواوين الستة التى عُنى بها الشنتمرى، سنة ١٨٧٠ واستخرج نشرته من عدة مخطوطات إلا أنه لم يكتف بما جاء عند الشنتمرى ، فقد ألحق بتلك الدواوين الستة زيادات وإضافات مما وجده منسوباً فى كتب الأدب إلى كل منهم ، وقد نُشر الديوان فى القاهرة مع هذه الدواوين ، ولكن لا بشرح الشنتمرى وإنما بشرح البطليوسى . ونشر نشرة أخرى باسم «التوضيح والبيان عن شعر نابغة بنى ذبيان » وقام على هذه النشرة مصطفى أدهم سنة ١٩١٠ . ونُشر فى بيروت مع مجموعة دواوين أخرى باسم خمسة دواوين العرب ، وهى دواوين النابغة وعروة ابن الورد والفرزدق وحاتم الطائى وعلقمة الفحل .وقد نشره لويس شيخو فى مجموعته «شعراء النصرانية» معتمداً على نشرة آلوارد. ونشره مصطفى السقا فى مجموعته «مختار الشعر الجاهلى» وهذه المجموعة كما مر بنا هى نفسها مجموعة الدواوين الستة التى عُنى بها الشنتمرى ، وإن كان الناشر لم ينقل معها شرحه ، فقد اختصره ، غير أنه احتفظ بكثير من الإشارات والتعليقات التى بثّها الشنتمرى فيه . وفى دار الكتب المصرية غير مخطوطة من هذا الشرح . وفى مكتبة أحمد الثالث بإستانبول مخطوطة للديوان بشرح ابن السكيت وكذلك فى مكتبة فيض الله مخطوطة أخرى له بشرح الخطيب التبريزى . والمخطوطتان جميعاً مصورتان بمعهد إحياء المخطوطات بالجامعة العربية .

وسنعتمد فى دراستنا للشاعر على شرح الشنتمرى ، لأنه يحتفظ لنا برواية الأصمعى أوثق رواة الشعر الجاهلى ، وهى تنتهى عنده بالقصيدة رقم ٢٢ إذ يقول الشنتمرى بعقبها : « كمل جميع ما رواه الأصمعى من شعر النابغة ، ونصل به قصائد متخيَّرة مما رواه غير الأصمعى إن شاء الله تعالى » وهى سبع قصائد رواها عن الطوسى ، وهو إنما يروى عن ابن الأعرابى وأبى عمرو الشيبانى ، ومعنى ذلك أن هذه القصائد مما أضافه الكوفيون إلى رواية الأصمعى أستاذ البصرة والبصريين. وكأن الأصمعى كان يشك فيها أو كان ينكرها ، ولذلك لم يثبتها فى روايته ، ومن ثَمّ

لا نستطيع أن نعتمد عليها فى دراسة النابغة ، إنما نعتمد على ما رواه الأصمعى ، ونتخذه أساساً لبحث الشاعر وشعره .

على أننا لا نكاد نمضى فى رواية الأصمعى حتّى نجدها فى حاجة إلى مناقشة ، فإن الأصمعى احتفظ فيها بقصيدته فى المتجردة : (أمن آل ميّة رائحٌ أو مغتد) مع أنه كان لا يسندها كما يقول الشنتمرى . ومعنى ذلك أنها ضعيفة الرواية . ونحن لا نقرؤها حتّى نجدها تتضمن غزلا مفحشاً ، وهو غزل لا يتفق وشخصية النابغة الوقور . ولو أن هذا اللون من الغزل كان دائراً فى شعر النابغة لأمكن أن نقبلها ، ولكنه يأتى شذوذاً فى هذه القصيدة ، ليدلل — كما مر فى غير هذا الموضع — على خبر مصنوع ، وضعه الرواة ليفسروا به السبب فى غضب النعمان بن المنذر على النابغة ، إذ جعلوه يتغزل بزوجه هذا الغزلَ الماجن الذى يندى له الجبين ، وكأنما ضاقت الدنيا على النابغة فلم يجد امرأة يتغزل بها هذا الغزل المفحش سوى زوج النعمان . ولو أن الرواة كانوا متعمقين فى فهم العصر الجاهلى وما كان فيه من منافسة شديدة بين المناذرة والغساسنة ، بل لو أنهم تعمقوا فى درس شعر النابغة لعرفوا أنه اضطر اضطراراً إلى مغادرة بلاط النعمان والتوجه إلى الغساسنة حتّى يفك أسرى قومه عندهم عقب معارك رجحت فيها كفة الغساسنة ، بل لقد هزموهم هزيمة منكرة . وبذلك فَقد النعمان داعيته فى ذبيان ، وغضب عليه غضباً شديداً . وما زال النابغة عندهم ، ليرد كيدهم عن قومه ، حتّى إذا دار الزمن وتوفى خصما ذبيان من الغساسنة ، وهما عمرو وأخوه النعمان ، رأى النابغة أن يعود إلى بلاط النعمان بن المنذر ، لا خوفاً على نفسه كما يقول الرواة ، بل خوفاً من تأليبه القبائل على قبيلته . فالموقف كله كان موقفاً سياسيًّا ، ولم يكن موقفاً شخصيًّا ، ولذلك كنا نرد قصيدة المتجردة ، كما نرد كل ما يتصل بقصة هرب النابغة من النعمان ورجوعه إليه حين علم بمرضه ، ومن ثَمّ كنا نشك فى قصيدته الرائية التى يقول فيها :

ألم تر خير الناس أصبح نَعْشُهُ ... على فتيةٍ قد جاوز الحىَّ سائرا
ونحن لديه نسأل الله خُلْده ... يردُّ لنا مُلْكًا وللأرض عامرا

فإن الرواة وضعوها وضعاً ، ليصوروا لنا النعمان عليلا ، ونفس أسلوبها وما فى نهايتها من دعاء يدلان على أنها إسلامية ، ومن ثَمّ ننكرها كما ننكر مقطوعته التى

تتصل بمرض النعمان والتى يتوجه فيها إلى حاجبه عصام قائلا فى مطلعها :

أَلم أقسم عليك لتخبرنِّى أمحمولٌ على النَّعْش الهمامُ

وأيضاً فإننا نشك فى قصيدته :

لعمرك ما خشيتُ على يزيدٍ من الفخر المضلِّل ما أتانى

لأن الرواة يقولون إنه هجا بها يزيد بن عمرو بن الصعق الكلابى حين أصاب إبلا للنعمان ، وكلاب عشيرة من عشائر بنى عامر ، وهى قيسية مضرية ، ومع ذلك نجد النابغة يدعوه فيها يمنيًّا إذ يقول فى نهايتها : (ولكن لا أمانة لليمان) وما كان ليضل عنه أنه مضرى لا يمنى ، وكأنما القافية أعوزت فى البيت منتحله ، بل منتحل القصيدة فدعاه يمانيًّا ونسبه إلى اليمن . ومن القصائد التى جاءت فى رواية الأصمعى ويملؤنا الشك فيها قصيدته :

بانتْ سعاد وأمسى حَبْلُها انْجذَمَا واحتلَّتِ الشَّرْعَ فالأَجزاعَ من إضَما

لأنها نسيب خالص ، ولأن بها روحاً إسلامية تتضح فى قوله مخاطباً صاحبته :

حَيَّاك ربى فإنا لا يحلُّ لنا لَهْوُ النساء وإن الدِّين قد عَزما[1]

مُشَمِّرين على خُوصٍ مزنَّمةٍ نرجو الإله ونرجو البِرَّ والطُّعمَا[2]

وإذن فنحن ننكر خمس قصائد فى رواية الأصمعى ونبقى على سبع عشرة ، ومع إبقائنا عليها لا نُخْليها من بعض أبيات أُدْخلت فى روايتها ، فمن ذلك قصيدته العينية التى يعتذر فيها للنعمان ، فإن الرواة أدخلوا فيها خمسة أبيات تمضى على هذا النحو :

لعمرى وما عمرى علىَّ بهيِّنٍ لقد نطقتْ بُطْلاً علىَّ الأَقارعُ[3]

أقارعُ عوفٍ لا أحاول غيرها وجوهَ قرودٍ تبتغى من تُجادع[4]

أتاك امرؤٌ مستبطن لىَ بِغْضَةً له من عدوٌّ مثل ذلك شافع

(١) الدين هنا : الحج . يريد أنهم عزموا عليه . فهو من باب القلب فى التعبير .

(٢) مشمرين : جادين . الخوص : الإبل غائرة العيون . مزنمة : مشدودة بأزمتها ورحالها . الطعم هنا : الرزق .

(٣) الأقارع : بنو قريع بن عوف .

(٤) تجادع : تشاتم . ولفظ وجوه منصوب على الذم .

أتاك بقولٍ هَلْهلِ النَّسجِ كاذبٍ ولم يأتِ بالحق الذى هو ناصعُ
أتاك بقولٍ لم أكن لأقوله ولو كُبِلتْ فى ساعدىَّ الجَوامع(١)

وإنما أدخلوا هذه الأبيات ليشيروا بها إلى ما قالوه من أن السبب فى هربه من النعمان أن مرة بن سعد بن قريع وعبد قيس بن خُفاف نظما هجاء فى النعمان على لسانه ، فلما علم به فرّ على وجهه . ونحن ننفى هذه الأبيات عن القصيدة ونبقى على ما عداها ونعده صحيحاً . ونقف نفس الموقف من هذه الأبيات التى جاءت فى معاقته والتى يقول فيها عن النعمان بن المنذر :

ولا أرى فاعلاً فى الناس يُشْبهه ولا أحاشى من الأقوام من أحدِ
إلا سليمانَ إذ قال الإله له قم فى البريّة فاحدُدْها عن الفَنَد(٢)
وخَيِّس الجنّ إنى قد أذنتُ لهم يَبْنون تَدْمُرَ بالصُّفَّاح والعَمَدِ(٣)
فمن أطاعك فانفعْه بطاعتِه كما أطاعك وادْلُلْه على الرَّشَدِ
ومن عصاك فعاقِبْهُ معاقبةً تَنْهَى الظلومَ ولا تقعد على ضَمَدِ(٤)
إلا لمثلك أو من أنت سابقُه سَبْقَ الجواد إذا استولى على الأمد(٥)

وواضح أنه يسترسل فى الحديث عن سليمان كأنه من أهل الكتب السماوية ، وقد كان وثنيًّا على مذهب قومه ، وبحق رأى طه حسين أن الأبيات أُقحمت على المعلقة إقحاماً(٦). وقد نسبت إلى النابغة أبيات فى غير رواية الأصمعى يقول فيها معتذراً إلى النعمان :

أتيتك عارياً خَلَقاً ثيابى على خَوْفٍ تُظَنُّ بىَ الظنونُ
فألفيتُ الأمانةَ لم تَخُنْها كذلك كان نوحٌ لا يخونُ

(١) كبلت : وضعت . الجوامع : الأغلال .
(٢) احددها : امنعها . الفند : الخطأ فى القول والفعل .
(٣) خيس : ذلل . تدمر : مدينة الزباء فى بادية الشام . الصفاح : حجارة عراض . العمد : أساطين الرخام .
(٤) الضمد : الغيظ وشدة الغضب .
(٥) الأمد : الغاية التى تجرى إليها الخيل . والبيت معلق بما قبله أى لا تقعد على غيظ إلا لمن هو مثلك فى الناس أو قريب منك .
(٦) فى الأدب الجاهلى ص ٣٣٧ وما بعدها .

ونفى الجاحظ[١] وابن سلام[٢] أن يكون النابغة قد قال هذا الشعر ، وكأنهما أحسا ما أحسه طه حسين إزاء الأبيات السالفة وأنها خليقة بأن تكون مصنوعة . ومثلها فى المعلقة الأبيات التالية التى تصوّر فطنة اليمامة وعدّها الدقيق لحمام طائر فى مضيق من الهواء يجعله يشتد فى طيرانه و يسرع إسراعاً :

احْكُمْ كحكم فتاة الحيِّ إذنظرتْ — إلى حَمام شِرَاعٍ واردِ الثَّمَدِ[٣]
يحفُّه جانبا نيقٍ وتُتْبعه — مثلَ الزجاجة لم تُكْحَلْ من الرَّمدِ[٤]
قالتْ ألا ليتما هذا الحمامُ لنا — إلى حمامتنا ونِصْفُه فقَدِ[٥]
فحسَّبوه فألفوه كما حسبتْ — تسعاً وتسعين لم تَنْقُصْ ولم تَزِدِ
فكمَّلتْ مائةً فيها حمامتُها — وأسرعتْ حِسْبَةً فى ذلك العدد

وهى أبيات واضحة الانتحال . ونحن بعد ذلك نصحح بقية المعلقة ، كما نصحح قصائده ومقطوعاته الأخرى التى جاءت فى رواية الأصمعى باستثناء ما اتهمناه .

٤

شعره

قرن ابن سلام النابغة إلى امرئ القيس وزهير والأعشى ، فهؤلاء الأربعة فى رأيه هم المقدمون على سائر الشعراء فى الجاهلية[٦] ، وتبعه الرواة والنقاد يؤمنون بهذا الحكم ، وأن الأربعة حقًّا هم المجلّون السابقون فى اقتدارهم على تصريف الشعر والنظم فى فنونه المختلفة .

---

(١) الحيوان ٢/٢٤٦ .
(٢) طبقات فحول الشعراء (طبع دار المعارف) ص ٤٩ — ٥٠ .
(٣) فتاة الحى : زرقاء اليمامة . شراع : مجتمعة . الثمد : الماء القليل .
(٤) يحفه : يحيط به . نيق : جبل . وجعل الحمام يمر فى جانبى نيق لأنه إذا مر فى مضيق من الهواء كان أسرع منه إذا اتسع عليه الفضاء. وشبه عين زرقاء اليمامة بالزجاجة فى صفائها . لم تكحل من الرمد : لم يصبها رمد فتكحل منه .
(٥) قد : حسب .
(٦) انظر طبقات فحول الشعراء ص ٤٣ وما بعدها .

وإذا استعرضنا دواوينهم جميعاً وجدنا النابغة يقرب فى ذوقه من أوس بن حجر وزهير ومدرستهما التى اشتهرت عند القدماء بالتجويد والتنقيح ، فهو لا يقبل كل ما يفد على خاطره ، بل لا يزال يثقفه ويصقل فيه حتى يستوى له اللفظ المونق والديباجة الجزلة . وقد أتيح له أن يعيش فى بيئتين متحضرتين هما الحيرة وبلاط الغساسنة ، فرقّ ذوقه وسهل منطقه ولفظه ، وإن كان لم ينس البادية ولغتها وغرابة هذه اللغة .

وقد وقف القدماء طويلا عند إجادته لفنى المديح والاعتذار ، غير أنهم عادوا فقالوا إنه أحد الأشراف الذين غضّ الشعر منهم ، فإنه مدح الملوك وقبل صلتهم ونوالهم ، وكان فى غنى عن هذا القبول . « قيل لأبى عمرو بن العلاء : أفمن مخافة النعمان بن المنذر امتدحه النابغة وأتاه بعد هربه منه أم لغير ذلك؟ فقال : لا ، لعمر الله ما لمخافته فعل ، إن كان لآمنا من أن يوجّه النعمان له جيشاً ، وما كانت عشيرته لتسلمه لأول وهلة ، ولكنه رغب فى عطاياه وعصافيره (إبله) وكان النابغة يأكل ويشرب فى آنية الفضة والذهب من عطايا النعمان وأبيه وجده ، لا يستعمل غير ذلك[1] » .

ويبعد فى رأينا أن يكون قد وفد على أبى النعمان وجده كما يقول أبو عمرو بن العلاء وغيره من الرواة فإن ديوانه برواية الأصمعى يخلو من مديحهما . أما أن تكسبه بالشعر وأخذه نوال المناذرة وكذلك الغساسنة قد غضّ منه وأنزله من مرتبة شرفه فغير صحيح ، لأن وفوده عليهما لم يكن القصد منه التكسب ، وإنما كان القصد رعاية مصالح قبيلته عندهما كما قدمنا ، فقد كان سفيرها فى بلاطهما . وحقًّا إنه يبالغ فى مديحه واعتذاره ، ولكنها مبالغة لا تنتهى إلى ذلة نفس ، بل هى المبالغة التى تأتى من أنه يتحدث إلى أمراء كان لهم سلطان كبير على القبائل العربية ، ويريد أن يصلح ما فسد من قلوبهم عليه وعلى قبيلته .

وليس شعره جميعه مديحاً واعتذاراً فقد رثى النعمان الغسانى ، وهو يقدم لرثائه ومديحه واعتذاراته بالنسيب ووصف ناقته ، وقد يخرج من ذلك إلى وصف الحيوان فى الصحراء وصيده . وأيضاً فى شعره قصائد ومقطوعات تتصل بأحداث قبيلته

---

(١) أغانى ١١/٢٩ وما بعدها .

وأحلافها من بنى أسد وأعدائها من بنى عامر ، وبعبارة أخرى فى شعره فخر وهجاء ، وفى تضاعيف ذلك كله نرى عنده أسراباً من الحكمة والتجربة الصادقة ، وما يدل على وفائه وصدق مودته .

ونحن لا نلمّ بمديحه للغساسنة حتّى نؤمن حقًّا بأنه كان شاعراً بارعاً ، يعرف كيف يتخير ألفاظه وكيف ينوع فى معانيه وكيف يستتم صوره . وخير مدائحه فيهم قصيدته البائية ، وهو يستهلها بوصف طول الليل وما تجمع عليه فيه من الهموم ، يقول :

كِلينى لهمٍّ يا أُميمةُ ناصبِ ... وليلٍ أقاسيه بطىءِ الكواكبِ(١)

تطاولَ حتّى قلت ليس بمنقضٍ ... وليس الذى يَرْعَى النجومَ بآيبِ(٢)

وصَدْرٍ أَراح الليلُ عازبَ هَمِّهِ ... تضاعفَ فيه الحزنُ من كل جانبِ(٣)

فهو محزون فى أول القصيدة يخاطب بنته أمامة ويشكو لها همومه وأشجانه لما وقع فى قبضة الغساسنة من أسرى قومه ، ونراه يصور طول الليل وهمّه فيه تصويراً بديعاً ، فالكواكب بطيئة لا تجرى ، حتّى ليظن أن الصبح الذى يرعى النجوم بأضوائه ويحصدها حصداً لن يؤوب ، والليل يثقل على صدره بما يردّ عليه من موجات الهم والحزن . وهى براعة استهلال رائعة تدل دلالة بينة على أننا بإزاء شاعر يعرف كيف يجسّم معانيه وكيف يعبر عنها تعبيراً واضحاً مستقيما بالصور . وقد خرج من ذلك توًّا إلى مدح عمرو بن الحارث الغسانى وآبائه وعشيرته ، ووقف طويلا عند تصوير جيوشه وما تحقق من انتصارات مدوية ، وأطال فى هذا التصوير قائلا :

إذا ماغَزَوا بالجيش حَلَّق فوقهم ... عصائبُ طيرٍ تهتدى بعصائبِ(٤)

يُصاحِبْنَهم حتّى يُغِرْنَ مُغارَهم ... من الضّاريات بالدماء الدوارب(٥)

---

(١) كلينى : دعينى . ناصب : متعب . بطىء الكواكب : كناية عن أنها لا تغور ولا تمضى .

(٢) آيب : راجع . وأراد براعى النجوم الصباح .

(٣) أراح : رد . العازب : البعيد .

(٤) عصائب : جماعات .

(٥) الضاريات : المتعودات . الدوارب : المدربة .

تراهن خَلْفَ القوم خُزْرًا عيونُها   جلوسَ الشيوخ فى ثياب المَرَانبِ (١)

جوانحَ قد أيقنَّ أنَّ قبيلَه   إذا ما التقى الجمعان أولُ غالبِ (٢)

لهنَّ عليهم عادةٌ قد عرفْنها   إذا عُرِّض الخَطِّىُّ فوق الكواثبِ (٣)

على عارفاتٍ للطعان عوابسٍ   بهنَّ كلومٌ بين دامٍ وجالبِ (٤)

إذا استُنْزلوا عنهن للطَّعن أرْقَلُوا   إلى الموت إرقالَ الجمال المَصَاعبِ (٥)

فهم يتساقون المنية بينهم   بأيديهمُ بيضٌ رقاقُ المضاربِ (٦)

يَطير فُضَاضاً بينها كلُّ قَوْنَسٍ   ويتبعها منهم فَراشُ الحواجبِ (٧)

ولا عَيْبَ فيهم غير أن سيوفهم   بهن فلولٌ من قِراع الكتائبِ (٨)

تُوُرِّثْنَ من أزمانِ يومِ حليمةٍ   إلى اليوم قد جُرِّبن كلَّ التجاربِ (٩)

تَقُدُّ السَّلوقىَّ المضاعَفَ نَسْجُهُ   وتوقد بالصُّفَّاح نارَ الحُباحبِ (١٠)

بضرب يُزيل الهام عن سَكناته   وطَعْنٍ كإيزاغ المخاضِ الضواربِ (١١)

وهو يبدأ تصويره بأن جماعات الطير من النسور والعقبان تتبع جيش الغساسنة ، تنتظر زادها من أشلاء قتلاهم وربما سبقه الأفوه بقوله :

وترى الطير على آثارنا   رأْىَ عينٍ ثِقَةً أن ستُمارُ (١٢)

---

(١) خزر العيون : جمع أخزر وهو الذى ينظر بمؤخر عينه . المرانب : ثياب سوداء .

(٢) جوانح : مائلات للوقوع .

(٣) الخطى : الرماح . الكواثب : القربوس .

(٤) عارفات : صابرات . كلوم : جروح . دام وجالب : مدم ومتجمد عليه الدم .

(٥) أرقلوا : أسرعوا . المصاعب : النافرة .

(٦) بيض : سيوف .

(٧) فضاضاً : متفرقاً . القونس : أعلى الرأس . فراش الحواجب : عظامها .

(٨) فلول : ثلوم . قراع : مضاربة .

(٩) يوم حليمة : معركة مشهورة انتصر فيها الحارث بن جبلة الغسانى على المنذر بن ماء السماء .

(١٠) السلوقى : الدرع المنسوبة إلى سلوق من أرض اليمن. تقد: تشق . الصفاح : الحجارة ويريد خوذ الجنود . الحباحب : ذباب له شعاع بالليل .

(١١) الهام : جمع هامة وهى الرأس . سكناته : حيث يسكن ويستقر . الإيزاغ : دفع الناقة بولها . المخاض : الحوامل .

(١٢) انظر ديوان الأفوه ص ١٣ . تمار : تعطى الميرة من لحوم القتلى .

غير أن النابغة فصَّل الصورة حتى يحكم المعنى ويكشفه كشفاً دقيقاً ، فالنسور والعقبان خزر العيون ، وهى تشبه فى ألوانها ثياب المرانب السوداء التى يلبسها الشيوخ ، وهى تسير خلفهم موقنة بأنها لابد أن تجد زادها من أعدائهم ، وأنها على وشك الوقوع على ما تريد من هذا الزاد ، وهى لذلك لا تزال جانحة ، عادة عرفتْها فيهم لا يخلفونها ولا يمطلونها . وقد أعجب القدماء طويلا بهذه الصورة عند النابغة ، فتعاور عليها الشعراء ، وكل منهم يحاول أن يثبت مهارته وقدرته[1]. ويمضى النابغة فيصور شجاعة الجيش ، وما على خيله من أثر للطعان وجروح بين مدم ومتجمد عليه الدم . ونلاحظ هنا الدقة فى الوصف ، وهى دقة استتبعت ضرباً من الطباق . وقد صورهم يتساقون كئوس المنية ، كناية عن جرأتهم فى الحرب واقتحامهم لأهوالها ، ثم صور كيف يثخنون فى أعدائهم ، ولم يلبث أن جاء بصورة طريفة ظاهرها ذم وباطنها مدح شديد ، فالغساسنة لا عيب فيهم إلا عيب واحد ، وهو ليس فى حقيقته عيباً ، بل هو مفخرة من مفاخرهم ، فسيوفهم مفللة من طول قراعها ومضاربتها للكتائب . ومثل هذا التعبير الذى سبق إليه يدل على أنه كان يدقق فى معانيه وألفاظه جميعاً . ولم ينس أن يشير إلى نصرهم القديم فى يوم حَليمة الذى هُزم فيه المناذرة شر هزيمة، حتى لقد قُتل المنذر بن ماء السماء فى ساحة المعركة . وقد جعل سيوفهم المفللة تشق الدروع المتينة وتمزق أصحابها تمزيقاً مطيحة برءوسهم ومرسلة شرراً لا ينقطع ضياؤه حتى لكأنه أشعة الحباحب ، وسيولا من الدماء كأنها إيزاغ المخاض . حتى إذا استوفى كل ما أراد من تصويرهم بالشجاعة فى ميادين الحروب انتقل يصورهم فى سلمهم متحدثاً عن شيمهم وشمائلهم ودينهم ونعيمهم ، يقول :

لهمْ شيمةٌ لم يُعْطها اللهُ غيرهم ... من الجود ،والأحلامُ غَيْرُ عَوَازِبِ[2]

محلَّتُهم ذاتُ الإله ، ودينُهم ... قويمٌ فما يرجون غيرَ العواقب[3]

---

(١) انظر الصناعتين للعسكرى (طبعة الحلبى) ص ٢٢٥ والوساطة للجرجانى (طبعة الحلبى) ص ٢٧٤ .

(٢) الأحلام : العقول . عوازب : جمع عازب وهو الغائب .

(٣) محلتهم: منزلتهم ، ذات الإله : يقصد كنائسهم .

رقاقُ النِّعـال طيبٌ حُجُزاتُهمْ يُحَيَّوْنَ بالرَّيْحان يوم السَّباسبِ[١]

تحيِّيهمُ بيضُ الولائدِ بينهم وأَكْسيَةُ الإِضْريجِ فوق المَشَاجِب[٢]

يصونون أَجسادًا قديماً نَعيمُها بخالصة الأَرْدَانِ خُضْرِ المناكب[٣]

ولا يحسبون الخير لا شرَّ بعده ولا يحسبون الشرَّ ضربةَ لازبِ[٤]

حَبَوْتُ بها غَسَّانَ إذ كنتُ لاحقاً بقومى وإذ أَعْيَتْ علىَّ مذاهبى[٥]

وهو فى أول الأبيات يصفهم بالجود ورجاحة الأحلام والعقول ، ثم يأخذ فى وصفهم بأنهم متدينون بدين قويم ، وكان الغساسنة نصارى كما مر بنا فى غير هذا الموضع . ويقول إن منازلهم تحل بأمكنة مقدسة ، ولعله يريد كنائسهم ، ولا يلبث أن يقول إنهم يخشون العواقب ، وكأنه يستحثهم على أن يفكوا أسرى قبيلته من أغلالهم . وتحوَّل يصفهم بالترف وما كانوا فيه من رفاهة العيش ، فهم رقاق النعال ، وهم أعفاء ، يحيّون بالأزهار فى عيد السّباسب أو يوم الشّعانين ،وهو من أعياد النصارى ، وهم منعمون يلبسون ثياباً بيض المناكب خضر الأكمام . وعاد يستعطفهم على قومه وأنهم إذا كانوا أهاجوهم واستتبع ذلك شرًّا وبلاء فإن فى الغساسنة خيراً كثيراً . ولم يلبث أن صرح بما جاء من أجله ، فهو إنما يمدح الغساسنة باسم قومه ، وقد ضاقت عليه الدنيا بما رَحُبَتْ بسبب من أُسِرَ منهم عند ممدوحيه ،وكأنه يهيب بهم أن يردوا إليهم حريتهم ، وردوها فعلا لما بهرهم به النابغة من هذا المديح الرائع .

وواضح أن روعة هذا المديح ترجع إلى استيفاء النابغة لمعانيه وعرضها فى معارض بديعة من اللفظ الواضح الجزل ومن الصور المونقة الدقيقة . وقد نفذ فى أثناء ذلك إلى معان حضرية جديدة ، إذ صور دينهم وترفهم وما هم فيه من نعيم . وهو فى ذلك يختلف عن شعراء البادية أمثال زهير فى مديحه ، إذ كانوا لا يعرفون هذه المعانى ولا تلم بخواطرهم ، أما هو فعاش أغلب أيامه فى الحيرة وفى بلاط الغساسنة ،

---

(١) الحجزات : معاقد الثياب . طيب حجزاتهم : كناية عن عفتهم .

(٢) الولائد: الجوارى والإماء . الإضريج : الحرير الأحمر . المشاجب : جمع مشجب وهو أعواد تعلق عليها الثياب .

(٣) الأردان : الأكمام . وخلوصها : نصوع بياضها .

(٤) لازب : لازم .

(٥) بها : يريد قصيدته . أعيت مذاهبه عليه : ضاقت وسدت .

فكان طبيعيًّا أن يختلف ذوقه عن ذوق البدو وأن يأتى بمثل هذه المعانى التى تروق ممدوحيه من الأمراء .

وإذا كان النابغة يتفوق فى المديح تفوقاً ظاهراً فإنه كذلك يتفوق فى الاعتذار ، وكأن ذوقه الحضرى هو الذى أعدّه لهذا التفوق ، إذ نحس فيه رقة فى اللهجة وإلحاحاً فى التلطف محاولا أن يزيل من نفس النعمان بن المنذر ظنه السيئ فيه . وقد استعان بموهبته فى اختراع الصور والمعانى والتدقيق فيها ، مدبجاً فى ذلك قصائد طوالا تُعَدّ من أروع ما خلّفه العصر الجاهلى لا لطولها فحسب ، بل لما فيها من صدق اللهجة وسهولة اللفظ وحسن ديباجته . وقد أسعفه فى ذلك ذوقه الحضرى الذى خلصه من خشونة البدو ومن الأنفة الجامحة ، فإذا ذنبه يكبر فى نفسه ، وإذا هو يحس كأنه أتى جريرة لا تغتفر ، فمايني يقدّم للنعمان المعاذير متخذاً إليه كل ما يستطيع من البراهين ومن سبل التلطف والملاينة . وقد يؤديه ذلك إلى غير قليل من التذلل والاسترحام ، حفاظاً على صداقته القديمة له واستبقاء لوده ، وهو حسن تأتٍّ لا لصغار نفس ولا مهانة ، ولا طلباً لعصافير النعمان كما قال أبو عمرو بن العلاء ، وإنما هو الذوق الحضارى الذى اكتسبه النابغة والذى جعله يختلف عن معاصريه ويقترب من ذوق العباسيين المتحضرين ، حين يشعرون بضخم ذنبهم لدى الممدوحين ويأخذون فى التنصل منه ، وتقديم شتّى المعاذير . وهو يخلط اعتذاره بمديح النعمان والثناء عليه ، وارجعْ إلى المعلقة فستراه يستهلها بوصف أطلال دار مية ، ثم وصف ناقته التى قطع بها الصحراء إلى مقصده مفتنًّا فى تصويرها ، ومشبهاً لها بثور تناضله كلاب الصيد ، حتى إذا انتهت به إلى النعمان أخذ يمدحه بكرمه الفياض وما وهبه من قطعان الإبل والخيل ومن الجوارى المنعَّمات ، ثم مضى يستعطفه قائلا :

فلا لعمرُ الذى مَسَّحْتُ كَعْبَتَهُ وما هُرِيقَ على الأَنصابِ من جَسَدِ (١)

والمؤمنِ العائذاتِ الطير تمسحها رُكْبَانُ مكَّةَ بين الغَيْلِ والسَّعَدِ (٢)

---

(١) مسحت : لمست ألتمس البركة . هريق : سال . الجسد : الدم . الأنصاب : الحجارة التى كانوا يذبحون عليها قرابينهم للآلهة .

(٢) المؤمن : الذى آمنها من الخوف . العائذات : اللاجئات إلى الحرم . تمسحها الركبان : يريد أنها تمسح عليها ولا تهيجها بصيد . الغيل والسعد : أجمتان بين مكة ومنى.

ما قلتُ من سَيِّىءٍ مما أُتيتَ بهِ ... إذنْ فلا رفعتْ سَوْطى إلىَّ يَدى
إلا مقالةَ أقوامٍ شقيتُ بها ... كانت مقالتهمْ قَرْعاً على الكَبِدِ[١]
إذنْ فعاقبنى ربى معاقبةً ... قَرَّتْ بها عَيْنُ من يأْتيك بالفَنَدِ[٢]
أُنبئتُ أن أبا قابوسَ أو عدنى ... ولا قَرَار على زَأْرٍ من الأَسدِ[٣]
مهلا فداءٌ لك الأَقوامُ كلُّهمُ ... وما أُثَمِّرُ من مالٍ ومن وَلدِ[٤]
لا تَقْذِفَنِّى برُكْنٍ لا كِفاءَ له ... وَإِنْ تَأَثَّفك الأَعداءُ بالرِّفَدِ[٥]

وواضح أنه يقسم له بأيمانه الوثنية المغلظة أنه برىء مما يتّهم به من غدر ، ويستنزل غضب ربه عليه إن كان غير صادق ، ولتشلّ يده إن كان ما يقول الوشاة صحيحاً . ولا يلبث أن يصور نفسه ضعيفاً أمام النعمان وقوته وبطشه ، ويمثله أسداً جائعاً يزأر ، وقد وقع منه موقع الفريسة . وسرعان ما يعود إلى الاستعطاف ، فالناس جميعاً من غساسنة وغير غساسنة فداء النعمان ، بل إنه ليفديه بماله وولده ، ويقول له لا ترمنى بما لا أطيق منك ، وأنت الذى لا يستطيع الأعداء مهما تآزروا أن يثبتوا له . ويخرج من ذلك إلى مديحه ، ثم يعود إلى استعطافه فيقول :

فما الفُرات إذا هبَّ الرياحُ لَهُ ... تَرْمى أواذيُّه العِبْرين بالزَّبَدِ[٦]
يمدُّه كلُّ وادٍ مُتْرَعٍ لَجِبٍ ... فيه رُكامٌ من اليَنْبُوتِ والخَضَدِ[٧]
يَظَلُّ من خَوْفه المَلَّاحُ مُعْتَصِماً ... بالخَيْزُرانَةِ بعد الأَيْن والنَّجَدِ[٨]
يوماً بأَجْوَد منه سَيْبَ نافلة ... ولا يحولُ عطاءُ اليوم دون غَدِ[٩]

(١) القرع : الضرب .
(٢) الفند : الكذب .
(٣) أبو قابوس : النعمان بن المنذر .
(٤) أثمر : أنمى وأجمع .
(٥) الكفاء : النظير والمثل . تأثف : تجمع . الرفد : الجماعات من الناس .
(٦) أواذيه : أمواجه . العبرين : الشاطئين .
(٧) مترع : مملوء . لجب : ذو صوت شديد . الينبوت : شجر . الخضد : المحطم من الأشجار .
(٨) الخيزرانة : سكان السفينة . الأين : التعب . النجد : الكرب .
(٩) سيب : عطاء . نافلة : زيادة . يريد أن عطاءه وفر .

هذا الثناءُ فإن تسمعْ به حَسَناً ... فلم أُعَرِّضْ – أبيتَ اللَّعْنَ – بالصَّفَدِ(١)

ها إنَّ ذِى عِذْرةٌ إلا تكنْ نَفَعَتْ ... فإن صاحبها مشارِكُ النَّكَدِ(٢)

وقد بدأ فشبهه بالفرات فى كرمه ، ثم أخذ يصف الفرات فى ارتفاع فيضانه ، وعمد إلى تفصيل الصورة ، حتى يبرزها وحتى يظهر مقدرته الفنية فى دقة التصوير ، فهو قد علت أمواجه ورمت شاطئيه بالزبد ، وهو ينساب حاملا ما يقتلعه من الأشجار والنباتات ، وإنه ليعصف بكل ما عليه حتى لنرى الملاح معتصما فى مركبه بسُكّانها يخشى الغرق . وقد نفى أن يكون الفرات فى فيضانه أكرم من النعمان وأكثر سَيْباً . ودائماً يحاول النابغة أن يخترع مثل هذه الصورة ، ليدل على براعته . ونراه يعود إلى استعطاف النعمان ، وأنه قدم له هذا الثناء لايبغى به نواله ، وإنما يبغى رضاه ، وأنه إن لم يقبل اعتذاره ألقى به فى مهاوى النكد والهم . ومن بديع اعتذاراته قصيدته العينية ، وفيها يقول :

وَعِيدُ أَبى قابوسَ فى غير كُنْهِه ... أتانى ودونى راكسٌ فالضواجعُ(٣)

فبِتُّ كأنِّى ساورتْنى ضَئيــلَةٌ ... من الرُّقْش فى أنيابها السمُّ ناقع(٤)

يسهَّد من ليل التِّمام سَلِيمُها ... لحَلْى النسَاء فى يديه قَعاقعُ(٥)

تناذرها الرَّاقون من سوءِ سَمِّها ... تُطلِّقه طورًا ، وطورًا تُراجعُ(٦)

أتانى – أبيتَ اللَّعْن – أنك لُمْتَنِى ... وتلك التى تَسْتَكُّ منها المسامع(٧)

---

(١) الصفد : العطاء . أبيت اللعن : تحية كانوا يحيون بها ملوكهم .

(٢) عذرة : اعتذار . مشارك النكد : حليف نكد وهم .

(٣) فى غير كنهه : كنهه : حقيقته ، يريد على غير ذنب منه . راكس : واد فى منازل بنى أسد . الضواجع : منحنى الوادى .

(٤) ساورتنى : لدغتنى . ضئيلة : أفعى دقيقة الجسم . الرقش : جمع رقشاء ، وهى المنقطة نقطاً بيضاء وسوداء . ناقع : قاتل .

(٥) يسهد : يمنع من النوم . ليل التمام : أطول ليالى الشتاء. السليم : الملدوغ . قعاقع : أصوات . كانوا يجعلون الحلى فى يد الملدوغ اعتقاداً منهم بأنها تشفيه .

(٦) يقول من خبثها لا تجيب الراق . بل مرة تجيب ومرة لا تجيب . تناذرها الراقون : خوف بعضهم بعضاً منها .

(٧) تستك : تضيق .

مقالةَ أن قد قلتَ سوف أناله ... وذلك من تلقــاء مثلك رائعُ
حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبةً ... وهل يأْثَمَنْ ذو أُمَّةٍ وهو طائع(١)
بمصطَحِباتٍ من لَصَافٍ وثَبْرَةٍ ... يَزُرْنَ إلالاً ، سَيْرُهُنَّ التَّدافُع(٢)
سَمَاماً تُبارِى الرِّيحَ خُوصاً عيونُها ... لهن رَذايا بالطريق ودائعُ(٣)
عليهنَّ شُعْثٌ عامدون لِحَجِّهم ... فهنَّ كأطراف الحَنِىِّ خَوَاضع(٤)
لكلَّفتنى ذنب امرىءٍ وتركتَــهُ ... كَذِى العُرِّ يُكْوَى غيره وهْو راتع(٥)
فإن كنتَ لاذو الضِّغْنِ عنى مكذِّبٌ ... ولا حَلِفى على الـبراءة نافع
ولا أنا مأمونٌ بشىءٍ أقــولُه ... وأنت بأمرٍ لا محــالة واقع
فإنك كالليل الذى هو مدركى ... وإن خِلتُ أن المُنْتَأَى عنك واسع(٦)
خطاطيفُ حُجْنٌ فى حبالٍ متينةٍ ... تمدُّ بهـا أيْدٍ إليك نوازع(٧)
أتوعِد عَبدًا لم يَخُنكَ أمانةً ... وتتركَ عَبدًا ظالماً وهو ضالع(٨)
وأنتَ ربيعٌ يُنعِشُ الناسَ سَيْبُهُ ... وسَيْفٌ أُعيرتْه المنيــةُ قاطع(٩)
أبى الله إلا عَدْلَه ووفــاءه ... فلا النكْرُ معروفٌ ولا العُرْفُ ضائعُ(١٠)

---

(١) أمة هنا : دين .
(٢) بمصطحبات : أقسم بالإبل التى تصطحب فى المسير إلى الحج . لصاف وثبرة : موضعان فى ديار تميم . إلال : جبل بعرفة . التدافع : العجلة .
(٣) سماما : طائر شديد الطيران شبه به الإبل فى سرعتها . خوصاً : غائرات من شدة السير وإجهاده . رذايا : جمع رذية وهى الساقطة إعياء من الإبل . ودائع : مستودعات فى الطريق . يريد ما سقط منهن إعياء فترك .
(٤) شعث : جمع أشعث وهو المغبر من طول السفر . الحنى : القسى . الخواضع : المتطامنة رءوسها من الأرض .
(٥) العر : الجرب . وكانوا يداوون الإبل منه بكيها .
(٦) المنتأى : المكان النائى البعيد .
(٧) مر شرحه .
(٨) ضالع : مائل عن الحق ، ويروى ظالع وهو الجائر المذنب .
(٩) الربيع هنا : الغيث . السيب : العطاء .
(١٠) النكر : المنكر . العرف : المعروف .

وتُسْقَى إذا ما شئتَ غَيرَ مُصَرَّدٍ بزوراء فى حافاتها المسك كانع[1]

وهو فى أول هذه الأبيات يقول له : إن وعيدك أتانى وأنا آمن فى قومى وبينى وبينك منازل بنى أسد ومَنْ وراءهم ، فألمت حفظاً للعهد وبت مسهداً ، كأنما لدغتنى أفعى ، وهى صورة بارعة ، وقد أخذ يدقق فيها حتى يجسم ألمه ، فهى أفعى من الرقش تستودع السم فى أنيابها الحادة ، فمن عضَّتْه لم يطف به النوم من شدة الألم ، وعلق عليه أهله الحلى والخلاخيل حتى يفيق ويبرأ . وهى من الأفاعى الخبيثة التى قلما أجابت الرقى ، وإن الرقاة والحاوين ليرهبونها ويتخوفون من أن يطأوا حِماها . ويصور النابغة للنعمان فزعه حين أتاه أنه يلومه ، ويحلف له بأيمانه الوثنية ، ويختار هنا الحلف بالإبل التى كانوا ينذرونها لآلهتهم ، ويقف ليعطينا صورة عن هذه الإبل ، فهى تقبل على مكة مسرعة سرعة السهام ، حتى لكأنها تبارى الريح ، وقد أُجهدت من السير وطول السفر ، حتى إن بعضها سقط فى الطريق إعياء ، فلم ينبعث ولم يستطع براحاً . وقد بقيت منها بقية عليها شعث مغبرون يقصدون الحج ، وقد أخذها النحول حتى لكأنها القسى الضَامرة . وهذا اليمين العظيم يقسم به متنصلا مما سمع عنه من بعض الوشاة أنه انصرف إلى الغساسنة يمدحهم ويهجوه ، وكان حريًّا به أن ينزل سخطه لا عليه ، وإنما على هذا الواشى وإلا فمثله ومثل من وسوس للنعمان مثل البعير السليم يكوى من الجرب ، والأجرب راتع بجانبه لا يصيبه كىّ ولا أذى . وهى صورة أخرى بارعة . ويقول إن كنت لا تكذب من يضطغن علىّ ولا تصدق يمينى ولا حلفى فما أحرانى بالرهبة منك والخوف من بطشك ، ويودع ذلك صورة رائعة ، إذ يتخيل النعمان كالليل ، لا مفر لشخص من أن يطبق عليه . وعاد إلى الاستعطاف فصور قصائده التى يرسل بها إليه ليلين قلبه عليه كأنها خطاطيف معوجة ثُبِّتت فى حبال متينة ، وأيدى النابغة تمد بها إليه ، تريد أن تظفر بعطفه ورضاه . ويصور له أمانته وأنه لا يخون عهده ، بينما من يختانون هذا العهد يقرّبهم ويرعاهم ، ويختم اعتذاره إليه بمديحه والثناء عليه ، فهو غيث منعش لأوليائه وسيف مصلت على أعدائه ، وقد

---

(١) مصرد : من التصريد وهو الشرب دون الرى : زوراء : كأس طويلة من فضة كان النعمان يشرب فيها . كانع : لاصق .

براه الله لرعيته عادلا وفيًّا ، لايلقى المنكر بالمعروف ولا المعروف بالمنكر ، يجزى على الإساءة إساءة وعلى الإحسان إحساناً ، وانتهى بتمثيل ما هو فيه من نعيم ، فهو يشرب فى كأس مفضضة مُزِج ما فيها بالمسك والطيب . ومن رائع اعتذاراته إليه قوله :

أتانى – أبيتَ اللّعْنَ – أنك لُمْتَنى ... وتلك التى أهتمُّ منها وأنْصَبُ(١)
فبِتُّ كأَن العائداتِ فَرَشْنَنِى ... هَرَاساً به يُعْلَى فِراشى ويُقْشَبُ(٢)
حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبةً ... وليس وراءَ الله للمرء مذهبُ
لئن كنتَ قد بُلِّغْتَ عنى خيانةً ... لمبلغك الواشى أغَشُّ وأكْذَبُ
ولكننى كنت امرأً لِىَ جانِبٌ ... من الأرض فيه مُسْتَرَادٌ ومَذْهَبُ(٣)
ملوكٌ وإخوانٌ إذا ما أتيتُهم ... أحكَّم فى أموالهم وأقرَّبُ
كفعلك فى قومٍ أراك اصطنعتهم ... فلم ترهم فى شكر ذلك أذنبوا
وإنَّك شمسٌ والملوك كواكبٌ ... إذا طلعتْ لم يبد منهن كوكبُ
فلا تتركنِّى بالوعيد كأننى ... إلى الناس مَطْلِىٌّ به القارُ أجْرَبُ(٤)
ألم تر أن الله أعطاك سُورَةً ... ترى كل مَلْكٍ دونها يَتَذَبْذَبُ(٥)
ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تلمُّه ... على شَعَثٍ ،أىُّ الرجال المهذَّب(٦)
فإن أكُ مظلوماً فعبدًا ظلمتَه ... وإن تك ذا عُتْبَى فمثلُكَ يُعْتِبُ(٧)

وواضح أنه يصور نفسه فى أول هذه الأبيات حين بلغه لوم النعمان بمريض ،

---

(١) أنصب : أجهد جهداً شديداً .

(٢) الهراس : شجر كثير الشوك . العائدات : الزائرات فى المرض . فرشننى : بسطن لى . يقشب : يجدد .

(٣) جانب من الأرض : متسع . مستراد : يذهب فيه الإنسان كما يريد . كناية عن إكرام الغساسنة له فى ديارهم .

(٤) القار : القطران ، وكانوا يداوون به الإبل الجرب .

(٥) السورة : المنزلة . يتذبذب : يضطرب ولا يصل إليها .

(٦) شعث : فساد . تلمه : تجمعه وتضمه .

(٧) عتبى : رضا . يعتب : يعطى العتبى والرضا .

قد أخذته آلام المرض وأهله يسوون له فراشه رحمة به وعطفاً عليه . ويحلف له بأنه برىء مما اتهمه به الواشى ، إذ لا يزال يرعى أمانة عهده ، وكل ما هنالك أنه ألم بديار الغساسنة، فأكرموه وحكّموه فى أموالهم ، فوجب عليه أن يشكر لهم يدهم وصنيعهم كما يشكر النعمان من يرعاهم من الشعراء ويغدق عليهم من نواله . وهو بذلك يقيم الحجة على النعمان ، فليس هناك كفران لنعمته عليه ولا جحود لولائه ،وما يلبث أن يرفعه على جميع الملوك من غساسنة وغير غساسنة ، فهو كالشمس الساطعة وغيره من الملوك كالنجوم ، يتوارون فى ضيائه ومجده ، وهى صورة باهرة لاشك أنها تركت أثراً بليغاً فى نفس النعمان . وقد تلاها باستعطافه ، فصور له ماصبّه عليه من غضب بالقار يُصَبُّ على الأجرب فيتحاماه الناس . ويعود إلى بيان منزلة صاحبه وأن غيره من الملوك لا يرتقون إلى مكانته ، بل يضطربون دون سمائه . ويقول له : هَبْ أن مديحى للغساسنة هفوة واعْفُ عنى ، فإن لكل شخص هفوة ، وأين الأخ الذى لا يهفو ولا يعثر ؟ ومثلك حرى بأن لا يظلم أصفياءه ومن يخلصون له الولاء ، فإن ظلمتنى قبلت ظلمك ، وإن أسدلت علىّ عفوك ورضاك فليس غريباً منك ، فمثلك يعتب ويصفح الصفح الجميل .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل دلالة بينة على براعة النابغة فى اعتذاره ومديحه جميعاً ، فقد كان يعرف كيف ينوّع معانيه وكيف يسلك إليها شعاباً لم يسلكها أحد من قبله . والذى لا ريب فيه أن باب الاعتذار والاستعطاف ضيق ، ولكنه عرف بمقدرته الخيالية كيف ينفذ منه إلى صور طريفة ومعانٍ دقيقة ، يقوده فى ذلك ذوقه الحضرى الذى نصَب أمام عينه اتصاله بالغساسنة ذنباً كبيراً وجرماً لا يغتفر فى حق النعمان بن المنذر ، وقد أخذ يتنصل من هذا الجرم تارة ويعظم فضيلة العفو عن المذنب تارة ثانية . وبذلك كان فاتحاً لباب الاعتذار على مصراعيه ، وعلى هَدْيه تبعه الشعراء فى العصور الإسلامية متخذين منه قُدْوتهم .

وإذا كنا أعجبنا باعتذارات النابغة ومديحه فإننا نعجب أيضاً برثائه للنعمان بن الحارث الأصغر الغسانى ، وهو يستهله بالنسيب ثم يصف ناقته مشبهاً لها بحمار وحشى ، ويخرج من ذلك إلى الرثاء ، فيقول إنه أحزنه نعى النعمان وإن كان سَرَّ قيساً لما أثخن فيها بحروبه . وهو يعبِّر بذلك عن وفائه واعترافه بالجميل ،

ومن ثَمَّ لا يشمت بموت النعمان كما شمتت ذبيان وغيرها من قبائل قيس ، بل إنه ليدعو على أعدائه أن لا يهنئوا بمصرعه ، ويحدثنا عن جيوشه وانتصاراتها فى القبائل . ويقف ليرد على من جهلوا شيمته من الحفاظ على العهد والضن بسابق الود ، فقد ظنوا أنه لن يرثى النعمان ولن يذكره ، ويقول كيف لا يذكره ، وقد حرك موته ما يشبه الداء العضال فى فؤاده ، ونحس أنه سعّر قلبه وأشعل صدره بشعلة من الحزن لا تخبو . وما زال يبكيه متعزياً بأن الموت سنة الأحياء وأنه كأس دائر على الجميع ، حتى قال داعياً له ومترحماً عليه :

سَقَى الغَيْثُ قبرًا بين بُصْرَى وجاسِمٍ ... بغَيْثٍ من الوَسْمِيِّ قطرٌ ووابلُ[1]

ولا زال ريحانٌ ومسكٌ وعَنْبَرٌ ... على منتهاه دِيمَةٌ ثم هاطِلُ[2]

ويُنْبِتُ حَوْذاناً وعَوْفاً مُنَوَّرا ... سأُتْبِعُهُ من خير ما قال قائلُ[3]

وهو يستمطر على قبره شآبيب الغيث ، ولا يكتفى بذلك بل يدعو له أن يظل قبره معطراً بالريحان والمسك والعنبر ، ولا تزال تمده الأمطار بما يُنْبِت عنده النباتات العاطرة من مثل الحوذان والعرف . وحقًّا كان الشعراء حوله ومن قبله يستسقون السحاب لقبور مَنْ يفقدونهم ، ولكنه مدَّ أطناب الصورة بذوقه الحضرى وأضاف إليها الريحان والمسك والعنبر ، ودعا للأرض أن تُنبت من حول النعمان الأزهار والرياض . وهى صورة حضارية تقابل أختها التى مرت فى مديحه لأخيه عمرو .

وقد قدَّم لهذه المرثية كما قلنا بالنسيب ، وهو يقدم به لبعض اعتذاراته مؤتسياً بمن حوله من شعراء الجاهلية إذ كانوا يضعونه غالباً فى مقدمات قصائدهم ، وكأنهم يريدون أن يستوحوا المرأة شعرهم وقصيدهم . ومن نسيبه قوله فى فاتحة معلقته التى أودعها إحدى اعتذاراته :

يا دار مَيَّةَ بالعَلْياء فالسَّنَدِ ... أَقْوَتْ وطال عليها سالفُ الأَبَدِ[4]

وقفتُ فيها أُصَيْلاناً أُسائلُها ... عَيَّتْ جواباً وما بالرَّبْع من أَحَدِ[5]

(١) بصرى وجاسم : موضعان بالشام . الوسمى : أول المطر . وابل : غزير .

(٢) منتهاه : قبره . الديمه : المطر ليس فيه برق ولا رعد . الهاطل : المطر المتتابع .

(٣) الحوذان والعوف : نباتان طيبا الرائحة .

(٤) العلياء والسند : موضعان . أقوت : خلت . الأبد : الزمن .

(٥) أصيلانا : تصغير أصلان جمع أصيل أو لعله مصدر من أصيل على وزن غفران . عيت : عجزت .

إلا الأوارىَّ لَأْياً ما أُبيِّنها والنُّؤْىَ كالحَوْض بالمظلومة الجلَدِ(١)
رُدَّتْ عليه أَقاصيــه ولبَّدَهُ ضَرْبُ الوليدة بالمِسْحاة فى الثَّأَدِ(٢)
خَلَّتْ سبيلَ أَتِىٍّ كان يحبسهُ ورفَّعتْه إلى السَّجْفين فالنَّضَدِ(٣)
أَمستْ خلاءً وأمسى أهلُها احْتملوا أَخْنَى عليها الذى أَخنى على لُبَدِ(٤)

وهو يستهلها بنداء دار مية ولا يسمع رجعاً لندائه ولا ردًّا عليه، فقد خلت من سكانها وبارحوها منذ أمد طويل . ويقول إنه وقف بها وقت الأصيل يسائلها ولا من مجيب ، ويصف آثارها وما أبقى الزمن منها ، ويقول لم يبق منها إلا الأوتاد وإلا النؤى . ويطيل فى وصفه ليظهر قدرته الخيالية ، فقد حفرته جارية فى أرض صلبة ، وما زالت ترد أتربته على حوافيه ، باسطة طريقه إلى الخيام ليرد عنها سيول المطر . وقد أبدع فى تسمية الأرض التى لم تحفر بالمظلومة ، وهو أول من أعطاها هذا الاسم ، كأنه أحس إزاء الصخر الذى لا يُحرَثُ ولا يزرع بضرب من الظلم . وقد ختم نسيبه بإظهار هذه الدار التى رحل عنها أهلها بمظهر بال ، فقد جرَّت الأيام عليها أذيال البلى والعفاء، كما جرَّتها من قبل على لُبد نسر لقمان المشهور بطول عمره وطول سلامته .

وواضح أن هذا النسيب فيه قدرة بارعة على الوصف ، ولكن ليس فيه عاطفة قوية ، وربما رجع ذلك إلى وقار النابغة، فهو ينسب بالمرأة لا ليصور حبًّا ، وإنما ليتمسك بهذا التقليد الثابت عند الجاهليين من افتتاح قصائدهم بوصف آثار الديار وما صنعت بها الأحداث . وقد أوشك فى مقدمته لاعتذاريته العينية أن يصور عواطفه وحبه ولكنه لم يكد يقول :

فكفكفتُ منى عبرةً فَرَدَدْتُها على النَّحْر منها مُستَهِلٌّ ودامعُ(٥)

---

(١) الأوارى : الأوتاد وما يربط بها من حبال . النؤى : حفرة حول الخيام تمنع عنها السيول . المظلومة : الأرض صعبة الحفر . الجلد : الصلبة .
(٢) لبده : جمعه . الوليدة : الأمة . الثأد : الثرى الندى .
(٣) خلت : شقت . الأتى : السيل . رفعته : أعلته . السجفان : مصراعا الستر فى الخيمة . النضد : المتاع .
(٤) أخنى عليها : أصابها بآفات الدهر . لبد : نسر للقمان يقولون إنه عمر طويلا .
(٥) كفكف الدمع : مسحه . المستهل : السائل . الدامع : الذى يترقرق فى العين قبل أن يسقط .

حتى أمسك نفسه ، وعاتبها على الصبوة وقد علا رأسه الشيب . ونراه فى معلقته يخرج من الغزل إلى وصف ناقته على عادة الشعراء من حوله ، فيصور قوة متنها وسرعة سيرها ومضائها ، ثم يأخذ فى تشبيهها بثور وحشى ، ويدفعه ذلك إلى وصف صائد وأكلبه وما نشب بينها وبين هذا الثور من عراك ، يقول :

مِنْ وَحْشِ وَجْرَةَ مَوْشِيٌّ أَكارِعُهُ ... طاوى المَصِير كسيف الصَّيْقَلِ الفَرِدِ (١)

أَسْرَتْ عليه من الجوزاء سَارِيَةٌ ... تُزْجى الشمالُ عليه جامدَ البَرَدِ (٢)

فارتاع من صَوْتِ كَلَّابٍ فبات ،له ... طَوْعُ الشَّوامِتِ من خَوْفٍ ومن صَرَدِ (٣)

فبثَّهنَّ عليـــهِ واستمرَّ بهِ ... صُمْعَ الكعوب بَرِيَّاتٍ من الحَرَدِ (٤)

وكان ضُمْرَانُ منه حيث يُوزِعُهُ ... طَعْنَ المُعارك عند المُحْجَرِ النَّجُدِ (٥)

شَكَّ الفَرِيصةَ بالمِدْرى فأَنفذها ... طَعْنَ المُبَيْطِرِ إذ يَشْفِى من العَضَدِ (٦)

كأَنه خارجاً من جَنْبِ صَفْحتِهِ ... سَفُّودُ شَرْبٍ نَسُوهُ عند مُفْتَأَدِ (٧)

فظلَّ يَعْجُمُ أَعلى الرَّوْقِ مُنْقَبِضاً ... فى حالك اللَّوْن صَدْقٍ غير ذى أَوَدِ (٨)

لما رأى واشِقٌ إِقْعَاصَ صاحبِهِ ... ولا سبيل إلى عَقْلٍ ولا قَوَدِ (٩)

قالتْ له النفسُ إنى لا أرى طمعاً ... وإنَّ مولاك لم يسلم ولم يَصِدِ (١٠)

---

(١) وجرة : موضع بنجد . موشى أكارعه : مزينة قوائمه بالنقط . طاوى المصير : ضامر البطن . الصيقل : الحداد . الفرد : المسلول .

(٢) أسرت : جاءت ليلا . الجوزاء : برج فى السماء . سارية : سحابة . تزجى : تدفع . الشمال : ريح الشمال .

(٣) الشوامت : القوائم ويريد بطوعها إسراعها به . والصرد : البرد .

(٤) استمر به : اشتد به وقوى . صمع : ضوامر . بريات : بريئات . الحرد : العرج .

(٥) ضمران : اسم كلب للصائد . يوزعه : يغريه . المحجر : حمى القبيلة . النجد : الشجاع .

(٦) الفريصة : لحم الكتف . المدرى : القرن . المبيطر : معالج الحيوان . العضد : داء يلم بكتفها .

(٧) السفود : الحديدة التى يشوى عليها اللحم . نسوه : تركوه . مفتأد : موضع النار الذى يشوى فيه .

(٨) يعجم : يعلك . صدق : صادق فى الطعن . أود : عوج .

(٩) واشق : اسم كلب آخر للصائد . الإقعاص : القتل السريع . العقل : الدية . القود : القصاص .

(١٠) المولى : الناصر . يسلم هنا : يأسر .

وهو يبدأ برسم صورة هذا الثور ، فقوائمه مزينة بما فيها من نقط ، وهو ضامر كالسيف المسلول ، يجرى فى الصحراء خائفاً متوجساً لما تسقط عليه السماءُ من بَرَدٍ لا ينقطع . ولم يلبث أن ذُعر ذعراً شديداً إذ سمع صوت قانص يهتف بكلابه ، فأسرع فى جرْيه ، ولمحه القانص فبعث عليه كلابه ، فاشتدت قوائمه وكعوبه مستخرجاً منها كل ما يبتغى من سرعة ، ولكن الكلاب لحقت به ، وكان أول ما لقيه منها ضمران ، ونشب بينهما صراع عنيف ، أهوى فيه الثور على خصمه بقرنيه ، ولم يلبث أن طعنه بأحدهما طعنة نجلاء ، نفذت إلى ظاهر صدره ، فكنت ترى الكلب من وهلته يعلك أعلى القرن وما خرج منه متقبضاً متألماً إلى أن لفظ أنفاسه . ولما رأى واشق ما أصاب أخاه وأنه لن يستطيع أن يعينه ولا أن يدرك بثأره أحجم عن لقاء الثور إبقاء على نفسه ، وقد أخذه اليأس من أن يصيد صاحبه كما كان يبغى ، فدون بغيته الموت والهلاك .

وهذا الوصف أكثر حيوية من النسيب السابق ، لما بثَّ النابغة فى الحيوان من حياة الإنسان وعواطفه وقلقه وطمعه ويأسه ، فالثور خائف يترقب ، والكلاب طامعة تتربص . وتنشب المعركة وكأنها معركة آدمية ، فالثور يطعن طعن الرجل المدافع عن عرينه وحماه . ويُقْتل ضمران . وينظر أخوه واشق فيرى أن القصاص غير ممكن ، وتحدثه نفسه بأنه يطمع فى غير طائل ، وما يلبث أن ينصرف عن المعركة ، وقد قذفت به فى مهاوى اليأس والقنوط . ولا ينسى النابغة مهارته فى التصوير سواء من حيث تمثيل المنظر وتجسيمه أو من حيث التشبيهات وإدخالها فى نسيج الأبيات .

وفى ديوانه فخر وهجاء يتصل بشئون قبيلته البدوية وما كان بينها وبين بنى أسد من حِلْفٍ وبينها وبين بنى عامر من حرب ، وهو فى هذا القسم من شعره لا يتوفر على إحكامه وإظهار مهارته فيه شأنه فى المديح والاعتذار والرثاء ، وكأنه كان يمنعه وقاره أن يتمادى فيه ، وخاصة فى الهجاء ، واقرأْ له هذه الأبيات فى عامر بن الطفيل وقد بلغه أنه يهجوه :

فإن يكُ عامرٌ قد قال جَهْلا فإن مَطِيَّةَ الجهل السِّبابُ

فَكُنْ كأبيك أو كأبي بَرَاءٍ　　تُوافقْك الحكومةُ والصوابُ[١]

ولا تذهبْ بحلمِك طامياتٌ　　من الخُيَلاء ليس لهنَّ باب[٢]

وإنك سوف تَحْلُمُ أو تناهَى　　إذا ما شِبْتَ أو شاب الغُراب[٣]

وهى أبيات تخلو من الإقذاع فى الهجاء المعروف عند الجاهليين ، وهو يعمد فيها بذوقه الحضرى إلى التهكم به والسخرية منه ، فيصفه بالحمق ، ويصغّر إليه نفسه بتفضيل أبيه وعمه عليه ، وينهاه عن الخيلاء ، ويؤمله فى أنه سوف يحلم حين تتقدم به السن أو لعله لا يحلم أبداً . وواضح أن الشطر الثانى فى البيت الأول حكمة سائرة ، وتكثر هذه الحكم عند النابغة يأتى بها فى ثنايا شعره وقصيده ، فتكون شطراً كهذا الشطر ، وقد تكون بيتاً كالبيت الأخير من هذه الأبيات ، وفيما تمثلنا من شعره كثير منها ، ومن رائعها قوله :

ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تلمُّهُ　　على شَعَثٍ ، أىُّ الرجال المهذَّبُ

ومما لا شك فيه أنه يدل بهذه الحكم على صدق نظرته ودقة حِسِّه .

وجوانب كثيرة فى شعر النابغة تفصح عن مهارته فى صوغ القصيدة ونظمها ، سواء من حيث ألفاظه أو من حيث صوره ومعانيه ، أما من حيث الألفاظ فإنك لا تقع منها على لفظة نابية ، إنما تقع على الألفاظ المحكمة المستخدمة فى دلالاتها الدقيقة ، ولعل ذلك ما جعله يلتزم الألفاظ البدوية الغريبة حين يصف الديار والصحراء والحيوان الوحشى ، أما حين يمدح الملوك أو يرثيهم أو يعتذر إليهم فإنه يستخدم الألفاظ المأنوسة الجزلة الناعمة . وهذه البراعة عنده جعلت نقاد العصر العباسى يقولون : إنه « كان أحسن الجاهليين ديباجة شعر وأكثرهم رونق كلام وأجزلهم بيتاً[٤] » . على أنهم لم يلبثوا أن ادعوا عليه أنه كان يُقْوِى فى شعره محتجين على ذلك ببيت فى قصيدة المتجردة التى وُضعت عليه ، فقد جاء فيها بيت مرفوع الروى ، بينما رويها المطَّرد مكسور ، ورووا فى ذلك قصة ، هى أن النابغة قدم

---

(١) أبو براء : عامر بن مالك ملاعب الأسنة وهو عم عامر بن الطفيل .

(٢) طاميات : فائضات ومرتفعات . ليس لهن باب : لا مخرج منهن .

(٣) أو شاب الغراب : ضرب النابغة ذلك مثلا لعامر وأنه لن يحلم أبداً .

(٤) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص ٤٦ وانظر الشعر والشعراء ١٠٨/١ .

يثرب ، فعاب عليه أهلها ذلك فى قصيدته المذكورة ، فلم يأبه لهم حتى أسمعوه إياه فى غناء ، ففطن إلى ما قالوا ولم يعد إلى ذلك(١) . ولكن القصيدة كما قدمنا مما نُحل على النابغة ، فحرى أن تكون القصة مثلها منحولة .

وإذا كان النابغة يُعنى بألفاظه عناية راعت السابقين فإنه يعنى كذلك بمعانيه ، وهى عناية أتاحت له كثرة الخواطر فى اعتذارياته على الرغم من ضيق هذا الموضوع ، وأيضاً فإنها أتاحت له ضرباً من ترتيب أفكاره ، ويتضح ذلك فى تنسيقه لموضوعات بعض قصائده ، إذ نراه يحسن التخلص من موضوع إلى موضوع ، وارجعْ إلى معلقته فإنك تراه يخرج من النسيب إلى وصف ناقته خروجاً تسنده المناسبة ، حتى إذا أتم هذا الوصف قال :

فتلك تبلغنى النعمانَ إن له فضلاعلى الناس فى الأَدنى وفى البَعَدِ

وكذلك صنع فى اعتذاريته العينية فإنه خرج من النسيب إلى الاعتذار خروجاً متصلا ، إذ قال إنه كفَّ عن التشبيب والحب لشيبه ولما يشغله من هم ، هو غضب النعمان ، على هذه الشاكلة :

وقد حال همٌّ دون ذلك شاغلٌ مكان الشَّغاف تبتغيه الأَصابعُ(٢)
وعيدُ أَبى قابوس فى غير كُنْهِهِ أتانى ودونى راكسٌ فالضَّواجع

وهذه العناية البالغة بالمعانى والألفاظ كان يؤازرها عنده عنايته بالصور وما يُطوَى فيها من تشبيهات واستعارات ؛ ولا نلاحظ عنده الكثرة من الصور فحسب ، بل نلاحظ أيضاً القدرة على الابتكار ومفاجأة السامع بالأخيلة التى تخلب لُبّه ، وخاصة حين يتنصّل للنعمان بن المنذر من ذنبه ، وحين يصور بطشه بمن يغضب عليهم مستعطفاً مسترحماً . وكان له ذوق جيد فى اختيار صوره ومعانيه جميعاً ، وهو ذوق هذبته الحضارة التى نَعِمَ بها فى الحيرة وبلاط الغساسنة ، فإذا هو رقيق الحس رقة شديدة ، وإذا هو يأتى فى مديحه ورثائه بمعان حضارية غير مألوفة للجاهليين . وليس ذلك فحسب ، فإنه يفتح صفحة جديدة هى صفحة

---

(١) ابن سلام ص ٥٥ وما بعدها والأغانى (طبعة دار الكتب) ١١/١٠ .

(٢) الشغاف : حجاب القلب .

الاعتذاريات والاستعطافات وما يجرى فيها من الحس المرهف والشعور الدقيق ، وتسربت من ذلك أسراب فى جميع موضوعات شعره ، حتّى الهجاء .

وإذا أضفنا إلى كل ذلك عند النابغة أخلاقه الرفيعة التى تتمثل فى وقاره وارتفاعه عن الدنيات ووفائه للأصدقاء والأحلاف وحِفاظه الشديد على العهد وسابق الود أمكننا أن نفهم منزلته التى احتلها فى العصر الجاهلى وأسبابها ، إذ جعلوه محكَّماً بين الشعراء فى عُكاظ كما قدمنا ، وكأنه فى رأيهم الشاعر الفذّ الذى لا يُشَقُّ غباره والذى لا ينطق عن هوى أو عصبية ، ومن ثَمَّ كان حكمه قاطعاً لا يقبل طعناً ولا نقضاً .

الفصل التاسع

زهير بن أبى سلمى

١

قبيلته

هو زهير بن أبى سُلْمى ربيعة بن رياح المُزَنىّ ، فأبوه من قبيلة مُزَيْنة ، وكانت تجاور فى الجاهلية بنى عبد الله بن غطفان حيث كانوا ينزلون فى الحاجر بنجد شرقى المدينة وينزل معهم بنو مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان أخوالُ أبيه ربيعة . ويحدثنا الرواة أنه أقام فيهم زمناً مع أمه ، وحدث أن أغار مع قوم منهم على طيئ وأصابوا نعَماً كثيراً وأموالا ، ولما رجعوا لم يفردوا له سهماً فى غنائمهم ، فغاضبهم وانطلق بأمه إلى قبيلته مزينة ، ثم لم يلبث أن أقبل فى جماعة منها مغيراً على عشيرة أخواله ، ولم يكادوا يتوسطون ديارها حتى تطايروا راجعين وتركوه وحده ، فأقبل حتى دخل فى أخواله ، ولم يزل فيهم حتى توفىّ ومن ثَمّ وُلد له زهير وأولاده فى منازل بنى مرة وبنى عبد الله بن غطفان[١] . وكان ذلك سبباً فى أن يضطرب الرواة وأن يظن بعضهم أن زهيراً غطفانى القبيلة[٢] ، وهو فى الحقيقة مزنى النسب غطفانى النشأة والمَرْبَى ، وقد صرَّح ابنه كعب بهذا النسب إذ يقول فى بعض شعره ردًّا على مزرِّد بن ضِرار وقد عزَاه إلى مزينة[٣] :

همُ الأصل منى حيث كنتُ وإننى ... من المُزَنيِّين المصفَّيْنَ بالكرمْ

ويظهر أن ربيعة لم يعش طويلا فى عشيرة أخواله ، ويقول الرواة إن امرأته تزوجت من بعده أوس بن حَجر الشاعر التميمى المشهور . وهنا يلمع فى حياة زهير اسم خاله بَشامة بن الغدير ، فقد كفله هو وإخوته ، ونعرف منهم سلمى كما نعرف أخرى تسمى الخنساء.

---

(١) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٠/٢٩١ وما بعدها .

(٢) انظر ترجمة زهير فى الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/٨٦ .

(٣) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص٨٨ وما بعدها .

وقد عاش زهير فى خلال هذه الحروب التى نشبت بين عَبْس وذُبْيان، حروب داحس والغبراء التى سبق أن تحدثنا عنها فى غير هذا الموضع، وقد أسهمت عشيرة أخواله، فى تلك الحروب وصليت نارها. وأيضاً فإنها صليت نيران حروب أخرى كانت تنشب بينها وبين بعض العشائر الذبيانية، وفى شعر خاله بَشامة ما يصور تلك الحروب الأخيرة، فقد روَى له صاحب المفضليات قصيدتين يحرض فيهما عشيرته أن لا يخذلوا حلفاءهم «الحُرَقة» وأن يقفوا معهم ضد بعض العشائر من بنى سعد بن ذبيان. ومعنى ذلك أن الأيام التى عاشها زهير فى عشيرة أخواله الذبيانيين لم تكن أيام استقرار وأمن، إنما كانت أيام حروب وسفك للدماء، فدائماً تُشَنّ الغارات، ودائماً تجيش القلوب بالأضغان، فتُسَلّ السيوف وتُقَطَّع الرقاب. ويعودون من حروبهم دائماً إلى رعى الإبل والأغنام، وإلى صيد بعض الحيوان، شأن القبائل النجدية فى العصر الجاهلى.

وكانت ذبيان وغيرها من قبائل غطفان تتعبَّد فى الجاهلية العُزَّى، ويقال إنها كانت شجرة أقامت حولها كعبة كانت تحج إليها، وتُهدِى القرابين، وقد هدمها خالد بن الوليد بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم، وربما قال الرواة إنها شجرات ثلاث، وقد يقولون إنه كان فى الكعبة وثن. وأكبر الظن أن هذا هو الصحيح فقد كان فيها وثن العُزَّى، وكان من حوله شجرات يقدسونها[1]. ومهما يكن فقد كانوا وثنيين، وظلوا على وثنيتهم إلى ظهور الدين الحنيف.

٢

حياته

ليس بين أيدينا شىء واضح عن نشأة زهير سوى أنه عاش فى منازل بنى عبد الله ابن غطفان وأخواله من بنى مرة الذبيانيين، وفى كنف خاله بَشامة بن الغدير، وكان شاعراً مجيداً كما كان سيداً شريفاً ثرياً، يقول ابن سلام: «وكان كثير المال، وكان

(١) انظر تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ٥/٩٧ وما بعدها.

ممن فقأ عينَ بعير في الجاهلية، وكان الرجل إذا ملك ألف بعير فقأ عين فحلها[١]».
وكان بشامة من أحزم الناس رأياً فكان قومه يستشيرونه ويصدرون عن رأيه، ولم يكن له ولد، فلما حضرته الوفاة جعل يقسم ماله في أهل بيته وأعطى زهيراً نصيباً منه، ويُروَى أنه قال له إني أعطيتك ما هو أفضل من المال، فقال زهير: ما هو؟ فقال له: شعري[٢]، وهو لم يرث عنه شعره وماله فقط، بل ورث عنه أيضاً خلقه الكريم. وفي أخباره أنه تزوج من امرأتين: أم أوفى وهي التي يذكرها كثيراً في شعره، ويظهر أن المعيشة لم تستقم بينهما، فطلقها بعد أن ولدت منه أولاداً ماتوا جميعاً. والثانية التي تزوجها من بعدها هي كبشة بنت عمار الغطفانية، وهي أم أولاده: كعب وبُجَيْر وسالم، ومات سالم في حياته ورثاه ببعض شعره[٣].

وهو يتحدث في شعره طويلا عن حروب داحس والغبراء مشيداً بهرم بن سنان والحارث بن عَوْف سيدي بني مرة اللذين حقنا دماء عبس وذبيان بعد أن طال عليهما الأمد في تلك الحروب، إذ تحمَّلا ديات القتلى، ويقال إنها كانت ثلاثة آلاف بعير أدَّياها في ثلاث سنين[٤]. واعتدَّ زهير بهذه المنة الجليلة فأشاد بها في معلقته، وظل طوال حياته يمدح هرماً ويمجده، وهرم يُغْدق عليه[٥]. وبذلك أعطى كل منهما صاحبه خير ما يملك، وقد ذهب ما أعطاه هرم لزهير مع الزمن، أما ما أعطاه زهير هرماً فخلد على الأيام. ومن طريف ما يُروَى في هذا الصدد أن هرماً «حلف أن لا يمدحه زهير إلا أعطاه ولا يسأله إلا أعطاه ولا يسلم عليه إلا أعطاه: عبداً أو وليدة أو فرساً، فاستحيا زهير مما كان يقبل منه، فكان إذا رآه في ملأ قال: عِموا صباحاً غير هرم، وخيركم استثنيت[٦]». ونراه يشيد بحصن بن حذيفة سيد بني فزارة الغطفانيين، وخاصة بحروبه مع أحلافه بني أسد ضد النعمان بن الحارث الغساني وما أنزلوا بجيوشه من هزائم منكرة[٧]. وليس في ديوانه وراء حروب حصن وحروب داحس والغبراء إشارة إلى غارات سوى ما كان من غارة الحارث بن وَرْقاء الأسدي في جماعة من قومه على عشيرته، وقد أخذ فيما أخذ

---

(١) ابن سلام ص ٥٦٣.
(٢) أغاني (طبع دار الكتب) ٣١٢/١٠
(٣) أغاني ٣١٣/١٠.
(٤) أغاني ٢٩٧/١٠
(٥) أغاني ٣٠٥/١٠.
(٦) أغاني ٣٠٥/١٠.
(٧) انظر ديوان زهير (طبعة دار الكتب) ص ١٤٣ ومختار الشعر الجاهلي للسقا ص ٢٤٥.

إبلاً وغلاماً لزهير يسمى يَساراً . وغضب زهير غضباً شديداً،وهدده إن لم يردّ عليه إبله أن يهجوه هجاء مقذعاً ، مذكراً له بما بين عشيرتيهما من مواثيق وعهود نقضها نقضاً ، وخشى الحارث معرة لسانه وما يصبُّ عليه من لعنات فرد عليه ماله وغلامه(١).

وتدل الدلائل على أنه عاش فى سعة من المال مما ورثه عن خاله وما كان يقدّم له هرم وغيره من أشراف قبيلته من أموال . وكان فيه توقر ونبل ، ولعل ذلك ما جعل شعره يخلو من الفحش والعهر ، فهو من ذوق آخر غير ذوق امرئ القيس المفتون بالنساء وتصوير مغامراته القصصية معهن . ومن غير شك كان وثنياً ، مثله مثل قومه ، وإن كنا نلاحظ عنده بعض أبيات يؤمن فيها باليوم الآخر وما فيه من حساب وعقاب وثواب ، يقول فى معلقته :

فلا تَكْتُمُنَّ اللهَ ما فى نفوسكم ... ليخفى ومهما يُكْتَم اللهُ يعلمِ
يؤخَّرْ فيوضَعْ فى كتابٍ فيُدَّخَر ... ليوم الحساب أو يعجَّلْ فيُنْقم

وإذا صحت نسبة البيتين إليه كان ذلك دليلا على أنه أحد من تحنفوا فى الجاهلية وشكوا فى دينهم الوثنى(٢) وأغلب الظن أنه لم يفارق دين قومه ، إنما هى خطرات كانت تمر به .

وحياة زهير من الوجهة الأدبية طريفة ، فقد كان أبوه شاعراً،وكذلك كان خاله كما قدمنا ، وأختاه سلمى والخنساء ، وورث عنه الشعر ابناه كعب وبُجَيْر ، واستمر الشعر فى بيته أجيالا ، فقد كان عقبة بن كعب شاعراً ، وكان العوام ابن عقبة شاعراً أيضاً(٣) ويقولون إنه رحل عن البادية وأقام فى البصرة .

فنحن بإزاء شاعر اتصل الشعر فى بيته اتصالا لم يعرف لشاعر جاهلى ممن عاصروه ، وليس هذا فحسب ، فإنه عاش للشعر يعلمه ابنيه بُجَيْراً وكعباً من جهة ، وأناساً آخرين من غير بيته أشهرهم الحطيئة ، فهو تلميذه وخريجه .

(١) أغانى ١٠/٣٠٧ وما بعدها .
(٢) انظر فى ذلك المحبر لابن حبيب ص ٢٣٨ حيث يذكر أنه كان ممن حرموا على أنفسهم فى الجاهلية الخمر والسكر والأزلام .
(٣) مقدمة ديوان زهير (طبعة دار الكتب) ص ٩ وقارن بالأغانى ١٠/٣١٤ والشعر والشعراء ١/٩٢ .

وفى أخباره مع ابنه كعب ما يدل على الطريقة التى كان يُخرج بها الشعراء، فقد كان يلقّنهم شعره ويروونه عنه ، وما يزالون يتلقنونه ، حتى تنطبع فى أنفسهم طريقة نَظْم الشعر وصوغه ، وهو فى أثناء ذلك يمتحن قدرتهم، بما يلقى عليهم من أبيات يطلب إليهم أن يجيزوها ، بنظم بيت على غرار البيت الذى ينشده فى الوزن والقافية[١]. ويظهر أنه عُمّر طويلا إذ يقال فى بعض الروايات إنه أدرك الإسلام وله مائة سنة ولم يسلم[٢] ، ولكن إدراكه الإسلام غير صحيح ، إنما الصحيح أنه مات قبيل الإسلام بمدة قليلة ، والذى أدرك الإسلام حقًّا ابناه بجير وكعب ، وقد أسلما وحسن إسلامهما ، ولكعب قصيدة معروفة فى مديح الرسول صلى الله عليه وسلم، وهى ذائعة مشهورة .

٣

ديوانه

طُبع ديوان زهير طبعات مختلفة، لعل أقدمها طبعة ألوارد فى مجموعة العقد الثمين فى دواوين الشعراء الستة الجاهليين ومرَّ بنا — فى حديثنا عن ديوان امرئ القيس — أنه استخرجها من شرح الشنتمرى للدواوين الستة: دواوين امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعلقمة وعنترة ، وهى برواية الأصمعى غير أنه جردها من الشرح وأضاف إلى تلك الدواوين أشعاراً أخرى مما وجدها فى كتب الأدب والتاريخ . ونشر الديوان لندبرج السويدى بشرح الشنتمرى سنة ١٨٨٩ فى سلسلته التى سماها « طرفا عربية » ، ومكانه فيها الطرفة الثانية ، وطُبع بعد ذلك فى مصر وغيرها طبعات تعتمد على نشرة لندبرج ؛ ونشره مصطفى السقا فى مجموعته مختار الشعر الجاهلى ، وهى تتضمن كما مرَّ بنا نفس الدواوين الستة التى شرحها الشنتمرى ، وقد أضاف إليها شرحاً مختصراً من شرح الشنتمرى . ونُشرت هذه الدواوين برواية الأعلم البطليوسى ، وهى تلتقى برواية الشنتمرى عنده ، وكأنه هو الآخر عُنى فى عمله برواية الأصمعى .

(١) ديوان زهير ص ٢٥٦ .
(٢) أغانى ١٠/٢٩١ .

وواضح أن هذه الطبعات تعتمد على رواية الأصمعى البصرية ، وكانت هناك مخطوطات عدة لرواية ثعلب الكوفية بدار الكتب المصرية ، ورأى القائمون فيها أن ينشروا هذه الرواية ، مستعينين بنسخة منها قديمة تملكها مكتبة الجمعية الألمانية الشرقية فى هلة ، وظهر الديوان بهذه الرواية فى سنة ١٩٤٤ للميلاد .

وإذن فعندنا لديوان زهير روايتان مطبوعتان : رواية الأصمعى البصرية ورواية ثعلب الكوفية ، وتمتاز الأولى بالتشدد ، فهى لا تروى سوى ثمانى عشرة قصيدة ومقطوعة ينهيها الشنتمرى بقوله : « كمل جميع ما رواه الأصمعى من شعر زهير ونصل به بعض الروايات » ويضيف من رواية الكوفيين قصيدتين شك الرواة فى ثانيتهما[١]. وإذا نظرنا فى رواية ثعلب الكوفية وجدناها تضيف عشرات القصائد والمقطوعات ، ومن حين إلى حين تنص على أن هذه القصيدة وتلك المقطوعة من رواية حماد أو ابن الكلبى المعروفين بكثرة الوضع . ومن ثَـمَّ كنا لا نستطيع أن نتخذ من الرواية الكوفية أساساً وثيقاً لدراسة زهير ، فنحن نرفضها رفضاً ، متخذين من رواية الشنتمرى أو بعبارة أخرى رواية الأصمعى أساساً لبحثنا فى زهير وشعره ، وإذا كان هناك قصيدة يمكن أن تضاف إلى هذه المجموعة فهى القصيدة التى تليها فى رواية الشنتمرى ، إذ يظهر أنها صحيحة النسب إلى زهير[٢] . وقد يكون مما يؤكد صحة شعر زهير برواية الأصمعى أن الشعر كما قدمنا اتصل فى ولده أجيالا ، وأن آخرهم العوَّام نزل البصرة وأقام فيها ، وأكبر الظن أن أبناءه ظلوا يروون شعره حتى أسلموه أو أسلمه العوام إلى رواة البصرة وعلمائها .

وإذا أخذنا نفحص رواية الأصمعى التى تحتفظ بثمانى عشرة قصيدة ومقطوعة وجدنا الشنتمرى[٣] ينقل عنه أنه كان ينكر ثلاثاً منها ، هى : (أبلغ بنى نوفل عنى وقد بلغوا) و (أبلغ لديك بنى الصَّيْداء كلهم) و (ألا ليت شعرى هل يرى الناس ما أرى) وكان أبو عبيدة ينكر مقطوعته : (إن الرزيَّة لا رزية مثلها)

---

(١) انظر الديوان (طبعة دار الكتب) ص١٩٣.
(٢) أغانى ١٠/٢٨٩ وفى الديوان ص٢١٩ أن المفضل الضبى كان يرويها .
(٣) راجع مخطوطة الشنتمرى بدار الكتب المصرية رقم ٨١ أدب ش وفى الخزانة التيمورية بدار الكتب نسخة ثانية برقم ٤٥٠ أدب — شعر تيمور .

ويقول إنها لقُراد بن حَنش من شعراء غطفان(١). ولا يبقى لزهير بعد ذلك من رواية الأصمعي سوى أربع عشرة قصيدة ومقطوعة ، تضاف إليها القصيدة التي رواها المفضل واحتفظ بها الشنتمرى ، وهي : (غَشيتُ دياراً بالبقيع وثَهمد). على أنه ينبغي أن نسقط من قصيدته (لمن الديار بقُنَّة الحَجْر) الأبيات الثلاثة الأولى لأن حماداً زادها فيها كما مر بنا في حديثنا عن الانتحال . وقد شك الأصمعي في الحِكم الملحقة بالمعلقة وقال إنها لِصِرْمة بن أبي أنس(٢) الأنصاري ، ويمكن أن يكون لزهير طائفة منها اختلطت على الرواة بطائفة أخرى تماثلها ، نَظَمها صرمة ، وسنرى أن زهيراً كان يكثر من الحِكم في شعره .

٤

شعره

لعل الشعر الجاهلي لم يعرف شاعراً عُني بتنقيحه عناية زهير ، وقد ذهب القدماء يقولون إنه كان يَرْوى شعر زوج أمه أوس بن حَجر الشاعر التميمي المشهور ، كما كان يروى شعر طُفَيْل الغنوى(٣) المعروف ببراعته في وصف الخيل والصيد ، وأيضاً فإنه كان يروى شعر خاله بَشامة بن الغدير(٤) . وهم لا يقفون بملاحظاتهم عند ذلك ، إذ يقولون إنه خَرَّجَ ابنه كعباً في الشعر كما خرج الحطيئة(٥) .

فنحن إذن بإزاء شاعر ممتاز ، عاش للشعر يرويه ويعلّمه ، أو بعبارة أخرى نحن بإزاء مدرسة يتضح فيها زهير وتلميذاه كعب والحطيئة ، وإذا أردنا أن نبحث لزهير عن أستاذ حقيقي تأثره في شعره من بين الثلاثة الذين ذكروهم وجدنا أقربهم إلى شعره أوس بن حجر زوج أمه ، فإنه يتأثره في جميع جوانب فنّه ، يتأثره في الموضوعات التي عالجها وفي طريقة معالجته لها ، وفيما يصوغه من معان وصور ، وسنشير إلى مواضع ذلك عما قليل .

---

(١) ابن سلام ص ٥٦٨ .
(٢) المعمرين للسجستاني ص ٦٦ .
(٣) العمدة لابن رشيق (طبعة أمين هندية) ١٣٢/١ وانظر الشعر والشعراء ٨٦/١ .
(٤) أغاني ٣١٢/١٠ .
(٥) أغاني (طبع دار الكتب) ١٦٥/٢ ، ٩١/٨ والشعر والشعراء ٩٣/١ .

وإذا أخذنا نستعرض شعر زهير وجدناه يَنْظِم فى المديح والغزل ووصف الصيد والهجاء ، وفى تضاعيف ذلك يجنح إلى الحكمة ووصف مكارم الأخلاق . وإذا أبدلنا المديح بالتأبين كانت هذه الموضوعات هى نفسها التى يدور فيها شعر أوس ، فإنه لم يؤثر عنه مديح إلا أبياتاً متفرقة ، وإذا كان مديحه فُقِد فإن تأبينه خلد على الزمن ، وقد أنشدنا منه قِطعة فى غير هذا الموضع ، وهو يلتقى فيه بزهير حين يشيد بفضائل فَضالة بن كَلَدَة ومناقبه ، التى يعود بها إلى المثل العربى الكريم للمروءة .

وتلمع بين مدائح زهير معلقته ، وقد نظمها مشيداً بِهَرِم بن سنان والحارث بن عوف حين سعيا بالصلح بين ذبيان وعبس فأعلنا أنهما يتحملان ديات القتلى حتى تضع الحرب أوزارها بين القبيلتين المتناحرتين ، وتصادف فى أثناء ذلك أن قَتَل الحُصَيْن بن ضَمْضَم عبسياً ثأراً لأخيه هَرِم بن ضَمْضَم ، وكان قتله وَرْد بن حابس العبسى ، فثارت عبس وشهرت سيوفها تريد أن تعيد الحرب جَذَعَةً ، وسرعان ما تقدم الحارث لهم بمائة من الإبل وبابنه ليختاروا إما الدية وإما قتل فلذة كبده ، فقبلوا الدية ودخلوا فى الصلح ، وانتهت الحرب الدامية . وهنا نرى زهيراً يشيد بهذه المكرمة الجليلة ناعياً على حُصَيْن فعلته التى كادت تودى بفكرة الصلح ، لاهجاً بالثناء على السيدين وما قدما للقبيلتين من ديات حقنت الدماء ، يقول :

يميناً لَنِعْمَ السيدان وُجِدْتُما ... على كل حالٍ من سَحيلٍ ومُبْرَمِ (١)
تداركتما عَبْساً وذُبْيانَ بعد ما ... تفانوا ودَقُّوا بينهم عِطْرَ مَنْشِمِ (٢)
وقد قلتما إن نُدْرِكِ السِّلْمَ واسعاً ... بمالٍ ومعروفٍ من الأمر نَسْلَم
فأصبحتما منها على خير مَوْطِنٍ ... بعيدين فيها من عُقوق ومَأْثَمِ (٣)
عظيمين فى عُلْيَا مَعَدٍّ وغيرها ... ومن يَسْتَبِح كنزاً من المجد يَعْظُمِ (٤)

(١) السحيل : غير المبرم . يريد أنهما خير عشيرتهما فى كل أمر ، أبرماه أو لم يبرماه .
(٢) منشم : امرأة عطارة كانت فى مكة ، غمس قوم أيديهم فى عطرها وتعاهدوا على الحرب حتى فنوا عن آخرهم . يشبه قبيلتى عبس وذبيان بهم .
(٣) يريد أنهما لم يشتركا فى تلك الحروب ، فهما يؤديان عن غيرهما الديات .
(٤) يريد بعليا معد رؤساءها وأشرافها . يعظم : يصبح عظيما .

وجعلته هذه المأثرة يشيد بالسلم والسلام ، فكان بذلك شذوذاً على ذوق الجاهليين وأشعارهم التي تدوّى بفكرة الأخذ بالثأر والترامى على الحرب ترامى الفراش على النار . وقد مضى يصور الحرب فى صورة بشعة ، فيقول :

وما الحربُ إلّا مَا علمتم وذقتمُ ... وما هو عنها بالحديثِ المرجَّمِ (١)
متى تبعثوها تبعثــوها ذَميمةً ... وتَضْرَ إذا أَضْرَيْتُموها فتَضْرَمِ (٢)
فتَعْرُكْكُمُ عَرْكَ الرَّحَى بثِفالها ... وتَلْقَحْ كِشافاً ثم تَحْمِلْ فَتُتْئِمِ (٣)
فتنتجْ لكم غلمانَ أَشْأَمَ ، كلُّهم ... كأحمر عادٍ ثم تُرْضِعْ فتَفْطِمِ (٤)
فتُغْلِلْ لكم ما لا تُغِلُّ لأهلها ... قُرًى بالعراق من قَفِيزٍ ودرْهَمِ (٥)

وأنت تراه يصور الحرب فى صور مخيفة قبيحة ، فهى تارة أسد ضار ، وتارة ثانية نار مشتعلة ، وتارة ثالثة رَحًى تطحن الناس ، وتارة رابعة تلد ، ولكنها لا تلد إلا ذرارىَّ شؤم . ووسع التهكم ، فقال إنهم يربحون منها ما لا يربحه أهل العراق من الغلال والدراهم ، وهو بذلك يدعو إلى السلام وأن يتحول العرب من هذه الحروب والمعارك الطاحنة إلى حياة السلم الوادعة الآمنة التى تنتشر فيها الأخوة والمحبة والرحمة . ونراه يصور ما هم فيه من بَوار تصويراً بديعاً ، فيقول :

رَعَوْا ما رعوا من ظِمْئهم ثم أوردوا ... غِماراً تسيل بالرِّماحِ وبالدَّمِ (٦)
فقضَّوْا منايا بينهم ثم أصدروا ... إلى كَلَأٍ مُسْتوبَلٍ مُتَوَخَّمِ (٧)

فهم بحروبهم المستعرة كأنهم يرعون مراعى وخيمة وبيلة فى سلمهم . وسرعان ما يردون موارد لا تشفى غليلهم ، موارد تزخر بالرماح والدماء .

---

(١) المرجم : المظنون .
(٢) تبعثوها : تهيجوها ، تضر : من ضرى الأسد إذا تهيأ للفريسة، وأضرى : درب وعود ، وتضرم : تشتعل .
(٣) تعرككم : تطحنكم ؛ الثفال : جلد يجعل تحت الرحى حين تطحن ، ومن أجل ذلك ذكره، يريد أنها طاحنة. وتلقح كشافاً : تحمل كل عام، وذلك أردأ النتاج . تتئم : تلد توءماً .
(٤) أشأم : مشئوم ، وأحمر عاد : أراد أحمر ثمود وهو قدار عاقر الناقة ، وكان شؤماً لقومه .
(٥) القفيز : مكيال فى العراق .
(٦) الظمأ : ما بين الوردين أو الشربتين، والغمار : المياه الكثيرة .
(٧) أصدروا : رجعوا ضد أوردوا ، مستوبل : مستثقل ، ومثلها متوخم أى إنه كريه تعافه الإبل .

نحن إذن بإزاء شخصية ممتازة من شخصيات الشعر الجاهلى شخصية فيها برٌّ ورحمة وفيها نزعة قوية إلى الخير . وليس معنى ذلك أنه تخلص فى مديحه لهرم ابن سنان وابن عمه الحارث بن عوف من الصورة الجاهلية التى تشيد بالشجاعة والكرم المتهور ، فنحن نراه فى قصيدة ثانية يتحدث عنهما وعن عشيرتهما على هذه الشاكلة :

إذا فَزِعُوا طاروا إلى مُسْتغيثهم ... طوالَ الرِّماح لاضعافٌ ولاعُزْلُ(١)
بِخَيْلٍ عليها جِنَّةٌ عبْقَرِيَّةٌ ... جديرون يوماً أن ينالوا فيَسْتَعْلوا
وإن يُقْتَلوا فيُشْتَفَى بدمائهم ... وكانوا قديماً من مناياهم القتلُ
عليها أُسودٌ ضارياتٌ لَبُوسهم ... سَوَابغُ بِيضٌ لا تُخَرِّقُها النَّبْلُ(٢)
إذا لَقِحتْ حربٌ عوانٌ مُضِرَّةٌ ... ضَروسٌ تُهِرُّ الناسَ أنيابُها عُصْلُ(٣)
قُضاعيَّةٌ أو أُختُها مُضرِيَّةٌ ... يُحَرَّقُ فى حافاتها الحطبُ الجَزْلُ(٤)
همُ خيرُ حيٍّ من مَعَدٍّ علمتُهم ... لهم نائلٌ فى قومهم ولهم فَضْلُ(٥)

وهو يصف سيدى بنى مرة وعشيرتيهما بالشجاعة ونجدة من يستغيث بهم ، حتى ليكادون يطيرون إليه طيراناً بسوا بقهم وخيلهم وكأنهم جنَّة . وانظرْ إليهم حين تدور المعارك فستراهم أسوداً ضارية ، لا يرهبون الموت ، حين تشتد الحرب وتعض الناس بأنيابها وتحرقهم بنيرانها . وهم يحاربون فى كل مكان ، لا يخشون أحداً ، يحاربون قضاعة ومضراً . وهم يضيفون إلى هذه الشجاعة كرماً مفرطاً ، وفى كل قبيل منهم ثأر ، ومن ثم كانوا يُشْتَفَى بدمائهم ، إنهم خير معد شجاعة وكرماً فياضاً . ولا يلبث زهير أن يقول :

---

(١) العزل : جمع أعزل وهو من لا سلاح معه.
(٢) لبوسهم سوابغ : لبسهم دروع تامة .
(٣) لقحت : حملت ، يريد اشتدت. حرب عوان : مكررة قوتل فيها مرة بعد مرة. ضروس : شديدة . تهر الناس : تخيفهم. عصل : قوية تطحن طحناً .
(٤) الجزل : الغليظ ضد الرقيق .
(٥) النائل : العطاء .

إذا السنَّةُ الشهباءُ بالناس أجحفتْ ... ونال كرامَ المال فى الحَجْرَةِ الأَكْلُ[١]
رأيتَ ذوى الحاجات حول بيوتهم ... قَطِيناً بها حتى إذا نبَتَ البقْلُ[٢]
هنالك إن يُسْتَخْبَلوا المال يُخْبِلوا ... وإن يُسْأَلوا يُعْطُوا وإن يَيْسِرُوا يُغْلُوا[٣]
وفيهم مقاماتٌ حسانٌ وجوههم ... وأَنديةٌ ينتابُها القول والفعل[٤]
على مُكْثريهم رِزْقُ من يعْتريهمُ ... وعند المُقِلِّين السَّماحَةُ والبذْلُ[٥]
وإن جئتهم أَلفيتَ حولَ بيوتهم ... مجالسَ قد يُشْفَى بأَحلامها الجهل[٦]
وإن قام فيهم حاملٌ قال قاعدٌ ... رَشَدْتَ ، فلا غُرْمٌ عليك ولا خَذْلُ[٧]
وما يَكُ من خَيْرٍ أتوه فإنما ... توارثَه آباءُ آبائهم قَبْلُ
وهل يُنْبِتُ الخَطِّىَّ إلَّا وَشِيجُه ... وتُغْرَسُ إلَّا فى منَابتها النَّخْلُ[٨]

وهو يستمر هنا فى مديحه لهم بالكرم فى السنين المجدبة ، حتى إن الناس ليرحلون إليهم ويقطنون حول خيامهم ،وكلما سألوهم شيئاً وهبوه لهم ، وهم فى أثناء ذلك يقامرون بخير إبلهم ، حتى يطعموها السائلين والمحتاجين . ولما استتم هذه الصورة وصفهم بجمال الوجوه وجمال الكلام فى مجالسهم ، ولم يُخْل مكثراً ولا مقلا منهم من سماحة وفضل وبِرٍّ . وأشاد بمجالسهم ، وأنهم عقلاء حلماء يشفون بآرائهم الصائبة جهل الجهلاء . وهم متعاونون ، إن حمل منهم أحد حمالة لم يخذلوه ، بل أعانوه . وذكر فضل آبائهم ، وأحسابهم ، فقال إنهم ورثة مجد قديم توارثه الأبناء عن الآباء ، وساق دليلا على ذكاء الفروع بذكاء الأصول من الرماح والنخيل ، فلا يولد الكريم إلا فى البيت الكريم .

وظل زهير على شاكلة هذه القصيدة وسابقتها يدبج مدائحه فى هرم بن سنان ،

---

(١) السنة الشهباء : المجدبة ، الحجرة : السنة شديدة البرد .
(٢) قطينا : ساكنين .
(٣) استخبال المال : أن يسألوهم شيئاً فيعطوهم إياه. ييسروا : يتقامروا . يغلوا : يختاروا سمان الإبل :
(٤) المقامات والأندية : المجالس .
(٥) يعتريهم : ينزل بهم .
(٦) الجهل : الحمق .
(٧) الحامل : الذى يحمل الحمالة ، وهى الدية ، ويريد أى مغرم .
(٨) الخطى : الرماح ، ووشيجه : أغصانه .

ومن أروعها داليته التى رواها المفضل الضبي والتى يقول فيها مصوراً كرمه وشجاعته وفصاحته وسَبْقه إلى المآثر المحمودة :

سواءٌ عليه أىَّ حِينٍ أتيتَه ... أساعَةَ نَحسٍ تُتَّقَى أم بأَسْعُدِ(١)

ومِدْرَهُ حَرْبٍ حَمْيُها يُتَّقَى به ... شديدُ الرِّجام باللسان وباليد(٢)

إذا ابتدرتْ قَيْسُ بن عيلانَ غاية ... من المجد مَنْ يَسْبِقْ إليها يُسَوَّدِ

سبقتَ إليها كل طَلْقٍ مُبَرِّزٍ ... سبوقٍ إلى الغايات غيرِ مُجلَّدِ(٣)

فلو كان حَمْدٌ يُخْلِدُ الناسَ لم تَمُتْ ... ولكنَّ حَمْدَ الناس ليس بمُخْلِدِ

فهو يعطى فى السعة وفى القلة ، ويدفع عن قومه بلسانه وبيده وسلاحه ، وإذا تسابق الناس إلى غاية من غايات المجد كان السابق المجلى ، ولو أن حمداً يخلد به مستحقه لكان هرم أول خالد لكثرة مناقبه ومكارمه . وله فيه قصيدة رائية بديعة يقول فى تضاعيفها :

دَعْ ذا وعَدِّ القول فى هَرِمٍ ... خَيْرِ البُدَاةِ وسَيِّدِ الحَضْرِ

ولنِعْمَ حَشْوُ الدِّرْعِ أنت إذا ... دُعِيَتْ نزالِ ولُجَّ فى الذُّعْرِ(٤)

حَدِبٌ على المَوْلى الضَّرِيك إذا ... نابتْ عليه نوائبُ الدَّهْرِ(٥)

ويَقيك ما وَقَّى الأكارمَ من ... حُوبٍ تُسَبُّ به ومن غَدْرِ(٦)

ولأنت تَفْرِى ما خَلَقْتَ وبعـ ... ـضُ القوم يَخْلُقُ ثم لا يفْرِى(٧)

والسِّتْرُ دون الفاحشات وما ... يلقاك دون الخير من سِتْرِ

أثنى عليك بما علمتُ وما ... سَلَّفْتَ فى النَّجَدَاتِ والذِّكْرِ

---

(١) يريد بساعتى النحس والسعد أوقات القلة والكثرة فى المال .

(٢) المدره : المدافع عن قومه . وحمى الحرب : شدتها . والرجام : المراماة فى الحرب وفى الخطب والكلام .

(٣) الطلق هنا : المعطاء، وأصله الفرس السابق الذى لا يلوى على شىء . المجلد : الذى يضرب ويجلد . والتشبيه واضح .

(٤) الدعاء فى الحرب نزال : حين تشتد فيتداعى الفرسان بالنزول عن الخيل والتقارع بالسيوف . ولج فى الذعر : اشتد الخوف .

(٥) الضريك : الفقير المجهد .

(٦) الحوب : الإثم .

(٧) تفرى : تقطع . يخلق : يقدر . يريد أنه إذا عزم على أمر أنفذه .

وعلى هذا النحو يبدئ ويعيد فى هَرِم ، وقد تراءى له فى الصورة المثالية للسيد البدوى الجاهلى ، فهو شجاع فى معترك الحرب وهو كريم فى معترك المسغبة والجوع ، وليس بفحّاش ولا غادر ، وإذا صمم اندفع يُمْضى ما صمم عليه ، لا يستره عن الخير ستر ، بينما تقوم الأستار بينه وبين كل فاحشة . وشاعرنا يثنى عليه بما عرف من فضله وبما قدم من مآثر النجدة وإغاثة الضعفاء واحتمال كل بلاء. ودائماً تلقانا فى مدائحه لهرم هذه المثالية الرائعة ، بل هذه القطع المتوهجة ،ومن رائع ما قاله فيه :

قد جعل المبتغون الخيرَ فى هَرِمٍ والسائلون إلى أبوابه طُرُقا

إن تلْقَ يوماً على عِلاَّته هرماً تَلْقَ السماحة منه والنَّدَى خُلقا

ليْثٌ بِعثَّرَ يصطادُ الرجالَ إذا ما كذَّب الليثُ عن أقرانه صَدقا[1]

يطعنهم ما ارْتَموْا حتّى إذا اطَّعنوا ضاربَ حتّى إذا ما ضاربوا اعْتَنَقَا[2]

هذا وليس كمن يَعْيَا بخُطَّتِهِ وَسْطَ النَّدِىِّ إذا ما ناطقٌ نطَقَا

فهو لكرمه الفياض يسعى إليه الناس من كل حَدَب ، ويسلكون إلى أبوابه كل طريق ، حتّى لقد أصبحت الطرق إليه مذللة ممهدة ، وهو يجزل لهم فى العطاء حتّى حين تضيق ذات يده . وهو يجمع إلى الكرم المفرط الشجاعة المفرطة ، حتّى ليتفوق على الليث فى جرأته وطلبه لفريسته ، إنه يطعن الطعنات النجلاء ، وما يزال على ذلك حتّى تنحسر غمرة الحرب ، فإذا كان السلم رأيته وسط الندىّ يبهرك بمقوله كما يبهرك بيده وسلاحه وطعانه ونزاله .

وقد أضفى حُللا من هذا المديح الرائع على سيد بنى فزارة حِصْن بن حُذَيْفة ، وكانت له مواقع مأثورة فى حروب قومه مع عَبْس وغيرها من القبائل ، وفيه يقول :

---

(١) عثّر : موضع . كذب الليث : نكل عن لقاء أقرانه .

(٢) ارتموا : تراموا بالنبل ، اطعنوا : تطاعنوا بالسيوف . اعتنق قرنه فى الحرب : أخذ بعنقه ، كناية عن قتله . يقول إذا تراى المتحاربون بالنبال أبى هرم إلا أن يطعن بسيفه ، وإذا تطاعنوا ضرب بسيفه ضربات مميتة وإذا ما تضاربوا صرع خصومه . فهو سابق فى كل حال .

وأبيضَ فياضٍ يداه غمـامةٌ   على مُعْتَفِيه ما تُغِبُّ فواضِلُهْ[١]
بكرْتُ عليـه غُدْوَةً فرأيتُه   قُعُودًا لديه بالصَّرِيم عَواذِلُهْ[٢]
فأقْصَرْنَ منه عن كريمٍ مرزَّإٍ   عَزومٍ على الأمر الذى هو فاعِلُه[٣]
أخى ثقةٍ لا تُتْلِفُ الخمرُ مالَهُ   ولكنه قد يُهْلِكُ المالَ نائِلُهْ[٤]
تراه إذا ما جئته متهـلِّلاً   كأنك تعطيه الذى أنت سائلُهْ[٥]

وهو يمدحه بنقائه من العيوب وأنه كريم مفرط فى كرمه حتّى لتشبه يداه سحابة ، فما تزالان تهطلان على قاصديه بالعطايا ، وعبثاً يهتف به العواذل أن يكفّ عن كثرة نواله . إنه مثال للرجل الفاضل الذى لا ينفق أمواله فى لهو إنما ينفقها فى الصنيع الجميل . وإنه ليقبل على معتفيه بالبشر والطلاقة ، حتّى ليكادون يظنون أنهم المسئولون لا السائلون . وظل بعد ذلك يمدحه بحسن جداله للخصوم ومنطقه الصائب وكياسته وحلمه ، وأشار إلى وراثته الطيبة عن آبائه فهو شريف حسيب ، كما أشار إلى بلائه فى حروبه مع الغساسنة .

وهذه القطع المختلفة التى أنشدناها من مديحه تدل على براعة واضحة ، فقد كان يحسن التعبير عما فى نفسه ، وكان يحرص على الاقتصاد فى القول فلا يسرف ولا يغلو ، بل يمثل ممدوحه بخصاله التى كان يشغف بها الجاهليون ويرونها أمارة السيادة والشرف . ولاحظ ذلك قديماً عمر بن الخطاب، فقال : « كان لا يمتدح الرجل إلا بما يكون فيه[٦] » فهو يعتدل فى الثناء ، وهو يمثل شخصية البدوى الحقيقى الذى يحيط كلامه بالصدق والبساطة ، وإذا أحس إزاء صفة من الصفات أو معنى من المعانى بأنه يكاد يخرج عن حدّه أحاطه بما يجعل قوله مقبولا فيقدم لفظة « لو » ونحوها حتّى لا يتجاوز القصد ، كما نرى فى قوله يصف هرما وأجداده :

---

(١) المعتفون : السائلون . الفواضل : العطايا . وأبيض كناية عن نقائه من المساوئ . وتغب : تنقطع .
(٢) الصريم : الصباح . عواذله : لائموه .
(٣) أقصرن : كففن . مرزأ : مصاب فى ما له لكثرة ما يبذل منه .
(٤) النائل : العطاء .
(٥) متهللا : طلق الوجه .
(٦) أغانى ١٠/٢٩٠ .

لو نال حَىٌّ من الدنيا بمكرُمةٍ   أُفقَ السماء لنالتْ كفُّه الأفقا

وقوله :

لو كنتَ من شَىْءٍ سوى بشَرٍ   كنتَ المنوِّرَ ليلةَ البدْرِ

فهو لا يطلق القول فى مثل هذين المعنيين إطلاقاً ، بل يجعلهما فى حيز « لو » حتى يخرج من باب المبالغة الذى أوشك على الدخول فيه .

وكان يقدِّم لقصائده بالغزل والتشبيب ، متبعاً سنة الجاهليين فى الوقوف بالأطلال وذكر الديار ، ونحس عنده إحساساً واضحاً بأنه لم يكن ممن شغف الحبُّ قلوبهم ، فهو يتغزل ، كى يرضى سامعيه ، لا لكى يرضى نفسه ، وبعبارة أخرى هو يتغزل أخذاً بتقليد متَّبع ، ولذلك نراه يختم غزله أحياناً بقوله : « فعد عما ترى » أو «دعْ ذا» كأنه يريد أن يكف قلبه عن مثل هذا الحب الذى لا يتلاءم مع وقاره . وقد يعلن فى أول قصيدته إعلاناً أن قلبه قد انصرف عن صاحبته على شاكلة قوله :

صَحا القلبُ عن سلمى وقد كاد لا يسْلو   وأقْفَرَ من سَلْمَى التَّعانيقُ فالثِّقْلُ[(١)]

ولعل من الطريف أن أستاذه أوس بن حجر كان يشركه فى هذا الجانب ، فهما جميعاً لا يتغزلان للغزل ، وإنما يتغزلان جرياً على التماليد . وقد يلم زهير بأثر الحب فى النفس فيبدع فى تصويره ، وهو فى هذا التصوير لا يمثل عاطفة ولا مشاعر حقيقية ، وإنما يمثل قدرته الفنية كقوله فى وصف دموعه :

كأنَّ عينى وقد سَال السَّليلُ بهم   وجيرةٌ ما همُ لو أنهم أَمَمُ[(٢)]

غرْبٌ على بَكْرةٍ أو لؤلؤٌ قَلِقٌ   فى السِّلك خان به رَبَّاتِه النُّظُمُ[(٣)]

فهم قد ساروا سيراً سريعاً ، فأبعدوا ولو كانوا جيرة لقصدهم بالزيارة ، وإن دموعه لتتساقط من عينه تساقط الماء من الغرب أو الدلو ، أو تساقط اللؤلؤ من

(١) التعانيق والثقل : موضعان .

(٢) سال السليل بهم : السليل : واد . وسال بهم : ساروا سيراً سريعاً . وما فى قوله ما هم زائدة . وأمم : قريبون يزارون .

(٣) الغرب : الدلو . قلق : لا يستقر لانقطاع الخيط . رباته : صواحبه . النظم : جمع نظام وهو الخيط أو السلك .

عقد انقطع سلكه . وبهاتين الصورتين البديعتين صوَّر زهير الدموع ، وهى ليست دموع حب ، وإنما كل مافى الأمر أنه شاعر يعرف كيف يصور دموع الحب . وبهذا القياس نفسه تصويره لأسماء فى قوله :

قامتْ تَراءى بذى ضالٍ لتحزُنَنى ... ولا محالةَ أَن يشتاق من عَشِقا[١]

بجيــد مُغْزِلةٍ أدماء خاذلة ... من الظباء تُراعى شادنا خَرِقا[٢]

كأَن ريقتَها بعد الكَرى اغتبقتْ ... من طيِّب الرَّاحِ لما يَعْدُ أَن عَتُقا[٣]

شَجَّ السُّقاةُ على ناجودها شَبِماً ... من ماء لِينةَ لا طَرْقاً ولا رَنقا[٤]

فهو يصور جيدها بجيد ظبية بيضاء ، امتلأ قلبها بحب ابنها ، فهى عاكفة عليه ، كما يصور ريقها بخمر معتقة مزجت بالماء لشدتّها وحدتّها . وهما صورتان أريدتا لأنفسهما ، أو بعبارة أخرى رسمهما زهير ليدل سامعيه على قدرته فى التصوير ، أما بعد ذلك فلا عاطفة ولا حبّ حقيقى ، ولذلك يكرر دائماً أن قلبه صحا عن حبه ، وأنه راجَع نفسه فكفَّت عن الهوى وما يتبع الهوى ، على شاكلة قوله :

لقد طالبتُها ولكل شىء ... وإن طالتْ لجاجَتُه انتهاءُ

فهو ليس من العشاق ولا ممن يشغلون أنفسهم بالغزل وبيان لوعة الحب ، وإنما هو يتحدث فى ذلك مترسماً سنناً موضوعة كى يظهر قدرته على التصوير الفنى . ولعله من أجل ذلك ملأ مقدماته الغزلية بوصف الظعن ، وكأنه يريد بها أن يتلافى ما يفوته من وصف الحب والصبابة على نحو ما رأينا عند امرئ القيس ، وفى الوقت نفسه يريد أن يدلّ على براعته فى الوصف الدقيق ، فهو يستقصى ويدقق ، وما يزال يتبع صاحبته وصواحبها وهن راحلات فى نجد مع عشيرتهن من واد إلى

(١) تراءى : تتبدى وتظهر . وذو ضال : موضع به الضال وهو السدر .

(٢) الجيد : العنق ، مغزلة : الظبية التى معها غزال . أدماء : بيضاء . خاذلة : مقيمة على ولدها لا تتبع الظباء . الشادن : الذى شدن أى تحرك ولم يقو بعد . الخرق : الضعيف .

(٣) الكرى : النوم . اغتبقت : من الغبوق وهو شرب الليل ، لما يعد أن عتقا . يريد أن الخمر معتقة ولم تفسد .

(٤) شج : صب . الناجود : أول ما يخرج من الخمر أو إناؤها . الشبم : الماء البارد . لينة : اسم بئر . الطرق والرنق : الكدر .

واد ، محاولا أن يحفر الصورة فى أذهاننا حَفْراً على نحو ما نجد فى معلقته إذ يقول :

تبصَّرْ خَليلي هل ترى من ظَعائنٍ ... تحمَّلْن بالعَلْياء من فوق جُرْثُمِ (١)
عَلوْن بأنماطٍ عِتاقٍ وكِلَّةٍ ... وِرادٍ حواشيها مشاكهة الدَّمِ (٢)
ووَركْن فى السُّوبان يعلون مَتْنَهُ ... عليهن دلُّ النـاعم المتنعِّمِ (٣)
وفيهن ملْهًى للصديق ومنظرٌ ... أنيقٌ لعَيْنِ الناظر المتوسِّمِ (٤)
بكرْنَ بكُورًا واسْتحَرْنَ بِسُحْرةٍ ... فهنَّ لوادى الرَّس كاليَدِ للفمِ (٥)
جعلْنَ القَنان عن يمين وحَزنَهُ ... ومَنْ بالقَنان من مُحِلٍّ ومُحْرِمِ (٦)
ظَهَرْنَ من السُّوبان ثم جَزَعْنَهُ ... على كل قَيْنيٍّ قَشِيبٍ ومُفْأَمِ (٧)
كأن فُتَاتَ العِهْنِ فى كل منزلٍ ... نزلْنَ به حَبُّ الفَنا لم يُحَطَّمِ (٨)
فلما وَرِدْن الماءَ زُرْقاً جِمامُهُ ... وَضَعْن عِصِيَّ الحاضر المتخيِّمِ (٩)

وواضح أنه يصور الرحلة التى سلكتها ظعن صاحبته ، وهن يعلون الروابى ويهبطن الوديان ، وعلى هوادجهن الكلل والستائر الحمراء وعلى وجوههن دلال النعمة ، والأصدقاء من الشباب يطلبونهن ليملئوا النظر بحسنهن ويتمتعوا برؤيتهن ، وهن يقطعن وادياً إثر واد ، ويمررن على منازل الأحلاف والأعداء ، يأخذن فى طريق ويعدلن عن طريق ، وفى أثناء ذلك ينزلن ثم يرحلن وقد خلفن وراءهن فُتات

(١) الظعائن : النساء الراحلات فى الهوادج . العلياء : اسم موضع . جرثم : ماء لبنى أسد أحلاف ذبيان .
(٢) الأنماط : الستائر على الهوادج . وراد : حمراء . مشاكهة : مشابهة .
(٣) وركن : ثنين أرجلهن للراحة . السوبان : واد فى ديار بنى تميم . متنه : ظهره . دل الناعم : أثر النعمة .
(٤) المتوسم : المتفرس فى الوجه .
(٥) بكرن : رحلن صباحاً . استحرن : رحلن سحراً . كاليد للفم أى إن ما يقصدنه لا يخطئنه كما لا تخطئ اليد الفم .
(٦) القنان : جبل لبنى أسد . حزنه : أرضه الصعبة الغليظة . المحل : الحليف ضد المحرم .
(٧) جزعنه : قطعنه . القينى : الرحل . قشيب : جديد . مفأم : واسع رحب .
(٨) العهن : الصوف . حب الفنا : عنب الثعلب .
(٩) جمامه : سطحه ومجتمعه . ووضع العصى كناية عن الإقامة .

الصوف المتساقط من هوادجهن ورحالهن كأنه حَبُّ الفَنَا ، حتى إذا انتهين إلى الماء الذى يطلبنه والمرعى الذى يلتمسنه ألقين مع عشائرهن عصا الترحال . وكان زهير يبدع فى مثل هذا التصوير الذى يعرض به عرضاً حيًّا مليئاً بالحركة ظُعن صواحبه ، وهى ترحل فى الصحراء تلك الرحلة الدائبة ، ومعها العشائر ، طلباً للآبار ومساقط الغيث والكلأ . وهو تصوير للتصوير فحسب ، فليس فيه وصف حب ، إلا ما قد يأتى عفواً أو عرضاً كالبيت الرابع من هذه القطعة ، وكان حريًّا به أن يقف ليصور جمال هؤلاء النساء وأثره فى نفسه وفى الشباب من حوله غير أن ذلك لم يكن يعنيه ، إنما كان يعنيه الوصف للوصف ، فهو يصوّر قدرته الفنية لا عواطفه ولا مشاعره ، ومن غير شك كان يحسن الوصف والتصوير لا بما يسوقه من صور بيانية فحسب ، بل بما يعمد إليه من رسم دقائق المنظر الذى يصفه وبما يبث فيه من حياة وحركة .

ولزهير هجاء فى بعض القبائل التى كانت تُغير على عشيرته ، وخاصة فى الحارث بن وَرْقاء أحد بنى أسد الذى أغار على قبيلته ونهب غلامه يَساراً وبعض أمواله ، وهو فيما صحَّ من هذا الهجاء لا يوغل فى الإقذاع وهتك الأعراض إيغال أستاذه أوس والجاهليين من حوله ، بل يُبْقى على مهجوه وعلى نفسه، عامداً إلى السخرية كقوله فى عشيرة حِصْن من بنى عُلَيْم الكلبيين :

وما أدرى وسوف إخالُ أدرى أقومٌ آلُ حِصْنٍ أم نساءُ
فإن تكُنِ النساءُ مخبّآتٍ فحُقٌّ لكل مُحْصنَةٍ هِدَاءُ(١)

فهن نساء خُبِّئن فى الخدور، وينبغى أن يزوَّجن . وهى سخرية مرة ، تحمل كل ما يريد من وصفهم بالجبن . وكان يجد فى مثلها ما يكفيه عن الإقذاع المفحش . وكأنما كان الإقذاع لا يتفق ووقاره ، فتحاشاه ، بينما كان أستاذه أوس من جهة وتلميذه الحطيئة من جهة ثانية يقذعان فيه ، وقد استعار منه تلميذه هذه الأداة أداة السخرية فأشاعها فى أهاجيه على شاكلة قوله المشهور فى الزبرقان ابن بدر :

---

(١) الهداء : الزفاف .

دَعِ المكارمَ لا ترحلْ لبُغْيتهــا ... واقعدْ فإنك أنت الطاعمُ الكاسى

فجعل مروءته لا تبلغ به إلا أن يأكل ويلبس . وليس بين أيدينا رثاء مأثور صحيح لزهير .

ولم نتحدث حتى الآن عن أهم الموضوعات التى تتجلّى فيها براعة زهير ودقة فنه فى التصوير ، ونقصد وصف الوحش والصيد ، وقد أشاد القدماء كثيراً ببراعة أستاذه أوس فى هذا الباب[1] ، ووقفوا عند معان وصور اقتبسها منه زهير ، ولكن من الحق أنه نمّى هذا الموضوع ، بحيث يعد فى الطليعة من شعراء الجاهلية فى وصف الوحش والصيد . وكأنى به كان يخبرُ اللغة خبرة أوسع من خبرة أستاذه ، وكان له خيال دقيق ساعده على تجسيم الصور وتمثيل الحيوان بكل ما يتصل به من منظر وهيئة وحركة ، وهو يعرض علينا ذلك تارة فى بيت أو أبيات قليلة ، وتارة فى قطع كبيرة، وكأننا إزاء شريط يُعْرَض فى دار من دور الخيالة، واقرأ له هذا البيت فى معلقته يصف رسوم دار صاحبته ، وقد ألمّ بها بعد عشرين عاماً ، فلم يجد بها إلا بقر الوحش والظباء ، يقول :

بها العِينُ والآرامُ يمشين خِلْفَةً ... وأطلاؤُها يَنهَضْنَ من كلِّ مَجْثَمِ[2]

وهو بيت واحد ، ولكنه عرف كيف يعرض علينا منظر البقر والظباء فى بعض مواضع البادية عرضاً كاملا إذ نتمثلها وهى تمشى فى جهات متضادة ، وأطلاؤها أو أولادها تنتثر هنا وهناك ، ناهضة من كل موضع . وانظر إليه يصور ناقته بظليم فى بيتين ، يودعهما وصفاً دقيقاً له إذ يعرض هيئته وسرعة حركته وذعره الدائم وانطلاقه المستمر فى الصحراء كأنه مجنون لا يلوى على شىء ، يقول :

كأنّ الرَّحْلَ منها فوق صَعْلٍ ... من الظِّلْمان جُؤْجُؤُه هــواءُ[3]

أَصَكَّ مُصلَّمِ الأُذُنَيْنِ أَجْنَى ... له بالسِّىِّ تَنُّومٌ وآءُ[4]

---

(١) خزانة الأدب للبغدادى ٢/٢٣٥ .

(٢) العين : بقر الوحش ، والآرام : الظباء البيض. خلفة : من جهات متضادة . الأطلاء: أولاد الوحش . مجثم : مربض .

(٣) الصعل : صغير الرأس . الظلمان : جمع ظليم . الجؤجؤ : الصدر . هواء : فارغ .

(٤) أصك : مقارب العرقوبين . مصلم : مقطوع . أجنى من الجنا ، وهو إدراك الثمار ونضجها . السى : موضع . التنوم والآء من أشجار البادية .

وتلك صورة كاملة للظليم أو ذكر النعام فهو صغير الرأس متقارب العرقوبين ليس لأذنيه حجم . وهو ليس ظليماً صغيراً فقد أدرك ، وهو هناك يرعى فى السِّىِّ بعض أشجار البادية . وماذا بقى من هيئة الظليم ؟ إنه لم يبق شىء إلا سرعته وحركته الدائبة ، وهو يصورها تصويراً دقيقاً فى قوله « جؤجؤه هواء » فصدره فارغ كأنما لا قلب أو لا عقل له ، فهو يعتسف الصحراء اعتساف مجنون يسرع فى العدو هرباً من كل شبح ، فلا يكاد يقف . ولما تمت له هذه الصورة بتفاصيلها الدقيقة الجسمية والنفسية انتقل يصور ناقته فى سرعتها بحمار وحش يسوق أتنه سوقاً عنيفاً ليرد بها ماء ، وهو لا يغفل عنها ، وهى خاضعة لمشيئته ، يدعوها فى كل فجر فتجيب ، وصوّر هذا الدعاء تصويراً بديعاً ، فقال :

كأَنَّ سَحِيله فى كلِّ فجرٍ ... على أَحْساء يَمْئودٍ دُعـاءُ[1]

فهو ينادى أتنه كل صباح كى يرد بها الحياض والمناهل ، وهى تلبّيه . وكأنه يرسم بذلك صورة عشيرة تتبع شيخها حين يدعوها . واقرأ له هذه القطعة الطويلة فى وصف النبات والمطر والفرس والصيد فستلقاك خصائصه فى التصوير مجتمعة :

وغيثٍ من الوسمىِّ حُوٌّ تِلاعُهُ ... أجابت رَوَابيه النِّجاءَ هوَاطِلُهْ[2]

هبطتُ بمَمْسودِ النواشرِ سابحٍ ... ممَرٍّ أسيلِ الخَد نَهْدٍ مرَاكلُهْ[3]

تميمٍ فَلَوْنَاهُ فأُكْمل صُنْعُه ... فتمَّ وعزَّتْه يداه وكاهله[4]

أمينٍ شَظاه لم يُخَرَّق صِفاقُه ... بِمنقبةٍ ولم تقطَّع أباجِلُه[5]

إذا ما غدونا نبتغى الصيد مرّةً ... متى نَرَهُ فإننا لا نُخاتِلُهْ[6]

---

(١) السحيل : نهيق الحمار . يمئود : موضع . الأحساء : جمع حسى ، وهو الموضع كثير المياه .

(٢) الغيث : المطر . الوسمى : أول الغيث . حو : سوداء . تلاعه : مسايله ، وهى سوداء لسواد أطراف النبات . النجاء : المرتفعة .

(٣) النواشر : عصب الذراع . ممسود : مفتول : ممر : محكم الخلق . أسيل : ناعم . نهد : ضخم . المراكل : مواضع ركل الفارس من الفرس يريد أنه ضخم الجوف .

(٤) تميم : تام الخلقة . فلوناه : فطمناه . عزته : قوته .

(٥) أمين : قوى . شظاه : عظامه اللاصقة بالذراع . الصفاق : الجلدة الباطنة وراء البشرة ، لم يخرق بمنقبة : لم يداو بآلة بيطار . الأباجل : عروق فى اليد .

(٦) لا نخاتله : لا نأخذه بالخديعة .

فبينـــا نُبَغى الصَّيْدَ جاء غلامنا يَدِبُّ ويُخْفِى شَخْصَه ويُضائلُه(١)
فقال : شِياهٌ راتعاتٌ بقَفْرَةٍ بمُسْتأسِدِ القُرْيان حُوٌّ مَسايلُه(٢)
ثلاثٌ كأقواس السَّراء ومِسْحَلٌ قد اخضرَّ من لَسِّ الغَمير جَحافله(٣)
وقد خَرَّم الطُّرَّادُ عنه جِحاشَهُ فلم تبق إلَّا نفسُه وحَــلائله(٤)
فقال : أميرى ما ترى رأىَ ما نرى أنخْتِلُهُ عن نفسِه أم نُصاوله(٥)
فبِتْنا عُراةً عند رأس جَوادنا يُزاولنـــا عن نفسه ونزاولُه(٦)
ونضربه حتى اطمأنَّ قَــذَالُهُ ولم يطمئنَّ قلبـــه وخَصائله(٧)
ومُلْجِمُنا ما إن ينالُ قَذَالَهُ ولا قدماه الأرضَ إلَّا أناملُه
فلَأْياً بلأْىٍ ما حملنـــا وَليدنا على ظهر محبوكٍ ظِمــاءٍ مفاصِلُه(٨)
فقلت له : سَدِّدْ وأبْصِرْ طـريقَه وما هو فيه عن وصاتىَ شاغلُه
وقلت : تعلَّمْ أن للصيد غِرَّةً وإلَّا تُضيِّعها فإنك قاتلُه(٩)
فتبِّع آثارَ الشياهِ وليــدُنا كشؤبوب غَيْثٍ يَحْفِشُ الأُكْمَ وابلُه(١٠)
نظرتُ إليــه نظرةً فرأيتُه على كل حالٍ مرةً هو حاملُه(١١)
يُثِرْنَ الحَصَا فى وجهه وهو لاحقٌ سِراعٌ تَواليه صِيابٌ أوائلُه(١٢)

---

(١) نبغى : نبتغى ونطلب . يدب : يمشى راجلا ببطء . يضائل : يصغر .
(٢) الشياه هنا : الأتن . القريان : مجارى الماء . مستأسد النبت : ما طال منه . حو : سوداء .
(٣) السراء : شجر تصنع منه القسى . المسحل : حمار الوحش . جحافله : شفاهه . الغمير : نبت . لسه : أكله .
(٤) خرم : نفر وأبعد . حلائله : زوجاته من الأتن .
(٥) نختله : نخادعه . نصاوله : نجاهره .
(٦) عراة : فى أرض عارية من الشجر . وقيل عراة من العرواء : وهى الرعدة عند الحرص . يزاولنا : يدفعنا لشدة نشاطه .
(٧) القذال : مؤخر الرأس . خصائله : لحم العصب .
(٨) محبوك : متين . ظماء مفاصله : قليلة اللحم لا تترهل .
(٩) الغرة : الغفلة .
(١٠) الشؤبوب : الدفعة من المطر . يحفش : يملأ .
(١١) يقول إن الفرس كان يحمل فى كل حال الغلام ، يحمله على الطمع وعلى اليأس .
(١٢) التوالى : الأواخر يريد الرجلين والعجز . ويقصد بأوائله يديه وصدره . وصياب : سراع .

فردَّ علينا العَيْرَ من دون إلْفِهِ على رَغْمِهِ يَدْمَى نَسَاهُ وفائلُه[١]

وهو فى مستهل هذه الأبيات يصف مطراً يتساقط على بعض المرتفعات والوهاد ، وقد انتشر فيها النبات الضارب إلى السواد ، وهو يقبل مع بعض رفاقه على فرس محكم الخلق ، فُطم منذ عهد قريب ، فهو أشد ما يكون قوة ، لم يصبه مرض ولا علة . ويعرض علينا هيئته وخلقته كاملة . وسنراه بعد قليل يصور أحاسيسه وهواجسه ، فتكتمل صورتيه الجسدية والنفسية . ويستطرد إلى وصف الصيد فيذكر أن غلامه الذى ذهب يستطلع الحيوانات الوحشية فى الصحراء جاء يدبّ ويخفى شخصه ويضائله . وبهذه العبارة الموجزة رسمه لنا رسماً دقيقاً ، رسم حركته وسيره وأنه كان يحاول أن يخفى شخصه حتى لا تفزع الوحوش . وأخبرهم أنه رأى غير بعيد ثلاث أتُنٍ وحشية ، وهى ضامرة كأقواس السَّراء ، ومعها حمارها وقد أقبل على الطعام من النبات حتى اخضرت مشافره . واخضرار المشافر لمسة من لمسات زهير الذى كان يبتغى الدقة فى التصوير بما يعطى من ألوان الأشياء وما يذكر من تفاصيلها . وينتقل فيحدثنا أنهم باتوا يروضون الجواد ، حتى كان الصباح ، فألجمه الغلام ، وهو لا يكاد يطوله لضخامته . وزهير يوصيه كيف يتبع فريسته . ويبدع زهير فى هذا الجزء من وصفه ، فهم منذ أخبرهم الغلام بخبر الصيد مفزّعون لشدة ما هم فيه من حرص على طلب الصيد والحصول عليه ، وقد أحسّ الجواد ما هم فيه وما ينتظره فى الصباح الباكر ، فأخذه الخوف من جميع أطرافه ، فهو يجاهدهم وهم يجاهدونه ويضربونه ، حتى اطمأن وأمكنهم منه ، غير أن قلبه وأعصابه لم تطمئن ، فلا يزال يستحوذ عليه الفزع والخوف الشديد . ولم يكن الغلام من هذه الحالة النفسية غير بعيد ، فقد كان زهير يوصيه كيف يطارد الصيد وهو فى شغل عنه بمخاوفه وما ينتظره فى تلك المعركة . وزهير بهذا كله يعد مصوّراً بارعاً ، إذ يصور الهيئات الجسدية والأحوال النفسية فيما يصفه ، وكأنما كانت له عين كبيرة تعرف كيف تلتقط قسمات الجسد وسرائر النفس ، لانفس الإنسان وحده بل أيضاً نفس الحيوان وما يلم بهما جميعاً من وساوس وهواجس . وقد مضى يصور مطاردة الغلام — ولعله غلامه يسار — للأُتن وحمارها وكيف انصبَّ عليها كأنه شؤبوب

(١) العير : حمار الوحش . والنسا والفائل : عرقان .

أو صاعقة من السماء ، وهى تثير الحصى فى وجه فرسه ، والفرس لا ينثنى عنها حتى أفرد الحمار من دون صواحبه وصاده الغلام ، وجاء به جريحاً تنزف دماؤه .

وواضح أن زهيراً استتم فى هذا الوصف الدقيق كل براعته سواء من حيث توشيته بالتشبيهات، أو من حيث ملؤه بالحياة والحركة الجسدية والنفسية . وله قطعة لا تقل عن هذه القطعة جمالا وروعة فى قصيدته الدالية التى رواها المفضل الضبى ، وفيها يصف بقرة وحشية شبَّه بها ناقته فى سرعتها ، ومضى يستكمل وصفها مستطرداً إلى مطاردة الصائد لها بينما تفترس السباع أحد أفلاذ كبدها ، يقول :

كَخَنْساءَ سَفْعاءِ الملاَطِمِ حُرَّةٍ ... مُسافرةٍ مَزْءودةٍ أمِّ فَرْقَدِ[1]
غدتْ بسلاحٍ مثلُه يُتَّقَى به ... ويُؤْمِنُ جَأْشَ الخائفِ المتوحِّدِ[2]
وسامعتين تعــرف العِتْق فيهما ... إلى جِذْرِ مَدْلوكِ الكعوب محدَّدِ[3]
وناظرتين تَطْحَرَان قَــذاهما ... كأنهمــا مكحولتان بإثْمِدِ[4]
طَباها ضَحاءٌ أو خلاَءٌ فخالفتْ ... إليه السِّباعُ فى كِناسٍ ومرْقَدِ[5]
أضاعتْ فلم تُغْفَرْ لها غَفلاتُها ... فلاقتْ بياناً عند آخر معْهدِ[6]
دَماً عند شِلْوٍ تَحْجِلُ الطيرُ حوله ... وبَضْعَ لِحَامٍ فى إهابٍ مقــدَّدِ[7]

---

(١) الخنساء : بقرة الوحش سميت بذلك لتأخر أنفها ومثلها الظباء لأنها جميعاً فطس خنس . سفعاء الملاطم: السفع سواد فى حمرة . والملاطم : الخدان . مزءودة : مذعورة ، مسافرة : ترحل من موضع إلى موضع . الفرقد : ولد البقرة .

(٢) يريد زهير بالسلاح قرنى البقرة. الجأش: الصدر . المتوحد : الوحيد المنفرد .

(٣) سامعتين: أذنين . العتق : الأصالة . ومعرفة العتق كناية عن أنهما محددتان منتصبتان. إلى جذر : إلى هنا بمعنى مع ، والجذر : الأصل . مدلوك : أملس . والكعوب : جمع كعب وهو ما بين العقدتين فى القرن . وزهير يريد بالشطر الثانى وصف قرنيها بأنهما أملسان محددا الرأس .

(٤) ناظرتين : عينين . تطحران قذاهما : ترميان به وتنفيانه . الإثمد : كحل أسود .

(٥) طباها: دعاها. ضحاء: رعى الضحى . خلاء : خلو المكان . فخالفت إليه السباع : أى اختلفت إلى ولد البقرة . الكناس: بيت فى الشجر تستتر فيه البقر أو تستر أولادها من الحر والبرد .

(٦) أضاعت : تركت ولدها وغفلت عنه . البيان : ما استبانته عند ما رجعت ووجدت بقايا ولدها من بعض الجلود واللحم والدماء . آخر معهد : آخر موضع تركته فيه .

(٧) الشلو : بقية الجسد . البضع : جمع بضعة وهى القطعة . اللحام : جمع لحم . الإهاب : الجلد . المقدد : المشقق المخرق .

وتنفضُ عنها غيبَ كلِّ خميلةٍ ... وتخشى رُماةَ الغَوْثِ من كل مَرْصَدِ(١)
فجالتْ على وحْشِيِّها وكأنها ... مُسرْبَلَةٌ فى رازقيٍّ مُعضَّدِ(٢)
ولم تدر وشْكَ البَيْنِ حتى رأتْهمُ ... وقد قعدوا أنفاقَها كل مقْعدِ(٣)
وثاروا بها من جانبيها كليهما ... وجالتْ وإن يُجْشِمْنها الشَّدَّ تَجْهَدِ(٤)
تَبذُّ الأُلى يأْتينها من ورائها ... وإن تتقدَّمها السوابقُ تَصْطَدِ(٥)
فأَنقذها من غَمْرَةِ الموتِ أنها ... رأتْ أنها إن تَنْظُرِ النَّبْلَ تُقْصَدِ(٦)
نجاءٌ مُجِدٌّ ليس فيه وتيرةٌ ... وتَذْبِيبُها عنها بأَسْحَمَ مِذْوَدِ(٧)
وجَدَّتْ فأَلقتْ بينهنَّ وبينها ... غُبارًا كما فارتْ دواخِنُ غَرْقَدِ(٨)
بملتئماتٍ كالخَذاريفِ قُوبلتْ ... إلى جَوْشَنٍ خاظِى الطريقةِ مُسْنَدِ(٩)

وزهير يستهل حديثه عن البقرة بوصفها الجسدى والنفسى فهى خنساء فى خدودها حمرة مشربة بسواد ، وهى طليقة فى الصحراء ترحل من موضع إلى موضع مذعورة فقد خلفت ولداً لها فى كناس ، وهى تخشى عليه من السبع والإنسان . وإنها لشاكية السلاح ، كأنها معدَّة خلقة لكفاح أعدائها ونزالهم ، فقد برز لها قرنان وإنهما حريان بأن يقياها الخطر ويؤمِّنا وحدتها وخوفها ، إذ هما محددان أملسان كأنهما السيوف القاطعة ، ومن ورائهما أذنان ترهف بهما السمع خشية العدو المفاجئ وباصرتان

---

(١) تنفض : تنظر هل ترى ما تكره . الخميلة : الرملة بها شجر . الغوث : قبيلة من طيئ تشتهر برماتها وقناصها .

(٢) جالت : ذهبت وجاءت . الوحشى : الجانب الذى لا يركب منه وهو الأيمن يريد أنها مالت على عطفها الأيمن . مسربلة : لابسة سربالا وهو القميص . الرازقى : ثوب أبيض . معضد : مخطط .

(٣) وشك البين : سرعته ، والبين هنا : فقدها لولدها . الأنفاق : الطرق والمسالك .

(٤) يجشمنها الشد : يكلفنها العدو ويحملنها عليه . تجهد : تسرع وتجتهد .

(٥) تبذ : تسبق . تصطد : تضرب بقرنيها ما يتقدمها من الكلاب .

(٦) تنظر النبل : يريد زهير تنتظر أصحابها وهم الرماة . تقصد : تقتل .

(٧) النجاء : سرعة العدو . الوتيرة : التلبث والانتظار . تذبيبها : دفاعها . الأسحم : الأسود . المذود : قرنها الذى تذود به عن نفسها .

(٨) جدت : أسرعت فى العدو . الدواخن : جمع دخان . الغرقد : شجر .

(٩) الملتئمات هنا : القوائم شبهها بالخذاريف . إلى جوشن : مع صدر . خاظى الطريقة : مكتنز اللحم فى أعلى الصدر . مسند : مرتفع .

سوداوان كأنهما مكحولتان تحدٌ بهما النظر إلى ما حولها .

وعلى هذا النحو يعرض علينا زهير تلك البقرة بهيئة جسدها وهيئة نفسها ، لنستعد إلى ماسيفجؤها من كوارث . وهو يثبت هيئتها فى نفوسنا بما يصوره من تفاصيل جسدها ولون خديها وعينيها . ولا يلبث أن يصور لنا فاجعتها فى ولدها ، وقد أعدّنا لذلك منذ البيت الأول ، فهى مسافرة ، مسرعة فى العودة ، وقد أخذها الذعر . لقد خرجت تطلب الرى والرعى ، وعاودها الحنين إلى ولدها ، بل عاودها الخوف الشديد ، وكأنها تعرف أنها تركته وراءها للسباع ، وعادت وياالهول ما رأت ، لقد رأت بقايا ابنها من أشلاء وجلود ودماء ، والطير تحجل حوله ، فأخذها الحزن الشديد . إن أملها فى الحياة فقدته . وقد عادت تجرى فى الصحراء مذعورة تتلفت يميناً وشمالا تنظر هل هناك ما تخشاه ، وإنها لتخشى رماة عشيرة الغَوْث الذين تعودوا أن يطاردوها بسهامهم وكلابهم من كل مرصد ، ومرت على جانبها الأيمن ، كأنها تظنه أكثر أمناً ، وهى تتراءى فى لونها الأبيض وقوائمها المخططة كأنها الثوب الناصع الجميل ، ولم تكن تدرى أن الموت يرصدها ، حتى رأت رأى العين رماة الغوث ، وقد أخذوا عليها جميع الطرق والمسالك ، وأرسلوا عليها كلاب الصيد ، فولت مسرعة ، والكلاب تلاحقها وهى تارة تسبق أوائلها ، وتارة تلحقها الكلاب فتنوشها بقرنيها ، وما زالت تعدو حتى أفلتت من غمرة الموت يسعفها قرنها الأسود وما أثارته بينها وبين الكلاب من غبار كأنه الدخان . ويصور زهير سرعة قوائمها وخفة حركتها بخذاريف الصبيان التى يديرونها دوراناً سريعاً بخيوط يشدونها إلى أيديهم ، وقد سبقه امرؤ القيس إلى هذه الصورة فى وصف سرعة فرسه ، إذ قال فيه كما مرّ فى غير هذا الموضع :

دريرٍ كخُذْروف الوليد أمرَّه ... تقلُّبُ كفَّيه بخيط مُوَصَّلِ

وقد حاول زهير أن يضيف زيادة جديدة فجعل القوائم ملتئمات متناسقات كما جعلها متقابلات ، فهى كخذاريف لا كخذروف واحد ، يقابل بعضها بعضاً.

والحق أننا نحس إزاء زهير أنه استوفى كل ما كان ينتظر الشاعر الجاهلى من براعة فى التصوير . وكان يحفّ هذه البراعة بضروب من الوقار تتضح فى مدائحه وأهاجيه وغزلياته جميعاً ، فهو يحتفظ بكرامته دائماً ، ولعل ذلك ما جعله ينفر من

الخمر والميسر كما قدمنا فى غير هذا الموضع . واقرأ مدائحه وأنعم النظر فيها فستراه يمثل لك فى هَرِم والحارث بن أبى عَوْف وحِصْن بن حذيفة صورة السيد الفاضل ، لا من حيث الشجاعة والكرم فحسب ، بل أيضاً من حيث الحلم والعفو عن المسىء فى العشيرة والدفع بالمعروف من القول والحدب على الفقراء وتجنب الفواحش والآثام . واقترنت هذه الصورة المثالية للسيد الفاضل فى شعره بكثير من الحكم والدعوة إلى مكارم الأخلاق . وقد ذيّل المعلقة بطائفة من الأبيات التى تذهب هذا المذهب ، وقدمنا أن الأصمعى كان يشك فيها ويقول إنها لشاعر أنصارى يسمى صِرْمَة ، ويظهر أن حِكماً له اختلطت بحكم لهذا الشاعر ، ونستطيع أن نفرد منها له مثل قوله :

وَمَنْ يَعْصِ أَطرافَ الزِّجاج فإنه ... يطيع العَوالى رُكِّبَتْ كلَّ لَهْذَمِ[1]

فإن هذا البيت يتفق وما لاحظناه عنده من ميله إلى إخراج أفكاره ومعانيه فى صور متلاحقة . فقد أراد أن يقول من أبىَ الصلح لم يكن له بد من الحرب ، فلم يقل ذلك مباشرة ، بل ذهب يبحث عن صورة تمثل الصلح عندهم ، وسرعان ما لمعت فى خياله عادة كانت معروفة لديهم ، وهى أن يستقبلوا أعداءهم إذا أرادوا الصلح بأزجة الرماح ، ومن ثم قال « ومن يعص أطراف الزجاج » يريد « ومن لا يطع الدعوة إلى الصلح والسلام » ومضى يمثّل الدخول فى الحرب بإطاعة أسنة الرماح والسيوف . وفكرة البيت متصلة بالمعلقة وما تدعو إليه من السلام والاستجابة إلى الصلح. وقد تكون الأبيات التى تتصل بفكرة الحياة والموت صحيحة النسبة إلى زهير لأنها تتصل كالبيت السابق بموضوع القصيدة ، كقوله :

رأيت المنايا خَبْطَ عَشْوَاءَ من تُصِبْ ... تُمِتْه ومن تُخْطِئْ يعمَّر فيهرمِ

وفى البيت أيضاً صورة بديعة ، إذ يشبه الموت بناقة عشواء لا تبصر طريقها ، فهى تخبط الطريق خبطاً أعمى ليس له نظام ولا قياس . والتفكير فى الحياة والموت يكثر عند زهير كقوله فى إحدى قصائده لهرم :

---

(١) الزجاج : جمع زج وهو الحديدة فى أسفل الرمح . والعوالى : سنان السيوف والرماح . اللهذم : السنان القاطع . وواضح أنه جعل رفع كعوب الرماح كناية عن الصلح والمسالمة إذ كانت تلك عادتهم فى الجاهلية .

تزوَّدْ إلى يوم المماتِ فإنَّه ولو كرهتْه النفسُ آخرُ موْعِدِ

وإذا أخذنا نقرأ فى أشعاره لقيتنا فيها حِكم كثيرة ، وهو ينثرها نثراً خلال الموضوعات المختلفة التى يلم بها ، فمن ذلك قوله :

وكنتُ إذا ما جئت يوماً لحاجةٍ مضت وأجَمَّتْ ، حاجةُ الغدِ ما تَخلُو (١)

وقوله الذى أنشدناه :

وهل يُنبت الخَطِّىَّ إلا وَشِيجُهُ وتُغْرَسُ إلا فى مَنابتها النَّخْلُ

وقوله :

كذلك خِيمُهُم ، ولكلِّ قومٍ إذا مسَّتهم الضَّرَّاءُ خِيمُ (٢)

وقوله الذى أنشدناه :

فلو كان حَمْدٌ يُخلد الناسَ لم تَمُتْ ولكنَّ حَمْدَ الناسِ ليس بمُخْلِدِ

وقوله :

فإن الحقَّ مقْطعُــهُ ثلاثٌ يمينٌ أو نِفارٌ أو جِــلاءُ (٣)

وكان عمر بن الخطاب يُعْجَبُ بهذا البيت ويتعجب من صحة القسمة فيه ، ويقول : لو أدركته لوليته القضاء لحسن معرفته ودقة حكمه (٤) .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يوضح مكانة زهير فى الشعر الجاهلى ، فقد كان شاعراً من طراز ممتاز ، شاعراً له نظراته فى الحياة والأخلاق ، وهو إلى ذلك شاعر مصور يحسن أدوات صناعته من جميع وجوهها ، فقد تمرَّس بنماذج أوْسٍ وغيره من فحول الجاهلية ، ولم يكد ينظم أشعاره حتى ذاع اسمه فى القبائل ، فالتمسه بعض الشبان يتعلمون عليه هذه الصناعة الدقيقة التى يحسنها إلى أبعد حدّ ، ونبغ

---

(١) مضت وأجمت : مضت حاجة الأمس ودنت حاجة الغد . ما تخلو : يريد : لا يخلو المرء من حاجة ، فحاجة من عاش لا تنقضى .

(٢) الخيم : الشيمة والخلق .

(٣) النفار : المنافرة إلى شيوخ القبائل للحكم . الجلاء : انكشاف الأمر .

(٤) الصناعتين للعسكرى (طبعة عيسى الحلبى) ص ٣٤٢ .

منهم الحطيئة ، ولقّن الشعر ولديه بُجَيْراً وكعباً ، وطار صيت الأخير فى العصر التالى عصر المخضرمين .

نحن إذن بإزاء شاعر ممتاز خَبَرَ صناعة الشعر الجاهلى وعرف أساليبها ، واستطاع أن يؤدّى أجمل صورة لها فى لفظه وقوالبه وصيغه ، وقد لاحظ القدماء ذلك وعبروا عنه عبارات مختلفة ، فقالوا إنه كان يصنع قصائده الطويلة فى حول كامل وإنه صنع سبع حَوْليّات[1] ، ويَنْسُبُ الجاحظ هذا القول إلى زهير نفسه ، فيقول : « كان زهير بن أبى سلمى يسمى كبار قصائده الحوليات ، ولذلك قال الحطيئة : خير الشعر الحولىّ المحكك (يقصد شعر أستاذه وشعره) وقال الأصمعى : زهير بن أبى سلمى والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر ، وكذلك كل من جوّد فى شعره ووقف عند كل بيت قاله وأعاد فيه النظر حتى يُخْرِج أبيات القصيدة كلها مستوية فى الجودة[2] » . ويعلق الجاحظ على صنعة زهير وشعره فى موضع آخر ، فيقول : « من شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كريتا (كاملا) وزمناً طويلا يردّد فيها نظره ويجيل فيها عقله ويقلّب فيها رأيه ، اتهاماً لعقله وتتبعاً على نفسه ، فيجعل عقله زماماً على رأيه ، ورأيه عياراً على شعره ، إشفاقاً على أدبه ، وإحرازاً لما خوّله الله من نعمته ، وكانوا يسمون تلك القصائد الحوليات والمقلدات والمنقحات والمحكمات ، ليصير قائلها فحلا خِنذيذاً (تامًّا) وشاعراً مفلقاً[3] » .

وسواء سمّى زهير قصائده الطويلة بالحوليات أو سماها الرواة بهذا الاسم فإن هذه التسمية تدل على مدى ما أحس به القدماء تلقاء مطولاته ، فقد أحسوا فيها بجهد شديد ، وتصوروا أن هذا الجهد يستنفد آماداً بعيدة من الزمن ، وتخيلوها حولا كاملا ، ومضوا يسمون زهيراً والحطيئة وأضرابهما عبيد الشعر لما شعروا عندهم من طول الثّقاف والتنقيح والتجويد والتحبير ، وكأنهم يُلغون حريتهم وإرادتهم ، فهم عبيد فن الشعر ، يخضعون لإرادته الفنية وما يُطْوَى فى هذه الإرادة من تنسيق محكم للألفاظ والصيغ . ويظهر أن زهيراً كان يُعْرَفُ بذلك من قديم ، فهم يروون عن عمر بن الخطاب أنه كان يقول : « زهير شاعر الشعراء لأنه كان لا يعاظل فى

---

(١) الخصائص لابن جنى (طبع دار الكتب المصرية) ١/٣٢٤ .

(٢) البيان والتبيين (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٢/١٣ .

(٣) المصدر نفسه ٢/٩ .

الكلام، وكان يتجنب وحشىّ الشعر ولم يمدح أحداً إلا بما فيه[١]» . والمعاظلة بين الكلام المداخلة فيه بحيث لا ينضَّد نضداً مستوياً . والحق أن صياغة زهير تستوفى حظوظاً بديعة من صفاء التعبير ونقائه وخلاصه من الأدران التى قد تؤذيه، وارجعْ إلى القِطَع التى أنشدناها له فى المديح ،فإنك ستجدها متوهجة ، وما ذلك إلا من دقة التعبير وصَقْله إلى أبعد غاية وصل إليها شاعر جاهلى ، والذى لا ريب فيه أنه كان يستولى على لغته ويسيطر عليها ويجمع منها خير ما فيها من ألفاظ وكلمات ، وما يزال ينسِّقها حتى تتراءى كأنها عقود من الجواهر . وعلى نحو ما كان يستوفى حظوظاً مختلفة من الجمال فى عباراته وصيغه كان يستوفى ضروباً من الإتقان والكمال فى موسيقاه ، فليس فيها نشاز من إقواء وليس فيها اجتلاب قافية وإكراهها على إحلالها فى أماكنها ، فقوافيه تتمكن فى مواضعها ، ومهما ضاق عليه هذا الموضع نفذ منه على أجمل صورة ، وانظر إلى قوله فى معلقته :

وأعلمُ ما فى اليــوم والأمس قبله ولكننى عن عِلْمِ ما فى غَــدٍ عَمِى

فقد وصل إلى القافية ، فوجد نفسه مضيَّقاً عليه ، ولم يلبث أن نفذ إلى كلمة « عمى » فتمَّم البيت فى غير عسر ولا مشقة . ومن ذلك قوله :

هم يضربون حَبِيكَ البَيْض إذ لَحِقُوا لا ينكصون إذا ما استُلْحِموا وحَمُوا[٢]

فقد نفذ من الدرب الضيق فى القافية ، بما جاء به من كلمة « حموا » ولم ينفذ فحسب ، فقد استخدم كلمة تتناسق فى حروفها مع الفعل السابق لها ، فهى كلمة من نفس أسرتها ، وهو ما يعبر عنه علماء البيان العربى باسم الجناس ، وله أمثلة مختلفة فى شعره كقوله الذى أنشدناه :

كأن عينى وقد سال السَّليلُ بهم وجيرةٌ ما همُ لو أنهم أَمَمُ

فقد جانس بين سال والسليل ، وتعلق بحرف الميم فى ألفاظ الشطر الثانى ، فأحدث بينها تلاؤماً واضحاً . ومن أمثلة الجناس عنده :

وقد قلتما إن ندرِكِ السِّلْمَ واسعاً بمــالٍ ومعروفٍ من القول نَسْلَمِ

(١) أغانى ١٠/٢٨٩ .

(٢) حبيك البيض : طرائقه . البيض : خوذهم فى الحرب . استلحموا : من التلاحم والمخالطة فى القتال . حموا : اشتد غضبهم .

وقوله :

تقىٌّ نقىّ لم يُكثِّر غنيمةً بنهكة ذى القُرْبى ولا بِحَقَلَّدِ[1]

وعلى نحو ما كان يستخدم الجناس كان يستخدم الطباق ، وله أمثلة كثيرة عنده كقوله الذى أنشدناه فى وصفه للظُّعن :

جعلنَ القَنانَ عن يمين وحَزْنه ومَنْ بالقنان من مُحِلٍّ ومُحْرِمِ

وقوله :

يمينا لنعم السيدان وُجدتُما على كل حالٍ من سَحيلٍ ومُبْرَمِ

وقوله :

وقد كنت من سَلمى سِنيناً ثمانياً على صِيرِ أمرٍ ما يَمُرُّ وما يَحْلُو[2]

وقوله الذى أنشدناه :

ليثٌ بعثَّرَ يصطاد الرجالَ إذا ما كذَّب الليث عن أقرانه صَدقا

على أن زهيراً إنما كان يستخدم الطباق والجناس من حين إلى حين فهما ليسا لونين فاقعين فى شعره، إنما اللون الفاقع فى شعره هو التصوير، إذ كان يودعه كل مهارته، وكان يأبى أن يُخْرج كثيراً من أبياته إلا ويوشّيها به ، بحيث لا نبعد إذا قلنا إنه شاعر التصوير فى الجاهلية ، ومن ثَمَّ كثرت عنده التشبيهات والاستعارات كثرة مفرطة ، وكان يسعفه بها خيال متوثب متهيئ ليخرج من جديد ما سمعه من أستاذه أوس وغيره ، وليضيف إلى ذلك ثروة من عنده . ثروة خيالية تنعقد فيها مشابهات كثيرة بين الأشياء ، وهى مشابهات من شأنها أن تجعلنا نحس بأننا ندخل معه فى عالم خيالى حالم ، وخاصة حين تلقانا استعاراته وما يملؤها به من أشباح وأرواح، فإننا نستشف معه كثيراً من الأشياء وعلاقاتها بعضها ببعض ، كما نستشف الجمال فى داخلها ونشعر بغير قليل من المتاع .

---

(١) النهكة : الإضرار . الحقلد : البخيل السيئ الخلق ، يقول إنه لا يكثر ماله بظلم أقربائه ، وليس ببخيل لئيم .

(٢) صير أمر : منتهاه وما يصير إليه .

وارجعْ إلى ما عرضناه من أشعاره فستجد التشبيهات تتراكم فيها ، وستراه دائماً حين يفكر فى شىء يلمع فى ذهنه نظيره ، محاولا أن يربط بين الشبيه والشبيه بعلاقة لا تنفصم . وهى علاقات ننتقل بينها معجبين ، بل هى مشاهد تجلب لنا البهجة والمسرة ، إذ كان يعرف كيف يأتى منها بالنادر الطريف على شاكلة قوله الذى أنشدناه فى وصفه للظُّعن وقَصْدها إلى غايتها :

بكرْنَ بُكورًا واسْتَحَرْنَ بسُحْرَةٍ فهنَّ لوادى الرَّسِّ كاليد للفَمِ

وليس كل ما يلاحظ عنده كثرة التشبيهات ولا وقوعه على نوادرها ، بل لعل أهم ما يلاحظ أنه يعنى بتفصيل التشبيه إذ لا يزال يلحّ على الصورة التى يعرضها ، وكأنه يريد أن يستوفيها بجميع دقائقها وتفصيلها استيفاء ، كقوله فى وصف بعض صواحبه :

تنازعها المَها شَبَهاً ودُرُّ النُّ حُورِ وشاكهتْ فيها الظِّباءُ[1]

فأما ما فُوَيْقَ العِقْد منها فمن أَدْماءَ، مَرْتَعُها الخَلاءُ[2]

وأما المُقْلَتان فمن مهاةٍ وللدُّرِّ المَلاحةُ والصفاءُ

فهو لا يشبه صاحبته ببقر الوحش والدر والظباء تشبيهاً عامًّا ويمضى ، بل يعود إلى تفصيل تشبيهه ، فهى تشبه الظباء فى جيدها الطويل الجميل وبقر الوحش فى سواد عينيها الفاتنتين والدر فى ملاحته وصفائه ولمعانه وبهائه .

وإذا كان زهير أتقن لون التشبيه من حيث كثرة الصور والتعمق فيها والإلحاح عليها بالتفاصيل فإنه أتقن لون الاستعارة إتقاناً لعل شاعراً جاهليًّا لم يبلغ مبلغه فيه ، وارجعْ إلى معلقته وإلى صور الحرب التى أنشدناها فإنك تجد الاستعارات فيها تتلاحق ، فالحرب أسد ضار ، بل هى نار مشتعلة ، بل هى رحى تطحن الناس ، بل هى ناقة تنتج غلمان شؤم ، بل هى أرض مغلة غلة قبيحة ليس فيها منافع للناس إنما فيها الموت الزؤام . وقد مثّل — كما مرّ بنا — حياة العرب فى حروبهم الدائرة وما يتخللهـا من فترات راحة بصورة قوم يرعون مراعى وخيمة ، حتى

---

(١) المها : بقر الوحش . شاكهت : شابهت .

(٢) الأدماء : الظبية البيضاء . الخلاء : الموضع الخالى .

إذا أخذهم الظمأ الشديد وردوا على مياه وخيمة ، بل على دماء مسفوحة . ونراه فى نفس المعلقة يصف شجاعاً ويصوره فى صورة أسد فيقول :

لدى أَسدٍ شاكى السِّلاحِ مقذَّفٍ   له لِبَدٌ أظفــارُه لم تُقَلَّمِ[1]

وواضح أنه استتم فى استعارته صورة الأسد بشعره المسترسل على منكبيه وأظفاره المسنونة التى لم تقلَّم يوماً والتى إن نشبت فى شيء أتت عليه .

ولم يكن زهير يكثر من الاستعارة فى شعره فحسب ، بل كان أيضاً يحاول أن يأتى فيها بالصور النادرة الغريبة كقوله فى أحد مطالعه :

صَحا القلبُ عن سَلْمَى وأقْصَر باطلُه   وعُرِّىَ أفراسُ الصِّبا ورَواحِلُهْ[2]

وهو فى الشطر الأول يقول إن قلبه كفَّ عن حب سلمى ، وقد أراد على طريقته أن يعبر عن هذا المعنى بصورة ، فذهب يتخيل ، وبعد به خياله ، فإذا هو يتصور أسباب حبه وصبوته التى كان دائماً يلزمها أفراساً ورواحل يركبها إلى صاحبته، وكان طريقه إليها مشغولا دائماً بهذه الرواحل والأفراس . وقد انتهى اليوم كل شيء ، فقد انصرف عن سلمى وحبها ، ولم تعد تشغله أسباب صبوته القديمة . وهى صورة بعيدة لا تقع إلا فى ذهن يكثر من التخيل والإغراق فى التصور ، ذهن يتعمق فى الأشياء والمعانى ، حتى يتخيلها أحياء حقيقية .

وأكبر الظن أننا لا نغلو إذا قلنا إن زهيراً كان شاعراً مصوراً ، فالتصوير أساس فنه ، وكأنما تحوَّل عقله إلى آلة لاقطة ، وهى ليست آلة فوتوغرافية ، بل هى آلة خالقة ، آلة تفكر فى الأشياء من خلال أشياء أخرى فتعقد ما لا يحصى من مشابهات ومشاكلات ، وما تلبث أن تتمثل فيما يقع تحت حسها أشباحاً وأطيافاً تتراءى لها واضحة تمام الوضوح .

ومهما تحدثنا فى هذا الجانب فلن نستطيع أن نوفّى زهيراً حقه من بيان مقدرته التصويرية ، وكأنى به كان الثمرةَ النهائية للجهود الفنية التى أودعها الجاهليون أشعارهم، فهو من جهة قد صقل أسلوبه إلى أبعد غاية من الصقل، ومن جهة ثانية

---

(١) شاكى السلاح : تام السلاح . مقذف : غليظ اللحم . لبدة الأسد : ما تلبد على كتفيه من شعره .

(٢) أقصر : كف . الأفراس : جمع فرس . الرواحل : الإبل .

عُنى بموسيقاه وألحانه عناية واسعة بحيث لا يبدو فيها أى شذوذ ، ومن جهة ثالثة استتمّ فن التصوير بفرعيه من التشبيه والاستعارة .

وكل هذه ألوان جمال نُعْجَبُ بها عند زهير ، فهو شاعر الجمال ، وهو شاعر الحقيقة بحِكمه ، وهو شاعر الخير بدعوته إلى السلام وبما رسمه للفضيلة من مُثل فيمن مدحهم ، حتى ليُرْوَى أن عمر بن الخطاب استمع إلى بعض قطعه المتألقة فى مديح هرم ، فقال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم[1].

والحق أنه يصور مثلا جيداً من أمثلة الشعر الجاهلى ، فقد انتهى عنده هذا الشعر إلى صورة رفيعة للخير والحق والجمال ، وكان ما يزال يجهد نفسه فى رسم خطوط هذه الصورة إجهاداً عَبَّرَ عنه القدماء بأنه حَوْلِىّ صاحب حوليات ، وهل يمكن أن نتصوره محققاً لهذه البراعة التى وصفناها بدون جهد عنيف كان يستنفد منه آماداً طويلة من الزمن ؟ إن كل جانب فى شعره يدفعنا دفعاً إلى الإيمان بأنه كان يعانى طويلا فى صنع قصائده وما يتخذه لها من هذا الإطار الفنى الدقيق .

---

(١) أغانى ١٠/٣٠٤ .

الفصل العاشر

الأعشى

١

قبيلته

ينتسب الأعشى إلى قبيلة بكر بن وائل الكبيرة التى كانت تمتد فروعها وبطونها فى شرقى الجزيرة من وادى الفرات إلى اليمامة . ومن أهم هذه الفروع والبطون شيبان ويَشْكر وجُشَم وعِجْل، ثم حنيفة وقيس بن ثعلبة وكانتا تنزلان فى اليمامة، وتتشعب قيس شعباً أهمها مالك بن ضُبَيْعة ومن عشائرهم بنو عَبْدان وبنو كعب، وربيعة ابن ضبيعة ومن بيوتاتهم بنو جَحْدر ، وسعد بن ضبيعة وإليهم ينتمى الأعشى .

وتاريخ عشيرة بنى سعد بن ضبيعة فى العصر الجاهلى يندمج فى تاريخ قبيلتها الكبيرة، فقد وقفت معها فى حروب البسوس التى ظلت أربعين عاماً ، كما وقفت معها فى يوم الكُلاب ، ودخلت معها بعد هذا اليوم فيما دخلت فيه من الولاء للمناذرة وطالما نصرتهم فى حروبهم مع الغساسنة . ولما طلب كسرى أبرويز النعمانَ بن المنذر احتمى هو وأسرته ببنى شيبان إحدى قبائل بكر وخلّف عند سيدهم هانئ بن قبيصة الشيبانى أولاده وسلاحه الذى يقال إنه بلغ نحو ألف درع . وقتل كسرى النعمان كما مرّ فى غير هذا الموضع وولّى على الحيرة إياس بن قبيصة الطائى ، فثارت شيبان وقبائل بكر ضده وأخذت جموعهما تغير على سواد العراق ، فاضطر كسرى أن ينازلها ، ودارت على جيوشه الدوائر فى يوم ذى قار المشهور الذى انتصر فيه العرب على الفرس ، وقد اختلف المؤرخون فى توقيت تاريخه[1] .

ولم تشترك قيس بن ثعلبة فى هذه الحروب وحدها ، فقد أسهمت مع بنى حنيفة

(١) انظر فى يوم ذى قار الأغانى (طبعة الساسى) ٢٠/١٣٢ والطبرى (طبعة دى غويه) ١/١٠١٥ ، ١/١٠٢٨ وما بعدها ، وابن الأثير ١/٢٩٠ والعقد الفريد ٦/١١١ . وراجع معجم ما استعجم للبكرى ومعجم البلدان لياقوت فى « ذى قار » .

وغيرها من البكريين فى حروب ضد تميم وغيرها من القبائل . وقد تقع حروب ومناوشات داخلية بين عشائرها ، مثلها مثل بقية العشائر فى الجاهلية إذ كانت كثيراً ما تنشب بينها خلافات تؤدى إلى بعض الدماء . ويظهر أنها على الرغم من استقرارها فى اليمامة وسكناها بعض القرى مثل « منفوحة » كانت تنزع إلى حياة البداوة وما يتصل بها من رعى الإبل والغنم ، ولعل ذلك ما جعل الأعشى يهجو إياداً فى بعض شعره بأنها تعتمد على الزراعة يقول[١] :

لسنا كمن جعلتْ إيَادُ دارها   تَكْرِيتَ تنظر حَبَّها أن يُحْصَدَا

جعـــل الإلهُ طعامنا فى مالنا   رزقاً تضمَّنه لنا لن يَنْفَدَا[٢]

مثلَ الهضاب جِزارةً لسيوفنا   فإذا تُرَاع فإنها لن تُطْرَدا[٣]

ضَمِنتْ لنا أعجازُهن قُدورنا   وضُروعُهنَّ لنا الصَّريحَ الأَجْرَدَا[٤]

وواضح أنه يصرِّح بأن إياد تعتمد على الزراعة والحصاد ، أما هم فما لهم الإبلُ التى لا تنفد ، وهى إبل ضخمة كالهضاب ، يعقرونها لضيوفهم ، ولا يلم بها من يروعها أو يغير عليها خوفاً من بَسالتهم ، وهى تملأ قدورهم بلحمها وبيوتهم بألبانها .

وعلى العكس كان أبناء عمومتهم من بنى حنيفة أكثر استقراراً ، وقد اتخذوا الحِجْر قصبةً لهم ، وكان سيدهم فى أواخر العصر الجاهلى هَوْذَةَ بن على ، وكان يحمى القوافل الفارسية فى طريقها إلى اليمن ، ولعله من أجل ذلك وقف بعيداً بقبيلته عن يوم ذى قار ، فلم تشترك فيها . وأغلب الظن أن هذه القبيلة لم تعتمد على الرعى وحده شأن قبيلة الأعشى ، بل كانت تعتمد أيضاً على الزراعة ، فكانت نصف حَضرية . وقد شاعت فيها النصرانية ، أما قيس بن ثعلبة فظلت فى جملتها وثنية تعبد الأصنام . وليس هذا كله ما بينهما من خلاف ، فبينا حنيفة لا يُعْرَفُ

---

(١) ديوان الأعشى طبعة جاير . القصيدة رقم ٣٤ ، الأبيات : ٣٣ وما بعده .
(٢) المال هنا : الإبل .
(٣) جزارة : مصدر جزره أى ذبحه ومنه يسمى البعير جزوراً .
(٤) الصريح : اللبن الخالص . الأجرد : الصافى .

لها شاعر مذكور فى الجاهلية[١] إذا قيس كثيرة الشعر والشعراء ، وقد يكون ذلك بسبب بداوة قيس وكثرة الحروب التى عانتها ، يقول ابن سلام : « وبالطائف شعر وليس بالكثير ، وإنما كان يكثر الشعر بالحروب التى تكون بين الأحياء . والذى قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم نائرة ولم يحاربوا ، وذلك الذى قلّل شعر عُمان[٢] » ونقول أيضاً إنه الذى قلل شعر حنيفة فى اليمامة .

أما قيس بن ثعلبة فقد كانت كثيرة الحروب ، فكانت تغير ويُغار عليها ، وفى أثناء ذلك ينشد لها شعراؤها القصائد والأناشيد المحمِّسة ، فنما الشعر فيها وازدهر ، وقد اشتهر فيها غير شاعر من مثل المرقِّش الأكبر والمرقش الأصغر والمتلمِّس وابن أخته طرفة والمسيَّب بن عَلَس . وقد أنشدنا فى غير هذا الموضع قطعة طرفة فى المعلقة التى يصور فيها فتوته وأنه ينفق حياته فى الكرم والحرب والنساء والخمر . ونجد هذه الروح فى شعر المرقشين ، كما نجد عندهما غزلا خفيفًا رقيقًا ، ولكل منهما قصة عشق مأثورة .

٢

حياته

عاش الأعشى فى أواخر العصر الجاهلى ، وليس بين أيدينا شىء واضح عن نشأته ، وكل ما يقوله الرواة أنه وُلد بمنفوحة فى اليمامة وأن أباه كان يلقَّب بقتيل الجوع « لأنه دخل غاراً يستظلّ فيه من الحرّ ، فوقعت صخرة عظيمة من الجبل ، فسدَّت فم الغار ، فمات فيه جوعاً » ، وفى ذلك يقول جُهُنَّام يهجوه ، وكانا يتهاجيان :

أبوكَ قتيلُ الجوع قَيْسُ بنُ جَنْدَلٍ وخالُكَ عَبْدٌ من خُماعةَ راضعُ[٣]

وخُماعة — فيما يظهر — جدٌّ بعيد لأمه ، وهى أخت المسيَّب بن عَلَس ، وعنه حمَل الشعرَ الأعشى ، إذ كان راويته ، ولاشك فى أنه روى لغيره من شعراء قبيلته ، فهو امتداد لهم جميعاً .

(١) ابن سلام ص ٢٣٤ .
(٢) ابن سلام ص ٢١٧ .
(٣) أغانى (طبعة دار الكتب) ٩ / ١٠٨ .

واسم الأعشى ميمون ، وإنما سمى الأعشى لضعف بصره ، ومن أجل ذلك كان يكنى بأبى بصير[١] . وإذا كنا لا نعرف شيئاً واضحاً عن نشأته فإنه يتبين لنا من أخباره ومن اسمه « صَنَّاجة[٢] العرب » أنه انتقل بالشعر الجاهلى نقلة ، فإن كلمة صنَّاجة تعنى أنه كان يتغنى بشعره ، ويبالغون فى ذلك حتى يجعلوا كسرى يستمع لبعض غنائه فيه[٣] ! !

وتدلّ أخباره وأشعاره على أنه كان كثير التنقل والأسفار البعيدة فى أنحاء الجزيرة يمدح سادتها وأشرافها ، وفى ديوانه مديح للأسود بن المنذر وأخيه النعمان وإياس بن قبيصة الطائى والى الحيرة من بعده ، ويظهر أنه كان يقيم بها كثيراً . وفيه أيضاً مديح لقيس بن معديكرب الكندى ولسلامة ذى فائش أحد أمراء اليمن ولبنى عبد المَدَان بن الديّان سادة نجران ولهَوْذَةَ بن على سيد بنى حنيفة . وكان يفد على سوق عكاظ ، ويمدح من يمرّ به فى طريقه إليها من شيوخ العرب وأشرافهم[٤] .

ولا يكتفى الرواة بما يدل عليه شعره من الرحلة إلى الحيرة واليمن وديار كندة فى حضرموت ونَجْران وعكاظ بل يذهبون به إلى الفرس وعُمان وبلاد الشام متغلغلا فيها إلى حمص وأورشليم (بيت المقدس) ويجتازون به البحر إلى نجاشى الحبشة ، ويُجْرون على لسانه شعراً يتحدث فيه عن هذه الرحلات البعيدة ، فيقول[٥] :

وقد طُفْتُ للمـــال آفاقَه ... عُمـــانَ فَحِمصَ فأُورِيشَلِمْ
أَتيتُ النجاشىَّ فى أَرضهِ ... وأَرض النَّبيط وأَرضَ العجمْ

وأكبر الظن أنه لم يصنع شيئاً من ذلك وأنه إنما اقتصر فى أسفاره ورحلاته على أطراف اليمن ونجد والحيرة يمدح شيوخ العرب وسادتهم . ووقع — كما يقول الرواة — فى بعض رحلاته بديار بنى عامر ومعه هداياه من بعض ممدوحيه ، فخشى على نفسه وعلى هداياه ، فاستجار بعلقمة بن عُلاثة ، فقال له قد أجرتك ، فقال له الأعشى من الجن والإنس ؟ قال : نعم ، قال الأعشى : ومن الموت ،

---

(١) ذهب ابن قتيبة إلى أنه كان أعمى . انظر الشعر والشعراء (طبع دار المعارف) ١ / ٢١٢ .
(٢) أغانى ٩ / ١٠٩ .
(٣) أغانى ٩ / ١١٥ والشعر والشعراء ١ / ٢١٤ .
(٤) أغانى ٩ / ١١٣ وما بعدها .
(٥) ديوانه القصيدة رقم ٤ وقارن بالقصيدة رقم ٦٣ .

فقال : لا . وتمضى القصة فتذكر أن علقمة كان قد اختلف مع ابن عمه عامر ابن الطُّفَيْل على سيادة القبيلة ، وتنافرا منافرة حادة ، اشترك فيها كثير من الشعراء ، فكان مع علقمة مروان بن سُراقة والحطيئة ومع عامر لبيد الشاعر المشهور . ولما لم يُجِرْ علقمة الأعشى من الموت أتى عامر بن الطفيل فقال له : أجِرْنى قال : قد أجرتك ، قال : من الجن والإنس ؟ قال : نعم . قال : ومن الموت قال : نعم . قال : وكيف تجيرنى من الموت ؟ قال : إن مت وأنت فى جوارى بعثت إلى أهلك الدية ، فقال : الآن علمت أنك قد أجرتنى من الموت . فمدح عامراً وهجا علقمة[١] .

والأعشى فى شعره لا يعيش لمديح السادة والأشراف وأخذ نوالهم فحسب ، بل هو يعيش أيضاً لقبيلته ومنازعاتها الكثيرة مع بكر ضد الفرس ، ففى ديوانه مطولة يهددهم فيها ويتوعدهم كما يتوعد من يقف معهم من العرب مثل إياد[٢] ، وهو يعيش كذلك فى منازعات قبيلته مع بنى شيبان ، فيتعرض بالوعيد والتهديد ليزيد بن مُسْهِرٍ الشيبانى ، على نحو ما تصور ذلك معلقته . فإذا حدثت منازعات صغرى بين عشيرته وأبناء عمومتهم من عشائر قيس بن ثعلبة ناصرها ذاكراً ما بينهم وبينها من أواصر الرحم ، على نحو ما نرى فى قصائده التى وجهها إلى بنى جَحْدَر وبنى عَبْدان . وقد اصطدم عند الأخيرين بشاعرهم جُهُنَّام ، فتهاجيا طويلا .

ويقال إنه لما سمع بالرسول صلى الله عليه وسلم وانتصاراته وانتشار دعوته رغب فى الوفود عليه ومديحه ، وعلمت قريش بذلك فتعرضت له تمنعه ، وكان مما قاله له أبو سفيان بن حَرْب : إنه ينهاك عن خلال ويحرِّمها عليك ، وكُلُّها بك رافق ولك موافق ، قال : وما هنّ ؟ فقال أبو سفيان : الزنا والقمار والرِّبا والخمر . فعدل عن وجهته ، وأهدته قريش مائة من الإبل ، فأخذها وانطلق إلى بلده معرضاً عن الرسول ودعوته ، فلما كان بقاع منفوحةَ رمى به بعيره ، فقتله[٣] سنة ٦٢٩ للميلاد .

وهذه الخلال التى ذكرها أبو سفيان والتى جعلته يصدّ عن لقاء الرسول الكريم تدل على أنه كان وثنيًّا مغرقاً فى وثنيته ، وفى شعره نفسه ما يصوِّر معالم هذه الوثنية ،

---

(١) انظر فى هذه المنافرة وصلة الأعشى بها الأغانى (طبعة الساسى) ١٥/٥٥ وديوان الأعشى ص ١٦٥ .

(٢) الديوان ، القصيدة رقم ٣٤ .

(٣) أغانى ٩/١٢٥ وما بعدها والشعر والشعراء ١/٢١٢ .

إذ نراه كثير الحديث عن القيان مثل هُرَيْرة وقُتَيْلة وجُبَيْرَة ، بل إنه ليتحدث عن البغايا اللائى يبعن أعراضهن[(١)] ، ويقرنه ابن سلام فى هذا الصدد بامرئ القيس فيقول : «وكان من الشعراء من يتألّه فى جاهليته ويتعفف فى شعره ولا يستبهر بالفواحش . . ومنهم من كان يتعهَّر ولا يبقى على نفسه ولا يتستر ، منهم امرؤ القيس ومنهم الأعشى[(٢)] » . وقد تمدح فى شعره كثيراً بالقمار كقوله مفتخراً بعشيرته[(٣)] :

من شبابٍ تراهمُ غير مِيلٍ   وكهولاً مَراجِحاً أَحْلاما[(٤)]
ولقد تُصْلَقُ القِدَاحُ على النِّـ   ـيب إذاكان يَسْرُهنَّ غَراما[(٥)]

فهم يضربون قداح الميسر على النوق الضخمة التى يتأبى غيرهم أن يضربها عليها اعتزازاً بها . أما الخمر فهو أكبر شاعر تغنى بها فى الجاهلية .

وطبيعى لمن تكون حياته على هذا النحو من المجون والإثم فيه أن يكون وثنيًّا متعمقاً فى وثنيته وأن لا يعتنق الإسلام ولا غير الإسلام من الأديان السماوية ، وقد زعم لويس شيخو أنه كان نصرانيًّا ، وشاركه فى هذا الزعم بعض المستشرقين مستدلين على ذلك بأنه كان يمدح أساقفة نجران ويتصل بالبيئات المسيحية فى الحيرة وبمثل قوله فى القصيدة رقم أربع وثلاثين :

رَبِّى كريمٌ لايكدِّر نعمةً   وإذا يناشَدُ بالمهارق أنْشَدَا

والمهارق هنا الصحف الدينية . فكأنه يعترف بأنه نصرانى ، ترتَّل لربه الأناشيد الكنسية ، غير أن هذا ليس حتماً ، فقد تكون لدى الوثنيين من الجاهليين مهارق كانوا يتلون فيها بعض أدعيتهم ، وقد يكون البيت دخيلا على القصيدة ، وسنعرف بعد قليل أن راوى ديوانه كان مسيحيًّا ، وأغلب الظن أنه هو الذى أدخل هذا البيت فى القصيدة ، كما أدخل فى قصيدة أخرى قسمه بالمسيح فى قوله[(٦)] :

---

(١) الديوان ، القصيدة رقم ٢٢ .

(٢) ابن سلام ص ٣٤ ويستبهر فى الفواحش : يتبجح بذكرها ويفصح عما حقه أن يكتم .

(٣) الديوان ، القصيدة رقم ٣٨ .

(٤) ميل : جمع أميل وهو الجبان . مراجحاً : راجحى العقول .

(٥) تصلق : تضرب. النيب : الإبل الكبيرة. اليسر : القمار.

(٦) انظر الديوان ، القصيدة رقم ٢٣ البيت ١٦ .

وإنى وربِّ الساجدين عَشِيَّةً   وما صَكَّ ناقوسَ النصارى أبِيلُها[١]

وقد جعله فى قصيدة ثالثة يقسم براهب اللُّجِّ ، بل بثوبه[٢]. وقد يكون فى ذلك ما يدل على أن القصيدتين جميعاً موضوعتان فقد كان الأعشى وثنيًّا غالياً فى وثنيته ، كما تدل على ذلك خلاله التى وصفناها فى شعره ، وأيضاً أقسامه الوثنية التى رواها نفس هذا الراوى المسيحى ، إذ نراه يقسم بالكواكب والنجوم[٣] ، كما يقسم بالكعبة التى يحج إليها العرب وبما يهدون إليها من القرابين فى مثل قوله[٤] :

إنى لعمرُ الذى خطَّت مَناسِمُها   تَخْدِى وسِيق إليه البَاقِرُ الغُيُلُ[٥]

والحق أنه لم يكن نصرانيًّا ، إنما كان وثنيًّا على دين آبائه ، وقد احتفظ فى وثنيته بكل ما كان فيها من إثم وفجور .

٣

ديوانه

للأعشى ديوان كبير نشره جاير فى لندن[٦] سنة ١٩٢٨ وقد اعتمد فى نشره على مخطوطة فى الإسكوريال برواية ثعلب المتوفى سنة ٢٩١ للهجرة ثم مخطوطة دار الكتب المصرية ونسختين نُقلتا عنها فى استراسبورج وزاخو ، ومخطوطة فى باريس وأخرى فى ليدن . وأضاف إلى الديوان ملحقين بما وجده من شعر الأعشى فى كتب الأدب وما وجده من أشعار لمن لقّبوا بالأعشى وهم كثيرون .

وكان اعتماده الأساسى على مخطوطة الإسكوريال ، لأنها برواية ثعلب ، وعلى الرغم من أنها تنقص أوراقاً من نهايتها تحتفظ للأعشى بسبع وسبعين قصيدة ومقطوعة . وقد أضاف إليها خمس قصائد من المخطوطات الخمس الأخرى ، وجميعها تتفق فى رواية خمس عشرة قصيدة له . كما تتفق فى أنها مجهولة النسب . ولذلك لا يمكن الاعتماد

(١) صك : ضرب . الأبيل : الراهب .
(٢) القصيدة رقم ١٥ البيت ٤٤ .
(٣) القصيدة رقم ٢٧ البيت ١٨ .
(٤) القصيدة رقم ٦ البيت ٦٢ .
(٥) خطت : شقت التراب . المناسم : جمع منسم وهو طرف الخف . تخدى : تسرع فى السير مع اضطراب . الباقر : اسم جمع البقر . الغيل : جمع غيول وهو الكثير .
(٦) شرح محمد حسين هذا الديوان ونشره بمكتبة الآداب بالقاهرة سنة ١٩٥٠ .

على هذه المخطوطات وأغلب الظن أنها مختارات جُمعت من نسخة ثعلب ، وليس رواية مقابلة لها . وقد صورت دار الكتب المصرية مخطوطة من المكتبة المتوكلية اليمنية بها ست وأربعون قصيدة ومقطوعة للأعشى ، ويفجؤنا كاتبها فى فاتحتها بأن هذا كتاب فيه من شعر الأعشى ، فهى لا تتضمن ديوانه إنما تتضمن مختارات منه ، وهى مختارات تدل على أنها جُمعت من نفس الرواية الكوفية ، وإن كنا نجد فيها قصائد غير مثبتة فى رواية ثعلب ، ولكن هذا لا يقوم دليلا على أنها لم تشتق من روايته ، فروايته التى نشرها جاير كما قدمنا غير كاملة ، إذ تنقص بعض أوراق . ومعنى ذلك أننا نفتقد فى شعر الأعشى الرواية البصرية ، فيما عدا القصيدتين رقم ٦ ، ١١ فقد نصّ شارح الديوان على أن أبا عبيدة قرأ الأولى على أبى عمرو بن العلاء وأن الأصمعى سمع أبا عمرو ينشد الثانية حفظاً ، ونصّ الشارح أيضاً على أن القصائد ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٥٧ ، ٦٥ ، ٦٦ برواية أبى عمرو ، وظن جاير — كما ذكر فى مقدمته — أنه أبو عمرو بن العلاء ، وليس بصحيح إنما هو أبو عمرو الشيبانى ، فهو الذى كانت تُرْوَى عنه الدواوين ، وهو راوية كوفى ينقل عنه السكرى وثعلب وأضرابهما من رواة الدواوين . على أن الشارح نصّ فى القصائد ١ ، ٢٩ ، ٣٤ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ أنها من رواية أبى عبيدة البصرى ، وإن كنا نلاحظ أن القدماء شكوا فى القصيدة رقم ٦٠ وقالوا إنها لابن دأب[1] . على كل حال ليس بين أيدينا رواية بصرية كاملة للديوان ، إنما بين أيدينا رواية كوفية فيها إشارات إلى بعض ما تضمنته الرواية البصرية .

فإذا لاحظنا أن الرواية الكوفية للشعر الجاهلى غير دقيقة وأنها تتزيد فيه كما لاحظنا سابقاً فى دواوين امرئ القيس والنابغة وزهير كان من الواجب ألا تقبل روايتها لديوان الأعشى دون احتياط واحتراس شديد ، وقد تصادف أن راويته الذى حمله عنه وأذاعه فى الناس كان نصرانيًّا معمَّراً هو يحيى[2] أو يونس بن متّى وأن هذا الراوى من الممكن أن يكون قد عبث بالديوان فأدخل فيه ما ليس منه ، ليزيد بعض المعانى المسيحية ، وقد رُوِىَ عنه أنه كان يقول : «كان الأعشى قَدَرِيًّا إذ يقول :

استأْثَرَ اللهُ بالوفاء وبالـ ... ـعَدْلِ وولَّى الملامةَ الرجُلا

(١) الديوان ص ٢٠٧ .

(٢) الأغانى ٩/ ١١٢ ومصادر الشعر الجاهلى ص ٢٣٨ .

فسأله سائل : من أين أخذ الأعشى قوله ومذهبه فأجاب : « من قِبَل العِباديين نصارى الحيرة ، كان يأتيهم يشترى منهم الخمر ، فلقّنوه ذلك[١] » . ويبعد أن يكون الأعشى حقًّا قد تغلغل نظره كل هذا التغلغل ، فإذا هو يقول بالقدر وأن الإنسان حُرٌّ فى تصرفاته ، ولا يكتفى بذلك ، بل يقول بالعدل على الله كما تقول المعتزلة ، والمعقول أن يكون يحيى هو الذى وضع البيت ، بل لقد شك ابن قتيبة فى القصيدة جميعها ، وقال بعد أن روى طائفة من أبياتها هذا شعر منحول[٢] . وينبغى أن نشك كما شك ابن قتيبة فى قصائد الأعشى الأخرى التى تصور أفكاراً مسيحية أو أفكاراً إسلامية ، أما الأفكار المسيحية فلأن راويه الذى نشره نصرانى ، وأما الثانية فلأنها معان جديدة لم تعرفها الجاهلية ، لا هى ولا كل ما يتصل بها من ألفاظ القرآن وأساليبه . ويصور ذلك تصويراً واضحاً قصيدته رقم ١٧ التى قالوا إنه مدح بها الرسول صلوات الله عليه ، مع أنه — كما قدمنا — لم يلقه وصدّته قريش عن لقائه ، وبمجرد أن نقرأ القصيدة وقوله فيها :

إذا أنت لم تَرْحَلْ بزادٍ من التُّقَى ... ولاقيتَ بعد الموت من قد تزوّدا
نَدِمتَ على أن لا تكون كمثلهِ ... وأنك لم تُرْصِدْ لما كان أَرْصَدَا[٣]
فإياك والميْتَــات لا تأكلنَّها ... ولاتأخذَنْ سهماً حديدًا لِتَفْصِدَا[٤]
وذا النُّصُبَ المنصوبَ لا تَنْسُكنَّه ... ولا تَعْبُدِ الأوثانَ والله فاعبُدَا[٥]
وصَلِّ على حينِ العشيّاتِ والضُّحَى ... ولا تحمَدِ الشيطانَ والله فاحْمَدَا
ولا السائلَ المحرومَ لا تتركنَّهُ ... لعاقبةٍ ولا الأسيرَ المقيَّدا
ولا تَسْخَرَنْ من بائس ذى ضرارةٍ ... ولا تحسبنَّ المرءَ يوماً مخلَّدَا[٦]
ولا تقربنَّ جارةً إنَّ سِرَّها ... عليك حرامٌ فانْكِحَنْ أوتأبَّدَا[٧]

---

(١) الأغانى ٩/١١٣ وما بعدها .
(٢) الشعر والشعراء (طبعة دار المعارف) ص ١٤ .
(٣) أرصد : أعد وهيأ .
(٤) يشير إلى أنه لابد من الذبح كما تقضى تعاليم الإسلام .
(٥) النصب : حجارة كانوا ينصبونها حول الكعبة ويقدسونها أو هى الأوثان .
(٦) الضرارة : ذهاب البصر أو النقص فى الأنفس والأموال .
(٧) السر هنا : البضع . النكاح : الزواج . التأبد : البعد عن النساء والتعزب .

نعرف توًّا أنها موضوعة ، لا لأنه فيها يدعو إلى تعاليم إسلامية فحسب ، بل لأنه ينظم فيها آيات قرآنية من مثل قوله تعالى: (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى) وقد نظم فى البيتين الثالث والرابع قوله تعالى : (حُرِّمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهِلَّ لغير الله به) أما فى البيت الخامس فنظم قوله تبارك وتعالى : (واذكر ربك كثيراً وسَبِّحْ بالعشى والإبكار) . ونظم فى البيت السادس قوله جَلَّ وعز : (والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) . وفى البيت السابع نظم قوله جَلَّ ذكره : (يا أيها الذين آمنوا لا يَسْخَرْ قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم) أما البيت الثامن فنظم فيه مثل قوله تعالى : (ولا تَقْرَبوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا) وقوله : (ولْيَسْتَعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يُغْنِيَهم الله من فضله) .

وواضح من هذا كله أن القصيدة منتحلة ، وهى لا تتفق فى شىء ونفسية الأعشى ، وما كان ليسمع القرآن ويؤمن بتعاليمه على هذا النحو ، ثم ينصرف عن رسوله الكريم وهديه . ونحن لا نشك فقط فى هذه القصيدة ، بل نشك كذلك فى القصائد الأخرى التى تردِّدُ معانى الإسلام ومثاليته الخلقية أو تردد بعض المعانى المسيحية . وبهذا القياس نتهم قصيدته رقم ٥ لقوله فيها يمدح قيس بن معد يكرب الكندى :

وما أَيْبُلِىٌّ على هَيْـكَلٍ ... بناه وصلَّبَ فيه وصارا[١]

يُراوِحُ من صَـلوات المليـ ... ـك طورًا سجودًا وطورًا جُؤّارا[٢]

بأَعظم منه تُقًى فى الحساب ... إذا النَّسَماتُ نَفَضْنَ الغُبارا

وواضح أنه يصفه بالتقوى وأنه يراقب ربه ، ويقول إن الراهب الذى يصلِّب له فى هيكله ويصلى له ساجداً ويتضرع ليس أعظم منه تقوى وخشية ، حين تهب الريح اللينة نافضة للغبار . وقد نظم منتحلها قوله تعالى : « فإنه يعلم السرَّ وأخفى » فقال :

عطـاءَ الإلهِ فإن الإلـ ... ـه يسمع فى الغامضاتِ السِّرارا

(١) أيبلى : راهب . الهيكل : موضع فى صدر الكنيسة توضع فيه القرابين . صلب : صور الصليب بيده . صار : سكن .
(٢) الجؤار : التضرع بالدعاء .

ومثلها القصيدة رقم ١٥ التى أنشد فيها منتحلها قسمه بثوبى راهب اللج فقال :

وإنى وثَوْبَىْ راهبِ اللُّجِّ والتى بناها قُصَىٌّ والمُضاضُ بن جُرْهُمِ (١)

وحقًّا أنه أضاف إلى ثياب الراهب القسم بالكعبة ، ولكن مما يزيد الشبهة فى القصيدة أننا نجد فيها هذا البيت ، يهجو به خصمه :

وما جعل الرحمنُ بيتك فى العُلا بأَجْيادِ غربىَّ الفِناء المحرَّمِ (٢)

ولم تشع كلمة الرحمن بين الشعراء إلا فى الإسلام أخذاً من قوله تعالى : (بسم الله الرحمن الرحيم) ، وقد دارت فى القرآن الكريم . ونقف نفس الموقف من القصيدة رقم ٢٣ للبيت الذى مر بنا والذى يقسم فيه بالمسيح وضرب الراهب للناقوس ، ومما لا شك فيه أن قوله فى قصيدة النعمان رقم ٢٨ :

فلا تحسبنِّى كافرًا لك نعمةً علىَّ شهيدٌ شاهدُ اللهِ فاشْهَدِ

مما يضعفها ، لأنه يلخص فكرة الملائكة الشاهدين المعروفة فى الإسلام . وقد شك ابن قتيبة فى القصيدة رقم ٣٥ وبها بيت القدر الذى أنشده يحيى بن متى فيما أسلفنا . وتكاد تكون القصيدة رقم ٦٦ فى كثير من أبياتها نظماً لمواد قرآنية على هذه الشاكلة :

وربَّك لا تشركْ به إن شِرْكَهُ يَحُطُّ من الخيرات تلك البواقيا

بل اللهَ فاعبدْ لا شريك لوجهه يكنْ لك فيما تكدحُ اليوم راعيا

وقد مضى واضعها يدعو إلى تقوى الله وصلة الرحم وردّ الأمانات إلى أهلها والتعفف عن الجارة ، ويقول محذراً من معصية الله : « فإنك لا تخفى على الله خافياً » ويقول أيضاً: « كفى بكلام الله عن ذاك ناهياً ». فلاشك فى أن هذه القصيدة إسلامية . على أنها تلفتنا إلى شىء مهم ، وهو أن الأعشى أضيفت إليه أشعار تذهب مذهب العظة والاعتبار ، ولا نرتاب فى أن يحيى بن متى لعب فى ذلك

---

(١) اللج : غدير عند دير هند . ويريد بثوبيه أعماله الصالحة. ومعروف أن أمر الكعبة كان إلى جرهم ثم صار إلى قصى .

(٢) أجياد : موضع فى بطحاء مكة ، والفناء المحرم : حرم مكة .

دوراً كبيراً ، وقد تبعه القُصَّاص والوعاظ المسلمون يزيدون فى النسيج خيوطاً ، فإذا الأعشى كأنه واعظ من وعاظ الكوفة ، يتحدث إلى الناس حديث عظة عن الدهر وتقلباته والموت وما طوى من الملوك وأسباب ترفهم ونعيمهم ، وكيف يأتى على الناس ، فالكل إلى فناء ، ولا يبقى سوى وجه ربك ذى الجلال والإكرام . ولا يبدو ذلك فى قصيدة من ديوانه أو قصيدتين ، بل إنه يجرى فى قصائد كثيرة ، واقرأ قصيدته ذات الرقم ٢ فإنك ستراه يستهلها بالحديث عن حياة الإنسان وما يلقى فيها من العناء والشقاء بالموت وما ينزل به من الأمراض والأحزان ، وكيف أن أحداً لا يستطيع الفرار من المنية ، ويسترسل فى الحديث عمن مات من الملوك الأولين . وفجأة يخرج إلى الحديث عن لذاته . ولعل من الطريف أن القدماء أنكروا القصيدة[١] . ومثلها القصيدة رقم ٤ وفيها يتحدث عن طوافه فى البلاد ، وقد أنشدنا منها فيما مر البيتين اللذين يذكر فيهما أنه زار أوريشليم والنجاشى فى أرضه، ولكن ليس هذا هو الذى نقف عنده فحسب ، فقد مضى يتحدث عن قصة حصن الحضْر وتخريب سابور له بجنوده ، ويُنْهى قصته تلك بقوله

وفى ذاك للمُؤْتسِى أُسْــوةٌ ... ومَأْرِبُ قَفَّى عليها رِمْ[٢]

ويمضى فى هذه القصة قصة سد مأرب وخرابه وتشتت حمير فى البلاد ، متخذاً من ذلك عظة جديدة . وعلى هذا المثال قصيدته رقم ١٣ وفيها يحدثنا عن زرقاء اليمامة وكيف عصاها أهلها ولم يأتمروا بأمرها حين خوفتهم جيوشاً قادمة ، هى جيوش حسان تُبّع ، وقدمت الجيوش فجعلت عاليها سافلها وحطمتهم حطماً ، وقد شك القدماء فى القصيدة وأنكروها[٣] . وليس فى القصيدة رقم ١٤ ذكر للملوك الأولين ، ولكنها تحمل وصية خلقية بها كثير من الخيوط الإسلامية تجعلها أشبه بموعظة ، إذ لا يعد القريب قريب النسبَ ، وإنما هو قريب الود والبر ، ويقول إنه ليس عاقّاً ولا ذا نميمة، وإنه لا ينتظر من الناس جزاءه وإنما ينتظره من ربه . ومثل هذه المعانى تجعلنا نشك فيها كما نشك فى القصيدة رقم ٣٣ وفيها حديث طويل عن فناء الحياة وأن كل شىء فيها إلى زوال ، فالكل هالك كما هلك ساسان

---

(١) انظر الموشح للمرزبانى ص ٤٩ .
(٢) العرم : سيل مشهور .
(٣) الموشح ص ٤٩ .

ملك الفرس وورق ملك الروم وكسرى شاهنشاه ، وهذا عادياء لم يغنه حصنه بتيماء الذى بناه سليمان ، ويسهب فى وصف الحصن ، وكذلك كان أمر النعمان إذ لم تنفعه أمواله ولا ما كان يُجبي إليه ، فلم ينْجُ من القضاء . ومن هذا النمط نفسه قصيدته رقم ٣٦ التى يقول فيها :

إنما نحن كشىء فاسد فإذا أصلحه اللهُ صَلحْ

ويحدثنا عن هلاك الملوك الأولين مثل عمرو بن هند حديثاً كله عظة واعتبار، فإن الناس هالكون لا محالة ، وكذلك يصنع فى قصيدته رقم ٣٩ ، ومثلها رقم ٥٣ أما القصيدة رقم ٥٤ فإنه يتحدث فيها عن قصر ريمان قصر الحميريين الذى تداوله الحبش والفرس وما أصابه من البلى والخراب . وقد أنكر القدماء نسبة المقطوعة رقم ٥٦[1] إليه كما أنكروا أختها رقم ٦٠ وأشرنا إلى ذلك فيما أسلفنا ، وأبيات الأخيرة تختلط بأبيات القصيدة رقم ٧٢ ولذلك كنا نتهمها هى الأخرى ، وأنكر القدماء القصيدة رقم ٦٢ وقالوا إنها تختلط بشعر لنابغة بنى شيبان[2] . ونراه فى القصيدة رقم ٧٩ يدعو لإياس بن قبيصة أن يجزيه الله جزاء نوح إذ أوحى إليه أن يصنع الفلك ليعصمه من الطوفان . ونلتقى فى نهاية الديوان بالقصيدة رقم ٨٢ وهى تلتقى فى بعض أبياتها بقصيدة رواها المفضل الضبى فى المفضليات لعوف بن الأحوص وهى فيها ذات الرقم ٣٦ ونسب الجاحظ بعض أبياتها فى الحيوان إلى مضرِّس[3] بن زرارة ابن لقيط .

وليست هذه القصائد وحدها فى الديوان هى التى ينبغى أن لا نطمئن إليها ، لما يداخلها من الوعظ والمعانى الإسلامية والمسيحية ، فقد أضاف إليه الرواة الوضاعون غير قليل من القصائد والأشعار ، ويمكننا معرفة وضعها من عرضها على تقاليد الشعر الجاهلى وأسلوب الأعشى نفسه فى مطولاته التى لا يعتورها الشك . وقد تأخذ القصيدة شكلا قصصيًّا غير مألوف لدى الشعراء الجاهليين . وإذا أخذنا نقرأ فى الديوان على هذه الأسس وجدنا غير قليل من القصائد يستوقفنا ، من ذلك القصيدة رقم ١٢ لما يصور فيها من قصة عماه وقائده ، وتدل رحلاته الكثيرة أنه كان ضعيف

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/٦٦ وانظر الديوان ص ٢٠٤ .

(٢) الديوان ص ٢٠٨ .

(٣) الحيوان ٥/٧٨ .

البصر ولم يكن مكفوفاً ، ومثلها القصيدة رقم ٢٠ للين أسلوبها وضعفه ، وهو أشبه بأساليب العباسيين . ونراه فى القصيدة رقم ٢٥ يسوق فى تفصيل قصة السموأل وما كان من إيداع امرئ القيس عنده مائة درع قبل رحيله إلى قيصر وحصار الحارث بن ظالم أو الحارث الغسانى له حتى يأخذها وتحصُّنه منه بحصنه ، ومفاجأته له بأحد أبنائه ، وكان يصطاد ، وقوله له إما أن تسلم الأدراع إلىّ وإما أن أقتل ابنك ، وأبى السموأل أن يسلم الأمانة وفاءً ، وقتل الحارث ابنه تحت عينه . وهى قصة مشكوك فى أصلها ، ويزيدها شكًّا فى قصيدة الأعشى أنه رواها مفصلة بصورة تدل على أنها موضوعة ، وربما وضعها أحد أولاد السموأل فى الإسلام ؛ ومن أجل ذلك نشك فى القطعة رقم ٢٤ التى تقدَّم لها . وإذا تقدمنا فى الديوان وأعدنا النظر فى القصيدة رقم ٣٩ التى اتهمناها لما فيها من حديث عن هلاك القرى والأمم لاحظنا أنها تتضمن فى نحو عشرين بيتاً قصة غزلية ، يصور لنا فيها كيف بعث لصاحبته رسولا شيطاناً لا يخشى الرقباء ، وكيف تخلص إليها هذا الرسول فنازعها الحديث مخافتاً ، حتى إذا أنكرته ظل يغويها حتى أسلس له قيادها ، فشاورها متى يأتيها الأعشى وكيف يدخل إليها ، ويحدثنا أنه ألم بها وقد غفل الرقباء ، وبات إلى جنبها لا يفصلهما حجاب ، ويمضى فيصف مبيته عندها وصفاً صريحاً . وليس من ريب فى أن هذه القصة تعلن بدورها عن انتحال القصيدة وأنها موضوعة ، ولكن ليس هذا ما نريده ، إنما نريد أن نقول إنه ينبغى أن نشك فيما يجرى مجرى هذه القصيدة المنتحلة وقصتها الغزلية . ومن أجل ذلك كنا نشك فى القصيدة رقم ٥٢ وخاصة أنها غزل ووصف خالص ، وليس لها موضوع من مديح أو فخر أو هجاء كما تعودنا عنده ، ومما يزيدنا شكًّا فيها استرساله فى الخيال مع كل ما يشبِّه صاحبته به ، وخاصة حين شبه مذاق ريقها بطعم الزنجبيل والتفاح ممزوجين بعسل النحل ، فقد أخذ فى وصف من يشتار العسل ويجنيه ، ولم يكن العسل واشتياره مما تُعْرَفُ به قيس بن ثعلبة فى الجاهلية ، إنما كانت تعرف به هذيل . ونقف نفس الموقف من القصيدة رقم ٥٥ لكثرة ما فيها من ألفاظ فارسية ، وكذلك القصيدة رقم ٦٣ لأنها تفتقد الغرض الواضح ، وكأن من نحلوها الأعشى أرادوا بها أن يجروا على لسانه حديثه عن أسفاره البعيدة إلى الغساسنة فى الشام وبنى الجُلَنْداء

فى عُمان وغيرهم . وليس فى القصيدتين رقمى ٦٤ و ٦٥ غرض واضح إنما فيهما غزل وخمر أو غزل ووصف ، ولذلك كنا نشك فيهما كما نشك فى القصيدة رقم ٧٦ ؛ لأنها كما يقول رواتها فى مديح قيس بن معد يكرب ، وليس له فيها سوى ثلاثة أبيات فى مطلعها ثم تمضى القصيدة فى الغزل والخمر ، وهى صورة معكوسة للصورة الطبيعية عنده ، إذ يبدأ بالغزل ، ثم يطيل فى المدح . ونحن نشك أيضاً فى القصيدة التى تليها برقم ٧٧ لا لغزلها الماجن فحسب ، بل لأن هذا الغزل يستنفد منها ٢٤ بيتاً ، ويليه وصف للناقة فى ٣ أبيات وفخر لا يتجاوز ٥ أبيات . ومثلها القصيدة رقم ٧٨ إذ نراه يصور فيها لهوه ومجونه فى ٢٢ بيتاً ، ثم يترك لممدوحه ٥أبيات. ومثلهما القصيدة رقم ٨٠ وهى غزل خالص أُودع فى أسلوب ركيك . أما القصيدة رقم ٨١ فاعتذار لعلقمة بن عُلاثة أجراه الوضاعون على لسانه حتى يمحوا هجاءه المقذع فيه ، وما كان ليهجوه فى قصيدتين مطولتين ويدور هجاؤه له فى العرب ثم يعتذر له بستة أبيات .

وإذا أضفنا إلى هذه القصائد التى شككنا فيها مقطوعاته القصيرة التى لا تتجاوز أحياناً بيتاً والتى لا نستطيع أن نقيم عليها مراصد نمتحنها بها لقصرها وهى ذوات الأرقام ٣١ ، ٣٧ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٧٥ استطعنا أن ندرس ما بقى له دراسة نطمئن إليها على الأقل بعض الاطمئنان . ولم يبق له قليل بعد هذا الفحص للديوان ، بل إنه كثير ، إذ يتضمن القصائد ذوات الأرقام : ١ ، ٣ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٦ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧٣ . على أن أعلاها ثقة هى القصائد ذوات الأرقام ١ ، ٦ ، ١١ ، ٢٩ ، ٣٤ ؛ لأن الشارح أسند الأولى والاثنتين الأخيرتين إلى أبى عبيدة كما أسند الثانية والثالثة إلى أبى عمرو بن العلاء ، فتلك القصائد إذن من رواية البصرة التى نرفعها على رواية الكوفة فى التوثيق. على أننا نضرب صفحاً عما ألحقه جاير ناشر الديوان به من أبيات وأشعار وجدها تنسب للأعشى فى بعض الكتب ، إذ بمجرد النظر فيها نعرف خطأ نسبتها إليه أو على الأقل خطأ نسبة الكثير الأكثر منها .

٤

شعره

يمتاز الأعشى بكثرة قصائده الطويلة ، كما يمتاز بكثرة تصرفه فى فنون الشعر من مديح وهجاء وفخر ووصف وخمر وغزل . أما المديح فقد قالوا إنه أول من سأل بالشعر واستجدى بالقريض[1] واتخذه متَّجراً يطوف به البلاد[2] ، وحقًّا سبقه غير شاعر إلى المديح كزهير والنابغة ، ولكن أحداً منهم لم يحرص على الاستعطاء وطلب النوال كما حرص الأعشى فقد طاف فى أطراف الجزيرة العربية يمدح السادة والأمراء ، ذاكراً ما يفيضون عليه من الإبل والجياد والإماء وصحاف الفضة وثياب الخز والديباج ، منوهاً فى أثناء ذلك بسؤاله لهم ، غير مُبْقٍ على شىء من نفسه . ومعانى المديح عنده لا تفترق عن المعانى العامة فى مدائح الجاهليين ، فهو ما ينى يمدح بالكرم والشجاعة والوفاء وعوْن الضعفاء فى القبيلة ، وكثيراً ما يعرض لجيوش ممدوحه إذا كان أميراً أو شيخاً لقبيلته مصوراً ما تنزله على الأعداء من التقتيل والنكال ، وقد يطيل فى وصف ما تشنه من غارات على الأعداء ، وفى تضاعيف ذلك يورد على ممدوحه ثناء مفرطاً .

ومن أهم ما يميز مديحه بالقياس إلى الجاهليين كثرة إسرافه فيه ، ولا نقصد الإسراف فى الأوصاف من حيث هى وإنما نقصد الغلوّ فيها والإفراط ، بحيث يُعَدّ مقدمة لمبالغات العباسيين فى مدائحهم ، وقد يكون ذلك من أثر رغبته الشديدة فى العطاء ، وقد يكون من أثر الحضارات التى ألمّ بها فى طوافه ، وهذا هو معنى ما نقوله من أنه يشبه العباسيين ، فذوقه فى المديح يقترب من ذوقهم وما نعرفه عندهم من غلوّ دفعهم إليه ملق الخلفاء والوزراء بنفس الباعث الذى بعث الأعشى على إفراطه فى مديحه ، ونقصد طلب النوال والعطاء الجزيل . واقرأ له هذه القطعة من مديحه لقيس بن معديكرب إذ يقول :

وسَعَى لِكِنْدَةَ سَعْىَ غيرِ مُواكلٍ ... قَيْسٌ فَضَرَّ عــدوَّها وبنَى لها

(١) ابن سلام ص ٥٤ .
(٢) العمدة لابن رشيق (الطبعة الأولى) ١ / ٤٩ .

وأهـــان صالحَ مالهِ لفقيرها ... وأسَى وأصلحَ بينها وسعى لها[١]
فترى له ضُراًّ على أعـــدائِه ... وترى لنعمته على مَنْ نالها
أثراً من الخَيْر المزيِّن أهـــلَهُ ... كالغيث صابَ ببلدةٍ فأسالها[٢]
وإذا تجيء كتيبـــة ملمومةٌ ... خَرْساءُ يخشى الدَّارِعون نِزالها[٣]
كنتَ المقدَّم غير لابسِ جُنَّةٍ ... بالسيف تضرب مُعْلِماً أبطالها[٤]
وعلمتَ أن النفسَ تَلْقَى حَتْفَها ... ما كان خالقُها المليكُ قضى لها

فإنك تحس فيه روح العصر العباسى ، لا من حيث سهولة اللفظ فحسب ، ولا من حيث المقابلة بين المعانى فحسب ، بل من حيث ما يجرى فى ذلك من أثر رقة الذوق بتأثير الحضارة ، وهى رقة دفعته إلى الغلو فى وصف شجاعة ممدوحه ، فإذا هو بجرأته وبسالته يقتحم ميادين الحرب بدون ترس يحميه ، وبيده سيفه يضرب به فى الأقران تاركاً فيهم آثاره ، وقد آمن بينه وبين نفسه بأن الإنسان لابد أن سيموت ، فلا داعى للخوف ، فلكل امرئٍ أجل مضروب ، لا يتأخر عنه ولا يتقدم . واقرأ له هذه القطعة فى مديحه لهَوْذَةَ بن على سيد بنى حنيفة :

إلى هَوْذَةَ الوهَّابِ أهديتُ مِدْحَتِى ... أُرَجِّى نوالاً فاضلاً من عَطائكا
سمعتُ برَحْبِ الباع والجود والنَّدَى ... فأَدْليتُ دَلْوِى فاستقتْ برِشائكا[٥]
فَتًى يحْمل الأعباءَ لو كان غيرُهُ ... من الناسِ لم يَنْهَضْ بها متماسكا
وأنت الذى عوَّدْتَنِى أن تَرِيشنِى ... وأنت الذى آويْتَنِى فى ظِلالكا[٦]
وإنك فيما نابنى بىَ موزَعٌ ... بخيرٍ وإنى مولَعٌ بثَنائكا[٧]

---

(١) أسى : داوى .
(٢) صاب المطر : سقط وانصب .
(٣) ملمومة : مجتمعة . خرساء : لا يسمع لها صوت من كثرة الدروع أى ليس لها قعقعة .
(٤) الجنة : الترس .
(٥) الباع : الكرم وكذلك الندى . الرشاء : حبل الدلو .
(٦) تريشنى : تعيننى وتغنينى .
(٧) هكذا رواية البيت فى المخطوطة اليمنية وهو مضطرب فى الديوان . موزع : مولع .

وجدتَ عليًّا بانياً فوَرِثْتَـهُ ... وطَلْقاً وشيبانَ الجوادَ ومالكا(١)

بحورٌ تَقُوتُ الناسَ فى كل لَزْبَةٍ ... أبوك وأعمــامٌ همُ هؤلائكا(٢)

وما ذاك إلا أن كفَّيْك بالنَّدَى ... تجــودان بالإعطاء قبل سؤالكا

يقولون فى الأَكفاء أكبرُ هَمِّه ... ألا رُبَّ منهم من يعيش بمالكا(٣)

وجــدتَ انهدامَ ثَلْمَةٍ فبنيتَها ... فأنعمتَ إذ ألحقتَها ببنائكا(٤)

وربَّيْتَ أيتاماً وأنعشتَ صِبْيَةً ... وأدْرَكْتَ شأْوَ السَّبْقِ دون عنائكا(٥)

ولم يَسْعَ فى العلياء سَعْيَك ماجدٌ ... ولاذو إنًى فى الحيِّ مثلَ إنائكا(٦)

فإنك تحس المبالغة فى المديح واضحة ، وهو يمزجها بالتبذل فى السؤال تبذلا لم يعرف فى عصره ، وكل ذلك واضح فيه رقة اللهجة وأن الأعشى من ذوق يخالف ذوق الجاهليين ، وهو ذوق جاءه من طول اختلاطه بأهل الحضر .

ولا نشك فى أن هذا الذوق هو الذى جعله فى أهاجيه ينحو نحو السخرية من مهجوِّه فى كثير من شعره ، وكأنما يجد فيه مرارة أشد وألذع من مرارة الهجاء المقذع ، واقرأْ معلقته أو قصيدته السادسة فى الديوان التى وجّه بها إلى يزيد بن مُسْهِر الشيبانى ، وكان قد قتل أحدُ بنى قيس بن ثعلبة رجلا من قومه ، فحمَّسهم للثأر لقتيلهم ، فتعرض له الأعشى يهدده ويهجوه مسهّلا تهديده وهجاءه بقوله :

أَبْلِغْ يزيدَ بنى شيبانَ مَأْلُكَةً ... أبا ثُبَيْتٍ أما تنفكُّ تَأْتَكِلُ(٧)

أَلَستَ منتهياً عن نَحْتِ أَثْلَتِنا ... ولستَ ضائرَها ما أَطَّتِ الإبلُ(٨)

---

(١) واضح من الشطر الثانى أن مالكا وشيبان وطلقاً أعمام هوذة .

(٢) لزبة : شدة وأزمة .

(٣) يريد بالشطر الأول أن ممدوحه يتهم بأنه يظلم أكفاءه .

(٤) الثلمة : فرجة المهدوم أو ما فيه من شقوق .

(٥) هكذا رواية البيت فى المخطوطة اليمنية وبه بعض الاضطراب فى الديوان .

(٦) إنى : مقصور إناء .

(٧) مألكة : رسالة . تأتكل : تسمى بالشر أو تغضب وتغلى حتى لكأنك تأكل نفسك .

(٨) الأثلة : شجرة . ونحت أثلته : تنقصه وعابه . أطت : أنت . ويريد بقوله ما أطت الإبل التأبيد .

كناطحٍ صخرةً يومــاً ليُوهِنَها　　فلم يَضِرْها وأوهى قَرْنَهُ الوَعِلُ(١)

وواضح أنه يوبّخه ساخراً منه مزدرياً له، إذ يقول: يا أبا ثُبَيْت أما تنفك تسعى بالشر والفساد وتقع فى أعراضنا بالذم والقدح؟ ألست منتهياً عن ذمنا وتنقصنا؟ وإنك مهما أتيت من قوارع الطعن لن تضر أصلنا الشامخ مدى الدهر، وما مثلك إلا كمثل وَعْل ينطح صخرة ليضعفها، فاستعصت عليه ولم يضرها ولم يوهنها إنما ضر قرنه وأوهنه. وارجع إلى قصيدتيه اللتين يهجو بهما علقمة بن عُلاثة، فستجده يعمد إلى هذا اللون من السخرية المرة بعلقمة، إذ يقول له فى أولاهما موازناً بينه وبين خصمه ومنافره عامر بن الطفيل:

علقمَ ما أنت إلى عــامرٍ　　الناقضِ الأَوتارَ والواترِ(٢)
يا عَجبَ الدَّهْرِ متى سُوِّيا　　كم ضاحكٍ من ذا وكم ساخرِ
ولستَ بالأكثر منهم حَصىً　　وإنمــا العِزَّة للكاثرِ(٣)
علقمَ لا تَسْفَهْ ولا تجعلَنْ　　عِرْضَك للوارد والصادرِ
ولستَ فى السِّلْم بذى نائلٍ　　ولستَ فى الهيجاء بالجاسرِ(٤)

وهذا من أشد الهجاء وأمضّه، ولو أنه شتم وأفحش لعُدَّ سفيهاً، أما أن يهجو على هذا النحو من التعريض فإنه يجعل الظنون تتسع كما يجعل النفوس تتعلق بمعنى كلامه وتُكثر من تأويله. وهو يشير فى الأبيات إلى حكم هرم بن قُطْبة حين تنافر إليه علقمة وعامر، فسوَّى بينهما فى عبارته المأثورة: «إنكما كرُكْبَتَى البعير الأدْرَم (الفحل) تقعان على الأرض معاً» والأعشى يردّ هذا الحكم وينقضه قائلا: أين الثَّرَى من الثّرَيّا. وقد مضى فى القصيدة الثانية يذمه، ولم يكن من أبياتها بيت أشد إيلاماً لعلقمة من قوله:

تبيتون فى المشْتَى مِلاءً بطونُكم　　وجاراتُكم غَرْثَى يَبِتْن خَمائصا(٥)

(١) الوعل: ضرب من الماعز الجبلى.
(٢) الأوتار: جمع وتر وهو الثأر. وناقضها: الآخذ بثأره. الواتر: الذى يترك ثأره فى الأعداء فلا يستطيعون نقضه.
(٣) الحصى هنا: العدد.
(٤) النائل: العطاء. الجاسر: الجرىء.
(٥) المشتّى: زمن الشتاء. غرثى: جائعة. خمائص: ضامرات البطون.

حتى لقد زعم الرواة أنه بكى حين سمعه . وواضح أنه لم يجعله بخيلا فحسب ، بل جعله هو وعشيرته يملأون بطونهم ويُتْخَمون فى ليالى الشتاء الباردة على حين يشتد كلَبُ الجوع والمسغبة على جاراتهم . واختار النساء لينزع من قلوبهم كل عطف ورحمة ، فهم ليسوا بخلاء فحسب ، بل إن قلوبهم لأشد قسوة من الحجارة . واستمعْ إليه يسخر من كسرى قبل وقعة ذى قار :

واقعُدْ عليك التاجُ مُعْتصباً بهِ ... لا تطلبنَّ سَوامَنا فتُعَبَّدَا[١]

وفى كلمة «اقعد» من الهجاء ما يفوق كل إقذاع ، إذ يستخفّ به و بجيوشه التى يعدّها لقتالهم وقتال شيبان ، وكأنه يلوّح له أنه إن هاجمهم مُنِىَ بهزيمة تطيح بتاجه. ولعلنا الآن نفهم ما كان يقال عن الأعشى من أنه « إذا مدح رفع وإذا هجا وضع » ، فهو إذا مدح غالى فى مدحه حتى رفع ممدوحه على جميع الناس ، وإذا هجا أوجع لا بالشتم والهجاء المقذع وإنما بالتهكم والسخرية والاستهزاء .

والأعشى كثير الفخر فى شعره بقبيلته وعشيرته ، وهو يجمع لهما ضروب المفاخر والمناقب التى كانوا يعتزون بها فى الجاهلية من الجود فى الجدب والشجاعة فى الحرب والرعى فى المكان المخوف وإغاثة المستصرخ . وكثيراً ما يضمن هجاءه لمن يختلف معهم من قبيلته الكبرى بكر وقبيلته الصغرى قيس بن ثعلبة فخراً مدوياً ، كقوله فى معلقته التى أشرنا إليها آنفاً متوعداً يزيد بن مُسْهِر الشيبانى ومفتخراً بشجاعة قبيلته وما أثخنتْ فى القبائل من جراح :

سائلْ بنى أسدٍ عنَّا فقد علموا ... أنْ سوف يأتيك من أنبائنا شَكَلُ[٢]
واسألْ قُشَيْرًا وعبد الله كلَّهمُ ... واسألْ ربيعةَ عنا كيف نَفْتَعِل[٣]
إنا نقاتلهم حتى نقتِّلَهم ... عند اللقاءِ وهم جاروا وهم جَهِلُوا
لئنْ مُنِيتَ بنا عن غِبٍّ معركةٍ ... لم تُلفنا من دماءِ القوم نَنْتَفِلُ[٤]

(١) السوام : الإبل الراعية ويقصد بها الأعشى ديار العرب . تعبد : تصبح كالعبد ، يريد أنه يهزم ويقهر .
(٢) شكل : أزواج مختلفة يريد خبراً من بعد خبر .
(٣) نفتعل هنا : نفعل العظائم .
(٤) غب : عقب ، يقصد أنهم لا يتعبون من لقاء الأعداء ، فإن لقيهم بعد معركة فسيجدهم على أتم استعداد للقاء . ننتفل : ننتفى ، و يروى ننتقل .

قد نَخْضِبُ العَيْرَ من مكنون فائِلِه ... وقد يَشيط على أرماحنا البَطلُ(١)
نحن الفوارسُ يومَ العَيْن ضاحيةً ... جَنْبَىْ فُطَيْمَةَ لا مِيل ولا عُزُلُ(٢)
قالوا الركوبَ فقلنا تلك عادتنا ... أو تنزلون فإنا مَعشرٌ نُزُلُ(٣)

وقد ذهب بعض القدماء إلى أن البيت الأخير أشجعُ بيتٍ لما صوَّر فيه الأعشى قومه وأنهم يحسنون الطعان فرساناً كما يحسنون الضراب راجلين منوهاً بأن تلك سجية لهم دَرَج عليها شيوخهم وشُبابهم .

ونراه يكثر من وصف الصحراء وناقته ، وهذا طبيعى لكثرة رحلاته وأسفاره ، وهو فى هذا الموضوع يجرى على عادة الجاهليين ، فيصور الأودية وما يجرى فيها من ظلام أو سَموم أو مياه أمطار كما يصور طرقها الوعثة ورمالها ومناهلها ووحشها وعزيف الجن ليلا بها ، يقول فى معلقته :

وبلدةٍ مثلِ ظهر التُّرْسِ موحشةٍ ... للجنِّ بالليل فى حافاتها زَجَلُ(٤)
لا يَتَنَمَّى لها بالقيْظِ يركبُها ... إلا الذين لهم فيما أتَوْا مَهَلُ(٥)
جاوزْتُها بطَليحٍ جَسْرةٍ سُرُحٍ ... فى مِرْفَقَيْها إذا استعرضتَها فَتَلُ(٦)

وواضح أنه فى هذه الأبيات يفخر بتحمله لمشقات السفر فى مثل هذه الأرض الوعرة الصلبة الموحشة التى لا يسمع فيها صوت سوى صوت الجن والتى لا يركبها فى حمارَّة القيظ واشتعال الرمال إلا من تعود الصبر واحتمال المكاره ، ويقول إنه يقطع مثل هذه الأرض بناقة نِضْوِ أسفار ضامرة موثَّقة الخلق صلبة قوية . وهو

(١) العير : حمار الوحش استعاره للفارس لأن العير يتقدم الأتن : الفائل : القناة الدموية كالشريان . يشيط : يهلك .
(٢) يوم العين : يوم كان بين بنى قيس بن ثعلبة وشيبان بجنب موضع فى البحرين يسمى فطيمة . ميل : جمع أميل وهو الجبان . عزل : جمع أعزل : من لا سلاح له .
(٣) يريد بالنزول التضارب بالسيوف .
(٤) البلدة : القطعة من الأرض . وشبهها بالترس لبيان أنها غليظة وصعبة على من ينفذ فيها . موحشة : كثيرة الوحش . زجل : صوت. حافاتها : نواحيها .
(٥) يتنمى : يرتفع . القيظ : شدة الصيف . مهل : أناة وصبر .
(٦) طليح : مهزولة لكثرة أسفارها . جسرة : ضخمة . سرح : سريعة . فتل : قوة وصلابة .

لا يطيل فى وصف أعضاء الناقة صنيع طرفة ، بل يقتضب الحديث عنها غالباً ، ويكثر حين يلم ببيان سرعتها أن يشبهها بحمار وحش أو ثور أو نعامة ، ويطيل فى وصف ما يلمّ به منها على عادة الجاهليين. واقرأْ هذه القطعة :

وفلاةٍ كأنها ظَهْرُ تُرْسٍ ليس إلا الرجيعَ فيها عَلاقُ(١)
قد تجاوزتُها وتحتى مرُوحٌ عنتريسٌ نَعَّابةٌ مِعْنَاقُ(٢)
عِرْمِسٌ تَرْجُمُ الإكامَ بِأَخْفا فٍ صِلابٍ منها الحصى أفْلاق(٣)
وكأن القُتود والعِجْلَةَ الوَفْـ راءَ لمَّا تَواهقَ السُّوَّاق(٤)
فوق مُسْتَبقِلٍ أَضرَّ به الصَّيْـ فُ وزَرُّ الفُحولِ والتَّنْهاق(٥)
أو فريدٍ طاوٍ تضيَّف أَرْطَا ةً عليه من الغصونِ رُوَاق(٦)
أخرجتْه شَهْباءُ مُسْبِلَةُ الوَدْ قِ رجوسٌ قُدَّامها فُرَّاقُ(٧)
وتعادَى عنـه النهارُ تُواريـ ه عِراضُ الرِّمال والدَّرْداق(٨)
وتَلَتْه غُضْفٌ طوارِدُ كالنَّحْـ لِ مغاريثُ همُّهن اللَّحاق(٩)

وهو يصور فيها فلاة مقفرة ، لا تجد فيها الإبل ما تأكله سوى الاجترار ، ويقول إنه تجاوزها بناقة نشيطة قوية مسرعة سرعة شديدة ، كانت ترجم المرتفعات بأخفافها الصلبة ، فتشق ما فيها من حصى شقّاً وسرعان ما يشبهها فى سرعتها بحمار وحش ، يقاسى من لظى الصيف وعضّ أمثاله وتنهاقها عليه ،

(١) الرجيع : ما تجتره من طعامها . العلاق : ما تطعمه الإبل من الشجر .
(٢) مروح : نشيطة . عنتريس : صلبة . نعابة : تمد عنقها فى سيرها . معناق : من العنق وهو سير واسع للإبل .
(٣) عرمس : صلبة . الإكام : المرتفعات .
(٤) القتود : الرحل بأدواته . العجلة : المزادة ، وهى قربة الماء . الوفراء : كثيرة المياه . السواق : طويل الساق . تواهق : مد عنقه فى السير. وتلك رواية المخطوطة اليمنية ، والبيت فى الديوان مضطرب .
(٥) مستبقل : حمار وحش يأكل البقل ، زر : طرد وعض .
(٦) فريد : منفرد ، ويقصد ثور الوحش . طاو : جائع . الأرطاة : من أشجار البادية . رواق البيت : شقته التى دون شقته العليا . وتلك رواية المخطوطة اليمنية .
(٧) شهباء : سحابة بيضاء يصدعها سواد . مسبلة : مرسلة . الودق : المطر . رجوس : مرعدة . فراق : جمع فارق وهى السحابة المنفردة .
(٨) تعادى : تباعد . الدرداق : دك متلبد من الرمال .
(٩) الغضف : كلاب الصيد مسترخية الآذان . مغاريث : جائعة .

فهو يسرع لا يلوى . ولا يمضى طويلا مع هذا الحمار ، بل يتركه إلى ثور وحش يشبه به ناقته ، ويصوره طاوياً فى ليلة من ليالى الشتاء القاسية ، وقد بات مستظلا بأغصان أرطاة ، والمطر يسقط من حوله والفزع يأخذه من كل جانب، ولم تلبث نفسه أن راودته على الخروج من كناسه ، فخرج يتوارى فى عراض الرمال وكثبانها ، ولم تلبث كلاب الصيد أن رأته فأسرعت تحاول اللحاق به ، وأسرع يحاول فوتها . والأعشى يشبه ناقته به وهى تترامى فوق الرمال مسرعة كأنما شيء يطالبها .

وتتكرر مثل هذه الصورة لا عند الأعشى وحده ، بل عند جميع شعراء الجاهلية ، إذ يشبهون الناقة بوحش الفلاة ، وخاصة حين يناضل كلاب الصيد ، وإن كنا نلاحظ أن الأعشى لا يطيل فى تصوير ذلك إطالة النابغة أو لبيد أو غيرهما من الجاهليين ، وربما جاءه ذلك من ذوقه المتحضر ، فكان يوجز فى وصف الصحراء والناقة والحيوانات الوحشية ، على حين كان يتسع فى الحديث عن الخمر والغزل .

وحقاً نجد عند الجاهليين تعرضاً كثيراً للخمر ، ولكنهم عادة يسوقونها مع الحديث عن فتوتهم وكرمهم وبذلهم ، على نحو ما نرى فى معلقة طرفة ، أما عند الأعشى فإننا نجدها فى فاتحة كثير من قصائده تالية لبعض غزله ، ونحس كأنها لذته من الدنيا ، فهو يطيل الحديث عنها وعن تأثيرها فى نفوس شاربيها ، وكأنه يقدسها تقديساً ، فهى وثنه وصنمه ، ولذلك لم يكد يسمع من قريش — كما أسلفنا — أن الرسول صلى الله عليه وسلم يحرمها حتى كفَّ عن لقائه وانصرف لساعته .

وهو يجيد وصفها إجادة لفتت القدماء إليه ، فقالوا إنه أشعر الجاهليين إذا طرب[1] ، يقصدون إذا شرب الخمر ووصفها ، وهو وصف يفيض بالحيوية ، إذ يجسِّم فيه بيتها ومجالسها وما يُنْثَرُ فيها من الورود والرياحين وما يقوم فيها من السقاة والمغنين والإماء الخليعات اللائى يَلْبَسْن الشفوف الرقيقة وما يضربُ عليه العازفون من آلات طرب كالصَّنْج والعود ، واستمعْ إليه يقول فى معلقته :

(١) أغانى ٩/١٠٨ .

وقد غدوتُ إلى الحانوت يتبعني | شاوٍ مِشَلٌّ شَلُولٌ شُلْشُلٌ شَوِلُ (١)
في فتيةٍ كسيوف الهند قد علموا | أن ليس يَدْفَعُ عن ذي الحيلةِ الحِيَل
نازعْتُهم قُضُبَ الرَّيْحان مُتَّكئاً | وقهوةً مُزَّةً راوُوقُها خَضِلُ (٢)
لا يَسْتفيقون منها وهْي راهنةٌ | إلا بهاتِ وإن عَلُّوا وإن نَهِلُوا (٣)
يَسْعى بها ذو زُجاجاتٍ لهُ نُطَفٌ | مُقَلَّصٌ أسفلَ السِّرْبالِ مُعْتَمِلُ (٤)
ومستجيبٍ تخالُ الصَّنجَ يَسْمعُهُ | إذا تُرَجِّع فيه القَيْنَةُ الفُضُلُ (٥)
والساحِباتِ ذيولَ الخَزِّ آونَةً | والرَّافلاتِ على أعْجازها العِجَلُ (٦)
من كل ذلك يومٌ قد لهوتُ بهِ | وفى التجارب طولُ اللَّهْوِ والغَزَلُ

وهو يصف فى الأبيات يوماً من أيام لهوه غدا فيه إلى خمار مع رفيق ناشط خفيف الحركة طيب النفس فى فتية كسيوف الهند مضاء وقوة ورونقاً . ويقول إنهم تجاذبوا أغصان الريحان وخمرة مزة ما زالوا يتعاطونها ، فراووقها لا يجف ، وهم لا يسأمون من تعاطيها ولا يفيقون من شربها إلا ليقولوا للساقى : هات ، ويكررون هذه اللفظة مهما شربوا . ويصف الساقى بأنه غلام أو شاب حدث ، كان يعلّق فى أذنه قُرطاً ويلبس قميصاً قصيراً ، وقد طُبع على العمل بجد ونشاط . ويضيف إلى ذلك وصف عود كانت ألحانه تتسق مع صنج كانت تعزف عليه وتغنى قينة فى ثوب واحد رقيق ، ومن ورائها نساء ترفل فى ثياب الخز والحرير ، وقد علت أعجازهن كأنها قرب ممتلئة ، فهى تهتز وترتجّ . ويختم أبياته بأنه تمتّع بكل ذلك

(١) غدوت : ذهبت . شاو : يشوى اللحم . ومعنى مشل شلول شلشل شول أنه خفيف الحركة نشيط .
(٢) قضب : جمع قضيب وهو الغصن ، القهوة : الخمر . الراووق : الوعاء الذى تروق فيه الخمر . خضل : ندى ، كنى بذلك عن اتصال شربهم .
(٣) علوا : من العلل وهو الشرب بعد الشرب تباعاً ، نهلوا : من النهل ، وهو أول الشرب . إلا بهات : إلا بمقدار قولهم هات .
(٤) ذو زجاجات : يريد الساقى . نطف : جمع نطفة وهى القرط به لؤلؤة صافية . مقلص أسفل السربال : قصير القميص . معتمل : مطبوع على العمل والنشاط .
(٥) المستجيب : العود ذو الأوتار لأنه يجيب صاحبه كما يجيب الصنج وهو الآخر من آلات الطرب . وجعل الصنج يسمعه كناية بذلك عن اتساق ألحانهما . القينة : الأمة المغنية . الفضل : اللابسة ثوباً واحداً .
(٦) العجل : جمع عجلة بكسر العين وسكون الجيم وهى قربة الماء .

ولـهـَا به وجرّبه مراراً وتكراراً .

والأعشى لا يصف مجالس الخمر فحسب ، بل يصف وصفاً دقيقاً أوانيها وألوانها وما تفعله بعقول شاربيها وما تُحدِث في قلوبهم من نشوة ، مما يدل على أنه كان مشغوفاً بها مفتوناً ، بل سكّيراً مغرقاً في السكر ، وهو في ذلك يقترب من ذوق جماعة المجّان في العصر العباسي أمثال أبي نواس ، وفي الوقت نفسه يفترق من ذوق معاصريه الذين لم يكونوا يسرفون على أنفسهم إسرافه في اللهو والمجون . ولا نشك في أن هذا جاءه من أثر الحضارات التي ألمّ بها في الحيرة وغير الحيرة ، بحيث تحوّل مدمناً لها ، يلزم حوانيتها ، فإن ولّى وجهه نحو منازل قومه حمل منها ما يكفيه هو ورفاقه هناك ، فينهلون ويعلّون ولا يفيقون ، وهو في أثناء ذلك ينشدهم ما ينظمه فيها ، وهم يصفقون استحساناً . ولم يكن يحسن وصفها فحسب ، بل كان يُضْفِي عليه حيوية بما يمزجه به من قصص على شاكلة قوله :

أتاني يُؤامِرُني في الشَّمو ... ل ليلا فقلتُ له : غَادِها[1]
أرَحْنا نباكرُ جِدَّ الصَّبو ... حِ قبل النفوس وحُسَّادها[2]
فَقُمْنَا ولما يَصِحْ دِيكُنا ... إلى جَوْنَةٍ عند حدَّادها[3]
تنخَّلها من بِكارِ القِطـافِ ... أُزَيْرِقُ آمِنُ إكْسادها[4]
فقلتُ له : هذه هاتِها ... بـأدْماءَ في حَبْلِ مُقْتَادِها[5]
فقال : تزيدونني تسعةً ... وما ذاك عَدْلاً لأندادها[6]
فقلتُ لِمنْصَفِنا : أعْطِهِ ... فلما رأى حَضْرَ شُهَّادهـا[7]
أضاءَ مِظَلَّتَه بالسِّرا ... جِ والليلُ غامِرُ جُدَّادِها[8]

(١) يؤامرني : يشاورني . الشمول : الخمر . غادها : انطلق بنا إليها .

(٢) جد : نشاط . الصبوح : خمرة الصباح .

(٣) جونة : جرة وخابية . حدادها : خمارها .

(٤) تنخلها : تخيرها . بكار القطاف : أول ما يقطف . أزيرق : أزرق العينين . آمن إكسادها : آمن من كسادها لا يخاف .

(٥) أدماء : ناقة بيضاء . مقتادها : غلامها الذي يرعاها .

(٦) أندادها : أمثالها .

(٧) منصف : خادم . حضر : حضور . شهادها هنا : الدراهم .

(٨) مظلته : حانوته أو خباءه . الجداد : الأهداب والأستار .

دَراهمُنا كُلُّها جَيِّـدٌ فلا تحبِسنَّا بِتَنْقَادِهــا[١]
فقام فصبَّ لنا قَهْوَةً تُسَكننا بعد إرْعادها[٢]
كُمَيْتاً تكشَّفُ عن حُمْرةٍ إذا صرِّحتْ بعد إزْبادها[٣]
كحَوْصَلة الرَّأْلِ فى جَرْيها إذا جُلِيَتْ بعد إقْعادها[٤]
وجال علينـــا بإبريقهِ مخضَّبُ كفٍّ بِفرْصادها[٥]
فباتتْ رِكابٌ بأَكْوارِها لدينـــا وخيلٌ بِأَلْبادها[٦]
ورُحْنـــا تنعَّمنا نشوةٌ تجورُ بنا بعد إقْصَادِها[٧]

ولا تختلف هذه الأبيات المنتزعة من القصيدة الثامنة فى الديوان عن خمريات أبى نواس وأضرابه فى شىء ، لولا ذكره للأكوار والألباد فى نهايتها ، ولوحذفنا بيتهما لأصبحنا إزاء خمرية عباسية تعتمد على القصص والإطراف به . وهو فى أولها يذكر أن فتى طرقه قبل أن يسفر الصباح يدعوه أن يذهبا معاً لتناول الخمر . وذهبا فى هزيع الليل الأخير —قبل أن تصيح الديكة وقبل أن يسبقهما أى كاشح حسود— إلى حانوت خمار أعجمى ، كنى عنه بزرقة العين ، وهو خمار حاذق لصنعته ، استخلص خمره من بكار القطاف ، وهى خمر معتقة ومثلها لا يكسد ولا يبور . وطلبا إليه أن يسقيهما بناقة قاداها إليه ، وهى واقفة ببابه مزمومة بحبل غلامها ، فلم تكفه وطلب فوقها تسعة دراهم ، مشيداً بخمره وأن هذا الثمن ليس كفؤاً لها ، ويقول الأعشى إنه قال لصاحبه : اعطه ما يريد . ويضىء الخمار خباءه أو حانوته ، ويعدّ الدراهم ويتبينها خشية زيفها ، حتى إذا اطمأن لها وللأعشى ورفيقه أو رفاقه قام ، فناولهم خمراً تمشت فى أجسادهم ، فسكنوا إليها ، وهى خمر حمراء

(١) تنقادها : نقدها وعدها حتى يتبين زائفها من صحيحها .
(٢) تسكننا : نسكن إليها .
(٣) كميتاً : حمراء . صرحت : ذهب زبدها .
(٤) الرأل : فرخ النعام . شبه الخمر بحوصلته فى الحمرة . جليت : أخرجت ، مأخوذ من جلوة العروس. القاعدة ، إذا قعدت عن الطلب . وانظر الحيوان ١٤/٤ .
(٥) الفرصاد : التوت الأحمر .
(٦) الأكوار : الرحال . الألباد : جمع لبد وهو قطعة الصوف توضع تحت السرج
(٧) إقصاد : قصد واعتدال .

فاقعة كأنها الفرصاد أو التوت الأحمر ، وما يزال صاحبها يسقيهم ، وهم بها مشغوفون ، حتى انبثقت أضواء الصباح ، فنهضوا بركابهم وخيلهم ، تستخفهم النشوة استخفافاً خرجوا به عن أطوارهم وما تعودوه فى صحوهم من قصد واعتدال .

وأنت تراه قد وصف الخمر ودنّها وإوبها وخمّارها وحانوتها وتعرّض لصباح الديكة فى السحر ومساومة صاحبها فى ثمنها وأثرها فى النفس وما تصيب به شاربها من انتشاء يتمشى فى المفاصل . وهذه المعانى جميعها تدور فيها وفى أفلاكها خمريات العباسيين . واستمعْ إليه يقول :

وأَدْكنَ عاتقٍ جَحْلٍ سِبَحْلٍ صَبحْتُ بِراحِهِ شَرْباً كِرَامًا(١)
من اللاتى حُمِلْن على الرَّوايا كريحِ المِسْكِ تَسْتَلُّ الزُّكاما(٢)
مُشَعْشَعةً كأَنَّ على قَرَاها إذا ما صَرَّحتْ قِطَعاً سَهاما(٣)
تخيَّرها أخو عاناتَ شهرًا ورَجَّى أَوْلَها عاماً فعاما(٤)
يؤمِّل أن تكون له ثراءً فأغلق دونها وغَلا سِواما(٥)
فأعطينا الوفاءَ بهــا وكُنَّا نُهين لمثلها فينا السَّواما(٦)
كأَنَّ شُعاعَ قَرْنِ الشمس فيها إذا ما فُتَّ عنْ فيها الختاما(٧)

وواضح أنه يتحدث عن دن من دنان الخمر أسود عتيق ، صَبَحَ به رفاقه ، ويقول إنه من نادر الدنان التى تجتلب من البلاد البعيدة والتى تنفذ رائحة خمرها بطيبها إلى الأنف ، فتستلُّ منه الزكام . ويصف هذه الخمر فيقول إنها مروَّقة ، صافية كأنها بياض الحرّ أو سرابه اللامع ، وقد انتقاها صاحبها فى «عانات» ، وظل

---

(١) أدكن : هو الدن لأنه يطلى بالقطران . عاتق : قديم . الجحل : السقاء الكبير أو القربة الكبيرة . سبحل : ضخم . الشرب : جماعة الشاربين . صبحت : ناولت ، وهو خمر الصباح .
(٢) الروايا : جمع راوية وهو البعير .
(٣) مشعشعة : مروقة . قراها : ظهرها . صرحت : صفت . السهام : وهج الصيف ومايكون معه من البياض .
(٤) عانات : بلد بالشام . أولها : ما تؤول إليه من ثمن غال .
(٥) السوام : بكسر السين المساومة فى البيع والمغالاة .
(٦) السوام : بفتح السين الإبل الراعية .
(٧) قرن الشمس : أول ما يبدو منها فى الصباح . الختام : السداد .

يعلق عليها الآمال عاماً بعد عام ، مغالياً فى ثمنها ، حتى اشتريناها منه ، ويصورها وهى تسقط من دنّها بشعاع الشمس الوهاج ، وهى من الصور التى أكثر العباسيون من تداولها ، كما أكثروا من الحديث عن رائحتها ووصف دِنانها ، ومن قوله فى كأس من كئوسها :

وكأسٍ كَعيْنِ الديكِ باكرتُ حَدَّها　　بفتيانِ صِدْقٍ والنواقيسُ تضربُ[1]
سُلاف كأنَّ الزعفران وعَنْدَماً　　يصفَّق فى ناجودها ثم تُقْطَبُ[2]

وهو يشبهها بعين الديك فى صفائها ، ويقول إنه باكرها أو باكر سورتها برفاق مخلصين ، يشربونها معه فى الأديرة على قرع النواقيس ، ويحدثنا عن رائحتها وأثرها فى نفسه ، حتى ليتصورها زعفراناً أحمر خُلط بصبغ العندم ، وقد سطعت منه رائحة زكية . وعلى هذا النحو ما يزال يصف الخمر وصف مفتون بها ، معلناً أنه لا يستطيع عنها انصرافاً ، فهى كل لذته ومتاعه ، يقول :

وكأسٍ شربتُ على لذَّةٍ　　وأخرى تداويتُ منها بها
لكى يعلم الناسُ أنى امرؤٌ　　أتيتُ المعيشةَ من بابها

وما يني يتحدث عن مجالسها وما ينثر فيها من ورود وما يكون فيها من قيان وآلات طرب ، بنفس الصورة التى تلقانا عند أصحاب الخمر والمجون فى العصر العباسى . ونحن إنما سقنا ما وثّقناه من أشعاره ، ومن يرجع إلى ديوانه وما رفضناه من قصائده يستطيع أن يلاحظ عبث الرواة بشعره ، فقد أجروا على لسانه خمرية تزخر بالألفاظ الفارسية ، وكأنه فارسى أباً وأمّاً ممن أتقنوا الشعر العربى فى العصر العباسى وأتقنوا فن الخمرية بنوع خاص ، وهل تفترق قصيدته رقم ٥٥ من قصائد أبى نواس وأضرابه فى شيء ؟ إنها تكتظ بأسماء الرياحين والأزهار وآلات الطرب الفارسية ، ولا يبخل عليه واضعها بذكره لنيل مصر فى تضاعيفها وإجرائه على لسان الأعشى بعض ما كان يجرى على لسان أبى نواس ونظرائه من أن صاحبها مجوسى يصلى عليها

---

(١) باكر : شربها فى الصباح الباكر . حدها : سورتها وحدتها .
(٢) السلاف : أجود الخمر . العندم : شجر عروقه حمراء يصبغ به . يصفق : يروق . ناجودها : جرتها . تقطب : تمزج .

ويزمزم . فماذا بقى لمجان الفرس فى العصر العباسى . وقُلْ ذلك نفسه فى قصيدته رقم ٣٦ وقد رفضناها لما فيها من حديث عن هلاك الملوك الأولين ، وهى ترفض أيضاً لما فيها من صور خمرية تنبو على ذوق الجاهليين ، إذ يوصَفُ زقُّها الأسود وقد طُلى بالقار وطُرح على الثرى بحبشى نام وانبطح ، كما يوصَف السكارى وقد تمددوا على الأرض وخذلتهم أرجلهم من غير كسَحٍ فلا يستطيعون حراكاً بالحبال الممدودة لصيد بعض الطير .

وإذا تركنا خمره إلى غزله لاحظنا أنه لا يقف طويلا عند الأطلال صنيع غيره من الجاهليين ، بل يأخذ فى وصف صاحبته ووصف عواطفه نحوها ، وقد يعمد إلى نفس الصورة القصصية المبثوثة فى معلقة امرئ القيس ، فيتحدث عن مغامراته ووصوله إلى محبوباته من المتزوجات على شاكلة قوله :

فظلِلْتُ أرعاها وظلَّ يَحُوطُها — حتى دنوتُ إذا الظلامُ دَنا لَهَا
فرميتُ غفلةَ عَيْنِهِ عن شاتِه — فأصبتُ حَبَّةَ قلبِه وطِحالَها[1]
حَفِظَ النهارَ وبات عنها غافلاً — فَخلتْ لصاحبِ لَذَّةٍ وخلا لها

فهو يخالس الزوج ويخاتله ، حتى يظفر ببغيته . وطبيعى أن يكون غزله مادياً صريحاً لما رأينا من لهوه وخمره ، غير أننا نلاحظ عنده رقة فى الغزل وشدة فى الوله والتعلق بالمحبوبة ، حتى إن روحه لتكاد تسقط من بين جنبيه جزعاً وصبابة ، وخاصة حين الوداع . واستمعْ إليه يقول فى فاتحة معلقته :

وَدِّعْ هُرَيْرَةَ إن الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ — وهل تطيقُ وداعاً أيها الرَّجُلُ

فهو يأمر قلبه أن يودعها قبل الرحيل ، وسرعان ما يرجع إلى نفسه ينكر ما ظنه فيها من الصبر على الوداع . وهى صبابة لا نعرفها عند الجاهليين ، إنما نعرفها عند الأعشى صاحب الذوق الرقيق الذى أثرت فيه الحضارة ، وحوّلته دقيقَ الحس دقة شديدة فإذا هو يتذلل فى حبه ويخضع ، وامْضِ معه فى المعلقة فستجده يشبِّب بصاحبته منحرفاً عن طريقة الجاهليين فى بكاء آثار الديار والأطلال ، فهى موضوع حبه وغزله ، ولا داعى لأن يذهب بعيداً مع الذكريات ، وإذن

(١) الشاة هنا : كناية عن المرأة .

فليأخذ فى وصفها مفتنًّا فى ذلك افتناناً ، فتارة يصف بَشرتها وشعرها وعوارضها وتارة يصف مشيتها الوانية وحَلْيها ، وتارة يصف تعلق الناس بطلعتها الفاتنة وما تغرق فيه من ترف ونعيم وعطور ، ولا يلبث أن يُورد علينا هذا البيت الغريب :

عُلِّقْتُها عرَضاً وعُلِّقَتْ رجلا غيرى وعُلِّق أخرى غيرَها الرَّجُلُ

وهو يصور فيه شقاءه بحبها ، فهو يحبها ، وهى تعرض عنه ، وتحب رجلا آخر ، والرجل يعرض عنها ويحب فتاة أو امرأة ثانية . وسرعان ما يعود ، فيتذكر كيف كانت تشفق عليه وعلى نفسها حين زارها ذات مرة ، فقال :

قالتْ هُرَيْرَةُ لما جئتُ زائرَها وَيْلِى عليك ووَيْلِى منك يا رَجُلُ

فقد بالغ فى وصف ارتياعها وخوفها على نفسها وعليه ، حتى إنها لتتفجع وتتوجع إشفاقاً وضعفاً . ولعل فى هذا كله ما يوضح غزل الأعشى وأنه يمتاز من ناحية بأنه حسى مادى ومن ناحية أخرى برقته المفرطة وتصويره لعواطف المحبين وأحاسيسهم التى يبوحون بها ولا يستطيعون كَظْمها ولا كتمها ، بل يندفعون فى تصويرها معبرين عن ولهم وعشقهم .

والحق أن الأعشى فى شعره جميعه يعد تمهيداً للشعر الحضرى الذى ظهر من بعده ، سواء فى غزله وخمره أو فى هجائه ومديحه ، فهو فى هذه الموضوعات جميعاً يفصح عن ذوق متحضر ، سواء فى خطاب الأمراء والأشراف والخضوع لهم أو فى خطاب النساء والتذلل لهن أو فى اللعب بمهجوِّيه والاستهزاء بهم والاستخفاف ، أو فى وصف الخمر ومجالسها ودنانها وكئوسها .

ولعلنا بعد ذلك لا نعجب إذا رأيناه يشبه العباسيين فى مبالغاتهم ، فقد كان يسرف على نفسه مثلهم فى تصور ممدوحيه ، فإذا هو يقول فى هَوْذة بن على الحنفى :

فَتًى لو يُبارى الشمسَ ألقتْ قناعَها أو القمرَ السَّارِى لألْقَى المقالِدَا[1]

فهو لو يبارى الشمس لألقت قناعها خجلا ولو بارى القمر الذلّ له وانقاد صَغاراً . وهى مبالغة مفرطة ، ومثلها قوله متغزلا :

(١) ألقى المقالد : ذل وانقاد ، وفى رواية ينادى بدلا من يبارى بمعنى يجالس

لو أسندتْ مَيْتاً إلى نَحْرِها   عاشَ ولم يُنْقَلْ إلى قابِرِ
حتى يقولَ الناسُ مما رأوا   يا عجباً للميِّتِ الناشرِ[١]

فلو ضمت ميتاً إلى نحرها لدبت فيه الحياة من جديد ، وعجب الناس لما يرون من هذا الميت المبعوث . ويبالغ الأعشى أو قل يزيد مبالغته إفراطاً ، فيقول إن هذا الميت حين يبعث إلى دنياه يخلد فيها ولا ينقل إلى مقبرة من المقابر .

ولا يلاحظ عنده إطرافه بمثل هذه المبالغات فحسب ، بل يلاحظ أيضاً تعمقه فى صنع الأخيلة والصور ، فإذا هو يقع منها على مبتكرات كثيرة ، نلاحظها لا فى موضوعه الجديد فحسب ، ونقصد الخمر ، وإنما فى أقدم الموضوعات وأكثرها دخولا فى البداوة ، ونقصد وصف الناقة ، إذ يقول فى بعض شعره إنها تجترع الآكام اجتراعاً ، لما تـطْوى منها ، يقول :

إذا ما الآثماتُ وَنَيْنَ حطَّتْ   على العِلاَّتِ تَجْتَرِعُ الإكاما[٢]

ويقول مصوراً سرعة ناقته فى الهاجرة :

بِجُلالةٍ سُرُحٍ كأنَّ بِدَفِّها   هِرًّا إذا انتعلَ المَطِيُّ ظِلالَها[٣]

فهى تجرى مذعورة كأن هِرًّا يخدشها ، وليس ذلك الذى يلفتنا عنده ، إنما يلفتنا أنه عبر عن تقلص الظلال فى الهاجرة بأنه لم يبق لناقته إلا ظل أخفافها ، وهى تنتعله فى خُطاها. وتكثر عنده الصور المخترعة فى الخمر ، وهى مبثوثة فيما أنشدناه من شعره .

ومن أهم ما يلاحظ عنده سهولة لفظه بالقياس إلى معاصريه وسابقيه من قبيلته أمثال طرفة، وما نشك فى أن هذا يرجع إلى أنه تأثر بالحضارة ، فرقَّت معانيه ، ورقت ألفاظه رقة لم تعرف لشاعر جاهلى، وليس لفظه وحده الذى رَقَّ ، بل إن نفسه رقَّت هى الأخرى ولانت ، فإذا هو يأتى بخمرياته وغزلياته السابقة . وحقًّا تأثر النابغة مثله بالحضارة، ولكنا نحس عنده أنه يُبْقِى على كثير من بداوته، ولذلك

---

(١) الناشر : المنشور أو المبعوث .

(٢) الآثمات هنا : الوانيات . العلات : الحالات المختلفة . حطت : أسرعت . الإكام : المرتفعات .

(٣) جلالة : ناقة ضخمة . سرح : سهلة . الدف : الجانب .

لم يرقّ غزله ولا خاض فى الخمر ، أما الأعشى فأقبل على اللهو والطرب والعكوف على الخمر والاستماع إلى القيان . فكان طبيعيًّا أن يسهل الشعر عنده بأكثر مما يسهل عند النابغة ، وأن تظهر فيه رقة الحضارة ونعومتها .

ولا يظهر تأثير الحضارة فى سهولة ألفاظه فحسب ، بل يظهر أيضاً فى خفة أوزانه وجمال موسيقاها ، وكأنما أثر فيه كثرة استماعه للمغنيات والغناء ، فإذا هو يُحيل شعره ألحاناً وأنغاماً خالصة . وهو كثير التنويع فى أوزانه يستخدم منها التام والمجزوء ، ويُحسن هذا الاستخدام إلى أقصى الحدود ، إذ كان يقتدر على الإتيان بالألفاظ العذبة والكلمات الرشيقة والقوافى المتمكنة .

على أنه ينبغى أن نلاحظ شيئين ، هما كثرة ما نُحيل عليه ، وقد أدّى ذلك إلى دخول ألفاظ فارسية فى بعض قصائده ، حمل عليه من أجلها المرزبانى فى كتاب الموشح ، والذى لا شك فيه أن هذا من صُنْع المنتحلين ، ولا يصح أن نحمل على الأعشى بسببه بل ننحّى عنه هذا الشعر على نحو ما نحينا عنه القصيدة رقم ٥٥ . أما الشىء الثانى فهو أن الأسلوب عند الأعشى ينفك قليلا عن صورة الأسلوب الجاهلى ، ولذلك مظهر واضح هو أننا نفتقد عنده الأبيات المفردة التى تدور فى الحكم والأمثال ، وكأنما لم تكن لديه مقدرة زهير والنابغة فى التركيز وحشد المعانى فى الألفاظ القليلة . وربما كان هذا هو سبب كثرة التضمين فى أشعاره كقوله فى مطلع قصيدته الأولى فى ديوانه :

ما بكاءُ الكبيرِ بالأطلالِ وسؤالى فهل تردُّ سؤالى
دِمْنَةٌ قَفْرَةٌ تَعاورها الصَّيْـ ـفُ بريحين من صَباً وشَمال[١]

فقد جاء بفاعل تردّ فى أول البيت الثانى ، ومن ذلك قوله فى قصيدته التى يفخر فيها بتغلُّب شيبان على الفرس فى يوم ذى قار :

ولله عَيْنا مَنْ رأى من عِصابة أشدَّ على أيدى السُّعاة من التى[٢]

(١) الدمنة : آثار الدار . الصبا : ريح جنوبية لينة . تعاورها : تتداولها .

(٢) السعاة : الذين يسعون فى الحرب ويهيجونها .

أَتَتْنَا من البَطْحاءِ يَبْرُقُ بَيْضُها ... وقد رُفعتْ راياتُها فاستقلَّتِ (١)

وهو يوازن فى البيتين بين بنى شيبان وجيوش الفرس ، فيقول ألا سلمت عينا من رأى عصابة بنى شيبان وإنها لأشد على من يثيرون الحروب من تلك التى أتتنا من البطحاء تبرق خوذاتها وتخفق راياتها . وواضح أنه فصل بين الصلة والموصول فى البيتين . وكأنه لم يعترف بأن للبيت الأول نهاية يقف عندها . وهذا التضمين فى شعره أكثر من أن نمثل له ، فليرجع إليه من أراد ، والمهم أنه يدل على انفكاك التعبير عنده ، فهو لا يتمه فى البيت ، بل يتمه فى بيت ثان أو أبيات ، ولعل ذلك هو سبب كثرة صيغة التفضيل التى اشتهر بها فى شعره ، وذلك أنه حين يبتغى تفضيل شئ على شئ يجعل المفضل عليه مبتدأ منفيًّا بما ، ثم يسترسل فى وصفه ، حتى إذا استوفى ما أراد من هذا الوصف جاء بخبر المبتدأ ، على شاكلة قوله فى المعلقة يصف صاحبته وما ينتشر من طيبها :

ماروضةٌ من رياضِ الحَزْنِ مُعْشِبَةٌ ... خَضْراءُ جادَ عليها مُسْبِلٌ هَطِلُ (٢)

يُضاحكُ الشمسَ منها كوكبٌ شَرِقٌ ... مؤزَّرٌ بِعَميمِ النَّبْتِ مُكْتَهِلُ (٣)

يوماً بأَطيبَ منها نَشْرَ رائحةٍ ... ولا بأَحْسَنَ منها إذْ دَنَا الأُصُلُ (٤)

فقد بدأ بالمبتدأ وهو الروضة ، ووصفها فى بيتين مادحاً جمالها وما تمدها به الأمطار وكيف تضاحك الشمسَ أزهارُها ونباتاتها ، ثم قال إن هذه الروضة على حسنها وشذاها العطر ليست أطيب من صاحبته شذى ولا أبهى منظراً .

وواضح من كل ماقدمنا أن الأعشى يُعَدُّ حلقة مهمة من حلقات الشعر الجاهلى ، وهى حلقة تضيف جديداً واضحاً إلى هذا الشعر سواء فى موضوعاته أو فى معانيه أو فى أحاسيسه أو فى سهولة ألفاظه أو فى خفة أوزانه وجمال أنغامه وألحانه .

---

(١) البطحاء : موضع بقرب ذى قار . البيض : الخوذ . استقلت : ارتفعت وعلت .

(٢) الحزن : ما غلظ من الأرض وارتفع . وعندهم رياض الحزن أجود وأنضر من رياض المنخفضات . مسبل هطل : كثير الأمطار .

(٣) كوكب : أراد به ما طال من النبات . شرق : ريان من الماء . وأراد بالمضاحكة تفتح الأزهار . مؤزر : لابس إزارا . عميم النبت : ما اجتمع منه وتكاثر . مكتهل : تام .

(٤) الأصل : جمع أصيل وهو الوقت قبل الغروب .

الفصل الحادى عشر

طوائف من الشعراء

١

الفرسان

رأينا القبائل فى الجاهلية تعيش معيشة حربية ، فهى كتائب تنزل للرعى ، وفى الوقت نفسه تجهَّز بالأسلحة كى تدفع خصومها عن مراعيها، أو تغير عليهم وتسبى نساءهم وتنهب أموالهم من الإبل وغير الإبل . وكانوا يحاربون راجلين وركباناً على الإبل والخيل ، وكانوا يرون فى الثانية مزية على الأولى لسرعتها فى الطِّراد والإغارة، فأحبوها وعُنوا بها وبتربيتها وصيانتها واستنتاج كرائمها وترويضها للحروب والسباق . وقد دارت أوصافهم لها فى شعرهم الجاهلى ، فلم يكادوا يتركون عضواً من أعضائها إلا وصفوه ، ولا خصلة ولا عيباً إلا ذكروهما، وفى معلقة امرئ القيس صورة من وصفهم لخيلهم، وممن اشتهر بوصفها أبو دُؤَاد الإيادى وطُفيل الغنوى وسلامة بن جَنْدل التميمى .

واشتهر كذلك جماعة من الفرسان الذين أظهروا بطولة نادرة فى حربهم عليها لخصومهم وأقرانهم ، وهم كثيرون ، فقد كان لكل قبيلة فارسها أو فرسانها الذين يتدربون على ركوب الخيل طويلا وكيف يقفزون عليها ويشهرون سيوفهم ويلوِّحون برماحهم وكيف يسددون ضرباتهم إلى أعدائهم . وتلقانا دائماً أسماؤهم وخاصة فى حروبهم الطويلة مثل حرب البَسُوس وفارسها المهلهل التغلبى ، وهو الذى أشعل نيرانها ثأراً لأخيه كليب ، ويقال إنه أول من هلهل الشعر وأرقّه[١] . وشعره يدور فى رثاء أخيه وتوعُّد قبيلة بكر بما سينزله بها من هزائم لا تقل شدة ولا فتكاً عن هزائمها السابقة ، وكانت الحرب كما قدمنا فى غير هذا الموضع بين بكر وقبيلته تغلب

(١) انظر أخباره فى الأغانى (طبعة دار الكتب) ٥/ ٣٤ والشعر والشعراء ١/ ٢٥٦ وخزانة الأدب للبغدادى ١/ ٣٠٢ .

سِجالا ، تارة تنتصر هذه وتارة تنتصر تلك . وكان لا ينى يحمّس قومه ويدعوهم إلى مواصلة القتال ، مفصحاً فى أثناء ذلك عن رغبة حارة فى الانتقام ، واسمعْه يقول : [١]

وإنى قد تركتُ بواردات ... بُجَيْرًا فى دَمٍ مثلِ العَبيرِ [٢]
وهمّام بن مرّةَ قد تركنا ... عليه القَشْعمان من النُّسورِ [٣]
وصبّحنا الوُخومَ بيومِ سَوْءٍ ... يُدافعْن الأسنَّةَ بالنُّحورِ [٤]
كأنّا غُدْوَةً وبَنِى أبينا ... بجَوْفِ عُنَيْزَةٍ رَحَيا مُديرِ [٥]
فلولا الريحُ أُسْمِعَ أهلُ حِجْرٍ ... صَليلَ البَيْضِ يُقْرَع بالذكورِ [٦]

وواضح أنه يفخر بانتصاراته على بكر فى موقعة واردات وموقعة عنيزة ، وقد قتل فى الأولى بجير بن الحارث بن عُبَاد أحد فرسان بكر كما قتل همام بن مرة أخا جساس ، وكم قتلوا من عشيرة الوخوم ، ولم يكن يوم عنيزة بأقل من يوم واردات فيما اصطلته بكر من حَرِّ اللقاء .

ومن فرسانهم المشهورين عامر بن الطُّفَيل [٧] فارس بنى عامر بن صعصعة أقوى عشائر هوازن وأشدها بأساً ، وكان بنو عامر ينتشرون فى أواسط نجد شرقى الحجاز ، وجنوبى منازل عبس وذبيان ، وغربى منازل بنى تميم ، وكانت مراعيهم تمتد جنوباً حتى بنى حنيفة فى اليمامة وبنى الحارث بن كعب فى نجران ومذحج فى شمالى اليمن . ولما نشبت الحروب بين عبس وذبيان أخذوا صف عبس ، فاصطدمت بذبيان وأحلافها . وقد جعلهم انتشارهم فى أواسط نجد يحاربون

---

(١) الأصمعيات (طبع دار المعارف) ص ١٧٤ والأغانى ٥ / ٥٣ .
(٢) واردات : موضع سميت به موقعة حدثت فيه بين بكر وتغلب فى حرب البسوس . العبير : الزعفران .
(٣) القشعم من النسور : الضخم ، وهمام : أخو جساس قاتل كليب .
(٤) الوخوم : عشيرة من بكر .
(٥) عنيزة : موضع سميت به إحدى وقائع حرب البسوس . والرحيان إذا أدارهما مدير أثرت كل منهما فى الأخرى ، والصورة واضحة .
(٦) حجر : قرية باليمامة . البيض : خُوَذُ الحرب . يقرع : يضرب . والذكور : أجود السيوف وأيبسها وأشدها .
(٧) انظر أخبار عامر فى الأغانى (طبعة الساسى) ١٥ / ٥٠ ، وراجع ترجمته الشعر والشعراء ١ / ٢٩٣ وانظر الخزانة ١ / ٤٧٣ ، ٣ / ٤٩٢ والمعمرين ص ٦٠ وشرح النقائض فى يوم فيف الريح ص ٤٦٩ وشعب جبلة ص ٦٥٤ وتاريخ ابن كثير ٥ / ٥٦ والسيرة النبوية ٤ / ٢١٣ .

قبائل كثيرة مضرية ويمنية .

ولعامر بن الطفيل ديوان نشره لايل مع ديوان عبيد بن الأبرص فى سلسلة جب التذكارية ، وهو فيه دائم الحديث عن فروسيته وحسن بلائه فى حروب قومه مع ذبيان فى يوم الرقم ويوم ساحوق وغيرهما من الأيام . وقد أظهر بطولة نادرة فى يوم فيف الريح وكان لقومه على بنى الحارث بن كعب النجرانيين وعشائر مذحج ، وتغنّى به طويلا فى شعره على شاكلة قوله (١) :

لقد علمتْ عُلْيا هوازنَ أننى ... أنا الفارسُ الحامى حقيقةَ جعفرِ (٢)

وقد علم المزنوقُ أنى أكُرُّهُ ... على جَمْعهم كرَّ المَنيحِ المشهَّرِ (٣)

إذا ازورَّ من وَقْع الرماح زَجَرْتُهُ ... وقلتُ له : ارجعْ مقبلاً غير مُدْبرِ (٤)

وأنبأْتُه أن الفِرار خَــزَايةٌ ... على المرء ما لم يُبْلِ جهدًا ويُعْذِرِ (٥)

ألستَ ترى أرماحهم فىَّ شُرَّعا ... وأنت حِصانٌ ماجدُ العِرْق فاصبرِ (٦)

وقد علموا أنى أكُرُّ عليهمُ ... عشية فَيْفِ الريح كَرَّ المدوَّرِ (٧)

وما رِمْتُ حتى بَلَّ نحرِى وصدْرَه ... نجيعٌ كهُدَّابِ الدِّمَقْسِ المُسَيَّرِ (٨)

وهو يصور فى هذه القطعة اقتحامه للحروب ، وكيف أنه لا يتخلّى عن بسالته الحربية ، حتى يحمى عشيرته وضعفاءها ونساءها ، ويقول إنه لا يزال يردّ إلى الحرب فرسه المزنوق كلما خرج منها ، وإن ازورّ عنها أو انحرف دفعه فيها دفعاً ، أما الفرار وعاره فدونه الموت ، ويدعو فرسه إلى التأسى به ، فالرماح تنوشه من كل جانب وهو يهجم على أعدائه غير مبال ، ويدعو فرسه إلى الصبر معه ، حتى

(١) المفضليات ص ٣٦١ .

(٢) عليا هوازن : مجموعة من قبائلها هى سعد وجشم ونصر وثقيف . وحقيقة : حمى . جعفر : عشيرة عامر ، وهى جعفر بن كلاب ابن ربيعة بن عامر .

(٣) المزنوق : اسم فرسه . المنيح : من قداح الميسر ويكثر جولانه فى القداح . فكلما يخرج منها رد فيها .

(٤) ازور : مال وانحرف .

(٥) خزاية : خزى . يعذر : يأتى بعذر .

(٦) شرعاً : مسددة .

(٧) المدور : الذى يطوف بالدوار وهو من أصنامهم .

(٨) ما رمت : ما برحت . النجيع : الدم . الدمقس : الحرير . المسير : برود من اليمن بها خطوط .

ينالا شرف النصر جميعاً ، ويلمع أمام عينيه يوم فيف الريح وما أظهر فيه من بسالة ، ويقول إنه لم يبرح موضعه فى ميدان القتال ، حتّى غرق نحره وصدر فرسه بالدماء .

واشتهر عامر كما مر بنا بمنافرته لعلقمة بن عُلاثة ابن عمه ، بسبب منافستهما على سيادة عشيرتهما ، وقد احتكما إلى هَرِم بن قُطْبة الفزارى ، فسوَّى بينهما —كما مر بنا— فى عبارته المأثورة إذ قال لهما : « أنتما كركبتى البعير الأدْرَم (الفحل) تقعان إلى الأرض معاً » . وقد تقدم أن الأعشى كان ممن وقفوا فى صف عامر ضد علقمة . وقد وفد عامر على الرسول صلى الله عليه وسلم سنة تسع للهجرة ، غير أن الله لم يوفقه للإسلام ، فمضى على وجهه ، والرسول غضبان عليه ، ولم يلبث أن مات بالطاعون عن اثنتين وستين سنة .

ولا نغلو إذا قلنا إن أهم فارس احتفظت به ذاكرة العرب فى أجيالهم التالية إلى يومنا الحاضر هو عنترة بن شداد [1] (وقيل ابن عمرو بن شداد) العَبْسىّ ، وكان أبوه من أشراف عبس ، أما أمه فكانت حبشية يقال لها زبيبة ، وقد ورث عنها سواده ، ولذلك كان يعد من أغربة العرب ، كما ورث عنها تشقق شفتيه ، ولذلك كان يقال له عنترة الفَلْحاء . وكان من عادة العرب فى الجاهلية إذا استولدوا الإماء أن يسترقّوا أبناءهم ولا يلحقوهم بأنسابهم إلا إذا أظهروا نجابة وشجاعة . ومن ثم لم يعترف شداد بعنترة ابناً له إلا بعد ما أبداه من بسالة فى حروب داحس والغبراء ، وقد ظل يذكر هذا الجرح الذى أصابه فى الصميم ، وفى ذلك يقول [2] :

إنى امرؤٌ من خير عَبْس مَنْصِباً ... شَطْرِى ، وأَحْمِى سائرى بالمُنْصُلِ [3]
وإذا الكتيبةُ أحجمتْ وتلاحظتْ ... أُلفِيتُ خيْرًا من مُعَمٍّ مُخْوَلِ [4]

وواضح أنه يشير إلى كرم أصله الأبوى أو شطره الأول ، أما شطره الثانى من جهة أمه فتنوب عنه شجاعته واقتحامه للحروب ، حتّى غدا فى قومه خيراً ممن

---

(١) انظر فى عنترة الأغانى (طبعة دار الكتب) ٨ / ٢٣٧ والشعر والشعراء ١ / ٢٠٤ وما بعدها والخزانة ١ / ٥٩ وراجع ديوانه برواية الأصمعى ، فى مخطوطة الشنتمرى « شرح الدواوين الستة » بدار الكتب المصرية . وقد طبع مصطفى السقا نص المخطوطة بشرح مختصر فى مجموعة « مختار الشعر الجاهلى » . وطبع الديوان طبعات أخرى فى بيروت والقاهرة وليدن .

(٢) مختار الشعر الجاهلى ص ٣٨٨ .

(٣) منصباً : أصلا . المنصل : السيف .

(٤) تلاحظت : نظرت من يقدم على العدو .

عمه وخاله من سادتهم ، إذ لا يغنى القبيلة أحد غناءه ولا يذود عن حماها ذياده ، ويصوّر لنا فى نفس القصيدة شجاعته وجرأته تصويراً باهراً إذ يقول :

بكَرت تخوّفنى الحُتوفَ كأننى | أصبحتُ عن غَرض الحتوفِ بمَعْزِلِ[1]
فأجبتُها إن المنيّـة مَنْهَلٌ | لا بد أن أُسْقَى بكأسِ المنْهَلِ[2]
فاقْنَىْ حياءكِ لا أبالكِ واعلمى | أنى امرؤٌ سأموت إن لم أُقْتَلِ[3]
إن المنيّـةَ لو تمثّل مُثِّلَتْ | مِثْلِى إذا نزلوا بِضَنْكِ المنزلِ[4]
والخيلُ ساهمـةُ الوجوه كأنما | تُسْقَى فوارسُها نقِيعَ الحَنْظلِ[5]

فهو لا يستمع إلى تخويف صاحبته له مما قد يلقاه من المكاره والمتالف بسبب تهافته على الحروب ، بل إنه ليصمّ أذنيه عن ندائها قائلا لها إن المنية مورد كل إنسان ولابد أن أموت ، فليكن موتى شريفاً فى ميدان الحروب . ويدعوها أن تصون حياءها ، فهو ميت على كل حال ، وخير له أن يموت مناضلا عن قومه مدافعاً عن نسائهم وأطفالهم وضعفائهم . ولا يلبث إحساسه ببطولته أن يتضخم فى نفسه ، فإذا هو يتصور أن المنية لو خلقت فى مثال لكانت فى مثل صورته وخلقته ، وهو يقتحم الصفوف ، والخيل ساهمة من هول الحرب ، والفرسان كالحة وجوههم كأنما يشربون من نقيع الحنظل .

وقد طارت شهرة عنترة بالفروسية والشجاعة النادرة منذ الجاهلية ، وما زالت ذكراه عالقة بأذهان العرب إلى اليوم ، فهو مثلهم الأعلى فى البسالة والبطولة الحربية ، وقد اتّخذت من أخباره نواةٌ للملحمة المعروفة باسمه والتى يمكن أن تعد إلياذةَ العرب ، وهو فيها يحارب فى الجزيرة العربية وخارجها فى الحبشة وإيران وبلاد الروم والفرنج وشمال إفريقية والأندلس ، وينازل الصليبيين ، وبذلك كانت هذه القصة أو السيرة تلخص تاريخ العرب وملحمة فروسيتّهم فى الجاهلية وفى الفتوح الإسلامية وبعد الفتوح فى حروبهم مع الروم والصليبيين فى الشرق والغرب .

ونحن لا نُعنّى الآن بعنترة الأسطورة ، إنما نعنى بعنترة الفارس الجاهلى الذى

(١) الحتوف : المتالف .
(٢) منهل : مورد .
(٣) اقنى : احفظى وصونى .
(٤) الضنك : الضيق .
(٥) ساهمة : متغيرة .

دوّخ الأقران والأبطال فى حروب داحس والغبراء ، وبذلك غسل مذمة ولادته ولونه وفلَحَ شفتيه ، والذى لاشك فيه أنه كان على خلق عظيم وأنه كان يجمع إلى فروسيته المادية فروسية معنوية أو خلقية .

ولا بد أن نلاحظ بصفة عامة أن الفروسية الجاهلية بعثت فى نفوس أصحابها ضرباً من التسامى والإحساس بالمروءة الكاملة فإذا هم يتغنون دائماً بمجموعة من الفضائل والخصال الحميدة ، واقرأ فيهم فستراهم يتحدثون عن كرمهم الفياض ووفائهم وحلمهم وأنفتهم وعزتهم وصبرهم على الشدائد وتحمل المشاق وحفاظهم على العهد وحماية الجار . وهو جانب واضح فى أشعار عنترة ، ونظن ظناً أنه نمّاه عنده ما قصه الرواة من أنه طلب عَبْلة من عمه مالك فأباها عليه لسواده ، ولأنه ابن أمة ، وقد ظل يتغنى بها طوال حياته تغنى المحب المحروم ، وهو تغن نستشف فيه غير قليل من الإحساس بالحزن واليأس. ومن ثَمّ كان يمكن أن يُعَدّ أباً لشعر الحب العذرى عند العرب ، كما يعد فعلا أباً للفروسية العربية بخصالها وخلالها النبيلة السامية التى استرعت أنظار الصليبيين ، فاتخذوا منها مثالا لفروسيتهم وما انطوى فيها من حب عُذْرى[1] .

وَرَدِّدِ البَصَر فى أشعار عنترة فستجده يأسر لبَّك بمثله الخلقية الرفيعة ، فهو مع فروسيته وبذله لنفسه فى سبيل قومه سمح السجايا سهل المخالطة والمعاشرة لا يبغى على غيره ولا يحتمل البغى ولا يظلم ولكنه لا يستكين للظلم ، فإن ظُلم تحوّل كالإعصار العاصف حتى يأتى على ظالمه . وقد يشرب الخمر ولكنها لا تفسد مروءته ، وإذا دعاه داعى المكرمات لبّى باذلا كل ما يملك عن طيب نفس ، يقول — فى معلقته — مخاطباً ابنة عمه عبلة التى شُغف قلبه بها حبًّا :

أَثْنِى علىَّ بما علمتِ فإننى ... سَمْحٌ مُخالقتى إذا لم أُظْلَمِ
فإذا ظُلمتُ فإن ظُلمىَ باسلٌ ... مُرٌّ مَذاقتهُ كطعم العَلْقَمِ[2]

---

(١) انظر قصة الحضارة لول ديورانت الجزء الثالث من المجلد الرابع ، الفصل الخامس الخاص بالفروسية ص ٤٤٦ وما بعدها .

(٢) باسل : كريه .

وإذا شربتُ فإننى مستهلكٌ ... مالى ، وعِرْضى وافرٌ لمْ يكْلَمِ[١]
وإذا صحوتُ فما أقصِّرعن نَدًى ... وكما علمتِ شمائلى وتكرُّمى

ويتحدث إليها عن فروسيته وبسالته فى الطعن والنزال وصراع الأقران وكيف ينصبُّ عليهم كالقضاء النازل أو كشواظ من نار يحرق ويُصْمى. ولا يلبث أن يعود إلى الحديث عن كرم نفسه وشرف طباعه ، فيقول :

يخبرْك من شَهد الوقائع أننى ... أغْشى الوَغَى وأعفُّ عند المَغْنَمِ[٢]

فهو يتقدّم فى أهوال الحروب وخطوبها، أما عند الأسلاب فيتردد ويحجم ويتعفف وكأنه ليس صاحبها . إنه لا يحارب من أجل الأسلاب والغنائم ، وإنما يحارب ليكسب لقومه شرف الانتصار . وما يزال يحدثنا فى شعره عن كرامته ، وشعوره القوى بعزته وأنه لا يقبل الضيم والهوان ، يقول فى لاميته[٣] :

ولقد أَبِيتُ على الطَّوَى وأَظَلُّه ... حتى أنال به كريمَ المأْكَلِ

فالجوع حتى الموت خير من الطعام الخبيث الدنىء . وعلى هذه الشاكلة ما تزال تلقانا فى أشعاره معان نبيلة ، وهى معان ارتفعت عنده إلى أروع صورة للنبل الخلقى ، حتى لنراه يرقُّ لأقرانه الذين يسفك دماءهم ، يقول — فى معلقته — وقد أخذه التأثر والانفعال الشديد لبطشه بأحدهم :

فشككتُ بالرُّمحِ الطويل ثيابَهُ ... ليس الكريمُ على القَنَا بمحرَّمِ[٤]

فهو يرفع من قدر خصمه ، فيدعوه كريماً ، ويقول إنه مات ميتة الأبطال الشرفاء فى ساحة القتال . وكان يجيش بنفسه إحساس عميق نحو فرسه الذى يعايشه ويعاشره حين تنال منه سيوف أعدائه ورماحهم ، يقول مصوراً آلامه وجروحه الجسدية وقروحه النفسية :

---

(١) يكلم : يجرح .
(٢) الوغى : الحرب .
(٣) مختار الشعر الجاهلى للسقا ص ٣٨٧ ، والطوى : ضمور البطن ، ويريد به الجوع الشديد .
(٤) يريد بالثياب جسده وبدنه .

فازورَّ من وَقْــع القَنا بِلبَانهِ وشكا إلىَّ بعَــبْرةٍ وتَحَمْحُمِ (١)
لو كان يَدْرِى ما المحاورةُ اشتكى ولكان لو عَلِمَ الكلامَ مُكَلِّمِى

وكأنما فرسه بضْعة من نفسه . وبهذه الرقة والرحمة كان يعامل النساء سبيات وغير سبيات ، فإذا سبي امرأة لم يقربها إلا بعد أداء صداقها إلى أهلها . وكما للسبية حُرْمتها كذلك لامرأة جاره ، وخاصة إذا كانت زوجة صديق ، فإنه يغض طرفه عنها ولا يُتْبعها قلبه وهواه ، يقول(٢) :

ما استمتُ أنثى نفسَها فى موطنٍ حتى أوفِّىَ مَهرَها مولاها(٣)
أغْشَى فتاةَ الحىِّ عند حَلِيلها وإذا غَزَا فى الحرب لا أغشاها(٤)
وأغضُّ طَرْفى ما بدتْ لى جارتى حتى يوارِى جــارتى مأْواها
إنى امرؤٌ سَمْحُ الخليقة ماجِدٌ لا أُتْبِعُ النفسَ اللَّجوجَ هواها

وعنترة بهذا كله يصور لنا المروءة الجاهلية الكاملة ، وهى مروءة طرَّزها حب عذرى عفيف لابنة عمه عبلة ، وحقًّا إن هذا الحب إنما شاع فى بوادى نجد فى أثناء العصر الأموى ، بسبب المعانى الروحية التى بثَّها الإسلام فى نفوس العرب ، وهو لم يشع فى الجاهلية ، إنما ظهر عند بعض الأفراد من الفرسان مثل عنترة ، فقد كان يتسامى لا فى خلقه فحسب ، بل أيضاً فى حبه ، وقد جعله ذلك يستشعر غير قليل من الأسى والحزن حين رفض عمه يده ، فلم يزوجه من ابنته . ومضى يحبها حبًّا عنيفاً ، أو قل حبًّا يائساً محروماً فيه طهارة النفس ونقاؤها وفيه الفؤاد الملدَّع الذى يكظم حزنه فتفضحه عبراته ، يقول (٥) :

أفمن بكاء حمامةٍ فى أيْكةٍ ذرفت دموعُك فوق ظهر المِحْمَلِ (٦)

---

(١) ازور : مال وانحرف . اللبان : الصدر . التحمحم . صهيل فيه شبه الأنين

(٢) مختار الشعر الجاهلى ص ٤٠٩ .

(٣) استام المرأة : راودها عن نفسها . الموطن هنا : موطن القتال .

(٤) أغشى : أزور .

(٥) مختار الشعر الجاهلى ٣٨٧ .

(٦) أيكة : شجرة . ذرفت : سالت . المحمل : علاقة السيف .

فالحمام يهيجه كما يهيجه النسيم الذى يهب من صَوْبها ، وكما تهيجه الرسوم والأطلال ، إذ يبعث الحنين بعقله وبقلبه ، يقول فى معلقته :

حُيِّيتَ من طَلَلٍ تقادمَ عهدهُ　　أقْوَى وأقفرَ بعد أمِّ الهَيْثَمِ[1]

ولقد نزلتِ ــ فلا تَظُنِّى غيره ــ　　منى بمنزلة المُحَبِّ المُكْرَمِ

ودائماً نراه يعبِّر عن ظمأ شديد إلى رؤيتها ، لا لغاية حسية ، ولكن ليمتع طرفه بجمالها . ومن أهم ما يلاحظ عنده أنه يقدم لها فى معلقته وغير معلقته مغامراته الحربية ، فمن أجلها يحارب ويستبسل فى القتال ، ومن أجلها يذود عن قومه ويحمى حماهم ، ومن أجلها يسوق كل مناقبه ومحامده . وكان حين يشتد القتال يلمع خيالها أمام عينيه فيندفع كالثور الهائج ، يقول :

ولقد ذكرتكِ والرِّماحُ نواهلٌ　　منِّى وبِيضُ الهندِ تَقْطُرُ من دمى

فوَدِدْتُ تقبيل السيوفِ لأنها　　لمعتْ كبارقِ ثَغْرِك المتبسِّم

فهو دائم الذكر لها فى وغَى الحرب ، حتى حين تعبث به سيوف أعدائه ورماحهم ، إنه من أجلها يحارب ويخاطر ويغامر ، فلا غرو أن يذكرها فى ساعات القتال الحرجة ، فإذا هو يتحول إلى أسد ضار لا يعبس ، بل يبتسم ، لأنها تتراءى له من خلال بريق السيوف ، فيؤمن بأنه منتصر .

وعلى هذا النحو تكاملت الفروسية عند عنترة ، فلم تصبح فروسية حربية فحسب ، بل أصبحت فروسية خلقية سامية ، فيها الحب الطاهر العفيف الذى يجعل من المحبوبة مثلا أعلى والذى يرتفع صاحبه عن الغايات الجسدية الحسية إلى غايات روحية تنم عن صفاء النفس ونقاء القلب ، وفيها التسامى عن الدنايا والنقائص الذى يملأ النفوس بالأنفة والإباء والعزة والكرامة والحس المرهف والشعور الدقيق . ويقال إنه قُتل فى غارة له على بنى نَبْهان الطائيين بعد أن تقدمت به السن ، إذ أصابه أحد رماتهم بسهم من سهامه ، ويقال بل مات حتف أنفه[2] .

(١) أقوى وأقفر : خلا ممن كان يسكنه .　　(٢) انظر الأغانى ٨/٢٤٥ .

٢

الصعاليك (١)

الصعلوك فى اللغة الفقير الذى لا يملك من المال ما يعينه على أعباء الحياة ، ولم تقف هذه اللفظة فى الجاهلية عند دلالتها اللغوية الخالصة ، فقد أخذت تدل على من يتجردون للغارات وقطع الطرق . ويمكن أن نميز فيهم ثلاث مجموعات : مجموعة من الخلعاء الشذاذ الذين خلعتهم قبائلهم لكثرة جرائرهم مثل حاجز الأزدى وقيس بن الحدّادية وأبى الطمحان القَيْنى ، ومجموعة من أبناء الحبشيات السود ، ممن نبذهم آباؤهم ولم يلحقوهم بهم لعار ولادتهم مثل السُّلَيْك بن السُّلَكة وتأبَّط شرًّا والشَّنْفَرَى ، وكانوا يَشْركون أمهاتهم فى سوادهم فسموا هم وأضرابهم باسم أغربة العرب ، ومجموعة ثالثة لم تكن من الخُلعاء ولا أبناء الإماء الحبشيات ، غير أنها احترفت الصعلكة احترافاً ، وحينئذ قد تكون أفراداً مثل عُرْوَة بن الوَرْد العبسى ، وقد تكون قبيلة برمتها مثل قبيلتى هُذَيل وفَهْم اللتين كانتا تنزلان بالقرب من مكة والطائف على التوالى .

وتتردد فى أشعارهم جميعاً صيحات الفقر والجوع ، كما تموج أنفسهم بثورة عارمة على الأغنياء والأشحّاء ، ويمتازون بالشجاعة والصبر عند البأس وشدة المراس والمضاء وسرعة العَدْو حتى ليسمون بالعدّائين ، وحتى لتضرب الأمثال بهم فى شدة العدو ، فيقال : « أعدى من السُّلَيْك » و « أعدى من الشَّنْفَرَى » وتُرْوَى عنهم أقاصيص كثيرة فى هذا الجانب ، من ذلك ما يقال عن تأبط شرًّا من أنه « كان أعْدَى ذى رِجْلين وذى ساقين وذى عينين ، وكان إذا جاع لم تقم له قائمة ، فكان ينظر إلى الظباء ، فينتقى على نظره أسمنها ، ثم يجرى خلفه ، فلا يفوته ، حتى يأخذه فيذبحه بسيفه ، ثم يشويه فيأكله (٢) » . وكما كانوا يحسنون العدو كان كثير منهم يحسن ركوب الخيل والإغارة عليها ، ويقال إنه كان للسليك فرس يسمى النَّحّام (٣) ،

---

(١) راجع بحثاً فى الشعراء الصعاليك ليوسف خليف (طبع دار المعارف) .

(٢) الأغانى ١٨ / ٢١٠ .

(٣) ذيل الأمالى للقالى ص ١٨٨ .

وللشنفرى فرس يسمى اليَحْمُوم(١)، أما اسم فرس عروة بن الورد فقَرْمَل(٢). وكانوا يغيرون أحياناً فرادى وأحياناً فى جماعات .

وكانت أكثر المناطق التى يغيرون عليها مناطق الخصب، وكانوا يرصدون طرق القوافل التجارية وقوافل الحجاج القاصدة إلى مكة ، ومعنى ذلك أنهم كانوا ينتشرون حولها فى جبال السَّراة كما كانوا ينتشرون بالقرب من الطائف والمدينة وأطراف اليمن الشمالية فى كل هذه الجهات يكثر هؤلاء الذؤبان من قطّاع الطرق وقراصنة الصحراء . وهم فى أشعارهم يتغنون بمغامراتهم ونراهم فى أثناء ذلك يتمدحون بالكرم كما نرى فيهم كثيراً من البر بالأقارب والأهل ، وأيضاً فإننا نحس عندهم غير قليل من الترفع والشعور بالكرامة فى الحياة ، ويصوِّر لنا ذلك أبو خِراش الهُذَلِىّ فيقول(٣) :

وإنى لأَثْوِى الجوعَ حتى يملَّنى ... فيذهبَ لم يَدْنَسْ ثيابى ولا جِرْمى(٤)

وأغتبقُ الماءَ القَراحَ فأنتهى ... إذا الزادُ أمسَى للمُزَلَّجِ ذا طعمِ(٥)

أَرُدُّ شُجاعَ البطنِ قد تعلمينه ... وأوثِرُ غيرى من عِيالك بالطُّعْمِ

مخافةَ أن أَحْيَا بِرغْمٍ وذِلَّةٍ ... وللموتُ خيرٌ من حياةٍ على رَغْمِ

فهو يفتخر لزوجه بأنه يصبر على الجوع ، حتى ينكشف عنه ، دون أن يلحقه فيه ضيم، وإنه ليكفيه الماء القراح بينما يتخم مِن حوله أشحاء النفوس بالطعام، أما هو فحتى إن وجد الطعام آثر به عياله وأولاده . وكل ذلك يصنعه حتى لا يوصم بعار الذل . وسنرى عما قليل عروة بن الورد يعبِّر عن مثالية خلقية رفيعة لا تقل جمالا عن مثالية عنترة . وكأنما تحولت الصعلكة فى أواخر العصر الجاهلى إلى نظام يشبه نظام الفروسية، وهى حقّاً تقوم على السلب والنهب ، ولكنهم كانوا لا يسلبون ولا ينهبون سيداً كريماً ، واقرأْ فى صعاليك هذيل من مثل أبى كبير والأعلم وفى السليك وتأبط شرّاً وغيرهم فستجد للصعلوك مثاليته فى الحياة أو على

---

(١) ديوانه المطبوع فى لجنة التأليف والترجمة والنشر ص ٤٠ .
(٢) ديوانه (طبع الجزائر) ص ١٢٠ .
(٣) ديوان الهذليين (طبعة دار الكتب المصرية) ٢/١٢٧ والأغانى ٢١/٤٢ .
(٤) أثوى : أطيل حبسه .
(٥) أغتبق : أشرب عشاء . القراح : الصافى . المزلج : البخيل .

الأقل ستجد من بينهم من يصورون مستوى خلقيًّا رفيعاً من البرّ، وإن كان ذلك لا يمنع من أن فريقاً منهم عاش سفّاحاً لا يرعى عهداً ولا ذمة . ونقف قليلا عند أكثرهم دوراناً على الألسنة، وهم تأبط شرًّا والشنفرى وعروة بن الورد .

أما تأبط شرًّا فمن قبيلة فهم واسمه ثابت [1] بن جابر بن سفيان ويعد فى أغربة العرب ، إذ كان ابن أمة حبشية سوداء ، فورث عنها سوادها ، وقيل بل أمة حرة من فَهْم تسمى أميمة . واختلف القدماء فى تعليل لقبه «تأبط شرًّا» فقيل لقبته به أمه إذ تأبط سيفاً وخرج ، فلما سُئلت عنه قالت : تأبط شرًّا ومضى لوجهه ، وقيل بل سمته أو لقبته بذلك لأنها رأته يتأبط جراباً مليئاً بالأفاعى . وربما كانت قبيلته هى التى لقبته بهذا اللقب لكثرة ما كان يرتكب من جنايات وجرائر ، أى إنه يحمل دائماً فى أطوائه شرًّا يريد أن ينفذه . ويظهر أن أباه مات وهو صغير ، فتزوجت أمه بأبى كبير الهذلى ، وكان صعلوكاً كبيراً ، فخرّجه على شاكلته ، وربما كان لسواده وتعيير عشيرته له به وبأنه ابن أمة أثر فى تصعلكه . وكان يرافق الشَّنْفَرَى فى كثير من غاراته كما كان يرافقهما صعلوك آخر يسمى عمرو بن برّاق . وليس له ديوان شعر مطبوع ، غير أن له أشعاراً كثيرة منثورة فى كتب الأدب ، وتُرْوَى له مغامرات مختلفة ، وهى مطبوعة بطابع القصص الشعبى ، مما أتاح للانتحال أن يلعب دوراً واسعاً فيما نُسب إليه من أشعار ، فمن ذلك لاميته التى أنشدها أبو تمام فى حماسته يرثى بها خاله والتى تستهل بقوله : «إن بالشِّعْب الذى دون سَلْع» فقد ذكر الرواة أنها مما نحله إياه خلف الأحمر [2]. ويمكن أن نُدْخل فى هذا الباب من الانتحال ما يُرْوَى له من أشعار يقص علينا فيها لقاءه للجنّ أو للغول . وقد روى له صاحب المفضليات قصيدة طويلة جعلها فاتحة كتابه ، وهو يستهلها بالحديث عن الطيف ، ولا يلبث أن يحدثنا عن إحدى غاراته أو مغامراته الفاشلة مع صديقيه الشنفرى وعمرو بن براق على بَجيلة فى الطائف ، إذا أرْصَدُوا لهم كميناً على ماء أوثتهم غير أنه وصاحبيه دبروا حيلة بارعة ، نَجوا بها عَدْواً على الأقدام ، ويصور لنا عدوه وشَدَّه السريع حينئذ فيقول :

---

(١) انظر ترجمته فى الأغانى ١٨/٢٠٩ والشعر والشعراء ١/٢٧١ وشرح شواهد المغنى للسيوطى ص ١٩ ، ٤٣ والخزانة ١/٦٦ .

(٢) انظر تعليق التبريزى على القصيدة فى شرحه لديوان الحماسة .

ليلةَ صاحوا وأَغْرَوْا بى سِراعَهُمُ — بالعَيْكَتين لدى مَعْدَى ابنِ برّاقِ[١]
كأنّما حثْحَثُوا حُصًّا قَوادِمُهُ — أَو أُمَّ خِشْفٍ بذى شَثٍّ وطُبّاقِ[٢]
لا شىءَ أسرعُ منى ليس ذا عُذَرٍ — وذا جناحٍ بجنْب الرَّيْدِ خَفَّاقِ[٣]
حتى نجوتُ ولما ينْزِعوا سلَبى — بِوالهٍ من قَبيضِ الشَّدِّ غَيْداقِ[٤]

وواضح أنه يذكر كيف فات عدّائى بجيلة ليلة صاحوا به وأسرعوا من خلفه هو وصاحبه ابن براق ، ويقول إنهم أثاروه حتى غدا أسرع من الظليم والظبية ، وحتى أصبحت الخيل الجياد لا تلحق شأوه ، بل حتى الطير أصبحت تقصر عن عدْوه ، وكأنما جُنّ جنونه . ويمضى فيرسم لنا صورة الصعلوك من أمثاله الذى يقدره ويجلّه ، قائلا :

لكنّما عِوَلِى إن كنتُ ذا عِوَلٍ — على بَصِيرٍ بكسبِ الحمدِ سَبّاقِ[٥]
سبّاقِ غاياتِ مَجْدٍ فى عشيرتِهِ — مُرجِّعِ الصَّوْتِ هدًّا بين أرْفاقِ[٦]
عارى الظَّنابيبِ مُمْتَدٍّ نَواشِرُهُ — مِدْلاجِ أَدْهَمَ واهى الماء غَسّاقِ[٧]
حَمّالِ ألويةٍ شَهّادِ أَنْدِيةٍ — قَوّالِ مُحْكَمةٍ جوّابِ آفاقِ[٨]
فذاك هَمّى وغَزْوِى أستغيثُ بهِ — إذا استغثتَ بضافى الرأس نَعّاقِ[٩]

---

(١) العيكتان : موضع . معدى : عدو .

(٢) حثحثوا : حركوا وأثاروا . القوادم : ما يلى الرأس من ريش الجناحين . الحص : جمع أحص وهو ما تناثر ريشه وتكسر لسرعته ، يريد بذلك الظليم . الخشف : ولد الظبية . الشث والطباق : من نباتات الصحراء .

(٣) ذا العذر : الفرس . والعذر : ما أقبل من شعر الناصية على الوجه . وذا جناح : يريد الطير . الريد : حرف الجبل .

(٤) السلب : ما يسلب فى الحرب . الواله : ذاهب العقل . القبيض : السريع . الشد : العدو . غيداق : واسع .

(٥) العول : الاستغاثة ، وأصله رفع الصوت كالعويل .

(٦) مرجع الصوت : يصيح آمراً ناهياً . أرفاق : رفاق . الهد : الصوت الغليظ .

(٧) عارى الظنابيب : خفيف اللحم ، وأصل الظنبوب عظم الساق . النواشر : عروق ظاهر الذراع . ممتد النواشر كناية عن طول الذراع واكتمال الخلق . الأدهم : الليل . واهى الماء : مطره شديد . غساق : شديد الظلمة .

(٨) المحكمة : الكلمة الفاصلة .

(٩) غزوى هنا : مقصدى . ضافى الرأس : كثير الشعر لا يتعاهده لكثرة غزوه . نعاق : يكثر من الصياح .

فهو إنما يعوّل على هذا الصعلوك المثالى الذى يشركه فى غزواته والذى يتصف بسبقه إلى المحامد فى عشيرته ، كما يتصف بجهارة صوته وزعامته بين الرفاق وبضمور جسمه وقوته وصلابته وجرأته فى اقتحام الليالى المظلمة الممطرة حتّى إذا كانت الحرب كان المقدم فيها الذى يحمل لواءها ، وإذا كانت السلم كان ذا رأى صائب يتردد فى مجالس العشيرة وأنديتها . ولا ينسى أن يضيف إلى هذه الخصال خصلة الكرم ، ويجعلها حواراً بينه وبين شخص يعذله على كثْرة كرمه وإفراطه فيه ، حتّى إنه لا يبقى على شىء لغده ، ويزجره زجراً شديداً ، يقول :

بلْ مَنْ لعَذَّالةٍ خَذَّالةٍ أَشِبٍ ... حَرَّقَ باللوم جِلْدى أىَّ تَحْرَاقِ[١]

يقول أهلكتَ مالا لو قنعتَ بهِ ... من ثوبِ صِدْقٍ ومن بَزٍّ وأَعْلاقِ[٢]

عاذلتى إن بعضَ اللّوْمِ مَعْنَفَةٌ ... وهل متاعٌ وإن أبقيتُه باقِ[٣]

ولعل فى هذه الأبيات وما سبقها ما يدل فى وضوح على أن الصعلوك الذى كان يقطع الطريق فى الجاهلية كانت تنعكس عليه أحياناً صفاتُ الفروسية وما بعثت لعصره من سمو فى الأخلاق . وما زال تأبط شرا يقوم بمغامراته حتّى قُتل فى إحدى غاراته بمنازل هُذَيْل .

أما الشَّنْفَرى فكان من عشيرة الإواس[٤] بن الحجْر الأزدية اليمنية، فهو قحطانى النسب ، ويدل اسمه ، ومعناه الغليظ الشفاه[٥]، أن دماء حبشية كانت تجرى فيه من قبل أمه ، فهى أمة حبشية ، وقد ورث عنها سوادها ولذلك عُدّ فى أغربة العرب. ولا نراه ينشأ فى قبيلة الأزد ، إنما ينشأ فى قبيلة فَهْم، ويضطرب الرواة فى سبب نزوله مع أمه وأخ له بها ، وربما كان أقرب ما يروونه من ذلك أن قبيلته قتلت أباه ، فتحولت أمه عنها إلى بنى فهم ، ومما يرجح ذلك أننا نجده يخص بغزواته بنى سلامان الأزديين معلناً فى أشعاره أنه يقتصُّ لنفسه منهم . ويقال

(١) العذالة : كثير العذل . الخزالة : كثير الخذلان لصاحبه . أشب : معترض . يريد من يعيننى على هذا العذالة .
(٢) ثوب صدق : ضد ثوب سوء . البز : الثياب والسلاح . الأعلاق : كرائم المال .
(٣) معنفة : عنف .

(٤) انظر فى ترجمة الشنفرى الأغانى (طبع الساسى) ٢١/٨٧ وخزانة الأدب ٢/١٤ وما بعدها وشرح المفضليات لابن الأنبارى ١٩٥ وما بعدها وذيل الأمالى ص ٢٠٨ وما بعدها ، والشعراء الصعاليك ص ٣٢٨ .
(٥) خزانة الأدب ٢/١٦ .

إن الذى روَّضه على الصعلكة وقطع الطرق تأبط شرا ، فكان يغير معه ، حتى صار لا يُقام لسبيله[١]. وما زال يغير على الأزد ، وينكل بها ، حتى قَتَل ، فيما يقص الرواة ، تسعة وتسعين ، انتقاماً لأبيه ، وأخيراً يرصدون له كميناً ، فيقع فيه ، ويمثّلون به تمثيلا فظيعاً ، يقطّعون فيه جسده تقطيعاً ، ويرمون به للسباع . ويقال إن رجلا عثر بجمجمته ، فعقرته ، فمات . وبذلك يبلغ قتلاه من الأزد مائة . وخيوط الأسطورة واضحة فى مقتل الرجل المكمل للمائة ، وتلعب هذه الخيوط فى أخباره جميعاً كما تلعب فى أخبار تأبط شرا رفيقه .

وللشنفرى ديوان شعر صغير طُبع فى لجنة التأليف والترجمة والنشر بمجموعة الطرائف الأدبية ، ومما اشتهر له لامية العرب ، وهى مما نُحل عليه ، فقد نصَّ الرواة على أنها من صنع خلف الأحمر[٢] ، وقد أحكم صناعتها وساق فيها اسم موضع فى جنوبى اليمن هو إحاظة ليدل على أن قائلها كان يتجول فى هذه الأنحاء ، وحتى يكون ذلك أدعى إلى تصديقها والثقة بها . وهى تصور تصويراً حيًّا حياة الصعلوك الجاهلى وروحه البدوية الوحشية . وبجانب هذه القصيدة المنتحلة نجد له قصيدته التائية الطويلة التى رواها المفضل فى مفضلياته ، ثم مجموعة من المقطوعات ، ويبدو فى أشعاره على شاكلة تأبط شرا هزيلا نحيلا يلبس ثياباً بالية ونعالا ممزقة . ولو لم يصلنا إلا تائيته لكان ذلك كافياً فى تصور حياته ومغامراته ، وقد سبق أن تمثلنا بأبيات منها فى وصف زوجته أميمة نعتها فيها بأخلاقية مثالية ممتازة ، ثم مضى يصف غارة أغارها على بنى سلامان فى جمع من رفاقه الصعاليك وعلى رأسهم تأبط شرا ، ونراه فى مستهل وصفه يحدثنا أنه كان يقودهم ويعرفنا بالطريق الذى سلكوه ، وأنهم كانوا راجلين ، يقتحمون الصعاب ، غير هيابين ولا وَجِلين ، يقول :

وباضعة حُمْرِ القِسِىِّ بعثتُها ... ومَنْ يَغْزُ يَغْنَمْ مَرَّةً ويُشَمَّتِ[٣]

خرجنا من الوادى الذى بين مِشْعَلٍ ... وبين الجَبَا ، هيهات ، أَنشأْتُ سُرْبَتى[٤]

---

(١) شرح المفضليات ص ١٩٦ وما بعدها .

(٢) الأمالى للقالى (الطبعة الأولى) ١٥٧/١ .

(٣) باضعة : قاطعة . ويريد بها رفاقه الصعاليك ، بعثتها : غزوت بها . حمر القسى ، يقال إنها تحمر لقدمها وطول تعرضها للشمس . يشمت : يخيب ويفشل .

(٤) مشعل والجبا : موضعان . السربة : الجماعة . أنشأت : أظهرت من مكان بعيد .

أمَشِّي على الأرض التي لن تضرُّني لأَنْكِيَ قوماً أو أصادف حُمَّتِي[١]
أمَشِّي على أَيْن الغَزاةِ وبُعْدها يقرِّبنى منها رَوَاحِي وغُدْوَتى[٢]

وهو يعترف فى البيت الأول بأنهم قد يرجعون خائبين أو مهزومين من غاراتهم أو غزوتهم ، ولكن ذلك لا يردهم عن الغزو ، بل يدفعهم دفعاً إليه ، فهم لا يتهيبون الموت ولا وعثاء الطريق . ويصور لنا كيف كان تأبط شرا يحمل زادهم ويقتّر عليهم فى الطعام خيفة أن تطول الغـزاة بهم فيموتوا جوعاً ، ويقص علينا ذلك فى مداعبة طريفة له ، إذ يدعوه أمهم ، وهو وأصحابه عيالها ، يقول :

وأمُّ عيالٍ قد شَهِدْتُ تَقُوتُهم إذا أَطْعَمَتْهُمْ أَوْتَحَتْ وأقلَّتِ[٣]
تخاف علينا العَيْلَ إنْ هي أكثرتْ ونحن جياعٌ ، أيَّ آلٍ تَأَلَّتِ[٤]
مُصَعْلِكَةٌ لا يَقْصُر السِّتْرُ دونها ولا تُرْتَجَى للبَيْتِ إن لم تُبَيِّتِ[٥]
لها وَفْضَةٌ فيها ثلاثون سَيْحَفاً إذا آنَسَتْ أولى العَدِيِّ اقْشَعَرَّتِ[٦]
وتأتى العَدِيَّ بارزاً نِصْفُ ساقها تَجُولُ كعَيْرِ العانةِ المتلفِّتِ[٧]
إذا فزعوا طارتْ بأَبيضَ صارمٍ ورامتْ بما فى جَفْرها ثم سَلَّتِ[٨]
حُسامٍ كلون المِلْحِ صافٍ حَدِيدُهُ جُرازٍ كأَقْطاعِ الغَدِير المنعَّتِ[٩]
تراها كأذْنابِ الحَسِيلِ صَوَادِرًا وقد نَهِلَتْ من الدِّماءِ وعَلَّتِ[١٠]

(١) لن تضرنى : لن يخيفنى بها شيء . أنكى العدو : أصيب منه . الحمة : المنية .

(٢) أمشى : إشارة إلى غزوه على رجليه . أين : تعب .

(٣) أم عيال هنا : تأبط شراً . تقوتهم : تطعمهم . أوتحت : أقلت وقترت .

(٤) العيل : الفقر وفقد الطعام . أى آل تألت : أى سياسة ساست من آله بمعنى ساسه .

(٥) مصعلكة بكسر اللام : صاحبة صعاليك . لا يقصر الستر دونها : لا تغطى أمرها .

(٦) وفضة : جعبة . سيحف : سهم عريض النصل . العدى : العداءون أو الرجالة . اقشعرت : تهيأت للقتال .

(٧) بارزاً نصف ساقها : كناية عن الجد فى الأمر . العير : حمار الوحش . العانة : جماعة أتنه الوحشية .

(٨) فزعوا : دهمهم محاربون وتهيأوا لقتالهم . أبيض صارم : سيف قاطع . الجفر : الجعبة . رامت بما فيه أى بسهامه . سلت السيف : شهرته .

(٩) جراز : قاطع . أقطاع الغدير : قطع الماء فيه . شبه السيف بها فى اللمعان والبريق .

(١٠) الحسيل : جمع حسيلة . وهى أولاد البقر . والنهل : الشرب الأول والعلل : الشرب المكرر .

وواضح أنه ينتقل من تصوير شحّ هذه الأم بالطعام إلى بيان أنها ليست أمًّا حقيقية ، فهى صاحبة صعاليك ، لا تتخذ السّتر ولا تبيت فى الخيام ، ولها جعبة سهام ، تناضل بها عن أصحابها حين يفجؤهم بعض الأعداء ، وما تزال ترعاهم رعاية حمار الوحش لأتنه ، حتّى إذا دهمهم غزاة أو مغيرون بادرت إلى سهامها ، ثم نازلتهم هى ومن معها بسيوفهم القاطعة اللامعة التى تنهل من دمائهم وتعل ، فترى وكأنها أذناب الحسيل ، وهى أولاد البقر المستأنسة . ووقف لايل فى ترجمته للمفضليات عند هذا التشبيه واتخذ منه دليلا على أصل الشنفرى وأنه يمنى حقًّا ، لأن البقر المستأنس كما يقول لم يعرف عند العرب قديماً إلا فى بلاد اليمن (١) .

ونمضى مع الشنفرى فى القصيدة فإذا هو يحدثنا عن أهداف غارته وأنه كان يقصد بها بنى سلامان ، حتّى يأخذ بثأره لأبيه ويشفى حقده وغليله ، يقول :

جَزَيْنا سلامانَ بنَ مُفْرِجَ قَرْضَها ... بما قَدَّمت أيديهمُ وأزلَّت (٢)

وهُنِّئَ بى قومٌ وما إن هَنَأْتُهمْ ... وأصبحتُ فى قومٍ وليسوا بمَنْبتى (٣)

شفينا بعبــد الله بعضَ غَليلِنا ... وعوْفٍ لدى المعْدَى أوانَ استهلَّتِ (٤)

وإنى لحُلْوٌ إنْ أُريدتْ حلاوتى ... ومُرٌّ إذا نَفْسُ العَزُوفِ استمرَّتِ (٥)

وهو يصرح بأنه جَزَى بنى سلامان بما قدمت أيديهم ، ويأسى أن يكونوا قومه ولا ينتفعوا به وببأسه ، وأن يقعد لهم ويقعدوا له ، لما بينه وبينهم من ثأر قديم ، ويحدثنا أنه شفى بعض غليله بقتله لرجلين منهم هما عبد الله وعوف ، ويقول إنه حلو لأصدقائه مر على أعدائه كأنه الحنظل . وهكذا كانت حياته غارات ومغامرات ، حتّى أصاب أعداؤه منه مقتلا فقتلوه .

وثالث صعاليك الجاهلية المشهورين عروة بن الوَرْد العبسى (٦) ، وكان أبوه

---

(١) راجع ترجمة المفضليات للايل ٢/ ٦٨

(٢) أزلت : قدمت .

(٣) معنى الشطر الأول أن الأزد يهنئون به وبشجاعته لأنه منهم وفى الوقت نفسه هو لا يهنئهم لأنهم لا ينتفعون به. وهو يشير فى وضوح إلى أنه ينزل فى بنى فهم وليس منهم .

(٤) الغليل فى أصله حرارة العطش ، وهو هنا العطش إلى القتل . المعدى : موضع العدو ، والمراد ساحة المعركة ، أوان استهلت : فى الوقت الذى ارتفعت فيه الأصوات للحرب .

(٥) العزوف : المنصرف عن الشىء . استمرت : من المرارة .

(٦) راجع فى ترجمة عروة الأغانى (طبعة دار الكتب) ٣/ ٧٣ والشعر والشعراء ٢/ ٦٥٧ والخزانة ٤/ ١٩٤ والشعراء الصعاليك ص ٣٢٠.

من شجعان قبيلته وأشرافهم ، ومن ثَمَّ كان له دور بارز فى حرب داحس والغبراء[١]. أما أمه فكانت من نَهْد من قضاعة ، وهى عشيرة وضيعة لم تعرف بشرف ولا خطر ، فآذى ذلك نفسه ، إذ أحس فى أعماقه من قِبَلها بعار لا يُمْحى ، يقول[٢]:

وما بىَ من عارٍ إخالُ علمتُه   سوى أن أخوالى ــ إذا نُسبوا ــ نَهْدُ

فهى عاره ، الذى حلّت البلية عليه منه ، والذى دفعه دفعًا إلى الثورة على الأغنياء ، وهى ثورة كانت مهذبة ، إذ لم يتحول إلى سافك دماء ولا إلى متشرد يرود مجاهل الصحراء ، فقبيلته لم تخلعه ، بل ظل ينزل فيها مرموق الجانب لسيرة كانت تروع معاصريه ومن جاءوا بعدهم ، إذ اتخذ من صعلكته بابًا من أبواب المروءة والتعاون الاجتماعى بينه وبين فقراء قبيلته وضعفائها ، ومن أجل ذلك لُقِّب عروة الصعاليك لجمعه إياهم وقيامه بأمرهم إذا أخفقوا فى غزواتهم وضاقت بهم الدنيا . وفى الأغانى « كان عروة بن الورد ، إذا أصابت الناس سنة (أزمة جدب) شديدة وتركوا فى دارهم المريض والكبير والضعيف ، يجمع أشباه هؤلاء من دون الناس من عشيرته فى الشدة ، ثم يَحْفر لهم الأسراب ، ويكْنُفُ عليهم الكُنُفَ (الحظائر) ويكسبهم . ومن قَوِىَ منهم ــ إما مريضٌ يبرأ من مرضه أو ضعيف تثوب قوته ــ خرج به معه فأغار ، وجعل لأصحابه الباقين فى ذلك نصيباً . حتى إذا أخصب الناس وألبَنُوا وذهبت السنة ألحق كلَّ إنسان بأهله ، وقسم له نصيبه من غنيمة إن كانوا غنموها ، فربما أتى الإنسان منهم أهله وقد استغنى ، فلذلك سمى عروة الصعاليك[٣] » . وفى خبر آخر أن عبساً كانت إذا أجدبت أتى ناس منها ممن أصابهم جوع شديد وبؤس فجلسوا أمام بيت عروة ، حتى إذا أبصروا به صرخوا ، وقالوا أيا أبا الصعاليك أغثنا ، فكان يرق لهم ويخرج بهم فيصيب معاشهم[٤] .

وعروة بذلك كله يعبر عن نفس كبيرة ، فهو لا يغزو للغزو والنهب والسلب كالشَّنْفَرى وتأبط شرا ، وإنما يغزو ليعين الهُلاّك والفقراء والمرضى والمستضعفين من قبيلته ، والطريف أنه لم يكن يُغير على كريم يبذل ماله للناس ، بل كان يتخير

---

(١) أغانى ٣/ ٨٨ .
(٢) ديوانه ص ١٥٧ .
(٣) أغانى ٣/ ٧٨ وما بعدها والشعر والشعراء ٢/ ٦٥٧ .
(٤) أغانى ٣/ ٨١ .

لغارته من عُرفوا بالشح والبخل ومن لا يمدون يد العون للمحتاج فى قبائلهم ، فلا يرعون ضعفاً ولا قرابة ولا حقًّا من حقوق أقوامهم (١) . وبذلك كله تصبح الصعلكة عنده ضرباً من ضروب النبل الخلقى ، وكأنها أصبحت صِنْواً للفروسية ، بل لعلها تتقدمها فى هذه الناحية من التضامن الاجتماعى بين الصعلوك والمعوزين فى قبيلته . وبلغ عروة من ذلك أنه كان لا يؤثر نفسه بشىء على من يرعاهم من صعاليكه ، فلهم مثل حظه غزوا معه أو قعد بهم المرض أو الضعف . وهو يضرب بذلك مثلا رفيعاً فى الرحمة والشفقة والبذل والإيثار .

ولعروة ديوان برواية ابن السكيت ، طُبع مراراً ، فى جوتنجن والجزائر والقاهرة وبيروت ، وتردَّد أشعاره فيه هذه المعانى الكريمة التى قدمناها ، وهى معان جعلت معاصريه ومن جاءوا بعدهم يعجبون به إعجاباً شديداً ، فقد كانت قبيلته تأتمّ به فى خلاله وخصاله ، وكان معاوية يقول : « لو كان لعروة بن الورْد ولد لأحببت أن أتزوج إليهم (٢) » أما عبد الملك بن مروان فكان يقول : « من زعم أن حاتماً أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد » (٣) وكان يقول أيضاً : ما يسرُّنى أن أحداً من العرب ولدنى ممن لم يلدنى إلا عروة بن الورد لقوله :

إنى امروٌ عافى إنائىَ شِرْكةٌ وأنت امروٌ عافى إنائِك واحدُ (٤)
أتهزأ منى أن سمنتَ وأن ترى بجسمى شحوبَ الحق ، والحقُّ جاهدُ
أُفرِّق جِسْمى فى جسوم كثيرةٍ وأحْسُو قَراحَ الماء ، والماءُ بارد (٥)

وعروة يعبِّر عن معنى إنسانى رفيع ، إذ تعرَّض له بعض أصحابه يعيبه بأنه مُضْنىً هزيل شاحب اللون ، فقال له : إنى يشركنى كثيرون من العفاة والسائلين ذوى الحاجة فى إنائى أو طعامى ، أما أنت فلا يشركك أحد ، ولذلك سمنت أما أنا فأصبحت ضامراً نحيلا ، وما شحوب وجهى إلا أثر من آثار نهوضى بحقوق هؤلاء المحتاجين والمعوزين ، فلست أنا الخليق بالهزؤ والسخرية ، إنما الخليق بذلك السمين

(١) أغانى ٣ / ٨١ .
(٢) أغانى ٣ / ٧٣ .
(٣) أغانى ٣ / ٧٤ .
(٤) العافى : طالب المعروف . ويريد بقوله : عافى إنائك واحد أنه يأكل وحده .
(٥) حسا الماء : شربه شيئاً بعد شىء . القراح : الخالص الذى لا يخالطه لبن ولا غيره .

البَطين . وما لبث أن قال : إنه يقسم طعامه بينه وبين الفقراء أو بعبارة أدق يقسم جسمه فى جسومهم ، بل كثيراً ما يؤثرهم على نفسه بكل طعامه مع جوعه ومسغبته مكتفياً بشرب الماء البارد ، على حين يعصف الشتاء بزمهريره . والذى لا ريب فيه أنه طمح إلى مثل نبيل فى البرّ والإيثار ودفع غوائل البؤس والشقاء عن البؤساء والضعفاء . ونحن نقف عند قصيدة أنشدها له الأصمعى فى أصمعياته[1] ، وهى بذلك من أوثق شعره وأصدقه . وهو يستهلها بتوجيه الخطاب إلى امرأته سلمى التى تلومه على كثرة مخاطراته ومغامراته فى الغزوات والغارات ، وقد ردّ عليها بأنه يبغى حسن الأحدوثة وبقاءها ، وأنه إنما يرمى بنفسه فى المهالك من أجلها ، حتّى يغنيها ، وحتّى لا تشعر بالحاجة من بعده أو بالذل والهوان ، وهى تماريه شفقة عليه :

تقول : لكَ الويلاتُ هل أنت تاركٌ ضُبُوءًا بِرَجْلٍ تارة وبِمَنْسِرِ[2]

فهى تقول له إنك لن تنتهى عن غاراتك بالصعاليك من الراجلين تارة ومن الفرسان تارة ثانية ، وحرى بك أن تكف عن ذلك ، حتّى لا تلقى حتفك ، ويردّ عليها :

أَبَى الخَفْضَ من يَغْشاكِ من ذى قرابةٍ ومن كلِّ سوداءِ المعاصم تَعْترى[3]
ومُسْتَهْنِىءٍ ، زيدٌ أبوه ، فلا أرى له مَدْفَعاً ، فاقْنَىْ حياءَكِ واصْبِرِى[4]

فهو لا يستطيع القعود عن الغزو كما تريد زوجه ، لما عليه من واجبات وحقوق لأقربائه المحتاجين من قبيلته ، ونسائها المعوزات ، والعُفاة ، طلّاب العطاء من الضعفاء ، فهو إنما يغزو من أجل الوفاء بحقوق هؤلاء جميعاً . ويعرض عليها صورتين للصعلوك ، صورة رديئة ، وصورة جيدة ، أما الصورة الأولى ففيها يتراءى الصعلوك خاملا ، حسبه أن ينال أكلة من فتات مائدة ، لا يهمه أهله ولا عياله

(١) الأصمعيات (طبع دار المعارف) ص ٣٥ .

(٢) ضبوء : غزو . رجل : جمع راجل ضد راكب . المنسر كمجلس ومنبر : الجماعة من الخيل بين الثلاثين والأربعين .

(٣) الخفض : الدعة ولين العيش . ويريد بسوداء المعاصم التى أجهدها الجوع والهزال . تعترى : تغشى .

(٤) مستهنئ : طالب للهنء وهو العطاء ، وزيد من أجداد عروة يريد أنه قريبه . اقنى حياءك : صونيه واحفظيه .

ولا قوتهم ، يقول :

لَحَى اللهُ صُعْلوكاً إذا جنَّ ليلُه مُصَافِى المُشاشِ آلِفاً كلَّ مَجْزَرِ (١)
يَعُدُّ الغِنى من دهره كلَّ ليلةٍ أصاب قِراها من صديق ميسَّرِ (٢)
ينامُ عِشاءً ثم يُصْبح قاعِدًا يَحُتُّ الحصَا عن جنْبِه المتعفِّرِ (٣)
يُعين نساءَ الحيِّ ما يستعنَّه فيُضْحِى طَلِيحاً كالبعير المحسَّرِ (٤)

وواضح أنه ينعته بأنه ضعيف الهمة فحسبه لقمة تشبعه، مما يتساقط من فضلات الموسرين ، وإنه لينام ملء جفونه فليس هناك ما يشغله ، وحتى هو فى النهار ليس هناك ما يعمله سوى خدمة النساء ، فهو ذليل مهين يعيش عالة على مجتمعه . ومثل هذا الصعلوك جدير بكل ملامة ، لأنه يَحْيَا حياة وضيعة . أما الصعلوك الآخر الشريف فهو جدير بكل ثناء وتشجيع من الزوجة وغير الزوجة ، يقول فى وصفه :

ولله صعلوكٌ صحيفةُ وجههِ كضَوْءِ شِهابِ القابسِ المتنوِّرِ (٥)
مُطِلاًّ على أعدائهِ يَزْجُرونه بساحتهم زَجْرَ المَنِيحِ المشهَّرِ (٦)
وإن بَعُدُوا لا يأْمنون اقترابَهُ تشوُّف أَهلِ الغائبِ المتنظَّرِ (٧)
فذلك إن يَلْقَ المنيَّةَ يلْقَها حَمِيدًا ، وإن يَسْتَغْنِ يوماً فأَجْدِرِ

فهذا هو الصعلوك الذى يعجب به عروة ، صعلوك وجهه مشرق بأعماله المجيدة ، لا يزال يطل على أعدائه ويشرف عليهم ، فيظفر منهم بكل ما يريد ، على الرغم من صياحهم به وزجرهم له . وهم مهما بعدوا لا يأمنون غزوه ، بل إنهم لينتظرونه

(١) لحى : قبح ولعن . المشاش : رءوس العظام اللينة . المجزر : موضع الجزر .
(٢) قراها : طعامها . ميسر : غنى كثرت إبله .
(٣) يحث : يحرك .
(٤) الطليح : المعيى ، ومثله المحسر .
(٥) صحيفة الوجه : بشرته . الشهاب : شعلة ساطعة من النار . القابس : الذى يقبس النار أو يأخذها . المتنور : المضيىء .
(٦) مطلا : مشرفاً . يزجرونه : يصيحون به كما يزجر القدح إذا ضرب . المنيح : قدح سريع الخروج ولا نصيب له . المشهر : المشهور .
(٧) تشوف : تطلع . المتنظر : المنتظر قدومه .

انتظار أهل الغائب له ، علماً منهم بأنه لابد راجع إليهم ومصيب منهم . ويقول إن مثل هذا الصعلوك المغامر الجرىء إن يمت تظل ذكراه خالدة لمحامده ومناقبه . ويمضى فيحدثنا عن غزواته وغاياتها ، يقول :

أيهلك مُعْتَمٌّ وزيدٌ ولم أَقُمْ   على نَدَبٍ يوماًولى نفسُ مُخْطِرِ[١]

ستُفْزِعُ بعد اليَأْسِ منْ لا يخافنا   كواسِعُ فى أُخْرَى السَّوام المُنفَّرِ[٢]

نُطاعِنُ عنها أولَ القوم بالقَنَا   وبِيضٍ خِفافٍ وقْعُهُنَّ مُشَهَّرُ[٣]

ويوماً على غاراتِ نَجْد وأهلِه   ويوماً بأَرْضٍ ذات شَثٌّ وعَرْعَرِ[٤]

يُريح علىَّ الليلُ أضيافَ ماجدٍ   كريمٍ ومالى سارحاً مالُ مُقْتِرِ[٥]

وهو فى أول هذه الأبيات يستنكر أن تهلك عشيرتا معتم وزيد ، وهو قاعد فى الحى ، لا يخاطر بنفسه من أجلهما فذلك عار ما بعده عار . لقد خُلق لرعاية الضعفاء والهلاَّك من قبيلته ، وهو لذلك لابد مقتحم مع رفاقه من الصعاليك الفرسان حِمَى بعض القبائل ليسوقوا منها ما يشاءون من الإبل السائمة ، وهم يهجمون تارة فى الحجاز وتارة فى نجد . وكل ذلك حتى يغنم ما يقدِّمه لضيفانه، وكم يغنم ! إلا أنه لا يُبقِّى على شىء فى يده ، فماله مال مقتر أو فقير مقل .

والحق أن عروة كان صعلوكاً شريفاً ، وأنه استطاع أن يرفع الصعلكة وأن يجعلها ضرباً من ضروب السيادة والمروءة ، إذ كان يستشعر فى قوة فكرة التضامن الاجتماعى وما يطوى فيها من إيثار وبِرٍّ بالفقراء ، فهو لا يسعى لنفسه فحسب ، وإنما يسعى قبل كل شىء للمعوزين من عشيرته حتى يدفع عنهم كل ما يجدون من بؤس وشقاء .

---

(١) معتم وزيد : بطنان من عبس . ندب : خطر .

(٢) كواسع : خيل تطرد إبلا وتكسعها . السوام : الإبل السائمة . أخرى : آخر . المنفر : المذعور .

(٣) بيض : سيوف . وفى البيت إقواء . ورواية الديوان : ذات لون مشهر ، ولو صحت لم يكن فى البيت إقواء .

(٤) الشث والعرعر : من أشجار البادية .

(٥) يريح : يرد . ويقصد بالماجد الكريم نفسه ، كما يقصد بماله إبله . سارحاً : سائماً فى المرعى . مقتر : فقير مقل .

٣

شعراء آخرون

مرّ بنا في غير هذا الموضع أن جماعات من اليهود نزلت في أواخر القرن الأول للميلاد وأوائل الثاني بالمدينة والواحات المنثورة في شماليها بالحجاز مثل فدَك وخَيْبر ووادى القُرَى وتَيْماء ، واضطرتهم مواطنهم الجديدة إلى تعلم العربية، وإن ظلوا على دينهم ، ومما يلفت النظر أنهم لم يتركوا أى أثر مكتوب ، وقد عنى هؤلاء اليهود بالزراعة والصناعات اليدوية . وأخبارهم فى الجاهلية توحى بأن العرب لم يأمنوهم ، إذ كانوا يعدونهم من أعدائهم ، وكانوا يزدرونهم ازدراء شديداً ، ومَنْ يتابع موقفهم من الإسلام وكيف أن الرسول صلى الله عليه وسلم اضطُرَّ — لكيدهم له ونقضهم لما بينهم وبينه من عهود موثقة مراراً وتكراراً — إلى إجلائهم عن المدينة ، وأتمّ عمر من بعده هذا الإجلاء عن الجزيرة ، مَنْ يتابع ذلك يعرف أن العرب كانوا فى الجاهلية يجفونهم وينفرون منهم ومن دينهم، فلم يؤثِّروا فيهم شيئاً،وعلى العكس نجد اليهود يتعلمون العربية،وينفذبعضهم إلى النَّظْم بها .

على أنه ينبغى أن نحتاط إزاء ما يحدثنا الرواة عن شعرائهم وأشعارهم ، فلا نثق بكل ما رووه فى هذا الصدد ، فقد يكون بعض أبنائهم ممن أسلموا هم الذين زيفوا هذه الأشعار ووضعوها على ألسنتهم . ويظهر أن هذا الوضع قديم فنحن نجد ابن سلام يفتح لشعرائهم فصلا[1] فى كتابه «طبقات فحول الشعراء» يسوق فيه ذكر ثمانية من شعرائهم وينشد لكل شاعر بعض ما اشتهر له ، وهم على التوالى السموأل بن الغريض بن عادياء، والربيع بن أبى الحُقَيْق، وكعب بن الأشرف ، وشُرَيح بن عمران، وشعية بن الغريض أخو السموأل، وأبو قيس بن رفاعة، وأبو الذّيال، ودرهم بن يزيد . ويضيف أبو الفرج فى الأغانى[2] وابن هشام فى السيرة النبوية أسماء أخرى مثل أوس بن دَنىّ وسِمَاك والغريض بن السموأل .

---

(١) ابن سلام ص ٢٣٥ .

(٢) الأغانى (طبعة الساسى) ١٩/ ٩٤ وما بعدها.

وأشهرهم جميعاً السموأل[١] صاحب حصن الأبلق بتيماء ، وكان معاصراً لامرئ القيس ، ومرت بنا أسطورته معه وما قالوا من أن امرأ القيس استودعه سلاحه ، فسار إليه الحارث بن أبي شمر الغسانى أو الحارث بن ظالم المرى على اختلاف الروايات ، فطلب منه سلاح امرئ القيس ، فأغلق حصنه من دونه ، وتصادف أن كان له ابن خارج الحصن ، فأخذه الحارث ، وهدده إن لم يعطه السلاح قَتَل ابنه ، فقال له : اقتله ، فلن أعطيه لك . وبذلك وَفَى على غير عادة قومه ! . وسبق أن قلنا إن هذا من باب الأساطير كما سبق أن اتهمنا قصيدة الأعشى التى عرضت لهذه القصة فى إسهاب . ومما نُسب إلى السموأل خطأً القصيدةُ المشهورة :

إذا المرءُ لم يَدْنَس من اللُّؤْم عِرْضُه فكلُّ رداءٍ يَرْتديه جميلُ

وهى لعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثى[٢] ، وهو شاعر إسلامى . وقد نشر لويس شيخو ديواناً له برواية نفطويه فى مجلة المشرق ببيروت سنة ١٩٠٩ وهى رواية ضعيفة ، إذ تشتمل على مقطوعات كثيرة يتضح فيها أنها منحولة . وروى الأصمعى تائية له[٣] ، لا نكاد نقرأ فيها حتى نحس أثر الصنعة والانتحال ، وهى تستهل بالحديث عن نشأة الإنسان وحياته وبعثه بعد موته على هذا النمط :

نُطْفَةً ما مُنِيتُ يومَ مُنِيتُ أُمِرَتْ أَمْرَها وفيها وُبِيتُ[٤]
كنَّها اللهُ فى مكانٍ خَفِيٍّ وخَفِيٌّ مكانُهـا لو خَفِيتُ
أنا مَيْتٌ إذ ذاك ثُمَّتَ حَيٌّ ثم بعدَ الحياة للبعْثِ مَيْتُ

وصلة هذه الأبيات بما جاء فى القرآن الكريم عن نشأة الإنسان وأنه من نُطْفَة يُمْنَى وأنه يحيى ثم يموت ثم يُبْعَثُ ؛ فهو ينتقل من موت إلى حياة ، وما حياته الثانية فى الآخرة بمستغربة ، إنها تلى موته وحياته الأولى التى تحوَّل إليها من ماء دافق يخرج من بين الصُّلْب والترائب ويقول جَلَّ وعز : (أو لم يرَ الإنسانُ أنا خلقناه

---

(١) انظر ترجمته فى الأغانى ١٩/٩٨ .

(٢) شرح المرزوقى على ديوان الحماسة لأبى تمام (طبع لجنة التأليف) ١/١١٠ .

(٣) الأصمعيات (طبع دار المعارف) ص ٨٤ وراجع ابن سلام ص ٢٣٦ .

(٤) ما منيت : ما زائدة . ومنيت : قدرت وخلقت . وبيت : هيئت .

من نُطْفَة فإذا هو خَصِيم مبين ، وضرب لنا مثلا ونَسِيَ خَلْقَه قال من يُحيي العظام وهي رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) . وتردُّدُ هذا المعنى فى الذكر الحكيم هو الذى يجعلنا نشك فى هذه القصيدة ، ونعتقد اعتقاداً أنها نُظمت فى العصور الإسلامية على هَدْى التنزيل العزيز ، ويدل على ذلك دلالة قاطعة أننا نحس إزاء بعض أبياتها أنها نظمٌ مباشر لبعض آى القرآن الكريم مثل :

ليت شعرى ! وأشعرنَّ إذا ما . قِيـل إقرأْ عُنْوانها وقريتُ[1]

وأصل هذا البيت قوله تعالى فى سورة الإسراء: (وكلَّ إنسانٍ ألزمناه طائره فى عُنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ، اقرأ كتابكً كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً » وعلى هذه الشاكلة :

مَيْتَ دَهْرٍ قد كنتُ ثم حييتُ وحيـاتى رَهْنٌ بأن سأموتُ

فإن البيت ترديد لمثل قوله سبحانه : (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه تُرْجَعُون) .

والحق أن الشعر المضاف إلى يهود الجاهلية من أمثال السموأل ينبغى أن نحذر منه ، وخاصة حين يُعلى من أخلاقهم ويسمو بها ، أو حين يندمج فى بعض ما يردده القرآن الكريم من أفكار ومعان لم تكن معروفة قبله ، ولعله من أجل ذلك لم يرو المفضل الضبي فى مفضلياته شعراً ليهودى ، وكأنه لم يثبت عنده شعر لهم .

وإذا كان العرب الشماليون فى الجاهلية استشعروا البغضاء لليهود فلم يتهود منهم أحد ، فإنهم لم يحسوا نفس الإحساس إزاء النصرانية والنصارى ، وإن ظلوا فى الجملة يحتفظون بدينهم الوثنى ويرون فيه رمز استقلالهم وسيادتهم ، وأنه ينبغى أن لا تتخطفهم الديانات من حولهم . وكانت المسيحية أمامهم فى الشام ديناً للدولة ، ودخل فيها الغساسنة كما قدمنا فى غير هذا الموضع ، وكانت منتشرة بين الآراميين فيما بين النهرين بالعراق ، واعتنقها اللخميون فى أواخر القرن

---

(١) رواية هذا الشطر فى ابن سلام : « قربوها منشورة فقريت» . وقريت : لغة فى قرأت .

السادس للميلاد ، وكانت منتشرة قبل اعتناقهم لها فى جمهور عربى من سكان الحيرة سمى بالعباديين ، وتشير الكلمة التى سُمّوا بها ، إلى أنهم عباد الله ، وكانوا أخلاطاً من قبائل شتى . وقد انتشرت فى الجنوب بنجران فكانت مركزاً مهمّاً من مراكزها ، كما عُرفت فى بعض القبائل الشمالية والشرقية مثل قضاعة وكلب وطيئ وبكر وتغلب وتنوخ وتميم ، ويزعم اليعقوبى أن نفراً من مكة تنصروا قبيل الإسلام[١] . وكل ذلك معناه أن المسيحية كانت منبثة فى الجزيرة وأن كثيرين من العرب الجاهليين دخلوا فيها ، ويتردد عند شعرائهم الوثنيين ذكر الراهب المسيحى ، وكأنه كان شخصية شعبية معروفة للجميع .

وأشهر شعراء المسيحية فى الجاهلية عَدِىُّ بن زيد[٢] شاعر الحيرة المشهور ، وهو من العباديين ومن بيت شريف من بيوتهم النصرانية ، خدم أبوه فى دواوين الفرس وفى دواوين المناذرة بالحيرة ، ولما أيفع ابنه عدى عُنى بتربيته وتأديبه على الطريقة الفارسية ، فكان يُحْسن لغة الفرس كما كان يحسن لغة العرب وتعلّمَ الرمى بالنشّاب ولعب العجم على الخيل بالصّوالجة . ولم يلبث أن التحق بديوان كسرى أبرويز بن هرمز (٥٩٠ – ٦٢٨ م) وعُهد إليه فيه بالشئون العربية ، ويقال إن كسرى أرسله إلى ملك الروم فى بيزنطة بهدية ، فلما أتاه بها أكرمه . وفى أثناء عودته مرَّ بدمشق وهناك انطلق لسانه بالشعر . وعاد إلى الحيرة فوجد أباه قد توفى . وظل مدة متنقلا بين الحيرة والمدائن ، وما نلبث أن نرى الأمور تفسد بينه وبين النعمان أبى قابوس ، مع أنهم يقولون إنه لعب دوراً فى توليته على الحيرة بعد أبيه دون بقية إخوته . ويقال إن الذى أفسد ما بينهما بعض بنى مَرِينا ، إذ زعموا للنعمان أنه يقول إنه عامله وإنه هو الذى ولاه ما ولاّه . فاضطغن عليه النعمان ، وانتهز فرصة مجيئه من لدن كسرى ذات مرة ، وأمر بحبسه ولم يُجْدِه عنده استعطافه ولا ما نظمه من أشعار فى مديحه . وعلم كسرى فكتب إلى النعمان يأمره

---

(١) تاريخ اليعقوبى (طبعة أوربا) ٢٩٨/١ وراجع المحبر لابن حبيب ص ٧١ ، وابن هشام ٢٣٩/١ .

(٢) انظر فى عدى بن زيد الأغانى (طبعة دار الكتب) ٩٧/٢ وما بعدها ، والشعر والشعراء لابن قتيبة ١٧٦/١ وخزانة الأدب ١٨٤/١ وما بعدها والموشح للمرزبانى ص ٧٢ وكتاب لويس شيخو : « النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية » .

بإطلاقه ، غير أن الرسول وجد عدياً قد مات فى سجنه مختنقاً . وغضب كسرى حين علم بذلك على النعمان غضباً شديداً ، وربما كان هذا الغضب أهم الأسباب فى قضائه عليه كما مرّ بنا فى غير هذا الموضع .

وأهم الموضوعات التى يدور فيها شعر عَدِىّ الخمرُ ، وذكرُ الموت والفناء، وهو فى الموضوع الأول يعد أباً لشعراء الخمر فى الجاهلية من مثل الأعشى ، ثم لمن ظهروا فى العصور الإسلامية بعد ذلك من مثل الوليد بن يزيد وأبى نواس. وفى أخبار الوليد أنه كان من ندمائه القاسم بن الطويل العبادى ، وكان أديباً ظريفاً شاعراً، وكان لا يصبر عنه ، ونظن ظنّاً أنه هو الذى وصله بشعر عدى، إذ كان يرويه له ويغنّى فيه معبد وغيره من المغنين بمثل هذا الصوت[١] :

بَكَرَ العاذلون فى وَضَح الصُّبْـ ... ـح يقولون لى ألا تَسْتفيقُ

لستُ أدرى وقد جفانى خليلى ... أعدوٌّ يلومنى أم صديقُ

ثم قالوا ألا اصْبَحُونا فقامتْ ... قَيْنَةٌ فى يَمينها إبْريقُ[٢]

قدَّمتْه على عُقارٍ كعين الـ ... ـدِّيك صَفَّى سُلافَها الرَّاووق[٣]

وواضح أن الأبيات من نفس الألحان والأنغام المعروفة للوليد ومَنْ جاءوا بعده من شعراء الخمريات ، وكأن القاسم العبادى هو الذى وجه الوليد ليحتذى فى خمرياته على أسلوب عدى وليجرى فى طريقته .

ويروى الرواة لعدى بجانب شعره فى الخمر أشعاراً فى الفناء وزوال الحياة ، وهى تجرى فى أسلوبين : أسلوب يتحدث عن الحياة والموت وأن الدنيا غير باقية ، وأسلوب قصصى يتخذ من التاريخ وهلاك الملوك والأوائل وسيلة إلى العظة والعبرة ، ومن الأسلوب الأول قوله على لسان المقابر[٤] :

من رآنا فليحدِّثْ نفسَه ... أنه موفٍ على قَرْنِ زوالِ[٥]

وصروف الدَّهر لا يبْقَى لها ... ولما تأْتى به صُمُّ الجبالِ

(١) الأغانى (طبعة دار الكتب) ٧/٦٥ .
(٢) اصبحونا : اسقونا خمر الصباح .
(٣) الراووق : الدن .
(٤) الأغانى ٢/١٣٤ .
(٥) قرن : طرف .

رُبَّ رَكْبٍ قد أناخوا عندنا   يشربون الخمرَ بالماء الزُّلالِ[١]
عُمِّرُوا دهرًا بعيشٍ حَسَنٍ   آمِنِى دَهْرِهِمُ غيرَ عِجالِ
ثم أضْحَوْا عَصَف الدهرُ بهم   وكذاك الدهرُ يُودى بالرجـالِ
وكذاك الدهرُ يرمى بالفتَى   فى طِلاب العيش حالا بعد حالِ

فالدنيا إلى زوال وكلٌّ من عليها فان، حتى صُمُّ الجبال، ولا يغرنك ما يغرق فيه بعض الناس من ترف ونعيم، فعمَّا قليل يعصف بهم الدهر كما عصف بمن قبلهم . ومن الأسلوب الثانى قوله[٢] :

أيُّها الشامتُ المعيِّر بالدَّهْـ   ـرِ أأنتَ المبرَّأُ الموفـورُ
أم لديك العهدُ الوثيقُ من الأيَّـ   ـام بل أنت جاهلٌ مغرورُ
من رأيت المَنون خَلَّدْن أم مَنْ   ذا عليه من أن يضام خفير[٣]
أين كسرى : كسرى الملوك أنوشِرْ   وانُ أم أينَ قبله سابورُ
وبنو الأصْفر الكرامُ ملوكُ الـ   ـرّوم لم يبق منهمُ مذكور

ويستمر فى ذكر ملوك مختلفين شيدوا قصوراً شامخة، وانتهى أمرهم إلى الفناء، وطوتهم الحُفَر والقبور كأن لم يكونوا شيئاً مذكورا ، إلى أن يقول :

ثم بعد الفلاح والملك والإمَّـ   ـةِ وارتهمُ هناك القبورُ[٤]
ثم صاروا كأنهم وَرَقٌ جَـ   ـفَّ فألوتْ به الصَّبَا والدَّبورُ[٥]

ويكثر البحترى فى حماسته من إنشاد مثل هذه الأبيات لعدى بن زيد التى يتحدث فيها عن الحياة والموت ومصير الملوك السابقين . ونحن لا نطمئن إلى كل هذه الأشعار ، بل نقف منها موقفنا من نظيرها عند الأعشى ، فإن القُصَّاص والوعاظ على ما يظهر أضافوا إليه أشعاراً كثيرة حتى ليمكن القول بأن أكثر ماروى له من أشعار منحول عليه ، ولعل ذلك ما جعل اللغويين

---

(١) الزلال : الصافى العذب .
(٢) الأغانى ٢/١٣٨ .
(٣) المنون : الموت ، وأعاد عليه الضمير مجموعاً.
(٤) الإمة : النعمة .
(٥) ألوت : ذهبت . الصبا والدبور : ريحان .

يرفضون الاستشهاد بشعره ، ولاحظ ابن سلام كثرة الوضع عليه فقال : « عدى بن زيد كان يسكن الحيرة ومراكز الريف فلان لسانه وسَهُل منطقه ، فحُمل عليه شيء كثير وتخليصه شديد[١] » وأكبر الظن أن هذا هو السبب فى أن المفضل والأصمعى لم يثُبتا له فى مجموعتيهما شيئاً من شعره . وقد قلنا فى غير هذا الموضع إنه لا يفصح فى شعره عن فكرة التثليث المسيحية ، وينبغى أن لا نغلو فى فهم مسيحية أمثال عدى فى الجاهلية ، فإنها لم تكن تتعمق نفوسهم ، وإن كان من المؤكد أنها أثرت فيهم ، بل لقد سقط منها تأثيرات إلى الشعراء الوثنيين فرأيناهم يذكرون أحياناً الرهبان والنواقيس ومحاريب الكنائس وقد يذكرون بعض الأنبياء مما جعل لويس شيخو يسلك أكثر شعراء الجاهلية فى النصرانية ، وهو مخطئ فى ذلك خطأً بيناً .

وربما كان أهم شاعر جاهلى وثنى ظهر عنده واضحاً التأثر بأهل الكتاب أمية[٢] ابن أبى الصلت الثَّقَفى ، وهو من الطائف ويقال إنه اتصل بالأحبار وتحنَّف ولبس المسوح وتنسّك . وكان يزور مكة قبل البعثة ، وله مدائح فى سيد من سادتها المشهورين هو عبد الله بن جُدْعان ، الذى يقول له فى بعض مديحه[٣] :

أأذكرُ حاجتى أم قد كفانى ... حَياؤك إن شيمتَك الحياءُ
كريمٌ لا يغيِّره صباحٌ ... عن الخُلُقِ الكريم ولامساءُ
وأرضُك كلُّ مكرمةٍ بنَتْهـا ... بنو تَيْمٍ وأنتَ لهم سماءُ[٤]

ويقول أيضاً[٥] :

عطاؤك زَيْنٌ لامرئٍ قد حبَـوْتَهُ ... بخيرٍ ، وما كل العطاء يَزِينُ
وليسَ بشَيْنٍ لامرئٍ بَذْلُ وَجْهِهِ ... إليك ، كما بعضُ السؤالِ يشِينُ

ولما بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قومه أضلَّه الله فعاداه ، وزيَّن له

(١) ابن سلام ص ١١٧ وانظر الحيوان ١٤٩/٧ والشعر والشعراء ١٧٦/١ .
(٢) انظر فى أمية الأغانى (طبعة الساسى) ٦٩/١٦ وطبعة دار الكتب ٣٢٧/٨ وما بعدها وابن سلام ص٢٢٠ وما بعدها وخزانة الأدب ١٣٠/١ وحياة الحيوان للدميرى ١٥٤/٢ والشعر والشعراء لابن قتيبة ٤٢٩/١ .
(٣) ابن سلام ص٢٢٢ والأغانى ٣٢٨/٨.
(٤) بنو تيم : عشيرة عبد الله بن جدعان .
(٥) ابن سلام ص٢٢٢ والأغانى ٣٢٨/٨.

الشيطان سوء عمله وأغواه، فلم يُسْلم، بل أخذ فى معاندة الرسول ومحادّته بلسانه، ولما هُزِمَتْ قريش فى موقعة بدر هزيمتها المشهورة ، فقُتل كثير من رجالها وسادتها حزّ ذلك فى نفسه ، فناح على قتْلاها بقصيدة طويلة يقول فيها[1] :

مــاذا بِبَدْرٍ فالعَقَنْـ قَلِ من مَرَازِبَةٍ جَحَاجِحْ[2]
هلَّا بكيتَ على الكِرا م بنى الكرام أُولى الممادِحْ

وجمع له شولتهس Schulthess مجموعة من أبياته ترجمها إلى الألمانية ونشرها فى ليبزج سنة ١٩١١ وفى سنة ١٩٣٦ نشر له بشير يموت فى بيروت طائفة من أشعاره باسم ديوان أمية . وتدور هذه الأشعار فى موضوعين أساسيين أما الموضوع الأول فيتحدث فيه عن خلق السموات والأرض ونشأة الكون مستدلا بذلك على وجود الله ، ومتحدثاً عن الموت والفناء والبعث والنشور والعذاب والثواب على شاكلة قوله[3] :

إلهُ العــالمين وكل أَرضٍ وربُّ الراسياتِ من الجبالِ
بناها وابْتَنَى سَبْعاً شِداداً بلا عَمَدٍ يُرَيْنَ ولا رِحال[4]
وسوَّاها وزيَّنها بنورٍ من الشمس المضيئة والهلال
ومن شُهبٍ تَلألأُ فى دُجاهــا مراميها أشدّ من النِّصالِ[5]
وشقَّ الأَرض فانبجستْ عيوناً وأنهارًا من العَذْب الزُّلالِ[6]
وكلُّ معمَّرٍ لا بُدَّ يوماً وذى دُنيا يصير إلى زوالِ
ويَفْنَى بعد جِدَّتِه ويَبْلَى سوى الباقى المقدّس ذى الجلال
وسِيق المجرمون وهم عراةٌ إلى ذات المقامع والنَّكالِ[7]
فنادوا وَيْلَنا وَيْلاً طويلا وعَجُّوا فى سلاسلها الطِّوَالِ[8]

---

(١) ابن سلام ص ٢٢١ .
(٢) العقنقل : كثيب رمل ببدر . المرازبة : جمع مرزبان وهو رئيس القوم المقدم عليهم . الجحاجح : جمع جحجاح وهو السيد الكريم .
(٣) ديوان أمية (طبعة شولتهس) ص٣٠ .
(٤) السبع الشداد : السموات السبع .
(٥) النصال : جمع نصل وهو حد السيف .
(٦) انبجست : انفجرت .
(٧) المقامع : محاجن من حديد يضرب بها الحيوان الشكس .
(٨) عجوا : صاحوا و رفعوا أصواتهم .

فليسوا ميِّتين فيستريحوا وكلهمُ بحرِّ النـــارِ صالِ
وحَلَّ المتقون بدارِ صِدْقٍ وعَيْش ناعمٍ تحت الظلال

وهذه المعانى تستمد من القرآن الكريم بصورة واضحة ، وأساوبها ضعيف واهن ، ولذلك كنا نظن ظنًّا أنها وما يماثلها مما نُحل على أمية . والموضوع الثانى الذى يدور فيه شعره ليس أقل من الموضوع الأول اتهاماً ، بل لعل الاتّهام فيه أوضح ، إذ نراه يقص علينا سير الأنبياء، قَصَصاً لا يكاد يفترق فى شىء عما جاء فى القرآن الكريم كقوله فى رؤية إبراهيم أنه يذبح ابنه إسماعيل وما كان من افتدائه بِذبح عظيم(١) :

ولإبراهيمَ الموفِّىَ بالنَّـــذْ رِ احتساباً وحامل الأَجْزالِ(٢)
بِكْرَهُ لم يكن ليَصْبِرَ عَنْهُ أو يراه فى معشرٍ أَقْتَالِ
يا بُنَىَّ أنَّنِى نذرتك لِلَّـ ـهِ شحيطافاصْبِرْفِدًى لك حالى(٣)
فأجاب الغلامُ : أنْ قال فوهُ كلُّ شىء لله غيرَ انتحال
فاقْضِ ما قد نذرتَ لله واكْفُفْ عن دمى أن يمسّه سرْبالى(٤)
بينا يخلع السَّرابيل عنه فكّه ربُّه بكَبْشٍ جُلال(٥)
قال : خُذْهُ وأرسل ابنك إنِّى للذى إن فعلتما غـــيرُ قالِ

وواضح أن هذا شعر ركيك ساقط الأسلوب نظمه بعض القصاص والوعاظ فى عصور متأخرة عن الجاهلية . وقد ذهب هيار يزعم حين اطلع على شعر أمية أنه اكتشف فيه مصدراً من مصادر القرآن الكريم(٦) ، ولو كان له علم بالعربية وأساليب الجاهليين لعرف أنه وقع على أشعار منتحلة بينة الانتحال ، ولما تورط فى هذا الخطأ البيِّن، وقد رد عليه غير واحد من المستشرقين(٧) . ويظهر

(١) ديوان أمية ص ٣٣ .
(٢) الأجزال : العظائم .
(٣) شحيطاً : ذبيحا .
(٤) سربالى : ثوبى .
(٥) جلال : عظيم .
(٦) انظر الجزء العاشر من المجلة الآسيوية قسم ٤ (١٩٠٤) ص ١٢٥ .
(٧) انظر تاريخ الآداب العربية لبروكلمان ١١٣/١ ودائرة المعارف الإسلامية فى «أمية» .

أن الانتحال على أمية قديم ، فني ابن سلام أن الحسن بن على بن أبي طالب استنشد النابغة الجعدىّ بعض شعره ، فأنشده قصيدته :

الحمدُ لله لا شريكَ لَهُ   من لم يَقُلها فنفسَه ظَلما

فقال له : « يا أبا ليلى ما كنا نروى هذه الأبيات إلا لأمية بن أبي الصلت ، قال : يا بن رسول الله ! والله إنى لأول الناس قالها[1] » وكأن اختلاطاً حدث بين شعر النابغة الجعدى وأمية . ومما نحلوا أمية من قديم أيضاً أشعار مختلفة فى قصص الحيوان والطير وبعض الزواحف كالحيات ، ويشركه عدى فى بعض هذه الجوانب ، وكأن القصاص والوعاظ أجروا على لسانهما كثيراً من الشعر الذى أرادوا به إلى العظة والاعتبار ، وإنما نقول إنهم نحلوهما ذلك من قديم ، لأننا نجد الجاحظ ينشد لهما أشعاراً كثيرة فى هذا الاتجاه [2].

وواضح مما قدمناه أن ما رُوى من أشعار على ألسنة اليهود ومن تنصَّر من العرب فى الجاهلية وكذلك من تحنَّف كأمية دخله وضع كثير ، ولذلك ينبغى أن نحترس منه وأن لا نتسع فى الحكم عن طريقه على ديانات القوم ومعتقداتهم ، إذ يجرى فيه الانتحال ، وقد دخله كثير من الغُثاء والإسفاف فى اللفظ والتعبير .

---

(١) ابن سلام ص ١٠٦ وما بعدها .

(٢) انظر مثلا الحيوان ٢ / ٣٢٠ وما بعدها ، ٣ / ٥١١ ، ٤ / ١٩٦ وما بعدها .

الفصل الثانى عشر

النثر الجاهلى

١

صور النثر الجاهلى

حين نتحدث عن النثر الجاهلى نتحَّى النثر العادىّ الذى يتخاطب به الناس فى شئون حياتهم اليومية ، فإن هذا الضرب من النثر لا يعدّ شيء منه أدباً إلا ما قد يجرى فيه من أمثال ، إنما الذى يُعتَدُّ أدباً حقًّا هو النثر الذى يقصد به صاحبه إلى التأثير فى نفوس السامعين والذى يحتفل فيه من أجل ذلك بالصياغة وجمال الأداء ، وهو أنواع ، منه ما يكون قصصا وما يكون خطابة وما يكون رسائل أدبية محبَّرة . ويسمِّى بعض الباحثين النوع الأخير باسم النثر الفنى .

وليس بين أيدينا وثائق جاهلية صحيحة تدل على أن الجاهليين عرفوا الرسائل الأدبية وتداولوها ، وليس معنى ذلك أنهم لم يعرفوا الكتابة ، فقد عرفوها ، غير أن صعوبة وسائلها جعلتهم لا يستخدمونها فى الأغراض الأدبية الشعرية والنثرية ، ومن ثَمَّ استخدموها فقط فى الأغراض السياسية والتجارية (١) . ولا ينقض ذلك ما جاء فى السيرة النبوية من أن سُوَيْد بن الصامت قدم مكة حاجًّا أو معتمراً .. فتصدَّى له رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سمع به ، فدعاه إلى الله وإلى الإسلام ، فقال له سُوَيد : فلعل الذى معك مثل الذى معى ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما الذى معك ؟ قال : مجلَّة لقمان ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : اعرِضْها علىّ ، فعرضها عليه ؛ فقال له : إن هذا لكلام حسن . والذى معى أفضل من هذا : قرآن أنزله الله علىّ ، هو هُدًى ونور ، فتلا عليه رسول الله القرآن ، ودعاه إلى الإسلام فلم يَبْعُدْ منه ، وقال : إن هذا القول حسن (٢) .. »

---

(١) انظر الفن ومذاهبه فى النثر العربى (الطبعة الثالثة بدار المعارف) ص ١٩ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (طبعة الحلبى) ٢ / ٦٨ .

وهذا الخبر إنما يفيد أنه كان عندهم صحيفة بها بعض أمثال وحكم مما كانوا ينسبونه إلى لقمان ، ووجود مثل هذه الصحيفة لا يدل على أنهم استخدموا الكتابة فى التعبير عن وجدانهم نثراً وشعراً ، فقد كانت محدودة الانتشار بينهم ، ومن التعسف أن نزعم ذلك لمجرد الظن ، بينما تنقصنا أو تعوزنا النصوص الحسية . وإذا كنا نفتقد الأدلة المادية على وجود رسائل أدبية فى العصر الجاهلى فمن المحقق أنه وُجدت عندهم ألوان مختلفة من القصص والأمثال والخطابة وسجع الكهان . ومن المؤكد أنهم كانوا يُشْغَفون بالقصص شغفاً شديداً . وساعدتهم على ذلك أوقات فراغهم الواسعة فى الصحراء، فكانوا حين يُرْخى الليل سُدوله يجتمعون للسمر ، وما يبدأ أحدهم فى مضرب من مضارب خيامهم بقوله : كان وكان ، حتى يرهف الجميع أسماعهم إليه ، وقد يشترك بعضهم معه فى الحديث ، وشبابُ الحى وشيوخه ونساؤه وفتياته المخدرات وراء الأخبية كل هؤلاء يتابعون الحديث فى شوق ولهفة .

ومن غير شك كان يُفيض القَصَّاص على قصصه من خياله وفنه ، حتى يبهر سامعيه ، وحتى يملك عليهم قلوبهم فيحولهم من الشفقة إلى محبة الانتقام ومن الضحك إلى الجِدّ ، وعيونهم تلمع فى وجوههم السمْر وقلوبهم تخفق من آن إلى آن ، وليس بين أيدينا شيء من أصول هذا القَصَص الذى كان يدور بينهم ، غير أن اللغويين والرواة فى العصر العباسى دوّنوا لنا ما انتهى إليهم منه ، وطبيعى أن تتغير وتتحرّف أصوله فى أثناء هذه الرحلة الطويلة التى قطعتها من العصر الجاهلى إلى القرن الثانى الهجرى ، وإن كان من الحق أنها ظلت تحتفظ بكثير من سمات القصص القديم وظلت تنبض بروحه وحيويته .

ويمكننا بواسطة ما دوّنه العباسيون أن نعرف ألوان هذا القَصص الذى كانوا يتناقلونه بينهم ، وربما كان أكثر هذه الألوان شيوعاً على ألسنتهم أيامهم وحروبهم وما سجّله أبطالهم فيها من انتصارات مروّعة وما مُنيت به بعض قبائلهم من هزائم منكرة ، وقد ظلوا يقصّون هذه الأيام والحروب إلى أن تناولها منهم لغويّو القرن الثانى للهجرة ورُواته ، فدوّنوها تدويناً منظماً على نحو ما هو معروف عن أبى عبيدة فى شرحه لنقائض جرير والفرزدق ، وتوالى من بعده التأليف فيها والعناية بها على نحو ما تقدم فى غير هذا الموضع .

وكانوا يقصون كثيراً عن ملوكهم من المناذرة والغساسنة ومن سبقوهم أو عاصروهم مثل ملوك الدولة الحميرية ومثل الزبـَّاء ، مما نجده مبثوثاً فى تاريخ الطبرى وفى السيرة النبوية لابن هشام ، وسقط من ذلك كثير إلى أبى الفرج فى أغانيه ، ومن المحقق أن كثيرا من هذا القـَصص يخالف التاريخ الحقيقى لهؤلاء الملوك، على نحو ما هو معروف عن قصة الزباء ، فإنها لا تتفق فى شىء ووثائق التاريخ الرومانى الصحيحة[1] حتى اسمها وهو زنوبيا Zenobia حـُرِّف إلى الزباء ، وربما جاء هذا التحريف من أن أباها كان يـُدْعى زباى ، فنسبوها إليه وقالوا بنت زباى ، ومع مر الزمن حذفوا كلمة بنت ، وأبدلوا الياء المتطرفة بعد الألف حسب قواعدهم الصرفية همزة ، وأدخلوا على الاسم أداة التعريف فأصبحت الزباء .

وعلى نحو ما كانوا يقصّون عن ملوكهم وأبطالهم كانوا يقصّون عن ملوك الأمم من حولهم وشُجْعانهم ، يدل على ذلك ما جاء فى السيرة النبوية من أن النَّضْر بن الحارث كان من شياطين قريش وممن كان يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويَنْصِبُ له العداوة، وكان قد قدم الحيرة وتعلم أحاديث ملوك الفرس رأحاديث رُسْتم وإسْفنديار ، فكان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسًا ، فذكَّر فيه بالله، وحذّر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله خَلَفَه فى مجلسه إذا قام ، ثم قال : أنا والله يا معشر قريش أحسنُ حديثًا منه ، فهلم إلىّ ، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورُسْتم وإسْفنديار[2] . . »

ومما لا ريب فيه أنهم كانوا يقصون كثيرًا عن كُهَّانهم وشعرائهم وسادتهم ، وهو قَصَص استمدت منه كتب التاريخ والشعر والأدب مَعينًا لا ينضب من الأخبار ، وارجعْ إلى تراجم صاحب الأغانى فستراها تحفل بمادة غنية من القصص ، وقد بثوا فيها غير قليل من قصَصِ الهوى ، كقصة المرقِّش الأكبر وصاحبته أسماء بنت عوف ، وما كان من عشقه لها وهو غلام ومحاولته خطبتها من أبيها، واعتذار الأب له بحداثة سنه وأنه لم يـُعْرفْ بعد بشجاعة، وما كان من انطلاق المرقِّش إلى بعض الملوك ومديحه له وبقائه عنده زمنًا، وفى هذه الأثناء أصاب عـَوْفًا زمان شديد،

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ٩٩/٣ وما بعدها .

(٢) السيرة النبوية (طبعة الحلبى) ٣٢١/١

فأتاه رجل من مُراد، فأرغبه في المال، فزوجه ابنته على مائة من الإبل، ورحل بها إلى أهله . وقال إخوة المرقّش لا تخبروه بخبرها حين يرجع ، بل قولوا له إنها ماتت ، وذبحوا لذلك كبشاً ، أكلوا لحمه ودفنوا عظامه ، فلما قدم المرقش قالوا له إنها ماتت ، ولم يلبث أن عرف الحقيقة بعد أن ظل مدة يعود قبر الكبش ويزوره .

وخرج المرقش يطلب أسماء ، وبعد مغامرات يتعرف على راعى زوجها ، ويترسل إليه أن يحدثها عنه ،فيقول له : إنى لا أستطيع أن أدنو منها ، ولكن تأتيني جاريتها كل ليلة ، فأحلب لها عَنْزاً ، فتأتيها بلبنها، فقال له مرقش: خذ خاتمي هذا ، فإذا حلبتَ فألقه فى اللبن ، فإنها ستعرفه ، وإنك مصيب بذلك خيراً لم يصبه راع قط إن أنت فعلت ذلك ، فأخذ الراعى الخاتم . ولما راحت الجارية بالقدح وحلب لها العنز طرح الخاتم فيه،فانطلقت الجارية به وتركته بين يدى أسماء. فلما سكنت الرَّغْوة أخذته فشربته، وكذلك كانت تصنع ، فقرع الخاتم ثَنِيَّتَها، فأخذته واستضاءتْ بالنار ، فعرفته ، فقالت للجارية : ما هذا الخاتم ؟ قالت : مالى به علم . فأرسلتها إلى مولاها وهو بنجران ، فأقبل فزعاً، فقال لها : لم دعوتني ؟ قالت له : ادْعُ عبدك راعيَ غنمك ، فدعاه، فقالت : سَلْه أين وجد هذا الخاتم ، قال : وجدته مع رجل فى كَهْف خُبَّان، فقال لى : اطرحه فى اللبن الذى تشرب به أسماء، فإنك مصيب به خيراً، وما أخبرنى مَنْ هو ،ولقد تركته بآخر رمَق . فقال له زوجها : وما هذا الخاتم؟ قالت : خاتم مرقّش، فأعْجِل الساعة فى طلبه . فركب فرسه وحملها على فرس آخر وسارا حتى طَرَقاه من ليلتهما ، فاحتملاه إلى أهلهما ، فمات عند أسماء وقال : قبل أن يموت :

سَرَى ليلا خيالٌ من سُلَيْمى ... فأرَّقنى وأصحابى هجودُ
فبِتُّ أُدِير أمرى كلَّ حالٍ ... وأذكر أهلها وهمُ بَعيد
سكنَّ بِبلدةٍ وسكنتُ أُخرى ... وقُطِّعتِ المواثقُ والعهودُ
فما بالى أَفِي ويُخَانُ عَهْدِى ... وما بالى أُصادُ ولا أَصيدُ

ثم مات فدفن فى أرض مُراد(١).

---

(١) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٢٩/٦ وما بعدها .

ولم نَسُقْ هذه القصة مؤمنين بأنها نفس قصة المرقش التي دارت في الجاهلية بلغتها وبجميع تفاصيلها ، ولكنا سقناها لندل بطوابعها على صورة أمثالها في الجاهلية ، وما كان يتيح القَصَّاص لمثلها من عناصر التشويق ، تارة بما يضيف إلى القصة من خياله ،وتارة بما يضيف إليها من أشعار ، وقد يضيف إليها أمثالا ، على نحو ما نعرف في قصة الزبَّاء، وهي تتضمن عند الضَّبِّي اثني عشر مثلا[1] .

وإذا صح ما ذهب إليه بروكلمان من أن تعرف أحد العاشقين على الآخر عن طريق الخاتم شائع في كثير من الحكايات عند أمم غير العرب[2] كان معنى ذلك أن قصص الجاهليين حتى في الحب تسربت إليها عناصر من حكايات العشق المماثلة عند الأمم الأجنبية ، ويدخل في هذا الجانب بعض خرافاتهم عن الحيوانات التي يلتقون فيها بخرافات الأجانب[3] ، كخرافة الحية والفأس ، وقد رواها الضبي على هذه الشاكلة[4] :

« زعموا أن أخوين كانا فيما مضى في إبل لهما ، فأجدبت بلادهما ، وكان قريبًا منهما واد فيه حية ، قد حمته من كل أحد ، فقال أحدهما للآخر : يا فلان لو أني أتيت هذا الوادي المُكْلِىءْ ، فرعيت فيه إبلي وأصلحتها ، فقال له أخوه : إني أخاف عليك الحية ، ألا ترى أن أحداً لم يهبط ذاك الوادي إلا أهلكته ، قال : فوالله لأهبطنّ . فهبط ذلك الوادي ، فرعا إبله به زمانًا ، ثم إن الحية لدغته ، فقتلته . فقال أخوه : ما في الحياة بعد أخي خير ، ولأطلبن الحية فأقتلها أو لأتبعنّ أخي . فهبط ذلك الوادي ، فطلب الحية ليقتلها ، فقالت : ألست ترى أني قتلت أخاك ، فهل لك في الصلح ، فأدعك بهذا الوادي ، فتكون به ، وأعطيك ما بقيتَ ديناراً في كل يوم . قال : أفاعلة أنتِ ؟ قالت : نعم ، قال : فإني أفعل . فحلف لها وأعطاها المواثيق ، لا يضيرها ، وجعلت تعطيه كل يوم ديناراً ، فكثُر ماله ونمت إبله ، حتى كان من أحسن الناس حالا . ثم إنه ذكر أخاه ، فقال : كيف ينفعني العيش ، وأنا أنظر إلى قاتل أخي فلان ؟ . فعمد إلى فأس ، فأحدّها ، ثم قعد لها ، فمرت به ، فتبعها ، فضربها فأخطأها ، ودخلت الجحر ،

---

(١) أمثال العرب للمفضل الضبي (الطبعة الأولى بالقاهرة) ص ٨١ وما بعدها .

(٢) انظر تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ١ / ١٠٢ .

(٣) انظر كتاب الأمثال في النثر العربي القديم لعبد المجيد عابدين ص ٤٢ .

(٤) أمثال العرب للضبي ص ١٠٦ .

فرمى الفأس بالجبل فوقع فوق جُحْرها ، فأثّر فيه . فلما رأت ما فعل قطعت عنه الدينار الذى كانت تعطيه ، ولما رأى ذلك تخوّف شرها وندم ، فقال لها : هل لك فى أن نتواثق (نتعاهد) ونعود إلى ما كنا عليه ، فقالت : كيف أعاهدك ؟ وهذا أثر فأسك وأنت فاجر ، لا تبالى العهد . فكان حديث الحية والفأس مثلا مشهوراً من أمثال العرب ، قال نابغة بنى ذبيان (من قصيدة يعاتب بها بنى مرة) :

وإنى لألقى من ذوى الضِّغْن منهمُ　　بلا عَثْرة ، والنفس لا بُدَّ عَاثِره

كما لقيتْ ذاتُ الصَّفَا من حليفها　　وما انفكّتِ الأَمثالُ فى الناسِ سَائره

ويُنْشِدُ الضبى بقية القطعة التى يتحدث فيها النابغة عن قصة الحية مع هذا الراعى الذى اختان عهده . ونحن نشك فى الأبيات كما نشك فى أن القصة حافظت على الأصل الجاهلى ، وإن كنا فى الوقت نفسه نظن ظَنّاً أنها تعطينا جانباً من روح القصص الجاهلى ، وأنه كان يلتقى فى بعض جوانبه بقصص الحيوان المعروف عند الهنود ، والذى تسرب منهم إلى الأمم الأخرى على نحو ما نعرف فى قصص إيسوب اليونانى ، وبين قصصه الزارع والحية[1] ، وكأنما تسرب هذا النوع من الهند إلى العرب واليونان جميعاً .

ومما لا شك فيه أن عرب الجاهلية قَصّوا كثيراً عن الجن والعفاريت والشياطين ، وقد زعموا أنها تتحوّل فى أى صورة شاءت إلا الغول فإنها دائماً تبدو فى صورة امرأة عَدا رجليها ، فلا بد أن تكونا رجلى حمار . وكثيراً ما تتراءى الجن فى صورة الثيران والكلاب والنعام والنسور . وكانوا يزعمون أن أهم منازلها أرض وبار وصحراء الدهناء ويَبْرين . ومن غير شك دخل كثير من قصصهم عنها فى كتب الأساطير والعجائب التى ألفت فى العصر العباسى .

ونحن لم نسق ذلك لنؤكد أنه بقيت لنا من القصص الجاهلى بقية صالحة للدراسة ، فإن شيئا من هذا القصص الذى يضاف إلى الجاهليين لم يصلنا مدوناً مكتوباً ، ولذلك كنا نتهمه جملة ، وإن كنا بعد هذا الاتهام نعود فنزعم أنه يصور لنا مادة قصصهم وروحه وطبيعته وكثيراً من ملامحه ، ولكن لا بصورة دقيقة ، وإنما بصورة عامة .

---

(١) انظر الأمثال فى النثر العربى القديم ص ٤٣ .

٢

الأمثال

إذا كان القصص الذى أضيف إلى الجاهليين لا يحمل لنا صورة دقيقة للنثر الجاهلى بحكم تأخره فى التدوين فإن الأمثال تحمل لنا غير قليل من هذه الصورة ، إذ أن من شأنها أن لا تغيَّر ، وأن تظل طويلا بصورتها الأصلية، بحكم إيجازها وكثرة دورانها على الألسنة . وقد سارع العرب إلى تدوينها منذ أواسط القرن الأول للهجرة، إذ ألف فيها صُحار العَبْدى أحد النسابين فى أيام معاوية بن أبى سفيان (٤١-٦٠ هـ) كتاباً كما ألف فيها عُبيد بن شَرِيَّة معاصره كتاباً آخر، ويقول صاحب الفهرست إنه رآه فى نحو خمسين ورقة[1] . وإذا انتقلنا إلى القرن الثانى وجدنا التأليف فى الأمثال يكثر ، إذ أخذ علماء الكوفة والبصرة جميعاً يهتمون بها ويؤلفون فيها ، وقد وصلنا عن هذا القرن كتاب أمثال العرب للمفضل الضبى ، ونمضى إلى القرن الثالث ، فيؤلف أبو عبيد القاسم بن سلام فيها كتاباً يشرحه من بعده أبو عُبيد البكرى باسم « فصل المقال فى شرح كتاب الأمثال لأبى عبيد القاسم بن سلام » . وما تزال المؤلفات فى الأمثال تتوالى ، حتى يؤلف أبو هلال العسكرى كتابه « جمهرة الأمثال » ويخلفه الميدانى ، فيؤلف كتابه « مجمع الأمثال » وهو يقول فى مقدمته إنه رجع فيه إلى ما يربو على خمسين كتاباً .

ومن يرجع إلى هذه الكتب يجدهم يسوقون الكلمة السائرة التى تسمى مثلا ، ولا يكتفون بذلك ، بل يقفون غالباً لسرد القصة أو الأسطورة التى تمخض عنها المثل، وقد تتمخضُ عن أمثال أخرى فتُرْوَى فى تضاعيفها . وموقفنا من هذه الأقاصيص والأساطير لا يختلف عن موقفنا من القصص الجاهلى بعامة ، فنحن لا نتخذ منها صورة للنثر الجاهلى وإن اختلجت بروحه وطبيعته وحيويته ، لنفس السبب الذى ذكرناه ، وهو تأخر تدوينها . أما الأمثال نفسها فمن المحقق أن طائفة كبيرة مما روته الكتب السالفة يتحتم أن تكون جاهلية، وخاصة أكثر ما رواه عُبيد ابن شَرِيَّة، ولو أن كتابه لم يسقط من يد الزمن ووصلنا لاطمأننا إلى ما يرويه

(١) الفهرست ص ١٣٢ .

من هذه الأمثال ، غير أنه فُقد . ولم يحاول من جاءوا بعده أن يفردوا الأمثال الجاهلية من الإسلامية ، إذ دَرَج أكثرهم على ترتيب الأمثال حسب الحروف الاولى على نحو ما ترتّب المعاجم ألفاظها ، فهم يرتبونها أو يؤلفونها فى تسعة وعشرين باباً بعدد أبواب الحروف الهجائية . وبذلك أصبح من الصعب تمييز جاهليها من إسلاميها فى كثير من الأحيان ، ومع ذلك قد يورد أصحاب هذه الكتب مع ما يروونه من الأمثال إشارات تدل على جاهليتها وقدمها ، وهى تتخذ عندهم طريقين : الطريق الأول أن يسوقوا مع المثل قصة جاهلية تفسره ، أو أن يساق هو فى أثناء قصة جاهلية ، كتلك الأمثال التى نقرؤها فى قصة الزبّاء من مثل : « لايطاع لقصير أمرٌ » و« لأمرٍ ما جدَعَ قصيرٌ أنفه » و« بيدى لا بيد عمرو » وقد بلغت أمثال هذه القصة عند الميدانى ثمانية عشر مثلا . ومن هذا الطريق ما يتصل بأحداث أو أساطير جاهلية كالذى زعموا أن النعمان بن امرئ القيس اللخمى ابتنى قصراً له يسمى الخوَرْنق ، بناه له رومى يسمى سنِمّار ، فلما أتمه قال له سنمار : إنى أعرف موضع آجرّة لو زالت لسقط القصر كله ، فقال له النعمان : أيعرفها أحد غيرك ؟ فقال : لا ، فقال : لا جرم لأدَعَنّها وما يعرفها أحد ، ثم أمر به فرُمى من أعلى القصر إلى أسفله فتقطع ، فضرب به الجاهليون المثل فقالوا : جزاء سِنِمّار .

وأما الطريق الثانى فهو أن ينسبوا المثل إلى جاهليين ، فحينئذ يتعين زمنه وتاريخه ، وهناك كثيرون اشتهروا فيهم بالحكمة والأمثال السائرة ، ومنهم من يُغْرق فى القدم مثل لُقْمان عاد ، تلك القبيلة اليمنية التى كانت تنزل فى الأحقاف ، والتى بادت ولم تبق منها باقية فى الجاهلية ، وقد ظل اسم لقمان يدور على ألسنة شعرائهم [1] وظلوا يذكرونه بالحكمة والبيان والحلم . يقول الجاحظ : « من القدماء ممن كان يُذْكَرُ بالقدر والرياسة والبيان والخطابة والحكمة والدهاء والنُّكْرَاء لقمان عاد » وينص على أنه غير لقمان الحكيم المذكور فى القرآن الكريم [2] كما ينص على ذلك المفسرون [3] . ولقدم لقمان حفّت الأسطورة به وبحياته وكل ما يتصل بصلاته مع الناس والنساء . فقال الأخباريون إنه كان عملاقاً كبير الرأس قويّاً قوة

(١) البيان والتبيين ١/١٨٣ وما بعدها و ٣/٣٠٤ .

(٢) البيان والتبيين ١/١٨٤ .

(٣) قصص الأنبياء للثعلبى (طبعة القاهرة) ٣٤٠ وتفسير أبي حيان ٧/١٨٦ وانظر خزانة الأدب للبغدادى ٢/٧٧ .

خارقة حكيما حكمة بالغة، وقالوا إنه عاش عمر سبعة نسور وأن كل نسر منها عاش ثمانين سنة وكان لُبَد آخرها، وبه ضربوا المثل فى طول العمر فقالوا « طال الأبد على لبد »(١) . ونُسبت إلى لقمان فى عصور متأخرة طائفة من الأقاصيص أريد بها إلى العظة والاعتبار ، وسميت أمثال لقمان ، وهى مكتوبة بأسلوب ركيك ضعيف . وقد زعم هلر « Heller» كاتب مادة لقمان فى دائرة المعارف الإسلامية أن شخصية لقمان مرت بثلاث مراحل: (ا) مرحلة جاهلية وفيها يتراءى لقمان عاد الأسطورى الذى يقال إنه عاش عمر سبعة نسور وكلما هلك منها نسر خلفه نسر آخر ، حتى كان لُبَد الذى ذكره شعراؤهم كثيراً . (ب) مرحلة قرآنية،وفيها نجد للقمان سورة خاصة به فى الذكر الحكيم وقد ربط بعض المفسرين بين لقمان هذا وبين بلعام حكيم بنى إسرائيل فسردوا له نفس نسبه إذ قالوا إنه لقمان بن باعور(٢) بن ناحور ابن تارخ . (ج) مرحلة متأخرة، وهى مرحلة نُسج فيها ولفق قصص كثير حول لقمان كما يصور ذلك كتاب « أمثال لقمان » .

ومن المحقق أن« هلر» مخطئ فيما ذهب إليه من هذا التطور لشخصية لقمان ، لسبب بسيط ، وهو ما قلناه من أن قدماءنا فرّقوا بين لقمان عاد ولقمان القرآن الكريم ، فهما ليسا شخصا واحداً بل هما شخصان . وبينما تُعنى بالأول كتب الأمثال نجد الثانى تُعنى به وبوصاياه كتب الفقه والتفسير مثل موطأ مالك وتفسير أبى حيان ، وقد روى الجاحظ طرفاً من تعاليمه ، وهى تُطْبَعُ بطابع دينى(٣) .

واشتهر فى الجاهلية بينهم كثيرون بهذا اللون من الأمثال وما يتصل بها من حكم ، يقول الجاحظ : « ومن الخطباء البلغاء والحكام الرؤساء أكثم بن صَيْفى وربيعة بن حُذار وهرم بن قُطْبة وعامر بن الظَّرِب ولَبِيد بن ربيعة »(٤) وأحكمهم أكثم بن صيفى التميمى وعامر بن الظَّرِب العدْوانى ، فأما أكثم فكان من المعمَّرين(٥) ،

(١) انظر المعمرين للسجستانى ص ٣ وأخبار عبيد بن شرية ص ٣٥٦ والخزانة ٢/٧٧ والميدانى ١/٣٧٥ .

(٢) انظر الثعلبى ٣٤٠ وتفسير أبى حيان ١٨٦/٧ .

(٣) البيان والتبيين ٢/١٤٩ .

(٤) البيان والتبيين ١/٣٦٥ .

(٥) انظر فى أكثم المعمرين للسجستانى ص١٠ والأغانى (طبعة الساسى) ١٥/٧٠ ومجمع الأمثال ٢/١٤٥ وجمهرة الأمثال للعسكرى على هامشه ١/١٢٠ .

ويقال إنه لحق الإسلام وحاول أن يعلن إسلامه فركب متوجهاً إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، غير أنه مات فى الطريق . وتدور على لسانه حكم وأمثال كثيرة ، وقد ساق السيوطى فى المزهر طائفة منها نقلا عن ابن دريد فى أماليه ، وهى تجرى على هذا النسق[١] :

« رُبَّ عُجلة تهب رَيْثا[٢] . ادَّرِعوا الليل فإن الليل أخفى للوَيْل . المرء يعجز لا محالة . لا جماعة لمن اختلف . لكل امرئ سلطانٌ على أخيه حتى يأخذ السلاح ، فإنه كفى بالمشرفية واعظاً . أسرع العقوبات عقوبة البغْى . شر النُّصْرة التعدِّى . آلم الأخلاق أضيقها . أسوأ الآداب سرعة العقاب . رُبَّ قول أنفذ من صَوْل[٣] . الحرُّ حُرٌّ وإن مسَّه الضر . العبد عبد وإن ساعده الجدّ[٤] . إذا فزع الفؤاد ذهب الرقاد . رُبَّ كلام ليس فيه اكتتام . حافظ على الصديق ولو فى الحريق . ليس من العدل سرعة العذل . ليس بيسير تقويم العسير . إذا بالغت فى النصيحة هجمتْ بك على الفضيحة . لو أنصف المظلوم لم يبق فينا مَلُوم . قد يبلغ الخَضْم بالقَضْم[٥] . استأن أخاك فإن مع اليوم غدا . كل ذات بَعْل ستَئِيم[٦] . الحرَ عزوف . لا تطمع فى كل ما تسمع » .

وعامر مثل أكثم يدخل فى المعمرين[٧] ، ويقال إنه « لما أسنّ واعتراه النسيان أمر ابنته أن تَقْرَع بالعصا إذا هو فَهَّ[٨] عن الحكم وجارَ عن القصد . وكانت من حكيمات العرب حتى جاوزت فى ذلك مقدار صُحَر بنت لقمان وهند بنت الخُسّ وجمعة بنت حابس . . وقال المتلمس فى ذلك :

لذى الحِلم قبل اليوم ما تُقْرَعُ العَصَا وما عُلِّم الإنسانُ إلا ليعلما[٩] »

وكان مثل أكثم حكماً للعرب تحتكم إليه ، وافتخر بذلك ذو الإصبع العَدْوانى فى بعض شعره فقال[١٠] :

---

(١) المزهر للسيوطى (طبعة الحلبى) ١/١
(٢) الريث : البطء أى رب عجلة تفوّت على صاحبها حاجته
(٣) الصول : الاستطالة فى الحرب .
(٤) الجد : الحظ .
(٥) الخضم : الأكل ملء الفم . القضم : الأكل بأطراف الأسنان .
(٦) تئيم : يهلك عنها الزوج .
(٧) انظر المعمرين ص ٤٤ وأمثال الميدانى فى المثل : إن العصا قرعت لذى الحلم .
(٨) فه : حاد وجار وانحرف .
(٩) البيان والتبيين ٣/٣٨ .
(١٠) الأغانى (طبعة دار الكتب) ٣/٩٠ .

ومنا حَكَمٌ يَقْضِي فلا يُنْقَضُ ما يقْضِي

وتنسب إليه حكم ووصايا كثيرة لقومه[١] .

وأكثر حكمهم وأمثالهم لا يعيّنون قائلها ، وهذا طبيعي لأنها تنبعث غالباً من أناس مجهولين من عامة القبائل، ممن لا يمجَّدون ولا يحفل بهم الناس، وهم أيضاً لا يحفلون بأنفسهم لأنهم من العامة ، والعامة عادة لا يهتمون بنسبة فضل إليهم . ولا بد أن نلاحظ أن بعض أمثالهم يخفى المعنى المراد منه . ومن أجل ذلك كان لا يفهم إلا بالرجوع إلى كتب الأمثال، كقولهم: « بِعَيْنٍ ما أرينّك » فإن معناه : أسرعْ ، وهو معنى لا يتبادر إلى السامع من ظاهر اللفظ ، ومن ثم علّق عليه أبو هلال العسكري بقوله : « هو من الكلام الذي قد عُرِف معناه سماعاً من غير أن يدل عليه لفظه[٢] » . ولا بد أن نلاحظ أيضاً أن الأمثال لا تتغير ، فتقول : « الصيف ضيَّعتِ اللبن» [٣] بكسر التاء إذا خاطبت الواحد والواحدة والاثنين والاثنتين والجماعة . ومن ثم كانوا يستجيزون في المثل مخالفة النحو وقواعد التصريف والجمع ، . ففي أمثالهم : « أعط القوسَ باريها[٤] » بتسكين الياء في باريها والقياس فتحها ، وفيها أيضا : « أجناؤها أبناؤها » جمع جان وبان ، والقياس : « جُناتها بُناتها » لأن فاعلا لا يجمع على أفعال .

وإذا كانت بعض الأمثال تخالف نظام التصريف والنحو فإن الكثرة الكثيرة لا تشذ على هذا النظام ، بل إن طائفة منها تدخل في الصياغة الجاهلية البليغة ، إذ نطق بها بعض بلغائهم وفصحائهم من أمثال أكثم بن صيفي وعامر بن الظَّرب ، وكان خطباؤهم المفوَّهون كثيراً ما يعمدون إلى حشْدها في خطابتهم ، يقول الجاحظ : « كان الرجل من العرب يقف الموقف فيرسل عدة أمثال سائرة ، ولم يكن الناس جميعاً ليتمثَّلوا بها إلا لما فيها من المرفق والانتفاع [٥]» وتبع شعراؤهم خطباءَهم يودعونها أشعارهم. ومن ثَمَّ كنا نجد كثيراً منها يتم له لحنه الموسيقي ، فإذا هو شطر

(١) البيان والتبيين ١/٤٠١، ٢/١٩٩ .
(٢) جمهرة الأمثال للعسكري على هامش مجمع الأمثال للميداني ١/١٦٨ .
(٣) يضرب هذا المثل لمن يطلب حاجته بعد فوت أوانها .
(٤) أي استعن على ما تعمل بأهل الحذق والمهارة .
(٥) البيان والتبيين ١/٢٧١ .

أو بيت . وكثيراً ما نلاحظ فى بعض عباراتها احتفالا بتوازن الكلمات توازناً ينتهى بها إلى السجع كما نلاحظ فى بعض جوانبها اهتماماً بالتصوير ، ومن أجل ذلك يقول النَّظَّام إنها «نهاية البلاغة لما تشتمل عليه من حسن التشبيه وجودة الكناية[1]»

واقرأ هذه الأمثال :

تجوع الحُرَّة ولا تأكل بثَدْيَيْها[2] — المقدرة تُذْهب الحفيظة — مقتلُ الرجل بين فكَّيه[3] — إنما المرءُ بأصغريه : قلبه ولسانه — من استرعى الذئبَ ظلم — فى الجريرة تشترك العشيرة[4] — وقد يأتيك بالأخبار من لم تزوِّد[5] — كذى العُرِّ يُكْوى غيره وهو راتع[6] — استَنْوَق الجمل[7] — كالمستجير من الرَّمضاء بالنار[8] — حلَبَ الدَّهرَ أشْطُرَه[9] — يَخْبِط خَبْط عَشْواء[10] — المنيَّة ولا الدنيّة[11] — تحت الرَّغوة اللبنُ الصَّريح[12] — هُدْنة على دَخَن[13] — رمتْنى بدائها وانسلَّتْ .

فإنك تحس جمال الصياغة وأن صاحب المثل قد يعمد إلى ضرب من التنغيم الموسيقى للفظه ، فإذا هو يسجع فيه أو إذا هو ينظمه شطراً من بيت . وقد يعمد إلى ضرب من الأخيلة ، ليجسِّم المعنى ويزيده حدة وقوة. والحق أن كل شىء يؤكد أن العرب فى الجاهلية عُنوا بمنطقهم واستظهار ضروب من الجمال فيه ، سواء ضربوا أمثالهم أو تحدثوا أو خطبوا ، وقد وصفهم جَلّ وعز أو وصف فريقاً منهم بقوله : «ولتعرفنَّهم فى لَحْن القول» وقوله : «ومن الناس مَن يُعْجِبك قوله فى الحياة الدنيا» . وكأنما أصبحت المقدرة البيانية عندهم سليقة من سلائقهم ، ولذلك لم يكن عجباً أن تكون آية الرسول صلى الله عليه وسلم على صدق رسالته معجزةً بلاغية لا يستطيعون أن يجاروها هى القرآن الكريم . «وإنه لكتابٌ عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد» .

---

(١) مجمع الأمثال ١/٥ .

(٢) يضرب فى صيانة الرجل الكريم نفسه عن المكاسب الخسيسة .

(٣) بين فكيه : أى لسانه ومايتكلم به .

(٤) الجريرة : الجناية .

(٥) شطر بيت لطرفة .

(٦) شطر بيت للنابغة .

(٧) استنوق : أصبح ناقة . يضرب مثلا لمن يظهر أن عنده رأياً ثم يتضح عجزه .

(٨) الرمضاء : الأرض شديدة الحرارة .

(٩) أشطره : الأشطر : أخلاف الناقة ، يضرب مثلا لمن عرك الدهر .

(١٠) العشواء : الناقة ضعيفة البصر ، يضرب مثلا فى التعثر .

(١١) الدنية : العمل الدنىء .

(١٢) الصريح : الخالص .

(١٣) دخن : حقد .

٣

الخطابة

ليس بين أيدينا نصوص وثيقة من الخطابة الجاهلية ، لما قلناه من بعد المسافة بين العصر الذى قيلتْ فيه وعصور تدوينها ، ولذلك كان ينبغى أن نحترس مما رواه منها صاحب الأمالى وصاحب العقد الفريد ، فأكثره أو جمهوره منحول . على أن اتهامنا لنصوصها لا ينتهى بنا إلى إنكارها على الجاهليين ، بل إنه لا ينتهى بنا إلى إنكار ازدهارها كما حاول بعض الباحثين [١] ، فقد كان كل شىء عندهم يؤهل لهذا الازدهار ، إذ لم يكن ينقصهم شىء من الحرية ، وكثرت المنازعات والخصومات بينهم والدعوة إلى الحرب مرة وإلى السلم مرة أخرى . وقد اتخذوا من مجالسهم فى مضارب خيامهم ومن أسواقهم ومن ساحات الأمراء ووفاداتهم عليهم ميادين لإظهار براعتهم وتفننهم فى المقال وحَوْك الكلام ، وأسعفتهم فى ذلك ملكاتهم البيانية وما فُطروا عليه من خلابة ولَسن وبيان وفصاحة وحضور بديهة ، حتى ليقول الجاحظ : « وكل شىء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال ، وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكرة ولا استعانة ، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام . . عند المقارعة أو المناقلة أو عند صراع أو فى حرب ، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب وإلى العمود الذى إليه يقصد ، فتأتيه المعانى أرسالا (أفواجاً) وتنثال عليه الألفاظ انثيالا . . وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر ، وهم عليه أقدر ، وله أقهر ، وكل واحد فى نفسه أنطق ومكانه من البيان أرفع ، وخطباؤهم للكلام أوجد ، والكلام عليهم أسهل ، وهو عليهم أيسر . . من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب [٢] » .

وكل ذلك عمل على ازدهار الخطابة فى الجاهلية ، وأن تتناول أغراضاً مختلفة ، فقد استخدموها فى منافراتهم ومفاخراتهم بالأحساب والأنساب والمآثر والمناقب ، كمنافرة علقمة بن عُلاثة وعامر بن الطفيل إلى هَـرِم بن قُطْبة الفَـزارى [٣] ومنافرة

(١) فى الأدب الجاهلى لطه حسين ص ٣٧٤ .

(٢) البيان والتبيين ٣/٢٨ .

(٣) أغانى (ساسى) ١٥/٥١ .

القعقاع بن معبد التميمى وخالد بن مالك النهشلى إلى ربيعة بن حُذار الأسَدى[١] . واستخدموها فى الحض على القتال وبعث الموجدة فى نفوس قبائلهم ودفعها إلى نيران الحرب وترامیهم فى أوارها كأنهم الفراش ، يقول أبو زُبَيْد الطائى[٢] :

وخطيبٍ إذا تمعَّرتِ الأوْ جهُ يوماً فى مأْقِطٍ مشهودِ[٣]

ويقول عامر المحاربى فى مديح قومه[٤] :

وهم يَدْعَمُونَ القولَ فى كل موطنٍ بكل خطيبٍ يترك القوم كُظَّما[٥]
يقوم فلا يَعْيا الكلامَ خطيبُنا إذا الكربُ أنْسى الجِبْسَ أن يتكلما[٦]

وكما كان يدعو خطباؤهم إلى الحرب وسفك الدماء كانوا يدعون إلى الصلح وإصلاح ذات البَيْن وأن تضع الحرب أوزارها ، يقول ربيعة بن مقروم الضبى[٧] :

ومتى تَقُمْ عند اجتماع عشيرةٍ خطباؤنا بين العشيرة يُفْصَلِ

وكانوا كثيراً ما يخطبون فى وفادتهم على الأمراء، إذ يقف رئيس الوفد بين يدى الأمير من الغساسنة أو المناذرة ، فيحييه ، متحدثاً بلسان قومه ، وفى السيرة النبوية ما يصور جانباً من هذه الوفود ، إذ وفد كثير منها على الرسول منذ السنة الثامنة ، وكان يقوم خطيب الوفد بين يديه متحدثاً ، ويرد عليه خطيب الرسول على نحو ما هو معروف عن وفد تميم وخُطْبة عُطارد بن حاجب بن زُرارة بين يديه[٨] . وكان ذلك سنة شائعة بينهم فى الجاهلية حين يفدون على الأمراء أو على من له رياسة وسيادة . يقول أوس بن حجر فى رثاء فضَالة بن كَلَدة[٩] :

أبادُلَيْجَةَ مَنْ يكْفِى العشيرةَ إذ أمسوا من الخَطْبِ فى نارٍ وبَلْبالِ
أم من يكون خطيبَ القوم إذ حَفلوا لدى الملوك ذوى أيْد وأفْضال[١٠]

---

(١) البيان والتبيين ٢/٢٧٢ .
(٢) البيان والتبيين ١/١٧٦ .
(٣) تمعرت الوجوه : تغيرت واصفرت . المأقط : موضع القتال .
(٤) المفضليات ، القصيدة ٩١ .
(٥) كظماً : جمع كاظم وهو الساكت غيظاً .
(٦) الجبس : اللئيم المنقطع .
(٧) أغانى (ساسى) ٩/ ٩٣١ .
(٨) تاريخ الطبرى، القسم الأول ص١٧١١ والأغانى (طبعة دار الكتب) ٤/١٤٦ .
(٩) نقد الشعر لقدامة (طبعة الجوائب) ص ٣٥ وديوان أوس (طبعة بيروت) ص ١٠٣
(١٠) أيد : قوة .

وقد يتنبرون فى الأسواق العظام ينصحون قومهم ويرشدونهم، على نحو ما هو معروف عن قُسٍّ وخطبته بسوق عكاظ ، وربما نصح الخطيب عشيرته وقومه الأقربين ، كبعض ما يُرْوَى عن عامر بن الظَّرِب وأكثم بن صيفى . وكان من عادتهم فى الزواج ، وخاصة زواج أشرافهم وأبنائهم أن يتقدم عن الخاطب سيد من عشيرته ، يخطب باسمه الفتاة التى يريد الاقتران بها ، وخطبْة أبى طالب السيدة خديجة للرسول صلى الله عليه وسلم مشهورة ، ويقول الجاحظ : « كانت خطبة قريش فى الجاهلية — يعنى خطبة النساء — : باسمك اللهم ذُكرتْ فلانة، وفلان بها مشغوف ، باسمك اللهم ، لك ما سألت ، ولنا ما أعطيت »[١] . ويقول كان من عادة العرب فى هذه الخطبة أن يطيل الخاطب ويقصِّر المجيب[٢] ، ويتحدث عن خطابتهم عامة فيقول : « اعلم أن جميع خطب العرب من أهل المَدَر والوَبَر والبدو والحضر على ضربين منها الطوال ، ومنها القصار ، ولكل ذلك مكانٌ يليق به وموضع يحسن فيه . ومن الطوال ما يكون مستوياً فى الجودة ، ومتشاكلا فى استواء الصنعة، ومنها ذوات الفِقَر الحسان والنُّتَف الجياد . . ووجدنا عددَ القصار أكثر ورواةَ العلم إلى حفظها أسرع[٣]» .

وليس كل ما يدل على ازدهار الخطابة فى الجاهلية ما رأيناه آنفاً من تعدد أنواعها وخَوْضها فى أغراض مختلفة من المصاهرة أو الوفادة على الأمراء أو النصح والإرشاد أو الدعوة إلى الحرب أو الكفِّ عن القتال أو فى المنافرات والمفاخرات ، فقد استقر فى نفوس العباسيين وعلى رأسهم الجاحظ أنهم كانوا يكثرون من الخطب وأن قبيلة من القبائل بل عشيرة من العشائر لم تكن تخلو من خطيب ، وهو يسوق فى البيان والتبيين أثباتاً طويلة بأسمائهم ومواقفهم مُورداً من حين إلى حين فقراً وشظايا من أقوالهم . ولعل من الخير أن نعرض أطرافاً من ذلك ، حتى تتضح لنا هذه النهضة الخطابية عندهم من بعض وجوهها ، وخاصة أننا لا نطمئن إلى ما يروى لهم فى كتب الأدب والتاريخ من خطب، ومن ثَمَّ سنعمد عمداً إلى سرد أسماء خطبائهم من جهة وإنشاد بعض الأشعار التى تصور بيانهم وبراعتهم فى هذا اللون من ألوان نثرهم ، لما هو معروف من أن الشعر يمكن أن ينقل عن طريق الرواية آماداً من الأزمنة بفضل ما فيه من موسيقى تحفظه من الاضطراب على ألسنة الرواة

(١) البيان والتبيين ١/٤٠٨ .
(٢) البيان والتبيين ١/١١٦ .
(٣) البيان والتبيين ٢/٧ .

وتحولُ بينه وبين دخول خلل واسع فى صُورَه الأصلية .

وإذا رجعنا نستعرض أسماء خطبائهم وجدنا البيان والتبيين يموج بهم، من مثل قيس بن شمَّاس فى يثرب، وابنه ثابت وهو خطيب النبي صلى الله عليه وسلم . ومن خطباء الأنصار أيضاً سعد بن الربيع ، وهو الذى اعترضت ابنتُه النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، فقال لها : من أنت ؟ قالت : ابنة الخطيب النقيب الشهيد سعد ابن الربيع [1] . أما مكة فمن قدماء خطبائها هاشم وأمية ونُفَيْل بن عبد العزى جد عمر بن الخطاب ، وإليه تنافر عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية [2]. ويظهر أنه كان فيها خطباء كثيرون ، وربما كان مما هيأ لكثرتهم وجود دار الندوة بها ، وهى تشبه مجلس شيوخ مصغراً، كانوا يجتمعون فيها ويخطبون ويتحاورون [3] ، وممن عُرف فيها بالخطابة عُتْبة بن ربيعة وسُهَيل بن عمرو الأعلم، وهو الذى قال فيه عمر للرسول صلى الله عليه وسلم : « يا رسول الله ! انزع ثَنِيَّتَيْه [4] السُّفليين حتى يُدْلَعَ [5] لسانه فلا يقوم عليك خطيباً أبداً» فقال الرسول عليه السلام : « لا أمثِّل فيمثل الله بى ، وإن كنت نبيًّا ، دعه يا عمر ، فعسى أن يقوم مقاماً تحمده [6] »

وممن اشتهروا بالخطابة فى القبائل عامر بن الظَّرِب فى عَدوان وربيعة [7] بن حُذار فى أسد وحنظلة بن ضرار فى ضَبَّة وقد طال عمره حتى أدرك يوم الجمل [8]، وعمرو ابن كلثوم فى تغلب [9] وهانئ بن قبيصة فى شيبان ، وهو خطيب يوم ذى قار [10]، وزهير بن جَنَاب فى كَلْب وقُضاعة [11]، وابن عمار فى طيئ، وهو خطيب مَذْحِج كلها [12] . ومن خطبائهم لبيد بن ربيعة العامرى، ومن قوله [13] :

وأَخْلُفُ قُسًّا ليتنى ولو أننى ... وأَعْيى على لقمانَ حكمَ التدبُّر

وهَيْذان بن شَيْخ الذى قال فيه الرسول صلوات الله عليه: ربَّ خطيب من عَبْس [14]، وخُوَيْلد بن عمرو والعُشَراء بن جابر الغطفانيان [15]، ومن خطباء

(١) البيان والتبيين ١/٣٥٨ – ٣٦٠ .
(٢) تاريخ الطبرى، القسم الأول ص ١٠٩١ .
(٣) السيرة النبوية (طبعة الحلبى) ٢/١٢٤
(٤) الثنيتان : الأضراس فى مقدم الفم .
(٥) يدلع : يسترخى ، فلا يحسن النطق .
(٦) البيان والتبيين ١/٣١٧ .
(٧) نفس المصدر ١/٣٦٥ والأغانى (ساسى) ١٠/٦١ .
(٨) نفس المصدر ١/٣٤١ .
(٩) نفس المصدر ٢/١٤١ .
(١٠) أغانى (ساسى) ٢٠/١٣٧ .
(١١) نفس المصدر ٢١/٦٥ .
(١٢) البيان والتبيين ١/٣٤٩ .
(١٣) البيان والبيين ١/١٨٩ .
(١٤) البيان والتبيين ١/٢٧٣ .
(١٥) نفس المصدر ١/٣٥٠ .

غطفان أيضاً قيس بن خارجة بن سنان الذى خطب فى حرب داحس والغبْراء يوماً إلى الليل[١] وهَرِم بن قُطْبة الفزارى[٢] الذى احتكم إليه علقمة بن عُلاثة وعامر بن الطفيل، فقال لهما ـ كما مربنا ـ: «أنتما كركبتى البعير الأدْرَم (الفحل) تقعان على الأرض معاً[٣]».

ومن خطباء تميم المفوَّهين أكثم بن صيفىّ وضَمْرة بن ضَمْرة، ويروى أنه لما دخل على النعمان بن المنذر زَرَى عليه للذى رأى من دَمامته وقصره وقلته، فقال للنعمان: «تسمعُ بالمُعَيْدِىّ لاأن تراه» فقال: أبيتَ اللَّعن! «إن الرجال لاتُكال بالقُفْزان[٤] ولاتوزن بالميزان، وليستْ بمُسوكٍ[٥] يُسْتَقَى بها، وإنما المرءبأصْغريه: بقلبه ولسانه، إن صال صال بِجنَان، وإن قال قال ببيان[٦]». ومن خطباء تميم أيضاً عُطاردبن حاجب بن زُرارة وهو خطيب وفدها، كمامر بنا بين يدى الرسول صلى الله عليه وسلم، ومنهم عمرو بن الأهتم المنقرىّ، ولم يكن فى بادية العرب فى زمانه أخطب منه[٧]، ويروى أن الرسول سأله عن الزِّبْرِقان بن بدر فقال «مانعٌ لحوزته، مطاعٌ فى أدْنيه» فقال الزِّبرقان: «أما إنه قد علم أكثر مما قال، ولكنه حسدنى شرفى» فقال عمرو: «أما لئن قال ما قال، فو الله ما علمته إلا ضَيِّق الصدر، زَمِرُ[٨] المروءة، لئيم الخال، حديث الغنى. فلما رأى أنه قد خالف قوله الآخر قوله الأول ورأى الإنكار فى عينى رسول الله قال: «يا رسول الله! رضيتُ فقلتُ أحسن ما علمت، وغضبتُ فقلت أقبح ما علمت، وما كذبت فى الأولى، ولقد صدقت فى الآخرة» فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك: «إن من البيان لسحراً[٩]». ومن خطباء بنى منقر التميميين أيضاً قيس بن عاصم الذى قال فيه الرسول صلوات الله عليه حين رآه: هذا سيدُ أهل الوبر[١٠]، وهو الذى قال فيه عبْدة بن الطبيب حين مات[١١]:

وما كان قيسٌ هُلْكُهُ هُلْكَ واحدٍ ولكنهُ بُنْيانُ قومٍ تهدَّما

(١) البيان والتبيين ١/١١٦.
(٢) البيان والتبيين ١/٣٦٥.
(٣) أغانى (ساسى) ١٥/٥١.
(٤) القفزان: جمع قفيز، وهو مكيال عراقى.
(٥) المسوك: جمع مسك وهو الجلد.
(٦) البيان والتبيين ١/١٧١.
(٧) البيان والتبيين ١/٣٥٥.
(٨) زمر: قليل.
(٩) البيان والتبيين ١/٥٣.
(١٠) البيان والتبيين ٢/٣٣.
(١١) البيان والتبيين ٢/٣٥٣.

ومن خطباء إياد قُس بن ساعدة، وهو الذى قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم : رأيته بسوق عكاظ على جمل أحمر وهو يقول : أيها الناس اجتمعوا واسمعوا وعُوا ، من عاش مات، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت[١] . ويقول الجاحظ : « وللإياد خصلة ليست لأحد من العرب ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى روَى كلام قُس بن ساعدة وموقفَه على جمله بعكاظ وموعظته ، وهو الذى رواه لقريش وللعرب، وهو الذى عجَّب من حُسْنه وأظهر من تصويبه . وهذا إسنادٌ تعجز عنه الأمانى وتنقطع دونه الآمال[٢] » . على أن ابن حَجر اتهم هذا الإسناد[٣] ، وخاصة بعد توسُّع الرواة فى خطبة قس وتحميلهم لها إشارات بقرب مبعث الرسول عليه السلام، ومما لا ريب فيه أن لها أصلا صحيحاً تزيَّد فيه الرواة .

وواضح أن هذه كثرة من الخطباء الجاهليين ، إن لم يصح ما أُثر عنهم من خطب فإن من المحقق أنهم خطبوا كثيراً فى أقوامهم وقبائلهم وإلا ما اشتهروا بالبراعة فى هذا اللون من ألوان اللَّسَن والبيان . وكان مما بعثهم على إحسانه حاجتهم إليه فى مواطن ومواقف عدة، وكان قلما يرتفع نجم سيد من سادتهم إلا والخطابة صفة من صفاته وسجية من سجاياه، حتى تساق له القلوب بأزمتها وتُجمع له النفوس المختلفة من أقطارها . وكل شيء يؤكد أن منزلة الخطيب عندهم كانت فوق منزلة الشاعر ، فهى قرين السؤدد والشرف والرياسة ، يقول أبو عمرو بن العلاء : « كان الشاعر فى الجاهلية يقدَّم على الخطيب لفَرْط حاجتهم إلى الشعر الذى يقيِّد عليهم مآثرهم ، ويفخم شأنهم، ويهوِّل على عدوهم ومَنْ غزاهم، ويهيِّب من فرسانهم، ويخوِّف من كثرة عددهم ، ويهابهم شاعر غيرهم ، فيراقب شاعرهم . فلما كثر الشعر والشعراء واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا إلى السوقة وتسرعوا إلى أعراض الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر[٤] » . وعلى هدى هذا القول مضى الجاحظ يقول : « كان الشاعر أرفع قدراً من الخطيب ، وهم إليه أحوج لرده مآثرهم عليهم وتذكيرهم بأيامهم ، فلما كثر الشعراء وكثر الشعر صار الخطيب أعظم قدراً من الشاعر[٥] » .

---

(١) البيان والتبيين ١/٣٠٨ .
(٢) نفس المصدر ١/٥٢ .
(٣) السيرة الحلبية (طبعة مصر) ١/٢١٠ وقارن باللآلئ المصنوعة للسيوطى ١/٩٥ .
(٤) البيان والتبيين ١/٢٤١ .
(٥) البيان والتبيين ٤/٨٣ .

وربما كان من أسباب ذلك أن الشاعر — إذا استثنينا زهيراً — كان هو الذى يهيج النفوس للحرب بما يدعو للأخذ بالثأر ، أما الخطيب فكان غالباً يدعو إلى السلم وأن تضع الحرب بين القبائل المتخاصمة أوزارها ، وكثيراً ما يقف من قومه موقف الناصح الأمين يهديهم ويرشدهم ، أما الشاعر فأكثر مواقفه هجاء وتنابذ بالألقاب والأحساب والمآثر والمعايب .

وقد تعارف خطباؤهم على جملة من السنن والتقاليد فى خطابتهم ، فكانوا يخطبون على رَواحلهم فى الأسواق العظام والمجامع الكبار[١] ، وقد لاثوا العمائم على رءوسهم ، وفى أثناء خطابتهم كانوا يمسكون بالعِصِىّ والمخاصر والقضبان والقَنا والقِسِىّ راكبين أو واقفين على مرتفع من الأرض ، وأشار إلى ذلك لبيد إذ يقول[٢] :

ما إنْ أهابُ إذا السُّرادِقُ غَمَّهُ ... قَرْعُ القِسِىِّ وأُرْعِشَ الرِّعْدِيدُ

ووقفت الشعوبية طويلاً عند عادة خطباء العرب من اتخاذ العصى والمخاصر ، وردّ عليهم الجاحظ فى بيانه مبيناً فوائد العصا ، ومن قوله فى تلك العادة : « إن حَمْل العصا والمخصرة دليل على التأهب للخطبة والتهيؤ للإطناب والإطالة ، وذلك شىء خاص فى خطباء العرب ومقصور عليهم ومنسوب إليهم ، حتى إنهم ليذهبون فى حوائجهم ، والمخاصرُ بأيديهم إلفاً لها وتوقعاً لبعض ما يوجب حملها والإشارة بها[٣] »

وكانوا يمدحون فى الخطيب ثبات الجنان وحضور البديهة وقلة التلفت وكثرة الريق وجهارة الصوت وقوته ، وكانوا يعيبون فيه التنحنح والارتعاش والحصَرَ والتعثر فى الكلام ، يقول النَّمِر بن تَوْلَب[٤] :

أَعِذْنِى رَبِّ من حَصَرٍ وعِىٍّ ... ومن نَفْسٍ أعالجُها علاجا

ويقول أبو العِيال الهذلى :

ولا حَصِرٌ بخُطْبَتِهِ ... إذا ما عَزَّتِ الخُطَبُ

وذموا فى الخطيب أن يُكثر من مَسِّه لذقنه وشواربه ولحيته ، وكأنما رأوا فى ذلك

---

(١) البيان والتبيين ٣/٧ .
(٢) نفس المصدر ١/٣٧٢ ، ٣/٩ .
(٣) البيان والتبيين ٣/١١٧ .
(٤) انظر فى هذا البيت وتاليه البيان والتبيين ١/٣ .

ضرباً من الخرق فى استخدام الجوارح ، يقول معن بن أوس المزنى فى بعض هجائه[١] :

إذا اجتمع القبائلُ جئتَ رِدْفاً ... وراءَ الماسحين لك السِّبالا[٢]

فلا تُعْطَى عَصَا الخُطباء فيهم ... وقد تُكْفَى القادةَ والمقـالا

وكثيراً ما كانوا يتزيدون فى جهارة الصوت وينتحلون سعة الأشداق وهَدل الشفاه ، ومن أجل ذلك قال الرسول صلوات الله عليه : إياى والتشادق ، وقال : أبغضكم إلىَّ الثرثارون المُتَفَيْهِقون[٣] .

وإذا ذهبنا نستنطق النصوص عن أساليب خطابتهم ، وهل كانوا يعمدون فيها إلى الأسلوب المرسل أو إلى الأسلوب المسجَّع وجدنا أنفسنا بإزاء تراث متَّهم لا يمكن الاعتماد عليه فى الاستنتاج ، لما قلنا مراراً من أن حقباً متطاولة تفصل بين العصر الذى دُوِّنت فيه تلك الخطب والآخر الذى قيلت فيه . ومع أن الكثرة الكثيرة من هذه الخطب منتحلة نلاحظ أن من نحلوها الجاهليين إنما قاسوها على أمثلة رُويت لهم ، فإذا لاحظنا أن أكثر مفاخراتهم ومنافراتهم رُوِىَ مسجوعاً كان معنى ذلك أنه ثبت عند من نحلوا الجاهليين هذه المفاخرات والمنافرات أنهم كانوا يسجعون فيها . وتستطيع أن ترجع إلى منافرة عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية وتحكيمهما لنُفَيْل بن عبد العُزَّى فى تاريخ الطبرى[٤] فستجدها مسجوعة ، ومثلها منافرة جرير بن عبد الله البَجلى وخالد بن أرْطاة الكلبى إلى الأقرع بن حابس ، فقد رُويت فى شرح نقائض جرير والفرزدق لأبى عبيدة ، وهى مسجوعة[٥] ، ومثلهما منافرة علقمة بن عُلاثة وعامر بن الطُّفَيْل المروية فى كتاب الأغانى ، فهى الأخرى مبنية على السجع[٦] . ويجعل الجاحظ ذلك قاعدة عامة أو كالقاعدة العامة ، فيقول : « إن ضَمْرة بن ضمرة وهَرِم بن قُطبة والأقرع بن حابس ونُفَيْل بن عبد العُزَّى كانوا يحكمون وينفرون بالأسجاع ، وكذلك ربيعة بن حُذار[٧] »

(١) البيان والتبيين ١/ ٣٧٢ .
(٢) السبال : مقدم اللحية . يهجوه بأنه ليس رئيساً ولا خطيباً .
(٣) البيان والتبيين ١/ ١٣ . المتفيهق : الذى يفتح بالكلام جوانب فمه ويملؤه به .
(٤) الطبرى ، القسم الأول ص ١٠٩١ .
(٥) النقائض ١/ ١٤١ .
(٦) أغانى (طبعة الساسى) ١٥/ ٥١ .
(٧) البيان والتبيين ١/ ٢٩٠ .

كما يقول فى موضع آخر إنهم كانوا يستخدمون الأسجاع عند المنافرة والمفاخرة ، بينما كانوا يستعملون المنثور المرسل فى خطب الصلح وسَلّ السخيمة وعند المعاقدة والمعاهدة . وكأنهم عرفوا فى الجاهلية لونين من الخطابة لوناً مسجوعاً ولوناً مرسلا . ولا تظن أنهم فى خطابتهم المرسلة لم يكونوا يروّون فقد كانوا يعمدون إلى ما يثير السامعين من كلم بليغ ، حتى يؤثروا فيهم ويبلغوا ما يريدون من استمالتهم ، يقول الجاحظ : «لم نرهم يستعملون مثل تدبيرهم فى طوال القصائد وفى صنعة طوال الخطب ، وكانوا إذا احتاجوا إلى الرأى فى معاظم التدبير ومهمّات الأمور ميّثوه[1] فى صدورهم وقيدوه على أنفسهم ، فإذا قوّمه الثِّقاف ، وأُدْخِلَ الكِير ، وقام على الخلاص أبرزوه محكَّكاً منقحاً ومُصَفّى من الأدْناس مهذباً[2] » .

ومن يقرأ الفقر القصار والمحاورات المختصرة التى بقيت من تراثهم ، تلك التى يرويها الجاحظ ، يشعر حقّاً أنهم كانوا يبتغون التجويد فى كلامهم ، تارة بما يصوغونه فيه من سجع ، وتارة أخرى بما يخرجونه فيه من استعارات وأخيلة . ودائماً يعنون ببهاء اللفظ وقوته ونصاعته ، كما يعنون بوضوح الحجة ، وتصوِّر أشعارهم جوانبَ من ذلك كقول لَبيد لهرم بن قُطْبة حين احتكم إليه عامر بن الطُّفيل وعلقمة بن عُلاثة[3] :

إنك قد أوتيت حُكْماً معجِبا   فَطَبِّقِ المَفْصِلَ واغْنَمْ طَيِّبا

وواضح أنه يقول له : إنك قد أوتيت حكماً فاصلا قاطعاً يفصل بين الحق والباطل كما يفصل الجزار الحاذق مَفْصلَ العظمين . ومن ذلك قولهم فلان يفلُّ المحزَّ ويصيب المَفْصِل ويضع الهِناء مواضع النُّقَبِ[4] . والعبارة الأخيرة مستعارة من صنيع الحاذق حين يلمّ الجرب بإبله فيضع دواءه فى مواضعه الدقيقة ، يمثّلون بذلك للمصيب الموجز فى خطابته وبيانه ، كما مثلوه فى التعبيرين الأولين بالجزار الحاذق الذى يصيب عين الموضع من جَزوره سواء فى العظم أو فى اللحم . وقد يشبهون كلامهم بالسهام المصمية ، ومن ثم استخدموا كلمة مِدْره للشجاع والخطيب المفلق فى الوقت نفسه ، وأصل معناها المُرامى ، فاستعيرت من رامى السهام لرامى الكلام

---

(١) ميثوه : ذللوه .
(٢) البيان والتبيين ٢/١٤ .
(٣) البيان والتبيين ١/١٠٩ .
(٤) نفس المصدر ١/١٠٧ . الهناء : القطران . والنقب : أول ما يبدو من الجرب فى الإبل .

الذى يبلغ به ما يريد من إصابة خصمه والنكاية به ، يقول زهير بن أبى سلمى (١) :

ومِدْرَهُ حَرْبٍ حَمْيُها يُتَّقَى بهِ ... شديدُ الرِّجام باللسان وباليَدِ

ونراهم يصفون خطباءهم بأنهم مصاقع ولُسْن، وافتخروا بذلك طويلا على نحو ما نجد عند قيس بن عاصم المِنْقَرِى يصف ما فيه وفى عشيرته بنى مِنْقَر من الخطابة والفصاحة (٢) :

إنى امرؤٌ لا يَعْترِى خُلُقِى ... دَنَسٌ يُفَنِّدُه ولا أَفْنُ (٣)

من «مِنْقَرٍ» فى بيت مكرُمةٍ ... والأَصلُ ينبت حوله الغُصْنُ

خطباءُ حين يقوم قائلهم ... بيض الوجوه مصاقعٌ لُسْن

وقد حذروا طويلا من شدة وقع اللسان ، وقالوا إن جرح اللسان كجرح اليد وإنه عضب وقاطع كالسيف ، يقول طرفة (٤) :

بِحُسام سيفك أو لسانك والـ ... كَلِمُ الأَصيلُ كأَرْغَب الكَلْمِ

ولعل مما يدل دلالة قاطعة على أنهم أحسوا بجمال ما يلفظ به خطباؤهم أننا نراهم يشبهون كلامهم بالثياب الموشّاة وبالحلل والدِّيباج وأشباه ذلك ، يقول أبو قُرْدودة الطائى فى رثاء ابن عَمّار خطيب مَذْحِج وقد مات مقتولا (٥) :

ومَنطقٍ خُرِّق بالعَواسلِ ... لَذٍّ كَوَشْى اليُمْنَةِ المَرَاحلِ (٦)

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل دلالة واضحة على أن الخطابة كانت مزدهرة فى الجاهلية ، فقد كانوا على حظ كبير من الحرية ، وكانوا يخطبون فى كل موقف : فى المفاخرات وفى الدعوة إلى السلم أو الحرب وفى النصح والإرشاد وفى الصهر والزواج . وابتغوا دائماً فى كلامهم أن يؤثر فى نفوس سامعيهم بما حققوا له من ضروب بيان وبلاغة .

---

(١) ديوان زهير (طبعة دار الكتب) ص ٢٢٣ .

(٢) البيان والتبيين ١/٢١٩ .

(٣) يفند : ينقض ويضعف . الأفن : ضعف الرأى .

(٤) البيان والتبيين ١/١٥٦ . أرغب : أوسع : الكلم بسكون اللام : الجرح .

(٥) البيان والتبيين ١/٣٤٩ .

(٦) العواسل : الرماح . المراحل : جمع مرحل وهو ما نقش فيه تصاوير الرحال .

٤

سجع الكهان

كانت فى الجاهلية طائفة تزعم أنها تطلع على الغيب وتعرف ما يأتى به الغد بما يُلْقى إليها توابعها من الجن، وكان واحدها يسمَّى كاهناً كما يسمى تابعه الذى يوحى إليه باسم «الرَّئِيِّ» . وأكثرهم كان يخدم بيوت أصنامهم وأوثانهم ، فكانت لهم قداسة دينية ، وكانوا يلجأون إليهم فى كل شئونهم ، وقد يتخذونهم حُكاماً فى خصوماتهم ومنافراتهم على نحو ما كان من منافرة هاشم ابن عبد مناف وأمية بن عبدشمس واحتكامهما إلى الكاهن الخزاعى ، وقد نفَّر هاشماً على أمية[1] . وكانوا يستشيرونهم ويصدرون عن آرائهم فى كثير من شئونهم كوفاء زوجة أو قتل رجل أو نَحْر ناقة[2]، أو قعود عن نُصْرة أحلاف[3] ، أو نهوض لحرب ، ففى أخبار بنى أسد أن حجراً أبا امرئ القيس رَقَّ لهم ، فبعث فى إثرهم فأقبلوا حتى إذا كانوا على مسيرة يوم من تهامة تكَهَّن كاهنهم ، وهو عوف بن ربيعة ، فقال لبنى أسد : «يا عبادى ! قالوا لبيك ربَّنا ، قال: من الملك الأصْهب ، الغلاَّب غير المغلَّب ، فى الإبل كأنها الرَّبْرب[4] ، لا يعلق رأسه الصَّخَب ، هذا دمه يَنْثَعِب[5] ، وهذا غداً أولُ من يُسْلَبُ، قالوا : من هو يا ربَّنا ؟ قال: لولا أن تجيش نفسٌ جاشية ، لأخبرتكم أنه حُجْر ضاحية . فركبوا كل صعب وذَلول فما أشرق لهم النهار حتى أتوا على عسكر حُجْر فهجموا على قُبَّته » وقتلوه[6] . وكثيراً ما كانوا ينذرون قبائلهم بوقوع غزو غير منتظر[7] ، كما كانوا كثيراً ما يفسرون رُؤاهم وأحلامهم[8] .

فمنزلة كهَّانهم فى الجاهلية كانت كبيرة ، إذ كانوا يعتقدون أنه يوحَى إليهم ، ولعل ذلك ما جعل نفوذ الكاهن يتجاوز قبيلته إلى كثير من القبائل التى تجاورها ،

---

(١) السيرة الحلبية ١/٤ .
(٢) أغانى (طبعة دار الكتب) ١١/١١٨
(٣) أغانى ١١/١٤٠ .
(٤) الربرب : القطيع من الظباء .
(٥) ينثعب : يسيل .
(٦) أغانى ٩/٨٤ .
(٧) الأمالى للقالى ١/١٢٦ والسيرة النبوية ١/٤٣ ، ٢٢١ .
(٨) السيرة النبوية ١/١٥ وما بعدها .

ومن ثَمَّ كان العرب يقصدون كثيرين منهم من مناطق بعيدة، ومما يلاحَظ أنهم كانوا يَكثُرون فى اليمن وفى بيوت عبادتها الوثنية، وخاصة مَنْ يتعمقون فى القدم، ولعل فى ذلك ما يدل على الصلة القديمة بين وثنية عرب الجنوب وعرب الشمال. وتلقانا فى كتب التاريخ والأدب أسماء كثيرين منهم وقد يبالغ القُصَّاص، فيرسمون لبعضهم صوراً خيالية، فمن ذلك أن شِقَّ بن الصَّعْب كان شق إنسان أو شطره فله عين واحدة ويد واحدة ورجل واحدة، وأن سطيح بن ربيعة الذئبى لم يكن فيه عظم سوى جمجمته وأن وجهه كان فى صدره ولم يكن له عنق[١]، وربما كان أحدب. ومن كهانهم فى أواخر العصر الجاهلى سَوَاد بن قارب الدَّوْسِىّ وقد أدرك الإسلام ودخل فيه[٢]، ومنهم المأمور الحارثى، كاهن بنى الحارث بن كعب[٣]، وخُنافر الحميرى، وكان يقول إنه أسلم بمشورة تابعه «شِصار[٤]». وأكهنهم عُزَّى سَلِمة، يقول الجاحظ: «أكهن العرب وأسجعهم سَلِمة بن أبى حَيَّة وهو الذى يقال له عزَّى سَلِمة[٥]». ومن قوله[٦]: «والأرض والسماء، والعُقاب والصَّقْعاء، واقعةً ببَقْعاء، لقد نَفَّر المجدُ بنى العُشَراء للمجد والسناء[٧]». ونجد بجانب هؤلاء الكهان جماعة من الكاهنات، وربما كُنَّ فى الأصل من النساء اللائى يهبن أنفسهن للآلهة ومعابدها، ومن أشهرهن الشَّعْثاء[٨] وكاهنة ذى الخَلَصَة[٩] والكاهنة السَّعْدية[١٠] والزرقاء[١١] بنت زهير والغَيْطلة القرشية[١٢] وزَبْراء كاهنة بنى رِئام، ويروى أنها أنذرتهم غارة عليهم فقالت: «واللوح الخافق والليل الغاسق والصباح الشارق والنَّجْم الطارق والمُزْن الوادق، إن شجر الوادى ليأدو خَتْلا، ويَحْرُق أنياباً عُصْلا، وإن صخر الطَّوْد ليُنذِر ثُكْلا، لا تجدون عنه مَعْلا[١٣]».

---

(١) عجائب المخلوقات للقزوينى ١/١٧١.
(٢) السيرة النبوية ١/٢٣٣.
(٣) الأمالى ١/٢٧٦ واسمه فيه المأمون، وانظر ٣/١٥١ والأغانى ١٥/٧٠.
(٤) الأمالى ١/١٣٣.
(٥) البيان والتبيين ١/٣٥٨.
(٦) نفس المصدر ١/٢٩٠.
(٧) الصقعاء: الشمس، بقعاء: ماء أو موضع. نفر: حكم بالغلبة. بنو العشراء: عشيرة من فزارة. السناء: الرفعة.
(٨) مجمع الأمثال للميدانى ١/٩١.
(٩) نفس المصدر ١/٢٢٣.
(١٠) نفس المصدر ٢/٥٤.
(١١) أغانى (دار الكتب) ١٣/٨١.
(١٢) سيرة ابن هشام ١/٢٢١.
(١٣) اللوح هنا: الريح. الوادق: الممطر. يأدو: يختل. يحرق أنياباً عصلا: كناية عن الغضب والشر. عصلا: معوجة. الطود: الجبل. المعل: الملجأ. انظر الأمالى ١/١٢٦.

ونحن لا نطمئن إلى ما يُرْوَى فى كتب التاريخ والأدب من أقوال جرتْ على ألسنة هؤلاء الكهان والكاهنات، فإن بُعْد المسافة بين عصور التدوين والعصر الجاهلى يجعلنا نتهم مثل هذه الأقوال، إذ من الصعب أن تُرْوى بنصِّها وقد مضى عليها نحو قرنين من الزمان. وإنما استشهدنا ببعض منها لندل على أنه ثبت فى أذهان من تحدثوا عن الكهَّان والكاهنات فى الجاهلية أنهم كانوا يعتمدون على السجع فى كلامهم، ولذلك حين أجروا ألسنتهم بالكلام جعلوه مسجوعاً على شاكلة ما رويناه من أقوالهم. ومعنى ذلك أنه وُجد فى العصر الجاهلى سجع كان يقوله الكهان، وقد اختلط الأمر على بعض قريش فى أول نزول الذكر الحكيم، فقرنوه بسجع كهنتهم وردَّ عليهم القرآن الكريم بمثل قوله جلَّ وعز: (ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون) وقال سبحانه وتعالى: (فذكر، فما أنت بنعمة ربك بكاهن) وقال: (إنه لقول رسول كريم، وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون).

ومما يدلُّ على أن كهنتهم كانوا يسجعون، بل كانوا لا يتكلمون إلا بالسجع، الحديثُ المرويُّ عن أبى هريرة، فقد حدَّث أنه «اقتتلت امرأتان من هُذَيل، فرمتْ إحداهما الأخرى بحجر، فقتلتها وما فى بطنها، فاختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقضى رسولُ الله أن ديةَ جَنينها غُرَّة: عبد أو وليدة، وقضى بدية المرأة على عاقلتها[1] ... فقال حمل بن النابغة الهُذَلى: يا رسول الله كيف أغرم من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهلّ[2]، فمثل ذلك يُطَلّ[3]، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنما هذا من إخوان الكُهَّان، من أجل سجعه الذى سجع[4]». ويقول الجاحظ: «كان حازى (كاهن) جُهَينة وشِقّ وسطيح وعُزَّى سلمة وأشباههم يتكهنون ويحكمون بالأسجاع[5]».

وإذا صح أن ما يروى فى كتب التاريخ والأدب من سجع الكهان تقليد دقيق لما كانوا يأتون به من هذا السجع لاحظنا أنهم لم يكونوا يسجعون فحسب،

---

(١) عاقلة المرأة: عصبتها الذين يتضامنون معها فى دفع الدية.
(٢) استهل: صاح.
(٣) يطل: يهدر دمه.
(٤) صحيح مسلم (طبعة الآستانة) ٥/١١٠ وانظر موطأ مالك (طبع حجر بالقاهرة) ٢/١٩٢.
(٥) البيان والتبيين ١/٢٨٩ وما بعدها.

بل كانوا يعمدون أيضاً إلى ألفاظ غامضة مبهمة ، حتى يتركوا فسحة لدى السامعين كي يؤوّل كل منهم ما يسمعه حسب فهمه وظروفه . ومن ثم دخل الرمز فى كثير من أقوالهم ، إذ يومئون إلى ما يريدون إيماء ، وقلما صرحوا أو وضّحوا ، بل دائماً يأتون المعانى من بعيد ، بل قل إنهم كانوا لا يحبون أن يصوروا فى وضوح معنى ، ويتخذوا له أشباحاً واضحة من اللفظ تدل عليه ، لأن ذلك يتعارض مع تنبؤهم الذى يقوم على الإبهام والوهم واختيار الألفاظ التى تخدع السامع وجوهاً من الخُدَع ، ومن ثَمّ كان من أهم ما يميز أسجاعهم عدم وضوح الدلالة وأن يكثر فيها الاختلاف والتأويل .

وليس هذا كل ما يلاحَظ على السجع الذى يضاف إليهم ، فإنه يلاحَظُ عليه أيضاً كثرة الأقسام والأيمان بالكواكب والنجوم والرياح والسحب والليل الداجى والصبح المنير والأشجار والبحار وكثير من الطير . وفى ذلك ما يدل على اعتقادهم فى هذه الأشياء وأن بها قوى وأرواحاً خفية ، ومن أجل ذلك يحلفون بها ، ليؤكدوا كلامهم وليبلغوا ما يريدون من التأثير فى نفوس هؤلاء الوثنيين .

وهذا السجع الدينى كان يقابله — كما قدمنا — سجع آخر فى خطابتهم ، بل فى كلامهم وأمثالهم التى دارت بينهم . ولعل فى ذلك كله ما يدل على أن الجاهليين عُنوا بنثرهم كما عنوا بشعرهم ، فقد ذهبوا يحاولون تحقيق قيم صوتية وتصويرية مختلفة فيه ، تكفل له جمال الصياغة وروعة الأداء .

خاتمة

خلاصة

حاولتُ فى الصحف السابقة أن أؤرخ للأدب العربى فى العصر الجاهلى ، فتحدثت عن صفة الجزيرة العربية وتاريخها القديم ، وكيف أنها كانت مهد الساميين ، إذ خرجوا منها موجة فى إثر موجة ، وكانت موجة العرب الجنوبيين الذين يمّموا حوض المحيط الهندى آخر موجاتهم ، وكانت تفصلهم من عرب الشمال صحراوات واسعة جعلتهم يستقلون عنهم فى لغتهم وخصائصها النحوية ، كما جعلتهم يستقلون عنهم فى حضارتهم . ومع ذلك فقد ظلت قائمة بين الجنوبيين والشماليين أو القحطانيين والعدنانيين صلات اقتصادية ودينية وسياسية أتاحت لهم ضروباً من التداخل والتشابك . واستطاع الشماليون أن ينفذوا فى آخر الأمر إلى صورة خطّهم العربى المعروف .

ومضيتُ أتحدث عن العصر الجاهلى وحدّدته بنحو قرن ونصف قبل الإسلام ، أما ما قبل ذلك فهو الجاهلية الأولى ، وكل ما بأيدينا من شعر قديم إنما يرجع إلى العصر الجاهلى أو الجاهلية الثانية . ونحن نفاجأ فى أول هذا العصر باكتمال الخط العربى ، كما نفاجأ بهذا الشعر الناضج الذى يضاف إلى الجاهليين . وأخبارهم واضحة تمام الوضوح ، فقد كانت تقوم فى الشمال إمارات الغساسنة والمناذرة وكندة ، بينما كانت تتجمع قلوب العرب حول مكة ، فهى بيت كعبتهم وعبادتهم الوثنية ، وهى مركز تجارتهم وقوافلهم التى تربط بين حوضى المحيط الهندى والبحر المتوسط ، ووراءها قبائلهم البدوية ، وكانت تنتظم قسمين كبيرين من عرب الشمال العدنانيين وعرب الجنوب القحطانيين الذين هاجروا من ديارهم إلى ديار الشماليين منذ أزمان بعيدة . وكانت كل قبيلة وحدة قائمة بنفسها ، وهى وحدة دعمتها وشائج متينة من العصبية . وكان لكل قبيلة سيد ومجلس يضم شيوخ عشائرها ، وواجبات السيد دائماً أكبر من حقوقه ، ومن ورائه أفراد قبيلته متضامنين أوثق ما يكون التضامن ، وخاصة حين يُطْلَب ثأر أو تنشب حرب ، وقد تحولوا بجزيرتهم إلى ما يشبه ميداناً حربيّاً كبيراً ، فنى كل مكان عراك وقتال وفى كل مكان دماء تسيل . ولهم حروب

مشهورة سجّلها علماء اللغة والأدب فى العصر العباسى كحرب البَسُوس وحرب داحس والغبْراء .

وانتقلتُ من ذلك أبحث فى حياتهم وأحوالهم الاجتماعية ولاحظت أن مجتمع القبيلة كان يتألف من ثلاث طبقات ، هى أبناؤها ومواليها وعبيدها ، وكان أهم شىء يشدُّ من بنيان هذا المجتمع حرصهم على الشرف وما سموه المروءة ، إذ كان كل منهم يحرص على البذل والشجاعة والوفاء وحماية الجار وإباء الضيم ، وتخلّلت ذلك آفات ، أهمها : الخمر والقمار واستباحة النساء . وقد تأخذ هذه الآفات عند بعض الشباب أمثال طَرَفة شكل فتوة جامحة . ومن المؤكد أنه كان للمرأة الحرة عندهم منزلة كريمة . ولم تكن معيشتهم واحدة ، فقد كانت الزراعة منتشرة فى الجنوب والشرق وواحات الحجاز ، وكان أهل مكة يعيشون على التجارة ، على حين كان البدو يعيشون على رَعْى الأغنام والأنعام وصيد الحيوان ، وكان بينهم سادة يملكون مئات الإبل وصعاليك لا يملكون شيئاً . ومع أنهم كانوا على صلة بالحضارات المجاورة كانوا لا يزالون أقرب إلى طور البداوة ، وكان علم الأنساب أهم علومهم ، ولم يكن لهم وراءه إلا معارف محدودة تقوم على التجربة الناقصة كبعض معارفهم الطبية والفلكية . وكانت كثرتهم وثنية تتعبّد لآلهة وأصنام وأوثان كثيرة ، وكانت الكعبة فى مكة أكبر معابدهم ، وكانوا يحجون إليها فى أشهر معلومات . على أن نفراً منهم شكُّوا فى أواخر هذا العصر فى دينهم الوثنى والتمسوا دين إبراهيم ويسمَّون المتحنِّفة والحنفاء وكأنما كانوا إرهاصاً لظهور الإسلام والدعوة المحمدية . وكانت النصرانية فى أثناء ذلك تنتشر فى القبائل المحاذية للشام والعراق بينما كان كثير من اليهود ينزلون فى واحات الحجاز وفى اليمن ، وتعربت كثرتهم إلا أن العرب ظلوا يزدرونهم وينفرون من دينهم .

ولما تمَّ لى بيان هذه الجوانب أخذت أبحث فى اللغة العربية وعناصرها السامية القديمة ، ووقفت عند أقدم لهجاتها المثبتة فى النقوش ، وهى الثمودية واللّحيانية والصَّفوية ، تلك التى كتبتْ نقوشها بالخط المُسند الجنوبى ، ثم اللهجة النبطية ، وكانت نقوشها تكتب بالخط الآرامى ، ومنه نشأ تطور الخط العربى فى الحجاز . وتختلف هذه اللهجات الأربع اختلافات كثيرة عن لغة الجاهليين ، وإن كان

من المؤكد أن اللهجة النبطية أقربها جميعاً إليها ، وقد أخذت فى الدثور منذ القرن الثالث للميلاد ، بينما أخذت تحل محلها مقدمات الفصحى بحيث لا نصل إلى نهاية القرن الخامس وأوائل السادس الميلادى حتى تتكامل تكاملا تامًّا وتعمّ بين القبائل النجدية وفى الحيرة وبين الغساسنة ، وتصبح هى اللغة العامة المتداولة بين الشعراء . وكانت هناك لهجات قبلية كثيرة ولكن الفصحى ظفرت بها جميعاً فى المجال الأدبى ، بحيث كان الشعراء فى كل قبيلة ينظمون بها مرتفعين عن لهجاتهم القبلية أو المحلية . وقد حار المستشرقون طويلا فى معرفة اللهجة التى سادت بين القبائل فى الشمال وأصبحت اللهجة الأدبية الشائعة على كل لسان، وأثبتُّ أنها لهجة قريش ، إذ تآزرت بواعث دينية واقتصادية وسياسية على أن تم لها هذه السيادة منذ أوائل العصر الجاهلى .

وبحثتُ عقب ذلك فى رواية الشعر الجاهلى وتدوينه ، مبيناً كيف تضافرت جهود القبائل العربية ورجالاتها وشعرائها على حَمْله جيلاً بعد جيل، حتى تسلّمه منهم طبقة من الرواة المحترفين فى البصرة والكوفة ، وكان بينهم الثقة الذى لا يرتفع شك إلى روايته مثل المفضل الضبى والأصمعى والمتهم الذى يجمع العلماء على إبطال روايته مثل حماد وخلف الأحمر . وفى تضاعيف ذلك كان الشعر الجاهلى يدوَّن، بحيث لا نصل إلى أوائل القرن الثالث للهجرة حتى يتكامل تدوينه . والذى لا شك فيه أنه دخله انتحال كثير ، ولم يكن القدماء غائبين عن ذلك ، فقد نصّوا على كل ما شكّوا فيه من رُواة ومن شعر ، حتى يحيطوه بسياج من التوثيق ، أو بعبارة أدق حتى يحيطوا الصحيح منه . ومنذ أواسط القرن الماضى يلم المستشرقون بالمشكلة ، واندفع منهم مرجليوث فى هذا القرن يزعم أن الشعر الجاهلى جميعه منحول على أهله ، وهبّ كثير من المستشرقين يردُّون عليه ، وممن ذهب مذهبه فى تعميم الحكم على الشعر الجاهلى بالانتحال والوضع طه حسين ، وإن لم يتسع بحكمه اتساع مرجليوث ، وعلى هَدْى من آراء طه حسين ومرجليوث جميعاً تناول القضية بلاشير فى الجزء الأول من كتابه « تاريخ الأدب العربى » . وقد ناقشتُ آراءه وآراء غيره من الباحثين ، وانتهيت إلى أن هناك شعراً منتحلا كثيراً لا سبيل إلى الثقة به ، ولكنْ بجانبه شعر صحيح رواه الثقات وعلى رأسهم المفضل الضبى

والأصمعي ، وهو الذى نستند عليه فى دراسة الأدب الجاهلي ، دراسة نُخضعه فيها لبحث داخلى دقيق . رمن أجل ذلك وقفتُ عند مصارده لأدلّ على قيمتها ومدى توثقها .

ومضيت أبحث فى خصائص الشعر الجاهلى ، فتحدثت عن نشأته وأنها انطمرت فى ثنايا الجاهلية الأولى، بحيث لا نجد منذ أوائل العصر الجاهلى أو الجاهلية الثانية شيئاً نستبين منه طفولته ، إنما نجد هذه الصورة النموذجية المعروفة للقصيدة الجاهلية ، وهى صورة شاعت بين القبائل جميعاً ، وكان للقبائل المضرية منها بالذات الحظ الأوفر . ووقفتُ عند موضوعاته ، ولاحظت فيها بقايا من الصلة القديمة بين شعرهم والأناشيد الدينية التى كانوا يرتلونها لآلهتهم ، كما وقفت عند معانيه ولاحظت أنها حسية تغلب عليها السطحية والتقريرية والسرعة السريعة، أما ألفاظه فكاملة الصياغة حافلة بالصقل والتجويد، زاخرة بقيم موسيقية وتصويرية كثيرة.

وأفردتُ بعد ذلك فصولا لأربعة من الشعراء ، يعدهم النقاد السابقين المجلّين فى العصر الجاهلى ، وهم امرؤ القيس والنابغة وزهير والأعشى . واعتمدت فى دراسة الثلاثة الأولين على رواية الأصمعى لدواوينهم ، وبدأت بامرئ القيس ، فتحدثت عن حياته وكيف دخلتها الأسطورة ، ثم تحدثت عن ديوانه ، وبحثته بحثاً داخلياً ، فإذا أكثر ما يضاف إليه تشوبه الريبة بشهادة الأصمعى ، واستظهرت أن تكون المعلقة وتاليتها فى ديوانه صحيحتين فى جملتهما ومثلهما القصيدتان الحادية عشرة والسابعة والعشرون لأنهما من رواية أبى عمرو بن العلاء ، الثقة الصدوق . ولا يبقى له بعد ذلك إلا مقطوعات قصيرة تعرّض فيها لمن أجاروه ومن رفضوا جواره . واستطعتُ من خلال هذه النصوص القليلة أن أوزّع شعره على دورتين فى حياته، دورة غلب عليه فيها اللهو والعبث، ودورة ثانية غلب عليه فيها الحزن والإحساس بسوء المصير . وأخيراً صورّتُ خصائصه الفنية مبيناً منزلته فى الشعر الجاهلى وكيف عُدّ أباه غير منازع ولا مدافع .

وبحثتُ بعده النابغة الذبيانى ، فتحدثت عن حياته ، وكيف أمضاها فى بلاط المناذرة والغساسنة سفيراً لقومه الذبيانيين ، وكيف كان يحتلّ بين الشعراء مكانة مرموقة فى داخل الجزيرة وفى مكة وسوق عُكاظ . وبحثتُ فى ديوانه على ضوء رواية

الأصمعي ، وأنكرت منها خمس قصائد على رأسها قصيدته فى المتجردة .وشعره من هذه الناحية أوثق من شعر امرئ القيس لأنه أقرب منه عهداً ، ولم تدخل الأسطورة فى حياته ولا فى شعره . ووقفتُ عندما اشتهر به من مديح واعتذار ، مبينًا قدرته على الوصف ورَصْف الموضوعات وتنسيق المعانى وابتكار الصور والأخيلة ، يهديه فى ذلك كله ذوق مهذب ، هذبته الحضارة التى نعم بها فى الحيرة وعند الغساسنة ، فإذا هو صاحب حسٍّ دقيق وشعور رقيق .

وكان يعاصره زهير بن أبى سُلمى المزنى ، وقد نشأ فى بنى مرة الذبيانيين بحيث عُدَّ فيهم ، وتصادف أن كان خاله شاعراً وأن كان زوج أمه أوس بن حَجر من كبار الشعراء الجاهليين ، فحَمَل عنهما جميعًا الشعر ، وعاش له يتعلمه ويعلمه شعراء من بيته ومن غير بيته ، بحيث أصبح أستاذاً لمدرسة عُرفت به . وقد وقفتُ عند ديوانه وأسقطت منه ما أسقطه الأصمعى . ولاحظت أن الشعر عنده انتهى إلى صورة مثالية من التنقيح والتحبير فى قوالبه وصيغه تحبيراً لاحظه القدماء إزاء بعض مطولاته، فقالوا إنه يصنع القصيدة فى حول كامل وإن له سبع حوليَّات . وهو يضم إلى هذا التحبير عناية بعيدة بالتشبيهات والاستعارات ، بحيث يُعَدّ حقًّا شاعر التصوير فى العصر الجاهلى وكان يكثر من الحِكم ومن الدعوة إلى الخير والسلام ، فلا نغلو إذا قلنا إن شعره يعد صورة رفيعة للخير والحق والجمال .

وانتقلتُ إلى الأعشى ، فتحدثت عن حياته التى كان ينفقها متنقلا فى أنحاء الجزيرة ، ثم عرضت لديوانه ، واضطربت لبحثه من خلال رواية يكثر فيها الانتحال ، وتصادف أن كان راويةُ شعره مسيحيًّا ، فنحله كثيراً من الأفكار المسيحية ، وتداول شعره القُصَّاصُ والوعَّاظ المسلمون ، فأضافوا إليه أشعاراً كثيرة ، لغرض العظة والاعتبار . كما أضاف إليه الرواة غير قصيدة ، كقصيدته رقم ٢٤ التى تحكى قصة وفاء السموأل . وجَعَلنا هذا كلُّه نشك فى كثير من قصائده وأشعاره ، وإذا بنا نرفض أكثرها ، ولا نُبْقى له إلا على نحو عشرين قصيدة . وقد لاحظتُ عليه غلوًّا فى المديح وتأثراً دقيقًا بالحضارة التى عاصرته فى الحيرة ، حتى ليقترب شعره من شعر العباسيين لا فى معانيه فحسب ، بل أيضًا فى سهولة ألفاظه وخفة أوزانه . ونفس الموضوعين الأساسيين اللذين يدور فيهما شعره لا يختلفان

فى شىء عما نقرؤه للعباسيين ونقصد وصفه للخمر وغزله وتدلهه فيه وما قد يلاحَظ عنده من المبالغة المسرفة وكثرة التضمين .

وخرجتُ من هؤلاء الشعراء المبرزين إلى دراسة طوائف من الشعراء اتفقوا فى اتجاه من اتجاهات الحياة الجاهلية ، فدرستُ أولا الفرسان وما يصوّرون فى أشعارهم من بطولتهم ومثاليتهم الخلقية الرفيعة . ثم درست الصعاليك وما يصورونه فى أشعارهم من غاراتهم وما نحسُّه عند نفر منهم من تسام وعون للفقراء والمعوزين . ثم بحثت فى شعراء اليهود مبيناً كثرة ما نُحل عليهم . ووقفت عند النصارى من الشعراء أمثال عدىّ بن زيد العبادى ، ولاحظت أن شعراً كثيراً زيِّف عليه . ولا نبالغ إذا قلنا إن أكثر ما يضاف إلى أمية بن أبى الصَّلْت ، إن لم يكن كله، موضوع منتحل . وتدور الأشعار المضافة إليه فى موضوعين أساسيين ، هما نشأة الكون وما يتصل بها من خلق السموات والأرض ، والموت أو الفناء وما يعقبه من العذاب والثواب .

ولما فرغتُ من بحث الشعر الجاهلى وشعرائه انتقلت أبحث فى النثر الجاهلى ، فلاحظت أن الجاهليين لم يعرفوا الرسائل الأدبية المحبرة ، ولكنهم عرفوا القصص والأمثال والخطابة وسجع الكُهَّان . ومن الحق أنهم لم يدوّنوا شيئاً من قصصهم ، غير أن ما أضافه العباسيون إليهم يصوِّر غير قليل من روحه وطبيعته . وعرضتُ لأمثالهم وما كان من ازدهار الخطابة بينهم واصطلاحهم فيها على طائفة من السُّنن والتقاليد . وكان كُهَّانهم يحاولون التأثير البالغ فى نفوس سامعيهم بما يسوقون إليهم من أسجاع وألفاظ غريبة وأقسام وأيمان موهمة . وكل ذلك يؤكد أن الجاهليين حاولوا فى نثرهم ما حاولوه فى شعرهم من روعة الأداء ، حتى يستأثروا بقلوب سامعيهم ويخلبوا عقولهم وألبابهم .

تعليق

واضح أن الصورة السابقة للأدب الجاهلى إنما تُعْنَى بإبراز خطوطه الأساسية ، ومن المحقق أن هناك خطوطاً صغرى لا يبرزها البحث ، فنحن مثلا إنما تحدثنا عن الشعراء المجلّين ، وتركنا كثيرين لم نكد نلمّ بهم إلا بعض اقتباسات من

أشعارهم نثرناها نثراً فى بعض الفصول . وإنما تركنا تفصيل الحديث عنهم ، إما لأن ما وصلنا من أشعارهم قليل لا يسوِّى صورة أدبية تامة لهم ، وإما لأن الانتحال باد فى كثير مما يضاف إليهم من أشعار وأخبار . ولنقفْ قليلا عند أصحاب المعلقات الذين لم نفردهم بالدرس، وهم عمرو بن كلثوم والحارث بن حِلِّزة وعَبيد بن الأبرص وطرفة وعنترة ولبيد ، فأما عمرو والحارث فإنهما مُقِلاَّن ، وقد تشكك ابن سلام فى شعر عَبيد بن الأبرص ولم يصحح له سوى المعلقة وقال إن شعره مضطرب ذاهب[١]. أما طرفة فيقول ابن سلام إنه أشعر الناس واحدة[٢] ، وهى قوله :

لخَوْلَةَ أطلالٌ بِبُرْقَةِ ثَهْمَدِ وقفتُ بها أبكى وأبْكى إلى الغَد[٣]

وفيها أبدع فى وصف ناقته ، إذ لم يترك فيها صغيرة ولا كبيرة إلا رسمها ،وكأنه يريد أن ينحت لها تمثالا ، لا يغادر ذاكرة الجاهليين . والتصوير والحكمة جميعًا يتداخلان فى شعره ، وهو من هذه الناحية يشبه النابغة وزهيراً ، على أنهما يتقدمانه ويفضلانه . وأيضًا فإنه مقل والأسطورة تجرى فى أخباره ، ولذلك كله لم نفرده بالبحث . وأما عنترة فقد تحدثنا عنه فى تضاعيف كلامنا عن الفرسان . ولبيد مع أنه لحق الجاهلية عاش طويلا فى الإسلام ، فأولى أن يدرس فى المخضرمين .

وقل ذلك نفسه فيمن تركناهم من شعراء الجاهلية غير أصحاب المعلقات ، فقد تركنا أوس بن حَجر لأن فنه يندمج فى فن تلميذه زهير ، ولأن الرواة خلطوا بين أشعاره وأشعار ابنه شُرَيْح[٤] وعَبيد[٥] بن الأبرص . ونرى ابن سلام يسلك معه فى طبقته — وهى الثانية — بشر بن أبى خازم الأسدى وهو مقل : وفى شعره مصنوع كثير[٦] . وجميع الطبقة الثالثة عند ابن سلام من المخضرمين ، أما الطبقة الرابعة فسلك فيها طرفة وعبيداً ومرَّ رأينا فى أشعارهما . ونراه يضم إليهما عدىَّ بن زيد العبادى ، وأسلفنا الحديث عنه بين أصحاب الديانات السماوية ، كما يضم علقمة ابن عَبَدة ويذكر له ثلاث قصائد جياد ، ويقول: لا شىء له بعدهن يُذْكَر[٧] .

---

(١) ابن سلام ص ١١٦ .

(٢) ابن سلام ص ١١٥ .

(٣) الرواية المشهورة للشطر الثانى فى البيت :

« تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد » .

(٤) الحيوان ٢٧٩/٦ .

(٥) ابن سلام ص ٧٦ — ٧٧ .

(٦) الحيوان ٢٧٩/٦ .

(٧) ابن سلام ص ١١٧ .

وهو يشتهر بإحسانه لوصف الظَّلِيم ونعامته(١) . وممن ذكرهم ابن سلام فى الطبقة الخامسة الأسود بن يعفر النَّهْشَلى التميمى ، ويقول ابن سلام : « له واحدة طويلة رائعة لاحقة بأجود الشعر لو كان شَفَعَهَا بمثلها قدمناه على مرتبته(٢) . أما الطبقة السادسة فنظم فيها عمرو بن كلثوم والحارث بن حِلِّزة وعنترة ، وقد عرضنا لهم بالحديث فيما أسلفنا . وجعل الطبقة السابعة لأربعة مقلين هم حُصَين ابن الُحمام المرىّ والمتلمس (خال طرفة) والمسيّب بن عَلَس (خال الأعشى) وسلامة بن جَنْدل السَّعْدى التميمى . أما الطبقة الثامنة فنظم فيها عمرو بن قَميئة (عم طرفة) وعوف بن عطية بن الخَرِع ، وهما مقلان . وجعل فى الطبقة التاسعة الخادرة أو الحويدرة ، وقصيدته(٣) :

بكرتْ سُمَيَّةُ بُكْرَةً فتمتّعِ ... وغَدَتْ غدوّ مفارقٍ لم يَرْبَعِ

من جيد الشعر ومختاره ، وليس له وراءها شعر يذكر . أما الطبقة العاشرة فجميعها مخضرمون أو إسلاميون . وأفرد لأصحاب المراثى فصلا ، ولكنه لم يسلك بينهم جاهليا . وتحدث عقب ذلك عن شعراء القرى العربية ، وأهمهم أمية ابن أبى الصَّلت شاعر الطائف ، ومرَّ بنا فى حديثنا عن أصحاب الديانات كثْرةُ ما وضع عليه من أشعار . وفى قبيلة عبد القيس بالبحرين شعر جيد ، وربما كان خير شعرائها المثقِّب العبدى المعاصر للنعمان بن المنذر ، وهو يُسْلك فى المقلين .

وليس وراء هؤلاء الذين ذكرهم ابن سلام شعراء فيهم غَنَاء ، سوى الصعاليك ، وقد أفردناهم بالحديث . ومما لاشك فيه أن الأسطورة تغلب على أخبارهم ، لاندراج كثيرين منهم فى القصص الشعبى ، ويشبههم فى هذا الجانب حاتم الطائى الذى طالما تحدث الرواة عن كرمه . وواضح من ذلك كله أننا لم نتسع فى الترجمة لشعراء الجاهلية ، لقلة ما بأيدينا من شعر وثيق لهم يقفنا على خصائصهم ، ومن ثَمَّ اكتفينا بالترجمة للطبقة الأولى منهم تلك التى عُنى الرواة بدواوينها وأجمعوا على تقديمها وأنها لا تبارَى فى حسن الدِّيباجة ورونق الكلام .

---

(١) الحيوان ٤/٣٦٦ .

(٢) ابن سلام ص ١٢٣ .

(٣) المفضليات رقم ٨ . يربع بالمكان : يقيم .

فهرس الموضوعات

صفحة

صفحة

تاريخ
الأدب
العربى
٢

دكتور شوقى ضيف

العصر الإسلامى

دار المعارف

تاريخ
الأدب العربى
٢

العصر الإسلامى

تأليف
الدكتور شوقى ضيف

الطبعة السابعة

دار المعارف بمصر

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . ع . م .

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا هو الجزء الثانى من تاريخ الأدب العربى ، وهو خاص بالعصر الإسلامى ، وقد وزَّعته على كتابين ، جعلتُ أوَّلهما لعصر صدر الإسلام وثانيهما لعصر بنى أمية ، وكل كتاب ينقسم فصولا تُبْحَثُ فيها جوانب الحياة فى العصر بحثاً ترتَّب فيه المقدماتُ والنتائج موصولةً بالنصوص ، كما يُبْحَث فيها الأعلام النابهون فى الشعر والخطابة والكتابة بحثاً تُرْسَمُ فيه شخصياتهم وخصائصهم الأدبية .

ودفعتْنى النصوص الكثيرة فى عصر صدر الإسلام إلى نقْض الفكرة التى شاعت فى أوساط الباحثين من عرب ومستشرقين . إذ ذهبوا يزعمون أن الإسلام انحسر عن أثر ضئيل نحيل فى أشعار المخضرمين . وهو زعمٌ غير صائب ، بل هو زعم يسرف فى تجاوز الحق ، فقد أتمَّ الله على هؤلاء الشعراء نعمة الإسلام ، وانتظم كثيرون منهم فى صفوف المجاهدين فى سبيل الله داخل الجزيرة العربية وفى الفتوح . وهم فى ذلك كله يستلهمون الإسلام ، ويعيشون له ، ويعيشون به ، يريدون أن ينشروا نوره فى أطباق الأرض ، وقد مضوا يصْدرون عنه فى أشعارهم صدور الشَّذَى عن الأزهار الأرِجة . وبالمثل صدروا عنه فى نثرهم ، فإذا هم يستحدثون فنوناً من النثر ينشئونها إنشاء إذ أنشأوا — على هدى القرآن الكريم — آيات بديعة من المواعظ الدينية ، كما أنشأوا ضروباً من المعاهدات والرسائل السياسية والتشريعية .

ثم كان عصر بنى أمية ، عصر امتزاج العرب بغيرهم من الأمم وانسياحهم فى مشارق الأرض ومغاربها ، مما أذكى فى نفوسهم جذوة الشعر ، فإذا هو يَحْيَى فى

أوطان جديدة حياة خصبة ، ولا أقصد الكوفة والبصرة والشام ومصر فحسب ، بل أيضاً خراسان التى أهملها مؤرخو أدبنا ، مع ازدهار الشعر فيها ازدهاراً رائعاً . وقد أخذ الشعراء يَخْضعون فى كل مكان لمؤثرات مختلفة : بيئية ودينية وحضارية وثقافية واقتصادية . وفى هذه الأثناء كان الموالى يتعرّبون ، وسرعان ما أتقنوا العربية وأعربوا بها عن قلوبهم وعقولهم وأعماق وجدانهم . وليس بصحيح ما يردده المستشرقون من أنهم كانوا يختصمون مع العرب فى العصر الأموى ، فقد كانت العلاقة بين الجماعتين حينئذ علاقة بِرّ وتعاون وإخاء .

والكتاب الثانى يَبْسُط كلّ هذه الظروف الجديدة فى حياة الأمة العربية لعصر بنى أمية وكيف اندفع الشعراء فى ظلالها ينهضون بالشعر ويتطورون به فى فنونه وأغراضه ، فقد مضى شعراء الهجاء والفخر فى البصرة ينفذون إلى لون جديد هو النقائض التى بثّوا فيها مناظرة عنيفة فى المثالب والمفاخر القبلية ، كان يجتمع لها معاصروهم فى سوق المربد للاستماع إليها والفرجة والمتْعة . ومضى شعراء المديح ينفذون إلى لون جديد هو الشعر السياسى الذى صوّر فيه الزبيريون والخوارج والشيعة وغيرهم نظرياتهم فى الحكم وقيامهم من دونها مدافعين . ولكل فرقة من هذه الفرق فى شعرها طوابع تميزه ، فبينما يتميز مثلا شعر الخوارج بتصوير استبسالهم فى الحروب وتهافتهم على حياض الموت مستصغرين الدنيا ومتاعها الزائل نرى شعر الشيعة يتميز بكثْرة ما ذَرفوا على أئمتهم المستشهدين من دموع غِزار ، مطالبين بردّ السلطان إلى أصحابه الشّرْعيين . وقد اضطرمت فنون الشعر اضطراماً لا فى المديح والهجاء والفخر فحسب ، بل أيضاً فى الغزل ، فظهر فيه الغزل العُذرى بجانب الغزل الصريح ، وزَكا شعر الزهد ، ونما شعر المجون ووصف الطبيعة ، ومدّ الرُّجّاز طاقة أراجيزهم ، وسلكوا فيها الطّرديّات ، فهى ليست عباسية — كما كان يُظنّ — إنما هى أموية . وتحول نفر منهم بأراجيزه إلى غاية تعليمية للغة وشواذّها وشواردها ، حتى غَدَت — فى بعض جوانبها — كأنها متون للاستظهار والحفظ . وفى كل هذه الفنون والأغراض تعاقبت تراجم الشعراء .

ولعل عصراً عربيًّا لم تزدهر فيه الخطابة كما ازدهرت فى عصر بنى أمية بأنواعها السياسية والحفلية والدينية ، فقد اشتدت الخصومات بين الفرق السياسية

وانبرى خطباؤها يذودون عن نظرياتهم مؤلبين الناس على خصومهم . ونشطت نشاطاً عظيماً خطابة المحافل بين أيدى الخلفاء والولاة . أما الخطابة الدينية فاحتلمت على لسان الوعاظ والقصاص احتداماً ، استطاعوا فى أثنائه أن يتخذوا لأنفسهم أسلوباً جديداً ، يرتفعون فيه عن ألفاظ العامة المبتذلة ويهبطون عن ألفاظ البدو الآبدة ، أسلوباً يخاطبون به جميع الطبقات فى المراكز المتحضرة التى يختلط فيها العرب بالأعاجم ، وقد أقاموه على الازدواج والترادف وتحلية الكلام بالأخيلة والمقابلات ، مع العناية بدقائق المعانى وفتق الحيل للتعبير عن خفياتها . وقد أخذوا أنفسهم بتعليم شباب البصرة والكوفة كيف يحسنون الخطابة والمناظرة وكيف يتقنون إصابة الحجة ، وبذلك كانوا أول من مهد لوضع قواعد البلاغة العربية .

وتمّا تدوين المعارف فى عصر بنى أمية ، سواء فيما يتصل بمعارف الجاهلية وأخبارها وأنسابها وأشعارها ، أو فيما يتصل بالإسلام وكل ما يرتبط به من تشريع وتفسير وحديث نبوى وخطوب جسام . وقد مضوا يصنفون فى المغازى والتاريخ وقصص الأنبياء ، وفى المثالب والأمثال والمواعظ ، وفى مسائل العقيدة من قدر وغير قدر ، وفى الأغانى والمغنين وطبقاتهم . وترجموا رسائل فى الطب والنجوم والكيمياء ، ودونوا كثيراً من الخطب ومن الرسائل السياسية والوعظية والشخصية . ونهض كتاب الدواوين بالكتابة عن الخلفاء والولاة والقواد نهضة واسعة ، جعلتهم يستعيرون من الوعاظ أسلوبهم الذى وصفناه ، وما زالوا يرقون بكتابتهم ، حتى وضعوا الرسائل الأدبية الخالصة . والله أسأل أن يهدينى سواء السبيل .

القاهرة فى ١٥ من يوليه سنة ١٩٦٣ — شوقى ضيف

الكتاب الأول

فى عصر صدر الإسلام

الفصل الأول

الإسلام

١

قيم روحية

تدل كلمة الإسلام باشتقاقها اللغوى على معنى الخضوع والانقياد ، وقد تردّدت فى القرآن الكريم بهذا المعنى فى مثل : (وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له) (وأمِرْتُ أن أُسلم لرب العالمين) . ومن ثَمّ أُطلقت علماً على ديننا الحنيف فى قوله تبارك وتعالى : (اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) وهو دين لسعادة الناس كافة ، دين يكمل الديانات السماوية السابقة ويسيطر على كل ما جاء به الرسل ، يقول جلّ شأنه : (وما أرسلناك إلا كافّة للناس بشيراً ونذيراً) ، ويقول : (شَرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) ويقول : (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كلّه) ويقول : (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه) .

فالإســـلام هو الشريعة الإلهية الأخيرة التى تفرض سلطانها على كل ماسبقها من شرائع سماوية . وهو يقوم على ركنين أساسيين هما : العقيدة والعمل . وتسمى العقيدة بالإيمان من الأمن بمعنى طمأنينة النفس وتصديقها بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم . وأهمُّ أصل فى العقيدة الإسلامية الإيمانُ بوحدانية الله ، يقول سبحانه وتعالى : (قل هو الله أحدٌ الله الصَّمَدُ لم يَلِدْ ولم يولد ولم يكن له كُفُواً أحد) فلا عبودية لغير الله من أوثان وأحجار وكواكب ، وهو ليس إله قبيلة ولا إله شعب بعينه ولا إله نور أو ظلام بل هو (رَبُّ العالمين) رب كل شىء فى الكون وخالقه (ليس كمثله شىء) (لا تُدرْكه الأبصار وهو

يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) . قد أحاط علمه بكل ما فى الكون (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين) . وعلى مثال علمه الواسع قدرته التى تبسط سلطانها على كل ما فى العالم وتقبض على زمامه (وسع كرسيه السموات والأرض) (والله على كل شىء قدير) . وهو مع قدرته وسلطانه وعقابه للمذنبين الآثمين رحيم بعباده ، يقول سبحانه (ورحمتى وسعت كل شىء) (وقد كتب ربكم على نفسه الرحمة) . وتقترن بالرحمة فى القرآن الكريم المحبة التى يفيضها على عباده مستشعرين لجلاله وكماله المطلق (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) (فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين) . ودائماً تصحب محبة الله الدعوة إلى العمل الصالح والنهى عن العمل الخبيث (إن الله يحب المتقين) (إن الله يحب المتوكلين) (إن الله يحب المحسنين) (والله لا يحب المفسدين) (والله لا يحب الظالمين) . ومن محبة الله للناس ورحمته بهم أن اصطفى لهم من خلقه أنبياء يوحى إليهم بما فيه سعادتهم فى الدارين الأولى والآخرة (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) . وعلى الناس أن يؤمنوا بما جاءوا به من كتب سماوية ، خاتمها الذكر الحكيم (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) .

ووراء هذا العالم المادى الذى نشاهده عالم غيبى ، به نوعان من الأرواح خير وشرير ، والخير هو الملائكة الذين يتنزلون بالوحى على قلوب الرسل (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده) (نزل به الروح الأمين على قلبك) . وهؤلاء الملائكة ينصرون المؤمنين ويستغفرون لهم ربهم ويتوفونهم ويكتبون أعمالهم (وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون) . أما الأرواح الشريرة فهى الشياطين المطرودون عن الملأ الأعلى ، وهم ينفثون غوايتهم ليضلوا عن الصراط المستقيم (وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم) (ولقد جعلنا فى السماء بروجاً وزيناها للناظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم) .

ويُكثر القرآن من الحديث عن عقيدة المعاد، فالناس جميعاً مبعوثون بعد موتهم (ثم إنكم بعد ذلك لميتون ثم إنكم يوم القيامة تُبْعثون) وهو يوم الحساب، كل يحاسب على أعماله (فمن يعمل مثقال ذَرَّةٍ خيراً يَره ُ ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) (من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد) (للذين أحسنوا الُحسْنى وزيادة ولا يَرْهَق ُ وجوههم قَتَر ٌ ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون والذين كسبوا السيآت جزاءُ سيئة ٍ بمثلها وترهقهم ذلة مالهم من الله من عاصم كأنما أغْشيت وجوههم قِطَعاً من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) (لا يذوقون فيها بَرْداً ولا شرابا إلا حَميماً وغَسَّاقاً جزاء ً وِفاقاً) .

ودائما يردد الذكر الحكيم أن الإنسان مشدود إلى إرادة الله العليا ومشيئته الربانية وأنه ينبغي أن يتدبر إرادته الصغرى بجانب هذه الإرادة الكبرى، فلا يتبع هواه بل يراقب ربه فى كل ما يأتى ويدع . فهناك مشيئة مطلقة هى مشيئة الله التى تسيطر على كل ما فى الكون (وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين) وبجانبها مشيئة الإنسان التى تجعله مسئولا أمام ربه عن عقيدته وعمله وما كسبت يداه (وقل الحق ُ منَ ربكم فمن شاء فليؤمن ْ ومن شاء فليكفر ْ) (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها) (كل ُ نفس بما كسبت رهينة) (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) (ومن يكسبْ إثماً فإنما يكسبه على نفسه) .

وتلك هى أصول العقيدة الإسلامية، وبجانبها أعمال من العبادات يجب على المسلم أداؤها، وهى ترجع إلى أربعة أصول : الصلاة والصوم والحج والزكاة . الصلاة بما يسبقها من طهارة الوضوء وبما فيها من تلاوة للقرآن وتسبيح واستغفار، وقد بَيَّن الرسول صلى الله عليه وسلم للمسلمين كيفيتها وأوقاتها، وفى القرآن الكريم (قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة) (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً) . والصوم هو صوم شهر رمضان تبتُّلا إلى الله (يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم الصيام كما كُتب على الذين من قبكم لعلكم تتقون . . شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هُدًى للناس وبينات من الهدى والفُرْقان فمن شهد منكم الشهر فليصُمْه . . وكلوا واشربوا حتى يتبيَّن لكم الخيْطُ الأبيض من الخيط

الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل) . والحج (ولله على الناس حِجُّ البيت من استطاع إليه سبيلا) وهو فى أشهر معلومات ، وقد بَيَّنَ الرسول للمسلمين كيفيته وما يقترن به من عبادة وذكر لله وتسبيح . ثم الزكاة وهى أن يُرَدَّ من مال الغنى على الفقير وعلى الصالح العام للأمة ، وهى تُذْكر فى القرآن دائماً مع الصلاة تأكيداً لها وحثًّا عليها فى مثل (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتَوُا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون) .

ولم يرسم القرآن الكريم للمسلمين معالم عقيدتهم وفروضها العملية فحسب ، بل رسم لهم أيضاً طريق الفضيلة وما ينبغى أن يتحلّوا به فى سلوكهم وأخلاقهم ، حتى ينالوا رضا ربهم ومحبته ، يقول تبارك وتعالى : (وعبادُ الرحمن الذين يمشون على الأرض هَوْناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً . . والذين إذا أنفقوا لم يُسْرِفوا ولم يَقْتُرُوا وكان بين ذلك قَواما .. ولا يقتلون النفس التى حرّم الله إلا بالحق ولا يزْنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما يضاعفْ له العذاب يوم القيامة ويَخْلُد فيه مُهانا .. والذين لا يشهدون الزور وإذا مَرُّوا باللَّغْو مروا كراما) (ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وَهْناً على وهن . . وَأْمُرْ بالمعروف وانْهَ عن المنكر واصبرْ على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ولا تُصَعِّرْ خدَّك للناس ولا تَمْشِ فى الأرض مَرَحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور واقْصِدْ فى مشيك واغْضُضْ من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) . ويقول جَلّ وعز ناهياً عن الهزء بالناس والغيبة والظن الآثم : (إنما المؤمنون إخوة . . يا أيها الذين آمنوا لا يَسْخَرْ قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساءٌ من نساء عسى أن يكنَّ خيراً منهن ولا تَلْمِزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسمُ الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسَّسوا ولا يَغْتَبْ بعضكم بعضًا أيحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه مَيْتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله توَّاب رحيم) .

وقد حرّم الإسلام جملة الفواحش ما كبر منها وما صغر (قل إنما حرّم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن). ومما حرمه تحريماً باتًّا آفة الخمر وآفة القمار (إنما الخمر والمَيْسر .. رِجْسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) .

ودائماً تلقانا فى الذكر الحكيم دعوة المسلمين إلى الخير والارتفاع عن الدنايا والنقائص (ولتكن منكم أمةٌ يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف ويَنْهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) .

وبهذه القيم الروحية جميعاً يقوم الإسلام ، فهو ليس عقيدة سماوية وفروضاً دينية فحسب ، بل هو أيضاً سلوك خلقى قويم ، إذ يدعو إلى طهارة النفس ونَبْذ كل الفواحش والرذائل ، ومراقبة الإنسان لربه فى كل ما يأتى من قول أو فعل ، فإنه معروض عليه يوم القيامة ، يوم يُجْزَى كلُ إنسان بما قدَّمت يداه . وقد مضى الصحابة يعبدون الله حق عبادته مستشعرين ضرباً من القلق على مصيرهم ، بعث فيهم الضمير الحى الذى يستشعر صاحبه الخوف من ربه فى سره وعَلنه ، كما يستشعر الرجاء فى نعيمه ورضوانه .

٢

قيم عقلية

قضى الإسلام على الوثنية الجاهلية بكل ما طُوى فيها من كهانة وسحر وشعوذة وخرافة ، وبذلك ارتقى بعقل الإنسان إذ خلَّصه من الحماقات والترهات ، وقد مضى يحتكم إليه فى معرفة الكائن الأعلى الذى أنشأ الكون ودبَّر نظامه ، داعياً له إلى أن يتأمل فى ملكوت السموات والأرض ، فإن من ينعم النظر فى هذا الملكوت ونظامه يعرف أنه لم يُخْلَقْ عبثاً وأن له صانعاً سوّى كل شىء فيه وقدَّره ، يقول جلَّ ذكره : (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جُنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقِنا عذابَ النار) (الشمسُ والقمر بحُسْبان) (والسماءَ بنيناها بأيد وإنا لموسعون والأرضَ فرشناها فنعم الماهدون ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكّرون) .

وواضح من ذلك أن القرآن اتجه إلى العقل فى دعوته إلى الإيمان بوجود الله وقدرته وتدبيره ، وكذلك الشأن فى الإيمان بوحدانيته . وقد فضل الإنسان على سائر مخلوقاته (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا) وما كان لهذا الذى

فضّله على كل ما فى الوجود أن يعبد أشياء خلقها الله وسخّرها لفائدته (قل أغيرَ الله أبغى ربًّا وهو ربُّ كل شىء) (ومن آياته الليلُ والنهار والشمس والقمر لا تَسْجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهنّ) .وهو إله واحد يدبِّر السموات والأرض (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) (وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعَلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون) . وبالمثل يحتكم القرآن إلى العقل فى الدلالة على صحة البعث والنشور فإن من يبعث الحياة فى الكائنات قادر على أن يردّها إليها (كما بدأنا أولَ خَلْقٍ نعيده وعداً علينا إنّا كنا فاعلين) (وضرب لنا مثلا ونسى خَلْقه قال من يُحيى العظام وهى رَميم قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) (وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت وربَتْ وأنبتت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحقُّ وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير) .

ويُنْحى الذكر الحكيم باللائمة على من لا يستخدمون عقولهم ، فيشبههم بالأنعام التى لا تَعْقل ، ويقول إنهم لا يمتازون فى شىء عن الصُّمّ البُكْم العُمْى (لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ولهم أعْينٌ لا يبصرون بها ولهم آذانٌ لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) (أم تحسَبُ أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إنهم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا). وكثيراً ما تُخْتَمُ الآيات بمثل (أفلا تتذكّرون) (إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) (إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) .

ودائماً يدعو القرآن كل مسلم أن يستغل عقله فيما خُلق له من التدبر ، فيتأمل وينظر ويحكم لا عن عقائد موروثة بل عن دليل ناطق وشهادة صحيحة ، ومن َثمّ كانت المعرفة المستبصرة ركناً أساسيًّا فى الإسلام ، فمن أسلم عن غير فهم وتبصر كان إسلامه منقوصاً ، إذ الإسلام الصحيح يقوم على الفهم والاقتناع لا على التقليد والمحاكاة للآباء والأسلاف .

ويشير القرآن مراراً إلى ما وُهب الإنسان من فضيلة العقل ، وأن الله أودع فى هذه الفضيلة خواص تمكّنه من السيطرة على جميع المخلوقات ، يقول جَلّ شأنه : (الله الذى سخّر لكم البحر لتجرى الفُلْكُ فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم

تشكرون وسخَّر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) (وأنزلنا الحديدَ فيه بأسٌ شديد ومنافع للناس) (هو الذى جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدَّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) فكلُّ ما فى الوجود مسخَّر للناس ولعقولهم كى يستغلوه وكى يستكشفوه لمنفعتهم .

وكان أول ما نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم : (اقرأْ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علَق اقرأ و ربك الأكرم الذى علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم) فالدعوة إلى العلم وأنه نعمة أسبغها الله على الإنسان تقترن بآيات القرآن الأولى . ودائماً تتردد فيه الإشادة بالعلم والعلماء فى مثل : (وقل ربِّ زدنى علماً) (إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ) (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) . وفى كل هذه الآيات دعوة صريحة للمسلمين كى يطلبوا كل علم ويفيدوا منه . ولعله لذلك لم يظهر عندنا تعارض بين الإسلام والعلم فى أى عصر من العصور ، بل تعاونا دائماً تعاوناً مثمراً . وقد رُويت عن الرسول صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة تحثّ على العلم والتعلم من مثل : « طلبُ العلم فريضةٌ على كل مسلم » و « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سلك الله به طريقاً من طرق الجنة » و « العلماء ورثةُ الأنبياء » .

وقد حمّل الإسلام هؤلاء العلماء أمانةَ الدين الحنيف ، وجعل لهم حق الاجتهاد فى فروعه وما ينطوى فيه من استنباط للأحكام يقول جلّ ذكره : (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفةٌ ليتفقّهوا فى الدين) ويقول : (وإذا جاءهم أمرٌ من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) . ويقول للرسول الكريم : (وشاورْهم فى الأمر) . وفعلا كان يستشير أصحابه فى كثير من المسائل ويصْدر عن رأيهم[1] . ومن هنا أصبح الاجتهاد بالرأى أصلا من أصول الإسلام حين لا يوجد نصٌّ فى كتاب أو سُنَّة . روى الرواة عن مُعاذ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعثه إلى اليمن قال له : كيف تصنع إن عرَض لك قضاءٌ ؟ قال : أقضى بما فى كتاب الله

(١) انظر «تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية» لمصطفى عبد الرازق (الطبعة الأولى) ص ١٤٣ وما بعدها .

قال : فإن لم يكن فى كتاب الله ؟ قال : فبسنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال : فإن لم يكن فى سنّة رسول الله ؟ قال : أجتهد رأيى لا آلو . قال : فضرب بيده فى صدرى ، وقال : الحمد لله الذى وفّق رسولَ رسولِ الله لما يرضاه رسول الله»[1]. وقد نَمَا الاجتهاد بعد وفاة الرسول بحكم الفتوح واتساع الدولة ، ولم يكن الخلفاء يُفْتُون بآرائهم إلا بعد استشارة الصحابة[2]. ومُصِّرت الأمصار وسرعان ما أخذت تظهر جماعات من الفقهاء فى كل مصر إسلامى تحمل للناس تعاليم القرآن وسنة الرسول ، وكانوا إذا عرض لهم أمر لم يجدوا حُكْمه فى القرآن والسنة اجتهدوا وأفتوا الناس فيه برأيهم .

وفى كل ما قدمنا ما يدل بوضوح على أن الإسلام رفَع من شأن العقل الإنسانى إذ جعله الحَكَم فى فروع الشريعة وحثّه على استكمال سيطرته على الطبيعة وقوانينها ، كما حثه على التزود بجميع المعارف . وفتَح الأبواب واسعة أمامه كى يجتهد فى مسالك الدين العملية . فلا عجب بعد ذلك إذا رأينا المسلمين يتحولون مع الفتوح إلى معرفة كل ما لدى الأمم المفتوحة من تراث عقلى . وسرعان ما شادوا صَرْح حضارتهم الرائعة ، وقد مضوا يستخدمون كل طاقاتهم الذهنية فى جميع صور المعرفة دينية وغير دينية . وكان لما أصّله الإسلام من حق الاجتهاد العقلى أثر واسع فى أن أصبح الإسلام نفسه قابلا للتطور ، وحقًّا أصوله العقيدية زمنية أبدية ، ولكنها أصولٌ أُسِّسَتْ على العقل الصحيح وفسحتْ له فى التشريع .

٣

قيم اجتماعية

كان العرب يعيشون فى الجاهلية قبائل متنابذة ، لا يعرفون فكرة الأمة إنما يعرفون فكرة القبيلة وما يربط بين أبنائها من نسب ، وكل قبيلة تتعصب لأفرادها تعصباً شديداً ، فإذا جنَى أحدهم جناية شركته فى مسئوليتها ، وإذا قُتل لها

---

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (طبع القاهرة) ٢ / ٥٥

(٢) مصطفى عبد الرازق ص ١٥٨ وما بعدها .

أحد أبنائها هبَّت للأخذ بثأره هبة واحدة . فلما جاء الإسلام أخذ يُضعف من شأن القبيلة ويُحلُّ محلها فكرة الأمة ، يقول جَلَّ ذكره : (إن هذه أمتكم أمةٌ واحدة وأنا ربكم فاعبدون) (كنتم خيرَ أمةٍ أُخرجتْ للناس) وهى أمة يعلو فيها السلطان الإلهى على السلطان القبلى وعلى كل شىء ، ومن ثَمَّ أصبحت الرابطة الدينية لا الرابطة القبلية هى التى توحِّد بين الناس . وكان أول ما وضعه الإسلام لإحكام هذه الرابطة أن نَقل حق الأخذ بالثأر من القبيلة إلى الدولة ، وبذلك لم يعد الثأر – كما كان الشأن فى الجاهلية – يجرُّ ثأراً فى سلسلة لا تنتهى ، من الحروب والمعارك الدموية ، بل أصبح عقاباً بالمثل ، وأصبح واجباً على القبيلة أن تقدِّم القاتل لأولى الأمر حتى يَلْقَى جزاءه . وقد مضى الإسلام يحاول القضاء على العصبية القبلية كما قضى على قانونهم القديم : الثأر للدم ، يقول عَزَّ شأنه : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ، ويقول الرسول فى خطبة حجَّة الوداع : « أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدمَ ، وآدم من تراب ، أكرمُكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير ، وليس لعربى على عجمىٍّ فضل إلا بالتقوى . »[١]

وأخذ الإسلام يُرْسى القواعد الاجتماعية لهذه الأمة ، بحيث تكون أمة مثالية يتعاون أفرادها على الخير آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر ، يسودهم البر والتعاطف ، حتى لكأنهم أسرة واحدة ، مُحيت بين أفرادها كل الفوارق القبلية والجنسية ، وأيضاً فوارق الشرف والسيادة الجاهلية ، فالناس جميعاً سواء فى الصلاة وجميع المناسك وفى الحقوق والواجبات ، وينبغى أن يعودوا إخوة ، يشعر كل واحد منهم بمشاعر أخيه ، باذلا له ولمصلحة هذه الأمة كل ما يستطيع ، فهو لا يعيش لنفسه وحدها ، وإنما يعيش أيضاً للجماعة يَفْديها بروحه وبماله وبكل ما أوتى من قوة . ومن ثَمَّ وُضع نظام الزكاة وعُدَّتْ – كما قدمنا – ركناً أساسيًّا فى الدين ، فواجبُ كل شخص أن يقدم من ماله سنويًّا فرضاً مكتوباً عليه للفقراء وللصالح العام .

---

(١) البيان والتبيين (طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٣٣/٢ .

وبذلك أصبح للفقير حق معلوم فى مال الغنى ، يؤديه إليه راضياً . ومدَّ القرآن الكريم هذا الحق ، إذ دعا دعوة واسعة إلى الإنفاق فى سبيل الله ، لا بالزكاة فحسب ، بل بكل ما يهبه الأغنياء تقرباً إلى الله ورغبة فى حسن المثوبة ، يقول جلَّ وعزَّ : (من ذا الذى يُقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة . . مَثَلُ الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبَّة أنبتتْ سبع سنابل فى كل سُنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم . . ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنَّة بربْوة أصابها وابلٌ فآتت أكُلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطلٌّ والله بما تعملون بصير . . يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تُغمضوا فيه واعلموا أن الله غنى حميد . . الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرًّا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .

وعلى هذه الشاكلة حاول القرآن الكريم أن يقيم ضرباً من العدالة الاجتماعية فى محيط هذه الأمة الجديدة ، إذ جعل ردَّ الغنى بعضَ ماله على الفقير وعلى الصالح العام للأمة حقًّا دينيًّا. إنه لا يعيش لنفسه وحدها ، بل يعيش أيضاً لأمته ويترابط معها ترابطاً اقتصاديًّا كما يترابط فى وجدانه وإيمانه . وقد اندفع كثير من الصحابة ينفقون أموالهم جميعها فى سبيل الله ، ويُؤْثَرُ عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما نفعنى مالٌ ما نفعنى مالُ أبى بكر »[١] وكان غيره من أغنياء الصحابة يقتدون به . فقد جهَّز عثمان جيش العُسْرة فى غزوة تبوك بتسعمائة وخمسين بعيراً وأتمَّ الألف بخمسين فرساً[٢] ، وكثَّر مال عبدالرحمن ابن عوف حتى قَدِم عليه فى إحدى تجاراته سبعمائة راحلة تحمل القمح والدقيق والطعام فجعلها جميعها فى سبيل الله[٣]. ولم يُعْنَ الإسلام فقط بتنظيم العلاقة بين الغنى من جهة والفقير والصالح العام من جهة ثانية ، بل عُنى أيضاً بتنظيم العلاقات العامة كالميراث وتنظيم المعاملات كالتجارة والزراعة والصناعة ، فقد أوجب

---

(١) الاستيعاب (الطبعة الأولى) ص ٣٤٢ .

(٢) الاستيعاب ص ٤٨٨ .

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبى (طبع دار المعارف) ١/ ٥٠ .

للعامل أجراً يتقاضاه جزاء عمله ، وأوجب على التاجر أن لا يستغلّ الناس بأى وجه من الوجوه ، سواء فى الكيل والميزان أو فى التعامل المالى ، يقول جلّ شأنه : (وأوفوا الكيلَ إذا كِلتُم وزنوا بالقسطاس المستقيم) (ولا تَبْخسوا الناس أشياءهم) (الذين يأكلون الرِّبا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبَّطه الشيطان من المَسّ .. وأحلّ الله البيع وحرَّم الرِّبا) . ولا يكاد يكون هناك جانب من جوانب الحياة الاجتماعية إلا وضع فيه الإسلام من السنن والقوانين ما يكفل للناس حياة مستقيمة قِوامها العدالة .

وقد نظَّم حقوق المرأة ورعاها خير رعاية ، إذ كانت مهضومة الحقوق فى الجاهلية ، فردَّ إليها حقوقها ، وجعلها كفؤاً للرجل ، لها ماله من الحقوق ، يقول تبارك وتعالى : (ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف) وأيضاً لهن مثل ما للرجال من السّعى فى الأرض والعمل والتجارة ، يقول عزّ شأنه : (للرجال نصيبٌ مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسَبْنَ) . وكان كثير من غلاظ القلوب يَئدون بناتهم خشية العار ، فحرَّم ذلك القرآن ، يقول جلّ ذكره : (وإذا بُشِّر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّر به أيُمسِكُه على هُون أم يدسُّه فى التُّراب ألا ساء مايحكمون) . وحرَّم البغاء وشدّد فى النكير عليه حتى القتل . ونظَّم الزواج وجعله فريضة محبَّبة إلى الله ونعمةً من نعمه (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) . ودعا فى غير آية إلى معاملة الزوجات بالمعروف . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى خطبة حِجَّة الوداع : « أيها الناس إن لنسائكم عليكم حقّاً ، ولكم عليهن حق ، لكم عليهن أن لا يُوطِئْن فُرشكم غيركم وأن لا يُدْخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة مبيِّنة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعْضلوهن وتهجروهن فى المضاجع وتضربوهنّ ضرباً غير مبرِّح ، فإن انتهين وأطعنْكم فعليكم رزقهن وكُسْوتهن بالمعروف ، وإنما النساء عندكم عوان (أسيرات) لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، أخذتموهن بأمانة الله .. فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيراً » . وأباح الإسلام الطلاق ولكنه جعله أبغض الحلال إلى الله ، ويقول جلّ شأنه : (فإن

كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً) (وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما) . ويوجب القرآن للزوجة كثيراً من الحقوق حين تنفصم العلاقة بينها وبين زوجها ، من ذلك أن يسرحها بإحسان وأن لا يمسك عنها شيئاً من صداقها ، يقول جل وعز : (وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً) .

وبكل ذلك كفل الإسلام للمرأة حقوقها ، وأوجب على الرجل أن يرعاها وأن يقوم بها خير قيام . ومن غير شك ليست هناك علاقة بين الإسلام ونظام الحريم الذى شاع فى العصر العباسى ، فإن الإسلام يجل المرأة ويرفع قدرها ، حتى لنراها فى الصدر الأول من العصر الإسلامى تشارك فى الأحداث السياسية على نحو ما هو معروف عن موقف السيدة عائشة أم المؤمنين فى حروب على وطلحة والزبير ، وكانت هى نفسها مصدراً كبيراً من مصادر الحديث النبوى وهدى الرسول الكريم .

٤

قيم إنسانية

رأينا الإسلام يرفع من شأن المسلم اجتماعياً وعقلياً وروحياً ، وهو ارتفاع من شأنه أن يسمو بإنسانيته ، إذ حرره من الشرك وعبادة القوى الطبيعية ، وأسقط عن كاهله نير الخرافات . وبدلا من أن يشعر أنه مسخر لعوامل الطبيعة تتقاذفه كما تهوى نبهه إلى أنها مسخرة له ولمنفعته ، ودعاه لأن يستخدم فى معرفة قوانينها عقله ويعمل فكره . وبذلك فك القيود عن روح الإنسان وعقله جميعاً ، وهيأه لحياة روحية وعقلية سامية ، كما هيأه لحياة اجتماعية عادلة ، حياة تقوم على الخير والبر والتعاون ، تعاون الرجل مع المرأة فى الأسرة الصالحة وتعاون الرجل مع أخيه فى المجتمع الرشيد .

ودائماً يلفت الذكر الحكيم إلى سمو الإنسان ، وأنه يَفْضُلُ سائر المخلوقات فقد خُلق فى (أحسن تقويم) ، وُسوّى وعُدّل ورُكّب فى أروع صورة ، ووُهب من الخواص الذهنية ما يُحيل به كل عنصر فى الطبيعة إلى خدمته . يقول جلّ شأنه : (ولقد كرّمنا بنى آدم وحملْناهم فى البرّ والبحْر ورزقْناهم من الطيبات وفضّلناهم على كثيرٍ ممنْ خلقْنا تفْضيلا) . ويذكر القرآن فى غير موضع أن الإنسان خليفة الله فى الأرض (وإذْ قال ربُّك للملائكة إنى جاعلٌ فى الأرْضِ خليفة) (وهو الذى جعلكم خلائفَ الأرض) فالإنسان خليفة الله فى أرضه ووكيله فيها ، خلقه ليسودها ، ويُخْضع كل ما فى الوجود لسيطرته .

وقد مضى الإسلام يعتدّ بحرية الإنسان وكرامته وحقوقه الإنسانية إلى أقصى الحدود ، وقد جاء والاسترقاق راسخ متأصل فى جميع الأمم ، فدعا إلى تحرير العبيد وتخليصهم من ذل الرق ، ورغّب فى ذلك ترغيباً واسعاً ، فانبرى كثير من الصحابة ، وعلى رأسهم أبو بكر الصديق ، يفكّون رقاب الرقيق بشرائهم ثم عتقهم وتحريرهم . وقد جعل الإسلام هذا التحرير تكفيراً للذنوب مهما كبرت ، وأعطى للعبد الحقّ الكامل فى أن يكاتب مولاه ، أو بعبارة أخرى أن يستردّ حريته نظير قدر من المال يكسبه بعرق جبينه (والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم . . وآتوهم من مالِ الله الذى آتاكم) . وقد حرّم الإسلام بيع الأمة إذا استولدها مولاها ، حتى إذا مات رُدّت إليها حريتها . وكانوا فى الجاهلية يسترقون أبناءهم من الإماء ، فأزال ذلك الإسلام ، وجعلهم أحراراً كآبائهم .

ووسّع الإسلام حقوق الإنسان واحترمها فى الدين نفسه إذ نصّتْ آية كريمة على أن (لا إكْراهَ فى الدّين) فالناس لا يُكْرَهون على الدخول فى الإسلام ، بل يُتْرَكون أحراراً وما اختاروا لأنفسهم . وبذلك يضرب الإسلام أروع مثل للتسامح الدينى ، يقول تبارك وتعالى : (ولو شاء ربُّك لآمَنَ منْ فى الأرض كلهم جميعاً أفأنت تُكْرِه الناسَ حتى يكونوا مُؤْمنين) . وحقّا اضطُرَّ الرسول صلى الله عليه وسلم إلى امتشاق الحسام ، ولكن للدفاع عن دينِ الله لا للعدوان ، يقول جلّ وعز : (وقاتلُوا فى سبيل الله الّذين يقاتلونكُم ولا تعتَدُوا إنّ الله لا يُحب

المعتدين) . وقد دعا الذكر الحكيم طويلا إلى السلم والسلام فى مثل قوله تعالى : (وإن جنحوا للسَّلْم فاجنح لها وتوكَّل على الله) (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السِّلْم كافة ولا تتَّبعوا خُطوات الشَّيطان إنه لكم عدوٌّ مبين) لذلك لا نعجب إذا كانت تحية الإسلام هى « السلام عليكم » .

فالإسلام دين سلام للبشرية يريد أن ترفرف عليها ألوية الأمن والطمأنينة ، ومن تتمة ذلك ما وضعه من قوانين فى معاملة الأمم المغلوبة سلماً وحرباً ، فقد أوجب الرسول صلى الله عليه وسلم على المسلمين فى حروبهم أن لا يقتلوا شيخاً ولا طفلا ولا امرأة ، وعهده[1] لنصارى نجران من أروع الأمثلة على حسن المعاملة لأهل الذمة ، فقد أمر أن لا تُمَس كنائسهم ومعابدهم وأن تُترَك لهم الحرية فى ممارسة عباداتهم . ومضى الخلفاء الراشدون من بعده يقتدون به فى معاملة أهل الذمة معاملة تقوم على البر بهم والعطف عليهم . ومن خير ما يصور هذه الروح عهد عمر بن الخطاب لأهل بيت المقدس فقد جاء فيه أنه « أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصُلْبانهم . . . لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدَم ولا يُنتقَص منها ولا من حَيِّزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يُكرَهون على دينهم ولا يضارّ أحد منهم »[2] . وكان هذا العهد إماماً لكل العهود التى عُقِدت مع نصارى الشام وغيرهم .

والحق أن تعاليم الإسلام السمحة لا السيف هى التى فتحت الشام ومصر إلى الأندلس ، والعراق إلى خراسان والهند ، فقد كفل للناس حريتهم لا لأتباعه وحدهم ، بل لكل من عاشوا فى ظلاله مسلمين وغير مسلمين وكأنه أراد وحدة النوع الإنسانى ، وحدة يعمها العدل والرخاء والسلام .

---

(١) انظر السيرة النبوية (طبعة الحلبى) ٢٣٩/٤ وما بعدها و ٢٤١/٤ وما بعدها ، وقارن بفتوح البلدان للبلاذرى (طبع المطبعة المصرية بالأزهر) ص ٧٦ .

(٢) تاريخ الطبرى (طبع مطبعة الاستقامة بالقاهرة سنة ١٩٣٩) ١٠٥/٣ .

الفصل الثانى

القرآن والحديث

١

نزول القرآن وحفظه وقراءاته

اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يُنْزل القرآن على رسوله صلى الله عليه وسلم مُنجَّماً فى ثلاث وعشرين سنة . حتى تتهيأ النفوس البشرية لتلقى هذا الفيض الإلهى (وقرآناً فرقْناه لتقرأه على الناس على مُكْث ونزَّلناه تنزيلا) . وكان أول نزوله فى شهر رمضان وفى ليلة معلومة منه هى ليلة القدر (شهر رمضان الذى أُنْزل فيه القرآن) (إنّا أنزلناه فى ليلة القدْر) وظلّ ينزل به على الرسول الكريم روح القدس جبريلُ بلسان عربى بليغ (وإنه لتنزيل رب العالمين نزَل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين) (من كان عدوًّا لجبريل فإنه نزَّله على قلبك بإذن الله) (نزَّله روح القُدس من ربك بالحق) . إنه كلام الله أوحى به إلى رسوله المصطفى الذى اختاره لتبليغ آخر رسالاته إلى الناس كافّة . وكان الرسول يأمر بكتابة كل ما ينزل منه وقت نزوله ، واتخذ لذلك جماعة من كرام الكاتبين مثل على وعثمان وزيد بن ثابت وأُبىّ بن كعب . ومضى كثير من كَتَبة الصحابة يكتبونه لأنفسهم . على أنهم جميعاً لم يعوِّلوا على كتابته فقط ، إنما عولوا أولا على حفظه وأخْذه شفاهاً عن الرسول الأمى ، الذى كان يحفظه ويتلوه على المسلمين . وساروا على سُنَّته يتحفَّظونه ويتلونه آناء الليل وأطراف النهار مرتّلين له ترتيلا .

ونصوصُ القرآن صريحة فى أن سوره وآياته جميعاً رُتِّبت بوحى من الله إلى رسوله ، يقول جلّ شأنه : (وقال الذين كفروا لولا نُزِّل عليه القرآنُ جملةً واحدة كذلك لنثبِّت به فؤادك ورتّلْناه ترتيلا) (إن علينا جَمْعَه وقرْآنه) . فالرسول لم

يُرْفَعْ إلى الرفيق الأعلى إلا بعد ترتيب القرآن وآياته وسوره ترتيباً كاملا . وتلقَّاه عنه الصحابة بهذا الترتيب ، وكان حَفظته يسمَّون بالقُرَّاء . ولما استحرَّ القتل بهم يوم اليمامة لعهد أبي بكر خشى عمر بن الخطاب أن يستحرَّ بهم فى مواطن أخرى ، فيذهب قرآن كثير ، فدخل على أبى بكر لسنتين من خلافته ، فقال له : إن أصحاب رسول الله يتهافتون فى المعارك ، وإنى أخشى أن تأتى عليهم. وهم حَملة القرآن فيضيع ويُنْسَى ، فلو جمعته! ولم يزل عمر يراجعه حتى شرح الله صدره للفكرة ورأى رأيه ، وحينئذ عهد إلى زيد بن ثابت ــ أحد كتبة الوحى الأبرار ــ بجمعه ، فجمعه من العُسب واللِّخاف وصدور الحفظة المشهود لهم بالإتقان من مثل أبيّ بن كعب وعثمان وعلى وعبد الله بن مسعود وطلحة وحذيفة وأبى هُرَيْرَة وأبى الدَّرْداء وأبى موسى الأشعرى وتحريا فى الدقة ومبالغة فى الحيطة أمر أبو بكر أن لا يُقْبَل من حافظ شىء حتى يشهد شاهدان عدلان بصحته وأنه كُتِب بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولما جُمع المصحف حُفظ فى بيت أبى بكر ، ولما توفى وخلفه عمر انتقل المصحف إليه ، وبعد وفاته انتقل إلى حفصة ابنته أم المؤمنين .

وحدث فى عهد عثمان أن أخذ القُرَّاء فى الأمصار البعيدة يختلفون فى بعض الأداء ، ولم يكن بين أيديهم مصحف أبى بكر ليرجعوا إليه ، فأفزع ذلك حذيفة بن اليمان الذى كان يغزو فى فتح أرمينية وأذربيجان فهُرع إلى عثمان قائلا : إن الناس قد اختلفوا فى القرآن حتى إنى والله لأخشى أن يصيبهم مثل ما أصاب اليهود والنصارى من الاختلاف. فهَمَّ عثمان الأمر ، وأجمع رأيه على أن يكتب للمسلمين إماماً يرجعون إليه . وبعث إلى حفصة أن أرسلى إلينا بالمصحف ننسخ منه نسخاً ، ثم نرده إليك ، فأرسلت به إليه ، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وقال عثمان للرهط القرشيين ، وهم الثلاثة الأخيرون : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى كتابة شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم ، فصدعوا بأمره . وردّ عثمان مصحف أبى بكر إلى حفصة وطابت

نفسه ، وأمر أن تكتب المصاحف من مصحفه وأن يحملها القُرّاء إلى الأمصار ، ويُقْرِئوا الناس على حَرْفها ، وأرسل بالمصاحف إلى مكة والكوفة والبصرة ودمشق وغيرها من الأمصار الإسلامية ، وأمر بحَرْق ما سواها ، فأطاعته الأمة لما تعلم فى صنيعه من الرشد والهداية . ومضى القُرّاء فى العالم الإسلامى يُقْرِئون الناس القرآن على حَرْف هذا المصحف الإمام ، غير أن فروقاً حدثت بينهم فى القراءة داخل ذلك الحرف وهى المعروفة بالقراءات ، وقد وقع إجماع المسلمين على سبع منها . وهى قراءات ابن عامر وابن كثير وعاصم وأبى عمرو بن العلاء وحمزة ونافع والكسائى .

وواضح مما قدّمنا أن القرآن الكريم أُحيط بسياج متين من المحافظة على نصّه محافظة بالغة ، إذ كانت آياته تُكْتَبُ فور نزولها ، وكان الصحابة يكتبونها ويحفظونها ويتلونها فى صلواتهم وعباداتهم مراراً ليلا ونهاراً ، وسرعان ما جمعه أبو بكر فى مصحف واحد ، وأتبعه عثمان بمصحفه ، وبعثَ بنسخ منه إلى مختلف الأمصار الإسلامية .

٢

سور القرآن وتفسيره فى العهد الأول

عَدَدُ سور القرآن أربع عشرة ومائة تختلف طولا وقصراً ، وتتضمن السورة طائفة من الآيات ، وهى تبلغ عدا البسملة أربع عشرة ومائتين وستة آلاف . وقد قُسِّمت تسهيلا لتلاوته إلى ثلاثين جزءاً ، وكل جزء ينقسم إلى حزبين ، وكل حزب ينقسم إلى أربعة أرباع . وهى أقسام لتيسير التلاوة والحفظ . وقد نزلتْ كثرة السور بمكة ، ومن ثَم كانت السور إما مكية وإما مدنية نسبة إلى المدينة ، ومعروف أن الرسول صلى الله عليه وسلم ظل بمكة داعياً للدين الحنيف ثلاثة عشر عاماً انتقل بعدها إلى المدينة حيث ظل بها عشر سنوات إلى أن لبَّى نداء ربه . على أن بعض السور تمتزج فيها آيات مكية بأخرى مدنية ،

بتوقيف من الله جلّ جلاله . وجميع السور ما عدا فاتحة الكتاب حديث من الله إلى رسوله وأتباعه وخصومه .

والسور المدنية بصفة عامة طويلة ، وهي لا تختلف عن السور المكية من حيث الطول والقصر فحسب ، بل تختلف أيضاً فى المعانى التى تدور عليها . أما السور المكية فإنها تخوض غالباً فى الدعوة إلى عبادة الله وتوحيده ونَبْذ عبادة الأوثان والأصنام والإيمان بالبعث والحساب ، فمن عمل صالحاً فله الجنة والنعيم ، ومن عمل سيئاً فله النار والجحيم . وتتخلل ذلك الموعظة الحسنة والقصص عن الأمم الماضية والقرون الخالية والحث على التمسك بأهداب الفضيلة ودعوة العقل إلى التدبر فى خَلْق السموات والأرض ، فإن من تدبر فى هذا الخلق عرف أنه لا بد له من صانع أحكم نظامه وأقام ميزانه . أما السور المدنية فإنها تفصّل القول فى العمل الصالح الذى ينبغى على المسلم أن يقوم به ، ومن ثمّ كان يكثر فيها التشريع الدينى وكذلك التشريع الاجتماعى بكل مايتصل به من نظم الأسرة كالميراث والزواج والطلاق و برّ الوالدين ونظم المجتمع كالبيع والشراء والرهن والمداينة وقسمة الغنائم والزكاة وتحرير الرقيق ، مع بيان بعض العقوبات ووجوه التحليل والتحريم . وفى تضاعيف ذلك تُذْكَرُ العبادات وتتردد الدعوة إلى التوحيد والبعث والحساب والثواب والعذاب والإيمان بالكتب السماوية .

ودعت الحاجة منذ نزول القرآن على الرسول صلى الله عليه وسلم إلى تفسير بعض آياته ، فكان الصحابة يرجعون إليه ليفسّر لهم بعض ما يتوقفون فيه ، وكان هو أحياناً يبادر فيبيّن لهم بعض الآيات ، يقول جلّ ذكره : (وأنزلنا إليك الذِّكْرَ لتبيّن للناس ما نُزِّل إليهم) ويقول : (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آياتٌ محكمات هُنّ أم الكتاب وأُخَرُ متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زَيْغٌ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاءَ الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويلَه إلا اللهُ والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كلٌّ من عند ربنا وما يذكّر إلا أولو الألباب) . وتدل الآية الأولى دلالة واضحة على أن الرسول كان يبين للناس الأحكام القرآنية أمراً ونهياً ، فهو المفسر الأول لأوامر الله ونواهيه . وتدل الآية الثانية على أن فى القرآن آيات تحتاج تأويلا ، وهى تصرّح بذلك فى وضوح .

وفى مقدمة تفسير الطبرى عن ابن مسعود : « كان الرجل منا إذا تعلّم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن » . ويتضح من نص الآية الكريمة الثانية أنه سُمح لأولى العلم بالدين وأصوله من الصحابة أن يفسّروا للناس آى الذكر الحكيم ، وهم الذين يسمّيهم الله عز وجل باسم الراسخين فى العلم . ويحدثنا السيوطى فى كتابه « الإتقان[1] » أنه استطاع أن يجمع أكثر من عشرة آلاف حديث من تفاسير النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة وأن يدوّنها فى كتاب له بعنوان « ترجمان القرآن » وقد اختصره فى كتاب طبع فى ستة أجزاء سمّاه « الدر المنثور فى التفسير بالمأثور » . ويقول إنه اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة هم الخلفاء الراشدون وابن مسعود وأُبَىّ بن كعب وزيد بن ثابت وأبو موسى الأشعرى وعبد الله بن الزبير وابن عباس[2] ، ويصرّح بأن الرواية عن أبى بكر وعمر وعثمان نَزْرة ، أما على فقد رُوى عنه كثير . والآثار المروية عن زيد ابن ثابت قليلة ، وكذلك عن أبى موسى الأشعرى وابن الزبير . أما أُبَىّ فله سند فى الطبرى عن طريق أبى العالية ، وعاش ابن مسعود بعده مدة طويلة كوّن فى أثنائها مدرسة فى الكوفة حَملت عنه تفسيراً كثيراً ، وسَنده الجيِّد هو السُّدّى الكبير عن مرّة الهمدانى . وما نُسب إلى كل السابقين من تفسير لا يقاس إلى ما نُسب لابن عباس ، فهو أكثر الصحابة تفسيراً . وقد حمل تفسيره كثيرون من التابعين أمثال مجاهد وعطاء وعلى بن أبى طلحة . وهو يُعَدُّ المؤسس الحقيقى لعلم التفسير فهو الذى نَهجه ووضع أصوله ، واشتهر بأنه كان يرجع إلى أهل الكتاب فى قصص الأنبياء ، وأنه كان يعتمد على الشعر القديم فى تفسير بعض الألفاظ[3] . وقد حَمل ابن جرير الطبرى فى تفسيره الكبير ما أُثر عنه وعن الصحابة الأولين من تفسير الذكر الحكيم ، وكذلك حمل كل ما أضافته الأجيال التالية لعصر الصحابة فى تفسير هذا النبع الإلهى الذى لا تفنى كنوزه .

---

(١) انظر النوع الثامن والسبعين فى هذا الكتاب .

(٢) راجع النوع الثمانين .

(٣) انظر فى ابن عباس ودوره فى التفسير كتاب مذاهب التفسير الإسلامى لجولد تسيهر (ترجمة عبد الحليم النجار) ص ٨٣ وما بعدها .

٣

أثر القرآن فى اللغة والأدب

القرآن الكريم مفخرة العرب فى لغتهم، إذ لم يُتَحْ لأمة من الأمم كتاب مثله لا دينى ولا دنيوى من حيث البلاغة والتأثير فى النفوس والقلوب، سواء حين يتحدث عن عبادة الله الواحد الأحد وعظمته وجلاله، أو عن خَلْقه للسموات والأرض، أو عن البعث والنشور، أو حين يشرِّع للناس حياتهم ويقيمها على نهج سديد يحقق لهم السعادة فى الدارين: الأولى والآخرة.

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يكاد يمضى فى تلاوته حتى يروع سامعيه ويأخذ بمجامع قلوبهم، سواء أكانوا من أنصاره أم كانوا من أعدائه، فقد روَى الرواة أن الوليد بن المغيرة الذى كان من ألدِّ خصومه سمعه يتلو بعض آى الذكر الحكيم، فتوجَّه إلى نفر من قريش يقول لهم: «والله لقد سمعت من محمد كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجنّ، وإن له لحلاوة وإن عليه لطَلاوة، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمُغْدق»[1]. وواضح أنه أحسّ فى دقة أن آى القرآن تباين كلام الإنس من فصحائهم كما تباين كلام الجنّ الذى كان ينطق به كُهَّانهم. إنه ليس شعراً موزوناً، مما كان يدور على ألسنة شعرائهم، ولا سجعاً مقفى مما كان يدور على ألسنة كهانهم وغيرهم من خطبائهم، إنما هو نمط وحده فُصِّلت آياته بفواصل تطمئن عندها النفس، وتجد فيها وفى كل ما يتصل بها من ألفاظ رَوْحاً وعذوبة. إنه نمط باهر، بل هو نمط معجز ببيانه وبلاغته، يقول جَلّ ذكره: (قل لئن اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظَهيرا) (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين). وفعلا عجز العرب عن معارضته عجزاً تامًّا، فمضوا يجرِّدون سيوفهم ويُغْمِدون ألسنتهم، ولم تلبث المعجزة الباهرة أن استعلت،

(١) انظر تفسير الزمخشرى فى سورة المدثر. مغدق: كثير المياه.

ولم تلبث أضواؤها أن انتشرت فى الجزيرة العربية ، وسرعان ما بزغت على دروب العالم ومسالكه من أواسط آسيا إلى جبال البرانس مما هيأ لانقلاب واسع فى تاريخ اللغة العربية وأدبها ، ونُجْمل ذلك إجمالا ، فإن تفصيله لا يتسع له كتاب فضلا عن صحائف معدودة .

وأول ما كان من آثار القرآن الكريم أنه جَمَع العرب على لهجة قريش ، وحقًّا كانت هذه اللهجة تسود القبائل الشمالية فى الجاهلية ، غير أن هذه السيادة لم تكن تامة ، فقد كان الشعراء هم الذين يستخدمونها غالباً ، أما قبائلهم فكانت تلوك لهجات تختلف عن اللهجة القرشية قليلا أو كثيراً ، حسب قربها من مكة أو بعدها . فعَمِلَ القرآن على تقريب ما بين هذه اللهجات من فروق واستكمال السيادة للهجة القرشية ، إذ كان العرب يتلونه آناء الليل وأطراف النهار . وأخذت هذه اللهجة تعمُّ بين القبائل الجنوبية متغلغلة فى الأنحاء الداخلية التى كانت لا تزال تتكلم الحميرية . ولما فُتحت الفتوح ومُصِّرت الأمصار أخذت لهجته تسود فى مشارق العالم الإسلامى ومغاربه ، إذ كانت تلاوته فرضاً مكتوباً على كل مسلم ، وحثَّ الإسلام على حفظه وترتيله ، يقول عزّ شأنه : (ورتِّل القرآن ترتيلا) (ومَنْ أعرضَ عن ذكرى فإن له معيشة ضَنْكاً ونحشره يوم القيامة أعمى قال ربّ لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنْسَى) . وبذلك تحول المسلمون فى جمهورهم إلى حَفَظة للقرآن ، يتلوه كبيرهم وصغيرهم حتى من سكنوا منهم الصحارى البعيدة ورءوس الجبال ، مما جعلهم ينطبعون بطوابعه اللغوية .

ومن غير شك أتاح هذا الحفظ للهجة قريش لا أن تنتشر فى العالم الإسلامى فحسب ، بل أن تُحْفَظ أيضاً وتظل على مَرّ العصور جديدة غَضَّةً لا تبلى مع الزمان ، وأيضاً فإنها اكتسحت ما لقيت من لغات ، إذ اتخذتها شعوبٌ — لا حصر لها — لسانها ، فأصبح هو اللسان الأدبى من أواسط آسيا إلى المحيط الأطلسى . فكل من عاشوا فى هذه الأنحاء تكلموا العربية القرشية ، إذ حلّت من ألسنتهم محل لغاتهم الأولى وأصبحوا عرباً يعبّرون بالعربية عن مشاعرهم وعقولهم ، وكل ذلك بفضل القرآن الكريم ، فهو الذى حفظ العربية من الضياع ، ونشرها فى أقطار الأرض ، وجعلها لغة حية خالدة .

وثانى آثاره أنه حوّل العربية إلى لغة ذات دين سماوى باهر ، وبذلك أحلّ فيها معانى لم تكن تعرفها من قبله ولا كانت تعرف العبارة عنها ، وعادة يقف مؤرخو الأدب عند ألفاظ ابتدأها ابتداء مثل : الفرقان والكفر والإيمان والإشراك والإسلام والنفاق والصوم والصلاة والزكاة والتيمم والركوع والسجود ، وغير ذلك من كلمات الدين الحنيف ، ولكن من الحق أن المسألة لم تكن مسألة ألفاظ فحسب ، إنما كانت أيضاً مسألة دين جديد ، له مضمونه الذى لم يكن العرب يعرفونه ، من الدعوة إلى عباد الله واشتقاق الدليل عليها وعلى وحدانيته من خَلْق السموات والأرض ومن تاريخ الأمم وما يجرى من عظات ومن تاريخ الأنبياء وما يحمل من عبر ، ومن تقرير البعث والنشور وبَسْط صُوَر الثواب والعقاب مستعيناً فى ذلك بالوجدانات الغريزية وبالعقول وتمييزها وما ينبغى أن يتهيأ لها من صواب الرأى . وإنه ليترقّى دائماً من معرفة الحواس إلى معرفة الأذهان ، وفى خلال ذلك يشرّع للناس ما ينبغى أن تكون عليه حياتهم من نظام فى أُسَرِهم وفى مجتمعهم بحيث تسودهم الرحمة والعدالة كما تسودهم أخوة عامة ، يتبذّل فيها الغنى للفقير من مال الله ما يعينه ، أخوة لا أسود فيها ولا أبيض ولا عربى ولا أعجمى . وكل هذه الدعوة الكريمة التى نزل فيها مائة وأربع عشرة سورة تُعَدّ ابتداء ، بعباراتها وبمعانيها . ونستطيع أن نقول إن كل ما كسبته العربية بعد ذلك من عظات عند الحسن البصرى وغيره من كبار الواعظين ، إنما هو من فيض القرآن ومعينه الغزير .

وبمرّ الزمن أخذت تتكون حوله علوم كثيرة ، ولا نبالغ إذا قلنا إن كل ما كسبه العرب من معارف إنما كان بفضل ما غرس فيهم القرآن من حب العلم كما قدمنا فى غير هذا الموضع . وقد أخذوا يشتقون منه مباشرة علوماً كثيرة كعلم القراءات وغيره من العلوم التى عرض لها السيوطى فى كتابه « الإتقان فى علوم القرآن » وهو يقع فى مجلدين يصور فيهما ما انبثق حوله من علوم مختلفة كعلم التفسير وعلم أسباب النزول وعلم نحوه وإعرابه وعلم عامّه وخاصّه مما هيأ لظهور علوم البلاغة . ومن العلوم المهمة المتفرعة منه علم الفقه وأصوله . ولا نبالغ إذا قلنا إن العلوم الإسلامية كلها إنما قامت لخدمته ، فهو الذى هيأ بقوة لنهضة العرب العلمية .

وثالث آثاره أنه هذّب اللغة من الحوشية ومن اللفظ الغريب ، فأقامها فى هذا الأسلوب المعجز من البيان والبلاغة ، ويكفى أن تعود إلى معلقة مثل معلقة لبيد أو إلى شعر قبيلة مثل هذيل وديوانها المطبوع لترى كيف أنه حقًّا اختطَّ أسلوباً جزلا ، له رونق وطلاوة ، مع وضوح القصد والوصول إلى الغرض من أقرب مسالكه . وهو أسلوب ليس فيه زوائد ولا فضول ، فاللفظ على قدر المعنى ، وكأنما رُسم له رسماً ، وهو لفظ لا يرتفع عن الأفهام ولا عن القلوب ، بل يقرب منها حتى يلمس الشغاف . ومما لا شك فيه أن القرآن هو الذى ابتدع هذا الأسلوبَ المحكم ، بل هذا الأسلوبَ السهل الممتنع الذى يلذ الآذان حين تستمتع له والأفواه حين تنطق به والقلوب حين تصغى إليه ، هذا الأسلوب الذى يميز عربيتنا ، والذى استطاع أن يفتح القلوب حين فتح العرب الأمصار فإذا أهلها مشدوهون ، وإذا هم يهجرون لغاتهم المختلفة إلى لغته الصافية الشفّافة . واقرأْ فى قوارعه حين يتحدث عن البعث والحساب والعذاب وفى ملاطفاته حين يتحدث عن الرحمة والمغفرة أو حين يتحدث إلى رسوله فإنك ستجد الأسلوب دائماً مطردا فى جودة الإفهام وروعته مع سهولة اللفظ ومتانته وسلامته من التكلف ، وانظر إلى قوله تعالى يتوعد المشركين وما ينتظرهم يوم يُبْعَثُون : (ونُفخ فى الصور فَصعِقَ مَنْ فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نُفخ فيه أخرى فإذا هم قيامٌ ينظرون . وأشرقت الأرض بنور ربّها ووُضع الكتاب وجِيء بالنبيين والشهداء وقُضِيَ بينهم بالحق وهم لا يُظْلَمون . ووفِّيت كلُّ نفسٍ ما عملتْ وهو أعلم بما يفعلون . وسِيق الذين كفروا إلى جهنّم زُمَراً حتى إذا جاءوها فُتحت أبوابها وقال لهم خزَنَتُها ألم يأتكم رُسلٌ منكم يتلون عليكم آيات ربكم ويُنْذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقّت كلمة العذاب على الكافرين . قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مَثْوَى المتكبرين) . وقارن بين ذلك وبين ملاطفته جلّ وعز لرسوله فى سورة الضحى : (والضحى والليل إذا سَجَى ما ودّعك ربُّك وما قَلَى وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى ألم يجدك يتيماً فآوى ووجدك ضالاً فَهَدَى ووَجَدك عائلا فأغنى فأما اليتيمَ فلا تَقْهَرْ وأما السّائل فلا تنْهر وأما بنعمة ربِّك فحدِّثْ) فلن

تجد هنا ولا هناك كلمة متوعرة ولا لفظاً ضعيفاً ، إنما تجد روعة الأسلوب دائماً وجزالته وعذوبته ونصاعته ، مع دقة العبارات واستيفائها لمعانيها ، ومع الألفاظ المستحسنة فى الآذان وعلى الأفواه ، الألفاظ التى تغذى العقول برحيقها الصافى وتشفى القلوب والنفوس .

وهذا الأسلوب البالغ الروعة الذى ليس له سابقة ولا لاحقة فى العربية هو الذى أقام عمود الأدب العربى منذ ظهوره ، فعلى هَدْيه أخذ الخطباء والكتاب والشعراء يصوغون آثارهم الأدبية مهتدين بديباجته الكريمة وحُسْن مخارج الحروف فيه ، ودقة الكلمات فى مواضعها من العبارات بحيث تحيط بمعناها ، وبحيث تجلِّى عن مغزاها ، مع الرصانة والحلاوة . وكان العرب — ولا يزالون — يتحفَّظونهُ ، فهو معجمهم اللغوى والأدبى الذى ساروا على هُداه ، مهما اختلفت أقطارهم أو تباعدت أمصارهم وأعصارهم . يقول الجاحظ : « وكانوا يستحسنون أنْ يكون فى الخطب يوم الحفْل وفى الكلام يوم الجُمُع آىٌ من القرآن فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار والرقة وسَلَس الموقع . وقال الهيثم بن عدى : قال عمران بن حِطَّان : إن أول خطبة خطبتها عند زياد — أو عند ابن زياد — فأُعْجب بها الناس وشهدها عمى وأبى ، ثم إنى مررت ببعض المجالس فسمعت رجلا يقول لبعضهم : هذا الفتى أخطب العرب لو كان فى خطبته شىء من القرآن »[1] . وما ذلك إلا لفتنتهم بأسلوبه وإحكام نَظْمه ، فإنك تجد العبارة منه ، بل اللفظة ، حين تأتى فى سياق كلام كاتب أو خطيب أو شاعر تضىء ، كأنها الشهاب الساطع . ولا يزال أدباء العرب يَسْتقون من فيضه وينهلون من نبعه الغزير ما يقوِّم ألسنتهم ، ويكفل لهم إحسان القول بدون تكلف أو تعمل أو اجتلاب للألفاظ من بعيد .

٤

الحديث النبوى

الحديث هو كل ما حُكى عن النبى صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير ، وهو بذلك ليس جميعه أقوالا له ، بل منه ما يسمَّى باسم

(١) البيان والتبيين ١ / ١١٨ .

الآثار وهي ما رواه الرواة حكاية عن خُلقه أو عمله أو في شأن من شئونه. وضم إليه الرواة كثيراً مما حُكي عن الصحابة وخاصة الخلفاء الراشدين ، إذ كانوا يقتدون به في أقوالهم وأفعالهم عملا بقوله تعالى : (لقد كان لكم في رسول الله أُسْوة حسَنةٌ) ويقول الجاحظ : «كانوا يكرهون أن يقولوا سُنَّة أبي بكر وعمر ، بل يقال : سنة الله وسنة رسوله»[1]. وفي ابن سعد عن صالح بن كيسان قال : « اجتمعت أنا والزُّهْري ونحن نطلب العلم فكنا نكتب السُّنن ، قال : وكتبنا ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : ثم قال : نكتب ما جاء عن الصحابة فإنه سُنَّة ، قال : قلت إنه ليس بسنة ، فلا نكتبه ، قال : فكتب ولم أكتب ، فأنجح وضيَّعت[2] » .

وأهمية الحديث ترجع إلى أن القرآن الكريم يذكر أصول الدين الإسلامي وأحكامه مجملة دون تفصيل وأنه هو الذي يفصِّلها ، فالقرآن مثلا لم يذكر تفاصيل الصلاة والزكاة وهما من أهم أركان الإسلام ، بل اكتفى بمثل قوله تعالى (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) وفصَّل الحديث أوقات الصلاة وكيفياتها ، كما فصل القواعد والأسس التي يجب اتباعها في جَمْع الزكاة وتوزيعها . وهذان أمران من مئات الأوامر التي تناولتها أفعال الرسول وأقواله . فهو الذي بيَّن أحكام الشريعة وصوّرها عمليا كما صور المبادئ الأخلاقية والاجتماعية والإنسانية التي جاء بها الرسول . وبذلك كان مكملا للقرآن ، وخاصة حين تُجْمَل أحكامه أو يَشْتبه المراد من معنى بعض آياته ، فقد رُوي عن علي بن أبي طالب أنه لما أرسل ابنَ عباس ليحاجّ بعض الخوارج أوصاه بأن لا يعارضهم بالقرآن لأنه حمّالُ أوجه ، ويحتمل معاني مختلفة ، وبأن يكون عماده السُّنَّة فلا يجدوا منها مخرجاً[3] .

وكان الصحابة يروون حديث الرسول صلى الله عليه وسلم في حياته وكان هو نفسه يحثهم على ذلك ، فعن ابن عباس قال : قال رسول الله : « اللهم ارحم خلفائي قلنا

---

(١) الحيوان للجاحظ (طبعة الحلبي) ج ٢ ق ٢ ص ١٣٥ . ٣٣٦/١ .

(٢) طبقات ابن سعد (طبعة أوربا)

(٣) نهج البلاغة (طبعة بيروت) ١٤٦/٢ .

يا رسول الله ومن خلفاؤك ؟ قال : الذين يروون أحاديثي ويعلمونها الناس[1]» .
وكان كثيراً ما يقول للوفود : احفظوا أحاديثي واخبروا بها مَنْ وراءكم من العشائر ، وتتكرر في خطبة حجة الوداع المشهورة : « ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب » . وكان يُرْسِل في القبائل رسله ليعلموهم القرآن وسنته . ومرَّ بنا أنه لما أرسل معاذ بن جبل إلى اليمن سأله : بم تَقْضي ؟ فقال : بكتاب الله ، فقال : فإن لم تجد ؟ قال : فبسنة رسوله . فالحديث كان متداولا في حياة الرسول وكان الرسول يأمر بنشره وإذاعته في الناس ، حتى يقفوا على أوامر الدين ونواهيه وما أخذهم به من آداب ونظم .

ولما توفّي الرسول وانتشر الصحابة في الأمصار الإسلامية أخذوا يبلّغون كتاب الله وسنة رسوله أينما ذهبوا ، وكادوا لا يتركون صغيرة ولا كبيرة من أفعاله وأقواله إلا أحصوها وتناقلوها ، واشتهر من بينهم جماعة بكثرة ما رُوى عنهم في هذا الباب مثل أبي هريرة وعائشة وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو وابن عباس وأنس بن مالك ، وكثير غيرهم . حتى إذا ذهب الصحابة خلفهم التابعون يحكون ما سمعوه منهم . وبذلك أخذ الحديث ينتقل من جيل إلى جيل ، فالمحدّث يقول : سمعت من فلان عن فلان أو حدثني أو أخبرني أو أنبأني . ومن ثمّ تكوّن سَنَد الحديث وتكونت السلاسل الطويلة من رُواته ، تلك السلاسل التي تضخمت مع مر الزمن بعامل طول المسافة بين المحدّث ومن ينقل عنهم حتى عصر الرسول . وقد يكون للحديث الواحد أكثر من سند بسبب تفرّق الصحابة في الأرض ، وبذلك تعددتْ طرق رواية الحديث ، كما تعدد حاملوه ، وأصبح يحتوى متناً وسنداً يطول ويقصر . وطبيعي أن يسمّى حديثاً لأنه كان يعتمد على الرواية والنقل الشفوى ، وهو يسمّى أيضاً السنة ، وهي في اللغة العادة ويراد بها العادة المقدسة التي رُويت عن النبي وصحابته ، وهي تُسْتَعْمل في القرآن بمعنى تقاليد الأسلاف الأولين وقد حوّلها المسلمون إلى التقاليد التي حُكيت عن الرسول وصحبه .

ومما لا ريب فيه أن بعض أحاديث الرسول دُوِّن في حياته ، وخاصة تلك

---

(١) انظر في هذا الحديث مقدمة القسطلاني على البخاري .

التى تتصل بالزكاة حين كان يكتب إلى بعض الأقوام يبيِّن لهم فرائض دينهم ، على نحو ما نجد ذلك فى بعض كتبه المأثورة[١] . ورخَّص النبى فى بعض الأحوال لنفر من الصحابة أن يكتبوا حديثه ، فقد أذن لرجل من الأنصار شكا إليه سوء حفظه لما يسمع منه أن يستعين على حفظه بيمينه[٢] ، وعن رافع بن خُديج قال : « قلنا يا رسول الله إنا نسمع منك أشياء أفنكتبها ؟ قال : اكتبوا ولا حرج[٣] » ، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكتب ما يسمع من حديث فأذن له[٤] ، وكان يسمِّى صحيفته التى كتبها عن الرسول الصادقة[٥] . وفى بعض الأحاديث أن الرسول أمر أصحابه أن يكتبوا لرجل يمنىٍّ خطبةً سمعها منه ، تضمنت بعض الأحكام الدينية[٦] . على أنه ينبغى أن لا نبالغ فى تصور ما كان من هذه الكتابة لحديث الرسول فى حياته ، فإنها كانت محدودة جدًّا ، وكان الرسول يَنْهى أن تصبح كتابةُ حديثه عامةً ، حتى لا يختلط بالقرآن ، وهذا هو السبب فيما أُثر عنه من أقوال تنهى عن تدوين حديثه من مثل قوله لأصحابه : « لا تكتبوا عنى شيئاً إلا القرآن فمن كتب شيئاً فليمحه »[٧] .

ومما يدل دلالة قاطعة على أن جمهور الحديث لم يُكتب على عهد الرسول أن نجد عمر بن الخطاب يستشير الصحابة فى كتابته ، وطفق يستخير الله فيها شهراً ثم أصبح يوماً وقد عزَم الله له فقال : إنى كنت أردت أن أكتب السُّنن وإنى ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً فأكبُّوا عليها وتركوا كتاب الله تعالى ، وإنى والله لا أُلْبِس كتاب الله بشىء أبداً »[٨] . فترك كتابة السنن ، وتبعه كثير من الصحابة يروون الحديث ويكرهون أن يكتبه سامعهم مثل زيد بن ثابت وأبى هريرة وأبى سعيد الخُدْرى وأبى موسى الأشعرى ، واقتدى بهم كثير من التابعين وإن كانت أخذت تظهر عند بعضهم بوادر كتابته ، ولكنه على كل حال لم يدوَّن فى القرن الأول للهجرة تدويناً عامًّا . وظل الأمر على ذلك حتى تولى عمر بن عبد العزيز

(١) انظر فى ذلك مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة لحميد الله (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) .
(٢) تقييد العلم للخطيب البغدادى (طبعة يوسف العش) ص ٦٥ .
(٣) تقييد العلم ص ٧٢ .
(٤) تقييد العلم ص ٧٤ وما بعدها
(٥) تقييد العلم ص ٨٤ .
(٦) نفس المصدر ص ٨٦ .
(٧) تقييد العلم ص ٢٩ وما بعدها .
(٨) نفس المصدر ص ٤٩ وما بعدها .

الخلافة (٩٩ — ١٠١ هـ) فأمر بتدوينه . جاء فى حاشية[١] الزرقانى على موطأ مالك : « لم يكن الصحابة ولا التابعون يكتبون الأحاديث إنما كانوا يؤدونها لفظاً ويأخذونها حفظاً إلا كتاب الصدقات والشيء اليسير .. حتى خيف عليها الدروس وأسرع فى العلماء (من حفـّاظها) الموت ، فأمر عمر بن عبد العزيز أبا بكر الحزمى (والى المدينة) فيما كتب إليه : أن انظرْ ما كان من سُنَّة أو حديث فاكتبْه . وقال مالك فى الموطأ رواية محمد بن الحسن : أخبرنا يحيى بن سعيد أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أبى بكر محمد بن عمرو بن حزم ، أن انظرْ ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أو سُنَّته أو نحو هذا فاكتبه لى فإنى خفت دروس العلم وذهاب العلماء ، علـّقه البخارى فى صحيحه ، وأخرجه أبو نُعَيْم فى تاريخ أصبهان بلفظ : كتب عمر إلى الآفاق : انظروا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجمعوه » . وتوفّى عمر قبل أن يصله عمل ابن حزم فى هذا الصدد . وأول مدوّن للحديث بالمعنى الدقيق لكلمة تدوين هو ابن شهاب الزهرى[٢] المتوفى سنة ١٢٤ للهجرة . وأخذ التصنيف والتأليف فى الحديث يكثر بعده ويتسع ، وسرعان ما ظهر موطأ مالك ثم تتابعت صحاحه مثل صحيح البخارى وصحيح مسلم .

و إنما قدمنا ذلك ليقف القارئ على أن الحديث تأخر تدوينه ، وكان طبيعيًّا أن يتداوله الأعاجم والمولدون قبل هذا التدوين حتى ينهجوا نهج الرسول ويقتفوا أثره ، فزادوا ونقصوا فى عبارته وقدموا فى كلماتها وأخّروا وأبدلوا ألفاظاً بألفاظ ، ومن أجل ذلك رأى أئمة اللغة والنحو من علماء البصرة والكوفة وبغداد أن لا يحتجوا بشيء من الحديث فى إثبات لغة العرب والاستدلال على القواعد التى دونوها ، لأن الأحاديث لم تكن تُرْوَى بألفاظها كما جاءت عن الرسول إنما كانت — تُرْوَى غالباً — بمعانيها ، ومن أجل ذلك كان كثير من الأحاديث تتعدد رواياته .

---

(١) انظر الحاشية ١ / ١٠ .

(٢) انظر فى ترجمته كتاب الأنساب للسمعانى ٢٨١ وابن خلكان (طبعة بولاق) ١ / ٥٧١ وتهذيب التهذيب لابن حجر ٩ / ٤٤٥ وتذكرة الحفاظ للذهبى ١ / ١٠٢ والمعارف لابن قتيبة ص ٢٣٩ وصفة الصفوة ٢ / ٧٧ .

على أن طائفة من الأحاديث رُويت رواية َ تواتر، ومن ينظر فى هذه الأحاديث وما نصّ عليه العلماء بأنه رُوِىَ بلفظه يعرف أنه عليه السلام أوتى جوامع الكلم ، وحقًّا ما يقوله الجاحظ من أنه « لم يتكلم إلا بكلام قد حُفَّ بالعصمة وشُيِّد بالتأييد ويُسِّر بالتوفيق » [١] ويضرب الجاحظ لبيانه الرائع بعض الأمثلة من حديثه الذى قلّ عدد حروفه وكثرت معانيه ، فمن ذلك قوله للأنصار : « أما والله ما علمتكم إلا لتقلّون عند الطمع ، وتكثرون عند الفزع » وقوله « المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يدٌ على مَنْ سواهم » ، وقوله : « لا تزال أمتى صالحاً أمرها ما لم ترَ الأمانة مغنماً والصَّدَقة مغرماً » ، وقوله « المستشار مؤتمن » ، وقوله : « إن أحبَّكم إلى وأقربكم منى مجالس يوم القيامة أحاسنُكم أخلاقاً الموطّئون أكنافاً الذين يألفون ويُؤْلفون . وإن أبغضكم إلىّ وأبعدكم منى مجالس يوم القيامة الثرثارون المتفيهقون » ، وقوله « لا تَجِنْ يمينك على شمالك » وقوله : « ما أملقَ تاجر صَدوق » وقوله : « رَحِمَ الله عبداً قال خيرا فغنمَ أو سكت فسلمَ » وقوله : « إن الله يرْضَى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا : يرْضَى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأن تعتصموا بحبله جميعاً ولا تفرّقوا وأن تُناصحوا من ولاّه الله أمركم ، ويكره لكم قيلَ وقالَ وكثرة السؤال وإضاعة المال » وقوله : « يقول ابن آدم : مالى مالى ، وإنما لك من مالك ما أكلت فأفنيتَ أو لبستَ فأبليتَ أو وهبتَ فأمضيتَ » وقوله : « إن قوما ركبوا سفينة فى البحر فاقتسموا فصار لكل رجل موضع ، فنقَر رجل موضعه بفأس ، فقالوا : ما تصنع ؟ قال : هو مكانى أصنع به ما شئتُ ، فإن أخذوا على يديه نجا ونجوا وإن تركوه هلك وهلكوا » وقوله : « حصِّنوا أموالكم بالزكاة وداووا مرضاكم بالصدقة » وقوله : « من ذَبَّ عن لحم أخيه بظهر الغيب كان حقا على الله أن يحرِّم لحمه على النار » وقوله : « أوصانى ربى بتسع : أوصانى بالإخلاص فى السرّ والعلانية ، وبالعدل فى الرّضا والغضب ، وبالقصد فى الغنى والفقر ، وأن أعفو عمن ظلمنى ، وأعطى من حَرَمنى ، وأصل من قطعنى ، وأن يكون صمتى فكراً ونطقى ذكراً ونظرى عِبراً » وقوله : « إن الأحاديث ستكثر

---

(١) البيان والتبيين ٢ / ١٧ .

بعدى كما كثرت على الأنبياء من قبلى، فما جاءكم عنى فاعرضوه على كتاب الله فما وافق كتاب الله فهو عنى قلته أو لم أقله » . ويذكر الجاحظ طائفة من أقواله التى دارت بين الناس دوران الأمثال والتى تُعَدُّ ذخيرة أدبية رائعة من نحو قوله صلى الله عليه وسلم[١] :

يا خيلَ الله اركبى — مات حَتْفَ أنفه[٢] — لا تنتطح فيه عَنْزان — الآن حَمِيَ الوطيس[٣] — كل الصَّيْد فى جوف الفَرَا[٤] — هُدْنة على دَخَنٍ وجماعة على أقذاء[٥] — لا يُلْسَع المؤمن من جُحْر مرتين . ومن أمثاله أيضاً : إن المُنْبَتَّ لا أرضاً قَطَعَ ولا ظهراً أبقى[٦] — إيا كم وخضراءَ الدِّمن[٧] — الناس كإبلٍ مائة لا تجد فيها راحلة[٨] .

وإذا كنا قد عرضنا فى غير هذا الموضع لأثر القرآن فى اللغة والأدب فإن للحديث هو الآخر أثراً فيهما ، وإن كان لا يبلغ أثر القرآن العظيم ، لأنه دونه فى البلاغة، وإن كان قائله أبلغ العرب قاطبة وأفصحهم . ويمكن أن نلاحظ أثره فى أنه عاون القرآن الكريم فى انتشار العربية ، وفى حفظها وبقائها ، وكان له أثر أيضاً فى توسيع المادة اللغوية بما أشاع من ألفاظ دينية وفقهية لم تكن تُسْتَخْدم من قبل هذا الاستخدامَ الخاص ، وقد أقبل العلماء فى مختلف الأمصار الإسلامية ، وعلى تعاقب الأعصار ، يدرسونه ويتحفظونه ويشرحونه ويستنبطون منه . وحقًّا أن كثرته رُويت بالمعنى . ولكن هذا لا يقلل من قيمته اللغوية ، إذ كانت ألفاظه تدور فى عصور سبقت عصر فساد اللغة ، وهى من أجل ذلك ألفاظ عربية سليمة ، وبالتالى هى كنز ثمين . وقد استمد المتأدبون من هذا الكنز فى رسائلهم وأشعارهم ما أضاف إليها — على مر العصور — رونقاً وطلاوة ، وما يزال ذلك شأنهم إلى اليوم . وقد

---

(١) انظر البيان والتبيين ٢/١٥ وراجع كتب الأمثال .

(٢) مثل يضرب لمن مات على فراشه .

(٣) الوطيس : التنور . يضرب مثلا فى اشتداد الحرب .

(٤) الفرا : حمار الوحش . يضرب مثلا فى نفاسة الشيء أو الشخص .

(٥) دخن : حقد .

(٦) المنبت : من أسرع بناقته حتى هلكت فلم يقض ما يبغى من حاجة أو من سفر . والظهر : الناقة التى يركبها .

(٧) الدمن : البعر المتلبد . يضرب مثلا للتنفير من المرأة الحسناء تنشأ فى منبت سيء .

(٨) الراحلة : الصالحة لأن ترحل .

جاءت فيه أحرف غريبة من لغات القبائل ، إذ كان الرسول يخاطب بعض وفودهم بلغاتهم ، وبقيت من ذلك آثار مختلفة كحديثه المشهور الذى أبدل فيه أل بأم كما يصنع بعض العرب من حمير إذ قال : « ليس من امبر امصيام فى امسفر » ، أى ليس من البر الصيام فى السفر . ومن أجل هذا وأمثاله ألف العلماء فى غريبه كتباً ، من أهمها كتاب غريب الحديث للقاسم بن سلام .
ومن تأثيره أيضاً نشأة الكتابة التاريخية لا فى السيرة النبوية فحسب ، بل أيضاً فى تراجم المحدِّثين للحكم لهم أو عليهم فيما نُقل عنهم . ومن غير شك هو السبب فى أن المسلمين أشد الأمم عناية بتواريخ رجالهم على نحو ما نعرف فى مثل طبقات ابن سعد وأُسْد الغابة والإصابة والاستيعاب وميزان الاعتدال للذهبى . فالحديث هو الذى فتح باب الكتابة التاريخية وهيأ لظهور كتب الطبقات فى كل فن . وهذا غير ما نشأ عنه من علوم الحديث وغير مشاركته فى علوم التفسير والفقه ، مما بعث على نهضة علمية رائعة .

الفصل الثالث

الشعر

١

كثرة الشعر والشعراء المخضرمين

تزخر كتب الأدب والتاريخ بما نُظم من أشعار فى صدر الإسلام ، وهى أشعار كثيرة ، نلقاها فى كل ما يصادفنا من أحداث العصر ، فليس هناك حدث كبير إلا ويواكبه الشعر ويرافقه ، وكان أكبر الأحداث دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام ، وهى دعوة اضطرته إلى حَمْل السيف للذياد عنها ، وانقسمَ العرب بإزائها مؤمنين ومشركين فكان هناك من آمنوا وحَسُنَ إيمانهم ومن وقفوا يدافعون عن الدين القديم ويصدّون عن سبيل الله ، وكل ذلك نجده ماثلا على ألسنة الشعراء . واستقام أمر الإسلام فى الجزيرة ، غير أن أقواماً ارتدوا لعهد أبى بكر ، فحاربهم ومثّل الشعر هذه الحرب ، ثم كانت الفتوح ، فانطلق العرب يحملون مشاعل الإسلام إلى العالم وهم يُنْشدون أناشيد الجهاد . وتلت ذلك فتنة عثمان وحروب على وطلحة والزبير وعائشة من جهة وحروب على ومعاوية من جهة ثانية ، فتَعلّتْ أصوات الشعراء وتصايحوا بأشعارهم فى كل مكان .

ومضى كثيرون ينظمون فى هذا العصر لامع الأحداث ، بل مع أنفسهم وقبائلهم مستضيئين إلى حد كبير بالإسلام وهَدْيه الكريم . فالشعر لم يتوقف ولم يتخلف فى هذا العصر ، وهذا طبيعى لأن من عاشوا فيه كانوا يعيشون من قبله فى الجاهلية وكانوا قد انحلت عُقْدَة لسانهم وعبرّوا بالشعر عن عواطفهم ومشاعرهم ، فلما أتمّ الله عليهم نعمة الإسلام ظلوا يصطنعونه وينظمونه. واقرأ فى كتب الأدب والتاريخ مثل الأغانى والطبرى وسيرة ابن هشام وكتب الصحابة مثل الإصابة والاستيعاب فستجد الشعر يسيل على كل لسان ، واقرأ فى

المفضليات والأصمعيات فستجد المفضل الضبي والأصمعي يحتفظان فى كتابيهما بغير مطولة للمخضرمين ، وقد عقد ابن قتيبة فى الشعر والشعراء تراجم لكثيرين منهم ، وسلك ابن سلام فى كتابه « طبقات فحول الشعراء » طائفة من مجوّديهم البارعين .

ومن يرجع إلى كل هذه المصادر يستقر فى نفسه أن الشعر ظل مزدهراً فى صدر الإسلام ، وليس بصحيح أنه توقّف أو ضعف كما ظن ذلك ابن خلدون وتابعه فيه بعض المعاصرين إذ يقول فى مقدمته : « انصرف العرب عن الشعر أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحى وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونَظْمه فأخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض فى النظم والنثر زماناً ، ثم استقرَّ ذلك وأونس الرشد من الملة ، ولم ينزل الوحى فى تحريم الشعر وحَظْره وسمعه النبي صلى الله عليه وسلم وأثاب عليه ، فرجعوا حينئذ إلى ديدنهم منه[1] » . وكأنه يجعل توقفهم عن الشعر مدة نزول الوحى لعصر الرسول ، وواضح أن هذا لا يصدق على المشركين لأنهم لم يُشْغَلُوا بالدعوة ، ومعروف أن جمهور القبائل العربية إنما دخل فى الإسلام بعد فتح مكة فى العام الثامن للهجرة . وإذن فانصرافهم عن الشعر — إن صح — إنما كان لمدة عامين أى إلى أن انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى . وهو نفسه ينقض ما قاله فى أول كلامه بما قاله فى آخره من أن الرسول سمع الشعر وأثاب عليه ، ونحن نعرف أنه كان يقف بجانبه ثلاثة من شعراء المدينة ينافحون عنه ويردّون على شعراء مكة وغيرهم من خصومه ذائدين مدافعين ، وهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رَواحة . وحتى فى العامين الأخيرين من حياته عامى الوفود كان كل وفد يَقْدَم ومعه خطباؤه وشعراؤه ، وبمجرد أن يَمْثُلوا بين يديه يتحدث خطباؤهم ويُنْشد شعراؤهم ويردّ عليهم خطباء الرسول صلى الله عليه وسلم وشعراؤه[2] .

ولعل الذى دفع ابن خلدون إلى كلامه السابق ما جاء عند ابن سلاّم وتناقله الرواة بعده من قوله : « فجاء الإسلام وتشاغلتْ عن الشعر العربُ وتشاغلوا

---

(١) مقدمة ابن خلدون (طبعة المطبعة البهية) . ص ٤٢٧ .

(٢) أغانى (طبعة دار الكتب) ٤/١٤٦ وما بعدها .

بالجهاد وغزو فارس والروم ولهت (العرب) عن الشعر وروايته فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر ، فلم يؤولوا إلى ديوان مدوّن ولا كتاب مكتوب ، وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك وذهب عليهم منه كثير »[١].
وابن سلام إنما يقول ذلك ليدلّ على أن شعراً عربياً كثيراً ضاع من يد الزمن ، وكان يكفيه ما قاله من أنهم لم يدوّنوه وأنهم اكتفوا بروايته ، فإن من شأن الرواية إذا طال العهد بها أن لا تحتفظ بكثير من الشعر وأن يسقط منه غير قليل ، أما قوله بأن العرب لهت عن الشعر وشُغلت عنه بالجهاد فينقضه ما تحمله كتب الأدب والتاريخ من منظوماته الكثيرة ومن أسماء ناظميه .

وربما جاءت شبهة إصغار العرب للشعر في صدر الإسلام وإعراضهم عنه من مهاجمة القرآن للشعراء في قوله تعالى : (والشعراءُ يتَّبعهم الغاوون ألم ترَ أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظُلموا ». وواضح من نفس هذه الآيات أن القرآن إنما يهاجم شعراء المشركين الذين كانوا يهجون الرسول ويثبّطون عن دعوته . فالقرآن لم يهاجم الشعر من حيث هو شعر ، وإنما هاجم شعراً بعينه كان يؤذي الله ورسوله ، وهو نفسه الذي قال فيه الرسول الكريم : « لأن يمتلىء جوف أحدكم قيْحاً خير له من أن يمتلىء شعراً »[٢] أما بعد ذلك فإن الرسول كان يُعْجَبُ بالشعر ويقول حين يسمع بعض روائعه : « إن من البيان لسحراً وإن من الشعر لحُكْماً أو حكمة »[٣] ، وكان يحضُّ حسان بن ثابت وغيره على نظمه ويثيبهم . وكان بعض خصومه ممن توعدهم يتخذه وسيلة إلى استرضائه وعفوه عنه ، على نحو ما هو معروف عن كعب بن زهير الذي أحفظه بأشعار مختلفة ندّد فيها بالإسلام ، ثم قَدِمَ عليه فأنشده لاميته المشهورة يطلب الصفح عن إساءته ، فتهلل وجهه بشراً وخلع عليه بُرْدته[٤] .

---

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام (طبع دار المعارف) ص ٢٢ .
(٢) العمدة لابن رشيق (الطبعة الأولى) ١/١٢ .
(٣) العمدة ١/٩ .
(٤) أغاني (طبعة الساسى) ١٥/١٤٢ ومابعدها

والحق أن الإسلام لم يردّ العرب عن الشعر ونظمه ، وسنرى عما قليل أن الرسول عليه السلام اتخذه سلاحاً ماضياً ضد خصومه من مشركي قريش وأعداء رسالته ، إذ كان يرى أن وَقْع نبْله عليهم أشد من وقع الحسام[١]. وكان الخلفاء الراشدون من بعده يرددونه دائماً على ألسنتهم[٢] ، كما كان صحابته كثيراً ما يتناشدونه في المسجد[٣]. وقد اشتهر عمر بن الخطاب بأنه كان كثيراً ما يسأل وفود القبائل عن شعرائهم ، وكانوا ينشدونه بعض أشعارهم وقد ينشدها هو متعجباً مستحسناً[٤]، ويقال إنه كتب إلى أبي موسى الأشعري واليه على البصرة : « مُرْ مَنْ قِبَلك بتعلم الشعر فإنه يدل على معالي الأخلاق وصواب الرأي ومعرفة الأنساب»[٥]، ويقول ابن سلام إنه « كان لا يكاد يعرض أمر إلا أنشد فيه بيت شعر»[٦] .

وكل ذلك معناه أن الإسلام لم يُثَبِّط عن الشعر إلا حين وقف معارضاً لدعوته ، أما بعد ذلك فقد كان يرتضيه ويستحسنه . وقد مضى الخلفاء الراشدون مهتدين بهدى الإسلام الحنيف ينهون عن الهجاء ويعاقبون فيه، وقصة عمر بن الخطاب مع الحطيئة معروفة ، فقد حبسه حين أقذع في هجائه للزبرقان بن بدر ، ولما استرحمه على أفلاذ كبده بأبياته المشهورة عفا عنه ،بعد أن عاهده على أن لا يعود إلى مثل هذا الهجاء[٧]. واتبع عثمان سنة عمر في التشديد على من يَسْلقون المسلمين بألسنة حداد، وقصته مع ضابئ بن الحارث البُرْجُمي مشهورة فقد هجا جماعة من الأنصار هجاء مقذعا أفحش فيه ، فاستعدوه عليه فحبسه ، وظل في حبسه حتى مات[٨] .

---

(١) العمدة ١٢/١ .

(٢) راجع خطبة أبي بكر في السقيفة وكتاب عثمان إلى علي حين حوصر ، وانظر ابن سعد ٥٧/٦ .

(٣) طبقات ابن سعد (طبعة أوربا) ج ١ ق ٢ ص ٩٥ – ٩٦ والفائق للزمخشري ٢٥٧/١ .

(٤) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٩٩/٨ ، ٢٨٨/١٠ والعقد الفريد (طبعة لجنة التأليف) ٢٧٠/٥ وخزانة الأدب للبغدادي ٢٩٢/٢ .

(٥) العمدة ١٠/١ .

(٦) البيان والتبيين ٢٤١/١ .

(٧) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٨٥/٢ .

(٨) ابن سلام ص ١٤٤ وانظر في ترجمة ضابئ أيضاً الشعر والشعراء ٣٠٩/١ والإصابة ٢٦٧/٣ والخزانة ٨٠/٤ والكامل للمبرد (طبعة رايت) ص ٣١٩ .

ولكن هاتين القصتين شيء ونظم العرب للشعر حينذاك وروايته شيء آخر . فقد كانت حريتهم مكفولة فى هذه الرواية وذلك النظم ما لم يتعرضوا للأعراض، ومن الظلم للإسلام أن يقال إنه كفّ العرب عن الشعر ووقفَ نشاطه ، فقد كان يُنْشَدُ على كل لسان ، وساعدت الأحداث على ازدهاره لا على خموله سواء فى معركة الإسلام مع الوثنيين والمرتدين أو فى الفتوح أو فى معركة على مع خصومه فى العراق . ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن الإسلام أذكى جذوته وأشعلها إشعالا ، فإن أحداثه حلّت من عُقَد الألسنة وأنطقت بالشعر كثيرين لم يكونوا ينطقونه ، فإذا بنا نجد بمكة التى لم تُعْرَف فى الجاهلية بشعر كثير يكثر شعراؤها ، وإذا بنا إزاء عشرات من الشعراء فى الفتوح لم يشتهروا بالشعر ونظمه قبلها . وهم يسمون جميعاً مخضرمين من الخضرمة وهى الاختلاط لأنهم خلطوا فى حياتهم بين الجاهلية والإسلام فعاشوا فى العصرين معاً .

٢

الشعر فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم

مما لا ريب فيه أن شعراء القبائل ظلوا ينظمون شعرهم بالصورة الجاهلية إلى أن دخلوا فى الإسلام ، وكان الموت قد سبق إلى كثيرين منهم ، فماتوا قبل إسلامهم وحرى بهؤلاء أن يدخلوا فى غمار الجاهليين ، فهم ليسوا مخضرمين بالمعنى الصحيح للخضرمة ، ومن ثمّ كنا نخرج دُرَيْد بن الصِّمّة والأعشى وأمية ابن أبى الصلت والأسود بن يعفر النَّهْشلى وأضرابهم من سِلْكِ المخضرمين وننظمهم فى سلك الجاهليين ، لأن الموت أدركهم قبل أن يتمّ الله عليهم نعمة الإسلام .

ومعروف أن قريشاً حادّت الله ورسوله حين بُعث مما اضطره إلى الهجرة من مكة إلى المدينة ، وسرعان ما نشبت بين البلدتين معركة حامية الوطيس ، تقف فيها قريش ومن يُعينها من العرب فى جانب ، ويقف الرسول صلوات الله عليه ومن هاجروا معه من مكة ومن التفّوا حوله فى المدينة فى جانب آخر . وبمجرد أن

اشتبكت السيوف أخذ الشعراء فى الجانبين المتناقضين يسلّون ألسنتهم ، ولم تكن مكة فى الجاهلية — كما قدمنا — تُعْرَفُ بشعر إلا بعض مقطوعات تُنْسَبُ لورقة ابن نوفل وغيره من المتحنّفين ، ومقطوعات أخرى تنسب لبعض فِتْيانها مثل نُبَيْه ومسافر اللذين ترجم لهما أبو الفرج فى أغانيه . فلما نشبت الحرب بينها وبين الرسول لمعت فيها أسماء شعراء كثيرين مثل أبى سفيان بن الحارث وعبد الله بن الزِّبَعْرى وضرار بن الخطاب الفِهْرى وأبى عَزَّة الجمحى وهُبَيْرة بن أبى وهب المخزومى ، وقد أخذوا يسدّدون سهام أشعارهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المهاجرين وأنصاره من المدينة . وعزّ ذلك عليه لا لأنهم كانوا يهجونه فحسب ، بل أيضاً لأنهم كانوا يصدّون عن سبيل الله بما يَذيع من شعرهم فى القبائل العربية ، فقال للأنصار : «ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم ؟ فقال حسّان بن ثابت : أنا لها ، وأخذ بطرف لسانه ، وقال : والله ما يسرّنى به مِقْوَلٌ بين بُصْرى وصنعاء»[1] وانضم إليه كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، فاحتدم الهجاء بينهم وبين شعراء مكة . واقرأ فى سيرة ابن هشام فستجده ينقل عن ابن إسحق عقب كل موقعة حربية ما قيل فيها من شعر ، تجد ذلك عقب غزوة بدر فى السنة الثانية للهجرة وعقب غزوة أحد فى السنة الثالثة وغزوة الخندق فى السنة الخامسة كما تجد أطرافاً من ذلك فى فتح مكة للسنة الثامنة .

على أنه ينبغى أن نشك فى كثير من هذه الأشعار لأن ابن إسحق — كما يقول ابن سلام — كان يَحْمل كل غُثاء من الشعر حتى أفسده وهجّنه[2] ، ونرى ابن سلام يقول فى ترجمته لأبى سفيان بن الحارث : «لسنا نعدّ ما يَرْوى ابن إسحق له ولا لغيره شعراً ، ولأنْ لا يكون لهم شعر أحسن من أن يكون ذاك لهم»[3] . على أن ابن سلام نفسه يُثْبت لأبى سفيان بن الحارث قصيدة كافية ناقض بها فى يوم أحد كافيةً كان قد نظمها حسان بعد وقعة بدر[4] ، وقد

---

(١) أغانى ٤/١٣٧ .

(٢) ابن سلام ص ٨ .

(٣) ابن سلام ص ٢٠٦ .

(٤) ابن سلام ص ٢٠٧ وما بعدها .

أثبت لابن الزِّبَعْرى قصيدته التى قالها فى نفس اليوم[١] ، والتى يقول فيها :

ليت أشياخى ببدر شهدوا ضَجَرَ الخَزْرَجِ من وَقْعِ الأَسَلْ[٢]
حين ألقتْ بقُبـاءِ بَرْكَهَا واستحرَّ القتلُ فى عبد الأَشَلْ[٣]
فقبلنا النِّصْفَ من سادتهم وعَـدَلْنا مَيْلَ بَدْر فاعتدل[٤]

وأيضاً فإنه أثبت لأبى عَزَّة ميمية يحرِّض فيها بنى كنانة[٥] ، وقال عن هبيرة بن أبى وهب : إنه كان شديد العداوة لله ولرسوله ، وهو الذى يقول فى يوم أحُد[٦] :

قُدْنا كنانةَ من أكنافِ ذى يَمَن عَرْضَ البلاد على ما كان يُزْجيها[٧]
قالت كنانةُ : أنَّى تذهبون بنا قلنا : النَّخيلَ ، فأمُّوها وما فيها[٨]

وكان فى الطرف المقابل حسان وكعب وابن رواحة ، وحسان أشعر الثلاثة ، يقول ابن سلام : « وهو كثير الشعر جيده » ، ويقال إن أول ما جرى به لسانه حين سلَّه على قريش هذه الأبيات يتحدَّى بها أبا سفيان بن الحارث[٩] :

هجوتَ محمدًا فأجبتُ عنه وعند الله فى ذاك الجَـزَاءُ
فإن أبى ووالده وعِرْضِى لِعرْضِ محمدٍ منكم وِقاءُ
أتهجوه ولستَ له بكفْءٍ فشَرُّكما لخيركما الفِـدَاءُ

---

(١) ابن سلام ص ١٩٨ وما بعدها .
(٢) أشياخه ببدر : من قتلوا بها من مشركى قريش . الأسل : الرماح .
(٣) قباء : موضع بضواحى المدينة . ألقت الحرب بركها : حمى وطيسها . استحر القتل : اشتد وكثر .
(٤) قبلنا النصف : انتصفنا بمن قتلناه منهم لقتلى بدر .
(٥) ابن سلام ص ٢١٣ .
(٦) ابن سلام ص ٢١٥ .
(٧) الأكناف : النواحى . ذو يمن : موضع قريب من مكة . يزجى : يسوق و يدفع .
(٨) يريد بالنخيل المدينة لكثرته فيها . أموها : قصدوها .
(٩) أغانى ١٣٩/٤ والاستيعاب لابن عبد البر ص ١٢٩ .

ويقول ابن سلام : « وكعب شاعر مجيد ، قال يوم أُحُدٍ في كلمة :

فجئْنا إلى موجٍ من البحر وَسْطه   أحابيشُ منهم حاسِرٌ ومقنَّعُ[١]
ثلاثةُ آلافٍ ونحن نَصِيَّةٌ   ثلاثُ مئين إن كثُرنا وأربع[٢]
فراحـوا سراعاً مُوجِفين كأنهم   جَهَامٌ هَرَاقتْ ماءَهُ الرِّيحُ مُقْلِعُ[٣]
ورُحْنـا وأُخْرَانا بِطاءٌ كأننا   أسودٌ على لَحْمٍ بِبِيشَةَ ظُلَّعُ[٤]

وقال في أيام الخندق :

مَنْ سَرَّهُ ضَرْبٌ يُرَعْبِلُ بَعْضُهُ   بعضاً كمَعْمَعَةِ الأَباء المُحْرَقِ[٥]
فَلْيَأْتِ مأسدةً تُسَلُّ سيوفُهـا   بين المذادِ وبين جِزْعِ الخَنْدَقِ[٦]

ووقف ابن سلام عند ابن رواحة وتحدث عن حُسْن إسلامه وأنه كان أحد الأمراء الثلاثة الذين قتلوا يوم مُؤْتة وأثبت له من هجائه لقريش قوله[٧] :

نجالدُ الناسَ عن عُرْضٍ فنأسرهم   فينا النبيُّ وفينا تنزل السُّوَرُ[٨]
وقـد علمتم بأَنا ليس غالبَنا   حَيٌّ من الناس إن عَزُّوا وإن كثُروا
يا هاشمَ الخيرِ إن الله فضَّلكم   على البَرِيَّةِ فَضْلاً ماله غِيَرُ[٩]
فثبَّت اللهُ ما آتاك من حَسَنٍ   تثبيتَ موسى ونَصْراً كالذى نُصِروا[١٠]

---

(١) أحابيش قريش : حلف منهم تحالفوا عند جبل يسمى حبشيا. الحاسر : الذى لا بيضة له عكس المقنع .
(٢) النصية : الخيار والأشراف .
(٣) موجفين : مسرعين . الجهام : السحاب أفرغ ماءه.
(٤) بيشة : مسبعة في واد كثير الشجر . ظلع : من الظلع وهو العرج .يكنى بذلك عن سيرهم البطيء المطمئن .
(٥) يرعبل : يمزق . المعمعة : صوت لهب النار في القصب . الأباء : أجمة القصب . يصف أصوات المعركة .
(٦) أرض مأسدة : كثيرة الأسود . المذاد : موضع بالمدينة . جزع الخندق : منعطفه .
(٧) ابن سلام ص ١٨٨ .
(٨) عن عرض : عن ناحية ، يريد أنهم لا يبالون من يضربون .
(٩) غير : تغيير .
(١٠) يقصد الرسل .

وفى الأغانى أن حساناً وكعباً «كانا يعارضان شعراء قريش بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ويعيّرانهم بالمثالب، وكان عبد الله بن رواحة يعيّرهم بالكفر ، فكان فى ذلك الزمان أشدّ القول عليهم قولُ حسان وكعب وأهون القول عليهم قول ابن رواحة ، فلما أسلموا وفقهوا الإسلام كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة»[١] . ومن المؤكد أن حساناً وكعباً كانا يرميان قريشاً عن بصيرة حين غلبتْ على هجائهما صورةُ الهجاء القديمة ، لأنها هى التى كانت تؤذى نفوس القرشيين المكّيين ولو أنهما رمياهم بالشرك وعبادة الأوثان لما نالا منهم ، إذ كانت تلك عقيدتهم وكانوا يعتزّون بها ، ومن ثم اتجه حسان وكعب هذه الوجهة ، فطعنا فى الأحساب والأنساب ، وعيّرا سادتهم وفرسانهم بالفرار من الحرب وتوعداهم بالبلاء المستطير . وطبيعى لذلك أن لا نجد عندهما تأثراً واضحاً بمثالية القرآن الكريم فى ذم المشركين ، إذ نراه خالياً من الشتم والسباب والطعن فى الأعراض والأحساب ، وأيضاً فإنه لا يتوعد المشركين بحرب مُبيرة تأتى على الشيب والشبان ، إنما يتوعدهم بالنار ، ومع ذلك يفتح الأبواب واسعة لرحمة الله وغفرانه وتوبته على المشركين الذين يثوبون إلى عقولهم ويدخلون فى دينه الحنيف .

وكان يَشْرَكُ شعراء قريش فى التأليب على رسول الله وأنصاره وأصحابه نفر من شعراء اليهود نكثوا ما عاهدوه من الموادعة وحقوق الجوار[٢] وأخذوا يهجونه هو والمسلمين ويخذّلون عنه قريشاً والعرب ، يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يُتِمّ نوره ولو كره الكافرون. وكان من رءوسهم فى هذا الفساد كعب بن الأشرف[٣] ، وقد بلغ من سوء فعله أنْ كان يشبّب بنساء الرسول ونساء المسلمين ، مما جعل محمد بن مسلمة يقتله فى رهط من الأنصار[٤] . غير أن اليهود لم يرتدعوا وأخذوا يعملون سرًّا وجهراً على تقويض الدعوة المحمدية ، فاضطر الرسول إلى إجلائهم عن المدينة ، حتى إذا انتهينا إلى خلافة عمر رأيناه ببصيرته النافذة يأمر بإجلائهم عن الجزيرة .

---

(١) أغانى ٤/١٣٨ .

(٢) السيرة النبوية (طبع الحلبى) ٢/١٤٧ .

(٣) أغانى (طبعة الساسى) ١٩/١٠٦ .

(٤) ابن سلام ص ٢٣٨ والسيرة النبوية ٣/٥٤ وما بعدها .

وكان كثير من شعراء العرب يقفون مع قريش باكين قتلاها ومحرّضين لها على كفاحها ضد الرسول مثل أمية بن أبي الصلت، ورثاؤه لقتلى بدر مشهور[١] ومثل الأسود بن يَعْفُر الذى أشاد بانتصارها فى يوم أحد[٢]، وقد ماتا فى أثناء هذا الصراع . وكان يقف هذا الموقف نفر من شعراء القبائل التى لما تدخل فى الإسلام . وكان يرد عليهم جميعاً شعراء المدينة متوعدين مهددين على شاكلة قول كعب بن مالك يهدد ثقيفاً بعد انتصار الرسول صلى الله عليه وسلم على يهود خيبر[٣] :

قَضَيْنَا من تِهامةَ كلَّ وِتْرٍ ... وخَيْبَرَ ثم أحجمْنا السيوفا[٤]
نخيِّرهـا ولو نطقتْ لقالتْ ... قَوَاطِعُهُنَّ : دَوْساً أو ثَقِيفا[٥]
فلستُ لحاصنٍ إن لم تروها ... بساحة داركم منا أُلُوفَا[٦]
فننتزعَ العروش بَبْطِنِ وَجٍّ ... ونترك داركم منا خُلوفا[٧]
ونُرْدِى اللَّات والعُزَّى ووَدًّا ... ونَسْلُبَها القلائد والشُّنُوفا[٨]

وتُفْتَحُ مكة فى السنة الثامنة للهجرة، ولكن تظل للصراع بقية فى شعراء هُذَيْل، على نحو ما يمثلهم أبو خراش الهُذَلى فى بكائه لدُبَيَّة سادن العُزَّى حين قتله خالد بن الوليد[٩]. وتظل بقية أخرى فى ثقيف ومعاركها مع الرسول فى حُنَيْن . على أنه بمجرد أن دخلت مكة فى الإسلام أُدمجت الجزيرة كلها فيه، وأخذت وفودها تفد على الرسول معلنة اعتناقها الدينَ الحنيف. وفى هذه الأثناء نجد كثيراً من الشعراء وعلى رأسهم شعراء قريش يفزعون إلى ساحة الرسول الكريم

---

(١) ابن سلام ص ٢٢١ والسيرة النبوية ٣/٣١ .
(٢) ابن سلام ص ١٢٣ .
(٣) ابن سلام ص ١٨٤ .
(٤) الوتر : الثأر .
(٥) دوس وثقيف : قبيلتان كانتا تنزلان بالطائف .
(٦) الحاصن : المرأة العفيفة .
(٧) يقصد بالعروش قضبان الكرم . وج : الطائف ونواحيها . والحى الخلوف : الذى فارقه الرجال، يقصد أنهم سيبيدونهم .
(٨) نردى : نهدم . اللات والعزى وود : أصنام . القلائد : السموط . الشنوف : جمع شنف وهو القرط .
(٩) ديوان الهذليين (طبعة دار الكتب) ٢/١٤٨ وانظر الأصنام لابن الكلبى ص ٢٤ وما بعدها .

يطلبون عفوه ، وقصةُ كعب بن زهير مشهورة ، وقد مرت بنا الإشارة إليه ، ومثله أنس بن زنيم ، فإنه كان هجا الرسول ، ثم ثاب إلى رشده ، فقدم عليه معتذراً ، وأنشده أبياتاً مدحه بها ، يقول فى تضاعيفها[1] :

وما حملتْ من ناقةٍ فوق رَحْلها . أبرَّ وأوفى ذِمَّةً من محمَّدِ

ونَظم أبو سفيان بن الحارث أشعاراً كثيرة يأسَى فيها على ما فرَّط فى جَنْب الله ورسوله على شاكلة قوله [2] :

لعمْرُك إنى يوم أحمل رايةً لتغلبَ خَيْلُ اللّات خَيْلَ محمدِ
لكالمُدْلج الحَيْران أظلم ليلــه فهذا أوانُ حين أهدِى وأهتدى

وكان كثير من الشعراء المسلمين يمتدح الرسول وهديه الكريم ، يتقدمهم فى ذلك شعراء المدينة ، وتُنْسَبُ إلى الأعشى قصيدة فى مديحه[3] لا شك أنها منحولة ، وتُنسَب لأبى طالب قصيدة مدحه بها يقول فيها :

وأبيضَ يُسْتَسْقَى الغمامُ بوجهه ربيعُ اليتامى عِصْمةٌ للأرامل

ويقول ابن سلام : «قد زِيد فيها وطُوِّلت» [4] وتُنسَبُ إلى عباس بن مرداس فارس بنى سُلَيْم أشعار كثيرة يمدحه بها من مثل قوله [5] :

نبيٌّ أتانا بعد عيسى بنــاطقٍ من الحق فيه الفَضْلُ منه كذلكا
أميناً على الفُرْقان أول شافعٍ وآخــر مبعوثٍ يجيب الملائكا

ونُظم كثير من المراثى فى قتلى المسلمين والمشركين ، ورثاء قُتَيْلَة لأبيها النَّضْر بن الحارث ذائع مشهور . ولما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى بكاه الشعراء بكاء حاراً ، ومن أرق ما رُثى به قصيدة حسان التى يستهلها بقوله [6] :

ما بالُ عينى لا تنام كأنما كُحِلَتْ مآقيها بكُحْل الأَرْمَدِ

---

(١) الإصابة لابن حجر ٦٩/١ .
(٢) ابن سلام ص ٢٠٦ .
(٣) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٢٥/٩ .
(٤) ابن سلام ص ٢٠٤ .
(٥) أغانى (طبعة دار الكتب) ٣٠٥/١٤ .
(٦) ديوان حسان (طبعة هرشفيلد) ص٥٨ .

وأكبر الظن أنه اتضح كيف أن الشعر فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم كان يجرى على كل لسان ، ويكفى أن نرجع إلى سيرة ابن هشام فسنرى سيوله تتدافع من كل جانب ، وحقاً فيها شعر موضوع كثير ، ولكن حينما يُصَفَّى وحين نقابل عليه ما ارتضاه ابن سلام وغيره من الرواة الموثوق بهم نجدنا إزاء ملحمة ضخمة تعاون فى صنعها عشرات من الشعراء والشاعرات .

٣

الشعر فى عصر الخلفاء الراشدين

عَمَّت أضواء الإسلام فى الجزيرة العربية كلها منذ السنة التاسعة للهجرة ، فقد أُعلن فى الحج لهذه السنة أنه من شعائر الإسلام وأن الجزيرة دار المسلمين ، وبذلك قُضِى على الوثنية فى أنحائها قضاء مبرماً من جهة ، وأصبح الإسلام والعروبة شيئاً واحداً من جهة ثانية ، وهذا هو السر فى نشوء نظام الولاء حين فُتحت البلاد الأجنبية ، فإنه كان حتماً على من يسلم أن يلتحق بقبيلة عربية ويصبح كأنه فرد من أفرادها .

ولم يكد يتسلَّم أبو بكر الصديق مقاليد الخلافة حتى طغت على الجزيرة موجة حادة من الردة ، إذ امتنع كثير من العرب عن أداء الزكاة على شاتهم وبعيرهم ؛ فاستشار الصدِّيق كبار الصحابة فيما يصنع ، فكلهم قالوا : إنه لا طاقة لنا بقتال العرب جميعاً ، فقال : « والله لأن أخِرَّ من السماء فتخطفنى الطير أحبُّ إلى من أن يكون رأيى هذا » ثم صعد المنبر فخطب الناس خطبة مشهورة قال فيها : « والله لو منعونى عِقالا لجاهدتُهم عليه » ثم نزل فوجَّه الجيوش إليهم بقيادة خالد بن الوليد وغيره . وكانت قبيلة أسد قد تجمعت حول متنبئ ظهر فيها يسمى طليحة بن خويلد ، وانضمت إليها غطفان . وعبثا حاول من حَسُنَ إسلامهم فى القبيلتين أن يردوهما عن غيِّهما ، ولم يلبث أن التقى بهما خالد عند بئر بُزَاخة ، فنكَّل بهما تنكيلا شديداً ، استسلمتا على إثره . واتجه خالد توًّا إلى تميم ومتنبئتها سَجاح فلم تلبث بعد مناوشات صغيرة أن أذعنت له ،

وقُتل حينئذ مالك بن نُوَيْرة سيد بنى يربوع ، ولأخيه متمم فيه مراث رائعة[١]. واتجه خالد بجيوشه نحو بنى حنيفة فى اليمامة ومتنبئها مُسَيْلمة ، فالتقى بها فى « عقربة » ونشبت بين الطرفين معارك حادة استحرّ فيها القتل ، غير أن الدوائر لم تلبث أن دارت على بنى حنيفة ، فسقط متنبئها فى ميدان المعارك ، وأعلنت استسلامها . وكان ذلك نصراً مؤزراً لدين الله، وسرعان ما دانت «البحرين» بالطاعة ، واتجهت أسراب من هذه الجيوش إلى حضرموت ونجران واليمن، حيث التفّ الناس هناك حول متنبئ يسمى الأسود العنسى ومتنبئ آخر يسمى قيس بن عبد يغوث ، ولم تلبث كل هذه الأنحاء أن استسلمت .

وإذا كانت معركة الشرك لعهد الرسول صلى الله عليه وسلم قد خلّفت ملحمة كبيرة فإن معركة الردة هى الأخرى قد خلّفت أشعاراً كثيرة ، بعضها كان إنذاراً وتخويفاً ووعظاً من مثل قول الحارث بن مرة فى وعظه بنى عامر[٢] :

بنى عامرٍ إن تَنْصُرُوا الله تُنْصَرُوا ... وإن تَنْصبوا لله والدين تُخْذَلُوا
وإن تُهْزَموا لا يُنْجكمْ منه مهربٌ ... وإن تثبتوا للقوم والله تُقْتَلُوا

وبعضها كان حماسة دينية يهتف بها المحاربون من المسلمين من مثل قول أوس بن بُجَيْر الطائى فى موقعة بُزاخة[٣] :

وليتَ أبا بكرٍ يرى من سيوفنـــا ... وما تَخْتلى من أذْرُعٍ ورقابِ[٤]
ألم تر أن الله لا ربَّ غـــيره ... يصبُّ على الكفار سَوْط عذابِ

وللمرتدين أشعار مختلفة يستثيرون بها العزائم[٥] .

---

(١) انظر فى متمم ورثائه لأخيه الأغانى (طبعة الساسى) ١٤/٦٣ والشعر والشعراء (طبع دار المعارف) ١/٢٩٦ والخزانة ١/٢٣٤ ومعجم الشعراء للمرزبانى (طبعة الحلبى) ص ٤٣٢ والمفضليات (طبع دار المعارف) ص ٢٦٣ ، ٢٧١ .

(٢) الإصابة لابن حجر ٢/٥٥ وراجع فى أشعار أخرى الإصابة ١/٢٧٤ ، ٢/٦٣ ، ٢/١٥٢ ، ٥/١٢٢ .

(٣) الإصابة ٢/٥٥ .

(٤) تختلى : تقطع .

(٥) تاريخ الطبرى ٢/٤٩٤ والإصابة ٣/١٢٥ .

ورُئِبَ الصَّدْع وعاد الحق إلى نصابه، فرأى أبو بكر بثاقب بصيرته أن يدفع العرب إلى خارج جزيرتهم كي ينشروا الإسلام فى آفاق الأرض، فاندفعوا جميعاً يجاهدون فى سبيل الله ويبتغون رضوانه، وسرعان ما سقطت الحيرة وجنوبى العراق أمام جيوش المثنى بن حارثة وخالد بن الوليد، وجهز أبو بكر جيشين لغزو الشام، أحدهما بقيادة عمرو بن العاص والآخر بقيادة يزيد بن أبى سفيان وشرحبيل بن حسنة، وانتصر الجيشان فى فلسطين. ولم يلبث أن أمدهما أبو بكر بخالد بن الوليد، وجعل له إمارة الجيوش، فانتصر على أرطبون فى موقعة أجنادين كما انتصر فى موقعة اليرموك، وهو رافد من روافد نهر الأردن، وحاصر دمشق، واستطاعت جماعات من جيوشه أن تستولى على حمص. ويتوفَّى أبو بكر فى السنة الثالثة عشرة للهجرة قرير العين بما أدى لله ولرسوله، وكان آخر ما تكلم به «رَبِّ توفَّنى مسلماً وألحقنى بالصالحين»[1]، وبكاه كثير من الشعراء[2] ومن خير ما قيل فيه قول حسان بن ثابت[3]:

إذا تذكرتَ شَجْوًا من أخى ثقةٍ ... فاذكرْ أخاك أبا بكرٍ بما فعلا
التالىَ الثانىَ المحمودَ سيرته ... وأوَّلَ الناس منهم صدَّق الرسلا
وثانىَ اثنين فى الغار المُنيف وقد ... طاف العدوّ به إذ صعَّد الجَبلا
وكان حِبَّ رسولِ الله قد علموا ... خَيْرِ البريّة لم يعْدل به رجلا

وأوصى أبو بكر من بعده بالخلافة لعمر بن الخطاب، فسار بأحسن سيرة مقتدياً بهدى الله ورسوله وخليفته الصديق، لا يخاف فى الحق لومة لائم. وهو أول من دوَّن الدواوين ورتَّب الناس فيها على سوابقهم، وأول من رتَّب التاريخ العربى وجعله من الهجرة، وأول من تلقب بأمير المؤمنين. وفتح الله له الفتوح، وكان من أول أمره فى ذلك أن عزل خالد بن الوليد عن إمارة الجيوش فى الشام وولَّى أبا عبيدة بن الجراح مكانه، فأتمَّ يعاونه خالد فتوح الشام، وانطلق عمرو بن العاص بجيشه ففتح مصر. أما فى الشرق فكانت المعركة

(١) الطبرى ٦١٥/٢.
(٢) الطبرى ٦١٧/٢ والاستيعاب ص ٣٤٢.
(٣) ديوان حسان ص ٢٩ والبيان والتبيين ٣٦٢/٣.

حامية الوطيس . وقد أمدَّ عمر المثنى بن حارثة بجنود يقودها أبو عبيد الثقفى ، ونشبت سلسلة من الوقائع عند قُسّ الناطف والبويب انتصر فيها المسلمون ، وبينما كان الفرس يستعدون لمعركة أخيرة هى معركة القادسية توفّى المثنى فخلفه فى قيادة الجيوش سعد بن أبى وقاص ، ومُنى الفرس بهزيمة شديدة ، وقُتل قائدهم رستم فى المعركة . وتقدم سعد إلى عاصمتهم المدائن فاستولى عليها . ولم يلبث الفرس أن تجمعوا فى جلولاء شرقى دجلة ، ولكنهم هزموا هزيمة ساحقة . وانسحب يزدجرد ملك الفرس إلى إيران وتبعته الجيوش الإسلامية بقيادة النعمان ابن مقرّن وتوفى فخلفه حذيفة بن اليمان . ولم تلبث هذه الجيوش أن استولت على نهاوند ثم أصفهان ثم إصطخر ، وعاش يزدجرد طريداً ، حتى أرسل إليه عامل خراسان لعهد عثمان مَن قتله فى مخبئه الأخير .

وتلقانا فى كل موقعة حربية شرقاً وغرباً أشعار حماسية كثيرة ، سنعرض لها عما قليل ، ويخيَّل إلى الإنسان كأنما الجزيرة كلها قد تحولت جيشاً يجاهد فى سبيل الله ونشر الإسلام ، فقد أحسَّ العرب فى عمق أن عليهم أن ينشروا الدين الحنيف فى أنحاء الأرض . ومن غير شك كان المتخلفون من الشيوخ والنساء وغيرهما يحسون ألماً عميقاً لفراق ذويهم ، على نحو ما يصور لنا ذلك البُرَيْق بن عياض الهذلى ، إذ يقول [1] :

وإن أُمْسِ شيخًا بالرجيع وولْدَةً ... وتصبحُ قومى دون دارهمُ مِصْر [2]
أُسائلُ عنهم كلما جاء راكبٌ ... مقيما بأَمْلاحٍ كما رُبط اليَعْرُ [3]
فما كنت أخشى أن أقيم خلافهم ... بستة أبيات كما نَبتَ العِتْرُ [4]

وكان عمر ينَهى من لهم آباء شيوخ يعولونهم عن الهجرة برًّا بهم ، ويُروَى أن المخبَّل السعدى جزع جزعا شديداً حين هاجر ابنه شيبان لحرب الفرس مع سعد بن أبى وقاص ، وكان قد أسنَّ وضعف ، فافتقد ابنه فلم يملك الصبر عنه ، ومضى إلى عمر فأنشده أبياتاً يقول فيها :

---

(١) ديوان الهذليين (طبعة دار الكتب) ٥٨/٣ وانظر أيضاً ١٩٧/٢ ، ١٩٩/٢ حيث تجد لأسامة بن الحارث أشعاراً مماثلة .
(٢) الرجيع : موضع . ولدة : صبية .
(٣) أملاح : موضع . اليعر : الجدى الكبير .
(٤) العتر : شجر له ورق صغار . خلافهم : بعدهم .

إذا قال صحبي يا ربيعُ ألا ترى؟ أرى الشخص كالشخصين وهو قريب
ويخبرني شيبان أن لن يعقّني تعقُّ إذا فارقتني وتَحُوبُ[١]

فرقّ له عمر ، وكتب إلى سعد يأمره أن يرد شيبان إلى أبيه فردّه إليه ولم يزل عنده حتى مات[٢]. وليس المخبّل وحده الذى فزع إليه يشكو هجرة ابنه ، فقد فزع إليه أيضاً أمية بن حرْثان بن الأسْكر حين هاجر ابنه كلاب إلى حرب الفرس ، وكان مما أنشده فيه :

لمن شيخان قد نشدا كلابا كتابَ الله إن حَفِظَ الكتابا[٣]
إذا هتفتْ حمامةُ بَطْنِ وَجٍّ على بَيْضاتها ذكرَا كلابا
تركتَ أباك مُرْعَشَةً يداه وأمَّك مــا تُسيغ لها شرابا

فأمر بإشخاصه إليه[٤]. وممن فزع إلى عمر أيضاً فى ذلك أبو خراش الهذلى حين هاجر ابنه مع المجاهدين إلى الشام ، وقد أنشده شعراً مؤثراً ، فأمر برده عليه وأن لا يغزو من له أبٌ هرم إلا بعد أن يأذن له راضياً بهجرته[٥].

ولعل فى هذا كله ما يصور كيف كان يترامى شباب العرب على الجهاد فى سبيل الله ، ومع هذا يأبى المستشرقون إلا أن يجعلوا تلك الفتوح الرائعة ابتغاء الدنيا والغنائم[٦] لا ابتغاء الله وثواب الآخرة ، وربما كان من خير ما يرد عليهم قول النابغة الجعدى لامرأته ، وقد أظهرت تأثرها لهجرته فى فتوح فارس[٧] :

يا ابنةَ عمى كتابُ الله أخرجنى طوعاً وهل أمنعنَّ اللهَ ما فعلا
فإن رجعتُ فربٌّ الناس يرجعنى وإن لحقتُ بربِّى فابتغى بدلا
ما كنت أعرجَ أو أعمى فيعذرَنى أو ضارعاً من ضَنًى لم يستطع حِوَلا[٨]

(١) تحوب : تأثم .
(٢) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٣ / ١٩٠ .
(٣) يقصد ما فى كتاب الله من رعاية الآباء والبر بهم .
(٤) ابن سلام ص ١٦٠ والخزانة ٢ / ٥٠٥ .
(٥) أغانى (ساسى) ٢١ / ٦٩ وديوان الهذليين ٢ / ١٧٠ وانظر فى حالات مشابهة الأمالى ٢ / ٣٠٩ وذيله ص ١٠٩
(٦) راجع تاريخ الدولة العربية لفلهوزن (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٢٥ والعقيدة والشريعة لجولد تسيهر ص ١٣٧ .
(٧) الشعر والشعراء ١ / ٢٥١ وقد ظلت هذه الروح مسيطرة على الفاتحين فى العصر الأموى ، انظر الطبرى ٥ / ٤١٣ .
(٨) ضارعا : ضاويا نحيلا . ضنى : مرض .

وكان عمر من وراء هذه الجيوش مثالا رائعاً للعدل والتقوى والزهد فى الدنيا . وما زال يسوس العرب سياسة مثالية ، حتى امتدت إلى جسده الطاهر يد أبى لؤلؤة المجوسى الآثمة فى الظلام ، فطعنته بخنجر مسموم طعنات لأربع ليال بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين للهجرة ، ولم يلبث أن توفى بين بكاء المسلمين ونشيجهم ، ومن رائع ما قيل فيه من رثاء قول جَزْء بن ضرار أخى الشماخ[1] :

جَزَى اللهُ خيرًا من أميرٍ وباركتْ يَدُ اللهِ فى ذاك الأَديم الممزَّقِ[2]

فمن يَسْعَ أو يركبْ جناحَىْ نعامةٍ ليُدْرِكَ ما حاولتَ بالأمسِ يُسْبَقِ

قضيتَ أمورا ثم غادرتَ بعدها بَوائقَ فى أكمامها لم تفتَّقِ[3]

وكان عمر وهو على فراش الموت قد جعل الخلافة شورى فى ستة من أصحاب رسول الله توفى وهو عنهم راض، وكانوا من المهاجرين الأولين، وهم عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وعلى بن أبى طالب وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص . ووقع اختيارهم على عثمان ، فمضى ينفذ سياسة عمر فى إتمام فتح إيران وإفريقية ، وأقرّ معاوية بن أبى سفيان على الشام ، إلا أنه عزل عمرو بن العاص عن مصر وولاها عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، ففتح إفريقية . وما نصل إلى سنة أربع وثلاثين للهجرة حتى تندلع ثورة عنيفة على عثمان فى الكوفة يقودها الأشتر النخعى وفى مصر يقودها محمد بن أبى حذيفة ومحمد بن أبى بكر الصديق . وكان من أهم أسباب هذه الثورة ضعف عثمان ، إذ كان شيخاً كبيراً ، واستسلامُه لأهل بيته من الأمويين وتوليته لهم كثيراً من الأعمال ، مما أحفظ عليه كبار الصحابة وملأهم موجدة . وكانت هناك أسباب وراء ذلك ، فإن عمر رأى أن يترك للجيش خُمُس الغنائم وأن تستأثر الدولة بالفَىْء وهو الأرض الثابتة ، ومعروف أنها تُركت لأصحابها على أن يؤدوا عنها إتاوة عادلة وأن يؤدوا الجزية إن لم يُسْلموا نظير حماية الجيش لهم وإعفائهم من

(١) ابن سلام ص ١١١ والأغانى ٩ / ١٥٩ والبيان والتبيين ٣ / ٣٦٤ .

(٢) الأديم : الجلد .

(٣) البوائق : الدواهى . تفتق : تنشق عن ثمرها . والاستعارة واضحة .

الواجبات العسكرية ، وكان كثير من المحاربين يرون أن يَشْركوا الدولة فى الفيء ، ولكن صوتهم لم يرتفع فى عهد عمر لقوة شخصيته ، حتى إذا كان عهد عثمان بدأ التذمر يشتد ، وتطورت الظروف ، فاشتعلت الثورة عليه اشتعالا أدّى إلى قتله فى ذى الحجة سنة خمس وثلاثين للهجرة ، وبكاه كثير من شعراء الصحابة[١] ، من ذلك قول أيمن بن خُرَيم[٢] :

ضحّوا بعثمان فى الشهر الحرام ضُحًى   وأىُّ ذَبْحٍ حرامٍ لهمُ ذبحوا
إن الذين تولّوا قتله سَفَهاً   لاقوا أثاماً وخُسْرانًا فما ربحوا
ماذا أرادوا أَضلَّ الله سَعْيَهُمُ   بسَفْحهم للدّم الزّاكى الذى سَفحوا

وكان علىٌّ يُعَدُّ أكبر الشخصيات بين المهاجرين ، فبايعه الثوار وبايعته المدينة ، ولكن هذه البيعة لم تُرْضِ طلحة والزبير وانضمت إليهما السيدة عائشة أم المؤمنين ، فأعلنوا سخطهم ، وولوا وجوههم نحو البصرة مستنفرين الناس ضده ، وتبعهم على ، فنزل فى الكوفة ، ولم تلبث الحرب أن نشبت بين الفريقين ، وسرعان ما انتصر على فى موقعة الجَمل المشهورة ، وقُتِلَ طلحة والزبير وانسحبت عائشة إلى المدينة . وكان علىٌّ قد عزل معاوية ابن عم عثمان وواليه على الشام ، فلم يصدع لأمره واعتبر نفسه ولىّ دم عثمان ، فجهز الجيوش لحربه وانضم إلى معاوية عمرو بن العاص وكثير من قريش . وسار إليه علىٌّ بجموعه ، فالتقوا على الحدود العراقية السورية فى صِفّين الواقعة على الضفة اليمنى للفرات ، واحتدمت معركة عنيفة كاد فيها النصر أن يُكْتَبَ لعلىّ ، غير أن معاوية عمد — بمشورة عمرو بن العاص — إلى الحيلة ، إذ جعل طائفة من جنوده تَرْفع المصاحف على أسنّة رماحها طالبة الاحتكام إلى القرآن ووَقْف هذه الحرب المبيرة للمسلمين ، وتنبه علىٌّ للحيلة غير أن كثرة جيشه أجبرته على وَقْف القتال والدخول مع معاوية فى مفاوضات . واتفق الفريقان على اختيار حكمين ، هما عمرو بن العاص عن معاوية وأبى موسى الأشعرى عن على ليحكما بينهما على أساس من القرآن . واستطاع عمرو أن يُقْنع أبا موسى بخلع على ومعاوية

---

(١) انظر الاستيعاب ص ٤٩٢ والكامل للمبرد (طبعة رايت) ص ٤٤٤—٤٤٥ والطبرى ٣/٤٤٧ وما بعدها .

(٢) المبرد ص ٤٤٥ والاستيعاب ص ٤٩٣

معاً . ولم يلبث مركز علىّ أن تزعزع فى العراق فإن طائفة كبيرة من جيشه كانت قد أسرعت منذ قبوله التحكيم إلى الخروج عليه ، واتخذت معسكراً لها فى حَرُوراء بالقرب من الكوفة وبايعت عبد الله بن وهب الراسبى بالخلافة . فلما ظهرت نتيجة التحكيم انضم إليها كثير من أتباع على . وعبثاً حاول إقناعهم بخطئهم ، ولم ير أخيراً بداً من حربهم ، فالتقى بهم عند مصب قناة النَّهْروان فى دجلة وهزمهم هزيمة ساحقة ، إلا أن بقية منهم نجت ، وكان منهم عبد الرحمن ابن ملجم الذى تحيَّن منه فرصة ، وقتله غيلةً ليلة الجمعة لثلاث عشرة خلت من رمضان سنة أربعين للهجرة ، وقد بكاه كثير من أصحابه[1] ، وعلى رأسهم أبو الأسود الدؤلى إذ يقول[2] :

أفى شهر الصيام فجعتمونا ... بخير الناس طُرًّا أجمعينــا
قتلتم خَيْرَ من ركب المطايا ... وخيَّسها ومن ركب السفينا
إذا استقبلتَ وجه أبى حسين ... رأيت البدر راقَ النـاظرينا
لقد علمتْ قريشٌ حيث حلّتْ ... بـأنك خَيْرُها حسباً ودينـا

وقد كَثُرت الأشعار فى هذه الحروب الأهلية منذ الثورة على عثمان ، فقد كان بعض الثائرين عليه والساخطين يصورون ثورتهم وسخطهم فى أشعار كثيرة[3] ، ويُقتل عثمان ، ويبكيه كثيرون وخاصة من بنى أمية . وقد ذهبوا يتوعدون علياًّ ويتهددونه على شاكلة قول الوليد بن عقبة يخاطب بنى هاشم[4] :

وإنا وإياكم وما كان منكمُ ... كصَدْع الصَّفَا لايَرْأبُ الصدعَ شاعبُه
همُ قتلوه كى يكونوا مكانه ... كما غدرتْ يوماً بكسرى مرازِبُهْ

وقد مضى يحرّض معاوية على الأخذ بثأره فى أشعار كثيرة[5] . وتطورت

---

(١) انظر فى مراثيه الاستيعاب ص ٤٨٥ — ٤٨٦ والطبرى ٤/١١٦ .
(٢) الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٢/٣٢٩ والطبرى ٤/١١٦ وخيسها فى البيت الثانى : ذللها .
(٣) انظر الاستيعاب ص ٤١٠ .
(٤) الأغانى (طبعة دار الكتب) ٥/١٢٠ والكامل للمبرد ص ٤٤٤ .
(٥) انظر الأغانى (طبع دار الكتب) ٥/١٢٢ وما بعدها والاستيعاب ص ٦٢٢ والطبرى ٣/٤٤٩ .

الأمور ، ونشبت وقعة الجمل بين على وبين طلحة والزبير وعائشة ، ودوّت فى هذه الوقعة أشعار حماسية كثيرة[١] من مثل قول القائل[٢] :

نحن بنو ضَبَّةَ أَصحابُ الجمَلْ   نَنْعَى ابن عفّان بأَطراف الأَسَلْ
ننازل الموتَ إذا الموت نَزَلْ   والموتُ أَشهى عندنا من العَسَلْ

والتقى على بمعاوية فى صفّين ، وحمى وطيس المعارك . وتنادى الشعراء يهددون ويتوعدون ، وكلٌّ يعتقد أن الحق فى جانبه ، من مثل قول أبى الطُّفَيْل عامر بن واثلة يصف بعض أنصار علىٍّ :

كهولٌ وشبانٌ وساداتُ معشرٍ   على الخَيْل فرسانٌ قليلٌ صدودها
شعارهمُ سيما النبيِّ ورايــةٌ   بها انتقم الرحمنُ ممن يَكيدها

وردّ عليه خزيمة الأسدى يصف جيش معاوية[٣] :

ثمــانون ألفاً دينُ عثمان دينهم   كتائبُ فيها جِبْرئيلُ يقودها
فمن عاش منكم عاش عبداً ومن يمتْ   ففى النار سُقْياه هناك صَديدها

ويفيض كتاب وقعة صفين لنصر بن مزاحم بأشعار كثيرة اندلعت فيها نيران العصبيات القبيلية[٤] ، وقد يكون دخلها انتحال ووضع واسع ، ولكن فى تاريخ الطبرى وفى كتب الأدب وكتب الصحابة ما يكفى لبيان ما انزلق على الألسنة من أشعار ملتهبة[٥] . وقد تلت ذلك وقعة النهروان بين على والخوارج ، ومنذ خروجهم وشعرهم لا يَخْمُد له أُوار . ومن غير شك أذكت كل هذه الأحداث جذوة الشعر العربى إذكاء وأشعلتها إشعالا .

---

(١) تاريخ الطبرى ٣ / ٥٢٢ وما بعدها .
(٢) الطبرى ٣ / ٥٢٧ .
(٣) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٥ / ١٤٩ .
(٤) وقعة صفين (بتحقيق عبد السلام محمد هرون) نشر المؤسسة العربية الحديثة ص ١٣٧ ، ٣١٢ ، ٣٤٧ ، ٣٧٦ ، ٤٨٧ وفى مواضع متفرقة .
(٥) انظر الطبرى ٤ / ١٦ وما بعدها

٤

شعر الفتوح

خرج العرب من جزيرتهم بعد حروب الردة يجاهدون فى سبيل الله دولتى الفرس والروم . فقضوا على الأولى ، واستولوا على أهم ولايتين للثانية ، وهما الشام ومصر . وكانوا فى أثناء هذا الجهاد ينظمون أناشيد حماسية مدوية ، يتغنون فيها بانتصاراتهم ويتمدحون بشجاعتهم وما يؤدون لله ودينه . ومن الصعب أن نتعرض كل ما نظموه فى مواقعهم المختلفة ، إنما نلم بطرف منه ، ولنقف قليلا عند موقعة واحدة فى الشرق هى موقعة القادسية ، وفيها يلمع اسم أبى محجن الثقفى[١] ، وكان مولعاً بالخمر فحبسه سعد بن أبى وقاص ، حتى إذا احتدمت المعركة توسل إلى سلمى زوج سعد أن تطلقه – على أن يعود إلى قيده – ليسهم فى شرف المعركة ، فأطلقته وأبلى فيها بلاء حسناً ، وعاد إلى سجنه وهو ينشد[٢] :

لقد علمتْ ثَقِيفُ غير فَخْر ... بأنا نحن أكرمهم سيوفا
فإن أُحْبَسْ فقد عرفوا بلائى ... وإن أُطْلَقْ أجرِّعْهم حُتوفا

وكان حول أبى محجن فرسان كثيرون قصفوا الفرس وأطاحوا برءوس أبطالهم ، وهم يتصايحون بالشعر الحماسى ، منهم عمرو بن معديكرب الزُّبَيْدى[٣] ، وكان من أبطال الجاهلية وفرسانها وأسلم ، وكانت له آثار مشهورة فى القادسية واليرموك ونهاوند ، ومن شعره[٤] :

والقادسيةُ حين زاحم رُسْتَمٌ ... كنا الحماةَ بهنَّ كالأشطان[٥]
الضاربين بكل أبيضَ مِخْذَمٍ ... والطاعنين مجامع الأَضْغَان[٦]

---

(١) انظر فى ترجمة أبى محجن الأغانى (طبع الساسى) ٢١ / ١٣٧ والشعر والشعراء ١ / ٣٨٧ والإصابة ٧ / ١٧٠ والخزانة ٣ / ٥٥٠ وما بعدها والاستيعاب ص ٦٨٢ .

(٢) أغانى ٢١ / ١٤٠ .

(٣) انظر فى ترجمته كتب الصحابة وأغانى (دار الكتب) ١٥ / ٢٠٨ والشعر والشعراء ١ / ٣٣٢ وذيل الأمالى ص ١٤٥ والخزانة ١ / ٤٢٢ ، ٣ / ٤٦٠ ومعجم الشعراء للمرزبانى (طبعة الحلبى) ص ١٥ ومعاهد التنصيص ٢ / ٢٤٠ والعينى ١ / ٢٧٩ .

(٤) ذيل الأمالى ص ١٤٦ .

(٥) الأشطان هنا : الجن والمردة .

(٦) الأبيض : السيف . المخذم : القاطع . مجامع الأضغان : القلوب .

ومنهم بشر بن ربيعة الخَثْعمى، وله يصور بلاءه وبلاء قومه فى مواقع القادسية[١]:

تذكَّرْ – هداك الله – وَقْعَ سيوفنا　　ببابِ قُدَيْسٍ والمكرُّ عَسِيرُ[٢]
عشيَّةَ ودَّ القوم لو أن بعضهم　　يُعَارُ جَنَاحَىْ طائر فيطير
إذا ما فرغنا من قِراع كتيبةٍ　　دَلَفْنا لأُخرى كالجبال تسير[٣]
ترى القوم فيها واجمين كأنهم　　جمالٌ بأحمالٍ لهنَّ زفير[٤]

وممن له بلاء حسن فى القادسية قيس بن المكشوح المرادى ابن أخت عمرو بن معديكرب، وهو الذى قتل رستم قائد الفرس فى تلك المعارك، وله يصور ذلك[٥]:

جلبتُ الخيلَ من صَنْعاءَ تَرْدِى　　بكل مُدجَّجٍ كالليث سامى[٦]
إلى وادى القُرَى فديار كلبٍ　　إلى اليَرْمُوك فالبلد الشآمى
وجِئْن القادسيَّة بعد شَهْرٍ　　مسوَّمةً، دوابرُها دوامى[٧]
فناهضنا هنالك جَمْع كسرى　　وأبناءَ المرازبة الكرام[٨]
فلما أن رأيتُ الخيل جالتْ　　قصدتُ لموقف الملكِ الهمام
فأضربُ رأسه فهوَى صريعاً　　بسيفٍ لا أفلَّ ولا كهام[٩]
وقد أبْلَى الإلهُ هناك خيرًا　　وفعلُ الخير عند الله نامى

وممن حضر القادسية الأسود بن قُطْبة، وله فيها أشعار كثيرة[١٠]، وعمرو بن

---

(١) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٥ / ٢٤٣.
(٢) قديس: يريد القادسية أو موضع بجانبها.
(٣) دلفنا: تقدمنا.
(٤) واجم: من الوجوم وهو السكوت مع كظم الغيظ.
(٥) فتوح البلدان للبلاذرى (طبع المطبعة المصرية بالأزهر) ص ٢٦١.
(٦) تردى الخيل: ترجم الأرض بحوافرها.
(٧) مسومة: معلمة. الدوابر: العراقيب. دوامى: ملطخة بالدم.
(٨) المرازبة: رؤساء الفرس.
(٩) أفل: مثلم. كهام: كليل لا يقطع.
(١٠) الإصابة ١ / ١٠٨.

شأْس الأسدى[١]، وكان كثير الشعر فى الجاهلية والإسلام ، وله يذكر قتل رستم[٢] :

قتلنا رُسْتَماً وبنيه قَسْرًا   تثير الخيلُ فوقهم الهَيالا[٣]

وفرَّ الهُرْمُزَان ولم يحامى   وكان على كتيبته وبالا[٤]

وشهد القادسية أيضاً عروة بن زيد الخيل ، وله فيها شعر كثير على شاكلة قوله[٥] :

برزتُ لأهل القادسية مُعْلَماً   وما كلٌّ من يَغْشَى الكريهةَ يُعْلِم

ومن الشعراء البارزين الذين شهدوها ربيعة بن مقروم الضبى[٦]، وقد ختم الجاحظ كتابه « الحيوان » بأبيات له يذكر فيها بلاءه حينئذ ، يقول فيها[٧] :

وشهدتُ معركةَ الفيول وحــولها   أبناء فارسَ بَيْضُها كالأَعْبَل[٨]

مُتَسَرْبلى حلقَ الحديد كأنهم   جُرْبٌ مقارفةٌ عَنِيَّةٌ مُهْمِل[٩]

والأبيات من قصيدة رواها أبو الفرج فى أغانيه ، وهو فيها يتحدث بجانب صنيعه فى تلك الحرب عن اقتحامه لحوانيت الخمارين ويفخر بأنه يسقى صاحبه الصَّبوح ، ونحن نعرف أن الإسلام حرَّم الخمر ، ومن ثم كنا نقطع بأن القصيدة تتألف من جزءين قيل أولهما فى الجاهلية ، وقيل ثانيهما فى الإسلام ، وسنرى عند حسان بن ثابت قصيدة على هذه الشاكلة حين نترجم له فى الفصل التالى . ومن ذلك قصيدة لعَبْدة[١٠] بن الطبيب ، وهو من الشعراء المجيدين الذين أبلوا فى حروب القادسية والمدائن ، ونراه يستهلها بقوله[١١] :

---

(١) انظر ترجمته فى الأغانى (طبعة دار الكتب) ١١/١٩٦ والشعر والشعراء ١/٣٨٩ وابن سلام ص ١٦٤ والاستيعاب ص ٤٥٤ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٢٢ .

(٢) الطبرى ٣/٥٠ .

(٣) الهيال : ما ينهال من الغبار .

(٤) الهرمزان : الكبير من حكام الفرس .

(٥) الأغانى (طبع الساسى) ١٦/٥١ .

(٦) انظر ترجمته فى أغانى (ساسى ١٩/٩٠ والشعر والشعراء ١/٢٧٩ والإصابة ٢/٢٢٠ والخزانة ٣/٥٦٦ .

(٧) الحيوان (طبعة الحلبى) ٧/٢٦٣ .

(٨) البيض : الخوذ . الأعبل : حجر أبيض .

(٩) يشبه الفرس بإبل جرباء . مقارفة : من القراف وهو داء يقتل البعير . العنية : طلاء للجرب ، وأراد نفس الإبل الجربى . والمهمل : الذى يهمل الإبل فى المرعى .

(١٠) انظر فى ترجمته الأغانى (طبعة الساسى) ١٨/١٦٣ والشعر والشعراء ٢/٧٠٥ والإصابة ٥/١٠١ والموشح ص ٧٥ .

(١١) انظر القصيدة فى المفضليات (طبعة دار المعارف) ص ١٣٥ .

هل حبلُ خَوْلَةَ بعد الهجر موصولُ ... أم أنت عنها بعيدُ الدار مشغولُ

ويمضى فيذكر جهاد المسلمين للفرس ، يقول :

يقارعون رءوسَ العُجْم ضاحيةً ... منهم فوارسُ لا عُزْلٌ ولا مِيلُ[1]

ويحدثنا عن هجرته مع قومه وأنهم إنما يبتغون ثواب الله ، يقول :

نرجو فواضلَ ربٍّ سَيْبُه حسنٌ ... وكل خيرٍ لديه فهو مقبـــول

ولكنا نُصْدَمُ فى آخر القصيدة بوصفه المسهب لمجلس شراب ، ومن ثَمَّ كنا نقطع بأن للقصيدة أصلاً قديماً يتصل بحياة الجاهليين الوثنية وما كانوا يحلّون من خمر . وقد أضيفت إلى هذا الأصل قطع جديدة ، تتصل بالهجرة فى سبيل الله ورسوله ووصف معارك العرب مع الفرس .

وعلى هذا النحو نستطيع دائماً أن نجمع كثيراً من الأشعار التى نُظمت فى كل معركة ، سواء مع الفرس أومع الروم ، وإن ما تطفح به كتب الصحابة مثل الاستيعاب والإصابة وكتب التاريخ مثل الطبرى وكتب الأدب مثل الأغانى وكتب الجغرافية مثل معجم البلدان لياقوت ليؤلف للعرب فى الفتوح ملحمة ضخمة . ولم تكن كلها أشعاراً حماسية ، ففيها مراث رائعة لبعض من كانوا يفقدونهم ، من ذلك قصيدة كَثِير بن الغَرِيزة التميمى يرثى بها من أصيبوا فى معارك الطَّالَقان وجُوزَجَان لعهد عمر بن الخطاب ، وفيها يقول[2] :

سَقَى مُزْنُ السحابِ إذا استهلَّتْ ... مصارعَ فتيةٍ بالجُــوزَجانِ

وما بِى أن أكون جَزِعْتُ إلا ... حنينَ القَلْب للبَرْق اليمانى

ورُبَّ أخٍ أصاب الموتُ قبلى ... بكيتُ ولو نُعِيتُ له بكانى

وعبَّروا فى أثناء ذلك عن حنين بالغ إلى ديارهم وأهليهم . وبجانب هذا الحنين والرثاء نجد بعض الشعراء يتحدثون عن بلائهم فى المغازى بعامة ، على نحو

---

(١) يقارعون : يضاربون . العجم : الفرس . العزل : جمع أعزل وهو من لا سلاح معه . الميل : جمع أميل وهو الذى لا يحسن ركوب الخيل.

(٢) أغانى (طبعة دار الكتب) ١١ / ٢٧٨ حيث سرد أبو الفرج القصيدة فى ترجمته وانظر فيه الإصابة ٥ / ٣١٨ والخزانة ٤ / ١١٨ ومعجم الشعراء ص ٢٤٠ .

ما نجد عند زياد بن حنظلة فى وصفه لمغازى الشام لعهد عمر وما أفاءه الله على المسلمين[١] ويروون أنه كان لأوس[٢] بن مَغْراء « قصيدة طويلة ذكر ما كان فيها من بلائهم فى الفتوح وفخر فيها بقريش لم يقل أحد أحسن منها » ومن قوله فيها :

محمَّدٌ خَيْرُ من يمشى على قَدَمٍ   وكان صافيةً لله خُلْصــانا

ويمكن أن نضم إلى هذه الأشعار شكوى بعض الجنود من الولاة والعمال حين يخونون فيما ائتُمنوا عليه ، على نحوما نجد عند يزيد بن الصَّعِق ، فقد أرسل بشكوى طويلة إلى عمرَ بن الخطاب من أصحاب الخراج ، يقصُّ عليه كيف أثْرَوْا ثراء غير مشروع من أعمالهم التى يتولونها ومما يأخذون لأنفسهم من المغازى ، وفيها يقول[٣] :

نؤوبُ إذا آبوا ونغزو إذا غَزَوْا   فأنَّى لهم وَفْرٌ وليس لنا وَفْرُ

وقد وصفوا كثيراً مما شاهدوه فى فتوحهم من المعاقل والحصون والحيوان كالفيل ، وتحدثوا عما نزل بهم من طواعين[٤] .

وهناك أشياء لا بد أن نلاحظها فى هذه الأشعار الكثيرة التى رُويت عنهم فى مغازيهم وفتوحهم ، لعل أهمها أنها طُبعت بطابع الآداب الشعبية ، سواء من حيث نسيجها العام أو من حيث قائلوها ومن نسبت إليهم . أما من حيث النسيج فإنها لا تبلغ من المتانة مبلغ الأشعار التى نُسبت فى العصر نفسه إلى الشعراء المجوّدين ، وأما من حيث القائلون فإن كثيراً منهم يكاد يكون مجهولا ، لسبب بسيط وهو أنه من عامة الجند . ومن ثَمَّ اختلف الرواة فى نسبة كثير من الأشعار إلى أصحابها . ويكثر أن يُرْسل الراوى الشعر إرسالا بدون نسبته إلى شاعر بعينه . وينصُّ الطبرى على قطعتين كانت تتجاوب بهما الآفاق فى الجزيرة العربية ولا يُعْرَفُ من نظمهما ، ويعقِّب عليهما بقوله : « وسُمع بنحو

---

(١) طبرى ٣/١٠٨ .

(٢) انظر ترجمته فى الأغانى (طبعة دار الكتب) ٥/٨ والشعر والشعراء ٢/٦٦٨ والإصابة ١/١١٨ وابن سلام ص ٤٤٥ وفى مواضع متفرقة والموشح ص ٦٥ وما بعدها .

(٣) فتوح البلدان ص ٣٧٧ .

(٤) الحيوان ٤/١٣٧ والإصابة ٣/١٤، ٥/٦٠ .

ذلك فى عامة بلاد العرب [١] » . وكأن طائفة من شعر الفتوح تحولت إلى ما يشبه الأمثال التى يبدعها الشعب . فناظمها لا يعرَفُ كما لا يعرف مرْسل المثل لأنه من أبناء الشعب وأبناء الشعب قلما ذُكروا أو مُجِّدوا بل إنه لا يعنيهم أن يذكروا أو يمجَّدوا . إذ هم آخر من يهتم بهذا الفضل .

ويسود فى هذا الشعر الإيجاز ، فهو شعر اللمحات السريعة والمواقف الخاطفة . وجمهوره لذلك مقطوعات قصيرة . يجرى فيها الشاعر على سجيته دون تدقيق فى معنى أو تنقيح للفظ أو التماس وزن أو قافية . إنه يعبر عن خاطر التحم بصدره دون معاناة أو مكابدة ، ويرمى به فى سرعة كما يرمى بسهمه أو يضرب بسيفه . غير مفكر فى تنقيح ولا فى تصفية أو تهذيب ، ولذلك كانت تشيع فيه البساطة وعدم التكلف لما يعترض صاحبه من شواغل الجهاد التى تحول بينه وبين إطالة الفكرة كما تحول بينه وبين المعاودة للفظ وتجويده وتحبيره .

وملاحظة أخيرة . وهى أن قَصصاً كثيراً عن أبطال الفتوح وجهادهم فى حروب الفرس والروم أُضيف إلى هذه الأشعار . وقد حَمل لنا ياقوت فى معجمه كما حملتْ كتب التاريخ والأدب أطرافاً منه كثيرة . ومن غير شك خضع هذا العمل كله لخيلة القُصَّاص فزادوا فى القصص والأشعار ما اتسع له خيالهم. ولكن مهما يكن فلهذا كله أصل صحيح ، وهو أصل ضخم إذ كان الشعر يتدفق على ألسنة الفاتحين . وكانوا ينشدونه فى كل موقف وكل معترك ، مقصِّدين له حيناً وراجزين أحياناً أخرى . وطبيعى أن يشيع فيه الرجز . لأنه كان فعلا الوزن الشعبى الذى يَنْظِم فيه عامة العرب .

---

(١) طبرى ٣/ ٨٣ .

الفصل الرابع

الشعراء المخضرمون
ومدى تأثرهم بالإسلام

١

كثرة المخضرمين المتأثرين بالإسلام

من يقرأ فى شعر المخضرمين متصفحاً ما نُشر فى كتب التاريخ والأدب يجد جمهور الشعراء يصدرون فى جوانب من أشعارهم عن قيم الإسلام الروحية التى آمنوا بها وخالطت شغاف قلوبهم . ولشعراء المدينة القِدْحُ المعلّى فى هذا الميدان، فهم الذين وقفوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم منذ نزوله بين ظهرانيهم ينافحون عنه ويدافعون عن دعوته مصوّرين لهدْيه الكريم ، يتقدمهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، وكان عبد الله خاصة دائم الاستمداد من القرآن يستلهمه فى هجائه للمشركين وفى كل ما ينظم من أشعار ، على شاكلة قوله[1] :

شهدتُ بأَن وعد الله حَقٌّ ... وأن النار مَثْوَى الكافرينا

وكان بجانب هؤلاء الثلاثة شعراء آخرون لم يبلغوا مبلغهم فى الشهرة الشعرية، وقد رُويت لهم أشعار تنمُّ عن مدى إيمانهم العميق كقول أبى قيس صِرْمة بن أبى أنس الأنصارى فى قصيدة بديعة [2] :

ونعلم أن الله لا شيء غيرُه ... وأن كتاب اللهِ أَصبحَ هاديا

وقول أبى الدَّرْداء[3] :

يريد المرء أن يُؤْتَى مُناهُ ... ويأْبى اللهُ إلا ما أرادا

يقول المرء فائدتى ومالى ... وتقوى الله أفضلُ ما استفادا

(١) الاستيعاب ص ٣٦٢ .
(٢) الاستيعاب ص ١٤ ، ٣٢٤ .
(٣) الاستيعاب ص ٦٦٣ .

وتحوَّل شعراء قريش منذ فُتحت مكة ودخلوا فى دين الله يكفّرون عما قدَّمَتْ ألسنتهم بأشعار ، يعتذرون فيها للرسول صلى الله عليه وسلم كقول ابن الزِّبَعْرى[1] :

يا رسولَ المليك إنَّ لسانى ... راتقٌ ما فتقتُ إذ أنا بُور [2]

إذ أجارى الشيطان فى سَنَنِ الغَـ ... ـىِّ ومن مال مَيْلَهُ مَثْبُـورُ [3]

آمن اللحمُ والعظامُ بما قُلْـ ... ـتَ فنفسى الفِدَا وأنت النَّذيُر

وقد حَسُن إسلامهم ، ومضوا يصدرون عنه فى أشعارهم ،حتى إذا انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى أخذوا يرثونه ويتفجَّعون عليه ، على شاكلة قول أبى سفيان بن الحارث[4] :

لقد عظمتْ مُصيبتُنا وجَلَّتْ ... عشيَّةَ قِيل : قد قُبِضَ الرسولُ

نبيٌّ كان يَجْلُو الشكَّ عنـا ... بمـا يوحَى إليه وما يقـولُ

وإذا تركنا شعراء المدينتين الكبيرتين إلى سعراء نجد والبوادى وجدنا بينهم كثيرين يَقْبِسون من أضواء الإسلام، ولا نقصد من خرجوا إلى الجهاد فى سبيل الله فحسب، فقد عمَّ ذلك مَنْ ظلوا فى الجزيرة ولم يُتِحْ لهم تقدم سنهم شرف الاشتراك فى هذا الجهاد .

ونحن نقف عند مشهوريهم ، ثم نعطف على من لم يبلغوا مبلغهم من الشهرة، ولعل أول من ينبغى الوقوف عنده عَبْدة بن الطبيب الذى تحدثنا عنه فى شعر الفتوح ، فقد روَى له صاحب المفضليات عينية بديعة ، ونراه فى شطر كبير منها يوصى أبناءه بتقوى الله وبِرِّ الوالد والحذر من النمَّام الذى يَزْرع الضغائن بين الناس ، مستلهماً فى ذلك كله آى الذكر الحكيم ، يقول[5] :

أوصيكمُ بتُقَى الإلٰه فإنـه ... يعطى الرغائبَ من يشاء ويمنعُ

وبِبِرِّ والدكم وطـاعةِ أمره ... إن الأبَرَّ من البنين الأطْـوَعُ

---

(١) ابن سلام ص ٢٠٢ .

(٢) رتق الفتق: خاطه . بور : ضال هالك .

(٣) سنن : طريق . مثبور : هالك ضائع .

(٤) الاستيعاب ص ٧٠٨ .

(٥) المفضليات ص ١٤٦ .

واعصوا الذى يُزْجِى النَّمائم بينكم ... متنصِّحا ذاك السِّمام المُنْقَعُ[١]
يُزْجى عقاربَهُ ليبعث بينكم ... حَرْباً كما بعث العروقَ الأَخْدَعُ[٢]

وهو القائل فى رثاء قيس بن عاصم[٣] :

عليك سلامُ الله قيسَ بن عاصمٍ ... ورحمته ما شاء أن يترحَّما
فلم يكُ قيسٌ هُلْكُهُ هلكَ واحدٍ ... ولكنه بنيانُ قوم تهدَّما

وواضح ما فى البيت الأول من روح إسلامية . وارجع إلى سُوَيْد[٤] بن أبى كاهل اليشكرى فسترى المفضل الضبى يروى له قصيدة[٥] يفخر فيها فخراً جديداً ، لا عهد لنا به من قبل . فخراً إسلامياً يذكر فيه ربَّه وما أنعم به عليهم من نِعَمٍ ، يقول :

كتب الرحمٰنُ والحمدُ لهُ ... سعَةَ الأخلاق فينا والضَّلَعْ[٦]
وإباءً للدنيَّاتِ إذا ... أُعْطِيَ المكثورُ ضَيْماً فكَنَعْ[٧]
وبناءً للمعالى إنما ... يرفعُ اللهُ ومن شاء وَضَعْ
نِعَمٌ لله فينا رَبَّها ... وصنيعُ اللهِ ، واللهُ صَنَعْ[٨]

ويمضى فيعرض لخصم دنىء النفس كان ي . راه يصفه وصفاً يستلهم فيه الآية الكريمة(ولاَ يَغْتَبْ بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه) يقول :

---

(١) يزجى : يدفع ويسوق . السمام : السم . المنقع : القاتل .
(٢) الأخدع : عرق فى العنق إذا ضرب أجابته العروق .
(٣) الشعر والشعراء ٢ / ٧٠٥ .
(٤) انظر ترجمته فى الشعر والشعراء ١ / ٣٨٤ والأغانى (طبعة دار الكتب) ١٣ / ١٠٢ وابن سلام ص ٢٨ والإصابة ٣ / ١٧٢ والخزانة ٢ / ٥٤٦ وحديث الأربعاء لطه حسين (طبعة الحلبى) ١ / ١٩٠ .
(٥) المفضليات ص ١٩٠ .
(٦) الضلع : الاضطلاع بالأمر .
(٧) المكثور : المغلوب . كنع : خضع .
(٨) ربها : أتمها . صنع : صفة ، لا فعل ، أى قادر على أن يصنع .

بِئْسَ ما يجمع أن يَغْتابنى مَطْعَمٌ وَخْمٌ وداءٌ يُدَّرَعْ[١]
ويحيِّينى إذا لاقيتُــهُ وإذا يخلو له لَحْمِى رَتَعْ[٢]

وممن أسلم وهو فى سن ٍّ كبيرة الُحصَين[٣] بن الحُمام سيد بنى مرَّة الذبيانيين ، وله أبيات تطرد على هذا النحو[٤] :

ويوم تسعَّر فيــه الحروبُ لبسْتُ إلى الرَّوْعِ سِرْبالها[٥]
فلم يبق من ذاك إلا التُّقَى ونَفْسٌ تعــالج آجــالها
أمورٌ من الله فوق السماء مقــاديرُ تنزلُ أَنْزَالها[٦]
أعــوذ بربى من المُخْزيــا تِ يوم ترى النفسُ أعمالها
وخَفَّ المــوازينُ بالكافرين وزُلْزِلتِ الأَرض زِلْزالَهــا

والصلة واضحة بين هذه الأبيات وآى الذكر الحكيم من مثل قوله تعالى : (واتقوا الله) (فإن الله يحب المتقين) (فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) (إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) (هو الذى يحيى ويميت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كُنْ فيكون) (وإنْ من شىء إلا عندنا خزائنهُ وما ننزِّله إلا بقدَرٍ معلوم) وقوله عزَّ شأنه : (إذا زُلزلت الأرض زلزالها) (فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية وأما من خفّت موازينه فأمُّه هاويةٌ وما أدراك ماهيه نار حامية) (ووفِّيتْ كلُّ نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون) .

واقرأ فى النَّمِر[٧] بن تَوْلب ، وهو ممن أدركوا الإسلام وقد علَت سنُّهم ،

---

(١) وخم : غير مرىء . يدرع : يلبس .
(٢) رتع : أكل بنهم .
(٣) انظر ترجمته فى الشعر والشعراء ٢/ ٦٣٠ وابن سلام ص ١٣١ والأغانى (طبعة دار الكتب) ١٤ / ١ وما بعدها والاستيعاب ص ١٢٧ وأسد الغابة ٢ / ٢٤ والإصابة ٢ / ١٨ والخزانة ٢ / ٧
(٤) أغانى ١٤ / ١٤ .
(٥) تسعر : تتقد . السربال : الدرع .
(٦) أنزالها : منازلها . تنزل أنزالها : تقع مواقعها .
(٧) انظر ترجمته فى طبقات ابن سعد ج ٧ ق ١ ص ٢٦ والشعر والشعراء ١ / ٢٦٨ وابن سلام ص ١٣٣ والأغانى ١٩ / ١٥٧ والموشح ٧٨ والخزانة ١ / ١٥٢ والاستيعاب ص ٣٢٠ والإصابة ٦ / ٢٥٣ .

فسترى فى شعره آثاراً من تلاوته للقرآن الكريم ، على شاكلة قوله[١] :

ومتى تُصِبك خَصاصةٌ فارْجُ الغِنَى وإلى الذى يُعْطى الرَّغائبَ فارغبِ

وهو القائل[٢] :

أعِذْنى رَبِّ من حَصَرٍ وعِيٍّ ومن نَفْسٍ أعالجُها عِلاجا
ومن حاجات نفسى فاعْصِمَنِّى فإنَّ لمُضْمَرات النفس حاجا[٣]
وأنت وَلِيُّها فبرئتُ منها إليك وما قضيتَ فلا خِلاجا[٤]

ويُرْوَى أنه أنشد الرسول صلى الله عليه وسلم قصيدة قال فيها[٥] :

لله من آياتــهِ هذا القمَــرْ والشمسُ والشِّعْرَى وآياتٌ أُخَرْ

ومرتْ بنا استجارةُ المخبّل[٦] السَّعْدى بعمر بن الخطاب حين هاجرابنه للغزو وكيف ردَّه عليه ، ومن قوله فى نهاية قصيدة له رواها المفضل الضبى[٧] :

إنى وجدتُ الأمر أرشدُه تقوى الإلٰهِ وشَرُّهُ الإثْمُ

وكان فى الشَّماخ[٨] شركثير ، وهو ممن شاركوا فى معركة القادسية ومعارك أذربيجان، ومع ذلك لا نجد فى ديوانه شيئاً واضحاً عن جهاده فى سبيل الله، وكأنما عُنِى الرواة بشعره البدوى وإحسانه فيه لوصف القَوْس وحمار الوحش[٩] ، ومما يتمثَّل به من شعره[١٠] :

ليس بما ليس به بأْسٌ باسْ ولا يَضُرُّ البَرَّ ما قال الناسْ

(١) الشعر والشعراء ١/٢٦٩ والأغانى ١٩/١٦١ .
(٢) الأغانى١٩/١٦٢ والحيوان٢/٣٠٥.
(٣) حاج : جمع حاجة .
(٤) خلاج : اعتراض .
(٥) أغانى ١٩/١٥٩ .
(٦) انظر فى ترجمته الشعر والشعراء١/٣٨٣ والأغانى (طبعة دار الكتب) ١٣/١٨٩ والإصابة ٢/٢١٨ والخزانة٢/٥٣٦ والموشح ص ٧٥ .
(٧) المفضليات ص ١١٨ .
(٨) راجع فى ترجمته ابن سلام ص ١١٠ والشعر والشعراء ١/٢٧٤ والأغانى (طبع دار الكتب) ٩/١٥٨ والخزانة ١/٥٢٦ والإصابة ٣/٢١٠ والموشح ص ٦٧ .
(٩) انظر ترجمته فى المراجع السابقة وراجع الحيوان ٥/٧٩ .
(١٠) الشعر والشعراء١/٢٧٧ و بأس الأولى : شجاعة .

وقد أنشدنا فى الفصل السابق أبياتاً من مرثية أخيه جَزْء لعمر بن الخطاب، واشتهر أخوهما مزرِّد[1] بهجائه وخاصة للأضياف. ويظهر أنه ارعوى وتاب عن الهجاء، كما يدل على ذلك قوله[2] :

تنزَّلتُ من شَتْم الرجال بتَـوْبةٍ ... إلى الله منى لا ينادَى وليـدها

ومن شعراء هُذَيْل البارعين فى هذا العصر أبو ذُؤَيْب[3] الهُذَلى، وقد قدم المدينة عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فوقف يبكيه مع الباكين قائلا من أبيات[4] :

كُسِفَتْ لمصرعِه النجومُ وبَدْرهـا ... وتزعزعتْ آطامُ بَطْنِ الأَبْطحِ

وتزعزعتْ أجبالُ يَثْرِبَ كلُّهـا ... ونَخِيلُها لحلول خَطْبٍ مُفْدِحِ

وهو فى ديوانه يُعْنَى بوصف النَّحْل، مثله فى ذلك مثل شعراء هذيل، وقد خرج يغزو فى سبيل الله، ونراه فى جنود عبد الله بن سعد بن أبى سَرْح الذين فتحوا قرطاجنة، وقد أرسل به مع عبد الله بن الزبير إلى عثمان مبشرين له بفتحها. وعاد إلى مصر، ولكن حدث أن توفِّى له — قبل وفاته بعام — خمس بنين فى وباء، فرثاهم بعينيته المشهورة وفيها نحسُّ رضاه بقضاء الله مع التحسر اللاذع على نحو ما نجد فى قوله[5] :

أَوْدَى بَنِىَّ وأعقبونى غُصَّةً ... بعد الـرُّقاد وعبرةً لا تُقْلِعُ

فَغَبَرْتُ بعدهمُ بعيشٍ ناصبٍ ... وإخال أنى لاحقٌ مُسْتَتْبَعُ[6]

---

(١) راجع فى ترجمة مزرد الشعر والشعراء ١/٢٧٤ والخزانة ٢/١١٧ والإصابة ٦/٨٥ ومعجم الشعراء ص ٤٨٣ ومعاهد التنصيص ١/٢٠٢.

(٢) الإصابة ٦/٨٥.

(٣) انظر فى ترجمته ابن سلام ص ١١٠ والشعر والشعراء ٢/٦٣٥ والأغانى ٦/٢٦٤ والاستيعاب ص ٦٦٥ والإصابة ٧/٦٣ والخزانة ١/٢٠٣ وأسد الغابة ٥/١٨٨ ومعاهد التنصيص /١٩٥ ومعجم الأدباء لياقوت (طبع مصر) ١١/٨٣ وشرح شواهد المغنى ١٠ والاشتقاق (نشرة الخانجى) ص ١٧٨

(٤) الاستيعاب ص ٦٦٦.

(٥) انظر ديوان الهذليين (طبعة دار الكتب المصرية) ١/١ وما بعدها.

(٦) غبرت : بقيت. ناصب : متعب. مستتبع : تابع.

وإذا المنيَّةُ أنشبتْ أظْفَـارَها ألفيتَ كل تَميمةٍ لا تنفعُ
والنفسُ راغبةٌ إذا رغَّبْتها وإذا تُرَدُّ إلى قليلٍ تَقْنعُ

ورَوى الرواة أنه قال حين حضره الموت يخاطب ابن أخ له يسمى أبا عبيد(١) :

أبا عُبَيْدٍ وقـع الكتابُ واقترب الوعيـد والحسابُ

وأشاع الإسلامُ فى نفوس كثير من الشعراء براً ورحمة بأهليهم وأقربائهم، ويشتهر فى هذا الصدد عمرو بن شأس الذى سبق أن عرضنا له فى شعر الفتوح، فقد كان له ابنٌ من أمة سوداء، وكانت امرأته تؤذيه وتستخف به فعاتبها بقطعته المعروفة(٢) :

أردتِ عِرارًا بالهوان ومَنْ يُرِدْ عِرارًا لعَمْرى بالهوان فقد ظَلَمْ

وكان ينحو هذا المنحى مَعْن(٣) بن أوس المُزَنى فى عتابه لابن عمه الذى أساء إليه إساءة كبيرة، وظل يسىء إليه وهو يوالى أشعاره فى صَفْحه عن زلاته براً به وبقرابته مع تجنّيه عليه وتجرّمه، يقول(٤) :

وذى رَحِمٍ قلَّمت أظفار ضِغْنِهِ بحلمىَ عنه وهو ليس له حِلْمُ
فما زلتُ فى لينٍ له وتعطُّفٍ عليه كما تَحْنُو على الولد الأُمُّ

ومن غير شك كان يستهدى فى ذلك آى الذكر الحكيم التى تدعو إلى البر بالأقرباء والصفح الجميل. ويمرض عمرو(٥) بن أحمر الباهلى فيتوجه إلى ربه داعياً(٦) :

---

(١) أغانى ٦ / ٢٧٩ ومعجم الأدباء ١١ / ٨٩ .

(٢) ابن سلام ص ١٦٦ والشعر والشعراء ١ / ٣٨٩ .

(٣) انظر ترجمته فى الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٢ / ٥٤ والإصابة ٦ / ١٧٩ والخزانة ٣ / ٢٥٨ وانظر فهرس البيان والتبيين والحماسة للمرزوق ومعجم الشعراء ص ٣٢٢ ومعاهد التنصيص. وقد نشرت أشعاره فى ليبزج .

(٤) أغانى ١٢ / ٦٠ وديوانه (طبعة ليبزج) ص ٥ ، ٣٦ .

(٥) راجع ترجمته فى ابن سلام ص ٤٩٢ والشعر والشعراء ١ / ٣١٥ والإصابة ٥ / ١١٤ والخزانة ٣ / ٣٨ ومعجم الشعراء ص ٢٤ والموشح ص ٨٠ .

(٦) الشعر والشعراء ١ / ٣١٦ وقد روى له ابن سلام قطعة حكمية يقول فيها :

والحى كالميت ويبقى التقى والعيش فنان فحلو ومـر

إليك إلهَ الحق أرفع رغبتى عِياذاً وخوفاً أن تُطيل ضَمانِيا[١]
فإن كان بُرْءًا فاجعل البُرْءَ نعمةً وإن كان فَيْضاً فاقضِ ما أنت قاضيا[٢]

وممن نحس عندهم أثر الإسلام واضحاً نهشل[٣] بن حرِّى فى مراثيه لأخيه مالك ، وكان قد قُتل بصِفِّين ، ومن قوله فى إحداها[٤] :

أُناسٌ صالحون نشأْتُ فيهم فأَوْدَوْا بعد إلفٍ واتساقِ
أرى الدنيا ونحن نعيثُ فيها مُـولِّيَةً نَهيًّـا لانطـلاقِ
أعاذلَ قد بقيتُ بقاءَ قيسٍ وما حىٌّ على الدنيا بِباقِ

وكان بجانب من قدَّمنا شعراء عُرفوا برقة دينهم ، ومع ذلك فحين نتعقب شعرهم نجد فيه خيوطاً إسلامية تظهر فى نَسْجه من حين إلى حين ، منهم عَبْد[٥] بنى الحسْحاس ، وكان يتغزل غزلا مفحشاً جعل قومه يقتلونه لعهد عثمان ونراه يقول :

عُمَيْرَةَ وَدِّعْ إن تجهَّزتَ غازيا كفى الشيبُ والإسلام للمرء ناهيا

ويُرْوَى أنه أنشد هذا البيت عمر بن الخطاب فقال له : لو قلت شعرك مثل هذا لأعطيتك عليه . ومثله النجاشى[٦] قيس بن عمرو ، الذى حدَّه على بن أبى طالب فى شرب الخمر برمضان ، وقد تهاجى مع كثير من الشعراء وعلى رأسهم تميم بن أُبَىّ بن مقبل العَجْلانى ، وفيه وفى قبيلته يقول :

إذا الله عادَى أهل لؤمٍ ودقَّةٍ فعادى بنى العَجْلان رهطَ ابن مُقْبلِ[٧]
قبيِّلَةٌ لا يغدرون بذمَّـةٍ ولا يظلمون الناس حَبَّةَ خَرْدَلِ

---

(١) الضمان : ما يصيب الإنسان فى جسده من مرض أو زمانة .

(٢) فيضا : موتا .

(٣) انظر فى ترجمته ابن سلام ص ٤٩٥ والشعر والشعراء ٢/٦١٩ والأغانى ٩/٢٧٠ والإصابة ٦/٢٦٨ والخزانة ١/١٤٧ .

(٤) أمالى المرتضى ٢/٢٢٦ .

(٥) انظر ترجمة عبد بنى الحسحاس فى أغانى (ساسى) ٢٠/٢ وما بعدها والشعر والشعراء ١/٣٦٩ وابن سلام ص ١٥٦ والإصابة ٣/١٦٣ والخزانة ١/٢٧١ وشرح شواهد المغنى ١١٢ . وقد نشرت دار الكتب المصرية ديوانه .

(٦) راجع فى ترجمة النجاشى الاشتقاق لابن دريد (نشرة الخانجى) ص ٤٠٠ والشعر والشعراء ١/٢٨٨ والإصابة ٦/٢٦٣ والخزانة ٤/٣٦٨ .

(٧) البيت دعاء على بنى العجلان ، وواضح أن النجاشى يرميهم بأن أصحابهم لئيمة خسيسة .

ولو أنه كان صحيح الإسلام ما هجاهم بالبيت الثانى، فإن الإسلام يُجِل الوفاء بالذمم والعهود وينهى عن الظلم وكل ما يتصل به ولكن روحه كانت جاهلية. وكان ابن[(١)] مقبل على شاكلته، يقول ابن سلام: «إنه كان جافياً فى الدين وكان فى الإسلام يبكى أهل الجاهلية»[(٢)] ومع ذلك ندَّتْ على لسانه أبيات فيها ما يدل فى وضوح على تأثره بالدين الحنيف من مثل قوله[(٣)]:

هل الدَّهْرُ إلا تارتان فمنهما ... أموت وأُخرى أبتغى العيش أكْدَحُ
وكلتاهما قد خُطَّ لى فى صحيفةٍ ... فلا الموتُ أهْوَى لى ولا العيش أرْوَحُ

وهو يَصْدُر فى البيتين عن الآية الكريمة: (ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتابٍ من قبل أن نَبْرَأها) ومما يُرْوَى له قوله[(٤)]:

الناسُ هَمُّهم الحياةُ ولا أرى ... طول الحياة يزيد غير خَبالِ
وإذا افتقرتَ إلى الذخائر لم تجد ... ذُخْرًا يكون كصالح الأعمالِ

وممن يُسْلَك فى هؤلاء الشعراء الذى عُرفوا برقة دينهم الحطيئة، وسنرى عما قليل أثر الإسلام فى شعره.

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل على فساد الفكرة التى شاعت بين الباحثين عرباً ومستشرقين من أن الإسلام لم يترك آثاراً عميقة فى نفوس المخضرمين، وخاصة أهل البادية[(٥)]، فقد نفذت أشعته النيرة إلى قلوبهم جميعاً. ونحن نقف عند خمسة منهم يُعَدُّون فى طليعتهم هم حسان بن ثابت وكعب بن زهير ولبيد والحطيئة والنابغة الجعدى، لنرى فيهم مدى تأثر المخضرمين بالإسلام، ولندل فى وضوح على أن هذا التأثر لم يقف عند شعراء المدينة من مثل حسان، فقد نفذ إلى شعراء البادية وتعمَّقهم على نحو ما سنرى عند لبيد والنابغة الجعدى.

---

(١) راجع فى ترجمة ابن مقبل الشعر والشعراء ١/٤٢٤ وابن سلام ص ١٢٥ والإصابة ١/١٩٥ والخزانة ١/١١٣ وزهر الآداب ١/١٩.

(٢) ابن سلام ص ١٢٥.

(٣) الحيوان للجاحظ ٣/٤٨.

(٤) طبرى ٥/٢٩.

(٥) راجع مثلا تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بنى أمية لنالينو (طبع دار المعارف) ص ٩٥.

٢

حسان[1] بن ثابت

كان أبوه ثابت بن المنذر بن حَرام الخزْرجى «من سادة قومه وأشرافهم»، وكانت أمه «الفُرَيعة» خزرجية مثل أبيه، وقد أدركت الإسلام ودخلت فى دين الله[2]. وهو يُسْلك فى المعمرِّين إذ يقال إنه عاش فى الجاهلية ستين سنة وفى الإسلام ستين أخرى، وهى سنٌّ تقريبية، فقد قيل إنه توفىّ قبل الأربعين، وقيل بل سنة خمسين وقيل بل سنة أربع وخمسين. وهو ليس خزرجيًّا فحسب، بل هو أيضاً من بنى النجار أخوال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فله به صلة قرابة ورحم.

ونراه قُبَيْل الإسلام يتردد على بلاط الغساسنة، ويقال إنه مدَّ رحلاته إلى بلاط النعمان بن المنذر؛ وكان لسان قومه فى الحروب التى نشبت بينهم وبين الأوس فى الجاهلية، ومن ثَمَّ اصطدم بالشاعرين الأوسيين: قيس بن الخَطيم وأبى قيس بن الأسْلت[3]. ويقال إنه عرض شعره على النابغة بسوق عكاظ، وقدَّم عليه الأعشى، فأثار موجدته[4].

ويهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، فيدخل حسان فى الإسلام، حتى إذا أخذ شعراء قريش فى هجاء الرسول وصحبه من المسلمين انبرى لهم بلاذع هجائه، وكان رسول الله يحثّه على ذلك ويدعو له بمثل: «اللهم أيِّدْه بروح القدس» واستمع إلى بعض هجائه لهم فقال: «لهذا أشدُّ عليهم من

---

(١) انظر فى ترجمة حسان ابن سلام ص ١٧٩ وفى مواضع متفرقة وأغانى (دار الكتب) ٤/١٣٤ وما بعدها و ١١/٢٧ و ١٤/١٥٧ و (طبعة الساسى) ١٦/١٢ وما بعدها والشعر والشعراء ١/٢٦٤ والموشح ص ٦٠ وتاريخ دمشق لابن عساكر ٤/١٢٥ والاستيعاب ص ١٢٨ والإصابة ٢/٨ وسير أعلام النبلاء للذهبى (طبع دار المعارف) ٢/١١٥ و ص ٣٦٦ وما بعدها وشرح شواهد المغنى ص ١١٤ والخزانة ١/١٠٨. وقد طبع ديوانه طبعات مختلفة فى ليدن بتحقيق هرشفيلد وفى مصر بتحقيق البرقوقى وفى تونس والهند وبيروت، وسنعتمد فى المراجعة على طبعة ليدن.

(٢) انظرها فى ابن سعد ٨/٢٧١.

(٣) انظر أغانى (دار الكتب) ٣/١٢ والديوان ص ٥٢ وفى مواضع متفرقة.

(٤) أغانى (دار الكتب) ٩/٣٤٠.

وقع النَّبْل » ، وفى حديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : «أمرتُ عبد الله ابن رواحة (بهجاء قريش) ، فقال وأحسن ، وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن ، وأمرت حسان بن ثابت فشفى واشتفى» . ومرَّ بنا فى الفصل السابق أنه لم يكن يهجو قريشاً بالكفر وعبادة الأوثان ، إنما كان يهجوهم بالأيام التى هزموا فيها ويعيِّرهم بالمثالب والأنساب . وهذا طبيعى لأنهم كانوا مشركين فعلا ، فلو هجاهم بالكفر والشرك ما بلغ منهم مبلغاً ، ويُرْوَى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال له : « اذهب إلى أبى بكر فليحدثْك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم ، ثم اهْجُهُم وجبريل معك »[1] .

ويذهب بعض الرواة إلى أنه كان ممن خاض فى حديث الإفك الكاذب على أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، ونراه يعلن براءته من هذا القول الآثم بأشعار يمدحها بها مدحاً رائعاً ، من مثل قوله :

حَصانٌ رَزانٌ ما تُزَنُّ بريبــةٍ ... وتُصبح غَرْثَى من لحوم الغوافِل[2]

فإن كان ما قد قيل عنّىَ قُلتُــه ... فلا رفعتْ سوطى إلىَّ أناملى

ويظهر أن بعض المهاجرين وعلى رأسهم صفوان بن المعطّل أثاروه فى هذا الحادث ، حتى وجد وجْداً شديداً ، فقال :

أمسى الجلابيبُ قد عَزُّوا وقد كثروا ... وابنُ الفُرَيْعة أمسى بَيْضَةَ البلدِ[3]

على أنه مضى فى نفس القصيدة يعلن إخلاصه للإسلام وأنه سيستمر فى ذَبِّـه عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

ويقال إنه كان ينشد الرسول شعره فى المسجد ، والذى لا شك فيه أنه كان يحظى منه بمنزلة رفيعة ، حتى ليُرْوَى أنه كان يرفع أزواجه إلى أُطُمه حين يخرج لحرب أعدائه ، وكان حين يعود يَقْسم له فى الغنائم ، وقد أهداه بستاناً ، كما أهداه سيرين أخت زوجه مارية القبطية ، وهى أم ابنه عبد الرحمن . وكان

---

(١) انظر فى هذا الحديث وما قبله ترجمته فى كتب الصحابة والأغانى ٤ / ١٣٧ وما بعدها .

(٢) حصان : عفيفة . رزان : ذات وقار . تزن : تتهم . غرثى : جائعة . يريد أنها لا تغتاب النساء .

(٣) سمى بعض المهاجرين الجلابيب استصغاراً لشأنهم . البلد هنا : النعام . وفى المثل هو أذل من بيضة البلد لأن النعام يترك بيضه فيحضنه غيره .

الخلفاء الراشدون يجلّونه ويفرضون له في العطاء . ويقال إنه وفد على معاوية وأنه عَمِيَ بأخرة .

وبحقٍّ سُمِّيَ حسان شاعر الإسلام ورسوله الكريم ، فقد عاش يناضل عنه أعداءه من قريش واليهود ومشركي العرب رامياً لهم جميعاً بسهام مُصْمية . وقصته مع الحارث بن عوف المُرّي حين قُتل في جواره داعٍ من دعاة الرسول مشهورة ، فقد قال فيه وفي عشيرته :

إن تَغْدِروا فالغَدْرُ منكم شِيمةٌ ... والغَدْرُ يَنْبُتُ في أُصول السَّخْبَرِ (١)

وبكى الحارث من هجائه له بدموع غزار ، واستجار بالرسول متوسلا إليه أن يكفّه عنه . وقد مضى حين قدم على الرسول وفد بني تميم يردُّ على شاعر هذا الوفد الزِّبْرقان بن بدر مادحاً للمهاجرين مدحاً رائعاً ، يقول في تضاعيفه :

إن الذوائبَ من فِهْرٍ وإخوتهم ... قد بَيَّنُوا سُنَّةً للناس تُتَّبَعُ (٢)
يَرْضَى بها كل من كانتْ سريرتُه ... تَقْوى الإلٰهِ وبالأمر الذي شرعوا
إن كان في الناس سبّاقون بعدهمُ ... فكلُّ سَبْقٍ لأدْنى سبقهم تَبَعُ
أَهْدَى لهم مِدَحِي قلبٌ يؤازره ... فيما أراد لسانٌ حائكٌ صَنَعُ

ومن المحقق أنه كان شاعراً بارعاً . وقد اتفق الرواة والنقاد على أنه أشعر أهل المدر في عصره وأنه أشعر اليمن قاطبة . وقد خلّف ديواناً ضخماً رواه ابن حبيب ، غير أن كثيراً من الشعر المصنوع دخله ، يقول الأصمعي : «تُنْسَب إليه أشياء لا تصحّ عنه » (٣) ويقول ابن سلام : « قد حُمل عليه ما لم يُحْمَلْ على أحد ، ولما تعاضهت (تشاتمت) قريش واستبّت وضعوا عليه أشعاراً كثيرة لا تُنَقّى » (٤) . وكان ممن حَمل عليه غُثاءً كثيراً ابنُ إسحق في المغازي ، ولاحظ ذلك ابن هشام وهو يَرْوِي عنه السيرة النبوية . فكان يرجع إلى العلماء بالشعر وعلى رأسهم أبو زيد الأنصاري راوية البصرة المشهور يسألهم عن صحة أشعار حسان

---

(١) السخبر : شجر ، ومن أمثالهم : ركب فلان السخبر إذا غدر .
(٢) الذوائب : الأعالي في الشرف . فهر : قريش ، يريد المهاجرين .
(٣) الاستيعاب ص ١٣٠ .
(٤) ابن سلام ص ١٧٩ .

المروية عندابن إسحق فكانوا يُثْبتون بعضها وينكرون بعضاً آخر وقد يردّونها إلى غيره من معاصريه ومن جاءوا بعدهم . ومع ذلك نرى كثيراً مما أنكروه مثبتا فى رواية ابن حبيب . ونحن نعرض صنيع ابن هشام ليُعلَم مدى ما وُضع على حسان ، فمن ذلك أن نراه كثيراً يقول بعد إنشاده لبعض القصائد : « وأهلُ العلم ينكرون هذه القصيدة لحسان »[١] ومن ذلك أنه نسب قصيدتين أضيفتا إليه إلى كعب بن مالك[٢] ونسب ثالثة إلى عبد الله[٣] بن الحارث السَّهْمى ورابعة إلى معقل[٤] بن خويلد الهُذَلى وخامسة إلى ربيعة بن أمية الدِّيلى وقيل بل هى لأبى أسامة الجُشَمى[٥] .ونسب سادسة إلى ابنه عبد الرحمن[٦] . وإذا مضينا نبحث فى مراجع أخرى وجدنا قطعة لعبد الله بن رواحة تضاف إليه ، وهى فى رثاء نافع بن بُدَيل[٧] ، وكذلك أضيفت إليه قطعة ثانية لعبد الله بن رواحة وهى فى رثاء عثمان[٨] ، وأيضاً أضيفت إليه مقطوعة يائية فى هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ونصرة الأوس والخزرج له ،ونصّ الرواة على أنها لصِرْمة[٩] بن أبى أنس الأنصارى ،ونُسب له بيتان فى الفخر بالأزد وهما لسعد[١٠] بن الحصين الأنصارى ، ونُسبت له مقطوعة رائية ، وهى لبشير[١١] بن سعد بن الحصين .

ونظن ظنًّا أن شعره اختلط بأشعار الأنصار ،وخاصة كعب بن مالك وعبد الله ابن رواحة وابنه عبد الرحمن ، أما الأولان فقد اشتركا معه فى هجاء قريش ،

---

(١) انظر ابن هشام فى مقطوعة عينية ٣/٥٦ وفى قصيدة عينية ٣/١٤٩ وما بعدها وقابل بالديوان ص٧٦ وهى فى رثاء حمزة ،وانظر حائية فى رثاء حمزة ٣/١٥٩ ومقطوعتين فى رثاء خبيب ٣/١٨٦ وقابل بالديوان ص٤٦ ، ٨٤ وكذلك مقطوعة بائية فى ٣/١٩٢ وقابل بالديوان ص٣٩ ومقطوعتين : لامية ورائية فى عمرو بن ود فى ٣/٢٨١ وقابل بالديوان ص٤٦ .

(٢) انظر السيرة النبوية لابن هشام ٣/١٣٧ وقابل بالديوان ص ٣٦ وانظر السيرة ٣/٣٦٢ وقابل بالديوان ص ٦٣ .

(٣) السيرة النبوية ٣/٢٠ والديوان ص٢٩ .

(٤) السيرة النبوية ٣/٨١ والديوان ص٨٤ .

(٥) السيرة النبوية ٣/٢٨٢ والديوان ٥١ .

(٦) السيرة النبوية ٤/١٩٩ والديوان ٥١ وراجع الحيوان ٣/١٠٨ حيث تشكك الجاحظ فى مقطوعة تنسب إليه وقال إنها تنسب أيضاً إلى ابنه عبد الرحمن .

(٧) انظر الديوان ص٣١ وقابل بالاستيعاب ص ٣٠٥ وابن هشام ٣/١٩٨ .

(٨) انظر الديوان ص ٧١ وقارن بالاستيعاب ص ٤٩٢ .

(٩) راجع الديوان ص٢١—٢٢ والاستيعاب ص ١٤ ، ٣٣٤ .

(١٠) انظر الديوان ص٤٠ وقارن بالأغانى (طبع الساسى) ١٤/١٢٠ .

(١١) راجع الديوان ص ٤٢ — ٤٣ وقارن بالأغانى ١٤/١٢٠ .

وأما عبد الرحمن فمعروف أنه كان يهاجى النجاشى الحارثى ويذم قومه بنى الحارث بن كعب وعشيرته بنى الحماس ذماً قبيحاً[١] . ومن هنا كنا نشك فيما يضاف إلى حسان من هجائهم ونظن أنه من أشعار ابنه ، حُمل عليه[٢] . ومن هذا الباب أشعاره المملوءة غيظاً على قتلة عثمان ، فإن كثيراً منها وضعه الأمويون[٣] ليظهروا للناس أن شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم كان فى صفّهم وليغسلوا عنهم عار الأشعار التى نظمها حسان فى هجاء أسرتهم حين كان أبو سفيان وغيره من رءوسها يقودون الجيوش ضد الرسول ويحادّونه . ومثلها ما يضاف إليه من أشعار فى مديح الزبير[٤] بن العوام وعبد الله[٥] بن العباس ، وكأن الأحزاب السياسية لعبت دوراً فى وَضْع الشعر على لسانه .

والحق أن شعر حسان الإسلامى كَثُرَ الوضع فيه ، وهذا هو السبب فيما يشيع فى بعض الأشعار المنسوبة إليه من ركاكة وهلهلة ، لا لأن شعره لان وضعف فى الإسلام كما زعم الأصمعى ، ولكن لأنه دخله كثير من الوضع والانتحال . ونحن نوثّق شعره فى الجاهلية إلا ما اتهمه الرواة[٦] ، ومن رائع هذا الشعر ميميته التى يملؤها ضجيجاً وعجيجاً بمفاخر قومه والتى يقول فيها :

لنا الجَفَناتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحَى ... وأَسيافُنا يَقْطُرْن من نَجْدَةٍ دَما

ولاميته التى يمدح بها الغساسنة بمثل قوله :

بيضُ الوجوه كريمةٌ أحسابهم ... شُمُّ الأَنوف من الطراز الأَوَّلِ

أما هجاؤه لقريش فينبغى أن نُبْعد منه ما اتهمه الرواة وأن لانقبل منه إلا ما يغلب عليه الإقذاع بالأيام والأنساب ،ومن ثمّ كنا نرتضى ميميته(تَبَلَتْ فؤادَكَ فى المنام خريدةٌ) التى يعيّر فيها الحارث بن هشام المخزومى بفراره فى يوم

(١) ابن سلام ص ١٢٥ .

(٢) انظر الديوان فى هجاء بنى الحماس الحارثيين قوم النجاشى ص٤٧ ، ٨١ وكذلك انظر مقطوعة رائية ص ٤٨ ونونية ص ٨٢ .

(٣) راجع ابن عبدالبر فى الاستيعاب ص٤٩٢ حيث يذكر أن أهل الشام زادوا عليه فى رثاء عثمان أبياتاً ، وقد رد بيتاً له فيه إلى عمران بن حطان .

(٤) الاستيعاب ص ٢٠٨ وقد نسبت إليه أشعار فى هجاء آل العوام والوضع فيها ظاهر . انظر الديوان ص ٨٥ .

(٥) الديوان ص ٧٤ والبيان والتبيين ١ / ٣٣٠ .

(٦) انظر الأغانى (ساسى) ١٤/ ١٢٥—١٢٧ .

بدر ، ومثلها قصيدته الميمية (منع النومَ بالعشاء الهمومُ) التى يهجو فيها ابن الزِّبَعْرَى ويفتخر بقومه فخراً عنيفا ، ومن نمطهما لاميته (أهاجك بالبَيْداء رَسْمُ المنازل) . وبهذا القياس نُضيف إليه مقطوعته الكافية التى وجهها إلى أبى سفيان ابن الحارث ، وقد رواها ابن سلام[١] ، ومثلها مقطوعته الدالية التى يستهلها بقوله :

وإن سَنام المجد من آل هاشم   بنو بنت مخزوم ووالدُك العَبْدُ[٢]

ومقطوعته الميمية التى يقول فيها :

لعمرك إن إلّك من قريشٍ   كإل السَّقْبِ من رَأْلِ النَّعام[٣]

وأيضاً نحن نثبت له قصيدته الهمزية التى يقول فيها لأبى سفيان بن الحارث :

هجوتَ محمدًا فأَجبتُ عنه   وعند الله فى ذاك الجــزاءُ

وهو يستهلها بذكر منازل صاحبته مشبِّباً بها ومستطرداً إلى ذكر الخمر على طريقة الجاهليين ، مما جعل القدماء يقولون إن القصيدة تتكون من جزءين : جزء نظم فى الجاهلية ، وجزء نظم فى الإسلام[٤] . وهو يمضى فى الجزء الثانى متحدثاً عن فروسية قومه ومتوعداً قريشاً بحروب مُبيرة ، وتختلط فى هذا الجزء المعانى الجاهلية بالمعانى الإسلامية إذ يَعْرِض لرسالة النبى صلى الله عليه وسلم ومتابعة قومه له ونصرتهم لدينه ، من مثل قوله :

وجبـــريلٌ أَمينُ الله فينـــا   وروحُ القُدْس ليس له كِفاءُ[٥]

وقد تبرز المعانى الإسلامية فى بعض أهاجيه لقريش كقوله من مقطوعة يعيِّرها فيها بهزيمتها يوم بدر :

فينا الرسولُ وفينا الحقُّ نَتْبعه   حتى الممات ونصْرٌ غير محدودِ
مستعصمين بحَبْلٍ غير مُنْجذمٍ   مُسْتحكمٍ من حبالِ الله ممدودِ[٦]

---

(١) ابن سلام ص ٢٠٨ والديوان ص ١٩ .

(٢) بنت مخزوم : فاطمة بنت عمرو المخزومى وهى أم عبد الله وأبى طالب والزبير بنى عبد المطلب .

(٣) السقب : ولد الناقة . الرأل : ذكر النعام . الإل : القرابة .

(٤) انظر الاستيعاب ص ١٢٩ .

(٥) كفاء : كفء ونظير .

(٦) منجذم : منقطع .

وهو يشير فى البيت الثانى إلى قوله تعالى : (واعتصموا بحبل الله جميعاً) . وله مراثٍ فى الرسول الكريم تتضح فيها المعانى الإسلامية اتضاحاً على نحو ما يلقانا فى مرثيته التى رواها أبو زيد الأنصارى والتى يقول فيها :

وما فقد الماضون مثل محمدٍ ولا مثله حتى القيامة يُفْقَد

وقد مرَّت بنا فى الفصل السابق مرثيته البديعة لأبى بكر الصديق ، ومن قوله فى عمر حين توفِّى على إثر طعنة فيروز المجوسى :

فجَّعنا فَيْروزُ لا دَرَّ درُّهُ بأبيض يتلو المُحْكمات منيبِ (١)

وعلى هذا النحو اتشحت بعض أشعار حسان الإسلامية بأضواء الدين الحنيف وهديه الكريم .

٣

كعب(٢) بن زهير

أبوه زهير بن أبى سُلْمى من فحول الشعر فى الجاهلية. وهما من قبيلة مزينة ، ولكنهما يوضعان فى عِداد غطفان حيث عاش زهير مع بنيه بين أخواله بنى مُرَّة الذُّبيانيين. وقد تلقن كعب الشعر عن أبيه ، مثله فى ذلك مثل أخيه بُجَيْر ومثل الحُطَيئة . ويذكر لنا الرواة الطريقة التى كان يخرِّج بها زهير تلاميذه من أهل بيته وغيرهم إذ يقولون إنه كان يحفِّظهم شعره وشعر غيره من الجاهليين حتى تتضح موهبة الشعر فيهم . ويقولون عن كعب إنه كان يخْرج به إلى الصحراء ، فيُلقى عليه بيتاً أو شطراً ويطلب إليه أن يُجيزه (٣) تمريناً له وتدريباً على صَوْغ

(١) لا در دره : الدر : اللبن وكثرته ، يدعو عليه بأن لا يزكو عمله . المحكمات : آيات الذكر الحكيم . وكنى ببياض عمر عن نقاء صحيفته .

(٢) راجع فى ترجمة كعب طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص ٨٣ وما بعدها والشعر والشعراء لابن قتيبة ١ / ٨٦ وأغانى (طبعة الساسى) ١٥ / ١٤٠ وابن هشام ٤ / ١٤٤ وما بعدها والاستيعاب ص ٢٢٦ وأسد الغابة ٤ / ٢٤٠ والإصابة ٥ / ٣٠٢ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٢٣٠ والخزانة ١ / ٣٧٥ ، ٤ / ١١ . وقد طبعت دار الكتب المصرية ديوانه برواية ثعلب .

(٣) أغانى (طبع الساسى) ١٥ / ١٤١ وأمالى المرتضى (طبع الحلبى) ١ / ٩٧ .

الشعر ونظمه . ويبدو أن كعباً اشتهر فى الجاهليه بأكثر مما اشتهر الُحطَيْئة ، يدلُّ على ذلك ما يَرْويه ابن سلام من أن الحطيئة قال له : « قد علمتَ روايتى لكم أهلَ البيت وانقطاعى إليكم ، وقد ذهبت الفحول غيرى وغيرك ، فلو قلت شعراً تذكر فيه نفسك وتضعنى موضعاً بعدك فإن الناس لأشعاركم أرْوَى وإليها أسرع »(١) ، فقال كعب قطعته التى يقول فيها :

فمَنْ للقوافى شانَها من يَحُوكها ... إذا ما ثَوَى كعبٌ وفوَّز جَرْوَلُ(٢)

ومعروف أن كعباً وبجيراً أخاه والحطيئة أدركوا الإسلام ، وكان أسبقهم إلى الدخول فيه بُجَيْر ،وقد هجاه كعب حينئذ هجاء آذى رسول الله بمثل قوله(٣) :

ألا أبلغا عنى بُجَيْرًا رسالةً ... فهل لك فيما قلتُ ـ ويحك ـ هل لكا
شربتَ مع المأمون كأساً رَوِيَّةً ... فأنْهَلكَ المأمونُ منها وعلَّكا(٤)
وخالفتَ أسباب الهُدَى وتبعتَه ... على أى شىءٍ ـ ويْبَ غيرك ـ دَلَّكا(٥)
على خُلُقٍ لم تُلْفِ أمًّا ولا أباً ... عليه ولم تدرك عليه أخاً لكا

ويقال إن الرسول سمع بهذا الشعر فتوعده ، وأجابه بُجَيْر فيما أجابه به بقوله(٦) :

من مبلغٌ كَعْباً فهل لك فى التى ... تلومُ عليها باطلا وهى أحزمُ
إلى الله لا العُزَّى ولا اللاتِ وحده ... فتنجو إذا كان النَّجاءُ وتسلمُ
لدى يومَ لا ينجو وليس بمفلتٍ ... من النار إلا طاهرُ القلب مسلم

وما زال كعب على وثنيته حتى فُتحت مكة وانصرف الرسول صلى الله عليه سلم من الطائف ، فكتب إليه بجير أن النبى صلى الله عليه سلم قتل كل من

---

(١) ابن سلام ص ٨٧ وانظر الأغانى (طبع دار الكتب) ٢/١٦٥ .
(٢) ثوى وفوز : مات وهلك . جرول : الحطيئة .
(٣) مقدمة الديوان ص ٣ وأغانى (ساسى) ١٥/١٤٢ والسيرة ٤/١٤٤ والاستيعاب ص ٢٢٦ .
(٤) المأمون : الرسول وقيل بل أراد به أبا بكر . النهل : الشرب الأول . العلل : الشرب الثانى .
(٥) ويب غيرك : هلكت هلاك غيرك ، وويب بالنصب على إضمار فعل .
(٦) الديوان ص ٤ والسيرة ٤/١٤٥ .

آذاه من شعراء المشركين إلا من أعلنوا إسلامهم ،ودعاه أن يَقْدم على رسول الله تائباً . وشرح الله صدره للإسلام ، فقدم المدينة وبدأ بأبي بكر ، فوقع من نفسه « فلما سلَّم النبي صلى الله عليه وسلم من صلاة الصبح جاء به وهو متلثم بعمامته ، فقال : يا رسول الله ! هذا رجل جاء يبايعك على الإسلام ، فبسَط النبيُّ صلى الله عليه وسلم يده ، فحسَر كعب عن وجهه ، وقال : هذا مقام العائذ بك يا رسول الله! أنا كعب بن زهير . فتجهَّمته الأنصار وغلَّظت له ، لذكره قبل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحبَّت المهاجرة أن يُسْلِم ويؤمِّنه النبي صلى الله عليه وسلم ، فأمَّنه رسول الله »[1] ، وأنشده مدحته الخالدة :

بانتْ سُعاد فقلبي اليوم مَتْبُولُ متيَّمٌ إثْرَها لم يُفْدَ مَكْبُولُ[2]

فكساه النبي صلى الله عليه وسلم بُرْدة اشتراها معاوية من أبنائه بعشرين ألف درهم ، وكان يلبسها الخلفاء بعد معاوية في العيدين[3] . وقد اكتسى بها كعب حُلَّة مجد لا تبلى ، ولقِّبت قصيدته من أجلها بالبردة . ونراه يستهلها بالغزل ، إذ يذكر سعاد وفراقها وأن قلبه مرتهن عندها فليس له فكاك ، وكأنه يتأثر أباه في بعض غزله إذ يقول في إحدى قصائده[4] :

وفارقتْك برَهنٍ لا فِكاك له يوم الوداع فأَمسى الرَّهْنُ قد غَلِقَا[5]

ويُلحُّ في وصف سعاد ويشبهها بالظبي ويشبه ريقها بالخمر ، متأثراً في ذلك أباه في نفس القصيدة ، كما تأثره في الحديث عن إخلاف صاحبته لوعدها . ويخرج من ذلك إلى وصف ناقته مستلهماً ما نظمه أبوه في هذا الموضوع من قبل . وما زال ينعت ناقته حتى قال يصوِّر خوفه وفزعه من رسول الله :

---

(١) ابن سلام ص ٨٣ والشعر والشعراء ١٠٤/١ وانظر الأغاني ١٤٢/١٤ .

(٢) انظر القصيدة في ديوان كعب (طبعة دار الكتب المصرية) ص٦ . ومتبول : مغرم . وبانت : فارقت . ومكبول : مقيد .

(٣) ابن سلام ص٨٧ والشعر والشعراء ١٠٦/١ والإصابة ٣٠٢/٥ .

(٤) ديوان زهير (طبعة دار الكتب) ص٣٣ .

(٥) غلق الرهن : لم ينفك أبداً .

وقلت خَلُّوا طريقى ـ لا أبا لكمُ ـ   فكلُّ ما قدَّر الرحمنُ مفعولُ
كلُّ ابنِ أنثى وإن طالتْ سلامتهُ   يوما على آلةٍ حَدْباءَ محمولُ
أُنبئتُ أنَّ رسول الله أوعدنى   والعَفْوُ عند رسول الله مأْمول
مَهْلاً هداك الذى أعطاك نافلةَ الـ   ـقرآن فيها مواعيظٌ وتفصيل
لا تأْخذنِّى بأقوال الوشاة ولم   أذنبْ ولو كثُرتْ عنى الأَقاويل
إن الرسول لنورٌ يُسْتَضاءُ به   مهنَّدٌ من سيوف الله مسلول[1]
فى عُصْبَةٍ من قريش قال قائلهم   ببطن مكة لما أَسْلَمُوا زُولُوا[2]
زالوا فما زال أنكاسٌ ولا كُشُفٌ   عند اللِّقاء ولا مِيلٌ مَعَازيلُ[3]

ومضى يمدح المهاجرين حتّى قال :

يمشون مشى الجمالِ الزُّهْرِ يَعْصمهم   ضَرْبٌ إذا عَرَّدَ السُّودُ التنابيلُ[4]

يعرِّض بالأنصار لغلظتهم ـ كانت عليه ـ فأنكرت قريش ما قال ، وقالوا لم تمدحنا إذ هجوتهم . ولم يقبلوا منه ذلك حتّى قال يذكر الأنصارَ :

من سَرَّه كرمُ الحياة فلا يَزَلْ   فى مِقْنَبٍ من صالحى الأَنصارَ[5]
الباذلين نفوسهم لنبيِّهم   يوم الهياج وسطوة الجَبَّارِ
يتطهَّرون ـ كأَنه نُسُكٌ لهم ـ   بدماءِ مَنْ عَلِقُوا من الكُفَّار[6]
صدموا عَلِيًّا يوم بَدْرٍ صَدْمةً   دَانَتْ لوقْعَتِها جميعُ نزار[7]

---

(١) المهند : السيف المطبوع من حديد الهند وهو خير السيوف .
(٢) زولوا : هاجروا .
(٣) أنكاس : جمع نكس وهو الضعيف الذليل. كشف : جمع أكشف وهو الذى ينكشف فى القتال وينهزم . ميل : جمع أميل وهو الجبان. معازيل : جمع معزال : وهو الذى ينعزل فى الحرب عن صحبه ومن يستغيث به .
(٤) الزهر : البيض . عرد : نكل وجبن . التنابيل : القصار .
(٥) المقنب : جماعة الخيل والفرسان .
(٦) علقوا : قتلوا .
(٧) يريد بعلى بنى على بن مسعود وهم بنو كنانة .

ورثوا السيادة كابرًا عن كابرٍ　　إن الكرام همُ بنو الأَخيـار

وحَسُنَ إسلام كعب، وأخذ يصدر فى شعره عن مواعظ وحكم يستهدى فيها الذكر الحكيم ، من مثل قوله :

لو كنت أعجبُ من شيء لأَعجبنى　　سَعْىُ الفتى وهو مخبوءٌ له القَدَرُ

يسعى الفتى لأُمورٍ ليس يُدْركها　　والنفس واحدةٌ والهمُّ منتشِرُ

والمرْءُ ما عاش ممدودٌ له أملٌ　　لا تنتهى العيْنُ حتى ينتهى الأَثرُ

ونراه يردد كثيراً أن الله يرزق عباده ، وأنه لا يتركهم بدون رزق فهو راعيهم الذى يتفضل عليهم . وهو الغنى الحميد ، يقول :

أعلمُ أنى متى ما يأتنى قَدَرى　　فليس يَحْبِسُه شُحٌّ ولا شَفَقُ(١)

والمرء والمال يَنْمِى ثم يُذْهِبُـهُ　　مَرُّ الدهور ويُفنيه فَيَنْسَحِقُ

فلا تخافى علينا الفقر وانتظرى　　فَضْلَ الذى بالغِنى من عنده نَثِقُ

إن يَفْنَ ما عندنا فالله يرزقنا　　ومَنْ سوانا ولسنا نحن نرتزق

وهو فى ذلك يقرب من زهاد المسلمين الذين كانوا يكرهون أن يفكر الشخص منهم فى رزق غد ، بل كان منهم من يرى أن ذلك خطيئة لا تغتفر . وله قصيدة لامية يظهر أنه نظمها فى الجاهلية لما يذكر فيها من شربه الخمر مع من يصطفيه . ويظهر أنه عاد فأدخل فيها بعد إسلامه هذه الأبيات :

فأَقسمتُ بالرحمن لا شيء غيره　　يمينَ امرئٍ بَرٍّ ولا أَتحلَّلُ(٢)

لأَستشعرنْ أعلى دَرِيسَىَّ مسلما　　لوجه الذى يُحْيِى الأَنام ويقتل(٣)

هو الحافظُ الوَسْنانَ بالليل مَيِّتاً　　على أنه حَىٌّ من النوم مُثْقَلُ(٤)

من الأَسودِ السارى وإن كان ثائرا　　على حَدِّ نابيه السِّمامُ المُثَمَّلُ(٥)

---

(١) شفق : خوف .

(٢) لا أتحلل : لا أستثنى .

(٣) الدريس : الثوب البالى . كنى بذلك عن حسن إسلامه وتوكله على الله الذى يحيى ويميت .

(٤) الوسنان : النائم .

(٥) الأسود : الأفعى . السارى : الذى يسير ليلا . الثائر : الطالب بثأر . المثمل : المجمَّع

وهي تنمّ عن ولائه لدينه الحنيف وأنه أسلم وجهه لربه ، جل جلاله ، الحافظ الذى يكلأ عباده ويقيهم الأذى . ولعلّ فى ذلك ما يدل دلالة واضحة على مدى تأثير الإسلام فى نفسه وفى شعره . وديوانه يدل — كما يدل تأخره فى إسلامه — على أنه كان فيه شر كثير ، إذ نراه دائماً فى شعره الجاهلى مفاخراً متوعداً مهدداً ، حتى إذا أسلم أخذت نفسه تصفو ، وأخذ يستشعر معانى الإسلام الروحية ، وما دعا إليه من الخلق الفاضل ، حتى لنراه فى الهجاء نفسه يعلن لهاجيه أنه يصفح الصفح الجميل ، سائقاً له ، لا من الشتم والسباب ، بل من الحكم ، ما يحاول به أن يكفّ أذاه عنه ، يقول[١] :

إن كنت لا ترهب ذَمِّى لما ... تعرف من صَفْحِى عن الجاهل
فاخْشَ سكوتى إذ أنا منصتٌ ... فيك لمسموع خَنَا القائل
فالسامع الذامِّ شريكٌ له ... ومطعمُ المـــأكول كالآكل
مقـــالةُ السُّوءِ إلى أهلهـــا ... أسرع من مُنْحَدِرٍ سائل
ومَنْ دعا الناس إلى ذَمِّهِ ... ذَمـــوه بالحق وبالباطـــل
ولا تَهِجْ إن كنت ذا إرْبَةٍ ... حَرْبَ أخى التجربة العاقل[٢]
فإنَّ ذا العَقْل إذا هجتَهُ ... هِجْتَ به ذا خَبَلٍ خابِلِ

فهو ينهاه أن لا يجعل الصفح عنه سبباً إلى سوء القول ، حتى لا يجنى على نفسه ما هو أقبح أثراً وأبقى وسماً . ويقول إن الذين يبسطون ألسنتهم بالهجاء سرعان ما يرتد عليهم هجاءً أقذع وأمرّ : هجاء بالحق وبالباطل . وهو فى ذلك كله يأخذ بأدب القرآن ورسوله عليه الصلاة والسلام من العفو والصفح ومن التقريع لمن يهجوه بدلا من الطعن فى الأعراض سنتّهم القديمة .

---

(١) الخزانة ٤/١٢ والاستيعاب ص ٢٢٧ والحيوان ١/١٥ .

(٢) الإربة : الدهاء .

٤

لبيد[١]

من عشيرة ذات سيادة وشرف فى بنى كلاب العامريين ، هى عشيرة بنى جعفر ، وقد اشتهر فيها أبوه ربيعة وأعمامه الطُّفَيْل وأبو بَراءومعاوية . أما ربيعة فكان بحراً فياضاً ، ومن ثَمَّ لُقِّبَ : « ربيعَ المُقْتِرين » وقد قتلته بنو أسد فى بعض حروبها مع قومه . وأما الطفيل فكان فارساً مغواراً وهو أبوعامر المشهور هو الآخر بفروسيته ، وكذلك كان أبو براء شجاعاً مقداماً وكان يلقّب بملاعب الأسنة ، أما معاوية فكان ذا رأى وحكمة ، فلقّب بمعوِّذ الحكماء . وأم لبيد تامرة بنت زنباع العَبْسية .

وقد نشأ لبيد يشعر شعوراً عميقاً بكرامة أسرته وأمجادها ومناقبها . وبمجرد أن شبَّ أخذ يشترك فى حروبها وغاراتها ووفادتها على أمراء الحيرة ويقصُّ الرواة من ذلك حديثاً يتصل — إن صَحَّ — بأول ما كان من تيقظ موهبته الشعرية وهو لايزال حَدَثاً ، فهم يروون أن وفداً من قومه على رأسه عمه أبو برّاء وفد على النعمان بن المنذر ، فوجد هناك وفداً من بنى عَبْس على رأسه الربيع بن زياد ، وكان بين العبسيين وبنى عامر قبيلة لبيد عداوة منشؤها أن العامريين قتلوا زهير بن جذيمة سيد بنى عبس فى بعض حروبهم . ولم يلبث الوفدان أن اصطدما ، وأخذ الربيع يدسُّ على العامريين عند النعمان . وعرفوا ذلك ، فاستشاط لبيد غضباً ، ووثب بين يدى النعمان يهجو الربيع برجز

---

(١) انظر فى ترجمة لبيد ابن سلام ص١١٣ والشعر والشعراء ١ / ٢٣١ والأغانى (طبعة دار الكتب) ١٥ / ٣٦١ وطبعة الساسى ١٥ / ١٣٠ وطبقات ابن سعد ٦ / ٢٠ وأسد الغابة ٤ / ٢٦٠ والموشح ص ٧١ وأمالى المرتضى (طبعة الحلبى) ١ / ١٨٩ والاستيعاب ص٢٣٥ والإصابة ٦ / ٤ والمعمرين ص ٦٠ والخزانة ١ / ٣٣٤ وقد طبع الخالدى جزءاً من ديوانه سنة ١٨٨٠ ونشر هوبر جزءاً آخر سنة ١٨٨٧ وأضاف بروكلمان بقية طبعت فى ليدن سنة ١٨٩١ وطبع الديوان أخيراً طبعة علمية محققة اضطلع بها إحسان عباس ونشرت فى الكويت سنة ١٩٦٢ .

مقذع ، فانصرف النعمان عن الربيع وأجزل فى إكرامه للعامريين . وسواء أصحّ هذا الخبر أولم يصح فإن لبيدا أخذ منذ سال الشعر على لسانه ينظمه فى الفخر بعشيرته والاعتداد بها اعتداداً بالغاً . ويقال إنه كان يكتمه فى أول الأمر . حتى إذا نظم معلقته : « عَفَت الديار محلُّها فمقامها » أخذ يظهره . وأخذ اسمه يطير فى القبائل . ولما سارت الركبان بأمر الرسول فى المدينة ورسالته النبوية أرسله عمه أبو براء برسالة إليه[1] ، فوقع الإيمان فى قلبه ، إلا أنه لم يُعْلن إسلامه حينئذ . وعاد إلى قبيلته ، حتى إذا استدار العام خرج مع وفد منها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأعلنوا دخولهم فى دين الله . وكان ابن عمه عامر بن الطفيل وأخوه أربد وفدا على الرسول قبل ذلك يريدان به شرًّا فعصمه الله . ودعا عليهما . فلم يلبث عامر أن أصابه طاعون فى عنقه فقتله ، أما أربد فنزلت عليه صاعقة من السماء أهلكته . وظل لبيد بعد إسلامه يبكيه بكاء حارًّا .

ورجع لبيد بعد إعلانه إسلامه إلى قبيلته يذكر لهم البعث والجنة والنار ويقرأ لهم القرآن . وما زال بينهم حتى خطّ عمر الكوفة فنزلها وأقام بها إلى أن توفّاه الله فى صدر خلافة معاوية سنة أربعين للهجرة . ويقول الرواة إنه شغل نفسه حينئذ بالقرآن وتلاوته ولم ينظم الشعر إلا قليلا ، ويصوّرون ذلك فيقولون إن عمر أرسل إلى المغيرة بن شُعْبة واليه على الكوفة : أن استنشدْ من قِبَلك من شعراء مصرك ما قالوا فى الإسلام . فلما سأل لبيدًا عن شعره انطلق فكتب سورة البقرة فى صحيفة ، ثم أتاه بها . وقال : أبدلنى الله هذه فى الإسلام مكان الشعر ، فكتب المغيرة بذلك إلى عمر . فأمر أن يزيد عطاءه خمسمائة وكان ألفين . ويمضى الرواة فيزعمون إنه لم يقل فى الإسلام إلا بيتاً واحداً ويختلفون فيه[2] ، فمن قائل هو قوله :

الحمدُ لله إذ لم يأتنى أجَلِى　　　حتى كسانى من الإسلام سِرْبالا

---

(١) أغانى (طبعة الساسى) ١٥/١٣١ .

(٢) الشعر والشعراء ١/٢٣٢ والأغانى (طبعة دار الكتب) ١٥/٣٦٩ وانظر الاستيعاب ص ٢٣٥ حيث يذكر بيتاً ثالثاً .

ومن قائلٍ ، بل هو قوله :

ما عاتبَ المرءَ الكريمَ كنفسه　　والمرءُ يُصْلحه الجليسُ الصالحُ

والحق أن له أشعاراً كثيرة تفيض بمعانى الإسلام ومثاليته الروحية ، بحيث يمكن أن نقسم شعره قسمين : قسماً جاهليًّا وقسماً إسلاميًّا .

وهو فى القسم الجاهلى لا يخرج إلى مديح أو هجاء ، بل يمضى مفاخراً فخراً عنيفاً بآبائه وفتوته معتدًّا اعتداداً لا حدَّ له بالأقربين من أسرته ، ومن ثَمَّ وقف مع ابن عمه عامر بن الطفيل ضد علقمة بن عُلاثة حين تفاخرا إلى هرم بن قُطْبة الفزارى[1] واقرأ فيه فستجده دائماً فى هذا القسم مفاخراً بقومه وشجاعتهم وبلائهم فى الحروب وما لهم من مناقب جليلة حتى إذا أفضى إلى نفسه تحدث عن شمائله وتجشُّمه لسُرَى الليل بأصحابه وفتوته وكيف يسقى الخمر لداته ، وكيف يقامر ليطعم الجائع المحروم . وكثيراً ما يهجم فى قصائده على هذا الفخر ، وقد يقدم لذلك بمقدمات ، على نحو ما صنع فى معلقته ، إذ بدأها بذكر الديار وذكر الأحبة الظاعنين ، ثم مضى يصف اقتحامه للصحراء على ناقته ، وسرعان ما شبهها بأتان وحشية ، استرسل فى الحديث عنها وعن حمار كان يصاحبها ويلاعبها . ويخرج من ذلك إلى تشبيهه لها ببقرة وحشية مذعورة لفقد طفلها ، ويسترسل فى وصف تعقب الرماة لها وإرسالهم جوارح الكلاب عليها ، ويخلص إلى الفخر بكرمه وبسالته ومنادمته لرفاقه ، ويفخر بقومه وكثرة سادتهم وما سنَّه لهم آباؤهم ، يقول :

إنا إذا التقتِ المجامعُ لم يزل　　منا لِزازُ عظيمةٍ جَشَّامُها[2]

ومقسِّمٌ يُعْطى العشيرة حَقَّها　　ومُغَذْمِرٌ لحقوقها هضَّامها[3]

فَضْلاً ، وذو كرمٍ يُعين على النَّدَى　　سَمْحٌ كسوبُ رغائبٍ غَنَّامها

(١) أغانى (ساسى) ١٥/٥٢ .

(٢) اللزاز : الملازم للشئ ، جشامها : من التجشم وهو ركوب الخطر .

(٣) مغذمر : لايعطى . هضام هنا : يعطى قوماً ويحرم آخرين .

من مَعْشَرٍ سَنَّتْ لهم آباؤهم ولكل قومٍ سُنَّةٌ وإمامُها
فبنوا لنا بَيْتاً رفيعاً سَمْكُهُ فسما إليه كهْلها وغلامهـا
فاقْنَعْ بما قسمَ المليكُ فإنَّما قسمَ الخلائقَ بيننا عَلاَّمهـا

وشعره الجاهلى دائماً على هذه الوتيرة من الحديث عن مناقب آبائه ومفاخره ووصف راحلته وتشبيهها بالأتان المتوجسة والبقرة المسبوعة أو النعامة الخائفة ، وقد يتحدث عن المطر . وهو فى ذلك كله يتميز بالإغراب الشديد فى لفظه ، حتى ليمسّ قارئه شيء من الضجر لكثرة ما يورد من أوابد الألفاظ وحوشيّها . واقرأْ ما لم نَرْوه من المعلقة قبل هذه الأبيات التى أنشدناها فإنك ستجده مفرّغاً فى ألفاظ متناهية فى الإغراب . ومن ثمّ وصف شعره أبو عمرو بن العلاء فقال : إنه رحى بَزْرٍ[1] ، يريد أنه خشن لا يَحْسن فى السمع ، وقال الأصمعى ، شعر لبيد كأنه طيلسان طبرانىّ أى أنه محكم الصنعة ولا رونق له .

وإذا انتقلنا من هذا القسم إلى شعره الإسلامى وجدنا قراءته للقرآن الكريم تهذّب من لفظه وتُدْخل عليه غير قليل من الطّلاوة ، ومن ثَمّ يقول فيه ابن سلاّم : « كان عذب المنطق رقيق حواشى الكلام ، وكان مسلماً رجل صدق » ويتضح ذلك فى مراثيه المشهورة لأخيه أرْبد ، فإن لألفاظها ماء ورونقاً وفى معانيها من الإسلام أصداء وظلالا ، وارجعْ إلى عينيته فستجد جمال السبك والصياغة ، وستجد الروح الإسلامية ماثلة فى تضاعيف أبياتها على شاكلة قوله[2] :

بَلِينا وما تَبْلَى النُّجُومُ الطَّوالع وتَبْقَى الجبالُ بعدنا والمصانعُ[3]
فَلا جَزَعٌ إن فَرَّق الدهرُ بيننا وكل فتىً يوماً به الدهرُ فاجعُ
وما الناسُ إلا كالديار وأهلهـا بها يومَ حَلُّوها ، وغَدْوًا بَلاقِعُ[4]

(١) الموشح للمرزبانى ص ٧١ .
(٢) الديوان بتحقيق إحسان عباس ص ١٦٨ .
(٣) المصانع : الأبنية الضخمة .
(٤) بلاقع : جمع بلقع وهو الأرض القفر. وغدوا : غدا .

وما المَرْءُ إلا كالشهاب وضَوْئه ... يَحُورُ رَمادًا بعد إذ هو ساطع[١]
وما البِرُّ إلا مُضْمَراتٌ من التُّقَى ... وما المال إلا عاريات ودائعُ

وليس كل ما حدث من انقلاب فى شعره الإسلامى أنه انتقل من الألفاظ الحوشية إلى الديباجة الطلية ، فقد تغلغل الإسلام فى ضميره . فاتجه فى أشعاره إلى ربه منيباً إليه . والوجل يملأ نفسه من يوم الحساب الذى ينتظره ، يقول فى قصيدة له[٢] :

إنما يحفظ التُّقَىَ الأَبرارُ ... وإلى الله يستقرُّ القرارُ
وإلى الله تَرْجعون وعند اللـ ... ـه وِرْدُ الأمور والإصدارُ
كلَّ شىءٍ أحصى كِتاباً وعِلْماً ... ولديه تجلَّتِ الأَسرارُ
إن يكن فى الحياة خيرٌ فقد أُنْـ ... ـظِرْتُ لو كان ينفع الإنظارُ[٣]
عشتُ دهرا ولا يدوم على الأَيَّـ ... ـام إلا يَرَمْرَمٌ وتِعَارُ[٤]

فإنك تجده يتحدث عن التقوى والأبرار والعمل الصالح وأن الناس معروضون على الله يوم القيامة وقد أُحْصِى كل شىء فى كتاب وأن الموت حق لا شك فيه وأن على كل إنسان أن يفكر فى مصيره . ويمضى فى طائفة غير قليلة من أشعاره يعظ مَنْ حوله بما أهلك الله من الأمم الخالية مخوِّفا من الموت ويوم الحساب ،وداعياً إلى التقوى والعمل الصالح ، ومهوناً من الدنيا ومتاعها الزائل ونعيمها الفانى ، على نحو ما نرى فى لاميته التى نؤمن بأنه نظمها فى الإسلام ، وفيها يقول[٥] :

أَلا كلُّ شىءٍ ما خلا الله باطلُ ... وكلُّ نَعيمٍ لا محالَةَ زائلُ
وكلُّ أُنَاسٍ سوف تدخل بينهم ... دُوَيْهِيَــةٌ تصفرُّ منها الأَناملُ[٦]

---

(١) يحور : يصير .
(٢) ديوان لبيد ص٤١ والحيوان ١٦٣/٧
(٣) الإنظار : التأخير .
(٤) يرمرم وتعار : جبلان فى نجد .
(٥) الديوان ص ٢٥٦ والشعر والشعراء ٢٢٧/١ والطبرى ٢٨/٥ .
(٦) يريد بالدويهية الموت .

وهو فى البيت الأول يستمد من مثل قوله تعالى : (كلٌّ من عليها فان ويبقى وجه ربِّك ذو الجلال والإكرام) ويستمد فى البيت الثانى من مثل قوله جلَّ وعز : (كلُّ نفس ذائقةُ الموت) أما البيت الثالث فاستمدَّه مباشرة من قوله تبارك وتعالى عن الإنسان وما ينتظره من البعث والحساب : (أفلا يعلم إذا بُعثر ما فى القبور وحُصِّل ما فى الصدور) . واسترسل فى القصيدة يتحدث عن النعمان بن المنذر وملكه وأجناده وكيف بادوا جميعاً مما جعل القدماء يظنون أنه نظمها فى رثائه[١] وفى الواقع كان يتحدث عن عظة الموت وكيف يأتى على الملوك والأمم ، ومن ثَمَّ مضى يتحدث عن الغساسنة وأصحاب الرَّسّ وكيف أمسى كل ما كانوا فيه أحلاماً . وعلى هذا النمط نفسه لامية أخرى يستهلها بقوله[٢] :

لله نافلةُ الأجلِّ الأفضـــلِ ... وله العُلا وأثيثُ كل مُؤَثَّل[٣]

لا يستطيع الناسُ مَحْوَ كتابهِ ... أنَّى وليس قضاؤه بمبدَّل

وهو فى هذا المطلع يستلهم الذكر الحكيم وما فيه من أوصاف الذات العلية ، وأن كل ما يجرى فى الكون بقضائه وأن كل ما يأتى من عمل فى كتاب مبين ، وأن كلا سيُجزَى بما سجَّل عليه كتابه ، يقول سبحانه : (وكلَّ شىء أحصيناه كتاباً) (وكان أمر الله قدَراً مقدوراً) (وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) . ويمضى لبيد فى القصيدة فيتحدث عن خلق السموات والأرض وما أصاب بعض العماليق ولقمان ونَسْره وأبرهة وأمراء المناذرة والغساسنة من رَيْب الزمان. ومن هذه الشاكلة نفسها موعظته[٤] :

من يَبْسُطِ اللهُ عليه إصْبَعا ... بالخيرِ والشر بأىٍّ أولعا[٥]

يملأْ له منه ذَنوباً مُتْرَعَا ... وقد أباد إرَمــاً وتُبَّعا[٦]

والحق أن تلاوته للقرآن التى اشتهر بها أثَّرت فى نفسه آثاراً عميقة . وقد يكون الرواة تزيدوا فى بعض هذه الأشعار ولكن كثرة ما يُنسَبُ إليه منها يدل على أن

(١) انظر الديوان ص ٢٥٤ .
(٢) الديوان ص ٢٧١ .
(٣) أثيث : موطأ عظيم . مؤثل : مؤصل ، ويوصف به الملك والمجد .
(٤) الديوان ص ٣٣٧ .
(٥) الإصبع : الأثر الحسن .
(٦) ذنوباً مترعاً : دلواً مملوءا .

الإسلام تعمق روحه ، وأنه استشعر معانيه ومواعظه، فمضى يُحيلها أبياتاً وأشعاراً ، بل قصائد دينية ، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن من أجود هذه القصائد لاميته المقيدة التي يقول فيها[١] :

إن تَقْوَى ربِّنا خيرُ نَفَلْ ... وبإذن الله رَيْثى وعَجَلْ[٢]
أَحْمَدُ اللهَ فلا نِدَّ لَهُ ... بيديه الخيرُ ما شاءَ فَعَلْ
من هداه سُبُلَ الخَير اهتدى ... ناعمَ البال ومن شاءَ أَضلّ
فاكذبِ النفس إذَا حدَّثتها ... إنَّ صدْق النفس يُزْرِى بالأَمل
غير أن لا تَكْذِبَنْها فى التُّقَى ... واخْزُها بالبِرِّ ، لله الأَجلْ[٣]

ونراه يذكر فى هذه القصيدة رحلة له لعلها رحلته إلى الكوفة كما يذكر فقده لأربد ويبكيه . وعلى هذا النحو يظل لبيد بشعره الإسلامى مستمسكاً بالعروة الوثقى زاجراً عن الدنيا وخُدعها داعياً إلى أن يكفَّ الإنسان عن سيئاته ومرغِّباً له فى الباقيات الصالحات حتى يغتنم بقية أجله بخير عمله .

٥

الحطيئة [٤]

اسمه جَرْول . ولُقِّب بالحطيئة لقصره أولدمامته، وقد ولد لأمة تسمى الضَّراء ، كانت لأوس بن مالك العَبْسى . ونشأ فى حجره مغموزاً فى نسبه ، وجعله ذلك قلقاً مضطرباً منذ أخذ يحسُّ الحياة من حوله ، وزاد فى اضطرابه وقلقه ضعفُ جسمه وقبح وجهه ، إذ كانت تقتحمه العيون ، ولم يكن فيه

---

(١) الشعر والشعراء ١ / ٢٣٨ والديوان ص١٧٤ وما بعدها .
(٢) النفل : العطية . الريث : البطء .
(٣) اخزها : سسها واقهرها .
(٤) انظر فى ترجمة الحطيئة ابن سلام ص ٨١ وما بعدها والشعر والشعراء ١ / ٢٨٠ والأغانى (طبع دار الكتب) ٢ / ١٥٧ والإصابة ٢ / ٦٣ والخزانة ١ / ٤٠٨ وحديث الأربعاء لطه حسين (طبعة الحلبى) ١ / ١٥٣ وما بعدها. ونشر ديوانه فى إستانبول ، ونشره جولد تسيهر والشنقيطى ، وكذلك نشره نعمان أمين طه بمطبعة الحلبى ، وسنعتمد على نشرته

فضل شجاعة يستطيع أن يتلافى به هوان شأنه فى « عبس » على نحو ما صنع عنترة من قبله . ومن ثَمَّ نشأ يشعر بغير قليل من المرارة، ولعل هذا هو السبب فى غلبة الهجاء عليه .

ولما تيقظت فى نفسه موهبة الشعر لزم زهير بن أبى سُلْمى يعلمه إحكام صنْعه على نحوما كان يعلم ابنه كعباً . ومر بنا أن الحطيئة كان يَرْوى شعر كعب أيضاً ، وأنه طلب إليه أن ينوِّه به ، حتى يدور على الألسنة ذكره . ومعنى ذلك أن الحطيئة من مدرسة زهير التى كانت تُعْنَى بالتعبير وصقله وتصفيته من كل شائبة ، كما كانت تعنَى بالمعانى ودقتها .

ويضيىء الإسلام فى الجزيرة ، فلا يسارع إليه ، ومن هنا اختلف الرواة هل قدم على الرسول صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة فأعلن إسلامه على شاكلة كعب ، أو أنه تأخر فى اعتناقه الإسلام ، حتى توفِّى الرسول الكريم . ونراه يسارع إلى الرِّدَّة ، مُعينا بشعره المرتدِّين ضد أبى بكر وخلافته ، حتى ليقول :

أطعنا رسولَ الله إذ كان بيننا ... فيا لعبادِ الله ما لأبى بكر

أيُورِثها بكراً ، إذا مات ، بعده ... فتلك ، وبيتِ الله ، قاصمةُ الظهرِ

على أن من الرواة من نسب هذين البيتين إلى غيره(١) . وقد عاد مع المرتدين إلى الإسلام .

وجمهور شعره يدور فى المديح والهجاء ، ويقول الأصمعى : «كان الحطيئة جشعاً سَؤولا ملحفاً دنىء النفس ، كثير الشر ، قليل الخير ، بخيلا ، قبيح المنظر ، رثّ الهيئة ، مغموز النسب ، فاسد الدين ، وما تشاء أن تقول فى شاعر من عيب إلا وجدته ، وقلما تجد ذلك فى شعره »(٢) . وقد يكون الأصمعى بالغ فى نعته بهذه الصفات ، وحقًّا كان يمدح سادة القبائل بشعره منذ نشأ فى الجاهلية من أمثال عُيَيْنة بن حِصْن الفزارى وزيد الخيْل ، وكان يتورط فيما

(١) انظر الطبرى ٢/٤٧٧ حيث نسب البيتين إلى أخيه الخطيل وقارن بالديوان ص ٣٢٩ والأغانى ٢/١٥٧ .

(٢) أغانى (دار الكتب) ٢/١٦٣ .

بينهم من خصومات ومنافرات ، إذ نراه يقف فى صف عيينة بن حصن حين نافر ابن عمه زبّان بن سيار ، كما نراه يقف فى صف علقمة بن عُلاثة حين نافر عامر بن الطفيل[١]. وكان غيره من الشعراء يصنعون صنيعه ، فقد كان الأعشى ولبيد يقفان فى صف عامر . وقد تكون حادثته مع الزِّبْرِقان بن بدر هى التى شوهته ، ذلك أنه لقيه فى عهد عمر بن الخطاب يؤمُّ المدينة ، وكان على صدقات قومه ، فلما عرفه دلّه على داره حيث زوجه وعشيرته ، فنزل بأهله ، وفزع بنو أنف الناقة — إذ كانوا ينافسون عشيرة الزبرقان — حين علموا ذلك ، وعملوا على أن يفسدوا العلاقة بينه وبين زوج الزبرقان ، وكانت قد تراخت فى استقباله . وأتيحت بذلك الفرصة لبنى أنف الناقة ، فضموا الحطيئة إليهم وبالغوا فى إكرامه ، وانطلق يُثْنِى عليهم ثناء رائعاً معرِّضاً بالزبرقان بمثل قوله يخاطبه :

دَعِ المكارم لا تَرْحَلْ لبُغْيتِها واقْعُدْ فإنك أنت الطاعمُ الكاسى[٢]

ورَفَع الزبرقان أمره إلى عمر ، فحكَّم حسان بن ثابت فيه ، فلما حكم بأنه هجاه حبسه . وأخذ الحطيئة يستعطفه بأبياته المشهورة التى يقول فيها :

ماذا تقول لأفراخٍ بذى مَرَخٍ زُغْبِ الحواصل لا ماءٌ ولا شَجَرُ[٣]

ألقيتَ كاسِبَهم فى قَعْر مُظْلِمَةٍ فاغفرْ عليك سلامُ الله يا عُمَرُ

ولان له قلب عمر ، فعفا عنه بعد أن أخذ عليه العهد أن لا يعود إلى الهجاء ويقال إنه اشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم[٤].

ونحن إذا قرأنا أشعاره المختلفة التى عرض فيها للزِّبْرِقان وجدناه لا يُقْذِع فى هجائه ، إنما يمسُّه على نحو ما رأينا فى بيته السالف برفق ، عامداً إلى التهكم والسخرية . ولا نشك فى أن الإسلام هو الذى خفَّف من حدة لسانه ، ونراه يصرِّح بذلك إذ يقول[٥] :

---

(١) ابن سلام ص ٩٣ وما بعدها .

(٢) يريد المطعوم المكسو .

(٣) ذومرخ : واد بالحجاز . الأفراخ : صغار الطير شبه بها أولاده . زغب الحواصل : لم ينبت على حواصلهم سوى الزغب القصير ، كناية عن صغرهم وأنهم لا يقوون على الطيران .

(٤) انظر فى القصة الأغانى ٢ / ١٧٩ وما بعدها .

(٥) الديوان ص ٩٨ .

ولما أن مدحتُ القوم قلتم هجوتَ ولا يحلُّ لك الهجاءُ

ألم أكُ مسلماً فيكون بيني وبينكمُ المودَّةُ والإخــاء

ولم أشْتُمْ لكم حسبا ولكن حَدَوْتُ بحيث يُسْتَمَعُ الحُدَاءُ

فهو يذكر حرمة الإسلام ، ويتذمم بها ، ويقول إنه حين مدح بنى أنف الناقة وحدا بهم فسمعه قوم الزبرقان جعلوا ذلك ذمًّا لهم وهجاء ، لمدحه خصومهم. ونراه يولِّى وجهه نحو علقمة بن عُلاثة ، لينشده إحدى مدائحه فيه ، ولكن الموت يسبقه إليه فيُجزْل له ابنه فى العطاء . ويتجه نحو العراق فى عهد عثمان ، فيمدح الوليد بن عقبة واليه على الكوفة ، ويذود عنه حين يطعن عليه أهلها . وقد حُملت عليه أبيات فى ذمه . ويمدح من بعده سعيد بن العاص الذى خلفه فى تلك الولاية ، كما يمدحه فى ولايته لمعاوية على المدينة (٤٩ – ٥٥ هـ) . ونرى أهلها يجْمعون له من أموالهم خشية معرة لسانه . والمظنون أنه توفىِّ فى ولاية سعيد آنفة الذكر .

وقد كان على شاكلة زهير يُعْنَى بشعره وتجويده عناية شديدة ، وقد أُثر عنه أنه كان يقول : « خير الشعر الحولىُّ المحكَّك » فهو ممن كان يتأنَّون فى شعرهم ، ويعيدون فيه النظر ، حتى تخرج جميع الأبيات مستوية فى الجودة والروعة . ولعل ذلك ما جعله يُكثر من المقطَّعات ، ونراه فى مطوَّلاته يشبِّب ويصف الصحراء وحيوانها الوحشى والأليف . ومدائحه لا تقل عن مدائح زهير جودة على شاكلة قوله فى بنى أنف الناقة :

يسوسون أحلاماً بعيداً أناتُها وإن غضبوا جاء الحفيظةُ والجدُّ

أولئك قومٌ إن بَنَوْا أحسنوا البِنا وإن عاهدوا أوفوا وإن عَقدوا شدُّوا

وكانوا يعيَّرون باسمهم ، فما هو إلا أن قال معرِّضاً بالزبرقان وعشيرته :

قومٌ هم الأنفُ والأذنابُ غيرهمُ ومن يُسَوِّى بأنف الناقة الذَّنبا

حتى أصبح اللقب فخراً لهم . وتُروَى له أهاج فى زوج أمه وفى أمه وفى ضيفانه . وكلها مزاح . حتى لنراه يمزح مع نفسه ، فيقول :

أرى لىَ وجها شوّه الله خَلْقَــهُ   فقُبِّحَ من وجْهٍ وقُبِّحَ حامِلُهْ

أما بخله الذى أشار إليه الأصمعى والرواة ، فقد غسله بكثرة مديحه للكرم ، وبقصيدته « وطاوى ثلاث »[1] وفيها يصور أعرابيًّا فقيرا نزل به ضيف ، وعياله من حوله يتضوّرون جوعاً ، فهمّ أن يذبح له أحدهم ، لولا أن عَنَّتْ له أتان وحشية ، فصادها وأطعمها ضيفه . والقصيدة رائعة فى وصف غريزة الكرم العربية .

والحق أن الرواة بالغوا فى اتهامه بالبخل ودناءة النفس ، كما بالغوا فى اتهامه بفساد الدين ، قد يكون رقيقه ولكنه ليس فاسده ، فقد كان يستشعره فى الهجاء بشهادة لسانه كما قدمنا . ونراه فى مديحه يكثر من ذكر جزاء الله لممدوحه على ما يقدم له من بِرّه على شاكلة قوله فى بعض ممدوحيه :

فَلْيَجْزِهِ الله خيرًا من أخى ثقةٍ   وليَهْدِهِ بِهُدَى الخيرات هاديها

وقد يستهل المدح بالثناء على الله فى مثل قوله :

الحمد لله إنى فى جِوار فَتًى   حامى الحقيقة نَفّاعٍ وضَرّار

وقال أبو عمرو بن العلاء : لم تقل العرب بيتاً قط أصدق من بيت الحطيئة[2] :

من يَفْعَلِ الخيرَ لا يعْدَمْ جوازِيَه   لا يذهب العُرْفُ بين الله والناسِ

ولعل فى ذلك ما يدل على أنه حَسُنَ إسلامه ، وأبلغ فى الدلالة على ذلك قوله فى وصف التقى والعمل الصالح[3] :

ولستُ أرى السعادةَ جمع مالٍ   ولكن التقىَّ هــو السعيدُ
وتقوى الله خَيْرُ الزاد ذُخْرًا   وعنــد الله للأتقى مــزيد

(١) الديوان ص ٢٩٥ وما بعدها .
(٢) أغانى ٢/١٧٣ .
(٣) أغانى ٢/١٧٥ والديوان ص ٢٩٣ .

فالسعادة فى رأيه ليست فى الدنيا وأموالها ومتاعها الزائل ، وإنما هى فى الآخرة ونعيمها ومتاعها الخالد الذى لا يُنال إلا بالتقوى ، فهى السعادة الحقيقية . ومعنى ذلك أن الإسلام لم يظل بعيداً عن روح الحطيئة ، بل أخذ يُرْسل فيها مثل هذه الإشعاعات النيرة .

٦

النابغة[١] الجعْدىّ

هو عبدالله[٢] بن قيس من بنى جَعْدة العامريين ، ولد بالفَلْج جنوبى نجد ، ولما شبّ اضطرب فيما يضطرب فيه قومه من حروب ، ويقال إنه ظل ثلاثين عاماً فى الجاهلية لا ينطق الشعر ثم تفجّر على لسانه ، فسُمّى النابغة لنبوغه فيه بأخرة ، ويقال إن نبوغه فيه إنما كان فى الإسلام .

والنابغة الجعدى فى جاهليته مثل لبيد يتغنى بمفاخر قومه وانتصاراتهم فى حروبهم ويهجو خصومهم وخاصة بنى أسدْ الذين قتلوا أخا له فى بعض حروبهم مع قبيلته ، وقد بكاه كثيراً ، ومن بكائه فيه قصيدته التى يؤبنه فيها بقوله[٣] :

فَتًى كَمُلَتْ أَخْلاَقُهُ غير أنه ... جوادٌ فما يُبْقِى من المالِ باقيا
فَتًى تَمَّ فيه ما يَسُرُّ صديقه ... على أنَّ فيه ما يسوءُ الأعاديا

ويقال إنه كان يفد بشعره على اللخميين فى الحيرة . ولما أخذت وفود العرب تفد على الرسول صلى الله عليه وسلم معلنةً إسلامها وفد عليه مع قومه سنة تسع للهجرة وأنشده قصيدة يقول فيها :

---

(١) انظر فى ترجمة النابغة : الشعر والشعراء ١ / ٢٤٧ وابن سلام ص ١٠٣ وما بعدها والأغانى (طبعة دار الكتب) ٥ / ١ وما بعدها وأسد الغابة ٥ / ٢ والاستيعاب ص ٣٢٠ والإصابة ٦ / ٢١٨ وأمالى المرتضى ١ / ٢٦٣ والمعمرين ص ٦٤ والخزانة ١ / ٥١٢ والموشح ص ٦٤ . وقد جمعت ماريا نالينو أشعاره ونشرتها فى روما سنة ١٩٥٣ .

(٢) اختلف المؤرخون فى اسمه هل هو عبد الله ابن قيس أو قيس بن عبد الله أو حبان بن قيس

(٣) الشعر والشعراء ١ / ٢٥٢ والديوان ص ١٢٣ .

بَلَغْنَا السماء مَجْدُنا وجدودُنا   وإنا لنَبْغي فوق ذلك مظهــرا

فقال له الرسول الكريم : فأين المظهر يا أبا ليلى ؟ فأجابه : الجنة . وأعجب الرسول بشعره ومنطقه ، فقال له : لا يَفْضُضِ الله فاك(١) .

ويُظَنّ أنه لم يرجع مع قومه إلى منازلهم ، بل أقام فى المدينة مهاجراً ، حتى إذا كانت الفتوح خرج مع العرب ميمماً نحو الشرق والفُرْس مجاهداً فى سبيل الله ونَشْر الدعوة المحمدية. وقد أخذ يضيف إلى رائعته التى أنشدها الرسول أبياتاً كثيرة ، تصور حياته فى الإسلام وابتغاءه رضوان الله بجهاده وتقواه جميعاً يقول(٢) :

أتيتُ رسول الله إذ جاء بِالهُدَى   ويتلو كتاباً كالمجرَّة نَيِّرَا(٣)
وجاهدتُ حتى ما أُحِسُّ ومَنْ معى   سُهَيْلاً إذا مالاح ثُمَّتَ غَوَّرا(٤)
أقيم على التقوى وأرضى بِفِعْلِها   وكنتُ من النار المَخُوفةِ أَوْجَرَا(٥)

وعاد إلى المدينة وتشوَّق إلى منازل قومه فى البادية ، فاستأذن عثمان فى الإلمام بهم فأذن له ، حتى إذا نشبت الحروب بين على ومعاوية وجدناه فى صفوف على بصِفِّين ، يَرْجُز بخصومه وينظم الأشعار فى مديحه وهجاء معاوية من مثل قوله(٦) :

قد علم المِصْرانِ والعِراقُ   أن عَلِيًّا فَحْلُها العُتَاقُ(٧)
إن الأُلى جَارَوْك لا أفاقوا   لهم سياقٌ ولكم سِياق
قد علمتْ ذلكم الرِّفاق   سُقتم إلى نَهْج الهدى وساقوا
إلى التى ليس لها عِـراقُ   فى مِلَّةٍ عـادَتُها النِّفـاقُ(٨)

---

(١) أغانى ٥/٨
(٢) أغانى ٥/٩ والديوان ص٣٣ وما بعدها.
(٣) المجرة : مجموعة من النجوم الصغيرة ينتشر ضوءها فيرى كأنه بقعة بيضاء .
(٤) غور النجم : غاب .
(٥) أوجر : خائف .
(٦) أغانى ٥/٣١ والديوان ص ١٣٣.
(٧) المصران : الكوفة والبصرة. العتاق: الكريم.
(٨) التى ليس لها عراق: التى لا تعرف لها غاية.

ولعل هذا هو الذى جعله يصطدم بكعب بن جُعَيْل شاعر معاوية . ويُرْوَى أنه لما قُتل على وتحولت الخلافة إلى معاوية كتب إلى مروان عامله على المدينة أن يأخذ أهله وأمواله ، فاستعطفه بأبيات ألانت قلبه فعفا عنه .

ونراه يقف دائماً مع قومه ، حتى لَيَضْطَرّ أبو موسى الأشعرى والى البصرة لعمر أن يضربه أسواطاً ، وكأنما كانت فيه بقية من عصبيته الجاهلية . ولا نشك فى أن هذه البقية فيه هى التى دفعته إلى الاصطدام بأوس ابن مَغْراء ، ويقول ابن سَلاَّم إنه غلب عليه ولم يكن إليه فى الشعر ولا قريباً . ونزل مع قومه بأصبهان ، وهناك نراه يتهاجى مع سَوّار بن أوفى القشيرى ، وتتصدى له زوجه ليلى الأخيلية ، ويغلبان عليه جميعاً . وهما أيضاً لم يكونا إليه فى الشعر ، وربما كان لتعمق الإسلام فى نفسه أثر فى تلك الهزائم ، إذ كان يتحرج من المضى فى الهجاء المقذع ، ويقول ابن سلام إن الأخطل هجاه بأخرة . ولما دعا ابن الزبير لنفسه فى أواخر خلافة يزيد بن معاوية قدم عليه فى مكة ومدحه بقصيدة رائعة يقول فيها[١] :

حَكيتَ لنا الصِّدِّيقَ لما وَلِيتَنَا وعثمانَ والفاروقَ فارتاح معدمُ
وسوَّيت بين الناس فى العدل فاسْتَوَوا فعادَ صباحا حالكُ الليل مُظْلِمُ

وأثابه ابن الزبير ثواباً جزيلا . وعاد إلى أصبهان ، غير أنه لم يلبث أن توفِّى بها عن سن عالية سنة خمس وستين . وهو بلا شك من المعمرين ، غير أن الرواة بالغوا فى ذلك حتى قالوا إنه أقدم من النابغة الذبيانى وأنه عُمِّرَ مائة وثمانين سنة بل تزيد ، مستشهدين بما أضيف إليه من مثل قوله[٢] :

تذكَّرتُ شيئاً قد مضى لسبيله ومن عادة المحزون أن يتذكَّرا
نَداماى عند المنذر بن محرِّقٍ أرى اليوم منهم ظاهرَ الأرض مُقْفِرا

والمنذر بن محرق هو المنذر بن ماء السماء الذى قُتل فى بعض حروبه مع الغساسنة سنة ٥٥٦ للميلاد ، ولا شك فى أن هذا الشعر مصنوع عليه .

---

(١) الكامل للمبرد (طبعة رايت) ص ٧٠٤ والديوان ص ١٣٧ .

(٢) أغانى ٥/٦

ومن المحقق أن النابغة كان أحد الشعراء الذين استضاءوا بالإسلام وتعاليمه الروحية ، وقد خرج يجاهد فى سبيل الله ، وهو يتلو القرآن آناء الليل وأطراف النهار ، فكان طبيعياً أن يستلهمه فى شعره . وهو من هذه الناحية من خير الأمثلة على أثر الإسلام فى شعر المخضرمين ومدى هذا الأثر ، إذ عبَّر فى غير قصيدة عن خشية الله وتقواه من مثل قوله(١) :

منعَ الغَدْرَ فلم أَهْمُمْ بهِ ... وأخو الغَدْرِ إذا هَمَّ فَعَلْ
خشيةُ الله وأنِّى رجلٌ ... إنمـا ذِكْرِى كنـارٍ بقَبَلْ(٢)

وهو دائم الحديث عن نعمة الله عليه بالإسلام ، وتحوله من ظلمات الوثنية إلى أضواء الدين الحنيف ، يقول(٣) :

عُمِّرْتُ حَتَّى جاءَ أَحْمَدُ بالهُدَى ... وقـوارعٍ تُتْلَى من القُـرْآنِ
ولبستُ مِلْ الإسلام ثَوْباً وَاسِعاً ... من سَيْبِ لا حَرِمٍ ولا مَنَّـانِ(٤)

وليس كل ما نجده عنده من أثر الإسلام أبياتاً مفردة تتخلل قصائده ، فإن له موعظة بليغة رواها غير راو ، وهى تطَّرد على هذا النمط(٥) :

الحمدُ للهِ لا شَرِيكَ لَهُ ... من لم يَقُلْها فنفسَهُ ظَلما
المُولجِ الليلَ فى النهار وفى اللَّيْـ ... ـلِ نهارًا يُفَرِّجُ الظُّلَما
الخافضِ الرَّافعِ السماءَ على الْـ ... أَرْضِ ولم يَبْنِ تحتها دِعَما(٦)
الخالقِ البارئِ المصوِّرِ فى الْـ ... أَرْحامِ ماءً حتى يصيرَ دَمَا
من نُطْفَةٍ قَدَّها مقدِّرُهـا ... يَخْلُقُ مِنها الأَبْشارَ والنَّسما
ثُمَّ عِظاماً أقامها عَصَبٌ ... ثُمَّتَ لَحْماً كَسَاهُ فالْتَأَما
ثـم كَسَا الرَّأسَ والعَواتِقَ أَبْـ ... ـشارًا وجِلْدًا تخاله أَدَما(٧)

(١) الديوان ص ٨١ وانظر الحيوان ٣ / ٥٠٤ .
(٢) القبل : النشز من الأرض يستقبلك ورأس كل أكمة أو جبل .
(٣) الديوان ص ١٣٧ وأمالى المرتضى ١ / ٢٦٦ .
(٤) مل الإسلام : من الإسلام . سيب : عطاء . حرم : مناع .
(٥) الشعر والشعراء ١ / ٢٥٣ وانظر الديوان ص ١٠٢ .
(٦) دعم : دعائم وعمد .
(٧) العواتق : جمع عاتق وهو المنكب .

والصَّوْتَ واللَّوْنَ والمَعايِشَ والْ أخلاقَ شَتَّى وفَرَّق الكَلِمَا
ثُمَّتَ لا بُدَّ أن سيجمعكم واللهِ ، جَهْـرًا ، شهادةً قَسَما
فائتِمَرُوا الآنَ ما بدا لكمُ واعتصموا إن وجدتمُ عِصَما
فى هذه الأرض والسماء ، ولا عِصْمَةَ منه إلا لمن رَحِمَا
يا أيها الناسُ هل ترونَ إلى فارسَ بادَتْ ، وخَدُّها رَغِما[1]
أمسوا عَبِيدًا يَرْعَوْنَ شاءَ كُمُ كأنمـا كان مُلْكُهُمْ حُلُما
أو سَبَأً الحاضرين مَأْرِبَ إذ يَبْنُون من دون سَيْله العَرِما
فمُزِّقوا فى البلاد واعترفوا الـ هُونَ وذاقوا البأْساء والعَدَما[2]
وبُدِّلوا السِّدْرَ والأراكَ به الـ خَمْط وأضحى البُنْيانُ مُنْهَدِما[3]

والنابغة فى مطلع هذه العظة يُثْنِى على الله بما هو أهله ، مقرراً إيمانه بوحدانيته وأنه لا شريك له ، ونحسُّ أنه يستعير لفظه من الذكر الحكيم ، فهو يستهل قوله بكلمة « الحمد لله » ولا يلبث أن يستلهم مثل قوله تعالى : « إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون » . ويتحدث فى البيت الثانى عن نظام الكون المنبىء عن قدرة الله وجليل صنعه له وتقديره على نظام بديع ، مستعيراً من القرآن نفس لفظه فى قوله جلّ وعز : (قل اللهم مالك الملك . . . بيدك الخير إنك على كل شىء قدير تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل) . وفى البيت الثالث مضى ينظم قوله تعالى : (الله الذى رفع السموات بغير عَمَدٍ ترونها) . ويخرج فى البيت الرابع من خلْقه للكون إلى خلقه للإنسان واستمر ينظم مثل قوله جلّ وعز : (ولقد خلقنا الإنسان من سُلالة من طين ثم جعلناه نُطْفَة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة عَلَقَة فخلقنا العلقة مُضْغَة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسنُ الخالقين) . وهو يمضى فيتحدث عن البعث والنشأة الثانية محذراً مخوفاً . وما يلبث أن يتحدث عن

---

(١) رغم الخد : كناية عن الذل .
(٢) اعترفوا الهون : عرفوه .
(٣) السدر والأراك : شجر لا ينتفع بثمره . الخمط : ثمر الأراك أو هو نبت مر .

القرون والأمم البائدة مكملا بذلك العظة والعبرة ، بالضبط على نحو ما نقرأ فى القرآن من حديث عما أصاب الأمم الباغية من هلاك ، وقد اقتبس منه ما جاء فيه عن دولة سبأ اقتباساً تتطابق فيه الألفاظ واقرأ قوله تعالى : (لقد كان لسَبَأٍ فى مَسْكَنهم آيةٌ جنَّتان عن يمين وشمال .. فأعرضوا فأرسلنا عليهم سَيْلَ العَرِمِ وَبدَّلناهم بجنتيهم جنَّتين ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وأثْلٍ وشىء من سِدْرٍ قليل ذلك جزيْنَاهم بما كفروا . . وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزَّقناهم كلَّ ممزَّق) ، فإنك تجده قد نظم الآيات الكريمة فى أبياته الثلاثة الأخيرة .

وأكبر الظن أنه قد اتضح اتضاحاً لا لبس فيه أن أهل نجد والبوادى كان مثلهم مثل أهل الحواضر حين دخلوا فى الإسلام فقد تمثلوه وتألقت أضواؤه فى صدورهم وفى أشعارهم ، حتى اتتحول جوانب منها إلى مواعظ خالصة ينفِّرون فيها الناس من الدنيا ونعيمها الفانى ، حاثِّين لهم على التزود بالتقوى والعمل الصالح .

الفصل الخامس

النثر وتطوره

١

تطور الخطابة

كان ظهور الإسلام إيذاناً بتطور واسع فى الخطابة ، إذ اتخذها الرسول صلى الله عليه وسلم أداة للدعوة إلى الدين الحنيف طوال مقامه بمكة قبل الهجرة حيث ظل ثلاثة عشر عاماً يعرض على قومه من قريش وكلٍّ من يلقاه فى الأسواق آيات القرآن الكريم ، وهو فى أثناء ذلك يخطب فى الناس داعياً إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، محاولا بكل طاقته أن يوقظ ضميرهم بما يصوِّرلهم من قوة الكائن الأعلى مدبِّر الكون ومنظمه ، الذى لم يخلقهم عبثاً ، وإنما خلقهم ليعبدوه حق عبادته ، وليستشعروا كل ما يمكن من الكمالات الروحية والاجتماعية والإنسانية ، حتى تتم لهم السعادة فى الدنيا والآخرة .

وهاجر الرسول صلوات الله عليه إلى المدينة ، فاتصلت خطابته ، واتسعت جنباتها ، بما أخذ يشرِّع للمسلمين ويرسم لهم من حدود دولتهم ونظم حياتهم التى ينبغى أن تقوم على الإخاء والمساواة والتعاون فى سبيل الحق والخير ، وهو فى تضاعيف ذلك يأخذهم بآداب رفيعة من السلوك السامى ، مبيناً لهم معانى الإسلام الروحية التى تقوم على معرفة الله الواحد الأحد والصلة به ، كما تقوم على معرفة العمل الصالح وأن وراءهذه الحياة حياة أخرى يحاسَبُ فيها الإنسان على ما قدَّمت يداه ولو كان مثقال ذرَّة . وما يزال يعرض أوامر الدين ونواهيه ، واضعاً الحلول لكثير من المشاكل الدنيوية ، كمشكلة الرقيق ومشكلة توزيع الثروة ومشكلة العلاقات بين الرجل والمرأة ، وغير ذلك من مشاكل حُلَّت بما يحقق سعادة الجنس البشرى وهناءته .

وعلى هذا النحو كانت خطابة الرسول عليه السلام متممة للذكر الحكيم ، ومن ثَمَّ كانت فرضاً مكتوباً فى صلاة الجمع والأعياد ثم مواسم الحج ، وتحتفظ كتب الحديث بما اتخذه فيها من سنن وتقاليد[١] ثبتتْ إلى اليوم . وبينما كانت تسبق الخطابة الصلاة فى الجُمَع كانت الصلاة تسبقها فى الأعياد ، وهى تتوزع على خطبتين يقف فيهما الخطيب على منبر أو نَشْز من الأرض ، وقد اعتمد على قوس أو سيف أو عصا ، ويُقْبل على الناس مسلِّماً . وتبدأ الخطبة الأولى فى الجُمَع بحمد الله تعالى وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسوله ، ويُؤْثَرُ عن الرسول أنه كان يقول فى فاتحة هذه الخطبة : « الحمد لله نحمده ، ونستعينه ، ونؤمن به ، ونتوكل عليه ، ونستغفره ، ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، ومن يهده الله فلا مضلَّ له ، ومن يُضْلل الله فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له »[٢] . وعادة يتلو الخطيب فى الخطبة الأولى لصلاة الجمعة بعض آى القرآن الكريم ، حتى يستلهمها فى موعظته . وإذا انتهى منها جلس ، ثم يقوم للخطبة الثانية ، وفيها يكثر من الدعاء ، ويقال إنه كان آخر دعاء أبى بكر فى الخطبة الثانية : « اللهم اجعل خير زمانى آخره ، وخير عملى خواتمه ، وخير أيامى يوم لقائك » وكان آخر دعاء عمر : « اللهم لا تدعنى فى غَمْرة ، ولا تأخذنى فى غِرَّة ، ولا تجعلنى مع الغافلين »[٣] . ولا تُفْتَتَحُ خطبتا العيدين بالحمد لله إنما تفتتح بالتكبير ، فيكبِّر الخطيب فى أولاهما سبع تكبيرات وفى ثانيتهما خمس تكبيرات .

وطبيعى أن تقضى هذه الخطابة على كل لون قديم من الخطابة الجاهلية لا يتفق وروح الإسلام ، ولا نقصد سَجْع الكُهَّان الذى كان يرتبط بدينهم الوثنى فحسب ، بل نقصد أيضاً خطابة المنافرات ، فقد نهى الإسلام عن التكاثر بالآباء والأنساب والأحساب ، وإن ظلت لذلك بقية فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم حين كانت تَفِدُ عليه وفود العرب ، على نحو ما نعرف عن وفد تميم وقيام خطيبهم عُطارِد بن حاجب بن زُرارة بين يديه مفاخراً بقومه ،

---

(١) انظر فى صلاة الجمع والعيدين كتب الحديث مثل صحيح البخارى ومسلم .

(٢) عيون الأخبار ٢/٢٣١ .

(٣) انظر العقد الفريد ٣/٢٢٢ .

وقد نـَدب له الرسول ثابت بن قيس بن الشماس ، فرد عليه مستوحياً هدى الإسلام ، ولم يلبثوا أن استجابوا لله ولرسوله[١] .

ونمضى فى عصر الخلفاء الراشدين ، فتكثر بجانب خطب الجمع والأعياد المواقف التى تجلت فيها براعة هؤلاء الخلفاء ، كموقف أبى بكر حين انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى وموقفه يوم السَّقيفة ، فقد دَرَأَ فى الموقفين جميعاً الشَّعَث الذى كاد يُودى بالجماعة ، وكذلك موقفه حين ارتدَّ كثير من العرب وامتنعوا عن أداء الزكاة . وكم من خطيب وقف حينذاك يحضُّ قومه على الثورة أو يحثهم على الطاعة . ولا بد أن نلاحظ أن انتشار الإسلام فى الجزيرة أعدَّ منذ أول الأمر إلى أن تتكاثر خطب الجمع والأعياد ، إذ كانت كما قدَّمنا فرضاً مكتوباً على المسلمين فى كل مكان يحلّونه من الجزيرة .

ثم تكون الفتوح ، ويخطب أبو بكر فى الجيوش الغازية يحضّ على الجهاد ونَشْر الدين الحنيف فى أطباق الأرض . وترتفع أصوات القواد بالخطابة فى كل قطر حاثِّين الجنود على الصبر فى القتال حتى الاستشهاد طلباً لما عند الله من الثواب . ويخيل إلى الإنسان كأنما ملك كل منهم من قلوب جنوده ببيانه وبلاغته مالا تملكه الدنيا بحذافيرها . ولا نغلو إذا قلنا إن بلداً من بلدان الفرس فى العراق وإيران وبلدان الروم فى الشام ومصر لم يُفْتَتَح إلا بعد أن فتحته خطبة أحد هؤلاء القواد ، كخطبة المغيرة بن شُعْبة فى القادسية[٢] وخالد بن الوليد فى اليرْموك[٣] ، وعتبة بن غَزْوان فى فتح الأبلَّة ، ونحن نكتفى بقطعة من خطبة عتبة إذ يقول[٤] :

« أما بعد فإن الدنيا قد تولَّتْ حذَّاءَ[٥] مدبرة ، وقد آذنتْ أهلها بصُرْم ، وإنما بقى منها صُبابة كصبابة الإناء يصطبُّها[٦] صاحبها ، ألا وإنكم منقولون منها إلى دار لا زوال لها ، فانتقلوا منها بخير ما يحضركم » .

ويتولى عمر ، فيكثر من الخطابة لا فى الجمع والأعياد ومواسم الحج فحسب بل مع كل حادث ، ومع كل خبر يأتيه بفتح . وقد سار على هدى أبى بكر

---

(١) تاريخ الطبرى ٢/٣٧٨ .

(٢) الطبرى ٣/٣٧ .

(٣) الطبرى ٢/٥٩٢ .

(٤) البيان والتبيين ٢/٥٧ .

(٥) حذاء : سريعة الإدبار .

(٦) يصطبها : يشربها . والصبابة . بقية الماء .

فى استشارة أصحابه فى كل مهمّ، وكل ما يجدّ من تشريع ، وخاصة فى معاملة الأمم المفتوحة . وكان هذا بدوره عاملا من عوامل نمو الخطابة فى العصر ، إذ كان الحكم ديمقراطيًّا ، وكان من حق كل شخص أن يخطب مصوِّراً وجهة نظره ، وفسّح عمر لخطابة الوفود فى مجالسه ، تَستْميح لأقوامها وتذكر حاجتها ، واشتهر الأحنف بن قيس سيد تميم وأحد قواد الفتوح بغير خطبة ألقاها بين يديه[1].

ولم تقف الخطابة الدينية فى هذا العصر عند الجزيرة ، فقد أخذت تحلّ مع المسمين فى كل بلد فتحوها ، وكان هذا بدون شك عاملا من عوامل نموها ، إذ تكاثر من يردّدونها ومن يحسنون حَوْكها وصياغتها مستلهمين القرآن الكريم وخطابة الرسول فيما يعظون الناس به من مواعظ حسنة ، على نحو ما أُثر عن عبد الله بن مسعود فى إحدى مواعظه ، وفيها يقول لأهل الكوفة[2] :

« أصدقُ الحديث كتابُ الله ، وأوثق العُرَى كلمة التقوى ، وخير الملل ملّة إبراهيم ، وأحسن السُّنَن سنة محمد صلى الله عليه وسلم ، وشرُّ الأمور مُحدَثاتها ، وخير الأمور عزائمها ، ما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى . . . خير الغنى غنى النفس . الخمر جُمّاع الآثام . . . أعظم الخطايا اللسان الكذوب . سباب المؤمن فسق ، وقتاله كفر ، وأكل لحمه معصية . . . مكتوب فى ديوان المحسنين من عفا عُفى عنه . السعيد من وُعظ بغيره ... أحسن الهَدْى هَدْى الأنبياء » .

وفى هذين الاتجاهين الكبيرين من المواعظ والحضّ على الجهاد مضت الخطابة طوال عصر عمر والسنوات الأولى من خلافة عثمان ، حتى إذا أشعل الثوار عليه فى الكوفة ومصر نار الفتنة أخذت الخطابة فيها مكانها ، إذ وقف أمثال الأشتر النخعى فى الكوفة ومحمد بن أبى بكر فى مصر يؤلبون الناس عليه . وتتوالى الحوادث ، ويُقْتَلُ عثمان ، ويتولّى على بن أبى طالب مقاليد الخلافة ، وتجتمع السيدة عائشة وطلحة والزبير ، ويقررون الخروج عليه . ويقصدون البصرة ، ويستجيب أهلها لهم . فيُضْطَرُّ على إلى أن يتبعهم ، وينزل الكوفة ، وتكون موقعة الجمل

(١) انظر البيان والتبيين ٢ / ١٤٤ .

(٢) البيان والتبيين ٢ / ٥٦ .

المشهورة ، وفيها ينتصر عليٌّ ، وتم له بيعة أهل العراق .

وقبيل هذه الموقعة وفى أثنائها تكثر الخطب بين أنصار على وخصومه ، فهؤلاء يدعون إلى طاعته وأولئك يدعون إلى منابذته ، وفى تاريخ الطبرى من هذه الخطب كثرة وافرة ، وممن يذكرهم بين من ثبّطوا الناس عنه أبو موسى الأشعرى[١] ، أما من استنفروا الناس له فكثيرون ، وعلى رأسهم الأشعث ابن قيس والأشتر النخعى وزيد بن صُوحان وأخوه سَيْحان .

وانتدب عليٌّ أهل العراق لقتال معاوية وأهل الشام ، فخرجوا معه إلى صِفّين على حدود الفرات حيث التقوا بمعاوية وجنوده ، وفى هذه الأثناء تتكاثر الخطب كثرة مفرطة وخاصة فى صفوف على وأصحابه ، وكان هو نفسه خطيباً مفوّهاً . وكان بجيشه غيرُ خطيب من أمثال من ذكرناهم آنفاً وأمثال عمار بن ياسر وقيس بن سعد بن عُبادة وعدى بن حاتم الطائى وعمرو بن الحمق وشبث بن ربْعِيٌّ . وقبل اندلاع الحرب كان يتبادل على ومعاوية الوفود ، وكان يخطب غير واحد بين أيديهما ، وعبثا تحاول الوفود لمّ الشعث ، ويُقْضَى الأمر ، وتنشب الحرب ويخطب معاوية محرضاً أصحابه . ومن رءوس خطبائه حينئذ عمرو بن العاص .

وتستعر المعركة وترجح كفة على وجيشه رجحاناً واضحاً ، فيلجأ معاوية وأهل الشام إلى الخديعة ، إذ يرفعون المصاحف على أسنّة رماحهم ، مطالبين بالاحتكام إلى كتاب الله على يد محكّمين يستهدون بآيه . ويُغْمِد القُرّاء فى جيش عليٌّ سيوفهم ، ويتبعهم الناس ، ويمانعهم على ، فيهددونه بأن يُصْبِح مصيره مصير عثمان ، وينزل على إرادتهم ، ويُخْتار أبو موسى الأشعرى عن أهل العراق وعمرو بن العاص عن أهل الشام . وفى أثناء رجوع على بجيوشه إلى الكوفة ، يتبين كثير من جنده أنهم قد خُدعوا ، ويتلوّمون عليّاً لأنه قبل التحكيم ، ويعظم الخلاف والشجار بين أصحابه ، ويخطب فيهم . ويتكاثر الخطباء بين محبِّذ للتحكيم ومنفّر منه ، ويخرج عليه فريق كبير من جيشه وينزلون معسكراً خاصّاً بهم فى حَرَوراء بالقرب من الكوفة ، فيسمون لذلك بالحرورية ، أما الاسم الشامل الذى جمعهم فهو الخوارج .

---

(١) الطبرى ٣/٥٠١ .

ويحاول علىّ وعبد الله بن العباس أن يردّاهم إلى سواء السبيل، فتقوم بينهما وبينهم مناظرات فى مسألة التحكيم يكون عمادها الجدل المستمدّ من نصوص القرآن والحديث، وبذلك يتعرّف هذا العصر المناظرة الشفوية، بل إنها لتتفجّر تفجراً. ونحن نورد طرفاً من مناظرة ابن عباس لهم مما احتفظ به الطبرى، وهو يجرى على هذه الصورة(١):

« راجعهم ابن عباس، فقال: ما نقمتم من الحكمين، وقد قال الله عزّ وجل: (إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما)(٢) فكيف بأمة محمد صلى الله عليه وسلم؟. فقالت الخوارج: قلنا أمّا ما جعل حكمه إلى الناس وأمرَ بالنظر فيه والإصلاح له فهو إليهم كما أمرَ به، وما حكم فأمضاه فليس للعباد أن ينظروا فيه، حكم فى الزانى بمائة جلدة وفى السارق بقطع يده، فليس للعباد أن ينظروا فى هذا. قال ابن عباس: فإن الله عز وجل يقول: (يحكم به ذوا عدل منكم»(٣). فقالوا له: أو تجعل الحكم فى الصيد والحدث يكون بين المرأة وزوجها كالحكم فى دماء المسلمين؟!. وقالت الخوارج: قلنا له: فهذه الآية بيننا وبينك، أعدلٌ عندك ابن العاص وهو بالأمس يقاتلنا ويسفك دماءنا فإن كان عدلا فلسنا بعدول ونحن أهل حربه، وقد حكّمتم فى أمر الله الرجال، وقد أمضى الله عزّ وجلّ حكمه فى معاوية وحزبه أن يقتلوا أو يرجعوا(٤). وقبل ذلك ما دعوناهم إلى كتاب الله عزّ وجل فأبوه. ثم كتبتم بينكم وبينه كتاباً، وجعلتم بينكم وبينه الموادعة والاستفاضة(٥)، وقد قطع عزّ وجلّ الاستفاضة والموادعة بين المسلمين وأهل الحرب منذ نزلت براءة إلا من أقرّ بالجزية».

ولما لم يسمع الخوارج ولم يطيعوا اضطُرّ علىّ إلى حربهم، وفتك بهم فتكاً ذريعاً فى موقعة النهروان. وكانوا يظهرون استبسالا شديداً، يدفعهم إلى ذلك

---

(١) الطبرى ٤/٤٧.

(٢) الآية فى الصلح بين الزوجين وتمامها: (وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما).

(٣) الآية فى حكم قاتل الصيد وهو محرم، وتمامها: « يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم).

(٤) يشير الخوارج إلى قوله تعالى: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل).

(٥) الاستفاضة: الموادعة.

خطباؤهم من أمثال قائدهم عبد الله بن وهب الراسبي ، وحَرْقوص بن زهير السعدى والمُسْتَورد بن عُلَّفة، ومن يرجع إلى خطبهم يجدها تتقد حماسة وحميَّة من مثل قول ابن وهب فى بعض خطبه[١]:

« أما بعد فوالله ما ينبغى لقوم يؤمنون بالرحمن ، ويُنيبون إلى حكم القرآن أن تكون هذه الدنيا – التى الرضا بها والركون إليها والإيثار إياها عناء وتَبار[٢] – آثرَ عندهم من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والقول بالحق وإن مُنَّ[٣] وضُرَّ، فإنه من يُمَنّ ويُضَرّ فى هذه الدنيا فإن ثوابه يوم القيامة رضوانُ الله عز وجل والخلود فى جناته ».

وينتهى التحكيم بمهزلة خلع على ، وتمتد يد آثمة من أيدى الخوارج إليه فى الظلام ، فتطعنه طعنة نَجْلاء ، ويُسْلم الحسن ابنه الأمر راضياً إلى معاوية ، ويبايعه المسلمون كافة .

وأكبر الظن أنه قد اتضح من كل ما قدمنا كيف نمت الخطابة فى هذا العصر نمواً واسعاً، بتأثير الإسلام من جهة وتكاثر الأحداث وتتابعها من جهة ثانية . وليس هذا كل ما يلاحَظ فيها ، فقد دارت حول معانى القرآن الكريم وخطابة الرسول وأحاديثه ، وهى معان جديدة لم يكن للعربية بها عهد ، معانى هذا الدين الحنيف الذى بعث لغتنا ونَشَرَها بعثاً جديداً ، والذى مرّنها وذلّلها لكى تؤدى الرسالة النبوية وكل ما تحمل من مواعظ وتعاليم . وقد أخذ كل خطيب يحمل قبساً من هذه التعاليم والمواعظ يستضىء به فى كل ما يخاطب به الناس ابتغاء التأثير عليهم وبلوغ ما يريد من أداء الخطبة الدينية الخالصة فى أيام الجمع والأعياد ومواسم الحج وأختها التى تدعو إلى الجهاد والحضّ على قتال الأعداء . ولعله من أجل ذلك أصبح التحميد سُنَّة فى كل خطبة ، حتى الخطبة السياسية ، وكانوا يُسَمّون كل خطبة تخلو منه بَتْراء ، كما كانوا يسمون كل خطبة تخلو من اقتباس آى القرآن الكريم والصلاة على الرسول شَوْهاء[٤].

---

(١) الطبرى ٤/ ٥٤ .

(٢) تبار : هلاك .

(٣) من : قطع وهجر .

(٤) البيان والتبيين ٢/ ٦ .

وهناك أخبار كثيرة تدل على أن الخطباء كانوا يزوّرون كلامهم ويُعدونه على أنفسهم إعداداً طويلا ، ثم يُلْقونه على الناس ، حتى لقد رُوِيَ ذلك عن عمر بن الخطاب[١] . وكان الخطيب يستشهد أحياناً ببعض الأمثال ، أو ببعض أبيات من الشعر تؤكد المعنى الذى يريد أن يصبّه فى نفوس سامعيه صبًّا ، على نحو ما نجد فى خطبة لأبى بكر فى الأنصار[٢].

وإذا كنا قد لاحظنا فى الجزء الأول من هذا التأريخ للأدب العربى غلبة السجع على خطباء الجاهلية فإننا نلاحظ فى هذا العصر أنه كاد ينحسر تماماً عن الخطابة ، إلا بقايا ظلت فى خطابة الوفود حين كانت تَقْدُمُ على الخلفاء ؛ يقول الجاحظ : « كانت الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين ، فتكون فى تلك الخطب أسجاع كثيرة »[٣] ، وبقية أخرى استظهرها بعض المتنبئة فى حروب الردة مثل مسيلمة الكذاب متنبئ اليمامة ، ويقول الجاحظ إنه « عَمَدَ ا على القرآن فسلبه وأخذ بعضه وتعاطى أن يقارنه»[٤]. ومما يُرْوَى له — إن صحّ — قوله[٥] :

« سمع الله لمن سمع ،وأطمعه بالخير إذا طمع ، ولا زال أمره فى كل ما سَرَّ نفسه يجتمع ،رآكم ربكم فحيّاكم،ومن وحشة خلّاكم ، ويوم دينه أنجاكم ، فأحياكم علينا من صلوات معشر أبرار ، لا أشقياء ولا فجار ، يقومون الليل ويصومون النهار ، لربكم الكُبّار ، رب الغيوم والأمطار » .

ونستطيع أن نقول إن السجع فى خطابة هذا العصر كان شيئاً عارضاً ، إذ كان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يسجع فى خطابته ، وكان يَنْفر منه حين يلهج به أحد محدثيه[٦] ، كراهية للتشبه بالكهّان فى سجعهم ، وسار على هديه الخلفاء الراشدون وغيرهم من جلّة الصحابة ، يدلّ على ذلك ما يُرْوَى من أن عمر بن الخطاب سأل صحارًا العَبْدى حين قدم عليه من غَزْو مُكْران الفارسية عن شأنها وشأن العرب هناك ، فأجابه : «أرضٌ سَهْلُها جَبَل ،وماؤها وشَل[٧]

(١) الطبرى ٢/٤٥٦ وقارن بكلمة لعثمان ابن عفان فى البيان والتبيين ١/٣٤٥ وعيون الأخبار ٢/٢٣٥ .
(٢) زهر الآداب ١/٣٢
(٣) البيان والتبيين ١/٢٩٠ .
(٤) الحيوان ٤/٨٩ .
(٥) الطبرى ٢/٤٩٨ .
(٦) صحيح مسلم (طبع الآستانة) ٥/١١١ وموطأ مالك (طبع حجر بالقاهرة) ٢/١٩٢ .
(٧) وشل : قليل .

وتمرها دَقَل[1]، وعدوها بطل، وخيرها قليل وشرها طويل، والكثير بها قليل إن كثر الجند بها جاعوا، وإن قلّوا بها ضاعوا». وقد أنكر عمر عليه هذا السجع فقال له : أسجّاع أنت أم مخبر[2] . وكان الخلفاء بعد عمر ينكرون السجع على محدّثيهم . وأمامنا خطب القوم ، وهى تخلو خلوّاً تامّاً من السجع إلا ما جاء عفواً فى الحين البعيد بعد الحين . ولكنهم إذا كانوا قد أهملوا السجع فإنهم لم يهملوا جزالة اللفظ ورصانته ، بل لقد كان همّ كل خطيب أن يحسن قوله وأن يصوغه صياغة رائعة .

وأخرى تلاحَظُ على الخطابة فى هذا العصر بالقياس إلى الخطابة الجاهلية ، فإن الخطابة الأخيرة لم تكن ذات موضوع محدد ، ومن ثم كانت تأخذ شكل أقوال متناثرة لارابط بينها ، أما فى هذا العصر فقد أصبح للخطابة موضوع واضح يجول فيه الخطيب ويصول ، إذ يحدّث الناس واعظاً ، أو يعرض عليهم حدثاً محدداً من أحداث الإسلام ، بحيث نستطيع أن نقول إن الخطبة أصبحت ذات موضوع ، تلمُّ بأطرافه وتفاصيله . وبذلك كله نهضت الخطابة ونهض معها النثر نهضة واسعة ، فقد أخذ الخطباء يوسّعون طاقته بما يحمّلونه من معانى الإسلام وما يبسطون فى هذه المعانى ويولّدون ويفرّعون . ونحن نقف قليلا عند خطابة الرسول وخطابة خلفائه الراشدين لتتضح صور التطور التى وسّعت جنبات النثر وزادت فى معانيه ومادته بأداة البيان الكاملة وأسباب البلاغة الوافرة .

٢

خطابة الرسول صلى الله عليه وسلم

على هدى القرآن الكريم كان محمد صلوات الله عليه يخطب فى العرب ليخرجهم من ظلمات الوثنية إلى نور الهداية السماوية ، وقد أوتى من اللَّسَن

---

(١) دقل : ردىء . والبيان والتبيين ١ / ٢٨٥ .

(٢) انظر فى هذا الخبر الطبرى ٣/٢٥٧

والفصاحة ما ملك به أزمة القلوب ،وكأنما كانت المعانى والأساليب موقوفة بشخوصها بين يديه ، ليختار منها ما تهش له الأسماع وتصغى له الأفئدة . وقد ظل طوال مكثه بمكة يتلو على قريش ومن يلقاه فى الأسواق كتاب الله حيناً ، وحيناً آخر كان يخطب فى نفس معانى القرآن المكية متحدثاً عن رسالته ، وداعياً إلى وحدانية الله مبيناً أنه يهيمن على الناس فى أعمالهم وأنه سيبعثهم يوم القيامة، ليجزى بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً،حتى إذا انتقل إلى المدينة فرضت الخطابة – كما قدمنا – فى صلاة الجمع والأعياد ثم فى مواسم الحج . وكان ما يزال يخطب فى الأحداث التى تلم . وفى أخباره أنه كان يطيل الخطبة أحياناً إلى ساعات[١] غير أن كتب الأدب والتاريخ لم تحتفظ من هذا التراث القيم إلا بأطراف قليلة ، ولعل مرجع ذلك إلى طول المسافة بين خطبه وعصر التدوين فضاعت أو سقطت من يد الزمن إلا بقايا قليلة .

وأكثر هذه البقايا مما خطب به عليه الصلاة والسلام بعد الهجرة ،وهو فيها يتطابق مع آى القرآن التى كانت تنزل عليه ، إذ نراه تارة واعظاً، وتارة مشرعاً ، وقد يجمع بين الطرفين من الوعظ والتشريع فى نسيج بلاغى رائع . ونحن نسوق أول خطبة خطبها بالمدينة حين صلى بالناس فى دخوله إليها صلاة الجمعة، وهى تمضى على هذه الشاكلة[٢] :

« الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره وأستهديه وأومن به ولا أكفره وأعادى من يكفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى والنور والموعظة على فترة من الرسل وقلة من العلم وضلالة من الناس وانقطاع من الزمان ودنو من الساعة وقرب من الأجل. من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى وفرط وضل ضلالا بعيداً. وأوصيكم بتقوى الله ، فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة وأن يأمره بتقوى الله . فاحذروا ما حذركم الله من نفسه ، ولا أفضل من ذلك نصيحة ، ولا أفضل من ذلك ذكراً . وإن تقوى الله ، لمن عمل به على وجل ومخافة من ربه، عون صدق على ما تبغون من أمر الآخرة. ومن يصلح الذى بينه وبين الله من

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ص ٦٣ (٢) الطبرى ٢/١١٥ .

أمره فى السر والعلانية لا ينوى بذلك إلا وجه الله يكنْ له ذكراً فى عاجل أمره وذُخراً فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدَّم ، وما كان من سوى ذلك يود لو أن بينه وبينه أمداً بعيداً . ويحذِّركم الله نفسه ، والله رءوف بالعباد . والذى صَدق قولُه، وأنجز وعده لا خُلْفَ لذلك ، فإنه يقول عزَّ وجل : (ما يُبَدَّل القول لدىَّ وما أنا بظلاَّم للعبيد) . فاتقوا الله فى عاجل آمركم وآجله ، فى السر والعلانية (ومن يتَّق الله يكفِّرْ عنه سيئاته ويُعْظم له أجراً) . ومن يتق الله فقد فاز فوزاً عظيماً . وإن تقوى الله يوقِّى مقته ويوقِّى عقوبته ويوقِّى سخطه ، وإن تقوى الله يبيض الوجوه ، ويرضى الرب ، ويرفع الدرجة ، خذوا بحظكم ، ولا تفرِّطوا فى جَنْب الله . قد علمكم الله كتابه ، ونهج لكم سبيله ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين فأحْسِنوا كما أحسن الله إليكم ، وعادوا أعداءه ، (وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجْتباكم)(١) وسماكم المسلمين (ليهلك من هلك عن بَيِّنة ويحيى من حَىَّ عن بينة) ولا قوة إلا بالله . فأكْثِروا ذكر الله، واعملوا لما بعد اليوم . فإنه من يُصْلح ما بينه وبين الله يَكْفه الله ما بينه وبين الناس ، ذلك بأن الله يقضى على الناس ولا يقضون عليه ، ويملك من الناس ولا يملكون منه ، الله أكبر ، ولا قوة إلا بالله العظيم » .

والخطبة موعظة رائعة ، يستهلها الرسول الكريم بتقرير وحدانية الله ،أنه أتمَّ نعمته على الناس بإرساله إليهم كى يخرجهم مما هم فيه من غواية وضلالة وَيدْخلوا فى رعايته الإلهية، فلا يعملوا عملا بدونه . ليتركوا إذن الوراثة الضالة والوسط المشفى على الهلاك ويجتمعوا على هدى الله وتقواه ، وليستشعروه فى السر والعلانية فإنه يعلم خائنة الأعين وما يستكنّ فى الصدور ، وليقدِّموا من خشيته وطاعته ما يكفِّرون به عن سيئاتهم وتبيضُ به وجوههم يوم الحساب حتى يدخلوا فى جَنَّاته . إنه يوم ما بعده مستعتب ، فإما الجنة وشفيعها العمل الصالح ، وإما النار وبئس القرار . ويدفعهم دفعاً إلى الجهاد فى سبيل الله ونشر دعوة الحق والخير ، فقد اجتباهم واختارهم ليضطلعوا بأمانة الرسالة المحمدية ، ولينشروها فى أطراف الأرض . والرسول فى كل ذلك يستوحى القرآن وآياته ، وهى تقف

(١) اجتباكم : اختاركم .

منارات فى موعظته ، يستمد من إشعاعاتها ما يضىء به كلامه . بل إن وراء هذه المنارات منارات أخرى من هدى القرآن ، بحيث نستطيع أن نرد كل موعظته إلى ينابيع الضوء التى تفجرت منها ، إذ كانت تسيل فى نفسه ، بل كانت تشع بمعانى نورها ، كما يشع نور الشمس فى السماء . وكان أحياناً ينتقل فى سرعة من مثل هذا الوعظ ومعانيه الروحية إلى تشريعات يتمّ بها قيام هذا المجتمع الإسلامى ويسود على كل ما حوله ، تشريعات قوامها مصلحة الجماعة وأن يعيش المسلم متعاوناً متضامناً فى سبيل الخير ، وهو خير تطّبعُ عليه الجنة بنعيمها الخالد ، خير يكفل سعادة البشرية ، ومن أروع ما يصور ذلك خطبته عليه السلام فى حِجّة الوداع ، وهى تجرى على هذا النمط [١] :

« الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يَهْد الله فلا مُضلّ له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله . أوصيكم — عبادَ الله — بتقوى الله ، وأحثّكم على طاعته ، وأستفتح بالذى هو خير . أما بعد أيها الناس ! اسمعوا منى أبيِّنْ لكم ، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا . أيها الناس ! إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام ، إلى أن تلقوا ربكم ، كحُرْمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . فمن كانت عنده أمانة فليؤدّها إلى الذى ائتمنه عليها . وإن ربا الجاهلية موضوع [٢] ، وإن أول رِباً أبدأ به ربا عمى العباس ابن عبد المطلب . وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وأول دم أبدأ به دَم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب . وإن مآثر الجاهلية موضوعة ، غير السِّدانة [٣] والسِّقاية [٤] . والعَمْدُ قَوَدٌ [٥] ، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير ، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية . أيها الناس ! إن الشيطان قد يئس أن يُعْبَد فى أرضكم هذه ، ولكنه قد رضى أن يُطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون

---

(١) البيان والتبيين ٢/٣١ وانظر السيرة النبوية لابن هشام (طبعة الحلبى) ٤/٢٥٠ والعقد الفريد ٤/٥٧ .

(٢) موضوع : ساقط ومحرم .

(٣) السدانة : خدمة الكعبة .

(٤) السقاية : سقاية الحجاج .

(٥) العمد : القتل المتعمد . القود : قتل القاتل بمن قتل .

من أعمالكم . أيها الناس! (إنما النسيء(١) زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله). إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، (إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حرم) : ثلاثة متواليات وواحد فرد . ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذى بين جمادى وشعبان . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . أيها الناس ! إن لنسائكم عليكم حقاً ، ولكم عليهن حق . لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم غيركم ، ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم . ولا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن(٢) وتهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح(٣) . فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف . وإنما النساء عندكم عوان(٤) ، لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، أخذتموهن بأمانة الله . واستحللتم فروجهن بكلمة الله . فاتقوا الله فى النساء ، واستوصوا بهن خيراً ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . أيها الناس ! إنما المؤمنون إخوة . ولا يحل لامرىء مسلم مال أخيه إلا عن طيب نفس منه ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . فلا ترجعن بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ، فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده : كتاب الله ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . أيها الناس ! إن ربكم واحد وإن أباكم واحد . كلكم لآدم ، وآدم من تراب . أكرمكم عند الله أتقاكم . إن الله عليم خبير . ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . قالوا : نعم ، قال : فليبلغ الشاهد الغائب . أيها الناس ! إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ، فلا تجوز وصية لوارث فى أكثر من الثلث . والولد للفراش وللعاهر الحجر(٥) . من ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ،

---

(١) النسيء : شهر المحرم كانوا يحرمونه عاماً ، ويحلونه عاماً آخر إن أرادوا الإغارة ، فيقولون إنه بعد شهر صفر ويؤجلونه .

(٢) تعضلوهن : تضيقوا عليهن .

(٣) الضرب غير المبرح : الضرب الخفيف .

(٤) عوان : جمع عانية وهى الأسيرة ، أى هن عندكم بمنزلة الأسيرات .

(٥) للفراش : أى لصاحبه ، وللعاهر الحجر : أى أن هذا مقضى به رغم أنفها أو لعله يشير إلى رجمها .

لا يُقْبَلُ منه صَرْف[١] ولا عَدْل[٢]. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ».

وواضح أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكد يُلِمُّ بالحمد لله والشهادة والوصية بالتقوى حتى انتقل يبيِّن طائفة من التشريعات الإسلامية التى أقامها الدين الحنيف حدوداً بين حياة العرب فى الجاهلية وحياتهم فى الإسلام ، فقد كانوا مفككين متنافرين يتحاربون دائماً طلباً للأخذ بالثأر ونهباً للأموال . وجمعهم الإسلام تحت لوائه فى جماعة كبرى متآخية متناصرة لا يَبْغى بعضها على بعض . ولكى يقضى على كل سبب للحرب بينهم رَدَّ دمَ القتيل إلى الدولة فهى التى تعاقب عليه ، ولكى يستأصل هذا الداء دعا إلى التنازل عن حق الأخذ بالثأر القديم ، وحرَّم النهب والسلب تحريماً قاطعاً مشدداً فيه العقوبة .

والرسول يفتتح فى الخطبة أوامر الإسلام ونواهيه بإعلان أن دماء المسلمين وأموالهم حرام ، وأن على كل من كانت عنده أمانة أن يردَّها على صاحبها ، وأن على كل مسلم أن يَرْعَى أخاه فى ماله . فلا يأخذ منه شيئاً إلا بالحق ، ومن ثم حَرَّم الرِّبا ، وبدأ بعشيرته وتاجرها الموسر العباس بن عبد المطلب فأسقط عن رقاب المدينين له رباه . وعلى نحو ما أسقط الربا أسقط دماء الجاهلية ، فليس لمسلم أن يثأر لقتيل له ، وبدأ بعشيرته فأسقط دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب . ولم يُبق من مآثر الجاهلية شيئاً سوى خدمة الكعبة وسقاية الحجيج ، وأوجب فى قتل العمد القَوَد ، ولكن الدولة هى التى تقوم به ، وبذلك قضى الإسلام على حروبهم الداخلية . وقد جعل فى القتل شبه العمد مائة بعير . كل ذلك ليحفظ للجماعة وحدتها ويسود بين أفرادها السلام والوئام .

ويحذِّر الرسول من الشيطان وغواياته ، محرماً للتلاعب بالأشهر الحرم ، واضعاً تقويماً قمريًّا يتألف من اثنى عشر شهراً ، منها أربعة حُرُمٌ : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب . ويرفع من شأن المرأة ومعانى علاقاتها بزوجها ، فيجعل لها حقوقاً وعليها واجبات ، وفى الطرفين جميعاً يحفظ لها كرامتها كما يحفظ لزوجها نفس الكرامة . داعياً إلى التعاطف بينهما والتراحم والتعامل برفق وإحسان .

---

(١) صرف : توبة . (٢) العدل : الفدية .

ويعود إلى العلاقة بين الفرد وجماعته الكبرى من الأمة ، فيقرر أن المؤمنين إخوة ، لكل منهم على صاحبه ما للأخ على أخيه من التآزر والتعاون والتحابّ ، فلا بطش ولا ظلم ولا نهب ، ولا حرب ولا سفك للدماء . وإنه لعهدٌ مَنْ نَقَضه عاد كافراً آثماً قلبه . لقد انتهى عهد الحياة القبلية وكل ما اتصل بها من تنابذ وتفاخر ، فالناس جميعاً لآدم ، ولا عربي عدنانى ولا عربي قحطانى ، بل لا عربي ولا أعجمي ، فقد وُضعت موازين جديدة لحياة العرب ، فلم يعد التفاضل بالنسب والحسب ، إنما أصبح بالتقوى فهي معيار التفاضل . ويلفت الرسول سامعيه إلى ما قرّره القرآن فى الميراث وأنصبته ، وأن للمورّث أن يوصى بالثلث من ماله . ويُرْسى قاعدة مهمة فى شرعية الأبناء ، وخاصة هؤلاء الذين تلدهم العواهر ، فينسبهم إلى أصحاب الفراش ، وكانوا ينسبونهم إلى غير آبائهم ، وقد لا ينسبونهم أبداً ، فحرّم ذلك تحريماً باتّاً . وبذلك قضى على نبالة النسب من جهة الخئولة قضاء مبرماً .

وعلى هذا النحو كان الرسول صلوات الله عليه يبيّن فى خطابته حدود الحياة الإسلامية وما ينبغى أن يأخذ به المسلم نفسه فى علاقاته الكبرى مع أفراد أمته وعلاقاته الصغرى مع أسرته . فإن ترك ذلك فإلى وعظ المسلمين وما ينبغى أن يأخذوا أنفسهم به ، فى سلوكهم حتى تزكو نفوسهم ، وفى عبادتهم لربهم وتقواه حق التقوى حتى لا يزيغوا ولا ينحرفوا عن المحجة ، بل يتدرجوا فى مراقى الكمال الإنسانى .

وهذه الخطبة وسابقتها تصوران فى دقة حسن منطق الرسول فى خطابته ، وأنه لم يكن يستعين فيها بسجع ولا بلفظ غريب ، فقد كان يكره اللونين جميعاً من الكلام لما يدلان عليه من التكلف ، وقد برّأه الله منه إذ يقول فى كتابه العزيز : قل يا محمد : (وما أنا من المتكلفين) . والذى لا شك فيه أنه كان يبلغ بعَفْوه وقُوَى فطرته ما تنقطع دونه رقاب البلغاء ، وقد وصف الجاحظ بلاغته فى خطابته أدق وصف ، فقال إنه : « جانب أصحاب التقعيب[1] ، واستعمل المبسوط فى موضع البَسْط والمقصور فى موضع القَصْر ، وهجر الغريبَ الوحشىّ ،

---

(١) التقعيب : التقعير وهو التكلم بأقصى قعر الفم .

ورغب عن الهجين السوقى ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، لم يتكلم إلا بكلام قد حُفّ بالعصمة ، وشُيِّد بالتأييد ، ويُسّر بالتوفيق ، وهو الكلام الذى ألقى الله عليه المحبة ، وغشّاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام ، مع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته. لم تسقط له كلمة ، ولا زلّت له قدم ، ولا بارتْ له حجة ، ولم يَقُمْ له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، بل يبذّ الخطب الطوال بالكلم القِصار ، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج إلا بالصدق ، ولا يطلب الفَلْج[1] إلا بالحق ، ولا يستعين بالخِلابة . . . ولم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ولا أقصد لفظاً ولا أعدل وزناً ، ولا أجمل مذهباً ، ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقعاً ، ولا أسهل مخرجاً ، ولا أفصح معنى ، ولا أبْين فى فَحْوى[2] ، من كلامه صلى الله عليه وسلم »[3] . ونضيف إلى الجاحظ أنه عليه السلام هو الذى فتق معانى هذه الخطابة الدينية التى لم يعرفها العرب قبله ، فهو الذى رسمها ، وفجّر ينابيعها بحيث أصبحت مادة للخطباء من بعده ، وكأنما احتشد الكلم بأزمّته إليه ، ليختار منه أفصحه وأسلسه وأبينه فى الدلالة ، يسعفه فى ذلك ذوق مرهف وحِس دقيق نتبينهما فيما رُوِى عنه من قوله : « لا يقولنّ أحدكم خَبُثَتْ نفسى ولكن ليقل : لَقِسَتْ نفسى »[4] كراهية أن يضيف المسلم الطاهر إلى نفسه الخبث ، مما يدل على أنه لم يكن ينطق إلا باللفظ المختار البرىء من كل ما يُستكره ، اللفظ الذى يحبَّب إلى النفوس لحلاوته وعذوبته وصفائه ونقائه .

٣

خطابة الخلفاء الراشدين

كان أبو بكر وعمر وعثمان وعلى فى الذروة من الفصاحة والبلاغة ، إذ سرّى فى نفوسهم بيان القرآن بترغيبه وترهيبه وبيان الرسول بمواعظه وتشريعاته ، وتسرب هذا البيان إلى أجزاء نفوسهم وأخذ بمجامع قلوبهم .

---

(١) الفلج : الفوز .

(٢) فحوى : دلالة .

(٣) البيان والتبيين ٢/ ١٧ .

(٤) الحيوان ١/ ٣٣٥ ولقست النفس : غثت .

وكان أبو بكر أول من أسلم من الرجال ، وكان أحبَّ رفيق إلى الرسول وألصقَ أصحابه به ، وقد نوَّه القرآن بذكره . فقال جلَّ شأنه : (فأمَّا من أعطى واتقى وصدَّق بالحسنى فسنيسِّره لليسرى) ، وفيه نزلت آيات أخرى . وهو خير من يمثِّل المسلم بأخلاقه وفضائله وحميته للدين وتأثره بهدى القرآن الكريم ورسوله تأثراً استحوذ على كل نفسه ، فإذا لسانه يتدفق تدفق السيل ، بما استشعر من معانى الإسلام وقيمه الروحية . وقد أُثرت عنه خطب كثيرة . تدل دلالة واضحة على شدة شكيمته فى الدين ويقظته وصدق حسِّه ، وأنه حقًّا كان أجدر أصحاب رسول الله بخلافته . فمن ذلك أنه — لما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى واضطرب الناس وماجوا ، وقالوا وقال معهم عمر بن الخطاب : إن الرسول لم يمت — أقبل فكشف عن وجهه ، فقبَّله ، وقال : بأبى أنت وأمى طِبْتَ حيًّا وطبت ميتاً . وخرج من عنده فبَدَرَ الصحابة بخطبته المشهورة[١] التى قال فيها : « من كان يَعْبُد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حىٌّ لا يموت » ثم أخذ فى بيان غلط من كذبوا موته محتجًّا عليهم بمثل قوله تعالى : (إنك ميِّتٌ وإنهم ميتون) ، وتلا : (وما محمد إلا رسول قد خلَتْ من قبله الرسل أفإنْ مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم) ، ثم تلا : (كلُّ نفس ذائقة الموت) ، ثم تلا : (كلُّ شىء هالكٌ إلا وجهَه) . فثابَ من كذبوا موته رضوان الله عليه إلى رشدهم . ولم يلبث أن عرف أن الأنصار قد اجتمعوا إلى سعد بن عُبادة فى سَقيفة[٢] بنى ساعدة ، يقولون : منا أمير ومن قريش أمير . فراعه ذلك وخشى على الأمة من الفرقة والطمع فى الملك ، فبادر إليهم قبل أن يستفحل الشر . وتبعه عمر وأبو عبيدة فى نفر من المهاجرين . وهناك خطبَ فى الأنصار ، فأقنعهم أن يجتمعوا على رجل من قريش ، وتمت البيعة له ، فخطب فى الناس بعد أن حَمِدَ الله وأثنى عليه وقال[٣] :

« أيها الناس ! إنى قد وليتُ عليكم ولست بخيركم ، فإن رأيتمونى على حقٍّ فأعينونى ، وإن رأيتمونى على باطل فسدِّدونى . أطيعونى ما أطعت الله فيكم . فإذا عصيته فلا طاعة لى عليكم . ألا إن أقواكم عندى الضعيفُ حتى آخذ

---

(١) الطبرى ٢ / ٤٤٤ وزهر الآداب ١ / ٣٠ .
(٢) الطبرى ٢ / ٤٤٥ وما بعدها .
(٣) عيون الأخبار ٢ / ٢٣٤ والطبرى ٢ / ٤٥٠ .

الحق له ، وأضعفكم عند القوىُّ حتى آخذ الحق منه ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم » .

وأخذت تتجلَّى مواقفه العظيمة ومآثره الكريمة . فإنه أمر أن يخرج بَعْثُ أسامة إلى وجهته من حرب الروم كما أمر الرسول . وكان كثير من العرب قد منعوا الزكاة ، ومشى إليه كثير من المهاجرين والأنصار ، يقولون له لا قِبَلَ لنا بحرب العرب ، فاقبَلِ الصلاة منهم واترك الزكاة ، فقال قوله المأثور : « لو منعونى عِقالا[1] مما أعطوه النبى لجاهدتُهم عليه » . وجاهدهم بجيوشه ، حتى عادوا إلى الإسلام بعد ردَّتهم . وإذا أخذنا نقرأ فى خطبه وجدنا جمهورها وعظاً يستمد مادته من القرآن وكلام الرسول ، على شاكلة قوله فى خطبة له[2] :

« إن الله عز وجل لا يَقْبل من الأعمال إلا ما أُرِيد به وجهه فأريدوا الله بأعمالكم ، واعلموا أن ما أخلصتم لله من أعمالكم فطاعة أتيتُموها ، وحظ ظفرتم به ، وضرائب أدَّيتموها ، وسَلَف قدمتموه ، من أيام فانية لأخرى باقية ، لحين فقركم وحاجتكم . اعتبروا عبادَ الله بمن مات منكم ، وتفكروا فيمن كان قبلكم أين كانوا أمس وأين هم اليوم ؟ أين الجبَّارون ؟ . . أين الذين بنوا المدائن وحصَّنوها بالحوائط وجعلوا فيها الأعاجيب ؟ قد تركوها لمن خلفهم ، فتلك مساكنهم خاوية ، وهم فى ظلمات القبور ، هل تُحِسُّ منهم من أحد أو تسمع لهم رِكْزاً[3] . . . ألا إن الله لا شريك له ، ليس بينه وبين أحد من خلقه سبب يعطيه به خيراً ولا يصرف عنه به سوءاً إلا بطاعته واتباع أمره . واعلموا أنكم عبيد مَدينون ، وأن ما عنده لا يُدْرَكُ إلا بطاعته ، أما إنه لا خيرَ بخير بعده النار ، ولا شر بشرٍّ بعده الجنة » .

واستنَّ بجانب مثل هذه الموعظة سنة الوصية للجيوش الفاتحة ، وهو فى وصاياه يَصْدُر عن روح الإسلام السمحة وتعاليمه السامية فى معاملة المسلمين لمن يغلبون عليهم ، إذ يطلب إليهم أن لا يخونوا ولا يغدروا ولا يمثّلوا بقتيل ولا يقتلوا طفلا صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا يفسدوا زرعاً ولا يستحلّوا مالا إلا

---

(١) العقال هنا : كناية عن البعير .

(٢) الطبرى ٢ / ٤٦٠ .

(٣) الركز : الصوت الخفى .

لمأكلة ولا يتعرضوا لرهبان النصارى ، وتصوِّر ذلك كله وصيته لجيش أسامة بن زيد حين سيَّره إلى مشارف الشام ، وفيها يقول[١] :

« أيها الناس! قِفوا أوصيكم بعشر ، فاحفظوها عنى : لا تخونوا ولا تَغُلُّوا[٢] ، ولا تغدروا ، ولا تمثّلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تَعْقِروا[٣] نخلا ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة . وسوف تمرون بأقوام قد فرَّغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له » .

وواضح مما تمثلنا به من خطابة أبى بكر أنه لم يكن يلهج بسجع ، إنما كان يلهج بكلم فصيح جزل واضح الدلالة عما فى نفسه . وكان يتخيَّر لفظه ، وربما كان من الأدلة على ذلك ما يُروَى من أنه عرض لرجل معه ثوب ، فقال له : أتبيع الثوب ؟ فأجابه : لا ، عافاك الله . فتأذى أبو بكر مما يوهمه ظاهر اللفظ إذ قد يُظَنّ أن النفى مسلط على الدعاء ، فقال له : لقد علمتم لو كنتم تعلمون ، قل : لا ، وعافاك الله »[٤] .

وكان من صواب رأيه وصحة فراسته اختيارُه عمر خليفةً من بعده ، وكان على شاكلته نفاذَ بصيرة وصدقَ عزم وبلاغةَ لسان ، كما كان صفىَّ رسول الله . وقد أعزَّ الله به الإسلام فى مكة حين أعلن ولاءه لرسوله ، وما زال منقطعاً إليه والرسول يقرَّبه منه ويتخذه موضع مشورته ، حتى توفِّى وخلَفه أبو بكر ، فكان له نعم الظَّهير والمعين . ولما أُسندت إليه مقاليد الخلافة نهض بها فى رجاحة عقل ، حتى إن أحداً لم يردّ عليه رأياً واحداً ولا عملا واحداً ، وما زال يوطِّىء الأمر بسعة حلم وشدّة عزم ، مجنداً للأجناد ، حتى فُتحت فارس وتمَّ فتح الشام وفُتحت مصر ، وهو على ذلك كله نعم الكالىء والحافظ لرعيته . وكان بيانه فى مقدار عقله قوةً وسداداً ، إذ كان فى مرتبة رفيعة من البلاغة والفصاحة ، حتى قالوا إنه كان يستطيع أن يخرج الضَّاد من أى شِدْقيه شاء[٥] ، فما هو إلا

---

(١) الطبرى ٢/٤٦٣ .
(٢) تغلوا : تخونوا فى الفىء .
(٣) تعقروا : تستأصلوا وتقطعوا .
(٤) البيان والتبيين ١/٢٦١ .
(٥) البيان والتبيين ١/٦٢ .

أن يقف بين الناس واعظاً أو يقوم فى الجنود ناصحاً حتى يتهدر بكلامه، وحتى تنصاع له القلوب انصياعاً ، ونحن نكتفى بقوله فى إحدى مواعظه(١) :

« إن الله سبحانه و بحمده قد استوجب عليكم الشكر ، واتخذ عليكم الحجج فيما آتاكم من كرامة الآخرة والدنيا من غير مسألة منكم له ولا رغبة منكم فيه إليه فخلقكم تبارك وتعالى ، ولم تكونوا شيئاً ، لنفسه وعبادته... وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض ، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرةً و باطنة ، وحملكم فى البر والبحر ، وزرقكم من الطيبات لعلكم تشكرون . ثم جعل لكم سمعاً و بصراً . ومن نعم الله عليكم نِعَمٌ عمَّ بها بنى آدم ، ومنها نعم اختص بها أهل دينكم ، ثم صارت تلك النعم خواصُّها وعوامُّها فى دولتكم وزمانكم وطبقتكم ، وليس من تلك النعم نعمةٌ وصلت إلى امرىء خاصةً إلا لو قُسم ما وصل إليه منها بين الناس كلهم أتعبهم شكرها ، وفدحهم حقُّها إلا بعون الله مع الإيمان بالله و رسوله ، فأنتم مُستخلَفون فى الأرض ، قاهرون لأهلها ، قد نصرَ الله دينكم . . . والله المحمودُ مع الفتوح العظام فى كل بلد . . . فنسأل الله الذى لا إله إلا هو الذى أبلانا هذا أن يرزقنا العمل بطاعته والمسارعة إلى مرضاته » .

وسار سيرة أبى بكر فى تشييع الجيوش بالخطابة محرِّضاً على الجهاد ، حتى ينتشر الدين الحنيف فى أقطار الأرض ، وهو لن ينتشر إلا بالقوة التى تُعزُّ الحق وتُعْلى سلطانه . إنها معركة الإسلام ، معركة النفوس المؤمنة التى وعدها الله أن ترث الأرضَ ومن عليها . وما زال عمر يُبْرز هذه المعانى محاولا أن يرتفع العرب فى جهادهم عن ضعف المخلوق ، و يصبحوا قوة من قوات الخالق ، يقول فى بعض هذه الخطب(٢) :

« أين الطُّرَّاء(٣) المهاجرون عن موعود الله ؟ سيروا فى الأرض التى وعدكم الله فى الكتاب أن يورثكموها ، فإنه قال : (ليُظْهره على الدين كله) والله مظهرٌ دينه ، ومعزٌّ ناصره ، ومُولى أهله مواريثَ الأمم ، أين عباد الله الصالحون؟ » .

ولما اجتمع الجيش أمّر عليه أول من أجابه حينئذ إلى الجهاد ، وهو أبو عبيد بن مسعود ، وقال له : « اسمعْ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأشركهم

---

(١) الطبرى ٣/٢٨٣ .
(٢) الطبرى ٢/٦٣١ .
(٣) الطراء : الذين خرجوا عن ديارهم .

فى الأمر ، ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبين ، فإنها الحرب، والحرب لا يُصلح بها إلا الرجل المكيث [١] الذى يعرف الفرصة والكفّ » .

وتوفّى عمر ، فخلفه عثمان ، وكان يهبط درجة عنه وعن أبى بكر فى الفصاحة والبيان . ويُروَى أنه أُرْتج عليه يوماً وقد أراد الخطابة فى الناس فقال : « إن أبا بكر وعمر كانا يُعِدّان لهذا المقام مقالا ، وأنتم إلى إمام عادل أحوجُ منكم إلى إمام خطيب » . وليس معنى ذلك أنه كان يُرْتَجُ عليه دائماً ، فقد كان يخطب أحياناً ، فيملأ النفس بمواعظه ، على شاكلة قوله حين بايعه أهل الشورى والناس [٢] :

« إنكم فى دار قُلْعَة [٣] وفى بقية أعمار، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه ، فلقد أُتيتم ، صُبّحتم أو مُسّيتم . ألا وإن الدنيا طُويت على الغرور ، فلا تغرّنكم الحياة الدنيا، ولا يغرنّكم بالله الغرور . اعتبروا بمن مضى ثم جِدّوا ولا تغفلوا ، فإنه لا يُغْفَلُ عنكم ، أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين آثروها وعمّروها ومُتّعوا بها طويلا ؟ ألم تلفظهم ؟ ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها ، واطلبوا الآخرة فإن الله قد ضرب لها مثلا ، فقال عزّ وجل : (واضربْ لهم مثلَ الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ، فاختلط به نباتُ الأرض ، فأصبح هَشِيماً تَذْرُوه الرياح وكان الله على كلّ شىء مُقْتدرا ، المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقياتُ الصالحاتُ خير عند ربك ثواباً وخير أملا) » .

وامتُحن فى آخر أيامه بالثورة عليه ، فلم تنحرف نفسه ، بل ظل صابراً يتلو القرآن ويدعو الناس إلى أن لا يُحْدثوا فَتْق هذه الفرقة ، وهو فى أثناء ذلك يعظهم أن لا تُبْطرهم الدنيا وأن يؤثروا ما بقى على ما يفنى فيلزموا الجماعة ، ولا يتخاذلوا فيصبحوا أحزاباً .

وولىَ علىٌّ الخلافة من بعده ، والفتنة تموج بالناس ، وطلحة والزبير والسيدة عائشة يؤلّبون عليه أهل البصرة ومعاوية يؤلب أهل الشام، فاصطدم بهم جميعاً ، وانتقل إلى الكوفة يجمع الناس ويحاربهم .

---

(١) المكيث : الرزين المتبصر فى الأمور . (٣) قلعة : انقلاع أى أنها لا تدوم .

(٢) الطبرى ٣٠٥/٣ .

وانتصر على الثلاثة الأولين ، ودخل مع معاوية فى حروب صِفِّين . ثم كانت خُدْعة التحكيم . وخرج عليه فريق من جيشه ، فاضطُرَّ إلى حربه ، وهو فى كل ذلك يخطب واعظاً حيناً وداعياً إلى جهاد خصومه حيناً آخر . وكان خطيباً مفوَّهاً لا يُشَقّ غُباره ، ومن مواعظه قوله[١] :

« إن الدنيا قد أدبرتْ وآذنت بوداع ، وإن الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطّلاع ، وإن المضمار[٢] اليوم والسباق غداً . ألا وإنكم فى أيام أمل من ورائه أجل ، فمن أخلص فى أيام أمله قبل حضور أجله فقد نفعه عمله ، ولم يَضْرُره أمله ، ومن قصر فى أيام أمله قبل حضور أجله خسر عمله ، وضَرَّه أمله ، ألا فاعملوا لله فى الرغبة ، كما تعملون له فى الرَّهْبة ، ألا وإنى لم أر كالجنة نام طالبها ، ولا كالنار نام هاربها ! »

وطبيعى أن تكثر خطبه فى حروب خصومه ، وقد ظل نحو أربع سنوات يجاهدهم ويخطب فى أصحابه حاثًّا لهم على الجهاد ، ومن قوله فى خطبة[٣] له بأخَرة من أيامه وقد تقاعس بعض جنده وأخذت جنود معاوية تغير على أطراف العراق .

« إن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل وشمله البلاء ، ولزمه الصَّغار ، وسِيم الخسْفَ ، ومُنع النَّصَف[٤]. ألا وإنى قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلا ونهاراً وسرًّا وإعلاناً ، وقلت لكم : اغزُوهم قبل أن يغزوكم ، فوالله ما غُزِى قوم قط فى عُقْر دارهم إلا ذلّوا ، فتواكلتم وتخاذلتم ، وثَقُل عليكم قولى ، واتخذتموه وراءكم ظِهْرِيًّا ، حتى شُنَّت عليكم الغارات ... فيا عجبا من جدّ هؤلاء القوم فى باطلهم ، وفشلكم عن حقكم . . . حتى صرتم هدفاً يُرْمى وفَيْئاً يُنْتَهَبُ ، يُغار عليكم ولا تغيرون ، وتُغْزَوْن ولا تَغْزُون .. قد وَرَيْتم[٥] صدرى غيظاً ، وجرَّعتمونى الموت أنفاساً[٦] ، وأفسدتم علىّ رأيى بالعصيان والخِذلان » .

---

(١) البيان والتبيين ٢ / ٥٢ .

(٢) المضمار : الزمن الذى تضمر فيه الخيل للسباق وكذلك الموضع .

(٣) البيان والتبيين ٢ / ٥٣ .

(٤) النصف : الإنصاف .

(٥) وريتم : ملأتم ، وأصله من ورى القيح جوفه إذا أكله .

(٦) الأنفاس : جمع نفس بالتحريك ، وهو الجرعة من الماء ونحوه .

وقد خلّف على خطباً كثيرة ، نجد منها أطرافاً فى البيان والتبيين وعيون الأخبار والطبرى . على أنه ينبغى أن نقف موقف الحذر مما يُنْسَبُ إليه من خطب فى الكتب المتأخرة وخاصة نهج البلاغة فإن كثرته وُضعت عليه وضعاً . وقد تنبّه إلى ذلك السابقون[١] ، واختلفوا فى واضعها ،هل هو الشريف المرتضى أو الشريف الرضى ، وقد توفّى أولهما سنة ٤٣٦ للهجرة بينما توفى الثانى سنة ٤٠٦ . وممن يقول بأنه الشريف المرتضى الذهبى فى ميزان[٢] الاعتدال وابن حجر العسقلانى فى لسان الميزان[٣] . وذهب النجاشى المتوفى سنة ٤٥٠ للهجرة فى كتابه « الرجال » إلى أن مؤلف الكتاب هو الشريف الرضى [٤] ، وأقرّ هو نفسه بذلك ، إذ ذكر فى الجزء الخامس المطبوع من تفسيره أنه هو الذى ألفه وسمّه باسمه : نهج البلاغة[٥] ، وذكر ذلك أيضاً فى كتابه « مجازات[٦] الآثار النبوية » . والمظنون أن الوضع على علىّ قديم . فقد ذكر المسعودى فى مروج الذهب أن له أربعمائة خطبة ونيفاً وثمانين يتداولها الناس[٧] .

ولعل فى ذلك ما يدلّ على وجوب التحرز والتثبت فيما يضاف إليه من خطب ، وأن لا نعوّل على شىء منها إلا إذا جاء فى المصادر القديمة التى أشرنا إليها . وإن ما جاء فيها لكاف فى تصوير قدرته الخطابية وإحسانه إحساناً كان يخلب ألباب سامعيه ويؤثر فى نفوسهم تأثيراً عميقاً .

وواضح من كل ما قد منا كيف ارتقت الخطابة فى هذا العصر ، وكيف تحولت إلى وعظ الناس وإرشادهم لما فيه كمالهم وفلاحهم فى الدنيا والآخرة ، وقد أخذت ميادينها تتسع باتساع السيادة على الشعوب المفتوحة ، كما أخذت

---

(١) انظر ترجمة الشريف المرتضى فى ابن خلكان ، وراجع مرآة الجنان لليافعى ٥٥/٣ وشذرات الذهب لابن العماد ٢٥٧/٣ .

(٢) ميزان الاعتدال (طبعة لكهنو) ٢٠١/٢ .

(٣) لسان الميزان (طبعة حيدر آباد) ٢٢٣/٤ .

(٤) كتاب الرجال (طبعة بومباى) ص ١٩٢ ، ٢٨٣ .

(٥) الجزء الخامس من حقائق التنزيل للشريف الرضى (طبعة النجف) ص ١٦٧ .

(٦) مجازات الآثار النبوية (طبع بغداد) ص ٢٢ ، ٤١ .

(٧) مروج الذهب (طبعة باريس) ٤٤١/٤ .

تتشعب منذ فتنة عثمان شعباً كثيرة ، منها ما يتصل بالجهاد والحرب ، ومنها ما يتصل بالمناظرة فى الآراء السياسية المتعارضة بين على وخصومه القرشيين من جهة ثم بينه وبين الخوارج من جهة أخرى . وهى فى كل ذلك تستمد من القرآن وخطابة الرسول وأحاديثه ، تستمد المعانى وتستمد الأساليب ذات البهاء والرونق .

٤

الكتابة

نوَّه الإسلام بالكتابة وفَضَّلها منذ أول آية نزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال جَلَّ شأنه : (اقرأْ باسم ربِّك الذى خلق ، خَلَقَ الإنسان من عَلَق ، اقرأ وربُّك الأكرم الذى علَّم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم) . ومن تمام هذا التنويه القَسَم بالقلم فى قوله تعالى : (ن والقلم وما يَسْطرون) وبالكتاب فى قوله سبحانه : (والطُّور وكتاب مسطور فى رَقٍّ منشور) . وتَرَدَّد فى القرآن كلمات اللوح والقرطاس والصحف فى مثل قوله تبارك وتعالى : (بل هو قرآن مجيد فى لَوْح محفوظ) ، وقوله : (قُلْ من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيسَ) وقوله : (رسولٌ من الله يتلو صُحُفاً مطهَّرة) .

وعمل الرسول عليه السلام جاهداً على نشر الكتابة بين أصحابه ، حتى لنراه يجعل فداء بعض أسرى قريش ممن حذقوا الكتابة عشرةً من صبيان المدينة[١] ، وقد حثَّ القرآن على استخدامها فى المعاملات ، يقول عزَّ سلطانه : (يا أيها الذين آمنوا إذا تَدَاينتم بدين إلى أجل مسمًّى فاكتبوه وليكتبْ بينكم كاتبٌ بالعدل ولا يأبَ كاتبٌ أن يكتُبَ كما عَلَّمه الله فليكتبْ وليُمْلِل الذى عليه الحقُّ) . ومن غير شك كانت هى الوسيلة إلى نشر القرآن وتعلمه ، فقد كان الصحابة يكتبونه ، حتى يتحفَّظوه .

(١) طبقات ابن سعد ج ٢ ق ١ ص ١٤ .

وكان هناك جماعة من الكتّاب يكتبون آياته - كما قدّمنا - بين يدى الرسول من مثل عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب وأُبَىّ بن كعب وزيد ابن ثابت . وكان يكتب له فى حوائجه خالد بن سعيد بن العاص ومعاوية ابن أبى سفيان . وكان يكتب ما بين الناس المغيرة بن شعبة والحصين بن نمير ، كما كان يكتب بينهم فى قبائلهم ومياههم عبدالله بن الأرقم والعلاء بن عقبة الحَضْرمى . وكان حنظلة بن الربيع يخلف كل كاتب من كتّاب الرسول إذا غاب ، فغلب عليه لقبُ الكاتب[1] .

ومعنى ذلك كله أن الكتابة أخذت منذ هذا العصر تُستَخْدم على نطاق واسع لا فى كتابة القرآن فحسب ، بل فى كتابة كل ما يهمُّ المسلمين فى معاملاتهم وعقودهم . وكان الرسول عليه السلام يستخدمها فى جميع مواثيقه وعهوده ، وكذلك كان الخلفاء الراشدون من بعده ، وتكتظ كتب الحديث والتاريخ والأدب بهذه العهود والمواثيق ، سواء منها ما كان على لسان الرسول وما كان على لسان خلفائه . وقد استطاع محمد حميد الله الحيدر آبادى أن يجمع طائفة ضخمة منها سماها « مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة » وقد قدم لها ببحث عن مقدار الثقة بها ، وجمهورُها مما لا يَرْقى إليه الشك . وهى تفتتح بالكتاب الذى كتبه الرسول حين نزل المدينة بين المهاجرين والأنصار واليهود المقيمين بها . ونقف قليلا عند هذا الكتاب لنبين أهمية هذه الوثائق ومدى تطويرها للنثر الكتابى عند العرب ، فقد أخذ هذا النثر يحمل تشريع دولة الإسلام الجديدة وما يُطْوَى فيه من تعاليم الدين الحنيف وحدوده وفرائضه . وأولُ ما يلقانا فى هذا الكتاب أن جميع أهل يثرب : « أمة واحدة من دون الناس » وهى أمة لا ترتبط بروابط النسب المعروفة فى القبيلة وإنما ترتبط بروابط الدين . وعلى هذه الأمة أن تتعاون ضد كل من يَبْغى عليها منها أو من غيرها ، وأن تكفل فى داخلها مبادئ السلام كما تكفل حماية الجار ونصرة المظلوم . ومن تبعها من غير دينها له النصرة والأسوة إلا من ظلم وأثم . وهى أمة

---

(١) الوزراء والكتاب للجهشيارى (طبعة الحلبى) ص ١٢ .

يعلوها سلطان الله الذى يُردّ إليه و إلى رسوله كل اختلاف وكل حدث أو اشتجار يُخاف شرّه .

والكتاب بذلك كله يرينا تكوين الجماعة الإسلامية والعلاقات التى تربط بين أفرادها ، وهو يوضّح هذه العلاقات فى داخل العشائر كدفع الدّية والولاء ، كما يوضح العلاقات بين أعضاء الجماعة الكبرى التى يُشْرف عليها الله ورسوله ، وهى علاقات وثّقتها روابط الدين توثيقاً شديداً ، بحيث أصبح كل ما يدعو إلى اشتجار مردّه إلى هذا الدستور الدينى الجديد ، الذى يُلْغى الفوارق القبلية ، ويقيم العدل والمساواة ، ولا يدع للناس حق الأخذ بالثأر ، بل يرده إلى الله ورسوله ، فلا ثأر يجر ثأراً بل عقاب عادل بالمثل فى القتل وغير القتل .

ونمضى فى تلك الوثائق فنقرأ المعاهدة التى كتبها الرسول بينه وبين قريش عام الحُديْبية[1] والتى نصّت على وضْع الحرب عن الناس عشر سنين ، ذمة لا تنكث « وأنه من أحبّ أن يدخل فى عقْد محمد وعَهْده دخله ومن أحبّ أن يدخل فى عقْد قريش وعَهْدهم دخل فيه » . ونقرأ بعد ذلك كتابه إلى يهود خيبر ثم قسمة أموالها . وتتوالى كتبه إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام والتصديق برسالته ، وممن دعاه النجاشى ملك الحبشة وهرقل ملك الروم والمقوقس صاحب مصر . وكما يكتب إلى الملوك يكتب إلى أساقفة الشام وأمرائها وولاة شرقى الجزيرة من قبل كسرى ، وكذلك جنوبيها . وقد يكتب إلى القبائل نفسها . وتلقانا معاهدته مع أهل نجران[2] ، وفيها يبيّن ما عليهم من خراج ثم يقول : « ولنجران وحاشيتها جوارُ الله وذمة محمد النبى رسول الله على أموالهم وأنفسهم وملّتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبِيَعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير . ولا يُغيَّر أُسْقف من أسقفيّته ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته . وليس عليهم دية ولا دم جاهلية . . . ومن سأل منهم حقّاً فبينهم النَّصف غير ظالمين ولا مظلومين » . وعلى هدى هذا الكتاب كانت كتب أبى بكر وعمر التى كتباها إلى أهل البلاد المفتوحة . وتلقانا بعد ذلك عهوده إلى الأمراء الذين أبقاهم على إماراتهم فى

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١٣ .

(٢) مجموعة الوثائق السياسية ص ٨٠ .

القبائل وفى اليمن ، كما تلقانا عهوده إلى من كان يُرْسل بهم لتعليم الناس فى آفاق الجزيرة شئونَ دينهم ، وما ينبغى أن يأخذوه منهم من الزكاة ، وقد يرسل بذلك إلى بعض أمرائهم . ومن خير ما يصوِّر هذه العهود كتابه[١] إلى عامله باليمن ، وفيه يأمره بتقوى الله والأخذ بالحق وأن يعلِّم الناس القرآن ويفقههم فيه كما يعلمهم أوامر الدين ونواهيه وما فُرض عليهم من الحج إلى بيته المقدّس ومن الصلاة ، وإيتاء الصدقات ويرسم له حدودها على الزروع والثمار والأنعام والأغنام وأن من زاد خيراً فهو خير له .

وعلى هذا النحو اتسعت الكتابة على عهد الرسول ، إذ أصبحتْ تؤدِّى تعاليم الدين الحنيف ، وكل ما أقامه لصلاح الجماعة الإسلامية وسعادتها ، وكل ما فرضه من معان إنسانية فى معاملة من يدخلون فى لوائه وفى ذمة الله وعَقْده .

ويتولَّى أبو بكر الصديق مقاليد خلافة الرسول ، ويرتدُّ كثير من العرب ، فيجند لهم الجيوش ويبعث مع قادتها بكتاب مفتوح يدعو الناس فيه إلى الاعتصام بدين الله وأن من استجاب وكفَّ وعمل صالحاً قُبِلَ منه وأُعين عليه ، ومن أبى فلن يُعْجز الله وقوتل حتى يُقرّ بالحق . وأتبع ذلك بعهد لأمراء الأجناد ضمَّنه نفس هذه المعانى وأن يستوصوا بالمسلمين فى حسن الصحبة ولين القول . وما زال يتراسل معهم حتى رُئِبَ الصدع . وتتحول الأجناد بأمرائها إلى الفتوح ، فيكتب لهم ناصحاً على نحو ما كتب لخالد بن الوليد[٢] . وتلقانا له منذ هذا التاريخ كتابات وعهود مختلفة كان يرسل بها إلى رؤساء الأجناد فى البلاد المفتوحة . وكان آخر ما كتبه عهده لعمر . وفيه يقول : « إنى استعملت عليكم عمر بن الخطاب فإن بَرَّ وعَدَل فذلك علمى به ورأيى فيه ، وإن جار وبدّل فلا علم لى بالغيب . والخير أردت . ولكل امرئ ما اكتسب وسيعلم الذين ظلموا أىَّ مُنْقلب ينقلبون » .

ووَلِىَ عمر ، فتمت فى عهده فتوح إيران والشام ومصر ، ومع كل بلد تُفْتَحُ كان أمراء الأجناد يكتبون لأهلها العقود والعهود ، وكان عمر لا ينى

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية ص ١٠٤ .
(٢) مجموعة الوثائق السياسية ص ٢٢٧ .

عن مراسلتهم فى كل ما يهم من الأمر ، سواء فيما يتصل بالحرب وتنظيم الجيوش أو فيما يتصل بمعاملة أهل البلاد المفتوحة وما يُعطَى لهم من عهود، وعهده لأهل إيليا (بيت المقدس) الذى أشرنا إليه فى غير هذا الموضع مشهور، وفيه يقول[1] :

« هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان : أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصُلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملّتها : أنه لا تُسكَن كنائسهم ولا تُهدَم ولا يُنتقَص منها ولا من حيِّزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم ولا يضارّ أحد منهم ، ولا يسكن بإيليا معهم أحد من اليهود . وعلى أهل إيليا أن يُعطوا الجزية .. وعلى ما فى هذا الكتاب عهدُ الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين » . وواضح أن عمر ترسَّم فى هذا العهد عهد الرسول صلى الله عليه وسلم لنصارى نجران . وعلى نحو ما كان يستلهم صنيع الرسول فى عهوده كان يستلهم وصاياه لولاته فى سياسة الناس ومعاملتهم بإحسان ، ومن خير ما أُثر عنه فى هذا الجانب رسالته إلى أبى موسى الأشعرى واليه على البصرة ، وهى تمضى فى البيان والتبيين على هذا النحو[2] :

« بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة وسُنَّة متَّبعة ، فافهم إذا أُدلى إليك، فإنه لا ينفع تكلُّم بحق لا نفاذ له . آس بين الناس فى مجلسك ووجهك، حتى لا يطمع شريف فى حَيْفك ، ولا يخاف ضعيف من جَوْرك . البيِّنة على من ادَّعى، واليمين على من أنكر . والصلحُ جائز بين المسلمين إلا صلحاً حرَّم حلالا أو أحلَّ حراماً . ولا يمنعنَّك قضاءٌ قضيته بالأمس فراجعتَ فيه نفسك ، وهُديتَ فيه لرشدك ، أن ترجع عنه إلى الحق ، فإن الحق قديم ، ومراجعةُ الحق خير من التمادى فى الباطل . الفهمَ الفهمَ عند ما يتلجلج فى صدرك ، مما لم يَبْلغك فى كتاب الله ولا فى سنة النبى صلى الله عليه وسلم . اعرفِ الأمثالَ والأشباه، وقِسِ الأمور عند ذلك، ثم اعمِدْ إلى أحبِّها إلى الله وأشبهها بالحق فيما ترى. واجعلْ للمدعى حقًّا غائباً أو بينةً أمداً ينتهى إليه، فإن أحضر بينته أخذت له بحقه ، وإلا وجَّهت عليه القضاء ؛ فإن ذلك أنفى للشك

(١) مجموعة الوثائق السياسية ص ٢٦٨ . (٢) البيان والتبيين ٢ / ٤٨ وما بعدها .

وأجلى للعمى وأبلغ فى العذر . المسلمون عُدولٌ بعضهم على بعض إلا مجلوداً فى حدّ أو مجرَّباً عليه شهادة زور أو ظَنيناً(١) فى ولاء أو قرابة ، فإن الله قد تولى منكم السرائر ، ودَرَأ عنكم بالبيِّنات والأَيْمان . ثم إياك والقلقَ والضجر والتأذِّيَ بالناس والتنكرَ للخصوم فى مواطن الحق ، التى يُوجب الله بها الأجْرُ ، ويُحْسن بها الذُّخْر ، فإنه من يُخْلص نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى ، ولو على نفسه يَكْفه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تزيَّن للناس بما يعلم الله منه خلاف ذلك هتك الله سِتْره وأبدى فعله . والسلام عليك » .

والرسالة وثيقة مهمة فيما ينبغى أن يكون عليه الحاكم قاضياً أو غير قاض من الرفق برعيته ومعاملة جميع أفرادها على قدم المساواة . وعمر يضع فيها أسس النظر فى الادعاء وفى الصلح بين المتخاصمين ، ويفتح الباب واسعاً أمام من يقضى فى شأن من شئون الرعية ويتبين خطأ قضائه أن يرجع فيه . وما يلبث أن يضع للحاكم الأصول التى يصدر عنها فى أحكامه ، وهى الكتاب والسنة فإن لم يجد فيهما ما يُنير له الحكم اجتهد برأيه معتمداً على القياس . ويجعلَ للمدعى أمداً ينتهى إليه . ويقول إن الأصل فى المسلم أن يكون عدْلا ، إلا أن تَنْتفى عدالته فلا تصح شهادته . ويوضِّح للحاكم قاضياً أو غير قاض موقفه من الخصوم فلا يتأذَّى بهم ولا يتنكر لهم . وقد ترك وصية(٢) للخليفة من بعده تُعَدّ دستوراً رفيعاً للحكم ، سواء فيما يتصل بحكم المسلمين أو حكم أهل الذمة وما ينبغى أن يُؤْخَذوا به من الرفق .

وفى الحق أننا لا نصل إلى عهد عمر حتى تصبح الكتابة جزءاً أساسيًّا فى أعمال الدولة ، وحتى تتضمن كل تعاليمها وكل ما رسمته للمسلمين وأهل الذمة من العلاقات السياسية والاقتصادية فى الخراج وقسمة الغنائم وكل ما يتصل بالأنظمة فى الشعوب المفتوحة . وعمر فى ذلك كله يستلهم القرآن والسنة النبوية ، ويستشير أصحابه فى كل ما يأخذ من أمر ويَدع ، وهو فى ثنايا ذلك يجتهد ويفتح الباب لاجتهاد أصحابه . فإذا قلنا بعد ذلك إن الكتابة رقيت فى العصر رقيًّا بعيداً لم نكن مغالين . إذ وَسِعَتْ كل الحاجات السياسية التى جَدَّت ،

---

(١) ظنينا : متهماً .

(٢) البيان والتبيين ٢ / ٤٦ .

وكل ما أُعْطى للمسلمين المحاربين والشعوب المفتوحة من حقوق .

وقد مضى فاتحو الثغور فى عهد عثمان يكتبون عهودهم لمن يغلبون عليهم أو يدخلون فى طاعتهم دون حرب مقتدين بما رسمت العهود فى عهد عمر وأبى بكر ، وكان عثمان يكتب أحياناً إلى ولاته فى الحرب والسلم . وخلفه على فكثرت الحاجة بحكم حروبه إلى مكاتبات مختلفة بينه وبين الخارجين عليه . ومن أهم ما كُتب حينئذ وثيقة[1] التحكيم بينه وبين معاوية .

وواضح من ذلك كله أن الكتابة تطورت تطوراً واسعاً فى هذا العصر ، فقد تعددت الموضوعات التى تناولتها والتى لم يكن للعرب بها عهد قبل الإسلام ورسالة صاحبه النبوية ، إذ أخذت تحمل مجموعَ النظم الجديدة التى قامت عليها دولة الإسلام العتيدة . وكان الرسول عليه السلام هو الذى ذللها لتحمل هذه النظم ، وخلفه عليها قواد الجيوش فى عهودهم للبلاد المفتوحة وخلفاؤه الذين فصّلوا هذه النظم وطابقوا بينها وبين حاجات المسلمين من جهة وحاجات من غلبوا عليهم من جهة أخرى ، ولعمرَ من بينهم فى ذلك القِدْحُ المعلّى إذ ساعدتْ كتبه الكثيرة فى الفتوح وإلى الولاة على أن ينال النثر الكتابى كل ما كان ينتظره زمن الخلفاء الراشدين من تطور ونهوض .

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية ص ٢٨١ .

الكتاب الثانى

فى عصر بنى أمية

الفصل الأول

مراكز الشعر الأموى

١

المدينة ومكة

لا نصل إلى عصر بنى أمية حتى تصبح المدينة ومكة مركزين مهمين من مراكز الشعر ، وحتى تتحضَّر تحضُّراً واسعاً ، وإذا كانت المدينة فقدت فى هذا العصر أهميتها السياسية ، إذ تحولت عنها الخلافة إلى الكوفة فى عهد علىّ ثم إلى دمشق منذ معاوية فإنها ظلت تحتفظ بالتراث الدينى ، كما ظلت مستقَرًّا لأكثر طوائف المجتمع العربى رقة ودماثة . وهيأت لذلك عوامل مختلفة من الثراء الواسع وممادخلها من عناصر أجنبية كثيرة أسرعت بها إلى التحضر ، بل إلى الترف البالغ ، أما الثراء فرجعه إلى ما خلّفه فيها الصحابة الأولون لأبنائهم من أموال جلبوها من الفتوح ، فقد رجعوا إليها بحُمول الذهب والفضة والجواهر ، وابتنوا القصور وبالغوا فى تجميلها وزخرفتها[1] ، وقام لهم على خدمة هذه القصور الرقيقُ الأجنبى الذى اجتلبوه ، وكان كثيراً كثرة مفرطة ، حتى ليُرْوى عن الزبير بن العوّام مثلا أنه خلّف وحده ألف عبد وأمة[2] . ومنذ أن دوّن عمر الدواوين كان يُفْرَض لأهلها الأعطيات الكثيرة ، وكان الأمويون يُغْدقون عليهم إغداقاً[3] ، استرضاء لهم ، حتى يصرفوهم عن التفكير فى الخلافة .

كل ذلك أعدّ لأن تعيش المدينة فى هذا العصر عيشة دعة ، إلا فترة قصيرة هى الفترة التى انتقضت فيها على يزيد بن معاوية ، وقد دفعت ثمن هذا

---

(١) انظر مروج الذهب للمسعودى (طبعة باريس) ٤/٢٥٤ .

(٢) نفس المصدر ٤/٢٥٤ .

(٣) الفخرى ص ١٢٧ واليعقوبى ٢/٣٥٨ والأغانى ٧/٢٢ .

الانتقاض باهظاً فى موقعة الحرة سنة ٦٣ للهجرة ، وكأن ذلك كان سحابة عارضة فى سمائها لهذا العصر ، فبمجرد انقشاع تلك السحابة خلدت إلى صفو الحياة ونعيمها ، ولم يعكّر عليها هذا الصفو والنعيم شىء ، فقد تجنّبت السياسة ، ونقرأ فى أخبار أهلها فنجدهم ينعمون بألوان الطعام المختلفة[١] رافلين رجالا ونساء فى الثياب الحريرية[٢] وأنواع الطيب والعطور[٣]، وبالغ النساء خاصة فى اتخاذ صنوف الحلى والجواهر[٤] .

وطبيعى أن يكثر فى هذا المجتمع المتحضر المترف الشبابُ العاطل الذى يريد أن يقطع أوقات فراغه الطويل فى لهو برىء ، وسرعان ما قدّم له الرقيق الأجنبى ما يريد من هذا اللهو ، إذ عُنى بالغناء عناية بالغة ، عناية استحدثت فى أثنائها نظرية الغناء العربية التى نقرأ رُقمها فى كتاب الأغانى تالية للأصوات أو كما نقول اليوم الأدوار ، وقد جعلوها ستة ضروب ، هى الثقيل الأول والثقيل الثانى وخفيف الثقيل والرّمَل وخفيف الرمل والهَزَج ، وميّزوا مَجْرَى الصوت فيها بحسب الأصابع ، فقالوا مثلا : ثقيل أول بالوسطى وخفيف ثقيل بالسبّابة وخفيف رمل بالبِنْصر .

واكتمالُ هذه النظرية على أيدى الرقيق الأجنبى يؤكد أنها تأثرت تأثراً واسعاً بألحان الروم والفرس ، وليست المسألة مسألة افتراض فإن كبار المغنين الأولين فى المدينة يُؤْثَرُ عنهم أنهم كانوا يغنون الغناء الفارسى بجانب غنائهم العربى[٥] ، وكان هناك من يَشْخَصُ إلى الشام فيتعلم ألحان الروم[٦] . على أنه ينبغى أن لا نظن من ذلك أن نظرية هذا الغناء العربى نُقلت نقلا عن الأجانب فقد تأثرت بغنائهم ، ولكنها استوت فى صورة عربية مستقلة . ومما يؤكد ذلك أن مصطلحاتها جميعاً عربية وأن من قاموا عليها من الرقيق الأجنبى وُلدوا فى بلاد العرب جميعاً ، ما عدا نشيطاً الفارسى . وكانت العادة أن يبدأوا

---

(١) ابن سعد (طبعة أوربا) ٤/١٢٦ .
(٢) ابن سعد ٨/٣٥٢ والأغانى ٦/١٣ والمعارف ص ٢٧٤ والأغانى ١/٣١٠ .
(٣) أغانى ٩/٢٦٢ .
(٤) ابن سعد ٨/٣٤٣ وأغانى ٨/٢٧٣ ، ٢٧٨ .
(٥) أغانى (طبعة دار الكتب) ١/٣٨ ، ٨/٣٢٢ .
(٦) أغانى ١/٣٧٨ .

بالغناء العربى ، ثم يرحلوا إلى بلاد الفرس والروم فيأخذوا عنهما غناءهم ، ويُدْخلوا ألحانه فى غناء العرب . ومما يدل على ما نزعم أن أكثر الآلات الموسيقية التى يتردد ذكرها فى هذا العصر قديم مثل الصَّنْج والمِزْهر والقضيب والدفّ والطبل والمزمار ، وحتى آلات العود والطمبور عُرفت فى العصر الجاهلى .

على كل حال نهضت المدينة فى هذا العصر بفن الغناء نهضة واسعة ، وشاركتها فى ذلك مكة كما سنرى بعد قليل ، ولا نغلو إذا قلنا إن البلدتين جميعاً لم تُبْقيا إلا قليلا للعصور التالية كى تضيفه إلى نظريته التى استحدثتاها . وقد أقبل أهل المدينة على هذا الغناء إقبالا شديداً ، يشترك فى ذلك عامتهم وخاصتهم وعُبَّادهم وزهادهم[١] وقضاتهم[٢] ، حتى لتُؤْثَرُ عن عمر بن عبد العزيز أصوات تغنَّى بها فى إمارته لهم[٣] . وكان من أشرافهم مَنْ جعل داره أشبه بفندق للمغنين والمغنيات ، على نحو ما هو مأثور عن عبد الله بن جعفر وقَصْد الناس لداره يسمعون بها ألوان الغناء[٤] ، وقد تخرج فى هذه الدار كثيرون من المغنيات والمغنين المطربين .

ومن كبار المغنين الذين اشتهروا بالمدينة فى هذا العصر طُوَيْس وهو أول من تغنى بها الغناء المتقن[٥] وأول من صنع الهزَج والرَّمَل فى الإسلام[٦] ، وسائب خاثِر مولى ابن جعفر وهو ممن نقلوا ألحان الفرس إلى الغناء العربى[٧] ومَعْبد وهو إمامهم فى الغناء غير منازَع ، وابن عائشة ومالك الطائى وعطرَّد ويونس الكاتب ويُنْسَبُ إليه أول كتاب فى الغناء والأغانى ونِسْبتها إلى أصحابها . ومن أشهر المغنيات عزة المَيْلاء وجميلة وسَلاَّمة القَسّ وحَبابة وسلاَّمة الزرقاء .

ولعل من الطريف أن نعرف أنه كانت هناك دور مخصصة للسماع يفد عليها شباب المدينة كل ليلة ، وأشهر هذه الدور دار جميلة ، وكانت تكتظ

---

(١) أغانى ٢/٢٣٨ ، ٤/٢٢٢ ، ٨/٢٢٤ .
(٢) أغانى ٨/٢٧٧ .
(٣) أغانى ٩/٢٥٠ .
(٤) المسعودى ٥/٣٨٥ .
(٥) أغانى ٣/٢٩ .
(٦) أغانى ٤/٢١٩ .
(٧) أغانى ٨/٣٢١ .

بالمغنين والمغنيات ، ويعُدُّ أبوالفرج منهم فى أغانيه عشرات[١] ، ويقصّ علينا أخباراً كثيرة عن هذه الدار ، نعرف منها ما أصاب الغناء فى المدينة من رقى وازدهار ، إذكانوا يتغنون الغناء المصحوب بالجوقات الكبيرة[٢] والآخر المصحوب بالرقص والضرب على الآلات الموسيقية الكثيرة[٣] . وكانت جميلة أحياناً تقوم باستعراض كبير يضم أشهر المغنين والمغنيات لا فى المدينة فقط ، بل أيضاً فى مكة[٤]، ويُقال إنها أرادت الحج فخرجت فى مهرجان ضخم من المغنين والمغنيات ضمّ نحو عشرين مغنياً وخمسين قينة[٥].

وعلى هذا النحو عاشت المدينة فى هذا العصر لفن الغناء تنمّيه وترقيه ، ورقيُّه إنما هو رمز لما أصاب مجتمعها من تحول وتطور وتحضر ، ولما أخذ به من أسباب الرّفه والنعيم . وكان يلتقى فى هذا المجتمع كثير من الطفيليين وأصحاب الفكاهة والتندير ، واشتهر من بينهم أشْعب، وكان ماهراً فى إضحاك معاصريه لا بنكته ونوادره فحسب ، بل أيضاً بإشاراته وحركاته . وتَطْفح كتب الأدب بدعاباته وفكاهاته[٦].

ولمع فى هذا المجتمع كثيرات من النساء قُدْنَ المرح فيه والظَّرْف وعملن على تهذيب الأذواق ، نذكر من بينهن السيدة سُكَيْنة بنت الحسين ، وقد ترجم لها أبو الفرج فى أغانيه ترجمة[٧]، صور فيها جمالها وبهاءها ووقارها وأخْذها بأسباب الزينة حتى إنها عُرفت بتصفيف لجُمَّة شعرها كانت النساء يقلّدْنها فيه، بل كان من الرجال من يحاكيها فى جُمَّتها . وكانت ظريفة مزاحة ،وكثيراً ما كان يختلف إليها أشعب لإضحاكها . وكانت تَفْسحَ فى مجالسها للرجال وللمغنين والمغنيات وللشعراء ، وكثيراً ما كانت تفاضل بينهم .

نحن إذن بإزاء مجتمع متحضر اكتملت له كل الأسباب كى يمرح أهله مرحاً بريئاً ، مرحاً قوامه الغناء والدعابة والذوق الراقى المهذب . ولعلنا الآن نفهم

---

(١) أغانى ٨/١٨٦ وما بعدها .
(٢) أغانى ٨/٢١٨ ، ٨/٢٢٧ .
(٣) أغانى ٨/٢٢٦ .
(٤) أغانى ٨/١٨٨ ، ٨/٢١١ .
(٥) أغانى ٨/٢٠٩ .
(٦) انظر ترجمته فى الأغانى (طبعة الساسى) ١٧/٨٣ .
(٧) أغانى (طبعة الساسى) ١٤/١٥٧ وما بعدها .

حزن أبي قَطيفة الأموي على فراق هذا المجتمع حين نفاه ابن الزبير هو وغيره من الأمويين إلى دمشق ، فقد أخذ يبكي بلدته في شعر مؤثر ، مقارناً بينها وبين دمشق . ولانقرأ هذا الشعر حتى نحس كأنه طُرد من فردوسه الأرضي ، يقول[١] :

القَصْرُ فالنَّخْلُ فالجَمَّاءُ بينهما ... أشْهَى إلى القلب من أبواب جَيْرونِ

ويقول[٢] :

أقطعُ الليل كلَّه باكتئابٍ ... وزَفيرٍ فما أكاد أنامُ

إلى أشعار كثيرة[٣] تصور رقة حسه وحنينه بل لهفته على الحياة الهنيئة في مسقط رأسه ، مما جعل ابن الزبير يعفو عنه ويأذن له في الرجوع .

وفي هذا الجو الرقيق الذي زخر بالغناء والمرح نهض الشعر في المدينة نهضة واسعة . وقد تعاونت على هذه النهضة عناصر كثيرة من الأنصار وممن هاجر إليهم من قريش وغيرهم وممن تعرَّب في بلدتهم من الموالي وأبنائهم تعرباً تامًّا . ويستطيع القارئ أن يرجع إلى كتاب الأغاني حيث يجد أبا الفرج يترجم لكثرة غامرة من شعراء المدينة لهذا العصر ، وممن ترجم له من الأنصار عبد الرحمن ابن حسان وابنه سعيد والنعمان بن بشير والسَّرِيّ بن عبد الرحمن والأحوص بن محمد ، وترجم من قريش لعبد الرحمن بن الحكم وعبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وجعفر بن الزبير والحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب ، وترجم من حلفائهم للفقيهين المشهورين عروة ابن أُذَيْنَة وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ثم ابن أرْطاة وابن هَرْمة . وممن ترجم لهم من الموالي موسى شهوات وأخوه إسماعيل بن يسار النَّسائي ، وكان له ولدان شاعران هما محمد وإبراهيم . ووراء هؤلاء الشعراء كثيرون ذكرهم أبو الفرج عرضاً .

---

(١) أغاني (طبعة دار الكتب) ١/١١ ، والقصر الذي عناه قصر سعيد بن العاص بالمدينة ، الجماء : أرض بها . جيرون : دمشق .

(٢) أغاني ١/٢٩ .

(٣) انظر ترجمته في الأغاني ١/١٢ ومابعدها .

وإذا أخذنا نقرأ فى شعر هؤلاء الشعراء وجدنا جمهوره يتجرّى فى الحب والغزل ، وهو شىء طبيعى ، دفعت إليه حياة الشباب المترف فى المدينة ، كما دفع إليه فن الغناء الجديد . وحقًّا بقيت بقية من الهجاء عند عبد الرحمن بن الحكم وعبد الرحمن بن حسان ، إذ أدارا معركة هجاء عنيفة[١] ، ولكن هذه المعركة تنتهى بهما ، ولا تبقى بعد ذلك إلا سهام ضئيلة تظهر من حين إلى حين . وبقيت بقية أوسع من المديح ، إذ كان بعض الشعراء يمدح بنى أمية طلبا لنوالهم ، على نحو ما نجد عند الأحوص[٢] وموسى شهوات[٣] ، وأخيه إسماعيل بن يسار[٤] . والمديح والهجاء جميعاً ليسا هما اللونين اللذين غلبا هناك على الشعر والشعراء . وفى الحق أن من يبحث عن هذين اللونين ينبغى أن يتجه ببصره إلى العراق أو إلى الشام ، أما فى المدينة فكانا يسقطان على هامش شعر الغزل الذى كان يتفق وترف البيئة والذى كان يطلبه المغنون والمغنيات ليضعوا فيه أغانيهم الجديدة . ومن ثَمَّ طُبع هذا الغزل بطوابع غنائية قوية ، إذ كان فى حقيقته أغانىَ تُصْحَبُ بالغناء والعزف على الآلات الموسيقية . ونستطيع أن نلاحظ هذه الطوابع فى جوانب كثيرة من حيث الكمّ ومن حيث الكَيْف ومن حيث الوزن ، فأما من حيث الكم فهو فى مجموعه مقطوعات لا قصائد طويلة ، وهو من حيث الكيف لا يقف عند الأطلال إلا نادراً إنما يقف عند حكاية الحب وتحليل خواطر الشاعر إزاءه ، أما من حيث الوزن فإن الشعراء مالوا — تحت تأثير الغناء — إلى الأوزان القصيرة والمجزوءة حتى يتيحوا للمغنين والمغنيات أن يحمِّلوا شعرهم ما يريدون من ألحان وأنغام جديدة . وكثيراً ما نجد مغنياً يضع لحناً ويطلب إلى شاعر أغنيةً يوقِّعها عليه[٥] ، وكان بين الشعراء من يُحْسن وضع الألحان على شعره مثل عروة بن أذَينة[٦] ولا نصل إلى أواخر العصر حتى نجد من بين المغنين والمغنيات من يحسن نظم الشعر مثل أبى سعيد مولى فائد وسَلاّمة القَسّ ، وقد ترجم لهما صاحب الأغانى .

وإذا تركنا المدينة إلى مكة وجدناها تتطابق معها فى كل ما وصفناه من

(١) أغانى (ساسى) ١٣ / ١٤٤ .

(٢) أغانى (دار الكتب) ١ / ٢٩٧ و ٤ / ٢٤٨ .

(٣) أغانى ٣ / ٣٦٥ .

(٤) أغانى ٤ / ٤٠٨ .

(٥) أغانى ٢ / ٢٣٨ وطبعة الساسى ٢١ / ١٠٧ .

(٦) أغانى (ساسى) ٢١ / ١٠٩ .

مظاهر الحياة والحضارة وفن الغناء الجديد وما اتصل بذلك من شيوع شعر الحب والغزل. وكانت مثلها تغرق فى ثراء واسع ورثه الشباب عن آبائهم ، وقد ورثوا عنهم كثيراً ، ورثوا ما كان فى حجورهم من أموال التجارة فى العصر الجاهلى ، ومعروف أن قوافل مكة كانت تحلُّ محل قناة السويس فى عصرنا ، إذ كانت تنقل السِّلَع بين حوض المحيط الهندى وحوض البحر المتوسط ، وانضافت إلى هذه الأموال أموال الفتوح الإسلامية وما فُرض لأهلها من أعطيات ورواتب فى دواوين الخلافة وما قَسم فيهم الأمويون دائماً من أموال. وكان الحج يَفِىء عليهم كل سنة بما يسدُّ خَلَّة كل محتاج .

فمكة لم تكن تقلُّ فى هذا العصر ثراء عن المدينة ، وهو ثراء استتبع بناء القصور المشيدة التى تختال جمالا وبهاء ، وقد بنى معاوية لنفسه فيها دوراً لُقِّبت « بالرُّقْط » لاختلاف ألوانها أحضَر لها بنَّائين من الفرس[1] ، ومع ذلك كان إذا حج وقف مبهوتاً إزاء بعض قصورها الأخرى[2]. ومعروف أنه اتسع فيها بناءُ القصور والدور اتساعاً كبيراً لعهد عبد الله بن الزبير حين اتخذها مقرًّا لخلافته[3]. وقد عُنِى كثير من الخلفاء ومن وُلاتها الذين أثْرَوْا فى الفتوح باستنباط العيون فيها وغَرْس النخيل والأشجار فى ضواحيها[4] من ذلك ما يُرْوَى عن سليمان بن عبد الملك من أنه أراد أن يحج فكتب إلى خالد القسرى عامله عليها أن يُجْرِى له عينا إلى الكعبة من الماء العذب ، فصنع بركة فى أصل « ثَبير » بحجارة منقوشة ، وأسال منها الماء إلى المسجد الحرام فى قَصَب من رصاص انتهى بفوارة تسكب الماء فى نافورة رخام بين الركن وزمزم[5].

ولم تَغْرق مكة فى دور وقصور وعيون فحسب . بل لقد أخذت تغرق إلى آذانها فى الترف والنعيم . فإذا نفر من أهلها يأكلون ويشربون فى صحاف الذهب والفضة[6] ، ونفر يلبسون مقطعات الخزّ والسندس والديباج والحلل الموشاة

---

(١) أغانى ٣ / ٢٨١ .

(٢) أغانى ١ / ٢١١ .

(٣) الأزرق ١ / ٣٩٢ .

(٤) المعارف لابن قتيبة (طبعة جوتنجن) ص ١٦٤ و الأزرق ١ / ٤٤١ وما بعدها .

(٥) اليعقوبى (طبعة أوربا) ٢ / ٣٥١ .

(٦) أغانى ٥ / ٦٦ .

على كل لون[١] ، والطيبُ وأنواع العطور تفوح منهم[٢]. وبالغ النساء فى ذلك كله وفى اتخاذ الحلى وصنوف الجواهر[٣].

واكتظت مكة – كما اكتظت المدينة – بالرقيق الأجنبى الذى نهض بحاجات أهلها فى مطاعمهم ومشاربهم وتوفير كل أدوات ترفهم . وكان من أهم ما نهض به الرقيق فن الغناء ، ونحس ضرباً من التعاون الوثيق بين أصحاب هذا الفن فى مكة وأصحابه فى المدينة ، فهم دائماً يلتقون ، حتى ليخيَّل إلى الإنسان كأنما كانت إحدى البلدتين ضاحية للأخرى . وكل مغن يحاول أن يبلغ من إتقان هذا الفن مبلغاً بعيداً يستهدى فيه ذوقه وما قد يكون عرفه من ألحان الفرس والروم ، ومن مقدَّميهم وكبارهم فى مكة ابن مِسْجح الذى اشتهر بأنه أول من غنَّى الغناء المتقن ، وأنه « نقل غناء الفرس إلى غناء العرب ، ثم رحل إلى الشام وأخذ ألحان الروم والبَرْبطيَّة والأسطوخوسيَّة ، وانقلب إلى فارس فأخذ بها غناء كثيراً ، وتعلَّم الضرب ، ثم قدم إلى الحجاز وقد أخذ محاسن تلك النغم ، وألقى منها ما استقبحه من النبرات التى هى موجودة فى نغم غناء الفرس والروم خارجة عن غناء العرب ، وغنَّى على هذا المذهب ، فكان أول من أثبت ذلك ولحَّنه وتبعه الناس بعدُ »[٤] . وعن هذا الأستاذ المبدع أخذ المغنون والمغنيات فى مكة ، ومن أنبههم وأشهرهم ابن مُحْرِز ، وهو أول من غنى الرَّمَل[٥] ، وابن سُرَيْج وقد رحل إلى المدينة فأخذ عن طُوَيْس وغيره من مغنيها[٦] ، وكان أول من ضرب على العود الفارسى بالغناء العربى ، والغَرِيض وكان لا يُلْحَقُ فى الندب والنياحة ، والأبْجر ، والهُذَلى . ومن مغنيات مكة سُمَيَّة ، وبَغُوم وأسماء وكانتا مولاتين لابن أبى ربيعة . ومكة إن لم تُعْرَفْ بدار كبيرة كدار جميلة فى المدينة فإن دار كل مغن فيها كانت تُعَدُّ نادياً من نوادى الغناء .

وعلى نحو ما رأينا أهل المدينة يُشْغَفون بالغناء شغفاً شديداً كان أهل

(١) أغانى ٥/٦٥ .
(٢) أغانى ٢/٣٩٩ ، ٣/٤٧ .
(٣) أغانى ٨/٢٧٣ ، ٨/٢٧٨ وانظر ابن سعد (طبعة أوربا) ٨/٣٤٣ .
(٤) أغانى ٣/٢٧٦ .
(٥) أغانى ١/٢٧٩ .
(٦) أغانى ٨/٣٢١ .

مكة جميعاً حتى فقهاؤهم من مثل عطاء[١] بن أبي رباح وابن[٢] جُرَيْج وقضاتهم من مثل الأوْقَص[٣] المخزومى . وتبعت ذلك موجة واسعة من المرح ، ومن خير من يمثلها شاعر يسمى الدارمى ، كان خفيف الروح ، وفى كتاب الأغانى ترجمة[٤] طريفة له تصور فكاهاته ودعاباته . واشتهر فى هذا المجتمع المرح فتيات وسيدات شريفات كان لهن أثر بالغ فى رقة الأذواق ورهافة الأحاسيس ، مثل الثُّرَيَّا[٥] بنت على بن عبد الله بن الحارث الأموية ، وكان لها قصر عظيم تُعْقَدُ فيه ندوات يؤمُّها المغنون والشعراء ، غير من كانوا فيها فعلا ، إذ كانت الثريا مولاةً للغَرِيض ويحيى قَيْل وسميَّة .

ومعنى ذلك كله أن مجتمع مكة كان على غرار مجتمع المدينة حضارة وترفاً ومرحاً ورقة وغناء وعزفاً كلَّ ليلة على أوتار العيدان والطنابير والآلات الموسيقية من كل لون . وأعدَّ هذا كله شعراء مكة لأن يجرى جمهور شعرهم فى الغزل والحب . وربما كان أهم شاعر مكىّ تعلق بالهجاء والمديح عبيد الله ابن قيس الرقيات ، إذ اتخذه مصعب بن الزبير فى أثناء ولايته على العراق شاعره الذى ينافح عن دعوة الزبيريين ضد بنى أمية . وبعد أن صار الأمر إلى عبد الملك أصبح من مدَّاحيه ومداحى أخيه عبد العزيز والى مصر ، ولكنْ حتى ابن قيس أكثر شعره فى الغزل ، وعلى غراره العَرْجى . على أن هناك من عاشوا للغزل وحده حتى فاقوا فيه شعراء المدينة على نحو ما هو معروف عن عمر بن أبى ربيعة ، ومن طريف ما كانوا يقولون عنه وعن تأثير غزله : « إذا أعجزك أن تُطْرِب القرشىَّ فغنِّه غناء ابن سُرَيْج فى شعر عمر بن أبى ربيعة فإنك تُرْقصه[٦] » .

وكلُّ ما قلناه عن تأثر غزل أهل المدينة بالغناء من حيث الكم والكيف والوزن ينصبُّ انصباباً على غزل أهل مكة ، وقد شاع بين الباحثين أن غزل المدينتين جميعاً فى هذا العصر غلَب عليه الطابع المادى الصريح ، بل لقد

---

(١) أغانى ٢٥٧/١ .
(٢) أغانى ٤٠٨/١ .
(٣) أغانى ٣٦٧/٢ .
(٤) أغانى ٤٥/٣ .
(٥) أغانى ١٢٢/١ ، ٢٠٩/١ وما بعدها وفى مواضع متفرقة .
(٦) أغانى ٢٨٤/١ .

استولى عليه استيلاء بحكم ما أُتيح للمجتمع فيهما من ترف ومن حرية . على أنه ينبغى أن لا نبالغ فى تصور ذلك فنظن أن الشعراء تمادوا فى صراحتهم إلى حد الإفحاش ، فالصراحة شيء والفحش شيء آخر . ومن المؤكد أن غزل مكة عند عمر بن أبى ربيعة وأضرابه أقل صراحة وحرية من غزل المدينة عند الأحوص وأقرانه، إذ كانت موجة اللهو فى المدينة أكثر حِدَّةً . وينبغى أن نلاحظ أن هذا الغزل الصريح عند الأحوص وعمر ونُظَرائهما كان يرافقه غزل عفيف عند الفقهاء والزهاد من أمثال عروة بن أذَيْنة وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة فى المدينة وعبد الرحمن بن أبى عمار الجُشَمى فى مكة ، وغزلهم جميعاً يمتاز بالنقاء والطهارة وسمو العاطفة .

ومما لا شك فيه أنه كانت تسقط من غناء المدينتين الكبيرتين بالحجاز وما شاع فيهما من غزل آثار مختلفة فى بقية مدن الحجاز ، فمن ذلك ما يُرْوَى عن العَرْجى الشاعر المكى من أنه كان ينزل كثيراً فى أودية الطائف ، وكان يلزمه مغن يسمى الفِنْد[1] . ويلقانا هناك شاعران كلفا بالغزل هما محمد بن عبد الله النميرى ويزيد بن ضَبَّة . ويذكر أبو الفرج أن المغنين فى وادى القرى كانوا يفدون على مكة يتعلمون فيها الضرب والغناء والعزف ، ومن أشهرهم عمر[2] الوادى .

٢

نجد وبوادى الحجاز ونزوح قيس إلى الشمال

إذا كنا لاحظنا تحضر مدن الحجاز وخاصة المدينة ومكة فإن نجدا وبوادى الحجاز قلما سقط فيهما من الحضارة شيء ذو بال ، إذ استمرت القبائل فيهما تعيش على الرَّعْى وطلب الكلأ، فهى تعيش — كأسلافها فى الجاهلية — معيشة متبدية فيها غير قليل من الشَّظَف .

وفى هذه المعيشة ظلت المنافسات القبلية على المراعى ، وظل تربُّص القبائل

---

(١) أغانى ١/٢٩٣ . (٢) أغانى ٧/٨٥ .

بعضها ببعض ، وإن كان من المحقق أن ذلك لم يأخذ الشكل الحادّ الذى كان عليه القوم فى الجاهلية ، بسبب نَهْى الإسلام عن الأخذ بالثأر وتحوُّل حقه من أيدى الأفراد إلى أيدى الدولة ، وكان ولاة بنى أمية فى نجد وبوادى الحجاز يقظين ، وكانوا إذا تفاقم الشر من بعض الأفراد زَجّوا به فى السجون . غير أن بقية من الشر والشِّجار بقيت ، وهى بقية استتبعت ظهور بعض قُطّاع الطرق من أمثال طَهْمان[1] بن عمرو الكلابى الشاعر ، كما استتبعت غير قليل من شعر الفخر والهجاء ، على نحو ما نجد فى مهاجاة[2] شبيب بن البَرْصاء الذُّبْيانى لعقيل بن عُلَّفة وأرْطاة بين سُهَيَّة ، ومهاجاة[3] ابن مَيَّادة الذبيانى للحكم الخُضْرى .

ودفع شظف المعيشة فى هذه البيئة البدوية كثيرين من شعرائها للوفود على الخلفاء فى دمشق والولاة فى مكة والمدينة والكوفة والبصرة يطلبون نوالهم ، ومن ثَمَّ كانوا يترددون بين البدو والحضر . ولا نُبْعد إذا قلنا إن شعراء شرقىّ الجزيرة من ربيعة وتميم وعبد القيس كانوا دائمى الارتحال إلى الخلفاء والولاة والقواد والأجواد وكان منهم من تَقَذف به رحلاته إلى خراسان .

ومرَّ بنا أن كثيراً من العرب المتبدين ارتدّوا بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ومنعوا الزكاة ، وقد قضى أبو بكر على هذه الرِّدَّة ، واستجابت الجزيرة لهذا الغرض الدينى راضية مرضية . ويظهر أن بعض عُمَّال الصدقات كان يقسو فى جمعها على العرب أحياناً ، ومن ثم ارتفعت أصوات فى هذا العصر الأموى تشكو منهم شكوى مرة[4] .

ولا بد أن نلاحظ أن نشاط الشعر فى نجد وبوادى الحجاز لهذا العصر كان أقل مما كان عليه فى الجاهلية ، بسبب ما قدمنا من إماتة الإسلام لفكرة الأخذ بالثأر التى سَعّرت الشعر والشعراء قديماً وما انطوى فيها من عصبيات ، وحقًّا هو لم يُمت ذلك نهائيًّا ولكنه قلل من حدّته . ومن أسباب ضعف نشاط الشعر أيضاً كثرة مَن هاجروا فى الفتوح شرقاً وغرباً ، إذ كانت عشائر ترحل

(١) انظره فى أخبار اللصوص للسكرى ١٠٠ .

(٢) أغانى (طبع دار الكتب) ١٢/٢٧١ وما بعدها .

(٣) أغانى ٢/٢٩٨ .

(٤) انظر جمهرة أشعار العرب (طبع المطبعة الرحمانية) ص ٣٠٥ .

برُمَّتها . على أن هذا أحدث حزناً فى نفوس كثيرين سبق أن وصفناه فى عصر صدر الإسلام .

ضَعُفَ نشاط الشعر إذن فى هذه البيئة البدوية ،ولكنه إذا كان ضعف فى مجال الفخر والهجاء فإنه قوى قوة واسعة فى مجال الغزل ، إذ تكاثر شعراؤه كثرة مفرطة وتكاثرت قصصه الغرامية، وخاصة فى بنى عُذْرة وبنى عامر . وقد ترجم أبو الفرج فى أغانيه لكثيرين منهم مثل جميل وعُرْوة بن حزام وقيس ابن ذَريح ، ووقف طويلا عند مجنون ليلى وشكٌ فى حقيقته ، وهو يصوِّر بما يضاف إليه من قصص كثير كيف أصبح هذا الغزل شعبيًّا ، وكأن عرب نجد وبوادى الحجاز أفرغوا فيه وفى أفراده صور البطولة التى فقدوها فى حياتهم الإسلامية بسبب خمود حروبهم الداخلية .

وغزل هؤلاء النجديين من أروع صور الغزل العربى ، لما أشاعوا فيه من نبل وسمو وطهارة ونقاء . وعادةً ينسبه الأدباء والمؤرخون إلى بنى عُذْرة ، لكثرة ما أنتجتْ فيه ، فيقولون غزل عُذْرى وهو غزل يمسح عليه الإسلام وما أحاط به المرأةَ من جلال ووقار وما حرَّم من الآثام ظاهرةً وباطنة . وكان مما ساعد عليه شعور الحزن الذى وصفناه فى غير هذا الموضع والذى كان يجلل أطراف الجزيرة لمن هاجروا منها عن عشائرهم وأهليهم ، ودائماً يُصَفِّى الحزن النفس وينقيها ويعدُّها حين تتحدث عن الحب أن تَشْجَى حقًّا وأن تؤثر فى النفوس تأثيراً بالغاً .

وإذا تركنا نجداً وبوادى الحجاز إلى أطراف الجزيرة الشمالية على حدود الشام والجزيرة وجدنا كثيراً من عشائر قيس وبطونها وخاصة من كلاب وعامر وسُلَيْم تنزح إلى الشمال فتزاحم قبيلة كلب وأخواتها اليمنية فى الشام وقبيلة تغلب فى الجزيرة . ويكون ذلك سبب خصام قبلى واسع ، تصطدم فيه المصالح الاقتصادية فى الرَّعْى وغير الرعى كما تصطدم المصالح السياسية ، فقد كانت كلب وأخواتها اليمنية مواليةً لبنى أمية ، وكذلك كانت تغلب ، فكان طبيعيًّا أن تقف قيس فى الصفوف المعادية حين تواتيها الفرصة . ولم تلبث الفرصة أن سَنَحت حين بدا انهيار بنى أمية عقب وفاة يزيد بن معاوية ودعوة ابن الزبير لنفسه بالخلافة ،

وسرعان ما حَطَبَت قيس فى حَبْله ، معلنة ثورتها على الأمويين تحت إمرة الضحاك بن قيس فى الشام وزُفَر بن الحارث الكلابى فى قرقيسيا بالجزيرة . وتوالت الأحداث واتفق الأمويون وقبيلة كلب بزعامة ابن بَحْدل على مبايعة مروان بن الحكم بالخلافة . وثارت قيسُ الشامِ ، وأوقعتْ بها كلب وقبائل قضاعة ومن انضم إليهم من تغلب هزيمة ساحقة فى مَرْج راهط ، قُتل فيها الضحاك بن قيس . وتمت البيعة لمروان فى الشام ، وتبعته مصر . غير أن قيسَ الجزيرةِ ثبتت على موقفها بقيادة زفر بن الحارث وانضم إليه عُمَيْر بن الُحباب السُّلمى ، وأخذ عمير يغير غارات كثيرة على كلب فى أيام متعاقبة مثل : يوم الغُوَير ويوم الهيل ويوم كآبة ويوم الإكليل ويوم السماوة ويوم دهمان[١] . ووالت قيس غاراتها على تغلب ، ونكَّل بها عمير فى غير موقعة ، وخاصة يوم ماكِسين[٢] وكان بين مَنْ أسرته قيس فيه القطامى ، فلما عرفه زفر خلَّى سبيله ، وأعطاه مائة من الإبل ، مما جعل القطامى ينوه بمأثرته عليه طويلا[٣] ، وتمضى فإذا تغلب تقتل عميراً سنة ٧٠ فى إحدى غاراته عليها بالحشَّاك إلى جانب نهير الثرثار . ويثأر له زفر فى موقعة مَرْج الكُحَيْل حيث فتك بتغلب فتكاً ذريعاً .

وكان يكفُّ عبد الملك فى هذه الأثناء يَدَه عن قيسِ الجزيرةِ رجاء أن تتحول إليه ، وكان الصراع مندلعاً بين المختار الثقفى ومعه أهل الكوفة وبين مصعب بن الزبير ومعه أهل البصرة ، فرأى عبدالملك أن ينتظر رجاءَ أن يُفْنى بعضهم بعضاً ، وانتصر مصعب . ولم يعاجله عبد الملك بالهجوم ، ونراه يفلح فى جَذْب زفر إليه ، حتى إذا أصبح طريقه آمنا اقتحم بجيوشه العراق وقتل مصعبا سنة ٧١ للهجرة وأرسل الحجاج إلى عبد الله بن الزبير بمكة فقضى عليه . وبذلك أُنْقذت تغلب من مخالب قيس ، غير أن بقية بقيت لهذه الحروب الدامية إذ تصادف أن الأخطل دخل على عبدالملك وعنده الجحَّاف بن حكيم السُّلَمِىّ فسأله عبد الملك هل يعرفه ؟ فقال : نعم هذا الذى أقول فيه :

أَلا سائلِ الجحّافَ هل هو ثائرٌ بقتلى أُصيبتْ من سُلَيْمٍ وعامرِ[٤]

(١) انظر الأغانى (طبعة الساسى) ٢٠/١٢١ وما بعدها .
(٢) أغانى ٢٠/١٢٧ .
(٣) أغانى ٢٠/١٢٨ .
(٤) يريد الأخطل اليوم الذى قتلت فيه بنو تغلب عمير بن الحباب السلمى .

وكان الجحَّاف ممن فتكوا بتغلب تحت لواء عمير بن الُحباب . وقد ظل يموج به الغضب والأخطل ينشد قصيدته حتى إذا فرغ منها أجابه :

نَعَمْ سوف نبكيهم بكل مهنَّـــدٍ ونبكى عُمَيْرًا بالرماح الخواطِرِ [١]

ومضى الجحاف ، فأغار بقومه بنى سُلَيْم سنة ٧٣ على تغلب عند موضع يسمى البِشْر ، فنكَّل بها تنكيلا فظيعاً ، إذ قتل رجالهم ونساءهم وبَقَر بطون حواملهم ، وكان ممن قتله ابن للأخطل . أما الأخطل نفسه فوقع أسيراً ، غير أنه موَّه على بنى سُليم حقيقته وقال : إنه من عبيد تغلب ، فأطلقوه وهم لا يعرفونه . ولما رأى الجحاف أنه خرج بذلك على ميثاقه لعبد الملك لحق بأرض الروم خوفاً منه ، ولكن قيساً ما زالت تتوسل إلى عبد الملك أن يعفو عنه حتى أمَّنه ، غير أنه ألزمه أن يدفع ديات قتلى البِشْر فلجأ إلى الحجاج فأداها له ، وتألَّه الجحَّاف بعد ذلك ونَسَك [٢] .

وإنما سقنا هذه الأحداث ، لأن العصبية الجاهلية عادت فيها جَذَعة بين قيس من جهة وكلب وتغلب من جهة أخرى وعاد معها الثأر ، حتى أصبح فوق كل شيء ، وحتى أصبحنا نسمع فى كل مكان النار ولا العار ، واشتطّوا فى القتل وسفك الدماء اشتطاطاً ، إذ بقروا بطون الحوامل وقتلوا النساء .

وعودةُ العصبية القبلية على هذا النحو هيأت فى قوة لعودة أشعار الفخر والهجاء ، فنى كل جانب يتصايح الشعراء منذرين خصومهم بالوَيْل والثبور ، ويفيض الجزء الخامس من كتاب أنساب الأشراف للبلاذرى بأشعارهم ، ونجد من ذلك آثاراً فى الطبرى يُنْشدها مع الأحداث فى موقعة مرج راهط [٣] وغيرها ، وآثاراً أخرى كثيرة فى كتاب الأغانى [٤] ، فقد تراصّ شعراء كلب من أمثال جَوَّاس ابن القَعْطل وعمرو بن المِخْلاة ومنذر بن حسان وشعراء تغلب وعلى رأسهم الأخطل ، كما تراصّ شعراء قيس وعلى رأسهم زفر بن الحارث وعمير بن الحباب وجَهْم

(١) خطر الرمح : اهتز فى يد فارسه .

(٢) أغانى ١٢ / ١٩٨ وما بعدها .

(٣) الطبرى ٤ / ٤١٨ .

(٤) الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٢ / ١٩٨ وما بعدها و (طبعة الساسى) ١٧ / ١١١ وما بعدها ، ٢٠ / ١٢١ وما بعدها .

القشيري وابن الصنَّار المحاربي . وأخذ كل فريق يَريش سهامه من الوعيد والتهديد والتخويف الشديد ، فالتهب الهجاء والفخر التهابا .

ومضى كثير من شعراء القبائل في هذه الأنحاء بعد أن عاد السلام إلى نصابه يمدحون الخلفاء والولاة طلباً للنوال ، يتقدمهم في ذلك الأخطل والقطامي وأعشى تغلب وأعشى بني شيبان ونابغتهم . وكما كانوا يقصدون الولاة والخلفاء كانوا يقصدون الأجواد من الأمويين وغيرهم .

٣

الكوفة والبصرة

لما أقبل العرب من الجزيرة على العراق يفتحون وينشرون الإسلام واتسعت بهم الفتوح لعهد عمر بن الخطاب رأى أن لا يتخذوا المدن القديمة منازل لهم حتى لا يتلاشوا فيها ، وأمر بثاقب بصيرته أن يُبْنَى لهم معسكران على حدود الجزيرة الشرقية ، حتى يظل اتصالهم بالجزيرة ، وحتى لا ينساحوا في البلاد المفتوحة . وهذان المعسكران اللذان كانا مادة الجيوش المحاربة في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي جميعاً سواء في فارس أو في خراسان هما الكوفة والبصرة .

وقد خُطَّطت الكوفة في سنة سبع عشرة للهجرة ، ونزلت القبائل اليمنية في شرقيِّها والعدنانية في غربيها ، ولم تلبث أن حُشِدَت حسب أنسابها في سبع خطط ، خطة أو سُبْع لكنانة وحلفائها وجَديلة ، وخطة أو سبع لقضاعة وغَسَّان وبَجيلة وخَثْعم وكِنْدة وحضرموت والأزد ، وخطة أو سبع لمذْحج وحمير وَهمْدان وحلفائهم ، وخطة أوسبع لتميم وسائر الرِّباب وهوازن ، وخطة أوسبع لأسد وغطفان ومحارب والنَّمِر وضبيعة وتَغْلب ، وخطة أو سبع لإياد وعَكّ وعبد القيس وأهل هَجر الحمراء . ولم يذكر الطبري السبع السابع [1]

(١) طبري ١٥٢/٣ وما بعدها .

واستظهر ما سينيون فى كتابه عن خطط الكوفة أنه كان لقبيلة طيئ ، وربما شركتها فيه قبيلة بكر ، إذ لا نجد لها هى الأخرى ذكراً فى الأسباع السالفة . وظلت هذه الأسباع حتى عصر زياد بن أبيه وقد جعلها أربعة ليُدْخل القبائل بعضها فى بعض .

وكان يَكْنُف الكوفة من الشرق زروع ونخيل وأشجار يسقيها الفرات ، وكان فى ظاهرها من الغرب الحيرة والنجف والخَوَرْنق والسَّدير والغَرِيّان ومتنزهات ودِيَرة كثيرة[١] وبمجرد أن نزلها العرب نزلتها معهم بقايا الجيوش الساسانية التى انضمت إليهم ، ويقال إنهم بلغوا أربعة آلاف ، وكان نقيبهم يسمى دَيْلَم ، فنُسبوا إليه ، وسُمُّوا حمراء ديلم[٢] ، ونزلها معهم أيضاً رقيق الحروب التى خاضوها ، وأخذ يتوافد كثير من النبط والتجار والصناع .

وقد اتخذ على بن أبى طالب الكوفة حاضرة له حين ذهب إلى حرب الخارجين عليه ، بينما نزلت السيدة عائشة وطلحة والزبير فى البصرة ، ووقعت بين البلدتين موقعة الجمَل المعروفة وفيها علت كفة على والكوفة . ويدخل أهل البصرة فى طاعة على ، ولكن تظل منذ هذا التاريخ فى صدورهم إحَن لأهل الكوفة . ويخرج على بجيوشه إلى لقاء معاوية فى صِفِّين ، وتحتدم المعركة بينهما ويشتد أوارها كما يشتد أوار الشعر بين الفئتين المتحاربتين . ويكون التحكيم .

ويخلص الأمر لمعاوية فيولِّى على الكوفة المغيرة بن شعبة ، ويأخذها بالرفق الشديد ، حتى مع من كانوا يظهرون فيها التشيع ولا يخفونه من أمثال حُجْر بن عدى ، وكذلك كان يصنع بالخوارج ، وقد كفاه أهل الكوفة أمر المُسْتورد ابن عُلَّفة الخارجى حين ثار عليه ، فانبروا لقتاله وقضوا عليه وعلى من تبعه وهم يتناشدون الشعر ويرمونه وجماعته[٣] به . ومات المغيرة سنة ٥٠ للهجرة فخلفه على الكوفة زياد بن أبيه ، فأخذها أخذاً شديداً ، ولم يلبث أن ضَيَّق الخناق بها على حُجْر بن عدى وأصحابه من الشيعة ، واضطُرَّ حجر وبعض من شايعه إلى حمل السلاح ، فوقعت مناوشات بينه وبين أصحاب زياد ،

---

(١) انظر مادة كوفة فى معجم البلدان لياقوت .
(٢) فتوح البلدان للبلاذرى (طبعة المطبعة المصرية بالأزهر) ص ٢٧٩ .
(٣) طبرى ٤/١٤٣ وما بعدها .

ارتفع فيها صوت الشعر[١] ، وتغلب زياد عليه وعلى المتمردين معه ، وأرسله فى نفر منهم إلى معاوية ، فقتله فى ستة من أصحابه . وكانت تلك أول شرارة أوقدت النفوس فى الكوفة ضد الحكم الأموى ، واعتبر الشيعة حُجْراً وأصحابه شهداء ، وأخذوا يتفجعون عليهم[٢]. وتمضى الكوفة تحت حكم زياد مبطنةً معارضة شديدة ، إذ أخذ كثير من أهلها يصطبغ بصبغة التشيع لِعلىّ وبنيه . ويتوفَّى زياد فى سنة ٥٣ ويخلفه على الكوفة عبد الله بن خالد بن أسيد ، ثم الضحاك بن قيس الفهرى ثم عبد الرحمن بن أم الحكم الثقفى ثم النعمان بن بشير ، ويتوفَّى معاوية ويخلفه ابنه يزيد ، فيضمّها إلى عبيد الله بن زياد والى البصرة . ويأبى الحسين بن على وعبد الله بن الزبير مبايعة يزيد بالخلافة ويخرجان من المدينة إلى مكة ، فيكاتب أهل الكوفة الحسين ، ويرسل إليهم بابن عمه مسلم بن عقيل فيبايعه اثنا عشر ألفاً منهم . ويخرج إليهم الحسين ، ويعلم فى الطريق أن ابن عمه اضطُرّ إلى قتال عبيد الله بن زياد وأن أهل الكوفة تخلّوا عنه وأسلموه إلى عبيد الله ، فقتله ، وكان أول قتيل لبنى هاشم صُلبت جثته ، يعلم الحسين بذلك كله ، ولكنه يصمم على المضى إلى غايته فيُقْتَلُ وهو يقاتل جنود عبيد الله بن زياد بكَرْبلاء على نهر الفرات فى العاشر من المحرم سنة ٦١ للهجرة . وتتطور الحوادث . فيتوفَّى يزيد بن معاوية ويُضْطَرُّ عبيد الله بن زياد أن يغادر البصرة إلى دمشق . ويتلاقى الشيعة بالتلاوم والتندم على تقصيرهم فى حق الحسين ونفورهم عن نُصْرته ، ويرون أنه لا يغسل عارهم إلا حربُ مَنْ قتلوه وإلا التوبة مما فرط منهم ، فسُمُّوا التَّوابين ، وولَّوا أمرهم سليمان ابن صُرَد . ولم يلبثوا أن جمعوا آلة الحرب واتجهوا إلى الشام يريدون أن يثأروا للحسين ، فالتقوا فى عَيْن الوردة (رأس العين) فى وسط الجزيرة بجيش أموى على رأسه عبيد الله بن زياد ودارت الدوائر عليهم ، وسقط سليمان فى المعركة ، وكان ذلك فى ربيع الآخر سنة ٦٥ . وعادت فلول الجيش الشيعى إلى الكوفة ، وانتهز المختار الثقفى الفرصة ، فدعا لمحمد بن الحنفية ، وانضوى الشيعة تحت لوائه ، واستطاع أن يستخلص الكوفة من والى ابن الزبير ويطرده منها ، وأخذ

---

(١) طبرى ٤/١٩٢ . (٢) طبرى ٤/٢٠٩ .

ينكّل بمن كان هواهم مع بنى أمية ، مما جعل شعراءهم خشية بطشه يمدحونه هو وإمامه ، وكأنهم من شيعتهم على شاكلة قول عبد الله بن همّام السّلولى[١] :

دَعَا يا لثارات الحسين فأقبلتْ كتائبُ من هَمْدان بعد هَزِيعِ[٢]
وآب الهُدَى حَقًّا إلى مستقرِّهِ بخير إيابٍ آبَهُ ورجــوع
إلى الهاشميِّ المهتدِي المهتدَى به فنحن له من سامعٍ ومطيــع

ولما استجمع الأمرُ للمختار أعدَّ جيشاً بقيادة إبراهيم بن الأشتر لحرب أهل الشام ، فالتقى فى سنة ٦٦ بجيش عليه عبيد الله بن زياد فى «خازر» بين الموصل وإربل ، ودارت الدوائر على جيش عبيد الله وسقط فى المعركة . ويولّى ابن الزبير على البصرة أخاه مصعباً سنة ٦٧ وتنشب الحرب بينه وبين المختار ، وتعلو كفة مصعب ، فيُقْتَلُ المختار وتدخل الكوفة فى طاعة ابن الزبير .

ونمضى بعد ذلك ، فنجد الكوفة تشارك فى ثورة ابن الأشعث لعهد الحجاج وهى ليست ثورة شيعية ، وإنما هى ثورة أهل السيادة والشرف فى الكوفة على بنى أمية ، فقد كانت الكوفة مستقر البيوتات العربية[٣]. وكان سادة هذه البيوتات وأشرافها يمتعضون من ظلم ولاة بنى أمية لهم وأخذهم بالعنف والقسوة وخاصة الحجاج ، وأتيحت الظروف لواحدمنهم هو ابن الأشعث أن يعلن الثورة على الحجاج بل على الظلم كله ، ومن ثم دعا لنفسه بالخلافة ، وانضم إليه كثير من الموالى والقُرّاء . ونازله الحجاج فى وقائع كثيرة أهمها وقعة دير الجماجم وانتصر عليه ، وهرب ابن الأشعث إلى فارس ، وأوغل فى هروبه ، حتى وصل إلى ملك الترك مستجيراً ، وقُتل أخيراً .

وما زال شيعة الكوفة ينتظرون الإمام العلوى الذى يخلّصهم من الأمويين وظلمهم ، حتى ظهر بينهم زيد بن على بن الحسين ، ودعا لنفسه بالخلافة منشئاً نظرية شيعية جديدة نُسبت إليه ، هى نظرية الزيدية . وما زال به شيعته يستعدونه على بنى أمية ويدعونه للخروج ، حتى خرج فى سنة ١٢١ وما كاد

(١) طبرى ٤/ ٥١٠ .
(٢) الهزيع : نحو ثلث الليل .
(٣) من بيوت الشرف العريقة فى الكوفة بيت زرارة بن عدس التميمى وبيت الأشعث بن قيس الكندى وبيت حذيفة بن بدر الفزارى وبيت ذى الجدين الشيبانى .

القتال يستحر بينه وبين جند يوسف بن عمر حتى انفضوا عنه إلا قليلا منهم ثبتوا معه حتى قتلوا عن آخرهم ، وقتل زيد ، وصلب بسوق الكناسة فى الكوفة . وهرب ابنه يحيى إلى خراسان ، وخرج بناحية الجوزجان ، وانتهى فى سنة ١٢٥ إلى نفس المصير .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يوضح كيف أن الكوفة كانت موئل الشيعة فى هذا العصر وأن سادتها الذين لم يعتنقوا التشيع كانوا يكنون بغضاً لبنى أمية وحكمهم . ولم يكن للخوارج شأن مذكور فى الكوفة ، ومع ذلك نجد لهم فيها شاعراً مشهوراً هو الطرماح . وكان كثير من أهلها ينصرف عن هذه المعارضة السياسية إلى الزهد وتقوى الله ، وكان بجوارهم من يقبلون على اللهو والخمر ، أمثال الأقيشر الأسدى ، وتكاثروا بأخرة من العصر على نحو ما هو معروف عن مطيع بن إياس وحلبته .

ولم تتورط الكوفة فى العصبيات القبلية ، ولذلك كان حظها فى شعر الفخر والهجاء ضعيفاً ، وليس معنى ذلك أن الهجاء انحسر عنها ، فقد أخرجت شاعراً من أكبر الهجائين فى العصر هو الحكم بن عبدل . وقد مضى كثير من شعرائها يعنى بمديح الخلفاء والولاة والقواد والأجواد ، وكان منهم من يتعصب لبنى أمية تعصباً شديداً مثل عبد الله بن الزبير الأسدى .

وإذا ولينا وجوهنا نحو البصرة وجدناها تخطط حوالى سنة ست عشرة للهجرة معسكراً للجيوش المقاتلة فى الشرق على مقربة من مصب نهر دجلة بين إقليم البطائح الذى تكثر مستنقعاته وشاطئ خليج العرب ، وقد روعى فيها كما روعى فى الكوفة أن تكون على حافة البادية ، وسرعان ما توزعتها القبائل خططاً ، خمساً كبيرة : خطة لتميم وخطة لعبد القيس وخطة لأهل العالية وخطة لبكر وخطة للأزد ، وكانت اليمن تلوذ بخطة الأزد بينما لاذت عشائر من أسد والنمر بن قاسط ببكر ، ولاذ أهل هجر بخطة عبد القيس ، ولاذت ضبة والرباب بخطة تميم . وقد أقاموا بجانبها سوقاً كبيرة ، هى سوق المربد ، وقد تحولت فى هذا العصر إلى سوق أدبية يتناشد فيها الشعراء أشعارهم ، ولكل شاعر حلقته .

ونزلها مع العرب كثير من الرقيق الفارسى الذى جلبوه من الحروب ، كما

نزل معهم فريق كبير من جيوش يزدجرد خرج عليه وقاتله مع المسلمين ، وهو المعروف باسم الأساورة . وقد دخل فى حلف تميم ، ودخل أيضاً فى حلفها نفر من الهنود هم المعروفون باسم الزّط والسيابجة والإندغار ، ونزل أيضاً بالبصرة جماعة من الأصبهانيين وأخرى من الحبش[١] . وكان وقوع البصرة بالقرب من خليج العرب مهيئاً دائماً لأن ينزلها كثيرون من الإفريقيين والهنود ، كما كان مهيئاً لازدهار التجارة بها . وكانت الزراعة مزدهرة بها هى الأخرى ، ولا سيما زراعة النخيل بفضل النهيرات الكثيرة التى اشْتُقَّت من دجلة ، وخاصة نهرى الأبلَّة ومعقل .

وأخذ نَزَلتها من العرب المجاهدين فى سبيل الله ومن انضم إليهم من الأساورة يُشْخنون بقيادة الأحنف بن قيس التميمى لعهد عمر بن الخطاب فى أرض فارس وتغلغلوا إلى خراسان ، وتتابع الفرس على الصلح فيما بين نيسابور وطخارستان[٢] . وولى البصرة لعهد عثمان عبد الله بن عامر فدفع الجيوش البصرية إلى سجستان وعامة خراسان[٣] . ثم كانت فتنة عثمان وبيعة على ، فانضم كثيرون من أهل البصرة إلى السيدة عائشة وطلحة والزبير ، وانزوى الأحنف بقومه تميم عنهم[٤] ، ونشبت موقعة الجمل ، وأسلمت البصرة لعلى ، يتقدّم صفوفها الأحنف ، وحاربت معه بصفّين ، وظلت موالية له إلى وفاته .

وتدخل البصرة فى العصر الأموى ، ونراها تُذْعن لمعاوية وابنه يزيد ، بينما تأخذ فى اجترار العصبيات القبلية القديمة ، وكان مماهيِّأ لذلك قيام حلفين كبيرين بها ، هما حلف تميم وقيس وحلف الأزد وبكر وعبد القيس . وبذلك تكتلت قبائلها فى حلفين كبيرين ، وأوغر صدور الحلف الأول كثرة المهاجرين من أزْد عُمان إلى البصرة . ونرى زياد بن أبيه يستغلّ هذه العصبيات فى توطيد سياسته بالبصرة ، إذ أخذ يضرب القبائل بعضها ببعض .

ومعنى ذلك أن البصرة لم تُشْغَل بخصومة شيعية على نحو ما شُغلت الكوفة ،

---

(١) انظر فى تخطيط البصرة ومن نزلها فتوح البلدان للبلاذرى ص ٣٤١ وما بعدها والطبرى ٤/٢٦٥ ، ٤٧٨ ، ٥٥٩ ونقائض جرير والفرزدق ٧٣٧ .

(٢) طبرى ٣/١٨٩ ، ٢٢١ - ٢٤٤ .

(٣) طبرى ٣/٣٥٨ وما بعدها .

(٤) طبرى ٣/٥١٠ - ٥١١ .

فقد كانت كثرة أهلها عثمانية الهوى ، إنما الذى شغلها حقًّا هو الخصومة القبلية وما طُوى فيها من عصبيات ، وقد كان بها كثيرون من الخوارج ، غير أن زياداً أمعن فى الضرب على أيديهم . ونراه يختار من أهلها خمسة وعشرين ألفاً ومن أهل الكوفة مثلهم ، ويُخرجهم بِأُسَرِهم إلى غزو خراسان[1] ، حتى يتخلص من عناصر الشغب فى البلدتين .

وتبعه ابنه عبيد الله فى سياسته من ضَرْب القبائل بعضها ببعض والتشديد على الخوارج . ويتوفَّى يزيد بن معاوية ، وتضطرب البصرة ، ويبايع كثيرون منها ابن الزبير ، ويُضْطَرُّ عبيد الله أن يبرحها إلى دمشق . ويستولى مسعود بن عمرو سيد الأزد على قصر الإمارة والمسجد بالقوة ، يشدُّ من أَزْره قبيلته وبكر وعبد القيس ويصعد المنبر يخطب فى الناس ، فتغضب تميم وتهجم عليه مع أحلافها من الأساورة ، فتُنْزله من فوق المنبر وتقتله . وينشب القتال بين الأزد وتميم طلباً للثأر ، ويتدخل الأحنف ويستطيع بحُنْكته أن يعيد السلام بين القبيلتين نظير ديه كبيرة يؤديها للأزد هو وقبيلته ، ولكن العداوة تستمر متأججة بين الفئتين طوال العصر .

وتَتْبَعُ البصرة ابن الزبير ، ويولِّى عليها أخاه مصعباً ، فيحارب المختار الثقفى فى الكوفة كما أسلفنا ، ويقضى عليه قضاء مبرماً . ويحارب الأزارقة ، ويوجِّه إليهم المهلب وغيره من القواد ، ويوقعون بهم هزائم عنيفة . وتنشب ثورة صغيرة للزنج فيُجْهِز عليها .

وتعود البصرة إلى الخضوع لبنى أمية عقب مقتل مصعب ، وهى تَغْلى بالعصبيات القبلية . ووَلِيَها الحجاج الثقفى لأكثر من عشرين عاماً ، وفى عهده علا شأن قيس لتعصبه لها ، وكان أكبر شخصية بين أبنائها ، فجنحت إليه وجنح إليها ، وخاصة أنه احتاج تأييدها له فى الثورات الصغيرة التى كانت تنشب من حوله مثل ثورة قبيلة عبد القيس بزعامة ابن الجارود وثورة الزنج . وكان طبيعيًّا أن يكون بين أفراد حاشيته كثير منها . وأخذ تعصبه لها يقوى مع الزمن ، فإذا هو يَعْزل أبناء المهلب عن خراسان ويولى عليها قتيبة

---

(١) طبرى ٤/١٧٠ .

ابن مسلم الباهلى. ونراه يولِّى على الجيوش الغازية فى الهند محمد بن القاسم الثقفى. ومعروف أنه كان يُنيب عنه فى حكم البصرة الحكم بن أيوب الثقفى . وولَّى على أصبهان ختَنَه مالك بن أسماء الفزارى . ومعنى ذلك أن قيساً قوى أمرها فى البصرة لعهد الحجاج . ويتوفَّى سنة ٩٥ ويتوفَّى بعده الوليد بن عبد الملك ، ويخلفه سليمان أخوه ، فيولِّى على العراق ثم خراسان يزيدَ بن المهلب . فيعظم شأن قبيلة الأزد .

وعلى هذا النحو كان يعظم شأن كل قبيلة فى البصرة حين يتولاها شخص منها ، وكان ذلك يزيد فى تنافس قبائلها واشتعال العصبيات بينها ، لما يستتبع من المغانم السياسية فى تولى الوظائف وغيرها . وولى الخلافة عمر بن عبد العزيز ، فعزل عن البصرة يزيد بن المهلب ، وولَّى عليها عدىَّ بن أرطاة الفزارى ، فعادت إلى قيس مكانتها . ويتوفَّى عمر ويخلفه يزيد بن عبد الملك ، فيثور عليه يزيد بن المهلب ، وتتجمع حول لوائه الأزد وربيعة بينما تقف تميم وقيس بجانب ابن أرطاة . ويظهر مسلمة بن عبد الملك بجيوش الشام على المسرح ، ويقضى على ابن المهلب ، ويتبع فلولَ جيشه هلالُ بن أحوز المازنى التميمى فيقضى عليها وعلى من بقى من المهالبة قضاء مبرماً . ويولِّى يزيد بن عبد الملك على العراق مسلمة لمدة محدودة ، إذ سرعان ما ولَّى عليه عمر بن هبيرة الفزارى ، وكان يتعصب لقيس تعصباً شديداً ، ولم يُثِرْ عليه الأزد وربيعة وحدهما ، فقد أثار عليه أيضاً تميماً وشاعرها الفرزدق . ويلى الخلافة هشام ابن عبد الملك ، فيَعزِل ابن هبيرة ، ويولِّى خالداً القَسْرى لنحو خمسة عشر عاماً ، وكان يتعصب لليمن تعصباً شديداً ، فاضطُرَّ الخليفة آخر الأمر أن يعزله ويولِّى مكانه يوسف بن عمر الثقفى ، وبذلك رفعت قيس رأسها ، وعادت إلى سابق مكانتها . وممن وليها بعده عبد الله بن عمر بن عبد العزيز وكان آخر ولاتها يزيد بن عمر بن هبيرة القيسى .

ونرى من كل ذلك أن البصرة ظلت طوال العصر تعيش للعصبيات القبليه ، ومن ثَمَّ كانت المحور الذى دار عليه شعرها ، إذ تحوَّل كل شاعر يفخر بقبيلته مصوِّباً سهام هجائه لمن يعادونها من القبائل . ولم يقف الشعراء عند الخصومات

بين الحلفين اللذين تحدثنا عنهما حلف تميم وقيس وحلف الأزد وربيعة ومن انضم إليهما من القبائل اليمنية ، فقد أثاروا ما بين العشائر والبطون من حزازات قديمة وأضافوها إلى ما تكوّن من حزازات حديثة ، بحيث لم تبق عشيرة إلا ولها شاعرها أو شعراؤها الذين يذودون عنها مفاخرين هاجين ، واتخذ ذلك شكل معارك عنيفة ، على نحو ما نعرف عن معركة الهجاء التي نشبت بين جرير والفرزدق .

ولم تُنَمِّ البصرة شعر الفخر والهجاء وحده ، بل نَمَّت أيضاً شعر المديح ، فقد تحول شعراؤها إلى الخلفاء والولاة والقواد والأجواد يمدحونهم ويأخذون جوائزهم . وقلنا آنفاً إن الخوارج في البصرة كانوا كثيرين ، وقد هيأت هذه الكثرة لأن يظهر من بينهم غير شاعر مثل عمران بن حطّان ، أما الشيعة فكانوا قليلين ، ومن ثم لم ينشط الشعر الشيعي بالبصرة ، وكأنها تركته للكوفة كي تبلغ منه كل ما كانت تريد من معارضة الدولة والتشيع للبيت العلوي وبيان حقّه في الخلافة . وإذا كنا لاحظنا في الكوفة أن شعراء كثيرين كانوا يقفون في صفوف بني أمية ضد معارضيهم من الشيعة فإن البصرة هي الأخرى كان بها كثير من الشعراء الذين نافحوا عن الحكم الأموي وعلى رأسهم جرير .

ويلقانا بين أعاجم البصرة غير شاعر ، وطبيعي أن ينتظموا في صورة الشعر البصري العامة من الفخر والهجاء والمديح ، وممن اشتهروا منهم يزيد بن مفرّغ الحميري . ويلقانا أيضاً شعراء يتغنون بالخمر مثل حارثة بن بدر الغُدَاني التميمي ، وإن كان من الحق أن موجتها لم تتسع في البصرة اتساعها في الكوفة ، فقد كانت أكثر وقاراً ، ومن ثمّ فسحت للزهد وشعرائه من أمثال أبي الأسود الدؤلي .

٤

خراسان

مرّ بنا أن جُنْد البصرة هم الذين مضوا شرقاً في عهد عمر بن الخطاب حتى فتحوا خراسان ، وقد توغلوا فيها لعهد عثمان ، فكان طبيعيًّا أن يحملوا معهم ما أخذت تستشعره القبائل البصرية من العصبيات القديمة . وكان مما زادها

ضراوة فى نفوسهم أن قوّاد الجيوش المحاربة كانوا يكافئون على انتصاراتهم بإسناد إدارة الجهات التى يفتحونها إليهم ، وكان القائد حين تُسْنَدُ إليه ولاية يخص قبيلته بالغُنْم الأكبر . وكذلك كان يصنع الولاة من قبل الخليفة أو والى العراق ، فانطوت النفوس على موجدة شديدة ، وهى موجدة أدّت هناك دائماً إلى حروب عنيفة واشتباكات دامية ، كانت تعلو فيها القبيلة كما كان يعلو الثأر على كل شىء .

وبذلك أصبح العرب بخراسان فى نفس الموقف الذى كان عليه أسلافهم فى الجاهلية، فهم يعيشون للمنازعات القبلية والثارات ، وحقًّا كانوا يُشْغَلون أحياناً بحروب الترك ، ولكنهم كانوا لا يهدءون وينصرفون قليلا عن حربهم حتى يتحاربوا فيما بينهم حرباً مريرة ، وهى حرب عادت فيها العصبيات جَذَعةً .

وقد بدأت هذه العصبيات تَسْتَعِر هناك فى نفس الوقت الذى بدأ استعارها فيه بالبصرة ، أى بعد وفاة يزيد بن معاوية فقد أخذت الأزد وأحلافها تحاول أن تستولى على السلطان هناك ، وتصدت لهم قيس وتميم بزعامة عبد الله ابن خازم السُّلَمى القيسى . واستطاع أن يجمع السلطان فى يده هناك معلناً ولاءه لابن الزبير ، حتى إذا غلب عبد الملك بن مروان على صاحبه أرسل إليه أن يَدْخل فى طاعته على أن يُطْعمه خراسان سبع سنين ، وأبَى ابن خازم ، غير أن نائبه فى مرو : بكير بن وشاح التميمى ثار عليه ، ولم يلبث ابن خازم أن قُتل . ودخلت خراسان ثانية فى طاعة بنى أمية ، وولّى عليها عبد الملك بكيراً ، ثم ولى أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد الأموى . وضمّها إلى الحجاج ، فولّى عليها فى سنة ٧٨ المهلّب الأزدى بعد قضائه على الأزارقة . فقدمها يصحبه شاعره كعب الأشقرى الذى طالما أشاد بانتصاراته على الأزارقة . ويلزمه شعراء خراسان يمدحونه ويصفون حروبه مع الترك من أمثال المغيرة بن حَبْناء التميمى ونهار بن تَوْسعة اليَشْكرى البكرى وزياد الأعجم مولى عبد القيس . ويتوفّى المهلب سنة ٨٢ ، فيولّى الحجاج بعده ابنه يزيد ، وكان شجاعاً مقداماً كما كان بحراً فياضاً . وقد أشاد الشعراء هناك بحروبه فى فرغانة وخوارزم وما وراء النهر إشادة رائعة . ويَعْزله الحجاج لعصبيته الشديدة للأزد

وأحلافها من اليمن وربيعة ويولّى أخاه المفضل، وسرعان ما يرى أن يتخلص من المهالبة جميعاً، فيعزل المفضل ويولى قتيبة بن مسلم الباهلى فى سنة ٨٦ فتعلو كفة قيس ويعظم سلطانها . وكان قتيبة قائداً محنكاً وفارساً مغواراً، فمضى يفتح فى طخارستان وأرض السُّغْد وخوارزم وسمرقند، والشعراء من حوله يتغنون بانتصاراته . ولم يلبث قتيبة أن سقط وهو فى أوج مجده . وذلك أن سليمان ابن عبد الملك وَلِىَ الخلافة بعد أخيه الوليد. وكان حانقاً على الحجاج وعُمّاله، وخشى قتيبة على مصيره، فثار عليه، وسرعان ما انفضّت عنه الأزد وأحلافها ثم تبعتهم تميم، لأنه كان قَتَل منها نفراً من آل الأهتم . وأساء معاملة بطلها وكيع بن أبى سُود . وتزعّم وكيع حربه . وانضمت إليه الأزد . وكانت مغيظة منذ عَزْل المهالبة وانضمّت معها قبائل ربيعة كما انضم الموالى بقيادة حَيَّان النبطى . وأخيراً خذلته قيس إلا نفراً من عشيرته باهلة . فلقى حتفه سنة ٩٦ للهجرة . وولّى سليمان مكانه وكيع بن أبى سُود . فأخذ الناس بالعنف. فعزله . وولّى يزيد بن المهلب، جامعاً له بين خراسان والعراق. وقد مضى يتّبع سياسة قبلية جامحة، إذ رفع من شأن الأزد . وملأ بها الوظائف . وجعل لها القسط الأكبر فى الغنائم. وتوفّى سليمان وخلفه عمر بن عبد العزيز فعزل يزيد وحبسه لتأخره فى أداء الفَىْء، وكان قد بالغ لسليمان فى بعض كتبه . فقال إن الفىء فى بعض حروبه كان قناطير من الذهب . وزعم أن خُمْسه بعد أن أخذ كل محارب حقّه منه بلغ أربعة آلاف ألف وفى رواية ستة آلاف ألف، فلما طلب منه عمر ذلك . ولم يستطع أداءه حبسه حتى يؤدى ما عليه للدولة . ولم يكتف بعزله وحده . فقد عزل كل ولاته الأزديين . وبذلك سَقط أو هوى نَجْمُ الأزد، وقد ولى عمر على خراسان الجراحَ بن عبد الله الحكمى . ودخلت فى عصر يزيد بن عبد الملك، وتولاها غير قيسى، ولا يلبث أن يُظِلّها عهد هشام بن عبد الملك، وفيه تصبح تابعة لخالد القسرى والى العراق، وكانت فيه عصبية شديدة لليمن، فارتفع شأن الأزد . ونراه ينيب عليها أخاه أسداً سنة ١٠٥ وكان يحاكيه فى سياسته، فالتهبت العصبيات القبلية التهاباً، وامتشقت الحسامَ الكتلتان الكبيرتان تميم وقيس من جهة والأزد وأحلافها

من جهة أخرى ووقعت بينهما وقعة معروفة باسم وقعة البروقان ببلخ سنة ١٠٦ وتوالت بينهما الوقائع ، وعُزل أسد سنة ١٠٩ ووليها الحكم بن عوانة الكلبي ولم يلبث أن عُزل ووليها أشرس بن عبد الله السُّلَمي القيسي ،وخلفه عليها الجنيد بن عبد الرحمن المُرِّي سنة ١١٢ وعُزل عنها فى سنة ١١٦ وخلفه عاصم بن عبد الله الهلالى. وفى عهده نشبت ثورة الحارث بن سُرَيْج وكان يرى رأى المرجئة ، كما كان يرى إسقاط الجزية عن الموالى ، واتخذ جهم بن صفوان كاتباً له ، وهو أشهر متكلمى هذه الفرقة . واستفحلت الثورة إذا انضم إليها كثيرون من تميم والأزد والموالى . وما زال عاصم يجاهدهم ، حتى عُزل فى سنة ١١٧ وَولى مكانه أسد القَسْرى للمرة الثانية فضيَّق الخناق على الحارث حتى فر هارباً . غير أن أسداً مات ، وسقط أخوه خالد فى العراق ، إذ صرفه هشام عن ولايتها وولّى عليها يوسف بن عمر الثقفى ، جامعاً له معها خراسان ، فولّى عليها نصر بن سيار ، وفى عهده اشتدت العصبيات اشتداداً مروِّعاً واشتد معها الشجار والقتال فى كل مكان ، وظهر الحارث بن سريج على مسرح الحوادث ثانية وقُتل . وأخيراً يظهر أبو مسلم الخراسانى . وعبثا يصيح نصر بن سيار بجنوده أن يتداركوا الأمر[١] وتكون نهاية بنى أمية .

ويفيض تاريخ الطبرى بأشعار الشعراء فى هذه العصبيات التى احتدمت هناك وفى وصف حروب العرب والترك . ولعل من الطريف أن نعرف أن الشعر نشط فى خراسان نشاطاً عظيما ، إذ كانت الكثرة من العرب هناك مضرية . وحيثما وجدت المضريين وجدت الشعر ، وكانت الأحداث كثيرة ، فألهمت غير شاعر بالشعر الرائع . ومن أهم شعرائهم زياد الأعجم وكعب ابن مَعْدان الأشقرى ونهار بن توسعة وثابت قُطْنة والمغيرة بن حَبْناء . ولعل من الطريف أن نعرف أن مِنْ هؤلاء الشعراء مَنْ كان فارساً مقداماً مثل ثابت قطنة وكعب بن مَعْدان ، وكان من هولاء الشعراء الفرسان من يقع فى حب بعض نساء الترك والديلم وفتياتهم ؛ فيتغزل بهن ، على نحو ما نرى عند أبى جلدة اليشكرى[٢] ، وأعشى همدان[٣] . وكان بين المحاربين كثيرون يحنّون إلى ديار

(١) طبرى ٦/ ٣٦ وما بعدها والأخبار الطوال للدينورى ص ٣٦٠ .

(٢) أغانى (دار الكتب) ١١/ ٣١٩ ، ٣٢٥ .

(٣) أغانى ٦/ ٣٤ وما بعدها .

قومهم فى الجزيرة، وخاصة حين يُلم بهم وهن ، ويظنون أنهم ميتون ، وقصيدة مالك بن الريب فى مرضه مشهورة[١]. وكان يحدث أحياناً أن يُخفق بعض البدو بالجزيرة العربية فى حبهم، فيرحلوا إلى الثغور، وينظموا شعراً يضمنونه حبهم اليائس، وهو شعر يفيض باللوعة الممضة على نحو ما نجد عند الصمة القشيرى[٢] الذى مات غازيا بطبرستان .

٥

الشام

لا يكاد يُقاس الشعر فى الشام لهذا العصر إلى ما انبثَّ منه فى خراسان والعراق والحجاز ، ومرجع ذلك أن قبائل الشام كانت فى جمهورها قبائل يمنية ، وهى لا تبلغ فى الشعر والشاعرية ما تبلغه القبائل المضرية ، وأهم شاعر أنبتته بيئة الشام فى هذا العصر هو عدىّ بن الرقاع العاملى ، وهو يتأخر خطوات عن شعراء العراق والحجاز المبرِّزين أمثال جرير والفرزدق وعمر بن أبى ربيعة .

على أنه ينبغى أن يلاحَظ أن كثيراً من قبائل قيس نزل الشام مع الفتوح، واصطدمت مصالحه كما قدمنا بمصالح كلب والقبائل اليمنية ، مما جعل الحروب تنشب بين الطرفين من جهة وأوقد نيران الهجاء والفخر بين شعرائهما من جهة ثانية ، سواء فى موقعة مرْج راهط أو فيما تلاها من مواقع ظلت سنوات . ولكن هذا الشعر نعده طارئاً على الشام ، فلولا وفود هذه القبائل المضرية ما ظهر ولا استطار .

ومما يتصل بهذا الشعر الطارئ على الشام شعرُ الشعراء الذين كانوا يفدون على الأمويين يمدحونهم من الحجاز ونجد والعراق والجزيرة . ومن الحجازيين الذين أكثروا الوفود عليهم ابنُ قيس الرُّقيات ونُصيب والأحوص وكثيِّر وإسماعيل

---

(١) أغانى (ساسى) ١٦٢/١٩ وذيل الأمالى (٢) أغانى (دار الكتب) ٢/٦ .

ابن يسار النسائى وطُرَيح الثقفى ويزيد بن ضَبَّة وأبو العباس الأعمى، ومن النجديين الرَّاعى والعُجَيْر السَّلولى وأرطاة بن سُهَيَّة وعقيل بن عُلَّفة وابن ميَّادة ومن العراق جرير والفرزدق والأخطل ومسكين الدارمى وعبد الله بن الزَّبِير الأسدى وأعشى شيبان ونابغتهم وذو الرمة .

وهؤلاء الشعراء جميعاً كانوا وافدين ، ولم يستقروا فى الشام ، إنما كانوا يُلمّون بها ، ثم يعودون إلى ديارهم وأهليهم بُجْرَ الحقائب . وربما كان أهم عشيرة اشتهرت بالشعر فى هذه البيئة هى العشيرة الأموية نفسها ، فقد اشتهر من بين أفرادها بنظم الشعر يزيد بن معاوية ، ثم ابن أخته يزيد بن عبد الملك ، وابنه الوليد وسنعرض له ولشعره فى موضع آخر .

على أن هذه الأسرة نفسها كانت طارئة على الشام ، ومن ثَمَّ لا نغلو إذا قلنا إن الشعر فيها لهذا العصر كان بعامة شعراً طارئاً . ومن هذا الشعر الطارئ ما كان ينظمه الغزاة فى حروب الروم ، وكانت كثرتهم من عرب الشام اليمنية ، ولذلك لم يكثر الشعر فى هذه الحروب ، غير أن نفراً من المضريين شاركوا فيها ، فجرى الشعر على ألسنتهم وتصايحوا به فى بعض معاركهم ، وبكوا به شهداءهم على نحو ما نجد عند أبى العيال الهُذَلى حين غزا مع يزيد بن معاوية الروم[١] واستشهد ابن عم له يسمى عبد بن زهرة فرثاه رثاء حاراً[٢] .

وعلى هذا النحو كان الشعر فى الشام لهذا العصر محدود النشاط ، وكان فى جملته طارئاً إما مع قبائل قيس ، وإما مع الوافدين على أبواب الخلافة ، وإما مع البيت الأموى القرشى نفسه ، وإما مع الغزاة الذين كانوا يجاهدون الروم .

٦

مصر والمراكز الأخرى

إذا أخذنا نستقصى مراكز الشعر الأخرى لهذا العصر وجدنا العناصر اليمنية

(١) الإصابة لابن حجر ١٤٣/٧ . ٢٤١/٢

(٢) ديوان الهذليين (طبع دار الكتب)

تغلب عليها ، وهى من حيث الشعر والشاعرية تتخلّف عن العناصر المضرية . وقد تصادف أن كان أكثر الفاتحين لمصر وبلاد المغرب والأندلس من العناصر اليمنية ، وأخذت تَقَدُم وراءهم قبائل منهم ، تستقر فى تلك الديار . فكان طبيعيًّا أن لا ينشط فيها الشعر ، وأن يظل خامداً طوال العصر .

ولعل أهم هذه المراكز المتخلفة فى الشعر والشعراء مصر ، وكانت متصلة بالحضارة اليونانية والرومانية قبل الفتح . ومدرسةُ الإسكندرية بها مشهورة وقد ظلت منارةً للعرفان حتى عصر عمر بن عبد العزيز إذ هجرها أكثر أساتذتها إلى أنطاكية . والذى لا ريب فيه أنه ظلت بمصر بقايا كثيرة من الحضارة اليونانية والرومانية . وقد أخذت تتنفس فى جو الثقافة الإسلامية العربية ، وسرعان ما ظهرت بها مدرسة دينية على رأسها عبد الله بن عمرو بن العاص ، وأخذت تنهض فى هذا المجال . غير أننا إذا رجعنا إلى الشعر بها وجدناه متخلفاً ، لما قلنا من غلبة العناصر اليمنية على العرب النازلين فيها . وحقًّا نجد فيها أشعاراً كانت تُنْظَمُ من حين إلى حين فى الأحداث التاريخية واليومية ، وهى مبثوثة فى كتاب الولاة والقضاة للكندى ، ولكن قيمتها الشعرية ضعيفة وأكثر من ينظمونها يُعَدُّون مجهولين لنا ، وربما كان أهمهم ابن أبى زمزمة الذى عاصر عبد العزيز بن مروان فى ولايته على مصر (٦٥ — ٨٥ هـ) وأشعارُه المنسوبة إليه لا تَرْقَى إلى أفق شاعر متوسط من شعراء المراكز الأخرى فى الحجاز ونجد والعراق وخراسان .

ومن المحقق أن الشعر نشط بمصر فى ولاية عبد العزيز بن مروان ، غير أنه فى جملته شعر وافد ، أنشده بمصر شعراء الحجاز ونجد والعراق ، الذين وفدوا على ابن مروان يمدحونه لأخذ نواله ، وكان بحراً فياضاً ، وغيثاً مدراراً ، فقصده الشعراء من كل صوْب أمثال كثيِّر وابن قيس الرقيات ونُصَيْب وجميل وأيْمن بن خُرَيْم وعبد الله بن الحجاج الثعلبى . وبمجرد أن مات عبد العزيز خمد هذا النشاط الطارئ ، إذ لم يعد يفد عليها الشعراء لأخذ الجوائز والعطايا الجزيلة .

فمصرُ لم يكن بها نشاط قوى للشعر فى هذا العصر ، وإذا تركناها إلى الغرب انبسطت أمامنا بلاد المغرب إلى مشارف المحيط الأطلسى ، وكان الشعر بها

أكثر تخلفاً ، لغلبة العناصر اليمنية على من نزلها من العرب ، ولأنه لم يظهر بها والٍ على شاكلة عبد العزيز بن مروان، يَرْحَل إليه الشعراء و يمدحونه . وكذلك الشأن فى الأندلس المفتوحة فى عهد الوليد بن عبد الملك ، فقد فتحتها قبائل يمنية، ومن ثَمَّ لم يزدهر الشعر بها ، بل ظل ذاويا ذابلا إلى نهاية العصر .

وطبيعى أن يكون النشاط الشعرى فى اليمن خامداً ، لأنها لم تُجلْ فيه من قديم ، ولأنه لم تضطرم بها العصبيات والثورات التى تَدْلع ألسنة الشعراء على نحو ما مرَّ بنا فى البصرة والكوفة وخراسان ، ومع ذلك فقد كان ينزلها بعض الشعراء لمديح ولاتها على شاكلة أبى دَهْبل الجمحى الذى اشتهر بمديحه ابنَ الأزرق المخزومى والى ابن الزبير[١] . وحين ظهر فيها نشاط الخوارج الإباضيين لأواخر هذا العصر أخذ الشعر يجرى على بعض الألسنة . ولكن على كل حال كان الشعر هناك متخلفاً ، وربما كان خير شعرائها خالد الزبيدى الذى ترجم له ياقوت فى معجمه[٢] .

---

(١) أغانى (دار الكتب) ٧/١٢٨ . (٢) معجم الأدباء (طبع القاهرة) ١١/٢١ .

الفصل الثانى

مؤثرات عامة فى الشعر والشعراء

١

الامتزاج بالأمم الأجنبية وتعربها وأثر ذلك فى اللغة

اندفع العرب من جزيرتهم ينشرون الإسلام وتعاليمه السمحة فى أقطار الأرض ، ففتحوا العراق وإيران وخراسان والشام ومصر وبلاد المغرب ، وعبروا رقعة الماء الضيقة فى جبل طارق ، وركزوا أعلامهم على مشارف البرانس كما ركزوها فى الهند . وكانت بعض قبائلهم تنتشر قبل الإسلام وفتوحه فى العراق والشام ، فساعد ذلك على تعرب هذين القطرين سريعاً ، وأخذت تتعرب الأقطار الأخرى التى لم يكن لها عهد بالعروبة من قبل . ومن حينئذ لم يعد اللسان العربى خاصًّا بأبناء الجزيرة وحدهم ، فقد أخذ يشيع فى شعوب قريبة وبعيدة ، وسرعان ما تعربت ، وكان مما هيأ لتعربها نظام الولاء الذى أخذ به العرب أنفسهم فى فتوحهم الواسعة ، فقد أدخلوا رقيق الحروب فى ولائهم ، وفتحوا الأبواب واسعة أمام من وراءه من الشعوب المفتوحة كى يدخلوا فى هذا الولاء وينتسبوا فيمن يؤثرون من القبائل العربية .

وبمجرد أن تمت الفتوح أخذ العرب والموالى جميعاً يعيشون حياة مشتركة حتى فى المدن التى اختطها الفاتحون لمعسكراتهم مثل البصرة والكوفة والفسطاط ؛ فإن العرب اختلطوا فيها وفى غيرها من المدن بالأجانب الذين قدموا لهم خدماتهم فى الحرف والزراعة والتجارة ، وغصت بهم دورهم وقصورهم ، إذ استخدموهم فى حاجاتهم من جهة وتزوجوا كثيرات من إمائهم من جهة ثانية ، على نحو ما هو معروف عن اتخاذهم للسرارى والجوارى . وظهر أثر ذلك فى أجيال التابعين منذ

جيلهم الأول فقد برز بينهم كثيرون لأمهات أجنبيات ، نذكر من بينهم أبناء بنات يزدجرد : على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب والقاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق وسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب .

وهذا الامتزاج الواسع بالموالى زواجاً وولاء لم يكن تأثُّر الموالى به أقل من تأثر العرب ، فقد أخذوا فى التعرُّب سريعاً ، وكانت أقطارهم تتكلم لغات مختلفة ، إذ كان أهل إيران وخراسان يتكلمون الفارسية ، وكان أهل العراق يتكلمون الفارسية والنبطية ولغات آرامية مختلفة ، ويتكلم أهل الشام الآرامية وغيرها من اللغات السامية ، بينما كان أهل مصر يتكلمون القبطية ، وأهل المغرب يتكلمون البربرية . وكانت لغة السياسة والثقافة فى المغرب والأندلس اللاتينية وفى مصر والشام اليونانية والسريانية وفى العراق وإيران السريانية والفارسية .

وأخذت هذه اللغات تترك أماكنها من ألسنة أصحابها لتحلّ محلها العربية ، غير أن هذا لم يحدث سريعاً بين عَشيَّة وضُحاها ، فقد أخذ التعرب يتدرج شيئاً فشيئاً . وفى أثناء ذلك كانت العربية تتطور صوراً مختلفة من التطور ، وكان أول ما أصابها من ذلك أن مُحيت إلى حد كبير — بفضل القرآن الكريم ولغته القرشية — فروق اللهجات بين القبائل ، فأصبحت لغة القرآن هى اللغة العامة التى يتخاطب بها العرب مضريين ويمنيين فى كل مكان ، وإن ظلت من الماضى آثار هنا وهناك . وأخذ يظهر بسبب الامتزاج بالموالى تطورثان فى لغة التفاهم ، فإن العرب عمدوا إلى استخدام تعبيرات مبسَّطة ، حتى يفهم عنهم الموالى ويلوكوا ما يلفظونه بسهولة . وفى أثناء ذلك كانوا يستعيرون منهم بعض الكلمات الأعجمية وخاصة فى الأطعمة وأدوات الحضارة ، وكانوا يعرِّبونها وقد يبقونها على صورتها الأصلية . ويتعرّض علينا الجاحظ فى كتابه « البيان والتبيين » كثيراً من الكلمات الفارسية التى جرت على ألسنة أهل الكوفة بسبب من عاشوا معهم وخالطوهم من الفرس ، فمن ذلك أنهم كانوا يسمُّون المسحاة « بال » والحوك أو البقلة الحمقاء « الباذروج » وملتقى أربع طرق

«جهارسوك» ، وكانوا يسمون السوق «وازار» والقِثّاء «خياراً» والمجذوم «وَيْذى»[١] » وكانت الفارسية شائعة فى البصرة ويتضح ذلك فى دخول مقطع « آن » الفارسى على كثير من أسماء القطائع مثل « عمران[٢] » لعمر بن عبيد الله بن معمر و «سُوَيْدان» لسويد بن منجوف السَّدوسى و«خالدان» لخالد بن أسيد و « مهلّبان » لآل المهلب. ومما يدل على شيوع الفارسية فى البصرة ما يُرْوَى من أن يزيد بن مفرِّغ حين هجا أسرة عبيد الله بن زياد فى ولايته عليها سقاه نبيذاً وحمله على دابة فى ثياب مهلهلة مقروناً إلى هِرَّة وخنزير ، وأمر أن يطاف به فى الشوارع على هذه الصورة المُزْرية ، فتجمَّع حوله الصغار يسألونه بالفارسية إين جيست ؟ أى ما هذا ، فكان يجيبهم بلسانهم[٣] :

آبَ اسْتْ نَبِيذ اسْت عصــاراتِ زبيبَ اسْت
سُمَيَّهْ روسبِيَ است

واست : من أفعال الكينونة ، وآب : ماء . وسمية : أم زياد . وروسبى : الخنزيرة . أى هذا ماء ونبيذ وعصارة زبيب وسمية الخنزيرة ، ويريد البَغِيّ . ويلاحِظ الجاحظ أن تأثير الفارسية سقط إلى داخل الجزيرة فى المدينة مع من نزلها من الفرس ، ولذلك سمو البطيخ « الخِرْبز » والسميط « الرزدق » ، وطعام المصوص وهو لحم ينقع بالخردل « المزور » والشطرنج « الإشْترنج » وغير ذلك من الأسماء[٤].

ولم يقف استخدام هذه الألفاظ وما يشبهها عند اللغة اليومية ، فقد تعداها أحياناً إلى شعر بعض الشعراء من العرب أمثال الفرزدق وجرير اللذين عاشا فى البصرة ، إذ نجد أولهما يستخدم كلمة « البيذق والبياذق » المعروفة فى لعبة الشطرنج استخداماً يدل على أنه كان يعرف اللعبة وما يصيب البَيْذق فيها حين يتقدم إلى آخر الرقعة إذ يصبح وزيراً ، يقول مخاطباً جريراً[٥] :

---

(١) البيان والتبيين ١ / ١٩ وما بعدها .
(٢) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٣٥٣ وما بعدها .
(٣) البيان والتبيين ١ / ١٤٣ .
(٤) البيان والتبيين ١ / ١٩ .
(٥) نقائض جرير والفرزدق (طبعة بيفن) ص ٧٨٧ .

ونحن إذا عَدَّتْ تميمٌ قديمهـــا مكانُ النَّواصي من وجوه السوابق
منعتُك ميراث الملـــوك وتاجهم وأنت لِدرْعِي بَيْذَقٌ فى البياذق

فهو يجعله بيذقاً غير متقدم . ونرى جريراً يستخدم فى إحدى أهاجيه للفرزدق كلمة « الرَّوْذق » الفارسية بمعنى الحمَل المنتوف وَبره بعد سَلْقه، ويستخدم معها كلمة « البيذق » الفارسية للدلالة على الشيء التافه ، إذ يقول فى جِعثِنَ أخت الفرزدق[1] :

لا خير فى غضب الفرزدق بعدما سلخوا عجانكِ سَلْخَ جلد الرَّوْذقِ
سبعون والوُصَفاء مهـــر بناتنا إذ مَهْرُ جِعْثِنَ مثل حُرِّ البَيْذَق

وبنفس هذه الصورة دخلت كلمات نبطية إلى الشعر ولغة التفاهم ، وإذا كان ابن مفرِّغ صاغ من الفارسية شطوراً على نحو ما قدمنا فقد كان وراءه شعراء من الزنج مثل رباح[2] ومن الهند مثل أبى عطاء السندى .

وربما كان أهم من ذلك ما أصاب العربية من لُكْنات هؤلاء الموالى ، فإن كثيرين منهم كانوا يجدون عسراً فى نطق بعض حروف العربية التى لا توجد فى لغاتهم ، ويعرض علينا الجاحظ فى البيان والتبيين صوراً مما كان يجرى على ألسنة عامتهم من هذه اللُّكْنات ،حتى لتُفْسد العبارة العربية إفساداً ، فمن ذلك أن الحجاج سأل نخاساً : أتبيع الدواب المعيبة من جُنْد السلطان؟ فأجابه : « شر يكاننا فى هوازها وشر يكاننا فى مدايِنها ، وكما تجيء تكون » . ولم يفهم الحجاج ما يقول فقال له ويلك ما تَعْنى؟ فقال بعض من قد كان اعتاد سماع الخطأ وكلام العلوج بالعربية حتى صار يفهم مثل ذلك : يقول : « شركاؤنا بالأهواز وبالمدائن يبعثون إلينا بهذه الدوابّ ، فنحن نبيعها على وجوهها[3] » ومن ذلك أن أمَّ ولدٍ لجرير قالت لبعض ولدها : « وقع الجُرْذان فى عِجان أمكم »

---

(١) النقائض ص ٨٤٥ .

(٢) انظر رسالة تفضيل السودان على البيضان للجاحظ وأمالى ابن الشجرى (طبعة كرنكو) ١ / ١٩٤ وقد اختلف فى اسمه هل هو رباح أو رباح أو سنيح بن رباح . انظر العربية ليوهان فك هامش ص ٣٦ .

(٣) البيان والتبيين ١ / ١٦١ .

فأبدلت الذال من الجرْذان دالاً ونطقت العجين عجاناً . وقال بعض الشعراء في أم ولد له يذكر لُكْنَتها :

أوّلُ ما أسمع منها في السَّحَرْ تذكيرُها الأُنثى وتأْنيث الذكرْ
والسوءة السوءاءُ في ذكر القمر

إذ كانت تنطقه الكمر[١] . وكانت آثار من هذه اللكنات تَجْرى على ألسنة فصحاء الموالي ممن صعدت بهم ملكاتهم إلى أفق الشعر العربي ، حتى أصبحوا لا يقلون فيه فصاحة وبلاغة عن شعراء العرب الخُلَّص ، نذكر من بينهم زياداً الأعجم ، وكان يرتضخ لُكْنة فارسية يذهب فيها إلى إبدال العين همزة والطاء تاء والسين شيناً[٢] ، ويروى أنه أنشد المهلب في بعض مديحه :

فَتًى زاده السُّلطان في الوُدِّ رفعةً إذا غَيَّر السلطانُ كل خليلِ

فقال : « زاده الشلتان[٣] » وتكرر منه ذلك على سمع المهلب فوهبه غلاماً ينشد شعره[٤] . وكان أبو عطاء السندي وهو ممن عاشوا في العصرين : الأموي والعباسي يبدل الحاء هاء والجيم زايا والشين سينا ، ودفعه ذلك أن يستوهب ممدوحاً له يسمى سليمان بن سليم الكلبي غلاماً ينشد شعره[٥]

ولم تجْر هذه اللكنات على ألسنة الموالي وحدهم ، فقد تسربت منها بعض الآثار إلى ألسنة من كانوا ينشئون فيهم وخاصة من كانت أمهاتهم منهم ، على نحو ما يحدّثنا الرواة عن عبيد الله بن زياد والى العراق ، إذ استبقاه أبوه مع أمه « مرجانة » حين تزوجت الفارس « شيرويه » فكان يبدل الحاء هاء والقاف كافا ، فإذا قال : أحَرَوَرِيٌّ أنت ؟ قال : أهروري أنت؟ وإذا قال قلت لك قال : كلت لك[٦] . وقال مرة : افتحوا سيوفكم بدلا من سُلُّوا سيوفكم ، مما جعل ابن مفرغ يهجوه بقوله[٧] :

(١) البيان والتبيين ١ / ٧٣ .
(٢) البيان والتبيين ١ / ٧١ والأغاني (طبعة الساسي) ١٤ / ٩٩ .
(٣) البيان والتبيين ١ / ٧١ والكامل للمبرد (طبعة رايت) ص ٣٦٦ .
(٤) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٣ / ٨٩
(٥) الشعر والشعراء ٢ / ٧٠٢ وراجع الأغاني (طبعة الساسي) ١٦ / ٧٩ .
(٦) البيان والتبيين ١ /٢ .
(٧) البيان والتبيين ٢ / ٢١٠ .

ويوم فتحتَ سيفك من بعيدٍ   أضَعْتَ وكلُّ أمــرك للضَّياع

ويُرْوَى أن أباه زياداً أوفده على معاوية فكتب إليه مشيراً إلى لُكْنته: « إن ابنك كما وصفت ولكن قَوِّم من لسانه »[١]

وليس بين أيدينا نصوص توضح ما حدث من ذلك فى مراكز الشعر الأخرى بالأقطار المفتوحة ، ولكن لا بد أن ما كان يحدث فى العراق من هذه اللكنات كان يحدث فى المراكز القريبة والبعيدة ما يماثله . واقترنَ بهذه اللكنات لحنٌ كثير بسبب ضعف السلائق من مثل قول زياد الأعجم :

إذا قلت قد أقبلتْ أدبرتْ   كمن ليس غادٍ ولا رائحُ

وكان القياس أن يقول: « ليس غادياً ولا رائحاً[٢] » . ويظهر أن اللحن شاع على ألسنة بعض العرب أنفسهم ، ومن ثم عُنى خلفاء بنى أمية بتأديب أولادهم ويقال إن عبد الملك أهمل تأديب ابنه الوليد فجرى اللحن على لسانه ، ومما يروون من لحنه أنه نطق يوماً كلمة « لصّ » بضم اللام ، وأنه قال لأبيه حين قُتل أبو فديك الخارجي : « يا أمير المؤمنين قُتل أبى فديك » وقال مرة : « يا غلام رُدَّ الفرسان الصادّان عن الميدان[٣] » .

واتسع هذا اللحن فى الكوفة والبصرة حتى لنرى الحجاج المعروف بفصاحته ولَسَنه ونشأته فى البادية يخاف على نفسه منه ، فيسأل ابن يَعْمر : أتسمعنى ألحن ؟ فقال : الأمير أفصحُ الناس . فقال الحجاج : عزمتُ عليك أتسمعنى ألحن ؟ قال : حرفاً . فقال الحجاج : أين ؟ قال : فى القرآن . فقال : ذلك أشنع له ، فما هو ؟ قال ابن يعمر : تقول : (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتُموها وتجارةٌ تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبُّ إليكم من الله ورسوله) بقراءة أحب بالرفع ومكانها النصب . وكأنه لما طال عليه الكلام نسى ما ابتدأ به . فقال الحجاج : لا جرم لا تسمع لى لحناً أبداً[٤] . وكان خالد القسرى مع ما اشتهر به من فصاحته لحَّاناً ، ويُرْوَى

---

(١) البيان والتبيين ٢/ ٢١٠ .

(٢) الشعر والشعراء ١/ ٣٩٨ .

(٣) البيان والتبيين ٢/ ٢٠٤ وما بعدها .

(٤) ابن سلام ص ١٣ .

أنه قال يوماً : « إن كنتم رجبيُّون فإنا رمضانيُّون » . وفيه يقول يحيى بن نوفل[١] :

وألحنُ الناسِ كلِّ الناس قاطبةً   وكان يُولَعُ بالتَّشْديق فى الخُطَبِ

ويَرْوِى الرواة أن عيسى بن عمر النحوى خاصم رجلا إلى بلال بن أبى بُرْدة والى البصرة لخالد القسرى فجعل عيسى يتتبَّع الإعراب وجعل الرجل ينظر إليه ، فقال بلال للرجل : لأن يذهب بعضُ حقٍّ هذا أحبُّ إليه من ترك الإعراب فلا تتشاغلْ به واقصد لحجّتك[٢] ، وممن عُرِف فى خراسان باللحن عمرو بن مسلم أخو قتيبة بن مسلم[٣] ، وكان سليمان بن عبد الملك فى دمشق يقول : المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث يفخِّم اللحن كما يفخم نافع بن جبير الإعراب[٤] .

وانتشارُ اللحن على هذه الشاكلة هو الذى دفع لظهور اللغويين والنحاة منذ القرن الأول للهجرة ، فقد أخذت تتجرَّد جماعة من العلماء وخاصة فى البصرة لتنقية العربية مما دخلها من فساد . وكان بعض هؤلاء العلماء يتعرض لفصحاء الشعراء ينقدهم نقداً نحويًّا ، حتى لو اضطرّهم إلى ذلك القافية ، واشتهر فى هذا الجانب عبد الله بن أبى إسحق الحضرمى بمراجعاته للفرزدق فيما كان يُحْدثه أحياناً من بعض شاذات نحوية ، وما زال يراجعه حتى قال فيه بيته المأثور :

فلو كان عبد الله مولًى هجوتُه   ولكنَّ عبد الله مَوْلى مواليا

فتعرض له ابن أبى إسحق قائلا : كان يَحْسن أن تقول : مولى موالٍ[٥] . على أن الفرزدق لم يُعْرَفْ بضعف فى الحِسِّ اللغوى لأنه نشأ فى البادية ، إنما الذى عُرِف بذلك بعض الشعراء الذين نبتوا فى المدن مثل الطِّرمّاح والكُمَيْت . ويسجِّل الرواة على الطرماح أنه كان يَسْتخدم الألفاظ البدوية الغريبة فى شعره استخداماً غير دقيق[٦] وأنه كان يتكلّف بإدخال ألفاظ النبط الآراميين فى شعره[٧] . ولم

---

(١) البيان والتبيين ٢ / ٢١٦ .
(٢) البيان والتبيين ٢ / ٢١٨ .
(٣) البيان والتبيين ٢ / ٢١٩ .
(٤) البيان والتبيين ٢/ ٢١٧ .
(٥) ابن سلام ص ١٦ وما بعدها .
(٦) الموشح ص ٢٠٩ والأغانى (طبعة دار الكتب) ١٢/ ٣٦ .
(٧) الموشح ص ٢٠٨ .

يكن الكميت يسلك فى أشعاره الألفاظ النبطية ، ولكنه كان يَشْرَكُ الطرماح فى ظاهرة الاستخدام غير الدقيق للألفاظ البدوية[١]، ويُرْوَى أنه أنشد ذا الرُّمّة يوماً بعض شعره، وسأله رأيه فيه، فقال له: « إنك لتقول قولا ما يَقْدر إنسان أن يقول لك فيه أصبتَ أو أخطأت ، وذلك أنك تصف الشيء فلا تجيء به ولا تقع بعيداً منه ، بل تقع قريباً » واقتنع الكميت بوجهة نظره واعتلّ لذلك بأنه لا يصف شيئاً رآه بعينه، إنما يصف شيئاً وُصف له[٢]»، ولذلك كان اللغويون لا يستشهدون بأشعاره ولا بأشعار الطرماح فى اللغة[٣] :

وعلى هذا النحو أخذت السلائق تضعف حتى عند العرب أنفسهم ، وخاصة من نشأوا منهم فى الحضر ولم يتغذّوا بلبان البادية . وما نصل إلى العصر العباسى حتى يضع اللغويون خطًّا فاصلا بين الشعر القديم الجاهلى والإسلامى والشعر العباسى الحديث الذى سموه شعر المولّدين وهو خط فَصلوا به فصلا تامًّا بين الشعر الفصيح الذى يمكن الاستشهاد به فى اللغة والشعر الذى لا يُعتدّ به فى هذا الاستشهاد . وقد اعتدُّوا بشعر الجاهليين والمخضرمين دون استثناء ، أما شعر الأمويين فأخرجوا منه نفراً من العرب أمثال الطرمّاح والكميت متخذين النشأة فى الحضر مقياساً لمعرفة المشوب والمصفّى والمعيب والسليم .

٢

الإسلام وأثره فى موضوعات الشعر

طبيعى أن يؤثر الإسلام فى موضوعات الشعر الأموى ، وهو تأثير يقوى ويضعف حسب نفسية الشعراء ، إذ كان بينهم من تعمّقه الإسلام ومن لم يتغلغل إلى أعماقه . على أنهم جميعاً كانوا يستظلون بظلاله ، وكان من حولهم الوعاظ والنسّاك يذيعون فى مختلف الأجواء عِبَر وعظهم ونُسكهم ، سواء فى المساجد الجامعة أو فى مقدمات الجيوش الغازية . وكانوا ما يزالون يحدّثون الناس عن البعث

(١) الموشح ص ١٩٢ والأغانى (دار الكتب) ٣٦/١٢ (٢) أغانى (ساسى) ١٢٠/١٥ .
(٣) الموشح ص ١٩١ ، ٢٠٨ .

والثواب والعقاب ونعيم الجنة وعذاب النار داعين دعوة واسعة إلى التقوى والزهد فى متاع الدنيا . وترامت من هذه المواعظ ومن القرآن الكريم وأحاديث الرسول وأقوال الصحابة الأولين أشعة كثيرة نفذت إلى نفوس الشعراء وانعكست فى أشعارهم على اختلاف موضوعاتها .

وقد أشرنا فى غير هذا الموضع إلى ما أصاب الغزلَ بتأثير الإسلام من براءة وطُهْر وصفاء ونقاء عند شعراء نجد وبوادى الحجاز وعند فقهاء المدينة ومكة ، مما هيأ لظهور الغزل العذرى بل لشيوعه ، وكأنما أضفَى الإسلام على المرأة وعلاقاتها بالرجل عند هؤلاء الشعراء ضرباً من القدسية ، أحاطها بهالة من الجلال والوقار ، فإذا الشاعر لا يدنو منها إلا فى احتياط ، بل إذا هو يرى دونها صعاباً أى صعاب ، فيتحول إلى نفسه يشكو ما أصابه من تباريح الحب وأوصابه شكوى تشفّ عن ألمه وعذابه فى حبه ، وهى شكوى يتضرع فيها أحياناً إلى ربه على شاكلة قول جَميل[1] :

إلى الله أشكو لا إلى الناس حُبَّها ولا بد من شكوى حبيبٍ يُرَوِّعُ
ألا تتقين الله فيمن قتلْتِهِ فأمسى إليكم خاشعاً يتضرَّع
فيارَبِّ حَبِّبْنِى إليها وأعْطِنى الـ ـمودَّة منهـا أنت تعطى وتمنع

ونرى الغزلين جميعا عُذْريين وغير عُذْريين يستلهمون فى غزلهم بعض الأفكار الإسلامية كفكرة العفو والغفران . يقول عمر بن أبى ربيعة[2] :

فليتُكِ أطْلِقِى حَبْلى وجودى فإن الله ذو عَفْوٍ غَفورُ

وقد مضى غير شاعر يردد فكرة الإثم فى القتل وعقاب الله لقاتل النفس المؤمنة ، ونرى الفرزدق يفصِّل هذه الفكرة تفصيلا فى إحدى مقطوعاته ، فيقول[3] :

يا أختَ ناجيةَ بن سامةَ إننى أخشى عليك بَنِىَّ إن طلبوا دمى
فإذا حلفتِ هناك أنك من دمى لبريئـةٌ فتَحَلَّلى لا تَأْثَمِى[4]
فلئن سفكِت دما بغير جريرةٍ لتُخَلَّدِنَّ مع العذاب الألأمِ

(١) ديوان جميل تحقيق حسين نصار ص ١١٧ . بيت ٥ .
(٢) ديوان عمر (نشر شوارتز) رقم ٤٠
(٣) ديوان الفرزدق(طبعة الصاوى) ٢/٧٧٨ .
(٤) تتحلل من اليمين : تستثنى .

ولئن حملتِ دمى عليك لتَحْمِلنْ ثِقْلاً يكون عليك مثل يَلَمْلَمِ [١]

وإذا كان الفرزدق توسَّع فى فكرة القتل على هذا النحو ، فأضاف إليها الاستثناء من اليمين وما ينتظر القاتل فى غير جناية من عذاب الآخرة فإن وضّاح اليمن يستغل فكرة الحلال والحرام ويشفعها بفتوى الترخص فى اللَّمَم ، يقول [٢] :

إذا قلتُ يوماً نَوِّلينى تبسَّمتْ وقالتْ معاذَ الله من فعل ما حَرُمْ
فما نوَّلتْ حتى تضرَّعتُ عندها وأعلمتُها مارخَّص الله فى اللَّمَم

وواضح أنه يقصد باللمم النظرة وما يماثلها . وكل ذلك جاء وضاحاً ومن ذكرناهم بتأثير الإسلام الذى كان يخالط قلوبهم ، فإذا ألفاظه وأفكاره تمتزج بمعانى الحب وألفاظه .

وإذا تحولنا إلى المديح وجدناه يتحول فى كثير من جوانبه إلى تصوير الفضيلة الدينية فى الممدوح ، ووثّق هذا التصوير فى مديح الخلفاء والولاة أن الحكم والدين كانا مرتبطين ارتباطاً لا تنفصم عُراه ، فمضى الشعراء يتحدثون عن تقواهم وأنهم يقيمون ميزان العدالة السماوية بين الرعية . ونشب صراع حاد بين الأمويين من جهة والخوارج والشيعة من جهة ثانية فى الحاكم الأعلى للمسلمين وما ينبغى أن يتحلَّى به من صفات دينية . ولم يلبث شعراء بنى أمية أن نفذوا من ذلك إلى تمجيد الأمويين ورسم إطار دينى لكل منهم ، وكان عمر بن عبد العزيز مثالا حقًّا للحاكم الأموى التقى ، فأكثر الشعراء من رسم إطار التقوى الذى يُطيف به وبحكمه ، على شاكلة قول كُثَيِّر [٣] :

وصدَّقتَ بالفعل المقالَ مع الذى أتيتَ فأمسى راضيا كلُّ مسلمِ
وقد لبِسَتْ لِبْسَ الهَلُوك ثيابها تراءى لك الدنيا بكفٍّ ومِعْصَمِ
وتومض أحيانا بعينٍ مريضةٍ وتَبْسِمُ عن مثل الجُمان المنَظَّم

(١) يلملم : جبل على مرحلتين من مكة .
(٢) أغانى ٦/٢٢٨ .
(٣) ديوان كثير (طبعة الجزائر) ٢/١٢٣ .

فأعرضتَ عنها مشمئزًّا كأنّما سَقَتْكَ مَدُوفاً من سِمامٍ وعَلْقَمِ[١]
تركتَ الذى يفنى وإن كان مونقا وآثرتَ ما يبقى برأْيٍ مصمِّمِ
وأَضررتَ بالفانى وشمَّرت للذى أمامك فى يوم من الشر مُظْلِمِ

وهو لا يصور فى عمر التقوى فحسب ، بل يصور فيه أيضاً الزهد والإعراض عن الدنيا وفتنتها ومتاعها الزائل الذى يغُرُّ الناس من حوله . وتتسع هذه الصورة فى مديح الشيعة لأئمتهم على نحو ما نجد فى هاشميات الكُمَيْت وفى شعر أيمن بن خُرَيم إذ يقول فى بنى هاشم[٢] :

نهاركمُ مكابدةٌ وصومٌ وليلكمُ صلاةٌ واقتراءُ
وليتم بالقُران وبالتزكِّى فأسرع فيكمُ ذاك البلاءُ

وعلى نحو ما تأثر المديح بالإسلام ومثاليته الروحية تأثر الهجاء ، إذ أخذ الشعراء يهجون خصومهم بانحرافهم عن الدين ، فأطالوا فى وصفهم بالفسوق والبغى والطغيان كقول جرير فى آل المهلب[٣] :

آلُ المهلب فرَّطوا فى دينهم وطغَوْا كما فعلتْ ثمود فباروا

ودائماً يرمى شعراء الشيعة الأمويين بالظلم وانتهاك الحُرمات وتعطيل أحكام الدين وابتداع ما لم يأت به كتاب ولا سُنَّة من مثل قول الكميت[٤] :

لهم كلَّ عامٍ بدعةٌ يحدثونها أَزَلّوا بها أتباعهم ثم أَوْحَلُوا
كما ابتدع الرهبان ما لم يجئْ به كتابٌ ولا وَحْىٌ من الله مُنْزَلُ
تَحِلُّ دماءُ المسلمين لديهمُ ويَحْرُمُ طَلْعُ النَّخْلة المتهدِّل

واشتد لهب الهجاء — كما قدمنا فى غير هذا الموضع — بتأثير العصبيات ، ولم يكد ينْجُ منه خليفة ولا والٍ ولا شريف ، بل حتى القُرَّاء كان يتعرض لهم الشعراء . وخاصة إذا رأوهم يداجون أولى الأمر . فكانوا يرمونهم بالنفاق وأنهم

(١) مدوفاً : مزيجاً .
(٢) أغانى (ساسى) ٦/٢١ .
(٣) ديوان جرير (طبعة الصاوى) ص٢١٩ .
(٤) الهاشميات ص ١٢٣ .

ليسوا صادقين فيما يظهرون من تقوى وصلاح ، على شاكلة قول ذى الرمة ساخراً من إحدى طوائفهم[١] :

أما النبيذ فلا يَذْعَرْك شاربُهُ   واحفظْ ثيابك ممن يشرب الماء
قومٌ يُوَارُونَ عما فى صدورهمُ   حتى إذا استمكنوا كانوا همُ الداء
مشمِّرين إلى أنصاف سُوقِهِم   همُ اللصوص وهم يُدْعَوْن قُرَّاء

ولعلنا لا نُبْعد إذا قلنا إن شعر الحماسة كأن أقوى فى تأثره بالإسلام من شعر الهجاء والمديح ، إذ كان يُنْظَمُ أكثره فى الجهاد ، ومعروف أنه كان دائماً فى صفوف المحاربين قُصَّاصٌ ووعاظ يحثُّونهم على الاستشهاد فى سبيل الله، حتى يفوزوا برضوانه ، ومن ثَمَّ تحولت بعض القطع الحماسية التى نُظمت فى خراسان إلى مواعظ خالصة ، كقول نصر بن سيَّار[٢] :

دَعْ عنك دُنْيا وأهْلاً أنت تاركهم   ما خَيْرُ دُنْيا وأهلٍ لا يدومونا
وأكثِرْ تُقَى الله فى الأسرار مجتهدا   إن التُّقَى خَيْرُهُ ما كان مكنونا
واعلمْ بأنك بالأعمال مُرْتَهَنٌ   فكُنْ لذاك كثير الهمِّ محزونا
وامنَحْ جهادَك من لم يَرْجُ آخرةً   وكُنْ عَدُوًّا لقومٍ لا يصلُّونا
فاقتلهمُ غَضَباً لله منتصرا   منهم به ، ودعِ المرتابَ مفتونا

وواضح أن نصراً يزهد فى الدنيا ومتاعها الفانى بما يذكر من هلاك الأهل ، ويدعو إلى التقوى فى السر والخفاء مذكِّراً باليوم الآخر وما ينبغى أن يُتَّخذ له من ذخر الجهاد والذبِّ عن دين الله ، وبيع النفس فى محاربة أعدائه .

وكانت حرب الخوارج حرباً دينية خالصة ، أما هم فآمنوا بأنهم على الحق وأن المسلمين من غيرهم خرجوا على حدود الله وأنه ينبغى جهادهم حتى يعودوا إلى حياض الشريعة . وبنفس الصورة كان يراهم المسلمون من خصومهم ويرون جهادهم فرضاً مكتوباً . وبذلك كانت أشعار الطرفين تُغْمَسُ غمساً

(١) ديوان ذى الرمة (طبعة كبريدج) ص ٦٦١ .
(٢) طبرى ٥/٤٣٣ .

فى العقيدة الدينية ، فهم إنما يحاربون من أجلها وفى سبيلها ، ونحس كأنما غاية كل خارجى أن يُقتَلَ حتى يُكتَبَ فى سجل المستشهدين .

وكان شعر من حاربوهم يسيل بالدعوة للاستبسال فى الحرب وجهاد هذه الفرقة التى زاغت فى رأيهم عن طريق الهدى، ومن خير ما يصور ذلك قول كعب الأشقرى فى ملحمته الطويلة التى وصف فيها قتال المهلب للأزارقة وقضائه عليهم(١) :

إنا اعتصمنا بِحَبْلِ الله إذ جَحَدُوا　　بالمُحْكمات ولم نكفر كما كفروا
جاروا عن القَصْد والإسلام واتبعوا　　دينا يخالف ما جاءتْ به النُّذُرُ

وكان كثيرون يُقتَلون فى هذه الحروب ، فكان الشعراء يندبونهم ندباً حارًّا، مازجين ندبهم بما ينتظرهم من نعيم الخلد ، كقول الضحاك بن قيس يرثى بهلولا الصُّفْرِىَّ الذى خرج لعهد هشام بن عبدالملك وقُتل(٢) :

يا عَيْنُ أَذْرِى دموعاً منك تَهْتانا　　وابكى لنا صُحْبةً بانوا وإخوانا
خَلُّوا لنا ظاهر الدنيا وباطنهـــا　　وأصبحوا فى جِنان الخلد جيرانا

وتعمُّ هذه الروح الدينية فى مراثى من قُتلوا من العلويين منذ على بن أبى طالب ، وقد تحوَّل مقتل الحسين منذ حدوثه إلى عويل وتفجع رهيب . وكان من يرثون الأمويين يستشعرون هذه الروح فى مراثيهم ، كقول جرير فى عمر بن عبد العزيز(٣) :

حُمِّلْتَ أمرا عظيماً فاصطبرتَ له　　وقمتَ فيه بأمر الله يا عمرا

بل لقد طُبع الرثاء عامة بطوابع هذه الروح وما يُطوَى فيها من التسليم لله والرضا بقضائه ، فكلُّ نفس ذائقة الموت ، وهو حتمٌ فى رقاب العباد ، وعليهم أن يتذرَّعوا إزاءه بالصبر الجميل .

(١) طبرى ٥/١٢٥ .
(٢) طبرى ٥/٤٦٠ .
(٣) الديوان ص ٣٠٤ .

وعلى هذه الشاكلة كان الإسلام يؤثر في نفسية الشعراء ، وانعكس هذا التأثير على الموضوعات المختلفة التي نظموا فيها حتى وصف الصحراء ، فإننا إذا قرأنا هذا الوصف عند ذي الرمة أحسسنا أن قلبه يمتلىء بالرحمة والشفقة والعطف البالغ على الحيوانات .

وليس هذا كله جميع ما أثّر به الإسلام في الشعر الأموى ، فإنه فجّر ينبوعاً ، كان قد أخذ يسيل منذ ظهور الإسلام على ألسنة بعض الشعراء ، ولكن سيله لم يبلغ ما بلغه في هذا العصر ، ونقصد ينبوع الزهد وما ينطوى فيه من الدعوة للعمل الصالح . وسنرى في غير هذا الموضع كثرة الشعراء الذين تدفق على لسانهم هذا الينبوع الغزير ، بحيث أصبح موضوعاً قائماً بنفسه ، وبحيث أخذ فريق من الشعراء الذين لم يُعرفوا بزهد يستظهرون صوراً إسلامية كثيرة في شعرهم ، بل حتى نجد الفرزدق المستهتر ينظم قصيدة في إبليس الرجيم(١) . ولم يصطبغ الشعر وحده بالمثالية الدينية وما يرتبط بها من معان ، فقد جاراه الرجز في هذا الاصطباغ حتى لنجد رجازاً كثيرين يبدءون أراجيزهم بحمد الله ، وقد يمضون فيتحدثون عن خلق السموات والأرض ، وكثيراً ما يضيفون أدعية وابتهالات لربهم .

والحق أن الإسلام أثّر أثراً واسعاً في نفوس الشعراء ، وهو أثر ما زال يتعمق نفراً منهم حتى انقلبوا وعاظاً يعظون الناس ويذكّرونهم باليوم الآخر وما ينتظرهم من الثواب والعقاب ، وهم في أثناء ذلك يتحدثون عن الموت وما تخرّم من قرون بعد قرون ، كما يتحدثون عن الدنيا ومتاعها الزائل مصوّرين طريق النجاة وأنه يقوم على التقوى والعمل الصالح ومجانبة كل خلق ردىء من مثل الكبر والبخل والخيانة ، والتحلى بكل خلق كريم من مثل التواضع والجود والأمانة .

٣

السياسة

قام الإسلام على تقرير السيادة الإلهية وسيطرتها على أمور المسلمين الدينية والدنيوية سيطرة تنهض على مبادئ الحق والعدل والأمر بالمعروف والنهى عن

---

(١) الديوان ٢/٧٦٩ .

المنكر . وبذلك فرض الإسلام على كل مسلم أن يشترك فى الحياة العامة للجماعة ونشاطها السياسى ، وهو نشاط ينبغى أن يقوم على مبادئ الدين ومقاصده السامية .

وقد رأينا — فى غير هذا الموضع — كيف أن الحوادث تطورت بعد مقتل عثمان ، فتولى على ، ونشبت بينه وبين السيدة عائشة وطلحة والزبير موقعة الجمل ، ثم نشبت معركة صِفِّين بينه وبين معاوية . وكان التحكيم ، فخرج جمع كبير من جيشه ثائرين ضده ، ولم يلبث أن قُتل ، فتحولت الخلافة إلى معاوية وبيته الأموى وأصبحت وراثية فى هذا البيت . وكان الأمويون فى نظر كثيرين لا يمثلون الحكام الجديرين بالدولة الإسلامية ، لأنهم عادَوْا الإسلام فى أول ظهوره ، وبذلك كانوا يُعَدّون مغتصبين للخلافة . وزاد فى الحُنْق عليهم أن سيرة يزيد بن معاوية وابن أخته يزيد بن عبدالملك وابنه الوليد لم تكن سيرة مرضية . وأيضاً فإن عُمّالهم ظلموا الناس. ومن أجل ذلك سخط عليهم جمهور من القُرّاء أهل التقوى والورع . غير أن هذا الجمهور لم يكوّن حزباً لمعارضتهم معارضة إيجابية ، فقد اكتفى بإشاعة السخط فى الناس ، واشترك منه نفر فى بعض الثورات عليهم ، لكنه على كل حال لم يقم بثورة منظمة . على أنه ينبغى أن نشير إلى ثورة المرجئة فى خراسان بقيادة الحارث بن سُرَيْج . وسنعرض لها فى حديثنا عن الثقافة وأصحاب المقالات الكلامية .

والحجاز والعراق هما أهم المراكز التى نشأت فيها المعارضة لبنى أمية . وقد بدأت معارضة الحجاز لهم منذ حاول معاوية إسناد ولاية العهد لابنه يزيد وأخذه البيعة على ذلك من أهل الأمصار . فإن فريقاً من أبناء كبار الصحابة مثل الحسين بن على وعبدالله بن الزبير وعبدالله بن عمر أبوا أن يبايعوا ليزيد . فلما ولى الخلافة كتب إلى عامله بالمدينة أن يشدد على هؤلاء الثلاثة فى أخذ البيعة تشديداً ليس فيه رُخْصة . فبايع عبد الله بن عمر . وفرّ الحسين وعبد الله بن الزبير إلى مكة . ولم يلبث أهل الكوفة أن استدعوا الحسين لبيعته . فخرج وقُتل بكربلاء على حدود العراق . أما ابن الزبير فعاذ بالبلد الحرام الذى لا يحل فيه القتل وسفك الدم . ولما يئس يزيد من بيعته له أرسل إلى عامل المدينة أن يأخذها منه كرهاً . فبعث

إليه بأخيه عمرو بن الزبيرِ على رأس جيش ، وكان بينهما مغاضبة ، ولم يُفْلح هذا الجيش فى مهمته ، وقبض عبد الله على أخيه وقتله تحت السياط .

وفى هذه الأثناء رأى عامل المدينة أن يبعث إلى يزيد بطائفة من أشرافها ، ولما مثَلوا بين يديه أكرمهم وأعظَم جوائزهم ، غير أنهم رجعوا يثيرون عليه الناس ويقولون : « إنا قدمنا من عند رجل ليس له دين ويشرب الخمر ويعزف بالطنابير وتَضْرب عنده القِيان ويلعب بالكلاب ويسامر الخُرَّاب والفتيان[١] » . وثار أهل المدينة وبايعوا عبد الله بن حنظلة ، فأرسل إليهم يزيد جيشاً بقيادة مسلم بن عقبة المُرِّى ونشبت بين الفريقين معركة الحَرَّة المشهورة التى استُبيحت فيها مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاثةَ أيام ، وقد بكاها من الشعراء كثيرون[٢] . وولَّى بعد ذلك جيش مسلم وجهه نحو مكة ، وسمع بذلك بعض الخوارج فنفروا لمساعدة ابن الزبير ، وحدث أن توفِّى مسلم فى طريقه ، فخلفه الحصين بن نُمَير السَّكونى ، ومضى حتى حاصر مكة وابن الزبير ، غير أن الأنباء جاءته بوفاة يزيد سنة ٦٤ للهجرة ، ففكَّ الحصار وعاد إلى الشام .

وهيَّأ ذلك لأن تتسع دعوة ابن الزبير ، فإن الأمصار اضطربت على ولاة بنى أمية حتى الشام ، إذ بايع بعض ولاتها ابن الزبير ودعمته هناك قبائل قيس . ولم تلبث مصر أن دخلت فى طاعته كما دخلت الكوفة والبصرة وخراسان ، غير أن المختار الثقفى دعا لابن الحنفية (أحد أبناء على من سيدة من بنى حنيفة) فى الكوفة وأخرج منها عبد الله بن مطيع عامل ابن الزبير ، الذى انتقم منه بحبس ابن الحنفية فى سجن عارم بمكة ، وولَّى على البصرة بدلا من عبد الله بن الحارث الملقب بالقُباع أخاه مصعباً ، فنازل المختار الثقفى وقضى عليه ، وبذلك عادت الكوفة إلى الدخول فى طاعة ابن الزبير . وتلقانا فى هذه الأحداث أشعار كثيرة مبثوثة فى الطبرى .

ومنذ أول الأمر تدور الدوائر على قيس فى موقعة مَرْج راهط بالشام ، ويخلص هذا الإقليم لمروان بن الحكم ، وتتبعه مصر ، وسرعان ما يخلفه ابنه

---

(١) طبرى ٣٦٨/٤ .

(٢) طبرى ٣٧٠/٤ وراجع كلمة حرة فى معجم البلدان لياقوت .

عبد الملك . فيتريث فى القدوم على مصعب بجيوشه . حتى يرى ما يكون من أمره مع المختار الثقفى . ويُشْغَلُ مصعب بعد المختار بالخوارج ، ويَقْدُم عبد الملك فيقضى عليه ، ويُرْسل الحجاجَ إلى ابن الزبير بمكة ، فيهزمه ويقتله فى سنة ٧٣ . وكان ابن الزبير شحيحاً ، ومن ثم هجاه فَضالة بن شريك هجاء مرًّا[١] . أما مصعب فكان جواداً مُمدَّحاً ، ولذلك مدحه ورثاه غير شاعر[٢] :

وبمجرد القضاء على ابن الزبير فى مكة دخل الحجاز فى طاعة بنى أمية ، ولم يعد للثورة عليهم طوال العصر . أما العراق فكان موطن الخصومة الحقيقية لهم ، إذ كان فيه الخوارج وخاصة فى البصرة لأول هذا العصر ، وكان فيه الشيعة وخاصة فى الكوفة ، وكان فيه كثير من أشراف العرب الذين كانوا يعدُّون بنى أمية غاصبين للخلافة . ومَرَّ بنا فى غير هذا الموضع انتقاض عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث عليهم وكذلك انتقاض يزيد بن المهلب. وكان هناك كثير من الرقيق الذين كانت تعاملهم الدولة فيما يظهر معاملة قاسية ، مما جعلهم يثورون مراراً ، مرة فى عهد المغيرة بن شُعْبة والى الكوفة[٣] ، ومرة ثانية فى عهد مصعب ، ومرة ثالثة فى عهد الحجاج ، وكان الزنج هم الذين أشعلوا الثورتين الأخيرتين ، وسجَّل ذلك بعض الشعراء فى أشعارهم[٤] .

على أن هذه الثورات الجانبية لا تُقاس فى شىء إلى ثورات الخوارج التى امتدَّ لهبها إلى أركان كثيرة فى العراق والموصل وإيران واليمامة وحضرموت وعُمان . وكان أول ظهورهم عقب التحكيم بين على ومعاوية وما كان من رِضا على به ، فقد تنادى فريقٌ من جيشه : لا حُكْمَ إلا لله ، وبذلك شقّوا عصا الطاعة عليه ، ولم يلبثوا أن عدّوه ومن معه ضالين وتجب الهجرة عنهم كما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أهل مكة ، وفعلا هاجروا إلى حَرُوراء بالقرب من الكوفة ، ولذلك سموا الحرورية . وسُمُّوا أيضاً الخوارج ، لأنهم خرجوا على الجماعة ، أو لعلهم هم الذين سَمُّوا أنفسهم بذلك أخذاً من قوله تبارك وتعالى :

---

(١) أغانى ١٥/١ وانظر ٧١/١٢ وما بعدها.

(٢) انظر الأغانى ٣٣/٦ وابن سلام ٥٣٠ والطبرى ٥٩٢/٤ ، ٩/٥ وما بعدها .

(٣) اليعقوبى ٢٦٢/٢ .

(٤) طبرى ٣٣٨/٥ وما بعدها .

(ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله). وسمّوا أنفسهم الشُّرَاة أخذاً من قوله جلّ وعز : (ومن الناس من يَشْرى نفسه ابتغاءَ مرضاة الله). وكان الذى أثارهم أنهم رأوا عليًّا ومعاوية يقتتلان على الخلافة ، كأن الأمر ليس أمر الله إنما هو أمر أشخاص ، فثاروا على ذلك ثورة عنيفة اعتبروها جهاداً فى سبيل الله وسبيل دينه الذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وجاهدوا عليًّا ، ولكنه نكّل بهم فى موقعة النهروان . ولم يلبث ابن مُلْجم المرادى أن قتله لينال رضا امرأة منهم [١]. وتحولت مقاليد الخلافة إلى معاوية فرأوا فيه إماماً زائفاً ، وأخذت تتكوّن عقيدتهم بسرعة حول محور ثابت هو أن الخلافة ينبغى أن لا تحتجزها قريش لنفسها من دون المسلمين ، فهى ليست حقًّا لقريش ، إنما هى حق لله وينبغى أن يتولاها أكفأ المسلمين لها وخيرهم تقوى وورعاً ولو كان عبداً حبشيًّا . ومضوا يعتقدون أنهم وحدهم الجديرون بوصف الإسلام ، مؤمنين بأنه لا يتجاوز حدود معسكراتهم ، ومؤمنين أيضاً بأن من واجبهم أن يجاهدوا الجماعة التى ارتضت الأمويين وما ثبّتوه من نظام الوراثة للخلافة فى بيتهم . وكانت آراؤهم تعمل عمل السِّحْر فى كثير من النفوس ، فانضم إليهم كثير من العرب والموالى والأتقياء . ونراهم يُغْمدون سيوفهم لأول عهد معاوية ، ولكن لا تلبث طائفة منهم أن تخرج فى الكوفة بقيادة المستورد بن علّفة سنة ٤٣ وسرعان ما يُقْضَى عليهم . وتهدأ الكوفة حتى سنة ٥٨ فتثور منهم جماعة بقيادة حيان بن ظُبْيان وينتظرهم نفس المصير ، ولا يعودون بعد ذلك إلى الظهور فى الكوفة ، إذ لم يكن بها جمهورهم الكبير . بل كان فى البصرة ، وهى لذلك تُعَدُّ مهد نشاطهم الأول . وقد تولّى أمرها زياد ابن أبيه ، فأخذهم أخذاً عنيفاً اضطرُّوا معه إلى الاستتار . وخلفه ابنه عبيد الله فمضى فى سياسته ، وعنُف بهم ، فأكثر من حبسهم وقتلهم ، وكان ممن قتله من رجالهم عروة بن أُدَيَّة ومن نسائهم البَلْجاء ، ولم يلبث أبو بلال مرداس أخو عروة أن خرج فى أربعين رجلا إلى الأهواز سنة ٥٨ فبعث إليه ابن زياد جيشاً عليه ابن حصن التميمى عداده ألفان ، غير أن الجيش هُزم هزيمة نكراء عند « آسك » فقال رجل من بنى تيم الله بن ثعلبة [٢] :

(١) الكامل للمبرد (طبعة رايت) ص ٥٤٩ . (٢) طبرى ٤/٢٢٢ وانظر الكامل ص ٥٨٨ .

أألفا مؤمنٍ منكم زعمتم ... ويقتلهم بآسَكَ أربعونا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ... ولكنّ الخوارج مؤمنونا
همُ الفِئَةُ القليلةُ قد علمتم ... على الفئة الكثيرة يُنْصَرُونا

وأرسل إليه ابن زياد جيشاً آخر بقيادة زُرْعة بن أسلم العامرى ، فلم يكن حظه خيراً من حظ سابقه ، حتى إذا كانت سنة ٦١ بعث إليه عباد بن علقمة فهزمه وقضى عليه . وقد تطايرت مع معاركه أشعار كثيرة .

وعاد الجيش المنتصر إلى البصرة ، فتصدى عبيدة بن هلال الخارجي ونفر معه لقائده فقتلوه غيلةً ، وأخذ كثير من الخوارج يدعو للاقتداء بأبى بلال فى خروجه شعراً[١] وغير شعر . وسمع فريق منهم بأن جيشاً سيُسَيَّر لابن الزبير فى مكة ، فخرجوا إليه ليعينوه ضدّ من سيهاجمونه هو والبلد الحرام . وتوفّى يزيد فرجع أهل الشام إلى ديارهم ، وانفضّ الخوارج من حول ابن الزبير ، إذ رأوه لا يرى رأيهم ، وفى مقدمتهم نَجْدة بن عامر الحنفى ونافع بن الأزرق وعبد الله بن الصفّار وعبد الله بن إباض ، وذهبوا إلى البصرة ، وأخذوا يَدْعون لمحاربة السلطان ، وساعدهم فى شَغبهم فرار عبيد الله بن زياد عقب وفاة يزيد إلى الشام وانتقاض تميم وحلفائها على الأزد ومن آزرها . وانتهز نافع بن الأزرق الفرصة فخرج بجمع كبير من الخوارج إلى الأهواز ، وطرد منها عمّال ابن زياد ، وتخلّف عنه نَجْدة بن عامر وابن الصفار وابن إباض ، إذ رأوه يغلو فى آرائه ، وذلك أنه كان يرى دار المسلمين دار كفر يجب الخروج عنها كما يجب تحريم ذبائحهم وميراثهم والتزوج منهم ، وأيضاً يجب قتلهم وقتل نسائهم وأطفالهم ، وسلك ابنُ الأزرق معهم القَعَدَةَ من الخوارج . وخالفه فى كل ذلك الثلاثة الذين سميناهم فقد ذهبوا إلى أن المسلمين ليسوا كفارَ دينٍ لتمسكهم بالتوحيد والقرآن السنة ، إنما هم كفار نعمة ، ومن ثَمّ يحل التزوج منهم كما يحل التوارث بينهم وبين الخوارج ، وحقّاً يجب جهادهم ولكن لا يصحّ قتل أطفالهم ، وأجمعوا

(١) الكامل ص ٥٩٠ ، ٥٩٥ .

على أن القَعَدة منهم ليسوا كفاراً[١]. ومضى نجدة بأصحابه الذين يسمون بالنَّجَدات نسبةً إليه فنزل اليمامة، وأعلن هناك الجهاد، أما عبد الله بن الصفّار الذى تنسب إليه الصُّفْرية، لصفرة وجوههم من أثر العبادة[٢] فإنه لم يُعْلن الخروج، ومن أجل ذلك شاع القعود عن الجهاد بين أنصاره[٣].

وقد انضمّ إلى نافع بن الأزرق كثيرٌ من جموع الخوارج الذين دانوا برأيه، وهم يسمون الأزارقة نسبة إليه، وكان من بنى حنيفة، إلا أن أكثر أنصاره كانوا من بنى تميم، ولم يلبث أن جَهَّز جيشاً كبيراً اتجه به إلى البصرة فخرج إليه مسلم بن عُبَيْس فى جيش ضخم، وما زال يدافعه حتى كانت وقعة دولاب على نهر دُجَيل فى الأهواز وفيها قُتل نافع ومسلم معاً، وتوالت وقائع أخرى قُتل فيها عبد الله بن الماحوز خليفة نافع. وتصدّى لهم المهلب فى سولاف ثم فى سِلّى وسِلَّبْرى، وانسحب الخوارج إلى الجبال بقيادة الزبير بن الماحوز، وهزمهم عمر بن عبيد الله بن معمر عند سابور، فانسحبوا إلى أصفهان وكرمان وتعقبهم هناك عتّاب بن ورقاء وقتل أميرهم الزُّبير فولّوا عليهم قَطَرِىّ بن الفُجاءة وتقدّم بهم إلى العراق، فوجّه إليهم مصعب المهلبَ، فصدهم وما زال يناوشهم حتى قُتل مصعب، وتحوّل الأمر إلى بنى أمية، فأرسلوا إليهم قواداً حالفتهم الهزائم، حينئذ وجّه إليهم بشر بن مروان المهلبَ عدوَّهم اللدود، وما زال يخضد من شوكتهم فى رامهرمز وسابور وكرمان، وتعقبهم إلى جيرفت، ولم يلبث أن دبّ الخلاف بينهم، وتحاربوا، إذ خرج على قطرىٍّ جماعةٌ كبيرة من صفوفه بزعامة ابن عبد ربّ، وكان أكثرهم من الموالى. ورأى قطرى أن ينسحب بجموعه إلى طبرستان، وبذلك قضى المهلب سنة ٧٨ على عبد رب وأصحابه قضاء مبرماً، وتعقبت جيوش أخرى قطرياً وصاحبه عبيدة بن هلال، وكُللت جهودها بالنجاح،

---

(١) الكامل ص ٦١٠ — ٦١٥ وانظر الفرق بين الفرق للبغدادى ٦٢ وما بعدها والشهرستانى (طبعة لندن) ص ٩٠، ٩٣، ١٠٠ — ١٠٢ وما بعدها حيث تجد تفصيلا لآراء هذه الفرق.

(٢) الكامل ص ٦١٥.

(٣) نفس المصدر ص ٦١٥ والشهرستانى ص ١٠٢.

وبذلك انتهت حروب الأزارقة التى استمرت نحو أربعة عشر عاماً ، وقد تطاير فيها شعر كثير (١).

وقد قلنا إن نجدة خرج بمن معه إلى اليمامة ، فأخضعها ، كما أخضع البحرين وعُمان ، وساعده اضطراب شئون الدولة فى عهد ابن الزبير على أن يتسع نفوذه فى اليمن وجزيرة العرب . غير أن خلافاً نشب بينه وبين بعض أنصاره ، فولّوا عليهم أبا فُدَيْك سنة ٧٢ وقد هاجم البصرة مراراً ، غير أنه هُزم فى سنة ٧٣ هزيمة ساحقة قَضَتْ على دولة النجدات قضاء مبرماً .

وشاع مذهب الصُّفْرية فى الموصل ، وشاع معه القعود عن الخروج إلى أن ظهر فيهم صالح بن مسرّح ، وكان من وعّاظهم ، فما زال يدبر للأمر حتى اجتمع حوله كثيرون ، فخرج بهم فى سنة ٧٦ وأنزل بجيوش الحجاج هزائم متوالية ، غير أنه لم يلبث أن قُتل فى إحدى الوقائع . فنهض خليفته شبيب بن يزيد ومعه زوجته غَزالة وأمه جَهيزة بمقارعة الحجاج مقارعة عنيفة حتى لقد قتل خمسةَ قواد أرسلهم إليه واحدا بعد واحد . ودخل فى بعض غاراته مع زوجته غزالة على الحجاج فى الكوفة ، فهُرع إلى قصره ، وتحصّن به منه ، وبذلك جلّله بالعار . وفى إحدى حروبه نفرَ به فرسه فغرق فى نهر دُجَيْل سنة ٧٧ غير أن ذكراه بقيت خالدة فى ذاكرة الخوارج . وظل صُفرية الموصل بعده لا يهدءون فقد تجدد خروجهم فى عهد يزيد بن عبدالملك بقيادة شَوْذب ، وقضت عليه جيوش الشام ، وخرج بعده فى عهد هشام بهلول بن بشر ، وقضت عليه جيوش خالد القسرى ، وكان آخر ثُوّارهم الضحاك بن قيس الذى استولى على العراق فى سنة ١٢٧ وبايعه عبد الله بن عمر بن عبد العزيز واليها وسليمان بن هشام وصلّيا خلفه فقال شُبَيْل بن عَزْرة الضُّبَعى (٢) :

ألم تر أن الله أظهر دينَهُ وصَلَّتْ قريشٌ خلف بكر بن وائلِ

وأرسل إليه مروان بن محمد ابنه عبد الله ثم نازله بنفسه فقضى على ثورته .

---

(١) انظر الكامل للمبرد ص ٦١٧ – ٧٠٣ . فى مواضع متفرقة من الجزء الخامس وكذلك
(٢) البيان والتبيين ١/٣٤٢ وانظر فى الأحداث الطبرى الكامل للمبرد .

وظل أنصار عبد الله بن إباض المسمون بالإباضية نسبة إليه لا يتحركون ، حتّى ظهر من أتباعه فى سنة ١٢٩ عبيد الله بن يحيى الملقب بطالب الحق فى حضرموت فاستولى عليها وعلى اليمن ، وجهّز جيشاً بقيادة أبى حمزة للاستيلاء على مكة والمدينة ، واستولى عليهما غير أن جيشاً أموياً لقيه فى وادى القُرَى وهزمه هزيمة ماحقة فَرَّ على إثرها إلى مكة . وهناك لحقه الجيش وقتله ، وتقدم هذا الجيش فقضى على عبيد الله بن يحيى وعاد الأمر إلى نصابه .

وكان الشيعة طوال العصر يعارضون بنى أمية جهراً وسرًّا ، وكان مركزهم الكوفة كما قدمنا ، ويُضْطَرُّ زياد بن أبيه إلى العنف بهم كما مرّ بنا فى غير هذا الموضع حتّى إذا وجد أهلها الفرصة بعد وفاة معاوية كاتبوا الحسين ليذهب إليهم لأخذ البيعة ، ويُقْبِل الحسين فلا يخفّوا إلى نجدته ، ويُقْتَل فى كربلاء ، ويتحوّل قتله فى نفوس الشيعة ناراً حامية لا تزال تسيل عويلا وحُرَقاً لاذعة[١] . ثم تكون حركة التوّابين بزعامة سليمان بن صُرَد ، ويُقْضَى عليها ، ويبكيهم أعشى هَمْدان فى قصيدة طويلة كانت من المكتّمات فى أيام بنى أمية[٢] .

ويتولى المختار بعد سليمان بن صُرَد قيادة الشيعة فى الكوفة . فيخرج عنها والى ابن الزبير ، ويدعو دعوة صريحة لابن الحنفية ، وهو — كما أسلفنا — ابن لعلى بن أبى طالب من امرأة من بنى حَنيفة . وسرعان ما أخذت تتكون حول دعوته نظرية شيعية تسمى الكيسانية نسبة لمولى يسمى كَيْسان . وقيل بل كيسان هو المختار نفسه . وتشترك هذه النظرية فى الأسس التى قام عليها التشيع ، وهى أن الرسول صلى الله عليه وسلم أوصى بالخلافة من بعده لعلى ؛ فهى ليست مفوّضة للأمة ، بل هى تنتقل بالوصية فى على وأبنائه المعصومين من الأئمة انتقالا طريقه النص . وزادت الكيسانية أفكاراً غالية استمدتها من السبئية المنسوبين إلى عبد الله بن سبأ ، وكان

(١) انظر الطبرى فى حوادث سنة ٦١ ومقاتل الطالبيين لأبى الفرج الأصبهانى (طبع الحلبى) ص ١٢٦ .

(٢) طبرى ٤٧٢/٤ . ص ١٠٤ وما بعدها ومعجم الشعراء للمرزبانى

يغلو فى تصور علىٍّ . حتى انه زعم أن به قبساً إلهيًّا ورثه عن الرسول ، وهو ينتقل من بعده فى الأئمة واحداً تلو الآخر ، وبذلك أشاع فكرتى الحلول والتناسخ ، وأيضاً فقد زعم أن عليًّا سيعود فيملأ الأرض عدلا وعلماً ونوراً . وبذلك وضع أسس فكرة الرَّجْعة . ومضى يزعم أن الإمام لا يعلم علم الظاهر فحسب ، بل هو يعلم أيضاً علم الباطن لاطلاعه على أسرار الكون وخفايا المغيبات .

وكل هذه الأفكار انزلقت إلى الكيسانية(١) وزاد المختار عليها شعوذات(٢) كثيرة ، من ذلك أنه كان يقول بالبَداء على الله أى أن له أن يعدِّل فى الأحكام كلما بدا له التعديل - تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً . وإنما اعتنق هذا القول لأنه كان يدَّعى علم ما يحدث من الأحوال بوحى يوحَى إليه ، فكان إذا وعد أصحابه بحدوث شيء ، فإن حدث جعله دليلا على صدق دعواه ، وإن لم يحدث يقول : قد بَدا لربكم . وكان يزعم أن محمد بن الحنفية هو المهدى المنتظر الذى يخلِّص العالم من شروره ، وكان يتكهن بالأسجاع ، واتخذ لأشياعه كرسيًّا غشَّاه بالديباج وقال لهم : إنه من ذخائر أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، وهو منكم بمنزلة التابوت فى بنى إسرائيل . وكان يُكْثِر من إرسال حمامات بيضاء على جيوشه زاعماً أنها ملائكة تنزل عليهم من السماء ، وفى ذلك يقول سُراقة(٣) البارقى وقد فَرَّ عنه(٤) :

أَلا أَبلغْ أَبا إِسحاقَ أَنى ... رأَيت البُلْقَ دُهْمًا مصمتاتِ(٥)

كفرتُ بوَحْيكم وجعلتُ نَذْرًا ... علىّ قتالكم حتى المماتِ

---

(١) انظر الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٣٤ والملل والنحل للشهرستانى ص ١٠٩ .

(٢) الملل والنحل ص ١٠٩ — ١١١ .

(٣) انظر فى ترجمة سراقة الطبرى ٤/٥٢٦ وما بعدها والأغانى (طبع دار الكتب) ١٣/٨ ، ٦٨ ، ١٣/٩ وابن عساكر ٦/٦٩ والأخبار الطوال للدينورى ص ٣٠٠ وقد نشر ديوانه فى القاهرة بتحقيق حسين نصار .

(٤) طبرى ٤/٥٢٧ وأغانى ٩/١٣ .

(٥) البلق : الحمامات . مصمتات : لا يخالط دهمتها لون آخر .

ويقول أعشى همدان[١] :

شهدتُ عليكم أنكم سَبَئِيَّةٌ ... وأنى بكم يا شُرْطةَ الكُفر عارفُ
وأقسم ما كرسيُّكم بسكينةٍ ... وإن كان قد لُفَّتْ عليه اللفائفُ[٢]
وإن لَيْس التابوت فَتْناً وإن سمتْ ... حمامٌ حواليه وفيكم زخارف[٣]

ولعل أهم فرقة شيعية بعد فرقة الكيسانية لهذا العصر هى فرقة الزيدية أتباع زيد بن على الذى ثار فى الكوفة سنة ١٢١ لعهد هشام بن عبد الملك ، وقُتل كما مرَّ فى غير هذا الموضع ، وكان يؤمن بحقوق بيته فى الخلافة غير أنه لم يكن يؤمن بالنص فى الإمامة ولا ببقية الآراء الغالية عن الكيسانية وأشباههم ، وكان يجوِّز إمامة المفضول مع وجود الأفضل وبذلك جوَّز إمامة أبى بكر وعمر مع وجود على ، وذهب إلى أن كل فاطمى عالم زاهد سخى شجاع قادر على القتال فى سبيل الحق يخرج للمطالبة به يصح أن يكون إماماً . وبكل ذلك كانت فرقة الزيدية — فى نشأتها — من أكثر فرق الشيعة اعتدالا[٤] ، وشاعرها الأول الذى عاش يردِّد نظريتها الكُمَيْت . وهاشمياته مطبوعة ومشهورة . وخرج بعد زيد ابنه يحيى ولكنه قُتل سنة ١٢٥ دون غايته . وخرج من بعده عبد الله بن معاوية ابن عبد الله بن جعفر سنة ١٢٧ وانضم إليه كثيرون من أهل الكوفة ، وانتهى أمره بخروجه إلى بلاد الجبل ثم فراره وقتله . غير أن رايات الشيعة لا تلبث أن تتقدم من خراسان ، وتكون نهاية بنى أمية .

ومن الحقق أن هذه الانقسامات العنيفة فى صفوف الأمة العربية لعصر بنى أمية وما جرَّت إليه بين أبنائها من تطاحن ومعارك دامية جعلها تنتكس صورتين من الانتكاس : صورة سياسية إذ ظلت طوال هذا العصر مشغولة بفتن وحروب داخلية لو لم تُشْغَلْ بها لفتحت أكثر العالم ولتغيَّر وجه التاريخ . وصورة اجتماعية إذ انقسم الشعب أحزاباً وصفوفاً تتحارب وتتناحر فى سبيل

---

(١) الحيوان ٢/٢٧١ .

(٢) يشير إلى الآية الكريمة التى كان يقصدها المختار فى اتخاذ كرسيه : (وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم) .

(٣) فتن : جمع فتان وهو الغشاء .

(٤) انظر فى الزيدية وعقيدتهم الملل والنحل ص ١١٥ .

الحكم ومطامعه ، ولو أنصفت الأمة لأخذت بنظرية الخوارج فأحقّ الناس بحكمها أصلحهم سواء أكان من البيت الهاشمى أو من البيت الأموى أو من أى بيت من بيوت العامة ، فخير الأمة أنفعهم لإدارة شئونها ولو كان أبوه نجاراً أو حدّاداً أو راعياً من الرعاة . ومن الغريب أنهم أهملوا التفكير فى المصلحة العامة للشعب وما ينبغى أن يسوده من عدالة اجتماعية ومضوا يفكرون فى الخلافة ومن أحقّ بها من سواه ، وكأنما انقلبت الوسيلة غاية ، تُسْفَك من أجلها الدماء .

وفى كل الأحداث التى قدمناها سواء منها ما يتصل بالشيعة والخوارج وثوراتهما وما يتصل بأشراف العرب وثوراتهم على الأمويين تَرْوى كتب التاريخ أشعاراً كثيرة ، إذ كان الشعر يجرى على كل لسان ، واتخذه الأمويون وخصومهم أداة للتعبير عن آرائهم السياسية المختلفة .

٤

الحضارة

رأينا فى الفصل السابق كيف أن المدينة ومكة غرقتا فى نعيم الحضارة ، بما صبّ فيهما من أموال ورقيق أجنبى وجوار وإماء . وبمجرد أن هاجر العرب من الجزيرة ومصّروا الأمصار ونزلوا فى بلدان الأمم المفتوحة أخذوا يتأثرون تأثراً واسعاً بالحضارات الأجنبية ، إذ كانت تحت أعينهم ، وكانت حجورهم تمتلىء بأموال الفَيْء وغنائم الحرب وما رُسِم لهم فى دواوين الدولة من رواتب ثابتة . وسرعان ما تحضروا ، بل سرعان ما أُتْرِفوا ، إذ ابتنوا القصور . وطَعِموا فى أوانى الذهب والفضة مختلف الأطعمة . ولبسوا الثياب الحريرية المزركشة . وتعطّروا بالمسك وغيره من أنواع الطِّيب . وكان الموالى من ورائهم يهيّئون لهم جميع الأسباب لينعموا بكل ألوان الترف . إذ اكتظّت بهم قصورهم ، يقول ابن خلدون : « لما ملك العرب فارس والروم استخدموا بناتهم وأبناءهم ، ولم يكونوا لذلك العهد فى شىء من الحضارة . فقد حُكى أنه قُدِّم لهم المرقّق فكانوا يحسبونه رِقاعاً ، وعثروا

على الكافور فى خزائن كسرى فاستعملوه فى عجينهم . فلما استعبدوا أهل الدول قبلهم واستعملوهم فى مهنهم وحاجات منازلهم ، واختاروا منهم المهرة فى أمثال ذلك والقومة عليه ، أفادوهم علاج ذلك والقيام على عمله والتفنن فى أحواله ، فبلغوا الغاية من ذلك ، وتطوروا بطور الحضارة والترف فى الأحوال واستجادوا المطاعم والمشارب والملابس والمبانى والأسلحة والفرش والآنية وسائر الماعون والخرثى[١] فأتوا من ذلك وراء الغاية[٢] » .

وقد ورث العرب فى الشام المدن هناك ولم يمصّروا أمصاراً جديدة ، وبذلك عاشوا فى نفس المدن والدور والقصور التى كانت قبل الفتوح تتنفس الحضارة اليونانية الرومانية . وكان ذلك سبباً فى سرعة تحضرهم ، إلا من آثر منهم العيش فى البادية . وكانت هناك دمشق حاضرة الدولة التى أخذت تسيل إليها سيول الذهب والفضة من كل قطر ، ثم توزّعها فى الناس من أهل الشام أولا ثم من أهل البلدان الأخرى ، واستنّ لهم ذلك معاوية الذى كان يَرِدُ بالناس على أرجاء وادٍ رَحْب[٣] ، ويؤثر عنه أنه كان يقول إننا تمرغنا فى نعيم الدنيا تمرغاً[٤] . ويظهر إثم هذا النعيم فى ابنه يزيد الذى عُرف عنه كما قدمنا أنه كان « يشرب الخمر ويَعْزف بالطنابير وتَضْرب عنده القيان ويلعب بالكلاب » . ويخلفه مروان ابن الحكم وأبناؤه الذين أحاطوا أنفسهم بكل ما يمكن من أبهة الملك لا فى قصورهم التى كانت تزدان بالطنافس وتلمع على حيطانها الفُسَيْفساء وصفائح الذهب وتترامى فى أفنيتها النافورات فحسب ، بل أيضاً فى بيوت الله . وعنايةُ عبد الملك بالمسجد الأقصى وقبّته التى تُعَدّ إحدى عجائب الدنيا مشهورة ، وكذلك عناية الوليد ابنه بالجامع الأموى فى دمشق وزخرفته بالرخام والفُسَيْفساء والزجاج الملون أشهر من أن نقف عندها[٥] ، ولا تزال من ذلك بقية إلى اليوم . وقد بسط هذه العناية على المسجد الحرام فى مكة ، فأحاله تحفة رائعة[٦] . ومما يُذْكَرُ له من مآثر أنه عَمّ بعطائه المجذّمين وقال لهم : لا تسألوا

---

(١) الخرثى : أثاث البيت .

(٢) مقدمة ابن خلدون (طبعة المطبعة البهية بمصر) ص ١٢١ .

(٣) طبرى ٤/٢٩٨ .

(٤) طبرى ٤/٢٤٧

(٥) الحيوان للجاحظ ٥٦/١ .

(٦) اليعقوبى ٣٤٠/١ .

الناس، وأعطى كل مُقْعَد خادماً وكل ضرير قائداً(١). وتفنّن الناس لعهده فى بناء الدور والقصور، وخلفه سليمان فصبَّ عنايته على الملابس والمطاعم وتأثّره الناس لعهده تأثراً واسعاً(٢). وتظهر ضريبة هذا الترف عند يزيد بن عبد الملك الذى وصفه أبو حمزة الإباضى، فقال: إنه «يشرب الخمر ويلبس الحُلّة قُوِّمت بألف دينار... حبّابة عن يمينه وسَلاّمة عن يساره تغنيانه حتى إذا أخذ الشراب منه كل مأخذ قدّ ثوبه، ثم التفت إلى إحداهما فقال: ألا أطير»(٣) وقد أرسل فى طلب مغنى الحجاز، فجاءه منهم كثيرون.

ولم تكن حمول الذهب والفضة تُحْمَلُ وحدها إلى بنى أمية من الآفاق، فقد كانت تُحْمَلُ معها حمول الجواهر واللآلىء كما يحدثنا الجهشيارى(٤)، ويَرْوى الطبرى أن يوسف بن عمر حمل إلى هشام بن عبد الملك لآلئ حبُّها أعظم ما يكون وحجراً من الياقوت يخرج طرفاه من الكف، قُوّم بثلاثة وسبعين ألف دينار(٥). وقد بلغ الترف أقصاه فى عهد الوليد بن يزيد بن عبد الملك الذى عاش للهو والغناء، حتى تحوّل قصر الخلافة فى عهده إلى ما يشبه داراً كبيرة من دور اللهو. ويقولون إنه «كان يلبس حول عنقه قلائد ذهبية مرصّعة بالأحجار الكريمة، ويغيّرها فى اليوم مراراً كما تغيّر الثياب شغفاً(٦)».

ومن المؤكد أن أفراد العرب فى الشام لم يتحولوا جميعاً إلى مثل الوليد بن يزيد ولا إلى مثل أبيه فى هذا الترف الآثم، إنما المؤكد أنهم تحضروا وأن نفراً منهم أُتْرِفوا، بعضهم من أمراء البيت الأموى وبعضهم من الرعية. وبالمثل تحضّر من نزلوا فى الفسطاط والقيروان والأندلس، وكانت كثرتهم من عرب الشام، الذين أصابوا حظّاً من الحضارة قبل الفتوح لنزولهم قديماً فى تلك البيئة المتحضرة.

---

(١) طبرى ٢٦٥/٥.
(٢) طبرى ٢٦٦/٥.
(٣) البيان والتبيين ١٢٣/٢.
(٤) انظر الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٢٧، ٣٤.
(٥) طبرى ٥١٩/٥.
(٦) أغانى ٥٩/٧.

وإذا ولّينا وجوهنا نحو البصرة والكوفة وجدنا العرب هناك يتحضرون تحضراً واسعاً رغم احتفاظهم بعصبياتهم القبلية ، إذ ساكنوا الفرس وبقايا الآراميين وخالطوهم ، وتحوّلت إليهم كنوز العراق وإيران وما كانوا يفتحونه من خراسان ، حتى كان يُقْسَم للفارس الواحد فى بعض الغزوات ثلاثون ألفاً من الذهب[١] ، ومن يرجع إلى ما كتبه البلاذرى فى فتوح البلدان عن تمصير الكوفة والبصرة تهوله كثرة القطائع التى تملّكها الناس هناك من عرب وموال أمثال مسمار مولى زياد وفَيْر وزحصين وحسّان النبطى . وكانت الحمامات تدرُّ فى البصرة لهذا العصر أموالا كثيرة ، حتى ليُرْوَى أن بعضها كان يُغلّ يومياً ألف درهم ، ولم يكن يتملكها العرب وحدهم ، بل كان يتملكها أيضاً الموالى . ومما يذكره البلاذرى من حماماتهم حمام أَعْيَن مولى سعد بن أبى وقاص وحمام فيل مولى زياد وحمام سباه الأسوارى .

ونرى العرب والموالى جميعاً يتنافسون بالبصرة فى بناء القصور الفخمة ، ويذكر البلاذرى منها قصر زربى مولى عبد الله بن عامر وقصر أبى نافع مولى عبد الرحمن بن أبى بَكْرة وقصر ابن الأصبهانى وقصر شيرويه الأسوارى الذى سُمّى «هزاردر» لأنه اتخذ فيه ألف باب. ومما يدلُّ على مبلغ التأنق فى بناء هذه القصور ما يُرْوَى عن بعض التميميين بالبصرة من أنه طلب إلى معاوية أن يُعينه فى بناء داره باثنى عشر ألف جِذْع[٢] ، وكذلك ما يُرْوى من أن عبيد الله بن زياد أنفق على داره هناك التى سماها البيضاء ألف ألف درهم وأنه ملأها بالرياش والطنافس وزخرف حيطانها بتصاوير الحيوانات[٣] ، وفى نصوص كثيرة أنهم كانوا يحيطون قصورهم بالحدائق والبساتين[٤] .

وتبع ذلك كله الرّفه والترف فى المطعم والملبس ، حتى لنرى نفراً من الأتقياء يلبس الديباج والقلانس[٥] ، ونراهم يكنُون عن هذا التحول فى حياتهم بأنهم

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٤٣ .

(٢) طبرى ٤/٢٤٦ .

(٣) راجع ياقوت فى معجم البلدان تحت كلمة البيضاء وانظر الطبرى ٤/٢٠٤ .

(٤) انظر الكامل للمبرد ص ٧٨٥ والبيان والتبيين ٢/٨٢ .

(٥) ابن سعد ٥/١٣٩ ، ٦/٢٠٢ ، ٧ ق ١/١٥٣ .

طعموا الجَرْدق ولبسوا النُّمْرُق(١). وكانت الثياب والأطعمة تُحْمَل إليهم من البلدان القريبة والبعيدة ، ويُرْوَى عن الحجاج أنه كتب إلى عامل له بفارس «ابعث إلى بعسل من عسل خُلاّر(٢)، من النَّحْل الأبكار، من الدَّسْتفشار(٣)، الذى لم تمسَّه النار(٤)». ومما يصور هذا الرفه فى العيش والتنعم مايُرْوَى من أن عبيد الله بن زياد هيأ لأبيه حين توفِّى ستين ثوباً ليكفنه فيها(٥) ، فلم يعد الثوب ولا الثوبان ولا الثياب القليلة تكفى الكفن الواحد .

وطبيعى أن يُعْنَوْا فى ثنايا هذه الحياة الرَّغْدة بكثير من أسباب اللهو كسباق الخيل(٦) والصيد(٧) والقَنْص ولعبَى(٨) الشطرنج والنرد وسنرى أن كثيرين تورطوا فى إثم الخمر. وقد أخذت الكوفةُ تُعْنَى بالغناء ولم تكتف بمن نشأوا فيها من أمثال حُنَيْن(٩) الحيرى وأحمد(١٠) النَّصْبى ، فقد أخذت تستقدم المغنين والمغنيات من الحجاز ، وتفتح لهم دوراً يختلف إليها الناس كدار(١١) ابن رامين . وسقط هؤلاء المغنون إلى كل بلد عربى، إذ نجد فى الفسطاط ابن أبْجر(١٢) مغنى المدينة .

ونَعِمَ العرب فى خراسان بكثرة ما أصابوا من الأموال وفَيْءِ الغنائم ، وفى كتب التاريخ والأدب أخبار من ذلك تكاد تشبه الأساطير ، منها أن عبد الرحمن بن زياد الذى ولاه معاوية أعمال خراسان سُئِلَ فى أثناء ولايته عما صار إليه من أموال فقال : إنى قدَّرت ما عندى لمائة سنة ، فإذا هو يبلغ فى كل يوم ألف درهم(١٣)، ويُرْوَى أن مصعب بن الزبير فى ولايته على العراق جاءه من هنالك نخلةٌ مصنوعة من الذهب، عثاكيلها من لؤلؤ وجوهر وياقوت أحمر

---

(١) طبرى ٥/٢٨٠ . والنمرق : مفرد نمارق وهى الطنافس

(٢) خلار : موضع بفارس مشهور بعسل النحل .

(٣) الدستفشار : كلمة فارسية معناها المعصور باليد .

(٤) البيان والتبيين ٢/١٠٣ .

(٥) طبرى ٤/٤١٥ .

(٦) البيان والتبيين ٣/٢٥٧ .

(٧) أغانى (دار الكتب) ١،٣/٣٦١ والشعر والشعراء ٢/٥٨٨ .

(٨) نقائض جرير والفرزدق ص ٧٨٧ .

(٩) أغانى (دار الكتب) ٢/٣٤١ .

(١٠) أغانى ٦/٣٣ .

(١١) أغانى (دار الكتب) ١٥/٦٠ .

(١٢) أغانى ٣/٣٤٦ .

(١٣) الجهشيارى ص ٢٩ .

وأخضر ، وقد قوّمت بألفى ألف دينار[١] . ويُرْوَى أن الإصبهبذ فى طبرستان صالح يزيد بن المهلب فى بعض حروبه هناك على سبعمائة ألف درهم وأربعمائة ألف نقداً ومائتى ألف ، وأربعمائة حِمْل زعفران وأربعمائة رجل ، على كل رجل بُرْنس ، وعلى البرنس طيلسان ولجام من فضة وسرقة (شُقّة) من حرير[٢] . ويُقال إن الجراح الحكمى واليها لعهد عمر بن عبد العزيز كان يتخذ تحت بساطه نُقَراً يملؤها ذهباً وفضة ويوزّعها على من يدخل عليه من أصحابه[٣] . وكان الأمراء والدهاقين يتقدمون على ولاة خراسان بالهدايا النفيسة ، وقد قوّمت إحدى هداياهم لأسد بن عبد الله القسرى بألف ألف ، وكانت قصرين : قصراً من فضة وقصراً من ذهب ، وأباريق وصحافاً من ذهب وفضة[٤] . وكان الولاة بدَوْرهم يرسلون بالهدايا إلى الخلفاء ، ويُرْوى أن نصر بن سيار أعدّ للوليد بن يزيد هدية من الجوارى والبراذين الفارهة وأباريق الذهب والفضة وتماثيل الظباء والسباع وأنه أرسل له بكثير من آلات الطرب[٥] .

وسط هذه الأمواج من الأموال تحضّر العرب فى خراسان ، بل أُتْرفوا ترفاً شديداً ، حتى لنرى بعض الولاة يقول إن فَيْء خراسان لا يفى بمطبخى[٦] ! ويقال إن يزيد بن المهلب كان يتخذ ألف خِوان يُطْعم عليها الناس[٧] . وتدل نصوص كثيرة على أن العرب تأقلموا هناك ، فلبسوا السراويل والطيالسة والقلانس القصيرة والطويلة[٨] ، واحتفلوا بعيد النيروز والمهرجانات ، واختلفوا إلى سماع الطبول والمزامير[٩] ، وشرب كثير منهم النبيذ حتى اضْطرّ بعض الولاة لتفشيه فى الجند إلى أن يعاقب عليه بالقتل[١٠] .

وفى كل مكان نجد آثار هذا الترف . وفى كتاب الأغانى تراجم كثيرة لمن كانوا يُسْرفون على أنفسهم فى شراب الخمر لا فى خراسان فقط ، بل أيضاً

---

(١) الجهشيارى ص ٤٤ .
(٢) طبرى ٢٩٥/٥ .
(٣) بلاذرى ص ٤١٥ .
(٤) طبرى ٤٦٥/٥ .
(٥) طبرى ٥٣٣/٥ .
(٦) أغانى (دار الكتب) ٢٨١/١٤ وطبرى ١٣٢/٥ .
(٧) طبرى ٢٨٨/٥ .
(٨) لم يقف هذا اللبس عند عرب خراسان ، فقد شاع بين عرب العراق وزهادهم . انظر ابن سعد ١٣٩/٥ ، ٣٩٢/٥ ، ٢٠٢/٦ ، ٢٥٥/٦ .
(٩) طبرى ٤٣٧/٥ .
(١٠) طبرى ٢٨٣/٥ .

فى العراق وفى الحجاز ، ولم تكن الخمر وحدها ضريبة هذا الترف ، فقد ظهرت فى المدينة طائفة من المخنّثين ، كانوا يتشبّهون بالنساء فى ثيابهن وعاداتهن من مثل تضفير الشعر وتصفيفه وصبغ الأظافر بالحنّاء ، مما اضطر سليمان بن عبد الملك أن يُنْزل بهم عقاباً صارماً(١).

وطبيعى أن يمتد هذا الترف إلى النساء العربيات فقد كان الجوارى يزاحمنهن فى قلوب الرجال ، فتفنّنّ فى زينهن تفنناً واسعاً ، على نحو ماحكينا ذلك فيما أسلفنا عن السيدة سُكينة بنت الحسين . ويُرْوَى أن مصعب بن الزبير أهدى زوجته عائشة بنت طلحة بن عبيد الله ثمانى حَبّات من اللؤلؤ ، قيمتها عشرون ألف دينار ، ولما دخل عليها بهديته وجدها نائمة فأيقظها ليقدّمها إليها ، فلما رأتها قالت له غير آبهة : لقد كان النوم أحبّ إلىّ(٢). ويَرْوِى الأغانى أن عاتكة بنت يزيد ابن معاوية زوجة عبد الملك بن مروان استأذنته فى الحج فقال لها : ارفعى حوائجك واستظهرى فإن عائشة بنت طلحة تحجّ ، ففعلت ، وجاءت بهيئة جهدتْ فيها . فلما كانت بين مكة والمدينة إذا موكب قد جاء فضغطها وفرّق جماعتها ، فقالت : أرى هذه عائشة بنت طلحة ، فسألتْ عنها ، فقالوا : هذه خازنتها ، ثم جاء موكب آخر أعظم من ذلك ، فقالوا : عائشة ، عائشة ، فضغطهم ، فسألتْ عنه ، فقالوا : هذه ماشطتها . ثم جاءت مواكب على هذه الهيئة إلى سَنَنِها ، ثم أقبلت كوكبة فيها ثلاثمائة راحلة ، عليها القباب والهوادج ، فقالت عاتكة : ما عند الله خير وأبقى (٣).

٥

الثقافة

إذا أخذنا نحلل عناصر الثقافة العربية فى هذا العصر وجدناها تعود إلى ثلاثة جداول مهمة : جدول جاهلى وجدول إسلامى وجدول أجنبى . فأما الجدول الجاهلى فيبدو فى الشعر والأيام ومعرفة أنساب القبائل وتقاليد الجاهلية ، وقد

---

(١) أغانى (دار الكتب) ٤/٢٧١ وما بعدها.
(٢) أغانى ١١/١٨٢ .
(٣) أغانى ١١/١٨٨ .

أقبل العرب يعبُّون من هذا الجدول عبّا ، وكأنما صُفّوا عليه صفوفا ، وسرعان ما ظهر من بينهم علماء كثيرون يتخصصون بمعرفة الشعر وروايته والأنساب وتشعباتها وأخبار الجاهلية وأيامها مثل عُبَيْد بن شَرِيَّة راوية الأخبار اليمنية ، ودَغْفَل بن حنظلة النَّسَّابة والنَّخَّار بن أوس العُذْرى وزيد بن الكَيِّس النمَرى وشهاب بن مذعور وبنى الكَوَّاء وغيرهم كثيرون . وفى أهل هذه الطبقة يقول مسكين الدارمى(١) :

وحكِّمْ دَغْفَلاً وارحلْ إليه ولا ترحِ المَطِيُّ من الكَلالِ
تعالَ إلى بنى الكَوَّاء يقضوا بِعلْمِهِمِ بأنساب الرجال
هَلُمَّ إلى ابن مذعورٍ شِهابٍ يُنَبِّئُ بالسَّوافل والعوالى
وعند الكَيِّس النَّمِرِيِّ علمٌ ولو أضحى بمُنْخَرَقِ الشَّمالِ

وأما الجدول الإسلامى فيبدو فى القرآن الكريم وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرته وغزواته ، ثم فى الفتوح الإسلامية وأحداثها وحروب على وخصومه . وقد أخذ هذا الجدول يتشعب شعبتين كبيرتين : شعبة تاريخية تُعْنَى بتاريخ الإسلام على نحو ما يصور لنا ذلك أبان بن عثمان بن عفان وعروة بن الزبير فى اهتمامهما بمغازى الرسول ، وكان هنالك من عُنوا بجمع أخبار أهل الكتب السماوية مثل وهب بن منبِّه . وشعبة دينية تُعْنَى بقراءات القرآن وبالحديث النبوى وما يتصل بهما من تشريع وفقه . وقد ألّف أصحاب هذه الشعبة فى كل بلد إسلامى مدرسة كبيرة يأخذ فيها الخلف عن السلف ، واشتهر من بينهم بمكة تلاميذ ابن عباس وعلى رأسهم عطاء وعكرمة وبالمدينة سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ومولاه نافع وعبيد الله بن عبدالله بن عتبة وعروة بن أُذَيْنة والزُّهْرى وباليمن طاووس وبالكوفة تلاميذ ابن مسعود وعلى رأسهم الشَّعْبى وسعيد بن جُبَير وشُرَيْح بن الحارث القاضى وبالبصرة ابن سيرين والحسن البصرى وقتادة وإياس بن معاوية ومالك بن دينار وبخراسان الضحاك بن مزاحم وبالشام شهر بن حَوْشب ومكحول والأوزاعى وبمصر الصابحى ويزيد بن عبد الله البرنى .

---

(١) البيان والتبيين ١/٣٥١ .

وهذان الجدولان الإسلامى والجاهلى اخذت تنشأ حولهما طبقة من المعلمين العامين الذين كانوا يعلمون الناشئة القرآن والشعر وما يتصل بهما ، وكان منهم معلمون لأولاد الخاصة[١] من خلفاء بنى أمية وأمرائهم وولاتهم مثل عبدالصمد ابن عبد الأعلى ، ومعلمون لأولاد العامة فى كتاتيب القرى ، وقد اشتهر الحجاج الثقفى بأنه هو وأباه كانا معلّمين بالطائف. ومن هؤلاء المعلمين الكُمَيْت بن زيد وكان يعلم الصبية بالكوفة . وكان يقابله فى مكة عطاء بن أبى رباح وفى خراسان الضحاك بن مزاحم وفى الرَّىِّ الطرماح ، وفيه يقول بعض من شاهدوه هناك : « لقد رأيت الصبيان يخرجون من عنده وكأنهم قد جالسوا العلماء[٢] » .

وكان يلتقى بهذين الجدولين الإسلامى والجاهلى جدول ثالث أجنبى جاء العرب من ملابستهم للأمم الأجنبية فقد اندفعوا يطلبون كل ما لدى هذه الأمم من معارف تطبيقية نافعة ، فتعرّفوا على تخطيط المدن وعمارة المبانى وطريقة استغلال الأرض وشق التُّرَع والقنوات ؛ كما تعرفوا على طرق جباية الخراج وضبط الدواوين ؛ ونقلوا فى ذلك عن الفرس والروم كثيراً . وكانوا فى أول الأمر يستعينون بالأولين فى دواوين العراق وفارس وخراسان وبالأخيرين فى دواوين مصر والشام ، وظلوا على ذلك إلى عصر عبد الملك ، إذ عُرِّبت تلك الدواوين . وقد دفعتهم حروبهم مع الروم لإنشاء الأساطيل واقتباس بعض أساليبهم الحربية .

ولم يقف العرب فى تأثرهم بالأجانب عند المعارف التطبيقيه النافعة ، فقد تحولوا إلى المعارف النظرية البحتة يدرسونها ، وكانت تنتشر فى البلاد التى فتحوها الثقافة الهيلينية ، وهى مزيج من الثقافة اليونانية وثقافات شرقية مختلفة دينية وغير دينية . وكانت تُعْنَى بهذه الثقافة مدرسة جُنْدَيْسابور فى إيران ومدارس أخرى فى الرُّها ونَصيبين وأنطاكية وقنّسرين وحرّان والإسكندرية كما كانت تعنى بها بعض الأديرة فى العراق والشام ومصر . وكان المعلمون

(١) انظر فى هؤلاء المعلمين للخاصة ومن يليهم من معلمى الكتاتيب : البيان والتبيين ٢٥١/١ والمعارف لابن قتيبة (طبعة جوتنجن) ص ٢٧١ .

(٢) البيان والتبيين ٢٢٣/٢ .

فى هذه الأديرة والمدارس يعتمدون غالباً على مصادر سريانية ويونانية ، وممن اشتهر منهم فى هذا العصر «سويرس سيبوخت» أسقف دير قنسرين وتلميذه يعقوب الرهاوى وجورجيس أسقف حوران ، وكانوا جميعاً يُعْنَوْنَ بالمنطق الأرسطاليسى والفلسفة اليونانية[١].

وطبيعى أن يتصل العرب بهذه الفلسفة وذلك المنطق ، إذ كانوا ناشرين لدينهم ، وكانوا يجادلون النصارى وغيرهم من أصحاب الملل ، وقد اشتهر يوحنا الدمشقى الذى كان يشرف على الشئون المالية لغير خليفة أموى بأنهم كانوا يكثرون من جداله ، وله مصنفات مختلفة ، منها محاورة مع بعض المسلمين فى ألوهية المسيح ونظرية حرية الإرادة[٢]. وقد مضى العرب يطلبون الوقوف على ماعند القوم من وجوه الاستدلال المنطقى ، حتى يستعينوا على دحض الشُّبَه ، ويدعموا جدالهم بالحجج القاطعة. وينبغى أن نلاحظ أن كثيرين من حَمَلة هذه الثقافة الهيلينة المتشعبة أسلموا ، وتحولوا يدافعون عن الإسلام ويردون على خصومه. وبذلك لم تنتظر طويلا هذه الثقافة وما يتصل بها من المنطق حتى تُتَرْجَم ، فقد كان أهلها يعرِّبون تعريباً تامـًّا ، ومن ثم انتقلوا بها إلى العربية. وبين أيدينا أخبار تدل على أن العرب اهتموا بالترجمة منذ هذا العصر ، فمن ذلك ما يُرْوَى عن خالد بن يزيد بن معاوية من أنه استعان براهب رومى يسمى ماريانس ليعلمه الكيمياء[٣] ، كما استعان بأصطفن القديم ، ويقول الجاحظ : «هو أول من ترجمت له كتب النجوم والطب والكيمياء[٤]» ويذكر ابن النديم بعض كتبه فى ذلك[٥]. وفى أخبار عمر بن عبد العزيز أنه أمر ماسرجويه البصرى أن يترجم من السريانية إلى العربية كتاباً فى الطب للقس أهْرَن بن أعين[٦] ، وقد ذكر الحكم بن

---

(١) انظر مقالة مايرهوف «من الإسكندرية إلى بغداد» فى التراث اليونانى لعبد الرحمن بدوى ص ٥٣ وما بعدها .

(٢) راجع تاريخ العرب (مطول) لفيليب حتى (الطبعة العربية) ٢/٣١٤ .

(٣) وفيات الأعيان (طبعة ديسلان) ١/٢٤٦ .

(٤) البيان والتبيين ١/٣٢٨ .

(٥) الفهرست لابن النديم (طبعة القاهرة) ص ٣٣٨ .

(٦) ابن أبى أصيبعة ١/١٦٣ وتاريخ الحكماء (مختصر الزوزنى) طبع ليبزج ص ٣٢٤ وانظر نقولا عن ماسرجويه فى الحيوان ٣/٢٧٥ ، ٥/٣٦٤ .

عبدل الكوفى أهْرَن وطبَّه فى بعض شعره(١). ويـُرْوَى أن سالما مولى هشام بن عبد الملك تـَرْجـَم بعض رسائل لأرسطاليس(٢). كما يـُرْوَى أنه نُقل لهشام كتاب عن الفارسية يتحدث عن الدولة الساسانية ونظمها السياسية.(٣)

وهذه الأخبار القليلة عن الترجمة فى عصر بنى أمية إنما هى رمز للحقيقة الكبيرة، حقيقة تحول الثقافة الهيلينية إلى حجور العرب بكل ما كان فيها من منطق يونانى ومعارف مختلفة، ومن المؤكد أن هذا التحول لم يتأخر إلى العصر العباسى كى يتم، أو كى تتم دورته، فقد كان كل شىء فى هذا العصر الأموى يدفع إلى تمامه، لا عن طريق الترجمة فحسب، بل أيضاً كما قلنا آنفاً عن طريق المشافهة وانتقال الشعوب المفتوحة إلى الإسلام والعربية بكل كنوزها الفكرية ومعارفها العقلية.

ومعنى هذا كله أن العقل العربى دُعم فى هذا العصر بمواد ثقافية كثيرة، وهو دَعْم نجد آثاره فى ازدهار العلوم الإسلامية الخالصة: علوم الفقه والتفسير والحديث، كما نجد هذه الآثار فى كثرة المناظرات التى نشبت بين الآراء المختلفة فى السياسة والدين وغير السياسة والدين. وارجعْ إلى أخبار الخوارج فستجدهم يثيرون الجدال فى كل مكان، وجدالهم مع على بن أبى طالب وعبد الله بن عباس مشهور، ويُرْوَى أن عبد الملك بن مروان أُتى برجل منهم، فجعل يبسط له من قولهم ويزين له من مذهبهم بلسان طَلْق وألفاظ بينة ومعان قريبة، حتى قال عبد الملك: لقد كاد يوقع فى خاطرى أن الجنة خُلقت لهم وأنى أولى بالجهاد منهم، ثم رجعت إلى ما ثبَّت الله علىَّ من الحجة وقرَّر فى قلبى من الحق(٤). وهذا رجل من عامتهم فما بالنا بزعمائهم، ويُشيد المبرد فى كتابه «الكامل» بقدرتهم على الجدل واستظهار الأدلة والبراهين(٥)، وقد جعلهم

(١) الحيوان ١/٢٤٧ وعيون الأخبار ٤/٦٢.

(٢) الفهرست ص ١٧١.

(٣) راجع صفحات عن إيران لصادق نشأت ومصطفى حجازى (نشر مكتبة الأنجلو المصرية) ص ٨١.

(٤) الكامل (طبعة رايت) ص ٥٧٣.

(٥) الكامل ص ٥٦١.

ذلك يختلفون ويتوزعون فرقا من أزارقة ونَجْدية وصُفْرية وإباضية، وشكا زيد بن جُنْدب من هذا الاختلاف بينهم ، فقال[١] :

كُنّا أُناساً على دينٍ ففرّقنا طولُ الجِدال وخلطُ الجِدِّ باللَّعِبِ
ما كان أَغْنَى رجالا ضلَّ سَعْيُهُمُ عن الجدال وأغناهم عن الخُطَبِ

وكان الشيعة على شاكلتهم ينافحون عن عقيدتهم ، واختلفوا هم الآخرون وتجادلوا فيما بينهم ، وجادلوا أصحاب الفرق التي عاصرتهم ، وممن اشتهر بإحسانه للجدال منهم زيد بن على بن الحسين مؤسس مذهب الزيدية الشيعى ، وقد تحول شاعره الكميت بأشعاره الملقّبة بالهاشميات إلى تقرير نظرية هذا المذهب وكأننا لا نقرأ عنده شعراً ، وإنما نقرأ مقالة فى المذهب الزيدى تبسط أصوله وتدافع عنه بالحجج والبراهين .

وإذا انتقلنا من السياسة إلى الدين وجدنا الفقهاء يتجادلون طويلا فى مسائلهم الفقهية بين أيدى الخلفاء وفى مجالسهم العامة والخاصة ، وتُرْوى من ذلك مناظرة[٢] بين قَتادة والزُّهْرى فى مجلس سليمان بن عبد الملك وأخرى[٣] بين ابن شبرمة وإياس بن معاوية ، تناولا فيها نحو سبعين مسألة . ويُرْوَى أن الشَّعْبى الكوفى كان يجلس فى مجالسه وحوله تلاميذه يناظرونه[٤]. وقد كثرت هذه المناظرات حتى نشأ عنها علم الاختلاف أى اختلاف الفقهاء . وكان أيوب السَّختيانى يقول : « لا يعرف الرجل خطأ معلمه حتى يسمع الاختلاف[٥] » ، وأداهم ذلك إلى تحكيم العقل فى آرائهم والتدقيق فى مسالك أدلتهم حتى نشأ بينهم من سُمُّوا أهل الرأى لغلبة القياس على فقههم[٦].

وقد تجادلوا طويلا فى مسائل العقيدة ، وسرعان ما أخذ علم الكلام فى الظهور وتكونت فيه مذاهب القدرية والجَبْرية والمُرْجئة والمعتزلة ، وكان من أهم المسائل التى أثيرت بينهم مسألة حرية الإرادة ، وهل الإنسان حر مختار فى أفعاله أو هو

---

(١) البيان والتبيين ١/٤٢ .
(٢) البيان والتبيين ١/٢٤٣ .
(٣) ابن سعد ج ٧ ق ٢ ص ٥ .
(٤) البيان والتبيين ٢/٣٢٢ .
(٥) البيان والتبيين ٢/٩٨ .
(٦) المعارف لابن قتيبة ص ٢٤٨ .

مُجْبر مسيَّر ؟ ووقف القدرية وعلى رأسهم الحسن البصرى يدافعون عن الرأى الأول ، إذ لو كان الإنسان مسيَّراً بقضاء لازم وقدر محتوم لبطل الثواب والعقاب وسقط وَعْد الله ووعيده .

واصطفَّ أمام القدرية أصحاب مذهب الجَبْر يناضلون عن مذهبهم وأن كل شيء بقضاء وقدر . وكان هذا المذهب يُرْضى الأمويين ، لأنه يَصْرِف الناس عن التفكير فى ولايتهم وتدبيرهم لشئونهم ، مؤمنين بأن خلافتهم قَدَرٌ مقدور يجب عليهم التسليم به ، ومن ثَمّ نرى شعراءهم يردِّدون هذه الفكرة طويلا على شاكلة قول جرير يمدح عبد الملك بن مروان[1] :

اللهُ طوَّقك الخلافةَ والهُدَى ... واللهُ ليس لما قَضَى تبديلُ

وانبثقت من هذا المذهب ومذهب القدرية شعبة المُرْجئة فكان هناك جبرية مرجئة وقدرية مرجئة ، وكانوا يرون الفصل بين الإيمان والعمل ، فالمؤمن مسلم وإن لم يؤدّ الفروض الدينية ، إذ المعوَّل فى الإيمان على التصديق بالقلب . وكانوا يرون أيضاً إرجاء الحكم على أعمال الناس وتركه إلى الله جَلّ جلاله ، ومن ثَمّ رأوا إرجاء الحكم فى أمر على وعثمان ومعاوية حتى يحكم الله بينهم . وجعلهم ذلك يصطدمون بالدولة ، لما تنتهى إليه دعوتهم من تعطيل أحكام الدين وأوامره ونواهيه ، ويلقانا منهم أبو رؤبة سنة ١٠٢ فى نفر من أصحابه يحارب مع يزيد ابن المهلب فى ثورته على الأمويين[2] . وفى أخبار عمر بن عبد العزيز أنه طلب أئمتهم فى الكوفة من أمثال عَوْن بن عبدالله بن عتبة الهُذَلى ، وناظرَهم فى آرائهم[3] . ونرى عَوْناً يرجع من عنده فيبرأ منهم ، وينضم إلى الشيعة ، مصوراً ذلك فى أبيات تُنْسَب إليه تجرى على هذا النمط[4] :

وأولَ ما نفارقُ غير شَكٍّ ... نفارقُ ما يقول المُرْجئونـا
وقالوا مؤمنٌ من أهل جَوْرٍ ... وليس المؤْمنون بجائرينا
وقالوا مؤمنٌ دَمُهُ حلالٌ ... وقد حَرُمَتْ دماءُ المسلمينا

---

(١) ديوان جرير (طبعة الصاوى) ص ٤٧٤ .
(٢) طبرى ٥/٣٤٠ .
(٣) ابن سعد ٦/٢١٨ .
(٤) البيان والتبيين ١/٣٢٨ .

وواضح أنه يصف المرجئة بأنهم يستحلُّون دماء المسلمين مما كان سبباً فى تعقب الأمويين لهم ، وقَتْلهم أحياناً على نحو قتل هشام بن عبد الملك لغَيْلان[1] الدمشقى.

ولم يُعْرَفْ هذا المذهب فى العراق والشام فحسب ، فقد كان له أنصار فى خراسان ، ومن قدماء أنصاره هناك ثابت قُطْنة وهو من مُرْجئة الجبرية ، وله قصيدة طويلة يصور فيها عقيدته ، يقول فى تضاعيفها[2] :

المسلمون على الإسلام كلُّهمُ ... والمشركون أَشَتُّوا دينهم قِدَدا[3]
ولا أرى أن ذنبا بالغٌ أحـدا ... م الناسِ شِرْكا إذا ما وحَّدوا الصَّمَدا
وما قضى الله من أمرٍ فليس له ... رَدٌّ وما يَقْضِ من شيءٍ يكنْ رَشَدَا
كلُّ الخوارج مُخْطِئ فى مقالتهِ ... ولو تعبَّد فيما قال واجتهـدا
أمـا علىٌّ وعثمانٌ فإنهمـا ... عبدان لم يُشْركا بالله مُذ عَبَدا

ويتوفَّى ثابت ، ويظهر هناك جَهْم بن صفوان أحد رءوس الإرجاء[4] ويضع يده فى يد الحارث بن سُرَيج ويشعلان ثورة عنيفة على الأمويين ، ويُقْضَى عليها بعد صراع مرير .

وقد انبثق من مذهب القدرية مذهب جديد هو مذهب الاعتزال ، وكانت المشكلة الأولى التى انبثق عنها هذا المذهب هى مشكلة مرتكب الكبيرة ، إذ كان الخوارج يرون أنه كافر ، بينما كانت المرجئة ترى أنه مؤمن ، وكان الحسن البصرى ومن تابعوه من القَدرية يرون أنه مؤمن فاسق فأظهر واصل بن عطاء القول بأنه غير مؤمن ولا كافر ، بل هو فى منزلة بين المنزلتين . وأثار ذلك جدالا عنيفاً بينه وبين أصحابه من القدرية ، ودفع الحسنُ عمرو بن عُبَيْد ليجادله فيه . فأقنعه واصل برأيه[5] ، وبذلك فارقا معاً مذهب الحسن ، وسُمِّيا هما ومن

(١) انظر فى ترجمته لسان الميزان ٤/٤٢٤ والمعارف ص ٢٤٤ وفى هذين الكتابين أنه كان قدريا ولكن فى الفهرست ص١٧١ والملل والنحل (طبعة لندن) ١٠٥ أنه كان مرجئاً ، ومن ثم فعداده فى مرجئة القدرية . وراجع فيه المنية والأمل لابن المرتضى والفرق بين الفرق ص ١٩٠ .

(٢) أغانى ١٤/٢٧٠ .

(٣) أشتوا : فرقوا . قددا : طرائق وفرقا .

(٤) انظر الملل والنحل ص٦٠ حيث يوضح كيف أصبح رئيساً لفرقة تسمى الجهمية مبيناً بعض أصول مقالتها .

(٥) انظر فى ذلك أمالى المرتضى ١/١٦٥

تابعهما باسم المعتزلة . وقد اجتذبا إلى آرائهما كثيراً من الأتباع والدعاة ، تسندهما فى ذلك دراسة مستفيضة لآى القرآن الكريم وعقلٌ دعماه بالمنطق وأدلته الدقيقة . ومضى أتباعهما على شاكلتهما يجمعون بين الدين والفلسفة ، فازدهر الاعتزال وأصبح فى العصر العباسى الأول أهم مذاهب المتكلمين ،

وإنما أطلنا فى هذا الجانب لندل على أن العقل العربى فى عصر بنى أمية أمدّته روافد كثيرة ، دعمته دعماً ، مما كان له آثار بعيدة فى أشعار الشعراء ، إذ كانوا مندمجين فى الفرق السياسية والعقيدية وما نشب بينها من مجادلات . ويسوق الرواة من ذلك مجادلة بين ذى الرُّمَّة ورُؤْبة فى القدر ، وكان أولهما قدريًّا وثانيهما جبريًّا[1] . وبتأثير هذه المجادلات تحوَّل جرير والفرزدق يتجادلان جدالا عنيفاً فى عشيرتيهما من جهة وفى قيس وتميم من جهة ثانية على نحو ما هو معروف فى نقائضهما ، وكأنهما يتحولان بشعر الهجاء والعصبيات القديم إلى ما يشبه مقالات أهل النِّحَل . وكلٌّ ذلك من آثار هذا التطور الذى أصاب العقل العربى ، والذى جعله يندفع فى البحث والمناظرة والتدرب على جَمْع البراهين والأدلة فى أى موضوع يعرض له .

وكان من ثمار هذا التطور أيضاً أن رأينا بعض الشعراء يسعى بشعره إلى غاية تعليمية ، إذ أخذ بعض الشعراء المعلمين من أمثال الكُمَيْت والطِّرِمَّاح يحشدون فى أشعارهم أوابد اللغة وشواردها ، ليعينوا الناشئة على معرفتها . ولم يلبث الرُّجَّاز وعلى رأسهم العجَّاج ورُؤْبة أن قدَّموا من ذلك مادة وفيرة للناشئة ولعلماء اللغة .

٦

الاقتصاد وموقف العرب من الموالى

لا ريب فى أن للمؤثرات الاقتصادية أثراً كبيراً فى حياة الإنسان ، وبالتالى فى كل ما ينتج من أعمال وآثار . وإذ أخذنا ننظر فى حياة الشعراء لهذا العصر وجدنا للاقتصاد أثره العميق فى اتجاهاتهم ، وهل نستطيع تفسير شيوع الغزل

---

(١) أمالى المرتضى ١/١٩ .

المادى الصريح فى مدن الحجاز وانتشار الغزل العذرى العفيف فى نجد وبيئات البوادى إلا بردّ ذلك إلى نعومة العيش وما كان يتنعّم به سكان تلك المدن من ثراء عريض ثم ما كان فيه سكان نجد والبوادى من شظف العيش وخشونته . ولا ننكر أثر الإسلام فى نفوسهم ، غير أننا لا ننكر أيضاً أثر نظام الحياة الاقتصادى ومدى عمله فى النفوس . وبالمثل نحن لا نستطيع تفسير شيوع المديح فى العراق وخراسان وما كان يهبط منه إلى دمشق إلا بردّ ذلك إلى ظهور طبقة ضخمة من الأثرياء كانت أخلاطاً من الحكام الذين أداروا شئون الدولة فى الخراج وغير الخراج ومن الأغنياء الذين ملكوا الإقطاعات ، بينما ظل وراءهم جميعاً جمهور كبير ، يتلقى منهم رزقه إما بالعمل لهم وإما بما يقدّم لهم من مديح ، يقول ذو الرُّمَّة(١) :

وما كان مالى من تُراثٍ وَرِثْتُـهُ ... ولا دِيَةٍ كانتْ ولا كَسْبِ مَأْثَمِ

ولكنْ عطاءُ الله من كلِّ رِحْلَـةٍ ... إلى كلِّ محجوب السُّرادقِ خِضْرِمِ(٢)

وقد مضى كثيرون من أصحاب الثراء العريض يحققون لأنفسهم كل ما تصبو إليه نفوسهم من صور الترف مما أدّى ، وخاصة فى أواخر العصر ، إلى ذيوع شعر الخمر والمجون وانتشاره .

وإذا ذهبنا نتعمّق النزاع السياسى الحادّ الذى نشب طوال العصر وتكونت بسببه فرق الزبيريين والشيعة والخوارج رأيناه يعود فى كثير من جوانبه إلى بواعث اقتصادية ، فقد كانت هذه الفرق ترى الأمويين متسلطين على أموال الدولة ينثرونها على أنصارهم ومن يلوذون بهم دون نظر إلى مصلحة الجماعة . وذهب الزبيريون إلى أنه لا يمكن تحقيق هذه المصلحة إلا بعودة الخلافة من دمشق إلى الحجاز وتحرير الناس من تحكم القبائل اليمنية التى جعل لها الأمويون معظم السلطان ، وذهبت الشيعة إلى أن هذه المصلحة لا يمكن أن تتحقق إلا على يد علوية تحمل الناس على الجادّة ، بينما ذهب الخوارج إلى أنه لا يمكن أن تتحقق إلا بردّ الأمر إلى الأمة لتختار أولياءه الصالحين ، ومضوا يجاهدون الأمويين جهاداً عنيفاً .

(١) الديوان ص ٦٣٣ .

(٢) الخضرم : كثير الخير والجود .

وتدل دلائل كثيرة على أن ولاة بنى أمية ومن كانوا يقيمونهم على شئون الخراج والزكاة كانوا يستغلون وظائفهم فى جمع ثروات ضخمة ، غير مراعين فى ذلك إلاًّ ولا ذمة ، فالمهلّب مثلا حين صرفه الحجاج عن الأهواز وجده قد احتجن لنفسه من بيت المال ألف ألف درهم(١) ، بينما احتجن ابنه يزيد حين صُرف عن خراسان لنفسه من بيت المال ستة آلاف ألف درهم(٢) ، ويقال إن راتب خالد القَسْرى فى ولايته على العراق كان عشرين ألف ألف درهم ، ولم يكن يكفيه كل هذا الراتب ، إذ كان يستصفى لنفسه — بوسائل غير مشروعة — ما يزيد على مائة ألف كل عام ، وقد استخرجَ منه ومن موظفيه يوسفُ الثقفى حين وَلِىَ بعده العراقَ سبعين ألف ألف(٣) . وكأنما أصبحت الولاية على الناس السبيل غير الشريف للثروة الضخمة والغنى العريض ، حتى لنرى أنس بن أبى أُناس يقول لحارثة بن بدر الغُدانى التميمى حين ولى على سُرَّق إحدى كور الأهواز(٤) :

أحارِ بنَ بَدْرٍ قد وليتَ إمـــارةً فكن جُرَذًا فيها تخون وتَسْرِقُ

وعلى هذا النحو أصبحت الولاية على الأقاليم والكور مقترنة بالخيانة والسرقة ، وعمَّ هذا الفساد ، حتى بين السعاة الذين كانوا يجمعون الزكاة فى نجد داخل الجزيرة العربية ، على نحو ما تصوِّر ذلك شكوى الراعى التى وجَّه بها إلى عبد الملك بن مروان ، وفيها يصف سنة مجدبة أصابت قومه بنى نُمَير . ومع ذلك فرض عليهم السعاة فروضاً ثقيلة ، فلما لم يؤدوها صَبُّوا عليهم السِّياط وأرهقوهم من أمرهم عُسْرا ، ومن قوله فى تلك الشكوى المريرة(٥) :

أخليفةَ الرحمنِ إنا معشَرٌ حُنَفَـــاءُ نسجدُ بكْرَةً وأصيلا
إن السُّعَاة عصوك يوم أمرتهم وأتوا دواهىَ لو علمت وغُولا
فادْفَعْ مظالمَ عيَّلتْ أبناءنا عنا وأنْقِذْ شِلْوَنا المأكولا(٦)

---

(١) طبرى ٥/١٣٥ .
(٢) طبرى ٥/٣٠٣ وانظر ٥/٣١٢ .
(٣) تاريخ اليعقوبى (طبعة أوربا) ٢/٥٥ ، ٣٨٨ .
(٤) الحيوان ٣/١١٦ والشعر والشعراء ٢/٧١٥ .
(٥) جمهرة أشعار العرب لأبى زيد القرشى (طبع المطبعة الرحمانية) ص ٣٥٥ .
(٦) عيلت : أفقرت . الشلو : العضو .

وإذا كان هذا يحدث فى نجد والبوادى فما كان يحدث فى العراق وخراسان أدهى وأمرّ ، فقد مضى الولاة وجُباة الخراج يعتصرون الناس بفرض ضرائب استثنائية كثيرة ، مما ملأ عليهم القلوب غيظاً وحنقا والنفوس سخطا ووَجْدا ، فارتفعت الأصوات تطالب بالأمانة فى الحكم لا فى عهد بنى أمية فحسب ، بل أيضاً فى عهد الزبيريين ، ومن خير ما يصور ذلك قصيدة طويلة لابن همّام السَّلولى وجّه فيها لابن الزبير شكوى عنيفة من عُمّاله فى العراق ومن أقامهم هناك على الخراج ، وهو يستهلها بقوله (١) :

يا بنَ الزُّبير أميرَ المؤمنين ألم ... يبلغك ما فعل العُمّال بالعمل
باعوا التُّجارَ طعامَ الأرض واقتسموا ... صُلْبَ الخراج شِحاحاً قسمةَ النَّفَل (٢)

وقد مضى يسميهم واحداً واحداً مصوراً لحيا نتهم فى الحكم ومطالباً بمحاسبتهم على ما استخلصوا من أموال لأنفسهم ظلماً وعسفاً .

ويظل الناس متحمّلينَ من هذا العسف والظلم ما يطاق وما لا يطاق إلى أن وَليَ الخلافة عمر بن عبد العزيز ، فأمر برفع المظالم عنهم وإلغاء كل لون من ألوان الضرائب الاستثنائية ، كما أمر بحطّ الجزية عمن أسلموا من الموالى . وبعث على العراق وخراسان عُمّالا جُدداً ينفذون سياسته العادلة ، ومع ذلك ظلت الشكوى قائمة ، فقد قام إليه رجل وهو على المنبر فقال (٣) :

إن الذين بعثتَ فى أقطارها ... نبذوا كتابَك واستُحِلَّ المَحْرَمُ
طُلْسُ الثياب على منابر أرضنا ... كلٌّ يجورُ وكلُّهم يتظلَّم (٤)

ويناديه كعب الأشقرى من خراسان (٥) :

إن كنت تحفظ ما يَليك فإنما ... عُمّال أرضك بالبلاد ذئابُ
لن يستجيبوا للذى تدعو له ... حتّى تجلَّد بالسيوف رقابُ

---

(١) أنساب الأشراف ٥/١٩١ وما بعدها .
(٢) النفل : غنائم الحروب .
(٣) البيان والتبيين ٣/٣٥٩ .
(٤) طلس : غبر ، وهو يكنى بغبرة الثياب عن قذارة نفوسهم وأنهم ليسوا أعفاء . يتظلم حقه : يظلمه إياه .
(٥) البيان والتبيين ٣/٣٥٨ .

ويُتوفّى عمر بن عبد العزيز سريعاً ، ويعود العسف والظلم. ويثور الحارث ابن سُرَيْج بخراسان فى العقد الثانى من القرن الثانى مطالباً برفع الجزية عمن أسلموا من الموالى ، ويتولّى هناك نصر بن سيار فى العقد الثالث ، ويرفع الجزية عن الموالى مثبّتا للخراج على الأرض .

ولا بد أن نفرق هنا بين معاملة العرب للموالى ومعاملة الدولة لهم فإن الدولة إذا كانت قد تعسفت معهم أحياناً فإن العرب ظلوا يَرْعونلهم أخوتهم فى الإسلام. ويسوق المستشرقون دليلا قويًّا على سوء معاملة الدولة لهم ما حدث فى أيام الحجاج إذ هاجر كثير من موالى السّواد فى العراق إلى البصرة والكوفة ، فأمر بردّهم إلى قراهم ونَقْش أسمائهم على أيديهم حتى لا يبرحوها [1] وظاهر الحادث عنف شديد فى الظلم ولكن قد يكون الحجاج اضُطرّ إلى ذلك لتعطل الزراعة فى السواد وبالتالى تعطل الخراج الذى كان يُنفق منه على تجهيز الجيوش إلى خراسان وغير ذلك من شئون ولايته .

ولم ينكر عمر بن عبد العزيز وحده الجزية التى كانت مفروضة على مسلمى الموالى ، فقد كان ينكرها جماعة الأتقياء والقُرّاء ، لأنها تخالف نصوص الإسلام ، وأنكرتها جميع الفرق المعارضة للدولة من خوارج وشيعة ومرجئة ، وما زالت الأمة تلح فى إنكارها إلحاحا حتى رُفعت عنهم بأخرة من العصر . وقد عقد ابن عبد ربه فصلا فى العقد الفريد ، صوّر فيه العرب يسيئون فى المعاملة إلى الموالى لعصر بنى أمية إساءة بالغة [2] . غير أن بين أيدينا أخباراً كثيرة تشهد بأنهم لم يكونوا يَضْطهدون أحرارهم ولا أرقاءهم ، فقد ذكر ابن حبيب أن نحو ثلاثين من الرقيق فى الكوفة والبصرة نَبُهَ شأنهم حتى أصبحوا من أرباب السيادة والشرف [3] . أما ما يلاحظه ڤلهوزن من أنهم كانوا يحاربون فى جيش المختار رجالة لا فُرْسانا [4] فلعل ذلك حدث اتفاقاً ، وقد اشتهر من بينهم غير قائد فى خراسان مثل حُرَيْث بن قُطْبة وأخيه ثابت وحيّان النبطى وابنه مقاتل ، ومن قوادهم المشهورين فى الغرب طارق بن زياد فاتح الأندلس .

---

(١) طبرى ٥/١٨٢ وتاريخ الدولة العربية لڤلهوزن ص ٢٣٥ وما بعدها .

(٢) العقد الفريد ٣/٤٠٣ وما بعدها .

(٣) المحبر ص ٣٤٠ .

(٤) تاريخ الدولة العربية لڤلهوزن ص ٢٣٧ .

وقد مرّ بنا فى حديثنا عن الحضارة ما كان لهم من إقطاعات وقصور وحمامات تُستَغَلّ فى البصرة . فهم لم يكونوا فى مرتبة متخلفة بالقياس إلى العرب ، ولعل مما يدل على ذلك أن نجد الفرزدق المعروف بغطرسته حتى على الخلفاء يمدح طائفة منهم مثل عبد الله[١] بن عبد الأعلى مولى خالد بن الوليد ومسلمة[٢] ابن سنان مولى بنى مسمع وكثير[٣] بن سيار مولى بنى سعد ومسلم[٤] بن المسيب مولى بنى بجيلة . ومن يرجع إلى ديوان جرير يجده فى إحدى قصائده يفتخر بمعدّ مدخلا فيها قُضاعة كما يفتخر بالموالى ذاكراً أنهم ينتسبون إلى إسحق بن إبراهيم عليهما السلام . يقول[٥] :

أنا ابنُ الثَّرَى أدعو قُضاعة ناصرى ... وآل نزارٍ ما أعزَّ وأكثرا[٦]
وأبناء إسحاق الليوثَ إذا ارتدوا ... مَحامل موتٍ لابسين السَّنَوَّرا[٧]
فيوما سرابيلُ الحديد عليهمُ ... ويوما ترى خَزًّا وعَصْباً مُنَيَّرَا[٨]
إذا افتخروا عَدُّوا الصَّبَهْبَذَ منهمُ ... وكسرى وآل الهُرْمزان وقيصرا[٩]

ويصرّح بأن الموالى أبناء إسحق يجمعهم مع العرب أبناء إسماعيل أب واحد ، يقول :

أبونا أبو إسحقَ يجمع بيننـــا ... أبٌ كان مهديًّا نبيًّا مُطَهَّرَا

ولا تهمنا صحة الأسطورة التى ردّدها جرير فى هذه الأبيات ، والتى تجعل الفرس والروم من أبناء إسحق ، إنما تهمنا دلالتها على ما كان يسود بين العرب من الإحساس بأنهم والموالى شعب واحد ، تفرّق ، ثم عاد إلى الاجتماع

---

(١) ديوان الفرزدق (طبعة الصاوى) ص ٢ .
(٢) الديوان ص ١٠٦ .
(٣) الديوان ص ٢٨٧ .
(٤) الديوان ص ٨٨٧ .
(٥) ديوان جرير (طبعة الصاوى) ص ٢٤٢ .
(٦) ابن الثرى : كناية عن كثرة قومه فهم عدد الثرى .
(٧) السنور : السلاح . وهو يصف بذلك الفرس .
(٨) الخز : الحرير . العصب : ضرب من الثياب النفيسة . منيرا : منسوجاً بالقصب وله أهداب ووشى .
(٩) الصبهبذ : لقب أمراء إيران .

على الإسلام والعروبة ، ونرى جريراً فى نفس القصيدة ينوه بمولى من البربر يسمى وضّاحاً ، يقول :

لقد جاهد الوضاح بالحق مُعْلَماً　　فأورث مجدا باقيا أهلَ بَرْبَرَا

والحق أن العرب اندمجوا فى الموالى منذ الأيام الأولى فى الفتوح ، فقد ساكنوهم وتزوجوا منهم ، وعرّبوهم عن طريق نظام الولاء الذى شرعه الإسلام ، إذ أدخلوهم فى عداد قبائلهم ، وكأنما أردوا بذلك أن يُلْغوا جنسياتهم إلغاء ، فهم عربٌ ولاءً . واستشعر الموالى ذلك فى عمق حتى إذا أحسن نفر منهم نَظْمَ الشعر وجدناهم يقفون فى صفوف قبائلهم ذائدين عنها ومفاخرين بنفس روح أبنائها الأصيلين ، ومن خير ما يصور ذلك زياد الأعجم مولى عبد القيس فقد عاش لقبيلته يحامى عنها ويصول[1] ، ومثله هرون[2] مولى الأزْد وسَرْوان[3] مولى بنى عُذْرة وشُقْران[4] مولى بنى سَلامان . وكانت القبائل تبادلهم نفس التعصب ، فإذا جَنَى أحدهم جناية كبيرة وزُجَّ به فى السجن لم يقر قرار لقبيلته حتى تُرَدَّ له حريته ، على نحو ما يقصه الرواة من موقف اليمانية من ابن مفرِّغ حين زَجَّ به عَبَّاد بن زياد فى سجن سجستان ، فإنها ما زالت تتشفع فيه عند الخليفة وتتوسّل حتى أمر بإطلاق سراحه[5] .

ومعنى ذلك أن نظام الولاء أقام أواصر بين العرب والموالى كأواصر الرحم ، أما ما يلقانا عند إسماعيل بن يسار النسائى شاعر المدينة من أشعار تمجد الفرس[6] فإنه يعد شذوذا فى العصر ، وهو شذوذ ربما ساقه إلى نفسه كثرة الأشعار التى كان يفتخر فيها كل عربى بقبيلته ممجداً لها ومشيداً بها محاولا الغضَّ من القبائل التى تعاديها ، وكأن ذلك نبّه إسماعيل للإشادة بجنسه الفارسى ، وقد لقى جزاءه عند هشام بن عبد الملك ، فإنه غضب عليه غضباً شديداً حين رآه يفخر بأصله الفارسى .

---

(١) أغانى (دار الكتب) ٨٩/١٣ ، ٣٨٠/١٥ وما بعدها .

(٢) الحيوان للجاحظ (طبع الحلبى) ٧٥/٧ .

(٣) البيان والتبيين ٣٠٩/٣ .

(٤) نفس المصدر ١٠٨/١ وأغانى (دار الكتب) ٣٠٨/٢ .

(٥) الشعر والشعراء ٣٢٣/١ .

(٦) انظر ترجمته فى أغانى دار الكتب ٤١١/٤ وما بعدها .

ومهما يكن فإن إسماعيل كان شذوذاً على الموالى أنفسهم فى هذا العصر ، وأكبر الدلالة على ذلك أننا نجد بشار بن برد الذى أعلن النزعة الشعوبية فى عهد العباسيين إعلاناً قوياً يفتخر فى هذا العصر بمواليه من قيس افتخاراً عنيفاً[١] . ولعل من الطريف أننا نجد بعض الشعراء من العرب يفتخرون بأمهاتهم الأعجميات مثل ابن ميَّادة[٢] ، ومثل أبى نُخَيْلة الذى يقول[٣] :

أنا ابنُ سَعْدٍ وتوسَّطْتُ العَجمْ فأَنا فيما شئتُ من خالٍ وعمّْ

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل دلالة واضحة على بطلان ما يذهب إليه بعض المستشرقين من أن العرب والموالى كانوا يستشعرون العداء بعضهم لبعض فى هذا العصر[٤] ، فقد كانوا بنعمة الإسلام إخواناً ، وكان كل منهم ينصر صاحبه كلما هتف به أو استغاث ، وقد أخذوا ينهضون بجميع صور الحياة نهوضاً مشتركاً . وحقاً كانت الدولة عربية وكانت تتخذ ولاتها من العرب ، ولكنها فسحت للموالى فى شئون الخراج وفى الدواوين حتى بعد أن تُرْجمت وعُرِّبت ، على نحو ما هو معروف عن سالم مولى هشام وكان رئيس دواوينه ، ومثله عبدالحميد الكاتب وكان على رأس دواوين مروان بن محمد .

وربما كان أهم جانب يوضح علاقة العرب بالموالى في العصر وأنها كانت تقوم على البر والتعاون الوثيق نهضتهم جميعاً بالدراسات الدينية وما انطوى فيها من وعظ وإمامة للمسلمين فى المساجد ، فإننا حين نستعرض هذا الجانب نجدهم لا يقفون مع العرب فيه على قدم المساواة فحسب ، بل إنهم يبزّونهم ، حتى لتصبح منهم الكثرة الكثيرة من علماء الدين ودارسيه . وواضح من ذلك كله أن الموالى شاركوا فى الحياة العربية لهذا العصر مشاركة قوية ، إذ كانوا يُعَدّون فعلا عرباً ، وقد أخذوا ينهضون بالأدب العربى ، على أنه أدبهم ، فهجروا آدابهم المختلفة من فارسية وغير فارسية ، وأخذوا يعبّرون عن عواطفهم ومشاعرهم بلغة القرآن الكريم التى ملكت أزمة قلوبهم واستولت منهم على الضمائر استيلاء .

---

(١) أغانى ٣/١٣٩ والديوان ١/٣١٦ ، ٢/٨ ، ٣/٢٥٠ .

(٢) أغانى ٢/٢٦١ .

(٣) البيان والتبيين ٣/٢٢٥ والشعر والشعراء ٢/٥٨٣ .

(٤) فلهوزن ص ٤٧٢ وفى مواضع متفرقة .

الفصل الثالث

شعراء المديح والهجاء

١

شعراء المديح

تعوَّد العرب منذ العصر الجاهلى أن ينوِّهوا فى أشعارهم بأشرافهم وذوى النباهة منهم ويتحدثوا عن خصالهم النبيلة من الكرم والشجاعة والحلم والوفاء وحماية الجار ، وكان لا يُعَدُّ السيد فيهم كاملا إلا إذا تغنى بنباهته ومناقبه غير شاعر . ومضوا على هذه السنَّة فى الإسلام ، فكل سيد فيهم وكل ذى مكانة يودّ لو يَحْظَى بشاعر يُشيد به ، حتى يسير الركبان بذكره . وتستطيع أن ترجع إلى كتب الأدب والتاريخ مثل الأغانى والطبرى لترى مصداق ذلك واضحا ، وكأنه لم يعد للشعراء من شاغل يشغلهم سوى مديح الخلفاء والولاة والقواد والأجواد ، وسنعرض لمُدَّاح الأولين فى الفصل التالى . أما الولاة فإنه لا يوجد من بينهم مَنْ لم يتعلق الشعراء بمديحه ونشر ورود الثناء فى طريقه .

وأولُ من يلقانا من الولاة البارزين فى العراق لهذا العصر زياد بن أبيه ممدوح حارثة[1] بن بدر الغُدانى التميمى ومسكين[2] الدارمى ، وقد شُغف عبد الله بن الزَّبير الأسدى بمدح ابنه عبيد الله[3] . ويخضع العراق لابن الزبير ، ويولِّى عليه أخاه مصعبا ، وكان جوادا سمحاً ، فالتفّ حوله كثير من الشعراء يمدحونه من أمثال ابن قيس الرقيات وأعشى[4] هَمْدان وُدكَيْن الفُقَيمى[5] . ويدخل العراق فى طاعة عبد الملك بن مروان فيولِّى عليه خالد بن عبد الله بن أسيد الأموى وهو من الأجواد الممدحين[6] ولا يلبث أن يعزله ويولى أخاه بشرا ، وكان من فتيان قريش سخاء ونجدة ، وكان ممدَّحا ، مدحه جريرٌ والفرزدق والأخطل

(١) أغانى (ساسى) ٢١/١٩ وطبرى ٤/١٦٨ والمبرد ص ١٧٩ .

(٢) ابن سلام ص ٢٥٩ .

(٣) أغانى (دار الكتب) ١٤/٢٢٧ ، ٢٣٥ .

(٤) أغانى ٦/٣٣ وطبرى ٤/٥٦٥ ، ٥٩٢ .

(٥) معجم الأدباء (طبع مصر) ١١/١١٦ .

(٦) المحبر لابن حبيب ص ١٥٠ والطبرى ٥/٤٥ حيث يذكر أنه وزع على الناس فى يوم واحد ألف ألف .

وكثيِّر وأعشى بنى شيبان[١] ، كما مدحه نصيب[٢] والأقيشر[٣] الأسدى وأيمن[٤] بن خُرَيم وغيرهم كثير . ويخلف بشرا الحجاج الثقفى ، ويظل نحو عشرين عاماً ، والشعراء يتوافدون على بابه من مثل جرير والفرزدق وأعشى[٥] بنى شيبان وحُمَيد[٦] الأرقط وليلى[٧] الأخيلية ، وكانت فيه قسوة جعلت من يقترفون بعض الجنايات حين يقعون فى يده يمدحونه مدحاً مسرفاً على شاكلة قول العُدَيل بن الفرخ العِجْلىّ فيه[٨] :

خليلُ أمير المؤمنين وسيفُه ... لكلِّ إمــامٍ مُصْطَفًى وخليلُ
بَنَى قُبَّةَ الإسلام حتى كأنَّما ... هدَى الناسَ من بعد الضلال رسولُ

ولعل من الطريف أن نجد محمد بن عبد الله النميرى الثقفى[٩] يهوى أخته زينب ، وينظم فيها غزلا كثيراً يملؤه موجدة عليه ، فيطلبه ويهرب مْنه إلى اليمن ويركب البحر هناك ، ثم يعود إليه ، وقد ضاقت به الأرض ، متوسلا بمدائح كثيرة ، تجعله يعفو عنه .

ويتولّى العراق لسليمان بن عبد الملك يزيد بن المهلب ، وسنعرض لمدّاحه عما قليل . وقد عزله عمر بن عبد العزيز ونراه يثور فى عهد يزيد بن عبد الملك ويقضى على ثورته أخوه مسلمة ويوليه العراق لفترة محدوده ومن مدّاحه أبو نُخَيْلة[١٠] وأعشى[١١] تغلب . وخلفه على العراق عمر بن هبيرة الفزارى ، وللفرزدق

---

(١) ابن سلام ص ٣٧٧ .
(٢) أغانى (دار الكتب) ١/٣٢٤ .
(٣) أغانى ١١/٢٧٠ .
(٤) انظر ترجمة أيمن فى الشعر والشعراء ١/٥٢٦ والأغانى (طبع ساسى) ٢١/٢٥ والإصابة ١ / ٩٤ وتهذيب ابن عساكر ٣/١٨٧ والموشح ص ٢٢١ .
(٥) أغانى (ساسى) ١٦/١٥٦ .
(٦) طبرى ٥/١٩٠ وانظر ترجمته فى معجم الأدباء ١١/١٣ .
(٧) أغانى (دار الكتب) ١١/٢٤٨ .
(٨) البيان والتبيين ١/٣٩١ وانظر ترجمته فى الأغانى (ساسى) ٢٠/١١ والشعر والشعراء ١/٣٧٥ والاشتقاق لابن دريد ص ٣٤٥ والخزانة ٢/٣٦٧ .
(٩) انظر ترجمته فى أغانى (دار الكتب) ٦/١٩٠ ومعجم الشعراء للمرزبانى (طبعة الحلبى) ص ٣٤٢ .
(١٠) انظر الأغانى (ساسى) ١٨/١٤٠ .
(١١) مات على النصرانية سنة ٩٢ . انظر فى ترجمته الأغانى (طبع دار الكتب) ١١ / ٢٨٠ وما بعدها ومعجم الأدباء لياقوت ١١/١٢٢ ومجلة المشرق ج ٢٢ ص ٢٩٨ .

فيه مدائح[١] ، لعله أراد أن يغسل بها هجاءه المقذع فيه ، ومثلها مدائحه فى خالد القسرى الذى ولى بعده[٢] ، وكأنه يكفر عن هجائه لهما ببعض المدائح . وممن مدحوا خالدا القسرى جرير[٣] ، وأبو الشَّغب وفيه يقول حين عُزل وسجن : [٤]

فإن تسجنوا القَسْرِىّ لاتسجنوا اسمه ولا تسجنوا معروفه فى القبائل

وكان الذى وَلِىَ العراق بعده يوسف الثقفى . ونرى الكميت يمدحه تقية وخوفاً من بطشه[٥] . وآخر ولاة هذا الإقليم يزيد بن عمر بن هبيرة ، وكان جوادا مِعْطاء ، وهو ممدوح أبى عطاء[٦] السِّنْدى وبشار[٧] بن بُرْد وخلف[٨] بن خليفة .

ولم يمدح الشعراء فى العراق هؤلاء الولاة وحدهم ، فقد كانوا يمدحون أيضاً نُوَّابهم وأصحاب شُرْطتهم وعمالهم على الخراج وعلى البلدان من مثل الحكم بن أيوب الثقفى نائب الحجاج على البصرة ، وهو ممدوح الفرزدق[٩] وجرير[١٠] ومثل مالك بن المنذر بن الجارود صاحب شرطة البصرة لخالد القسرى ، ومن مُدّاحه الفرزدق[١١] ، ومثل بلال بن أبى بردة ، نائب القسرى على البصرة ، وهو ممدوح ذى الرمة[١٢] والفرزدق[١٣] وحمزة[١٤] بن بيض ، وكان منقطعاً إليه ، ومثل أبان بن الوليد البجلى صاحب الخراج فى عهد القسرى ، ومن مُدّاحه الفرزدق[١٥] ، ومثل قطن بن مدركة الكلابى والى البحرين ، وقد خصه الفرزدق

---

(١) الديوان (طبعة الصاوى) ص ٢٨٠ ، ٥٧٩ .
(٢) الديوان ص ١٥٦ ، ١٦٥ ، ٣٣٥ .
(٣) الديوان (طبعة الصاوى) ص ١٧٤ .
(٤) البيان والتبيين ٣/٢٣٦ .
(٥) أغانى (ساسى) ١٥/١١٦ .
(٦) الشعر والشعراء ٢/٧٤٥ .
(٧) ديوان بشار (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١/١٤٥ .
(٨) انظر ترجمته فى الشعر والشعراء ٢/٦٩٢ .
(٩) الديوان ص ٢٣ .
(١٠) أغانى (دار الكتب) ٨/١٣ وما بعدها .
(١١) الديوان ص ٣١ ، ٧٦ ، ٦٧٨ ، ٨٠٣ .
(١٢) انظر فهرس ديوانه (طبعة كبريدج) والبيان والتبيين ١/١٤٨ وأغانى (ساسى) ١٦/٣٨ والمبرد ص ٢٥٩ .
(١٣) الديوان ص ٧٠ ، ٧٤ ، ٥٤٧ ، ٦٦٠ ، ٦٧٤ ، ٦٩٣ ، ٦٩٤ .
(١٤) انظر فى ترجمته الأغانى (طبعة الساسى) ١٥/١٤ وما بعدها ومعجم الأدباء ١٠/٢٨٠ وراجع فهارس البيان والتبيين والحيوان .
(١٥) الديوان ص ٦١ ، ٤٢٠ ، ٨٧٦ .

ببعض مدائحه[١] ، وكان المهاجر بن عبد الله والى البحرين جواداً ممدَّحا، ومن مدَّاحه جرير[٢] وأبو نُخَيْلة[٣] وذو الرمة[٤]. ومن ولاة فارس الذين طار ذكرهم على ألسنة الشعراء عمر بن عبيد الله بن مَعْمر ، وله أحاديث كثيرة فى جوده[٥] وهو ممدوح كثيرين ، منهم زياد الأعجم[٦] وأبو حُزابة[٧] ومن ولاة الرَّىِّ الممدَّحين خالد بن عتَّاب بن ورقاء ممدوح أعشى هَمْدان[٨] .

وإذا ولينا وجوهنا نحو خراسان وسجستان وجدنا الولاة والعمال هناك يَكيلون الأموال والعطايا للشعراء كيْلا ، وهم بدورهم ينثرون عليهم رياحين مديحهم نثرا . ولعل أسرة لم تحظ هناك بما حظيت به أسرة المهلب بن أبى صُفْرة الأزدى الذى قضى على الأزارقة فى فارس ، ثمَّ ولىَ للحجاج خراسان سنة ٧٨ وظلَّ بها إلى أن توفِّى سنة ٨٢ فأقام الحجاج ابنه يزيد مقامه إلى أن صرفه عنها وولَّى عليها أخاه المفضل ، ولم يلبث أن عزله هو الآخر . وما نصل إلى سنة ٩٦ حتى يعود نجم المهالبة إلى البزوغ . إذ ولَّى سليمان بن عبد الملك يزيد على العراق ، وجمع له مع ولايتها خراسان ، فأصبح حاكماً للشرق. ويتولى عمر بن عبد العزيز ، فيعزله ويسجنه فى أموال خراج خراسان ، ولا نصل إلى عصر يزيد بن عبد الملك حتى يعفو عنه ، غير أنه لم يلبث أن قاد ضده مع إخوته وآله ثورة عنيفة ، قضى عليها مسلمة بن عبد الملك يؤازره هلال بن أحْوز المازنى .

ولعلنا لا نُبعد إذا قلنا إن هذه الأسرة تقوم فى عصر بنى أمية مقام أسرة البرامكة فى عصر بنى العباس ، إذ كان أفرادها بحورا فياضة ، فنوَّه بهم الشعراء طويلا فى خراسان والعراق جميعاً ، ويُؤْثَر عن المهلب أنه كان يقول : « عجبت لمن يشترى المماليك بماله ولا يشترى الأحرار بمعروفه[٩] » ونرى الشعراء مصطفين

---

(١) الديوان ص ٧٠٠ .
(٢) الديوان ص ٣٩ ، ١٢٥ ، ٢٥١ .
(٣) أغانى (ساسى) ١٨/١٤٥ وما بعدها .
(٤) انظر فهرس ديوانه .
(٥) المحبر ص ١٥١ .
(٦) أغانى (دار الكتب) ١٥/٣٧٩، ٣٨٥ .
(٧) انظر ترجمته فى الأغانى (طبعة ساسى) ١٩/١٥٢ .
(٨) أغانى (دار الكتب) ٦/٥٦ .
(٩) البيان والتبيين ٣/٢٠٥ .

ببابه يمدحونه مدائح رائعة ، وفى مقدمتهم كعب[١] الأشقرى وزياد[٢] الأعجم وحمزة[٣] بن بيض والمغيرة[٤] بن حَبْناء التميمى ونهار[٥] بن توسعة ، وله يرثيه حين توفى بمَرْو الروذ :

ألا ذهبَ الغزو المقرِّب للغِنى ... ومات النَّدَى والحزم بعد المهلَّبِ

أقاما بمَروِ الرُّوذ رهنَ ضريحهِ ... وقد غُيِّبا عن كل شَرْقٍ ومغربِ

وكان ابنه المغيرة على شاكلته جوداً ونَبوالا غَمْرا ، وتوفِّى قبله بقليل ، فبكاه الشعراء طويلا على شاكلة قول زياد الأعجم فى مرثية بديعة له[٦] :

إن السماحةَ والمروءة ضُمِّنـــا ... قَبْرًا بمرْوَ على الطريق الواضحِ

ولا يكاد يوجد شاعر فى العراق وخراسان لأيام أخيه يزيد إلا مدحه ونوه به تنويهاً بعيداً ، ومن مُدَّاحه الفرزدق[٧] ونهار[٨] بن توسعة وحمزة[٩] بن بيض وحاجب[١٠] الفيل والعُدَيْل بن الفرخ العِجْلىّ وفيه يقول[١١] :

يَداه :يَدٌ بالعُرْف تَنهب ماحَوَتْ ... وأخرى على الأعداء تسطو وتجرحُ

وكان كعب الأشقرى وثابت قُطْنة لا يفارقان مجلسه[١٢] ، وفيه يقول ثابت حين خذله أهل العراق فى ثورته على بنى أمية وفرّ واعنه ، فقُتل قَعْصاً بالرماح[١٣] :

إنْ يقتلوك فإنَّ قَتْلك لم يكن ... عارًا عليك وبعضُ قَتْلٍ عارُ

(١) طبرى ٥/٢٣ ، ٧٧ ، ١٥٩ وأغانى (دار الكتب) ١٤/١٨٧ وما بعدها .

(٢) أغانى (دار الكتب) ١٥/٣٨٣ وما بعدها .

(٣) أغانى (ساسى) ١٥/٢٤ .

(٤) انظر فى ترجمته الشعر والشعراء ١/٣٦٧ وأغانى (دار الكتب) ١٣/٨٤ والخزانة ٣/٦٠١ وفهرس الطبرى ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٢٧٣ والمؤتلف ص ١٠٥ والاشتقاق ص ٢٢٠ حيث يقول ابن دريد إنه استشهد بخراسان وكان شاعر تميم فى عصره

(٥) انظر فى ترجمة نهار بن توسعة وأخباره الشعر والشعراء ١/٥٢١ والمؤتلف ١٩٣ والأمالى ٢/١٩٨ وفهرس الطبرى والأغانى .

(٦) ذيل الأمالى ص ١٠ وأغانى (دار الكتب) ١٥/٣٨١ .

(٧) ديوان الفرزدق ص ٤٦ ، ٣٧٤ .

(٨) الشعر والشعراء ١/٥٢٢ .

(٩) أغانى (ساسى) ١٥/١٨ .

(١٠) أغانى (دار الكتب) ١٤/٢٦٤ وما بعدها . وانظر فيه الشعر والشعراء ٢/٦١٣ وفهارس الطبرى والبيان والتبيين والحيوان وأمالى المرتضى (طبعة الحلبى) ٢/١٠٥ .

(١١) أغانى (ساسى) ٢٠/١٣ .

(١٢) أغانى (دار الكتب) ١٤/٢٦٦ .

(١٣) أغانى ١٤/٢٧٩

وكان أخوه المفضل ممدَّحا وممن أشادوا به كعب[١] الأشقرى وثابت[٢] قطنة ، وكذلك كان مخلد بن يزيد بن المهلب وكان يخلف أباه على خراسان ، هو ممدوح حمزة[٣] بن بيض والكميت[٤]. وفى المهالبة وكرمهم الفياض يقول بُكَيْر بن الأخْنَس[٥] :

نزلتُ على آل المهلَّب شاتيا فقيرًا بعيدَ الدار فى سنةٍ مَحْل[٦]

فما زال بى إلطافُهم وافتقـادهم وإكرامَهم حتى حسبتهمُ أهلى[٧]

ومن ولاة خراسان الممدَّحين قتيبة بن مسلم الذى وليها للحجاج بعد المهالبة سنة ٨٦ ، وهو أكبر قائد تولى لبنى أمية حربَ الترك ، وقد فتك بهم فتكاً ذريعاً ، وشَقَّ الطريق إلى بلاد الشاش وسمرقند. وقد تغنَّى كثير من شعراء خراسان بانتصاراته الباهرة من أمثال المغيرة[٨] بن حَبْناء وكعب[٩] الأشقرى ونهار بن تَوْسعة وفيه يقول[١٠] :

وما كان مذ كُنَّا ولا كان قبلنا ولا كائنٌ من بعدُ مثل ابن مسلمِ

أعمَّ لأهل الشِّرك قَتْلاً بسيفه وأكثر فينا مَغْنماً بعد مغنم

وليها لعهد عمر بن عبد العزيز الجرَّاحُ بن عبد الله الحكميّ ممدوح الفرزدق[١١]. ومن الأجواد الممدَّحين الذين ولوها خالد القسرى والجُنَيْد بن عبد الرحمن المرِّى ممدوح جرير[١٢] ، وأسد القسرى وكان بحراً فياضاً ، وقد نوه

---

(١) طبرى ٥/١٩٤ .
(٢) انظر مرثية بديعة له فيه بالأغانى ١٤/٢٧٥ .
(٣) أغانى (ساسى) ١٥/١٩ .
(٤) نفس المصدر ١٥/١٠٨ ، ١٢٢ .
(٥) البيان والتبيين ٣/٢٣٣ .
(٦) محل : مجدبة .
(٧) الافتقاد : طلب الشىء عند غيبته كناية عن كثرة سؤالهم عنه واهتمامهم بأمره .
(٨) طبرى ٥/٢٤٠ .
(٩) طبرى ٥/٢٤٧ وأغانى (دار الكتب) ١٤/٢٩٩ .
(١٠) أمالى القالى ٢/٢٠٢ والشعر والشعراء ١/٥٢٢ .
(١١) الديوان ص ٢٢٨ .
(١٢) الديوان ص ٥١ .

به الفرزدق طويلا[١] . ووليها ليوسف بن عمر الثقفي نصر بن سيار ، وكان شاعراً وبطلا مغوارا وغيثاً مدراراً ، وهو آخر ولاتها للأمويين ، وممن مدحوه قبل ولايته عليها الفرزدق[٢] وثابت[٣] قُطْنة ومن مُدَّاحه فى ولايته أبو عطاء[٤] السِّنْدى . ومن قُوَّاد الجيوش فى خراسان هلال بن أحْوز المازنى الذى أبلى فى حرب المهالبة مع مسلمة بن عبد الملك وهو قاتل جَهْم بن صفوان متكلم المرجئة فى ثورتهم بخراسان ، وممن أشادوا به طويلا الفرزدق[٥] وجرير.[٦]

ويلقانا فى سِجِسْتان من الممدَّحين عبدالله بن الحَشْرج ، وكان واسع العطاء وفيه يقول زياد الأعجم[٧] :

إن السَّماحة والشجاعة والنَّدَى ... فى قُبَّةٍ ضُرِبتْ على ابن الحَشْرَجِ

ومنهم طلحة بن عبد الله الخُزاعى الملقب بطلحة الطلحات ، وهو أجود أهل البصرة فى عصره غير مدافَع ، وممن مدحوه أبو حُزابة[٨] وعُوَيْف[٩] القوافى والمغيرة[١٠] بن حَبْناء ، ونوَّه به ابن قيس الرقيات طويلا حتى إذا توفى رثاه بقصيدة بديعة[١١] ومنهم عبيد الله بن أبى بكرة ممدوح الفرزدق[١٢] وابن مفرِّغ[١٣] ، ومسمع بن مالك بن مسمع ممدوح أبى جِلدة اليشكرى ، وفيه يقول حين وافاه الموت[١٤] :

كنت الشهابَ الذى يُرْمَى العدوُّ به ... والبحرَ منه سِجالَ الجود نغترف

ومن ولاة الحجاز الممدَّحين سعيد بن العاص والى معاوية على المدينة ، وكان يَتَنَحر

---

(١) الديوان ١٧٧ ، ٣٤٠ ، ٣٤٤ ، ٥٢٦ ، ٥٨١ ، ٥٩٢ ، ٦٢٦ ، ٨٧٥ .
(٢) الديوان ص ٣٤٧ ، ٤١١ ، ٥١١ .
(٣) طبرى ٣٩٩/٥ .
(٤) أغانى (ساسى) ٨١/١٦ .
(٥) الديوان ص ٥٥ ، ٦٠ ، ٢٢١ ، ٥٠٧ ، ٥٤٨ ، ٥٧٤ .
(٦) الديوان ص ٥٣ ، ٢٤٠ ، ٥٣٧ .
(٧) أغانى (دار الكتب) ٢٣/١٢ .
(٨) أغانى (ساسى) ١٥٣/١٩ .
(٩) انظر فى ترجمة عويف أغانى (ساسى) ١٠٥/١٧ والخزانة ٨٧/٣ ومعجم الشعراء ص ١٢٧ .
(١٠) أغانى (دار الكتب) ٨٥/١٣ .
(١١) ديوان ابن قيس الرقيات بتحقيق محمد يوسف نجم (طبع بيروت) ص ٢٠ .
(١٢) الديوان ص ٥٧ .
(١٣) أغانى (ساسى) ٧٠/١٦ وما بعدها .
(١٤) أغانى (دار الكتب) ٣١٣/١١ .

فى كل يوم جَزوراً يطعمه الناس[١]، وممن نوهوا به الحُطَيئة[٢] والفرزدق[٣]. وكان ابن الأزرق المخزومى والى ابن الزبير على اليمن جوادا معطاء، وهو ممدوح أبى دَهْبل[٤] الجمحى. ولعل واليا لم يُمدَح كما مدح عبدالعزيز بن مروان فى ولايته على مصر، وكان بحراً سيالا من بحور العرب، ومن مدَّاحه نُصَيْب[٥] وابن قيس[٦] الرقيات وكثيِّر[٧] وعبد الله[٨] بن الحجاج والأحوص[٩] وأيمن[١٠] بن خُرَيم وأمية[١١] بن أبى عائذ. ومن ولاتها بعده عبد الله بن عبد الملك ممدوح الحَزِين[١٢] الكنانى.

ويلمع بجانب هؤلاء الولاة والعمال أسماء كثيرين من الأجواد، وفى مقدمتهم عبد الملك بن بشر بن مروان ممدوح ابن عَبْدل[١٣]، وعبد الواحدبن سليمان ممدوح القطامى[١٤]، وعبد الرحمن بن محمد بن مروان ممدوح عُوَيف[١٥] القوافى ومعاوية بن هشام بن عبد الملك ممدوح جرير[١٦]، وأسماء بن خارجة ممدوح القطامى[١٧] وأعشى شيبان[١٨]، وعكرمة بن ربعىّ الفياض ممدوح الأخطل[١٩] والعُدَيْل[٢٠] بن الفرخ العجلى، والمنذر بن الجارود ممدوح الفرزدق[٢١] وأبى الأسود[٢٢] الدؤلى، وزكريا بن طلحة الفياض ممدوح الأقيشر[٢٣] الأسدى. ومالك بن مسمع ممدوح العُدَيْل[٢٤]، وكانت قبائل ربيعة فى البصرة تجتمع عليه

(١) المحبر لابن حبيب ص ١١٥
(٢) ابن سلام ص ١٠٠، ١٠١ وأغانى (ساسى) ١٦/٣٨.
(٣) ابن سلام ص ٢٧١ والديوان ص ٦١٥.
(٤) المحبر ص ١٥٢.
(٥) أغانى (دار الكتب) ١/٣٢٤ وما بعدها.
(٦) أغانى ٥/٨٧.
(٧) البيان والتبيين ٣/١٢ وأغانى (دار الكتب) ٩/٣٣.
(٨) انظر فى ترجمته أغانى (دار الكتب) ١٣/١٥٨ والبيان والتبيين ١/٣٩٠.
(٩) ابن سلام ص ٥٤٣، ٥٤٦.
(١٠) أغانى (ساسى) ٢١/٧.
(١١) أغانى (ساسى) ٢٠/١١٥.
(١٢) أغانى (دار الكتب) ١٥/٣٢٣.
(١٣) أغانى ٢/٤٢٥.
(١٤) أغانى (ساسى) ٢٠/١١٩.
(١٥) أغانى (ساسى) ١٧/١١٧.
(١٦) الديوان ص ١٥٢، ١٨٢.
(١٧) ابن سلام ص ٤٥٥.
(١٨) أغانى (ساسى) ١٦/١٥٧.
(١٩) ابن سلام ص ٤١٧.
(٢٠) أغانى (ساسى) ٢٠/١٨.
(٢١) الديوان ص ٢٢٠.
(٢٢) أغانى (دار الكتب) ١٢/٣٣١.
(٢٣) أغانى ١١/٢٥٥.
(٢٤) أغانى (ساسى) ٢٠/١٧، ١٩.

فى الإسلام اجتماعها على كُليب فى الجاهلية . وممن كان لا يبارَى فى جوده عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، وله فى كرمه أخبار وأحاديث يقصها الرواة ، ومن مُدّاحه ابن[(1)] قيس الرقيات. وكان يجرى على مثاله فى الجود بالمدينة عروة ابن الزبير ممدوح إسماعيل[(2)] بن يسار النسائى ، وحمزة بن عبد الله بن الزبير ممدوح موسى[(3)] شهوات ، وفيه يقول[(4)] :

حمزةُ المبتاعُ بالمال الثّنَا ... ويرى فى بَيْعه أن قد غَبَنْ

وهو إنْ أعطى عطاءً فاضلا ... ذا إخاء لم يكدِّره بِمَنْ

وطلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق ممدوح الحزين[(5)] الكنانى . ولعل من الخير أن نقف عند نفر من الشعراء الذين أحسنوا فن المديح لهذا العصر ، وقد اخترنا من بينهم نُصَيْباً من الحجاز والقطامى من الجزيرة وكعباً الأشقرى وزياداً الأعجم من خراسان .

نُصَيْب[(6)]

شاعر حجازى نوبى الأبوين كان شديد السواد ، وجعله ذلك يحتجّ للونه كثيراً على شاكلة قوله فى بعض شعره :

فإن يَكُ من لوْنى السَّوادُ فإننى ... لكالمسْك لا يَرْوَى من المسْكِ ذائقُهْ

وكان مُسْتَرقًّا لرجل من كنانة من أهل وَدّان بالقرب من مكة ، وتيقظت فيه موهبة الشعر مبكرة ، فكاتبَ مولاه ، وفزع إلى عبد العزيز بن مروان بمصر ، فردّ إليه حريته ، وكان لذلك أثر عميق فى نفسه . فدبّج فيه مدائح رائعة من مثل قوله :

---

(١) أغانى (دار الكتب) ٧٩/٥ ، ٨٦ .
(٢) أغانى ٤٠٨/٤ .
(٣) انظر ترجمة موسى شهوات فى الأغانى (طبع دار الكتب) ٣٥١/٣ والشعر والشعراء ٥٥٨/٢ والخزانة ١٤٤/١ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٢٨٦ .
(٤) أغانى ٣٥٧/٣ والمبرد ص ٣٦٧ .
(٥) المحبر ص ١٥٢ .
(٦) انظر فى ترجمة نصيب أغانى (دار الكتب) ٣٢٤/١ وراجع فهرسه والشعر والشعراء ٣٧١/١ وابن سلام ص ٥٤٤ والاشتقاق لابن دريد ص ١٤٦ ومعجم الأدباء ٢٢٨/١٩ وشواهد العينى ٥٣٧/١ والموشح ص ١٨٩ .

فبشِّرْ أهل مصرَ فقد أتاهم ... مع النِّيل الذى فى مصرَ نِيلُ
يقول فيحسن القولَ ابنُ ليلى ... ويفعل فوق أحسنِ ما يقولُ[1]

وقوله :

لعبد العزيز على قـومِهِ ... وغيرهمُ مِنَنٌ غامره
فبابك أسهلُ أبوابهم ... ودارك مأهولةٌ عامره
وكفُّك حين ترى السائلـ ... ـين أندَى من الليلة الماطره

ومازال مع عبد العزيز حتى توفى سنة ٨٥ للهجرة ، فبكاه بكاء حارًّا ، وأوصى به من بعده سليمان بن عبد الملك ، فلزمه ، ومن قوله فيه :

قِفُوا خبِّرونى عن سليمان إننى ... لمعروفه من أهل وَدَّانَ طالبُ
فعاجُوا فأثْنَوْا بالذى أنت أهلُه ... ولوسكتواأثنتْ عليك الحقائبُ[2]

وله مدائح فى يزيد بن عبد الملك وأخيه هشام مما يدل على أنه عاش إلى أوائل القرن الثانى ، وله مدائح فى بعض ولاة الحجاز من مثل إبراهيم بن هشام المخزومى والى مكة وعبد الواحد النصرى والى المدينة ، وبعض ولاة العراق وقواده مثل بشر بن مروان وعمر بن عبيد الله بن معمر . وكان يعنى بثيابه وطيبه ، وكان كبير النفس ، فلم يتورط فى هجاء ، كما كان عفيفاً ، وله غزل نقى طاهر ، وهو لذلك يُسْلَكُ فى العذريين .

القطامى[3]

لقبٌ غَلَبَ على عُمَيْر بن شُيَيْم التغلبى ، وهو من بنى الفَدَوْكس عشيرة الأخطل ، ومن ثَمَّ نشأ نصرانيا ، غير أنه فيما يظهر دخل فى الإسلام . وقد اشترك فى الحروب التى نشبت بين قبيلته تغلب وقيس فى أثناء فتنة ابن الزبير ،

---

(١) ليلى : أم عبد العزيز بن مروان وهى بنت زبان بن الأصبغ الكلبية .

(٢) عاجوا : وقفوا .

(٣) راجع فى ترجمة القطامى أغانى (ساسى) ١١٨/٢٠ وابن سلام ص ٤٥٢ والشعر والشعراء ٧٠١/٢ والخزانة ٣٩١/١ والاشتقاق ص ٣٣٩ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٤٧ ومعاهد التنصيص ١٨٠/١ والموشح ص ١٥٨ . وقد نشر ديوانه فى ليدن سنة ١٩٠٢ ونشرته دار الثقافة ببيروت ، ونشر نشرة محققة ببغداد .

وأسرَه أحد القيسيين في يوم ماكَسِين ، غير أن زُفَر بن الحارث حين عرفه افتكّه من الأسر ، وردّ عليه ما سُلب منه ، وأعطاه مائة من الإبل مما جعله ينوِّه به وبصنيعه معه طويلا ، على شاكلة قوله :

ومن يكن استلام إلى ثَوِيٍّ فقد أحسنتَ . يا زُفَرُ ، المتاعا (١)
أأكفرُ بعد رَدِّ المـوت عنِّي وبعد عَطائك المائةَ الرِّتاعا (٢)
ولم أر مُنْعمين أقلَّ مَنًّـا وأكرمَ عندما اصطنعوا اصطناعا (٣)
من البيض الوجوه بنى نُفَيْلٍ أبتْ أخلاقهم إلا اتساعا (٤)

وفى هذه القصيدة يتأسى للحروب الناشبة بين تغلب وقيس على ما بينهما من صلات وأسباب ، ويدعو مخلصاً للصلح ووقف هذه الحروب المُبيرة التى لا تتوقف رَحاها حينا إلا لتعود أشد التهاماً لأبناء القبيلتين ، يقول :

ألم يحزنْك أن حِبال قيسٍ وتغلبَ قد تباينتِ انقطاعا
وكُنَّا كالحريق أصاب غاباً فيخبو ساعةً ويَشِبُّ ساعا
أُمورٌ لو تدبَّرها حليمٌ إذَنْ لنَهَى وهيَّب ما استطاعا

ووفد على الوليد بن عبد الملك ، وقيل على عمر بن عبد العزيز ، فقيل له إن الشعر لا ينفق عنده ، وهذا عبد الواحد(٥) بن سليمان سَيَبرُّك إن مدحته ، فمدحه ، وأضفى عليه كثيراً من بِرِّه ونواله . وكان أول ما مدحه به قصيدته :

إنا محيُّوك فاسْلَمْ أيها الطَّلَلُ وإن بَلِيتَ وإن طالتْ بك الطِّيَلُ (٦)

---

(١) استلام : أتى ما يلام عليه . الثوى : الضيف المقيم . المتاع : الزاد .

(٢) يريد بالكفر كفر النعمة وجحدها . الرتاع : جمع راتعة .

(٣) المن : الفخر بعمل الخير . يقول إنهم لا يمنون بما يصنعون .

(٤) بنو نفيل : عشيرة زفر وهم من بنى عامر ابن صعصعة ، ويريد باتساع الخلق الكرم وغيره من الشيم الفاضلة .

(٥) انظر فى تحقيق نسب هذا الممدوح وهل هو عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك أو عبد الواحد بن الحارث بن الحكم بن أبى العاص الخزانة ١٢٤/٣ وقارن بأخبار القطامى فى الأغانى وبالقصيدة الأولى فى الديوان .

(٦) الطيل هنا : الأزمنة .

ونراه يضمنّها نظرات في الحياة وفي الناس وأخلاقهم ، وهو يقترب في ذلك من ذوق المتنبي في مدائحه كما نرى في مثل قوله :

والعيشُ لا عيش إلا ما تَقَرُّ بهِ عَيْنٌ ، ولا حالَ إلا سوف تنتقلُ
والناسُ من يَلْق خيرًا قائلون له ما يَشْتهي ولأُمِّ المخطيء الهبَلُ
قد يُدْرِك المتأنى بعضَ حاجتهِ وقد يكون مع المستعجل الزَّلَلُ

ويُشيد في القصيدة بقريش ونُصْرتها للرسول صلى الله عليه وسلم وتثبيتها لدعائم الدين الحنيف مما يدل أكبر الدلالة على أن الله أتمّ عليه نعمة الإسلام ، يقول :

قومٌ همُ ثَبَّتوا الإسلام وامتنعوا قومُ الرسول الذى ما بعده رُسُلُ

وممن أشاد بهم ونوّه بذكرهم أسماء بن خارجة الفزارى ، وله فيه أمداحٌ رائعة على شاكلة قوله :

إذا مات ابنُ خارجة بن حِصْنٍ فلا هطلتْ على الأَرض السماءُ
ولا رجع البريد بغُنْمٍ خيرٍ ولا حملتْ على الطُّهْر النِّساءُ

ومن أهم ما يميزه في شعره صفاءُ موسيقاه وحلاوة ألفاظه وعذوبة أنغامه وتمكن قوافيه وجودة مطالعه والمظنون أنه توفّى في أوائل القرن الثانى للهجرة .

كعب[١] بن معدان الأشقرى الأزدى

من شعراء خراسان الذين برعوا في المديح ، وهو فارس شجاع له آثار في حروب المهلّب للأزارقة في فارس وللترك في خراسان . وله في المهلّب ووصف حروبه قصائد كثيرة ، منها قصيدة طويلة في حروبه للأزارقة تشبه أن تكون ملحمة ، وقد روى منها أبو الفرج أطرافاً . وروى منها الطبرى ثلاثة وثمانين بيتاً[٢] وهو في شعره يحسن حَوْك اللفظ والمعنى جميعاً على شاكلة قوله يمدح المهلب وأبناءه :

(١) انظر في ترجمة كعب الأغانى (طبع دار الكتب) ١٤/٢٨٣ وما بعدها والشعر والشعراء ١/٣٩٧ وما بعدها ومعجم المرزبانى ص ٢٣٦ وراجع الجزء الخامس من الطبرى في مواضع متفرقة .

(٢) طبرى ٥/١٢٢ .

بَرَاكَ اللهُ حين بَرَاكَ بَحْرًا — وفجَّر منك أنهارًا غِزارا[1]
بنوك السابقون إلى المعالى — إذا ما أعظمَ الناسُ الخِطارا[2]
كأنهمُ نجومٌ حول بَدْرٍ — دراريٌّ تكمَّل فاستدارا[3]
ملوكٌ ينزلون بكل ثَغْرٍ — إذا ما الهامُ يوم الرَّوْع طارا[4]
رِزانٌ فى الأمور ترى عليهم — من الشَّيْخ الشَّمائلَ والنِّجارا[5]
نجومٌ يُهْتَدَى بهمُ إذا ما — أخو الظَّلماء فى الغمرات جارا

وتوفِّى المهلب ، فلزم ابنه يزيد يمدحه ويصف حروبه مع التّرك وبرّه ونائله الجزل ، ومن بديع ما قاله فيه :

يَداك إحداهما تَسْقِى العدوَّ بها — سَمًّا وأخرى نَداها لم يزل دِيَمَا

ولما عُزِل يزيد عن خراسان لعهد الحجاج ووليها قتيبة بن مسلم الباهلى وانتصر على التّرك انتصاراته الرائعة مضى يُشيد به وبانتصاراته بمثل قوله[6] :

دوَّخ السُّغْدَ بالكتائب حتى — ترك السُّغْدَ بالعَراء قعودا
فوليدٌ يبكِى لفقد أبيهِ — وأبٌ موجَعٌ يبكِّى الوليـدا

وجرَّه ذلك إلى التخلص من عصبيته لقبيلته وصاحبها يزيد بن المهلب ، ويقال إنه نال منه وثلبه . وكان قبل هذه الفترة من حياته يستشعر عصبية حادة للأزد ، وهى عصبية جعلته يتهاجى هجاء مريراً مع شعراء قبيلة عبد القيس وعلى رأسهم زياد الأعجم ، كما تهاجى مع شعراء ربيعة . وكان موقفه مع قتيبة سبباً فى غضب يزيد بن المهلب عليه غضباً شديداً ، فلما ولى العراق وخراسان لعهد سليمان بن عبد الملك طلبه ، فهرب إلى عُمان ، وظلّ بها إلى أن ثار يزيد على الأمويين سنة ١٠٢ فأتبعه من قتله .

---

(١) براك : خلقك .
(٢) الخطار : المراهنة .
(٣) نجوم دراري : مضيئة .
(٤) الهام : الرءوس ، يوم الروع : يوم الحرب والخوف .
(٥) رزان : جمع رزين . ويريد بالشيخ المهلب . الشمائل : الطباع . النجار : الأصل والحسب .
(٦) طبرى ٥/٢٥٥ والسغد : جنس من الترك .

زياد(١) الأعجم

مولى لقبيلة عبد القيس . أصله ومولده ومنشؤه بأصبهان . وكانت فيه لثغة شديدة سبق أن تحدثنا عنها . وكان يحسن فن المديح إحساناً رائعاً . وممن ظل يمدحهم طويلا عمر بن عبيد الله بن معمر والى فارس . وفيه يقول :

سألناه الجزيلَ فمَا تـأبَّى ... وأعطى فوق مُنْيَتِنا وزادا

وأحسنَ ثم أحسن ثم عُدْنا ... فأحسن ثم عُدْتُ له فعادا

أخٌ لك لا تراه الدهرَ إلا ... على العِلاَّت بسَّاماً جوادا

ويُرْوَى أن ابن مَعْمَر عدَّ أبيات هذه القصيدة ، فأعطاه على كل بيت ألفا . وما زال يلزمه حتى توفِّي ، فولى وجهه نحو خراسان ، فمدح عبد الله بن الحشرج والى سجستان ، وتوفِّي فرثاه رثاء حارًّا ، تمثلنا فيما سلف ببيت منه ، وحدَّث أن مدح المهلَّب وعنده كعب الأشقرى والمغيرة بن حَبناء ، فأمر لهم بجوائز ، وفضَّل زيادا ، ولاحظ ــ كما أسلفنا ــ لُكْنته فى قوله :

فتًى زاده السُّلطان فى الخير رِفعةً ... إذا غَيَّر السُّلطانُ كلَّ خليلِ

إذ نطق السلطان « الشلتان » بإبدال السين شيناً والطاء تاء ، فوهب له غلاماً فصيحاً ينشد شعره . وغاظ صنيع المهلب بزياد المغيرةَ بن حَبْناء وكعباً ، وانتُدب له المغيرة ، فتهاجيا طويلا . ولم يلبث أن تهاجى مع كعب ، وتفوق عليه فى عدة قصائد يقول فى إحداها هاجيا قبيلته :

قُبَيِّلة خَيْرُهــا شَرُّها ... وأصدقُها الكاذبُ الآثِمُ

وضيفهمُ وَسْط أبياتهم ... وإن لم يكن صائماً صائمُ

وهاجى قتادة بن مغرِّب اليَشْكرى ، وفى قبيلته هو الآخر يقول :

ويَشْكر لا تستطيع الوفاء ... وتعجز يشكر أن تَغْدرا

(١) انظر فى ترجمة زياد أغانى (دار الكتب) ١٥/٣٨٠ وابن سلام ص ٥٥٧ والشعر والشعراء ١/٣٩٥ ، ومعجم الأدباء ١١/٢٢١ والخزانة ٤/١٩٣ والاشتقاق ص٣٣٢ وراجع أغانى (دار الكتب) ١٣/٨٩ وما بعدها وذيل الأمالى ص ١٠ والجزء الخامس من الطبرى فى مواضع متفرقة .

وكان مُغْرًى بهجاء الوعاظ والفقهاء والنُّسَّاك، ويقال إن الفرزدق همَّ بهجائه حين رآه يُكثر من هجاء المغيرة بن حبناء وقبيلته تميم ، فبادره بقوله :

وما ترك الهاجون لى إن هجوته مصَحًّا أراه فى أديم الفرزدقِ
وإنا وما تُهْدِى لنا إن هجوتنا لكا لبحر مهما يُلْقَ فى البحر يَغْرَقِ

فتوسل الفرزدق إليه أن يكفَّ عنه . وفى ذلك ما يدل على أنه كان يتقن الهجاء كما كان يتقن المديح والرثاء ، ومرثيته للمغيرة بن المهلب من روائعه . وقد توفِّى فى حدود المائة الأولى للهجرة .

٢

شعراء الهجاء

احتدم الهجاء فى هذا العصر احتداماً شديداً ، بتأثير العصبيات القبلية التى اشتعلت — كما مرَّ بنا — نيرانُها فى كل مكان ، ومعروف أن الإسلام دعا إلى نَبْذ هذه العصبيات وحاربها حرباً عنيفة ، غير أن هذا — فيما يظهر — كان مثلا أعلى لم يستطع العرب تحقيقه إلا إلى فترة محدودة ، فلم تكد نيرانُها تتحول إلى رماد ، حتّى عادت إلى الظهور ، إذ نشبت حرب الرِّدَّة وأشْرع فيها الشعراء ألسنتهم صادرين عن روحهم القبلية، على نحو ما يُرْوَى عن أبى شجرة السُّلمى وانتصاره للمرتدين من قبيلته سُلَيْم ، وكأن من دخلوا هذه الحرب أرادوا أن يخلعوا عنهم سلطان قريش. وقضى أبو بكر الصديق قضاء مبرما على هذه الفتنة، ودفع العرب إلى الفتوح ، ولكنهم لا يكادون يهدأون، حتى تحدث فتنة عثْمان وتنشب الحروب بين علىٍّ وخصومه : طلحة والزبير وعائشة ثم معاوية . وكانت كثْرة جيشه من اليمانية وربيعة ، ونراهما تتنافسان فى قيادة حربه بموقعة الجمل ، كما تتنافسان فى موقعة صفِّين ضد معاوية ، ويتبادل شعراؤهما الطعن والتجريح كلٌّ يصور حسن بلاء قومه فى الحرب. والتقت بهذه الأصوات أصواتٌ مُضَرِيَّة كثيرة . وحدث هذا نفسه فى صفوف خصومه ، مما نجد آثاره فى الطبرى وفى

وقعة صفّين لنصر بن مزاحم . وعبثاً حاول علىّ أن يُعلى كلمة الإسلام الذى حاول أن يمحو الدعوات الجاهلية وما اتصل بها من عصبيات ، إذ لم تلبث طائفة كبيرة فى جيشه بعد قبوله للتحكيم أن نظرت فى تولىّ قريش تدبير الأمور فى الأمة ، وأن من حقها جميعاً أن يكون لها الحكم والسلطان . وبسرعة تكونت جماعة الخوارج وشَهرت سيوفها فى وجهه مما اضطره أن يحاربها ويذيقها وبال انتكاسها وخروجها على الجماعة

ومما لا شك فيه أن موقف معاوية كان سبباً قويّاً من أسباب استشعار جماعته للعصبية القبيلة ، فقد مضى يطالب بحق عشيرته الأموية فى الأخذ بثأر عثمان ، وكأنه أحيى قاصداً أو غير قاصد الفكرة القديمة التى كانت تجعل حق الثأر للقبيلة والعشيرة . ومعروف أن الإسلام هدم هذا الحق وحوّله من القبائل والأفراد إلى الدولة ، فهى التى تعاقب عليه بما يفرضه دستور القرآن الكريم . وزاد فى استشعار العصبية فى صفوفه أنه كان يعتمد على قبيلة كلب اليمنية ، وكان بينها وبين الأمويين مصاهرات مختلفة ، فإن عثمان تزوج منها بنائلة بنت الفُرافِصة . وتزوج معاوية من مَيْسون بنت بَحْدَل ، وهى أم ابنه يزيد ، وكذلك تزوج مروان بن الحكم ليلى بنت زَبّان بن الأصبغ الكلبية ، وهى ابنة عم نائلة . وقد استغل معاوية فى حربه لعلى ذلك ، لأن الصِّهْر عند العرب كالنسب ، ووسّع استغلاله ، إذ ضمّ تحت لوائه جميع القبائل اليمنية الشامية .

وعلى هذا النحو كانت العصبية القبلية تَسْرى فى أحداث هذه الفترة ، وهدأت الأمور نحو ربع قرن ، حتى إذا توفّى يزيد وجدنا العصبية تَستعر بين القبائل فى الشام والجزيرة وفى البصرة وخراسان . أما فى الشام والجزيرة فاندلعت بسبب نزول قيس فيهما واصطدامها فى أولاهما بكلب والقبائل اليمنية وفى ثانيتهما بتغلب الرَّبعية . وكانت وفاة يزيد بن معاوية إشارة الوقت لهذا الاندلاع ، فقد بايعت قيسٌ ابنَ الزبير وبايعت اليمنية وتغلب مروانَ بن الحكم ، وسلّ الطرفان سيوفهما فى معارك حامية تحدثنا عنها فى غير هذا الموضع ، وانبعث شعراء كل طرف يفتخرون ويهجون ، بالضبط ، كما كان يفتخر آباؤهم فى الجاهلية ويهجون .

وفى نفس الوقت نجد الحلْفين الكبيرين فى البصرة : حلف تميم وقيس من جهة وحلف الأزد وربيعة واليمنية من جهة أخرى يستشعران العصبية القبلية استشعاراً حادًّا . ومرّ بنا فى غير هذا الموضع كيف اصطدم الحلْفان بعد فرار عبيد الله بن زياد عن العراق ، وكيف أفضى الاصطدام إلى القتال ، لولا أن تدارك الأمرَ الأحنفُ بن قيس فرتَقَ الفَتْق . وقد ظلت نفوس الحلفين تغْلى طوال العصر ، وظل الشعراء يتصايحون صياحهم القبلى حتّى لنجد أبا نُخيلة ، وهو ممن أدركوا الدولة العباسية ينظم أرجوزة طويلة يذكر فيها حرب قومه التميميين مع الأزد وربيعة مفاخراً بانتصارهم على شاكلة قوله [1] :

نحن ضربنا الأَزْدَ بالعـراقِ والحىَّ من ربيعـةَ المُرّاق

ضربًا يُقيم صَعَرَ الأعنـاقِ بغير أطمـاعٍ ولا أَرْزاقِ [2]

إلاّ بقايا كرم الأَعْراقِ

ولم تحتدم العصبيات القبلية فى البصرة فحسب ، فقد انتقلت إلى خراسان لسبب طبيعى ، وهو أن أكثر جيوشها كانت تتألف من جُنْد البصرة ، إذ هم الذين ابتدءوا فتحها منذ عهد عمر ، وتوالت بعد ذلك كتائبهم وفرقهم هناك ، فكان طبيعيا أن تنعكس بها نيران هذه العصبيات ، وقد أخذت تزداد تأججاً واشتعالا بعامل المنافسة على قيادة الجيوش وولاية الثغور ، إذ كان الوالى هناك يولّى عماله وقواده من قبيلته وأحلافها ، فإذا تولّى المهالبة مثلا قدّموا رجال الأزد وربيعة واليمن وانتكست قيسٌ وتميم ، وإذا تولى قتيبة بن مسلم الباهلى مثلا رفعتْ قيس وتميم رءوسهما وانتكست الأزد وأحلافها . ولم تقف المسألة عند ذلك فإن القبائل فى الحلف الواحد كثيراً ما اختلفت وتحاربت وتطاحنت بسبب الاختلاف على المغانم وطمعاً فى اكتنازها ، واقرأْ فى أى شاعر ممن عاشوا هناك وترْجمَ له صاحب الأغانى فستراه دائماً يذود عن قبيلته بلسانه ، سواء كان من أصولها أو من مواليها ، على نحو ما مرّ بنا من استعار الهجاء بين زياد الأعجم مولى

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز (طبع دار المعارف) ص ٦٣ .

(٢) الصعر : الميل ، وصعر الأعناق كناية عن الكبر والغطرسة ، وأصله ميل العنق والنظر عن الناس تهاوناً واستكباراً .

عبد القيس وكعب الأشقرى الأزدى ، وكان زياد يهاجى أيضاً المغيرة بن حبناء التميمى وقتادة بن مغرب اليشكرى وابن عمه أبا جلدة[1]. وقد يرتفع صوت فى أثناء هذا الضجيج باعتزال هذه الحرب اللسانية وما تطوى من عصبيات عنيفة على شاكلة قول نهار بن توسعة[2] :

أبى الإسلامُ لا أبَ لى سواهُ إذا هتفوا ببكر أو تميمِ

ولكن مثل هذا الصوت كان يضيع فى غمار هذه العصبيات التى استعلى سلطانها فى العصر استعلاء شديداً ، وهو استعلاء سقطت منه آثار مختلفة فى جميع البيئات .

وقد قلنا فيما أسلفنا إن الكوفة شغلت عن العصبيات القبلية بتشيعها وخصومتها للأمويين ، ومع ذلك فإننا نجد هناك الكميت بن زيد الأسدى يثير معركة حامية مع حكيم[3] بن عياش الكلبى وهرون[4] مولى الأزد ، وكثيراً ما كانت تثار معارك بين شعراء العشائر والبطون ، ولكنها على كل حال لم تحتدم هناك على نحو ما احتدمت فى خراسان والبصرة . وإذا ولينا وجوهنا نحو المدينة وجدنا عبد الرحمن بن حسان بن ثابت يتهاجى مع عبد الرحمن بن الحكم الأموى هجاء مريراً[5] ، ويقال إنه هجا يزيد بن معاوية وشبب بأخته رملة تشبيبا أحفظه ، فأغرى الأخطل بهجائه ، فجهاه وهجا قومه الأنصار ، وأغضب ذلك النعمان ابن بشير ، فتعرض للأخطل بهجاء عنيف[6] .

ويلقانا فى نجد هجاء كثير دار على ألسنة شعراء القبائل ، ولعل من خير ما يمثله تهاجى المرار بن منقذ الأسدى ومساور بن هند العبسى . ومن طريف ما للمرار قوله[7] :

---

(١) أغانى (دار الكتب) ١١/٣٢٢ .
(٢) الشعر والشعراء ١/٥٢١ .
(٣) أغانى (ساسى) ١٠/١٢ ومعجم الأدباء ١٠/٢٤٧ .
(٤) الحيوان ٧/٧٥ .
(٥) أغانى (ساسى) ١٣/٤١ والمبرد ص ٤٨٩ .
(٦) انظر فى ترجمة النعمان بن بشير أغانى (ساسى) ١٣/١٤٧ ، ١٤/١١٤ وما بعدها والشعر والشعراء ١/٤٥٦ وقد طبع له ديوان على الحجر فى دهلى ونشره كرنكو مع ديوان أبى بكر بن العزيز .
(٧) أغانى (دار الكتب) ١٠/٣١٨ .

شقيتْ بنو عَبْسٍ بشعر مساورٍ   إن الشقيَّ بكل حَبْلٍ يُخْنَقُ

ومرّ بنا ما كان من مهاجاة شبيب بن البَرْصاء الذبيانى وابنى عمه عقيل بن عُلّفة وأرطاة بن سُهَيّة ومهاجاة ابن ميّادة والحكم الخُضْرى ، وكان فى ابن ميّادة[1] شر كثير جعله يهاجى كثيرين من مثل عقبة بن كعب بن زهير وعقال بن هاشم اليمنى وشُقْران مولى بنى سلامان .

وعملتْ بجانب هذه العصبيات أسباب شخصية كثيرة على اندلاع نيران الهجاء . فمن ذلك أن ينتصر أحد الشعراء لزميل فى تهاجيه مع زميل آخر ، حينئذ يرميه بسهام هجائه ، على نحو ما هو معروف عن جرير فى تهاجيه مع الفرزدق إذ كان كثير من الشعراء يقفون مع خصمه ضده . فكان ينصبُّ عليهم شواظ نار . وقد يفاضل أحد الولاة أو الأجواد بين من يمدحونه من الشعراء فيزيد شاعراً فى جائزته على زميله أو زملائه ، فيغضب المفضول ، ويَسْقط بغضبه على من فضّله كما مر بنا فى تهاجى المغيرة بن حَبْناء ، وزياد الأعجم . وقد يبطئُ الممدوح على مادحه بمكافأته ، فيتحول إلى هجائه على نحو ما هجا الحَزين الكنانى عمرو بن عمرو بن الزبير بقوله[2] :

مواعِيدُ عمرو تُرّهاتٌ يزوجها   على كل ما قد قلتُ فيه دليلُ
جبانٌ وفحّاشٌ لئيمٌ مذمّمٌ   وأكذبُ خلق الله حين يقــول

وقد يحرم ممدوح مادحا له من نواله فيسرع إلى هجائه على نحو ما كان من عكرمة بن رِبْعى مع المتوكل[3] الليثى ، وقد لا تقوم مكافأة الممدوح فى

---

(١) انظر فى ترجمة ابن ميادة الشعر والشعراء ٢/٧٤٧ والمؤتلف ١٧٤ والأغانى (طبع دار الكتب) ٢/٢٦١ وما بعدها والاشتقاق ص ٢٨٧ والخزانة ١/٧٦ والموشح ص ٢٢٨ .

(٢) أغانى دار الكتب ١٥/٣٣٨

(٣) انظر فى ترجمة المتوكل ابن سلام ص ٥٥١ وما بعدها وأغانى (دار الكتب) ١٢/١٥٩ ومعجم الشعراء ص ٣٢٩ وهو صاحب البيت المشهور :

لا تنه عن خلق وتأتى مثله   عار عليك إذا فعلت عظيم

رأى المادح بما قدّم له من مديحه . فيهجوه ويسرف فى هجْوه على نحو ما صنع الشَّمَرْدَل بهلال[1] بن أحوز المازنى فارس تميم فى عصره غير مدافع . وقد يحجب الممدوح مادحه فلا يأذن له بلقائه ، فيصبُّ عليه نار هجائه ، على نحو ما روى الرواة عن حجْب مقاتل بن مسمع بن مالك لأبى جِلدة اليشكرى ، فقد تولّى يهجوه بمثل قوله[2] :

قَرَى ضَيْفَهُ الماءَ القَراحَ ابنُ مِسْمَعٍ   وكان لئيماً جارُه يتذلَّلُ

وقد يمتدح الشاعر أحد العمال ويطلب إليه حاجة فلا يقضيها ، حينئذ ينتقم منه بهجائه ، على نحو ما كان من زياد الأعجم مع عبَّاد بن الحصين ، وكان على شرطة القُباع والى ابن الزبير على البصرة ، فسأله حاجةً فازورّ عنه فهجاه وهجا عشيرته الحَبطات طويلا ، وفيها يقول[3] :

رأيت الحُمْرَ من شَرِّ المطايا   كما الحَبطات شَرُّ بنى تميم

وعلى هذا النحو أصبحنا نجد الأجواد والقواد والولاة الذين مرت بنا أسماؤهم والذين طالما مدحهم الشعراء يُهْجَوْن كثيراً أو قليلا ، فزياد وبنو زياد يهجوهم ابن مفرِّغ ، والحجاج يهجوه العُدَيْل[4] بن الفرخ العجلى ومالك[5] بن الريب التميمى ، وفيه يقول[6] :

ولولا بنو مروانَ كان ابنُ يوسفٍ   كما كان عبدًا من عبيد إيادِ

زمانَ هو العبد المقرُّ بذُلِّهِ   يراوح صبيان القُرَى ويغادى

وكان الفرزدق مولعاً بهجاء كثير من الولاة والعمَّال عصبيةً لقبيلته تميم

---

(١) أغانى (دار الكتب) ١٣/٣٥٨ .

(٢) أغانى ١١/٣٣١ .

(٣) البيان والتبيين ٤/٣٧ والخزانة ٤/٢٨٠ .

(٤) أغانى (ساسى) ٢٠/١٣ .

(٥) انظر فى ترجمة مالك الشعر والشعراء ١/٣١٢ وأغانى (ساسى) ١٩/١٦٣ والخزانة ١/٣١٧ ومعجم الشعراء ص ٢٦٥ .

(٦) المبرد ص ٢٩٠ .

أو لأسباب شخصية ، وممن أكثرَ من هجائهم عمر[١] بن هبيرة الفزارى وخالد القسرى[٢] ، وفيهما يقول إسماعيل بن عمار[٣] :

بكتِ المنابرُ من فَزارة شَجْوَها فالآن من قَسْرٍ تضجُّ وتجزع

وكان المهالبة ممدَّحين كما قدمنا . ومع ذلك لم يسلموا من هجاء الشعراء وعلى رأسهم الفرزدق[٤] . ومن ولاة الشرق الذين هجاهم غير شاعر قتيبة بن مسلم الباهلى والى خراسان ، وسنرى عما قليل هجاء ثابت قطنة له ، ومنهم عبد الله العبشمى مهجوّ أبى حُزابة[٥] . ونرى أعشى همدان يهجو خالد بن عتّاب بن ورقاء والى الرّىّ وأصبهان حين جفاه بمثل قوله[٦] :

ويركب رأسَه فى كل وَحْلٍ ويَعْثُرُ فى الطريقِ المستقيمِ

ويهجو أبو نُخَيْلة المهاجر بن[٧] عبد الله والى اليمامة . وفى الحجاز نجد الأحوص مشغوفاً بهجاء ابن[٨] حزم والى المدينة لعمر بن عبد العزيز كما نجد العرجى مشغوفاً بهجاء محمد بن هشام المخزومى والى مكة لهشام بن عبد الملك . ونحن نقف قليلا عند ثلاثة من الهجائين هم ابن مفرّغ البصرى والحكم بن عَبْدل الكوفى وثابت قُطْنة الخراسانى .

ابن[٩] مفرّغ

هو يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميرى نشأ بالبصرة ، ويقال إنه كان حليفاً لقريش ، وقيل بل كان مُسترَقًّا للضحاك الهلالى فأعتقه . وكان يتقن الفارسية كما أسلفنا فى غير هذا الموضع ، ولعل فى ذلك ما يدل على أنه يرجع إلى أصول إيرانية ، أما لقبه الحميرى فلعل منشأه أنه كان من حَفَدة الفرس الذى نزلوا اليمن قبل الإسلام ، أو لعله يرجع إلى وضعه سيرة لتبّع .

---

(١) الديوان ص ٢٨٢ ، ٦٤٧ .
(٢) أغانى (ساسى) ١٩/٢٣ .
(٣) أغانى (دار الكتب) ١١/٢٧٩ .
(٤) انظر الديوان ص ١٠ ، ١٨٧ ، ٢٥٢ ، ٢٦٢ ، ٤١٢ .
(٥) أغانى (ساسى) ١٩/١٥٢ .
(٦) البيان والتبيين ٤/٥٠ .
(٧) أغانى (ساسى) ١٨/١٤٥ .
(٨) أغانى (دار الكتب) ٤/٢٣٧ .
(٩) انظر فى ترجمة ابن مفرغ ابن سلام ص ٥٥٤ والشعر والشعراء ١/٣١٩ وأغانى (ساسى) ١٧/٥١ والطبرى ٤/٢٣٥ والاشتقاق ص ٥٢٩ ومعجم الأدباء ٢٠ / ٤٣ والخزانة ٢/٢١٢ ، ٥١٤

ويظهر أن موهبة الشعر تيقظت عنده مبكرة . وطبيعي وهو قد نشأ في البصرة أن يتجه بشعره إلى المديح والهجاء اللذين كانا شائعين فيها على ألسنة الشعراء من حوله . غير أن الهجاء هو الذي غلب عليه ، وقد صبه صبًّا على أسرة زياد بن أبيه . وكان الذي دلع لسانه فيها أن سعيد بن عثمان والى معاوية على خراسان أراد استصحابه فآثر عليه عَبَّاد بن زياد والى سجستان . وصحبه فلم يحمده . وكان عباد طويل اللحية عريضها ، فركب ذات يوم وابنُ مفرغ يسير معه في موكبه ، فهبَّت ريح ، فنفشت لحيته . فقال ابن مفرغ توا :

ألا ليتَ اللِّحَى كانت حشيشا ... فنعْلفهــا دوابَّ المسلمينا

وعلم عباد بما قال ، فأخذ يجفوه ويتنكر له ، وأخذ ابن مفرغ يظهر ندمه على صُحْبته وترْكه لسعيد بن عثمان . وفي ذلك يقول :

إن ترْكي نَدَى سعيد بن عثما ... ن فتى الجود ناصري وعَديدي

واتِّباعي أخا الوضاعة واللُّؤْ ... م لنقصٌ وفوْتُ شأوٍ بعيد

وكان على ابن مفرغ دَين ، فاستعدى عليه دائنوه عبَّادا ، فأمر ببيع ماله في دَينه . وكان فيما بيع عليه عبد يقال له بُرْد وجارية تسمى أراكة ، فبكاهما طويلا بمثل قوله :

وشريتُ بُرْدًا ليتني ... من بعد بُرْدٍ كنت هامَه[1]

يا هامــةً تدعو صَدًى ... بين المُشَقَّر فاليمامه[2]

الريح تبكي شَجْوَهُ ... والبرق يلمع في الغمامه[3]

وأخذ يهجو عبَّادا وأخاه عبيد الله والى العراق وأباهما زيادا هجاء مقذعا ، وكان مما وقف عنده طويلا استلحاق معاوية لزياد . معلناً نكيره على هذا الاستلحاق بمثل قوله :

---

(١) يقال فلان هامة اليوم أو الغد أي أنه يموت في يومه أو غده . وشريت هنا : بعت .

(٢) كانت العرب تزعم أن الهامة والصدى يطيران من رأس الميت . المشقر : حصن بين البحرين ونجران .

(٣) يقول إن البرق يبكيه لامعاً في الغمامة .

ألا أَبلغْ معاويةَ بن حَرْبٍ   مُغَلغِلةً عن الرجل اليمانى
أتغضب أن يُقال أبوك عَفٌّ   وترضى أن يقال أبوك زانى
وأشهد أن إلَّك من زيادٍ   كإلِّ الفيل من ولد الأتان(١)

وكان أهل البصرة يتغنَّون بهجائه لتلك الأسرة، مما أثار عليه حفيظة عبيد الله، فطلبه وألحَّ فى طلبه . وحدث أن قدم البصرة وعبيد الله غائبٌ عنها فى وفادة على معاوية أو على ابنه يزيد ، فاستجار بالمنذر بن الجارود ، وكان عبيد الله مُصْهراً إليه ، فأجاره . وعاد عبيد الله فلم يَرْعَ جوار المنذر ، وأخذ ابن مفرِّغ وسجنه . ورأى أن ينكِّل به ، فأمر — كما مر بنا فى غير هذا الموضع — أن يُسْقَى نبيذاً ويُحْمل على بعير مقروناً إلى هِرَّة وخنزير ويُطاف به فى أزقة البصرة بتلك الصورة المزرية ، واجتمع الصبية حوله فى طوافه يخاطبونه بالفارسية ما هذا ، وهو يرد عليهم بلغتهم هاجيا عبيد الله وجدته سُمَيَّة هجاء مقذعاً . ورُدَّ إلى السجن . ويقال بل أرسله عبيد الله إلى أخيه عباد ليتنزل به عقابا أليما ، فألقى به فى غيابات السجون . وشفعتْ فيه اليمنية عند يزيد بن معاوية ، وألحت فى شفاعتها ، حتى أمر بإطلاقه ، وقد مضى يهجو عبَّادا وأخاه عبيد الله ، وخاصة حين خلا له الجوُّ بفرار عبيد الله إلى الشام عقب وفاة يزيد بن معاوية ، فقد ظلَّ يَسْقُط عليه بهجاء مرير . وقد توفِّى سنة تسع وستين .

الحَكَم (٢) بن عَبْدل

من بنى أسد ، نشأ بالكوفة ، يمدح ويهجو ، وكان هواه مع بنى أمية ، فلما دخل العراقُ فى طاعة ابن الزبير أمر بنفيه إلى الشام ، فقدمها على عبد الملك وحظىَ عنده ، وله فى تحريضه على قتال مصعب بن الزبير وهجائه هو وأسرته أشعار كثيرة من مثل قوله :

ياليت شعرى وليتٌ ربما نفعتْ   هل أبصرنَّ بنى العَوَّام قد شُمِلوا
بالذلِّ والأَسْر والتشريد إنهمُ   على البريَّة حَتْفٌ حيثما نزلوا

(١) الإل : القرابة .
(٢) انظر فى ترجمة الحكم بن عبدل أغانى (دار الكتب) ٢/٤٠٤ وما بعدها ومعجم الأدباء ١٠/٢٢٨ وما بعدها وفهرس البيان والتبيين والحيوان .

ولما دخلت العراق فى طاعة عبد الملك رجع إلى وطنه وأخذ يمدح بشر بن مروان وابنه عبد الملك وكثيراً من أجواد بلدته، وكانت فيه فكاهة جعلته يتصعلك فى بعض مدائحه ، إذ نراه يصف لممدوحيه بؤسه وما يملأ بيته من عناكب وحشرات وجرذان[١] . وبذلك كان مقدمة للأدباء الصعاليك الذين ظهروا فى العصر العباسى ، وكانوا سبباً فى نشوء فن المقامات عند بديع الزمان ثم الحريرى.

وكان هجّاء خبيث اللسان ، وممن هجاهم طويلا محمد بن حسان بن سعد ، وكان يتولّى خراج الكوفة ، فكلمه فى شخص ليضع عنه ثلاثين درهما من خراجه فرده ردًّا قبيحا جعله يَسُلُّ لسانه عليه بقصيدة طويلة يقول فيها :

رأيت محمدا شَرِهــاً ظلوماً وكنت أراه ذا ورعٍ وقَصْدِ
يقول : أماتنى ربِّى خِــداعاً أمــاتَ الله حَسَّان بن سَعْدِ

وذاعت القصيدة على ألسنة الكوفيين ، حتى كان المُكارى يسوق بغله أو حماره فيقول : عَدّ ، أمات الله حسان بن سعد . وحدث أن خطب ابن حسان فتاة من ولد قيس بن عاصم وسمع بذلك ابن عبدل ، فأخذ يعمل على إفساد هذه الخِطْبة بأشعار كثيرة من مثل قوله :

وما كان حسانُ بن سعدٍ ولا ابنُه أبو المِسْك من أكفاءِ قيس بن عاصمِ[٢]
خذى ديةً منه تكن لكِ عُدَّةً وجيئى إلى باب الأمير فخاصمى

وكان ذلك سبباً فى نَقْض هذا الصِّهْر ، إذ أنفت للفتاة عشيرتُها وردت ابن حسان ردًّا قبيحاً . وممن هجاهم ابن عبدل عمر بن يزيد الأسدى صاحب شرطة الحجاج ، وله يصف شُحَّه وتقتيره :

جئنا وبين يديه التَّمْرُ فى طَبَقٍ فما دعانا أبو حَفْصٍ ولا كادا

وولى إمارةَ الكوفة لمسلمة بن عبد الملك فى ولايته على العراق عبدُ الحميد ابن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ، وكان أعرج ، وتصادف أن كان صاحب شُرْطته مثله أعرج ، فدخل عليه الحكم ، وكان هو الآخر أعرج ، فأنشده فى أبيات :

---

(١) انظر الحيوان ٥/٢٩٧ وفى مواضع متفرقة. (٢) يكنى ابن عبدل بأبى المسك عن فتى ابن حسان.

أَلْقِ العَصا ودَعِ التخامُعَ والتمسْ عملا فهٰذى دولةُ العُرْجانِ[١]

فأعطاه عبد الحميد مائتى درهم وسأله أن يكفّ عنه ، ويقول الجاحظ : « لما شاع هجاء الحكم بن عبدل الأسدى لمحمد بن حسان بن سعد وغيره من الولاة والوجوه هابه أهل الكوفة ، واتقى لسانه الكبير والصغير ، وكان الحكم أعرج لا تفارقه عصاه ، فترك الوقوف بأبوابهم ، وصار يكتب على عصاه حاجته ، ويبعث بها مع رسوله ، فلا يُحْبَسُ له رسول وتأتيه الحاجة على أكثر مما قدّر وأوفر مما أمل ، فقال يحيى بن نوفل[٢] :

عَصا حكمٍ فى الدار أولُ داخلٍ ونحن على الأبواب نُقْصَى ونُحْجَبُ[٣]

وللحكم هجاء فكه فى زوجة همدانية كرهها ونفر منها ، ونراه يصورها متغضنة الجلد قبيحة قبحاً شديداً . والمظنون أنه توفى فى مطالع القرن الثانى للهجرة .

ثابت[٤] قُطْنة

هو ثابت بن كعب من بنى العَتيك الأزديين ، وقيل بل هو مولى لهم ، ولقّب قُطْنة لأن سهماً أصابه فى إحدى عينيه فى بعض حروب الترك ، فذهب بها ، فكان يجعل عليها قُطْنة . وهو من فرسان المهلب المبرّزين وقد علا نجمه فى ولاية يزيد بن المهلب الأزدى على خراسان إذ كان يولّيه أعمالا فى الثغور ، فيحسنها وتظهر كفايته وبسالته . وكان قوم من المرجئة هناك يجتمعون ويتجادلون فمال إلى قولهم واعتنقه أشد اعتناق ، وقد مرت بنا أبياته فى الإرجاء فى تضاعيف حديثنا عن الثقافة .

---

(١) التخامع : العرج .

(٢) انظر فى ترجمة ابن نوفل الشعر والشعراء ٢/٧١٧ وأغانى (دار الكتب) ٤/٢٧ والطبرى ٥/٤٥٧ وفهارس البيان والتبيين والحيوان والمبرد. وكان مولعاً بهجاء خالد القسرى وعبد الملك بن عمير قاضى الكوفة .

(٣) البيان والتبيين ٣/٧٤ .

(٤) راجع فى ترجمة ثابت الشعر والشعراء ٢/٦١٢ وأغانى (دار الكتب) ١٤/٢٦٣ والخزانة ٤/١٨٤ والاشتقاق ص ٤٨٣ .

ويلتئم فى ثابت هجاء العصبيات وهجاء الأسباب الشخصية ، إذ كان يتعصب لقومه من الأزد تعصباً شديداً . وكان أقل حادث يثيره . ونراه مع المهلب فى حروب الأزارقة ، ويتعرض بعض بنى الكوّاء اليَشْكريين للمهلب والأزد بالهجاء ، فينبرى هاجياً له ولعشيرته بمثل قوله :

كل القبائل من بكر نعدُّهم   واليَشْكُرِيُّون منهم ألأَمُ العربِ

ويمضى مع المهلب إلى خراسان ، فيظل بها بقية حياته غازياً مجاهداً فى سبيل الله . ولما وليها يزيد بن المهلب أخلص له وُدَّه ، فكان يمدحه ، وكلما شغبت عليه قبيلة صَبَّ عليها هجاءه . وكانت قبائل ربيعة لما حالفت الأزد فى البصرة كما قدمنا تعينها وتشدُّ من أزرها لا فى البصرة فقط ، بل أيضاً فى خراسان حين وليها المهلب ثم ابنه يزيد ، ولكن حدث أن استبطأت يزيدَ فى بعض الأمر ، وهى تنزل مع الأزد حواليه ، فشَغبت عليه حتى أرضاها ، وأغضب ذلك ثابت ، فهجاها بأشعار كثيرة يقول فيها :

عصافير تَنْزُو فى الفساد وفى الوَغَى   إذا راعها رَوْعٌ جماميحُ بَرْوَقِ(١)

وأنتم على الأدنى أُسودُ خَفِيَّة   وأنتم على الأعداءِ خِزَّانُ سَمْلَقِ(٢)

وحين ولى قتيبة بن مسلم الباهلى خراسان بعد عزل الحجاج ليزيد بن المهلب أخذ يزورُّ عنه امتعاضاً لابن المهلب . ولم يلبث أن هجاه هو وقبيلته باهلة حين ُهزمت فى بعض حروب الترك وثبتت تميم . فقال :

توافتْ تميمٌ فى الطِّعان وعَرَّدتْ   بُهَيْلَةُ لما عاينتْ معشرًا غُلْبَا(٣)

تسامون كعباً فى العُلا وكلابها   وهيهات أن تلقوا كلابا ولا كعبا

وأهمُّ شاعر اصطدم به حاجب بن ذبيان المازنى التميمى ، وكان قد أعطاه يزيد بن المهلب جائزة كبيرة لبعض مديحه فيه ، فغبطه عليها ، وأساء له

---

(١) تنزو : تثب . الروع : الفزع . الجماميح : ما نبت على رءوس القصب مما إذا دق تطاير . بروق : نبت ضعيف .

(٢) خفية : أجمة فى سواد الكوفة . خزان : جمع خُزَز وهو ذكر الأرانب وهى معروفة بالجبن. والسملق : الأرض الجرداء لا شجر بها .

(٣) عردت : فرت . بهيلة : تصغير باهلة .

ببعض القول ، فهجاه حاجب ، وبادله الهجاء ، ولقَّبه فى هجائه بالفيل ، فأصبح ذلك علماً عليه فسمَّاه الناس حاجباً الفيل ، وله يقول فى بعض أهاجيه :

أَحاجبُ ! لولا أَن أَصْلك زَيِّفٌ وأَنك مطبوعٌ على اللؤم والكفرِ
وأَنى لو أكثرتُ فيك مقصِّرٌ رميتُك رمياً لا يَبيد يَدَ الدهر

وله أشعار كثيرة فى مدح المهالبة ورثائهم ، وقد بكى يزيد حين قُتل فى معاركه مع بنى أمية طويلا ، وهو فى مديحه ورثائه لهم يستشعر عصبية القبيلة استشعاراً قويًّا . وأكبر الظن أنه توفى قبل نهاية العقد الأول من القرن الثانى .

٣

شعراء النقائض

هيأ استعار العصبيات فى البصرة وخراسان لاشتعال الهجاء طوال هذا العصر ، كما هيأ لنمو فن النقائض نموًّا واسعاً ، وقد أعدّت لهذا النمو أسباب كثيرة ، يرجع بعضها إلى عوامل اجتماعية وبعضها إلى عوامل عقلية. أما العوامل الاجتماعية فمردُّها إلى حاجة المجتمع العربى خاصة فى البصرة إلى ضرب من الملاهى يقطع به الناس أوقاتهم الطويلة . ودائماً حين تنشأ المدن تنشأ معها أوقات فراغ تبعث أهلها على أن يملئوها إما بالدرس والنظر العقلى وإما بلهو يختلفون إليه . وفعلا نهضت — كما رأينا فى غير هذا الموضع — دراسات دينية وعقلية مختلفة ، وكان لا بد أن ينشأ بجانبها نوع من أنواع الملاهى يجد فيه الفارغون من العمل تسليتهم . وقد رأينا المدينة ومكة تُقْبلان على الغناء وتجدان فيه حاجة أهلهما من التسلية واللهو . ولم تتجه قبائل العراق هذا الاتجاه ، إذ كانت شديدة الصلة بحياتها البدوية القديمة ، وأخذت نيران الهجاء تشتعل فيها اشتعالا شديداً . حينئذ انبرى الهجَّاءون يملأون أوقات الناس هناك بأهاجيهم ، وسرعان ما تحولوا بها إلى نقائض مثيرة ، فشاعرُ قبيلةٍ من القبائل ينظم قصيدة من القصائد فى الفخر بقبيلته وأمجادها ويتعرض لخصومها من القبائل الأخرى فينبرى له شاعر

من شعراء تلك القبائل يرد عليه بقصيدة على وزن قصيدته ورَوِيِّها، وكأنه يريد أن يظهر تفوقه عليه من ناحية المعانى ومن ناحية الفن نفسه ، ويتجمَّع الناس من حوالبهما يصفِّقون ويهتفون ويصيحون[١] . وبذلك تحولت النقائض من غاية الهجاء الخالص إلى غاية جديدة هى سدُّ حاجة الجماعة الحديثة فى البصرة إلى ضرب من ضروب الملاهى .

وتدخلت فى صنع النقائض بجانب هذه العوامل الاجتماعية عوامل عقلية مردُّها إلى نمو العقل العربى ومرانه الواسع على الحوار والجدل والمناظرة فى النِّحَل السياسية والعقيدية وفى الفقه وشئون التشريع . وعلى ضوء من ذلك كله أخذ شعراء النقائض يتناظرون فى حقائق القبائل ومفاخرها ومثالبها ، وكل منهم يدرس موضوعه دراسة دقيقة ويبحث فى أدلته ليوثِّقها وفى أدلة خصمه لينقضها دليلا دليلا ، وكأننا أصبحنا بإزاء مناظرات شعرية ، وهى مناظرات كانت تتخذ سوق المِرْبَدِ مسرحاً لها ، فالشعراء يذهبون هناك ، ويذهب إليهم الناس ويتحلَّقون من حولهم ، ليروا من تكون له الغلبة على زميله أو زملائه .

وأهمُّ من وقفوا حياتهم على تنمية تلك النقائض القبلية مستلهمين فيها ظروف العصر وأحداثه السياسية جرير والفرزدق التميميان[٢] . وكان أولهما من عشيرة كُلَيْب اليربوعية ، والثانى من عشيرة مجاشع الدارمية ، وقد ظلا يتناظران نحو خمسة وأربعين عاماً فى عشيرتيهما من جهة وفى قيس وتميم من جهة ثانية ، فإن ظروفا كثيرة جعلت جريراً يقف فى صفوف قيس محامياً عنها ضد خصومها ، وذلك أن عشيرته اليربوعية أسرعت بالبيعة لابن الزبير ، فاتفق هوَى عشيرته مع هوى قيس ، وتصادف أن كان قد قتل مجاشعىٌّ الزبيرَ بن العوام حين لجأ بعد موقعة الجَمل إلى مجاشع ، وأيضاً تصادف أن لجأت النَّوار زوج الفرزدق حين غاضبته إلى ابن الزبير ، فأعانها عليه ، مما جعل الفرزدق يهجوه[٣] .

(١) أغانى (دار الكتب) ١٠/١٥٢ وطبعة ساسى ١٩/١٠٣ .

(٢) شرح أبو عبيدة نقائض الشاعرين ، وحقق الشرح ونشره بيفن سنة ١٩٠٥ فى ثلاثة أجزاء ضخمة. ونشر الشرح نشرة ناقصة بتحقيق الصاوى سنة ١٩٣٥ .

(٣) أغانى (دار الكتب) ٩/٣٢٤ وما بعدها

ونحن لا نصل إلى حكم القُباع والى ابن الز بير على البصرة سنة ٦٦ حتى نجد الشاعرين التميميين ملتحمين فى تلك المناظرة ، يدل على ذلك أننا نجدهما فى نقيضتين لهما يُعْلنان نكيرهما على هذا الوالى ، إذ أمر بهدم بيتيهما لما يثيران من ضغائن بين القبائل[1] . ويقول الرواة إن سبب التحامهما أن شاعراً من عشيرة سليط اليربوعية يسمى غسَّاناً هجا جريرا فسقط عليه بهجاء مرير ، فاستغاث منه بالبَعيث[2] المُجاشعى ، فأغاثه بمثل قوله فى جرير وعشيرته :

أترجو كُلَيْبٌ أن يجىء حديثها بخيرٍ وقد أعْيَا كليبا قديمُها

فانصبَّ جرير عليه وعلى مجاشع شُواظ نار . وأفحش بنسائهم إفحاشاً شديداً جعلهن يستغثْن منه بالفرزدق . وكان معروفاً بإقذاعه فى الهجاء ، وقصته مع زياد بن أبيه وهربه منه لهجائه بنى فُقَيْمٍ التميميين معروفة . ووَجَدْنه عاكفاً على حفظ القرآن الكريم ، يريد أن يبدأ سيرة جديدة . فما زلن به يستثرنه قائلات إن جريراً هتك عورات نسائك ، وظللن يوردن عليه ذلك حتى أحفظنه ، فهجا جريرا ، واستطار الهجاء بينهما وامتدا به لا إلى عشيرتيهما فحسب ، بل أيضاً إلى قيس وتغلب وتميم .

وبذلك تكاملت حلقات هذه المناظرة العنيفة بين الشاعرين . وكان كثير من الشعراء ينزلق فيها متحيزا للفرزدق على جرير ، فكان يَشْوِى وجوههم ووجوه عشائرهم بنيران هجائه ، فينسحبون منهزمين على شاكلة الرّاعى[3] ، وكان من سوء حظّه أن فضّل الفرزدق على جرير بقوله :

يا صاحبىَّ دنا الرَّوَاحُ فسِيرا غلب الفرزدقُ فى الهجاء جريرا

وهجاه بقصيدة بائية ، فنظم جرير قصيدة هجاه بها كما هجا الفرزدق ، ويقول الرواة إنه ما زال يُعيدُها ، حتى عرف أن الناس قد جلسوا مجالسهم

(١) شرح النقائض لأبى عبيدة (طبعة بيفن) ص ٦٠٧ ، ٦٨٣ وانظر أنساب الأشراف للبلاذرى ٥/٢٧٨ .

(٢) انظر فى ترجمة البعيث ابن سلام ص ٣٢٦ وما بعدها وفى مواضع متفرقة والشعر والشعراء ١/٤٧٢ والاشتقاق ص ٢٤١ وابن عساكر ٥/١٢٢ ومعجم الأدباء ١١/٥٢ .

(٣) انظر فى ترجمة الراعى ابن سلام ص ٣٧٢ ، ٤٣٤ وفى مواضع متفرقة والشعر والشعراء ١/٣٧٧ وأغانى (ساسى) ٢٠/١٦٨ وفى ترجمة جرير ، وفى الخزانة ١/٥٠٢ والموشح ص ١٦٧

بالمِرْبَد . وكان له مجلس . وللفرزدق مجلس ، فدعا بدُهن (طيب) فادّهن وكفّ[1] رأسه . وكان حسَنَ الشَّعْر . ثم قال : يا غلام أسرجْ لى ، فأسرج له حصاناً ، ثم قصد مجلس الفرزدق والراعى ، فتوجه للراعى يقول له : أبَعَثَتك نِسْوتك تَكسِبهن المال بالعراق . أما والذى نفسُ جرير بيده لترجعن إليهن بِمَيْر[2] يسوءهن ولا يسرُّهن[3] . ثم اندفع فأنشد قصيدته ، وفيها يقول للراعى بيته المشهور .

فغُضَّ الطَّرْفَ إنك من نُمَيْرٍ   فلا كَعْباً بلغتَ ولا كِلابا

ولم يلبث الراعى أن انصرف من مجلس الفرزدق يعلوه الخِزْى والصَّغار ، واتجه توا إلى منازل قبيلته نمير فى نجد ، وهو يردِّد : فضَحنا والله جرير ، وهم يقولون : هذا شؤمك .

وإنما أطلنا فى هذا الخبر لنعطى صورة عن شاعر النقائض فى المِرْبَد ، وكيف كان يحتفل بثيابه وزينته ، وكيف كان له مجلس يتحلق فيه الناس من حوله ليستمعوا إلى شعره بين الصياح والتهليل . وأيضاً لندل على قا جرير فى الهجاء وكيف كان يفضح من يتعرضون له فضيحة الأبد . ويقال إنه أسقط فى الهجاء ثلاثة وأربعين شاعراً ، ويقال بل ثمانين ونيفا . كانت أقواسهم أضعف من أن ترميه بمثل سهامه المصمية ، وممن ثبت له قليلا ثم اندحر عمر بن لجأ التَّيْمى[4] ، وله يقول :

أتوعدنا ونمنع ما أردنا   ونأخذ من ورائك ما نريدُ
ويُقْضَى الأمر حين تغيب تَيْمٌ   ولا يُسْتأْذَنون وهم شهود
لئامُ العالمين كرامُ تَيْمٍ   وسَيِّدهم — وإن رغموا — مَسُودُ

---

(١) كف رأسه : جمع شعره وضم أطرافه .
(٢) المير : جلب الطعام للأهل والعشيرة .
(٣) انظر فى هذا الخبر أغانى (دار الكتب) ٢٩/٨ .
(٤) انظر فى ترجمة عمر بن لجأ ابن سلام ص ٣٦٣ وما بعدها وص ٤٩٩ وما بعدها وفى مواضع متفرقة والشعر والشعراء ٢ / ٦٦٢ والاشتقاق ص ١٨٥ والخزانة ١ / ٣٥٩ وفهرس الجزء الثامن من الأغانى والموشح ص ١٢٧ وما بعدها .

وقد جعله دفاعه عن قيس يصطدم بالأخطل شاعر تـَغلب. وسنعرض لذلك عما قليل . وفى الحق أن الفرزدق أهم شاعر اشتبك معه . إذ كان على شاكلته يعرف كيف يَبْرى نبال الهجاء المصمية ، وقد تبادل معه نقائض كثيرة ، وظلا سنين طويلة يتحاوران ويتجادلان وكل منهما يغترف من نبع لا ينضب فى نفسه .

ومن يرجع إلى شرح أبى عبيدة لنقائضهما يجده يستعين على شرحه لها بأيام العرب ، ذلك لأن الشاعرين لم يتركا يوماً للقبائل التى يتحدثان عنها دون أن يذكراه . فجرير يتحدث عن أيام يربوع وقيس ، والفرزدق يتحدث عن أيام مجاشع وتميم ، وقد يضيف إلى ذلك حديثاً عن أيام تغلب انتصاراً للأخطل . وهما لا يتحدثان عن أيام الجاهلية فحسب ، بل يتحدثان أيضاً عن أيام الإسلام ، وخاصة ما كان بين تميم وقيس فى خراسان ، إذ دفعت تميماً الحوادثُ هناك لكى تنكـّل بعبد الله بن خازم السُّلَمى والى ابن الزبير حين ثار على عبد الملك بعد قتل مصعب ، كما نكلت بعد ذلك بقتيبة بن مسلم الباهلى حين ثار على سليمان ابن عبد الملك .

ومعنى ذلك أن جريراً والفرزدق درسا دراسة عميقة تاريخ القبائل العربية فى الجاهلية والإسلام واستلهما هذا التاريخ فى نقائضهما ، بحيث تُعَدُّ وثائق تاريخية طريفة . وكان ذلك من غير شك يصعّب عمل النقيضة ، لأنها لم تكن هجاء فحسب ، بل كانت أيضا دراسة ، ولم يكن الشاعر يدرس تاريخ القبائل التى كان يحامى عنها فحسب ، بل كان يدرس أيضاً تاريخ القبائل التى يهجوها ليقف على الأيام التى انهزمت فيها ، حتى ينشر مخازيها فى الناس .

وواضح أن أساس الهجاء فى النقائض كان يقوم على العصبيات القبلية ، وقد مرّ بنا فى غير هذا الموضع أن هذه العصبيات اختلطت فى العصر الأموى بالسياسة ، وهيأ ذلك النقيضة لأن تخوض فى مديح الخلفاء والولاة ، بحيث أصبحت لا تحتوى فخراً وهجاء فحسب ، بل تحتوى كذلك مديحاً ، كما تحتوى نسيباً وغزلا . والشاعر فى كل هذه الموضوعات يستلهم الإسلام فى معانيه ، كما يستلهم قدرة العقل العربى الجديدة على الجدال ونقض الدليل بالدليل ، وقدرته أيضاً على التوليد فى المعانى . وبذلك كله أصبحت النقيضة

عند الفرزدق وجرير عملا فنيًّا معقداً . ولعل من الخير أن نقف عند نقيضتين للشاعرين نرى فيهما جملة ما كانا يعرضان له من المعانى ، ونحن نختار للفرزدق نقيضته :

تحنُّ بزوراءِ المدينة ناقتى حَنِينَ عَجُولٍ تبتغى البَوَّ رائم (١)

وهو فى غزلها يستشعر الإسلام خائفاً وجلا من يوم الحساب . ونراه يعتذر مما قد بَدَرَ منه من أشعار تصوَّره فاسقاً ، ويدعوها لغواً من القول ، وإنه ليقول :

ولستَ بمأْخوذ بلَغْوٍ تقوله إذا لم تعمَّدْ عاقدات العزائمِ

وهو يشير بذلك إلى قوله تعالى : (لا يؤاخذكم الله باللَّغْو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقَّدتم الأيمان) ويمضى فيمدح سليمان بن عبد الملك بمثل قوله :

جُعلتَ لأَهل الأَرض نورًا ورحمةً وعَدْلاً وغَيْث المُغْبَراتِ القواتمِ (٢)

وكان الحجاج لجّ فى البيعة لعبد العزيز بن الوليد من دون سليمان ، وتوفى قبل خلافته ، فنكّل بمن لجُّوا معه من ولاته على المشرق . ونرى الفرزدق يهجو الحجاج هجاء مرًّا صوَّره فيه طاغياً باغياً ، لقىَ جزاء بغيه وطغيانه من ربه ، فأصابه بما أصاب به ابن نوح حين ارتقى إلى جبل فغرق مع الغارقين وما أصاب به أصحاب الفيل إذ ترميهم طير أبابيل . ولم يزل به حتى جعله من أهل النار . وممن يتلقون كتابهم بالشمال . وخرج الفرزدق من ذلك إلى قتيبة بن مسلم الباهلى وثورته على سليمان بخراسان ، وافتخر بأن تميما بزعامة وكيع بن أبى سُود هى التى قضت عليه . ومضى يكيل لقيس وشاعرها جرير هجاء مريراً ، متعرضاً لثورة ابن خازم وقضاء تميم عليه ولأيام تغلب على قيس فى الجزيرة . ويتجسَّم له جرير كأنه قيسىّ نفسها فيقول :

---

(١) البو : جلد ولد الناقة يحشى ، ويعرض على أمه فترأمه أى تحن إليه ظنا منها أنه ولدها حقيقة .

(٢) المغبرات القواتم : السنوات الجدبة .

وألقيتَ من كفَّيْك حبــل جماعةٍ   وطاعةَ مهديٍّ شديد النَّقائمِ (١)

ويسمّى أصحاب قتيبة مشركين ، يضربون فيهم بسيف سليمان الذى ضرب الله به مشركى قريش فى يوم بدر . ويعيّر جريراً بما يأخذ من هدايا قيس ، ويعتذر عن حادث نُبُوِّ السيف فى يده مما سنعرض له عما قليل . ويفتخر على صاحبه فخرا عارماً بتميم وأيامها فى الجاهلية وأمجادها العريقة فى الحروب ، ويهجو عشيرته برعيها الحمير ، ومن ثم يسميه ابن المرَاغة (الأتان) فهم ليسوا فرسانا ولا أهل خيل وحروب ، ويقول :

فيا عجباً حتى كليبٌ تسبنى   وكانت كليبٌ مَدْرَجاً للشتائم

ودائماً يصف كليبَ باللؤم والدناءة ، ويفْحش فى النَّيْل من نسائها ومن أم جرير خاصة ، ولا يترك مذمة إلا وَيلْطخ بها جريراً وعشيرته ، وفيها يقول من نقيضة أخرى :

ولو تُرْمَى بِلُؤْمِ بنى كُلَيْبٍ   نجومُ الليل ما وضحتْ لسارِ
ولو يُرْمَى بلؤمهمُ نهــارٌ   لدنَّس لؤْمُهم وَضَحَ النهارِ
وما يغدو عزيزٌ بنى كليبٍ   ليطلب حاجــةً إلا بِجــارِ

ووقف جرير فى الصف المقابل يردّ عليه نقيضته التى لخصناها آنفاً ، فمضى بعد غزلها يتحدث عن الفرزدق وفسقه الذى اشتهر به ، يقول :

لقد ولدتْ أمّ الفرزدق فاجرا   وجاءت بِوَزْوَازٍ قصير القوائم (٢)
وما كان جارٌ للفرزدق مسلمٌ   ليأْمن قِرْدًا لَيْله غير نائم
أتيتَ حدود الله مذ أنت يافعٌ   وشِبْتَ فما ينهاك شَيْبُ اللَّهازم (٣)
تتبّع فى الماخور كلَّ مريبة   ولستَ بأَهل المُحْصَنات الكرائم (٤)

---

(١) المهدى هنا سليمان بن عبد الملك ، لقبه بالمهدى كما يلقب الشيعة أئمتهم .
(٢) الوزواز : الخفيف ، كناية عن قصره .
(٣) اللهازم : أصول اللحية .
(٤) المحصنات : العفيفات .

ومضى يَصِمُه بأخته جِعْثِن، وكانت سيدة طاهرة ، ولكنه الهجاء. كما وصمه بأنه قَيْن ابن قَيْن . فهو ليس شريف الأصل كما يزعم . وكان لجده قيون، فرمى جَدَّته بهم ، كي يغيظه ويُحْفظه . ودائماً يردد له جرير ذلك كما يردد قذفه فى أخته ، وأيضاً فإنه كان يردد كما فى هذه النقيضة أن مجاشعاً لم تحفظ للزبير حق جواره ، ولو أنه كان جاراً لقيس أو ليربوع لحفظا له جواره ، كل ذلك ليضرب من حواليه نطاقاً من الذل . وكان الذى قتَل قتيبة بن مسلم الباهلى وكيعُ بن أبى سُود اليربوعى . فهو ليس مجاشعيا ، إنما هو من قوم جرير ، ومن ثَمَّ يقول له :

فَغيرُك أَدَّى للخليفـــة عَهْده　　وغَيْرُك جلَّى عن وجوه الأَهاتم[1]

فإن وكيعاً حين خارتْ مجاشعٌ　　كفى شَعْبَ صَدْعِ الفتنة المتفاقم

لقد كنت فيها يا فرزدقُ تابعا　　وريشُ الذُّنابى تابعٌ للقوادم[2]

وبذلك استلَّ منه الفخر بحادثة وكيع ، وجعلها لقومه اليَرْبوعيين، لا لمجاشع وشاعرها الفرزدق . وأخذ يفخر بباهلة قبيلة قُتَيبة القيسية وأيامها فى الجاهلية، وعمَّم الفخر بقيس وأيامها ضد تغلب فى الجزيرة ، وعيرَّ تغلب بمسيحيتها وما تدفع من خراج لخليفة المسلمين .وكان عمر قَبِلَ منها أن تدفع صدقة كالعرب لا جزية ، ولكن جريراً يأبى إلا أن يسمِّى ما تدفعه جزية ، ثَلْبا وتعييراً. ويعود إلى أيام قيس فى الجاهلية ، يعددها ، ويعدد مالها من انتصارات على تميم وخاصة على دارم .

وتصادف أن كان جرير والفرزدق يصحبان سليمان بن عبد الملك فى أثناء حِجَّة له . وجاءوه بأسرى من الروم. فأمر بجزِّ حلاقمهم، وأُعْطى لبعض من صحبوه أسيافٌ يضربون بها رءوس هؤلاء الروم ، وعرف بعض القيسيين أن سيُطْلب إلى الفرزدق أن يضرب أحدهم، فدَسُّوا له سيفاً كليلا لا يقطع ، فلما ضرب به لم يصنع شيئاً فى الرومىّ . وانتهزها جرير ، فكان يكرر له هذا

---

(١) الأهاتم : من أشراف تميم .

(٢) القوادم : الريشات الطويلة فى مقدمة جناح الطائر ، والذنابى ما خلفها من ريشات قصيرة .

الحادث ليضحك أهل المربد عليه، بما يصور من خوَره وجُبْنه، ومن ثَمّ يقول له الفرزدق فى نقيضته السالفة :

فهل ضربةُ الرومىِّ جاعلةٌ لكم ... أبًا عن كليبٍ أو أبا مثل دارمِ

ونرى جريرا يردّ عليه بمثل قوله :

بسيفِ أبى رَغْوَان سيف مجاشعٍ ... ضربتَ ولم تضرب بسيف ابن ظالمِ (١)

ضربتَ به عند الإمام فأُرْعِشَتْ ... يداك وقالوا مُحْدَث غير صارم

ضربتَ به عُرْقوبَ ناب بصَوْأرٍ ... ولا تضربون البَيْضَ تحت الغماغم (٢)

عنيفٌ بهزِّ السيف قَيْنُ مجاشعٍ ... رفيقٌ بأخْرات الفُئوس الكَرازم (٣)

وكان الفرزدق كثير الافتخار بيوم صَوْءر، وهو يوم نحر فيه أبوه غالب للناس مائة بعير وقيل أربعمائة، فجَلّل له جرير هذه المكرمة بعار الجبن، فأبوه وهو إنما يضربان، بمثل هذا السيف الذى نبا فى يده، عراقيبَ الإبل لا صدور الفرسان . ويقول له إنك قَيْنٌ لا تحسن الضرب بالسيف، بل تفزع وتهلع حين تمسك به ، إنما تحسن الإمساك بالفئوس فهى صناعتك .

وواضح أن جريراً لم يقف بنبوّ السيف فى يد الفرزدق ووَصْفه بأنه قين ابن قين عند حد الثّلْب، بل لقد تحول بهما إلى عنصرين من عناصر الإضحاك على الفرزدق . واستخرج من الوصف الأخير أبياتاً مضحكة كثيرة تدل أبلغ الدلالة على ما أصاب العقل العربىّ عند جرير من قدرة على التوليد فى المعانى ، كما نرى فى مثل قوله :

إذا آباؤنا وأبوك عُدُّوا ... أبانَ المُقْرِفاتُ من العِراب (٤)

فأورثك العَلاةَ وأورثونا ... رباطَ الخيل أفنيةَ القِباب (٥)

---

(١) ابن ظالم : هو الحارث بن ظالم المرى أحد فرسان قيس فى الجاهلية .

(٢) الناب : الناقة المسنة . البيض : خوذ المحاربين . الغماغم : أصوات الجيوش ، جمع غمغمة .

(٣) أخرات : جمع خرت وهو الثقب فى أعلى الفأس . الكرازم : الفئوس ضخمة الرءوس .

(٤) المقرفات : الهجينات التى لا يخلص نسبها . العراب : الأصيلات فى العروبة .

(٥) العلاة : سندان الحداد .

وقوله :

هو القَيْنُ وابن القين لا قينَ مثله　　لفَطْحِ المساحى أو لِجَدْلِ الأداهِمِ[(١)]

وقوله :

ورقِّع لجَـدِّك أكيـارَهُ　　وأصلحْ متاعك لا تُفْسِدِ

وأدْنِ العَلاة وأدْنِ القَدومَ　　ووسِّع لكِيرك فى المَقْعَدِ

وكان جرير يعرف كيف يستخرج من كل شىء هذا العنصرَ من عناصر الإضحاك ، وقد غاظه من الفرزدق انضمامه إلى الأخطل النصرانى ضده ، فأخذ يُضْحك عليه سامعيه فى المِرْبَد بمثل قوله :

وإنك لو تعطى الفرزدق درهمـا　　على دين نصرانيَّةٍ لتنصَّرا

وقوله :

يحبُّك يوم عيدهمُ النَّصارى　　ويومَ السَّبْت شِيعتُك اليهودُ

ولعل فى هذا مايدل أكبر الدلالة على أن النقائض عند الشاعرين الكبيرين : جرير والفرزدق إنما كان يُقْصَدُ بها قبل كل شىء إلى تسلية الجماعة العاطلة التى تكونت فى المدينتين الكبيرتين : البصرة والكوفة . وقد بدأت بأسباب قبلية ، ولكنها تطورت إلى مناظرة يُراد بها ملء أوقات العاطلين ، وهى مناظرة كانت تقاطَع بالتهليل والتصفيق . ومن ثم لم تأخذ شكلا جادًّا من أشكال الهجاء المعروفة عند العرب . ولو أنها أخذت شكلا من هذه الأشكال لَشُهرت معها السيوف ، وخاصة حين يأخذ جرير والفرزدق فى قَذْف نساء العشائر والأمهات والأخوات . إنها لم تعد هجاء بالمعنى القديم ، بل أصبحت فنًّا يُقْصَدُ به إلى إمتاع الناس فى البصرة وقطع أوقات فراغهم . ولذلك كان الخلفاء والولاة يستقدمون شاعريها المبرزين ، ليتناشدا أمامهم ابتغاء اللهو والتسلية[(٢)] . وكل الأخبار تؤكد أن جريراً والفرزدق كانا متصافيين متوادَّين لا متخاصمين متباغضين ، فهما يجتمعان

(١) فطح المساحى : تسويتها وتعريضها . الجدل أيضاً : التسوية . الأداهم : جمع أدهم ، وهو القيد .

(٢) أغانى (طبع دار الكتب) ٨/٣٧، ٧٦ .

عند الخلفاء والولاة ، وهما يرحلان إلى دمشق سويًّا ، وإذا نزلت بأحدهما شدة أو حَزَبه أمر وقف الآخر معه يمدُّ له يدَ العون ، فإذا طُلب جرير لحرب الأزارقة تشفَّع له الفرزدق [١] ، وإذا هجا الفرزدق خالدا القَسْرِيَّ وحبسه تشفع له جرير عنده [٢] ، وما يزال به يستعطفه ويسترحمه ، لعله يلين له قلبه ويطلقه [٣]. ونراه حين يُلَبِّي القدر قبله يرثيه رثاء حارًّا بمثل قوله :

ولا حملتْ بعد الفرزدق حُــرَّة ولا ذاتُ حَمْلٍ من نِفاسٍ تعلَّتِ [٤]

هو الوافد المَجْبُورُ والراتق الثَّأَى إذا النَّعْل يوما بالعشيرة زلَّتِ [٥]

فلم تكن المسألة مسألة هجاء حادٍّ إنما كانت مسألة مناظرة فنية بالشعر فى عصبيات القبائل والعشائر ، على نحو ما كان يتناظر فى عصرنا أصحاب الصحافة الحزبية فى آرائهم السياسية مدافعين مهاجمين ، وتظل لهم فى أثناء ذلك صداقتهم . وواضح مما قدمنا أن نقائض جرير والفرزدق نشأت تلبية لحاجة أهل البصرة إلى ما يسدّ فراغهم ويشغل أوقاتهم ، ولم يلبث الشاعران أن حققا لهم كل ما كانوا يبغون من ذلك ، إذ تحولا بفن الهجاء القديم إلى هذه النقائض الجديدة التى استضاءا فيهــا بقدرة العقل العربى الحديثــة على الجدال والتوليــد فى المعانى . وارجعْ إلى أى فكرة عندهما كفكرة أن الفرزدق قَيْن أو فكرة ذل بنى كليب فسترى كلا منهما يعرض الفكرة التى يقف عندها فى صور كثيرة ، إذ ما يزال يولِّد فيها ، وما يزال يستنبط ويفرِّع ويشعِّب ، وكأنما يريد أن لا يُبْقِى فيها بقية . وانظر فى أى نقيضة يردّ بها أحدهما على خصمه ، فستراه يقف بإزاء كل بيت قاله صاحبه ويردّ عليه صُنْع المتناظرين من أهل اللَّدَد والخصومة فى المسائل العقيدية ، فهو يحاول جاهداً أن يبطل كل فكرة اعتمد عليها صاحبه فى هجائه وأن ينقضها نقضاً . ومن ثَمَّ كنا نرى أن نقائض جرير والفرزدق فن جديد ، وهى ككل فن يتصف بهذه الصفة ، سبقتها مقدمات فى العصور

(١) أغانى (ساسى) ١٩/٢٨ .
(٢) أغانى ١٩/٤٢ .
(٣) الديوان ص ١٧٨ .
(٤) تعلت : تطهرت .
(٥) الثأى : الفساد والضعف. زلت : عثرت .

السالفة . ولكنها استوت عند الشاعرين فى صورة جديدة ، وهى صورة معقدة ؛ إذ اعتمدت على دراسة التاريخ القديم والحديث للقبائل ودراسة مفاخرها ومثالبها . كما اعتمدت على استيحاء روح الإسلام وما شاع فى العصر من قدرة على الجدال والحوار ، وأخذت تظهر فيها ظاهرة لم تكن شائعة فى الهجاء القديم ، وهى ظاهرة التنادير على المهجوّ وقبيلته . حتى تُضْحِكَ المستمعين فى المربد . وحتى تمدهم بما يريدون من التسلية ومن التهليل والصياح والصفير والتصفيق . ومن ثَمَّ لم يترك كل من الشاعرين شيئاً يثير الضحك فى خصمه إلا أثاره ، كأن يقول الفرزدق فى جرير :

يُهْدِى الوعيدَ ولا يحوطُ حَرِيمَهُ كالكلب يَنْبَحُ من وراءِ الدار

أو يقول فى كليب عشيرته :

يستيقظون إلى نُهاق حمارهم وتنام أعينهم عن الأوتارِ (١)

أو يقول :

أتعدل أحسابا لئامًا أدقَّةً بأحسابنا إنى إلى الله راجعُ

وكان جرير يلقاه بمثل قوله :

زَعَمَ الفرزدق أن سيقتلُ مِرْبَعاً أَبْشِرْ بطول سلامةٍ يا مِرْبَعُ

وقوله :

خذوا كُحْلا ومِجْمَرَةً وعِطْرا فلسْتم يا فرزدقُ بالرجالِ

وهو يتفوق على الفرزدق فى هذا الجانب تفوقاً واضحاً ، ومن ثم كان هجاؤه أكثر مرارة وأشد نكاية .

وساقت الظروفُ الأخطلَ شاعر تغلب ليصطدم بجرير شاعر قيس ومحاميها المناضل عنها . وكان الأخطل — كما قدمنا — يهاجى قيساً فى الحروب التى

(١) الأوتار : جمع وتر وهو الثأر .

نشبت بينها وبين قبيلته منذ موقعة مَرْج راهط سنة ٦٥ وكان شعراؤها يردُّون عليه ، فيُفْحمهم بأهاجيه المقذعة .

وشاءت المقادير أن يلمَّ بالعراق فى ولاية بشر بن مروان . فاصطدم هناك بجرير ، ويقول الرواة إنه أحفظه إذ فضل الفرزدق عليه [١] وطبيعى أن يفضل الأخطل الفرزدق وينحاز له ضد شاعر قيس بل يُجْلب عليه ، فلم يكن منشأ التفضيل الحكم الفنى من حيث هو ، إنما كان منشؤه الخصومة العنيفة بين تغلب وقيس . وسرعان ما استطار الهجاء بين الشاعرين . وإذا هما يخلّفان طائفة كبيرة من النقائض ، جمعها أبو تمام [٢] . وقد ظلا ينظمانها منذ سنة ٧٣ إلى أن توفّى الأخطل حوالى سنة ٩٢ . وهو يُعَدُّ مع جرير والفرزدق فحول الشعر فى هذا العصر . يقول الجاحظ : « والذين هجوا فوضعوا من قدر مَنْ هجوه ، ومدحوا فرفعوا مِن قدر مَنْ مدحوا ، وهجاهم قوم فردوا عليهم ، فأفحموهم ، وسكت عنهم بَعْضُ مَنْ هجاهم مخافة التعرض لهم ، وسكتوا عن بعض من هجاهم رغبةً بأنفسهم عن الرد عليهم ، وهم إسلاميون . جرير والفرزدق والأخطل » [٣]

وجميع الظواهر التى لاحظناها فى نقائض جرير والفرزدق نجدها مجسمة فى نقائض جرير والأخطل ، فهما جميعاً يُعْنَيان بتاريخ القبائل فى الجاهلية والإسلام . وهما يخلطان العصبيات بالسياسة . وقد ساقت الظروف تغلب لتقف فى صفوف بنى أمية ضد قيس ، على نحو ما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع ، كما ساقت الأخطل التغلبى ليكون شاعر بنى أمية منذ عصر معاوية ولسانهم الناطق فى الجزيرة والعراق . وربما كانت قصيدة « خَفَّ القطين » للأخطل أروع نقائضه مع جرير ، وتراه يستهلها بالنسيب ووصف حزنه لفراق أحبته ، وهو يُتْبعهم طرفه مولَّها ، حتى ليشبِّه نفسه بالسكران المنتشى ، ويصف الخمر وصفاً قصيراً ، وهو موضوع لم يكن جرير ولا الفرزدقُ يلمّان به ، لتحريم الإسلام للخمر ، وكان الأخطل نصرانيا ، فانفرد بهذا الموضوع فى شعره .

---

(١) ابن سلام ص ٣٨٧ ، ٤٠٨ وأغانى ٨/٣١٥ ونقائض جرير والفرزدق ص ٨٧١ .

(٢) نشر صالحانى هذه النقائض فى بيروت سنة ١٩٢٢ عن مخطوطة فى الآستانة ، وقد اشتملت هذه المخطوطة على بعض نقائض الشاعرين ، ومن الممكن أن يستخرج من ديوانيهما نقائض أخرى لها .

(٣) البيان والتبيين ٤/٨٣ .

على أنه لم يُطْنب فيه هنا ، فقد تركه إلى وصف ظُعُن الحبيبة ، مستلهماً زهيراً فى هذا الوصف ومضيفاً إليه تصويراً لأخلاق النساء ، وإقبالهن على الشباب وانصرافهن عن الشيوخ . وخرج من ذلك إلى مديح عبد الملك ، فدحه من حيث هو خليفة ، منوِّهاً بجوده ، ومشبهاً له فى هذا الجود بالفرات ، وهى صورة يتأثر فيها تأثراً واضحاً بصورة النابغة للنعمان بن المنذر فى معلقته . ويمضى فيفصِّل الحديث عن حربه لمصعب بن الزبير ومهارته فى قيادة الجيوش والظفر بخصومه . ويمدح أسرته الأموية منوها بشرفها العريق وأنفتها وحمايتها عن الحقوق وبأسها وقوة مراسها وحلمها وصلابتها . ويشيد بوقوفه فى صفوف بنى أمية ونضاله أعداءهم ، كما يشيد بنصر قبيلته لهم ، ويحمل على زُفَر بن الحارث زعيم قيس . وكان قد دخل فى طاعة عبد الملك ، وكأنه يبغى أنْ يحفظه عليه وعلى قبيلته . يقول :

بنى أميةَ إنى ناصحٌ لكمُ ... فلا يبيتنَّ فيكم آمنا زُفَرُ

ويستطرد إلى انتصارات تغلب على قيس فى حروبهما بالجزيرة . ويزعم أنه لولا هذه الانتصارات ما دخلت قيس فى طاعة بنى أمية ! وقد مرّ بنا أنها نكلت بتغلب بعد موقعة الحَشَّاك التى قتل فيها فارسها عمير بن الُحباب وأن زُفَر بايع عبد الملك قبل قدومه بجيوشه لحرب مصعب ، لا قهراً من تغلب ، ولكن بعْدَ نظر . ومضى الأخطل يهجو قيسا حتى إذا بلغ من ذلك كل ما يريد انتقل إلى جرير وعشيرته كليب ، فأقذع فى هجائها إقذاعاً شديداً بمثل قوله :

أما كُلَيْبُ بن يربوعٍ فليس لهم ... عند التفارط إيراد ولا صَدَرُ (١)

مخلَّفون ويقضى الناسُ أمرهمُ ... وهمُ بغيبٍ وفى عمياءَ ما شعروا (٢)

ملطَّمون بأعْقار الحياض فما ... ينفكُّ من دارمىٍّ فيهمُ أثَرُ (٣)

قومٌ أنابتْ إليهم كلُّ مخزيةٍ ... وكل فاحشة سُبَّتْ بها مُضَرُ (٤)

على العِيارَات هدَّاجون قد بلغتْ ... نَجْرَانَ أو حُدِّثَتْ سَوْءاتهم هَجَرُ (٥)

(١) التفارط : التقدم للاستقاء من الآبار ، والإيراد : ورود الماء . والصدر : الصدور عنه .

(٢) يريد أنهم لايستشارون ولا يعبأ بهم .

(٣) يقول إنهم يُلْطَمون حيث يكونون فى مؤخرات الحياض ، تلطمهم دارم عشيرة الفرزدق لعزتها وشرفها .

(٤) أنابت : رجعت وتناءت .

(٥) العيارات : جمع عير وهو الحمار ، يهجو بأنهم أصحاب حمر لا أصحاب خيل . الهدج : تقارب الخطو .

ويأخذ فى هجاء جرير هجاء عنيفاً يُقْذِع فيه إقذاعاً شديداً. وعلى هذه الشاكلة لا يزال الأخطل فى نقائضه لجرير يذمُّ عشيرته، رامياً لها بكل ما يستطيع من نبال الذل والخسة والدناءة ، وهو يتحدث فيها عن مواقع تغلب مع قيس فى الإسلام وما حققت من بعض الانتصارات ، وكثيراً ما يضم إلى ذلك فخراً بأيامها فى الجاهلية ، كما يضم انتصارا للفرزدق وعشيرته دارم ، حتى يبلغ من جرير كل ما يريد من هجاء مرير .

وكان جرير ينقضّ عليه كالصَّقْر الجارح ، فيضع تحت عينه مخازى تغلب وهزائمها فى حروبها مع قيس سواء فى يوم ماكِسِين الذى نكَّل بها فيه عمير بن الحُباب أو فى يوم الكُحَيْل الذى نكل بها فيه زفر بن الحارث أو فى يوم البِشْر الذى نكَّل بها فيه الجحَّاف السُّلَمِىّ ، ضامًّا إلى ذلك انتصارات قبيلته : يربوع فى الجاهلية وملحجا فى هزائم تغلب قبل الإسلام، مفتخراً عليه افتخاراً عنيفاً بمثل قوله يردُّ عليه نقيضته السالفة :

نحن اجْتَبَيْنَا حياضَ المجد مُتْرَعَةً ... من حَوْمَةٍ لم يخالط صَفْوَها كدرُ [1]

لم يُخْزِ أولَ يربوعٍ فوارسُهم ... ولا يُقال لهم كلا إذا افتخروا

هل تعرفون بذى بَهْدَى فوارسَنا ... يوم الهُذَيْل بأيدى القوم مُقْتَسَرُ [2]

خابتْ بنو تغلبٍ إذ ضلَّ فارطُهم ... حَوْضَ المكارم إن المجد مُبْتَدر [3]

الظاعنون على العمياء إن ظعنوا ... والسائلون بَظْهرِ الغيب ما الخبر [4]

الآكلون خبيثَ الزاد وحدهمُ ... والنازلون إذا واراهم الخَمَرَ [5]

إنى رأيتكمُ والحقُّ مغضبةٌ ... تَخْزَوْنَ أن يُذْكَرَ الجَحَّافُ أو زُفَرُ

كانتْ وقائعَ قلنا لن تُرَى أبدا ... من تغلبٍ بعدها عَيْنٌ ولا أَثَر

حتى سمعتُ بخنزيرٍ ضَغَا جَزَعاً ... منهم فقلتُ أرى الأموات قد نُشِروا [6]

(١) الحومة : معظم الماء .

(٢) ذو بهدى : يوم ليربوع على تغلب وفيه أسرت فارسها الهذيل بن هبيرة .

(٣) الفارط : الذى يتقدم قبل الإبل ليملأ لها الحوض .

(٤) يريد أنهم لا يعرفون الأمر إلا تدبراً ، فهم لا يُسألون فى شىء وهم يَسألون عن أخبار الناس.

(٥) الخمر : الموضع المستتر ، يقول إنهم ينزلون به فراراً من الضيفان والحقوق التى تلزمهم .

(٦) نشروا : حيوا وبعثوا .

وواضح أنه يردُّ على معانيه معنىً معنىً ، وقد لقبه فى البيت الأخير بأنه خنزير إشارة إلى أنه نصرانى ، وكان يسقط عليه من هذا الجانب دائماً، وهو يمضى فى نفس هذه النقيضة ، فيقول .

رِجْسٌ يكون إذا صَلَّوْا ، أَذانُهم قَرْعُ النواقيسِ لا يدرون ما السُّوَرُ (١)
وما لتغلبَ إن عَدَّتْ مساعِيَها نجمٌ يضيءُ ولا شمسٌ ولا قَمَرُ
الضاحكين إلى الخنزير شهوتَه يا قُبِّحَتْ تلك أفواها إذا كَشروا (٢)
والمُقْرعين على الخنزير مَيْسِرَهُمْ بئس الجَزورُ وبئس القوم إذ يَسَروا (٣)
جاءَ الرسول بدين الحق فانتكثوا وهل يضيرُ رسولَ الله أن كفروا

وكان الأخطل إذا سمعه يقول ذلك وشبهه انْجَحَرَ ،ولم يستطع له جوابا ، ومن ثم كان جرير يقول إنى أُعِنْتُ عليه بكفره . وأُعين عليه أيضاً بمهارته فى التنديد على خصمه ، ومما يجمع الجانبين جميعاً قوله فى نقيضة ثانية :

قَبَح الإِلٰهُ وجوه تغلبَ كلما شَبَحَ الحجيجُ وكبَّروا إهلالا (٤)
عَبدوا الصَّليب وكذَّبوا بمحمدٍ وبجَبْرَئيل وكذَّبوا مِيكالا
المُعْرِسين إذا انْتَشَوْا ببناتهم والدائبين إجارةً وسؤالا (٥)
والتغلبيُّ إذا تُنُبِّحَ للقِرَى حَكَّ استه وتمثَّلَ الأمثالا (٦)
ولو أنَّ تغلب جمَّعتْ أحسابها يوم التفاضل لم تزنْ مثقالا
نُبِّئْتُ تغلب يَنْكحون رِخالَهم وترى نساؤهم الحَرام حلالا (٧)
لا تطلبنَّ خؤولةً فى تغلبٍ فالزَّنْجُ أكرمُ منهمُ أخوالا

---

(١) يريد سور القرآن الكريم .
(٢) يريد أنهم إذا نظروا إلى الخنزير ضحكوا شهوة للحمه .
(٣) الميسر : اللعب بالقداح على الجزور وهو ما يذبحونه من بعير أو ناقة . يقول إنهم نصارى ولذلك ييسرون ويقامرون على الخنزير .
(٤) شبح : رفع يديه بالدعاء . الإهلال : رفع الصوت .
(٥) يقول إنهم بين أجير وسائل .
(٦) تنبح : كانوا ينبحون فى الظلام إذا ضلوا لترد عليهم كلاب الحى ، فيستهدون بها للقرى وهو الطعام والضيافة .
(٧) الرخال : أولاد الضأن .

ويقول فى نقيضة ثالثة :

إن الذى حَرم المكارم تَغْلبــا جعل الخلافة والنبوة فينــا
مُضَرٌ ابى وأبو الملوكِ فهل لكم يا خُزْرَ تغلبَ من أب كأبينا[(١)]
هذا ابنُ عَمىِّ فى دمشقَ خليفةٌ لو شئتُ ساقكمُ إلىَّ قَطينا[(٢)]

وما زالا يتهاجيان حتى حضر الأخطلَ الموت ، فقيل له ألا توصى ؟ فقال تَوًّا :

أوصِّى الفرزدقَ عند المماتِ بِأُمِّ جــريرٍ وأَعْيــارها[(٣)]

ولم يكد يسمع بذلك جرير ، حتى نظم فيه هجاء عنيفاً من وزن هذا البيت وقافيته يقول فيه :

وزار القبورَ أبو مالكٍ فأصبح ألأم زوَّارهــا[(٤)]

والحق أن جريراً كان يتفوق على خصميه جميعاً فى الهجاء ،وقد شهد له الأخطل بذلك ، إذ قال للفرزدق فيما يَرْوى الرواة :«إن جريرًا أُوتى من سير الشعر ما لم نُؤْتَهُ . قلت أنا بيتاً ما أعلم أن أحدا قال أهْجى منه ، قلت :

قومٌ إذا اسْتَنْبَحَ الأضيافُ كَلْبَهُمُ قالوا لأُمهم بُولى على النار

فلم يَرْوِه إلا حكماءُ أهل الشعر ، وقال هو :

والتغلبىُّ إذا تُنُبِّحَ لِلقِــرَى حَكَّ اَسْتَهُ وتمثَّل الأَمثالا

فلم تبق سقاةٌ ولا أمثالها إلا رَوَوه[(٥)]» . ولعل من الخير أن نلمّ بحياة هؤلاء الشعراء الثلاثة وأشعارهم، إذ عدَّهم الرواة والنقاد فحول هذا العصر ومبرِّزيه فى الهجاء والمديح جميعاً .

---

(١) الخزر : ضيق فى مؤخر العين ، يكنى به جرير عن اللؤم .
(٢) القطين هنا : الخدم والعبيد .
(٣) أعيار : جمع عير وهو الحمار
(٤) أبو مالك : كنية الأخطل .
(٥) أغانى ٣١٨/٨ .

٤

الأخطل [1]

واضح مما قدمنا أن الأخطل من قبيلة تغلب ، وهى إحدى القبائل العربية الكبيرة التى كانت تكوِّن مجموعة قبائل ربيعة ، وكانت تنزل فى الجزيرة ، وتمتدُّ بعض عشائرها جنوباً إلى الحيرة ،غرباً إلى الشام، وشرقاً إلى أذربيجان . وكان لها قديماً حروب مع أختها بَكْر جَلَّى فيها المهلهل.وأخرى مع أمراء كندة وأمراء الحيرة ، وقصة قَتْل فارسها وشاعرها عمرو بن كلثوم لعمرو بن هند صاحب الحيرة مشهورة . وقد اعتنق جمهورها فى الجاهلية النصرانية على مذهب اليعاقبة . ولماُ فتحت الفتوح لجَّتْ فى أول الأمر مغ الفرس والروم: وسرعان ما اضُطَّرت إلى الدخول فى طاعة الخلافة الإسلامية لعهد عمر بن الخطاب ، واستغاثت به أن يضع عنها الجزية ، فوضعها عنها ، وقَبِلَ منها أن تؤدِّى الصدقة أسوةً ببقية العرب . ودخلت طائفة منها فى الإسلام ، ولكن كثرتها ظلت نصرانية . ونرى فريقاً منها يُعين معاوية فى حروبه مع على بصِفِّين ، ويلمع من بينهم اسم كعب بن جُعَيْل ، وهو شاعر مجيد ، اعتنق الإسلام ، وكان أحدَّ الألسنة فى جيش معاوية على خصومه [2] :

وقد مضت تغلب بعد صِفِّين تَحْطب فى حبل الأمويين ، من سفيانيين ومروانيين ، فإن قبائل قيسية كما قدمنا نزحتْ إلى منازلها مع الفتوح وزاحمتها فى

---

(١) انظر فى ترجمة الأخطل أغانى (دار الكتب) ٨/٢٨٠ وكذلك فى ترجمة جرير ٨/٣ وما بعدها وفى خبر الجحاف ويوم البشر ١٢/١٩٨ وما بعدها ، وراجع الشعر والشعراء ١/٤٥٥ وابن سلام ص ٣٨٦ وما بعدها وفى مواضع متفرقة وخزانة الأدب ١/٢٢٠ والموشح ص ١٣٢ والاشتقاق ص ٣٣٨ وكتاب الأب لامانس : Le Chantre des Omiades والأخطل شاعر بنى أمية للسيد مصطفى غازى وانظر فى أشعاره نقائض جرير والأخطل وديوانه نشر صالحانى .

(٢) انظر فى أشعار كعب بصفين واقعة صفين لنصر بن مزاحم ص ٥٦ وفى مواضع متفرقة . وانظر فى ترجمة كعب ابن سلام ص ٤٥٨ وما بعدها وفى مواضع مختلفة (انظر الفهرس) والشعر والشعراء ٢/٦٣١ ومعجم الشعراء ص ٢٣٣ والخزانة ١/٤٥٧ وراجع فهرسى الطبرى والأغانى .

مواردها الاقتصادية ، ولم تلبث بعد وفاة يزيد بن معاوية أن بايعت ابن الزبير فاصطدمت مصالح الطرفين الاقتصادية والسياسية . ولم تكد تتقدم بهما الأيام فى أثناء فتنة ابن الزبير ، حتى سَلّا سيوفهما ، واحتدمت المواقع بينهما ، إلى أن دخلت قيس فى طاعة عبد الملك وتكافّت القبيلتان عن المغازى فى الجزيرة .

وفى هذه القبيلة وفى فرع منها يسمى جُشَم بن بكر وفى عشيرة من هذا الفرع تسمى بنى الفَدَوْكس وُلد الأخطل فى بادية الحيرة حوالى سنة ٢٠ للهجرة ، وكانت أمه مثل أبيه نصرانية ، وهى من قبيلة إياد ، ومن ثَمَّ نشأ نصرانيًّا ، وظل حياته على دينه ، فلم يدخل فى الإسلام . وفى أخباره أنه كان يُكثر الشِّجار فى صباه مع زوج أبيه فلقبته دَوْبلا ، والدوبل الحمار الصغير . وتزوجُ أبيه بامرأة غير أمه مخالفاً بذلك العقيدة المسيحية يدل على أن نصرانيته كانت رقيقة ، وكذلك كانت نصرانية ابنه . فإننا نراه يطلّق زوجته ، ويتزوج بأخرى ، كما نراه يتردد على دور القيان . وقد استيقظت فيه موهبة الشعر مبكرة ، واقترن بها سَفَه شديد ، فكان يُكثر من هجاء الناس . ولذلك لقبوه أو لقبه شاعر عشيرته كعب بن جُعَيْل الأخطلَ ومعناه السفيه . أما اسمه فغياث ، وكان يكنى بأبى مالك وهو أكبر أبنائه .

ويحاول الاتصال بمعاوية وابنه يزيد ، لينال جوائزهما وتواتيه الفرصة ، فإن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت كان يهاجى عبد الرحمن بن الحكم الأموى ويتعرّض لنساء بنى أمية . وكان ممن تعرض لهن رملة بنت معاوية إذ تغزل بها غزلا مفحشاً ، وبذلك كان أول من اتخذ الغزل سلاحاً للهجاء السياسى ، ومعروف أن الأنصار كانوا مغاضبين لبنى أمية منذ وقوفهم مع على فى صِفّين . وحاول يزيد بن معاوية نفسه أن يردّ عليه ، فاستعلاه ابنُ حسان . فقال يزيد لكعب بن جُعَيْل : أجبْه عنى واهْجُه . فقال : « أرادّى أنت إلى الإشْراك بعد الإيمان . لا أهجو قوماً نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنى أدلك على غلام منا نصرانى ، كأن لسانه لسان ثَوْر ، يعنى الأخطل » . فأرسل إليه يزيد ، فقدم عليه . فقال له : اهجهم . فقال له كيف أصنع بمكانهم وسابقتهم

فى الإسلام ؟ أخافهم على نفسى ، فقال يزيد : لك ذمة أمير المؤمنين وذمّى ، فنظم فى هجائهم قصيدته التى يقول فيها :

ذهبتْ قريشٌ بالمكارم والعُـلا واللُّـؤْم تحت عمائم الأَنصارِ

وغضب النعمان بن بشير الأنصارى ، وكان ممن صحبوا معاوية فى حروبه ضد على وولاّه الولايات وأكرمه ، فجاء إليه يشكو له هجاء الأخطل لقومه ، فقال ما حاجتك؟ قال لسانهُ ، فقال معاوية ذلك لك . وعلم الأخطل ، فاستغاث بيزيد ، فدخل على أبيه ، وقال له : إنى جعلتُ له ذمتك وذمّى ، إذ ردّ عنى ، فقال معاوية للنعمان : لا سبيل إلى ذمة يزيد . وردّ النعمان على الأخطل كما أسلفنا — ولكن الهجاء لم يستطر بينهما ، وكأن الأخطل انسحب من المعركة سريعاً خوفاً على نفسه . ومنذ هذا التاريخ يصبح الأخطل شاعر بنى أمية ، فهو يعيش لهم يمدحهم ، وهم يُغْدقون عليه . وليس فى ديوانه مديح لمعاوية ، ويظهر أن مديحه له سقط من الديوان ، فإن المرتضى فى أماليه روى له فيه هذين البيتين (١) :

إذا متَّ مات العِزُّ وانقطع الغِنَى فلم يبق إلا من قليلٍ مصرَّدِ(٢)
ورُدَّتْ أكفُّ الراغبين وأمسكوا من الدين والدنيا بِخِلْفٍ مجدَّد(٣)

وفى ديوانه مدائح مختلفة ليزيد وأخيه عبد الله ولابنه خالد ، ونحسُّ فى قصائد لأولين ضرباً من الدعوة السياسية لبنى أمية ، إذ لاينسى أن ينوّه بانتصار معاوية فى صِفّين وأن الله اختار بيتهم للخلافة ، على شاكلة قوله :

تَمَّتْ جُدودهم واللهُ فضَّلهم وجَـدُّ قوم سواهم خامِلٌ نَكِدُ
ويوم صِفِّين والأَبصارُ خاشعةٌ أمدَّهم — إذ دعوا من ربهم — مَدَدُ
وأنتم أهلُ بيتٍ لا يـوازنهم بَيْتٌ إذا عُدَّتِ الأَحسابُ والعَدد

---

(١) أمالى المرتضى (طبعة الحلبى) ٢/٢٤ .
(٢) مصرد : مقلل .
(٣) الخلف : واحد أخلاف الناقة ، ويقال تجددت أخلافها إذا ذهب لبنها .

ويظهر أنه لم يكن يقيم بدمشق طويلا ، فقد كان يفد عليها وفوداً ، وسرعان ما يعود إلى منازل قومه فى الجزيرة ، يدلُّ على ذلك أكبر الدلالة أننا نجده فى الفترة التى احتدمت فيها المعارك بين تغلب وقيس واقفاً فى صفوف قومه يناضل عنهم الراعي وابن الصَّفَّار المحاربى وابن الصَّعِق وغيرهم من شعراء قيس. ومرَّ بنا أن القبائل اليمنية فى الشام وعلى رأسها كلب بايعت مروان بن الحكم . بينما نَشَزت عليه القبائل القيسية إذ كان هواها مع ابن الزبير ، وسرعان ما اصطدم الطرفان فى موقعة مَرْج راهط . وانتصرت كلب وأخواتها انتصاراً حاسماً . وكانت تغلب قد أعانتها فى تلك الموقعة ، ومضت تعلن ولاءها لمروان ثم لابنه عبد الملك ، وأخذت تتحرش بها قيس فى الجزيرة ، فنشبت بينهما سلسلة معارك حَمِيَ فيها وطيس الحرب ، وأُشْرِعت فيها ألسنة الشعراء على نحو ما أشرعت أسنة الشجعان ، وكان الأخطل أهم لسان أُشْرِع فى تغلب على نحو ما أسلفنا فى الحديث عن نقائضه .

وما زال عبد الملك يستنزل زُفَر بن الحارث وغيره من زعماء قيس ، ليأمن طريقه إلى مصعب بن الزبير . ويُذْعنون ويدخلون فى طاعته ، فتهدأ الحروب الناشبة بين قيس وتغلب ، وتمر بهما فترة سلام . ويعود عبد الملك إلى دمشق مظفَّراً ، ويحاول فى سنة ٧٣ أن يصلح بين الفئتين، فيستقدم زعماءهما إلى دمشق ويختصمون عنده ، ويلمع اسم الأخطل فى هذا الاختصام ، إذ يدخل على عبد الملك بن مروان وعنده الجَحَّاف السُّلَمِيّ ، فينشد :

ألا سائلِ الجحَّافَ هل هو ثائرٌ بقَتْلَى أصيبتْ من سُلَيْمٍ وعامرِ
أجحاف إن نَهبِطْ عليك فتلتقِى عليك بحورٌ طامياتُ الزواخـــر

ووثب الجحاف يَجُرُّ مُطْرَفَهُ غضباً ، وذهب تَوًّا إلى قومه فى الجزيرة ، فجمع فرسانهم وأغار بهم على تغلب ليلا فقتل فيها مقتلة عظيمة ، وبَقَر من النساء من كانت حاملا . ومن كانت غير حامل قَتَلها . وتسمى تلك المعركة معركة « البِشْر » باسم جبل وقعت بجواره . وقد قتل فيها ابن للأخطل ، ووقع هو نفسه أسيراً ، غير أنه ضَلَّل من أسروه إذ قال لهم إنه عبد ، فأطلقوه . وهرب

الجحاف بعد تلك الوقعة إلى الروم ، إلى أن سكن غضب عبد الملك وأمّنه ، فعاد على أن يؤدّي الحمالات عما سفك من دماء . ونرى الأخطل يتضوّر من هذه الوقعة تضورا شديداً ، حتى لنراه يهدد بنى أمية بانصراف تغلب عنهم ، إن لم يأخذوا لهم بثأرهم . يقول :

لقد أوقع الجحّافُ بالبِشْر وقعــةً إلى الله منها المشتكى والمعوَّلُ
فسائلْ بنى مروانَ ما بالُ ذمّــةٍ وحَبْلٍ ضعيفٍ لا يزال يوصَّلُ
فإلا تغيِّرها قريشٌ بملكهــا يَكنْ عن قريش مُسْتَرادُ ومَزْحَلُ[1]

واستطاع عبد الملك أن يَرُمَّ الفتْقَ ويُحْكِم الصلح بين الفئتين . ويعود الأخطل إلى رِحابه ويحلّ منه منزلا عليًّا ، إذ يصبح شاعره الأثير على الرغم من نصرانيته ، ويقول الرواة إنه كان يَمْثُلُ بين يديه « وعليه جُبّة خَزٍّ وحِرْز خَزٍ ، فى عنقه سلسلة ذهب ، فيها صليب ذهب ، تنفُض لحيته خمرا[2] »

وعصْرُ عبد الملك يُعَدُّ العصر الذهبى للأخطل ، فقد نزل منه منزلة الشاعر الرسمى للدولة ، وآثره على جميع معاصريه من الشعراء ، وأمر من يُعْلن بين الناس أنه شاعر بنى أميــة وشاعر أمــير المؤمنين . وفى الأغانى أخبــار كثيرة تصور ذلك . ونرى مدائح الأخطل لعبد الملك حينذاك تمتلئ بالفخر بقومه وما قدّموا من خدمات لبنى أمية ، كما تمتلئ بالدعوة السياسية للأمويين ، وهى دعوة ينال فيها من خصومهم أمثال الزبيريين ، كما ينال من قَيْس وشاعرهم جرير ، ومن خير ما يصور ذلك قصيدته « خَفَّ القَطينُ » التى أسلفنا الحديث عنها ، وقد أُحْكِم نَسْجها حتى لتتوهج بعض أبياتها توهجاً على مثال قوله فى الأمويين :

حُشْدٌ على الحق عَيَّافو الخَنا أُنُفٌ إذا أَلَمَّتْ بهم مكروهةٌ صبروا
وإن تدجَّتْ على الآفاق مُظْلمةٌ كان لهم مخرجٌ منها ومُعْتَصَرُ[3]

---

(١) بملكها : بقدرتها . مستراد : مرعى . مزحل : من زحل عن مكانه إذا زال عنه وتنحى .
(٢) أغانى (دار الكتب) ٨/٢٩٩ .
(٣) تدجت : أظلمت . معتصر : ملجأ .

أعطاهم اللهُ جَدًّا يُنْصَرون بهِ   لا جَدَّ إلا صغيرٌ بعدُ مُحْتَقَرُ[١]
شُمْسُ العداوة حتى يُسْتقادَ لهم   وأعظمُ الناس أحلاماً إذا قدروا[٢]

والأخطل فى مديحه لا يقل براعة ومهارة عن الفرزدق وجرير ، بل لاشك فى أنه يتقدم أولهما إذ كانت نفسه صلبة ، وكان يعتز بآبائه اعتزازاً شديداً ، فلم يبرع فى المديح ، إنما برع فى الفخر . أما جرير فكانت نفسه لينة ، ومن ثَمَّ يُعَدُّ هو والأخطل فى المديح فرسى رهان . وإن كنا نلاحظ فى الوقت نفسه أن مدائح جرير أكثر عذوبة ، إذكان يتفوق على خصميه جميعاً فى حلاوة الألفاظ وجمال النغم ورشاقة اللفظ ونعومته . أما الأخطل فيمتاز برصانة الألفاظ وفخامتها وجزالتها ، ومدائحه فى عبد الملك تُعَدُّ دُرره الشعرية. وهو فيها يكثر من أن الله اصطفاه لأمته على شاكلة قوله

وقد جعل الله الخــلافة فيكمُ   بأبيض لا عارى الخِوانِ ولا جَدْبِ
ولكن رآه اللهُ موضعَ حقِّها   على رغم أعداءٍ وصَدَّادةٍ كُذْبِ[٣]

ونراهُ يلمُّ فى هذه الفترة من حياته بالكوفة والبصرة كثيراً يمدح ولاتهما وأجوادهما من مثل خالد بن عبد الله بن أسيد الأموى ، وبشر بن مروان والحجاج ، وسماك الأسدى ، وهو من أجواد الكوفة. ونراه ينوّه بمصقلة بن هبيرة الشيبانى أحد قواد طبرستان، كما ينوه بعكرمة بن رِبْعى الفياض وجوده الغَمْر ، ومن قوله فيه :

إن ابن رِبْعِىٍّ كفــانى سَيْبُه   ضِغْنَ العدوِّ وعِذْرَةَ المُخْتالِ[٤]
وإذا عدلتَ به رجالاً لم تجدْ   فَيْضَ الفُرات كراشح الأَوْشالِ[٥]

وممن نوّه بهم جرير بن عبد الله البَجلى وجدار بن عتّاب التغلبى وهمام بن مطرف .

---

(١) الجد : الحظ .
(٢) شمس : جمع شموس وهو العسير فى عداوته . استقاد له : أعطاه مقادته وزمامه ، فخضع وذل .
(٣) كذب : جمع كذوب .
(٤) السيب : العطاء . العذرة : الاعتذار ، يشير إلى من يسألهم فيعتذرون .
(٥) عدلت : وزنت . الأوشال : جمع وشل وهو الماء القليل . والراشح : الذى يسيل فى قلة .

يتَطْوى صفحة حياته الزاهية إذ يتوفىّ عبد الملك، ويخلفه ابنه الوليد، فيأفل نجمه، إذ يُقْصيه عنه، ويقرّب منه شاعراً شاميًّا مسلماً هو عدى بن الرِّقاع العاملى، وبذلك انزوى الأخطل، ولم يعد له كبير شأن. وقد مدح الوليد، ومدائحه فيه فاترة.

وعلى نحو ما كان الأخطل يجيد المديح كان يجيد نعت الخمر ودِنانها وندَاماها، ويطيل المديح فى عِتْقها والسرور بشربها، يقول:

صهباء قد كلفتْ من طول ما حُبِستْ   فى مخدعٍ بين جنَّات وأنهارِ[١]

عذراء لم يَجْتَلِ الخُطَّاب بهجتها   حتى اجتلاها عبادىٌّ بدينارِ[٢]

واقرأ له القصيدة الأولى فى ديوانه، فستراه يصور فيها زقاق الخمر تصويرا بديعاً، إذ يقول،

أناخوا فجرُّوا شاصِياتٍ كأنَّها   رجالٌ من السُّودان لم يَتَسَرْبَلوا[٣]

ويصف تمشيها فى دمه وجسمه وعظامه، فيقول:

تدبُّ دبيبـــا فى العظام كأنّه   دَبيبُ نِمالٍ فى نَقًا يتهيَّلُ[٤]

ويرْسم صورة المنتشى بها نَشْوة تفقده حسه ووعيه، على هذا النحو:

صريعُ مُدام يرفع الشَّرْبُ رأسه   لَيْحيَا وقد ماتتْ عظامٌ ومَفْصِلُ

نُهاديه أحيانا وحيناً نجرُّهُ   وما كاد إلا بالحشاشة يَعْقِلُ[٥]

إذا رفعوا صدْرا تحامل صدره   وآخرُ مما نال منها مخبَّل

وكان الأخطل شغوفاً بالخمر شغفاً شديداً، حتى لنراه يذكر فى حديث له مع عبد الملك أنها هى التى تمنعه من إعلان إسلامه[٦]. وفى أخباره وأشعاره ما يدل على انصياعه لدينه أحيانا، فقد كان يتمسَّح بالقساوسة تبركاً، وكانوا إذا أنزلوا به عقاباً خضع لهم واستكان. ونراه يذكر الصليب فى ديوانه كما يذكر قديس قبيلته مار سرجيس، ويُقْسم بالمسيح والرهبان. وقد ظل يهاجى جريراً إلى أن توفِّى سنة اثنتين وتسعين للهجرة.

---

(١) الصهباء: الخمر. كلفت: تغير لونها.

(٢) عذراء: لم تفضّ. العبادى: نسبة إلى قوم فى الحيرة كانوا يتجرون فى الخمر، وهم نصارى، سموا العباد.

(٣) الشاصيات: الممتلئة.

(٤) النقا: الكثيب من الرمل.

(٥) نهاديه: نسوقه. الحشاشة: بقية النفس.

(٦) أغانى (دار الكتب) ٨/٢٩٠.

٥

الفرزدق (١)

شاعر تميمى ، وكانت تميم تنزل فى الجاهلية بشرقى الجزيرة ، وتمتد عشائرها وبطونها من اليمامة إلى شواطئ الفرات ، وتتغلغل فى نجد . مما جعلها تصطدم بالقبائل اليمنية والمضرية والربعية فى أيام كثيرة ، كما اصطدمت بالحيرة وملوكها المناذرة . وتُعدّ أكبر القبائل المضرية ، وهى فى حقيقتها مجموعة من القبائل ، تنتسب إلى أب واحد . وعلى نحو ما كانت تصطدم بجيرانها كانت تصطدم قبائلها بعضها ببعض ، ومن أشهر هذه القبائل دارم ويَرْبوع ومازن ومِنْقر وبنو الهُجَيْم وبنو أنف الناقة . ويُفيض كتاب شرح نقائض جرير والفرزدق فى الحديث عن أيامها وحروبها القديمة ، ومن أهمها « أُوارة » بين دارم وعمرو بن المنذر ملك الحيرة و «الرَّحْرحان» بين دارم وعامر و « ذو نَجَب » بين يربوع وعامر و « النِّباج » بين مِنْقر وبكر و «إراب» بين يربوع وتغلب و «جَبَلة» بين تميم ومعها ذبيان ، وعامر ومعها عبس و «طَخْفة» بين دارم ويربوع . وكانت وثنية إلا نفراً قليلا تنصروا ، وهم يسمَّون فى الحيرة بالعباديين . ومن أشهر شعرائها الجاهليين أوس بن حَجَر وسلامة بن جَنْدل وعلقمة الفحل وعدى بن زيد العبادى ، ومن شعرائها فى صدر الإسلام عَبْدة بن الطبيب ومتمم

(١) انظر فى ترجمة الفرزدق الأغانى (طبع ساسى) ٢/١٩ وما بعدها وأخباره مع ابن الزبير وزوجه النوار فى أغانى (دار الكتب) ٣٢٤/٩ وما بعدها وراجع فيه الشعر والشعراء ٤٤٢/١ وابن سلام ٢٤٩ وما بعدها والموشح ص ٩٩ وما بعدها ومعجم الأدباء لياقوت ٢٩٧/١٩ وخزانة الأدب ١٠٥/١ ومرآة الجنان لليافعى ٢٣٨/١ وأمالى المرتضى ٥٨١ وما بعدها . وله أخبار متفرقة فى الأغانى انظر الفهرس ، وراجع الإصابة ٢٢٠/٥ والطبرى ١٨٠/٤ وما بعدها و ص ٢١٦ ، ٢٣١ ، ٢٨٣ ٣٠٦ والمبرد ص ٦٩ وما بعدها ، ١٢٨ ، ٢٠٨ ، ٢٨٨ ، ٢٩٢ والأمالى ٥٣/٣ وكذلك الاستيعاب لابن عبد البر ص ٤٦٩ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٤٦٥ والاشتقاق ص ٢٣٩ وما بعدها. وقد طبع ديوانه طبعات مختلفة ، طبع بوشيه جزءاً كبيراً منه وأكمله هل . وطبع فى مصر وبيروت طبعات مختلفة ، أهمها طبعة الصاوى . ونشر بيفن كما قدمنا نقائضه مع جرير بشرح أبى عبيدة ، والديوان والنقائض جميعا فى حاجة إلى نشرة علمية محققة .

ابن نويرة . وقد دخلت فى الإسلام بعد فتح مكة ، وكانت من أسرع القبائل إلى الردة ، إذ ظهرت فيها متنبئة تسمى سجَاح . وتبعها كثيرون . فجمع لها أبو بكر الجموع بقيادة خالد بن الوليد . وسرعان ما عادت تميم إلى الإسلام ، مستضيئة بنوره ، وشاركت مشاركة ضخمة فى فتوح إيران وخراسان . ونجدها بارزة فى معارك صِفِّين ، كما نجد فئات كثيرة منها تنضم إلى الخوارج فى زمن على بن أبى طالب ، ثم فيما تلاه من أزمنة ، وخاصة فى صفوف الأزارقة . وقد مرَّ بنا أنها تحالفت فى البصرة مع قيس ضد الأزد وربيعة . وظهرت نتيجة هذا الحلف عقب وفاة يزيد بن معاوية ، فقد اصطدمت بالأزد ، وظلتا متنافرتين طول العصر لا فى البصرة فحسب ، بل أيضاً فى خراسان .

وكانت دارم تتشعَّب شعباً أهمها بنو فُقَيْم وبنو نَهْشل وبنو مجاشع . وفى بيت نبيل من بيوت العشيرة الأخيرة وُلد الفرزدق وهو لقبٌ لقِّب به لجهامة وجهه وغلظه ، فإن الفرزدقة الخُبْزة الغليظة التى يتخذ منها النساء الفَتوت . واسمه همَّام ابن غالب بن صَعْصعه بن ناجية بن عِقال ، وجميعهم فى ذروة الشرف والسيادة من دارم . وقد اشتهر جده صعصعة بأنه كان ممن فَدَى الموءودات فى الجاهلية ونَهى عن قتلهن ، ويقال إنه فَدَى أربعمائة منهن ، وقيل دون ذلك . ونوَّه الفرزدق فى شعره بهذه المكرمة لجده طويلا ، من مثل قوله :

أبى أحدُ الغَيْثين صعصعةُ الذى ... متى تُخْلف الجوزاءُ والنَّجْمُ يَمْطُرِ

أجار بناتِ الوائدين ومن يُجِرْ ... على القَبْر يُعْلَمْ أنه غيرُ مُخْفِرِ

وكان لصعصعة قيون منهم جُبَيْر وَوَقْبان ودَيْسم ، ومن ثَمَّ جعل جرير مجاشعا قيونا كذباً وبهتاناً . وصعصعة أحد من أتوا النبيَّ صلى الله عليه وسلم فى وفد تميم . وعلى نحو ما كان صعصعة عظيم القدر فى الجاهلية كان ابنه غالب فى الإسلام وأمه ليلى أخت الأقرع بن حابس ، وكان بحراً فياضاً ، ومما يروى من جوده السيَّال أن نفراً اختاروه بين طائفة من الأجواد يسألونهم ليعرفوا مدى جُودهم ، فما كاد يسمع مسألتهم حتى أعطاهم مائة ناقة دون أن يعرفهم . ويُرْوَى أن دارما ويربوعا أصابتهما سنة مجدبة ، فعقر لعشيرته ناقة ، وبادر سيد يربوع سُحيم بن وَثيل فصنع صُنعه ، فنحر عشرا من الإبل ، فنحر سُحَيْم مثله عشرا .

فلما رآه ينافسه نحرَ إبله كلها فى مكان يسمى صَوْءر ، وقيل إنها كانت مائة ، وقيل بل كانت أربعمائة . وافتخر الفرزدق بالحادثين كثيراً فى شعره . ولم يكن يتلفع بالشرف من قبل أبيه وحده فقد كانت أمه من أسرة شريفة من قبيلة ضبة . وكانت له أخت تسمى جِعِثِن ، وتصادف أن أحد أشرار بنى مِنْقر رآها فضرب بيده على نحرها . فصرخت ومضى ،وقد عيرّ جرير الفرزدق بذلك كثيرا حتى لنراه يرمها بالفحشاء افتراء ، إذ كانت سيدة فاضلة .

وليس بين أيدينا ما يدل على السنة التى وُلد فيها الفرزدق ، وأغلب الظن أنه وُلد حوالى سنة عشرين للهجرة ، ففى أخباره أنه قال « : كنت أهاجى شعراء قومى وأنا غلام فى خلافة عثمان » وخلافته امتدت من سنة ثلاث وعشرين إلى خمس وثلاثين للهجرة . وفى أخباره أيضاً أن أباه قدّمه إلى على بن أبى طالب بعد موقعة الجمل سنة ٣٦ ، وقال له إن ابنى هذا شاعر ، فنصحه أن يعلّمه القرآن .

وواضح مما قدمنا أن الفرزدق نشأ فى بيت كريم ، مآثره ومفاخره لاتُدْفَعُ ، وكان لذلك أثر عميق فى نفسيته إذ كان يعتدُّ بآبائه اعتدادا شديداً ، كما كان يعتد بعشيرته وقبيلته ، حتى إنه يُعَدُّ أضخم صوت لتميم فى هذا العصر ، وجعله ذلك يتمسك بمآثر أهله وكرمهم المسرف ، فإذا باع إبله نثر أموالها على الناس ، لينتسب فيهم ، وظل يُجير على قبر أبيه غالب ، على نحو ما كان أجداده يُجيرون . ولما توفِّى صديقه بشر بن مروان نحر ناقته على قبره كما كان يصنع الجاهليون . وأخلاقُ الفرزدق من هذه الناحية تتصل بالأخلاق الجاهلية ، وبكل ما ينطوى فى هذه الأخلاق من إثم ، فقد عُرف بفسقه وشربه للخمر التى حرّمها الإسلام ، وأيضاً بكل ما ينطوى فى هذه الأخلاق من عصبية وغلظة . وهو من هذه الناحية يمثل البدوى التميمى شديد الشكيمة الذى لا يدين بالطاعة للسلطان ، ولعله من أجل ذلك ظل طويلا بعيداً عن قصر بنى أمية فى دمشق ، وكأنه كان يحسُّ أنه من أسرة لا تقل عن أسرة بنى أمية شرفاً وسيادة . ونرى هذا الإحساس واضحاً حين ألمّ عم له يسمى الُحتات بمعاوية مع وفد من تميم ، فقد تصادف أن توفِّى قبل مغادرة الوفد دمشق ، فأمر معاوية بأخذ ما كان أعطاه من مال ، ولم يكد يسمع بذلك الفرزدق حتى نظم قصيدة فى معاوية يقول فيها :

فما بالُ ميراث الحُتات أخذتَه وميراثُ حَرْبٍ جامدٌ لك ذائبُه[١]
فلو كان هذا الأمرُ فى جـاهليّةٍ علمتَ منِ المرءُ القليلُ حلائبه[٢]

ويقول بعض الرواة إن أول شعر قاله الفرزدق نظمه فى ذئب ذهب بكبش من غنم لأهله ، وهو يستهلّه بقوله :

تلوم على أن صَبَّح الذئب ضَأْنَها فألوَى بكبْش وهو فى الرَّعْي راتـعُ

وهى أبيات جيدة الصياغة . وفى أخباره كما مر بنا ما يدل على أنه نشأ حديد اللسان محبا للخصومات ، يهجو من حوله من قومه وغير قومه ، وكان ممن هجاهم وأسرف فى هجائهم بنو فُقَيْم وذلك أنهم خرجوا يطلبون دماً لهم فى قوم ، فصالحوا منه على دية ، فقال حين رجعوا :

لقد آبَتْ وفودُ بنى فُقَيْمٍ بـآلمِ ما تؤوبُ به الوفودُ

ومضى يهجوهم هجاء كثيراً ، فاستغاثوا منه بالأشهب بن رُمَيْلة النَّهْشلى ، واستعر الهجاء والتفاخر بينهما ، حينئذ رفعوا أمره إلى زياد بن أبيه . وكان ذلك فى سنة خمسين للهجرة ، فطلبه ، وخافه الفرزدق ، فهرب منه متجهاً نحو البادية ، وأخذ يستجير ببعض شيوخ القبائل ، فأجاره قوم من بكر بن وائل ، وأعانوه على الفرار ، فولّى وجهه نحو المدينة وعليها سعيد بن العاص من قبَل معاوية ، وكان سيداً ممدَّحا ، فأمّنه وأجاره ، ومدحه مدائح رائعة من مثل قوله :

ترى الغُرَّ الجَحاجحَ من قريشٍ إذا ما الأمرُ فى الحَدثانِ غالا[٣]
قياماً ينظرون إلى سعيدٍ كأنهمُ يرون بهِ هِـلالا

وسمعه الحطيئة وهو ينشد سعيداً هذه القصيدة . فقال : هذا والله الشعرُ لا ما نُعلَّل به منذ اليوم . وبلغه أن زياداً رقّ له وقال : لو أتانى لآمنته وأعطيته ، فقال فى كلمة :

دعـانى زيادٌ للعطاءِ ولم أكنْ لآتيَهُ ، ما ساق ذو حَسَبٍ وَفْرا[٤]

(١) حرب : جد معاوية .
(٢) الحلائب : الجماعات وأبناء العم فى القبيلة .
(٣) الغر : جمع أغر وأصله أبيض الغرة ويريد به الشريف . الجحاجح : جمع جحجاح وهو السيد الكريم . الحدثان : حوادث الدهر ونوائبه . وغال : أصاب بشر .
(٤) الوفر : المال الكثير . وأراد التأبيد أى لا آتيه أبداً .

ومضى فى المدينة ينفق أيامه ولياليه فى اللهو والاختلاف إلى دور القيان، وذكر ذلك فى شعره بمثل قوله :

إذا شئتُ غنَّانى من العاج قاصفٌ على مِعْصَمٍ رَيَّان لم يَتَخَدَّدِ[1]

وقوله :

هما دلَّتانى من ثمانينَ قــامةً كما انقضَّ بازٍ أَقْتَمُ الرِّيشِ كاسِرُه

وقد أتاه جرير كثيراً من هذه الثُّغْرة فى خلقه وسلوكه . وكان معاوية يجعل المدينة تارة لسعيد بن العاص وتارة لمروان بن الحكم ، فَوَلِىَ مروان ، وكانت فيه شدة على أصحاب اللهو ، فترك الفرزدق المدينة إلى مكة ، وفى طريقه إليها أتاه نعى زياد فثابت إليه نفسه ، ومضى إلى البصرة ، وهناك وجد ابن عمه مسكينا الدارمىَّ يتفجَّع على زياد بمثل قوله :

رأيت زيادةَ الإسلام ولَّتْ جِهــارا حين ودَّعها زيادُ

فحنق عليه حنقاً شديداً ، وهجاه بقصيدة يقول فيها :

أمسكينُ ! أَبكى اللهُ عينك إنما جَرَى فى ضلالٍ دمعُها فتحدَّرا

وهجاه مسكين ، وأمسك الفرزدق عنه ، حتى لا يهْدم شطر حسبه . ونراه يمدح عبيد الله بن زياد ويوسع له فى مجالسه . ولا يفارقه شره ، فيهجو بنى مِنْقَر ، ويغضب لهم مُرَّة بن مَحْكان[2] شاعر بنى رُبيع التميميين وسيدهم ، فيهجوه وعشيرته بكلمة يقول فى تضاعيفها :

تُرَجِّى رُبَيْعٌ أن يجىء صِغـارُها بخيْرٍ وقد أَعْيَا رُبَيْعاً كبارُهـا

ويشتعل بينهما الهجاء . وندخل فى فترة فتنة ابن الزبير ، وتتبعه العراق كما تبعته الحجاز ، ويحدث أن يقتل مصعبٌ ابنَ محكان . ونرى الفرزدق فى هذه الأثناء

---

(١) أراد بالعاج أساور العاج . قاصف : من القصف وهو الجلبة ، يشير إلى وسوسة الأساور . ريان : ممتلء . يتخدد : يتجعد .

(٢) انظر فى ترجمة مرة ابن سلام ص ٢٧٥ والشعر والشعراء ٢/٦٦٧ وأغانى (ساسى) ٢٠/٩ ومعجم الشعراء ص ٢٩٥ .

يدخل — كما مر بنا — مع جرير فى معركة الهجاء التى استمر شررها يتطاير حتى توفى ، والتى أورثتنا نقائضهما آنفة الذكر . وينشب شجار بين الفرزدق وبين زوجه النَّوَار وهى ابنة أعْين بن ضُبيعة المجاشعى . وكان قد تزوجها راغمة ، إذ خطبها خاطب من قريش فجعلته وليَّها ، فانتهز الفرصة . وأشهد أنها جعلت أمرها إليه وأنه يتزوجها على مائة ناقة حمراء سوداء الحدق . فغضبت من ذلك وما زالت تغاضبه ، وادّعت عليه طلاقاً ، ونازعته ، وخرجت إلى عبد الله بن الزبير ونزلت على زوجته خَوْلة بنت منظور بن زَبَّان الفزارى . وتشفَّعت إليها . وتبعها الفرزدق فنزل على حمزة بن عبد الله بن الزبير ، فكان حمزة إذا أصلح شيئاً من أمر الفرزدق قلبته عليه خولة . فقال الفرزدق :

أما البنون فلم تُقْبَلْ شفاعتهم ... وشُفِّعَتْ بنتُ مَنظور بن زَبَّانا

ليس الشفيعُ الذى يأْتيك مُؤْتزرا ... مثلَ الشفيع الذى يأْتيك عُرْيانا

وأمرهما ابن الزبير أن يحتكما إلى عامله فى العراق فمضت معه النوار مغاضبة له ، ويقال : بل اصطلحا فى مكة ، غير أنها ظلت تشارُّه وتشاجره ، إذ كانت تكره كثيراً من أمره ، وكانت صالحة حسنة الدين . وخطب حَدْراء بنت زيق بن بسطام الشيبانية وكانت نصرانية وأخذ يمدحها ويعرِّض بالنوار ، فاستغاثت منه بجرير ، فأغاثها وأخذ يهجو حدراء وقومها معها ، وتصادف أن ماتت حدراء قبل أن يبنى بها ، ويظهر أنه كان مزواجا ، فقد تزوج زنجية أعقب منها ابنته مكية ، وتزوج رهيمة النمرية وطيبة المجاشعية ، ونشزتا منه فطلقهما ، ومازالت النوار تغاضبه حتى طلقها وندم ندماً شديداً . يقول فى كلمة له يصور ندمه :

ندمتُ ندامةَ الكُسَعِيِّ لما ... غَدَتْ منى مطَلَّقةً نَوارُ[1]

وكانتْ جَنَّةً فخرجتُ منها ... كآدم حين أخرجه الضِّرار[2]

ويذكر ابن قتيبة أنه وُلد له لبَطة وسَبَطة وخَبَطة ورَكَضة من النوار ووُلد له أيضاً زَمَعة وكان شاعراً وإن لم يبلغ مبلغ أبيه فى الشعر . وفى تسميته

(١) الكسعى : شخص يضرب به المثل فى الندم. (٢) الضرار : العصيان والمخالفة .

لأبنائه هذه الأسماء مايدل من بعض الوجوه على غلظ نفسه ولاشك فى أن فشله المبكر فى حياته الزوجية يدل على جفوته . ونراه مقرباً من بشر بن مروان الذى ولى العراق لأخيه عبد الملك ، حتى ليستثير الشعراء لمناقضة جرير وهجائه ، وفيه يقول :

يا بِشْرُ إنك سيف الله صِيلَ به   على العدو وغيثٌ يُنْبت الشَّجَرا

ووَلِيَ العراقَ الحجاجُ ، وكانت فيه قسوة ، فخشى بطشه ومضى يمدحه مدائح رائعة من مثل قوله :

إن ابن يوسفَ محمودٌ خلائقهُ   سيانِ معروفهُ فى الناس والمطرُ
هو الشهابُ الذى يُرْمَى العدوُّ بهِ   والمشرفىُّ الذى تَعْصَى به مُضَر[1]

ونوه طويلا بسيرته وقضائه على الرشوة والثوار وإقامته لموازين العدل ، حتى إذا توفِّى رثاه رثاء حارًّا ، يقول فيه :

ومات الذى يَرْعَى على الناس دينَهم   ويضربُ بالهِنْدِىِّ رأْسَ المخالِف[2]

وسرعان ما نجده يثوب إلى نفسه وعصبيته التيمية ضد قيس وزعيمها الحجاج وخاصة حين رأى سليمان بن عبد الملك يلى الخلافة ، وكان أخوه الوليد حاول أن يخلعه من ولاية العهد ، ولجَّ معه الحجاج وولاته فى المشرق ، وتصادف أن توفِّى الحجاج قبل خلافة سليمان ، فلما ولِيَ لم يكن له هم إلا عُمَّال الحجاج وثار عليه قتيبة بن مسلم الباهلى القيسى بخراسان ، فقتلته تميم وردَّت الأمر إلى نصابه . حينئذ نرى الفرزدق يهجو الحجاج ويقذع فى هجائه ، مستشعراً عصبية عنيفة لتميم . وكان يستشعر هذه العصبية دائماً إلا أن يُضْطرَّ اضطراراً للنزول عنها . وبتأثيرها نجده يشذ على ذوق مواطنيه ، فيهجو المهلب الأزدى السيد الجواد والفارس الشجاع الذى لهج الشعراء باسمه ، ويحاول ابنه يزيد حين صار إليه الأمر بعد أبيه أن يستقدمه إليه فى جرجان ، ليُضْفِىَ عليه من نواله ، فيأبى قائلا :

---

(١) تعصى هنا : تضرب ، من العصا .   (٢) الهندى : السيف .

دعانى إلى جُرْجان والرَّىُّ دونه ، لآتيَهُ ، إنى إذنْ لزَءُورُ[١]
سآبى وتأْبى لى تميمٌ وربما ، أبيتُ فلم يقدر علىَّ أمير

حتى إذا ولى يزيد العراق لعصر سليمان بن عبد الملك مضى يمدحه مسرفاً فى مديحه على شاكلة قوله :

إنى رأيتُ يزيدَ عند شبابِه ، لَبِسَ التُّقَى ومهابةَ الجبَّارِ
وإذا الرجالُ رأوا يزيدَ رأيتهم ، خُضُعَ الرِّقاب نواكسَ الأَبصارِ

ودار الزمن فثار ابن المهلب على يزيد بن عبد الملك ، وقضى على ثورته مسلمة تُعينه تميم وفارسها المغوار هلال بن أحوز المازنى الذى تعقب آل المهلب فى قندابيل وقضى عليهم قضاء مبرماً ، حينئذ نجد الفرزدق يفتخر بهلال وصنيع تميم ، هاجياً يزيد بن المهلب وأسرته هجاء مرا[٢].

وقد قلنا آنفاً إنه ظل طويلا لا يفد على قصر بنى أمية فى دمشق ، وأول من وفد عليه من خلفائهم سليمان بن عبد الملك ، وله يقول :

تركتُ بنى حَرْبٍ وكانوا أئمةً ، ومروانَ لا آتيه والمتخيَّرا
أَباك وقد كان الوليدُ أرادنى ، ليفعل خيرا أو ليُؤْمن أَوْجَرا[٣]
فما كنتُ عن نفسى لأَرحل طائعا ، إلى الشام حتّى كنت أنت المُؤَمَّرا

ومنذ هذا التاريخ يصبح من شعراء بنى أمية الذين يدعون لهم ويدافعون عن خلافتهم ، مضْفين عليهم هالة قدسية من التقوى والبرِّ ، تحفُّها المبالغة المسرفة من مثل قوله فى سليمان :

أنت الذى نعت الكتابُ لنا ، فى ناطق التوراة والزُّبْرِ
كم كان من قَسٍّ يخبِّرنا ، بخلافة المهدىِّ أو حَبْرِ
جعل الإلٰهُ لنا خلافته ، بُرْءَ القروح وعصمةَ الجَبْرِ

(١) زءور : كثير الزيارة.
(٢) الديوان ص ٥٢٥ .
(٣) الأوجر : الخائف .

وقوله فى يزيد بن عبد الملك ، ولهوُه ومجونه معروف :

ولو كان بعد المصطفى من عباده نبىٌّ لهم منهم لأَمر العزائم
لكنت الذى يختاره الله بعده لحَمْل الأَمانات الثِّقال العظائم
ورثتم خليلَ الله كل خزانةٍ وكلَّ كتابٍ بالنبــوة قائم

ولعل فى هذه الأبيات ما ينقض قول من زعموا أنه كان شيعيًّا مائلا إلى بنى هاشم وإنهم ليسترسلون فى ذلك فينسبون إليه قصيدة فى على بن الحسين وهى القصيدة ذات البيت المشهور :

هذا الذى تعرف البَطْحاءُ وَطْأَتَهُ والبيتُ يعــرفه والحِلُّ والحَرَمُ

وقد أنكر أبو الفرج الأصبهانى نسبة القصيدة إليه[1]، والذى لا شك فيه أنها تخالف نَسجَهُ كما تخالف نفسيته إذ كان لا يتعصب لشىء سوى قبيلته وآبائه ، وقد مدح بنى أمية بأخرة ، أما ولاة العراق فكان إذا خاف بطشهم مدحهم ، فإذا اطمأن وسكن روعه هجاهم ، وخاصة إذا أظهروا عصبية ضد تميم ، وممن أسرع إلى هجائه منهم عمر بن هبيرة الفزارى والى يزيد بن عبد الملك ، وفيه يقول :

أَميرَ المؤْمنين وأَنت عَفٌّ كريمٌ لستَ بالطَّبِع الحَرِيصِ[2]
أَوليتَ العِراقَ ورافِدَيْهِ فَزاريًّا أَحـذَّ يدِ القميصِ[3]

ووَلِيَ بعده خالد القسرى لهشام بن عبد الملك ، وكان شديد العصبية لليمنية ، وكانت أمه مسيحية ، فبنى لها كنيسة بالكوفة ، وسخَّر الناس فى شق نهر المبارك ، وانتهز الفرصة الفرزدق ، فأخذ يهجوه بالعملين جميعاً ، يقول :

بَنَى بيعةً فيها الصليبُ لأُمِّه وهــدَّم من كُفْرٍ منارَ المساجِد

ويقول

أَهلكتَ مالَ الله فى غير حقِّه على نَهْرك المشئوم غير المبارَكِ

---

(١) أغانى (ساسى) ١٤/٧٥ .
(٢) الطبع : اللئيم الدنىء .
(٣) أحذ : سريع ، يصفه بالسرقة وأنه غير أمين على أموال الأمة .

وأمر خالد صاحب شرطته مالك بن المنذر بن الجارود أن يحبسه ، فألقى به في السجن ، فانقلب يستعطف مالكاً وخالداً وهشام بن عبد الملك وبعض مقربيه من الكلبيين بمدائح كثيرة ، واستعان بخصومه من القيسية وأعانه شاعرهم جرير . وتصادف أن حجّ خالد وأناب عنه أخاه أسدا ، فردّ إليه حريته ، ومن ثم نراه يمدحه مدائح كثيرة .

وكل شيء يؤكد أنه أناب إلى ربه في سنيه الأخيرة فقد أخذ يندم على ما اقترف من آثام ، ومن خير ما يصور ذلك قصيدته في إبليس ، وفيها يقول :

أطعتك يا إبليسُ سبعين حِجَّةً فلما انتهى شَيْبى وتمَّ تمامى
فَرَرْتُ إلى ربى وأيقنت أننى مُـــلاقٍ لأيام المَنون حِمامى

وأخيراً وافاه القدر سنة ١١٤ للهجرة .

وواضح مما قدمنا أن الفرزدق أمضى حياته في المديح والهجاء ، وهو في مديحه يتخلف عن الأخطل وجرير جميعاً لمـــا قدمناه من خشونة نفسه وصلابتها ، وهو كذلك يتخلف عن جرير في الهجاء ، لأن نفس جرير كانت محملة بمرارة مسرفة ، إذ لم يكن له ما للفرزدق من شرف المُحْتد ، فكان ينصبُّ عليه وعلى غيره من مهجويه كالصقر الجارح . وهذه النفس الخشنة الصلبة للفرزدق جعلته لا يبرع في الغزل ، يقول الجاحظ : « وهذا الفرزدق وكان مستهتراً بالنساء وكان زيرَ غَوانٍ وهو في ذلك ليس له بيت واحد في النسيب مذكور ، ومع حسده لجرير . وجرير عفيف لم يعشق امرأة قط وهو مع ذلك أغزل الناس شعرا »[1] . وكان جرير يتقدمه كذلك في الرثاء ، إذ كانت نفسه لينة رقيقة . والموضوع الذي يتفوق فيه الفرزدق على الأخطل وجرير ، بل على جميع شعراء عصره ، هو الفخر ، إذ كان يعتدُّ بآبائه وقبيلته اعتداداً لاحد له ، ومن ثم بلغ في الافتخار بهما الغاية القصوى على شاكلة قوله :

وكُنَّا إذا الجبَّارُ صعَّرَ خَدَّه ضربناه حتى تستقيم الأخادعُ[2]

---

(١) البيان والتبيين ١/٢٠٨ .

(٢) صعر خده : أماله كبراً وغطرسة . الأخادع : جمع أخدع وهو العرق البارز في صفحة العنق . واستقامة الأخادع كناية عن الخضوع والذل .

وقوله :

تری الناس ماسِرْنا يسيرون خَلْفَنا   وإن نحن أوْمَأْنا إلى الناس وقَّفوا[١]

وقوله :

إن الذى سَمك السماء بنى لنـــا   بَيْتــاً دعائمُهُ أعزُّ وأطولُ[٢]
حُلَلُ الملوك لِباسُنا فى أهلنا   والسّابغاتِ إلى الوَغَى نتَسَرْبَلُ[٣]
أحلامُنا تَزِنُ الجبالَ رزانةً   وتخالنا جِنًّا إذا ما نَجْهلُ[٤]
فادْفَعْ بكفِّك - إن أردت بناءنا -   ثَهلانَ ذَا الهضباتِ هل يَتَحلْحَلُ[٥]

والحق أن الفرزدق كان نبعاً كبيراً من ينابيع الشعر ، وهو نبع كان يتدفق من نفسٍ صَلْبة ، ولعل ذلك ما جعل الالتواء والشذوذ يكثر فى أساليبه ، من مثل قوله المشهور فى مديح إبراهيم بن هشام المخزومى خال هشام بن عبد الملك :

وما مثلُه فى الناس إلا مُمَلَّكاً   أبو أُمِّه حىٌّ أبوه يُقاربُهْ

فإن البيت لا يُفْهَم إلا إذا رتبنا كلماته ترتيباً طبيعيًّا على هذا النحو : « وما مثله (الممدوح) فى الناس حىٌّ يقاربه إلا مملكا أو ملكاً (هو هشام بن عبد الملك) أبو أمه أبوه . وكان يضيف إلى ذلك شواذ نحوية كقوله :

وعَضُّ زَمانٍ يابنَ مَرْوان لم يَدَعْ   من المال إلا مُسْحَتاً أو مُجَرَّفُ[٦]

وكان القياس أن يقول مجرفاً بالنصب ، ولكنه رفع على الاستئناف تمشيا مع رَوِىِّ قصيدته . وكان ابن أبى إسحق الحَضْرمى يراجعه فى ذلك ومثله كثيراً ، فكان يَسْخر منه . وقد عَدَّه اللغويون أحد مصادر اللغة ، حتى قالوا : « لولا شعره لذهب ثلث لغة العرب » ومن ثَمَّ دارت أشعاره فى كتب اللغويين والنحاة كما دارت فى كتب التاريخ والأخبار لحديثه عن أيام العرب ومناقبهم ومثالبهم

---

(١) وقفوا : وقفت ركائبهم لا يتقدمون .
(٢) سمك : رفع .
(٣) السابغات : الدروع الكاملة . نتسربل : نلبس .
(٤) نجهل هنا : نغضب حمية .
(٥) ثهلان : جبل . يتحلحل : يتحرك .
(٦) المسحت والمجرف : المهلك المستأصل .

حتى قالوا : « لولا شعره لذهب نصف أخبار الناس » . وواضح مما قدمنا أن شعره لا يشتبك بأحداث البصرة وحدها ، بل يشتبك أيضاً بأحداث الخوارج وأحداث خراسان ، وله مدائح وأهاج مختلفة فى ولاتها وولاة فارس ، أمثال عبيدالله بن أبى بكْرة والجرّاح الحكمي وعمر بن عبيدالله بن معْمر والجُنَيْد ابن عبد الرحمن المُرّىّ ، وقد نوّه طويلا بأسدبن عبد الله القسرى وهلال بن أحْوز المازنى . وأشعاره رغم فسقه مطبوعة بروح الإسلام ، فهو يكثر فيها من ذكر الصلاة والتقوى والبعث والحساب ، كما يكثر من الإشارة إلى قصص الأنبياء ، وهو يضمن ذلك مدائحه وأهاجيه جميعاً . وتمتاز أساليبه بجزالة اللفظ وقوة الرصف ، مما جعل تراكيبه ضخمة ، وهو ضِخَمٌ ناشيء من طوايا نفسه الضخمة الصلبةالتى قلما تعرف الرقة واللين

٦

جرير [1]

شاعر تميمي من عشيرة كُليْب اليربوعية ، ولم يكن لآبائه ولا لعشيرته ما لآباء الفرزدق وعشيرته مُجاشع من المآثر والأمجاد ، أما العشيرة فعُرفت بأنها كانت ترعى الغنم والحمير . وقد دعا ذلك جريراً إلى أن يرتفع بفخره إلى يربوع وكان لها أيام كثيرة فى الجاهلية ، فأشاد بأيامهاوفرسانها طويلا .

وكان أبوه عطية متخلفا فى المال مبخَّلا ، أما جَدُّه الخَطَفَى فكان كثير المال من الغنم والحمير ، وقد أتاه من قِبَله الشعر ، ومما يُرْوَى من شعره قوله :

عجبتُ لإزراء العَيِىِّ بنفسهِ ... وصَمْتِ الذى قد كان بالقول أعْلَما
وفى الصمت سترٌ للعَيِىِّ وإنمــا ... صحيفةُ لُبٍّ المرء أن يتكلما

(١) انظر فى ترجمة جرير الأغانى (طبع دار الكتب) ٣/٨ وما بعدها والشعر والشعراء ١/٤٣٥ وابن سلام ص٣١٥ والموشح للمرزبانى ص ١١٨ وخزانة الأدب ١/٣٦ والعينى ١/٩١ وراجع فهارس الكامل للمبرد والبيان والتبيين — وانظر ذيل الأمالى ص٤٣ والطبرى ٥/٢٦٧ ، ٢٧٣ وراجع فهرس الأغانى فى مواضع متفرقة والاشتقاق ص ٢٣١ وما بعدها . وقد نشر ديوانه فى القاهرة سنة ١٣١٣ للهجرة ونشره الصاوى بتعليقات مختصرة عن مخطوطة تتصل روايتها بابن حبيب . ونشر بيفن نقائضه مع الفرزدق بشرح أبى عبيدة ، ونشر صالحانى نقائضه مع الأخطل برواية أبى تمام .

وكانت أمه تسمى أم قيس ، وهي من نفس عشيرته ، وقد ولدت جريراً فى بادية اليمامة حوالى سنة ثلاثين للهجرة ، وكان له أخوان هما عمرو وأبو الورد ، كانا ينظمان الشعر .

فجرير إن لم يكن نشأ فى بيت مجد فقد نشأ فى بيت شعر ، وظل الشعر يتُوارث فى أبنائه ، وأشعرهم بلال . وحفيده عمارة من الشعراء المشهورين فى العصر العباسى ، وعنه أخذ الرواة شعر جدّه وأكثر أخباره ، ويقول ابن قتيبة كان لجرير عشرة من الولد فيهم ثمانية ذكور .

ويظهر أن موهبة جرير الشعرية تفتحت مبكرة ، وقد وَجَد فى جَدّه الخطَفى خير من يلقّنه الشعر ، ويقال إن من أوائل ما نظمه مما رواه له الرواة أبياتا عاتبه بها ، وذلك أنه كان ذا مال كثير ، وكان يَنْحل أبناءه وأحفاده من ماله فاستنحله جرير ، فأعطاه بعض ماله ، ثم رجع فيه ، وقيل بل أعطاه قليلا فاستزاد فلم يزده ، فتسخّطه ، ونظم فيه طائفة من الأبيات يعاتبه بها ، وقد وصلها بعد ذلك بسنوات بأبيات نظمها فى الفرزدق وغَسّان السليطى ، وفيها يقول معاتباً جدّه :

وإنى لمغرورٌ أُعلَّلُ بالمُنَى ليالىَ أرجو أنّ مالك مَاليا
وإنى لعَفٌّ الفقر مُشْتَرَكُ الغِنى سريعٌ - إذا لم أرض دارى - انتقاليا

ويقال إنه وفد بعد ذلك إلى يزيد بن معاوية وهو خليفة ، فأنشده هذه الأبيات ، فقال له : كذبت إنها لجرير ، فقال له : أنا جرير . ومن قوله فيها :

وليست لسيفى فى العظام بقيّةٌ وللسَّيْفُ أشوى وقعة من لسانيا

وواضح أنه يجعل لسانه أقطع من السيف ، فالسيف إنما يقطع الشَّوَى أى الأطراف ، فيُبْقِى على من طعنه ، أما لسانه فلا يُبْقِى بقية فيمن يطعنه . وهو استهلال لحياته الشعرية ، يدل على أنه مقتحم بها فن الهجاء ، وقد ظل يجول ويصول فى هذا الفن منذ خلافة يزيد إلى وفاته سنة ١١٤ إذ توفى بعد الفرزدق بنحو ستة أشهر . ونراه يهاجى غَسّاناً السَّليطى ، ويعينه البَعيث ، فيطعنه ويطعن نساء عشيرته مجاشع طعنات نجلاء ، فيُضْطَرّ الفرزدق أن يُنازله ،

ويحتدم بينهما الهجاء طوال حياتهما ، ويقال إنه ظل يهجوه وهو مقيم بالمرُّوت من بادية اليمامة بضع سنوات ، فأرسلتْ بنو يربوع إليه : إنك مقيم بالمروت ، ليس عندك أحد يَرْوِى عنك ، والفرزدق بالعراق قد ملأها عليك ، فانحدرَ إلى العراق ، فأقام بالبصرة ، منشدا :

وإذا شهدتُ لثَغْرِ قومى مشهدًا آثَرْتُ ذاك على بَنِىَّ ومـــالى

ويظهر أن إقامته بالبصرة بدأت مع دخول العراق فى طاعة ابن الزبير إذ نجد واليه الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة الملقب بالقُباع (٦٥ – ٦٦هـ) يأمر – حين رآه يتواقف مع الفرزدق بالمِرْبَدِ – صاحب شرْطته عبَّاد بن الُحصَيْن بهدم داريهما ، فيهدم الدارين جميعاً ويطلبهما ، وفى ذلك يقول الفرزدق :

أحارثُ دارى مَرَّتين هدمتهـــا وكنتَ ابن أختٍ لا تُخاف غَوائله

ويقول جرير :

وما فى كتاب الله هَدْمُ بيوتنا كتهديم ماخورٍ خبيثٍ مَداخِلُهْ

ولم يتهاج جرير مع الفرزدق وحده ، فقد تهاجى – كما أسلفنا – مع كثير من الشعراء ، ويقول صاحب الأغانى نقلا عن الأصمعى إنه كان ينهشه ثلاثة وأربعون شاعراً ، فينبذهم وراء ظهره ، ويرمى بهم واحداً واحداً ، ويقول فى موضع آخر إنه كان يهاجيه ثمانون شاعراً غلبهم جميعاً وكان يقول : إنهم يبدءوننى ثم لا أعفو ، كما كان يقول : إننى لا أبتدىء ولكن أعتدى ، ويُرْوَى أن الراعى سمع راكباً يتغنى :

وعاوٍ عَوَى من غير شىء رميتُه بقافيةٍ أنفاذُها تقطر الدَّما[1]

خَروجٍ بأفواه الرُّواة كأنها قَرَا هُنْدُوَانِىٍّ إذا هُزَّ صمَّما[2]

---

(١) أنفاذ : جمع نفذ وهو الكلم الذى تحدثه الطعنة .

(٢) خروج : كثيرة الخروج ، يريد أنها كثيرة الإنشاد . قرا : متن وظهر . الهندوانى : السيف ، كانوا يجلبون سيوفهم الجيدة من الهند . صمم : قطع اللحم وبرى العظم .

فسأل عن صاحب البيتين ، فقيل له جرير ، فقال . والله لو اجتمع الجن والإنس على صاحب هذين البيتين ما أغنوا فيه شيئاً . هل أُلام على أن يغلبنى مثل هذا الشاعر ؟ . وكان لا يزال بخصومه يطعنهم طعنات مسمومة فى نساء عشائرهم ، كقوله فى نساء عشيرة سُراقة البارقى ، وكان ممن رفعوا الفرزدق عليه :

يُعْطَى النساءُ مهورهن كرامةً ونساءُ بارقَ مالهن مهورُ

ولم يثبت له — كما أسلفنا — سوى الفرزدق والأخطل ، وثبت له عمر بن لجأ التَّيْمى إلى حين ويقال إنهما وفدا على المدينة ، وعليها عمر بن عبد العزيز ، وقيل ابن حزم ، وتصادف أن حجَّ الوليد بن عبد الملك ، فسمع بأنهما يتهاجيان ، فأمر بأن يُضْرَبا تأديباً ، فضُربا وأقيما على البُلُس[1] مقرونين . وعادا إلى العراق ، وجرير يرميه وعشيرته بمثل قوله :

قومٌ إذا حضَر الملوكَ وفودُهم نُتِفتْ شواربهم على الأَبوابِ

واستغاثت تَيْمٌ بجرير وتوسلت إليه وتضرَّعت أن يكفَّ عنها ، فكفَّ بعد أن ثَلَبَها وشاعرها ثلباً قبيحاً . وويل للعشيرة التى كانت تتعرض له ، روى الرواة أن الفرزدق أتى مجلس بنى الهُجَيْم فى مسجدهم ، فأنشدهم ، وبلغ ذلك جريرا ، فأتاهم من الغد لينشدهم كما أنشدهم الفرزدق ، فتعرض له شيخ منهم قائلا له : اتَّق الله ، فإن هذا المسجد بُنى لذكر الله والصلاة ، فانصرف عنهم مغضباً ، وهو يقول :

إن الهُجَيْمَ قبيلةٌ ملعونةٌ حُصُّ اللِّحَى متشابهو الأَلوانِ[2]
لو يسمعون بأَكلةٍ أو شَرْبَةٍ بعُمان أصبح جمعهم بعُمان
متورِّكين بنيهمُ وبناتهم صُعْرَ الأنوفِ لريح كلِّ دُخان[3]

---

(١) البلس : غرائر كبار تحشى تبناً ، كان يرفع عليها الجناة تشهيراً لهم وتأديباً .

(٢) الأحص : قليل الشعر فى ذقنه وعارضيه .

(٣) متوركين : يريد أنهم يحملون بناتهم وبنيهم ويذهبون يسألون بهم . صعر : جمع أصعر وهو الذى ينظر بوجهه لاوياً عنقه .

وظل جرير إلى أوائل عصر الحجاج (٧٥ – ٩٥هـ) لا يعرف من الشعر سوى الفخر والهجاء وما يقدّم لهما من الغزل ووصف الصحراء، حتى إذا أظلّه هذا العصر ، وصار حكم العراق لقيس وصاحبها الحجاج رأيناه يتقدّم على صهره وابن عمه الحكم بن أيوب الثقفي نائبه على البصرة ، فيمدحه برجز ، يقول فيه :

خليفة الحجّـاج غير المتّهَمْ   في مَعْقِدِ العِزِّ وبُؤْبُؤِ الكَرَمْ (١)

واستنطقه فأعجبه ظَرْفه وشعره ، فكتب إلى الحجاج يخبره عنه، فكتب إليه أن ابعثْ به إليّ، فقدم عليه ، فأكرمه . وسرعان ما عاش له جرير يمدحه مدائح رائعة من مثل قوله :

مَنْ سَدَّ مُطَّلَعَ النفـاق عليكمُ   أم مَنْ يصولُ كصولة الحَجَّاجِ (٢)
أم من يَغَارُ على النِّساء حفيظةً   إذ لا يَثِقْنَ بغَيْرةِ الأزواجِ (٣)
إنَّ ابنَ يوسف فاعلموا وتيقَّنُوا   ماضى البصيرة واضحُ المِنْهاجِ
ماضٍ على الغَمرات يُمْضى همَّهُ   والليلُ مختلفُ الطرائق داجِى (٤)
منع الرُّشا وأراكمُ سُبُلَ الهُدَى   واللِّصَّ نكَّله عن الإدْلاجِ (٥)
وإذا رأيتَ منافقين تخيَّروا   سبلَ الضَّجاجِ أقمتَ كلَّ ضجاجِ (٦)
داويتَهم وشفيتَهم من فتنةٍ   غبراءَ ذاتِ دواخنٍ وأُجاجِ (٧)
ولقد كسرتَ سِنانَ كلِّ منافقٍ   ولقد منعتَ حقائبَ الحُجَّاجِ

وهو يمدحه بالصفات التي يجلّها العرب من قديم، وبصفات أخرى تتصل بسياسته وولايته للعراق ، إذ يقول إنه سد ثغور النفاق ، مع شجاعة فائقة ومحافظة على الذمام . ويقول إنه نافذ البصيرة واضح السياسة ، يعرف كيف يخرج من الغمرات والشدائد ، ويصوّر كيف أقام العدل في الناس ومنع

(١) بؤبؤ : أصل .
(٢) المطلع : المنفذ من أعلى ، أو المصعد .
(٣) الحفيظة : الغضب .
(٤) الغمرات : الشدائد . داجى : مظلم .
(٥) الإدلاج : السير ليلا .
(٦) الضجاج : الباطل .
(٧) الأجاج هنا : من أجة النار . والدواخن جمع داخن وهو الدخان

الرشوة وقضى على اللصوص وقُطّاع الطريق فى الليل المدلهم . ويقول إنه قوّم كل مائل وباطل ، وإنه داوى النفوس المريضة وحطم أسنة المنحرفين عن الدولة ولم يعد هناك أحد ممن يعيثون فى الأرض فسادا . ويقضى الحجاج على ثورة ابن الأشعث سنة ٨٢ فينوّه بانتصاره عليه قائلا :

دعا الحجّاجُ مثلَ دُعاء نوحٍ　　فأسمع ذا المَعارج فاستجابا (١)
صبرتَ النفسَ يابن أبى عَقيلٍ　　محافَظةً فكيف ترى الثّوابا
ولو لم يَرْضَ ربُّك لم ينزّلْ　　مع النَّصْر الملائكة الغِضابا
إذا سَعَرَ الخليفةُ نارَ حَرْبٍ　　رأى الحجّاجَ أثْقَبَها شهابا

وكان عبد الملك بن مروان فى دمشق يفسح فى مجالسه للأخطل شاعر تغلب النصرانى ، ويُنْقَلُ إليه شعر جرير فى الحجاج فيَغْبِطُه عليه لروعة شعره ومهارته فى المديح . ورأى الحجاج أن يُهديه إليه ، ووجد عند جرير رغبة صادقة فى أن يَمْثُلَ بمديحه بين يديه ، فصحبه معه فى وفادته التى وفدها على عبد الملك ، ويقال : بل بعث به إليه مع ابنه محمد ، فأذن له فى النشيد ، فبدأ فأنشد مدائحه فى الحجاج واحدة بعد واحدة ، ثم أنشده قصيدته التى يقول فى استهلالها :

تعزّتْ أمُّ حَزْرَةَ ثم قالتْ　　رأيتُ المُوردين ذوى لِقاح (٢)
تعلِّل ، وهْىَ ساغبةٌ ، بَنيها　　بأنْفاسٍ من الشَّبِمِ القَراح (٣)
سأمتـــاح البحورَ فجَنِّبينى　　أذاةَ اللوم وانتظرى امتياحى (٤)

وخرج من ذلك إلى مديح عبد الملك ، فقال

وإنى قد رأيتُ علىَّ حَقًّـــا　　زيارتىَ الخليفَـــة وامتداحى
ألستم خَيْرَ من ركب المطايا　　وأنْدَى العالمين بطونَ راح (٥)

---

(١) كان دعاء نوح : (رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً) ذو المعارج : الله جل جلاله .
(٢) الموردون : أصحاب الإبل يوردونها الماء . ولقاح : جمع لقحة وهى الناقة فى أول نتاجها . أم حزرة : إحدى زوجاته .
(٣) تعلل أبناءها : تشغلهم . ساغبة : جائعة . النفس من الماء : الجرعة . الشبم : البارد . القراح : الصافى .
(٤) أمتاح : أستقى من الميح وهو العطاء .
(٥) أندى : أجود .

ولم يلبث أن أخذ يهاجم من ثار على عبد الملك مثل عمرو الأشدق بن سعيد بن العاص . ووقف عند عبد الله بن الزبير يصوِّر فتنته وكيف قضى عليه عبد الملك قضاء مبرماً . ومضى يمدح عبد الملك وأسرته وأنهم الجديرون من بين القرشيين بالخلافة ، منوهاً بانقياد الأمة له واجتماعها تحت لوائه ، يقول :

وقــومٍ قد سموتَ لهم فدانوا ... بِدَهْمٍ فى مُلَمْلَمَــةٍ رَدَاحِ (١)
أبحتَ حِمَى تهــامةَ بعد نَجْدٍ ... وما شىءٌ حميتَ بمستباحِ (٢)
دعــوتَ المُلْحدين أبا خُبَيْبٍ ... جِماحًا ، هل شفيتَ من الجِماحِ (٣)
فقــد وجدوا الخليفة هِبْرِزِيًّا ... أَلَفَّ العِيصِ ليس من النواحِى (٤)
فما شجراتُ عِيصِك فى قُرَيْشٍ ... بِعَشَّات الفروع ولا ضَواحِى (٥)
رأى الناسُ البصيرةَ فاستقاموا ... وبَيَّنَتِ المِراضُ من الصِّحاحِ (٦)

وأُعجب عبد الملك بجرير إعجاباً شديداً فأعطاه مائة من الإبل وثمانية من الرعاة ومِحْلَباً من فضة . وجرير فى هذه القصيدة ليس مادحاً فحسب ، بل هو محام عن عبد الملك وحكمه ، يدافع عن حقه فى الخلافة ، ويهاجم خصومه هجوماً عنيفاً ، وقد مضى بقية حياته يقرر فى مدائحه لعبد الملك ومن خلفوه حقهم فى الخلافة على الناس ، وهو من هذه الناحية يُعَدُّ شاعراً سياسياً بالمعنى التام ، شاعراً يحامى عن نظرية الأمويين فى الحكم ويناضل عنهم وما يزال يسدِّد سهامه إلى خصومهم ، وهو فى تضاعيف ذلك يحفُّهم بإطار رائع من التقوى والعمل الصالح ، مقرراً أن شيعتهم على الحق ، وأن من يخالفهم من الشِّيَع أهلُ باطل وضلال وأهواء وبِدَعٍ ، يقول فى عبد الملك :

لولا الخليفةُ والقرآنُ نقرؤهُ ... ما قام للناسِ أحكامٌ ولا جُمَعُ

---

(١) دانوا : أطاعوا . الدهم : الجيش الكثير . ململمة : مجتمعة . رداح : ضخمة . يقصد من ثاروا عليه .
(٢) يريد عبد الله بن الزبير وغلبة عبد الملك على ما كان فى يديه من نجد والحجاز .
(٣) أبو خبيب : ابن الزبير : الجماح : العناد والخلاف .
(٤) هبرزيا : نافذاً فى الأمور ماضياً . ألف : ملتف . العيص : الشجر . يريد أنه فى صميم العز وليس فى نواحيه .
(٥) الشجرة عشة الفروع : دقيقة الأغصان . والضاحية : بادية العيدان ولا ورق عليها .
(٦) بينت : تبينت .

أنت الأمين أمينُ الله لا سَرِفٌ فيما وَليتَ ولا هَيَّابةٌ وَرَعُ[1]
أنت المباركُ يَهدى اللهُ شِيعتَه إذا تفرَّقتِ الأهواءُ والشِّيَعُ
فكلُّ أمر على يُمْنٍ أمرتَ به فينا مُطاعٌ ومهما قلتَ مُسْتَمع
يا آلَ مروان إن الله فَضَّلكم فَضْلاً عظيما على مَنْ دينُه البِدَع

وواضح أنه يُزْرِى على أصحاب الأهواء الذين يحادّون بنى أمية من الزبيريين والخوارج والشيعة ، ويسميهم أهل بدع وضلالة . ويتوفَّى عبد الملك ، فيلزم ابنه الوليد ، ويظهر أنه كان يجفوه فى أول الأمر ، فقد مرّ بنا أنه أمر واليه على المدينة أن ينزل به وبابن لجأ عقوبة صارمة . غير أن هذا لم يَصْرِف جريرا عنه ، فقد كان يلمُّ به فى دمشق ، وكان يراه يقرِّب عدىَّ بن الرِّقاع ، فهجاه ، وحاول أن يستثيره ، ولكن عديا آثر العافية . واستطاع جرير أن ينفذ إلى الوليد وأن يقع منه بعد ذلك موقعاً حسناً بما دبَّجه فيه من مدائح رائعة على شاكلة قوله :

إنَّ الوليدَ هو الإمامُ المصطفى بالنَّصْر هُزَّ لواؤُه والمَغْنَمِ
ذو العرش قَدَّر أن تكون خليفةً مُلِّكْتَ فاعْلُ على المنابر واسْلَمِ

ونراه يلزم ابنه عبد العزيز ، ويقدم له مدائح كثيرة ، حتى إذا عزم الوليد على تنحية سليمان أخيه عن ولاية العهد وتوليتها عبد العزيز رأيناه يَحْطِب فى حبله بمثل قوله :

إذا قيل أىُّ الناس خيرٌ خليفةً أَشارتْ إلى عبد العزيز الأَصابعُ

وسرعان ما تتطور الظروف ، ويتوفَّى الوليد ويتولى سليمان ، فيفد عليه مادحاً ، محاولا أن يستنزل عطفه عليه ، بما يصوِّر من تقواه ومن عدله وكيف أطلق مَنْ سَجنهم الحجاجُ وكيف ردّ مظالمه عن أهل العراق وأحسن

(١) الهيابة : الجبان وكذلك الورع بفتح الراء .

إلى الناس ، وهو فى تضاعيف ذلك ينوه بأن الله اختاره للأمة ناعتاً له بأنه المهدى المنتظر ، يقول [١] :

سليمانُ المبارك قد علمتم هو المهدىُّ قد وضح السبيلُ
أجرتَ من المظالم كلَّ نَفْس وأدَّيتَ الذى عَهِدَ الرسولُ
صَفَتْ لك بيعةٌ بثبات عَهْد فوزْنُ العَدْلِ أصبح لا يميل
وتدعوك الأراملُ واليتامى ومن أمسى وليس به حَوِيلُ [٢]
ويدعوك المكلَّفُ بعد جَهْدٍ وعانٍ قد أضرَّ به الكبُول [٣]

ونراه يمدح ابنه أيوب ، ويرشحه لولاية العهد . غير أن سليمانَ رأى أن يصرفها إلى عمر بن عبد العزيز ، وكان يتأله فى دينه ويزهد فى الدنيا ، فأوصد أبوابه من دون الشعراء سوى جرير ، وكأنه قرّبه لما عرف فيه من عفته وحسن دينه ، ومعرفتُه به ترجع إلى أيام ولايته على المدينة ، وله فيه مدائح مختلفة ، يصوّر فيها تقواه وأن الله اصطفاه للناس من مثل قوله .

أنت المبارك والمهدىُّ سِيرتُه تَعْصِى الهوى وتقوم الليل بالسُّوَرِ
نال الخلافةَ إذ كانتْ له قَدَرًا كما أتى ربَّه موسى على قَدَرِ

ويشير إلى سياسة عمر فى طرْح العشور عن الرعية وكل ما كان يُجْبَى منها غير الخراج [٤] ، فيقول فى مدحة أخرى :

إن الذى بعث النبىَّ محمَّدًا جعل الخلافة فى الإمام العادلِ
ولقد نفعتَ بما منعتَ تحرُّجاً مَكْسَ العُشور على جسور الساحل [٥]

---

(١) جرير هنا يرسم فعلا سياسة سليمان فإنه لما ولى الخلافة أطلق الأسارى وأهل السجون وأولى الناس بإحسانه . انظر الطبرى ٣٠٤/٥ وراجع ميمية الفرزدق التى نظمها فى قتل قتيبة بن مسلم ، وقد تحدثنا عنها فى الكلام على النقائض .

(٢) حويل : حيلة وقوة .

(٣) المكلف بعد جهد : الذى كلف فوق طاقته . والعانى هنا : السجين . والكبول : القيود . وهو يشير هنا فى وضوح إلى عسف الحجاج وظلمه ؛ غير أنه لم يتناوله بالهجاء على نحو ما صنع الفرزدق فى ميميته .

(٤) انظر الطبرى ٣٢١/٥ .

(٥) موضع المكس حيث طريق المارة فى قنطرة أو جسر .

وسرعان ما توفّى عمر ، فندبه ندباً حارًّا ، يصور فجيعة الأمة فيه حتى ليقول إن الشمس تبكيه مدى الدهر :

تَنْعَى النُّعاةُ أميرَ المؤمنين لنــا   يا خيرَ مَنْ حَجَّ بيتَ الله واعتمرا
حُمِّلْتَ أمرًا عظيما فاصطبرتَ له   وقمتَ فيه بأمر الله يا عُمَرَا
فالشمس كاسفةٌ ليستْ بطالعةٍ   تبكى عليك نجومَ الليل والقمرا[1]

ويتولّى يزيد بن عبد الملك ، ويثور عليه فى العراق يزيد بن المهلب ، ويَقْضى على ثورته مسلمة ، ويصيح به جرير مراراً فى قصائد مدح بها يزيد ابن عبد الملك ، بنفس الصورة المثالية التى صور بها سابقيه من الخلفاء ، من مثل قوله :

زان المنابرَ واختالتْ بمنتجَبٍ   مثبَّتٍ بكتاب الله منصورِ

ويصفه بالعدل وأنه ورث الملك عن آبائه بعهد منهم . ودائماً ينوّه فى مديحه لهم بهذا العهد ، فليست الخلافة عامة فى الأمة ولا فى قريش ، بل هى وراثية فى بنى أمية تتوالى فيهم بعهود موثقة . وآخر من مدحهم منهم هشام بن عبد الملك ، وفيه يقول فى آخر قصيدة مدحه بها ، وقد أرسلها إليه مع ابنه عكرمة :

إلى المهدىِّ نَفْزع إن فزعنا   ونستسقى بغُــرَّته الغَماما
وحَبْــلُ الله يَعْصمكم قُوَاه   فلا نَخْشَى لعُرْوته انفصاما[2]

ومدح جرير بجانب الخلفاء كثيراً من أبنائهم ، فهو يمدح مسلمة بن عبدالملك وعبد العزيز بن الوليد وأخاه العباس وأيوب بن سليمان ومعاوية بن هشام ؛ ودائماً ينوّه بالأسرة وأن الله اختارها للأمة ، فإذا قلنا بعد ذلك إنه عاش منذ عرفَ عبد الملك داعية للأمويين لم نكن مبالغين . وليس له فى سواهم إلا مدائح قليلة فقد مدح الحجاج وصهره الحكم بن أيوب كما قدمنا ، ومدح خالداً القسرى مستشفعا للفرزدق كى يُطْلقه ، ومدح بعض أشراف قيس وتميم مثل المهاجر بن

---

(١) يريد بقوله نجوم الليل والقمر أبد الآبدين .

(٢) قوى الحبل : طاقاته .

عبد الله الكلابي والجُنَيْد بن عبدالرحمن المُرّي وهلال بن أحْوز المازني الذي نكّل بآل المهلب في ثورتهم . ويظل أضخم صوت في ديوانه تغنّى به مادحاً صوته في الأمويين . ولعل فيما قدمنا ما يدل على أنه لم يكد يلم بهذا الفن من فنون الشعر حتى برّز فيه على أقرانه ، وبدون شك كان يسبق فيه الفرزدق ، وفي رأينا كما قدمنا أنه كان فيه مع الأخطل فرسي رهان ، بل لقد كان يتقدمه في كثير من الأحيان بعذوبة لفظه ، وأيضاً بما كان يضع حول ممدوحيه من إطار الإسلام ومثاليته الكريمة .

ودائماً يتقدم جرير الأخطلَ والفرزدق جميعاً في الموضوعات التي تتطلب دقة في الإحساس ورقة في الشعور ، إذ كان الأخطل متكلفاً يصطنع الوقار ، وكان الفرزدق – كما أسلفنا – صاحب نفس خشنة صلبة ، ولذلك تفوق في الفخر وساعده أن وجد مادة غزيرة من مناقب عشيرته وآبائه هيأته ليرسل كلماته كأنها العواصف القاصفة والصواعق المدمّرة . أما جرير فلم يكن لعشيرته ولا لآبائه شيء من المآثر الحميدة ، فانطوت نفسه على حزن عميق صفّى جوهرها ، وزادفي هذا الصفاء تأثره بالإسلام إذ كان دَيّناً عفيفاً طاهر النفس . واقرأ رثاءه لزوجته أم حَزْرة ، إذ يقول :

لولا الحَياءُ لعادني استعبارُ ولَزُرتُ قَبْرَكِ والحبيبُ يُزارُ
ولَهْتِ قلبي إذ علتْني كَبْرَةٌ وذوو التمائم من بَنيك صِغارُ
ولقد أراكِ كُسيتِ أجملَ منظرٍ ومع الجمال سكينةٌ ووقارُ
صَلّى الملائكة الذين تُخُيِّروا والصالحون عليكِ والأبرارُ

فإنك تحس تفجعه المرير ، لقيام سور الموت الصفيق بينها و بينه هو وأولادها ، وهو يدعو لها دعاء المسلم المؤمن قلبه ، محيّيا فيها جمالها وخلقها الرفيع . وتدل دلائل كثيرة على أن علاقاته بزوجاته : أم حَزْرة هذه وأمامة التي أهداها إليه الحجاج وأم حكيم الديلمية أم ابنيه بلال ونوح ، كانت علاقات وُدٍّ ومحبة . ولم تَنْشز عليه سوى جارية اشتراها بأخَرة ، وقد عابت عليه عَيْشه وكَبْرةَ سنه ، ففارقها راضياً . أما زوجاته المذكورات فكن يبادلنه وداً بود ، وقد اتخذهن

موضوعاً لغزله الرقيق الذى كان يقدّم به بين يدى قصائده ونقائضه . وأتاح له صفاء نفسه وانطواؤها على الحزن أن يبلغ من هذا الغزل كل ما يريد من تصوير الحب الخالص الطاهر ، إذ ما يزال فيه يتلطف ويستعطف ويشكو ويتضرّع على شاكلة قوله :

بنفسى من تجنُّبُه عزيزٌ علىّ ومَنْ زيارته لمامُ[1]
ومن أُمْسى وأُصبح لا أراه ويَطْرُقنى إذا هجَع النِّيام

وقوله :

لقد كتمتُ الهوى حتى تهيَّمنى لا أستطيع لهذا الحب كتمانا
إن العيون التى فى طرفها مرضٌ قَتَلْنَنَا ثم لم يُحْيين قتلانا
يَصْرَعنَ ذا اللُّبِّ حتى لاحَراك به وهن أضعفُ خلق الله أركانا
أتبعتهم مُقْلَةً إنسانُها غَرِقٌ هل ما ترى تاركٌ للعين إنسانا[2]

وكان إذا هجا نساء من يهجونه أصبح سما ذعافاً لا يطاق ، فإذا أشاد بنساء عشيرته أو بنساء عشيرة النَّوار زوجة الفرزدق إغاظة له وكيداً نثر فوقهن زهور شعره ، واصفاً خلقهن الكريم وجمالهن الباهر الذى يَشْغف القلوب ، ومن بارع قوله فى نساء عشيرة النَّوار :

وهنَّ كماءِ المُزْن يُشْفَى به الصَّدَى وكانت مِلاحاً غيرهن المشاربُ[3]

ولعل شاعراً قديماً لم يستطع أن يصف عواطف الأبوة وحنانها تلقاء الولد على نحو ما صوّر ذلك فى هذه المقطوعة التى يصوّر فيها حبه لابنه بلال :

إن بلالاً لم تَشِنْه أُمُّهُ يَشْفى الصُّداعَ ريحُه وشَمُّهُ[4]
ويُذْهب الهمومَ عنى ضَمُّهُ ينفح ريحَ المسك مُسْتَحَمُّهُ
يمضى الأمور وهو سامٍ هَمُّه بَحْرُ البحور واسعٌ مجَمُّهُ[5]
يُفَرِّج الأمرَ ولا يَغُمُّهُ فنَفْسُهُ نفسى وسمِّى سَمُّهُ[6]

---

(١) يريد أن طيفها يزوره وهو نائم فى الحين بعد الحين .

(٢) إنسان العين : سواد حدقتها .

(٣) المزن : السحاب . الصدى : العطش .

(٤) يشير إلى أن أمه أعجمية ، ولم تشنه عجمتها .

(٥) المجم : الصدر .

(٦) يغمه : يبهمه ويستره .

وواضح أن جريراً كان لا يبارَى فى جميع الموضوعات التى تتصل بدقة الأحاسيس ورقة المشاعر ، وهو لذلك يسبق الأخطل والفرزدق فى الرثاء والغزل وعواطف الزوجية والأبوة ، وهو كذلك يسبقهما فى الهجاء الخالص إذ كان يعرف كيف يـَريش سهامه ويسدّدها إلى نحور خصومه ، محمّلا لها كل ما يمكن من سموم . وليس لأحدهما موضوع يتقدم به عليه سوى ما كان من فخر الفرزدق إذ لم يكن لجرير مادة يبنى منها فخره ، إلا أن يرتفع عن عشيرته إلى يربوع أو إلى تميم عامة ، حينئذ تـَنِدُّ عنه أبيات رائعة كقوله :

إذا غضبتْ عليك بنو تميمٍ حسبتَ الناس كلَّهمُ غِضابا

ولكنه على كل حال يقصر عن الفرزدق فى هذا المجال . ومن الحق أن الفرزدق كان نَبْعاً ثَرًّا من ينابيع الشعر ، ولذلك استطاع الصمود لجرير ، والأخطل — مع أنه استطاع أن يثبت له — يأتى دون الشاعرين جميعاً ، إلا ما يسوقه فى النُّدْرة من قطع مديح متوهجة . وساقَ نفسَ هذا الحكم عليهم قديما بشارٌ ، فقال حين سأله سائل عنهم : « لم يكن الأخطل مثلهما ولكن ربيعة تعصَّبت له وأفرطت فيه » ومضى يفضل جريرا على الفرزدق فقال : « كانت لجرير ضروب من الشعر لا يحسنها الفرزدق ، ولقد ماتت النَّوار (زوجه) فقاموا ينوحون عليها بشعر جرير ؛ إذ لم يجدوا للفرزدق شعراً يصلح . فقال له السائل : وأى شىء لجرير من المراثى إلا التى رثى بها امرأته : أم حَزْرة ، فأورد عليه بشار مرثيته فى ابنه سوادة التى يقول فيها :

فارقتَنى حين كفَّ الدَّهْرُ من بَصَرِى وحين صِرْت كعظم الرِّمَّة البالى

فاقتنع سائله[1] .

وإذا رجعنا إلى أساليب الثلاثة وجدنا الأخطل يُعْنَى أشد العناية بصقل ألفاظه وتنقيحها ، وكأنه من ذوق مدرسة زهير الجاهلية ، ولم يكن الفرزدق يُعنى بصقل ألفاظه كل هذه العناية ، ومن ثم ظهر فيها كثير من صور الانحراف والشذوذ على نحو ما مرّ بنا فى غير هذا الموضع، وقد أتاه ذلك — كما أسلفنا — من

---

(١) ابن سلام ص ٣٩١ .

خشونة نفسه وصلابتها ومن تمرده الطاغي . ومما لا شك فيه أنه كان قوى البصيرة فى نقد الشعر وتمييز جيده من رديئه، حتى قالوا إنه كان يَسْطو على بعض أبيات معاصريه ، حين يبهره حسنها ويفرط بها إعجابه . وهو بعامة يمتاز فى شعره بجزالة لفظه وشدة أَسْره . أما جرير فإنه لا يبارَى فى عذوبة كلمه وحلاوة نغمه ، فإذا قرأته أحسست الذوق المهذب الصافى ، وقد جاءه ذلك من تأثره بالقرآن الكريم وأساليبه ، وكانت نفسه لينة رقيقة لا تشوبها شوائب من تمرد ، فجرَت أشعاره صافية ، كأنها الجدول الرقراق ، أشعار تلذُّ الأذن بكمال جرْسها وتلذ النفوس والأفئدة .

الفصل الرابع

شعراء السياسة

١

شعراء الزبيريين

رأينا في غير هذا الموضع كيف أخذت تظهر في صفوف الأشراف من أبناء كبار الصحابة معارضة حادة لأخذ معاوية البيعة لابنه يزيد بولاية العهد واستخلافه له من بعده، وكيف قاد الحسين بن علي بن أبي طالب وعبد الله بن الزبير هذه المعارضة. وحدث أن دعا بعض أهل الكوفة الحسين ليبايعوه، ومضى إليهم غير أنه قُتل دون غايته، فخلا الجو لابن الزبير الذي عاذ بمكة، وقد اتخذ من قَتْل الحسين أداة للتشنيع على يزيد وعُمّاله، وثارت المدينة، وأوقع بها يزيد وقعة الحرّة المشهورة. فاتسعت الجروح في الحجاز، وبدا للعيان أن الأمويين، وإن كانوا قرشيين، يحكمون بسيوف كلب وغيرها من قبائل الشام اليمنية، وكأنه لم يَعُدْ لقريش ولا للحجاز عامة شيء في الحكم. وحقًّا أن الأمويين قرشيون ولكنهم حولوا الخلافة عن المدينة حاضرتها في الحجاز إلى دمشق، ولم يعودوا يستندون في حكمهم على قريش، بل أصبحوا يستندون على قبائل الشام اليمنية ويحكّمونها في رقاب الناس، بل لقد استباحوا بها مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم. وقد مضوا يَلُون الخلافة كما وليها يزيد، لا بسلطان شرعي، وإنما بسلطان السيف والقوة، إذ أن يزيد لا يأتي أولا بين أبناء كبار الصحابة فبينهم من يَفْضلونه بسابقة آبائهم في الإسلام وبسيرتهم الفاضلة. واتجه الجيش الذي نَكَبَ المدينة في وقعة الحرّة إلى مكة حيث يعوذ ابن الزبير، وهبّ كثير من العرب حتى من الخوارج للذَّوْد عن البلد الحرام. وضُرب من حوله حصار،

غير أن الأنباء جاءت بموت يزيد ، فرُفع الحصار ، وعاد الجيش أدراجه . وبدا حينئذ كأن ابن الزبير هو القرشي الذى اختير للجماعة ، فأبوه من كبار الصحابة المقدَّمين وأمه أسماء أخت السيدة عائشة زوج الرسول صلى الله عليه وسلم . وكان قويَّ الشخصية تقيا وشارك فى فتوح إفريقية ، وسرعان ما انضمت تحت لوائه قيس فى الشام والجزيرة وتبعته العراق ومصر ، وكذلك تبعته خراسان بقيادة عبدالله بن خازم السُّلَمى القيسى . وولى بعد يزيد ابنه معاوية بعهد منه ، ولكنه توفِّى سريعاً ، وبدا كأن حكم بنى أمية قد انتهى ، حتى ليقول ابن عرَّادة بخراسان[1] :

أبنى أُميَّةَ إنَّ آخر مُلْككم   جَسَدٌ بحُوَّارين ثَمَّ مقيمُ[2]
طرقتْ منيَّتُهُ وعند وِسادِه   كوبٌ وزِقٌّ راعفٌ مَرثوم[3]
ومُرِنَّةٌ تبكى على نَشْوانهِ   بالصَّنْج تقعد تارةً وتقوم[4]

وظل ابن الزبير يقود الولايات التى تبعته من مكة ، ولم يلبث مروان بن الحكم أن ظهر بالشام تَسْنده كلب والقبائل اليمنية ، وأوقع بقَيْس الشام وقعةَ مَرْج راهط المشهورة ، فخلصتْ له الشام ، ولم تلبث مصر أن استجابت له ، وولّى عليها ابنه عبد العزيز . وبذلك تحولت الخلافة من بيت السفيانيين إلى بيت المروانيين ، فإن مروان لم يلبث أن توفِّى وخلفه ابنه عبد الملك ، وكان سياسيًّا أريباً ، يعرف كيف يستخدم المال فى جمع الناس من حوله ، وكان فى ابن الزبير بخل وحرص شديد جعل كثيراً من العرب ينصرفون عنه ، ويَضْرب الرواة لذلك مثلا هو أن فَضَالة بن شريك الأسدى ، وقيل بل ابنه ، وفَد عليه[5]

---

(١) طبرى ٤/٤٢١ .

(٢) حوارين : قرية من قرى حمص توفى بها يزيد .

(٣) راعف : سائل . مرثوم : انكسر حتى تقطرت منه الخمر .

(٤) مرنة : مغنية .

(٥) انظر فى هذه الوفادة ترجمة فضالة بن شريك فى الأغانى (طبع دار الكتب) ١٢/٧١ وما بعدها وتهذيب ابن عساكر ٧/٤٢٤ والإصابة ٣/٢٢٤ ومعجم الشعراء ص ١٧٦ .

فقال له: إن ناقتي قد نَقِبَتْ[١] ودَبِرَتْ[٢] ، فقال: ارْقَعْها بجلْد[٣] ، واخْصِفْها بهُلْب[٤] ، وسِر البَرْدَيْن[٥] بها تصحّ ، فقال فضالة : إني أتيتك مُسْتحمِلا ولم آتك مستوصفاً ، فلعن الله ناقة حملتني إليك ، فقال له ابن الزبير : إنّ[٦] وراكبها . وانصرف فضّالة من عنده، وهو يقول :

شكوتُ إليه أنْ نَقِبَتْ قَلوصي فـردَّ جوابَ مشدودِ الصِّفاد[٧]
يَضِنُّ بناقةٍ ويروم مُلْكًا محـالٌ ، ذلكم غيرُ السَّدادِ

ومضى يُشيد ببني أمية وكرمهم الفياض ، ويقول إنه صائر إليهم . ولعل في هذا الحادث ما يفسر السبب في قلة الشعراء الذين صدروا عن رأى ابن الزبير في الخلافة مدافعين عنه بنبال شعرهم ، وكأنما لم تكن تَعْنيه هذه النبال .

وليس معنى ذلك أنه لم يكن هناك شعراء يقفون في صف ابن الزبير ، وإنما معناه أنه رغب بنفسه عن هذا اللون من الدعاية ، أو قل رغبَ به شُحُّه عنه ، ومع ذلك فقد وقف في صَفّه كثير من الشعراء ، لا في الحجاز حيث كان يدعو لنفسه بل بين قيس في الشام والجزيرة والدن أخيه مصعب واليه على العراق . ومرّ بنا في غير هذا الموضع أن العصبيات والوقائع الحربية اشتعلت بين القبائل القيسية من جهة والقبائل اليمنية وتغلب من جهة ثانية ، وأن الشعراء في الطرفين جميعاً سلّوا ألسنتهم مدافعين عن قبائلهم ومهاجمين ، أو بعبارة أخرى مفاخرين ومهاجين هجاء مريراً . ولم يكن الطرفان يتناقضان في العصبية القبيلية فحسب ، بل كانا أيضاً يتناقضان في السياسة ، إذ كان هوى قيس مع ابن الزبير وهوى القبائل اليمنية وتغلب مع بني أمية ، ومن ثم اختلطت في أشعارهم العصبية بالسياسة ، ومن خير ما يمثل ذلك قصيدة «خَفَّ القَطين» التي ضمنها الأخطل هجاء قيس ومديح عبد الملك مصوراً موقف قبيلته من الخلافة الأموية وما قدمته لها من

---

(١) نقبت : من نقب البعير إذا حفي ورقت أخفافه .
(٢) دبرت : أصابها جرح في ظهرها .
(٣) ارقعها بجلد : يريد أن يجعل لها خفا من جلد .
(٤) الهلب : الشعر . الخصف : الخرز . يريد أن يخرز الخف به ليقيه .
(٥) البردين : الغداة والعشى .
(٦) إن هنا بمعنى نعم .
(٧) القلوص : الناقة . الصفاد : ما يشد به الأسير من قيد ونحوه .

مساعدات حربية ولسانية . وحين نتصفح أشعار زُفَر بن الحارث نجدها تقطر عصبية[١] عنيفة ، فهو دائماً يتهدد تغلب وكلبا وأخواتها من القبائل اليمنية ، وهو فى تهديده لا ينسى ابن الزبير وأنه يقف من دونه ضد قبيلة كلب وزعيمها ابن بَحْدل الذى يناصر بنى أمية ، يقول [٢] :

أَفِى اللهِ أَما بَحْدَلٌ وابنُ بَحْدَلٍ فيَحْيَى وأَما ابنُ الزبير فيُقْتَلُ
كذبتم وبيتِ اللهِ لا تقتلونه ولما يكن يومٌ أغرُّ محجَّلُ[٣]
ولما يكن للمشرفيَّة فوقكم شعاعٌ كقَرْنِ الشمس حين ترجَّلِ[٤]

وعلى هذا النحو كانت تختلط فى أشعار الطرفين الذحول والثارات بالسياسة . وظلوا يجترُّون ذلك طويلا ، إذ نرى جريراً لسان قيس ومحاميها يشنُّ هجوماً قاسياً على تغلب وشاعرها الأخطل الذى انبرى له يردُّ كيده على نحو ما مرَّ بنا فى النقائض .

وكان مصعب بن الزبير من فتيان قريش شجاعة وسخاء ، فلما ولى العراق لأخيه انهلَّتْ غيُوثه على الشعراء ، فمدحه منهم كثير ون مثل أعشى همدان وُدكَيْن الفُقَيْمى ، ولكن المدح من حيث هو لا يهمنا ، إنما يهمنا الشعر السياسى الذى كان يدافع عن نظرية ابن الزبير فى الخلافة ، هاجياً لبنى أمية مؤلباً عليهم القبائل . ولعل شاعراً لم يبلغ من ذلك ما بلغه ابن قيس الرقيات ، فهو شاعر الزبيريين ونظريتهم السياسية غير مدافعٍ ، ومن ثَمَّ ينبغى أن نقف عنده قليلا .

ابن [١] قيس الرقيات

اختلف الرواة فى اسمه هل هو عبيد الله أو عبد الله ، والأول أرجح ، لأن فى أخباره أنه كان له أخ يسمى عبد الله . وعلى نحو ما اختلفوا فى اسمه اختلفوا فى

---

(١) انظر الجزء الخامس من أنساب الأشراف للبلاذرى فى مواضع متفرقة والأغانى (ساسى) ١١٢/١٧ ، ١٢٤/٢٠ .

(٢) طبرى ٤١٩/٤ .

(٣) يريد يوماً مشهوراً يبير كلباً ولا يبقى ولا يذر .

(٤) المشرفية : السيوف . ترجل : ترتفع .

(٥) انظر فى ترجمة ابن قيس الأغانى (طبع دار الكتب) ٧٣/٥ وما بعدها والشعر والشعراء ٥٢٣/١ وابن سلام ص ٥٣٠ وخزانة الأدب ٢٦٥/٣ والموشح ص ١٨٦ وشواهد المغنى ص ٢١١ وحديث الأربعاء لطه حسين (طبعة الحلبى) ٣١٦/١ وكتابنا الشعر الغنائى فى مكة (طبع دار الفكر العربى) ص ٢٠٤ وما بعدها . وله ديوان نشره رودكناكس فى فينا سنة ١٩٠٢ وحققه تحقيقا علميا وأعاد نشره فى بيروت محمد يوسف نجم . والرقيات إما صفة لابن قيس فينون قيس وإما مضافة . راجع فى ذلك الخزانة .

سبب نعته بالرُّقَيَّات ، وأصوب الآراء أنه كان يشبِّب بغير فتاة تسمى رقية ، فنُعت بالرقيات إشارة إلى ذلك . وهو قرشي من بني عامر بن لؤي ، وُلد بمكة في العقد الثالث للهجرة لقيس ابن شُرَيْح بن مالك بن ربيعة (النويعم) بن أُهَيْب بن ضِباب بن حُجَيْر بن عَبْد بن مَعيص بن عامر بن لؤي. وأقدم أخباره تشير إلى ملازمته لبعض المغنين وتصفحه لبعض النساء في الحج ، ولم تكد تقع عينه على رقية بنت عبد الواحد بن أبي سعد أحد أفراد عشيرته الذين هاجروا مع طائفة منها إلى الجزيرة سنة سبع وثلاثين، حتى شُغف بها ، وسرعان ما أخذ ينظم فيها أشعاره .

ويظهر أنه تحول عن مكة إلى المدينة وأقام بها طويلا ، ولعل الذي دفعه إلى ذلك تعلقه بالمغنين والمغنيات . ويسوق صاحب الأغاني أخباراً له مع سائب خاثر وبُدَيح وفِنْد ، وهم من مغني المدينة المشهورين ، ونراه يذكر في بعض شعره داراً له بها [1] ، ويبدو أنه لم ينزلها وحده ، بل نزلها مع أخيه عبد الله ونفر من عشيرته . وفي اختلاطه بالمغنين ما يدل على أنه كان يحيا حياة لاهية في المدينة ، ونراه يشكو من مروان بن الحكم الذي كان يُعقِّب معاوية بينه وبين سعيد بن العاص في حكمها ، إذ كان كل منهما يليها فترة وكانت في مروان شدة وغلظة فكان إذا وَلِيَ يأخذ المغنين ودورهم بالضبط الشديد، ومن ثَمَّ تعرَّض له ابن قيس يصف شدته وقسوته[2] ، وهو في أثناء ذلك ينظم مقطوعاته في الغزل ، ويترنَّم بها المغنون والمغنيات ، ويستحسنها الناس استحساناً شديداً . ونراه يرحل إلى الجزيرة في أثناء حكم يزيد بن معاوية ، ويظهر أنه أراد الابتعاد عن المدينة في تلك الفترة التي ثارت فيها على يزيد . وهناك جاءته الأنباء بموقعة الحرَّة وأن طائفة من أهل بيته قُتلوا فيها من بينهم أسامة وسعد ابنا أخيه عبد الله، فهزته تلك الأنباء هزًّا عنيفاً، فإذا هو يبكي من ماتوا من أهله بكاء حارًّا ، يقطر بالثورة على يزيد وبني أمية ، يقول :

إن الحــوادث بالمدينة قد ... أَوْجَعْنَني وقَــرَعْنَ مَرْوَتِيَــهْ[3]

---

(١) الديوان (طبعة بيروت) ص ٢٤ .

(٢) الديوان ص ١٧٧ والأغاني ٥/٧٢ وما بعدها.

(٣) المروة : حجر أبيض تقدح منه النار . وهو مثل يضرب لمن نزل به شر .

يُنْعَى بنو عَبْد وإخوتهم حـــلَّ الهلاك على أقاربيَه (١)
ونُعِى أسامةُ لى وإخوتُه فظللتْ مُسْتَكًّا مَسامعيـــه (٢)
تبكى لهم أسماءُ مُعْــولةً وتقـــول ليلى : وارَزِيَّتِيَـــهْ
واللهِ أبرحُ فى مقـــدِّمةٍ أَهْدِى الجيوشَ ، علىَّ شِكَّتِيَهْ (٣)
حتى أُفجِّعهم بإخـــوتهم وأسوقَ نِسْوتهم بِنسْوَتِيَهْ

ولم يلبث يزيد أن توفى ، وتحولت الجزيرة إلى ميادين حروب بين قيس وتغلب على نحو ما مرَّبنا فى غير هذا الموضع ، واصطدمت عشيرته بعمير بن الحُباب بطل قيس فى بعض حروبه ، مما جعله يؤثر التحول عن الجزيرة إلى فلسطين ، ولم يلبث أن تركها إلى العراق ، حيث مصعب بن الزبير . وكان طبيعيًّا أن يجذبه إليه ، فقد رأيناه حنقاً على بنى أمية منذ موقعة الحرَّة ، يريد أن يقود الجيوش ضدهم ، فيثأر لابنى أخيه ، ويسبى نساءهم . وجعله ذلك يستشعر عقيدة الزبيريين ، فالخلافة ينبغى أن تكون فى قريش روحاً وواقعاً عمليًّا ، بحيث تكون حاضرتها فى الحجاز ، وبحيث تعتمد على القرشيين لا على كَلْبٍ وأخواتها من قبائل الشام اليمنية التى أوقعت بأهل المدينة وقعة الحرة المشئومة. وهو يصدر فى ذلك عن قرشيته من جهة وعن الكلوم التى أصابت فؤاده من أهل الشام من جهة أخرى ، ومن ثَمَّ كان اعتناقه للعقيدة الزبيرية اعتناقاً مخلصاً ، وهو اعتناق يشوبه الحقد على بنى أمية والرغبة الشديدة فى أن ينقضَّ حكمهم فى الشام انقضاضاً ، ولعل خير ما يصور ذلك قصيدته الهمزية التى يفتتحها بقوله :

أقفرتْ بعد عَبْد شَمْسٍ كَداءُ فكُدَىٌّ فالرُّكْنُ فالبَطْحاءُ (٤)

ومضى يطيل فى ذكر الأماكن التى هجرها الأمويون إلى دمشق وربوع

(١) بنو عبد : عشيرته نسبها إلى جده السابع .
(٢) استكت المسامع : صمت وضاقت ، هو مثل يضرب للنبأ الشديد يمرك سامعه .
(٣) مقدمة : يريد مقدمة الجيش . الشكة : السلاح التام .
(٤) كداء وكدى : جبلان بمكة . والركن . ركن البيت الحرام . والبطحاء : حيث كان ينزل أشراف مكة حول البيت فى الجاهلية .

الشام منوِّهاً برجالهم وحسانهم من النساء ، وكأنه يأسى لهذا المصير الذى انتهت إليه قريش ، فقد تفرقت بُلْداناً وشِيَعاً ، حتى طمع فيها الطامعون ، ويصرِّح بذلك فيقول :

حَبَّذا العيشُ حين قومى جميــعٌ لم تفرِّق أُمورَها الأهــواءُ
قبل أن تطمع القبائل فى مُلْـ ـكِ قريشٍ وتَشْمَتَ الأَعداءُ

ويمضى فيرد على الخوارج وأشباههم ممن كانوا يرون أن تُنْزَعَ الخلافة من قريش وتُرَدَّ إلى العرب ، بل إلى المسلمين جميعاً ، يقول :

أيهــا المُشْتَهِى فناءَ قريشٍ بِيَدِ الله عُمْرُها والفنــاءُ[1]
إن تودِّعْ من البلاد قريشٌ لا يكنْ بعدهم لحىٍّ بقــاءُ

فقريش هى عمود الخلافة ، ولو أنها زالت عنها لسقط ركنها سقوطاً لا يرتفع بعده . ولا يلبث أن يتوجَّه بخطابه إلى عبد الملك هاجياً :

قد عَمِرنا فَمُتْ بدائك غيظاً لا تميتنَّ غيرَك الأَدْواءُ[2]

ويأخذ فى الفخر بقريش وفضلها على الإسلام والخلافة ، فيذكر الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفاءه الراشدين وحمزة عم الرسول وجعفراً الطيار والزبير بن العوَّام حوارىَّ النبىِّ وأبا عبد الله ومصعباً . ويشير إلى انتصار مصعب على المختار الثقفى ، ويعرض لما كان يزعم من أنه يوحَى إليه ، ويمدح مصعباً ، فيقول :

إنما مصعب شهابٌ من اللـ ـهِ تجلَّتْ عن وجهه الظَّلْماءُ
مُلْكُهُ ملكُ قوَّةٍ ليس فيه جبروتٌ ولا بهِ كِبْرياءُ

ويعود إلى الافتخار بقريش ورجالاتها فى الجاهلية والإسلام ، ويفتخر ببيتها الحرام الذى يحجُّ إليه الناس من كل فجٍّ عميق ، ويأسى لحرْق جيوش الشام هذا البيت حين حصارها لابن الزبير بعد موقعة الحرَّة ، ويُشيد ببناء ابن الزبير له بعد هذا الحصار ، ولا يلبث أن يدعو دعوة عنيفة لحرب عبد الملك

---

(١) عمرها : يريد بقاءها .
(٢) عمرنا : عشنا زمناً طويلا ، يشير إلى خلافة ابن الزبير وأنها استقرت له أعواماً .

وبنى أمية الذين استباحوا المدينة والبيت الحرام، وقتلوا الحسين فى كربلاء يقول :

كيف نَوْمى على الفِراش ولمَّا ... تَشْمَلِ الشَّامَ غارةٌ شَعْواءُ
تُذْهل الشَّيْخَ عن بَنِيه وتُبْــدِى ... عن بُراها العقيلةُ العَذْراءُ[1]
أنا عنكم بنى أميــة مُزْوَ ... رٌّ وأنتم فى نفسىَ الأعداءُ
إنَّ قَتْلَى بالطَّفِّ قد أوجعتْنى ... كان منكم لئن قُتِلْتُم شفاءُ[2]

وهذه هى الأنغام السياسية التى كان يوقِّعها على قيثارته الشجية ، وكان يضيف إليها مديحاً لعبد الله بن الزبير وبيان أنه أحق قرشى بالخلافة . وكان لا يزال يذكر وقعة الحرة مضيفاً إليها وقعة مَرْج راهط التى هُزِم فيها أنصار ابن الزبير من القبائل القيسية متوعداً عبد الملك بالغارات المُبيرة، ومُشيداً بمصعب وشجاعته وكرمه وتقواه . وكان قد رأى عبد الرحمن بن حسان بن ثابت حين لجَّ الهجاء بينه وبين يزيد بن معاوية يتخذ الغزل الفاضح برملة أخته وسيلة إلى الهجاء المقذع ، فحاكاه فى هذا الاتجاه بغزله بعاتكة زوجة عبد الملك وأم البنين زوجة ابنه الوليد . وفى الوقت نفسه كان يشبب بزوجتَى مصعب : عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين تشبيباً كله وقار ، وكأنه أزهار ثناء ، يريد أن يرضى بها مصعباً . ونحن لانقرن الصورتين من الغزل بعضهما إلى بعض حتى نرى خبثه ومكره ، وكيف استطاع أن يتخذ من الغزل أداة لشعره الزبيرى السياسى ومن قوله فى عائشة ، وقد بعث به مصعب إليها وهى غاضبة عليه ليترضَّاها[3] :

جنِّيَّةٌ برزتْ لتقتلنى ... مطليَّــةُ الأصداغ بالمِسْكِ
عَجبًا لمثلِك لا يكون له ... خَرْجُ العِراقِ ومِنْبَرُ المُلْك[4]
تَرْمى لتقتلنا بأسهمها ... ونزنُّها بالحلم والنُّسْكِ[5]

(١) البرى : الخلاخيل . وقد كنى بذلك عما يصيبهن من فزع شديد .
(٢) الطف : من ضواحى الكوفة حيث كربلاء التى قتل فيها الحسين .
(٣) انظر الأغانى (طبع دار الكتب) ١١ / ١٧٦ وقارن بالديوان ص١٤١ وقد وصل القطعة بأبيات فى أم البنين لاشك فى أنها ملأت صدر عبد الملك موجدة .
(٤) يريد بمنبر الملك الخلافة كأنه يتمناها لمصعب .
(٥) نزنها : ننسبها إلى .

وواضح أنه يحوطها بالنسك والطهارة والعفاف ، واقرنْ هذه الصورة إلى غزله بعاتكة وأم البنين الذى كان يسوقه فى مقدمة مدائحه لمصعب ، فإنك ستراه يعرضهما فى صورة تؤذيهما كقوله فى عاتكة :

بَدتْ لىَ فى أتْرابها فقَتَلْنَنى كذلك يقتلْن الرجال كذلكا
وقالتْ لو أنَّا نستطيع لزاركم طبيبان منا عالمانِ بدائكا[1]

ويتخيل أم البنين جاءته فى الُحلم ، فنال منها كل ما أراد ، وكأنها امرأة مبتذلة ، لا يمسكها طهر ولا عفاف ، فهى تمعن معه فى اللهو إلى طلوع الفجر ، يقول :

أتتْنى فى المنام فقُلْ تُ هذا حين أعْقَبُها[2]
فلما أنْ فَرِحْتُ بها ومال علىَّ أعْذَبُها[3]
شربتُ بريقها حتى نَهِلْتُ وبِتُّ أُشْرِبها[4]
وبِتُّ ضجيعها جَذْلا نَ تعجبنى وأُعجبها[5]
وأيقظنا منادٍ فى صلاة الصبح يرْقُبها[6]

وظل على هذا النحو يصول و يجول بشعره ضد عبد الملك وبنى أمية ونسائهم ، معلناً أن صلاح الأمة لا يتم إلا باجتماعها على ابن الزبير الذى يمثِّل الحكم القرشى الصحيح . وما نصل إلى سنة ٧١ للهجرة حتى يقدم عبد الملك بجيش ضخم إلى العراق لحرب مصعب ، فيلقاه فى دَيْر الجاثليق ، وقد انفضَّ عنه أكثر أنصاره ، ولم تبق معه منهم سوى بقية قليلة بينها ابن قيس . ويُقْتَل مصعب ويفرُّ ابن قيس إلى الكوفة متفجِّعاً على صاحبه آسياً لانفضاض العراقيين عنه ، ويطلبه عبد الملك ، فيستتر منه عند امرأة أنصارية تسمى كثيرة نحو عام ، ونظن ظنًّا

(١) طبيبان : يريد رسولين ، ويريد بالداء الحب الذى سرى فى نفس عاتكة له .
(٢) أعقبها : صارت عقباها لى أى صارت إلى .
(٣) أعذبها : فمها .
(٤) نهلت : رويت . أشربها : أسقيها .
(٥) جذلان : فرح .
(٦) يرقبها : أى يرقب الصلاة .

أنها زوجة[١] على بن عبد الله بن العباس ، وكان ممن يجيرون على عبد الملك ، ولكن يظهر أنه لم يستطع أن يطلب العفو منه على ابن قيس الرقيات لأن ذنبه كان عظيماً . ومن ثَمَّ رأيناه يخرج من مخبئه ، ميمّماً وجهه شطر عبد الله بن جعفر فى المدينة ، ويقال إنه راسل عبد العزيز بن مروان كى يشفع له عند أخيه ، ولبَّاه عبد العزيز ، فأرسل إلى ابنته أم البنين ، وكان عبد الملك لا يردُّ لها طلباً ، أن تشفع فيه ، وقُبِلت شفاعتها ، وقيل بل راسلها ابن جعفر وفى رواية أن ابن جعفر هو الذى شَفَع له عند عبد الملك ، ولم يلبث أن مَثَل بين يديه ينشده بائيته التى يقول فيها :

ما نقَموا من بنى أمية إ ... لاَّ أنهم يَحْلُمون إن غضبوا
وأنهم مَعْدِن الملوك فلا ... تصلحُ إلا عليهمُ العرَبُ
إن الفَنيقَ الذى أبوه أبوالْ ... عاصى عليه الوقارُ والحجُبُ[٢]
خليفةُ الله فوق منبرِهِ ... جَفَّتْ بذاك الأقلامُ والكتب
يَعْتدل التاج فوق مفرقِهِ ... على جَبينٍ كأنه الذَّهَبُ

ويظهر أن عبد الملك لم يَطِبْ نفساً له ، ومن ثم نرى ابن قيس يولِّى وجهه شطر العراق فيمدح أخاه بشرا ، ويُعْطيه الجزيل . ويعود من لدنه إلى الحجاز فيعيش فى ظل ابن جعفر يُغْدق عليه من بِرِّه ونواله ، ويجذبه جود عبد العزيز بن مروان بمصر ، فيرحل إليه ، ويمكث عنده طويلا ، حتى إذا فكر عبد الملك فى صَرْف ولاية العهد عنه إلى ابنه الوليد رأيناه يثور معه على أخيه ، إذ يقول فى بعض مدائحه له ، مبشراً له بالخلافة وأنها ستصير إليه وإلى بنيه :

لَتهْنِهِ مصرُ والعراق وما ... بالشام من بَزِّه ومن ذهبه[٣]
يَخْلُفكَ البيضُ من بنيك كما ... يَخْلُف عودُ النُّضار فى شُعَبه[٤]
نحن على بَيْعة الرسول وما ... أعطىَ من عُجْمه ومن عَربه

(١) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان (طبعة أوربا) ص ٤١٢ .

(٢) الفنيق أصله الفحل من الإبل الكريم على أصحابه .

(٣) البز : الثياب والمتاع .

(٤) النضار : يريد الشجر النضر ، ويخلف الثانية : ينبت عوداً بعد عود .

وبلغت القصيدة عبد الملك فتوعّده ، وعرف ذلك ابن قيس ، فلم يقرّ له قرار وضاقت الدنيا فى عينيــه فنظم قصيدة بديعة يذمّ فيها مــن يغتابونه عند عبد الملك رياء له ونفاقاً افتتحها بقوله :

بَشَّر الظَّبْىُ والغُرابُ بسُعْدى مرحبــًا بالذى يقول الغرابُ

وهو فيها يصور ما يلزمه من نَحْس رمز له بالغراب . ويظهر أنه كان يفد على عبد الملك من حين إلى حين فنى ديوانه مدائح له مختلفة ، والطريف أنه يستهلّ بعضها بغزله بأم البنين لا على شاكلة غزله القديم الذى كان يريد به أن يؤذى عبد الملك ، ولكن على شاكلة غزله بعائشة بنت طلحة ، فهو يصف جمالها ووقارها متلطفاً . وليس فى ديوانه مدائح فى الوليد مما يدل على أنه إن كان لحق عصره فإنه لم يعش فيه طويلا . وفى ديوانه قصائد مختلفة مدح بها عبد الله بن جعفر ، وهو يشيد به وبجوده إشادة رائعة على شاكلة قوله :

أتيناك نُثْنى بالذى أنت أهله عليك كما يُثْنى على الروض جارُها

إذا مُتَّ لم يُوصَلْ صديقٌ ولم تَقُمْ طريقٌ من المعروف أنت مَنارُها

وممن مدحهم ونوّه بهم طويلا طلحة الطلحات الخزاعى والى سجستان ، وهو يثنى على كرمه وشجاعته ، وفيــه يقول حين توفى بيتــه المشهور من مرثيــة فيه بديعة :

نضَّر الله أعْظُماً دفنوها بسِجِسْتانَ طلحةَ الطلحاتِ

وليس له وراء هجائه السياسى سوى قطعة هجا بها عبد العزيز بن عبد الله ابن خالد حين هُزم فى حربه للأزارقة ، وهو لا يقسو فيها قسوة الهجّائين فى عصره .

وحتى الآن لم نتحدث عن غزله ، وهو فى الطليعة من شعراء الغزل المكيين ، ولو أنه لم يَشْغل نفسه بالمديح والدعاية للزبيريين وَخَلَصَ للغزل على شاكلة عمر بن أبى ربيعة لما قصَّر عنه فى هذا الفن ، وقد رأيناه فى مطلع حياته يلزم

المغنين والمغنيات ، وكان لذلك أثر واسع فى موسيقى شعره ، إذ تمتاز بالنقاء والصفاء والعذوبة حتى فى مدائحه ومراثيه . وليس ذلك فحسب ، فإنه من أكثر الحجازيين عناية بالأوزان المجزوءة والأخرى القصيرة ، وهو من هذه الناحية يُطبِّع شعره بطوابع الغناء التى عاصرته ، إذ نجد عنده حلاوة النغم وخفة الأوزان بحيث تحمل كل ما يريد المغنون والمغنيات من أنغام وترنيمات على مثال قوله :

رُقَىٌّ بعيشِكم لا تَهْجُرينا وَمنِّينا المُنَى ثم امطُلينا
عِدينا فى غَدٍ ما شئتِ إنَّا نُحِبُّ ـ وإن مَطلتِ ـ الواعدينا
فإما تُنْجِزِى عِدَتى وإما نعيش بما نؤمل منك حِينا

وقوله :

رُقَيَّةُ تَيَّمَتْ قلبى فواكبدى من الحبِّ
وقالوا اداوِه طبٌّ ألا بل حبُّها طِبى

وقوله :

حبٌّ ذاك الدَّلُّ والغُنُجُ والتى فى عينها دَعَجُ(١)
والتى إن حدثتْ كذبتْ والتى فى وعدها خَلَجُ(٢)
خَبِّرونى هل على رجل عاشق فى قُبْلةٍ حَرَج

ودائماً يجرى غزله على هذه الصورة من عذوبة الألفاظ ورشاقة الألحان . وهو لا يتغزل بمن سُمِّين باسم رقية فحسب ، إذ نراه يتغزل بكثيرات ، غزلا يملؤه بالصبابة واللوعة . وخاصة حين يكون غزله صادقاً لا يريد به سياسة ولا ما يشبه السياسة .

---

(١) الدل : الدلال . الغنج : حسن الدل والمزح . الدعج : شدة سواد العين.

(٢) الخلج : الاضطراب وعدم الثبات على حال .

٢

شعراء الخوارج

راينا فى غير هذا الموضع كيف أن الخوارج بفرقهم المختلفة من أزارقة وصُفْرية ونَجدات وإباضية ظلوا يحاربون الجيوش الأموية طوال العصر، وكلما قضوا على جماعة منهم هبَّت جماعة أخرى تطلب الاستشهاد فى سبيل عقيدتها فى ولاية الأمة وأنه ينبغى أن لا تكون قاصرة على قريش ، بل يتولاها خير المسلمين ورعاً وتقوى ولو كان عبداً حبشيًّا . وقد أخذوا يتصورون الجماعة الإسلامية ضالة عن الطريق الدينى الصحيح ، ومضوا يرون جهادها فريضة دينية .

وعلى هذا النحو عاش الخوارج فى هذا العصر للحرب ، مستحلِّين دماء إخوانهم المسلمين ، وهى معيشة طبعت شعرهم بطوابع ميزته من شعر الفرق السياسية الأخرى ، فهو شعر ثوّار ترافقهم السيوف فى غدوهم ورواحهم وفى استقرارهم وترحالهم . وقد استعذبوا الموت غير آبهين بالحياة الدنيا ، ومن ثَمَّ كان شعرهم فى جملته حماسيًّا ، وهى حماسة لا تحركها العصبيات القديمة ، عصبيات القبيلة التى كانت تقوم على الأخذ بالثأر ، وإنما تحركها عصبية حديثة لعقيدتهم السياسية التى تعمقتهم مؤمنين بأنها تطابق تعاليم الدين الحنيف وأن عليهم أن يجاهدوا فى سبيلها مخلصين ، حتى يفوزوا برضا الله وثوابه .

وكان إخلاصهم لدينهم عظيماً ، غير أنهم ضلوا عن المحجة ، إذ مضوا يشرعون سيوفهم ويسلُّونها على المسلمين ، كأن الإسلام لا يحيا إلا فى معسكراتهم ، وبذلك مزّقوا الجماعة الإسلامية ، إذ ظلوا ثائرين ، وظلت عقيدتهم كأنها مبدأ ثورى يدعوهم دائماً إلى الحرب والقتال . وكانوا أتقياء ، ولكنهم من غير شك كانوا غالين فى نضالهم ، فقد رفضوا الدنيا واستحلوا دماء إخوانهم المسلمين ، وأخذوا يجاهدونهم جهاداً عنيفاً موطِّنين أنفسهم على طلب الشهادة فى ميدان هذا الجهاد ، حتى كان بينهم من إذا طُعن فأنفذه الرمح جعل يسعى فيه إلى

قاتله ، وهو يقول : (وعجلتُ إليك ربِّ لترضى) [١] وكأنما وهبوا أنفسهم للموت . ولهم فى ذلك أخبار وأشعار كثيرة يستصغرون فيها الحياة ويهوِّنون من شأنها . من ذلك أن رجلا منهم قدَّمه الحجاج إلى القتل ، فأنشد [٢] :

ما رغبةُ النفس فى الحيــاة وإنْ عاشت قليلا فالموت لاحقُهــا
وأيقنتْ أنهــا تعود كما كان بَراها بالأَمس خالقها [٣]
يوشك من فَرَّ من منيَّتهِ فى بعض غِــرَّاته يوافقها
من لم يمتْ عَبْطَةً يمتْ هــرما والموت كأْسٌ والمرءُ ذائقها [٤]

وعلى هذه الشاكلة كان الموت أمنية كل خارجى ، الموت قَعْصًا بالرماح ، حتى يفوز بالاستشهاد وبما عند الله من الثواب ، يقول يزيد بن حبْناء وكان من الأزارقة :

أبيتُ وسِرْبالى دِلاصٌ حصينة ومِغْفَرُها والسيف فوق الحيازم [٥]
أريد ثواب الله يوماً بطَعْنَــةٍ غموسٍ كشِدْقِ العنبرىِّ بن سالم [٦]

فهم يطلبون الموت ويستعذبونه ابتغاء ثواب الله والفوز برضوانه وجناته ، وإنهم يستعجلونه تعجلا ، يقول قطرى بن الفجاءة [٧] :

إلى كم تعاريني السيوف ولا أرى معــاراتها تدعو إلىَّ حِماميا [٨]
أقارعُ عن دار الخلود ولا أرى بقاءً على حالٍ لمن ليس باقيا
ولو قَرَّب الموتَ القِراعُ لقدأَنَى لموتَى أن يدنو لطول قراعيا [٩]

---

(١) المبرد ص ٥٦٤ .
(٢) المبرد ص ٤٣ .
(٣) براها : خلقها .
(٤) عبطة : شابا .
(٥) الدلاص : الدرع الملساء اللينة . المغفر : زرد يلبس تحت القلنسوة أو حلق يتقنع به المتسلح .
(٦) غموس : واسعة . العنبرى بن سالم : رجل من الأزارقة كان يقال له الأشدق لسعة فمه .
(٧) انظر فى ترجمة قطرى وأشعاره وفيات الأعيان لابن خلكان والملل والنحل ص ٩٠ وأمالى المرتضى ١ / ٦٣٧ وفهارس الكامل للمبرد والطبرى والبيان والتبيين .
(٨) تعاريني : تطلبنى عارية . الحمام : الموت .
(٩) القراع : مضاربة السيوف فى الحرب . أنى : آن .

فهو يريد أن يتخلص من الحياة الزائلة ويترح عنها إلى الحياة الباقية التى لا تزول ، وهو لذلك يستبطئ الموت ، وكأنما ملَّ دنياه . وتصوِّر لنا هذا الملل إحدى نسائهم المقاتلات ، وهى أم حكيم ، إذ تقول (١) :

أحمل رأساً قد سئمتُ حَمْلَهْ   وقد مَلِلْتُ دَهْنه وغَسْله
ألا فَتًى يحمل عنى ثِقْلَهْ

وكأنما أصبح الموت شعارهم ، بل قل الاستشهاد ، حتى يلحقوا بالملأ الأعلى وبمن سبقوهم إلى جنات ربهم ونعيمه ، يقول أبو بلال مرداس فى خروجه (٢) :

أبعد ابن وهب ذى النَّزاهة والتُّقَى   ومن خاض فى تلك الحروب المهالكا
أحبُّ بقاءً أو أرجِّى سلامةً   وقد قتلوا زيد بن حِصْن ومالكا
فياربِّ سَلِّمْ نيتى وبصيرتى   وهَبْ لى التُّقى حتى ألاقى أولئكا

فهو يخرج طلباً للاستشهاد حتى يلحق بعبد الله بن وهب الراسبى والسابقين من رفاقه ، وهو يدعو ربه صادقاً أن ينيله طَلِبته ، فيقتل فى سبيل عقيدته ، وكأن الحياة حجاب صفيق يريد أن يجتازه إلى ربه وإلى رفاقه .

وقد جعلهم ذلك لا يبكون قتلاهم ولا يرثونهم بالصورة التى نجدها عند شعراء الفرق الأخرى ، إذ كان قتلهم يحقق فى رأيهم السعادة المنشودة ، وهى سعادة يطلبها كل خارجى لنفسه ، لذلك مضوا يمجدون قتلاهم على شاكلة قول أم عمران الرَّاسبى حين قُتل ابنها فى يوم دولاب (٣) :

اللهُ أيَّد عِمْرانًا وطهَّره   وكان عمران يدعو الله فى السَّحَرِ
يدعوه سِرًّا وإعلاناً ليرزقه   شهادةً بيدى مِلْحادَةٍ غُدَرِ (٤)

ودائماً نجد هذه الصورة من الرثاء ، إذ يصوِّرون استشهاد قتلاهم زُلْفَى إلى الله راسمين فيهم مثلا أعلى للتقوى والصلاح والانكباب على عبادة الله خوفاً من

(١) أغانى (دار الكتب) ٦/١٥٠ وتريد أم حكيم بدهن شعرها ما تدهنه به من الطيب .
(٢) المبرد ص ٥٨٦ .
(٣) أغانى ٦/١٤٥ .
(٤) ملحادة : من الإلحاد والتاء للمبالغة . غدر : كثير الغدر .

عذاب ربهم ، يقول عمرو بن الحصين فى رثاء عبد الله بن يحيى وقائده أبى حمزة ومن قُتل من أصحابهما [١] :

يارِبِّ أسْلكنى سبيلهـمُ ذا العَرْش واشْدُدْ بالتُّقَى أزْرى
فى فتيةٍ صبَروا نفوسهمُ للمشرفيـَّة والقَنَـا السُّمْرِ [٢]
متـأَهِّبين لكل صالحةٍ ناهين من لاقوا عن النُّكر

وما يزال يصور خشوعهم وخشيتهم من النار وانكبابهم على العبادة انكباباً لا ينامون فيه إلا اختلاساً وآونة بعد آونة إلى أن يقول :

كم من أخٍ لك قد فُجِعْتَ بهِ قـوَّامِ ليلته إلى الفَجْرِ
متـأوِّه يتلو قـوارعَ من آى القُران مفزَّع الصَّدْر

ويمضى فيصور انصرافهم عن الدنيا ولذاتها واحتسابهم أنفسهم لربهم حتى إذا أُشْرعت الرماح وسُلّت السيوف ورَعدت الحرب بصواعق الموت تهافتوا على الموت شوقاً إلى الجنة . ولا ريب فى أن هذه صورة جديدة فى الرثاء ، تخالف ما نألفه عند غيرهم من الشعراء ، فهم لا يبكون فيمن يرثونهم خلال الكرم والمروءة ، وإنما يبكون فيهم المثل الأعلى للخارجى من التقوى ورفض الحياة الدنيا وزهرتها ومتاعها ، مصورين إقبالهم على الموت الذى يتمنونه لأنفسهم ، الموت الذى يفتح لهم أبواب الفراديس والجنان ، فهو موت موصول بآمالهم فى حياة الخلد والرضوان . وهو رثاء حماسى ، فيه دعوة قوية لمنازلة خصومهم رثاء يفيض بالحنين إلى القتال والمضى قُدُماً حتى تفيض أرواحهم على أعناق أفراسهم ، وتتخضب بالدماء صدورها وصدورهم .

وعلى هذه الشاكلة دائماً رثاؤهم وحماستهم ، فهم يتعطشون للموت ، حتى القَعَدة منهم ، فقد كانت فرقهم سوى الأزارقة تُجيز القعود عن الحرب. ولكن نحسُّ دائماً كأن هذا القعود هدنة مسالمة إلى حين ، وبذلك نفسر كثْرة ثورات الصفرية بالموصل ، مع أنهم كانوا أكثر الخوارج تحمساً للقعود ، فهم يقعدون

(١) أغانى (ساسى) ٢٠/١١١ وما بعدها . (٢) المشرفية : السيوف .

انتظاراً للحوادث وتهيؤاً للقتال ، إلا نفراً منهم ، أبوا حمل السلاح وتعلقوا بالحياة ، وهو تعلق يُرَدُّ فى أكثر الأمر إلى إشفاقهم على بناتهم وأبنائهم أن يَقلب لهم الدهر المِجَنَّ من بعدهم ، وكان لا يزال ثُوَّارهم يحمسونهم ، ويدعونهم إلى الخروج عن دار المسلمين الباغين فى رأيهم ، ويصور ذلك ما رواه المبرد [(١)] من أن أبا خالد القنانى استحبَّ القعود ، فلامه قَطَرِىّ بن الفُجاءة بمثل قوله :

أبا خالدٍ يا انْفِرْ فلستَ بخالدٍ ... وما جعل الرَّحْمنُ عُذْرًا لقاعدِ [(٢)]
أتزعم أنَّ الخارجىَّ على الهُدَى ... وأنت مقيمٌ بين لِصٍّ وجاحِدِ

فكتب إليه أبو خالد :

لقد زاد الحياة إلىَّ حُبًّا ... بناتى إنهن من الضِّعافِ
أحاذر أن يَرَيْنَ الفقر بعدى ... وأن يَشْرَبْنَ رَنْقاً بعد صافِ [(٣)]

ولا يتحول مثل هذا الاختلاف فى الرأى بينهم إلى هجاء حاد ، بل يقف عند هذا اللون من اللوم والاعتذار . وكانوا يحسون حقًّا بتعاطف وتراحم قويين بينهم ، فهم أصحاب مقالة واحدة ، وجمهورهم يدافع عنها بأرواحه حتى الدَّماء الأخير . وعلى نحو ما يقطر شعرهم تعاطفاً وحماسة يقطر زهداً فى الدنيا ورفضاً لها طلباً لما عند الله من حسن المثوبة . ومن المحقق أنهم أوغلوا فى مقالتهم دون رفق ودون تفكير عميق فى المصلحة الحقيقية للأمة وأن من الخير لها أن تجتمع لا أن تتنابذ فرقاً وتتقطع شيَعاً ويسفك الأخ دم أخيه .

وملاحظة أخيرة فى أشعارهم ، هى أنهم يُبدئون ويعيدون فى معانيهم التى صورناها ، ولولا ما يلقانا فيها دائماً من صدق العاطفة وحرارة الشعور لأحسسنا فى أثناء قراءتها بغير قليل من الملل والسأم . ولعل هذا هو السبب فى أن شخصياتهم الشعرية قلما تمايزت أو تباينت ، وكأنما هى صور متعددة من نمط واحد ، صور متشابهة ، ومن ثَمَّ أشكلت نسبة كثير منها إلى أصحابها الحقيقيين على الرواة ، فتارة ينسبونها إلى هذا الخارجي أو ذاك . وارجع إلى يوم « دولاب »

---

(١) المبرد ص ٥٢٩ .

(٢) يا انفر يا للتنبيه أو فى تقدير حذف منادى مثل يا أخى .

(٣) الرنق : الكدر .

فى الأغانى فسترى فيه مقطوعة حماسية رائعة من مقطوعاتهم ، اختلف الرواة فى ناظمها ، أما المبرد فنسبها إلى قطرى بن الفجاءة ، ونسبها المدائنى إلى صالح بن عبد الله العَبْشَمِىّ . وقال خالد بن خِداش : بل قائلها عمر والقَنا ، وقال وهب بن جرير : بل هو حبيب بن سهم[1] . ونقف الآن عند شاعرين من شعرائهما هما عمران بن حِطّان والطِّرِمّاح .

عمران[2] بن حِطّان

بَصْرِىٌّ سَدُوسِىٌّ من شيبان ، نشأ على الفقه والورع ، وقد أدرك صدراً من الصحابة وروى عنهم ، وروى عنه أصحاب الحديث قبل أن يدخل فى مقالة الخوارج . ونلقاه فى عصر زياد خطيباً يروع من يستمعون إليه[3] . ولا يلبث قلبه أن يتعلق بابنة عم له تسمى جمرة ، كانت خارجية ، فتزوجها ، وأراد أن يردها عن مذهبها فأغوته وأدخلته فيه ، ويقال إنها كانت ذات جمال ، وكان قبيحاً دميماً ، ويُرْوَى أنها قالت له يوماً : أنا وأنت فى الجنة ، قال : ومن أين علمتِ ذلك ؟ قالت : لأنك أُعطيتَ مثلى فشكرت ، وابتليت بمثلك فصبرت ، والشاكر والصابر فى الجنة .

وقد تعمقته مقالة الخوارج حتى أصبحتْ جزءاً من نفسه ، فهو يعيش لها ويعيش بها ، ويُشيد بأصحابها حتى بأشقاهم عبد الرحمن بن ملجم قاتل على بن أبى طالب ، وفى طعنته له يقول[4] :

يا ضربةً من تَقِىٍّ ما أراد بها ... إلا ليبلغ من ذى العَرْش رضوانا
إنى لأذكرهُ حيناً فأحسبه ... أوفى البَرِيّة عند الله ميزانا

ونراه يتأثر تأثراً بليغاً حين قُتل أبو بلال مرداس سنة ٦١ للهجرة ، حتى ليفكر فى الخروج وامتشاق الحسام ، يقول :

---

(١) أغانى ٦/١٤٧ وما بعدها .

(٢) انظر فى ترجمة عمران الأغانى (ساسى) ١٦/١٤٦ وما بعدها والمبرد ص ٥٣٠ وما بعدها والإصابة ٥/١٨١ وخزانة الأدب ٢/٤٣٦ وما بعدها والاشتقاق ص ٣٥٣ وهامش أمالى المرتضى ص ٦٣٥ .

(٣) البيان والتبيين ١/١١٨ .

(٤) انظر فى نقض هذا الشعر المبرد ص ٥٣١ والخزانة ٢/٤٣٦ .

لقد زاد الحياةَ إلىَّ بُغْضاً وحُبًّا للخروج أبو بـلالِ
أُحاذر أن أموت على فراشى وأرجو الموت تحت ذُرَى العوالى[١]
ولو أنى علمت بأَنّ حَتْفى كحتف أَبى بلالٍ لم أُبال
فمن يكُ هَمُّهُ الدنيا فإنى لها والله ربِّ البيت قالى[٢]

فهو يخشى أن يموت على فراشه حتف أنفه ، ولا يموت ميتة الخوارج الشريفة قعصاً بالرماح ، ميتة أبى بلال ، وقد ظلت ذكراه عالقة بنفسه طويلا ، حتى ليقول :

أَنكرتُ بعدك من قد كنت أعرفه ما الناس بعدك يامرداس بالناسِ

وكأن الناس جميعاً ما توافيه . ولم يخرج عمران ، فقد كان يؤمن بالقعود ، ومن ثَمَّ اعتنق مذهب الصُّفْرية ودعا إلى القعود ، حتى عُدَّ رئيس قَعَدَتهم . ولم تقعد به بناته على نحو ما رأينا عند أبى خالد[٣] ، إنما قعد به — فى أغلب الظن — حبه لزوجته جمرة ، فقد كان يُشْغف بها شغفاً شديداً ، ويعلِّل أبو الفرج ذلك علة أخرى فيقول إنه إنما صار من القعدة ، لأن عمره طال وعجز عن الحرب وحضورها ، وكأنه يرى أنه اعتنق المذهب فى سن عالية . على أنه إن كان قعد فقد مضى فى شعره يصور كرهه للحياة وأنها عبء ثقيل كما مضى يحسِّن لغيره الخروج ويزيِّنه ، وكذلك كان قعدتهم فهم لا يشتركون فى الحروب ويُغْرون بها رفاقهم . ويظهر أنه تمادى فى ذلك لعهد الحجاج ، فطلبه ، ولم يلبث شبيب الصُّفْرى وزوجته غزالة أن هجما على الكوفة فى بعض أصحابهما ، فهلع الحجاج وتحصَّن فى قصره ، فكتب إليه عمران :

أَسدٌ علىَّ وفى الحروب نعامةٌ رَبْداءُ تنفر من صَفير الصافرِ[٤]
هلا برزتَ إلى غَزالة فى الضُّحَى بل كان قلبك فى جناحَىْ طائر[٥]

(١) العوالى : الرماح .
(٢) قالى : كاره .
(٣) نسبت أبيات أبى خالد إلى عمران فى ترجمته بالأغانى ، والأرجح أنها لأبى خالد كما جاء عند المبرد .
(٤) ربداء : من الربدة وهو لون إلى الغبرة .
(٥) هذا مثل ضربه عمران لتصوير فزع الحجاج ورعبه .

وغضب الحجاج واشتد فى طلبه بعد قضائه على شبيب وصاحبته سنة ٧٧ للهجرة ففرَّ منه على وجهه يتنقَّل فى القبائل منتسباً فى كل حى نسباً يقرب منه ، وما زال يتنقل شاعراً بمرارة الحياة وما يحتمل فى سبيل عقيدته من خطوب حتى انتهى إلى روح بن زنباع الجذامى بالشام . فانتسب له أزديا فأنزله منزلا آمناً نحو عام وبالغ فى إكرامه ، وكان روح سميرا لعبد الملك أثيراً عنده ، فذكر له صاحبه وحسن حديثه وروى له بعض أشعاره ، فرأى عبد الملك فيها ما شككه فى أن صاحبه هو عمران ، وذكر ذلك لروح وطلب منه أن يجيئه به ، ونقل روح إليه رغبة عبد الملك ، فقال له : ذلك ما كنت أريد ، وإنى تابعك إليه على الأثر ، ولم يلبث أن ارتحل مخلفًا لروح رقعة يقول فيها :

قد كنتُ جارك حَوْلا ما تروِّعنى فيه روائع من إنسٍ ومن جانِ[1]
حتى أردتَ بىَ العظمى فأدركنى ما أدرك الناسَ من خوف ابن مَرْوان

ومضى حتى نزل بزفر بن الحارث فى قرقيسيا ، فانتسب له أوزاعيًّا ، وتصادف أن رآه رجل عنده كان قد رآه من قبل عند روح ، فلما قال له زُفَـرُ هل تعرفه ؟ قال : نعم أزْدى رأيته عند روح ، حينئذ قال له زفر يا هذا أزْدِيًّا مرة وأوزاعيًّا أخرى ؟ إن كنت خائفاً آمناك وإن كنت فقيراً جبَرناك ، فلما أمسى هرب وخلَّف فى منزله رقعة كتب فيها مقطوعة بديعة يستهلها بقوله :

إن التى أصبحتْ يَعْيَى بها زُفَرٌ أعيتْ عياءً على رَوْح بن زِنْباعِ

وارتحل حتى أتى عمان ، وهناك أخذ يثير الناس للخروج والثورة على الحجاج ، فطلبه ، فارتحل حتى أتى قومًا من الأزد فى روزميسان بالقرب من الكوفة ، فأقام بينهم حتى توفى سنة ٨٤ .

ولعمران أشعار كثيرة ترويها كتب الأدب والتاريخ ، وهو فيها جميعاً يصدر عن إيمان عميق بمقالة الخوارج ، إيمان جعله يزدرى الحياة ويزهد فيها لولا جمرة ، ومن ثم نشأ فى نفسه صراع عنيف بين الرغبة فى الحياة الكريهة التى يحياها

(١) روائع هنا : من الروع وهو الخوف والفزع .

وما يحتمل فيها من أذى ومكروه وبين الرغبة فى الموت ، وعبر عن ذلك فى صور مختلفة ، كأن يصورّ تهالك الناس على الدنيا ، وهى ليست بدار قرار ، على شاكلة قوله :

أرانا لا نملُّ العيش فيها وأُولِعْنــا بحرصٍ وانتظارِ
ولا تَبْقَى ، ولا نَبْقَى عليها ولا فى الأَمر نـأْخذ بالخيارِ
كركبٍ نازلين على طريقٍ حثيثٍ رائحٍ منهم وسارى[1]

ويقف كثيراً عند هذا المعنى ، فالناس يتعلقون بالدنيا حتّى جياعهم وعُراتهم فأفٌ لهم من أشقياء لم يتبينوا الطريق السوىّ . ولا يُخْفى أنه يسير على كره منه فى نفس الركب ، وأن قلبه هو الآخر ينطوى منها على شىء من الحب والحرص ، وحرى به أن يرفضها رفضاً ، يقول :

أرى أشقياء النَّاس لا يسأَمونها على أنهم فيها عُرَاةٌ وجُوَّعُ
أراها وإن كانت تُحَبُّ فإنها سحابة صَيْفٍ عن قليلٍ تقشَّعُ[2]

وعلى هذا النحو كان لا يزال يردد أن الموت سيأتى على كل الأحياء وأن لا مفر منه لكائن ، فالكل فان حتّى الموت نفسه ، يقول :

لا يُعْجز الموتَ شىءٌ دون خالقِه والموتُ فانٍ إذا ما ناله الأَجَلُ
وكلُّ كَرْبٍ أمام الموت متَّضِعٌ للموت ، والموت فيما بعده جَلَلُ[3]

فالموت سيموت فى النهاية . وهو بذلك كله يعبر عن فكرة الموت التى تلقانا دائماً فى شعر الخوارج ، إنه موت ينقل إلى دار الخلود ، ولذلك ينتظره هائناً به مغتبطاً . وهذا هو شعر عمران دائماً فليس فيه سوى عقيدته . وكان لا يزدرى شيئاً ازدراءه المديح ، وقد سمع الفرزدق مرة ينشد بعض مدائحه ، فتعرض له يقول :

أيهـا المادح العبادَ لِيُعْطَى إن لله ما بأيدى العبادِ

(١) حثيث : سريع . وسارى : يسير ليلا . (٣) جلل : عظيم .
(٢) تقشع : تزول .

إنه لا يسأل ولا يمدح سوى ربه ، ولا يفكر إلا فى عقيدته ، فهو مثال دقيق للخارجى الذى تعمقته مقالته حتى الشغاف .

الطِّرِمَّاح [1]

شاعر طائى نشأ فى الشام ، وانتقل إلى الكوفة مع من صار إليها من جيوش الشام . فنزل فى بنى تَيْمِ اللات بن ثعلبة ، وكان فيهم شيخ من الخوارج له سمت وفيه وقار ، فكان الطرماح يجالسه ويسمع منه ، فرسَخ كلامه فى قلبه ، ودعاه الشيخ إلى مذهبه ، فقبله واعتقده أشد اعتقاد وأصحّه حتى مات عليه . واختلف الرواة فى الفرقة التى دخل فيها ، فقال أبو الفرج إنه دخل فى فرقة الأزارقة ، وقال الجاحظ : هو من الصُّفْرية ، وقول الجاحظ هو الصحيح ، لأنه كان من القعدة ولو كان من الأزارقة ما استحل القعود ، إذ كانوا يحرمونه ولا يجيزونه . ولم يُمْض قعوده فى مقاومة المسلمين والدعوة إلى الخروج ضدهم على نحو مـا صنع عمران بن حطان . فهو صُفْرىٌّ مسالم . ويظهر أنه كان يمضى فى السلم إلى أبعد حد ، فلم يكن يكفِّر المسلمين كمتطرفة الخوارج ، بل كان يعاشرهم ويوادُّهم ويصادقهم ، حتى لنراه يعقد صداقة شديدة بينه وبين الكميت ، يقول الجاحظ : «لم ير الناس أعجب حالا من الكُمَيْت والطِّرِمَّاح ، كان الكميت عدنانيًّا عصبيًّا ، وكان الطرماح خارجيًّا من الصُّفْرية ، وكان الكميت يتعصب لأهل الكوفة ، وكان الطرماح يتعصب لأهل الشام ، وبينهما مع ذلك من الخاصة والمخالطة ما لم يكن بين نفسين قط ، ثم لم يَجْرِ بينهما صَرْمٌ ولا جَفْوةٌ ولا إعراض ولاشىء مما تدعو هذه الخصال إليه» . وأكبر الظن أن الذى وثّق بينهما هذه الصلة احترافهما مهنة واحدة ، هى تعليم الناشئة ، فقد كانا معلمين ، يعلمان أولاد العامة ، وكانا خطيبين كما كانا شاعرين . ويُرْوَى عن الطرماح أنه ترك الكوفة حيناً إلى الرَّى بفارس حيث عُنى بتأديب الناشئة

(١) انظر فى ترجمة الطرماح أغانى (دار الكتب) ١٢ / ٣٥ والشعر والشعراء ٢ / ٥٦٦ والعينى ٢ / ٢٧٦ والاشتقاق ص ٣٩٢ والموشح للمرزبانى ص ٢٠٨ والبيان والتبيين ١ / ٤٦ ، ٢ / ٣٢٣ وتاريخ دمشق لابن عساكر ٧ / ٥٢ والخزانة ٣ / ٤١٨ وله ديوان نشره كرنكو فى لندن سنة ١٩٢٧ . والطرماح : الطويل القامة .

فيها ، ويَرْوى الجاحظ عن عبد الأعلى أنه قال : « رأيت الطرماح مؤدباً بالرّيّ فلم أر أحداً آخذ لعقول الرجال ولا أجذب لأسماعهم إلى حديثه منه ، ولقد رأيت الصبيان يخرجون من عنده ، وكأنهم قد جالسوا العلماء » .

ويظهر أنه لم يكن يكفيه ما تدرّه عليه هذه المهنة ، إذ نراه يحمل مديحه إلى أبواب الأمراء والولاة ، ففى أخباره أنه قدم مع الكميت على مخلد بن يزيد ابن المهلب ، وأراد أن يمدحه قاعداً ، فنحّاه مخلد ، ودُعى الكميت فأنشده قائماً فأمر له بخمسين ألف درهم ، فلما خرجا شاطره الكميت ما أخذه . وفى أخباره أيضاً أنه مدح خالد بن عبد الله القسرى الذى ولى العراق سنة ١٠٥ للهجرة ، فأعطاه كل ما بعث به إليه واليه على سجستان ، وهو من هذه الناحية يختلف عن عمران اختلافاً بعيداً ، إذ يطلب الدنيا والمال ملحّاً فى طلبه ، وأيضاً فإننا نراه يستشعر عصبية شديدة لقبيلته ، بل لكل أخواتها من القبائل القحطانية وخاصة الأزد قبيلة المهلب بن أبى صُفْرة ، ودفعه ذلك إلى أن يدخل فى معركة حادة مع الفرزدق شاعر تميم عدوة الأزد والقبائل القحطانية عامة . ومرّ بنا حديثنا عن هذه العداوة وكيف احتدمت فى البصرة وخراسان . ونعجب للطرماح حين تتعمقه هذه العداوة وما يُطْوَى فيها من عصبية وهو خارجى ، والخوارج لا يعتدون بالعصبيات القبلية ، إنما يعتدون بالعصبية المذهبية ، وكأنما كان مذهبه الخارجى يأتى على هامش حياته . ونعجب حين نقرأ هجاءه للفرزدق ولغيره من شعراء القبائل الذين اصطدم بهم إذ نراه يُقْذع فيه إقذاعاً شديداً ، ومن طريف هجائه قوله فى تميم :

لو حان وِرْدُ تميم ثم قيل لها ... حَوْضُ الرسول عليه الأَزْدُ لم تَرِدِ
أو أنزل الله وَحْياً أن يعذّبها ... إن لم تَعُدْ لقتال الأزد لم تَعُدِ
لا تأْمننَّ تميميًّا على جَسَدٍ ... قد مات ما لم تُزَايَل أَعْظُمُ الجسَدِ

ونراه يسوق بجانب هجائه مديحاً مفرطاً بنفسه ، لا يتحدث فيه عن بلائه فى الحروب على شاكلة قطرى إنما يتحدث فيه عن خلقه معتدًّا بشمائله اعتداداً مسرفاً ، يقول :

لقد زادنى حبًّا لنفسىَ أننى بَغيضٌ إلى كل امرئٍ غير طائلِ[١]
وأنى شقىٌّ باللئام ولا ترى شقيًّا بهم إلا كريم الشمائل

والطرماح بذلك كله يبتعد عن روح الخارجى الذى ازدرى الدنيا وكل ما فيها من منازعات قبلية ومفاخرات شخصية فهو يعيش معيشة الناس من حوله ، ويضطرب فيما يضطربون فيه من خصومات ومن طلب للدنيا ، ولعله من أجل ذلك أكثر التنقل فى العراق وفى فارس وخراسان . ومع ذلك فقد كان يستشعر عقيدته أحياناً ، حتى ليتمنى الخروج ، يقول :

وإنى لمقتادٌ جَوادى وقاذفٌ به وبنفسى العامَ إحدى المقاذفِ
لأَكسبَ مالا أو أَؤُولَ إلى غِنًى من الله يكفينى عِداتِ الخلائف[٢]
فيارب إن حانتْ وفاتى فلا تكن على شَرْجَعٍ يُعْلَى بخُضر المطارف[٣]
ولكن أَحِنْ يومى سعيداً بعُصْبةٍ يصابون فى فَجٍّ من الأَرض خائفِ
فوارسُ من شيبان أَلَّف بينهم تُقَى الله نَزَّالون عند التزاحف
إذا فارقوا دنياهمُ فارقوا الأَذى وصاروا إلى موعود ما فى المصاحفِ

فهو يسأل ربه أن يموت فى ميدان الحرب مستشهداً ، غير أنه يسوق فى تضاعيف أبياته ما يدل على أنه لم يكن خالص النية فى أمنيته ، إذ نراه فى البيت الثانى يفكر فى الدنيا والمال ، فهو يحارب إما ليقتل شهيداً وإما ليصبح غنيًّا مثرياً . ومن طريف وصفه للخوارج قوله :

لله درُّ الشُّراةِ إنهمُ إذا الكَرى مال بالطُّلا أَرِقوا[٤]
يرجِّعــون الحنين آونةً وإن علا ساعةً بهم شَهِقوا
خوفاً تبيتُ القلوب واجفةً تكاد عنها الصُّدورُ تَنْفَلِقُ

---

(١) غير طائل : خسيس .
(٢) عدات : جمع عدة ويريد بها الصلة . الخلائف : جمع خليفة .
(٣) الشرجع : النعش .
(٤) الطلى : الأعناق ، مفردها طلية .

كيف أُرجِّي الحياة بعدهمُ   وقد مضى مُؤْنِسِيَّ فانطلقوا
قومٌ شِحَاحٌ على اعتقادهمُ   بالفَوْز مما يُخاف قد وَثِقوا

وعلى قبَس من زهد الخوارج فى الدنيا ومتاعها الزائل وما جاء فى القرآن الكريم من ذم الشحيح الذى يجمع مالا ويدّخره دون أن ينفقه على المحتاجين والمساكين ، وما جاء فيه أيضًا من أن كل إنسان مسئول يوم القيامة عما قدمت يداه يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون ، يوم تشهد عليه جوارحه بما عمل ، فمن عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ، يقول :

كلُّ حَىٍّ مستكملٌ عِدَّة العُمْ   رِ ومودٍ إذا انقضى عَدَدُهْ(١)
عجبًا ما عجبتُ للجامع الما   ل يباهى به ويَرْتَفِدهْ(٢)
ويُضيع الذى يصيِّره الل   ه إليه فليس يعتقدهْ
يوم لا ينفع المخوَّل ذا الثر   وة خِلاَّنُه ولا ولَدُهْ(٣)
يوم يُؤْتَى به وخصماه وسط ال   جنِّ والإنْس رِجْلُه ويدهْ
خاشعَ الصَّوْت ليس ينفعه ذَ   مٌّ أمانيهُ ولا لَدَدُهْ

وكل من يقرأ شعر الطرماح يلاحظ أنه لا يجرى على وتيرة لغوية واحدة ، فهو حين يصدر عن عقيدته ، أو يمدح أو يهجو لا يغرب على سامعيه ، ولكن حين يصف الصحراء يحاول بكل ما يستطيع أن يجمع أوابد الألفاظ ووحشيّها ، وهو جانب دفعه إليه تعليمه الناشئة ، وكأنما شعره ينقسم قسمين : قسماً أراد به أن يدور فى أفواه الناس ، وقسماً أراد به أن يدور فى أفواه المتأدبين حتى يقفوا على الألفاظ اللغوية الغريبة ، فهو قسم تعليمى محض . ويصوّر اللغويون مدى إغرابه فى شعره ، فيقولون إن ابن الأعرابى العالم اللغوى المشهور سُئل عن ثمانى عشرة كلمة آبدة فى أشعاره ، فلم يستطع تفسيرها ، ومرّ بنا فى غير هذا الموضع أن حِسَّه اللغوى لم يكن دقيقاً وأنه كان مشغوفاً بإدخال الألفاظ النبطية فى كلامه . وقد مات حوالى سنة ١٠٥ للهجرة .

---

(١) مود : ميت .
(٢) يرتفده : يكتسبه .
(٣) المخول : الثرى .

٣

شعراء الشيعة

رأينا التشيع ينمو فى الكوفة منذ اتخذها على حاضرة لخلافته . وقد مضى كثير من أهلها بعد وفاته يؤمنون بأن أبناءه وأحفاده أهلُ الخلافة الحقيقيون وأصحابها الشرعيون ، وأن الأمويين اغتصبوها منهم ، وينبغى أن تُرَدَّ عليهم . وتكوّنت فى أثناء ذلك فرقة الكَيْسانية التى دعت لابن الحنفية ، وقد تأثرت بغير قليل من آراء ابن سبأ ، فذهبت تزعم أن ابن الحنفية هو المهدى المنتظر ، وأنه ورث عن علىٍّ علمَ الباطن وأن به قبساً من روح الله ، وهو قبس يتنقل فى أئمة الشيعة إماماً بعد إمام ، حتى إذا توفىَّ قالوا برجعته ، وأنه سيعود فيملأ الأرض علماً ونوراً . ونمضى إلى أواخر العصر الأموى فتظهر فرقة الزَّيْدية ، ولم تكن غالية غلو فرقة الكيسانية ، وقد صورنا ذلك فى حديثنا عن السياسة .

وعلى نحو ما كثر شعراء الخوارج فى هذا العصر كثر شعراء الشيعة يتقدمهم كثيِّر شاعر الكيسانية والكميت شاعر الزيدية ، ولعل من الطريف أننا نجد عند أولهما عقيدة الكيسانية ماثلة فى أشعاره بكل ما أوغلت فيه من تطرف فى العقيدة الشيعية ، كما نجد عند ثانيهما عقيدة الزيدية بكل أصولها المذهبية .

وإذا أخذنا نقرأ فى أشعارهما وأشعار غيرهما من شعراء الشيعة وجدناهم محزونين على أئمتهم الذين سفك الأمويون دماءهم ، لا يَرْعَوْن فيهم إلاًّ ولا ذِمَّة ، وقد تحولوا يبكونهم ويندبونهم بدموع لا تَرْقَأُ ولا تجفُّ . وربما كان هذا الطابع أهمَّ ما يميِّز الشعر الشيعىَّ فى هذا العصر ، فهو دموع وبكاء وزفرات على الحسين أولا ثم على زيد بن على وابنه يحيى ، زفرات ودموع سخينة من مثل قول سليمان بن قَتَّة يرثى الحسين (١) :

(١) مقاتل الطالبيين لأبى الفرج الأصبهانى (طبعة الحلبى) ص ١٢١ وانظر أيضاً فى مراثى الحسين الطبرى ٤ / ٢٠٩ وما بعدها وأغانى (ساسى) ١٤/ ١٥٨ وما بعدها والمبرد ص ١٢٧ والاستيعاب ص ١٤٦ .

مررتُ على أبيات آلِ محمَّدٍ   فلم أرها كعهدها يوم حُلَّتِ
وكانوا رجاءً ثم صاروا رَزِيَّـــةً   وقد عظمتْ تلك الرزايا وجَلَّتِ
ألم تر أن الشمس أضحتْ مريضةً   لفَقْدِ حُسَيْنٍ والبلادُ اقشعرَّتِ
وقد أعولتْ تبكى السماءُ لفقـــدهِ   وأنجُمُها ناحتْ عليه وصَلَّتِ

ولم يكونوا يرثونه ويبكونه فقط ، إذ كان كثير منهم يضيف إلى رثائه وبكائه تحريضاً على الأخذ بثأره وثأر من دافعوا عنه من رفاقه ، وهو تحريض يتحول إلى رغبة شديدة فى سفك الدماء ، حتى يغسل الشيعة عنهم عار القعود عن نصرته . ويتحول ذلك عند طائفة منهم إلى ما يمكن أن نسميه غريزة الدم المسفوح ومن خير منْ يصورها عوف[١] بن عبد الله بن الأحمر الأزدى ، وله فى الحسين قصيدة طويلة رثاه بها وحضَّ الشيعة على الطلب بدمه ، وفيها يقول :

ليَبْكِ حُسَيْنًا كلما ذَرَّ شارقٌ   وعند غسوقِ الليل من كان باكيا
ويا ليتنى إذ كان كنتُ شهِدتُه   فضاربتُ عنه الشانئين الأَعاديا
ودافعتُ عنه ما استطعتُ مجاهدًا   وأعملتُ سَيْفى فيهمُ وسِنانيا

ومرّ بنا أن كثيرين أخذوا يتلاومون فى الكوفة على خذلانه ، وهم جماعة التوابين ، ومن خير من يمثلهم عبيد الله بن الُحرّ ، ويروى أنه خرج فى جماعة من أصحابه حتى أتى كَرَبْلاء ، فنظر إلى مصرع الحسين ورفاقه فاستغفر لهم ، ثم مضى وهو ينشد[٢] :

ويا ندمى أن لا أكون نصرتُه   ألا كلُّ نفسٍ لا تسدَّد نادمه
وإنى لأنى لم أكن من حُماتهِ   لذو حسرةٍ ما إن تفارق لازمه

ويُقْتَلُ زيد بن على بن الحسين ، فيبكيه الشيعة مُعْولين منذرين لبنى أمية ومهددين من مثل قول المفضَّل المطَّلبى[٣] :

---

(١) انظر ترجمة عوف فى معجم الشعراء للمرزبانى ص ١٢٦ .
(٢) طبرى ٤/٣٦٠ .
(٣) مقاتل الطالبيين ص ١٤٩ .

ألا يا عينُ لا تَرْقَىْ وجُودى بدمعك ليس ذا حينَ الجمود[١]
وكيف تضنُّ بالعبَرات عيني وتطمـــع بعد زيدٍ فى الهجودِ[٢]
وكيف لها الرُّقاد ولم ترأى جيادَ الخيل تَعْدُو بالأُسود
بأيديهم صفـــائحُ مرهفاتٌ صوارمُ أُخْلِصَتْ من عهد هودِ
بها نَسْقِى النفوس إذا التقينا ونقتـــل كلَّ جبارٍ عنيدِ
ونُحْكم فى بنى الحكَم العوالى ونجعلهم بها مثـــل الحَصيد[٣]

وعلى هذا النحو كان كل شاعر شيعي يَنطْوِى فى نفسه حزناً عميقاً على أئمته المستشهدين ورغبة عنيفة فى سفك دماء من قتلوهم ، ولكن أنَّى ذلك وسيوف بنى أمية بالمرصاد لكل من يخرج عليهم . وإنهم ليتعقبون هم وولاتهم أحياءهم ويعدُّون أنفاسهم عدًّا . ومن ثم نشأت بين الشيعة نظرية مشهورة هى نظرية التقية ، فمن حق الشيعى أن يخفى عقيدته ويكتمها ، حتى لا يعرِّض نفسه للخطر بل لا مانع من مصانعة خصومه أحياناً على نحو ما سنرى عند كثيِّر والكميت عما قليل ، إذ مدحا بنى أمية ، وهما يكنَّان لهم العدواة والبغضاء .

وهذان المنزعان من بكاء الشهداء والتحريض على قتل من قتلوهم كان ينطوى فيهما حقد شديد على الأمويين ، وهو حقد ينتهى أحياناً إلى دعوة الناس شيعيين وغير شيعيين للثورة عليهم على نحو ما نجد عند الكميت حين ولىَّ خالد القسرى أخاه أسداً على خراسان سنة ١١٧ فإنه أرسل إلى أهل مَرْو يستحثهم على الثورة بأبيات ، يقول فيها [٤] :

ألا أَبلغْ جماعةَ أهلِ مَرْو على ما كان من نَأْىٍ وبُعْـــدِ
رسالةَ ناصحٍ يُهْدى سلاماً ويأْمر فى الذى ركبوا بجِدٍّ
فلا تَهنوا ولا تَرْضوْا بخَسْفٍ ولاَ يْغرُرْكُمُ أسدٌ بعَهْـــدِ
وإلا فارفعوا الراياتِ سُودًا على أهل الضَّلالة والتعدِّى

---

(١) ترقى : من رقأ الدمع إذا جف وسكن . جمود العين : بخلها بالدمع .
(٢) الهجود : النوم .
(٣) بنو الحكم : بنو مروان بن الحكم . العوالى : الرماح . الحصيد : الزرع المحصود .
(٤) طبرى ٥ / ٤٢٣ .

وإذا كانت قلوب الشيعة على هذا النحو تمتلئ بالحقد والغيظ على بني أمية فقد كانت تمتلىء بالحب لآل البيت حبًّا يملك على نفوسهم أهواءها وعواطفها وإحساساتها ومشاعرها، على شاكلة قول أبي الأسود الدؤلي وقدعابه قوم بتشيعه : [١]

أحبُّ محمدًا حبًّا شديدًا ... وعبَّاسا وحمزة والوصيَّا[٢]
أحبهمُ لحب الله حتى ... أجيء إذا بُعثتُ على هَوَيَّا[٣]
هَوًى أُعْطيته منذ استدارتْ ... رَحَى الإسلام لم يُعْدَلْ سَوِيًّا[٤]
بنو عَم النبيِّ وأقـــربوه ... أحبُّ الناس كلِّهم إليَّـــا
فإن يك حبُّهم رُشْدًا أُصِبْهُ ... ولستُ بمخطئٍ إن كان غَيَّا

ويقول عبد الله بن كثير السَّهمي في نفس المعنى [٥] :

إن امرءًا أمستْ معايبهُ ... حبُّ النبيِّ لغيرُ ذي ذَنْبِ
وبني أبي حسن ووالدِهم ... مَنْ طاب في الأرحام والصُّلْبِ
أيُعَدُّ ذنبًا أن أُحبَّهُمُ ... بل حبُّهم كفَّارة الذنْبِ

فهم يحبون آل البيت لجدهم صلوات الله عليه ، وهو حب دفعهم دفعاً إلى استشعار التقوى وعبادة الله حق عبادته ، بل لقد دفع نفرًا منهم إلى الزهد في الحياة ومتاعها الزائل ، على نحو ما سنرى عند أبي الأسود الدؤلي في حديثنا عن شعراء الزهد ، ومما يصور ذلك قول حرب بن المنذر بن الجارود ، وكان يتشيع ، في كلمة له [٦] :

فحسبي من الدنيا كَفافٌ يُقيمني ... وأثوابُ كتَّان أزورُ بها قبري[٧]
وحُبِّي ذوي قُرْبَى النبيِّ محمَّدٍ ... فما سَالَنا إلا المودَّةَ من أجْرِ[٨]

---

(١) المبرد ص ٥٥٤ .
(٢) يريد بالوصي علي بن أبي طالب ، إذ كان الشيعة كما قلنا مراراً يعتقدون أن النبي أوصى له بالخلافة .
(٣) على هويا : على هواي.
(٤) لم يعدل سوياً : لا مثيل له .
(٥) البيان والتبيين ٣ / ٣٦٠ .
(٦) البيان والتبيين ٣ / ٣٦٥ .
(٧) الكفاف : القوت القليل لا فضل فيه .
(٨) سالنا بالتخفيف : لغة في سأل . وهو يشير إلى الآية الكريمة : (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى) .

وواضح من كل ما سبق أن الشيعة كانت تستغرق أشعارهم فى عصر بنى أمية منازع قوية من حب آل البيت حبًّا قد ينتهى إلى الزهد فى الدنيا ، ومنازع أخرى من الثورة على بنى أمية ، ثورة تَنطوى فى داخلها رغبة شديدة فى أن تُسْفَك دماؤهم كما سُفكت دماء شهداء أنهم : الحسين وزيد بن على ، ومن قبلهما على نفسه. ودائماً يبكون هؤلاء الشهداء الذين استأثروا بهم وملكوا عليهم كل شىء ، وإنهم ليدلعون فى قلوبهم ناراً لا تَنطفئ من الأسى والحزن العميق . ويحسن بنا أن نقف قليلا عند كثيِّر شاعر الكيسانية ، والكميت شاعر الزيدية .

كُثَيِّر [1]

هو كثيرٌ بن عبد الرحمن بن أبى جمعة ، شاعر حجازى من خُزاعة كان ينزل المدينة كثيراً ، وكان قميئاً شديد القصر محمَّقاً وفى الأغانى أخبار كثيرة عن حمقه وعبث الناس به لهذا الحمق . وكان أول ما ساق فيه شعره الغزل ، إذ كان راوية لجميل بن معْمر العذرى ، وهو فى جمهور غزله يترنَّم بعزَّة بنت حُمَيل الضَّمْرية ، وقد اشتهر بغزله فيها حتى سُمِّى كثير عزَّة ، وأروعُ أشعاره فيها تائيته التى يقول فى تضاعيفها :

هنيئاً مريئاً غير داءٍ مخامر   لعزَّةَ من أعراضنا ما استحلَّتِ

وهو يلتزم فى رويها التاء واللام جميعاً ، مما يدل من بعض الوجوه على أنه كان متكلفاً فى غـزله ، ويقول ابن سلام : إنـه كان يتقول ولم يكن عاشقاً ولا صادق الصبابة .

ولا نصل إلى سنة ٦٥ للهجرة ودعوة المختار الثقفى لابن الحنفية ، وتكوينه حوله نظرية الكَيْسانية ، حتى يصبح أكبر بوق لهذه النظرية ، فهو يعتنقها اعتناقاً بكل ما يداخلها من غلو ومن أفكار متطرفة ، كفكرة التناسخ وأن

---

(١) انظر فى ترجمة كثير أغانى (دار الكتب) ٩/٢ وما بعدها و ١٧٤/١٢ وفى مواضع متفرقة ، وابن سلام ص ٤٥٧ و ما بعدها والشعر والشعراء ٤٨٠/١ والفرق بين الفرق ص٢٨ والموشح ص١٤٣ ومعجم الشعراء ص٢٤٢ والخزانة ٣٧٦/٢ ومرآة الجنان ٢٠٢/١ ومعاهد التنصيص وابن خلكان والملل والنحل ص ١١١ وحديث الأربعاء ٣٥٨/١ وما بعدها . وقد نشر بيرس ديوانه فى الجزائر .

قبس النبوة لا يزال يتنقل فى على وأبنائه ، وكفكرة أن ابن الحنفية هو المهدى المنتظر وفيه يقول :

هو المهدىُّ خبَّرَناه كعبٌ أخو الأَحبار فى الحِقَب الأَوالى[1]

ونراه يمتلىء حقداً على ابن الزبير حين رآه ينزل غضبه على إمامه ويحبسه فى سجن عارم بمكة ، لدعوة المختار الثقفى له فى الكوفة و إخراجه واليه منها . وكان ابن الزبير كما مرَّ بنا قد عاذ بالبيت الحرام لعهد يزيد بن معاوية ، فتوجه إليه كثيِّر يقول :

تخبَّر من لاقيت أنك عائذٌ بل العائذُ المظلومُ فى سجْن عارمِ
وصىُّ النبىِّ المصطفى وابنُ عمِّه وفكَّاكُ أغلال ونفَّاعُ غارمِ
أبىَ فهْو لا يَشْرى هُدًى بضلالةٍ ولا يتَّقى فى الله لومةَ لائم
ونحن بحمد الله نتلو كتابَه حُلولا بهذا الخَيْف خيف المحارم[2]
بحيث الحمامُ آمِنُ الرَّوْع ساكنٌ وحيث العدوُّ كالصديق المُسالمِ
وما فَرَحُ الدنيا بباقٍ لأَهله ولا شِدَّةُ البَلْوَى بضَرْبة لازمِ

وواضح أنه يسجِّل على ابن الزبير خَرْقه لما فرض الإسلام من أمن لكل من لاذ بالحرم ، حتى الحمام فإنه لا يحل صيده ولا التعرض له ، ومع ذلك يتعرض ابن الزبير لابن الحنفية وصى على أو بعبارة أخرى وصى الرسول الكريم الذى يأخذ بأيدى العُناة ، والذى يتقى الله حق تقواه .

ويردُّ ابن الزبير لابن الحنفية حريته ، فيخرج عن جواره ، ويلحق بعبد الملك فى دمشق ، وكثيِّر فى ركابه ، فيكرمه وينزله منزلا عليًّا هو وشاعره . ومن هنا نفهم الصلة التى انعقدت بين كثير وعبد الملك ، فقد أصبح من مداحه ،

(١) كعب : هو كعب الأحبار ، كان ممن يقصون فى العهد الأول .
(٢) الخيف : ناحية من منى بمكة .

وأخذ يثيره على ابن الزبير متمنياً لو انتصر عليه وأزال سلطانه عن الحجاز والعراق جميعاً ، حتى إذ ارآه يعدُّ جيشه لحرب مصعب أخذ يحثه على المبادرة لحربه بمثل قوله :

إذا ما أَراد الغَزْوَ لم تَثْنِ هَمَّهُ حَصانٌ عليها عِقْدُ دُرٍّ يَزِينُها[١]
نَهتْه فلما لم تر النَّهْى عـاقَه بكتْ فبكا مما شَجاها قَطينُها[٢]

وظل يمدح عبد الملك . وارتحل إلى مصر يمدح أخاه عبد العزيز واليها . وظن بعض المعاصرين فى مديحه لبنى أمية ضرباً من النفاق[٣] . وهو لم يكن فى مديحه لهم منافقاً ، إنما كان تابعاً فى ذلك لإمامه الذى رآه يمنح عبد الملك ولاءه . وحتى لو لم يدخل ابن الحنفية فى بيعة عبد الملك لكان مدحه له تقية لا نفاقاً ، ومرّ بنا أن الشيعة كانوا يجيزون التقية خشية على أنفسهم ، وبين أيدينا أخباره مع عبد الملك وهى تقطع بأنه كان يكرمه مع معرفته بتشيعه وأنه يصر عليه إصراراً . على أنه كان يحمِّل مديحه له كثيراً من السموم . كتصويره له بأنه حية ما تزال تلدغ ، يقول :

يقلِّب عَيْنَى حَيَّـةٍ بِمحَارةٍ إذا أَمكنَتْه شدَّةٌ لا يُقيلها[٤]

ونراه حين يعرض لخلافته يسلكه من طرف خفى فى مجموعة الخلفاء الذين لا تُقر غالبية الشيعة خلافتهم وترى أنهم اغتصبوها اغتصاباً من ورثتها الشرعيين ، إذ كان يجعله سابع الخلفاء مسقطاً خلافة على ، لأنها الخلافة الصحيحة فى رأيه بين تلك الخلافات الظالمة ، يقول :

وكنت المُعَلَّى إذ أُجيلَتْ قِدَاحُهم وجـال المَنِيحُ وسْطها يَتَقَلْقَلُ

والمعلَّى هو القدح السابع من قداح الميسر ، وهو أعلاها نصيباً ، أما المنيح فلا نصيب له . وواضح أنه لم يرد أن عبد الملك أعلى الخلفاء الذين سبقوه كعباً ، بل موَّه بذلك فى الظاهر ، وعَنَى فى الباطن أنه السابع بين الخلفاء الذين لا

---

(١) الحصان : العفيفة .
(٢) القطين : الخدم والوصفاء .
(٣) انظر حديث الأربعاء لطه حسين (طبعة الحلبى) ٣٦٣/١ .
(٤) المحارة هنا : جحر الحية . الشدة : الهجمة على العدو . يقيلها : يفسخها . أراد أنه يبرم عزيمته ولا يتردد .

ترتضي الشيعة إمامتهم . ومن ثمَّ يقابل عبد الملك فى ترتيب هؤلاء الخلفاء القدح السابع بين القداح وهو المعلى ، وقد صرح بذلك فى مدحة له أخرى ، إذ يقول :

وكان الخـلائف بعد الرسو ... ل لله كلهمُ تابعـا
شهيدان من بعد صِدِّيقهم ... وكان ابنُ حَرْب لهم رابعا [1]
وكان ابنهُ بعده خامسا ... مطيعا لمـن قبله سامعا
ومروان سادسُ مَنْ قد مضى ... وكان ابنُه بعده سابعا

وعلى هذا النحو لم يتخلَّ عن عقيدته فى مديحه لعبد الملك . وربما كان عمر بن عبد العزيز أهم من أخلص له فى مديحه لبنى أمية ، وهو إخلاص مرجعه فى رأينا إلى موقفه من آل البيت فإنه بالغ فى إكرامهم ومنع عماله منعاً باتًّا من سبِّهم على المنابر . وكان صالحا تقيًّا ، وفيه يقول كثيِّر مشيراً إلى هذه المكرمة :

وَلِيتَ فلم تشتم عليًّا ولم تُخِفْ ... بَرِيًّا ولم تَقْبَلْ إشارةَ مجرمِ
وصدَّقتَ بالفعل المقالَ مع الذى ... أتيت فأمسى راضياً كلُّ مسلمِ
وقد لبستْ لُبْسَ الهَلوكِ ثيابها ... تراءى لك الدُّنْيا بكفٍّ ومِعْصَمِ [2]
وتومض أحياناً بعينٍ مريضةٍ ... وتَبْسِمُ عن مثل الجُمان المنظَّمِ [3]
فأعرضتَ عنها مشمئزًّا كأنما ... سَقَتْك مَدُوفاً من سِمامٍ وعَلْقَمِ [4]
تركت الذى يَفْنَى وإن كان مونقًا ... وآثرتَ ما يَبْقَى برأيٍ مصمِّمِ
وأضررتَ بالفانى وشَمَّرْتَ للذى ... أمامك فى يومٍ من الهَوْلِ مظلمِ

والحق أن كثيراً ظل مخلصاً لعقيدته الشيعية ، وهو إخلاص لا يقف عند إشادته بابن الحنفية ووصفه بأنه مهدىّ أو وصىّ ، أوصى له على ، بل يتجاوز ذلك إلى استشعاره ما كان يؤمن به الكيسانية من رجعة أئمتهم بعد

---

(١) الشهيدان : عمر وعثمان . الصديق : أبو بكر . ابن حرب : معاوية .
(٢) الهلوك : المرأة تشغف بالرجال .
(٣) الجمان : اللؤلؤ .
(٤) المدوف : المخلوط . السمام : جمع سم .

مماتهم ، فهم لا يموتون ، بل يغيبون مدة من الزمن ثم يعودون ، يقول فى ابن الحنفية حين لبىّ نداء ربه :

ألا إن الأئمّة من قريشٍ ... ولاةَ الحق أربعةٌ سَواءُ
علىٌّ والثلاثةُ من بنيهِ ... هم الأسباطُ ليس بهم خفاءُ
فسِبْطٌ سِبْطُ إيمانٍ وبِرٍّ ... وسِبْطٌ غَيَّبَتْهُ كَرْبَلاءُ
وسِبْطٌ لا تراه العينُ حتى ... يقود الخَيْلَ يَقْدُمُها اللِّواءُ
تغيَّب لا يُرَى عنهم زمانا ... بِرَضْوَى عنده عَسَلٌ ومــاءُ

فالأئمة الحقيقيون أصحاب الولاية الشرعية على المسلمين هم على والحسن والحسين وابن الحنفية ، وهم متساوون فى هذه الولاية . ويأبى إلا أن يسمى قَتْل الحسين فى كَرْبَلاء غيبة ، أما ابن الحنفية فهو غائب بجبل رضوى يَطْعم العسل والماء ، وسيعود فى جيش كثيف يقوّض الحكم الأموى ويرد الأمر إلى نصابه . وما زال يؤمن بعقيدته حتى إذا حضرته الوفاة سنة ١٠٥ ، وقيل سنة ١٠٧ ، رفع صوته ينشد :

بَرِئْتُ إلى الإله من ابن أَرْوَى ... ومن دين الخوارج أجمعينا[١]
ومن عُمرٍ بَرِئْتُ ومن عتيقٍ ... غَداةَ دُعِى أمير المؤمنينا[٢]

وواضح أنه يجعل لعلى وبنيه وحدهم الحق فى لقب أمير المؤمنين ، أما من حملوا هذا اللقب قبلهم من الخلفاء الراشدين فهم فى رأيه يُعَدُّون مغتصبين . وعلى هذا النحو كان يغلو فى تشيعه غلوًّا قبيحاً حتى أنفاسه الأخيرة .

الكُمَيْت[٣]

هو الكُمَيْت بن زيد الأسدى ، وُلد بالكوفة سنة ٦٠ للهجرة ، ولم يكد

(١) ابن أروى : عثمان بن عفان ، وأروى : أمه.

(٢) العتيق : أبو بكر الصديق .

(٣) انظر فى ترجمة الكميت وأخباره أغانى (ساسى) ١٥ / ١٠٨ والشعر والشعراء ٢ / ٥٦٢ والموشح ص ١٩١ وابن سلام ص ٢٦٨ وخزانة الأدب ١ / ٦٩ ، ٨٦ والبيان والتبيين والحيوان للجاحظ (انظر الفهرس) وأمالى المرتضى (طبعة الحلبى) ١ / ٦٦ ، ٩٩ ، ٢ / ٨٠ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٢٣٨ ومعاهد التنصيص وكتابنا التطور والتجديد فى الشعر الأموى (طبع دار المعارف) ص ٢٩٢ . وقد طبعت مدائحه فى بنى هاشم مراراً باسم الهاشميات .

يشبّ حتّى أخذ يختلف إلى دروس العلماء يتلقن الفقة والحديث النبوى وأنساب العرب وأيامها ، ولم يلبث أن تحوّل معلماً ، يعلم الناشئة فى مسجد الكوفة . ونراه يَشْدو الشعر ، وتنعقد مودة بينه وبين الطِّرِمَّاح على نحو ما تحدثنا عن ذلك آنفاً.

ولا يلبث أن يبرع فى الشعر ، فيطلب به جوائز الأشراف والولاة والخلفاء ففى أخباره أنه وفد على مخلد بن يزيد بن المهلب حين كان أبوه يوليه أعمالا فى مدة إمارته على خراسان لعهد سليمان بن عبد الملك ، ويقال إنه لقى على بابه أربعين شاعراً ، كلهم ينتظر الإذن له ، وتَرْوى كتب الأدب له مدائح مختلفة فيه . ونراه فى مطالع القرن الثانى يفد على يزيد بن عبد الملك .

ويظهر أن صلته بالهاشميين بدأت مبكرة . ففى أخباره أنه امتدح على بن الحسين الملقب بزين العابدين . ومعروف أنه توفّى سنة تسع وتسعين . ونمضى معه إلى ولاية خالد القسرى على العراق (١٠٥ – ١٢٠ هـ) فنجده قد أصبح شيعيًّا خالصاً ، وقد استخلصه لنفسه زيد بن على بن الحسين إمام فرقة الزيدية فإذا هو يناضل عنه ويدافع . ويعيش لهذا النضال والدفاع ، إذ أُشرب قلبه حبّه وحب الهاشميين ، حتّى لينكر من نفسه مديحه القديم ، وحتّى ليقول :

طَرِبْتُ وما شوقًا إلى البيض أطربُ ... ولا لَعِباً منّى وذو الشَّيْب يلعبُ
ولم تُلْهِنى دارٌ ولا رَسْم منزلٍ ... ولم يتطرَّبْنى بَنَانٌ مُخَضَّبُ
ولكنْ إلى أهل الفضائل والنُّهى ... وخيرِ بنى حَوَّاء والخيرُ يُطْلَبُ
بنى هاشمٍ رهطِ النبىِّ فإننى ... بهم ولهم أرضى مرارًا وأغضبُ

فلم يعد فيه شيء للغزل ولا للحب سوى حب بنى هاشم ، وينصرف إلى هذا الحب ، وينقطع له ، ويشتهر بإحسانه فيه ، حتّى ليقول الفرزدق المتوفّى سنة ١١٠ وقد ذُكر له : إنه وجد آجُرًّا وجِصًّا فبنى ، أى أنه وجد مادة غنية لأشعاره ، فأحسن فى نظمه . ونراه فى تصويره لهذا الحب ثائراً ثورة عنيفة على بنى أمية وواليهم خالد القسرى . إذ كان ما ينى يؤلِّب عليه وعليهم الناس . داعياً لزيد دعوة صريحة ، حتّى لنراه يكتب – كما أسلفنا – إلى أهل مرو أن يثوروا فى وجه أسد القسرى حين ولاه أخوه خالد على خراسان .

وكانت أشعاره الثائرة لا تصل إلى سَمْع خالد فحسب ، فقد وصلت إلى سَمْع هشام بن عبد الملك ، فأمر خالداً بحبسه ، فألقاه فى غياهب السجن . وكانت امرأته تدخل عليه فى ثياب وهيئة حتى عرفها الحُرّاس ، فدخلت فى غفلة منهم يوماً ، فلبس ثيابها وتهيأ بهيئتها ، ومضى على وجهه إلى الشام ، فضرب قُبَّته على قبر معاوية بن هشام فجاءه أولاده ، فربطوا ثيابه بثيابهم ، حتى دخلوا به على جدهم ، فاستعطفوه حتى ألانوا قلبه وعفا عنه . ويقال بل الذى توسط له بالشفاعة مسلمة بن هشام ، وله فيه وفى بنى أمية مدائح نظمها حينئذ ، من مثل قوله :

الآن صرتُ إلى أميَّـ ـة والأُمـور لها مصائرْ
أهلِ التجاوب فى المحا فل والمقاولِ بالمخاصر[1]
أنتم معـادنُ للخلا فة كابرًا من بعد كابر

وهى مدائح تُحْمَل على التقيَّة ، إذ اضطر إلى مديحهم مداراة لهم . وعاد إلى الكوفة وقد رُدَّت إليه حريته ، فعاد إلى نضاله مع إمامه زيد . ونعجب إذ نراه على هاشميته وتشيعه يَفْسح لأشعار ، يفخر فيها بمضريته ويهجو اليمن هجاء شديداً ، ولكن إذا عرفنا السبب زال العجب كما يقولون ، فقد تصدى له شاعر يمنى هو حَكيم بن عيَّاش الكلبى كان يتعصب للأمويين ويهجو الهاشميين وزيد بن على هجاء[2] مرًّا ، فرأى الكميت أن يصرفه عن ذلك بفَتْح معركة معه فى اليمنية والمضرية . وبذلك دفعه عن هجاء بنى هاشم وشغله بقومه والنضال عنهم . ويقول الرواة إنه كان يمكر به فيفخر عليه ببنى أمية المضريين حتى يسكته ويغلبه ، وقد ظهَر عليه فعلا لا بذلك فحسب ، بل بما نظم فى عصبيته لمضر وهجائه لليمن من قصائد دوَّت بعيداً ، وعلى رأسها مذهَّبته[3] : (ألا حُيِّيت عنا يا مدينا) ويقال إنها بلغت ثلاثمائة بيت لم يترك فيها مثلبة لليمن إلا سجَّلها ووصمه بها وصمًا .

---

(١) المقاول : جمع مقول ، وهو المفوه . والمقاول بالمخاصر : الخطباء لاتخاذهم لها فى الخطابة

(٢) انظر فى ذلك ترجمته فى الأغانى والإصابة ٢ / ٨٠ ومعجم الأدباء ١٠ / ٢٤٨ .

(٣) فى خزانة الأدب ١ / ٨٦ بعض أبيات من هذه القصيدة وانظر الأغانى (طبع الساسى) ١٥ / ١١٢ والمسعودى (طبعة دار الرجاء بمصر) ٣ / ١٦٢ .

وحتى الآن لم نتحدث عن هاشمياته ، وهي تمتاز بصدق العاطفة وبراعة الحجاج والاستدلال فى بيان حق الهاشميين الشرعى فى الخلافة ، وهو استدلال وحجاج جعل الأقدمين يلاحظون أنه فى شعره وفى هاشمياته خاصة يخرج على المألوف من ذوق الشعراء ، إذ كانوا لا يعرفون فى الشعر هذه الصورة من الجدل ، إنما كانوا يعرفونها للخطباء وأصحاب المقالات ، ومن ثمَّ قالوا إن شعره أشبه بالنثر ، كما قالوا إنه خطيب وليس بشاعر . ومن غير شك كان شاعراً مبدعاً ، فقد نهج بشعره نهجاً جديداً، إذ أخضعه لصورة المقالة المعاصرة له وما تُشْفَعُ به من براهين وأدلة . وهو فى ذلك يُعَدُّ صَدًى قويًّا لما شاع فى عصره من الجدال بين المتناظرين فى مسائل العقيدة ، فقد مثَّل هذا الجدال تمثيلا باهراً . ومن غير شك كان يختلف إلى حلقات هذا الجدال ، فقد كان إمامه زيد يتتلمذ لواصل بن عطاء رأس المعتزلة ، وتبعه الكميت فى هذه التلمذة ، فهو الآخر تلميذ لواصل ، تلقَّن منه الكلام والجدل فى المسائل العقيدية ، وتحول يستخدمه فى هاشمياته ، فإذا هى ليست أشعاراً فى مديح زيد إمامه ، إنما هى مقالة الزيدية بكل أصولها العقيدية ، وبكل ما تستخدمه من أسلحة العقل فى دعم هذه الأصول . ومرت بنا أبياته التى يعلن فيها أنه لن يقف بالرسوم والأطلال يتحدث عن حبه ، فحبه جميعه منصبٌّ على بنى هاشم ، وبذلك كان أول شاعر دعا إلى نبذ الوقوف على الديار سُنَّةَ من سبقوه ، وهو يمضى ، فيسوق الأدلة الناصعة على حق البيت الهاشمى من سلالة فاطمة رضى الله عنها فى الخلافة على شاكلة قوله متحدثاً عن اغتصاب الأمويين لهذا الحق الشرعى :

بخاتمكم غَصْباً تجوز أمورهم ... فلم أرَ غَصْباً مثله يُتَغَصَّبُ
وجدنا لكم فى آل حاميم آيةً ... تأوَّلها منا تَقِىٌّ ومُعْرِبُ
وفى غيرها آيًا وآيًا تتابعتْ ... لكم نَصَبٌ فيها لذى الشَّك مُنْصِبُ
وقالوا ورثناها أبانا وأمَّنا ... وما ورَّثَتْهُمْ ذاك أمٌّ ولا أبُ
ولكنْ مواريثُ ابن آمنةَ الذى ... بهِ دانَ شرقٌ لكم ومغرِّبُ
يقولون لم يُورَثْ ولولا تُراثُهُ ... لقد شَرِكتْ فيه بَكيلٌ وأرْحَبُ[1]

(١) بكيل وأرحب : عشيرتان من همدان .

وكِنْدَةُ والحَيَّان بكرٌ وتغلبُ وعَكٌّ ولَخْمٌ والسَّكون وحِمْيَرٌ
ولا غُيَّباً عنها إذ الناسُ غُيَّبُ وما كانتِ الأنصارُ فيها أذلَّةً
فإن ذوى القُرْبى أحقٌّ وأقرب فإن هى لم تصلح لحىٍّ سواهمُ

وواضح أنه بنى احتجاجه على أقيسة عقلية ، فهو يستدل بآى القرآن الحكيم فى سُوَر « حاميم » وغيرها التى تُشيد بأهل البيت وقرابتهم من الرسول ، مقررة حقَّ ذوى القربى من مثل : (وآت ذا القربى حقَّه) ومثل : (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القُرْبى) ويناقش الأمويين فى نظامهم الوراثى ، وأنهم لا يُدْلُون للرسول كما يدلى آل بيته ، فهم ورثته الشرعيون ، وإلا لورثته القبائل جميعاً وعلى رأسها الأنصار الذين أعز الله بهم الإسلام . وهو يستدل بالنصوص القرآنية تارة ويحكِّم العقل تارة أخرى .

ودائماً يعرض هذه الأدلة مجادلا محاولا الظفر بخصومه ، فإن ترك ذلك لجَّ فى عقيدته الزيدية وأصولها المذهبية ، ومعروف أنها كانت — فى أصلها — من أكثر العقائد الشيعية اعتدالا وإن داخلها فيما بعد التطرف والمغالاة ، إذ كان زيد بن على لا يؤمن بتناسخ ولا بَبداء ولا برَجْعة على نحو ما كان يؤمن الكَيْسانية ، وكان لا يدخل فى عقيدته أى شعوذة أو غلو مسرف ، إنما كان يثبت نظرية الوصاية ، وما تؤمن به الشيعة جميعاً من أن الرسول صلى الله عليه وسلم أوصى لعلى يوم غدير خُمٍّ ، وفى ذلك يقول الكميت :

أبانَ له الولايةَ لو أُطيعـا[1] ويومَ الدَّوْح دَوْحِ غَديرِ خُمٍّ

وكان زيد كما قدمنا يرى جواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل وبذلك صحَّح خلافة أبى بكر وعمر ولم يطعن فيهما ، ولا دفع إلى شتمهما كما تصنع الرافضة ، وفى هذا يقول الكميت :

أرضى بشَتْم أبى بكر ولا عمرا أهوى عليًّا أمير المؤمنين ولا

ومعروف أن زيداً كان يشترط فى الإمام أن يكون من أبناء فاطمة ، ويحتِّم أن يكون عالماً زاهداً شجاعاً سخيًّا[2] ، ويُردِّد الكميت فى هاشمياته هذه الصفات ، يقول فى مدح الأئمة من الهاشميين :

---

(١) غديرخم : بين المدينة ومكة ، نزله الرسول وخطب فيه .
(٢) انظر الملل والنحل ص ١١٥ .

الحُماة الكُفاة فى الحرب إن لُـ ـفَّ ضِرامـــا وقـــودُها بضِرامِ
والغيوثُ الذين إن أَمْحَلَ النَّا س فمأْوى حواضن الأَيتــام
غالبيِّين هاشميين فى العِلْـ ـم رَبَوْا من عطية العَلّامِ (١)
وهمُ الآخذون من ثقة الأَمْـ ـرِ بتقواهمُ عُرًى لا انفصام (٢)

ويضيف الكميت إلى هذه الصفات صفة العدل ، فهم عدول إن حكموا الناس لم يظلموهم نقيراً . وكثيراً ما يقف فى تقريره لهذه الصفة عند جور بنى أمية وظلمهم للناس ، وأنهم لا يتقون الله فى رعايتهم لهم : بل يعاملونهم كأنهم أغنام ، مبتدعين دائماً بِدَعاً لم يجئْ بها الإسلام ، يقول

لهم كلَّ عامٍ بدعةٌ يُحْدثونها أزلُّوا بها أتباعهم ثم أَوْحَلُوا

ودائماً يجأر لربِّه أن يكشف غُمتَّهم عن صدر الأمة ، فقد بغوا فيها وطغوا ، وساموها كل ما استطاعوا من ألوان الخسف والعذاب . وإنه ليسأل الله أن يُحِلَّ الأسرة الهاشمية محلهم ، يقول :

أجـــاع الله من أشبعتموه وأشبع مَنْ بِجَوْرِكمُ أُجيعا
بمرضىٍّ السياسة هاشمىٍّ يكون حَيًا لأمته ربيعا (٣)

ووقف الجاحظ عند أبيات مدح بها الرسول ، فقال : « ومن غرائب الحمق المذهب الذى ذهب إليه الكميت فى مديح النبى صلى الله عليه وسلم حيث يقول :

إلى السِّراج المنير أحمدَ لا تَعْدلنى رَغْبَةٌ ولا رَهَبُ
عنه إلى غيره ولو رفع الـ ـنَّاسُ إلىَّ العيونَ وارتقبوا
وقيل أفرطتَ بل قصدتُ ولو عنَّفنى القائلون أو ثَلبوا

---

(١) ربوا : نموا من التربية .
(٢) يشير إلى قوله تعالى : (فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها) .
(٣) الحيا : المطر .

فتى رأى شاعراً مدح النبي صلى الله عليه وسلم فاعترض عليه واحد من جميع أصناف الناس ، حتى يزعم هو أن ناساً يعيبونه ويثلبونه ويعنّفونه [١] » . ويقول المرتضى إن ظاهر الخطاب للنبي والمقصود أهل بيته [٢] . وقد مضى الكميت يناضل عن إمامه مؤيداً مقالته إلى أن رأى الخروج ، فقعد عن نصرته ؛ وفى هاشمياته ما يدل على أنه كان يكره الخروج ولا يراه ، من مثل قوله :

تجود لهم نفسى بما دون وَثْبَةٍ تظلُّ لها الغِرْبان حولىَ تَحْجِلُ

وخرج زيد وقُتل ، فجزع الكميت ، وذهب يبكيه معلناً سخطه على الأمويين وعاملهم يوسف الثقفى محمّسا الناس أن ينفضُّوا عنه وعنهم . وضيّق عليه يوسف الخناق . وظلّ يتحين له الفرص ، حتى إذا وفد عليه مادحاً سنة ١٢٦ للهجرة يريد أن يستلّ ضغنه دسّ إليه من قتله .

٤

شعراء ثورة ابن الأشعث

مرّ بنا فى حديثنا عن الكوفة أن أشرافها كانوا يضطغنون على بنى أمية منذ قوّضوا دولتها ، واتخذوا دمشق حاضرة للخلافة . بل لقد كان العراقيون جميعاً يشعرون بهذا الضغن والحقد ، سواء منهم الكوفيون وغير الكوفيين ، فإنهم فقدوا السيادة ، وأصبحوا خاضعين لعرب الشام ، ولم يعد لهم من الأمر شىء .

وسلّط عليهم الأمويون ولاة يَعْنُفون بهم عنفاً شديداً ، وكان ذلك يزيد فى حقدهم وألمهم ، فتعلقوا بكل ثائر على الأمويين . وسرعان ما كانت جيوش أهل الشام تغلب عليهم ، فيخضعون على مضض ، ويمضون منتظرين للحوادث .

ويتولى الحجاج ، ويأخذهم بسياسة قاسية لا رحمة فيها ولا شفقة ؛ ويُحس كثير منهم ، وخاصة أشرافهم أنه يستذلهم ، فيأنفون لأنفسهم أنفة شديدة ،

---

(١) البيان والتبيين ٢ / ٢٣٩ . (٢) أمالى المرتضى ٢ / ٨٠ .

ويودون لو استطاعوا نقض هذا الضيم والخلوص من هذا الذل . وكان ممن تجسّدت فيه هذه المشاعر من أشراف الكوفة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الذى يرجع فى نسبه إلى ملوك كندة الأقدمين ، وكان من أشد العرب إحساساً بشرفه وإعجاباً بنفسه وتيهاً وخيلاء . وواتته الفرصة كى يقود هذه الثورة التى كانت تغلو بها نفوس الأشراف فى الكوفة ، ذلك أن عبيد الله بن أبى بكرة عامل سجستان أخفق فى حملة قادها إلى زنبيل ملك الترك ، إذ استدرجه إلى داخل بلاده ثم أطبق عليه فنكل بجيشه حتى يقال إنه مات كمداً .

وفكر الحجاج فى قائد محنك يوليه سجستان ، ويقود الحرب فيها ، وهداه تفكيره إلى عبد الرحمن ، وكان فى كرْمان ، فأمده بجيش عظيم كان يسمى «جيش الطواويس» لتمام أهبته وعُدّته . والتقى بجيوش الترك وانتصر عليها انتصارات عظيمة ملأت يده بالغنائم ، غير أنه رأى — خشية على جيشه — أن لا يتوغل وراء الترك ، حتى لا يصنعوا به ما صنعوه بابن أبى بكرة . ولم يكد يعرف الحجاج ذلك حتى كتب إليه يتهمه بالجور والضعف ، وهدّده إن لم يمض فى القتال بعزله . فثار عبد الرحمن لكرامته ، وجمع قادة الجيش ، وحدّثهم بكتب الحجاج وكانوا مثله ينطوون على بغضه ، ويتمنون لو عادوا إلى أهليهم ، فأظهروا الثورة عليه ، وقالوا إنه لا يبالى بموتنا ، ويريد أن يعرِّضنا للخطر ، حتى نسوق له ولخليفته الغنائم . ولم يلبثوا أن بايعوا عبد الرحمن ، وصمموا على حرب الحجاج حتى يخرج من العراق .

ووادع عبد الرحمن ملك الترك وعاهده أنه إن ظفر بالحجاج لم يسأله خراجاً أبداً ، وإن هزمه الحجاج لجأ وأصحابه إليه ، فنعهم . واتجه بجيشه إلى العراق ، وانضم إليه فى طريقه كثير من جند الكوفة والبصرة المقيمين بحاميات الأمصار ، ولما صار فى فارس خلع عبدَ الملك بن مروان وخلعه جنده ، وبايعوه على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأقبل الجيش «مثل السيل المنحطّ من عَلُ ، ليس يرده شيء حتى ينتهى إلى قراره» وأعشى همدان وأبو جلدة اليشكرى فى مقدمته يثيران الناس ويحمّسانهم للقاء الحجاج ومن يستعين بهم من عرب الشام ، الذين نزلوا منازلهم وحلّوا دورهم بينما أُخرِجوا منها

للحرب والموت فى سجستان وخراسان على نحو ما نرى فى قول أبى جلدة[1] :

أيا لهفى ويا حُزْنى جميعاً ... ويا غَمَّ الفُؤادِ لما لقينا
تركنا الدِّين والدُّنيا جميعا ... وخَلَّينا الحلائل والبنينا[2]
فما كنا أُناساً أهل دينٍ ... فنَصْبِرَ للبلاء إذا بُلينا
ولا كنا أناساً أهل دُنْيا ... فنَمْنَعها وإن لم نَرْجُ دينا
تركنا دورنا لطَغام عَكٍّ ... وأنباطِ القُرَى والأشْعَرِينا[3]

وتقدَّم الحجاج بجيشه ، فالتقى بجيش ابن الأشعث على نهر دُجَيْل فى ذى الحجة سنة ٨١ وانتصر ابن الأشعث وتقدم بجنوده ، فاستولى على البصرة ، ومضى الحجاج فنزل بجيشه فى ضاحية من ضواحيها تسمى الزاوية ، وحدثت فيها بين الطرفين معركة عنيفة كان فيها أبو جلدة يحرض على قتال الحجاج بمثل قوله[4] :

نحن جلبنا الخَيْلَ من زَرَنْجا ... مالك ياحجَّاج منا مَنْجَى[5]
لتُبْعَجَنَّ بالسيوف بَعْجَا ... أو لتَفِرَّنَّ فذاك أحْجَى[6]

وما زال أبو جلدة يحمس الجنود ويبث الغَيْرة فيهم لنسائهم ، حتى شَدُّوا على عسكر الحجاج شدة ضعضعته ، وثبت الحجاج وصاح بأهل الشام ، فتراجعوا وثبتوا ، وكانت الدائرة له . وانسحب ابن الأشعث بمن معه إلى الكوفة وهناك حدثت بينه وبين الحجاج موقعة دير الجماجم ، وفيها هُزِم هزيمة ساحقة . ولم يلبث أن جَمع للحجاج جموعاً جديدة ، والتقى به فى « مَسْكِن » فحالفته الهزيمة ، فولَّى وجهه نحو المشرق إلى أن وصل إلى سجستان ، فالتجأ إلى زنبيل ، وبعد محاولات منه لرَجْع سلطانه أسلمه الزنبيل لجيوش الحجاج ، وقُطِعَت رأسه ، وقيل بل مات انتحاراً . ويلقانا بجانب أبى جلدة شعراء كثيرون لجّوا فى هذه الثورة لعل أهمهم أعشى همدان ، وهو بحق يعد شاعر هذه الثورة .

(١) مرت فى الفصل السالف مصادر ترجمته وانظر فى الأبيات أغانى (دار الكتب) ٣١٢/١١

(٢) الحلائل : الزوجات .

(٣) الطغام : الأوغاد . وعك : من قبائل الشام اليمنية . ومثلها الأشعر قبيلة يمنية . وسماهم أنباطا يريد أنهم ليسوا بدواً ، فهم فلاحون .

(٤) أغانى ٣١٢/١١ .

(٥) زرنج : قصبة سجستان .

(٦) البعج : الشق . أحجى : أخلق وأجدر .

أعشى [1] همدان

هو عبد الرحمن بن عبد الله الهَمْداني القحطاني، نشأ في الكوفة، وعُني في أول نشأته بالفقه وقراءة القرآن حتى لنرى الشَّعْبي فقيه الكوفة المشهور يُصْهِر إليه، فيتزوج أخته ويزوِّجه أخته. وتيقظت فيه موهبة الشعر فترك القرآن ورواية الحديث النبوي، وأقبل عليه، وآخى أحمد النَّصْبي مغني بلده، فكان إذا قال شعراً غنَّى له فيه. وأول ما بين أيدينا من أشعاره يتصل بمديح النعمان بن بشير الأنصاري الذي ولي على الكوفة سنة تسع وخمسين، وفيه يقول:

متى أكْفُرِ النعمانَ لم أُلْفَ شاكراً ... وما خيرُ من لا يقتدي بشكورِ

وله أشعار ينزع فيها منزع زهد في الدنيا، فهو ينفِّر منها ومن التعلق بمتاعها، وأكبر الظن أنه كان ينظم هذه الأشعار في أول عهده بالنظم حين كان يختلف إلى مجالس صهره الشعبي وغيره من وعَّاظ الكوفة، ومن أطرفها قوله:

وبينا المرء أمسى ناعماً جَذِلاً ... في أهله مُعْجَباً بالعَيْش ذا أَنَقِ [2]

غِرًّا، أُتيح له من حَيْنه عَرَضٌ ... فما تلبَّث حتى مات كالصَّعِقِ

ثمَّ تزود مما كان يجمعه ... إلا حَنوطاً وما واراه من خِرَقِ [3]

وغيرَ نَفْحَة أعوادٍ تُشَبُّ له ... وقلَّ ذلك من زادٍ لمنطلقِ

ونراه حين هُزِمَ التوابون بقيادة سليمان بن صرد سنة خمس وستين يبكيهم بقصيدة كانت إحدى المكتَّمات التي كتمت في ذلك الزمان [4]. ويتولَّى مصعب البصرة لأخيه عبد الله بن الزبير فيلزمه في سلمه وحربه للمختار الثقفي ناظماً أشعاراً كثيرة، رواها الطبري، يصوِّر فيها شعوذة المختار الثقفي وما كان يتخذ من

---

(١) انظر في ترجمة أعشى همدان الأغاني (طبع دار الكتب) ٦/٣٣ والاشتقاق ص ٤٢٣ والمؤتلف ١٤ والموشح ص ١٩١ وراجع فهرس الطبري والجزء الخامس من أنساب الأشراف للبلاذري وله ديوان نشره جاير ملحقاً بديوان أعشى قيس.

(٢) أنق: فرح وسرور.

(٣) الحنوط: طيب يتخذ للميت خاصة.

(٤) طبري ٤/٤٧٢.

كُرْسِي وحمامات بيضاء تمويهاً على جنده[1] . ويُدال للبصرة من الكوفة ، ويفتخر البصريون بانتصارهم ، فيغضب لبلدته ، ويتوجه إليهم بالخطاب قائلا :

وإذا فاخرتمونا فاذكروا ما فعلنا بكمُ يوم الجَملْ[2]

ونراه يخرج مع جيوش مصعب لحرب الخوارج محارباً تحت لواء المهلب وغيره من القواد أمثال عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث . ويظهر أنه ظل يشهر سيفه ضدهم حتى عهد بشر بن مروان على العراق إذ نراه فى موقعة جَلُولاء . وقد انتصر الخوارج ، فمضى يهجو قائد الحملة هجاء مرا . ويتولى خالد بن عتاب بن ورقاء أصبهان ، وكان صديقه ، فيمدحه مدائح رائعة ، غير أنه يجفوه ، فيهجوه . ونراه فى شعره يتحدث عن طلاقه لامرأة من قومه بسبب بَذائها . ويشكو من أخرى تنكرها له ، مع شغفه بها .

ويبعث به الحجاج مع بعض جيوشه إلى مَكْران ، فيمرض هناك ، وينظم قصيدة طويلة يصور فيها حنينه إلى بلدته وأهله وأنه خرج إلى الحرب على رغمه ، خوفاً من سيف الحجاج وبطشه . ويتوغل مع بعوث الحجاج فى بلاد الديلم ، فيقع أسيراً ، وتهواه بنت للعِلْج الذى أسره وتحل قيوده ، وتأخذ به طرُقاً تعرفها ، وبذلك تخلّصه وتهرب معه . ويظهر أنه لم يُوَلّ وجهه إلى العراق ، بل اتجه إلى سجستان حيث كان ينازل عبيد الله بن أبى بكرة زنبيل ملك الترك . ولما دارت على جيشه الدوائر بكى هذا الجيش مضمناً بكاءه هجاء شديداً لابن أبى بكرة سواء فى قيادته غير الحكيمة أو فى إهداره لمسئولياته ، إذ انتهز ما كان فيه جيشه من ضيق ، فباع القفيز من الشعير بدرهم ، كما باع لهم العنب الحِصْرِم ، وهم يتساقطون جوعاً ، يقول :

أَسمعتَ بالجيش الذين تمزّقوا وأَصابهم رَيْبُ الزمان الأَعــوجِ
حُبسوا بكابُلَ يـأكلون جِيادهم بـأَضرَّ منزلةٍ وشرِّ مُعَرَّجِ[3]
لم يلق جيشٌ فى البلاد كما لقوا فلمثلهم قُلْ للنوائح تَنْشِجِ

(١) انظر الطبرى ٤/٥٥٠ ، ٥٦١ ، ٥٦٥ .

(٢) يشير إلى وقعة الجمل وانتصار على فيها بأهل الكوفة على أهل البصرة .

(٣) كابل : قصبة زنبيل ملك الترك .

ثم اتجه بخطابه إلى عبيد الله فقال :

وُلّيتَ شأنَهُمُ وكنتَ أميرهم ... فأضعتهم والحرب ذاتُ توهُّج
وتبيعهم فيهـا القفيزَ بدرهمٍ ... فيظلُّ جيشك بالملامة ينتجى[1]
ومَنعتهم ألبـانَهم وشعيرهم ... ونَجرْتَ بالعنب الذى لم ينْضَج

ومات ابن أبي بكرة كما قدمنا ، فولِّيَ سجستان ابن الأشعث ، فسأله أن يزيد فى عطائه ، فلم يُلبِّ سؤاله ، فمضى يعاتبه فى قصيدة طويلة ، يقول له فى تضاعيفها :

مالك لا تعطى وأنت امرؤٌ ... مُثْرٍ مِن الطّـارفِ والتّـالدِ
تَجْبى سجستانَ ومـا حولها ... متّكئـاً فى عيشك الرّاغـدِ

وتتطور الظروف ، ويثور ابن الأشعث على الحجاج ، فيضع الأعشى يده فى يده وكأنه صَدَرَ فى ثورته عن أمنيته ، فقد وقف من قديم فى صفوف المعارضة الأموية ، وقف كما قدمنا مع التوابين من الشيعة ثم وقف مع مصعب بن الزبير . وكان دائماً لا يرضى عن ولاة بنى أمية ، ويراهم ظالمين للرعية يسومونها العذاب على نحو ما رأينا فى هجائه لابن أبي بكرة . وهذا الحجّاج على العراق قد بغى وطغى ، ولا يعرف أحد طغيانه وبغيه مثله ، فقد أمره بالخروج فى بعوث الشرق ، وخرج كارهاً مُرْغَماً ، لايعرف متى يأذن له فى العودة لتقرَّ عينه بأهله وولده . لذلك حين أعلن ابن الأشعث الثورة على الحجاج لزمه ينظم الشعر محمّسا لجنده ، فلما توجه مقبلا إلى العراق سار بين يديه على فرس وهو يقول :

إنا سفَوْنا للكفور الفتّانْ ... حين طغى فى الكفر بعد الإيمانْ[2]
بالسيد الغِطْريف عبد الرحمن ... سار بجَمْعٍ كالدَّبَى من قحطانْ[3]
أمكن ربِّى من ثقيفٍ هَمْدان ... يوماً إلى الليل يُسَلِّى ما كانْ
إن ثقيفا منهم الكذّابان ... كَذّابُها الماضى وكذابٌ ثانْ

(١) ينتجى : يتسار ، من النجوى وهى السر .
(٢) سفا : خف وأسرع .
(٣) الدبى : الجراد .

وأخذ ينظم أشعاراً كثيرة ، يثير بها الجند ويحرضهم على القتال ، ونجده في هذه الأشعار يتحدث عن مجد ابن الأشعث القديم ، وما كان لآبائه من مُلك وشرف وسيادة في الجاهلية ، وهو بذلك يضع في يدنا وثيقة سياسية لهذه الثورة ، فهي كما قدمنا ثورة أشراف الكوفة الذين انحدروا من أُسَر العصر الجاهلي النبيلة ، يقول :

بأَبى الإله وعزةُ ابنِ محمَّد ... وُجدود مَلْكٍ قبل آل ثمودِ[1]
أن تأْنَسُوا بمُذَمَّمين عُروقُهم ... في الناس إن نُسبوا عروقُ عبيدِ
كم من أب لك كان يَعْقِد تاجَه ... بجبين أَبْلَجَ مِقْوَلٍ صِنْدِيدِ[2]
ما قصرَّتْ بك أن تنال مدى العُلا ... أخلاقُ مكرمةٍ وإرثُ جُدودِ

وانتهت الحرب وانتصر الحجاج ، وأُتي إليه بأعشى همدان أسيراً ، فأخذ يستعطفه ويسترحمه ويحاول أن يُلين قلبه له بقصيدة رائعة يقول فيها مشيداً بانتصاره :

أبَى اللهُ إلا أن يتمِّم نوره ... ويطفئَ نار الفاسقين فتَخْمُدَا
ويُنْزِل ذُلاًّ بالعراق وأهله ... لما نقضوا العهدَ الوثيقَ المؤكَّدَا
وما نكَثُوا من بَيْعَةٍ بعد بيعةٍ ... إذا ضَمِنوها اليوم خاسوا بها غَدَا[3]
وما أحدثوا من بِدْعَةٍ وعظيمةٍ ... من القَول لم تَصْعَدْ إلى الله مَصْعَدَا
وما زاحفَ الحَجَّاجُ إلا رأيته ... مُعَانًا مُلَقًّى للفتوح معوَّدا
ليهنئْ أميرَ المؤمنين ظهورُه ... على أمة كانوا بُغاةً وحُسَّدَا

ولكن ذنبه عند الحجاج كان عظيماً فاربدَّ وجهه واهتزَّ منكباه ، وأمر الحرسيَّ فضرب عنقه سنة ٨٣ للهجرة .

---

(١) ابن محمد : هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث . ويريد بآل ثمود قبيلة ثقيف قوم الحجاج ، وكان هناك من يقول إنهم بقايا ثمود

(٢) أبلج : طلق الوجه . مقول : خطيب . صنديد : الجواد الشجاع

(٣) خاسوا : غدروا ونكثوا

٥

شعراء بنى أمية

لا نريد هنا أن نتحدث عن مُدّاح بنى أمية ، فالمديح شىء والشعر السياسى شىء آخر . المديح ثناء يقدمه الشاعر ابتغاء النوال والعطاء ، أما الشعر السياسى فنضال عن الحكم وعن نظرية معينة فيه ، فهو ليس مجرد مديح ، إنما هو دفاع من جهة وهجوم من جهة ثانية ، دفاع عن نظرية ، تعتنقها جماعة من الجماعات أو فرقة من الفرق ، وهجوم على خصومها ومن يقفون فى الصفوف المعارضة لها .

وأول صورة تلقانا للشعر السياسى المناصر لبنى أمية ما أخذ ينظمه الأمويون أنفسهم من مثل الوليد بن عقبة عقب مقتل عثمان ، إذ مضوا يهاجمون الثوار ، الذين قتلوه ، جاعلين أنفسهم أصحاب الحق فى الثأر من قتلته ، فهم أهله الأقربون ، ومن ثَمَّ فهم أولياء دمه . وكان علىٌّ قد بُويع بالخلافة وانشق عليه طلحة والزبير والسيدة عائشة ، كما انشق زعيم بنى أمية معاوية أمير الشام يسنده جيش يمنى موال له تمام الولاء . وبذلك انقسمت الجماعة الإسلامية شيعاً ، وأخذت كل شيعة تحاول أن تفرض رأيها السياسى باللجوء إلى السيف والقوة . ومضى الثلاثة الأولون إلى العراق ونزلوا البصرة فتبعهم على ونزل الكوفة ، وبذلك خرجت الخلافة من المدينة ، ولم يلبث طلحة والزبير أن سقطا فى وقعة الجمل ، فخلا الجو لمعاوية ومطالبته بالثأر من قتلة ابن عمه عثمان . وأسرع على بعد أن بايعه أهل العراق جميعاً قاصداً معاوية فالتقى به عند صِفِّين على حدود الفرات . ونشبت معركة عنيفة كاد ينتصر فيها علىٌّ انتصاراً حاسماً لولا ما لجأ إليه معاوية من رفع المصاحف وطلب الاحتكام إلى القرآن لا إلى السيف . وفى هذه الموقعة نُظم شعر كثير تبادل فيه الفريقان الهجاء ، وكل منهم يدافع عن نظريته فى الحكم وعن إمامه الذى ارتضاه مستلهماً خصومة الشام والعراق فى الجاهلية وما كان من تنافس على سلطان القبائل العربية بين الغساسنة والمناذرة ، على شاكلة قول كعب بن جُعَيْل التغلبى :

أرى الشامَ تكره مُلْكَ العراق　　　وأهلُ العراق لهم كارهونا
وقالوا عليٌّ إمامٌ لنـــا　　　فقلنا رضينا ابنَ هِنْدٍ رضينا

وردّ عليه بعض شعراء العراق ، فقال ينقض ما زعمه ، مشيراً إلى ما بين الطرفين من عداوات قديمة :

أتاكم عليٌّ بـأهل العراقِ　　　وأهل الحجاز فما تصنعونا
فإن يكره القومُ مُلْكَ العراق　　　فقدْ مًا رضينا الذى تكرهونا (١)

وتطورت الظروف وقُتل على بعد التحكيم ، وبايع الناس معاوية ، ودخلت العراق فى طاعته وطاعة من خلفوه من الأمويين ، ولكنها ظلت تعارضهم خفية ، وكلما استطاعت أن تجهر بمعارضتها نهضت إلى ذلك تارة مع الخوارج ، وتارة مع الشيعة ، وتارة مع ابن الأشعث أو يزيد بن المهلب . وعارضتهم الحجاز فى عهد يزيد بن معاوية وتجسمت معارضتها فى عبد الله بن الزبير .

وقد رأينا شعراء مختلفين يقفون فى هذه الصفوف المعارضة يناضلون عن نظرياتهم السياسية ، وكان الأمويون يستظهرون عليهم بشعرائهم طوال العصر . وكان أول ما استخدموا فيه هؤلاء الشعراء هجاء عبد الرحمن بن حسان والأنصار حين اشتبك مع يزيد بن معاوية ، وفى رواية مع عبد الرحمن بن الحكم ، فاستعان عليه يزيد بالأخطل النصرانى التغلبى ، على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع ، ومنذ هذا التاريخ أصبح الأخطل شاعراً أمويًّا يناضل عن السياسة الأموية . ويحاول معاوية أن يجعل الخلافة وراثية فى بيته ، وأن يأخذ البيعة لابنه يزيد فى حياته . وكان ذلك فى رأى كثيرين بدعة منكرة ، إذ تـُخْرُجُ الخلافة به عن الشورى وتصبح إرثاً من الأب لابنه ، على نحو ما هو معروف عند الروم وما كان معروفاً عند الفرس ، وعَرَف معاويةُ نفور المسلمين من ذلك ، فدفع بعض الخطباء إلى الدعوة لفكرته ، كما دفع بعض الشعراء ، وكان أسرع من لبّاه منهم مسكين الدارمى فأنشأ يقول فى كلمة له (٢) :

(١) انظر الأخبار الطوال للدينورى (طبع ليدن) ص ١٧٠ .

(٢) الأغانى (ساسى) ١٨ / ٧١ .

بنى خُلفاءِ اللهِ مهلا فإنما ... يُبَوِّئها الرحمنُ حيث يريدُ[1]

إذا المِنْبَرُ الغَرْبىُّ خلَّى مكانه ... فإن أميرَ المؤمنين يزيد

على الطائر الميمون والجَدُّ صاعدٌ ... لكلِّ أناسٍ طائرٌ وجدودُ[2]

ويقال إن معاوية أقبل عليه ، فقال : ننظر فيما قلت يا مسكين ونستخير الله ، ووصله هو وابنه يزيد وأجزلا صلته .

ومن شعراء آل أبى سفيان المتوكل[3] الليثى وعبدالله[4] بن همّام السلولى « وكان مكينًا حظيًّا فيهم وهوالذى حدا يزيد بن معاوية على البيعة لابنه معاوية » فى أشعار يرويها الرواة ، كان يرثى فيها أباه ويحضه على البيعة لابنه من مثل قوله[5] :

اصْبِرْ يزيد فقد فارقتَ ذا مِقَةٍ ... واشكر حباءَ الذى بالمُلْك حاباكا

لا رُزْءَ أعظمُ فى الأقوام نعلمه ... كما رُزِئتَ ولا عُقْبَى كعُقْباكا

أصبحتَ راعىَ أهل الدين كلِّهم ... فأنت ترعـــاهمُ والله يرعاكا

وفى معـــاويةَ الباقى لنا خَلَفٌ ... إذا نُعيتَ ولا نَسْمعْ بِمَنْعاكا

ونمضى إلى عصر المروانيين ، وأول من نلقاه من شعرائهم أبو العباس[6] الأعمى الشاعر المكى مولى بنى الدُّئل يقول أبوالفرج الأصبهانى : « كان من شعراء بنى أمية المعدودين المقدَّمين فى مدحهم والتشيع لهم وانصباب الهوى إليهم » ونراه حين غلب ابن الزبير على الحجاز ونفى عنه الأمويين وعلى رأسهم مروان ابن الحكم يبكيهم بأشعار كثيرة من مثل قوله :

ولم أر حَيًّا مثل حَىٍّ تحمَّلـــوا ... إلى الشام مظلومين منذ بُرِيت[7]

أعزَّ وأمضى حين تَشْتجر القَنا ... وأعلمَ بالمسكين حيث يَبيت

---

(١) يبوئها : ينزلها .

(٢) الجد : الحظ .

(٣) انظر الأغانى (طبع دار الكتب) ١٥٩/١٢ .

(٤) انظر فى ترجمته الشعر والشعراء ٦٣٣/٢ وابن سلام ص ٥٢٢ والخزانة ٦٣٨/٣ .

(٥) البيان والتبيين ١٣٢/٢ والمبرد ص ٧٨٥ وراجع المصادر السابقة .

(٦) انظر فى ترجمته الأغانى (طبع الساسى) ٥٧/١٥ ونكت الهميان للصفدى ص ١٥٣ ومعجم الأدباء ١٧٩/١١ والتهذيب ٤٤٩/٣ والبيان والتبيين ٢٢٢/١ ، ٢٣٣ .

(٧) تحملوا : ارتحلوا . بريت : خلقت .

إذا مات منهم سَيِّدٌ قام سيد بصيرٌ بعَوْرات الكلام زَميتُ[1]

وقوله :

ليت شعرى أفـاح رائحة المِسْـ ـكِ وما إن أخال بالخَيْف أنْسِى[2]
حين غابتْ بنو أميَّـة عنه والبهَاليـلُ من بنى عبد شَمْسِ
خطباءُ على المنابر فُرْسا نٌ عليها وقالةٌ غير خُرْسِ
لا يُعابون صامتين وإن قا لوا أصابوا ولم يقولوا بِلبْسْ

وبلغ ابن الزبير نُبَذٌ من كلامه وأنه يمدح عبد الملك ويرسل له بجوائزه وصلاته ، فنفاه إلى الطائف ، وهناك أخذ يهجوه وآله هجاء مرًّا ، محرضاً عبد الملك على حربه . وعلى نحو ما كان ينحرف عن ابن الزبير كان ينحرف عن بنى هاشم ، وفى ذلك يقول لأبى الطفيل عامر بن واثلة وكان شيعيًّا :

لعمرك إننى وأباطُفَيْلٍ لمختلفـان واللهُ الشهيدُ
لقد ضَلُّوا بحب أبى تُرابٍ كما ضلَّتْ عن الحق اليهودُ

ويقال إنه أدرك دولة بنى العباس ، وتُرْوَى له أشعار مختلفة — إن صحت — فى بكاء الأمويين ، يتفجع فيها عليهم ويتحسر تحسراً شديداً من مثل قوله :

خلتِ المنابرُ والأَسرَّة منهمَ فعليهمُ حتى المـماتِ سلامُ

وممن كان يلهج بهم ويقف فى صفوفهم نابغة بنى شيبان[3] عبد الله بن المخارق ، ويستظهر أبو الفرج أنه كان نصرانيًّا ، لحلفه بالإنجيل والرهبان والأيمان التى يحلف بها النصارى ، وفى ديوانه أشعار كثيرة تدل أنه اعتنق الإسلام من مثل قوله :

ويَزْجرنى الإسلامُ والشَّيْبُ والتُّقى وفى الشيبِ والإسلام للمرء زاجرُ

---

(١) زميت : وقور .
(٢) الخيف : ناحية من منى بمكة .
(٣) انظر فى ترجمته الأغانى (طبع دار الكتب) ٧/١٠٦ وقد نشرت دار الكتب ديوانه .

وكان منقطعاً إلى عبد الملك ، فلما همّ بخلع أخيه عبد العزيز وتولية ابنه الوليد العهد َمثَل بين يديه ينشده قصيدة طويلة يقول فى تضاعيفها :

لَابنُكَ أولى بمُلْكِ والده ونَجْمُ من قد عَصاك مطَّرَحُ

فعلم الناس أن هذا هو رأى عبد الملك . وظل من بعده يمدح أبناءه ، وله تهنئة طويلة ليزيد حين قضى أخوه مسلمة على ابن المهلب . ولزم بعده ابنه الوليد ، وله فيه مدائح كثيرة ، وكان من هواه فى الخمر والشراب ، وله فيها أشعار طريفة .

وعلى شاكلته فى الانتصار لبنى مروان أعشى قبيلته عبد[1] الله بن خارجة ، وكان شديد التعصب لهم ، وله فى عبد الملك مدائح كثيرة ، يحضه فيها على حرب ابن الزبير والقضاء عليه من مثل قوله :

آلُ الزبير من الخلافة كالتى عَجِلَ النِّتاجُ بِحَمْلها فأَحالها[2]
قوموا إليهم لا تناموا عنهمُ كم للغواة أطلتمُ إمهالها
إن الخلافة فيكمُ لا فيهمُ ما زلتمُ أركانها وثِمالها[3]
أمسوا على الخيرات قفلا مغلقاً فانهض بيُمْنك فافتتح أقفالها

ومن شعراء بنى أمية أبو عطاء[4] السِّنْديّ مولى بنى أسد ، وكانت فيه لُكْنة سبق أن تحدثنا عنها وكان من شعراء يزيد بن عمر بن هبيرة آخر ولاة الأمويين على العراق ، ولما قتله العباسيون رثاه مراثى بديعة . وقد عاش إلى أيام المنصور ، ونراه يبكى بنى أمية حين سقطت دولتهم هاجياً العباسيين فى أشعار كثيرة من مثل قوله :

ياليت جَوْرَ بنى مروانَ عاد لنا وأَنَّ عدل بنى العباس فى النار

وقوله :

بنى هاشمٍ عودوا إلى نَخَلاتكمْ فقد قام سِعْرُ التَّمْر صاعاً بدرهمِ
فإن قلتمُ رَهْطُ النبىِّ وقومُـهُ فإن النصارى رَهْطُ عيسى بن مريمِ

---

(١) انظر ترجمته فى الأغانى طبع (ساسى) ١٦/١٥٥ وقد نشر جاير ديوانه ملحقاً بديوان أعشى قيس .

(٢) أحالها : جعلها لا تنتج .

(٣) الثمال : الغياث الذى يقوم بأمر قومه .

(٤) انظر فى ترجمة أبى عطاء أغانى (ساسى) ١٦/٧٨ والشعر والشعراء ٢/٧٤٢ والخزانة ٤/١٧٠ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٤٥٦ والعينى ١/٥٦٠ .

وبجانب هؤلاء الشعراء كثيرون كانوا لا ينقطعون لبنى أمية ، ولكنهم كانوا يمدحونهم من حين إلى حين ، منوهين بأن الأمة لا تصلح إلا عليهم ، ولاتتم لها سعادتها إلا بهم ، وكانوا لا يزالون يقولون إنهم المختارون للأمة على شاكلة قول الأحوص فى الوليد بن عبد الملك(١) :

تخيَّرهُ ربُّ العباد لخلقهِ وَلِيًّا وكان الله بالناس أعْلَما

وقد يصعدون بهم فيشبهونهم بالأنبياء ، يقول يزيد بن الحكم فى سليمان(٢) :

سُمِّيتَ باسم امرئ أشبهتَ شِيمَتَه عَدْلا وفضلا سليمانَ بنَ داودا
أحْمِدْ به فى الوَرَى الماضين من ملكٍ وأنت أصبحتَ فى الباقين محمودا

وكان فى زهد عمر بن عبد العزيز مدد لهم لا ينفد فى تصوير تقواه وانصرافه عن الدنيا ومتاعها الزائل على نحو ما أسلفنا عند كثيِّر، ويقول العَبْلى فى هشام بن عبد الملك وأسلافه(٣) :

يَقْطعون النهارَ بالرأى والحـزم ويُحْيُون ليلهم بالسجودِ

والغريب أن نجد هذا التصوير يمتدُّ حتى إلى من عُرفوا منهم بالمجون مثل الوليد بن يزيد ، وفيه يقول يزيد بن ضبَّة(٤) :

إمـامٌ يُوضِحُ الحقَّ له نـورٌ على نـورِ

ولما اضطربت الدولة فى عهده وعهد خلفائه ، وأخذوا يحتربون ويقتل بعضهم بعضاً ، وبَدتْ فى الأفق النُّذر بزوال حكمهم كتب نصر بن سيار واليهم على خراسان إلى يزيد بن عمر بن هبيرة واليهم على العراق يستنصره وينبئه عن تحرك الشيعة فى دياره قائلا(٥) :

أرى خَلَل الرَّمادِ وميضَ جَمْرٍ فيوشك أن يكون له اضطرامُ
فقلتُ من التعجّب ليتَ شعرى أأيقاظٌ أميَّةُ أم نيـامُ
فإن كانوا لحينهمِ نيـاماً فقل قوموا فقد طال المنام

---

(١) أغانى (دار الكتب) ١/ ٢٩٨ .
(٢) أغانى (دار الكتب) ١٢/ ٢٨٨ .
(٣) أغانى ١١/ ٣٠٦ .
(٤) انظر ترجمته فى الأغانى ٧/ ٩٥ وما بعدها .
(٥) البيان والتبيين ١/ ١٥٨ .

ولم تلبث الثورة عليهم أن اندلعت ، وقوّضتْ حكمهم سنة ١٣٢ للهجرة بين عويل كثير من الشعراء وبكائهم ، على نحو ما أسلفنا عند أبي عطاء السندي ونقف الآن عند شاعرين مهمين من شعرائهم .

عبد الله[1] بن الزَّبِير

كوفي المنزل والمنشأ من بني أسد « كان من شيعة بني أمية وذوي الهوى فيهم والتعصب والنصرة على عدوهم » ونراه يلهج بالشعر منذ خلافة معاوية ، وحدث أن فسد ما بينه وبين عبد الرحمن بن أم الحكم واليه على الكوفة فأخذ يهجوه ، ويقال إن يزيد بن معاوية هو الذي كان يغريه على ذلك ، إذ كان يبغض ابن أم الحكم ، ولما طلبه استجار منه بمروان بن الحكم وهو على المدينة فأجاره ، ومدحه . ونراه يمدح عمرو بن عثمان مديحاً رائعاً ، إذ يقول :

سأشكر عمراً إن تراخت منيّتي ... أيادىَ لم تُمْنَنْ وإن هي جَلّتِ
فتىً غير محجوبِ الغنى عن صديقه ... ولا مُظْهِر الشكوى إذا النَّعْلُ زَلّتِ
رأى خَلّتي من حيث يَخْفَى مكانُها ... فكانتْ قَذَى عينيه حتى تجلّتِ[2]

ويمدح أسماء بن خارجة ، ويقال إنه شفع له عند ابن أم الحكم ، فعفا عنه ، ولم يكتف أسماء بذلك فقد وصله وجعل له ولعياله عطاء دائماً ، مما جعله يُشيد به بمثل قوله :

ولا مَجْدَ إلا مَجْدُ أسماءَ فوقه ... ولا جَرْيَ إلا جَرْيُ أسماء فاضلُهْ
فتًى لا يزال الدهرَ ما عاش مُخْصِباً ... ولو كان بالمَوْماة تَخْدِي رَواحلُه[3]

وعُزِل ابن أم الحكم عن الكوفة وضُمَّتْ إلى عبيد الله بن زياد مع البصرة ، فلزمه يمدحه وينوّه به في قصائد كثيرة ، ومن قوله فيه :

تصافي عبيدُ اللهِ والمجدُ صفوة الـ ... حليفين ما أرْسَى ثَبِيرٌ ويَثْرِبُ[4]
وأنت إلى الخيرات أولُ سابقٍ ... فأبْشِرْ فقد أدركتَ ما كنت تطلبُ

---

(١) انظر في ترجمته الأغاني (طبع دار الكتب) ٢١٧/١٤ وما بعدها والخزانة ٣٤٥/١ ومعاهد التنصيص ٢٠/١ .

(٢) الخلة : الحاجة والخصاصة . والقذى : ما يقع في العين .

(٣) الموماة : المفازة . تخدى الناقة : تسرع في سيرها .

(٤) ثبير : جبل بظاهر مكة . يثرب : مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم .

ويتوفى يزيد بن معاوية ، وتموج الفتنة بالعراق ، فيفر ابن زياد إلى الشام وتخلص الكوفة للمختار الثقفى فيتحول إليه ابن الزّبير يتوعده ويتهدّده بكتائب المروانيين . ويغلب مصعب على الكوفة ويؤتى به أسيراً ، فيمنُّ عليه ويصله ويحسن إليه ، فيمدحه ، ولكنه لا ينتقل بولائه إلى أخيه عبد الله ، إذ نراه يهجوه حين يبلغه قتله لبعض شيعة بنى أمية ، وله يقول :

أيهـا العائذُ فى مكةَ كمْ ... من دمٍ أهْرَقْتَه فى غير دَمْ
أيَدٌ عـائذةٌ معصمةٌ ... ويدٌ تقتل مَنْ حَلَّ الحَرَمْ

ولما قضى عبد الملك على مصعب ، وخلص له العراق ، وأرسل الحجاج للقضاء على ابن الزبير بمكة مضى ينذره بسوء المصير قائلا :

كأنى بعبد الله يركب رَدْعَـه ... وفيه سِنان زاعِبِيٌّ مُحَرَّبُ[1]
وقد فَرَّ عنه الملحدون وحلَّقتْ ... بهِ وبمن آساه عَنْقاءُ مُغْرِب[2]
تولَّوا فخلَّوه فشالَ بشِلوهِ ... طويلٌ من الأجذاع عارٍ مشذَّبُ[3]
بكفَّى غلامٍ من ثَقيفٍ نَمَتْ به ... قريشٌ وذو المجد التَّليد معتِّبُ

ويلزم بشر بن مروان فى ولايته على العراق ، ويمدحه مدائح كثيرة وقد توفِّى فى خلافة عبد الملك ، ويظهر أنه لم يعش طويلا بعد بشر ، ويقال إنه عمىَ بأخرة ، ويقول أبو الفرج إنه كان هجاء يُرْهَبُ شره .

عدى[4] بن الرِّقاع

من عاملة إحدى قبائل قُضاعة ، كان منزله بدمشق ، وهو بذلك يُسْلك فى حاضرة الشعراء . وكان مقدَّماً عند بنى أمية — كما يقول أبو الفرج مدّاحاً

(١) يقال ركب ردعه : إذا سقط قتيلا يتشحب دمه . والزاعبية : ضرب من الرماح . محرب : محدد .

(٢) يقال عنقاء مغرب على الوصف وبالإضافة يقصد حوم الطير على أشلائهم .

(٣) الشلو : الجسد . شال به : رفعه أى أنه صلب على جذع طويل . مشذب : مصلح مقوم .

(٤) انظر فى ترجمة عدى وأخباره وأشعاره أغانى (طبع دار الكتب) ٩/ ٢٩٩ وما بعدها و ٩/ ٣٠٧ وما بعدها و (طبع الساسى) ١٧/ ١٦٥ والطبرى ٥/ ٢ والشعر والشعراء ٢/ ٦٠٠ وابن سلام ص ٣٢٤ ، ٥٣٥ ، ٥٥١ ، ٥٥٨ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص٨٦ والاشتقاق ص٣٧٥ والموشح ص١٩٠ والطرائف الأدبية (طبع لجنة التأليف) ص ٨١ .

لهم ، خاصًّا منهم بالوليد بن عبد الملك . ونراه يشترك فى مخاصمات أشراف قبيلته لعهد يزيد بن معاوية . ولما أُشرعت الأسنة بين القبائل اليمنية وقيس فى الشام ناصر قومه وبنى أمية . ونراه مع عبد الملك فى حربه لمصعب بن الزبير ، وله يمدحه مفاخراً بنصرتهم له :

لعمرى لقد أصْحرتْ خَيْلُنا ... بأكنافِ دِجْلة للمُصْعَبِ (١)
يَهزُّون كلَّ طويل القنا ... ة ملتئم النَّصْل والثَّعْلَبِ (٢)
تقدَّمَنا واضحٌ وجْهــه ... كريمُ الضرائب والمَنْصبِ (٣)
أُعِينَ بنا ونُصِرْنا بهِ ... ومن يَنْصُرِ اللهُ لم يُغْلَبِ

ولا نكاد نمضى فى عصر الوليد بن عبد الملك حتى نجده يقربه منه ويتخذه شاعره الرسمى ، حتى لَيُنْعليه على جرير فى بعض مجالسه ، ويثور جرير ، ويهجوه ، فيتدخل الوليد ويتهدده إن عاد إلى هجائه . ويظل فى رعايته يصفّيه مدائحه ، ويتغنى له فيها المغنون ، ومما غنّى له ابن سُرَيج فيه قوله :

صَلَّى الذى الصَّلواتُ الطيِّباتُ له ... والمؤمنون إذا ما جمَّعوا الجُمَعا
هو الذى جَمع الرحمنُ أُمَّته ... على يديه وكانوا قبله شِيَعَا
إن الوليدَ أميرَ المؤمنين له ... مُلْكٌ عليه أعانَ اللهُ فارتفعَا

وقوله :

صَلَّى الإلهُ على امرىءٍ ودَّعتُه ... وأتمَّ نعمتَــه عليه وزادها
أَوَلا تَرى أن البَرِيَّة كلَّها ... أَلقتْ خــزائِمَها إليه فقادها (٤)
ولقد أراد الله إذ ولَّاكهــا ... من أُمَّةٍ إصلاحَهــا ورشادها
أَعْمَرْتَ أرضَ المسلمين فأَقبلتْ ... ونفيتَ عنها مَنْ يروم فسادَها

---

(١) أصحرت : برزت
(٢) الثعلب : رأس الرمح
(٣) الضرائب : الطباع
(٤) الخزائم : جمع خزامة . وهى البرة يخزم بها البعير فى أنفه . كنى بذلك عن الانقياد والطاعة .

وأَصبتَ في أرض العدوِّ مصيبةً عَمَّتْ أَقاصيَ غَوْرِها ونِجادَها
ظَفَرًا ونصْرًا ما تناول مثلَه أَحدٌ من الخلفاء كان أرادها
وإذا نَشَرْتُ له الثناء وجدتُه جَمع المكارم طِرْفَهَا وتِلادهـا[1]

وعلى هذا النحو كان يمدح الوليد مدحاً مبالغاً فيه مفرطاً ، محاولا بكل ما يستطيع أن يخلع عليه هالة من القداسة ، فهو قد اصطفاه الله للأمة واختاره لسياستها وصلاح شئونها ورشاد أمورها والتئام شَعْثها ، وقد انقادت إليه بأزمتها ، والله يتم عليه نعمته ، وهى تصلى له وتدعو بالتوفيق بل إن الله فى علاه ليصلى عليه كما يصلى على نبيه محمد المصطفى . ويصور حسن سياسته الداخلية ، وكيف أعمر أرض المسلمين حتى ازدهرت وآتت أكلها ، وإنه ليحوطها بجنده منزلا على أعدائها صواعقه ، فتمحقهم محقاً .

وفى أشعاره ما يدل على أنه كان يُعْنَى بها عناية شديدة إذ ما يزال يَصْقلها ويشذبها حتى تابين له متونها ، مردداً فيها نظره مجيلا عقله ، يقول :

وقصيدةٍ قد بتُّ أجمعُ بينها حتى أُقوِّمَ مَيْلَها وسِنادها[2]
نظرَ المثقِّف فى كُعوب قَناته حتى يُقيم ثِقافُه منآدَها[3]

واشتهر بين القدماء بأنه كان يحسن وصف الإبل وحُمر الوحش والظباء ، ومن بديع وصفه لظبية ترتعى ومعها شادنها أو ابنها قوله :

تُزْجى أَغَنَّ كأَنّ إبرة رَوْقِهِ قلمٌ أصابَ من الدواة مِدادها[4]

ويشبه امرأة بجؤذر ، فيقول :

وكأَنها وسْطَ النساء أعارها عينيه أَحْوَرُ من جآذرِ جاسمِ[5]
وَسْنانُ أَقصَده النُّعاسُ فرنَّقتْ فى عينه سِنَةٌ وليس بنائم[6]

(١) طرفها : حادثها . تلادها : قديمها .
(٢) السناد : من عيوب الروى .
(٣) المثقف : الذى يشحذ الرماح والسيوف ويقومها . منآدها : معوجها .
(٤) تزجى : تسوق . الأغن : الشادن فى صوته غنة . الروق : القرن . إبرته : طرفه الحاد .
(٥) الجآذر : جمع جؤذر وهو ولد البقرة . وجاسم : من قرى دمشق .
(٦) أقصده : صرعه . رنقت : خالطت .

وتراه يصف سنابك حماري الوحش حين يعدوان في الصحراء ويثيران من حولهما الغبار وصفاً طريفاً إذ يقول .

يتعاوران من الغبار مُلاءةً غَبْراء محكمةً هما نسجاها
تُطْوَى إذا عَلَوا مكاناً ناشزاً وإذ السنابكُ أسهلتْ نَشراها

وله في النسيب أبيات تدل على دقة حِسِّه من مثل قوله :

ولقد تبيت يَدُ الفتاة وسادةً لىَ جاعلا يُسْرَى يدىَّ وسادها

ولعل في كل ما قدمنا ما يدل على أنه كان شاعراً بارعاً ، وأنه كان يطالب في شعره أن يأتي بالصور الطريفة والأخيلة المبتكرة والأحاسيس الدقيقة .

الفصل الخامس

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل الصريح

رأينا فى حديثنا عن مراكز الشعر لهذا العصر كيف تحضرت المدينة ومكة وغرقتا إلى آذانهما فى الرَّفه والنعيم ، بتأثير ما صبَّ فيهما من أموال الفتوح والرقيق الأجنبى ، وكيف أخذ هذا الرقيق يَسُدّ حاجة الشباب المتعطِّل من اللهو بما كان يقدِّم له من غناء وموسيقى ، وقد استطاع من خلال ملاءمته بين الغناء العربى القديم وما ثقفه من غناء الفرس والروم أن ينفذ إلى نظرية جديدة وضع على أساسها الألحان والأنغام التى وقَّع عليها الشعر ، وظلت هذه النظرية مسيطرة على غنائنا العربى قروناً طويلة .

ويخيَّل إلى الإنسان كأنما فرغت المدينتان الكبيرتان فى الحجاز للغناء ، فالناس يختلفون فيهما إلى المغنين والمغنيات ، حتى النُّسَّاك والفقهاء ، فليس هناك من لا ينعم بالغناء ،حتى النساء كن يتخذن الأسباب لسماعه فى مجالسهن . وفى كتاب الأغانى أخبار كثيرة تصور كلفَ سكان المدينتين به وأنه أصبح شغلهم الشاغل[١] . وقد شاعت فى هذا الجو المعطرة أنفاسه بالموسيقى موجةٌ واسعة من المرح ، ورقيت الأذواق ودقت الأحاسيس وعاش الشعراء للحب والغزل فهو الموضوع الذى كان يطلبه المغنون والمغنيات ويستهوى الناسَ من رجال ونساء .

وبذلك كادت تختفى من المدينتين الموضوعات الأخرى للشعر ، فقلما نجد فيهما مديحاً أو هجاء ، إنما نجد الغزل يشيع على كل لسان . وأخذ يتطور بتأثير الغناء الذى عاصره تطوراً واسعاً ، إذ أصبحت كثرته مقطوعات قصيرة ، وعَدَلَ الشعراء إلى الأوزان الخفيفة من مثل الرَّمل والسريع والخفيف والمتقارب والهزج

(١) انظر فى ذلك كتابينا : الشعر الغنائى فى المدينة (طبع دار الفكر العربى) ص ٦١ وما بعدها والشعر الغنائى فى مكة (طبع دار الفكر العربى) ص ٥٧ وما بعدها .

والوافر ، كما عدلوا إلى مجزوءات الأوزان الطويلة من مثل الكامل والبسيط والرجز ، بل لقد مالوا إلى تجزئة الأوزان الخفيفة من مثل الخفيف والرمل والمتقارب ، حتى يعطوا للمغنين والمغنيات الفرصة كاملة كى يلائموا بين أشعارهم وألحانهم وأنغامهم التى يوقّعونها على آلاتهم الوترية وطبولهم الموسيقية ، فيطيلوا أو يقصروا ويجهروا فى مواضع الجهر ويهمسوا فى مواضع الهمس . وليس ذلك فقط ما أثّر به الغناء الأموى فى الغزل الذى عاصره ، فقد دفع الشعراء إلى اصطناع الألفاظ العذبة السهلة ، حتى يُرْضوا أذواق المستمعين فى هذا المجتمع المتحضر الذى يخاطبونه . وكانت هذه أول دفعة قوية نحو تصفية الشعر العربى من ألفاظه البدوية الجافية .

ولم يختلف هذا الغزل الجديد عن الغزل الجاهلى القديم فى صورته الموسيقية والأسلوبية فحسب ، فقد أخذ يختلف أيضاً فى صورته المعنوية ، إذ لم يعد تشبيباً بالديار وبكاءً على الأطلال ، كما كان الجاهليون يصنعون فى جمهور غزلهم ، بل أصبح غالباً تصويرًا لأحاسيس الحب التى سكبها المجتمع الجديد فى نفوس الشعراء . وهو مجتمع ظفرت فيه المرأة العربية بغير قليل من الحرية ، فكانت تَلْقَى الرجال وتحادثهم ، وكانت — شأنَ المرأة فى كل عصر — تُعْجَبُ بمن يصف جمالها وتعلق القلوب بها . وينبغى أن نفرق بين الحرية والإباحية ، فى الأولى يبقى للمرأة وقارها وعفافها ، وفى الثانية تصبح ممتهنة تقبل على اللهو والعبث والمجون ، لا يردُّها وقار ولا حشمة ولا خلق .

وحقًّا برزت المرأة فى مكة والمدينة للشباب فى هذا العصر ، ولكنها ظلت تحتفظ بحجاب من الوقار ، كانت فيه لا تضيق بما يقال فيها من غزل ، بل لعلها كانت تحبُّ فيه أن يحظى بغير قليل من الحرارة . وبذلك نفهم إقبال الثُّرَيَّا بنت على بن عبد الله الأموية فى مكة وسُكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة فى المدينة على هذا الغزل ، بل لقد مرَّ بنا أن ابن قيس الرقيات كان يتغنى بنساء ممدوحه مصعب بن الزبير ، وتغنَّى بأم البنين فى مدائحه لعبد الملك ، ولم يجد أحدهما فى ذلك حرجاً .

وعلى هذا النحو كان الناس رجالا ونساء فى مكة والمدينة يقبلون على شعر

الغزل ، وأخذ الشعراء يُخْضعون ملكاتهم وعواطفهم له ، منهم من يتحفظ ، فيكظم حبه فى نفسه ، فإذا هو حب عذرى نقى طاهر ، وهم أصحاب التقوى والورع مثل عبد الرحمن بن أبى عمَّار الجُشَمىّ ناسك مكة وعروة بن أذينة وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة فقيهى المدينة . ومنهم من لا يتحفظ ، بل يصرح بحبه وزياراته لمحبوباته ، وهم الجمهور الأكثر ، وعلى رأسهم عمر بن أبى ربيعة والأحوص والعَرْجىّ ، فهم جميعاً يطلبون المرأة ويلحون فى الطلب ، وهم جميعاً يُلقون من حولها شباك الإغراء ، ولا بأس أحياناً من أن يستفزوا أهلها بما يثيرون فى نفوسهم من ريبة ، وبلغ من تيه عمر فى ذلك أن رأيناه يصورها متهالكة عليه تتضرع إليه وتستعطفه ، ونحن نقف قليلا عنده وعند صاحبيه ، لتتضح لنا صورة هذا الغزل الصريح .

عمر[1] بن أبى ربيعة

فى بيت قرشى واسع الثراء ، هو بيت بنى مخزوم ، ولد عمر فى سنة ٢٣ للهجرة ، لأبيه عبد الله بن أبى ربيعة ، ولأم يمنية أو حضرمية تسمى مَجْدا . وكان أبوه فى الذروة من قومه ثراء ، واستعمله الرسول صلى الله عليه وسلم والياً على إقليم من اليمن يسمى الجَنَد ، وظل عليه فى عهد عمر وعثمان ، حتى إذا حُصر الأخير جاء لينصره فسقط عن راحلته قرب مكة فمات سنة خمس وثلاثين . وهو أحد من نزل بأهله فى مكة بعد هجرتهم[2] ، وفيها وُلد له عمر ، وبها نشأ ، ترعاه عين أمه الغريبة ، وكان جميلا فدللته ، يؤازرها فى ذلك ما ورثه عن أبيه من أموال وفيرة .

وإذن فعمر شاعر مكى ، وليس بصحيح أنه من أهل المدينة كما توهم

(١) انظر فى ترجمة عمر الأغانى (طبع دار الكتب) ١/٦١ وما بعدها ، ٩/٢٣٩ وما بعدها والشعر والشعراء ٢/٥٣٥ والموشح ص ٢٠١ والخزانة ١/٢٣٨ ومرآة الجنان لليافعى ١/١٨٢ وابن خلكان وشذرات الذهب ١/٤٠ وأمالى القالى ٢/٥١ ، ٣٠٩ ، وذيل الأمالى ص ٦٨ ، وحديث الأربعاء (طبعة الحلبى) ١/٣٧٢ وما بعدها وشاعر الغزل (فى سلسلة اقرأ) لعباس محمود العقاد وكتابينا : التطور والتجديد فى الشعر الأموى (طبع دار المعارف) ص ٢٣٩ والشعر الغنائى فى مكة ص ١٤٧ . وقد نشر شفارتس ديوانه وألحق به دراسة عن حياته وشعره ولغته وأوزانه . ونشر الديوان بمصر وفى بيروت .

(٢) ابن سعد ٥/٣٢٨ .

بعض المعاصرين ، وبنوا دراستهم له على هذا الوهم[١] ، وفى الكامل للمبرد إشارات لذلك كثيرة تنقض هذا الوهم نقضاً[٢] ومما يشهد لذلك شهادة قاطعة قوله :

وأنا امرؤٌ بِقَرارِ مكَّةَ مسْكنى　　　ولها هواىَ فقد سَبَتْ قَلْبِى

وقد عاش حياته للغزل الصريح ، ويسَّر له ثراؤه هذه المعيشة ، فالدنيا دائماً مشرقة باسمة من حوله ، والمغنون والمغنيات من أهل مكة مثل ابن سُرَيْج وابن مِسْجح والغريض يلزمونه ويغنونه فى شعره . حتى لنظن أنهم كانوا يقاسمونه حياته ، فضلا عما كان يعطيهم من عطايا جزيلة[٣] . ويقول الرواة إنه كان ببيته مغنيتان تغنيانه فى أشعاره هما بَغُوم وأسماء . وسرعان ما يطير غزله إلى المدينة ، فإذا مغنوها ومغنياتها من مثل مَعْبَد وجميلة يغنون فيه ، ويلم بالمدينة كثيراً ، ويصبح أكبرَ غزلٍ فى عصره ، ولهذا لم يكن غريباً أن يخلِّف أضخم ديوان لا فى عصره فحسب ، بل فى جميع العصور العربية .

وهو فى غزله يُخْضع ملكاته لفن الغناء الذى عاصره ، إذ يستخدم الأوزان الخفيفة والمجزوءة ، حتى يحمِّلها المغنون والمغنيات ما يريدون من ألحان وإيقاعات كما يستخدم لغة سهلة ، فيها عذوبة وحلاوة ، حتى تَفْسح لهم فى روعة النغم . ونراه لا يصطنع أى ثوب من ثياب التكلف ، بل يُظْهرنا على حقيقته فى غزله وأنه لا يزال يتخذ الشباك لكل امرأة جميلة فى مكة ، وتحوَّل إلى مواسم الحج ، يعلن حبه إعلاناً لكل امرأة ذات حسن يلقاها ، يقول :

يَقْصِد الناس للطواف احْتِسابا　　　وذُنوبى مجمــوعةٌ فى الطَّوافِ

وتذهب مواسم الحج ، فيتصدَّى لكل فتاة جميلة بمكة ، وخاصة الثُّريا بنت على الأموية . وينزل المدينة فيتصدى للقرشيات الجميلات بها من مثل سُكينة بنت الحسين وزينب الجُمَحِيَّة . وعلى هذا النحو كان لا يزال يتغزل فى فتيات قريش النبيلات ، ومن ثم وصفَ ترفهن وما كنَّ فيه من نعيم ، وديوانه من خير الدواوين التى تصوِّر ما غرقت فيه القرشيات لهذا العصر من حضارة

---

(١) انظر عمر بن أبى ربيعة حياته وشعره لجبور طبع بيروت .

(٢) الكامل ص ٣٧٤ ، ٥٧٠ وراجع أخباره فى الأغانى مع مغنى مكة ومع الثريا .

(٣) انظر الأغانى (طبع دار الكتب) ١/٣٥٩ ، ٣/٣٢٢ ، ٤/٢٩٦ ، ٨/٢٠٨ .

وحُلِيٍّ وطيب ، على نحو ما نرى فى قوله :

قالتْ ثُرَيَّا لأتراب لها قُطُف ... قُمْنَ نُحَيِّى أبا الخطَّاب من كَثَب[1]

فطِرْن طَيْرًا لما قالتْ وشايعها ... مثلُ التماثيل قد مُوِّهْنَ بالذهب

يَرْفلن فى مُطْرَفات السُّوس آونةً ... وفى العتيق من الدِّيباج والقَصَب[2]

ترى عليهن حَلْىَ الدُّرِّ متَّسِقاً ... مع الزبرجد والياقوت كالشهب

ونراه أحياناً يلهج بصبابته وحبه وما يذوق من وجد وألم ، متلطفاً لصاحبته ، ملحًّا على أن تواصله بودها ، مستعطفاً ، متضرعاً ، بمثل قوله :

ما كنت أشعر إلا مذ عرفتكمُ ... أن المضاجع تمسى تُنْبِت الإبَرا

قد لمتُ قلبى وأعيانى بـواحدة ... فقال لى : لاتَلُمْنى وادْفَع القَدرا

ولكن هذا يأتى نادراً فى غزله ، إذ قلما يشكو من هَجْر أو يتألم لصَدٍّ ، فقد تحول بشعره يملؤه تيهاً بنفسه . ويقال إنه كان جميلا . وكأنما انعكست فيه صورة الحب ، فهو لا يشكو الغرام والعشق ، بل محبوبته هى التى تشكو من ذلك ، فهى التى تحيطه بشباك التضرع والاستعطاف ، وهى التى ما تنى مسهَّدة تتعذب فى حبه وتتمنى لو تراه . واسمعْه يقول على لسان إحدى صواحبه :

تقول إذ أيقنتْ أنى مفارقُها ... ياليتنى مِتُّ قبلَ اليوم يا عمرا

ويقول على لسان ثانية :

ما وافق النفسَ من شىء تُسَرُّ به ... وأعجبَ العينَ إلا فـوقه عُمَرُ

ويقول عن ثالثة :

قد حلفتْ ليلة الصَّوْرَيْن جاهدةً ... وما على المرء إلا الحلْفُ مجتهدا[3]

لأُختها ولأُخرى من مَناصفها ... لقد وجدتُ به فوق الذى وجدا[4]

لو جُمِّع الناسُ ثم اختير صَفْوهمُ ... شخصاً من الناس لم أعدل به أحدا

(١) قطف : جمع قطوف وهى بطيئة الخطو . كثب : قريب .

(٢) مطرفات : ثياب نفيسة . السوس : بلد بالمغرب . القصب : الحرير .

(٣) الصوران : موضع قرب المدينة .

(٤) مناصف : جمع منصف كمنبر ، وهو الخادم .

ويصور شغل ثلاث أخوات به ، فيقول :

قالت الكُبْرى أتعرفنَ الفتى   قالت الوُسْطَى نعم هذا عُمَرْ
قالت الصُّغْرَى وقد تَيَّمْتهَا   قد عرفناه وهل يَخْفَى القمر

ولم يقف بإعجاب المرأة به عند ذلك الحد ، فقد أخذ يصور كَلَفها به وتصدّيها له ، وأنها تدور حوله لعلها تجد سبيلا إليه ، وهو فى أثناء ذلك يتدلل ويتمنع ، وهى تسعى إلى الوصول منتهزة كل فرصة ، حتى بين مشاعر الحج ، يقول :

قالتْ لِتِرْبٍ لها تحدّثها   لنُفْسِدَنّ الطَّوافَ فى عُمَرِ
قومى نصدَّىْ له ليعرفنا   ثم اغمِزيه يا أختَ فى خَفَرِ
قالتْ لها قد غمزتُه فأَبَى   ثم اسبطرّتْ تَسْعى على أثرى[1]

وعلى هذا النحو نراه فى غزله ، يوقد قلوب الفتيات حبًّا ، وهن يتمنين عطفه وحنانه ، وبذلك يعكس الصورة المألوفة فى الغزل العربى ، إذ لا يزال الشاعر يطلب ويأمل ويتضرع ويرجو العطف والحنان ، بل لا يزال يعلن العشق والهيام مسترحماً مستعطفاً ، أما عند عمر فهذا كله موجود ولكن لا فى تصوير حبه هو وإنما فى تصوير حب الفتيات والنساء له وما يوقدُ به قلوبهن من العشق والصبابة.

فعمر فى غزله معشوق لا عاشق ، أو على الأقل فى جمهور هذا الغزل ، ويستتمّ خطوط هذه الصورة لا بإعلان الفتيات والنساء حبهن له فحسب ، بل أيضاً بما يصفن من خطوب هذا الحب ، فهن يتحدثن عن هجرانه ، وهن يذقن مرارة الغيرة ويصطلين بنارها المحرقة ، وهن يتألمن من الوشاة ومن فقدهن لعطفه وأنهن لا يجدن عنده إلا الإعراض والصُّدوف ، يقول على لسان إحداهن :

أمِن أجلِ واشٍ كاشحٍ بِنَمِيمةٍ   مَشَى بيننا صَدَّقْته لم تكذّبِ

وأتاح له ذلك أن يصور عواطف المرأة ونفسيتها وما يتعمقها من دقائق الحب وما يثير فى قلبها من المشاعر الرقيقة ، وكيف تتخذ الأسباب لاسترضاء عاشقها حين تراه ينصرف عنها ، وكيف تتقدم لها بعض صديقاتها تحاول أن تعيد الصفاء بينهما ، يقول :

---

(١) اسبطرت : أسرعت

قالتْ على رِقْبَةٍ يوماً لجارتها ... ما تأمرين فإن القلبَ قد شُغِلا[١]
فجاوبتْها حصانٌ غير فاحشةٍ ... برَجْعِ قولٍ وأمرٍ لم يكن خطِلا
اقْنَىْ حياءكِ فى سِتْرٍ وفى كرمٍ ... فلستِ أولَ أنثى عُلِّقَتْ رجلا[٢]
لا تظهرى حُبَّه حتى أراجعــه ... إنى سأكفيكه إن لم أمت عَجلا

وترضى خطتّها وتوصيها أن تكذّب عنده الوشاة ، وتتوسل إليها أن لا تسرف فى لومه وعذله :

فإن عهدى به واللهُ يحفظه ... وإن أتى الذنب ممن يكره العَذلا

وتكثر الرسل بينه وبين محبوباته فى ديوانه . ونراه يعمد إلى مراسلة بعضهن ، على شاكلة هذه الرسالة التى أرسل بها إلى الثريا ، وقد سار عنها أو سارت عنه :

كتبتُ إليكِ من بلدى ... كتــاب مولَّهٍ كَمِــدِ
كئيبٍ واكفِ العيْـ ... ـين بالحسرات منفــرد[٣]
يؤرّقــه لَهِيبُ الشو ... قِ بين السَّحْرِ والكبدِ[٤]
فيمسكُ قلبــه بيــدٍ ... ويمسح عينــه بِيَدِ

وتردُّ عليه الثريا شعراً[٥] ، وهو يعد أول من اتخذ هذا الأسلوب من تبادل الرسائل بينه وبين صواحبه ، وقد تبعه فيه العباسيون .

ومن أهم ما يَطْبع غزله هذا الحوار القصصى الذى رأيناه على لسان محبوباته يصفن فيه لجاراتهن وأخواتهن وجواريهن حبهن له وهيامهن به . ونراه يعمد أحياناً إلى تصوير اقتحامه لليل والأهوال والأحراس على بعض صواحبه على نحو ما نعرف فى قصيدته :

أمن آل نُعْمٍ أنت غادٍ فمُبْكِرُ ... غداة غَدٍ أم رائحٌ فَمُهَجِّرُ[٦]

---

(١) رقبة : انتظار .
(٢) اقنى حياءك : احتفظى به .
(٣) واكف العينين : سائل الدموع .
(٤) السحر : الرئة .
(٥) أغانى (دار الكتب) ١ / ٢٣٥ وما بعدها .
(٦) غاد : من الغدوة وهى البكرة أو أول النهار ، رائح : من الرواح وهو العشى أو من الزوال إلى الغروب . مهجر : من الهاجرة وهى نصف النهار . وانظر فى هذه القصيدة وشرحها المبرد ص ٣٨١ ، ٥٧٠ .

ويمضى فيصور قضاءه الليل فى الحديث معها حتى تباشير الصباح ، وكأنه فى ذلك يحاكى امرأ القيس فى معلقته إذ يصف بعض مغامراته ، ولكن خلافاً واضحاً يقوم بينهما ، فامرؤ القيس يغامر مع نساء متزوجات ، أما عمر فيغامر مع فتيات نبيلات ، وهى عنده مغامرات لا تتعدى اللقاء والمتعة بالحديث . وعمر من هذه الناحية صريح ولكنها صراحة لا تنتهى إلى إباحية ولا إلى إثم . ومن ثَمَّ كنا ننفى القِصَص التى تزعم أن بعض الخلفاء حين حج نفاه إلى الطائف أو إلى دهلك إحدى جزر البحر الأحمر ، ونظن ظنًّا أن هذا من انتحال الرواة . ويقولون إنه مات وقد قارب السبعين أو جاوزها(١) ، وإذا صح ذلك يكون قد توفِّى حوالى سنة ثلاث وتسعين للهجرة .

الأحوص(٢)

أوْسى من الأنصار من أهل المدينة ، اسمه عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عاصم ابن ثابت ، وجده عاصم حَمِىّ الدَّبْر أى النَّحْل ، إذ بعثه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بنى لَحْيان فى نَفَر ، فحاربوهم فى يوم يسمى يوم الرَّجيع . ولما قتلوه أرادوا أن يصلبوه ، فحمته الدبر منهم نهاراً حتى إذا جَنَّ الليل أمطرت السماء فاحتمله السَّيْل ، فسمِّى حمىَّ الدبر . وخال أبيه حنظلة بن أبى عامر الذى قُتل يوم أحد وقال عنه الرسول إن الملائكة لتغسله ، وقد افتخر بهما الأحوص جميعاً ، فقال :

غَسَّلتْ خالىَ الملائكة الأبْـــرَارُ مَيْتاً طُوبَىَ له من صَرِيعِ
وأنا ابن الذى حَمَتْ لَحْمَه الدَّبْـــرُ قتيلُ اللَّحْيَان يوم الرَّجيع

وإنما لقب الأحوص لحوَص كان فى عينيه ، وهو ضيق فى مُؤْخرها . ويقال إنه كان أحمر شديد الحمرة . وهو مثل ابن أبى ربيعة عاش للحب

---

(١) أغانى (دار الكتب) ١/٧١

(٢) انظر فى ترجمة الأحوص وأخباره الأغانى (طبع دار الكتب) ١/٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٣٠١ ، ٤/٢٢٤ وما بعدها ، ٦/٢٥٤ وما بعدها ، ٩/٦٤ وما بعدها وابن سلام ص ٥٣٤ والشعر والشعراء ١/٤٩٩ والموشح ص١٨٧ والاشتقاق ص٤٣٧ والخزانة ١/٢٣١ وحديث الأربعاء ١/٣٢٩ وكتابنا الشعر الغنائى فى المدينة ص ١٥٨ وما بعدها .

والغزل، غير أنه فيما يظهر لم يكن ثريـا ، ومن ثم كان يرحل كثيراً إلى دمشق يمدح خلفاء بنى أمية وينال عطاياهم الجزيلة ، يقول :

وما كان مالى طارفاً من تجـارةٍ وما كان ميراثاً من المال مُتْلَدَا
ولكن عطايا من إمامٍ مباركٍ مَلاَ الأَرض معروفاً وجوداً وسُؤْددا

وله مدائح مختلفة فى الوليد بن عبد الملك وعبد العزيز بن مروان وعمر ابنه ويزيد بن عبد الملك . وأخباره تدل على أنه كان فيه طيش شديد ، ولعله من أجل ذلك كان يصطدم بكثير من معاصريه ، فيهجوهم هجاء قبيحاً . وهو فى غزله شديد الصبابة ، يستأثر الحب بقلبه ويملك عليه كل شىء ، حتى ليقول :

إذا أنت لم تعشق ولم تَدْرِ ما الهوى فكن حَجَرًا من يابس الصَّخْر جَلْمَدَا

فالحب الحياة ومن لم يعشق عُدَّ من الأموات ، بل من الجماد ، بل من الحجارة أو أشد قسوة . وهو يعلن حبه إعلاناً ، يعلن صبوته وثورة نفسه . وكان فاسد الخلق ، فانصرفت الفتيات والنساء عنه ، إذ رأينه يذهب بعيداً فى التصريح ، على شاكلة قوله :

تعرَّضُ سلماك لما حرم تَ ضلَّ ضلالُك من مُحْرِمِ (١)
تريد به البِرَّ يا ليتَـهُ كفافاً من البِرِّ والمَأْثَمِ (٢)

وأشعاره فى أم جعفر الأوسية أنقى غزلياته ، وكانت تدفعه عنها دفعاً شديداً ، وكذلك كان يدفعه عنها أخوها أيمن ، حتى ليُرْوَى أنه أصلاه يوماً سياطاً حامية ، وفيها يقول :

أدورُ ولولا أن أرى أمَّ جعفرٍ بأبياتكم ما دُرْتُ حيث أدورُ
أزورُ البيوتَ اللاصقاتِ ببيتها وقلبى إلى البيت الذى لا أزورُ
وما كنتُ زَوَّاراً ولكن ذا الهَوى إذا لم يَزُرْ لا بد أن سيزور

---

(١) حرمت : دخلت الحرم مثل أحرمت .

(٢) يقول : ليتنى تعادل إثمى وبرى ، فخرجت غير بار ولا آثم .

ويقول :

وما هو إلا أن أراها فجاءةً فأُبْهَت حتى ما أكاد أُجيبُ
للكِ اللهُ إنى واصلٌ ما وصلتِنى ومُثْنٍ بما أوليتِنى ومُثيبُ
أَبثُّك ما ألقى وفى النفس حاجةٌ لها بين جِلْدِى والعظام دَبِيبُ

ومضى ينظم فيها أشعاره ، وهى تزداد كرهاً له وازوراراً عنه . ونراه مشغوفاً بجميلة المغنية وناديها المشهور فى المدينة ومن كنَّ فيه من الإماء مثل الذّلْفاء وعقيلة وسلاّمة القس وله فيهن غزل كثير ، كن يغنين فيه ، من مثل قوله فى الذلفاء :

إنما الذلْفاءُ هَمِّى فليَدعْنى من يلومُ
حبَّبَ الذّلفاءَ عندى منطقٌ منها رَخيمُ
حبُّها فى القلب داءٌ مستكنٌّ لا يَريمُ[1]

وكانت سلامة القس أكثرهن عطفاً عليه وبِرًّا به ، فنظم فيها غزلا كثيراً ، يصوّر كلفه بها أشد الكلف وتهالكه عليها أشد التهالك على شاكلة قوله :

يا دِينَ قلبك منها لست ذاكرها إلا ترقرق ماءُ العين أو دمعا[2]
لا أستطيع نزوعاً عن محبَّتها أو يصنع الحبُّ بى فوق الذى صَنعا
وزادنى كلفاً فى الحب أنْ منعتْ وحَبُّ شىءٍ إلى الإنسان ما مُنعا

وهو فى هذا الغزل بالإماء والجوارى يختلف عن ابن أبى ربيعة الذى كان لا يتغزل كما مرَّ بنا إلا بالحرائر النبيلات من القرشيات والعربيات . وهو يختلف عنه أيضاً فى بعده فى التصريح ، إذ كان لا يتحرج أحياناً من إباحة ، ومن ثَمَّ شكاه أهل المدينة لأبى بكر بن حزم عامل سليمان بن عبد الملك ، فأقامه على البُلُس للناس . ولما ولى عمر بن عبد العزيز أمر بنفيه إلى دهلك ، فظل بها طوال خلافته ، وولى يزيد بن عبد الملك ، فشفعت له سلاّمة — وقد صارت إليه — عنده فعفا عنه . ولما رُدَّت إليه حريته زار دمشق ، وتغنّى بيزيد وانتصاراته على ابن المهلب طويلا . ويقال إنه توفى حوالى سنة ١١٠ للهجرة .

---

(١) لا يريم : لا يبرح . (٢) دين هنا : داء .

العرجيّ (١)

لُقّب هذا اللقب لضيعة له قرب الطائف تسمى العَرْج كان ينزل بها ، وهو عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان ، من أهل مكة . ويقول الرواة إنه كان أشقر جميل الوجه ، وإنه شُهر بالغزل ونَحا فيه نحو عمر بن أبي ربيعة وتشبَّه به فأجاد .

وهو يختلف عنه من وجوه كثيرة ، إذ لم تكن له نباهته فى أهله ، وكان مشغوفاً باللهو والصيد ، وكانت فيه فتوة وفروسية ، حتى عُدّ فى الفرسان ، ومن ثَمّ اجتذبته حروب مسلمة بن عبد الملك بأرض الروم ، فأبلى فيها بلاء حسناً ، إذ كان من أفرس الناس وأرماهم وأبْراهم لسَهْم . وهو لا يختلف فى ذلك عن عمر فحسب ، بل هو يختلف معه أيضاً فى أنه كان يسرف فى فتوته ، حتى ليخرج إلى شىء من الإباحية ، على شاكلة قوله :

قالتْ رضيتُ ولكن جئتَ فى قَمَرٍ ... هَلاَّ تلبَّثْتَ حتى تَدْخُلَ الظُّلَمُ

وقوله :

باتا بأنعم ليلةٍ حتى بـدَا ... صُبْحٌ تلوَّح كالأغرِّ الأشقرِ

فتلازما عند الفراق صَبابةً ... أَخْذَ الغريم بفضل ثوب المُعْسِر (٢)

وهو لا يقفُ بمثل هذه المعانى عند نفسه ، بل يرمى بها حتى الحواج الناسكات ، يقول فى إحداهن وقد سفرتْ عن وجه جميل :

أماطتْ كساء الخزِّ عن حُرِّ وجهها ... وأدنتْ على الخدَّين بُرْدًا مُهَلْهلا

من اللاء لم يَحْجُجْنَ يبغينَ حِسْبَةً ... ولكن ليقتلنَ البرىءَ المغفَّلا

ونجده يختلف إلى دار جميلة فى المدينة ، ويبدو منه ما يجعلها تُقْسم أن لا تدخله منزلها لكثرة عبثه وسفهه ، ويَشْفع له الأحوص عندها ، فتستقبله وتغنيه فى قوله :

---

(١) انظر فى ترجمة العرجى وأخباره الأغانى (طبع دار الكتب) ١/٣٨٣ وما بعدها و ٨/١٨٤ ، ٢٣٠ ، ٢٧٦ والشعر والشعراء ٢/٥٥٦ والاشتقاق ص ٧٨ وحديث الأربعاء ١/٣١٦ وقد طبع ديوانه فى العراق .

(٢) تلازما : تعانقا . الغريم هنا : الدائن.

ألا قاتل الله الهوى كيف أَخْلَقَا فلم تُلْفه إلا مَشوباً ممذَّقا[١]
وما مِنْ حبيبٍ يستزير حبيبه يعــاتبه فى الودِّ إلا تفرَّقا
لقدسَنَّ هذا الحبَّ من كان قبلنا وقاد الصِّبا المرءَ الكريمَ فأَعْنَقا[٢]

وكان يمضى فى التغنى بهذا الغزل لا يخجل ولا يستحيي من الجموح فيه ، إذ كان جريئاً ، بل كان عنيفاً ، وهو عنف نراه فى تتبعه للنساء المتزوجات يتغزل بهن ، كما نراه فى ظلمه لمولى لأبيه قتله وسلط عبيده على امرأته ، وأيضاً فإننا نرى هذا العنف فى هجائه لمحمد بن هشام المخزومى ، إذ أخذ يتغزل بزوجه جَبْرة المخزومية وأمه جَيْداء بنت عفيف ليفضحه بمثل قوله :

عوجى علىَّ فسَلِّمى جَبْرُ فيمَ الصُّدودُ وأَنْتُم سَفْرُ

وقوله :

عوجى علينا ربَّةَ الهَــوْدجِ إنك إن لا تفعلى تحْــرَجى
أَيْسَرُ ما نال محبٌّ لدى بَيْن حبيبٍ قولهُ عَرِّجِ
نَقْض إليكم حاجةً أو نقل هلْ لىَ مما بىَ من مخْــرج

فلما ولى محمد إمارة مكة لهشام بن عبد الملك أقامه على البُلُس وحبسه ، وظل فى سجنه تسع سنوات إلى أن مات ، وله أشعار كثيرة يأسى فيها على ما صار إليه من عذاب السجن ، يقول فيها بيته المشهور :

أَضاعونى وأَىَّ فتى أَضاعــوا ليــوم كريهةٍ وسِدَاد ثَغْرِ[٣]

ومما يستجاد له قوله :

ارْجِعْ إلى خُلْقك المعروف دَيْدَنَهُ إن التخلُّقَ يـأْتى دونه الخُلقُ

ويقال إن الوليد بن يزيد اقتصَّ للعرجى من محمد بن هشام المخزومى حين صارت الخلافة إليه ، إذ لم يَرْعَ حرمة قرشيته ونسبه فى بنى أمية .

---

(١) أخلق : بلى . ممذقا : مشوباً ومخلوطاً.

(٢) أعنق : سارسيراً منبسطاً ، يريد أن الصبا إذا قاد المرء الكريم انقاد له وجرى فى ميدانه .

(٣) السداد : ما يسد به الخلل . وسداد الثغر : ما يسده من الخيل والشجعان .

٢

شعراء الغزل العُذْرى

الغزل العذرى غزل نقى طاهر ممعن فى النقاء والطهارة ، وقد نُسب إلى بنى عُذرة إحدى قبائل قضاعة التى كانت تنزل فى وادى القُرَى شمالى الحجاز ، لأن شعراءها أكثروا من التغنِّى به ونَظْمه ، ويُرْوَى أن سائلا سأل رجلا من هذه القبيلة ممن أنت ؟ قال : من قوم إذا عشقوا ماتوا ، ويروى أيضاً أن سائلا سأل عروة بن حزام العُذْرى صاحب عَفْراء : أصحيح ما يُرْوَى عنكم من أنكم أرق الناس قلوباً ؟ فأجابه : نعم والله لقد تركت ثلاثين شابًّا قد خامرهم الموت وما لهم داء إلا الحب .

ولم تقف موجة الغزل العُذْرى لهذا العصر عند عُذْرة وحدها ، فقد شاع فى بوادى نجد والحجاز ، وخاصة بين بنى عامر ، حتى ليصبح ظاهرة عامة تحتاج إلى تفسير ، ولا شك فى أن تفسيرها يرجع إلى الإسلام الذى طهر النفوس ، وبرّأها من كل إثم . وكانت نفوساً ساذجة لم تعرف الحياة المتحضرة فى مكة والمدينة ولا ما يُطْوَى فيها من لهو وعبث ومن تحلل أحياناً من قوانين الخلق الفاضل على نحو ما مرَّ بنا عند الأحوص والعرجى ، وهى من أجل ذلك لم تعرف الحب الحضرى المترف ولا الحب الذى تدفع إليه الغرائز ، فقد كانت تعصمها بداوتها وتديُّنها بالإسلام الحنيف ومثاليته السامية من مثل هذين اللونين من الحب ، إنما تعرف الحب العفيف السامى الذى يَصْلَى المحب بناره ويستقر بين أحشائه ، حتى ليصبح كأنه محنة أو داء لا يستطيع التخلص منه ولا الانصراف عنه .

وفى كتاب الأغانى من هذا الغزل مادة وفيرة نقرأ فيها لوعة هؤلاء المحبين وظمأهم إلى رؤية معشوقاتهم ظمأ لا يقف عند حد ، ظمأ نحس فيه ضرباً من التصوف ، فالشاعر لا ينى يتغنى بمعشوقته ، متذللا متضرعاً متوسلا إلى ملاكه السماوى ، وكأنها فعلا وراء السحب ، وهو لا يزال يناجيها مناجاة شجية ، يصور فيها وَجْده الذى ليس بعده وَجْد وعذابه الذى لا يشبهه

عذاب . وتمضى به الأعوام لا ينساها ، بل يذكرها فى يقظته ويحلم بها فى نومه ، وقد يصبح كهلا أو يصير إلى الشيخوخة ، ولكن حبها يظل شابًّا فى قلبه ، لا يؤثر فيه الزمن ولا يرقى إليه السلوان ، حتى ليظل يُغْشَى عليه ، بل حتى ليُجَنُّ أحياناً جنوناً .

وتقترن بأشعار هذا الغزل أسماء كثيرة ، كما يقترن به قصص غزير ، وهو قصص فيه بساطة وسذاجة حلوة ، قصص يصور لنا حياة هؤلاء العشاق العذريين المتبدين ، وقد أحكم الرواة نسجه ، إذ مضوا يلفقون فيه عقدة نفسية ، تخيَّلوا لسامعيهم أنها عقدة حقيقية ، وذلك أنهم زعموا أنه كان من تقاليد العرب أن لا يزوجوا فتياتهم ممن يتغزلون بهن ، لما يجلبن لهن من فضيحة بين العرب . وهو تقليد لم يُعْرَف فى جاهلية ولا إسلام . وقد مضوا يقولون إن السلطان كان يهدر دماء هؤلاء الغزلين ، كأنهم أتوا جناية عظيمة ، ولو قتل السلطان فى الغزل لقتل أمثال الأحوص ، لا هؤلاء المتعففين أصحاب الحب الطاهر الشريف ، وقد حرَّم القرآن الكريم والحديث النبوى قَتْلَ النفس بغير حق . ولا شك فى أن هذا كله قصص لفقه الرواة كى يوجدوا لهذا الغزل عقدة ، بعثت على ما أحسوه عند هؤلاء العشاق من إحساس بالحرمان الشديد . وإذا كان خيال الرواة لعب فى أخبارهم فإنه لعب أيضاً فى أسمائهم ، إذ اخترع من لدنه لبعض هذه الأخبار وما طُوِىَ فيها من أشعار أشخاصاً لعلهم لم يوجدوا أبداً .

وارجع إلى أخبار مجنون بنى عامر وأشعاره التى احتلت فى الجزء الثانى من كتاب الأغانى تسعين صحيفة ونيفاً فستجد الأصمعى يقول : « رجلان ما عُرِفا فى الدنيا قط إلا بالاسم : مجنون بنى عامر وابن القِرِّيَّة وإنما وضعهما الرواة » ، ويقول ابن الكلبى : « حُدِّثت أن حديث المجنون وشعره وضعه فتى من بنى أمية كان يهوى ابنة عم له ، وكان يكره أن يظهر ما بينه وبينها ، فوضع حديث المجنون ، وقال الأشعار التى يرويها الناس له ونسبها إليه » .

وقد يكون اسم العاشق من هؤلاء العذريين حقيقيًّا ، غير أن الرواة أضافوا إليه أشعاراً وأخباراً كثيرة ، ومن خير من يمثل ذلك قيس بن ذَريح ، يقول أبو الفرج فى ترجمته لمجنون بنى عامر نقلا عن الجاحظ : « ما ترك الناس شعراً مجهول القائل فى ليلى إلا

نسبوه إلى المجنون ، ولا شعراً هذه سبيله قيل فى لُبْنَى إلا نسبوه إلى قيس بن ذَريح ». وقد تُفْصح القصة المضافة إلى بعض هؤلاء العشاق عن انتحالها وأنها من صنع الرواة وإن لم ينصّ على ذلك القدماء، وخير ما يمثل ذلك قصة[1] وضّاح اليمن التى تذهب إلى أنه عشق أم البنين زوجة الوليد ، وأنها هويته ، فكانت تدخله عندها وتخفيه فى صندوق . وعرَف ذلك زوجها ، فحفر بئراً عميقة ، رماه فيها ، وهِيل عليه التّراب وسوِّيت الأرض .

وعلى هذا النحو تلقانا فى هذا الغزل العذرى أسماء وأخبار خيالية من صنع الرواة ، غير أن وراءها أسماء وأخباراً كثيرة . لا يرقى إليها الشك . والمهم أن الظاهرة صحيحة، فقد وُجد هذا الغزل العذرى فى العصر الأموى بنجد وبوادى الحجاز ،وكثُر أصحابه وكثرت أشعاره ، حتّى غدت لوناً شعبيًّا عامًّا ، ولعل شعبيتها هى التى أكثرت من القصص حولها ، كما أبهمت بعض من نظموها . وقد اختار الرواة أشخاصاً، جعلوا منهم أبطالا ونسبوا إليهم كثيراً من تلك الأشعار . وخاصة إذا اتفق أن كان فيها اسم محبوبة هذا البطل ، على نحو ما صنعوا بالأشعار التى وجدوا فيها اسم لُبْنَى، فإنهم أضافوها — كما لاحظ الجاحظ — إلى قيس ابن ذَريح .

ومن الأشخاص الحقيقية فى هذا الغزل عُرْوة بن حزام العُذْرى وصاحبته عَفْراء ،وقد ترجم له صاحب[2] الأغانى وروى له أشعاراً رقيقة من مثل قوله :

وإنى لتَعْرونى لذكراك رِعْدَةٌ   لها بين جلدى والعظام دَبيبُ
فوالله لا أنساك ما هبَّت الصَّبا   ومــا أعقبتْها فى الرياح جَنوبُ

ومنهم الصِّمَّة[3] القُشَيْرى، وكان من فتيان بنى عامر وشجعانهم ، وأحب ابنة عم له تسمى رَيًّا ، وخطبها من أبيها فآثر عليه شابًّا موسراً ، فزاد

---

(١) انظرها بترجمته فى الأغانى (طبع دار الكتب) ٢١٨/٦ وما بعدها وراجع أيضاً تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٢٩٥/٧ وحديث الأربعاء ٢٩٣/١ .

(٢) أغانى (ساسى) ١٥٢/٢٠ وانظر الشعر والشعراء ٢/٢٠٤ وذيل الأمالى ص١٥٧ والخزانة ٥٣٣/١ .

(٣) ترجمته فى الأغانى(طبع دار الكتب) ٢/٦ وما بعدها وانظر قصيدته الميمية فى الطرائف الأدبية ص ٧٦ .

شغفه بها ، وأخذ ينظم الأشعار فيها ، ثم رأى أن يغزو فى طبرستان لعله ينساها ، فخرج وذكراها لا تفارقه حتى قتل فى غزوة واسمها على شفتيه ، ومن قوله فى عينية له بديعة :

وأذكر أيَّامَ الحِمىَ ثم أنثنى   على كَبِدى من خشيةٍ أن تصدَّعا

ومنهم كثيِّر عزَّة ، وقد مضت ترجمته ، وذو الرمة وسنترجم له فى شعراء الطبيعة . ويدخل فيهم جماعة من أتقياء مكة والمدينة ، على رأسهم عبد الرحمن ابن أبى عمَّار الجُشَمِي وعروة بن أذَيْنة وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وكان عبد[1] الرحمن من نُسَّاك مكة ، ولقب بالقَس لنسكه ، وتصادف أن استمع يوماً إلى سَلاَّمة ، فشُغف بها ، وشاع ذلك ، فلقبها الناس بلقبه وسموها سلامة القس ، وفيها يقول :

سلاَّمُ هل لى منكمُ ناصرُ   أم هل لقلبى عنكمُ زاجرُ
قد سمع الناسُ بوَجْدى بكم   فمنهم اللائمُ والعاذرُ

وكان عروة[2] من فقهاء المدينة ومحدِّثيها ، ومن الطريف أنه كان يوقِّع شعره ويضع له الألحان بنفسه ، وبذلك نفهم وفرة الموسيقى فى غزله ، فهو ألحان وأنغام على شاكلة قوله :

إن التى زعمتْ فؤادك ملَّها   جُعلتْ هواك كما جُعِلْتَ هَوًى لها
فبِك الذى زعمتْ بها وكلاكما   يُبْدى لصاحبه الصَّبابةَ كلها
بيضاء باكرها النعيمُ فصاغها   بلباقةٍ فأدقَّها وأجلَّها
مَنعتْ تحيَّتها فقلت لصاحبى   ما كان أكثرها لنا وأقلَّها

أما ابن[3] عُتْبة فكان أحد الفقهاء السبعة المقدَّمين فى المدينة الذين حُمل عنهم الفقه والحديث ، وكان ضريراً ، كما كان رقيقاً مرهف الإحساس ، وله

(١) انظر فى حبه لسلامة الأغانى (طبع دار الكتب) ٨/٣٣٤ وما بعدها .

(٢) راجع فى ترجمته الأغانى (طبعة ساسى) ٢١/١٠٥ والشعر والشعراء ٢/٥٦٠ والموشح ص ٢١١ .

(٣) انظر ترجمته فى الأغانى (طبع دار الكتب) ٩/١٣٩ وما بعدها وصفة الصفوة ٢/٥٧ وتهذيب التهذيب ونكت الهميان ١٩٧ .

غزل كثير فى زوجته عَشْمة بعد طلاقه لها يصور فيها حبه وندمه وألمه من مثل قوله :

لعمرى لئن شطَّتْ بعَثْمَةَ دارُها　　لقد كدتُ من وَشْكِ الفراق أَلِيحُ[١]

أروح بِهَمٍّ ثم أغدو بمثلهِ　　ويُحْسَبُ أنى فى الثياب صحيح

ومن طريف ما يلقانا فى هذا الحب العذرى بكاء المعشوقات لمن حُرموا منهن، وماتوا على حبهن، ولعل أكثرهن بكاء على معشوقها ليلى[٢] الأخْيَلية الخفاجية العامرية ، وكان قد تعلق بها من قومها فتى شاعر شجاع يسمى توْبة ابن الُحمَيِّر ، وشُغف بها شغفاً ، والتاع قلبه ، وهام بها هياماً شديداً ، حتى ليقول :

ولو أنَّ ليلى الأَخْيَلِيَّةَ سَلَّمتْ　　علىّ ودونى تُرْبَةٌ وصَفائحُ

لسلَّمتُ تسليمَ البشاشةِ أوزَقَا　　إليها صَدًى من جانب القبر صائح[٣].

وظل يلهج باسمها إلى أن قُتل فى بعض الغارات سنة ٨٥ للهجرة فبكته ليلى بقصائد كثيرة تصوِّر ما أوقده فى فؤادها من جذوة الحب ، من مثل قولها :

أيا عَيْنُ بكِّى تَوْبَةَ بن حُمَيِّر　　بِسَحٍّ كَفَيْض الجَدْوَل المتفجِّرِ

لتَبْكِ عليه من خفاجةَ نِسْوَةٌ　　بمــاءِ شئون العَبْرَةِ المتحدِّر

وقولها :

وآليتُ لا أنفك أبكيك ما دعتْ　　على فَنَنٍ وَرْقاءُ أو طار طائرُ

وكل شبابٍ أو جديدٍ إلى بِلىً　　وكل امرئٍ يوماً إلى الله صائر

---

(١) أليح : أشفق وأجزع .

(٢) انظر فى ليلى الأخيلية وأخبارها مع توبة ترجمتها فى الأغانى (طبع دار الكتب) ١١ / ٢٠٤ وما بعدها والشعر والشعراء ١ / ٤١٦ والأمالى للقالى ١ / ٨٦ وما بعدها .

(٣) زقا : صاح .

ويقال إنها ماتت فى إحدى زياراتها لقبره ، فدفنت إلى جَنْبه . ونقف قليلا عند بطلين من أبطال هذا الحب العذرى ، هما : قيس بن ذَريح عاشق لُبنى وجميل عاشق بثينة .

قيس[1] بن ذَريح

من قبيلة كنانة ، كانت عشيرته تسكن فى ضواحى المدينة ، وعُرف بأنه رضيع الحسين بن على ، ولا نعرف شيئاً عن نشأته ، بل تُساق لنا قصة حبه ، كأنها هى كل حياته . وهى قصة محبوكة الأطراف ، إذ يُرْوَى أنه مر فى رحلاته بديار لُبْنى الخزاعية ، فرآها ، ووقعت فى قلبه ووقع فى قلبها . وذهب إلى أبيه ، وكان كثير المال موسراً ، يعرض عليه أن يخطبها له ، فأبَى ، وحاول أن يجد عند أمه معونة على أبيه ، فلم يجد عندها ما أراد ، فلجأ إلى رضيعه الحسين بن على ، فتوسط له عند أبيه وأبى لُبْنَى ، وأعظما هذه الوساطة ، وتزوج العاشقان ، غير أنهما لم يُرزَقا الولد ، وداخلت أمَّ قيس الغيرة من كلف ابنها بلبنى . ومرض قيس ، فأوعزت إلى أبيه أن يغريه بطلاقها والزواج من أخرى ، رجاء أن يرزقه الله الولد . وأخذ الأبوان يُلحَّان عليه بعد شفائه من علَّته أن يفارقها وصدع لمشيئتهما . وتولاه جزع شديد ، حتى قَبْلَ أن تبرح دارها إلى دار أبيها ، فقد تصادف أن نَعق غُراب قبل رحيلها ، فتشاءم تشاؤماً شديداً ، ونظم فى نعيقه أشعاراً كثيرة ، من مثل قوله :

لقد نادى الغرابُ بِبَيْنِ لُبْنَى فطار القلبُ من حذر الغُرابِ
وقال : غَدًا تباعَدُ دارُ لُبْنَى وتنأى بعد وُدٍّ واقترابِ
فقلت: تعستَ ويحك من غُرَاب وكان الدهرَ سعيُك فى تَبَابِ

ورحلت لُبْنَى ، فاضطرمت جذوة الحب فى نفس قيس اضطراماً ، ووجد بلُبْنَى وجداً ليس مثله وجد ، ومضى لا ينعم بطعام ولا بشراب ، يذكرها

(١) انظر فى قصة قيس الأغانى (طبع دار الكتب) ٩ / ١٨٠ وما بعدها والشعر والشعراء ٢ / ٦١٠ وأمالى القالى ٢ / ٣١٨ وراجع الموشح ص ٢٠٦ وحديث الأربعاء ١ / ٢٥٦ .

مستيقظاً ويطوف به خيالها نائماً ، ويقول فى غرامه بها الشعر من مثل قوله :

لقد لاقيتُ من كلفى بلُبْنَى بلاءً ما أُسيغ به الشرابا
إذا نادى المنادى باسم لُبْنَى عَييتُ فما أُطيق له جـوابا

وقوله :

وإنى لأهوى النومَ فى غير حِينه لعل لقاءً فى المنــام يكونُ
تحدِّثنى الأحلامُ أنى أراكمُ فياليت أحلام المنام يقين

وكانت لبنى تسمع بوجده وشعره ، فلا يهنأ لها عيش ، وتبكى مصيرها ومصيره . ويُرْوَى أن غلاماً أتاها يوماً بأربعة غربان ، فذكرت أشعار قيس فى غراب البَيْن ،وأخذت تنتف ريشها وهى تصيح بأشعار مختلفة من مثل قولها :

ألا يا غُرابَ البَيْن لونُك شاحبٌ وأنت بلوعات الفراق جديرُ
فلا زلت مكسوراً عديماً لناصرٍ كما ليس لى من ظالِمِىَّ نصير

ولما أضنى الحب قيساً رقَّ له بعض رفاقه ،فواعدوه أن يخرجوا معه إلى ديار لبنى لعله يحظى برؤيتها ، فمضى معهم وهو ينشد :

لقد عذَّبتَنى يا حبَّ ليلى فقَــعْ إما بموتٍ أو حياةِ
فإن الموتَ أروحُ من حياةٍ تدوم على التباعد والشَّتاتِ

ووقعت عينه عليها ، فخر مغشيًّا عليه ، وعادوا به ، وهو لا يكاد يفيق من غشيته . وأشار عليه نفر أن يحجَّ لعله يسلوها ، فحج ورآها هناك ، فعاوده فُتُونه ، وأخذت تسيل عبراته ، وهو يُنْشد فيها أشعاره . ولقيها فعرف أنها ما زالت تحفظ له العهد ، وعاد من الحج يتغنى بحبه ، على شاكلة قوله :

تعلَّق روحى روحَها قبل خَلْقنا ومن بعد ما كنا نِطافاً وفى المَهْدِ
فزاد كما زدنا فأصبح ناميا وليس إذا مِتْنا بمُنْصَرِم العَهْدِ
ولكنــه باقٍ على كل حادث وزائرُنا فى ظلمة القبر واللَّحْدِ

وما زال به أبوه يلحُّ عليه أن يتزوج من أخرى ، لعله ينسى صاحبته . وتمضى القصة فتزعم أنه رأى فى بعض أحياء العرب فتاة تسمى لبنى فيها مخايل صاحبته ، فتزوجها ، ولكن حنينه إلى صاحبته الأولى عاوده ، وكأنما لم يكن هناك سبيل إلى إطفاء جذوة هذا الحب . وتزعم القصة أيضاً أن أباها شكاه إلى معاوية فأهدر دمه إن تعرَّض لها ، وأرسلت إلى حبيبها بالخبر مشفقة عليه ، ويروون أنها تزوجت من غيره ، عله ينساها ، ولكن أنَّى له ؟ لقد أمضه الغرام ، ومضى إلى ديار قومها فوجدها قد رحلت مع زوجها ، فوضع خده على التراب ، وبكى أحرَّ بكاء منشداً :

وإن تك لُبْنَى قدأتى دون قربها   حجابٌ منيعٌ ما إليه سبيلُ
فإن نسيمَ الجوِّ يجمع بيننا   ونُبْصر قَرْن الشمس حين تزول
وأرواحنا بالليل فى الحَىِّ تلتقى   ونعلم أنا بالنهار نَقِيل[1]
وتجمعنا الأرضُ القَرارُ وفوقنا   سماءٌ نرى فيها النجومَ تجول

واشتدت به المحنة ، واشتد به الوجد والهيام ، والحياة من حوله وحول معشوقته تمعن فى القسوة ، وهو لا يزال ينشد فيها الأشعار من مثل قوله :

إلى الله أشكو ما ألاقى من الهوى   ومن حُرَقٍ تعتادنى وزفيرِ
ومن ألمٍ للحب فى باطن الحشَا   وليلٍ طويل الحزن غير قصيرِ

وقوله :

وبين الحشَا والنَّحْر منى حرارةٌ   ولوعةُ وَجْدٍ تترك القلْب ساهيا
تمرُّ الليالى والشهور ولا أرى   ولوعى بها يزداد إلا تماديا

وقوله :

ألا ليت أياماً مَضَيْن تعودُ   فإن عُدْن يوماً إننى لسعيدُ

---

(١) نقيل : من القيلولة وهى نصف النهار .

وظل قيس على هذا النحو يشكو حبه وندمه على فراق صاحبته ، حتى رأى رضيعه الحسين بن على ونفر من قريش تعمقهم التأثر له أن يكلموا زوج لبنى فى شأنه لعله يردها عليه . وصدع لمشيئتهم راضياً ، فعادت لبنى إلى قرة عينها وظلت عنده حتى ماتت ، فأكب على القبر يبكيها ، ولم يزل عليلا إلى أن لحق بها ، فدفن إلى جنبها .

جميل[1] بن معمر

لعل حياة جميل أوضح حياة بين الشعراء العذريين ، فقد نشأ فى منازل عُذْرة بوادى القُرَى ، وأخذ يختلف إلى المدينة ، وربما إلى مكة ، فقد كان يلقى ابن أبى ربيعة كثيراً ويتناشدان الشعر ، ويقال إنه حدا يوماً بمروان بن الحكم . ويظهر أنه كان يتصل ببنى أمية كثيراً ، فى أخباره أنه رحل إلى عبد العزيز بن مروان بمصر ولقيه لقاء كريماً .

وكان كثيِّر عزَّة راوية له . وشعره لذلك أوثق شعر العذريين ، وفى أخباره أنه تلقن الشعر عن هُدْبة بن الخَشْرم تلميذ الحطيئة ، ونعرف أن الحطيئة تلميذ زهير ، وكأنه يمتُّ بأسباب قوية إلى هذه المدرسة التى كانت تُعْنَى بصقل الشعر وتجويده . ونجد له أخباراً أخرى تتصل بتهاجيه مع بعض الشعراء الحجازيين مثل الحَزين الكنانى .

نحن إذن أمام شاعر واضح الشخصية ، عُنى الرواة والناس بأشعاره ، كما غنى بها مغنو المدينة ومكة ، وهى أشعار يمضى جمهورها فى التغنى ببثينة معشوقته ، إحدى نساء قبيلته ، تحابَّا صغيرين ، ولم تلبث أن ألهمته الشعر ، إذ أحبها حبًّا انتهى به إلى الهُيام بها ، وعرفت ذلك فنحته حبها وعطفها ، وأخذت تلتقى به حين شبًّا فى غفلات من قومهما ، وخشى أهلها مغبة هذا اللقاء ، فضيقوا عليها الخناق ، على الرغم مما عرفوا من أن الحب بينها وبين جميل حب نقى برىء ،

(١) انظر فى جميل وأخباره وأشعاره الأغانى (طبع دار الكتب) ٨ / ٩٠ وما بعدها وابن سلام ص ٤٦١ ، ٥٤٣ والشعر والشعراء ١ / ٤٠٠ وما بعدها والخزانة ١ / ١٩٠ والموشح ص ١٩٨ وتاريخ دمشق لابن عساكر ٣ / ٣٩٥ وحديث الأربعاء ١ / ٢٤٩ ، ٢٨٧ . وطبع ديوانه بشير يموت فى بيروت ونشره حسين نصار بالقاهرة وانظر فى بعض قصائده الأمالى ٢ / ٨٧ ، ٣٠٣ .

وأخذت الألسنة في الحي لا تكفُّ عن التعريض بالمتحابين ؛ فهجرته ، واحتجبت من دونه راغمة ، وهو على ذلك لا يسلوها ، يقول :

وإني لأرضى من بُثَيْنَةَ بالذي ... لو أبصره الواشي لقرَّت بَلابلُه[1]
بلا وبأن لا أستطيعَ وبالمُنى ... وبالأمل المرجوِّ قد خاب آملُهْ
وبالنظرة العَجْلى وبالحَوْل تنقضي ... أواخـــرُهُ لا نلتقي وأوائله

وكانت تلتمس فرصة من أهلها أحياناً فتلقاه ، فتُشْرق الدنيا في عينه ، ويسعد سعادة لا حد لها . وخطبها من أبيها فردَّه ، لكراهة العرب أن يزوِّجوا فتياتهم ممن يتغزلون بهم ، هكذا تزعم القصة ! . ويزوجها أبوها من فتى في القبيلة يسمى نُبَيْهاً ، فتسودُّ الدنيا في عين جميل ، ويلتاع لوعة شديدة ، ويصبح حبها كل حياته ، فهو يملك عليه كل شيء ، ويأخذ عليه كل طريق ، يقول :

ولو تركتْ عقلي معي ما طلبتُها ... ولكنْ طِلابيها لما فات من عقلي
خليليَّ فيما عشتما هل رأيتما ... قتيلا بكى من حبِّ قاتله قبلي
فلا تقتليني يا بُثَيْنُ فلم أصب ... من الأمر ما فيه يحلُّ لكم قتلي

ويقول :

لها في سَواد القلب بالحب مَيْعَةٌ ... هي الموتُ أو كادتْ على الموت تُشْرِفُ[2]
وما ذكرتْكِ النَّفْسُ يا بَثْنَ مرَّةً ... من الدهر إلا كادت النفسُ تَتْلَفُ
وإلا اعترتني زفرةٌ واستكانةٌ ... وجاد لها سَجْلٌ من الدمع يَنْزِفُ[3]
وما استطرفتْ نفسي حديثاً لخلَّةٍ ... أُسَرُّ به إلا حديثُكِ أطْرفُ

ويمضي يشكو حبه ، ويحاول أن يلقاها ، وتُنيله في بعض الأحايين أمنيته فيثور به أهلها ويتوعدونه . ويعنف به حبها ، ويشقى به . ويرحل إلى

(١) البلابل : الوساوس . قرت : سكنت .
(٢) يقصد بالميعة حرارة الحب وقوته .
(٣) السجل : الدلو العظيمة مملوءة ماء .

المدينة وغير المدينة يتغنى باسمها وحبها متحملا من الجهد فى عشقها ما يطيق وما لا يطيق ، وتمضى الأعوام وصبوته إليها تزداد به حدة وعنفاً ، وذكراها لا تبرح مخيلته ؛ بل تعيش فى قلبه كأنها دينه ، وهو يرتل غزله كأنه صلوات يؤدى بها عبادته على شاكلة قوله :

ألا ليت شعرى هل أبيتنَّ ليلةً بوادى القُرَى إنى إذن لسعيدُ
وهل ألقيَنْ فَرْدًا بثينةَ مرة تجود لنا من ودِّها ونجــود
علقتُ الهوى منها وليدًا فلم يزل إلى اليوم يَنْمِى حبُّها ويزيد
وأَفنيتُ عمرى فى انتظار نوالها وأَبليتُ فيها الدهرَ وهو جديد
إذا قلتُ ما بى يابثينةُ قاتلى من الحبِّ قالتْ ثابتٌ ويزيد
وإن قلت رُدِّى بعضَ عقلى أَعِشْ به مع الناس قالت ذاك منك بعيد
فلا أنا مردودٌ بما جئتُ طالباً ولا حبُّها فيما يَبيد يَبيدُ
يموتُ الهوى منِّى إذا ما لقيتُها ويَحْيَا إذا فارقتها فيعود

وشعرُ جميل كله فى بثينة على هذا النحو يمتاز بصدق اللهجة وحرارة العاطفة . وقد ظلت بثينة تحفظ له حبه ، إلى أن وافاه القدر بمصر فى ولاية عبد العزيز بن مروان عليها ، فبكته ، ويقول الرواة إنها ظلت تبكيه إلى أن لحقت به

٣

شعراء الزهد

تردَّد فى القرآن الكريم دائماً الدعوة إلى الزهد فى الحياة الدنيا ومتاعها الزائل ، وهى دعوة تحمل فى تضاعيفها الحثَّ على التقوى والعمل الصالح ، فالمسلم الحق من عاش للآخرة ، ورفض عرض الدنيا ، فلم يأخذ منه إلا بحظ محدود ، حظ يقيم أوده ، ويعدُّه للكفاح فى سبيل الله ، ومن ثَمَّ كان زهد

الإسلام لا يعني الانقطاع تماماً عن الدنيا كزهد الرهبانية ، بل هو زهد معتدل ، زهد فيه قوة ودعوة إلى العمل والكسب ، يقول جلّ وعز : (وابْتَغِ فيما آتاك الله الدارَ الآخرة ولا تنسَ نصيبك من الدنيا) وهو نصيب ينبغي أن لا يصْرف المسلم عن الآخرة ونعيمها الخالد .

وزاهد الأمة الأول محمد صلى الله عليه وسلم ، ويُرْوَى أن رجلا جاءه فقال : يا رسول الله دُلَّني على عمل إذا عملته أحبَّني الله وأحبني الناس ، فقال : « ازْهَدْ في الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس[1] » . وقد اندفع وراءه كثير من الصحابة يحيون حياة زاهدة متقشفة ، وعلى رأسهم أهل الصُّفَّة ، وهم نفر من فقراء المسلمين اتخذوا صُفَّة[2] المسجد منزلا لهم ، وعاشوا على صدقات الرسول والمثرين يعبدون الله حق عبادته مرتلين آيَ الذكر الحكيم . وكان وراءهم كثيرون أخلصوا أنفسهم لتقوى الله حق تقواه ، وعلى رأسهم أبو بكر وعلى وعمر وعبد الله بن عمر وأبو الدرداء وأبو ذرّ ، وعبد الله بن عمرو بن العاص وكان يقطع النهار صائماً والليل قائماً يصلي لربه . وفي ابن سعد وغيره صور كثيرة من هذه المجاهدات والرياضات للنفس[3] .

وجاء عصر الفتوح وجاءت معه الغنائم الوفيرة ، فاقتنى العرب الضِّياع وشيدوا القصور ، وهم في ذلك لا ينسون تعاليم الإسلام ، بل إننا نجد بينهم في كل مصر كثيرين يعيشون للحياة التقية الصالحة ، وسرعان ما تكونت في كل بلد أقاموا فيه جماعات القرّاء الأتقياء ، بالإضافة إلى من كان منهم يعيش في مكة والمدينة ، وأخذ كثير منهم يعيش حياته للنُّسك والعبادة . وأكبر إقليم نلتقي فيه بهؤلاء النُّسَّاك والقراء إقليم العراق ، وربما كان لكثرة الحروب فيه أثر في ذلك ، وكأن قوماً انصرفوا عن الفتن ، خشية على أنفسهم من التورط في الإثم ، إلى النسك والعبادة ، كما انصرف إلى ذلك كثيرون ممن لم يستطيعوا الانتصار على الأمويين ، فتركوهم ودنياهم ، ومضوا يتعبَّدون ، وكان الخوارج في

---

(١) انظر في هذا الحديث رقم ٣١ في الأربعين النووية والبيان والتبيين ٣ / ١٦٦ .

(٢) الصفة : موضع مظلل من المسجد .

(٣) انظر في ذلك كتابنا التطور والتجديد في الشعر الأموي ص ٦١ وما بعدها .

جملتهم جماعة كبيرة من الأتقياء ، ضلّتْ فى اجتهادها وما زعمته من كفر الأمويين وجمهور المسلمين ، ولكنها لم تضل يوماً فى تقواها .

لذلك كله عمّت فى العراق موجة واسعة من التقوى والزهد فى الدنيا ونعيمها المادى زهداً كثيراً ما تطرّفوا فيه ، إذ أخذت تدخل فى تنايا هذا الزهد تأثيرات مسيحية وغير مسيحية ، بحكم ما دخل فى الإسلام من الموالى والشعوب الأجنبية . على أن المصدر الأساسى لهذا الزهد كان الإسلام نفسه وما دعا إليه من رفض الدنيا والابتهال إلى الله وانتظار ما عنده من النعيم الحق . وسرعان ما وجدنا طائفة كبيرة من الوعاظ ، تعيش حياتها تعظ الناس وتدعوهم إلى أن يجعلوا العبادة والنسك قرة أعينهم . وهى لذلك ماتنى تحدثهم — مستلهمة القرآن الكريم — عن قدرة الله فى خلقه السموات والأرض ، وعن الموت وما ينتظرهم من الحساب يوم القيامة . والحسن البصرى أشهر هؤلاء الوعاظ وهو فى وعظه دائماً يذكر الموت ، ويذكر النار حتى لكأنه يشاهدها بين عينيه ، ويحض حضًّا قويًّا على الزهد فى الدنيا وحُطامها . وكان هو وغيره من الوعاظ لا يزالون يستشهدون فى وعظهم بأشعار لَبِيد والنابغة الجَعْدى وغيرهما تلك التى تدعو إلى خشية الله وتقواه ، بل ربما استشهدوا بأبيات لبعض الجاهليين ، وخاصة تلك التى تصور فناء الدول أو تدعو إلى خلق فاضل .

وطبيعى أن تترك مواعظهم أثراً عميقاً فى نفوس الشعراء الذين كانوا يختلفون إلى مجالسهم ، وقد مرّ بنا فى غير هذا الموضع مدى تأثير الإسلام ومثاليته الروحية فى الشعراء ، كما مرت بنا فى مواضع مختلفة من هذا الكتاب أشعار زاهدة لنفر منهم . ولعل من الطريف أننا نجد بعض الرجاز مثل أبى النجم العجلى والعَجّاج يبدءون أراجيزهم بالحمد لله والثناء عليه ، وكثيراً ما تتحول الأرجوزة عند ثانيهما إلى موعظة خالصة . وتلقانا عند بعض الشعراء أدعية وابتهالات لله من مثل قول ذى الرمة يناجى ربه قبل موته[1] :

يارَبِّ قد أَشرفتْ نفسى وقد علمتْ … علماً يقيناً لقد أحصيتَ آثارى
يامخرجَ الروح من جسمى إذا احتضرتْ … وفارجَ الكَرْبِ زحزحْنى عن النار

(١) ديوان ذى الرمة (طبعة كبريدج) ص ٦٦٧ .

ونريد الآن أن نقف عند نفر منهم تمثلوا فى أشعارهم فكرة رفض الحياة داعين للتفرغ إلى العبادات وإلى الأخلاق الرفيعة التى يدعو إليها الإسلام. وأول من نقف عنده عروة بن أُذَيْنَة فقيه المدينة الذى رُويت له – كما أسلفنا – مقطوعات فى الغزل العفيف، وله أبيات تصور مبدأ مهما شاع بين الزهاد فى هذا العصر، وهو مبدأ التوكل على الله والثقة فى أنه لا يترك أحداً بدون رزق يكفيه، وبلغ من مبالغة بعضهم فى هذا المبدأ أن رأوا فى السعى والكد نقصاً فى التوكل والثقة بربهم. ولا شك فى أن هذا المبدأ يفضى إلى طمأنينة نفسية قوية، كما يفضى إلى طرح الدنيا طرحاً تامًّا، وفى تقريره يقول عروة:

لقد علمتُ وما الإسرافُ من خلقى　　أن الذى هو رزقى سوف يَأْتِينى
أَسْعَى له فيعنِّينى تَطَلُّبُــهُ　　ولو قعدتُ أتانى لا يُعَنِّينى
خِيمى كريمٌ ونفسى لا تحدِّثُنى　　إن الإله بلا رزق يخلِّينى

وممن اشتهروا بكثرة أشعارهم فى الزهد عبد الله بن عبد الأعلى، ويظهر أنه كان يستمد فى زهده من منابع بعيدة عن الإسلام، إذ نرى من كتبوا عنه يتهمونه فى دينه، ويقولون إنه كان سيئ العقيدة[1]، وهو فى أشعاره يقف كثيراً عند فكرة الفناء من مثل قوله:

يا وَيْحَ هذى الأرض ما تصنع　　أكلَّ حَىٍّ فوقها تَصْرَعُ
تَزْرعهم حتى إذا ما أتوا　　عــادتْ لهم تَحْصد ما تزرع

وقوله:

مَنْ كان حين تُصيب الشمسُ جَبْهته　　أو الغبارُ يخاف الشَّيْنَ والشَّعَثا
ويألفُ الظِّلَّ كى تَبْقَى بَشاشتُه　　فسوف يسكن يومًا راغمًا جَدَثا[2]

وفى تضاعيف هذا الشعر الزاهد تلقانا دعوة إلى مكارم الأخلاق يستضىء أصحابها بما جاء فى الذكر الحكيم من مثالية خلقية نبيلة، وأكثر من لهجوا بهذه

(١) لسان الميزان ٣/٣٠٥ والمبرد ص ٢٩٤ وما بعدها وانظر أمالى القالى ٢/٢٢٣.
(٢) الجدث: القبر.

الدعوة مسكين (١) الدارمى القائل :

وسُمِّيتُ مِسْكيناً وكانتْ لجاجةً وإنى لمسكين إلى الله راغبُ

ويقول صاحب الخزانة إن له قصيدة ، ذكر فيها طائفة من الشعراء ، ناسباً قبر كل منهم إلى بلده ومسقط رأسه ، متخذاً من ذلك العبرة ، ومصغراً أمر الدنيا ومهوناً من شأنها ، وقد ذكر له منها عشرة أبيات . ومما يتردد فى كتب الأدب من شعره قوله يعلن رضاه بالقضاء وما قُدِّر له ، وأن الله لا بد أن يكشف غمته :

ما أنزل الله من أمرٍ فأكرهه إلا سيجعل لى من بعده فرجا

ومن مستحسن شعره قوله :

ولستُ إذا ما سرَّنى الدهر ضاحكًا ولا خاشعًا ما عشتُ من حادث الدَّهْرِ

أَعِفُّ لدى عُسْرى وأُبْدى تجمُّلاً ولا خير فيمن لا يعفّ لدى العُسْرِ

وإنى لأَستحيِى إذا كنت مُعْسرًا صديقى وإخوانى بأن يعلموا فَقْرى

ومن يفتقرْ يعلمْ مكان صديقهِ ومن يَغْنَ لا يَعْدَم بلاءً من الدَّهَرِ

وهو القائل :

أخاك أخاك إن من لا أخاً له كساعٍ إلى الهَيْجا بغير سلاحِ

وله أشعار طريفة فى الغيرة (٢) وأن على الزوج أن لا يبالغ فى اتهام زوجته ، حتى لا يغريها بما يخاف منه . على أننا نلاحظ عنده أنه كان يستشعر عصبيته القبلية فى فخره بخصاله ؛ وقد مرَّ بنا موقفه من تولية معاوية لابنه يزيد ، وما نظمه فى ذلك من شعر . وهو فى الحق لم يكن زاهداً بالمعنى الدقيق لكلمة زاهد ، إنما كان متأثراً تأثراً عميقاً بالروح الإسلامية ، ومن ثم استلهمها فى إشادته بشيمه ، ونحن نتركه إلى أبى الأسود الدؤلى وسابق البربرى .

(١) انظر فى ترجمته الأغانى (ساسى) ١٨ / ٦٨ والشعر والشعراء ١ / ٥٢٩ ، والخزانة ٢/ ١١٦ ومعجم الأدباء ١١ / ١٢٦ وأمالى المرتضى ١ / ٤٧٢ وابن عساكر ٥ / ٣٠٠ .

(٢) أمالى المرتضى ١ / ٤٧٥ وما بعدها .

أبو الأسود الدُّؤَلى (١)

اسمه ظالم بن عمرو من بنى كنانة ، ولى قضاء البصرة فى ولاية عبد الله بن عباس عليها لعلى بن أبى طالب . ولما خرج على إلى العراق لزمه فى حروبه ، ودخل بعد وفاته فيما دخل فيه الناس من بيعة معاوية ، ولكنه ظل يعلن تشيعه لآل البيت. وهو أول من وضع النُّقط فى المصاحف لتصوير حركات الإعراب . وهو يُعَدّ من وجوه التابعين وفقهائهم ومحدّثيهم . وله مدائح وأهاج فى معاصريه وأشعار فى أزواجه ، ويقال إنه كان بخيلا شحيحاً ، وهو مع ذلك كان تقيًّا صالحاً ، وله أشعار كثيرة فى الزهد من مثل قوله :

وإذا طلبتَ من الحوائج حاجةً فادْعُ الإلٰه وأحسنِ الأعمالا
فليعطينَّك ما أراد بقُدْرةٍ فهــو اللطيف لما أراد فعالا
ودَع العبادَ ولا تكن بطلابهم لَهِجاً تضعضَعُ للعبادِ سؤالا (٢)
إن العباد وشأنَهم وأمورَهم بيد الإله يقلِّب الأحــوالا

وهو فى زهده لا يدعو إلى الخمول بل يدعو إلى السعى فى الدنيا والمشى فى مناكبها ، حتى يكسب المرء لنفسه ما يحيا به حياة كريمة ، يقول لابنه :

وما طلبُ المعيشة بالتمنى ولكن ألْقِ دَلْوَك فى الدِّلاء
تَجِئْك بملئها يومًا ويومًــا تجئك بِحَمْأةٍ وقليلِ مــاء (٣)
ولا تقعد على كسلٍ تَمَنَّى تُحيل على المقادرِ والقضاء

---

(١) انظر فى ترجمته الأغانى (طبع دار الكتب) ١٢/٢٩٧ والشعر والشعراء ٢/٧٠٧ وأخبار النحويين البصريين ص ١٣ وطبقات ابن سعد ج٧ ق١ص٧٠ وأسد الغابة ٣/٦٩ والإصابة ٣/٣٠٤ والخزانة ١/١٣٦ وروضات الجنات ص ٣٤١ وطبقات القراء لابن الجزرى ١/٣٤٥ ومعجم الأدباء ١٢/٣٤ وإنباه الرواة على أنباء النحاة ١/١٣ وتاريخ دمشق لابن عساكر ٧/١٠٤ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٦٧ . وله ديوان نشره عبد الكريم الدجيلى ببغداد .

(٢) تضعضع : تذل وتخضع .

(٣) الحمأة : الطين الأسود .

وكثيراً ما يتحدث عما ينبغي من الربط بين العلم الديني والعمل ، فالعلم إن لم يقترن بالعمل لم يكن علماً ، بل كان لهواً وعبثاً ، بل كان خيانة للعهد ونقضاً ، يقول :

وما عالمٌ لا يقتدى بكلامه ... بموفٍ بميثاقٍ عليه ولا عَهْدِ

ونراه ساخطاً سخطاً شديداً على من يتعلقون بالدنيا محيطين أنفسهم بمظاهر الثراء متناسين الشريعة الغراء ، على شاكلة قوله :

قد يجمع المرءُ مالا ثم يُحْرَمُهُ ... عمّا قليلٍ فيلقى الذُّلَّ والحَرَبا[1]

وجامعُ العلم مغبوطٌ به أبدًا ... ولا يحاذرُ منه الفَوْتَ والسَّلبا

وتوفى أبو الأسود سنة ٦٩ للهجرة ، وقيل بل سنة تسع وتسعين ، والقول الأول هو الصحيح .

سابق[2] البربرى

ليس بين أيدينا أخبار كثيرة عن سابق ، وكل ما نعرف عنه أنه كان قاضي الرَّقة بالموصل وإمام مسجدها وأنه كان يفد على عمر بن عبد العزيز يعظه . فهو من وعاظ العصر ، وشعره يفيض تقوى وورعاً ودعوة إلى التقشف والفرار إلى الله من الدنيا ومتاعها الزائل ، ونراه يثور على الأغنياء الذين يعيشون لجمع المال ثورة عنيفة ، يقول :

فحتى متى تلهو بمنزل باطلٍ ... كأنك فيه ثابتُ الأصل قاطِنُ

وتجمعُ ما لاتأكل الدهرَ دائبًا ... كأنك فى الدنيا لغيرك خازنُ

ويقول :

أموالُنا لذوى الميراث نجمعها ... ودورنا لخراب الدهر نَبْنيها

والنفس تَكْلَفُ بالدنيا وقد علمتْ ... أن السلامةَ منها ترْك ما فيها

(١) الحرب : سلب المال .

(٢) انظر فى سابق تاريخ ابن عساكر ٦/ ٣٨ والخزانة ٤/ ١٦٤ والبيان والتبيين ١/ ٢٠٦ والمبرد ص ٢٥٣ .

وكان لا يزال يكثر من حديث الموت ، وأنه نازل عما قريب ، فينبغى لكل إنسان أن يعدّ العُدّة للرحيل، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من عمل عملا صالحاً ، ومن قوله فى ذلك :

إذا الجسدُ المعمور زايلَ روحَه خَوَى وجمالُ البيتِ بانفسُ آهِلُهْ
وقد كان فيه الروح حينًا يَزِينُه وما الغِمْدُ لولا نَصْلُه وحمائله
إذا الأَرض خَفَّتْ بعد ثِقْلٍ جبالُها وخَلَّى سبيلَ البحر يا نفس ساحلُهْ
فلا يرتجى عَوْناً على حَمْل وِزْرِهِ مُسِيءٌ وأولى الناس بالوِزْرِ حامله

ونراه يدعو إلى الرضا بقضاء الله ، فلا مَعْدِى عنه ، ولا منصرف إلا إليه ، وأولى بنا أن نصبر وأن لا نجزع ، وهو يردد ذلك فى أشعاره على شاكلة قوله :

وإن جاء مالا تستطيعان دفْعَه فلا تَجْزعا مما قضى الله واصْبرَا

ويظهر أنه كان شاعراً مكثراً ، يدل على ذلك قول الجاحظ واصفاً زهدياته : « لو أن شعر سابق البربرى كان مفرقاً فى أشعار كثيرة لصارت تلك الأشعار أرفع مما هى عليه بطبقات . . ولكن القصيدة إذا كانت كلها أمثالا لم تسر . ومتى لم يخرج السامع من شيء إلى شيء لم يكن لذلك عنده موقع » .

٤

شعراء اللهو والمجون

رأينا فى غير هذا الموضع كيف تحضر العرب فى هذا العصر ، وكيف أن كثيرين منهم أُتْرِفوا ترفاً شديداً ، إذ أحاطوا أنفسهم بكل مظاهر النعيم من قصور باذخة ومطاعم وملابس أنيقة ، وجوار ورقيق . ودائماً حين تغرق الأمم فى الترف يتورط كثير من أبنائها فى آثام مختلفة من اللهو والمجون . وإذا كنا لاحظنا فيما أسلفنا انتشار موجة من الزهد فى العصر كان لها آثار عميقة فى

الشعر والشعراء فإن هذه الموجة انحسرت عن كثير من الأفراد إذ الناس ليسوا سواسية ، منهم من يجد فى الدين ومثاليته الروحية متاعه ، ومنهم من ينحرف عن الدين إلى حياة ماجنة يتهالك فيها على اللهو والخمر .

ومعروف أن الإسلام حرّم الخمر ، وأن عمر شدّد فى عقابها حين وجد بعض المسلمين يقترفونها من مثل أبى محجن الثقفى ، وقصة صلاة الوليد بن عقبة والى الكوفة لعثمان بالناس وهو سكران مشهورة . غير أن أمثاله وأمثال أبى محجن فى عصر الخلفاء الراشدين كانوا قليلين . ونحن لا نمضى فى عصر بنى أمية ، حتى تظهر آثار الفتوح وما حملتْ من أموال وحضارات وصور من الترف إلى العرب ، فتحضرت مكة والمدينة ، بل أُترِفتا ، وتحضر العرب الذين خرجوا فى الفتوح واستقروا فى البيئات الجديدة ، وأخذ كثير منهم يندفع فى الاستمتاع بالحياة ، وبالغ نفر فى هذا الاستمتاع ، متحرراً من قوانين الدين . وكلما تقدمنا فى العصر ازداد ذلك قوة وحدة ، وخاصة فى البيئات البعيدة التى رحل إليها العرب ، وظهروا على ما فيها من خمور ، وأقصد بيئة خراسان ، حيث كانت تزخر بالخمر وبالطبول والمزامير ، وقد مرّ بنا كيف أن والياً عليها — هو قتيبة بن مسلم — اضطُرّ حين وجد تفشى الخمر فى جنده أن يعاقب على احتسائها بالقتل .

والحق أنها كانت تنتشر فى كل البيئات ، فنحن نجدها فى مكة[1] والمدينة[2] حيث كانت تنتشر دور الغناء . ومن الشعراء الذين نهلوا من كئوسها فى هذه البيئة لعهد معاوية ابن أرْطاة[3] ، وعبثا حاول مروان بن الحكم والى المدينة أن يردّه عنها ، وفيها يقول :

إنا لَنَشْرَبُها حتى تَمِيل بنا   كما تمايلَ وَسْنَانٌ بوَسْنانِ

ومنهم عبد الرحمن بن الحكم[4] الذى كان يهاجى عبد الرحمن بن حسان ، وفيها يقول :

---

(١) انظر كتابنا الشعر الغنائى فى مكة ص ٥٠ وما بعدها .

(٢) انظر كتابنا الشعر الغنائى فى المدينة ص ٤٩ وما بعدها .

(٣) راجع فى ابن أرطاة الأغانى (طبع دار الكتب) ٢٤٢/٢ وما بعدها .

(٤) انظر فى ترجمته أغانى (دار الكتب) ٢٥٩/١٣ وراجع المبرد ص ٥٢ والبيان والتبيين ٢٤٨/٣ .

ترى شاربَيْها حين يَعْتورانها يَميلان أحيانًا ويعتدلان

ومن كانوا يحتسونها فى هذه البيئة لأواخر العصر ابن ميّادة[1] مادح الوليد ابن يزيد بن عبد الملك ونديمه ، وهو من مخضرمى الدولتين ، وفيها يقول :

ومعتّقٍ حُرِمِ الوَقودَ كرامــةً كدم الذَّبيح تمجُّه أَوْدَاجُهُ[2]
ضمنَ الكرومُ له أَوائلَ حَمْلِهِ وعلى الدِّنان تمامُه ونتاجه[3]

ومثله ابن هَرْمة[4] ، وكان مشغوفاً بها كلفاً ، وهو القائل :

أسألُ الله سكرةً قبل مَوْتى وصياحَ الصِّبْيان يا سَكْرانُ

وإذا تركنا الحجاز إلى العراق وجدنا كثيرين يقبلون على الخمر فى غير حياء ولا استخفاء ، وكأنما كانت الفتن هناك وما حمَّلتهم من الخطوب باعثاً لهم على المجون ، حتى ينسوا به عناءهم ، ومن ثم مضى نفر منهم يعلن معاقرته لها ، وأنه لن ينصرف عنها ، على شاكلة سُحَيم[5] بن وثيل الرياحى التميمى ، وكان فيه غير قليل من بقايا الجاهلية ، وأكبر الدلالة على ذلك معاقرته لغالب أبى الفرزدق التى مرت بنا ، والتى مضى فيها ينافسه فى نحر إبله لقومه ، ويظهر أنه كان يكثر من الشراب كثرة جعلت امرأته حَذْراء تراجعه وتكثر من مراجعته ، فقال :

تقول حَذْراء ليس فيك سوى الـ خَمْر معيبٌ يعيبُــه أحَــدُ
فقلت: أخطأتِ بل مُعاقرتى الـ ـخَمْرَ وبَذْلى فيها الذى أجِــدُ

---

(١) انظر فى ترجمته أغانى (دار الكتب) ٢/٢٦١ والشعر والشعراء ٢/٧٤٧ والخزانة ١/٧٦ والبيان والتبيين ٣/٣٤٣.

(٢) المعتق : الشراب القديم. حرم الوقود : لم يطبخ بالنار . الأوداج : جمع ودج وهو عرق فى العنق .

(٣) تمامه : يقصد تمام مدة حمله .

(٤) راجع فى ترجمته أغانى (دار الكتب) ٤/٣٦٧ والشعر والشعراء ٢/٧٢٩ والخزانة ١/٢٠٣ والموشح ص ٢٢٣ .

(٥) انظر فى ترجمته ابن سلام ص ٤٨٩ والإصابة ٣/١٦٤ والخزانة ١/١٢٣ والشعر والشعراء ٢/٦٢٦ .

هو الشناءُ الذى سمعتِ بهِ   لا سَبَدٌ مُخْلدى ولا لَبَدُ[1]
ويحكِ لولا الخمورُ لم أحْفِلِ الـ   ـعيشَ ولا أن يَضُمَّنى لَحَدُ[2]
هى الحَيا والحياةُ واللَّهو لا   أنتِ ولا ثروةٌ ولا وَلَـدُ

ويقف السرادق الذُّهلى هذا الموقف نفسه من ابنته ، فيعلن أنه لن يكف عنها : إذ صارت له غذاء لا يستطيع الصبر عنه[3]. ويلقانا فى عهد زياد بن أبيه حارثة[4] بن بدر أحد عماله وخلصائه ومُدَّاحه، كلفاً بها كلفاً شديداً ، وله فيها أشعار كثيرة رواها أبو الفرج فى ترجمته يجاهر فيها بأنه لن يكفَّ عنها ، مهما أكثر لائموه ، على شاكلة قوله :

يعيبُ علىَّ الرّاحَ من لو يذوقها   لجُنَّ بها حتى يغيَّب فى القَبْرِ
علامَ تذمُّ الراحَ والراحُ كاسمها   تُريح الفتى من هَمِّه آخرَ الدهر
فَلُمْنى فإنَّ اللوم فيها يزيدنى   غـراماً بها إن الملامة قد تُغْرِى

وكان يذهب مذهبه فى الإدمان عليها مالك بن أسماء صهر الحجاج الثقفى وواليه على أصبهان ، وله فيها أشعار ساقها أبو الفرج فى ترجمته[5]. ولعل عراقيًّا لم يشتهر بها كما اشتهر الأُقَيْشر[6] الأسدى وكان كوفيًّا خليعاً ماجناً ، وفيها يقول :

أفْنَى تِلادى وما جمَّعتُ من نَشَبٍ   قَرْعُ القَواقيزِ أفْواهَ الأباريق[7]

ويقول :

كُمَيْتٌ إذا فُضَّتْ وفى الكأسِ وردةٌ   لها فى عِظام الشاربين دبيبُ

(١) لا سبد ولا لبد : مثل أى لا قليل ولا كثير .
(٢) اللحد : شق للميت فى جانب القبر .
(٣) الشعر والشعراء ٢/٦٧٠ .
(٤) انظر ترجمته فى الأغانى (طبع الساسى) ٢١/١٣ وأمالى المرتضى ١/٣٨٠ وما بعدها وراجع فهارس الكامل للمبرد والبيان والتبيين والطبرى .
(٥) انظر ترجمته فى الأغانى (ساسى) ١٦/٤٠ والخزانة ٢/٤٨٥ ومعجم الشعراء ص ٢٦٦ والموشح ص ٢٢٠ والشعر والشعراء ٢/٧٥٦
(٦) انظر فى ترجمة الأقيشر أغانى (دار الكتب) ١١/٢٥١ والشعر والشعراء ٢/٥٤١ ومعجم الشعراء ص ٢٧٣ والخزانة ٢/٢٧٩ والموشح ص ٢٢١ .
(٧) التلاد : المال القديم. النشب : العقار والضياع . القواقيز : الكئوس وأوانى الخمر التى تشرب فيها .

وإذا مضينا إلى خراسان وسجستان وجدنا كثيرين يتورطون فيها ، وكأنما كان تغلغلهم فى الشرق دافعاً لهم إلى الإمعان فى المجون والتحرر من قوانين الدين ، أو لعلهم كانوا يريدون أن يزيحوا بها عن كواهلهم ما كانوا يحسون به من آلام الغربة وعناء الحروب. ويَرْوِى البلاذرى أن ثلاثة نفر من أهل الكوفة كانوا فى جيش الحجاج الذى وجهه إلى الديلم، وكانوا يتنادمون ، فمات أحدهم : فدفنه صاحباه ، ومضيا يشربان عند قبره ، فإذا بلغته الكأس أراقاها على القبر ، وبكيا . ومات الثانى فدفنه صاحبه ، وظل عند قبرهما يشرب ويبكى إلى أن لحق بهما ، وقبورهم هناك تعرف بقبور الندماء[1]. ومن الشعراء الذين اشتهروا بمعاقرتها والنظم فيها هناك الشَّمَرْدَل[2] بن شَرِيك، وكان قد خرج للغزو فى تلك الديار مع ثلاثة من إخوته . فماتوا جميعاً ورثاهم رثاء حاراً ، وكأنه كان يغرق فيها حزنه . ومنهم أبو جِلْدة اليشكرى الذى سبق أن عرضنا له فى شعراء ثورة ابن الأشعث ، وكان يُدْمنها إدماناً ثم تاب عنها، فقال[3] :

سأركضُ فى التقوى وفى العِلْم بعدما ... ركضتُ إلى أمر الغَوِىِّ المشهَّر

ونحن لا نصل إلى أواخر هذا العصر حتى تشتد موجة المجون فى خراسان والعراق جميعاً ، وخاصة الكوفة ، حيث تنشأ جماعة كبيرة من المجان على رأسها مطيع وحماد الراوية وحماد عَجْرد ويحيى بن زياد، وهم جميعاً ممن عاشوا فى الدولتين الأموية والعباسية، وهم من هذه الناحية أكثر صلة بالعصر العباسى منهم بالعصر الأموى ، ولذلك رأينا أن نؤخر الحديث عنهم . على أنهم يلفتوننا فى قوة إلى تهالك الناس على المجون فى الكوفة فى أواخر العصر ، تهالكاً تحرروا فيه من كل خلق وعرف ودين . ولعل مما هيأ لهذا الانحلال الخلقى على الأقل عند بعض الأفراد فى هذا العصر أن بعض خلفاء بنى أمية المتأخرين جعلوا يقبلون على اللهو ، يتقدمهم فى ذلك يزيد بن عبد الملك ، وابنه الوليد الذى أكبَّ على الخمر والمجون إكباباً، كما أكبَّ على نظم الخمريات وهو وأبو الهندى شاعر سجستان أهم من عاشوا هذه الحياة الماجنة .

---

(١) فتوح البلدان ص ٣٢٠ .

(٢) انظر ترجمته فى أغانى (دار الكتب) ١٣ / ٣٥١ وما بعدها والشعر والشعراء ٢ / ٦٨٥

(٣) أغانى (دار الكتب) ١١ / ٣٣٠.

الوليد[1] بن يزيد

وُلد لأبيه يزيد بن عبد الملك فى سنة ٨٨ للهجرة ، فتفتحت عينه على النعيم والترف ، بل على اللهو والمجون ، إذ كان أبوه كلفاً بالخمر والغناء ، حتى فى خلافته ، إذ كان يستقدم مغنىّ مكة والمدينة ومغنياتهما ، واشترى سلاّمة القس وحَبابة ، وانصرف عن شئون الدولة إليهما وإلى الغناء والطرب والقَصْف . وقد نشأ ابنه الوليد على مثاله ، بل لقد أخذ يسرف فى المجون واللهو إسرافاً شديداً ، حتى فكر هشام بن عبد الملك الذى خلف أباه أن يصرف ولاية العهد عنه لفساد خلقه ، ولكنه توفّى سنة ١٢٥ قبل أن يحقق فكرته . واستوى الوليد على عرش الخلافة ، فإذا هو يحوّل قصره ببادية شرقى الأردن مقصفاً كبيراً للخمر والعَزْف والغناء ، إذ لم يترك مغنياً فى مكة والمدينة دون أن يستقدمه ، وأخذ يعبُّ من كئوس المجون عبًّا ، جعل أهله يتنكرون له ، ويقتله ابن عمه يزيد بن الوليد فى جمادى الآخرة سنة ١٢٦ تؤازره اليمانية ثأراً لخالد القسرى وما كان من تعذيبه له وقتله

وعلى هذا النحو يذهب ضحية مجونه ، ومما لا شك فيه أنه كان ماجناً يعكف على الخمر والغناء ، ويعيش للهو والصيد والقَنْص ، حتى بعد خلافته ، فقد ظل فى نفس الجو الماجن ، الذى كان يتنفسه قبل اعتلائه عرش الخلافة . ومن ثم آثر قصره ببادية شرقى الأردن على دمشق مستقر الخلافة الأموية ، ومضى يجلب إليه المغنين والمغنيات وآلات اللهو والطرب لا من الحجاز فقط ، بل أيضاً من خراسان ، فقد أسلفنا فى غير هذا الموضع أنه كلّف نصر بن سيار أن يبعث إليه بما فى ولايته الخراسانية من الخيل والبراذين الفارهة وآلات الصيد ، ومن أباريق الذهب والفضة وتماثيل السباع والظباء ، ومن البرابط والطنابير والوصيفات والصنّاجات ، فجمع له نصر من ذلك أشياء

---

(١) انظر فى ترجمة الوليد أغانى (دار الكتب) ١/٧ وما بعدها والطبرى فى سنتى ١٢٥ و ١٢٦ وكتابنا التطور والتجديد فى الشعر الأموى ص ٣١٨ وحديث الأربعاء ١/١٦٩ وقد نشر ديوانه فى مطبوعات المجمع العلمى " ربى بدمشق .

كثيرة ، كانت موضع التندر بين الشعراء والأتقياء .

وينبغي أن لا نمضي مع الرواة في كل ما تحدثوا به عن مجونه ، إذ نراهم يجعلونه مانويًّا زنديقاً ، يسخر بالقرآن الكريم بل يمزقه تمزيقاً[١] . وفي الوقت نفسه تذكر بعض الروايات أنه قُتل وهو يقرأ القرآن ويقول : يوم كيوم عثمان[٢] . وفي الحق أن أبناء عمه من الأمويين كانوا أول من بالغ في وصفه بالمجون ، ثم جاء العباسيون بعدهم ، فاستغلوه في التشنيع على خلفاء بني أمية . وأنهم انزلقوا إلى الدرك الأسفل من انتهاك ما حرَّم الله ومن شُرْب الخمر وإتيان الفسق ، بل الكفر جملة والخروج من حدود الدين . ونحن مع تنحيتنا لهذه المبالغات التي لعبت فيها السياسة دوراً كبيراً نحتفظ للوليد بمجونه وعكوفه على اللهو والصيد والقنص وإدمانه للخمر ولهجه بالغناء لهجاً مسرفاً .

وكان الوليد شاعراً مبدعاً ، فأنفق شعره في الخمر . وله أشعار في الغزل والحب ، ولكنها دون أشعار الخمر في الإبداع والروعة ، ويظهر أنه ثقف كل ما نُظم فيها قديماً ، وخاصة عند عدى[٣] بن زيد العبادي ، وقد مضى ينمِّيه ويضيف إليه من مواهبه ومشاعره وملكاته ما أتاح لفن الخمريات أن يأخذ طريقه إلى الظهور ، إذ لم تعد أشعار الخمر عنده توضع في ثنايا قصيدة أو في مقدمتها كما كان الشأن عند عدى وعند الأعشى ، بل أصبحت تُنْظَمُ في مقطوعات ، لها وحدتها الموضوعية والمعنوية . تنبض بالحياة وتخفق بالجذل والسرور ، لسبب طبيعي ، هو أن ناظمها عاشق للخمر ، وهو ينظمها في غمرة عشقه ، وكأنما تفجِّر له ينابيع الفرح تفجيراً . واقرأ له هذه الخمرية :

اصْدَعْ نَجِيَّ الهموم بالطَّرَبِ ... وانْعَمْ على الدَّهْر بابْنَةِ العِنَبِ
واستقبلِ العيْش في غضارتهِ ... لا تَقْفُ منه آثارَ مُعْتَقِبِ
من قهوةٍ زانها تقادُمها ... فَهْيَ عجوزٌ تعلو على الحِقَبِ

---

(١) راجع الأغاني ٧ / ٤٠ وما بعدها ، ٧ / ٧٢ .
(٢) انظر الطبري ٥ / ٥٥١ .
(٣) انظر الأغاني ٧ / ٦٥ .

أشهى إلى الشَّرْب يومَ جَلْوتها ... من الفتاةِ الكريمة النَّسَبِ
فقد تجلَّت ورقَّ جَوْهَرُها ... حتى تبدَّتْ فى منظَرٍ عجبِ
كأنها فى زُجاجها قَبَسٌ ... تذكو ضياءً فى عَيْنِ مُرْتقبِ

فهى فرحة الحياة ونعيمها، بل هى قبس سماوى يهبط برداً وسلاماً على قلوب المحزونين ، فيزيل ما فيها من أحزان وهموم ، ويردها إلى نشوة الفرح والمسرة .
واقرأ أيضاً هذه الخمرية :

علِّلانى واسقيانى ... من شرابٍ أَصْبهانى
من شراب الشيخ كِسْرى ... أو شرابِ القَيْروان
إن فى الكأْسِ لِمِسْكا ... أو بكفَّىْ مَنْ سقانى
أو لقد غُودِرَ فيها ... حين صُبَّتْ فى الدِّنانِ
كلِّلانى تَوِّجانى ... وبِشعْرى غنِّيانى
إنما الكأْسُ ربيعٌ ... يُتعاطَى بالبَنَان
وحُميَّا الكأْسِ دَبَّتْ ... بين رِجْلى ولسانى

وهى تجرى أيضاً فى نطاق الفرحة العميقة بالخمر ، بل لعلها أقوى من سابقتها تعبيراً عن فرحته بها ، فهى فى رأيه عطر الوجود بل ربيعه ، وهو يتلظى بنشوتها التى تسرى فى جسده من فَرْعه إلى قدمه . وهو بحق يُعَدُّ رائد العباسيين من أمثال أبى نواس فى هذا الفن من فنون الشعر ، ولاحظ ذلك النقاد قديماً فقال أبو الفرج : « وللوليد فى ذكر الخمر وصفتها أشعار كثيرة ، قد أخذها الشعراء فأدخلوها فى أشعارهم ، وسلخوا معانيها ، وأبو نواس خاصة ، فإنه سلخ معانيه كلها وجعلها فى شعره » .

ولم تستتم الخمرية عنده وحدتها الموضوعية والمعنوية وهذا الحب الذى يجعلها كاللهب المندلع فحسب ، فإنها استتمت عنده أيضاً التفاعل الحميم بين المعانى والألفاظ ، بل بين المعانى والإيقاعات إذ كان عازفاً محسناً ، يحسن اللعب على أوتار العيدان والتوقيع على الطبول والدفوف ، وله أصوات

مأثورة فى بعض أشعاره[١] . ومن ثمّ اجتمع للخمرية عنده طرافة المعنى وحلاوة النغم ، وقد مضى يؤثر الأوزان الخفيفة والمجزوءة من مثل الهزج والرَّمَل ، بل لقد هداه ذوقه الموسيقى إلى اكتشاف وزن المجتثّ ، فكان أول من نظم فيه[٢] . وإذا صحت الخطبة الشعرية التى يقال إنه خطب بها فى يوم جمعة — وهى موعظة[٣] طويلة — كان أول من أعدّ لصورة المزدوجات التى شاعت بين أصحاب الشعر التعليمى فى العصر العباسى .

أبو الهندى [٤]

هو غالب بن عبد القدوس بن شبث بن رِبْعىّ الرياحى التميمى . وقيل اسمه عبد الله وقيل بل عبد المؤمن ، أدرك دولة بنى العباس ومات فى خلافة المنصور . وكان رحل إلى خراسان واستوطن فى أواخر عمره سجستان ، واشتهر منذ مطالع حياته بالفسق وفساد الأخلاق ومعاقرته الشراب . ويقال إنه كان بخراسان يشرب على قارعة الطريق ، فمرّ به نصر بن سيار واليها للأمويين ، فقال له : ويحك يا أبا الهندى ألا تصون نفسك ؟ قال : لو صُنْتها لما وليت أنت خراسان . ولما انتقل إلى سجستان نزل بموضع يقال له بالفارسية : « كوى زيان » وتفسيره بالعربية سكة الخسران . كانت تُباع فيه الخمر وتُقْتَرَفُ الفواحش .

وكان شاعراً بارعاً ، وقد وهب شعره جميعه للخمر ، وهو من هذه الناحية يعد متمماً للوليد بن يزيد ، إذ دفع معه الشعر العربى إلى تمثل الخمرية بكل شياتها المعنوية والموسيقية ، وشهد له بذلك غير ناقد ، حتى لنرى إسحق الموصلى يقول إن معانى أبى نواس وطبقته فى الخمر مستمدة من أشعاره فيها ، ويقول ابن المعتز : « كان جماعة مثل أبى نواس والخليع وأبى هفّان وطبقتهم إنما اقتدروا على وصف الخمر بما رأوا من شعر أبى الهندى وبما استنبطوا من معانيه » . وله فى مداومة سكره وعدم إفاقته منه قصة تشبه قصة أبى نواس مع والبة . إذ يقال إنه

(١) الأغانى ٩/٢٧٤ و ٧/٣٢ ، ٤٤ .
(٢) انظر كتابنا الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (طبع دار المعارف) ص ٥٩ .
(٣) الأغانى ٧/٥٧ .
(٤) انظر فى ترجمته أغانى (ساسى) ٢١/١٧٧ والشعر والشعراء ٢/٦٦٣ وطبقات الشعراء لابن المعتز (طبع دار المعارف) ص ١٣٦ .

شرب عند خمار ونام ، ودخل جماعة فسألوا عنه ، فعرفوا خبره ، فشربوا وناموا وانتبه ، فرآهم ، فسأل عنهم ، فعرف أنهم مصرَّعون من الخمر ، فشرب ، حتى سكر ونام ، وانتبهوا فصنعوا صنيعه ، وأقاموا جميعاً كذلك عشرة أيام ، يفيقون ثم يشربون وينامون ، وروى قصته معهم فى بعض شعره . إنه يعيش للخمر ويعيش بالخمر ، يصف سُقاتها ودِنانها وأباريقها وزِقاقها مثل قوله :

يمجُّ سُلافًا من زِقَاقٍ كأنَّهـا شيوخُ بنى حامٍ تحنَّتْ ظهورها

وقوله :

وإذا صُبَّت لشَرْبٍ خِلتها حَبشيًّا قُطعتْ منه الرُّكَبْ

ونراه يصف القيان اللائى يسمعهن فى أثناء شربها ، كما يصف من تَصْرعهم وصفاً فيه براعة ، فقد أخلص لها نفسه ، ووجد فيها طمأنينته ، بل فرحته ومسرته حتى ليتمنى أن يضمها إلى صدره فى قبره ، فلا تزايله حيًّا ولا ميتاً ، يقول :

اجعلوا – إن متُّ يومًا – كَفنى وَرَقَ الكَرْم وقبرى مَعْصَرَهْ

وادْفنونى وادفِنوا الـرَّاحَ معى واجعلوا الأَقداحَ حول المَقْبَره

وعلى هذا النحو مضى أبو الهندى فى سكة الخسران إلى الأنفاس الأخيرة من حياته ، يَصْدَحُ بخمرياته ، ويتخذ الخمر وحى إلهامه .

٥

شعراء الطبيعة

لعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن الطبيعة دائماً كانت ملهماً بالغ التأثير فى نفسية الشاعر العربى ، وقد مضى أسلافه فى الجاهلية يَصْدُرون عنها فى أشعارهم ، فلم يتركوا كبيرة ولا صغيرة فى صَمْتها ولا فى حركتها دون أن يرسموها فى أشعارهم ، فهم يصورون فَلَواتها بكُثْبانها ورمالها وغُدْرانها وغَيْثها وسيولها وخِصْبها وجَدْبها ونباتاتها وأشجارها وحيوانها وطيرها وزواحفها وهواجرها وما قد ينزل ببعض مرتفعاتها وأطرافها من البرد وقوارصه .

ومضى شعراء العصر الأموى – على سُنّة آبائهم – يستلهمون صحراءهم ، مزاوجين على شاكلتهم بين حب الطبيعة وحب المرأة ، إذ يفتتح الشاعر غالباً مطولاته بوصف أطلال الديار التى قضى بها شبابه مع بعض صواحبه ، ويسترسل فى الحديث عن ذكريات حبه . ولا يلبث أن يتحدث عن رحلته فى الصحراء ، وما قطع فيها من مفاوز على ناقته التى يُسْهب فى وصفها لما لها من جمال فى نفسه ، كما يُسْهب فى وصف فرسه إن كان فارساً ، وهو فى ثنايا ذلك يحدّثنا عن كل ما تقع عليه عينه فى صحرائه ويخلّف أثراً فى ذهنه من طير وحيوان فى الأرض ونجوم وكواكب فى السماء .

وعلى الرغم من أن جمهور الشعراء لهذا العصر عاش فى بيئات متحضرة ، فإن الصحراء لم تجفّ ينابيعها فى نفوسهم ، بل لقد ظلت ملهمهم الأول فى أشعارهم ، على نحو ما نجد عند مبرِّزيهم من أمثال الفرزدق والأخطل وجرير ، ومن خير ما يصور ذلك أبيات للفرزدق يوازن فيها بين طبيعة الصحراء ونُهَيْر دُجَيْل وما يجرى فيه من سفن ، موازنة يُعْلى فيها الطبيعة الأولى علواً كبيراً ، يقول[١] :

لَفَلْجٌ وصَحْراواه لو سرتُ فيهما ... أَحبُّ إلينا من دُجَيْلٍ وأفضلُ[٢]
وراحلة قد عوَّدونى ركوبهـا ... وما كنت ركَّابًا لها حين تُرحَلُ[٣]
قوائمُها أَيدى الرجال إذا انتحتْ ... وتَحْمل مَنْ فيها قُعودًا وتُحْمَلُ[٤]
إذا ما تلقَّتها الأَواذىُّ شَقَّهـا ... لها جُؤْجُؤٌ لا يستريح وكَلْكَلُ[٥]
إذا رَفعوا فيها الشِّراع كأَنها ... قَلوصُ نَعام أو ظَليمٌ شَمَرْدَلُ[٦]

وواضح أنه يُؤْثر الطبيعة الصحراوية البدوية على طبيعة البيئات الجديدة وما فيها من أنهار وسفن تحمل الناس فى رحلات نهرية ممتعة . وهو يعبِّر بذلك

---

(١) ديوان الفرزدق (طبعة الصاوى) ص٦٢٦ .
(٢) فلج : واد من أودية تميم بين البصرة وحمى ضرية . ودجيل : من أنهار دجلة .
(٣) ترحل : تهيأ للرحيل .
(٤) القوائم هنا : المجاذيف بأيدى الملاحين .
(٥) الأواذى : الأمواج . الجؤجؤ : بطن السفينة من أمام ، الكلكل : الصدر .
(٦) قلوص النعام : طويلة القوائم ، الظليم : ذكر النعام ، الشمردل : الطويل تام الخلق .

عن شعوره وشعور مَن حوله من الشعراء الذين فُتنوا مثله بالصحراء ومناظرها الطبيعية أمثال ذى الرُّمَّة، وسنعرض له عما قليل . وكان يعاصره العَجَّاج وغيره من الرجَّاز . أمثال رُؤْبة الذى يقول [1] :

إن الرُّدافى والكَرِىَّ الأَرْقَبا   يكفيك دَرءَ الفِيل حتى تَرْكبا [2]

فهو يفضل ركوب الإبل على ركوب الفيل الذى يحتاج إلى الدفع قبل اعتلائه .

وليس معنى ذلك أن الشاعر الأموى لم يَفْسَحْ لطبيعة البيئات الجديدة فى شعره ، إنما معناه أن الطبيعة الصحراوية هى التى كانت تستولى على ملكاته ، أما بعد ذلك فقد كانت تنفذ طبيعة الأقاليم الجديدة إلى حواسه ، فيصور ما يراه بها من جبال وثلوج . وقد صور الفرزدق نفسه فى بعض رحلاته إلى دمشق ما كان ينزل عليه وعلى صحبه فى طريقه شتاءً من نثير الثلج . يقول [3] :

مستقبلين شمالَ الشام تَضْربهم   بحاصبٍ كنديف القُطْن منثورِ [4]

على عَمائمنـــا يُلْقَى ، وأَرْحُلنا   على زواحفَ نُزْجيها محاسيرِ [5]

وكان جرير على شاكلته لا يزال يبدئ ويعيد فى وصف المناظر الصحراوية ومع ذلك تلقانا فى ديوانه قطعة صوَّر فيها نُهَيْرات شَقَّها هشام بن عبدالملك من نهر الفرات ، وخاصة نُهير الهنىء ، وما نبت على ضفافها من زرع وزيتون وأعناب ونخيل ومن كل الثمرات ، وهى تطَّرد على هذا النمط [6] :

شققتَ من الفُرات مباركاتٍ   جـواریَ قد بَلَغْن كما تريدُ

وسخَّرتَ الجبال وكُنَّ خُرْساً   يقطِّع فى مناكبها الحديدُ

---

(١) الحيوان ٧ / ٩٠ .

(٢) الردافى : الحادى . الكرى : الذى يكرى دابته و يؤجرها . والأرقب : غليظ الرقبة. دره الفيل : دفعه وكفه .

(٣) الديوان ص ٢٦٢ .

(٤) شمال الشام : ريح شمالية . الحاصب : ما تحمله الريح من دقاق التراب أو الثلج . النديف : نثير الثلج والبرد .

(٥) نزجيها : نسوقها وندفعها ، محاسير : كليلة.

(٦) ديوان جرير (طبعة الصاوى) ص ١٥٠ .

بلغت من الهَنِيء فقلتَ شكرا   هناك ، وسُهِّل الجَبل الصَّلوُد[١]
بها الزّيتون فى غَلَلٍ ومالتْ   عنـاقيد الكروم فهنَّ سود[٢]
فتمّتْ فى الهَنِيءِ جِنانُ دُنْيا   فقـال الحاسدون هي الخلود
يَعضُّون الأنامل أنْ رأوهـا   بساتينًا يؤازرهـا الحَصِيدُ[٣]
ومن أزواجِ فاكهةٍ ونَخْـلٍ   يكون لحَمْله طَلْعٌ نَضيدُ[٤]

وجرير يحدثنا عن شق الطرق للنهيرات فى الجبال وتحطيم ما يعترض من الصخور ، كما يحدثنا عن المناظر الطبيعية فى تلك البيئة وما حفّ بها من أشجار فاكهة وغير فاكهة وزروع مختلفة .

فالشاعر الأموى مع استغراق مناظر الصحراء له لم يُغْمض عينيه عن مناظر البيئات الجديدة ، فقد كان يسجلها من حين إلى حين ، وخاصة منهم من كانوا يلهجون بالصيد وكلابه وصقوره وفهوده ، وسنعرض لذلك فى حديثنا عن الرُّجَّاز ، وقد تعرضت طائفة منهم لوصف الفيل ، على شاكلة قول رُؤْبة يصفه[٥] :

أَجْرَدُ كالحِصْن طويلُ النَّابَيْنْ   مشرَّفُ اللَّحْيِ صغيرُ الفَقْمَيْنْ[٦]
عليه أُذْنان كفَضْل الثَّوْبَيْنْ

واشتهر فى هذا المجال هرون مولى الأزد[٧] . فالطبيعة الجديدة المتحركة والصامتة ألهمتهم كثيراً من الشعر والرجز ، ولكن من الحق أن بيئتهم الصحراوية كانت ملهمهم الأول فى هذا العصر .

---

(١) الصلود : اليابس .
(٢) الغلل : الماء الجارى تحت الشجر على وجه الأرض . الكروم : الأعناب .
(٣) الحصيد : الزروع التى تحصد ثمارها كالقمح .
(٤) الطلع : ثمر النخل فى إبانه . نضيد : منتظم .
(٥) الحيوان ٧/٧٩ .
(٦) الفقمان : اللحيان .
(٧) الحيوان ٧/١١٤ وما بعدها .

ذو الرُّمَّة [1]

هو غَيْلان بن عقبة من بنى عدى بن عَبْد مَنَاة ، لُقِّبَ بذى الرمة لقوله فى بعض شعره يصف الوَتِدَ : « أشعث باقى رُمَّة التقليد » والرُّمة : القطعة البالية من الحَبْل ، وأضيفت إلى التقليد لأن الوتد يتقلد بها . وقيل : لُقِّب بذى الرمة لأنه كان — وهو غلام — يتفزَّع ، فأتت به أمه مقرئ قبيلته ، فكتب له مَعاذة فى جلد غليظ ، وعلَّقتها أمه على يساره برُمَّة من حبل فسمِّى ذا الرمة . وقيل إن مية التى شغفت قلبه حبًّا هى التى لقَّبته بذلك حين ألمَّ بخبائها وطلب منها أن تسقيه ماء ، وكان على كتفه رمة ، فلما أتته بالماء ، وكانت لا تعرفه ، قالت له : اشرب يا ذا الرمة . وقد وُلد بصحراء الدهناء بالقرب من بادية اليمامة ، لأم من بنى أسد تسمى ظبية . وكان له ثلاثة إخوة كلهم شعراء . هم مسعود وأوفى وهشام ، وفى بعض الروايات أن أوفى ابن عمه ، أما أخوه الثالث فاسمه جرفاس .

وقد ولد حوالى عام ٧٧ للهجرة . وتلقَّن الكتابة ، وليس بين أيدينا أخبار كثيرة عن نشأته الأولى ، ونراه ينظم الشعر فى خلاف نشب بين قبيلته وعتيبة بن طَرْثوث بسبب بئر كانت لقومه . ومن ثم مضى يمدح المهاجر بن عبد الله والى اليمامة مثنياً على حكومته العادلة فى هذا الخلاف . ومن أخباره المتصلة بقبيلته أيضاً أنه نزل مع نفر منها على عشيرة امرئ القيس بن عبد مناة : فلم يكرموهم . فانطلق يهجوهم ، وكان ذلك سبباً فى اصطدامه بشاعرهم المسمى هشاماً المرئى ، ولم يستطع هشام أن يثبت له لضعف شاعريته ، على الرغم مما أمدَّه به جرير من بعض الأشعار .

وتدل أخباره على أنه كان ينزل الكوفة والبصرة — ويطيل النزول فيهما — منذ مطالع القرن الثانى للهجرة مادحاً رجالاتهما ، وأول ما نستقبله من ذلك مديحه

---

(١) انظر فى ذى الرمة ابن سلام ص ٤٦٥ وما بعدها والشعر والشعراء ١/٥٠٦ وأغانى (ساسى) ١٦/١٠٦ وابن خلكان فى غيلان والموشح للمرزبانى ص ١٧٠ والخزانة ١/٥٠ ومرآة الجنان لليافعى ١/٢٥٣ وفهارس الأغانى والبيان والتبيين والحيوان والكامل للمبرد وأمالى المرتضى ، وكتابنا « التطور والتجديد فى الشعر الأموى » ص ٢٦٥ وقد نشر مكارتنى ديوانه فى كمبريدج سنة ١٩١٩

هلال بين أحوز المازنى فى انتصاراته على المهالبة سنة ١٠٢ وقضائه على من بقى منهم بعد معارك مسلمة بن عبد الملك قضاء مبرماً . وقد مدح عبد الملك بن بشر بن مروان نائب مسلمة على البصرة . وتولّى على العراق فى سنة ١٠٣ عمر بن هبيرة الفزارى فاتصل به ومدحه ، حتّى إذا خلفه خالد القسرى منذ سنة ١٠٥ رأيناه يمدح نوابه ومن ولاهم الشرطة والأحكام، وعلى رأسهم نائبه أبان بن الوليد البَجَلى ، ومالك بن المنذر بن الجارود صاحب شرطته . وأهم من مدحهم بلال ابن أبى بُرْدة الأشعرى الذى ولى شئون الشرطة لخالد فى البصرة سنة ١٠٩ ، ثم ولى منذ سنة ١١٠ أمور البصرة كلها : القضاء والصلاة والأحداث ، وظل يليها إلى أن توفى الشاعر . وقد امتدت رحلاته فى طلب النوال إلى دمشق وخاصة فى عهد هشام بن عبد الملك ، فله فيه غير قصيدة ، كما امتدت إلى مكة حيث مدح واليها إبراهيم بن هشام المخزومى ، ولما ولى فارس أبان بن الوليد قصده ومدحه . وقد هجا فى بعض شعره حكيم بن عياش الكلبى الكوفى الذى كان يتعصب لليمن تعصباً مسرفاً .

والعناصر الإسلامية واضحة فى شعر ذى الرمة ، فهو يمدح بالتقوى ويهجو بالضلال ، ودائماً يذكر فى رحلاته الصحراوية التيمم والقَصْر فى الصلاة وتلاوة آى الذكر الحكيم ، ويظهر أنه كان كثير الاختلاف إلى مجالس الوعّاظ والمتكلمين فى عصره ، حتّى لنراه يعتنق مذهب القَدَرية فى العدل على الله جَلّ جلاله وفى حرية الإرادة ، ويناقش رؤبة فى ذلك ويعلو عليه فى نقاشه[1] ، ومما صدر فيه عن مذهبه قوله فى الغزل :

وعَيْنان قال اللهُ كونا فكانتا فَعولان بالألباب ما تفعل الخمر

وقد تعرض له بعض من سمعوه ينشده ، يقول : هلا قلت : فعولين ، وكأنه لم يلتفت إلى أنه يتحرّز بذلك من القول بخلاف العَدْل وأن عمل الإنسان وعمل جوارحه بإرادته . ويُجْمع معاصروه على أن كان ذكياً ذكاء حادّاً وأنه كان كنزاً من كنوز الفطنة وذخائرها الدقيقة ، كما كان كنزاً من كنوز العلم بالشعر القديم واللغة ، وقد شُغف بشعر الراعى ، حتّى قالوا إنه كان راويته

(١) أمالى المرتضى ١/١٩

ولعله هو الذى ألهمه عنايته بالصحراء ووصف مناظرها الطبيعية ، وقد مضى يتغناها إلى أن دُفن فى أحضانها سنة ١١٧ للهجرة .

وذو الرمة يتخلف فى المديح والهجاء جميعاً عن فحول عصره أمثال الفرزدق وجرير ، وكأن الطبيعة وما اقترن بها من حبه لم يُبْقيا فيه بقية. ومُلْهمته الأولى فى الديوان مَيَّة بنت طُلْبة بن قيس بن عاصم ، فقد رآها فى بعض رحلاته ، فشغفت قلبه حباً ، وظل يتغنى باسمها وحبها فى كل مكان . وفى الديوان أخرى تسمى خرقاء ، ولعله كان يكنى بها عن مية ، وإن كان من الرواة من زعم أنها امرأة أخرى . وحبُّ ذى الرمة حب عفيف كله أنين وزفرات ودموع وحنين بالغ من مثل قوله :

وقفتُ على رَبْعٍ لميَّة ناقتى فمازلتُ أبكى عنده وأُخاطبه
وأَسْقيه حتى كاد مما أَبثُّهُ تكلِّمنى أَحجارُه وملاعبه[1]

وقوله :

وحبُّها لى سوادَ الليل مرتعدًا كأَنها النار تَخبو ثم تلتهب

وقوله :

أدارًا بِحُزْوَى هِجْتِ للعين عبرةً فماءُ الهوى يرفضُّ أَو يترقرقُ[2]

وقوله :

أَجَلْ عبرةً كادتْ لِعِرْفان منزلٍ لميَّة لو لم تُسهلِ الماءَ تَذْبَحُ

ولعل شاعراً عربيًّا لم يكثر من وصف دموعه كما أكثر ذو الرمة ، وعبثاً كان يطفئ بها نيران الحب المندلعة فى قلبه لمية ، وقد مضى يتعزَّى عنها بصحرابها الذى كانت تعيش فيه ، فإذا هو أكبر شاعر يتغنى بالصحراء العربية ، وحقًّا كان الشعراء قبله وحوله يصفونها ، ولكنه امتاز منهم بأنه عشقها ، عشق أيامها ولياليها ورمالها وكثبانها وآجامها وأعشابها وأشجارها وحيوانها الأليف والوحشى

(١) أسقيه : أدعو له بالسقيا .

(٢) حزوى : موضع بديار تميم . يرفض : يسيل . يترقرق : يسكن فى العين جائلا .

وكل ما يُطوَى فيها من آبارٍ وسمائم وسراب وطير ورياح وكل ما يلمع فى سمائها من كواكب ونجوم وسحاب وغيوم .

وكأنما وجّد ذو الرمة عشقه الحقيقى فى الصحراء ، فإذا هو ينقل مناظرها إلى شعره فى لوحات رائعة ، وارجعْ إلى القصيدة الأولى فى ديوانه التى يفتتحها بوصف دموعه التى تسيل دائماً ولا تفتر ، إذيقول :

ما بالُ عينك منها الماءُ ينْسكبُ

كأنه من كُلًى مَفْرِيَّةٍ سَربُ (٢)

فإنك ستراه يخص محبوبته بنحو عشرين بيتاً ، ثم يمضى فى نحو مائة بيت يصور ثلاثة مشاهـــد رائعة من مشاهد الصحراء التى كانت تبهج نفسه ، أولها مشهد أتُن الوحش وحمارها ، وهو يقودها فى يوم حارٍّ إلى ماء بعيد ، تصل إليه ، وتهوى عليه تريد أن تشفى غُلَّتها ، فيتعرض لها صائد مختف وراء الأشجار بسهامه ، فتفرُّ على وجهها ، وتطيش سهامه ، ودائماً تطيش هذه السهام فى شعر ذى الرمة حبًّا للحيوان . والمشهد الثانى مشهد ثور الوحش فى كِناسه مكتنًّا من المطر ، وقد ترامت حوله حنادس الليل ووساوسه ، وتتفلت أضواء الصباح فيخرج من كناسه للرعى وإذا بصائد قد أرسل عليه كلابه ، فيمزقها إرباً ، وينكشف عنه همه وروعه . والمشهد الثالث مشهد الظليم وصاحبته يرعيان بعيداً عن أفراخهما ، ويكفهرُّ الجو ، فيسرعان إليها خيفة أن يسقط عليها بـَرَدُ السماء أو بعض السباع . وذو الرمة فى المشاهد الثلاثة يشبه الرسامين الذين يحشدون فى لوحاتهم جميع الجزئيات والتفاصيل ، فهو يجسِّم صورة الحيوان وصورة الصحراء من حوله برمالها ومفازاتها وأعشابها ونباتاتها وغُدْرانها ، وهو إلى ذلك يبثُّ فى الحيوان مشاعر الإنسان وما يعتريه من وساوس وهواجس . وقد صور فى الثور حين هاجمته الكلاب شعوره بعزته وكأنه يمثِّل فيه البدوى وإحساسه بكرامته ، كما صور فى الظليم وصاحبته عاطفة الأبوة والأمومة الرحيمة .

ولعل هذه أهم خاصة تميِّز وصف الحيوان الوحشى عند ذى الرمة إذ يحمِّله

(١) الكلى : الرقع فى عروة المزادة . مفرية : مقطوعة ، يشبه عينه التى يسيل دمعها برقع المزادة البالية التى لا تنى ترسل الماء .

عواطف الإنسان ومشاعره ، ومن أروع ما يصور ذلك عنده قوله فى ظبية وابنها أو خِشْفها :

إذا استودعتْه صَفْصَفاً أو صَرِيمةً   تنحَّتْ ونَصَّتْ جِيدها بالمناظِرِ[١]

حِذاراً على وَسْنانَ يَصْرعه الكَرَى   بكل مَقيلٍ عن ضِعافٍ فواترِ[٢]

وتهجرُه إلا اختلاساً نهارَها   وكم من محبٍّ رَهْبةَ العين هاجر

حذارَ المنايا رهبةً أن يَفُتْنَها   به وهْى إلا ذاك أضعفُ ناصر[٣]

وواضح أنه صور محبة الظبية لابنها وكيف تخشى عليه السباع ، فهى تبعد عنه حتى لا تدلهَّا عليه ، وعينها مشدودة إليه ، وقد امتلأ قلبها بالحنان والحب والشفقة . وعلى هذا النحو كان يبثّ فى الحيوان مشاعر الإنسان وأحاسيسه .

وبجانب هذه الخاصة فى وصف الطبيعة الحية نجد خاصة أخرى فى وصف الطبيعة الصامتة . إذ ملأها بالحياة والحركة ، ولكن كيف يأتى بذلك فى خمود الصحراء وهمودها ؟ لقد استعان فى النهار بالسراب . فإذا ذُرَى الجبال تتحرك كأنها خيل طالعة أو إبل تُهدَى للنَّحْر عند البيت الحرام ، أو لعلها سفن تجرى فى الفرات ، أما إذا جنَّه الليل فحسبه النجوم التى يرى فيها صورة بقر الوحش والظباء . وجعله هذا التمثل لما يجرى فى الأرض والماء والسماء يقع على صور فريدة من مثل قوله فى وصف ظباء تبدو له من آفاق بعيدة :

كأنَّ بلادَهن سماءُ ليلٍ   تُكَشَّفُ عن كواكبها الغُيومُ

وقوله فى ظباء أخرى :

كأن أُدْمانَها والشمسُ جانحةٌ   وَدْعٌ بأرجائها فَضٌّ ومنظومُ[٤]

وقوله فى وصف الإبل ورحلتها فى الصحراء :

كأنَّ مَطايانا بكل مفازةٍ   قراقيرُ فى صحراء دجْلةَ تَسْبَحُ[٥]

---

(١) الصفصف : الأرض المستوية . صريمة : رملة . نصت : نصبت مستقصية .

(٢) الكرى : النوم . المقيل : وقت القيلولة .

(٣) يفتنها . يسبقنها .

(٤) الأدمان : الظباء ، فض : متفرق .

(٥) القراقير : السفن .

وفى الحق أن مخيلته كانت حالمة، إذ ما تزال تبدو له الطبيعة فى رُؤًى غريبة ، وهى رُؤًى ملأت جوانب ديوانه بتجسيمات وتشخيصات بديعة من مثل قوله :

وريحُ الخُزامى رشَّها الطَّلُّ بعدما   دَنا الليلُ حتى مسَّها بالقَوادمِ [1]

وقوله :

ألا طرقتْ مَىٌّ هَيُوماً بذكرهـا   وأيدى الثُّريَّا جُنَّحٌ فى المغاربِ [2]

ومن صوره الطريفة صورته للحِرْباء ووصفه لما اشتهر به من استقبال الشمس لاجئاً بظهره إلى بعض العيدان ماداً يديه كأنه مصلوب ، يقول :

إذا جعل الحِرْباءُ يَغْبَرُّ لـونه   ويخضرُّ من لَفْح الهجيرِ غَباغِبُه [3]
ويَشْبَحُ بالكَفَّيْن شَبْحاً كأنه   أخو فَجْرةٍ عالَى به الجِذْعَ صالبه [4]

وعُنِى طويلا بوصف همس الفلوات وما يُسْمع فى حنادسها من أصوات مدوية كانوا ينسبونها إلى الجن ، ونراه يشبِّهها بتراطن الروم وتَضْراب الطَّبْل وصياح الضرائر وأصوات السمر [5]. ومن أهم ما يميزه عنصر المفاجأة فى صوره ، وهو عنصر جعله يقرن الأشياء المتباعدة بعضها إلى بعض ،فنصبح وكأننا حقا فى عالم من عوالم الرؤى والأحلام .

٦

الرَّجَز

الرَّجَزُ من البحور القديمة فى الشعر العربى ،فقد كان يُسْتَخْدَم بكثرة فى العصر الجاهلى ، وهى كثرة تؤكد أنه كان الوزنَ الشعبىَّ العام الذى يدور على

---

(١) القوادم : الريش الطويل فى جناح الطائر .

(٢) الهيوم : ذاهب العقل ، وأراد بأيدى الثريا أوائلها .

(٣) الغباغب : الجلد أسفل الحنك ، ومعروف أنه كلما حميت الشمس على الحرباء رأيت جلده يخضر بينما يظل أعلاه أصفر .

(٤) يشبح : يمد يديه .

(٥) الحيوان ٦/١٧٥ومابعدها، ٢٤٧، ٣٦٣.

كل لسان ، ومن ثَمَّ قلما وجدنا شعراءهم المبرزين ينظمون فيه وكأنما تركوه للجمهور يتعهده ويرعاه .

وليس ذلك كل ما نلاحظ فى شعبيته الجاهلية ، فقد دخلت فيه صور كثيرة من الزِّحاف ، لا تلقانا فى أى وزن آخر ، فكثر فيه المشطور والمنهوك ، وأيضاً فإنه لم يَطُلْ إذ كان لا يتجاوز البيتين والثلاثة إلا نادراً ، فهو مقطوعات قصار ، ينظمها كثيرون معروفون ومجهولون ، حين يَحْدُون ببعير وحين يجولون فى ميادين الحروب ، وحين يتناولون أى عمل كحَفْر بئر أو مَتْح منها .

وعلى هذا النحو كان أبياتاً قليلة تُنْظَم بديهة وارتجالا مقترنة بأعمالهم وحركاتهم السريعة والبطيئة ، ومن ثَمَّ قيل إنهم حاكوا به وقع أقدام إبلهم فى سيرها وسُراها ، وهيَّأه ذلك لأن يكون من أكثر الأوزان وأوفرها لحناً ونغماً لاقترانه بالحركة الدائبة .

وأول من أطاله وجعله كالقصيد شاعر مخضرم استشهد بموقعة نهاوند سنة ٢١ للهجرة هو الأغلب[١] العِجْلىّ . ولا نتقدم فى عصر بنى أمية ، حتى يتكاثر من يحاكونه . وحتى يَقْصر بعض الشعراء النابهين حياتهم على تجويده وتحبيره ، وهم فى ذلك فريقان : فريق يجمع بينه وبين القصيد ، وفريق لا يجاوزه ، ولسنا نقصد بالفريق الأول من نظموا بعض أراجيز قليلة مثل جرير وذى الرمة ، إنما نقصد من أكثروا منها . ونظموا بين الحين والحين بعض القصيد.

وقد أخذت الأرجوزة — حين طالت — تتناول كل أغراض القصيدة وتجرى على نمطها من الحديث عن الأطلال ووصف الرحلة فى الصحراء والمديح والهجاء والفخر ، فهى لا تختلف غالباً عنها فى النظام وسَرْد الموضوعات المتنوعة . ومضت تزاحمها حتى غلبتها فى باب الصَّيْد بالجوارح ، إذ نجد غير شاعر ينظم فى هذا الباب أراجيز كثيرة ، منهم الشَّمَرْدل بن شَريك التميمى الذى عرضنا له بين شعراء اللهو والمجون وفيه يقول صاحب الأغانى : « كان الشَّمَرْدلُ صاحب قَنْص وصيد بالجوارح وله فى الصَّقْر والكلب أراجيز كثيرة[٢] » ويسوق له أرجوزة يستهلها على هذا النمط :

(١) انظر فى ترجمته الشعر والشعراء ٢/٥٩٥ والأغانى ١٨/١٦٤ والخزانة ١/٣٣٢ وأسد الغابة ١/١٠٥ والإصابة ١/٥٦ وابن سلام ص ٥٧١ وما بعدها والموشح ص ٢١٣ .

(٢) أغانى (دار الكتب) ١٣/٣٦١ .

قد أغتدى والصبحُ فى حِجابهِ والليلُ لم يأوِ إلى مآبهِ
وقد بدا أبْلقَ من مُنْجابه بتوّجىٍّ صاد فى شبـابه[١]
مُعـاودٍ قد ذلَّ فى إصعابهِ قد خَرَّق الضِّفارَ من جذابه[٢]
وعرفَ الصوتَ الذى يُدْعىَ بهِ ولعــةَ المُلْمعِ فى أثـوابه[٣]

ويلقانا بأخرة من العصر أبو نُخَيْلة[٤]، وهو مثل الشمردل كان يجمع بين الرجز والقصيد ، ويقول ابن المعتز : « له فى الطَّرْد أراجيز كثيرة مشهورة ... وأعاجيبه فى القَنْص وغيره كثيرة » وقد ساق له أطرافاً من تلك الأراجيز ، ولعل فى هذا ما يصحح الفكرة التى كانت تزعم أن أبا نواس أول من فتح هذا الباب . وربما كان أهمّ من جمع بين الرجز والقصيد فى هذا العصر أبو النجم العجلى ، وسنعرض له عما قليل .

ويلقانا كثيرون لا يتجاوزون الرجز إلى القصيد، منهم دُكَيْن[٥] بن رجاء الفُقَيْمى ودكين[٦] بن سعيد الدارمى . وقد خلط بينهما ابن قتيبة كما لاحظ ياقوت فى معجمه، ومنهم الزَّفيان[٧] السعدى التميمى، وأبرزهم جميعاً العجَّاج وابنه رُؤْبة اللذان انتهت إليهما صناعة الرجز ، ونقول صناعة، لأن الرجز تحول عندهما إلى صناعة لغوية ، فلم يعد يُقْصَد به إلى التعبير عن الأغراض الوجدانية وحدها ، بل أصبح يُقْصَد به أيضاً إلى التعبير عن غرائب اللغة ، وشركهما فى ذلك من بعض الوجوه أبو النجم ، ولكنه لم يُبْعد فى الإغراب إبعادهما .

---

(١) أبلق : فيه سواد وبياض. منجابه : مكان انكشافه . التوجى : الصقر ينسب إلى توج من قرى فارس .
(٢) خرق : شق . الضفار : الحبل يشد به .
(٣) الملمع : المشير بثوبه .
(٤) انظر فى ترجمته الشعر والشعراء ٢/٥٨٣ والأغانى (ساسى) ١٨/١٣٩ والخزانة ١/٧٨ وطبقات الشعراء لابن المعتز (طبع دار المعارف) ص ٦٢ وما بعدها والموشح ص ٢١٩ .
(٥) انظره فى معجم الأدباء (طبع مصر) ١١/١١٣ والشعر والشعراء ٢/٥٩٢ وتهذيب ابن عساكر ٥/٢٤٧ .
(٦) راجع معجم الأدباء ١١/١١٧ وابن عساكر ٥/٢٤٨ والشعر والشعراء ٢/٥٩٢ وانظر الهامش .
(٧) راجع معجم المرزبانى ص ١٠٩ وقد نشر ألوارد ديوانه فى مجموع أشعار العرب ، الجزء الثانى .

ونحن نجد هذه الرغبة في العناية بالغريب عند كثير من الشعراء ، مثل الطِّرِمَّاح والكُمَيْت ، وقدعرضنا لهما في غير هذا الموضع . واشتهر شُبَيْل بن عَزْرة الضُّبَعِيّ بأشعار له بناها على اللفظ الغريب [١] . وهو اتجاه تعليمي نظن ظنًّا أن الذي دعا إليه عناية الأجانب بتعلم العربية ونهوض طائفة من العلماء بجمع اللغة وشواردها ، وقد انبرى العَجَّاج وابنه رُؤْبة يجمعان لهم في شعرهما هذه الشوارد حتى تحوَّل ديواناهما إلى معجمين للغرائب اللغوية ، وهما بحق يُعَدَّان أهم من هيَّأ لتحول الرجز من شعبيته القديمة إلى بيئة المثقفين . وسرعان ما استغله العباسيون في شعرهم التعليمي الذي صنفوا فيه أهل المقالات وتحدثوا عن عجائب الخلق وقَصُّوا وساقوا الحكم والأمثال [٢] .

أبو النجم [٣] العِجْلِيّ

من أهل الكوفة ، وكانت فيه فكاهة ، فقرب من نفوس الولاة والأمراء والخلفاء ، وله فيهم أمداح كثيرة ، إذ نراه يمدح الحجاج وغيره من ولاة العراق كما يمدح سليمان بن عبد الملك وهشاماً ، وقد أقطعه الأخير بالكوفة أرضاً تسمى الفِرْك ، كان ينزل بها . وفي أخباره أنه قدم على زياد بن أبيه فرهبه رهبة شديدة ، وخرج من عنده ، وهو يقول [٤] :

أقبلتُ من عند زيادٍ كالخَرِفْ تخـطُّ رِجلاى بخطٍّ مختلفْ
تكتُبان في الطريق لامَ ألفْ

وفي ذلك ما يدل على أنه كان كاتباً . ويُجْمع الرواة على أنه كان سريع البديهة في صنع الشعر ونظمه ، ومن ثَمَّ كان يغلب الشعراء والرجَّاز حين

---

(١) البيان والتبيين ١/٣٤٣ وانظر كتاب المكاثرة عند المذاكرة للطيالسي (نشر جاير) ص٤٠ .

(٢) انظر كتابنا « الفن ومذاهبه في الشعر العربي (طبع دار المعارف) ص١٣٩ وما بعدها.

(٣) راجع في أبي النجم ابن سلام ص ٥٧٦ والموشح ص ٢١٣ والشعر والشعراء ٢/٥٨٤ وأغاني دار الكتب ١٠/١٥٠ والخزانة ١/٤٨ ، ٤٠١ والمبرد ص ٤٨٥ وما بعدها ومعجم الشعراء ص١٨٠ .

(٤) الخصائص لابن جني (طبع دار الكتب) ٣/٢٩٧ .

يتسْتبقون فى موضوع يطرحه خليفة أو وال ، ويظفر بالجائزة من دونهم ، ويقول ابن سلام : إنه أبلغ فى النَّعْت من العجاج . وأمّ أراجيزه لاميته التى يستهلها بقوله[١] :

الحمدُ لله الوَهــوب المُجْزلِ أَعْطى فلم يَبْخَلْ ولم يُبَخَّــلِ

والأرجوزة بعد ذلك تفيض بالغريب فى وصف الإبل ومراعيها ، وكان رؤبة يسميها أمّ الرجز استحساناً لها وإعجاباً بها . ويُرْوَى أن العَجَّاج غدا على الناس بالمِرْبَد ينشدهم أرجوزته المشهورة «قد جبَر الدينَ الإلهُ فجبَر[٢]» وقد ضمنها هجاءه لربيعة ، فاستعدتْ عليه راجزها أبا النجم ، فبادره ينشد أرجوزته « تذكَّر القلبُ وجَهْلا ما ذكَرْ» حتى إذا بلغ إلى قوله : « شيطانُه أنثى وشيطانى ذَكَرْ» تعلَّق الناس هذا الشَّطْر وهرب العجاج عنه . ومن طريف ما يُرْوَى من أراجيزه أرجوزته فى وصف فهود عبد الملك بن بشر بن مروان ، وهو يستهلها بقوله :

إنا نزلنا خيرَ مَنْزِلاتِ بين الحُمَيْرات المباركاتِ
فى لحم وحشٍ وحُبارَياتِ وإن أردنا الصيد ذا اللذَّات[٣]
جاء مُطيعًا لمطاوِعــاتِ عُلِّمْنَ أو قد كُنَّ عالماتِ
فَهْى ضوارٍ من مضرَّياتِ تُريك آماقًا مخطَّطاتِ
سودًا على الأَشداق سائلات تَلْوى بأذناب مــوقَّفاتِ

وكثير من رجزه على هذا النحو لا يُسْتبعد فيه ولا يغرب ، وإن كان من الحق أنه « كان يتوسع فى الكلام ويحمل بعضه على بعض ويشتق بعضه من بعض[٤]» ، ولكنه يظل قريباً منا فى جمهور رجزه ، وخاصة حين يعمد إلى التندر والدعابة ، على شاكلة قوله يوصى ابنته « بَرّة » عند زواجها :

(١) نشر هذه اللامية عبد العزيز الميمنى فى «الطرائف الأدبية» طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ص ٥٥ .
(٢) جبر الثانية بمعنى انجبر .
(٣) حباريات : جمع حبارى وهو طائر .
(٤) الخصائص ١/ ٢٣٠ .

أوصيتُ من بَرَّةَ قلبا حُرًّا ... بالكلب خيرًا والحماةِ شَرًّا

لا تسأمى ضَرْبًا لها وجرًّا ... حتى تَرىْ حُلْوَ الحياة مُرًّا

وإن كستْكِ ذهبًا ودُرًّا ... والحىَّ عُمِّيهم بشَرٍّ طُرًّا

وكان بمثل هذه الدعابة يخف على قلوب الولاة والخلفاء ، فيفسحون له فى مجالسهم ويجزلون له العطاء .

العَجَّاج[1]

هو عبد الله بن رُؤْبة التميمى ، نشأ فى البادية ونزل البصرة ، وكان دائب الرحلة إلى منازل قومه فى الصحراء ، وقد سخَّر أراجيزه منذ يزيد بن معاوية فى مديح الخلفاء ، وخاصة سليمان . ونراه ينظم بلسان قومه فى خصومتهم للأزد عقب وفاة يزيد بن معاوية ، ولما ولى مصعب العراق لأخيه عبد الله بن الزبير لزمه ومدحه وهجا المختار الثقفى ، حتى إذا قتله عبد الملك بن مروان رأيناه يسارع إلى صفوف المروانيين ، فيمدح بشر بن مروان والى العراق وأخاه عبد العزيز والى مصر ، كما يمدح عمر بن عبيد الله بن معمر مشيداً بانتصاره على أبى فُدَيْك زعيم النَّجدات من الخوارج ، ويمدح أيضاً الحجاج ويهجو خصومه من مثل ابن الأشعث . وكانت فيه عصبية لقومه جعلته يضطرب فيما يضطربون فيه من خصومات قبلية ، ومرَّ بنا وقوفه بالمربد يهجو ربيعة ، وكيف اقتصَّ منه أبو النجم . واشتهر بأنه لا يحسن الهجاء ، وسُئل فى ذلك فقال : هل فى الأرض صانع إلا وهو على الإفساد أقدر .

وأراجيزه مليئة بأوابد اللغة وشواردها التى ينثرها ، بل يضمها بعضها إلى بعض ، فى وصف الطبيعة الصحراوية بمناهلها وغدرانها ورمالها وكُثْبانها ونباتاتها وحيوانها الوحشى والأليف ، وكل ما يجرى فى أرضها من رياح وسموم وطير وفى

(١) انظر فى العجاج الشعر والشعراء ٢/٥٧٢ والموشح للمرزبانى ص ٢١٥ وما بعدها وشرح شواهد المغنى ١٨ وتهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٧/٣٩٤ وفهارس البيان والتبيين والخصائص لابن جنى والمزهر للسيوطى (طبعة الحلبى) وقد نشر الوارد [illegible] ديوانه فى مجموع أشعار [illegible] الجزء الثانى .

سمائها من كواكب ونجوم . وهو يُعَدّ بحق أول من فسح طاقة الرجز وجعله يخوض فى كل ما تخوض فيه القصيدة العربية الطويلة . وهو أيضاً أول من دفعه بقوة من الميادين الشعبية إلى ميدان الغرابة اللفظية ، ولم يكتف بذلك ، فقد أخذ يقيس فى اللغة ويكثر من القياس ، ويتصرف حسب ذوقه وإرادته الفنية . ولم يقف فى ذلك عند ألفاظ اللغة العربية وحدها ، إذ كان يعمد إلى بعض الألفاظ الفارسية فيعربها ، وقد يصرّف منها أفعالا ، على نحو ما صنع فى أرجوزته الجيمية . إذ يلقانا فيها هذا الشطر : « كما رأيت فى الملاء البَرْدجَا » يريد الرقيق ، وقال : «كالحبشى التفّ أو تسبّجا » يريد لبس قميصاً ، وهو بالفارسية شبى ، فعرّبه بسبيجة ، ثم صرّف منه فعلا فى بعض أبياته (١)

ونراه يلتزم فى أراجيزه الموقوفة أو المختومة بالسكون أن يكون موضع الروىّ فى الإعراب واحداً ، بحيث لو أُطلقت قوافيها تحركت جميعاً بحركة واحدة ، على نحو ما يلاحَظ ذلك فى أرجوزته الطويلة « قد جبر الدين الإله فجبّر » ، وهى فى نحو مائتى بيت ، ولو أطلقت قوافيها كانت كلها منصوبة(٢) . ومن طريف ما كان يأخذ به نفسه أحياناً أن نراه يعدل عن افتتاح بعض أراجيزه بذكر الأطلال ووصف الصحراء إلى الحمد والثناء على الله ، وقد يسترسل فى ذلك استرسالا ، فتصبح الأرجوزة موعظة تامة ، على شاكلة أرجوزته :

الحمدُ لله الذى استقلَّتِ بإذنه السماءُ واطمأنَّتِ

وقد تحدّث فيها عن خلق السموات والأرض ، والبعث والنشور ، وما أفاء الله عليه من نعمه ، وقلقه على مصيره ورجائه فى ثوابه . وهو فى ذلك يتأثر مباشرة بمواعظ الوعاظ من حوله أمثال الحسن البصرى وغيره وقد توفى سنة ٩٧ للهجرة . وتُنْسَبُ له أرجوزة فى مديح يزيد بن عبد الملك ، وإن صحت يكون قد لحق أوائل القرن الثانى حين كان يزيد خليفة ، وهو على كل حال مات عن سن

---

(١) الوساطة بين المتنبى وخصومه (طبعة الحلبى) ص ٤٦١ وما بعدها .

(٢) انظر الأغانى (طبع ساسى) ١٨/ ٦٠ والخصائص ٢/ ٢٦٠ .

عالية ، ونراه فى أراجيزه يكثر من بكاء الشباب وتصوير شيخوخته وضعفه ، من مثل قوله :

إمَّا ترينى أَصِلُ القُعَّادا وأتقى - أن أنهض - الإرْعادا[١]
من أن تبدلتُ بآدِى آدا لم يك يَنْآد فأمسى انآدا[٢]
وقَصبا حُنِّىَ حتى كادا يعود بعد أَعْظُمٍ أعوادا[٣]

والجناس واضح فى البيت الثانى ، وهو يشيع فى أراجيزه ، لكثرة ما كان يُعْنَى به من الإتيان بالمصادر وأفعالها ومشتقاتها ، على نحو ما صنع هنا فى الآد وانآد ، وقد جانس فى البيت الثالث بين يعود وأعواد . وكثيراً ما نراه يشتق من الأسماء الجامدة أفعالا ومشتقات ، أو يأتى ببعض المزيدات من الحروف ، وكل ذلك بقصد الإغراب ، كأن الإغراب أصبح عنده يُقْصَد لذاته ، فإن فاته فى اللفظ نفسه أتى به فيما يضعه من صيغ جديدة .

رُؤْبة[٤]

سَمّاه أبوه العجاج باسم جَدّه ، وقد وُلد له حوالى عام ٦٥ للهجرة ، ويظهر أنه عُنِى به منذ صغره ، وأنه ما زال به حتى استيقظت شاعريته مبكرة ، إذ نراه يفد معه على الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦ هـ) ، ونراه فى رفقة الشعراء الذين حجوا مع سليمان بن عبد الملك سنة سبع وتسعين[٥] . ويظهر أنه كان يولع بالرحلة منذ شبابه إلى الشرق ، فينزل تارة السند وتارة خراسان .

---

(١) القعاد : جمع قاعد ، يريد أنه يكون منهم ويفعل فعلهم .

(٢) الآد : القوة كالأيد . انآد : اعوج وانحنى .

(٣) القصب : كل عظم ذى مخ . حنى : دق ، يريد أن عظمه وهن .

(٤) انظر فى ترجمة رؤبة الشعر والشعراء ٢ / ٥٧٥ وابن سلام ص ٥٧٩ والأغانى (ساسى) ١٨ / ١٢٤ وما بعدها و ٢١ / ٥٧ والخزانة ١ / ٤٣ ومعجم الأدباء ١١ / ١٤٩ وابن خلكان وتهذيب التهذيب ٣ / ٢٩٠ ولسان الميزان ٢ / ٤٦٤ والموشح ص ٢١٩ وابن عساكر ٥ / ٣٢١ وكتابنا « التطور والتجديد فى الشعر الأموى » ص ٣٤٠ . وقد نشر ديوانه آلوارد وخصه بالجزء الثالث من مجموع أشعار العرب .

(٥) طبرى ٥ / ٣٠٥ .

ومنذ أوائل القرن الثانى يلزم ولاة العراق يمدحهم ، يمدح أولا مسلمة بن عبد الملك ويشيد بانتصاراته على الأزد وصاحبهم يزيد بن المهلب ، ويجترُّ فى هذه الإشادة عصبية عنيفة لقومه تميم ، وقد مضى يمدح هريم بن أبى طحمة المجاشعى أحد قوادهم الذين أبلوا فى القضاء على يزيد وثورته . وتلقانا فى ديوانه أراجيز كثيرة فى مديح خالد القسرى وولاته وفى مديح كثير من رجالات العراق أمويين وغير أمويين ، نذكر منهم المهاجر بن عبد الله والى اليمامة ، وبلال بن أبى بردة الأشعرى نائب خالد على البصرة ، وأبان بن الوليد البجلى نائبه فى شئون الخراج ثم والى فارس ، والحكم بن عبد الملك بن بشر بن مروان ، وحرب بن الحكم بن المنذر بن الجارود ، وعمرو بن عَنْبسة بن سعيد بن العاص . وَيقدُمُ على الوليد بن يزيد بن عبد الملك فيمدحه ، ويمدح مروان ابن محمد آخر خلفائهم ويلجّ فى هجاء خصومه المارقين . وينزل خراسان ، فيمدح نصر بن سيار ويحذّره من أبى مسلم الخراسانى فى غير أرجوزة .

وجعله هذا الموقف من مناصرة الأمويين يستشعر غير قليل من الخوف والوجل حين تحولت مقاليد الأمور إلى العباسيين ، ويحاول أبو مسلم الخراسانى أن يُذهب عنه روْعه . وكذلك يصنع أبو العباس السفاح ، وله فى مديحه أرجوزة طويلة إذ امتدت إلى أربعمائة بيت ، ويمدح من بعده أبا جعفر المنصور . وهو فى أثناء ذلك كله مقيم بالبصرة ، حتّى إذا ثار بها إبراهيم بن عبد الله بن الحسن رأيناه يخاف على نفسه ، ويخرج إلى البادية ، ليتجنب الثورة ، وسرعان ما يلبِّى نداء ربه سنة ١٤٥ للهجرة .

ومرَّ بنا أنه كان جَبْريًّا ، يؤمن بأن عمل الإنسان قدر مقدور عليه لا مفر منه ، مما جعله يناقش ذا الرمة فى مذهبه القَدَرىّ على نحو ما أسلفنا . والروح الإسلامية قوية فى شعره ، ويقول بعض من ترجموا له إنه كان يتألّه . وعنده انتهى فن الرجز إلى كل ما كان ينتظره من وعوثة وصعوبة لغوية ، إذ تحوّل به يُرْضِى اللغويين من حوله ويقدِّم لهم كل ما كانوا يطلبونه من الشواذ اللغوية فى الألفاظ وأبنيتها وهيئاتها وما قد يحدث فى بعض الحروف كالهمزة من إعلال ، وكأنما تحوّل معيناً لا ينفد للأوابد والشوارد ، ومن ثَمَّ غدت الأرجوزة

عنده وكأنها متن لغوى معقد ، أو قل مستغلق : تستغلق ألفاظه ، إذ يختارها من وحشى الكلام ، بحيث لا يفهمها إلا خاصة الخاصة من اللغويين الذين كانوا يأخذون عنه أمثال يونس وأبى عبيدة وخلف الأحمر وأبى عمرو بن العلاء . وهو لا يكتفى باستغلاق اللفظ من حيث وحشيته وغرابته ، فقد كان يضيف إلى ذلك زوائد تزيده استغلاقا ، زوائد من تغيير فى الحركات أو إعلال فى الحروف أو إتيان بصيغ جديدة فى التصريف بواسطة المصادر والجموع والأفعال ، كأن يقول فى مطلع قافيته المشهورة :

وقاتمِ الأَعْماقِ خاوى المُخْتَرَقْ مُشْتَبِهِ الأعلام لَمَّاعِ الخفَقْ[1]

فقد حرك فاء الخفق الساكنة وجعلها مفتوحة للإتباع . ومن ذلك إضافة النون الساكنة إلى بعض قوافيه مثل « يا أبتا علك أو عساكن » والإتيان بصيغة فيْعل بفتح العين فى قوله : «ما بال عينى كالشَّعيب العيَّن » والقياس العيِّن بكسر الياء مع التشديد[2] . واقرأ قوله فى وصف الليل :

وجلَّ ليلٍ يُحْسبُ السَّدوسا يَسْتسمع السَّارى به الجُروسا[3]
هَماهِماً يَسْهرن أورَسيسا علوتُ حين يخضع الرَّعوسا[4]
قَرْع يدِ اللعَّابة الطَّسيسا[5]

فإنك تراه يجمع جرساً على جروس ، فيغرب شيئاً ما ، ويعمد عمداً إلى ألفاظ غريبة يحشو بها وصفه من نحو السدوس والرسيس والرعوس ، وجاء بالطست لا بصيغته المألوفة وإنما بصيغة الطسيس . وعُنى بأن يلائم بين الرَّوِىّ

(١) يتحدث رؤبة عن فلاة . قاتم : أسود ، أعماق المفازة : أطرافها البعيدة . مخترق الرياح : مهبها . خواؤه : خلوه . الأعلام : الجبال يهتدى بها ، يقول إنها متشابهة . لماع الخفق : السراب ، وخفقه : اضطرابه وتحركه .

(٢) راجع الخصائص ٢/٢١٤ ، وسيبويه ٢/٣٧٢ . الشعيب : المزادة والسقاء البالى . العين : سائل الماء .

(٣) جل الليل : معظمه . السدوس : الطيلسان الأخضر . جروس : جمع جرس وهو الصوت

(٤) هماهم : جمع همهمة وهى الصوت الخفى ، الرسيس : الحديث غير البين . الرعوس : الذى يهز رأسه فى نومه .

(٥) الطسيس : الطست ، يريد أن النوم يميل رأسه ويلعب به كما يلعب اللاعب بالطست .

والكلمات الداخلية فى البيت ، إذ اختارها من ذوات السين . وهو مثل أبيه كان يُعْنَى بالجناس كثيراً فى نظمه ، وخاصة جناس الاشتقاق .

واقرأْ فى أراجيزه فإنك لا تستطيع أن تخرج من بيت إلى بيت إلا بعد أن تَعْكسه على فهمك مراراً ، وتعود إلى معاجم اللغة تكراراً ، وتنظر فى سيبويه وغيره ممن عنوا بتوجيه الصيغ فى شعره . ومن المؤكد أن أباه هو الذى فتح له هذا الباب ، ولكنه هو الذى انتهى به إلى هذه الصورة المتعمقة فى الإغراب ، إذ كان يُكثر من القياس فى اللغة والتصرُّف فيها بالتفريع والتوليد ، محاولا أن يأتى بكل شاذة . وبذلك تحولت أراجيزه إلى متون لغوية كاملة ، وأخذ يفزع إليه الشعراء الذين كانوا يُعْنون بإدخال الغريب من مثل الطِّرِمَّاح والكُمَيْت ، يأخذون منه الشيء بعد الشيء ليدخلوه فى أشعارهم [1] . وتحوَّل إليه يونس وأضرابه من علماء النحو يسجِّلون رجزه وما يأتى به من مستغلقات لغوية ، كان يحشدها فى أراجيزه من أجلهم ، ونراه يصرِّح بذلك ، إذ يقول فى أرجوزة له « يلتمس النحوىّ فيها قصدى » .

وعلى هذه الشاكلة اقترنت الأرجوزة عند رؤبة بغاية تعليمية واضحة ، وهى غاية لم تلبث أن تحولت بها كما قدمنا إلى الشعر التعليمى الذى أخذ ينظمه الشعراء فى العصر العباسى ، وكأنهم وجدوا فى وفرة موسيقاها ما يتلافون به نَقْص المعانى الشعرية فى هذا الضرب الجاف من ضروب الشعر . ومضى العباسيون يولِّدون من اتحاد مصاريعها صوراً جديدة من المزدوج والمخمس . ونرى الأندلسيين حين يخترعون الموشحات ويزاوجون فيها بين الأوزان ويخالفون بين القوافى يعتمدون فى هذا الصنيع على نظام الأرجوزة فى التصريع ، فيجعلون الشطر وحدة فى الموشحة ، على نحو ما صنع رُؤبة ورُجَّاز هذا العصر فى أراجيزهم . ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن الأراجيز وخاصة عند رؤبة هى التى ألهمت ابن دريد حكاياته فى تعليم اللغة كما ألهمت بعد ذلك بديع الزمان الهمذانى والحريرى صنع مقاماتهم المعروفة .

---

(١) الخصائص ٣/٢٩٧ .

الفصل السادس

الخطابة والخطباء

١

ازدهار الخطابة

أسهمت عوامل كثيرة فى ازدهار الخطابة لعصر بنى أمية ، إذ كانت لا تزال للعرب سلائقهم اللغوية ولم تفسد ألسنتهم بمجاورة الأمم الأجنبية والاختلاط بشعوبها ، وكانوا من بلاغة المنطق وحسن البيان وجودة الإفصاح والإفهام بحيث يستطيع متكلمهم أن يتبلّغ ما يريد من استمالة الأسماع مع الديباجة الرائعة والرونق البديع .

وقد وقف الجاحظ طويلاً فى كتابه البيان والتبيين يُشيد بقدرتهم الخطابية ، وبلغ من إشادته بهذه القدرة أن رفعهم فى الخطابة على جميع الأمم ، حتى الفرس واليونان ، وهو محق فى تقديمه لهم على الفرس ، أما اليونان فمن المعروف أن الخطابة بأنواعها السياسية والقضائية والحفلية نشطت عندهم نشاطاً واسعاً ، وأنه اشتهر بينهم غير خطيب مثل ديموستين ، وتُوّج هذا النشاط بكتاب الخطابة لأرسطاليس . ويظهر أن الجاحظ لم يكن يعرف شيئاً من ذلك ، ومن ثم مضى يقدم الفرس على اليونان فى الخطابة ، ومما لا شك فيه أنهم يتخلّفون عنهم وعن العرب جميعاً فى مضمار هذا الفن من فنون النثر القولى .

وعواملُ مختلفة هيأت للخطابة العربية أن تبلغ فى هذا العصر كل ما كان يُنْتَظر لها من نشاط وازدهار ، بالإضافة إلى ما ذكرناه من مواهبهم البيانية ، ومن الممكن أن نردها إلى السياسة والمحافل والدين ، فأما من حيث السياسة فإن هذا العصر امتاز بظهور معارضة حادة فيه للدولة الأموية ، وهى معارضة كانت تدور كما مرّ بنا فى غير هذا الموضع على الخلافة وهل تُقْصَرُ على بنى أمية أو

تكون حقًّا شائعاً للمسلمين جميعاً ، أو تُرَدّ إلى بنى هاشم وأبناء على خاصة ، أو تكون حقًّا للعرب ، فلا تختص بها قريش .

وكان الأمويون وولاتهم من مثل زياد والحجاج لا يزالون يقرّرون أنها حق لهم وأن الله اصطفاهم ليقودوا العرب والمسلمين ويحكموهم بشريعته . وانبرى لهم الخوارج يصيحون منذ خروجهم على على بن أبى طالب بأن الخلافة حق عام للمسلمين ، يتولاّها خيرهم زهداً وتقوى وورعاً ، ولو كان غير قرشى ، بل لو كان غير عربى . ومضوا يحاجّون فى أول الأمر عليًّا وابن عباس ، ثم أخذوا يحاجون ابن الزبير ، واختلفوا فيما بينهم وانقسموا فرقاً وطرائق قِدَداً ، فكان منهم الأزارقة والنَّجدات والصُّفْرية والإباضية ، وأخذ كل فريق يحتج لرأيه مستعيناً بدقة مداخله فى حجته .

ومنذ قيام على بالكوفة ظهرت من حوله جماعة ترى أنه هو وأبناءه أصحاب الحق الشرعى فى الخلافة . ويتوفّى على ، فيدعون للحسن ، ويخيب ظنهم فيه حين يتنازل عن الخلافة لمعاوية . ولا تهدأ ثائرتهم ، فيطلبهم زياد بن أبيه ، وقصته مع حُجْر بن عدى مشهورة . ويتوفّى معاوية ، فتكتب شيعة الكوفة إلى الحسين ، ويتجه إليهم ، ولكنه يُقْتَلُ بكَرْبلاء دون غايته . ويتوفّى يزيد ابن معاوية ، فتنشب حركة التوابين ، يقودها سليمان بن صُرَد ، وتبوء بالخذلان. حينئذ يتولى قيادة الشيعة هناك المختار الثقفى ، وما يزال يخطب ويدعو حتى يجتمع عليه خلق كثير ، ويتجرد له مصعب بن الزبير ، فيَقْضى عليه قضاء مبرماً . ونمضى إلى القرن الثانى فيظهر زيد بن على بن الحسين ، ويثور ، وسرعان ما يُقْضَى عليه .

ويتكون فى هذه الأثناء حزب عبد الله بن الزبير ، ويظل نحو ثمانى سنوات ، وكان هذا الحزب يدعو إلى عودة الخلافة إلى الحجاز وأن يتولاها أحد أبناء كبار الصحابة من قريش ، لا هؤلاء الأمويون الذين حولوا الخلافة إلى دمشق وأخذوا هناك يحكمون الناس مستندين إلى القبائل اليمنية الشامية . وبذلك ضاع الحكم من قريش ومن الحجاز جميعاً .

وكان كثير من سادة العرب وأسرها النبيلة يرى أن الخلافة ينبغى أن لا تُقْصَر على قريش وأن تُرَدّ إلى العرب قاطبة ، وبلغ هذا الشعور قمته فى الكوفة ، فانبرى عبد الرحمن بن الأشعث الكِنْدى يعبر عنه فى ثورته على الحجاج ، تؤيده بلدته ، ولكن ثورته باءت بالفشل . ولا نصل إلى أوائل القرن الثانى حتى يثور نفس الثورة يزيد بن المهلب ، وتدور عليه الدوائر .

ودائماً تلقانا فى صفوف هذه المعارضة خطابة كثيرة ، إذ يمتشق الخطباء ألسنتهم فى تصوير مذاهبهم السياسية ، يدعون لها ، كما يدعون للانتقاض على بنى أمية . وكان يلقاهم أنصار الأمويين بخطابة ملتهبة ، يصورون فيها خروجهم على الجماعة وشَغَبهم وأنهم يَضلون الطريق . وكل ذلك هيأ فى قوة لنشاط الخطابة السياسية ، ومن الممكن أن نضيف إلى هذا الجانب خطابة القواد فى الجيوش الغازية شرقاً وغرباً ، إذ قلما احتدمت معركة إلا احتدم معها الشعر والخطابة . ومن الممكن أيضاً أن نضيف ما احتدم بين القبائل من خصومات قبلية جعلتهم يقتتلون كما جعلتهم يخطبون متوعدين منذرين على نحو ما مرّ بنا فى خصومات قيس من جهة وتغلب والقبائل اليمنية من جهة ثانية سواء فى الشام أو فى الجزيرة ، وكذلك خصومات تميم والأزد فى البصرة ، وما اندلع من ألسنة هذه الخصومات جميعاً فى خراسان . وهى — كما قدمنا — خصومات كانت تختلط فيها العصبيات القبلية بالسياسة وموقف القبائل من بنى أمية ونُصرتهم لهم أو انفضاضهم عنهم .

وإذا تركنا السياسة وأحزابها وأحداثها إلى المحافل ووفودها وجدنا لذلك آثاراً قديمة منذ الجاهلية ، وقد أخذت هذه الوفود تكثر منذ حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وخاصة بعد فتح مكة . ولما فُتحت الفتوح ومُصِّرت الأمصار واستبحرتْ الدولة واتسعت كان يقـــدم على الخلفاء الراشدين من ينبئونهم بالفتح ، ومن يذكرون لهم حاجة قومهم فى المصر الجديد . وندخل فى عصر بنى أمية ، فتتحول هذه الوفود إلى سيول ، تَقْصد قصور الخلفاء وقصور الولاة ، متحدثة فى شئون قومها . واشتهر معاوية باستقدامه الوفودَ من الأمصار حين تَعِن له فكرة سياسية كفكرة تولية ابنه يزيد الخلافة من بعده . وكانت هذه الوفود تنوب عن أقوامها

فى بيعة الخليفة الجديد وفى بثّ شكواها حين يلمّ بها مايوجب الشكوى. وانبثقت فى هذه الأثناء خطب التهنئة والتعزية . وكانوا يُسَمّون محافل هذه الوفود باسم المقامات ، وفى العادة كان ينوب عن القوم فى هذه المقامات سيدهم الذى يصدرون عن رأيه . ويتصادف فى بعض الأحيان أن تجتمع وفود مختلفة ، حينئذ يتبارى خطباؤها ، ويحاول كل منهم أن يكون له قَصَبُ السبق فى البيان والفصاحة .

وبجانب المحافل والسياسة دفع الإسلامُ إلى نشاط واسع فى الخطابة ، إذ جعلها جزءاً لا يتجزأ من صلاة الجمعة والعيدين ، فأيّان رَكَزَ الإسلام أعلامه انتصبت المنابر فى المساجد كى يعظ الخطباء الناس بالمواعظ الحسنة ، يُسْنهم فى ذلك الخلفاء والولاة ، وجمهور كبير من الخطباء . ولم تلبث جماعة أن عاشت حياتها تعظ الناس مستلهمة هدى القرآن الكريم وتعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكثر أفراد هذه الجماعة فى كل مصر ، وكثر بجانبهم جماعة من القصّاص ، كانوا يقصون على الناس مازجين قصصهم بتفسير آى الذكر الحكيم وبكثير من مخلّفات أهل الكتب السماوية وتراثهم الدينى . وكانوا يستهوون الناس بما يوردون عليهم من أخبار عجيبة ، وكان نفر منهم يتزيد فى هذه الأخبار تزيداً شديداً ، مما جعل كثيرين من زهاد الأمة ونساكها ينفرون منهم ، وخاصة حين رأوا معاوية وخلفاءه يستغلون بعضهم للدعوة لهم والإزراء على خصومهم[1] ، فارضين لهم رواتب ومكافآت شهرية[2] . ولعل من الطريف أن هؤلاء القصاص كانوا ينبثّون فى الجيوش لتحميس الجند على القتال ، كما كان ينبث معهم جماعة من الوعاظ ، وفى الطبرى نصوص تدل على ذلك كثيرة ، إذ نجد عتّاب بن ورقاء حين نازل شبيباً الخارجى يقصّ على جنده محمساً لهم[3] كما نجد قتيبة بن مسلم فى خراسان يسأل عن واعظ جنده محمد بن واسع الأزدى الناسك المشهور[4] . ولم يكن ذلك قاصراً على جيوش الدولة ، فقد كان الخوارج يذهبون نفس المذهب ، ومن كبار قُصّاصهم صالح بن مسرّح الصُّفْرىّ ،

---

(١) انظر حاشية الولاة والقضاة للكندى ص ٣٠٤ وخطط المقريزى (طبعة بولاق) ٢/٢٥٣

(٢) الولاة والقضاة ص ٣١٧ .

(٣) طبرى ٥/٨٩ .

(٤) البيان والتبيين ٣/٢٧٣ .

وفى الطبرى طرف من قصصه [١] ، وكذلك كان يصنع أصحاب الثورات على نحو ما نعرف عن جَهْم بن صفوان وصنيعه فى فتنة الحارث بن سريج بخراسان [٢] .

وفى هذه البيئة الدينية ، بيئة الوعظ والقصص ، أخذ يتضح رقىٌّ العقل العربى بما أصاب من كنوز الثقافات الأجنبية ، فإذا جدلٌ كثير ينشب فى مسائل العقيدة ، كمسألة ارتباط الإيمان بالعمل ، وهل يُعَدُّ المسلم مؤمناً وإن لم يؤدِّ الفروض الدينية ، ومثل مسألة حرية الإرادة وهل الإنسان مخيَّر فى الحياة أو مسيَّر لا حول له ولا قوة . ومثل مسألة صفات الله ، هل هى عين الذات الإلهية أو غيرها ، وسرعان ما تكونت فرق الجَبْرية والمرجئة والقدرية والمعتزلة ، مما عرضنا له فى غير هذا الموضع .

والمهم أن هذه الفرق تجادلت جدالاً طويلاً فى هذه المسائل العقيدية وهو جدال رشَّح لقيام مناظرات عنيفة بينها ، وهى مناظرات حشدوا لها كل ما يمكن من أدلة نقلية عن الكتاب والسنة وأدلة عقلية مدارها على البرهان المنطقى . ولم تكن هذه الفرق تتجادل فيما بينها فحسب ، بل كانت تُجادل أيضاً طوائف من أصحاب الديانات السماوية وغير السماوية ، وكانوا يرونهم فى جدالهم يستعينون بالمنطق اليونانى وبشعب مختلفة من الفلسفة والثقافات الأجنبية ، فطلبوا الوقوف على ذلك كله . وهم من هذه الناحية يُعَدُّون أسبق الطوائف العربية فى معرفة شئون الفكر الأجنبى ودقائق احتجاجاته .

وعلى هذا النحو انبثق علم الكلام فى عصر بنى أمية ، وانبثقت معه صور خطابية جدلية هى صور المناظرة والمحاورة ، وهى صور جديدة ضُمَّت إلى صور الخطابة السياسية والحفلية والدينية ، صور كانت تسعى إلى نقض أدلة الخصوم وبيان أنهم مخدوعون فيما يذهبون إليه من آراء . وكان الناس يجتمعون من حول أصحاب هذه الصور فى حلقات ، يقف فيها المناظر ومعه أصحابه ، فيعلن رأيه ويدعمه بكل دليل ، ويتقدم خصمه بين أنصاره فيحاول أن يحطم له كل دليل قدَّمه ، وأن يثبت رأيه هو بما يجمع له من براهين . وسنرى مدى ما كان لهذه المناظرات من أثر فى رقى الخطابة رقيًّا بعيداً .

---

(١) طبرى ٥/٥٠ .　　(٢) طبرى ٦/٣ وما بعدها .

٢

خطباء السياسة

نمت الخطابة السياسية فى هذا العصر ونهضت نهوضاً عظيما ، إذ دارت على كل لسان مؤيد أو معارض للدولة ، فأيان وليت وجهك فى السلم والحرب وجدت الخطباء متراصّين فى صفوف متلاحقة يخطبون الناس محاولين أن يستميلوهم إلى آرائهم داحضين بكل ما وسعهم آراء خصومهم . وتموج كتب الأدب والتاريخ بما نثروه من خطبهم وأقوالهم وارجعْ إلى الطبرى فستراه لا يعرض عليك أى رأى دون أن يشفعه غالباً بما خطَب به صاحبه وأورد من حجج تؤيده ، وكثيراً ما يناقضه خصومه مظهرين ما فى رأيه من تمويه .

وليس هناك حزب ولا ثورة كبيرة أو صغيرة إلا وخطباء كثيرون ينبرون للترويج لهذا الحزب ، أو تلك الثورة ، فللخوارج خطباؤهم ، وكذلك للشيعة وللزبيريين ولابن الأشعث وغيره من الثوار . وكان يقابل هؤلاء الخطباء المعارضين للدولة خطباء كثيرون يؤيدون بنى أمية من ذات أنفسهم أو من ولاتهم وقوادهم . وهناك فى أطراف الدولة شرقاً وغرباً خطباء مفوهون يستحثون الجيوش على الجهاد فى سبيل الله والتنكيل بأعدائهم تنكيلا شديدا . وبذلك انتشرت الخطابة السياسية فى كل مكان وعلى كل لسان .

ولعل حزباً لم يكثر خطباؤه كما كثروا فى الخوارج ، إذ كانوا شديدى الحماسة لعقيدتهم ، ولم يَدْعوا لها سرًّا كما دعا الشيعة فى أكثر الأمر ، بل دعوا لها جهاراً ، شاهرين سيوفهم فى وجوه بنى أمية وولاتهم . على أنه ينبغى أن نلاحظ أن جمهور خطبهم سقط من يد الزمن ولم يصلنا ، لأن الناس من غير بيئتهم كانوا يتحرجون من روايتها ، إذ كانوا يرون فيهم ثواراً خارجين على الجماعة ، ويظهر أنهم أنفسهم لم يحرصوا على تسجيلها وروايتها . ومع ذلك فقد بقيت منها بقية احتفظت بها كتب الأدب والتاريخ ، وأيضاً فإنها احتفظت ، وخاصة كتاب البيان والتبيين ، بأسمائهم [1] .

---

(١) البيان والتبيين ١/٢٤٣ وما بعدها و ٢/٣٦٤ وما بعدها .

وأول من يلقانا من خطبائهم حَيَّان بن ظَبْيان السُّلمي والمستورد بن عُلَّفة لعهد المغيرة بن شعبة فى ولايته على الكوفة لمعاوية . ولا نلبث أن نلتقى بنافع ابن الأزرق وطائفة من زعمائهم لدى عبد الله بن الزبير يناظرونه حتى إذا لم يجدوه على رأيهم انصرفوا عنه إلى البصرة ، وهناك انقسموا — على نحو ما مرَّ بنا — إلى أزارقة ونَجدات وصُفْرِيَّة وإباضية ، وأسرع الأزارقة فأعلنوا ثورتهم وشهروا سيوفهم فى وجوه ولاة ابن الزبير ثم من خلفوهم من ولاة بنى أمية . وتصدَّى لهم المهلب ابن أبى صُفْرة وقواد آخرون ، ومزَّقوهم شر ممزَّق

وقد ظلت نيران هذه الحروب مع الأزارقة مستعرة نحو خمسة عشر عاماً كانت تحتدم فيها المعارك الحربية واللسانية من الشعر والخطابة ، ومن أهم خطبائهم نافع بن الأزرق والزبير بن على الذى وليهم بعد نافع وابن الماحوز ، وله خطب مختلفة يحرضهم فيها على القتال والاستشهاد طلباً لما عند الله من الثواب . وتلقانا فى خطابتهم نفس الروح التى وصفناها فى أشعارهم ، إذ نراهم يدعون للترامى على الموت ترامى الفراش على النار غير آبهين بالحياة الدنيا ، إنها حياة زائفة ، وهم يريدون الحياة الخالدة فى الدار الآخرة . وهم إنما يحاربون فى سبيل الحق ، يحاربون تلك الفئة التى ضلت فى رأيهم ، وكل منهم يلتمس الشهادة ، يقول الزبير فى بعض خطبه[1] : « إن البلاء للمؤمنين تمحيص وأجْر ، وهو على الكافرين عقوبة وخِزْىٌ . وثقوا بأنكم المستخلَفون فى الأرض والعاقبة للمتقين » .

فهم فى رأيه الفئة المحقة وخصومهم الفئة المبطلة . وهم المؤمنون حقًّا وغيرهم الكافرون ، وقتلاهم فى الجنة أما قتلى غيرهم ففى النار . وهم لذلك يطلبون الاستشهاد ، بل يطلبون العَجلة إليه ، حتى يتحللوا من الدنيا ومتعها الزائلة ، وكأنما يرون فى الموت نفسه ضرباً من الغلبة على خصومهم الذين غلبوا على الدنيا ، ولا يريدون أن يغلبوهم أيضاً على الآخرة .

وإذا كنا لاحظنا فى شعرهم تنفيراً من الدنيا ، حتى ليتحول فى بعض جوانبه إلى موعظة خالصة فكذلك الشأن فى خطبهم ، على نحو ما يلقانا فى خطبة قَطَرِىّ ابن الفُجاءة قائدهم بعد الزبير بن على ، وهو يستهلها على هذا النمط[2] :

---

(١) الكامل للمبرد ص ٦٤٠ .

(٢) البيان والتبيين ٢/١٢٦ وعيون الأخبار ٢/٢٥٠ والعقد الفريد ٤/١٤١ .

« أما بعد فإنى أحذركم الدنيا فإنها حلوة خَضِرة(١) ، حُفَّتْ بالشهوات... مع أن امرأ لم يكن منها فى حَبْرة(٢) ، إلا أعقبته بعدها عَبْرة ، ولم يلق من سرَّائها بطناً ، إلا منحته من ضرَّائها ظهراً ، ولم تَطُلَّه غَبْيَة(٣) رخاء ، إلا هطلتْ عليه مُزْنة(٤) بلاء ، وحرىٌّ إذا أصبحت له منتصرة أن تمسى له خاذلة متنكرة ، وإن جانبٌ منها اعذوذبَ واحلَوْلى(٥) أمرَّ عليه منها جانب وأَوْبى(٦) ، وإن آتتْ امرءًا من غضارتها(٧) ورفاهتها نِعَماً أرهقته من نوائبها نِقَماً ، ولم يُمْسِ امرؤٌ منها فى جَنَاح أمن إلا أصبح منها على قَوادم(٨) خوف ، غرَّارة غرور ما فيها ، فانية ، فان من عليها ، لا خير فى شىء من زادها إلا التقوى » .

وتمضى الخطبة وهى طويلة على هذا النحو من الوعظ والترغيب والترهيب ، وواضح ما فيها من جمال اللفظ وروعة أسْره ، وقد اختار لها قطرى السجع حتى يؤثر فى نفوس سامعيه أقوى تأثير ، ولم يكتف بالسجع ، بل أضاف إليه التصوير ، كما أضاف الطباق ، حتى يبلغ كل ما يريد من تنميق معانيه . وممن اشتهر من خطباء الأزارقة عُبَيْدة بن هلال اليَشْكرى وزيد بن جُنْدب الإيادى وعبد ربّ الصغير .

ويلقانا بين خطباء الصُّفْرية عمران بن حِطَّان وصالح بن مسرِّح الذى كان يعظهم ويقص فيهم قصصا كثيراً وكان فى وعظه وقصصه يحمل على بنى أمية ومن معهم من الجماعة الإسلامية حملات شعواء ، حتى إذا بلغ من إثارة أصحابه فى الجزيرة والموصل ما أراد خَرَج على الحجَّاج ، وقُتل ، فخلفه شبيب الذى دوّخ جيوش الحجاج طويلا ، ومن قول صالح فى بعض مواعظه(٩) :

« أوصيكم بتقوى الله والزهد فى الدنيا والرّغبة فى الآخرة وكثرة ذكر الموت ، وفراق الفاسقين وحب المؤمنين ، فإن الزهادة فى الدنيا ترغّب العبد فيما عند الله وتفرّغ بدنه لطاعة الله ، وإن كثرة ذكر الموت تُخيف العبد من ربه ، حتى

---

(١) خضرة : ناضرة .
(٢) حبرة : سرور .
(٣) الطل : المطر القليل . الغبية : المطرة القليلة .
(٤) المطل : المطر الكثير . المزنة : السحابة الممطرة .
(٥) احلولى : صار حلواً .
(٦) أوبى : من الوباء .
(٧) الغضارة : النضارة والخصب .
(٨) القوادم : الريش فى مقدم جناح الطائر .
(٩) تاريخ الطبرى ٥/٥٠ .

يجأر(١) إليه ويستكين له ، وإن فراق الفاسقين حق على المؤمنين . قال الله فى كتابه : (ولا تُصَلِّ على أحدٍ منهم مات أبداً ولا تَقُمْ على قَبْره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون) وإن حبَّ المؤمنين للسَّبَبُ الذى يُنال به كرامة الله ورحمته . جعلنا الله وإياكم من الصادقين الصابرين » .

ومضى على هذه الشاكلة يعظ من حوله من الصُّفْرية ويحرضهم على قتال بنى أمية أئمة الضلال الظَّلَمة كما يقول ، حاثًّا لهم أن يلحقوا بإخوانهم المؤمنين الموقنين الذين باعوا الدنيا بالآخرة ابتغاء رضوان الله . وممن اشتهر بين الصُّفْرية بالخطابة الطِّرمَّاح بن حكيم وشُبَيْل بن عَزْرة الضُّبَعى والضحاك بن قيس الذى خرج لعهد مروان بن محمد وغلب على العراق فترة من الوقت .

ولم تحدثنا كتب الأدب والتاريخ عن خطباء النَّجدات ، أما الإباضية فقد اشتهر من بينهم بالخطابة عبد الله بن يحيى الكندى الملقب بطالب الحق ، وقد دعا إلى الثورة على الأمويين فى سنة ١٢٩ واستطاع أن يستولى على حضرموت واليمن ، واتجهت جيوشه بقيادة أبى حمزة قائده إلى الحجاز فاستولت عليه . ولم تلبث جيوش مروان بن محمد أن ردَّت الأمر إلى نصابه . ولأبى حمزة خطب مأثورة تدل دلالة بينة على أنه كان من راضة الكلام ، وربما كان أروع خطبه كلمته التى ألقاها فى مكة ، ويقال بل ألقاها فى المدينة(٢) ، وهو يستهلها بالثناء على أبى بكر وعمر ولا يلبث أن يطعن فى عثمان ومن جاء بعده من خلفاء بنى أمية ، مصوراً تعطيلهم لحدود الله وأحكامه وأخذهم للرعية بالبطش والظلم ، منددًا بمن اشتهروا منهم باللهو والمجون مثل يزيد بن معاوية ويزيد بن عبد الملك . وينتقل إلى تصوير الخوارج وإخلاصهم لعقيدتهم وتقواهم وزهدهم فى الدنيا وجهادهم فى سبيل الله مستعذبين للاستشهاد إذ يرون فيه الحياة كل الحياة ، الحياة الباقية التى لا تَفْنَى ، يقول متحدثاً عن شبابهم :

« شبابٌ والله مكتهلون(٣) فى شبابهم غَضيضةٌ عن الشرّ أعينهم ، ثقيلةٌ عن

---

(١) يجأر : يضرع ويستغيث .

(٢) انظر البيان والتبيين ٢/١٢٢ وعيون الأخبار ٢/٢٤٩ والعقد الفريد ٤/١٤٤ والأغانى ٢٠/١٠٤ .

(٣) مكتهلون : يريد أن لهم رزانة الكهول .

الباطل أرجلهم ، أنضاء[١] عبادة وأطلاح[٢] سهر ، ينظر الله إليهم فى جوف الليل ، منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مر أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقاً إليها ، وإذا مر بآية من ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه . موصول كلالهم[٣] بكلالهم ، كلال الليل بكلال النهار . . حتى إذا رأوا السهام قد فوقت[٤] والرماح قد أشرعت[٥] والسيوف قد انتضيت[٦] ، ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت استخفوا بوعيد الكتيبة لوعد الله ، ومضى الشباب منهم قدماً ، حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه ، وتخضبت بالدماء محاسن وجهه ، فأسرعت إليه سباع الأرض ، وانحطت عليه طير السماء . فكم من عين فى منقار طائر طالما بكى صاحبها فى جوف الليل من خوف الله ، وكم من كف زالت عن معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها فى جوف الليل بالسجود لله » .

وهى صورة رائعة لشباب الخوارج أحكم أبو حمزة إخراجها فى ألفاظ طلية تستميل القلوب بعذوبتها ، ومعان تحيط بكل ما أراد من تمثيل تقوى الخوارج وإيثارهم لما عند الله من النعيم ، وتمثيل اندفاعهم على حياض الموت كل يود أن يكون السابق إلى دار الخلود وأن يموت قعصاً بالرماح ، وأن تنوشه سباع الحيوان والطير ، حتى يستحق رضوان ربه .

وعلى نحو ما كان للخوارج خطباؤهم كان للشيعة خطباء كثيرون ، وكانوا على شاكلة خطباء الخوارج ينددون دائماً ببنى أمية ، وأنهم اغتصبوا الخلافة ، وساروا فيها سيرة جائرة عطلوا فيها أحكام الشريعة وما رسمه القرآن ورسوله الكريم . وكانوا لا يزالون يرددون أن أبناء على هم أصحاب الخلافة الشرعيون بغى عليهم بنو أمية إذ انتزعوا منهم ميراثهم عن الرسول الكريم . وتدور هذه الأفكار دائماً فى خطابتهم وخطابة أئمتهم ، على نحو ما نجد عند الحسين حين اقترب من الكوفة واجتمع

---

(١) أنضاء : مهزولون .

(٢) أطلاح : مكدودون .

(٣) الكلال : التعب والإعياء .

(٤) فوق السهم : جعل له فوقاً وهو موضع الوتر من السهم يصنع به ذلك إذا أعد للرمى .

(٥) أشرعت : سددت .

(٦) انتضيت : استلت .

الناس من حوله ولقيته مقدمات الجيش الذى أرسله له عبيد الله بن زياد ، فقد انصرف إلى القوم بوجهه ، يقول فى كلمة له(١) .

« أما بعد أيها الناس فإنكم إن تتقوا وتعرفوا الحق لأهله يكن أرضى لله . ونحن – أهلَ البيت – أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدّعين ما ليس لهم ، والسائرين فيكم بالجَوْر والعدوان » .

وتتطور الأمور ويُقْتَلُ الحسين ، ويتخذ الشيعة من مقتله دليلاً واضحاً على ظلم بنى أمية وأنهم يسوسون الأمة سياسة جائرة ، فقد استباحوا دم حفيد الرسول صلى الله عليه وسلم . ويتوفى يزيد بن معاوية فيتجمع كثير من شيعة الكوفة بقيادة سليمان بن صُرَد ، فيعلنون توبتهم من السكوت عن الثأر للحسين وما كان من القعود عن نصرته . ويخطب سليمان وكثيرون غيره محرضين على الثورة ، وهم فى تضاعيف ذلك يقررون حق آل البيت فى الخلافة لقرابتهم من الرسول مستثيرين الناس على الأمويين لما سفكوا من دم الحسين الطاهر ابن بنت الرسول ، من ذلك قول سليمان بن صُرَد فى إحدى خطبه(٢) :

« قُتل فينا ولدينا ولدُ نبينا وسلالته وعصارته وبَضْعة(٣) من لحمه ودمه . . اتخذه الفاسقون غرضاً للنَّبْل . . ألا انهضوا فقد سخط ربكم ، ولا ترجعوا إلى الحلائل(٤) والأبناء حتى يَرْضى الله . والله ما أظنه راضياً دون أن تناجزوا مَنْ قتله أو تَبيروا(٥) » .

وكان من زعماء التَّوابين معه عبيد الله بن عبدالله المُرِّى ، وكان خطيباً لا يبارَى ، فمضى يعظ الناس ويحرِّضهم على الانتقاض على الأمويين بمثل قوله(٦) :

« هل خلق ربكم فى الأولين والآخرين أعظم حقًّا على هذه الأمة من نبيِّها ؟ وهل ذُرِّية أحد من النبيين والمرسلين أو غيرهم أعظم حقًّا على هذه الأمة من ذرية رسولها ؟ لا والله ما كان ولا يكون ، ألم تروا ويبلغكم ما اجترُم(٧) إلى ابن بنت نبيكم . . وترميلهم(٨) إياه بالدم وتجرارهم على الأرض ؟ لم يراقبوا فيه ربهم

(١) طبرى ٤/٣٠٣ .
(٢) طبرى ٤/٤٢٨ .
(٣) بضعة : قطعة .
(٤) الحلائل : جمع حليلة ، وهى الزوجة .
(٥) تبيروا : تهلكوا .
(٦) طبرى ٤/٤٣٣ .
(٧) اجترم : اقترف وارتكب .
(٨) ترميلهم : من رمله إذا لطخه بالدم .

ولا قرابته من الرسول صلى الله عليه وسلم . . ابن أول المسلمين إسلاماً وابن بنت رسول ربّ العالمين ، قتله عدوه وخذله وليّه ، فويل للقاتل وملامة للخاذل .. إلا أن يناصح لله فى التوبة ، فيجاهد القاتلين . . وعسى الله عند ذلك أن يقبل التوبة ويُقيل العثْرة .. إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه والطلب بدماء أهل بيته وإلى جهاد المُحلِّين والمارقين » .

وخرج التوابون من الكوفة إلى الشمال فالتقوا بجيش أموى نكّل بهم وفرق جموعهم ، فارتدوا إلى الكوفة ، وهناك تلقّاهم المختار الثقفى ، زاعماً أن ابن الحنفية — على الرغم من تبرئه منه — بعثه على الشيعة أميراً وأمره بقتال الملحدين والطلب بدماء أهل بيته . وهو يُعَدّ المؤسس الحقيقى لفرقة الكَيْسانية المشهورة فى تاريخ الشيعة ، وقد مرّ بنا تصوير عقيدتها ومدى ما ذهبت إليه من غلو وإسراف ، وكيف أنها كانت تدعو لابن الحنفية محمد بن على ، وتعده وصيّه والإمام المهدى المنتظر . وكان المختار خارجيًّا ثم صار زبيريًّا ثم صار كيسانيًّا[١] وكان لسنا فصيحاً ، من أهل الدهاء ، فجمع الشيعة حوله ، ووجههم بقيادة إبراهيم بن الأشتر لحرب أهل الشام فالتقوا بهم فى « خازر » وعصفوا بهم عصفاً . ولم يلبث مصعب بن الزبير والى البصرة لأخيه عبد الله أن قضى عليه بعد معارك طاحنة . وكانت فى المختار شعوذة كثيرة ، جعلته يتأثر فى خطابته كهنة الجاهلية ، حتى كان يزعم — على نحو ما مرّ بنا فى غير هذا الموضع ، أنه يُوحَى إليه ، مصوراً هذا الوحى فى فقرات من السجع يوشّيها بالأيمان واللفظ الغريب على شاكلة قوله[٢] :

« أما وربّ البحار ، والنخيل والأشجار ، والمهامه[٣] والقِفار ، والملائكة الأبرار ، والمصطفَيْن الأخيار ، لأقتلنّ كل جبّار ، بكل لَدْن خطّار[٤] ، ومهنّد بتّار[٥] ، فى جموع من الأنصار ، ليسوا بِميل أغمار[٦] ، ولا بُعزْل[٧] أشرار ، حتى إذا أقمتُ عمود الدين ورَأبْت شَعْب[٨] صَدْع المسلمين ، وشفيت

---

(١) الملل والنحل ص ١٠٩ .

(٢) طبرى ٤ / ٤٥٠ .

(٣) المهامه : الفيافى .

(٤) اللدن : الرمح ، الخطار : الضارب .

(٥) المهند : السيف ، البتار : القاطع .

(٦) الميل : جمع أميل وهو الجبان ، الأغمار : جمع غمر وهو ناقص التجربة .

(٧) العزل : جمع أعزل وهو من لا سلاح معه .

(٨) رأب : أصلح . الشعب : الفتق والصدع .

غليل صدور المؤمنين ، وأدركت بثأر النبيين . لم يكبر عليّ زوالُ الدنيا ، ولم أحفل بالموت إذا أتى » .

وأكبر الظن أنه قد اتضحت لنا المعاني التي كان يردّدها خطباء الشيعة ، وهي معان تُرَدُّ إلى بيان حقوق آل البيت في الخلافة ، وأن على المسلمين أن ينصروهم ، وأن يأخذوا بثأر مَنْ قتله الأمويون منهم . وفي تضاعيف ذلك يحمل خطباؤهم على بني أمية حملات عنيفة مصورين ظلمهم ونقضهم لأحكام الكتاب والسنة . ومن أعلام الخطابة الشيعية زيد بن علي وابنه يحيى . وإن كانت كتب الأدب والتاريخ الوثيقة لم تحتفظ بشيء من خطابتهما ، وكذلك هي لم تحتفظ بشيء من خطابة بني صَوْحان : صَعْصعة وزيد وسَيْحان وكانوا شيعة وفي الذروة من البيان والفصاحة . وقد احتفظ ابن أبي الحديد بكثير من المخاصمات والمحاورات بين الحسن بن علي وعمرو بن العاص وبعض بني أمية ، وهي مخاصمات يغلب عليها الانتحال ، ومثلها المخاصمات التي دارت بين ابن عباس ومعاوية وبعض أصحابه مما احتفظ به ابن أبي الحديد والعقد الفريد والمسعودي .

ولم يعش حزب الزبيريين طويلا ، ولذلك لم يتكاثر خطباؤه ، وعبد الله ابن الزبير خطيب هذا الحزب ، وكان مفوهاً بليغاً يعرف كيف يخلب الألباب بكلامه ، ويستولي على النفوس بحلاوة منطقه ، وهو في خطابته يتناول الأمويين بالقَدْح والتجريح ، وقد استغل مقتلهم للحسين ليبين غدرهم وما يتورطون فيه من آثام . وله مناظرة مع الخوارج تدل على قوة منطقه وحدة ذكائه [1] ، وأيضاً له خطبة مشهورة خطبها حين جاءه نعي أخيه مصعب واستيلاء عبد الملك بن مروان على العراق ، وهي تصور رباطة جأشه وصدق يقينه ، وفيها يقول [2] :

« إن يُقْتَلْ فقد قُتل أبوه وعمه وابن عمه [3] ، وكانوا الخيارَ الصالحين ، إنا والله لا نموت حَتْفَ أنوفنا [4] ، ولكن قَعْصاً [5] بالرماح وموتاً تحت ظلال السيوف ،

(١) طبري ٤/٤٣٧ وما بعدها .

(٢) العقد الفريد ٤/١١٢ وعيون الأخبار ٢/٢٤٠ .

(٣) أبوه الزبير قتل عقب موقعة الجمل وعمه عبد الرحمن بن العوام قتل يوم اليرموك وابنه عبد الله قتل يوم الدار . انظر أسد الغابة ٣/٢١٣ .

(٤) يقال مات حتف أنفه إذا مات على الفراش .

(٥) قعصاً : موتاً سريعاً .

وليس كما يموت بنو مروان ، والله ما قُتل منهم رجل فى زحف فى جاهلية ولا إسلام قط . ألا وإنما الدنيا عاريّة من الملك القهار الذى لا يزول سلطانه ، ولا يبيد ملكه ، فإن تُقْبل الدنيا علىّ لم آخذها أخذ الأشِر[١] البَطِر ، وإن تُدْبر عنى لم أبك عليها بكاء الخَرِق المهين[٢] » .

ولأخيه مصعب خطب مدونة ، وقد جعل إحداها آيات قرآنية خالصة[٣] ، ولأمهما أسماء مع ابنها عبد الله محاورة[٤] طريفة حين حاصره الحجاج فى مكة وتخاذل عنه الناس .

وإذا تركنا خطباء الأحزاب السياسية إلى خطباء الثورات كان أول من نلقاه منهم عبد الله بن حنظلة زعيم ثورة المدينة ضد يزيد بن معاوية ، ثم عمرو بن سعيد بن العاص الملقب بالأشدق لبلاغته فى خطابته ، وقد ثار على عبد الملك بالشام سنة ٦٩ للهجرة وقضى عليه . ويلقانا بعد ذلك عبد الرحمن بن محمد ابن الأشعث فى ثورته على الحجاج ، وكان مِدْرهاً مفوّهاً ، ومن خطباء ثورته عامر بن واثلة الكنانى وعبد المؤمن بن شبث بن رِبْعىّ . ولا نصل إلى عصر سليمان ابن عبد الملك حتى يثور عليه قتيبة بن مسلم الباهلى فى خراسان حاضّاً الجند على متابعته . ونستقبل مع أوائل القرن الثانى ثورة يزيد بن المهلب على يزيد ابن عبد الملك ، وكان خطيباً بليغاً ، وطالما خطب فى جنوده يحرضهم على أهل الشام

وكل من سميناهم من هؤلاء الثوار تتناثر خطبهم فى الطبرى وكتب الأدب ، وهى كلها تدور على إثارة الناس ضد بنى أمية وبيان ما فى حكمهم من ظلم وما يأخذهم به ولاتهم من عَسْف وكيف أنهم جميعاً عطّلوا أحكام الشريعة واستأثروا بالفَىْء ، حتى لنرى يزيد بن المهلب فى بعض خطبه يجعل جهادهم أعظم ثواباً من جهاد الترك والديلم[٥] .

وكان يقف فى الصف المقابل من هؤلاء الخطباء المعارضين خطباء بنى أمية ، يتقدمهم الخلفاء ، ثم الولاة والقواد ، وممن اشتهر من الخلفاء بإحكام الصنعة فى

---

(١) الأشر : البطر .

(٢) الخرق : الدهش خوفاً . المهين : الحقير .

(٣) البيان والتبيين ٢/٢٩٩ والعقد الفريد ٤/١٣٥ .

(٤) طبرى ٥/٣٠ .

(٥) طبرى ٥/٣٣٥ .

الخطابة مع جهارة المنطق وطلاوة الكلم معاوية وعبد الملك وعمر بن عبد العزيز ويزيد الناقص ، وقد وصف بعض الشعراء مهارة معاوية فى خطابته فقال[١] :

رَكوبُ المنابر وثَّابهـا معَنٌّ بخطبتـه مِجْهَرُ[٢]
تَريعُ إليه هَوادى الكلامِ إذا ضلَّ خُطْبتَه المِهْذَرُ[٣]

وخطابته قسمان : قسمٌ سياسةٌ خالصة ، وقسم مواعظ وترغيب وترهيب ، وهو فى القسم الأول يدعو إلى الطاعة ملوِّحاً بما فى يديه من قوة ومن عطايا وهبات ، ومن خير ما يمثِّل ذلك خطبته فى عام الجماعة سنة ٤١ للهجرة بالمدينة[٤] . وهو فى القسم الثانى ينفِّر من الدنيا والتعلق بمتاعها الزائل ، ومن خير ما يمثل هذا القسم خطبة رواها له الجاحظ[٥] ، وقد اتّهم نسبتها إليه وقال إنها حرية بأن تنسب إلى على بن أبى طالب . والجاحظ بهذا الاتّهام يقسو على معاوية ، وكأنه نسى أنه من كُتّاب الوحى وأنه من جِلّة الصحابة . وتتردد فى خطابة عبد الملك مطالبة الرعية بالطاعة لخليفتهم ، مع التهديد والوعيد لمن تحدِّثهم نفوسهم بالخروج عليه[٦] ، أما عمر بن عبد العزيز فخطبه مواعظ خالصة ، يتحدث فيها عما ينتظر الإنسانَ من الموت وانتقاله إلى دار الخلود ومحاسبته على ما قدَّمت يداه على شاكلة قوله فى كلمة له[٧] :

« أيها الناس! إنكم لم تُخلَقوا عَبَثاً ولن تُتركوا سُدىً ، وإن لكم معاداً يحكِّم الله نبيَّكم فيه ، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله التى وسعتْ كل شىء وحُرِم الجنة التى عَرْضُها السموات والأرض . واعلموا أن الأمان غداً لمن خاف الله اليوم وباع قليلا بكثير وفائتاً بباق ، ألا ترون أنكم فى أسلاب الهالكين ، وسيخلفها من بعدكم الباقون ، كذلك حتى تُرَدُّوا إلى خير الوارثين » .

وليزيد الناقص حين ولى الخلافة بعد قتله ابن عمه الوليد بن يزيد خطبة

---

(١) البيان والتبيين ١/١٢٧ .
(٢) معن : تعنُّ له الخطبة فيخطبها مقتضباً لها.
(٣) تريع : ترجع . هوادى الكلام : أوائله .
(٤) العقد الفريد ٤/٨١ .
(٥) البيان والتبيين ٢/٥٩ وما بعدها .
(٦) العقد الفريد ٤/١٠٤ والأمالى ١/١٢ .
(٧) البيان والتبيين ٢/١٢٠ وعيون الأخبار ٢/٢٤٦ .

بديعة [١] يصور فيها سياسته ودستوره فى الحكم معلناً أنه إن وفّى بما عاهد عليه الله فعلى الناس السمع والطاعة وإلا فلهم أن يخلعوه . ويقول إنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

وكان ولاة بنى أمية وقوادهم لا يزالون يستوجبون على الناس الطاعة والولاء لخلفائهم ، نجد ذلك عند عتبة بن أبى سفيان والى مصر وعند ولاة العراق من أمثال زياد والحجاج وخالد القسرى ، وكانوا يضيفون إلى ذلك وعيداً وتهديداً باستخدام القوة . ولعل أحداً لم يبلغ من ذلك ما بلغه الحجاج ، ومن خير ما يمثل ذلك خطبته فى الكوفة حين قدم على العراق والياً من قبل عبد الملك ، وفيها يقول [٢] :

« إنى لأرى رءوساً قد أينَعَتْ وحانَ قِطافها ، وإنى لصاحبها ، وإنى لأنظر إلى الدماء ترقرقُ بين العمائم واللّحى . إنى والله يا أهل العراق والشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق ما أُغْمَز تَغْماز التّين ولا يُقَعْقَعُ لى بالشّنان [٣] ، ولقد فُرِرْتُ [٤] عن ذكاء وفُتّشْت عن تجربة . إن أمير المؤمنين كَبَّ كِنانته [٥] ثم عَجَم [٦] عيدانها ، فوجدنى أمرّها عوداً ، وأصلبها عوداً ، فوجّهنى إليكم ، فإنكم طالما أوْضَعْتم [٧] فى الفتن واضطجعتم فى مراقد الضلال وسَنَنْتم سُنَنَ الغىّ . أما والله لألْحُوَنّكم [٨] لَحْوَ العصا ولأضربنّكم ضربَ غرائب الإبل [٩] .. أما والله لتستقيمُنّ على طريق الحق أو لأدعنّ لكل رجل منكم شُغْلا فى جسده » .

وهو يفتتح هذه الخطبة بأشعار تمتلئ باللفظ العريب ، حتى يأخذ على سامعيه أنفاسهم . وقد زخرتْ خطبته بأسلوب تصويرى قوى ، وهو يُعَدّ فى الذروة من أهل الخطابة والبيان فى العصر ، حتى ليوضع مع زياد بن أبيه فى طبقة واحدة ، وإن فضّله زياد بحلاوة منطقه ، فقد كان يمتاز بجزالة اللفظ وفخامته ،

---

(١) البيان والتبيين ٢/١٤١ .

(٢) البيان والتبيين ٢/٣٠٧ وعيون الأخبار ٢/٢٤٤ .

(٣) القعقعة : التحريك ، الشنان : جمع شن وهو القربة البالية كانوا يحركونها إذا استحثوا الإبل للمسير . مثل يضرب لمن يروعه ما لا حقيقة له .

(٤) فررت : اختبرت .

(٥) الكنانة : جعبة السهام .

(٦) عجم : اختبر .

(٧) أوضع : أسرع فى سيره أو سار بين القوم .

(٨) لحا العصا : قشرها .

(٩) قال الجاحظ : تضرب عند الهرب وعند الخلاط على الحوض إذ تختلط بغيرها فتضرب وتبعد .

ولعل من الطريف أن كتب الأدب احتفظت له بمواعظ كثيرة ، ويُرْوَى أن الحسن البصرى كان يقول عنه إنه «يعظُ عظة الأزارقة ويَبْطش بطشَ الجبَّارين»[١] ومن قوله فى بعض مواعظه : « اللهم أرنى الهدى هدى فأتبعه وأرنى الغَىَّ غيًّا فأجتنبَه ولا تَكِلْنى إلى نفسى فأضلَّ ضلالا بعيداً[٢] » .

وكان خالد القسرى خطيباً مفوهاً ، مع لحن كان فيه ، وكان إذا تكلم ظَنَّ الناس أنه يصنع كلامه لجمال لفظه وبلاغة منطقه ، وله خطب كثيرة يحثُّ فيها على طاعة الخلفاء منذراً متوعداً مَن يَنْقض حَبْل الجماعة . وأكثَرَ فى خطب الجمع من المواعظ ، حتى سُمّى خطيبَ الله[٣] ، ويُرْوَى أنه كان يخطب يوماً فسقطتْ جرادة على ثوبه ، فقال[٤] :

« سبحان مَن الجرادةُ من خلقه ، أدمجَ قوائمها ، وطوّقها جناحها ، ووشّى جلدها ، وسلَّطها على ما هو أعظم منها » .

وإذا كان قواد المعارك الدامية من خوارج وشيعة وثائرين مختلفين حاربوا بنى أمية غَضَباً لدينهم كما دار على ألسنة خطبائهم فإن قواد بنى أمية فى الصفوف المقابلة كانوا يزعمون نفس الزعم ، على نمط قول مسلم بن عقبة قائد أهل الشام فى وقعة الحَرَّة : « يا أهل الشام أهذا القتال قتال قوم يريدون أن يدفعوا عن دينهم وأن يُعِزّوا به نَصْر إمامهم[٥] » وقول المهلب بن أبى صُفرة فى حثّ جنده على قتال الأزارقة : « يا أيها الناس إنكم قد عرفتم مذهب هؤلاء الخوارج وإنهم إن قدروا عليكم فتنوكم فى دينكم وسفكوا دماءكم[٦] » . فقواد بنى أمية فى هذه الحروب الداخلية كانوا مثل خصومهم يرون أن الحق فى جانبهم وأن أعداءهم أهل غَىٍّ وضلال .

وكان قواد الفتوح شرقاً وغرباً وفى بلاد الروم لا يزالون يحثُّون جنودهم على الاستشهاد فى سبيل الله مقتبسين من آى الذكر الحكيم ما يُشْعل حماستهم ،

---

(١) البيان والتبيين ٣/١٦٤ .
(٢) البيان والتبيين ٢/١٣٧ والعقد الفريد ٤/١١٥ .
(٣) البيان والتبيين ٢/٢٧٥ .
(٤) عيون الأخبار ٢/٢٤٧ .
(٥) طبرى ٤/٣٧٥ .
(٦) الكامل للمبرد ص٦٣٠ .

ويذكي جذوة شجاعتهم وبسالتهم ، ومن خير ما يمثل ذلك خطبة قتيبة بن مسلم الباهلي وقد تهيأ لغزو طخارستان سنة ٨٦ للهجرة وفيها يقول[١] :

« وعد الله نبيه صلى الله عليه وسلم النصرَ بحديث صادق وكتاب ناطق ، فقال : (هو الذى أرسل رسولَه بالهدى ودين الحق ليُظْهِرَه على الدين كلِّه ولو كَرِه المشركون) ووعد المجاهدين فى سبيله أحسن الثواب وأعظم الذُّخر عنده ، فقال : (ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأٌ ولا نصَبٌ ولا مَخْمَصَةٌ فى سبيل الله ولا يَطئون مَوْطِئاً يغيظ الكفارَ ولا ينالون من عدوٍّ نَيْلاً إلا كُتِبَ لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين ولا يُنفقون نفقةً صغيرةً ولا كبيرةً ولا يَقْطعون وادياً إلا كُتِبَ لهم ليَجْزِيهم الله أحسن ما كانوا يعملون) وأخبر عمن قُتل فى سبيله أنه حيٌّ مرزوق فقال : (ولا تحسبنَّ الذين قُتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يُرْزَقُونَ) فتنجَّزوا موعود ربكم » .

واشتهر فى خراسان بعد قتيبة غير قائد بالخطابة مثل أسد القسرى ونصر ابن سيَّار ، ويلقانا فى الغرب طارق بن زياد فاتح الأندلس ، وخطبته فى جنده حين دخلها مشهورة[٢] ، ولعل من الخير أن نقف قليلاً عند زياد بن أبيه حتى نتمثَّل تمثلاً واضحاً ما أصاب الخطابة السياسية فى هذا العصر من نهوض ورقى .

زياد[٣] بن أبيه

وُلد فى عام الهجرة أو قبله بقليل لسُمَيَّة جارية فارسية كانت للحارث بن كَلَدَة الثقفى المشهور بطبِّه ، ويقال إنه زوجها ثقفيًّا يسمى عُبَيْداً ، ومن ثم كان يسمَّى فى بعض الروايات زياد بن عبيد . ويذهب بعض الرواة إلى أنه إنما وُلد على فراش الحارث وأن عبيداً كان عبداً روميًّا ، ولم يكن ثقفيًّا ،

(١) طبرى ٥ / ٢١٤

(٢) انظر نفح الطيب ١ / ١١٢

(٣) انظر فى ترجمة زياد وتحقيق نسبته طبقات ابن سعد ج ٧ ق١ ص ٧٠ وأسد الغابة ٢ / ٢١٥ والمعارف لابن قتيبة (طبعة جوتنجن) ص ١٧٦ وتهذيب الأسماء واللغات للنووى ١ / ٢٥٩ والأغانى (طبعة الساسى) ١٦ / ٣ وما بعدها وابن عساكر ٥ / ٤٠٦ والعقد الفريد ٥ / ٤ (راجع الفهرس) ومروج الذهب للمسعودى (طبعة مصر) ٢ / ٥٥ والطبرى فى مواضع متفرقة وكتاب تاريخ الدولة العربية لفلهوزن ص ١١٣ وما بعدها .

وما نتقدم معه إلى عهد عمر ، حتى نجد أبا سفيان ينسبه إلى نفسه مدعياً أبوته ، وقد تكون نسبة صحيحة ، وإن تضمنتْ أنه لم يولد لرشدة . وليس بين أيدينا شيء واضح عن نشأته . ونراه يخرج مع الجيوش الغازية فى الشرق ، وسرعان ما يعهد إليه عتبة بن غَزْوان قائد عمر فى فتوح الأُبُلَّة تسجيل الغنائم وقَسْمها فى الناس ، مما يدل على إتقانه الكتابة والحساب . ويلزم ولاة البصرة يكتب لهم . ويوفده واليها أبو موسى الأشعرى إلى عمر ، فيُعْجب بذكائه ولَسنه ، ولكنه يأمر بعزله ، فيقول له : يا أمير المؤمنين أعَنْ عجز أم عن خيانة صرفتنى ، فيرد عليه : لا عن واحدة منهما ولكنى أكره أن أحمل على العامة فضل عقلك[١] .

ويعود إلى البصرة حتى إذا كان عهد عثمان اتخذه عبدالله بن عامر واليها كاتباً له ، ويفسد ما بينهما فيعزله ، حتى إذا صار العراق لعلى وولَّى على البصرة ابن عباس جعله على خراجها ، وأنابه عنه أحياناً ، وأظهر فى أثناء نيابته له حُنْكة ، ذلك أن معاوية دَسّ إلى تميم بعض من أفسدها على علىّ ، فاستجار زياد بالأزد واستطاع بما أوقع بينهما أن يعيد الأمر إلى نصابه ، وأن يعود بتميم إلى طاعة إمامه . ولما فسدت فارس على علىّ أرسل به إليها والياً عليها ، فرمّ الفساد وأصلح الشَّعَث ورَأبَ الصَّدْع متوسلا إلى ذلك بمهارة سياسية فائقة ، إذ « بعث إلى رؤسائها ، فوعد مَنْ نصره ومنّاه ، وخوّف قوماً وتوعّدهم ، وضرب بعضهم ببعض ، ودلّ بعضهم على عورة بعض ، وهربت طائفة ، وأقامت طائفة ، وقتل بعضهم بعضاً ، وصفَتْ له فارس فلم يلق فيها جَمْعاً ولا حرباً ، وفعل مثل ذلك بكَرْمان[٢] . ويقال إن أهل فارس كانوا يقولون : « ما رأينا سيرةً أشبه بسيرة كسرى أنوشروان من سيرة هذا العربى فى اللين والمداراة[٣] » . ولما قُتِل علىّ ظل على عهده لابنه الحسن . حتى إذا تحوّلت مقاليد الأمور إلى معاوية اعتصم بفارس ، فكاتبه معاوية متوعداً ، ثم أخذ يتلطف له ووسّط لديه المغيرة بن شُعْبة الثقفى ، ذاكراً ما بينهما من الرَّحِم ، وما زال به ، حتى دخل فى طاعته . وفرح به فرحاً عظيماً . إذ كان يعرف فضله ، وأنه لا غنى له عنه فى استصلاح العراق ، ولما صار إليه

---

(١) البيان والتبيين ١/٢٦٠ .
(٢) طبرى ٤/١٠٦
(٣) طبرى ٤/١٠٥ .

جمع الناس وصعد المنبر ، وأجلسه بين يديه ، وأشهد الحاضرين على نسبته لأبيه ، وشهدت بذلك منهم جماعة . غير أن كثيرين ظلوا يشكّون فى هذا النسب ويتّهمونه. ولم يلبث معاوية أن ولاّه البصرة وخراسان وسجستان سنة ٤٥ للهجرة ، فأظهر من الحزم وحسن التدبير ما جعل معاوية يضم إليه الكوفة حين مات واليها المغيرة بن شعبة ، وبذلك أصبح والياً على العراق جميعه حتّى وفاته سنة ٥٣ للهجرة . وقد أخذ الفسّاق والجناة بالعنف والشدة ، وكذلك صنع بالخوارج والشيعة وقصتُه مع حُجْر بن عدى مشهورة ، فقد أرسل به إلى معاوية ، وهناك لقى حتفه . على أنه كان يخلط سياسته باللين ، ولم يكن يعمد إلى سفك الدماء إلا حين تُعْجزه الحيلة ، وقد اتبع سياسة ضرْب القبائل بعضها ببعض حتّى يشغلهم عنه وعن الدولة . ومن المحقق أنه كان سياسيًّا ماهراً بعيد النظر يحسن تصريف الأمور إلى أبعد غاية .

وكان خطيباً لا يبارَى فى جودة خطابته ، يعرف كيف يصوغ كَلِمه صوغاً تَهَشُّ له الأسماع وتُصْغى له القلوب والأفئدة ، وقد نوّه بخطابته كثير من معاصريه على شاكلة قول الشَّعْبى : « ما سمعت متكلماً على منبر قط تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفاً من أن يُسىء إلا زياداً فإنه كلما أكثر كان أجود كلاماً[1] ». وخطبُه مثل خطب الحجاج تدور فى موضوعين هما السياسة والمواعظ الدينية ، وقد بقيت من خطبه الأولى شظايا وفقر وخطبة طويلة هى أروع خطبة سياسية خلّفها هذا العصر ، وهى الملقبة بالبَتْراء[2] ، سُمّيت بذلك لأنها لم تبتدئ بالتحميد والتّمجيد[3] ، وقد أدخله عليها بعض الرواة .

والخطبة تُجْمل سياسة زياد التى اشتهر بها والتى ردّتْ إلى البصرة أمنها بعد أن عاث فيها الفُسّاق واللصوص واضطرب حَبْلُ النظام ، وقد بدأها بتصوير ما صار إليه أهلها من الفساد وشيوع الفسق والانحراف عما رسَم الله للمسلمين فى كتابه من السيرة المستقيمة الطاهرة ، يقول :

---

(١) البيان والتبيين ٢/٦٥ .

(٢) انظرها فى البيان والتبيين ٢/٦٢ وعيون الأخبار ١/٢٤١ والعقد الفريد ٤/١١٠ .

(٣) البيان والتبيين ٢/٦ وانظر ٢/٦٢ .

« أما بعد فإن الجهالة الجَهْلاء[١] والضلالة العَمْياء والغَيّ الموفِى بأهله على النار ما فيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور العظام يَنْبت فيها الصغير ولا يَنْحاش[٢] عنها الكبير ، كأنكم لم تقرءوا كتاب الله ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته والعذاب الأليم لأهل معصيته فى الزمن السَّرْمد[٣] الذى لا يزول ، أتكونون كمن طَرَفتْ[٤] عينيه الدنيا وسَدَّت مسامعه الشهوات واختار الفانية على الباقية ولا تذكرون أنكم أحدثتم فى الإسلام الحدَث الذى لم تُسْبَقوا إليه من ترككم الضعيف يُقْهَر ويُؤْخَذ ماله وهذه المواخير[٥] المنصوبة والضعيفةَ المسلوبةَ فى النهار المبصر ، والعدد غير قليل . ألم يكن منكم نُهاةٌ تمنع الغُواة عن دَلَج[٦] الليل وغارة النهار ؟! قرّبتم القرابة وباعدتم الدين ، تعتذرون بغير العذر وتُغْضون على المختلس . أليس كل امرئ منكم يذبُّ عن سفيهه صُنْعَ من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معاداً . ما أنتم بالحلماء ولقد اتبعتم السفهاء ، فلم يزل بهم ما يرون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حُرَمَ الإسلام » .

وعلى هذا النحو استهلّ خطبته بتجسيم صور الفساد التى انتهت إليها حياة الناس فى البصرة ، وهو فى أثناء ذلك يقرّع سامعيه بأنهم انتبذوا كتابَ الله وراء أظهرهم مؤثرين الفانيةَ على دار الخلود ، وكأنما عادوا يجترّون حياتهم الوثنية القديمة وكل ما كان فيها من إثم . حتى إذا بلغ من ذلك كل ما أراد انتقل يصور خطته فى حكمهم وما أعدّ لهم من ضروب العقوبات ، يقول :

« إنى رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله : لينٌ فى غير ضعف وشدة فى غير عنف ، وإنى أقسم بالله لآخذنّ الولىّ بالمولى[٧] والمقيمَ بالظاعن والمقبلَ بالمدبر والمطيعَ بالعاصى والصحيحَ منكم فى نفسه بالسقيم ، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول : (انْجُ سَعْدُ فقد هلك سُعَيْد) أو تستقيمَ لى قناتكم . . من نُقِب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب له ، وإياى ودَلَج الليل فإنى لا أوتَى بمُدلج إلا سفكت دمه .. وإياى ودعوى[٨] الجاهلية فإنى لا آخذ

(١) الجهلاء : وصف مؤكد كما تقول ليلة ليلاء .
(٢) ينحاش : ينفر .
(٣) السرمد : الدائم .
(٤) طرف عينه : أصابها بشىء فدمعت .
(٥) المواخير : جمع ماخور ، وهو بيت الريبة .
(٦) الدلج : السير فى الليل .
(٧) الولى : السيد ، المولى : العبد .
(٨) دعوى الجاهلية : قولهم ياتميم مثلا ، إثارة من الشخص لقومه .

داعياً بها إلا قطعت لسانه . وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة ، فمن غرّق قوماً غرّقناه ، ومن أحرق قوماً أحرقناه . ومن نَقَبَ بيتاً نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفنّاه فيه حيّاً ، فكفُّوا عني أيديكم وألسنتكم أكفّ عنكم يدى ولسانى ، ولا تظهرُ على أحد منكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه . وقد كانت بيني وبين أقوام إحَنٌ[١] جعلتها دبْرَ[٢] أذنى وتحت قدمى ، فمن كان منكم مسيئاً فلينزع عن إساءته . إنى والله لو علمت أن أحدكم قتله السُّلّ من بغضى لم أكشف له قِناعاً ولم أهتك له ستراً، حتى يبدى لى صَفْحته[٣] ، فإذا فعل ذلك لم أناظره . فاستأنفوا أموركم وأرْعوا[٤] على أنفسكم ، فربَّ مسوءٍ بقدومنا سنسرّه ، ومسرورٍ بقدومنا سنسوءه » .

وهذه الفقرة من الخطبة تصور بجلاء سياسة زياد ودستوره فى حكم البصرة ، وهو دستور أوضَح فيه موادّ العقوبة وأنه سيأخذ بالظِّنّة ويعاقب على الشبهة ، وأنه قد جرّد سيفه لقتل من لا يَرْعوى ، وأن من عاد إلى العصبية الجاهلية يستثير قومه سيقطع لسانه . ونجحت هذه السياسة فى إعادة الأمور إلى نصابها فى ولايته واستقرار الأمن ، حتى قالوا إن المرأة كانت تَبيت وبابها مفتوح عليها لا تخشى لصّاً ،وكان الشيء يَسْقط فلا يعرض له أحد حتى يرجع إليه صاحبه ، فيأخذه ، وقالوا أيضاً إن الناس هابوه هيبة لم يهابوها أحداً من الولاة قبله . وفى نفس هذه الفقرة ما يصور رفق زياد برعيته ، فهو لا يبطش للبطش ، وإنما يبطش على الجُرْم ، أما بعد ذلك فليِّن رفيق بالناس ، وهو يجهر بذلك حين يلخِّص خطته فى الحكم بأنها لين فى غير ضعف وشدة فى غير عنف . وأيضاً حين يجهر فى ختام الفقرة بأنه سيصانع الناس حتى أعداءه ما صانعوه . ويمضى فى فقرة ثالثة ، يبين ما يجب على الناس من الطاعة للخليفة وولاته ، يقول :

« أيها الناس إنا أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ، ونذودعنكم بِفَيْءِ[٥] الله الذى خوّلنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة

---

(١) إحن : جمع إحنة ، وهى الحقد والضغينة .
(٢) دبر : خلف . كناية عن أنه لا يهتم بها .
(٣) أبدى صفحته : جاهر بعداوته .
(٤) أرعوا : أبقوا وارفقوا .
(٥) الفىء هنا : الخراج وغنائم الحروب .

فيما أحببنا . ولكم علينا العدلُ والإنصاف فيما وُلِّينا ، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا .. وادعوا الله بالصلاح لأئمتكم فإنهم ساستكم المؤدِّبون وكهفكم الذى إليه تأوون ، ومتى يَصْلحوا تَصْلحوا . ولا تُشْربوا قلوبكم بُغْضهم ، فيشتدَّ لذلك غيظكم ، ويطولَ له حزنكم ، ولا تدركوا به حاجتكم ، مع أنه لو استُجيب لكم فيهم لكان شرًّا لكم . أسأل الله أن يُعينَ كلاًّ على كلٍّ . وإذا رأيتمونى أُنفذ فيكم الأمر فأنفذوه على أذلاله[1] ، وايمُ الله إن لى فيكم لصَرْعى كثيرة ، فليحذرْ كل امرئٍ منكم أن يكون من صَرْعاى » .

وزياد فى هذه الفقرة يستلهم فكرة التفويض الإلهى المعروفة عند الفرس ، إذ كانوا يؤمنون بأن ملوكهم مفوَّضون لحكمهم من قِبَلِ ربهم ، وفى ذلك دلالة واضحة على تأثر الخطباء بالأفكار الأجنبية . وهو يلوِّح لسامعيه بما فى يد الدولة من أموال الخراج ومغانم الحروب وأنها ستنثرها على رعاياها المطيعين الموالين لها نَثْراً ، ولا يلبث أن يهدِّد من تحدِّثهم أنفسهم بنقض الطاعة أنهم إن صنعوا فالسيف ينتظرهم وضَرْب الرقاب .

والخطبة على هذا النحو خطبة سياسية خالصة ، إذ ترسم سياسة زياد وطريقته فى الحكم من جميع أطرافهما . وهى مقسَّمة إلى فقر تتسلسل فيها الأفكار تسلسلا دقيقاً ، وكل لفظة تقع فى مكانها وقرارها مع جمال الديباجة ووضوح الدلالة ، فلا توعُّر ولا تعقيد ولا كلم غريب .

وكان زياد بحكم خطابته فى الجمع والأعياد يعمد إلى الوعظ كثيراً ، وهو فيه يُبْدع ، كما يبدع فى خطبه السياسية ، ونسوق له من هذا الباب موعظة يقال إن عبد الملك بن مروان كتبها بيده ، وهى تطَّرد على هذا السياق[2] :

« إن الله عز وجلَّ جعل لعباده عقولا عاقبهم بها على معصيته وأثابهم بها على طاعته ، فالناس بين محسنٍ بنعمة الله ومسيءٍ بخذلان الله إياه . ولله النعمةُ على المحسن والحجة على المسيء . فما أولى من تمت عليه النعمة فى نفسه ورأى العبرة فى غيره أن يضع الدنيا بحيث وضعها الله ، فيُعْطى ما عليه منها ولا يتكثَّر

---

(١) اذلاله : وجوهه .

(٢) البيان والتبيين ١ / ٢٨٧ .

مما ليس له فيها ، فإن الدنيا دار فناء ، ولا سبيل إلى بقائها ، ولا بد من لقاء الله عزَّ وجل ، فأحذّركم الله الذى حذّركم نفسه ، وأوصيكم بتعجيل ما أخرته العَجزة ، قبل أن تَصيروا إلى الدار التى صاروا إليها ، فلا تقدروا فيها على توبة ، وليست لكم منها أوْبة » .

وواضح ما فى هذه الموعظة من حسن التقسيم ودقة التفكير وسلامة المنطق والقدرة على الإقناع بالحجة ، وحقًّا ما قاله عنه بعض معاصريه ، وقد استمع إليه فى بعض خطبه ، من أنه أوتى حُسْنَ البيان وبراعة الخطاب .

٣

خطباء المحافل

مرَّ بنا أن العرب عرفوا من قديم هذا اللونَ من الخطابة ، إذ كانوا يَفِدُون على ملوكهم وأمرائهم ، فيخطبون بين أيديهم مُثْنين عليهم ، ومفاخرين بقبائلهم . وكانوا يخطبون فى أقوامهم مصلحين بين العشائر أو منافرين أو حاثين على الحرب أو داعين لأن تضع أوزارها . وكثيراً ما خطبوا فى الأسواق وفى عقد المصاهرات . ونراهم بعد فتح مكة يقدمون على الرسول زَرافات ، يتقدمهم خطباؤهم وكانوا كثيراً ما يخطبون بين أيدى الخلفاء الراشدين . ولا نتقدم فى عصر بنى أمية ، حتى تنشط هذه الخطابة نشاطاً واسعاً ، وكان مما أذكى جذوتها فى نفوسهم أن الأمويين وولاتهم فتحوا أبوابهم للعرب ، كى يطمئنوا إلى حسن ولائهم لدولتهم ، فكانت وفودهم تَمْثُلُ بين أيديهم ، وكانوا يُغْدقون عليها إغداقاً واسعاً.

ومعاوية هو أول من فتح أبوابه على مصاريعها لتلك الوفود ، فكانت تَرِدُ تباعاً إلى ساحته ، تعلن تارة ولاءها ، وتارة تعرض ظُلامة لها ، وهو دائم الحفاوة بها ، يُضْفى عليها من نواله الغَمْر ، وتبعه الخلفاء الأمويون من بعده يستنّون سُنَّته . وممن اشتهر بالخطابة بين يديه سَحْبان ، خطيب وائل ، وقد اشتهر بخطبته « الشَّوْهاء » التى خطب بها عنده ، فلم يُنْشد شاعر ولم يخطب خطيب[1] ،

(١) البيان والتبيين ١ / ٣٤٨ .

ويقول الجاحظ : « إنه كان أذكر الناس لأول كلامه وأحفظهم لكل شيء سلف من منطقه[١] » . ومنهم الأحنف بن قيس خطيب تميم الذى لا يدافع وصُحار بن عيّاش العبدى ، الذى قال له معاوية : « ما هذه البلاغة التى فيكم ؟ قال : شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا[٢] » ومعاوية يشير إلى ما اشتهر به قومه بنو عبد القيس من الخطابة . ويذكر الجاحظ من خطبائهم بنو صُوحان وكانوا شيعة ، ومصقلة بن رَقبة ورقبة بن مصقلة وكرب بن مصقلة[٣] . ويقول إنه كان لهم خطبة تسمى « العجوز » ومتى تكلموا فلابد لهم منها أو من بعضها[٤] ويقابل آل رقبة وصُوحان فى بنى عبد القيس آل الأهتم فى تميم ، وعلى رأسهم عمرو بن الأهتم الذى قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم وقد استمع إلى بعض كلامه البليغ « إن من البيان لسحراً » وكان أخوه عبد الله على مثاله خطيباً رائعاً ، وله مقامات ووفادات[٥] ، ومثله ابناه صفوان وعبد الله ، وخالد بن صفوان وشبيب بن شيبة بن عبد الله . ومن الخطباء الأبيناء عبد العزيز بن زُرارة الكلابى ، وهو الذى خاطب معاوية بقوله[٦] :

« يا أمير المؤمنين لم أزل أستدلّ بالمعروف عليك ، وأمتطى النهار إليك ، فإذا ألوى[٧] بى الليل فقبض البصر وعُفّى الأثر أقام بدنى وسافر أملى ، والنفس تلوّم والاجتهاد يعذر ، وإذ قد بلغتك فقطنى[٨] » .

وواضح ما فى هذه الخطبة القصيرة من دقة التعبير وجمال التصوير . وعلى هذا النحو تمضى خطابة المحافل ، إذ كان الخطيب يروّى فيها طويلا حتى يروق لفظه الخليفة ومَنْ بحضرته ، وربما جعلهم ذلك يسجعون فى خطابتهم حتى يخلبوا الألباب بحسن بيانهم . وبلغ من إحسانهم لمنطقهم أن كان شباب الكتّاب فى دواوين دمشق يحضرون مقاماتهم حريصين على استماعهم . وكانت هناك مواقف سياسية كثيرة تدعو هؤلاء الخطباء إلى المنافسة الحادة بينهم وأن يحاول كل منهم إحراز الغلبة على نحو ما كان من خطباء الوفود الذين تباروا يوم عقد معاوية

---

(١) البيان والتبيين ١ / ٣٣٩ .
(٢) البيان والتبيين ١ / ٩٦ .
(٣) نفس المصدر ١ / ٩٧ .
(٤) البيان والتبيين ١ / ٣٤٨ .
(٥) نفس المصدر ١ / ٣٥٥ .
(٦) البيان والتبيين ٢ / ٧٥ .
(٧) ألوى هنا : استأثر .
(٨) قطنى : يكفينى .

البيعة لابنه يزيد[١] ، وعلى نحو ما كان من عمران بن عصام العَنَزِىّ فى خطبته التى صدر فيها عن رغبة عبد الملك فى خلع عبد العزيز أخيه والبيعة لابنه الوليد[٢] .

ومن ذلك الجمع بين التهنئة بالخلافة والتعزية ، وكان أول من فتح هذا الباب عبد الله بن همام السلولى الكوفى ، فقد دخل على يزيد بن معاوية حين استُخْلف والناس مجموعون على بابه يتهيَّبون القول ، فقال[٣] :

« يا أمير المؤمنين آجرك الله على الرَّزِيَّة ، وبارك لك فى العطية ، وأعانك على الرعية ، فلقد رُزئت عظيماً ، وأُعْطيت جَسيماً ، فاشكر الله على ما أُعطيت ، واصبرْ له على ما رُزيت ، فقد فقدت خليفة الله ، ومُنحت خلافة الله ، ففارقت جليلا ، ووُهِبْتَ جزيلا » . .

وبذلك انفتح باب الكلام للخطباء . وتلقانا من هذا التأبين الممزوج بالتعزية نصوص متعددة فى المناسبات المماثلة . وممن اشتهر بكثرة الوفادات عليه من خلفاء بنى أمية عبد الملك بن مروان ، فكانت ترد على بابه الوفود من كل قطر ، وكان الحجَّاج كثيراً ما يستصحب معه طائفة من وجوه أهل العراق ويقوم خطباؤهم بين يديه . وكان سليمان ابنه يتأله فوفد عليه غير واعظ من مثل أبى حازم[٤] ، ولم يكثر الوعاظ على بابٍ كثرتهم على باب عمر بن عبد العزيز[٥] ، منهم خالد بن صَفْوان وعبد[٦] الله بن الأهتم ومحمد[٧] بن كعب القُرَظى . وكان هشام بن عبدالملك يوسع لخالد بن[٨] صفوان فى مجالسه ، ولما فرَّ الكميت من سجن خالد القسرى وضاقت به الأرض بما رَحُبَتْ لجأ إلى ساحته متوسلا ببعض أهله ، حتى إذا مثَل بين يديه خطب خطبة طويلة[٩] يستنزل بها عطفه عليه ، فرقّ له وعفا عنه .

---

(١) البيان والتبيين ١/ ٣٠٠ وعيون الأخبار ٢/ ٢١٠ والعقد الفريد ٤/ ٣٦٩ والأمالى ٢/ ٧٣ ، ٣/ ١٧٧ .
(٢) البيان والتبيين ١/ ٤٨ .
(٣) زهر الآداب ١/ ٤٩ .
(٤) البيان والتبيين ٣/ ١٣٥ .
(٥) زهر الآداب ١/ ٧ .
(٦) البيان والتبيين ٢/ ١١٧ .
(٧) نفس المصدر ٢/ ٣٤ و ٣/ ١٤٣ ، ١٧٠ وعيون الأخبار ٢/ ٣٤٣ ، ٣٧٠ .
(٨) البيان والتبيين ١/ ٣٥٥ وعيون الأخبار ٢/ ٣٤١ .
(٩) أغانى (ساسى) ١٥/ ١١٣ .

ولم تكثر هذه الوفادات على أبواب الخلفاء فحسب ، فقد كان الخطباء يفدون على الولاة ، واشتهر عمران بن حطّان بوفادة له على زياد بن أبيه ، ألقى فيها خطبة رائعة[١] . ومَنْ وفدوا على الحجاج كثيرون ، منهم جامع المحاربى وقد تسخّطه ببعض قوله[٢] ، وكان قواده لا ينون يرسلون إليه من يخبره بانتصاراتهم على نحو ما أرسل إليه المهلب كعب بن مَعْدان الأشقرى ينبئه بقضائه على الأزارقة[٣] .

وتلقانا بجانب هذه الوفادات أخبار عن خطبهم فى المصاهرات[٤] وفى إصلاح ذات البَيْن[٥] . وهناك خطب تأخذ شكل المنافرات القديمة ، وهى تلك التى يقال إنها حدثت بين بعض بنى هاشم وعمرو بن العاص وبعض الأمويين وقد سبق أن ضعّفناها ، ورجّحنا انتحالها ، ومثلها ما يُرْوَى فى بعض كتب الأدب من خصومة أبى الأسود الدُّؤَلى وزوجه وارتفاعهما إلى زياد . وربما كان أهم خطيب اشتهر فى هذه المحافل الأحنف بن قيس ، ويحسن أن نقف عنده وقفة قصيرة .

الأحْنَف[٦] بن قيس

اسمه صخر ، وقيل الضحاك ، من بنى سعد إحدى عشائر تميم لُقّب بالأحنف لحنَف[٧] كان فى رجليه جميعاً ، وكان دميم الهيئة تقتحمه العين ، ولكنه كان يجمع خصال السيادة والشرف ، من حُنْكة وحلم وحزم ومروءة وثقة بالنفس ومصارحة بالرأى مع حسن البيان وذلاقة اللسان . وقد نزل البصرة مع عشيرته لأول العهد بالفتوح مشاركاً فيها ، وأرسله بعض ولاتها فى وفد إلى عمر سنة سبع عشرة للهجرة ، وكان لا يزال فى مطالع شبابه ، ليعرضوا عليه شئون بلدتهم وما يحتاجون إليه فيها من زيادة

---

(١) البيان والتبيين ١/١١٨ .
(٢) نفس المصدر ٢/١٣٥ .
(٣) الكامل للمبرد ص ٦٩٤ والأغانى (طبع دار الكتب) ١٤/٢٨٣ .
(٤) البيان والتبيين ١/٤٠٤ ، ٤/٧٣ وعيون الأخبار ٤/٧٢ والعقد الفريد ٤/١٤٩ .
(٥) البيان والتبيين ١/١٠٥ ، ١٧٣ ، ٢/١٣٥ .
(٦) انظر فى الأحنف طبقات ابن سعد ج ٧ ق ١ ص ٦٦ والاشتقاق ص ٢٤٩ والمعارف ص ٢٩ وزهر الآداب ١/٤٦ ووفيات الأعيان لابن خلكان والبيان والتبيين والطبرى (راجع فهرسهما) .
(٧) الحنف : اعوجاج فى الرجل .

الأرزاق ومن شقّ بعض القنوات والأنهار، وتكلم الوفد، وهو ساكت، فطلب إليه عمر أن يتكلم، فما كاد يتمّ كلامه حتى أعجب بروعة منطقه إعجاباً شديداً، يقول الجاحظ: «نظر عمر إلى الأحنف وعنده الوفد، والأحنف ملتفٌّ في بتٍّ[1] له، فترك جميع القوم واستنطقه، فلما تبعّق[2] منه ما تبعق، وتكلّم بذلك الكلام البليغ المصيب وذهب ذلك المذهب لم يزل عنده في علياء، ثم صار إلى أن عقد الرياسة ثابتة له (في تميم) إلى أن فارق الدنيا»[3]. ويقولون إنه استبقاه عنده حولا كاملا ليبالغ في تصفح حاله. وعاد إلى البصرة وأخذ يَفِدُ على عمر من حين إلى حين كما أخذ يسهم مساهمة قوية في فتوح فارس وخراسان لعهد عمر وعثمان، وأظهر براعة نادرة في قيادة الكتائب والجيوش، إذ كان النصر دائماً يرافقه.

ونراه في وقعة الجمل يقف موقف الحياد من خصومة علي والسيدة عائشة وطلحة والزبير، ومعه أربعة آلاف سيف من قومه أُغمدت استجابة لرأيه، حتى إذا انتصر عليٌّ دخل هو ومشايعوه من تميم في طاعته، وأصفاه ولاءه، حتى إذا كانت وقعة صفّين أبلى فيها بلاء حسناً هو وقومه. وتذكر الروايات أنه كان ممن رأوا مواصلة القتال مع أهل الشام وأنه أشار على عليٍّ أن يحكِّم شخصاً آخر غير أبي موسى الأشعري ينهض أمام خبث عمرو بن العاص ودهائه. وما زال على ولائه لعلي إلى أن لبيّ ربه فدخل فيما دخل فيه الناس من البيعة لمعاوية. وكان معاوية وولاته وخاصة زياداً يُكبرونه إكباراً عظيما، ونراه يُصْبِح سفيراً لقومه لدى معاوية، فهو يَفِدُ عليه من حين إلى حين، ويوسع له في مجالسه، بل لقد كان يختصه بالجلوس في جواره على سريره.

وفي هذه الحقبة من حياته يصبح أكبر شخصية في البصرة، بعد ولاتها، وفي الحق أنه كان يجمع كل مزايا السؤدد من حلم وأناة وبعد نظر وعمل على مصلحة القبيلة، حتى قالوا إنه كان إذا غضب غضب له مائة ألف سيف لا يسألونه فيمَ غضب. وبلغ من سؤدده أنه لم يكن يُداري، وأنه كان يجهر برأيه

---

(١) البت: كساء صوفي غليظ.

(٢) تبعق المطر: تفجر وانسال.

(٣) البيان والتبيين ١ / ٢٣٧ وانظر ١ / ٢٥٤.

لا يخشى لومة لائم ، حتى الخليفة مع اصطناعه له وولائه كان إذا سأله فى شىء يعرف رغبته فيه ، وهو لا يريده ، جاهره برأيه فى رفق ، ومن خير ما يمثل ذلك كلمته عقب الوفود التى استقدمها معاوية للبيعة لابنه يزيد ، فإنه حين جاء دوره فى الكلام قال[1] :

« يا أمير المؤمنين أنت أعلم بيزيد فى ليله ونهاره وسرِّه وعلانيته ومدخله ومخرجه ، فإن كنت تعلمه لله رضاً ولهذه الإمة فلا تشاور الناس فيه ، وإن كنت تعلم منه غير ذلك فلا تزوِّده الدنيا وأنت تذهب إلى الآخرة » .

وكأنه لم يكن يرضى خلافة يزيد ، فدخل إلى تصوير رأيه هذا المدخل الرفيق . ويتوفَّى يزيد، ويُضْطَرُّ عبيدالله بن زياد إلى مغادرة البصرة ويُسْلِم أمورها إلى الأزد و زعيمها مسعود ، وتثور تميم وتقتله ، وتنشب الحرب بينها وبين الأزد ، ويقع بعض الصرعى ، فيتدخل الأحنف ، ويَحْقِن الدماء بين الطرفين المتنازعين ، مؤدياً ديات القتلى من ماله . وتخضع العراق لابن الزبير ، وتدخل تميم بزعامة الأحنف فى طاعته ، ويقرِّبه مصعب ويصبح من خُلَصائه ، فيقف معه فى حروب المختار الثقفى ، ولا يمتد به أجله ، إذ يتوفى فى أواخر العقد السابع من القرن الأول مبكيًّا من قومه وعارفيه ، ويُروى أن فَرْغانة بنت أوس بن حَجر التميمية وقفت على قبره ، فأبَّنَتْه قائلة[2] :

« إنا لله وإنا إليه راجعون ، رحمك الله أبا بحر[3] من مُجَنٍّ[4] فى جَنَنٍ ، ومُدْرج فى كفَنٍ ، فوالذى ابتلانا بفقدك ، وأبلغنا يوم موتك ، لقد عشتَ حميداً ، ومتَّ فقيدًا ، ولقد كنت عظيم الحلم ، فاضل السِّلْم ، رفيع العماد ، وارىَ الزِّناد ، منيعَ الحريم ، سليم الأديم ، وإن كنت فى المحافل لشريفاً ، وعلى الأرامل لعطوفا ، ومن الناس لقريبا ، وفيهم لغريباً ، وإن كنت لمسوَّدا ، وإلى الخلفاء لموفَدًا ، وإن كانوا لقولك لمستمعين ، ولرأيك لمتبعين » .

ومرَّ بنا آنفاً كيف أن عمر بن الخطاب أعْجب ببلاغته وحسن بيانه ، ووصفه الجاحظ فقال إنه « أنف مُضَر الذى تَحْطس عنه وأبْيَنُ العرب والعجم

(١) العقد الفريد ٤ / ٣٧٠ .
(٢) البيان والتبيين ٢ / ٣٠٢ .
(٣) أبو بحر : كنية الأحنف .
(٤) أجنه : ستره . تريد أنه ستر فى الجنن أى وضع فى القبر .

قاطبة[١]» . ونحن لا نقرأ خطبه التي كان يلقيها بين أيدى الخلفاء، حتى يروعنا منطقه، لقدرته على حَوْك الكلام وتوشيته أحياناً بالسجع وأساليب التصوير . ولم يكن يُطيل فى هذه الخطب ، بل كان يعمد إلى الإيجاز والكلم القصار ، فيبلغ بها كل ما يريد من حاجته وحاجة قومه ، ونسوق له كلمتين تصوران منطقه ، فقد وفد على معاوية مرة، فقال يصف أهل البصرة وما يؤملونه فى الخليفة من مَدّ يد العون والمساعدة[٢] :

يا أمير المؤمنين أهل البصرة عدد يَسير وعظم كَسير ، مع تتابع من المُحول واتصال من الذُّحول[٣] ، فالمكْثر فيها قد أطْرَقَ[٤] ، والمقِلّ قد أملق ، وبلغ منه المخْنَق ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يُنْعش الفقير ، ويَجْبُرَ الكسير ، ويسهل العسير ، ويصفح عن الذّحول ويداوى المحول ، ويأمر بالعطاء ليكشف البلاء ، ويزيل الّلأواء[٥] . وإن السيد من يعمّ ولا يخصّ ومن يدعو الجَفَلَى[٦] ، ولا يدعو النَّقَرَى[٧] ، إن أُحسن إليه شكر وإن أسيء إليه غفر ، ثم يكون من وراء ذلك لرعيته عماداً يدفع عنها الملمات ، ويكشف عنها المعضلات » .

وبمثل هذا اللحن من القول كان يقدّمه الخلفاء لبلاغته وحسن تأتّيه فى تصوير ما جاء من أجله ، إذ كان يسلك إليه المداخل الدقيقة، فيُمْضونه فى التوّ والساعة . ويظهر أنه قال هذه الكلمة عقب حروب على ومعاوية ولذلك مضى يطلب إليه الصفح الجميل، مستعطفاً ، ولكنه الاستعطافَ الذى يُبْقى فيه الرجل الكريم على مروءته . ودائماً كلما قرأناه أحسسنا عنده رجاحة العقل وأنه لا يرسل كلامه إرسالا ، بل ما يزال يتمهل فيه ، سواء عمد إلى السجع أو لم يعمد، مورداً من اللفظ ما يحيط بالمعانى التى يعبّر عنها إحاطة تامة، وتصور ذلك كلمته الثانية التى أشرنا إليها كما صورته كلمته الآنفة ، وقد ألقى بها حين ادلهمّ الأمر بعد وفاة يزيد بن معاوية واصطدام الأزد بقبيلة تميم ، فقد توجه إلى الأولين يقول بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلّى على نبيه[٨] :

---

(١) البيان والتبيين ١ / ٦٠ .
(٢) زهر الآداب ١ / ٤٦ .
(٣) الذحول : الثارات .
(٤) أطرق : هزل وضعف .
(٥) اللأواء : الشدة .
(٦) الدعوة الجفلى : الدعوة العامة .
(٧) الدعوة النقرى : الدعوة الخاصة .
(٨) البيان والتبيين ٢ / ١٣٥ .

« يا معشر الأزد وربيعة أنتم إخواننا فى الدين وشركاؤنا فى الصِّهْر وأشقاؤنا فى النسب وجيراننا فى الدار، ويَدُنا على العدو. والله لأزْدُ البصرة أحبُّ إلينا من تميم الكوفة، ولأزد الكوفة أحب إلينا من تميم الشام، فإن استَشْرى[1] شَنَآنكم، وأبى حَسَكُ[2] صدوركم ففى أموالنا وأحلامنا سَعة لنا ولكم » .

ونزلت الكلمة على الأزد برداً وسلاماً ، فأغمدت الأسنة وحقنت الدماء . وعلى هذا النحو تُثْبت خطب الأحنف وسيرته صدق فراسة ابن الخطاب فيه، إذ اعتبره سيدَ قومه وخطيبَ مِصْره .

٤

خطباء الوعظ والقَصَص

نشط الوعظ والقَصَصُ الدينى فى هذا العصر نشاطاً عظيما، فقد كان الوعّاظ والقُصّاص فى كل بلدة إسلامية لا ينَون عن وعظ المسلمين، وقد أفرد لهم الجاحظ فى بيانه صحفاً كثيرة ، أورد فيها أسماء طائفة من مبرّزيهم وكثيراً مما كانوا يعظون به الناس . ومن أشهر من وقف عندهم هو وغيره من أصحاب كتب الأدب والتاريخ الأسودُ بن سريع وهو أول من قَصّ بالبصرة[3]، وكان يقابله فى الكوفة زيد[4] بن صُوحان وفى المدينة عُبَيْد بن عُمَيْر[5] وكان عبدالله بن عمر يتأثر بقصصه ووعظه حتى ليبكى من شدة تأثره . ومن القُصّاص أيضاً إبراهيم[6] التَّيمى الكوفى وسعيد بن جُبير ، وكان يقص بعد صلاة الفجر وبعد صلاة العصر[7]، ومسلم[8] بن جندب قاصّ مسجد المدينة، وَذَرّ[9] بن عبد الله، وكان بليغاً، وهو الذى كان يقصّ فى جند ابن الأشعث حاثّا الناس على حرب الحجاج. ومطرِّف

---

(١) استشرى : تفاقم . الشنآن : العداوة .
(٢) حسك الصدور : الحقد .
(٣) ابن سعد ج ٧ ق ١ ص ٢٨ .
(٤) ابن سعد ج ٦ ص ٨٤ .
(٥) ابن سعد ج ٥ ص ٣٤١ والبيان والتبيين ٣٦٧/١ .
(٦) ابن سعد ج ٦ ص ١٩٩ .
(٧) ابن سعد ج ٦ ص ١٧٨ .
(٨) البيان والتبيين ٣٦٧/١ .
(٩) انظر فى مواعظه عيون الأخبار ٢٩٨/٢ والعقد ١٩٨/٣ .

ابن عبدالله الشِّخِّير وكان يقصّ في مكان أبيه بمسجد البصرة[١]، ومنهم وهب[٢] بن منبِّه ويزيد بن أبان الرَّقاشي ، ويذكر الجاحظ من وعظه[٣] . « ليتنا لم نُخْلَق ، وليتنا إذ خُلقنا لم نَعْصِ ، وليتنا إذ عَصينا لم نمت ، وليتنا إذ متنا لم نُبْعَثْ ، وليتنا إذ بُعثنا لم نحاسَبْ ، وليتنا إذ حوسبنا لم نعذَّب ، وليتنا إذ عُذبنا لم نخلَّد » .

فالقُصَّاص كانوا وعَّاظاً في الوقت نفسه ، بل هم لايقصُّون إلا من أجل الوعظ ، وممن اشتهروا بوعظهم عبد[٤] الله بن عمرو بن العاص في مصر ورجاء[٥] ابن حَيْوة والأوزاعي[٦] في الشام وسعيد[٧] بن المسيِّب وأبي حازم الأعرج في المدينة ، ولثانيهما مواعظ كثيرة كان يعظ بها سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز ، ومن قوله في بعض هذه المقامات وقد سُئل ما مالك ؟ قال : مالان : الثقة بما عند الله واليأس مما في أيدي الناس[٨] . ومن وعاظ المدينة أيضاً محمد[٩] بن كعب القُرَظي واعظ عمر بن عبد العزيز . وكان العراق يموج بالوعاظ موجاً ، من مثل ابن[١٠] شُبْرمة ومورِّق[١١] العِجْلي وبكر[١٢] بن عبد الله المُزَني والشَّعبي[١٣] وأيوب[١٤] السَّخْتياني ومحمد بن واسع الأزدي البصري ، وقد تولى الوعظ في جيش قتيبة بن مسلم بخراسان وفيه يقول إنه أحب إليَّ من مائة ألف سيف شهير وسنان طَرير[١٥] . ومن كبار الوعاظ والقصاص مالك[١٦] بن دينار ، وكان يقول في قصصه : ما أشد فِطام الكبير ، وينشد :

وتروض عِرْسك بعد ما هرمتْ ومن العناءِ رياضةُ الهَرِمِ

---

(١) البيان والتبيين ١/٣٦٧ وعيون الأخبار ٢٨٩/٢ .

(٢) انظر في مواعظه عيون الأخبار ٢/٢٧٢ وما بعدها ، ٢/٢٨١ ، ٣٢٨ .

(٣) البيان والتبيين ١/٢٦٢ .

(٤) عيون الأخبار ٢/٢٩٤ .

(٥) انظر طرفاً من مواعظه في صفة الصفوة ٤/١٨٦ .

(٦) انظره في صفة الصفوة ٤/٢٢٨ .

(٧) راجع صفة الصفوة ٢/٤٤ .

(٨) البيان والتبيين ٣/١٣٩ .

(٩) انظر البيان والتبيين ٢/٣٤ ، ٣/١٠٣ ، ١٧٠ .

(١٠) البيان والتبيين ١/٣٣٦ والعقد ٣/١٥٠ ، ١٨٣ .

(١١) البيان والتبيين ١/٣٥٣ وانظر ٢/١٩٨ .

(١٢) نفس المصدر ١/٣٥٣ وانظر ٣/١٤١ .

(١٣) البيان والتبين ٢/٣٢٢ وصفة الصفوة ٣/٤٠ .

(١٤) راجع صفة الصفوة ٣/٢١٢ .

(١٥) البيان والتبيين ٣/٢٧٣ والعقد الفريد ٣/١٧٠ وطرير : محدد .

(١٦) البيان والتبيين ٢/٧٩ وصفة الصفوة ٣/١٩٧ .

ومنهم إياس بن معاوية قاضي البصرة، وكان يُضْرَبُ به المثل فى الذكاء وصدق الفراسة[١]، ومنهم خالد بن صفوان وشبيب بن شيبة الأهتميان التميميان، وفيهما يقول الجاحظ : « ما علمت أنه كان فى الخطباء أحد كان أجود خطباً من خالد بن صفوان وشبيب بن شيبة للذى يحفظه الناس ويدور على ألسنتهم من كلامهما[٢] » ويقول فى خالد : « ومن الخطباء المشهورين فى العوام والمقدَّمين فى الخواص خالد بن صفوان . . ولكلامه كتابٌ يدور فى أيدى الورَّاقين[٣] » وقد لحق خالد عصر أبى العباس السفاح، وكان من سُمَّاره، ويُؤْثَرُ عنه أنه كان يقول : « احذروا مجانيق الضعفاء يعنى الدعاء[٤] » ومن قوله : « بتُّ ليلتى كلها أتمنى فملأت البحر الأخضر بالذهب الأحمر فإذا الذى يكفينى من ذلك رغيفان وكوزان وطِمْران[٥] » وروى له ابن قتيبة موعظة طويلة وعظ بها سليمان ابن عبد الملك وأبكاه[٦] .

ومن كبار وعَّاظ العصر وقُصَّاصه الحسن البصرى، وفيه يقول الجاحظ : « أما الخطب (الدينية) فإنا لا نعرف أحداً يتقدم الحسن البصرىّ فيها[٧] » وممن يأتى بعده فى الوعظ عبد الله بن شداد ، وهو القائل : « أرى داعىَ الموت لا يُقلع وأرى من مضى لا يرجع[٨] » . ومن كبار القُصَّاص والوعَّاظ الفضل بن عيسى الرقاشى، وكان يسجع فى وعظه[٩] ، ويقول الجاحظ إنه « كان من أخطب الناس وكان متكلماً قاصًّا مجيداً[١٠] » وهو الذى يقول فى قصصه : « سَلِ الأرض فقُل من شقَّ أنهارك، وغرس أشجارك، وجنى ثمارك، فإن لم تجبك حواراً أجابتك اعتباراً[١١] » . ومن أشهر الوعاظ وأنبههم واصل[١٢] بن عطاء رأس المعتزلة ، وكان أغزر خطباء عصره

---

(١) البيان والتبيين ١ / ٩٨ وما بعدها .
(٢) البيان والتبيين ١ / ٣١٧ .
(٣) نفس المصدر ١ / ٣٣٩ — ٣٤٠ .
(٤) البيان والتبيين ٣ / ٢٧٤ .
(٥) نفس المصدر ٣ / ١٦٤ والطمر : الثوب البالى .
(٦) عيون الأخبار ٢ / ٣٤١ .
(٧) البيان والتبيين ١ / ٣٥٤ .
(٨) نفس المصدر ٢ / ١١٣ .
(٩) البيان والتبيين ١ / ٢٩٠ .
(١٠) البيان والتبيين ١ / ٣٠٦ .
(١١) نفس المصدر ١ / ٣٠٨ .
(١٢) انظر فى ترجمة واصل الملل والنحل للشهرستانى ص ٣١ وما بعدها وأنساب السمعانى وابن خلكان ولسان الميزان ٦ / ٢١٤ .

وأبلغهم وأعجبهم وأبينهم ، ويُرْوَى أنه حضر يوماً مجلس عبد الله بن عمر بن عبد العزيز فى إمارته على العراق (١٢٦ – ١٢٩ هـ) وحضره معه خالد بن صفوان وشبيب بن شيبة والفضل بن عيسى الرقاشى ، وتبارى الأربعة بين يديه فى الخطابة ، ففضلهم بخطبته المشهورة التى جانب فيها الراء ، إذ كان يلثغ فيها لَثَغاً فاحشاً ، ونوّه بذلك بشار بن بُرْد طويلا ، قبل أن يفسد رأى واصل فيه ، على شاكلة قوله[1] :

أبا حُذَيْفةَ قد أوتيتَ مُعْجِبةً ... فى خطبةٍ بدَهتْ من غير تقدير

وقوله :

تكلفوا القولَ والأقوامُ قد حَفَلُوا ... وحبَّروا خُطَباً ناهيكَ من خُطَبِ
فقام مُرْتجلا تَغْلى بَداهتُـه ... كمِرْجَلِ القَيْن لما حُفَّ باللَّهبِ[2]
وجانبَ الراءَ لم يَشْعر بها أحـدٌ ... قبل التَّصفّح والإغراقِ فى الطلبِ

ولا نستطيع أن نزعم كما زعم بشار أن واصلا ألقى هذه الخطبة على البديهة فإن من يرجع إليها يحس أثر التروية والتحضير وأنه تأتّى لها فى أناة حتى اتسقت فى نسقها البديع ، وهى من خير مواعظ العصر وأجملها وأبرعها ، وقد استهلّها بتحميد وتمجيد أطنب فيهما إطناباً لا نعرفه لأحد من رُصَفائه ، على هذا النمط[3] :

« الحمد لله القديم بلا غاية ، والباقى بلا نهاية ، الذى علا فى دنوّه ، ودنا فى علوّه ، فلا يحويه زمان ولا يحيط به مكان ، ولا يَئُوده[4] حفظ ما خلق ، ولم يخلقه على مثال سبق ، بل أنشأه ابتداعاً ، وعدّله اصطناعاً ، فأحسن كلَّ شىء خلقه ، وتمّم مشيئته ، وأوضح حكمته ، فدلّ على ألوهيته ، فسبحانه لا معقّب[5] لحكمه ولا دافع لقضائه ، تواضعَ كل شىء لعظمته ، وذلّ كل شىء لسلطانه ، ووسع كلَّ شىء فضلُه ، لا يَعْزُب عنه مثقال حبّة وهو السميع العليم . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده إلهاً تقدّستْ أسماؤه ، وعظُمت آلاؤه ، وعلا عن صفات

(١) انظر فى هذا البيت وما يليه البيان والتبيين ١/٢٤ .
(٢) القين : الحداد .
(٣) انظر فى هذه الخطبة الحلقة الثانية من الرسائل النادرة لعبد السلام هرون و جمهرة خطب العرب لأحمد زكى صفوت ٢/٤٨٢ .
(٤) يئوده : يثقله .
(٥) لا معقب : لا راد .

كل مخلوق ، وتنزّه عن شبيه كل مصنوع ، فلا تبلغه الأوهام ، ولا تُحيط به العقول والأفهام ، يُعْصَى فيَحْلُم ، ويُدْعى فيسمع ، ويقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون » .

وواضح أن واصلا يستظهر فى هذا التحميد والتمجيد آى القرآن الكريم فى وصف عظمة الله وجلاله ، حتى ليستعين بلفظها . وأيضاً فإنه يستظهر ما كان يقرّره من نفى التجسيم عن الله ، وأنه ليس كمثله شىء من مخلوقاته . وقد مضى يصلى على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم مطيلا فى صلاته كما أطال فى حمده . وبِقَبَس من صنيعه أخذ الكُتّاب من أمثال عبد الحميد يطيلون فى تحميداتهم وصلاتهم على الرسول . ويأخذ بعد ذلك فى الحث على التقوى والعمل الصالح والتنفير من الدنيا ومتاعها الزائل ، يقول :

« أوصيكم عبادَ الله مع نفسى بتقوى الله والعمل بطاعته والمجانبة لمعصيته ، وأحضّكم على ما يُدْنيكم منه ويُزْلفكم لديه ، فإن تقوى الله أفضلُ زادٍ وأحسن عاقبة فى معاد ، ولا تُلهينّكم الحياة الدنيا بزينتها وخُدَعها وفواتن لذاتها وشهوات آمالها ، فإنها متاع قليل ومدة إلى حين ، وكل شىء فيها يزول . فكم عاينتم من أعاجيبها وكم نَصبتْ لكم من حبائلها ، وأهلكتْ من جنَح إليها واعتمد عليها ، أذاقتهم حلواً ، ومزجت لهم سمًّا » .

وواصل فى هذه الفقرة يردّد ما كان يَجْرى على لسان الوعاظ من الدعوة إلى تقوى الله حق تقواه ، ويحذر من الدنيا وبَرْقها الخُلّب وما يُطْوَى فيها من نعيم لا يلبث أن يزول ، وإنها لتحت أعينهم تمدُّ لهم فى غوايات الشهوات ، والعاقل من ازورّ عنها وكبح جماح نفسه وردّها عن أهوائها ، فالموت بالمرصاد وعمّا قليل لا يكون للمرء سوى ما قدّم من عمل صالح ، فليتزودْ كلٌّ لمعاده قبل فوات الفرصة وحلول الأجل . ويسترسل على هدى القرآن الكريم يتحدث عن الدول والأمم الغابرة ، متخذاً من ذلك العبرة يقول :

« أين الملوك الذين بنوا المدائن ، وشيّدوا المصانع ، وأوثقوا الأبواب ، وكاثفوا الحُجّاب ، وأعدّوا الجياد ، وملكوا البلاد ، واستخدموا التّلاد ، قبضتهم بمَحْمِلها[1]

(١) المحمل : الشقان على البعير يحمل فيهما شخصان . والمعنى احتوت عليهم .

وطحنتهم بكلكلها (١) ، وعضتهم بأنيابها ، وعاضتهم من السعة ضيقاً ، ومن العزة ذلا ، ومن الحياة فناء ، فسكنوا اللحود ، وأكلهم الدود ، وأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم ، ولا تجد إلا معالمهم ، ولا تحس منهم من أحد ، ولا تسمع لهم نبساً » .

وهذا الشطر من موعظة واصل يصور لنا كيف كان القصاص يتحدثون طويلاً عن الأمم الدائرة والدول الزائلة حديثاً أطالوا فيه مستوعبين لقصص الرسل وشعوبهم وخاصة تلك التي عصتهم ، وما صب الله عليها من عذابه مما دفعهم دفعاً إلى جلب ما ورثه أهل الديانات السماوية من أخبار عن الأنبياء ، يقصدون بذلك إلى الموعظة الحسنة . ويعود واصل إلى الوصية بالتقوى والانتفاع بالقرآن وما به من أحسن القصص وأبلغ المواعظ ، وكفى به واعظاً هادياً .

ويشيد الجاحظ ببلاغة واصل وأنه كان أحد الأعاجيب في بلاغته ، إذ كان فاحش اللثغة في الراء ، فخلص كلامه منها تخليصاً ، بحيث لم يكن أحد يفطن لذلك لبيانه الرائع ، يقول : إنه كان داعية ورئيس نحلة . وعرف أن مخرج لثغته شنيع وأنه يقارع أرباب النحل وزعماء الملل وأن لابد له من حسن البيان وإعطاء الحروف حقوقها من الفصاحة ، ومن أجل الحاجة إلى ذلك « رام إسقاط الراء من كلامه وإخراجها من حروف منطقه ، فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه ، ويناضله ويساجله ، ويتأتى لستره والراحة من هجنته حتى انتظم له ماحاول واتسق له ما أمل . ولولا استفاضة هذا الخبر وظهور هذه الحال حتى صار لغرابته مثلا ولطرافته معلماً لما استجزنا الإقرار به والتأكيد له . ولست أعني خطبه المحفوظة ورسائله المخلدة ، لأن ذلك يحتمل الصنعة ، وإنما عنيت محاجة الخصوم ومناقلة (٢) الأكفاء ومفاوضة الإخوان .. وذكر ذلك أبو الطروق الضبي فقال

عليمٌ بإبدال الحروف وقامعٌ ... لكل خطيبٍ يغلب الحقَّ باطلُه (٣) »

ولا شك في أن عدول واصل عن الكلمات ذوات الراء في جميع محاوراته آية بينة على تمام آلته في البلاغة وإحكام صنعته . وكان رأساً في الوعظ والاعتزال

---

(١) الكلكل : الصدر .

(٢) مناقلة : مدافعة .

(٣) البيان والتبيين ١ / ١٤ وما بعدها .

معاً ، وخرّج كثيرين على مذهبه ، طافوا البلاد يعظون الناس ويدعون إلى مقالته ، وكان من أهم ما يدعو إليه حرية الإرادة ، وأن الفاسق فى منزلة بين منزلتى المؤمن والكافر . والطريف أننا نجد صفوان الأنصارى يصف أتباعه فيقول[1] :

له خلفَ شَعْب الصِّين فى كل ثُغْرةٍ إلى سوسها الأقصى وخلف البرابر[2]
رجالٌ دعاةٌ لا يَفُلُّ عــزيمَهُمْ تهكُّمُ جَبَّارٍ ولا كيدُ ماكرِ
وأوتادُ أرضِ الله فى كل بلــدةٍ وموضعُ فُتْياها وعلم التشاجر[3]
وما كان سحبانٌ يشقُّ غبارَهُم ولا الشُّدْقُ من حَيَّىْ هلالِ بن عامرِ[4]

وهو لا ينوِّه بوعظهم فحسب ، بل ينوه أيضاً بقدرتهم على الجدل والإقناع وتقرير الأدلة فى عقول الناس . ويمضى فيصور براعة واصل فى هذا العلم الجديد ، علم التشاجر ، وكيف كان يقتدر على إيراد الحجج ودفع الشُّبَه عند خصومه من أرباب الملل والنحل ، مستطرداً من ذلك إلى وصف تقواه وتقوى أتباعه ، يقول :

تلقَّب بالغَزَّال واحدُ عصره فَمَنْ لليتامى والقَبيل المُكاثرِ[5]
ومَنْ لحَرُورِىٍّ وآخرَ رافضٍ وآخرَ مُرْجِىٍّ وآخر جائرِ[6]
وأمرٍ بمعروفٍ وإنكار منكَرٍ وتحصين دين الله من كل كافرِ
يُصيبون فَصْلَ القول فى كل موطنٍ كما طبَّقَتْ فى العظم مُدْيَةُ جازرِ
وسيماهمُ معــروفةٌ فى وجوههم وفى المشى حُجَّاجاً وفوق الأباعرِ
وفى ركعةٍ تأْتى على الليل كلِّــهِ وظاهرِ قولٍ فى مثالِ الضمائرِ

(١) البيان والتبيين ١ / ٢٥ .

(٢) السوس الأقصى : كورة بالمغرب كانت حاضرتها طنجة .

(٣) علم التشاجر : يريد به علم الجدال فى العقيدة أو علم الكلام .

(٤) الشدق : البلغاء .

(٥) خير الأقوال فى تلقيب واصل بالغزال أنه كان يجلس فى سوق الغزالين ليعرف المتعففات من النساء فيجعل صدقته لهن . انظر المبرد ص ٥٤٦ .

(٦) الحرورية : الخوارج

ويهمنا ما وقف عنده صفوان والجاحظ بعده من محاجّة واصل لخصومه من أرباب الملل: من الحَرَورِيّة ورافضة الشيعة والمرجئة، فقد انبثقت من الوعظ شعبة من الجدل فى العقيدة، هيأت لظهور علم التشاجر كما يقول صفوان أو علم الكلام كما اصطلح المتأخرون، فظهر القدرية بزعامة الحسن البصرى، وظهر المرجئة بزعامة غيلان الدمشقى وغيره من دعاة هذا المذهب فى العراق وخراسان. وفى كل مكان نسمع عن مجادلات أصحاب هذه الفرق بعضهم مع بعض، ومع الخوارج والشيعة وبعض خلفاء بنى أمية[1]. واحتدمت هذه المجادلات احتداماً شديداً، وقد احتفظت الكتب ببقايا منها تدل دلالة بينة على أنها شحذت العقول كما شحذت الألسنة، ومن خير ما يصورها محاورة واصل بن عطاء مع عمرو ابن عبيد بمجلس الحسن البصرى فى مرتكب الكبيرة، وكان الحسن يراه مؤمناً فاسقا، ويراه الخوارج كافراً، وتراه المرجئة مؤمناً غير فاسق ولا كافر، لأنهم كما قدمنا كانوا يفصلون الإيمان عن العمل. ورأى واصل أن مرتكب الكبيرة فى منزلة وسطى بين منزلتى المؤمن والكافر، فهو ليس مؤمناً ولا كافراً. وكان عمرو بن عُبَيْد من تلاميذ الحسن البصرى، فجمع بينه وبين واصل ليناظره فى رأيه. ويقص علينا المرتضى هذه المناظرة[2]، ويقدم لها بأن واصلا أقبل ومعه جماعة من أصحابه إلى حلقة الحسن وفيها عمرو بن عُبَيد، فحاوره فى رأيه، ورد عليه واصل رداً مفحماً مستخدماً بعض آى الذكر الحكيم، شافعاً ذلك بقياس منطقى دقيق. واقتنع عمرو فترك مقالة الحسن إلى مقالة واصل، وأصبح بعد ذلك من رءوس المعتزلة.

والحق أن واصل بن عطاء يُعَدُّ رمزاً لكل ما أصاب عقل الوعّاظ وأصحاب المقالات فى هذا العصر من دقة لا فى مناظراته ومحاوراته فحسب، بل أيضاً فى آرائه، فإن فكرة المنزلة بين المنزلتين التى وضع فيها مرتكبى الكبائر فكرة لا يُؤْتَاها إلا من استبصر المعانى وعرف حدودها ومقاديرها ومداخلها ولطائفها، وكان واصل يجمع إلى ذلك قدرة واسعة فى الجدل والظفر بخصومه، وهو ظفر

(١) انظر كتابنا «الفن ومذاهبه فى النثر العربى» (طبع دار المعارف) ص ٧٩.

(٢) أمالى المرتضى ١/١٦٥.

لا يأتى عفواً ، وإنما يأتى من تصفُّح الأدلة ومعرفة صحيحها من سقيمها وجيدها من زائفها .

فإذا قلنا إن الخطابة العربية تطورت تطوراً واسعاً بتأثير عقول هؤلاء المتكلمين لم نكن مغالين ، إذ دُعمت فيها الأدلة ودقّت المعانى ، واستتمت شعباً كثيرة من خفياتها ودفائنها . وليس هذا فحسب ، فإن هؤلاء الوعاظ المتكلمين وازنوا بين خطابتهم والجماهير التى كانت تستمع إليهم ، وكانت أخلاطاً من خاصة وعامة ومن عرب وموال ، ومن ثَمَّ فتحوا الأبواب واسعة للأسلوب المولَّد الجديد ، وهو أسلوب لا يرتفع عن الموالى وفئات العامة بما قد يكون فيه من لفظ غريب ، ولا يهبط عن العرب وفئات الخاصة بما فيه من لفظ مبتذل ، أسلوب وسط ، عماده الفصاحة والوضوح .

ولم يكونوا يخطبون غالباً وقوفاً شأن خطباء السياسة والمحافل ، إنما كانوا يخطبون جلوساً ، ومن حولهم تلاميذهم ومستمعوهم فى حلقات ، وهم من هذه الناحية يُعَدّون محاضرين أكثر منهم خطباء بالمعنى الدقيق، وهيأ لهم ذلك شيئاً من التروِّى والتمهل كان له أثره فى روعة الأداء ، حتى لنرى فريقاً منهم يعمد إلى السجع فى وعظه مثل أسرة الرقاشيين [١] ، وكان بينها غير متكلم مثل الفضل ابن عيسى الرقاشى . ولكن هذا ليس الأسلوب الذى شاع فى تلك البيئة ، إنما شاع أسلوب آخر كان يقوم على الازدواج والترادف ، وهو واضح فى خطبة واصل التى مرّت بنا ، وفى خطابة الحسن البصرى وغَيْلان [٢] الدمشقى ، وإنما ألجأهم إليه ضيق معانى الوعظ ، فاضطروا إلى الترادف وترداد الكلام . ومن غير شك هم الذين أعدُّوا لهذا الأسلوب الذى نراه ينتقل منهم إلى عبد الحميد ومَنْ تلاه من كتاب العصر العباسى أمثال الجاحظ . ولا أغلو إذا قلت إنهم أعدوا لشيوع لون الطباق فى كتابات العباسيين ، فقد جعلهم حديثهم عن الطاعة والعصيان والحياة والموت والجنة والنار يصوغون خطابتهم على المطابقة والمقابلة بين المعانى .

---

(١) انظر فى هذه الأسرة البيان والتبيين ١/٣٠٦ وما بعدها .

(٢) انظر فى مواعظه عيون الأخبار ٢/٢٤٥ .

وليس هذا كل ما أهدوه إلى النثر العربي، فإنهم أهدَوْا إليه أيضاً كثيراً من الوصايا البلاغية التي يموج بها كتاب البيان والتبيين للجاحظ، إذ تحولوا يعلّمون شباب البصرة والكوفة كيف يحسنون خطابتهم سواء من حيث إشاراتهم أم من حيث منطقهم أم من حيث تنقيح معانيهم أم من حيث تصفية ألفاظهم، وكيف يلائمون بين اللفظ والمعنى وبين كلامهم ومستمعيهم وطبقاتهم، ومتى يُستَحَبُّ الإيجاز ومتى يستحب الإطناب، وكيف أن المعوّل دائماً على وضوح الدلالة حتى يَصْنَع الكلام في القلوب صنيعَ الغيث في التربة الكريمة. وبذلك هيأوا لظهور قواعد البلاغة العربية، ولعل من الطريف أن أقدم النصوص المتصلة بماهيتها تضاف إلى أحد متكلميهم ووعّاظهم، فقد روى الجاحظ أن سائلاً سأل عمرو بن عُبَيْد ما البلاغة؟ فأجاب[1]:

« ما بلغ بك الجنة وعدل بك عن النار، وما بصَّرك مواقعَ رشدك وعواقب غيِّك، قال السائل: ليس هذا أريد، قال عمرو: فكأنك إنما تريد تحبير اللفظ في حسن إفهام؟ قال: نعم، قال: إنك إن أردت تقرير حجة الله في عقول المكلَّفين وتخفيف المئونة على المستمعين وتزيينَ تلك المعاني في قلوب المريدين بالألفاظ الحسنة في الآذان المقبولة عند الأذهان رغبة في سرعة استجابتهم ونَفْي الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة كنت قد أوتيت فَصْلَ الخطاب، واستحققت على الله جزيل الثواب ».

وعلى هذا النحو كان تلاميذهم لا يزالون يدفعونهم إلى الحديث عن آلات البلاغة، وكيف يحرزون لأنفسهم التفوق في الخطابة وفي المحاورة والمناظرة، ويُؤْثَرُ عن خالد بن صفوان أنه كان يقول: « اعلم — رحمك الله — أن البلاغة ليست بخفة اللسان وكثرة الهذيان، ولكنها بإصابة المعنى والقصد إلى الحجة »[2] وكان شَبيب بن شَيبة يقول: « الناس موكَّلون بتفضيل جودة الابتداء وبمدح صاحبه، وأنا موكَّل بتفضيل جودة القطع وبمدح صاحبه، وحظُّ جودة القافية وإن كانت كلمة واحدة أرفع من حظ سائر البيت[3] ». ولم يكونوا يتفقدون

---

(١) البيان والتبيين ١/١١٤ وانظر العقد الفريد ٢/٢٦٠ وزهر الآداب ١/٩٣.

(٢) العقد الفريد ٢/٢٦١.

(٣) البيان والتبيين ١/١١٢.

مطالع كلامهم وخواتمه فحسب ، بل كانوا يتفقدون أيضاً ثناياه ومقاطعه . ونحن نتوقف قليلا عند الحسن البصرى وخطابته ، إذ يُعَدّ أخطبَ خطبائهم وأبلغ بلغائهم .

الحسن (١) البَصْرى

وُلد بالمدينة سنة إحدى وعشرين للهجرة لأب أعجمى يسمى يساراً من سَبيْ ميسان بجوار البصرة استرقه رجل من الأنصار ، ثم أعتقه ، فكان ولاؤه فيهم ، وكانت أمه خيْرة مولاة لأم سلمة زوج الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأُعتقت هى الأخرى . وكان له أخ يسمى سعيداً . وقد عاشت هذه الأسرة فى وادى القُرَى ، وترددت على المدينة . ولم تتصل أمه بأم سلمة وحدها من أزواج الرسول ، فقد كانت تختلف إليهن جميعاً ، ويختلف معها الحسن ، فاقتبسا معاً من نورهن ونور الرسالة النبوية ، وأعان أمه على هذا الاقتباس أنها استطاعت أن تحسن العربية ، فكانت ترْوى أحاديث عن أم سلمة وتدمجها بوعظ كثير ، مما كان له أثره العميق فى نفس ابنيها الحسن وسعيد . وأخذ الحسن منذ صباه يختلف إلى المسجد الجامع ، وفى أثناء ذلك حفظ القرآن وتعلم الكتابة ، وأخذ ينهل مما فى المدينة من فيض الرسالة .

ولا نتقدم إلى خلافة علىّ حتى نجد أسرته تنزح إلى وطنه ، فينزل البصرة ، ونرى الحسن يجنح عن المشاركة فى الأحداث القائمة ،وهو مذهب اتبعه طول حياته أن لا يشارك فى الأحداث والفتن ، وكأنما وهب نفسه للدين بمعناه الدقيق ، فهو يعيش لمدارسة القرآن الكريم ورواية الحديث محاولا الوقوف على جوانب التشريع الإسلامى . ونراه يخرج بعد اجتماع الأمة على معاوية مع الجيوش الغازية فى الشرق ، ويعمل كاتباً لبعض الولاة فى خراسان ، ويظل هناك نحو عشر

---

(١) انظر فى ترجمة الحسن طبقات ابن سعد ج ٧ ق ١ ص ١١٤ ووفيات الأعيان لابن خلكان والمعارف لابن قتيبة ص ٢٢٥ وتهذيب التهذيب والملل والنحل ص ٣٢ وأمالى المرتضى ١٥٢/١ والكامل للمبرد والبيان والتبيين والعقد الفريد وعيون الأخبار انظر (فهارس تلك الكتب) والحسن البصرى لابن الجوزى والحسن البصرى لإحسان عباس (طبع دار الفكر العربى) .

سنوات يعود بعدها إلى البصرة ويظل بها حتى وفاته سنة ١١٠ للهجرة ويخلص للدرس الديني ، ولا يترك نبعاً من ينابيعه دون أن يرتشفه ارتشافاً ، وسرعان ما يصبح واعظاً كبيراً ويقبل عليه شباب البصرة إقبالا منقطع النظير . ولا نصل إلى عصر الحجاج حتى يصبح أكبر واعظ فى مصره إذ كان لا يجارَى فى بلاغته وبيانه .

ويُكْبِره عصره كما تكبره العصور التالية لزهده الذى لم يكن يتعمَّل فيه ولا يتكلف ، زهد بناه على آداب الإسلام ، إذ استقاه من مناهله الحقيقية فى المدينة دار النبوة ، ومن ثَمَّ أخذت الفرق الدينية تتنازعه ، حتى تسوِّغ آراءها فى عقول الناس ، فكل فرقة تَنْسب إليه من عقائدها ما يجعله ينتظم بين رُوَّادها الأولين ، فالجَبْرية يقولون إنه كان ينفى حرية الإرادة ويذهب إلى أن كل شىء بقضاء من الله ، ويقول القَدَرية إنه من القائلين بحرية الإرادة وأن الإنسان حر مختار فى أفعاله ، ويجعله الصوفية إمامهم .

ونستطيع أن نستخلص من النصوص المتضاربة أنه كان قَدَريًّا ، إذ كان يقول مَنْ زعم أن المعاصى من الله جاء يوم القيامة مسودًّا وجهه ، ولو كان من الجبرية ما نوَّه به الجاحظ المعتزلى هذا التنويه العريض الذى نلقاه دائماً كلما ذكره فى صفحات كتابه البيان والتبيين . ويزعم صاحب « المنية والأمل » أن الحجاج كتب إليه يسأله عن رأيه فى القدر ، فكتب إليه رسالة ضمَّنها ما كان يراه من حرية الإرادة والعدل على الله[1] ، وتلتقى بهذه الرسالة فى نفس المعنى رسالة يقال إنه أرسل بها إلى عبد الملك[2] .

والذى لا شك فيه أن الحسن كان أحد أئمة الزهاد فى عصره وأنه كان يدعو إلى الزهد فى الحياة الدنيا دعوة واسعة ، ولكنه لم يكن متصوفاً ، فالتصوف شىء والزهد شىء آخر ، حقًّا كل متصوف زاهد ، ولكن ليس كل زاهد متصوفاً ، ومعروف أن التصوف إنما نشأ بعد عصره . وقد صوَّر إحسان عباس شخصيته الزاهدة تصويراً دقيقاً مبيناً كيف صرف نفسه عن متع الحياة وكيف تعمقته تجربة الزهد وكيف مضى يدعو إليه فى مواعظه دعوة لا تفتر . وكانت

(١) المنية والأمل لابن المرتضى (طبع حيدر آباد) ص ١٢ .

(٢) انظر مصورة هذه الرسالة فى دار الكتب المصرية برقم ٢٢١٥ أدب .

خلافة عمر بن عبد العزيز الزاهد له عيداً ، فوفد عليه واعظاً وراسله ، وقَبِلَ أن يتولى القضاء إلى فترة فى عهده . وكان بارع الفصاحة ، حتى ليصفه بعض من سمعه من الأعراب بأنه «عربى محكّك[١] » ويُؤْثَرُ عن الحجاج أنه كان يقول : « أخطبُ الناس صاحب العمامة السوداء بين أخْصاص[٢] البصرة إذا شاء خطب وإذا شاء سكت[٣] » وهو إنما يَعْنيه ، وكان أبو عمرو بن العلاء يقول : « لم أر قرويين أفصح من الحسن والحجاج[٤] ». وكان يجمع إلى فصاحته حسًّا لغويًّا دقيقاً ، ومما يصور ذلك ما يُرْوَى عن رجل من بنى مجاشع قال : « جاء الحسن فى دم كان فينا فخطب ، فأجابه رجل بأن قال : قد تركت ذلك لله ولوجوهكم ، فقال الحسن : لا تقل هكذا ، بل قُلْ : لله ثم لوجوهكم ، وآجرك الله[٥] » .

وتموج بعظاته كتب البيان والتبيين وعيون الأخبار والعقد الفريد كما تموج بها ترجمته فى الكتب المختلفة وكتب المتصوفة مثل اللمع للسراج وحلية الأولياء لأبى نعيم ، وقد نوّه به الغزالى فى الإحياء مراراً . وهو فى مواعظه يستمد من القرآن الكريم وهدى الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الورعين ، وخاصة عمر بن الخطاب ، فإنه يروى عنه كثيراً من أقواله وعظاته[٦] .

وهو فى وعظه ينفّر دائماً من الدنيا ومتاعها الزائل ، مذكّراً باليوم الآخر وما ينتظر العصاة فيه من العقاب الزاجر حاثًّا على التقوى والعمل الصالح والتأسى بالرسول وصحابته الذين رفضوا الدنيا وطلبوا الآخرة ، فكانوا كالكَرْمة التى حسن ورقها وطاب ثمرها . ومن مواعظه التى رواها له الجاحظ قوله[٧] :

« يا بنَ آدم بِعْ دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً ، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً . يا بن آدم إذا رأيت الناس فى الخير فنافسهم فيه ، وإذا رأيتهم فى الشر فلا تغبطهم به . الثَّواء هاهنا قليل والبقاء هناك طويل . أما إنه والله لا أمةَ بعد أمتكم ولا نبىَّ بعد نبيكم ولا كتابَ بعد كتابكم . أنتم تسوقون الناسَ

---

(١) البيان والتبيين ١/٢٠٥ .
(٢) الخص : البيت من قصب ، وكان فى البصرة طائفة من هذه البيوت كان يسكن فيها الحسن زهداً وورعاً .
(٣) البيان والتبيين ١/٣٩٨ ، ٢/٢٨٦ .
(٤) نفس المصدر ١/١٦٣ .
(٥) نفس المصدر ١/٢٦١ .
(٦) البيان والتبيين ٣/١٣٧ وما بعدها .
(٧) نفس المصدر ٣/١٣٢ وانظر عيون الأخبار ٢/٣٤٤ .

والساعةُ تسوقكم، وإنما يُنْتَظَرُ بأولكم أن يلحق آخركم . من رأى محمداً صلى الله عليه وسلم فقد رآه غادياً رائحاً [١] لم يضع لَبِنةً على لبنة ولا قصبة على قصبة . . (لقد كان لكم في رسول الله أسْوَةٌ حسنة) . يابن آدمَ طأ الأرض بقدمك فإنها عما قليل قَبْرك، واعلم أنك لم تزل في هدم عمرك مذ سقطتَ من بطن أمك ، فرحم الله رجلا نظر فتفكر، وتفكر فاعتبر، واعتبر فأبصر، وأبصر فصبرَ . . يابن آدم اذكرْ قوله: (وكلَّ إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشورا . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حَسيباً) عدَلَ: والله ، عليك مَنْ جعلك حسيب نفسك . خذوا صفاء الدنيا وذَرُوا كدَرها، دعوا ما يَريبكم إلى ما لا يريبكم . لقد صحبت أقواماً [٢] ما كانت صحبتهم إلا قُرَّة العين وجِلاء الصدر. ولقد رأيت أقواماً كانوا من حسناتهم أشفقَ من أن تُرَدَّ عليهم منكم من سيئاتكم أن تعذَّبوا عليها، وكانوا فيما أحلَّ الله لهم من الدنيا أزهدَ منكم فيما حرَّم عليكم منها . . لو تكاشفتم ما تدافنتم [٣] ، تهاديتم الأطباق ولم تهادوا النصائح، قال ابن الخطاب: رحم الله امرأ أهدى إلينا مساوِينا . أعِدُّوا الجواب فإنكم مسئولون . . يابن آدم ليس الإيمان بالتحلِّي ولا بالتمني ، ولكنه ما وَقَر في القلوب وصدَّقته الأعمال» .

وواضح كيف كان يمزج عظته بآي الذكر الحكيم مستعيراً من أحاديث الرسول ما يضيء به كلامه من مثل قوله : « دعوا ما يَريبكم إلى ما لا يريبكم » في الحديث النبوي : « دع ما يَريبك إلى ما لا يَريبك » واستعار قول الرسول : « لو تكاشفتم ما تدافنتم » واستشهد بكلمة لعمر . واستشهاده بآيات القرآن كثير ، تارة يأتي بها في تضاعيف كلامه ، وتارة يتلو الآية ثم يعقب عليها بعظته ، من ذلك أنه تلا يوماً قوله تعالى : (إنا عرضنا الأمانةَ على السموات والأرض والجبال فأبَيْنَ أن يحملْنها وأشفقْنَ منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا) ثم عقَّب عليها بقوله [٤] :

---

(١) يريد أنه كان يغدو ويروح في كسب عيشه الضروري .

(٢) يريد صحابة الرسول .

(٣) يريد لو تكشفت عيوب بعضكم لبعض لاستثقلتم المشي في الجنائز .

(٤) أمالي المرتضى ١ / ١٥٤

« إن قوماً غَدَوْا فى المطارف[1] العِتاق والعمائم الرقاق يطلبون الإمارات ويضيّعون الأمانات ، يتعرضون للبلاء وهم منه فى عافية ، حتى إذا أخافوا مَنْ فوقهم من أهل العفّة وظلموا من تحتهم من أهل الذِّمّة أهزلوا دينهم وأسمنوا بَراذينهم[2] وسموا دورهم وضيّقوا قبورهم . ألم ترهم قد جَدّدوا الثياب وأخْلقوا الدين ، يتكىء أحدهم على شماله ، فيأكل من غير ماله .. يدعو بحُلْوٍ بعد حامضٍ وبحارٍّ بعد باردٍ وبرطبٍ بعد يابس ، حتى إذا أخذته الكِظّة[3] تجشّأ من البَشَم[4] ، ثم قال يا جارية هاتى حاطوماً[5] يهضم الطعام ، يا أُحَيْمق لا والله لن تهضم إلا دينك أين جارك ؟ أين يتيمك ؟ أين مسكينك ؟ أين ما أوصاك الله عزّ وجل به ؟ »

وبمثل هذه العظة كان يحمل على من يطلبون الدنيا والظفر فيها بحكم الناس ، حتى إذا حكموهم ظلموهم وعاشوا للذاتهم يلبسون فاخر الثياب ويركبون أنفَس الدواب ، ويطعمون طعاماً مختلفة ألوانه ، غير مفكرين فى حقوق الرعية بل طارحين وراء ظهورهم ما أوصى به الدين الحنيف من رعاية الجار واليتيم والمسكين . وكان يعنُفُ بالأغنياء عنفه بالحكام ، فقد شغلهم متاع الدنيا عن طلب الآخرة حتى أصبحوا كالشجرة التى قلّ ورقها وكثر شوكها ، وإنه ليجزع من انصرافهم إلى نعيم الحياة وسلعها البائرة وقعودهم عن الآخرة وسلعها الرابحة ، ومن قوله[6] :

« رحم الله امرأ كسب طيباً ، وأنفق قَصْداً ، وقدّم فضلا ، وجّهوا هذه الفضولَ حيث وجّهها الله ، وضَعوها حيث أمر الله ، فإن من كان قبلكم كانوا يأخذون من الدنيا بلاغهم ويُؤْثرون بالفضل . ألا إن هذا الموت قد أضرّ بالدنيا ، ففضحها ، فلا والله ما وجد ذو لُبٍّ فيها فرحاً ، فإياكم وهذه السبلَ المتفرقة التى جِماعها الضلالةُ وميعادها النار . أدركتُ مِنْ صَدْرِ هذه الأمة قوماً كانوا إذا أجنّهم الليل فقيامٌ على أطرافهم ، يفترشون وجوههم ، تجرى دموعهم على خدودهم ، يناجون مولاهم فى فكاك رقابهم[7] . . يابن آدم إن كان لا يُغْنيك

(١) المطارف : جمع مطرف هو ثوب من خز .
(٢) براذينهم : دوابهم
(٣) الكظة : الشبع .
(٤) البشم : الامتلاء .
(٥) الحاطوم : الهاضوم المهضم .
(٦) البيان والتبيين ٣/١٣٥ .
(٧) يريد تخليصهم رقابهم من شهوات الدنيا أو من جزاء لا يرضونه .

ما يكفيك فليس‌ها هنا شيء يُغْنيك، وإن كان يُغْنيك ما يكفيك فالقليل من الدنيا يغنيك » .

ويكرر الحسن دائماً ذكر الموت والآخرة والإعراض عن الدنيا والخوف من الله وما أعدّ للعصاة من الجحيم والعذاب المقيم ، ويجلّل الحزن مواعظه، فهو دائماً مهموم لما يفكر فيه من مصيره ولقاء ربه يوم يفوز المحسنون ويخسر المبطلون، فطُوبَى لمن قنع بالكفاف وذكر في غدوه ورواحه المعاد، وأعدّ عدته ليوم الحساب يوم موقفه بين يدى الله، وهو لا يدرى أيؤمَرُ به إلى الجنة أم إلى النار . وإن التفكير في ذلك حرىّ أن يملأ نفس المؤمن بالحزن والهم آناء الليل وأطراف النهار .

ولعل في هذا كله ما يوضح المعاني التي كان يخوض فيها الحسن البصري ، وقد كان يختار لها كُسْوة حسنة من هذا الأسلوب الذي يشيع فيه الازدواج ، كما يشيع فيه الطباق والتصوير ، وأيضاً فإنه كان يشيع فيه التقسيم من مثل قوله :

« لا تزول قدما ابن آدم حتى يُسأل عن ثلاث : شبابه فيما أبلاه ، وعمره فيما أفناه ، وماله من أين كسَبه وفيما أنفقه » .

وهو بلا ريب أكبر من ثبّتوا في هذا العصر ذلك الأسلوبَ المونق الذي تأثّر به عبد الحميد ومَنْ خلفوه من الكتّاب إذ كان يقتدر على تصريف الكلم مع السلامة من التكلف والبراءة من التعقيد ، وليس ذلك فحسب بل أيضاً مع تحلية لفظه بالمزاوجات والمقابلات والتشبيهات والاستعارات والتقسيمات الدقيقة .

الفصل السابع

الكتابة والكتّاب

١

التدوين

كان العرب فى الجاهلية أميين ، لايعرف القراءة والكتابة إلا قليل منهم ، فلما جاء الإسلام أخذ يحضُّهم — كما مرّ بنا — على تعلم الكتابة وعلى العلم والتعلم . وكان اختلاطهم بعد الفتوح بالأعاجم مهيِّئاً لهم أن يقفوا منهم على فكرة الكِتاب وأنه صحف يُجمع بعضها إلى بعض فى موضوع معين . وقد أخذوا يتحولون سريعاً من أمة أُمِّية لا تعرف من المعارف إلا ما حواه الصدر ووعته الآذان إلى أمة كاتبة، تدوّن معارفها العربية والإسلامية واضعةً بعض المصنّفات ومضيفة إلى ذلك بعض المعارف الأجنبية .

وكان من أوائل ما عُنوا به من معارفهم العربية الخالصة أخبارُ آبائهم فى الجاهلية وأنسابهم وأشعارهم، ومن ثَمّ كثُر بينهم علماء النسب وأصحاب الأخبار[١] ومن أشهرهم دَغْفل[٢] بن حنظلة السَّدوسى المتوفَّى سنة ٧٠ للهجرة، وله مجالس عند معاوية دُوِّنت فى كتاب له اسمه «التضافر والتناصر»[٣] وهى تدور بينهما فى أسلوب حِوارى ، إذ يسأل معاوية عن قبائل العرب ويجيبه دغفل بعبارات بليغة ، وقد احتفظ الجاحظ منها فى بيانه ببعض إجابات طريفة.[٤]

---

(١) انظر المعارف لابن قتيبة (طبعة جوتنجن) ص ٢٦٥ والبيان والتبيين ١/٣١٨ وما بعدها

(٢) راجع فى ترجمة دغفل المعارف ص ٢٦٥ والفهرست (طبع مصر) ص ١٣١ وأمثال الميدانى ٢/٢٧٣ والإصابة ، وفى الاستيعاب لابن عبد البر ص ١٧٣ أن معاوية أمره أن يعلم يزيد ابنه العربية والأنساب .

(٣) انظر التحفة البهية (طبعة إستانبول) ص ٣٨ .

(٤) البيان والتبيين ١/١٢١ ، ٢٤٧ ، ٢/٨٠ ، ٢٥٣ .

وبجانب ذلك نجد القبائل تُعْنَى بأخبارها فى الجاهلية وأشعارها فتدوّنها ، وتكاثر هذا التدوين فى الكوفة حيث كانت تعيش الأرستقراطية العربية ، مما أتاح الفرصة للرواة من أمثال حماد الراوية أن يحملوا مادة غزيرة من الشعر الجاهلى وكل ما يتصل به من أخبار وأيام[١] . وبين أيدينا أخبار مختلفة تدل على أن الشعر الإسلامى كان يُكْتَبُ ويدوّن ، من ذلك ما يرويه الجاحظ عن ذى الرُّمَّة من أنه كان يقول لعيسى بن عمر : «اكتب شعرى فالكتاب أحبّ إلىّ من الحفظ ، لأن الأعرابىَّ ينسى الكلمة وقد سَهِر فى طلبها ليلته ، فيضع فى موضعها كلمة فى وزنها ، ثم يُنشدها الناس ، والكتاب لا ينسى ولا يبدّل كلاماً بكلام»[٢] ، وفى أخبار جرير أنه كان يأمر راويته حسيناً بإعداد ألواح ودواة ليُملى عليه بعض أشعاره[٣] وأنه كان يقول لسامعيه بالمِرْبد قيّدوا قيّدوا أى اكتبوا[٤] ، وفى الأغانى أن خالد بن كلثوم الكلبى كان يدوّن شعره وشعر الفرزدق[٥] . ونحن لا نصل إلى عصرهما حتى يتكون بالبصرة والكوفة جيلٌ من الرواة ، يُعْنَى بتدوين أخبار العرب فى الجاهلية وأشعارهم ، لعل خير من يمثله أبو عمرو بن العلاء ، وفيه يقول الجاحظ : «كانت كتُبه التى كتبَ عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتاً له ، إلى قريب من السَّقْف ، ثم إنه تقرّأ (تنسَّك) فأحرقها كلها ، فلما رجع بعدُ إلى علمه الأول لم يكن عنده إلا ما حفِظه بقلبه ، وكانت عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية»[٦] .

وعنايةُ العرب فى هذا العصر بتدوين أخبارهم الجاهلية وأنسابهم وأشعارهم لا تُقاس إلى عنايتهم بتدوين كل ما اتصل بدينهم الحنيف فقد تأسست فى كل بلدة إسلامية مدرسة دينية عُنيت بتفسير الذكر الحكيم ورواية الحديث النبوى وتلقين الناس الفقهَ وشئونَ التشريع . وكان كثيرون من المتعلمين فى هذه المدارس يحرصون على تدوين ما يسمعونه . وقد اشتهر ابن عباس فى مكة بما كان يحاضر فى تفسير القرآن الكريم ، وحمل عنه تفسيره نفرٌ من التابعين

(١) أغانى (دار الكتب) ٦/ ٩٤ .
(٢) الحيوان ١/ ٤١ .
(٣) نقائض جرير والفرزدق (طبعة بيفن) ص ٤٣٠ وانظر أغانى (دار الكتب) ٨/ ٣٢ .
(٤) ابن سلام ص ٣٧٤ .
(٥) أغانى (ساسى) ١٩/ ١١ – ١٢ .
(٦) البيان والتبيين ١/ ٣٢١ .

أمثال مجاهد وعطاء، ويقول ابن حنبل «بمصر صحيفة فى التفسير عن ابن عباس رواها علي بن أبي طلحة ، لو رحَل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً [١] » . ولا يتحمل تفسير الطبرى تفسير ابن عباس وحده ، بل يحمل أيضاً كلّ ما رواه الرواة عن معاصريه أمثال عبد الله بن مسعود وأبيّ بن كعب . وقد أخذتْ تعظم هذه المادة بما أضاف إليها التابعون، وما نشكُّ فى أن كثيراً منها دُوّن فى هذا العصر ، وإلا ما وصلت إلى الطبرى . وكان الصحابة والجيل الأول من التابعين كما مر بنا فى غير هذا الموضع يتردّدون فى تدوين الحديث ، غير أن بينهم قوماً كانوا لا يكتفون بالحفظ خشية النسيان ، فعمدوا إلى كتابة ما سمعوه على نحو ما يصورٌ لنا ذلك البغدادى فى كتابه « تقييد العلم » . ونحن لا نصل إلى عصر عمر بن عبد العزيز حتى نراه يأمر بتدوين الحديث، ويُعْنَى بذلك كما مر بنا الزُّهْرى المتوفى سنة ١٢٤ للهجرة فيدونه ، ويتتابع التدوين فيه . وعلى نحو ما أخذوا فى تدوين الحديث والتفسير أخذوا فى تدوين الفقه ، وخاصة تلاميذ ابن مسعود كما يلاحظ ذلك ابن قيم الجوزية ، فإنهم حرّروا فتياه ومذهبه فى التشريع [٢] . ويذكر جولدتسيهر أن عروة [٣] بن الزبير كانت له كتب فقه أحرقت يوم الحرة [٤]. ويظهر أن عناية الشيعة بكتابة الفقه كانت قوية لاعتقادهم فى أئمتهم أنهم الهادون المهديون الذين ينبغى أن يلتزموا بفتاواهم ومن ثم عنوا بفتاوى على وأقضيته، ويظهر أن أول من ألّف فيها سليم بن قيس الهلالى معاصر الحجاج [٥]، وذكر جولدتسيهر أنه يوجد فى المكتبة الأمبروزية بميلانو مختصر فى الفقه اسمه « مجموعة زيد بن على » [٦].

وأخذت تدوّن منذ القرن الأول مغازى الرسول صلى الله عليه وسلم ومن عُنوا

---

(١) انظر النوع التاسع والسبعين فى كتاب الإتقان للسيوطى .

(٢) راجع تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية لمصطفى عبد الرازق ص ١٩٢ وانظر إعلام الموقعين لابن قيم الجوزية .

(٣) انظر فى ترجمة عروة تهذيب التهذيب وصفة الصفوة ٢/٤٧ والمعارف لابن قتيبة ص ١١٤

(٤) انظر مادة فقه فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٥) الفهرست ص ٣٠٧ .

(٦) مادة فقه فى دائرة المعارف الإسلامية .

بها عروة بن الزبير وأبان [١] بن عثمان بن عفان المتوفى سنة ١٠٥ للهجرة ووهب [٢] ابن منبّه المتوفى سنة ١١٤ . وأخذت تنضم إليها مادة تاريخية إسلامية عن الفتوح وأخبار الخلفاء الراشدين وخلفاء بنى أمية وخلافة ابن الزبير ومقتل الحسين ، ومن كل ذلك ألف المؤرخون المخضرمون الذين عاشوا فى العصرين الأموى والعباسى كتبهم التاريخية التى يُفيض الفهرست لابن النديم فى بيان أسمائها ، وعلى رأسهم محمد بن السائب الكلبى المتوفّى سنة ١٤٦ .وابن إسحق المتوفى سنة ١٥٠ . ومنذ أوائل العصر نجد عناية بأخبار الأمم السالفة ، وتمثلت هذه العناية فى معاوية ، إذ استقدم عُبَيْد [٣] بن شَرِيَّة الجرهمى اليمنى ليحدثه فى مجالسه عن أخبار ملوك العرب الماضين ،وأمر معاوية بعض غلمانه بكتابة ما كان يسرده من تاريخهم ، فتألف من ذلك كتابه « أخبار الأمم الماضية » وكان متداولا فى عصر المسعودى [٤] . وقد طُبع له فى « حيدر آباد » كتاب باسم « أخبار عبيد بن شرية الجرهمى فى أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها » وهو يدور فى أسلوب حوارى ، إذ يسأل معاوية ويجيب عبيد ، ويستهل بأخبار عاد ولقمان وثمود ثم يتحدث عن هجرة جُرْهم من اليمن وأخبار تُبَّع إلى زمان مملكة طسم وجديس ، وتتخلله أشعار كثيرة . ومن نمطه كتاب التيجان لوهب بن منبه ، وهو مطبوع معه ، وهو يتحدث عن ملوك حمير والقرون الغابرة . ولوهب كتاب يسمى « المبتدأ فى الأمم الخالية » ذكره المقدسى [٥] وقال السخاوى إنه كثير الخرافات [٦] . وله فى الإسرائيليات كتاب نقل عنه المفسرون كثيراً، وفى مكتبة بلدية الإسكندرية كتاب يُنسَب إليه باسم « قصص الأنبياء » . ويلمع فى هذا الاتجاه من أخبار أهل الكتب السماوية اسم كعب [٧]

---

(١) انظر فى ترجمة أبان المعارف ص ١٠١ وتهذيب التهذيب والفهرست ص ٥٤ وابن سعد ١١٢/٥ والنووى (طبعة وستنفلد) ص ١٢٥ .

(٢) انظر ترجمته فى كتاب المعارف ص ٢٣٣، ٣٠١ وطبقات ابن سعد ٣٩٥/٥ وميزان الاعتدال ٢٧٨/٣ وتهذيب ابن حجر وطبقات الحفاظ للسيوطى ١٧/١ وشذرات ابن العماد ١٥٠/١ .

(٣) راجع فى ترجمته الفهرست ص ١٣٢ والمعمرين لأبى حاتم السجستانى ومعجم الأدباء ٧٢/١٢ .

(٤) مروج الذهب (طبعة أوربا) ٨٩/٤.

(٥) أحسن التقاسيم للمقدسى ص ١١٥ .

(٦) الإعلام بالتوبيخ ص ٤٨ .

(٧) انظر فى ترجمة كعب الإصابة والمعارف ص ٢١٩ وابن سعد ج ٧ ق ٢ ص ١٥٦ ..

الأحبار المتوفى سنة ٣٢ للهجرة وكان من يهود اليمن وأسلم وقد طُبع له فى القرن الماضى كتاب بمطبعة بولاق « فى حديث ذى الكِفْل » .

وتلقانا بجانب ذلك إشارات إلى مصنفات تاريخية وأدبية وعقيدية ، من ذلك وَضْعُ زياد بن أبيه لكتاب فى المثالب [١] ووَضْعُ ابن مفرِّغ الشاعر قصة تُبَّع وأشعاره [٢] وتأليف كل من علاقة الكلابى [٣] معاصر يزيد بن معاوية وصُحار [٤] العَبْدى كتاباً فى الأمثال. ومن ذلك كتاب [٥] فى الوصايا والحِكم للمستورد بن عُلَّفة الخارجى . ومن ذلك أيضاً تصنيف وهب بن منبِّه لكتاب فى القَدَر [٦] ، ويقول صاحب الفهرست إن لغيلان [٧] المرجىء رسائل فى ألفى ورقة [٨] ، ومع أنها كانت تدور فى المواعظ [٩] نؤمن بأنها حملت آراءه فى الإرجاء . ويقول الجاحظ إن رسائل واصل بن عطاء رأس المعتزلة وخطبه كانت مدونة. [١٠] ومرّ بنا فى الفصل السابق ذكر رسالتين للحسن البصرى أرسل بهما إلى الحجاج وعبد الملك يحتج لرأيه فى القدر ، وهو ممن أملوا تفسيراً حُمل عنه [١١] . ونجد يونس الكاتب يضع أول كتاب فى الغناء [١٢] ، وقد نسَب له صاحب الفهرست فيه ثلاثة كتب [١٣].

وفى ذلك كله ما يدل على اتساع حركة التدوين فى عصر بنى أمية ، ولا نشك فى أن القوم دوَّنوا جملة رسائلهم السياسية ، وإلا ما استطاع الطبرى وغيره أن يرووها وكذلك قُلْ فى رسائلهم الوعظية والشخصية فإنهم دونوا منها كثيراً . ويسوق لنا صاحب الفهرست أسماء طائفة من الكتَّاب البلغاء لهذا العصر كانت رسائلهم مدونة . [١٤] وبالمثل كانوا يدوِّنون كثيراً من خطبهم ، وخاصة خطب

---

(١) انظر الفهرست ص ١٣١ .
(٢) أغانى (ساسى) ١٧/٥٢ .
(٣) الفهرست ص ١٣٢ .
(٤) نفس المصدر ص ١٣٢ .
(٥) المبرد ص ٥٧٨ .
(٦) انظر معجم الأدباء ١٩/٢٥٩ .
(٧) مضت مصادر ترجمته فى الفصل الثانى من هذا الكتاب .
(٨) الفهرست ص ١٧١ .
(٩) انظر عيون الأخبار ٢/٢٤٥ .
(١٠) البيان والتبيين ١/١٥ .
(١١) مختصر جامع بيان العلم لابن عبد البر ص ٣٧ .
(١٢) انظر الأغانى (طبع دار الكتب) ٤/٣٩٨ .
(١٣) الفهرست ص ٢٠٧ .
(١٤) الفهرست ص ١٧٠ وما بعدها .

الخلفاء والخطباء النابهين وعَّاظاً وغير وعَّاظ ، من مثل الحسن البصرى وواصل ومثل خالد بن صفوان[1] المتوفى سنة ١٣٥ وفيه يقول الجاحظ كما أسلفنا : «لكلامه كتاب يدور فى أيدى الوراقين»[2] ومرت بنا فى الفصل السالف موعظة لزياد بن أبيه كان يتداولها الناس وكتبها عبد الملك بن مروان بيده .

وأخذوا منذ أوائل هذا العصر ينقلون عن الموالى بعض معارفهم ، وقد مرّ بنا فى حديثنا عن الثقافة كيف كان خالد بن يزيد بن معاوية مشغوفاً بكتب النجوم والكيمياء والطب . ويقول صاحب الفهرست : «رأيت من كتبه كتاب الحرارات ، وكتاب الصحيفة الكبير وكتاب الصحيفة الصغير وكتاب وصيته فى الصنعة»[3] . ومرّ بنا أيضاً أن عمر بن عبد العزيز أمر ماسرجويه بنقل كتاب القس أهرن فى الطب ، ويروى الرواة أن ثياذوق طبيب الحجاج ابن يوسف نظم فى علم الصحة قصيدة ظل الناس يتناقلونها حتى عصر ابن سينا[4] وذكرنا أيضاً أن سالماً مولى هشام نقل بعض رسائل أرسطاليس من اليونانية ، وقد اشتهر تلميذه عبد الحميد بنقل بعض رسائل الفرس السياسية[5] . ويقال إنه نُقل لهشام كتاب عن الفارسية فى تاريخ الساسانيين ونظمهم السياسية .[6] ومعنى كل ما قدمنا أن التدوين أخذ يذيع وينتشر بين العرب لهذا العصر فى جميع فروع المعرفة دينية وغير دينية وعربية وغير عربية . ونقف الآن لنتحدث عما خلّف العصر من رسائل مختلفة .

٢

كثرة الرسائل المدوّنة

تزخر كتب التاريخ والأدب برسائل سياسية كثيرة أُثرت عن هذا العصر ،

(١) انظر فى خالد المعارف ص ٢٠٦ والبيان والتبيين فى مواضع متفرقة (راجع الفهرس) وابن خلكان ومعجم الأدباء ١٢/٢٤ والفهرست ص ١٥١ ، ١٦٧ ، ١٨١ .

(٢) البيان والتبيين ١/٣٤٠ وانظر الفهرست ص ١٥١ .

(٣) الفهرست ص ٤٩٧ .

(٤) انظر طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ١/١٢١ وابن القفطى ص ١٠٥ .

(٥) الصناعتين لأبى هلال العسكرى (طبعة الحلبى) ص ٦٩ .

(٦) انظر «صفحات عن إيران» لصادق نشأت ومصطفى حجازى (نشر مكتبة الأنجلو) ص ٨١

وحقاً هناك كتب تزيدت فى هذه الرسائل ونقصد كتب الشيعة من مثل شرح ابن أبى الحديد على نهج البلاغة وكذلك كتاب الإمامة والسياسة المنسوب إلى ابن قتيبة.

ولكن إذا نحينا هذين الكتابين وأضرابهما واعتمدنا على الكتب الوثيقة من مثل الطبرى والبيان والتبيين والكامل للمبرد استقبلتنا وخاصة فى الطبرى سيول من هذه الرسائل كتبها على مر العصر وأحداثه فرق الخوارج والشيعة والزبيريين ومن ثاروا على الدولة الأموية أمثال ابن الأشعث ، كما كتبها خلفاء بنى أمية وولاتهم وقوادهم .

ولن تستطيع أن نعرض كل ما روى للخوارج من رسائل ، لكثرتها ، ومن ثم سنكتفى بالحديث عن أهم رسائلهم ، ومعروف ما شجر بينهم من خلاف أدى كما مر بنا إلى تفرقهم أربع فرق ، هى الأزارقة والنجدية والصفرية والإباضية ، وقد مضى الأولون بقيادة نافع بن الأزرق يحرمون القعود عن الخروج ويستحلون دماء المسلمين وقتل أطفالهم ، وخالفتهم فى ذلك الفرق الأخرى . ويسوق المبرد فى تصوير هذا الخلاف رسالتين[1] متبادلتين بين نجدة بن عامر الحنفى زعيم النجدات ونافع بن الأزرق ، فنجدة يراجعه فى مقالته ، ونافع يحتج لها . والرسالتان وثيقتان طريفتان فى بيان مقالتى النجدات والأزارقة . ومر بنا كيف قاد الأزارقة مع قواد مصعب بن الزبير حرباً عنيفة على الرغم من قتل قائدهم نافع فى وقعة دولاب ، فقد ظلوا يحاربون قائده المهلب ، حتى إذا دخلت العراق فى طاعة عبد الملك مضوا فى ثورتهم ، وظلت الجيوش توجه إليهم ، يوجهها ولاة العراق وخاصة الحجاج ، وكان زعيمهم لعهده قطرى ابن الفجاءة ، ونرى الحجاج يراسله مهدداً متوعداً ، ويرد عليه قطرى بنفس الصورة من التهديد والتوعد ، ونحن نسوق رسالتين[2] لهما تصوران كيف كان يتراسل الولاة مع الثائرين من خوارج وغير خوارج ، أما رسالة الحجاج فتجرى على هذا النمط .

«سلام عليك . أما بعد فإنك مرقت من الدين مروق السهم من الرمية ، وقد علمت حيث تجرثمت ،[3] ذاك أنك عاص لله ولولاة أمره . غير أنك أعرابى

(١) المبرد ص ٦١١ وما بعدها .

(٢) البيان والتبيين ٢ / ٣١٠ وانظر المبرد ص ٢١٤ .

(٣) تجرثمت الشىء : أخذت معظمه .

جِلْفٌ(١) أمِيٌّ تَسْتطعم (٢) الكِسْرة وتَسْتَشْفِي (٣) بالتمرة ، والأمور عليك حَسْرة ، خرجتَ لتنال شُبْعة (٤) ، فلحق بك طَغَامٌ (٥) صَلُوا بما صَلِيت به من العيش فهم يهزّون الرماح ويَسْتَنشئون (٦) الرياح ، على خوف وجهد من أمورهم ، وما أصبحوا ينتظرون أعظم مما جهلوا معرفته ، ثم أهلكهم الله بِنَزْحَتين (٧). والسلام » .

وأجابه قطرى :

« سلام على الهُداة من الولاة الذين يَرْعَوْنَ حريم الله ويرهبون نِقَمه ، فالحمدُ لله على ما أظهر من دينه ، وأظْلَعَ به أهل السِّفال (٨) وهَدى به من الضلال ونَصَر به عند استخفافك بحقه . كتبتَ إليّ تذكر أنى أعرابيٌّ جِلْفٌ أميٌّ أستطعم الكِسْرة ، وأستشفى بالتمرة ، ولَعَمْرى يا ابنَ أمِّ الحجاج (٩) إنك لمتَيَّهٌ في جِبِلَّتك (١٠) ، مُطْلَخِمٌّ (١١) في طريقتك ، واهٍ في وثيقتك (١٢) ، لا تعرف الله ولا تَجْزَع من خطيئتك ، يئستَ واستيأست من ربك ، فالشيطانُ قَرينك ، لا تجاذبه وثاقك ، ولا تنازعه خناقك . فالحمد لله الذى لو شاء أبرز لى صَفْحتك ، وأوضحَ لى صَلْعتك (١٣) ، فوالذى نفسُ قطريٍّ بيده لعرفت أن مقارعة الأبطال ليس كتَصْدير (١٤) المقال ، مع أنى أرجو أن يَدْحَضَ الله حُجَّتك ، وأن يمنحنى مُهْجتك » .

وواضح أن كلا منهما يرمى صاحبه بالضلالة والغواية ، وقد عُنيا جميعاً بالتأنق فى أسلوبهما . ومن ثَمَّ زَيَّنا كلامهما بالسجع . وإذا تركنا الأزارقة إلى الصُّفرية وجدنا شبيباً يراسل صالح بن مسرِّح حاضًّا على الخروج (١٥). ولم تحتفظ المصادر برسائل للنجدات والإباضية .

---

(١) جلف : جاف .

(٢) تستطعم الناس : تسألهم أن يطعموك .

(٣) تستشفى : تطلب الشفاء .

(٤) الشبعة : ما يشبع من الطعام .

(٥) طغام الناس : أرذالهم .

(٦) يستنشئون الرياح : يتنسمونها ، كناية عن جوعهم .

(٧) يشير الحجاج إلى هزيمتين هزمهما الأزارقة أمام المهلب بن أبى صفرة .

(٨) أظلع : من الظلع وهو العرج . السفال : سفول الخلق .

(٩) يقولون ذلك إذا أرادوا الطعن فى النسب .

(١٠) متيه : مضلل . الجبلة : السجية .

(١١) مطلخم : متعجرف .

(١٢) الوثيقة : الثقة .

(١٣) كناية عن ذلته وانكشاف أمره .

(١٤) تصدير المقال : تسطيره وتحبيره .

(١٥) طبرى ٥ / ٥٢ .

ورسائلُ الشيعة فى هذا العصر كثيرة ، وأول حادث تكثر رسائلهم فيه استدعاء أهل الكوفة للحسين وما كان بينه وبينهم من مراسلات (١) تحضُّ على الثورة على بنى أمية لظلمهم الرعية واغتصابهم الخلافةَ من أصحابها الشرعيين. ونمضى بعد مقتله فتلقانا حركة التوّابين ، ويصوّر زعيمهم سليمان بن صُرَد فى مكاتبته لبعض أصحابه ندَمهم على خِذْلان الحسين ، وأنه ليس لهم من مخرج ولا توبة إلا بالثأر من قاتليه (٢) . وسرعان ما تنشب حركة المختار الثقفى لعهد ابن الزبير ، ويستولى على الكوفة ، ويُكثر من المكاتبة إلى شيعته وإلى ابن الحنفية ، ويكتب إلى بعض زعماء البصرة مهدداً متوعداً إن لم يتبعوه على شاكلة هذه الرسالة التى أرسل بها إلى الأحنف زعيم تميم ، وفيها يقول (٣) :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من المختار بن أبى عُبَيْد إلى الأحنف بن قيس ومَنْ قِبَله ، فسِلْمٌ أنتم ، أما بعد فويل امّ ربيعة من مضر (٤) ، فإن الأحنف موردٌ قومه سَقَر (٥) ، حيث لا يستطيع لهم الصَّدر (٦) ، وإنى لا أملك ما خُطَّ فى القدر ، وقد بلغنى أنكم تسمُّوننى كذاباً ، وإن كُذِّبتُ فقد كُذِّبَتْ رسلٌ من قبلى ، ولستُ بخير من كثير منهم » .

وفى الرسالة خصائصه التى مرت بنا فى خطابته ، إذ كان يُعْنَى باختيار ألفاظه والسجع فى كلامه ، وفيها إيهاماته وادعاءاته إذ يشير من طرف خفىّ إلى أنه يوحَى إليه . ومن ثم كان يستخدم السجع كثيراً فى خطابته وأحاديثه كما استخدمه فى الرسالة الآنفة (٧) .

وأُثرت عن ابن الزبير وولاته فى العراق رسائل كثيرة احتفظ بها الطبرى ، كما احتفظ برسالة كتب بها إليه المختار (٨) الثقفى . ونرى ولاته يكاتبون من يوجّهونهم إلى الخوارج (٩) . ونلتقى فى عصر الحجاج بثورة ابن الأشعث ومعروف أنه اتخذ كاتباً له أيوب بن القِرِّيَّة المشهور بسجعه .

---

(١) طبرى ٤/٢٥٧ وما بعدها .

(٢) طبرى ٤/٤٢٩ .

(٣) طبرى ٤/٥٣٩ .

(٤) يقولون ويل ام فلان إذا أرادوا التعجب منه. وكأن المختار يعلى من شأن قبائل ربيعة التى آزرته ، ويقول إنها ستنكل بتميم وغيرها من قبائل مضر .

(٥) سقر : جهنم .

(٦) الصدر : الرجوع .

(٧) المبرد ص ٥٩٦ وما بعدها .

(٨) طبرى ٤/٥٤١ .

(٩) طبرى ٤/٤٨١ وما بعدها .

وإذا كانت الكتابات السياسية قد كثرت فى البيئات المعارضة للدولة فإن الدولة نفسها كانت تستخدمها استخداماً أكثر وأغزر ، إذ كان الخلفاء يكتبون بالعهود إلى من يتولون الخلافة بعدهم[١]، سُنَّة وضعها أبو بكر وعمر وسار عليها خلفاء بنى أمية . وكذلك كانوا يكتبون بالعهود إلى من يولّونهم على الولايات[٢] . وكانت الكتب لا تزال ذاهبة آيبة بينهم وبين ولاتهم فى كل كبيرة وصغيرة . وكان قوّادهم كلما فتحوا بلداً واستجاب إليهم أهلها عقدوا معهم المعاهدات .

ولا نستطيع أن نعرض بالتفصيل لكل ما دار بينهم وبين ولاتهم وقوادهم من مراسلات يتّطفح بها الطبرى وغيره ، ويكفى أن نقول إنه ليس هناك حادث مهم ولا ثورة إلا والرسائل تتساقط كالغيث ، فزياد بن أبيه يكتب مراراً لمعاوية فى شأن حُجْر بن عدىّ وأصحابه من الشيعة[٣]، ويرد عليه . ويكتب يزيد إلى ولاته فى الحجاز بشأن عبد الله بن الزبير والحسين بن على[٤]، وتكثر الرسائل بينه وبين عبيد الله بن زياد فى وفود الحسين على العراق وما كان من مصرعه .[٥]

ولم تكثر الرسائل السياسية بين الخلفاء وولاتهم كما كثرت فى عهد عبد الملك وخاصة بينه وبين الحجاج لكثرة الفتن والثورات التى نشبت فى العراق وخراسان . وكان الحجاج نفسه يُكثر من الكتابة إلى قواده ، ويكثرون من الرد عليه ، وكان يكتب أحياناً إلى الثوار أنفسهم على شاكلة رسالته الآنفة التى أرسل بها إلى قطرى . ولابد أن نقف قليلا عنده إذ كان يُعْنَى بتحبير رسائله على نحو ما كان يعنى بتحبير خطبه . ونراه يكثر من مراسلة المهلب وحثّه على الفتك بالخوارج الأزارقة حتى لا تقوم لهم قائمة[٦]، كما يكثر من مراسلة قواده فى حروب الخوارج الشبيبية[٧] وفى فتنة ابن الأشعث[٨] وحروب خراسان[٩] . ورسائله مثل سياسته التى اشتهر بها تقطر شدة وحدّة ، حتى فى مخاطبته لبعض الأمراء ، فقد كتب إلى سليمان بن عبد الملك — وهو لا يزال وليا للعهد — من رسالة له : « إنما

---

(١) طبرى ٥/٣٠٧ .
(٢) الوزراء والكتاب ص ٣١ ، ٦٦ .
(٣) طبرى ٤/٢٠٢ وما بعدها .
(٤) طبرى ٤/٢٥٠ وما بعدها .
(٥) طبرى ٤/٢٦٥ وما بعدها والوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٣١ .
(٦) طبرى ٥/١٢٠ والمبرد ص ٦٦٧ وما بعدها .
(٧) طبرى ٥/٧٩ وما بعدها .
(٨) طبرى ٥/١٤٩ وما بعدها .
(٩) طبرى ٥/١٤٠ ، ١٤٦ .

أنت نقطة من مِداد ، فإن رأيت فىّ ما رأى أبوك وأخوك كنت لك كما كنت لهما ، وإلا فأنا الحجاج وأنت النقطة فإن شئت محوتك وإن شئت أثبتُّك[١] ، وكان الخلاف دبَّ بينهما ، ومن ثَمّ حاول كما قدمنا أن يصرف ولاية العهد عنه ، ولكن الموت عاجله وعاجل الوليد بن عبد الملك قبل تنفيذ هذه المحاولة . ومعروف أنه كان صنيعة عبد الملك ، فهو الذى أظهره ، وما زال يرفع من أمره حتى ولاّه العراق وخراسان ، وكان إذا كتب إليه تأنّق ما استطاع فى تعبيره ، ومن خير ما يصوّر ذلك رسالة احتفظ بها الجاحظ ، يصف فيها لعبد الملك خِصْباً بعد جَدْب ومطراً بعد قَحْط ، وهى تجرى على هذا النمط[٢] :

« أما بعد فإنا نُخبر أميرَ المؤمنين أنه لم يُصبْ أرضنا وابلٌ منذ كتبت أخبره عن سُقْيا الله إيانا إلا ما بَلّ وجه الأرض من الطَّشّ والرَّشّ والرَّذاذ[٣] ، حتى دَقِعَت[٤] الأرض واقشعرَّت[٥] واغبرَّت[٦] وثارت فى نواحيها أعاصير تَذْرو[٧] دُقاق الأرض من ترابها ، وأمسك الفلاّحون بأيديهم من شدة الأرض واعتزازها[٨] وامتناعها ، وأرضنا أرض سريعٌ تغيُّرها ، وشيكٌ تنكّرها ، سَيِّءٌ ظنُّ أهلها عند قحوط المطر ، حتى أرسل الله بالقَبول[٩] يوم الجمعة ، فأثارت زِبْرِجاً متقطعاً متمصِّراً[١٠] ، ثم أعقبته الشَّمال[١١] يوم السبت ، فطَحْطَحتْ[١٢] عنه جَهامه[١٣] وألّفت متقطّعه ، وجمعت متمصّره ، حتى انتضد فاستوى ، وطَما وطَحا[١٤] ، وكان[١٥] جَوْناً[١٦] مُرْثَعِنّاً[١٧] ، قريباً رواعده ، ثم عادت عوائده بوابلٍ منهمل

---

(١) البيان والتبيين ١/٢٩٧ .

(٢) البيان والتبيين ٤/٩٩ .

(٣) الطش والرش والرذاذ : المطر القليل .

(٤) دقعت : خلت من النبات .

(٥) اقشعرت : تقبضت من الجدب .

(٦) اغبرت : تربت من الغبار .

(٧) تذرو : تسفى وتحمل .

(٨) الاعتزاز : من العزاز ، وهى الأرض الصلبة .

(٩) القبول : الريح الشرقية .

(١٠) الزبرج : السحاب الرقيق ، والمتمصر : المتقطع .

(١١) الشمال : الريح الشمالية .

(١٢) طحطحت : بددت وفرقت .

(١٣) الجهام : السحاب لا ماء فيه .

(١٤) طما : امتلأ وزخر ، وطحا : انبسط وملأ الأفق .

(١٥) كان هنا بمعنى صار .

(١٦) الجون : الضارب إلى السواد

(١٧) مرثعنا : سائلا .

مُنْسجِل[١] ، يردف[٢] بعضه بعضاً ، كلما أردف شؤبوب أردفته شآبيب[٣] لشدة وقعه فى العِراض[٤] . وكتبتُ إلى أمير المؤمنين ، وهى ترمى بمثل قِطَعِ القُطْن ، قد ملأ اليَباب[٥] . وسدَّ الشِّعاب[٦] ، وسَقَى منها كلُّ ساق . فالحمدُ لله الذى أنزل غَيْثَه ونشر رحمته من بعد ما قَنطوا[٧] ، وهو الولىُّ الحميد، والسلام » .

ويتضح فى الرسالة ما اشتهر به الحجاج فى خطبه من تزيينها بالصور الدقيقة والألفاظ الغريبة. وكان غيره من الولاة والقواد لا يزالون يحتالون لكلامهم، وينمقونه صوراً مختلفة من التنميق ، وسنرى عما قليل طبقةً من الكتاب المحترفين تتوفر على إدراك هذه الغاية بكل وسيلة ، وهم كتَّاب الدواوين .

وأخذت تَشيع ، وخاصة منذ أواخر القرن ، كتابات وعظية كثيرة ، وقد اشتهر عمر بن عبد العزيز بأنه كان يكتب إلى الوعَّاظ أن يرسلوا إليه بعظاتهم ، ويُرْوَى أنه لما ولى الخلافة أرسل إلى الحسن البصرى أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل ، فدبَّج له رسالة طويلة استهلها بقوله[٨] .

واعلمْ يا أميرَ المؤمنين أن الله جعل الإمام العادلَ قِوامَ كل مائلة وقَصْدَ[٩] كل جائر ، وصلاحَ كل فاسد ، وقوةَ كل ضعيف ، ونصفَةَ[١٠] كل مظلوم ، ومفزعَ كل ملهوف . والإمامُ العدل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله ، الرفيقِ بها ، الذى يرتاد لها أطيبَ المراعى ، ويذودها عن مَرَاتع الهلكة ، ويحميها من السِّباع ، ويكفيها من أذى الحَرِّ والقُرِّ . [١١] والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحانى على ولده ، يسعى لهم صغاراً ويعلمهم كباراً ، يكتسب لهم فى حياته ، ويدَّخر لهم بعد مماته. والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرَّة بولدها ، حمَلته كرها ، ووضعته كرها ، وربته طفلا ، تَسْهر بسهره ،

---

(١) منسجل : منصب .
(٢) يردف : يتبع .
(٣) الشآبيب : جمع شؤبوب وهو الدفعة من المطر .
(٤) العراض : جمع عرض وهو الناحية .
(٥) اليباب : الموضع الخالى لا نبات فيه .
(٦) الشعاب : المسالك والسبل .
(٧) قنطوا : يئسوا .
(٨) العقد الفريد ١ / ٣٤ .
(٩) قصد : هداية .
(١٠) نصفة : من الإنصاف .
(١١) القر : البرد ، مثلث القاف .

وتسكن بسكونه، تُرْضعه تارة وتفطمه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتمّ بشكايته».

ومضى يذكر له حقوق الرعية عليه وحقوق الدين وما ينتظره من الموت والبعث والوقوف بين يدى الله وما ينبغى أن يتزوّد لذلك من التقوى والحكم الصالح. والحسن فى هذه الرسالة يستخدم نفس أسلوب خطابته الذى مرّ بنا وصفه، والذى يقوم على الازدواج وتزيين المعانى بالصور حتى تتمكن فى النفس، وكان يزيدها تمكيناً بمقابلاته وطباقاته الكثيرة. وكان يجاريه — كما قدمنا — فى هذا الأسلوب كثير من الوعاظ، وعلى رأسهم غَيْلان الدمشقى، ويُرْوَى أنه كتب إلى عمر بن عبد العزيز يعظه فى رسالة طويلة، منها قوله[1]:

«اعلم يا عمر أنك أدركت من الإسلام خَلَقاً بالياً، ورَسْماً عافياً، فيامَيِّتُ بين الأموات لا ترى أثراً فتتَّبع ولا تسمع صوتاً فتنتفع، طَفِئَ أمر السنة، وظهرت البدعة، أُخيف العالم فلا يتكلم، ولا يُعطى الجاهل فيسأل».

وقد أشاد الجاحظ ببلاغته[2]، مشيراً إلى أن أدباء العصر العباسى كانوا يتحفظون كلامه وكلام الحسن البصرى، حتى يبلغوا ما يريدون من المهارة البيانية[3]. وما نشك كما أسلفنا — فى أن بلغاء الكتّاب فى عصرهما كانوا يجارونهما فى أساليبهما هما وأضرابهما من الوعاظ، فنحن لا نقرأ فى سالم وعبد الحميد الكاتب حتى نجد عندهما نفس هذا الأسلوب الذى يتحلى بالطباق والتصوير والذى يقوم على التوازن فى الكلام توازناً ينتهى به إلى الازدواج، حتى يؤثّرا فى أنفس من يقرءونهما ويستوليا على ألبابهم.

وبجانب الكتابات الوعظية والسياسية شاعت فى هذا العصر الكتابات الشخصية، بحكم تباعد العرب فى مواطنهم، وبتأثير بعض الظروف من موت يقتضى التعزية أو ولاية تقتضى التهنئة، أو شفاعة عند وال لقريب أو صديق، أو عتاب أو اعتذار. وطبيعى أن لا يُعْنى أصحاب هذه الكتابات بتسجيلها، لأنها لم تكن تتصل بحياة الأمة، ومن ثم سقط جمهورها من يد الزمن إلا بقية قليلة، فمن ذلك رسالة عقال بن شَبَّة إلى خالد القسرى فى شفاعة تجرى على هذه الصورة[4]:

(١) المنية والأمل لابن المرتضى ص ١٦.

(٢) البيان والتبيين ٣/٢٩.

(٣) نفس المصدر ١/٢٩٥.

(٤) جمهرة رسائل العرب لأحمد زكى صفوت ٢/٤١٦.

« إن الله انتجبك(١) من جوهرة كرم ، ومنبت شرف ، وقسم لك خطراً(٢) شهرته العرب ، وتحدثت به الحاضرة والبادية ، وأعان خطرك بقدرة مقسومة ، ومنزلة ملحوظة ، فجميعُ أكفائك من جماهير العرب يعرف فضلك ، ويسره ما خار (٣) الله لك ، وليس كلهم أداله(٤) الزمان ولاساعده الحظ . وأحق مَن تعطّف على أهل البيوتات ، وعاد لهم بما يبقى له ذكره ، ويحسن به نشره ، مثلُك . وقد وجّهتُ إليك فلانا ، وهو من دنية(٥) قرابتي ، وذوى الهيئة من أسرتي ، عرفَ معروفك ، وأحببت أن تُلْبِسَه نعمتك ، وتصرفه إلىّ ، وقد أودعتنى وإياه ما تجده باقياً على النّشر ، جميلا فى الغِبّ »(٦) .

وتدل هذه الرسالة دلالة واضحة على أن كتّاب الرسائل الشخصية أو على الأقل طائفة منهم كانت تُعْنَى عناية شديدة باختيار ألفاظها وتنسيقها ، متوسلة إلى ذلك بكل ما تستطيع من انتخاب الألفاظ الرشيقة وإحداث التوازن الموسيقى فى الكلام ، مع دقة التعبير وتجليته عن المعنى ، والفقه الحسن بمداخل التأثير فى نفس القارئ وما ينبغى أن يسلك إليه الكاتب من طرق كى يستولى على عقله ، فيقضى له حاجته . وممن اشتهر فى هذا اللون من الرسائل الشخصية عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر الذى قُتل بخراسان بأخرة من هذا العصر ، فقد كان لَسِناً بليغاً ، يعرف كيف يحوك الكلم ويصوغه صياغة باهرة على نحو ما نجد فى هذه الرسالة التى كتب بها إلى بعض إخوانه معاتباً ، إذ يقول(٧) :

« أما بعد فقد عاقنى الشكُّ فى أمرك عن عزيمة الرأى فيك ، ابتدأتنى بلطف عن غير خبرة ، ثم أعقبتنى جفاء عن غير ذنب ، فأطمعنى أولك فى إخائك ، وأيأسنى آخرك من وفائك ، فلا أنا فى اليوم مجمعٌ لك اطّراحاً ، ولا أنا فى غد وانتظاره منك على ثقة ، فسبحان مَن لو شاء كشف بإيضاح الرأى فى أمرك عن عزيمة فيك ، فأقمنا على ائتلاف ، أو افترقنا على اختلاف ، والسلام » .

(١) انتجبك : اختارك .
(٢) خطرا : قدرا .
(٣) خار الله لك : جعل لك فيه الخير .
(٤) أداله : نصره وأعانه .
(٥) دنية : لاصق .
(٦) الغب : العاقبة .
(٧) البيان والتبيين ٢/٨٤

وكل كلمة من هذه الرسالة تنبئ عن دقة الكاتب وحذقه ، وأنه يعرف كيف يتخيّر ألفاظه وكيف يصوغها وكأنها عقود جميلة تتألف من جواهر أنيقة . وهو لا يقتدر على اللفظ فحسب ، بل هو أيضاً يقتدر على جَلْب المعانى الطريفة ، التى تروع بما فيها من منطق عقلى دقيق ، وهو يعرضها فى أسلوب من الازدواج الرشيق تزينه الاستعارات والطباقات.

وعلى هذا النحو أخذت الكتابة تترّقى لا فى الرسائل الشخصية فحسب ، فقد رأينا كتّاب العظات والسياسة يحقّقون نفس الرقى ، وحرى بنا الآن أن نتحول إلى كتّاب الدواوين ، لنرى ما أصاب الكتابة على أيديهم من تجويد وتحْبير .

٣

كتّاب الدواوين

معروف أن عمر أول من دوّن الدواوين فى الإسلام ، وتؤكد الروايات التى رافقت صنيعه بأنه استعار هذا النظام من الفرس الأعاجم[١] ، إذ أحس حاجته إلى سجلات يدوّن فيها الناس وأعطياتهم وأموال الفىْ والغنائم ، وبذلك وضع أساس ديوانى الخراج والجند ، حتى إذا وَلِىَ معاوية الخلافة وجدناه يتخذ ديوانين هما ديوان الرسائل، وديوان الخاتم[٢] ، وفيه كانت تُختم الرسائل الصادرة عنه ، حتى لا يغيّر فيها من يحملونها إلى الولاة . وظل ديوان الخراج يُكْتَبُ فى الشام ومصر بالرومية وفى العراق بالفارسية إلى عصر عبدالملك ابن مروان، إذ نراه يطلب إلى سليمان بن سعد الخُشَنى كاتبه على ديوان الرسائل أن يترجم ديوان الشام الرومى[٣] ، وفى الوقت نفسه يطلب الحجاج إلى صالح ابن عبد الرحمن كاتبه هو الآخر على ديوان الرسائل أن يترجم ديوان العراق

(١) الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ١٦ .
(٢) نفس المصدر ص ٢٤ .
(٣) نفس المصدر ص ٤٠ .

الفارسى [١] ، ويظهر أن ديوان مصر تحول سريعاً إلى العربية ، أما ديوان خراسان فتأخر نقله إلى عصر [٢] هشام بن عبد الملك .

وليس معنى ذلك أن الأجانب خرجوا من الدواوين منذ عصر عبد الملك ، فقد أخذوا يحسنون العربية ويشاركون فيها ، وكانت هذه المشاركة منذ أول الأمر داعية لأن يطلب العرب معرفة ما يتصل بهذه الدواوين من نُظم ، وما تواصى به أهلها وخاصة من الفرس فى إتقان العمل بها ، ولعل ذلك ما جعل الجهشيارى يقدم لكتابه « الوزراء والكتاب » بمقدمة طويلة عن نظم الدواوين الفارسية .

ونحن فى الواقع إنما يهمنا ديوان الرسائل ، لأن أصحابه هم الذين كانوا يدبِّجون الكتب على ألسنة الخلفاء والولاة ، وبحكم وظيفتهم كانوا يُختارون من أرباب الكلام وأصحاب اللَّسَنِ والبيان ، وكان كل منهم يحاول أن يُظهر براعته ومهارته وحذقه فى تصريف الألفاظ وصياغة المعانى ، حتى يروق من يكتب على لسانه ، وينال رضاه واستحسانه .

وعلى هذا النحو تكونت طبقة كبيرة من كتَّاب محترفين ، تتابعت أجيالهم على مَرِّ الزمن فى هذا العصر ، وكلُّ جيل سابق يُسْلِم إلى خَلَفه صناعته ، وكل جيل لاحق يحاول أن يضيف إلى براعة سلفه براعةً جديدة . وكانوا كثيرين ، إذ لم تختص بهم دمشق ، فقد كان لكل والٍ وقائد كاتب ، وأحياناً كان يتخذ الوالى فى العمل الكبير أو الولاية الكبيرة طائفة من الكتاب . وكثيراً ما كان يطمح كتَّاب الولايات إلى أن يَلْفتوا ببلاغتهم مَنْ يكتبون إليهم من الخلفاء ، حتى يعيِّنوهم فى دواوينهم . واشتهر الحجاج بأنه كان كثير التعهد لرسائل قواده ، حتى إذا لفتته رسالة ببلاغتها سأل عن كاتبها وطلب مثوله بين يديه [٣] ، وكان إذا أعجبه كاتب وملأ نفسه ربما أرسل به إلى عبد الملك ابن مروان ليسلكه بين كتَّابه ، على نحو ما صنع بمحمد [٤] بن يزيد الأنصارى .

ولم يعْرِض علينا الجَهْشيارى آثار هؤلاء الكتاب إلا قليلا ، فقد اكتفى بعرض أسمائهم موزَّعاً لهم على عهود الخلفاء ، وفى عهد كل خليفة يَسْرُدُ أسماء

(١) الجهشيارى ص ٣٨

(٢) الجهشيارى ص ٦٧ .

(٣) البيان والتبيين ١/٢٨٧ والطبرى ٥/١٨٧ والمبرد ص ١٥٨ .

(٤) طبرى ٥/٢٠٨ .

كتّاب الولاة . وإذا رجعنا فيه إلى أيام معاوية وجدناه يذكر بين كتّابه عمرو بن سعيد بن العاص الملقب بالأشدق لفصاحته وروعة منطقه وجهارة صوته ، وكان خطيباً لا يبارَى[1]. ولم يُؤْثَرْ عنه شيء من الرسائل فى عهد معاوية ، وقد روى له الجاحظ رسالة فى عهد عبد الملك حين خرج عليه ، إذ كتب إليه عبد الملك يتوعده ، فأجابه عمرو[2] :

« أما بعد فإن استدراج النِّعَم إياك أفادك البَغْى ، ورائحة القدرة أورثتْك الغفلة . زجرتَ عما واقعتَ مثله ، وندبتَ إلى ما تركتَ سبيله ، ولو كان ضعفُ الأسباب يُؤيِس الطلابَ ما انتقل سلطان ولا ذلّ عزيز . وعمَّا قليلٍ تتبيَّن مَنْ أسيرُ الغفلة ، وصريعُ الخُدع ، والرَّحِم تعطف على الإبقاء عليك ، مع دفعك ما غيرُك أقوَمُ به منك والسلام » .

والرسالة على قصرها تصور مهارته البيانية وقدرته على التعبير الموجز السريع مع طلاوة اللفظ وحسن الديباجة . وكان يتولّى ديوان الرسائل لمعاوية وابنه يزيد عبيد[3] الله بن أوس الغَسَّانى ، وروى له الجهشيارى رسالة على لسان يزيد إلى عبيد الله بن زياد ليتخذ العُدَّة فى مقاومة الحسين بن على حين نزوله العراق وهى تمضى على هذا النحو[4] :

« أما بعد فإن الممدوح مسبوبٌ يوماً ما ، وإن المسبوب ممدوح يوماً ما وقد انتميتَ إلى مَنْصِبٍ كما قال الأول :

رُفعتَ فجاورتَ السحابَ وفوقه فما لك إلا مَرْقَبَ الشمس مرقبُ

وقد ابتُلِى بحسين زمانُك دون الأزمان ، وبلدك دون البلدان ، ونُكبتَ به من بين العُمَّال ، فإما تُعْتَقُ أو تعود عبداً ، كما يُعْبَّد العَبْد ، والسلام » .

والرسالة قصيرة ، ويظهر أنهم كانوا يستحبون القصر فى الرسائل الديوانية حتى هذا العهد . وكان أول من أطال فيها كاتب لعبيد الله بن زياد يسمى عمرو[5] بن نافع ، ولا شك فى أن هذا الطول رمز لما كان يأخذ به الكتاب أنفسهم فى هذا التاريخ من التفنن فى القول ، وهو تفنن كان يفتقر إلى ترتيب

(١) انظر البيان والتبيين ١/٣١٥ وراجع فهرسه .
(٢) البيان والتبيين ٤/٨٧ .
(٣) الجهشيارى ص ٢٤ ، ٣١ .
(٤) الجهشيارى ص ٣١ .
(٥) طبرى ٤/٢٨٥ .

ورياضة فى نَسق الكلام وضبط أساليبه، حتى يخلبوا ألباب من يقرءونهم .

ونمضى إلى عصر عبد الملك بن مروان ، فنجد بين كتّابه رَوْح بن زِنْباع الجُذامى ، وقد وصفه عبد الملك بأنه فارسى [١] الكتابة ،وليس بين أيدينا رسائل مأثورة له ، وروى له الجهشيارى وغيره كلمة قالها لمعاوية وقد غضب عليه يوماً لأمر كان منه ، وهمّ به ، فقال له[٢] :

« لاتُشْمِتَنّ بى عدوًّا أنت وقَمَتَه[٣]، ولاتسوءنّ بى صديقاً أنت سَرَرته، ولا تهدمنّ منى ركنا أنت بَنَيْتَه، هلا أتى حلمك وإحسانك على جهلى وإساءتى؟». فعفا معاوية عنه .

ورأسُ كُتّاب عبد الملك وأبنائه من بعده سليمان بن سعد الخُشَنىّ كاتب رسائله الذى حوّل الدواوين من الرومية إلى العربية، ولم تنصّ المصادر القديمة على ما كتبَ به بين يدى الخلفاء . ومما لا ريب فيه أنه كان من أرباب البلاغة والبيان ، وفى الجَهْشيارى أنه خلا بيزيد بن عبد الله كاتب يزيد بن عبد الملك قبل تولّيه الخلافة وكان يزيد حين ولى أزمة الأمور استدعى أسامة بن زيد والى الخراج على مصر، فقال سليمان لابن عبد الله [٤]: « لِمَ بعثَ أمير المؤمنين إلى أسامة بن زيد؟ فقال : لا أدرى ، قال : أفتدرى ما مَثَلك ومَثَل أسامة؟ قال : لا . قال : مثلك ومثله مثل حيّة كانت فى ماء وطين وبَرْد ، فإن رفعتْ رأسها وقع عليها حافرُ دابّة ،وإن بقيتْ ماتت بَرْداً ، فمرّ بها رجل، فقالت : أدخلْنى فى كمّك حتى أدفأ ثم أخرج ، فأدخلها ، فلما دفئت قال لها : اخرجى ، فقالت : إنى ما دخلت فى هذا المدخل قط فخرجت حتى أنقُرَ نقرةً ، إما أن تسلم منها ، وإما أن تموت ،ووالله لئن دخل أسامة ليَنْقُرَنَّك نقرةً إما أن تَسْلم معها وإما أن تموت » .

والكلمة تدل دلالة بينة على دقة مداخله ومسالكه إلى الإقناع ، وإن فى نقله الدواوينَ ما يدل على سعة ثقافته وهى سعة كانت تقترن بعذوبة المنطق وتزيينه بالألفاظ المستحسنة السائغة على نحو ما توضحه كلمته .

---

(١) الجهشيارى ص ٣٥ .

(٢) البيان والتبيين ١/٣٥٨ والجهشيارى ص ٣٥ والأمالى ٢/٢٥٩ .

(٣) وقمه : قهره وأذله .

(٤) الجهشيارى ص ٥٦ .

وإذا ولّينا وجوهنا نحو العراق والشرق رأينا الكتّاب يُعنون برسائلهم عناية لا تقل عن عناية كتاب دمشق ، ومما يؤثر من هذه العناية أن نجد عبد الرحمن ابن الأشعث يقول لابن القِرِّيَّة كاتبه حين ثار على الحجّاج : « إنى أريد أن أكتب إلى الحجاج كتاباً مسجّعاً أعرّفه فيه سوء فعاله وأبصّره قبح سريرته » وينْفذ ابن القرية مشيئته ، ويردّ عليه الحجاج برسالة مسجوعة[1] ولا تهمنا الرسالتان بقدر ما تهمنا رغبة ابن الأشعث فى أن تكون الرسالة مسجوعة ، وكأنما يريد أن يضيف إلى حجته فى الثورة حجة فنية من بلاغة كاتبه .

وفى ذلك ما يدل دلالة صريحة على أن الكتابة السياسية أصبحت تقترن بها غايات بلاغية ، وكلّ كاتب يأتى من هذه الغايات بما يتفق وذوقه . ومن طريف ما يُرْوَى فى هذا الصدد أن يحيى بن يَعْمر — أحد علماء اللغة الأوائل — كان يكتب ليزيد بن المهلب فى ولايته على خراسان للحجّاج ، ولما انتصر يزيد على ملك الترك فى « باذغيس » انتصاراً حاسماً أمره أن يكتب إلى الحجاج بالفتح فكتب[2] :

« إنا لقينا العدوّ ، فمنَحنا الله أكتافهم ، فقتلنا طائفة ، وأسرنا طائفة ، ولحقت طائفة بعَرائر[3] الأودية وأهْضام[4] الغِيطان ، وبتنا بعُرْعُرَةِ[5] الجبل وبات العدو بحَضيضه[6] » .

وواضح أن ذوق يحيى بن يعمر اللغوى أدّاه إلى أن يسوق رسالته فى هذه الألفاظ الغريبة ، وشجّعه على ذلك أنه كان يعرف ذوق الحجاج واستحسانه لأوابد الألفاظ ، على نحو ما قدّمنا فى غير هذا الموضع . وفعلا راعت الرسالةُ الحجّاج ، فقد روى الرواة أنه حين قرأها قال : ما يزيد بأبى عُذْرة هذا الكلام . فقيل له : إن معه يحيى بن يعمر ، فكتب إلى يزيد أن يُشْخصه إليه ، فلما أتاه سأله عن مولده فقال له : الأهواز ، فسأله : أنّى لك هذه الفصاحة ؟ قال : أخذتها عن أبى[7] .

---

(١) الأخبار الطوال للدينورى (طبع ليدن) ص ٣٢٣ .

(٢) البيان والتبيين ١/٣٧٧ والمبرد ص ١٥٨ والطبرى ٥/١٨٧ .

(٣) عرائر الأودية : أسافلها .

(٤) أهضام الغيطان : مداخلها . والغيطان : جمع غائط وهو المستوى من الأرض .

(٥) عرعرة الجبل : أعلاه .

(٦) الحضيض : القرار من الأرض عند منقطع الجبل .

(٧) البيان والتبيين ١/٣٧٨ .

وعلى هذا النحو كان كتّاب الولاة والقواد فى الشرق يحبّرون رسائلهم، كل حسب فصاحته وذوقه وقدرته البيانية . وكان ديوانُ الحجاج نفسه أشبه بمدرسة كبيرة يتخرَّج فيها الكتّاب على يد رئيسه صالح بن عبد الرحمن الذى نَقل الدواوين من الفارسية إلى العربية ، يقول الجهْشيارى : « كان عامة كتّاب العراق تلامذة صالح ، فمنهم المغيرة بن أبى قُرَّة كتب ليزيد بن المهلب (فى ولايته لسليمان بن عبد الملك) ومنهم قَحْذَم بن أبى سُليم وشيبة بن أيمن كاتبا يوسف بن عمر ، ومنهم المغيرة وسعيد ابنا عطية ، وكان سعيد يكتب لعمر بن هبيرة ، ومنهم مرْوان بن إياس كتب لخالد القسرى ، وغيرهم »[١] .

وتلقانا نصوص تدل على أنهم كانوا يُعْنَوْن بالطّوامير والقراطيس[٢] التى كانوا يكتبون فيها ، كما كانوا يعنون بنفس كتابتهم وخطوطهم ، وفى الجهْشيارى أن الوليد أول من كتب من الخلفاء فى الطوامير وأنه أمر بأن تعظَّم كتبه ويجلَّل[٣] الخط الذى يُكتَبُ به ، وكان يقول : تكون كتبى والكتب إلىَّ خلافَ كتبِ الناس بعضهم إلى بعض[٤] . ويظهر أن الكتاب غالوا فى النفقة على كتبهم ، حتى لنرى عمر بن عبد العزيز يأمر بالاقتصاد فى القراطيس ، طالباً من الكتّاب أن يوجزوا[٥] ، وكأنما أصبح الإطناب ظاهرة عامة.

ونحن لا نصل إلى ديوان هشام بن عبد الملك (١٠٥ — ١٢٤) حتى نحس أنه كان مدرسة كبيرة ، وهى مدرسة رَقِىَ فيها النثر الفنى لهذا العصر إلى أبعد غاية كانت تنتظره ، إذ كان يتولّى ديوان الرسائل سالم مولى هشام ، وأخذ يخرّج غير كاتب ، وقد اشتهر له تلميذان أحدهما من بيْته هو ابنه عبد الله والثانى من غير بيته ، هو صهره وختَنه عبد الحميد .

وكان سالم يجيد اليونانية ، وقد نقل عنها — كما مر بنا — بعض رسائل لأرسطاليس ، ونرى صاحب الفهرست يجعله أحد البلغاء العشرة الأول[٦] ، ويقول عنه إن له رسائل تبلغ نحو مائة ورقة[٧] . ومن يرجع إلى الجهشيارى

(١) الجهشيارى ص ٣٩ .
(٢) الطوامير والقراطيس : الصحف الكبيرة .
(٣) يجلل : يعظم .
(٤) الجهشيارى ص ٤٧ .
(٥) الجهشيارى ص ٥٣ .
(٦) الفهرست ص ١٨٢ .
(٧) الفهرست ص ١٧١ .

يجعله ينص على أن هشاماً كان يأمره بالكتابة عنه إلى ولاته فى الشئون التى تعرض له [١] .

فالخليفة لم يعد يُملى كتبه على كتّابه كما كان الشأن فى القديم ، بل أصبح الكاتب يكتب الرسالة ، ثم يعرضها عليه ، ومن ثَمّ لم يعد الضمير فى الرسالة ضمير متكلم ، بل أصبح ضمير غائب ، فالكاتب يقول فى مستهل رسالته : « بلغ أمير المؤمنين كتابك » ونحو ذلك . ومن هنا كنا نزعم أن كتب هشام بصفة عامة لم يكتبها هو وإنما كتبها سالم وتلميذاه عبد الله وعبد الحميد . وقد يُنَصّ على التلميذين ، أما سالم فقلما نصّت المصادر على اسمه . وتحوّل عبد الحميد من ديوان هشام إلى ديوان مروان بن محمد عامله على أرمينية.

ولعل من الطريف أن الرسائل التى صدرت عن ديوان هشام تُطْبَعُ بطوابع أسلوبية واحدة ، إذ تَجْرى فى أسلوب من الازدواج ومن اللغة الجزلة الرصينة ، على شاكلة القطعة التالية من رسالة على لسان هشام إلى يوسف بن عمر وقد استخفّ ببعض أهله [٢]

« حلت هضبة أصبحت تنحو [٣] بها عليهم مفتخراً، هنا إن لم يُدَهْدِه [٤] بك قلة شكرك متحطّماً وَقيذاً [٥]، فهلا — يا بن مجرُشة [٦] قومك — أعظمتَ رَجلهم عليك داخلا ، ووسّعت مجلسه إذ رأيته إليك مقبلا ، وتجافيت له عن صدر فراشك مكرماً ، ثم فاوضتَه [٧] مقبلا عليه ببِشْرك إكراماً لأمير المؤمنين» .

والرسالة طويلة ، وهى كلها من هذا النسيج الأنيق الذى يزَينه الازدواج والصور البيانية ، وقد أُثرتْ لسالم رسالة يشكر بها بعض إخوانه على صنيع قدّمه إليه ، وهى على هذا النمط [٨] .

« أما بعد فقد أصبحت عظيم الشكر لما سلف إلىّ منك، جسيمَ الرجاء فيما بقى لى عندك . قد جعل الله مستقبل رجائى منك عوناً لى على شكرك ، وجعل

---

(١) الجهشيارى ص ٦٢ .

(٢) طبرى ٥/٦٨، وما بعدها .

(٣) تنحو : تشرف وتطل .

(٤) يدهده : يسقط .

(٥) وقيذا : صريعاً .

(٦) المجرشة : الماشطة .

(٧) فاوضته : حدثته .

(٨) انظر جمهرة رسائل العرب لأحمد زكى صفوت ٢/٤٣١ .

ما سلف إلىّ منك عوناً على مؤتنف الرجاء فيك ».

وفى الرسالة ما يصوّر دقة تفكيره ولطف مداخله إلى ما يريد من إخوانه ، فهو يشكر ويرجو ، ويجعل ما سلف آية على تحقيق رجائه . واحتفظ المبرد فى كامله برسالة لابنه عبد الله كتب بها على لسان هشام سنة تسع عشرة ومائة إلى خالد القسرى حين أخذ ابن حسان النبطى وكيل هشام على ضياعه بالعراق فضربه بالسياط . وهو يفتتحها بقوله [١] :

« بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فقد بلغ أميرَ المؤمنين عنك أمرٌ لم يحتمله لك إلا لما أحبَّ من ربِّ [٢] الصنيعة قبلك واستتمام معروفه عندك. وكان أمير المؤمنين أحقّ من استصلح ما فسد عليه منك ، فإن تَعُدْ لمثل مقالتك وما بلغ أمير المؤمنين عنك رأى فى معاجلتك بالعقوبة رأيه . إن النعمة إذا طالت بالعبد ممتدّة أبطرته ، فأساء حمل الكرامة ، واستقلّ العافية ، ونسب ما فى يديه إلى حيلته وحسبه وبيته ورهطه وعشيرته ، فإذا نزلت به الغِيَر [٣] ، وانكشطت [٤] عنه عماية الغىّ والسلطان ، ذلّ منقاداً ، وندم حسيراً ، وتمكن من عدوه قادراً عليه قاهراً له . . . » .

وأطنبَ عبد الله فى الرسالة مبيناً لخالد ما بلغ هشاماً من فلتات لسانه ، ومصغراً لأمره بالقياس إلى سلفه الحجاج وقضائه على الفتن والثورات ، وكيف أن هشاماً أعلى من شأنه بتوليته على العراق مع وجود من يَعْلوه ويَغْمره . ويمضى يعدد عليه أخطاءه فى سياسته وكيف أنه يستعين بالمجوس فى أعماله ، وكيف ضيّع أموالا كثيرة ، هى أموال المسلمين ، فى حَفْر نهر المبارك ، وكيف يبتزّ أموال رعاياه باسم هدايا النَّيْروز والمِهْرجان وينحى عليه باللائمة فيما صنع بابن حسان ، ويسجّل عليه نقص الخراج وأنه ولّى أسداً أخاه خراسان ، مظهراً بها العصبية اليمنية متحاملا على المضرية . وهو فى ثنايا ذلك يتهدده برواجع بغيه وأنه إن لم يكف عن غيّه فقِبَل أمير المؤمنين كثيرون خير منه عاقبةً وعملا. وطالت الرسالة ، حتى لكأنها تاريخ مختصر لخالد القسرى وولايته الطويلة

---

(١) المبرد ص ٧٩٠ وما بعدها .

(٢) رب الصنيعة : إتمامها وتنميتها .

(٣) الغير : حوادث الدهر .

(٤) انكشطت : انكشفت .

على العراق . وهى جميعها مكتوبة بهذا الأسلوب الذى رأيناه فى فاتحتها ، والذى ثبّته سالم فى دواوين هشام ، وقد انتهى هذا الأسلوب عند تلميذه عبد الحميد إلى الغاية المرتقبة .

عبد الحميد [1] الكاتب

اسم أبيه يحيى بن سعيد ، من موالى بنى عامر بن لؤى ، وهو فارسى الأصل . ويقول أكثر مَنْ ترجموا له إنه من أهل الأنبار بالعراق[2] وسكن الرَّقَّة . وكان فى أول أمره يتنقل فى القُرى معلماً فى كتاتيبها ، وعرف فى نفسه فصاحة ومهارة بيانية ، فالتحق بديوان هشام بن عبدالملك ، وأُعْجب به سالم فأصهر إليه ، وما زال به حتى خرَّجه كاتباً لايبارَى . وعرفه مروان ابن محمد ، وكان عاملا لهشام ، كما مرَّ بنا ، على أرمينية ، فاتخذه كاتباً له . ولعلنا لا نخطئْ فى الحكم إذا قلنا إن ما أثبته الطبرى من رسائل لمروان فى ولايته إلى هشام ومن تلاه من الخلفاء وإلى أبناء عمومته إنما كان بقلم عبد الحميد . ويتولَّى مروان الخلافة(١٢٧ ـ ١٣٢ هـ) فيصبح عبد الحميد رئيس ديوانه ، وتتوالى رسائله الرائعة ،وعبثاً حاول أن يلم الشَّعَثَ حين انفضَّت جيوش أبى مسلم من خراسان ، حتى إذا هُزم مروان فى موقعة الزَّاب ولَّى وجهه معه إلى مصر حيث قُتلا معاً فى معركة بوصير .

وهكذا كان وفيًّا لمروان حتى الأنفاس الأخيرة من حياته . وزعم بعض الرواة أنه فرَّ بعد موقعة الزاب على وجهه ، واختفى مدة ، ثم وقف عليه السفاح فأحضره وعذبه ، حتى مات . وزعم آخرون أنه اختفى عند ابن المقفع قبل عثور السفاح عليه . وهى مزاعم لا تؤيدها الروايات الوثيقة ، ولعل مما يدل

---

(١) انظر فى عبد الحميد الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٧٢وما بعدها ووفيات الأعيان لابن خلكان (طبعة المطبعة الميمنية)١/٣٠٧ والفهرست ص ١٧٠ والمسالك والممالك للإصطخرى (طبع ليدن) ص ١٤٥ والبيان والتبيين ١/٢٠٨ ، ٢٥١ ، ٢٩/٣ وعيون الأخبار ١/٢٦ والصناعتين للعسكرى (طبعة الحلبى) ص ٦٩ وصبح الأعشى ١/٨٥ ، ١٩٥/١٠ واليتيمة للثعالبى (طبعة الصاوى) ١٣٧/٣ والجزء الثانى من جمهرة رسائل العرب لأحمد زكى صفوت ومن حديث الشعر والنثر لطه حسين ص ٤٠ وما بعدها

(٢) انظر الفهرست ص ١٧٠ حيث يقول إنه من أهل الشام .

على أنه قُتل فى مصر أننا نجد بها أبناءه وأحفاده ، وقد استخدمهم بعض الولاة فى دواوينهم [١] .

وعبدُ الحميد بدون ريب أبلغ كتّاب هذا العصر وأبرعهم ، وقد سماه الجاحظ فى بيانه عبد الحميد الأكبر ، ونَصَح الكتاب أن يتخذوا كتابته نموذجاً لهم [٢] ، وظلت شهرته مدوية على القرون حتى قيل : « فُتحت الرسائل بعبد الحميد وخُتمت بابن العميد » وفيه يقول ابن النديم : « عنه أخذ المترسّلون ولطريقته لزموا ، وهو الذى سَهَّل سبيل البلاغة فى الترسل » . وقد أجمع كثيرون على أنه أولُ من استخدم التحميدات فى فصول الكتب ، وكأنه تأثر فى ذلك بتحميدات واصل وغيره من الوعّاظ ، وقد احتفظ كتاب المنظوم والمنثور لابن طيفور بطائفة منها لا تقل كمّاً ولا كيفاً عن تحميد واصل الذى مرّ بنا فى أول خطبته المنزوعة الراء. ولا تلفتنا عند عبد الحميد براعته الأدبية فى صنع رسائله فحسب ، وإنما يلفتنا أيضاً أنه تحول بطائفة منها إلى رسائل أدبية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، محاكياً فى ذلك ما كان يعرفه من رسائل الفرس الأدبية التى أُثرت عن الساسانيين والتى يُقال إنه كان أحدَ نَقَلَتها إلى العربية [٣] . وليس معنى ذلك أنه وقف عند النقل والترجمة ، فقد مضى يحاكى هذه الرسائل لا محاكاة طبق الأصل وإنما هذه المحاكاة التى تنتهى إلى التمثل وصُنع الأعمال الأدبية المبتكرة ، من ذلك رسالته إلى الكتّاب [٤] وهى رسالة عامة ليست موجّهة إلى شخص معين أو كاتب بعينه ، إنما هى موجهة إلى هذه الطائفة التى أصبح لها كيان واضح فى حياة الدولة ، وقد وصف فيها عبد الحميد صناعة الكتابة وأهمية الكتّاب فى تدبير الحكم وما ينبغى أن يتحلوا به من آداب ثقافية وأخرى خلقية وسياسية تتصل بالخلفاء والولاة والرعية. ونحن لا نَقْرَنها إلى ما استهلّ به الجهشيارى كتابه « الوزراء والكتاب » من وصايا كان يوصى بها ملوك الفرس ووزراؤهم الكتّاب حتى نحس أن عبد الحميد تأثر هذه الوصايا فى رسالته التى تُعَدُّ دستوراً دقيقاً لوظيفة الكاتب وما عليه من حقوق للخلفاء والولاة وحقوق للرعية فى سياستها

---

(١) الجهشيارى ص ٨٢ .

(٢) رسائل الجاحظ نشر فنكل ص ٤٢ .

(٣) الصناعتين ص ٦٩ والبيان والتبيين ٣/٢٩ .

(٤) الجهشيارى ص ٧٣ وصبح الأعشى ١/٨٥ .

وضبط شئونها فى الخراج وغير الخراج ، ونراه يرسم فيها ما ينبغى أن يحسنه الكتّاب من ضروب العلم والثقافة ، يقول :

« فنافسوا ، معشرَ الكتاب ، فى صنوف العلم والأدب ، وتفقّهوا فى الدين ، وابدءوا بِعلْم كتاب الله عزّ وجل ، والفَرائض ، ثم العربية ، فإنها ثِقافُ ألسنتكم ، وأجيدوا الخطّ فإنه حِلْيَةُ كُتبكم ، وارووا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيَها ، وأيامَ العربِ والعجم ، وأحاديثها وسِيَرها ، فإن ذلك مُعين لكم على ما تَسْمون إليه بهممكم . ولا يضعفن نظركم فى الحساب ، فإنه قِوام كتّاب الخراج منكم » .

فهو يطلب إليهم أن يتجمّلوا بحُلى العلم والأدب ، ويصرّح بأن عليهم أن يوسّعوا ثقافتهم فى الدين والفرائض حتى يقفوا على أحكام الشريعة فيما يتصل بمعاملة أهل الذمة ومعاملة المسلمين أنفسهم فى شئون الخراج . وقد طلب أن يضيفوا إلى ذلك إتقاناً لعلم الحساب ، وعيّن لهم الينابيع التى تعينهم على إحسان التعبير عما فى أنفسهم وعلى رأسها القرآن الكريم ثم الأشعار ليعرفوا غريبها ومعانيها . ومضى فطلب إليهم أن يتثقفوا بتاريخ العرب ، وتاريخ العجم وأحاديث ملوكها وسيرها ، لينتفعوا بذلك فى كتاباتهم السياسية . ونراه فى تضاعيف رسالته يطلب إلى الكتّاب أن يؤلفوا بينهم ما يشبه النقابة فى عصرنا ، فقد حضّهم على الأخذ بيد من ينبو به الزمان منهم ومساعدته ، حتى يعود إلى ما كان عليه من الرّفه فى العيش .

ولعبد الحميد بجانب هذه الرسالة رسالة فى وصف الإخاء رواها ابن طيفور[1] وهى فى رأينا تكملها ، فقد عرض فى رسالة الكتّاب لأخوّتهم وما ينبغى أن يجمعهم من إلف الوداد والصداقة ، ومضى فى هذه الرسالة يفصّل الحديث فى معنى الإخاء وحاجة الأفراد إليه مبيناً دعائمه التى تكفل له البقاء وتجعل حياة الناس صفاء مستحبّاً وعشرة عذبة ، بما يبرّ به الأخ أخاه حين تنزل به عوارض الأقدار وحوادث الزمان . وبذلك تدْخل الرسالة فى هذا الضرب من الأدب الأخلاقى الذى شاع فى بلاط الساسانيين ، وصدر عنه ابن المقفع فى كتابيه

(١) انظر جمهرة رسائل العرب ٢ / ٤٣٤ .

الأدب الكبير والأدب الصغير [١] .

وعلى نحو ما تتضح ثقافة عبد الحميد بالأدب الأخلاقى الساسانى فى الرسالتين السابقتين تتضح ثقافته بأدب القوم السياسى فى رسالته الطويلة التى كتبها على لسان مروان إلى ابنه [٢] وولى عهده عبد الله حين أمره بمحاربة الضحاك بن قيس الشيبانى الخارجى الصُّفْرى ، وكانت ثورته قد استفحلت بالعراق والموصل سنة ١٢٨ . ولا نكاد نلمّ بهذه الرسالة حتى نراها طويلة طولا غير مألوف ، إذ امتدت إلى نحو أربعين صحيفة من القَطْع الكبير . وهو يستهلها بمقدمة يذكر فيها اختيار أمير المؤمنين له فى محاربة الضحاك وأصحابه الذين انتهكوا حرمة الإسلام وعاثوا فى الأرض مستحلّين دماء المسلمين ،وأنه رأى أن يكتب إليه بعتهْد يؤدى به حقّ الله الواجب عليه فى إرشاده . ويمضى العهد بعد ذلك موزّعاً على موضوعات ثلاثة كبيرة ، وكل موضوع يتشعب شعباً كثيرة ، وكل شعبة تستقل بفقرة محدودة تحيط بدقائقها . وأول هذه الموضوعات يتناول فيه عبد الحميد آداب قائد الجيش فى سلوكه مع نفسه ومع حاشيته ورؤساء جنده . ويتناول الموضوع الثانى سياسته فى لقاء العدو وما ينبغى أن يتخذ من عيون ترصد حركاته ، ويُفيض فى بيان الخصال التى ينبغى أن يتصف بها رؤساء جيشه والأخرى التى ينبغى أن تتصف بها طلائعه . وفى الموضوع الثالث يتناول نظام الجيش فى الحرب ، ويقول إنه ينبغى أن لا يسير إلا فى مقدمة وميمنة وميسرة وساقة أو مؤخرة ، ويصور له كيف يُعِدُّ جيشه حين اللقاء وكيف يقسمه إلى وحدات ، كل وحدة مائة رجل عليهم شخص من أهل المروءة والنجدة . ويشير إلى ما ينبغى أن يتحلى به خازن أمواله من خلال . وينصحه أن يتخذ كل وسيلة لإفساد رجال العدو عليه بمكاتبتهم ووعده لهم بالمنالات والولايات . ودائماً ينصحه بالتقوى والاعتماد على الله فى غُدُوِّه ورَواحه ومنازلة خصمه . ويختم الرسالة بالدعاء له .

والرسالة على هذا النحو دستور كبير لقائد الجيش ، وهو دستور استعان

---

(١) انظر كتابنا « الفن ومذاهبه فى النثر العربى » ص ١٣٩ وما بعدها .

(٢) صبح الأعشى ١٠/ ١٩٥ .

فيه عبد الحميد بما قرأه فى أدب الفرس السياسى من وصايا وتعاليم ، كانوا يديرونها فى كتبهم ، هى خلاصة تجاربهم فى حروبهم وسياسة حكّامهم وملوكهم ، وقد شفعها بتعاليم الإسلام الزّكيّة واطّرد له فيها أسلوبه المرن الشفاف الذى لا يحجب شيئاً من الفكرة ، بل يوضّحها من جميع شعبها وأطرافها بما أتيح له من بيان باهر استطاع أن ينفذ من خلاله إلى صياغة محكمة ، وهى صياغة لا تكاد تفترق فى شىء عن صياغة الحسن البصرى وواصل بن عطاء وأضرابهما من الوعاظ الذين ألانوا اللغة ومرّنوها لأداء معانيهم ، وكأنما تحوّل إلى عبد الحميد أسلوبهم ، حتى أصبح لا يفترق عنهم فى شىء ، فهو يزاوج فى ألفاظه ، وهو يتخذ إلى ذلك طريقتهم فى الترادف ، موشّياً كلامه بالصور والطباقات والمقابلات الكثيرة .

وقد حاول طه حسين أن يصل عبد الحميد بالثقافة اليونانية[1] ، معتمداً فى ذلك على تقسيمه الجيش إلى وحدات كل وحدة مائة على شاكلة ما كان معروفاً عند اليونان ، وعلى أنه بالغ فى استخدام الحال ونثرها فى كلامه . ويضعف الحجة الأولى أن عبد الحميد كان يعيش فى الشام ، وكانت الحروب قائمة بين العرب والبيزنطيين منذ الفتوح ، وكان العرب بعامة يعرفون نظم الجيوش عند البيزنطيين والفرس جميعاً ، فمعرفة عبد الحميد بذلك لا تصله مباشرة بالثقافة اليونانية . أما مسألة استخدامه الحال فلم يوضّح طه حسين كيف كانت خاصة من خصائص اللغة اليونانية ، ومعروف أنها من خواصّ اللغة العربية ، وهى شائعة فى الشعر الجاهلى والقرآن الكريم ، ومرّت بنا قطع من كتابات سالم وابنه عبد الله ، وفيها الحال واضحة . والحق أن عبد الحميد إذا كان قد اتصل بالثقافة اليونانية ، فعن طريق غير مباشر ، نقصد طريق أستاذه سالم الذى كان يحسنها وينقل عنها أحياناً على نحو ما مرّ بنا .

وليس من شك فى أن صلة عبد الحميد بالثقافة الفارسية أوضح منها بالثقافة اليونانية . وكان يضيف إلى ذلك ثقافة واسعة بالشعر العربى ، وهى تتضح فى رسالة ولى العهد السالفة حين نراه يقف ليفصّل له ما ينبغى أن تكون عليه

---

(١) من حديث الشعر والنثر ص ٤٠ وما بعدها .

أسلحته وخيْله من صفات ، وكأنه ينثر أشعار أوس بن حجر وغيره من الجاهليين فيها نثراً . ومن هذا الباب رسالته [١] التي وصف بها الصيد ، وجوارحه ومعاركها مع الظباء والآرام وحُمر الوحش ، وما وقعوا عليه من بعض الغُدْران والرياض وما أصابهم من بعض الأمطار ، وكأنه يتحدث بلسان امرئ القيس وزهير ومن على شاكلتهما من الشعراء الجاهليين .

والحق أن النثر الفني تطور تطوراً واسعاً عند عبد الحميد ، فقد تحولت الرسائل عنده إلى رسائل أدبية حقيقية تُكْتَب في موضوعات مختلفة من الإخاء وقيادة الحروب والصيد . وهي لا تكتب في ذلك كتابة موجزة ، فلم تعد الكتابة وحدها كافية ، بل أصبح أساساً فيها أن تُسْنَد بالتفنن في القول وتشعيب المعاني معتمدة على ثقافات مختلفة : أجنبية وعربية . وأخذت تزاحم الشعر وتحاول أن تقتحم عليه ميادينه أو على الأقل بعض هذه الميادين ، إذ نرى عبد الحميد يُجْري قلمه في وصف الخيل والسلاح ووصف الصيد . ودائماً تروعنا براعته البيانية ، ولا نستطيع أن ننقل إلى القارئ إحدى رسائله الأدبية الطويلة ليتبين هذه البراعة ، غير أنه ينبغي أن لا نمضي دون تقديم نموذج من كتابته ، ونحن نسوق للقارئ هذه الرسالة [٢] التي كتبَ بها إلى أهله يعزّيهم عن نفسه ، وهو منهزم مع مروان :

« أما بعد فإن الله جعل الدنيا محفوفةً بالكُرْه والسرور ، وجعل فيها أقساماً مختلفة بين أهلها ، فمن درّت [٣] له بحلاوتها ، وساعده الحظُّ فيها سكن إليها ورضي بها ، وأقام عليها ، ومن قرصتْه بأظفارها ، وعضّته بأنيابها ، وتوطأته بثقلها ، قلاها [٤] نافراً عنها ، وذمّها ساخطاً عليها ، وشكاها مستزيداً منها ؛ وقد كانت الدنيا أذاقتنا من حلاوتها وأرضعتنا من درّها أفاويق [٥] استحلبناها ، ثم شمست [٦] منا نافرة ، وأعرضتْ عنا متنكرة ، ورمحتنا [٧] مولّية ، فمَلُح عذبها ، وأمرَّ

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٢ / ٥٤٤ .

(٢) الجهشياري ص ٧٢ .

(٣) درت : من الدر وهو اللبن .

(٤) قلاها : كرهها وأبغضها .

(٥) الأفاويق : ما يتجمع في الضرع من اللبن .

(٦) شمست : من شمس الفرس إذا جمح .

(٧) رمحتنا : من رمحه الفرس إذا ركله .

حلوها، وخُشُنَ لينُها، ففرّقتنا عن الأوطان، وقطّعتنا عن الإخوان، فدارُنا نازحةٌ، وطيرنا بارحة[١]، قد أخذت كلَّ ما أعطت، وتباعدت مثلما تقرّبت، وأعقبت بالراحة نصباً[٢]، وبالجَذل[٣] هما، وبالأمن خوفاً، وبالعزّ ذُلاً، وبالجِدَة[٤] حاجة، وبالسرّاء ضراء، وبالحياة موتاً، لا ترْحم من استرحمها، سالكةً بنا سبيلَ مَنْ لا أوْبة له، منفيّين عن الأولياء، مقطوعين عن الأحياء».

والرسالة تحمل جميع خصائص عبد الحميد التى تميّز بها فى أسلوبه ومعانيه، فالألفاظ منتخَبة وليس فيها توعّر ولا غريب وحشىّ، وإنما فيها العذوبة والحلاوة. والمعانى غزيرة مرتبة ليس فيها غموض ولا خفاء، وإنما فيها الوضوح وانكشاف الدلالة. وهو يُعْنى بالترادف فى أسلوبه ترادفاً ينتهى به إلى ازدواج واضح، ازدواج من شأنه أن يؤكّد المعانى بما يحمل من معادلات موسيقية تثبّتها فى الذهن وتجلوها جلاء تامًّا. وهو يضيف إلى ذلك حلى من طباقات وتصويرات تُضْفى على أسلوبه روعة بيانية خلابة، بل إننا لا ندقق فى القول حين نزعم أنه يضيف هذه الحلى، فإنها عنده جزء لا يتجزأ من جوهر الكلام، وكأنها سَداه ولُحمته. والحق أن عبد الحميد أوفى بالكتابة الأدبية فى العصر الأموى على كل ما كان يُنْتَظر لها من رقى وإبداع فنى.

---

(١) الطير البارحة: التى تمر من اليمين إلى اليسار، والعرب القدماء كانوا يتشاءمون بها.

(٢) نصبا: تعبا

(٣) الجذل: السرور

(٤) الجدة: الميسرة.

خاتمة

١

خلاصة

انقسم العصر الإسلامى فى هذا الجزء إلى كتابين ، اختص أولهما بعصر صدر الإسلام وثانيهما بعصر بنى أمية ، وقد بدأت الكتاب الأول بالحديث عن الإسلام وقِيَمِه الروحية والعقلية والاجتماعية والإنسانية ، مبيِّناً كيف أخرج العربَ من الظلمات إلى النور وبعثهم بعثاً جديداً استضاءوا فيه بهدى القرآن الكريم وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد مضى من أسلموا يجاهدون معه قريشاً والعرب ، حتى دخلوا فى دين الله أفواجاً . وأُلِمَّتْ بالإسلام بعد وفاة الرسول أحداث خطيرة ، فحروبُ الردة تتبعها الفتوح وفتنة عثمان تتبعها حروب على . وتأثَّر الشعراء بذلك كله مستلهمين مثاليةَ الإسلام الرفيعة ، وهم حقا اختلفوا فى مدى تأثُّرهم واستلهامهم لتلك المثالية ، إذ كان منهم من مسَّ الدين روحه مسًّا عنيفاً ، ومنهم من مس روحه مسًّا خفيفاً . ولكن حتى هؤلاء الأخيرين وجدتهم يتأثرون بالدين الحنيف ، على نحو ما يصور لنا ذلك الحُطَيْئة ، فقد قال القدماء عنه إنه كان رقيقَ الدين ، ومع ذلك نراه يدعو إلى التقوى والعمل الصالح ، معلناً أنه مسلم ، وأنه من أجل ذلك لا يعمد إلى الإقذاع فى الهجاء فحَسْبُه التهكم والسخرية. وكان بجانبه كثيرون يتعمقهم الإسلام من مثل حسان وكعب بن زهير ، بل كان هناك من أثَّر فى نفوسهم تأثيراً عنيفاً مثل لبيد والنابغة الجعْدىّ فإن بعض قصائدهما تتحول إلى مواعظ خالصة .

وكان تأثر النثر بالإسلام أقوى قوة ، فقد نزل فيه الذكر الحكيم المعجز ببلاغته ، وألقى به الرسول صلى الله عليه وسلم أحاديثه وخطبه الرائعة . وبذلك

تحولت العربية من لغة وثنية ساذجة إلى لغة ذات دين سماوى باهر ، تخوض فى معان جديدة من عبادة الله الواحد الأحد ووَصْف الكون فى طرفيه من النَشْأة والدُثور ورَسْم الكمالات الروحية ووضع التشريعات المحكمة التى تحقّق للناس السعادةَ فى الدارين . وكانت خطابة الرسول تارة وعظاً وتارة تشريعاً ، وقد تَجْمع بين الطرفين . ومضى الخلفاء الراشدون على هدى الرسول يعظون الناس ، وأخذت تدفع أبا بكر وعمر مواقف جديدة للكلام ، إذ أخذوا يخطبون فى الجيوش الفاتحة محمّسين وموصين باتباع تعاليم الإسلام السمحة فى معاملة الأمم المغلوبة . وسار فى نفس الدرب عثمان ، ثم على بن أبى طالب ، وكان خطيباً مفوّهاً ، وقد اندلعت الحروب الداخلية طوال عهده واندلعت معها خطابة كثيرة فى صفوفه وفى الصفوف المعارضة كما اندلعت مناظرات مختلفة فى الآراء المتقابلة ، وكل ذلك فسّح طاقةَ النثر العربى فى صدر الإسلام ، ومدَّ أطنابها مدًّا واسعاً . وجَدَّتْ بجانب ذلك حاجة شديدة إلى الكتابة ، لا كتابة الذِّكْر الحكيم فحسب بل أيضاً كتابة معاملات المسلمين وعقودهم وكتابة مواثيق الرسول صلى الله عليه وسلم وعهوده ، وأخذ يفرغ لذلك كتّاب مختلفون ذكرهم الجهشيارى وغيره . وتَحدث الفتوح ، وتكثر الرسائل بين الخلفاء وقوّادهم وولاتهم ، كما تكثر المعاهدات ، وفى أثناء ذلك ينشأ النثر الكتابى عند العرب ويرقى ، كما رقى النثر الخطابى ، بما أخذ يحمل من تعاليم الإسلام وتشريعاته .

وانتقلت إلى الكتاب الثانى الخاص بعصر بنى أمية ، فتحدثت عن مراكز الشعر فى هذا العصر ، ووقفت أولا عند المدينة ومكة وما غرقتا فيه من الحضارة والترف واللهو والغناء ، مما كان له أثر واسع فى نمو الغزل بهما وذيوعه على كل لسان . وكان سكان نجد وبوادى الحجاز يعيشون فى شظف من العيش هيأ بتأثير الإسلام ومثاليته الروحية لظهور ضرب من الغزل العُذْرى العفيف وشيوعه . وحدثَ أن عشائر قيسية كثيرة رحلت مع الفتوح إلى الشام والجزيرة فاصطدمت هناك بالقبائل اليمنية وبقبيلة تغلب المضرية . ونشبت بين الطرفين سلسلة حروب دامية عادت فيها العصبية القبلية والحمية الجاهلية ، فاشتعل الفخر والهجاء . وكانت الكوفة مستقرًّا للشيعة وثوراتهم ضد بنى أمية فطُبع شعرها فى جمهوره

بطابع شيعى حزين . وأخذت العصبيات تحتدم فى البصرة احتداماً ، وحملها منها الجنود المحاربون فى خراسان ، فكثر الشعر الذى ينطق عنها فى البيئتين . وكثرت سيول المديح فيهما وفى الكوفة ، ومضت أسراب تتغنّى بالزهد أو بالمجون ، وأسراب أخرى تتغنى بنظارية الخوارج السياسية وخاصة فى البصرة وبين جيوش الأزارقة فى فارس . ولم ينشط الشعر فى الشام إلا قليلا ، فإن أكثر ما أُنشد فيها وَفد عليها إما مع مُدّاح الأمويين وإما مع العشائر القيسية التى هاجرت إلى الشمال وإما مع بنى أمية أنفسهم ، فقد ظهر بينهم غير شاعر . وكان الشعر فى المراكز الأخرى خامداً ، ومصر تتقدّمها لا بشعرائها الذين نبتوا فيها ، ولكن بمن وفدوا على ولاتها مادحين .

وكانت تؤثّر فى الشعر الأموى مؤثرات عامة مختلفة ، فقد امتزج العرب فى البلدان المفتوحة بالموالى ، وسرعان ما هجروا لغاتهم إلى العربية وعبّروا بها عن عقولهم وقلوبهم وأعماق وجدانهم ، مما أحدث فيها صوراً مختلفة من التطور ، إذ دخلت فيها بعض الألفاظ الأعجمية وظهرت على ألسنة الموالى لُكْنات مختلفة وانتشر اللحن ، وأخذت سلائق بعض العرب أنفسهم فى الضعف . وقد مضى الشعراء جميعاً يستلهمون الإسلام فى أشعارهم سواء حين يتغزلون أو يمدحون أو يهجون أو يحمّسون للجهاد فى سبيل الله أو حتى حين يصفون الصحراء . وتوزعتهم الفرق السياسية من زبيرية وخوارج وشيعة وغيرهم . ونعموا بالحضارات الأجنبية ، وساقهم ذلك إلى ضروب من المتاع الحسى واللهو والترف . ودُعمت عقولهم بعناصر ثقافية مختلفة : جاهلية وإسلامية وأجنبية ، وانبعثت بينهم فرق الجَبْرية والمُرْجئة والقَدَرية والمعتزلة ، وخضعوا لمؤثرات اقتصادية مختلفة . وكل ذلك نرى أصداءه فى الشعر كما نرى فيه تعاوناً وثيقاً بين العرب والموالى ، فقد عاشوا بنعمة الإسلام إخواناً ، وكأنما مُحيت بينهم الفوارق الجنسية ، حتى ليفتخر الأعاجم بمواليهم من العرب ، إذ يشعرون فى قرارة أنفسهم بأنهم من أبناء هذه القبيلة أو تلك ، ويتبادل العرب معهم نفس الشعور .

وكَثُرَ شعراء المديح والهجاء كثرة مفرطة ، فقد كان المدّاحون يَغْدُون ويروحون على أبواب الولاة والقواد والأجواد ناثرين ورودَ الثناء محمّلين بنفائس

الأموال ، وخير من يمثلهم نُصَيْب والقطامى وكعب بن مَعْدان الأشقرى وزياد الأعجم . وسعرت العصبيات القبلية شعراء الهجاء وخير من يمثلهم ابن مفرِّغ والحكم بن عَبْدل وثابت قُطْنة . ومما لا ريب فيه أن أبرع شعراء الهجاء والمديح جميعاً شعراء النقائض النابهون : الأخطل والفرزدق وجرير ، فقد أتاحوا للنقيضة كل ما كان ينتظرها من رقى ونهوض ، كما أتاحوا للمِدْحة كل ما كان ينتظرها من براعة وازدهار .

ووقف كثير من الشعراء فى صفوف الفرق السياسية يحامون عنها ويناضلون وكانت لكل فرقة نظرية فى الخلافة تدافع عنها وتذود . أما الزبيريون فكانوا يرون من الواجب أن تعود حاضرة الخلافة إلى الحجاز وأن يستند الخليفة فى حكمه إلى قريش لا إلى كَلْب وغيرها من القبائل اليمنية التى يستند إليها الأمويون ، وابن قيس الرُّقَيَّات أهم من صدر فى شعره عن هذه النظرية. وكان الخوارج يرون أن الخلافة حقٌ للمسلمين جميعاً لا لقريش وحدها ، وأنه ينبغى أن يتولاَّها خير المسلمين تقوى وزهداً ، ولو كان عبداً حبشيًّا ، وقد وهبوا أنفسهم للنضال عن نظريتهم مذيعين فى أشعارهم حماسة دينية ملتهبة ورغبة عنيفة فى الاستشهاد وزهداً قويًّا فى الحياة ومتاعها الزائل ، ويمثِّلهم عمران بن حِطَّان والطِّرِمَّاح. وكان الشيعة يرون أن الخلافة حقٌّ شرعى لأبناء على اغتصبه منهم الأمويون وينبغى أن يُرَدَّ عليهم ،وكان استشهاد أئمتهم لا يبرح ذاكرتهم ، فمضوا يبكونهم بدموع غزار ، مُحْفِظين الناسَ على أن يثأروا لهم من الأمويين ويذيقوهم حَتْفهم ، كما مضوا يصوِّرون عقيدتهم فيهم وما يكنُّون لهم ولأهل البيت من عواطف حارة متبتِّلين بذلك إلى الله ورسوله الكريم ، ويمثِّلهم كثيِّر والكُمَيْت. وكان كثير من أشراف العرب وخاصة فى الكوفة مَغيظين مُحْنقين على الأمويين لجعل الخلافة وراثية فيهم من دون العرب جميعاً ، وعبَّر عن ذلك ابن الأشعث فى ثورته وشاعره أعْشَى هَمْدان فى شعره واصطفَّ مع الأمويين شعراء كثيرون يدعون لهم ويناضلون ضد كل هؤلاء الخصوم ، على شاكلة ما نرى عند عبد الله بن الزَّبِير الأسدى الكوفى وعدىّ بن الرِّقاع الدمشقى .

وتلقانا طوائف من الشعراء عاشت حياتها فى اتجاه واحد أو على الأقل

فى اتجاه غلبَ على حياتها وساد ، فمن ذلك أصحاب الغزل الصريح من أمثال ابن أبى ربيعة والأحوص والعَرْجى ، وأصحاب الغزل العفيف من أمثال قيس ابن ذَريح وجميل بُثَيْنة،وأصحاب الزهد من أمثال أبى الأسود الدُّؤَلى وسابق البربرى ، وأصحاب اللهو والمجون من أمثال الوليد بن يزيد وأبى الهندى ، وأصحاب شعر الطبيعة من أمثال ذى الرُّمَّة. ومن ذلك الرجّاز ، وقد نهضوا بالأرجوزة من وجوه ، إذ جعلوها تتسع لكل أغراض القصيدة ، وأضافوا لذلك موضوعاً جديداً هو الطَّرديات ، كما أضاف نفرٌ منهم إلى غاياتها الوجدانية غاية تعليمية جديدة إذ تحرَّوا أن يودعوا أراجيزهم كل ما استطاعوا من شواذ اللغة وشواردها الآبدة .

وازدهرت الخطابة فى العصر الأموى ازدهاراً ، لعل العرب لم يعرفوه فى أى عصر من عصورهم القديمة ، فقد كانوا أصحاب مواهب بيانية ، وعملت بواعث كثيرة على أن تتوهج هذه المواهب فى الخطابة حينئذ ، بسبب ما نشأ من خصومات سياسية عنيفة ، فكان هناك خطباء الخوارج وخطباء الشيعة وخطباء الزبيريين والثوار المختلفين وخطباء الأمويين ، وكلٌّ منهم يحاول استمالة القلوب إليه بالتفنن فى بيانه ، وخير من يمثلهم زياد بن أبيه . ونمتْ بجانب هذه الخطابة خطابة المحافل بين أيدى الخلفاء والولاة ، إذ أخذ أصحابها يُعْنَوْنَ بتحبير كلامهم ، وخيرُ من يمثّلهم الأحنف بن قيس . واحتدمت خطابة الوعظ والقصص الدينى احتداماً ، وما فتئ أصحابها يطلبون كل وسيلة بيانية كى يؤثروا فى الناس حتى انتظم لهم أسلوب بديع ثبَّتوه تثبيتاً قويًّا ، وهو أسلوب نهض على حُلّى من الازدواج والخيالات والمقابلات ودقائق المعانى . وقد مضوا يعلّمون الشباب فى البصرة والكوفة كيف يبرعون فى الخطابة والمناظرة ، وبذلك أعدُّوا لنشأة علم البلاغة العربية ، وخير من يمثّلهم الحسن البصرى .

ونمّى التدوين فى هذا العصر نموًّا واسعاً ، إذ دوّنوا معارفهم التى تتصل بالجاهلية وأخبارها وأنسابها وأشعارها كما دونوا معارفهم التى تتصل بالإسلام وما يرتبط به من تفسير الذكر الحكيم والحديث النبوى والفقه والمغازى وقصص الأنبياء ، ومضوا يدونون أخبار الأمم الماضية وأخبار الدولة الإسلامية وما صادفها

من أحداث وخطوب . وأخذت تظهر مصنفات فى المثالب والأمثال والمواعظ والحِكم وفى مسائل العقيدة . ودونوا كثيراً من الرسائل والخطب ، كما نقلوا إلى العربية بعض المعارف الأجنبية ، وخاصة فى الكيمياء والطب والنجوم .

وكثرت كثرة مفرطة الرسائل وخاصة السياسية . وأخذ كتاب الدواوين المحترفون ينهضون بالكتابة الديوانية ، حتى كان سالم رئيس ديوان هشام بن عبدالملك ، فإذا هو يتخذ فيها أساليب خطباء الوعظ والقصص الدينى الذى تحدثنا عنه آنفاً ، وتبعه عبد الحميد الكاتب ، فأوفى بالكتابة الديوانية على الغاية من غزارة المعانى وروعة الأسلوب وإعطائه حقوقه من الجزالة والرونق والطلاوة ، ومضى يدبِّج رسائل أدبية لا يقصد بها إلى سياسة ، إنما يقصد بها إلى الأدب من حيث هو فن جميل .

٢

تعليق

كل الشعراء الذين ذكرناهم فى الخلاصة السابقة ترجمنا لهم ترجمات تختلف طولا وقصراً حسب شخصياتهم الأدبية ، وقد نظَم ابن سلام المخضرمين منهم فى طبقات الجاهليين العَشْر الذين أودعهم كتابه « طبقات فحول الشعراء » وقد جعل الطبقة الأولى للجاهليين وحدهم ، أما الطبقة الثانية فأدخل فيها كعب ابن زهير والحطيئة من المخضرمين ، وجعل الطبقة الثالثة للبيد والنابغة الجَعْدى وأبى ذؤيب الهُذَلى والشّمَّاخ ، وكلهم عاشوا فى العصرين الجاهلى والإسلامى. وخص الطبقة الرابعة بمن عاشوا فى الجاهلية . ثم مضى فى الطبقات الست الباقية يمزج جاهليين بمخضرمين . وتحدث عن شعراء المراثى وشعراء القُرَى ، مُشيداً بحسان ابن ثابت شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد ترجمنا لمن وضعهما فى الطبقة الثانية مع بعض الجاهليين وهما كعب والحطيئة ، كما ترجمنا الاثنين من الطبقة الثالثة ، وهما لبيد والنابغة الجعدى ، وترجمنا لحسان. ولم نترجم لأحد وراءهم من المخضرمين اكتفاء بهم ، إذ يُعَدُّون فى الذروة من شعراء عصرهم ، ولأن لهم دواوين

كبيرة توضح شخصياتهم ومدى ما أثَّر به الإسلام فى أشعارهم. ولم نُغْفل مَنْ سواهم ، ممن داروا عند ابن سلام وفى الكتب الأدبية والتاريخية ، بل مثَّلنا لهم بأشعار كثيرة ، ووضعنا بإزاء المجيدين منهم فى الهوامش مراجع أخبارهم وأشعارهم ، ليستعين بها من يريد متابعة دراستهم .

وإذا تركنا المخضرمين عند ابن سلام إلى شعراء عصر بنى أمية وجدناه يسلكهم فى طبقات عشر ، يسميها طبقات الإسلام ، ومن يقرن مَنْ سمّاهم فى تلك الطبقات إلى من ترجمنا لهم يرى أننا أعرضنا عن كثيرين ممن ذكرهم وعُنينا بآخرين لم يجروا على لسانه ، لأنهم فعلا يتقدمون من أعرضنا عنهم من حيث تمثل الحياة التى عاشوها ، ومن حيث الشعر والشاعرية ، ومن ثَمَّ اهتمّ بجمهورهم صاحبُ الأغانى ، ففتح لهم فى كتابه فصولا طويلة ، وعُنى الرواة بدواوينهم أو على الأقل بكثير منها ، فصنعوه صنعة مُحْكمة . وكثرة من سمّاهم ابن سلام ليس لهم دواوين محفوظة ولا أخبار كثيرة مسجَّلة ، وهم غالبا من نَجْد ، وكأنه إنما عُنى بمن كانوا يدورون على ألسنة اللغويين متمثِّلين بأشعارهم ومستشهدين ، ونفس ترتيبه لطبقاتهم يدل على ذلك دلالة بينة ، فقد سلك الراعى فى الطبقة الأولى مع جرير والفرزدق والأخطل ، وهو شاعر مقلّ ، ويدنو عن طبقتهم درجات . وإنما دعاه إلى ذلك ما اشتهر به فى بيئة اللغويين من إحسانه لنعت الإبل ، وحَشْده فى هذا النعت لأوابد الألفاظ . ولو أنصف لأخَّره عن طبقته ووضع فيها بدلا منه ذا الرُّمَّة الذى يتقدم جميع شعراء عصره فى وصف الصحراء وكل ما يتصل بها من إبل وغير إبل .

وقد جعل ابن سلام ذا الرُّمَّة فى الطبقة الثانية وقَرن به فيها البَعيث والقطامى وكثيِّراً ، والبعيث مقل ولا يرتفع بجناحه إلى آفاقهم جميعاً . ولذلك أهملناه كما أهملنا أصحاب الطبقات الثالثة والرابعة والخامسة ، وهم على الترتيب كعب بن جُعيل وعمرو بن أحمر وسُحَيْم بن وَثيل وأوس بن مَغْراء ، ونَهْشل بن حرِّى وحُمَيْد بن ثور الهلالى والأشهب ابن رُميلة وعمر بن لَجَأ التَّيْمى ، وأبو زُبَيْد الطّائى والعُجَيْر وعبدالله بن هَمّام السَّلوليان ونُفَيْع بن لقيط الأسدى ، جميعهم مقلّون ، ولا يمثلون عصرهم لا فى أحداثه الجسام ولا فى تطور فنون الشعر وأغراضه .

وجعل فى الطبقة السادسة ابن قيس الرقيات والأحوص وجميلا ونُصَيْباً ، وهم أعلى من طبقتهم ، وقد ترجمنا لهم جميعاً . وقَرَن بالمتوكل الليثى فى الطبقة السابعة ابن مفرِّغ وزياداً الأعجم وعدىّ بن الرقاع ، وقد ترجمنا للثلاثة الأخيرين وأهملنا المتوكل لقلة أشعاره . وجعل فى الطبقة الثامنة عَقيل بن عُلَّفة وشبيب بن البَرْصاء ، وشعرهما جميعاً قليل قلة شديدة . وسلك فى الطبقة التاسعة أربعة من الرجَّاز هم : الأغلب العِجْلى وأبو النجم والعجَّاج ورُؤْبة ، وقد ترجمنا للثلاثة الأخيرين وأهملنا الأغلب لقلة أراجيزه . وجعل الطبقة العاشرة لمزاحم العُقَيْلى ويزيد بن الطَّثْرِيَّة وأبى دُؤاد الرُّؤاسى والقُحَيْف العُقَيلى ، وجميعهم مقلون . وعلى هذا النحو وضع ابن سلام فى طبقات الإسلام شعراء مقلين لم يبلغوا فى الشعر مبلغاً مذكوراً ، ونحَّى كثيرين يُغَنُّون فيه غناء محموداً ، مسوقاً فى ذلك بدوافع لغوية خالصة ، ومن ثَمَّ عُنِى بشعراء نجد والبوادى ، ولم يكد يُعْنَى بشعراء المدن مع أنهم يَفْضُلونهم بما دفعوا إليه الشعرَ من تطور مع الحياة الجديدة وبما نظموا من آيات رائعة. وقد أهمل ابن أبى ربيعة ، وهو أكبر شعراء الغزل فى عصره ، وأهمل معه العَرْجى وأهمل شعراء الخوارج من أمثال عمران بن حِطَّان والطِّرِمَّاح ، ولم يُعْنَ من شعراء الشيعة إلا بكُثَيِّر ، وأهمل شعراء الزهد من أمثال أبى الأسود الدؤلى وسابق البربرى وشعراء المجون من أمثال الوليد بن يزيد وأبى الهِنْدى .

وبذلك كله كانت طبقات الإسلام عند ابن سلام قاصرة عن إعطاء صورة حقيقية لحياة الشعر الخصبة فى عهد بنى أمية . وقد ترجمتُ لكل من ذكرتهم آنفاً ممن أهملهم ولآخرين لا يقلون عنهم إبداعاً . ومضيت أمثِّل فى كل جانب من جوانب العصر وفى كل فن من فنون الشعر بأشعار مختلفة لغير مَنْ ترجمت لهم ناثراً فى الهوامش مراجع كثيرين منهم ، تُعين على التوسع فى دراستهم . والذى لا شك فيه أن شعراء العصر الأموى تطوروا بالشعر فى جميع مناحيه واتجاهاته وأنهم استطاعوا أن يمثِّلوا عصرهم فيه بجميع انطباعاته ، ناطقين بلسانه نُطْقاً أشاعوا فيه الروعة والجمال .

فهرس الموضوعات

صفحة

صفحة

صفحة

رقم الإيداع	١٩٧٦/٢٠٤٤
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ – ٢٤٦ – ١١٨ – ٨

تاريخ
الأدب
العربى

٣

دكتور شوقى ضيف

العصر العباسى الأول

دار المعارف

تاريخ
الأدب العربى
٣

العصر العبّاسى الأول

تأليف

الدكتور شوقى ضيف

الطبعة الثامنة

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

العصر العبّاسيّ الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا الجزءُ من تاريخ الأدب العربى خاصٌّ بالعصر العباسى الأول ، وكان طبيعيًّا أن أبدأ فيه بدراسة الحياة العباسية التى فَرَضَتْ نفسها على الأدباءالعباسيين فَرْضًا ، سواء الحياة السياسية وما كان يَجْرى فيها من نُظُم وظروف وأحداث مختلفة، أو الحياة الاجتماعية وما كان يَشيع فيها من تحضر وترف وشغف بالغناء وإغراق فى المجون وزندقة وزهد ونسك ، أو الحياة العقلية وما التحم بها من ترجمة الثقافات الأجنبية ونشاط الحركة العلمية ونَقْل علوم الشعوب المستعربة ووضْع العلوم اللغوية والتاريخ والعلوم الدينية والكلامية .

وقد بسطتُ القولَ فى ازدهار الشعر العربى حينئذ ازدهاراً رائعاً ، إذ أكبَّ الشعراء على العربية يتقنونها ويتمثلون ملكتها وسليقتها تمثلاً دقيقًا ، نافذين بذوقهم المتحضّر إلى أسلوب مصفًّى يجمع حيناً بين الجزالة والرصانة ، وحينًا يجمع بين الرقة والعذوبة . وكان تأثرهم عميقًا بالثقافات المترجمة وبما كانوا يستمعون إليه من محاورات المعتزلة مما أثار فى عقولهم ونفوسهم كثيراً من المعانى والخواطر التى لا تكاد تُحْصَى ، ودفعهم إلى التطور بموضوعات الشعر الموروثة تطوراً نلمس فيه روح العصر وخصب الفكر ورهافة الشعور ، وأضافوا إليها موضوعات جديدة بما نفذوا إليه من تحليل المعانى والملاءمة بين أشعارهم وبيئاتهم المتحضرة وحياتهم اليومية. وفتحوا صفحة لم تكن تَخْطر لأسلافهم على بال ، هى صفحة الشعر التعليمى الذى صاغوا فيه من المعارف والتاريخ والأمثال والقصص الحيوانى منظومات طريفة . واكتشفوا للشعر أوزانًا لم تكن معروفة وأنماطًا من القوافى كانت مجهولة .

ودرستُ دراسةً نقدية تاريخية أعلام الشعر فى العصر ، وهم بشار وأبو نواس وأبو العتاهية ومسلم بن الوليد وأبو تمام، وحاولتُ أنأرسم شخصياتهم الأدبية وأثرهم فى تطور الشعر العربى وتجديده ، فأما بشار فسَنَّ للشعراء أن يزاوجوا مزاوجة

دقيقة بين عناصر الشعر التقليدية وعناصره التجديدية ، بحيث يتدافع فيه تيار القديم الموروث دون تعويق لتيار الجديد المستحدث وسيوله الحضارية والاجتماعية والعقلية . وكان تأثير هذه السيول فى أبى نواس أشد عمقاً وأكثر حدة ، فتعمق مذاهب المتكلمين وأسرف على نفسه فى اللهو والمجون . وعكف أبو العتاهية على الحكمة الفارسية والهندية واليونانية عكوفاً أفضى به إلى تنويع واسع فى أشعار الزهد والمواعظ والأمثال . وجذب مسلم بن الوليد الشعراء إلى أبنية الشعر المحكمة الشامخة مع التدقيق الشديد فى المعانى والإكثار من ألوان البديع . أما أبو تمام فامتزج الشعر عنده بالفلسفة امتزاجاً رائعاً ، بحيث أصبح مَعْرِضاً باهراً لطرائف البديع وطرائف المعانى والأخيلة البارعة .

ووراء هؤلاء الأعلام كثيرون كان لكل منهم دور فى تطور الشعر فى العصر تطوراً يتفاوت قوة وضعفاً ، مما دفعنى إلى رسم موجز لشخصياتهم وخصائصهم ، ووَضْعهم فى فصائل متقابلة ، والتمستُ لكل فصيلة صفوةَ مَنْ يمثّلونها ، فللسياسة ممثلوها ، وكذلك للمديح والهجاء والغزل والمجون والزندقة والزهد والنسك والاعتزال والنزعات الشعبية .

وانتقلتُ أدرس النثر وماحدث من تطوره وكثرة فنونه بتأثير ما ثَقِفَهُ الوعّاظ والمتكلمون والكتّاب من كنوز الثقافات والآداب الأجنبية . وقد نشطت الخطابة الدينية وما اتصل بها من وعظ ووعّاظ وقَصص وقُصّاص . ونفذ المتكلمون إلى فن نثرى مستحدث هو فن المناظرات ، ونموّه ورقوا به رقيًّا بعيداً . وازدهر النثر الديوانى وكلُّ ما اتصل به من رسائل سياسية ومن عهود ووصايا وتوقيعات ، وحبّر الكتّاب كثيراً من الرسائل الإخوانية البديعة متناولين فيها الأغراضَ التى كان ينظم فيها الشعراء والتى تصور عواطف الأفراد ومشاعرهم ، ودبّج نَفَرٌ منهم رسائلَ أدبية خالصة حلّلوا فيها النفس الإنسانية وأهواءها وسلوكها حيناً ، وحيناً حاكوا قَصص كليلة ودمنة قاصدين بمحاكاتهم إلى التربية السياسية والاجتماعية .

وعُنيت برسم شخصيات أعلام الكتّاب فى العصر وآثارهم الأدبية ، وهم ابن المقفع وسهل بن هرون وأحمد بن يوسف وعمرو بن مسعدة وابن الزيات ، فأما ابن المقفع فنقل إلى العربية أروع ما تحمل لغته من ذخائر فارسية وغير فارسية ،

وكَتَبَ رسائل إخوانية وأدبية بديعة . وافتنَّ سهل بن هرون فى كتابة رسائل قصصية وأخرى أدبية وإخوانية مع العناية بالازدواج وجمال الجرس والأداء . وبرَع أحمد بن يوسف فى كتابة الرسائل الديوانية والإخوانية مُضْفياً على أساليبه كل ما يستطيع من صور التنميق . وحرص عمرو بن مسعدة على التأنق والاقتصاد المسرف فى التعبير . ولم يكن ابن الزيات يتأنَّق فى كتاباته ، غير أنه كان يُعْنَى بِحُسْنِ القول وجزالة اللفظ ورصانته. واللهَ أسأل أن يُلْهِمنى السَّداد والإخلاص فى الفكر والقول والعمل ، وهو حسبى ونعم الوكيل .

شوقى ضيف

القاهرة فى أول ديسمبر سنة ١٩٦٦ م

الفصل الأول

الحياة السياسية

١

الثورة العباسية

تُعَدُّ هذه الثورة نهاية الثورات الكثيرة التي نشبت ضد بني أمية ، وهي ثورات أراد بها أصحابها إلى الإصلاح الاجتماعي ، ومنهم من كان يتخذ إلى ذلك طريق الرِّفْق على نحو ما هو معروف عن جماعة الفقهاء ، وأكثرهم كان يتخذ طريق العنف يريد أن يمحو سلطان الأمويين محواً على نحو ما كان يريد ابن الزبير والخوارج والشيعة وابن الأشعث ويزيد بن المهلب . وقد شهر هؤلاء الثائرون السلاح فى وجوههم مراراً ، كانت تتعرض فيها دولتهم للخطر أيما تعرض غير أنهم استطاعوا دائماً أن يكبحوا جماح الثائرين خائضين إلى ذلك بحاراً من الدماء ، متخذين من القضاء على كل ثائر وأنصاره نكالا لكل مَنْ يحاول الثورة على نظمهم السياسية والاجتماعية .

وقد انتهت ثورات ابن الزبير وابن الأشعث ويزيد بن المهلب بمجرد الفتك بهم وبأنصارهم ، أما ثورة الخوارج ، ومثلها ثورة الشيعة ، فظلت تشتعل من حين إلى حين فى العراق وجنوبيه وشماليه وما وراءه من الشرق . وكانوا كلما قضوا على ثورة وقتلوا منها مقتلة عظيمة هَبَّت ثورة ثانية . وكلفتهم ثورات الخوارج خاصة جهوداً هائلة ، إذ كانوا لا يستيئسون أبداً ، وكان قد استقر فى نفوسهم أن الأمويين نهبوا السلطان من الأمة وينبغى أن يعود إليها بحيث تتحقق المساواة بين أفرادها وبحيث يعم العدل الذى لا تستقيم حياة الناس بدونه . وقد مضوا يجاهدون الأمويين جهاداً عنيفاً ، لا يصانعون فيه ولا يداهنون ، بل يشهرون سيوفهم باذلين أرواحهم فى سبيل عقيدتهم ، وكلما هُزمت منهم طائفة امتشقت الحسام طائفة أخرى ، فقد باعوا أنفسهم لله ودينه الحنيف يقاتلون فى سبيله ، فيَقْتلون من خالفوا

الطريق السويّ في رأيهم ويُقتَلون راضين . وأهم ثورات الشيعة المسلحة ثورة المختار الثقفي بالكوفة ، وقد تكفّل مصعب بن الزبير حين كان واليًا لأخيه على العراق بالقضاء عليها قضاء مبرمًا . ولم تقم للشيعة بعده قائمة حتى كانت ثورة زيد ابن على زين العابدين فى أول العقد الثالث من القرن الثانى ، وقد انتهت بإخفاق ذريع ، ولم يلبث ابنه يحيى أن قُتل على أثره ، كما قُتل بعده بقليل عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب .

وكانت تنضم إلى كل هذه الثورات فئات من الموالى الذين اضطهدهم بنو أمية ، وحرموهم المساواة بالعرب فى الحقوق ، مخالفين نظرية الإسلام وما يدعو إليه من التسوية المطلقة بين العرب وغير العرب فى الضرائب وغير الضرائب وقد احتملوا فى ذلك ألوانًا من البؤس الذى يُطاق والذى لا يُطاق . فكان طبيعيًّا أن تكثر مطالبتهم بالعدل الاجتماعى وأن يطمحوا إلى حكّام جُدُدٍ يُقِرُّون فيهم مبادئ الإسلام الذى يوجب المساواة بين أفراد الأمة فى جميع الواجبات المالية وغير المالية والذى ينكر الظلم أشد الإنكار ، كما ينكر أن تستغل طبقة من الأمة بعض الطبقات فيها لمآربها العاجلة . وقد وضعت كثرتهم آمالها فى أبناء على وأسرته الهاشمية لما تميز به حكمه من مساواة تامة بين العرب والموالى بحيث أصبحوا شيعتهم ، غير أنهم فقدوا فى أسرة على وأبنائه وأحفاده الشخص الحصيف الجرىء الذى يستطيع تنظيم ثورتهم بحيث يُكْتَبُ لها النجاح .

وعرف ذلك فيهم أبناء عمومتهم العباسيون ، ولكن كيف يلون هذه الزعامة ، والشيعة من حولهم ينضوون تحت ألوية أبناء علىٍّ وحدهم دون مَنْ سواهم من الهاشميين؟ لقد أخذوا يفكرون فى ذلك ، ولم يلبثوا أن نفذوا إلى أمنيتهم المبتغاة عن طريق فرقة الكيسانية الشيعية التى تكونت حول ابن الحنفية ، فقد استوطن ابنه أبو هاشم — الذى ورث عنه زعامة هذه الفرقة وإمامتها — بلدة الحُمَيْمَة ببلقاء الشام ونزلها معه على بن عبد الله بن العباس وأسرته ، وسرعان ما توثقت الصلة بين ابنه محمد وبين أبى هاشم ، ورأى فيه أبو هاشم خير خلف له على جماعته ، فلما حضرته الوفاة سنة ثمان وتسعين للهجرة أوصى له وصية صريحة بالإمامة من بعده . وبذلك وجد محمد ركيزة يعتمد عليها فى إثبات حقه فى الخلافة ، وكان حصيف الرأى بعيد

النظر ، فعمد تَوًّا إلى تنظيم الدعوة العباسية سرًّا من مقرّه فى الحُمَيْمة متخذاً من الكوفة دار التشيع ومستقره مهداً لها ومركزاً[١] ، ووضع خطة تنظيمها هناك فى يد ميسرة ، وجعل له الإشراف على الدعوة بخراسان حيث كان الموالى هناك يمتلئون سخطًا وموجدة على الأمويين الذين كانوا لا يزيلون عنهم ظلمًا إلا ليقيموا مكانه ظلمًا أشد عنفًا . وقد اتخذ دعاته هناك من التجار وكانوا أخلاطًا من عرب وموال ، فمضوا يثيرون الناس هناك ضد بنى أمية مصورين ما ينبغى أن يسود فى الأرض من العدل وإزالة الظلم ، ومات ميسرة سنة ١٠٥ فأقام محمد بن على مكانه بُكَيْر[٢] بن ماهان ، وكان لا يقل عن سلفه دهاء ونهوضًا بعظائم الأمور ، فوثَّق الدعوة ونظمها بخراسان خير تنظيم . وتوفى الإمام محمد بن على سنة ١٢٥ عاهداً بالإمامة من بعده لابنه إبراهيم فارتضاه الدعاة وتوفِّى على إثره بكير فخلفه على الدعوة صهره أبو سَلَمة[٣] الخَلاَّل ، فجَدَّ فى الأمر وجَدَّ معه الدعاة .

وكان الوليد بن يزيد بن عبد الملك قد ولى الخلافة ، وكان مدمنًا للخمر منادمًا للفُسَّاق والمغانى ، وكأنما كان إشارة الوقت لما أدرك الخلافة الأموية من ضعف وفساد ، فاستغل ذلك أيما استغلال دعاة أبى سلمة فى خراسان ، فقد بدا فى وضوح فساد الحكم كما بدا فساد النظم الاجتماعية التى رزح الموالى تحت أثقالها الباهظة . وتراءى حينئذ فى الأفق أن سلطان البيت الأموى يؤذن بالسقوط ، لا لما انتشر فيه من فساد الترف فحسب ، بل أيضًا لما نشب من خلاف عنيف بين أفراده ، إذ لم يلبثوا أن قتلوا الوليد وأخذوا يتطاحنون على عرش الخلافة تطاحنًا مرًّا ، وتغلَّب بأخرة مروان بن محمد ، غير أنهم نابذوه وثاروا ضده ، وانتهز الخوارج الفرصة ، فنازلوه فى الموصل وفى اليمن والحجاز .

وفى هذه الأثناء تولى أبو مسلم الخراسانى قيادة[٤] الدعوة فى موطنه ، وكان من دهاة الرجال ومن أكفئهم فى النهوض بجلائل الأعمال ، فأخذ يصور للناس فساد الحكم الأموى وما يسومهم به من خسف وظلم وكيف أنه سيملِّكهم الأرض ويجعلهم

---

(١) انظر فى تنظيم الدعوة العباسية ڤلهوزن فى كتابه تاريخ الدولة العربية وسقوطها (ترجمة أبى ريدة) ص ٤٧٨ وما بعدها .

(٢) تاريخ الدولة العربية ص ٤٨٠ والطبرى (طبع مطبعة الاستقامة بالقاهرة) ٥/٣٧٦ .

(٣) ڤلهوزن ص ٤٨٦ وما بعدها والطبرى ٥/٦٢٢ .

(٤) ڤلهوزن ص ٤٩١ .

سادة بعد أن كانوا عبيداً مسترقّين والناس يسمعون له ويخفّون به وينضمون إلى دعوته حتّى كثف جمعهم وحتّى غدا نزاله لنصر بن سيار والى الأمويين هناك قاب قوسين أو أدنى . غير أنه رأى أن يتمهل قليلا قبل أن يبدأ مغامرته الخطيرة متخذاً لها من الأسباب ما يكفل النجاح المحقق ، ولم يلبث أن عمد — بدهائه — إلى الإيقاع بين الكرمانى ومَنْ معه من القبائل اليمنية وبين نصر بن سيار ومن معه من القبائل المضرية ، واشتعلت الحروب بين الفئتين ، وسُفك فيها كثير من الدماء . حتّى إذا وهنت قوة نصر أعلن أبو مسلم الثورة عليه وعلى مَنْ وراءه من الأمويين ، وأخذت رايات العباسيين السوداء تخفق فوق جنوده ، وحواضر خراسان تسقط — واحدة إثر أخرى — فى يده . ويستصرخ نصر بن سيار مروان بن محمد وابن هبيرة واليه على العراق أن يمداه بالنجدات ، ولكنهما كانا فى شُغل عنه بثورات الخوارج فى العراق وغير العراق ، ويموت كمداً بين الرى وهمذان . وتتقدم جيوش أبى مسلم بقيادة قحطبة وابنه الحسن مستخلصة المدن والحصون مدينة مدينة وحصناً حصناً ، وما تلبث أن تقتحم العراق ويسرع ابن هبيرة للقائها عبر الفرات ، ويحاول قحطبة أن يتجنبه متجهاً إلى الكوفة ، ثم يلتقى به فتدور عليه — كما دارت على نصر بن سيار من قبله — الدوائر ، فينحاز بجيشه إلى واسط . ويُقْتَل قحطبة فى ظروف غامضة ، ويتولى القيادة بعده ابنه الحسن ويدخل الكوفة دون أن يلقى أى مقاومة ، وحينئذ تبرز إلى النور حكومة بنى العباس السرية وعلى رأسها أبو سلمة الخلال .

وكان مروان بن محمد قد قبض — قبل دخول الحسن بن قحطبة الكوفة بوقت قصير — على إبراهيم بن محمد الإمام ، إذ عرف أنه هو الذى يدبر هذه الثورة من مقره فى الحميمة ، وعرف إبراهيم أنه قاتله ، فعهد بالأمر من بعده إلى أخيه أبى العباس السفاح . وقُتل إبراهيم ، ونقلت الأنباء إلى أبى العباس دخول الحسن ابن قحطبة الكوفة ، فخرج إليها فى أهله يتقدمهم أعمامه : داود وعيسى وصالح وعبد الله وإسماعيل وعبد الصمد ، وأخوه أبو جعفر ، وابن عمه عيسى بن موسى ابن محمد .

وظل العباسيون — طوال المدة السرية لدعوتهم — لا يذكرون للناس أنهم طُلّاب خلافة ، إنما يذكرون لهم أنهم يطلبون إسقاط الدولة الأموية الجائرة التى

طالما أرهقتهم بعسفها وظلمها وطالما احتكرتهم لمآربها وشهواتها مع الاستبداد بالشعب واستعباده ومع ما يعيش فيه الأمويون من ترف بالغ أفسد أداة الحكم إفساداً لا صلاح لها بعده إلا بمحوهم محواً . وبذلك وارى العباسيون أشخاصهم وقدموا القضية التى نصبوا أنفسهم للدفاع عنها ، قضية نصرة الحكم الصالح ونصرة الحق والعدل على الباطل والظلم المتصل . ولكى يحكموا خطتهم كانوا لا يأخذون البيعة لأنفسهم بالخلافة ، إنما يأخذونها لإمام رضاً [١] من آل البيت النبوى ، حتى لا يثيروا أبناء عمهم العلويين عليهم ، بل حتى يجمعوهم تحت لوائهم . وكانوا يشيعون دائماً أنهم نهضوا لهذا الأمر كى يثأروا للشهداء من أبناء فاطمة الزهراء .

وكان أبو سلمة الخلال الذى لقبوه بلقب « وزير آل محمد » يرى أن يختار للخلافة أحد أحفاد على بن أبى طالب ، ومن أجل ذلك أخفى أمر أبى العباس وأهله حين نزلوا الكوفة وعزلهم عزلا تامًّا عن جند خراسان ، غير أن أبا العباس استطاع الاتصال بأبى مسلم إذ وجَّه إليه مَنْ أطلعه على نوايا أبى سلمة ، فأرسل إليه وفداً من زعماء الدعوة بخراسان سلموا عليه بالخلافة ، واضطُرَّ أبو سلمة اضطراراً أن يعلن تأييده[٢] له ، واتَّجه أبو العباس تَوًّا إلى المسجد الجامع فى الكوفة ، فبايعه الناس ، وارتقى المنبر ، فاشرأبَّت إليه الأعناق وأصغت إليه الآذان ، فإذا هو يحتج بآى القرآن الكريم على أن بيته العباسى أحق بالخلافة من بيت العلويين . وكان متوعكًا فانقطع عن متابعة الكلام ، وتابعه عمه داود متحدثًا باسمه ومؤكداً فضل الخراسانيين فى تحرير الأمة من نير الأمويين [٣] ، ومن حكمهم الباغى الفاسد . ولم يطمئن أبو العباس لمقامه فى الكوفة ، دار العلويين من قديم ، فتحول عنها إلى معسكر الخراسانيين ، ثم فارقه إلى الحيرة وأخذ فى بناء الهاشمية لتكون مقر سلطانه ، وأغرى أبا مسلم الخراسانى بأبى سلمة فدسَّ إليه مَنْ قتله[٤] .

وكانت الجيوش قد اتجهت لمتابعة حرب مروان بن محمد بقيادة عبد الله بن على عم السفاح ، فالتقت به على الزاب شمالى العراق ، وهزمته هو وجيشه هزيمة

---

(١) انظر الطبرى ٦ / ٢٧ ، ٧٩
(٢) الطبرى ٦ / ٨٥ ومروج الذهب للمسعودى (طبع دار الرجاء بالقاهرة) ٣ / ١٨٣ وتاريخ اليعقوبى (طبعة النجف) ٣ / ٨٦ .
(٣) طبرى ٦ / ٨١ وما بعدها .
(٤) طبرى ٦ / ١٠٣ والمسعودى ٣ / ١٩٩ ، واليعقوبى ٣ / ٨٩ .

ساحقة ، فولّى مع بعض فلول جيشه حتى حران وتركها إلى نهر أبي فُطْرس بفلسطين والأردن ، وتبعه عبد الله بن على، وتلقاه بلدان الشام بالتهليل والترحيب إلا ما كان من دمشق ولكنها سرعان ما انقادت له . وبرحها إلى نهر أبي فُطْرس ، فإذا مروان قد آوى إلى مصر ، فأرسل وراءه أخاه صالحًا فما زال يفر أمامه من بلدة إلى بلدة حتى لقي حتفه في بوصير من بلدان الصعيد لأواخر سنة ١٣٢ للهجرة . وكان لا يزال يزيد بن عمر بن هبيرة يقاوم في واسط ، وقد ضُرِب من حوله الحصار ، حتى إذا جاءه نَعي مروان بن محمد أخذ يفاوض العباسيين في التسليم لهم ، وسرعان ما عقدوا له أماناً فتح على إثره أبواب واسط ، غير أنهم عادوا ففتكوا به وبكثيرين ممن كانوا معه[١] .

وتذكر كتب التاريخ والأدب أن العباسيين مضوا يفتكون بأفراد البيت الأموى فتكًا ذريعًا يريدون أن يستأصلوهم من الأرض استئصالاً ، حتى ليتخذ ذلك شكل احتفالات دامية ، وكان أول من بدأها عبد الله بن على إذ دعا في أبي فطرس نحو ثمانين منهم إلى وليمة ، ولم يكادوا يجتمعون لها حتى انبرى بعض الشعراء يحرضونه على الفتك بهم ثأراً للإمام إبراهيم بن محمد ومن قتلوا من العلويين والهاشميين ، فأمر بهم جميعًا أن يُضْرَبوا بالعمد حتى يلقوا حتفهم[٢] نكالا لهم ولآبائهم . وصنع صنيعه بجماعات أخرى منهم السفاح وعماه داود وسليمان[٣] ، وكأنهم لا يريدون أن يبقوا على وجه الأرض أحداً منهم ، وحتى موتاهم لم يفلتوا من هذا العقاب الصارم ، إذ يقال إنه نُبِشت قبور خلفائهم — ما عدا قبرى معاوية وعمر ابن عبد العزيز الخليفة الورع — وحُرِّقت بقايا جثثهم بالنار تحريقًا[٤] . وكان هذا البطش الذى لا يُبْقى ولا يذر دافعاً لعبد الرحمن الداخل حفيد هشام بن عبد الملك إلى أن يلوذ بالفرار إلى الأندلس حيث أسس بها دولة أموية جديدة ظلت نحو ثلاثمائة عام .

وعلى هذا النحو ظفرت الثورة العباسية بالبيت الأموى الذى كانت نفوس الرعية تمتلىء سخطًا وحفيظة عليه لما أذاقهم من الظلم ، ولما حرمهم من الإنصاف

---

(١) طبرى ٦/١٠٤ .
(٢) الطبرى ٦/٩٧ واليعقوبى ٣/٩٢ .
(٣) الطبرى ٦/٩٧ ، ١١١ والأغانى (طبع دار الكتب) ٤/٣٤٤ .
(٤) المسعودى ٣/١٤١ واليعقوبى ٣/٩٣ .

والعدل الاجتماعى ، ولما ازدرى من الحق والواجب . ورأى العباسيون أن يتخذوا من العراق موئلا لخلافتهم ، فعلا نجمه ، بينما هوى نجم الشام إذ أصبحت ولاية تابعة له بعد أن كان يتبعها . واتخذ السفاح — كما أسلفنا — الهاشمية مقر الدولة ، ولم يلبث أبو جعفر المنصور أن اختار قرية صغيرة على الضفة الغربية لدجلة لتكون حاضرة الخلافة ، هى بغداد .

٢

بناء بغداد ثم سامرّاء

رأى أبو جعفر المنصور أن يبتعد بحاضرة دولته عن الكوفة مركز العلويين من قديم حتّى يأمن على نفسه مما قد ينشب فيها من ثورات ، وحتّى يعزل جنده عن أهلها فلا يفسدوهم . وكان مما دفعه إلى ذلك ثورة الراوندية ، وهم نفر من شيعته كانوا يؤمنون بتناسخ الأرواح ، وحدث أن اجتمعوا بالهاشمية هاتفين بأن المنصور ربهم ، فلما خرج إليهم ينهاهم عن سوء معتقدهم تدافعوا إليه كالموج ، وكادوا يفتكون به لولا دفاع معن بن زائدة الشيبانى عنه وحسن بلائه [١] .

ولما انتهت هذه الفتنة رأى المنصور — بثاقب نظره — أن يحوِّل حاضرته من الهاشمية إلى موضع يأمن فيه الفتن ، فبعث بجماعة من أصحابه يرتادون له المكان الذى يبتنى به مدينته المحصنة الجديدة ، وخرج بنفسه يرتاد معهم . وأعجبته بقعة بغداد التى لا تبعد كثيراً عن موقع بابل القديمة ، فأحضر صاحبها وأصحاب القرى المجاورة لها من بطارقة ورهبان ، وأخذ يسألهم عن أحوالها ، فانبرى صاحبها يذكر له أنه يحفُّ بها أربعة طساسيج [٢] : طَسّوجان فى الجانب الغربى هما قُطْرُبُّل وبادوريا ، وطسوجان فى الجانب الشرقى هما : نهر بوق وكَلْواذا ، فإن أجدب طسوج أخصب طسوج ثان . ثم ذكر له قربها من الفرات وما يُحْمل فيه من طرائف الشام والمغرب ومصر ووقوعها على دجلة وما يحمل فيه من متاجر البصرة التى

---

(١) الطبرى ٦/١٤٧ والفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية لابن الطقطقى (طبعة المطبعة الرحمانية بالقاهرة) ص١١٦.

(٢) انظر الطبرى ٦/٢٣٦ وابن الطقطقى ص ١٨ . والطساسيج : جمع طسوج وهو الناحية.

تأتيها من المحيط الهندى وأيضًا ما يحمل فيه من عروض أرمينية والجزيرة والموصل وما وراءه ، وكيف أنها محجوزة وراء دجلة وأمام الفرات وكأنهما سدان منيعان أمام الأعداء ، ثم هى وسط فى سواد العراق وبين مدنه .

حينئذ اعتزم المنصور اتخاذ تلك القرية المسماة ببغداد عاصمة الدولة ، وقد اختلف الباحثون فى أصل اسمها ، فقال فريق إنه اسم فارسى وقال آخرون إنه اسم آرامى[1] ، وسماها المنصور « دار السلام » أخذاً من قوله جلّ وعزّ ، (لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون) وبهذا الاسم كانت تُضْرب النقود العباسية . وقد كانت منطقتها موئلا لحضارات مختلفة إذ كانت تلتقى بها قبل الإسلام الحضارات : الكلدانية والفارسية والآرامية ، وكانت تنبثُ حواليها أديرة كثيرة .

وعُنى المنصور عناية بالغة ببناء حاضرته ، بل قلعته الحصينة ، فأحضر لها المهندسين والفعلة والصناع من أطراف الأرض ، ومثّل لهم صفتها التى فى نفسه ، وهى أن تكون مدوَّرة على شاكلة المدن الفارسية والآشورية القديمة ، ووضع أول لَبِنَة فيها بيده سنة ١٤٥ قائلا : « بسم الله ، والحمد لله ، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » ويقال إنه جلب إليها كثيراً من مواد البناء التى كانت لا تزال قائمة فى المدائن حاضرة الساسانيين . وظل البناء قائمًا بها حتى سنة ١٤٩ .

ويمكن إجمال وصفها فى أنه كان يستدير حولها خندق[2] كبير وسوران شاهقان عريضا الجدران وراءهما سور داخلى مبالغةً فى تحصينها . وفُتح فى كل سور أربعة أبواب متساوية الأبعاد : باب الشام فى الشمال الغربى ويقابله باب البصرة فى الجنوب الشرقى على الصراة التى تأخذ من الفرات وتمضى حتى تتصل بدجلة ، وباب خراسان فى الشمال الشرقى بحذاء دجلة ويقابله باب الكوفة فى الجنوب

---

(١) راجع كتاب بغداد قديما وحديثا لمصطفى جواد وأحمد سوسة (طبع مطبعة المجمع العلمى العراقى) ص ١٧ وما بعدها .

(٢) انظر فى تخطيط بغداد الجزء الأول من تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ومعجم ياقوت ومختصر البلدان لليعقوبى وكتاب بغداد قديماً وحديثاً الآنف الذكر ، وبغداد فى عهد الخلافة العباسية لجى لسترانج ترجمة بشير يوسف فرنسيس (طبع المطبعة العربية ببغداد) وبغداد مدينة السلام لطه الراوى (طبع دار المعارف) .

الغربى . وكان على كل باب خارجى مجلس يُصْعَد إليه على الخيل وقباب مذهبة فى رأسها تماثيل تتجه مع الريح ، وكان بين كل قبتين ثمانية وعشرون برجًا مجهزة بأدوات الدفاع عن المدينة . وبُنِى فى الرحبة الداخلية مسجد كبير ، وبنى بجواره قصر المنصور المسمى باسم قصر الذهب ، وقد أقيم فى صدره إيوان شامخ يتصل بإيوان مثله جُعلت فوقه قبة عظيمة عرفت باسم القبة الخضراء ، وكان يعلوها تمثال فارس بيده رمح ولا يزال الفارس يدور مع الريح . وبنيت دور كثيرة للدواوين والخزائن . وأقطع المنصور قواده كثيراً من القطائع داخلها ، ومن أجل ذلك نُسبت دروبها إليهم ، وأقطع الجند أرباضها كما أقطع أهل بيته أطرافها ، وابتنى لنفسه قصراً صيفيًّا على دجلة وراء باب خراسان سماه « قصر الخلد » . وأجرى الماء إليها فى قناتين بُطِّنتا وغُطِّيتا بخشب الساج حتى لا تلوِّثهما دوابُّ السقائين ، وتعددت فيها وفى ضواحيها بعد ذلك القنوات. وفى سنة ١٥١ أمر المنصور بإنشاء معسكر للمهدى أمامها شرقى دجلة ، جعل له سوراً وخندقًا ، ومن ورائهما قصر الرصافة بناه للمهدى . وسرعان ما أنشأ كبار القواد حول القصر منازل لهم وتكاثرت الأبنية وضُمَّ إليها كثير من الأرباض بحيث أصبح هذا المعسكر شطر بغداد الشرقى . ووصل المنصور بين الشطرين بجسرين كبيرين من السفن . وبذلك اتسعت بغداد فشملت المدينة المدورة فى الغرب والرصافة فى الشرق ، كما شملت أرباضًا ومحالّ كثيرة من أهمها محلة الحربية نسبة إلى حرب أحد قواد المنصور ، ومحلة الكرْخ وبها كانت أسواق التجار ودور الملاهى . ومن محلاتها الشرقية محلة الشماسية ، وبها ابتنى البرامكة كثيراً من قصورهم .

وما لبثت بغداد أن اصبحت أهم مدينة فى العالم العربى ، إذ بنيت بها مئات المساجد وعشرات القصور الفخمة ، وتكاثر بها التجار والصناع ، وكان لكل طائفة منهم شارع خاص أو سوق خاصة ، فهذا سوق العطارين وذاك سوق البزازين ، وهذا سوق الصيارفة مستبدلى النقود وذاك سوق الورّاقين ، وهذا سوق بائعى الحلى والطرف المعدنية وذاك سوق الرقيق المكتظ بالجوارى من كل جنس . وأمَّها المغنون والمغنيات ، ونزلها الأدباء والعلماء من كل صنف وعلى كل لون . فزخرت بالحياة ، تزينها البساتين الملحقة بالدور والقصور والمتنزهات وميادين اللعب بالصولجان وغيره ،

كما تزينها القوارب التى كانت تتلألأ على صفحات دجلة بأشكالها المتنوعة من طيارات وسميريات وحديديات وحراقات وزلالات وجعفريات .

ولم تزل بغداد حاضرة للخلفاء العباسيين حتى استكثر المعتصم فى عسكره من الترك وآذوا العامة بما كانوا يجرون من خيلهم فى الأسواق والشوارع ، فكانوا يرصدونهم ويقتلونهم . حينئذ رأى المعتصم أن يعتزل بجنده فى موضع ناء عن بغداد، حتى يبعد أذاهم عن العامة، ولم يزل يتخير لهم موضعاً حتى انتهى إلى سامراء شرقى دجلة بين بغداد وتكريت ، فأعجبه موقعها ، وكان بها دير كبير فاشتراه من أصحابه ، وأخذ فى بنائها سنة ٢٢١ واختلف الباحثون فى اسمها ، كما اختلفوا فى بغداد ، فقيل هو اسم فارسى ، وقيل : بل هو آرامى[١] . وأمر المعتصم أن تسمى « سُرَّ مَنْ رأى » وبهذا الاسم كانت تضرب النقود العباسية .

وقد أحضر لها المعتصم المهندسين والفعلة والصناع من سائر الأمصار وابتدأ فيها ببناء قصره[٢] المسمى بالجوسق وابتنى بجواره مسجداً كبيراً ، كما ابتنى دوراً مختلفة للدواوين ، وأخرى لقواده ورجال حاشيته وموظفيه الكبار . وابتنى لجنده قطائع فى المَطيرة جنوبيها ، واختطّ فيها الشوارع والدروب ، وأفرد لأهل كل صناعة وتجارة سوقاً خاصة بهم . فارتفع بها البنيان وكثرت العمارة ، ويقال إن المعتصم حمل إليها الساج وسائر الخشب من البصرة والرخام من أنطاكية واللاذقية . وأجرى فيها قنوات تأخذ من دجلة ، وعقد عليه جسراً يصلها بجانبه الغربى ، وأنشأ بها كثيراً من المتنزهات والملاعب . ويقال إنه جلب إليها الغروس من البصرة ومن الشام وخراسان وسائر البقاع .

وظل الخلفاء بعد المعتصم يقيمون بها حتى سنة ٢٧٦ إذ تحولوا منها إلى بغداد ، وكان ذلك سبباً فى أن أسرع الخراب إليها ، فلم يكد يتقدم القرن الرابع الهجرى حتى أصبحت أطلالا ورسوماً إلا ما كان من مسجدها الذى تأنق المعتصم فى بنائه حتى قال المقدسى إنه يفضل مسجد الوليد بن عبد الملك بدمشق فى عمارته، ولا تزال مأذنته الشاهقة قائمة إلى اليوم .

---

(١) انظر بلدان الخلافة الشرقية تأليف لسترانج وترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ص٧٦ ومادة سامراء فى دائرة المعارف الإسلامية.

(٢) راجع فى تخطيط سامراء المرجعين السالفين والمسعودى ٤ / ٩ وكتاب البلدان لليعقوبى ومعجم البلدان لياقوت .

٣

النظم السياسية والإدارية

كان تحول الخلافة من دمشق إلى بغداد على سواعد الجيوش الخراسانية إيذاناً بغلبة الطوابع الفارسية على نظم الحكم السياسية والإدارية للدولة العباسية ، فقد قامت فى المجال الفارسى وعاشت تتنفّس فيه . وقد بلغ الفرس قبل الفتوح الإسلامية مرتبة عالية فى تنظيم الحكم ، حتى لنرى العرب بعد فتح ديارهم يسارعون إلى التأثر بهم فى هذا التنظيم ، فقد روى الرواة أن عمر بن الخطاب اتخذ ديوان العطاء أو ديوان الجند، مقتدياً فيه بصنيع الساسانيين ، يقول ابن الطقطقى : « لما كانت سنة خمس عشرة من الهجرة ، وهى خلافة عمر رضى الله عنه ، رأى أن الفتوح قد توالت وأن كنوز الأكاسرة قد مُلكت وأن الحمول من الذهب والفضة والجواهر النفيسة والثياب الفاخرة قد تتابعت ، فرأى التوسيع على المسلمين وتفريق تلك الأموال فيهم ، ولم يكن يعرف كيف يصنع وكيف يضبط ذلك ، وكان بالمدينة بعض مرازبة الفرس فلما رأى حيرة عمر قال له : يا أمير المؤمنين إن للأكاسرة شيئاً يسمونه ديواناً جميع دَخْلهم وخَرْجهم مضبوط فيه لا يشذ منه شىء، وأهل العطاء مرتبون فيه مراتب لا يتطرق عليها خلل . فتنبّه عمر رضى الله عنه ، وقال : صِفْه، فوصفه المَرْزُبان . ففطن عمر لذلك ودوّن الدواوين وفرض العطاء[1] » .

وكان هذا الديوان الأصلَ الذى تأسست عليه الأداة الحكومية للخلافة الإسلامية . وارتضى عمر لولاته فى الشرق أن يستعينوا فى جمع الخراج بنفس عمّال الفرس الذين كان يستعين بهم الساسانيون فى جمع الضرائب وهم المسمون بالدهاقين لخبرتهم التامة بكل الشئون المتصلة بهذا الجمع ، وخاصة من حيث تقدير الخراج . وبذلك استمرت فى أيدى هؤلاء الدهاقنة سجلاّت الخراج الإسلامى ، وظلوا يكتبونها بالفارسية حتى أمر عبد الملك بن مروان بتعريبها فى العراق ، كما أمر بتعريب الدواوين الرومية فى الشام ومصر . وصدع الحجاج واليه على العراق بأمره فعرّبها ،

---

(١) ابن الطقطقى ص ٦٠ .

غير أنها ظلت لا تعرَّب فى خراسان حتى سنة ١٢٤ وهى السنة التى أمر فيها نصر ابن سيار بتعريبها هناك .

وعلى هذا النحو استعان العرب منذ أوائل الفتوح فى العراق وخراسان بدهاقنة الفرس فى إدارة شئون الخراج وجبايته . ولم يتوسع عمر فى الاقتباس من نظام الحكم الساسانى ، فإنه لم يتعدَّ فى اقتباسه ديوان العطاء ، أما نظام الحكم الوراثى الذى كان متبعًا عند القوم فإنه لم يخطر بباله ، إذ أبقى الخلافة على أساس شورىّ انتخابى تؤخذ فيه البيعة للخليفة ، حتى إذا كان عهد معاوية رأيناه يتأثر هذا النظام ، فيجعل الخلافة وراثية فى بيته ، وتبعه على ذلك مروان بن الحكم وأبناؤه . وتوسع معاوية بجانب ذلك فى التأثر بنظم الدواوين الفارسية ، فاتخذ ديوانًا للخاتم وديوانًا للرسائل محاكيًا بذلك الدواوين الساسانية .

وإذا انتقلنا إلى العصر العباسى وجدنا النظم الساسانية تنتقل بحذافيرها فى كل شئون الحكم ، وكأنما أصبح الخليفة العباسى ملكًا ساسانيًّا ، فهو يحكم حكما مطلقًا وهو حكم ينتقل بالوراثة ويطبعه الدين كما كان يطبع الحكم الساسانى ، إذ كان الساسانيون يعدون أنفسهم رؤساء للدين وحُماة له وحُرَّاسًا . وكان العباسيون من بيت النبوة ، فكانوا يعدون أنفسهم ورثة الخلافة الشرعيين ، واتخذوا من علماء الفقه والكلام سنداً لهم فيما يزعمون ، وهو زعم باطل ، لأن الولاية العامة على المسلمين لا تورث ، وإلا ورثها العباس عم الرسول بعده ، ولم يرثها أبو بكر الصديق ، وحتى الأموال والأعيان التى تركها الرسول لا تورث ، لما صح فى الحديث النبوى من قوله عليه السلام : « إنا معشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه فهو صدقة». وإذا كان هذا الإرث ممنوعًا فى الأعيان والأموال فمنعه فى ولاية الأمة ألزم وأوجب ، إذ ينبغى أن يتولاها الكفء الصالح على نحو ما تولاها أبو بكر وعمر .

ومهما يكن فقد أقام العباسيون خلافتهم على أنهم أحق الناس بإرث الرسول ، ومضوا يحيطون أنفسهم بهالة كبيرة من التقديس كان لها أسوأ الأثر فى خنوع الناس وخضوعهم للظلم والفساد ، ونعجب أن نرى الفقهاء والأتقياء الذين كانوا يعارضون بنى أمية ويعدونهم دنيويين ظالمين ينصاعون انصياعًا أعمى للعباسيين ويعدّونهم رؤساء شرعيين للأمة من الناحيتين الزمنية والروحية .

وقد أخذ العباسيون يلقون — على شاكلة الساسانيين — فى وعى الناس أنهم أصحاب حق إلهى فى الحكم فهم « سلطان الله فى أرضه[1] » . وأحاطوا أنفسهم — على مثالهم — بنظام تشريفات معقد ، مختفين عن أعين الناس وراء أستار صفيقة ، ومتخذين كثيرين من الحُجَّاب أو رؤساء التشريفات . وبذلك لم يعد العرب يدخلون على الخلفاء كلما أرادوا كما كان الشأن فى عصر بنى أمية ، بل لا بد لهم قبل الدخول عليهم من استئذان هؤلاء الحجاب ، وكانت كثرتهم من الأعاجم الذين احتكروا لأنفسهم أكثر شئون الحكم . وكان الخليفة يستقبل مَنْ يدخل عليه وكبير حُجَّابه فى جانب ، وفى جانب آخر كبير حراسه المعروف باسم الجلاد[2] والنِّطْع دائماً أمامه ، فمن غضب عليه أطاح برأسه توًّا .

وبذلك أصبحنا إزاء حكم استبدادى أشد ما يكون الاستبداد ، حكم لا يُحْسَبُ فيه أى حساب للرعية ، فهى أدوات مسخرة للحاكم ، وليس لها من الأمر أى شىء ، فنى يده كل الأمر وكل السلطان ، يولى الولاة والقضاة والوزراء والقواد وأصحاب الشرطة والمحتسبين الذين يراقبون الأسواق ، ويعزلهم جميعاً ، حسب مشيئته وهواه . وكان يختار الوالى غالباً من أهل بيته أو من أكفاء حاشيته وخاصة الأعاجم ، وكذلك كان يختار قواده . ومن البيوت العربية التى لمعت فى العصر بيت المهلبيين وبيت معن بن زائدة الشيبانى .

واتسع الخلفاء فى محاكاة الدواوين الساسانية ، وكان فى كل ولاية ديوان للخراج يقوم عليه موظف كبير ينفق منه على الولاية ويرسل ما تبقى من الأموال إلى بغداد حيث كان بها لكل ولاية ديوان خاص ، ويسمى مجموع هذه الدواوين باسم ديوان الزمام أو بيت المال ، وقد ولَّى عليه السفاح خالد بن برمك كما ولاه على ديوان الجند[3] الذى كان يُعْنَى برواتبهم . وكان لدار الخلافة ديوان خاص يقوم على نفقاتها . ومن أهم الدواوين ديوان الرسائل الذى لعب دوراً خطيراً فى نهضة النثر العربى ، وكانت تصدر عنه رسائل الخلفاء . وكان بجواره ديوان الخاتم الذى تُخْتَمُ فيه تلك الرسائل بعد مراجعتها ، وديوان التوقيع وهو خاص بالنظر

---

(١) طبرى ٦/٣٣١ .

(٢) البيان والتبيين (طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٢/٣٢٩ .

(٣) كتاب الوزراء والكتاب للجهشيارى (طبعة الحلبى) ص٨٩ .

فى المظالم ورقاع أصحاب الشكوى وكانوا يسمونها باسم القِصص، وكان من عادة ملوك الفرس ووزرائهم أن يوقعوا عليها بعبارات موجزة بليغة ، فجاراهم خلفاء بنى العباس ووزراؤهم فى هذا الصنيع .

وكان هناك ديوان كبير على رأسه صاحب الخبر ، وكانت تأتيه أخبار الولايات بواسطة موظفين مهمتهم أن يوافوه بكل ما يجرى فى الولايات من أحداث وأسعار ، وهم يشبهون — فى عصرنا — أدق الشبه مراسلى الصحف ومندوبيهم . وكانوا يُحْصُون كل كبيرة وصغيرة للوالى ومَنْ وراءه من قواد الجيش والقضاة وعمال الخراج والمحتسبين ورجال الشرطة ويبلغونها إلى صاحبهم ، وهو بدوره يبلغها إلى الخليفة[1] . وقد أحكم هذا النظام للبريد إحكامًا دقيقًا ، فكان هناك رسل موقوفون على حَمْل تلك الأخبار فى سرعة شديدة على خيل مضمرات توجد فى عدة أماكن على الطرق الممتدة من الولايات إلى بغداد . وقد أُلِّفت من أجلهم كتب المسالك والممالك المشهورة لابن خرداذبة وغيره ، وهى كتب تفيض بوصف الأحوال الجغرافية والاقتصادية لولايات الدولة وبلدانها المختلفة فى المشارق والمغارب .

وليس هذا كل ما أخذه العباسيون عن ملوك بنى ساسان من النظم الإدارية والسياسية ، فقد أخذوا عنهم أيضًا نظام الوزارة ، وكلمة وزير عربية فقد وردت فى القرآن الكريم يقول جَلَّ شأنه على لسان موسى : (واجْعَلْ لى وزيراً من أهلى هرون أخى) ومعناها فى الآية الكريمة المؤازر والمساعد ، غير أنها أخذت تُطْلَقُ منذ فاتحة العصر العباسى على المستشار الأول للخليفة فى إدارة شئون دولته . وهى وظيفة كانت معروفة فى الدولة الساسانية ، إذ كانوا يقيمون — لاحتجابهم عن الرعية — وسطاء يصرِّفون أمور الدولة ويرسمون سياستها ويعيِّنون موظفيها ، ومن أشهرهم بُزُرْجِمِهْر وزير أنوشروان الذى عُرِف بحكمته وحنكته . وكأن العباسيين رأوا أن يجاروهم فى هذا النظام ، فاتخذوه لأول مرة فى تاريخ الخلافة العربية ، وأطلقوا على صاحبه اسم الوزير ، يقول ابن الطقطقى : « الوزير وسيط بين الملك ورعيته ، فيجب أن يكون فى طباعه شطر يناسب طباع الملوك ، وشطر يناسب طباع العوام ، ليعامل كلا من الفريقين بما يوجب له القبول والمحبة والأمانة ...

---

(١) انظر الطبرى ٦/٣٣٦ .

والوزارة لم تتمهد قواعدها وتتقرر قوانينها إلا فى دولة بنى العباس ، فأما قبل ذلك فلم تكن مقنّنة القواعد ولا مقررة القوانين ، بل كان لكل واحد من الملوك أتباع وحاشية ، فإذا حدث أمر استشار ذوى الحِجَى والآراء الصائبة ، فكل منهم يجرى مجرى وزير . فلما ملك بنو العباس تقررت قوانين الوزارة وسُمى الوزير وزيراً وكان قبل ذلك يسمّى كاتباً أو مشيراً »[١] .

وقلما نجد للعباسيين وزيراً غير فارسي ، وهو شيء طبيعي ، إذ كانوا هم الذين يستأثرون بشئون الخلافة ويرقون إلى أعلى المناصب ، وقد أحكموا للعباسيين هذا النظام وصاغوه صياغة على قوانينه الساسانية .وأول من اتخذه العباسيون وزيراً منهم أبو سلمة الخلاَّل حتى إذا قَضَى نَحْبه اتخذ السفاح بعده خالد بن بَرْمك ، وكان قد جَلّى تحت لواء أبى مسلم فى حروبه ضد بنى أمية ، وأظهر بسالةً وحُنْكة حربية . وهو ينحدر من أسرة كانت تقوم على سدانة معبد النوبهار البوذى فى بَلْخ . واتصلت وزارته فى عهد المنصور وناط به حكم بعض الولايات وقيادة بعض الجيوش فأظهر كفاءة نادرة ، ووَلِيَ ابنه يحيى أذربيجان فنهض بولايتها خير نهوض . ووَلِيَ المهدى بعد أبيه المنصور ، فاستدعى يحيى إلى بغداد ووصله بابنه هرون كاتباً له ومستشاراً ، وتوفّى المهدى وولى بعده ابنه الهادى ، فحاول أن يخلع أخاه هارون عن ولاية العهد ، غير أن يحيى البرمكى عرف بسعة حيلته كيف يصرفه عن فكرته ، وكان لذلك وقع حسن فى نفس الرشيد ، حتى إذا صارت الخلافة إليه خاطبه بالأبوة إجلالا له قائلا : « يا أبتِ أنت أجلستنى هذا المجلس ببركة رأيك وحسن تدبيرك وقد قلّدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقى إليك فاحكمْ بما ترى واستعملْ مَنْ شئت واعزلْ من رأيتَ ، وافرضْ (اعط راتباً) لمن رأيت ، وأسقطْ من رأيت ، فإنى غير ناظر معك فى شيء »[٢] ودفع إليه خاتم الخلافة ، فصار بيده الحَلُّ والعَقْد ، فقلّد ابنه الفضل المشرق كله من النَّهروان إلى أقصى بلاد الترك ، وقلّد ابنه جعفراً المغرب كله من الأنبار إلى إفريقية[٣] . وشخص الفضل إلى عمله فأزال ما وقع على الناس من ظلم وبنَى الحياض

---

(١) ابن الطقطقى ص ١١٠ وما بعدها .
(٢) الجهشيارى ص١٧٧والمسعودى٣/٢٥٧.
(٣) الجهشيارى ص ١٩٠ .

والمساجد وزاد فى عطاء القواد والجند ، أما جعفر فأقام بحضرة الرشيد وأرسل نُوَّابًا عنه إلى أقاليم ولايته ، إذ كان الرشيد لا يطيق صبراً على بعده عنه .

وظل يحيى البرمكى وابناه جعفر والفضل يلون أمور الدولة سبعة عشر عامًا كانوا هم المتصرفين أثناءها فى جميع شئونها ، وأتاح ذلك لهم أن يصبغوها بصبغة فارسية خالصة ، حتى إذا كانت سنة سبع وثمانين ومائة نكبهم الرشيد نكبتهم المشهورة ، إذ أمر بقتل جعفر وحبس أبيه وإخوته ما عدا محمدًا ، ومات يحيى والفضل ابنه محبوس . واختلف المؤرخون وأصحاب السير فى هذه النكبة ، فردَّها بعضهم إلى أسباب شخصية ، وردَّها ثانون إلى أنهم جردوا الرشيد من كل سلطان وكل أمر ونهى ، وردَّها ثالثون إلى أن الرشيد وقف على ما كانوا يبطنونه من الزندقة ، ويظهر أن سببها الحقيقى يرجع إلى إطلاق جعفر لعلوى ثائر من محبسه ، هو يحيى ابن عبد الله ، كان قد استأمنه الرشيد عليه ، فلم يوفِّ أمانته[1] .

ونمضى إلى عصر المأمون فنجد أسرة بنى سهل الفارسية تتقلد منصب الوزارة له ، وتمكّن بدورها للتقاليد الفارسية فى الحكم ، وكان أول من وليها منهم الفضل ابن سهل الملقب بذى الرياستين : رياسة السيف والقلم ، وكان قهرماناً ليحيى بن خالد البرمكى يلى شئون بيته ، أما أبوه سهل فكان مجوسيًّا وأسلم . وقد لزم المأمون منذ حياة أبيه الرشيد ودبّر أموره حتى أفضت الخلافة إليه فاستوزره ، ويروى الرواة أنه كان إذا دخل عليه وهو لا يزال بمرو « يجلس على كرسى مجنَّح ويُحْمَل فيه ، فلا يزال يحمل حتى تقع عين المأمون عليه ، فإذا وقعت وُضع الكرسى ونزل عنه ، فمشى . وحُمل الكرسى حتى يوضع بين يدى المأمون ، ثم يسلِّم ، ويعود فيقعد على الكرسى . وإنما ذهب ذو الرياستين فى ذلك إلى مذهب الأكاسرة فإن وزيراً من وزرائها كان يُحْمَلُ فى مثل ذلك الكرسى ويقعد بين أيديها عليه »[2] .

فحتى تقاليد وزراء الساسانيين فى دخولهم على الأكاسرة وجلوسهم بين أيديهم كانت تُحاكَى محاكاة دقيقة . وكان من رَسْم ملوك الفُرْس أن يلبس أهل كل طبقة ممن فى خدمتهم لِبْسةً لا يلبسها أحد ممن فى غير تلك الطبقة ، فإذا وصل الرجل

---

(١) انظر الطبرى ٦/٤٨٤ وما بعدها والمسعودى ٣/٢٨٤ والجهشيارى ص ٢٠٦ ، ٢١٣ ، ٢٢٤ ، ٢٤٣ ، ٢٥٤ وابن الطقطقى ص ١٥٦ .

(٢) الجهشيارى ص ٣١٦ .

إلى الملك عرف بلبسته صناعته والطبقة التى هو فيها» (١) . وطبّق العباسيون هذا الرسم على موظفيهم تطبيقاً دقيقاً حكاه الجاحظ إذ يقول : « ولكل قوم زِىٌّ ، فللقضاة زِىٌّ ، ولأصحاب القضاة زِىٌّ وللشرَط زِىٌّ ، وللكتّاب زِىٌّ ، وللكتّاب الجند زِىٌّ . . . وأصحاب السلطان ومن دخل الدار على مراتب ، فمنهم مَنْ يلبس المبطّنة ، ومنهم من يلبس الدُّرّاعة(٢) ، ومنهم من يلبس القباء(٣) ، ومنهم من يلبس البازيكند(٤) ويعلق الخنجر ويأخذ الجُرْز(٥) ويتخذ الجُمّة»(٦) . وكان الفقهاء يلبسون المبطّنة والطيلسان(٧) والقلانس (٨)

فتقاليد الساسانيين حوكيت حتى فى أزياء رجال الحاشية والموظفين وطبقاتهم ، وكان ما دخل منها فى شئون الحكم أقوى قوة ، مما دفع كثيرين من الفرس إلى ترجمة الكتب التى تصورها عن لغتهم ، وعملُ ابن المقفع فى هذا الميدان ذائع مستفيض ، فقد نقل إلى العربية طائفة من الكتب والرسائل التى تتصل بالحكم الساسانى ورسومه من مثل كتاب « آيين نامه » ومعنى آيين النظم والتقاليد . ولم يقف عمله فى هذا الصدد عند الترجمة ، فقد نقل فى رسائله القصيرة والطويلة كثيراً من وصايا الفرس فى السياسة والحكم على نحو ما يلقانا فى رسائله المعروفة باسم « الأدب الصغير » و« الأدب الكبير » و« رسالة الصحابة » وهو يريد بهم صحابة السلطان وحاشيته . وقد بعث البرامكة وبنو سهل — بعد ابن المقفع — المترجمين على نقل كثير من الكتب والرسائل التى تحمل تقاليد الساسانيين فى الحكم والسلطان وحقاً فُقدت الكثرة الكثيرة من هذه الكتب ، ولكن بقيت منها نصوص وفيرة تلقانا فى حديث الطبرى عن الفرس فى أوائل تاريخه الكبير وفى مقدمة كتاب الوزراء والكتاب للجهشيارى وفى عيون الأخبار لابن قتيبة . ولعلنا لا نغلو بعد ذلك كله إذا قلنا إن النظم السياسية والإدارية فى الدولة العباسية طُبعت بطوابع فارسية

(١) الجهشيارى ص ٣ .
(٢) الدراعة : جبة فارسية .
(٣) القباء : ثوب فارسى قصير .
(٤) البازيكند : كساء يلقى على الكتف .
(٥) الجرز : آلة من حديد يضرب بها .
(٦) البيان والتبيين ١١٤/٣ والجمة : مايسقط على المنكبين من الشعر .
(٧) أغانى (طبع دار الكتب) ٣٦٠/٥ . والطيلسان : ثوب فارسى .
(٨) أغانى ٢٩١/٦ والقلانس : جمع قلنسوة وهى غطاء فارسى للرأس .

قوية ، تحولت فى أثنائها الخلافة ملكاً كسرويًّا يقوم على الاستبداد والقهر والبطش الذى لا يعرف رفقًا ولا لينًا .

٤

العلويون والخوارج

مرَّ بنا فى غير هذا الموضع أن العباسيين ظلوا طوال دعوتهم السرية يدعون للرضا من آل البيت ، لكى لا يصطدموا بأبناء عمهم العلويين ، وأيضًا فإنهم أرادوا أن يثبِّتوا الأصل الذى تعتمد عليه خلافتهم المبتغاة وهو ميراثها عن الرسول ، فهى حق شرعى لآل بيته ، وقد تحدثنا آنفًا عما فى هذا الأصل من فساد ، لأن الرسول لا يورث فى ماله فضلا عن الولاية العامة للمسلمين .

ولم يكد العباسيون يستوون على مقاليد الخلافة ، حتى أخذ العلويون يشيعون فى الناس أنهم اغتصبوها منهم ، فهم ورثتها الحقيقيون ، إذ هم أبناء بنت الرسول : فاطمة ، وأبناء على ابن عمه . وردَّ عليهم العباسيون بأنه ينبغى أن يُرْجَع فى ذلك إلى أصل حكم الله فى المواريث ، وما فُرِض فيها من حَجْب العم لابن العم وحرمان ابن البنت من ميراث جده لأمه ، فهم يُدْلون للرسول بعمه العباس الذى آل إليه ميراثه ، وهم لذلك أولو الأمر وأهله «خُصُّوا برحم رسول الله وقرابته ونشأوا من آبائه ونبتوا من شجرته »[1] . وإذا كان العلويون يزعمون أن الرسول نَصَّ على إمامة على بن أبى طالب بعده وأن أبناءه ورثوا منه إمامته فقد زعم العباسيون أن الرسول قال لجدهم العباس : إن الخلافة تكون فى ولدك[2] .

وأخذت الخصومة تشتد بين الفرعين الهاشميين فى أيهما أقرب إلى الرسول وأمسّ به رحمًا وأيهما أحق بميراث ولايته على الأمة ، وسرعان ما أخذ المنصور يرصد العلويين فى دارهم : المدينة ، ويضيق الخناق عليهم . وترامت إليه الأنباء بأن محمد بن عبدالله سليل الحسن بن على بن أبى طالب الملقب بالنفس الزكية يبث الدعاة له فى الحجاز والعراق ، فأمر عامله على المدينة أن يجدّ فى طلب العلويين ، وحجّ ، فقبض على

(١) انظر خطبة السفاح بعد بيعته فى الطبرى ٨٢/٦ .

(٢) ابن الطقطقى ص ١٠٣ .

جماعة منهم ، وأوثقهم بالحديد ، وحملهم معه إلى الحيرة ، وهناك ألقى بهم فى سرداب تحت الأرض عند قنطرة الكوفة لا يعرفون ليلا ولا نهاراً حتّى ماتوا جميعاً . ولا نصل إلى شهر رجب من سنة ١٤٥ حتّى يعلن محمد بن عبد الله ثورته[1] ويغلب على المدينة وكان يحيى بن زيد بن على زين العابدين قد فوّض له الأمر من بعده[2] ، وأخيراً رأى إعلان الثورة على المنصور ، وهى أول ثورة للزيدية . ويفزع المنصور فيكتب إليه كتاباً يعرض عليه فيه الأمان له ولأهله وأن يعطيه ألف ألف درهم وينزل على أى بلد شاء . ويردّ عليه محمد بكتاب طويل يصور فيه اغتصابهم للخلافة من دون أصحابها الشرعيين فى رأيه قائلا : « إن الحق حقنا وإنكم إنما طلبتموه بنا ونهضتم فيه بشيعتنا . . وإن أبانا علياً كان الوصى والإمام فكيف ورثتموه دوننا ونحن أحياء . . وإن الله تبارك وتعالى لم يزل يختار لى ، فولدنى من النبيين أفضلهم محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن أصحابه أقدمهم إسلاما وأوسعهم علماً وأكثرهم جهاداً على بن أبى طالب ، ومن نسائه أفضلهن خديجة بنت خُوَيْلد أول من آمن بالله وصلّى للقبلة ، ومن بناته أفضلهن وسيدة نساء أهل الجنة » . ولم يكد المنصور يقرأ هذا الكتاب حتّى ردّ عليه بكتاب نقض فيه حجج النفس الزكية نقضاً قائلا : « بلغنى كلامك فإذا جُلّ فخرك بالنساء لتُضِلّ به الجُفاة والغوغاء ولم يجعل الله النساء كالعمومة ولا الآباء كالعصبة[3] . . وإنكم بنو ابنة رسول الله وإنها لقرابة قريبة ، غير أنها امرأة لا تحوز الميراث ، ولا يجوز أن تؤمّ (فى الصلاة) فكيف تورّث الإمامة من قِبَلها . . وأفضى أمر جدك إلى أبيك الحسن ، فسلّمه إلى معاوية بخِرَقٍ ودراهم ، وأسلم فى يديه شيعته . . فإن كان لكم فيها شىء فقد بعتموه . . ولقد خرج منكم غير واحد ، فقتلكم بنو أمية وحرّقوكم بالنار وصلبوكم على جذوع النخل حتّى خرجنا عليهم فأدركنا بثأركم إذ لم تدركوه ، ورفعنا أقداركم ، وأورثناكم أرضهم وديارهم . . ولقد علمت أنه توفى رسول الله صلّى

(١) انظر فى ثورة النفس الزكية الطبرى ١٨٣/٦ واليعقوبى ١١٠/٣ والمسعودى ٢٢١/٣ وابن الطقطقى ص ١٢٠ .

(٢) راجع الملل والنحل للشهرستانى (طبع لندن) ص ١١٧ .

(٣) العصبة : الذين لا يرثون إلا مما بقى من أصحاب الفروض ، يشير إلى أن جده العباس يحجب ابن أخيه على بن أبى طالب .

الله عليه وسلم وليس من عمومته أحد إلا العباس فكان وارثه دون بنى عبد المطلب»[١].

ولما لم تُجْد المفاوضة أرسل المنصور إلى النفس الزكية جيشاً بقيادة ابن أخيه عيسى بن موسى ، فالتقى به وبمن معه قرب المدينة ، واحتدم القتال ، فانهزم الناس عن النفس الزكية ، وأحيط به فلم يستسلم ولم يلق السلاح ، بل قاتل حتى قُتل واحتُزّ رأسه وحُمل إلى المنصور . وكان أخوه إبراهيم قد مضى يدعو له فى البصرة وكثرت جموعه فاستولى عليها ، وأذعنت له فارس وعظم خطره . وعاد عيسى بن موسى من الحجاز ، فوجهه المنصور إلى إبراهيم فالتقى به وبجموعه عند « باخَمْرَا » بالقرب من الكوفة ، وسرعان ما دارت على إبراهيم الدوائر ، فقُتل ولاذت جموعه بالفرار ، وأُخذ كثير من العلويين فألقى بهم فى غياهب السجون[٢].

وإذا كان المنصور قضى على هذه الثورة العنيفة للعلويين فى أيامه فإنه لم يقض على التشيع ، بل لقد أخذ يزداد مع الأيام سرًّا وجهراً ، وأخذت فرقه تتكاثر ، وأهمها حينئذ الزيدية والإمامية ، أما الزيدية فكان مقرها البصرة حيث التحمت بالاعتزال ، وأما الإمامية فكان مقرها الكوفة ، وبذلك ورثت ما كان فيها من تراث شيعى ، وقد انقسمت بمرور الزمن إلى فرق كثيرة أهمها الإسماعيلية والإثناعشرية .

والإسماعيلية نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ، وكان قد توفى فى حياة أبيه فقالوا إن الإمامة انتقلت منه إلى ابنه محمد ، لأنها تنتقل حتما إلى الابن الأكبر حتى لو مات فى عهد أبيه كما مات إسماعيل. ويتلو محمداً — عندهم — أربعة أئمة مستورون يعقبهم عبيد الله المهدى رأس الدولة الفاطمية . ومنهم خرجت شعبة القرامطة فى البحرين . أما الاثنا عشرية فذهبت إلى أن الإمام بعد جعفر الصادق هو ابنه موسى الكاظم الذى عاش بعده ، وسموا بالإثنى عشرية لأن الإمامة تتوالى — عندهم — فى اثنى عشر إماماً هم : على فالحسن فالحسين فابنه على زين العابدين ، فمحمد الباقر فجعفر الصادق المتوفى بالمدينة سنة ١٤٨ فموسى الكاظم المتوفى فى سجن الرشيد سنة ١٨٣ فعلى الرضا المتوفى سنة ٢٠٣ فمحمد الجواد المتوفى سنة ٢٢٠ فعلى

(١) انظر فى هذين الكتابين المتبادلين بين المنصور والنفس الزكية الكامل للمبرد (طبعة رايت) ص ٧٨٦ والطبرى ١٩٥/٦ .

(٢) راجع فى مقتل إبراهيم وحربه الطبرى ٢٥٠/٦ واليعقوبى ١١٢/٣ والمسعودى ١٢٢/٣ وابن الطقطقى ص ١٢٢ .

الهادى ، فالحسن العسكرى ، فمحمد المهدى المنتظر المتوفى حوالى سنة ٢٦٠ وقد ذهبوا إلى أنه غاب وسيعود فيملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً ، ولما لم يكن له ولد توقفت هذه الفرقة عنده . ومن المهم أن نعرف أنها كانت تعتنق — مثل فرقة الإسماعيلية — التقية ، فلم تجنحا إلى ثورة علنية ضد العباسيين فى هذا العصر ، وكأنما تركا ذلك لأبناء الحسن بن على بن أبى طالب من مثل النفس الزكية وكانوا يعتنقون نظرية الزيدية .

والعجب العاجب أن نرى جمهور المسلمين فى هذا العصر لا يعودون بالخلافة إلى نظام الشورى وأن تصبح حقًّا للأمة ، فقد ضللتهم دعاية البيت الهاشمى وجعلتهم يقتنعون بأنها ميراث آلَ إليهم من الرسول ، وانقسموا إزاء ذلك إلى معسكرين كبيرين : معسكر عباسى بيده مقاليد الحكم ، ومعسكر علوى يحاول الوصول إلى الحكم ، وبذلك انتكست الأمة صورتين من الانتكاس : صورة سياسية إذ شُغلت بحروب وفتن داخلية ما زالت تنخر فيها حتى توزعت دولا ، ولو أنها لم تُشْغل بها وظلت لها وحدتها لفتحت أكثر العالم ولتغير وجه التاريخ . وصورة اجتماعية إذ نظر الناس إلى الخليفة على أنه وريث شرعى وأن حقه فى الخلافة مقدس ، ولو بغى وطغى وظلم ، وعليهم دائمًا طاعته مهما أشاع من الطغيان والفساد . ومن غير شك تقع على الفقهاء تبعة ذلك ، إذ كان من الواجب عليهم أن يوضحوا للناس نظرية الإسلام الحقيقية فى الخلافة وأنه لا يجعلها وراثية فى بنى هاشم بل يقيمها على الشورى ليتولاها الأجدر بها . وبذلك أخذ الصحابة الأولون فى تولية أبى بكر وعمر وعثمان ، فأجدر المسلمين كفء للخلافة سواء أكان من البيت الهاشمى أو غيره ، وسواء أكان من بيت شريف أم بيت مشروف ، فالعبرة بالجدارة والكفاءة لا بالنسب . وشىء من هذه التبعة يقع على عاتق المتكلمين ، وحقًّا إنهم عُنوا بالرد على الزنادقة والملاحدة والدهريين ، ولكنهم قلما عنوا بالتفكير فى المصلحة العامة للأمة والخروج بالخلافة من نطاق فكرة الميراث إلى نطاق فكرة الشورى بحيث تختار الأمة الخليفة الصالح دون نظر إلى هاشميته أو قرشيته .

وقد ظل العلويون يقاومون العباسيين سرًّا وجهراً ، وظل أتباعهم يزدادون ، والعباسيون يرصدونهم جميعًا ، فمن حدثته نفسه بالثورة أو الفتنة قُتل أو زُجَّ به

فى السجون . وكان بعض شيعتهم يصل إلى أرفع مناصب الدولة ، فما هى إلا أن تُعْرف سريرته حتى يُنْكَبَ فتصادر أملاكه ويلقى به فى غياهب السجون أو يقتل ويصلب نكالا لأمثاله . وأول ما يلقانا من ذلك بعد المنصور إيقاع المهدى بوزيره يعقوب بن داود حين علم بإطلاقه — وكان زيدى الهوى — أحد العلويين من السجن وردّ حريته إليه ، فقد ألقى به فى السجن وظل سجينًا إلى أن شفع له يحيى البرمكى عند الرشيد فأمر بإطلاقه[١] .

وفى عصر الهادى خرج الحسين بن على سليل الحسن بن على بن أبى طالب فى مكة والحجاز ، فلقيه ومَنْ معه جيش عباسى بالقرب من مكة ، فى مكان يقال له « فخ » وقاتل قتالاً عنيفًا حتى قُتل ، وقُتل معه كثيرون من أنصاره ، وظلوا فى العراء حتى أكلتهم السباع والعقبان[٢] . وهرب خاله إدريس بن عبد الله بن الحسن أخو النفس الزكية إلى المغرب ، فغلب على فاس وأسس بها دولة الأدارسة[٣] . وهرب أيضًا خاله يحيى بن عبد الله إلى خراسان ، وما زال الرشيد يتعقبه حتى طلب منه الأمان ، فأجابه إلى طلبه وقدم عليه ، فدفعه إلى جعفر بن يحيى البرمكى وأمره بحبسه ، فحبسه ، ورقّ له فأطلقه دون إذن الرشيد[٤] مما كان سببًا فى نكبته ونكبة أسرته كما أسلفنا ، ووقع يحيى فى يد الرشيد ثانية فسجنه حتى مات . واعتقل الرشيد موسى الكاظم بن جعفر الصادق الإمام السابع عند الشيعة الإثنى عشرية ، وظل فى السجن إلى وفاته[٥] .

ونمضى إلى عصر المأمون فيخرج عليه قبل انتقاله إلى بغداد إبراهيم بن موسى سليل الحسين بن على بن أبى طالب باليمن وتعظم ثورته ويقضى عليه[٦] . ويخرج محمد بن جعفر الصادق بمكة ، وسرعان ما يؤخذ فيعفو عنه المأمون[٧] . ويخرج بالكوفة أبو السرايا داعيًا لمحمد بن إبراهيم سليل الحسن بن على بن أبى طالب

---

(١) الجهشيارى ص١٥٩ والطبرى٦/٣٨٤.

(٢) اليعقوبى ٣/١٣٧ والطبرى ٦/٤١٠ والمسعودى ٣/٢٤٨ والنجوم الزاهرة ٢/٥٩ .

(٣) اليعقوبى ٣/١٣٧ والطبرى ٦/٤١٦ والمسعودى ٣/٢٢٢ والنجوم الزاهرة ٢/٤٠ ، ٥٩ .

(٤) اليعقوبى ٣/١٤٠ والجهشيارى ص١٩٠ والطبرى ٦/٤٥٠ ، ٤٨٥ والمسعودى٣/٢٦٢ وابن الطقطقى ص١٤٤ والنجوم الزاهرة٢/١١٥.

(٥) اليعقوبى ٣/١٤٥ والمسعودى ٣/٢٦٥ وابن الطقطقى ص١٤٥ والنجوم الزاهرة٢/٧٢.

(٦) الطبرى ٧/١٢٣ .

(٧) الطبرى ٧/١٢٥ وابن الطقطقى ص١٦٥ .

المعروف بابن طباطبا ويقضى على ثورته قضاء مبرماً[١] . وكان المأمون حر الفكر ويظهر أنه كان يأسى لما أصاب أبناء عمه العلويين فى دولتهم ، واستغل ذلك فيه وزيره الفضل بن سهل ، وكان فيه تشيع لهم ، فزيَّن له — وهو بمرو — أن يعهد بالخلافة من بعده إلى على الرضا بن موسى الكاظم الإمام الثامن فى ترتيب الشيعة الإثنى عشرية وكان مثالا للتقوى والورع وكان المأمون يبجِّله ويعظمه ، فاستصوب رأى وزيره وجعله ولىّ عهده من بعده ،وكتب بذلك إلى الآفاق ، وأمر بخلع السواد شعار العباسيين ولُبْس الخضرة شعار العلويين [٢] . ولم يكد يصل هذا الصنيع إلى العباسيين ببغداد حتّى وجدوا على المأمون موجدة شديدة ، جعلتهم يسارعون إلى خلعه والبيعة لعمه إبراهيم بن المهدى . وأحسّ أن الأمر يوشك أن يخرج من يده ، فتجهّز للمسير إلى بغداد ، وفى طريقه بطوس توفِّى على الرضا ، فلم يتخذ وليًّا لعهده من العلويين ، بل عاد إلى بنى العباس واغتيل حينئذ الفضل بن سهل .

وما إن وصل إلى بغداد حتّى اختفى عمه إبراهيم وظل مستخفياً مدة حتّى عفا عنه . وعاد ثانية إلى لبس السواد ، وظل يعطف على أبناء عمه العلويين ، على الرغم من خروجهم عليه مرارًا[٣] ، وكان مما وثّق هذا العطف فى نفسه ثمامة بن أشرس النمرى مقدم المعتزلة فى مجالسه ، وكان شيعى الهوى ، ولعله هو الذى دفعه إلى أن يأمر مناديًا ينادى فى الناس سنة ٢١١ : «برئت الذمة ممن ذكر معاوية بخير أو فضَّله على أحد من الصحابة ،وإن أفضل الخلق بعد رسول الله صلّى الله عليه وسلم على بن أبى طالب رضى الله عنه »[٤] وأيضًا لعله هو الذى دفعه إلى أن يكتب فى شهر ربيع الأول من السنة التالية إلى الآفاق بتفضيل على بن أبى طالب — رضى الله عنه — على جميع الصحابة[٥] . وربما كانت أهم ثورة للشيعة بعد المأمون

---

(١) اليعقوبى ٣/١٧٥ والطبرى ٧/١١٧ والمسعودى ٣/٣٤٨ وابن الطقطقى ص ١٦٥ والنجوم الزاهرة ٢/١٦٤ وفى مواضع متفرقة (انظر الفهرس) .

(٢) انظر فى بيعه المأمون لعلى الرضا كتاب اليعقوبى ٣/١٧٦ والطبرى ٧/١٣٩ والمسعودى ٣/٣٤٩ وابن الطقطقى ص ١٦٢ والنجوم الزاهرة ٢/١٦٩ .

(٣) انظر الطبرى ٧/١٦٨ والنجوم الزاهرة ٢/١٨٣

(٤) الطبرى فى حوادث سنتى ٢١١ ، ٢١٢ وراجع النجوم الزاهرة ٢/٢٠١ .

(٥) الطبرى فى حوادث سنة ٢١٢ والنجوم الزاهرة ٢/٢٠٣ وقد أوصى المعتصم عند وفاته بأبناء عمه العلويين خيراً وأن يتغاضى عن مسيئهم فإن حقوقهم تجب من وجوه شتّى . انظر الطبرى ٧/٢١٠ .

ثورة محمد بن القاسم بن على بن عمر بن على بن الحسين لعهد المعتصم سنة ٢١٩ فقد خرج بالطَّالَقان يدعو إلى الرضا من آل محمد فاجتمع عليه خلق كثير ، وما زالت جيوش عبد الله بن طاهر والى خراسان تواقعه حتى انهزم وأسر ، فأرسله ابن طاهر إلى المعتصم فحبسه ، ولكنه هرب من السجن واختفى فلم يوقف له على أثر ولا على خبر (١) .

وقد استأثر التشيع فى هذا العصر بالجانب الأكبر من معارضة العباسيين . أما مذهب الخوارج فضعف شأنه بسبب فتك الأمويين بهم فتكاً ذريعاً ، بحيث لم يبق منهم إلى العصر العباسى سوى فلول فى أنحاء متفرقة بعُمان والجزيرة وخراسان وتونس . وكانت نظريتهم فى الخلافة وإمامة المسلمين صائبة ، غير أنهم صرفوها إلى قتال إخوانهم المسلمين وبذلك لم يكتب لها النجاح من قديم ، فقد كانوا يرون أن تُرَدّ الخلافة إلى الأمة ، بحيث يليها أجدر المسلمين بها ولو كان عبداً حبشياً ، غير أنهم مضوا فكفَّروا المسلمين واستحلّت بعض فرقهم لادماءهم فحسب ، بل أيضاً دماء أطفالهم ونسائهم ، وبذلك ضَلُّوا الطريق ، إذ أغمدوا الدعوة الحسنى وشهروا السيوف متهمين إخوانهم فى الدين بالكفر والردة ، وبدلا من أن يتعاونوا معهم فى حرب أعدائهم جميعاً من الأمم الأجنبية حاربوهم حرباً عنيفة يريدون أن يمحوهم من الأرض محوًا . وبذلك لم تعد المسألة مسألة تحقيق المساواة بين المسلمين فى حقوق الحكم وما يتبع ذلك من إقرار العدالة التى لا تطيب الحياة إلا بها ولا تستقيم إلا عليها ، بل أصبحت مسألة كفر وإيمان وسيوف مشرعة ودماء مسفوحة .

وأول ثورة تلقانا لهم فى هذا العصر ثورة خوارج عُمان الإباضيين بقيادة الجُلُنْدى وقد جرّد له السفاح جيشاً جرّاراً بقيادة خازم بن خزيمة ، فقضى عليه (٢) . وفى عهد المنصور ثار مليد بن حرملة الشيبانى بالجزيرة فقضى عليه أيضاً خازم ابن خزيمة (٣) ، وثار الإباضية بتونس وقضى عليهم يزيد (٤) بن حاتم المهلبى . وفى عهد المهدى ثار بخراسان فى طائفة من الخوارج يوسف بن إبراهيم المعروف بالبرم ، فتصدّى له يزيد بن مزيد الشيبانى ، وأسره فى جماعة من أصحابه ،

---

(١) اليعقوبى ٣ /١٩٨ والطبرى ٧ /٢٢٣ والمسعودى ٤ /٨ والنجوم الزاهرة ٢ /٢٣٠ .

(٢) طبرى ٦ /١١٤ .

(٣) طبرى ٦ /١٤١ .

(٤) اليعقوبى ٣ /١٢٠ والطبرى ٦ /٣٥٨ .

وبعث بهم جميعاً إلى المهدى ، فأمر بقتلهم وصلبهم[١] ، وثار بقنسرين عبد السلام الخارجي وقضى عليه بعض[٢] القواد . وفى عهد الرشيد ثار الوليد بن طَريف الشيبانى بالجزيرة واشتدت شوكته ، فوجه إليه إبراهيم بن خازم بن خزيمة ففتك به ، وسار إلى أرمينية وكثرت بها جموعه ، فجرّد له الرشيد يزيد بن مزيد فى جيش كثيف ، فمحقه محقاً[٣] . وعاث حمزة الشارى فى خراسان ولقى حتفه[٤] ، كما عاث ثروان الحرورى فى ضواحى البصرة ولقى نفس المصير[٥] . وفى عهد المأمون خرج مهدى بن علوان الحرورى بسواد العراق وباءت ثورته بالفشل[٦] على نحو ما باءت ثورة بلال الشارى[٧] . ولا نسمع بعد ذلك عن ثورات للخوارج إلا ما كان من ثورة محمد بن عمرو الشيبانى بديار ربيعة وقضاء أبى سعيد محمد بن يوسف الثغرى عليه[٨] . وعلى هذا النحو كان الخوارج لا يلبثون — حين يثورون — أن يُقْضَى عليهم ، وفرق بعيد بين ثوراتهم فى هذا العصر وثوراتهم فى العصر الأموى ، فقد أخذت دعوتهم تضعف ضعفاً شديداً ، ولعلها من أجل ذلك لم تترك أثراً واضحاً حينئذ فى الحياة الأدبية إذ قلما نجد لهم شاعراً معروفاً .

٥

أحداث مختلفة

لم تطل مدة أبى العباس السَّفّاح إذ سرعان ما توفى سنة ١٣٦ وخلفه أبو جعفر المنصور ، وهو يُعَدّ المؤسس الحقيقى للدولة العباسية ، فهو الذى أصّلها « وضبط المملكة ورتّب القواعد وأقام الناموس »[٩] ولم يكد يتسلم مقاليد الحكم حتى ثار عليه عمه عبد الله فى شمالىّ سوريا وكان يقود جيشاً ضخماً لحرب البيزنطيين ،

(١) طبرى ٦/٣٥٨ واليعقوبى ٣/١٣٠ والنجوم الزاهرة ٢/٢٧ .
(٢) طبرى ٦/٣٧٢ وانظر النجوم الزاهرة ٢/٤١ ، ٤٢ .
(٣) طبرى ٦/٤٦٥ والنجوم الزاهرة ٢/٩٢ ، ٩٥ .
(٤) طبرى ٦/٤٧٢ .
(٥) طبرى ٦/٤٢٥ .
(٦) طبرى ٧/١٤٢ .
(٧) طبرى ٧/١٨٩ والنجوم الزاهرة ٢/٢٠٩ .
(٨) اليعقوبى ٣/٢٠٧ .
(٩) انظر ابن الطقطقى ص ١١٦ .

فوجه إليه المنصور أبا مسلم الخراسانى فى جيش جرار ، فهزمه هزيمة منكرة فرّ على إثرها إلى البصرة عند أخيه سليمان بن على واليها ، فأخذ يستعطف له هو وأخوه عيسى ابن على والى الأهواز المنصور حتى رضى أن يكتب له كتاب أمان ، وتولى ابن المقفّع كتابته فشدد فيه العهد والميثاق على المنصورَ حتّى أحفظه عليه . ومازال المنصور يمكر بعمه حتّى وفد على بابه ، فحبسه مدة إلى أن مات فى حبسه[١] .

ولم يكن همُّ المنصور بعد القضاء على ثورة عمه إلا أخذ أبى مسلم الخراسانى وكان قد عزم بعد هزيمته لعبد الله بن علىّ أن يعود إلى خراسان ، وخشى المنصور أن تحدثه نفسه بخلعه حين يرجع إلى موطنه ، إذ كان كل منهما يجد على صاحبه موجدة شديدة ، فكتب إليه بالقدوم عليه ، وخشى أبو مسلم مغبة قدومه ، فكتب إليه بالطاعة وأنه متوجه إلى خراسان . وقلق المنصور ، وكان مدبراً داهية ، فكتب إليه يؤكد له حسن رأيه فيه ذاكراً خدماته لدولتهم ، وأرسل له رسلا يزينون له المثول بين يديه ، فما زالوا به حتّى قدم عليه ، وكان بالقرب من المدائن ، فلما دخل إليه لقيه بالتوبيخ والتقريع ، ولم يلبث أن قتله ، وبادر إلى مَنْ كانوا معه من القواد فأعطاهم جوائز سنية وفرّق فى جنده أموالاً كثيرة ، فرضخوا للواقع ورضوا به[٢] .

وغضب أتباع أبى مسلم فى خراسان حين علموا بمصيره ، ولم يلبث أن ظهر بينهم سنباذ ، فقادهم معلناً أن أبا مسلم لم يمت وإنما اختفى وسيعود ليرفع الظلم وينشر العدل ، وتابعه كثيرون مكونين فرقة المُسْلمية أو الخرّمية[٣] ، وقدم بهم إلى الرّى فغلب عليها ، والتقى به المنصور بن جمهور العجلى فى جيش كثيف ، فقضى عليه وعلى ثورته[٤] ، ولكنه لم يقض على عقيدة فرقته ، فقد أخذت تَسْرى فى نفوس كثير من الخراسانيين والإيرانيين مختلطة بالعقائد المزدكية .

وكان السفاح قد جعل ولاية العهد بعد المنصور لعيسى بن موسى فرأى المنصور أن يحولها عنه إلى ابنه المهدى وما زال به حتّى خلع نفسه منها ، فصيّرها فى ابنه ،

---

(١) الجهشيارى ص ١٠٣ واليعقوبى ٣/١٠٤ والطبرى ٦/١٢٤، ١٤٥ ، ٢٦٩ والمسعودى ٣/٢٣٠ والنجوم الزاهرة ٢/٧ .

(٢) طبرى ٦/١٣٠ واليعقوبى ٣/١٠٢ والمسعودى ٣/٢١٧ .

(٣) انظر فى الخرمية وعقيدتهم المسعودى ٣/٢٢٠ والفرق بين الفرق (طبع مصر) ص ٢٥١ .

(٤) الطبرى ٦/١٤٠ والمسعودى ٣/٢٢٠ وابن الطقطقى ص ١٢٥ .

وبايعه الناس[١] ، وأقرّت بذلك بلدان الخلافة ما عدا باذغيس إذ ثار بها شخص يسمى أستاذسيس ادّعى النبوة وتبعه خلق كثير وتفاقم شره ، فتصدى له خازم ابن خزيمة التميمى وفضّ جموعه ، وحمله إلى المنصور أسيرًا ، فأمر بقتله[٢] .

وولى المهدى بعد أبيه سنة ١٥٨ وفى عهده تحركت الخُرَّمية حركتين ، أما أولاهما فحركة رجل من أتباع أبى مسلم يسمى حكيماً من أهل مرو ، وقد أعلن ثورته فى سنة ١٦١ واتخذ لوجهه قناعاًمن ذهب ركّبه عليه حتى لا يُرَى ، ولذلك اشتهر باسم المقنّع الخراسانى . وكان يقول بتناسخ الأرواح ، فزعم أنه نبى وأنه التجسد الجديد للذات الإلهية بعد أبى مسلم . وبايعه خلق عظيم أضلهم واستغواهم حتى كانوا يسجدون إلى ناحيته ، ووثب بهم على بعض ما وراء النهر ، فوجه إليه المهدى القواد وعلى رأسهم سعيد الحَرَسِىّ ، فاعتصم منهم بقلعة من أعمال كش على مقربة من جرجان ، ولما يئس من المقاومة أضرم ناراً عظيمة أحرق بها كل ما فى القلعة من دواب وثياب ومتاع وألقى فيهابنفسه وأولاده ونسائه ، ويقال : بل مَصّ سمًّا وأسقى نساءه وأولاده فتَلِفَ وتلفوا ، وبذلك خمدت حركته[٣]. أما الحركة الثانية فكانت فى سنة ١٦٢ إذ ظهرت طائفة من الخرمية بجرجان تسمى المحمِّرة لحمرة راياتها ، وكان على رأسهم شخص يسمى عبدالقهار ، فقتلوا وأفسدوا وعاثوا فى الأرض ، فسار إليه من طبرستان عمر بن العلاء ممدوح بشار ، وقتله ودمّر جنده[٤] .

وعظمت — فى عهد المهدى — حركة الزندقة ببغداد والعراق ، ورأى المهدى فيها شرًّا مستطيراً يتهدّد كيان الدولة والإسلام جميعًا ، فجدّ فى طلب الزنادقة منذ سنة ١٦٦[٥] وقيل بل منذ سنة ١٦٣ واتخذ لهم ديوانًا يتعقبهم ، جعل عليه عمر الكَلْواذانىّ[٦] ، وأخذ يقتلهم ويصلبهم نكالاً لغيرهم ، وكان ممن قتله عبد الله ابن وزيره أبى عبيد الله وبشار بن برد وتوفّى الكلواذانى سنة ١٦٨ فخلفه على الديوان حَمْدَوَيْه[٧] وهو محمد بن عيسى من أهل مَيْسان .

---

(١) اليعقوبى ٣/١١٥ والطبرى ٦/٢٧١ وابن الطقطقى ص ١٢٦ والنجوم الزاهرة ٢/٧ ، ٥٣ .

(٢) اليعقوبى ٣/١١٥ .

(٣) طبرى ٦/٣٦٧ ، وابن الطقطقى ص ١٣٢ والنجوم الزاهرة ٢/٣٨ ، ٤٥ .

(٤) اليعقوبى ٣/١٣٠ والطبرى ٦/٣٧٣ والنجوم الزاهرة ٢/٤٢ .

(٥) الجهشيارى ص ١٥٣ وقارن بالنجوم الزاهرة ٢/٤٥ .

(٦) الجهشيارى ص ١٥٦ والكلواذانى نسبة إلى كلواذا وهى قرية على بعد فرسخين من بغداد .

(٧) اليعقوبى ٣/١٣٣ والطبرى ٦/٣٩١ والنجوم الزاهرة ٢/٥٥ ، ٥٦ .

وفى عهد المهدى أغار الروم على سميساط (١) ونكّلوا بأهلها ، فجرّد إليهم جيشاً ضخماً بقيادة العباس بن محمد فبلغ أنقرة . وتوالى غزو الروم حتى إذا كانت سنة ١٦٣ تولى هرون الرشيد قيادة الجيوش الغازية ، فعصف بهم عصفاً ، حتى إذا كانت سنة ١٦٥ بلغ خليج القسطنطينية دون مقاومة تذكر ، وامتلأ الروم هولاً ورعباً وفزعاً ، فتعهدوا أن يؤدوا الجزية كل عام سبعين ألف دينار وهم صاغرون (٢) .

ومما يؤثر للمهدى إجراؤه الرواتب على المجذّمين . وتوفى سنة ١٦٩ فخلفه ابنه الهادى ، وسار على سنته فى تتبع الزنادقة وقتلهم ، وفى عهده خرج دحية بن المصعب ابن الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان بناحية أهناس فى صعيد مصر وملك أكثر بلاده ، وهزم جيوش الولاة مراراً ، وأخيراً قُضى عليه فى سنة ١٦٩ (٣) . واعتزم الهادى خلع الرشيد من ولاية عهده ، ولكن يحيى البرمكى عرف ــ كما قدمنا ــ كيف يصرفه عن ذلك ، وسرعان ما توفى بعد أربعة عشر شهراً من خلافته .

وولى الرشيد سنة ١٧٠ وامتدت خلافته إلى سنة ١٩٣ ويُعَدّ عصره العصر الذهبى للخلافة العباسية بما بلغته من أبهة الملك وفخامته ، ولا تزال ذكراه حيّة فى نفوس العرب إلى اليوم ، وربما كان للقصص المحكية عنه فى « ألف ليلة وليلة » أثر فى ذلك فإن مترجميها وواضعى بعض قصصها رأوا أن يدخلوه فى ثنايا القصص حتى يصوروا ما بلغته بغداد من الرّفه والترف والبذخ . وحفلت حينئذ بالعلماء من كل صنف والمترجمين والأطباء والشعراء والمغنين والمغنيات والجوارى من كل جنس وعلى كل لون . وكان الرشيد كلِفاً بالسماع والمتاع بنعيم الحياة مع إعطاء الدين حقوقه ، يقول ابن الطقطقى : « كان الرشيد من أفاضل الخلفاء وفصحائهم وعلمائهم وكرمائهم ، وكان يحج سنة ويغزو سنة كذلك مدة خلافته إلا سنين قليلة ، وكان يصلى فى كل يوم مائة ركعة ، وحجّ ماشياً ، وكان إذا حجّ حجّ معه مائة من الفقهاء وأبنائهم . . ولم يُرَ خليفة أسمح منه بالمال ، وكان يحب الشعر

---

(١) سميساط : مدينة غربى الفرات فى طرف بلاد الروم .

(٢) اليعقوبى ٣/١٣٥ والطبرى ٦/٣٧٩ والنجوم الزاهرة ٢/٤٧ .

(٣) اليعقوبى ٣/١٣٧ والنجوم الزاهرة ٢/٤٩ ، ٥٤ ، ٥٧ ، ٦٠ .

والشعراء و يميل إلى أهل الأدب والفقه »[١] وكان إذا لم يحج أحجّ ثلاثمائة رجل بالنفقة السابغة والكسوة الباهرة ، وكان يتصدّق من صُلْب ماله فى كل يوم بألف درهم بعد زكاته[٢] ، وكانت أيامه تشبَّه بأيام العروس لما امتازت به من بهاء وجمال .

ولم تخل أيامه من الفتن والثورات ، وقد ذكرنا آنفًا ما كان من حركات بعض العلويين والخوارج ، وفى عهده هاجت العصبية بالشام بين اليمنية والمضرية وأطفأ نائرتها جعفر بن يحيى البرمكى[٣] ، وثار أهل الحَوْف بمصر وقضى على ثورتهم هرثمة بن أعين كما قضى على ثورة أخرى بإفريقية[٤] ، وثار المحمِّرة بجرجان وفضّ جموعهم على[٥] بن عيسى بن ماهان ، وانتقض الخزر فى القوقاز وأرمينية وقلم أظافرهم خازم[٦] بن خزيمة ويزيد بن مزيد الشيبانى ، وثار الخرّمية بأذربيجان وعصف بهم عبد الله[٧] بن مالك ، وثارت بلاد الزاب جنوبى الجزائر ، وأعاد الأمن إلى نصابه هناك إبراهيم بن الأغلب فكافأه الرشيد بكتابة عهد له على إفريقية نظير خراج يؤديه سنويًّا ، فأنشأ هناك دولة الأغالبة ، واتخذ حاضرة له « العباسة » التى بناها جنوبى القيروان .

وامتنع نقفور إمبراطور بيزنطة عن أداء الجزية التى فُرضت على بلاده فى عهد المهدى ، كما أسلفنا ، ولم يكتف بذلك فقد كتب إلى الرشيد يطالبه بردّ ما أدّوْه منها فى السنوات الماضية ، وكتب إليه الرشيد على ظهر كتابه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من هرون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم ، قد قرأت كتابك ياابن الكافرة ، والجواب ما تراه دون أن تسمعه ، والسلام[٨] » وشخص إليه على رأس حملة قوية اخترق بها آسيا الصغرى وغنم مغانم كثيرة وافتتح هرقلة ، فارتاع نقفور وفزع فزعًا شديداً وتعهد بأداء الجزية صاغراً[٩] . ورأى الرشيد — فيما يقال — أن يصطنع شارلمان ملك الفرنجة فى غربى أوربا حتى يؤيده ضد إمبراطور

---

(١) ابن الطقطقى ص ١٤٣ .
(٢) طبرى ٦/٥٣٠ .
(٣) الجهشيارى ص ٢٠٨ والطبرى ٦/٤٥٧ ، ٤٦٦ .
(٤) طبرى ٦/ ٤٦١ .
(٥) طبرى ٦/٤٦٦ .
(٦) طبرى ٦/٤٧١ .
(٧) طبرى ٦/٥٢٤ والنجوم الزاهرة ٢/١٣٩ .
(٨) طبرى ٦/٥٠١ .
(٩) طبرى ٦/٥٠٩ .

بيزنطة ، وكان شارلمان يود لو أيده الرشيد ضد الأمويين فى الأندلس ، وسفرت بينهما السفارات وتبادلا هدايا ثمينة[١] .

وفى سنة ١٩٠ ثار رافع بن الليث بسمرقند وتفاقمت ثورته ، فرأى الرشيد أن يسير إليه بنفسه فى سنة ١٩٢ . ولكنه توفى فى طريقه إليه بطوس سنة ١٩٣ ، وتمت الغلبة بعد ذلك على رافع وشيعته . وكان الرشيد قد عقد ولاية العهد من بعده لابنه محمد سنة ١٧٣ ولقبه بالأمين ، وضمّ إليه الشام ومصر ، ثم عقد لابنه عبد الله ولاية العهد من بعد أخيه سنة ١٨٣ ولقبه بالمأمون ، وضمّ إليه الولايات الشرقية ، وأكّد هذا العقد بين الأخوين بتوقيعهما عليه وقسميهما على الوفاء به وتعليقه[٢] فى الكعبة سنة ١٨٦ وفيها بايع الرشيد بولاية العهد لابنه القاسم بعد أخويه ولقبه المؤتمن وضم إليه الجزيرة والثغور وكان لا يزال صبيًّا .

وكان هذا الصنيع من الرشيد نذير شؤم فإن بساطاً قد يتسع لنوم عشرة من الناس ، ولكن مملكة بأسرها لا تتسع لسلطان حاكمين . فلم يكد ينتقل الرشيد إلى جوار ربه حتى شجر الخلاف[٣] بين الأمين والمأمون إذ أخذت حاشية الأمين تسوّل له أن ينقض العهد الموثق فى البيت الحرام . وشاءت الظروف أن يقع الأخوان فريسة للتنافس بين الحزبين : العربى والفارسى ، وكان الحزب الأول يغلب على الأمين بينما كان الحزب الثانى يغلب على المأمون ، وكانت أم الأمين هاشمية عربية فهى زبيدة بنت جعفر بن المنصور ، بينما كانت أم المأمون أمة فارسية تسمّى مراجل . وما زال الحزب العربى — فيما يقال — يغوى الأمين بخلع أخيه وتولية ابنه موسى ولاية العهد من بعده ، حتى استجاب له ، وتردّدت المراسلات بينه وبين المأمون وأوشك أن يجيبه إلى ما يريد من خلع نفسه ، ولكن الفضل بن سهل وزيره ردّه عن ذلك ونهض بأمره ، واستمال له الناس ، وضبط الثغور .

ولم يلبث الأمين أن أمر بقطع اسم المأمون من خطبة الجمعة وصنع المأمون صنيعه بخراسان ، وأخذا فى إعداد الجيوش ، وسارع الأمين فأنفذ على بن عيسى

---

(١) انظر تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمن (الترجمة العربية) ٢/٢١ وقصة الحضارة لول ديورانت (الترجمة العربية) ١٣/٩٤ .

(٢) الطبرى ٦/٤٧٥ والمسعودى ٣/٢٧٠ ، ٣٠٨ والنجوم الزاهرة ٢/١١٩ .

(٣) انظر فى هذا الخلاف الطبرى ٧/٢ والمسعودى ٣/٣٠٢ ، ٣٠٨ والجهشيارى ص ٢٨٩ وابن الطقطقى ص ١٥٩ .

ابن ماهان فى جيش جرار لمنازلة المأمون وجنده والتقى به فى الرىّ طاهر بن الحسين ، فقتله ومزّق جيشه تمزيقاً . وشغب الحسين بن على بن عيسى بن ماهان على الأمين فخلعه وحبسه ، غير أن بعض العسكر خلصوه ، ونعجب إذ نراه يعفو عنه ويوليه قيادة جيشه ويوجهه إلى طاهر ، ويلقاه ، غير أنه سرعان ما يفر ويقتل فى فراره ، كما يقتل قواد آخرون أرسل بهم الأمين . وفى هذه الأثناء تدخل مكة والمدينة فى طاعة المأمون ، ويحاصر قائداه طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين بغداد لنحو خمسة عشر شهراً ويرميانها بالمجانيق فيكثر بها الحرق والهدم وتفضى الحياة فيها إلى هول هائل ، فتنهب الأموال وتقترف المنكرات ، ويحاول سهل بن سلامة الأنصارى وابن الدريوش أن يقمعا الفساد وشذوذ الدُّعّار [١] ولكن أنّى لهما أن يدفعا ما تردّت فيه بغداد من أهوال الشر ، والنيران تأخذها من كل جانب أياماً طوالا والمساجد قد عطلت والصلاة قد أهملت . ويبكى الشعراء من أمثال الخريمى بغداد بكاء مرّا ، وتسقط محلاتها محلة إثر محلة فى يد الجيوش المحاصرة ، ولا يجد الأمين أخيراً مفرّا من الاستسلام ، فيسلم نفسه لأعدائه ، ويقتل فى طريقه لخمس بقين من المحرم سنة ١٩٨ ويصبح الأمر خالصاً للمأمون ، وما توافى سنة ٢٠١ حتى يعزل أخاه القاسم من ولاية العهد ويولى عليها مكانه على الرضا كما مرّ بنا فى غير هذا الموضع ، وتثور عليه أسرته ببغداد ، وتبايع عمه إبراهيم بن المهدى فيعزم على المسير إلى دار السلام ، ويدخلها فى شهر ربيع الأول سنة ٢٠٤ ، فيتوارى عمه إبراهيم مدة ويعفو عنه كما أسلفنا .

وعصر المأمون من أزهى عصور الدولة العباسية ، فقد كان حر الفكر شغوفاً بالمعرفة ، ولم يكد يستقر فى بغداد حتى جعل من مجلسه ندوة علمية كبيرة يتحاور فيها ويتناظر الفقهاء والمتكلمون والعلماء من كل صنف ، وجعله اتصاله بعلماء الكلام وفى مقدمتهم ثمامة بن أشرس النمرى وبشر بن غياث المريسى يعنى بالفلسفة وعلوم الأوائل حتى مهر فيهما ، وقد استطاعا أن يجرّاه إلى الاعتزال وإلى القول بأن القرآن مخلوق ، وأن من لا يقول بذلك يدخل فى عداد المشبّهة ، وما توافى سنة ٢١٢ حتى يجعل المأمون من فكرة خلق القرآن عقيدة رسمية للدولة ، ويكتب إلى الآفاق

---

(١) طبرى ١٣٦/٧ وما بعدها .

بامتحان(١) الفقهاء فيها ، فمن لم يقر بأنه مخلوق ضُرب وحبس وأشخص إلى بغداد. وتوفِّى ثمامة سنة ٢١٣ وتولى كبر هذه المحنة بشر المريسى المتوفى سنة ٢١٨ ثم أحمد ابن أبى دؤاد أحد رءوس المعتزلة ، لا فى عهد المأمون فحسب ، بل أيضًا فى عهد المعتصم والواثق أى إلى نهاية هذا العصر . وأعظم سنة اشتدت فيها هذه المحنة سنة ٢١٨ إذ عنف المأمون بالفقهاء عنفًا شديداً ، فضُرب من لم يُقروا بأن القرآن مخلوق وأهينوا ورُدِعوا بالسيف وغيره ، وكان ممن ثبت على رأيه أحمد بن حنبل فقُيِّد وأمر المأمون بأن يحمل إليه هو ومن امتنع مثله عن الإقرار بخلق القرآن ، وكان يغزو بأرض الروم شمالى الشام ، فأوثقوا بالحديد ، وحُملوا إليه . وما إن وصلوا إلى الرقة ، حتى جاء الخبر بنعى المأمون ، فرُدُّوا إلى بغداد ، وعاد المعتصم إلى امتحان ابن حنبل ، فثبت للمحنة ولم يرجع عن رأيه .

وقد حدثت فى عصر المأمون ثورات كثيرة كان يعهد فى إخمادها إلى قواده الأكفاء من مثل طاهر بن الحسين ، وقد ولاَّه خراسان فى سنة ٢٠٥ فقضى على رءوس الفتن بها ، ويقال إنه فكر فى خلع طاعة المأمون ولكن الموت عاجله ، وجعل المأمون بعده ولاية خراسان لابنه طلحة فظل بها إلى وفاته سنة ٢١٣ وولى المأمون عليها من بعده أخاه عبد الله فأسس هناك الدولة الطاهرية التى ظلت نحو قرن من الزمان . وكان عبد الله قد أدَّى للدولة خدمات جليلة ، إذ ولاَّه المأمون الرقة لحرب نصر بن شبث العقيلى وضيق عليه الخناق حتى ألقى له عن يد طالباً الأمان(٢) لسنة ٢٠٩ وكانت نار الفتنة مشتعلة(٣) بمصر منذ حروب الأمين والمأمون ، إذ ناصرت القيسية الأمين واليمنية المأمون ، واشتبكت الفئتان فى حروب دامية ظلت مضطرمة ، وظلت معها القلاقل ، وزاد فيها نزول جموع من الأندلس فى الإسكندرية كان قد طردهم الحكم أمير قُطْرهم فولَّوا وجوههم إليها واستولوا عليها. فرأى المأمون أن يولِّى على مصر عبد الله بن طاهر حتى يقمع ما بها من فتن وحتى يرد الأندلسيين

---

(١) انظر فى هذه المحنة الطبرى ١٩٥/٧ وما بعدها واليعقوبى ١٩٤/٣ وكتاب بغداد لابن طيفور (طبع القاهرة) ص ١٨١ والنجوم الزاهرة ٢١٢/٢ ، ٢١٨ وما بعدها ، ٢٢٤ .

(٢) اليعقوبى ١٨٧/٣ والطبرى ١٧١/٧ ، وابن طيفور ص ٧٧ .

(٣) انظر فى أحداث مصر التالية الطبرى ١٧١/٧ ، ١٨٣ ، ١٨٩ ، والنجوم الزاهرة ٢١٠/٢-٢١٦ واليعقوبى ١٨٧/٣ - ١٩٢ .

عن الإسكندرية ، فدخلها فى ربيع الأول سنة ٢١١ وهزم عبيد الله بن السرى وأعاد الأمن إلى نصابه ، وأكره الأندلسيين على الانسحاب إلى جزيرة إقريطش (كريت) فنزلوها واستوطنوها لسنة ٢١٢ ، وعاد ابن طاهر إلى بغداد فى رجب من نفس السنة واستخلف عليها عيسى بن يزيد الجلودى فأقرّه المأمون على إمرتها ، وعزله فى السنة التالية وولّى عليها أخاه المعتصم ، فاستخلف عليها عمير بن الوليد ، وثار عليه القيسية واليمنية ، وخرج لحربهم بالحَوْف فى ربيع الأول لسنة ٢١٤ غير أنه قتل فى المعركة ، فاستخلف عليها المعتصم عيسى بن يزيد الجلودى ثانية ، واشتبك مع اليمنية والقيسية وهزموه هزيمة منكرة ، فخرج إليها المعتصم بنفسه فقمع ما بها من فساد ، وعاد إلى الموصل . وثار القبط فى مستهل سنة ٢١٦ وقضى على ثورتهم الأفشين ، غير أن الفتن ظلت قائمة بمصر حتى دخلها المأمون لخمس خلون من المحرم سنة ٢١٧ فهدّها ورتب أحوالها واستقرت ، وقد ظل بها تسعة وأربعين يومًا .

وكانت قد اندلعت فى أذربيجان منذ سنة ٢٠١ ثورة عنيفة للخرمية بقيادة بابك ، فوجّه إليه المأمون محمد بن حميد الطوسى سنة ٢١٢ فواقعه مراراً منكّلا به وبأنصاره ، حتى إذا كانت سنة ٢١٤ خانه الحظ فى بعض معاركه معه ، فخرّ صريعاً[1] ، وكان لذلك رنّة حزن عميقة فى العالم العربى جعلت الشعراء يبكونه طويلا . وبعث المأمون إلى بابك من بعده على بن هشام وخالد بن يزيد الشيبانى ، فاشتبكا معه فى غير موقعة ، ولكنهما لم يستطيعا القضاء عليه . وعلم المأمون أن إمبراطور بيزنطة يعين بابك فى حروبه ، فاستشاط غضبًا ، وأخذ منذ سنة ٢١٥ يقود بنفسه حملات عنيفة ضده وضد البيزنطيين[2] ، يتقدمه قواده من أمثال أخيه المعتصم والأفشين وخالد بن يزيد الشيبانى وجعفر الخياط ، ومضى فى بعض حملاته حتى بلغ أنقرة ، فارتعدت فرائص تيوفيل إمبراطور بيزنطة وطلب الصلح والمهادنة ، غير أن المأمون ظل يوالى حملاته حتى إذا كان فى آخر حملة له سنة ٢١٨ نزل به مرض شديد ، ولم يلبث أن لبّى نداء ربه فى موضع يسمّى «البُدَنْدون»

---

(١) اليعقوبى ٣/١٩٠ والطبرى ٧/١٨٩ والنجوم الزاهرة ٢/٢٠٩ .

(٢) انظر الطبرى ٧/١٨٩ وما بعدها واليعقوبى ٣/١٩٣ والنجوم الزاهرة فى السنوات ٢١٥–٢١٨ وكتاب العرب والروم لفازيلييف (نشر دار الفكر العربى) ص ٨٩ وما بعدها .

وقد حُمل منه جثمانه إلى طرسوس .

ويخلف المعتصم أخاه المأمون وتظل فى عهده محنة القول بخلق القرآن قائمة وإن كان قد خفّف من حدّتها كثيراً . وكان قد استكثر من الترك وآذوا العامة فى بغداد فبنى لهم سامرّاء ، كما مرّ بنا فى غير هذا الموضع . وفى أوائل عهده ثار الزُّطّ بالبصرة وقضى على ثورتهم عجيف[1] بن عنبسة . وماتوافى سنة ٢٢٠ حتّى يعد جيشاً ضخماً لحرب بابك بقيادة الأفشين ويمده بكثير من القواد أمثال أبى دُلَف العِجْلى ومحمد بن يوسف الثغرى ، وتتوالى انتصارات هذا الجيش على بابك وشيعته ، حتّى إذا كانت سنة ٢٢٢ سُحقت جموعه سحقاً ، واستسلم صاغراً[2] ، ولم يلبث أن أُدخل إلى بغداد مقيداً مغلولا ، فتعالى التكبير ، وقُتل وعُلّقت رأسه وأحرق جسده عبرة ونكالا . وكان إمبراطور بيزنطة — كما ذكرنا آنفاً — يضع يده فى يد بابك ، وحدث أن أغار على زِبَطْرة[3] وأعالى الفرات فأمر المعتصم بإعداد جيش جرّار لتأديبه قاده بنفسه ، ووطئت جنوده بلدان[4] الروم فى آسيا الصغرى بقيادة الأفشين وجعفر بن دينار وخالد بن يزيد الشيبانى ومحمد بن يوسف الثغرى وغيرهم ممن ساموا البيزنطيين ذُلاً وصغاراً ، وقد أخربوا فيما أخربوا أنقرة وسلطوا مجانيقهم على عمورية حتّى فتحت أبوابها عنوة . وعاد المعتصم قرير العين ، وعلم فى عودته أن العباس ابن أخيه المأمون يدبر مؤامرة ضده ، فأحبط مؤامرته . وثار مازيار بطبرستان سنة ٢٢٤ وجاءت به الجيوش التى حاربته مكبلاً بالحديد إلى بغداد ، فقُتل وصُلب[5] . وثبت أن الأفشين كان يكاتبه سرّاً آملاً فى عودة دين آبائهما المجوس ، فسجنه المعتصم سنة ٢٢٥ وظل فى سجنه حتّى مات وصُلب بعد موته[6] .

وتوفى المعتصم سنة ٢٢٧ فخلفه ابنه الواثق ، وقد أعاد محنة القول بخلق القرآن

---

(١) طبرى ٧/٢٢٥ واليعقوبى ٣/١٩٨ والنجوم الزاهرة ٢/٢٣٣ .

(٢) انظر الطبرى ٧/٢٢٦ وما بعدها واليعقوبى ٣/٢٠١ والمسعودى ٤/١٤ والنجوم الزاهرة ٢/٢٣٢ وما بعدها .

(٣) زبطرة : مدينة بين سميساط والحدث فى الطريق إلى بلاد الروم .

(٤) انظر فى هذه الحملة الطبرى ٧/٢٦٣ واليعقوبى ٣/٢٠١ والمسعودى ٤/١٤ والنجوم الزاهرة ٢/٢٣٨ وفازيلييف ص ١٢٤ وما بعدها .

(٥) اليعقوبى ٣/٢٠٢ والمسعودى ٤/١٦ والطبرى ٧/٣٠٢ والنجوم الزاهرة ٢//٢٤٠.

(٦) اليعقوبى ٣/٢٠٣ والطبرى ٧/٣٠١ والمسعودى ٤/١٦ والنجوم الزاهرة ٢/٢٤٢ .

جذعة ، إذ نراه يكتب إلى الولايات المختلفة بامتحان الفقهاء والعنف بمن لا يُقرّون بأنه مخلوق . ولم تحدث فى سنواته الخمس فتوق كثيرة سوى ما كان من شغب بعض الأعراب فى الحجاز وقد قضى على شغبهم بغا الكبير[١] . وشغب بعض الأكراد وسحق شغبهم وصيف[٢] التركى . وسرعان ما توفّى الواثق سنة ٢٣٢ للهجرة .

(١) طبرى ٧/٣٢٢ وما بعدها واليعقوبى ٣/٢٠٥ والنجوم الزاهرة ٢/٢٥٧ .

(٢) طبرى ٧/٣٣١ .

الفصل الثاني

الحياة الاجتماعية

١

الحضارة والثراء والترف

لما فتح العرب العراق وإيران والشام ومصر ورثوا ما فى الأولى والثانية من الحضارات الساسانية والكلدانية والآرامية وما فى الثالثة والرابعة من حضارات بيزنطية وسامية قديمة ومصرية ، وأخذوا يكوّنون من ذلك ومن تراثهم العربى الخالص حضارتهم الإسلامية ، وكان طبيعيًّا أن تغلب على الأمويين بدمشق الحضارة البيزنطية وما كان بالشام من عناصر سامية حضارية ، حتى إذا نقل العباسيون حاضرة الخلافة إلى العراق غلبت عليهم الحضارة الساسانية وغلبت على ما كان به من عناصر كلدانية وآرامية ، وهى تبدو واضحة فى بناء بغداد إذ أقامها المنصور مستديرة على شاكلة طيسيفون المعروفة باسم المدائن حاضرة الساسانيين ، وابتنى فيها قصره المعروف بقصر الذهب على طراز قصورهم ذات الأواوين الفخمة .

وقد كشفت حفائر سامرّاء عن طريق بناء الدور والقصور لافيها فحسب ، بل أيضًا فى بغداد ، فقد كان يصل بين الدار والقصر وبين الشارع أو الدرب دهليز مسقوف (١) يفضى إلى فناء واسع يسلم إلى القاعة الكبرى أو الإيوان ، وتتناثر فى الدهليز والفناء غُرَفٌ متجاورات للسكنى والمرافق المنزلية ، وتتصل بالإيوان بعض الغرف الصغيرة . وبجانب الفناء الكبير للدار أفنية صغرى ثانويةٌ تعلوها بعض القباب ، وأكبرها جميعًا قبة الإيوان . وفى الدار حمامات ومجارٍ تحت الأرض وسراديب معدة للسكنى ، وتكثر الأساطين فى الأفنية ، وتكثر الشرفات وتلحق بها

---

(١) انظر فى ذلك كتاب الحضارة الإسلامية لآدم ميتز (الترجمة العربية) ٢/١٥١ وما بعدها ، وراجع وصف إيوان قصر الأمين فى طبقات الشعراء لابن المعتز (طبع دار المعارف) ص٢٠٩ ووصف إيوان قصر المعتصم فى الموشح للمرزبانى ص ٣٠١ .

بعض البساتين وبعض النافورات والبرك . وكانت مصاريع الأبواب تصنع من الخشب المحلّى بالنقوش وتتألق النوافذ بالزجاج الملوّن ، وتزخرف الحيطان بالنقوش المستوحاة من الطير والحيوان والأشجار والأزهار ، وقد يذهّب السقف والأبواب والحيطان وتعلق هنا وهناك ستائر الحرير المزركشة ، وقد تحفر على الحيطان بعض الصور كالعنقاء ، أما أرض الدار فكانت تموج بالبسط الإيرانية والأرمنية والطنافس ومناضد الآبنوس والتحف الثمينة وتماثيل العقبان والجامات المذهبة والأواني المرصعة بالجواهر .

ولا ريب فى أن هذا البذخ إنما كان يتمتع به الخلفاء وحواشيهم من البيت العباسى ومن الوزراء والقواد وكبار رجال الدولة ومن اتصل بهم من الفنانين شعراء ومغنين ومن العلماء والمثقفين ، وكأنما كُتب على الشعب أن يكدح ليملأ حياة هؤلاء جميعًا بأسباب النعيم ، أما هو فعليه أن يتجرع غصص البؤس والشقاء وأن يتحمل من أعباء الحياة ما يطاق وما لا يطاق . ومردُّ ذلك إلى طغيان الخلفاء العباسيين الذين حرموا الشعب حقوقه وطوقوه بالاستعباد والاستبداد والعنف الشديد ، وقد مضوا هم وبطاناتهم يحتكرون لأنفسهم أمواله وموارده الضخمة ، بحيث كانت هناك طبقة تنعم بالحياة إلى غير حد ، وطبقات قُتِّر عليها فى الرزق ، فهى تشقى إلى غير حد ، واضطرب أوساط الناس من التجار وغيرهم بين الشقاء والنعيم .

وكانت خزائن الدولة هى المعين الغدِق الذى هيأ لكل هذا الترف ، فقد كانت تُحمَل إليها حمول الذهب والفضة من أطراف الأرض ، حتى قالوا إن المنصور خلّف حين توفى أربعة عشر مليونًا من الدنانير وستمائة مليون من الدراهم[1] وإن دخل بيت المال سنويًّا لعهد الرشيد كان نحو سبعين مليوناً من الدنانير[2] . وكانت هذه الأنهار الدافقة من الأموال تُصَبُّ فى حجور الخلفاء ومن يحفّ بهم من بيتهم ومن الوزراء والقواد والولاة والعلماء والشعراء والمغنين . ونسوق من ذلك أطرافًا تصور ما آل إليه ذلك من شيوع الإقطاع والثراء العريض فى الطبقة الحاكمة وحواشيها ومن يلوذون بها ، فقد رُوى عن المنصور أنه فرض لكل شخص من أهل بيته ألف ألف درهم فى كل عام[3] ، ويقال إن غلّة

(١) المسعودى ٣/٢٣٢ .

(٢) انظر مقدمة ابن خلدون (طبع المطبعة البهية) ص ١٢٧ والجهشيارى ص ٢٨١ وضحى الإسلام (الطبعة الأولى) ١/١١١ .

(٣) طبرى ٦/٣٢٧ .

الخيزران زوجة المهدى من إقطاعاتها كانت تبلغ سنوياً مائة وستين مليوناً من الدراهم[١]، وكانت إقطاعات محمد بن سليمان بن على العباسى والى البصرة تدر عليه كل يوم مائة ألف درهم[٢]، وكانت للفضل بن الربيع وزير الرشيد والأمين قطيعة تغل له سنوياً مليون درهم[٣]، ولعلنا لا نعجب بعد ذلك إذا عرفنا أن عمرو ابن مسعدة وزير المأمون خلف بعد وفاته ثمانين ألف ألف دينار ونقل ذلك إلى المأمون فلم يأخذه العجب، بل قال : هذا قليل لمن اتصل بنا وطالت خدمته لنا[٤].

وكان الخلفاء والوزراء والولاة والقواد يغدقون على العلماء والأطباء والشعراء والمغنين، ورسم المهدى لمروان بن أبى حفصة مائة ألف درهم على مدحته ذائع مشهور، وكان يصنع الصنيع نفسه مع المغنين[٥] حين يطرب لبعض أصواتهم، وتجاوز رسمه لمروان ابنه الهادى فأعطاه يوماً على مدحته فيه مائة وثلاثين ألف درهم[٦]، وأطربه مغن فأهداه سبعمائة[٧] ألف دينار. وكان الرشيد بحراً فياضاً ما ينى ينهل على العلماء والفقهاء من أمثال قاضيه أبى يوسف والأصمعى والكسائى، والأطباء من مثل جبرائيل بن بختيشوع، ويقال إنه صار إليه فى عهده ما يزيد على أربعة ملايين من الدراهم[٨]، وكان يجزل للشعراء والمغنين من نواله، ويكفى أن نعرف أنه وصل سلما الخاسر وحده لمدائحه فيه بعشرين ألف دينار[٩]، وطرب يوماً لغناء مخارق فأقطعه ضيعة وداراً ووصله بثلاثة آلاف دينار[١٠]، أما مغنيه الأثير عنده وهو إبراهيم الموصلى فيقال إن صلاته له تجاوزت مائتى ألف دينار[١١] أما الأمين فقد تجاوز بصلاته كل حد حتى قالوا إنه أجاز عبد الله بن أيوب التيمى الشاعر يوماً بمائتى ألف درهم[١٢]، وطرب ليلة لغناء إسحق الموصلى، فأعطاه ألف ألف درهم[١٣]، وكان يعجب بمغنية تسمى بذلا، فأنفق عليها أموالا طائلة،

---

(١) المسعودى ٣/٢٥٧

(٢) الجهشيارى ص ٢٥٠

(٣) المسعودى ٣/٢٣٦

(٤) النجوم الزاهرة ٢/٢٢٧

(٥) أغانى (طبعة دار الكتب) ٦/٢٢.

(٦) النجوم الزاهرة ٢/٦٤ والأغانى ١٠/٨٠ ويقال إن سلما الخاسر أنشده مدحة فيه فأعطاه ثلاثمائة ألف درهم انظر الجهشيارى ص ١٧٣.

(٧) طبرى ٦/١٣٩.

(٨) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة (طبعة دار الفكر ببيروت) القسم الأول من الجزء الثانى ص ٥٨.

(٩) أغانى طبعة (الساسى) ٢١/٧٧.

(١٠) أغانى ٢١/١٤٤.

(١١) أغانى طبعة (دار الكتب) ٥/١٩٢.

(١٢) النجوم الزاهرة ٢/١٨٩.

(١٣) أغانى ٥/٣٦٨.

ويقال إنه أهداها من الجوهر ما لم تملك واحدة مثله[١] . وكان المأمون كثير الإغداق على حاشيته حتّى قالوا إنه فرق فى ساعة واحدة أربعة وعشرين ألف ألف درهم[٢] ، ويروى ابن تغرى بردى أنه أمر يوماً لكل من ابنه العباس وأخيه المعتصم وعبد الله ابن طاهر بخمسمائة ألف دينار ، وعجب ابن تغرى بردى من تفريقه هذه المبالغ الطائلة ، فعقب على ذلك بقوله : لعل الدينار يوم ذاك لم يكن مثل دينارنا اليوم[٣] وكأنما ذهب عن ابن تغرى بردى أن أموال الدولة كلها كانت فى أيدى المأمون وسابقيه وتاليه يبذلونها للناس حسب مشيئتهم وينثرونها عليهم نثراً .

ونافسهم الوزراء فى هذا البذل الواسع ، وللبرامكة فيه ما ليس لأحد ، حتّى ليقال إنه لم يكن يُرَى لجليس خالد البرمكى دار إلا وخالد بناها له ، ولا ضيعة إلا وخالد ابتاعها له ، ولا دابة إلا وخالد حمله عليها[٤] ، وصنيع ابنه يحيى وولديه جعفر والفضل فى هذا الباب فوق صنيعه درجات ، فقد كانت بأيديهم خزائن الدولة لعهد الرشيد ، فملأوا منها أيدى العلماء والأطباء والمترجمين والمغنين والشعراء بالأموال ، بل بالثروات الضخمة ، على نحو ما يُحْكى من أنهم أعطوا إبراهيم الموصلى يوماً سمائة ألف درهم وضيعة بمائة وستين ألفاً[٥] ، وأعطى يحيى البرمكى يوماً ابنه إسحق مائة ألف درهم ليبتاع بها داراً وأعطاه ابنه جعفر مائة ألف لفُرُشها ، وأعطاه ابنه الفضل مائة ألف لزخرفتها ، وأعطاه ابنه محمد مائة ألف رابعة لنفقتها[٦] ، وبلغ — فيما يقال — ما أعطوه لسلم الخاسر الشاعر عشرين ألف دينار[٧] ، وكأنهم كانوا يبارون فيه الرشيد . وكان ينافسهم فى هذا البذل الواسع الفضل بن الربيع وبنو سهل وكبار الولاة والقواد من أمثال معن بن زائدة وابن أخيه يزيد بن مزيد الشيبانى وابنه خالد ويزيد بن حاتم المهلبى وأخيه روح ومحمد بن حميد الطوسى وأبى دلف العجلى ، وآل طاهر وفى مقدمتهم طاهر نفسه ، ويقال إن صلاته بلغت يوماً ألفى درهم وسبعمائة ألف وأن ابنه عبد الله تجاوز بصلاته يوماً هذا الرقم ، بل لقد ضاعفه إذ بلغ به أربعة آلاف ألف درهم وسبعمائة ألف[٨] .

---

(١) أغانى (ساسى) ١٥/١٣٨ .
(٢) طبرى ٧/٢١٢ .
(٣) النجوم الزاهرة ٢/٢٠٥ .
(٤) الجهشيارى ص ١٥٠ .
(٥) أغانى (طبعة دار الكتب) ٥/٣٨ .
(٦) أغانى ٥/٣٠٨ وما بعدها .
(٧) أغانى (ساسى) ٢١/٧٧ .
(٨) النجوم الزاهرة ٢/١٩٥ .

وكان لهذه السيول التي كانت ما تني تسيل إلى حجور العلماء والأطباء والمترجمين والشعراء والمغنين أثرها الواسع في نهضة العلوم والآداب والفنون ، فقد كُفي أصحابها مئونة العيش ، وكان منهم كثيرون يرتّب لهم رزق معلوم يأخذونه في كل شهر أو في كل سنة ، بل لقد كان منهم وخاصة من المغنين والشعراء من يثري ثراء فاحشاً حتى ليقال إنه صار إلى إبراهيم الموصلي المغني أربعة وعشرون مليون درهم سوى رزقه أو راتبه الجاري وهو عشرة آلاف درهم في كل شهر وسوى غلاّت ضياعه[1] ، ويقال إن سلماً الخاسر خلّف حين توفي خمسين ألف دينار[2] ، وما وصل الأصمعي من الرشيد والبرامكة يتجاوز كل حد ، وكذلك ما وصل أبا يوسف القاضي من الرشيد ، ويقال إنه دخل عليه وفي يده درتان بديعتان يقلّبهما وينظر فيهما ، فقال له : هل رأيت أحسن منهما ؟ فأجابه : نعم الوعاء الذي هما فيه ، فألقى بهما إليه[3] ، ويُرْوَى أن زُبَيْدة زوجة الرشيد سُرَّت بإحدى فتاواه فأهدته حقّاً من فضة بداخله حقان مملوءان طيباً ، وبأحدهما جام من ذهب مملوء دراهم وبالثاني جام فضة مملوء ذهباً ، مع غلمان وتخوت من ثياب وبعض الدواب الفارهة[4] . وسنعرض في الفصل التالي لما سكبه الخلفاء والوزراء والولاة وعلية القوم من أموال على العلماء والمؤدبين والأطباء والمترجمين مما جعل حياتهم نعيماً خالصاً .

وطبيعي أن تدفع هذه الأموال لا إلى النعيم فحسب ، بل أيضاً إلى الترف في الحياة وكل أسبابها المادية من دور مزخرفة وفرش وثيرة وثياب أنيقة معطرة ومطاعم ومشارب من كل لون والتماس لكل أدوات الزينة والتفنن فيها تفنناً يتيح كل ما يمكن من استمتاع بالحياة . ويصور ذلك من بعض الوجوه ما يُرْوَى عن مجلس للمهدي كان يجلس فيه على فُرش موردة وعليه ثياب موردة وعلى رأسه جارية تلبس هي الأخرى ثياباً موردة[5] ، وما يُرْوَى عن مجلس الرشيد من أنه كان يعبق بالطيب والزعفران والأفاويه من كل شكل[6] ، وأيضاً ما يروى عن زواج المأمون ببوران بنت وزيره الحسن بن سهل ، فقد أنفِق فيه ما يفوق أغرب القصص الخيالية ، إذ قيل إن أباها فرّق على حاشية المأمون رقاعا بأسماء كثير من الضياع وبدراً من

(١) أغاني ٥/١٦٣ .
(٢) أغاني (ساسي) ٢١/٧٧ .
(٣) النجوم الزاهرة ٢/١٨٢ .
(٤) المسعودي ٣/٢٦٠ .
(٥) الجهشياري ص ١٦٠ .
(٦) الطبري ٦/٥٣٧ .

الدنانير والدراهم كل بدرة عشرة آلاف ، وأعطى المأمون بوران ألف ياقوتة وأوقد لها شموع العنبر وبسط لها حصيراً منسوجاً بالذهب مكللا بالدر والياقوت ، ونثرت جدتها عليها حين جلس إليها المأمون ألف درة[١] . وينوه المؤرخون بأناقة المعتصم حتى قيل إن ثيابه كانت تشبه بالزُّهْرة لتألقها[٢] ، واشتهر بلبس قلانس طويلة ذات ألوان مختلفة سميت بالمعتصميات ، كما اشتهر بأنه ألبس قواده وكبار جنده دراعات الديباج المنسوجة بالذهب المرصعة باليواقيت والأكاليل المرصعة بالدرر من كل لون[٣] ، ويصف بعض المغنين مجلس الواثق فيقول : « لم يزل الخدم يُسلموننى من خدم إلى خدم حتى أفضيت إلى دار مفروشة الصحن ملبسة الحيطان بالوشى المنسوج بالذهب ثم أفضيت إلى رُواق أرضه وحيطانه ملبسة بمثل ذلك ، وإذا الواثق فى صدره على سرير مرصّع بالجوهر وعليه ثياب منسوجة بالذهب »[٤] . وكان الوزراء وغير الوزراء من علية القوم يَحْيَوْن هذه الحياة المترفة وينغمسون فيها انغماساً ، جامعين لقصورهم ومجالسهم كل ما يمكنهم من طُرَف ، ويصور ذلك — من بعض الوجوه — ما يُرْوَى عن الأصمعى من أنه دخل على الفضل بن يحيى البرمكى فى يوم بارد من أيام الشتاء « فإذا هو فى بَهْوٍ قد فُرِش بالسَّمُّور (ضرب من الفراء) وهو فى دَسْتٍ منه وعلى ظهره دُوَّاج (ثوب) سمّور أشهب مبطن بخزّ ، وبين يديه كانون فضة فوقه أثْفِيَّةُ ذهب فى وسطها تمثال أسد رابض فى عينيه ياقوتتان تتوقدان »[٥] .

وطبيعى أن يشيع فى هذا الجو الزاخر بالترف التأنق فى الملبس والثياب ، وقد عمّ حينئذ ببغداد لبس الأزياء الفارسية ، ومرّ بنا فى الفصل السابق كيف كانت كل طائفة من طوائف الموظفين ورجال الدولة تلبس زيًّا خاصًّا بها يميزها من الطوائف الأخرى . وكان المنصور أول من دفع إلى ذلك إذ رسم للوزراء لبس الدُّرَّاعات والطيلسانات والشاشيات ، وأمر أفراد حاشيته بلبس القلانس الطوال

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٢١ والطبرى ١٨٧/٧ واليعقوبى ١٨٦/٣ والمسعودى ٣٥١/٣ وابن طيفور ١١٤ وابن الطقطقى ص ١٦٧ .
(٢) أغانى (طبعة دار الكتب) ٣٤٥/٥ .
(٣) المسعودى ٩/٤-١٢ .
(٤) أغانى ١١٦/٤ .
(٥) طبقات الشعراء لابن المعتز (طبع دار المعارف) ص ٢١٤ .

مما جعل أبا دلامة مضحكه ينشده[١] :

وكنا نُرَجِّى من إمامٍ زيادةً فزاد الإمامُ المصطفى فى القَلانِس
تَراها على هامِ الرجال كأنها دِنانُ يهودٍ جُلِّلَتْ بالبرانِسَ[٢]

وكان الشعراء يلبسون الوشى والمقطعات الحريرية[٣] ، ويلبس المغنون قطوع الديباج والخز[٤] ، ويقال إنه كان لعمارة بن حمزة أحد كتّاب الخراج ألف دُوّاج من صوف وفراء[٥] ؛

واستكثروا حينئذ من العطور وأنواع الطيب من الغالية والمسك والكافور والعنبر والروائح الأرجة التى كانت تستخلص من البنفسج والنرجس والنيْلوفر وغير ذلك من الأزهار ، واشتهرت جور الفارسية بماء الورد وأدهنة الزعفران .

وبالغ النساء حرائر وجوارى فى زينتهن وأناقتهن ، فكن يرفلن فى الثياب الحريرية ويختلن فى الحلى والجواهر متخذات منها تيجاناً وأقراطاً وخلاخيل وعقوداً وقلائد ، وقد ينظمنها على شعرهن[٦] أو على عصائبهن[٧] ، ويقال إن دنانير جارية البرامكة كانت تتحلّى بعقد من الجوهر بلغت قيمته ثلاثين ألف دينار كان قد أهداه إليها الرشيد[٨] . وكن يتعطرن بأنواع الطيب من مفرقهن إلى أقدامهن ، ويقال إن عَريب المغنية كانت تغسل شعرها من جمعة إلى جمعة وتغلفه فى كل غسلة بستين مثقالا مسكًا وعنبراً[٩] . وكن يمشطن شعورهن بأمشاط من الصَّدف والصَّنْدل[١٠] ويعقصْنَه أو يُرْسلنه غدائر تنوس ، وقد يلوينه على أصداغهن فى هيئة النون أو هيئة العقرب ، وفى ذلك يقول أبو نواس واصفاً طائفة منهن[١١] :

أَصداغهنَّ مُعَقْرَبا تُ والشَّواربُ من عَبِيرْ

---

(١) أغانى ١٠/٢٣٦ .

(٢) الهام : الرءوس. جللت : غطيت . البرانس كالقلانس ، والشاشيات : أغطية للرأس .

(٣) البيان والتبيين ٣/١١٥ .

(٤) أغانى ٦/٢٩٣ وانظر ٥/٣١٧ .

(٥) الجهشيارى ص ١٤٩ . والدواج : من الملابس التى يلتحف بها .

(٦) طبرى ٦/٤٣٥ .

(٧) أغانى (طبع دار الكتب) ١٠/١٦٢

(٨) أغانى (طبعة الساسى) ١٦/١٣٢ وانظر فى عقد آخر نفيس أهداه الواثق لفريدة الصغرى المغنية الأغانى (طبعة دار الكتب) ٤/١١٧ .

(٩) أغانى (ساسى) ١٨/١٨٧ .

(١٠) وكان الرجال يتخذون هذه الأمشاط أيضا . انظر كتاب البخلاء للجاحظ (طبعة دار الكاتب المصرى) ص ٥٣ .

(١١) ديوان أبى نواس (طبعة آصاف) ص ٨٣ .

وكنّ يلبسن جوارب الحرير ويتحلين بعقود الأزهار من بنفسج وغير بنفسج ، ويقول الجاحظ إن المرأة حين كانت تزوّج ابنتها تحليها بالذهب والفضة وتكسوها المروزيّ والوشي والقـَزّ والخزّ وتعلّق لها المعصفر وتدق الطيب حتى تعظّم أمرها فى عين زوجها وأهله[1] . ولعل امرأة لم تبلغ من التأنق ما بلغته زُبَيْدة زوجة الرشيد وفيها يقول المسعودى إنها : « أول من اتخذ الآلة من الذهب والفضة المكللة بالجوهر وصُنع لها الرفيع من الوشي حتى بلغ الثوب من الوَشْي الذى اتُّخذ لها خمسين ألف دينار . . وهى أول من اتخذ القباب من الفضة والآبنوس والصندل . . ملبسة بالوشى والسمور (الفراء) والديباج وأنواع الحرير . . واتخذت الخفاف (النعال) المرصعة بالجوهر ، وشمع العنبر ، وتشبّه الناس بها »[2] .

ولا ريب فى أن هذا كله كان على حساب العامة المحرومة التى كانت تحيا حياة بُؤْس تقوم على شظف العيش لينعم الخلفاء والوزراء والولاة والقواد وكبار رجال الدولة وأمراء البيت العباسى الذين بلغوا هم وأبناؤهم نحو ثلاثين ألفاً لعهد المأمون[3] . وطبيعى أن يعم البؤس والشقاء من جانب ، بينما يعم النعيم والترف من جانب آخر ، بل لقد كان للشقاء والبؤس أكثر الجوانب فى الحياة العباسية ، فالجمهور يعيش فى الضنك والضيق لا الرقيق منه فحسب الذى كان يعمل فى القصور والضياع ، بل أيضًا جمهور الناس من الأحرار ، وكأنما كانوا جميعًا أرقاء فى هذا النظام الذى كُفلت فيه أسباب النعيم ووسائل الترف لأقلية محدودة استأثرت لنفسها بطيبات الأرض والرزق وزينة الحياة .

ولعل هذا البذخ وما صحبه من اعتصار الشعب هو السبب الحقيقى فى كثرة الثورات على العباسيين وخاصة فى إيران ، مما عرضنا له فى الفصل السابق ، وأيضاً لعله السبب الحقيقى فى تعلق الناس بالمهدى المنتظر من أبناء على الذى ينشر العدل الاجتماعى فى الأرض ، مما هيأ لكثرة الجمعيات السرية واعتناق الناس لعقيدة التشيع على اختلاف فرقها . غير أن المسألة لم توضع وضعًا سليماً صريحًا على أساس مشكلة العدالة الاجتماعية واستنزاف الشعب لمصلحة طبقة تعيش معيشة

---

(١) البخلاء ص ٢٥ . والمروزى نسبة إلى مرو . ويريد الجاحظ بالمعصفر الستور الحريرية التى كانت تعلق على الحيطان .

(٢) المسعودى ٤/٢٤٤ .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ١٢٣ .

باذخة مسرفة فى البذخ ، بل وجهت توجيهاً خاطئاً ، على أساس دعوات دينية مارقة كدعوة الحرمية التى استوحت آراء المزدكية والمانوية ، وحتى الشيعة وفرقهم أعلوا المقاصد الدينية على مقاصد العدالة الاجتماعية . وبذلك أخفقت هذه الثورات جميعاً ، لأنها لم تضع للشعب اللافتات والشعارات الحقيقية التى يلتف حولها ويعمل من أجلها ،ومضى العباسيون وحواشيهم يغرقون إلى آذانهم فى البذخ والترف .

وقد هيأ هذا الترف لنشوء طبقة وسطى فى بغداد ومدن العراق من التجار والصناع الذين كانوا يقومون على مطالب الترف وأدواته ، أما التجار فكانت سفنهم وقوافلهم غادية رائحة فى البحر والبر تجلب الطرف النفيسة من جميع أنحاء العالم ، وأما الصناع فكانوا يتفننون فى صوغ التحف الثمينة . وكان مركزهم جميعاً فى الأسواق حيث تتجمع حوانيت كل طائفة منهم فى سوق أو شارع . وكانت رءوس أموالهم تختلف قلة وكثرة وضيقاً وسعة ، فمنهم من كان رأس ماله ثلاثة آلاف دينار[١] ومنهم من بلغ رأس ماله مائة وأربعين ألف دينار ومليونين وستمائة ألف من الدراهم[٢] ، ويقال إن ربح بعض التجار بلغ فى صفقة واحدة مائة ألف دينار[٣] . وكان أكثرهم ثراء البزازين والعطارين وتجار التحف النفيسة .

ومن أهم الجوانب التى يتضح فيها بذخ الطبقة المترفة مطاعمها ومشاربها ، فقد طعموا وشربوا فى أوانى الذهب والفضة وصحاف الصينى المزخرفة والصحاف الزجاجية المنقوشة والمحفورة ، وتفنن لهم الطهاة فى ألوان الطعام والشراب ، وكانوا يسمون باسم ما يعدونه منها من خباز وشواء وطباخ وخباص وهو الذى يصنع الحلوى وشرابى وهو صانع الشراب وألوانه . وفى كتاب البخلاء للجاحظ حشد كبير من الأطعمة والمشارب وهى فى جمهورها فارسية ، فمنها السباج وهو لحم يطبخ بخل مع شىء من الزعفران لتطيب رائحته ، والطباهج وهو طعام من لحم و بيض وبصل ، والشبارقات وهى شرائح مشوية من اللحم ، ومنها الفانيذ وهو حلوى من الدقيق والسكر والسمن ، والخشكنان وهو كعك يحشى بالجوز والسكر ، والفالوذج وهو حلوى من النشا وعسل النحل والسمن ، ومنها الجلاب وهو شراب من ماء الورد .

(١) البخلاء ص ١٠١ .
(٢) البخلاء ص ٣٤ .
(٣) الجهشيارى ص ١٨٥ ، ٣١٩ .

وكانوا يتفننون تفنناً واسعاً فى إضافة الأفاويه إلى الأطعمة وصنع المشهّيات والمخلّلات الحرّيفة وصنوف النُّقْل من مثل مملوح البندق والجوز واللوز والفستق. وتكثر عندهم أسماء الفواكه من مثل التين والعنب والموز والكمّثرى والخوخ والرمان والإجّاص والسفرجل والتفاح ، وكان البطيخ لديهم كثيراً حتى نسبوا إليه سوق الفاكهة ، فسموها باسم سوق البطيخ ودار البطيخ .

ومما يدل على كثرة أفانين الطهاة فى الأطعمة ما يروى من أن مائدة المأمون ضمت ذات يوم ثلاثمائة لون(١) ، وقد انبهر الأصمعى لكثرة ما رآه على مائدة الفضل بن يحيى البرمكى من ألوان الطعام وما غسلوا به أيديهم بعد الأكل من ألوان الطيب والغالية والعنبر(٢) . ويقال إن المأمون كان ينفق على طعامه يومياً ستة آلاف دينار بينما كان ينفق وزيره ابن أبى خالد على طعامه يومياً ألف درهم (٣)، وهو نفس المبلغ الذى كان ينفقه إبراهيم الموصلى يومياً على طعامه وطيبه(٤) .

ومن تتمة هذا الترف فى المطعم أن نراهم يتواضعون على طائفة من آداب المائدة اقتبسوا كثيراً منها عن الفرس(٥) ، فمن ذلك أن يضم الآكل شفتيه فى أثناء المضغ وأن لا يستأثر لنفسه بشيء من محاسن الطعام وأن لا يمسح فمه بكمه وأن لا يتناول إلا ما بين يديه وأن لا ينظر إلى ما بين يدى غيره وأن لا يطلب ما عسى أن لا يكون موجوداً .

وعلى نحو ما كان للمائدة آدابها كان لمجالس الخلفاء والوزراء وعلية القوم أيضاً آدابها ، وهى تعرف بآداب المسامرة(٦) ، وكان لابد للنديم من إحسانها ، حتى يخفّ على قلب منادمه ، وكثير من هؤلاء الندماء استطاع أن يعتلى منصب الوزارة بما كان يحسنه من التبسط إلى الخليفة فى الحديث فى ساعات صفوه وغضبه ، ومن لم يعتل منهم منصب الوزارة سالت عليه الصلات السنية ، ولذلك لا نعجب أن يصبح الحذق بالمنادمة وما تتطلب من كياسة مطمحاً لكثير من العلماء والأدباء ومن اللغويين والفقهاء وكل من يريد الحظوة عند خليفة أو وزير . وتلمع فى هذا الجانب أسماء الأصمعى وأبى يوسف منادمى الرشيد وثمامة بن أشرس نديم المأمون .

---

(١) ابن طيفور ص ٣٦ .
(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢١٤ .
(٣) ابن طيفور ص ١٢٣ .
(٤) أغانى (طبعة دار الكتب) ٥/١٦٤ .
(٥) عيون الأخبار لابن قتيبة (طبعة دار الكتب) ٣/٢١٤
(٦) المسعودى ٣/١٩٥ وما بعدها

وكان النديم يورد فى أحاديثه أخبار العامة ونوادرهم وبعض الحكايات القصيرة وبعض الطرف الأدبية . وكان بين هؤلاء الندماء مضحكون لا يزالون يوردون فكاهات مضحكة ، ومن أشهرهم أبو دلامة الشاعر مضحك السفاح والمنصور والمهدى ، وله فكاهات كثيرة تدور فى كتب الأدب ، ومنهم ابن أبى مريم مضحك الرشيد « وكان محدثًا فكهاً ، فكان الرشيد لا يصبر عنه ولا يمل محادثته ، وكان ممن جمع إلى ذلك المعرفة بأخبار أهل الحجاز وألقاب الأشراف ومكايد المجان» [١] ومنهم أبو الشمقمق وكان الناس يتهافتون على جمع نوادره[٢] .

وكانت هناك أدوات للترويح ولعب كثيرة ، من ذلك سباق الخيل[٣] وسباق الحمام الزاجل[٤] ولعبة الصولجان وهو كرة تضرب من فوق ظهور الخيل ، ومن ذلك المحادثة بين الديوك والكباش والكلاب ، ولعبُ أبى نواس بالكلاب هو الذى أتاح له التفوق فى وصفها بطردياته ، ومن ذلك لعبة الشطرنج حتى ليشتهر شخص بإحسانها يسمى أبا حفص الشطرنجى ، ولعبة النَّرْد (الطاولة) ويقال إن واضعه أراد به تمثيل الحياة ، فرقعته تقابل الأرض المبسوطة لسكانها ، ومنازله الأربع تقابل الطبائع الأربع وخطوطها وهى أربعة وعشرون تقابل ساعات الليل والنهار وبيادقة (حجارته) الثلاثون تقابل عدد أيام الشهر واختلاف ألوانها بين البياض والسواد تقابل اختلاف الليل والنهار وفَصَّاه (الزهر) يقابلان القضاء . ويظهر أنهم عرفوا لعبة خيال الظل ، فقد هدَّد دِعْبِل ابناً لأحد طبَّاخى المأمون بأنه سيهجوه ، فقال له : والله إن فعلت لأخرجنَّ أمك فى الخيال [٥] .

ومن أسباب اللهو التى فُتن بها الخلفاء الصيد بالبُزاة والشواهين والصقور والكلاب والفهود ، والصيد قديم عند العرب والفرس جميعًا ، ومن الملوك الذين اشتهروا به عند الأخيرين بهرام جور[٦] ، وأولع به المهدى ، فكان يخرج إليه فى مواكب كبيرة ومعه الحرس والوُصفاء وبعض حاشيته ، ويروى أن على بن سليمان العباسى خرج معه يوماً فعرض لهما ظبى سانح ، فرماه هو والمهدى بسهمين ،

---

(١) طبرى ٦/ ٥٣١ .
(٢) الحيوان للجاحظ (طبعة الحلبى) ١/ ٦١ .
(٣) الجهشيارى ص ٢٠٧ والمسعودى ٣/ ٢٧٩ .
(٤) أغانى (طبع دار الكتب) ١٤/ ٣٤ .
(٥) الديارات للشابشتى ص ١١٩ .
(٦) الحيوان ١/ ١٤٠ .

أما المهدى فأصابه وأما على بن سليمان فأصاب كلباً كان قد أرسل عليه وقتلاهما جميعاً، فقال أبو دلامة متندراً (١) :

قد رمى المهدىُّ ظَبْياً شكَّ بالسهم فؤادَهْ
وعلىُّ بن سليما ن رمى كلباً فصادَه
فهنيئاً لهما كـ لُّ امرئٍ يأكل زادَه

وشُغِف بالصيد كل من جاء بعد المهدى من الخلفاء(٢) ، وكان يشغف به الفضل بن يحيى البرمكى شغفاً شديداً (٣) .

وكان للعامة ملاهيهم وفى مقدمتها الفرجة على القرّادين والحوّائين ، وكانوا يتجمعون حول قُصَّاص يطرفونهم بحكايات خيالية ، كما كانوا يتجمعون حول طائفة من الحكّائين الذين كانوا يحكون فى دقة لهجات سكان بغداد ونازليها من الأعراب والنبط والخراسانيين والزنوج والفرس والهنود والروم ، ويصور الجاحظ عملهم ، فيقول : « إنا نجد الحاكية من الناس يحكى ألفاظ سكان اليمن مع مخارج كلامهم لا يغادر من ذلك شيئاً وكذلك تكون حكايته للخراسانى والأهوازى والزَّنْجى والسِّندى والأحباش وغير ذلك ، نعم حتى تجده كأنه أطبع منهم ، فإذا ما حكى كلام الفأفاء فكأنما قد جُمعت كل طرفة فى كل فأفاء فى الأرض فى لسان واحد ، وتجده يحكى الأعمى بصور ينشئها لوجهه وعينيه وأعضائه لا تكاد تجد من ألف أعمى واحداً يجمع ذلك كله ، فكأنه قد جمع جميع طُرف حركات العميان فى أعمى واحد ، ولقد كان أبو دَبُّوبة الزنجى مولى آل زياد يقف بباب الكَرْخ بحضرة المُكارين ، فينهق ، فلا يبقى حمار مريض ولا هرِمٌ حسير ولا مُتْعَبٌ بَهِيرٌ إلا نهق ، وقبل ذلك تسمع نهيق الحمار على الحقيقة فلا تنبعث لذلك ، ولا يتحرك منها متحرك حتى كان أبو دَبُّوبة فيحركها ، وقد كان جمع جميع

---

(١) أغانى ٦/٢٤٠ والمسعودى ٣/٢٩٧ وابن الطقطقى ص ١٣١ ، ١٣٣ .
(٢) انظر المصايد والمطارد لكشاجم (طبع دار المعرفة ببغداد) ص ٣ وما بعدها والجهشيارى ص ١٧٣ والطبرى ٦/٤٩٤ والأغانى ٥/٣٤٤ ، ٤١٨ ، ٧/١٥٨ .
(٣) المسعودى ٣/٢٨٤ .

الصور التى تجمع نهيق الحمار فجعلها فى نهيق واحد ، وكذلك كان فى نُباح الكلاب »[١] .

٢

الرقيق والجوارى والغناء

كثر الرقيق فى العصر العباسى كثرة مفرطة بسبب كثرة مَنْ كانوا يؤسرون فى الحروب وبسبب انتشار تجارته ومعروف أن الإسلام يقصر الاسترقاق على أسرى الحروب من الأجانب ، غير أن تجارة الرقيق كانت منتشرة فى إيران وخراسان وما وراءهما وفى الدولة البيزنطية ، وعظمت هذه التجارة فى الإسلام على مر السنين ، حتى كان فى بغداد شارع خاص بها يسمى شارع الرقيق[٢] ، وكان يقوم عليه موظف يسمّى قيّم الرقيق .

وكان الرقيق حينئذ يُجْلَبُ من بلاد الزّنج وإفريقية الشرقية ومن الهند وأواسط آسيا ومن بيزنطة وجنوبى أوربا وكان الزنوج يعملون فى فلاحة الأرض غالباً ، أما غيرهم فكانوا يقومون بالأعمال اليدوية والخدمة فى المنازل والقصور . وقد دعا الإسلام دعوة واسعة إلى تحرير الرقيق فكان كثير منهم يحرَّرون ، وقد يصل بعضهم إلى أرفع المناصب فى الدولة مثل الربيع بن يونس مولى المنصور وحاجبه ثم وزيره[٣] . وكان الرشيد يستكثر منهم حتى قال إنه سار يوماً وبين يديه أربعمائة منهم[٤] ، ومعروف شغف المعتصم بالرقيق التركى ، وما زال يشتريهم من أيدى مواليهم ومن النخاسين حتى اجتمعوا له بالآلاف وحتى اضْطُرَّ أن يبنى لهم — كما أسلفنا — سُرَّ من رأى كى يجنِّب العامة شرهم وأذاهم .

وكان يَتَشيع بينهم الخِصْيان ونحن نعرف أن الإسلام يحرم خِصاء الإنسان احترامًا لآدميته ، ولكنه كان منتشراً فى العالم القديم بين البيزنطيين[٥] وغيرهم ،

---

(١) البيان والتبيين ١/ ٦٩ .
(٢) المسعودى ٣/ ٣١٦ .
(٣) انظر الجهشيارى ص ١٢٥ وابن الطقطقى ص ١٢٩ .
(٤) أغانى (طبعة دار الكتب) ٥/ ٢١٨ .
(٥) انظر الحضارة البيزنطية لرنسيمان (نشر مكتبة النهضة المصرية) ص ٢٤٣ .

وما نصل إلى العصر العباسى حتى نجد القصور فى بغداد وغيرها من بلدان العالم الإسلامى تكتظ بهم ، ومن المؤكد أن المسلمين لم يكونوا هم الذين يقومون بهذا العمل البغيض من الحضارة ، إنما كان يقوم بذلك اليهود والنصارى متحملين وِزْرَه وإثمه. وقد اشتهر الأمين بكلفه بهم كلفاً شديداً حتى تندر عليه معاصروه(١) .

وكان رقيق النساء من الجوارى أكثر عدداً من رقيق الرجال فقد ذخرت بهن الدور والقصور ، إذ أحلّ الإسلام للشخص أن يتملك من الإماء والجوارى ماشاء، وبينما قيَّد حريته إزاء الحرائر فحرَّم عليه أن يتزوج منهن بأكثر من أربع أطلق حريته إزاء الجوارى فلم يقيِّده بعدد منهن ،وإن كان قد حرم عليه بيع من يَستولدها وردّ إليها حريتها بعد وفاته وجعل أولاده منها أحراراً منذ ولادتهم . وكان الرجال بعامة يفضلونهن على الحرائر ، لأنهن كن من أجناس مختلفة ، فمنهن السنديات والفارسيات والحبشيات والخراسانيات والأرمنيات والتركيات والروميات ، وأيضاً ربما كان للحجاب دخل فى ذلك ، فقد كانوا لا يرون من يريدون الاقتران بهن من الحرائر ، أما الجوارى فكن معروضات بدور النخاسة تحت أعينهم ، فكانوا يختارونهن حسب مشيئتهم وهواهم ، وصوَّر ذلك الجاحظ فقال : « قال بعض من احتجَّ للعلة التى من أجلها صار أكثر الإماء أحظى عند الرجال من أكثر المَهيرات أن الرجل قبل أن يملك الأمة قد تأمَّل كل شىء منها وعرفه ما خلا حُظْوة الخلوة ، فأقدم على ابتياعها بعد وقوعها بالموافقة ، والحُرَّة إنما يُستَشار فى جمالها النساء ، والنساء لا يبصرْنَ من جمال النساء وحاجات الرجال وموافقتهن لا قليلا ولا كثيراً ، والرجالُ بالنساء أبصرُ ، وإنما تَعرف المرأة ظاهر الصفة ، وأما الخصائص التى تقع بموافقة الرجال فإنها لا تعرف ذلك . وقد تُحْسن المرأة أن تقول كأن أنفها السيف وكأن عينها عين غزال وكأن عنقها إبريق فضة وكأن ساقها جُمَّارة وكأن شعرها العناقيد وكأن أطرافها المدارى وما أشبه ذلك ، وهناك أسباب أخَر بها يكون الحب والبغض »(٢) .

وكانت هؤلاء الجوارى والإماء من أجناس وثقافات وديانات وحضارات مختلفة، فأثَّرن آثاراً واسعة فى أبنائهن ومحيطهن ، وهى آثار امتدت إلى قصر الخلافة وعملت فيه عملا بعيد الغور ، فقد كان أكثر الخلفاء من أبنائهن ، فالمنصور

(١) طبرى ٧/١٠١ ، ١١٠ . (٢) رسائل الجاحظ (طبعة السندوبى) ص ٢٧٤ .

أمه حبشية والهادى والرشيد أمهما الخيزران رومية والمأمون أمه مراجل فارسية وكذلك أم المعتصم ماردة ، وكانت أم الواثق رومية وتسمى قراطيس . وقد أخذ هؤلاء الجوارى يكثرن فى القصر منذ المهدى وكان بينهن من يعلقن الصُّلْبان ويقال إنه اشترى جاريته مكنونة بمائة ألف درهم(١) . وقد استكثر الرشيد وزوجه زُبَيْدة من الجوارى والإماء حتى قيل إنه كان عند كل منهما زهاء ألفى جارية فى أحسن زى من الثياب والجوهر(٢) ، وكانت سِحْر وضياء وخُنْث من بينهن يشغفن قلبه ، وفيهن يقول ، وقيل : بل نظم ذلك العباس بن الأحنف على لسانه(٣) :

ملك الثلاثُ الآنساتُ عِنانى   وحَلَلْن من قَلْبِى بكل مكانِ
مالى تطاوعنى البريَّة كلُّها   وأطيعهنَّ وهُنَّ فى عصيانى
ما ذاك إلا أن سلطان الهَوَى   ـ وبه عَزَزْنَ ـ أعزُّ من سلطانى

وكان قصر الأمين يزخر بالجوارى الغلاميات اللائى يلبسن لبس الغلمان(٤) ، وزخر قصر المأمون بالجوارى المسيحيات(٥) ، كما زخر بهن وبغيرهن قصر المعتصم والواثق(٦) .

وكانت قصور الوزراء والأمراء تمتلئ بهن ، حتى ليُرْوَى أنه كان لعَتَّابة زوج يحيى بن خالد البرمكى مائة وصيفة ، لَبوسُ كل واحدة منهن وحليُّها خلاف لَبوس الأخرى وحليِّها(٧) . ويفيض كتاب الأغانى بأخبارهن فى دور عِلْية القوم وفى دور النخاسة والقيان ويصوِّر كيف كان يغشى الدور الأخيرة الشعراء ، والجوارى يستصبين قلوبهم وكثيراً ما يقع حب جارية فى قلب شاعر ويصبح محنة لا يجد إلى التخلص منها سبيلا ، وكان من الشعراء من يقاوم إغراءهن ، ولكنه يغاديهن صباح مساء مفتوناً بهن . وعلى هذا النحو كانت دور النخاسة والقيان معارض للجمال ، وهى معارض مفتوحة ليلاً ونهاراً يجتمع فيها الفتيان من الشعراء وغير

(١) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٠/١٦٢ .
(٢) أغانى ١٠/١٧٢ وانظر طبعة الساسى ١٦/١٣٢ .
(٣) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٦/٣٤٥ .
(٤) المسعودى ٤/٢٤٤
(٥) أغانى (ساسى) ١٩/١٣٨ .
(٦) أغانى (دار الكتب) ٥/٢٨٨ ، ٧/٩٨ ، ١٢٠/٥١ ، ١٦/١٢ .
(٧) الجهشيارى ص ٢٤١ والمسعودى ٣/٢٩٧ .

الشعراء يتملَّون بالجمال ومفاتنه ، وفى ذلك يقول أبو دلامة[١] :

إن كنت تبغى العيش حلوًا صافياً فالشعرَ أَعْزِبْه وكُنْ نَخَّاسا
تَنَلِ الطرائفَ من ظِرافٍ نُهَّدٍ يُحْدِثْنَ كل عَشِيَّةٍ أعْراسا

وهى أعراس ظلت قائمة طوال العصر ، وظل الشعراء يختلفون إليها ، وكن أحيانًا يزرنهم فى دورهم ويبتْنَ عندهم ، وقد يشترى الجارية الخليفة أو وزير أو أمير أو قائد مشهور أو أحد العلية من أبناء البيوتات فيظل الشاعر متعلقًا بها وتظل تملك عليه كل شىء من أمره على نحو ما كانت تملك عُتْبة إحدى جوارى قصر المهدى قلب أبى العتاهية وجنان جارية الثقفيين قلب أبى نواس وفوز جارية محمد بن المنصور فتى العسكر قلب العباس بن الأحنف .

وكانت كثيرات منهن يثقَّفن بفنون الآداب ، فكن يجمعن إلى جمالهن عذوبة الحديث ، فيملأن على الشعراء وغيرهم قلوبهم وعقولهم ، بل كان منهن من يتقِنَّ نظم الشعر مثل عنان جارية الناطفى وسكن جارية محمود الوراق وقد عرض عليه بعض الطاهريين أن يشتريها منه بمائتى ألف درهم فأبى التفريط فيها[٢] لما كانت تَسْعَر به قلبه من الحب المضطرم . وكان منهن من يضفن إلى ذلك إجادة الغناء فكنّ فتنة من فتن العصر على نحو ما كانت دنانير جارية البرامكة ومتيَّم جارية على بن هشام أحد قواد المأمون وعَرِيب جارية الأمين والمأمون .

وكان للغناء فى الناس لهذا العصر أثر أى أثر ، فقد شغلوا به أى شغل ، وكأنه نعيمهم من دنياهم الذى لا يؤثرون سواه لما يبعث فى نفوسهم من غبطة وابتهاج ، ومعروف أنه انتقل من الحجاز إلى العراق لأواخر عصر بنى أمية ، إذ نرى ابن رامين الكوفى يستقدم مغنيات الحجاز[٣] ، ويقيم داراً واسعة يقصدها الناس . وما تنشأ بغداد ويُطِلُّ عصر المهدى حتى تصبح داراً كبيرة للغناء ، فقد جذبت إليها المغنين والمغنيات من كل فَجٍّ ، ونثرت الأموال عليهم نثراً ، بل كالتها كيلا . وأول من كالها من الخلفاء المهدى ، واقتدى به الهادى ، وخلفهما الرشيد فجعل المغنين

(١) أغانى ١٠/٢٥٠ .
(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤٢٢ .
(٣) انظر أغانى (دار الكتب) ١١/٣٦٤ .

مراتب وطبقات على نحو ما جعلهم أردشير[١] بن بابك ، وهو الذى طلب إلى إبراهيم الموصلى وإسماعيل بن جامع وفُلَيْح بن أبى العوراء أن يختاروا له الأصوات المائة التى أدار أبو الفرج الأصبهانى — فيما بعد — كتابه الأغانى عليها . وكان الأمين يعيش للسماع والقصف ، ويقال إنه اشترى بذلا المغنية بعشرين ألف ألف درهم[٢] . وكان فى المأمون وقار فامتنع عن السماع بعد قدومه من خراسان أربع سنوات ، ثم أقبل عليه فملأ مجالسه بإسحق الموصلى ومخارق ، ويقال إنه اشترى عَرِيب المغنية المحسنة الشاعرة بمائة ألف درهم ، واشتراها المعتصم بنفس الثمن بعد وفاته[٣] ، وكان الواثق أشد كلفاً بالغناء لإحسانه الضرب على آلاته ، وله فيه أصوات سجلها صاحب الأغانى ، ويقال إنه اشتريت له قلم الصالحية المغنية بعشرة آلاف دينار[٤] .

ومن أبرز المغنين حينئذ إبراهيم الموصلى ، ويقال إنه خلّف تسعمائة صوت صنعها ابتداء[٥] ، وكان يغنى الرشيد على ضرب زلزل وزَمْر برصوما[٦] ، وفى ذلك ما يدل على أنهم عرفوا غناء الجوقات . ومنهم ابن جامع مغنى الرشيد وكان يقال فيه إنه زِقُّ عسل حلو ، وطرب الهادى لصوت غناه فأعطاه ثلاثين ألف دينار[٧] . ومنهم مخارق وكان الناس يبكون لجمال غنائه ورقته ، وسمعه أبو العتاهية فقال له : يا دواء المجانين لقد رققت حتى كدت أن أحسوك ، فلو كان الغناء طعاماً لكان غناؤك أدْماً ، ولو كان شراباً لكان ماء الحياة[٨] . ومنهم علُّويه ، وكان يقول فيه الواثق : غناء علُّويه مثل نَقْر الطست يبقى فى السمع ساعة بعد سكوته[٩]

وأنبه المغنين فى العصر إسحق الموصلى ، وقد تلقن الغناء عن إبراهيم أبيه والضرب على العود عن زلزل ، وفى ترجمته بالأغانى أنه أعطاه على تعليمه له مائة ألف درهم . وكانت صنعته محكمة الأصول ، وكان يتصرف فى جميع بُسط الإيقاعات . ويظهر أنه استطاع أن ينتقل بالغناء من حد التطريب إلى حد التعبير ، بل لعل

(١) كتاب التاج المنسوب إلى الجاحظ ص ٣٧ .
(٢) أغانى (طبعة الساسى) ١٥/١٣٨ .
(٣) أغانى ١٨/١٨٢ .
(٤) أغانى (دار الكتب) ١٣/٣٥٠ .
(٥) أغانى ٥/١٨٧ .
(٦) أغانى ٥/٢٤١ .
(٧) أغانى ٦/٣٠٣ .
(٨) أغانى (ساسى) ٢١/١٤٧ .
(٩) أغانى (دار الكتب) ١١/٣٣٧ .

ذلك كان شأوًا ارتفع إليه المغنون فى عصره ، فقد روى صاحب الأغانى أن مغنيًا تغنى فى مجلس الواثق بصوت له ، فنظر إليه مخارق نظرًا شَزْرًا حتى إذا خلا به قال له : « ويحك أتدرى أى صوت غنيت ؟ إن إسحق جعل صيحة هذا الصوت بمنزلة طريق ضيق وَعْر صعب المرتقى ، أحد جانبى ذلك الطريق حرف الجبل ، وعن جانبه الآخر الوادى ، فإن مال مرتقيه عن محجته إلى جانب الوادى هَوَى ، وإن مال إلى الجانب الآخر نطحه حرف الجبل فتكسَّر »(١) . ولعله بفضل ما كانت تحمل أصوات الغناء من صور التعبير كانت تعلَّم وتباع بأغلى الأثمان حتى لقد بيع صوت بمائة ألف دينار(٢) ، وكان سُراة بغداد يتهادونها كما يتهادون التحف الثمينة(٣) .

وبلغ من رقى هذا الفن وارتفاع شأنه فى النفوس أن أقبل أبناء الخلفاء وعلية القوم على تعلمه وإتقانه حتى لنراهم يصنعون فيه ألحانًا وأصواتًا تنسب إليهم ، على نحو ما أشرنا إلى ذلك آنفًا عند الواثق ، وقد فتح أبو الفرج فى أغانيه فصلا بل فصولا طويلة(٤) لأبناء الخلفاء وما أُثر عنهم من أصوات ، وأشهرهم فى هذا الباب إبراهيم ابن المهدى وأخته عُلَيّة وكان إبراهيم يُعَدّ فى كبار المغنين المحسنين ، وله أصوات(٥) كثيرة ، وكانت علية مثله تجيد الغناء وقد خلّفت فيه ثلاثة وسبعين صوتاً(٦) . وممن برع فى الغناء وأثرت عنه أصوات بديعة فيه عبد الله(٧) بن طاهر ، وأبو دلف(٨) العجلى قائد المأمون المشهور .

وقد جعل هذا الغناء الذى ملأ حياة الناس واستأثر بقلوبهم يرفع من أثمان الجوارى المسمَّيْن بالقيان اللائى كن يتقنَّه ويدلعن ناره فى القلوب ونسيمه الحلو الصافى ، وقد مرَّ بنا ما بيعت به عريب مرارا وما بيعت به بَذْل وقلم الصالحية ، ويقال إن صالح بن على عم المنصور اشترى سعدة بتسعين ألف درهم واشترى ابن أخيه جعفر بن سليمان رُبَيْحة بمائة ألف والزرقاء بمائة ألف ثانية(٩) ، والثلاث

---

(١) أغانى ٥/٣٠٥ .
(٢) أغانى (دار الكتب) ٧/٣٠٠ .
(٣) أغانى ٥/٣٨٤ .
(٤) أغانى ١٠/٩٥ ، ١٦٢ وفى مواضع متفرقة .
(٥) انظر ترجمته فى الأغانى ١٠/٩٥ .
(٦) أغانى ١٠/١٧٤ .
(٧) أغانى ١٢/١٠٦ .
(٨) أغانى ٨/٢٤٨ .
(٩) أغانى ١٥/٦٢ وما بعدها .

من جوارى ابن رامين اللائى استقدمهن من الحجاز ، واشترى المهدى سراً من أبيه المنصور بَصَصْبص جارية ابن نفيس بسبعة عشر ألف دينار[١] ، واشترى الرشيد ذات الخال بسبعين ألف درهم[٢] ، بينما اشترى على بن هشام أحد قواد المأمون متيّم الهاشمية بعشرين ألف درهم[٣] .

وكانت هذه الأثمان الباهظة التى تدفع فى شراء الجوارى اللاتى يحسنّ الغناء سبباً فى أن يُعْنَى المقيّنين بتعليمهن هذا الفن حتى يصيبوا من ورائهن الأرباح الطائلة ، وجاراهم فى ذلك بعض المغنين الحاذقين من أمثال إبراهيم الموصلى ، حتى يقال إنه كان عنده ثمانون جارية يعلمهن فن الغناء[٤]. وكان ابنه إسحق على شاكلته يعلم الجوارى والغلمان جميعاً ، ويقال إنه علم غلامين — لبعض أمراء البيت العباسى — الغناء نظير مائة ألف درهم[٥] . ولم يكن هو وأبوه وحدهما يحترفان هذا التعليم والتثقيف ، فقد شركهما فيه كبار المغنين لعصرهما من مثل ابن جامع ويزيد بن حَوْراء وبعض الجوارى المحسنات للغناء ، وهذا هو سر ما نجده عند صاحب الأغانى من نصه دائماً على أساتذة المغنى المتقن والقينة المحسنة وتلامذتهما .

ويخيل إلى الإنسان أنه لم يبق فى بغداد ولا فى الكوفة ولا فى البصرة سَرِىٌّ إلا عمل على أن يَقْتَنِى قينة أوقيانا يُشِعْنَ المرح فى داره. وكان مَنْ لا يستطيع اقتناء قينة يمكنه أن يستأجر من المقيّنين إحدى قيانهم لتغنيه ليلة أو ليالى متصلة، فالرواة يذكرون أنه كان لأبى النضير عمر بن عبد الملك جوار يغنين ويخرجن إلى أهل البصرة[٦] ، وكانت قيان بَرْبر فى الكوفة ما يزلن يختلفن إلى مطيع بن إياس ورفقته[٧] ، وبالمثل كانت قيان بغداد يُكْثِرْنَ من الاختلاف إلى دور الشعراء ، وكان الشعراء وغيرهم من فتيان بغداد يزورونهن فى دور أصحابهن من المقيّنين ، وكانت أشبه بنوادٍ كبيرة للغناء والموسيقى ، فالناس يذهبون إليها شعراء وغير شعراء للمتعة بالسماع ورؤية الجمال من كل شكل وعلى كل لون ، وكثيراً

(١) أغانى ١٥/٢٧ .
(٢) أغانى ١٦/٣٤٢ .
(٣) أغانى ٧/٢٩٣ .
(٤) أغانى ٥/١٦٤ وانظر ٣/٢٥١ حيث اشترك مع يزيد بن حوراء فى تعليم طائفة من الجوارى فن الغناء .
(٥) أغانى ٥/٢٩٣ .
(٦) أغانى (طبع الساسى) ٢٠/٧٤ .
(٧) أغانى (طبع دار الكتب) ١٣/٣١١ ، ٣٢٢ .

ما كان يقع الشعراء فى حب بعض الجوارى المكتملات الخَلْق الجميلات الجسد، فيستأثرن بكل ما فيهم من عاطفة وهوى على نحو استئثار ريم بقلب مطيع [١] بن إياس ، وعبادة بقلب عبد الله[٢] بن محمد البواب وعنان بقلب أبى النضير[٣]، وسلسل بقلب أبان[٤] بن عبد الحميد . وكن يتبارين فى جذب الشعراء بما يُشعن فى أحاديثهن من عذوبة حلوة وبما يحسن من صنوف الغزل والعبث بقلوب الرجال .

وكثيرات من هؤلاء القيان والجوارى كن يحسن الرقص ، ويظهر أنه بلغ حينئذ حظًّا واسعًا من الرقى على نحو ما يصور لنا ذلك المسعودى بما ضبط من إيقاعاته على الغناء ورَسم من صفاته[٥] ، ويذكر ابن خلدون أنه كان للرقص عندهم آلات خاصة فى الملبس وما يستخدمن من قضبان مع ما يترنمن به من أشعار، ويقول إنه كان عندهم ضرب آخر من الرقص يتخذن فيه آلات تسمى الكرَّج وهى تماثيل خيل مسرجة من الخشب معلَّقة بأطراف أقبية ، يلبسها النساء ويحاكين بها امتطاء الخيل فيكررن ويفررن كأنهن فى حرب[٦] ، وفى كتاب الأغانى أن الأمين كان يرتكض فى الكرَّج بصحن قصره ، بينما الوصائف من حوله يغنين على الطبول والسُّرْنايات والمخنثون يزَمْرون ويُطْربون[٧] .

وقد أشاع هؤلاء الجوارى والقيان فى المجتمع كثيراً من ضروب الرقة والظَّرْف ، فقد جعلت كثرة معاشرتهن الرجال لهن يتعودون كيف يتلطفون لقلوبهن ، وكيف يستنزلونهن بالكلام الرقيق إلى وُدّهم ، وكيف يحيطونهن بأشراك الحديث الساحر الذى يشغف قلوبهن ويملؤها بالعطف والحنان ، وكان لذلك أثره البالغ فى الشعر والشعراء ، فقد شاعت فى كثير من معانيهم الرقة المفرطة والإشارة الدالة واللمحة المعبرة .

واقترنت بهذا الظرف مظاهر كثيرة فى الأزياء وفى العطور وآداب الطعام والسمر ، ومن أهم مظاهره تهادى القوم بالأزهار والرياحين رامزين بأسمائها وأشكالها

---

(١) أغانى ١٣/٣٠٠ .
(٢) أغانى (ساسى) ٢٠/٤٤ .
(٣) أغانى (طبع دار الكتب) ١١/٢٨٦ .
(٤) أغانى ١٠/٤٨ .
(٥) المسعودى ٤/١٦١ .
(٦) مقدمة ابن خلدون (طبعة المطبعة البهية) ص ٣٠٠ .
(٧) أغانى (طبعة الساسى) ١٦/١٣٣ .

إلى معانى المودة والمحبة[١] ، وكان الجوارى والقيان يـَكـْـلـَفـْنَ بالورود كلفاً شديداً ، ويروى أن متيم الهاشمية جارية على بن هشام ومغنيته كان يعجبها البنفسج جداً فكانت لا تخلى منه كمّها[٢] . وكان لهذا الإعجاب والكلف أثره فى العناية بالأزهار والرياحين وتغنى الشعراء بها غناء كثيراً[٣] .

وكان الجوارى يهدين التفاح كثيراً إلى من يكلفون بهن أو يتعلقن هن بهم ، وكن يضعن عليه أثر أخذه بأفواههن ، وقد يفلّجنه ويشقّقنَهُ بالمسك وغيره من أنواع الطيب ، وقد يكتبن عليه بعض أبيات رقيقة ، تصور صبابتهن ، وفى أخبار المهدى أن جارية من جواريه أهدت إليه تفاحة وطيّبتها وكتبت عليها[٤] :

هَدِيَّةٌ منى إلى المَهْدِى تفاحةٌ تُقْطَفُ من خَدِّى
محمرَّةٌ مصفرَّةٌ طُيِّبَتْ كأنها من جنّة الْخُلْدِ

واستغللن أبيات الحب والعشق كثيراً لا فى أحاديثهن فحسب ، بل فى كل ما يتصل بهن ، فكن يكتبنها على المناديل الحريرية التى يرسلْن بها تذكاراً إلى عاشقيهن ، وقد يكتبنها على عصائبهن وذوائبهن وثيابهن وأكمامهن وفرشهن وما يمسكن به من مراوح ، ويروى بعض الأشخاص أنه دخل على هرون فرأى الوصائف من ورائه وقد تزينّ بعصابات نُظمت فيها الدرر واليواقيت وكُتبت عليها أبيات فى صفائح الذهب ، مثل قول بعض الشعراء[٥] :

مالى رميتُ فلم تُصِبْكَ سِهامى ورميتَنى فأَصبتَنى يا رامى

وقول آخر على لسان إحدى الجوارى :

أفلتُّ من حور الجِنانِ وخُلِقْتُ فِتْنة منْ يرانى

ويذكر إسحق الموصلى أنه دخل على الأمين يوماً فوجد من حوله وصائف

---

(١) أغانى ٧/١٧٠ .
(٢) أغانى ٧/٣٠٦.
(٣) انظر على سبيل المثال وصف إبراهيم ابن المهدى للنرجس فى الأغانى ١٠/١١٥ .
(٤) العقد الفريد (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٦/٤٠٦ .
(٥) العقد الفريد ٦/٤٢٤ .

يَختلْنَ في حسنهن ، وبأيديهن مراوح نقشت عليها أبيات غزل مختلفة ، منها هذا البيت [١] :

أتهوون الحياةَ بلا جنونٍ فكُفُّوا عن ملاحظة العيون

وكن يتبارين في التهادى بالتحف النفيسة ، من ذلك ما يُرْوَى عن مؤنسة جارية المأمون من أنها أهدت إلى متيم الهاشمية جارية على بن هشام فى يوم احتجمت فيه مِخْنَقَةً (قلادة) فى وسطها حَبَّةٌ – لها قيمة جليلة – كبيرة وعن يمين الحبة ويسارها أربع يواقيت وأربع زمردات وما بينها من شذور الذهب ، وغمستها فى الغالية[٢] .

وعلى هذا النحو كانت الجوارى والقيان فى هذا العصر من العوامل الفعالة فى انتشار الظرف والرقة فى المجتمع العباسى حتى أصبحا سمتين بارزتين فيه ، وبذلك رقَّت المشاعر والأحاسيس ودقت الأذواق وأرهفت إرهافاً شديداً .

٣

المجون

ورث المجتمع العباسى كل ما كان فى المجتمع الساسانى الفارسى من أدوات لهو ومجون ، وساعد على ذلك ما دفعت إليه الثورة العباسية من حرية مسرفة ، فإذا الفرس المتنصرون يمعنون فى مجونهم ويمعن معهم الناس ، فقد مضوا يعبون الخمر عبًّا ويحتسون كئوسها حتى الثمالة ، وحاكاهم من عايشوهم حتى أصبح الإدمان عليها ظاهرة عامة على الرغم من نهى القرآن الكريم عنها وحضه على اجتنابها إذ يقول عزَّ شأنه : (إنما الخمر والمَيْسر والأنْصاب والأزلام رِجْسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون) . وكان من أسباب انتشارها وإقبال الناس عليها أن أدَّى اجتهاد بعض فقهاء العراق إلى تحليل بعض الأنبذة كنبيذ التَّمْر والزبيب المطبوخ أدنى طبخ ونبيذ العسل والبُرّ والتِّين [٣] . فشرب الخلفاء هذه الأنبذة وشربها الناس ، وتهالك بعض الناس – إمعانًا فى

(١) العقد الفريد ٦/٤٢٤ .
(٢) أغانى ٧/٣٠٦ .
(٣) ضحى الإسلام لأحمد أمين ١/١١٩.

المجون — على أنواعها المحرمة بإجماع الفقهاء .

والمعروف أن الهادى أول خليفة عباسى أغْرِى بالخمر[١] ، وتبعه الرشيد[٢] ومن جاءوا بعده ، وأغلب الظن أنهم لم يكونوا يتجاوزون الأنواع المحلَّلة إلى الأنواع المحرمة إلا ما كان من الأمين الذى كان يعيش للخمر المسكرة يشربها أرطالا[٣] ، وكأنما كان فى قلبه جذوة من الغرام بها لا سبيل إلى إطفائها إلا بشرابها متتابعًا ، حتى ليصل أحياناً مساءه فيها بصباحه ، حدَّث ابن المعتز أنه اصطبح بها يومًا مع أبى نواس وطائفة من ندمائه : « فأُتِى بالشراب كأنه الزعفران ، أصفى من وصال المعشوق وأطيب ريحًا من نسيم المحبوب ، وقام سُقاة كالبدور بكئوسٍ كالنجوم فطافوا عليهم ، وضَربت المغنيات خلف الستائر بمزاهرها . فشربوا معه من صدر نهارهم إلى آخره فى مذاكرة (أحاديث) كقطع الرياض ، ونشيد كالدرِّ المفصَّل بالعِقْيان ، وسماع يحيِي النفوس ويزيد فى الأعمار . فلما كان آخر النهار دَعا بعشرة آلاف دينار فى صوانيّ فأمر فنُثرت عليهم فانتهبوها والشرابُ — بَعْدُ — يدور عليهم بالكبير والصغير من الصرف والممزوج » حتى إذا نام واستيقظ فى السحر طلب إلى أبى نواس أن ينشطه إلى متابعة السكر ببعض الأبيات ، فأنشده :

نَبِّهْ نديمك قد نَعَسْ يسقيك كأْساً فى الغَلَسْ
صِرْفاً كأن شُعاعها فى كفِّ شاربها قَبَسْ
تَذَرُ الفتى وكأنما بلسانه منها خَرَسْ
يُدْعَى فيرفع رأسَهُ فإذا استقلَّ به نَكَسْ

فهش الأمين ونشط ودعا بالشراب يصطبح به لليوم التالى وينعم بنشوته[٤] ، غير مفكر فى وقار خلافة ولا فى دين ، فقد احتلت قلبه وبسطت سلطانها عليه فأحبها وهام بها هياماً .

والأمين فى خمره ومجونه ليس شذوذاً فى عصره بل هو امتداد لموجة حادَّة

---

(١) الجهشيارى ص ١٤٤ والطبرى ٦/٤٣٠ ، ٤٣٥ وقارن بالأغانى ٥/١٦٠ والطبرى ٦/٣٢٩ .

(٢) طبرى ٦/٤٨٩ وأغانى ٥/٢١٦ ، ٢٢٤ ، ٢٩٩ وطبرى ٧/٢١٥ وأغانى ٥/٣٢٩ ، ٣٤٢ ، ٣٥٥ .

(٣) الجهشيارى ص ٢٩٩ والمسعودى ٣/٣٠٥ .

(٤) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢١٠ .

بدأها الوليد بن يزيد فى دمشق لآخر عصر بنى أمية ثم مطيع بن إياس ورفقاؤه من أمثال والبة بن الحباب فى الكوفة وبشار وأضرابه المُجّان فى البصرة . ومن الحق لو أن العصر العباسى لم يقبل ويقبل معه الخراسانيون من الشرق لما اتسعت تلك الموجة ولانحصرت فى حيز ضيق ، فقد أحسّ الفرس أن الحياة واتتهم وأخذوا يعبّون كئوس الخمر مترعة ، وتهالك الشعراء عليها من حولهم حتى أصبحت من أهم الموضوعات الجديدة فى الشعر العباسى ، واشتهر فيها غير شاعر بخمرياته ، على نحو ما هو معروف عن أبى نواس . ومن يقرأ فى الأغانى لأبى الفرج يخيَّل إليه أن الناس جميعًا شرفاء ومشروفين قد تورطوا فى إثمها تورطًا ، وكان منهم من يسرف فى شربها إسرافًا شديداً حتى ليتناول منها عشرة[1] أرطال دفعة واحدة . ويؤثر عنهم أنهم كانوا يكرهون أن يدور الشراب بين اثنين ، لأن أحدهما قد ينهض لحاجة فيبقى صاحبه واجماً ، ومن أجل ذلك استحبّوا أن يدور الشراب بين ثلاثة أو أربعة أو خمسة ، بحيث لا يزيدون عن ذلك ، حتى لا يستحيل الشراب إلى لون من ألوان الشغب ، وفى ذلك يقول أبو نواس[2] :

ثلاثةٌ فى مجلسٍ طَيِّبٍ　　وصاحب الدعوة والضاربُ
فإن تجاوزتَ إلى سادسٍ　　أتاك منهم شغبٌ شاغبُ

وقد تفنن الشعراء فى وصف نشوتها وآثارها فى الجسد والعقل ووصف دنانها وكئوسها ومجالسها ونُدْمانها وسقاتها وكانوا عادة من النصارى والمجوس واليهود ، وكانوا يزينون رءوسهم بأكاليل الزهر كما يزينون قاعة الشراب بالرياحين ، وفى ذلك يقول أبو نواس خمريته[3] التى كان يعجب بها الجاحظ إعجابًا شديداً :

ودارِ نَدامى عطّلوها وأدلجوا　　بها أثَرٌ منهم جديدٌ ودارسُ[4]
مساحبُ من جَرِّ الزِّقاق على الثَّرَى　　وأضغاثُ ريحانٍ جنىٌّ ويابسُ[5]

---

(١) الحيوان ٢/٢٢٦ والأغانى ٥/٢٢٥.
(٢) ديوان أبى نواس (طبعة آصاف) ص ٣٥٦ وانظر ٣٥٨ .
(٣) ابن المعتز ص ٢٠٦ .
(٤) أدلجوا : ساروا الليل كله أو آخره . دارس : ممحو.
(٥) الزقاق: دنان الخمر. أضغاث: أخلاط .

حبستُ بها صحبي فجدَّدت عهدهم وإنى على أمثال تلك لحابسُ
أقمنا بها يوماً ويوماً وثالثاً ويوماً له يومُ الترحُّل خامسُ
تُدار علينا الرَّاحُ فى عسجديَّة حَبَتْها بألوان التصاوير فارسُ[١]
قرارتُها كسرى وفى جَنَباتها مَهًى تَدَّريها بالقِسِيِّ الفوارس[٢]
فللخمر ما زُرَّت عليه جُيُوبها وللماء ما دارتْ عليه القلانس[٣]

وهي خمرية تقطر حنيناً وحباً للخمر ، فقد بثَّ فى مطلعها لوعة عشاق العرب إزاء الرسوم الداثرة لوعة تجعلهم يحبسون مطيهم عندها وفاء لحق حبهم فيها ، حتى إذا استتم هذه الصورة مضى يعلن صبابته بتلك الدار وكيف حبس بها صحبه أياماً يتداولون كئوس الخمر التى كانت تشيع فيهم البهجة والفرحة بشكلها المادى وما ارتسم عليها من صور فارسية بديعة وبما تسكب فى بطونهم من رحيق الخمر ومتاعها المتصل .

ومنذ أول العصر نجد الخمر تقترن بالغناء والرقص ، إذ تحول المقيِّنون فى كَرْخ بغداد وفى البصرة والكوفة بدورهم إلى حانات كبيرة للشرب والقصف كل مساء ، فكان الشعراء وغيرهم يؤمونها للشراب على غناء القيان وضرب الطبول والدفوف ، ومن أشهر تلك الدور دار ابن رامين المقيِّن فى الكوفة ، فقد جلب إليها طائفة من قيان الحجاز ، كان يختلف إليهن للشراب والسماع مطيع بن إياس وصحبه من الشعراء وابن المقفع ومعن بن زائدة الشيبانى وروح بن حاتم الباهلى[٤] . وعلى شاكلتها دار إسماعيل القراطيسى المقيِّن فى بغداد ، وكانت مألفاً لأبى نواس والحسين بن الضحاك وأبى العتاهية وغيرهم من الشعراء[٥] .

وكانت البساتين فى ضواحي بغداد تمتلىء بالحانات التى يختلف إليها الشعراء وغيرهم من الفتيان كحانة بستان صَبَّاح التى وصفها مطيع بن إياس فى بعض شعره[٦] ، ويَرْوى الصولى أن أبان بن عبد الحميد أظهر من التهالك على الشراب

(١) عسجدية : كأس ذهبية .
(٢) المها : البقر الوحشى . تدريها : تدفعها .
(٣) الجيوب : أطواق الثياب .
(٤) أغانى (طبع دار الكتب) ١١/٣٦٤ ، ٦٧/١٥ .
(٥) أغانى (ساسى) ٢٠/٨٩ .
(٦) أغانى (دار الكتب) ١٣/٣٢١ وانظر كتاب الورقة (طبع دار المعارف) ص ٣٧ .

والمجون ما جعل أباه ينصحه أن يخرج إلى بعض البساتين لعله يسلو الخمر ، وغاب فيها طويلا ، فكتب إليه أبوه يتشوقه ، وما كان أشد عجبه حين أجابه بقوله[1] :

يا أبي لا تَرْثِ لى من غيبتى　　أنا فى خير ولهو ودَعَــهْ
ومعى فى كل يوم مُسْمِعٌ　　حاذقٌ يُطْربنى أو مُسْمعه
ونَدامى كمصابيح الدُّجَى　　كلهم يأْخذ كأساً مُتْرعه
لا يبالى مَنْ لَحَا فى شُرْبِها　　أبداً حتى يوارَى مصرعه

فالبساتين أو على الأقل طائفة منها تحولت إلى حانات كبيرة للخمر والقصف والمتعة بسماع بعض المغنين والقيان .

وكانت الأديرة تقدم لروَّادها الخمر المعتقة وقد استحالت قاعات شرابها إلى مجتمعات لطلاب الخمر والمجون من الشعراء وغيرهم ، وكانت متناثرة فى ضواحى بغداد وغيرها من مدن العراق ، ونرى الشعراء الماجنين يذكرون خمرها ونشوتها ورهبانها وراهباتها من مثل قول أبى نواس[2] :

يا دَيْرَ حنَّة من ذات الأُكَيْراحِ　　مَنْ يَصْحُ عنك فإنى لستُ بالصاحى
رأيتُ فيك ظباءً لا قرون لها　　يلعبْن منا بألبابٍ وأرواحِ

بل لقد كثرت أشعارهم فيها كثرة مفرطة دفعت كثيرين إلى تخصيص مؤلفات لها على نحو ما هو معروف عن كتاب الديارات للشابشتى ، وفيه نراها تتحول فى العراق إلى دور واسعة للهو والعبث .

وكثير من دور الشعراء أنفسهم فى بغداد وغير بغداد تحولوا بها إلى مقاصف للخمر والمجون على نحو ما كانت دور مطيع بن إياس ورفقائه فى الكوفة ودار بشار فى البصرة ودار أبى نواس فى بغداد . وكانت هناك أيام على مدار السنة يخرجون فيها للهو والقصف والعبث والمجون ، وهى أيام الأعياد : أعياد الإسلام وأعياد الفرس والنصارى وكانت تأخذ شكل كرنفالات عظيمة ، يخرج فيها الناس للشراب

(١) الأوراق للصولى ، أخبار الشعراء ص٢٦ .
(٢) الديارات النصرانية فى الإسلام لحبيب زيات (طبع بيروت) ص ٢٢ . وذات الأكيراح : موضع .

واللهو المباح وغير المباح والفرجة على أصحاب المساخر ، وكان منهم من يتهادون على صفحة دجلة فى القوارب الجميلة ومنهم من يبعد فى البساتين . أما أعياد الإسلام فهى عيد الفطر وعيد الأضحى ، وأما أعياد الفرس فكانت كثيرة ، مثل عيد السَّدق وهو عيد مجوسى للنار وكانوا يوقدونها طوال الليل متغنين من حولها وراقصين ، ومن أعيادهم عيد هرمزْد إله الخير ، وفيه يقول والبة بن الحباب[١] :

قد قابلتْنا الكئوسُ ودابرتْنــا النحوسُ
واليوم هُرْمَزْدْ روزٍ قد عظَّمته المجوسُ

وأهم أعيادهم عيد النَّيْروز ، وهو عيد الربيع ، وكانوا يحتفلون به احتفالات صاخبة لأول الربيع حين تدخل الشمس بُرْجَ الحمل ، وفيه يقول أبو نواس[٢] :

أما ترى الشمس حَلَّتِ الحَمَلا وقام وَزْنُ الزمان فاعتدلا
وغَنَّت الطير بعد عُجْمتها واستوفتِ الخمر حولَها كَمَلا
واكتستِ الأرضُ من زخارفها وَشْيَ نباتٍ تخاله حُلَلاَ
فاشربْ على جِدَّة الزمان فقد أصبح وجه الزمان مقتبلا

وكانوا يحتفلون بعيد المهرجان بعده بمائة وأربعة وتسعين يومًا .

وكانت أعياد النصارى كثيرة أيضًا ، فمنها عيد الميلاد وعيد الفصح وعيد دَيْر الثعالب فى الجانب الغربى لبغداد وعيد دير أشمونى بقُطْربُّل ، ومنها عيد الشَّعانين وكان عيداً قديمًا للأشجار وخاصة أشجار الزيتون ، وكانت الجوارى النصرانيات يحتفلن به فى قصر الخلافة ، إذ يَرْوِى أحمد بن صَدقة المغنى أنه دخل على المأمون فى هذا العيد ، فرأى بين يديه عشرين وصيفة رومية أدرن الزُّنَّار حول أوساطهن وتزينَّ بالديباج وعلَّقن فى أعناقهن صُلبان الذهب وأمسكن فى أيديهن بالخوص والزيتون ، ولم يكد المأمون يراه حتى طلب إليه أن يغنيه فى أبيات تصفهن ، تجرى على هذا النمط :

ظِبــاءٌ كالدَّنانيرِ مِلاحٌ فى المقاصيرِ

(١) ابن المعتز ص ٨٨ وروز : يوم بالفارسية .
(٢) ديوان أبى نواس ص ٣١٣ .

جلاهنّ الشّمعانينُ علينا فى الزّنانيرِ [١]

وقد زرّقن أصداغا كأذناب الزرازير [٢]

وأقبلْن بأوساطٍ كأوساط الزّنابيرِ [٣]

وغناه فيها ابن صدقة ورقصت الوصائف فى أثناء الغناء ، وشرب المأمون على رقصهن وغنائه وأكثر من شربه حتّى تغشاه السكر [٤] .

ومما لا ريب فيه أن إدمان الخمر حينئذ دفع إلى كثير من المجون والعبث والإباحية ، وكان المجتمع زاخراً بزنادقة وملاحدة وأناس من ديانات شتّى مجوسية وغير مجوسية ، فمضى كثيرون يطلقون لأنفسهم العنان فى ارتكاب الآثام متحررين من كل قانون للخلق والعرف والدين . وكان من أهم العوامل التى هيأت لذلك السلع التى كانت تباع وتشترى من الجوارى والقيان ، فقد كن من أجناس وشعوب مختلفة ، ولم يكن يشعرن إلا فى النادر بشىء من الكرامة ولا كن يصطنعن شيئاً من التحفظ والاحتشام وسعّر ذلك فى قلوبهن النخاسون والمقينون الذين يبتزون عن طريق علاقتهن بالشباب والفتيان أموال السَّراة . وبذلك تحولت كثرتهن إلى أدوات فتنة وإغراء وريبة ومجون وعبث ، وأخذن يتفنَّنَّ فى الحيل التى يجذبن بها قلوب الرجال من شعراء وغير شعراء ، مداعبات لهم بالتبسم وغامزات بطرف العين وناشطات معهم بالسكر ، ولم تكن الواحدة منهن تكتفى برجل واحد ، فقد كن يستكثرن من اتخاذ الخلان سالكات إلى ذلك طرقاً مستقيمة ومعوجة ، ووصف ذلك الجاحظ فقال : « ربما اجتمع عند القينة من معشوقيها ثلاثة أو أربعة . . فتبكى لواحد بعين وتضحك للآخر بالأخرى ، وتغمز هذا بذاك ، وتعطى واحداً سِرَّها والآخر علانيتها وتوهمه أنها له دون الآخر وأن الذى يظهر خلاف ضميرها ، وتكتب لهم عند الانصراف كتباً على نسخة واحدة ، تذكر لكل واحد منهم تبرمها بالباقين وحرصها على الخلوة به دونهم ، فلو لم يكن لإبليس شَرَكٌ يقتل به ولا علم يدعو

---

(١) الزنانير : جمع زنار وهو خيط كان يشده غير المسلمين على أوساطهم تمييزاً لهم .

(٢) الزرازير : جمع زرزور وهو طير مفوف الريش .

(٣) الزنابير : جمع زنبور وهو النحل .

(٤) أغانى (طبعة الساسى) ١٩/١٣٨ .

إليه ولا فتنة يستهوى بها إلا القيان لكفاه»[١] . ويمضى الجاحظ فيصور العلة التى جرّت إلى فُجْر القينة وتهالكها على الإثم وأوزاره ، فيقول : « كيف تسلم القينة من الفتنة أو يمكنها أن تكون عفيفة وإنما تُكْتَسَبُ الأهواء وتتعلّم الألسن والأخلاق بالمنشأ ، وهى إنما تنشأ من لدنْ مولدها إلى أوان وفاتها فيما يصدُّ عن ذكر الله من لهو الحديث ... وبين الخُلعاء والمُجّان ومن لا يسمع منه كلمة جِدٍّ ، ولا يُرْجَعُ منه إلى ثقة ولا دين ولا صيانة مروءة ، وتَرْوِى الحاذقة منهن أربعة آلاف صوت (أغنية) فصاعدًا ، يكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات ، وعدد ما يدخل فى ذلك من الشعر إذا ضُرب بعضه ببعض عشرة آلاف بيت ، ليس فيها ذكر الله إلا عن غفلة ولا ترهيب من عقاب ولا ترغيب فى ثواب ، وإنما بنيت كلها على ذكر . القيادة والعشق والصبوة والشوق والغُلْمة ، ثم لا تنفكُّ من الدراسة لصنعتها منكبّة عليها تأخذها من المطارحين الذين طَرْحهم كله تجميش وإنشادهم مراودة » .

وقد دفع هذا الفساد الخلقى الذى كان يشيعه القيان والجوارى فى هذا العصر إلى انتشار الغزل المكشوف الذى لا تصان فيه كرامة المرأة والرجل جميعًا ، فقد كانت المرأة غير الحرة تبتذل ابتذالا ، وتطورت الحياة فلم يعد العرب هم الذين يستبدون بالشعر مصورين فيه مروءتهم وارتفاعهم بالمرأة عن الصغار والامتهان ، بل مضى شعراء الفرس يستبدون به ، إذ كان أكثر الشعراء حينئذ منهم ، فلم يعرفوا للمرأة حقها من الصيانة والارتفاع عن الفجر الفاجر ، بل لعلهم كانوا يدفعونها إليه دفعًا ، بما كانوا ينظمون من أشعار صريحة عاهرة ، على نحو ما يلقانا عند مطيع بن إياس ورفقته فى الكوفة وبشار بن برد ومعاصريه فى البصرة ، وقد استحال شعر بشار إلى نداء صارخ للغريزة الجسدية ، نداء يندى له جبين الشرف والخلق مما جعل وعاظ بلدته من أمثال واصل بن عطاء ومالك بن دينار يصرخون به أن يكفَّ عن غيّه ، وتعالى صياحهم هم ونظرائهم حتى وصل سمع[٢] المهدى ، فهدّده وأنذره أن ينزل به عقابه إن هو لم يزدجر ولم يَرْعَوِ ، واضطرّ أن ينزل على مشيئته

(١) ثلاث رسائل للجاحظ نشر فنكل ص ٧١ .
(٢) انظر الأغانى ٣/١٨٢ وفى مواضع متفرقة من ترجمة بشار فى هذا الجزء .

وبكى ذلك طويلا فى أشعاره. على أن تدخل المهدى جاء متأخراً ، فقد عمّ طوفان هذا الغزل لا فى البصرة والكوفة وحدهما بل أيضًا فى بغداد عند أبى نواس وأضرابه ، بحيث عُدّ ظهور العباس بن الأحنف بغزله الطاهر العفيف شذوذاً على جيله ومجتمعه .

وليس معنى ذلك أن الحياة فى بغداد كانت كلها مجوناً وتهالكاً على الفجر والعهر ، فإن تعدد الزوجات الذى أباحه الإسلام وما أعطاه للرجل من حق تسرّى الجوارى ، كل ذلك كان يحول دون سقوط بغداد جميعها فى هوة الفساد ، ومن أجل ذلك ينبغى أن لا نبالغ فى تصور موجة المجون والعبث حينئذ وأن نظن أن أهل بغداد جميعًا قد تخلوا عن الحياة المستقيمة الطاهرة التى يحوطها الخلق والتقاليد والدين ، إنما هو الكَرْخ حيث بيوت النخاسين والمقينين ومن يفدون عليها من الفتيان والشعراء للشراب والمجون فى غير استخفاء ولا حياء .

وقد أشاع هؤلاء المجان والخلعاء آفة مزرية هى آفة التعلق بالغلمان المُرْد ، وكان أول من اشتهر بالغزل فيهم والبة بن الحباب ، وهو يصرح بذلك تصريحًا فى غير مواربة ولا استحياء[1] ، ويقال إنه هو الذى يتحمل وزر إفساد أبى نواس ، بل هو فى رأينا الذى يتحمل وزر العصر كله وما شاع فيه من هذا الغزل المقيت الذى يخنق كرامة الشباب والرجال خنقًا . وربما كان من أسباب شيوعه كثرة الغلمان الخصيان فى بغداد وغيرها من مدن العراق، وكان منهم من تسقط عنه رجولته حتى ليلبس لبس النساء . وكان من الجوارى من يلبس لبس الغلمان لفتاً للشباب والرجال ، ويُرْوَى أن الأمين حين أفضت إليه الخلافة قدّم الخصيان وآثرهم ، فشاعت قالة السوء فيه ، ورأت أمه زُبَيْدة دَرْءاً لتلك القالة أن تبعث إليه بعشرات من الجوارى ، ألبستهن لبس الرجال ، حتى ينصرف عن الخصيان فكن يختلفن بين يديه ، وأبرزهن للناس ، ولم يلبث كثيرون أن جاروه فى هذا الصنيع[2] ، وكن يسمّين بالغلاميات ، وعمّت هذه البدعة فى الساقيات[3] بالحانات ، ولعل ذلك هو السر فى أن أبا نواس كثيراً ما يتحدث عن بعض

(١) البيان والتبيين ٣/ ٢٢٠ وانظر ترجمته فى الأغانى (طبع الساسى) ١٦/ ١٤٢ .
(٢) المسعودى ٤/ ٢٤٤ .
(٣) أغانى ٥/ ٣٣٠ .

الجوارى بضمير المذكر . ومن تتمة هذا التبادل بين الجوارى والخصيان فى الزى والهيئة حينئذ كثرة المخنثين بين المغنين والضاربين على الدفوف ، وكانوا يتشبهون بالنساء فى عاداتهن وثيابهن وضفر شعورهن وصبغ أظافرهن بالحناء[١] .

٤

الشعوبية والزندقة

نادى الإسلام فى قوة بهدم الفوارق العصبية للقبائل والفوارق الجنسية للشعوب ، حتى يسود الوئام بين أفراد الأمة الإسلامية ، فلا عدنانى ولا قحطانى ولا عربى ولا أعجمى ، إنما هى أمة واحدة يتساوى أفرادها فى جميع الحقوق ولا تفاضل فيها إلا بالتقوى والعمل الصالح ، يقول جلّ شأنه : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير) ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى خطبة حجة الوداع : « أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى » [٢] .

وهذا بلا ريب مثلٌ أعلى أراده الإسلام لأمته ، غير أنا لا نصل إلى عصر على بن أبى طالب وما نشب لعهده من حَرْب صفّين حتى نرى العصبيات القبلية تعود جَذَعةً بين القبائل ، وكأنهم لم ينسوا حياتهم القديمة ، بل لقد اضطرمت اضطراماً لم تهدأ ثائرته طوال عصر بنى أمية . وقد مضى الأمويون ينحرفون عن جادّة الدين فى معاملة الموالى ، فهم يرهقونهم بكثرة الضرائب ، وهم لا يسوون بينهم وبين العرب فى الحقوق ، إلا ما كان من عمر بن عبد العزيز ، ولكن مدة حكمه كانت قصيرة ، فلم يُؤْت عمله فى هذا الجانب أى ثمرة .

وكانت هذه المعاملة السيئة للموالى سبباً فى اضطغانهم على العرب ، أو بعبارة أدق على الدولة الأموية ، فشاركوا الخوارج والشيعة فى الثورة عليها ، وأخذ فريق منهم يمثلهم إسماعيل[٣] بن يسار النسائى يفاخر العرب بحضارة أمته الفارسية وملوكها

(١) أغانى ٤/٧ .
(٢) البيان والتبيين ٢/٣٣ .
(٣) أغانى ٤/٤١٠ وما بعدها .

الساسانيين الذين غلبوا على الأرض . وعظم حقد الموالى على الدولة ، وملأت الحفيظة والموجدة صدورهم ، والتفّت منهم جماعات كثيرة حول أبى مسلم داعية العباسيين بخراسان ، وما لبثوا أن زحفوا فى جيش ضخم أدالوا به للعباسيين من الأمويين وللفرس من العرب إدالة نفذوا فى أثنائها إلى مناصب الدولة العباسية العليا ، بحيث كان منهم أكثر القواد وأكثر الولاة ، وخاصة حين استولى على أزمّة الحكم البرامكة فى عهد الرشيد وبنو سهل فى عهد المأمون .

وكان هذا التحول الخطير فى مقاليد الحكم وما أصبح للفرس من مكانة رفيعة فى المجتمع العباسى الجديد سبباً فى بروز نزعة الشعوبية نسبة إلى الشعوب الأعجمية ، وهى نزعة كانت تقوم على مفاخرة تلك الشعوب — وفى مقدمتها الشعب الفارسى — للعرب مفاخرة تستمد من حضارتهم وما كان العرب فيه من بداوة وحياة خشنة غليظة . وكان منهم معتدلون وقفوا عند حد التسوية بين العرب وغيرهم من الشعوب حسب تعاليم الإسلام فلا عربى يفضل أعجمياً ولا أعجمى يفضل عربياً ، إذ ليست العروبة ولا العجمة ميزة فى نفسها تُعلى من شأن صاحبها ، فالناس جميعاً سواء وقد خُلقوا من تراب ويعودون إلى التراب .

وكان بجانب هؤلاء المعتدلين متطرفون تجاوزوا التسوية بين العرب وغيرهم من الشعوب إلى الإزراء عليهم والنزول بهم دونها مرتبة أو مراتب ، وهؤلاء هم الذين تصدق عليهم كلمة الشعوبيين ، إذ قدموا الشعوب الأجنبية على العرب وتنقّصوا قدرهم وصغّروا شأنهم ، وكانوا طوائف مختلفة فنهم رجال السياسة الذين يريدون أن يستأثروا دون العرب بالحكم والسلطان ، ومنهم قوميون كانوا يستشعرون مشاعر قوميتهم ضد العرب الذين اجتاحوا ديارهم وقوّضوا دولهم وهى مشاعر ما زالت تحتدم فى نفوس الفرس حتى أحيوا لغتهم ودولتهم فيما بعد ، ومنهم مجان خلعاء أعجبتهم الحضارات الأجنبية وما اقترن بها من خمر ومجون واستمتاع بالحياة . وأشد من كل هؤلاء عنفاً وغيظاً من العرب الملاحدة الزنادقة الذين كانوا يبغضون الدين الحنيف وكل ما اتصل به من عرب وعروبة ، وفيهم يقول الجاحظ : « إن عامة من ارتاب بالإسلام إنما كان أولُ ذلك رأيَ الشعوبية والتمادىَ فيه وطول الجدال المؤدّى إلى الضلال ، فإذا أبغض شيئاً أبغض أهله ، وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك

الجزيرة ، وإذا أبغض تلك الجزيرة أحبَّ من أبغض تلك الجزيرة، فلا تزال الحالات تنتقل به حتّى ينسلخ من الإسلام ، إذ كانت العرب هى الّتى جاءت به ، وهى السلف والقدوة » [١] .

وكانت أهم مطاعنهم التى وجهوها إلى العرب أنهم كانوا بدواً [٢] رعاةَ أغنام وإبل ، ولم يكن لهم ملك ولا حضارة ولا مدنية ولا معرفة بالعلوم ، فأين هم قديماً من ملك الأكاسرة والقياصرة ؟ وأين هم من الحضارة الفارسية والرومية ؟ وأين هم من علوم الهند والفرس والكلدان واليونان والرومان ؟ وقد مضوا يُزْرون على خطابتهم واعتمادهم فيها على العصى وإشارتهم بها واتكائهم على أطراف القسىّ كما أزروا على أسلحتهم الساذجة وأطعمتهم الخشنة . وأخذوا يتتبعون مثالبهم ويحصونها عليهم ويستقصونها ، وكان العرب بسبب أهاجيهم القبلية العنيفة قد وضعوا تحت أيديهم مادة وفيرة منها ، فاستغلوها فى ذمهم وأضافوا إليها مادة مُخْتَلَقَة صاغوها فى قصص وأشعار وأضافوها إليهم . وبلغ من سوء نيتهم وشدة موجدتهم عليهم أن حاولوا تقبيح بعض شيمهم الرفيعة كشيمة الكرم ، وقايسوا بين ما عندهم من المعارف والتعمق فى السياسة وبين ما للعرب من حكم منثورة . وزعموا — فيما زعموا — أن الرسول فضلهم على العرب بمثل قوله : « لأنابهم أوثق منى بكم » [٣] والوضع فى هذا الحديث لا يحتاج دليلا . وحاولوا أن يستلُّوا قريشاً قوم الرسول من العرب ويدخلوهم فى غمارهم فزعموا أن سائلاً سأل الرسول عن أهله وأصل قريش ، فقال : نحن قوم من نبط كوثى [٤] .

ومن المحقق أن رجال الفرس البارزين من أمثال البرامكة وآل سهل وآل طاهر ابن الحسين كانوا يُذْكون نار هذه الشعوبية فيمن حولهم من الفرس، وقد اختلف الناطقون عنها بين عالم وأديب وشاعر ، نذكر منهم أبا عبيدة اللغوى الإخبارى المشهور ، وأصله من يهود فارس ، وقد صبَّ عنايته على تسجيل مثالب العرب

---

(١) الحيوان ٧/٢٢٠ .
(٢) انظر فى هذه المطاعن البيان والتبيين ٣/٥ – ١٢٤ وكتاب العرب لابن قتيبة فى مجموعة رسائل البلغاء بتحقيق محمد كرد على (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) والعقد الفريد ٣/٤٠١ وما بعدها .
(٣) انظر تيسير الوصول ٣/١١١، ١٢٧.
(٤) انظر مادة كوثى فى معجم البلدان لياقوت.

وبلغ من فساد طويته أن طعن فى بعض أسباب[١] الرسول صلى الله عليه وسلم . وليس من شك فى أن عنايته بتلك المثالب هى التى دفعته إلى شرح نقائض جرير والفرزدق لما تحمل منها من وقود جزل ، وكان فى الوقت نفسه يُعْنَى بالكتابة فى فضائل الفرس[٢] . ومنهم عَلاَّن الشعوبى الفارسى وكان منقطعاً إلى البرامكة ونَسَخ فى بيت الحكمة للرشيد والمأمون ، وألَّف فى مثالب القبائل العربية كتاباً سماه الميدان[٣] . وكان يستشعر هذه النزعة فى أعماقه الكاتب الأديب سهل بن هرون الفارسى أحد صنائع البرامكة ، وقد أسْنَد إليه المأمون الإشراف على بعض خزائن بيت الحكمة ، وكان يتعصب على العرب تعصباً مسرفاً ، وصنف فى ذلك كتبًا كثيرة[٤] ، وقد افتتح الجاحظ كتابه البخلاء برسالة له أشاد فيها بالبخل وغضّ غضًّا شديدًا من فضيلة الكرم العربية .

وأهم شاعر فى العصر أوقد نيران هذه الخصومة وظل يمدها بحطب جزل من أشعاره بشار بن برد وكان فى عصر بنى أمية يكثر من الفخر بمواليه من قيس ، حتى إذا حدث الانقلاب العباسى انقلب معه يتبرأ من العرب وولائهم ناسباً ولاءه إلى الله ذى الجلال ، يقول[٥] :

أصبحتُ مولى ذى الجلالِ وبعضهم مولى العُرَيْبِ فخُذْ بفضلك فافْخَرِ

وقد مضى يشن حرباً عنيفة على العرب ، وكان أبوه طيَّاناً يضرب اللَّبِن ، فاعتزى إلى أشراف العجم وملوكهم داخلا — كما يقول الجاحظ — بذلك فى باب فسيح لا حجاب عليه ونسب واسع لا مدافع عنه . ولم يكتف بهذا النسب الذى ادعاه فقد مضى يزعم أنه ينتسب من قبل أمه إلى قياصرة الرُّوم على نحو ما نجد فى قصيدته[٦] :

هل من رسولٍ مُخْبِرٍ عنى جميعَ العــربِ

(١) الفهرست (طبعة القاهرة) ص ٧٩ .
(٢) الفهرست ص ٨٠ والبيان والتبيين ٣٠٨/١ والكامل للمبرد ص ٣٥١ .
(٣) الفهرست ص ١٥٣ .
(٤) الفهرست ص ١٧٤ .
(٥) أغانى ١٣٩/٣ .
(٦) ديوان بشار (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٣٧٧/١ .

وهى تصور ضراوة حقده العنيف على العرب ، وقد مضى فيها يقارن بين بداوتهم الجافية وحضارة آبائه اللينة من الفرس والروم . وفى الحق أن شعوبيته كانت صارخة ، إذ كان زنديقاً وعدوًّا للعرب ودينهم الحنيف عداوة ترسب فى ضميره وفؤاده .

وممن يُسْلَكُون فى شعراء الشعوبية أبو يعقوب الخريمى ، ولم يكن جادًّا فى تعصبه على العرب وخصومتهم ، إنما كان يطلب التسوية بينهم وبين غيرهم من الشعوب ، ولذلك ينبغى أن ينحَّى عن جماعة الشعوبيين ، وأدخلُ منه فيهم أبو نواس وشعوبيته إنما ترجع إلى شغفه بالخمر وعكوفه على المجون وإعجابه بالحضارات الأجنبية ، فهى شعوبية ناشئة عن الاستمتاع باللذات ، وكان يبتغيها ما وجد إليها سبيلا ، ويجعلها غاية الغايات من حياته ، وقد مضى يصور ذلك بدعوته إلى الانصراف عن الحياة المتبدِّية الخشنة وما يتصل بها من بكاء الأطلال والوقوف برسوم الديار إلى الحياة الناعمة المترفة وما يتصل بها من النشوة بالخمر والغلو فى الشراب والإغراق فى اللذات ، وله فى ذلك أشعار كثيرة . وكانت تسقط أسراب من هذه النزعة إلى شعراء النبط والهند ، من مثل قول أبى الأصلع الهندى يفخر بالهند وما أخرجت بلاد الهند[1] :

لقد يَعْذلنى صَحْبِى وما ذلك بالأَمْثَلْ
وفى مِدْحَىَ الهِنْدُ وسَهْمُ الهِنْدِ فى المَقْتَلْ
وفيه السَّاجُ والعاجُ وفيه الفيلُ والدَّغْفَلْ[2]

وينبغى أن نعرف أن الروح العربية — على الرغم من هذه الشعوبية — ظلت شامخة مسيطرة ، يسندها الخلفاء وزعماء العرب من الولاة والقواد ومستشارى الدولة ، كما يسندها الفقهاء والمحدثون وعلماء اللغة ورواة الشعر . وقد ردّ بعض شعراء العرب على الشعوبية وأصحابها على نحو ما نجد عند أبى الأصبع الأموى فى تَصَدِّيه لعبد الله بن طاهر حين افتخر فى قصيدة له بنسبه من الفرس وبأبيه طاهر بن

---

(١) الحيوان ٧/١٧١ .
(٢) الساج : نوع ثمين من الخشب ، والدغفل : ولد الفيل .

الحسين قاتل الأمين ، فقد نقضها نقضًا بقصيدته[١] :

لا يَرُعْكِ القَالُ والقِيلُ   كلٌّ ما بُلِّغْتِ تضْلِيلُ

وتجرَّد نفر من الموالى أنفسهم للرد على أصحاب هذه النزعة الخبيثة وما تحمل من كيد للعرب ودينهم الحنيف على نحو ما يلقانا عند الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين وابن قتيبة فى رسالته التى سماها « كتاب العرب» ومر بنا منذ قليل رأى الجاحظ فى أنها كانت تدفع الموغلين فيها دفعًا إلى الإلحاد فى الدين والزندقة .

وكلمة الزندقة ليست عربية إنما هى تعريب لمصطلح إيرانى كان يطلقه الفرس على صنيع من يؤوِّلون « الأفستا » كتاب داعيتهم زرادشت تأويلا ينحرف عن ظاهر نصوصه ، ومن أجل ذلك نعتوا به دعوة مانى ومن فُتنوا بها من الفرس . وأخذ مدلول الكلمة يتسع فى العصر العباسى ليشمل كل من استظهر نحلة من نحل المجوس ، واتسعت أكثر من ذلك فشملت كل إلحاد بالدين الحنيف وكل مجاهرة بالفسق والإثم .

ومعروف أن جمهور الفرس قبل الإسلام كانوا مجوسًا على دين زرادشت الذى ظهر فى ديارهم حوالى منتصف القرن السابع قبل الميلاد وما وضعه لهم من تعاليم[٢] ضمنَّها كتابه « الأفستا » وفيه زعم أن للعالم إلهين هما « أهورا مزد » إله النور خالق كل خير و « أهرمن » إله الظلمة خالق كل شر ، وأن وراء الحياة الدنيا حياة أخرى يكون فيها حساب الشخص على أعماله فإما النعيم وإما الجحيم ، وأن النار مقدسة طاهرة مما جعل الإيرانيين يقيمون لها المعابد فى كل مكان . وظهر عندهم فى القرن الثالث الميلادى داعٍ يسمى مانى مزج فى تعاليمه بين الزرادشتية والبوذية والنصرانية[٣] ، فأبقى من الأولى على عقيدة إلهى النور والظلمة واستباحة الزواج بالبنات والأخوات ، وأخذ من الثانية عقيدة التناسخ وتحريم ذبح الحيوان والطيور ، وأخذ من الثالثة الزهد والنُّسك ، وفرض على أصحابه صلوات وأدعية

---

(١) أغانى (طبع دار الكتب) ١٢/١٠٤ وابن المعتز ص ٣٠٠ .

(٢) انظر فى تعاليم زرادشت الملل والنحل للشهرستانى (طبعة كيورتن) ص ١٨٥ وتراث فارس (الطبعة العربية) ص ٣٦ وفجر الإسلام لأحمد أمين (الطبعة الأولى) ص ١١٨ .

(٣) راجع فى مانى والمانوية الفهرست ص ٤٥٦ والشهرستانى ص ١٨٨ ومختصر تاريخ الدول لابن العبرى ص ١٢٢ وفجر الإسلام ص ١٢٤ .

كثيرة . وفى أواخر القرن الخامس للميلاد يظهر فى إيران داع جديد هو مَزْدك وكان ثَنَوياً[1] يؤمن بإلهى النور والظلمة وتقديس النار ، وقد مضى يدعو دعوة صارخة إلى العكوف على اللذات والشهوات والإمعان فيها ، وأحلّ النساء وأباح الأموال وجعلهما شركة للناس ، وكان له — كما كان لمانى — أتباع كثيرون .

وقد عامل الإسلام والمسلمون المجوس معاملة أهل الكتب السماوية ، وبذلك ظلت المجوسية حية حياة قوية حتى العصر العباسى ، ومرّ بنا ما كان من ثورات سنباذ والخرمية فى خراسان وأذربيجان وطبرستان ، وهى ثورات كانت تستوحى هذه الملل المجوسية السابقة ، وكانت تسرى فى نفوس كثيرين من نازلة بغداد والعراق سرّاً وجهراً ، وكانت المانوية أخطرها جميعاً لما كانت تأخذ به من الزهد ومن بعض التعاليم المسيحية ، مما جعلها تقترب من دعوات الديانات السماوية فى السلوك وفى التخلق بالخلق الحسن ، وإن افترقت عنها بعد ذلك افتراقاً شديداً فى ثنويتها وتحليلها الزواج بالبنات والأخوات وما جلبته من بعض مذاهب الهند .

وتنبه المهدى لانتشار هذه الملل المجوسية المارقة فى أمصار العراق ورأى فيها خطراً أى خطر على الدولة والإسلام ، فأمر — كما أسلفنا فى الفصل السابق — باتخاذ ديوان خاص لتعقب من يعتنقها من المسلمين ونصب لهم حرباً لا هوادة فيها ولا لين ، فكل من تثبت عليه زندقته قُدِّم وقوداً لتلك الحرب التى ظلت قائمة إلى عهد ابنه الرشيد . ويظهر أن الفرس كانوا قد نشطوا نشاطاً واسعاً فى نشرها بين الناس ونشط معهم كثير من الزنادقة أنفسهم يترجمون كتب النحل الفارسية ويصنّفون فى الدعوة لها وفى تعاليمها ، وأيضاً فهم وبعض النصارى نقلوا إلى العربية كتب بعض مارقة النصارى وملحدتهم مثل مَرْقيون[2] وابن دَيصان[3] ، يقول المسعودى : « أمعن المهدى فى قتل الملحدين والمداهنين فى الدين لظهورهم فى أيامه وإعلانهم باعتقاداتهم فى خلافته لما انتشر من كتب مانى وابن ديصان ومَرْقيون

(١) انظر فى مزدك والمزدكية الفهرست ص ٤٧٩ والشهرستانى ص ١٩٢ وفجر الإسلام ص ١٣٠ .

(٢) من أهل آسيا الصغرى وكان يعتنق المسيحية وانحرف عن تعاليمها وكون لنفسه مذهباً مستقلا كان فيه الملهم لابن ديصان ، وقد طردته الكنيسة سنة ١٤٤ م .

(٣) من أهل الرها ولد سنة ١٥٤ وكان يعتنق المسيحية وشذ على تعاليمها مكوناً عقيدة مستقلة فطردته الكنيسة .

مما نقله عبد الله بن المقفع وغيره وترجمه من الفارسية والفهلوية إلى العربية وما صنَّف من ذلك ابن أبي العَوْجاء وحماد عجرد ويحيى بن زياد ومطيع بن إياس من تأييد المذاهب المنانية[١] والديصانية والمرقيونية ، فكثرت بذلك الزنادقة وظهرت آراؤهم في الناس» [٢] ويقول الجاحظ : «لولا متكلمو النصارى وأطباؤهم ومنجموهم ما صار إلى أغبيائنا وظُرفائنا ومجّاننا وأحداثنا شيء من كتب المنَّانية والدَّيْصانية والمرقيونية .. ولكانت تلك الكتب مستورة عند أهلها ومخبَّأة في أيدي ورثتها فكل سخنة عين رأيناها في أحداثنا وأغبيائنا فمن قِبَلهم كان أولها»[٣].

ولم ينصب المهدي وخلفاؤه للزنادقة حرب السيف وحدها ، فقد نصبوا لهم أيضاً حرب اللسان : لسان المتكلمين الذين مضوا يجادلونهم ويفحمونهم وينقضون شبهاتهم بالبرهان القاطع والدليل الساطع ، وصنفوا في ذلك الرسائل والكتب الطوال ، ومن يقرأ كتاب الحيوان للجاحظ يجده يتوقف كثيراً ليُورد ردّ النظام وغيره من المتكلمين على هؤلاء الزنادقة وكيف كانوا يسددون إليهم أدلة مصمية رادعة ، وكان للمعتزلة في ذلك القِدْحُ المعلَّى ، فهم الذين عاشوا يناظرونهم ويدفعون شرهم عن العامة والخاصة موضحين ما في شُبههم من زيف وتمويه وما في عقائدهم من فساد ومناقضة للعقل المنطقي السليم .

وقد قُتل كثيرون من رءوس الزنادقة لهذا العصر ، يتقدمهم ابن المقفع الذي قُتل لعهد المنصور ، وفيه يقول المهدي : «ما وجدت كتاب زندقة قط إلا وأصله ابن المقفع[٤]» . وقُتل منهم كثيرون لعهد المهدي ، منهم — في بعض الروايات — صالح بن عبد القدوس[٥] ، وكان يعتنق المانوية ، ويحاضر فيها ويناظر فقُتل وصُلب على الجسر ببغداد[٦] نكالا للناس وعظة ، ومنهم بشار وكان يعلن إشادته بالنار معبودة قومه المجوس ويفضلها على الطين كما يفضل إبليس على الإنسان ، وبلغ من تحمس المهدي لقتله أن خرج بنفسه إلى البصرة ليشهد مقتله[٧] . وكانت

(١) النسبة إلى مانى إما منانى أو مانوى .
(٢) المسعودى ٤/٢٤٢ .
(٣) ثلاث رسائل للجاحظ ص ٢٠ .
(٤) أمالى المرتضى (طبعة الحلبى) ١/١٣٤ .
(٥) يجزم ابن المعتز بأنه قتل فى عهد الرشيد.
(٦) أمالى المرتضى ١/١٣٤ وانظر ترجمته فى تاريخ بغداد ٩/٣٠٣ .
(٧) أغانى (طبعة دار الكتب) ٣/٢٤٤.

البصرة — فيما يظهر — أكبر وكْرٍ حينئذ للزنادقة والملاحدة ، ففيها نبت وعاش بشار وصالح بن عبد القدوس ، ونرى محمد بن سليمان العباسي واليها للمهدى يقتل من ملاحدتها زنديقين كبيرين هما عبد الكريم[١] بن أبي العوجاء وحماد[٢] عجرد « وكان عبد الكريم مانويًّا يؤمن بالتناسخ ويتخذ من سيرة مانى وسيلة لدعوته إلى الزندقة وتشكيك الناس فى عقائدهم »[٣] ولما قُدم للقتل قال : « لئن قتلتمونى لقد وضعت فى أحاديثكم أربعة آلاف حديث مكذوبة مصنوعة »[٤] . وفى ذلك ما يصور جانبًا من دَسّ هؤلاء الزنادقة على الإسلام ومحاولة تشويه هديه الكريم . وقد تنبَّه لهم رواة الحديث النبوى فأسقطوا ما وضعوه وبينوا كذبه واختلاقه . ومرَّ بنا آنفاً أن حماد عجرد كان ممن يؤلفون الكتب فى تأييد الإلحاد والزندقة استغواء للعامة وإفساداً لها وقد سلك معه المسعودى فى هذا الاتجاه يحيى بن زياد الحارثى ومطيع بن إياس ، ولا نجد ذكراً لقتلهما ولا لحبسهما على الزندقة ، وربما لم تثبت عليهما ثبوتًا قاطعًا .

واشتد الهادى مثل أبيه فى طلب الزنادقة حين ولى الخلافة لسنة ١٦٩ وقتل منهم جماعة[٥] من بينهم أحد أبناء عمه داود بن على ويعقوب بن الفضل من سلالة الحارث بن عبد المطلب . وسرعان ما خلفه هرون الرشيد لسنة ١٧٠ فسار فيهم نفس السيرة ، وممن تعقبهم يزيد[٦] بن الفيض ، ويونس بن أبى فروة وكان قد ألف كتابًا فى مثالب العرب وعيوب الإسلام — بزعمه — وصار به إلى ملك الروم فأغدق عليه مالا كثيراً[٧] . وطلب الرشيد أيضًا على بن الخليل الشاعر لما ذاع من زندقته ، غير أنه تبرَّأ منها فأطلقه[٨] .

وكان المأمون إذا سمع بزنديق أو زنادقة أمر بحملهم إليه وأحضرهم مجالسه حيث المتكلمون ودفعهم جميعًا إلى المناظرة ، لعلهم يقنعونهم ويردونهم إلى الإسلام ومحجته المستقيمة ، وكان يناظرهم هو نفسه أحيانًا[٩] ، فإذا لم يكفوا عن غوايتهم

---

(١) لسان الميزان لابن حجر ٤/٥١ وما بعدها .
(٢) لسان الميزان ٢/٣٥٠ .
(٣) الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٣٤٩ .
(٤) أمالى المرتضى ١/١٢٨ .
(٥) طبرى ٦/٤٠٨ وما بعدها .
(٦) طبرى ٦/٤٤٤ .
(٧) انظر أمالى المرتضى ١/١٣٢ والحيوان ٤/٤٤٨ والطبرى ٦/٤٤٤ .
(٨) أغانى (طبع دار الكتب) ١٤/١٧٤ وأمالى المرتضى ١/١٤٦ .
(٩) الحيوان ٤/٤٤٢ .

أمر بقتلهم ، ويقال إنه بلغه خبر عشرة رجال فى البصرة يجتمعون على المانوية ، فأمر بحملهم إليه ، فلما أُدْخلوا عليه امتحنهم ، وحاول أن يردّهم عن ضلالهم ، غير أنهم ثبتوا على عقيدتهم الفاسدة فأمر بقتلهم جميعاً[1] . ومرّ بنا فى الفصل السالف ما كان من ثبوت الزندقة على الأفشين قائد المعتصم التّركى ، مما جعله يزج به فى غياهب السجن حتّى مات وصُلب بعد موته .

ومما لا ريب فيه أن خلفاء بنى العباس لم يكونوا يقتلون على الزندقة إلا بعد ثبوتها على صاحبها ثبوتاً لا يرقى إليه شك ، ويظهر أنهم إنما كانوا يقتلون من ينزع نزعة مجوسية وخاصة أصحاب النزعة المانوية كما تشهد بذلك الأخبار السابقة ، فكثْرة المقتولين تضاف إليهم صفة المانوية ، ويؤكد هذا تأكيداً قويًّا وصية المهدى لابنه الهادى بتتبع الزنادقة ، فقد وصفهم له وصفاً يدل على أنه إنما أراد من يعتنقون تعاليم المانوية[2] . ومعنى ذلك أنهم لم يكونوا يقتلون على الإباحة المسرفة والإمعان فى المجون ولا كانوا يعاقبون عليهما عقاباً صارماً ، وكان حريًّا بهم أن يشددوا فى ذلك حتّى لا تؤول الحياة فى أمصار العراق إلى ما آلت إليه فى بعض جوانبها من الفساد والتحلل الخلقى .

٥

الزهد

ليس معنى ما قدمنا من حديث عن الزندقة والمجون أن المجتمع العباسى كان مجتمعاً منحلاً أسلم نفسه للإلحاد والشهوات ، فالإلحاد والزندقة إنما شاعا فى طبقة محدودة من الناس كان جمهورها من الفرس ، وكانت موجة المجون أكثر حدة ، ولكنها لم تكن عامة فى المجتمع ، بل كانت خاصة بالمترفين ومن حولهم من الشعراء والمغنين . أما عامة الشعب فإنها لم تكن تعرف زندقة ولا مجوناً ، أما من حيث الزندقة فإنها لم تكن تعادى الإسلام وصاحبه ، بل كانت مسلمة حسنة الإسلام تهتدى بأضوائه وتَجْرى على سَنَنه ، وأما من حيث المجون فإنها لم تكن مترفة ولا

---

(١) المسعودى ٣/٣٣٢.

(٢) طبرى ٦/٤٣٣ وما بعدها .

ثرية ، بل كانت تعيش على الكفاف ، بل كان كثير منها يعيش فى البؤس والضنك والضيق وقلوبه تتقطع حسرات على ما تحظى به الطبقة المترفة من أسباب النعيم . وكانوا ساخطين سخطاً شديداً على كل ما يرونه حولهم من جموح الأهواء والإمعان فى المجون ، وهو سخط اتسع فى أيام الفتنة بين الأمين والمأمون حين حوصرت بغداد واستطال شر المُجّان والعُهّار ، وظلت من ذلك بقية فى سنتى ٢٠١ و ٢٠٢ فإذا جماعات كبيرة تتطوّع للنكير عليهم والأخذ على أيديهم[١] .

وإذا كانت حانات الكَرْخ ودور النخاسة والمقينين به اكتظت بالجوارى والإماء والقيان والمغنين ، فإن مساجد بغداد كانت عامرة بالعُبّاد والنسّاك وأهل التقوى والصلاح ،وكان فى كل ركن منها حلقة لواعظ يذكّر بالله واليوم الآخر وما ينتظر الصالحين من النعيم المقيم والعاصين من العذاب والجحيم. وكان من الوعّاظ مَنْ يقتحم قصر الخلافة ليعظ الخلفاء على نحو ما هو معروف عن عمرو بن عبيد فى وعظه للمنصور[٢] وصالح بن عبد الجليل فى وعظه للمهدى[٣] وابن السماك فى وعظه لهرون الرشيد[٤] ومن كلامه : « الدنيا كلها قليل والذى بقى منها فى جَنْب الماضى قليل ، والذى لك من الباقى قليل ، ولم يبق من قليلك إلا القليل »[٥] .

وكان الوعظ فى هذا العصر يلتحم بالقصص للعظة والعبرة ، وهو التحام قديم منذ تميم الدارى وكعب الأحبار فى عصر الخلفاء الراشدين ومنذ قُصّاص الفتوح من أمثال أبى سفيان بن حرب . وقد ازدهر هذا الوعظ القصصى فى عصر بنى أمية عند الحسن البصرى وأضرابه ، وتكامل ازدهاره فى هذا العصر . وينبغى أن نميز بين هذا الضرب من القصص الدينى وقصص آخر كان الناس يجتمعون حول أصحابه فى طرقات بغداد وغيرها من أمصار العراق ليسلوهم بالنوادر والحكايات القصيرة ، ومن أجل ذلك قُرنوا بأصحاب المساخر من مثل القَرّادين[٦] . وقد كثر قصاص الوعظ الذين كانوا يدفعون الناس إلى العبادة ورفض المتاع الدنيوى وسلوك السبيل الواضحة إلى نعيم الآخرة كثرة مفرطة[٧] .

---

(١) طبرى ٧/١٣٦ وما بعدها .
(٢) انظر عيون الاخبار ٢/٣٣٧ والعقد الفريد ٣/١٦٤ .
(٣) عيون الأخبار ٢/٣٣٣ والعقد الفريد ٣/١٥٨ .
(٤) طبرى ٦/٥٣٨ والعقد الفريد ٣/١٦٤ .
(٥) النجوم الزاهرة ٢/١١٢ .
(٦) انظر ما كتبه الجاحظ عن أبى كعب الصوفى فى كتابه الحيوان ٣/٢٤ وراجع التاج ص ٤٠ .
(٧) القصاص لابن الجوزى ص ١٨ .

وكان بجانب هؤلاء القُصَّاص الواعظون كثير من النساك ، ومن الصعب استقصاؤهم إذ كانوا منتشرين فى كل الأمصار ، وكان يحبون حياة زهد خالصة كلها تبتل وعبادة وتقشف وانقباض عن الاستمتاع بالحياة وملذاتها وانصراف عن كل نعيم فيها انتظاراً لما عند الله من النعيم السرمدى الذى لا يزول . وفى البيان والتبيين وعيون الأخبار والعقد الفريد منثورات رائعة من أقوال مشاهيرهم أمثال سُفْيان الثورى المتوفى سنة ١٦١ وداود الطائى المتوفى سنة ١٦٥ وعبد الله بن المبارك المتوفى سنة ١٨١ والفُضَيل بن عياض المتوفى سنة ١٨٧ وسُفْيان بن عُيَيْنة المتوفى سنة ١٩٨ وكان يقول : « فكرك فى رزق غَدٍ يكتب عليك خطيئة[١] » ويقول : « لا يمنعْ أحدكم من الدعاء ما يعلم من نفسه فإن الله قد استجاب دعاء شَرِّ الخلق وهو إبليس (قال رَب فأنْظِرْنى إلى يوم يُبْعَثُون قال فإنك من المُنْظَرين) ، وكان يستحب أن يقال فى الدعاء : اللهم استُرْنى بسترك الجميل[٢] . ومن مشهورى هؤلاء النساك عبد الواحد بن زيد المتوفى سنة ١٧٧ وهو الذى أنشأ أول رباط أو أول صومعة للناسكين فى عَبَّادان بالقرب من الكوفة ، وفيهم وفى رباطهم يقول أبو العتاهية[٣] :

سَقَى اللهُ عَبَّادان غَيْثاً مُجَلِّلاَ فإن لها فضلا جديدًا وأَوَّلا

وثَبَّتَ مَنْ فيها مُقِيماً مرابطًا فما إن أرى عنها له متحوَّلا

إذا جئتَها لم تَلْقَ إلا مكبِّرًا تخلَّى عن الدنيا وإلا مهلِّلا

فأَكرمْ بمن فيها على الله نازلا وأَكرمْ بعبَّادان دارًا ومنزلا

وقد أخذت تُقام فى هذا العصر رباطات أخرى فى أنحاء العالم الإسلامى ، وكانت الدولة التى تقيمها أحيانًا ، ففى أخبار الفضل بن يحيى البرمكى أنه شخص إلى خراسان فى سنة ثمان وسبعين ومائة ، فبنى المساجد والرباطات[٤] .

ويدلّ أكبر الدلالة على ارتفاع موجة النسك حينئذ أنه أخذت تنبثق بين

---

(١) عيون الأخبار ٢/٣١٥ .
(٢) النجوم الزاهرة ٢/١٥٨ .
(٣) ديوان أبى العتاهية (طبع بيروت) ص ٢١٨ .
(٤) الجهشيارى ص ١٩٠ وما بعدها .

النُّسَّاك مقدمات نزعة التصوف متمثلة فى شيوخ كثيرين ، فى مقدمتهم إبراهيم ابن أدهم البَلْخِىّ المتوفى سنة ١٦٠ ورابعة العدوية المتوفاة بالبصرة سنة ١٨٠ وشقيق البلخى تلميذ ابن أدهم المتوفى سنة ١٩٤ ويقال إنه أول من تكلم فى التصوف وعلوم الأحوال بكُورة خراسان وأن له يداً طولى فى إشاعة مبدأ التوكل[١]. ومن مشهوريهم معروف الكرخى من أهل كرخ بغداد المتوفى سنة ٢٠٠ ومن مأثور كلامه : « مَنْ كابر اللهَ صرَعه ، ومَنْ نازعه قمَعه ، ومن ماكره خدعه ، ومن توكل عليه منعه ومن تواضع له رفعه»[٢] . ومن مشهوريهم أيضًا عَبْدك الكوفى وأبو سليمان الدارانى الشامى المتوفى سنة ٢٠٥ وبشر بن الحارث الحافى الخراسانى نزيل بغداد المتوفى سنة ٢٢٧ وكان يقول : « الجوع يصفى الفؤاد ويُميت الهوى ويورث العلم الدقيق ، والمتقلِّب فى جوعه كالمتشحط فى دمه فى سبيل الله ، وإذا أعجبك الكلام فاصمت ، وإذا أعجبك الصمت فتكلَّم»[٣] . وتلقانا من هؤلاء المتصوفة جماعة بمصر على رأس المائتين[٤] .

وينبغى أن لا نبالغ فنزعم أن التصوف نضج فى هذا العصر ، إنما أخذت مقدماته فى البروز والظهور ، أما تكونه التام فقد حدث فى العصر التالى ، أما فى هذا العصر فقد تفتحت تباشيره الأولى ، وقد حاول بعض المستشرقين أن يربط ربطًا وثيقًا بين زهد هؤلاء النُّسَّاك وبين زهد الرهبان المسيحيين الذين كانوا منتشرين فى العالم الإسلامى وخاصة فى العراق والشام ومصر[٥] ،ونحن لا نمنع التأثر العام ، ولكن ينبغى أن يستقر فى نفوسنا أن الزهد الإسلامى يختلف عن الزهد المسيحى فى جوهره إذ الزهد عند المسيحيين ورهبانهم يقوم على أساس من فكرة الخطيئة ، والإسلام لا يُقرُّ هذه الفكرة ولا ما تؤدى إليه من تعذيب الجسد ، فإن لبدن المسلم عليه حقًّا ، ومن أجل ذلك نَهَى الإسلام عن العزوبة ، بينما دعت إليها المسيحية .

وقد حاول جولد تسيهر أن يربط بين مقدمات نزعة التصوف الإسلامية وبين

---

(١) النجوم الزاهرة ٢ / ٢١ وانظر فى تاريخ وفاته ٢ / ١٤٦ .

(٢) النجوم الزاهرة ٢ / ١٦٧ .

(٣) النجوم الزاهرة ٢ / ٢٥٠ .

(٤) كتاب الولاة والقضاة للكندى ص ١٦٠ .

(٥) العقيدة والشريعة فى الإسلام لجولد تسيهر (طبعة دار الكاتب المصرى) ص ١٣١ وما بعدها .

تعاليم الأفلاطونية الحديثة وما يتصل بها من مذهب الفيض ووحدة الوجود[١] ، كما حاول أن يربط بين هذه المقدمات وبوذية الهند ، إذ رأى فى سيرة إبراهيم بن أدهم التى صوّرها بعض من تحدثوا عن أخباره ما يحكى محاكاة تامة سيرة بوذا ، إذ يقال إنه كان ابن ملك من ملوك بلخ ورأى من إحدى نوافذ قصره رجلا مسكيناً فتدبر أمره ، ولم يلبث أن خلع ثوب الإمارة إلى الأبد ولبس أطماراً بالية وفارق قصره وزوجه وأولاده وأوى إلى الصحراء سائحاً مطوّفاً عابداً ربه[٢] . وهى سيرة لابن أدهم صنعتها له الأجيال المتأخرة[٣] فلا يصح أن تُحْمل على العصر العباسى الأول ولا أن تتخذ دليلا على أن متصوفته كانوا يتأثرون البوذية وما ترويه عن بوذا الناسك . وقد رأى جولد تسيهر الجاحظ يروى خبراً عن ناسكين سائحين[٤] فقال إنهما من ناسكى البوذية ، كى يدعم دعواه ، وهما من ناسكى المانوية .

والحق أن جولد تسيهر يبالغ فى كل ما رآه من هذا الربط بين مقدمات التصوف الإسلامى والبوذية من جهة والأفلاطونية من جهة أخرى . يمكن أن يكون قد حدث ذلك فى بعض جوانب التصوف فيما بعد هذا العصر إذ كان التصوف لا يزال يستمد من معين الإسلام ذاته كما لاحظ ذلك نيكلسون[٥] ، وهو حينئذ لم يكن أكثر من نمو للزهد الإسلامى وما ارتبط به من نسك ، وآية ذلك القاطعة أن نظريتى الفيض ووحدة الوجود لم تمدا ظلالهما عليه حتى هذا التاريخ .

على أن هذا الزهد الإسلامى وما ارتبط به من مقدمات التصوف كانت تجرى بجانبه أسراب من زهد فاسد هو زهد الزنادقة الذين اعتنقوا تعاليم المانوية على نحو ما يلقانا فى أشعار صالح بن عبد القدوس المقتول لمانويته وهى تزخر بالترغيب عن متاع الدنيا الزائل حتى ليقول ابن المعتز إن له فى ذلك ما ليس لأحد[٦] .

---

(١) العقيدة والشريعة فى الإسلام ص١٣٦ .

(٢) العقيدة والشريعة فى الإسلام ص١٤٣ .

(٣) قارن هذه السيرة التى حكاها جولدتسيهر بما قاله ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة ٢/٣٦ وهو من المصادر المتأخرة ، يقول : «كان إبراهيم بن أدهم من الأشراف ، وكان أبوه شريفاً كثير المال والخدم والجنائب (الدواب) والبزاة ، فبينما إبراهيم يأخذ كلابه وبزاته للصيد وهو على فرسه يركضه إذ هو بصوت يناديه : يا إبراهيم ماهذا العبث ؟ ! أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً ، اتق الله وعليك بالزاد ليوم الفاقة ، فنزل عن دابته ورفض الدنيا . وانظر صفة الصفوة ٤/١٢٧ .

(٤) الحيوان ٤/٤٥٦ وما بعدها .

(٥) انظر كتاب فى التصوف الإسلامى وتاريخه لنيكلسون (طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٣ .

(٦) ابن المعتز ص ٩١ .

ومعنى ذلك أن العصر العباسى الأول شهد لونين من الزهد : زهداً إسلاميًا خالصًا أعدّ للنسك والتصوف ، وزهداً مانويًّا مارقًا ، وهو الذى يمكن أن يوصل بينه وبين البوذية ، إذ المانوية تتأثر بها — كما مر بنا — من قديم . وقد مضت الدولة تقاومه وتقاوم أصحابه مقاومة عنيفة على نحو ما أسلفنا ، وكان من تمام النسك فى هذا الزهد المارق المنحرف أن يعيش الناسك من سؤال الناس[١] .

(١) الحيوان ٤/٤٥٦ .

الفصل الثالث

الحياة العقلية

١

الامتزاج الجنسى واللغوى والثقافى

كانت الدولة العباسية تمتد من حدود الصين وأواسط الهند شرقاً إلى المحيط الأطلسى غرباً ومن المحيط الهندى والسودان جنوباً إلى بلاد الترك والخزر والروم والصقالبة شمالا ، وبذلك كانت تضم بين جناحيها بلاد السند وخراسان وما وراء النهر وإيران والعراق والجزيرة العربية والشام ومصر والمغرب . وهى أوطان كثيرة ، وكان يعيش فيها منذ القدم شعوب متباينة فى الجنس واللغة والثقافة ، غير أنها لم تكد تدخل فى نطاق العروبة حتى أخذت عناصرها المختلفة تمتزج بالعنصر العربى امتزاجاً قوياً ، فإذا بنا إزاء أمة عربية تتألف من أجناس مختلفة ، وقد مضت هذه الأجناس تنصهر فى الوعاء العربى حتى غدت كأنها جنس واحد .

ومن أهم الأسباب التى هيأت لذلك نزول القبائل العربية فى الأمم المفتوحة وامتزاجها بشعوبها فى السكنى وعن طريق المصاهرة وتسرى الإماء ، بحيث غدت بيوت العرب تزخر بالجوارى من كل جنس : سنديات وحبشيات وفارسيات وخراسانيات وتركيات وروميات وصقلبيات ، وبحيث أصبح العربى خالص الدم فى بغداد نادراً ، فالكثرة الكثيرة من أبناء العرب أمهاتهم من الجوارى والإماء ، وكذلك الشأن فى الخلفاء أنفسهم على نحو ما أشرنا إلى ذلك فى الفصل السابق .

وكان وراء هذا المزج الدموى بين العنصر العربى والعناصر الأجنبية مزج روحى عن طريق الولاء الذى شرعه الإسلام والذى اتخذ شكل رابطة تشبه رابطة الدم ، فالشخص يكون فارسياً أو هندياً أو رومياً أو قبطياً ويكون عربياً ولاء ، وحتى الرقيق كانوا بمجرد تحريرهم يصبحون موالى لأصحابهم وينسبون إلى قبائلهم مثلهم مثل أبنائها الأصليين ، وقد دعا الإسلام إلى هذا التحرير دعوة واسعة ،

وجعله كفارة عن كل ذنب كبير أو صغير ، وكان كثير منهم حين يحرّرون يجنّدون ويعتلون المناصب الكبرى فى الدولة .

وهذا الرقيق إنما كان قلة قليلة بالقياس إلى أحرار الموالى الذى كانت تتكون منهم الشعوب المفتوحة ، وقد دخلت كثرتهم فى الإسلام، وامتزجوا بأهله من العرب ونعموا بما يكْفَلُ للناس من عدل ومساواة ، وحقًّا تعسف معهم الأمويون ولكن العباسيين ردوا الأمر إلى نصابه ، بل لقد فسحوا للفرس كى يغلبوا على العرب فى تصريف شئون الدولة . وحتّى من لم يسلم من الموالى: من المجوس والصابئة والنصارى أخذ يندمج فى المحيط العربى بفضل ما شرعه الإسلام لهم من حقوق اجتماعية وحرية دينية . وبذلك فُتحت بينهم وبين المسلمين أبواب التعاون الوثيق — على مصاريعها — فى جميع شئون الحياة ، وحقًّا دخل جمهورهم الضخم فى الإسلام ولكن دون إكراه أو عنف أو عسف .

وبذلك استطاع الإسلام — بتعاليمه السمحة — أن يحدث امتزاجًا قويًّا بين العناصر المختلفة التى كانت تتألف منها الدولة العربية ، وهو امتزاج لم يبلغه بامتلاك الأرض المفتوحة ، إنما بلغه بامتلاك القلوب ، فإذا الكثرة الكثيرة من الشعوب التى انبسط عليها سلطانه تُسْلم وإذا من بقوا على دينهم يشعرون تلقاء المسلمين وحكامهم بضرب من الأخوة الكريمة .

وقد أسرع من أسلموا من الشعوب المفتوحة جميعًا إلى تعلم لغة القرآن الكريم والحديث النبوى ، فلم يمض نحو قرن حتّى أخذت العربية تسود فى كل أنحاء العالم الإسلامى لا بين المسلمين وحدهم ، بل أيضًا بين غيرهم ممن بقى على دينه القديم لافى البيئات التى كانت قد أخذت تستعرب فى العصر الجاهلى: بيئات العراق والجزيرة والشام فحسب ، بل أيضًا فى البيئات النائية : فى إيران وخراسان ومصر وبلاد المغرب ، وهى بيئات لم يكن لها بالعروبة عهد من قبل ، فإذا هى تتعرّب وتتعرّب معها الأطراف الغربية للقارة الأوربية فى الأندلس .

وكان سكّان هذه البيئات يتكلمون لغات مختلفة ، ففى إيران كانوا يتكلمون الفهلوية، وفى العراق والجزيرة كانوا يتكلمون الآرامية وما انبثق منها من النبطية والسريانية ،وفى الشام كانوا يتكلمون اللغة الأخيرة ولغات سامية مختلفة ، وفى مصر

كانوا يتكلمون القبطية وفى بلاد المغرب كانوا يتكلمون البربرية . وكانت اللغة اليونانية قد أخذت تشيع — منذ غزو الإسكندر — فى الأوساط الثقافية بالشرق كله : فى إيران والعراق والجزيرة والشام ومصر ، بينما كانت اللاتينية تشيع فى تلك الأوساط بشمالى إفريقية والأندلس .

ولا نكاد نتقدم فى كل هذه البيئات بعد فتحها بنحو قرن حتى نجد العربية قد ملكت ألسنة الناس وقلوبهم فى جميع أنحائها القريبة والبعيدة ، وكان هذا تطوراً خطيراً حدث فيها ، إذ أصبحت شعوبها جميعاً عربية اللغة والتفكير والشعور والثقافة والأدب والحضارة . وقد اختلف إسراعها إلى هذا التعرب باختلاف مواقعها من الجزيرة العربية ، فكان أسرعها تعرباً العراق والجزيرة والشام ، وكان تعربها جميعاً قد بدأ فى الجاهلية ، فأتمته الفتوح العربية سريعاً ، فإذا اللغات السامية التى كانت تنتشر فى تلك البيئات وعلى رأسها السريانية تترك مكانها من ألسنة الناس وتنحاز إلى الأديرة وإلى بيئة الصابئة فى حران وبعض المراكز الثقافية القديمة كمدرسة جنديسابور . وتتعرب مصر وبلاد المغرب تدريجاً .

وقد أقبل الفرس على التعرب إقبالا منقطع النظير ، فقد أكبوا على تعلم العربية حتى أتقنوها واتخذوها سريعاً للتعبير عن عقولهم ووجداناتهم بحيث لا نكاد نتقدم فى العصر العباسى حتى يصبح جمهور العلماء والكتاب والشعراء منهم ، فهم يقبلون على درس الشريعة الإسلامية ويتألق فيها نجم أبى حنيفة وتلاميذه ، وهم يقبلون على جمع العربية وتدوين أصولها النحوية على نحو ما هو معروف عن سيبويه وهم يقبلون على إحسان صناعة الكتابة على نحو ما هو معروف عن ابن المقفع ، وهم يقبلون على الشعر بحيث يصبح أعلامه النابهون منهم على نحو ما هو معروف عن بشار وأبى نواس .

وليس معنى ذلك أن جميع أصحاب اللغات القديمة هجروا لغاتهم تماماً ، فقد ظلت من ذلك بقايا حتى فى أكثر البيئات تعرباً أى فى العراق والشام ، مما نشأ عنه سقوط بعض كلمات نبطية وآرامية إلى العربية[١] . ولعل أهم لغة قديمة

---

(١) انظر الأغانى (طبع دار الكتب) ٥/١٧٦ وقد اشتهر فى أواخر عصر بنى أمية شاعر عربى بكثرة ما كان يدخل فى أشعاره من ألفاظ نبطية هو الطرماح : انظر الموشح للمرزبانى ص ٢٠٨.

ظلت حية هى الفارسية ، لا بين سكان إيران فحسب ، بل أيضًا بين سكان الأمصار فى العراق ، إذ زحفت إليها منذ عصر بنى أمية جموع كبيرة منهم ، وازداد زحفهم فى هذا العصر الذى علا فيه سلطانهم . ويدل على ذلك من بعض الوجوه ما يرويه الجاحظ عن قاص من قُصَّاص البصرة ووعاظها هو موسى الأسْوارى إذ يقول : « كان من أعاجيب الدنيا ، كانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس فى مجلسه المشهور به ، فتقعد العرب عن يمينه والفُرْس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية ، ثم يحوِّل وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية فلا يُدْرَى بأى لسان هو أبين »[1] . وكان كثير من العرب أنفسهم يتعلم الفارسية ويحسنها ، حتى لنراها تدور فى مجالسهم[2] ، وحتى لنرى الأصمعى العربى القُحَّ يفهم ما يجرى منها على لسان بعض الفرس[3] . ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنها كانت تشيع على ألسنة كثيرين فى الحياة اليومية لبغداد والكوفة والبصرة ، وبسبب من ذلك ولأنها كانت لغة الحضارة الفارسية دخل منها إلى العربية ألفاظ كثيرة ، وخاصة ما اتصل بأسماء الأطعمة والأشربة والأدوية والملابس. ودخل العربية فى هذا العصر بعض ألفاظ هندية وخاصة فى أسماء النباتات والحيوانات من مثل الآبنوس والببغاء والفلفل كما دخل بعض ألفاظ يونانية وخاصة ما اتصل بأسماء المقاييس والموازين والأمراض والأدوية من مثل القيراط والأوقية والقولنج .

ولم تُفْسد هذه الكلمات الدخيلة العربية فقد كانت تأتى على هامشها ، وكثيراً ما كانت تعرَّب بحيث تتفق واللسان العربى ، وقد ألف العرب فيها مصنفات كثيرة تمييزاً لها وتعريفًا بها . ولم يكونوا يعمدون دائمًا إلى استعارة الأسماء الأجنبية لمدلولاتها التى لم يكونوا يعرفونها ، بل كانوا يحاولون فى أحوال كثيرة أن يضعوا لتلك المدلولات أسماء عربية خالصة إما عن طريق الاشتقاق وإما عن طريق التوسع فى مدلولاتها ومعانيها القديمة . وبذلك اتسعت العربية وتحولت من لغة البدو القديمة إلى لغة حضارية مع المحافظة الشديدة على مقوِّماتها ومشخصاتها وأوضاعها وأصولها الاشتقاقية والصرفية والنحوية .

---

(١) البيان والتبيين ١/٣٦٨ .
(٢) أغانى (طبعة الساسى) ١٧/١٩ .
(٣) أغانى (طبع دار الكتب) ٥/٧ .

وحقًّا أخذ يفشو اللحن ولكن علماء اللغة كانوا بالمرصاد لكل من يلحن ، حتى لكأنهم كانوا يعدّون اللحن إحدى الكبائر ، وقد مضوا يسجّلون على كل عالم وكل كاتب وكل شاعر ما تعثر فيه أحيانًا من بعض اللحن . وجمع من ذلك « يوهان فك » فى كتابه « العربية » مادة واسعة ، ومَن ينعم النظر فيها يعرف أن اللحن لم يكن متفشيًا فى أوساط المثقفين بل كان محدوداً جدًّا ، إذ مبلغ مايضاف إلى أى شخص لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة إلا فى النادر . وقد وقف يوهان فك طويلا عندما ساقه الجاحظ فى كتابه « البيان والتبيين » من لُكنات بعض الأعاجم ، وهى لكنات مردُّها إلى ما كان يجده نفر منهم من صعوبة فى التكييف العضوى لمخارج الحروف العربية التى لا توجد فى لغاتهم ، إذ كان منهم من يبدل الراء غينًا والزاى والتاء والشين سينًا والعين همزة والقاف كافاً أو طاء والجيم زايًا أو ذالاً والحاء هاء والصاد سينًا والظاء زاياً واللام ياء . وهذه اللكنات إنما كانت تشيع على ألسنة العامة وقلما سقط منها شىء إلى ألسنة الفصحاء من العرب والموالى. وهذا نفسه يلاحظ فى اللحن فإنه إنما كان يشيع فى أوساط العامة ، وكان علماء اللغة يعنون بتنقية العربية وتصفيتها من الشوائب ، وفى ذلك ألف الكسائى كتابه فى لحن العامة ، وهو مطبوع .

ومما لا ريب فيه أن الفصحى كانت المثل الأعلى للناس فى هذا العصر ، وخاصة الطبقة المثقفة ، وكان أهم ما دعمها وبسط سلطانها القرآن الكريم ، وحتى الشعوبيون والزنادقة اتخذوها لسانهم وأداتهم فى التعبير ولم يحاولوا الخروج على قوانينها . وقد عاش علماء اللغة يحوطونها ويحرسونها حراسة حفظت لها كل مقوماتها الاشتقاقية والتعبيرية والنحوية ومكنتها من الثبات والجريان على الألسنة لا فى الأوساط الثقافية والأدبية فحسب ، بل أيضًا فى أوساط العامة وبين العناصر التى لم تدخل فى الإسلام مما أحالها وعاء كبيراً لكل ما لقيته من ثقافات فى البيئات التى ذكرناها ومن معارف مختلفة متباينة ، وهى معارف امتزجت فيها منذ فتوح الإسكندر عناصر شرقية بعناصر إغريقية مكونة ما يسمى باسم الثقافة الهيلينية ، ومعروف أن فتوحه شملت مصر وليبيا والشام والعراق وإيران وخراسان وأفغانستان وشطراً من بلاد الهند ، وقد عُنى بنشر الثقافة الإغريقية فى كل البلدان التى افتتحها ومضى خلفاؤه الذين

ورثوا ملكه يستنون بعمله . وبذلك امتزجت هذه الثقافة بثقافات الأمم المفتوحة ، وتكونت من هذا الامتزاج ثقافة جديدة فيها من فلسفة الإغريق المتشعبة وفيها من ديانات الشرق وروحانياته وأساطيره ومعارفه الفلكية وغير الفلكية. وكانت تقوم على هذه الثقافة الهيلينية قبل الإسلام مدارس مختلفة فى الإسكندرية وقيسارية وأنطاكية والرها ونصيبين وحَرَّان وجُنْدَيسابور ، فاتصلت العربية بكل هذا التراث وأخذت تعمل على المزج بينه وبين معارف العرب وآدابهم ، واتخذ هذا المزج صوراً كثيرة ، منها الترجمة ونقل علوم الأوائل وسنعرض لذلك فى موضع آخر . ومنها تأثر العرب بالمعارف العملية التطبيقية عند الأجانب مما اضطروا إلى الوقوف عليه فى إنشاء المدن وضبط الدواوين وعمل الأساطيل وإعداد الجيوش والنهوض بالزراعة والتجارة . ومنها جدالهم لأصحاب الملل والنحل ، فقد كانوا ناشرين للدين الإسلامى ، فاضطرمت المجادلات والمناظرات بينهم وبين البوذيين والمجوس والصابئة والنصارى واليهود وغيرهم ، وتعرفوا على عقائدهم ونحلهم . وأعمق من ذلك تحول أصحاب النحل والديانات المختلفة إلى الإسلام ، فقد تحولوا إليه بتراثهم العقيدى ، بل بكل تراث آبائهم الثقافى .

ولا نبالغ إذا قلنا إن كل ألوان الثقافات العامة التى كانت مبثوثة فى البلدان المفتوحة من أواسط آسيا إلى مشارف البرانس تحولت إلى العربية دون حاجة إلى ترجمة منظمة لسبب طبيعى وهو أن شعوب هذه الثقافات تحولوا عرباً ، فكان طبيعيًّا أن تتحول معهم ثقافاتهم وأن لا تنتظر حتى ينظَّم لها النقل والترجمة . وأهم هذه الثقافات حينئذ الثقافة الهندية والفارسية واليونانية . وكانت الثقافة الهندية تصل العرب حينئذ عن طريقين : طريق الفرس وما سقط إليهم منها من قديم وطريق من دخلوا منهم حديثًا فى الإسلام واندمجوا فى عرب العراق ، ومعروف أن جمهور الهنود وثنيون يدينون بالبوذية ، ومنهم براهمة[١] ينكرون النبوات ودهريون لا يؤمنون بشىء سوى الدهر وسُمَنية لا يؤمنون بشىء سوى الحس وقد ناظرهم قديمًا جهم[٢] ابن صفوان ، وظل المعتزلة —على نحو ما يصورهم الجاحظ فى كتابه الحيوان —

(١) انظر فى نحل الهند الشهرستانى ص ٤٤٤ وما بعدها .

(٢) المنية والأمل لابن المرتضى ص ٢١ .

يردون عليهم ردًّا عنيفًا(١) ، ونعجب أن نرى عربيًّا أزديًّا يعتنق عقيدة السُّمَنِيَّة(٢) . وكانوا يؤمنون بتناسخ الأرواح إيمانًا شديداً حتى ليقول البيرونى : « كما أن الشهادة بكلمة الإخلاص شعار إيمان المسلمين والتثليث علامة النصرانية والإسبات علامة اليهودية كذلك التناسخ علم النحلة الهندية ، فمن لم ينتحلها لم يأت منها ولم يعد من جملتها »(٣) إذ استقر بينهم أن الأرواح تنتقل من جسد إلى جسد تطلب بذلك الكمال ، وما تزال تطلبه حتى تستوفى شرف ذاتها وتستغنى عن الاتصال بالأبدان ، وحينئذ يتحد العقل والعاقل والمعقول ويصبحون جميعًا شيئًا واحداً . وقد سقطت هذه العقيدة — كما مر بنا فى غير هذا الموضع — إلى مانى والمانوية كما سقطت إلى بعض الشيعة القائلين بتناسخ النور الإلهى فى الأئمة ، وأيضاً فإنها سقطت فى هذا العصر إلى الخرمية ، وكان يؤمن بها أحمد بن حائط المتكلم صاحب فرقة الحائطية ويدافع عنها دفاعًا شديداً(٤) . وكان يشيع على ألسنة عامتهم بعض قصصهم كقصة السندباد . وقد تأثرت المانوية — على نحو ما أشرنا فى الفصل السابق — بزهد البوذيين وطرقهم فى النسك وتحريمهم لذبح الحيوان .

وكانت الثقافة الفارسية الشعبية أبعد تأثيراً فى المحيط العربى لهذا العصر ، فقد دخل جمهور الفرس فى الإسلام واقتبس العرب كثيراً من صورة حياتهم فى المطعم والملبس وبناء القصور ونظام الخدم والحشم ، وكانوا يحتفلون معهم بأعيادهم كما أسلفنا ، ويحكون عنهم أقاصيصهم عن رستم وإسفنديار وأخبارهم عن ملوكهم وحكمائهم . وكانت المجوسية لا تزال حية بمعابد نيرانها ونحلها المختلفة من زرادشتية ومانوية ومزدكية وما كانت تجتمع عليه هذه النحل من ثَنَوِيّة أو إيمان بأن للعالم إلهين : إلهاً للنور وإلهًا للظلمة . ونعجب إذ نجد بعض العرب يصبح ثنويًّا مانويًّا على نحو ما كان صالح بن عبد القدوس . وكان تأثير المزدكية فى المجتمع أشد عمقًا ، بما كانت تدعو إليه من التحلل الخلقى والعكوف على اللهو والمجون والاندفاع فى إباحية مسرفة .

ولم يختلط العرب باليونان والبيزنطيين إلا اختلاطًا محدوداً عن طريق الرقيق البيزنطى الذى كان يقع فى الأسر أو يباع فى أسواق النخاسة ، وكان تأثيره فى

---

(١) انظر مثلا الحيوان ٤ / ٧٠ وما بعدها .
(٢) أغانى (طبع دار الكتب) ٣ / ١٤٧ .
(٣) تحقيق ما للهند من مقولة ص ٢٤ .
(٤) الشهرستانى ص ٤٢ .

المجال العربى محدوداً ، وحقـا أن الثقافة اليونانية أهم ثقافة أثرت فى الفكر العباسى ، ولكن عن طريق النقل والترجمة لا عن طريق اختلاط أصحابها بالعرب ، وأيضًا عن طريق ما ألقته من ظلال على الثقافة الهيلينية الشعبية العامة التى كانت سائدة فى المنطقة والتى حملت فى أطوائها معارف الكلدانيين والصابئة عن النجوم والكواكب ومعارف الشآميين والمصريين عن شئون الزراعة وما كان يتداول هنا وهناك من أقاصيص عن السحر والعرافة وما يجرى فى كل ذلك من إيمان بالغيبيات ومن نزعات روحية عميقة .

وكان يشارك فى الحياة اليومية أصحاب الديانتين النصرانية واليهودية ، ويصور لنا الجاحظ فى رسالته « الرد[1] على النصارى » موقف العرب منهم حينئذ ومن اليهود فيقول إنهم كانوا أقرب من اليهود إلى العرب مودة وأسلم صدوراً ، فإن اليهود طووا قلوبهم على عداوة الإسلام ورسوله الكريم منذ مقامه بين ظهرانيهم فى يثرب ، على حين آوى نصارى الحبشة من هاجروا إليهم من أصحاب الرسول فراراً من اضطهاد قريش ومدّوا إليهم يد البرّ والعون . ويقول إن نصارى بغداد كانوا ينهضون بالصناعات المربحة مندمجين فى حياة الخلفاء والرعية ، بينما كان اليهود يحترفون الصناعات الرذيلة الحقيرة ، فمن النصارى كتاب السلاطين وأطباء الأشراف والعطارون والصيارفة ، أما اليهود فمنهم الصباغون والدباغون والقصّابون والشعّابون ، وقد رسخ فى ذهن العرب أنهم أقذر الأمم . ونرى نفراً منهم يسلمون منذ عهد الإسلام الأول ويذيعون كثيراً من الإسرائيليات التى دخلت فى تفسير القرآن الكريم على نحو ما هو معروف عن كعب الأحبار ووهب بن منبه ، وقد استغلها القصاص فى وعظهم للعامة استغلالا واسعًا ، وكان منهم من أسلم بلسانه ولم يسلم بقلبه ، فمضى يسر عداوته للإسلام ويحاول أن يهدمه هدمًا بما يدخل عليه من عقائد منحرفة وبما يثير من الفتن بين أصحابه مثل عبد الله بن سبأ ، وقد لعب دوراً واسعًا فى فتنة عثمان والتأليب عليه وإحداث أول فرقة فى الإسلام ، حتى إذا حدثت أخذ يلقى فى روع بعض الضعفاء والعوامّ أن على بن أبى طالب فوق البشر وأن روح الرسول حلّت فيه ، ولما مات قال إنه اختفى وسيعود . وبذلك وضع نواة

(١) انظر هذه الرسالة فى ثلاث رسائل للجاحظ . نشر فنكل .

التشيع الباطن ، بل وضع نواة غلاة الشيعة جميعاً ورافضتهم الذين طالما حاجهم وجادلهم المعتزلة فى هذا العصر . وكان له خلفاء كثيرون من جنسه مضوا يفسدون على شاكلة إفساده ، بل لقد كان ممن ظلوا على يهوديتهم مَنْ يخالطون العرب فى مجالسهم [١] ويوردون عليهم بعض معتقداتهم الفاسدة من مثل التشبيه على الذات العلية [٢] ، حتى ليصبح هناك قوم معروفون باسم المشبهة من الرافضة وغيرهم . وقد عُنى المعتزلة طويلا بتسفيه أحلامهم ونقض ما زعموه من التشبيه على الله نقضاً . وكانوا يقولون إن التوراة محدثة ومخلوقة وأكبر الظن أن المعتزلة أو نفراً منهم نقلوا عنهم هذه الفكرة فقالوا إن القرآن مخلوق [٣] . وإنما يدفعنا إلى هذا الرأى أنه كان من رءوس القائلين بها ثمامة بن أشرس وبشر بن غياث المريسى المتكلم ، وكان غياث يهودياً يسكن بغداد وأسلم ابنه واشتغل بعلم الكلام والقول بخلق القرآن [٤] وما زال هو وثمامة بالمأمون حتى اعتنق هذا القول وجعله محنة وبلاء على الفقهاء والعلماء . وهو بلاء جرّ إلى صدع متفاقم بين المعتزلة وأهل السنة حتى لقد قضى قضاء مبرماً على ما كان للأولين من مجد فى العصر العباسى الأول .

وقد شكا الجاحظ — على نحو ما مر بنا فى الفصل السابق — من متكلمى النصارى وأطبائهم ومنجميهم لنقلهم إلى العربية كتب المنانية والديصانية والمرقيونة المارقة ، مما أفسدوا به عقول العوام ، ولكن من الحق أن النصارى لم يكونوا يبطنون للإسلام من العداوة ما أبطنه اليهود على نحو ما لاحظ ذلك الجاحظ نفسه ، وكان المسلمون يَبَرُّونهم ويعاملونهم معاملة كريمة ، وقد دخل منهم جمهور غفير فى الإسلام وامتزج العرب بهم وأكثروا من تسرى جواريهم مما هيأ للقاح واسع بين العناصر الإسلامية والمسيحية فى المجتمع العباسى ، ولا نقصد اللقاح الدموى فحسب ، بل نقصد أيضاً اللقاح الثقافى ، إذ نشأ جيل كبير أمهاته من المسيحيات روميات وغير روميات ، وطبيعى أن يحمل هذا الجيل عن أمهاته ثقافتهن وكثيراً

---

(١) النجوم الزاهرة ٢/٢٩ .

(٢) انظر الشهرستانى ص ٦٤ — ٦٥ ، ٧٧ حيث يقول إن التشبيه فى اليهود طباع حتى قالوا فى الله : اشتكت عيناه فعادته (فزارته) الملائكة .

(٣) انظر ضحى الإسلام لأحمد أمين ١/٣٣٤ .

(٤) النجوم الزاهرة ٢/٢٢٨ وقارن ب ٢/١٨٧ .

من طباعهن وعاداتهن وربما بعض معتقداتهن ، ونرى أحد المتكلمين وهو أحمد بن حائط الذى ذكرناه منذ قليل يزعم أن المسيح تدرَّع بالجسد الجسمانى وأنه الكلمة القديمة المجسدة[١] .

وكان للأناجيل تأثير – من بعض الوجوه – فقد كانوا يقرءونها ويستظهرون كثيراً من كلام المسيح وأقواله فى وعظهم ، وفى كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة والبيان والتبيين للجاحظ من ذلك مادة وافرة ، وقد أشرنا فى غير هذا الموضع إلى ما كان من تأثير الرهبان المنبثين فى العالم الإسلامى من أثر عام فى زهد الزهاد حينئذ ، إذ كانوا يرون تقشفهم وخلوصهم للعبادة والنسك . وأشرنا أيضًا فى غير هذا الموضع إلى ما كانت تقدمه الأديرة للمجان والخلعاء من خمور معتقة . ومما لا شك فيه أن المسلمين اندمجوا فى النصارى لهذا العصر اندماجًا واسعًا ، وهو اندماج جعلهم يحتفلون بأعيادهم الدينية ويتخذون منهم كتَّاب الدواوين والأطباء والمنجمين ونقلة علوم الأوائل ، كما جعلهم يملئون قلوبهم أمنًا ورضًا دون أى عسف أو ظلم .

٢

الحركة العلمية

أذكى الإسلام جذوة المعرفة فى نفوس العرب إذ دفعهم دفعًا قويًّا إلى العلم والتعلم ، فلم يمض نحو قرن حتى أخذت العلوم اللغوية والدينية توضع أصولها ، وحتى أخذ العرب يلمُّون بما لدى الأمم المفتوحة من ثقافات متباينة ، وقد مضوا فى هذا العصر يتقصونها وينقلونها بكل موادها إلى لغتهم ، ونهض التعليم حينئذ نهضة واسعة ، وعادة كان الناشئ يبدأ بالتعلم فى الكتاتيب حيث يتعلم مبادئ القراءة والكتابة وبعض سور القرآن الكريم وشيئًا من الحساب وبعض الأشعار والأمثال[٢] ، وكان بعض معلمى هذه الكتاتيب يعلمون الناشئة أيضًا السنن والفرائض والنحو والعروض[٣] . وكانوا يؤثرون فى تعليم البنات تحفيظهن القرآن الكريم وخاصة سورة

(١) الشهرستانى ص ٤٢ .
(٢) البيان والتبيين ٢/١٨٠ .
(٣) البيان والتبيين ٢/٢١٩ .

النور[١]، ويورد الجاحظ وابن قتيبة أسماء طائفة مشهورة من معلمي الكتاتيب[٢] من مثل أبي البيداء الرياحي اللغوي ومحمد بن السكن المحدث وأبي عبد الرحمن السلمي المقرئ وأبي صالح الإخباري . وخصّ الجاحظ هؤلاء المعلمين برسالة ملأها بنوادرهم[٣] ، مما كان سبباً في أن تدور شخصية معلم الكتّاب بين الشخصيات المضحكة في الأدب العربي ، وممن كثر التندير عليه في هذا العصر منهم علقمة ابن أبي علقمة النحوي الذي كان يتقعّر في كلامه مكثراً فيه من الغريب الشاذ وكان يعنى في مكتبه بتعليم الناشئة العربيةوالنحو والعروض ومات في خلافة المنصور[٤] وقد ألف بعض الأدباء رسالة تجمع نوادره[٥]

وكان للناشئة ألواح من الخشب العادي أو من الآبنوس يكتبون فيها دروسهم وكلما فرغوا من درس محوه منها وأثبتوا مكانه درساً آخر . وكان معلموهم يؤدبونهم بالجلد والضرب والحبس ، وفي أخبار إبراهيم الموصلي أنه « أُسْلِم إلى الكُتّاب فكان لا يتعلّم شيئاً ، وكان لا يزال يُضْرَبُ ويُحْبَسُ ولا يَنْجع ذلك فيه ، فهرب إلى الموصل وهناك تعلم الغناء »[٦] ويذكر الجاحظ أنه كان لأعشى بني سُلَيم ابن رآه مسنّاً كان يدع الكُتّاب ويلعب بالكلاب ، فكتب أبوه إلى معلمه[٧] :

ترك الصلاة لأكلبٍ يلهو بها ... طلبَ الهِراش مع الغُواةِ الرُّجَّسِ
فاذا خلوتَ فعَضَّه بملامة ... أو عِظْه موعظة الأديب الأكيَسِ
وإذا هممت بِضَرْبِهِ فبِدِرَّةٍ ... وإذا ضربت بها ثلاثاً فاحبِسِ

وكان هؤلاء المعلمون يتقاضون من الناشئة أجوراً زهيدة ، لا تتجاوز أحياناً بعض رُغفان من الخبز كانت تختلف أحجامها وأنواعها باختلاف أحوال آبائهم غنى وفقراً ، حتى لقد ضُربت برغفان المعلم الأمثال على شدة الاختلاف والتفاوت.

وكان بجانب معلمي أولاد العامة في الكتاتيب معلمون لأبناء الخاصة ، كان منهم اللغوي والإخباري والفقيه والمحدث والمقرئ ، وكانوا أحسن حالا من معلمي

---

(١) البيان والتبيين ١/١٨١ .
(٢) انظر البيان والتبيين ١/٢٥١ والمعارف لابن قتيبة (طبعة وستنفلد) ص ٢٧١ .
(٣) انظر قطعاً من هذه الرسالة بين رسائل الجاحظ المطبوعة على هامش الكامل للمبرد .
(٤) المعارف ص٢٧٢ .
(٥) الفهرست لابن النديم ص٤٣٥ .
(٦) أغاني (طبعة دار الكتب) ٥/١٥٧ .
(٧) الحيوان ٢ / ٨٤ وانظر عيون الأخبار ٢/١٦٧ .

أبناء العامة ، على أن الجاحظ يقول فى جمهورهم : « يكون الرجل نحويًّا عروضيًّا وقسَّامًا فَرْضيًّا وحسن الكتاب جيد الحساب حافظًا للقرآن راوية للشعر وهو يرضى أن يعلم أولادنا بستين درهما »[١] . وهذا إنما يصدق على من كان منهم يعلم أبناء الطبقة الوسطى ، أما من كان يعلم أبناء الخلفاء والوزراء والبيت العباسى والقواد والسَّراة فقد كانت تُفْرَض لهم رواتب كبيرة ، جعلتهم يعيشون فى خَفْض من العيش وسعة من الرزق ، نذكر من بينهم المفضل الضبى معلم المهدى وله اختار مجموعته الشعرية الملقبة بالمفضليات ، والكسائى معلم الرشيد وابنيه الأمين والمأمون، وقطرب مؤدب الأمين وأبناء أبى دلف العجلى قائد المأمون المشهور ، وعلى بن المبارك الأحمر أحد مؤدبى الأمين ويقال إنه أعطاه يومًا ثلاثمائة ألف درهم[٢] ، ومنهم اليزيدى يحيى بن المبارك مؤدب أبناء يزيد بن المنصور الحميرى خال المهدى ومن أجل ذلك لقب باليزيدى ، ومنهم الفراء معلم أبناء المأمون ، وأبو عبيد القاسم بن سلام مؤدب أبناء هرثمة قائد الرشيد والمأمون .

وامتازت فى هذا العصر البصرة بسوق باديتها المعروف باسم المِرْبَد ، وكان منهلاً لشباب البصرة يغدون عليه ويروحون للقاء الفصحاء من الأعراب والتحدث إليهم تمرينًا لألسنتهم وتربية لأذواقهم ومحاولة لاكتساب السليقة العربية المصفَّاة من شوائب العجمة . وكانوا يكتبون ما يسمعونه منهم من طرائف الشعر ، على نحو ما يحدثنا الرواة عن أبى نواس وأنه كان يغدو على المربد بألواحه للقاء الأعراب[٣] . وكان من شباب الشعراء من يرحل إلى البادية ليأخذ اللغة والشعر من ينابيعهما الأصيلة على نحو ما هو معروف عن بشار[٤] .

وكانت المساجد ساحات العلم الكبرى ، فلم تكن بيوتًا للعبادة فحسب ، بل كانت أيضًا معاهد لتعليم الشباب حيث يتحلَّقون حول الأساتذة ، يكتبون ما يلقونه أو يملونه ، وكان الأستاذ يستند عادة إلى أسطوانة فى المسجد ، ثم يأخذ فى إلقاء محاضرته أو إملائها ، وفى الحلقات الكبيرة كان يردِّد مستملٍ كلامه حتى يسمعه ويكتبه البعيدون عنه فى الحلقة . وكان لكل فرع من المعرفة حلقته أو حلقاته

---

(١) البيان والتبيين ١/٤٠٣ .
(٢) طبقات النحويين واللغويين للزبيدى (نشر الخانجى) ص ١٤٧ .
(٣) الحيوان ٦/٢٣٩ .
(٤) أغانى (طبع دار الكتب) ٣/١٥٠ .

الخاصة ، فحلقة لفقيه وحلقة لمحدث وحلقة لقصاص أو لمفسر وحلقة للغوى وحلقة لنحوى وحلقة لمتكلم ، وكانت حلقة الفقهاء من أكبر الحلقات إذ كان يقصدهم طلاب الفقه ومن يريدون أن يتولوا منصب القضاء أو الحسبة ، وكذلك كانت حلقة المتكلمين لما يجرى فيها من مناظرات ومحاورات بينهم أنفسهم وبينهم وبين أصحاب الملل والنحل . وكان يتحلّق كثيرون فى حلقات اللغويين والنحاة ، ويقال إنه كان يحضر حلقة ابن الأعرابى الكوفى زهاء مائة شخص[١] ، وكثيراً ما كانت تدور فى تلك الحلقات هى الأخرى مناظرات بين أصحابها على نحو ما يُرْوى عن الأخفش من أنه تعرض للكسائى فى حلقة وسأله عن مائة مسألة محاوراً له ومناقشاً مناقشات مستفيضة[٢] . وكانت هنالك حلقات للشعراء ينشدون فيها أشعارهم[٣] .

وهذه الحلقات الكثيرة التى لم يكن يشترط للحضور فيها أى شرط سوى الرغبة فى السماع والتى كانت مباحة لأى وارد كى يأخذ منها ما يريد من زاد المعرفة هيأت لظاهرتين كبيرتين ، أما أولاهما فكثرة العلماء المتخصصين فى كل علم وفن ، حتى ليُرْوَى أن النضر بن شُمَيْل تلميذ الخليل بن أحمد حين عزم على الخروج من البصرة إلى خراسان شيّعه نحو ثلاثة آلاف شخص بين محدث ونحوى ولغوى وعروضى وإخبارى[٤] ، ولا بد أنه كان وراء هذا العدد الضخم كثيرون تخلفوا عن توديعه وتشييعه . وإذا كانت البصرة قد اشتملت على هذا العدد الوفير من العلماء فإنه مما لا شك فيه أن بغداد كانت تشتمل منهم على أضعاف له مضاعفة .

وتلك هى الظاهرة الأولى ، أما الظاهرة الثانية فهى نشوء طائفة من العلماء والأدباء الذين نوّعوا معارفهم تنويعاً واسعاً ، إذ لم يكتفوا بالاختلاف إلى حلقة واحدة ، بل مضوا يختلفون إلى جميع الحلقات آخذين بطرف من كل لون من ألوان المعرفة حتى أصبحوا يشبهون الصحفيين المعاصرين الذين يستطيعون أن يتحدثوا حديثاً شائقاً فى كل صور المعرفة والثقافة . وكان يطلق على هذه الطائفة فى البصرة

(١) إنباه الرواة على أنباه النحاة (طبعة دار الكتب المصرية) ١٣٠/٣ .
(٢) إنباه الرواة ٣٧/٢ ومعجم الأدباء ٢٢٨/١١ .
(٣) الموشح ص ٢٨٩ .
(٤) معجم الأدباء ٢٣٨/١٩ .

اسم المسجديين ، وكان لهم حلقات خاصة بهم فى المساجد ، يسوقون فيها فنوناً من الجدال والحوار فى أى شئ يعن لهم ، وقد عرض الجاحظ فى كتاب البخلاء صورة من جدالهم تناولوا فيها الاقتصاد فى النفقة والتثمير للمال[١] . وكانت لهم سوق نافقة فى مجالس الخلفاء والوزراء وعلية القوم ، إذ كانوا يستطيعون أن يطرفوهم بالأحاديث الطلية ويروحوا عنهم فى ساعات صفوهم وغضبهم بما يوردون على سمعهم من طرائف الأخبار والمعارف . ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن ظهور هذه الطائفة وما حظيت به فى المجتمع العباسى هو الذى جعل الجاحظ وغيره يحولون كتبهم الأدبية إلى دوائر معارف واسعة ، بل لقد استقر فى الأذهان أن الأدب هو الأخذ من كل علم وفن بطرف .

وإذا كان الخلفاء ووزراؤهم قد أغدقوا على هذه الطائفة كثيراً ، فإنهم لم يحرموا طائفة العلماء المتخصصين ، بل كثيراً ما كانوا يضفون عليهم عطاياهم الجزيلة ، وجاراهم فى ذلك الولاة وكبار القواد ، وكان أول من سن ذلك وجعله تقليداً للدولة المهدى فإنه أكثر من مكافآته للعلماء كثرة جعلتهم يشدون إليه الرحال من كل بلدة[٢] ، واحتذاه فى ذلك ابنه الرشيد ، ويقال إنه وصل الأصمعى يوماً بمائة ألف درهم[٣] وكان من المحظوظين لدى البرامكة ، ويروى أن جعفراً البرمكى وصله بخمسمائة ألف[٤] . وكان المأمون سحابة منهلة على العلماء والمتكلمين ، وقد أعطى النضر بن شميل وهو لا يزال أميراً بمرو خمسين ألف درهم[٥] . ويروى أن طاهر بن الحسين قائد المأمون وواليه على خراسان وصل أبا عبيد القاسم بن سلام بألف دينار ثم عاد فوصله بثلاثين ألفا ، وأجرى عليه ابنه عبد الله عشرة آلاف درهم فى كل شهر[٦] .

وليس من شك فى أن هذا الصنيع كان من أهم الأسباب فى ازدهار الحركة العلمية بالمساجد ، إذ كان من يبزغ نجمه فى حلقاتها لا يلبث أن يستدعى إلى دار الخلافة أو دار الولاية أو دور الوزراء ، فإذا العطايا تُسْبَغُ عليه وإذا الرواتب تُفْرَضُ له شهرياً . وحقاً كان بين علماء الفقه والحديث من لا يبغون بعلمهم وتعليمهم سوى الثواب من الله ، ولعله من أجل ذلك شاع بينهم التكسب من الحرف

---

(١) كتاب البخلاء للجاحظ (طبعة دار الكاتب المصرى) ص ٢٤ .
(٢) إنباه الرواة ٢/٣٤ .
(٣) طبرى ٦/٥٤١ .
(٤) إنباه الرواة ٢/١٩٩ — ٢٠١ .
(٥) إنباه الرواة ٣/٣٤٩ وما بعدها .
(٦) إنباه الرواة ٣/١٦ وما بعدها .

أو التجارة كأبى حنيفة وكان بزّازاً ، غير أن الكثرة وخاصة من علماء اللغة وأصحاب العلوم الدنيوية كانوا يتخذون علمهم حرفة لهم ومتجراً ، بل لقد كان متجراً رابحاً .

وكان من أهم الأسباب فى بلوغ الحركة العلمية غايتها من النهضة الواسعة استخدام الورق ، إذ أخذ يعمّ منذ مفتتح هذا العصر وكانوا قبل ذلك يكتبون فى الجلود والقراطيس المصنوعة بمصر من ورق البردى . ولم يلبث الفضل بن يحيى البرمكى أن أنشأ فى عهد الرشيد مصنعًا ببغداد للورق ، ففشت الكتابة فيه لخفته وغلبت على الكتابة فى الجلود والقراطيس . وكان الإملاء حينئذ أعلى مراتب التعليم ولكن لم تلبث أن ظهرت المصنفات الكثيرة واحتيج معها إلى النسخ ، فاتسعت صنعة الوراقة ، وهى تحل فى هذا العصر محل الطباعة فى عصرنا الحديث ، وقد مضى العلماء حينئذ يفيدون منها ، فاتخذوا لأنفسهم ورّاقين ينقلون عنهم كتبهم ويذيعونها فى الناس مثل دماذ أبى غسان وراق[1] أبى عبيدة . وكان مما دفع أرواج الوراقة تنافس كثيرين على اقتناء الكتب واتخاذ المكتبات ، وقد أقامت الدولة منذ عصر الرشيد مكتبة ضخمة هى دار الحكمة وعُنيت فيها أشد العناية بالكتب المترجمة التى تحمل كنوز الثقافات الأجنبية ، ولا ريب فى أن هذه المكتبة كانت جامعة كبرى لطلاب العلم والمعرفة .

وقد أخذ كثيرون من الأفراد يعنون باقتناء المكتبات ، وكانوا يوظفون فيها بعض الوراقين للنسخ ، من ذلك مكتبة إسحق بن سليمان العباسى وكانت تمتلىء بالكتب والأسفاط والرقوق والقماطير والدفاتر والمساطر والمحابر[2] ، وأضخم منها وأعظم مكتبة يحيى بن خالد البرمكى ويقال إنه لم يكن فى مكتبته كتاب إلا وله ثلاث نسخ[3] ، وربما فاق هذه المكتبة عظماً وضخماً مكتبة الواقدى المؤرخ المشهور المتوفى سنة ٢٠٧ وكانت تشتمل على ستمائة صندوق مملوءة بالكتب[4] وكان له مملوكان يكتبان له ليلاً ونهاراً[5] .

ولعل فى ذلك ما يدل دلالة واضحة على أن الكتب أصبحت مادة أساسية

---

(١) الفهرست ص ٨١ .
(٢) الحيوان ١/٦١ .
(٣) الحيوان ١/٦٠ .
(٤) معجم الأدباء ١٨/٢٨١ .
(٥) الفهرست ص ١٤٤ .

للمعرفة ، إذ كانت تسجّل أمهات العلم وأصوله بما لعله يفضل تلقيه وأخذه عن العلماء ، وفى ذلك يقول الجاحظ : « وقد تجد الرجل يطلب الآثار وتأويل القرآن ويجالس الفقهاء خمسين عامًا ، وهو لا يُعَدّ فقيهًا ولا يُجْعَلُ قاضياً فما هو إلاأن ينظر فى كتب أبى حنيفة وأشباه أبى حنيفة ويحفظ كتاب الشروط فى مقدار سنة أو سنتين حتّى تمر ببابه فتظن أنه من بعض العمال وبالحَرى أن لا يمر عليه من الأيام إلا اليسير حتّى يصير حاكمًا (قاضياً) على مصر من الأمصار أو بلد من البلدان »(١) .

ولم تكن الكتب تُعدّ لهذا التحصيل السريع فى الفقه وحده ، بل كانت تعد لذلك فى جميع فروع العلم والمعرفة ، فطبيعى أن يقبل عليها الناس إقبالا شديداً لما تجمع لهم فى كل فن وكل علم من مادته الغزيرة المنظمة المرتبة ، بل لقد أصبحت الأداة الطيعة التى تسوق لهم المعرفة وألوان الثقافة سوقاً وهم يكبّون على هذه الأداة أو هذه الوسيلة السهلة منفقين عليها كل ما يستطيعون من أموال مؤمنين بأن « من لم تكن نفقته التى تخرج فى الكتب ألذّ عنده من إنفاق عشاق القيان والمستهترين بالبنيان لم يبلغ فى العلم مبلغًا رضيًّا ، وليس ينتفع بإنفاقه حتّى يؤثر اتخاذ الكتب إيثار الأعرابى فرسه باللبن على عياله »(٢) .

وأنشأ بعض الورّاقين لهم دكاكين كبيرة ملئوها بالكتب يتجرون فيها ، وكان بعض الشباب يغدو إلى هذه الدكاكين لا ليشترى منها فحسب ، بل ليقرأ فيها ما لذّ وطاب من صنوف الآداب نظير أجر بسيط يتقاضاه منه صاحبها . وبلغ من عناية الوراقين بعملهم أن موّه بعضهم خطوطه بالذهب ، ويذكر الجاحظ أن الزنادقة كانوا يتأنقون فى كتبهم تأنقًا شديداً (٣) وكان بعض السراة يطلب هذه الأناقة المسرفة حتّى فى كتب الهزل والفكاهة (٤) .

ولم تكن الكتب والمساجد كل ما هيأ لازدهار الحركة العلمية حينئذ ، فقد هيأ لها أيضًا مجالس الخلفاء والوزراء والأمراء والسَّراة ، إذ تحولوا بها إلى ما يشبه ندوات علمية يتناظر فيها العلماء من كل صنف ، على نحو ما يُرْوَى من مناظرة

---

(١) الحيوان ١/٨٧ .
(٢) الحيوان ١/٥٥ .
(٣) نفس المصدر والصفحة وما بعدها .
(٤) الحيوان ١/٦١ .

الكسائى الكوفى واليزيدى البصرى بين يدى المهدى[١] وما يُرْوَى من مناظرة الكسائى وسيبويه بين يدى الرشيد أو بين يدى يحيى بن خالد البرمكى[٢] . وكانت مجالس البرامكة ندوات كبيرة للمتكلمين والمتفلسفين من كل نحلة يتجادلون فيها ويتحاورون فى كل ما يعرض لهم من مسائل ، وفى ذلك يقول المسعودى : « كان يحيى بن خالد البرمكى ذا بحث ونظر ، وله مجلس يجتمع فيه أهل الكلام من أهل الإسلام وغيرهم من أهل النحل ، فقال لهم يحيى وقد اجتمعوا عنده : قد أكثرتم الكلام فى الكمون والظهور والقدم والحدوث والإثبات والنفى والحركة والسكون والمماسّة والمباينة والوجود والعدم والجوهر والطفرة والأجسام والأعراض والتعديل والتجوير والكمية والكيف والمضاف والإمامة أنصٌّ هى أم اختيار وسائر ما توردونه من الكلام فى الأصول والفروع فقولوا الآن فى العشق على غير منازعة ، وليورد كل منكم ما سنح له فيه وخطر بباله »[٣] ويورد المسعودى أطرافاً من كلامهم وحوارهم فى العشق تصور كيف كانوا يفرّعون الأفكار ويستنبطونها ويشعبونها فى الموضوعات المختلفة التى كانت تمس مسائل الفلسفة وعلم الكلام ومذاهب الشيعة والسنة فى الإمامة .

وكان مجلس المأمون ساحة واسعة للجدال والمناظرة ، وكان مثقفًا ثقافة واسعة عميقة بالعلوم الدينية واللغوية وبالفلسفة وعلوم الأوائل ، فمضى يحول مجالسه فى دار الخلافة ببغداد إلى ندوات علمية تتناول كل فروع المعرفة وفى ذلك يقول يحيى بن أكثم : « أمرنى المأمون أن أجمع له وجوه الفقهاء وأهل العلم من بغداد ، فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلا وأحضرتهم وجلس لهم المأمون فسأل عن مسائل وأفاض فى فنون الحديث والعلم[٤] » ويمضى ابن أكثم فيقول : إنه لما انتهى ذلك المجلس طلب إلىّ المأمون أن أنوّع مجالسه بحيث تكون لكل طائفة من العلماء مجلس . ويعرض طيفور فى كتابه بغداد كثيراً من هذه المجالس وما طُرح فيها من موضوعات مختلفة للجدل والمناظرة . ويصور المسعودى ما عاد على الحركة العلمية من هذه الندوات التى غدت كأنها مجمع علمى كبير ، فيقول : « قرَّب المأمون إليه كثيراً

---

(١) مجالس العلماء للزجاجى ص ٢٨٨.
(٢) إنباه الرواة ٢/٢٧١ .
(٣) مروج الذهب ٣/٢٨٦ .
(٤) بغداد لطيفور ص ٤٥ .

من الجدليين والنظّارين كأبى الهذيل العلّاف وأبى إسحق إبراهيم بن سيار النظام وغيرهما ممن وافقهما وخالفهما (يريد من المعتزلة وغيرهم) وألزم مجالسه الفقهاء وأهل المعرفة من الأدباء وأقدمهم من الأمصار وأجرى عليهم الأرزاق (الرواتب) فرغب الناس فى صنعة النظر وتعلموا البحث والجدل ، ووضع كل فريق منهم كتبا ينصر فيها مذهبه ويؤيد بها قوله »[١] .

وقد كُفلت الحرية العقلية فى هذا المجلس أو هذا المجمع إلى أبعد غاية ممكنة ، بحيث كان كل رأى يُعْرَض للمناقشة العقلية الخالصة حتى آراء الزنادقة[٢] . ومما لا شك فيه أن المجتمع كان يرتبط حينئذ بالإسلام ارتباطاً وثيقاً فى جميع شئونه الروحية والاجتماعية ، ولكن كأنما أصبح سلطان العقل فوق سلطان الدين ، وكل ذلك باعثه الحقيقى رقى الحياة العقلية فى هذا العصر ، فإذا كل شىء يناقش فى حرية ، وإذا كل شىء يعرض على بساط البحث والجدل .

وكان وراء هذا المجلس الكبير ومجلس يحيى بن خالد البرمكى مجالس صغرى ما يزال يجتمع فيها العلماء ويتجادلون ويتناظرون ، من ذلك مجلس أيوب بن جعفر ابن أبى جعفر المنصور ، وقد اجتمع فيه يوماً النظام وأبو شَمِر المتكلم ، وكانت فى أبى شمر رزانة تجعله لا يحرك يديه ولا منكبيه إذا جادل أو ناظر ، فاضطره النظام بما أورد عليه من الحجج وأثقل عليه من البراهين فى مسألة ناظره فيها أن يحرك يديه وأن يحبو إليه حبواً يريد أن يسكته بيده بعد أن أعجزه أن يسكته بالأدلة العقلية[٣] ، ومن ذلك مجلس أزدى بالبصرة وفيه يقول صاحب الأغانى : « كان بالبصرة ستة من أصحاب الكلام : عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء وبشار الأعمى وصالح بن عبد القدوس وعبد الكريم بن أبى العوجاء ورجل من الأزد ، فكانوا يجتمعون فى مجلس الأزدى ويختصمون عنده »[٤] ويتحدث صاحب النجوم الزاهرة عن مجلس آخر فى نفس البلدة ، فيقول : « كان يجتمع بالبصرة عشرة فى مجلس لا يُعْرَفُ مثلهم : الخليل بن أحمد صاحب العروض سُنِّىٌّ ، والسيد ابن محمد الحميرى الشاعر رافضى وصالح بن عبد القدوس ثَنَوِى ، وسفيان بن

---

(١) مروج الذهب ٤/٢٤٥ .
(٢) الحيوان ٤/٤٤٢ .
(٣) البيان والتبيين ١/٩١ .
(٤) أغانى (طبع دار الكتب) ٣/١٤٦ .

مجاشع صُفْرِىّ ، وبشار بن برد خليع ماجن ، وحماد عجرد زنديق ، وابن رأس الجالوت الشاعر يهودى ، وابن نظير النصرانى متكلم ، وعمرو بن أخت المويذ مجوسى ، وابن سنان الحَرّانى الشاعر صابئى ، فتتناشد الجماعة أشعاراً وأخباراً»[١] .

وواضح من هذين النصين كيف كان يلتقى أصحاب الملل والنحل والأهواء المختلفة فى المجالس ، وكيف كانوا يثيرون كثيراً من المسائل التى تتصل بأهوائهم ونحلهم ومللهم ويتحاورون فيها حواراً طويلا . وكانت هناك مجالس أخرى للمتفلسفة والمتكلمين ، ويقال إن مجلس يوحنا بن ماسويه « كان أعمر مجلس بمدينة بغداد لمتطبب أو متكلم أو متفلسف إذ كان يجتمع فيه كل صنف من أصناف أهل الأدب » وكان تلاميذه يقرءون عليه فى هذا المجلس كتب المنطق لأرسطاليس وكتب جالينوس فى الطب[٢] . وعلى شاكلة مجلسه مجلس حنين[٣] ابن إسحق ، ويقال إن المأمون رسم له على كل كتاب ينقله إلى العربية أن يأخذ وزنه ذهباً . وكانت لابن أبى دؤاد المعتزلى مستشار المأمون والمعتصم والواثق نَدْوة كبيرة يحضرهامن كبار المترجمين والأطباء سلمويه وابن ماسويه وبختيشوع بن جبريل[٤] .

ويخيل إلى الإنسان كأنما كانت أزواد المعرفة والثقافة ملقاة فى كل مكان بأمصار العراق وهى حقًّا كانت مطروحة فى الطرقات معرضة لكل الأيدى ، فأبواب المساجد مفتوحة على مصاريعها لكل الواردين ومثلها دكاكين الوراقين ، ولا مصاريف تطلب للتعليم ، والتعليم مجانًا من حق الجميع . وكان لذلك آثار بعيدة ، فإن جمهور العلماء والشعراء لهذا العصر كانوا من أبناء العامة ، ويكفى أن نعرف أن أعلام الشعر حينئذ وهم بشار بن برد وأبو نواس وأبو العتاهية ومسلم بن الوليد وأبو تمام كانوا جميعًا من الطبقة الدنيا فى الشعب فبشار كان أبوه طيّانا يضرب اللبن ، وأبو نواس كانت أمه غازلة للصوف ومن هذا الغزل كانت تعوله ، وأبو العتاهية كان فى صغره يحمل الخزف والجِرار على ظهره فى شوارع الكوفة يبيعها للناس ، وكان أبو مسلم حائكًا ، أما أبو تمام فكان أبوه عطاراً أو خماراً ، ومَنْ

(١) النجوم الزاهرة ٢/٢٩ .
(٢) عيون الأنباء لابن أبى أصيبعة (طبعة دار الفكر العربى ببيروت) القسم الأول من الجزء الثانى ص ١٢٤ وابن القفطى فى أخبار الحكماء (طبعة الخانجى) ص ٢٤٩ .
(٣) ابن أبى أصيبعة ص ١٣٩
(٤) الحيوان ٤/١٢٣ .

وراءهم من الشعراء كان جمهورهم من أبناء العامة ، وكذلك كان العلماء فى جميع فروع العلم ، بل كان منهم من يجمع بين علمه وحرفته التى نشأ فيها مثل أبى أحمد التَّمَّار وشعيب القلاّل الذى كان يصنع فعلا القلال ، وهما من المتكلمين .

وأبعد من ذلك وأعمق أن بين أيدينا من النصوص ما يدل على أن أكثر العامة كانوا يصيبون حظوظاً مختلفة من الثقافة ، إذ لم يكن بينهم وبينها أى حجاب ولا أى حاجز ، بل لقد كانوا يروحون ويغدون عليها فى المساجد ودكاكين الوراقين ، فنهل كلٌ ما نزع إليه من ينابيع المعرفة ، ومن خير ما يصوِّر ذلك أن نرى الجاحظ يقول : « وسألت بعض العطارين من أصحابنا المعتزلة[1] » وكأن العطارين كانوا أقساماً منهم من يتبع المعتزلة ومنهم من يتبع غيرهم ولا بد أن كان مثلهم بقية التجار وأصحاب الحرف ، فهم يناصرون هذا المذهب أو ذاك ، وهم يناصرون هذا الأستاذ أو ذاك ولكل أستاذ أتباعه لا من أوساط المثقفين فحسب ، بل من العامة أيضًا ، وبذلك نفهم قول صاحب النجوم الزاهرة عن النظام ونشاطه فى الدعوة لآرائه الاعتزالية ببغداد إذ يقول : « وفى سنة ٢٢٠ ظهر إبراهيم النظام وقرر مذهب الفلاسفة وتكلم فى القدر ، فتبعه خلق[2] » . ونرى الجاحظ فى رسالته « الرد على النصارى » ينكر على العامة تعرضهم لمناقشة الملحدين فى آرائهم الفاسدة لعدم إحاطتهم الدقيقة بتلك الآراء وما ينقضها نقضًا من الأدلة ، يقول : « ومن البلاء أن كل إنسان من المسلمين يرى أنه متكلم وأنه ليس أحد أحق بمحاجة الملحدين من أحد » . ويهمنا ما تدل عليه شكواه من أن كل مسلم لعصره أصاب حظًّا من طريقة المتكلمين فى حجاج أصحاب الملل والنحل الفاسدة ، وبالمثل كانت العامة تصيب حظوظاً من الثقافة الدينية واللغوية والشعرية .

وليس من شك فى أن ذلك كان ثمرة ازدهار الحركة العلمية فى العصر ، فقد تغلغلت المعرفة والثقافة فى جميع الأوساط حتى فى أوساط العامة ، وأصبحتا غذاء لجميع العقول والقلوب ، وبرزت صفوة من العلماء والأدباء كان جمهورها من أبناء هؤلاء العامة قادت الحركتين العلمية والأدبية قيادة خصبة باهرة ، إذ استطاعت أن تسيغ كل ما نقل إلى العربية من ثقافات متباينة وأن تضيف إليها من عقولها

---

(١) الحيوان ٥/٣٠٤ .

(٢) النجوم الزاهرة ٢/٣٣٤ .

وقلوبها ما دعم حضارتنا العربية دعماً ، بما أحدثوا من علوم وبما كتبوا من آثار عقلية رائعة وآيات شعرية خالدة .

٣

علوم الأوائل : نقل ومشاركة

كان من أهم الأسباب التي دفعت إلى ازدهار الحركتين العلمية والأدبية لهذا العصر الاتصال الخصب المثمر بين الثقافة العربية الخالصة وبين ثقافات الأمم المغلوبة المستعربة وما طوى فيها من معارف وعلوم . وكان هذا الاتصال يأخذ منذ عصر بنى أمية طريقين : طريق المشافهة مع المستعربين وطريق النقل والترجمة وقد ظل الطريق الثانى ضيقاً زمن الأمويين ، إذ لا يعدو ما يُذْكَرُ من أنه تُرْجمت لخالد بن يزيد بن معاوية بعض كتب فى الصنعة والطب والنجوم[١] وأن عمر بن عبد العزيز أمر بترجمة كتيب فى الطب لأهرن[٢] بن أعين وأن كتاباً فى تاريخ الساسانيين ونظمهم السياسية تُرْجم لهشام[٣] بن عبد الملك . وقد مضت بيئات المستعربين العلمية تمارس نشاطها حينئذ ، وكانت تمثلها الأديرة وما بها من حلقات علمية من المدارس متناثرة فى جُنْديسابور القريبة من البصرة وفى نصيبين وحرّان والرُّها وأنطاكية والإسكندرية ، وكانت تغلب عليها جميعاً الثقافة اليونانية ، كما كان يغلب عليها علماء السريان المسيحيين ، وكانوا قد نشطوا منذ القرن الرابع الميلادى فى ترجمة الآثار اليونانية ، واستمر نشاطهم فى هذه الترجمة محتدما حتى القرن التاسع ، ومن أشهر مترجميهم قبل الإسلام يوحنا فيلوبونوس الإسكندرى المعروف باسم يحيى النحوى وكان يعيش فى القرن السادس الميلادى ونقل عن اليونانية كتباً كثيرة فى المنطق والطبّ والطبيعيات[٤] . ومن أبرزهم فى العصر الأموى سويرس سيبوخت

---

(١) ابن النديم ص ٣٤٠ والبيان والتبيين ٣٢٨/١ .

(٢) طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل (نشر المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة) ص ٦١.

(٣) انظر صفحات عن إيران لصادق نشأت ومصطفى حجازى (نشر مكتبة الأنجلو بالقاهرة) ص ٨١ .

(٤) انظر ابن أبى أصيبعة فى الجزء الثانى من القسم الأول (طبعة بيروت) ص ٦ وأخبار الحكماء للقفطى ص ٢٣٢ وعلوم اليونان وسبل انتقالها إلى العرب لأوليرى (نشر مكتبة النهضة المصرية) ص ٣٧ ، ١٢٣ .

أسقف دير قنسرين ويعقوب الرهاوى ، وله مصنف مهم فى النحو السريانى .

وكان لمن خلفوهم فى العصر العباسى اليد الطولى فى ترجمة المصنفات اليونانية من لغتها الأصلية التى كان كثير منهم يحذقها ومن لغتهم السريانية إلى اللغة العربية . وكان من أهم مراكزهم مدرسة جنديسابور القريبة من البصرة ، ولعلها لذلك سبقت الكوفة فى التعرف على الفلسفة اليونانية . وكان كثير من مصنفات اليونانيين قد ترجم إلى الفارسية ، فأدلى الفرس بدلوهم لا فى نقل ثقافتهم فحسب ، بل أيضًا فى نقل بعض الآثار اليونانية على نحو ما هو معروف من نقل ابن المقفع لمنطق أرسطو ، وقد نقل كليلة ودمنة الهندىّ الأصل إلى العربية ، وفى ذلك إشارة إلى ما كان فى الفارسية من ثقافة هندية أخذت تدخل إلى العربية بواسطة نـَقـَلتهم[١] وسنرى عما قليل أن قومًا من مستعربى الهند شاركوا فى هذا النقل .

ونرى الخلفاء العباسيين منذ فاتحة العصر يعنون بهذا النقل عناية شديدة وينفقون عليه الأموال الطائلة وكأنهم لا يريدون به أن يقف عند حد أو عند غاية ، يتقدمهم فى ذلك المنصور وفيه يقول المسعودى : «كان أول خليفة قرَّب المنجمين وعمل بأحكام النجوم وكان معه نوبخت المجوسى وأسلم على يديه — وهو أبو هؤلاء النوبختية — وإبراهيم الفزارى المنجم وعلى بن عيسى الإسطرلابى المنجم . وهو أول خليفة تُرجمت له الكتب من اللغات العجمية إلى العربية ومنها كتاب كليلة ودمنة وكتاب السند هند ، وتُرجمت له كتب أرسطاليس من المنطقيات وغيرها ، وتُرجم له كتاب المجسطى لبطليموس وكتاب الأرثماطيقى وكتاب أوقليدس[٢] » .

واهتمام المنصور بالتنجيم يقترن بنوبخت الفارسى ويظهر أنه كان منجمًا كبيراً ، إذ ينسب له وضع بعض الجداول[٣] الفلكية ، وكذلك كان صاحباه ولثانيهما وهو على بن عيسى رسالة فى الاسطرلاب — وهو آلة فلكية لرصد الكواكب — وقد نشرها لويس شيخو . ولم يكتف المنصور بما كان عند الفرس من علم الفلك والتنجيم ، فقد نُقل له كتاب السندهند الهندى وكتاب المجسطى اليونانى لبطليموس وهما فى علم الهيئة والنجوم وحركات الأفلاك والكواكب . ومعنى ذلك أن العرب

---

(١) كانت مدينة بلخ أهم مركز إيرانى امتزجت فيه الثقافتان الفارسية والهندية ، وكان بها معبد النوبهار البوذى المشهور . انظر أوليرى ص ١٤٩ .

(٢) المسعودى ٤/ ٢٤١ .

(٣) علوم اليونان لأوليرى ص ٢١١ .

استمدوا فى هذا العلم من الفرس والهند واليونان ولا بد أنهم استمدوا فيه أيضًا من الصابئة ورثة الكلدانيين فى الفلك والتنجيم .

وصوَّر نالينو أثر كتاب السندهند فى علم الفلك العربى وكيف وصل إلى العرب ونُقل إلى العربية فقال : « إن وَفْدًا من الهند وَفَد على أبى جعفر المنصور سنة ١٥٤ وفيهم رجل ماهر فى معرفة حركات الكواكب وحسابها وسائر أعمال الفلك على مذهب علماء أمته وخصوصًا على مذهب كتاب باللغة السنسكريتية اسمه (بـَراهْمـَسْپُهُطـَسِدْهانْت) ألفه سنة ٦٢٨ م أو ٦ ، ٧ هـ الفلكى الرياضى (برهمكبت) فكلف المنصور ذلك الهندى بإملاء مختصر الكتاب ، ثم أمر بترجمته إلى اللغة العربية وباستخراج كتاب منه تتخذه العرب أصلا فى حساب حركات الكواكب وما يتعلق به من الأعمال . وتولى ذلك الفزارى وعمل منه زيجا[١] اشتهر بين علماء العرب حتى إنهم لم يعملوا إلا به إلى أيام المأمون حيث ابتدأ مذهب بطليموس فى الحساب والجداول الفلكية . . واقتصر العرب على الجزء الأخير من اسم الكتاب السابق وهو (سِدْهانت) ثم حرَّفوه قليلا وسمَّوه السندهند[٢] » . ويذكر نالينو ممن أخذوا عن هذا العالم الهندى يعقوب بن طارق وكان رياضيًّا ممتازاً وله مؤلفات قيمة فى الفلك[٣] .

ويذكر المسعودى أنه ترجم للمنصور بجانب المجسطى كتب أرسطاليس من المنطقيات وغيرها وكتاب الأرثماطيقى فى الحساب وكتاب أقليدس وهو فى علم الأشكال الهندسية أمّهاتها ومركباتها ، وجميع تلك الكتب يونانية . ولم يذكر المسعودى عناية المنصور بنقل الكتب الطبية إلى العربية ، ومعروف أنه استدعى فى سنة ١٤٨ للهجرة جورجيس بن جبريل بن بختيشوع كبير الأطباء فى بيمارستان جنديسابور ورئيس مدرسته ليكون بجانبه وقد نقل كتبًا كثيرة من اليونانية إلى العربية[٤] وأغلب الظن أنها كانت فى جمهورها كتبا طبية . وكان جورجيس من السريان النساطرة ، وتعاقبت من بعده أجيال من أبنائه وأحفاده تخدم الطب

---

(١) الزيج : علم الجداول الفلكية .
(٢) انظر علم الفلك وتاريخه عند العرب لنالينو ص ١٤٩ . وعلوم اليونان لأوليرى ص ٢٠٩ .
(٣) نالينوص ١٥٦ والفهرست ص٣٨٨
(٤) ابن أبى أصيبعة ص ٣٧ والقفطى ص ١٠٩ .

والترجمة . وممن لمع اسمهم لعهد المنصور فى ترجمة كتب الطب اليونانى أبو يحيى البطريق المتوفى سنة ١٨٠ إذ عُنى بنقل طائفة من كتب أبقراط وجالينوس[١] .

وتنشط الترجمة فى عصر الرشيد ووزرائه البرامكة نشاطًا واسعًا ، وكان مما أذكى جذوتها حينئذ إنشاء دار الحكمة أو خزانة الحكمة وتوظيف طائفة كبيرة من المترجمين بها وجَلْب الكتب إليها من بلاد الروم ، وكان يقوم على هذا العمل الضخم يوحنا بن ماسويه وكان طبيبًا نسطوريًّا من مدرسة جنديسابور ، وفيه يقول ابن جلجل : « قلده الرشيد ترجمة الكتب القديمة الطبية ، مما وُجد بأنقرة وعمورية وبلاد الروم حين سباها المسلمون ، ووضعه أمينًا على الترجمة ، ووضع له كتابًا حُذّاقًا يكتبون بين يديه[٢] » . وقد عاش ابن ماسويه طويلا إذ توفى سنة ٢٤٣ وله مؤلفات كثيرة فى الطب وتركيب الأدوية . وأسهم فى الترجمة حينئذ جبريل بن بختيشوع كبير أطباء الرشيد إذ تُضاف إليه كتب مختلفة فى الطب وكتاب المدخل إلى صناعة المنطق .

وللبرامكة فضل عظيم فى إذكاء الترجمة حينئذ ، فقد شجعوا بكل ما استطاعوا على نقل الذخائر النفيسة إلى العربية من الرومية واليونانية والفارسية والهندية ، من ذلك طلب يحيى بن خالد البرمكى إلى بطريرك الإسكندرية أن يترجم فى الزراعة كتابًا عن الرومية ، وقد ترجمه برسمه[٣] ، وكان مما عنوا به إعادة ترجمة بعض الكتب اليونانية التى ترجمت قبل عصرهم ، بحيث تكون أكثر دقة وإتقانًا ، على نحو ما صنع يحيى بن خالد بكتاب المجسطى لبطليموس ، فقد ندب له أبا حسان وسلماً صاحب بيت الحكمة ، فأتقناه واجتهدا فى تصحيحه بعد أن أحضرا النقلة المجودين ، فاختبرا نقلهم وأخذا بأفصحه وأصحّه[٤] . وقد عنوا عناية واسعة بترجمة التراث الفارسى ونرى جيلاً كبيراً ينهض فى عصرهم والعصر الذى تلاهم بهذه الترجمة نذكر من بينهم آل نوبخت وعلى رأسهم الفضل بن نوبخت الذى أكثر من ترجمة كتب الفلك[٥] ، وآل سهل وعلى رأسهم الفضل وكان يترجم للمأمون فى حداثته بعض الكتب

(١) ابن أبى أصيبعة ص ١٧٤ وذكر أوليرى أنه ترجم لبطليدوس كتاباً فى التنجيم . انظر علوم اليونان ص ٤٢ .

(٢) ابن جلجل ص٦٥ والقفطى ص٢٤٩.

(٣) انظر مقال ماكس مايرهوف عن مدرسة الإسكندرية وانتقالها إلى بغداد فى كتاب التراث اليونانى لعبد الرحمن بدوى .

(٤) الفهرست ص ٣٧٤ .

(٥) الفهرست ص ٣٨٢ .

الفارسية ويعجب بترجمته(١) . ومن أبرز المترجمين للتراث الفارسى حينئذ محمد بن جهم البرمكى وزادويه بن شاهويه وبهرام بن مردانشاه وموسى بن عيسى الكسروى وعمر بن الفرخان وسلم صاحب خزانة الحكمة وسهل بن هرون أحد خزنتها المشهورين(٢) . ومن أنفس ما نقلوه أمثال بزرجمهر وعهد(٣) أردشير بن بابك إلى ابنه سابور وكتاب جاويدان(٤) خرد فى صنوف الآداب ومكارم الأخلاق وكتاب هزار أفسانه وهو أصل من أصول ألف ليلة وليلة . وقد نقل أبان بن عبد الحميد كتاب كليلة ودمنة إلى الشعر وأهداه إلى جعفر بن يحيى البرمكى ، ويقال إنه نظمه فى أربعة عشر ألف بيت(٥) ، وأيضاً فإنه نقل إلى الشعر العربى سيرة أردشير وسيرة أنو شروان(٦) . وعلى نحو ما دفع البرامكة إلى ترجمة التراث الفارسى واليونانى دفعوا أيضًا إلى الانتفاع بالتراث الهندى وترجمته ، يقول الجاحظ : « اجتلب يحيى بن خالد البرمكى أطباء الهند مثل منكه وبازيكر وقلبرقل وسندباذ وفلان وفلان » وقد عملوا فى البيمارستان الكبير ببغداد وسرعان ما استعربوا وشاركوا هم وغيرهم من مستعربة الهند فى نقل بعض الكنوز الهندية وخاصة فى الطب والعقاقير(٧) وشمل نقلهم صحيفة طويلة فى قواعد البلاغة سجلها الجاحظ فى بيانه(٨) ، كما شمل قصة السندباد وكتباً كثيرة فى الخرافات والأسمار مما تولع به العامة(٩) .

وتبلغ هذه الموجة الحادة للترجمة أبعد غاياتها فى عهد المأمون ، إذ تحول بخزانة الحكمة إلى ما يشبه معهداً علميًّا كبيراً وقد ألحق بها مرصده المشهور وجد فى الترجمة ، يقول ابن النديم : « لما استظهر (غلب) المأمون على ملك الروم كتب إليه يسأله الإذن فى إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم ، فأجاب إلى ذلك بعد امتناع ، فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج ابن مطر وابن البطريق وسلم صاحب بيت الحكمة وغيرهم ، فأخذوا مما وجدوا

---

(١) الجهشيارى ص ٢٣٢ .

(٢) انظر فى هؤلاء النقلة عن الفارسية الفهرست ص ١٧٤ ، ٣٤١ وكتاب البيان والتبيين ٣/٢٩ .

(٣) راجع فى هذا الكتاب وسابقه ثلاث رسائل للجاحظ (نشر فنكل) ص ٤٢ وابن أبى أصيبعة ص ١٠٩ .

(٤) انظر جمع الجواهر للحصرى ص ٧٤ وما بعدها .

(٥) الجهشيارى ص ٢١١ .

(٦) الفهرست ص ٢٣٢ .

(٧) الفهرست ص ٣٤٢ ، ٤٢١ .

(٨) البيان والتبيين ١/٩٢ .

(٩) الفهرست ص ٤٢٤ .

ما اختاروا ، فلما حملوه إليه أمرهم بنقله ، فنُقل ، وقد قيل إن يوحنا بن ماسويه ممن نفذ إلى بلد الروم[١] » ويقول ابن نباته فى ترجمته لسهل بن هرون : « جعله المأمون كاتبًا على خزائن الحكمة وهى كتب الفلاسفة التى نُقلت للمأمون من جزيرة قبرص ، وذلك أن المأمون لما هادن صاحب هذه الجزيرة أرسل إليه يطلب خزانة كتب اليونان ، وكانت مجموعة عندهم فى بيت لا يظهر عليه أحد ، فأرسلها إليه ، واغتبط بها المأمون ، وجعل سهل بن هرون خازناً لها[٢] » .

ونحن نقف قليلا عند هؤلاء المترجمين بتلك المؤسسة الكبيرة ، وأولهم الحجاج ابن مطر وقد اشتهر بتحريره لكتاب الأصول فى الهندسة لأوقليدس[٣] وكتاب المجسطى لبطليموس[٤] . وأما يحيى بن البطريق فكان يجيد اللاتينية واليونانية جميعًا وقد ترجم لأفلاطون قصة طيماوس وترجم لأرسطاليس مختصراً فى النفس وكتبه فى الآثار العلوية وفى الحيوان وفى العالم[٥] وكتاب أرسطو إلى الإسكندر المعروف باسم سر الأسرار ، وهو مما نُحل على أرسطو ويشتمل على مزيج من القصص وبعض القواعد فى السياسة وفى الصحة والتغذية ، وترجم أيضًا كتاب الترياق لجالينوس[٦] . وقد مضى التعريف بيوحنا بن ماسويه ، أما سلم وسهل بن هرون فلم يكونا ممن ينقلون عن اليونانية ، إنما كانا ممن يراجعان النقل عنها وينقحان فيه . وهما من أنبه المترجمين عن الفارسية كما أسلفنا . وممن أخذ اسمه يلمع منذ عهد المأمون فى الترجمة حنين بن إسحق ، وكان دقيقًا فى ترجمته حتى قالوا إن المأمون رسم له أن يأخذ وزن ما يترجمه ذهباً وقد عاش إلى سنة ٢٦٤ ومكانه لذلك كتاب العصر العباسى الثانى . ومن كبار المترجمين سوى من سميناهم عبد المسيح بن عبد الله بن ناعمة الحمصى المتوفى حول سنة ٢٢٠ للهجرة وقد اشتهر بترجمته لكتاب الأغاليط لأرسطاليس وشرح يحيى النحوى (يوحنا فيلوبونوس) على كتاب السماع الطبيعى له أيضًا ،

---

(١) الفهرست ص ٣٣٩ .

(٢) سرح العيون لابن نباته (طبع مطبعة الموسوعات بالقاهرة) ص ١٦٦ .

(٣) يقول ابن النديم ص ٣٧١ : نقل هذا الكتاب نقلين يعرف أحدهما بالهارونى نسبة إلى هرون الرشيد والثانى بالمأمونى نسبة إلى المأمون ، انظر ابن أبى أصيبعة صص ١٧٢ والحيوان للجاحظ ١ / ٨٠ والقفطى ص ٦٤ .

(٤) علوم اليونان لأوليرى ص ٢١٥ .

(٥) تاريخ الفلسفة فى الإسلام لدى بور (نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٢٢ .

(٦) ابن جلجل ص ٦٧ وأوليرى ص ٢١٧ . والعلم عند العرب لألدو مييلى (نشر الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية) ص ١٢٧ وما بعدها .

وترجم كتاباً نُسب إليه خطأ وهو كتاب الربوبية أو أثولوجيا أرسطو ، وهو تلخيص مقتبس من تاسوعات أفلاطون الإسكندرى المتوفى سنة ٢٧٠ للميلاد ومن أجل ذلك يفيض الكتاب بنزعة أفلاطونية محدثة قوية[١] .

وقد جعل المأمون الإشراف على مرصده الكبير ليحيى بن أبى منصور وألحق به طائفة من نابهى الفلكيين[٢] مثل على بن عيسى الإسطرلابى ومحمد بن موسى الخوارَزْمى والعباس بن سعيد الجوهرى . ولم يلبث هذا المرصد أن تحول إلى مدرسة رياضية فلكية كبيرة تخرج فيها غير فلكى مثل بنى موسى بن شاكر . وقد أفادت هذه المدرسة من الأبحاث الفلكية الرياضية والجغرافية التى سبقها إليها الهنود والفرس واليونان ، وأضافت إلى ذلك إضافات جديدة باهرة ، إذ وضعت لحركات الأفلاك زيجات وجداول أكثر دقة مما كان لدى الأقدمين وأدخلت تحسينات على خريطة بطليموس ، واستطاعت أن تقيس درجتين من درجات محيط الأرض على أساس كرويتها ، إلى مباحث فلكية وجغرافية ورياضية كثيرة[٣] .

ومحمد بن موسى الخوارزمى هو أكبر العلماء الرياضيين والفلكيين الذين قاموا على أبحاث هذا المرصد ، وهو يُعَدُّ بحق منشئَ عصر جديد فى التاريخ العالمى للرياضيات إذ اكتشف علم الجبر وقواعده وأعطاه اسمه الذى شاع من بعده فى العالم كله ، وقد أضاف إليه أبحاثاً مبتكرة فى أرقام الحساب الهندية وفى حساب المثلثات وفى الجغرافية وفى الأزياج أو الجداول الفلكية ، يقول ألدوميلى : « وله فى هذا المجال أعظم تأثير ، أولا فى الشعوب الإسلامية ثم بعد ذلك فى الشعوب الغربية المسيحية ، وحسابه المفقود نصه العربى مع وجود ترجمة لاتينية له من القرن الثانى عشر الميلادى كان له أعظم الفضل فى تعريف العرب واللاتين من بعدهم بنظام العدد الهندى ، وكتابه المشهور المختصر فى حساب الجبر والمقابلة لم يؤدِّ فقط إلى وضع لفظ علم الجبر وإعطائه مدلوله الحالى ، بل إنه افتتح عصراً جديداً فى الرياضيات . وألف أيضًا كتباً فى الهندسة ، ووضع جداول خاصة بحساب

(١) انظر دى بور ص ٢٢ وعلوم اليونان لأوليرى ص ٢١٧ .
(٢) راجع فى الفلكيين لعهد المأمون الفهرست ص ٣٨٣ .
(٣) انظر فى بحوث هؤلاء الفلكيين ألدوميلى ص ١٤٨ وأوليرى ص ٢٢٣ .

المثلثات والسطوح الفلكية[١] » .

وقد نشر على مصطفى مشرفه ومحمد مرسى أحمد كتابه « الجبر والمقابله » وهو يذكر فى مقدمته تشجيع المأمون له منوِّها به . ويظهر أنه نجح فى صنع الجداول الفلكية نجاحًا رائعًا ، ويقول نالينو إنه « اصطنع زيجا سماه السندهند الصغير جمع فيه بين مذاهب الهند والفرس ، وجعل أساسه على السندهند ، وخالفه فى التعاديل والميل ، فجعل تعاديله على مذاهب الفرس وجعل ميل الشمس فيه على مذهب بطليموس[٢] » .

والخوارزمى — بدون ريب — يفتتح افتتاحاً رائعًا سلسلة الرياضيين والفلكيين والجغرافيين من علماء العرب العظام . وقد نبغ فى هذا العصر كثيرون فى الطب وعلم العقاقير على نحو ما تشهد بذلك كتب طبقات الأطباء وما تزخر به من سيول الرسائل والكتب فى الأمراض وطرق علاجها والعقاقير وتركيبها . وقد استطاع يوحنا ابن ماسويه — بما كان يعكف عليه من تشريح القردة[٣] — أن يضيف بعض النتائج الجديدة إلى ما خلَّفه جالينوس فى علم التشريح ، وله فى طب العيون رسالة مهمة سماها « دغل العين » وقد دوَّت شهرتها فى عصره وبعد عصره وترجمت إلى اللاتينية[٤] .

وقد مضى العرب يُعْنَوْن — منذ خالد بن يزيد بن معاوية — بعلم الصنعة (الكيمياء) وظلوا يزدادون فيه علماً حتى ظهر لهذا العصر جابر بن حيان ، وهو ابن صيدلى كوفى ، فأرْسَى هذا العلم على دعائم التجربة وخلَّف فيه كثيراً من النظريات فى الإكسير وخواصِّه ، وصوَّر ذلك فى أكثر من مائة رسالة ، تُرجمت منها طائفة كبيرة إلى اللاتينية وأفاد منها الأوربيون فوائد جُلَّى مما كان له أكبر الأثر فى نهضة الأبحاث الكيميائية بديارهم . وقد تشكك فى شخصية جابر ومصنفاته بعض الباحثين المحدثين[٥] ، وهو شك بدأه بعض القدماء حتى لنرى ابن النديم يرد عليهم ردًّا طويلا[٦] ، وهو — دون نزاع — المؤسس الأول لعلم الكيمياء عند

(١) الدوميلي ص ١٥٤ وقارن بصفحة ١٤٨ .
(٢) نالينو ص ١٧٥ .
(٣) ابن أبى أصيبعة ص ١٢٨ — ١٢٩ .
(٤) علوم اليونان لأوليرى ص ٢٢٤ .
(٥) انظر كتاب جابر بن حيان لزكى نجيب محمود فى سلسلة أعلام العرب ص ١٩ والدوميلى ص ٩٩ ومادة جابر فى دائرة المعارف الإسلامية .
(٦) الفهرست ص ٤٩٩ .

العرب ، كما أن الخوارزمى المؤسس الأول للعلوم الرياضية والفلكية والجغرافية ، وكما أن يوحنا بن ماسويه المؤسس الأول للأبحاث الطبية العربية .

وكان مما عنوا بنقله إلى العربية كتب الموسيقى لأوقليدس وغيره[١] ، وكان لها تأثير بعيد فى نهضة الغناء والتلحين وقد استطاع الخليل بن أحمد أن ينفذ مما ترجم منها إلى وضع علم العروض العربى ، وأيضاً فإنه ألف كتاباً بديعاً فى علم الإيقاع اتخذه إسحق الموصلى قدوته فى كتبه الموسيقية[٢] .

وكل هذه السيول من الترجمة كانت تجرى معها سيول أخرى من تراث اليونان والفرس والهند ، حتى ليكاد الإنسان يظن أنه لم يبق شىء من هذا التراث لم ينتقل إلى العربية ، سواء منه ما اتصل بالعلوم أو ما اتصل بالصناعات أو ما اتصل بالعجائب والأسمار والخرافات ، أو ما اتصل بالملل والنحل . وكانت كل هذه السيول تتجمع فى دكاكين الوراقين ، ويطلب كلٌّ منها ما يجد فيه متاعه .

وكانت الفلسفة اليونانية والمعارف العلمية أعظم ما حملت هذه السيول ، وقد مضى العقل العربى يسيغهما ويتمثلهما ويضيف إليهما إضافات باهرة ،والمتكلمون — وعلى رأسهم المعتزلة — هم أهم من تعمقوا الفلسفة بجميع شعبها ودقائقها ، وقد عرضوها على بساط البحث ، واستطاعوا أن ينفذوا إلى كثير من النظريات والأفكار والآراء التى لم يسبقهم إليها سابق .

وعلى هذا النحو أصبح العقل العربى فى العصر العباسى الأول عقلا متفلسفاً كما أصبح عقلا علمياً ،لا من حيث فهمه وفقهه بعلوم الأوائل بل أيضاً من حيث إسهامه فيها وإضافاته الجديدة حتى ليضيف علوماً لأول مرة فى تاريخ الحضارة الإنسانية على نحو ما أضاف الخوارزمى علم الجبر .وكان هذا العقل قد أظهر نضجه العلمى وإحكامه لوضع العلوم منذ القرن الثانى ، مما نراه متجلياً فى العلوم اللغوية والدينية ومباحث التاريخ وعلم الكلام .

---

(١) الفهرست ص ٣٧٢ والأغانى (طبعة دار الكتب) ٥ / ٢٧١ .

(٢) إنباه الرواة ١ / ٣٤٣ ومعجم الأدباء ١١ / ٧٣ والمزهر (طبعة الحلبى) ١ / ٨١ .

٤

العلوم اللغوية والتاريخ

عُنى – منذ أواخر عصر بنى أمية – جمهور كبير من العلماء فى البصرة والكوفة بجمع ألفاظ اللغة وأشعار العرب فى الجاهلية والإسلام، وكان من أهم الأسباب فى هذه العناية حاجة الشعوب الأجنبية التى دخلت فى الإسلام إلى تعلم لغة القرآن الكريم، ثم ما كان من شيوع اللحن على ألسنة الموالى المستعربين، وعلى ألسنة بعض العرب أنفسهم بسبب اختلاطهم بالعناصر الأجنبية وما حدث من ضعف سلائقهم بسبب تحضرهم، وكان كثيرون منهم قد نشأوا فى حجور أمهاتهم من الإماء فضعفت عندهم الملكة اللغوية وأخذ اللحن يفشو فى كلامهم. وكانت هناك لهجات كثيرة تتفاوت قرباً وبعداً من الفصحى وتدور على ألسنة العرب الذين نزلوا واستوطنوا البلدتين الكبيرتين.

ولكل هذه الأسباب انبرى علماء البصرة والكوفة يجمعون ألفاظ اللغة وأشعارها حتى لا تفنى العربية فى لغات الشعوب المستعربة، وحتى تسلم لها مقوماتها الأصلية، وحتى تُنْفَى عنها وتُطْرَحُ شوائب اللهجات القبلية. وقد اشترطوا على أنفسهم أن لا يأخذوا اللغة من عربى حضرى وأن يرحلوا فى طلبها إلى باطن الجزيرة حيث ينابيعها الصافية. وكانوا يقصدون بذلك إلى غايتين، أولاهما أن يقوّموا ألسنتهم ويكتسبوا السليقة اللغوية السليمة، وثانيتهما أن يلتقطوا من الأفواه مباشرة مادتهم اللغوية الصحيحة التى يعرضونها على الناشئة وفى حلقات المساجد، ويصوّر أبو نصر الفارابى صنيعهم فى هذا الجانب فيقول: «والذين عنهم نُقلت العربية وبهم اقتُدى وعنهم أُخذ اللسان العربى من بين قبائل العرب هم قيس وتميم وأسد، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثرُ ما أخذ ومعظمه، وعليهم اتُّكلَ فى الغريب وفى الإعراب والتصريف، ثم هُذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم، وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضرى قط ولا عن سُكّان البرارى ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم، فإنه لم

يؤخذ لا من لَخْمٍ ولا من جُذام لمجاورتهم أهل مصر والقبط ، ولا من قُضاعة وغَسَّان وإياد لمجاورتهم أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرءون بالعبرانية ، ولا من تغلب والنمر فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان، ولا من بكر لمجاورتهم للنبط والفرس ، ولا من عبد القيس وأزد عُمان لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ، ولا من بنى حنيفة وسكان اليمامة ، ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدءوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم [1] » .

وعلى هذا النحو كان اللغويون يتوغلون فى نجد حيث المادة اللغوية الفصيحة التى يجمعونها من هنا وهناك ويملئون بها حقائبهم ، وعن أبى عمرو بن العلاء شيخ البصرة : « لا أقول قالت العرب إلا ما سمعت من عالية السافلة وسافلة العالية » يقصد الجزء الغربى من نجد وما يترامى إليه من السفوح الشرقية لجبال الحجاز . وسرعان ما أقبل من أغوار نجد إلى البصرة والكوفة ثم بغداد بعض الأعراب الفصحاء ليتكسبوا برواية الأشعار وتلقينها للناشئة وبعض العلماء اللغويين مثل ثور بن يزيد الذى أخذ عنه ابن المقفع الفصاحة [2] ، وأبى سَوَّار الغنوى أستاذ أبى عبيدة [3] ، ويسوق ابن النديم أسماء [4] طائفة كبيرة من هؤلاء الأعراب .

وقد تعاقبت فى هذا العصر ثلاثة أجيال من علماء البصرة والكوفة تجمع اللغة والشعر ، ورأس الجيل الأول فى البصرة أبو عمرو بن العلاء المتوفى سنة ١٥٤ وقيل سنة ١٥٩ وهو أحد القرّاء السبعة المقدَّمين الذين أُخذت عنهم قراءات القرآن الكريم ، وكان حجة ثبتاً صدوقاً ، وفيه يقول الجاحظ : « كان أعلم الناس بالغريب والعربية وبالقرآن والشعر وبأيام العرب وأيام الناس [5] » . وأشهر أفراد الجيل التالى له خلف الأحمر المتوفى سنة ١٨٠ والأصمعى المتوفى سنة ٢١٣ وفى تعيين سنة وفاته اختلاف كبير وأبو زيد الأنصارى المتوفى سنة ٢١٤ وأبو عبيدة المتوفى سنة ٢١٠ . وكان الأصمعى ثقة ثبتاً ومجموعته الشعرية الملقبة بالأصمعيات بعيدة الشهرة ،

---

(١) المزهر للسيوطى (طبعة الحلبى) ١/ ٢١١ .
(٢) الفهرست ص ٦٧ .
(٣) نفس المصدر والصفحة .
(٤) الفهرست ص ٦٥ وما بعدها .
(٥) البيان والتبيين ١/ ٣٢١ .

ورُويت عنه دواوين كثيرة أشهرها مجموعة الدواوين الستة : دواوين امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة بن عَبدة . وكان أبو زيد مثله صدقاً وأمانة وصبَّ عنايته على جمع اللغات الشاذة كما يتضح فى كتابه « النوادر » فى اللغة . وأبو عبيدة ينزل عنه وعن الأصمعى درجات فى الثقة به إذ كان شعوبيًّا ذميماً ومن أشهر مصنفاته شرح نقائض جرير والفرزدق وكتاب المجاز فى القرآن . وأهم أفراد الجيل الثالث من لُغَوِيِّي البصرة محمد بن سلام الجمحى صاحب « طبقات فحول الشعراء الجاهليين والإسلاميين » وهو كتاب نفيس إذ يصور عمل المدرسة البصرية فى توثيق الشعر القديم ووضع شعرائه فى طبقات وفصائل حسب جودتهم الفنيـــة .

ورأس الجيل الأول من لغويى الكوفة حماد الراوية المتوفى سنة ١٥٦ وقيل بل سنة ١٦٤ وكان عالمًا بالشعر والغريب غير أنه كان ماجنًا فاسقًا زنديقاً ، فشابَ روايته بالوضع والانتحال على ألسنة العرب ، مما جعل علماء البصرة وعلماء الكوفة أنفسهم من مثل المفضل الضبي معاصره يسقطونها ويزيفونها . وكان المفضل ثقة صدوقاً وحجة فى الغريب ، ومجموعته الشعرية الملقبة بالمفضليات أنفس مجموعات الشعر القديم . وأشهر أفراد الجيل الثانى فى الكوفة أبو عمرو الشيبانى المتوفى سنة ٢١٣ ويقال إنه دخل البادية ومعه دَستيجان[١] حِبْرًا فما خرج حتى أفناهما بكتابة سماعه عن العرب الفصحاء ، ويقال إنه كتب أشعار نيف وثمانين قبيلة . ولا يقلّ عنه شهرة معاصره ابن الأعرابى المتوفى سنة ٢٣١ وقد رويت عنه دواوين كثيرة ، وهو إلى أن يكون فى جيل الكوفة الثالث أقرب منه إلى أن يكون فى جيلها الثانى . ومن أهم أفراد الجيل الثالث أبو عُبَيْد القاسم بن سلام ، ويقال إن الناس لم يكتبوا فى اللغة أصح من كتبه ولا أكثر فائدة ، وله مصنفات كثيرة من أشهرها غريب الحديث والغريب المصنف .

ومن ينعم النظر فيما سجلت كتب طبقات اللغويين والنحويين لهؤلاء العلماء من مصنفات يجدها تتطور من التأليف فى موضوعات جزئية مفردة مثل كتاب الفرس وكتاب الإبل إلى تأليف المصنفات المطولة حتى لتتحول إلى معاجم لغوية على

---

(١) الدستيج : إناء .

شاكلة كتاب الغريب المصنف لأبى عبيد ، وسترى الخليل بن أحمد يضع منهج أول معجم لغوى فى العربية . وينبغى أن نعرف أن الطريقة الأولى التى تُعْنى بالجزئيات المفردة ظلت غالبة على محاضرات اللغويين طوال القرون : الثانى والثالث والرابع على نحو ما يصور ذلك الكامل للمبرد ومجالس ثعلب وأمالى القالى .

وإذا تركنا جمع اللغة ورواية الشعر إلى النحو وجدنا البصرة تسبق الكوفة إلى وضع قواعده ومصطلحاته وصَبْغها بالصبغة العلمية ، وقد حاول بعض المستشرقين أن يربطوا بين النحو العربى والنحو اليونانى أو السريانى ، محاولين أن يثبتوا وجوها من الصلة بينهما وبين النحو العربى ، وكأنه نشأ على هديهما[1] . وأكبر الظن أنه وليد العقل العلمى العربى الذى استوى على سوقه فى القرن الثانى ، ودفع دفعا إلى وضع علوم عربية كبيرة ، منها اللغوى ومنها الدينى .

وجاء فى بعض المصادر القديمة أن أول من وضع العربية أبو الأسود الدؤلى المتوفَّى سنة ٦٩ وشُبِّه على بعض القدماء والمحدثين أنه وضع شيئًا من قواعد النحو ، والحقيقة أنه لم يضع منها شيئًا ، إنما الذى وضعه حقًّا وكان أول واضعيه نَقْط المصحف نَقْطاً يعيِّن حركات أواخر الكلم فيه أو بعبارة أدق يعين حركات الإعراب[2] ، فكان يضع نقطة فوق الحرف الأخير للكلمة إشارة إلى الفتحة ، ونقطة بين يديه إشارة إلى الضمة ، ونقطة تحته إشارة إلى الكسرة ، وإذا تبع شيئًا من هذه الحركات غنة أو تنوين نقط الحرف نقطتين . واختلط التعبير عن هذا الصنيع بكلمة العربية على بعض أصحاب كتب الطبقات فظنوا أنه وضع بعض أبواب النحو أو بعض مسائله .

وأول نحاة البصرة الحقيقيين عبد الله بن أبى إسحق الحضرمى المتوفى سنة ١١٧ وعيسى بن عمر الثقفى المتوفى سنة ١٤٩ . أما ابن أبى إسحق فيقال إنه أول من نهج النحو ومدّ القياس وشَرَح العلل ، وأما عيسى بن عمر فإنه أول من وضع الكتب فى النحو إذ ألف فيه مصنفين هما الإكمال والجامع ، ويقال إن الأخير أصل كتاب سيبويه ، زاد فيه وحشاه . ويعد الخليل بن أحمد المتوفّى فى سنة ١٧٥ هو الواضع الحقيقى لعلم النحو فى صورته النهائية التى أدّاها عنه تلميذه سيبويه فى

(١) راجع فى ذلك تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢ / ١٢٤ . ونولدكه فى مجلة الجمعية الشرقية الألمانية ، المجلد ٥٩ ص ٤١٤ .

(٢) انظر المحكم فى نقط المصاحف لأبى عمرو الدانى (طبع دمشق) ص ٤ وما بعدها .

مصنفه الملقب باسم « الكتاب » وهو فى كثير من صفحاته يحكى آراءه وقد ذكره فى نحو ثلاثمائة وسبعين موضعًا ، ويقول السيرافى : « كل ما قال سيبويه : سألته أو قال من غير أن يذكر قائله فهو الخليل[١] » ويقول إنه كان الغاية فى استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس فيه ، ويقول الزبيدى : إنه استنبط من علل النحو ما لم يستنبطه أحد وما لم يسبقه إلى مثله سابق[٢] » .

فالخليل هو المؤسس الحقيقى لصرح النحو العربى ، بل هو المقيم لقواعده والمشيد لبنيانه وأركانه ، وكانت المادتان الأساسيتان اللتان اعتمد عليهما فى رفع هذا الصرح إلى عنان السماء — كما يوضح ذلك كتاب تلميذه سيبويه — القياس والعلل ، أما القياس فيتضح فى ضبطه القواعد واطرادها بحيث تُنْفَى الشواذ ، وأما العلل فمقدمات القياس التى تثبت صحته بما تقدمه من أدلة عقلية سديدة .

ويظهر أن الخليل كان يتقن المنطق الذى ترجمه صديقه ابن المقفع وما يتصل به من القياس ، وأيضًا فإنه كان يتقن العلوم الرياضية[٣] ، وهو إتقان جعله يقف على ما يصنعه أصحاب الحساب والرياضيات فى مسائلهم الفَرْضية لترسخ ملكة هذه العلوم فى عقول الناشئة . وعلى ضوء من هذا الصنيع مدّ القياس فى التصريف والنحو ، فتولدت له ألفاظ جديدة وفروض فى الصيغ بقصد تمرين التلاميذ وتدريبهم وهى ما يسميه النحاة بالتمارين غير العملية . وقد تمثل تمثلا دقيقًا فكرة المعادلات والتوافيق والتباديل التى هيأت عند الخوارزمى لنشأة علم الجبر ، وهى تلاحظ عنده فى الميزان الصرفى وفى الخطة التى وضعها لصنع المعجم المعروف باسم « العين » إذ دفع تلميذه الليث بن نصر بن سيار أن يقلب كل الصيغ الثنائية والثلاثية والرباعية والخماسية على حروف الهجاء وبذلك حصر جميع الكلمات مما نطقت به العرب ومما لم تنطق مع نَصه فى المعجم على الطرفين . وجعله يرتبه على مخارج الحروف بالضبط كما ترتّب عند الهنود حروف السنسكريتية[٤] ، وفى ذلك ما يشير إلى إطلاعه على بعض الأبحاث الهندية فى الأصوات ، ولعل ذلك ما جعله

---

(١) أخبار النحويين البصريين للسيرافى (طبعة كرنكو) ص ٤٠ .

(٢) طبقات النحويين واللغويين للزبيدى (انشر الخانجى) ص ٤٣ .

(٣) الزبيدى ص ٤٣ وإنباه الرواة ١ / ٣٤٦ .

(٤) انظر ترجمة الخليل فى دائرة المعارف الإسلامية .

يعنى بالهمز والتشديد والروم والإشمام[١] . ويبلغ تطبيقه لفكرة التباديل والتوافيق الرياضية الغاية فى وضعه لعلم العروض ، لا من حيث ما اقترحه فيه من تفاعيل فقط ، بل أيضاً من حيثُ ما وضعه فيه من دوائر ، إذا قُدِّمت فيها أجزاء التفعيلات بعضها على بعض خرجت الأوزان التى استعملها العرب وأوزان أخرى أهملوها ولم يستعملوها ، وبذلك فتح الأبواب واسعة أمام العباسيين كى يجدّدوا فى الأوزان حسب إرادتهم الفنية .

وخلَفَه على تراثه النحوى سيبويه المتوفى سنة ١٨٠ غير متجاوز للأربعين من عمره فى أرجح الأقوال ، وقد أودع هذا التراث مصنفه الموسوم باسم « الكتاب » مضيفاً إليه من أنظاره مايدل دلالة بينةعلى فطنته ونفاذبصيرته . والكتاب يُعَدُّ آية خارقة من آيات العقل العربى حتى سماه بعضهم قرآن النحو ، ويقول صاعد ابن أحمد الأندلسى : « لا أعرف كتاباً أُلِّف فى علم من العلوم قديمها وحديثها اشتمل على جميع ذلك العلم وأحاط بأجزاء ذلك الفن غير ثلاثة كتب ، أحدها المجسطى لبطليموس فى علم هيئة الأفلاك ، والثانى كتاب أرسططاليس فى علم المنطق والثالث كتاب سيبويه البصرى النحوى ، فإن كل واحد من هذه لم يشذ عنه من أصول فنه شىء إلا مالا خطر له[٢] » . وأهم من تلقى هذا الكتاب عن سيبويه من البصريين الأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة المتوفى سنة ٢١١ فكان الطلاب يقرءونه عليه ويشرحه لهم ويفسره ، وله فى النحو مصنفات كان ينشر فيها ضرباً من الغموض والتعقيد رغبة فى التكسب بها [٣] ، واشتهر بأنه أول من أملى غريب كل بيت من الشعر تحته كما اشتهر بإتقانه لعلم العروض وتأليفه فيه .

ولم يكن النشاط النحوى منذ أوائل هذا العصر خامداً فى الكوفة ، فقد كان بها طائفة من النحاة غير أنهم لم يبرعوا فى النحو براعة البصريين ، ومن أجل ذلك كانوا يكثرون من الرحلة إليهم والتلمذة عليهم ، حتى إذا تقدم العصر أخذوا يستقلون عن نظرائهم فى البصرة بمذهب نحوى خاص بهم بحيث أصبح فى النحو مذهبان متقابلان : مذهب البصرة الذى يعنى بالقياس مستمداً له من استعمال العرب الشائع ، ومذهب الكوفة الذى يُعْنَى بالسماع ويقدمه على القياس مهما كان شاذاً نادراً .

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى (طبعة مطبعة حجازى بالقاهرة) ١٧١/٢ .

(٢) معجم الأدباء ١١٧/١٦ .

(٣) الحيوان ٩١/١ .

وأقدم نحاة الكوفة أبو جعفر الرُّؤَاسي تلميذ عيسى بن عمر أستاذ البصريين ، وخلفه معاذ بن مسلم الهَرَّاء المتوفى سنة ١٨٧ ويقال إنه هو الذى وضع علم الصرف غير أننا نشك فى ذلك لأن الصرف مندمج فى كتاب سيبويه المتوفى قبله . وأرسخ منه قدماً فى الدراسات النحوية الكسائى المتوفى سنة ١٨٩ وقد تتلمذ للخليل وتلقى عن الأخفش كتاب سيبويه ، ونراه يشيد بالقياس قائلا :

إنما النحو قياسٌ يُتَّبَعْ وبه فى كل أمرٍ يُنْتَفَعْ

ويقول بعض البصريين : « لولا أنه دنا من الخلفاء فرفعوا من ذكره لم يكن شيئاً ، وعلمه مختلط بلا حجج ولا علل[١] »

وأهم نحاة الكوفة فى العصر الفَرَّاء المتوفى سنة ٢٠٧ وكان مثل أستاذه الكسائى يقدّم السماع على القياس ، وأكثر من قراءة كتاب سيبويه ، ليحاول تعقبه ومخالفته فى بعض ألقاب النحو ، وقد صاغ منها كثيراً أشاعه فى كتابه « معانى القرآن » مثل الجحد بدلا من النفى والتكرير بدلا من البدل والتفسير بدلا من التمييز[٢] . وهو الذى جسَّم الخلاف بين المدرستين الكوفية والبصرية لقدرته على الحجاج والجدل ، ويقال إنه كان مثقفاً ثقافة فلسفية واسعة ، وأنه كان يستخدم فى كتبه ألفاظ الفلاسفة ، ويدل على ذلك كتابه « الحدود » فى النحو فإن اسمه يحمل صلة قوية بينه وبين مباحث الحدود فى المنطق ، ومن أهم كتبه « معانى القرآن » وهو يكتظ بآرائه النحوية .

وواضح مما قدمناه أن الكوفة لم تُسْهم مساهمة حقيقية فى وضع أصول النحو فقد سبقتها البصرة إلى ذلك محتكمة احتكاماً شديداً إلى القياس[٣] ، وإلى نظرية العامل التى ينفرد بها نحونا العربى والتى تُعَدُّ قوامه ، وهى تدل على أن هذا النحو لم يوضع على أساس نحو أجنبى ، فمحوره الذى تدور حوله بحوثه محور عربى خالص ، إنما كل ما يمكن أن يقال إنه أفاد من العقلية العلمية الخصبة التى اكتسبها العرب فى العصر العباسى الأول من خلال تمثلهم للثقافات الأجنبية الفلسفية والعلمية .

---

(١) مراتب النحويين لأبى الطيب اللغوى (نشر مكتبة نهضة مصر) ص ٧٤ .

(٢) انظر معانى القرآن للفراء ١/ ٥١ ، ٥٢ ، ٢٢٥ .

(٣) انظر مقدمتنا لكتاب الإيضاح فى علل النحو للزجاجى (طبع القاهرة) .

ومما كان يعنى به النحاة واللغويون أنساب العرب وأخبارهم التى تؤديها أشعارهم ، وهى عناية اقترنت بنمو الكتابة التاريخية حينئذ ، وهو نمو ارتبط بالسيرة النبوية ، وانضمت إليها مادة من تاريخ الرسل ومن تاريخ العرب ثم تاريخ الأمم المجاورة للجزيرة العربية وخاصة الفرس .

وكانت السيرة النبوية مثبوتةفيما يروى من الأحاديث ، فأخذ كثيرون يستخلصونها منها ، وعُنوا بالقصص عن الأنبياء والرسل لتوضيح جوانب من القصص القرآنى للوعظ والتذكير بالله واليوم الآخر ، وعُنوا أيضاً بكتابة أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها وملوكها . وما نكاد نتقدم فى العصر العباسى حتى تكثر الكتابة عن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ومغازيه وبعوثه الحربية ، ويلمع فى هذا الجانب اسم محمد بن إسحق المتوفى سنة ١٥٠ وقد وزّع السيرة النبوية على ثلاثة أقسام كبيرة ، هى المبتدأ والمبعث والمغازى . ويتضمن المبتدأ تاريخ العرب القديم وقصص الأنبياء ، ويتضمن المبعث حياة الرسول فى مكة ، وتتضمن المغازى حياته فى المدينة . ولم يصلنا هذا الكتاب[١] ، إنما وصلتنا رواية مهذبة له رواها عبد الملك بن هشام المتوفى بالفسطاط سنة ٢١٨ .

ومن المؤرخين الكبار الذين عنوا بكتابة السيرة والمغازى النبوية فى هذا العصر محمد بن عمر الواقدى قاضى المأمون المتوفى سنة ٢٠٧ وله مصنفات كثيرة فى الفتوح وتاريخ الخلفاء وأيام الناس ، ونشرت له قطعة خاصة بالمغازى ، وقد ضمّن كاتبه وتلميذه محمد بن سعد المتوفى سنة ٢٣٠ كتابه « الطبقات الكبرى » سيرة مطولة للرسول عليه السلام .

وكان من أثر الاهتمام بالمدينة فى السيرة الزكية أن أخذت تُفرَد لها المصنفات على نحو ما هو معروف عن محمد بن الحسين بن زُبالة المتوفى بعد المائتين ، وكتابه الذى خصه بها هو الأصل الذى ألهم العلماء بعده التأليف فى تاريخ المدن .

وعُنى كثير من المؤرخين بالكتابة فى أحداث الدولة العربية على نحو ما هو معروف عن أبى مخنف لوط بن يحيى الأزدى المتوفى سنة ١٥٨ وله كتب مختلفة فى الفتوح وفى حروب صفين ، وسيف بن عمر التميمى المتوفى سنة ١٨٠ ويشتهر بمؤلفات

(١) توجد قطعة من هذا الكتاب فى مكتبة الرباط العامة بالمغرب .

له فى الردة والفتوح ووقعة الجمل ، ونصر بن مزاحم المتوفى سنة ٢١٢ وقد نُشرت له بالقاهرة وقعة صِفّين .

وصبّ هشام بن محمد الكلبي عنايته على تاريخ العرب القديم وما يتصل به من أنساب وأيام وأشعار ، وكان متهماً بالوضع عند معاصريه ، ونُشر له بالقاهرة كتاب الأصنام . ومن أعلام المؤرخين لهذا العصر المدائنى المتوفى سنة ٢٢٥ وكان له كتاب ضخم فى أخبار الخلفاء وآخر فى الدولة العباسية ومصنفات مختلفة فى السيرة النبوية وفى الفتوح وأيام الناس ، وهى تُعَدّ بالمئات ، وقد استقصاها ياقوت وابن النديم . وأخذت تؤلف فى هذا العصر كتب الرجال الذين حملوا الحديث النبوى من صحابة وتابعين على نحو ما يصور ذلك كتاب الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد الذى أشرنا إليه آنفاً ، ومثله كتاب معرفة الرجال ليحيى بن معين المتوفى فى سنة ٢٢٣ .

وعلى هذا النحو نشطت كتابة التاريخ فى العصر العباسى الأول ، فلم تقف عند السيرة النبوية ، بل اتسعت لتشمل تاريخ العرب فى الجاهلية وفتوحهم ودولهم فى الإسلام وتاريخ الرسل والأنبياء ، وهبطت إليهم روافد من تاريخ الأمم القديمة وخاصة الفرس ، إذ عُنى ابن المقفع وغيره بترجمة الكتب المؤلفة فى سير ملوك العجم .

٥

العلوم الدينية وعلم الكلام والاعتزال

نشأت العلوم الدينية فى ظلال الحديث النبوى ، وقد أخذ رواته يضيفون إليه ما أُثر عن الصحابة لا فى تعاليم الدين الحنيف فحسب ، بل أيضاً ما أثر عنهم وعن الرسول الكريم فى تفسير الذكر الحكيم . وبذلك حمل الحديث كل المادة المتصلة بالتشريع والفقه والتفسير . وقد أخذ يدوَّن تدويناً عامّاً منذ أوائل القرن الثانى للهجرة ، على نحو ما هو معروف عن ابن شهاب الزهرى المتوفى سنة ١٢٤ وما نكاد نتقدم فى العصر العباسى حتى يتكاثر التصنيف فيه ، وكانوا يوزعونه فى

مصنفاته غالبًا على أبواب الفقه ، وأول جيل يلقانا لمصنفيه[1] فى هذا العصر جيل عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج بمكة المتوَّفى سنة ١٥٠ ومعمر بن راشد باليمن المتوفى سنة ١٥٣ وسعيد بن أبى عَروبة بالبصرة المتوفى سنة ١٥٦ ومواطنه الربيع ابن صَبيح المتوفى سنة ١٦٠ ومواطنهما حماد بن سلمة المتوفى سنة ١٦٥ وسفيان الثورى بالكوفة المتوفَّى سنة ١٦١ وعبد الرحمن الأوزاعى بالشام المتوفى سنة ١٥٧ والليث بن سعد بالفسطاط المتوفى سنة ١٧٥ . ويتبع هذا الجيل جيل ثان على رأسه مالك بن أنس بالمدينة المتوَّفى سنة ١٧٩ وسفيان بن عيينة بمكة المتوفى سنة ١٩٨ وعبد الرازق الصنعانى باليمن المتوفى سنة ٢١١ وعبد الله بن المبارك بخراسان المتوفى سنة ١٨١ وهشيم بن بشير بواسط المتوفى سنة ١٨٣ ويحى بن زكريا بن أبى زائدة بالمدائن المتوفى سنة ١٨٣ ومحمد بن فضيل بن غزوان بالبصرة المتوفى سنة ١٩٨ ووكيع بن الجراح بالكوفة المتوفى سنة ١٩٦ وعبد الله بن وهب بالفسطاط المتوفَّى سنة ١٩٧ .

وأهم كتاب وصلنا عن هذين الجيلين كتاب « الموطَّأ » لمالك بن أنس إمام أهل المدينة ، وهو مرتب على أبواب الفقه ، وفى كل باب أحاديث الرسول — صلى الله عليه وسلم — المتعلقة به وأقوال الصحابة وفتاوى التابعين وفتاوى مالك نفسه . وقد ظل يمليه على طُلاَّبه نحو أربعين عامًا ، وهو يزيد وينقص فيه وفى أحاديثه ، ولذلك اختلفت رواياته ، وأشهرها رواية يحى بن يحى الليثى الأندلسى المتوفَّى سنة ٢٣٤ وقد شرحها الزرقانى وشرحه مطبوع .

وأخذت تقتّرن فى أواخر القرن الثانى بالطريقة السالفة فى تصنيف الحديث طريقة جديدة تقوم على تخليص الحديث من الفقه ، مما جعل أصحابها يوزعون الحديث فى مصنفاتهم على أساس رواته من الصحابة ، وهى الطريقة المعروفة باسم « المسانِد» إذ يُسْنِد المؤلف لكل صحابى ما رُوِى عنه من الأحاديث ، وممن سبقوا إلى التأليف على هذه الطريقة الربيع بن حبيب الإباضى البصرى المتوفَّى سنة ١٧٠ ومسنده مطبوع وأبو داود الطيالسى المتوفى بالبصرة سنة٢٠٣ ومسنده هو الآخر مطبوع .

---

(١) انظر فى جيلى مصنفى الحديث التاليين خطط المقريزى ٤/١٤٣ وإحياء العلوم للغزالى ١/٧٩ وقوت القلوب ص ٢١٦ والفهرست ص ٣١٤ .

وأشهر المصنفات فى هذا الاتجاه مسند ابن حنبل المتوفى سنة ٢٤١ وهو مطبوع فى ستة أجزاء ضخام .

وبجانب الطريقتين السالفتين فى تصنيف الحديث أخذت تشيع طريقة ثالثة توزّع فيها الأحاديث على المعانى والموضوعات التى تتصل بها فقهية وغير فقهية ، ومن أقدم من ألفوا فيها أبو بكر عبد الله بن أبى شيبة المتوفّى سنة ٢٣٥ وفيه يقول المقريزى : « تفرد بتكثير الأبواب وجودة التصنيف وحسن التأليف[١] » واتبع طريقته فى العصر العباسى الثانى البخارى وغيره من أصحاب الصّحاح الستة .

وأخذ المحدّثون منذ هذا العصر يعرضون رواة الحديث على نقد شديد حتى يحيطوه بسياج متين من الصحة والثقة ، مما أدّى إلى نشوء علم هو علم الرجال أو علم التعديل والتجريح ، وهو علم محّص مادة الحديث ونفى عنها الزيف والتدليس ، وأهم من بدأ التصنيف فيه — كما أسلفنا فى غير هذا الموضع — محمد بن سعد ويحيى بن معين . ومن العلوم التى نشأت حول الحديث لهذا العصر علم غريبه ، وهو علم يعنى بتفسير ما فيه من ألفاظ غريبة ، وقد ألف فيه كثيرون من لغويى[٢] هذا العصر وعلى رأسهم أبو عُبَيْد القاسم بن سلام .

وإذا تركنا التصنيف فى الحديث إلى التصنيف فى تفسير القرآن الكريم وجدنا مصنفات كثيرة فيه تستمد مما أثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة وخاصة أبىّ بن كعب وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وما أذاعه تلاميذه الكثيرون عنه ، وقد سجل ابن النديم أسماء طائفة كبيرة من هذه المصنفات[٣] ، وتولاّها العلماء بالجرح والتعديل ، فمنها ما اتهموه ومنها ما وثقوه ، وقد أجمعوا على صحة ما دوّنه على بن أبى طلحة المصرى عن ابن عباس ، وفى ذلك يقول ابن حنبل : « بمصر صحيفة فى التفسير (عن ابن عباس) رواها ابن أبى طلحة لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً »[٤] . ومن أهم المفسرين فى هذا العصر بتلك الطريقة التى تعتمد على التفسير بالمأثور سفيان بن عُيَيْنة وعبد الرحمن بن زيد ابن أسلم بالمدينة ووكيع بن الجراح وأبو بكر بن أبى شيبة . وقد ضاعت كتبهم هم

(١) خطط المقريزى ٤ / ١٤٣ .
(٢) الفهرست ص ١٢٩ .
(٣) الفهرست ص ٥٠ .
(٤) الإتقان للسيوطى (طبع مطبعة حجازى) ٢ / ١٨٨ .

ومن سبقهم غير أن الطبرى احتفظ فى تفسيره الكبير بكل هذه الثروة المأثورة الغنية.

وقد أخذ الشيعة يستقلون – منذ هذا العصر – بتفاسير للقرآن خاصة بهم ، لعل أهمها تفسير [١] جعفر الصادق المتوفى سنة ١٤٨ ، إن صحت نسبته إليه . ونشط المعتزلة فى كتابة تصانيف عن المتشابه فى القرآن على نحو ما يروى عن بشر [٢] بن المعتمر وأبى الهذيل [٣] العلاف ، وما زالوا يعنون بتأويل الآيات التى قد تفيد التشبيه على الله أو تفيد الجبر وبمباحث مختلفة حول القرآن وإعجازه حتى استطاع أخيراً أبو بكر الأصم المتوفى سنة ٢٣٢ أن يصنف أول [٤] تفسير اعتزالى .

ونشأت بجانب التفسير – لهذا العصر – علوم قرآنية كثيرة ، أحصاها ابن النديم إحصاء دقيقاً ، ذاكراً أهم من صنفوا فيها ومصنفاتهم [٥] ، وهى علم نقطه وشكله وأهم من ألفوا فيه الخليل بن أحمد ومعروف أنه أول من ابتكر الشكل فى العربية ، وقد أخذه من صور حروف العلل الممدودة فالضمة واو صغيرة الصورة والكسرة ياء تحت الحرف والفتحة ألف مبطوحة فوقه [٦] . ومن تلك العلوم علم الوقف والابتداء فى آياته ، وممن ألفوا فيه الفراء ، وعلم غريبه وممن ألفوا فيه محمد بن سلام الجمحى وأبو عبيد القاسم بن سلام ، وعلم لغاته وممن صنفوا فيه الأصمعى وأبو زيد الأنصارى ، وعلم معانيه وممن صنفوا فيه الفراء وأبو عبيدة ، وعلم قراءاته وممن صنفوا فيه أبو عمرو بن العلاء وأبو عبيد القاسم بن سلام ، وعلم ناسخه ومنسوخه وممن صنفوا فيه أحمد بن حنبل ، وعلم أحكامه وممن صنفوا فيه الشافعى ويحيى بن أكثم صفىّ المأمون وقاضيه .

وازدهرت دراسات الفقه فى هذا العصر ازدهاراً عظيماً ، فإذا الفقهاء يصوغونه صياغة علمية دقيقة على نحو ما صاغ اللغويون النحو وغيره من العلوم اللغوية . ومعروف أن الإسلام فتح أمام الفقهاء أبواب الاجتهاد على مصاريعها ، وكان منهم من يبحث عن نص من القرآن أو السنة يهتدى به فى فتواه ، وقلما اعتمد عقله أو استنباطه العقلى ، ومنهم من كان يتسع فى الاستنباط والقياس

(١) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان (طبع دار المعارف) ٣/٢٤٣ .
(٢) الفهرست ص ٥١ .
(٣) الفهرست ص ٥٥ .
(٤) انظر مذاهب التفسير الإسلامى لجولد تسيهر (نشر الخانجى) ص ١٣٥ .
(٥) الفهرست ص ٥١ – ٥٧ .
(٦) المحكم فى نقط المصاحف ص ٧ .

السديد على ضوء الإسلام وتعاليمه. ويمثل الأولين أهل الحجاز بينما يمثل الثانين أهل العراق ولذلك سُمُّوا أهل الرأى ، وسرعان ما تحول الاتجاهان فى هذا العصر إلى مذهبين واضحين فى الفقه والتشريع : مذهب أبى حنيفة فى الكوفة والعراق ومذهب مالك فى المدينة والحجاز ، وينفذ الشافعى من خلال المذهبين إلى مذهب مستقل به ، وبأخرة من العصر ينفذ ابن حنبل إلى مذهب رابع كانت تتبعه فيه عامّة بغداد .

وأبو حنيفة النعمان بن ثابت يرجع إلى أصل فارسى ، وقد ولد سنة ٨٠ للهجرة وتوفى ببغداد سنة ١٥٠ وكان بزازاً وهو مع ذلك يتثقف بالحديث والقرآن والفقه والتفسير حتى صار أبرع أهل زمانه فى الفقه والرأى ، بل لقد نفذ إلى مذهب مستقل به ، وهو مذهب كان يعتمد على الكتاب والسنة ، كما كان يعتمد على القياس العقلى اعتماداً واسعاً متخذاً منه حلولا للأحكام الكثيرة التى تطلبتها المشاكل التى نشأت فى حياة الناس من الجهتين الدينية والدنيوية ، ويقال إنه أفتى فى ثلاث وثمانين ألف مسألة منها ثمان وثلاثون ألفاً فى العبادات والبقية فى المعاملات . وإلى دقته فى استخدام القياس يشير مساور الوراق إذ يقول[١] :

إذا ما الناسُ يوماً قايسونا بآبدةٍ من الفُتْيا ظريفهْ
أتيناهم بمقياسٍ طريفٍ مصيبٍ من قياس أبى حنيفهْ

ونهض من بعده بمذهبه أبو يوسف يعقوب بن إبراهم بن حبيب المولود بالكوفة سنة ١١٣ والمتوفى سنة ١٨٢ وهو الذى انتشر به مذهب أبى حنيفة فى العراق وسائر الأقطار التابعة للخلافة العباسية ، إذ كان قاضى القضاة فى عهد الهادى والرشيد وكان لا يولى على أى بلد قاضياً إلا من الفقهاء المنتمين إلى مذهبه[٢] ، وله فى الخراج كتاب مشهور مطبوع ، وهو أول من ألف فى علم الحيل[٣] وهو علم يفتح بفتاويه المنثورة فيه المنافذَ لكى يخرج منها من يقع فى حرج . وانتهت رياسة المذهب بعده إلى تلميذه محمد بن الحسن الشيبانى الكوفى المتوفى سنة ١٨٩ وكان

(١) أغانى (طبعة الساسى) ١٦/١٦٣ . وانظر جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ٢/٧٧ وعيون الأخبار لابن قتيبة ٢/١٤٠ .

(٢) انظر المغرب لابن سعيد (طبع دار المعارف) ١/١٦٤ .

(٣) الحيوان ٣/١١ .

قد سمع أبا حنيفة وتتلمذ له ، كما سمع مالك بن أنس والأوزاعى فقيه الشام ، وممن أخذ عنه الشافعى وأحمد بن حنبل ، وهو الذى حرَّر المذهب الحنفى بكتبه الكثيرة من مثل المبسوط والسير الكبير والجامع الكبير والجامع الصغير ، وقد نوه ابن جنى بدقة استخدامه للعلل فى كتبه[١] . وإلى هؤلاء الأئمة الثلاثة يرجع الفضل فى صياغة الفقه الحنفى ومصطلحاته صياغة علمية دقيقة .

وكان يقابل هذا المذهب العراقى مذهب مالك بن أنس فى الحجاز ، على نحو ما يمثله كتابه « الموطأ » الذى تحدثنا عنه بين كتب الحديث والذى تُعْرَض فيه أبواب الفقه ومسائله على أساس رواية الحديث النبوى والآثار عن الصحابة والتابعين . ومن أهم من تلقوا هذا المذهب عن مالك تلميذه عبد الرحمن بن القاسم المتوفى بالفسطاط سنة ١٩١ وقد أدَّاه بدوره إلى سحنون عالم القيروان المتوفى سنة ٢٤٠ فألف فيه كتابه الملقب باسم « المدونة الكبرى » ونشره ببلاد المغرب . وتلقى المذهب عن مالك أيضًا يحيى بن يحيى الليثى الأندلسى ، ونشره بموطنه على نحو ما نشر أبو يوسف مذهب أبى حنيفة إذ كان مقدَّما عند حكام الأندلس وجعلوا له تولية القضاة فكان لا يولى قاضيًا إلا من أصحابه المالكية .

ونفذ من خلال هذين المذهبين إلى تكوين مذهب جديد الشافعى محمد بن إدريس المولود بغزة سنة ١٥٠ والمتوفَّى بالفسطاط سنة ٢٠٤ وقد نشأ بمكة وحمل ما بها من حديث ، وفى سنة ١٧٠ رحل إلى المدينة ولزم مالكاً إلى أن توفى ، فرحل إلى اليمن واتُّهم باشتراكه فى ثورة لبعض العلويين ، فأُرسل به إلى الرشيد وعفا عنه . وانتهز فرصة مقامه ببغداد فقرأ كتب محمد بن الحسن الشيبانى وناظره طويلا ، وخرج إلى مصر ونشر بها مذهبه الذى يجمع بين طريقة الحجازيين فى الاعتماد على الكتاب والسنة وطريقة العراقيين فى الاعتماد على القياس . وقد انتهت عنده الروح العلمية الأصيلة التى سادت فى مباحث الفقهاء إلى الغاية المنتظرة إذ استطاع أن يضع فى كتابه الملقب باسم الرسالة علم أصول الفقه لأول مرة ، وفيه حرَّر المناهج فى استنباط الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة والإجماع والقياس . وهو بذلك يقف علماً فى تاريخ الفقه الإسلامى ، يقول الرازى : « واعلم أن نسبة الشافعى

---

(١) راجع الخصائص (طبعة دار الكتب المصرية) ١/١٦٣ .

إلى علم الأصول كنسبة أرسطاليس إلى علم المنطق وكنسبة الخليل بن أحمد إلى علم العروض . . فإن الناس كانوا قبله يتكلمون فى مسائل أصول الفقه ويستدلون ويعارضون ، ولكن ما كان لهم قانون كلى مرجوع إليه فى معرفة دلائل الشريعة وفى كيفية معارضاتها وترجيحاتها ، فاستنبط الشافعى — رحمه الله — علم أصول الفقه ، ووضع للخلق قانوناً كلياً يُرْجَعُ إليه فى معرفة مراتب أدلة الشرع ، فثبت أن نسبة الشافعى إلى علم الشرع كنسبة أرسطاليس إلى علم العقل[١] » . وعاد الشافعى إلى العراق فى سنة ١٩٥ ثم رجع إلى مصر سنة ١٩٨ وتركها إلى مكة ولم يلبث أن عاد إليها وظل بها إلى وفاته . وحمل عنه مذهبه فى مصر تلاميذ كثيرون من أهمهم البُوَيْطى المتوفى سنة ٢٣١ وقد انتشر مذهبه فى كثير من بلدان العالم الإسلامى .

وأكبر تلامذة الشافعى فى العراق أحمد بن حنبل المتوفَّى سنة ٢٤١ وقد استقل بمذهب فقهى جديد يُعلى من شأن الحديث إلى أبعد غاية ، وبذلك عُدَّ ممثلاً لأهل السنة ، غير أن مذهبه لم يكتب له الانتشار كما كُتب للمذاهب الثلاثة السالفة ، وإن كان قد ازدهر حديثاً بين الوهابيين .

وكان للشيعة فى هذا العصر نشاط مستقل فى الفقه ، إذ ينسب للإمام العلوى جعفر الصادق كتب مختلفة فيه مثل كتاب « مصباح الشريعة ومفتاح الحقيقة » المطبوع فى طهران ومثل كتاب « فقه الرضا » لعلى الرضا حفيده وهو كسابقه مطبوع بطهران .

ولعل علماً لم يزدهر فى هذا العصر كعلم الكلام ، ويراد بالكلام الجدل الدينى فى الأصول العقيدية لا عند المسلمين وحدهم ، بل عند جميع الملل والنحل ، ومن أجل ذلك نرى الوصف بالمتكلم يضاف إلى بعض الرافضة مثل هشام بن الحكم وشيطان الطاق[٢] ، بل نراهم يضيفونه إلى أهل الحجاج من المسيحيين[٣] ، بل لقد أضافوه إلى أهل الجدل من المانية الثنويه القائلين بإلهى النور والظلمة الذين يحامون ويناضلون عن عقيدتهم الفاسدة[٤] . وقد مضى كل متكلم مدافع عن

(١) مناقب الإمام الشافعى للرازى ص ١٠٠ .
(٢) الفهرست ص ٢٩ — ٢٥٢ .
(٣) ثلاث رسائل للجاحظ ص ٢٠ .
(٤) الفهرست ص ٣٣٨ .

عقيدة فى هذا العصر يتسلَّح فى دفاعه بالفلسفة اليونانية وما يتصل بها من منطق وغير منطق حتّى ليقول الجاحظ : « ولا يكون المتكلم جامعاً لأقطار الكلام متمكناً فى الصناعة حتّى يكون الذى يحسن من كلام الدين فى وزن الذى يحسن من كلام الفلسفة(١) » .

وأهم فرق المتكلمين فى هذا العصر فرقة المعتزلة الذين نصبوا أنفسهم للدفاع عن عقيدة الإيمان الإسلامية وما يتصل بها من توحيد الله وتنزيهه عن التشبيه وحقائق النبوة والثواب والعقاب فى الآخرة أمام المرجئة والمجبرة وروافض الشيعة والنصارى واليهود والدهريين الماديين والمانويين الثَّنْويين . وقد ملئوا بجدالهم وحجاجهم لهم مساجد البصرة وجذبوا بحسن بيانهم وقوتهم فى الإقناع وإفحام الخصوم الشباب شعراء وغير شعراء . ورحل كثير منهم منذ أواخر القرن الثانى إلى بغداد ، فخلبوا الألباب هناك ببيانهم الساحر وبما أوردوا على الناس من دقائق الأفكار ، وإذا الناس لا حديث لهم غير الاعتزال والمعتزلة ومناظراتهم لأصحاب الملل والنحل فى المساجد الجامعة ، وإذا المأمون يعتنق عقيدتهم ، حتّى شعبة خلق القرآن التى دلع شررها بشر المريسى كما مرّ بنا ، وحاول أن يعلنها عقيدة رسمية للدولة .

ولعلنا لا نغلو إذا سمينا هذا العصر عصر الاعتزال ، فقد بلغ من ازدهاره أن استولى على صولجان الحكم وأن وجّهه حسب مشيئته ، وربما كان ذلك هو الخطأ الوحيد الذى ارتكبه أصحابه ، فإنهم وضعوه ووضعوا معه محنة خلق القرآن على رقاب الناس ، فكان ذلك سبب سقوطه من حالق . ولكنه إذا كان قد أخفق حين استخدم السيف وغياهب السجون فإنه نجح نجاحاً كبيراً فى أن صبغ العقول بصبغة فلسفية وأن مرّنها تمريناً واسعاً على دقة التعليل والمهارة فى الاستنباط لخفيات المعانى ودقائقها والبراعة فى تفريعها وتشعيبها وتوليدها ، مع القياس الناصع والبرهان الساطع . وسرت من ذلك أسراب فى جميع جوانب الفكر العباسى ، إذ أكبّ الناس على مناظراتهم وأكبّ معهم الشعراء ، بل قلما نجد شاعراً نابهاً فى هذا العصر إلا وتلمذ لهم على نحو ما هو معروف عن بشار وأبى نواس وأبان اللاحقى والعتابى ومنصور النمرى وأبى تمام .

واختلف الباحثون فى سبب تسميتهم معتزلة ، فقيل إن ذلك يرجع إلى اعتزال

(١) الحيوان ٢/١٣٤ .

أستاذهم الأول واصل بن عطاء للحسن البصرى ومجالسه ، وقيل بل يرجع إلى سَرَيان نزعة زهد فيهم واعتزالهم الناس ، ورجح نالينو أنهم نُعتوا بذلك لابتعادهم عن المنازعات الناشئة بين الخوارج وخصومهم من أهل السنة والشيعة ، فقد وقفوا على الحياد لا ينصرون فريقاً على فريق[1] ، وبالمثل لم ينصروا العلويين على أبناء عمهم العباسيين ، بل ظلوا متمسكين بحيادهم ومضوا يناضلون غلاة الشيعة نضالا عنيفاً على نحو ما ناضلوا المانويين والدهريين ، ولذلك احتضنهم العباسيون . واستطاع أستاذهم واصل أن يؤثر فى زيد بن على بن الحسين تأثيراً واسعاً وأن يحمله على التخلص من الآراء الشيعية الغالية .

وتميز الاعتزال بأصول خمسة ، هى التوحيد ، والعدل ، والوعد والوعيد ، والقول بأن منزلة مرتكب الكبيرة بين منزلتين ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . فأما التوحيد فأراد به المعتزلة تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين فهو ليس بجسم ولا عرض ولا عنصر ولا جزء ولا جوهر ولا يحصره المكان ولا الزمان ، وقد أولوا الآيات التى يُفْهَمُ منها مشابهته للمخلوقات من مثل : (يد الله فوق أيديهم) فمعنى اليد فى الآية عندهم القدرة ، ومضوا ينفون عن الله الصفات لأنها من عوارض الأجسام ، فقالوا إنها عين الذات حتى لا يتعدّد القديم جلّ جلاله ، ومن أجل ذلك نفوا عنه صفة الكلام ، ومن هنا اندفعوا إلى القول بأن القرآن مخلوق حتى لا يُظَنّ أنه قديم ، ولا قديم سوى الله .

أما العدل فقد مضوا يُؤَصِّلون عليه فكرة خلق العباد لأفعالهم وأنهم أحرار فى إرادتهم ، وهى حرية ضرورية لكى يثابوا ويعاقبوا على أعمالهم دون أن يظلمهم الله مثقال ذرة ، وقد أوّلوا الآيات التى تدلّ على الجبر من مثل : (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) ودفعهم هذا الأصل إلى القول بالصلاح والأصلح وأن الله لا يأمر بالشر ولا يعمل إلا ما فيه صلاح العباد وما هو أصلح لهم .

وأما الوعد والوعيد فهو أن الله صادق فيما وعد من ثواب وأوعد من عقاب ولا مبدل لكلماته ، وهم بهذا الأصل يردون على المرجئة الذين يرجئون الحكم على مرتكب الكبيرة ، فالله لن يغفر لمرتكب كبيرة إثمه إلا إذا تاب وأناب ، وهو لا بد مدخل

---

(١) انظر التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية لعبد الرحمن بدوى ص ١٧٣ وما بعدها .

الأتقياء الجنة حسب وعده الذى وعده ، ومدخل العصاة النار حسب إيعاده الذى أوعده .

وأما القول بأن منزلة مرتكب الكبيرة بين منزلتين فهو قول نفذوا به من خلال رأى الخوارج القائلين بأن مرتكب الكبيرة كافر ويجب حربه وقتله ورأى الحسن البصرى القائل بأن مرتكب الكبيرة مؤمن فاسق ، فقد اعتزلوا الرأيين جميعاً وقالوا إنه فى منزلة وسطى بين منزلتى المؤمن والكافر . وبذلك لم ينتصروا — كما يقول نالينو — لطرف من طرفى هذه الخصومة .

وأما الأصل الخامس فيريدون به أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجبان على سائر المسلمين كلٌّ حسب استطاعته ، وكان ينبغى وهم يعتنقون هذا الأصل أن يدفعوا الدولة للضرب على أيدى المجان والفساق وأرباب الدعارة ، وأيضًا كان ينبغى أن يصرخوا فى وجوه الخلفاء ضد طغيانهم وظلمهم للعامة ، وأن يصارحوهم بنظرية الإسلام فى الخلافة وأنها ليست حقًّا من حقوق أهل البيت إنما هى حق الأكفاء من أبناء الأمة .

وقد أدّاهم النظر فى الأصول السالفة إلى مباحث كبيرة فى العلاقة بين الله والإنسان وبين الله والطبيعة وما فيها من قوى فعالة ، مما جعلهم يتوسعون إلى أقصى حد فى الأبحاث الطبيعية والرياضية والفلسفية . وتجرّدوا للرد على الملاحدة وأصحاب النحل والملل ودفعهم ذلك إلى الوقوف على كل التراث العقيدى والفكرى عند المستعربين من أهل الكتب السماوية وغيرهم كالمجوس والصابئة .

وواصل بن عطاء المتوفى بالبصرة سنة ١٣١ هو مؤسس فرقتهم كما قدمنا ، وهو أول من قال منهم بأن مرتكب الكبيرة فى منزلة وسطى بين منزلتى الإيمان والكفر (١) ، وكان يكثر من جدال أصحاب الملل والنحل . وخلفه على آرائه ختنه عمرو بن عبيد المتوفى سنة ١٤٥ وكان يكثر من الجدال فى عقيدة العدل وما يتصل بها من حرية (٢) الإرادة . وقد مضى تلاميذه فى البصرة يفرّعون فى مسائل الاعتزال وبعض المسائل الفلسفية تفريعات انبثقت منها شعب اعتزالية كثيرة أهمها البشرية والثمامية والهذيلية والنظامية .

---

(١) انظر أمالى المرتضى ١ / ١٦٥ والشهرستانى ص ٣١ .

(٢) أمالى المرتضى ١ / ١٦٩ وضحى الإسلام ٣ / ٩٧ .

والبشرية نسبة إلى بشر بن المعتمر المتوفى سنة ٢١٠ وقد تحول من البصرة إلى بغداد فنشر بها الاعتزال ، وكان يقول بتفضيل على بن أبى طالب على بقية الصحابة ومنه سرى هذا القول إلى أصحابه من معتزلة بغداد ، وله أشعار كثيرة نظمها فى التاريخ الطبيعى وفى أصناف الفرق والاحتجاج على أصحابها . وهو أول[١] من ذهب إلى تولد الأفعال بعضها من بعض كالحجر يُرْمَى فيحطِّم زجاجاً ، فتتطاير منه شظية فتصيب إنساناً ، وقد اشتق من هذه الفكرة بحثاً واسعاً فى تحديد المسئولية إزاء مثل هذا الفعل المتولد عن غيره . وكان يخالف بعض رفاقه من المعتزلة فى فكرة وجوب الأصلح على الله لعباده ، لأنه لا غاية لما يقدر عليه من الصلاح ، فما من أصلح إلا وفوقه أصلح منه ، وإنما الذى عليه حقاً أن يمكن العبد بالقدرة والاستطاعة .

والثمامية نسبة إلى ثمامة بن أشرس النُّمَيْرى البصرى المتوفَّى سنة ٢١٣ وقد تحول مثل بشر بن المعتمر إلى بغداد ، وكان يقول هو الآخر بتفضيل علىّ على الصحابة ، كما كان يقول بخلق القرآن ، وأكبر الظن أن بشراً المريسى هو الذى أقنعه بذلك . وكان المأمون يقدمه ويجعل له الرياسة على المتكلمين فى مجالسه . وكان يذهب إلى أن الأفعال المتولدة لا فاعل لها[٢] وأن المعارف كلها ضرورية وأن الحسن والقبح ذاتيان فى الأفعال ، وعلى أساسهما يدور التحليل والتحريم فى الأوامر والنواهى الإلهية .

والهذيلية نسبة إلى أبى الهُذَيل العلَّاف المتوفى بسامرَّاء لسنة ٢٢٧ وقيل : بل سنة ٢٣٥ وهو تلميذ عمرو بن عبيد وقد عُمر طويلا ، ويُعَدّ المؤسس الحقيقى للاعتزال . وكان يرى أن الصفات الإلهية عين الذات العلية[٣] . وفرَّق بين أفعال الإنسان الاختيارية وأفعاله الطبيعية أو بعبارة أخرى بين أفعال القلوب وأفعال الجوارح . وتحدث فى مسائل فلسفية كثيرة كمسألة الجوهر الفرد أو الجزء الذى لا يتجزَّأ ومسألة الكمون ككمون النار فى الحجر وغير ذلك مما يتصل بالأبحاث الفلسفية والطبيعية .

---

(١) الشهرستانى ص ٤٤ وضحى الإسلام ٣/١٤١ .

(٢) الشهرستانى ص ٤٩ وضحى الإسلام ٣/٢٤٧ .

(٣) الشهرستانى ص ٣٤ وأمالى المرتضى ١/١٧٨ وضحى الإسلام ٣/٩٨ ودى بور ص ٥٧ .

والنظّامية نسبة إلى النظّام المتوفى سنة ٢٣١ ويقول الشهرستانى إنه خلط كلام الفلاسفة بكلام المعتزلة وإنه كان يميل إلى تقرير مذاهب الطبيعيين من الفلاسفة دون الإلهيين ، وكان يرى أن الله لا يفعل إلا الأصلح لعباده ، وأن إرادته التى يتحدث عنها القرآن الكريم إنما يراد بها الخلق والإنشاء . وكان ينفى الجوهر الفرد أو الجزء الذى لا يتجزّأ[1] . وأعلَى فى مباحثه سلطان العقل إعلاءً بعيداً .

(١) الشهرستانى ص ٣٧ وضحى الإسلام ٣/١٠٦ ودى بور ص٥٩ .

الفصل الرابع

ازدهار الشعر

١

ملكات الشعراء اللغوية

كانت البادية فى هذا العصر لا تزال تمد الحاضرة بكثير من الشعراء ذوى السليقة العربية السليمة من مثل أبى البَيْداء وابن الدُّمَيْنة وابن ميَّادة وأبى حيَّة النُّمَيْرِىّ وأبى ضَمْضَم الكلابى وابن عمه أبى زياد والعُمانى وشُبَيْل بن عَزْرَة الضُّبَعِىّ وأبى العَمَيْثَل وعُمارة بن عَقِيل حفيد جرير . وقد تحول كثير من هؤلاء الشعراء إلى معلمين يعلمون الناشئة اللغة ورواية الشعر القديم[1] . وكان يقابلهم فى المدن شعراء لم ينشأوا فى البادية ، ولكن السليقة العربية تحولت إليهم وتمثلت فى دخائلهم ، حتى أصبحوا لا يقلون عن شعراء البادية فصاحة وبياناً .

ولعلماء اللغة الذين تحدثنا عنهم فى الفصل السابق الفضل فى تحول هذه السليقة إلى شعراء الحضر ، فقد جمعوا لهم اللغة والشعر الجاهلى والإسلامى ، ووضعوا لهم مقاييسهما وضعاً دقيقاً ، وظلوا طوال العصر يبعثون فيهم الإيمان بأن الشعر القديم هو القُدْوة المُثْلَى . وكان من هؤلاء اللغويين شعراء بارعون بادروا إلى الاحتذاء على هذه القدوة ، نذكر من بينهم حمادا الراوية والخليل بن أحمد وخلفا الأحمر والأصمعى .

ولم يعرض هؤلاء اللغويون على شعراء الحاضرة نماذج الشعر القديم السهلة فحسب ، بل لقد كان همهم الأول أن يعرضوا عليهم نماذجه العويصة المليئة بالحوشىّ والألفاظ الغريبة ، ومضوا فجعلوها مدار إملاءاتهم ومحاضراتهم حتى ليقول الجاحظ : « لم أرَ غاية النحويين إلا كل شعر فيه إغراب ، ولم أرَ غاية رواة الأشعار إلا كل شعر فيه غريب أو معنى صعب يحتاج إلى الاستخراج[2] » . ومعروف أن أهم مجموعتين للشعر القديم أُلِّفتا فى العصر هما المفضليات للمفضَّل

---

(١) الفهرست لابن النديم (طبعة القاهرة) ص ٦٥ .

(٢) البيان والتبيين ٤ / ٢٤ .

الضبي الكوفي والأصمعيات للأصمعي البصري ، وهما تزخران بالغريب . ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن اللغويين لم يكادوا يتركون قصيدة ولا مقطوعة جيدة لشاعر جاهلي أو إسلامي إلا سجلوها ودوّنوها ، وفسروها وشرحوها . وبذلك انقادت اللغة وسلست لمعاصريهم من الشعراء وغير الشعراء .

وكان من أهم ما حفزهم إلى ذلك القرآن الكريم والحديث النبوي ، حتى لا تستغلق دلالتهما على أفهام الناس وأفهام العلماء أنفسهم ، مما جعل الجاحظ يقول : « للعرب أمثال واشتقاقات وأبنية وموضع كلام يدلّ عندهم على معانيهم وإراداتهم . فمن لم يعرفها جهل تأويل الكتاب والسنة والشاهد والمثل . فإذا نظر فى الكلام وفى ضروب من العلم وليس هو من أهل هذا الشأن هلك وأهلك الناس[١] » . وانضم إلى ذلك باعث سياسي ، فإن خلفاء بنى العباس أظهروا محافظة شديدة على لغة القرآن الكريم وبعثوا العلماء على مدارستها والتعمق فيها ورواية كل ما يتصل بها من أنساب وأيام وأخبار وأشعار . وقد جعلوا مقياس وظائفهم الكبيرة التفوق فيها ، فكانوا لا يستوزرون ولا يستكتبون إلا من حذقها وبرع فى أدائها . وأخذوا أبناءهم بتعلمها ، بل بإتقانها ، فأحضروا لهم كبار اللغويين ليحفظوهم كثيراً من نماذجها الشعرية وكى يقفوهم على صياغاتها وأساليبها ، وتأليفُ المفضل الضبي للمهدى كتاب المفضليات ، وهو لا يزال ناشئاً فى عهد أبيه ، ذائع مشهور . وبذلك سَرى فى القصر العباسي ذوق محافظ كان له أثره فى الشعراء ، إذ كانوا يَمْثُلون بين أيدى الخلفاء مادحين لهم . وكانوا يقيسون جودتهم بهذا الذوق ، فكان لا بد لهم أن يتلاءموا معه حتى يظفروا بما يبتغون من جوائز كبيرة . وكانت مجالس الخلفاء تكتظ باللغويين من مثل الكسائى والأصمعي ، فكان لا بد للشعراء أن يروقوهم حتى ينالوا استحسانهم ، ويرى ذلك الخلفاء منهم فيجزلوا لهم فى العطاء .

وبذلك أصبح اللغويون سَدَنَة الشعر فى هذا العصر وحُرّاسه ، فمن نوّهوا به طار اسمه ، ومن لوّحوا فى وجهه خَمَلَ وغَدَا نَسْيًا مَنْسِيًّا . ويلقانا كثير من الشعراء يعرضون عليهم أشعارهم قبل إنشادها فى المحافل العظام ، فإن استحسنوها مضوا فأنشدوها ، وإن لم يستحسنوها ذهبوا يعاودون الكرّة بِصُنْع قصائد جديدة آملين أن تظفر باستحسانهم ، فمن ذلك ما يُرْوَى عن مَرْوَان بن أبى حَفْصة

(١) الحيوان ١/١٥٣ .

من أنه لما نظمَ قصيدته : (طَرَقَتْكَ زائرةً فحَيِّ خيالها) وهى إحدى روائعه فى المهدى ذهب إلى حلقة يونس النحوى فقال له : قد قلت شعراً أعرضه عليك ، فإن كان جيداً أظهرته ، وإن كان رديئًا سترته . وأنشده القصيدة ، فأعجب بها يونس وقال له إنها بريئة من العيوب(١) . حينئذ مضى فأنشدها المهدى ، فزحف من صدر مُصَلَّاه حتى صار على البساط إعجابًا بما سمع ، ثم قال لمروان : كم هى ؟ قال مروان: مائة بيت ، فأمر له بمائة ألف درهم ، فكانت أول مائة ألف درهم أعطيت لشاعر فى أيام بنى العباس(٢) . ويسوق المرزبانى فى كتابه الموشح فصلا طويلاً(٣) ، يصور فيه كيف كان الشعراء يعرضون أشعارهم على اللغويين ليجيزوها لهم ، فهم قضاة الشعر وصيارفته ، وفى ذلك يقول الخليل بن أحمد لابن مناذر : « إنما أنتم — معشرَ الشعراء — تَبَعٌ لى ، وأنا سُكَّان السفينة إن قَرَّظتكم ورضيت قولكم نفقتم وإلا كسدتم(٤) » .

وعلى هذا النحو سيطر اللغويون على سوق الشعر العباسى ، وقد مضوا يتمسكون بالمثل الشعرى القديم تمسكًا شديداً ، وهو تمسك جعل كثيرين منهم يُسْقطون الشعراء العباسيين إسقاطاً حتى لنرى أبا عمرو بن العلاء يختم الشعر بذى الرُّمَّة والرَّجز برُؤبةَ قائلا فى المُحْدَثين : « إنهم كَلٌّ(٥) على غيرهم ، إن قالوا حَسَنًا فقد سُبقوا إليه ، وإن قالوا قبيحًا فمن عندهم(٦) » . وكان الأصمعى يختم الشعر بابن ميَّادة وابن هَرْمة وأضرابهما من شعراء نجد والحجاز الذين أدركوا الدولة العباسية(٧) . وأنشده إسحق الموصلى بيتين من شعره دون أن يسمى قائلهما ، فلما أظهر إعجابه بهما قال له إسحق : إنهما من نظمه ، فبادره قائلاً : أفسدت الشعر ، إن التوليد فيهما لبيِّن(٨) . ويروى الرواة أن ابن مناذر كان يقول لأبى عبيدة : « اتَّق الله واحكُمْ بين شعرى وشعر عَدىّ بن زيد ، ولا تقل ذاك جاهلى وهذا عباسى ، وذاك قديم وهذا مُحْدَثٌ ، فتحكم بين العصرين ولكن احكمْ بين الشعرين ، ودَع العصبية(٩) » . وكان ابن الأعرابى يقول : إنما أشعار هؤلاء

---

(١) أغانى (طبع دار الكتب) ١٠/٨٢ .
(٢) أغانى ١٠/٨٨ .
(٣) الموشح ص ٣٥٨ وما بعدها .
(٤) أغانى (طبعة الساسى) ١٧/١٦ .
(٥) كل : عالة .
(٦) أغانى (ساسى) ١٦/١٠٩ .
(٧) أغانى (دار الكتب) ٤/٢٧٣ .
(٨) أغانى ٥/٣١٨ .
(٩) أغانى (ساسى) ١٧/١٢ .

المحدثين — مثل أبى نواس وغيره — مثل الرَّيْحان يُشَمُّ يوما وَيذْوَى فيُرْمى به، وأشعار القدماء مثل المسك والعنبر كلما حرَّكته ازداد طيباً[١] » .

ولا شك فى أن إهدار اللغويين لشعر العباسيين بسبب حداثته خطأ فى التقويم ، إذ الجودة الفنية لا تقاس بالقدم والحداثة ، والشعر الجيد جيد فى كل زمان ومكان . ولكن من الحق أنهم — بهذا الموقف — جعلوا نماذج الشعر القديم ، بالقياس إلى العباسيين ، تصبح كالأمهات الغاذية ، فكلهم نهلوا من أثدائها وتغذوا بها غذاء سرى فى قلوبهم وتمكن من نفوسهم . ويأخذنا العجب حين نقرأ لهؤلاء الشعراء ، فنراهم عرباً تامين وكأنهم فصلوا تَوًّا من الجزيرة . ومع هذه العروبة اللغوية القوية فيهم كان اللغويون لا يستشهدون بأشعارهم مخافة أن يحدث اضطراب فى النموذج الشعرى القديم ، وحتّى يحتفظوا له بكل ما يمكن من صحة وسلامة ودقة . وقد مضوا يعدُّون عليهم سقطاتهم ، وهى ليست سقطات بالمعنى الصحيح ، إذ هى فى كثرتها إما ضرورات رآها الشعراء العباسيون فى الشعر القديم ، فقاسوا عليها ، وإما لغات شاذة رأوها أيضًا فى هذا الشعر وظنوا أن من حقهم مجاراتها ، وإما اشتقاقات وأبنية استحدثوها على ضوء المقاييس اللغوية التى تلقنوها . واقرأ فى كل ما نثره المرزبانى فى « الموشح » من هذه السقطات فستراه قلما يَعْدُو هذه الوجوه الثلاثة . ونضرب مثلا لذلك : ما كان يأخذه الأخفش على بشار من اشتقاقه فى بعض أشعاره كلمتى « الوَجَلَى ، والغَزَلَى » من الوجل والغزل ظنًّا منه أن هذا من حقه وإن لم يُسْمَع عن العرب ، وكذلك جمعه لفظة « نون » بمعنى البحر على « نينان» ظنًّا منه أن الكلمة تدخل فى قياس هذا الجمع[٢] . وأبو نواس هو أكثر العباسيين مآخذ[٣] ، وهى تُرَدُّ عنده إما إلى ضرورات شعرية وإما إلى بعض لهجات عربية ، وفى ذلك يقول ابن قتيبة : « وقد كان أبو نواس يُلَحَّنُ فى أشياء من شعره لا أراه فيها إلا على حُجَّة من الشعر المتقدم وعلى عِلَّة بَيِّنَة من علل النحو ، منها قوله :

فَلَيْتَ ما أنت واطٍ من الثَّرَى لِىَ رَمْسَا[٤]

(١) الموشح ص ٢٤٦ .
(٢) الموشح ص ٢٤٦ وما بعدها .
(٣) الموشح ص ٢٧٢ وما بعدها .
(٤) رمسا : قبرا .

أما تركه الهمز فى « واطئ » فحجته فيه أن أكثر العرب تترك الهمز وأن قريشاً تتركه وتبدل منه . وأما نصبه « رمسا » فعلى التمييز . . ألا تراه قال : (فليت ما أنت واط من الثرى لى) فتمّ الكلام وصار جواب ليت فى « لى » ثم بيّـن من أى وجه يكون ذلك ، فقال « رمسا » كما تقول فى الكلام : « ليت ثوبك هذا لى » ثم تقول « إزاراً » لأن جواب ليت صار فى قولك « لى » وصار الإزار تمييزاً(١) » . ومضى ابن قتيبة يوجّه له أبياتاً أخرى وقف اللغويون والنحاة عند حروف منها .

ولعل من الغريب أن يقف يوهان فك فى كتابه « العربية» عند هذه الأبيات(٢) وما يماثلها مما أُخذ على أبى نواس وعند أخرى تشبهها لشعراء آخرين متخذاً منها دليلا على مخالفة العباسيين لقواعد العربية ، وكأنه لم يقرأ ما نقلناه عن ابن قتيبة . ولو أنه أنعم النظر فيما سجّله الموشح على شعراء الجاهلية والإسلام من مثل هذه الأحرف لعرف أن العباسيين لم يخرجوا على قواعد الفصحى فى الصورة التى رسمها لهم اللغويون ، وأن كل ماهنالك أنهم قاسوا أشعارهم على أشعار الأقدمين ، فأجازوا لأنفسهم ما كان يجيزه أسلافهم من بعض الضرورات وبعض الشواذ ، وهم فى ذلك يتابعونهم ويصوغون على إرث منهم .

ووقف يوهان فك عند استخدام نفر من الشعراء العباسيين لبعض الألفاظ والصيغ الفارسية فى أشعاره معتمداً على ما كتبه الجاحظ فى « البيان والتبيين » عن بعض الأعراب مثل العـُمانى والعـُذافر الكندى ذاكراً أنهما كانا يتملحان بإدخال بعض الألفاظ الفارسية فى أشعارهما ، وتمثّل للعمانى بلفظتين ، وساق لشاعر يسمّى أسود بن أبى كريمة قطعة اختلطت فيها الألفاظ الفارسية بالألفاظ العربية(٣) . وقد جعل ذلك يوهان فك يزعم أن الفارسية أدخلت فى هذا العصر ضَيْماً على العربية ، مبالغاً فى تصور هذا الضيم(٤) ، وهى مبالغة لا تسندها نفس النصوص التى رواها الجاحظ ، إذ كان الشعراء يسوقون فى أشعارهم أحياناً بعض الألفاظ الفارسية تملحاً وتظرفاً كما يلاحظ الجاحظ نفسه ، أما بعد ذلك فإنهم كانوا يحافظون على ما استقر فى ملكاتهم من قوانين الصياغة العربية ، وربما كان أكثرهم استخداماً

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة (طبع دار المعارف) ص ٧٩٤ .

(٢) كتاب العربية ص ٩١ وما بعدها .

(٣) البيان والتبيين ١ / ١٤١ وما بعدها .

(٤) كتاب العربية ص ١١٢ وما بعدها .

للألفاظ الفارسية فى شعره أبا نواس إذ كان يأتى بها فى بعض خمرياته تعابثا ومجانة ، وخاصة حين يوجه كلامه إلى بعض غلمان المجوس مقسماً عليهم بآلهتهم وشعائرهم الدينية وأعيادهم المجوسية ، على شاكلة قوله[١] :

والمهرجانِ المُـدَارِ لوقتـه الكرَّارِ[٢]
والنوكروزِ الكبار[٣] وجَشْنَ جاهنْبـار[٤]
وآبِسال الوهـارِ[٥] وخُـرَّه إيران شارِ[٦]

ولم يكن يصنع ذلك دائمًا إنما كان يصنعه فى الحين بعد الحين تملحاً وتندراً . وقد تسقط على لسان بعض الشعراء لفظة نبطية ، من مثل قول إبراهيم الموصلى واصفاً وداعه لخمَّارٍ نَبَطِىٍّ[٧] :

فقال : إزْل بِشين ، حين حدَّثنى وقد ــ لعمرك ــ زُلْنا عنه بالشَّيْن

وكلمة « إزْل بشين » نبطية ، ومعناها : امْضِ بسلام . غير أن ما قدمنا ومثله لم يتحول إلى ظاهرة عامة ، فقد كان يأتى على ألسنة الشعراء فى الندرة ، وكثرتهم ــ على الرغم من أصولهم الفارسية ــ لم يتورطوا فى شىء منه . ومن أجل ذلك كان ينبغى أن لا يندفع باحث إلى القول بأن السليقة العربية انتُقِصتْ فى نفوس العباسيين ، فقد كانت أقوى قوة من أن تنتقص ، حتى لـدَى مَنْ كانوا يحسنون الفارسية مثل أبى نواس . وقد كانت اللغة العربية تتعمق جوهر نفسه بفضل من زوَّدوه بها من اللغويين أمثال خلف الأحمر أستاذه ، ومضى ينهلها من ينابيعها الصافية فى البادية ، فأقام بها حولاً كاملا[٨] ، يعبُّ منها ويرتوى . وأكبَّ على دواوين الجاهليين والإسلاميين من أصحاب القصيد والرجز يستظهرها ، حتى قالوا إنه كان يحفظ دواوين ستين امرأة فضلا عن الرجال[٩] ، وإنه حفظ

---

(١) انظر أشعاراً مماثلة فى كتابنا «الفن ومذاهبه فى الشعر العربى» (طبع دار المعارف) ص١٢٣ .
(٢) المهرجان : من أعياد الفرس .
(٣) النوكروز : عيد النيروز .
(٤) جشن : من أعياد الفرس . جاهنبار : الدعوة العامة .
(٥) آبسال : ابتداء الربيع. الوهار : المشرق.
(٦) خره : موضع الشرب ، أو عيد ، إيران شار : إيران العزيزة .
(٧) أغانى (طبع دار الكتب) ٥/ ١٧٦ .
(٨) أخبار أبى نواس لابن منظور (طبع مصر) ص ١٢ .
(٩) طبقات الشعراء لابن المعتز (طبع دار المعارف) ص ١٩٤ .

سبعمائة أرجوزة غير ما كان يحفظه من قصائد الجاهليين والمخضرمين والأمويين[١] ، وفيه يقول الجاحظ : « ما رأيت أحداً كان أعلم باللغة من أبي نواس ولا أفصح لهجة مع حلاوة ومجانبة لاستكراه[٢] » ويقول أبو عمرو الشَّيْبانى العالم اللغوى المشهور : « لولا ما أخذ فيه أبو نواس من الرَّفَث لاحتججنا بشعره ، لأنه محكم القول[٣] » .

ولم يكن أبو نواس وحده الذى حذق العربية وبرع فيها ، فقد كان من سبقوه وعاصروه من الشعراء لا يقلُّون عنه براعة وحذقاً بأساليبها ، ويكفى أن نرجع إلى بشار الفارسى الأصيل زعيم المحدثين فسنراه يعلل لإتقانه العربية بنشأته فى بنى عُقَيْل وتبدِّيه أعواماً طويلة ، يقول : « وُلدت ههنا (فى البصرة) ونشأت فى حجور ثمانين شيخاً من فصحاء بنى عُقَيْل ، ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ ، وإن دخلت على نسائهم فنساؤهم أفصح منهم ، وأيْفَعْتُ فأبديتُ (دخلت البادية) إلى أن أدركت (بلغت الحُلُم) فمن أين يأتينى الخطأ »[٤] . ولم تكن المسألة مسألة خلو كلامه من الخطأ ، إنما كانت ـ فى حقيقتها اكتساب السليقة العربية ، حتى غدا كأنه عربى أصيل ، مما جعل اللغويين يشيدون به طويلا[٥] .

وبشار من خير الأمثلة على مدى استيعاب العباسيين ممن يرجعون إلى أصول غير عربية لصورة الشعر العربى بقصيده ورجزه ، وتُرْوَى له فى ذلك طرائف كثيرة ، منها ما رواه أبو الفرج من أنه استمع إلى عقبة بن رُؤْبة وهو ينشد عقبة ابن سلم والى البصرة أرجوزة يمدحه بها ، فلما فرغ منها قال له : هذا طراز لا تحسنه يا أبا مُعاذ ، فغضب بشار وقال له : ألى يقال مثل هذا الكلام ؟ أنا والله أرجز منك ومن أبيك وجدك (يريد العجَّاج) . ومضى إلى منزله فألَّف أرجوزة بديعة ، وغدا فأنشدها عقبة بن سلم وعنده عقبة بن رُؤْبة ، وهى التى يستهلها بقوله :

يا طَلَلَ الحىِّ بذات الصَّمْدِ بالله خَبِّر كيف كنت بعدى[٦]

فطرب عقبة بن سلم وكافأه مكافأة كبيرة ، وانكسر عقبة بن رؤبة انكساراً

(١) ابن المعتز ص ٢٠١ .
(٢) أخبار أبى نواس ص ٦ .
(٣) ابن المعتز ٢٠٢ .
(٤) أغانى (طبع دار الكتب) ١٤٩/٣ وما بعدها .
(٥) أغانى ١٤٣/٣ وما بعدها .
(٦) ذات الصمد : موضع .

شديداً[١] ، ويُرْوَى أنه أُنشد فى شعر الأعشى الكبير :

وأَنكرتْنى وما كان الذى نَكِرَتْ   من الحوادث إلا الشَّيْبَ والصَّلَعَا

فأنكره ، وقال : هذا بيت مصنوع ما يشبه كلام الأعشى ، ولم يلبث الرواة أن تحققوا من قوله[٢] . وذكر الرواة أنه أنشد خلفاً الأحمر قصيدته فى سلم بن قتيبة :

بَكِّرا صاحبىَّ قبل الهَجِيرِ   إن ذاك النجاح فى التَّبْكيرِ

فلاحظ فيها إكثاره من الغريب ، وسأله عن سبب ذلك ، فقال له : بلغنى أن سلماً يتباصر بالغريب ، فأحببت أن أورد عليه ما لا يعرفه . وقال له خلف : لو قلت مكان (إن ذاك النجاح فى التبكير) (بكِّرا فالنجاح فى التبكير) كان أحسن . فأجابه بشار : « إنى بنيتها أعرابية وحشية فقلت : (إن ذاك النجاح) كما يقول الأعراب البدويون ، ولو قلت (بكرا فالنجاح) كان هذا من كلام المولَّدين ، ولا يشبه ذلك الكلام ولا يدخل فى معنى القصيدة ، فقام خلف ، فقبَّل بين عينيه[٣] » .

وعلى هذا النحو كان الشاعر العباسى يحوِّل إلى نفسه نماذج الشعر القديم بكل خصائصها وكل شاراتها ، يعينه فى ذلك اللغويون بما يعرضون عليه منها تجاه سمعه وتحت بصره . وشركهم فى ذلك بعض الشعراء على نحو ما هو معروف عن أبى تمام ، ومجموعاته الشعرية التى انتخبها بذوقه من أشعار القدماء والمحدثين ، وفى مقدمتها ديوان الحماسة . ولم يكتف اللغويون بما عرضوا من القصيد والرجز ، فقد وضعوا للشعراء أقيسة اللغة فى الاشتقاق والتصريف والنحو وموسيقى الشعر وعروضه . وبذلك وضعوا فى أيديهم جميع الآلات التى تعينهم لا على التثقف بالعربية والتدرب عليها فحسب ، بل أيضًا على أن يتقنوا التعبير بها والتصرف فيها حسب حاجاتهم الوجدانية والعقلية والحضارية .

ولعلنا لا نغلو إذا قلنا إن اللغويين هيَّئوا للشاعر العباسى من العلم بالشعر القديم

---

(١) أغانى ٣/١٧٤ وانظر ابن المعتز ص٢٥ والموشح ص ٣٦٦ .

(٢) أغانى ٣/١٤٣ .

(٣) أغانى ٣/١٩٠ .

ما لم يكن يتهيأ لأصحابه أنفسهم ، فقد جمعوه له وكشفوا مادته من جميع أطرافها ، وأخذت تونق وتزدهر من جديد ، وهو ازدهار نفذ منه العباسيون إلى أسلوب لهم حديث عُرِف باسم أسلوب المولدين ، وهو أسلوب قام على عتاد من القديم وعُدَّة من الذوق الحضرى الجديد ، أسلوب يحافظ على مادة اللغة ومقوماتها التصريفية والنحوية ويلائم بينها وبين حياة العباسيين المتحضرة بحيث تُنْفَى عنه ألفاظ العامة المبتذلة كما تُنْفَى عنه ألفاظ البدو الحوشيَّة . وكان من الشعراء نَفَرٌ يسرفون على أنفسهم فى النهج على أساليب الرُّجَّاز المحشوة بأوابد الألفاظ ، ولكنهم كانوا يُعَدُّون نابين على ذوق العصر ، ومن خير مَنْ يمثل ذلك ابن مناذر ، وقد تعرَّض له أبو العتاهية يومًا قائلاً : « إن كنت أردت بشعرك العَجَّاج ورؤبة فما صنعتَ شيئًا ، وإن كنت أردتَ أهل زمانك فما أخذت مآخذنا[1] » . وأبو العتاهية إنما يشير إلى ما حدث لأساليب اللغة فى عصره ، فقد تناولها فى الحاضرة صُنَّاع مَهَرة لم يلبثوا أن اشتقوا لهم منها أسلوبًا متميزاً يبتعد عن خشونة البدو وألفاظهم الكَزَّة . وليس ذلك فحسب فإنهم أشاعوا فى هذا الأسلوب الألفاظ المنتخبة مع العذوبة والرشاقة حيناً والجزالة والرصانة حينًا آخر ، يهديهم فى ذلك ذوقهم المتحضر الدَّمِث الذى ينفر من كل لفظة غريبة وكلمة وعرة .

وعلى هذا النحو دفع التحضر شعراء العصر العباسى الأول إلى استحداث أسلوب مولَّد جديد ، وهو أسلوب كان يعتمد على الألفاظ الواسطة بين لغة البدو الزاخرة بالكلمات الوحشية ولغة العامة الزاخرة بالكلمات المبتذلة ، أسلوب وسط بين الغرابة والابتذال ، تُخْتار الكلمات فيه ، وكأنما هى جواهر تختار فى عقود ، إذ تحوَّل الشعراء إلى ما يشبه الصَّاغة ، وكل منهم يحاول أن يثبت مهارته فى صياغته وسبكه بما ينتخب من الكلمات التى يحسن وقعها فى السمع والتى تصنع فى القلوب صنيع الغيث فى التربة الكريمة .

وبشار فى طليعة من أرْسوا هذا الأسلوب المولد الجديد ، وفيه يقول ابن المعتز : « كان شعره أنقى من الراحة ، وأصفى من الزجاجة وأسلس على اللسان من الماء العذب[2] » . وأسلوبه يمتاز بالنصاعة والرصانة والصفاء والرونق . وتلاه جيل من

(١) أغانى (طبع دار الكتب) ٤/٩٠ والموشح ص ٢٩٥ .

(٢) ابن المعتز ص ٢٨ .

الشعراء توزَّعوا بين من يؤثرون الجزالة والفخامة وقوة البناء وضخامته مثل مسلم بن الوليد ، ومن يؤثرون الليونة والسهولة مثل أبي العتاهية الذى عمَّم ذلك فى الشعر الرسمى : شعر المديح ، والشعر الشخصى : شعر الخمر والغزل ، وشعر الزهد والوعظ ، وكان معاصره أبو نواس يحتفظ بكل ما يمكن من جزالة فى الشعر الرسمى ، وفى بعض شعره الشخصى ، وكثيراً ما يعمد فى الضرب الأخير إلى السهولة المفرطة . على أن الشعراء سرعان ما انصرفوا عن طريق أبي العتاهية مؤثرين طريق بشار وما انتهى إليه هذا الطريق عند مسلم من المتانة وقوة البناء والرصانة ، وخلفه أبو تمام فأوفى بهذا الأسلوب الجزل الرصين على غايته من الفخامة والروعة . وبذلك رُدَّ الأسلوب المولد إلى قوة السبك وضخامة البناء . وحقًّا جمد بعض الشعراء وأسرفوا فى الاقتداء بأساليب القدماء من الرجاز وأضرابهم ، ولكنهم سقطوا صَرْعَى فى الميدان الفنى ، إذ ازورَّ عنهم جمهور الشعراء منضوين تحت لواء بشار ومسلم وأبي تمام . أو تحت لواء أبي العتاهية وأبي نواس ، بحيث ينتخب الشاعر أنصع الألفاظ وأجزلها وأرشقها وأعذبها مكوِّناً أصداف شعره وجواهره المتألقة .

٢

طوابع عقلية دقيقة

رأينا فى الفصل السابق كيف رقيت الحياة العقلية فى هذا العصر رقيًّا بعيداً . وهو رقى هيأتْ له الكتب الكثيرة التى ترجمت عن الهنود والفرس واليونان ، كما هيأت له المحاورات والمناظرات بين أصحاب الملل والنحل والأهواء ، وهى مناظرات ومحاورات دفعت الشعراء كما دفعت غيرهم إلى التفكير المتصل ، الذى ما ينى صاحبه يحاور ويناظر ، متناولا كل شىء ، حتى يصقل عقله ، وحتى يبلغ أقصى ما يريد من العلم والمعرفة . وما لم يعرفه ولم يعلمه سأل عنه العلماء ، ليصوروه له ، وليزيلوا الشبهة فيه عن نفسه ، وفى ذلك يقول بشار[1] :

---

(١) عيون الأخبار ٢/١٢٣ وأدب الدنيا والدين للماوردى (طبعة الحلبى) ص ٥٠ .

شفاءُ العَمَى طولُ السؤال وإنما دوامُ العَمَى طولُ السكوتِ على الجَهْلِ
فكُن سائلا عما عَنَاك فإنما دُعِيتَ أَخا عَقْلٍ لتبحثَ بالعَقْلِ

ولم يكن الشاعر العباسى يلتمس المعرفة عند العلماء ولقائهم وسعيه لسؤالهم وإلحاحه فى السؤال فحسب ، بل كان يلتمسها أيضًا فى الكتب المترجمة من كل صنف ، ومن خير ما يصور ذلك أبيات لمحمد بن يسير ، يشرح فيها أنه فى بيت كتبه ، وكنوزُ الآداب من حوله ، يغذى بها نفسه وعقله غذاء ممتعاً ، يقول[1] :

هم مؤنسون وأُلاَّفٌ غَنِيتُ بهم فليس لى فى أنيسٍ غيرهم أَربُ
فأَيما أدبٍ منهم مددتُ يدى إليه فهْو قريبٌ من يدى كَثَبُ[2]
حتّى كأَنىَ قد شاهدت عَصْرهمُ وقد مضتْ دونهم من دهرهم حِقَبُ

وابن يسير إنما يعبر عن نزوع الشعراء عامة فى عصره للتزود بجميع ألوان المعرفة وما كانوا يجدون فى ذلك من لذة عقلية لا تعد لها لذة . وقد مضوا يتمثلون كثيراً من هذه الألوان ويحيلونها غذاء شعريًّا بديعاً ، سواء منها الهندى والفارسى واليونانى ، وما لم يحيلوه تأثروا به من قريب أو من بعيد . ولنقف قليلا عند الثقافة الهندية ، فقد لاحظ ابن قتيبة أن أبا نواس كان يتأثر بعض أفكارها فى أشعاره ، من ذلك قوله فى الخمر :

تُخُيِّرَتْ والنجوم وُقْفٌ لم يتمكَّن بها المَدَارُ

يقول ابن قتيبة : « يريد أن الخمر تُخُيِّرَتْ حين خلق الله الفلك ، وأصحاب الحساب يذكرون أن الله تعالى حين خلق النجوم جعلها مجتمعة واقفةً فى بُرْج ثم سيَّرها من هناك ، وأنها لا تزال جاريةً حتّى تجتمع فى ذلك البرج الذى ابتدأها فيه ، وإذا عادتْ إليه قامت القيامة وبطل العالم ، والهند تقول إنها فى زمان نوح اجتمعت فى الحوت إلا يسيراً منها ، فهلك الخلق بالطوفان ، وبقى منهم بقدر ما بقى منها خارج الحوت[3] » . وينشد ابن قتيبة قول أبى نواس فى بعض المغنين هاجياً :

---

(١) الحيوان ١/٩٥ .
(٢) كثب : قريب .
(٣) الشعروالشعراء ص ٧٧٤ .

قُلْ لزهيرٍ إذا حَدا رَشَدا أَقْلِلْ أو أكثِر فأَنت مِهْذارُ
سَخُنْتَ من شدة البرودة حَ تَّى صِرتَ عندى كأَنك النارُ
لا يعجب السامعون من صفتى كذلك الثَّلْجُ باردٌ حارُ

ويعلق بقوله : « هذا الشعر يدلُّ على نظر أبى نواس فى علم الطبائع ، لأن الهند تزعم أن الشىء إذا أفرط فى البرد عاد حارًّا مؤذياً ، ووجدتُ فى بعض كتبهم : لا ينبغى للعاقل أن يغترَّ باحتمال السلطان وإمساكه ، فإنه إما شَرِس الطبع بمنزلة الحية إن وُطِئَتْ فلم تَلْسَعْ لم يُغْتَرَّ بها فيُعاد لِوَطْئِها ، أو سمح الطبع بمنزلة الصَّنْدَل الأبيض البارد إن أفرط فى حَكِّه عاد حارًّا مؤذياً[1] » . وأكبر الظن أن ابن قتيبة يريد ببعض كتبهم كتاب كليلة ودمنة الذى ترجمه الفرس عن الهندية ، ثم نقله ابن المقفع إلى العربية ، على نحو ما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع ، وخلفه أبان بن عبد الحميد فنظمه شعراً بكل ما فيه من قَصَصٍ وحكم . وكان أثره عميقاً فيما صاغه العباسيون من حكم وأمثال ، ونرى ابن عبد ربه فى العقد الفريد يتمثل بحكمة منه هى : « إن الحازم يكره القتال ما وجد بُدًّا منه ، لأن النفقة فيه من النفس والنفقة فى غيره من المال » ولاحظ أن أبا تمام نقل هذا المعنى إلى شعره فقال[2] :

كم بين قومٍ إنما نفقاتهم مالٌ وقومٍ ينفقون نفوسا

وكان تأثير الثقافة الفارسية فى الشعر والشعراء أشد وأقوى من تأثير الثقافة الهندية ، إذ كان كثير من الشعراء يتقنون اللغة الفهلوية ، لا من يرجعون إلى أصول فارسية فحسب مثل أبى نواس ، بل أيضًا بعض من يرجعون إلى أصول عربية مثل العتَّابى ، وكان يعكف على قراءة كتبها ، ورآه شخص يوماً ينسخ بعض صحفها ، فسأله متعجباً : لِمَ تكتب كتب العجم ؟ فأجابه منكراً سؤاله : وهل المعانى والبلاغة إلا فى كتب العجم ؟ اللغة لنا والمعانى لهم[3] . وقد مضى الشعراء منذ ظهور كتابى الأدب الكبير والأدب الصغير لابن المقفع يتأثرون بما نقله فيهما من تجارب الفرس

---

(١) الشعر والشعراء ص ٧٧٧ .
(٢) العقد الفريد (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٤٢/١ .
(٣) كتاب بغداد لطيفور ص ٨٧ .

وحكمهم ووصاياهم فى الصداقة والمشورة وآداب السلوك والسياسة ، ومن يرجع إلى بشار يجده يفرد للمشورة قطعة طويلة فى إحدى مدائحه ، يقول فيها[١] :

إذا بَلَغَ الرَّأىُ المَشُورَةَ فاستَعِنْ برأىِ نَصيحٍ أو نصيحة حازمِ
ولا تجعل الشُّورَى عليك غضاضةً مكانُ الخَوافِى نافعٌ للقوادمِ[٢]

وقد نُقلت أمثال بزرجمهر الوزير الفارسى إلى العربية ودارت فى كتب الأدب ، وتمثل الشعراء كثيراً من معانيها البديعة ، من مثل قوله : « إذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق فإنها لا تفنى ، وإذا أدبرت عنك فأنفق فإنها لا تبقى » وقد أخذه بعض الشعراء وزاد عليه قائلا[٣] :

فأنفقْ إذا أنفقتَ إن كنت موسِرًا وأنفق ـ على ماخيَّلتْ[٤] ـ حين تُعْسِرُ
فلا الجودُ يُفْنِى المال والجَدُّ مقبلٌ ولا البخل يبقى المالَ والجَدُّ مُدبرُ[٥]

ويقال إنه كان فى ديوان صالح بن عبد القدوس ألف مثل للعجم[٦] .

ولا ريب فى أن الثقافة اليونانية كان تـأثيرها فى الشعر والشعراء أعمق وأبعد غوراً ، بما فتحت أمامهم من أبواب الفكر الفلسفى وأبواب المنطق ومقاييسه وأدلته ، وما بعثت فيهم من محاولة استكشاف دفائن المعانى واستخراج دقائقها . وقد مضى كثير من الشعراء يزيدون محصولهم من تلك الثقافة ، بل كان منهم من ألف فى المنطق[٧] ، حتى يشحذ ذهنه وأذهان الشعراء من حوله . وكان مما تُرْجِمَ لهم من تلك الثقافة مراثى فلاسفة اليونان للإسكندر المقدونى عند وفاته ، وقد نقل منها أبو العتاهية أطرافاً إلى مراثيه[٨] فى صديقه على بن ثابت ، من ذلك أن أحدهم وقف عند رأسه ، وقال : سكنت حركة الملك فى لذَّاته وقد حرَّكنا اليوم فى سكونه جزعاً لفقده ، فأخذ هذا المعنى أبو العتاهية قائلاً :

---

(١) أغانى ٣/١٥٦ وانظر ص ٢١٤ .
(٢) القوادم : الريش الطويل فى جناح الطائر والخوافى : الريش القصير .
(٣) عيون الأخبار ٣/١٧٩ .
(٤) على ماخيلت : على أى حال .
(٥) الجد : الحظ .
(٦) التحفة البهية ص ٢١٧ .
(٧) معجم الأدباء (طبعة القاهرة) ١٧/٢٧ .
(٨) أغانى (طبع دار الكتب) ٤/٤٤ والبيان والتبيين ١/٤٠٧ وزهر الآداب للحصرى ٣/٩١ .

يا عليَّ بن ثابت بان منِّى صاحبٌ جَلَّ فَقْدُهُ يوم بِنْتَا
قد لعمرى حَكيتَ لى غُصَصَ المو ت وحرَّكتنى لها وسكَنْتَا

وقال فيلسوف آخر : « الإسكندرُ كان أمسِ أنطقَ منه اليوم ، وهو اليومَ أوعظُ منه أمس » . فتمثَّله أبو العتاهية فى مرثية أخرى لصديقه على هذا النمط :

بكيتك يا علىُّ بدمع عينى فما أغنى البكاءُ عليك شَيَّا
كَفَى حُزْناً بِدَفْنِك ثم أنى نفضتُ تراب قبرك عن يدَيَّا
وكانت فى حياتك لى عظاتٌ وأنت اليومَ أوعظُ منك حَيَّا

وقد ذكرنا فى الفصل السابق أن كثيراً من أقوال المسيح فى الأناجيل نقل إلى العربية وتداوله الوعاظ فى وعظهم كما تداوله شعراء الزهد ، واستوحوه فى كثير من أشعارهم ، من ذلك ما يروى عن المسيح من أن قومه عيَّروه بالفقر ، فقال : من الغِنَى أتيتم ، واستوحى محمود الوراق هذا المعنى وزاد عليه إيضاحاً وتبييناً بقوله[1] :

يا عائبَ الفقر ألا تَزْدَجِرْ عَيْبُ الغِنَى أكثر لو تَعْتَبِرْ
من شرف الفقر ومن فضلهِ على الغِنى إن صحَّ منك النَّظَرْ
أنك تعصى كى تنال الغِنَى وليس تَعْصِى الله كى تفتقر

وسنعرض فى ترجمتنا لأبى العتاهية وصالح بن عبد القدوس بعض ما دخل على الزهد من عناصر غريبة بوذية أو مانوية .

ولعل أكبر بيئة عُنيت بهذه الثقافات المتنوعة ، وكان لعنايتها بها أثر واسع فى الشعر والشعراء ، بيئة المعتزلة إذ كانت تقوم من الفكر العباسى فى هذا العصر مقام السكان والمجداف من السفينة ، فهى تثيره وتدفعه إلى أن يزيد محصوله من جميع المعارف والمعتقدات ، وأن يتمثلها إلى أبعد حد ممكن . وبدءوا بأنفسهم فتثقفوا أروع ما يكون التثقف بكل ما ترجم عن الهنود والفرس واليونان ، وعكفوا على الفلسفة اليونانية عكوفاً جعلهم يتفنون على كل شعبها وكل مناحيها فى الفكر الدقيق ، ولم يلبثوا أن استكشفوا لأنفسهم عالمهم العقلى الذى يموج بطرائف الذهن فى جميع

---

(١) العقد الفريد ٣/٢٠٩ .

المعانى الحسية والعقلية . وكانوا ما يزالون يحاورون أصحاب الملل والنحل فى المساجد الجامعة ، ومن حين إلى حين يحاور بعضهم بعضًا فى غوامض الفلسفة ، محللين مستنبطين كأروع ما يكون التحليل والاستنباط ، وكثيراً ما ردوا على فلاسفة اليونان واشتقوا لهم آراء جديدة ، يدعمها العقل الذى شغفوا به وبأدلته وبراهينه ، وهو شغفٌ صوره منهم بشر بن المعتمر تصويراً طريفاً ، إذ يقول[1] :

لله درُّ العقل من رائدٍ　　وصاحبٍ فى العُسْر واليُسرِ
وحاكمٍ يقضى على غائبٍ　　قضية الشاهد للأمر
وإن شيئاً بعضُ أفعاله　　أن يفصل الخَيرَ من الشَّرِّ
لذو قُوًى قد خصَّه ربُّهُ　　بخالص التقديس والطُّهْرِ

وقد سخَّر بشر عقله فى الرد على أصحاب المقالات والنِّحَل وفى نظم قصائد تدخل فى التاريخ الطبيعى يتحدث فيها عن مشاهد الطبيعة ودلالتها على قدرة الصانع الأكبر . وكان وراءه من المعتزلة شعراء لم يبعدوا بشعرهم عن دوائر الشعر المألوفة من المديح والغزل والهجاء والرثاء والوصف ، ولكنهم طبعوا ما نظموه بطوابع جديدة من دقة المعانى ومن غرائب الأخيلة والصور ، على نحو ما يلقانا عند العتَّابى والنظَّام ، وسنخص كلاً منهما بحديث مستقل فى الفصل السابع .

وقد سرت هذه الطوابع فى شعر الشعراء ، وخاصة من التحموا منهم بالمعتزلة ومباحث المتكلمين ، ويكفى أن نصور ذلك عند ثلاثة من الشعراء النابهين هم : بشار وأبو نواس وأبو تمام . فأما بشار فكان يُعَدُّ من أصحاب الكلام ، وكان يكثر من الاختلاف إلى مجالس واصل بن عطاء رأس المعتزلة ، ويستمع إلى ما يجرى فيها من حوار بين أصحاب الملل والنحل سماوية وغير سماوية ، وتشوَّش عقله ، فإذا هو يصبح زنديقاً ، مما سنعرض له فى ترجمته . وكان من أهم المشاكل التى يحاور فيها واصل خصومه مشكلة الجبر والاختيار ، وكان يرفض فكرة الجبر وتعطيل إرادة الإنسان أمام إرادة الله المطلقة ، لما يؤدى إليه ذلك من فقدان الإنسان لحريته فى أعماله وأنه كتبها عليه القضاء المحتوم ، وأيضًا لما يؤدى إليه ذلك من

---

(١) الحيوان ٢٩٢/٦ .

ظلم الله للناس فهو يكتب عليهم الشقاء ويأخذهم به ، والله لا يظلم الناس مثقال ذرة ، وما يأتون من أفعال وأقوال إنما يأتونه بإرادتهم وحريتهم ، وهم لذلك مسئولون عنه ومحاسَبون . وقد مضى بشار فى أشعاره يعارض واصلا فى هذه المشكلة الإنسانية الكبرى ، مصرًّا على أن الإنسان مسيَّر فى رحلته الدنيوية بقضاء يخطُّ له غده ومستقبله ، وفى ذلك يقول(١) :

طُبِعتُ على ما فىَّ غيرَ مُخَيَّرٍ   هَوایَ ولو خُيِّرتُ كنت المهذَّبا
أُريد فلا أُعْطَى وأُعطَى ولَم أُرِدْ   ويَقْصُر علمى أَن أَنالَ الْمُغَيَّبَا
فأُصْرَفُ عن قصدى وعلمى مقصِّر   وأُمسِى وما أُعْقِبتُ إلا التعجُّبَا

وربما كان لفقده بصره أثر فى اعتناق هذا المذهب . وأهم من هذه المشكلة وأدخل فيما نحن بصدد الحديث عنه من الطوابع العقلية الدقيقة التى تغلغلت فى الشعراء العباسيين وأشعارهم أننا نجد عنده استدلالات عقلية كثيرة على نحو ما مرَّ بنا فى أبيات الصداقة والصديق ، كما نجد عنده توليدات وتشعيبات للمعانى التى طرقها القدماء لا تكاد تحصى ، مع محاولة الإطراف والإتيان بالمعنى المبتكر والصورة البديعة . ولنقفْ قليلا عند معنى طول الليل الذى وقف عنده امرؤ القيس ، فى معلقته ، إذ يقول :

فيا لك من ليلٍ كأَن نجومه   بكل مُغار الفتْل شُدَّتْ بِيَذْبُل(٢)

فهو يتصور نجوم الليل لطوله الشديد كأنما سُمِّرَتْ ، فهى لا تريم . وقد مضى الجاهليون والإسلاميون بعده يتناولون هذا المعنى ، وقلما أضافوا إليه إضافة جديدة ، حتى إذا كان بشار أخذ يتناوله بطُرُقٍ مختلفة تدل دلالة بينة على دقة العقل العباسى وقدرته على التعليل والتحليل وأنه يستطيع أن يؤدى المعنى القديم فى معارض جديدة شديدة الروعة ، من ذلك قوله(٣) :

خليلىَّ ما بالُ الدُّجَى ليس يَبْرَحُ   وما بالُ ضوءِ الصبح لا يتوضَّحُ
أَضلَّ الصَّباحُ المستنير طريقَهُ   أَم الدَّهرُ ليلٌ كلُّه ليس يَبْرَحُ

(١) أغانى (دار الكتب) ٣ / ٢٢٧ .
(٢) مغار : محكم . يذبل : جبل .
(٣) الديوان ٢ / ١٠٤ .

وهو خيال زاخر بالحركة ، وفيه تعميم ، فقد تحول الدهر ليلا مظلمًا لا آخر له . ويعود إلى التفكير فى نفس المعنى ، وما يزال يلحُّ فى التفكير والتخيُّل حتى تتكوّن له صورتان جديدتان لا تقلان طرافة عن الصورتين السابقتين ، إذ يقول عن نفسه وقد بات ليلة مسهَّدة إثر فراقه لإحدى صواحبه(١) :

كأَنَّ جفونه سُمِلَتْ بِشَوْكٍ فليس لوَسْنَةٍ فيها قَرارُ
أقول وليلتى تزداد طولا أَما لليل بعدهمُ نهارُ
جَفَتْ عَيْنِى عن التغميض حتى كأَن جفونها عنها قِصارُ

ولكن أيكفيه أن يعلل لمعنى طول الليل القديم وما يُطْوَى فيه من السهر بهذه العلل البارعة ؟ أو لا ينبغى أن يسلك مسالك المتكلمين والمعتزلة لا فى الإتيان بالعلل الخفية المستورة وإنما فى الإتيان بما ينقض المعنى نقضًا من أساسه على شاكلتهم فى محاوراتهم ومداوراتهم ؟ وإذن فلينقض ما يقال من طول الليل ، إنما هو السهر والسهاد الطويل الذى يخيِّل إليه كأن الليل يطول ، والليل مظلوم ، وفى ذلك يقول : (٢)

لم يَطُلْ ليلى ولكن لم أَنَم ونفَى عنى الكَرَى طَيْفٌ أَلَمّ

وتشيع هذه القدرة على التعليل الطريف فى جميع جوانب شعر بشار ، كما تشيع معها قدرته على تقليب المعانى والاحتيال للتوليد فيها والتفريع ، على شاكلة قوله (٣) :

وعِىٌّ الفِعال كعىِّ المقالِ وفى الصَّمت عِىٌّ كعِىِّ الكَلِمْ

فقد جعل العِىَّ أقساما ، فهو لا يكون فى الكلام فحسب ، بل يكون أيضًا فى الصمت حين يكون واجبًا ويكون الكلام ثرثرة ، بل إنه يكون أيضًا فى الفعال السقيمة .

ولعل فى ذلك ما يوضح من بعض الوجوه كيف منح المعتزلة ومباحثهم بشاراً هذه الطوابع العقلية التى جعلته يمتاز فى شعره بشخصية قوية . ولم يكن ما مُنحه أبو نواس من تلك البيئة أقل حظًّا وقدراً ، بل لعله ظفر منها بأكثر مما ظفر بشار ،

---

(١) الديوان ٣/٢٤٩ .
(٢) أغانى ٣/١٥١ .
(٣) البيان والتبيين ١/٤ .

إذ كان يغدو ويروح فى نشأته على مجالس المتكلمين والمعتزلة ، وفى أشعاره سيول من ألفاظهم وأفكارهم ، من ذلك فكرة التولد ، وهى الفعل الذى ينشأ عن فعل آخر دون قصد ، فقد صدر عنها فى قوله متغزّلاً بجنّان [١] :

وذاتِ خَدٍّ مورَّدْ فَتّانة المتجرَّدْ
تأمَّلُ العين منها محاسناً ليس تنفَدْ
فبعضُها قد تناهى وبعضها يتولَّدْ

ومن ذلك فكرة الجزء الذى لا يتجزّأ أو فكرة الجوهر الفرد ، وكان النظّام ينكره ، وتجادل فيه طويلا مع نظرائه من المعتزلة ، وقد ألمّ بها أبو نواس فى قوله متغزلا[٢] :

يا عاقدَ القلب عنى هلا تذكرتَ حَلاًّ
تركتَ منى قليلا من القليل أقَلاًّ
يكاد لا يتجزّا أقلَّ فى اللفظ من لا

ويقال إن النظام سمع منه هذه الأبيات ، فقال له : « أنت أشعر الناس فى هذا المعنى ، والجزء الذى لا يتجزأ — منذ دهرنا الأطول — نخوض فيه ما خرج لنا فيه من القول ما جمعت أنت فى بيت واحد[٣] » . ومن ذلك قوله فى شخص كان يبغضه[٤] :

كمنَ الشَّنْآنُ فيه لنا ككمُونِ النارِ فى حَجَرِهْ

ونظرية الكمون إحدى النظريات التى تحاور فيها النظّام مع بعض معاصريه طويلا ، إذ كان يرى أن الله جلّ جلاله خلق الموجودات دفعة واحدة ، ثم أكمن بعضها فى بعض على نحو ما أكمن فى آدم أبناءه . ومما كان يحاوره فيه أبو نواس فكرة صدق الوعد والوعيد على الله وهى إحدى الأفكار الأساسية فى عقيدة المعتزلة ،

---

(١) البيان والتبيين ١/١٤١ .
(٢) نفس المصدر والصفحة ، وانظر فى أشعار أخرى له تزخر بألفاظ المتكلمين أخبار أبى نواس لابن منظور ص ١٣ .
(٣) أخبار أبى نواس لابن منظور ص ١٣ .
(٤) الديوان (طبعة آصاف) ص ٦٧ .

كما مر بنا فى الفصل السابق ، وقد جعلتهم يرفضون فكرة العفو التى قال بها المرجئة والتى تذهب إلى أن الله من حقه أن يترك وعيده لمن أجرم وارتكب الكبائر ، فيسدل عليه أستار عفوه ، وكان أبو نواس يَصْدر عن فكرة المرجئة فى حواره للنظام بمثل قوله فى إحدى خمرياته(١) :

فَقُلْ لمن يَدَّعى فى العلم فلسفةً حفظتَ شيئاً وغابتْ عنك أشياءُ
لا تَحْظُرِ العفو إن كنت امرءًا حَرِجاً فإنّ حَظْرَكه بالدين إزْراءُ

وقد فتقت مجالس المعتزلة والمتكلمين عقل أبى نواس ، فإذا هو يتحول إلى ما يشبه كنزاً سائلا بالمعانى المبتكرة والأخيلة المبتدعة من مثل قوله (٢) :

لا أذود الطير عن شَجَرٍ قد بلوتُ المُرَّ من ثَمرِه
خِفْتَ مأْثور الحديث غَدًا وغَدٌ دانٍ لمنتظـرِه

وقوله (٣) :

وكأْسٍ كمصباح السماء شربتها على زَوْرَةٍ أو موعدٍ بلقاءِ
أتت دونها الأيامُ حتى كأنها تساقطُ نُورٍ من فُتوق سماءِ

وتلقانا فى كثير من جوانب شعره طوابع المعتزلة فى لغتهم وفى حجاجهم وفى تفكيرهم المجرد من مثل قوله يصف الخمر (٤) :

توهمتُها فى كأسها فكأنما توهمتُ شيئاً ليس يُدْرَكُ بالعَقْلِ
وصفراءَ أبقى الدهرُ مكنونَ روحها وقد مات من مخبورها جوهر الكُلِّ
فما يرتقى التكييف منها إلى مَدًى تُحَدُّ به إلا ومن قبله قَبْل

وقوله (٥) :

وقد خَفِيَتْ من لُطْفها فكأنها بقايا يقينٍ كاد يُذْهبه الشَّكُّ

---

(١) الديوان ص ٣٥ .
(٢) الوساطة بين المتنبى وخصومه (طبعة الحلبى) ص ٥٨ .
(٣) الوساطة ص ٥٩ .
(٤) الصناعتين (طبعة الحلبى) ص ٣٦٤ .
(٥) خزانة الأدب للحموى (طبع المطبعة الخيرية) ص ١٨٣ .

وواضح ما فى هذه الأبيات من ألفاظ المتكلمين ومصطلحاتهم وتجريداتهم التى تبلغ حد الوهم ، فقد جعل الخمر لا تُدْرَكُ بالعقل كأنها معنى خفى لا ينكشف ، ودعاها : « جوهر الكل » وقال إنه لا يحيط بها كَيْفٌ أو تكييف تُحَدُّ به وتُعْرَف ، وعاد يصور خفاءها ببقايا يقين تسترها سحب الشك حتى لا تكاد تَبين .

وكان أبو تمام — على شاكلة أبى نواس — يتعمق الاعتزال وعلم الكلام، بل يظهر أنه مدّ تعمقه إلى الفلسفة وما يتصل بها من المنطق ، وقد ألمح إلى ذلك الآمدى فى فاتحة كتابه : « الموازنة بين الطائيين » فقال إن شعره إنما يعجب أصحاب الفلسفة . وتتراءى ألفاظها عنده من حين إلى حين كقوله فى هجاء بعض خصومه(١) :

هَبْ مَن له شىءٌ يريد حِجَابَهُ ... ما بالُ لا شىءٍ عليه حِجابُ

وكلمة لا شىء فى اصطلاح المتفلسفة تعنى العدم . ومن ذلك قوله (٢) :

لن ينال العُلا خصوصاً من الفِتْـ ... ـيانِ من لم يكن نَداه عموما(٣)

والعموم والخصوص من كلام المناطقة . ومن ذلك قوله فى أحد ممدوحيه (٤) :

ـاغهم ذو الجلال من جوهر المَجْـ ... ـدِ وصاغ الأَنام من عَرَضِهْ

والجوهر عند الفلاسفة والمتكلمين أثبت من العرض . وفى أشعاره بعض إشارات إلى المذاهب الكلامية ، وعلى رأسها مذهبا الاعتزال والجهمية ، يقول فى أبى سعيد الثَّغْرى أحد القواد المشهورين فى عصره(٥) :

عَمْرِىٌّ عُظْم الدين جَهْمِىُّ النَّدَى ... يَنْفِى القُوَى ويُثَبِّتُ التكليفا

وهو فى أول البيت يجعله عمرى العقيدة ، يريد أنه على مذهب عمرو بن عُبَيْد إمام المعتزلة بعد واصل بن عطاء ، فهو يأخذ — كما يأخذ عمرو وأصحابه — بفكرة

(١) ديوان أبى تمام (طبع المطبعة الأدبية ببيروت) ص ٤٣٦ .
(٢) نفس الديوان (طبعة دار المعارف) ٣/٢٢٥ وانظر الطبعة السابقة ص ٢٥٩ .
(٣) الندى : الكرم .
(٤) الديوان (طبع دار المعارف) ٢/٣١٧ وطبعة بيروت ص ١٦٨ .
(٥) الديوان (طبع دار المعارف) ٢/٣٨٧ وطبعة بيروت ص ١٨٥ .

حرية الإرادة الإنسانية ، وأن الإنسان يتصرف كما يشاء له عقله ، ولا يلبث أن يجعله فى نداه وكرمه على مذهب جَهْم بن صفوان الذى كان يقول – كما يقول المعتزلة – بوجوب التكاليف الشرعية بينما كان يؤمن بالجبر وتعطيل الإرادة الإنسانية . وكل ذلك ليبالغ فى مدح أبى سعيد بالكرم وأنه قدر مقدور عليه ، لا يستطيع عنه حِوَلا . ويعود إلى مذهب جهم ، ولكن لا فى الجبر وإنما فى أسماء الله وصفاته ، فقد كان يمتنع عن تسميته باسم ، حتى لا يُثْبت عليه شيئاً من التشبيه بالمخلوقات . وقد استمد أبو تمام من هذه الفكرة الدقيقة فى نعته الخمر ، إذ يقول [١] :

جَهْمِيَّةُ الأَوصاف إلا أنهم قد لقَّبوها جَوْهرَ الأَشياء

فالخمر فى رأيه رقَّت حتى كادت لا تَبِين ، بل حتى كادتْ لا تسمى – على مذهب جهم – باسم ، ولكنها لعظم شأنها لُقِّبَتْ جوهر الأشياء . ولعل ذلك ما يشهد بأن أبا تمام كان يتغلغل فى معرفة مذاهب المتكلمين ، وهو تغلغل التحم بتغلغله فى قراءة الفلسفة ، فإذا شعره يُطْبَعُ بطوابع الفكر الدقيق ، وهو فكر يجلله الغموض فى كثير من جوانبه ، ولكنه الغموض الزاهى الذى يلذ العقل والشعور ، والذى ما تزال توليداته واستنباطاته الخفية فيه تروع قارئه روعة شديدة ، وهى روعة جعلت القدماء يقولون إنه أكثر العباسيين اختراعاً وابتكاراً [٢] . ولا تقف المسألة فى شعره عند اختراع بعض المعانى وابتكار بعض الصور ، فقد نشر فى صحف أشعاره التضاد الذى يقف عنده المناطقة واستخرج منه ما لا يحصى من المعانى والصور الجديدة ، كقوله يصور جمال إحدى صواحبه : [٣]

بيضاءُ تَسْرِى فى الظلام فيكتسى نوراً وتَسْرُبُ فى الضِّياء فيُظْلِمُ

فقد جعلها تكسف نور الشمس ببهائها ، وكأنها القمر يكسف ضوء الكواكب حتى ليصبح ضياء النهار مظلماً لشدة نورها . وهو تضاد بديع ، فالضياء يظلم . ويمكِّن لهذا المعنى ويزيده عمقاً فيقول واصفاً إحدى صواحبه فى ساعة الوداع [٤] :

---

(١) الديوان (طبع دار المعارف) ٣٤/١ وطبعة بيروت ص ١٢ .
(٢) انظر العمدة لابن رشيق (طبعة أمين هندية) ١٧٧/١ ، ١٨٩/٢ .
(٣) الديوان (طبع دار المعارف) ٢١٣/٣ وطبعة بيروت ص ٢٥٢ .
(٤) الديوان (طبع دار المعارف) ٢٤٩/٣ وطبعة بيروت ص ٢٧٧ .

وَلِهَتْ فأَظلمَ كل شيءٍ دونها وأنار منها كلُّ شيءٍ مظلمِ

فهى تودعه والهة لفراقه ، ويحس كأنما طمست بنورها كل ضوء من حولها ، وأنها سرعان ما كست الوجود بنورها ، ففارقت الأشياء الظلمة والظلام . وكثيراً ما يمتدّ هذا التضاد فى وصفه ، فتتوالى الأبيات مغموسة به ، على نحو وصفه المشهور لقلم ابن الزيات وزير المعتصم ، وفيه يقول[1] :

لعابُ الأَفاعى القاتلاتِ لُعَابُهُ وأَرْىُ الجَنَى اشتارتْه أَيْدٍ عَواسِلُ[2]

له رِيقةٌ طَلٌّ ولكنَّ وَقْعَها بـآثاره فى الشرق والغرب وابِلُ[3]

فصيحٌ إذا استنطقته وهْو راكبٌ وأَعجمُ إن خاطبته وهْو راجل[4]

وكثير ممن كانوا وراء أبى تمام وأبى نواس وبشار كانوا لا يقلون عنهم محاولة فى الإتيان بطرائف المعانى والصور ، وكانوا ما يزالون يغدون ويروحون على مجالس المعتزلة وغيرهم من المتكلمين ، كما كانوا يكبُّون على قراءة كتب الفلسفة والثقافات الأجنبية ، محاولين أن يكتسبوا من ذلك كله ما يتيح لهم فى أشعارهم أن يشيعوا فيها المعانى النادرة والأخيلة المبتكرة .

٣

التجديد فى الموضوعات القديمة

ظل العباسيون ينظمون فى الموضوعات القديمة من المديح وغير المديح مما كان ينظم فيه الجاهليون والإسلاميون وبذلك أبقوا للشعر العربى على شخصيته الموروثة ، وقد مضوا يدعمونها دعما بما لاءموا بينها وبين حياتهم العقلية الخصبة وأذواقهم المتحضرة المرهفة ، فإذا هى تتجدد من جميع أطرافها تجدداً لا يقوم على التفاصل بين صورة هذه الموضوعات الجديدة وصورتها القديمة ، بل يقوم على التواصل الوثيق .

---

(١) الديوان (طبع دار المعارف) ٣/١٢٣ وطبعة بيروت ٢٢٩ .

(٢) لعاب الأفاعى : سمها . والأرى : العسل واشتاره : جناه .

(٣) الطل : المطر والندى الخفيف . والوابل المطر الغزير .

(٤) راجل : ضد راكب ، ويريد بركوبه إمساك الأصابع به للكتابه .

وأول موضوع نقف عنده المديح ، ومعروف أن الشاعر الجاهلي والإسلامى كان يرسم فى ممدوحه المثالية الخلقية الرفيعة التى تقدرها الجماعة ، وإذا كان مؤثراً فى حياة عصره السياسية كأن يكون خليفة أو والياً عرض لأعماله ، وللأحداث التى شارك فيها ، أما إذا كان بطلا يقود الجيوش ضد أعداء الأمة العربية فإنه يصور بطولته وما خاضه من معارك حربية . وقد اضطرمت هذه الغايات للمدحة فى العصر العباسى ، إذ نرى الشعراء يعيدون ويبدئون فى تصوير المثل الخلقية صوراً حية ناطقة ، ويعدو الحصر ما استنبطوه من معان طريفة فى السماحة والكرم والحلم والحزم والمروءة والعفة وشرف النفس وعلو الهمة والشجاعة والبأس ، وقد جسموها فى الممدوحين تجسيما قويًّا ، حتى لتصبح كأنها تماثيل قائمة نصب أعين الناس كى يحتذوها ويحوزوا لأنفسهم مجامع الحمد والثناء . وبذلك ظلت المدحة تبث فى الأمة التربية الخلقية القويمة حافزة لها على الفضائل والمكارم الرشيدة . والذى لا ريب فيه أنها تحمل خصالنا وخصائصنا النفسية ، وقد أشعل الشعراء العباسيون جذوتها فى النفوس بما رفدوها به من عقولهم الخصبة وأخيلتهم البارعة . وقد مضى الشعراء فى مديح الخلفاء والولاة يضيفون إلى هذه المثالية مثالية الحُكْم وما ينبغى أن يقوم عليه من الأخذ بدستور الشريعة وتقوى الله والعدالة التى لا تصلح حياة الأمة بدونها ، وبذلك كانوا صوتًا قويًّا لها ، صوتا ما ينى يهتف فى آذان الحكام بما ينبغى أن يكونوا عليه فى سلوكهم وسياستهم من مثل قول مروان بن أبى حفصة فى مطلع قصيدة للمهدى (١) :

أَحْيَا أميرُ المؤمنين محمدٌ ... سُنَنَ النبيِّ : حَرَامَها وحلالَها

وفيه يقول الحسين بن مُطَيْر (٢) :

يعِفُّ ويَسْتحيِي إذا كان خاليا ... كما عفَّ واستَحْيَا بحيث رَقيبُ

ويقول أبو العتاهية فى هرون الرشيد (٣) :

وراعٍ يُراعى الله فى حِفْظ أُمَّةٍ ... يدافع عنها الشرَّ غير رَقُودِ

---

(١) أغانى (طبع دار الكتب) ١٠ / ٨٩ .
(٢) أغانى ١٦ / ٢٣ .
(٣) أغانى ٤ / ١٠٤ .

تجافى عن الدنيا وأيقن أنها مفارقةٌ ليستْ بدار خلودِ

وفيه يقول منصور النَّمَـرِى[١] :

بُورِكَ هٰرونُ من إمامٍ بطاعة الله ذى اعتصامِ

له إلى ذى الجلال قُرْبَى ليست لِعَدْلٍ ولا إمام

وقد يكون الخليفة سيئ السلوك مثل الأمين ، ولكن الشعراء يمدحونه بنفس هذه المثالية الكريمة للخلفاء ، لأنهم لا يمدحونه من حيث هو ، وإنما يمدحونه خليفة للمسلمين وموضع آمالهم ، وكأنما يريدون أن يرفعوا أمام عينه الشعارات التى تطلبها الأمة فى خليفتها وراعيها ، لعله يثوب إلى طريق الرشاد . وقد نمت من هذا المديح فروع الشعر السياسى ، الذى يقف فيه الشاعر مدافعاً عن حق حزب من الأحزاب فى الحكم والخلافة ، وهو نمو بدأ منذ وقعة صفين ، وهيأ لظهور أحزاب الخوارج والشيعة ، ومعروف أن حركة الأولين خمدت فى هذا العصر ، أما حركة الشيعة فظلت مضطرمة ، وسنعرض لشعرائها وأشعارهم السياسية فى الفصل السادس ، وأيضًا لمن كانوا يشايعون العباسيين .

ولم يصور الشعراء مثاليتنا الخلقية العامة فى مدائحهم وكذلك مثاليتنا السياسية فحسب ، بل صوروا أيضًا الأحداث التى وقعت فى عصور الخلفاء ، وخاصة الفتن والثورات الداخلية وحروب أعداء الدولة من الروم والترك ، وبذلك قامت قصيدة المديح فى هذا العصر مقام الصحافة الحديثة ، فهى تسجل الأحداث التى عاصرها الشاعر والأعمال الكبرى التى ينهض بها الخلفاء ، مما يعطيها قيمة بعيدة إذ تصبح وثائق تاريخية ، ومن أجل ذلك كنا نرى الطبرى فى تاريخه يتوقف من حين إلى حين لينشد ما نظمه بعض الشعراء فى الحادث الذى يرويه ، وليجلوه جلاء تامًّا على لسان هؤلاء الشعراء الذين عاصروه . وبذلك أعدوا من بعض الوجوه ليتحول المديح إلى تاريخ ، وكان من أوائل من نفذ إلى ذلك السيد الحميرى ، فإنه حوَّل أخبار على بن أبى طالب ومناقبه إلى مدائح بديعة ، وفى ترجمته بكتاب الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى من ذلك طرائف كثيرة .

---

(١) أغانى ١٣/١٣٩ .

وربما كان أهم ما سجلته صحف المديح فى هذا العصر صور الأبطال الذين كانوا يقودون جيوش الأمة المظفرة ضد أعدائها من الترك والبيزنطيين ، فقد أشادت إشادة رائعة بكل معركة خاضوا غمارها وكل حصن اقتحموه ، حتى كادت لا تترك موقعة ولا بطلا دون تصوير يضرم فى النفس العربية الاستبسال والمضاء وجِلاد الأعداء جلاداً عنيفا ، وكل كاتب فى هذه الصحف أو قل كل شاعر يتفنن فى رسم بطولة القائد الذى يمدحه رسما يشعل الحماسة فى نفوس جنوده ونفوس الشباب العربى من ورائهم فإذا هم يترامون على منازلة أعدائهم ترامى الفراش على النار يريدون أن يسحقوهم سحقًا . وكان الرشيد والمأمون والمعتصم يقودون بأنفسهم الجيوش التى كانت تمحق البيزنطيين محقًا ، فتغنى الشعراء بانتصاراتهم غناء يسكب الفرحة فى كل نفس ، لعل من أروعه غناء أشجع شاعر البرامكة بفتح الرشيد لهرقلة فى آسيا الصغرى واكتساحه لجيش نقفور إمبراطور بيزنطة[١] ، وأكثر منه روعة غناء أبى تمام بفتح المعتصم لأنقرة وحرقه لعمورية فى بائيته المشهورة ، وهى إلى أن تكون ملحمة أقرب منها إلى أن تكون قصيدة . وتكتظ كتب الأدب ودواوين الشعراء بتصويرهم لبسالة جميع القواد ، لا الذين أسهموا فى حروب البيزنطيين فحسبْ ، بل أيضًا فى حروب الترك وبابك الخُرَّمى وغيره من الثائرين فى شرق الدولة . ولم يكتف الشعراء بهذا التصوير فقد عنوا بتسجيل كل ما يستطيعون من تفاصيل عن المعارك الحربية ، وبذلك لم تعد قصائدهم مدحًا فحسب بل أصبحت أيضًا تاريخًا ، وهو تاريخ كتب شعراً ، تاريخ أبطالنا وأمجادهم الحربية . وكان هؤلاء الأبطال ومن ورائهم الخلفاء يرصدون الجوائز الضخمة للشعراء كى يرسموا هذه البطولات ، ورسموها حقًا رسما باهراً سنرى مقتطفات منه فى تضاعيف تراجمهم ، ويكفى أن نسوق قطعة من تصوير على بن جبلة لبطولة أبى دُلَف العِجْلىّ قائد المأمون المشهور ، إذ يقول من قصيدة طويلة يصف فيها بعض وقائعه[١] :

المنـــايا فى مَقَانبهِ	والعطايا فى ذَرَا حُجَرِهْ[٢]
وزَحوفٍ فى صواهلـــه	كصياح الحَشْر فى أَمَرِه[٣]

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ١٧٥ والأغانى (طبعة الساسى) ١٨/١٠٣ .

(٢) المقانب : جماعات الخيل ، ذرا الحجر فناؤها .

(٣) زحوف : صفة مبالغة من الزحف ، يريد الجيش . والأمر : الكثرة .

قُدتَه والموتُ مكتمنٌ في مذاكيه ومُشْتَجِرِه (١)
فرمتْ جِيلُوه منه يَدٌ طوتِ المنشورَ من بَطره (٢)
زُرتَهُ والخيل عابسةٌ تحمل البُؤْسى إلى عُقُرِه (٣)
فأَبحتَ الخيــلَ عَقْوَته وقَرَيْتَ الطير من جَزَره (٤)
صاغك الله أبا دُلَفٍ صيغةً في الخَلْق في خِيَرِه
كلُّ من في الأَرض من عَربٍ بين باديه إلى حَضَره
مستعيرٌ منك مكرُمَةً يكتسيها يومَ مُفْتَخَرِه

وكانت المدحة قديماً تشتمل على مقدمات تصف الأطلال وعهود الهوى بها وما يلبث الشاعر أن يستطرد إلى وصف الصحراء ناعتاً ما يركبه من بعير أو فرس وما يراه فيها من حيوان وحشي ، وقد يعرض لوصف مشهد الصيد ، وكثيراً ما يضمنها بجانب ذلك حكماً توسع مدارك السامع وتبصره بأطراف من سنن الحياة . وكل ذلك استبقاه شاعر المدحة في العصر العباسي ، ولكن مع إضافات كثيرة ، حتى يلائم بينه وبين عصره . وتتسع الإضافة أحياناً وتضيق أحياناً ، ولكنها دائماً تعبر عن الذخائر العقلية والخيالية للشاعر العباسي . وقد نعجب لاستبقاء هؤلاء الشعراء المتحضرين لعناصر الأطلال ورحلة الصحراء البدوية ، غير أنهم اتخذوها رمزاً ، أما الأطلال فلحبهم الداثر ، وأما رحلة الصحراء فلرحلة الإنسان في الحياة ، وقد استغلوا ما كان يصحب الأطلال من حنين لذكريات حبهم ومعاهده لا يزال يترقرق في أشعارهم من مثل قول مسلم بن الوليد (٥) :

هلا بكيتَ ظعائناً وحُمولا ترك الفؤادَ فراقُهم مخبولا
فإذا زجرتُ القلب زاد وَجيبُهُ وإذا حبستُ الدمع زاد هُمولا (٦)

---

(١) المذاكي : الخيل ، والمشتجر : القنا والرماح .
(٢) جيلوه : من ثوار أذربيجان . البطر : الطغيان بالنعمة .
(٣) العقر : محلة القوم .
(٤) العقوة : ساحة الدار . والقرى : الضيافة . والجزر : مايذبح .
(٥) ديوان مسلم (طبع دار المعارف) ص٥٣ .
(٦) واضح أن مسلماً يخاطب نفسه وكأنه يخاطب غيره ، والظعائن : النساء في الهوادج . والحمول : مايحملنه معهن .

وإذا كتمتُ جَوَى الأسى بعثَ الهوى ... نَفَساً يكون على الضمير دليلا[1]

واهاً لأيام الصِّبا وزمانِه ... لو كان أمتع بالمُقَام قليلا

وحاول بعض الشعراء أن يترك الحديث عن الأطلال المهجورة إلى قصور الحاضرة المأنوسة ، وحينئذ كان لا يسترسل فى وصف حنينه ، على شاكلة أشجع إذ يستهل إحدى قصائده بقوله[2] :

قَصْرٌ عليه تَحيَّةٌ وسلامُ ... نشرتْ عليه جمالَها الأيامُ

وعلى نحو ما استبقوا الأطلال وما يتصل بها من حنين يعبث بنفوسهم استبقوا رحلة الصحراء ، وتفننوا فى وصف وعوثة طرقها ورياحها الحارة التى تكاد تتوقد توقداً ، على شاكلة قول مسلم[3] :

ومَجْهلٍ كاطِّراد السيف مُحْتجَزٍ ... عن الأدلاَّء مسجور الصياخيدِ[4]

تمشى الرياحُ به حَسْرَى مُوَلَّهَةً ... حَيْرَى تلوذ بأطراف الجلاميد[5]

فالرياح من شدة الحر وما يجرى فى قلبها من الفزع تلجأ إلى أطراف الصخور المستعلية فوق الآكام ، كأنها تريد الفرار من هذا الجحيم المطبق . وقد داروا حول وصف الحيوان الوحشى محاولين أن يستنبطوا بعض الصور الطريفة من مثل قول بشار فى بائيته[6] ، يصور ما نال أُتن الوحش من خرقة العطش الشديد :

غدتْ عانةٌ تشكو بأبصارها الصَّدَى ... إلى الجَأْبِ إلا أنها لا تخاطبُهْ[7]

وهى صورة تخفق بالحياة ، إذ مثَّل العطش فى غَـوْر أحداقها ، حتى لتهمُّ بالكلام شاكية لحمارها ، ولكن أنَّى لها ذلك وهى عجماء لا تُبين . وكان الشاعر القديم يكثر من وصف نحول بعيره ونوقه لطول الطرق الوعرة وما يصيبها من شدة الكلال والإعياء ، حتى ليشبهها بالأقواس والأهلة ضموراً وهزالاً ، وردَّد الشاعر

---

(١) جوى الأسى : ناره وحرقته .
(٢) ابن المعتز ص ٢٥٢ .
(٣) الديوان ص ١٥٤ .
(٤) مسجور : موقد . الصياخيد : جمع صيخود وهو اليوم اللافح الحر .
(٥) الجلاميد : الصخور .
(٦) انظر القصيدة فى الديوان ١/٣٠٥ .
(٧) العانة : القطيع من الأتن . الجأب : حمار الوحش . الصدى : العطش . ومعنى شكواها العطش بأبصارها أنه قد تبين فى أحداقها فغارت .

العباسى هذا المعنى طويلا محاولا الخلوص إلى بعض الأفكار المستحدثة ، من مثل قول أبى الشيص مخاطبًا أحد ممدوحيه وواصفًا نحول نوقه ونحول راكبيها[1] :

أكل الوَجيفُ لحومَها ولحومَهم   فأتوك أنقاضاً على أنقاضِ[2]
ولقد أتَتْك على الزمان سوا خطاً   فرجعن عنك وهُنَّ عنه رَواضى

وتحول الشاعر العباسى فى أحيان كثيرة من وصف الصحراء ومسالكها وسمومها وحيوانها إلى وصف الرياض فى الحاضرة ومناظرها البهيجة فى الربيع ، ومن خير ما يصور ذلك قصيدة أبى تمام فى مديح المعتصم التى يستهلها بقوله[3] :

رَقَّت حواشى الدَّهر فهْى تَمَرْمَرُ   وغدا الثَّرَى فى حَلْيِهِ يتكسَّرُ[4]

وقد مضى يتحدث فى إسهاب عن جمال الطبيعة فى الربيع ، وكأنه يتخذ منه رمزاً لعصر المعتصم . واتخذوا أحيانًا من وصف السفن ورحلتها فى الأنهار صورة مقابلة لرحلة البعير فى الصحراء ، مثل قول بشار فى إحدى مدائحه للمهدى[5] :

وعذراء لا تجرى بلحمٍ ولا دمٍ   قليلة شكوى الأيْن مُلْجَمةِ الدُّبْرِ[6]
إذا ظَعَنَتْ فيها الفُلول تشَخَّصَتْ   بفُرسانها لا فى وُعوثٍ ولا وَعْرِ[7]
تُلاعب تيَّارَ البحور وربما   رأيتَ نفوس القوم من جَرْيِها تَجرِى

وجعلتهم موجة المجون الحادة فى العصر يصفون فى مقدمات مدائحهم الخمر أحيانا ، واستهل ذلك بشار ، وتوسع فيه مسلم وأبو نواس وأبو العتاهية سعة شديدة . وعُنوا على نحو ما عنى الشاعر القديم ببثِّ الحكم فى قصائدهم ، وكان قد ترجم كثير من الحكم الفارسية والهندية واليونانية ، فأفادوا من ذلك كله ونثروه فى تضاعيف مدائحهم ، مضيفين إليه كثيراً من تأملاتهم فى الحياة والطباع ، من مثل قول أبى تمام فى فضل المحسود ونقص الحسود[8] :

---

(١) ابن المعتز ص ٧٦ .
(٢) الوجيف : السير السريع .
(٣) الديوان (طبع دار المعارف) ٢/١٩١ وطبعة بيروت ص ١٣٩ .
(٤) تمرمر: تموج ليناً ونعومة . الثرى : التراب ويريد به النبات . ويتكسر : يتثنى .
(٥) أغانى طبعة دار الكتب) ٣/٢٤٢ .
(٦) الأين : الإعياء .
(٧) الفلول : الجماعات . ووعوث : جمع وعث وهو المكان السهل .
(٨) الديوان (طبع دار المعارف) ١/٤٠٢ وطبعة بيروت ص ٧٨ .

وإذا أراد الله نَشْرَ فضيلةٍ طُوِيَتْ أتاح لها لسان حسودِ
لولا اشتعالُ النار فيما جاورتْ ما كان يُعْرَفُ طِيبُ عَرْفِ العود [١]

وهو كثير الحكم فى مدائحه ، وقد صبَّ فيها كثيراً من شكوى الزمن وخطوبه ، بحيث يعد مقدمة قوية لابن الرومى والمتنبى . وهو يمزج شكواه بمغالبة عاتية للدهر ونوازله ، وبذلك كانت مدائحه تسكب القوة فى نفس كل عربى ، لا بما يصور من بسالة الأبطال والقواد فى الحروب فحسب ، بل أيضًا بما يودعها من فتوة عارمة على شاكلة قوله [٢] :

أعاذلتى ما أخشنَ الليلَ مركبا [٣] وأخْشَنُ منه فى المُلِمَّات راكبُهْ
ذَرِينى وأهوالَ الزمان أُفَانِها فأهوالُه العُظْمى تَلِيها رغائبه [٤]
ألم تعلمى أن الزَّماع على السُّرَى أخو النُّجح عند النائبات وصاحبه [٥]
دَعِينى على أخلاقَ الصُّمِّ للتى هى الوَفْرُ أو سِرْبٌ تَرِنُّ نوادِبُهْ
فإن الحُسام الهُنْدوانىّ إنما خشونته ما لم تُفَلَّل مضاربه

وعلى هذا النحو ازدهرت المدحة على لسان الشاعر العباسى لا بما رسم فيها من مثاليتنا الخلقية وسجل من الأحداث وصوَّر من البطولات العربية فحسب ، بل أيضًا بما تمثَّل من العناصر القديمة وأذاع فيها من ملكاته وما أضافه إليها من عناصر جديدة استمدها من بيئته الحضارية ومن نفسيته وملكاته العقلية . ودفعتهم دقتهم الذهنية إلى أن يلائموا بين مدائحهم وممدوحيهم ، فإذا مدحوا الخلفاء نوهوا بتقواهم وعدلهم فى الرعية ، وإذا مدحوا القواد أطالوا فى وصف شجاعتهم ، وإذا مدحوا الوزراء تحدثوا عن حسن سياستهم ، وكذلك صنعوا بالفقهاء والقضاة والمغنين ، فلكل أوصافه التى تخصه ، وهى أوصاف طلبوا فيها وفى كل مدائحهم الفكر الدقيق والتعبير الرشيق .

---

(١) العرف : الرائحة والشذى .
(٢) الديوان (طبع دار المعارف) ١/٢٢٦ وطبعة بيروت ص ٤٤ .
(٣) يقول إن السرى فى الليل صعب ولكنه أصعب منه الفتى من الرجال الصلب .
(٤) أفانها : تفنينى وأفنيها .
(٥) الزماع : المضاء فى الأمر ، يقول : من ترك الدعة ورحل فى طلب المجد نال طلبته .

وإذا تركنا المديح إلى الهجاء وجدنا معالم التطور فيه أعمق وأوسع منها فى المديح الخالص ، إذ كان يتصل بحياة الشعب والعامة اتصالا لعله أدق من اتصال المديح ، وهى حياة لم يعد أساسها العصبيات القبلية كما كان الشأن فى العصر الأموى ، ومن أجل ذلك ضعف فن النقائض لقيامه عليها إلا أسرابا قليلة كانت تظهر من حين إلى حين . ولكن إذا كان هذا الفن ضعف ، فإن الهجاء لم يضعف بسبب التنافس الشديد بين الشعراء ، وقد عمت فيه روح جديدة ، إذ أخذوا يَرِيشونه سهاماً مصمية . ويخيل إلى الإنسان أن أصحابه لم يتركوا مثلبة خلقية أو نفسية فى شخص إلا صوروها ، وكأنما يريدون أن يطهروا المجتمع منها ، ولم يتورعوا أحيانًا عن هجاء الخلفاء والوزراء ، كلما رأوهم ينحرفون عن الجادة على نحو ما هو مشهور عن دعبل . وبذلك يصبح الهجاء الصحيفة التربوية المقابلة للمديح ، فالمديح يرسم المثالية الخلقية لهذه التربية ، والهجاء يرسم المساوئ الفردية والاجتماعية التى ينبغى أن يتخلص منها المجتمع الرشيد . وقد تبارى الشعراء فى رسم معانيه ، تارة يَخِزون وخز الإبر ، وتارة يطعنون طعنات قاتلة ، من ذلك قول بشار فى هجاء ابن قزعة بشُحِّه [١] :

فلا تَبْخلا بُخْلَ ابن قزعةَ إنه مخافةَ أن يُرْجى نَداه حزينُ
إذا جئته للعُرْف أغلق بابه فلم تَلْقَه إلا وأنت كمين

وقول أبى تمام مصوراً غيرة شخص لا فى موضع الغيرة من نسائه ، وإنما فى الغيرة على طعامه ورُغْفانه حتى لكأن كسر رغيفه كسر عظم من عظامه ، بل لكأنه فتك به أشد الفتك ، يقول[٢] :

صَدَّقْ أَلِيَّتَهُ إن قال مجتهداً لا والرغيفِ ، فذاك البِرُّ من قَسَمِهْ[٣]
قد كان يعجبنى لو أنَّ غَيْرَتَه على جَراذقه كانتْ على حُرَمِه[٤]
إن رُمْتَ قِتْلَتَهُ فَافتِكْ بخُبْزَتِهِ فإنَّ موقعها من لحمه ودَمِهْ

وأهم ليقة غمس فيها الشعراء هجاءهم ليقة الاستخفاف والتهوين والتحقير ،

---

(١) ابن المعتز ص ٢٦ .
(٢) الديوان (طبعة بيروت) ص ٤٥٩ وقارن بعيون الأخبار ٣/٢٤٦ .
(٣) أليته : قسمه وحلفه .
(٤) الجراذق : جمع جرذق وهو الرغيف ، معرب كرده .

وقد استمد منها حماد عجرد كثيراً حين استطار الهجاء بينه وبين بشار من مثل قوله[١] :

وأعمى يشبه القِرْدَ إذا ما عَمِيَ القِرْدُ
دَنِیءٌ لم يَرُحْ يوماً إلى مَجْدٍ ولم يَغْدُ
ولم يَحْضُرْ مع الحُضَّا ر فى خَيْرٍ ولم يَبْدُ
ولم يُخْشَ له ذَمٌّ ولم يُرْجَ له حَمْدُ

ويقال إن بشارا حين سمع هذه الأبيات بكى من شدة إيلامها لنفسه ، فقال له قائل : أتبكىمن هجاء حماد ؟ فقال : والله ما أبكى من هجائه ، ولكن أبكى لأنه يرانى ولا أراه ، فيصفنى ولا أصفه . وأتاه من باب جديد ألهمته به الحضارة وما يأخذ به أهل الحاضرة أنفسهم من النظافة والتعطر ، فوصفه بالقذارة والدنس فى أبيات لعلها كانت أشد إيلاما وأوجع وخزا لنفسه من الأبيات السابقة ، إذ يقول[٢] :

نهارُهُ أخبثُ من ليلِهِ ويومُه أخبث من أمسِهِ
وليس بالمُقْلع عن غَيِّه حتى يوارَى فى ثَرَى رَمْسِهِ[٣]
ما خلق الله شبيهاً له من جِنِّه طُرًّا ومن إنسِهِ
واللهِ ما الخنزيرُ فى نَتْنِهِ بِرُبْعه فى النَّتْنِ أو خُمْسِهِ
بل ريحُه أطيب من ريحِهِ ومَسُّه ألينُ من مَسِّهِ
ووَجهُه أحسن من وجهه ونفسه أنبلُ من نفسِهِ
وعودُه أكرمُ من عودِهِ وجِنْسُهُ أكرمُ من جِنْسِهِ

يقول الجاحظ : « وأنا — حفظك الله تعالى — أستظرف وضعه الخنزير بهذا

(١) أغانى (طبع دار الكتب) ١٤ / ٣٢٩ .
(٢) الحيوان ١ / ٢٤٠ وأغانى ١٤ / ٣٣٠ .
(٣) الرمس : القبر .

المكان فى هذا الموضع حين يقول : (وعُوده أكرم من عوده) وأى عود للخنزير قبَّحه الله تعالى وقبَّح من يشتهى أكله » . وحماد يضيف إلى قذارة الجسد قذارة الخلق . ومع أن بشارا كان فى الذروة الرفيعة من صنع الشعر ونظمه وكان حماد فى السفح البعيد فإن حمادا كان يستعلى عليه فى الهجاء . ولما أعياه أمره جاءه من باب ضيق ، محاولا أن يضع أغلال أولى الأمر فى يديه ، إذ ادَّعى عليه أنه زنديق يؤمن بإلهى النور والظلمة كما يؤمن المجوس قائلا فى أبيات :

يا بن نِهْيا رأْسٌ علىَّ ثَقِيلُ واحتمالُ الرءوس خَطْبٌ جَلِيلُ
ادْعُ غَيرى إلى عبادة رَبَّيْـ ـنِ فإنى بواحدٍ مشغولُ

ومكر به حماد فأشاع الأبيات لبشار فى الناس وجعل فيها مكان (فإنى بواحد مشغول) : (فإنى عن واحد مشغول) ليثبت عليه الزندقة والكفر . يقول أبو الفرج : فما زالت الأبيات تدور فى أيدى الناس حتى انتهت إلى بشار ، فاضطرب منها وتغيَّر وجَزِع ، وقال : عرَّضنى للقتل ، والله ما قلت إلا (فإنى بواحد مشغول) فغيَّرها حتى يشهرنى فى الناس بما يهلكنى »[١] . وكانا جميعا زنديقين مستترين ، وكأنما خافا أن يفتضحا ويحاكمهما المهدى . ونرى بشاراً يلطخ بالتهمة زنديقا ثالثا هو عمارة بن حربيَّة ، وله يقول[٢] :

لو كنت زنديقاً ــ عمارُ ــ حَبَوْتَنى أو كنتَ أعبد غير ربٍّ محمَّدِ
لكننى وحَّدتُ رَبِّى مخلصاً فجفوتَنى بُغْضاً لكل موحِّدِ

ويكثر فى هجاء بشار وغيره هتك الأعراض ، وربما كان لشيوع المجون والفحش أثر فى ذلك . وتشيع فى كثير من قطع الهجاء روح السخرية المريرة ، وقد تشيع روح الفكاهة المضحكة ، على نحو ما يلقانا فى هجاء أبى العتاهية لعبد الله [٣]بن معن وقد جعل منه فتاة تتزين لتلفت إليها الرجال . ودفعت بشاراً شعوبيته الذميمة ليهجو العرب بأشعار تُعَدُّ وصمة فى جبينه . وعلى نحو ما لاءموا بين مدائحهم وممدوحيهم لاءموا بين أهاجيهم ومهجويهم ، فإذا كانوا قضاة وصفوهم بالظلم ، وإذا كانوا مغنين وصفوهم برداءة الصوت ودمامة المنظر . ولعل من الطريف

---

(١) أغانى ١٤ / ٣٢٥ وما بعدها .
(٢) الحيوان ٤ / ٤٤٣ .
(٣) أغانى ٤ / ٢٢ .

أن نجد شاعراً يهجو محمد بن يسير بما يدعى من معرفة السحر والشعبذة والعزائم على الجن والشياطين[١] .

وظلت للفخر حيويته القديمة ، وإن كان قد ضعف فيه الفخر القبلى ، على أن أسرابًا بقيت منه عند نفر من الشعراء ، وفى مقدمتهم أبو نواس إذ كان يتعصب لمواليه من بنى سعد العشيرة القحطانيين وينظم فى ذلك أشعاراً كثيرة ، ومثله كان دعبل ، وقد رد على مذهَّبة الكميت التى تشيَّع فيها للنزاريين على القحطانيين ردًّا عنيفًا ، مما جعل أبا سعد المخزومى يهاجيه طويلا[٢] . وحاول شاعر يسمى ابن قنبر أن يدفع مسلم بن الوليد للاشتباك به فى معركة حامية من معارك الهجاء القبلى ، ولكن مسلما أخرسه[٣] . وكان بشار يتعصب فى عصر بنى أميَّة لمواليه القيسيين تعصبًا حادًّا ، حتى إذا نجحت الثورة العباسية أظهر ما كان يستره من كره الإسلام والعرب ، وأخذ يعنف بهم عنفًا شديداً ، مصوراً البغض الذى كان يحرق كبده . والجديد حقًّا فى الفخر لهذا العصر أن كثيراً من الشعراء صدروا فى فخرهم عن شعور طاغ بالمروءة والكرامة والشيم الرفيعة من مثل قول عوف بن محلّم الخُزاعى[٤] :

وإنى لذو حِلْمٍ على أن سَوْرتى ... إذا هزَّنى قومٌ حميتُ بها عِرْضى[٥]
وإنى لأجزى بالكرامة أهلها ... وبالحقد حقداً فى الشدائد والخَفْض

وقول بكر بن النطَّاح[٦] :

ومَن يفتقرْ منا يَعِشْ بحسامِه ... ومن يفتقر من سائر الناس يَسْألِ
وإنا لنلهو بالسيوف كما لهتْ ... فتاة بِعِقْدٍ أو سِخَابِ قَرَنْفُلِ[٧]

ونشط الشعراء فى الرثاء نشاطًا واسعًا ، إذ لم يمت خليفة ولا وزير ولا قائد مشهور إلا وأبَّنوه تأبينًا رائعًا ، وقد صوَّروا فى القواد بطولتهم ومحنة الأمة والجيوش فى وفاتهم ، وكيف ملأ موتهم القلوب حسرة وفزعا . وحقًّا رثاؤهم لهم يفيض بالحزن

---

(١) الحيوان ٦/٢٣٢.
(٢) أغانى (طبعة الساسى) ١٨/٢٩ .
(٣) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٤/١٦٢ وانظر ترجمة أبى الفرج لمسلم الملحقة بديوانه ص ٣٨٣ وما بعدها .
(٤) ابن المعتز ص ١٩٢ .
(٥) السورة : السطوة وشدة الغضب .
(٦) أغانى (طبعة الساسى) ١٧/١٥٥ .
(٧) السخاب : قلادة ، وعادة تكون من القرنفل و بعض الطيب .

واللوعة ، ولكنه مع ذلك يكتظ بالحماسة والقوة وتمجيد بطولتهم تمجيداً يضرم الحمية فى نفوس الشباب للدفاع عن العرين حتّى الموت ، دفاعاً يقوم على البأس والبسالة والاستطالة . وكان يحدث أن يخرّ بطل صريعاً فى بعض الميادين ، حينئذ ينظم فيه الشعراء مراثى حماسية تؤجج لهيب الحفيظة فى القلوب وتدفع إلى الاستشهاد تحت ظلال الرماح ذبّاً عن حرمات الوطن ، ومن خير ما يمثل ذلك مراثى أبى تمام فى محمد بن حُمَيْد الطوسى الطائى ، فإنه أوقع ببابك وجنوده لعهد المأمون وقائع ملأته هو وعسكره فزعاً ورعباً ، ولكن حدث فى آخر وقعة أن اندفع ابن حميد فى مضيق حرج ، والتف به جنود بابك ، فظل قائماً يدافعهم ويقاومهم لا يتزحزح عن موضعه ، حتّى إذا أحيط به لم يستسلم ولم يلق السلاح ، بل قاتل حتّى قُتل عزيزاً كريماً . وحزنت الأمة حزناً عميقاً لموته ، وانبرى أبو تمام يرثيه مراثى رائعة تصور جلده فى القتال وصبره فى النضال حتّى الموت الزؤام ، على نحو ما يلقانا فى مرثيته العينية ، التى استهلها استهلالا بديعاً بقوله (١) :

أَصَمَّ بكَ النَّاعى وإن كان أَسْمَعا وأَصبح مَغْنَى الجود بعدك بَلْقَعَا (٢)

وفيها يقول :

فَتًى كلما ارتاد الشجاعُ من الرَّدَى مَفَرًّا غداة المأْزِقِ ارتاد مَصرعا (٣)
فإن تَرْمِ عن عُمْرٍ تدانى به المدى فخانك حتّى لم تجد فيه منزعا (٤)
فما كنت إلا السيف لاقى ضريبةً فقطَّعها ثم انثنى فتقطَّعا (٥)

ومن الأبطال الذين بكاهم الشعراء منصور بن زياد ، وقد أبلى لعهد الرشيد فى القضاء على ثورة بالقيروان ، ووافاه القدر ، فرثاه عبد الله بن أيوب التَّيْمِىُّ بقصيدة بديعة يقول فى تضاعيفها(٦) :

أَما القبورُ فإنهن أوانِسٌ بجوار قبرك والديارُ قبورُ

(١) الديوان (طبعة بيروت) ص ٣٣٥ .
(٢) المغنى : المنزل . البلقع : الخالى .
(٣) ارتاد : طلب . الردى : الموت .
(٤) المنزع : مكان نزع السهام من القوس والتشبيه واضح .
(٥) الضريبة : الرجل المضروب بالسيف
(٦) ديوان الحماسة بشرح المرزوقى (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٩٥٠ .

والناس مأْتَمهُم عليهِ واحدٌ   فى كل دارٍ رنّةٌ وزَفيرُ
عجبا لأَربع أذْرُعٍ فى خمسةٍ   فى جوفها جَبَلٌ أَشمُّ كبيرُ

ولعل بطلا لم تُذْرَفْ دموع الشعراء عليه كما ذُرفت على يزيد بن مزيد الذى فتك بخوارج الموصل فتكة لم تقم لهم بعدها قائمة ، وسنلتقى فى تراجم الشعر بمراث له مختلفة ، وفى تأبينه يقول منصور النَّمَرِى(١) :

وإن تَكُ أفنتْه الليالى وأوشكتْ   فإن له ذكراً سيُفْنِى اللياليا

وواضح ما فى هذه الأشعار من دقة التفكير وبعد الخيال ، ويلقانا ذلك دائمًا فى تأبيناتهم ، إذ كانوا يتنافسون فى استنباط المعانى النادرة ، ومن طريف ما لمسلم ابن الوليد من هذه المعانى قوله فى رثاء شخص (٢) :

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوه   فطِيبُ تُراب القبر دلَّ على القَبر

وكان الشاعر القديم كثيراً ما يفزع إلى العزاء بالأمم السالفة والقرون الخالية وأن الموت كأس دائر يتجرع غصصه جميع الناس ، فردّد ذلك الشاعر العباسى فى مراثيه ، وأخذ يضيف إليه من فكره الخصب تأملات فى حقائق الموت وسنن الوجود ، من مثل قول ابن مناذر فى تأبين عبد المجيد الثقفى(٣) :

كل حَىٍّ لاقى الحِمام فمُودِى   مالحىٍّ مُؤمَّلٌ من خلود (٤)
لا تَهاب المَنون شيئاً ولا تَرْ   عَى على والدٍ ولا مولودِ (٥)
يَقْدَحُ الدَّهر فى شماريخ رَضْوَى   ويحطُّ الصخورَ من هَبُّودِ (٦)
ولقد تترك الحوادث والأيّا   مُ وَهْيًا فى الصخرة الجلْمود (٧)
يفعل اللهُ ما يشاء فيمضى   ما لفعل الإلٰه من مردود (٨)
فكأنا للموت رَكْبٌ مُحِثُّون   سراعٌ لمنهلٍ مورودِ

---

(١) العقد الفريد ٣/٢٨٧ .
(٢) الديوان ص ٣٢٠ .
(٣) ابن المعتز ص ١٢٢ .
(٤) الحمام : الموت . مودى : ميت .
(٥) المنون : الموت .
(٦) رضوى : جبل . وشماريخه : أعاليه . هبود : موضع .
(٧) وهيا : شقا .
(٨) محثون : مسرعون .

وشاع فى العصر بكاء الرفقاء والأصدقاء ، بكاءٌ يفجر الحزن فى النفس ، لما يصور من شقاء الأصدقاء بموت رفاقهم وكيف يصطلون بنار الفراق المحرقة ، من مثل قول بشار فى ندب أحد أصدقائه من الزنادقة [١] :

اشربْ على تَلفِ الأَحِبَّة إننا   جُزُرُ المنية ظاعنين وخُفَّضَا [٢]
ويلى عليه وويلتى من بَيْنِهِ   كان المحبُّ وكنت حِبًّا فانقضى
قد ذقتُ أُلفته وذقت فراقه   فوجدت ذا عَسَلاً وذا جَمْرَ الغَضَا [٣]

وكان إخوتهم وأبناؤهم يموتون تحت أعينهم ، فتدور بهم الأرض ويبكون بدموع غزار ، وينفِّسون عن أنفسهم بأبيات تصور الحزن المقيم فى قلوبهم لا يبرح ، من مثل قول العُتْبِى فى ابن له اختطفه الموت بعد أبناء آخرين ، وقد مات فى ريعان شبابه [٤] :

وقاسمنى دهرى بَنِىَّ بِشَطْرِهِ   فلما تقضَّى شطره عاث فى شَطْرِى [٥]
ألا ليت أمى لم تَلِدنى وليتنى   سبقتك إذ كنا إلى غايةٍ نَجْرِى
وكنت به أُكْنَى فأَصبحت كلما   كُنيت به فاضتْ دموعى على نَحْرِى

وعلى نحو ما تفجعوا على أبنائهم وإخوتهم تفجعوا على زوجاتهم تفجعاً كله عطف وبر ورحمة ، ولابن الزيات مراث مختلفة لزوجته ، توضح من بعض الوجوه ثراء الفكر العباسى بالخواطر وقدرته على تحليلها وتمثيل أحزانه وحُزْنِ طِفْله الذى افتقد عَطْفَ الأم وحنانها ، من مثل قوله [٦] :

ألا مَنْ رأى الطفلَ المفارقَ أُمَّهُ   بُعَيْدَ الكَرَى عيناه تَبْتَدِرانِ [٧]

---

(١) المختار من شعر بشار للخالديين (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٢٥ .

(٢) جزر : جمع جزور وهو البعير الذبيح . ظاعنين : سائرين . خفضاً : جمع خافض وهو المقيم .

(٣) الغضا : من شجر البادية .

(٤) الحماسة بشرح المرزوقى ص ١٠٧١ وانظر زهر الآداب ٣/٢١٢ .

(٥) يريد أن الدهر قاسمه بنيه إذ أخذ نصفهم وأبقى له نصفاً ثم عاد يعيث فى نصفه ونصيبه .

(٦) ديوان ابن الزيات (نشر جميل سعيد بمطبعة نهضة مصر بالفجالة) ص ٦٧ وانظر العمدة لابن رشيق ٢/١٢٥ .

(٧) الكرى : النوم . تبتدران : تسحان وتهملان بالدموع .

رأى كلَّ أُمٍّ وابنهَا غير أُمِّهِ يبيتان تحت الليل ينتجيان
وبات وحيداً فى الفراش تُجِنُّهُ بلابلُ قلبٍ دائم الخفقانِ[١]
فلا تَلْحياني إن بكيتُ فإنما أداوى بهذا الدمع ما تريانِ[٢]
وهَبْنِي عزمتُ الصبر عنها لأننى جَلِيدٌ فمن بالصَّبْر لابن ثمانِ
ضعيف القُوَى لايطلب الأَجر حِسْبَةً ولا يـأْتسى بالناس فى الحدثانِ[٣]

وظلت المآتم قائمة على قتلى الشيعة فى العصر والعصور السابقة منذ قتل على بن أبى طالب ، فهم ينوحون عليهم نواحًا حارًّا ، ودموعهم لا ترقأ ولا تجفُّ ، وسنعرض لذلك فى الفصل السادس . وبكى الشعراء البرامكة طويلاً حين نكبهم الرشيد ، من مثل قول سلم الخاسر[٤] :

خَوَتْ أَنْجُمُ الجَدْوَى وشَلَّتْ يَدُ النَّدَى وغاضتْ بحارُ الجود بعد البرامكِ[٥]
هَوَتْ أَنجمٌ كانت لأَبناء بَرْمَكٍ بها يعرف الحادى طريقَ المسالك

وظهرت ضروب جديدة فى الرثاء لم تكن معروفة قبل هذا العصر ، من ذلك رثاء المدن حين تنزل بها كوارث النهب والحرق ، وكان الجيش الذى أحاط ببغداد قبل مقتل الأمين رماها بالمجانيق فاندلعت فيها النيران واحترقت بعض الأحياء ، وعمَّ فيها نهب الأموال وقتل الأبرياء ، مما جعل كثيرين من الشعراء يبكونها وقد غمرهم الحزن والأسى ، من مثل قول بعضهم[٦] :

أَلا ابْكِ لإِحْراقٍ وهَدْم منازِلٍ وقَتْلٍ وإِنهاب اللُّهى والذخائرِ[٧]
وإِبراز ربَّات الخدور حواسرًا خَرَجْنَ بلا خُمْرٍ ولا بمآزرِ
كأَنْ لم تكن بغدادُ أَحسنَ منظرًا ومَلْهًى رأَتْه عين لاهٍ وناظرِ

ومن ضروب الرثاء الجديدة مراثى الطير الصادح من مثل القُمْرِىِّ والحيوانات

(١) تجنه : تلفه وتشتمل عليه .
(٢) لاتلحيانى : لاتلومانى .
(٣) حسبة الأجر : احتساب الثواب عند الله بالصبر على نزول الموت . الحدثان : نوائب الدهر .
(٤) مروج الذهب للمسعودى (طبعة مصر) ٢٩٦/٣ .
(٥) خوت : سقطت وخرت . الجدوى : العطاء . الندى : الكرم .
(٦) مروج الذهب ٣١٣/٣ .
(٧) اللهى والذخائر : الأموال .

المستأنسة ، وقد جعل القاسم بن يوسف أخو أحمد بن يوسف كاتب المأمون ذلك وَكْدَه ، كما يقول أبو الفرج[١] الأصبهانى ، فاستغرق أكثر شعره فيه ، من مثل قوله يرثى شاة :

عَيْنُ إبْكى لعنزنا السَّوْداء كالعروس الأَدْماء يوم الجِلاء[٢]

وكان لابن الزيات فرس أشهب لم يُرَ مثله فراهة وحسنا ، فوصفت للمعتصم فراهته ، فطلبه منه ، فلم يستطع رد طلبه ، حتى إذا بان عنه رثاه بقصيدة طويلة يقول فيها[٣] :

كيف العزاءُ وقد مضى لسبيله عنا فودَّعنا الأَحَمُّ الأَشْهَبُ[٤]
منع الرقادَ جَوًى تضمَّنه الحشَا وهَوًى أُكابده وهَمٌّ مُنْصِبُ[٥]

ومن المراثى الجديدة الموضوع مرثية[٦] محمد بن يسير لبستان له عاثت فيه شاة أفلتت لأحد جيرانه ، ودخلت البيت ، فعاثت ببعض صحفه وقراطيسه ، وفيها يَنْدُبُ روعة هذا البستان قبل أن تعبث به ضارعًا إلى ربه بالشكوى من هذه الشاة وأن يَنْزل بها عقاب أليم .

وقد أكثر الشعراء فى العصر من العتاب والاعتذار متخذين لهما مسالك دقيقة تدل أوضح الدلالة على رهافة الحس وخصب الذهن من مثل قول أبى دلف معاتبا[٧] :

ومَنْ لىَ بالعين التى كنت مَرَّةً إلىّ بها فى سالف الدَّهرِ تنظرُ

وقول أبى تمام[٨] :

لئن كنت أخطو ساحة المَحْل إننى لأترك . روضاً من جَداك وجَدْولا[٩]

وستلقانا فى تراجمهم معاتبات كثيرة بين الأصدقاء ، تعبر عن عواطف

---

(١) أغانى (طبع الساسى) ٢٠/٥٦ وانظر الأوراق للصولى (أخبار الشعراء) ص ١٦٣ .
(٢) الأدماء : السوداء .
(٣) ديوان ابن الزيات ص ٦ .
(٤) الأحم : الأسود ، الأشهب : من الشهبة وهى سواد يصدعه بياض .
(٥) الجوى : حرقة الهوى . منصب : متعب.
(٦) انظر الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٤/٢٠ وما بعدها . وانظر مرثيته للوح آبنوس فى الأغانى ١٤/٤٧ .
(٧) العقد الفريد ٢/١٦٥ .
(٨) الديوان (طبع دار المعارف) ٣/١٠٨ .
(٩) المحل : الجدب . الجدا : العطاء .

الصداقة الدقيقة ، وقد تفننوا فى صور اعتذاراتهم مستوحين قدرتهم العقلية فى الحجاج والمنطق ، من مثل قول إبراهيم بن سيَابة يعتذر للفضل بن الربيع ، وكان قد سخط عليه سخطاً شديداً(١) :

إن كان جُرْمى قد أحاط بحُرْمَتى ... فأَحِطْ بجُرْمِى عَفْوَكَ المأْمولا
فكم ارتجيتك فى التى لا يُرْتجى ... فى مثلها أحدٌ فنِلْتُ السُّولا (٢)
وضللتُ عنك فلم أجدْ لى مذهبا ... ووجدت حلمك لى عليك دليلا
هبْنى أسأْتُ ــ وما أسأْتُ ــ أُقِرُّ كى ... يزداد عَفْوُك بعد طَوْلك طُولا(٣)
فالعفوُ أجملُ والتفضل بامرئٍ ... لم يَعْدم الراجون منه جميلا

وواضح أن هذا الاعتذار مكتوب بأقيسة منطقية سديدة .

ولعل الشاعر العباسى لم يُعْنَ بموضوع قديم كما عُنى بالغزل وتصوير عاطفة الحب الإنسانية التى كانت تخفق بأغانيها صباح مساء العيدانُ والطنابير والدفوف والمعازف من كل شكل مختلطة بأصوات المغنيات والمغنين على جميع صور الإيقاعات من الشدة واللين . وكانت المغنيات خاصة أو بعبارة أخرى القيان يعبثن بقلبه هن ومن حولهن من الجوارى والإماء ، وكان يتصل بهن اتصالا غير مقطوع على نحو ما أسلفنا فى الفصل الثانى ، وكل منهن تود لو استحوذت على شاعر ، وبادلته حبًّا بحب وهياماً بهيام . وكاد أن يكون لكل شاعر طائفة من الجوارى يحففن به ، وكان منهن كثيرات يحسنَّ نظم الشعر ، فكن يكتبن أبيات الغزل المثيرة على عصائبهن وثيابهن ، وقد يطارحن بعض الشعراء أبيات العشق والصبابة ، على نحو ما صوَّرنا من ذلك فى غير هذا الموضع .

ومن المحقق أن هؤلاء الجوارى والقيان هن اللائى دفعن المجتمع العباسى فى بعض جوانبه إلى الفساد الخلقى ، إذ كن يَعِشْنَ فى بيوت النخاسة ، وكانت دوراً كبيرة للعبث واللهو ، ولم يكنَّ يستمعن فيها إلى ما يعدل بهن إلى السيرة السوية ، إنما كن يستمعن إلى أحاديث العشق والصبوة ، ومن حولهن الشياطين الذين يستهينون

---

(١) أغانى (طبع دار الكتب) ١٢/٩١ .
(٢) السول : السؤل ، وهو ما يسأله ، وخففت الهمزة للشعر .
(٣) الطول بفتح الطاء : الفضل .

بكل شيء ، بل كان منهم من ينكر أصول الدين إنكاراً غارقاً فى اللذة والمجون من أمثال بشار وأبى نواس . فطبيعى أن تسوء سيرتهن، أو على الأقل سيرة طائفة منهن ، وأن يفتح ذلك الأبواب للغزل الإباحى الذى يَدْفع إليه الجشع الجسدى والذى لا يدع فارقاً بين الإنسان والحيوان ، وهو غزل لم يكن يعرفه العرب فى العصور الماضية ، عصور الوقار والارتفاع عن دَرْك الغرائز النوعية . حقًّا عرفوا الغزل الصريح ، ولكنهم لم يبلغوا مبلغ العباسيين فى الصراحة وما وراء الصراحة من الجهر بالفسوق والإثم دون رادع من خلق أو زاجر من دين .

لذلك كان طبيعيًّا أن يشيع الغزل الماجن فى هذا العصر ، وبلغ من حدّته أن شاع الغزل الشاذ بالغلمان ، فحتّى هذا الغزل المزرى بكرامة الرجل دار على كثير من الألسنة الدنسة . وقد استطاع تراث الغزل القديم أن يكبح جماح هذه الموجة المادية الحادة من بعض الوجوه ، فإن هؤلاء الشعراء الماجنين كانوا يستظهرونه ويتلونه ، وكانوا يرون فيه إكبار الرجل للمرأة وإعزازها ، بل كانوا يرون فيه حبًّا عذريًّا عفيفا ، كله تحفظ واحتشام ، وكله عذاب وآلام . فمزجوا ذلك بنداءات غرائزهم الجسدية . وأيضًا فإنه كان قد تُرجم — على ما يظهر — شيء من الحب الأفلاطونى اليونانى ، وأخذ مفكرو العرب ومتفلسفتهم يتحدثون عن العشق أحاديث فيها كثير من السمو والسعة والعمق ، على نحو ما يلقانا عند المسعودى ، إذ أورد مجلسا ليحيي البرمكى تناظر فيه نفر من المعتزلة والمتكلمين وبعض أهل الملل والنحل فى العشق وحقائقه وظواهره وعذابه وحرارته ولطافة صاحبه ورقته ورهافة شعوره[1] ، وهو حديث أو هى مناظرة دارت كلها حول العشق العفيف الطاهر الذى يستأثر بالقلوب ويملك عليها أهواءها وعواطفها ومشاعرها . وفى رأينا أن هذه المناظرة ترمز بوضوح إلى ما كان فى أيدى الشعراء من كلام عن الحب النقى البريء بالإضافة إلى ما ورثوه عن أسلافهم وخاصة شعراء نجد العُذْريين من الحب السامى الذى يوقد فى القلوب جذوة لا تنطفئ والذى يدلع فيها جحيماً من العذاب لا يطاق . وكل ذلك سرى فى نفوس الغزلين الماجنين من العباسيين ، ومضوا يضيفون إليه من خواطرهم الثرية الخصبة ما أذكى جذوته ، ومن أجل ذلك كنت تقرأ عند بشار وأبى نواس وغيرهما

---

(١) مروج الذهب ٣/٢٨٦ .

من المجان قطعا من الحب الأفلاطونى أو قل من الحب العفيف البرىء الذى يرتفع عن المادة والحس من مثل قول أولهما (١) :

دَعَا بفراق مَنْ تَهْوَى أَبانُ ... ففاض الدَّمْعُ واحترق الجَنَانُ
كأَن شرارةً وقعتْ بقلبى ... لها فى مقلتى ودمى اسْتِنانُ(٢)
إذا أنشدتُ أَو نَسَمتْ عليها ... رياحُ الصَّيف هاجَ لها دُخَانُ

على أنه سرعان ما ظهر شاعر تخصص بالغزل العفيف واشتهر به هو العباس ابن الأحنف ، وسنفرد له فى الفصل السادس ترجمة خاصة . وكانوا فى غزلهم العفيف والصريح الماجن يحرصون دائمًا على أن يملأوا معاصريهم إعجابًا بدقائق معانيهم وطرائف أخيلتهم ، من مثل قول بشار(٣) :

أَتتنى الشمسُ زائرةً ... ولم تك تَبْرح الفَلَكا

وقول أبى نواس(٤) :

كأَن ثيــابه أطلعْ ... نَ من أزراره قَمرَا
يزيدك وجهه حُسْنا ... إذا ما زدته نظرا
بعيْنٍ خالطَ التَّفْتـ ... يرُ من أجفانها الحَورا
وخَــدٌّ سابرىٌّ لو ... تصوَّب ماؤهُ قَطرا

وقول مسلم بن الوليد(٥) :

أُقِرُّ بالذَّنْبِ منى لست أَعرفهُ ... كيما أقول كما قالتْ فنتَّفِقُ
حبستُ دمعى على ذَنْبٍ تجدُّده ... فكلَّ يوم دموعُ العين تَسْتَبِقُ

وقد اتسعت موجة المجون كما مرَّ بنا ، واتسع معها وصف الخمر ، وكان القدماء يصفونها على نحو ما هو معروف عن الأعشى وعدى بن زيد العبادى ، وأخذ

---

(١) أغانى (طبعة دار الكتب) ٣/٢٠٦ .
(٢) استنان : جرى شديد .
(٣) المختار من شعر بشار للخالديين ص ٦٤ .
(٤) الديوان (طبعة آصاف) ص ١٦٥ .
(٥) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٣٩ .

وصفها يكثر فى أواخر عصر بنى أمية عند الوليد بن يزيد وأبى الهندىّ وأضرابهما . ونرى مجالسها ، منذ مطالع هذا العصر ، معقودة فى البصرة والكوفة ، حتّى إذا قامت بغداد نافستهما فى تلك المجالس . وكانت تنبثّ حاناتها فى الكرخ ببغداد وغير الكرخ وفيما وراءه من دور النخاسة والأديرة المنثورة فى ضواحى الكوفة وعلى الطريق منها ومن البصرة إلى بغداد ، فأمّها جميعًا مجان الشعراء هم وغيرهم من عامة الفساق ، وكانوا أخلاطا ، منهم الزنديق الثائر على الإسلام وتعاليمه ، ومنهم الحزين الذى لم تحقق له الدولة أحلامه ، فأكبّ على الخمر يغرق فيها آلامه ، ومنهم المجوسى والدهرى الذى لا يؤمن بأى كتاب سماوى . وقد مضوا جميعًا يعبُّون من الخمر حتّى الثمالة ، وتلقانا منهم منذ أوائل العصر جماعات ألّف المجون والعشق والفسق الآثم بينهم مثل جماعة مطيع بن إياس ووالبة وحماد عجرد ويحيى بن زياد الحارثى فى الكوفة وكانوا يعبُّون الخمر أرطالاً ويتغزلون الغزل المكشوف الماجن بالجوارى والغزل الشاذ الدنس بالغلمان ، متحرّرين من كل خلق وعُرْف ودين ، وفى ذلك يقول مطيع (١) :

اخلعْ عذارك فى الهَوَى   واشربْ معتّقَةَ الدّنانِ
وصِل القبيحَ مجاهرًا   فالعَيْشُ فى وَصْلِ القيانِ
لا يُلْهِينَّك غير مــا   تَهْوَى فإن العُمْرَ فانِ

وتبلغ حدة هذه الموجة غايتها فى عهد الأمين ، إذ حوّل قصر الخلافة إلى ما يشبه مقصفًا للخمور والمجون ، واتخذ أبا نواس نديمه ، وكان يعكف على الخمر والمجون عكوفًا يقترن بعجيج وضجيج وهجوم على مقدمة الأطلال القديمة طالبًا إلى الشعراء أن يضعوا مكانها وصف الخمر المعتقة ، صائحًا بذلك صياحا كثيراً من مثل قوله (٢) :

قُلْ لمن يبكى على رَسْمٍ دَرَسْ (٣)   واقفاً ما ضرَّ لو كان جَلَسْ
تصف الرَّبْعَ ومَنْ كان بهِ   مثل سَلْمَى ولُبَيْنَى وخَنَسْ (٤)

(١) الديارات للشابشتى ص ١٦٦ .
(٢) الديوان (طبعة آصاف) ص ٢٩٩ .
(٣) درس : انمحى.
(٤) لبينى : تصغير لبنى . وخنس : الخنساء .

اتْرُكِ الرَّبْعَ وَسَلْمَى جانباً   واصْطَبِحْ كَرْخِيَّةً مثلَ القبَسْ[١]

وتردد مع هذا الصياح فى خمرياته مجاهرة بأنه يقترف ما يقترف من آثامه دون تفكير فى جنة أو نار ، ولكن من الحق أنه لم يكن زنديقاً ولا شعوبياً ، إنما كان متحلل الأخلاق ساقط المرءوة ، وأكبر الظن أنه اندفع فى مجونه هروباً من واقع نشأته وواقع أمه على نحو ما سنوضح ذلك فى ترجمته ، وكأنه يريد أن ينسى ماضيه وذكرياته السيئة .

وقد انتشر فى العصر شعر الزهد ، وكان أكثر اتصالا بحياة الجماهير من شعر الخمر والمجون ، فإنها لم تكن تعرف ترفاً ولا ما يشبه الترف ، وكانت تعيش حياة دينية مستقيمة يشيع فى بعض جوانبها النسك والعبادة . وإذا كان كتاب الأغانى يفيض بالمجون فإن كتب الطبقات التى ترجمت للفقهاء والمحدثين تفيض بأخبار العبَّاد والزهاد الذين رفضوا الدنيا وشهواتها وملاذها وآثروا ما يبقى على ما يفنى ، ممسكين أيديهم عن أخذ عطاء أو مال من خليفة أو والٍ . ويشيع مع هذه الأخبار كثير من الأشعار التى تصور زهد هؤلاء الناسكين وانصرافهم عن متاع الدنيا الزائل والإقبال على الآخرة بالتقوى والتوكل على الله والعمل الصالح . وقد تبعهم كثير من الشعراء يرددون نفس النغم ، حتى شعراء المجون أنفسهم فإن منهم من كان يثوب إلى نفسه فيعاف ما تردَّى فيه من فسق ومجون ، وحينئذ إما أن يقلع عن غيه إلى الأبد على نحو ما أقلع محمد بن حازم الباهلى [٢] ، وإما أن يقلع إلى حين يطول أو يقصر على نحو ما يلقانا عند أبى نواس مما جعل ديوانه يشتمل على مثل قوله [٣] :

ألا ربَّ وجْهٍ فى التراب عتيق   ويارُبَّ حُسْنٍ فى التراب رقيقِ[٤]
فقل لقريب الدار إنك راحلٌ   إلى منزلٍ نائى المحل سحيق
وما الناس إلا هالكٌ وابن هالكٍ   وذو نسبٍ فى الهالكين عريقِ
إذا امتحن الدُّنْيا لبيبٌ تكشَّفَتْ   له عن عدوٍّ فى ثياب صديق

(١) كرخية : خمراً منسوبة إلى الكرخ ضاحية الملاهى ببغداد .
(٢) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٤/١٠٥ وما بعدها .
(٣) الديوان ص ٢٩٩ .
(٤) عتيق : جميل .

وإذا كان أبو نواس شُغل فى زهدياته بمصير الإنسان فإن ابن حازم ، وغيره كثيرون ، شغلوا بالدعوة إلى القناعة بالكفاف والرضا بالحظ المقسوم والغنى عما فى أيدى الناس والحكام من مثل قوله (١) :

اضْرَعْ إلى الله لاتَضْرَع إلى الناسِ ... واقنَعْ بيأْسٍ فإن العزَّ فى الياسِ
واسْتَغْنِ عن كل ذى قُرْبى وذى رَحِمٍ ... إن الغنيَّ من استغنى عن الناسِ

وأخذت تظهر حينئذ تباشير التصوف ، غير أنه لا يزدهر فى هذا العصر ، إنما يزدهر فى تاليه ، وسنعرض لتلك التباشير فى الفصل السادس ، وأيضًا سنعود إلى الحديث عن الزهد حديثًا أكثر تفصيلا .

٤

موضوعات جديدة

رأينا موضوعات الشعر القديمة تتجدد تجدداً واسعًا فى معانيها ، فقد أخذت تُعْرَضُ بصورة أدق وأعمق ، وأخذت تدخل عليها إضافات كثيرة . ولم يقف الشاعر العباسى عند ذلك فقد أخذ ينمِّى بعض جوانب هذا الشعر حتى لتخرج منه فروع جديدة كثيرة . ونحن نعرضها بترتيب الموضوعات التى تحدثنا عنها ، وأولها مثالية الشيم العربية الرفيعة التى كان يصف بها الشعراء ممدوحيهم ، فقد تناولوا هذه الشيم شيمة شيمة ، وأخذوا يفردونها بمقطوعات أو قصائد ، يجردونها لها محللين ، ومفكرين ملاحظين ، فقطعة فى تصوير الكرم ، وقطعة فى تصوير الحلم ، وقطعة فى تصوير الحياء ، وقطعة فى تصوير العفة ، وقطعة فى تصوير الصبر والتنفير من اليأس من مثل قول محمد بن يسير : (٢)

لا تيأَسنَّ وإن طالتْ مطالبةٌ ... إذا استعنتَ بصبرٍ أن ترى فَرَجَا
إن الأُمور إذا انسدَّتْ مسالكها ... فالصبر يَفْتَحُ منها كلَّ ما ارتَتَجا(٣)

---

(١) العقد الفريد ٣/٢٠٧ .
(٢) أغانى ١٤/٤٢ وقد نسبها ابن المعتز لابن حازم . انظر ص ٣٠٩ .
(٣) ارتتج : أغلق .

أخلقْ بذى الصبر أن يَحْظَى بحاجتِه   ومدمن القَرْع للأبواب أن يَلِجَا[(١)]
فاطلبْ لرجلك قبل الخَطْوِ موضعَها   فمن علا زَلَقاً عن غِرَّة زلَجا[(٢)]

وهيأ ذلك لفتح باب واسع من تحليل الأخلاق المحمودة . وأيضًا فإنهم وسعوا معانى الهجاء وما فيه من أخلاق مذمومة ، فتناولوها هى الأخرى بالبسط والتفصيل منفصلة عن أشعار الهجاء . وبذلك أتاحوا للمربين والمعلمين مادة طريفة لتأديب الناشئة وحثهم على الأخلاق الفاضلة وصدهم عن الأخلاق المذمومة . وقد وقفوا طويلا عند واجبات الأخوة والصداقة واختيار الإخوان والأصدقاء وسَبْر أخلاقهم قبل اصطفائهم فهم على طبقات منهم من يشبه الدواء ومنهم من يشبه الداء ، ومنهم المتصنع الملق الذى يشبه الثمرة المرّة حسنة المنظر ، فإن نزل بك سوء فر منك وازورّ عنك ، وفى ذلك يقول حماد عجرد[(٣)] :

كم من أخٍ لك لستَ تنكرهُ   ما دمتَ من دنياك فى يُسْر
متصنِّع لك فى مـودَّتهِ   يلقاك بالترحيب والبِشْرِ
يُطْرِى الوفاء وذا الوفاء ويَلْـ   حَى الغَدْر مجتهداً وذا الغَدْرِ[(٤)]
فإذا عدا ـ والدَّهر ذو غِيَرٍ ـ   دَهْرٌ عليك عَدَا مع الدَّهْر[(٥)]
فارفُضْ بإجمالٍ مودَّةَ منْ   يَقْلِى المُقِلَّ ويَعْشَقُ المُثْرِى[(٦)]
وعليك مَنْ حالاه واحدةٌ   فى العُسْرِ إما كنتَ واليُسْر
لا تخلطنَّهمُ بغيرهمُ   من يَخْلِطُ العِقْيان بالصُّفْر[(٧)]

وحماد يجعل مقياس الأخوة الصادقة المواصلة فى العسر ، ويعرض علينا صورة الإخاء الكاذب الذى لا يعرف الأخ فيه أخاه إلا فى السراء ، أما فى الضراء فيزورُّ عنه ازوراراً . وجعلهم تفكيرهم فى الأخوة ينهون عن صحبة الحمقى لما تجرُّ من بلاء كثير ،

---

(١) يلج : يدخل .
(٢) زلقا : مكانا زلقاً . غرة غفلة زلج : زلق وزل .
(٣) ابن المعتز ص ٦٨ وأغانى ١٤ / ٣٥٩ .
(٤) يطرى : يمدح . يلحى : يذم .
(٥) عدا الأولى من العداء والثانية من العدو أى الجرى .
(٦) بإجمال : بأدب . يقلى : يكره .
(٧) العقيان : الذهب . الصفر : النحاس .

وفى ذلك يقول أبو العتاهية:[١]

احْذرِ الأَحمقَ أن تصحبه ... إنما الأَحمقُ كالثوب الخَلَق[٢]
كلما رقَّعته من جانبٍ ... زعزعته الريح يوماً فانْخَرَقْ
أو كصدعٍ – فى زجاجٍ–فاحش ... هل ترى صَدْعَ زجاجٍ يلتصق
فإذا عاتبته كى يرعوى ... زاد شرًّا وتمادى فى الحُمُقْ

وكان الشاعر القديم كما أسلفنا يقدم لمدحته بوصف الأطلال معبراً عن حنين قوى للملاعب حبه فى صباه وشبابه ، مستطرداً من ذلك إلى وصف الصحراء ، وقد صورنا ما حدث من إضافات فى هذه المقدمات ، والمسألة تتسع ، فإذا هى توحى للشاعر العباسى بمقطوعات أو قصائد مستقلة وكأنه اتخذ منها نوافذ لموضوعات جديدة ، وهى موضوعات نجد بذورها فى مدائحه ، فقد ذكرنا أنه عدل أحياناً عن وصف الأطلال إلى وصف القصور ، ولكن الذى نسجله هنا أنه ترك أطلال نجد إلى أطلال بعض القصور فى الحاضرة وخصها بمقطوعات مفردة من مثل قول محمد ابن يسير فى قصر خرب[٣] :

ألا يا قصرُ قصرَ النُّوشَجانى ... أرى بك بعد أهلك ما شجانى[٤]
فلو أعنى البلاءُ ديارَ قومٍ ... لفضلٍ منهمُ ولعُظْم شانى
لما كانتْ تُرى بك بَيِّناتٍ ... تلوح عليك آثارُ الزمان

وهذا الموضوع الجديد هو الذى ألهم البحترى فيما بعد سينيته المشهورة فى إيوان كسرى . وقد دفع الحنين الذى صحب وصف الأطلال الشاعر العباسى فى بعض مدائحه إلى بثّ حنين مقابل لوطنه وبلده حين ينأى عنه وتظل روحه ملتصقة به ، ولكن الجديد أنه أفرد لهذا الحنين قطعاً بديعة من مثل قول دعبل[٥]:

ألمْ يأْنِ للسَّفْر الذين تحمَّلوا ... إلى وطنٍ قبل الممات رجوعُ[٦]

(١) العقد الفريد ٦/٣٥٧ .
(٢) الخلق : البالى .
(٣) أغانى (طبع دار الكتب) ١٤/٣٩ .
(٤) شجانى : أحزننى .
(٥) أغانى (ساسى) ١٨/٤٤ .
(٦) يأن : يحق . تحملوا : ارتحلوا .

فقلتُ ولم أملك سوابقَ عَبْرَةٍ نَطقْنَ بما ضُمَّتْ عليه ضُلوعُ
تَبَيَّنْ ، فكم دارٍ تفرَّق شَمْلُها وشَمْلٍ شتيتٍ عاد وهْو جَميعُ
كذاك الليالى صَرْفُهنَّ كما ترى لكل أُناسٍ جَدْبَةٌ ورَبيع (١)

ومرَّ بنا أن الشاعر العباسى كان يحتفظ أحيانًا فى مقدمات مدائحه بوصف الصحراء وأحيانًا يتركها إلى وصف الطبيعة فى الحاضرة ببساتينها ورياحينها ، وقد أخذ يخص هذه الطبيعة بمقطوعات وقصائد كثيرة ، بحيث أصبحت موضوعًا جديدًا واسعًا ، وكان يمزج نشوته بها فى بعض الأحيان بنشوة الحب أو نشوة الخمر وسماع القيان ، وفى كثير من الأحيان كان يقف عند تصوير فتنته بها وبورودها ورياحينها من مثل قول إبراهيم بن المهدى فى النرجس(٢) :

ثلاثُ عيونٍ من النَّرْجِسِ على قائمٍ أخْضَرٍ أمْلَسِ
يذكِّرُنى طِيب رَيَّا الحبيبِ فيَمْنَعُنِى لذَّة المجلِسِ (٣)

وقد أكثروا من وصف الأمطار والسحب ، كما أكثروا من وصف الرياض وخاصة فى الربيع حين تتبرج الطبيعة بمناظرها الفاتنة . وعبروا عن أحاسيسهم ومشاعرهم أحيانا خلال هذا الوصف ، مما جعلهم يخاطبون بعض عناصرها ، وكأنها أناسىّ تحمل عواطف الإنسان ويصيبها ما يصيبه من ريب الزمان ، ومن خير ما يصور ذلك مخاطبة مطيع بن إياس لنخلتى حلوان على هذه الشاكلة (٤) :

أَسْعِدانِى يا نَخلَتَىْ حُلْوانِ وابْكيالى من رَيْب هذا الزمان(٥)
واعلما أن رَيْبه لم يزل يَفْـ رُق بين الأُلَّاف والجيرانِ
ولعمرى لو ذقتما ألم الفُرْ قة أبْكا كما الذى أبْكانى
أسعدانى وأيْقِنا أنَّ نَحْساً سوف يلقاكما فتَفْتَرِقانِ
كم رمتنى صروفُ هذى الليالى بفراق الأَحباب والخُلَّانِ

(١) جدبة : المرة من الجدب وهو القحط .
(٢) أغانى (طبع دار الكتب) ١٠ / ١١٥
(٣) الريا : الرائحة الجميلة .
(٤) أغانى (طبع دار الكتب) ١٣ / ٣٣١ .
(٥) حلوان : من بلاد العراق فى طرفه الشمالى مما يلى إيران . أسعدانى أعينانى بالدموع .

ونرى شعراء كثيرين يعنون بوصف مظاهر الحضارة العباسية المادية وما يتصل بها من الترف فى الطعام والتأنق فى الملابس والثياب ، ووصف القصور وما حولها من البساتين وما يجرى فيها من الظباء والغزلان من مثل قول أبى عيينة المهلبى فى وصف قصر ابن عمه عمر بن حفص المهلبى [١] :

فيا طيبَ ذاك القَصْرِ قصرًا ومنزلا ... بأفْيَحَ [٢] سَهْلٍ غيرِ وَعْرٍ ولا ضَنْكِ
بِغَرْسٍ كأَبْكار الجوارى وتُرْبةٍ ... كأَن ثَراها ماءُ وَرْدٍ على مِسْكِ
وسِرْبٍ من الغِزْلانِ يَرْتَعْنَ حوله ... كمااستُلَّ منظومٌ من الدُّرِّ من سِلْكِ

وأكثروا من وصف الحيوان والطير والحشرات ، واشتهر بذلك خلف [٣] الأحمر وجهم [٤] بن خلف ، وفى كتاب الحيوان للجاحظ من ذلك مادة وافرة .

وعلى هذا النحو نفذ الشاعر العباسى من وصف الشاعر القديم للصحراء وحيوانها الأليف والوحشى إلى وصف بيئته بجميع مظاهرها وعناصرها الصامتة والمتحركة ، وقد وصف وصفًا دقيقًا الأمراض والآفات التى انتابته ، ويصور ذلك من بعض الوجوه قصيدة لعبد الصمد بن المعذَّل يصف فيها حمى اعترته ، وفيها يقول [٥] :

وبنتُ المنية تنتابنى ... هُدُوًّا [٦] وتطرقنى سُحْرَهْ
كأَن لها ضَرَماً فى الحشا ... وفى كل عضوٍ لها جَمْرَهْ
لها قُدْرةٌ فى جسوم الأَنامِ ... حباها بها الله ذو القُدْرَهْ
وطورًا أُلقِّبها سُخْنةً ... وطوراً أُلقِّبها فَتْرَه
وصِرْتُ إذا جُعْتُ يوماً ظَلِلْتُ ... كأَنَّ على كبدى شَفْرَه [٧]
ويربو الطحالُ إذا ما شَبِعْتُ ... فتعلو التَّرائبُ والصُّدْرَه [٨]

---

(١) الشعر والشعراء ص ٨٥٣ والأغانى (طبعة الساسى) ١٨ / ١٤ .
(٢) أفيح : أوسع ، أولعله من فائحة الرائحة .
(٣) الحيوان ٤ / ٢٧٩ .
(٤) الحيوان ٣ / ٢٤٢ وانظر الهامش .
(٥) الوساطة بين المتنبى وخصومه (طبعة الحلبى) ص ١٢١ .
(٦) الهدو : أوائل الليل . سحرة : وقت السحر .
(٧) الشفرة : حد السيف وجانب النصل .
(٨) الصدرة : الصدر .

وأمسى كأنىَ من معدتى لبستُ الثياب على زُكْرَهْ[١]
إذا ما رأيت امرءًا مُطْلَقاً له الأَكلُ تخنقنى العَبْره[٢]
كأنى فى منزلى مُخْصِباً بِبَلْقَعَةٍ جَدْبَةٍ قَفْرَه

وهو وصف دقيق لأثر الحمى فى الجسم وأوقاتها التى تفد فيها وآلامه مع الجوع والأكل وما يحس به فى جوفه من مرارة وحدة . وقد صور شعوره بالحرمان وغبطته الأصحاء على ما يطعمون ، وبيته حافل بألوان الغذاء ، ولكنه يشعر كأنما هو فى فلاة مجدبة .

وقد رأينا أبا تمام يخلط بعض مقدمات مدائحه بالشكوى من الزمن ونوازله ، وقد نظم هو نفسه قصائد خصها ببث شكواه من الدهر وهمومه [٣] ، وشركه فى ذلك بعض الشعراء ، مما جعل هذا الباب يتسع منذ هذا العصر ويصبح أحد الموضوعات الأساسية فى دواوين الشعراء ، وخاصة دواوين العصر التالى ، إذ ساءت أحوال المجتمع وانعكست أصداء ذلك على نفسيات الشعراء وبالتالى على أشعارهم .

ومرّ بنا اتساع الشعراء بمراثيهم حتى شملوا بها الطير والحيوان والبساتين والمدن ، وكان منهم من يبكى فى مقدمات مدائحه أحياناً الشباب فى بيت أو أبيات قليلة. وسرعان ما رأينا القصائد تستقل بهذا الموضوع ،ومن أروعها قصيدة محمد بن حازم ، وفيها يقول[٤] :

سَقْياً ورَعْياً لأيام الشباب وإنْ لم يبق منه له رَسْمٌ ولا طَلَلُ
ليت المنايا أصابتْنى بأسْهُمها فكنَّ يبكين عهدى قبلَ أكْتهلُ
عهدَ الشباب لقد أبقيت لى حَزَناً ما جَدَّ ذكرك إلا جَدَّ لى ثَكلُ[٥]

ومما استحدثوه من المراثى محللين لمشاعرهم تحليلا دقيقاً بكاؤهم حين يخبو نور البصر ، وممن أكثروا من تصوير هذه المشاعر أبو يعقوب الخُرَيْمِىّ ، وكان قد أصبح ضريراً ، حين طعن فى السن ، فتحول يصور أحاسيسه ، متفجعا على عينيه

(١) الزكرة : زق الخل .
(٢) البلقعة : الفلاة .
(٣) الديوان (طبعة بيروت) ص ٣٧٥ ، ٣٨٠ .
(٤) أغانى (طبع دار الكتب) ١٤/٩٤ .
(٥) الثكل : الحزن على فقد الولد .

تفجعًا يبعث الأسى فى النفس من مثل قوله[(١)] :

أُصْغِى إلى قائدى ليخبرنى إذا التقينا عَمَّنْ يحيِّينى
أُريد أن أَعْدِلَ السَّلامَ وأن أفصلَ بين الشريف والدُّونِ
أسمع مالا أرى فأكره أن أخطِئَ والسمعُ غيرُ مأْمونِ
لِلّهِ عينى التى فُجِعْت بها لو أن دهراً بها يواتينى
لو كنت خُيِّرتُ ما أخذتُ بها تعميرَ نوحٍ فى ملك قارون

وقد صوروا كثيراً من العواطف الدقيقة ، من ذلك التعاطف الرقيق بين الأب وبنيه وبناته وما يطوى فيه من الرحمة والبر والحنان ، على نحو ما يلقانا عند ابن يسير مصوراً عطفه على بنيَّة له وكيف يستأثر به ويجشمه اقتحام المصاعب من أجل سعادتها ، وكيف يحبِّبه فى الحياة خَوْفًا عليها من ذل اليتم وجفوة الأهل ، وإنه ليشفق عليها حتى من الدموع التى سترسلها حين يتأهب لمفارقة الحياة ، يقول[(٢)] :

لولا البُنَيَّةُ لم أجزع من العَدَمِ ولم أَجُبْ فى الليالى حِنْدِسَ الظُلَمِ[(٣)]
وزادنى رغبةً فى العيش معرفتى ذُلَّ اليتيمة يجفوها ذوُو الرَّحِمِ
أَخْشَى فظاظة عَمٍّ أو جفاءَ أخٍ وكنت أخشى عليها من أَذَى الكَلِمِ
إذا تذكرتُ بِنْتِى حين تندبنى جَرَتْ لِعبْرَة بنتى عَبْرتى بِدَمِ

وحلَّلوا كثيراً من المشاعر ، من ذلك شعور الزوج بالغَيْرة الشديدة على زوجته وما يجر ذلك عليهما من البلاء ، وللخريمى فى ذلك مقطوعة بديعة يفرق فيها بين الغيرة المطلوبة فى حينها وبين الغيرة التى تتحول إلى ما يشبه مرضا يعزّ دواؤه ، فإذا الزوج يشك فى زوجته ، حتى ليعصف بها شكه ، فإذا هى توشك أن تتردى فى مسالك الريبة . وينصحه أن يمنحها ثقته وأن لا يشوب سلوكه بريبة ، فتسير سيرته المعوجة ويَفْسد عليه كلّ شيء ، وفى ذلك كله يقول[(٤)] :

---

(١) الحيوان ٣/١١٣ والشعر والشعراء ص ٨٣٠ .
(٢) ابن المعتز ص ٢٨١ .
(٣) العدم هنا : الموت . الحندس شدة الظلمة .
(٤) عيون الأخبار ٤/٧٩ والشعر والشعراء ص ٨٣٤ .

ما أحسن الغَيْرَةَ فى حِينها وأقْبَحَ الغَيْرَةَ فى كلِّ حينْ
من لم يزل متَّهِما عِرْسَهُ متَّبعا فيها لقول الظَّنون (١)
يوشك أن يُغْرِيَهــا بالذى يـخاف أن يُبْرِزها للعيون
حَسْبُكَ من تحصينها وَضْعُها منك إلى عِرْضٍ صحيحٍ ودينْ
لا تَطَّلِعْ منك على رِيبةٍ فيتبعَ المقرونُ حَبْلَ القَرينْ

وقد صوروا تصويراً دقيقاً حياة البؤس والمسغبة التى كان يرزح تحت أثقالها جماهير الشعب ، ومن خير ما يمثل ذلك مقطوعة لأبى فرعون الساسى يصور فيها جوع عياله وكيف يبيتون فى الشتاء القارص عُراة لا يجدون ما يحميهم من هول البرد وزمهريره ، وهى تجرى على هذا النمط (٢) :

وصِبْيَةٍ مثل صغار الذَّرِّ سود الوجوه كسواد القِدْرِ (٣)
جــاءهمُ البَرْدُ وهم بِشَرٍّ بغير قُمْص وبغير أُزْرِ
تراهمُ بعد صلاة العَصْرِ وبعضهم ملتصقٌ بِصَدْرِى
وبعضهم ملتصق بظهــرى وبعضهم مُنْحَجِرٌ بحِجْرِى
إذا بكوا عَلَّلْتهم بالفَجْرِ حتى إذا لاحَ عمود الفَجْرِ
ولاحت الشمس خرجتُ أَسْرِى عنهم وحَلُّوا بأُصول الجُدْرِ
كأنَّهم خنافسٌ فى جُحْر

وقد أسلفنا فى حديثنا عن الحياة الاجتماعية ولع الخلفاء بالصيد ، وكيف كانوا يخرجون إليه فى مواكب حافلة ، ومعهم البزاة والصقور والكلاب ، وتبعهم فى هذا الصنيع الوزراء وعِلْيَةُ القوم . وقد نظم الشعراء فى هذه المتعة الرياضية أراجيز كثيرة سموها الطرديات ، وأكثر من النظم فيها أبو نواس ، وأحسن غاية الإحسان فى وصف الكلاب « لأنه كان قد لعب بها زمانا وعرف منها ما لا تعرفه الأعراب » . وحقا سبقه فى هذا الموضوع بعض شعراء العصر الأموى من مثل الشمردل

(١) الظنون : سيء الظن .
(٢) ابن المعتز ص ٣٧٧ وانظر كتاب الورقة لابن الجراح (طبع دار المعارف) ص ٥٤ .
(٣) الذر : النمل .

وأبى نُخَيْلة ، ولكنه هو الذى مدَّ طُنُبه وفتح أبوابه ، لا من حيث كثرة ما نظمه فيه فحسب ، بل أيضًا من حيث دقة وصفه لأدواته وجوارحه مما جعل الجاحظ ينوِّه بطردياته طويلا فى الجزء الثانى من كتابه « الحيوان » وقد أنشد منها طائفة معجَّبًا ببراعته وحذقه ، من مثل قوله فى إحداها [١] :

ما البرقُ فى ذى عارضٍ لمَّاحِ ولا انقضاضُ الكوكبِ المُنْصاحِ [٢]
ولا انبتاتُ الدَّلْوِ بالمتَّاحِ أجدُّ فى السُّرْعة من سِرْياحِ [٣]
يطير فى الجوِّ بلا جَناحِ يفترُّ عن مثل شَبَا الرِّماحِ [٤]
فكم وكم ذى جُدَّةٍ لَيَاحِ ونازبٍ أعْفَرَ ذى طِماحِ [٥]
غادره مضرَّجَ الصِّفاحِ [٦]

وكانت مجالس الخلفاء والوزراء والأمراء تعنى بالنوادر والفكاهات ، كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع ، وهيَّأ ذلك لشيوع روح الهزل فى بعض المقطوعات والقصائد ، وكانوا أحيانًا يختارون لذلك بعض القصائد التى اشتهرت بقوتها الحماسية مثلا ، فيقلبونها فى الدعوة إلى اللهو والتواصى بشرب الخمر [٧] ، وأحيانًا يختارون موضوعًا جادًّا ، كقصة العشق العذرى الذى كان يفضى بأصحابه — كما يقول القصاص — إلى الجنون أو الموت ، فيجرونه على لسان حمار أحب ومات عشقًا ، مما نلقاه عند بشار ، فقد ذكر الرواة أنه مات له حمار ، فانتظر حتى اجتمع إليه رفاقه ، فأظهر لهم أنه مغموم محزون ، وألحوا عليه يريدون أن يعرفوا سبب حزنه وغمه ، فقال لهم : إننى رأيت حلمًا مزعجًا : رأيت حمارى فى النوم فقلت له : ويلك ! مالك متَّ ؟ قال : إنك ركبتنى يوم كذا فمررنا على باب

---

(١) الحيوان ٢/٦٨ .
(٢) العارض: السحاب . المنصاح : المضىء.
(٣) انبتات الدلو : انقطاعها وهويها . المتاح : الذى يستقى بالدلاء . وسرياح : اسم الكلب الذى يصفه .
(٤) شبا الرمح : حده .
(٥) ذو الجدة : حمار الوحش ، والجدة : الخطة السوداء فى ظهره . لياح : أبيض . النازب الظبى . الأعفر : مايعلو بياضه حمرة . طماح : جماح .
(٦) الصفاح : الجوانب . يريد أنه تركه مضرجاً بدمائه .
(٧) ابن المعتز ص ٢٢٧ .

الأصبهانى فرأيت أتانا عند بابه ، فعشقتها فمتّ . وزعم بشار أنه أنشده هذه المقطوعة :

سَيِّدى ! مِلْ بعِنانى نحو باب الأَصْبهانى
إنَّ بالباب أتاناً فضلتْ كلَّ أتانِ
تيَّمَتْنى يوم رُحْنا بثناياها الحِسان
تيَّمَتْنى ببَنَانٍ وبدَلٍّ قد شَجانى
وبحُسْنٍ ودَلالٍ سَلَّ جسمى وبَرانى
ولها خَدٌّ أَسِيلٌ مثلُ خَدِّ الشَّيْفَران
فبِها مِتُّ ولو عِشْتُ إذن طال هَوانى

فقال له أحد جُلسائه : ما الشيفران ؟ قال : ما يُدْرينى هذا من غريب الحمير ! فإذا لقيتم حماراً فسلوه[١] . ولعلهم لم يكثروا من التندير على شىء كما أكثروا من التندير على اللِّحَى ، وكان كثير من أهل الوقار يطيلونها ويعرِّضونها جدًّا ، فتندَّر عليهم الشعراء طويلا من مثل قول مروان بن أبى حفصة فى لحية شيخ يسمى رَباحا[٢] :

لقد كانت مجالسُنا فِساحاً فضيَّقها بلحْيته رَباحُ
مبعثرةُ الأَسافل والأَعالى لها فى كلِّ زاويةٍ جَناحُ

ولم نتحدث حتى الآن عن فن استحدثه الشعراء العباسيون ، ولم تكن له أى أصول قديمة ، ونقصد فن الشعر التعليمى الذى دفع إليه رقى الحياة العقلية فى العصر ، فإذا نفر من الشعراء ينظمون بعض القصص أو بعض المعارف أو بعض السير والأخبار . ومن أوائل ما يلقانا من ذلك تحدث صفوان الأنصارى فى أشعاره عن فضل الأرض وما تحمل من كنوز ومعادن كريمة[٣] . ولا ريب فى أن أبان ابن عبد الحميد هو الذى عمل على إشاعة هذا الفن الشعرى الجديد ، فقد نظم فيه

(١) أغانى ٣ / ٢٣١ والعقد الفريد ٦ / ٤٤٢ .
(٢) عيون الأخبار ٤ / ٥٦ .
(٣) البيان والتبيين ١ / ٢٧ وما بعدها .

تاريخـًا وفقهـًا وقصصـًا كثيراً[١] ، فأما التاريخ فنظم فيه سيرتى أردشير وأنوشروان ، وأما الفقه فنظم فيه الأحكام المتعلقة ببابى الصوم والزكاة ، وصنع قصيدة فى مبدأ الخلق وضمنها شيئـًا من المنطق . وأهم من ذلك كله أنه نظم فى القصص كتاب كليلة ودمنة فى أربعة عشر ألف بيت . وفى كتاب الأوراق للصولى قطعة كبيرة من منظومته الفقهية وقطع أخرى من نظمه لكليلة ودمنة ، ونراه يستهلها بقوله[٢] :

هذا كتابُ أَدَبٍ ومِحْنَهْ وهْو الذى يُدْعَى كليله دِمْنَهْ
فيه دلالاتٌ وفيه رُشْدُ وهْو كتابٌ وضعتْه الهِنْدُ
فوصفوا آداب كلِّ عالَمِ حكايةً عن أَلْسُنِ البهائمِ
فالحكماءُ يعرفون فَضْلَهُ والسخفاءُ يشتهون هَزْلَهُ
وهْو على ذاك يسيرُ الحفظِ لذٌّ على اللسان عند اللَّفْظ

ويتأثره ابنه حمدان فى هذا الضرب من الشعر التعليمى فينظم مزدوجة طويلة مسرفة فى الطول يصف فيها الحب وأهله وطبيعته وصوره المختلفة. وعلى قَبَسٍ من عمل أبان ينظم أبو العتاهية مزدوجته التى سماها « ذات الأمثال » وهى — كما يتضح من اسمها — حكم وأمثال ، ويقال إنها كانت تبلغ أربعة آلاف بيت . وقد أنشد أبو الفرج فى ترجمته قطعة منها ، ومن قوله فى تضاعيفها[٣] :

حَسْبُكَ مما تَبْتغيه القوتُ ما أكثر القوتَ لمن يموتُ
لكل ما يُؤْذى — وإن قَلَّ — أَلَمْ ما أَطولَ الليلَ على مَنْ لم يَنَمْ
ما انتفع المَرْءُ بمثل عقلهِ وخيرُ ذُخْرِ المرءِ حُسْنُ فعـلهِ
إن الفساد ضِدُّه الصلاحُ وربَّ جِدٍّ جَرَّه المُزَاحُ

واقتفى محمد بن إبراهيم الفزارى أثر أبان ، فنظم فى علم النجوم مزدوجة طويلة ، يقول ياقوت إنها كانت تدخل فى عشرة مجلدات ، وقد بناها من ثلاثة أقفال أو

---

(١) انظر ترجمة أبان فى كتاب الأوراق للصولى (قسم أخبار الشعراء) وفى الأغانى (طبع الساسى) ٢٠/٧٣ .

(٢) الأوراق للصولى (قسم أخبار الشعراء) ص ٤٦ .

(٣) أغانى (طبع دار الكتب) ٤/٣٦ .

ثلاثة شطور ، ثلاثة شطور ، على هذا النمط[١] :

الحمد لله العليّ الأَعظم ذى الفضل والمجد الكبير الأكرم
الواحدِ الفَرْد الجواد المنعم
الخالقِ السَّبْعَ العُلا طِباقا والشَّمْسَ يجلو ضَوْءُ ها الإغساقا[٢]
والبَدْرَ يملأ نورهُ الآفاقا

ودخلت شعاعات من هذا الفن التعليمى الجديد إلى بيئات الأخباريين ، فإذا الأصمعى ينظم قصيدة طويلة فى ذكر الملوك والجبابرة الهالكين والأمم الخالية البائدة [٣] وتتكاثر هذه الشعاعات فى بيئات المتكلمين ، فإذا مَعْدان الأعمى الشيعى الشُّمَيْطِىُّ أحد متكلمى الشيعة الإمامية ينظم قصيدة طويلة فى أصناف الشيعة وعقائدهم ، مقدماً عليهم فرق الشميطية الغالية[٤] . ولعل متكلماً لم ينظم فى هذا الفن كما نظم بشر بن المعتمر المعتزلىّ المشهور ، فقد أكثر من النظم فى الردّ على أصحاب المقالات والنحل المختلفة ، وقد ساق له الجاحظ فى الحيوان قصيدتين طويلتين[٥] يمكن أن يدخلا من بعض الوجوه فى علم التاريخ الطبيعى إذ تحدث فيهما عن الحشرات وأصناف الحيوانات ، وما يتجلّى فيها جميعاً من حكمة الله البالغة فى خلقه العجيب . ومن نمطهما قصيدة الحكم بن عمرو البَهْرانىّ فى غرائب الخلق[٦] وقصيدة هرون مولى الأزد فى وصف الفيل وصورة خلقه وتركيبه [٧] .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يصور النشاط العقلى والفنى للشاعر العباسى وكيف كان يحرص على التجديد ، فهو يشتق من الشعر القديم موضوعات جديدة لمقطوعاته وقصائده ، ولا يكتفى بها ، بل ما زال يكتشف موضوعات أخرى ، تلهمه بها بيئته الحضارية وحياته العقلية الراقية ، ولم يلبث أن اهتدى إلى الشعر التعليمى ، فسجّل فيه كثيراً من القصص والتاريخ والدين والعلم والحكمة .

---

(١) معجم الأدباء (طبعة القاهرة) ١١٨/١٧

(٢) السبع : هى السموات السبع . طباقاً : لمطابقة بعضها بعضاً . الإغساق : الظلام .

(٣) الحيوان ١٤٩/٦ .

(٤) الحيوان ٢٦٨/٢ والبيان والتبيين ٢٣/١ ، ٧٥/٣ ، ٣٥٦ .

(٥) الحيوان ٢٨٤/٦ ، ٢٩١ .

(٦) الحيوان ٨٠/٦ .

(٧) الحيوان ٧٦/٧ .

٥

التجديد فى الأوزان والقوافى

سبق أن تحدثنا فى كتاب « العصر الإسلامى » عن مدى ما أثّر به الغناء المستحدث حينذاك فى موسيقى الشعر وألحانه، إذ ساد فيه نَظْمُ المقطوعات القصيرة فى الغزل وأخذ الشعراء يصفّون موسيقاهم حتى غدت بعض تلك المقطوعات أنغاماً خالصة: نغمة حلوة بجانب نغمة حلوة. وقد مضى شعراء الغزل يَعْدلون غالباً عن النظم فى الأوزان الطويلة المعقدة إلى النظم فى الأوزان الخفيفة البسيطة، فإن ألموا بالأوزان الأولى جزّءوها غالباً حتى تحمل ما يريد المغنون والمغنيات من أنغام مجهورة أو مهموسة، ومن أجل ذلك أكثروا فيها من الحروق أو بعبارة أخرى من الزحافات، إكثارا نفذ منه الوليد بن يزيد إلى استكشاف وزن المجتثّ وصُنْع بعض المقطوعات فيه.

وانتقلت موجة هذا الغناء فى أواخر العصر الأموى إلى الكوفة، حتى إذا كان العصر العباسى الأول بلغت فى مدن العراق كلّ ما كان يُنْتَظَرُ لها من حدة وقوة، فمن جهة صُفِّيَتْ لغة الشعر وبلغت كل ما يمكن من رشاقة وعذوبة ونعومة على نحو ما مرّ بنا فى أوائل هذا الفصل، ومن جهة ثانية اتسعت الملاءمات الموسيقية العروضية مع الغناء، فإذا القصيدة الطويلة تكاد تختص بالشعر الرسمى: شعر المديح والرثاء، بينما تشيع المقطّعات فى الغزل والهجاء والمجون والزهد والحكم. ومضى الشعراء ينظمون — على هدى الشعراء الأمويين — فى الأوزان الخفيفة والمجزوءة وفى وزن المجتث الذى اقترحه الوليد بن يزيد، ومِنْ خير مَنْ يمثّل ذلك مطيع بن إياس الكوفى فإننا حين نتصفح الشعر المبثوث فى ترجمته بكتاب الأغانى نجد كثرته من مجزوءات الخفيف والبسيط والرجز والكامل والرمل أو من الهزج أو من المجتث على شاكلة قوله[1] :

ويلىَ ممّن جَفَانى وحبُّــه قد بَرانى

(١) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٣ / ٢٩٢ .

وَطيْفُـــهُ يلقـــانى وشَخْصُـــهُ غيرُ دانى
أغرُّ كالبدر تَغْشَى بحسنـــه العَيْنانِ

ولم يلبث الشاعر العباسى أن حاول النفوذ إلى أوزان جديدة ، وإذا هو يكتشف وزنين سجلهما الخليل بن أحمد حين وضع نظرية العروض ، وهما وزنا المضارع والمقتضب ، أما المضارع فأجزاؤه مفاعيلن فاع لاتن مفاعيلن ، ودائمًا تُحذَفُ فيه التفعيلة الأخيرة ، ومنه مقطوعة أبى العتاهية [١] :

أيا عُتْبَ ما يضرُّ ك أن تطلقى صِفادى[٢]

وأما المقتضب فأجزاؤه مفعولات مستفعلن مستفعلن ، وتُحذَفُ منه التفعيلة الأخيرة أيضًا ، كما يلقانا عند أبى نواس فى مقطوعته[٣] :

حاملُ الهَوَى تَعِبُ يستخفُّـــه الطَّربُ
إن بكى يحقُّ له ليس ما به لَعِبُ

وواضح أن هذا الوزن أكمل نغماً وإيقاعاً من سابقه ، ولعل ذلك هو الذى جعله يشيع ويتداوله الشعراء ، بينما كادوا يهملون المضارع . واكتشف الشـــاعر العباسى أيضًا وزن المتدارك أو الخبب ، ويقال إن الخليل لم يسجله فى عروضه ، إنما سجله تلميذه الأخفش[٤] ، ولكنه إن كان لم يقترح له اسما فإنه عرفه ونظم منه أشعارًا مختلفة[٥] ، من مثل :

أبكيتَ على طَلَلٍ طَرَباً فشَجاك وأحزنك الطَّلَلُ

ومثل :

ليسَ المرءُ الحامى أنْفاً مثلَ المرء الضَّيمْ ِ الراضى[٦]

---

(١) الفصول والغايات لأبى العلاء ص١٣٢ .
(٢) الصفاد : القيد .
(٣) الديوان ص ٣١٦ .
(٤) شرح الدمنهورى على الكافية (طبع مكتبة محمود توفيق) ص ٣٩ .
(٥) إنباه الرواة ١/٣٤٢ وانظر مراتب النحويين لأبى الطيب اللغوى ص ٣٢ .
(٦) الحامى أنفا : العزيز الأبى . الضيم : الذليل .

وبذلك وضع للشاعر العباسي منه نماذج كي يحاكيها ، وكان أولَ مَن بادر إلى محاكاته — فيما نظن — أبو العتاهية فله على نسق مقطوعته الثانية بيتان نظمهما فى بعض القضاة على هذه الشاكلة[1] :

همُّ القاضى بَيْتٌ يُطْرِبْ قال القاضى لما طولِبْ
ما فى الدنيا إلا مُذْنِبْ هذا عُذْر القاضى واقلبْ

والحق أن الخليل اكتشف للشعراء أوزاناً جديدة كثيرة لم يستخدمها أسلافهم ، وذلك أنه — كما مر بنا فى غير هذا الموضع — استضاء بفكرة التباديل والتوافيق الرياضية فى وضع عروض الشعر ، إذ جعل أوزانه تدور فى خمس دوائر أو بعبارة أدق تدور أجزاؤها من الأسباب والأوتاد ، فإذا هو يحصى الأوزان التى استخدمها العرب واضعاً لها ألقابها ويحصى أو يستنبط أوزاناً أخرى مهملة لم يستخدموها فى أشعارهم ، كي ينفذ منها الشاعر العباسي إلى ما يريد من تجديد فى أوزان الشعر وبحوره . وكان من أوائل من استغلوا صنيعه تلميذه عبد الله بن هرون بن السَّمَيْدع البصرى ، وفيه يقول أبو الفرج : « أخذ العروض عن الخليل بن أحمد ، فكان مقدَّما فيه وانقطع إلى آل سليمان بن على ، وأدَّب أولادهم ، وكان يمدحهم كثيراً . وكان يقول أوزاناً من العروض غريبة فى شعره ، ثم أخذ ذلك عنه ونَحا نحوه فيه رُزَيْن العَرُوضى ، فأتى فيه ببدائع جَمَّة ، وجعل أكثر شعره من هذا الجنس »[2] . ولم يصلنا من شعره سوى قصيدة واحدة احتفظ بها ياقوت فى معجمه ، وهى فى مديح الحسن بن سهل وزير المأمون ، وأولها :

قَرَّبوا جمالهمُ للرحيل غُدْوَةً أحبَّتك الأَقربوك
خَلَّفوك ثم مضوا مدلجين مفرداً بهمِّك ما ودَّعوك[3]

وإذا أنعمنا النظر فيها وجدناها تجرى على وزن من أوزان الخليل المهملة ، هو عكس وزن المنسرح ، فوزنها مفعولات مستفعلن فاعلن . وربما كان أهم شاعر

---

(١) المسعودى ٣ / ٣٦٠ .
(٢) أغانى (طبع دار الكتب) ٦٦ / ١٦٠ .
(٣) مدلجين : سائرين ليلا .

نابه عُنى بصنع أشعار على تلك الأوزان المهملة ، هو أبو العتاهية ، فقد روى له ابن قتيبة قوله [١] :

للمنون دائراتٌ يُدِرْن صَرْفَها هُنَّ ينْتَقينَنا واحداً فواحدا

وقوله :

عُتْبَ ما للخيال خَبِّريني ومالى لا أراه أتانى زائرًا مُذْ ليالى

ووزن البيت الأول فاعلن مستفعلن مرتين فهو عكس البسيط بينما وزن البيت الثانى فاعلن فاعلاتن مرتين وهو عكس وزن المديد . والوزنان جميعًا من الأوزان المهملة التى تستنبط من دوائر الخليل . على أنه ينبغى أن نعرف أن هذه الأوزان المهملة التى استخدمها أبوالعتاهية ورزين وابن السميدع لم تشع على ألسنة العباسيين ، وكأنهم أحسوا نقص أنغامها وإيقاعاتها بالقياس إلى الأوزان المستعملة . وينسب إلى هذا العصر وزن شعبى هو وزن « المواليا » ويقال إن سبب ظهوره أن الرشيد منع الناس من رثاء البرامكة ، فلم يجرءوا على رثائهم ، ولكن جارية لجعفر بن يحيى البرمكى بكته فى أشعار نظمتها من هذا الوزن بالعامية ، وكانت تختمها بكلمة « يامواليه » غير أن هذه القصة — فيما يظهر — أسطورة إذ لم يثبت أن الرشيد منع الشعراء من رثاء البرامكة ، وفى كتب الأدب من مراثيهم أشعار كثيرة . ولعل مما ينقضها نقضًا أن ابن تغرى بردى أنشد مواليا للعتّابى شاعر البرامكة والرشيد على هذا النمط [٢] :

يا ساقياً خُصَّنى بما تهواهُ لا تمزج أقداحى رعاك الله

دَعْها صِرْفاً فإننى أمزجها إذ أشربها بذكر من أهواه

وكأن المواليا لم تبدأ عامية ملحونة ، وإنما بدأت فصيحة ، ثم تحولت إلى العامية ، إذ ازورّ عنها شعراء الفصحى كما ازورُّوا عن الأوزان المهملة السابقة .

وعلى نحو ما جدّدوا — لهذا العصر — فى الأوزان جدّدوا فى القوافى مستحدثين ما سموه باسم المزدوج والمسمَّطات ، أما المزدوج فالقافية فيه لا تطرد فى الأبيات ، بل تختلف من بيت إلى بيت ، بينما تتحد فى الشطرين المتقابلين ، وعادة تُنْظم من

(١) الشعر والشعراء ص ٧٦٦ .

(٢) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٢ / ١٨٦

بحر الرجز . وتُنْسَبُ إلى الوليد بن يزيد منظومة من هذا الطراز صاغ فيها خطبة من خطب يوم الجمعة[١] ، وإذا صح ذلك كان هو أول من استحدثه ، ثم تلاه العباسيون وفى مقدمتهم بشار ، إذ نعته الجاحظ بأنه صاحب مزدوج[٢] ، وإن كنا لا نجد منه أمثلة فيما طُبع من ديوانه . وبمجرد أن ظهر الشعر التعليمى ازدهر هذا الضرب الجديد ، إذ صاغ أبان بن عبد الحميد فيه كل ما نظمه من قصص وتاريخ وعلم ودين ، وكذلك صنع محمد بن إبراهيم الفزارى فى مزدوجته الفلكية ، وإن جعل وحدتها ثلاثة شطور لا شطرين . وقد نظم أبو العتاهية من هذا النمط الجديد مزدوجته « ذات الأمثال » وسبق أن اقتبسنا منها أبياتًا . ويقول الجاحظ إنه لم يكن أحد أقْوَى على النظم فى المزدوج من بشر بن المعتمر وإنه كان أقدر فيه من أبان بن عبد الحميد[٣] ، وقد روى له فى الحيوان مزدوجة طويلة ، فى تفضيل على بن أبى طالب والرد على الخوارج[٤] . وللرقاشى مزدوجة طويلة فى المجون والخلاعة[٥] وكذلك لبكر بن خارجة مزدوجة فى أعياد النصارى وشرائعهم وأديرتهم[٦] . ونرى الفرس حين يعودون إلى لغتهم ويحدثون نهضتهم الأدبية يستخدمون هذا الضرب من الشعر فى قصصهم متخذين له اسما جديداً هو « المثنوى » . ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنه هو الذى رشح لظهور الرباعيات فى الأدبين العربى والفارسى ، وهى تتألف من أربعة شطور ، تتفق أولها وثانيها ورابعها فى قافية واحدة ، أما الشطر الثالث فقد يتخذ نفس القافية وقد لا يتخذها ، من مثل قول بشار مازحًا مع جاريته ربابة[٧] :

ربابَةُ رَبَّةُ البَيْتِ تَصُبُّ الخَلَّ فى الزَّيْتِ
لها عَشْرُ دَجاجاتٍ وديكٌ حَسَنُ الصَّوْتِ

ويروى أن حماد عجرد صاغ من هذا النمط الرباعى أشعاراً مزاوجة كان يقرأ بها الزنادقة من أمثاله فى صلاتهم[٨] ، ومما يروى من رباعياته غير الدينية قوله

(١) أغانى (طبع دار الكتب) ٧/٥٧ .
(٢) البيان والتبيين ١/٤٩ .
(٣) أمالى المرتضى ١/١٨٧ .
(٤) الحيوان ٦/٤٥٥ .
(٥) ابن المعتز ص ٢٢٦ .
(٦) أغانى (طبعة الساسى ٢٠/٨٧ .
(٧) أغانى (طبعة دار الكتب) ٣/١٦٣ .
(٨) أغانى ١٤/٣٢٤ .

يهجو غيلان جد عبد الصمد بن المعذّل ، وكان على أعشار البصرة وظهرت منه خيانة[١] :

ظهر الأمير عليك يا غَيْلانُ إذ خُنْتَهُ إن الأمير مُعانُ
أمع الدمامةِ قد جمعتَ خيانةً قُبِّحَ الدميمُ الفاجر الخَوَّان

وتكثر الرباعيات فى ديوان أبى نواس وخاصة فى الخمريات والغزل[٢] ، ونستبعد أن تكون مقتطعة من مطالع قصائد له ضاعت ، لكثرتها عنده ، ومن أمثلتها الطريفة قوله[٣] :

أدرِ الكأسَ وأعجِلْ مَنْ حَبَسْ واسْقِنا مالاح نَجْمٌ فى الغَلَسْ[٤]
قَهْوَةً كَرْخِيَّـــةً مشمولةً تنفض الوحشةَ عنا بالأَنَسْ[٥]

ومن يرجع إلى تراجم الشعراء فى الأغانى يجد منها أمثلة كثيرة ، وممن كان يكثر منها — فيما يظهر — أبو العتاهية سواء فى الغزل أو فى الزهد،من مثل قوله فى الموت الدائرعلى جميع الناس[٦] :

الموتُ بين الخلق مُشْتَرَكُ لا سوقةٌ يَبْقَى ولا مَلِكُ
ما ضَرَّ أصحابَ القليل ومـــا أغنى عن الأملاك ما ملكوا

والمسمَّطات قصائد تتألف من أدوار ، وكل دور يتركب من أربعة شطور أو أكثر، وتتفق شطوركل دور فى قافية واحدة ما عدا الشطر الأخير فإنه يستقل بقافية مغايرة ، وفى الوقت نفسه يتحد فيها مع الشطور الأخيرة فى الأدوار المختلفة ، ومن أجل ذلك يسمى عمود المسمط فهو قطبه الذى يدور عليه . وإنما سُمِّى مسمطا من السمط وهو قلادة تُنْظَم فيها عدة سلوك تجتمع عند لؤلؤة أو جوهرة كبيرة ، وكذلك كل دور فى المسمط يجتمع مع الأدوار الأخرى فى قافية الشطر

---

(١) أغانى ١٤/٣٦٢ .
(٢) راجع الديوان ص ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٨١ ، ٢٤٨ ، ٣٨٦ ، ٣٩٨ ، ٤٢٧ ، ٤٣٥ .
(٣) الديوان ص ٢٩٩ .
(٤) حبس : انتظر وتلبث . الغلس : الظلام .
(٥) كرخية : نسبة إلى الكرخ ضاحية اللهو والمجون ببغداد . مشمولة : فائحة الرائحة.
(٦) أغانى ٤/٩٨ وانظر فى رباعيات له أخرى الأغانى ٤/٢٠ ، ٦٩ ، ٨١ ، ٩١ ، ٩٧ ، ١١٠ .

الأخير . ومن أمثلة المسمط المربع خمرية لأبى نُواس تتوالى على هذا النمط[1] :

سُــلافُ دَنٍّ كشمسِ دَجْنِ[2]
كدَمْـع جَفْنِ كخمـــر عَدْنِ
طبيخ شَمْسِ كلـــون وَرْسِ[3]
رَبيبُ فُــرْسِ حليف سِجْنِ
يا من لحانى عـــلى زمانى
اللهـــو شانى فـــلا تَلُمْنى

وواضح أنه بنى شطورها على تفعيلة واحدة . وكان شيوع المسمطات المخمسة أوسع من شيوع أختها المربعة ، واشتهر بشار بنظمه لبعض المخمسات[4] ، ويقول الجاحظ إنه لم يكن أحد أقوى على صنع المخمسات من بشر بن المعتمر[5] ، وقد أنشد الدميرى لأبى نواس مخمسا ختمه بهذا الدور[6] :

ياليلةً قضيتها حُلْوَهْ مرتشفاً من ريقها قَهْوَهْ
تُسْكر مَنْ قد يبتغى سَكْرَهْ ظننتها من طِيبها لَحْظَهْ
يا ليت لا كان لها آخِرْ

وقد اختار لآخر المخمس — كما هو واضح — صيغة يبدو من تركيبها أنها عامية ، وكأنه هو الذى ألهم الوشاحين الأندلسيين أن يختموا بعض موشحاتهم بأقفال عامية . ونفس الموشحات نجد صورة تقترب منها اقتراباً شـــديداً سواءمن حيث الأدوار والمراكز أو الأقفال ، إذ يُنْسَبُ لديك الجن صُنْعه لمنظومة على هذا النحو[7] :

قولى لطيفك ينثنى عن مضجعى عند المنامْ

---

(١) الديوان ص ٣٤٦ .
(٢) دجن : غيم .
(٣) الورس : نبات زهره أصفر .
(٤) العمدة لابن رشيق ١ / ١٢٠ .
(٥) أمالى المرتضى ١ / ١٨٧ .
(٦) حياة الحيوان الكبرى للدميرى (طبعة بولاق) ١ / ٩٦ .
(٧) خزانة الأدب للحموى (طبعة بولاق) ص ٩٧ .

عند الرُّقادْ عند الهجوعْ عند الهجودْ عند الوسنْ

فعسى أنامُ فتنطفى نارٌ تأجَّجُ فى العظامْ

فى الفوادْ فى الضلوعْ فى الكبودْ فى البدنْ

جسدٌ تُقَلِّبه الأكُفُّ على فراش من سقام

من قتادْ من دموعْ من وَقودْ من حزنْ

أما أنا فكما علمتِ فهل لوصلك من دوامْ

من مَعادْ من رجوعْ من وجودْ من ثمنْ

وواضح أن هذه المنظومة نشأت من فكرة بسيطة هى تكرار قافية البيت بروى جديد ، وكأنما وقعت هذه المنظومة لمقدم بن معافى القبرى الأندلسى شاعر الأمير عبد الله بن محمد المروانى (٢٧٥ — ٣٠٠ هـ) فنظم على نمطها بعض منظوماته إعجابا بها ، واستحسانًا لها . وكُتب لهذا النمط أن يشيع بعده فى الأندلس باسم الموشحات وأن يسكب الوشاحون فيه من الأنغام ما يمتع الأسماع والأفئدة .

الفصل الخامس

أعلام الشعراء

١

بشار [1]

وُلد بشار بن بُرْد بن يَرْجوخ[2] بالبصرة لأوائل العقد العاشر من القرن الأول للهجرة . وجَدُّه يرجوخ من طُخارُسْتان ممن سَبَاهم المهلب بن أبى صفرة والى خراسان (٧٩ — ٨١ﻫ) . ومن أجل ذلك نشأ ابنه بُرْد على الرقّ . وكان أولا فى عداد رقيق خِيرَة القُشَيْرية امرأة المهلب، ثم وهبته لامرأة من بنى عُقَيْل، وفى ملكها وُلد له بشار على الرق ، ولم تلبث العُقَيْلية أنْ أعتقت بُرْدًا . وبذلك عُدَّ هو وابنه فى موالى بنى عُقَيْل . وقد نسب نفسه من جهة أمه إلى الروم ، إذ يقول[3] :

وقيصرُ خالى إذا عددتُ يوماً نَسَبى

وإن صح ذلك كان فارسىّ الأب رومى الأم ، وقد ذكرها حماد عجرد فى بعض أهاجيه لبشار باسم غزالة[4] ، وقد ولدته أعمى فما نظر إلى الدنيا قطّ ، وفى ذلك يقول[5] :

---

(١) انظر فى بشار وترجمته الأغانى (طبعة دار الكتب) ٣/١٣٥ ، ٦/٢٤٢ والشعر والشعراء ص ٧٣٣ وابن المعتز ص ٢١ وتاريخ بغداد ٧/١١٢ والمختار من شعر بشار للخالديين (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) والموشح للمرزبانى ص ٢٤٦ ونكت الهميان (طبعة المطبعة الجمالية بالقاهرة) ص ١٢٥ ومرآة الجنان لليافعى ١/ ٣٥٤ وشذرات الذهب ١/٢٦٤ وابن خلكان ومراجعات فى الآداب والفنون للعقاد ص ١١٩ وحديث الأربعاء لطه حسين ٢/٢٣٢ وكتابنا الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (طبع دار المعارف) ص ١٤٨ وكتاب بشار بن برد للمازنى (طبع عيسى الحلبى) وبشار ابن برد لعمر فروخ (طبعة بيروت) وبشار بن برد لطه الحاجرى (طبع دار المعارف) . وقد طبع من ديوانه ثلاثة أجزاء بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٢) ذهب بعض الرواة إلى أن اسم جده بهمن . انظر الأغانى ٣/١٣٥ .

(٣) الديوان ١/٣٧٧ .

(٤) الحيوان ١/٣٥٤ ، ٤/٤٥٣ .

(٥) أغانى ٣/١٤٢ .

عميتُ جَنِيناً والذكاء من العَمَى فجئتُ عجيبَ الظَّنِّ للعلم موئلا

وكان أبوه طيَّانا يعيش من ضَرْبِ اللَّبِنِ معيشة تقوم على الشظف ، ويقال إنه كان له أخوان : بشر وبشير ، وكانا قَصَّابين يبيعان اللحم ، ولم يكونا سَوِيَّيْن إذ كان أحدهما أعرج والآخر أبْتَر اليد .

وحدَّدَتْ آفة بشار حياته منذ نعومة أظفاره ، فاتجه إلى المساجد وإلى مِرْبد البصرة ينهل من حلقات العلم والشعر ، وأعانته نشأته فى بنى عُقَيْل على أن يتمثل السليقة العربية . ولم يكد يبلغ العاشرة حتى أخذ ينبوع الشعر يسيل على لسانه . وكان الهجاء حينئذ يضطرم فى موطنه اضطراما لا بين جرير والفرزدق فقط ، بل بين جميع الشعراء ، فكان طبيعيًّا أن يكون أول موضوع ينظم فيه الغلام . ويقال إن أباه كان يضربه بسببه ضربًا مبرحا لكثرة ما يشكو الناس منه ، وكانت أمه لا تزال تستعطفه عليه ، فيقول : إنى لأرحمه ، ولكنه يتعرض للناس ، فقال له بشار : قُلْ لهم : أليس الله يقول : (ليس على الأعمى حَرَجٌ) . وعادوا إلى برد يرددون شكواهم ، فتلا عليهم الآية الكريمة ، فانصرفوا وهم يقولون : فِقْهُ بُرْدٍ أغْيَظُ لنا من شعر بشار . واشتد ببشار طموحه إلى إتقان العربية ، فيمم نحو البادية ، فأقام فيها فترة مكَّنت له فى عربية لسانه وفقهه الدقيق باللغة وشئون البادية .

وعاد إلى البصرة يكثر من الاختلاف إلى حلقات المتكلمين ومجالسهم ، كما يكثر من النظم فى المديح وغير المديح ، ومن أقدم مدائحه ما نظمه فى عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والى العراق لسنة ١٢٦ للهجرة[١] . ولما خطب واصل بن عطاء رأس المعتزلة بين يدى هذا الوالى مع بعض الخطباء البلغاء أشاد به وببيانه طويلا[٢] ، مما يدل على أن صلة وثيقة كانت منعقدة بينهما ، وفى الأغانى أنه كان يحضر مجالسه ويستمع إلى محاوراته مع مَنْ يعتنقون مذاهب الثَّنَوِيَّة المجوسية والدهرية الهندية[٣] ، وأكبر الظن أنه تسرب إليه من هذه المجالس وما يماثلها من مجالس المتكلمين شىء من الفلسفة والمنطق،على أن الأمور لم تلبث أن فسدت بينه وبين

(١) الديوان ٣/١٧٢ .
(٢) البيان والتبيين ١/٢٤ .
(٣) أغانى ٣/١٤٦ .

واصل إذ عرف فيه أنه يدين بالرّجْعة أو عودة الإمام المختفى ويكفّر جميع الأمة، وتتابع منه ما يشهد على إلحاده من مثل قوله يشيد بعبادة النار وأنها أفضل من الأرض والطين [١] :

الأرضُ مظلمةٌ والنارُ مشرقةٌ والنارُ معبودةٌ مذ كانت النارُ

وتمادى يفضّل إبليس المخلوق من النار على آدم المخلوق من الطين ، قائلا [٢] :

إبليسُ أفضلُ من أبيكم آدمٍ فتنبّهوا يا معشرَ الفُجّارِ
النارُ عُنْصُرُهُ وآدمُ طينةٌ والطينُ لا يَسْمو سموَّ النارِ

وتصدّى له صفوان الأنصارى شاعر المعتزلة يردُّ عليه وعلى ما رمى إليه من تصويب رأى إبليس فى عدم سجوده لآدم وعصيانه لأمر ربه حين طلب إليه هذا السجود ، لأن النار ، فى رأيه هو وأضرابه من الزنادقة الذين كانوا يقدسونها ، خير من الأرض . وأطال صفوان فى تفضيل الأرض وذكر له العلة التى بعثته على تفضيل النار وأنها ليست إلا حقده وموجدته على الدين الحنيف ، قائلا [٣] :

كأنك غضبانٌ على الدين كلِّه وطالبُ ذَحْلٍ لايبيت على حِقْدِ [٤]

غير أن بشارا مضى يُعْلن زندقته لا يزدجر مصرحًا بأنه لا يؤمن إلا بالعيان وما شهده الحس [٥] . فهو لا يؤمن بجنة ولا نار ولا ببعث ولا حساب ، ويحاول أن يثير الغبار فى وجه واصل وغيره من المعتزلة ، فيعلن أنه يعارض ما يذهبون إليه من أن الإنسان يخلق أفعاله ، ويقول إنه جَبْرِىٌّ ، بل لا شىء سوى الجبر وتعطيل الإرادة الإنسانية [٦] .

وكل ذلك جعل واصل بن عطاء يثور عليه ثورة شديدة ، وكان مما زاد هذه الثورة فى نفسه اضطراما أن رآه يكثر من غزل مادىٍّ آثم يُعَدُّ خطراً أى خطر على شباب البصرة ونسائها [٧] ، فهتف به فى بعض خطبه الواعظة داعيًا إلى قتله

---

(١) البيان والتبيين ١/١٦ والأغانى ٣/١٤٥.
(٢) رسالة الغفران لأبى العلاء (نشر كامل كيلانى) ٢/١٣٧ .
(٣) البيان والتبيين ١/٢٩ .
(٤) ذحل : ثأر.
(٥) أغانى ٣/٢٢٧ .
(٦) نفس المصدر والصفحة .
(٧) أغانى ٣/١٨٢ .

بمثل قوله : « أما هذا الأعمى الملحد المشنَّف(١) المكنّى بأبى معاذ من يقتله(٢) ؟ ! » وتعاون واصل وأتباعه من معتزلة البصرة أمثال عمرو بن عبيد على طرده عن مدينتهم ، وكان الخوف قد بلغ من نفس بشار ، فبارحها وظل غائباً عنها حتى توفى عمرو(٣) ابن عبيد خليفة واصل سنة ١٤٤ للهجرة . ونراه يقصد إلى حـرَّان فى سنة ١٢٧ فيمدح سليمان(٤) بن هشام بن عبد الملك إلا أنه لا ينيله ما كان يؤمله(٥) ، فيتجه إلى واسط ، حيث يزيد بن عمر بن هبيرة والى العراق لعهد مروان بن محمد وزعيم قيس ، فيستقبله استقبالا حافلا ، ويُغْدِق عليه من بِرّه وصلاته السنية(٦) ، ويُغْدق عليه بشار من شعره ، وكان يزيد يتعصب لقومه من قيس تعصباً قوياً ، وصادف ذلك هوى فى نفس بشار إذ كان ولاؤه لبنى عُقَيل القيسيين ، وكان مروان بن محمد يؤثر قيساً على بقية القبائل العربية ويعتمد عليها فى حروبه مع الثوار من بنى عمه وغيرهم ، فاندفع بشار يمدح ابن هبيرة ويفخر بقيس ومواليه القيسيين فخراً عارما .

ولم تلبث رايات العباسيين السوداء أن أقبلت فى سنة ١٣١ للهجرة من خراسان ، وطوَّحت جيوشهم ببنى أمية وواليهم يزيد ، وانعقد لسان بشار شاعر خصومهم فلم يستطع أن يفد على السفاح ولا على المنصور ، وكان نجم خالد بن برمك آخذاً فى التألق إذ استوزره المنصور ثم ولاه ولاية فارس ، وكأنما رأى فيه بشار لحمة نسب تصله به إذ كان إيرانياً مثله ، فوفد عليه يمدحه ، وخالد يجزل له فى العطاء والإكرام(٧) . ويحس بشار فى عمق بإقبال الدنيا عليه ، فيتغنّى بشعوبيته ويفخر بقومه الفرس فخراً مسرفاً .

ويعود إلى البصرة بعد وفاة عمرو بن عبيد ، ولا يكاد العام يستدير حتى يثور العلويون بزعامة إبراهيم بن عبد الله سنة ١٤٥ للهجرة ، ويخيل إليه أن الانتصار من إبراهيم وثورته قاب قوسين أو أدنى فيمدحه بقصيدة ميمية رائعة ، وسرعان

---

(١) المشنف : ذو القرط ، يقال إنه كان يلبس قرطاً وهو صغير فلقب بالمرعث من الرعاث ، هو القرط . وإلى ذلك يشير واصل . انظر الأغانى ٣ / ١٤٠ .

(٢) البيان والتبيين ١ / ١٦ والأغانى ٣ / ١٤٦ .

(٣) البيان والتبيين ١ / ٢٥ .

(٤) الديوان ١ / ٢٩١ والأغانى ٣ / ٢١٧ .

(٥) أغانى ٣ / ٢١٨ .

(٦) أغانى ٣ / ٢٣٦ - ٢٣٧ .

(٧) أغانى ٣ / ١٩٢ .

ما يخيب فأله ، إذ قمع المنصور الثورة ، ويمارع بشار فيحدث تغييرات فى القصيدة ، ويجعلها فى مديحه[١] ، غير أنه لا يستطيع الوفود عليه . ويأخذ منذ هذا التاريخ فى مديح ولاة البصرة ، وخاصة سلم[٢] بن قتيبة الباهلى الذى وليها لخمسة أشهر فى سنتى ١٤٥ و ١٤٦ وعقبة[٣] بن سلم الهُنائى الأزدى الذى وليها لأربع سنوات من سنة ١٤٧ إلى سنة ١٥١ .

ويمضى بشار فى غزله الفاجر ، وكان كل شىء فيه ينفِّر المرأة ، إذ كان قبيح المنظر مجدور الوجه جاحظ العينين قد تغشّاهما لحم أحمر ، ولعل هذا القبح ونفور النساء منه هو الذى كان يستثير عنده الغريزة النوعية ويدفعه إلى الإفراط من غزله المكشوف . على أن هذا الغزل نفسه جعل بعض بنات الهوى اللائى كانت تكتظ بهن دور القيان يُقْبلن عليه ويتغنين فى شعره . وفى هذه الأثناء يصطدم بحماد عَجْرد وتنشب بينهما معركة هجاء حامية الوطيس .

ويتوفّى المنصور سنة ١٥٨ للهجرة ويخلفه المهدى فتطمح نفسه إلى الوفادة عليه والحصول على جوائزه ، ويقدم بغداد ويلجأ إلى يزيد بن مزيد الشيبانى القائد الممدَّح المشهور كى يذكره للمهدى ويدخله عليه ، ويظهر أن يزيد كان يعرف سيرته فأخذ يسوِّفه ، غير أن قائداً آخر هو روح بن حاتم بلغه خبره وكأنما كان يود لو يصبح من ممدوحيه ، فتبرَّع بذكره للمهدى متلطفاً ، فأمر بإحضاره ، ولم يكد يفرغ من إنشاده مدحته التى أعدَّها حتى وصله بعشرة آلاف درهم ووهب له عبداً وقينة وخلع عليه خِلَعاً كثيرة[٤]، وجعله من سُمَّاره ومن يحضرون مجالسه[٥]. وكانت فى المهدى شدة فى شئون الدين وانتهى إليه من غير وجه أن بشاراً يفسد النساء والشباب بغزله الفاضح ، فأمره أن يكفَّ عن ذلك ، وكفَّ بشار على مضض ، وأخذ يردد فى أشعاره أنه ترك الغزل والنسيب نزولا على إرادة الخليفة من مثل قوله[٦] :

---

(١) أغانى ٣/١٥٦ – ١٥٨ .
(٢) أغانى ٣/١٩٠ والديوان ٢/٣٢٦ – ٣٣٨ ، ٣/٢٠٣ .
(٣) أغانى ٣/١٧٤ ، ١٧٨ ، ١٨٩ والديوان ١/١٠٧ ، ١٤٠ ، ٢/٢١٩ .
(٤) أغانى ٣/٢١٣ .
(٥) ابن المعتز ص ٢١ وما بعدها .
(٦) أغانى ٣/٢٣٩ وانظر ص ٢٤١ وما بعدها .

يا منظرًا حسناً رأيتُه من وجه جاريةٍ فديتُه
بعثتْ إليَّ تَسُومني بُرْدَ الشباب وقد طويتُهْ
والله ربِّ محمَّـدٍ ما إن غدرتُ ولا نويتُه
أمسكتُ عنك وربما عرض البلاءُ وما ابتغيته
إن الخليفة قد أبَى وإذا أبَى شيئاً أبيتُه
ونهانيَ الملكُ الهما مُ عن النَّسِيب وماعصيته

وكان ذلك يؤذى الخليفة منه إذ كان يراه لا يكفُّ عن الغزل ، وترامت إليه زندقته وما يَغْرِق فيه من مجون ، فحرمه جائزته ، ولا نصل إلى سنة ١٦٦ حتى يتعقب المهدى الزنادقة ويقتل منهم خلقاً كثيراً ، ويلزم بشار البصرة إشفاقاً على نفسه ، غير أنه لا يصمت ، بل يأخذ فى رثاء أصدقائه الذين يُقْتَلون على الزندقة(١) ، ويهجو المهدى ووزيره يعقوب بن داود هجاء مقذعا(٢) ويَقْدُم المهدى إلى البصرة فى سنة ١٦٨ فيشهد أمامه شهود موثَّقون بأن بشارا زنديق ، حينئذ يأمر بضربه حتى التلف ، فيُضْرَبُ سبعين سوطاً يموت على إثرها ويُرْمَى به فى البَطيحة ، ويجيء بعض أهله فيحملونه ويدفنونه .

وأخبار بشار فى أسرته قليلة ، ويدلُّ هجاء حماد عَجْرد له أنه كان له امرأة تسمَّى أمامة(٣) ، وهو يُكْثِر فى أشعاره من ذكر أطفاله الصغار يستعطف بهم ممدوحيه حتى يضاعفوا له الجائزة(٤) ، وقد حزن حين اختطف منه القدر ابنه محمدا(٥) ، واختطف منه بنتاً صغيرة(٦) . ومر بنا فى غير هذا الموضع أنه كانت له جارية تسمى رَبابة ، وكانت له جارية أخرى سوداء ، وفيها يقول(٧) :

وغادةٍ سوداء بَرَّاقَةٍ كالماء فى طيبٍ وفى لينِ

---

(١) أغانى ٣/٢٣٤ والمختار من شعر بشار ص ٢٥ وأمالى المرتضى ٢/١٣٣ .
(٢) أغانى ٣/٢٤٣ .
(٣) أغانى ١٤/٣٦٥ .
(٤) الديوان ١/٢٣٩ .
(٥) أغانى ٣/١٦١ ، ٢٢٠ ، وانظر الديوان ١/٢٥٦ .
(٦) أغانى ٣/٢٢٩ .
(٧) أغانى ٣/١٩٣ .

كأنَّها صِيغتْ لمن نالها من عَنْبَرٍ بالمسك معجونِ

ولعلها السندية العَجْماء التى لم يتبع جنازته سواها[١] . وذكر فى غزله كثيرات من القِيان والجوارى ، وفُتّن فتونا بعَبْدة ، وقد أفرد صاحب الأغانى لأخباره معها فصلاً خاصّاً [٢].

وواضح مما قدمنا أن طبيعة بشار لم تكن بسيطة ولا ساذجة ، بل كانت معقدة ، فقد كان فارسى الأصل ، وورث عن الفرس حدة فى المزاج ، ونشأ قِنّاً ابن قِنّ ، ووُلد أعمى لا يُبْصر . وكان لذلك يحسُّ بغير قليل من المرارة ، وضاعفها فى نفسه فقرأسرته وتخلفها فى المجتمع . وقد رُبِّىَ فى مهد عربى ، فأتقن العربية وتمثّل سليقتها بكل مقوِّماتها . وسرعان ما أخذ يختلف إلى حلقات المتكلمين بالمسجد الجامع يستمع إلى محاوراتهم لأصحاب الملل والنحل والأهواء المختلفة ، وليس من ريب فى أنه اطلع على ما نقله ابن المقفع إلى العربية من الآداب الفارسية وغير الفارسية ومن الآراء المزدكية والمانوية. وكان ذلك كله سبباً فى أن يحدث تشويش فى فكره وأن تمتلىء نفسه بالشك والحيرة ، ولم يستطع الخلوص من ذلك فتحول زنديقاً يبغض الدين الحنيف ، حتّى إذا نجحت الثورة العباسية تحوّل شعوبيّاً يبغض العرب والعروبة . وكانت بيته تكتظ بالجوارى والقيان ممن لا يعصمهن من الغواية دين ولا عرف ، فاختلط بهن ، وتغزل فيهن غزلا حسيّاً ، وربما دفعه فقد بصره إلى ذلك من بعض الوجوه ، إذ الضرير لا يرى الجمال ببصره ، إنما يحسه بلمسه ويده ، ويتسع جشعه الجسدى ، حتّى ليصبح غزله ، فى بعض جوانبه ضربا من صياح الغريزة النوعية الذى ينبو عن الذوق .

وكل هذه العناصر السالفة أثرت فى طبيعة بشار وجعلتها شديدة التعقيد ، ويجمع الرواة والنقاد على أنه زعيم الشعراء المحدثين ، وهى زعامة تُرَدُّ إلى أنه استطاع أن ينهج لهم فى قوة السبيلَ التى ترسّمها الشعراء من حوله ومن بعده ، وهى سبيل تقوم على التمسك بالأصول التقليدية للشعر العربى من جهة ،ومن جهة ثانية تفسح لتجديد الشاعر العباسى بحكم رقيه العقلى ومعيشته الحضارية. وبذلك ازدهر الماضى فى الحاضر ونما الحاضر من خلاله هذا النمو الذى جعل الشعر العربى عنده يحتفظ

(١) أغانى ٣/٢٤٨ .

(٢) أغانى ٦/٢٤٢ وما بعدها .

بشخصيته الخالدة ، إذ ظلت أساليبه - مهما لانت ورقّت - مطبوعة بطوابع النصاعة والإيجاز والتركيز ، تلك الطوابع التى تشيع فيه الدقة والوضوح والجمال ، كما ظلت معانيه وأغراضه البدوية القديمة بجميع رواسبها الخيالية . وحقًّا حدث فيه تجديد واسع ولكنه تجديد لا يفصله من تراثه ، بل يتيح لهذا التراث أن يعاد خلْقه بحس متحضر وذوق مرهف وعقل بصير يعرف كيف يفيد من كنوز الآداب والثقافات المترجمة وكيف يلائم بين ما يصوغه وبين بيئته المتحضرة . وقد أتاح ذلك لأغراض الشعر عند بشار أن تتطور تطوراً قليلاً أو كثيراً ، بحيث يظل الاتصال قائمًا بين الشعر العباسى والشعر القديم .

وعجيبٌ حقًّا أن يستطيل بشار على العرب وعلى دينهم الحنيف وأن يقهره شعرهم ، ويملك عليه ذات نفسه ، ويسخره ليكون أداة من أدوات ازدهاره وبرهانا بيّنًا على قوة شخصيته ، تلك الشخصية التى يظل فيها الماضى الفنى ماثلا ، مهما سقط على أصحابه من اختلافات فى الزمان والمكان ومهما وقع عليهم من مؤثرات حضارية وثقافية ، ومهما ألحدوا فى العروبة والدين . وما من شك فى أن بشاراً كان ملحداً زنديقًا يكفر بالعرب ، ومع ذلك اضطُرّ اضطراراً حين عاش شعرهم أن يتمثّل أحاسيسهم ومشاعرهم وأفكارهم وخواطرهم مخترقا فى تمثله حجب الزمان والمكان مطأطئاً من غروره . وليس معنى ذلك أنه انفصل عن عصره ، فقد مضى يزاوج بين الماضى والحاضر ، يتلقّى الماضى ويحياه ، وأيضًا يتلقّى الحاضر ويحياه ، وبذلك وصل بين الحاضر والماضى برقيه العقلى وحياته الحضارية وصلا خصباً

وقد يكون من الغلو أن نزعم أن ذلك كان من عمل بشار وحده ، فقد شركه فيه جميع شعراء عصره إلا نفراً قليلا ، إذ مَثَلَ الشعر القديم أمامهم كالأم الغاذية ، فكل شاعر يتغذى منه ما يقوّم به عمله ، حتى إذا مَرَن عليه أخذ يوازن بين الغذاء القديم والغذاء الحديث : غذاء الثقافة والحضارة ، وهى موازنة غدت كأنها طبيعة العصر ، وكان مما أذكى جذوتها فى نفوس الشعراء أن شاعراً لم يكن يَحْظَى بتقدير بين أقرانه إلا إذا حقق لنفسه حظًّا من هذه الموازنة ، ومما لا شك فيه أن حظ بشار منها كان موفوراً ، فإنه احتفظ للشعر بأصوله التقليدية ، ومضى يطوّر فى أغراضه ومعانيه تطوراً يختلف قلة وكثرة وسعة وعمقاً .

والمديح أهم غرض وصل بشاراً بالتراث القديم ، فقد حافظ فيه محافظة شديدة على سننه الموروثة ، سواء من حيث جزالة الصياغة ورصانتها ومتانتها ، أو من حيث المنهج الذى سار عليه القدماء ، إذ كانوا يقدّمون بين يديه وصف الأطلال والنسيب والغزل ووصف البعير أو الناقة ورحلتهم عليهما فى الصحراء مستطردين إلى وصف مشاهدها الطبيعية وما يجرى فيها من حيوان ، ثم يخرجون من ذلك إلى المديح بمآثر الأفراد والقبائل ناثرين فى أطراف قصيدهم بعض الحكم . وكل ذلك احتذاه بشار فى كثير من مدائحه ، بل لقد احتذى نفس المعانى والأخيلة ، وبلغ من شدة هذا الاحتذاء عنده أن نظم بعض مدائحه على غرار أراجيز رؤبة مكثراً فيها من الغريب الوحشى على نحو ما هو معروف فى أرجوزته[1] : (يا طلل الحىّ بذات الصَّمْد) . ونراه يصرح فى بعض مدائحه بأنه بناها أعرابية وحشية حتى يرضى ممدوحه سلم بن قتيبة الذى كان يتباصر بالغريب[2] .

وإذا تركنا إطار المديح ومقدماته إلى معانيه التى ساقها فى وصف الخلفاء والولاة وجدناه يخلع عليهم نفس الشِّيم الرفيعة التى طالما خلعها الجاهليون والإسلاميون على ممدوحيهم من الكرم والمروءة والشجاعة والنجدة وإباء الضيم ، وكان الإسلاميون من أمثال جرير والفرزدق قد لاحظوا الفرق الحادث بين من يمدحونهم من الخلفاء والولاة وبين سادة القبائل فى الجاهلية ، فأسبغوا عليهم كثيراً من الصفات الدينية والزمنية ، ونرى بشارا يقتدى بهم وخاصة فى مديحه للمهدى[3] ، وكأنه حتى فى هذا الجانب لا يزال موصولا بالتراث الفنى القديم . وكان طبيعيًّا لذلك أن يستمد جمهور معانيه فى المديح من القدماء ، وهذا نفسه يلاحظ على مقدماته الطللية والغزلية ، وبذلك فتح الأبواب واسعة أمام النقاد كى يبحثوا فى سرقاته منهم ، كما فتحها أمام الشعراء لكى يحتذوا على صنيعه . على أنه ينبغى أن نعود فنقرر أنه كان يحاول النفوذ من خلال هذا الصنيع إلى معان وصور جديدة يستلهم فيها حسه المرهف وعقله الدقيق وذوقه الحضارى المترف حتى حين يعمد إلى المحاكاة المسرفة للقدماء على نحو ما يلقانا فى أرجوزته : « يا طلل الحىِّ بذات الصَّمْد » . وحرى بنا أن نقف

---

(١) الديوان ٢/٢١٩ والأغانى ٣/١٧٤ وراجع فى أراجيز له أخرى الديوان ١/١٣٤ ، ١/١٤٠ .

(٢) الأغانى ٣/١٩٠ وما بعدها .

(٣) انظر الديوان ٣/٣٢١ ، ٢/٢٧٧ وما بعدها ، ٢/٢٩٧ .

قليلا عند قصيدته البائية التى مدح بها يزيد بن عمر بن هبيرة وفى رواية أنه مدح بها مروان بن محمد ، وهى تلك التى يستهلها بقوله :

جفا ودَّه فازورَّ أو ملَّ صاحبُهْ وأزْرَى به أنْ لايزالُ يُعاتِبُهْ

فإننا نجده يستهلها بالنسيب ووصف سُرَى الليل على بعيره وسط الفيافى المقفرة ، ويستطرد إلى وصف حمار الوحش وأتنه وما مرَّ بها وبه من أيام الربيع المنعشة ثم ما سقط من أيام الصيف اللافحة التى أوقدت العطش فى صدورالأتن وحمارها ، فإذا هى تطلب الماء تريد أن تشفى غلتها منه ، وما إن تريد أن تقع عليه حتى يرسل الصائد عليها سهامه . ويمضى إلى مديح يزيد فيوغل فى فخر شديد بقيس قبيلته التى كان لها ولاؤه ، ويطيل فى وصف بلائها فى حروب مروان بن محمد وقَمْع الثائرين عليه . وبشار فى كل ذلك ينزع منزع القدماء حين كانوا يمدحون سادة عشائرهم فيفخرون بمآثر العشيرة ووقائعها الحربية ، وكأنه يقصد إلى ذلك قصداً ، ولكن لا تظن أنه طابق النموذج القديم تمام المطابقة ، فقد أدخل فى نسيج قصيدته خيوطاً جديدة ، وتلقانا هذه الخيوط واضحة فى نسيبه إذ تحدث فيه عن الصداقة والصديق ، وكأنه يستلهم ما كتبه فيهما ابن المقفع بكتابه « الأدب الكبير » كما يستلهم الكلاميين فى قوة البرهان والحجة ، فإذا هو يقول[1] :

إذا كنتَ فى كل الأُمورِ معاتباً صديقَك لم تلقَ الذى لاتعاتبهْ
فعِشْ واحداً أَوصِلْ أخاك فإنه مقارفُ ذَنْبٍ مرةً ومجانبُهْ[2]
إذا أنت لم تشربْ مراراً على القَذَى ظمئتَ وأىُّ الناس تَصْفو مشاربه

ونمضى معه فى وصف مشاهد الصحراء وصفاً حيًّا ، حتى إذا انتهى منه فخرَ بقيس مواليه وما يذيقون به أعداءهم من بأسهم الشديد حتى ليمحقونهم محقاً ، يقول :

إذا الملكُ الجَبَّارُ صعَّر خَدَّه مشينا إليه بالسيوف نعاتبه[3]

---

(١) أغانى ٣/١٩٧ وانظر القصيدة فى الديوان ١/٣٠٥ .

(٢) مقارف : مرتكب .

(٣) صعر خده : تكبر وعتا وبغى .

وكنا إذا دبَّ العدوُّ لسُخطنا ... وراقَبنا فى ظاهرٍ لا نراقبُهْ[1]
ركبنا له جَهْرًا بكل مثقَّفٍ ... وأبيضَ تَسْتسقى الدِّماءَ مضاربُه[2]
وجيشٍ كجُنْحِ الليل يزحف بالحَصَى ... وبالشَّوْك والخَطِّىِّ حُمْرٌ ثعالِبُه[3]
غدونا له والشمسُ فى خِدْرِ أمِّها ... تطالعنا والطَّلُّ لم يَجْرِ ذائبه
بضربٍ يذوق الموتَ من ذاق طعمَه ... وتدرك من نجَّى الفرارُ مثالبه[4]
كأن مُثَارَ النَّقْعِ فوق رءوسنا ... وأسيافَنا ليلٌ تهاوَى كواكبه[5]
بعثنا لهم موتَ الفُجاءَة إننا ... بنو المُلْك خفَّاقٌ علينا سبائبُهْ[6]

والفخر بالبلاء فى الحروب قديم ، غير أن جديداً واضحاً يداخل معانى هذه الأبيات ، وهو يُرَدُّ من بعض الوجوه إلى مزاج بشار الفارسى الذى أدَّى به إلى المبالغة ومجاوزة القصد الذى يُعَدُّ من مميزات الطبع العربى الخالص ، كما يُرَدُّ إلى محاولة الإبداع فى التصوير ، ويُرْوَى أن الأصمعى وقف متعجبًا إزاء البيت السابع وأنه قال : « وُلِد بشار أعمى فما نظر إلى الدنيا قط ، وكان يشبِّه الأشياء بعضها ببعض فى شعره فيأتى بما لا يقدر البُصَراء أن يأتوا بمثله »[7] . وكان يعتمد فى ذلك على ذكاء حاد جعله يستغلُّ ذاكرته من صور الأقدمين وأخيلتهم استغلالا فاق فيه المبصرين من حوله ، مستعينًا بحس دقيق . وكان مما دفعه إلى ذلك شعوره بفقده لبصره ، وكأنه كان يريد أن يثبت أنه على الرغم من آفته يستطيع أن يؤلف الصور الحسية بل أن يبدع فى تأليفها . على أن من يمعن النظر فى تصاويره يلاحظ عجزه عن تمثل الدقائق التى لا تُرَى إلا بحاسّة البصر .

ومهما يكن فقد استطاع بشار فى مديحه أن يضيف إلى العناصر البدوية القديمة عناصر مستحدثة ، وهى تبدو قليلة فى قصائده الأموية ، وكلما أوغلنا معه فى العصر العباسى أحسسنا بنموها ، فقد أخذ يتخفف من مشاهد الصحراء ومن

---

(١) دب : مشى فى استخفاء .
(٢) المثقف : الرمح المقوم . الأبيض : السيف .
(٣) يزحف : يهجم . بالحصى أى أنه كالحصى كثرة . الشوك هنا : السلاح . الخطى : الرمح . ثعالبه : أطرافه .
(٤) مثالبه : معايبه .
(٥) النقع : غبار الحرب .
(٦) سبائبه : أعلامه وراياته .
(٧) أغانى ٣/١٤٢ .

المقدمات الطللية مكتفياً بالغزل . ولما أمره المهدى بالكفّ عن الغزل الماجن أخذ يردد — كما أسلفنا — فى مطالع بعض مدائحه له أنه سيكفّ عن الغزل نزولا على مشيئته . وكان قد وصف السفينة فى إحدى[١] مدائحه لابن هبيرة ، ونراه يعود إلى ذلك مراراً فى بعض مدائحه[٢] للمهدى ، وكأنه يريد أن يضيف إلى المقدمات الطللية القديمة مقدمة جديدة من بيئته . وقد عكف على معانى المديح القديمة يولّد فيها ويفرّع ويستنبط دقائق كثيرة من مثل قوله فى خالد بن برمك يصف سماحته ونائله الغمر[٣] :

إذا جئتَه للحَمْد أشرقَ وَجْهُـهُ   إليك وأعطاك الكرامةَ بالحَمْدِ
مفيدٌ ومتلافٌ سبيلُ تُراثه   إذا ما غدا أَوراحَ كالجَزْر والمَدِّ[٤]

وقوله فى عمر بن العلاء قائد المهدى الذى قضى على ثورة الخرَّمية بجرجان[٥]

فَتًى لا ينام على دِمْنَةٍ   ولا يَشْرب الماء إلا بِدمْ
يَلَذُّ العطاء وسفكَ الدِّماء   وَيغْدُو على نِعَمٍ أو نِقمْ

ويقرن دائماً فى مديحه للقواد والولاة الشجاعة إلى الكرم الفياض ، ويستنبط منهما دقائق كثيرة مستلهماً لطائف عقله ودقائق تصويره ، من مثل قوله فى مديح عقبة بن سلم والى البصرة[٦] :

إنما لذَّةُ الجواد بنِ سَلْم   فى عطاءٍ ومَرْكَبٍ للقاء
كخَراج السماء سَيْبُ يديهِ   لقريبٍ ونازح الدار نائى[٧]
ليس يعطيك للرجاء ولا الخو   ف ولكنْ يَلَذُّ طعم العطاء
يسقط الطيرُ حيث يَنْتشر الحـ   بُّ وتُغْشَى منازلُ الكرماء
لا يهاب الوَغَى ولا يعبدُ الما   لَ ولكنْ يهينه للثناء

(١) الديوان ١/١٤٧ .
(٢) الديوان ٢/٢٨٣ ، ٣/٢٨٠ .
(٣) أغانى ٣/١٩٢ والديوان ٣/١٢٥ .
(٤) التراث هنا : المال مطلقاً .
(٥) المختار من شعر بشار للخالديين ص ٧٧ .
(٦) الديوان ١/١١١ والأغانى ٣/١٨٩ .
(٧) خراج السماء : الغيث. السيب : العطاء.

أَرْيَحِيٌّ له يَدٌ تُمْطِرُ النَّيْـ لَ وأخرى سُمٌّ على الأعداء [١]

وواضح أنه يجعل لذته فى الكرم والشجاعة ،ويصور كرمه واسترساله فيه بالغيث الذى لا مفر من سقوطه على القريبين والنائين . ويجرِّد عطاءه عن الغايات ، فهو لا يعطى خوفًا من هجاء ولا رجاء فى مديح ، وإنما يعطى لأنه يجد لذة فى العطاء من حيث هو ويجد فيه استرواحا . ويتمثل عكوف السائلين على بابه بسقوط الطير على الحب . ويصف شجاعته ويقول إنه لا يهاب الموت ،وإنه لا يزال يبذل ماله كأنه يريد أن يهينه لمن يثنون على صنيعه . ويصوره مرسلا نَدَاه على السائلين وصواعق الموت على الأعداء الباغين . وتتضح فى هذه القطعة خصائصه ، فهو يحاول أن يستقصى المعانى عارضًا لها فى وجوه شتّى تصور دقة فكره وطرافة أخيلته ، مستعينًا بالمقابلة والطباق وببعض الحكم كما فى البيت الرابع . وقد أفرد للحكم قصيدة خاصة [٢] .

ولم تُؤْثَرْ لبشار مراث كثيرة ، وربما رجع ذلك إلى أنه كان منغمسًا فى اللهو وأن نفسه لم تكن مفطورة على الحزن ، ومع ذلك فإننا نرى الموت يهز نفسه هزًّا حين فقد ابنه محمداً ، وفيه يقول [٣] :

أُصِيبَ بُنَيٌّ حين أورق غُصْنُهُ وألقى علىَّ الهمَّ كلُّ قريبِ

وكان كرَيْحان العَروس تخالُهُ ذَوَى بعد إشراق الغصون وطِيبِ

وما نحن إلا كالخليط الذى مضَى فرائسُ دهر مخطىءٍ ومصيب

نؤمِّل عيشاً فى حياةٍ ذميمــة أَضرَّتْ بأَبدانٍ لنا وقلوبِ

ونراه يحزن حزنًا عميقًا على أصدقائه من الزنادقة الذين فتك بهم المهدى فتكًا ذريعًا ، وكأنما رأى فيهم مصيره الذى ينتظره ، وقد مرت فى الفصل السابق قطعة يرثى بها صديقًا منهم ، وكأنه يرثيهم جميعًا وقد ندبه بها أحرَّ ندب وأشجاه . وروى له أبو الفرج ميمية رثَى بها خمسة من أصدقائه تقطر أسى وحزنا ،ولا نشك

---

(١) أريحى : كريم يهتز للندى . النيل : العطاء .

(٢) الديوان ١/٢٥٢ .

(٣) الديوان ١/٢٥٤ والأغانى ٣/١٦١ .

فى أنهم جميعاً قتلوا على الزندقة ، إذ نراه فيها جزعا أشد الجزع ، مُلْتاعاً أشدّ الالتياع على شاكلة قوله[١] :

كيف يصفو لىَ النعيمُ وحيدًا والأخلاَّءُ فى المقابر هامُ[٢]
نَفِسَتْهم علىَّ أمُّ المنايا فأنامتْهمُ بعنفٍ فناموا
لا يَغيضُ انسجامُ عينى عليهم إنما غاية الحزين السِّجامُ[٣]

والرثاء عنده — على كل حال فن طارىء ، وكانت وراءه فنون أخرى عاش لها حياته ، ونقصد فنون الفخر والهجاء والغزل والمجون . وقد بدأ حياته مفاخراً هاجياً ، مستلهماً ما شاع فى بيئة البصرة من الفخر والهجاء على لسان جرير والفرزدق ومن كان حولهما من الشعراء . وحاول أن يدخل فى معاركهما ، وهو لا يزال غَضّ العود ، فهجا جريراً مؤملا أن يردّ عليه فيطير اسمه فى الناس ، ولكن جريراً لم يحفل به لأنه كان لا يزال فتى ناشئاً ، ولم يردّه عدم احتفال جرير به عن الميدان ، فقد أخذ يصول ويجول فى هجاء الناس ،ودخل فى الخصومات القبلية بين عشيرته من بنى عُقَيْل القيسية وغيرها من العشائر . ولما تفاقم شره شكاه الناس إلى أبيه ، ولكنه ازداد شرًّا وإيذاء ، كما مر بنا فى صدر ترجمته .

وعوامل مختلفة جعلت بشاراً يسرف فى هجائه وفخره ، من ذلك أنه كان يريد أن يشتهر فى هذين الفنين شهرة جرير والفرزدق ، ومن ذلك أن نفسه كانت تنطوى كما أسلفنا على غير قليل من المرارة بسبب فقده لبصره ، وهى مرارة زادها اضطراماً فى نفسه أنه كان مولى ، والموالى كانوا متخلفين فى المجتمع الأموى ، وكان فقيراً بائساً ،فاندلع ينفّس بفخره وهجائه عن قروحه النفسية ولكن بمن يفخر ؟ أما فى العصر الأموى فقد مضى يفخر بعشيرته وأصولها من قيس ، وكان مما أشعل هذا الفخر فى نفسه أن الخليفة حينئذ — وهو مروان بن محمد — كان قيسى الهوى ، وأن والى العراق يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى كان يتعصب لأصوله من قيس تعصباً شديداً ، وكان بشار يعيش فى كنفه ، فمضى آنذاك يفتخر بقيس ومضر

(١) أغانى ٣/٢٣٦ .
(٢) هام هنا : أموات .
(٣) يغيض : يجف . السجام : سيلان الدمع .

افتخاراً يحاول به أن يبلغ عنان السماء على نحو ما رأينا في قصيدته البائية وعلى شاكلة قوله[(١)]:

إذا ما غَضْبنا غَضْبَةً مُضَرِيَّةً هتكنا حجابَ الشَّمس أو تُمْطِرَ الدَّما

إذا ما أعَرْنا سَيِّدًا من قَبيلةٍ ذُرَى مِنْبَرٍ صَلَّى علينا وسَلَّما

وإذا مضينا معه إلى العصر العباسي ، عصر انتصار الفرس على العرب وجدنا شعوره بالعصبية القبلية يتحول إلى شعور جديد بالعصبية الجنسية ، فإذا هو يفاخر العرب بماضي قومه التليد ، وإذا هو يتحول شعوبيًّا مارقًا يتغنَّى بأمجاد قومه الحضارية كافراً بالعرب والعروبة ، وتصوِّر هذه النزعة عنده أدق تصوير قصيدته[(٢)]:

هل من رسولٍ مخبرٍ عنى جميعَ العربِ

وهي صياح وضجيج بتصوير أبَّهة الملك الفارسي وأيضًا الملك الرومي ، إذ زعم أن الروم أخواله ، هاتفًا هتافًا مقذعا بالعرب ومعيشتهم البدوية الخشنة .

واصطدم بشار بكثير من الشعراء ، وجرَّ عليه هذا الاصطدام بلاء كثيراً وخاصة من حماد عجرد الذي سلقه بلسانه ، وأصلاه بناره ، مما جعل معارك هجائية عنيفة تنشب بين الوَعْلين على نحو ما مر بنا في الفصل السابق وهي معارك كانت تُسْتَخْدَمُ فيها غالبًا مقطوعات قصيرة ، تشبه أدقَّ الشبه سهامًا مسمومة ، وقد اختلفت أنواع السموم التي كانا يغمسانها فيها ، فتارة يعمدان إلى التهوين والتحقير ، وتارة يعمدان إلى انتهاك العرض وقذف الزوجات والأخوات والأمهات ، مع محاولة كل منهما تلطيخ صاحبه بتهمة الزندقة . ومما نسوقه من ذلك قول بشار في أم حماد[(٣)]

إذا سُئِلَتْ لم تكن كَزَّةً ولكنْ تذوب ولا تَجْمُدُ

ووراء هذا البيت في القصيدة أبيات يصرح فيها بفُجْرها وغوايتها تصريحًا تتقزَّز منه النفس الكريمة .

واشتهر بشار بالتفنن في الغزل ، ويتضح فيه عنده تمثله لكل ما نُظم في هذا الفن قديمًا من التشبيب والنسيب وبكاء الديار ، ومن الغزل المادي عند عمر بن

(١) أغاني ٣/١٦٢ .
(٢) الديوان ١/٣٧٧ وانظر ٣/٢٢٩ .
(٣) الديوان ٣/١٢٣ .

أبى ربيعة وأضرابه من شعراء مكة والمدينة ، ومن الغزل العُذْرى عند جميل وأمثاله من النجديين والنازلين ببوادى الحجاز . وقد مضى فى ذلك كله يستلهم الرقى العقلى الحديث والحضارة المادية التى تنفّس فيها ، ونراه أحيانًا يقترب اقترابًا شديداً من القدماء ، حتى ليتحدث عن الأطلال والرسوم فى مثل قوله[1] :

لعَبْدَةَ دارٌ ما تكلِّمنا الدَّارُ ... تلوح مغانيها كما لاح أسْطارُ[2]

أُسائلُ أحجارًا ونُؤْياً مهدَّماً ... وكيف يجيب القولَ نُؤْىٌ وأحجارُ[3]

وما كلَّمتْنى دارُها إذ سألْتُها ... وفى كبدى كالنِّفْط شُبَّت به النَّارُ

وعند مَغانى دارها لو تكلَّمتْ ... لمكتئبٍ بادِى الصبابة أخبارُ

ويقترب أيضًا حين يستغل عناصر النسيب والغزل القديم وما يجرى فيه من وصف لوعة الحب والسهاد الطويل ، وما صوَّر عشاق العرب من إذعانهم لمعشوقاتهم وما يسكبن فى قلوبهم من سحر وفتنة، وما يبعث نسيمُ الصبا الحلو المار بديارهن فى أنفسهم من بَرْد وأمن وغبطة وما ينصبون حولهن من شباك التضرع والتذلل والاستعطاف ، حتى ليخيِّلون إليهن أنهم قتلى حبهن وسهام عيونهن ، يقول من قصيدة فى معشوقته عَبْـــدة[4] :

أبِيتُ أرْمَدَ ما لم أكتحِلْ بكمُ ... وفى اكتحالى بكم شافٍ من الرَّمَدِ

رَقَّتْ لكم كبدى حتى لو انكمُ ... تهوون أن لا أُريد العيش لم أُرِدِ

كأن قلبى إذا ذكراكمُ عَرضتْ ... من سحرهاروتَ أو ماروتَ فى عُقَدِ[5]

ما هَبَّت الريحُ من تلقاء أَرضكمُ ... إلا وجدتُ لها بَرْدًا على كَبِدِى

يرقُّ قَلْبِى وتزدادين لى غِلَظاً ... ما ذاك فيا أُرَجِّى منك بالسَّدَدِ[6]

تحرَّجى بالهوى إن كنتِ مومنةً ... بالله أن تقتلى نَفْساً بلا قَوَدِ[7]

---

(١) أغانى ٦/٢٤٦ .

(٢) مغانيها : منازلها المهجورة . أسطار : جمع سطر ، يشبه المغانى بسطور الكتابة .

(٣) النؤى : حفرة يحفرونها حول الخيمة على شكل هلال تمنع عنها سيول الأمطار.

(٤) انظر الديوان ٢/٣١٥ والمختار من شعر بشار ص ٨٢ .

(٥) العقد : ماينفثه الساحر بزمزمته لغرض السحر .

(٦) السدد : السداد والصواب .

(٧) القود : القصاص .

وقد رققت الحضارة حِسَّه وفتحت له فى الغزل أبوابًا من المعانى والصور التى تنمّ عن أثر البيئة وما شاع فيها من ترف مادى وشعور رقيق حاد ، ومما يمثل ذلك عنده من بعض الوجوه قوله (١) :

يالَيلَى تزداد نُكْرَا ... من حُبِّ مَنْ أحببتُ بِكْرَا
حَوْراءُ إن نظرتْ إليْ ... ك سَقَتْكَ بالعينين خَمْرَا
وكأنَّ رَجْعَ حديثها ... قِطَعُ الرياض كُسِينَ زهرا
وكأن تحت لسانها ... هاروتَ يَنْفُثُ فيه سِحْرا
وتخال ما جمعتْ علي ... ه ثيابَها ذهباً وعِطْرا
وكأنهـا بَرْدُ الشرا ... ب صَفَا ووافق منك فِطْرَا
جِنِّيَّـةٌ إنسِيَّةٌ ... أو بين ذاك أجلُّ أمرا

وواضح فى هذه القطعة أثر فقده لبصره ، فإنه لا يكاد يرتفع عن نطاق الشم والسمع واللمس والحسّ ، فهو يصف أنفاسها وما تنشره من طيب كطيب الرياض ويصف حديثها وما تذيع فيه من سحر ،ويصور جسدها ذهبا وعطرا ، أما ما ينعم به من جمالها فشراب بارد سلسبيل صادف صائمًا يتحرق عطشا . وقلما ارتفع فى غزله عن الحس والسمع والأذن ، ونوَّه بذلك كثيراً فى شعره ، محاولا أن يعتذر عن فقده لمتعة الجمال متعة حقيقية بالبصر ، ومن ثَمَّ مضى يردد فى أشعاره أن السمع يحلّ محل العين فى تقدير الجمال والإحساس التام به ، من مثل قوله (٢) :

يا قومُ أُذْنى لبعض الحَىِّ عاشقةٌ ... والأُذْن تعشق قبل العين أحيانا
قالوا بمن لا ترى تَهْذِى؟فقلت لهم ... الأُذْن كالعين تُوفِى القلب ما كانا

وكان لذلك أثر عميق فى غزله إذ طبعه بطوابع الحس ، وليس ذلك فحسب ، فقد أماله بشار — كما أسلفنا — نحو الإفصاح فى وضوح عن الغريزة النوعية إفصاحاً بثَّ فيه كل ما استطاع من فحش وإثم وفسق ، لا يتحرَّج ولا يرعى ديناً ولا خلقاً ،

---

(١) أغانى ٣/١٥٥ .

(٢) أغانى ٣/٢٣٨ .

حتى ليصور جانبه الحيوانى الجشع ، عامداً إلى التفصيل أحياناً [١]، وأحياناً إلى الإجمال بمثل قوله[٢]:

فبِتْنا معاً لا يَخْلُصُ الماءُ بيننا إلى الصبح دونى حاجبٌ وستورُ

وقد مضى يحضّ حضًّا صريحًا على الإثم ويغرى الناس بفتنة الجسد، وكأنما لم يعد لجمال المرأة عنده من معنى نفسى سام ، فقد رُدَّ جمالها كله إلى جسدها وأصبحت فى رأيه أداة للغريزة الجنسية ،أداة طيعة تنال مهما تأبَّت واستعصت ، إذ لا تلبث أن ترضى وأن تُبْلغ الرجل منها ما يريد ، يقول[٣]:

لا يُؤْيسنَّك من مخبَّأَةٍ قولٌ تغلِّظه وإن جَرحا
عُسْرُ النساءِ إلى مياسرةٍ والصعبُ يمكن بعد ماجمحا

ويحاول أن يبرر المعصية ، فيحلّ القبلة ، ويغرى باجتناء زهرات الجسد واقتطاف ثمراته ، بل خطيئاته ، دون التفات إلى الناس وإلى عُرْفهم وألسنتهم ، فالحياة فرص واستمتاع جسدى ، بل هجوم على هذا الاستمتاع وما يُطْوَى فيه من لذة وإثم ، يقول[٤] :

قالوا حرامٌ تلاقينا فقلتُ لهم ما فى التلاقى ولا فى قُبْلةٍ حَرَجُ
من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيِّبات الفاتك اللَّهجُ

ومن أجل ذلك كله ضاق به الوعاظ وأهل الصلاح وهتفوا به فى وعظهم وكلامهم ، ولم يَرْعَوِ فرفعوا أمره إلى السلطان ،وتدخل المهدى ونهاه فانتهى ، ولكن بعد فوات الأوان وبعد أن شاع غزله الفاجر على كل لسان ، وكان مما هيأ لذلك تعلُّق الجوارى والقيان بهذا الغزل وتغنيهن فيه ، وكان جمهورهن مثل بشار لا يعصمهن خلق ولا عرف ولا دين ، وكان قد انغمس بعض الناس فى اللذات . وقد يكون من المبالغة أن نجعل بشاراً وحده المسئول عن شيوع هذا الغزل العاهر ، فقد كان يشركه فيه المجان من حوله فى البصرة والكوفة وبغداد ، ولكنه على كل حال يعد

(١) أغانى ٣/١٨٣ وما بعدها .
(٢) المختار من شعر بشار ص ٢٤١ .
(٣) أغانى ٣/٢٠٩ .
(٤) أغانى ٣/٢٠٠ .

فى طليعة من روَّجوا له بحكم خصب ملكاته الشعرية . وقد مضى يكثر من وصف مجالس اللهو والغناء ، وله مقطوعات بديعة يصور فيها غناء بعض القيان ومدى ما كنّ يخلبن به الألباب من غنائهن وضربهن على آلات الطرب(١) ، وقد تغنى طويلا بالخمر وكئوسها ودنانها ونُدْمانها وسُقاتها من مثل قوله(٢) :

رُبَّ كأسٍ كالسَّلْسبيل تعلَّلْ ... تُ بها والعيون عنى نيامُ
حُبِسَتْ للشُّراة فى بيت رأسٍ ... عُتِّقَتْ عانساً عليها الخِتام(٣)
نَفَحَتْ نَفْحةً فهزَّتْ نديمى ... بنسيمٍ وانشقَّ عنها الزُّكام
وكأنَّ المعلولَ منها إذا را ... ح شَجٍ فى لسانه بِرْسام(٤)
صدَمتْه الشَّمولُ حتى بعينيْـ ... ـه انكسارٌ وفى المفاصل خام(٥)
وهْو باقى الأطراف حَيَّتْ به الكأ ... س وماتتْ أوْصاله والكلام(٦)

وهو يصور صفاءها وقدمها وشذاها الذى يشق الزكام ، وتأثيرها الجسدى فى الشارب وما تصيبه به من هذيان ومن فتور فى العيون وارتخاء فى المفاصل ، ثم ما تنزل به من هدوء وسكون وصمت حتى لكأنما ماتت أوصاله ومات الكلام . وهو يتصل فى وصفه للخمر بتراثها القديم عند الأعشى وأضرابه وما أضيف إليه عند الوليد بن يزيد ونُظَرائه ، فى الوقت نفسه يُعَدُّ مقدمة للماجنين من حوله ومن بعده لكى يزيدوا فى الطنبور ما شاءوا من أنغام وألحان .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يصور كيف أن بشارا تمسك بالتراث الفنى وأصوله التقليدية وكيف مضى ينميه ويلائم بينه وبين حياته العقلية الخصبة وما عاش فيه من حضارة مادية حفَّ بها المجون . وقد حاول ، كما مر بنا فى غير هذا الموضع ، أن يجدد فى شكل القصيدة ، فنظم فى الرباعيات وفى المزدوج والمسمطات ، غير أنه ظل محتفظًا للغة الشعر بأساليبها الجزلة الرصينة ، وقد يرقّ ويلين ، ولكن دون

(١) أغانى ٣/١٦٥ .
(٢) أغانى ٣/٢٢٥ .
(٣) بيت رأس : من قرى فلسطين وتشتهر بالكروم والخمر .
(٤) البرسام : مرض يصحبه هذيان ، وهو يريد الهذيان نفسه .
(٥) الشمول : الخمر . خام هنا : ارتخاء ، وأصله طاقات الزرع الغضة .
(٦) حيت : حييت .

أن يصيب أساليبه ضعف أو وهن ، إذ كان يفقه أسرار اللغة فقهاً دقيقاً وكل ما يتصل بتلك الأسرار من رونق وبهاء وجمال .

٢

أبو نواس (١)

إذا مضينا بعد بشار إلى الجيل الذى خلفه رأينا تأثره بالحضارة الفارسية المادية يزداد اتساعاً كما تزداد ثورته على العُرْف والخلق والدين الحنيف ، حتى لتتحول فى بعض جوانبها إلى صياح وعجيج وضجيج ، وطبيعى أن ذلك لم يكن عاماً بحيث يشمل الجيل كله ، فقد كان هناك الفقهاء والوعاظ وأهل الصلاح ، إنما كان ذلك يَسْرِى بين نفر من الشعراء الذين كانوا يختلفون إلى دور النخاسة وحانات المجون وبيوت اللهو والعبث ، فإن تركوها فإلى دورهم التى حوّلوها إلى مقاصف للخمر والغناء يتطارحون فيها أشعارهم المعبرة عن غرائزهم وكل ما اقترن بها من شذوذ الغزل بالغلمان .

وأبو نواس الحسن بن هانئ هو أهم شاعر يصور هذا الفساد الخلقى من جميع نواحيه ، وهو فارسى الأم والأب أيضاً ، وقد انبهم أمر أبيه وجنسه على بعض الرواة حين رأوه ينتسب لآل الحكم بن الجراح من بنى سعد العشيرة اليمنيين ويتكنى بكنية يمنية هى أبو نواس ، وكذلك حين رأوا فى أخبار هذا الأب أنه كان من جند مروان ابن محمد آخر الخلفاء الأمويين ، مما جعل بعض المعاصرين يظن أن أباه من أهل الشام بينما ذهب بعض الأقدمين إلى أنه عربى ، وتمادوا فصنعوا له نسبا فى بنى سعد

---

(١) راجع فى أبى نواس وترجمته وشعره الشعر والشعراء ص ٧٧٠ وطبقات الشعراء لابن المعتز ص١٩٣ والأغانى (طبع الساسى) ١٨/٢ وتاريخ بغداد ٧/٤٣٦ وتاريخ دمشق لابن عساكر ٤/٢٥٤ وابن خلكان فى الحسن بن ابن هانىء ونزهة الألبا ص٩٩ وشذرات الذهب ١/٣٤٥ ومرآة الجنان ١/٤٤٩ والموشح للمرزبانى ص ٢٦٣ وأخبار أبى نواس لابن منظور ولأبى هفان وأبو نواس لعبد الرحمن صدقى وله أيضاً فى خمرياته كتاب ألحان الحان طبع دار المعارف وانظر أيضاً «أبو نواس الحسن بن هانىء» للعقاد نشر مكتبة الأنجلو المصرية ومقالات طه حسين عنه فى حديث الأربعاء الجزء الثانى وديوانه طبعة آصاف ، وقد طبع عدة طبعات .

العشيرة[١] . والصحيح أنه كان مولى فارسيًّا من موالى الجراح بن عبد الله الحكمى[٢] والى خراسان لعهد عمر بن عبدالعزيز ، ويظهر أنه انتظم فى جند الخلافة[٣] ، وقدنزل مع فريق منهم بالأهواز لعهد مروان بن محمد (١٢٧—١٣١ هـ) وهناك تعرَّف على جارية فارسية تسمى جُلُبّان كانت تغزل الصوف وتنسجه ، فاقترن بها ورُزِقَ منها عدة أولاد[٤] ، منهم أبو نواس ، واختلف الرواة فى السنة التى ولد فيها ، والراجح أنها سنة مائة وتسع وثلاثين للهجرة[٥] ، ولم يكد يبلغ السادسة من عمره حتى توفى أبوه ، فنقلته أمه إلى البصرة ، وقامت على تربيته ، وسرعان ما دفعته إلى الكُتَّاب ، فحفظ القرآن وأطرافًا من الشعر ، وتفتَّحت موهبته ، فأخذ يلهج ببعض الأشعار ، وكان مليحًا صبيحًا[٦] ، ويقال إن صبية وضيئة الوجه مرت به فمازحته ساعة ، ثم رمت إليه بتفاحة معضَّضة ، فقال على البديهة من أبيات[٧] :

ليس ذاك العَضُّ من عيبٍ لها ... إنما ذاك سؤالٌ لِلقُبَلْ

وشبَّ الغلام فأخذ يختلف إلى حلقات المسجد الجامع يتزود من الدراسات اللغوية والدينية ومن الشعر القديم ومعانيه غير أن أمه رأت أن تلحقه بأحد العطارين ، فكان يذهب فى العشىّ إلى المسجد يستمع من أبى عبيدة أخبار العرب وأيامهم ، ويلتقط من أبى زيد غرائب اللغة ومن خلف الأحمر نوادر الشعر[٨] وساقه القدر ليتعرَّف على والبة بن الُحباب أحد مجان الكوفة المشهورين ، ويقال إن هذه المعرفة نشأت فى البصرة ، ويقال بل إن عامل الأهواز طلب صاحبه العطار ، فوافقه ، وكان عنده والبة ، فلم تكد تقع عينه على أبى نواس حتى استظرفه ، فحثَّه على أن يصطحبه معه إلى الكوفة ، ولم يتردد الغلام ، فمضى معه[٩] ، ويقال إن الذى أرغبه

---

(١) انظر أخبار أبى نواس لابن منظور ص ٣.

(٢) الاشتقاق لابن دريد (نشر الخانجى) ص ٤٠٦ وابن المعتز ص ١٩٤ وأبو هفان ص ١٠٩ ، ١٢١ .

(٣) وقيل : بل كان كاتباً من كتاب الخراج وقيل بل كان حائكاً . انظر ابن منظور ص ٤ .

(٤) ابن المعتز ص ١٩٤ وابن منظور ص ٤ وما بعدها .

(٥) ابن المعتز ص ١٩٤ وانظر ابن منظور ص ٥ .

(٦) راجع ابن منظور ص ٦ وابن المعتز ص ٢٠٨ وذيل زهر الآداب للحصرى ص ٩٤ .

(٧) ابن المعتز ص ٢٠٨ .

(٨) ابن منظور ص ٢٣ وما بعدها وأبو هفان ص ١٠٩ .

(٩) ابن المعتز ص ١٩٤ وابن منظور ص ٧ وما بعدها وتاريخ بغداد ١٣ / ٤٨٧ . وأبو هفان ص ١٠٩ .

فيه حسن شعره وما سمعه على لسانه من قوله[١]:

ولها ولا ذنبٌ لهـا حُبٌّ كأطراف الرماحِ
فى القلب يَجْرَحُ دائماً فالقلبُ مجروحُ النواحى

وربما كان من دوافع رحلته معه وإغراقه — فيما بعد — فى المجون أنه كانت تؤذيه سيرة أمه فى البصرة[٢]، فارتحل معه، وأخذ يَعُبُّ من الخمر كى ينسى أمه، وكان كالمستجير من الرمضاء بالنار، فقد وقع فى حبائل شيطان كبير، غمسه فى كل ما كان يقع فيه من خطايا وآثام هو ورفاقه مجّان الكوفة من أمثال مطيع بن إياس وحماد عجْرد، وكأنما كتب القدر عليه أن يصبح ضريبة الفسق والمجون لعصره. وثاب قليلا إلى رشده، فخرج إلى بادية بنى أسد، وظل بينهم حولا كاملا يتزود من ينابيع اللغة[٣]، وعاد، ولكنه ولّى وجهه نحو موطنه، وأخذ يفد على المربد بألواحه للقاء الأعراب الفصحاء[٤]، كما أخذ ينهل من دروس اللغويين ومحاضراتهم وخاصة خلفاً الأحمر الذى حثّه على حفظ الشعر القديم وحفظ المئات من أراجيزه، وكان خلف من أشعر رواة عصره وأعلمهم فحمل عنه أدبا واسعًا، وفيه يقول فى بعض مراثيه له[٥]:

أَوْدَى جِماعُ العلم إذ أَوْدَى خَلَفْ مَن لا يُعَدُّ العلمُ إلا ما عَرَفْ
كنا متى ما نَدْنُ منه نَغْتَرِفْ روايةً لا تُجْتَنَى من الصُّحُفْ

ولم يكتف بالشعر واللغة فقد طلب الفقه والتفسير والحديث حتّى قالوا إنه: «كان عالما فقيهاً عارفا بالأحكام والفُتْيا بصيراً بالاختلاف صاحب حفظ ونظر ومعرفة بطرق الحديث، يعرف ناسخ القرآن ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه»[٦]. وطلب أيضًا علم الكلام عند النظام وغيره من المتكلمين، ومرّ بنا فى الفصل السابق كيف كان يستظهر مصطلحاتهم فى أشعاره، وبلغ من إتقانه لهذا العلم أن أكّد بعض الرواة أنه بدأ متكلمًا ثم انتقل إلى نظم الشعر[٧]. وقد وصله هذا العلم

(١) ابن المعتز ص ٢٠٨.
(٢) ابن منظور ص ٣٢ وما بعدها.
(٣) ابن منظور ص ١٢.
(٤) الحيوان ٦/٢٣٩.
(٥) الديوان ص ١٣٣.
(٦) ابن المعتز ص ٢٠١.
(٧) ابن المعتز ص ٢٧٢ وانظر الحيوان ٤/٤٥٠

بالثقافات التى كان يتصل بها المتكلمون، ومرت بنا أمثلة تصور أخذه من الثقافات الهندية ، ولا شك فى أن اتصاله بالثقافتين الفارسية واليونانية كان أكثر عمقاً فقد كان فارسى الأصل ، وكان يحسن الفارسية إحساناً بعيداً جعله يلوك كثيراً من كلماتها فى أشعاره ، ولا بد أنه نظر فيما ترجمه ابن المقفع وغيره من آدابها المختلفة ، وأيضاً لا بد أنه نظر فى الفلسفة اليونانية وما اتصل بها من منطق بحكم تثقفه بعلم الكلام، إذ كان المتكلم لا يتمكن فى هذا العلم ولا يجمع أفكاره « حتى يكون الذى يحسن من كلام الدين فى وزن الذى يحسن من كلام الفلسفة »[١] . وفى خمرياته ما يدل دلالة واضحة على أنه وقف وقوفاً دقيقاً على طقوس المجوس واليهود والنصارى وعقائدهم[٢] . وتفرَّغ للنوادر والملح وحفظ منها شيئاً كثيراً[٣] ، وتصادف أن كان خفيف الروح ظريفاً[٤] ، مما أعدَّه لتكثر مطايباته ومداعباته ، وليكون سميراً للخلفاء والوزراء ويصف ذلك من نفسه ليحيى بن خالد البرمكى ، فيقول :[٥]

كم من حديثٍ معجبٍ لى عندكا ... لو قد نبذتُ به إليك لسرَّكا
إنى أنا الرجلُ الحكيم بطبعه ... ويزيد فى علمى حكاية من حكى
أتتبَّع الظرفاءَ أكتب عنهمُ ... كيما أحدِّث من أحبُّ فيضحكا

وعلى الرغم من ظرفه لم يكن قريباً من نفس المرأة التى عاصرته ، فقد كانت تَزْدرى فيه غلامياته وسيرته الشاذة ، وكانت أول امرأة شغفته حبا ، وهو لا يزال فى البصرة يختلف إلى المربد وحلقات العلماء، جنان جارية الثقفيين ، وعقد أبو الفرج فصلا فى أغانيه[٦] لأشعاره فيها وأخباره معها ، ونراه يرسل لها بغزلياته ، وترسل له بسبِّها وشتمها ، وهو يزداد بها شغفاً ، حتّى ليقول[٧] :

أتانى عنك سَبُّكِ لى فسُبّى ... أليس جرى بِفيك اسمى فحَسْبى
وقُولى ما بدالكِ أن تقولى ... فما ذا كلُّه إلا لحُبِّى

وغزله فيها غزل عفيف لا فحش فيه . وجذبته بغداد فيمن جذبت من شعراء

---

(١) الحيوان ٢/١٣٤ .
(٢) انظر الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص١٢٣ وأبا هفان ص٢٥ والديارات للشابشتى (طبع بغداد) ص ١٣١ .
(٣) ابن المعتز ص ٢٠١ .
(٤) ذيل زهر الآداب ص ٩٤ .
(٥) ذيل زهر الآداب ص ٢٢ .
(٦) أغانى (طبع الساسى) ١٨/ ٢ وما بعدها .
(٧) الديوان ص ٣٦٢ .

البصرة ، ففارق موطنه إلى غير رجعة لا باكيًا عليه ولا آسفًا ، إذ كانت حياته فيه سلسلة من الإخفاق فى علاقته بجنان وعلاقته بالرفاق حتّى كان يشعر كأنه سليب الحرية ، وفى ذلك يقول[١] :

أيا من كنت بالبَصْر ة أصفى لهم الوُدّا
ومن كانوا موالىَّ ومن كنت لهم عَبْدا
ومن قد كنت أرعاه وإن ملَّ وإن صَدّا
شربنا ماءَ بغدادٍ فأنسانا كم جِدّا
فلا تَرْعوا لنا عَهْدا فما نَرْعَى لكم عَهدا

ولم يلبث حين قدم بغداد أن قدَّمه هرثمة بن أعين إلى الرشيد فمدحه ونال جوائزه ، وأخذ ينفقها فى مباذله ، غير تارك حانةً بالكرخ أو فى ضواحى بغداد إلا ارتادها ، ملمًّا من حين لآخر بدير من الأديرة المنبثّة على شواطئ دجلة ، وكأنما تحولت حياته إلى حانة كبيرة يقترف فيها كل ما لذَّ له من إثم وفجور ، وارتقى ذلك إلى سمع الرشيد فحبسه مراراً لعله يزدجر[٢] ، ولكنه كان سرعان ما يعود إلى سيرته السيئة حين تُرَدُّ له حريته . وقد غضب عليه غضبًا شديداً حين رآه يهجو عدنان ويفتخر بقحطان ومواليه اليمنيين ، فأطال حبسه[٣] ، ثم عاد فعفا عنه ، وربما كان للبرامكة أثر فى هذا العفو المتكرر ، فقد كانوا يقربونه منهم ويغدقون عليه من بِرّهم ونوالهم الغَمْر ،ونرا ه يحزن عليهم حزنًا عميقًا حين ينكبهم الرشيد سنة ١٨٧ للهجرة ويرثيهم بمثل قوله[٤] :

لم يظلم الدهرُ إذ توالتْ فيهم مصيباتُه دِراكا
كانوا يجيرون مَنْ يُعادى منه فعاداهمُ لذاكا

ويولّى وجهه نحو الفسطاط بمصر ، ليمدح والى الخراج بها الخصيب بن عبد الحميد ، وكان فارسيًّا مثله . وقد استقبله استقبالا حافلا ، وأضفى عليه من

(١) الديوان ص ١٦٦ .
(٢) أبو هفان ص ١٠٠ والموشح ص ٢٨٧ .
(٣) ابن منظور ص ١٥ .
(٤) أبو هفان ص ١٢١ .

نواله كثيراً ، كما أضفى عليه أبو نواس غير مدحة ، وله يقول[١] :

أنت الخصيبُ وهذه مِصْرُ   فتدفَّقا فكلاكما بَحْرُ
النيلُ يُنْعش ماؤه مصراً   ونداك ينعش أهلَه الغَمْرُ

وسرعان ما أخذ يحنُّ حنيناً شديداً إلى بغداد حيث المجون قائم على قدم وساق ، وصوَّر هذا الحنين بصور مختلفة ، من مثل قوله[٢] :

كفى حَزَناً أنى بفسطاط نازحٌ   ولى نحو أكناف العراق حَنين

وعاد إلى بغداد ولم يلبث الرشيد أن توفى وخلفه الأمين (١٩٣ — ١٩٨ هـ) وكان فيه ميل شديد إلى اللهو فحوَّل قصر الخلافة إلى مقصف كبير للغناء والرقص ، واتخذ أبا نواس نديماً له يمدحه وينظم له ما شاء من غزل وخمر ، واستغلَّ ذلك المأمون حين عزم على حرب الأمين ، « فكان يعمل كتبا بعيوبه تُقْرَأ على المنابر بخراسان ، وكان مما عابه به أن قال إنه استخلص رجلا شاعراً ماجناً كافراً يقال له الحسن بن هانئ ليشرب معه الخمر ويرتكب المآثم ويهتك المحارم ، وهو القائل :

ألا فاسْقِنى خمرًا وقل لى هى الخَمْرُ   ولا تَسْقنى سرًّا إذا أمكن الجَهْرُ
وبُحْ باسْمِ من تَهْوَى ودَعْنى من الكُنَى   فلا خَيْرَ فى اللذات من دونها سِتْرُ

وكان يقوم رجل بين يديه فينشد أشعار أبى نواس فى المجون » . فاتصل ذلك بالأمين فنهى أبا نواس عن الخمر ولم ينته ، حينئذ أغراه الفضل بن الربيع وزيره بحبسه ، فحبسه ، وقد مضى فى حبسه يستعطف الفضل بأشعار مشيعاً فيها روحه الفكهة بما يُصَوِّر من نسكه وعلامات السجود فى جبهته وحمله للمسابيح أو السُّبح فى ذراعه وللمصحف فى لَبَّته .[٣] وعطف عليه الفضل فتلطف له عند الأمين وردَّ إليه

---

(١) الديوان ص ١٠٢ .
(٢) الديوان ص ٣٩٩ وانظر ص ٩٧ .
(٣) الديوان ص ١٠٨ .

حريته[١] . وكانت قد تقدمت به السن وعلته كبرة وشيخوخة ، فأخذ يُنيب إلى ربه ، وينظم أبياتاً مختلفة في الزهد ، وفي أخباره ما يدل على أنه تنسك مراراً ، ثم عاد إلى غيِّه ، وربما رقيت فترات هذا النسك إلى زمن الرشيد ، وحين كان يُلْقَى به في السجن ، إذ يقال إنه حجَّ سنة ١٩٠ للهجرة[٢] ، وكأنما هي صحوات كان يفيق فيها ثم يرجع إلى خطاياه . وتوفى الأمين ، ولم يلبث أن توفى من بعده ، وقد اختلف الرواة في تاريخ وفاته[٣] ، فنهم من تقدم به إلى سنة ١٩٥ ومنهم من تأخر به إلى سنة ١٩٩ وقيل بل توفى بعد المائتين بقليل وفي ديوانه رثاء للأمين يشهد بأن وفاته لم تكن قبل سنة ١٩٨ . واختلف الرواة أيضاً في سبب وفاته[٤] ، فقيل إنه توفي وفاة طبيعية وقيل بل هجا إسماعيل بن نوبخت هجاء مقذعا ذكر فيه أمه ورماه بالبخل والرفض ، فدسَّ له شربة من سمٍّ قتلته بعد أربعة أشهر ، وقيل بل دسَّ له مَنْ ضربه حتى مات .

ولعل فيما قدمنا ما يدل بوضوح على أن عناصر كثيرة اشتركت في تكوين طبيعة أبي نواس ، فقد كان فارسياً حاد المزاج وثقف كل الثقافات التي عاصرها من عربية وإسلامية ومن هندية وفارسية ويونانية ومن مجوسية ويهودية ونصرانية ، وغرق في حضارة عصره المادية وفي آثامها وخطاياها ، تدفعه إلى ذلك أزمته النفسية العنيفة إزاء سيرة أمه المنحرفة وكأنما اتخذ من المجون والفسق أداة ، بل ملجأ ، للهروب من أزمته ومن هموم الحياة وأحزانها ، وتردَّى في أسوأ صور المجون ونقصد غزله الشاذ بالغلمان . ونراه أحياناً يعلن تمرداً وإلحاداً في الدين ، ولكنه إلحاد عابر ، لا إلحاد عقيدة كإلحاد بشار ، فقد كان بشار زنديقاً ، وكان يظهر زندقته حين لا يخشى على نفسه ، ويبطنها حين يأخذه الخوف ، أما أبو نواس فلم يكن يعتنق الزندقة إنما كان يعتنق المجون ، ويتعبد لملاذِّ الحضارة التي عاشها ، فصاح بالدين الحنيف كأنه يرى فيه عائقاً عن خمره ومجونه وإثمه . وهو من هذه الناحية مضطرب

---

(١) زهر الآداب ١١١/٢ وما بعدها وذيل زهر الآداب ص ١٣٦ وما بعدها والوزراء والكتاب للجهشياري ص ٢٩٥ وما بعدها .

(٢) أبو هفان ص ٩٨ وانظر النجوم الزاهرة ١٥٦/٢ .

(٣) ابن منظور ص ٥ والشعر والشعراء ص ٧٨٣ .

(٤) أبو هفان ص ٣٤ .

أشد الاضطراب تارة يعلن دهريته وأنه لا يؤمن ببعث ولا نشور[١] وتارة يعلن أنه مؤمن عاص ، وأنه على الرغم من جهره بعصيانه وفسقه يعتمد على عفو الله ومغفرته على نحو ما مرَّ بنا فى الفصل السابق وحواره للنظام فى فكرة العفو التى قال بها المرجئة[٢] .

ولا بد أن نلاحظ مع ذلك كله عنصراً مهمًّا فى مزاجه هو عنصر التندير والميل إلى الهزل والعبث ، ولعل ذلك هو الذى جرَّه إلى صياح كثير فى وجه الدين الحنيف ، وكان إذا تلوَّمه بعض معاصريه قال : « والله ما أدين غير الإسلام ولكن ربما نَزَا بى المجون حتى أتناول العظائم »[٣] وهو بذلك يعترف أن جمهور هذا الصياح إنما كان ينظمه فى أثناء معاقرته للخمر هزلا وتعابثا ومجانة ، ومن أجل ذلك ترددت نبراته فى خمرياته ، إذ نراه فى ثناياها يهاجم الدين أو يهاجم العرب ووقوف شعرائهم على الأطلال ، حتى إذا صحا وعادت إليه يقظته أوقف ثورته على الدين والعرب جميعًا ومضى يقدم لمدائحه بوصف الأطلال وبكاء الديار ونَعْت رحلته فى الصحراء على ناقته أو بعيره . .

وأبو نواس — على الرغم من مجونياته — يُعَدُّ من أعاجيب عصره فى الشعر ، إذ كان يحظى بملكات شعرية بديعة ، وهى ملكات صقلها بالدرس الطويل للشعر القديم واللغة العربية الأصيلة ، حتى قال الجاحظ : « ما رأيت أحداً أعلم باللغة من أبى نواس »[٤] وأضاف إلى هذا العلم علما دقيقًا بقوالب الشعر الجاهلى والإسلامى وما صارت إليه عند بشار وأضرابه من أوائل العباسيين ، ومن خلال هذه القوالب جميعها أخذت شخصيته تنمو فى اتجاهين : اتجاه يحافظ فيه على التقاليد الموضوعة دون أن يشتط فى التجديد ، واتجاه يجدد فيه تجديداً واسعًا ، يجدد فى معانيه وألفاظه .

ويمكن أن نسلك فى الاتجاه الأول مدائحه وأراجيزه ومراثيه ، بينما نسلك فى الاتجاه الثانى أهاجيه وغزلياته وخمرياته وكل ما يتصل بعبثه ولهوه . أما المديح

---

(١) أبو هفان ص ٣٧ .
(٢) انظر الديوان ص ٢٣٥ .
(٣) أبو هفان ص ٣٨ .
(٤) تاريخ بغداد ٧/٤٣٧ .

فكان كثيراً ما يحتفظ فيه بمقدماته القديمة وله فى ذلك قلائد بديعة مثل رائيته فى الخصيب[١] :

أجارة بَيْتينا أبوكِ غَيورُ　　　وميسورُ ما يُرْجَى لديكِ عسير

وميميته فى الأمين[٢] :

يا دارُ ما فعلتْ بكِ الأَيَّامُ　　　لم تُبْقِ فيكِ بشاشةً تُستامُ[٣]

ويلاحظ أنه لم يكن يطيل مثل بشار فى وصف رحلته بالصحراء وأنه كان يتعمق أكثر منه فى المبالغة حين يلم بنعت الممدوحين كقوله فى الرشيد[٤] :

وأخفتَ أهل الشِّرْك حتى إنه　　　لتخافك النُّطَفُ التى لم تُخْلَقِ

وقوله أيضًا فيه[٥] :

ملكٌ تصوَّر فى القلوب مثالُهُ　　　فكأنه لم يَخْلُ منه مكانُ

وقوله فى الأمين مخاطبًا ناقته[٦] :

يا ناقُ لا تَسْأَمى أوتبلغى ملكا　　　تقبيلُ راحته والرُّكْنِ سيَّانِ
محمدٌ خيرمن يَمْشِى علىقَدَمٍ　　　مِمَّنْ بَرَا اللهُ من إنْس ومن جانِ

ونراه فى هذه القصيدة يضفى على الأمين هالة كبيرة من القدسية والجلال حتى ليشبهه بالرسول صلى الله عليه وسلم على الرغم مما كان يتردَّى فيه من لهو ومجون ، واستطرد فى تضاعيف ذلك يقرر حق العباسيين فى الخلافة رادًّا ردًّا عنيفًا على بنى عمهم العلويين . ومن مبالغاته الطريفة قوله فى بعض ممدوحيه[٧] :

تغطَّيتُ من دهرى بظِلِّ جناحِه　　　فعَيْنِى ترى دَهْرى وليس يرانى
فلو تُسْأَل الأَيامُ ما اسمى لمادرتْ　　　وأين مكانى ما عرفْنَ مكانى

وجانب آخر فى بعض مدائحه يمتاز به من بشار فإنه كان يعمد كثيراً إلى

(١) الديوان ص ٩٨ .
(٢) الديوان ص ٦٣ .
(٣) تستام : ترى
(٤) الديوان ص ٦٢ .
(٥) الديوان ص ٥٩ .
(٦) الديوان ص ٦٥ وما بعدها .
(٧) الديوان ص ٩٧ .

الألفاظ العذبة الرشيقة التي تموج بالنعومة والخفة فيؤلف منها مدائحه على شاكلة سينيته فى الأمين وفيها يقول[١] :

أضحى الإمام محمدٌ للدين نورًا يُقْتَبَسْ
تبكى البدورُ لضِحْكِهِ والسيفُ يضحك إن عَبَسْ

وكان له حس دقيق وذوق مرهف ، يعرف عن طريقهما كيف يختار أرق الألفاظ وأرشقها وأخفَّها فى النطق وأحلاها فى السمع ، وكان يدنو فى ذلك حتى يمس شغاف القلوب ، إذ كان يحسن اختيار أسهل الألفاظ وأيسرها وأقربها إلى ما يجرى على ألسنة الناس فى حياتهم اليومية . ومن أجل ذلك كان يتجافى عن ألفاظ القدماء ، حتى فى المديح ، أو قل فى كثير منه ، فإنه كان يبتغى فيه أو على الأقل فى بعضه أن يأخذ بألباب سامعيه بما يعرض عليهم من لغة عذبة تسيل خفة ورشاقة .

وأبو نواس فى أراجيزه ووصفه للصيد وأدواته وجوارحه أكثر تمسكًا بالقوالب القديمة ، وقد سبقه ، كما مر بنا فى غير هذا الموضع ، أبو نُخَيلة وأضرابه من شعراء العصر الأموى مثل الشَّمَرْدَل إلى اتخاذ الرجز أداة لهذا الوصف ، ومضى فى إثرهم يحاكيهم فى التمسك بهذا القالب وكل ما يتصل به من لفظ غريب . وقرَن بهذه المحاكاة الشديدة ضروباً من التجديد فى المعانى والصور على شاكلة قوله فى إحدى طردياته[٢] :

لما تبدَّى الصُّبْح من حجابهِ كطلعة الأَشْمَط من جلبابهِ[٣]
وانعدلَ الليلُ إلى مآبهِ كالحبشيِّ افترَّ عن أنيابه
هِجْنا بكلب طالما هِجْنا بهِ يَنْتَسِفُ المِقْوَدَ من كَلاَّبه[٤]
كأنَّ مَتْنَيه لدى انسِرابهِ مَتْناشجاعٍ لَجَّ فى انسيابه[٥]

---

(١) ابن المعتز ص ٢١١ .
(٢) الديوان ص ٢١٠ والحيوان ٢/ ٤٠ .
(٣) الأشمط : الذى يخالط سواد شعره بياض الشيب .
(٤) ينتسف : ينتزع بقوة .
(٥) انسرابه : انسيابه وإسراعه . الشجاع هنا : الأفعى ، متناه : مكتنف صلبه .

كأنما الأظفورُ فى قِنابهِ مُوسَى صَناعٍ رُدَّ فى نِصابهِ(١)
كأن نَشْرًا ما توكَّلْنا بهِ يعفو على ما جَرَّ من ثيابهِ(٢)
ترى سَوام الوحش يُحْتَوى بهِ يَرُحْنَ أسْرَى ظُفْرِه ونابه(٣)

وتمتلىء طردياته بمثل هذه الصور ، وهى تُعَدُّ ركنا هامًّا فى شعره إذ كان يكثر من التشبيهات والاستعارات ، وكان يعرف كيف يجدد فيها وكيف يأتى بالطريف النادر .

وكان يتخير لمراثيه أسلوبًا جزلا مصقولا ، وقد يكثر فيه من الغريب ، وخاصة إذا كان من يبكيه من اللغويين مثل خلف الأحمر أستاذه ، وقد يتخفف من ذلك ، ولكنه على كل حال يظل محتفظًا بالأسلوب الرصين . وهو فى مراثيه يمتاز بحرارة اللهجة وصدق العاطفة ، وربما كان أجودها جميعًا مراثيه فى الأمين ، وهى تفيض باللوعة والحزن العميق من مثل قوله(٤) :

طوى الموْتُ ما بينى وبين محمَّدٍ وليس لما تَطْوى المنِيَّةُ ناشرُ
فلا وصلَ إلا عَبْرَةٌ تستديمها أحاديثُ نَفْسٍ مالها الدهرَ ذاكر
وكنت عليه أحذر الموت وحده فلم يبق لى شىءٌ عليه أحاذر
لئن عَمرتْ دورٌ بمن لا أودُّهُ لقد عَمرتْ ممن أحبُّ المقابرُ

ومن نفس هذا الأسلوب المتين المصقول أشعاره التى نظمها فى السجن يستعطف بها الرشيد والأمين ووزيره الفضل بن الربيع(٥) .

وإذا كان أبو نواس اعتدَّ فى كل تلك الأغراض بسنن الأساليب الموروثة ، فإنه حاول أن يجدد فى الهجاء والغزل والمجون ، وأهاجيه نوعان : نوع تمسك فيه بالأوضاع التقليدية ، وذلك حين كان يهجو العدنانيين ويفخر بمواليه القحطانيين(٦) وكأننا نستمع إلى قصائد من نمط نقائض جرير والفرزدق ، فهى تعجّ بالمثالب

---

(١) الأظفور : الظفر ، قنابه : غطاؤه . صَناع : ماهر . نصابه : قرابه ومقبضه .
(٢) توكلنا به : اعتمدنا عليه . يعفو : يمحو .
(٣) سوام الوحش : الوحش المنطلقة فى الفيافى .
(٤) الديوان ص ١٢٩ .
(٥) الديوان ص ١٠٦ وما بعدها .
(٦) الديوان ص ١٥٥ وما بعدها .

القبلية التى عرفها فى نقائضهما والتى طالما سمعها من أبى عبيدة وهو يحاضر فيها طلابه بالبصرة ، ونوع ثان كان يجرى فيه فى نفس الدروب التى مهّدها من قبله بشار ، إذ نراه يشغب على العرب من جهة ، ويحاول أن يطلق على خصومه نفس السهام المسمومة التى كان يطلقها بشار وبعض من عاصروه . وأبو نواس لا يشغب على العرب شغب شعوبية كشعوبية بشار ، فشعوبيته — إن صح هذا التعبير — من لون آخر ، ذلك أنه لا يوازن بين خشونة البدو وحضارة الفرس كما يصنع بشار وغيره من الشعوبيين الحقيقيين ، إنما يوازن بين تلك الخشونة والحضارة العباسية المادية وما يجرى فيها من خمر ومجون كان يعكف عليهما عكوفاً ، ويأخذ ذلك عنده شكل ثورة جامحة على الوقوف بالرسوم والأطلال وبكاء الديار ، ودعوة حارة إلى المتاع بالخمر على شاكلة قوله[١] :

عاج الشقىُّ على رسمٍ يسائلُهُ ... وعُجْت أسألُ عن خمَّارة البلدِ[٢]

يبكى على طَلل الماضين من أَسَدٍ ... لا دَرَّ دَرُّك قل لى من بنو أسدٍ؟

كم بين ناعتِ خمرٍ فى دَساكرِها ... وبين باكٍ على نُؤْيٍ ومنتضَدِ[٣]

دَعْ ذا ، عَدِمتك ، واشربْها معتَّقَةً ... صفراءَ تفرق بين الروح والجسد

ونحن نظلم أبا نواس إذا سمينا ذلك — كما ذهب بعض المعاصرين[٤] — شعوبية حقة ، إنما هو تماجن وإمعان فى التماجن . ولذلك لم يرفض هو نفسه البكاء على أطلال البادية ، بل لقد بكاها كثيراً . وقد دفعته حدة مزاجه إلى الاصطدام بكثيرين من الشعراء وممن كان يمدحهم ويرعى على موائدهم مثل إسماعيل بن نوبخت وكان ما يزال يرميه بالبخل من مثل قوله[٥] :

خُبْزُ إسماعيل كالوَشْـ ... ـيِ إذا ما انشقَّ يُرْفَا

عجبًا من أثر الصَّنْـ ... ـعَةِ فيه كيف يخفَى

(١) الديوان ص ٢٦٦ .

(٢) عاج : عطف .

(٣) الدساكر : جمع دسكرة وهى القرية العظيمة . النؤى : حفرة حول الخيمة لمنع السيول ، منتضد : مكان تجمع الناس ، يريد ديار الحبيبة .

(٤) حديث الأربعاء (طبعة سنة ١٩٣٧) ص ١١٣ — ١١٤ .

(٥) الديوان ص ١٧٢ .

إن رفَّاءك هذا ألطفُ الأمـة كفَّا

وأهم شاعرين اصطدم بهما أبان بن عبد الحميد وفضل الرقاشي ، أما أبان فكان البرامكة يقيمونه على ديوان الشعر والشعراء يقدر جوائزهم ، فبَخَسَه جائزته[١]، ويقال بل إن البرامكة طلبوا إلى أبي نواس أن ينقل لهم كليلة ودمنة شعراً ، فنصح له أبان أن لا يصنع لما يجشمه ذلك من صعاب كثيرة ، فاستعفى منه ، وتخلَّى به أبان فترجمه ، وأعطاه البرامكة على ترجمته مالا جزيلا . وعرف ذلك أبو نواس وتبين له أنه احتال عليه ، فهجاه ونشبت بينهما خصومة عنيفة[٢]، كان أبو نواس ما يزال يرميه فيها بالزندقة واقتراف الآثام[٣]، وكان من أشد ماهجاه به على نفسه نعته له بصفات لا تليق بمن يكون سميراً للوزراء من أمثال البرامكة ، إذ يقول في إحدى أهاجيه مصورا ثقله[٤]:

فيك ما يَحْمل الملوكَ على الخُرْ ... قِ ويُزْرى بالسيد الجَحْجاحِ[٥]

فيك تِيهٌ وفيك عُجْبٌ شَديدٌ ... وطِماحٌ يفوق كلَّ طِمـاحِ

باردُ الظَّرف مظلم الكذب تيَّا ... هٌ مُعيد الحديث غَثُّ المزاح

وكانت هذه الأبيات سبباً في سقوط أبان عند البرامكة ، وصار له كالعَبْد لا يلقاه ولا يُذْكر له إلا يجلُّه . ويظهر أن اصطدامه بفضل الرقاشي يرجع إلى تقديم أبان والبرامكة له ، وكان خليعاً ، فأتاه أبو نواس من هذا الجانب كثيراً ، وله يقول[٦] :

واللهِ لو كنتُ جريرًا لمـا ... كنت بأَهْجَى لك من أَصْلكا

وله أهاج كثيرة في القيان والمغنين ، وحتى مَنْ أكرموه مثل الخصيب والبرامكة لم يسلموا من هجائه ، وهو فيه دائمًا يلتمس السيئات وكثيراً ما يُفْضى إلى فحش وإقذاع شديد .

ولأبى نواس غزل كثير في المرأة والغلمان ، وأروع ما له من غزل في المرأة ما نظمه في جنّان ، إذ يعبِّر فيه عن مشاعر صادقة ، ومن الغريب أنها كانت

(١) ابن المعتز ص ٢٠٢ .
(٢) ابن المعتز ص ٢٤١ .
(٣) الديوان ص ١٨٠ وما بعدها .
(٤) ابن المعتز ص ٢٠٣ .
(٥) الخرق : الحمق . الجحجاح : الجواد .
(٦) الديوان ص ١٧٨ .

تردّه ردًّا منكراً عنيفًا ، وهو كلما ردّته ازداد بها غرامًا وعليها تهالكاً ،وكلف بها أشد الكلف ، وله فيها مقطوعات بديعة من مثل قوله ، وقد رآها تندب فى بعض المآتم(١) :

يا قمرًا أبصرتُ فى مأتمٍ يَنْدب شَجْوًا بين أتْرابِ
أبرزه المأتَمُ لى كارها برغم داياتٍ وحُجَّاب
يبكى فيُذْرِى الدُّرَّ من نرجسٍ ويَلْطِمُ الوَرْدَ بعُنَّابِ(٢)
لا تَبْكِ مَيْتًا حلَّ فى حُفْرَةٍ وابْكِ قتيلا لك بالباب
لا زال موتاً دَأْبُ أحبابه وكان أنْ أبْصره دابى(٣)

وعبثا استطاع يومًا أن يلقاها ، مما جعله يصطلى حقًّا بحبها وناره المحرقة ، ويتعذب عذابًا طويلا ، بثّه فى كثير من أشعاره ، ولعلها المرأة الوحيدة التى استأثرت بقلبه وملكت عليه كل شىء من أمره . ونراه فى بغداد يسوق غزلا كثيراً فى إمائها وجواريها ، يشوبه بكثير من الفحش الذى ينبو عنه الذوق ، حتى مع عنان جارية الناطفى ، وكانت شاعرة ظريفة ولها أيام تستقبل فيها الشعراء وتطارحهم الشعر ، ممعنة معهم فى كل ما يخوضون فيه من بذاءة تظرفاً ومعابثة(٤) . وديوانه من هذه الناحية يصور الجوارى المبتذلات اللائى كان يجلبهن النخاسون إلى بغداد ، وكانت كثيرات منهن يقبلن على الخلاعة والمجون ، وقلما عَرَفْنَ شيئًا من العفة والطهارة .

ويتسع الفحش فى غزل أبى نواس الشاذ بالغلمان ، حتى ليصبح وصمة فى جبين عصره ،وإن كان ابن المعتز يلاحظ أنه كان يتستَّر بذلك عن فسقه الحقيقى بالجوارى الخليعات(٥) . وإذا صح ذلك يكون من الخطأ أن تفسَّر نفسية أبى نواس على أساس هذه الآفة الشاذة التى كان يتظاهر بها ليخفى حقيقة سريرته وحياته الماجنة . وينبغى أن نلاحظ هنا ما أشرنا إليه فى حديثنا عن إلحاده ، فإن كثيراً من غزله المفحش فى الغلمان والنساء جميعًا كان ينظمه فى مجالس الخمر تعابثًا

(١) أغانى ١٨/٦ والديوان ص ٣٦١ .
(٢) استعار الدر للدمع والنرجس للعين والورد للخد والعناب لأطراف الأصابع .
(٣) الدأب : الشأن والعادة .
(٤) العقد الفريد ٦/٥٧ .
(٥) ابن المعتز ص ٣٠٩ .

ومجانة ، على أننا كثيراً ما نقع فى ثنايا هذا الغزل على أبيات رائعة من مثل قوله[١] :

يا مَنْ له فى عَيْنه عقْرَبُ فكلُّ مَنْ مرَّ بها تضربُ
ومن له شمسٌ على خَدِّهِ طالعــةٌ بالسَّعْد ما تَغْرُبُ

وهو أستاذ فن الخمرية فى الشعر العربى غير مدافَع سواء من حيث الكمية أو من حيث الكيفية ، فقد عاش للخمر يتغنَّى بها ، مجاهراً بالفسوق والمجون . وكان شيء من ذلك قد أخذ يشيع على ألسنة الشعراء منذ ظهور الوليد بن يزيد ، ونمَّاه بشار ومطيع بن إياس ووالبة بن الحباب وعصاباتهم من المجان فى البصرة والكوفة ، غير أن أبا نواس اتسع به اتساعاً شديداً ، فإذا الخمرية تتكامل صورتها وتُفْرَدُ لها القصائد والمقطوعات وتصبح فنًّا مستقلا ، له وحدته الموضوعية ، مستعينًا فى ذلك بملكاته العقلية الخصبة التى أمدته بكثير من المعانى الدقيقة ومستعيناً أيضًا بملكاته الخيالية التصويرية البديعة التى رفدته بكثير من التشبيهات والاستعارات البارعة ، وحتى إن فاته التصوير النادر والمعنى الدقيق أحيانًا فإنه لم تكن تفوته حلاوة النغم ورشاقة اللفظ . وقد مضى يتحدث عن كئوسها ودنانها وعتقها وطعمها ورائحتها ومجالسها مصوراً كلفه بها وهيامه وتهالكه على احتسائها من أيدى سقاتها بين آلات الطرب ورنَّات القيان ، يقول[٢] :

إنما العيشُ سماعٌ ومُــدامٌ ونِــدامُ
فإذا فاتك هــذا فعلى الدنيــا سلام

فلا حياة فى رأيه سوى حياة الخمر والمجون فى بيوت القيان وفى الحانات ، ومن ثَمَّ مضى يدعو فى خمرياته دعوة واسعة إلى العدول عن وصف الأطلال إلى وصف الخمر والمتاع بما يقترن بها من غناء وسُقاة ، على نحو ما يصور ذلك فى قوله[٣] :

لا تَبْكِ ليلى ولا تطربْ إلى هِنْدِ واشْرَبْ على الورد من حمراء كالوردِ
كأْساً إذا انحدرتْ فى حَلْق شاربها أَجْدَتْه حُمْرَتَها فى العين والخَدِّ[٤]

---

(١) الديوان ص ٤٠٧ .
(٢) العقد الفريد ٦ / ٢٢١ .
(٣) الديوان ص ٢٦٥ .
(٤) أجدته : أفادته وأعطته .

فالخمرُ ياقوتةٌ والكأسُ لؤلؤةٌ ... فى كفِّ جاريةٍ ممشوقة القَدِّ
تسقيك من يدها خَمْرًا ومن فمها ... خمرًا فما لك من سُكرين من بُدِّ

وأخذ يجدِّف كثيراً ضد الدين الحنيف الذى يحرم الخمر وجملة الآثام التى كان يتردَّى فيها ، معلناً ذلك إعلانًا صريحًا بمثل قوله[١] :

ترى عندنا ما يُسْخط الله كلَّه ... من العمل المُرْدِى الفتى ماعدا الشِّرْكا

وقد يتمادى فى ذلك حتى ليعلن دهريته وأنه لا يؤمن ببعث ولا حساب ولا بجنة ولا نار ، وهو فى ذلك كله إنما يتماجن ويتعابث .

وكان كثيراً ما يلمّ بالأديرة ، فيصف معاقرته الخمر فيها وسُقاتها من الرهبان والراهبات ، وقد يلمُّ بحانة لمجوسى أو ليهودى . وأتاح له ذلك أن يصف كل تلك البيئات بالإضافة إلى حانات الكرخ ببغداد وعلى ضفاف دجلة ، وشعره من هذه الناحية ملىء بتصوير الحياة الاجتماعية لعصره .

وفى خمرياته فحش كثير ، وكأنما وُجد ليحمل ذنوب عصره وجميع خطاياه . على أنه ينبغى أن نلاحظ أنه وُضع عليه كثير من الشعر فى هذا الباب ، إذ تحول إلى ما يشبه شخصية أسطورية ، فإذا هو يدخل فى قصص ألف ليلة وليلة ، وإذا هو توضع فى فحشه ونوادره كتب مستقلة ، بدأها أبو هفان فى كتابه « أخبار أبى نواس » ومضت تتسع من بعده . وليس ذلك فحسب ، فإن كثيراً من أشعار المجّان الذين عاصروه أضيفت إليه ، وعرَف ذلك القدماء ، إذ نرى ابن قتيبة ينصُّ على أن الخمرية المشهورة : « ياشقيقَ النفس من حَكَم » تُنْسَبُ إليه وهى لوالبة[٢] ، ويقول أبو الفرج فى ترجمة الحسين بن الضحاك الخليع إنه « كان إذا شاع له شعر نادر فى الخمر نسبه الناس إلى أبى نواس »[٣] ويقول ابن المعتز : « إن العامة الحمقى قد لهجت بأن تنسب كل شعر فى المجون إلى أبى نواس ، وكذلك تصنع فى أمر مجنون بنى عامر ، كلُّ شعر فيه ذكر ليلى تنسبه إلى المجنون »[٤] ولم تقف المسألة عند العامة ، بل تعدتهم إلى الرواة ، وأيضًا لم تقف عند شعر الخمر والمجون

---

(١) الديوان ص ٢٥٠ .
(٢) الشعر والشعراء ص ٧٧١ .
(٣) أغانى ٧/١٤٦ .
(٤) ابن المعتز ص ٨٩ .

فقد نُسب إليه كثير من شعر معاصريه فى جميع الموضوعات ، ويكفى أن نرجع إلى ترجمة النظام فى ابن المعتز ، فسنراه ينشد له فى الخمر بيتين وردا فى ديوان أبى نواس (١) ، وينشد له قطعة فى مديح الأمين جاءت أيضًا فى ديوان أبى نواس (٢) ، وإذا تركنا ابن المعتز إلى أمالى المرتضى وجدناه ينسب قطعة دالية فى الغزل إلى النظام وهى مبثوثة فى الديوان (٣) وكأن الرواة حملوا عليه شعر المتكلمين لما رأوا فيه من غوص على المعانى وبعد فى الخيال والوهم . وكان حَمْلهم عليه لأشعار المجّان أوسع مدى ، بل إنهم حملوا عليه كثيراً من زهديات أبى العتاهية (٤)

ونحن لا نريد أن نبرئه من الفحش ولا من الغزل الماجن ، إنما نزعم أنه حُمل عليه كثير فى هذا الباب ، ومن ثَمَّ ينبغى أن لا نتسع فى أحكامنا عليه ، وربما كانت أسوأ رواية لديوانه رواية حمزة الأصفهانى ، فإنها تمتلىء بالشعر الموضوع عليه ، ولذلك لا يصح أن تتَّخذ أساسا لدرسه وبحثه . وهو يعتدُّ فى كثير من خمرياته وغزلياته باللفظ المونق والأسلوب الرَّصين ، وله فيها مقطوعات كثيرة تسيل عذوبة ونعومة ، غير أن له أيضًا وراء ذلك كثيرا من الشعر المهلهل ، إذ « كان لا يقوم على شعره ويقوله على السكر كثيراً ، فشعره متفاوت ، لذلك يوجد فيه ما هو فى الثُّرَيَّا جودة وحسناً وقوة وما هو فى الحضيض ضعفا وركاكة » (٥) . وكان كثيراً ما يُدْخل ألفاظًا فارسية فى خمرياته بحكم شيوع الفارسية فى الحياة اليومية وبين خلعاء الغلمان المجوس الذين كان يتغزل بهم ، ودفَعه ذلك إلى استخدام كثير من أساليب العامة الغثَّة ، مما جعل بعض اللغويين والنحاة يصطدمون به وجعله يكثر من هجائهم . وكان إذا خلص من هزله وعبثه وأفضى إلى حاسته الفنية أتى بالعجب العجاب من روائع الشعر ونادره ، وكانت ترفده مواهب فنية أصيلة ، جعلته يحكم تصاويره ويجرى فيها كثيراً من الطباقات والمقابلات والجناسات البديعة .

وحين علت سِنُّ أبى نواس ووخَطه الشيب أخذ يفيق أحياناً من سكره مفكراً

---

(١) انظر ابن المعتز ص ٢٧٢ والديوان ص ٢٦٢ .

(٢) ابن المعتز ص ٢٧٢ والديوان ص ١١٦

(٣) أمالى المرتضى ١/١٨٨ والديوان ص ٤١٩ .

(٤) انظر الأغانى ٤/١١ ، ٢٩ ، ٧٠ والديوان على الترتيب ص ٢٠٥ ، ١٩٤ ، ٢٠٠ .

(٥) ابن المعتز ص ١٩٥ .

فى الحياة وعواقبها وفى البعث والنشور والموت والفناء ، وكان من حين إلى حين ينيب إلى ربه ،مما جعله يردد أنغامًا مختلفة فى الزهد والدعوة إلى الانصراف عن الشهوات ومتاع الحياة الزائلة والإعداد للآخرة بالتقى والعمل الصالح من مثل قوله[1] :

يا طالبَ الدنيا ليجمعها ... جمحتْ بك الآمال فاقتصِدِ
والقَصْد أحسنُ ما عملتَ له ... فاسلكْ سبيل الخير واجتهد
واعملْ لدارٍ أنت جاعلُها ... دارَ المقامة آخرَ الأبد

وكان يدعو الله ويبتهل له ابتهالات كثيرة . وكنا نتمنى لو اختلط مثل هذا التفكير فى الحياة والموت ومصير الإنسان والقدر وما ينزله بالناس من خير وشر بمجونياته وخمره ونشوته بها ، إذن لما انتظرنا طويلا حتى يوجد عمر الخيام ولكان أبو نواس خياما آخر ولوَجَد من مسائل الحياة الكبرى : مسائل المقادير والشقاء والسعادة والموت والفناء ما يشغله عن فسقه ومجونه وفحشه وهزله وعبثه الوقح مع الغلمان والجوارى . ومرَّ بنا فى الفصل السابق أنه عُنى فى بعض أشعاره بقالب الرباعيات والمسمطات غير أنه لم يتسع بذلك ، وكان أهم ما وفَّر له عنايته صفاء النغم وعذوبته . ولعل ذلك هو الذى دفعه إلى الإكثار من الأوزان القصيرة والمجزوءة

٣

أبو العتاهية[2]

وُلد أبو العتاهية إسماعيل بن القاسم بن سُوَيْد بن كَيْسان فى « عين التَّمْر » بالقرب من الأنبار سنة ١٣٠ للهجرة ، وكان أبوه نبطيًّا من موالى بنى عَنَزة ، أما

---

(١) الديوان ص ١٩٣ .

(٢) راجع فى ذى العتاهية وأخباره وأشعاره أغانى (طبع دار الكتب) ٤ / ١ وطبعة الساسى فى ترجمة والبة ١٦ / ١٤٢ وترجمة سلم الخاسر ٢١ / ٧٣ والشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٧٦٥ وابن المعتز ص ٢٢٨ وما بعدها و٣٦٤ وتاريخ بغداد ٦ / ٢٥٠ وابن خلكان والموشح ص ٢٥٤ ومرآة الجنان ٢ /٤٩ وشذرات الذهب ٢ / ٢٥ ومروج الذهب للمسعودى ٣ / ٢٤٠ ، ٢٧٤ ، ٣٥٨ وزهر الآداب للحصرى ٢ / ٣٤ وما بعدها وأبو العتاهية لمحمد أحمد برانق (نشر لجنة البيان العربى بالقاهرة) . ونشرت ديوانه مطبعة الآباء اليسوعيين ببيروت سنة ١٨٨٦ م .

أمه فكانت من موالى بنى زهرة القرشيين . وكان أبوه يشتغل بالحجامة ويظهر أن سبل العيش ضاقت به فى بلدته ، فانتقل منها إلى الكوفة بأسرته ، ومعه ابناه الصغيران : زيد وأبو العتاهية ، ولا يكاد يشبّ ثانيهما ، حتى نراه ينتظم فى سلك المخنثين ممن كانوا يخضبون أيديهم ويتزينون ويلبسون ملابس النساء حاملين لزوامل تميزهم[١] . ولعل فى ذلك ما يدل على ما كان يحسه هذا الغلام من ضياع ، إذ نشأ فى أسرة فقيرة مغموراً ، لا يعتزّ بأى شىء فى دنياه من جاه أو حتى ثروة ضيقة ، وكان دميم الوجه قبيح المنظر[٢]، نزعت به نفسه إلى اللهو والمجون ، فماذا يصنع ؟ إنه لم يجد أمامه إلا أن ينخرط فى جماعة المخنّثين ، وبذلك كُتب عليه أن يكون سيّئ السيرة فى مطالع حياته . وكان أخوه زيد قد احترف عمل الخزف وبيع الجِرار والفخار ، فحاول أن ينقذه مما تردّى فيه ، وما زال به حتى أشركه معه فى حرفته ، وكان نَبْع الشعر قد أخذ يتدفّق على لسانه ، فكان يأتيه الأحداث والمتأدبون فينشدهم أشعاره ويكتبونها على ما تكسّر من الخزف وما يشترونه من الجِرار[٣] .

واشتهر أمر أبى العتاهية فى الكوفة وأخذ يختلط ببيئات المجّان من الشعراء أمثال مطيع بن إياس ووالبة ، كما أخذ يختلف إلى حلقات العلماء والمتكلمين فى مساجد الكوفة ، مما أتاح له إتقان العربية والوقوف على مذاهب أصحاب المقالات ، وهو فى أثناء ذلك يُكثر من نظم رقائق الغزل ومن الغدوّ والرواح إلى نوادى القيان والمغنين ، ولم تلبث الصلة أن توثقت بينه وبين مغن ناشئ من النَّبَط دوّت شهرته فيما بعد هو إبراهيم الموصلى ، وتعاقدا على أن ينزلا بغداد[٤] ، لعل بضاعتهما تروج فيها ، وفُتحت الأبواب لإبراهيم بينما سُدّت فى وجه أبى العتاهية ، فصمّم على العودة إلى الكوفة ، وعرّج فى طريقه على الحيرة ، ورأى بها نائحة تسمى سُعْدى كانت مولاة لبنى مَعْن بن زائدة ، وكانت ذات حسن وجمال ، فشغفتْ قلبه حبًّا ، وأخذ ينظم فيها شعره ، غير أنها أعرضت عنه ، وتصدّى له مولاها عبد الله ابن مَعْن ، ونهاه أن يعرض لها ، فعمد إلى هجائه هجاء مُقْذعًا ، فأنزل به

(١) أغانى ٤/ ٧ .
(٢) أغانى ٤/ ٧٥ وانظر المسعودى ٣/ ٢٦٠.
(٣) أغانى ٤/ ٩ .
(٤) أغانى ٤/ ٤ .

عقاباً صارماً إذ ضربه مائة سوط ، وتوسط بينهما مواليه من عنزة ، وكفَّ أبو العتاهية لسانه[١].

ويتمّ الكوفة غير أن مقامه لم يطُل بها ، فإن إبراهيم الموصلى صديقه أقبلت عليه الدنيا حين ولى الخلافة المهدى (١٥٨ – ١٦٩ هـ) وقرّبه مع من قرّب من المغنين ، فأرسل إليه أن يلحق به ، ليقدمه للخليفة ، وطار إليه أبو العتاهية ، وأعجب الخليفة بمديحه ، وأخذ يغدق عليه جوائزه[٢] ، وأوسع له فى مجالسه حتى أصبح أثيراً عنده مقدّماً له على كثير من الشعراء ، وحتى نراه يقبل شفاعته فى أحد وزرائه وقد أمر بسجنه[٣] . ويعظم شأن أبى العتاهية ويتهاداه كبار رجال الدولة ووجوهها وفى مقدمتهم خال المهدى يزيد بن منصور الحميرى وقائده وواليه على طبرستان عمر بن العلاء ممدوح بشار ، وله يقول من قصيدة :

إنى أمنتُ من الزمان وريبِهِ لما علقتُ من الأمير حِبالا

ويقال إنه وصله على القصيدة بسبعين ألف درهم[٤].

وتمر الأيام بأبى العتاهية باسمة ، غير أن سحابة لا تلبث أن تنعقد فى سمائها ، فقد تعلّق بجارية من جوارى زوجة المهدى رائطة بنت السفاح ، وهى عُتْبَة ، وكانت تزدريه كما ازدرته سُعْدى من قبل ، ومضى لا يكفّ عن غزله بها ولا يرعوى ، فعرّفت مولاتها خبره وأثارتها عليه ، فحدّثت المهدى بشأنه ، فغضب لتعرضه لحرمه وجوارى قصره ، وأمر بضربه مائة سوط وسجنه ، ولم يلبث يزيد بن منصور الحميرى أن شفع له لدى المهدى ، فعفا عنه وردّ إليه حريته ، ويقول الرواة إنه لم يكن يحبها حبّاً صادقاً إنما كان يريد الشهرة فى الأوساط الأدبية بذكرها وأنه امتحن فى حبها وأثبت الامتحان كذبه وأنه إنما كان يتكلف هذا الحب تكلفا[٥] ، وقد ظل يذكرها ويتغنّى باسمها طويلا ، ولعل ذلك هو الذى جعل المهدى يقول له إنك إنسان معتّه ، فاستوى له بذلك لقبه « أبو العتاهية » وغلب على اسمه[٦] .

وكانت بغداد لعهد المهدى قد جذبت إليها شعراء كثيرين من الكوفة والبصرة

---

(١) انظر القصة فى الأغانى ٤ / ٢٢ وما بعدها .
(٢) انظر ابن المعتز ص ٢٣١ والمسعودى ٣ / ٢٤٠ وزهر الآداب ٢ / ٣٨ .
(٣) أغانى ٤ / ٥٦ .
(٤) زهر الآداب ٢ / ٣٤ وانظر الأغانى ٤ / ٣٨ .
(٥) انظر فى قصته مع عتبة ابن المعتز ص ٢٣٠ وزهر الآداب ٢ / ٣٥ وتاريخ بغداد ٦ / ٢٥٤ وما بعدها .
(٦) أغانى ٤ / ٢ .

قصد المعاش والتكسب ، وخرج إليها فيمن خرجوا جماعة المجان من أمثال مطيع ابن إياس ووالبة وأبى نواس ، واختلط بهم أبو العتاهية وأخذ يعبُّ معهم من كئوس الخمر واللهو فى دور القيان والمجانة بالكرخ من أمثال دار القراطيسى [١] وفى الأديرة من مثل دير أشمونى [٢] . ويفسد الأمر بينه وبين والبة ، فيصليه ناراً حامية من هجائه بمثل قوله يعرِّض باعتزائه المزيف للعرب، إذ كان ينسب نفسه فى بنى أسد [٣] :

أوالبُ أنت فى العَرَبِ كمثل الشِّيصِ فى الرُّطَبِ
هلمَّ إلى الموالى الصِّيـ ـدِ فى سَعةٍ وفى رَحَبِ
فأنت بنا لعمر اللا ه أشبه منك بالعرب

وما زال به حتّى فضحه فعاد إلى الكوفة كالهارب وخمل ذكره [٤] .

ويتوفّى المهدى فيخلفه الهادى (١٦٩ — ١٧٠ هـ) ويلزمه أبو العتاهية ينشده مدائحه فى كل مناسبة وعطاياه تهطل عليه كالغيث المنهمر ، ولا يلبث أن يعتلى الرشيد أريكة الخلافة (١٧٠ — ١٩٣ هـ) وكان منقطعاً إليه ملازمًا له أيام أبيه المهدى ، فاتصل ما انقطع فى مدة الهادى القصيرة ، وأصبح لا يفارقه فى سفر ولا حضر « وكان يُجْرى عليه فى كل سنة خمسين ألف درهم سوى الجوائز والصلات السنية » [٥] وكثيراً ما كانت تبلغ فى المرة الواحدة مائة ألف درهم [٦] . وينال جوائز كثيرة من كبار رجال الدولة حينئذ وعلى رأسهم يزيد بن مزيد الشيبانى ، ويقال إنه أجازه فى إحدى مدائحه فيه بعشرة آلاف درهم [٧] ويظهر أنه دقّ أبواب البرامكة طويلا ، ولكنهم لم يفتحوها له، إذ كانوا مشغولين عنه بشعرائهم من أمثال أبان وأشجع السُّلَمِىّ .

وظل يعيش للهو والقَصْف ، حتّى كانت سنة ١٨٠ للهجرة ، وهى السنة التى نزل فيها الرشيد الرَّقّة فإذا هو يتحول من حياة اللهو والمجون إلى حياة الزهد والتقشف ولبْس الصوف . ويحاول الرشيد أن يعود به ثانية إلى حياته القديمة وإلى ما كان يصنع له من رقائق الغزل ، فيمتنع ويضيق الرشيد بامتناعه ، ويأمر بضربه وحبسه

(١) أغانى (ساسى) ٢٠/٨٨ .
(٢) الديارات للشابشتى ص ٣١ .
(٣) أغانى (ساسى) ١٦/١٤٣ والشيص : أردأ التمر .
(٤) أغانى ١٦/١٤٢ .
(٥) أغانى (دار الكتب) ٤/٦٣ .
(٦) أغانى ٤/٧٤ .
(٧) أغانى ٤/١٠٠ .

فى دار موسَّعاً عليه حتى يصدع لأمره ، ويسترسل أبو العتاهية فى استعطافه بمثل قولــه[١] :

إنما أنت رحمةٌ وسَلامَهْ زادك الله غبطةً وكرامَهْ
لو توجَّعتَ لى فروَّحتَ عنى روَّح الله عنك يوم القيامهْ

ويرقّ له الرشيد ويأمر بإطلاقه ، ويأخذ منذ هذا التاريخ فى الإكثار من شعر الزهد وذكر الموت والفناء والثواب والعقاب والدعوة إلى مكارم الأخلاق .

وقد تشكك معاصروه فى هذا الزهد الذى طرأ عليه ، وردَّته كثرتهم إلى عناصر مانوية ، حتى أوشك حَمْدُوَيْه صاحب الزنادقة المانويين أن يُنْزل به العقاب الصارم الذى كان يُنْزله بأمثاله ، لولا أن موَّه عليه بالقعود لحجامة الفقراء والمساكين[٢] ، ويقال إن منصور بن عمَّار هتف به فى بعض وعظه ، وقال : إنه زنديق مستدلا على ذلك بأنه يكثر من ذكر الموت فى شعره ولا يذكر الجنة والنار[٣]. وهى ملاحظة دقيقة ، ذلك أن أبا العتاهية يذكر الثواب والعقاب فى الآخرة حقًّا ، ولكنه لا يفصل الحديث فيهما تفصيل القرآن الكريم ، ومن المعروف أن المانوية كانوا يدعون للزهد فى الدنيا والعمل للآخرة كما كانوا يدعون إلى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش[٤] ، ومن هنا يختلط الموقف على من يقرأ أشعار أبى العتاهية الزاهدة ، وخاصة أنه استقى فيها كثيراً من آى الذكر الحكيم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، غير أن من يتعمق فى هذه الأشعار يجد أبا العتاهية مشغولا بما كان يراه المانوية من أن العالم نشأ عن أصلين هما النور والظلمة ، ومن النور نشأ كل خير ومن الظلمة نشأ كل شر ، وأن أجناس الخير خلاف لأجناس الشر ، وفى كل حاسة من حواس الإنسان جنس قائم بنفسه من النوعين ، جنس مستقل عما يماثله فى الحواس الأخرى[٥] ، وفى ذلك يقول أبو العتاهية[٦] :

لكل شِيءٍ معْدِنٌ وجَوْهَرُ وأوسطٌ وأصغرٌ وأكبَرُ

---

(١) الشعر والشعراء ص ٧٦٧ .
(٢) أغانى ٤/ ٧ .
(٣) أغانى ٤/ ٣٤ .
(٤) طبرى ٦/ ٤٣٣ .
(٥) انظر الحيوان ٤/ ٤٤١ والشهرستانى ص ١٨٨ .
(٦) أغانى ٤/ ٣٧ .

وكلُّ شيء لاحِقٌ بجوهره   أصغره متصلٌ بأكبره
الخير والشرُّ هما أزواج   لذا نِتَاجٌ ولذا نتاجُ
لكل إنسانٍ طبيعتان   خيرٌ وشرٌّ وهما ضِدّان
والخير والشر إذا ما عُدَّا   بينهما بونٌ بعيد جدًّا

وكان المانوية يضيفون إلى ذلك إيمانًا بأن للعالم إلهين : إله النور وإله الظلمة ، وبذلك فارقوا أصحاب الديانات السماوية ، ويظهر أن أبا العتاهية لم يكن يجرى فى العقيدة إلى آخر الشوط ، إذ كان يدين بالتوحيد على نحو ما يمثل ذلك قوله[١]:

فيا عجباً كيف يُعْصَى الإلـ   ـهُ أم كيف يجحده الجاحِدُ
وفى كل شىء له آيةٌ   تدلُّ على أنه واحِدُ

وكأنه حاول أن يمزج بين عقيدة الإسلام وعقيدة المانوية ، وفى ذلك يقول أحمد بن حرب : « كان مذهب أبى العتاهية القول بالتوحيد وأن الله خلق جوهرين متضادين لا من شىء ، ثم إنه بَنَى العالم هذه البنية منهما .. وكان يزعم أن الله سيردُّ كل شىء إلى الجوهرين المتضادين قبل أن تفنى الأعيان جميعًا[٢] » وهو يقصد بالجوهرين طبعًا النور والظلمة أو الخير والشر .

وابن حرب يضع فى يدنا المفتاح لحل مشكلة أبى العتاهية، فهو ليس مانويًّا ثَنَوِيا يؤمن بأن للعالم إلهين ، كما ظن ابن المعتز[٣] وبعض معاصريه ، إنما هو مانوى من نمط جديد ، إذ يمزج بين المانوية والإسلام، إلا إذا كان قد موَّه عن مانويته الخالصة بادعائه وحدانية ربه . ومر بنا فى الفصل الثانى أن تعاليم مانى كانت مزيجًا من الزرادشتية والنصرانية والبوذية ، ونرى أبا العتاهية يصور لنا فى بعض شعره الزاهدَ الناسكَ فى صورة بوذا المشهورة إذ يقول[٤] :

يا مَنْ تشرف بالدنيا وزينتها   ليس التشرُّف رفْعَ الطِّين بالطين
إذا أردت شريفَ الناس كلِّهم   فانظرْ إلى ملكٍ فى زِيِّ مسكين

(١) أغانى ٤/٣٥ .
(٢) أغانى ٤/٥ .
(٣) ابن المعتز ص ٢٢٨ ، ٣٦٤ .
(٤) الديوان ص ٢٧٤ .

ومعروف أن بوذا — عند الهنود — كان ملكا أو ابن ملك خلع ثياب ملكه وساح فى العالم عابداً ناسكاً . وخَصْلة عند أبى العتاهية لا يمكن تفسيرها إلا على أساس نزعته المانوية ، ذلك أنه كان مع دعوته إلى الزهد شحيحا شُحًّا شديداً مع كثرة ما كان يكتنز من الذهب والفضة وتُرْوَى فى شحه نوادر كثيرة[1] ، تدلُّ على حرصه البالغ ، حتى ليأبى أنْ يتصدَّق بدانق ، وتفسير ذلك أن المانوية كانوا يؤمنون بأن المانوى الصادق ينبغى أن يعيش على المسألة فلا يأكل إلا من كَسْب غيره الذى عليه غُرْمه ومأثمه[2]، فهو يحرِّم ماله على نفسه وعلى غيره ويعيش على السؤال والاستجداء. وفعلا ظل أبو العتاهية على الرغم من نسكه الظاهر يمدح الرشيد وينال جوائزه ، فهو يمدحه حين يعهد عهده المعروف لبنيه الثلاثة[3] سنة ١٨٦ وهو يمدحه حين يهزم نقفور إمبراطور بيزنطة ويستولى على هرقلة[4] سنة ١٩١ . وحين يتوفَّى الرشيد يبادر إلى مديح الأمين بمثل قوله[5]:

ياعمودَ الإسلام خير عَمودِ والذى صِيغ من حياءٍ وجودِ
إن يوماً أراك فيهِ ليومٌ طلعتْ شَمْسه بِسَعْدِ السُّعودِ

وينال جوائزه وجوائز أمه زبيدة . ولما قتل الأمين وقَلَّدَ المأمون العراق الحسن ابن سهل أسرع يدقُّ بابه ، فأمر له بعشرة آلاف درهم وعشرة أثواب وأجرى له كل شهر ثلاثة آلاف درهم[6] ، وقدم المأمون فاستقبله بمثل قوله[7]:

لخَيْرُ إمامٍ قام من خير عُنْصُر وأفْضلُ راقٍ فوق أعواد مِنْبَرِ

ويقول الرواة إنه كان يجرى عليه فى كل عام عشرين ألف درهم غير ما كان يغدق عليه من جوائزه فى الحين بعد الحين[8] . ومعنى ذلك أن زهده إنما كان زهداً فى الظاهر ، أما فى الباطن والواقع فقد ظل من طلاب الدنيا ومتاعها الزائل ، وظل يطلبها ويلح فى الطلب إلحاحاً شديداً وسجَّل عليه سلم الخاسر ذلك فى بعض أشعاره[9]

---

(١) أغانى ٤/١٦ وما بعدها .
(٢) الحيوان ٤/٤٥٩ .
(٣) أغانى ٤/١٠٤ .
(٤) أغانى (طبع الساسى) ١٧/٤٦ .
(٥) أغانى (طبع الساسى) ٢١/١١ .
(٦) أغانى (طبع دار الكتب) ٤/٨٩ .
(٧) أغانى (ساسى) ٢١/١٣ .
(٨) أغانى (دار الكتب) ٤/٥٣ .
(٩) أغانى (ساسى) ٢١/٧٦ وانظر أغانى (دار الكتب) ٤/٧٦ .

وهكذا ظلّ يسترفد الخلفاء والوزراء ، حتى وافته منيته سنة مائتين وإحدى عشرة وقيل سنة اثنتى عشرة أو ثلاث عشرة .

ولعل فيما قدمنا ما يدلّ دلالة بينة على أن طبيعة أبى العتاهية كانت معقدة ، فهو نبطى أحسّ غير قليل من المسكنة منذ نشأته ، وقاده هذا الإحساس أولا إلى أن يصبح مخنثًا ، ثم ماجناً ، وقاده أخيراً إلى أن يصبح زاهداً على طريقة المانويين من سؤال الناس ومما طابت به أنفسهم له . وتدل نزعته المانوية على أنه اضطرب بين أصحاب المقالات ، ويؤكد ذلك عنده ما يقال من أنه كان على مذهب الشيعة الزيدية البُتْرية [1] ، ونؤمن — مع نيكلسون [2] — بأنه لم يعش هذا المذهب حقّا ، إذ يشيد فى أشعاره بأبى بكر وعمر وعثمان [3] ، إنما هو ضرب من الاضطراب بين أصحاب النحل سرعان ما زايله . وقد دفعته صلته بالمانويين إلى الاطلاع الواسع على الآداب الفارسية ، ونقَل كثيراً من حكمها إلى أشعاره . ومن خير ما يصور ذلك قصيدته «ذات الأمثال» التى صور فيها نظرية الخير والشر المانوية والتى أنشدنا منها الأبيات السالفة . ويظهر أنه قرأ كثيراً مما تُرْجم عن فلاسفة اليونان ، ومن ثمّ وصل بعض معاصريه بينه وبينهم [4] ، ومرّ بنا فى الفصل السابق نقله لجوانب من مراثى فلاسفة اليونان للإسكندر فى رثائه لصديقه على بن ثابت ، وكان من رءوس [5] الزنادقة ، ولعله هو الذى دفعه فى هذا الطريق . وكان إلى ذلك مثقفًا ثقافة إسلامية واسعة ، وهى تتضح فى كثرة ما نقله إلى زهدياته من آى الذكر الحكيم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان أيضًا مثقفًا ثقافة عربية دقيقة جعلته يتقن اللغة ويبرع فى الشعر ، حتى أصبح له طبعًا .

وكل هذه العناصر التى اصطلحت على تكوين طبيعة أبى العتاهية جعلتها أبعد الأشياء عن البساطة كما جعلتها خصبة واسعة الخصب . وكل من يقرأ أشعاره يلاحظ أنها تمثل حياته وما حدث فيها من انقلاب أوضح تمثيل ، فهو فى شطر منها يتغزل ويصف الخمر ، وهو فى الشطر الثانى يكف عن الغزل ووصف الخمر

---

(١) أغانى ٤/٦ .

(٢) انظر التاريخ الأدبى للعرب لنيكلسون ص ٢٩٧ .

(٣) الديوان ص ١٠٤ .

(٤) أغانى ٤/٢ .

(٥) الفهرست لابن النديم ص ٤٧٣ .

مستبدلا بهما الزهد ونثر الحكم والدعوة إلى محاسن الأخلاق . وإذا كنا لاحظنا عند أبي نواس وبشار أنهما كانا يحافظان إلى حد كبير فى مدائحها على الأوضاع والتقاليد الموروثة فى الصياغة وفى التمسك بوصف الأطلال وبكاء الديار ونعت الصحراء وإبلها وحيوانها وكل ما يتصل بها فإن أبا العتاهية يخطو إلى الإمام خطوة بمدائحه إذ يتنحّى عن الصحراء والأطلال إلاما قد يأتى عرضاً ، وأيضاً فإنه لا يتمسك غالباً بالأسلوب القديم الجزل الرصين ، وكأنه يريد أن يفسح لأساليب عصره اللينة الخفيفة ، ومن خير ما يمثّل ذلك مدحته اللامية للمهدى ، وفيها يقول[1] :

أَتَتْه الخلافةُ منقادةً إليه تُجَرِّرُ أذيالهـــا
ولم تَكُ تَصْلُحُ إلا له ولم يَكُ يَصْلُحُ إلا لها
ولورامها أحدٌ غيرهُ لزُلْزِلَتِ الأَرضُ زلزالها
ولو لم تطعْهُ بناتُ القلوبِ لـــا قَبِلَ اللهُ أعمالها[2]
وإن الخليفة من بُغْض لا إليه ليُبْغض من قالها

والقصيدة من بحر المتقارب الخفيف ، وألفاظها تسيل نعومة وعذوبة . وأكبر خليفة عُنى بمديحه هرون الرشيد فقد كان يمدحه فى سلمه وحربه وفى كل المناسبات من مثل توليته العهد لبنيه ، وفى هذه التولية يقول[3] :

وشدَّ عُرَى الإسلام منه بفتيةٍ ثلاثةِ أملاكٍ وُلاةِ عهودِ

وكان يحرص دائماً على مديحه بالتقوى والانصراف عن الدنيا متعرضاً لوصف جيوشه وذَبِّه عن حمى الإسلام وما يُنْزل بأعدائه من موت يَمْحَقُهم مَحْقاً ، على شاكلة قوله[4] :

وهرونُ ماءُ المُزْنِ يُشْفَى به الصَّدَى إذاماالصَّدِى بالرِّيق غَصَّتْ حناجِرُهْ[5]
وأوسطُ بيتٍ فى قريشٍ لَبَيْتُهُ وأوَّلُ عِزٍّ فى قريشٍ وآخره

---

(١) أغانى ٤/٣٣ .
(٢) بنات القلوب : النيات .
(٣) أغانى ٤/١٠٤ .
(٤) أغانى ٤/١٥ .
(٥) المزن : السحاب الممطر . الصدى : بفتح الدال : العطش وبكسرها العطشان .

وزَحْفٍ له تحكى البروقَ سيوفُه   وتحكى الرعودَ القاصفات حَوافره
إذا نُكب الإسلامُ يوما بِنَكْبَةٍ   فهرونُ من بين البريَّة ثائرُهْ
ومن ذا يفوت الموتَ ، والموتُ مدركٌ   كذا لم يَفُتْ هرونَ ضِدٌّ يُنافِرُهْ

والأسلوب هنا جزل رصين ، ولكنه لا يُبْعد فى جزالته ورصانته ، إذ كان يُعْنى باختيار ألفاظه من المعجم اليومى أو بعبارة أدق مما يقاربه سهولة . وقد نظم استعطافات كثيرة للرشيد حين حبسه ، وهى لا تمتاز بالأسلوب السهل اليسير فحسب ، بل تمتاز أيضا بشدة التضرع ، حتى ليبادر الرشيد بالعفو عنه كما أسلفنا لمثل قوله[1] :

أنا اليومَ لى ، والحمد لله ، أَشْهُرُ   يروح علىَّ الهمُّ منكم ويَبْكُرُ
تذكَّرْ أمينَ الله حَقِّى وحُرْمتى   وما كنت تُوليِنى لعلك تَذْكُرُ

وهو لا يكثر من الهجاء غير أن ما خلَّفه فيه يدل على إحكامه لسهامه ، حتى لنرى والبة بن الحُباب يفرُّ على وجهه منه إلى الكوفة ، ومن أوائل هجائه أشعاره فى عبد الله بن معن مولى محبوبته الأولى سُعْدى النائحة ، وقد صَّوره فى بعض هذه الأشعار صورةً نَدِىَ لها وجهه طويلا ، إذ أخلاه من العقل والشجاعة بل أيضًا من الرجولة ، حتى ليقول على لسانه[2] :

أنا فتاةُ الحَىِّ من وائلٍ   فى الشَّرف الشامخ والنُّبْلِ
ما فى بنى شَيْبان أهلِ الحِجَى   جاريةٌ واحدةٌ مِثْلى
قد نَقَّطت فى وجهها نَقْطَةً   مخافةَ العَيْن من الكُحْلِ
إن زُرْتموها قال حُجَّابها   نحن عن الزُّوَّارِ فى شُغْلِ

وكان يعرف كيف يرمى مهجويه بمثل هذه النبال المصمية ، فمن ذلك أن الأمور فسدت بينه وبين سَلْم الخاسر ، فما هو إلا أن قال فيه :

تعالى اللهُ يا سَلْمَ بن عَمْرٍو   أذلَّ الحرصُ أعناقَ الرجالِ

---

(١) أغانى ٤/٦٣ .

(٢) أغانى ٤/٢٢ .

حتى سار البيت مسير الأمثال ، وحتى أنَّ منه سلم طويلا[١] . ويقول ابن المعتز إنه « أتى باب أحمد بن يوسف كاتب المأمون ، فحُجِبَ عنه ، فقال :

متى يظفرُ الغادى إليك بحاجةٍ ونِصْفُك محجوبٌ ونصفك نائم

فسار بيته هذا فى الآفاق ، وجعل الناس يتناشدونه ، فاعتذر إليه ابن يوسف[٢] » وَجِلاً من أن يتمادى فى هجائه .

وبين أيدينا له مراث مختلفة ، لعل أحرَّها مراثيه فى صديقه على بن ثابت الزنديق ، وقد أنشدنا منها أطرافاً فى الفصل السابق ، وقد ظل يبكيه ويندبه طويلا ندباً كله لوعة وحرقة وأسى عميق من مثل قوله[٣] :

فَتًى لم يملَّ النَّدَى ساعةً على عُسْرِهِ كانَ أو يُسْرِهِ
أتتْه المنيَّةُ مغتالــةً رُوَيْدًا تَخلَّل من سِتْرِهِ
فخلَّى القصور لمن شادها وحلَّ من القبر فى قَعْرِهِ
وأصبح يُهْدَى إلى منزلٍ عميقٍ تُؤُنِّق فى حَفْــرِهِ
أشدُّ الجماعة وَجْدًا بهِ أشدُّ الجماعة فى طَمْرِهِ

وليس له خمريات كثيرة وكأنما عصفت بخمرياته يد الزمن فيما عصفت به من شعره ، ونراه يقدم لإحدى مدائحه للهادى بنعت مرقصٍ للخمر ونُدْمانها وساقيها ومن يلمُّ بهم من الجوارى الحسان ، يقول وقد طافت به بعض ذكرياته الماجنة فى الكوفة[٤] :

لهفى على الزَّمن القصِيرِ بين الخَورْنَقِ والسَّدِيرِ[٥]
إذ نحن فى غُرَف الجنَا ن نعومُ فى بحر السُّرور
فى فتيةٍ مــلكوا عِنا ن الدهر أمثالِ الصقور

---

(١) أغانى ٤/٧٥ وطبعته الساسى ٢١/٧٦.
(٢) ابن المعتز ص ٢٣٣ .
(٣) الديوان ص ١٢٤ .
(٤) أغانى ٤/٦٠ .
(٥) الخورنق والسدير : قصران قديمان بالقرب من الكوفة .

ومُقَرْطَقٍ يمشى أما م القوم كالرَّشإ الغَريرِ[1]
بزجاجةٍ تَسْتخرج السِّ رَّ الدفين من الضمير
زهراءَ مثل الكوكب الـ دُرِّىِّ فى كفِّ المُدِير
ومخصَّرات زُرْنَنَــا بعد الهدوِّ من الخدور[2]
يَرْفُلْنَ فى حُلَل المحا سنِ والمجاسدِ والحرير[3]

والمقدمة تكتظ على هذا النحو بغير قليل من مشاعر الفرح والبهجة .

وقد مرَّ بنا تدلهه بعُتْبة ، وله فيها غزل كثير ، وهو فيه رقيق رقة بالغة ، وأكبر الظن أن رقته فيه جاءته من تخنثه القديم ، حتى ليقول ابن قتيبة إن غزله يشاكل طبائع النساء ، وكأنما سَرَتْ فيه مشاعرهن ، وهى مشاعر تقترن عنده بالتذلل والتضرع على شاكلة قوله :

بَسَطْتُ كَفِّى نحوكم سائلا ماذا تردُّون على السائلِ
إن لم تُنيلوه فقولوا له قولا جميلا بَدلَ النائلِ
أو كنتمُ العامَ على عُسْرَةٍ وَيْلى فمنُّوه إلى قابل

ويقول ابن المعتز معلقًا على هذه الأبيات : « لهذا الشعر من قلوب النساء موقع الزلال البارد من الظمآن لرقته[4] » . وعلى نفس هذا المثال قوله فى عُتْبة أيضا[5] :

كأنها من حُسْنها دُرَّةٌ أخرجها اليَمُّ إلى السَّاحلِ
كأن فى فِيها وفى طَرْفها سواحرًا أقبلْنَ من بابلِ
لم يُبْقِ منى حُبُّها ما خلا حُشَاشةً فى بدنٍ ناحلِ
يا مَنْ رأى قبلى قتيلاً بكى من شِدَّةِ الوَجْد على القاتلِ

---

(١) مقرطق : يلبس القرطق وهو ثوب ذو طاق واحد .

(٢) مخصرات : دقيقات الخصور . الهدو من الليل : أوائله .

(٣) يرفلن : يتبخترن . المجاسد : القمصان الداخلية الرقيقة .

(٤) ابن المعتز ص ٢٣٠ .

(٥) أغانى ٤/٤٥ .

وداثماًيشكو مسكنته وأن صاحبته لا تنيله كثيراً ولا قليلاً وأنها استرقته ولا ترد عليه حريته ، وأنها أضنته وأسقمته ، وأنها تزهد فيه وهو المحب الوامق الذى يرسل الدموع مدراراً على من ظلمته ، وإنه ليستجير ولا مجير ويتصبر ولا صبر إلا النواح الطويل

وينتقل أبو العتاهية من مرحلة غزله وخمره إلى مرحلة جديدة تُعَدُّ انقلاباً فى حياته ، فقد تحول من حياة اللهو إلى حياة الزهد ، وظل نحو ثلاثين عاماً يتغنى بالكأس الخالدة كأس الموت الدائرة على الخلق ، فالكل مصيره إلى الفناء والكل وشيك الزوال ، والكل سيصبح تراباً فى تراب ، يقول[١] :

لِدُوا للموت وابنوا للخَراب   فكلُّكمُ يصير إلى تَبابِ[٢]

ويقول[٣] :

الناس فى غَفَلاتهم   ورَحَى المنيَّــة تَطْحَنُ

ويقول[٤] :

كل حَيٍّ عند مِيتَتِهِ   حظُّه من ماله الكَفَنُ

ويقول[٥] :

بين عَيْنَى كلِّ حَيٍّ   عَلَمُ المــوت يلوحُ
نُحْ على نفسك يامِسْـ   ـكين إن كنت تنوحُ

وهكذا يمضى ينعى الحياة إلى أهلها ويبكيها ويندبها ، مهولاً رقدة الموت الأبدية ، ومنغصاً على مَنْ يسمعه كل لذة له وكل نعيم ، فالأجل قصير والمنايا راصدة ، والقدر أزلى ونحن آلات بأكفه . ولعله من أجل هذا الإحساس آمن بالجبر والاضطرار[٦] ، وإنه ليصرخ من أعماق قلبه : ليس هناك إلا الفناء وإلا الأسى والكآبة ، وهى نظرة سوداء جاءته من مانويته ، إذ الإسلام لا يَنْعَى إلى

(١) الديوان ص ٢٣ .
(٢) تباب : هلاك .
(٣) الديوان ص ٢٦٧ .
(٤) الديوان ص ٢٥٢ .
(٥) أغانى ٤/١٠٣ .
(٦) أغانى ٤/٦ .

الناس حياتهم ولا يصورها لهم فى كروب أبى العتاهية التى تخنق الأنفاس والتى تجعله يقف طويلا عند سكرات الموت وما يعانيه المحتضر من آلام كما تجعله يقف عند نزلاء القبور والقبورِ نفسها يسألها عن أصحابها ، مسجّلا أن ذوى السلطان يستوون مع السوقة فى الموت وأن الطبيب كثيراً ما يسبق مريضه إلى ساحته ، يقول[١] :

وقبلك داوى الطبيبُ المريضَ فعاش المريضُ ومات الطبيبُ

وهو يضيف إلى حديثه الطويل عن الموت والقبور حديثاً عن البعث والنشور ، ولكنه لا يسترسل فى ذكر عذاب الجحيم ونعيم الجنان ، كما أشرنا إلى ذلك آنفاً ، بل يلم إلماماً بالبعث والحساب على شاكلة قوله[٢] :

فلو أنا إذا مُتْنا تُرِكْنا لكان الموتُ غايةَ كلِّ حيٍّ
ولكنا إذا مُتْنا بُعثنا ونُسْأَل بعده عن كل شيٍّ

ويتسع أبو العتاهية فى أشعاره الزاهدة ، حتى لتؤلف وحدها ديواناً كاملا ، وفعلا جمع منها ابن عبد البَرّ النَّمرى الأندلسى ديواناً مستقلاً ، وقد بنى اليسوعيون على هذا الديوان نشرتهم لأشعار أبى العتاهية باسم « الأنوار الزاهية فى ديوان أبى العتاهية » ضامين إلى رواية النمرى ما تيسر جمعه من أشعار الشاعر وقصائده .

وأبو العتاهية فى زهدياته ، كما رأينا ، يطيل الحديث عن الحياة والموت والفناء ومصير الإنسان ، ويتحول بجانب ذلك إلى ما يشبه واعظاً ، وهو فى عظاته يستمد من القرآن الكريم والحديث النبوى ووعظ الوعاظ من أمثال الحسن البصرى ، كما يستمد من أشعار سابقيه ، وقد وقف المبرد عند موعظة له يستهلها بقوله :

يا عجبًا للناس لو فكروا وحاسبوا أنفسهم أبصروا

وردّها إلى بعض الأحاديث النبوية وإلى كلام الحسن البصرى وعلى بن أبى طالب وإلى معانى بعض الشعراء مثل الخليل بن أحمد[٣] . وهو فى جوانب من مواعظه يلتقى بآى الذكر الحكيم فى اتخاذ العبرة من الأمم الداثرة والقرون الخالية

---

(١) الديوان (طبعة سنة ١٩٠٩) ص ١٨ .
(٢) الديوان ص ٣٠٢ .
(٣) الكامل للمبرد (طبعة رايت) ص ٢٣٠ وما بعدها .

وفى تصوير الموت وسكراته ، وقد يسوق ذلك بلفظ القرآن الكريم من مثل قوله[١] :

يا عجبا كلُّنَا يَحيد عن الْـ حَيْنِ وكلٌّ لحَيْنه لاقِ
كأن حَيًّا قد قام نادبُه والتفَّت الساق منه بالساقِ[٢]
واستلَّ منه حياته مَلَك الْـ موتِ خَفيًّا وقيل : مَنْ راق[٣]

وطبيعى أن يطبع أسلوبه فى الزهد بطوابع الأسلوب الوعظى من التكرار وكثرة النداء والاستفهام والأمر . ونراه يشيع فى زهدياته أدعية وابتهالات لربه من مثل قولـه[٤] :

سبحان من لاشىء يحجبُ علمه فالسِّرُّ أجمع عنده إعلانُ
سبحان من هو لا يزال مُسَبَّحا أبدًا وليس لغيره السُّبْحان

وقوله[٥] :

إلهى لا تُعَذِّبْنى فإنِّى مُقِرٌّ بالذى قد كان منِّى
ومالى حِيلةٌ إلا رجائى لعفوك إن عفوتَ وحُسْنُ ظنِّى

وبجانب ذلك نراه يذيع دعوة واسعة إلى محاسن الأخلاق كما يذيع حكما وأمثالا كثيرة مقتبسًا لها من الآداب الفارسية كما أسلفنا ، ومما رُوِىَ عن حكماء العرب مثل لقمان[٦] ، وأفرد لها — كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع — قصيدته « ذات الأمثال » التى يقال إنها امتدت إلى أربعة آلاف بيت .

وكانت عامة بغداد تتعلق بحكمه ووعظياته وزهدياته ، وفى أخباره أن بعض الملاحين غنوا الرشيد فى إحدى نزهاته على صفحات دجلة بعظة من عظاته[٧] ، وفى ذلك ما يدل على ما كان لأشعاره الزاهدة من صدى عميق فى نفوس الطبقة

---

(١) البيان والتبيين ٣/١٨٥ .
(٢) الشطر الثانى اقتباس من الآية رقم ٢٩ من سورة القيامة . والتفاف الساق بالساق كناية عن فقدها للحركة .
(٣) آخر البيت اقتباس من الآية ٢٧ من سورة القيامة ، والقائل إما أهل الميت حين ييأسون منه ويطلبون له الراقى أو الطبيب ، وإما الملائكة حين يسألون من يرقى به إلى السماء ، أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب .
(٤) الديوان ص ٢٥٨ .
(٥) الديوان ص ٢٦٣ .
(٦) البيان والتبيين ٢/٧٦ .
(٧) أغانى ٤/١٠٢ وما بعدها .

العامة التي لم تكن تعرف ترفاً ولا نعيماً ، إنما كانت تعرف الكدح وشظف العيش ، وكأنما أحست عنده أنه يتغنى آلامها وبؤسها . ونراه يتعمقه الشعور بما هى فيه من ضنك ، فإذا هو يرفع لبعض الخلفاء شكوى مريرة من غلاء الأسعار ، يقول فى تضاعيفها[1] :

من مبلغٌ عنى الإما مَ نصائحًا متتاليَهْ
أنى أرى الأَسعار أسْ عارَ الرعيَّة غاليه
وأرى المكاسب نَزْرَةً وأرى الضرورةَ فاشيه
مَنْ يُرْتَجى للناس غَيْ رُك للعيون الباكيه
مِنْ مُصْبِياتٍ جُوَّعٍ تمسى وتصبح طاويه
مَنْ يُرْتَجى لدفاع كَرْ بٍ ملمةٍ هى ماهيه
من للبطون الجائعا ت وللجسوم العاريه
أَلقيتُ أخبارا إلي يك من الرعية شافيه

ولم يكن أبو العتاهية يقترب من العامة بزهده وما صوّر فيه من بؤسها وأوصا بها فحسب ، بل كان يقترب منها أيضًا بأسلوبه الذى كان يشتقه اشتقاقًا من لغة الحياة اليومية ببغداد ، وهو أسلوب ابتعد فيه عن الغرابة والتعقيد كما ابتعد عن العجمة ، ولكنه بعد ذلك أجراه فى مستوى أفراد الشعب ، بحيث لا يعزُّ على أحد منهم أن يفهمه ، ويُؤْثَرُ عنه أنه كان يقول : « الصواب لقائل الشعر أن تكون ألفاظه مما لا تَخْفَى على جمْهور الناس مثل شعرى ، ولا سيما الأشعار التى فى الزهد ، فإن الزهد ليس من مذاهب الملوك ولا من مذاهب رواة الشعر ولا طلاَّب الغريب ، وهو مذهب أشغف الناس به الزهاد وأصحاب الحديث والفقهاء . . والعامة ، وأعجبُ الأشياء إليهم ما فهموه[2] » ومن الحق أنه ظلت فى أسلوب شعره منذ فاتحة حياته السهولة ، حتى إذا أخذ فى الزهد ضاعفها وأكدها تأكيداً شديداً

---

(١) الديوان ص ٣٠٣ . (٢) أغانى ٤/ ٧٠ .

حتّى لتكاد تسقط منه بعض مقطوعاته ، لما يجرى فيها من ضعف ، وحتّى ليقول صاحب الأغانى إنه كثير الساقط المرذول[١] . وينبغى أن لا نبالغ مبالغة أبى الفرج ، فقد كانت لأبى العتاهية أذن موسيقية دقيقة وقلما نجد عنده قافية غير متمكنة فى موضعها أو كلمة لم تحلّ فى نصابها ، إذ كان الشعر عنده طبعاً أو كالطبع[٢] ، حتّى كان لا يسمع كلمة من مناد على بضاعة أو من بعض جلسائه تصلح أن تكون شطراً لبيت حتّى يبادر بصنع الشطر الثانى تَوًّا على البديهة[٣] . وبلغ من اقتداره على صنع الشعر وسهولته على لسانه أن اخترع — كما أسلفنا فى الفصل السابق — أوزاناً جديدة لا تدخل فى بحور الشعر المستعملة ، وكان إذا روجع فى ذلك وقيل له إن أشعارك لا تدخل فى عروض الخليل قال : أنا أكبر من العروض[٤] يريد أن الشعر يجرى على لسانه قبل أن يضع الخليل عروضه ، وهو لذلك أسنُّ منه ، ولا نشك فى أن ديوانه لو وصلنا كاملا لاستخرجنا منه أوزاناً كثيرة طريفة ابتكرها ابتكاراً ، غير أن نَبْعَ الشعر عنده كان غزيراً ، فكثُر ما نظمه ولم تستطع الأجيال التالية أن تحمله تامًّا لكثرته .

٤

مسلم[٥] بن الوليد

وُلد فى الكوفة حوالى سنة ١٤٠ للهجرة لأب كان يشتغل بالحياكة ، واختلفت المصادر القديمة فى تصحيح نسبته ، فقيل إنه خزرجى من الأنصار ، وقيل بل هو من مواليهم ، وهو القول الصحيح ، ويشهد له أنه كان من الصنّاع ، ولم يكن العرب يُقْبلون على الصناعات حتّى هذا التاريخ . وفى أخبار مسلم وأشعاره ما يدل على أنه كان شيخاً صالحاً ، وأغلب الظن أنه كان من موالى الفرس ، ووُلد قبل

---

(١) أغانى ٤ / ٢ وانظر رأى الأصمعى ص ٤٠ .

(٢) أغانى ٤ / ١٣ والبيان والتبيين ١ / ١١٥ .

(٣) أغانى ٤ / ٣٩ والحيوان ٥ / ١٣٧ .

(٤) أغانى (دار الكتب) ٤ / ١٣ .

(٥) انظر فى أخبار مسلم وأشعاره الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٨٠٨ وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٣٥ وتاريخ بغداد ١٣ / ٩٦ وترجمته بالأغانى الملحقة بديوانه وكذلك بقية المصادر الملحقة بنشرة سامى الدهان للديوان (طبع دار المعارف) وراجع مسلم بن الوليد لفؤاد ترزى (طبع بيروت) .

مسلم ابنٌ كان يكبره يسمى سليمان ، وكان كفيفًا ، كما كان شاعرًا مُجيداً ، ويُجمع الرواة على أنه كان زنديقًا وأن الذى لقّنه زندقته بشار[١] ، ومن قول الجاحظ فيه : « كان من مستجيبى بشار الأعمى ، وكان يختلف إليه وهو غلام ، فقبِل عنه ذلك الدين[٢] » . وفى اختلافه إليه ما يدلُّ على أنه نزل البصرة ، ويظهر أنه نزلها مع أبيه ، إذ كان لا يزال غلاماً ، وكان ضريراً ، يحتاج إلى من يعينه ويَعُوله ، وفى ديوان مسلم قصيدة طويلة[٣] يذكر فيها مقامه أولا بالكوفة ، ثم نزوله البصرة وذكرياته السعيدة بها ، وذكريات الحب واللهو .

وفى ذلك كله ما يدل على أن مسلماً نشأ بالكوفة ، ثم انتقل إلى البصرة ، ولا نرتاب فى أنه كان يختلف مع أخيه سليمان إلى بشار ، وأن ذلك أتاح له أن يحمل عنه شعره ، ولكنه لم يحمل عنه زندقته ، كما حملها أخوه ، إذ لم يُعْرف عنه شىء من الزندقة . ويظهر أنه مضى يثقف نفسه بكل معارف عصره وأنه عكف على قراءة كثير من الآداب المترجمة ، ونراه يصرح بأن قوله :

دَلَّتْ على عَيْبها الدُّنيا وصدَّقها ... ما استرجع الدهرُ مما كان أعطانى

قد أخذ معناه من التوراة[٤] . وفى أشعاره من التعمق فى الأفكار ما يدل دلالة قاطعة على أنه اختلف إلى متكلمى البصرة وحذق على أيديهم النظر والتفكير وتصحيح المعانى والخلوص إلى دقائقها وطرائفها وحدودها الخفية . وأيضًا فى أشعاره ما يدل دلالة بينة على ثقافة واسعة بالشعر القديم : الجاهلى والإسلامى ، فقد أُشْرِبَتْه روحه لا بصياغاته فحسب ، بل أيضًا بجميع معانيه وصوره وخصائصه الموسيقية . والتحمت فى نفسه هذه الثقافة بشعر بشار ومعاصريه من شعراء الجيل العباسى الأول التحامًا قوياً خصباً .

ويظهر أن مواهبه الشعرية استيقظت فى نفسه مبكرة ، وليس بين أيدينا أخبار

---

(١) انظر الحيوان ١٩٥/٤ ومعجم الأدباء ٢٥٥/١١ ونكت الهميان ص ١٦١ وفى الكتابين الأخيرين أنه ابن مسلم وهوخطأ ، انظر فيه الحيوان والبيان والتبيين ٢٠٢/٣ حيث ينص الجاحظ على أنه أخوه ، وقد توفى قبله بنحو ثلاثين عاماً سنة ١٧٩ للهجرة .

(٢) الحيوان ١٩٥/٤ .

(٣) راجع الديوان (طبع دار المعارف) ص ٢٢٥ .

(٤) انظر ترجمة أبى الفرج لمسلم الملحقة بديوانه ص ٣٧٣ .

واضحة عن حياته فى موطنه الأول الكوفة ولا فى البصرة ، غير أننا نراه يصطدم بشاعر بصرى يسمى ابن قُنْبُر ، عُنى بأن يَرُدَّ على الطرماح الشاعر الأموى الخارجى أهاجيه فى قبيلته تميم ، وأن يهجو طيئاً والأزد وغيرهما من قبائل اليمن التى انتصر لها الطرماح ، وامتعض مسلم لمواليه من الأنصار الأزديين اليمنيين ، وزجَّ بنفسه معه فى معركة هجاء عنيفة ، وكان أقوى منه شاعرية ، فهتكه ومزقه واضطره إلى أن يمسك عن مناقضته .

وجذبت بغداد مسلماً فهاجر إليها ، لعل بضاعته تروج فيها ويَحْظَى بماحظى به أعلام الشعراء فى عصره من جوائز الخلفاء والأمراء والوزراء والولاة والقواد . ولا يُعْرَف بالضبط تاريخ هجرته ، ولكن فى أخباره أنه هاجر إليها مع أخيه سليمان وانقطعا لمديح يزيد بن مزيد ومحمد بن منصور بن زياد كاتب البرامكة ، وقد توفى سليمان سنة ١٧٩ للهجرة . وفى أخبار مسلم أنه كان يمدح مَنْ دون الخليفة ولا يطمح إليه ، فكان يقول : أرى نفسى تذوب حسرات من أنه يحوى جوائز الخلفاء مَنْ لا يوازينى فى أدب . ويدل ذلك على أنه ظل فى بغداد مدة قصرت همته فيها عن لقاء الرشيد ثم لقيه ، ويقال إن منصور بن يزيد الحميرى خال الرشيد هو الذى أوصله إليه . وتلتقى أخبار لقائه له بمدائحه ليزيد بن مزيد وقضائه على ثورة الوليد بن طريف الخارجى فى سنة ١٧٩ للهجرة ، ومن حينئذ لمع اسمه وعلا نجمه بين شعراء بغداد ويظهر أن صلةً انعقدت بينه وبين البرامكة ، فقد كان وثيق الصلة بمحمد بن منصور كاتبهم ، وله فيهم مدائح مختلفة .

وفى ديوانه قصائد أربع فى مديح الرشيد ، ويظهر أن كثيراً من مدائحه فيه سقط من يد الزمن ، ويقال إنه لما أنشده لاميته فيه ، وأورد على سمعه قوله فى مقدمتها :

هل العَيْشُ إلا أَنْ أَروحَ مع الصِّبا ... وأَغدو صَرِيعَ الرَّاحِ والأَعْيُنِ النُّجْلِ (١)

قال له : أنت صريع الغوانى ، فلصقت به الكلمة ، وأصبحت لقباله لا يُعْرَفُ إلا به (٢) . ونراه دائماً ينوه بانتصاراته على أعدائه ، من مثل قوله (٣) :

---

(١) نجل : جمع نجلاء وهى الواسعة . الراح : الخمر .

(٢) ابن المعتز ص ٢٣٥ والديوان ص ٤٣ .

(٣) الديوان ص ٢٥٤ .

خليفةَ اللهِ إن النَّصْرَ مُقْتَصِرٌ عليك مُذْ أنت مَبْلُوٌّ ومُخْتَبَرُ
أعددتَ للحرْب سيفًا من بنى مطَرٍ يمضى بأمرك مخلوعًا له العُذُرُ[1]
لاقى بنو قَيْصَرٍ لما هممتَ بهم مثل الذى سوف تلقى مثلَه الخَزَرُ
لقد بعثتَ إلى خاقانَ جائحةً خَرْقاءَ حصَّاءَ لا تبقى ولا تَذَرُ
أَظلَّهم منك رُعْبٌ واقفٌ بهِمُ حتى يوافق فيهم رَأْيَكَ القَدَرُ

وهو يريد بسيف بنى مطر يزيد بن مزيد الشيبانى ، وقد مضى يتحدث عن انتصارات الرشيد على الروم وظفره بخاقان ملك الترك ، وكان شخص إليه الفضل بن يحيى البرمكى فى جيش ضخم سنة ١٧٨ للهجرة ، فأسره واستباح عسكره وغنم أمواله[2] . وفى أخباره أن الرشيد وصله صلات كثيرة ، حتى ليقال إنه وصله مرة بمائتى ألف درهم[3] . وتقرن أخبارُه إعجابَ الرشيد به بإعجابه بمديحه لقائده يزيد ابن مزيد الشيبانى ، وهو إعجاب نظن أن السياسة تتداخل فيه ، فقد كان كل شىء فى الحكم بيد البرامكة الإيرانيين ، وأكبَّ عليهم الشعراء بمدائحهم إكبابًا جعل الخليفة يَتَنَفَّس عليهم ذلك ، وربما كان مما يؤذيه أنه لا يجد لقادته من العرب الخلَّص من يمدحهم وينوه بهم ، وكان البرامكة يقفون فى وجه بعض هؤلاء القادة ويحاولون إبعادهم عن الخليفة ، وكان يُضْطَرّ للنزول على إرادتهم لعلو نفوذهم ، وكان ممن صنعوا به ذلك يزيد بن مزيد ، فإنه لما قضى على ثورة الوليد ابن طريف وانصرف بالظفر حُجب برأيهم وجاراهم الرشيد فأظهر سخطه عليه ، فقال : « وحَقِّ أمير المؤمنين لأصيِّفَنّ وأشْتُوَنّ على فرسى أو أدخل ، فارتفع الخبر بذلك إلى الرشيد، فأذن له ، فدخل ، فلما رآه ضحك وسُرَّ وأقبل يصيح : مرحبًا بالأعرابى ، حتى دخل وأجْلس وأكرم[4] » وأقبل الشعراء يمدحونه ، ومدحه مسلم بقصيدته المشهورة[5] :

---

(١) العذر : جمع عذار ، وهو هنا العزيمة .
(٢) اليعقوبى ٣/١٣٩ وقارن بالجهشيارى ص ١٩٠ وما بعدها .
(٣) انظر ترجمة الأغانى الملحقة بالديوان (طبع دار المعارف) ص ٣٦٩ .
(٤) أغانى (دار الكتب) ١٢/٩٦ وما بعدها .
(٥) هى أولى قصائد الديوان .

أُجْرِرْتُ حَبْلَ خليعٍ فى الصِّبا غَزِلِ   وشمَّرتْ هِمَمُ العُذَّال فى العَذَلِ[1]

وارتفعت إلى سمع الرشيد ، فطار سروراً بمدح قائده وبمادحه . ومن حينئذ توثقت الصلة بين الشاعر والخليفة من جهة وبينه وبين القائد من جهة ثانية ، وأخذ يزيد يُغْدق عليه نواله الغَمْر ، حتى ليقال إنه أعطاه فى إحدى وفاداته عليه مائة وتسعين ألف درهم ، وأقطعه إقطاعات تُغِلُّ مائتى ألف درهم . ولما ولَّى الرشيد يزيد أرمينية وآذربيجان سنة ١٨٣ للهجرة صحبه وظل معه حتى توفى سنة ١٨٥ . وقد احتفظ الديوان بقصيدته السابقة فيه وقصيدة ثانية ميمية ومقطوعة قصيرة ، وهو فى القصيدة الأولى ينوِّه بانتصاراته فى حروب الروم وظفره بيوسف البَرْم الثائر فى خراسان لعهد المهدى ثم الوليد بن طريف الخارجى الثائر بالجزيرة لعهد الرشيد . ونراه فى القصيدة الثانية وهى التى يستهلها بقوله[2] :

طَيْفَ الخيالِ حَمِدْنا منك إلماما   داويتَ سُقْماً وقد هَيَّجْتَ أسْقاما

يتغنَّى بانتصاره على الوليد بن طريف ويشيد بشجاعته وإقدامه .

وكان منذ نزوله بغداد يمدح محمد بن منصور بن زياد كاتب البرامكة ، وكان خليفة الفضل بن جعفر البرمكى بباب الرشيد ، وكان يسمى فتى العسكر لبلائه فى الحروب ، ولمسلم فيه قصيدتان وبعض مقطوعات منثورة فى ديوانه ، وهو فى إحدى قصيدتيه ، وهى التى افتتحها بقوله[3] :

عاصَى الشبابَ فراحَ غيرَ مفنَّدِ   وأقام بين عزيمةٍ وتجلُّدِ[4]

يشيد طويلا بانتصاره فى بعض حروب الروم وفتكه بأحد بطارقتهم ، كما ينوِّه بانتصارات أبيه « منصور » على خوارج القيروان ، ولعله كان فى عداد جيش يزيد بن حاتم المهلبى الذى فتك بهم فتكًا ذريعًا لعهد الخليفة المنصور[5] . وقد وصله محمد بن منصور بن زياد بالبرامكة ، وفى ديوانه بيتان فى مديح يحيى ، وقصيدة ومقطوعة فى مديح ابنه جعفر ، وهو فى القصيدة يشير إلى قضائه على فتنة

(١) أجررت حبل خليع كناية عن تركه يصنع ما يشاء .
(٢) الديوان ص ٦١ .
(٣) الديوان ص ٢٣٠ .
(٤) مفند : ملوم .
(٥) النجوم الزاهرة ٢ / ٢١ .

بالشام سيَّره إليها الرشيد سنة ١٨٠ للهجرة[١] ، يقول[٢] :

أعطى المقادةَ أهلُ الشام حين غُشُوا　　من جَعْفرٍ بِهَنَاتٍ مالها حِوَلُ

وأبدع قصائده في البرامكة لاميته في الفضل بن جعفر ، وهي تُعَدُّ من روائعه[٣] وإذا صح أن من سماه إسماعيل في قصيدته : « وإني وإسماعيل يوم وداعه »[٤] من البرامكة كانت هي الأخرى من دُرره فيهم . ونراه بعد وفاة يزيد بن مزيد يتصل بداود بن يزيد المهلبي أحد قواد الرشيد وولاته على إفريقية ، وقد ولاه السند سنة ١٨٤ فرَمَّ ما فيها من شعث بين اليمنية والنزارية ، وفتح كثيراً من مدنها ، ويقال إنه «كان يجلس للشعراء في السنة مجلساً واحداً فيقصدونه ذلك اليوم وينشدونه مدائحه ، فوجَّه إليه مسلم راويته بقصيدته فيه[٥] :

لا تَدْعُ بي الشَّوْقَ إلى غير معمودِ　　نَهَى النُّهَى عن هَوَى البيض الرَّعاديدِ[٦]

فلما أنشدها بين يديه أمر له بعشرة آلاف درهم وأمر لمسلم بمائة ألف ، وهي إحدى فرائده ، ونراه فيها يتحدث عن انتصاراته في « كِرْمان » وسجستان ومن فتك بهم من الخوارج والثوار ، وكيف دانت له السند واستقامت أمورها خير استقامة .

ونرى مسلما يمدح جماعة من كتاب الدواوين والولاة وكبار رجال الدولة في عهد الرشيد ، وفي مقدمتهم يعقوب[٧] بن سعدان ، وكان سعدان كاتب زُبَيْدة[٨] زوج الرشيد ، وسهل[٩] بن الصباح المدائني ، وكان من مقدَّمي رجال الدولة وأجوادهم[١٠] ، والحسن[١١] بن عمران الطائي والي الرشيد على دمشق[١٢] ، وزيد ابن مسلم الحنفي أحد قواده ، وقد نوَّه به وبكرمه وشجاعته وبلائه في الحروب في

(١) الجهشياري ص ٢٠٨ والطبري ٦/٤٥٧ و ٤٦٦ .
(٢) الديوان ص ٢٥٠ .
(٣) الديوان ص ٢٦٠ .
(٤) الديوان ص ٣٣٢ وقارن بسمط اللآلىء ٣٢٧ وكتاب الورقة لابن الجراح (طبع دار المعارف) ص ٨٠ .
(٥) الديوان ص ١٥١ .
(٦) معمود : عاشق . الرعاديد : المرتجات الأكفال .
(٧) الديوان ص ١١٤ ، ٣٣٦ .
(٨) الجهشياري ص ٢٥٦ .
(٩) الديوان ص ٢٤ وانظر ص ٣٢٦ ، ٣٣٣ ، ٣٣٧ .
(١٠) الجهشياري ص ١٦٥ وما بعدها
(١١) الديوان ص ٢٥٧ .
(١٢) زهر الآداب ٤/٨٢ .

قصيدتين[١] بديعتين . ونمضى معه إلى عصر الأمين فنراه يمدحه بقصيدته[٢]:

شُغْلى عن الدار أبكيها وأرْثيها إذا خلتْ من حبيبٍ لى مَغانيها

ونراه يشيد بانتصاراته على أعدائه فى الشرق ، وهو بلا ريب يشير إلى انتصار هرثمة بن أعين على رافع بن الليث الثائر بسمرقند سنة ١٩٤[٣] . ولا يابث الأمين أن ينقض عقد ولاية العهد من بعده لأخيه المأمون ، ويأخذ من الناس البيعة لابنه موسى مما أدّى إلى تطاحن الأخوين وظفر المأمون بأخيه على نحو ما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع . ويولّى مسلم وجهه شطر مَرْو حيث المأمون ووزيره الفضل بن سهل . وتلقّاه الفضل بترحيب عظيم ، إذ كان من ندمائه قبل وزارته للمأمون[٤] ، ونظن ظنًّا أن الصلة توثقت بينهما منذ كان مسلم يغدو ويروح على البرامكة ، وخاصة على الفضل بن جعفر البرمكى فقد كان ابن سهل يخدمه أولا ثم التحق بخدمة المأمون . ولم يكد مسلم يمثل بين يديه حتى أنشده قوله فيه :

لو نطقَ الناسُ أو أنْبَوْا بعلمهمِ ونبَّأَتْ عن معالى دهرك الكتبُ
لم يبلغوا منك أدنى ما تَمتُّ به إذا تفاخرتِ الأَملاكُ وانتسبوا

فأمر له عن كل بَيْت من هذه القصيدة بألف درهم[٥] ، وقد سقطت من ديوانه ، كما سقطت قصيدة كافية له فى المأمون لم يبق منها إلا هذان البيتان[٦] :

وردتْ على خاقان خَيْلُك بعدما كرِهَ الطِّعان وقد أطَلْنَ عِراكا
حتى وَرَدْن وراء «شاش» بِمَنْزِلٍ تَركتْ به نَفَلاً له الأتراكا

وأيضًا فقد سقطت له قصيدة ثالثة فى الفضل بن سهل لم يبق منها إلا بيت واحد[٧] ، وحظى عنده حُظْوَة كبيرة جعلته يولّيه جرجان أو بعض ضياعها أو بَريدها أو مظالمها أو ضياع أصبهان على اختلاف فى الروايات[٨] . ولعل

---

(١) الديوان ص ١٧٧ ، ٢٠٠ .
(٢) الديوان ص ٢١٦ .
(٣) اليعقوبى ٣/١٦٥ .
(٤) ابن الطقطقى ص ١٦٦ .
(٥) ترجمة مسلم فى الأغانى الملحقة بالديوان ص ٣٨٠ .
(٦) الديوان ص ٣٣١ .
(٧) الديوان ص ٣٠٧ .
(٨) انظر ملحقات الديوان ص ٣٥٣ ، ٣٦٥ ، ٣٧٣ ، ٤٣١ ، ٤٤٤ وما بعدها .

أولها أكثرها صحة ، ويقال إنه كان يربح ألف ألف درهم فى العام، وما زال بجرجان حتى لبّى داعى ربه سنة ٢٠٨ للهجرة .

وواضح أن مسلما أخذ يعيش فى هناءة ورغد منذ أواخر العقد الثامن من القرن الثانى ، فقد انهالت عليه الدنيا وأخذ يظفر بجوائز ضخمة ، وما زال يرقى به شعره حتى تولّى جرُجْان . وفى أخباره وأشعاره ما يدل على أنه كان يقبل على اللهو والطرب ، ويفْسَحُ فى حياته للحب والغزل ، ولكن يظهر أنه لم يكن ينغمس فى ذلك انغماس أبى نواس وأخدانه ، فقد كان فيه وقار ، وإحساس غير قليل بكرامته . وكل شىء يؤكد أن حياته فى أسرته كانت تجرى رُخاء ، فقد رُزق ابنة وولدين هما مخلد وخارجة ، وسبقته زوجته إلى دار البقاء ، فحزن عليها حزناً شديداً ، ولعل فى حزنه عليها ما يدل على أنها كانت له شديدة الوفاء والإخلاص .

وفيما قدمنا ما يدل دلالة بيِّنة على أن ديوان مسلم لم يحتفظ بكثير من قصائده ، فأشعاره فى المأمون والفضل بن سهل مفقودة كما أسلفنا ، إلا البيت بعد البيت ، وحتى من رُويت له فيهم بعض قصائده يظهر أن وراءها قصائد له فيهم سقطتْ من يد الزمن . ومما يجعلنا نقطع بذلك أننا نجد ابن المعتز يشيد بلاميته السائرة التى أنشدها الرشيد والتى لقّبه كما مر بنا من أجل أحد أبياتها باسم « صريع الغوانى » ويقول إن الرشيد كتبها بماء الذهب[1] ، ومع ذلك لم يبق منها فى الديوان إلا مقدمتها ، ويصفها ابن المعتز بأنها « مشهورة سائرة جيدة عجيبة » . وكأن ديوانه مختارات تتضمن بعض قصائده وبعض مقطوعاته . ويظهر أن العبث بالديوان قديم ، حتى ليروى بعض الرواة أن مسلماً تغافل راويته يوما وبيده دفتر ديوانه ، فقذف به فى بحر ! ولهذا قلّ شعره ولم يبق منه بأيدى الناس إلا ما رواه بعض معاصريه العراقيين وإلا ما كان فى أيدى الممدوحين من مدائحه[2] . وربما كان هو نفسه أول مَنْ حوّل ديوانه إلى مختارات ، إذ كان شديد الحساب لنفسه ، وكأنه أسقط كثيراً من أشعاره ، حتى لا يبقى له فى أيدى الناس إلا عيون شعره .

ولعل القرن الثانى للهجرة لم يعرف شاعراً جهد نفسه فى صنع الشعر ، كما

(١) ابن المعتز ص ٢٣٥ .
(٢) انظر ترجمة الأغانى الملحقة بالديوان ص ٣٧٤ .

جهدها مسلم ، فقد أقبل يتمثل نماذج الشعر القديم : جاهليه وإسلاميه بكل معانيه وصوره وأساليبه ، وأضاف إلى هذا التمثل تمثلا لا يقل عنه عمقاً ولا دقة لنماذج الشعر العباسي عند بشار ومعاصريه . وبذلك التأم القديم والجديد فى نفسه ، وعاش ينفق حياته الفنية فى المزج بينهما ، مفكراً فى كل التراث الشعرى الذى سبقه وناقداً ومحللا مستنبطاً . وهداه ذلك منذ أول الأمر إلى أن يستكشف فى وضوح أدوات البديع والتصنيع من جناس وطباق ومشاكلة وتصوير وأن يجعلها أساساً فى صنع شعره واعترف له القدماء بذلك حتى قالوا إنه « أول من قال الشعر المعروف بالبديع ، وهو الذى أعطاه لقبه[١] » . وحقاً نجده مبثوثاً فى أشعار بشار وأبى نواس وأضرابهما من سابقيه ومعاصريه ، ولكنه يأتى عندهم فى الحين بعد الحين ، أما عند مسلم فإنه يتخذه وكْده وغايته من عمل الشعر . وقد حاول ابن المعتز فى كتابه « البديع » أن يردّ البديع إلى الشعر القديم والقرآن الكريم ، فهو عربى الأصول . ولا يمكن لأحد أن يدعى أن مسلماً حين استظهر مذهب البديع والتصنيع فى شعره لم يعتمد على أصول تزكّيه ، فقد كان منبثًا فى العصور السابقة له ، إذ كان الجاهليون والإسلاميون يأتون به فى خفة ، ثم عُنى به العباسيون منذ بشار ، حتى ليجعله الجاحظ زعيم فن البديع ، وبه اقتدى مسلم وحذا حذوه[٢] . ولا نستطيع أن نجرى مع الجاحظ فى ردّه مذهب البديع إلى بشار ، لأنه لم يقصر فنه عليه ، ولم يتخذه مذهباً يعيش له ويعيش به ، أما مسلم فإنه اتخذه مذهباً له ، وفرضه على شعره فرضاً منحازاً إليه واقفاً نفسه على التفكير فيه تفكيراً متصلا معتمداً على حس دقيق وشعور رقيق وعقل مثقف ثقافة ممتازة .

وليس ذلك فحسب فقد أُشْرِبت روح مسلم صياغة الشعر القديم بأبنيتها الجزلة الضخمة الناصعة ، وتحولت إليه هذه الصياغة بكل ما يجرى فيها من روعة وجمال ، فإذا أساليبه معتدلة مستوية ليس فيها أى عوج أو انحراف إنما فيها التناسق الكامل الذى يفتن قارئه بدقته وباتساع جنباته ليبث فيه مسلم بديعه ، وليمنيه مع روح عصره ، وليصبَّ فيه نفسه وعقله وخياله ، وهو فى ذلك يتكلف

---

(١) ترجمة الأغانى الملحقة بالديوان ص ٣٦٤ .

(٢) البيان والتبيين ١/٥١ .

كل ما يستطيع من جهد عنيف وعناء شاق ، مراجعاً نفسه ومتأنياً محتاطاً ، حتى يبلغ كل ما يريد من امتياز على أقرانه . ولعله لم يمنح موضوعا عنايته كما منح المديح وهو فيه يلائم ملاءمة دقيقة بين ماضى الشعر وحاضره ، فيستنفد ما قاله القدماء فى وصف الصحراء والنوق والتشبيب ملتفتاً إلى إخراج العباسيين لهذه الموضوعات فى أشعارهم وما أضافوا إليها من وصف الخمر ، أو وصف السفن فى طريقهم إلى ممدوحيهم . حتى إذا خلص إلى المديح أخذ ينفذ من خلال معانيه القديمة والحديثة إلى عرض جديد رائع يصوِّر زاده الأصيل من التراث الفنِّى مضيفاً كثيراً من المعانى والصور البديعة ، واقرأ له هذه القطعة من لاميته الطويلة العجيبة فى يزيد بن مزيد وتصوير فروسيته وكرمه وما ينزل بالأعداء من تقتيل ساحق ماحق وما يتسم به من مروءة كاملة :

لولا يزيدُ لأضحى الملكُ مطَّرَحاً ... أوماثلَ السَّمْك أومُسْتَرْخِيَ الطِّوَلِ[١]

يَغْشَى الوَغَى وشهابُ الموت فى يدهِ ... يَرْمِى الفوارسَ والأبطال بالشُّعَل[٢]

موفٍ على مُهَجٍ فى يوم ذى رَهَجٍ ... كأنه أَجَلٌ يسْعَى إلى أَمَلِ[٣]

لا يَرْحَلُ الناس إلا نَحو حُجْرتِه ... كالبيت يُفْضِى إليه مُلْتَقَى السُّبُل[٤]

يكسو السيوفَ دماءَ الناكثين به ... ويجعل الهامَ تيجان القَنَا الذُّبُلِ[٥]

قد عَوَّد الطَّيْرَ عادات وثِقْنَ بها ... فهنَّ يَتْبَعْنه فى كل مُرْتَحَل

تراه فى الأمن فى دِرْعٍ مضاعفةٍ ... لا يأْمن الدهرَ ــ أن يُدْعَى على عجل

لا يَعْبَقُ الطِّيبُ خَدَّيْه ومَفْرِقَه ... ولا يُمَسِّح عينيه من الكُحُلِ[٦]

فإنك تشعر بضخامة البناء وقوة الحبك وأن مسلماً يتسلط على كلماته ومعانيه وصوره ، فلا نبوٌّ ولا قصور وإنما ضبط وإحكام . وهو يستمد صورته فى البيت

---

(١) مطرحاً : مخذولا . الطول : الحبال . وقد ضرب السمك والطول مثلا لاستقامة الأمر كاستقامة الخيمة حين يقوم عمودها وتشد حبالها.

(٢) شهاب الموت : السيف . وأراد بالشعل اللهيب المتساقط من الشهاب .

(٣) المهج : الأرواح . الرهج : غبار الحرب .

(٤) يريد أن الطرق تلتقى براكبيها عند الممدوح لجوده الغمر .

(٥) الهام : الرءوس . الذبل : الرقيقة الحادة.

(٦) لا يمسح عينيه من الكحل : لا يكتحل .

الأول من البادية وخيامها وما يُطْوَى فيها من حبال وأعمدة . وطالما شبه الشعراء السيوف بالشهب ، غير أن مسلماً يضيف إلى ذلك تشبيهاً بشعل النار وهى فى يد يزيد يرمى بها يميناً وشمالا . ومضى فى البيت الثالث يضيف إلى تصويره السابق جناسين واضحين . والتمس صورة سبقه إليها زهير فى بيته الرابع ، إذ يقول فى مديح صاحبه هرم بن سنان :

قد جعل المبتغون الخيرَ فى هَرِمٍ والسائلون إلى أَبوابه طُرقا

ومضى يصور فتكه بالأبطال تصويراً بديعاً فى بيته الخامس ، وكان القدماء يذكرون صحبة الطير للجيوش حين يصفونها كناية عما ستجد من أشلاء قتلاها ، فاستغل ذلك فى بيته السادس وجعلها تتبع يزيد دائماً فى رحلاته واثقة بما سيُميرها به ، حتى أصبح ذلك من عاداتها فهى دائماً مرفرفة فوقه . ومثّله فى البيتين السابع والثامن شجاعاً تام الشجاعة حتى لا يفارقه درعه فى أوقات أمنه وسلمه ، وحتى لا يتعطر شأن المترفين اللاهين فعطره شجاعته وما يسيل على سيفه من دماء الأبطال. واقرأ له هذه القطعة من مديح داود بن يزيد بن حاتم المهلبى ، وتصويره فيها لبسالته و بطولته :

موحَّدُ الرأْى تنشقُّ الظنون له عن كل ملتبسٍ منها ومعقودِ (١)
كاللَّيْثِ بل مثله اللَّيْثُ الهَصُور إذا غَنَّى الحديد غناءً غيرَ تغريد
يلقَى المنيَّةَ فى أَمثال عُدَّتها كالسَّيْل يقذف جُلموداً بجلمود
يجود بالنفس إذ ضَنَّ الجوادُ بها والجودُ بالنفس أقصى غاية الجود

فإنك تحس قوة البناء ودقة التعبير وروعة التصوير ، فداود محكم الرأى إذا فكر فى شيء انكشف له غامضه ومتشابهه ، وهو كالليث فى انقضاضه على فريسته ، بل الليث هو الذى يحاكيه ويتخذه قدوته ، وإن بسالته لتتحول إلى ما يشبه موجاً لا يزال يسقطه على الأبطال موجة فى إثر موجة كالسيل يدفع جلموداً بجلمود . وإن

(١) ملتبس : مشتبه . معقود : غامض .

شجاعته لضرب رائع من جوده وكأنما الجود شربعته حتى بروحه الزكية . ومن رائع مديحه قوله فى الفضل بن جعفر البرمكى :

تُساقط يُمْناه النَّدَى وشماله الـ رَّدَى وعيونُ القول مَنْطقه الفَصْلُ (١)
عَجولٌ إلى مايُودِعُ الحَمْدَ مالهُ يَعُدُّ النَّدَى غُنْماً إذا اغتَنم البُخْل
بكفٍّ أبى العباس يُسْتَمْطَرُ الغنَى وتُسْتَنْزَلُ النُّعْمَى ويَسْتَرعِفُ النَّصْلُ(٢)

والأبيات من طراز بنائه الضخم ، وهى متينة السبك ، قوية الحبك ، وانظرْ فى البيت الأول كيف صوَّر تصويراً بديعاً كرم الفضل وشجاعته وبلاغة بيانه ، وقد طابق فى البيت الثانى بين الكرم والبخل ، وعاد فى البيت الثالث إلى تركيزه الشديد وتجميعه المعانى الكثيرة فى الألفاظ القليلة ، مع قوة تجسيمها وتجسيدها . ومن بارع مديحه قوله فى إسماعيل البرمكى :

وإنى وإسماعيلَ يوم وداعهِ لكالغِمْد يوم الرَّوْع فارقه النَّصْلُ
فإنْ أَغْشَ قوماً بعده أو أَزُرْهمُ فكالوحش يُدْنيها من الأَنَسِ المَحْلُ(٣)

يقول ابن المعتز : « وهذا معنى لا يتفق للشاعر مثله فى ألف سنة(٤)» . وفى نفس هذه القوالب القوية كان يصوغ مراثيه على شاكلة قوله فى رثاء يزيد بن مزيد :

نَفَضَتْ بك الآمالُ أَحْلاسَ الغِنَى واسترجعتْ نُزَّاعَها الأَمصارُ(٥)
أَجَلٌ تنافسه الحِمامُ وحفرةٌ نَفِسَتْ عليها وجهك الأَحْفَارُ(٦)
فاذْهَبْ كما ذهبتْ غَوَادِى مُزْنَةٍ أَثْنَى عليها السَّهْل والأَوعارُ(٧)

والصورة فى البيت الأول دقيقة ، فقد أراد أن يصور قعود المعتفين والسائلين عن الرحلة فى طلب نواله ، فقال إن الآمال نفضت أحلاس الغنى ، أى أنها لم تعد

---

(١) الندى : الكرم . الردى : الموت .
(٢) يسترعف : يقطر دماً . النصل حد السيف.
(٣) الأنس : بفتح الهمزة كالأنس بضمها ، المحل : الجدب .
(٤) ابن المعتز ص ٢٣٦ .
(٥) أحلاس جمع حلس وهو كساء يوضع على ظهر البعير تحت الرحل . نزاعها : الذين ينزعون إليه ويغتربون عن أوطانهم .
(٦) الحمام : الموت .
(٧) المزنة : السحابة الممطرة .

تهيِّئ الإبل للارتحال نحوه . وجعل فى البيت الثانى الموت والقبر يتنافسان عليه ، كل يريد أن يحوزه إليه ، ولم يلبث أن جعل جميع القبور تنفس على قبره جسده الغالى . ودعا له متمثلا جوده الذى عَمَّ به الناس كما تعم السحابة بوابلها السهل والوعر . ومن دقائق معانيه فى الرثاء قوله :

ومخادعِ السمع النَّعِيَّ ودونه خَطْبٌ ألمَّ بصادقٍ لا يَخْدَعُ

وهو يصور فى البيت ذهول الصديق حين يأتيه نعى صديقه فيفزع إلى تكذيبه، ثم يثوب إلى رشده . وقد بدأ حياته بنقائض فى الهجاء ناقض بها ابن قنبر ، وهو فى هذه النقائض يصدر عن روح النقائض القديمة عند جرير والفرزدق وما يُطْوَى فيها من عصبيات ، ويتكافَّآن فلا يعود إلى هذا النمط القديم ، بل يأخذ فى النمط المستحدث الذى وصفناه فى غير هذا الموضع والذى كان يجرى فى أبيات قصيرة تشبه السهام المسمومة ، كقوله فى دعبل تلميذه وقد فسد ما بينهما :

أَما الهجاءُ فدقَّ عِرْضُك دونه والمدحُ عنك كما علمتَ جليلُ
فاذهَبْ فأَنت طليقُ عِرْضكإنه عِرْضٌ عَزَزْتَ به وأَنت ذليل

وتُرْوَى له أبيات فى هجاء يزيد بن مزيد، وأكبر الظن أنها منتحلة أو لعلها أضيفت إليه خطأ ، ويظهر أنه مدح موسى بن خازم بن خزيمة وسعيد بن سلم ابن قتيبة ، فلم يَبَرَّاه ، واستشاط غضباً ، فرماهما بسهام لاذعة من هجاء مرير ، على شاكلة قوله فى موسى :

لو أَنَّ كَنْزَ البلاد فى يَدِهِ لم يَدَعِ الإعتذار بالعُدُمِ(١)

وقوله فى سعيد :

وأَحْبَبْتُ من حُبِّها الباخلـ ين حتى وَمِقْتُ ابنَ سَلْمٍ سعيدا(٢)
إذا سِيل عُرْفًا كَسَا وَجْهَهُ ثياباً من اللُّوم صُفْرًا وسودا(٣)

وكان لا يزال يدقق فى معانى الهجاء حتى يقع على معنى نادر يروع سامعيه ،

---

(١) العدم : فقدان المال . (٢) ومقت : أحببت .
(٣) سيل : سئل ، خفف . العرف : المعروف والجود .

من مثل قوله يهجو رجلا بقبح وجهه وخُلُقه :

قَبُحَتْ مَناظره فحين خَبَرْتُهُ   حَسُنَتْ مَناظِرُهُ لقُبْحِ المَخْبَر

وبنفس هذا النسيج من الصياغة وهذه الدقة فى المعانى والصور كان مسلم ينظم فى الحب والخمر ، سواء أودعهمامقدمات مدائحه أو أفردهما ببعض المقطوعات ، وهو يصور منزعه فيهما ومتعته بهما إذ يقول :

وما العيش إلا أن أبيتَ موسَّدًا   ـ صريعَ مُدامٍ ـ كفَّ أحْورَ أكْحَل[١]

وكان لا يزال يبقى فيهما على نفسه ولا يزال يحتفظ بغير قليل من كرامته . وهو فى غزله لا يمجن ولا يفحش ، بل يقترب اقتراباً شديداً من أصحاب الهوى العذرى الذى يصور آلام العاشق وحنينه ونيران شوقه وحبه الذى يلذع فؤاده من مثل قولــه :

إن كنتِ تَسْقين غير الرَّاح فاسقينى   كأْساً أَلذُّ بها من فيكِ تَشْفينى
عيناكِ راحى ، وريحانى حديثُك لى   ولونُ خَدَّيك لونُ الورد يكفينى

وقوله :

ولما تلاقينا قضَى اللَّيْلُ نَحْبَهُ   بوجهٍ كوجه الشمس ما إنْ له مِثْلُ
وخالٍ كخال البَدْر فى وجه مِثْلهِ   لَقِينا المُنَى فيه فحاجَزنا البَذْل

وقوله :

وأقسمتُ أنسى الداعياتِ إلى الصِّبا   وقد فاجأَتْها العَيْنُ والسِّتْرُ واقعُ
فغطَّتْ بأيديها ثِمارَ نُحورها   كأَيدى الأَسارَى أَثْقَلَتْها الجَوامع[٢]

والخمر عند مسلم تأتى غالبًا فى مقدمات مدائحه ، وفيها يحاول أن يستنبط المعانى النادرة والأخيلة المبتكرة من شاكلة قوله :

ومانحةٍ شُرَّابَها المُلْكَ قَهْوَةٍ   مجوسيَّةِ الأَنساب مسلمة البَعْل

(١) المدام : الخمر .   (٢) الجوامع : الأغلال والقيود .

قد استُودِعتْ دَنًّا لها فهْو قائمٌ بها شَفَقًا بين الكروم على رِجْل
شَقَقْنا لها فى الدَّنِّ عَيْنًا فأَسْبَلَتْ كأَلسنة الحَيَّاتِ خافتْ من القَتْلِ (١)

وقد جعلها فى البيت الأول من بنات المجوس كما جعل شاربها مسلماً وسماه بَعْلا أو زوجاً ، لأنه اشتراها وخطبها وهو يعنى نفسه . أما فى البيت الثانى فقال إنها ظلت طويلا فى شجرة الكرم ، وظلت واقفة بها شفقة لها وحنوًّا عليها . وقال فى البيت الثالث إنهم شَقُّوا لها فى دَنِّها ثُقْبًا وهى تسيل منه حمراء مهتزة ، كأنها ألسنة حيَّات ترتجف من القتل ، فهى لا تكف عن إرسالها لها خوفًا وفزعًا . ومسلم من أمهر الشعراء وأدقهم فى التصوير ، وهى دقة تتراءى فى جميع جوانب ديوانه من مثل قوله مصوراً سرعة النوق ونحولها لطول السَّفر :

إلى الإمام تهادانا بأَرْحُلِنا خَلْقٌ من الرِّيح فى أَشباح ظِلْمانِ (٢)
كأَن إفلاتَها والفجرُ يأخذها إفلاتُ صادرةٍ عن قَوْس حُسْبانِ (٣)

فقد جعل نوقهم كأنما خلقت من الريح لسرعتها ، وصوَّرها فى ضمورها كأنها ذكور نعام وهى تمرُّ مسرعة مرور ظبية رماها صائد فأخطأها ، فهى لا تنى عن الانطلاق والعَدْو الشديد . وقد نوَّه القدماء طويلا بتصويره للسفينة بمثل قولــه :

إذا أَقبلتْ راعتْ بقُنَّةِ قَرْهَبٍ وإن أَدبرتْ راقتْ بقادِمَتَيْ نَسْرِ (٤)
أُقِلَّتْ بِمجدافين يعتورانها وقَوَّمها كَبْحُ اللِّجام من الدُّبْرِ (٥)
كأَن الصَّبا تحكى بها حين واجهتْ نسيمَ الصَّبا مَشْيَ العروسِ إلى الخِدْرِ (٦)

وهو يشبه فى البيت الأول صدرها برأس ثور وحشى كما يشبه مجدافيها بجناحى نَسْر ، ويرسم صورتها فى البيت الثانى بمجدافيها وسُكَّانها الذى يقوِّم جموحها .

---

(١) يقصد بالعين الثقب . أسبلت : سالت
(٢) تهادانا : تحملنا . أشباح : أشخاص . ظلمان : جمع ظليم وهو ذكر النعام .
(٣) إفلاتها سرعتها وانبعاثها فى السير . صادرة راجعة . قوس حسبان : ضرب مشهور فى عصرهم من القسى .
(٤) راعت : أفزعت . قنة قرهب : رأس ثور وحشى . قادمتا النسر : جناحاه ، أراد بهما المجدافين .
(٥) أقلت : ارتحلت وسارت .
(٦) الخدر : البيت الذى تستتر فيه المرأة .

أما فى البيت الثالث فيشبهها فى سيرها الوئيد بالعروس فى سيرها الرفيق إلى خِدْرها .

وعلى هذا النحو لا يزال مسلم يلتقط لأبياته وأشعاره درر المعانى والصور ، مضيفاً إلى ذلك حُلًى كثيرة من وَشْى الطباق والمقابلة والجناس والمشاكلة ، وهو فى ذلك لا ينسى العناية بموسيقاه الضخمة وما ترسل من رنين قوى محكم ، مزاوجا بكل ما استطاع بين عناصر الشعر القديمة والجديدة ، فإذا أشعاره تحتفظ بالصياغة الجزلة الرصينة التى تلذ الأسماع العربية ، وإذا هى تفسح لمذهب البديع الجديد بكل طرائفه العقلية والخيالية ، بحيث يمتع القلوب والأفئدة .

٥

أبو تمام [١]

هو حبيب بن أوس الطائى ، وُلد بقرية جاسم بقرب دمشق على الطريق منها إلى طبرية ، وقد تعددت الروايات فى سنة ولادته ، فقيل سنة ١٧٢ وقيل سنة ١٨٢ وقيل سنة ١٨٨ وقيل سنة ١٩٢ ونُسب إليه أنه قال : ولدتُ سنة ١٩٠ [٢] . والآراء متضاربة فى صحة نسبه من طيئ ، فقد هجاه بعض معاصريه بأنه نبطى [٣] ، وزعم قوم أن أباه كان نصرانيًّا [٤] يسمَّى تدوس وأنه حرَّفه إلى أوس وانتسب فى طيئ . وظن مرجليوث فى ترجمته له بدائرة المعارف الإسلامية أنه ربما كان اسم أبيه المذكور فى المراجع القديمة على أنه تدوس محرف عن « تيودوس » وبَنَى

---

(١) انظر فى أبى تمام وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص ٢٨٣ والأغانى (طبع دار الكتب) ٣٨٣/١٦ وتاريخ بغداد ٢٤٨/٨ والموشح ص ٣٠٣ وابن خلكان (طبعة سنة ١٢٩٩ ھ) ١٥٠/١ وتهذيب ابن عساكر ١٨/٤ وشذرات الذهب ٧٢/٢ ومرآة الجنان ١٠٢/٢ وكتاب الموازنة بين الطائيين للآمدى وأخبار أبى تمام للصولى وهبة الأيام فيما يتعلق بأبى تمام للبديعى ودائرة المعارف الإسلامية فى مادة أبى تمام ومن حديث الشعر والنثر لطه حسين والفن ومذاهبه فى الشعر العربى (طبع دار المعارف)ص ٢١٩ «وأبو تمام الطائى : حياته وحياة شعره » لنجيب محمد البهبيتى «وأبوتمام» لعمر فروخ . وقد طبع ديوانه طبعات مختلفة ، أهمها طبعة دار المعارف بشرح التبريزى وقد ظهر منها ثلاثة أجزاء تشتمل على مدائحه ، وسنرجع إلى هذه الطبعات ، وما ليس فيها سنرجع فيه إلى طبعة بيروت سنة ١٨٨٩ م .

(٢) أنظر فى ميلاده وفيات الأعيان وأخبار أبى تمام للصولى ص ٢٧٢ .

(٣) الصولى ص ٢٣٥ .

(٤) الصولى ص ٢٤٦ وانظر النجوم الزاهرة ٢٦١/٢ .

طه حسين على هذا الظن أنه يونانى الأصل[1] ، بينما ذهب بروكلمان إلى أن اسم تدوس يشيع بين نصارى السريان[2] . ونصرانية أبيه — إن صحت — لا تنفيه من العرب ولا من طيئ ، فقد كانت النصرانية شائعة من قديم فيها ، وجمهورُ من ترجموا له من الثقات يذهبون إلى أنه طائى صَليبة[3] ، ويشهد لذلك فخره المضطرم بطيئ وأنه اختار منها أكثر ممدوحيه ، ونوَّه تنويهاً عظيماً بمن سجَّلوا لها فى عصره أمجاداً حربية ، مما يدل على أنه طائى عريق وعربى أصيل .

وقد تضاربت الآراء أيضًا فى نشأته ، فقيل إنه نشأ بمصر يسقى الناس فى مسجدها الكبير ، وأكثرُ المؤرخين له على أنه نشأ بدمشق وأن أباه كان عطاراً فيها وأنه ألحقه بحائك كى يحسن حياكة الثياب . ويبدو أنه أخذ يختلف — منذ نعومة أظفاره — إلى حلقات المساجد ينهل مما كان يجرى فيها من جداول الشعر والثقافة ، وسرعان ما تدفق ينبوع الشعر على لسانه ، واتجه به إلى بعض اليمنيين والطائيين فى بلدته وفى حمص مثل نوح بن عمرو السَّكْسَكِىّ وبنى عبد الكريم الطائيين . ونراه يولِّى وجهه نحو مصر قاصداً عيَّاش بن لهيعة الحضرمى الذى كان يقوم أحيانًا على شرطتها وخراجها ، وله يقول فى إحدى مدائحه[4] :

وأنت بمصر غايتى وقرابتى ... بها وبنو الآباء فيها بنو أبى

وهو يشير دائمًا فى مديحه له إلى حرمته منه وأنه يمنى مثله ، ويلجِّج فى الافتخار بملوك اليمن وأقيالها القدماء . ويظهر أنه عاد فازورَّ عنه ، مما جعله يكثر من عتابه ، حتى إذا يئس منه أصلاه بنار هجائه . وليس بين أيدينا ما يدلُّ دلالة صريحة على تاريخ قصده إلى عياش ، غير أن فى كتاب « الولاة والقضاة » للكندى أشعاراً له تتصل بأحداث مصر بين سنتى ٢١١ و ٢١٤ مما يؤكد مقامه بها فى تلك الفترة ، وفى هذه الأشعار ما يدل على أنه تعرَّف على عبد الله بن طاهر فى ولايته على مصر (٢١١ — ٢١٣ هـ) وقد نوَّه به وبقضائه فيها على الفتن . وفى ديوانه بيتان هجا بهما

---

(١) مقدمة نقد النثر لقدامة (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٩ وانظر مقالته عنه فى كتابه « من حديث الشعر والنثر » .

(٢) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان (طبع دار المعارف) ٢/ ٧٢ .

(٣) ص ٥٩ والأغانى ١٦/ ٣٨٣ وجمهرة أنساب العرب لابن حزم (الطبعة الثانية بدار المعارف) ص ٣٩٩ .

(٤) الديوان (طبع دار المعارف) ١/ ١٦٢

المطلب بن عبد الله الخزاعى معلناً له أن مدحه فيه كان كذباً وبهتاناً ، وقد ولى المطلب مصر فى سنتى ١٩٨ و ١٩٩ للهجرة وكان يقيم عياش بن لهيعة على شرطته ، فهل يعنى ذلك أنه نزل مصر مرتين : مرة فى أواخر القرن الثانى ومرة فى أوائل العقد الثانى من القرن الثالث ؟ . الحق أنه ليس بين أيدينا ما يجعلنا نقطع برأى فاصل فى ذلك ، وخاصة أنه ليس فى ديوانه مديح للمطلب ، وربما قال هذين البيتين بعد عزل المطلب عن مصر أو ربما كانا منحولين عليه .

وقد عاد إلى موطنه فى سنة ٢١٤ والمآتم منصوبة فى كل مكان على بطل طيئ المغوار محمد بن حميد الطوسى الذى كافح بابك كفاحاً مريراً ، وخانه القدر فسقط فى ميدان النضال لأوائل هذه السنة . وتعمقت الحادثة نفس أبى تمام فبكاه بكاء حارًّا أخذ يدور على الألسنة وأخذ يحتلُّ به مكانة ممتازة بين الشعراء . وأخذ يتردَّد على الرقة والموصل ويمدح أجوادهما مثل حبيش بن المعافى قاضى نصيبين ورأس عين ومحمد بن حسان الضبى ، ونراه يقول فى إحدى مدائحه له[١] :

بالشام أهلى وبغدادُ الهوى وأنا   بِالرَّقَّتَيْن وبالفُسْطاط إخوانى
وما أظن النَّوَى ترضى بما صنعتْ   حتى تشافه بى أقصى خراسان

وذكره الفسطاط يدل على أنه كان حديث عهد بالأوبة منها ، ولا تزال ذكرى واليها عبد الله بن طاهر حية فى نفسه ، ولذلك ينوى أن يزوره فى خراسان : ولايته الجديدة ، وهو يتمنى أن تكتحل عيناه بمرأى بغداد ، ويظهر أنه ألمَّ بها فى صحبة محمد بن حسان الضبى إلماما قصيراً[٢] ، وفى ديوانه قصيدة موجهة إلى الحسن بن سهل الذى كان جوده الغَدِق لا يزال يسيل على الرغم من اعتزاله الوزارة وفيها يقول[٣] :

ستٌّ وعشرون تدعونى فأتبعها   إلى المشيب ولم تظلم ولم تَحُب[٤]

فإذا صح أنه مدحه بها فى بغداد فإنه يكون قد زارها وهو فى السادسة والعشرين من عمره . على أنه لم يلبث أن عاد سريعاً إلى الموصل متنقلا بينه وبين موطنه ،

(١) الديوان (طبعة دار المعارف) ٣/ ٣٠٩ .
(٢) ابن المعتز ص ٢٨٣ .
(٣) الديوان (طبعة دار المعارف) ١/ ١١٥ .
(٤) لم تحب : من الحوب وهو الإثم .

وربما بدأ مديحه لمالك بن طَوْق التغلبي والى الجزيرة منذ هذا التاريخ . ونراه يحاول المثول بين يدى المأمون فى إلمامه بدمشق وثغور الشام أثناء حملاته على الروم ، وربما كان أول ما مدحه به قصيدته : (كُشِفَ الغطاء فأوقدى أو أخْمِدى) وفيها يعلن له حبه لآل البيت مشيدا بقضائه على الثورات والفتن بمصر ، يقول[١] :

وانتاش مصر من اللُّتَيَّا والتى ... بتجاوزٍ وتعطُّفٍ وتعمُّدِ

والمعروف أن المأمون زار مصر فى أول سنة ٢١٧ للهجرة ، وقد عاد منها إلى دمشق ثم توجه منها إلى ثغر « أذنة » معسكراً بها وجيوشه تتغلغل وراء البيزنطيين ، مبددين لجموعهم فى غير جبهة ، وتقدَّم بنفسه إلى حصن « لؤلؤة » فأناخ به ، وجيوشه تغدو وتروح فى آسيا الصغرى منزلة بالروم هزائم ساحقة . ونرى أبا تمام يتغنى بتلك الانتصارات فى ميميته للمأمون تغنيا بديعًا بمثل قوله يصف تلك الجيوش واستبسالها فى القتال[٢] :

مُسْترسلين إلى الحتوف كأنما ... بين الحتوف وبينهم أرحامُ
آسادُ موتٍ مُخْدراتٌ مالها ... إلا الصَّوارمَ والقنا آجام[٣]

وقد مضى يشيد بقائدين من قواد هذه الحروب ، أما أولهما فخالد بن يزيد ابن مزيد الشيبانى والى أرمينية وقد سجَّل له انتصاراً حربيًّا ماحقاً على تيوفيل إمبراطور بيزنطة مصوراً كيف ولَّى الأدبار وكيف استولى الرعب على جنوده ، يقول[٤] :

ولما رأى تُوفِيلُ راياتك التى ... إذا ما اتلأَبَّت لا يقاومها الصُّلْبُ[٥]
تولَّى ولم يأْلُ الرَّدَى فى اتِّباعه ... كأَن الرَّدَى فى قصدهِ هائمٌ صَبُّ
كأَن بلاد الروم عُمَّتْ بصيحةٍ ... فضمَّتْ حَشَاها أورَغا وسْطها السَّقْبُ[٦]

---

(١) الديوان ٢ /٤٨ . انتاش : خلص .
(٢) الديوان ٣ /١٥٦ .
(٣) مخدرات : ساكنات بيوتها وغاباتها . آجام : جمع أجمة وهى الشجر الكثير الملتف .
(٤) الديوان ١ /١٩٧ .
(٥) اتلأبت : تتابع هزها . الصلب : جمع صليب ، ويريد النصارى .
(٦) السقب : ولد الناقة التى عقرتها ثمود فصارت شؤماً عليهم وهلاكاً لهم .

وأما القائد الثانى فجعفر الخياط ، على أنه لم يتوسع فى تصوير حروبه وانتصاراته ، ونظن ظنًّا أنه لقى فى هذا الحين المعتصم إذ كان المأمون يعهد إليه بقيادة بعض تلك الجيوش الغازية للروم ، فقد جاء فى بعض أخباره أن أول لقائه له إنما كان فى المَصيصة إحدى ثغور الشام[١] ، وفى بعض الروايات أنه إنما لقيه بعد بنائه لسُرَّ من رأى وفتحه لعمورية فى سنة ٢٢٣ للهجرة غير أنه فى إحدى مدائحه له يقول[٢] :

أربيعَنا فى تِسْعَ عَشْرَةَ حِجَّةً حَقًّا لَهِنَّكَ للرَّبِيعُ الأَزْهَرُ[٣]

وواضح أنه يشير إلى سنة تسع عشرة بعد المائتين مما يؤكد أنه كان ببغداد فى تلك السنة ، وكأنه شدَّ رحاله إليها بعد وفاة المأمون سنة ٢١٨ وقد أخذت تتوثق علاقة بينه وبين إسحق بن إبراهيم المصعبى القائم على شرطة بغداد وأعمالها ، ونراه يشيد بانتصاراته على المحمِّرة الذين ثاروا بالجبل شمالى إيران لسنتى ٢١٨ ، ٢١٩ إشادات رائعة[٤] . ويظهر أنه لم يلبث أن ارتحل إلى عبد الله بن طاهر والى خراسان ، واستقبله هو ومن حوله من الكُتَّاب والشعراء استقبالا حافلا ، ويقال إنه لما أنشده قصيدته فيه : (هُنَّ عوادى يوسف وصواحبه) نَثَر عليه ألف دينار . وقد دبَّج قصائد كثيرة فى رئيس ديوانه وكُتَّابه محمد بن الهيثم بن شُبانة وأيضًا فى كثير من العُمَّال والقواد هناك مثل محمد بن المستهل ودينار بن عبد الله وحفص بن عمر الأزدى وعلى بن مرّ ، ونوَّه فى طريقه بكثير من الولاة وخاصة الحسن بن رجاء والى فارس . وفى عودته نزل بهمذان على أبى الوفاء بن سلمة ، وتصادف أن حبسه الثلج عنده أشهراً ، فأكبَّ على خزانة كتبه يؤلف ويصنِّف مجاميع من الشعر أشهرها كتاب الحماسة وهو مطبوع مراراً ، وطُبع له شرحان : شرح التبريزى وشرح المرزوقى ، وهو يصوِّر لنا من بعض الوجوه دقة ذوق أبى تمام كما يصور ثقافته الواسعة بالشعر العربى ودرره النفيسة فى القديم والحديث .

وعاد إلى « سُرَّ من رأى » وأخذ يتغنى بانتصارات القواد على بابك الخرّمى وكان قد ثار منذ سنة ٢٠١ للهجرة ونازله كثيرون من قُوَّاد المأمون ، وما تُوافى

---

(١) الصولى ص ١٤٤ .
(٢) الديوان ٢/١٩٣ .
(٣) لهنك : لغة فى لإنك .
(٤) الديوان ٣/١٦٨ ، ٢٦٤ ، ٢٩٧ .

سنة ٢٢٠ حتّى يعقد المعتصم للأفشين على الجيوش التى تنازل أتباعه من الخرَّمية فى الجبال وأرمينية وأذْرَبيجان ، وكان من أهم القواد الذين عصفوا حينئذ بأتباعه أبو سعيد محمد بن يوسف الثغرى الطائى وقد مضى أبو تمام يشيد بانتصاراته وكأنه يحيِّى فيه قبيلته طيِّئاً وأمجادها الحربية الحديثة ، ومن ثَمَّ لم يترك له انتصاراً دون أن يسجله فى ملحمة رائعة . ومجّد بجانبه بطلاعربيًّا ثانياً ممن نكلوا ببابك وأصحابه تحت لواء الأفشين هو أبو دُلَف العجلى ، وكان فارساً مغواراً ، وغَيْثاً مدراراً ، فنوَّه به تنويهاً رائعاً . وأخيراً فى أوائل سنة ٢٢٣ قدم الأفشين ببابك مقيداً إلى سُرَّ مَنْ رَأىَ ، فتعالى بها التكبير والضجيج ، وقُتل وقُطّع جسده وصُلب جزاءً وفاقاً لبغيه ونكثه بالعهود . وأخذ الشعراء وفى مقدمتهم أبو تمام يهنئون المعتصم والأفشين بهذا النصر المبين ، وله فيه ثلاث قصائد رائعة ، هى : (غدا الملك معمور الحمى والمنازل) و (آلت أمور الشرك شرمآل) و (بَذَّ الجِلادُ البَذَّ[1] فهْو دفين) . ولم يلبث تيوفيل إمبراطور بيزنطة أن أغار على زِبَطْرة بالقرب من سُمَيْساط واحدث فى طرف بلاده ، واستشاط المعتصم غضباً ، فجهّز الجيوش لغزو الروم ، والتقى بتيوفيل وهزمه هزيمة ساحقة ، افتتح على إثرها عمورية وتفرقت جيوشه فى آسيا الصغرى تمحق الروم محقاً ، وتوطئهم صَغارا وذلا . وكان لمحمد بن يوسف الثغرى فى تلك الحروب دور كبير جعل أبا تمام يتغنّى به وبانتصاراته طويلا على نحو ما تصور ذلك قصيدتاه : (لا أنتِ أنتِ ولا الديار ديارُ) و (ما عهدنا كذا نحيبَ المشرق) وهو فيهما يسمِّى كثيراً من الحصون الرومية التى افتتح أقفالها ، مصورا كيف تغلغل حتى خليج القسطنطينية سائقاً بين يديه مئات الأسرى والمغانم الكثيرة . ودُرَّة تلك الحروب قصيدته فى عمورية التى امتدح بها المعتصم : (السيف أصدق أنباء من الكتب) وهى ملحمة رائعة .

وأخذت تتوثق علاقة أبى تمام منذ عودته من خراسان بأحمد بن أبى دؤاد مستشار المعتصم وقاضى قضاته ، وبأحمد بن المعتصم وبكثيرين من رجالات الدولة وقوادها . وما نكاد نتقدم فى سنة ٢٢٤ حتى يخلع الطاعة مازيَار بطبرستان ، وما تزال جيوش الخلافة تنازله حتى تأتى به صاغراً إلى « سُرَّ من رأى » فى سنة ٢٢٥ فيقتل ويُصْلب

(١) البذ : كورة بين أران وأذربيجان خرج بها بابك .

بجانب بابك . وتجمعت أدلة قاطعة على خيانة الأفشين وزندقته وأنه يبطن الكفر وينتوى الغدر بالدولة والإيقاع بأبطالها وخاصة من العرب أمثال أبى دلف ، فيأمر المعتصم بالقبض عليه وإلقائه فى غيابات السجون ، ويموت ، فيُصْلب بجانب بابك ، ثم يُحْرَقُ بالنار التى كان يعبدها من دون الله ، وما يلبث أبو تمام أن ينشد المعتصم قصيدته البديعة[1]:

الحقُّ أبْلَجُ والسيوفُ عَوَارِى   فحذارِ من أَسَد العَرِين حذار

وقد صوَّر فيها كفران الأفشين بالإسلام وبنعم الدولة ونقضه لما بينه وبين المعتصم من عهود ومواثيق وبغيه الذى أورده موارد الهلاك ، وما كان من حرقه بالنار وصلبه قبل ذلك بجوار بابك ومازيار يقول :

ما زال سِرُّ الكفر بين ضلوعهِ   حتى اصطلى سِرَّ الزِّناد الوارى[2]
نارًا يُساور جسمه من حَرِّها   لهبٌ كما عَصْفرتَ شِقَّ إزارِ[3]
صَلَّى لها حَيًّا وكان وقودَها   مَيْتاً ويدخلها مع الفُجَّارِ
ولقد شَفَى الأحشاءَ من بُرَحائها   أن صار بابَكُ جارَ مازيَّار
سودُ الثيابِ كأنما نسجتْ لهم   أيدى السَّموم مَدارعًا من قارِ[4]
كادوا النبوَّة والهدى فتقطَّعتْ   أعناقُهم فى ذلك المضمار

وانعقدت صلة وثيقة بينه وبين ابن الزيات منذ وزارته للمعتصم سنة ٢٢٥ وكذلك بينه وبين كاتبه الحسن بن وهب وظل يمدح أبا سعيد الثغرى وخالد بن يزيد والى أرمينية ومالك بن طوق التغلبى والى الجزيرة ، ومدح موسى بن إبراهيم الرافقى والى دمشق للمعتصم والواثق . وتهاداه الرؤساء وكبار رجال الدولة . وتوفى المعتصم وخلفه الواثق فهنأه وعزَّاه بقصيدته البديعة : (ما للدموع تروم كلَّ مرام) ويُضْفِى عليه مدائح مختلفة . ويظهر أنه أخذ يحس منذ ولاية الواثق سنة ٢٢٧ ملله

---

(١) الديوان ٢ /١٩٨ .

(٢) يشير بسر الزناد الوارى إلى حرقه بالنار .

(٣) يشير إلى أنه حرق بالنار وهو مصلوب على الجذع ، ومن أجل ذلك يشبهه بإزار عصفر نصفه طولا .

(٤) يشير إلى صلب الثلاثة الأفشين وبابك ومازيار ، وأراد بسواد ثيابهم سواد جلودهم بالشمس وغبار الرياح .

من حرفته ، وأنها تضطره أحياناً لبذل مديحه لغير مستحقه من مثل موسى بن إبراهيم الرافقى ، فتمنىّ لو صار له عمل فى الدولة يدرّ عليه ما يكفيه مئونته ، وسرعان ما حقّق له صديقه الحسن بن وهب أمنيته ، فعيّنه على بريد الموصل ، وظل هناك عامين ، جاءه فيهما نعى خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى فبكاه وبكى بطولته بكاء حارًّا ، ولا يدور العام حتى يلبى داعى ربه سنة ٢٣١ للهجرة ويرثيه كثير من الشعراء ، وفى مقدمتهم الحسن بن وهب ، وفيه يقول[١] :

فُجع القريضُ بخاتم الشعراء وغَديرِ روضتها حبيبِ الطائى
ماتا معاً فتجاورا فى حُفْرَةٍ وكذاك كانا قَبْلُ فى الأَحياء

ويقال إن بنى حُميد الطوسى بنوا على قبره قبةً خارج باب الميدان على حافة الخندق[٢]

وأخبار أبى تمام فى أسرته قليلة ، وبين مراثيه مرثية فى زوجة له ، ويقال إنه كان له أخ يسمى سهماً يجرى على لسانه شعر ضعيف[٣] . وكان ابنه تمام يقول الشعر ، ويظهر أنه كان له بنون مختلفون ، وقد احتسب منهم اثنين رثاهما رثاء مؤثرا. ويقول الصولى إنه كان أسمر طُوالا ، وكانت فيه تمتمة يسيرة جعلته يتخذ غلاماً لإنشاد شعره بين يدى المعتصم وغيره[٤] . ويقال إنه كان من أكثر الناس مزاحاً[٥] تسعفه فى ذلك بديهة حاضرة . وفى ديوانه رائية يمدح بها أهل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفيها يفضل علياً ويشيد بمواقفه فى عصر الرسالة ، فهل معنى ذلك أنه كان يتشيع ؟ . الحق أنه لم يكن متشيعاً ، أما هذه القصيدة فنظن ظنًّا أنه نظمها حين كتب المأمون إلى الآفاق فى سنة ٢١٢ للهجرة بتفضيل على بن أبى طالب على أبى بكر وعمر ، وكان حينئذ بمصر وفى القصيدة نفسها ما يدل على أنه نظمها بها إذ يقول فى مطالعها[٦] :

وإن نَكيرًا أنْ يضيق بمن له عشيرةُ مثلى أو وسيلتُه مِصْرُ

---

(١) الصولى ص ٢٧٧ .
(٢) هبة الأيام فيما يتعلق بأبى تمام ص ٤٩ .
(٣) الصولى ص ١٤٤ .
(٤) الصولى ص ٢٥٩ وما بعدها .
(٥) ابن المعتز ص ٢٨٣ .
(٦) الديوان (طبعة بيروت) ص ١٤٣ .

ونراه فى أول قصيدة لق فيها المأمون يصرح له فيها كما قدمنا بأنه مشغوف بحب آل محمد ، تقربًا إليه وزُلْفَى ، حتى ليزعم أنه من شيعة الكوفة ، يقول متحدثا عن قصيدته[١] :

وسيلتى فيها إليك طريفةٌ   شامٍ يدين بحبِّ آل محمَّدِ
نِيطتْ قلائدُ عزمه بمحَبِّرٍ   متكوِّفٍ مُتَدَمْشِقٍ مُتَبَغْدِدِ[٢]
حتى لقد ظن الغُواة ـ وباطلٌ ـ   أن قد تجسَّم فىَّ روح السيِّدِ[٣]

ومعنى ذلك أن تشيعه فى القصيدتين جميعًا إنما كان فى سبيل المأمون ، يحاول أن يمتَّ إليه بما يعطفه عليه . وفى أخباره أن الحسن بن رجاء لاحظ عليه وهو عنده أنه يصلى صلاة خفيفة لا يطيل فيها[٤] ، وتوسع بعض الباحثين فى الخبر فقالوا إنه لاحظ عليه تقصيره فى أداء الفروض الدينية[٥] . وديوانه وما به من مواعظ دينية يشهد على صحة إسلامه ، وأيضًا ففيه قصيدة وصَف بها حجَّةً حجَّها[٦] . وليس فى ديوانه وراء ذلك ما يصور أنه كان عابثًا أو ماجنًا . يلهو ولكن بقسطاس وكأن خصومه حاولوا أن يغضُّوا منه فزيَّفوا عليه الخبر السالف طعناً عليه ومحاولة للنقص منه . أما الخبر الذى يُذْكَرُ فيه أنه كان له غلام رومى وللحسن بن وهب غلام خزَرىّ وكل منهما يتعشق غلام صاحبه[٧] ، فهو أدنى إلى الفكاهة ، ولعل غلام أبى تمام المذكور هو الذى كان ينشد شعره . والحق أنه كان وقوراً وكان يترفع عن الدنايا ، وكان مخلصاً لدينه كما كان مخلصاً لعروبته .

وشعر أبى تمام زاخر بما يدل على أنه انقضَّ على معارف عصره انقضاضاً حتى تمثَّلها تمثلا دقيقًا ، وخاصة التاريخ وعلم الكلام وما يتصل به من الفلسفة والمنطق ، أما التاريخ فيتضح فى كثير من جوانب مديحه ، وخاصة حين يعرض لقبيلة الممدوح ووقائعها وأمجادها فى الجاهلية والإسلام على نحو ما يلقانا فى قصائده[٨] لخالد بن

---

(١) الديوان (طبع دار المعارف) ٢/٥٥ .
(٢) بمحبر : يقصد نفسه وأنه يحبر القصائد ويجودها . متكوف يقصد أنه كوفى تشيعاً . متبغدد : يقصد أنه ظريف من أهل بغداد .
(٣) السيد : يريد السيد الحميرى المشهور بتشيعه .
(٤) الصولى ص ١٧٢ .
(٥) انظر مقالة مرجليوث عن أبى تمام فى دائرة المعارف الإسلامية .
(٦) الديوان (طبعة بيروت) ص ٣٧٩ .
(٧) الصولى ص ١٩٤ .
(٨) الديوان (طبع دار المعارف) ١/١٩٤ وانظر ١/٨٧ وما بعدها .

يزيد بن مزيد الشيبانى ومالك بن طوق التغلبى ، وكذلك حين يقرن وقائع بعض الأبطال ودويّها فى الخافقين إلى وقائع جاهلية وإسلامية مشهورة على نحو ما نرى فى تمجيده لانتصار إسحق بن إبراهيم المصعبى على المحمِّرة بالجبل(١) ، وكان يعرف كيف يحول التاريخ شعراً على شاكلة قوله فى إحدى قصائده لخالد بن يزيد الشيبانى وانتصار قومه فى يوم ذى قار المشهور على الفرس(٢) :

لهم يومُ ذى قار مَضَى وهْوَ مُفْرَدٌ   وحيدٌ من الأَشباه ليس له صَحْبُ
به علمتْ صُهْبُ الأَعاجِم أنه   بهِ أَعربتْ عن ذات أَنفسها العُرْبُ(٣)
هو المشهد الفَصْل الذى ما نَجا بهِ   لكسرى بنِ كسرى لا سَنامٌ ولا صُلْبُ(٤)

وكانت تميم قبل هذا اليوم أصابها جدب شديد ، فابتغت الرَّعْىَ فى أرض العراق ، وكاتب والى الحيرة كسرى هل يأذن لهم فى الرعى ؟ فاشترط أن يقدموا رهائن منهم ، ولما طُلبت من رئيسهم حاجب بن زُرارة ، قال : ليس معى إلا قوسى ، فاسترهنوها منه ، ووفَى لهم بما وافقهم عليه . فصار ذلك معدوداً فى مناقب بنى تميم . وإلى ذلك يشير أبو تمام فى قصيدة يمدح بها أبا دُلَف متحدثا عن المنقبة الكبرى لشيبان يوم ذى قار ، إذ فتكوا بالفرس الذين كسوا تميما منقبة القوس وأدالوا منهم للعرب والعروبة ، مسجلين هذا المجد الحقيقى على التاريخ ، يقول(٥) :

إذا افتخرتْ يوماً تميمٌ بِقَوْسها   وزادتْ على ما وطَّدَتْ من مناقبِ
فأَنتم بذى قارٍ أَمالتْ سيوفكم   عروشَ الذين اسْتَرْهَنُوا قوس حاجبِ
محاسنُ من مجدٍ متى تقرنوابها   محاسنَ أَقوامٍ تَكُنْ كالمعايبِ
مكارمُ لَجَّتْ فى عُلُوٍّ كأَنما   تحاول ثأْراً عند بعض الكواكبِ

وقد تحدثنا فى الفصل السابق عن تعمقه فى مذاهب المتكلمين وفى الفلسفة والمنطق تعمقاً جعله ينشر فى معانيه الأضداد المتنافرة نشراً يدخل البهجة على

(١) الديوان ٣ / ٣٠٠ وما بعدها .
(٢) الديوان ١ / ١٩٥ .
(٣) صهب : شقر شعر الرأس ، ويوصف الأعاجم بالشقرة لغلبة ذلك عليهم .
(٤) السنام : كناية عن النوق . والصلب هنا : كناية عن الخيل .
(٥) الديوان (طبع دار المعارف) ١ / ٢١٥ .

النفس بما يصور من تعانقها فى الحياة ، تصويراً يدل على عمق غوره فى الإحساس بحقائق الكون ، وبترابط جواهرها ، حتى الجواهر التى تبدو متضادة ، فإن بعضها ينشأ من بعض ، ويلتقى التقاء وثيقاً ، على شاكلة قوله[١] :

رُبَّ خَفْضٍ تحت السُّرَى وغناءٍ   من عَناءٍ ونُضْرةٍ من شُحوبِ[٢]

وجعلته صلته بالمنطق والفلسفة يكثر من استخدام الأدلة المنطقية ، وهى عنده تستمد من نفس إحساسه العميق بتشابك حقائق الكون ، فإذا بعضها يُرَى من خلال بعض ، بل إذا بعضها يتخذ دليلا وحجة على بعض ، من مثل قوله لمن عذلته على ضيق ذات يده[٣] :

لا تُنْكرى عَطَل الكريم من الغنَى   فالسَّيْلُ حَرْبٌ للمكان العالى

وقوله فى تحبيب الرحلة عن الأوطان[٤]:

وطولُ مُقام المرء فى الحىِّ مخلقٌ   لديباجتيه فاغتربْ تتجدَّد[٥]
فإنى رأيت الشمس زيدتْ محبَّةً   إلى الناس أن ليستْ عليهم بِسَرْمَدِ[٦]

ويتسع التأثر بالفلسفة عنده حتى ليشيع الغموض فى كثير من أبياته ، وهو غموض بهيج كغموض الطبيعة فى الصباح والغروب إذ يجلله دائماً شفق يأخذ بالألباب ، ونعجب إذ نجد القدماء يحملون عليه من أجله[٧] ، كما حملوا على إكثاره من اللفظ الغريب ومن التصاوير وألوان البديع[٨] ، حتى قالوا إنه أفسد الشعر ، وهو لم يفسده بل هيأ له ازدهارا رائعاً ، تسنده فيه ثقافة واسعة بالفلسفة والمنطق ، وبالشعر العربى قديمه وحديثه ، كما تسنده قوة ملكاته التى جعلته يُعَدُّ بحقٍّ حامل لواء الشعر العربى فى عصره ، بل جعلته صاحب مذهب مستقل بخصائصه العقلية والزخرفية ، أما الخصائص العقلية فتتضح فى دقة معانيه وغوصه على طرائفها

(١) الديوان ١/١٢٦ .
(٢) الخفض : سعة العيش . السرى : السير ليلا ، غناء : نفع .
(٣) الديوان ٣/٧٧ .
(٤) الديوان ٢/٢٣ .
(٥) مخلق : من أخلق أى أبلى . ويريد بالديباجتين الوجه والمكانة الأدبية .
(٦) سرمد : دائم .
(٧) انظر مناقشتنا لهم فى كتابنا الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (الطبعة السادسة بدار المعارف) ص ٢٣٩ وما بعدها .
(٨) المصدر نفسه ص ٢٣٥ .

النادرة ، محتكماً إلى قانوني التضاد والقياس وإلى كثرة التوليد والاستنباط ، وأما الخصائص الزخرفية فتتضح في روعة تصاويره وكثرة بديعه ، بل نحن لا نحقق حين نفصل بين الضربين من الخصائص ، إذ هما يتزاوجان عنده تزاوجاً رائعاً بحيث يصبح الزخرف عملا عقليا والعمل العقلي زخرفاً نادراً لا يكاد يتعلق به أحد .

والمديح أهم الأغراض التي تتجلّى فيها خصائصه ، وهو في كثير منه ، بل في جمهوره ، يحتفظ بالمقدمة الطللية وما يتصل بها من التشبيب والنسيب ، مودعاً فيها كثيراً من لفتاته وخواطره النادرة التي تدل على سعة خياله وتأمله الطويل وأنه يُخْضع التفكير للشعر ، وكأنه فيلسوف يخضع فلسفته للشعر أو شاعر يخضع شعره للفلسفة والفكر الدقيق ، وهل هناك جانب في شعره إلا وهو يفكر فيه تفكيراً متصلا ، وهو تفكير كان يعرف كيف يصوغ به خواطره وكيف يبرزها في معارض من التصاوير والحكم الرشيقة من مثل قوله في تصوير أيام عشقه الماضية[1] :

أعوامُ وَصْل كاد يُنْسِي طولَها ... ذكرُ النَّوَى فكأنَّها أيامُ
ثم انبرتْ أيام هجرٍ أردفتْ ... بِجَوًى أَسىً فكأَنَّها أعوام
ثم انقضتْ تلك السنون وأهلها ... فكأَنَّهـا وكأَنَّهم أَحْلام

وواضح أن قانون التضاد يلعب بأقواسه الأرجوانية في هذه الأبيات ، فالأعوام أيام ، والأيام أعوام ، وأوقات الصحو الممتعة أحلام . ومن طريف حكمه في الغزل والنسيب قوله[2] :

أجدرْ بجمرةِ لوعةٍ إطفاؤُهـا ... بالدَّمع أن تزداد طولَ وقودِ

وقوله[3] :

أَحْلَى الرجال من النساء مواقعا ... من كان أشبههم بهنَّ خُدودا

وقد ردَّد كثيراً في تضاعيف نسيبه شكواه المرة من الزمن وما ينزله به من الخطوب والكوارث ، حتى ليقول ضجراً متأففاً منه ومن سياسته الخرقاء[4] :

---

(١) الديوان ٣/١٥١ .
(٢) الديوان ١/٣٩٢ .
(٣) الديوان ١/٤١٥ .
(٤) الديوان ٢/٣٢٤ .

لقد ساسنا هذا الزمانُ سياسةً سُدًى لم يَسُسْها قَطُّ عَبْدٌ مجدَّعُ
تروحُ علينا كلَّ يوم وتغتدى خطوبٌ كأن الدهر منهن يُصْرَعُ

وقد أشرنا فى الفصل السابق إلى أنه هو الذى ألهم ابن الرومى والمتنبى الشكوى من الزمن وما يصبه على الناس من البلاء وما يتصل بذلك من حكم ، وأيضًا فإنه هو الذى ألهم المتنبى اعتداده بنفسه وما طُوِىَ فى ذلك عنده من فخر محتدم ، واقرأ له هذه الأبيات التى ساقها بعد نسيبه فى مديحه للحسن بن سهل[1] :

وغَرَّبْتُ حتى لم أجد ذكرَ مشرقٍ وشرَّقتُ حتى قد نسيتُ المغاربا
خطوبٌ إذا لاقيتهنَّ رَدَدْننى جريحاً كأنى قد لقيتُ الكتائبا
وقد يَكْهَمُ السيف المسمَّى منيَّةً وقد يرجع المرءُ المظفَّر خائبا[2]
وكنت امرءًا ألْقى الزمان مسالماً فآليتُ لا ألقاه إلا محاربا

وهو نفس نغم الفخر والاعتداد بالنفس الذى نلقاه عند المتنبى مع ما يمسح عليه ويتخلله من شكوى الدهر ، ومع ما يسوده من الشعور بقوة النفس وصلابتها وأنها أقوى عوداً وأصلب من الزمن ، فهى لا تتخاذل أمامه ولا تضعف بل تحاول أن تقهره وتطعنه الطعنة المصمية .

وكان أبو تمام يضيف إلى نسيبه أحيانًا وصفًا لبعيره وما يقطع من الفلوات ، مستمدًّا من معانى القدماء فى هذا الوصف ومضيفًا طرائفه الحديثة ، كقوله يصف بعيره وما أصابه من هزال لطول رحلته به إلى خراسان ليمدح ابن طاهر[3] :

رعَتْه الفيافى بعد ما كان حِقْبةً رعاها وماءُ الروض ينهلُّ ساكبُهْ

فالصحراء بطرقها الوعثة كأنما هى التى رعته إذ أضمرته وأنحلته ، بينما كان يرعى أعشابها ، وهو تضاد بديع ، فهو يرعى الصحراء والصحراء ترعاه . وقد ألم بوصف الخمر فى بعض مقدماته للمديح ، وهو ليس ممن يجيدون فى وصفها ، لأنه لم يكن ممن ينغمسون فى إثمها ، وقد يلقانا عنده بعض أبيات طريفة فيها كقوله[4] :

(١) الديوان ١٤٧/١ .
(٢) يكهم : لايقطع .
(٣) الديوان ٢٣٠/١ .
(٤) الديوان ٣٤/١

وضعيفة فإذا أصابتْ فُرصةً   قتلتْ كذلك قدرةُ الضعفاء
وكأنَّ بَهْجتها وبهجةَ كأْسها   نارٌ ونورٌ قُيِّدا بوِعاء

وقد فسح فى مقدماته مراراً للحديث عن الشيب ، وكان قد وخطه فى سن مبكرة ، وهو لا يحاول تزيينه ، بل يعرف دائمًا بأنه قبيح مكروه وخاصة فى عين المرأة ، ومن طريف ماله فيه قوله[١] :

لو رأى الله أنَّ للشيب فضلا   جاورتْه الأَبْرارُ فى الخلد شيبًا

ولعل من الطريف أنه وقف بعض مقدماته للمديح على وصف الطبيعة ، وهو لا يبارَى فى تصوير مشاعر الطير وأحاسيسه ، ومن خير ما يمثل ذلك عنده تصويره لقُمـْرية وقمرىّ وهما يرشفان رحيق الهوى بينما هو يتعمقه الحزن ، وكأنما ترثى له السماء فتستهل بروقها ورعودها ، والطبيعة من حوله مكتسية بثياب الربيع المشرقة والطواويس تومض بألوانها الزاهية وأذنابها المزركشة ، وكأنها خدم هذا العرس الرائع من أعراس الربيع ، يقول[٢] :

غَنَّى فشاقك طائرٌ غِرِّيدُ   لما ترنَّم والغصونُ تَميدُ
ساقٌ على ساقٍ دعا قُمْرِيَّةً   فدعتْ تقاسمه الهوى وتَصيد[٣]
إلفان فى ظلِّ الغصون تـألَّفا   والتفَّ بينهما هَوًى معقودُ
يتطعَّمان بريقَ هذا هذه   مَجْعاً وذاك بريق تلك مُعيد[٤]
يا طائران تمتَّعا هُنِّيتُما   وعِما الصباحَ فإننى مجهودُ
أَبكى وقد تلتِ البروقَ مضيئةً   من كل أقطار السماء رُعود
واهتزَّ رَيْعانُ الشباب فأَشرقتْ   لتهلُّلِ الشجر القرى والبيد[٥]
ومَضَتْ طواويسُ العراق فأَشرقتْ   أذنابُ مُشْرِقةٍ وهنَّ حُفود[٦]

(١) الديوان ١ /١٦٨ .
(٢) الديوان ٢ /١٤٨ .
(٣) الساق الأولى: القمرى أو ذكر الحمام ؛ والساق الثانية : ساق الشجرة . تصيد: تصيده وتوقعه فى شباكها .
(٤) مجعاً : حسواً .
(٥) يريد بريعان الشباب الربيع .
(٦) ومضت : لمعت وتلألأت . وحفود ، جمع حافد ؛ وهو الخادم .

يَرْفُلْنَ أمثال العَذَارى طُوَّفاً حول الدَّوار وقد تدانى العِيدُ [١]

وهى قطعة رائعة زاخرة بوصف المشاعر والأحاسيس، مشاعر أبى تمام المحزون وأحاسيس الطير المبتهجة بالحب والطواويس المبتهجة بالربيع . ونراه فى إحدى مدائحه للمعتصم يصور الربيع واصلا بينه وبين عصر المعتصم وكأنه يرى عصره ربيع العصور العباسية . وقد مضى يحتكم فى هذا الوصف للربيع وفتنته بأنه مجمع الضدين : الصيف والشتاء ، فالصيف يتراءى فى طقسه والشتاء يتراءى فى زهره[٢] ، بل إن المطر فى الشتاء ليحمل بين أطوائه الصحو المشرق الجميل كما يحمل الصحو بترطيبه للجو نضرة المطر ، يقول :

مَطَرٌ يذوب الصَّحْوُ منه وبعده صَحْوٌ يكاد من النضارة يمطر

ويتسع به الخيال فإذا الندى الذى تترقرق حبّاته على الأوراق والغصون كأنه طيب سقط من غدائر السحاب على لمم الثَّرَى وِلحاه ، يقول :

ونَدًى إذا ادَّهَنَتْ به لِمَمُ الثَّرَى خاتَ السحاب أتاه وهْو مُغَدَّرُ

ويمضى فى حُلْمه ، فإذا هو يرى نفسه فى رياض الربيع وأضواء الشمس تخالط الورود والرياحين كأنه فى ليلة مقمرة جميلة ، والأحلام تفد عليه من كل صَوْب ، يقول :

ياصاحبىَّ تقصَّيا نَظَرَيْكُما تريا وجوه الأَرض كيف تَصَوَّرُ
تريا نهارًا مُشْمِساً قد شابه زَهْرُ الرُّبىٰ فكأَنما هو مُقْمِرُ

وله بائية[٣] فى مديح ابن الزيات استهلّها بوصف ديمة ممطرة مصوراً فرحة الطبيعة بها بعد الجفاف الطويل ونراه يصل بينها وبين مديحه لابن الزيات وكأنه يرى فيها خلاله وكرمه الفياض . وهذا الوصل بين الممدوحين والطبيعة سواء فى هذه القصيدة أو سابقتها يجعلنا نحس فى وضوح عنده بوحدة القصيدة ، وكأنها بمقدماتها عمل فنىٌّ نام لا يزال بعضه يتولد من بعض .

(١) طوفاً : جمع طائفة . الدوار : صنم كان النساء يطفن حوله فى الجاهلية .
(٢) انظر القصيدة فى الديوان ٢ / ١٩١ .
(٣) الديوان ١ / ٢٩٦ وانظر هبة الأيام ص٣٧ حيث نص على أنها فى ابن الزيات .

وإذا أخذنا ننظر فى معانى مديحه وجدناه يحاول دائماً أن يستنبط منها مبتكرات طريفة مستمداً من مناجم عقله الغنية وكنوز أخيلته الثرية التى تحفل دائماً بما يملأ النفس إعجاباً به وبشعره ، كقوله يصف جود أبى دُلَف (١) :

تكاد مغانيه تَهَشُّ عِرَاصُها فتركب من شوقٍ إلى كل راكبِ (٢)

وقوله يصور جود المعتصم وكثرة بذله ونواله (٣) :

تعوَّد بَسْطَ الكفِّ حتى لو انَّهُ ثَناها لِقَبْضٍ لم تُجِبْه أناملُهْ
ولو لم يكن فى كفِّه غيرُ روحِه لجادَ بها فَلْيَتَّقِ اللهَ سائلُهْ

وقد تحول بوصفه بسالة الأبطال الذين تغنى بمديحهم وانتصاراتهم إلى ملاحم كبرى جسَّم فيها بطولتهم تجسيماً يدلع الحماسة فى قلب كل عربى ، ويضرمها إضراماً . ونراه يتغنى طويلا ببطولة محمد بن يوسف الثغرى الطائى وما أنزله من صواعق الموت على رءوس الخُرَّمية أصحاب بابك ورءوس الروم ، وكأنه قيس يتغنى بليلاه . ومن رائع ما له فيه قوله يصور هجومه من الجنوب واقتحامه حصون العدو فى الشمال ، والثلوج تغطى الطرق والآفاق (٤) :

لقد انْصَعْتَ والشتاء له وَجْ هٌ يراه الرجالُ جَهْماً قَطُوبَا (٥)
طاعنا مَنْحَرَ الشمال مُتِيحاً لبلاد العدوِّ موتًا جنوبا
فى ليالٍ تكاد تُبْقِى بِخَدِّ الشَّ مْس من ريحها البَليل شحوبا
فضربتَ الشتاء فى أَخْدَعَيْهِ ضَرْبَةً غادرتْه عودًا رَكوبا (٦)
لو أَصَخْنا من بعدها لسمعنا لقلوب الأيام منك وجيبا (٧)

وأمَّ ملاحمه قصيدته فى عَمّورية التى مدح بها المعتصم مسجلا انتصاره العظيم على البيزنطيين ، وهو فيها مبتهج ابتهاجاً لا حدَّ له بهذا الفتح المبين ، وقد استهلها

---

(١) الديوان ١/٢١٢ .
(٢) العراص : الساحات .
(٣) الديوان ٣/٢٩ .
(٤) الديوان ١/١٧٣ وما بعدها .
(٥) انصعت : رجعت مسرعاً . الجهم ، القطوب : العبوس .
(٦) الأخدعان : العرقان البارزان فى العنق . العود : البعير المسن . ركوب : مذلل .
(٧) أصخنا : أرهفنا السمع . الوجيب : الخفقان .

بتفضيل القوة على العقل والسيف على الكتب والهزؤ بالمنجمين وما زعموا من أن المعتصم لا يفتحها فإذا هى تسقط أركانها ويتداعى بنيانها أمام مجانيقه وجنوده البواسل ، ويفرُّ تيوفيل إمبراطور بيزنطة على وجهه ، وقد عصف بقلبه الرعب ، والنيران تأخذ عمورية من كل جانب ، يقول(١) :

فَتْحُ الفتوح تعالى أن يُحيط به نَظْمٌ من الشعر أو نَثْرٌ من الخُطَبِ
فَتْحٌ تفتَّحُ أبوابُ السماء له وتَبْرُزُ الأَرض فى أثوابها القُشُبِ

ويتحدث عن وقعتها وما حققت للمسلمين والإسلام من منى معسولة ومن عز ومجد، بينما هوت بالروم وديارهم فى الحضيض. ويصور استعصاءها على ملوك الفرس والتبابعة وأنها عتيقة منذ الإسكندر ومع ذلك تحتفظ بشبابها للخليفة الموعود بفتحها وكأنما كان نصر جنود المعتصم فى يوم « أنقرة » جرباً أصابها ، فإذا هى تركع صاغرة تحت قدمى المعتصم وقد لطّخ الدم ذوائب فرسانها وجباههم ، والتهمتها النيران التهامًا ، وعلى الرغم مما أصاب جسدها من جرب ووجهها من تشويه تسكب فى نفوس العرب من الفرح والبهجة مالا تُذْكر بجانبه فرحة ذى الرمة وبهجته حين كان يلمُّ بربع مية التى تغنتْ بحبه لها الأحياء والبيد ، يقول :

لقد تركتَ أمير المؤمنين بها للنار يوماً ذليل الصخر والخشبِ
غادرْتَ فيها بهيمَ الليل وهو ضُحًى يَشُلُّه وَسْطها صُبْحٌ من اللَّهَبِ(٢)
حتى كأن جلابيبَ الدُّجى رَغِبَتْ عن لونها أو كأن الشمس لم تغبِ
ضَوْءٌ من النار والظلماءُ عاكفةٌ وظلمةٌ من دخانٍ فى ضُحًى شحِبِ
فالشمسُ طالعةٌ من ذا وقد أَفَلَتْ والشمس واجبةٌ فى ذا ولم تجبِ(٣)
ما رَبْعُ مَيَّةَ معمورًا يُطيف به غَيْلان أَبْهَى رُبًى من رَبْعها الخربِ(٤)
ولا الخدودُ وقد أُدْمِين من خَجَلٍ أَشْهَى إلى ناظرى من خَدِّها التَّرِبِ

(١) انظر القصيدة فى الديوان ١/٤٥ .
(٢) الليل البهيم : شديد الظلام . يشله : يطرده .
(٣) واجبة ، آفلة : غاربة .
(٤) غيلان : ذو الرمة .

وواضح استمداده من قانون الأضداد فى وصف حريقها ليلا ، وهو استمداد تخلّق فى تضاعيفه هذا الخيال بل الحلم العجيب ، فهو فى الليل البهيم ويتصور كأنه فى الصبح المضىء ، بل هو فى الضحى المنير ، وكأنما خلع الليل ثيابه بل لكأنما رغب عنها ، بل كأن الشمس لم تغب ولم تغرب ، بل لقد غربت ولم تلبث أن أشرقت فى ربوع عمورية . فيا للحلم ويا لروعته ، وإن نشوة الظفر ليجرى رحيقها فى نفسه ، فإذا هو يحس إزاءها نفس أحاسيس ذى الرمة إزاء مية التى شغفت قلبه حبًّا . وقد مضى يصور قوة المعتصم وجنوده ، وكيف فر تيوفيل بفلول جيشه أمامه وقد ضاقت عليه الأرض بما رَحُبَتْ ، وما زال يصور فتك المعتصم بجيوشه وأبطاله ، حتّى قال والجذل يغمره :

خليفةَ اللهِ ! جازى اللهُ سَعْيَكَ عن ... جُرْثومة الدين والإسلام والحَسَبِ[١]

بَصُرْتَ بالرَّاحة الكبرى فلم ترها ... تُنال إلا على جِسْرٍ من التَّعَبِ

إن كان بين صُروف الدَّهْرِ من رَحِمٍ ... موصولة أو ذِمامٍ غير مُنْقَضِبِ[٢]

فبين أيامك اللاَّتى نُصِرْتَ بها ... وبين أيام بَدْرٍ أقربُ النَّسَبِ

أبقتْ بنى الأصفر المِمْراض كاسمهم ... صُفْرَ الوجوه وجَلَّتْ أوجهُ العربِ[٣]

وعواطفه الدينية والقومية بارزة فى هذه الأبيات الأخيرة ، بل إنها لتبرز فى جنبات الملحمة جميعها ، وإنه ليهدر فيها هدير الظافر المبتهج الذى تبددت أمامه جحافل الأعداء وانجابت غياهب الظلام وحلت مكانها أضواء النصر فى كل مكان .

وإذا تركنا ملاحمه إلى مدائحه الأخرى وجدناه يلائم دائمًا بين مدحه وممدوحه ، فإذا مدح كاتبًا شاعراً مثل الحسن بن وهب نوه بأدبه وبلاغته ودرر لفظه ومعانيه ، وكذلك الشأن فى مدحه لابن الزيات ، وكان هو الآخر كاتبًا شاعراً ، وجلّى فى وصفه لقلمه الذى أنشدنا منه قطعة فى الفصل الرابع والذى استهلّه بقوله[٤] :

---

(١) جرثومة : أصل .

(٢) صروف الدهر : أحداثه . منقضب : منقطع .

(٣) بنو الأصفر : الروم .

(٤) الديوان ٣/١٢٢ وما بعدها .

لك القَلَمُ الأعلى الذى بِشَباتِه تُصابُ من الأَمرِ الكُلَى والمفاصلُ[١]

وقد استمد فى وصفه له من قانون الأضداد مستنبطاً كثيراً من المعانى اللطيفة الدقيقة . ونحس ُ فى مديحه له وللحسن بن وهب ظاهرة نادرة هى الصداقة التى تنعقد بين رجال الأدب والشعر والفن ، وقد عبّر عنها تعبيراً بديعاً فى قوله لصديقه على بن الجهم الشاعر المعروف[٢] :

إن يُكْدِ مُطَّرَفُ الإخاء فإننا نَغْدو ونَسْرِى فى إخاءٍ تالدِ[٣]
أو يختلفْ ماءُ الوصال فماؤنا عَذْبٌ تحدَّر من غمامٍ واحدِ
أو يفترقْ نَسَبٌ يؤلِّفْ بيننا أدبٌ أقمناه مُقام الوالدِ

ومراثى أبى تمام لا تقل ُ عن مدائحه روعة ، وإذا كان قد بلغ ذروة الإحسان فى أناشيد النصر وملاحمه فإنه بلغ أيضاً هذه الذروة فى مراثيه لابن حميد الطوسى الطائى ، وكان قد سقط — كما أسلفنا — فى ميدان النضال ، وما إن أتاه نعيه حتى غمس — كما يقول الرواة — طرف ردائه فى مداد ، ثم ضرب به كتفيه وصدره[٤] وأخذ يندبه بقصيدته الرائية الخالدة بمثل قوله[٥] :

فَتًى كلما فاضتْ عيونُ قبيلةٍ دَماً ضحكتْ عنه الأَحاديث والذِّكْر
فتى مات بين الطَّعْن والضَّرْب ميتةً تقوم مقام النصر إن فاته النَّصْرُ
وما مات حتى مات مَضْرب سيفه من الضَّرْب واعتلَّتْ عليه القَنا السُّمْرُ
وقد كان فوت الموت سهلا فردَّه إليه الحِفاظ المُرُّ والخلق الوَعْرُ[٦]
ونَفْسٌ تعاف العارَ حتى كأنما هو الكفر يوم الرَّوْع إن فاته الكُفْر[٧]
فأَثبت فى مُسْتَنْقَعِ الموتِ رِجْلَهُ وقال لها من تحت أَخْمَصِك الحَشْرُ[٨]

(١) الشباة : الحد .
(٢) الديوان ١/٤٠٧ .
(٣) يكدى : لايثمر ، ويريد بمطرف الإخاء حديثه . تالد : قديم .
(٤) هبة الأيام ص ١٤١ .
(٥) الديوان (طبعة بيروت) ص ٣٣٠ .
(٦) الحفاظ : الذب عن الحمى والمحارم . الوعر : الصعب .
(٧) يوم الروع : يوم الحرب والفزع .
(٨) الأخمص : باطن القدم .

تَرَدَّى ثيابَ الموتِ حُمْرًا فما دَجَى ... لها الليلُ إلا وهْى من سُنْدُسٍ خُضْر(١)
مضى طاهرَ الأثواب لم تَبْقَ رَوضةٌ ... غداةَ ثوَى إلا اشتهتْ أنها قَبْر(٢)

وحقًّا قال أبو دُلف له : لم يمتْ من رُثى بمثل هذا الشعر(٣) ، فقد جسَّم فيه بطولة ابن حميد تجسيما رائعاً ، وما زال يتغنى ببطولته واستبساله فى قتال الأعداء حتى أبدله من كسوة الدم الزكى كسوة الفردوس السندسية . وجاءه نعى خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى وهو على بريد الموصل فبكاه بكاء حارًّا ، ونراه يتفجع تفجعاً كله حزن وأسًى على ابنيه محمد وأبى على وعلى أخ له حضَر وفاته وفيه يقول واصفاً لحظة النزع الأخير(٤) :

لله مقلتُه والموت يَكْسِرها ... كأن أجفانه سَكْرى من الوَسَنِ(٥)
يردُّ أنفاسه كَرْهاً وتَعْطفها ... يَدُ المنية عَطْفَ الرِّيح لِلغُصُنِ

ويقال إنه مات لعبد الله بن طاهر ابنان صغيران فى يوم واحد، وهزَّه الخبر ، وحرَّك شاعريته ، فدخل عليه وأنشده مرثية بديعة يقول فى تضاعيفها(٦) :

نجمان شاءَ الله أن لا يَطْلُعا ... إلا ارتدادَ الطَّرْف حتى يَأْفِلا

وكان يجيد العتاب والاعتذار ، ومن أروع اعتذاراته ما قدمه لابن أبى دؤاد حين غضب عليه لنيله من مُضَر فى إحدى قصائده لأبى سعيد(٧) الثغرى الطائى ، فقد أحسَّ أنه أذنب ذنباً عظيماً وأخذ يستعطفه بمثل قوله(٨) :

أتانى عائرُ الأنباءِ تَسْرى ... عَقاربُه بداهيةٍ نآدِ(٩)
نَثَا خَبَرٍ كأن القلب أمسى ... يُجَرُّ به على شَوْك القتادِ(١٠)
كأن الشمسَ جَلَّلها كسوفٌ ... أو استترتْ بِرِجْلٍ من جَرادِ(١١)

(١) دجى : أظلم .
(٢) ثوى : مات .
(٣) الأغانى ١٦ / ٣٩٠ والصولى ص ١٢٥ .
(٤) الديوان (طبعة بيروت) ص ٣٥١ .
(٥) الوسن : النعاس .
(٦) الديوان (طبعة بيروت) ص ٣٤٠ والصولى ص ٢١٧ .
(٧) هبة الأيام ص ٢٢٥ .
(٨) الديوان (طبع دار المعارف) ١ / ٣٧٨ .
(٩) عائر : سائر وذائع . نآد : عظيمة .
(١٠) نثا : ذائع ومنتشر . القتاد : شجر له شوك كالإبر .
(١١) رجل هنا : طائفة .

بأنى نِلْتُ من مُضَرٍ وخبَّتْ إليك شَكِيتَّى خَبَبَ الجواد[١]
لقد جازيتُ بالإحسان سُوءًا إذن وصَبَغْتُ عُرْفك بالسَّواد[٢]
وما سافرتُ فى الآفاق إلا ومن جَدْواك راحلتى وزادى[٣]

ولم يَقْبل ابن أبى دؤاد استعطافه فاستشفع عنده بخالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى ودبّج فيه قصيدة يستدرُ عطفه بها ، موازناً بين استشفاعه عنده بخالد واستشفاع يزيد بن المهلب قديمًا بسليمان بن عبد الملك عند أخيه الوليد وعفوه عنه . ونراه يحاول أن يبرئ ساحته مما قُرِف به وأنه كيدُ حاسد لعل له فضلا إذ يذيع فضائله وما يلبث أن يقول[٤]:

لولا التخوُّف للعواقبِ لم تَزَلْ للحاسد النُّعْمَى على المحسودِ[٥]

ولأبى تمام أوصاف كثيرة فى المطر والسحاب والشتاء وفى بعض الخلع التى كانت تُهْدَى إليه وبعض الخيل . وله غزل مفرد عن مقدمات مدائحه ، ولكنه لا يبلغ روعة ما يجلبه منه فى تلك المقدمات . وله زهديات قليلة وأهاج مختلفة ، وهو لايجيد فى الهجاء ، ويقول الصولى إنه كان لا يجيب هاجيًا له حتى لا يَسْتَدِرَّ سبَّه[٦]. أما الفخر فله فيه قصائد ينوِّه فيها بقومه من طيئ تنويهاً على شاكلة قوله يصور مكارمهم ومحامدهم[٧]:

أنا ابن الذين استُرضع الجود فيهمُ وسُمِّىَ فيهم وهْو كهلٌ ويافعُ
مضوا وكأن المكرمات لديهمُ لكثرة ما أوصوا بهنَّ شرائع
بهاليلُ لو عاينتَ فَيضَ أكُفِّهم لأَيقنت أن الرزق فى الأرض واسع[٨]

وتتوهج فى مقدمات قصائده قطع كثيرة تصور طموحه واعتداده بنفسه اعتداداً لا حدَّ له ، اعتداد النفوس الكبيرة التى تسعى إلى الكمال واجدة لذتها فى هذا السعى

---

(١) خبت : من الخبب وهو ضرب من عدو الفرس .
(٢) العرف : الجود .
(٣) جدواك : عطاؤك .
(٤) الديوان (طبع دار المعارف) ١/٢/٤٠٢
(٥) يريد أنه لولا أن الحسد مذموم لكان للحاسد فضل على المحسود لأنه يظهر فضله وينشر محامده .
(٦) الصولى ص ٢٤١ .
(٧) الديوان (طبعة بيروت) ص ٤٢٧ .
(٨) بها ليل : سادة .

مهما كلفها من جهد مُضْنٍ ومهما لقيت من خطوب ، وهو يعرض ذلك فى ثنايا حديثه إلى من شغفن قلبه مصوراً بعد همته وجلده وقوة احتماله للمحن ، حتى لكأنه يبذُّ كل سابق ولاحق فيما حاول — ويحاول — من اكتساب المجد . وله فى ذلك طرائف كثيرة ، كقوله لإحدى صواحبه ، وقد تعمقها الأسى لشيبه المبكر [(١)] :

يومى من الدهر مثلُ الدهر مشتهرٌ　　عَزْماً وحَزْماً وساعِى منه كالحِقَبِ
فأَصْغِرِى أَنَّ شَيْباً لاحَ بِى حَدَثاً　　وأَكْبِرِى أَننى فى المَهْد لم أَشِبِ
ولا يؤرِّقْكِ إِيماضُ القَتِير بهِ　　فإن ذاك ابتسامُ الرأى والأَدب[(٢)]
لا تنكرى منه تخديدًا تَجَلَّلَهُ　　فالسَّيْفُ لا يُزْدَرَى أَن كان ذا شُطَبِ[(٣)]

وعلى هذا النحو يملأ شعره نفس قارئه فتوة وقوة ، لا بما يصوره من بطولة ليوث الغاب من العرب فحسب ، بل أيضًا بما يصوره من بطولة نفسه واقتحامه للصعاب وما ظفر به من مجد فنى ، وقد دأب على وصف أشعاره بالغرابة وباللآلئ الفريدة ، يقول [(٤)] :

مُفَصَّلَةٌ باللؤلؤ المُنْتَقَى لها　　من الشِّعر إلا أنه اللُّؤْلُؤُ الرَّطْبُ

وهى حقًّا لآلئ تومض بالفكر الدقيق وبألوان البديع الزاهية ، لآلئ سوَّى منها عقود قصائده وقلائد شعره .

---

(١) الديوان ١/١١٦ .
(٢) يؤرقك : يسهدك . إيماض : لمعان . القتير : ابتداء الشيب وأوائله .
(٣) التخديد : الطرائق التى تبدو فى الخد والجبين مع تقدم السن . شطب السيف : طرائقه التى تظهر فيه بسبب شحذه .
(٤) الديوان ١/٢٠٤ .

الفصل السادس

شعراء السياسة والمديح والهجاء

١

شعراء الدعوة العباسية

رأينا فى الجزء الثانى من هذه السلسلة كيف كانت أحزاب الشيعة والخوارج والزبيريين والأمويين تصطرع ويجاهد بعضها بعضًا،وكيف استقرت على أصول ثابتة فى نظرية الخلافة ، فحزب الشيعة كان يرى أن تكون الخلافة فى أبناء على من بنى هاشم، لأنهم أبناء عم الرسول صلى الله عليه وسلم وجمهورهم من حَفَدَته وقد أوصى لأبيهم – فيما يذكرون – بالخلافة ، وكان حزب الخوارج يرى أن تُرَدّ الخلافة إلى الأمة لتولّى عليها الخليفة التقى الصالح من أعلامها ، وكان حزب الزبيريين يرى أن تُرَدّ الخلافة إلى أبناء الصحابة الأولين من المهاجرين وأن تعود إلى الحجاز ،حتى يسندها الحجازيون من أهل مكة والمدينة لا عرب القبائل اليمنية الشامية التى تؤازر الأمويين . بينما كان الأمويون يدعون لأنفسهم بأنهم الأكفاء لتلك الخلافة، ووصلوها بنظام الحكم الأجنبى المتوارث عند القياصرة والأكاسرة . ومضت هذه الأحزاب الأربعة تختصم ويجاهد بعضها بعضًا ، وكان أقصرها عمراً حزب الزبيريين فإنه لم يكد يتجاوز بضع سنوات لا تزيد على ثمان ، أما حزب الشيعة فقد ظفر بحظ من الحكم فى الكوفة لعهد المختار الثقفى الذى كان يدعو لمحمد بن الحنفية من أبناء على والذى أسس نظرية الكيسانية إحدى نظريات المذهب الشيعى ، على أن هذه الحركة سرعان ما خمدت ، غير أن التشيع ظل ملتهبًا سرًّا، وتكوّن مذهب الزيدية ، وقُضِىَ على صاحبه ، ولكن جمرات اللهب ظلت متقدة . وامتشق الخوارج الحسام فى غير ميدان ونازلوا الأمويين ودوّخوهم ، ولكنهم استطاعوا أن يقضوا عليهم أو كادوا . ووراء كل هذه الأحزاب كان هناك شعراء كثيرون ينافحون عن سياسة أحزابهم ويظاهرونها على أعدائها ويناضلون نضالا عنيفًا ،

مما هيأ لازدهار الشعر السياسى .

وإذا تحولنا إلى العصر العباسى وجدنا هذا الشعر يأخذ فى الضعف ، لسبب مهم هو ضعف الأحزاب التى يعبر عنها ، أما حزب الزبيريين فكان قد سقط نهائيًّا منذ سنة ٧٢ للهجرة ، ولم تقم له بعد ذلك قائمة ، وأما حزب الخوارج فإن معاركه مع الأمويين كانت قد طحنته طحنًا ولم تُبْقِ منه إلا بقايا ضعيفة ،كانت كلما تجمعت وأوقدت ثورة قضى عليها قائد عباسى قضاء مبرمًا ، وبذلك سقط هذا الحزب هو الآخر لا من حيث جهاد الدولة وحربها فحسب ، بل أيضًا من حيث الشعر والشعراء . أما حزب الشيعة فقد ظل حيًّا فى كثير من النفوس، وظلت ثوراتهم تتوالى من حين إلى حين وظل كثير من أئمتهم وأعلامهم يُقْتَلون ويسجنون إذ كانوا يزعمون أنهم أولياء الخلافة الأقربون وأصحابها الشرعيون،وأن العباسيين اغتصبوها منهم اغتصابًا . وكان العباسيون كما أسلفنا فى غير هذا الموضع قد حولوا إلى أسرتهم دعوة الكيسانية وأصبحوا أوصياءها ، ومضوا ينظمون الدعوة ضد بنى أمية ، حتّى قوَّضوا حكمهم، وأصبحوا ولاة الأمر وأصحاب السلطان، وأخذوا يرصدون كل حركة للعلويين ، لا تأخذهم فيهم شفقة ولا رحمة . حتّى إذا كان المأمون ورأى أن يوصى بالعهد من بعده لعلوى هو على الرضا بن موسى الكاظم ثار عليه بيته ، واضطُرَّ إلى الانصراف عن تلك الفكرة كما مر بنا .

وعلى هذا النحو ظل الشيعة فى العصر العباسى الأول يطالبون بأن ينزل العباسيون عن الحكم ويردوا الأمر إلى نصابه ، وتبعهم فى تقرير نظريتهم كثير من الشعراء ، غير أنهم كانوا يخافون بطش العباسيين ، فكانوا ينْظمون ما ينظمون سِرًّا وقلما أعلنوه ، بل لقد مضى فريق منهم يمدح الخلفاء تقيَّةً ويبالغ فى مديحه ، حتّى ليصبح كأنه من دعاتهم . وكثر حينئذ من يدعون لهم كثرة مفرطة ، فقد كانت الدنيا بيدهم وكنوز الدولة فى حجورهم فسال لها لعاب الشعراء ومضوا يدافعون عن حق العباسيين فى الخلافة ويردّون على العلويين منكرين حقهم فيها ، مستلهمين رسالة المنصور إلى محمد بن عبد الله الملقب بالنفس الزكية والتى عرضنا لها فى الفصل الأول ، وما ذكره فيها من أن أبناء البنت لا يحوزون الميراث ، إنما يحوزه العم وأبناؤه كما قرر الإسلام . ومن الغريب أنه لم يرتفع فى هذه الأثناء صوت ثالث يقرِّر بأن

الخلافة فى منشئها كانت تقوم على استشارة الأمة فى تولية الصالح من زعمائها ، فهى ليست لُقْمة تستأثر بها أسرة خاصة ، بل هى نظام يقوم على الشورى ، هدفه الأساسى مصلحة الجماعة ، وهى شركة بين أفرادها جميعاً يتولاها أكفؤهم سواء أكان من بيت هاشمى أم لم يكن ، وسواء أكان قرشيًّا أم كان غير قرشى . وكان المفروض أن يجهر بذلك الفقهاء والمتكلمون ، وكأنما لم يتبينوا حينئذ الطريق الصحيح لحكم الأمة ومصلحتها العامة ، فمضوا يصانعون العباسيين مُذْعنين لهم خاضعين .

وإذا مضينا نتعقب من كانوا يمدحون الخلفاء العباسيين لهذا العصر وجدناهم أكثر من أن يُحْصوا ويستقصوا ، وإنما يهمنا منهم من كانوا يقفون مدافعين عن نظريتهم فى الخلافة مناضلين عنهم خصومهم من الشيعة العلويين ، ولا بد أن نلاحظ منذ أول الأمر أن أصحاب مذهب الكيسانية كانوا يوالون العباسيين ، ولذلك لا نعجب إذا رأينا السيد الحميرى يكثر من مديحه لهم ، وقد مدح طويلا أبا العباس السفاح والمنصور والمهدى(١) . ويلمع اسم أبى دلامة فى بلاطهم جميعاً ، وكانت فيه دعابة جعلتهم يتخذونه لهم نديماً ، ومن أوائل من استظهروا فى أشعارهم النضال عن سلطان العباسيين أبو نُخَيْلة ، وهو من مخضرمى الدولتين : الأموية العباسية فى مديح السفاح إذ يقول (٢) :

حتى إذا ما الأوصياءُ عسكروا وقام من تِبْرِ النبىِّ الجَوْهَرُ
أقبل بالناس الهوى المشهَّرُ وصاحَ فى الليل نهارٌ أنور

وواضح أنه يجعل العباسيين أوصياء على الخلافة ، فليس العلويون أصحابها إنما أصحابها العباسيون الذين استُخْلصوا لها كما يستخلص الجوهر . وقد مدح المنصورَ كثيرون فى مقدمتهم بشار وأبو دلامة نديمه والسيد الحميرى ، ونرى أبا نخيلة يمدحه طويلا ، وقد رُوِىَ له فيه قطعة من أرجوزة يغريه فيها بخلع ولى عهده عيسى بن موسى وعَقْد العهد لابنه محمد المهدى ، وفيها يقول(٣) :

---

(١) انظر ترجمته فى الجزء السابع من الأغانى طبعة دار الكتب المصرية .

(٢) أغانى (طبعة الساسى) ١٨/١٤٩ وما بعدها .

(٣) أغانى ١٨/١٥٠ .

ليس وليُّ عَهْدِنا بالأَسْعَدِ ... عيسى فَزَحْلِفْها إلى محمَّدِ[١]

من عند عيسى معهدًا عن معهدِ ... حتى تؤدَّى من يدٍ إلى يَدِ

فنادِ للبَيْعةِ جمعًا نَحْشُدِ ... فى يومنا الحاضر هذا أو غَدِ

ويُعَدُّ المهدى أول خليفة فتح أبوابه على مصاريعها للشعراء ، فقد مضى يجزل لهم فى العطاء ومضوا يجزلون له فى الثناء ، وفيه يقول ابن الخياط ، إن صح أنها له [٢] :

لمستُ بكفى كفَّه أبتغى الغِنَى ... ولم أدر أن الجود من كفِّه يُعْدِى

فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى ... أفدتُ وأعدانى فأتلفت ما عندى

وممن أكثروا من مديحه مروان بن أبى حفصة وسلم الخاسر وأبو دلامة وبشار وأبو العتاهية والسيد الحميرى ونُصَيْب الأصغر والعُمانى الراجز ، وقد روى له ابن المعتز أرجوزة يستحثه فيها على توليته العهد من بعده ابنيه الرشيد والهادى[٣] ، ومن مُدَّاحه الحسين بن مُطَيْر مولى بنى أسد ، وكان يغلو فى مديحه غلوا شديداً حتى ليرفعه على البشر درجات من مثل قوله[٤] :

لو يعبدُ الناسُ يا مهدىُّ أفْضَلَهم ... ما كان فى الناس إلا أنت معبودُ

أضحتْ يمينكُ من جودٍ مصَوَّرَةً ... لا بل يمينك منها صُوِّرَ الجودُ

لو أن من نوره مِثْقالَ خَرْدَلةٍ ... فى السود طُرًّا إذنْ لابيضَّت السودُ

ونرى كثيرين من الشعراء لعهده يدافعون عن حقه وحق العباسيين فى الخلافة منكرين على العلويين حقهم فيها ، فهم ورثتها الشرعيون وحصونها الحقيقيون ، وفى ذلك يقول ابن المولى[٥] :

وإن أميرَ المؤمنين ورَهْطَهُ ... لأهلُ المعالى من لُوَىٍّ بن غالِبِ

أولئك أوتادُ البلاد ووارِثو النَّـ ... ـبِىِّ بأمر الحقِّ غير التكاذبِ

(١) زحلف : دحرج ودفع .
(٢) أغانى (طبعة الساسى) ١٨ / ٩٤ .
(٣) طبقات الشعراء لابن المعتز (طبعة دار المعارف) ص ١١١ .
(٤) أغانى (طبع دار الكتب) ١٦ / ٢٣١ .
(٥) أغانى ٣ / ٢٩٣ .

ومضى فى القصيدة يذكر بلاء العباسيين فى تقويض الحكم الأموى والأخذ للعلويين بثأرهم الذى كان مهدرًا وأعلن بلسان الخليفة أنه رحيم بهم شفيق عليهم لما يربطه بهم من وشائج القربى ،وأن من رجع منهم عن غيه وتاب قبل منه توبته وأسدل عليه نعمه .

وكان الهادى منذ ولاية أبيه يقعد للشعراء ويمدحونه[1] ، وفى مقدمتهم مروان ابن أبى حفصة وسلم الخاسر ومطيع بن إياس وأبو الخطاب البَهْدَلِيُّ . وخلفه سريعًا هرون الرشيد، وظل فى الخلافة نحو اثنين وعشرين عامًا، ويقول الرواة إنه لم يجتمع بباب أحد ما اجتمع ببابه من الشعراء[2]، ومن مدّاحه أبو الشِّيص والعُمانى وابن مناذر وعمر بن سلمة ومروان بن أبى حفصة وسلم الخاسر وأبو نواس وأبو العتاهية ومسلم بن الوليد وأشجع السُّلَمى والسيد الحميرى ومنصور النَّمرى وأبو الغول الطُّهَوى ، وله يذكر عقده العهد لابنيه الأمين والمأمون[3] :

بنيتَ لعبد الله بعد محمَّدٍ ذُرَا قُبَّة الإسلام فاخضرَّ عودها
هما طُنُباها - بارك الله فيهما - وأنت - أميرَ المؤمنين - عَمودها

ومن مُدّاحه أيضًا ربيعة الرَّقِّىُّ ونُصَيْب الأصغر ،ونراه يردّد له أن خلافته ميراث ورثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم[4] ، كما نرى الشعراء يحيطونه بهالة من التقديس حتى ليقول النَّمرى[5] :

إن المكارم والمعروف أوديةٌ أحلَّك الله منها حيث تتسعُ
إذا رفعتَ امرءًا فالله يَرْفَعُهُ ومن وضعتَ من الأقوام متَّضع

ويقال إنه كان لا يرى بأسًا فى أن يمدح بما تمدح به الأنبياء[6] ! . وكانت له انتصارات مدوية على الخوارج والروم ، فتغنى بها الشعراء طويلا .

وولى بعده الأمين ، وكان فيه لهو ومجون فلزمه أبو نواس ، ومن مدّاحه أبو الشيص وعبد الله بن أيوب التيمى ، وكان يكثر فى مديحه له من التنديد بأخيه

(١) أغانى ١٣/٣٢٦ .
(٢) انظر الحيوان للجاحظ (طبعة الحلبى) ٤/٣٨٢ .
(٣) ابن المعتز ص ١٤٩ .
(٤) أغانى (طبعة الساسى) ٢٠/٢٥ وما بعدها .
(٥) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٣/١٤٧
(٦) أغانى ١٣/١٤٤ .

المأمون حين خلع طاعته على شاكلة قوله[1]:

خلافةُ الله قد توارثها آباؤه فى سوالف الكتُبِ
فهْى له دونكم مورَّثَةٌ عن خاتم الأنبياء فى الحِقَبِ

وقوله[2]:

مَنْ رأى الناسُ له الفَضْـ ـلَ عليهم حَسَدُوهُ
مثلَ ما قد حَسَدَ القا ئمَ بالمُلْك أخوه

وكان المأمون ممدَّحًا مثل أبيه الرشيد ، ومن مُدَّاحه — وهو لا يزال ولىّ عهد — منصور النَّمرِى وأشجع السُّلَمِىّ وأبو محمد اليزيدى مؤدبه ، وممن تغنَّوا بمديحه فى خلافته أبو تمام وإبراهيم بن المهدى عمه ودعبل وعبد الله بن أيوب التَّيْمى ومحمد بن عبد الملك الزيات وابن البواب ومحمد بن وهيب ، ومدائحهم فيه مبثوثة فى أخبارهم بكتاب الأغانى . ومرَّ بنا فى الفصل السالف تنويه أبى تمام بالمعتصم وانتصاراته المدوية ، ومن مدَّاحه ابن الزيات ومحمد بن وهيب والحسين بن الضحاك ومخلد بن بكار الموصلى وخالد الكاتب . وممن نوهوا بالواثق أبو تمام وله فيه قصائد بديعة . ولعل من الخير أن نقف قليلا عند نفر من مداح هؤلاء الخلفاء، هم أبو دلامة ومروان بن أبى حفصة وسلم الخاسر .

أبو دلامة[3]

هو زَنْد بن الجَوْن ، كوفى أسود ، من موالى بنى أسد ، كان أبوه عبداً فأعتقه رجل منهم ، وهو من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية ، ولم يكن له فى أيام الدولة الأولى شأن يذكر ، غير أن الدولة العباسية لم تكد تظله حتى أخذ نجمه

(١) أغانى (ساسى) ١٨/١٢٠ .
(٢) النجوم الزاهرة (طبعة دار الكتب) ١٦١/٢ .
(٣) انظر فى ترجمة أبى دلامة وأشعاره وأخباره ابن المعتز ص٥٤ وابن قتيبة فى الشعر والشعراء (طبعة دار المعارف) ص٧٥١ والأغانى (طبعة دار الكتب) ١٠/٢٣٥ وابن خلكان وتاريخ بغداد ٨/٤٨٨ وشذرات الذهب ١/٢٤٩ ومرآة الجنان لليافعى ١/٣٤١ والمؤتلف ١٣١ ومعجم الأدباء ١١/١٦٥ وذيل زهر الآداب للحصرى (طبعة القاهرة) ص ٨١ وما بعدها . وقد طبع ديوانه بالجزائر .

يتألّق إذ قرّبه منه السفّاح ، وكانت فيه دعابة جعلته خفيف الظل على قلبه فاتخذه هو ومن وليه من الخلفاء نديمًا لهم يُطْرفهم بنوادره . و يقول أبو الفرج : « كان فاسد الدين رديء المذهب مرتكبًا للمحارم مضيعاً للفروض مجاهراً بذلك ، وكان يُعْلَمُ هذا منه ويُعْرَفُ به فيُتَجافى عنه للطف محله » . ولعل أبا الفرج بنى هذا الحكم على ما ساقه من أخباره إذ ذكر أن المنصور بلغه أنه معتكف على الخمر ولا يحضر صلاة ولا مسجداً ، فأمره بلزوم الجماعة فى مسجد قصره ، وطال عليه ذلك فاستعفاه بقصيدة يقول له فيها :

ألم تعلما أن الخليفة لزّنى بمسجده والقصْرِ مالى وللقَصْرِ !
وما ضرّه والله يغفر ذَنْبَهُ لو انَّ ذنوب العالمين على ظهرى

وضحك المنصور حين قرأ القصيدة وأعفاه من الحضور معه . وروى أبو الفرج فى موضع ثان أن المنصور أمره بالقيام معه فى ليالى شهر رمضان ، وأنه شَقّ عليه ذلك فكتب إلى رَيْطة زوجة ابنه المهدى شعراً يُضْحكها به ويستشفعها عند عمها المنصور . وفى خبر ثالث أن المنصور سجنه لسكره . وقد يكون فيه لهو وميل للمجون ، أما أن يكون فاسد الدين مخلا بالفروض للخبرين الأولين وما يشبههما فإن ذلك يكون مبالغة فى الحكم إذ كان يذهب بذلك إلى الدعابة شأنه فى دعاباته الأخرى التى رواها أبو الفرج وغيره .

ويُرْوَى أنه انقطع فى بعض أيامه إلى رَوْح بن حاتم بن قبيصة المهلبى ، أما فى عامة أيامه فكان ملازماً للخلفاء إذ كانوا يتخذونه نديمًا لهم يضحكهم بنوادره ، ويُقال إنه لم يصل إلى أحد من الشعراء ما وصل إليه من المنصور خاصة ، وكان أول ما جعله يُسْنَى له الجوائز داليّته التى مدحه بها حين قتل أبا مسلم الخراسانى وفيها يقول :

أبا مجرمٍ ما غيَّر الله نعمةً على عبده حتى يغيِّرها العَبْدُ
أفى دولة المهدىِّ حاولتَ غدرةً ألا إن أهل الغَدْر آباؤك الكُرْدُ

وواضح أنه يلقب المنصور فى البيت الأخير بالمهدى ، مستعيراً ذلك من الشيعة وما يردِّدونه فى آثارهم عن صفاته وأنه المنقذ الذى يخلِّص الناس من بلاياهم

ويملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت ظلمًا ويهدى الناس إلى الطريق السَّوِىّ المستقيم، وتذهب بعض الروايات السنية إلى أن الاسم الحقيقى للمهدى إنما هو محمد ، ولعل المنصور لاحظ ذلك حين لقب ابنه محمداً بالمهدى ، وكأنه كان يريد أن يوحى للناس بأنه المهدى المنتظر . على أن من الشعراء من مضى مثل أبى دلامة يلقبه هو نفسه بهذا اللقب ، وكان ما يزال يرفع من شأنه هو وأسرته درجات فوق العالمين على شاكلة قوله :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرمٍ   قومٌ لِقيلَ اقْعُدُوا يا آل عَبَّاسِ
ثم ارْتَقُوا فى شعاع الشمس وارتفعوا   إلى السماء فأنتم سادةُ الناسِ

وكان يجيد الرثاء كما يجيد المديح وقد بكى السفاح طويلا . ولما توفى المنصور رثاه بقصيدة جيدة جمع فيها بين الحزن عليه والفرحة بتولية المهدى ، والطريف أنه جمع المعنيين فى كل بيت من أبياتها على نحو ما نرى فى قوله :

عينان : واحدة تُرَى مسرورةً   بإمامها جَذْلَى وأخرى تَذْرِفُ
تبكى وتضحك مرة ويسوءُها   ما أبصرتْ ويسرُّها ما تعرفُ

وله نوادر كثيرة ترويها كتب الأدب ، منها ما يتصل بالخلفاء ونسائهم ، ومنها ما يتصل بزوجته وبأولاده ، وكان يعرف كيف يحيل بعض نوادره شعراً ، إذ كان الشعر يتدفق على لسانه تدفقًا ، ويُرْوَى أنه بُشِّر ببنت له ، فقال تَوًّا مداعباً ومتفكهاً :

فما ولدتْك مريم أمُّ عيسى   ولم يَكْفُلْكِ لقمانُ الحكيمُ
ولكن قد تضمُّكِ أمُّ سوءٍ   إلى لَبَّاتِها وأبٌ لئيم

وله بجانب ذلك أشعار فى وصف الشراب والرياض ، وانقطع بعد المنصور إلى المهدى فكان يصله بالجوائز السنية ويستطيب مجالسته ونوادره إلى أن توفى سنة ١٦١ للهجرة .

مروان[1] بن أبي حفصة

أصل جده من يهود خراسان ، وكان مولى لمروان بن الحكم وهبه له عثمان بن عفان ، ويقال إنه أبلى فى الدفاع عنه حين حوصر فى داره وقُتل ، فأعتقه مروان جزاء بلائه ، ولما ولى المدينة لمعاوية ولاّه على خراج اليمامة ، واقترن هناك بعربية أنجب منها ابنه يحيى ، وكان شاعراً متوسطاً ، ويقال إنه تزوج بنت زياد بن هوذة وأنجب منها فيمن أنجب ابنه سليمان وكان هو الآخر يقرض الشعر ، ورزق سليمان بابنه مروان سنة ١٠٥ للهجرة . وقد نشأ فى اليمامة حيث استقرت أسرته والشعر يجرى فى أعراقه فلم يلبث أن شدا به ، غير أن اسمه لم يلمع إلا فى العصر العباسى ، ونراه ينقطع لمعن بن زائدة الشيبانى ، وكان جواداً مقداماً وبطلا مغواراً ، ولاه المنصور اليمن ثم سجستان . ويقال إن مروان أخذ منه مالا كثيراً ، وخاصة حين مدحه بقصيدته اللامية ، وفيها يقول عنه وعن عشيرته :

بنو مطرٍ يوم اللقاء كأنهم ... أُسودٌ لها فى بَطْنِ خَفَّانَ أَشْبُلُ[2]
هُمُ يمنعون الجار حتى كأنما ... لجارهمُ بين السماكين مَنْزِلُ
بَهَا لِيلُ فى الإسلام سادوا ولم يكن ... كأولهم فى الجاهليةُ أولُ
همُ القوم إن قالوا أصابوا وإن دُعُوا ... أجابوا وإن أعطوا أطابوا وأَجْزلوا
وما يستطيع الفاعلون فعالَهم ... وإن أحسنوا فى النائبات وأجملوا

وله بجانب هذه القصيدة فيه قصائد كثيرة ملأ بها حِجْره من الأموال، ومن طريف مديحه فيه قوله يصور سيادته وشرفه وكرمه وشجاعته :

---

(١) انظر فى ترجمة مروان وأشعاره وأخباره ابن المعتز ص ٤٢ وابن قتيبة ص ٧٣٩ والأغانى (طبعة دار الكتب) ١٠ / ٧١ والموشح للمرزبانى ص ٢٥١ والنجوم الزاهرة (طبعة دار الكتب) ٢ / ١٠٦ وتاريخ بغداد ١٣ / ١٤٢ وشذرات الذهب ١ / ٣٠١ وابن خلكان ٢ / ١١٧ والوزراء والكتاب للجهشيارى ، انظر الفهرس ، وكذلك فهرس الأغانى ومرآة الجنان لليافعى ١ / ٣٨٩ وحديث الأربعاء لطه حسين (طبعة الحلبى) ٢ / ٢٨٦ .

(٢) خفان : مأسدة بالقرب من الكوفة . ومطر اسم جد معن ، وهو مطر بن شريك الشيبانى .

مَعنُ بن زائدة الذى زيدت بهِ شرفاً إلى شرفٍ بنو شيبانِ
إن عُدَّ أيّامُ الفعَال فإنمــا يومــاه يوم نَدًى ويوم طِعانِ

وما زال يوالى مديحه له حتّى توفى سنة ١٥٢ للهجرة ، فأبّنه تأبينًا حارًّا ، ومن رائع تأبينه له لاميته ، وفيها يقول معبراً عن حزنه العميق وأساه :

أقمنا باليمامة بعد مَعْنٍ مُقاماً لا نُريد له زِيالا
وقلنا : أين نرحل بعد مَعْنٍ وقد ذهب النَّوال فلا نوالا

ويقول من أخرى :

قُلْ للمنيةِ لا تُبْقِى على أحدٍ إذ مات مَعْنٌ فما مَيْتٌ بمفقودِ

ولما ولى المهدى بعد أبيه المنصور وَفَدَ عليه ، ولم يكد يلقى بين يديه أولى قصائده فيه حتّى بهره بمديحه ، ولم يكن مديحًا عاديًّا بالكرم والشجاعة والخلال الكريمة التى يقدرها العرب دائماً ، بل كان أيضًا مديحاً سياسيًّا ، إذ عمد إلى الدفاع عن حقوق العباسيين فى الخلافة والرد على العلويين وما يدعونه من هذه الحقوق ، ولعل شاعراً لم يبلغ فى هذا الدفاع مبلغه ، إذ كان يعرف كيف ينقضُ على العلويين بالحجة القاطعة على نحو ما نرى فى قوله :

هل تَطْمسون من السماء نجومَها بأكُفِّكم أو تسترون هلالها
أو تجحدون مقالةً عن ربكم جبريلُ بلَّغها النبىَّ فقالهــا
شهدتْ من «الأنفال» آخرُ آيةٍ بِتُراثهم فأردتمُ إبطالها

وهو يريد بآية الأنفال قوله تعالى : (والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله إن الله بكل شىء عليم) يشير بذلك إلى حق العباسيين فى وراثة الخلافة وأنهم مقدمون فى هذا الحق على أبناء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم فاطمة الزهراء إذ العم مقدم على الأسباط فى الوراثة ، على نحو ما هو معروف فى الشريعة الإسلامية . وبلغ من

فرط إعجاب المهدى بالقصيدة أن سأل كم عدد أبياتها ، فقال مروان : مائة ، فأمر له بمائة ألف درهم ، وكانت أولَ مائة ألف درهم أخذها شاعر فى أيام بنى العباس . ومضى مروان يردد فى مديحه للمهدى هذا الدفاع السياسى عن حق العباسيين فى وراثة الخلافة ، وهو يغدق عليه عطاياه الجزيلة ، ومن إحكامه لهذا الدفاع أبياته التالية التى يخاطب بها المهدى :

يا بن الذى ورث النبىَّ محمَّدًا ... دون الأَقارب من ذوى الأَرحامِ
الوَحْىُ بين بنى البنات وبينكم ... قطَع الخِصام فلاتَ حينَ خِصام
ما للنساء مع الرجال فريضةٌ ... نزلتْ بذلك سورة الأَنعام
أَنَّى يكونُ وليس ذاك بكائنٍ ... لبنى البنات وراثةُ الأَعمام

وما زال يفد على المهدى حتى توفِّى وخلفه ابنه الهادى فوفد عليه مع من وفدوا يهنئونه بالخلافة ويعزونه عن أبيه ودخل فأخذ بعِضادتى الباب ، ثم قال :

لقد أصبحتْ تختالُ فى كل بلدةٍ ... بقبر أمير المؤمنين المقابِرُ
ولو لم تسكَّن بابنه فى مكانه ... لما برحتْ تبكى عليه المنابرُ

ومضى يفد على هرون الرشيد ويجزل له فى الصلات السنية ، ووَفَدَ على البرامكة — شأنه فى ذلك شأن جميع شعراء الرشيد ، إذ كانوا يجمعون بين مديحه ومديحهم — وله فى يحيى بن خالد البرمكى من قصيدة :

إذا بلَّغَتْنا العِيسُ يحيى بن خالدٍ ... أَخذنا بحبل اليُسْر وانقطع العُسْرُ
فإن نشكر النُّعْمَى التى عمَّنا بها ... فحقٌّ علينا — ما بقينا — له الشكر

ومن رائع قوله فى الفضل ابنه :

إذا أمُّ طفلٍ رَاعَها جوعُ طفلها ... غَذَتْه بذكر الفضل فاستعصَم الطِّفْلُ
ليحيى بك الإسلام إنك عِزُّه ... وإنك من قومٍ صغيرهمُ كَهْلُ

وليس له وراء المدح والرثاء شعر مذكور . وقد اشتهر ببخله وشدة حرصه وكان يلم ببغداد ثم يعود سريعًا إلى اليمامة ، ولذلك لم يتضح عنده التأثر بالحضارة العباسية

وما تُرْجم من ثقافات أجنبية ، على أنه كان يحكم صنعته إحكاماً بعيداً ، ويُرْوَى عنه أنه كان يحوك القصيدة فى سنة ، أما فى الأشهر الأربعة الأولى فكان ينظمها ، وكان فى الأربعة الأشهر الثانية يصقلها وينقحها ، أما فى الأربعة الأشهر الأخيرة فكان يعرضها على الرواة والنقاد حتّى إذا وثق من جودتها أنشدها ممدوحيه ، وما زال فى المحل المرموق من الشعر حتّى توفى سنة ١٨٢ ويقال إنه مات مقتولا بيد شيعى انتقاماً منه للعلويين .

سلم[1] الخاسر

من موالى تَيْم عشيرة أبى بكر الصديق ، وُلد بالبصرة وبها نشأ ، واختلف الرواة فى سبب تلقيبه بالخاسر ، فقيل إن أباه عمرو بن حماد خلّف له مالا كثيراً أنفقه على الشعر وفى اللهو فلقّب بذلك ، وقيل بل لأنه اشترى بمصحف ورثه من أبيه طُنْبورا ، وقيل أيضًا إنه إنما لُقّب بذلك لأنه باع مصحفًا واشترى بثمنه دفتر شعر . ويقول أبو الفرج : « هو راوية بشار بن بُرْد وتلميذه وعنه أخذ ومن بحره اغترف وعلى مذهبه ونمطه قال الشعر » ورَوَى عنه أنه قال : « هل أنا إلا جزء من محاسن بشار ، وهل أنطق إلا بفضل منطقه . . إنى لأروى له تسعة آلاف بيت ما يعرف أحد غيرى منها شيئًا » ويقال إنه كان من أعرف الشعراء بأشعار الجاهلية. ونراه فى مطالع حياته يمدح معن بن زائدة وعمر بن العلاء والى طبرستان وممدوح أستاذه بشار ، وله يقول :

كم كربةٍ قد مسّنى ضُرُّها ناديتُ فيها عمر بن العلاء

ورثى معنا حين توفى رثاء حارًّا ، وبنفس اللوعة رثى أبا جعفر المنصور ، وفيه يقول :

عجباً للذى نعى الناعيانِ كيف فاهتْ بموته الشفتانِ

---

(١) انظرفى سلم وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص ٩٩ والأغانى (طبعة الساسى) ٢١/ ٧٣ وتاريخ بغداد ٩/ ١٣٦ وابن خلكان ومعجم الأدباء ١١/ ٢٣٦ والوزراء والكتاب للجهشيارى انظر الفهرس .

ليتَ كَفًّا حَثَتْ عليه تُرَاباً   لم تَعُدْ فى يمينها بِبَنانِ

وتُفْتَحُ له أبواب الخلافة منذ عصر المهدى ، إذ كان يعطيه هو ومروانَ بن أبى حفصة عطية واحدة . ويقول ابن المعتز إنه كان يذهب به فى مديحه إلى أنه المهدى الذى وصفه الرسول صلى الله عليه وسلم فى بعض ما نُسب إليه من آثار ، وله يقول فى بعض قصائده :

وإلى أمير المؤمنـ   ـين محمدٍ خير الأنامِ
فضَلَ الملوكَ محمدٌ   فَضْلَ الحلال على الحرامِ

ويقول :

ومهدىّ أُمَّتنا والذى   حماها وأدرك أوتارهـا
له شيمةٌ عند بذل العطا   ء لا يعرف الناسُ مقدارها

وكان يقف بجانبه فى كل مناسبة ، من ذلك أن نراه ينبرى حين اتخذ يعقوب ابن داود وزيراً له قائلا منوهاً به وبوزيره :

قُلْ للإمام الذى جاءتْ خلافتُه   تُهْدَى إليه بحقٍّ غير مردودِ
نعْمَ المعينُ على التقوى أعِنْتَ بهِ   أخوك فى الله يعقوب بن داودِ

ولما ماتت ابنته « البانوكة » حزن عليها هو وأمها الخيزران حزنًا شديداً ، وإذا بشاعره يقف بين يديه معزياً بل نادبًا باكيا بمثل قوله :

أَوْدَى ببانوكةَ رَيْبُ الزمانْ   مُؤْنِسةِ المهدىِّ والخيزرانْ
بانوكَ يا بنتَ إمام الهُدَى   أصبحتِ من زينة أهل الجنانْ
بكتْ لكِ الأرضُ وسُكَّانُها   فى كلِّ أفْقٍ بين إنْسٍ وجانْ

ويقال إنه بلغ المهدى أنه مدح بعض العلويين فتوعده وهمَّ به ، ولكنـه استطاع أن يسلَّ منه سخيمته بقصيدة بالغ فيها فى تصوير اعتذاره بمثل قوله :

وأنت كالدهر مبثوثاً حَبائِلُهُ   والدهر لا ملجأً منه ولا هَرَبُ

والحق أنه كان خالصًا للعباسيين ، وقد مضى يمدح الهادى بعد المهدى مُضْفيا عليه نفس صفات القدسية والجلال من مثل قوله :

وجدناك فى كتب الأوّلِيـ ... ـن محيي النفوس وقتّالها
لقد جعل الله فى راحتيك ... حياةَ النفوس وآجالهـا

وله يقول من أخرى :

لولا هُداكم وفضل أولكم ... لم تَدْرِ ما أصل دينها العربُ

ولم يكد الهادى يسمع منه هذا البيت حتّى استخفه الطرب ، وأمر له بثلاثمائة ألف درهم . وولى بعده الرشيد فوالى فيه سلم مدائحه ، ووالى عليه هرون عطاياه الجزيلة ، ومن قوله فيه حين جعل ولاية العهد فى ابنه الأمين :

قد بايع الثقلان فى مَهْدى الهدى ... لمحمد بن زُبَيْدة ابنة جعفرِ

ويقال إن زبيدة وصلته من أجل هذه القصيدة بمائة ألف درهم . ولم يلبث الرشيد أن عقد العهد من بعد الأمين للمأمون فنوّه به كما نوّه بأخيه . وجذبه البرامكة إليهم ، فأشاد بهم طويلا ، ومن رائع قصائده فيهم لاميته التى مدح بها يحيى ابن خالد وفيه يقول :

بَلَوْتُ الناسَ من عُجْمٍ وعُرْبٍ ... فمـا أحدٌ يسير كما تسيرُ
فكلُّ الأمر من قولٍ وفعل ... إذا عَلِقَتْ يداك به صغير
وفى كفّيك مَدْرَجَةُ المنايا ... ومن جَدْواهما الغيثُ المطيرُ

وأكثر من مديح الفضل بن يحيى ، حتّى كاد ينقطع له ، ومن بارع مديحه فيه قوله مصوراً شجاعته وكرمه :

له يومان : يومُ نَدًى وبَأْسٍ ... كأنّ الدهر بينهما أسِيرُ

وقوله :

أقام الندى والجود فى كل منزلٍ ... أقام به الفضل بن يحيى بن خالدِ

وكان يمدح أيضا الفضل بن الربيع وزير الرشيد . ويظهر أن الفضل البرمكى أكثر من بِرّه ونواله عليه حتى حسده الشعراء وفى مقدمتهم صديقه أبو العتاهية ، مما جعل كلا منهما يلمز صاحبه بعض اللمْز ، أما أبو العتاهية فوصفه بالحرص والشح فى بيته الذى أنشدناه فى الفصل السابق :

تعالى الله يا سَلْم بن عمرو أذلَّ الحِرْصُ أعناقَ الرجالِ

وأما سلم فاتهمه بأنه كاذب منافق فى زهده وتقشفه ، وكان قد تحول إلى الزهد على نحو ما أسلفنا ، ومع ذلك كان لا يزال يمدح ويستجدى وفى ذلك يقول له سلم :

ما أقبحَ التَّزْهيدَ من واعظٍ يُزَهِّدُ الناسَ ولا يزهـدُ
لو كان فى تزهيده صادقاً أضحى وأمسى بَيْتُه المسجد

وفى أخباره ما يدل على أنه كان يهاجى والبة بن الحباب ، غير أنه لم يكن يحسن الهجاء . ويظهر أنه كان يلم بشىء من اللهو والمجون فى مطالع حياته ، غير أنه لم تتقدم به السِّنُّ حتى التزم جانب الوقار . وشعره يؤكد أن المديح لم يترك فيه بقية لفن آخر سواه . ولم يكن شحيحًا كما وصفه أبو العتاهية ، بل كان كريمًا سمحًا إذ يقول ابن المعتز إنه كان ينفق ما يأخذه من الأموال على إخوانه وغيرهم من أهل الأدب . وفى أخباره ما يدل على أنه كان يتأنق تأنقًا شديداً فى ملبسه ومظهره وأنه كان يحيا حياة مترفة ناعمة . وأشعاره مليئة بالرشاقة والعذوبة والنعومة ، وله فى الهادى مدحة اشتهرت فى عصره وبعد عصره ، إذ بنى شطورها من تفعيلة واحدة على هذا النمط :

موسى المطَرْ عَدْلُ السِّيَرْ

وقد جعلها على قافية واحدة ، وهى تفيض بالخفة والرشاقة ، ومن حكمه البديعـة :

لا تَسْألِ المرءَ عن خلائقهِ فى وَجْهِهِ شاهدٌ عن الخَبرِ

وما زالت حياته تجرى رُخاء حتى توفى سنة ١٨٦ للهجرة .

٢

شعراء الشيعة

كان استيلاء العباسيين على مقاليد الخلافة مفاجأة لكثير من العلويين وأنصارهم من فرق الشيعة ، وربما كانت الفرقة الوحيدة التي لم تجد فى ذلك غضاضة هى فرقة الكيسانية من أصحاب أبى هاشم بن محمد بن الحنفية، فإنه تنازل لهم ، كما أسلفنا ، عن الخلافة ، ولعل ذلك ما جعل شعراءها ، من أمثال السيد الحميرى ، يقفون فى صفوف العباسيين مادحين مثنين . أما شعراء الفرق الأخرى فقد عمتهم الفرحة حين انتصرت الثورة العباسية ، ظانين أن العباسيين سيشركون أبناء عمهم العلويين فى الحكم معهم ، حتى إذا انبلجت الحقيقة نفضوا أيديهم منهم ، وخاصة شعراء الزيدية . أما شعراء الإمامية فقد وجدوا أمامهم فسحة كى ينافقوا العباسيين ، وكى يظهروا غير ما يبطنون ، لمبدأ التقية المشهور الذى كان يأخذ به الشيعة الإمامية جميعاً من اثنى عشرية وإسماعيلية ، ومن ثَمَّ رأيناهم يمدحون خلفاء بنى العباس ، يستّرون بذلك حقائقهم ، على نحو ما هو معروف عن منصور النَّمرى . وخير من يمثل شعراء الزيدية فى أوائل هذا العصر سُدَيْف وهرون بن سعد العِجْلىّ . أما سديف فاشتهر بتحريضه السفّاح لأول خلافته على الثأر من بنى أمية بمثل قوله[1] :

أصبح الملك ثابت الآساسِ ... بالبَهاليل من بنى العبّاسِ
لا تُقيلنَّ عبدَ شمسٍ عِثارًا ... واقْطَعَنْ كل رَقْلَةٍ وغِراسِ[2]

ومضى يستثيره على الفتك بهم حتى استشاط موجدة وحنقاً ، فدعاهم إلى مأدبة كبيرة ، حتى إذا قدموا وتهيئوا للطعام وقف سديف ينشده[3] :

لا يَغُرَّنْك ما ترى من رجالٍ ... إن تحت الضلوع داءً دَوِيًّا
فضَعِ السيف وارْفَعِ السَّوْط حتى ... لا ترى فوقَ ظهرها أُمَوِيًّا

(١) ابن المعتز ص ٣٩ والأغانى (طبع دار الكتب) ٤/٣٤٥ .
(٢) الرقلة : النخلة الطويلة تفوت اليد .
(٣) ابن المعتز ص ٤٠ والأغانى ٤/٣٤٨ .

ووضع أبو العباس السفاح السيف فيهم حتى أتى عليهم ، ويقال : بل شُدخوا بالأعمدة . وصنع صنيعه بجموعهم فى الشام والحجاز والبصرة أعمامه : عبد الله وداود وسليمان . وتوفى السفاح وخلفه المنصور فاستقر فى نفوس زعماء العلويين أن الخلافة قد أفلتت من أيديهم وأن العباسيين لن يدعوا لهم منها شيئاً . وما تُوافى سنة ١٤٥ للهجرة حتى يثور بالمدينة محمد بن عبد الله بن الحسن الملقب بالنفس الزكية . وهى — كما أسلفنا فى الفصل الأول — أول ثورة للزيدية ، ونرى سديفاً يقف مع أخيه إبراهيم بن عبد الله حين ثار بالبصرة ، ناظماً كثيراً من الأشعار ضد المنصور ، مما يؤكد أنه كان يعتنق مذهب الزيدية ، ومن قوله فى بعض تلك الأشعار ، مخاطباً النفس الزكية[1] :

إنا لنأْمل أن ترتدَّ أُلْفَتُنَا بعد التباعد والشحناء والإِحَنِ
وتنقضى دولةٌ أَحكامُ قادتِها فينا كأَحكام قومٍ عابدى وَثَنِ
فانهضْ ببيعتكم ننهضْ بطاعتنا إن الخلافة فيكم يا بنى الحسنِ

وطبيعى أن يذيقه المنصور وبال تحريضه على الثورة ، إذ يقال إنه أمر بدفنه حيًّا . ومن شعراء الزيدية وهذه الثورة هرون بن سعد العِجْلى ، وقد ولاّه إبراهيم ابن عبد الله فى أثنائها واسطاً ، وبمجرد قضاء المنصور عليها توفى وهو يهم بدخول البصرة[2] ، وفى عيون الأخبار له قصيدة يرد فيها على غالية الشيعة من الإمامية ردًّا عنيفاً ، ناقضاً ما زعمه رافضتهم من غلو فى تصور جعفر الصادق إمامهم ، حتى ليجعله بعضهم إلهاً وبعضهم رسولا ، مع ما ينحلونه من علم الغيب وأنه دَوَّنَ كل ما يحتاج إليه من هذا العلم فى جلد يسمونه جَفْراً ، يقول فى تضاعيف قصيدته[3] :

أَلم تَر أَن الرَّافضين تفرَّقوا فكلُّهمُ فى جعفرٍ قال مُنْكَرَا
فطائفةٌ قالوا إلهٌ ومنهمُ طوائف سمَّتْه النبيَّ المطهَّرا
فإن كان يرضى ما يقولون جَعْفَرٌ فإنى إلى رَبِّى أُفارقُ جَعْفَرا

(١) مقاتل الطالبيين (نشر عيسى الحلبى) ص٤٧٦ والعمدة لابن رشيق ١/٤٥ .
(٢) انظر مقاتل الطالبيين ص ٣٣١ وما بعدها وص ٣٥٩ وما بعدها .
(٣) عيون الأخبار ٢/١٤٥ .

ومن عجبٍ لم أقْضِهِ جِلْدُ جَفْرِهم ... بَرِئْتُ إلى الرحمن ممن تجفَّرا

وكانت البصرة بيئة هذه النحلة ، ولعل ذلك ما جعل بعض المعتزلة يعتنقها ، من مثل بشر بن المعتمر ، وربما كان أكبر دليل على زيديته أننا نراه يهاجم غالية الإمامية على نحو ما هاجمهم هرون بن سعد العجلى[١]. ومن شعراء الزيدية غالب ابن عثمان الهمدانى ، وله مراث فى النفس الزكية وأخيه إبراهيم تقطر أسى وحزناً عميقاً[٢] . وثار ، كما مر بنا فى الفصل الأول ، لعهد الهادى الحسين بن على الحسنى فى مكة ونازله جيش عباسى فى « فخ » فقُتل هو وكثيرون من أهله وتُركوا فى العراء للسباع والعقبان ، مما جعل الشعراء من الزيدية يندبونهم آحرّ ندب وأشجاه[٣] . ويتحول نشاط هذه النحلة إلى خراسان والطالقان[٤] ، ويتكاثر الثائرون والمقتولون من أئمتها فى تلك البلاد النائية . ومن أهم ثورات الزيدية ثورة[٥] ابن طباطبا بالكوفة لأول خلافة المأمون ، ويقضى عليها قضاء مبرماً وطبيعى أن يكثر شعراء الزيدية من رثاء المقتولين فى هذه الثورات والتفجع عليهم ، مما نقرؤه فى كتاب مقاتل الطالبيين لأبى الفرج الأصبهانى مفصلا أوسع تفصيل .

ولم يكن الإمامية بفرقهم المختلفة يشهرون السيوف فى وجوه بنى العباس ، فقد جعلوا جميعاً التقية مبدأ أساسياً فى نحلهم المختلفة ، واتخذوا الدعوة السرية وسيلتهم فى جمع الناس من حولهم بالكوفة ، واجتمع حولهم فعلا خلق كثير يبطنون غير ما يظهرون ويسرون غير ما يعلنون ، وكأنهم كانوا يؤمنون جميعاً بأن الثورة على العباسيين لم يحن موعدها . وقد تفرقوا شيعاً كثيرة ، ومرّ بنا فى الفصل السابق أن لمعدان الأعمى قصيدة صنف فيها طوائف الإمامية الرافضة والغالية وطوائف الزيدية وعقائدهم جميعاً ، مقدماً عليها نحلة فرقته الشُّمَيْطية الغالية ، ونراه يلوم زيد بن على زين العابدين لعدم أخذه بمبدأ التقية ، إذ سنّ لأصحابه من بعده إعلان ثورتهم وامتشاقهم للحسام فى وجه الحكام مما جعل الخلفاء العباسيين يوالون فيهم قتلهم

(١) الحيوان ٦/٢٨٤ .

(٢) مقاتل الطالبيين ص ٣٠٤ ، ٣٨٤ وما بعدها .

(٣) نفس المصدر ص ٤٥٨ وما بعدها .

(٤) الملل والنحل للشهرستانى (طبع لندن) ص ١١٧ .

(٥) انظر فى هذه الثورة وأنها زيدية مقاتل الطالبيين ص ٥١٨ وما بعدها .

وسفك دمائهم ، يقول فى قصيدته(١) :

سَنَّ ظُلْمَ الإمام فى القوم زَيْدٌ ... إن ظُلْمَ الإمام ذو عُقَّالِ(٢)

والمهم أن مبدأ التقية أتاح لكثيرين من شعراء الإمامية أن لا يجاهروا الناس فضلا عن الخلفاء بحقيقة نحلهم ، وقد مضى كثير منهم يعلنون موالاتهم لبنى العباس ، مادحين لهم ، بل إن منهم مَنْ سخّر شعره للدفاع عن حقهم فى الخلافة مبالغة فى السّتر والتقية على نحو ما سنرى عند منصور النمرى . وربما كان الشاعر الإمامىُّ الوحيد الذى جاهر بنحلته دعبلا ، إن صح أنه كان متشيعاً حقّاً فضلا عن إماميته . ومن شعرائهم القاسم بن يوسف أخو أحمد بن يوسف ، وقد مرَّ بنا فى الفصل السابق أنه سخّر كثيراً من شعره فى رثاء الحيوان والطير ، وقد عمل فى خلافة المأمون فكانت إليه جباية السواد ، ونرى الصولى يروى له فى كتاب الأوراق أشعاراً شيعية مختلفة فى مديح بنى هاشم وبيان فضائل على بن أبى طالب وفى رثاء الحسين وندبه ندبا حارًّا ، ملوحا بيده فى وجه أبى بكر وعمر وفى وجوه خصوم الإمامية ، مشيراً إلى مهديّهم الذى سيأخذ بثأرهم ، يقول(٣) :

إنى لأرجو أن تنالهمُ ... منى يَدٌ تشفى جوَى الصَّدْر

بالقائم المهدىِّ إن عاجلا ... أو آجلا إن مُدَّ فى عُمْرى

ومثله محمد بن وهيب كان يفد على وزراء بنى العباس وخلفائهم ، وهو غال فى تشيعه وإماميته ، ويروى الرواة ، أنه تردّد على مجالس تُذْكَرُ فيها فضائل أبى بكر وعمر وعثمان ، ولا يُذْكَرُ فيها شىء من فضائل على ، فتولّى حنقا ، وهو يقول(٤) :

أغدو إلى عُصْبَةٍ صُمَّتْ مسامعهم ... عن الهُدَى بين زنديقٍ ومأفونِ

لا يذكرون عليًّا فى مشاهدهم ... ولا بنيهِ بنى البِيض الميامينِ

لو يستطيعون من ذكرى أبا حَسَنٍ ... وفضله قطّعونى بالسّكاكينِ

(١) مقاتل الطالبيين ص ٤١٩ والبيان والتبيين ٣/٣٥٧ .

(٢) عقال : من العقل وهو مغرم الجناية .

(٣) كتاب الأوراق للصولى (أخبار الشعراء) ص ١٨٢ .

(٤) أغانى (طبعة الساسى) ١٧/١٤٦ .

ولستُ أترك تفضيلي له أبدًا   حتى الممات على رَغْم الملاعينِ

وكثُر فى هذا العصر بين شعراء الشيعة الحديث عن على بن أبى طالب وفضائله ، ومرَّ بنا فى الفصل الرابع أن لبشر بن المعتمر مزدوجة صوَّر فيها منزلته وكيف أنه يرتفع فوق خصومه من الخوارج درجات . وينبغى أن نشير هنا إلى ما كان من محاولة المأمون عقد البيعة من بعده لعلى الرضا الإمام السابع عند الشيعة الإثنى عشرية ، وأن أسرته ثارت عليه فى بغداد ، وأن عليًّا الرضا توفِّى سريعاً ، فانصرف عن فكرته ، وقد ظل يوالى العلويين على الرغم من قيامهم ببعض ثورات فى خلافته ، إذ نراه — كما أسلفنا فى غير هذا الموضع — يكتب إلى الآفاق فى سنة ٢١١ للهجرة بتفضيل على بن أبى طالب على جميع الصحابة ، مما جعل شعراء الشيعة يطمئنون إليه ، ونفذ بعض الشعراء من غيرهم مثل أبى تمام إلى النظم فى فضائل على إرضاء للدولة . وأيضًا ينبغى أن نشير هنا إلى كثْرة الانقسامات بين الشيعة وما جرَّ إليه ذلك من أشعار انتصر فيها الشعراء لما اعتنقوه من بعض المذاهب الشيعية وفى كتاب الفرق بين الفرق للبغدادى منثورات مختلفة من تلك الأشعار . وجديرٌ بنا أن نعرض لأبرز شعراء الشيعة فى العصر ، وهم السيد الحميرى ومنصور النَّمَرِى ودعبل وديك الجن .

السيد (١) الحميرى

هو إسماعيل بن محمد حفيد يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميرى الذى ترجمنا له فى الجزء الثانى من هذه السلسلة ، وقد تشككنا هنالك فى نسبه من حمير واستظهرنا أنه يرجع إلى أصول إيرانية لما عُرف عنه من إتقانه الفارسية . على أننا نجد السيد

---

(١) انظر فى ترجمة السيد الحميرى وأشعاره وأخباره ابن المعتز ص ٣٢ والأغانى (طبعة دار الكتب) ٧/٢٢٩ وما بعدها والبيان والتبيين ٣/٣٦٠ والحيوان ٥/٣١٧ والفرق بين الفرق للبغدادى ص ٣٠ والملل والنحل للشهرستانى (طبعة لندن) ص ١١١ وروضات الجنات ص ٢٨ والنجوم الزاهرة ٢/٢٩ ، ٦٨ ، ٧٤ وفوات الوفيات فى إسماعيل وفرق الشيعة للنوبختى (طبعة ريتر) ص ٢٦ ، ومعرفة أخبار الرجال للكشى ١٨٤ وترجمة جده يزيد بن مفرغ فى الجزء الثانى من هذا الكتاب وحديث الأربعاء لطه حسين ٢/٣٠٥ .

يفتخر بحميريته ، وكانت أمه من الأزد اليمنيين ، ومن ثَمَّ يقول :

إنى امرؤٌ حِمْيَرِىٌّ غيرُ مُؤْتَشِبٍ ... جَدِّى رُعَيْنٌ وأخوالى ذَوو يَزَنِ[1]

وقد وُلد لأبويه فى البصرة سنة ١٠٥ للهجرة ، وكانا من إباضيّة الخوارج ، فنشأ يسمع منهما سَبًّا على بن أبى طالب ، بل تكفيره وتكفير بعض الصحابة ، وعبثاً كان يراجعهما . ولم يلبث أن أوغل فى التشيع لعلى وآله ، ويظهر أنه وقع لبعض أصحاب مذهب الكيسانية القائلين بإمامة محمد بن الحنيفية والمعتنقين لنظرية الغيبة والرجعة ، فإذا هو يصبح كيسانيًّا لحمًا وروحاً ، ولا ندرى هل حدث له ذلك فى البصرة أو حدث فى الكوفة فقد أقام بها ردحًا من الزمن . وأيًّا كان فقد اعتنق المذهب مبكراً وأصبح شيعة لأصحابه منذ أواخر عصر بنى أمية ، حتى إذا أظلّه العصر العباسى تمشت فى نفسه الفرحة لانتصار الهاشميين وتقويض حكم الأمويين ، وأخذ يستبشر بقيام الدولة العباسية ، وكأنه رأى فيها انتصاراً لمذهبه الشيعى ، إذ كان أبو هاشم بن محمد بن الحنفية قد أوصى من بعده ، كما مرَّ بنا ، لمحمد بن على العباسى ، وأوصى محمد للسفاح ومن ثَمَّ كانت إمامته وخلافته هو ومن تلاه من العباسيين صحيحة فى نظر الكيسانية أو على الأقل جمهورهم الذى كان يتبع فرقة أبى هاشم . وطبيعى لذلك أن نجد السيد الحميرى الكيسانى يهالل لانتصار العباسيين حتّى ليبادر أبا العباس السفاح حين خطب فى الكوفة خطبته المشهورة التى أخذ على إثرها البيعة من الناس قائلا :

دونكموهـــا يا بنى هاشمٍ ... فجدِّدوا من عهدها الدَّارِسَا
قد ساسها قبلكمُ ساسةٌ ... لم يتركوا رَطْباً ولا يابِسَا
ولستُ من أن تملكوها إلى ... مَهْبِطِ عيسى فيكمُ آيِسَا

وواضح أنه يهنئه بالخلافة لا مِزاً الأمويين الذين ملأوا الأرض ظلمًا وجوراً ، ويقول إنها لن تزال فيهم إلى هبوط عيسى بأخرة من الدنيا ، فهو لا يفكر فى زوالها عنهم ، بل هو يراها لهم خالصة حتى تفنى الأرض ومن عليها ، وتوفّى السفاح

---

(١) المؤتشب : غير الصريح فى نسبه . وذو رعين : من ملوك اليمن ، وذوو يزن : أبناء ذى يزن أحد أمراء اليمن الأقدمين .

وخلفه المنصور ، فأغدق عليه من صلاته السَّنية وأغدق عليه السيد الحميرى من مدحه بمثل قوله :

إن الإله الذى لاشىء يشبهه ... أعطاكم الملكَ للدُّنيا وللدِّينِ
أعطاكُم الله ملكاً لا زوال له ... حتى يقادَ إليكم صاحبُ الصين
وصاحبُ الهند مأخوذاً برُمَّتِهِ ... وصاحب التُّرْك محبوساً على هُونِ

ومدح من بعده ابنه المهدى وظن طه حسين أن السيد الحميرى كان فى هذا المدح منافقاً ، فهو لا يستحلُّ أن يظهر غير ما يضمر وأن يمدح بنى العباس بلسانه ويلعنهم فى قلبه ، فيظفر بمالهم ويتقى شرهم ، كان يستحلُّ ذلك كما كانت تستحلُّه عامة الشيعة الذين كانوا يقولون بمذهب التقية[1]» . ولا تقية ولا نفاق ، وإنما شاعر كيسانى يمدح أوصياء عقيدته الكيسانية الذين أدالوا من بنى أمية وسلطانهم الجائر ، وهو بعد ذلك مخلص فى كيسانيته إخلاصًا بعيداً حتى ليؤمن بأن محمد ابن الحنفية حَىٌّ وأنه راجع يومًا يقول :

حتى متى ؟ وإلى متى ؟ ومتى المدى؟ ... يا بن الوصىِّ وأنت حَىٌّ تُرْزَقُ

ويُرْوَى أن شيطان الطاق محمد بن على بن النعمان أحد متكلمى مذهب الشيعة الإمامية ناظره يوماً فى عقيدته الكيسانية يريد أن يجذبه إلى عقيدته ،وغلبه فى مناظرته ، غير أن السيد لم يلبث أن أنشأ قصيدة أدارها على أبيات كثيِّر سلفه الكيسانى فى العصر الأموى التى تجرى على هذا النمط :

ألا إن الأئمةَ من قريشٍ ... ولاةَ الحقِّ أربعةٌ سواءُ
علىٌّ والثلاثةُ من بنيه ... همُ أسباطه والأوصياء
فسِبْطٌ سِبْطُ إيمانٍ وحلم ... وسبطٌ غيَّبَتْه كَرْبَلاءُ
وسبْطٌ لا يذوق الموت حتى ... يقودَ الخيلَ يَقْدُمها اللِّواء

والسبط الأول الحسن والثانى الحسين المقتول بكربلاء. والثالث إمامه محمد بن الحنفية ، وكثيِّر يقول إنه لا يزال حَيًّا لم يذق الموت وأنه سيعود فى جيش لَجِبٍ

(١) حديث الأربعاء ٢/٣٠٧ .

وكان السيد الحميرى فى القرن الثانى لا يزال يؤمن مثله برجعته . وزعم بعض الرواة أنه رجع بأخرة من حياته عن كيسانيته واعتنق مذهب الإمامية أصحاب جعفر الصادق ، وأجروا على لسانه :

تجعفرتُ باسم اللهِ واللهُ أكبرُ وأيقنتُ أن الله يعفو ويغفرُ

غير أن أبا الفرج ردّ ذلك قائلا هو ورواته إنه ظل على كيسانيته حتى الأنفاس الأخيرة من حياته . ولعلنا لا نغلو إذا قلنا إنه كان أكثر شعراء القرن الثانى تمجيداً لعلى وبنيه ، فقد أنفق حياته فى نظم أخبارهم ومناقبهم ، ويقول ابن المعتز إنه لم يترك فضيلة معروفة لعلى بن أبى طالب إلا نقلها إلى الشعر ، وقد كرَّر طويلا ما تدّعيه الشيعة من أن الرسول صلى الله عليه وسلم أوصى له بالخلافة من بعده عند غَدير خُمٍّ بين مكة والمدينة ، وفيه يقول :

أقسم بالله وآلائــهِ والمــرءُ عما قال مسئولُ
إن على بن أبى طالبٍ على التُّقَى والبرِّ مَجْبُولُ

ولعل أطول قصائده الشيعية قصيدته التى تسمى المذهبة ، وقد عُنى بها الشيعة وشرحوها مراراً ، وهو يستهلها بذكر الأمويين ومسير عائشة رضى الله عنها إلى البصرة مع طلحة والزبير ، يقول :

أين التطرُّف بالولاء وبالهوى أ إلى الكواذب من بروق الخُلَّبِ
أإلى أمية أم إلى الشِّيع التى جاءت على الجمل الخِدَبِّ الشَّوْقَبِ (١)
تَهْوِى من البلد الحرام فنبَّهت بعد الهدوِّ كلاب أهل الحَوْأَبِ

وهو يشير إلى أن كلاباً نبحت أم المؤمنين عند بئر الحوأب ، وكان يفرط فى سبِّها وسب طلحة والزبير وأبى بكر الصديق وعمر وكثير من الصحابة لا يَرْعوى ولا يزدجر ، وكان يستطيع أن يسجِّل لعلى ما شاء من فضائله ، دون أن يزج بنفسه فى هذه المضايق الوعرة غير مراع لجلة الصحابة وأمهات المؤمنين أى حرمة ، ولبئس ما قال فى عائشة وصاحبيها :

(١) الخدب : البعير الضخم . الشوقب : الطويل .

جاءتْ مع الأَشْقَيْن فى هودجٍ   تُزْجى إلى البصرة أَجْنادها
كأَنها فى فعلها هِرَّةٌ   تريد أن تأْكل أولادها

ويروى أن المهدى جلس يومًا يعطى قريشاً صلاتها وهو ولى عهد ، فبدأ ببنى هاشم ثم سائر قريش ، ولم يلبث السيد أن وفد عليه بقصيدة يذم فيها عشيرتى عمر وأبى بكر الصديق وينهاه أن يعطى أحداً منهما صلته ، وابتاه المهدى. وقد روى أبو الفرج قطعة منها ، وقال إنه حذف باقيها لقبح ما جاء فيها من السبِّ والشتم .

ولعل فى ذلك ما يدلُّ على أن السيد الحميرى كان غالياً فى تشيعه غلوًّا قبيحاً ، ولو أنه لم يشب مديحه لعلى وبنيه بهذا السبِّ المنكر لتداول شعره الرواة ، إذ كان شاعراً بارعًا ، ومن مستحسن شعره فيهم قوله ناظماً ما رُوِى من أن الحسن والحسين،أتيا الرسول فوجداه ساجداً فركبا على ظهره ، فقال عمر : نعم المطىُّ مطيكما :

أَتى حسنًا والحسينَ الرسولُ   وقد برزا ضَحْوَةً يلعبانِ
فضمَّهما ثم فدَّاهما   وكانا لديه بذاك المكانِ
وراحا وتحتهما عاتقاه   فنعم المطيَّة والراكبانِ

وكان يكثر من رثاء الحسين رثاء يستنزف الدمع ويذيب القلب حسرات ، ويقال إنه استأذن يوما على جعفر الصادق فأذن له وأقعد حُرَمَه خلف سِتْر ، فدخل ، فأنشده قوله :

امْرُرْ على جَـدَثِ الحُسَـ   ـيْنِ فقُلْ لأَعْظُمه الزَّكِيَّهْ
آ أَعظمًا لا زلتِ من   وَطْفاء ساكبةٍ رَوِيَّهْ(١)
وإذا مررتَ بقبرِهِ   فأَطِلْ به وقْفَ المَطِيَّهْ
وابكِ المطهَّر للمطَهَّـ   ـرِ والمطهَّرة النَّقِيَّهْ

---

(١) الوطفاء : السحابة المحملة بالأمطار الغزيرة .

كبُكاءِ مُعْوِلةٍ أتَتْ يومــاً لواحدها المنيَّه

فسالت دموع جعفر على خديه مدراراً وارتفع النشيج والصراخ فى داره فأمره بالإمساك فأمسك .

وللسيد وراء تشيعه ومدائحه للعباسيين مدائح فى بعض ولاة البصرة والأهواز ، وله أهاج فى المرجئة وفى عبد الله بن سوار قاضى البصرة الذى ردّ شهادته لقذفه فى الصحابة ، وقد شكاه للمنصور فانتصف له منه . ويقال إنه كان يعكف على الخمر ، وليس له فيها أشعار مذكورة . وفى الحق أنه عاش للتشيع ينفق فيه أيامه وقصيده ، وكان يعرف كيف يوازن بين جزالته وعذوبته ، مع الرونق والحلاوة ، ولعل ذلك ما جعله يتحامى فيه الغريب واللفظ الآبد ، حتى يلذّ الأسماع والأفئدة وحتّى يسير على الشفاه والألسنة . وما زال هذا دأبه حتى توفى سنة ١٧٣ للهجرة .

منصور[1] النَّمَرِى

هو منصور بن الزبرقان بن سلمة[2] من قبيلة النَّمِر بن قاسط من أهل الجزيرة وهو تلميذ العتابى المتكلم وراويته وعنه أخذ ومن بحره استقى وتشبّه كما يقول أبو الفرج ، ويُقال إنه وَصَفه للفضل بن يحيى بن خالد البرمكى ونوّه به وقرّظه ، فاستقدمه من الجزيرة ، فأنشده بعض مدائحه فيه ، وحَظِىَ عنده ، ولم يلبث أن وصله بالرشيد ، ووقع من نفسه خير موقع ، إذ مضى يمدحه على طريقة مروان بن أبى حفصة بِنَفْىِ الإمامة عن أبناء على بن أبى طالب وبيان أنها حق خالص للعباسيين ، وأنهم لا يزالون يطوّقون رقابهم بالمنن ، وهم يجحدونها ، فيثورون ، وكثيراً ما يتلقون ثوراتهم بالعفو عنهم على نحو ما صنع الرشيد بيحيى بن عبد الله ، فإنه اكتفى بسجنه ، ولم يقتله ، وفى ذلك يقول :

بنى حَسَنٍ وقُلْ لبنى حُسَيْنٍ عليكم بالسداد من الأمورِ

---

(١) انظر فى أخبار النمرى وأشعاره ابن المعتز ص ٢٤٢ وابن قتيبة ٨٣٥ والأغانى (طبعة دار الكتب) ١٣ / ١٤٠ وتاريخ بغداد ١٣ / ٦٥ والبداية والنهاية لابن كثير ١٠ / ٢١٢ وأمالى المرتضى (طبعة الحلبى) ٢ / ٢٧٤ وما بعدها وزهر الآداب ٣ / ٦٨ .

(٢) فى بعض المصادر منصور بن سلمة بن الزبرقان .

أميطوا عنكمُ كذبَ الأمانى　　وأحلامًا يَعِدْنَ عِداتِ زُورِ
مننتَ على ابن عبد الله يحيى　　وكان من الحتوفِ على شَفيرِ
يَدٌ لك فى رقاب بنى علىٍّ　　ومَنٌّ ليس بالمَنِّ الصغير
وإنك حين تُبْلغهم أذاةً　　ـ وإن ظلموا ـ لمحزونُ الضمير
فإن شكروا فقد أنعمتَ فيهم　　وإلا فالنَّدَامة للكَفُـورِ
وإن قالوا بنو بنتٍ فحقٌّ　　ورُدُّوا ما يناسبُ للذكور
وما لبنى بناتٍ من تُراثٍ　　مع الأعمام فى ورق الزَّبور

ويقال إنه استخفَّ الرشيد حين أنشده هذه القصيدة ، فإذا هو يأمر الفضل ابن الربيع أن يدخله بيت المال ويدعه يأخذ ما يشاء ، فأخذ سبعاً وعشرين بَدْرَةً .

ومن روائع قصائده فيه قصيدته العينية ، ويقول ابن المعتز إنه أقام القيامة بحديثه فى مطلعها عن الشباب إذ يقول :

ما تنقضى حسرةٌ منى ولا جَزَعُ　　إذا ذكرتُ شباباً ليس يُرْتَجَعُ
بان الشبابُ وفاتتنى بلذَّتِهِ　　صروفُ دَهْرٍ وأيامٍ لها خُدَع
ما كنت أُوفى شبابى كُنْهَ غِرَّتِهِ　　حتى انقضى فإذا الدنيا له تَبَعُ
إن كنتِ لم تطعمى ثُكْلَ الشباب ولم　　تَشجَىْ بغصته فالعذر لا يقع

ويُقال إن الرشيد حين سمع منه هذا المطلع قال له : أحسنت والله ، لا يتهنَّأ أحد بعيش حتى يخطر فى رداء الشباب ، وخرج إلى المديح ملوحا فى وجه العلويين بمثل قوله :

يا ابن الأئمة من بعد النبىِّ ويا ابْـ　　ـنَ الأوصياء أقرَّ الناسُ أو دفعوا
وما لآل علىٍّ فى إمارتكم　　حَقٌّ وما لهمُ فى إرْثكم طَمَعُ
العمُّ أولى من ابن العمِّ فاستمعوا　　قولَ النَّصيح فإن الحقَّ يُسْتَمَعُ

وهو يشير إلى أن العباس عمَّ الرسول صلى الله عليه وسلم يحجب على بن أبى طالب ابن أخيه كما تقضى بذلك فريضة الإرث فى الإسلام . وكان لا يزال يحيط

هرون بهالة من القدسية حتّى ليرفعه على آل الرسول جميعًا ، وحتّى ليجعل من يشتمل عليه سخطه لا ينتفع بدينه ولا بصلواته ، يقول فى القصيدة السالفة :

أىّ امرىء بات من هرون فى سَخَطٍ   فليس بالصلوات الخمس ينتفعُ

ويقول فى قصيدة ثانية :

يا خير ماضٍ وخير باقٍ   بعد النبيين فى الأنامِ

ومن قصيدة له ثالثة :

آلُ الرسول خيارُ الناس كلِّهمِ   وخيرُ آلِ رسول الله هرونُ

ولم يكن منصور فى كل هذه الأشعار مخلصًا ، بل كان يظهر غير ما يضمر ، إذ كان شيعيًّا إماميًّا ، وكأنه كان يتخذ تلك الأشعار متجراً ، ليعيش آمناً ، ولينال ما يريد من طيبات الحياة ومتاعها معتمداً على ما يؤمن به الإمامية من التقية . وقد زعم المرتضى فى أماليه أنه « كان ينافق الرشيد ويذكر هرون فى شعره ويُريه أنه من وجوه شيعته وباطنُه ومرادُه بذلك أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام لقول النبى ، صلى الله عليه وآله ، له : أنت منى بمنزلة هرون من موسى » ونراه يكثر من مدح آل الرسول والتنديد بالأمويين والعباسيين ، ومن خير ما يصور ذلك لاميته وفيها يقول :

شاءٌ من الناس راتعٌ هامِلْ   يعلِّلون النفوسَ بالباطِلْ[1]

تُقْتَلُ ذريّةُ النبىِّ ويَرْ   جون جِنانَ الخلود للقاتلْ

ويلك ياقاتلَ الحسين لقد   بُؤْتَ بحمْلٍ يَنُوءُ بالحامل

ما الشكُّ عندى فى كُفْر قاتلهِ   لكننى قد أشك فى الخاذِلْ

وعاذلى أننى أحبُّ بنى   أحمد فالتُّرْبُ فى فم العاذل

قد دِنْتُ ما دينكم عليه فما   وصلتُ من دينكم إلى طائلْ

دينكمُ جَفْوَةُ النبىِّ وما الـ   جافى لآل النبىِّ كالواصل

---

(١) هامل : المتروك ليلا ونهاراً .

وقد مضى فى القصيدة ينكر موقف أبى بكر وعمر من دعوى فاطمة إرث « فدك » زاعماً أنهما ظلماها ، ومطالباً بمن يثأر لها من ظلمتها ، يقول :

مظلومةٌ والنبىُّ والدُها تدير أرجاءَ مُقْلَةٍ حافلْ
ألّا مَساعيرُ يغضبون لها بسَلَّة البيضِ والقَنا الذابلْ[1]

وكانت قد حدثت جفوة بينه وبين أستاذه العتابى ، فأسخط الرشيد عليه ، غير أنه عاد فعفا عنه وأوسع له فى مجالسه ، وانتهز العتابى منه يوماً فرصة، فذكر له حقيقة النمرى وأنه شيعى غال فى تشيعه ، وأنشده اللامية الآنفة وأشعاراً أخرى من مثل قوله :

آلُ الرسول ومن يحبُّهُمُ يتطامنون مخافة القَتْلِ
أَمِنَ النصارى واليهودُ وهم من أمَّةِ التوحيد فى أزْل[2]

فاستشاط الرشيد غضباً ، وبعث إلى الرَّقة ، وكان مقيماً بها ، مَنْ يقتله ، غير أن رسوله وجد جنازته تستقبله ، فانكفأ راجعاً إلى الرشيد ، فأعلمه خبره .

وممن مدحهم وأشاد بهم يزيد بن مَزْيد الشيبانى ، وكان من مُدَّاح الفضل ابن يحيى البرمكى كما مرَّ بنا ، وقد بكاه حين نكبه الرشيد هو وأباه وأخاه جعفراً لسنة ١٨٧ ، وفى ذلك ما يدل على أن وفاته كانت بعد نكبتهم . وواضح مما أنشدناه من أشعاره أنه كان يعنى عناية شديدة بانتخاب ألفاظه وانتقاء معانيه ، وكان ما يزال يجهد فكره وخياله حتى يأتى بالطرائف النادرة من مثل قوله :

ولقد تبيت أناملى يَجْنين رُمَّانَ النُّحُورْ

ومن المحقق أنه لم يكن يتعلق بلهو ولا مجون ولا خمر شأن كثير من معاصريه ، وأنه كان يكتفى من ملاهى عصره بالسماع إلى الغناء واجداً فيه ما يبتغى من لذة ومتاع .

---

(١) مساعير : جمع مسعار ، وهو موقد الحرب . البيض : السيوف . الذابل : الرقيق الحاد .

(٢) أزل : ضيق وشدة .

دعبل [1]

هو دعبل بن على بن رَزين ، وقيل دعبل لقبه ، واختلفوا فى اسمه هل هو محمد أو الحسن أو عبد الرحمن، وهو من خزاعة صليبة لاولاءً [2]، ومن بيت شعر ، فقد كان أبوه شاعراً متوسطًا ، وكذلك عمه عبد الله وأخواه على ورزين وولداه الحسين وعلى وابن عمه محمد بن عبد الله المشهور باسم أبى الشيص . وقد وُلد دعبل بالكوفة سنة ١٤٨ للهجرة ويظهر أنه اختلف مبكرًا إلى حلقات الدرس . على أننا نجده فى شبابه يصحب الشُّطَّار ويشترك معهم فى مغامراتهم، مما يؤكد أنه كان فيه نزعة متأصلة إلى الشر وارتكاب الجنايات ، وقد دفعته فيما بعد إلى أن يصبح أكبر هجاء فى عصره ، وأن يعمَّ بهجائه الخلفاء وكل من قدَّموا له صنيعاً . ويظهر أن مواهبه الشعرية تفتحت مبكرة ، فمضى يختلط بالشعراء ، وانعقدت بينه وبين مواطنه مسلم بن الوليد مودة كان لها أثر عميق فى شعره إذ عنى فيه على شاكلة مسلم بالبديع وبالجزالة ونصاعة القول ، ويرمز الرواة لذلك بأن مسلماً صنع قوله :

مستعبرٌ يبكى على دِمْنَةٍ ورأسُه يضحك فيه المَشِيبْ

فما زال دعبل يدير البيت فى نفسه ، محاولا أن يبنى على معناه قطعة فى الغزل حتى صنع قطعته التى فتحت له باب الشهرة على مصاريعه ، إذ قال فى بكاء الشباب ووقوعه فى شباك الهوى :

أَين الشبابُ ؟ وأَيَّةً سَلكا ؟ لا، أَين يُطْلَبُ ؟ ضَلَّ بل هلكا

---

(١) انظر فى دعبل وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص ٢٦٤ وابن قتيبة ص٨٢٥ والأغانى (طبعة الساسى) ١٨/٢٩ وتاريخ بغداد ٨/٣٨٢ والموشح ص ٢٩٩ وابن خلكان ١/١٧٨ ومعجم الأدباء ١١/٩٩ وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٥/٢٢٧ وشذرات الذهب ٢/١١١ ومعرفة أخبار الرجال للكشى ٣١٣ وأخبار الرجال للنجاشى ١١٦ ومرآة الجنان لليافعى ٢/١٤٥ ولسان الميزان ٢/٤٣٠ والنجوم الزاهرة ٢/٣٢٢ . وجمع شعره ونشره كل من محمد يوسف نجم ببيروت وعبد الصاحب الدجيلى فى النجف بالعراق وعبد الكريم الأشتر فى دمشق .

(٢) من زعموا أنه خزاعى ولاء عبد الله بن طاهر (انظر ترجمته فى الأغانى) . وراجع ابن خلكان ولسان الميزان وابن كثير فى البداية والنهاية ١٠/٣٤٨ .

لا تعجبي يا سَلْمَ من رَجُل ضحك المشيبُ برأسه فبكى
ياليت شعرى كيف نَوْمكما يا صاحبيَّ إذا دمى سُفِكا
لا تأْخذا بظُلامتى أحدًا قلبي وطرفى فى دمى اشتَركا

وغنى بالأبيات بعض المغنين بين يدى الرشيد ، فطرب ، وسأل عن ناظمها ، فقيل له دعبل ، فأمر بإحضاره وأرسل إليه بعشرة آلاف درهم وخلعة من الثياب ، وسار دعبل إليه ، وأنشده بعض شعره فاستحسنه وأجرى عليه رزقاً سنياً ، ولم يلبث أن ارتحل إلى خراسان وواليها العباس بن جعفر الخزاعى (١٧٣ — ١٧٥ هـ) فأكرمه وولاه على سِمِنْجان إحدى بلاد طَبَرِسْتان. وعاد إلى بغداد ونزل الكرخ حيث اللهو والقصف ، منشداً مثل قوله :

إنما العيشُ خلالٌ خمسةٌ حَبَّذا تلك خلالا حبَّذا
خدمةُ الضيف وكأْسٌ لذَّةٌ ونديمٌ وفتاةٌ وغِنـــا

وتُؤْثَرُ له فى الخمر بعض الأشعار ، وله بجانبها غزليات قليلة ، وهو يُعْنَى فيها ببعض فنون البديع على شاكلة قوله مطابقاً :

دموعُ عينى لها انبساطٌ ونومُ عينى به انقباضُ

وليس فى ديوانه مديح للرشيد ولا للبرامكة مما يدل على أنه ظل بعيداً عن القصر وأهله ووزرائه، وحقًّا تُرْوَى له بعض أبيات فى البرامكة حين نكبهم الرشيد ، ولكنها لا تدخل فى باب الرثاء إنما تدخل فى باب العظة والاعتبار . وقد ظل لا يلم بالقصر فى عصر الأمين ، ونراه يخرج إلى الحج فى سنة ١٩٨ للهجرة ، ولا يعود إلى بغداد ، بل يرتحل إلى مصر وواليها المطلب بن عبد الله الخزاعى (١٩٨ — ٢٠٠ هـ) وفيه يقول :

زمنى بمُطَّلِبٍ سُقيتَ زماناً ما كنت إلا روضة وجنانا
كلُّ النَّدَى إلا نداك تكلُّفٌ لم أرض غيرك كائناً من كانا
أَصْلَحْتَنى بالبِرِّ بل أفسدتنى وتركتنى أتسخَّط الإحسانا

ولم يكتف المطلب بما أغدق عليه من البِر والنوال ، فقد ولاَّه على أسوان ،

وسرعان ما شعر فى هذا البلد البعيد عن بغداد بوحشة شديدة، وعبث حنينه إليها بقلبه ، فإذا هو ينظم أبياته المشهورة فى الحنين إلى الوطن وقد أنشدناها فى الفصل الرابع .

ولم تلبث الأمور أن فسدت بينه وبين المطلب ، فإذا هو يهجوه هجاء مقذعاً ، كافراً يده عنده ، وكان قد ولى الموصل قبل ولايته على مصر ، فقال فى بعض هجائه له :

تعلَّق مصرُ بك المخزياتِ ... وتبصق فى وجهك المَوْصِلُ

وأخذ يكثر من هجائه ، مولياً وجهه نحو بغداد ، وتبعه المطلب معزولا عن مصر ، وتَلطَّف له فكفّ لسانه عنه .

وأتاه نبأ عهد المأمون لعلى الرضا بالخلافة من بعده لسنة ٢٠١ وكان المأمون لا يزال بخراسان فارتحل إليهما ولم يكد يمثل بين أيديهما حتى أنشد تائيته المشهورة.

مدارسُ آياتٍ خلتْ من تلاوةٍ ... ومنزلُ وَحْيٍ مقفرُ العرصاتِ

وقد صور فيها ما نزل بالعلويين من كوارث فى « كربلاء » و « فخ » نائحاً على قتلاهم وخاصة الحسين نواحاً مؤثراً ويفيض فى حرمانهم من الاستمتاع بحقهم فى الخلافة آملا فى خروج مهديهم المنتظر الذى يملأ الأرض عدلا بعد أن مُلئت ظلماً وجَوْراً ، وفيها يقول :

ملامَك فى آلِ النبىِّ فإنهم ... أحِبَّاىَ ما عاشوا وأهلُ ثقاتى

فيارِبِّ زدنى من يقينى بصيرةً ... وزِدْ حُبَّهم ياربِّ فى حسناتى

ألم تر أنى من ثلاثين حِجَّةً ... أروح وأغدو دائمَ الحسرات

أرى فَيْئَهُمْ فى غيرهم متقَسَّماً ... وأيديَهم من فَيْئهم صَفِراتِ[1]

ولولا الذى أرجوه فى اليوم أو غدٍ ... تقطَّع قلبى إثرهم حَسراتِ

خروجُ إمامٍ لا محالةَ خارجٌ ... يقوم على اسم الله والبركاتِ

---

(١) الفىء : الخراج وغنائم الحرب ، يريد أن العلويين سلبوا حقهم فى سياسة الدولة والقيام على شئون المال . صفرات : خالية .

يميِّز فينا كلَّ حَقٍّ وباطلٍ ويَجْزِى على النَّعْماء والنَّقماتِ

وأعجب بالقصيدة المأمون وعلى الرضا ، فأعطاه أولهما عشرة آلاف درهم من دراهم كان قد ضربها باسم الرضا ، أما الرضا فخلع عليه حُلَّة من ثيابه ، ويقال إن أهل مدينة « قُم » الشيعية اشتروا منه الحلة بثلاثين ألف درهم ، كما اشتروا الدراهم المضروبة باسم الرضا ، كل درهم بعشرة . ويقول ابن المعتز إن أهل هذه المدينة قسّطوا له كل سنة خمسين ألف درهم . وتطورت الظروف سريعاً فتوفى على الرضا بطوس سنة ٢٠٣ وهو فى طريقه مع المأمون إلى بغداد ، ودفن بها ، بجانب قبر هرون الرشيد ، ولم يكد النعى يبلغ دعبلا ، حتى قال :

قبران فى طوسَ خير الناس كلِّهمِ وقبرُ شَرِّهمِ هذا من العِبَرِ
ما ينفع الرِّجْس من قُرْب الزكيِّ ولا على الزَّكِيِّ بقرب الرِّجْس من ضرر

ولم يكن الرشيد رجساً كما يقول ، فقد كان طهراً ، إذ كان يحج سنة ويغزو سنة على نحو ما هو معروف فى تاريخه ، وقد أنزل بالروم هزائم ساحقة ، وليس ذلك فحسب ، فإن له يداً على دعبل إذ استقدمه من موطنه وفرض له راتباً سنيًّا كما مرَّ بنا ، ولكن كأنما ينطوى دعبل على جحود غريب ، حتى ليطعن كل من قدم له صنيعاً . وله شعر شيعى كثير ، وقد أكثر فيه من الحديث عن فضائل على بن أبى طالب ، كما أكثر فيه من بكاء الحسين ورثائه بمثل قوله :

رأْسُ ابن بنتِ محمدٍ ووصيِّه ياللرِّجال على قناةٍ يُرْفَعُ
والمسلمون بمنظرٍ وبمَسْمَعٍ لا جازعٌ من ذا ولا متخشِّع

وهو يبدو فى شعره الشيعى إماميًّا وقد تشكك أبو العلاء فى تشيعه ، فقال إنه لم يكن صادقاً فيه وإنه إنما كان يريد التكسب به[1] ، ولعله محق فى تشككه ، لأن مثل دعبل المنطوى على كره الناس لا يمكن أن يخلص لآل البيت ، إلا أن يكون وراء ذلك باعث يدفعه لأن يقول ما لا يعتقده ، وكأن أموال «قم» هى التى دفعته لما كان ينظم من أشعار شيعية ، كما دفعته إلى هجاء الرشيد وغيره من الخلفاء ،

(١) رسالة الغفران (طبعة أمين هندية) ص ١٣٤ .

ويقال إن المأمون كان إذا سمع هجاءه فيه أو فى بعض وزرائه ضحك ، وكان ذلك يدفعه إلى التمادى حتى ليقول له مهدداً وكأنه يهدده بلسان أهل قم :

إنى من القوم الذين سيوفُهم قتلتْ أخاك وشرَّفتْك بمقعدِ

وهو يشير إلى أن طاهر بن الحسين قائد المأمون وقاتل أخيه الأمين من موالى قبيلته خزاعة . على أن هذا الولاء لطاهر لم ينفعه عنده ، فقد رماه بسهم لاذع من سهام هجائه التى كان ما ينى يرسلها على جميع من حوله ، وكان طاهر أعور ، ويلقب بذى اليمينين ، فقال :

وذى يمينين وعَيْنٍ واحـدهْ نقصان عينٍ ويمين زائده

وولّى وجهه نحو صديقه القديم مسلم بن الوليد ، وكان الحسن بن سهل ولاّه بريد جرجان ، فجفاه ولم يلقه ، وأثّر ذلك فى نفس دعبل ، غير أنه لم يعمد إلى هجائه ، خوفاً من لسانه ، وقد مر بنا كيف كان مسلم يقذع فى هجائه وكيف كان يريشه سهامًا مصمية ، وكأنما خشى دعبل معرة هجائه إن هو عرض له بالهجاء ، فعاتبه عتاباً رقيقًا بأبياته المعروفة :

أبا مَخْلَدٍ كُنَّا عَقِيدىْ مودَّةٍ هوانا وقلبانا جميعاً معاً معا
غَشَشْتَ الهوَى حتى تداعَتْ أصوله بنا وابتذلتَ الوصل حتى تقطَّعا
فلا تَعْذُلنِّى ليس لى فيك مطمعٌ تخرَّقْتَ حتى لم أجد لك مرقعاً
فهَبْكَ يمينى استأُكلتْ فقطعتُها وجشَّمتُ قلبى صبرةً فتشجَّعا

ويقال إنه قصد عبد الله بن طاهر فى ولايته لخراسان (٢١٤ — ٢٣٠ ﻫ) فكان يصله فى الشهر بمائة وخمسين ألف درهم ، ومع ذلك لم يسلم من لسانه . ولعله لم يتعرض للخليفة بالهجاء كما تعرض للمعتصم ، فقد صبَّ عليه شُواظاً ملتهباً من أهاجيه كقوله :

ملوكُ بنى العباس فى الكُتْب سَبْعَةٌ ولم تأتنا عن ثامنٍ لهمُ الكُتْبُ
كذلك أهلُ الكَهْف فى الكهف سبعةٌ كرامٌ إذا عُدُّوا وثامنهم كَلْبُ

وظل يرميه بسهام هجائه حتى توفى ، وخلفه ابنه الواثق ، فأسرع يطلق لسانه فيه ، جامعاً فى هجائه بينه وبين أبيه بمثل قوله :

خليفةٌ مات لم يحزنْ له أحدٌ ... وآخَرٌ قام لم يفرح به أحَدُ

وروى الرواة له فى المتوكل بيتاً مقذعاً واحداً ، وفيه يهجوه باستيلاء مواليه من الجند الأتراك على الحكم حتى أصبح كأنه لعبة فى أيديهم ، بل أصبح لهم عبداً ، يقول :

ولستُ بقائلٍ قذَعاً ولكن ... لأمرٍ مّا تعبَّدك العَبِيدُ

ولم يقف عند هجاء الأفراد ، فقد استعاد هجاء العصبيات القديم ، وكانت قصيدة الكميت الشيعى فى هجاء أصوله القحطانيين تؤذيه فعمد إلى نقضها بقصيدة نونية أودعها مثالب القبائل العدنانية . ولو أنه كان مخلصاً فى تشيعه حقاً لأعلَى صلة التشيع بينه وبين الكميت على العصبية القبلية ، وخاصة أن الكميت كان قد مات منذ زمن بعيد . وأثار ذلك أبو سعد المخزومى فاندلعت بينهما معركة هجاء عنيفة . والحق أن الهجاء كان طبعاً ركِّب فى نفسه حتى لنراه يهجو بجانب كل من أسدى إليه صنيعة زوجتَه وأخاه رزينا وأهل مدينة «قم» بل الناس جميعاً ، يقول :

ما أكثر الناسَ ، لا ، بل ما أقلَّهمُ ... والله يعلم أنى لم أقل فَنَدَا

إنى لأفتحُ عينى حين أفتحها ... على كثيرٍ ولكن لا أرى أحدا

وممن هجاهم فأقذع فى هجائه مالك بن طوق التغلبى ممدوح أبى تمام ، ويقال إنه وجد عليه موجدة شديدة جعلته يرسل له من اغتاله فى بعض قرى الأهواز . واختلف الرواة فى سنة وفاته ، فمنهم من جعلها فى عهد المعتصم ومنهم من تأخر بها إلى سنة ٢٤٦ للهجرة . وأكبر الظن أنه لم يتأخر إلى هذا التاريخ وأنه توفى لأوائل عهد المتوكل عقب هدمه لقبور الحسين والعلويين سنة ٢٣٥ .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يصور شاعريته ، فقد كان شديد العناية بصياغته وكان لا يزال يغوص على المعانى الدقيقة ، ومن حين إلى حين يوشى شعره بزخرف البديع ، وله أبيات كثيرة دارت على الألسنة من مثل قوله :

إن الكرامَ إذا ما أَسْهَلُوا ذكروا   مَنْ كان يأْلفهم فى المنزل الخشِن

وهو أحد مَنْ برعوا لعصره فى علم الشعر ونقده ، مما جعله يؤلف فى أخبار الشعراء كتاباً نفيساً طالما استقى منه القدماء فى كتاباتهم .

ديك [1] الجن

هو عبد السلام بن رَغْبان ، اشتهر بلقبه ديك الجن ، وهو من سلالة شخص يسمى تميما من أهل مُؤْتَة بالشام أنعم الله عليه بالإسلام على يد مولاه حبيب بن مسلمة الفِهْرى صاحب معاوية . ويقول الجهشيارى إن جَدّ ديك الجن حبيب ابن عبد الله كان يتقلد ديوان الإعطاء لأبى جعفر المنصور . ووُلد ديك الجن لأبيه بحمص سنة ١٦١ للهجرة ، ويقول أبو الفرج « إنه لم يَبْرَحْ نواحىَ الشام ولا وَفَد إلى العراق ولا إلى غيره منتجعًا بشعره ولا متصدياً لأحد ، وكان يتشيع تشيعًا حسناً ، وله مراث كثيرة فى الحسين بن على منها قصيدته :

يا عَيْنُ لا للغَضا ولا الكثُبِ   بُكا الرَّزايا سوى بُكا الطَّرَب

وهى مشهورة عند الخاص والعام ويُناح بها ، وله عدة أشعار فى هذا المعنى . ويقول أبو الفرج أيضاً إنه كان يكثر المقام عند أحمد بن على الهاشمى وأخيه جعفر فى سَلَمْيَة (من أعمال حمص) وكان يمدحهما كثيراً ، وقد برّح به الحزن حين توفى أحمد وأبنه فى قصيدة طويلة معزّيا بها أخاه جعفراً ، وقيل بل معزياً له عن زوجته ، وهى تصور غلوه فى التشيع إذ نراه يتمثله وكأنه إمام كبير من أئمة الشيعة ، ومن ثَمّ يخلع عليه بعض صفاتهم القُدْسية فى رأى شيعتهم من مثل قوله :

نحن نعزّيك ومنك الهُدَى   مُسْتَخْرَجٌ والنورُ مُسْتَقْبَلُ
نقول بالعَقْل وأنت الذى   نأْوِى إليه وبه نعقِلُ

---

(١) انظر فى ترجمة ديك الجن وأخباره وأشعاره الأغانى (طبعة دار الكتب) ٥١/١٤ ووفيات الأعيان لابن خلكان والوزراء والكتاب للجهشيارى ص ١٠٢ وراجع ديوانه نشر أحمد مطلوب وعبدالله الجبورى بدار الثقافة ببيروت، وانظر أيضاً ديوانه جمع الملوحى والدرويش طبع حمص وما نقلاه فى مقدمته عن كتاب الكشكول للعاملى وتزيين الأسواق للأنطاكى .

وأنت علاَّمُ غيوبِ النَّثَا يوماً إذا نَسْأَل أو نُسْأَلُ[1]
نَحن فداءٌ لك من أُمَّةٍ والأَرضُ والآخر والأَوَّلُ

فهو يجعله مصدر الهدى والنور ومعقل العقل وعلام الغيوب ، وكأنه يرى فيه ما يراه الشيعة الغالون فى أئمتهم . ولم يلبث جعفر أن توفى فبكاه بكاء حاراً . وكان يضمُّ إلى هذا التشيع شعوبية شديدة على العرب وعكوفاً على اللذات وشكوكاً فى الدين ، حتى ليبدو أحياناً شاكًّا فى البعث والنشور . ولم يبق من شعوبيته إلا آثار قليلة ، كقوله فى شعر له يخاطب به بعض أجواد العرب :

إن كان عُرْفُك مذخوراً لذى نَسَبٍ فَاضْمُمْ يديك فإنى لست بالعربى[2]
إنى امروٌ بازِلٌ فى ذِرْوَتَىْ شَرَفٍ لقيصرٍ ولكسرى مَحْتدى وأَبى[3]

أما لهوه وعكوفه على الخمر فواضحان فى أشعاره ، ويقال إنه كان له ابن عم فيه تَقْوَى ، فكان لا يزال ينهاه ، وهو لا يَرْعَوِى ولا يَزْدَجِر ، ومن طريف نعته للخمر وساقيتها قوله :

تسقيك كأْسَ مُدامةٍ من كفِّها ورديَّةٍ ومدامةً من ثَغرِها

وقد ضاع أكثر شعره ، ولم يبق منه إلا أطراف قليلة ، وإلا ما دار حول قصته مع زوجته « ورد » وكانت نصرانية من أهل بلدته ، فشُغِف بها حُبًّا ، وأكثر فيها من غزله ، وبادلته حبًّا بحب ، وأسلمت واقترنت به ، وعاشا مدة هانئين ، وهو سادر فى مجونه وغَوايته . وكان ذلك — فيما يقال — يؤذى ابن عمه ، فرأى أن يعكر عليه صفو حياته ، وسولت له نفسه أن يرصد له فى إحدى أوباته من سَلَمْيَةَ مَنْ يرمى عنده زوجته بالسوء ، ولا ندرى كيف صَدَّق ذلك ، وقد مضى قالةُ السوء يزيدون فى وهمه ، حتى سارع يضربها بسيفه ، فقضت نَحْبَها ، ثم عرف براءتها فعاش يبكيها ويندبها ، نَدْبَ قلبٍ مزَّقه الألم والندم ، بمثل قوله :

رَوَّيْتُ من دمها الثَّرَى ولطالما رَوَّى الهوى شَفَتَىَّ من شفتيها

---

(١) النثا : الخبر.
(٢) العرف : المعروف .
(٣) البازل : الكامل فى التجربة . المحتد : الأصل .

وقوله :

كنتِ زَيْنَ الأَحياء إذ كنت فيهمْ ... ثم قد صِرْتِ زين أهل القبورِ

وقوله :

قَمَرٌ أنا استخرجته من دَجْنِهِ ... لبَلِيَّتِى وجَلوتُه من خِدْرِهِ

عهدى به مَيْتاً كأحسن نائمٍ ... والحُزْنُ يَسْفَحُ عبرتى فى نَحْرِهِ

وكان يتعلَّق غلاماً وينظم فيه بعض أشعاره ، فجمعت الكتب المتأخرة بين الزوجة والغلام ، وجعلته مصدر شكه واتهامه ، ثم توسعت فى القصة ، فجعلته يراهما فجأة فى بعض الأيام متعانقين تحت إزار واحد ، فقتلهما وأحرق جسديهما وصنع من رماد كل منهما كوزاً يحتسى به الخمر ، وتزعم القصة أنه كان إذا أخذ فى الشرب تناول هذا تارة وذاك تارة ثانية ، مقبِّلا لهما ، ثم أخذ يصبُّ الخمر وهو يصبُّ دموعه منشداً مراثيه فيهما وقلبه يتقطع حزناً وكمداً .

وواضح مما أنشدناه له أنه كان يُعْنَى بشعره ويروِّى فيه ، ويقول أبو الفرج إنه يذهب مذهب الشاميين فى أشعاره ، وكأنه يريد أن يقرنه بأبى تمام والبحترى ومَنْ كانوا يُعْنَوْن فى شعرهم بالبديع . وليس من شك فى أن أروع أشعاره ما نظمه فى بكاء صاحبته ، متفجعاً متحسراً نادماً كما لم يندم أحد ، وما زال يردِّد ذلك حتى توفِّى سنة ٢٣٥ للهجرة .

٣

شعراء البرامكة

مرَّ بنا فى الفصل الأول أن البرامكة ينحدرون من أسرة كانت تضطلع بسدانة معبد النوبهار البوذى فى بلخ ، وقد تألق اسم خالد بن برمك فى قيادته لبعض الجيوش الخراسانية التى قوَّضت حكم بنى أمية . ونرى السفاح يتخذه وزيرا له ويقيمه على بعض الدواوين ، كما نرى المنصور وابنه المهدى يقربانه منهما ويولِّيانه الولايات والأعمال الجليلة . وما زال عندهما فى حظوة حتى توفِّى سنة ١٦٦ للهجرة . وعرف

المنصور فضل ابنه يحيى ، فولاه ولايات مختلفة فى إيران وأذربيجان . ويظهر أن علاقة وثيقة مبكرة انعقدت بين زوجة يحيى والخيزران زوجة المهدى ، فإن زوجة يحيى حين ولدت ابنها الفضل فى ذى الحجة لسنة ١٤٧ وولدت الخيزران ابنها الرشيد فى شهر المحرم التالى أرضعت كل منهما ابن صاحبتها ، فكانا أخوين فى الرضاع . ولا تكاد توافى السنة الثالثة من خلافة المهدى أى سنة ١٦١ حتّى يتخذ يحيى مؤدّباً لابنه الرشيد ، ويصبح منذ سنة ١٦٣ القيم على ديوان رسائله ، فكان يلزمه ويدبر شئونه ، حتّى إذا توفى المهدى وخلفه الهادى وفكر فى تنحية الرشيد عن ولاية العهد عرف كيف يصرفه عن عزمه ، فعظمت منزلته عند صاحبه ، وتطورت الأمور سريعاً ، فتوفى الهادى وخلفه الرشيد لسنة ١٧٠ فاتخذ يحيى وزيراً له ، وأطلق يده فى جميع شئون الدولة وسلّمه خاتم الخلافة ، فأصبح كأنه الحاكم الحقيقى ، وقد أقام ابنه الفضل على المشرق كله من النهروان إلى بلاد الترك وأقام ابنه جعفراً على المغرب كله من الأنبار إلى أقاصى إفريقية .

وكان يحيى عاقلا حصيفاً يحسن السياسة وتدبير الحكم والنهوض بشئون الثقافة، فمضى كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع يَصْبغ نظم الدولة السياسية والإدارية بالصبغة الساسانية كما مضى يُعْنَى بشئون الطب والترجمة ، فأنشأ المارستان واستدعى له غير طبيب من الهنود وغيرهم ، وشجع على الترجمة لكنوز الثقافات الهندية واليونانية والفارسية ، وبعث نهضة فكرية واسعة . وفتح أبوابه للشعراء والمغنين وأسبغ عليهم هو وابناه الفضل وجعفر العطايا الجزيلة ، حتّى لَتُرْوَى فى ذلك روايات تشبه الأقاصيص ، وهى تدل على أنهم كانوا بحوراً فياضة وغيوثا منهلّة . جود سيال توارثوه عن أبيهم خالد ممدوح بشار ، وهو جود جعل صلاتهم لا تنقطع عن الشعراء ، فإذا كثيرون منهم ينقطعون لهم ، وإذا هم يَشْركون الرشيد فى جميع شعرائه ، وقلما وجد شاعر لعصرهم فى بغداد إلا ودبّج فيهم بعض مدائحه ، ومرت بنا أطراف من ذلك عند سلم الخاسر ومروان بن أبى حفصة ومسلم بن الوليد ، وممن كان يختص بهم نُصَيْب الأصغر ، وله فى يحيى كلمة طارت أبياتها فى الآفاق من مثل قوله [1] :

عند الملوك مَضَرَّةٌ ومنافعٌ وأرى البرامك لا تضرُّ ، وتنفعُ

(١) أغانى (ساسى) ٢٠/٣٤ والجهشيارى ص ٢٠٣ .

وكان ابن مناذر كثير المديح ليحيى ، وله فيه قصيدة كانت فاكهةَ أهل الأدب لجودة ألفاظها ومعانيها ، وفيها يقول مشيداً به وبابنيه الفضل وجعفر [١] :

أتانا بنو الأملاك من آل برمكٍ ... فياطيبَ أخبارٍ ويا حُسْنَ منظرِ
لهم رحلةٌ فى كل عامٍ إلى العِدا ... وأُخرى إلى البيت العتيقِ المُسَتَّرِ
إذا نزلوا بَطْحاء مكة أشرقتْ ... بيحيى وبالفضل بن يحيى وجعفرِ
فما خُلِقَتْ إلا لجودٍ أكفُّهم ... وأقدامُهم إلا لأعوادِ مِنْبَرِ
إذا رامَ يحيى الأمرَ ذلَّتْ صِعابُه ... وناهيك من داعٍ له ومدبِّرِ

وممن لهج بمديح يحيى وابنيه أبو قابوس الحيرى النصرانى ، وفى يحيى يقول مصوراً بِرَّه وجوده ووفاءه بوعوده وعهوده [٢] :

رأيت يحيى أتمَّ اللهُ نعمتَهُ ... عليه يأْتى الذى لم يأْته أَحَدُ
ينسى الذى كان من معروفه أبدًا ... إلى الرجال ولا ينسى الذى يَعِدُ

وكان الأصمعى يألف جعفر بن يحيى ويُخَصُّ به ، وله فيه مدائح كثيرة وتقريظ وتفضيل ، ومن طريف ما له فيه [٣] :

إذا قِيلَ : مَنْ للنَّدَى والعُلا ... مِنَ الناس قيل الفتى جعْفَرُ
وما إن مدحتُ فَتًى قبله ... ولكنْ بنو بَرْمكٍ جَوْهَرُ

وفيه تقول عنان جارية الناطفى [٤] :

بديهتُهُ وفكرتُهُ سواءٌ ... إذا التبست على الناس الأُمورُ

وكان أخوه الفضل أكثر منه جوداً وأندى راحة ، فتكاثر الشعراء على بابه ، وتكاثرت مدائحهم فيه ، وصوَّر ذلك بعض الشعراء فقال [٥] :

ما لقينا من جود فَضْل بن يحيى ... ترك الناسَ كلَّهم شعراءَ

---

(١) ابن المعتز ص ١٢٥ .
(٢) الجهشيارى ص ١٧٩ .
(٣) الجهشيارى ص ٢٠٦ .
(٤) الجهشيارى ص ٢٠٤
(٥) الجهشيارى ص ١٩٥ .

عَلَّم المُفْحَمِين أن ينظموا الأَشْـ عارَ منَّا والباخلين السَّخَاء

ومن أكثر من مديحه نُصَيْب الأصغر وفيه يقول واصفاً جوده الغَدِق[١] :

جادَ الربيعُ الذى كُنَّا نؤمِّلُهُ فكلُّنا بربيع الفضل مُرْتَبِعُ

وفيه يقول سعيد بن وهب[٢] :

مَدَحَ الفضلُ نفسه بالفعالِ فعَــلا عن مديحنا بالمقالِ

ويقول إسحق الموصلى من أبيات فيه عمل فيها لحناً وغنَّاه بها ، فطرب طرباً شديداً[٣] :

لو كان بينى وبين الفضل معرفةٌ فضل بن يحيى لأعدانى على الزَّمَنِ
هُو الفتى الماجدُ الميمونُ طائرهُ والمشترى الحمدَ بالغالى من الثمن

وكان أخوه جعفر يجفو أبا نواس فصبَّ عليه شواظا من هجائه ، أما هو فأدناه منه وعظم نائله إليه ، مما جعله يلهج بالثناء عليه ، وفيه يقول[٤] :

أَوْحَدَهُ اللهُ فما مِثْلُهُ لطالِبٍ ذاك ولا ناشدِ
ليس على الله بمستنكَرٍ أن يجمع العالَم فى واحد

وممن كان ينقطعْ إليه أبو النَّضير أحد الشعراء المغنين ، وفيه وفى آ له يقول[٥] :

إذا كنتَ من بغداد منقطع النَّدَى وجدتَ نسيمَ الجود من آل بَرْمَكِ

وما زال الشعراء يتناشدون مدائح الفضل وأخيه وأبيه منذ أسلم الرشيد يحيى مقاليد الخلافة فى سنة ١٧٠ حتى أول صفر سنة ١٨٧ إذ نكبهم الرشيد نكبته المشهورة آمراً بقتل جعفر وصلب أجزاء جسده وحَبْس أبيه وأخيه ، وظلا فى الحبس إلى أن ماتا ، أما يحيى فمات فى سنة ١٩٠ ومات الفضل فى سنة ١٩٢ . وكان طبيعيًّا أن يبكيهم الشعراء وأن يذرفوا عليهم الدموع مدراراً ، لما أغدقوا عليهم من النعم والصلات السنية ، ومن طرائف مراثيهم قول منصور النمرى[٦] :

---

(١) أغانى (ساسى) ٣١/٢٠ .
(٢) أغانى (ساسى) ٧١/٢١ .
(٣) الجهشيارى ص ١٩١ .
(٤) الحيوان للجاحظ ٦٣/٣ .
(٥) أغانى (طبع دار الكتب) ٢٨٦/١١ .
(٦) مروج الذهب للمسعودى ٤٩٦/٣ .

أيدى بنى برمكٍ لدينا ... تبكى عليهم بكلِّ وادِ
كانتْ بهم بُرْهةً عروسا ... فأَصحتِ الأَرض فى حِدادِ

وكان الفضل بن عبد الصمد الرَّقاشى منقطعاً إليهم ، وطالما نوَّهوا باسمه وأجزلوا فى عطائه ، فلما صُلب جسد جعفر على الجسر اجتاز به وهو على الجِذْع فوقف يبكى أحرَّ بكاء ، ثم أنشأ يقول(١) :

أما واللهِ لولا خوفُ واشٍ ... وعَيْنٌ للخليفة لا تنامُ
لطُفْنا حول جِذْعك واستلمنا ... كما للناسِ بالحَجَرِ استلام
وما أبصرتُ قبلك يابن يحيى ... حُساماً حَتْفه السيف الحسام
على اللذات والدنيا جميعاً ... ودولة آل برمكٍ السلام

وأخذ يتحسر عليهم ويتفجع فى مراث كثيرة ، ونحن نقف قليلا عند شاعرين من أهم شعرائهما : أبان بن عبد الحميد اللاحقى وأشجع بن عمرو السُّلَمِىّ .

أبان(٢) بن عبد الحميد(٣) اللاحقى

من موالى البصرة ، وبها منشؤه ومرباه ، وقد تفتحت شاعريته مبكرة وأخذ يتجه بها نحو الهجاء ، وسرعان ما اصطدم بالمعذَّل بن غَيْلان ، واستطار بينهما الشَّرُّ ، ونرى المعذَّل فى هجائه يتهمه بأنه مانوى(٤) زنديق ، وهى تهمة ظلت عالقة به ، مما يدلّ على أن لها أساسًا فى حياته ، وسنرى الجاحظ لا ينفيها عنه ، بل يثبتها متعجباً ، ويظهر أنه كان يضم إلى هذه الزندقة شيئًا من العكوف على اللهو والمجون شأن أخدانه من الشعراء . وممن هجاهم أيضًا فى باكورة حياته بعض

---

(١) أغانى (ساسى) ١٥/٣٤ وانظر له مرثية أخرى فى غرر الخصائص الواضحة للوطواط (طبعة بولاق سنة ١٢٨٤ هـ) ص ٤٠٧ .
(٢) انظر فى ترجمة أبان وأخباره وأشعاره الأغانى (طبعة الساسى) ٢٠/٧٣ والأوراق للصولى (قسم أخبار الشعراء) طبع مطبعة الصاوى ص ١ – ٥٢ وابن المعتز ص ٢٠٢ وما بعدها وص ٢٤١ والوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٢١٨ والحيوان للجاحظ ٤/٤٤٧ وما بعدها وتاريخ بغداد ٧/٤٤ والنجوم الزاهرة ٢/١٦٧
(٣) فى الفهرست لابن النديم : حميد . انظر ص ١٦٣ .
(٤) الصولى ص ٧ .

قضاة البصرة ، ومن طريف ما يُرْوَى من هجائه أنه كان فى جواره بالبصرة رجل من ثقيف يقال له محمد بن خالد كان شديد العداوة له ، فتزوج ثقفية يقال لها عَمَّارة بنت عبد الرحمن ، كانت موفورة الثراء ، فقال أبان يهجوها ويحذرها منه :

لما رأيتُ البَزَّ والشَّارَهْ والفَرْشَ قد ضاقتْ به الحارَهْ
واللَّوْزَ والسُّكَّر يُرْمَى بهِ من فوق ذى الدار وذى الداره
وأحضروا المُلْهِين لم يتركوا طَبْلاً ولا صاحبَ زمَّارَه
قلت لماذا ؟ قيل أعجوبةٌ محمدٌ زُوِّجَ عَمَّارَه
لا عمرَّ الله بها بيته ولا رأتْه مدركاً ثاره
ماذا رأتْ فيه؟ وماذا رجت؟ وهْى من النسوان مختاره
أَسْوَدُ كالسَّفُّود يُنْسَى لدى التَّنُّور بل مِخْراكُ قَيَّارَه
يُجْرِى على أولاده خمسةً أَرْغفةً كالرِّيش طيَّارَه
وأهله – فى الأرض من خوفه إن أفرطوا فى الأكل – سيَّاره

وما كادت عمارة تسمع هذا الهجاء حتى فَرَّت على وجهها ، وهو هجاء يدل على ما وراءه من ظرف . ولايكاد يُظلّ الناس عصر الرشيد والبرامكة الأجواد حتى نراه يهاجر من موطنه إلى بغداد ، متجهاً تَوًّا إلى الفضل[1] بن يحيى ، ومدبجاً فيه قصيدة طويلة صوَّر فيها نفسه مثالا للنديم وأوصافه التى كانت تُشْتَرَطُ لهذا العصر فى الندماء ، يقول :

أنا من بغْية الأَمير وكنزٌ من كنوز الأَمير ذو أرباحِ
كاتبٌ حاسبٌ أديبٌ خطيبٌ ناصحٌ راجحٌ على النُّصَّاحِ
شاعرٌ مفلقٌ أخفُّ من الريـ ـشةِ مما تكون تحت الجناحِ
وظريفُ الحديث من كلِّ فَنٍّ وبصيرٌ بترَّهات المِــلاحِ
كم وكم قد خَبأْتُ عندى حديثًا هُوَ عند الملوك كالتُّفَّاحِ

(١) فى بعض الروايات أنه اتجه إلى جعفر .

ومضى فى القصيدة يصف أخذه من كل علم بطرف وبصره بالصيد وشئونه وأنه ليس قصيراً ولا مفرط الطول ، مع صباحة الوجه ولطافة المزاج . فوصله الفضل وخفّ على نفسه ونفس أبيه يحيى وأخيه جعفر ، وقرب من قلوبهم جميعاً حتى صار صاحبهم وحظيّهم . وقد نوّه بالفضل طويلاً حين قضى على ثورة يحيى ابن عبد الله العلوى بالديلم لسنة ١٧٥ للهجرة وجاء به إلى بغداد ، وكان قد طلب الصلح حقناً للدماء ، وفى ذلك يقول أبان مخاطباً الرشيد :

هنيئا أميرَ المؤمنين لك الظَّفَرْ ... فقد تَمَّتِ النُّعْمَى وقد ساعد القَدَرْ
أتاك بيحيى الفضلُ سلمًا يقوده ... مُقِرًّا ولولا يُمْنُ جَدِّك ما أقَرْ

ويظهر أنه كان يتشيع للعلويين تشيعاً يسرّه ولا يظهره ، ففى أخباره أنه عتب على البرامكة أنهم لا يصلونه بالرشيد ، ذاكراً لهم أمنيته فى أن يحظى من جوائزه السنية ما يحظى به مروان بن أبى حفصة ، فقالوا له إنه إنما يحظى بتلك الجوائز لدفاعه عن حق البيت العباسى فى الخلافة ورده على العلويين ردًّا عنيفاً ، فاسْلُكْ طريقه إن شئت ، فقال : لا أستحلّ ذلك . ثم حَلِيت فى عينه صلات الرشيد ، فراجع نفسه ونظم فيه مدحة طويلة يقول فى تضاعيفها :

نشدتُ بحقِّ الله مَنْ كان مسلمًا ... أعُمُّ بما قد قلتُه العُجْمَ والعَرَبْ
أعَمٌّ رسول الله أقربُ زُلْفَةً ... لديه أم ابنُ العَمِّ فى رتبة النَّسَبْ
وأيهما أولى به وبعهدِهِ ... ومن ذا له حَقُّ التراث بما وجب؟
فإن كان عباسٌ أحقَّ بتلكمُ ... وكان علىٌّ بعد ذاك على سَبَبْ
فأبْناء عباسٍ همُ يرثونه ... كما العَمُّ لابن العَمِّ فى الإرث قد حَجَبْ

ولم يكد يفرغ من إنشاد القصيدة بين يدى الرشيد حتى أمر له بعشرين ألف درهم واتصل مَدْحه به . وبلغ من عظم قدره عند يحيى بن خالد أن قلّده ديوان الشعر فكان الشعراء يرفعون إليه أشعاره فى البرامكة ، فيسقط منها ما يرى إسقاطه ويعرض ما يرى أنه خليق بالعرض ، مميزاً بينهم مقدراً لكل منهم المكافأة التى يستحقها جزاء إحسانه . وحدث أن تقدم إليه أبو نواس بقصيدة مع طائفة

من الشعراء،فأمر له بدرهم ناقص ، وفى روايةأنه أسقط قصيدته ، فاغتاظ غيظاً شديداً ، وهجاه وتبادلا الهجاء طويلا . ويقال إن الهجاء بينهما إنما اندلعت ناره لأن يحيى بن خالد كان قد تقدّم إلى أبى نواس بنظم كليلة ودمنة فزيّن له أبان أن يستعفى يحيى من النهوض بهذا العمل المضنى ، ثم حبس نفسه فى بيته لا يخرج منه حتى فرغ من نقلها إلى الشعر فى أربعة أشهر بالغا بها أربعة[1] عشر ألف بيت . وحمل نقله إلى يحيى بن خالد ، فأعطاه عليه مائة ألف درهم ، وفى رواية أنه أعطاه عليه عشرة آلاف دينار وأعطاه الفضل خمسة آلاف . فحزن أبو نواس ووجد عليه وجداً شديداً ، وأخذ يقتصّ منه بهجاء مرير ، وردّ عليه أبان ، فاشتعلت بينهما معركة هجاء عنيفة ، كان أبو نواس دائماً هو الذى يكثر فيها من السهام المسمومة .

وقد أتاه كثيراً من ثغرة زندقته ، وروى له الجاحظ فى حيوانه هجائية من هذا اللون ، وهو يتهمه فيها بأنه مانوى وأنه يتشبه بمطيع بن إياس ووالبة وحماد عجرد وغيرهم من المجان ، ولا ينفى الجاحظ تهمة الزندقة عن أبان غير أنه ينفى أن يوضع مع مطيع وأمثاله فى كفة واحدة ، يقول : « ولقد كان أبان وهو سكران أصحّ عقلا من هؤلاء وهم صحاة » . ويقول ابن المعتز موازناً بينه وبين أبى نواس : « كان فى جميع أحواله أرفع طبقة من أبى نواس ، وقد هجاه أبو نواس بشعر كثير فما سار له فيه شىء على شهرة شعره ، ولم يقل فى أبى نواس غير ثلاثة أبيات ، وقد سارت فى الدنيا ، وهى هذه :

أبو نواس بن هانى ... وأمُّه جُلُّبانُ[2]
والناسُ أفطنُ شىء ... إلى حروف المعانى
إن زدت بيتا على ذى ... ما عشتُ فاقطعْ لسانى

وهى أبيات لاذعة . ويروى الرواة أنه كان له جار يعاديه ، فاعتلّ علة طويلة ، وأرجف أبان بموته ، ثم صحّ من علته ، وخرج فجلس على بابه ، وإذا أبان ينشده أهجية ، فلم يلبث أن أُرْعِدَ منها واضطرب ، ودخل منزله فما خرج منه حتى

(١) فى ابن المعتز : أن أبانا إنما بلغ بها خمسة آلاف بيت .
(٢) الجلبان : شجرة الورد ، وهو اسم أم أبى نواس ، وكأن أبانا يتخذ من ذلك مغمزاً له .

مات . وكان يحسن الرثاء ، ومرثيته التي رواها الصولى فى سوار بن عبد الله قاضى البصرة من أجود المراثى ، وهى طويلة طولا مسرفاً .

وأهم ما نهض به أبان فى الشعر نظمه لكليلة ودمنة ، وقد نظم بجانبها — كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع — أرجوزة مزدوجة فى الصوم والزكاة ومزدوجات أخرى فى التاريخ الفارسى وقصيدة فى نشأة الخلق وعلم المنطق . وبذلك مكَّن لشيوع الشعر التعليمى فى العربية ، ونكتفى هنا بقطعة من هذا الشعر افتتح بها باب الأسد والثور فى كليلة ودمنة ، وهى تمضى على هذه الشاكلة :

وإن من كان دَنِئَ النَّفْسِ　　يَرْضَى من الأَرفع بالأَخَسِّ
كمثل الكلب الشقىِّ البائس　　يَفْرَحُ بالعظم العتيق اليابسِ
وإن أهل الفضل لايرضيهمُ　　شىء إذا ما كان لا يَغْنيهمُ
كالأَسد الذى يصيد الأَرْنَبا　　ثم يرى العَيْرَ المجدَّ هَرَبَا[1]
فيُرْسِلُ الأَرْنَبَ من أظفارهِ　　ويتبع العَيْرَ على أدبارهِ

وتطَّرد أرجوزته فى كليلة ودمنة وفى كثير من الموضوعات التعليمية التى عُنى بالنظم فيها على هذا النمط المزدوج الذى اصطفى له لغة جزلة متينة طالما راعت معاصريه ومَنْ تلاهم ، حتى ليقول ابن المعتز فى التعريف به : « كان شاعراً أديباً ، عالمًا ظريفاً ، منْطيقاً ، مطبوعاً على الشعر مقتدراً عليه . . وهو الذى نقل كليلة ودمنة شعرا بتلك الألفاظ الحسنة العجيبة . . ولم يقدر أحد من الناس أن يتعلق عليه بخطأ فى نقله ، ولا أن يقول : ترك من لفظ الكتاب أو معناه » . وترجم الصولى لأخيه عبد الله وابنه حمدان وحفيده أبان . ونظن ظنًّا أنه ظل مشغولا بعد البرامكة بشعره التعليمى ، حتى توفى سنة ٢٠٠ للهجرة ، فإنه لم يُؤْثَرْ له شعر فى مديح الأمين ولا فى مديح المأمون وقواده ووزرائه .

---
(١) العير : حمار الوحش .

أشجع [1] بن عمرو السُّلمى

من بنى الشريد السُّلَميِّين ، كان أبوه ينزل البصرة ، وتعلق بامرأة من أهل اليمامة ، فشخص معها إلى موطنها وتزوجها ، فولدت له بموطنها أشجع حيث قضى السنوات الأولى من حياته . ومات أبوه فقدمت به أمه إلى البصرة تطلب ميراث أبيه ، وكانت قد رُزقت منه أيضًا ولديها أحمد وحُرَيْثاً . وأكمل أشجع نشأته ومَرْباه بالبصرة ، وتفتحت مواهبه الشعرية فابتهجت به قبيلته وأخواتها من القبائل القيسية ، وكان الشعر يومئذ فى ربيعة واليمن ، ولم يكن لقيس شاعر معدود ، فلما نجم أشجع ولمع اسمه افتخرت به قيس ، وبادلها فخراً بفخر من مثل قوله :

إذا افتخرتْ قيسٌ بطيبِ العناصِرِ   على الناس طاطا رَأسَه كلٌّ فاخرِ

ولم يلبث أن شد رحاله إلى بغداد لأواخر عهد المنصور (١٣٦ — ١٥٨ هـ) فمدح ابنه جعفراً ، ويقال إن الذى وصله به عوف بن أحمد بن يزيد السُّلَمى ، وله فيه وفى أبيه أحمد وعمه محمد مدائح مختلفة . ولم يكد يبزغ عصر الرشيد حتى وصلته به زوجه زُبَيْدة بنت جعفر بعد وفاة أبيها ممدوحه ، فأسْنَى جوائزه ، ويقال : بل الذى وصله به جعفر بن يحيى البرمكى . وتؤكد بعض الروايات أن أول اتصاله به إنما كان فى الرَّقَّة حين انتقل اليها من بغداد سنة ١٨٠ لينفر منها سريعاً إلى حرب الروم حين يدعو الداعى ، ومن أجل ذلك استوطنها مدة . ونظن أن اتصاله بالرشيد يسبق هذا التاريخ ، فقد روى صاحب الأغانى عنه أنه قال : « دخلتُ على محمد الأمين حين أجلس مجلس الأدب للتعلم وهو ابن أربع سنين ، وكان يجلس فيه ساعة ثم يقوم ، فأنشدت :

مَلِكٌ أبوه وأمه من نَبْعَةٍ   منها سراجُ الأمة الوَهَّاجُ [2]

---

(١) انظر فى أشجع وأشعاره وأخباره ابن المعتز ص ٢٥١ والشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٨٥٧ والأغانى (طبعة الساسى) ١٧ / ٣٠ والأوراق للصولى (قسم أخبار الشعراء) ص ٧٤ وتاريخ بغداد ٧ / ٤٥ والموشح للمرزبانى ص ٢٩٥ ومروج الذهب للمسعودى ٣ / ٢٩٦ والوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٢١٥ والمرزوقى على الحماسة ص ٨٥٦ .

(٢) النبعة : شجرة ضخمة تتخذ منها القسى والسهام ، والاستعارة واضحة .

شربتْ بمكة فى رُبَى بَطْحائها ماءَ النبوة ليس فيه مِزاجُ[1]

فأمرتْ له أمه زُبَيْدة بمائة ألف درهم ، ويقال إنه لم يتولَّ الخلافة أحد أبوه وأمه من بنى هاشم إلا على بن أبى طالب ومحمد الأمين » . ومعروف أن الأمين ولد سنة ١٧٠ ومعنى ذلك أن دخول أشجع عليه ومدحه كانا فى سنة ١٧٤ وفى ابن المعتز ما يدل على أن البيتين من قصيدة مدح بها الرشيد . وسنراه يكثر من مدحه فى حربه لنقفور ، وقد مضى يوثق عهده للمأمون بولايته العهد بعد أخيه الأمين توثيقاً شديداً بقوله :

بيعةُ المأمونِ آخذةٌ بعِنان الحقِّ فى أُفقِهْ
لن يفكَّ المرء رِبْقَتَها أو يفك الدين من عُنقه
وله من وجــه والدِهِ صورةٌ تَمت ومن خلقه

وكتب الرشيد لولديه كتاباً بهذا العهد ، وعلَّقه فى سقف الكعبة سنة ١٨٢ فانبرى أشجع يصوب رأيه ويؤكِّده فى قصيدة َطرب لها الرشيد .

على أن صلته به إنما كانت فى ثنايا صلة وثيقة بجعفر بن يحيى البرمكى وأبيه وأخيه ، حتى لكأنما اقتطعوه منه ، ويقال إن أنَس بن أبى شيخ كاتب جعفر هو الذى وصله به ، ثم انعقدت صلته بأخيه الفضل وأبيه يحيى وكان أول ما أنشده :

ذهبتْ مكارمُ جعفرٍ وفَعاله فى الناس مثل مذاهب الشَّمْسِ
ملكٌ تسوس له المعالى نَفْسُه والعقلُ خيرُ سياسة النَّفْسِ

فأمر له بعشرة آلاف درهم ، وكان جعفر حينئذ بمجلسٍ فى أحد قصورهم بحى الصالحية ، فقال له صف موضعنا ، فأنشد على البديهة :

قصورُ الصالحيَّة كالعَذَارى لَبِسْنَ ثيابهن ليوم عُرْسِ
مطلاَّتٌ على روضٍ كستْه أيادى الماء وشياً نَسْجَ غَرْسِ
إذا ما الطَّلُّ أثَّر فى ثَراه تنفَّس نَوْرُهُ من غير نفسِ[2]

(١) بطحاء مكة : واديها بين الربى والجبال . وكانت تنزله فى الجاهلية عشائرها الشريفة .

(٢) الطل : الندى والمطر الخفيف .

فتَغْبقه السماءُ بصِبْغ وَرْسٍ   وتَصْبحه بأكوُس عَيْن شمسٍ(١)

وأعجب جعفر بحسن بديهته . وأصبح شاعره وشاعر أسرته يمدحه ويمدح أباه يحيي وأخاه الفضل، ويغدقون جميعًا عليه العطايا الجزيلة ، ومن قوله فى يحيى :

كفانى صروفَ الدهر يحيي بن خالدٍ   فأَصبحتُ لا أرتاع للحدثانِ
كفانى ـ كفاه الله كلَّ مُلِمَّةٍ ـ   طِلابَ فلانٍ مرَّة وفلان
فأَصبحتُ فى رَغْدٍ من العيش واسعٍ   أقلِّب فيه ناظرى ولسانى

ونراه يرافق جعفراً حين هاجت العصبية بين النزارية واليمنية فى الشام لسنة ١٨٠ وقد ظفر بجماعة ممن سعوا بالفساد وشرَّد آخرين وأصلح ذات البين بين الفئتين المتناحرتين . وأكثر من مديحه حينئذ ، ويقال إنه كان يُجْرى عليه فى كل يوم جمعة مائة دينار وأشجع يجرى عليه أشعاره من مثل قوله :

أَصلحتَ أَمر الشام محتسبًا   ورتقت ما فيها من الفَتْقِ
ما كان يَدْرَكُ بالقتال ولا   بالمال ما أدركت بالرِّفْقِ

وعزم الرشيد فى نفس السنة على تولية جعفر خراسان وسجستان وأخرج له الأمر بذلك ، فابتهج وابتهج معه شاعره ، ولم يلبث أن دبَّج فيه إحدى روائعه وفيها يقول :

يريد الملوك مدى جعفرٍ   ولا يصنعون كما يصنعُ
وليس بأوسعهم فى الغنى   ولكنَّ معروفَه أوسع
وكيف ينالون غاياته   وهم يجمعون ولا يجمع
بديهتُه مثلُ تدبيره   متى رُمْتَهُ فهْو مستجمع

وبدا للرشيد فرجع فى أمره وعزيمته ، فأنشده شعراً طريفاً يسليه به ، زاعماً أن الرشيد رأى حاجته إليه أمسّ من حاجة أهل خراسان . ويكثر من مديح جعفر

(١) تغبقه : من الغبوق وهو شرب الخمر فى المساء ، والورس : زهر أصفر . تصبحه : من الصبوح وهو شرب الخمر فى الصباح .

ولا يلمُّ به مرض هو أو أبوه إلا ويكثر من دعائه لهما بالشفاء وفى يحيى يقول وقد أخذته علة :

إذا ما الموتُ أخطأَه فلسنا نبالى الموتَ حيث غدا وراحا

ولما استأذن من الرشيد أن يجاور بمكة لسنة ١٨١ ظل يردد افتقاد بغاة الخير له وحزنهم لطول غيبته من مثل قوله :

قد غاب يحيى فما أرى أحدًا يَأْنَسُ إلا بذكره الحَسنِ
أوحشتِ الأرض حين فارقها من الأيادى العظام والمِنَنِ
لولا رجاءُ الإياب لانصدعتْ قلوبنا بعده من الحَزَنِ

ويروى صاحب الأغانى أن جعفرا ولاه عملا ، فرفع إليه أهله شكايات كثيرة متظلمين منه ، فصرفه جعفر عنهم ، فلما رجع إليه من عمله مثَل بين يديه وأنشده قصيدة طويلة يقول فيها :

لقد هزَّتْ سنانَ القول منى رجالٌ وقيعةٍ لم يعرفونى
أطافوا بى لديك وغبْتُ عنهم ولو أدنيتنى لتجنَّبونى

فوصله جعفر وخلع عليه . وظل يتغنى بجعفر وبأبيه وأسرته حتى نكبهم الرشيد، فتحسر عليهم طويلاً ومن قوله فيهم :

كأنما أيامهم كلها كانتْ لأهل الأرض أعيادا

وجعلته صلته بالبرامكة يمدح كتَّابهم وأصحابهم من مثل إسماعيل بن صَبيح ، ومن جيد قوله فيه :

له نظرٌ لا يغْمض الأَمرُ دونه تكاد ستورُ الغيب عنه تمزَّقُ

ولعله لم يكثر من مديح صاحب لهم كما أكثر من مديح محمد بن منصور ابن زياد . وقد مضى بعد نكبتهم يحاول القربى من الرشيد ، وأوصله له حاجبه ووزيره الفضل بن الربيع قائلاً له : « هو أشعر شعراء أهل الزمان وقد اقتطعته

عنك البرامكة فأمر بإيصاله مع الشعراء » وقد تغنى بانتصاراته على نقفور وجنوده وفتحه لهرقلة غناء حارًّا ، من مثل قوله :

برقتْ سماؤك فى العدوِّ وأمطرتْ هَاماً لها ظِلُّ السيوف غَمامُ[1]
وعلا عدوَّك يا بن عمِّ محمد رَصَدان : ضوء الصبح والإظلامُ
فإذا تنبَّه رُعْتَهُ وإذا غفا سَلَّتْ عليه سيوفَك الأَحلام

ولما بلغ هذا البيت فى القصيدة اهتز الرشيد ، وأمر بأن ينثر عليه الدر إعجاباً واستحساناً ، وله يقول من قصيدة أخرى وقد جلس للشعراء عقب هذا الفتح فى يوم عيد :

لا زلتَ تنشر أعيادًا وتطويها تَمْضى بها لك أيَّامٌ وتُمْضيها
ولْيَهْنك الفتح والأَيامُ مقبلة بالنصر والعزِّ معقودًا نواصيها
أَمستْ هرقلة تهوى من جوانبها وناصرُ الله والإسلام يرميها

وكان الرشيد يكثر من حجه إلى البيت الحرام ومن جهاده العنيف للروم ، قاسماً سنيه بين حج وغزو ، فصور ذلك أشجع تصويراً بديعًا فى قصيدة استقبله بها فى يوم قدوم له من حج بإحدى السنوات ، وفيها يقول :

أَلِفَ الحجَّ والجهاد فمايَنْ فكُّ من سَفْرتين فى كل عامِ
سَفَرٌ للجهاد نحو عدوٍّ والمطايا لِسَفْرة الإحرام[2]
طَلَبَ الله فهْو يسعى إليه بالمطايا وبالجياد السَّوَام
فيداه يَدٌ بمكة تدعو ه وأُخرى فى دعوة الإسلام

وله مدائح مختلفة فى الفضل بن الربيع . وكان يجيد الرثاء كما كان يجيد المديح ، إذ كان يعرف كيف يمس القلوب وكيف يستثير الحزن فى الصدور ، على نحو ما يلقانا فى رثائه لمحمد بن منصور بن زياد ، وفيه يقول :

---

(١) الهام : الرءوس .
(٢) جعل المطايا أى الإبل رمزاً للحج والجياد رمزاً للجهاد ، والسوام : من سامت الريح : إذا مرت واستمرت .

أنْعَى فتى الجود إلى الجود ... ما مثلُ مَنْ أنعى بموجود
أنْعَى فَتًى مصَّ الثرى بعده ... بقيَّةَ الماء من العود

فالأرض يَبِسَتْ أشجارها بموته . ومن مراثيه الرائعة التى رواها أبو تمام فى حماسته مرثيته فيمن يسمى ابن سعيد وفيها يقول :

مضى ابنُ سعيدٍ حين لم يبق مَشْرقٌ ... ولا مغربٌ إلا له فيه مادحُ
وما كنت أدرى ما فواضلُ كفِّه ... على الناس حتى غَيَّبَتْه الصَّفائح (١)
فأصبح فى لَحْدٍ من الأرض مَيِّتاً ... وكانتْ به حَيًّا تضيق الصحاصِحُ (٢)
سأبكيك ما فاضتْ دموعى فإن تَغِضْ ... فحسبك منى ما تُجِنُّ الجوانح (٣)
وما أنا من رُزْءٍ وإن جَلَّ جازعٌ ... ولا بسرورٍ بعد موتك فارح
كأن لم يمتْ حَىٌّ سواك ولم تقم ... على أحدٍ إلا عليك النوائح
لئن حسنتْ فيك المراثى وذكرُها ... لقد حَسُنَتْ من قبل فيك المدائحُ

وغزله رقيق وله خمريات قليلة . وواضح مما أنشدناه له أنه كان غزير المعانى رشيق الأسلوب وأن قصائده الجياد تعد من عيون الشعر فى هذا العصر ودرره النفيسة ، وقد عاش حتى شهد قتل الأمين فى سنة ١٩٨ إذ روى له الصولى قصيدة فى مديح طاهر بن الحسين الذى حاصره إلى أن ظُفر به وقُتل صبْراً ، وفى ذلك يقول مخاطباً له :

سلبتَ رِداءَ الملك ظالمَ نفسِه ... وصنتَ الذى ولَّاك قَصْمَ الجبابرِ

وأكبر الظن أنه توفى بعد ذلك بقليل .

---

(١) الصفائح : الحجارة المراض فى سقف القبر .
(٢) الصحاصح : الأرض الواسعة المستوية .
(٣) تجن : تضمر . الجوانح : الضلوع .

٤

شعراء الوزراء والولاة والقواد

لا يكاد يوجد فى هذا العصر وزير ولا وال ولا قائد إلا وقد مدحه الشعراء طلباً لجوائزه السنية ، ولن نستطيع أن نستقصى مدائحهم ، ولذلك سنكتفى بأكثرهم تداولا على ألسنة الشعراء ، ولعل أنبه وزير لعصر المنصور أكثر الشعراء من مديحه خالد بن برمك . وكان يعقوب بن داود وزير المهدى ومهجو بشار ممدَّحا لكثير من الشعراء ، وقد وجدوا عليه وجداً شديداً حين حبسه المهدى ، وصوّروا ذلك فى أشعارهم من مثل قولى أبى حنش النُّمَيْرى[١] :

يعقوبُ لا تَبْعُدْ ، وجُنِّبْتَ الرَّدَى فلنبكينَّ زمانك الرَّطْبَ الثَّرَى

وقول أبى الشِّيص مخاطباً المهدى[٢] :

أَبلغْ إمام الهُدَى أن لستَ مصْطنعًا للنائبات كيعقوبَ بن داودِ
لو تبتغى مثله فى الناسِ كلِّهم طلبتَ ما ليس فى الدُّنْيا بموجودِ

واستوزر المهدى بعده الفيض بن أبى صالح ، وكان غيثاً مدراراً ، وممن كان ينقطع إليه أبو الأسد الحِمَّانى التميمى وفيه يقول[٣] :

ولائمةٍ لامتك– يا فَيْضُ – فى النَّدَى فقلتُ لها لن يَقْدَحَ اللَّوْمُ فى البَحْرِ
أرادتْ لِتَنْهَى الفيضَ عن عادة النَّدَى ومن ذا الذى يَثْنى السحابَ عن القَطْرِ
مواقعُ جودِ الفَيْضِ فى كل بَلْدَةٍ مواقعُ ماءِ المُزْنِ فى البلد القَفْرِ
كأنَّ وفودَ الفيض لما تحمَّلوا إلى الفيض لاقَوْا عنده ليلةَ القَدْرِ

ومَرَّت بنا مدائح الشعراء فى البرامكة ، وكان الفضل بن الربيع يحجب الرشيد فى وزارتهم ، ثم خلفهم على وزارته ، ووزر من بعده للأمين ، وقد مدحه ونوَّه

(١) المرزوقى على الحماسة ص ٩٤٦ .
(٢) الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ١٦٣ .
(٣) الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٤ / ١٣٤ .

به كثيرون وفى مقدمتهم أبو نواس وأبو العتاهية ، وفيه يقول(١) :

إذا ما كنت متخذًا خليلا ... فمثل الفَضل فاتَّخِذِ الخليلا
يرى الشكر القليل له عظيماً ... ويُعْطى من مواهبِه الجزيلا
أرانى حيثما يَمَّمتُ طرفى ... وجدتُ على مكارمه دليلا

ولإسحق الموصلى أشعار فيه لحَّنها وغنَّى فيها ، وممن يُسْلك فى مُدّاحه أبو نخيلة ، وسلم الخاسر ، وأشجع السُّلَمى ، ومنصور النَّمَرِى ، وفيه يقول(٢) :

هو الأَوْحَدُ فى الفَضْل فما يُعْرَفُ ثانيهِ

ونلتقى بعده بالفضل والحسن ابنى سهل وزيرى المأمون ، وكانا جوادين ممدّحين ، وقد نوَّه مسلم بن الوليد بالفضل طويلا ، وفيه يقول مشيراً إلى تدبيره الأمر للمأمون حتى أسقط الأمين(٣) :

أقمتَ خلافةً وأزلْتَ أخرى ... جليلٌ ما أقمتَ وما أزلتا

وقد عاش الحسن بعد الفضل طويلا ، فكثُرت أمداح الشعراء فيه ، وفى مقدمتهم أبو تمام وأبوالعَمَيْثَل وأبو فرعون الساسى ومحمد بن عبدالملك الزيات ومحمد بن وهيب ، وفيه يقول(٤) :

به تُجْتَدَى النعْمَى وتُسْتدرك المنى ... وتُسْتكمل الحسنى وتُرْعَى الأَواصِرُ
ولما رأى الله الخلافة قد وهتْ ... دعائمها والله بالأَمر خابِرُ
بنى بك أركانًا عليها محيطةً ... فأنت لها دون الحوادث ساترُ

ولعل وزيراً بعده لم يُمْدَحْ كما مُدح محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم والواثق ، وللحسن بن وهب كاتبه فيه أشعار كثيرة ولعل شاعراً لم ينوّه به كما نوَّه أبو تمام .

وإذا تركنا الوزراء إلى الولاة وجدنا بينهم كثيرين من الأجواد الممدّحين

(١) أغانى ٤/٦٧ .
(٢) أغانى ١٣/١٥٠ .
(٣) ديوان مسلم ص ٣٠٧ .
(٤) أغانى (ساسى) ١٧/١٤٤ .

وفى طليعتهم مَعْن بن زائدة الشيبانى والى اليمن للمنصور ثم سجستان ، وهو ممدوح مروان بن أبى حفصة كما مرّ بنا فى غير هذا الموضع ، ومن مدّاحه مطيع بن إياس والحسين بن مطير ، وله فيه حين توفى مرثية بديعة أنشدنا قطعة منها فى غير هذا الموضع . وطبيعى أن يكثر فى هذا العصر مديح ولاة البصرة والكوفة ، ويتردّد مديح الأولين فى ديوان بشار حتى وفاته ، كما يتردّد الثانون فى أشعار الكوفيين ترددا أوسع من أن يُحْصَى ويستقصى . وكان فى كل ولاية شعراء من أهلها لا يزالون يمدحون ولاتها ، وكان كثير من شعراء العراق يفدون عليهم لأخذ جوائزهم ، ويكفى لتصوير ذلك أن نرجع إلى مصر فسنرى بها شعراء من الطبقة الثانية لا يزالون يمدحون من يتولى عليها على نحو ما يصور لنا ذلك كتاب الولاة والقضاة للكندى . وقد رحل إليها غير شاعر مقدِّمًا مدائحه لولاتها الذين اشتهروا بجودهم ، ظافراً منهم بالصلات السنية ، ومن ولاتها الأجواد لعهد المنصور يزيد بن حاتم بن قبيصة المهلبى ممدوح بشار وربيعة الرَّقّى . وقد قدم عليه فى ولايته ابن المولى ومدحه بقصائد كثيرة من مثل قوله :

يا واحدَ العربِ الذى ... أَضحَى وليس لِه نظيرُ

لو كان مثلَك آخَرٌ ... ما كان فى الدنيا فقيرُ

ويقال إنه أعطاه فى هذه القصيدة عشرين ألف دينار [1] ، غير ما أعطاه فى قصائده الأخرى . وقد عرضنا فى حديثنا عن أبى نواس لرحلته إلى الخصيب صاحب خراجها وما أغدق عليه من برِّه ، كما عرضنا فى حديثنا عن أبى تمام لرحلته إلى عياش بن لهيعة الحضْرمى ، وما كان من اتصاله بولاتها المختلفين ، وصوّرنا من بعض الوجوه مدائحه لبعض ولاة دمشق والموصل وديار ربيعة وأذربيجان والثغور . ومرّت بنا أيضًا مدائح دعبل للمطلب الخزاعى حين ولى مصر وكيف أشاد به أولاً ثم هجاه .

وليس من شك فى أن طاهر بن الحسين وابنه عبد الله هما أهم ولاة تغنّى بهما الشعراء ، إذ جذبا إلى ولايتهما فى خراسان غير شاعر ، ومن مدّاح طاهر الرقاشى وأبو العميثل والشاعر الملقب بالصينى ، على نحو ما يصوّر لنا ذلك ابن المعتز ،

(١) أغانى (دار الكتب) ٣ / ٢٨٩ وما بعدها .

ويقول فى ترجمة عوف بن محلِّم الخزاعى : «كان معدوداً من الشعراء الظرفاء المحدَّثين وكان طاهر بن الحسين قد استخصَّه واختاره لمنادمته ، فكان لا يفارقه فى سفر ولا حَضَر . . ومما سار له فى الدنيا قوله له إذ وقف على الجسر فى حرَّاقة[1] يَنْحدر إلى دار الخليفة ، فقال رافعًا صوته :

عجبت لحرَّاقة ابن الحُسَـ ـيْنِ كيف تسير ولا تَغْرَقُ
وبحران : من تحتها واحـــدٌ وآخَرُ من فوقها مُطْبِقُ
وأعجب من ذاك عيدانُهـــا وقد مسَّها كيف لا تُورِقُ

وكان ابنه عبد الله على مثاله جوداً وشجاعة وسماحة ، ويقال إنه لما ولاه المأمون مصر لسنة ٢١١ أعطاه مالها لعام : خراجَها وضياعها ، فوهبه كله وفرَّقه فى الناس ، وقد لهج الشعراء فيها بمديحه وفى مقدَّمتهم مُعَلَّى الطائى وله يقول[2] :

لو أصبح النِّيلُ يَجْرى ماؤه ذهباً لما أشرتَ إلى خَزْنٍ بمثقالِ
تَفُكُّ باليُسْر كفَّ العُسْرِ من زمنٍ إذا استطال على قوم بإقلالِ
وما بثثتَ رَعِيلَ الخَيْل فى بلدٍ إلا عَصَفْنَ بأرزاقٍ وآجالِ

وقد لزمه فى ولايته على خراسان كثير من الشعراء أمثال أبى العَمَيْثل وعوف بن محلم الخزاعى شاعرى أبيه ، وله يقول عوف من قصيدة طويلة[3] :

يابنَ الذى دان له المشرقانْ وأُلبِسَ الأَمنَ به المغربانْ

وهو ممدوح على بن جبلة وأبى تمام والعتَّابى ، وله يقول[4] :

ودُّك يكفينيك فى حاجتى ورؤيتى كافيـــةٌ عن سؤالْ
وكيف أخشى الفقر ما عشتَ لى وإنما كَفَّاك لى بيتُ مالْ

وعلى نحو ما مدح الشعراء الولاة ونوَّهوا بهم طويلا مدحوا القواد أمداحاً رائعة ، ومدائح بشار وأبى العتاهية فى عمر بن العلاء الذى قضى على المحمرة بجرجان لعهد المهدى

(١) الحراقة : ضرب من السفن .
(٢) أغانى (دار الكتب) ١٠٢/١٢ .
(٣) ابن المعتز ص ١٨٨ .
(٤) أغانى ١١٧/١٣ .

مشهورة . ولعل قائداً لم يُمْدَحْ فى عصر الرشيد كما مُدح يزيد بن مزيد الشيبانى ممدوح مسلم بن الوليد ، وفيه يقول منصور النمرىّ (١) :

لا تقربنَّ يزيدًا عند صَوْلتِهِ — لكنْ إذا ما احْتَبَى للجود فاقترب

ومن مداحه على بن الخليل وعبد الله بن أيوب التيمى . ومن كبار القواد لعهد المأمون والمعتصم أبو دُلَف العِجْلى ، يقول أبو الفرج فى ترجمته له : « محله فى الشجاعة وعلوّ المحل عند الخلفاء وعظم الغَنَاء فى المشاهد وحسن الأدب وجودة الشعر محل ليس لكبير آخر من نظرائه (٢) » وكانت غيوث كرمه لا تزال تنهلُّ على الشعراء ، مما جعل ألسنتهم تلهج بمديحه ، وممن كان ينقطع إليه على بن جبلة وأبو الأسد الحِمَّانى التميمى وبكر بن النطاح ، وفيه يقول مصوّراً شجاعته (٣) :

قالوا وينظم فارسين بطعنةٍ — يومَ اللقاء ولا يراه جليلا
لا تعجبوا لو أن طول قناتهِ — ميلٌ إذن نظمَ الفوارسَ ميلا

وله يقول (٤) :

فكَفُّك قوسٌ والنَّدَى وَتَرٌ لها — وسَهْمك فيه اليُسْر فارْمِ به عُسْرِى

ويقول أيضاً فيه :

ولقد طلبنا فى البلاد فلم نجدْ — أحدًا سواك إلى المكارم يُنْسَبُ

وهو من مدَّاح أبى تمام ومحمد بن وهيب وغيرهما . وقد جلَّى فى حروب المأمون والمعتصم مع بابك والروم قواد كثيرون فى مقدمتهم الأفشين وخالد ابن يزيد بن مزيد وأبو سعيد محمد بن يوسف الثغرى ولأبى تمام فيهم أمداح رائعة صوَّرنا أطرافًا منها فى ترجمته . ونحن نقف قليلا عند أربعة من شعراء هؤلاء القواد ومن سبقهم من الولاة والوزراء وهم أبو الشيص وعبد الله بن أيوب التَّيْمى وعلى ابن جبلة والخُرَيْمى .

(١) أغانى ١٣/١٥٥ .
(٢) أغانى ٨/٢٤٨ .
(٣) أغانى (طبعة الساسى) ١٧/١٥٥ .
(٤) ابن المعتز ٢١٩ .

أبو الشيص[1]

غلبَ عليه لقبه أبو الشيص واسمه محمد بن عبد الله بن رَزين وهو ابن عم دِعْبل ، ويقول أبو الفرج « كان متوسط المحل فى شعراء عصره غير نابه الذكر لوقوعه بين مسلم بن الوليد وأشجع وأبى نواس ، فخمل وانقطع إلى عقبة بن جعفر ابن الأشعث الخزاعى أمير الرَّقَّة فمدحه بأكثر شعره ، فقلما يُرْوَى له فى غيره ، وكان عقبة جواداً فأغناه عن سواه » . ومن مختار شعره فيه قوله مستطرداً من وصف الإبل إلى مديحه :

إن الأَمانَ من الزمان ورَيْبهِ ... يا عُقْبَ شَطًّا بَحْرك الفَيَّاضِ
بَحْرٌ يلوذ المعتفون بِنَيْلِهِ ... فَعْم الجداول مُتْرَع الأَحواض[2]
ثَبْتُ المقام إذا التوى بعدُّوه ... لم يَخْشَ من زَلَلٍ ولا إدْحاضِ[3]
غَيْثٌ توشحتِ الرياضُ عِهادَهُ ... لَيْثٌ يطوف بغابةٍ وغِياضِ[4]
ومشمِّرٌ للموت ذَيْلَ قميصِهِ ... قانى القناة إلى الرَّدَى خَوَّاض

ويقول ابن المعتز إنه مدح الرشيد مدائح كثيرة ، ولما مات أكثر من رثائه ومَدْح الأمين وله فى ذلك بدائع كثيرة من مثل قوله :

جَرَتْ جوارٍ بالسَّعْد والنَّحْس ... فنحن فى وَحْشَةٍ وفى أُنْسِ
العينُ تبكى والسِّنُّ ضاحكةٌ ... فنحن فى مأْتمٍ وفى عُرْسِ
يضحكنا القائم الأَمين وتُبْـ ... كينا وفاةُ الإِمام بالأَمسِ
بدران : بدرٌ أَضْحَى ببغداد فى الْـ ... خُلْدِ وبَدْرٌ بطوسَ فى الرَّمْسِ[5]

---

(١) انظر فى أبى الشيص وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص ٧٢ وابن قتيبة ص ٨٢٠ والأغانى (طبعة دار الكتب) ١٦/٤٠٠ ونكت الهميان للصفدى ص ٢٦٧ وتاريخ بغداد ٥/٤٠١ وفوات الوفيات ٢/٢٢٥ .

(٢) فعم : مملوء .

(٣) إدحاض : انزلاق .

(٤) العهاد : أول مطر الربيع . غياض : جمع غيضة وهى الشجر الملتف .

(٥) الخلد : قصر بناه المنصور ببغداد . الرمس : القبر .

وله فيه مرثية طويلة عجيبة يقول فيها مستغلا وفاته بطوس فى المشرق :

غَرُبَتْ فى المشرق الشمـ ـسُ فقُلْ للعَيْن تَدْمَعْ
ما رأينا قطُّ شمسًا غربتْ من حيث تَطْلُعْ

ومن رائع مراثيه قوله يبكى بعض الأبطال وقد سقط صريعًا فى ميدان القتال مصوراً بأسه وشجاعته :

ختلتْه المنون بعد اختيالٍ بين صَفَّين من قَناً ونِصالِ
فى رداءٍ من الصفيح صقيلٍ وقميصٍ من الحديد مُذَالِ[1]

وهو أحد من برعوا فى الغزل ووصف الخمر ، وله فيهما أشعار كثيرة طارت فى الدنيا وسارت بها الركبان من مثل قوله فى الغزل :

مهاةٌ ترتمى الأَلبا بَ عن قوسٍ من السِّحْرِ
لها طَرْفٌ يشوب الخَـ ـمْرَ للنَّدْمان بالخَمْرِ
عفيفُ اللَّحْظِ والإغضا ءِ فى الصَّحْوِ وفى السُّكْرِ

وقوله فى الخمر :

وعذراءَ لم تفترعها السُّقَاةُ ولا استامها الشَّرْبُ فى بَيْتِ حانى[2]
ولم تزلِ الشمسُ مشغولةً بصَنْعتها فى بطون الدِّنانِ
ترشِّحها لأثام الرِّجال إلى أن تصدَّى لها الساقيانِ
عجوزٍ غَذَا المِسْكُ أصداغَها مضمَّخة الجِلْدِ بالزَّعْفَرانِ
يطوف علينا بها أَحْوَرٌ يداه من الكأْس مخضوبتانِ

وله فى المشيب وبكاء الشباب كثير من الأشعار الرائعة التى يُطْرِف فيها تارة بالصور والأخيلة البديعة ، وتارة بالمعانى التى تمس المشاعر والقلوب من مثل قوله :

---

(١) مذال : طويل الذيل .

(٢) استامها : ساوم على شرائها .

أبدى الزمانُ به نُدوبَ عِضاضِ ورمى سوادَ قرونه ببياضِ[١]

وقوله :

خلع الصِّبا عن منكبيه مشيبُ وطوى الذوائبَ رأسُه المخضوبُ
نَشَر البِلى فى عارضيه عَقَارِباً بِيضاً لهنَّ على القرون دَبيب

وقوله يذكر الشباب :

فهل لك يا عيشُ من رجعةٍ بأيامك المونقات الحِسانِ
وهيهات يا عيش من رجعةٍ بأغصانك المائلات الدَّوانى
لقد صدع الشيبُ ما بيننا وبينك صَدْعَ الرِّداءِ اليَمانى

وعَمِىَ بأخرة من حياته ، فحزن حزنًا عميقًا ، ومضى يرثى عينيه ويبكيهما بأبيات مؤثرة ، تصور التياعه التياعًا شديداً من مثل قوله :

يا نفسُ بكِّى بأدمعٍ هُتُنٍ وواكفٍ كالجُمان فى سَنَنِ[٢]
على دليلى وقائدى ويدى ونور وجهى وسائِس البَدنِ
أبكى عليها بها مخافةَ أنْ تَقْرِننى والظلامَ فى قَرَنِ

ولعل فى ذلك كله ما يصور براعته فى الشعر وكيف كان يحسن نسيجه نافذاً إلى كثير من دقائق المعانى وروائع الصور والأخيلة . ويقال إن بعض الغلمان قتله وهو ثَمِل بالخمر سنة ١٩٦ للهجرة .

عبد الله[٣] بن أيوب التيمى

كان يُكْنَى أبا محمد وهو من موالى بنى تَيْم ومن أهل الكوفة ، وقد تركها إلى بغداد طلبًا لجوائز الخلفاء والوزراء والقواد ، وبها انعقدت صلة وثيقة بينه وبين

(١) الندوب : الكلوم والجراح .
(٢) هتن : غزيرة . واكف : سائل لاينقطع.
(٣) انظر فى عبد الله بن أيوب وأخباره وأشعاره الأغانى (طبعة الساسى) ١٨/ ١١٥ وانظر ١٧/ ٣١ و ٤٥ والحيوان ٦/ ٥٠٥ والنجوم الزاهرة ٢/ ١٨٩ .

إبراهيم الموصلى وابنه إسحق ، ثم اتصل بالرشيد والبرامكة ومدحهم جميعاً ونال جوائزهم ، ويقال إنه أخذ من يحيى البرمكى وبنيه مائة ألف درهم ، وقد جلّى فى حادثة مشهورة ، ذلك أن الرشيد هزم نقفور صاحب بيزنطة هزيمة ساحقة جعلته يركع على قدميه ويؤدى له الجزية التى افترضها صاغراً . ورجع الرشيد إلى الرقة ، فلما سقط الثلج وأمن نقفور أن يُغزَى نقض الصلح المعقود ، وحار وزراء الرشيد كيف يخبرونه ، ثم رأوا أن يخبره بذلك بعض الشعراء ، وسرعان ما دبّج التيمى قصيدة حماسية رائعة ضمّنها الخبر ، ودخل على الرشيد فأنشدها بين يديه قائلاً :

نَقَضَ الذى أعطاكه نَقْفُورُ فعليه دائرةُ البَوَارِ تَدورُ
أَبْشِرْ أمير المؤمنين فإنّه فَتْحٌ أتاك به الإلٰهُ كَبِيرُ
نقفورُ ! إنك حين تَغْدر أن نأى عنك الإمامُ لجاهلٌ مغرورُ
أظننت حين غدرتَ أنك مفلتٌ هَبِلَتْك أُمُّك ما ظننت غرورُ
أبقاك حَيْنُك فى زواخر بحره فَطمَتْ عليك من الإمام بحورُ[1]

واهتز الرشيد طربا بشعره ونَثَر عليه الدُّرَّ . وزحف بجيوشه حتى أناخ على هرقلة ، فافتتحها عنوة ، وذلّ نقفور وذلّت الروم .

ويقول صاحب الأغانى إن التيمى اتصل بيزيد بن مزيد ، فلم يزل منقطعا إليه حتى مات ، وليس بين أيدينا ما يصوّر مدائحه له ، وقد بكى فيه بطولته وذياده عن حياض الدولة وفتكه بأعدائها فتكاً ذريعاً حين اختطفه الموت ، وفى ذلك يقول من مرثية رائعة تعد من أجود مراثى العصر :

أحقٌّ أنه أَوْدَى يزيدُ تبيّنْ أيها الناعى المشيدُ[2]
أتدرى مَنْ نعيتَ وكيف فاهتْ به شفتاك؟! كان بك الصَّعِيد[3]
أحامى المجد والإسلام أَوْدَى فما للأرض ويحك لا تَميد[4]
تأمّلْ هل ترى الإسلامَ مالتْ دعائمُه وهل شاب الوليدُ

---

(١) الحين : الموت والهلاك .
(٢) أودى : مات .
(٣) الصعيد هنا : القبر .
(٤) تميد : تتحرك وتهتز .

وهل شِيمَتْ سيوفُ بنى نِزارٍ ... وهل وُضِعتْ عن الخيل اللُّبودُ[١]
وهل تَسْقِى البلادَ عِشارُ مُزْنٍ ... بِدِرَّتِها وهل يَخْضَرُّ عود[٢]
أَبَعْدَ يزيد تختزن البواكى ... دموعـا أو تُصان لها خُدودُ
ومن عجبٍ قَصَدْنَ له المنايا ... على عَمْدٍ وهنَّ له جنود
لقد عَزَّى ربيعةَ أنَّ يومًا ... عليها مثل يومك لا يعود

ويقال إن الرشيد كان حين يسمع هذه المرثية فى قائله يبكى بدموع غزار حتى لو كان بين يديه كأس لملأه بدموعه .

ونرى التيمى بعد عصر الرشيد يصل حباله بالأمين ويلجّج معه فى نقضه لعهد أخيه المأمون ، وله فى ذلك قصيدة يقال إن الأمين أعطاه عليها مائة ألف درهم . ولما تطورت الحوادث وانتصر المأمون على أخيه أخذ ينقض ما صاغه فى الأمين بمثل قولـه :

نُصِرَ المأمون عبد اللَّـ ... ـهِ لمـا ظلموهُ
نقضوا العهد الذى كا ... نوا قـديماً أكَّدوه
لم يعامله أخـوهُ ... بالذى أوصى أبوه

وعفا عنه المأمون ووصله ، واتصل بقواده ووزرائه من مثل طاهر بن الحسين والفضل بن سهل ، وفيه يقول[٣] :

لعَمْرُك ما الأَشرافُ فى كل بلدةٍ ... وإن عظموا إلا لفَضْلٍ صَنائعُ
تَرى عظماءَ الناس للفضل خُشَّعًا ... إذا ما دَنا والفضل لله خاشع

وهو يُعَدُّ فى الخلعاء المُجّان ، غير أن أشعاره فى الخمر متوسطة ، ويظهر أنه كفَّ عنها بأخرة من حياته ، وحسنت سيرته ، وحَسُن إيمانه ، يشهد لذلك مثل قوله :

---

(١) شيمت السيوف : أغمدت .

(٢) المزن : السحب . والعشار : جمع عشراء وأصلها الناقة على وشك أن تلد ، يريد المزن المحملة بالأمطار ، الدرة : أصلها كثرة اللبن ويريد المطر الغزير .

(٣) قارن الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٣٢٠ بالأغانى ١٨ / ١٩٩ حيث ذكر أبو الفرج أن البيتين فى مديح الفضل بن الربيع .

لا تخضعنَّ لمخلوقٍ على طمعٍ ... فإن ذاك مُضِرٌّ منك بالدينِ
وارغبْ إلى الله مما فى خزائنِه ... فإنما هو بين الكاف والنُّونِ

وواضح أنه كان شديد أسر الشعر ، وأنه كان يعرف كيف يصطفى اللفظ ، سواء أراد الأسلوب الجزل الرصين أو الأسلوب العذب الرقيق . وقد توفى سنة ٢٠٩ للهجرة .

على[1] بن جبَلة

اشتهر بلقبه العَكَوَّك ، ومعناه القصير السمين ، وهو من أبناء شيعة العباسيين الخراسانيين ، وُلد سنة ١٦٠ للهجرة بحىّ الحربية فى بغداد ، وكان ضريراً ، وفى بعض الروايات أنه وُلد أكمه لا يبصر ، وفى روايات أخرى أنه فقد بصره فى صباه . وجعلته هذه العاهة يتجه إلى الدرس والتعلم ورواية الشعر وحفظه ، وسرعان ما استبانت فيه موهبته الشعرية ، فأخذ ينظم الشعر متكسباً به . ولم تطمح نفسه إلى مديح الخلفاء ، وإن كان يقال إنه مدح المأمون ، ولكن على كل حال ليس بين أيدينا شىء من هذا المديح . ونراه يمدح وزيره الحسن بن سهل بمثل قوله :

أَعطيتَنى يا ولىَّ الحق مبتدئاً ... عطيَّةً كافأَتْ مَدْحى ولم ترنى
ماشِمْتُ بَرْقك حتى نِلْتُ رَيِّقه ... كأَنما كنتَ بالجَدْوَى تبادرنى[2]

وأهم ممدوحيه حُمَيد بن عبد الحميد الطوسى وأبو دُلف العِجْلى ، وله فى أولهما قصيدتان يقال إنه أعطاه فى كل منهما مائة ألف درهم ، وقد أنشده أولاهما فى يوم عيد والثانية فى يوم نيروز ، وفيها يقول :

حُمَيْدُ ياقاسم الدنيا بنائلهِ ... وَسَيْفِه بين أهل النَّكْث والدينِ

(١) انظر فى على بن جبلة وأخباره وأشعاره ابن قتيبة ص ٨٤٠ وابن المعتز ص ١٧١ ، ٤٣٣ والأغانى (طبع الساسى) ١٨/١٠٠ وكتاب الورقة لابن الجراح (طبع دار المعارف) ص ١٠٦ وتاريخ بغداد ١١/٣٥٩ ونكت الهميان للصفدى ص ٢٠٩ ومرآة الجنان لليافعى ٢/٥٣ وشذرات الذهب ٢/٣٠ ووفيات الأعيان لابن خلكان .

(٢) شام البرق : نظر إليه أين يتجه . والريق : أول الغيث . الجدوى : العطاء .

أنت الزمان الذى يجرى تصرُّفه على الأنام بتشديدٍ وتليينِ
لو لم تكن كانت الأيام قد فنيتْ بالمكرمات ومات المجد مُذْ حينِ
صوَّرك الله من مجد ومن كرمٍ وصوَّر الناس من ماءٍ ومن طين

وله فيه مدائح كثيرة ، ومن بديع مديحه فيه قوله وكان يلقب بأبى غانم كناية عن بطولاته وانتصاراته المدوية فى الحروب :

دِجْلَةُ تَسْقِى وأبو غانمٍ يُطْعِم مَنْ تَسْقِى من الناسِ
والناسُ جسمٌ وإمامُ الهُدَى رَأْسٌ وأنت العين فى الرّأس

وقولـــه :

إنمـــا الدُّنْيا حُمَيْدٌ وأياديـــه الجِسامُ
فإذا ولَّى حُمَيْدٌ فَعلى الدنيا السلام

وعثَّر القدر بمحمد بن حميد فى حروبه مع بابك ، فخرَّ صريعًا فى ساحة البطولة والجهاد لأول سنة ٢١٤ للهجرة ووجدت عليه بغداد والعالم الإسلامى وجداً شديداً ، ورثاه أبو تمام بمراثٍ رائعة عرضنا لها فى حديثنا عنه ، ولعلى بن جبلة مرثية بديعة فيه ويقال بل هى فى أبيه حميد ، ويقول أبو الفرج إن البحترى وأبا تمام سلخا فى مراثيهما أكثر معانيها وفيها يقول :

أللدهرِ تبكى أم على الدهر تَجْزَعُ وما صاحبُ الأيام إلا مفجَّعُ
أُصِبْنا بيومٍ فى حُمَيْد لو انَّهُ أصاب عروش الدهر ظلتْ تضعضع
وكنت أراه كالرزايا رُزِئْتُها ولم أدر أن الخلق تبكيه أجمع
نعـــاء حميدًا للسرايا إذ غدتْ تُذاد بأطراف الرماح وتوزَعُ[1]
كأن حميدًا لم يقد جيش عسكرٍ إلى عسكر أشياعُه لا تروَّع
ولم يبعث الخيلَ المغيرةَ بالضحى مِراحا ولم يرجع بها وهْى ظُلَّعُ[2]

(١) نعاء : اسم فعل أمر من نعى . توزع : تكف .

(٢) ظلع : من الظلع وهو العرج .

رواجـــع يحملْنَ النِّهابَ ولم تكن كتائبه إلا على النهب ترجعُ
هوى جَبَل الدنيا المنيعُ وَغَيْثُها الـ مَريع وحاميها الكميُّ المشيَّع[١]

واستنفد أبو دلف بعطاياه السنية أكثر مدائحه حتى لم يكد يبقى فيه شيئاً لغيره ، إلا ما كان من حميد الطوسى ، ومدائحه فيه أبدع وأروع ، وقد طار منها كثير على كل لسان من مثل قوله فيه :

ملكٌ تَنْدَى أناملُهُ كانبلاج النَّوْء عن مَطرِهْ[٢]
مُسْتَهلٌّ عن مواهبِهِ كابتسام الروض عن زَهَرِهْ
إنمــا الدُّنيا أبو دُلَفٍ بين مَغْزاه ومُحْتَضَرِه[٣]
فإذا ولَّى أبو دلف ولَّتِ الدنيا على أثَرِهْ

وقوله وقد أسرف فى المبالغة :

أنت الذى تُنْزِلُ الأيَّامَ منزلها وتنقل الدَّهر من حالٍ إلى حالِ
وما مددتَ مَدَى طَرْفٍ إلى أحَدٍ إلا قضيتَ بأرزاق وآجالِ

ويقال إنه كان يثير المأمون بمثل هذا الشعر فى أبى دلف وشعره الآخر فى ابن حميد ، فطلبه وهرب منه إلى الجزيرة ، وحُمِل إليه فأمر بإخراج لسانه من قفاه ثم قتله . وقد رفض ابن المعتز وأبو الفرج هذه الرواية الكاذبة على المأمون المعروف باتساع أفقه وسماحة نفسه وكرم سجاياه ، وقالا إنه مات حتف أنفه . وقال بعض من ترجموا له إنه مات سنة ٢١٣ وفى أخباره أنه رحل إلى عبد الله بن طاهر فى ولايته على خراسان ومدحه فأجزل صلته واستأذنه فى الرجوع ، فسأله أن يقيم واتصل برُّه به ، فلما طال مقامه اشتاق إلى أهله ، فدخل إليه وأنشده من قصيدة مستأذنا فى القفول إلى موطنه :

ملكٌ عَزْمه الزمـــا نُ وأفعـــالهُ الدُّوَلْ

---

(١) المريع : الخصيب . الكمى : الشجاع. (٢) النوء : نجوم تظهر قبل المطر.

ليتَه حين جاد لى بالغِنَى جاد بالقَفَلْ

وأذن له مغدقا عليه من نواله. وعبد الله بن طاهر إنما أقام فى خراسان منذ سنة ٢١٤ . وفى ذلك دليل على أن وفاة على بن جبلة تأخرت على الأقل إلى هذه السنة ، وواضح أنه كان يجيد المديح إلى أبعد حد ، وكان يعرف كيف يتصرف بمعانيه ، مع الألفاظ الرشيقة العذبة ، ومن طريف معانيه قوله :

يـأْسو الذى يجرح أعداؤهُ وما لما يَجْرحه آسِ

وقوله :

كأَنهم والرمـــاح شابكةٌ أُسْدٌ عليها أَظلَّتِ الأَجَمُ

وقوله فى مديح أبى دلف :

له هِمَمٌ لا منتهى لكبارها وهمَّتُه الصغرى أَجلُّ من الدهرِ

ولعل فى كل ما قدمنا ما يصور براعته فى صنع الشعر وأنه كان يعمد إلى لغة سهلة عذبة مونقة ، ودفعه مزاجه الفارسى الحاد إلى الإكثار من المبالغة فى نعت ممدوحيه ، حتى ليفرط فى ذلك إفراطاً شديداً .

الخُرَيْمِىّ

هو أبو يعقوب إسحق بن حسان بن قوهى الخُرَيْمى ، من صُغْد التّرك من مرو ، وهو جزرى نزل بغداد ، وكان له ولاء فى غطفان جعله يلزم عثمان بن خُرَيم المُرِّى الغطفانى فى ولايته على أرمينية ، وظلّ وفيًّا له ، فنُسب إليه ، وفيه يقول :

جَزَى اللهُ عثمانَ الخُرَيمىَّ خير ما جَزَى صاحبًا جَزْلَ المواهب مُفْضِلا

(١) انظر فى الخريمى وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص ٢٩٣ وابن قتيبة ص ٨٢٩ وتاريخ بغداد ٣٢٦/٦ و زهر الآداب ٢٠١/٤ وفهارس الوزراء والكتاب للجهشيارى والبيان والتبيين والحيوان للجاحظ وكذلك الطبرى ٤٥٨/٦ و ٥٢/٧ والكامل للمبرد (طبعة ليبسك) ص ٧٠٣ ومعجم البلدان ٣٦٣/٥ وكتاب الورقة لابن الجراح ص ١٠٢ .

كفى جَفْوَةَ الإخوان طول حياتهِ وأورث مما كان أعطى وخَوَّلا [١]

وفى أخباره ما يدل على أنه كان يكثر من الاختلاف فى بغداد إلى مجالس الأدب ، ويظهر أيضًا أنه كان يختلف إلى مجالس المتكلمين إذ يكثر الجاحظ فى بيانه من النقل عنه . وقد تألق نجمه فى عصر الرشيد والبرامكة ، وفيه يقول ابن المعتز : « كان يمدح الخلفاء والوزراء والأشراف فيُعْطَى الكثير » ، ومن شعره فى يحيى البرمكى :

يا راعيَ السلطان غير مفرِّطٍ فى لين مختبَطٍ وطيب شِمام [٢]
حتى تَنَخْنَخ ضاربًا بِجرانِه ورسَتْ مراسيهِ بدار سلام [٣]

وأكثر مدائحه فى صاحبه عثمان المرى وفى محمد بن منصور بن زياد كاتب البرامكة الملقب بفتى العسكر لقيامه على ديوان الجيش ، وفيه يقول :

زاد معروفَك عندى عِظَماً أنه عندك مستورٌ حقيرْ
تتناساهُ كأن لم تأْتِه وهو عند الناس مشهورٌ خطير

ويظهر أن صلة وثيقة انعقدت بينه وبين الحسن بن البَحْباح البَلْخِيّ كاتب الفضل بن يحيى البرمكى ، إذ نراه يكتب له قصيدة بديعة حين ولى مصر للرشيد سنة ١٩٣ يعبر فيها عن شدة شوقه إليه ، ومدى ما كان يتوثق بينهما من مودة وصداقة ، وفيها يقول :

إلى صاحبٍ لا يُخْلق النَّأْىُ عهده لناءٍ ولا يَشْقَى به من يُصاقِبُهْ [٤]
هو الشهدُ سِلْمًا والذُّعافُ عداوةً وبحرٌ على الوُرَّاد تجرى غَواربه [٥]
فيا حسن الحُسْنِ الذى عمَّ فضله وتمَّتْ أياديه وجَمَّتْ مناقبه [٦]
إليك على بُعْدِ المزار وصعبهِ نوازعُ شوقٍ ما تُرَدُّ عَوازبه [٧]

(١) خول : أنعم .
(٢) مختبط : من اختبطه إذا سأله بدون قرابة أو معرفة . شمام : دنو وقرب .
(٣) تنخنخ : من تنخنخ البعير إذا برك وجثم على الأرض . الجران : عنقه . وضرب بجرانه : استقر واستقام .
(٤) يخلق : يبلى . يصاقبه : يجاوره .
(٥) غواربه : أعالى موجه .
(٦) جمت : كثرت .
(٧) عوازبه : جمع عازب وهو البعيد .

فهل يرجعنْ عيشي وعيشُك مرةً ببغداد دهرٌ منصفٌ لا نعاتبه
عسى ولعل الله يجمع بيننا كما لاءمتْ صَدْعَ الإناء مشاعبه

ومن مدحهم المأمون وأبو دلف قائده ، وكان أبو دلف شاعرًا بليغًا محكم القول ، ولعل ذلك ما جعله يصف شعره له فى بعض مديحه بقوله :

له كَلِمٌ فيك معقولةٌ إزاءَ القلوب كَرَكْبٍ وقوفْ

وهو تصوير دقيق . ولاحظ بعض معاصريه أن مدائحه التى دبَّجها فى ممدوحيه أحسن من مراثيهم فيهم وأجود ، وسأله فى ذلك ، فقال : كنا يومئذ نعمل على الرجاء ، ونحن اليوم نعمل على الوفاء و بينهما بون بعيد ! ومن بديع رثائه قوله :

وأعْددته ذُخْرًا لكل مصيبةٍ وسَهْمُ المنايا بالذخائر مولَعُ
ولو شئت أن أبكى دمًا لبكيته عليه ولكنْ ساحةُ الصبر أوسع

وله فى بغداد حين رماها طاهر بن الحسين بالمجانيق فى فتنة الأمين ، فأحرق كثيراً من قصورها ، وهدم بعض أحيائها ، مرثية طويلة امتدت إلى مائة وخمسة وثلاثين بيتًا ، بكاها فيها ، وندبها نَدْبًا حارًّا ، موازنًا ماضيها وحاضرها ومصوراً ما كان فيها من مجون وإثم وما صارت إليه أحياؤها من هذا الدمار الذى صبه الله عليها جزاء طغيانها وفسوقها ، وفيها يقول :

يا بُوسَ بغدادَ دار مملكةٍ دارتْ على أهلها دوائرُها
أمْهلها اللهُ ثم عاقبها لما أحاطتْ بها كبائرها
رَقَّ بها الدِّين واستُخِفَّ بذى الـ ـفَضْلِ وعزَّ النُّسّاكَ فاجرها
وصار ربَّ الجيران فاسقهُم وابتزَّ أمرَ الدروب شاطِرُها

وهو فى القصيدة ينتصر للمأمون . ونراه يتعرض بالهجاء إلى أبى دُلف العجلى . ويظهر أنه لم يثبه بما كان يبتغيه منه ، فتحول يهجوه بمثل قوله :

إنى وجدت أخى أبادُلف عند الفَعال مولَّد الشَّرَفِ

ومن تولع بهجائهم على بن الهيثم أحد كتاب الدواوين ، وكان يتقعر فى كلامه ، حتى ليؤذى من يجالسونه بكثرة ما يورد عليهم من غريب ، وله يقول :

لا تشادَقْ إذا تكلمتَ واعلمْ أن للناس كلِّهم أشداقا

وحدث فى أثناء رفقته لعثمان بن خريم فى ولايته على أرمينية أن عقد له فى بعض حروبه للترك على أشراف ممن معه ، فكرهوا ذلك ، وما زالوا به ، حتى عزله ، وأثاره هذا الحادث ، فنظم قصيدة فخر فيها بآبائه من الصُّغْد ، وفيها يقول :

أبِـالصُّغْدِ بَأْسٌ إذ تُعَيِّرنى جُمْلُ سَفَاهاً ومن أخلاق جارتىَ الجهلُ

فإن تفخرى يا جُمْلُ أو تتجمَّلى فلا فَخْرَ إلا فوقه الدينُ والعقل

أرى الناس شَرْعًا فى الحياة ولا يُرَى لقبرٍ على قبر عَلاءٌ ولا فَضْلُ[1]

وما ضرَّنى أن لم تَلِدْنى يُحابِرٌ ولم تشتمل جَرْمٌ علىَّ ولا عُكْلُ[2]

وقد سلكه بعض الباحثين من العرب والمستشرقين فى أصحاب نظرية الشعوبية لجريان هذا الفخر على لسانه ، وهو لا يستمد فيه من شعوبية ، إنما يستمد من نظرية الإسلام التى تسوى بين الناس عربًا وموالى ، فلا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى . وفى أشعاره ما يدل على حسن تدينه وأنه لم ينغمس فيما انغمس فيه بعض معاصريه من مجون أو زندقة يقول داعيًا إلى الزهد والتقوى والعمل الصالح :

تزوَّدْ من الدنيا متاعاً لغيرها فقد شمَّرتْ حَذَّاءَ وانْصَرَمَ الحَبْلُ[3]

وهل أنتَ إلا هامةُ اليوم أو غدٍ لكل أناسٍ من طوارِقِها الثُّكْلُ

وفى الأغانى بترجمة حماد الراوية خبر يدل على معاشرته للمجان ، ولعله مكذوب ، لتأخر عصره عن عصر حماد ، وقد رويت له أشعار قليلة فى الغزل ، وقيل إن أول ما نظمه قوله :

بقلبى سقامٌ لست أحسن وَصْفه على أنه ما كان فهْو شديدُ

تمرُّ به الأيامُ تسحب ذيلها فتَبْلَى به الأيامُ وهْو جديدُ

(١) شرعاً : متساوين لافضل لأحدهم على الآخر.

(٢) يحابر وجرم وعكل : قبائل عربية .

(٣) حذاء : سريعة الإدبار.

ونرى القدماء يلقبونه تارة بالأعور وتارة بالأعمى ، ويظهر أنه فقد إحدى عينيه مبكراً ، ثم فقد الأخرى بعد ما أسنّ ، وله أشعار كثيرة ، يبكى فيها عينه وبصره ، أنشدنا منها قطعة فى الفصل الرابع ، ومن طريف ما نسوقه له هنا قوله :

إذا ما مات بَعْضُك فابْكِ بعضاً ... فإن البعضَ من بعضٍ قريبُ
يمنّينى الطبيبُ شفاء عَيْنى ... وهل غَيرُ الإله لها طبيبُ

وقوله :

كفى حزنًا أن لا أزورَ أحبّتى ... من القُرب إلا بالتكلف والجَهْدِ
وأنى إذا حُيِّيت ناجيتُ قائدى ... ليَعْدِلنى قبل الإجابة فى الرَّدِّ

وفى أشعاره نزعة واضحة إلى التدقيق فى المعانى ، وهو تدقيق أداه إلى الوقوف عند الطباع وتحليلها تسعفه فى ذلك ملاحظات نافذة وقدرة على النظرة الكلية فى الأشياء ، ومن خير ما يمثل ذلك عنده قوله :

الناسُ أخلاقُهم شَتَّى وإن جُبِلوا ... على تشابه أرواحٍ وأجسادِ
للخير والشر أهلٌ وكّلوا بهما ... كلٌّ له من دواعى نفسه هادِ

وقوله :

ودون النَّدَى فى كلّ قلبٍ ثَنِيَّةٌ ... لها مَصْعَدٌ حَزْنٌ ومنحدَرٌ سَهْلُ
ووِدُّ الفتى فى كل نَيْلٍ يُنِيلهُ ... إذا ما انقضى لو أن نائِلَهُ جَزْلُ

ونراه يصور الكرم تصويراً بديعًا ، إذ يجعله فى بِشْر المُضيف وحسن استقباله لا فى طعامه وكثرة ذبائحه ، يقول :

أضاحِكُ ضَيْفى قبل إنزال رَحْلِه ... ويُخْصِبُ عندى والمحلُّ جَديبُ
وما الخِصْبُ للأضياف أن يكثر القِرَى ... ولكنما وَجْهُ الكريم خصيبُ

ومما يجرى هذا المجرى من دقة التفكير وطرافته قوله السائر فى الآفاق :

ولستُ بنظَّار إلى جانبِ الغِنى ... إذا كانتِ العلياءُ فى جانب الفَقْر

وواضح أن اللفظ البارع كان يسند دائماً معانيه وأشعاره ، فلا تجد فيه عوجاً ولا انحرافاً ، بل تجد دائماً المتانة والسهولة ، ويُرْوَى أنه سُئل : ما بال شعرك لا يسمعه أحد إلا استحسنه وقبلته طبيعته ؟ قال : لأنى أجاذب الكلام إلى أن يساهلنى عفواً ، فإذا سمعه إنسان سهل عليه استحسانه . وقد توفى سنة ٢١٤ للهجرة .

٥

شعراء الهجاء

مرَّ بنا فى غير هذا الموضع أن شعر الهجاء المنبعث عن العصبيات القبلية خفت حِدَّته فى هذا العصر ، حتى كاد يتلاشى ، إلا بقايا قليلة تمثلت فى نقائض ابن قنبر ومسلم بن الوليد ، كما تمثلت فى نقائض دعبل وأبى سعد المخزومى ، ومرجع ذلك إلى تطور واسع فى الحياة ، جعل الفخر الجنسى يحل محل الفخر القبلى ، مما دفع إلى ظهور الشعوبية ، وحقًّا بقيت أسراب من هذا الفخر عند القبائل ومواليها ، على نحو ما نجد عند بكر بن النطاح الحنفى فى مثل قوله مفتخراً بقبيلته بكر [1] :

وَمَنْ يفتقرْ منا يَعِشْ بحسامِهِ وَمَنْ يفتقر من سائر الناس يسألِ

وكان أبو نواس — كما مرَّ بنا — يفتخر بمواليه القحطانيين افتخاراً حادًّا ، ولكن الدولة كانت له ولبكر وأمثالهما بالمرصاد فقد حبس الرشيد أبا نواس بسبب إحيائه لهذه العصبية ، وطلب بكراً وهرب منه . وعلى هذا النحو لم تعد تحتدم العصبيات وبالتالى خَبَتْ نار النقائض التى كانت مشتعلة فى عصر بنى أمية . وليس معنى ذلك أن الهجاء انطفأ لهيبه ، بل لقد تعالت نيرانه واضطرمت اضطراماً ، إذ ظل الشعراء يسارعون إليه كلما حجبهم وزير أو وال أو قائد أو قصَّر فى عطائهم ، وقد يهجون بعض الخلفاء على نحو ما أسلفنا عند دعبل . وهو جانب أوسع من أن يستقصى لكثرة ما قيل فيه من أشعار ، ولذلك سنكتفى هنا بالحديث عن تهاجى الشعراء بعضهم مع بعض ، وقد ذكرنا قبلا تهاجى حماد عجرد وبشار

---

(١) ابن المعتز ص ٢١٧ وما بعدها والأغانى (طبعة الساسى) ١٧/١٥٤ .

وكانت فى حماد رعونة شديدة جعلته يتبادل الهجاء حتى مع أصدقائه مثل مطيع بن إياس ، وكان مبعث تهاجيهما تنافسهما على بعض القيان . ولعل شاعراً لم يُهْجَ فى هذا العصر كما هُجى أبان بن عبد الحميد ، وقد عرضنا لتهاجيه مع أبى نواس ، وممن أكثر من تبادل الهجاء معه المعذّل بن غيلان ، وفيه يقول(١) :

صحَّفتْ أمُّك إذ سَمَّتْك بالمَهْد أبانا
قد علمنا ما أرادتْ لم تُرِدْ إلا أتانا
صيَّرتْ باءً مكان التَّاء واللهِ عِيانا
قطع الله وشيكا من مسمِّيك اللِّسانا

وكان أبو نواس كثير التعابث فأكثر من هجاء زملائه ، وسلقوه بألسنة حداد ، وفى مقدمتهم الفضل بن عبد الصمد الرقاشى ، وكان كثيراً ما يهجوه بأنه ليس عربيًّا وأنه دعىّ فى ولائه لبنى سعد العشيرة القحطانيين ، مما جعله يرد عليه بمثل قولـه (٢) .

وجدنا الفضل أبعد من رقاشٍ من الأُتُن ادَّعتْ فيها الفيولُ
وجدنا الفضل أكرم من رقاشٍ لأنَّ الفضل مولاه الرسول

يشير بذلك إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « أنا مولى من لا مولى له » . وقد مرَّ بنا تهاجى أبى العتاهية ووالبة ، وكيف انتصر عليه أبو العتاهية انتصاراً حاسمًا حتى فرَّ منه راجعاً إلى الكوفة وخمل ذكره . واصطدم أبو العتاهية بسلم الخاسر ، فتبادلا الهجاء على نحو ما صورنا ذلك فى ترجمتنا لأولهما ، وكان سلم يرميه بأنه كاذب فى زهده ويرميه أبو العتاهية بشُحّ نفسه وما يجره ذلك عليه من الذل. وممن اصطدم به مروانُ بن أبى حفصة وأبو الشمقمق وشاعر يسمى الجنّىّ وله يقول(٣) :

غَدا اللُّؤْمُ يبغى مَطْرَحًا لِرحالهِ فنقَّب فى بَرٍّ البلاد وفى البَحْر

---

(١) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٣ / ٢٢٧ .
(٢) ديوان أبى نواس. وأغانى (ساسى) ١٥ / ٣٤.
(٣) أغانى ١٠ / ٩٢ وما بعدها .

فلما أتى مروانَ خيَّم عنده وقال رضينا بالمقام إلى الحَشْرِ
وليستْ لمروانٍ على العِرْسِ غَيْرَةٌ ولكنَّ مروانًا يغار على القِدْرِ

وكان دعبل كثير الهجاء لكل من يظن أنه ارتفع على مرتبته من الشعراء حتى أستاذه مسلم بن الوليد لم يسلم منه ، وربما كان أهمَّ شاعر حسده أبا تمام ، حتى كان لا يكتفى بهجائه ، بل يدعى عليه أنه سرق قصائد برمتها من الشعراء السابقين وفيه يقول(١) :

أدعبلُ إن تطاولتِ الليالى عليك فإن شعرى سمٌّ ساعه
وما وفد المشيبُ عليك إلا بأخلاق الدناءةِ والوضاعه
ووجهك إن رضيت به نديماً فأنت نسيجُ وحدك فى الرَّقاعه
ولو بُدِّلته وجهاً بوجه لما صلَّيت يوماً فى جماعه

وكانت صِلاتُ أبى تمام فى كل بيئة ينزل بها سبباً فى كثرة مَنْ هجوه ، وقد صورنا ذلك من بعض الوجوه فى حديثنا عنه . ونحن نخص بالحديث هجَّاءين كبيرين هما أبو عُيَيْنَة المهلَّبى وعبد الصمد بن المعذَّل .

أبو عيينة(٢) المهلبى

هو أبو عيينة بن محمد بن أبى عُيَيْنَةَ ، من سلالة المهلب بن أبى صفرة ، مولده ومنشؤه وحياته فى البصرة ، إذ لم يفارقها إلا لماماً ، وكان أبوه يولَّى الرى لأبى جعفر المنصور ، ثم قبض عليه وحبسه وغرَّمه . وكان لأبى عيينة أخوان شاعران هما عبد الله وداود ، ومن الغريب أنهم جميعًا كانوا هجائين ، أما عبد الله فقصد ابن طاهر ومدحه ، ثم هجاه هجاء مرًّا ، وأما داود فتعلق بهجاء آل سليمان بن على والى البصرة ، وقد تولاها من أبنائه غير واحد ، وفيهم يقول :

قومٌ إذا أكلوا أخفوا كلامهمُ واستوثقوا من رِتاج الباب فى الدارِ

(١) أغانى (طبعة الساسى) ١٨/٣٤ .
(٢) انظر فى أشعار أبى عيينة وأخباره ابن المعتز ص٢٨٨ وابن قتيبة ص٨٤٧ ومابعدها والأغانى (طبعة الساسى) ١٨/١١ وما بعدها .

لا يَقْبِسُ الجارُ منهم فَضْلَ نارهمُ ... ولا تكفُّ يَدٌ عن حُرْمة الجارِ

وأبو عيينة أشعر الثلاثة ، ويقول ابن المعتز إنه « أحد المطبوعين الذين لم يُرَ فى الجاهلية والإسلام أطبع منهم ، وهم بَشّار وأبو العتاهية والسيد الحميرى وأبو عيينة » .

وقد استغل موهبته فى فنين هما الهجاء والغزل ، وأكثر هجائه فى ابن عمه خالد ابن يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب إذ صحبه معه فى جنده حين توجَّه إلى جرجان والياً عليها للمهدى وكان خالد قد أوسع له فى الأمانى وأنه سيغدق عليه ويوليه بعض الولايات ، ولما نزل جرجان جفاه وتنكَّر له ، فبسط لسانه فيه وذكره بكل قبيح عند أهل عمله ووجوه رعيته . وعبثاً حاول أبو عيينة أن يتخلص منه ومن الجندية ، فشكاه إلى الهادى وكان قد ولى الخلافة بعد أبيه ، فأمر له بصلة وأقفله من جيش خالد، فعاد وهو يهتف بهجائه، وأكثر منه كثرة تدل على قوة طبعه وخصبه ، ومن قوله فيه :

لقد خَزِيَتْ قحطان طُرًّا بخالدٍ ... فهل لكِ فيه - يُخْزِكِ الله - يا مُضَرْ
دنِىء به عن كل خيرٍ بلادةٌ ... لكلِّ قبيحٍ عن ذراعيه قد حَسَرْ
له منظرٌ يُعْمِى العيونَ سماجةً ... وإن يُخْتَبَرْ يومًا فيا سوءَ مُخْتَبَرْ
أبوك لنا غَيْثٌ نَعيشُ بِوَبْلِه ... وأنت جَرادٌ ليس يبقى ولا يَذَرْ
له أثَرٌ فى المكرمات يسرُّنا ... وأنت تعفِّى دائماً ذلك الأثَرْ
تسىءُ وتمضى فى الإساءة دائباً ... فلا أنت تستحيِى ولا أنت تعتذر

ويقال إن الرشيد أنشد البيت الأول ، فقال : بل الخزى موفَّر على قحطان .
وقد عرف كيف يخزه وخز الإبر لا بما صور فيه خزيه الذى عَمَّ به عشيرته وأخلاقه السيئة وغباوته ، بل أيضًا بموازنته بينه وبين أبيه جامعاً فى البيت الواحد بين المديح والهجاء . وهو يكثر فى هجائه من الاستخفاف به والسخرية سخرية شديدة ، مع الإقذاع ومع الغمز واللمز ، ومن طريف ماله فيه قوله :

خالدٌ لولا أبوهُ ... كان والكلبَ سواءْ
لو كما ينقصُ يزدا ... دُ إذن نال السماءْ

وقوله :

وإذا تطاولت الرءو س فغطِّ رأسك ثم طاطِهْ

ويروى أنه(١) قصد ابن عمه ربيعة بن قبيصة بن روح بن حاتم المهلبي واستماحه فلم يجد عنده ما قدّره فيه ، فولّى عنه مغاضبا وعرف ذلك داود بن يزيد بن حاتم ابن قبيصة المهلبي ، فترضاه بصلة سنية جعلته يمدحه مدحاً رائعاً هاجياً في تضاعيفه قبيصة هجاء كله سموم من مثل قوله :

داودُ محمودٌ وأنت مُذَمَّمٌ عجبًا لذاك وأنتما من عودِ
ولرُبَّ عودٍ قد يُشَقُّ ، لمسجدٍ نصفٌ ، وسائرُه لحُشِّ يهود
فالحُشُّ أنت له وذاك لمسجدٍ كم بين موضعِ مَسْلَحٍ وسجودِ
داود يفتح كلَّ بابٍ مُغْلَقٍ بِنَدَى يديه وأنت قُفْلُ حديد

وكأنما كان موكلا بهجاء أبناء أعمامه ، وأيضًا ببناتهم ، فقد روى صاحب الأغانى أن ابن عمه سعيد بن المهلب تزوج بنت سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب ، وكانت قد تزوجت قبله رجلين ماتا عنها ، فكتب أبو عيينة إليه ، يعنّفه على اختياره لها وأنه إنما اختارها بسبب مالها ، يقول :

رأيتَ أثاثَها فطمعتَ فيه وكم نَصَبَتْ لغيرك من أثاثِ
فَصَيِّرْ أمرها بيدَىْ أبيها وسَرِّحْ من حِبالك بالثَّلاث(٢)
وإلا فالسلامُ عليك منى سأبدأ من غَدٍ لك بالمراثى

وكانت فاطمة بنت عمه عمر بن حفص المهلبي قد شغفته حبًّا ، وتصادف أن اقترنت بعيسى بن سليمان بن على العباسى ، فكاد يُجَنّ جنونه ويطير صوابه ، وظل يدور حولها وينظم فيها أشعاره ، غير أنه كان يخشى زوجها وآله ، فعمد إلى التكنية عنها بمولاة لها تسمى دنيا ، وفى ذلك يقول :

وكتمتُ اسمها حِذارًا من النا س ومن شرهم وفى الناس شَرٌّ

(١) نسب أبو الفرج الخبر إلى عبد الله ، ولكن ابن المعتز نسب الشعر المصاحب له إلى أخيه أبي عيينة ، مما يدل على أنه صاحب الخبر .
(٢) سرح : طلق .

ويقولون بُحْ لنا باسم دُنْيا واسمُ دنيا سِرٌّ على الناس ذُخْرُ

وهو يكثر فى أشعاره لها من تصوير ذكرياته معها ، وزياراته ، التى كانت متصلة لها قبل زواجها وكيف كانت تبادله وُدًّا بود وحبًّا بحب ، وكيف كانا يجتمعان فى قصرها الفخم وما حوله من رياض رائعة ، وكيف كانا يلعبان ويعيشان منذ صغرهما ، يقول :

ومَلْعبنا فى النهر والماءُ زاخرٌ قرينين كالغصنين فرعين فى أَصْلِ
ومن حولنا الريحانُ غَضًّا وفوقنا ظلالٌ من الكَرْم المعرَّش والنَّخْل
إذا شئت مالتْ بى إليها كأننى إلى غُصْنِ بانٍ بين دِعْصَيْن من رَمْل(١)
فيا طِيبَ طعم العيش إذ هى جارةٌ وإذ نفسها نفسى وإذ أهلها أهلى
وإذ هى لا تعتلُّ عنى برِقْبةٍ ولا خوف عَيْنٍ من وشاةٍ ولا بَعْلِ
فقد عفَّت الآثار بينى وبينها وقد أوحشتْ منى إلى دارها سُبْلى

وكانت سيدة فاضلة ، فكانت لا ترد عليه رسائله وكانت تنتهر رسله ، بينما هو يصطلى بنار الحب المحرقة ويتعذب كما لم يتعذب أحد ، ملوِّحاً لها بأنه سيموت فى سبيلها وأن أحدًا لن يحزن عليه حزنها لجامعة القرابة والحب القديم ، يقول :

ولأنت إن متُّ المصابةُ بى فتجنبِّى قتلى بلا وِتْرِ
فلئن هلكتُ لتلطِمِنْ جزعاً خَدَّيك قائمةً على قَبْرِى

وعلى هذا النحو ظل حبها قويًّا حارًّا فى قلبه ، وظلت ترده عنها فى عنف تارة وفى رفق تارة ثانية ، وهو يذكِّرها عهودهما القديمة وكيف أنه يفى لها وفاء شديداً ، بينما هى تدافعه وتقاومه قاطعة لكل عهد وسبب بينها وبينه ، وهو كل يوم يزداد بها كلفاً وغراماً وحبًّا ما فوقه حب ، وفى ذلك يقول :

أرى عَهْدَها كالوَرْدِ ليس بدائمٍ ولا خير فيمن لا يدوم له عَهْدُ
وعهدى لها كالآسِ حُسْناً وبهجةً له نُضْرةٌ تَبْقَى إذا ما انقضَى الوَرْدُ

(١) الدعص : كثيب الرمل .

وما وَجدَ العُذْرِىُّ إذ طال وَجْدُهُ | بعفراءَ حتى سَلَّ مهجته الوَجْدُ
كوجدى غداة البين عند التفاتها | وقد شفَّ عنها دون أترابها البُرْدُ
فقلت لأَصحابى هى الشمسُ ضوءُها | قريبٌ ولكنْ فى تناولها بُعْدُ

وفى أشعاره ما يدل على أنه فارق البصرة مع ابن عمه خالد بن يزيد طلباً للسَّلْوَى عنها ، ولكنه ظل هناك يذكرها ويذكر حبها متغنياً به وبها ، وعاد يدور حول بيتها لا يستطيع كظم حبه ، بل يعلنه إعلاناً ويكرر هذا الإعلان مازجاً له بكثير من التضرع والاستعطاف ، وصاحبته لا تُعْنَىَ به ولا تكترث ، وهو يزداد بها شغفاً وهياماً ناظماً فيها أشعاره البديعة من مثل قوله :

ضيَّعتِ عهد فتًى لعهدك حافِظٍ | فى حفظه عجبٌ وفى تضييعكِ
ونـأَيتِ عنه فماله من حيلةٍ | إلا الوقوفُ إلى أوان رجوعِكِ
متخشِّعاً يُذرى عليكِ دموعَهُ | أسفاً ويعجب من جمود دموعكِ
إن تَقْتُليه وتذهبى بفؤاده | فبِحُسْنِ وجهكِ لا بحُسْن صَنيعكِ

وأكبر الظن أنه ظل يذكرها ويتغنى بها حتى الأنفاس الأخيرة من حياته ، وقد جرَّته غيرته من زوجها إلى لمزه ببعض هجائه . وكانت له نظرات وتأملات دقيقة فى الحياة جعلت الحكمة تجرى أحياناً على لسانه ، ومن رائع ما يروى له فى تصوير القدر والحظوظ :

ما لا يكون فلا يكون بحيلةٍ | أبدًا وما هو كائنٌ فيكونُ
سيكون ما هو كائنٌ فى وقتهِ | وأخو الجهالة مُتْعَبٌ محزونُ
يسعى القوىُّ فلا ينال بسعيهِ | حَظًّا ويحظى عاجزٌ ومَهِينُ

وواضح من كل ما قدمنا أنه كان نبعاً غزيراً من ينابيع الشعر العباسى ، ويقول ابن المعتز إن « شعره أنقى من الراحة ، ليس فيه عيب ولا بيت يسقط » . ويقول أبو الفرج : « كان أبو عيينة من أطبع الناس وأقربهم مأخذاً . وكان يقرب البعيد ويحذف الفضول ويُقلّ التكلف » . وفى حديث ابن المعتز عنه ما يدل على أنه لحق خلافة المأمون ويظهر أنها لم تظله طويلا .

عبد الصمد[١] بن المعذّل

من قبيلة عبد القيس ، ومولده ومنشؤه بالبصرة ، وهو من بيت شعر ، كان جده غيلان بن الحكم شاعراً ، ويُرْوَى أن محمد بن سليمان العباسى كان يستخدمه فى ولايته البصرة على بعض أعشارها ، فظهرت منه خيانة فعزله وأخذ ما خانه فيه ، فقال حماد عَجْرد يهجوه بهذين البيتين اللذين أنشدناهما فى غير هذا الموضع :

ظهرَ الأَميرُ عليك يا غَيْلانُ   إذ خُنْته إن الأَمير مُعانُ
أَمع الدَّمامة قد جمعتَ خيانةً   قَبُحَ الدَّميم الفاجرُ الخوَّانُ

وكان ابنه المعذل شاعراً مُجيداً ، وقد أسلفنا ما نشب بينه وبين أبان بن عبد الحميد من هجاء كانا يتعابثان به ، ومن طريف ما يُنْسب إليه من شعر قوله :

وإنى لصبَّارٌ على ما ينوبنى   وحسبك أن الله أَثْنَى على الصَّبْر

وأم عبد الصمد أم ولد يقال لها الزرقاء ، وكان له أخ يسمى أحمد كان شاعراً أيضًا ، يقول أبو الفرج : « كان عفيفاً ذا مروءة ودين وتقدم فى المعتزلة » . وفى أشعار عبد الصمد ما يدل على أنه كان يختلف إلى حلقات الرواة واللغويين إذ يقول :

لن تَلْبِسُوا منطقى بمشكلة   إلا عن الأَصمعىِّ أَو خَلفِ[٢]

يريد خلفاً الأحمر . وكان على عكس أخيه أحمد فيه لهو ومجون وتعابث ، وكان هَجَّاء خبيث اللسان حتى ليصبح الهجاء عنده كأنه غريزة ، فإذا هو يتناول به أخاه ، وكان له جاه واسع فى بلدته وعند حكامه لا يقاربه عبد الصمد

---

(١) انظر فى عبد الصمد وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص ٣٦٨ والأغانى (طبعة دار الكتب) ٢٢٦/١٣ وما بعدها و ٣٦١/١٤ وما بعدها وكتاب الورقة لابن الجراح ص ٣٠ وفوات الوفيات والأوراق للصولى (قسم أخبار الشعراء) ص ٣٩ ، ٥٣ ، ١٣٦ والوساطة بين المتنبى وخصومه (طبعة الحلبى) ص ١٢١ و ٢٩١ و ٣٠١ .

(٢) لبس الأمر : خلطه .

فيه فكان يحسده ويهجوه فيحلم عنه ، وحدث أن قدم على بعض الخلفاء فأكرمه وخلع عليه ووصله بمال كثير ، ورجع إلى البصرة ، فاستقبله جِلَّتها استقبالا حافلا ، أما عبد الصمد فاستقبله بقوله :

ولما أن أتتْه دُرَيْهَمَاتٌ ... من السلطان باع بهنَّ ربَّهْ
كسبتَ أبا الفضولِ لنا مَعاباً ... وعارًا قد شُمِلْتَ بهِ وسُبَّهْ

وفكر أحمد فى أن يجاور فى الثغور ويجاهد فى جيش إسحق بن إبراهيم المصعبى صاحب بغداد وحاكمها ولم يكد يلقاه حتى أنشده شعراً مدحه به ، فأمر له بخمسمائة دينار . وبدا لأحمد أن يعود إلى البصرة ، فتلقاه عبد الصمد بقوله :

يُرِى الغُزَاةَ بأَن الله هِمَّتُه ... وإنما كان يغزو كِيسَ إسحاق
فباع زهدًا ثواباً لا نفادله ... وابتاع عاجلَ رِفْد القوم بالباق[1]

وكان لا يخفُ على نفسه أحد أبناء أخيه ، ويقال إنه كان فيه تيه وعجب ، فتولاه كما تولى أباه بأهاج كثيرة من مثل قوله :

يا أبغضَ الناسِ فى عُسْرٍ وميسرةٍ ... وأقذرَ الناسِ فى دُنْيا وفى دين
لو شاء ربى لأَضحى واهباً لأخى ... بمُرِّ ثُكْلك أجرًا غير مَمْنونِ
إن القلوب لتُطْوَى منك يابنَأخى ... إذا رأَتْك على مثل السَّكاكين

وطبيعى وهذا شأنه فى أهله أن يعظم شره على من حوله من الشعراء ، وأن يقود معهم معارك هجاء كثيرة ، وهى معارك كثرت فيها السهام المسمومة ، على نحو ما نجد فى أهاجى حمدان بن أبان له ، إذ قذف أمه الزرقاء طويلا ، وكان كثيراً ما يأتى هو نفسه الشعراء من هذه الجهة لا يتورَّع ، من مثل قوله فى أبى رِهْم :

لو جاد بالمال أبو رِهْمٍ ... كجوده بالأُخت والأُمِّ
أضحى وما يُعْرَفُ مِثْلٌ له ... وقيل أَسْخَى العُرْب والعُجْمِ

واشتبك مع الجَمَّاز ابن أخت سلم الخاسر ، وكان لا يقلُّ عنه خبثًا فى

(١) الرفد : العطاء .

هجائه ولا شرًّا ، وكان مما صَبَّه الجماز على رأسه قوله :

ابنُ المعذَّل مَنْ هُو ومن أبوه المعذَّلْ
سأَلتُ وَهْبَانَ عنه فقال : بَيْضٌ محوَّلْ[١]

وكان وهبان رجلا يبيع الحمام ، فجمع طائفة من أصحابه وجيرانه وجعل يَغْشَى المجالس ويحلف أنه ما قال : عبد الصمد بيض محوَّل ويسألهم أن يعتذروا إليه ، فلم يبق خاصٌّ ولا عام إلا رواهما ، وردَّ عليه عبد الصمد قائلا :

نَسَبُ الجمَّاز مقصو رٌ إليه منتهاهُ
ليس يدرى من أبو الجمَّ از إلا مَنْ يــراهُ

غير أن شعره فيه لم يشع على الألسنة ، لأن فهمه يحتاج إلى شىء من الفطنة . ووقع بينه وبين يزيد بن محمد المهلبي الشاعر تباعد ، فهجاه يزيد ونسبه إلى الشؤم، فكال له الصاع صاعين ، ونراه يتعرض لأبى تمام حين اجتمع به فى مجلس مزرياً على تكسبه بشعره ، قائلا له :

أنت بين اثنتين تَبْرُزُ للنا س وكلتاهما بوجهٍ مُذَالِ[٢]
لست تنفكُّ طالباً لوصالٍ من حبيبٍ أو طالباً لنَوَالِ
أىُّ ماءٍ لحُرِّ وجهك يبقى بين ذُلِّ الهوى وذُلِّ السُّؤال

وفكر أبو تمام فى إفحامه ، ثم أنشد :

أَفِىَّ تنظمُ قول الزُّورِ والفَنَدِ وأنت أَنْزَرُ من لاشىءَ فى العَدَدِ[٣]
أَشْرَجْتَ قلبك من بُغْضِى على حُرَقٍ كأنها حركاتُ الروح فى الجَسَدِ[٤]

وكان لا يزال يصبُّ سياط هجائه على جيرانه ومَنْ يختلط بهم من القيان اللائى يُعْرِضن عنه وأصحابهم من المقينين، وله مرثية كلها هجو فى أحد الطفيليين وقد صوَّر فيها نهمه وموته من هذا النهم ، استهلها بقوله :

---

(١) محول : حضنه غير أبويه .
(٢) مذال : مهان .
(٣) الفند : الكذب .
(٤) أشرجت هنا : نسجت .

أحزانُ نفسى عليه غير مُنْصَرِمَهْ وأدمعى من جفونى الدهرَ مُنْسجمه

وله أشعار مختلفة فى الغلمان وقصيدة بديعة يصور فيها عشق جارية مغنية لشاب كان كاتباً عند مولاها ابن الجوهرى وكان شيخاً هِمّاً قبيح الوجه ، وكيف أنها هربت إليه فى جُنْح الليل ، وفيها يقول :

خرجتْ والليلُ معتكرٌ لم يَهُلْها أيَّةً سلكتْ
وعيونُ الناس قد هجعتْ ودُجى الظلماء قد حَلكتْ
لم تَخَفْ وجداً بعاشقها حُرْمةَ الشَّهْرِ الذى انتهكتْ
ورأتْ لما شَفَتْ كمداً أنها فى دينها نَسَكتْ

وكان يحسن تصوير ما يصفه ، وهو إحسان جعله يبرع فى تصوير الطبيعة ، ويظهر أنه كان يشغف بمناظرها شغفاً شديداً على نحو ما نرى فى تصويره لبستانه ، وكان بستاناً غاصًّا بالأشجار والرياحين وفيه يقول :

إذا لم يَزُرْنِىَ نَدْمَانِيَــهْ خلوتُ فنادمتُ بُسْتانِيَهْ
فنادمتُه خَضِراً مُونِقــاً يُهَيِّجُ لى ذكرَ أشْجانِيَهْ
يقرِّب لى فَرْحةَ المُسْتَلِذّ ويُبْعد هَمِّى وأحْزانِيَــهْ
أرى فيه مثلَ مدارى الظِّباء تظلُّ لأطْلائها حانِيَهْ(١)
ونَوْرَ أقاحٍ شَتيتِ النبات كما ابتسمتْ عَجَباً غانِيَهْ
ونرجسُهُ مثلُ عين الفتاةِ إلى وَجْد عاشقها رَانِيَه

وقد مرت بنا فى حديثنا عن ازدهار الشعر قطعة طويلة من قصيدته الرائعة فى تصوير حُمَّى أصابته تصويراً يدل على دقته فى الوصف وإحاطته بتفاصيل ما يصفه. ومما لا شك فيه أنه كان شاعراً بارعاً خصب القريحة ، وأنه كان يحرص على الألفاظ المألوفة ، ولكن مع المتانة والرصانة ، وكانت وفاته سنة ٢٤٠ للهجرة .

---

(١) المدارى : القرون . الأطلاء : جمع طلا وهو ولد الظبية ساعة يولد . والاستعارة واضحة .

الفصل السابع

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل

كثُر الغزل فى هذا العصر كثرة مفرطة ، حتى ليمكن أن يقال إن جميع الشعراء عُنوا بالنظم فيه ، وهى عناية أعدّته لكى يزدهر ازدهاراً واسعاً ، إذ تداوله أفذاذ الشعراء ، وصاغوه بعقلياتهم الخصبة الحديثة وما أوتوه من قدرة على التوليد فى المعانى القديمة واستنباط كثير من الخواطر والأخيلة الجديدة . وقد مضوا يتسعون بكل صوره القديمة حتى النسيب ووصف الأطلال والديار الدارسة ، فقد استبقوا هذا الوصف ، وحاولوا أن يبثوا فيه طوابع فكرهم الدقيق وإحساسهم الحضرى المرهف ، على نحو ما مرّ بنا فى الفصل الرابع .

وقد مضى الغزل يجرى فى نفس التيارين اللذين اندفع فيهما منذ عصر بنى أمية ، ونقصد تيارى الغزل الصريح والغزل العفيف ، وكان التيار الأول أكثر حدة وعنفاً ، بسبب انتشار دور النخاسة وما كانت تموج به من إماء وقيان روميات وخراسانيات وغير خراسانيات وروميات ، إماء وقيان من كل جنس ، وقد أخذن يتسلطن على الحياة العباسية ويُشِعْنَ فيها كثيراً من صور التحلل الخلقى ، مستبدات بمكان الحرائر القديم من الشعراء . ونفس الشعراء كانت كثرتهم من الموالى الذين نبذوا التقاليد الخلقية الإسلامية والعربية ، إما بعامل الزندقة والشعوبية ، وإما بعامل الترف وما ينتشر معه من فساد الأخلاق . وشتان بين الغزل الصريح فى هذا العصر عند مطيع ابن إياس وأبى نواس وأضرابهما وبينه فى العصر الأموى عند عمر بن أبى ربيعة والأحوص وأمثالهما ، إذ كانوا يحتفظون بغير قليل من الوقار والحشمة ، أما مطيع وأبو نواس وبشار ونظراؤهم العباسيون فقد خرجوا عن كل حشمة ووقار خروجاً يشبه أن يكون ثورة ، بل هو ثورة حقيقية ، فهم يتحدثون فى غزلهم عن غرائزهم

النوعية فى غير تعفف ولا حياء ولا كرامة ، وقد استحدث كثيرون منهم — باستثناء بشار — ضرباً جديداً من هذا الغزل الصريح ، وهو الغزل بالغلمان ، وهو يصور ما انتهت إليه حياتهم من الفساد ، لكثرة الرقيق ، وقد أطلقوا لأنفسهم فيه العنان لا يرعوون ولا يستحون .

وكان يجرى بجانب هذا التيار تيار الغزل العفيف ، ولكن مجراه أخذ يضيق ضيقاً شديداً بالقياس إلى عصر بنى أمية إذ كان يتسع حتى يشمل بوادى الحجاز وحتى تجرى أسراب منه فى مكة عند أمثال عبد الرحمن الجُشَمىّ الملقب بالقَسّ لنسكه وفى المدينة عند أمثال عروة بن أذينة . ومن أعلامه فى البوادى قيس بن ذَريح وجميل بن معمر العُذْرى ، حيث نجد الحب النقى الطاهر الذى يملك على الشاعر كل عواطفه وأهوائه ، حتى ليصبح ضرباً من الهيام القوى الحادّ الذى يدفع الشاعر إلى التغنى بمحبوبته فى شعر عذب لا يخدش حياء ، شعر يموج بالحرمان وحرارة العشق وشدة الظمأ الذى لا ينتهى . وطبيعى أن يضعف هذا التيار فى العصر العباسى الأول الذى قلما عرف فيه الشعراء العفة والطهر ، ومع ذلك فقد بقيت له بقية عند العباس بن الأحنف وعند بعض الشعراء الذين هاموا ببعض الجوارى ثم بِعْنَ وضُرِب بينهم وبينهن حجاب صفيق ، فعاشوا يتعذبون بالحب ، وعاش الحب فى قلوبهم قويًّا حادًّا ، ومن خير من يصور ذلك على بن أديم الكوفى الذى أحب جارية تسمى « منهلة » منذ صغرها ، حتى إذا أدركت باعها أهلها لبعض الهاشميين ، فطار لبه ، وبكاها بكاء حارًّا بمثل قوله(١) :

صاحوا الرحيلُ وحثَّنى صَحْبِى ... قالوا الرواح فطيَّروا لُبِّى

لا صَبْرَ لى عند الفِراق على ... فَقْد الحبيب ولوعةِ الحبِّ

ويقول أبو الفرج : « له حديث طويل معها فى كتاب مفرد مشهور صنعه أهل الكوفة لهما ، فيه ذكر قصصهما وقتاً وقتاً وما قال فيها من الأشعار ، وأمرهما متعالَم عند العامة » وفيها يقول(٢) :

يا نُصْبَ عينىَ لا أرى ... حيث التفتُّ سواكِ شَيَّا

(١) أغانى (طبع دار الكتب) ١٥/٢٦٧.   (٢) أغانى ١٥/٢٦٥ .

إنى لميْتٌ إن صَدَدْ تِ وإن وصلتِ رجعتُ حَيَّا

وعلى شاكلته محمد بن أمية ، وكان يهوى جارية تسمى خِداع رآها تغنّى ببعض دور النخاسة ، فشُغف بها شغفاً شديداً واتصلت زياراته لها ، وبادلته حبًّا بحب ، ولقيته ، ولكنها ظلت تدافعه عن نفسها ، وكثيراً ما كانت تعده الزيارة ولا تزوره . وهو يقول لها دائماً إنى أحبك إنى أنتظرك ، من مثل قوله[1] :

رُبَّ وَعْدٍ منكِ لا أنساهُ لى أوجبَ الشكرَ وإن لم تفعلى

أقطعُ الدهرَ بظَنٍّ حَسَنٍ وأُجَلِّى غَمْرَةً ما تَنْجَلِى

كلما أمَّلْتُ يوماً صالحاً عرضَ المكروهُ لى فى أملى

وأرى الأيام لا تُدْنِى الذى أرتجى منكِ وتُدْنى أجلى

وبينما هو يمنى نفسه باقتطاف ثمرة الحب اشتراها بعض ولد المهدى ، فحُجبَتْ عنه وانقطع ما بينهما إلا مكاتبة ومراسلةً . واستقر حبها فى قلبه وملك عليه كل شىء من أمره ، فمضى يتغنى بها طويلا ، وكان خُلاَّنه يلومونه ويقولون له : إنها تبخل عليك بودّها ، فدعْها إلى غيرها ، فينشدهم مثل قوله[2] :

أأنْ حُجِبَتْ عنى أجود لغيرها بودّى وهل يُغْرى المحبَّ سوى البُخْلِ

أُسَرُّ بأن قالوا تَضِنُّ بودِّها عليك ومن ذا سُرَّ بالبُخْل من قبلى

وبونٌ بعيد بين حرارة هذا الغزل العفيف والغزل المماثل له فى عصر بنى أمية الذى نقرؤه عند قيس بن ذريح وأضرابه ، فإن غزلهم يصور حبًّا جامحًا ، وكأن فى صدورهم شواظ نار ، فهم يألمون كما لم يألم أحد ، ألماً تعجز النفوس العادية عن احتماله ، ألماً يعصف بهم كالسيل المندفع الذى لا يترك لهم رويّة ولا أناة ، إنما يترك لهم الحزن الممض والدموع الغزار . ومن أجل ذلك نقول : إن الغزل العذرى فى العصر العباسى الأول قد أخذ يضيق مجراه ، لأنه لا يبلغ من التأثير فى النفس والقلب ما يبلغه الغزل العفيف الأموى ، وكأنما أفسدت الحضارة هذا الفن ، فإذا هو يجرى فيه التكلف ولا يكاد يؤثر فى العاطفة والشعور إلا قليلاً .

على أنه من الخطأ أن نضع حدًّا فاصلاً فى هذا العصر بين الغزل العفيف والغزل

---

(١) أغانى ١٢/١٤٤ .

(٢) أغانى ١٢/١٥٣ .

الصريح فإنه تلقانا عند المصرحين الذين لا يحتشمون ولا يتوقَّرون ، والذين يعبرون عن الحب الجسدى حب الغرائز الذى لا يخلو من الفسوق والإثم أسراب مختلفة من الحب المبرِّح تجعلهم يقتربون أحيانا من أصحاب الحب العفيف ، واقرأ فى بشار مثلا فستجد عنده كثيراً من الغزل الآثم ، وستجد بجانبه غزلا ، فيه لوعة ، وفيه ألم وسهاد ، وفيه صبوة يسودها غير قليل من الاحتشام ، على نحو ما يلقانا فى أشعاره لصاحبته عَبْدة ، ومثله أبو نواس فى أشعاره لجنان جارية الثقفيين ، وقد ظلت تحلق بعيداً عنه وراء السحب ، والحب يضنيه ويبرِّح به ، ونضرب مثلا من شعر هؤلاء الخليعين الماجنين يصور كيف كان الحب أحيانًا يستأثر بكل ما فى قلوبهم من هوى وعاطفة ، وكيف كانوا يتعمقون فى دقائقه تعمقًا يفضى إلى كثير من السعة والجمال ، وهو هذه القطعة التى أنشدها صاحب الأغانى لآدم حفيد عمر ابن عبد العزيز ، وكان خليعًا ماجناً فى أول أمره ، وفيها يقول لصاحبة له [1] :

أحبُّكِ حُبَّيْنِ : لى واحدٌ وآخَرُ أنَّكِ أهلٌ لذاكِ
فأما الذى هو حبُّ الطِّباعِ فَشَىْءٌ خُصِصْتِ به عن سواكِ
وأما الذى هو حبُّ الجمالِ فلستُ أرى ذاك حتى أراكِ
ولستُ أمنُّ بهذا عليكِ لك المَنُّ فى ذا وهذا وذاك

وقد أدخلت رابعة العدوية تعديلاً قليلا على هذه القطعة ، فأصبحت أمًّا للشعر الصوفى كله على نحو ما سنرى فى حديثنا عن شعراء الزهد . وفى الأغانى حشد هائل من أشعار عباسية تتخلص من المادة وأدرانها وتصور جحيم الحب ونعيمه ، كانت تجرى على ألسنة المجان وأشباههم .

ومرَّ بنا فى الفصل الرابع أن شعراء هذا العصر استخرجوا كثيراً من دفائن المعانى فى غزلهم ، فقد كان عقلهم خصباً يقتدر على تشعيب المعانى وتحليلها واستنباط كثير من دقائقها . وكثير من غزلهم لا يصور ذلك فحسب ، بل يصور أيضًا حسهم المترف الدقيق وشعورهم الرقيق المرهف ، وقد صورنا ذلك من بعض الوجوه فى حديثنا عن أعلامهم فى الفصل الخامس . وظاهرة ثالثة هى كثرة العبارات اللينة

---

(١) أغانى ١٥/٢٨٩ .

فى غزلهم ، وهى شىء طبيعى مردّه إلى حياتهم المتحضرة وأنهم كانوا يتجهون بأكثر غزلهم إلى الجوارى المغنيات ، ولم يكنّ متبدّيات إنما كن متحضّرات ، فكانوا يختارون لهن اللفظ السهل البسيط الذى يلمس القلوب لمساً بدون أى حجاب . وظاهرة رابعة هى شيوع الأوزان المجزوءة والقصيرة فى هذا الغزل ، وقد أوضحنا فى كتاباتنا عن عصر بنى أمية نشوء هذه الظاهرة فى شعر الغزل الأموى بسبب معانقته لنظرية الغناء التى استحدثها الموالى الأجانب ، وكيف أن هذه النظرية دفعت الشعراء دفعاً إلى الملاءمة الدقيقة بين غزلهم وأصوات الغناء ، ووضعه بحيث يؤدّى ما يريدونه من مدّ أصواتهم بالألحان والهمس بها ، وهى غاية أحدثت فى الأوزان القديمة كثيراً من التجزئة وكثيراً من صور الزحافات ، وما زالت هذه الصور تتسع حتّى استكشف الوليد بن يزيد وزن المجتث .

وقد بسطنا فى كتابنا « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » كيف أن هذه الظاهرة نمت فى غزل العباسيين بنمو الغناء ، وكيف دفعت إلى ظهور أوزان جديدة ، هى أوزان المقتضب والمضارع والمتدارك . وفى الفصل الرابع من هذا الكتاب تصوير موجز لذلك . وينبغى أن ننبّه هنا إلى أن الغزل هو الذى دفع الشعراء دفعاً إلى التحوير فى الأوزان القديمة تحويراً نفذوا منه إلى كثير من صور التجديد فيها وفى القوافى .

وظاهرة خامسة تقترن بالجوارى اللائى كان ينظم فيهن الشعراء ، وذلك أن كثيراً منهن كن مثقفات يحسنّ صوغ الشعر ونظمه ، فكان الشعراء يراسلونهن ، وكانوا أحياناً يفضون إليهن ويتطارحون معهن شعر الغزل . ومن أشهرهن فى هذا الباب عَريب جارية المأمون ومتيم جارية على بن هشام ودنانير جارية البرامكة وقد عقد ابن المعتز فى آخر كتابه « طبقات الشعراء » فصولاً لطائفة منهن ، على رأسهن عنان جارية الناطفى ، ويقول ابن الجراح : « كانت تجلس للشعراء ويجتمعون إليها ، فيلقى عليها كل رجل منهم الأبيات الغريبة والمعانى النادرة فتجيبه بديها [1] » ويروى بعض محاوراتها مع أبى نواس ، من ذلك أنه دخل عليها فوجد الناطفى مولاها قد ضربها وهى تبكى فقال :

---

(١) كتاب الورقة لابن الجراح ص ٣٩ .

بكتْ عنانٌ فجرى دَمْعُها كالدرِّ قد تُوبع فى خيطهِ

فقالت ، والعبرة فى حلْقها :

فليت من يضربها ظالماً تجفُّ يمناه على سَوْطهِ

ويروى ابن الجراح أن شخصًا وجد بيتًا فى كتاب ، أعجبه ، فطلب من يجيزه وعزَّ عليه الطلب ، فلجأ إليها ، وأنشدها البيت :

وما زال يشكو الحبَّ حتى سمعتُه تنفَّس من أحشائه أو تكلَّما

فما لبثت أن قالت :

ويبكى فأبكى رحمةً لبكائهِ إذا ما بكى دمعاً بكيت له دما

وقد أشاع هؤلاء الجوارى الشواعر كثيراً من الظرف والرقة فى الغزل العباسى ، إذ كن يعجبن باللمحة الدالة والخاطرة الدقيقة . وغيرهن من الجوارى كن يشاركنهم فى تذوق الشعر ، وكن يكتبن ما يستحسنَّ منه على عصائبهن ومراوحهن كما مرَّ بنا فى الفصل الثانى . وكل ذلك عمل على ازدهار الغزل فى هذا العصر ازدهاراً واسعاً ، ونحن نقف عند شاعرين من شعرائه ؛ أحدهما من أصحاب الغزل العفيف ، وثانيهما من أصحاب الغزل الصريح ، ولكن دون نبو على الذوق ودون ما يؤذى النفوس المهذبة ، وهما العباس بن الأحنف وربيعة الرَّقِّى .

العباس بن الأحنف (1)

عربى من بنى حنيفة ، كان آباؤه ينزلون فى خراسان ، واتصلوا بالعباسيين ولمع منهم عمه حاجب إذ انتظم بين رجال الدولة ، ومنشأ العباس ومَرْباه ببغداد ، ويظهر أنه نشأ فى نعمة وثراء ، جعلاه ينصرف عن شعر المديح الذى كان يجذب إليه عامة الشعراء طلباً للنوال والعطاء . وقد أخذ يعيش حياة مترفة ، يختلط فيها بالشعراء من

---

(١) انظر فى العباس وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص ٢٥٤ وابن قتيبة ص ٨٠٣ والأغانى (طبعة دار الكتب) ٨/٣٥٢ و ١٦/٣٤٣ – ٣٤٥ و (طبعة الساسى) ١٥/١٣٥ وتاريخ بغداد ١٢/١٢٧ وشذرات الذهب ١/٣٣٤ ووفيات الأعيان لابن خلكان ومعجم الأدباء ١٢/٤٠ وقد نشرت ديوانه وحققته عاتكة الخزرجى وطبعته بمطبعة دار الكتب المصرية .

أمثال أبى نواس وغير أبى نواس ، ولكن دون أن يتردّى فى خلاعتهم ومجونهم . وقد يحضر مجالس الأنس والشراب ولكن دون تعمق ودون إثم ، وفى ذلك يقول ابن المعتز : « كان يتعاطى الفتوة على ستر وعفة وله مع ذلك كرم ومحاسن أخلاق وفضل من نفسه ، وكان جواداً لا يُليق درهما ولا يحبس ما يملك » . وفى أشعاره وصف للكرة والصولجان يدل على أنه كان يمارس هذه الرياضة . ويقولون إنه كان فيه ظرف . وكأنه كان مثال العربى البغدادى المهذب فى عصره الذى أخذ بأسباب الترف والنعيم أخذاً كان له أثره فى ذوقه المصفى المهذب وشعوره الرقيق المرهف . وقد مضى ينفق حياته فى التغنى بعواطفه وحبه ، وفى ذلك يقول أبو الفرج : « كان العباس شاعراً غزلا ظريفاً مطبوعاً . . وله مذهب حسن ولديباجة شعره رونق ولمعانيه عذوبة ولطف ولم يكن يتجاوز الغزل إلى مديح ولا هجاء ولا يتصرف فى شيء من هذه المعانى ، وقدّمه أبو العباس المبرد فى كتاب الروضة على نظرائه وأطنب فى وصفه . وقال : رأيت جماعة من الرواة للشعر يقدمونه ، وقال : كان العباس من الظرفاء ، ولم يكن من الخُلَعاء ، وكان غزلا ولم يكن فاسقاً ، وكان ظاهر النعمة ملوكى المذهب شديد الترف ، وذلك بَيِّن فى شعره ، وكان قصده الغزل وشغله النسيب ، وكان حلواً مقبولا غزِلاً غزير الفكر واسع الكلام كثير التصرف فى الغزل وحده ، ولم يكن هجاء ولا مداحاً » . وقد فتح اشتهاره بالغزل باب قصر الرشيد أمامه ، حتى أصبح من ندمائه ، وحتى صحبه فى غزواته بأرمينية وأذربيجان ، ذلك أنه كان إذا غاضب إحدى جواريه أو أدلّت عليه أمره بصُنْع أبيات يغنّى فيها إبراهيم الموصلى ، فتعود صاحبته إليه ، ويتصل بينهما ما انقطع ، من ذلك أنه غاضب ماردة أم المعتصم ، وتوقع أن تبدأه بالترضى ، فلم تفعل حتى أقلقته وأرّقته ، وصار بأمرّ عيش ، وعرف ذلك جعفر البرمكى ، وقيل الفضل بن الربيع ، فأعلم العباس القصة وطلب إليه أن يقول فى ذلك شيئاً ، فلم يلبث أن قال :

العاشقان كلاهما متجنِّبُ ... وكلاهما مُتَعَتِّبٌ متغضِّبُ

صدَّتْ مغاضبةً وصدَّ مغاضباً ... وكلاهما مما يعالجُ مُتْعَبُ

راجعْ أحبَّتك الذين هجرتهم   إن المتيَّم قلما يتجنَّبُ
إن التجنُّبَ إن تطاول منكما   دَبَّ السُّلُوُّله فعَزَّ المَطْلَبُ

وألقاها إلى إبراهيم الموصلى فغنّى بها الرشيد ، فلما سمعها بادر إلى ماردة فترضَّاها . ويقال إنها أمرت للعباس وإبراهيم بعشرين ألف درهم مناصفة وأمر لهما الرشيد بأربعين ألفا .

وانعقدت الصلة بينه وبين محمد بن منصور بن زياد الملقب بفتى العسكر ، وتصادف أن رأى عنده جارية جميلة تسمى فوز ، فوقعت فى قلبه ، وأخذ يكثر من زياراته ، وهو إنما يريدها ، وعرفت حبه ، فكانت تصدّ عنه ، وهو يزداد حبًّا وشكوى من أنها لا تقبل عليه ، وأكثر من تصوير إعراضها عنه بمثل قوله :

قالتْ ظلومُ سميَّة الظُّلْم   مالى رأيتك ناحلَ الجِسْمِ
يا مَنْ رَمَى قلبى فأَقْصَدَه   أنت العليم بموضع السَّهْمِ [1]

وأخذ يكثر من شكواه وتضرعه مصوراً سهاده وما دلعته من نيران العشق فى قلبه ، وغدا مستهاماً بها يحبها كل الحب ويُفْتَتَنُ بها كل الفتون ، حتى لكأنها غدت ليلى وغدا المجنون ، فهو دائماً يصف صبابته بها ووجده وجداً لم يجده أحد ، وجداً يتعمقه حتى ليصطلى بناره المحرقة ، وقد مضى يصور ذلك لا فى قصيدة أو قصائد معدودة وإنما فى ديوان رائع ، تجد فيه النفوس غذاء روحيًّا ممتعا ، لأنه يرتفع عن الحس والمادة ارتفاع الشعر العذرى الأموى ، بما يصف من حب لا يخمد أواره ، من مثل قوله :

الحبُّ أول ما يكون لجاجة   تأتى به وتسوقه الأَقدارُ
حتى إذا سلك الفتى لُججَ الهوى   جاءتْ أمورٌ لا تُطاق كِبارُ
نَزَف البكاءُ دموعَ عينك فاسْتَعِرْ   عيناً لغيرك دمعها مدرارُ
من ذا يُعيرك عَيْنه تبكى بها   أرأيتَ عيناً للبكاء تُعارُ

(١) أقصده : أصابه .

وقوله :

أُحْرَمُ منكم بما أقولُ وقد　　　نال به العاشقون مَنْ عشقوا
صرتُ كأنى ذُبالةٌ نُصِبَتْ　　　تضيءُ للناس وهْى تحترقُ

وكانت تكثر بينه وبينها المراسلات ، وربما زارته زورة قصيرة ومضت ، مخلِّفة وراءها حسراته وآلامه وعذابه، وربما اضطرت إلى أن تهجره طويلا أو قصيراً أو أن تزورَّ عنه فى بعض زياراته لها ، فكان يجزع أشد الجزع ويبكى أحر البكاء بمثل قوله :

أبكى الذين أذاقونى مودَّتهم　　　حتى إذا أيقظونى للهوى رَقَدُوا
جاروا علىَّ ولم يوفوا بعهدهمُ　　　قد كنت أحسبهم يوفون إن عَهِدوا
لأخرجنَّ من الدنيا وحبُّكمُ　　　بين الجوانح لم يشعر به أَحَدُ

وقوله :

لما رأيت الليل سَدَّ طريقَهُ　　　عنى وعذَّبنى الظلامُ الرَّاكِدُ
والنَّجْمُ فى كبدِ السماء كأنه　　　أعمى تحيَّر ماالديهِ قائدُ
ناديتُ مَنْ طرد الرقادَ بصَدِّه　　　مما أُعالج وهْو خِلْوٌ هاجد
ألقيتَ بين جفون عينى حرقةً　　　فإلى متى أنا ساهرٌ يا راقد

وفى قصيدة هذه المقطوعة يقول :

والله لو أن القلوبَ كقلبها　　　مارقَّ للولد الصغير الوالِدُ

وخرجتْ من مِلْك محمد بن منصور إلى ملك بعض أمراء البيت العباسى وحجَّ بها ، فمضى يبكيها بدموع غزار مصوراً حبه لها وهيامه فى أشعار كثيرة من مثل قوله من رسالة شعرية أرسل بها إليها :

أزينَ نساء العالمين أجيبى　　　دعاء مشوقٍ بالعراق غريبِ
كتبتُ كتابى ما أُقيم حروفَه　　　لشدة إعوالى وطول نحيبى

أخطُّ وأمحو ما أخطُّ بعبرةٍ تسحُّ على القِرْطاس سَحَّ ذَنوب[١]
أيا فوزُ لو أبصَرْتِنِي ما عرفتني لطول نحولى بعدكم وشحوبى
وأنتِ من الدنيا نصيبي فإن أمت فليتكِ من حُور الجنان نصيبى
أرى البَيْن يشكوه المحبون كلهم فياربِّ قرِّبْ دارَ كلِّ حبيب

وعادت ، وعاد له عذابه بها كما لم يتعذب أحد ، وقد ظل يهتف باسمها وحبها حتى وافته منيته سنة مائة واثنتين وتسعين . ويقال إنه خرج مع غلام له إلى بعض الرياض ، وقد اعتراه ضعف شديد ، فاستلقى تحت شجرة ورفع طرفه ، وهو لا يكاد يرفعه ضعفا ، وأنشأ يقول :

ياسقيمَ الجسم من مِحَنِهْ مُفْرَدًا يبكى على شَجَنِهْ
كلما جَدَّ البكاءُ به دَبَّتِ الأَسقام فى بدنه

ثم أغمى عليه ، وأقبل طائر فوقع على الشجرة ، وجعل يغرِّد ، فسمع تغريده ، وفتح عينيه ، وقال :

ولقد زاد الفؤادَ شَجًى طائرٌ يبكى على فَنَنِه
شَفَّه ما شفَّنى فبكى كلُّنا يبكى على سَكَنه

ثم تنفس تنفسًا مديداً فاضت فيه نفسه .

وواضح من كل ما قدمنا أن غزل العباس عذرى طاهر نقى وأنه يمتاز بجزالة اللفظ مع عذوبته كما يمتاز بغزارة المعانى والخواطر حتى لكأنما يستمد من معين فى نفسه لا ينضب . وكان يعمد أحيانا إلى شىء من صور البديع ، غير أنها تأتى عفواً ، ولا تؤثر أى تأثير فى قوة العاطفة وانطلاقها كالسيل المندفع .

ربيعة الرَّقِّى[٢]

هو ربيعة بن ثابت ، من أهل الرَّقّة ، بها مولده ومنشؤه ، وكان ضريراً ، وتفتحت شاعريته مبكرة ، فأخذ شعره يشيع ، حتى رقى إلى سمع المهدى ،

---

(١) الذنوب : الدلو المملوءة .
(٢) انظر فى ربيعة وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص ١٥٧ والأغانى (طبعة دار الكتب) ١٦/ ٢٥٤ ومعجم الأدباء ١٠/ ١٣٤ ونكت الهميان ص ١٥١ .

فأشخصه إليه ، فمدحه بعدة قصائد ، وأثابه عليها عطاء جزيلا . غير أنه حَنَّ إلى موطنه ، فعاد إليه ، وكان لا يبرحه إلا قليلا ، مما كان سبباً فى إخمال ذكره ، لبعده عن بلاط الخلفاء ومخالطة الشعراء فى بغداد . ولم تَرْوِ له كتب الأدب شيئاً من مديحه فى المهدى إنما روت له مقطوعة من قصيدة بديعة قالها فى العباس بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس صَفِيِّ الرشيد ، وفيها يقول :

لو قِيل للعباس يا بن محمدٍ قل : لا ، وأنت مخلَّدٌ ، ما قالها
ما إنْ أَعُدُّ من المكارم خَصْلةً إلا وجدتك عَمَّها أو خالَها
وإذا الملوك تسايروا فى بلدةٍ كانوا كواكبها وكنتَ هِلالَها

وجزاه جزاء بخساً إذ بعث إليه بدينارين ، فجُنَّ غيظا ، وهجاه هجاء مريرا . وعلم الرشيد القصة فغضب على العباس ، وأمر لربيعة بثلاثين ألف درهم وخلعة . وممن صَلِيَ هجاءه لنقص عطائه معن بن زائدة ، ومنهم يزيد بن أسَيْد السُّلَمى ، وكان قد ردَّه ردًّا غير جميل ، بينما أوسع له فى العطاء يزيد بن حاتم المهلبى ، فمضى يقول أبياته السائرة :

لشتَّان ما بين اليزيدين فى النَّدَى يزيد سُلَيْمٍ والأغرّ ابن حاتمِ
يزيد سُلَيمٍ سالم المال والفتى أخو الأزْد للأموال غير مسالمِ
فهَمُّ الفتى الأزدىِّ إتلافُ مالِه وهَمُّ الفتى القيسىِّ جَمْعُ الدراهمِ
فلا يحسب التَّمْتامُ أنى هجوتُه ولكننى فضَّلتُ أهل المكارم

وقد تعلق بغير جارية ، مما جعله ينظم غزلا كثيراً ، ويقول ابن المعتز : أما شعره فى الغزل فإنه أشعر أهل زمانه جميعًا ، وما أجد أطبع ولا أصحَّ غزلا منه ، ويقول أيضًا : « كان ربيعة أشعر غزلا من أبى نواس لأن فى غزل أبى نواس بَرْداً كثيرا وغزل هذا سليم سهل عذب » . وغزله يُسْلك فى الغزل الصريح إذ كان فيه لهو حتى لُقّب بالغاوى ، وممن كان يهواهن جارية يقال لها « عَثْمة » كانت أمةً لرجل من أهل قرقيسياء ، وقعت فى قلبه ، فظل يتغنى بها على شاكلة قوله :

أَعَثْمَةُ أَطْلِقِى العَلَقَ الرَّهينا ... بعيشِك وارْحَمِى الصَّبَّ الحزينا[1]
تعلَّق زائرًا لكِ فارْحميهِ ... فقد أورثتِ زائرَكِ الجُنونا
ولما أن رآك الناسُ قالوا ... تعالى اللهُ ربُّ العالمينا
فقد أعطاكِ ربُّك فاشْكُريه ... جمالاً فوق وَصْفِ الواصفينا
إذا أقبلْتِ رُعْتِ الناس حُسْنا ... وإن أدبرتِ قَيَّدْتِ العُيونا

وله فيها أشعار كثيرة ، ويظهر أنها أول جارية شُغف بها ، وقد شُغف من بعدها بجارية من جوارى الكَرْخ ببغداد تسمَّى « رُخاص » كما شُغف بأخرى تسمَّى داحا ، وفيها يقول :

صَاحِ إنى غيرُ صَاحى ... أبداً من حُبِّ داحِ
أنا واللهِ قتيلٌ ... لكِ من غير جِراحِ
لا بسيفٍ قَتَلتنى ... لا ، ولا سُمْرِ الرِّماحِ
أنتِ للناسِ قتولٌ ... بالهوى لا بالسِّلاح
وبشكلٍ وبِدَلٍّ ... وبحُسْنٍ ومُزَاحِ
وبعينين صَيُودَيْنِ ... وثَغْرٍ كالأقاحِى
ليتنى كنتُ حَماماً ... لكِ مقصوصَ الجناحِ

وله فى جارية تسمى « سعاد » أشعار كثيرة أيضًا يصور فيها حبه وهيامه وما كانت تراسله به من رسائل ، وفى إحدى قصائده فيها يقول :

الحبُّ داءٌ عَيَاءٌ لا دواء لَهُ ... إلا نَسِيمُ حبيبٍ طَيِّب النَّسَمِ
أو قبلةٌ من فَمٍ نِيلَتْ مُخالَسَةً ... وما حرامٌ فَمٌ ألصقته بفَمِ

ويظهر أن غزله كان يذيع فى عصره وينتشر على كل لسان ، حتى ليقال إن جوارى المهدى هن اللائى دفعنه ليحضره من الرقة حتى يستمعن منه إلى شعره . ويتصل بهذا الانتشار ما يُرْوَى من أن صانعى البُسط كانوا يكتبون أشعاره

(١) يريد بالعلق المعلق بالحب .

عليها ، فقد حدث بعض العباسيين أنه رأى فى دَوْرِ بساط قديم من بسط دار الخلافة هذه الأبيات :

وتزعم أنى قد تبدَّلتُ خُلَّةً   سواها وهذا الباطل المتقوَّلُ
لحا اللهُ من باعَ الصديقَ بغيرِهِ   فقالت نعم حاشاك إن كنت تفعلُ
ستَصْرِمُ إنساناً إذا ما صَرَمْتَنِى   يحبك فانظرْ بعده من تبدَّلُ

وشعر ربيعة كله على هذا النحو المصقول ، الذى يروع بسلاسته وجمال ديباجته ونصاعة ألفاظه، مع الطبع المتدفق والمعانى اللطيفة. ويقال إنه توفى سنة ١٩٨ للهجرة .

٢

شعراء المجون والزندقة

كثر شعراء المجون وما يرتبط به من وصف الخمر فى هذا العصر كثرة مفرطة ، وقد عملت على ذلك أسباب مختلفة ، فإن كثرة الشعراء كانت من الفرس ، وكان كثير منهم يظهر الإسلام ويبطن الزندقة والإلحاد ، وساعد على اضطراب النفوس وتسلط الشك على العقول كثرة المقالات والنحل الدينية وشيوع المذاهب الفلسفية مما جعل كثيرين يستهترون بقيم المجتمع الإسلامية ، بل لقد كان من بينهم من يريد تحطيمها تحطيما . وسبب ثان يرجع إلى كثرة الرقيق ودور النخاسة التى كأنما كانت أسواقا للعبث . وهو عبث صحبه غير قليل من الفجور ، حتى ليمتد إلى الغزل بالغلمان غزلاً يصور — عند أبى نواس وأضرابه — انحطاطاً خلقيًّا شنيعًا . وسبب ثالث هو كثرة اتخاذهم للجوارى والإماء ، مما أدَّى إلى انحلال الروابط الاجتماعية لتسلطهن على الحياة المنزلية ، إذ أخذن مكان المرأة العربية الحرة ، وكن مختلفات الأجناس ، وكثيرات منهن كُنَّ قد نُشّئْنَ على اللهو والمجون والابتذال والخلاعة تنشئة لم تكن تعرفها المرأة العربية المحصَنة .

وطبيعى لذلك كله أن تنتشر موجة حادة من المجون ، ومن غير شك تعد الدولة

مسئولة منذ المهدى عن انتشار هذه الموجة، ومعروف أنه اتخذ ديوانًا للزنادقة وكان حريًّا به أن يتخذ ديوانًا آخر للمجون، ولكنه لم يصنع . وأخذت الموجة تبلغ حدتها العنيفة منذ عصر الرشيد ولكنه لم يحرك ساكنًا لاهو ولامن تلاه من الخلفاء ، بل لقد أسهم فيها ابنه الأمين إسهامًا واسعاً ، حتى غدا القصر كأنه حانة ، إن صح ما يرويه الرواة . ونفس الفقهاء والمتكلمين مسئولون إلى أبعد حد عن شيوع هذا الفسق والفساد وقد مضوا يُشْغَلون عن المجتمع بمباحثهم الخاصة مهملين ما يدعو إليه الدين من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . ومضى الشعراء من حولهم فى الكوفة والبصرة وبغداد يمعنون فى المجون والفجور ، وحقًّا صرخ شيوخ البصرة من أمثال واصل ومالك بن دينار فى وجه بشار وغزله المادى الصريح الذى يفسد به نساء البصرة وشبانها ، وارتفع صياحهم إلى سمع المهدى ، فنهاه عن هذا الغزل ، وانتهى على كره ومضض ، غير أن شيوخ الكوفة وبغداد لم يرتفع لهما صوت. ونفس شيوخ البصرة بعد عصر بشار لزموا الصمت الطويل ، مع اشتداد الفسق والغزل المفحش بالإماء والغلمان ، فقد كان لا يعرف الغزل الأخير ، وكان لا يبلغ من الإفحاش فى غزل الإماء ما بلغه الجيل التالى له .

والذى لا شك فيه أن الكوفة سبقت البصرة وبغداد جميعًا لهذا العصر فى الفسق والمجون ، إذ غرقت فيهما إلى أذنيها ، وكان مما أعدَّ لذلك دار نخاسة كبيرة قامت بها منذ أواخر عصر بنى أمية ، وهى دار ابن رامين ، وكان قد جلب إليها كثيرات من قيان الحجاز وإمائه المغنيات أمثال سَعْدة ورُبَيْحة وسلاّمة الزرقاء ، وتولع بهن كثير من شباب الكوفة وغيرهم أمثال إسماعيل بن عمار ومحمد بن الأشعث وشُراعة بن الزَّنْدَبُوذ ، ونظموا فيهن كثيراً من الأشعار المادية التى لا تخلو أحيانا من الفحش[1] . ولم تلبث أن ظهرت جماعة كبيرة من المجان الخلعاء أمثال والبة ومطيع بن إياس ويحيى بن زياد .

وكان والبة شيطاناً مَرِيدا ، فهو يسرف فى المجون والخلاعة والغزل الشاذ بالغلمان وكان ينتسب فى قبيلة أسد[2] ، وهى والعرب جميعًا بُرَآءُ منه ومن فحشه

---

(١) أغانى (طبعة دار الكتب) ١١/٣٦٤ وما بعدها و١٥/٥٦ وما بعدها .

(٢) أغانى (طبعة الساسى) ١٦/١٤٢ وانظر فى والبة ابن المعتز ص ٨٧ وتاريخ بغداد ١٣/٥١٨ .

وشذوذه ، وقد أعفاهم منه أبو العتاهية ، إذ نسبه فى الروم[١] ، وهو الذى أدّب أبا نواس وأفسده فيما يقول الرواة ، ويقول أبو الفرج إنه كان خبيث الدين . وقد ذهب شعره إلا أطرافًا رواها أبو الفرج وابن المعتز ، وهى تصور كيف كان يجاهر بالفسق والمعصية . وممن خلفوا أبانًا وجماعته على هذه المجاهرة بكر بن خارجة مولى بنى أسد ، وكان ورّاقا ضيق العيش مقتصراً على التكسب من الوراقة وصرف أكثر ما يكسبه إلى النبيذ ، وكان معاقراً للشراب فى منازل الخمارين وحاناتهم وتعشق غلاما نصرانيًّا يقال له عيسى بن البراء العبادى الصيرفى ، وله فيه قصيدة مزدوجة ذكر فيها النصارى وشرائعهم وأعيادهم وأديرتهم ، وفيه يقول[٢] :

زُنّارُهُ فى خَصْره معقودُ كأنه من كبِدى مقدودُ

ولم يلبث كثير من شعراء البصرة أن أمعنوا وراء شعراء الكوفة فى هذا الفساد الخلقى ، يقودهم الحارَكِىُّ ، وفيه يقول أبو نواس : « ما مجنتُ ولا خلعت العِذار حتى عاشرت الحاركى فجاهر بذلك ولم يحتشم فامتثلنا نحن ما أتى به وسلكنا مسلكه ، ونحن ومن يذهب مذهبنا عيالٌ عليه »[٣] . وكان طبيعيًّا أن ينقل شعراء البصرة والكوفة هذا الفساد والتحلل الخلقى إلى بغداد منذ أخذوا يفدون عليها ويقيمون بها فى عهد المهدى ومن تلاه من الخلفاء ، يتقدمهم أبو نواس . ومن مجّانها المشهورين الرّقاشى ، يقول أبو الفرج : « كان ماجناً متهاوناً بمروءته ودينه ، وقصيدته التى يوصى فيها بالخلاعة والمجون مشهورة سائرة فى الناس ، مبتذلة فى أيدى الخاصة والعامة وهى التى أولها :

أوصَى الرقاشىُّ إلى إخوانِه وصيّـــةَ المحمودِ فى نُدْمانِه »[٤]

ويقول ابن المعتز إنها كانت فى الغلمان وشرب الخمر والقمار والهِراش بين الديكة والكلاب[٥] . وقد اتسعوا فى الحديث عن الخمر ورائحتها ونَفْحتها ودنانها وسقاتها وحاناتها وأديرتها ، وتعرضوا طويلا للرهبان والراهبات وزنانيرهم .

ونرى أبا الفرج حينما يتحدث عن كثير من هؤلاء الخلعاء الماجنين ينصُّ على

---

(١) أغانى ١٦/١٤٣ وما بعدها .
(٢) أغانى (طبعة الساسى) ٢٠/٨٧ .
(٣) ابن المعتز ص ٣٠٦ .
(٤) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٦/٢٤٦ .
(٥) ابن المعتز ص ٢٢٦ .

خبث دينهم أو على زندقتهم ومروقهم من الإسلام وشريعته الغرّاء على نحو ماترى فى حديثه عن حماد الراوية وحماد عَجْرد ومطيع بن إياس ، وكأنهم كانوا على مذهب مزدك الذى يدعو إلى اللذات واقتراف الكبائر . وكان من الزنادقة نفر أُشْربوا حبَّ مذهب مانى وما فيه من الزهد والانصراف عن مُتَع الحياة وخير من يمثلهم صالح بن عبد القدوس الأزدى .

على أنه ينبغى أن نلاحظ أن كثيرين ممن تورطوا حينئذ فى الخمر والمجون لأوائل حياتهم ، عادوا فتابوا إلى ربهم وأنابوا ، ومن خير من يمثل هذا الفريق آدم ابن عبد العزيز حفيد عمر بن عبد العزيز ، يقول أبو الفرج : « كان فى أول أمره خليعاً ماجناً منهمكا فى الشراب ، ثم نَسك بعد ماعُمّر ومات على طريقة محمودة » ويروى أن المهدى شك فى أنه زنديق ، فأمر بضربه ثلاثمائة سَوْط على أن يقرّ بالزندقة ، فقال : والله ما أشركت بالله طَرْفة عين ، فقال له المهدى : فأين قولك :

اسْقِنى واسْقِ خليلى فى مَدى الليل الطويلِ
قهوةً فى ظـل كَرْمٍ سُبِيَتْ من نهر بِيل[1]
فى لسان المرء منهـا مثلُ طعم الزَّنْجَبيل
قُلْ لمن يلحاك فيها من فقيهٍ أو نبيل[2]
أنت دَعْها وارْجُ أُخرى من رَحيق السَّلْسبيل[3]
تعطش اليومَ وتُسْقَى فى غَدٍ نَعْتَ الطُّلولِ

فقال للمهدى : كنت فتى من فتيان قريش ، أشرب النبيذ ، وأقول ما قلتُ على سبيل المجون ، والله ما كفرت بالله قط ، ولا شككت فيه . فخلَّى سبيله ورقّ له[4] . وأمثال آدم كانوا كثيرين . ونحن نقف عند ثلاثة من أبرز شعراء الزندقة والمجون وهم حماد عَجْرد ومطيع بن إياس وصالح بن عبد القدوس .

---

(١) بيل : من نهيرات سواد العراق. سبى الخمر : حملها من بلد إلى بلد .
(٢) يلحاك : يلومك ويشتمك .
(٣) يشير إلى رحيق الفردوس .
(٤) أغانى ١٥/ ٢٨٥ وما بعدها .

حماد [1] عجرد

من الموالى، أصله ومنشؤه بالكوفة، كان أبوه نَبَّالا يَبْرِى النَّبْل ، ويظهر أنه وجهه إلى الدرس والتعلم مبكراً ، ويقال إنه لُقب بعَجْرد لأن أعرابيًّا مرَّ به فى يوم شديد البرد وهو عُرْيان يلعب مع الصبيان ، فقال له : تعجردت يا غلام أى تعرَّيت فسمى عَجْرَدًا . وظل عاكفا على التعلم والتأدب ، حتى أتقن العربية وانتظم فى سلك المعلمين المؤدبين ، غير أنه مضى يفرغ للهو والمجون مع صاحبيه : حماد الراوية وحماد بن الزبرقان ، يقول ابن المعتز : « كان بالكوفة ثلاثة يقال لهم الحمادون : حماد عجرد وحماد بن الزبرقان وحماد الراوية يتنادمون على الشراب ويتناشدون الأشعار ويتعاشرون أجمل عشرة ، وكانوا كأنهم نفس واحدة ، وكانوا جميعاً يُرْمَوْن بالزندقة » . فهو لم يكن ماجنًا فحسب ، بل أشربتْ روحه الزندقة كما أشْرِبت المجون ، وقد مر بنا فى الفصل الرابع ما قاله أبو نواس من أنه كان يظن أن حمادا رُمى بالزندقة لعكوفه على المجون ، حتى إذا حُبِس فى سجن الزنادقة وجدهم يقرءون فى صلاتهم شعراً مزاوجا له ، فعرف أنه كان إمامًا من أئمتهم . وعلى نحو ما كان يتواصل مع حماد الراوية وحماد بن الزبرقان كان يتواصل مع مجان موطنه المتزندقة من أمثال مطيع بن إياس ويحيى ابن زياد . وهو يُسْلَك فى مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية ، ويظهر أن مجونه قديم إذ يقال إنه كان من ندماء الوليد بن يزيد وأنه ظل إلى أن قتل سنة ١٢٦ للهجرة فعاد إلى موطنه ، وأخذ يعيش معيشة مجون وفجر وفسق لا يرعوى ولا يزدجر ، بل يصرح بذلك تصريحًا عاريًا مكشوفا، كما يصرح بزندقته مجاهراً ، حتى ليقول فيه مساور الوراق :

لو أن مانى ودَيْصانا وعُصْبتهم ... جاءوا إليك لما قلناك زنديقُ

(١) انظر فى حماد وأخباره وأشعاره الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٤/٣٢١ وابن المعتز ص ٦٧ – ٧٢ وابن قتيبة ص٧٥٤ ومعجم الأدباء ١٠/٢٤٩ وابن خلكان وتاريخ بغداد ٨/١٤٨ والحيوان للجاحظ ٤/٤٤٧ وفى مواضع أخرى (انظر الفهرس) وأمالى المرتضى (طبعة الحلبى) ١/١٢٨ – ١٣٤ . ولسان الميزان ٢/٣٤٩

أَنت العبادةُ والتوحيدُ مذ خُلقا وذا التزندقُ نَيْرنجٌ مخاريقُ

فهويفوق — فى رأيه — مانى وديصان وأضرابهما من رءوس الزنادقة . ويعابثه صديقه حماد بن الزبرقان شاهدا عليه بزندقته ومجونه قائلا :

نِعم الفتى لو كان يعرف قَدْره ويقيم وقتَ صلاته حَمّادُ
هَدَلَتْ مشافرَه الدِّنانُ فأنفُه مثل القَــدوم يسنُّها الحَدّادُ
وابيضَّ من شرب المُدامة وجهه فبيــاضُه يوم الحساب سوادُ

وكأنما كان عُرْيه فى صباه ولقبه عجرد الذى لزمه إرهاصًا لما أخذ فيه بعدُ من الإباحة وطلب اللذات . وكان يطلبها فى الحانات وفى الأديرة وفى البساتين ، متغزلا فى الإماء والغلمان غزلا مكشوفًا كان يتبادله مع مطيع بن إياس وغيره ممن كانوا يمعنون معه فى المجون هازئين بالإسلام ودعوته التى تحرم الإباحة واقتراف المنكرات ، حتى لينحازوا إلى الزندقة التى تفتح لهم الأبواب إلى الفسوق والفجر الفاجر .

ويرتفع ما كان فيه من فسق ومجون إلى سمع المنصور ، فيستخدمه أداة للنَّيْل من محمد بن أخيه السفاح ، حتى يسقط فى أعين الرعية ويرتفع عندها ابنه المهدى ، ذلك أنه كان قد اتصل به من قبلُ وأدَّبه ، وترك فيه أثراً سيئًا ، إذ جعله يميل إلى اللهو وشىء من المجون . ورأى المنصور أن يهتك ستر ابن أخيه فولاه البصرة بعد ثورة إبراهيم بن عبد الله بن الحسن وأصحبه حماداً ، فأكمل إغواءه له ، وكشف للناس مجونه ، وله فيه مدائح مختلفة من مثل قوله :

أَرجوك بعد أَبى العباس إذ بانا يا أَكرمَ الناسِ أَعْراقا وأَغصانا
لو مَجَّ عودٌ على قومٍ عصارتَه لمجَّ عودك فينا المِسْكَ والبَانا

وحدث أن خطب محمد حين ولى البصرة ابنة عم أبيه زينب بنت سليمان العباسى وكان يهواها ، فلم يزوجوها له لنقص كانوا يرونه فى عقله ، ورأى أن يؤذيهم فطلب إلى حماد أن ينظم فيها غزلا على لسانه ، فنظم وأكثر مما أحفظ عليه أخاها محمد ابن سليمان وأهلها ، ولم يلبث محمد أن توفى لأوائل سنة مائة وخمسين للهجرة ،

فبكاه حماد بكاء حارًّا بمثل قوله :

صرتُ للدهر خاشعاً مستكينا بعد ما كنت قد قهرتُ الدهورا
ليتنى متُّ حين موتك ، لا بل ليتنى كنت قبلك المقبورا

ولم يجرّ عليه نزوله البصرة غضب محمد بن سليمان فحسب ، بل لقد جرّ عليه أيضًا معركة هجاء حامية الوطيس نشبت بينه وبين بشار شاعر البصرة ، ذلك أنه أفسد عليه بعض من كانوا يثيبونه ، فهجاه والتحم بينهما الهجاء ، وشُغف بعض معاصريهما بالتحريش بينهما ، فكان ينقل إلى كل منهما ما يقوله فى صاحبه ، فيثور ويحاول أن يقذفه بحجر مُدْم ، وتكاثرت الأحجار . وكان بشار — مع زندقته — يكثر من هجائه بالزندقة ، وردّ عليه بنفس السهام وبسهام أخرى لم تكن أقل إيذاء ، إذ كان يهجوه بعماه وقبح خلقته ودَنسه وقذارته مهوّنا منه أشد التهوين ومستخفًّا به أشد الاستخفاف ، وقد أنشدنا فى الفصل الرابع أطرافا من هذا الهجاء المُصْمى ، وأكثرا جميعًا من هجو الأمهات والزوجات . ومن المحقق أن حماداً كان يستعلى عليه فى تلك المعركة ، إذ كان يُشيع فى هجائه له سخرية مرة من مثل قوله :

إن تاه بشارٌ عليكم فقد أمكنتُ بشارا من التيهِ
وذاك إذ سمَّيتُه باسمهِ ولم يكن حُرٌّ يسمِّيه
لم أهْجُ بشاراً ولكننى هجوتُ نفسى بهجائيهِ

ونراه فى بعض عبثه ولهوه مع مطيع بن إياس يلمزه ببعض اللمز ، ولكنهما لا يندفعان فى الهجاء ، فقد كانا صديقين متوادّين . واتصلت صداقته مع يحيى ابن زياد ، وكان مثله خليعًا ماجنا متّهما بالزندقة ، ويقال إنه تاب وأناب بأخرة وهجا حماداً وأشباهه وإنه كان إذا ذُكر عنده ثلبه وحكى تهتكه ومجونه ، فكتب إليه حماد من قصيدة :

إن كان نُسْكك لا يتـ ـمُّ بغير شَتْمى وانتقاصى
فعليك فاشتُمْ آمنـاً كلَّ الأمان من القِصاصِ

فلطالمـــا زكَّيتنى وأنا المقيمُ على المعـــاصى
أيام أنت إذا ذُكر تُ مناضلٌ عنى مُناصى[١]
وأنا وأنت على ارتكا ب الموبقات من الحِراصِ

وله معاتبات بديعة كثيرة لأصدقائه يتحدث فيها عن واجب الصديق للصديق حديثاً كله بِرٌّ وعطف ، على شاكلة قوله :

لقد حُزْتَ من قلبى مكانا ممنَّعا أرى لك فيه أن أريق لك الدَّما
سأشرب كأسيك اللتين سقيتنى وإن كانتا واللهِ صَاباً وعَلْقَما
وأُدْخل كفِّىَّ إثْر كفَّكَ فى الذى عراك ولو أدخلتَها ثُقْبَ أرقما[٢]

وبلغه توعد محمد بن سليمان العباسى بعد وفاة محمد بن السفاح لما كان يردِّده من الغزل بلسان ابن عمه فى أخته على نحو ما أسلفنا فدحه أمداحا مختلفة غير أن محمد بن سليمان ظل حنقا عليه وجَدَّ فى طلبه ، فمضى إلى قبر أبيه سليمان بن على فاستجار به ، وبلغ ذلك محمداً فقال : والله لأبُلَّنَّ قبر أبى من دمه ، فهرب حماد إلى بغداد فعاذ بجعفر بن المنصور ، فأجاره ، ويقال إنه طلب إليه هجاء محمد بن سليمان وكان والياً على البصرة فلبّاه وهجاه هجاء مقذعا بمثل قوله :

له حَزْمُ بُرْغُوث وعقل مكاتَبٍ وغُلْمَةُ سِنَّوْرٍ بليلٍ تُوَلْوِلُ[٣]

وبلغ هجاؤه ابن سليمان فأهدر دمه ، ويقال بل قتله لزندقته ، وقال : والله لا يفلتنى أبداً ، وعرف أنه استتر منه بالأهواز ، فأرسل إليه بعض مواليه وأمره أن يفتك به ، فلم يزل يطلبه حتى وقف عليه فقتله غيلة سنة ١٦١ للهجرة .

مطيع[٤] بن إياس

كان أبوه إياس بن مسلم شاعراً ، وكان من أهل فلسطين الذين أمدَّ بهم

(١) مناصى : مدافع .
(٢) الأرقم : الثعبان .
(٣) تولول : تعول .
(٤) انظر فى مطيع وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص ٩٤ والأغـانى (طبـعة دار الكتب) ١٣ / ٢٧٤ وتاريخ بغداد ١٣ / ٢٢٦ وعيون الاخبار ٢ / ١٨٢ وأمالى المرتضى (طبعة الحلبى) ١ / ١٤٢ والديارات للشابشتى ص ١٥٩ ومـا بعدها ولسان الميزان لابن حجر ٦ / ٥١ .

عبد الملك بن مروان الحجاجَ بن يوسف فى حروبه ضد الثوار ، وقد أقام بالكوفة وتزوَّج بها فوُلد له مطيع ، وبها كان منشؤه ومرباه . وقد نسبه أبو الفرج إلى كنانة ، ثم عاد فتشكك فى هذا النسب مُحسًّا أنه من صنع الرواة . وكل شىء فيه يؤكد أنه لم يكن عربيًّا إنما كان من الموالى ، فقد كان متحلل الأخلاق مجاهراً بالفسق والعصيان والزندقة والإلحاد ، ومضى فى مطالع شبابه يمدح الغمر بن يزيد بن عبد الملك ويظفر بجوائزه السنية ، ووصله بأخيه الوليد ، فسلكه فى ندمائه .

وعاد مع حماد عجرد بعد وفاة الوليد بن يزيد إلى الكوفة ، وغرقا فى اللهو والمجون والفسق والعصيان مع يحيى بن زياد وغيره من الخلعاء والمجان . واتصل بعبد الله ابن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ونادمه ، ورافقه فى ثورته على الأمويين حتى إذا قُتل عاد إلى الكوفة يحتسى كئوس الخمر حتى الثمالة .

وليست هناك سوءة من سوءات العصر إلا وتُضاف إليه . وكان فيه ظرف ودعابة ، مما جعله محبَّبا إلى رفاقه ، وله معهم نوادر كثيرة ، من ذلك أن صديقه يحيى بن زياد قال له يوما : انطلقْ بنا إلى فلانة المغنية صديقتى فإن بينى وبينها مغاضبة ، لعلك تصلح بيننا فدخلا إليها ، وأقبل يحيى يعاتبها ومطيع ساكت ، حتى إذا أكثر يحيى قال لمطيع : ما يسكتك ؟ فتوجه إليها مطيع قائلا :

أنت معْتَلَّةٌ عليه ومــازا ... ل مُهينا لنفسه فى رضاكِ

فأعجب يحيى ما سمع ، وهَشَّ له مطيع ، ثم قال :

فدَعيه وواصلى ابنَ إياسٍ ... جُعِلَتْ نفسىَ الغداةَ فِداكِ

وأغربت الجارية فى الضحك . وفى كتاب الأغانى أشعار له كثيرة كان يدعو بها رفاقه إلى اللهو والقصف فى داره وفى البساتين والأديار . وغزله فى الغلمان قليل ، ولكن لا شك فى أنه من أوائل من أشاعوا هذا الغزل المزرى ، وله غزل كثير فى القيان الكوفيات وخاصة فى جوهر ، وفيها يقول :

أنتِ يا جوهرُ عندى جَوْهره ... فى قياس الدُّررِ المشتهره

أو كشمسٍ أشرقتْ فى بيتها ... قَذفتْ فى كل قلبٍ شَرَرَه

وفى أخباره أنه صحب سلم بن قتيبة حين ولى مدينة الرَّىّ للمنصور سنة ١٤٥ وهناك عشق امرأة من بنات الدهاقين كان نازلا بجوار دارها،ولم يلبث المنصور أن استدعى سلما فى نفس السنة ، فاضطُرَّ مطيع إلى الرحيل معه، وألمَّ فى طريقه بمدينة حلوان وجلس يستريح بجوار نخلتين وتذكر معشوقته،فخنقته العبرات وقال أبياته المشهورة التى أنشدناها فى الفصل الرابع والتى يخاطب فيها نخلتى حلوان خطابا مؤثراً شاكيًا لهما فراقه الأحباء والخلان .

ومن الأجواد الذين فزع إليهم فى تلك الفترة يستميحهم بمدائحه معن بن زائدة الشيبانى ، ويُرْوى أنه لما أنشده مدحته التى يقول فيها مصوراً كرمه وبأسه وحلمه وحصافته :

فتى نزارٍ وكهلُها وأخو ال　　　جود حَوَى غايتيه من كَثَبِ
تَرَى له الحلْم والنُّهَى خُلقا　　　فى صولةٍ مثل جاحم اللَّهَبِ

قال له معن مداعبا : إن شئت مدحناك كما مدحتنا ، وإن شئت أثبناك ، فاستحيى مطيع من إيثار الثواب على المديح ، وهو محتاج إلى الثواب ، فأنشأ يقول بديهـــة :

ثنـــاءٌ من أميرٍ خَيْرُ كَسْبٍ　　　لصاحبِ فاقةٍ وأخى ثراء
ولكن الزمان بَرَى عِظامى　　　وما مثلُ الدراهم من دواء

فقال معن : لقد لطفت حتى تخلصت ، وصدقت لعمرى ما مثل الدراهم من دواء ، وأمر له بثلاثين ألف درهم وخلعة سنية.

وجذبته بغداد على نحو ما جذبت غيره من الشعراء ، فولّى وجهه نحوها ، وربما كان من أسباب ذلك خروج رفيقيه حماد عجرد ويحيى بن زياد إلى محمد ابن العباس السفاح بالبصرة . ويظهر أن الدواء الذى وصفه له معن بن زائدة عزَّ عليه فى أول مقامه ببغداد ، مما جعله يقول :

زاد هذا الزمانُ عسرًا وشرًّا　　　عندنا إذ أحلَّنا بغداذا
بلدةٌ تمطر الترابَ على النا　　　س كما تمطر السماءُ الرَّذاذا

ولم يلبث ظرفه أن فتح له أبواب القصر العباسي ، فتحها له جعفر بن المنصور. وكان فيه خبث ، فانتهز فرصة إعلان المنصور بيعته لابنه المهدى بولاية العهد من بعده ، وتقدم عقب فراغ الخطباء والشعراء من إشادتهم بالمهدى ، فروى حديثاً مصنوعاً لتوِّه زاعماً أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « المهدى منا محمد بن عبد الله وأمه من غيرنا ، يملؤها عدلا كما مُلئت جوراً» . وسُرَّ من صنيعه المنصور ، وحفظ ذلك له المهدى . ويقال إنه ارتفع إلى المنصور أنه ماجن زنديق فهمَّ بإنزال عقاب صارم به غير أن ابنه المهدى تشفع فيه فعفا عنه، وبذل له المهدى مائتى دينار ، وأوصى به والى البصرة فولاه أعمال الصدقات . وربما كانت هذه الولاية غير صحيحة ، ولكن من المؤكد أن المهدى ظل راضياً عنه ، ولعل هذا الرضا هو الذى جعله يفلت من عقابه حين شدَّد فى تعقب الزنادقة سنة ١٦٦ للهجرة وأطاح برءوس كثيرين منهم . ومما يؤكد زندقته ما يقال من أن الرشيد أُتى ببنت له فى الزنادقة ، فأقرت بزندقتها وتوبتها قائلة : هذا دين علَّمنيه أبى وتبت منه . فقبل الرشيد توبتها وردَّها إلى أهلها .

ومضى مطيع يعيش لعهد المهدى منهمكاً فى المجون والخلاعة والشراب والانطراح فى مواضع اللذات ، ونظم فى تلك الحياة الفاجرة كثيراً من الأشعار يصف فيها الخمر أو يتغزل ببعض القيان . وله بجانب ذلك معاتبات لرفاقه تفيض حنانا وعطفا وبِرًّا ، وخاصة مع صديقه يحيى بن زياد، ويقول ابن المعتز : «كان لا يفارقه ليلا ولا نهاراً ، ويرى كل واحد منهما بصاحبه الدنيا مودة ومحبة» . وحدث أن تهاجرا ولم يُطق مطيع الصبر على هجره فكتب إليه يعاتبه ويستعطفه مصوراً ما كان منعقداً بينهما من ود متصل بمثل قوله :

كنت ويحيى كَيَدَىْ واحدٍ   نَرْمى جميعاً وتَرَيْنَا معاً
إن عضَّنى الدهرُ فقد عضَّه   يوجعنا ما بَعْضَنَا أوجعا
أو نام نامتْ أعينٌ أربعٌ   منا وإن أسْهَرْ فلن يَهْجَعا
حتى إذا ما الشيبُ فى مَفْرِقى   لاح وفى عارضه أسرعا
سَعَى وُشاةٌ فمشوا بيننا   فكاد حَبْلُ الوُدِّ أن يُقْطَعَا

حتى إذا استمكن من عَثْرَةٍ   أَوْقَدَ نيرانَ القِلَى مُسْرِعا
فلم أَلُمْ يحيي على فعلهِ   ولم أقل مَلَّ ولا ضيَّعا

وهو عتاب يدل على حس مرهف دقيق . وسرعان ما عاد بينهما الصفاء ومضيا يعبّان من دنان اللهو والمجون حتى كفّ يحيي بأخرة فيما يقال . ولم يلبث أن توفى فبكاه مطيع بكاء حارًا ، ومن قوله يرثيه ويتفجع عليه :

يا أَهلىَ ابْكُوا لقلبيَ القَرِحِ   وللدُّمــوعِ السواكب السُّفُحِ [1]
راحوا بيحيي ولو تطاوعني الْ   أَقْدَارُ لم يبتكر ولم يَرُحِ [2]
ياخير مَنْ يحسن البكاء له الْ   يوم ومن كان أمس للمِدَحِ
قد ظَفِرَ الحُزْنُ بالسرور وقد   أُديل مكروهنا من الفرحِ [3]

وواضح أن مطيعا كان يتقن جميع الفنون الشعرية وأنه يمتاز فى أشعاره بالسلاسة والعذوبة . ولعل ذلك ما جعله يميل فى كثير من نظمه إلى وزن المجتث والأوزان المجزوءة . وكأنما كان يريد أن يوفر لأشعاره كل ما يمكن من خفة ورقة ورشاقة ، حتّى تجرى على أفواه الناس ، وحتّى تَلَذَّ آذانهم ، ويقول صاحب الأغانى إن حكما الوادى المغنى تغنَّى فى قطعة له ، فلم يبق سَقَّاء ولا طحَّان ولا مكار إلا غنَّى فيها . وقد ظل مطيع سادراً فى غيه ومجونه حتّى توفى سنة ١٦٩ وقيل بل فى سنة ١٧٠ للهجرة لأول خلافة الرشيد .

صالح [4] بن عبد القدوس

بصرى من موالى الأزد ، وأكبر الظن أنه فارسى الأصل ، وكان فى صدر

---

(١) السواكب السفح : المنهمرة .
(٢) يبتكر : من البكور . ويرح : من الرواح وهو وقت العشى .
(٣) أديل : أصبحت له دولة وصولة .
(٤) انظر فى صالح وأخباره وأشعاره أمالى المرتضى (طبعة الحلبى) ١/١٤٤ وما بعدها وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ٩٠ ورسالة الغفران (طبعة أمين هندية) ص ١٤٢ وتاريخ بغداد ٩/٣٠٣ ومعجم الأدباء لياقوت ١٢/٦ وتاريخ دمشق لابن عساكر ٦/٣٧١ وفوات الوفيات ١/١٩١ ونكت الهميان للصفدى ص١٧١ ، ٧١ ولسان الميزان لابن حجر ٣/١٧٢ وفهارس كتابى البيان والتبيين والحيوان للجاحظ ، وسرح العيون لابن نباتة (طبعة دار الفكر العربى) ص ٢٢٧ .

نشأته يختلف إلى حلقات الوعاظ والمتكلمين ولم يلبث عقله أن تشوش بما كان يسمع فى تلك الحلقات من مناقشات أصحاب الملل والنحل، فإذا هو يعتنق الثنوية المانوية مذهب آبائه ونحلتهم ، وما كانت تقول به من أن العالم نشأ عن أصلين هما النور والظلمة ، ولكل منهما إلهه الخاص ، وأن مصدر بلاء العالم امتزاج هذين العنصرين ، ومن أجل ذلك دعت إلى الزهد فى الحياة ونعيمها الزائل . ونراه فى عصر بنى أمية يكثر من الاجتماع بواصل بن عطاء رأس المعتزلة ، مشاركا فيما كان يدور فى مجلسه من مخاصمات كلاميَّة ودينية[١] ، ونظن ظنًّا أنه لم يظهر حقيقة عقيدته حينئذ ، وإلا لهتف به واصل ، كما هتف ببشار طالبًا من أصحابه قتله[٢] ، وفى بعض شعره أنه كان يسرّ نحلته خشية الحبس والعقاب والتنكيل به ، يقول :

رُبَّ سِرٍّ كتمتُه فكأَنى أَخْرَسٌ أو ثنى لسانىَ خَبْلُ

ولو آنى أَبديت للناس علمى لم يكن لى فى غير حَبْسِىَ أَكْلُ

وتوفِّ واصل سنة ١٣١ للهجرة ، ولم تلبث الثورة العباسية أن اندلعت تسندها حراب الفرس والخراسانيين وسرعان ما انتصرت فأحسّ صالح كأن الحياة واتته ، وأخذ يعلن عقيدته ويجاهر بها حينًا ، وحينا يسترها حين يخاف بعض الحكام ، حتى ليصلى صلاة المسلمين حين تحين الصلاة ، ويعجب من صلاته بعض من يعرف مذهبه ، ويسأله فى ذلك متعجبًا ، فيقول : « سنة البلد وعادة الجسد وسلامة الأهل والولد » . ونمضى فى العصر العباسى ويكثر الزنادقة والمتزندقون ، على نحو ما صورنا ذلك فى غير هذا الموضع ، ويعلن صالح زندقته ولا يواريها ، أو بعبارة أدق يعلن مانويته وثنويته ، حتى ليؤلف — كما يقول ابن النديم — كتبًا فى نصرة عقيدته[٣] . وتبلغ به الجرأة أن يحاضر ويجادل فيها بمسجد البصرة ، ويتعرض له غير متكلم من المعتزلة وغيرهم وخاصة أبا هذيل العلاف ، ويروى أنه ناظره فى الامتزاج الذى يدعيه المانوية بين النور والظلمة فى الجوهر والطبع والفعل والمكان والأبدان والأرواح ، وأنه أفحمه وقطعه ، فقال :

---

(١) أغانى (طبع دار الكتب) ٣/١٤٦ .

(٢) انظر البيان والتبيين ١/١٦ .

(٣) الفهرست ص ٤٧٣ .

أبا الهُذَيْلِ هداك الله يا رجلُ فأنت حقًّا لعمرى مُعْضِلٌ جَدِلُ

وناظره أبو الهذيل مرة أخرى فى أصل عقيدته وما يؤمن به من إلهى النور والظلمة ، وبدا منه كأنه يهجر ضلاله وغيه ، فسأله أبو الهذيل : على أى شىء تعزم يا صالح ؟ فقال : أستخير الله وأقول بالاثنين . وكأن المسألة تحوّلت عنده من الأخذ بالمنطق إلى باب الهوى وتقليد الآباء، ويظهر أن ذلك أفضى عنده إلى شكوك واسعة لا فى الديانات فحسب ، بل فى حقيقة كل شىء ، ولعله اطلع على مباحث السوفسطائيين اليونانيين وما آمنوا به من أن الأشياء لا حقيقة لها فى نفسها ، ويدل على ذلك ما يقال من أنه ألف كتابا سماه كتاب الشكوك ، ويُرْوَى إنه مات له ولد ، فلقيه أبو الهذيل العلاف ومعه النظام ، فوجده جَزِعًا على ابنه ، فقال له : لا أعرف لجزعك وجهًا إذا كان الناس عندك كالزرع ! فقال صالح : يا أبا الهذيل إنما أجزع عليه لأنه لم يقرأ كتاب الشكوك ، فقال أبو الهذيل : وما كتاب الشكوك ؟ قال : كتاب وضعته ، منْ قرأه شك فيما كان حتى يتوهم أنه لم يكن وفيما لم يكن حتى يظن أنه قد كان؛ فقال له النظام : فشُكَّ أنت فى موت ابنك واعمل على أنه لم يمت وإن مات ، وشُكَّ أيضًا فى أنه قرأ هذا الكتاب وإن لم يكن قرأه ، فَحصِر صالح . وفى أشعاره ما يدل على أنه عَمِيَ فى آخر عمره ، إذ يقول :

عــزاءَكِ أيهــا العَيْنُ السَّكوبُ ودَمْعَكِ إنها نُوَبٌ تنوبُ
على الدُّنيــا السلامُ فما لشيخٍ ضريرِ العين فى الدُّنْيا نصيبُ
إذا ما مات بَعْضُكَ فابْكِ بَعْضاً فإن البعض من بعضٍ قريبُ

وتدخل سنة ١٦٦ للهجرة ويشدد المهدى فى تعقب الزنادقة وينصب لهم ديوانا لمحاكمتهم ومن تثبت عليه الزندقة يُصلب لتوه ، حينئذ يفرُّ صالح من البصرة إلى دمشق ويظل مستتراً بها مدة ، ثم يقبض عليه ويلقى به فى غياهب السجون ببغداد انتظاراً لمحاكمته ، ويصور مشاعره وهو فى السجن تصويراً دقيقًا بمثل قوله :

خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها فلسنا من الأحياء فيها ولا الموتى
طَوى دوننا الأخبارَ سِجْنٌ ممنَّعٌ له حارسٌ تَهْدا العيون ولا يَهْدَا

قُبِرْنا ولم نُدْفَنْ فنحن بمعزلٍ من الناس لا نُخْشَى فنُغْشَى ولا نَغْشَى
ألا أحدٌ يأْوى لأهل مَحِلَّةٍ مقيمين فى الدنيا وقد فارقوا الدنيا
كأنهمُ لم يعرفوا غير دارهمْ ولم يعرفوا غير التضايق والبَلْوى

ويختلف الرواة فى زمن هذه المحاكمة والخليفة الذى تولاها ، فمن قائل إنه المهدى ومن قائل إنه هرون الرشيد ، وقد ضعّف ابن المعتز القول الأول ، وقال الصحيح أن الذى حاكمه وناظره فى زندقته الرشيد، وكان قد أُنْهِىَ إليه أبيات يهجو بها الرسول — كبرت كلمة تخرج من فمه — لزواجه من زينب بنت جحش بعد فراق مولاه زيد لها[١] ، وهى طعن صريح فى الرسول الكريم والذكر الحكيم ، ولا بد أنه أنهى إليه كل شىء عن زندقته وإثنينيته ومانويته ، فأمر بالقبض عليه ، وزُج به فى السجن ، ثم عُقد له يوم لمحاكمته، وتولّى الرشيد المحاكمة بنفسه ، غير أنه حاول التبرؤ من كل ما نُسب إليه ، ويقال إنه ظل يستعطف الرشيد طويلا حتى رقّ له ، ولكنه لم يلبث أن استنشده سينيته التى يقول فيها :

لا يبلغ الأعداءُ من جاهلٍ ما يبلغ الجاهلُ من نفسهِ
والشيخُ لا يترك أخلاقه حتى يُوارَى فى ثَرَى رَمْسِهِ[٢]
إذا ارعوى عاد إلى جهلهِ كذى الضَّنَا عاد إلى نُكْسه[٣]
وإن من أدَّبْته فى الصِّبا كالعود يُسْقَى الماءَ فى غَرْسِهِ
حتى تراه مورِقاً ناضرا من بعد ما أبصرتَ من يُبْسِهِ

فتلا عليه الرشيد البيت الثانى ، وقال له : نحن نتمثل وصيتك وما شهدت به على نفسك من أنك لا تترك الزندقة ولا تحول عنها أبداً ، وأمر فضُربتْ عنقه وصُلب على الجسر ببغداد عقاباً له وتنكيلا .

وكثير من أشعاره يدور على التنفير من الدنيا ومتاعها الزائل وذكر الموت والفناء ، والحث على مكارم الأخلاق وطاعة الله ، ولعله يريد إله النور والخير ، وقد جعل

---

(١) ابن المعتز ص ٩٠ .
(٢) الرمس : القبر .
(٣) الضنا هنا : المرض، والنكس : الانتكاس أى رجوع الناقه إلى مرضه .

شيوعُ ذلك فى أشعاره ابنَ المعتز يشك فيما نسب إليه من الزندقة مستشهداً بقولـــه :

وليس بعجزِ المرء إخطاؤه الغِنى ولا باحتيالٍ أَدركَ المالَ كاسبُهْ
ولكنه قَبْضُ الإِلٰه وبَسْطه فلا ذا يجاريه ولا ذا يغالبـــه

يقول ابن المعتز : « فيا عجبا كيف يمكن أن يقول زنديق مثل هذا القول ؟ وكيف يكون قائله زنديقاً ؟». وكأنما أحس أنه يصدر فى البيت الثانى عما جاء فى الذكر الحكيم مراراً من أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر أى يضيقه ويجعله بقدر قليل . ونراه يتمثل فى شعره أحيانا بعض الأحاديث كقوله :

ولله فى عَرْض السموات جَنَّةٌ ولكنهـــا محفوفةٌ بالمكارهِ

والشطر الأول واضح الصلة بقوله تبارك وتعالى : (جنة عرضها السموات والأرض) أما الشطر الثانى فواضح الصلة بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « حُفَّت الجنة بالمكارة وحُفَّت النار بالشهوات ». واستمداد ابن عبد القدوس أحياناً من الحديث النبوى أو من القرآن أو من بعض وعاظ المسلمين مثل الحسن البصرى لا يخرجه من دائرة الزنادقة المانويين ، فقد كان يصنع صنيعه أبو العتاهية كما مر بنا فى ترجمته ، وزندقته عند ابن المعتز لا يشوبها ريب . أما دعوة ابن عبد القدوس إلى الزهد فى الدنيا الفانية فهى دعوة كان يلتقى فيها المانوية بزهد الإسلام على نحو ما صورنا ذلك فى حديثنا عنهم وعن أبى العتاهية فى غير هذا الموضع ، مما جعل بعض القدماء يتشككون فى زندقة أبى العتاهية على نحو ما يتشكك ابن المعتز الآن فى زندقة ابن عبد القدوس . ومما لا شك فيه أنه كان زنديقا مانويـًّا كبيراً ، بل لقد كان رأس المانوية والمجادل عن عقيدتهم فى البصرة حقباً متطاولة .

ويكاد يذهب شعر ابن عبد القدوس كله فى تقرير محاسن الأخلاق والشيم ، ناظراً فيها نظرة تجريدية ، وهى نظرة دفعته إلى تعقب حكمة العرب والعجم ، حتى قالوا إن فى ديوانه ألف مثل للعرب وألف مثل للعجم(١) ، وكأنه رصد نفسه لنظم الشعر فى الفضائل وتجارب الأفراد والأمم ، ومن خير ما يمثل ذلك عنده

(١) التحفة البهية ص ٢١٧ .

قصيدته الزينبية التى تغزل فى مطلعها فيمن تسمى زينب ، ثم استرسل يسوق الحكم من مثل قوله :

احذَرْ مصاحبةَ اللئيم فإنه ... يُعْدِى كما يعدى الصحيحَ الأجربُ
يلقاك يحلف أنه بك واثقٌ ... وإذا تَوارى عنك فهْو العَقْرَبُ
يعطيك من طَرَف اللسان حلاوةً ... ويَروغُ منك كما يروغُ الثَّعْلَبُ
واخْتَرْ قرينك واصطفيه تفاخراً ... إن القَرين إلى المقارن يُنْسَبُ
واحفظْ لسانك واحترسْ من لفظهِ ... فالمرء يسلم باللسان ويَعْطَبُ
والسِّرَّ فاكتُمْه ولا تنطقْ بهِ ... إن الزُّجاجة كَسْرُها لا يُشْعَبُ (١)

ومن نمط هذه القصيدة الحكمية قصيدة له قافية استوعب فيها كثيراً من النصائح الخلقية التهذيبية ، وفيها يقول :

المرءُ يجمع والزمانُ يفرِّقُ ... ويظل يَرْقَعُ والخطوبُ تمزِّقُ
ولأَنْ يعادِىَ عاقلا خيرٌ له ... من أن يكون له صديقٌ أحمق
فارْبَأْ بنفسك أن تصادق أحمقاً ... إن الصديق على الصديق مصدِّق
وزنِ الكلام إذا نطقتَ فإنما ... يُبْدِى عقولَ ذوى العقول المنطقُ

وعلى هذه الشاكلة تجرى أشعاره فى صورة تقريرية خالية من العاطفة وقلما شُفعت بخيال أو تصوير ، ولعل ذلك ما جعل شعره يسقط من أيدى الأجيال التالية ، إلا قليلا ، وتنبَّه لذلك الجاحظ ، فقال لو أن حكمه كانت مفرقة فى قصائد مختلفة لسارت فى الآفاق « ولكن القصيدة إذا كانت كلها أمثالا لم تَسِرْ ولم تجر مجرى النوادر ، ومتى لم يخرج السامع من شىء إلى شىء لم يكن لذلك عنده موقع (٢) » . على أن كتب الأدب ظلت تحتفظ ببعض أبياته الحكمية وظلت تدور فيها من مثل قوله فى العزاء :

إن يكن ما به أصِبْتَ جَليلا ... فلفقدُ العزاء فيهِ أَجَلُّ

(١) يشعب : يصلح .
(٢) البيان والتبيين ١/٢٠٦ .

وقوله :

إذا لم تستطع شيئاً فَدَعْهُ وجاوِزْهُ إلى ما تستطيعُ

وقوله :

وتروض عِرْسَك بعد ما هَرِمَتْ ومن العَناء رياضةُ الهَرِم[1]

وواضح فيما أنشدناه من أشعاره أنه كان يعنى باللفظ الجزل الرصين والبناء القوى المحكم ، كما كان يعنى بالتدليل والتعليل ودقة القياس .

٣

شعراء الزهد

هذه الصفحة التى صورناها من شعر المجون والزندقة كانت تقابلها صفحة رائعة من شعر الزهد ، فقد كانت المساجد مكتظة بالوعاظ والنساك وأهل الحديث والفقه والورع ، ومن حولهم العامة ، وقد صدقت كثرتهم ربها مخافة وعيده ، مؤمنة بأن القيامة موعدها وموقفها مع ذى الجلال وأن العمر وإن طال قصير وأن الدنيا ينبغى أن تكون دار زادٍ لدار المعاد . وما ينى الوعاظ والنساك من المحدثين يزجرونهم عن التعلق بمتاعها الزائل واضعين نصب أعينهم الموت وتبعات الحياة الموبقة وأن العاقل من عرف أن الناس سَفْرٌ وعما قليل راحلون فإما عذاب مستديم وإما نعيم مقيم ، فأسرع يغتنم بقية أجله بخير عمله مقدما كل ما يستطيع من الباقيات الصالحات .

ويبدو أن كثيرين من القصاص والوعاظ كانوا ما يزالون ينشدون فى وعظهم وقصصهم أبياتًا وأشعاراً كثيرة منها ما يروونه عن القدماء ممن سبقوهم ، ومنهـا ما ينشئونه إنشاء ، فمن ذلك ما يروى عن صالح المرى القاصّ العابد من أنه كان كثيراً ما ينشد فى قصصه ومواعظه :

---

(١) العرس : الزوجة .

فبات يروِّى أصولَ الفَسيل فعاش الفسيلُ ومات الرَّجُلْ [١]

وكان مالك بن دينار المحدث الناسك لا يزال يتحدث فى مجالسه عن الموت ، حتى لتكاد تخنقه العبرات ، وله أشعار مختلفة يتحدث فيها عن القبور وأهلها وأنه أجل محدود ونفس معدود ، وعما قليل يصبح الإنسان ترابا فى تراب ، كمن سبقوه ، فأولى له أن يتعظ ويعتبر ، يقول[٢] :

أتيت القبورَ فناديتهن أين المعظَّم والمحتقَرْ
وأين المدِلُّ بسلطانهِ وأين المزكَّى إذا ما افتخر
تفانوا جميعاً فما مخبرٌ وماتوا جميعاً ومات الخَبَرْ
تروح وتغدو بناتُ الثَّرَى فتمحو محاسنَ تلك الصُّوَرْ
فيا سائلى عن أُناسٍ مضوا أمالك فيما ترى مُعْتَبَرْ

وممن كان يكثر من إنشاد الشعر فى مواعظه سفيان بن عُيَيْنة وسفيان الثورى . وكأن الوعاظ بذلك قدموا مادة واسعة لمعاصريهم من الشعراء كى يصوغوا على نمطها مواعظ تذكى الزهد والعمل الصالح فى نفوس الناس ، وقد أقبل كثيرون ينظمون دقائق الزهد ، حتى بين المجان حين كانوا يثوبون إلى أنفسهم على نحو ما مر بنا عند أبى نواس ، وكما يلقانا عند محمد بن يسير ، وكان ماجنًا هجاء خبيثا ، فقد ألم يومًا بمجلس أبى محمد الزاهد صاحب الفُضَيْل بن عياض ، فأنشد[٣] :

وَيْلٌ لمن لم يرحم اللهُ ومن تكون النارُ مَثْوَاهُ
واغَفْلَتَا فى كل يومٍ مضى يُذْكرنى الموتَ وأنساه
من طال فى الدنيا به عُمْرُهُ وعاش فالموت قُصاراه
كأنه قد قيل فى مجلسٍ قد كنت آتيهِ وأغشاه
محمدٌ صار إلى ربِّهِ يرحمنا الله وإياه

وكان من الشعراء الخلعاء المجان من يقلع إقلاعا عن غيه ، فيكثر من أشعار

---

(١) البيان والتبيين ١/١١٩ والفسيل : صغار النخل .
(٢) عيون الأخبار ٢/٣٠٢ .
(٣) الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٤/٣٩.

الزهد مكفراً بها عما قدمت يداه من مجون وخلاعة ، ومن خير من يمثل ذلك محمد ابن حازم ، وكان ينغمس فى اللهو والمجون ، حتى إذا بلغ الخمسين من سنه آلى على نفسه أن لا يشرب كأساً ولا يسير فى طريق غواية ، وأخذ يكثر من شعر الزهد حاضاً على القناعة وقطع الأسباب المتصلة بالقلوب من متاع الدنيا الفانى بمثل قوله(١) :

ومنتظرٍ للموت فى كل ساعةٍ   يَشيد ويبنى دائماً ويحصِّنُ
له حين تبلوه حقيقةُ موقنٍ   وأفعاله أفعالُ من ليس يوقن

وقوله الذى مرّ بنا فى الفصل الرابع :

اضرَعْ إلى الله لا تَضْرَع إلى الناسِ   واقْنَعْ بِيَأْسٍ فإن العِزَّ فى الياسِ
واسْتَغْنِ عن كل ذى قُرْبى وذى رحمٍ   إن الغَنِىَّ من استغنى عن الناسِ

وكثيرون كانوا يأخذون أنفسهم بحياة زاهدة حقيقية ، فهم لا يقفون على أبواب الخليفة ولا أبواب الوزراء والأمراء والقواد ، بل يكتفون من العيش بالكفاف ، وإن عُرضت عليهم وظيفة أبوها حرصا على دينهم ورفضا لدنياهم ، وممن اشتهروا فى هذا الباب الخليل بن أحمد واضع النحو والعروض ، وله فى الزهد والعظة أبيات كثيرة من مثل قوله(٢) :

عِشْ ما بدا لك ، قَصْرُك الموتُ   لا مهربٌ منهُ ولا فَوْتُ
بَيْنَا غِنَى بيتٍ وبَهْجَتُــه   زال الغِنَى وتقوَّض البَيْتُ

واشتهر بأنه كان يأبى أن يصحب الخلفاء والحكام وذوى الجاه لما فى أيديهم من الدنيا ، ويروى أن سليمان بن قبيصة بن يزيد بن المهلب ، وكان والياً على السِّند ، وجَّه إليه يستزيره فكتب إليه(٣) :

أَبْلِغْ سليمان أَنى عنه فى دعَةٍ   وفى غِنًى غير أَنى لست ذا مالِ
سَخِّى بنفسىَ أَنى لا أرى أحداً   يموت هَزْلا ولا يبقى على حالِ

---

(١) انظر فى هذين البيتين وتاليهما العقد الفريد ٣/٢٠٧ .
(٢) البيان والتبيين ٣/١٨٣ .
(٣) إنباه الرواة ١/٣٤٤ .

الرزقُ عن قَدَرٍ، لا الضعفُ ينقصه ولا يزيدك فيه حَوْلُ محتالِ
والفقرُ فى النفس لا فى المال تعرفه ومثلُ ذاك الغِنَى فى النفس لا المالِ

وفى كل مكان يلقانا كثيرون يفرغون للنسك والتبتل والعبادة ، مما دفع لظهور مقدمات التصوف فى هذا العصر أو بعبارة أخرى إلى ظهور الحب الإلهى الذى يتجرد عن كل مادة وحسٍّ والذى يستغرق فيه المتصوفة مشغوفين بالحقيقة الإلهية ، وما ترسله على الكون من أضواء الحق والخير والجمال المطلق ، ومن أروع ما يصورّ ذلك أبيات رابعة العدوية المشهورة[1] :

أحبُّك حُبَّيْن : حُبَّ الهوى وحُبًّا لأنك أهلٌ لذاكا
فأما الذى هو حبُّ الهوى فشُغْلى بذكرك عمن سواكا
وأما الذى أنت أهلٌ له فكَشْفُكَ لى الحُجْبَ حتى أراكا
فلا الحمدُ فى ذا ولا ذاك لى ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

وهى تميز بين حبين : حب الله شكراً لإنعامه المتواصل على الإنسان فى دنياه ، وحبه لجماله وجلاله القدسى الذى رفعت الحجب والأستار بينها وبينه ، وهو الحب الصوفى المجرد الذى يفنى فيه المتصوفة فناء يحقق لهم السعادة . ومن المحقق أن التصوف لا يزدهر فى هذا العصر ، إنما يزدهر الزهد ، ومن أجل ذلك نقف عند ثلاثة من كبار الزهاد ، لتتضح لنا المعانى التى كانوا يرددونها فى أشعارهم ، وهم عبد الله بن المبارك ومحمد بن كناسة ومحمود الوراق .

عبد الله [2] بن المبارك

هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح التميمى ولاء ، التركى

(١) قوت القلوب للمكى ٣/ ٨٤ وإحياء علوم الدين للغزالى ٤/ ٢٦٧ .

(٢) انظر فى ترجمة ابن المبارك وأشعاره الأنساب للسمعانى ١٧٩ ا وتاريخ بغداد برقم ٥٣٠٦ وصفة الصفوة ٤/ ١٠٩ وتذكرة الحفاظ للذهبى (طبع حيدر أباد) ١/ ٣٥٤ والتهذيب لابن حجر ٥/ ٣٨٤ والنجوم الزاهرة ٢/ ١٠٣ وكتاب الورقة لابن الجراح ص ١٤ وحلية الأولياء لأبى نعيم ٨/ ٢٧٩ ومختصر جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (طبعة الموسوعات) ص ٨٥ .

المروزى أباً ، الخوارزمى أماً ، ولد سنة ثمانى عشرة ومائة للهجرة ، ورحل فى طلب الحديث والعلم سنة إحدى وأربعين ومائة ، فلقى المحدثين ، وروى عن جماعة كثيرة وروى عنه خلائق لا تحصى ، وهو يُعَدّ من كبار الحفاظ فى عصره وأحد من كانت تُشَدّ إليه الرحال للنهل من معين علمه وفضله ، وكان يجمع بين حفظ الحديث والفقه على مذهب أبى حنيفة والأدب والنحو واللغة والشعر والفصاحة . واشتهر شهرة مدوية بنسكه وزهده ، حتى قال سفيان الثورى : « لو جهدت جهدى أن أكون فى السنة ثلاثة أيام على ما عليه ابن المبارك لم أقدر » . وكان يخرج مع الجيوش الغازية للروم يجاهد فى سبيل الله من جهة ، ومن جهة ثانية يعظ الجنود ويحمسهم للقتال ويُلقى على الناس الحديث فى الثغور من مثل طَرَسوس . وهو بذلك يصحح فكرة شاعت عن زهاد المسلمين وعبادهم هى أنهم كانوا سلبيين لا يشاركون فى الواجبات الوطنية، وهى إحدى الأفكار التى أشاعها المستشرقون ظانين أن زهد المسلمين كان يفصلهم عن الحياة على شاكلة زهد الديانة المسيحية وما ارتبط بها من رهبانية ، وهو ظن واهم فإن زهاد المسلمين — وخاصة الأولين — لم ينفصلوا عن الحياة بل كانوا يتصلون بها ، ليكسبوا قوتهم ، ويعيشوا من كسبهم ، لا مما يلقى إليهم من فتات الموائد، ولذلك كنا نجدهم يتجرون ويحترفون حرفاً كثيرة على نحو ما سنرى عند محمود الوراق فإنه كان يحترف النخاسة وبيع الجوارى والإماء، وكان عبد الله بن المبارك يتجر ليكسب معاشه . وكانوا يلبون دائماً نداء الوطن ويتقدمون الصفوف المجاهدة طلباً للاستشهاد فى سبيل الله . وكانوا يعدون هذا الجهاد أروع وأعظم عند الله من نسك النساك، ويقدم لنا ابن المبارك نفسه وثيقة طريفة توضح ذلك أتم توضيح، فقد روى الرواة أنه أملى وهو بطرسوس رسالة شعرية وجَّه بها إلى الفضيل ابن عياض الناسك المشهور فى سنة سبع وسبعين ومائة ، وكان مجاورا بمكة :

يا عابدَ الحَرَمَيْنِ لو أبصرتنا   لعلمتَ أنك فى العبادة تلعبُ
مَنْ كان يَخْضِبُ جِيدَه بدموعِهِ   فنُحورُنا بدمائنا تتخضَّبُ
أو كان يُتْعب خَيْله فى باطـلٍ   فخيولُنا يوم الصَّبيحة تَتْعَبُ
رِيحُ العبيرِ لكم ونحن عَبيرُنا   وَهَجُ السَّنابكِ والغبارُ الأطيبُ

ولقد أتانا من مقال نبيِّنا قولٌ صحيحٌ صادقٌ لا يُكْذَبُ
لا تستوى أَغْبارُ خَيْل الله فى أَنْفِ امرىءٍ ودخان نارٍ تَلْهَبُ[1]
هذا كتاب الله ينطق بيننا ليس الشهيد بميِّتٍ لا يَكْذِبُ

وواضح أن ابن المبارك يرفع الجهاد فوق العبادة درجات، حتى ليدعوها بالقياس إليه ضرباً من اللعب. وهو يصور الهوة التى تفصل بينهما، فالناسك يقدم لربه دموعه والمجاهد يقدم دماءه، متخذاً الخيل العاديات لا فى لهو وإنما فى التضحية والاستشهاد طلباً لرضوان الله، متطيبا بطيب أكثر شذى وعطراً من الطيب الحقيقى، طيب غبار الحرب وسنابك الخيل وهى تقدح الأرض قدحاً. ويقول إن الإسلام أعلى الجهاد على النسك والعبادة مشيراً إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «لا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم فى جوف عبد أبدا» كما يشير إلى ما جاء فى الذكر الحكيم من أن شهيد الجهاد لا يموت، بل يظل حيا عند ربه حيَّاة خالدة: (ولا تحسبنَّ الذين قُتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يُرْزَقُون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أنْ لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون يستبشرون بنعمةٍ من الله وفَضْلٍ وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين) وفى موضع آخر من التنزيل: (ولا تقولوا لمن يُقْتَلُ فى سبيل الله أمواتٌ بل أحياء ولكن لا تشعرون). وهى ميزة خصَّ بها الله سبحانه المستشهدين فى سبيله دون سائر المؤمنين من نساك وغير نساك، إذ جعلهم يحيون فى قبورهم حياة برزخية خاصة لا يعلم حقيقتها سواه.

ولابن المبارك موقف ثان يصور كيف كان الزهاد من العلماء والمحدثين يتعففون فى مثل هذا العصر عن الوظائف ومناصب الدولة خوفاً على أنفسهم من أن تغرهم الدنيا فينحرفوا عن الجادَّة، فقد ذكروا أن أحد أصحابه وهو إسماعيل بن عُلَيَّة وَلِى الصدقات بالبصرة، فكتب إليه يذكر ذلك ويقول له: أحب أن تبعث إلىَّ إخواننا من القُرَّاء لنَشْغَلَهُمْ، فأجابه: القُرَّاء ضربان: قوم طلبوا هذا الأمر (أى قراءة القرآن) لله فأولئك لا حاجة لهم فى لقائك، وقوم طلبوه للدنيا فأولئك أضرُّ على الناس من الشُّرَط، وألحق بجوابه هذه الأبيات:

(١) الأغبار: جمع غبرة، وهى الغبار.

يا جاعلَ الدينِ له بَازِيًا   يصطاد أموال المساكين
احتلتَ للدنيا ولذّاتها   بحيلةٍ تذهبُ بالدين
وصرت مجنوناً بها بعدما   كنت دواءً للمجانين
أين رواياتُك فيما مضى   عن ابن عَوْنٍ وابن سِيرينِ
أين رواياتك فى سَرْدها   فى ترك أبواب السّلاطين
إن قلتَ أُكْرِهتُ فذا باطلٌ   زلَّ حِمَارُ العلم فى الطِّين

وكان كثيراً ما يستشهد بقول المسيح عليه السلام : «كما ترك لكم الملوك الحكمة فاتركوا لهم الدنيا» ونظم ذلك شعراً قائلا :

أرى أُناساً بأدنى الدينِ قدقنعوا   ولا أراهم رضوا بالعَيْش بالدُّونِ
فاسْتَغْنِ بالدِّين عن دنياالملوك كمااسـ   تغنى الملوك بدنياهم عن الدينِ

وهو كثير التنفير من الدنيا ومتاعها الذى يزول وتبقى تبعاته ، بل إنه ليحمل بين طيّاته من السموم ما يجعل العاقل يرى فيه حيّة ليّنا مسُّها قاتلا سمُّها :

حلاوةُ دنيـــاك مسمومةٌ   فما تـأكل الشَّهْدَ إلا بِسَمّْ

وهى خدّاعة غرور ، لا يكاد يطمئن شخص فيها إلى سرور حتى يهجم عليه حزن مفجع أومصيبة موجعة ، فمن جرّعته يوما حلاوتها جرّعته أياماً مرارتها :

دنيا تداولها العبادُ ذميمةً   شِيبَتْ بأَكْرَهَ من نقيع الحَنْظَلِ
وبناتُ دهرٍ لا تزال مُلمَّةً   فيها فجائعُ مثل وَقْع الجَنْدلِ

وإنه لواجب على كل إنسان أن يعصى هوى نفسه ، فانها إمارة بالسوء ، وإن هو أطاعها حملته مالا يطيق من الذنوب والآثام، عاصفة منه بسلطان العقل موردة له موارد الهلاك :

رأيتُ الذنوبَ تميتُ القلوب   ويَخْترمُ العقلَ إدمانُها
يبيع الفتى نفسَه فى رَداه   وأَسْلَمُ للنفس عصيانُها

وعلى هذا النحو كان ابن المبارك يكثر من النظم فى الدعوة إلى التقوى واجتناب الآثام والشهوات كما كان يكثر من الدعوة إلى الزهد وذم الدنيا فإنها لا تمس أحداً بفرح حتى تملأه بترح ، والحازم من تزود من يومه لغده ومن حياته لآخرته . وقد لبى نداء ربه سنة إحدى وثمانين ومائة للهجرة .

محمد[1] بن كُناسة

كناسة لقب أبيه واسمه عبد الله بن عبد الأعلى من بنى أسد ، وقد ولد ونشأ بالكوفة فى بيت صلاح وتقوى ، إذ كان خاله إبراهيم بن أدهم أحد من تُذكر أسماؤهم فى نشأة التصوف . ونراه يختلف إلى حلقات المحدثين اختلافاً أتاح له أن يُحْمَلَ الحديث عنه ، وأن يُعَدَّ فى رجاله . ويظهر أن موهبته الشعرية تفتحت مبكرة ، غير أنه كان — كما يقول أبو الفرج — امرءًا صالحًا فلم يتصدَّ لأحد بمدح ولا هجاء ، بل قصر شعره على الزهد وما يتصل به من رياضة النفس على ترك الهوى والاتعاظ بالدنيا وفناء لذاتها وبقاء تبعاتها ، فنعمها دائمًا زائلة ونقمها نازلة ، ومهما طال عمر الإنسان فيها فإلى بِلًى وفناء وإلى كوارث وفواجع ، فكلنا يجرى إلى غاية ينتهى عندها أجله ، ومن عجب أن تتعلق قلوبنا بها ، ونحن كل يوم نقطع مسافة إلى تلك الغاية المحتمة ، بل إن منا من يضل طريق الرشاد فيتبع نفسه وهواها ، وكان حريًا به أن يقهرها ويدفع عن نفسه بادرة سطوتها حتى يصون دينه ، يقول :

ومن عجب الدُّنْيَا تُبَقِّيك لِلبِلَى ... وأنك فيها للبقاء مريدُ
وأىُّ بنى الأَيام إلا وعنده ... من الدهر ذنبٌ طارفٌ وتَليدُ
ومن يأمن الأَيامَ أما اتِّساعها ... فَخَطْرٌ وأما فَجْعُها فَعتيد[2]
إذا اعتادت النفسُ الرضاعَ من الهوى ... فإن فِطامَ النفس عنه شديد

(١) انظر فى ابن كناسة وأخباره وأشعاره الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٣/٣٣٧ ، والفهرست لابن النديم ص ١٠٥ ، والنجوم الزاهرة ٢/١٨٥ .

(٢) اتساعها : نعيمها . خطر هنا : متقطع. عتيد : مهيء حاضر .

وهو يكرر الحديث عن فطام النفس من الشهوات واللذائذ وأنه ثقيل وأن السعيد من عصى هواه فى طاعة ربه ، فاجتنب المحارم والمآثم ، ويلاحظ أن من الناس من يلوك الأحاديث فى عواقب اتباع الهوى ، وكأنه يقول بفمه ما ليس له ظل فى قلبه ، أو كأنه يَعِظُ ولا يتعظ ، وفى ذلك يقول :

ما مَنْ رَوَى أدباً ولم يعمل بهِ ... ويكفَّ عن زَيْغ الهوى بأديبِ
حتى يكون بما تعلَّم عاملا ... من صالحٍ فيكون غير معيب
ولقلما تُغْنِى إصابةُ قائلٍ ... أفعاله أفعالُ غيرِ مصيب

فالكلمة إن لم تصدر من القلب لم يكن لها تأثير فى القلوب ، وعظة الواعظ إن لم تشفع بعمله كان هو أول من لا ينتفع بها ، وكانت كالسراج يضئ الدار ويحرق نفسه .

وكان أصدقاؤه من طلاب الدنيا لا يزالون يتلومونه على قعوده عن أبواب الحكام والأمراء ، بينما هو يحسن نظم الشعر ، ونظراؤه يكسبون به الألوف المؤلفة ، وهو يعيش فى كفاف وبُلَغ وصُبابة ، فكان يردهم ردًّا منكراً ، إذ أعرض عن الدنيا مصمما ، غير راغب فى متاعها ، فحسبه متاع الآخرة الذى ينتظره والذى يحفظ على نفسه من أجله ماء وجهه ويصون كرامته ، فلا يبتذلها لمخلوق ، فضلا عن أن يمدحه ويداهنه ويطلب منه ما ينبغى أن لا يتجاوز فى طلبه ربه . إنه إن فعل طعن وجهه وحياءه طعنة نجلاء ، بل طعن زهده وتقواه ، إذ يصبح من طلاب الدنيا لا من طلاب الآخرة ومن يؤثرون نعيم العاجلة على نعيم الباقية ، يقول مجيبًا بعض لائميه :

تؤنِّبنى - أنْ صُنْتُ عِرْضى - عصابةٌ ... لها بين أطنابِ اللئام بَصِيصُ (١)
يقولون لو غمَّضْتَ لازددتَ رفْعَةً ... فقلتُ لهم إنى إذنْ لحَرِيصُ (٢)
أَتَكْلِمُ وجهى - لا أباً لأبيكمُ - ... مطامعُ عنها للكرام مَحِيصُ (٣)
معاشى دُوَيْنَ القوت ، والعِرْض وافرٌ ... وبَطْنِىَ عن جَدْوى اللئام خَمِيصُ (٤)

---

(١) الأطناب : حبال الخيام والاستعارة واضحة . بصيص : بريق .
(٢) غمضت : تساهلت . حريص : جشع
(٣) تكلم : تجرح .
(٤) الجدوى : العطية . خميص : ضامر .

سألقى المنايا لم أخالط دَنيَّةً ولم تَسْرِ بى فى المخزيات قَلُوص[1]

وكانت له جارية شاعرة مغنية تسمى دنانير وكان ذوو المروءة من أهل الأدب يقصدونها للمحادثة والمساجلة فى الشعر ، وكان يقدرها لظرفها وسعة ثقافتها وقدرتها على المشاركة فى كل الأحاديث ، واختطفها منه الموت ، فحزن حزنًا عميقًا ، صوّره فى قوله يرثيها ، وقد استسلم لأمر ربه :

الحمدُ لله لا شريكَ له ياليت ما كان منكِ لم يكن
إن يكن القول قَلَّ فيك فما أَفْحمَنى غيرُ شدَّة الحَزَنِ

وله مرثية طريفة فى خاله إبراهيم بن أدهم ، وهى ترسم صورة العابد الناسك فى العصر العباسى الأول وكيف كان يعيش على الكفاف قانعًا به ، مزدرياً الدنيا ومتاعها ، مقبلا على عبادة ربه ، قامعا لدواعى الهوى فى نفسه ، متحليا بالفضائل الرفيعة ، لا يعرف الغضب ولا الطيش ، إنما يعرف الحلم والمثل الخلقية العليا ، يعيش صامتاً مفكراً فى ملكوت ربه الأعلى ، حتى إذا نطق استولى على القلوب والأفئدة ببيانه الرائع . وهو دائمًا مستكين خاضع لربه متواضع أروع ما يكون التواضع الذى لا يخدش مروءة ولا كرامة ، حتى إذا رعدت الكتيبة بصواعق الموت تقدم الصفوف يناضل مناضلة الليوث الكواسر . وفى ذلك كله يقول مخاطبًا بعض من لا يزالون يستزيدون من الغنى والثراء :

رأيتك ما يكفيك ما دونه الغِنَى وقد كان يكفِى دون ذاك ابنَ أدْهما
وكان يرى الدنيا صغيرا عظيمُها وكان لحقِّ الله فيها معظِّما
أمات الهوى حتى تجنَّبه الهوَى كما اجتنب الجانى الدَّم الطالب الدَّما
وللحلم سلطانٌ على الجهل عنده فما يستطيع الجهل أن يَتَرَمْرَمَا[2]
وأكثر ما تلقاه فى القوم صامتاً وإن قال بَذَّ القائلين وأحكما
يُرَى مستكيناً خاضعاً متواضعاً ولَيْثاً إذا لاقى الكتيبةَ ضَيْغَما

---

(١) القلوص من النوق : الشابة .

(٢) يترمرم : لا يتحرك للكلام .

على الجَدَثِ الغربيِّ من آل وائلٍ سلامٌ وبِرٌّ ، ما أَبَرَّ وأكرما[١]

ولعل فى كل ما قدمنا ما يصور كيف كان ابن كناسة يُصْفِى قلبه وعقله للزهد وكيف كان يمزجه بنفسه ، وكيف كان يعيش له وبه مؤمناً بأنه الغاية العليا التى ينبغى أن يطمح إليها الإنسان ويقصر عليها حياته ، حتى يفوز برضوان ربه ، وقد لبى نداءه لسنة سبع ومائتين للهجرة .

محمود [٢] الوراق

ليس بين أيدينا أخبار كثيرة توضح حياة محمود ، ويقال إنه كان نخاساً ببغداد يبيع الرقيق ، ويبدو أنه كان فى فاتحة حياته يأخذ بحظ من اللهو ، ثم كفَّ نفسه وردعها ، وأخلص وجهه لربه . وفى أخباره ما يدل على حسن عشرته لجواريه وأنهن كن لا يؤثرن عليه أحدا ، وكانت جاريته سكن من بينهن من أحسن قريناتها وجهاً ، وكانت تتقن الغناء وتنظم الشعر البارع ، فملكت عليه لُبَّه وقلبه ، وحدث أن رقّت حاله واختلت حياته ، فرأى أن يبيعها حتى يوفرَّ لها خفض العيش عند غيره ، وتنافس الناس فى اقتنائها ، وعرض فيها أحد الطاهريين مائة ألف درهم ، فمال محمود إلى بيعها ، ولما عرض عليها ذلك بكت وذرفت الدموع ، وقالت له إنى أختار عيشة الفقر معك ، فرقَّ لها وحرَّرها وأصدقها داره ، وكانت كل ما يملك . ومن طريف ما يروى من أخبار جواريه اللائى كن ينعمن بعطفه أن المتوكل عرض له فى إحداهن عشرة آلاف دينار ، فأبى ، فلما توفى اشتراها فى ميراثه بخمسة آلاف دينار . وذكر لها المتوكل ما كان من أمر محمود معه ، فقالت : يا أمير المؤمنين إذا كانت الخلفاء تتربّص بلذاتها المواريث فسنشترى بأرخص مما اشتريت.

ولعل العصر العباسى الأول لم يعرف شاعراً أكثر من الحديث عن الزهد واعظاً مذكراً كما أكثر محمود ، وهو يتخذ لذلك مواقف متعددة ، منها موقف وجوب الطاعة لله ولأوامره ونواهيه ، فالمسلم الصحيح ينبغى أن لا يقترف إثماً ولا يرتكب معصية ، وإلا أوثقته ذنوبه ولم يجد من يخلصه من عذاب الله ووعيده ، وحرى

---

(١) الجدث : القبر .

(٢) انظر فى محمود وأخباره وأشعاره تاريخ بغداد ١٣/٨٧ وطبقات الشعراء لابن المعتز ص٣٦٧،٤٢٢ والبيان والتبيين ٣/١٩٧ وما بعدها والعقد الفريد ١/٢٢٨ ، ٢/٢٨٥ ، ٣/١٧٩ ، ٢٠٦،٢٠٩، ٢١٥ وما بعدها ، ٦/٤٠٤ وفوات الوفيات ٢/٢٨٥ وعيون الأخبار ٣/٥٣ .

بمن ألهته الدنيا ، وتراكمت عليه الذنوب ، أن لا يؤمل فى جنة ولا ثواب ، فقد استحق العقاب ، يقول :

يا غافلا ترنو بعينى راقدٍ ومشاهدًا للأمر غيرَ مشاهدِ
تصلُ الذنوب إلى الذنوب وترتجى دَرَكَ الجِنانِ بها وفوزَ العابدِ
ونسيتَ أن الله أخرج آدماً منها إلى الدُّنيا بذنبٍ واحدِ

لا بد للمسلم إذن أن يبادر إلى العمل الصالح وأن يجافى الذنوب والآثام حتى يكون حقًّا مطيعاً لربه ، وهى طاعة لا تتم معرفة الله وشكر نعمه بدونها ، بل لا تتم محبته محبة صحيحة إلا إذا ألحَّ الإنسان فى التماسها وابتغى إليها كل وسائل العبادة متحامياً المعاصى وكل ما يجر إلى العصيان ، منقطعاً إلى الله متبتلا له ، يقول :

تعصى الإله وأنت تظهر حُبَّه هذا محالٌ فى القياس بديعُ
لو كنت تضمر حبَّه لأطعته إن المحبَّ لمن أحبَّ مُطيع
فى كل يومٍ يَبْتليك بنعمةٍ منه وأنت لشكرِ ذاك مُضيع

وموقف ثان هو موقف الرضا بقضاء الله ، وهو موقف يملأ نفس الزاهد طمأنينة وراحة ، بل تفاؤلا وأمنا ، فلا يخشى شيئًا ، إذ لا يتمنى غير ما يحدث ، وكل ما ينزل به يتقبله بنفس راضية ، يقول :

قَدَرُ الله كائنٌ حين يُقْضَى وُرُودُهُ
قد مضى فيك عِلْمه وانتهى ما يريده

وموقف ثالث هو التوكل الحق على الله والثقة به ، والاعتماد عليه دون سواه من الناس ، فهو الكافل والضامن ، وهو الذى يقدِّر ما يصيب الإنسان ، ولن يستطيع الوصول إليه قبل موعده المقدور ولو طلبه بقوة السماء والأرض ، وقد كفل له رزقه وضمن له حياته ، فنعم الضامن الكفيل ، يقول :

أتطلب رزق الله من عند غيرهِ وتصبحُ من خوف العواقب آمنا
وترضى بعرَّافٍ(1) وإن كان مُشْركا ضَمينا ولا ترضى بربِّك ضامنا

(1) العراف : المنجم والناظر فى الغد .

ويقول :

أما عجبٌ أن يكفل الناسُ بعضهم ببعضٍ فيرضى بالكفيل المطالبُ
وقد كفل الله الوفيُّ بعهدهِ فلم يُرْضَ والإنسان فيهِ عجائبُ
عليمٌ بأن الله موفٍ بوعدهِ وفى قلبه شكٌّ على القلب دائبُ

وهذا الموقف أدّاه إلى موقف رابع هو القناعة ، أو بعبارة أخرى أن يقنع الإنسان بما عندالله وما ادّخره له فى يومه وغده ، وأن يُقْلع عن الطمع وإلا أصبح ما يكفيه لايكفيه وإن أقبلت عليه الدنيا بحذافيرها ، بل إن شدةالطمع تؤدى بصاحبها إلى أن يصبح أشد ضنكا من الفقير المحتاج ،والغنى الحقيقى هو غنىُّ النفس القانع لا غنىّ الثراء الجشع ، وفى ذلك يقول :

من كان ذا مالٍ كثيرٍ ولم يَقْنَع فذاك الموسِرُ المُعْسِرُ
وكلُّ من كان قنوعاً وإنْ كان مُقِلاًّ فهو المُكْثِرُ
الفقرُ فى النفس وفيها الغِنى وفى غنَى النفس الغِنى الأكبر

ويكثر محمود من تقريع غنىّ المال فقير النفس ، مصوراً جشعه فى جمع الدراهم والدنانير وإلحاحه فى طلبها ، واسترقاقها له ، بل عبادته لها وهيامه بها الذى لا يقف عند حد، إذ فتَنَته عن نفسه وعن دينه وعن ربه. وكان يعجب عجباً شديداً كيف يجمع عبدة المال بينه وبين عبادة ربهم وهو قد استأثر بقلوبهم وعواطفهم وأهوائهم وملك عليهم كل شىء من أمرهم ، يقول :

أَظهروا للناس ديناً وعلى الدينار داروا
وله صاموا وصَلُّوا وله حَجُّوا وزاروا
لو بدا فوق الثُّرَيَّا ولهم ريشٌ لطاروا

ودائماًيقول ألاتبّاً للغنى الذى يتملك الإنسان ويستعبده ، ومرحى بالفقر وعيشة الكفاف التى يعيشها الزهاد ، غير ملتمسين شيئاً فوق ما يسد رمقهم ويدفع الحاجة عنهم ،ويكفى فقر الزهادسمواً أنك لا تجدفقيراً يعصى اللهليفتقر ،بينما يفتح الثراء على

أصحابه أبواب الحرص والطمع ، بل إنهم يخوضون إليه أحياناً أبواب المعاصي ومن ورائها أبواب سقر ، وفي ذلك يقول هذه الأبيات التي أنشدناها في الفصل الرابع :

يا عائبَ الفقر ألا تَزْدَجِرْ عَيْبُ الغِنى أكثر لو تَعْتَبِرْ
من شرف الفقر ومن فضلِهِ على الغِنى إن صَحَّ منك النَّظَرْ
أنك تعصي كي تنال الغِنى وليس تَعْصِي الله كي تفتقر

وموقف خامس هو الصبر عند فواجع الزمان فإن من حسنت عقيدته استقبل الكارثة كما يستقبل النعمة ولم تذهب نفسه حسرات إزاء صروف الدهر ، بل تدرَّع بالصبر الجميل درع العباد الناسكين الذين خبروا الحياة وعرفوا أنها همٌّ تِلْوَ همٍّ وأن كل شيء فيها إلى فناء ، يقول :

يمثِّل ذو اللُّبِّ في نفسِهِ مصائبَه قبل أن تنزلا
فإن نزلتْ بَغْتَةً لم تَرُعْهُ لما كان في نفسه مثَّلا
رأى الهمَّ يفضي إلى آخرٍ فصيَّر آخِرَه أولا
وذو الجهل يأْمن أيَّامه ويَنْسَى مصارعَ من قد خلا
فإن بَدَهَتْهُ صروفُ الزمان ببعض مصائبِهِ أَعْوَلا
ولو قدَّم الحزمَ في أمرِهِ لعلَّمه الصَّبْرَ عند البَلا (١)

وموقف سادس هو اتخاذه من الشيب نذيراً للموت ، وأنه إذا دبَّ السواد خلال البياض كان حريّاً بالإنسان أن يقلع عن غيِّه ويتزود لآخرته ، فقد دقت أجراس الموت وملأت الفضاء من حوله ، وجدير به أن يبكي ويتفجع على نفسه ، فالحياة توشك أن تنقضي ويوشك ظِلُّها أن ينحسر عنه إلى غير مآب ، كما انحسر عن الأفراد والأمم ، يقول :

بكيتَ لقُرْب الأَجَلْ وبُعْد فوات الأَمَلْ

---

(١) البلا : مقصور البلاء .

ووافدِ شَيْبٍ طَرَا بِعقْبِ شبابٍ رَحَلْ
شبابٌ كأَن لم يكن وشيبٌ كأَنْ لم يَزَل
طواك بَشِيرُ البقاء وحَلَّ بشير الأَجَلْ
طوى صاحبٌ صاحباً كذاك اختلافُ الدُّولْ

وموقف سابع هو العفو عن الظالم ، فهو لا يلقى الإساءة بالإساءة إذ يجد فى ذلك وقوداً لتهييجها ، وإنما يلقاها بالعفو والرفق والبر والرحمة مطفئًا نار الجهل بالحلم وموجدة الغضب بالصفح . وهى خصلة من خصال الإسلام الرفيعة حث عليها الذكر الحكيم بمثل قوله :(وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) وقوله : (فمن عفا وأصلح فأجره على الله) وقوله : (وأن تعفوا أقرب للتقوى) . وإنما أراد الإسلام بذلك أن يزرع البرَّ والمحبة فى قلوب المسلمين بعفو بعضهم عن بعض ، مع وعده لهم على هذا الصنيع بالأجر والمثوبة الحسنة . وعن كل ذلك صدر محمود فى تصوير عفوه عن بعض ظالميه قائلا :

إنى وهبتُ لظالمى ظُلْمى وغفرتُ ذاك له على علْمِ
ورأيتُه أَسْدى إلىَّ يَدًا لما أبان بجهله حِلْمى
رجعتْ إساءتُه عليه وإحْ سانى إلىَّ مضاعَف الغُنْمِ
وغدوتُ ذا أَجْرٍ ومحمدةٍ وغدا بكسْب الظلم والإثْمِ
وكأَنما الإحسان كان لَهُ وأنا المسئُ إليه فى الحكم
ما زال يظلمنى وأَرحمه حتى رثيتُ له من الظُّلْمِ

وهذه المواقف الزهدية المختلفة لمحمود توضح غزارة فكره وأنه كان يستمد من معين عقلى وروحى لا ينضب ، فهو تارة يرغب فى محاسن الأخلاق والشيم وتارة يعظ ويذكر ناصباً الموت أمام أعين الناس حاثاً لهم على الإعراض عن الدنيا ومتاعها الفانى والتوكل على الله والرضا بقضائه واتخاذ العدة للقائه ، وقد توفى فى حدود المائتين والثلاثين أو بعدها بقليل .

٤

شعراء الاعتزال

تحدثنا فى الفصل الثالث عن كثرة الفرق الكلامية فى هذا العصر ، وقلنا إن فرقة المعتزلة كانت أهم هذه الفرق ، حتى ليمكن أن نسمى هذا العصر عصر الاعتزال ، وقد ملئوا مساجد البصرة بجدالهم العنيف مع أهل النحل والملل المختلفة ، واستمالوا كثرة الشباب إلى عقيدتهم بما أوتوا من قوة اللسن والفصاحة وما سلحوا به عقولهم من المنطق والفلسفة ، بل لقد استمالوا الخلفاء منذ عصر المأمون ، فإذا هو يعلن رأيهم فى أن القرآن مخلوق عقيدةً رسمية للدولة. وكانوا — كما أسلفنا — يعلون النظر العقلى إعلاء كبيراً ، حتى ليحيط بشر بن المعتمر العقل — كما مرَّ بنا فى الفصل الرابع — بهالة قلسية ، وهو إعلاء جعلهم يقولون بأن إرادة الإنسان حرة يفعل ما يشاء بمحض اختياره ، حتى يوجبوا عليه التكليف وثمرته من الثواب والعقاب حسب عمله ، وأدَّاهم ذلك إلى البحث فى العلاقة لا بين الله والإنسان فحسب ، بل أيضًا بين الله والطبيعة ، ففيها علل ثانوية فعّالة تقابل حرية الإرادة عند الإنسان ، وإذا كان الله يتصف بالعدل إزاء الإنسان وثوابه وعقابه فإنه يتصف بالحكمة إزاء الطبيعة وكل ما خلقه فيها وبثّه حتى من عناصر الشر . وبلغ من تمجيدهم العقل أن قالوا إن الإنسان يستطيع به حتى لو لم تصله الشرائع أن يعرف أن للعالم إلها واحداً خالقا حكيما ، يعرف ذلك عن طريق مصنوعاته ، وأفضى بهم ذلك إلى مباحث واسعة فى الطبيعة . وقد نزهوا الله عن التشبيه والزمان والمكان والحركة ، وقالوا إن صفاته عين ذاته . وأفاضوا فى هذه المباحث وما يماثلها إفاضة بحيث أصبح لكثير منهم مذاهب اعتزالية متميزة على نحو ما صورنا ذلك فى الفصل الثالث من بعض الوجوه

ولا يكاد يلم القارىء بآرائهم ومذاهبهم فى كتاب مثل كتاب الملل والنحل للشهرستانى حتى يهوله ما امتازت به عقولهم من خصب وامتياز ، فقد استطاعوا أن ينفذوا من خلال كل ما قرءوا من ثقافات وفلسفة مترجمة إلى فلسفة إسلامية حقيقية ، بحيث لا نغلو إذا قلنا إنهم فلاسفة العرب الأولون ، إذ لم يقفوا بمباحثهم عند العقيدة

الإيمانية ، بل بسطوها حتى وسعت كل ما خاض فيه اليونان وغير اليونان من مسائل الإلهيات والطبيعيات مما يتصل بمبادىء الموجودات والجسمانيات والروحانيات التى وراء الطبيعة والعناصر المكونة للمحسوسات وكل ما تنبعث عنه الحركات فى الكون والنفس الإنسانية . وبذلك تحوَّل الاعتزال فى هذا العصر إلى ما يشبه كنزاً فلسفيًّا سائلا ما يزال يرفد الفكر العربى بدرره وجواهره ، وتحوَّل شباب الشعراء وغيرهم يستمدون منه عتاداً لعقولهم ومادة خصبة لخواطرهم ، مما جعل أبا نواس وغيره يلوكون بعض مصطلحاتهم .

وكان من المعتزلة أنفسهم شعراء كثيرون شاركوا فى مجال الشعر ، ومشاركتهم فيه تأخذ وجهتين : وجهة عامة فهم ينظمون فيما ينظم فيه غيرهم من موضوعات الشعر وأغراضه ، ووجهة خاصة فهم ينظمون فى الاحتجاج لآرائهم الكلامية وفيما يتصل بها من بعض المباحث فى الطبيعة ، وكثيراً ما يردّون على خصومهم من أصحاب النحل المختلفة . وأقدم شاعر منهم يلقانا فى فاتحة هذا العصر صفوان الأنصارى تلميذ واصل بن عطاء ونراه يتصدَّى لبشار حين عرف فيه أستاذه إلحاده ونادى فى الناس أن يقتلوه ، لقوله بالرجعة ولتفضيله النار على الطين وبالتالى إبليس على آدم معتذراً له عن عصيانه لربه حين طلب إليه السجود له ، فأبى وآب بالكفر والعصيان والخذلان . ولصفوان فى تصديه لبشار موقفان : موقف يمدح فيه واصلا ويتحدث عن أتباعه وذبِّهم عن الدين وحرماته وما أوتوا من الفصاحة واللدد فى الخصومة ، وكيف يضربون فى أقطار الأرض داعين للإسلام ولعقيدتهم ، مستطرداً إلى وصف سيمائهم ونسكهم وتقشفهم ، وفيهم وفى أستاذهم يقول :

تلقَّب بالغَزَّال واحدُ عَصْرِهِ ... فمَنْ لليتامى والقبيل المكاثرِ [1]
ومنْ لحَرُورِىٍّ وآخرَ رافضٍ ... وآخرَ مُرْجِىٍّ وآخر جائرِ
وأمرٍ بمعروفٍ وإنكار منكَرٍ ... وتحصين دين الله من كلِّ كافر
له خَلْف شعْب الصِّين فى كل ثُغْرَة ... إلى سُوسها الأَقْصى وخلفَ البرابر

(١) لقب واصل بالغزال لأنه كان يكثر الجلوس فى سوق الغزالين ، وعلل المبرد لذلك بأنه كان يريد الوقوف على المتعففات من النساء ليصرف صدقته إليهن . وانظر الأبيات البيان والتبيين ١ / ٢٥ وما بعدها .

رجالٌ دعاةٌ لا يَفُلُّ عَزِيمَهُمْ تهكُّمُ جَبَّارٍ ولا كَيْدُ ماكرِ
وأوتادُ أرض الله فى كل بلدةٍ وموضعُ فُتْيَاها وعلمِ التشاجُرِ

وموقف ثانٍ سبق أن عرضنا له فى ترجمتنا لبشار ، ينقض فيه تفضيله النار على الأرض ونفوذه من ذلك إلى تصويب رأى إبليس فى رفضه أمر ربه له بالسجود لآدم ، كما ينقض مزاعمه فى الرجعة والتناسخ وتكفيره لجميع الأمة ، وخير ما يصور ذلك داليته التى أنشدها الجاحظ ، وهو فيها يسهب فى بيان فضائل الأرض ، بادئًا بأنها تحمل فيما تحمل النار ، على نحو ما هو معروف فى الحجارة والزند ، ثم يفيض فى بيان طرائفها المبثوثة فى البحار من لآلىء وغير لآلىء ، ومن عنبر وغير عنبر ، مع ما تحمل من السمك السابح ، إلى طرائف لا تكاد تحصى فى الجبال والحرار وظاهر الأرضين من الأحجار الكريمة والذهب والفضة والمعادن النفيسة ، بالإضافة إلى الأماكن المقدسة ، مما يدل دلالة ناصعة على عظمة الخالق ، ومن قوله فى ذلك [1] :

زعمتَ بأن النارَ أكرمُ عُنْصُرًا وفى الأرض تَحْيَا بالحجارة والزَّنْد
وتُخْلَقُ فى أرحامها وأرومها أعاجيبُ لا تُحْصَى بخطٍّ ولا عَقْدِ [2]
وفى القَعْرِ من لُجِّ البحارِ منافعٌ من اللؤلؤ المكنون والعنبر الوَرْد [3]
وفى قُلَلِ الأجْبال خلف مقطَّمٍ زبرجدُ أملاك الورى ساعةَ الحَشْد [4]
وفى الحرَّة الرَّجْلاء تُلْفَى معادنٌ لهنَّ مغاراتٌ تبجَّسُ بالنَّقْد [5]
من الذهبِ الإبريز والفضة التى تروق وتُصْبِى ذا القناعة والزُّهد
وكل فِلِزٍّ من نحاسٍ وآنُكٍ ومن زئبقٍ حَىٍّ ونوشاذُرٍ يُسْدِى [6]
وكلٌّ يواقيتِ الأنام وحلْيها من الأرض والأحجار فاخرةِ المجد

---

(١) البيان والتبيين ١ / ٢٧ .
(٢) العقد : الحساب ، ويريد العد .
(٣) الورد : الأحمر .
(٤) المقطم : جبل مصر الممتد من القاهرة إلى أسوان على الشاطىء الشرقى للنيل .
(٥) الحرة : أرض بركانية سوداء الحجارة . الرجلاء : الوعرة الخشنة . تبجس : تتفجر .
(٦) آنك : رصاص . النوشاذر بالذال والدال : حجر أبيض صاف كالبلور .

وفيها مقامُ الخِلِّ والرُّكْنُ والصَّفَا ومُسْتَلَمُ الحُجَّاج من جَنَّة الخُلْدِ

ويأخذ صفوان بعد ذلك فى بيان حقيقة بشار ويظهر أنه كان حينئذ يردِّد آراء فرقة الكاملية إحدى فرق الشيعة الغالية ، وقد أكفر صاحبهم أبو كامل جميع الصحابة لتركهم بيعة على وطعن فى على لقبوله التحكيم ولأنه قعد فى عهد الخلفاء الثلاثة الأول عن المطالبة بحقه ، وكان يرى أن الإمامة نور يتناسخ من شخص إلى شخص . ويظهر أيضًا أنه كان يردد بعض ما قاله ديصان ومانى عن النور والظلمة وأنه كان لا يزال يلوك أسماء غالية الشيعة من مثل ليلى الناعظية وأبى منصور العجلى وابن عمه المغيرة بن سعيد وغيرهم ، ويسجِّل ذلك كله صفوان عليه ، يقول :

أتجعلُ عَمْرا والنَّطاسِيَّ واصلا كأَتباع دَيْصانٍ وهُمْ قُمُشُ المدِّ (١)

فيا ابنَ حليفِ الطِّين واللؤم والعمى وأَبْعدَ خَلْقِ اللهِ من طُرُقِ الرُّشْدِ (٢)

أتهجو أَبا بكرٍ وتخلع بعده عليًّا وتَعْزُو كلَّ ذاك إلى بُرْد (٣)

كأَنك غضبانٌ على الدين كلِّه وطالبُ ذَحْلٍ لا يبيت على حقْدِ

أتجعل ليلى الناعظيَّةَ نِحْلةً وكلَّ عريقٍ فى التناسخ والرَّدِّ

وقد خلص بشار بعد ذلك للمذاهب المجوسية وعبادة إلهى النور والظلمة . ولم يصلنا لصفوان ردود على الملحدة وأصحاب النحل والأهواء المختلفة وراء هذا الرد على بشار ، وأغلب الظن أنه كان يرد عليهم كثيراً وأن القدماء لم يثبتوا ردوده . وسنرى بشر بن المعتمر يسير على هديه فى هذا الاتجاه . ومثله العطوى الذى نلقاه بأخرة من هذا العصر ، وقد أنشد له القالى قصيدة يرد فيها على هشام بن الحكم الرافضى أحد متكلمى الشيعة الغالين وما كان يزعمه من التشبيه على الله وأنه فى صورة إنسان وله نفس الحواس الخمس ، تعالى الله عن ذلك عُلُوًّا كبيراً ، وله يقول العطوى فى بعض رَدِّه (٤) :

جلَّ رَبٌّ الأَعراض والأَجسامِ عن صفات الأَعراض والأَجسام

(١) قمش : أراذل .

(٢) يشير إلى حرفة أبيه برد وأنه كان طياناً يضرب اللبن .

(٣) ذحل : ثأر . لايبيت على حقد : يريد أنه يسارع إلى الأخذ بثأره .

(٤) أمالى القالى ٢ / ٢٣٦ .

جلَّ ربِّى عن كل ما اكتنفتْه لحَظاتُ الأَبصار والأَوهـام
بَرِئٌ اللهُ من هشامٍ وممن قال فى الله مثلَ قول هشامِ
قُلْ لمن قال قوله ورآه خيرَ مسترشَدٍ وخير إمامِ
لمَ أنكرتَ قول من عبد الشَّمْـ سَ وصلَّى للأَنْجُم الأَعلامِ
ما الدليلُ المبِينُ عن حَدَث العا لم أَفْصحْ به لَدَى الأَقوامِ
لا دليلٌ فلا تَرُمْهُ وقد قُلْـ ـتَ كبعض الأَنام ربُّ الأَنامِ
لم تُرِدْ غير قِدْمَةِ الخَلْق فاقْصِدْ قَصْدَهُ دَعْ مناقَضات الكلامِ

وواضح أن العطوى يرى فى التشبيه على الذات الإلهية تعطيلا للألوهية ، فالله بنصِّ القرآن ليس كمثله شيء وهو منزه عن كل تجسيد وتجسيم ، ولو أشبهته المخلوقات لأصبح العالم قديما مثله ، ولكان هناك قديمان : الله والعالم ، ومن أجل ذلك حارب المعتزلة القائلين بهذا القول من فلاسفة اليونان ومن بعض المتكلمين أمثال هشام حربا عنيفة فالله وحده هو القديم ، أما العالم فحادث ، خلقه الله وأحدثه ، والدلالة على حدوثه وخلقه قائمة فى بنيته وتركيبه .

وكان العطوى ينظم فى أغراض الشعر المختلفة صابغاً كثيراً من معانيه بأصباغ المعتزلة ، ونقصد القدرة على توليد الأفكار واستنباط خبيئاتها ، وفى ذلك يقول بعض القدماء « كان له فن من الشعر لم يُسْبَقْ إليه ، ذهب فيه إلى مذهب أصحاب الكلام ففارق جميع نظرائه وخفَّ شعره على كل لسان ورُوِىَ واستعمله الكتاب واحتذوا معانيه وجعلوه إماما » . وقد أنشد له أبو الفرج فى أغانيه طائفة من الأشعار فى أغراض مختلفة ، وهى تصور كيف كان يطلب الإطراف فى المعنى والخيال من مثل قوله يرثى أحمد بن أبى دؤاد شيخ المعتزلة فى عصره ومقدَّمهم عند المعتصم والواثق (١) :

أَحْنَطتهُ يا نَصْرُ بالكافورِ وزفَفْتَهُ للمنزل المهجورِ (٢)

---

(١) الأغانى ٥٨/٢٠ .
(٢) أحنطته : من الحنوط وهو كل طيب يخلط للميت .

هلا ببعض خصاله حَنَّطته فيَضُوع أُفْقُ منازلٍ وقبور[١]

وقوله فى رثائه أيضاً[٢] :

وليس نسيم المسك رَيَّا حَنوطِه ولكنه ذاك الثناءُ المخلَّفُ[٣]

وكان منهوما بالنبيذ والشراب ، وله فى وصف الصبوح وذكر الندامى والمجالس أشعار كثيرة نقع فيها على المعانى النادرة من مثل قوله : [٤]

فكم قالوا تَمنَّ فقلت كأسٌ يطوف بها قضيبٌ من كثيبِ

ونَدْمانٌ تساقطنى حديثاً كلحظ الحبِّ أو غَضِّ الرَّقيب

وعلى هذا النحو كان العطوى يتأتى لمعانيه محاولاً أن يصل إلى كثير من دقائق الأخيلة والأفكار حتى يبهر معاصريه . ولعل من الخير أن نعرض بشىء من التفصيل لثلاثة من شعراء المعتزلة دوت أسماؤهم فى هذا العصر وهم العتابى وبشر بن المعتمر والنظام .

العتَّابى[٥]

هو كلثوم بن عمرو بن أيوب التَّغْلِبىّ ، يتصل نسبه بعمرو بن كلثوم أحد أصحاب المعلقات السبع ، وُلد ونشأ فى قِنَّسْرين بالشام ، ثم سكن الرَّقَّة بالموصل ، وتحول عنها إلى بغداد ، واختلف إلى حلقات المتكلمين ، ولم يلبث أن شُغف بالمعتزلة والاعتزال ، كما شُغف بالآداب الفارسية شغفاً أداه إلى تعلم الفهلوية من جهة ، كما أداه إلى الرحلة مراراً إلى خزائن الكتب بمرو وخراسان ، ليتزود منها بكنوز الأدب الفارسى ، ومرَّ بنا فى الفصل الرابع إكبابه على هذه الكتب ونسخه

---

(١) يضوع : يفوح .

(٢) أغانى (طبع الساسى) ٢٠/٥٩ .

(٣) ريا : شذى ورائحة .

(٤) أغانى ٢٠/٥٩ .

(٥) انظر فى العتابى وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص٢٦١ والشعر والشعراء ص٨٣٩ والبيان والتبيين ١١/٥، ١٢٠ ، ٢٢٠ ، ٣/٥٣ ، ٤/٥٦ والحيوان ٣/٦٢ ، ٤٨٣ والأغانى ١٣/١٠٩ والفهرست لابن النديم ص ١٧٥ ومعجم الأدباء ١٧/٢٦ ومروج الذهب للمسعودى ٣/٣٣٧ وما بعدها والوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٢٣٣ ، ٢٦٢ وتاريخ بغداد لطيفور ص ٨٧ وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٢/٤٨٨ والفرج بعد الشدة للتنوخى ٢/١١٩ والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٢/١٨٦ .

لكثير من صحفها ومعانيها ، مما جعل بعض معاصريه يعجب من كثرة نسخه لها ، وقد ابتدره قائلا : هل المعانى والبلاغة إلا فى كتب العجم ؟ اللغة لنا والمعانى لهم . وكان طبيعيًّا أن يؤديه اعتزاله إلى قراءة كتب الفاسفة ، بل يظهر أنه تعمق فى قراءتها ، وهو تعمق دفعه إلى أن يؤلف فى علم المنطق كتابًا اشتهر فى عصره ، وله بجانبه مصنفات لغوية وأدبية مختلفة منها كتاب الألفاظ وكتاب فنون الحكم ، وفيه يقول المسعودى : « كان من العلم والقراءة والأدب والمعرفة والترسل وحسن النظم للكلام وكثرة الحفظ وحسن الإشارة وفصاحة اللسان وبراعة البيان والمكاتبة وحلاوة المخاطبة وجودة الحفظ وصحة القريحة على ما لم يكن لكثير من الناس فى عصره مثله » وكان إلى ذلك يتزهد فى متاع الدنيا ويلبس الصوف أسوة بالناسكين . وسمع يحيى ابن خالد البرمكي وزير الرشيد بفضله فوصله به وبمجالسه، وأخذ يضفى عليه هو وابناه الفضل وجعفر من نوالهم ، وهو يضفى عليهم من مدائحه ، ولم يلبثوا أن قدموه إلى الرشيد ، فمدحه ونال جوائزه السنية ، مع انقطاعه لهم . ويروى الرواة أن الرشيد سمع باعتزاله ، ولم يكن يعجب بالاعتزال ولا بالمعتزلة ، فطلبه ، وخشى البرامكة مغبة طلبه ، فستروه عنه مدة ، وقيل إنه هرب إلى اليمن ، وما زال يحيى بن خالد – وقيل ابنه جعفر – يستعطف الرشيد عليه ، حتى استلّ ما فى نفسه وأمّنه . ويُرْوَى أنه غضب عليه حين ثار الوليد بن طريف الخارجى الشيبانى ، لاشتراك بعض أفراد قبيلته معه، غير أنه مثل بين يديه يتنصّل من الجرم الذى جناه بعض قومه ،وكان يزيد بن مزيد الشيبانى قضى على الوليد فلوح بأن يزيد غسل عن ربيعة كلها ذنبها ، فرضى عنه ووصله .

وما زال العتابى منقطعًا إلى البرامكة حتى إذا فتك بهم الرشيد ظل يمدحه واصلا أسبابه بطاهر بن الحسين وابنه عبد الله وعلى بن هشام أحد القواد الأجواد فى العصر . ويظهر أنه كان يكثر من التردد على الرقة ورأس عين فى ديار الجزيرة شمالى العراق . ولما تحول المأمون من مرو إلى بغداد وعقد المجالس لجلّة العلماء يتناظرون ويتحاورون بين يديه أشخص العتابى إليه ، ووالى بره ونواله عليه .

وقد أشاد القدماء بشعر العتابى وبراعته فى الحوار فى كل ما كتب من رسائل ، وفى ذلك يقول ابن المعتز : « كان العتابى مجيداً مقتدراً على الشعر عذب الكلام

وكاتبا جيد الرسائل حاذقا، وقلما يجتمع هذا لأحد ، وما سمعت كلاما قط لأحد من المتكلمين أحسن من كلام العتابى . . فإنه كان فحل الشعر جيد الكلام » ويقول أبو الفرج عنه : « شاعر مترسل بليغ مطبوع متصرِّف فى فنون الشعر ومقدَّم من شعراء الدولة العباسية » . ويقول الجاحظ : « ومن الخطباء الشعراء ممن كان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن كلثوم بن عمرو العَتَّابى ، وكنيته أبو عمرو ، وعلى ألفاظه وحَذْوِه ومثاله فى البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من الشعراء المولَّدين كنحو منصور النمرى ومسلم بن الوليد الأنصارى وأشباههما ، وكان العتابى يحتذى حذو بشار فى البديع » . ويقول فى موضع آخر من بيانه : « العتابى يذهب شعره فى البديع » .

والجاحظ لا يقصد بالبديع المحسنات المعروفة من الجناس والطباق والتصاوير فحسب ، بل يقصد أيضًا المعانى الطريفة النادرة التى أتاحت للعتابى ثقافته الواسعة اجتلابها وعرضها فى معارض تمتع النفس وترضى العقل والقلب. وأول ما نقف عنده مديحه ، وقد طارت له فيه قصيدة فى الرشيد نظمها حين سخط عليه لثورة الوليد بن طريف التى أشرنا إليها فيما أسلفنا ، وهو يستهلها بذكر الأطلال والنسيب على هذه الشاكلة :

ماذا شجاك بِحُوَّارين من طللٍ ودِمْنَةٍ كشفتْ عنها الأعاصيرُ[1]
شجاك حتى ضميرُ القلبِ مشتَرِكٌ والعينُ إنسانها بالماء مغمور[2]
فى ناظرىّ انقباضٌ عن جفونهما وفى الجفون عن الآماق تقصير
لبِسْتَ أَرْدِيَةَ النُّوَّار من طللٍ وزِلْتَ أخضرَ تعلوك الأزاهير[3]

وواضح ما فى هذا المطلع من دقة فى التفكير ، فهو يصور شجو نفسه وحزنها حين ألم بالطلل ، ويطيل فى هذا التصوير ، محاولا النفوذ إلى خيال بديع على نحو ما يتضح فى البيت الثالث ، وهو لا يعنى بدقة الفكر والخيال وحدهما بل يعنى أيضًا بدقة الحسّ على نحو ما نرى فى دعائه الرقيق للطلل بأن يظل مكسوًّا

---

(١) حوارين : من قرى حلب . والدمنة : آثار الديار .
(٢) مشترك : مهموم .
(٣) أردية : ثياب .

بالخضرة والأزهار والرياحين ويتحول إلى المديح بمثل قوله فى الرشيد :

مستنبطٌ عزماتِ القلب من فِكَرٍ ... ما بينهنَّ وبين الله معمورُ
فُتٌ المدائح إلا أن أنفسنا ... مستنطَقاتٌ بما تحوى الضمائير
ماذا عسى مادحٌ يثنى عليك وقد ... ناداك فى الوَحْى تقديسٌ وتَطْهيرُ

وهو دائمًا فى مديحه له يمزج بين تصوير حزمه وبصره بالرأى الصائب وحنكته وبين حياطته للدين والرعية وأخذها بالعدل والشفقة والرحمة ، على شاكلة قوله :

إمامٌ له كَفٌّ يضُمُّ بَنَانُها ... عَصا الدينِ ممنوعاً من البَرْيِ عودُها
وعَيْنٌ محيطٌ بالبريَّة طَرْفُها ... سواءٌ عليه قُرْبُها وبَعيدُها
وأَصْمَعُ يقظانٌ يبيت مناجياً ... له فى الحَشَا مستودَعاتٌ يكيدها
سميعٌ إذا ناداه فى قَعْر كُرْبةٍ ... منادٍ كفتْه دعوةٌ لا يعيدها

ونحس فى هذه الأبيات مدى ما كان يأخذ نفسه به من الأناة والجهد العنيف فى تصوير معانيه وصياغتها وكان يعرف كيف يعرض المعنى فى معارض مختلفة ، يرفده فى ذلك عقله الاعتزالى الخصب الذى لا يزال يثير فى نفسه الخواطر التى تبهر السامعين من مثل قوله فى الرشيد ، معيدا للمعانى السابقة فى هيآت جديدة :

رَعى أمَّةَ الإسلام فهْو إمامها ... وأدَّى إليها الحقَّ فهْو أمينُها
ويستنتج العَقْماءَ حتى كأنّما ... تغلغل فى حيث استقرَّ جَنينُها(٢)
وما كلُّ موصوفٍ له الحقّ يهتدى ... ولا كلُّ من أَمَّ الصُّوَى يستبينها(٣)
مقيمٌ بمُسْتَنِّ العُلا حيث تلتقى ... طوارفُ أبكارِ الخطوب وعُونها(٤)

وهو يلاحظ ما يقيم عليه الرشيد حكمه من قواعد الدين الحنيف وما سنه فى حكم الرعية من العدالة وطرق الرشاد ويصور فطنته وحنكته فى حلّ المشاكل

---

(١) أصمع : يقظ القلب فطن حاذق . يكيدها : يدبرها .
(٢) العقماء : المشكلة العسرة . يستنتج : يستولد .
(٣) أم : قصد . الصوى : الأعلام .
(٤) المستن : مكان الاستنان وهو سرعة العدو . الطوارف : الحديثات . العون : جمع عوان ضد البكر .

العسرة العقيمة حتى لكأنما يستولدها ما اكتنّ فى أعماقها وأرحامها من حلول خفية، كما يصور حزمه ونفوذه من الخطوب نفوذ السهم الصائب. وواضح ما يُعْنَى به العتّابى من دقة فى معانيه وطرافة، ويُرْوَى أنه دخل سرًّا مع المتظلمين إلى الرشيد فى بعض سخطاته عليه، فأنشده:

أَخِضْنى المُقَامَ الغَمْرَ إن كان غَرَّنى سنَا خُلَّبٍ أو زلَّتِ القدمان[1]
أتتركنى جَدْبَ المعيشة مُقْتِرًا وكفَّاك من ماء النَّدَى تَكِفَان[2]
وتجعلنى سَهْمَ المطامع بعد ما بَلَلْتَ يمينى بالنَّدَى ولِسَانى

فأعجب الرشيد قوله، وأجازه جائزة سنية. وكان جعفر البرمكى أو أبوه يحيى شفع له عند الرشيد فى موجدة له أخرى عليه، كما أشرنا إلى ذلك آنفا، فقال يمدحه:

ما زلتُ فى غَمرات الموت مطَّرَحاً قد ضاق عنى فَسِيحُ الأرض من حِيَلى[3]
ولم تزل دائباً تَسْعَى بلطفك لى حتى اختلستَ حياتى من يَدَىْ أجلى

وهذا البحث عن المعانى النادرة أشاع فى شعر العتابى ظاهرة لم تكن مألوفة هى قِصَرُ المدائح وغير المدائح مما يلم به من أغراض الشعر حتى لتصبح بيتين أو ثلاثة فى كثير من الأحيان، وكأنما يتشبه فى ذلك بالأمثال الفارسية القصيرة التى كان يعكف عليها والتى يمثلها خير تمثيل كتاب الأدب الصغير لابن المقفع، ومما يصورُّ ذلك عنده أجمل تصوير ما يُرْوَى من أنه دخل على عبد الله بن طاهر يوما فأنشده مادحًا:

حُسْنُ ظَنِّى وحُسْنُ ما عوَّد اللَّـ ـهُ سواى منك الغداةَ أتى بِى
أىُّ شىءٍ يكونُ أحسنَ من حُسْـ ـنِ يقينٍ حَدَا إليك رِكابِى

ثم دخل عليه من الغد، فأنشده البيتين التاليين اللذين أنشدناهما فى الفصل السادس:

(١) المقام الغمر: المقام الشديد. سنا خلب: ضوء البرق الذى لا يعقبه مطر.
(٢) مقترا: ضيق الرزق. النـدى: الجود. تكفان: تهملان وتسيلان.
(٣) غمرات: شدائد.

ودُّك يكفينيك فى حــاجتى ورُؤيتى كافيــةٌ عن سُؤالْ
وكيف أخشى الفقر ما عشتَ لى وإنما كفَّاك لى بيت مالْ

ثم دخل فى اليوم الثالث ، فأنشده :

بَهجاتُ الثيابِ يُخْلِقها الدَّهْـ ـرُ وثوبُ الثناء غَضٌّ جديدُ
فاكْسُنى ما يَبِيدُ أَصْلَحَكَ اللـ ـهُ فيكسوك اللهُ ما لا يبِيدُ

وواضح أنه حول قصيدة المديح إلى بيتين قصيرين ، يحملان معنى طريفا ، وهو معنى لا يصل إليه إلا بعد التدبر وبعد طول الروية وبعد النظر وطول التفكير ، بل بعد التوقف وطول التنقيب . وعلى نحو ما يلقانا ذلك فى مديحه يلقانا فى عتابه من مثل قوله :

رَحَلَ الرَّجاءُ إليك مُغْتَرِباً حُشِدتْ عليه نوائبُ الدَّهْرِ
ردَّتْ إليك ندامتى أملى وثَنَى إليك عِنانَه شُكْرى
وجعلتُ عَتْبَكَ عَتْبَ موعظةٍ ورجاء عفوك مُنْتَهى عُذْرِى

وله غزليات تَطْبَع بنفس الطوابع العقلية والخيالية ، فهو ما يزال يحاول فيها استنباط المعانى والصور الدقيقة على شاكلة قوله :

رُسُلُ الضمير إليك تَتْرَى بالشوق ظالعةً وحَسْرَى[1]
ما جفَّ للعينين بَعْـ ـدك يا قريرَ العَيْن مَجْرى
إن الصبابة لم تَدَعْ منى سوى عظمٍ مُبَرَّى[2]
ومدامعٍ عَبْرَى على كَبِدٍ عليك الدَّهْرَ حَرَّى[3]

وأدّاه طول نظره وفحصه للمعانى إلى أن يجردها ويجسمها أحيانا ، وأحيانا أخرى يتعمق فيها ويتغلغل إلى لبها ، مستخرجًا بعض الصور أو بعض الحكم ، من مثل قوله مجسداً لشكره :

---

(١) ظالعة : من الظلع وهو العرج من كثرة السير . حسرى : متعبة .
(٢) مبرى : مهزول .
(٣) حرى : محترقة .

فلو كان للشكر شَخْصٌ يَبينُ إذا ما تـأمّله الناظرُ
لمَثَّلْتُهُ لك حتّى تراه لتعلم أنى امروٌ شاكرُ

وقوله فى ملامة الأصدقاء وتلقيها بالقبول الحسن :

لومٌ يُعيذك من سوء تُقارفهُ أبقى لعِرْضك من قولٍ يُداجيكا(١)
وقد رمى بك فى تَيْهاء مهلكةٍ من بات يكتمك العيبَ الذى فيكا(٢)

وله أشعار يتناول فيها الأخلاق والطباع ، محللا لها تحليلا بديعاً ، من ذلك تصويره لمن اتبع هداه ، فعدل عن محجّة الخلق الحميد إلى مسارب الخلق الذميم ، وإنه ليعد ذلك كفراناً لنعمة الله الذى وهب الإنسان من العقل ما يميز به الخبيث من الطيب ، والضار من النافع ، فإذا هو يستجيب لهواه ودواعى نفسه ، ولو أنه فطمها وكبح جماحها لاستتم شكره لأنعم ربه ، ولكن أنّى له وفطام النفس عسير ، يقول :

وكم نعمةٍ آتاكها الله جَزْلَةٍ مبرَّأةٍ من كلِّ خُلْقٍ يَذيمُها(٣)
فسَلَّطْتَ أخلاقاً عليها ذميمةً تعاورْنها حتى تفرّى أديمُها(٤)
وكنت امرءًا لوشئتَ أن تبلغ المَدَى بلغتَ بـأدنى نعمةٍ تستديمها
ولكنْ فِطامُ النفس أعْسَرُ محملا من الصخرة الصَّمَّاء حين ترومها

وعلى هذا النحو كان العتابى لا يزال يلذ عقول سامعيه وقلوبهم بما يورد عليهم من نوادر الأخيلة وطرائف المعانى محتالا لذلك متلطفاً له بكل ما ادخره عقله واقتناه من بيئة المعتزلة وكنوزها الفكرية الغنية ، وقد ظل الناس يفتنون بشعره ، وهو يعرض عليهم مبتكراته فى معانيه حتى انتقل إلى جوار ربه فى سنة ثمان ومائتين .

(١) تقارفه : ترتكبه . يداجيك : ينافقك .
(٢) تيهاء : فلاة مضلة .
(٣) يذيمها : يعيبها .
(٤) تفرى : تتقطع .

بشر [١] بن المعتمر

شيخ معتزلة بغداد ورئيسهم ، يقال إنه كوفى الأصل ولعله تحوّل منها أولا إلى البصرة موطن المعتزلة ، ثم استوطن بغداد ، وقد اتخذ النخاسة حرفة له ، مثله فى ذلك مثل محمود الوراق ، وكان أيضًا مثله زهداً ونسكاً وعبادة . ولا نعرف بالضبط متى نزل بغداد ، غير أننا نجد اسمه يلمع فيها منذ عصر الرشيد والبرامكة وقد توثقت الصلة بينه وبين الأخيرين وخاصة منهم الفضل بن يحيى البرمكى ، وربما كان السبب الحقيقى فى توثق هذه الصلة ما عرف عن بشر من نزعة شيعية ، وكان البرامكة يتشيعون سرًّا ، ففسحوا له فى مجالسهم ، ونصّ كثيرون على هذه النزعة ، يقول النوبختى إنه كان يوافق الشيعة فى الحكم على علىّ بأنه كان مصيباً فى حربه لطلحة والزبير ومعاوية وأن جميع من قاتله كان على خطأ ، وأيضًا كان مصيبًا فى قبوله التحكيم . ويقول ابن أبى الحديد : « كان بشر بن المعتمر من قدماء شيوخنا رحمه الله تعالى يقول بتفضيل على عليه السلام (أى على أبى بكر وعمر) ويقول كان أشجعهم وأسخاهم ، ومنه سرى القول بالتفضيل إلى أصحابنا (من المعتزلة) البغداديين قاطبة وفى كثير من البصريين » . وقد روى له ابن المرتضى أبياتًا من أرجوزة يقول فى بعض شطورها « نبرأ من عمرو ومن معاوية » خصمى على فى صفّين ، فتشيعه لا مرية فيه ولا شك يعتريه .

وقد عرضنا فى الفصل الرابع للنحلة الاعتزالية التى تكونت حول آرائه ، والتى سميت البشرية نسبة إليه وذكرنا أن من أهم الأصول التى كان يعتنقها نظرية التولد ، وكان يذهب فيها إلى أن كل ما يتولد من أفعالنا فينا أوفى غيرنا فهو فعلنا . وذكرنا أيضًا أنه كان ينكر فكرة وجوب الأصلح على الله ، إذ لا نهاية لطبقات الأصلح عند الذات العلية ، ومن أجل ذلك يكون الذى يجب عليه

---

(١) انظر فى بشر وأخباره وأشعاره الحيوان ٤/٢٣٩ و٦/٦٢ ، ٩٠ ، ٢٨٤ وما بعدها و٤٠٥ ، ٤٥٥ والبيان والتبيين ١/١٣٥ وما بعدها وأمالى المرتضى ١/١٨٦ ولسان الميزان ٢/٣٣ وفهرس الانتصار لابن الخياط المعتزلى والأنساب للسمعانى فى البشرى وفرق الشيعة للنوبختى ص ٣٥ ، ٣٧ وشرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد (طبعة الحلبى) ٣/٣١٦ والملل والنحل للشهرستانى ص ٤٤ والمواقف للإيجى (طبع بولاق) ص ٦٢٢ والفرق بين الفرق ١٤١ وضحى الإسلام ٣/١٤١ والمنية والأمل لابن المرتضى ص ٣١.

حقًّا هو تمكين العبد بما أودع فيه من القدرة والاستطاعة . وكان ينصر القياس العقلي نصرة شديدة ، كما كان يجل العقل إجلالا بعيداً حتى ليرفعه إلى مرتبة مقدسة ، وقد مرّت بنا فى الفصل الرابع أبياته التى يشيد فيها به إشادة بالغة ، لما أودع الله فيه من المعرفة الفطرية التى تجعل الإنسان يميز الشر من الخير، ويدرك الحسن فيعتنقه والقبيح فيتجنبه ، ويقول لولاه لذهب الإدراك والتمييز ، بل لفقد الإنسان جوهر إنسانيته . وله مصنفات مختلفة تتصل باعتزاله سجلها ابن النديم فى فهرسته .

وكان حسن الجدال قوى الحجة، وهو يُعَدّ فى الذروة من فصحاء المتكلمين وبلغائهم ، وقد جعله الجاحظ أكثر المعتزلة رواية للشعر ، وروى عنه فى بيانه صحيفة طويلة فى البلاغة ، تجعله واضع أصولها الأولى فى صورتها الدقيقة ، وقد حللناها فى كتابنا « البلاغة [1] : تطور وتاريخ » . وهى تشهد له ببصره النافذ فى معرفة طبقات الكلام والملاءمة بينها وبين طبقات السامعين .

ولم يكن يروى الشعر فحسب ، بل كان أيضًا بارعاً فى نظمه ، غير أنه لم ينظمه فى الأغراض الغنائية التى تعود الشعراء أن ينظموا فيها ، بل نظمه فى الاتجاه التعليمى الذى كان أبان بن عبد الحميد قد برع فيه ، غير أنه لم يتجه به وجهة من القصص والتاريخ والفقه والمنطق ، وإنما اتجه به إلى الرد على أهل المقالات والنحل من خصوم المعتزلة ، كما اتجه به إلى ذكر عجائب الله فى صنوف خَلْقه ، مما يمكن أن يدخل فى التاريخ الطبيعى ، ويذكر الجاحظ أنه لم ير أحدا أقوى منه على المخمَّس والمزدوج وأنه يفوق أبانا . وليس بين أيدينا شيء من مخمساته ، أما مزدوجاته فيذكر ابن المرتضى أن له مزدوجة ردّ فيها على جميع المخالفين للمعتزلة بلغت أربعين ألف بيت ، وقد اقتبس منها قطعة أعلن فيها براءته من معاوية كما أسلفنا وكذلك ابن العاص . وأكبر الظن أن القطعة التى أنشدها له صاحب الانتصار فى التبرؤ من الجهمية وصاحبهم جهم مقتبسة هى الأخرى من تلك الأرجوزة وفيها يقول :

نَنفيهمُ عنا ولسنا منهمُ ولا همُ منا ولا نرضاهمُ

---

(١) انظر كتاب البلاغة : تطور وتاريخ (طبع دار المعارف) ص ٤١ وما بعدها .

إمامُهم جَهْمٌ وما لجهْم وصَحْبِ عمرٍو ذى التقى والعلم

ومعروف أن جهما كان يؤمن بالجبر وينفى استطاعة الإنسان وحرية إرادته مما كان يعتنقه المعتزلة وأساتذتهم أمثال عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء، وروى الجاحظ فى الجزء الرابع من حيوانه مقطوعة من إحدى أراجيزه، وربما كانت هى الأخرى من الأرجوزة السالفة، وكذلك ما روى فى الجزء السادس من تفضيله لعلى بن أبى طالب على الخوارج، إذ يقول:

ما كان فى أسلافهم أبو الحَسنْ ولا ابنُ عبَّاسٍ ولا أهلُ السُّنَنْ
غُرٌّ مصابيحُ الدُّجى مَناجِبُ أولئك الأَعلام لا الأعاربُ
كمثل حُرْقوص ومنْ حرقوصُ فقعةُ قاعٍ حولها قَصِيصُ[١]
ليس من الحَنْظل يُشْتار العَسلْ ولا من البحور يُصْطاد الوَرَل[٢]
هيهات ما سافلةٌ كعالِيَهْ ما معدنُ الحكمة أهلُ الباديه

وروى له الجاحظ فى الحيوان قصيدتين طويلتين قدم لهما بقوله: « أول ما نبدأ قبل ذكر الحشرات وأصناف الحيوان والوحش بشعر بشر بن المعتمر فإن له فى هذا الباب قصيدتين قد جمع فيهما كثيراً من هذه الغرائب والفرائد، ونبَّه بهذا على وجوه كثيرة من الحكمة العجيبة والموعظة البليغة . . وإذا قسمنا ما عندنا فى هذه الأصناف على بيوت هذين الشعرين وقع ذكرهما مصنَّفا فيصير حينئذ آنق فى الأسماع وأشدَّ فى الحفظ » . وبشر يستهل القصيدة الأولى بحديثه عن طباع الإنسان وما ركب فيه من الطمع الذى يدفع الناس إلى أن يتواثبوا بعضهم على بعض تواثب الذئاب، ويفيض فى وصف الحيوان والحشرات وبعض الطير وبيان طباعها وعجائب خلقها، حتى إذا بلغ ما أراد من ذلك تحول إلى إباضية الخوارج ورافضة الشيعة ممن يؤمنون بكتاب الجفر، وهو كتاب يزعمون أنه عند أئمتهم فيه كل أصناف العلم وكل ما يكون إلى يوم القيامة، وسلك مع الرافضة

---

(١) حرقوص : من زعماء الخوارج لعهد على . القصيص : شجر تنبت فى أصله الكمأة وهى الفقع . والقاع : الأرض المستوية ، ويضرب الفقع مثلا للرجل الذليل لأن الإبل تدوسه بأرجلها.

(٢) يشتار : يستخرج . الورل : دابة صحراوية كالضب .

والإباضية الحشويّة ، وهو اسم كان يطلقه المعتزلة على خصومهم من المجسمة والمشبهة ومن كانوا لا يؤولون آيات التشبيه فى القرآن وإن قالوا إن الله لا يشبه شيئًا من المخلوقات ، وفى ذلك يقول :

لستُ إباضِيًا غَبيًّا ولا كرافضىٌّ غَرَّه الجَفْرُ
كما يغرُّ الآلُ فى سَبْسَبٍ سَفْرًا فأَوْدَى عنده السَّفْرُ (١)
لسنا من الحَشْو الجفاة الأولى عابوا الذى عابوا ولم يدروا
لا تَنجع الحكمةُ فيهمْ كما يَنْبُو عن الجَرْوَلة القَطْرُ (٢)
أُولئك الدَّاءُ العُضَال الذى أعيا لديه الصَّابُ والمَقْرُ (٣)

وفى هجومه على الشيعة القائلين بكتاب الجفر ما يدل دلالة قاطعة على أنه لم يكن يعتنق مذهب الإمامية كما أشرنا إلى ذلك فى الفصل السادس ،وقد استظهرنا هناك أنه ربما كان زيدى الهوى . وهو فى القصيدة الثانية يتحدث أيضًا عن غرائب الخلق فى أوابد الوحش والحشرات والطير السابح فى الهواء ، مستنبطًا كثيراً من العظات ، ومنوها بالعقل وساطع نوره الذى نكتشف به مثل هذه العجائب والعبر ونفصل بين الخير والشر والنافع والضار ، ويعرض فى أثناء ذلك لأهل المقالات والنحل من غير المعتزلة ، فيقول :

قد غمَر التقليدُ أحْلامهم فناصبوا القيَّاس ذا السَّبْرِ

فهو يأخذ عليهم أنهم يلغون عقولهم وأنهم لا يحكمون المنطق والقياس العقلى السديد الذى به تقاس الأشياء ويُسْبَر ويُعْرَفُ غورها ومقدار ما فيها من الخطأ والصواب . وعلى هذا النحو ظل بشر مشغولا فى شعره التعليمى بالرد على خصوم المعتزلة وبيان عجائب الخلق الربانى حتى وافاه القدر فى سنة عشر ومائتين .

(١) الآل : السراب . السبسب : الفلاة . السفر : جماعة المسافرين .
(٢) الجرولة : الصخرة الملساء . ينبو : يزل ويسقط .
(٣) الصاب والمقر : نباتان شديدا الحرارة

النظام [1]

هو إبراهيم بن سيار بن هانىء ، وُلد ونشأ بالبصرة ، وكان يحترف نظم الخرز فى سوقها لأول حياته فلُقِّب بالنظّام ، والمظنون أن ولادته كانت حول سنة ١٦٠ للهجرة فقد رُوى أنه تتلمذ للخليل بن أحمد المتوفى سنة ١٧٥ للهجرة وربما كانت ولادته تسبق التاريخ الذى ظنناه ، إذ نجده يناظر ويحاور أهل الكلام فى مجالس البرامكة ، ومعروف أنهم نكبوا سنة ١٨٧ فلا بد أن يكون قد نضج ولمع اسمه قبل هذا التاريخ مما يؤكد أن ولادته ربما سبقت سنة ١٦٠ .

وهو ابن أخت أبى الهذيل العلاف شيخ المعتزلة بالبصرة ورئيسهم بعد عمرو بن عبيد ، ولعل ذلك ما جعله يشغف بالاعتزال منذ نشأته ويظهر أن خاله عُنى به وبتثقيفه عناية كبيرة ، وهى عناية صادفت فيه عقلا خصبًا وذكاء نادراً . وقد مضى يستوعب كل ما يمكن من كتب الاعتزال والفلسفة والتفسير والحديث والفقه والكيمياء والفلك وعلوم اللغة وكتب الأشعار والأدب وكتب الملل والنحل الإسلامية وكان خاله بارعا فى المناظرة وقطع الخصوم بالحجج الساطعة ، فتلقن ذلك عنه ، بل لعله بذه فيه ، وقد مرَّ بنا فى ترجمتنا لصالح بن عبد القدوس كيف تعرَّض له وهو حدث ، فإذا هو يلقمه بمحاورته له حجراً ، فلا يستطيع أن ينبس ببنت شفة ، وكان كثيراً ما يظفر بخاله . وقد وقف نفسه على مناظرة الدهريين وأصحاب الملل والنحل المختلفة فى عصره ، وطارت شهرته فى هذا الباب ، لإفحامه دائمًا لهم وعلوه عليهم بالأدلة الناصعة والبراهين القاطعة ، حتى ليقول الجاحظ فى حيوانه : « لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام من جميع الأمم ولولا مكان المعتزلة لهلكت العوام من جميع النِّحل ، فإن لم أقل ولولا أصحاب إبراهيم

---

(١) انظر فى النظام وأخباره وأشعاره فهارس البيان والتبيين والحيوان للجاحظ وأمالى المرتضى ١ /١٨٧ وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٦/ ٩٧ والمنية والأمل لابن المرتضى ص ٢٧ وابن المعتز ص ٢٧١ وفهارس الانتصار لابن الخياط ومقالات الإسلاميين للأشعرى ولسان الميزان ١ /٦٧ وروضات الجنات للخوانسارى ص ٤٢ والنجوم الزاهرة ٢ / ٢٣٤ والملل والنحل للشهرستانى ص ٣٧ والفرق بين الفرق ١١٣ والمواقف ٦٢١ وانظر مروج الذهب للمسعودى ٣ /٢٨٧ وسرح العيون لابن نباتة (طبعة دار الفكر العربى) ص ٢٢٦ . وضحى الإسلام ٣ /١٠٦ وتاريخ الفلسفة فى الإسلام لدى بور ص ٥٩ .

وإبراهيم (النظام) لهلكت العوام من المعتزلة فإني أقول إنه قد أنهج لهم سبلا وفتق لهم أمورا واختصر لهم أبوابا ظهرت فيها المنفعة وشملتهم بها النعمة[1] » . وقد كان كثير التردد على بغداد منذ عصر الرشيد ، حتى إذا كانت سنة ٢٢٠ اختارها دار مقام له ، وعقد لنفسه بمسجدها الكبير حلقة للمحاضرة قرر فيها مذهبه الاعتزالي الذي نُسب إليه ، فتبعه — كما يقول ابن تغرى بردى — خلق كثير ، مما جعل اسمه يشيع فى العامة ويدور على كل لسان . ومرّت بنا فى الفصل الثالث كلمة موجزة عن نظريته الاعتزالية ، وهى نظرية كانت تقوم على أصول المعتزلة الخمسة التى تحدثنا عنها فى غير هذا الموضع وقد مزج فى قوة بين كلام الفلسفة وأفكار المعتزلة ومال فى آرائه إلى كلام الطبيعيين من الفلاسفة خاصة وانفرد من نظرائه بكثير من الآراء كقوله بأن الله لا يقدر على فعل الشر وإنه إنما يفعل الأصلح لعباده ، وقوله بنفى الجوهر الفرد أو الجزء الذى لا يتجزّأ ، وقوله إن الله خلق الكائنات دفعة واحدة معادن ونباتًا وحيوانا وإنسانا ، غير أن الله أكمن بعضها فى بعض ، فآدم لا يتقدم خلقه على خلق أولاده ، وهو ما ما يعرف عنده بنظرية الكمون ، ومن ذلك قوله إن الجوهر مؤلف من أعراض اجتمعت . وكان يُعْلى سلطان العقل إعلاء شديداً ، ولعل ذلك هو الذى أدّاه إلى إنكار حجية الإجماع والقياس وكأنه خشى فى الأخير إلى نقص الأصل الذى يقاس عليه ، ونرى تلميذه الجاحظ المفتون به يعيبه هو نفسه بأنه كان قليل التثبت من صحة المقدمات فى أقيسته ، وهو دائم الإشادة بفطنته وغوصه على الدقائق ولطف مداخله إلى أعماق الحقائق .

وله شعر كثير يدور فى كتب التراجم ، وهو مطبوع بطوابع المتكلمين والمعتزلة منهم خاصة ، إذ نراه يمزجه باصطلاحاتهم نافذا إلى أغوار المعانى ، متصرفًا فيها تصرف الحاذق الفطن ، وملائما بينها إلى أبعد حدود الملاءمة يعينه فى ذلك حِسٌّ دقيق مرهف وشعور رقيق حاد من مثل قوله :

وشادنٍ ينطقُ بالظَّرْفِ يَقْصُرُ عنه منتهى الوصفِ

---

(١) الحيوان ٤/٢٠٦ .

رقَّ فلو بُزَّتْ سرابيلُهُ عُلِّقه الجَوُّ من اللُّطْفِ(١)
يجرحه اللَّحْظُ بتكرارِهِ ويشتكي الإيماءَ بالطَّرْفِ

وكلمة اللطف فى الأبيات لا تفهم بدقة إلا إذا عرفنا أن النظام كان يرى أن روح الإنسان جسم لطيف وما الجسد إلا آلتها وما الإنسان إلا الجسم اللطيف الذى يحتويه . وفى البيت الأخير مبالغة واضحة يستتم بها مبالغة البيت الذى يسبقه وقد عاد إلى توضيح هذه المبالغة ودعم صورتها ، فقال :

توهَّمه طَرْفى فآلم خَدَّهُ فكان مكان الوهم من نظرى أَثْرُ
وصافحه قلبى فآلَمَ كفَّه فمن صَفْح قلبى فى أنامله عَقْرُ(٢)
ومرَّ بقلبى خاطرًا فَجَرَحْتُهُ ولم أرَ خَلْقًا قطُّ يجرحه الفكْرُ
يمرُّ فمن لينٍ وحُسْنِ تعطُّفٍ يقال به سُكْرٌ وليس به سُكْرُ

وهو وهم بعيد لا يقع فى عقل شخص إلا أن يكون من المعتزلة الذين يبعدون فى تصور الأشياء ، بل إلا أن يكون من عقل النظام الذى كان يؤمن بأن الأعراض كامنة فى الجوهر وأن حركات الإنسان كامنة فى نفسه وأن حركات النفس أجسام مستترة ، وبذلك نفذ إلى هذا التجسيم الغريب فى الأبيات . ويستلهم رأيه فى أن النور سمائى عُلْوِى، يعلو فوق الأشياء ولا يعلو شىء عليه ، فيقول :

أُفرِغَ من نور سمائىٍّ مصوَّرٌ فى جسم إنْسِىٍّ
وافتقر الحسنُ إلى حُسْنه فجلَّ عن تحديد كيْفىٍّ
أَبدعه الخالقُ واختارَهُ من مازج الأَنوار عُلْوِىٍّ
فكلٌّ من أغرق فى وصفه أصبح منسوباً إلى العِىِّ

وتختلط فى الأبيات فكرته عن النور بفكرته عن الأجسام وأنها أعراض متجمعة . ويتضح فيها لحن المعتزلة أو لحنه هو إذ يتحدث عن الكيف وتحديده

---

(١) بزت : نضيت وخلعت .
(٢) العقر : الجرح .

أو بعبارة أخرى عن العرض ، وهو عنده جسم . وبذلك كان يعرف كيف يتحول بالغزل إلى ضروب من الوهم المسرف فى الخيال ، وكذلك كان يصنع بكل ما يمسه عقله ووجدانه من أغراض الشعر كقوله يصف احتساءه للخمر من بعض الدّنان :

ما زلت آخذ روح الزِّقِّ فى لُطُفٍ　　وأستبيح دَمًا من غير مجروح
حتّى انثنيتُ ولى روحان فى جسدى　　والزِّقُّ مُطَّرَحٌ جسمٌ بلا روح

وهو هنا أيضًا ينظم بعقله الاعتزالى وما كان يذهب إليه من أن الروح جسم لطيف مشابك للبدن بأجزائه تشابك المائية للورد ، وهى صاحبة القوة والاستطاعة والحياة والمشيئة . وله فى تلميذه الجاحظ عمرو بن بحر الذى كان يبادله إعجابا بإعجاب وودًّا بود :

حبى لعمرو جوهرٌ ثابتٌ　　وحبُّه لى عَرَضٌ زائلُ
به جهاتى الستُّ مشغولةٌ　　وهْو إلى غيرى بها مائِلُ

وواضح تشبثه بلغة المتكلمين وآرائهم فى الجوهر والعرض والجهات الست . ولم يكن هناك غرض ينظم فيه إلا ويُدخل فيه لغة الاعتزال وما يدفع إليه من التجريد البعيد الذى يرفع الإنسان من عالم الحس إلى عالم الوهم والخيال كقوله يمدح الأمين :

ألا ياخيرَ مَنْ رأت العيون　　نظيرُك لا يُحَسُّ ولا يكونُ
وفضلُك لا يُحَدُّ ولا يجارَى　　ولا تَحْوِى حيازَته الظنونُ
خُلقتَ بلا مشاكلةٍ لشىءٍ　　فأنت الفَوْقُ والثقلان دون
كأَن الملك لم يك قبلُ شيئاً　　إلى أَن قام بالمُلْك الأَمين

وهى مبالغة مسرفة ، وكأن النظام كان أحد من ثبتّوا مثل هذه المبالغة فى المديح ، وهى مبالغة نفذت إليه من إغراقه فى الوهم واستيحائه لغة المتكلمين . وقد

اختلف القدماء فى السنة التى توفى فيها ، فقيل سنة إحدى وعشرين ومائتين وقيل بل سنة إحدى وثلاثين ، وأكبر الظن أن حياته لم تمتد إلى السنة الأخيرة .

٥

شعراء النزعات الشعبية

لعلنا لا نغلو إذا قلنا إن الشعر العباسى كان يصدر فى جمهوره عن روح الشعب ، فقد كانت كثرة الشعراء من الطبقة العامة ، وكانوا يحملون فى صدورهم أحاسيسها ومشاعرها وإذا كان بدا فى مديحهم للخلفاء والوزراء أنهم ينفصلون عنها فإنه انفصال فى الظاهر ، إذ كانوا ما يزالون يضعون نصب أعينهم مثالية الحاكم التى تتطلبها الأمة والتى رسمها لها الدين الحنيف . وكانوا فى جوانب من هذا المديح ونقصد مديح القواد المظفرين يعبرون عن الحماسة المشتعلة فى صدور الشباب للقضاء على أعدائهم من البيزنطيين وغير البيزنطيين . فحتى المديح لم يبعد عن روح الشعب ، وكان الهجاء يصدر فى وضوح عن هذه الروح ، إذ مثل الشعراء فيه الخصال السيئة التى ينبغى أن يتطهر منها المجتمع ، سواء فى الأفراد العاديين أو فى الحكام ، ولعل ذلك هو الذى كان يشيعه على جميع الألسنة . وخذ الصورتين الأساسيتين للمجتمع صورة الترف وما يطوى فيه من مجون وصورة الشظف وعيشة الكفاف وما يطوى فيهامن زهد فستجدهما مجسمتين أقوى ما يكون من تجسيم ، فحياة الحانات والقيان والأديرة وكل ما فى المجتمع من لهو ومواسم للهو ، ونقصد الأعياد الإسلامية والمسيحية والمجوسية ، كل ذلك مصور فى شعر الشعراء ، وبالمثل حياة الزهد والتقوى والعمل الصالح وكانت أكثر شيوعاً من حياة اللهو والمجون ، مما جعل أشعار الزهد تجرى على كل لسان ، وفى الأغانى خبر يصور ذلك أدق تصوير ، إذ يروى أن الملاحين فى دجلة كانوا يتغنون فى نزهة للرشيد بقطعة زاهدة لأبى العتاهية تمثلنا ببعض أبياتها فى غير هذا الموضع وفيها يقول[1] :

---

(١) أغانى ٤/١٠٣ وما بعدها .

سيصيرُ المرءُ يومًا جَسَدًا ما فيه روحُ
كلنا فى غَفْلَةٍ وال موتُ يغدو ويَروحُ
لتموتنَّ وإن عُمِّ رْتَ ما عُمِّر نُوحُ

ومرت بنا فى ترجمة أبى العتاهية قطعة يشكو فيها لبعض الخلفاء من ارتفاع الأسعار ، وهو يعبر فيها عما كانت تعيش فيه طبقات الشعب الدنيا من ضنك وبؤس ، وكانت الأموال حينئذ موزعة توزيعًا غير عادل ، فالخلفاء والوزراء وحواشيهما يعيشون فى الحلية والزينة وكل ما يمكن من أسباب الترف ووسائل النعيم ، ويمدون مَنْ حولهم ومن يحفون بهم من المغنين والشعراء والعلماء والأتباع بكثير من هذه الوسائل والأسباب ، ويُثْرى بعض التجار ثراء فاحشًا . وتجثم فى البؤس والمسغبة كثرة الشعب التى كانت لاتجد يدًا تمتد إليها وتخمد نار الفقر والضنك المشتعلة بين طبقاتها ولا من يبرد جوانحها ، ويطعم الجائع فيها ويكسو العارى ويسقى الظمآن . وتلقانا أحاسيس هذه الطبقات التعسة مصورة عند شعراء الكدية الذين كانوا يشبهون طوائف الأدباتية التى كانت تنبثُ عندنا لأواخر القرن الماضى فى المواسم والموالد والاحتفالات العامة ، ومن خير من يمثلهم أبو فرعون الساسى ، وقد أنشدنا له قطعة يصور فيها بؤسه وبؤس أولاده فى الفصل الرابع وكيف يعيشون عراة جائعين ، ولا من مشفق ولا رحيم ، وله يصور بؤسه وفقره[1] :

ليس إغلاقى لبابى أَنَّ لى فيه ما أخشى عليه السَّرَقَا
إنما أُغلقه كى لا يرى سوءَ حالى مَن يجوب الطُّرُقا
منزلٌ أوطنه الفقرُ فلو دخل السارقُ فيه سُرِقا

ومن الشعراء الذين عاشوا فى ضنك وحرمان أبو المخفَّف وكان فى أيام المأمون ، وكان يدور فى بغداد يسأل الناس رغيفًا أو كسرة خبز ، وله أشعار مختلفة فى وصف الرغيف وكيف كان كلَّ همه من الحياة وهم أمثاله من البؤساء الذين يعيشون على الكِسَرِ اليابسة يتبلَّغون بها ، وهو لذلك يجعله موضع شعره من مثل قوله[2] :

(١) ابن المعتز ص ٣٧٧ .
(٢) كتاب الورقة لابن الجراح ص ١١٥

دَعْ عنك رَسْمَ الدِّيارِ ودَعْ صِفات القِفارِ
وعَدِّ عن ذكر قومٍ قد أكثروا فى العُقَـــار[١]
ودع صفات الزنانيـ ـر فى خصور العذارِى[٢]
وصِفْ رغيفاً سَرِيًّا حكتْه شمسُ النهارِ
أو صورةُ البدر لما اسْـ ـتتمَّ فى الاستدارِ
فليس تَحْسن إلا فى وصفه أشعارى
وذاك أنى قديمـــاً خلعت فيه عِذارى

فهو إنما يتدلّه فى الرغيف ويمتلىء به قلبه المحروم حبا وصبابة . وكان وراءه كثيرون متعففون لا يمدون أيديهم للسؤال ، وربما فقدوا حتّى الرغيف ولم يجدوه . ولعل شاعراً لم يصف مشاعر هذه الطبقات البائسة على نحو ما وصفها أبو الشمقمق ولذلك كان ينبغي أن نقف عنده قليلا .

أبو الشمقمق[٣]

هو مروان بن محمد بصرى المنشأ والمربى ، خراسانى الأصل ، من موالى الأمويين ، ومعنى الشمقمق الطويل ، ويقال إنه كان قبيح المنظر وأضاف إلى قبح شكله خبث لسانه ، فتحاماه الناس وازوروا عنه ، فلم يفتحوا له أبوابهم إلا قليلا ، وسرعان ما كان الباب الذى يفتح فى وجهه يُغْلَقُ من دونه ، فعاش فقيراً محروما إلا من بعض ما كان يسقط إليه من قائد أو أمير أو من بعض زملائه الشعراء ، فى الحين الطويل بعد الحين . وقدم بغداد فى أيام الرشيد والبرامكة غير أن أبوابهما لم تفتح له ، ولعل ذلك ماجعله يهجو الفضل بن يحيى

---

(١) العقار : الخمر .
(٢) الزنانير : جمع زنار وهو خيط كانت تلفه الجوارى على أوساطهن .
(٣) انظر فى كتاب أبى الشمقمق وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص ١٢٦ وتاريخ بغداد ١٣/١٤٦ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٣٩٦ وابن خلكان فى ترجمة مزيد بن يزيد وكتاب الورقة ص٦٣ والعقد الفريد ٣/٣٥ ، ٦/٢١٥ والحيوان للجاحظ (انظر الفهرست) وكتاب البغال للجاحظ والأغانى فى ترجمة بشار بالجزء الثالث والوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٢٨٩ والكامل للمبرد ص ٤٣١ ، ٤٥٩ .

البرمكى كما هجا منصور بن زياد كاتب الرشيد . وممن فتحوا له أبوابهم حينئذ يزيد بن مزيد الشيبانى قائد الرشيد المشهور ممدوح مسلم بن الوليد ، ومالك بن على الخزاعى أحد رجال الدولة البارزين ومحمد بن منصور بن زياد الملقب بفتى العسكر ، ولعلهم خشوا معرة لسانه . ونراه يولى وجهه نحو بعض بلدان فارس يمدح عمالها ، ويقصد أبا دهمان حين ولاه يحيى بن خالد البرمكى سابور ، فيحسن إليه ويمدحه ببعض شعره ، ويقصد جميل بن محفوظ والى أرّجان ، فيلقاه لقاء سيئًا ، ويتولاه بهجاء مرير ، ويقصد الأهواز حيث كان يتولى عمر ابن مساور الكاتب بعض أعمالها ، ويُعرض عنه ، فيصب عليه شواظا من هجائه ويعود إلى بغداد كسيراً ، فلا يجد من يقبل عليه حتّى من الشعراء رفاقه ، ويسلقهم بلسانه ، فيعطونه النزر القليل الذى لا يكاد يسد رمقه . ويحس أنه يعيش مضيعا ، ويزيده ضياعا أنه لم يكن فيه ما يتنافس الناس بسببه فى اصطحابه ومنادمته إذ كانت العيون تقتحمه كما أسلفنا ، وكانت فيه خشونة وجفوة ، مع نزق وطول لسان وتعجل فى اللوم والهجاء ، فساءت حاله واشتد ضيقاً وبرماً بالناس ، وعاش يتجرع الفاقة والبؤس حتّى قالوا إنه كان يلزم بيته فى أطمار بالية وثياب خالقة متوارياً عن الناس إلا من أنس إليه .

وأشعاره تسودها روح شعبية قوية حتّى فى المديح ، فإننا نجده لا يعنى فيه بالجزالة والرصانة التى كانت تشيع حينئذ فى شعر المديح ، وأيضًا فإنه لا يعنى بمعانيه وأخيلته ، وكأنه ينظمه عفو الخاطر ، غير متأن ولا متكلف . وإذا كان مديحه يسقط عن مديح نظرائه فإن أهاجيه لا تقل عن أهاجيهم إقذاعاً ، بل لعل شاعراً معاصراً لم يبلغ من إقذاعهما بلغه ، إذ ملأ أهاجيه بالفحش والألفاظ البذيئة ، حتّى لنرى شاعراً مثل بشار المعروف بخبث لسانه يخشاه خشية شديدة ، حتّى ليرتّب له فى كل سنة مائتى درهم رجاء أن يكف عنه لسانه ، وأتاه فى بعض السنين ، فحاول أن يرده ، فما هو إلا أن تمّم بشطور مقذعة حتّى فزع بشار ودفع إليه المائتى درهم وقال له : لا يسمعنّ هذا منك الصبيان ، وأتاه مرة أخرى ، فلم يسرع له بالضريبة ، وما إن قال :

سبع جوْزاتٍ وتينــه فتحــوا باب المدينه

إن بشار بن بُرْدٍ تَيْسٌ أعمى فى سفينه

حتى رمى له بشار بالدراهم . وذكر بشار للصبيان يدل على شعبية أبى الشمقمق وأنه كان يشتق شعره من ألفاظ العامة ، ولذلك كان سرعان ما يدور على ألسنة الغلمان . ومن طريف هجائه قوله فى بخيل :

كفَّاه قُفْلٌ ضاع مفتاحُهُ قد يئِسَ الحدَّادُ من فَتْحِهِ

وقوله فى بعض الثقلاء :

أسمجُ الناسِ جميعاً كلُّهم كذُبابٍ ساقطٍ فى مَرَقَهْ

ولعل أشعاراً له لم تمس قلوب الشعب كما مستها أشعاره التى صوَّر فيها فقره وبؤسه ، ويُرْوَى أن بعض إخوانه دخل عليه يومًا فرأى سوء حاله ، فأراد أن يخفف عنه ما هو فيه ، فقال له أبْشِرْ أبا الشمقمق فإنه رُوِى فى بعض الحديث أن العارين فى الدنيا هم الكاسون يوم القيامة ، فقال ساخراً : إن كان والله ما تقول حقا لأكونن بزَّازًا يوم القيامة ، ثم أنشأ يقول :

أنا فى حالٍ تعالى اللـ ـه رَبِّى أىَّ حـالِ

ليس لى شئٌ إذا قيـ ـل لمن ذا ؟ قلت : ذا لى

ولقد أهزلْتُ حتى مَحت الشمسُ خيالى

ولقد أفلستُ حتى حَلَّ أكلى لعيـالى

وله أشعار كثيرة يصور فيها فقره وإقلاله وأنه لا يقتنى حتى ما يكسو به السرير الذى ينام عليه وأنه لا يملك من المتاع شيئا إلا حصيرة وبعض السمار والأطمار الخلقة ، يقول :

لو قد رأيت سريرى كنت ترحمنى الله يعلم مالى فيه تَلْبيسُ (١)

والله يعلم مالى فيه شابكةٌ إلا الحصيرةُ والأطمارُ والدّيس (٢)

(١) يريد بالتلبيس مايكسى به السرير من الحشية والملاءة .

(٢) الشابكة : ما يضم بعضه إلى بعض . الديس : هو المعروف فى مصر باسم السمار .

ويقف مراراً ليصور سوء حظه وأنه أينما اتجه لم يكسب شيئا ، بل يقعد به العُدْم الذى تعوّده ويقعد به سوء البخت الذى يلازمه فى حِلّه وترحاله ، حتى ليجفّ البحر الذى يخوضه ، وحتى ليستحيل الدر فى يده حصى وزجاجًا والماء العذب ملحا لا يسوغ شرابه ، وفى ذلك يقول :

لو ركبتِ البحارَ صارتْ فِجاجا لا نرى فى متونها أمواجا
ولو أنى وضعتُ ياقوتةً حَمْـ راءَ فى راحتى لصارتْ زُجاجا
ولو أنى وردتُ عَذْباً فُرَاتاً عاد لا شك فيه مِلْحاً أجاجا

ويصور لنا مسغبة عياله ، وهو فى الواقع إنما يصور مسغبة الطبقة العامة فى بغداد التى كانت تكدح لتملأ الطبقة المترفة بطونها ، بينما تعيش هى فى الضنك والشقاء ، متمنية أن تجد الخبز والإدام ، بل قد تعدم الإدام والخبز جميعًا ، ومن طريف تصويره لذلك قوله :

ما جمع الناسُ لدنياهمُ أنفعَ فى البيت من الخُبْز
والخُبْزُ باللَّحْم إذا نلته فأنت فى أَمْنٍ من التَّرْزِ (١)
وقد دنا الفِطْر وصبيانُنا ليسوا بذى تَمْرٍ ولا أُرْزِ
كانت لهم عنزٌ فأُودِى بها وأجدبوا من لبن العَنْز (٢)
فلو رأوا خُبْزًا على شَاهِق لأسرعوا للخبز بِالجَمْزِ (٣)
ولو أطاقوا القَفْزَ ما فاتهم وكيف للجائع بالقَفْزِ

ويكثر من حديثه عن البراغيث ولذعها لجسده ، كما يكثر من حديثه عن خلو داره من الطعام ، حتى لتعبث بها الجرذان وابن عرس ، بل إنها لتدرج من حوله وتعبث ببعض جسده ، وتيأس منه ومن طعامه ، فتفر على وجهها تبحث عن غذائها ، ولا يبقى معه فى البيت سوى السنور أو الهرّ ، وإنه ليبكى

---

(١) الترز : الهلاك .
(٢) أودى بها : هلكت .
(٣) الجمز : القفز .

حاله ، إذ لا يجد الفأر الذى تعوَّد أن يصيده ، فيفارقه إلى غير مآب ، ومن بعض قوله فى ذلك :

ولقد قلتُ حين أَجْحرنِى البَرْ دُ كما تُجْحِرُ الكلابُ ثُعالَهْ[١]

فى بُيَيْتٍ من النضارة قَفْرٍ ليس فيه إلا النَّوَى والنُّخاله[٢]

فارقته الجُرْذان من قِلَّة الخَيـ ـر وطار الذبابُ نحو زُباله[٣]

هارباتٍ منه إلى كل خصبٍ حين لم يرتجين منه بُلاله[٤]

وأقام السِّنَّوْرُ فيه بِشَرٍّ يسأل الله ذا العُلا والجَلاله

أن يرى فأرةً فلم ير شيئاً ناكساً رأسه لطول الملاله

قلت صَبْرا يا نازُ رأسَ السَّنا نير وعَلَّلْته بحُسن مقالَه[٥]

قال : لا صَبْر لى وكيف مقامى فى قفارٍ كمثل بِيدِ تَبَالَه[٦]

ثم ولَّى كأنه شَيْخُ سوءٍ أخرجـوه من مَحْبِسٍ بكفاله

وعلى هذا النحو كان أبو الشمقمق يخلط تصوير تعاسته وتعاسة أمثاله من أفراد الشعب بالفكاهة ، وكان ما ينى يصور أحاسيس الفقر وضيق ذات اليد ، وكان الناس يقبلون على شعره إقبالا شديدا ، حتى ليروى الجاحظ فى الجزء الأول من حيوانه أن منهم من كان ينفق على كتابته نفقة واسعة ، متخذاً له الجلود الكوفية الثمينة . وفى طبقات الشعراء لابن المعتز أن أبا الشمقمق توفِّى فى حدود الثمانين ومائة ، ولعل الخبر الذى ساقه عنه والذى يدل على أنه لحق عصر المأمون منحول عليه .

(١) أجحره : أدخله فى الجحر . ثعالة : الثعلب .

(٢) بييت : تصغير بيت . النضارة : النعيم .

(٣) زبالة : موضع فى صحراء الكوفة .

(٤) بلالة العيش : ما يسد الرمق .

(٥) ناز : اسم السنور بالفارسية .

(٦) بيد : جمع بيداء وهى الفلاة . وتبالة : بلدة فى الطريق من الطائف إلى اليمن .

الفصل الثامن

تطور النثر وفنونه

١

تطور النثر

كان العصر العباسي الأول عصراً خطيراً حقاً في تطور النثر العربي ، إذ تحولت إليه الثقافات اليونانية والفارسية والهندية وكل معارف الشعوب التي أظلتها الدولة العباسية ، بحيث تدخَّل جميع ذلك في تركيبه وائتلف مع نسيجه ، وتولد منه جديد تلْوَ جديد .

وتم هذا التحول — كما مرَّ بنا في الفصل الثالث — عن طريقين : طريق النقل والترجمة ، وهو طريق عُنِيَ به الخلفاء العباسيون — ووزراؤهم وخاصة البرامكة — إلى أبعد حد ممكن ، كما عنى به أفراد مختلفون مثل ابن المقفع وآل نوبخت . وطريق ثان لعله كان أوسع مجرى ، هو تعرب شعوب الشرق الأوسط وانتقالهم إلى العربية بكل ما ورثوه وثقفوه من فنون المعرفة . ولم ينتقلوا بمعارفهم فقط ، بل انتقلوا أيضاً بعاداتهم وتقاليدهم وطرائقهم في المعيشة مما هيأ لتفاعل واسع بين العرب والشعوب المستعربة ، بل مما هيأ لظهور المدنية العربية في تلك الأقاليم التي دانت بالإسلام ، وهي مدنية قوامها مزيج من التعاليم الإسلامية الروحية والخلقية ومن الأدب العربي بشعره ونثره ومن صور الحياة العقلية والمادية في المحيط العربي الجديد .

وعلى سُنَنٍ من طبائع الحياة أخذ النثر يتطور تطوراً واسعاً ، إذ حمل خلاصة هذه المدنية ومُلِئت أوانيه بشرابها الجديد الذي اختلفت ألوانه باختلاف ينابيعه الكثيرة ، مما عرضنا له في غير هذا الموضع . وقد أظهر النثر العربي مرونة واسعة إذ استطاع أن يحتوي كل هذه الينابيع وأن يتسع لها صدره ، بل لقد غدا كمجرى نهر كبير ترفده جداول من ثقافات متنوعة تنوعا لايكاد يُحَدُّ أو يحصى ،

وكل جدول يذوب فى النهر بمجرد دخوله فيه ، إذ يتحول عربيًّا ، ويتحول معه كل ما يحمل من سيول المعارف ، حتى الفلسفة والعلوم فإنهما لم يستعصيا على هذا التحول ، إذ سرعان ما صُبَّا فى قوالب عربية ملائمة .

وكان ذلك إيذانًا بتعدد شُعَب النثر العربى وفروعه ، فقد أصبح فيه النثر العلمى والنثر الفلسفى ، وأصبح فيه أيضًا النثر التاريخى ، على شاكلة ما كان عند الأمم القديمة ، وحتى النثر الأدبى الخالص أخذ يتأثر بملكات اللغات الأجنبية وخاصة اللغة الفارسية على نحو ما هو معروف عن ابن المقفع وترجمته عن هذه اللغة لقَصص كليلة ودمنة الهندى الأصل ونَقْله لكثير من آداب الفرس الاجتماعية والأخلاقية ونُظُمهم فى السياسة والحكم ، مما كان له أعمق الأثر فى الرسائل الديوانية وفى نشوء الرسائل الأدبية التى تُعْنَى بالكتابة فى موضوع محدود ، مما نسميه اليوم باسم المقالات ، إذ يعالج الكاتب موضوعًا فى طائفة من الصحف .

ولم يقف النثر العربى عند حمل المضامين العلمية والفلسفية الجديدة التى جاءته من لدن الأجانب ، فقد انبرت العبقرية العربية فى هذا العصر تضع العلوم اللغوية والشرعية ، وهو وضع كان واسع الأثر فى تمهيد اللغة وتيسيرها وجعْلها لغة علمية محدَّدة الألفاظ والاصطلاحات التى ترسم المعانى رسمًا دقيقًا . وقد مضت هذه اللغة تركض ركضًا لا فى مجال العلوم الإسلامية والعربية الخالصة فحسب ، بل أيضًا فى مجال العلوم الطبيعية والكونية ، فإذا لنا علماء كيماويون ورياضيون مختلفون ، لهم مصنفاتهم ومباحثهم المبتكرة .

وعلى نحو ما أثمرت العقلية العربية فى المجال العلمى أثمرت فى المجال الفلسفى وخاصة فى بيئات المتكلمين ، إذ مدّوا مباحثهم فى العقائد الإيمانية إلى كل شعب الفلسفة ، واستطاعوا — وخاصة المعتزلة منهم — بأنظارهم العقلية أن يُدْلوا فى جميع هذه الشعب بآراء جديدة طريفة على نحو ما يفصّل ذلك الشهرستانى فى كتابه « الملل والنحل » حين يعرض لمذاهب المعتزلة المختلفة وما يقولونه فى الأجسام والأعراض والجواهر والحركة والسكون والكمون والتولد والطفرة والوجود والعدم والروح والنفس والعقل وإدراك الحواس والكم والكيف والألوان والخير والشر .

وكل ذلك كان له آثار بعيدة فى النثر العربى ، لا من حيث الألفاظ

والمصطلحات الجديدة فحسب ، بل أيضًا من حيث ذخائر الفكر الفلسفى اليونانى والعربى التى التقت فى أوعيته وأوانيه والتى جعلته يعرف صورا من تحليل الأفكار وتركيبها لا عهد له بها ، كما جعلته يعرف القياس المنطقى الصحيح وطرق الاستدلال والتعليل ودقائق المعانى وفرق ما بين السبب والمسبب وما بين الجنس والنوع والفصل والخاصة وما بين الحجة والشبهة والممكن والمحال والمعقول والموهوم والبرهان الجلىّ والبرهان الخفى ، مما جعل الفكر العربى يتحول إلى ما يشبه كنزاً سائلا بما لا يُحْصَى ولا يُسْتَقْصَى من الخواطر والمعانى .

ومن المؤكد أن التعبير عن كثير من هذه المعانى والخواطر لم يكن مألوفًا للعربية ، غير أنه قُيِّض لها من نابهى المتكلمين والكُتَّاب والمترجمين مَنْ مدَّ طاقتها وجعلها تسيغ تلك الخواطر والمعانى دون دخول أى ضَيْم عليها من شأنه أن يمحو طوابعها أو يجور على خصائصها ومقوماتها ، بل لقد أخذت تونق فى أثناء هذا التحول العقلى والحضارى وما صحبه من تراكيب وصيغ مستحدثة لا عهد لها بها سواء فى المجال العلمى والفلسفى أو فى المجال الأدبى الخالص .

ولم تقف المسألة عند احتفاظها بالقوالب العربية وأوضاعها اللغوية وتيسير هذه القوالب والأوضاع وتذليلها للمعانى العلمية والفلسفية العميقة وأدائها بخفيات حدودها ورَسْمها رسما محدداً دقيقًا ، بل امتدت إلى استحداث أسلوب مولد جديد ، أسلوب يحتفظ للغة بكل مقوماتها ، كما يحتفظ بالوضوح والتجافى عن الألفاظ الغامضة والمعانى المبهمة ، بل إنه ليحرص على الأداء البليغ ، بحيث يروق المتكلم والكاتب والمترجم والسامعَ بعذوبة منطقه ، بل بحيث يَلَذُّ الآذان حين تستمع إليه كما يلذ العقول والقلوب .

وهو أسلوب قام على هَجْر كثير من الألفاظ البدوية الحوشية الجافية التى تَنْبو على ذوق أهل الحاضرة كما قام على الارتفاع عن الألفاظ العامية المبتذلة ، مع العناية بفصاحة اللفظ وجزالته ورصانته والملاءمة الدقيقة بين الكلمة والكلمة فى الجرس الصوتى . وبذلك لم يقف عند الأداء الفصيح فحسب ، إذ اتخذ لنفسه أصولا بيانية تُشيع فيه الرونق والجمال ، مما جعل جهابذته يتساءلون طويلا عن البلاغة ، وهو سؤال يلقانا فى جميع البيئات وتلقانا معه أجوبة كثيرة .

والطريف أنهم لم يكتفوا فى ذلك بما قد يكشفونه ببصائرهم الحاذقة ، إذ مضوا يطلبون ما عند الأمم الأجنبية من وصايا فى البيان والبلاغة سواء الفرس أو اليونان أو الرومان[١] ، وحتى الهنود ، إذ نجد معمَّراً صاحب فرقة المعمرية من المعتزلة يتعرض لبهلة الطبيب الهندى فى عصر البرامكة يسأله عن رأى أمته فى البلاغة ، فيعطيه فى ذلك صحيفة مكتوبة بالسنسكريتية ، ويقول له إننى لا أحسن ترجمتها لك ، لأننى لم أعالج صناعة البلاغة فأثق من نفسى بالقيام بأداء معانيها وخصائصها على الوجه الصحيح ، ويتلقى معمر بالصحيفة التراجمة الذين يحسنون النقل من السنسكريتية إلى العربية فينقلونها له ، وقد احتفظ بها الجاحظ فى البيان[٢] والتبيين ، وهى تطلب إلى الخطيب أن يلائم بين كلامه ومستمعيه وأن يحرص على الوضوح ويتجافى عن الألفاظ الوعرة والأخرى الغامضة وأن لا ينقح ألفاظه كل التنقيح إلا لمن حاز قسطا من الحكمة والفلسفة ممن خبروا الكلام والمعانى ، وأن يحرص على استخدام الألفاظ المحددة البينة التى تَفِى بمعانيها وتؤديها أداء سليما دون زيادة أو نقص .

ومن المحقق أن المعتزلة والمتكلمين بعامة عنوا فى هذا العصر عناية واسعة بمعرفة الأصول التى تقوم عليها براعة القول ، إذ كانت صناعتهم تقوم على إحسان فن الكلام ، أو بعبارة أخرى فن المناظرة فى المسائل الدينية والعقيدية وما يتصل بها من بعض المعانى الفلسفية . ونستطيع أن نجد مقدماتهم فى العصر الأموى وفى مساجد البصرة والكوفة حيث كان يجتمع ممثلو الأحزاب السياسية فيتحاورون فى مسائلهم وما يتفرع عنها من المسائل الدينية ويحاول هذا أو ذاك إقناع خصمه أو قهره والغلبة عليه بالحجة القاطعة والبيان الخلاب . وما نصل إلى العصر العباسى ، بل إلى أواخر العصر الأموى ، حتى نجدهم يقيمون المناظرات ، ويجتمع الناس من حولهم ليروا من يظفر بخصمه ويقطعه عن الكلام قطعاً .

وطبيعى أن يدفع ذلك المتكلمين ومن حولهم إلى التساؤل عن البراعة فى القول والأسس التى تقوم عليها وأن ينثر المتكلمون الحاذقون فى ذلك بعض ملاحظات عن البيان والبلاغة ، ومن هنا لا نعجب إذا وجدنا سائلا يتعرض لمعتزلى كبير فى

(١) البيان والتبيين ١ /٨٨ .

(٢) البيان والتبيين ١ /٩٢ .

أوائل هذا العصر ، هو عمرو بن عُبَيْد ، فيسأله عن البلاغة وقُطْبها الذى تدور عليه ، ويجيبه بأنها « تخير اللفظ فى حسن الإفهام وتزيين المعانى بالألفاظ المستحسنة فى الآذان المقبولة عند الأذهان[١] » . ويدور السؤال طوال العصر وتتعدد إجابات المعتزلة عليه من مثل قول العتَّابى لسائل سأله عن البليغ والبلاغة ، فقال له[٢] :

« كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حُبْسة ولا استغاثة فهو بليغ ، فإن أردت اللسان الذى يروق الألسنة ويفوق كل خطيب فإظهارُ ما غمض من الحق وتصوير الباطل فى صورة الحق . فقال له السائل : قد عرفت الإعادة والحبسة ، فما الاستعانة ؟ قال : أما تراه إذا تحدث قال عند مقاطع كلامه : يا هنّاه ، ويا هذا ، ويا هيه ، واسمعْ منى ، واستمعْ إلىّ ، وافهمْ عنى ، أو لست تفهم؟ أو لست تعقل ؟ فهذا كله وما أشبهه عِىٌّ وفساد »

وواضح أن العتّابى يجعل البلاغة فى التدفق البيانى دون إعادة وتكرار ودون حَصَر وعىّ ، ودون استعانة بحشو يُؤْذى الذوق الحضرىَّ المهذب . وتلك هى البلاغة العادية ، أما البلاغة الرفيعة فهى التى ترفع الحجاب عن غوامض المعانى ، وهى التى تبلغ من الحذق ما تعرض به الباطل فى صورة الحق معتمدةً على خلابة اللسان وتزيين المعانى فى القلوب ، والاحتيال على ذلك والتلطف له حتى يُرَى كأنه الحق الذى لا حق وراءه . وهو يستوحى ذلك من قدرة المتكلمين حوله فى مناظرة خصومهم وإفحامهم بالحجج الصحيحة تارة ، وتارة بالحجج غير الصحيحة التى يستطيع البليغ التام الذى يتقن أبنية الأدلة والكلام أن يموهها على السامع حتى يظن أنها صحيحة صحة تامة . ولا نبالغ إذا قلنا إن صحيفة بشر بن المعتمر فى البلاغة التى احتفظ بها الجاحظ فى بيانه[٣] هى أروع ما أُثر عن المعتزلة فى هذا العصر بصدد الأصول البلاغية العامة ، وهو يستهلها بأن الأديب سواء كان خطيبًا أو كاتبًا أو شاعراً ينبغى أن يلاحظ نفسه فلا يقدم على الكلام إلا إذا كان مستعداً متهيئا تمام التهيؤ ، فارغ البال ناشطا له تمام النشاط . وينصحه

---

(١) البيان والتبيين ١/١١٤ .
(٢) البيان والتبيين ١/١١٣ .
(٣) البيان والتبيين ١/١٣٥ والصناعتين (طبعة الحلبى) ص ١٣٤ .

باختيار ألفاظه وتفصيلها على المعانى بحيث تكون بقدرها لا فاضلة عنها ولا مقصّرة، كما ينصحه بأن تخلو ألفاظه من كل غريب وكل تعقيد ، وأن تؤدى دلالتها أداء واضحا مهما كانت دقيقة عسيرة وأن تتلاءم معها بحيث تؤديها أداء تاما يحيط بدقائقها إن كانت من الدلالات الغامضة، وفى الوقت نفسه تُلْقَى عليها كل ما يمكن من أضواء تكشفها من جميع أطرافها، مع تذليلها وتيسيرها وعرضها فى لغة متوسطة بين لغة العامة المبتذلة ولغة الأعراب الخشنة المملوءة بالغريب . وينصح من لا تواتيهم طبائعهم بالرصف الحسن للألفاظ ووضعها فى مواضعها الصحيحة دون نبو أو شذوذ أن يكفّوا أنفسهم عن صناعة البيان والكلام البليغ ، وأولى منهم بهذا الكف والهجران لتلك الصناعة من تقعد بهم طبائعهم مهما أجهدوا أنفسهم عن الإتيان بشىء من الكلام له روعة أو ما يشبه الروعة. ولا يكفى للبليغ أن يلائم بين كلامه ومعانيه أو بعبارة أخرى بين كلامه والموضوع الذى يتحدث عنه ، بل لا بد له من ضميمة ثانية هى إحسانه الملاءمة بين كلامه والمستمعين وأحوالهم النفسية والعقلية ، بحيث يجدون فى كلامه اللذة والمتاع ، ومن هنا يطلب إلى المتكلم إذا خاطب أوساط الناس أن لا يرتفع عن مداركهم بما يورد عليهم من اصطلاحات المتكلمين ، حتى لا تنقطع الصلة بينه وبينهم ، أما إذا خاطب المتكلمين فلا بأس من إيراده لهذه المصطلحات التى يفهمونها فهماً حسناً ، والتى قد يجدون فيها شيئاً من المتاع .

وملاحظات كثيرة أخرى كان يلاحظها المتكلمون معتزلة وغير معتزلة فى شئون البيان والبلاغة ، وهى متناثرة فى كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، ولا بد أن ملاحظات أخرى سقطت منه ولم يسجلها . ولم يكن المتكلمون وحدهم الذين يتعمقون فى معرفة أصول البيان والبلاغة ، فقد كان يَشْركهم فى ذلك كتّاب الدواوين والمترجمون، ومن خير مَنْ يمثلهم فى مطالع العصر ابن المقفع ، ويروى أنه سئل عن البلاغة وتفسيرها ، فقال[1] :

« البلاغة اسم جامع لمعان تجرى فى وجوه كثيرة، فمنها ما يكون فى السكوت، ومنها ما يكون فى الاستماع ، ومنها ما يكون فى الإشارة ، ومنها ما يكون فى الاحتجاج ، ومنها ما يكون جواباً ، ومنها ما يكون شعراً ومنها ما يكون سجعاً

(١) البيان والتبيين ١/١١٥ .

وخطباً ، ومنها ما يكون رسائل . فعامةُ ما يكون من هذه الأبواب الوَحْيُ فيها والإشارة إلى المعنى والإيجاز هو البلاغة . فأما الخطب بين السماطين وفى إصلاح ذات البين فالإكثار فى غير خطل والإطالة فى غير إملال . وليكنْ فى صدر كلامك دليلٌ على حاجتك ، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذى إذا سمعت صدره عرفت قافيته . فقيل له : فإن ملَّ السامع الإطالة التى ذكرتَ أنها حقٌ ذلك ؟ قال : إذا أعطيتَ كل مقام حقه وقمتَ بالذى يجب من سياسة ذلك المقام وأرضيتَ مَنْ يعرف حقوق الكلام فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدوّ فإنه لا يرضيهما شيء ، وأما الجاهل فلستَ منه وليس منك ، ورضا جميع الناس شيء لا تناله ، وقد كان يقال : رِضا الناس شيء لا ينال » .

وابن المقفع يذكر كل فنون الكلام ويطلب فيها الإيجاز والتركيز الدقيق ، ويلتفت إلى خطب المحافل والصلح ويطلب فيها الإطناب فى غير خطل ولا إملال . ويضع قاعدة مهمة أن يكون فى صدر الكلام ما يدل على غرضه ، وهو ما سماه البلاغيون ، فيما بعدُ ، باسم براعة الاستهلال ، كما يضع للشعر قاعدة ثانية هى أن يتلاءم صدر البيت مع قافيته حتى لكأنه يستدعيها استدعاء وهو ما سماه البلاغيون باسم رَدّ الأعجاز على الصدور . ويلاحظ ملاحظة تامة أن لكل من الإيجاز والإطناب فى الكلام مقامه ، وأنه ينبغى دائماً أن يستوفى الكلام حقوقه من النصاعة والبلاغة والبيان .

وقد تحولت الدواوين الكثيرة المعقدة التى عرضنا لها فى الفصل الأول إلى ما يشبه مدارس بيانية كبيرة ، إذ كان لا بد للشبان الذين يعملون فيها من إتقانهم لصياغة الكلام بحيث لا يدخله ضعف ولا ابتذال وبحيث لا يعلو على أفهام العامة الذين كانوا يوجِّهون إليهم منشورات دار الخلافة . وكان هؤلاء الشبان يقيمون أولا بأبواب الدواوين متعرضين لامتحان قاس ، فمن أظهر كفاءته فيما طُلبَ إليه من بعض الرسائل رُفع أمره إلى رؤساء الديوان ، فوظفوه ، وإن لم يُحْسن ما طلب إليه ردّوه . وجعلهم ذلك يتساءلون عن البلاغة ومتى يُصْبح الكلام بليغاً وما العيوب التى تعوق بلاغته ، ودارت هذه الأسئلة بين رؤساء الدواوين وبلغائها المفوّهين ، وكانوا يمثلون الذوق الحضارى المترف فى أدق صوره فدققوا فى كلامهم

إلى أبعد حد ممكن ، وعبّروا فيه عن دقة مزاج ورهافة حِس بالغة، حتى ليقول الجاحظ : « أما أنا فلم أرَ قَطّ أمثل فى طريقة البلاغة من الكُتّاب ، فإنهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعّراً وحشيًّا ولا ساقطا سوقيًّا[(١)] » .

وكل ذلك معناه أن النثر تهيأت له أسباب كثيرة فى هذا العصر لكى ينمو ويزدهر ، فقد أخذ يمتدّ ليستوعب العلوم والفلسفة ، كما يستوعب مادة عقلية عميقة حتى فى المجال الأدبى ، إذ أخذت تَغْذوه آداب الفرس السياسية والاجتماعية كما أخذت تغذوه الثقافات الأجنبيةوكل مااتصل بها من الفكر اليونانى ، ومضى يتفاعل مع ذلك كلهمحتفظًا بمقوماته وطوابعه العربيةالأصيلة ، بحيث لم يحدث أىّ ازدواج فى اللغة يعرّضها للضياع ، بل لقد أينعت الفروع الجديدة فى شجرتها الكبيرة ، وأخذت تتكوّن فيها أزهار ذاكية الشّذَى وثمار حلوة يانعة بفضل كبار الكتاب والمترجمين والمتكلمين الذين احتفظوا لها بأصولها وأوضاعها وأغنوها ونمّوْها حتى فى مجال الأساليب الخالصة ، إذ عرفوا كيف يستخلصون رحيقها البلاغى الذى يغذّى العقول ويَشْفِى القلوب والأفئدة .

٢

الخطب والوعظ والقَصَص

نشطت الخطابة السياسية فى مطالع هذا العصر ، إذ اتخذتها الثورة العباسية أداتها فى بيان حق العباسيين فى الحكم ، وكانوا يحسّون منذ أول الأمر بأن أبناء عمهم العلويين يضطغنون عليهم استئثارهم بالخلافة من دونهم ، فمضوا يؤكدون فى خطابتهم أنهم أصحاب هذا الحق ، فهم الذين أدالوا للشعب من بنى أمية وهم الذين قوّضوا حكمهم وحطّموه حَطْما ، وقدانهالوا عليهم بالتجريح والطعن العنيف ، على نحو ما يتضح فى خطبة[(٢)] أبى العباس السفاح حين بويع بالخلافة فى الكوفة ، وفيها نراه يتحدث عن رَحمِهم وقرابتهم للرسول صلى الله عليه وسلم تاليًا من القرآن الحكيم بعض الآيات الخاصة بأهل بيت النبوة من مثل(إنما يريد

---

(١) البيان والتبيين ١/١٣٧ .

(٢) انظر الخطبة فى الطبرى ٦/٨١ وما بعدها .

اللهُ ليذهب عنكم الرِّجْسَ أهلَ البيت ويطهركم تطهيراً) وما يلبث أن يعرض للسبئية من الشيعة الغالية قائلا : « وزعمت السبئية الضُّلَّال أن غيرنا أحقُّ بالرياسة والخلافة منا ، فشاهت وجوههم ، بِمَ ولِمَ أيها الناس ، وبنا هَدَى الله الناس بعد ضلالتهم وبصَّرهم بعد جهالتهم وأنقذهم بعد هلكتهم . . وجمع الفرقة حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبِرّ » . ويتحدث عن الأمويين وظلمهم للرعية وكيف تداركها الله بهم وردَّ عليها حقوقها المسلوبة. وخطب عمه داود بن على بنفس اللحن ، ويشيد الجاحظ ببيانه وفصاحته قائلا إنه « كان أنطق الناس وأجودهم ارتجالا واقتضابا للقول . وله كلام كثير معروف محفوظ » . ويروى من ذلك خطبته فى أهل مكة حين وليها لابن أخيه ، وهى تمضى على هذا النمط :

« شكرا شكرا . أما والله ما خرجنا لنَحْتفر فيكم نهراً ولا لنبنى قصراً، أظنَّ عدوُّ الله أن لن نظفر به إذ أُرْخِيَ له فى ذِمامه ،حتى عثر فى فَضْل خِطامه . فالآن عاد الأمر فى نِصابه ، وطلعت الشمس من مطلعها ، والآن أخذ القوسَ باريها ، وعادت النَّبْلُ إلى النَّزَعة[٢] ، ورجع الحق إلى مستقره فى أهل بيت نبيكم : أهل بيت الرأفة والرحمة » .

ويموت السفاح سريعاً ، ويخلفه أبو جعفر المنصور ، ولم يكن فى العباسيين أبينُ منه ولا أخطب ، وفى عهده تندلع ثورة محمد بن عبد الله بن الحسن العلوى الملقب بالنفس الزكية بالمدينة ، لسنة ١٤٥ للهجرة ، ويتكاتبان كما مر بنا فى الفصل الأول ، وكل منهما يؤكد حقه فى الخلافة وإرثها عن الرسول الكريم . ويشهر كل منهما السلاح فى وجه صاحبه ، كما يشهران الخطب ويرسلان سهام القول ، وكان محمد بن عبد الله لا يقل عنه لسناً وفصاحة ، ومن قوله فى بعض خطبه[٣] :

« إن أحق الناس بالقيام فى هذا الدين أبناء المهاجرين الأولين والأنصار المواسين . اللهم إنهم قد أحلوا حرامك وحرَّموا حلالك وعملوا بغير كتابك وغيَّروا عهد نبيك صلى الله عليه وسلم وآمنوا من أخفتَ وأخافوا من آمنت ، فأحْصِهم عدداً ، واقتلهم بَدَداً[٤] ، ولا تُبْقِ على الأرض منهم أحداً » .

ولم يلبث المنصور أن قضى على هذه الثورة قضاء مبرما ، ولم يعد العلويون

---

(١) البيان والتبيين ١ / ٣٣١ وما بعدها .
(٢) النزعة : الرماة .
(٣) ذيل الأمالى للقالى ص ١٢١ .
(٤) بدداً : متفرقين .

– كما أسلفنا فى غير هذا الموضع – يحاولون الثورة جهاراً على أبناء عمهم ، بل عمدوا إلى السرية خوفاً من بطشهم وما عوّدوه الناس من إقناعهم بالسيف دون اللسان . وتضاءلت حينئذ – كما قدمنا – حركات الخوارج ، فلم يكن هناك إلا السيف أو الإذعان . وبذلك كُمّمت الأفواه ، وضعفت الخطابة السياسية فى هذا العصر ضعفاً شديداً ، لأنها إنما تزدهر حين تُكْفَل للناس حرياتهم السياسية على نحو ما كان الشأن فى عصر بنى أمية، أما فى هذا العصر فقد أخذ العباسيون الناس بالشدة فضعفت الأحزاب السياسية وفنيت أو ذابت حريتهم فى سلطانهم الباطش بكل مَن حدثته نفسه بخروجٍ عليهم بل بخلاف أو ما يشبه الخلاف ، وحقا عادت الخطابة السياسية إلى الظهور فى فتنة الأمين وحروبه مع أخيه المأمون، ولكن لم تعد لها قوتها القديمة فى العصر الأموى وما كانت تمتاز به من روعة تجذب الناس إلى الاستماع لكلام الخطيب والفتنة بأساليبه .

وعلى نحو ما ضعفت الخطابة السياسية ضعفت الخطابة الحفلية التى كنا نعهدها فى عصر بنى أمية لسبب طبيعى ، وهو أن وفود العرب لم تعد تَفِدُ على قصور الخلفاء ، وبالتالى لم يعد خطباؤها يفدون عليهم ، فقد أُسْدلت الحجب بين الخليفة والرعية، ولم يعد يَلْتَقى وفودها ولا خطباءها المفوّهين . واقتصرت الخطابة الحفلية حينئذ على بعض مناسبات كأن يموت للخليفة ابن أو بنت فيقف بعض الخطباء لتعزيته ، وكأن يموت خليفة ويتولى خليفة جديد فيجمع بعض الخطباء بين التعزية والتهنئة، من مثل قول ابن عتبة للمهدى يهنئه بالخلافة ويعزيه فى أبيه المنصور (١) :

« آجر الله أمير المؤمنين على أمير المؤمنين قبله، وبارك لأمير المؤمنين فيما خلفه له أمير المؤمنين بعده ، فلا مصيبة أعظم من فقد أمير المؤمنين ، ولا عقبى أفضل من وراثة مقام أمير المؤمنين ، فاقْبَلْ يا أمير المؤمنين من الله أفضل العطية ، واحتسبْ عنده أعظم الرزيّة » .

وكان يُعْقَدُ لبيعة الخليفة حفل عام يحضره القواد وكبار رجال الدولة ، وعادة يقف بعض الكتاب النابهين خطيبا بين يدى الخليفة الجديد منوهاً بجلال الخلافة وإرث الخليفة لها وما له على القواد ورجال الدولة والناس من الطاعة علويين

(١) البيان والتبيين ٢/١٩٢ .

وغير علويين ، على نحو ما يلقانا عند يوسف بن القاسم بن صبيح الكاتب فى خطبته بين يدى الرشيد حين جلس بين القواد والأمراء والوزراء لأخذ البيعة له ، وهو يستهلها على هذا النمط بعد حمد الله والصلاة على رسوله[١] :

« إن الله بمنّه ولطفه منّ عليكم معاشر أهل بيت نبيه ، بيت الخلافه ومعدن الرسالة ، وإياكم أهلَ الطاعة من أنصار الدولة وأعوان الدعوة من نعمه التى لا تحصى بالعدد ، ولا تنقضى مدى الأبد . وأياديه التامة أن جمع ألفتكم وأعلى أمركم ، وشدّ عَضُدكم وأوهن عدوكم وأظهر كلمة الحق وكنتم أولى بها وأهلها ، فأعزّكم الله وكان الله قويًّا عزيزاً ، فكنتم أنصار دين الله المرتضى والذّابّين بسيفه المنتضى عن أهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم ، وبكم استنقذهم من أيدى الظَّلَمَة أئمة الجور والناقضين عهد الله والسافكين الدمَ الحرام والآكلين الفَيْء[٢] والمستأثرين به » .

وعلى هذا النحو أصبحت الخطابة الحفلية شيئًا نادراً يقال فى الحين الطويل بعد الحين ، وبذلك تضاءلت كما تضاءلت الخطابة السياسية ولم يعد لها شأن يذكر .

وقد ظل للخطابة الدينية وما اتصل بها من وعظ ازدهارُها فى هذا العصر ، وعلى نحو ما كان الخلفاء والولاة يشاركون فيها لعصر بنى أمية كانوا يشاركون فيها أيضًا لهذا العهد ، إذ نجد للمهدى خطبة بارعة مأثورة[٣] ، كما نجد للرشيد خطبة أخرى رائعة ، وفيها يقول[٤] :

« عبادَ الله إنكم لم تُخْلَقُوا عبثا ولن تُتْركوا سُدًى ، حَصِّنوا إيمانكم بالأمانة ودينكم بالورع وصــلاتكم بالزكاة ، فقد جاء فى الخبر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له ولا صلاة لمن لا زكاة له » . إنكم سَفْرٌ[٥] مجتازون وأنتم عن قريب تنْتقلون من دار فناء إلى دار بقاء ، فسارعوا إلى المغفرة بالتوبة وإلى الرحمة بالتقوى وإلى الهدى بالإنابة

(١) تاريخ الطبرى ٦/٤٤٢ .
(٢) الفيء : غنائم الحرب .
(٣) العقد الفريد ٤/١٠١ .
(٤) العقد الفريد ٤/١٠٢ .
(٥) السفر : الجماعة المسافرون .

فإن الله ، تعالى ذكره ، أوجب رحمته للمتقين ومغفرته للتائبين وهداه للمنيبين » .

على أننا نجد الرشيد يسنّ سُنَّةً كانت سببًا فى أن تضعف هذه الخطابة على ألسنة الخلفاء ، إذ طلب إلى الأصمعى أن يعدّ لابنه الأمين خطبة يخطب بها يوم الجمعة[1] ، كما طلب إلى إسماعيل اليزيدى وابن أخيه أحمد أن يُعدّا خطبة مماثلة يخطب بها المأمون[2] ، وبذلك سنّ للخلفاء أن يخطبوا بكلام غيرهم ، وكان المأمون معروفا بالفصاحة والجهارة وحلاوة اللفظ وجودة اللهجة والطلاوة[3] ، وقد روى له ابن قتيبة ثلاث خطب[4] : أولاها فى يوم جمعة وثانيتها فى يوم الأضحى وثالثتها فى عيد الفطر وفيها يقول :

« اتَّقوا الله عبادَ الله وبادروا الأمر الذى اعتدل فيه يقينكم ولم يحتضر الشك فيه أحدا منكم ، وهو الموت المكتوب عليكم ، فإنه لا تستقال بعده عَثْرة ولا تُحْظَرُ قبله توبة ، واعلموا أنه لا شىء قبله إلا دونه ، ولا شىء بعده إلا فوقه .. ولا يعين على القبر وظُلْمته وضيقه ووحشته وهول مَطْلعه ومسألة ملائكته إلا العمل الصالح الذى أمر الله به فمن زلَّتْ عند الموت قدمه فقد ظهرت ندامته وفاتته استقالته ودعا من الرَّجْعة إلى ما لا يجاب إليه وبذل من الفِدْية ما لا يُقْبَلُ منه » .

ومعروف أن الولاة كانوا يجمعون بين الولاية والصلاة ، ويظهر أنهم أخذوا مع مر الزمن يخطبون بكلام غيرهم ، وقد يندبون من يقوم مقامهم فى الصلاة والخطابة ، ويذكر الجاحظ عن محمد بن سليمان العباسى والى البصرة والكوفة لعهد المنصور والمهدى أنه كانت له خطبة يوم الجمعة لا يغيِّرها ، وهى خطبة قصيرة[5]

ولكن إذا كانت الخطابة الدينية أخذت تضعف على لسان الولاة والخلفاء فإنها أينعت فى بيئة الوعاظ والنساك ممن كانت تزخر بهم مساجد بغداد والبصرة والكوفة ، وكانوا أخلاطا من الزهاد والفقهاء والمحدِّثين والمتكلمين ، وكان بعضهم يلمّ بمجالس الخلفاء لوعظهم ، وأحيانا كانوا يستقدمونهم ، فيعظونهم حتى يبكوهم ،

---

(١) الفرج بعد الشدة للتنوخى ٢ / ٢٠ .
(٢) أغانى (طبعة الساسى) ١٨ / ٨٢ .
(٣) البيان والتبيين ١ / ٩١ ، ١١٥ .
(٤) عيون الأخبار ٢ / ٢٥٣ وما بعدها .
(٥) انظرها فى البيان والتبيين ٢ / ١٢٩ .

بما يوقعون فى نفوسهم من خشية عقاب الله وبما يصورون لهم من زفير جهنم ، وهم فى تضاعيف ذلك يزجرونهم عن ظلم الرعية واقتراف المعاصى والسيئات . ومن كبارهم الذين عُرفوا بمقاماتهم المحمودة بين أيدى الخلفاء ثلاثة هم عمرو بن عبيد المعتزلى الزاهد المشهور واعظ المنصور وصالح بن عبد الجليل واعظ المهدى وابن السماك واعظ الرشيد ، ويُروَى عن أولهم أنه دخل على المنصور يوما فقال له : عِظْنى ، فقال[1] :

« إن الله أعطاك الدنيا بأسْرها فاستر نفسك ببعضها ، واذكر ليلة تمخّض عن يوم لا ليلة بعده . فوجَم أبو جعفر من قوله ، فقال له الربيع[2] : يا عمرو غممت أمير المؤمنين . فقال عمرو : إن هذا صَحِبك عشرين سنة لم ير لك عليه أن ينصحك يوما واحداً ، وما عمل وراء بابك بشىء من كتاب الله ولا سُنَّة نبيه قال أبو جعفر : فما أصنع ؟! قد قلت لك : خاتمى فى يدك فتعال وأصحابك[3] ، فاكْفِنى . قال عمرو : ادْعُنا بعَدْلك تَسْخُ أنفسنا بعونك . ببابك آلف مظلمة ارْدُدْ منها شيئًا نعلم أنك صادق » .

وكان صالح بن عبد الجليل ناسكا مفوَّها ، وكان يلمُّ بمجالس المهدى ويعظه ، ويطيل فى وعظه له حتى يبكيه وحتى يذرف الدمع مدراراً ، ويُروَى أنه دخل عليه يوما فسأله أن يأذن له فى الكلام ، فقال له تكلَّمْ ، ومن بعض كلامه حينئذ[4] :

« كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : من حجَب الله عنه العلم عذَّبه على الجهل ، وأشدُّ منه عذابا مَنْ أقبل إليه العلم وأدبر عنه ، ومَنْ أهدى الله إليه علما فلم يعمل به ، فقد رغب عن هدية الله وقصَّر بها ، فاقْبَلْ ما أهدى الله إليك من ألسنتنا قبولَ تحقيقٍ وعملٍ لا قبولَ سُمْعةٍ ورياء فإنه لا يَعْدمك منا إعلامٌ لما تجهل أو مواطأةٌ على ما تعلم أو تذكيرٌ من غفلة ، فقد وطَّن الله عزَّ وجلَّ نبيَّه عليه السلام على نزولها تعزيةً عما فات وتحصينًا من التمادى ودلالة على المَخْرج فقال : (وإما ينْزَغَنَّك من الشيطان نَزْغٌ

(١) عيون الأخبار ٢ / ٣٣٧ .
(٢) حاجب المنصور .
(٣) يريد أصحابه من المعتزلة الناسكين .
(٤) عيون الأخبار ٢ / ٣٣٣ .

فاستَعِذْ بالله) فأطْلع الله على قلبك بما يُنَوِّره من إيثار الحق ومنابذة الأهواء، ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

وكان ابن السماك محدثاً وواعظًا مؤثراً ، رَوَى عنه أحمد بن حنبل وغيره، وله كلام ومواقف بين يدى الرشيد تدور فى كتب التاريخ والأدب ، ومما يؤثر عنه أنه دخل عليه يومًا ، فقال له الرشيد : عِظْنى ، فقال[1] :

« يا أمير المؤمنين : اتَّقِ الله وحده لا شريك له ، واعلمْ أنك واقفٌ غَدًا بين يدى الله ربك ثم مصروفٌ إلى إحدى منزلتين لا ثالثة لهما جنة أو نار. فبكى هرون حتى اخضلَّتْ لحيته[2] » .

وكان هؤلاء الوعاظ يستمدون دائمًا من الذكر الحكيم وأحاديث الرسول الكريم وأقوال أصحابه ومَنْ سبقوهم إلى الوعظ فى العصر الأموى من مثل الحسن البصرى ، ودائمًا تبهرنا مواعظهم لما أشاعوا فيها من إيمان شديد بالدين وثقة وطيدة بأن ما عند الله خير وأبقى مما فى أيدى الناس من متاع الحياة الزائل .

وكثير من الوعَّاظ كانوا يمزجون وعظهم بالقصص الدينى وتفسير بعض آى القرآن، وهو مزج قديم منذ الصدر الأول للإسلام . وكثر هؤلاء القصاص الوعاظ فى عصر بنى أمية مما جعل الجاحظ يعقد لهم فصلا[3] طريفا فى كتابه البيان والتبيين ، وفيه يقول عن قُصَّاص العصر العباسى الأول :

« ومن القُصَّاص موسى بن سيار الأُسْوارى وكان من أعاجيب الدنيا ، كانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس فى مجلسه المشهور به ، فتقعد العرب عن يمينه والفُرْس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية ، ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية ، فلا يُدْرَى بأى لسان هو أبين . واللغتان إذا التقتا فى اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منهما الضَّيْم على صاحبتها إلا ما ذكرنا من لسان موسى بن سيار الأُسْوارى . ولم يكن فى هذه الأمة بعد أبى موسى الأشعرى أقرأ فى محراب من موسى بن سَيَّار ثم عثمان بن سعيد بن أسعد ثم يونس النحوى ثم المعلَّى . ثم

---

(١) تاريخ الطبرى ٦/٥٣٨ .
(٢) اخضلت : بللتها الدموع .
(٣) انظر البيان والتبيين ١/٣٦٧ وما بعدها.

قصَّ فى مسجده أبو على الأسوارىّ وهو عمرو بن فائد ستا وثلاثين سنة ، فابتدأ لهم فى تفسير سورة البقرة ، فما ختم القرآن حتى مات ، لأنه كان حافظاً للسير ولوجوه التأويلات ، فكان ربما فسَّر آية واحدة فى عدة أسابيع . . وكان هو يحفظ مما يجوز أن يلحق فى ذلك من الأحاديث كثيراً ، وكان يقصُّ فى فنون من القصص ويجعل للقرآن نصيباً من ذلك . . ثم قصَّ بعده القاسم بن يحيى ، وهو أبو العباس الضرير ، لم يُدْرَك فى القُصَّاص مثله . وكان يقصُّ معهما وبعدهما مالك بن عبد الحميد المكفوف . . فأما صالح المُرِّى فكان يُكْنَى أبا بشر ، وكان صحيح الكلام رقيق المجلس . وسمعه سفيان بن حبيب (أحد كبار المحدثين) فقال ليس هذا قاصًّا ، هذا نذير » .

ووقف الجاحظ فى بيانه مراراً عند صالح المُرِّى حاكياً بعض كلامه ، أو بعض ما كان يردِّده من شعر فى قصصه ، من ذلك قوله عنه : « كان صالح المرى القاص العابد البليغ كثيراً ما يُنْشِد فى قصصه وفى مواعظه هذا البيت الذى أنشدناه فى غير هذا الموضع :

فبات يُروِّى أصولَ الفَسِيلِ فعاش الفَسِيلُ ومات الرَّجُلْ »[1]

ومن ذلك ما يُذْكَرُ من أنه مات ابنٌ لعبيد الله بن الحسن قاضى البصرة . فعزَّاه صالح المرى ، فقال : « إن كانت مصيبتك فى ابنك أحدثتْ لك عظة فى نفسك ، فنعم المصيبة مصيبتك ، وإن لم تكن أحدثتْ لك عظة فى نفسك فمصيبتك فى نفسك أعظم من مصيبتك فى ابنك[2] » . وعزَّى رجلا فى أخيه فقال : « إن تكن مصيبتك فى أخيك أحدثتْ لك خَشْيَةً فنعم المصيبة مصيبتك ، وإن تكن مصيبتك بأخيك أحدثت لك جَزَعًا فبئس المصيبة مصيبتك[3] » . ويذكر الجاحظ أنه كان كثيراً ما يردد فى مجلسه : « أعوذ بك من الخَسْف والمَسْخ والرَّجْفَة والزلْزلة والصاعقة والريح المهلكة ، وأعوذ بك من جَهْد البلاء ومن شماتة الأعداء » . وكان يقول : أعوذ بك من التَّعب والتعذر والخَيْبة وسوء المنقلب . اللهم من أرادنى بخير فيَسِّرْ لى خيره ، ومَنْ أرادنى بشر فاكْفِنى شَرَّه . اللهم إنى

---

(١) البيان والتبيين ١/١١٩ .
(٢) البيان والتبيين ٢/٨٢ .
(٣) البيان والتبيين ٣/١٧١ .

أسألك خِصْب الرَّحْل[١] ، وصلاح الأهل[٢] » . وروى الجاحظ من بعض وعظه فى كتابه الحيوان قوله : « تَغْدو الطير خِماصًا وتروح شِباعًا ، واثقةً بأن لها فى كل غدوة رزقًا لا يفوتها . والذى نفسى بيده أن لو غدوتم على أسواقكم على مثل إخلاصها لرُحْتم وبطونكم أبْطَنُ من بطون الحوامل[٣] » .

وواضح مما روينا من كلام صالح المُرِّىّ وغيره من القُصَّاص والوعاظ أنهم ارتقوا بصناعة النثر فى المعانى التى كانوا يرددونها رقيا بعيداً ، إذ شعَّبوا وفرَّعوا فى تلك المعانى طويلا ، واستنبطوا فيها كثيراً من الدقائق التى تمسُّ القلوب والعقول. وأضافوا إلى ذلك عناية واسعة بأساليبهم ، وهى عناية تقوم على الدقة فى اختيار اللفظ والإحساس المرهف بجمال السبك والصياغة . وأدَّاهم ذلك فى بعض الأحيان إلى استخدام السجع ، بل كان منهم من أكثر من استخدامه مثل الفضل ابن عيسى الرقاشى وفيه يقول الجاحظ كان سجَّاعا فى قصصه[٤] ، وكان من أخطب الناس وكان متكلمًا قاصًّا مجيداً[٥] ، ويروى من وعظه : « سَلِ الأرض فقل من شقَّ أنهارك وغرس أشجارك ، فإن لم تُجِبْك حواراً ، أجابتك اعتبارا[٦] » ويقول الجاحظ : « كان يتلو الآية التى فيها ذكر الجنة والنار والموت والحشر[٧] » ثم يفيض فى الوعظ . وكان ابنه عبد الصمد قاصًّا مثله ، وكان أغزر منه وأبين وأعجب وأخطب[٨] ، وقيل له : « لِمَ تؤثر السجع على المنثور وتلزم نفسك القوافى (أى روىّ الأسجاع) وإقامة الوزن ؟ قال : إن كلامى لو كنت لا آمل فيه إلا سماع المشاهد لقلَّ خلافى عليك ، ولكنى أريد الغائب والحاضر والراهن والغابر ، فالحفظ إليه أسرع ، والآذان لسماعه أنشط ، وهو أحق بالتقييد وبقلة التفلُّت[٩] » .

---

(١) الرحل هنا : المسكن والبيت .
(٢) البيان والتبيين ٣/٢٨٨ .
(٣) الحيوان ٧/٦٢ .
(٤) البيان والتبيين ١/٢٩٠ .
(٥) البيان والتبيين ١/٣٠٦ .
(٦) البيان والتبيين ١/٣٠٨ .
(٧) البيان والتبيين ١/٢٩١ .
(٨) البيان والتبيين ١/٣٠٨ .
(٩) البيان والتبيين ١/٢٨٧ .

٣

المناظرات

قلما عُنى مؤرخو الأدب العباسى بالحديث عن المناظرات التى احتدمت بين المتكلمين والفقهاء وأصحاب الملل والنحل لهذا العصر مع أنها كانت من أهم الفنون النثرية وكانت تشغل الناس على اختلاف طبقاتهم ، لسبب بسيط وهو أنها كثيراً ما كانت تنعقد فى المساجد ، وقد مرَّ بنا أن مجالس البرامكة والمأمون كانت تكتظ بهذه المناظرات ، وأنه كان وراء مجالسهما مجالس صغرى كثيرة ، يجتمع فيها المتناظرون من الشيعة والزنادقة والمتكلمين ، ويتحاورون فى المسائل العقيدية وغير العقيدية ، وقد يخوضون فى بعض المسائل الفلسفية ، على نحو ما كانت تخوض مجالس البرامكة ، وبالمثل كان يتناظر الفقهاء ، ومناظرة الشافعى ومحمد بن الحسن الشيبانى مشهورة .

والمعتزلةُ أهمُّ طوائف المتناظرين حينئذ ، فقد وقفوا أنفسهم على جدال طوائف المتكلمين من مخالفيهم فى أصولهم الخمسة التى تحدثنا عنها فى غير هذا الموضع وجدال من كانوا يعتنقون التشيع الغالى مثل شيطان الطاق وهشام بن الحكم وجادلوا جدالا عنيفًا أرباب الملل السماوية والنحل غير السماوية من الدهرية والمانوية ، ومن أشهرهم فى الجدال والمناظرة أبو الهذيل العلاف المتوفى فى حوالى سنة ٢٣٠ للهجرة ، وفيه يقول ابن خلكان : « كان حسن الجدال قوى الحجة كثير الاستعمال للأدلة والإلزامات » . وروى الخطيب[١] البغدادى والمرتضى[٢] فى أماليه وبعض المراجع القديمة طائفة من مناظراته . من ذلك مناظرته فى حداثته ليهودى وَرَد البصرة ، وتعرّض لمتكلميها يقول لهم ألا تقرُّون بنبوة موسى عليه السلام ؟ حتّى إذا اعترفوا بها قال : نحن على ما اتفقنا عليه إلى أن نجتمع على ما تدّعونه . فتقدم إليه ، وقال له : أسألك أم تسألنى ؟ فقال له اليهودى : بل أسألك فقال : ذاك إليك ، فقال اليهودى : أتعترف بأن موسى نبىّ صادق أم تنكر ذلك فتخالف صاحبك ، فقال له أبو الهذيل : إن كان موسى الذى تسألنى عنه هو الذى بشَّر بنبيّى

---

(١) تاريخ بغداد ٣/٣٦٦ وما بعدها . (٢) أمالى المرتضى ١/١٧٨ وما بعدها .

عليه السلام وشهد بنبوته وصدّقه فهو نبي صادق ، وإن كان غير من وصفتُ فذلك شيطان لا أعترف بنبوته . فورد على اليهودى ما لم يكن فى حسبانه . ولم يلبث أن سأل أبا الهذيل : أتقول إن التوراة حق ؟ فقال : هذه المسألة تجرى مجرى الأولى ، إن كانت هذه التوراة التى تسألنى عنها هى التى تتضمن البشارة بنبيي عليه السلام فتلك حق ، وإن لم تكن كذلك فليست بحق ولا أقرُّ بها . فبهُت اليهودى وأفحم ولم يدر ما يقول . وناظر يوماً مجوسيًّا فسأله ما تقول فى النار ؟ قال : بنت الله ، قال فالبقر ؟ قال : ملائكة الله قَصّ أجنحتها وحَطّها إلى الأرض يُحرْثُ عليها ، قال : فالماء ؟ قال : نور الله ، قال أبو الهذيل فما الجوع والعطش ؟ قال : فَقْر الشيطان وفاقته ، قال أبو الهذيل : فمن يحمل الأرض ؟ قال : بهمن الملك . حينئذ قال أبو الهذيل : فما فى الدنيا شر من المجوس أخذوا ملائكة الله فذبحوها ، ثم غسلوها بنور الله ثم شَوَوْها ببنت الله ، ثم دفعوها إلى فقر الشيطان وفاقته ، ثم سلخوها على رأس بهمن الملك أعز ملائكة الله . فانقطع المجوسى وخجل مما لزمه . وقال له المعذّل بن غيلان يوماً إن فى نفسى شيئاً من القول بالاستطاعة وأن الإنسان حُرٌّ حرية مطلقة فى أعماله فبَيِّن لى ما يُذهب الريب عنى ، فقال له : خبِّرْنى عن قول الله تعالى : (وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون) هل يخلو من أن يكون أكذبهم لأنهم مستطيعون الخروج وهم تاركون له ، فلاستطاعة الخروج فيهم وليسوا يخرجون قال (إنهم لكاذبون) أى هم يستطيعون الخروج وهم يكذبون فيقولون : لسنا نستطيع ، ولو استطعنا لخرجنا ، فأكذبهم الله على هذا الوجه . أو يكون على وجه آخر يقول : (إنهم لكاذبون) أى إن أعطيتهم الاستطاعة لم يخرجوا ، فتكون معهم الاستطاعة على الخروج ولا يخرجون . وعلى كل حال قد كانت الاستطاعة على الخروج ثابتة لهم . ولا يعقل للآية معنى ثالث غير الوجهين اللذين وصفنا . وبذلك أقام الحجة القاطعة على الاستطاعة من لفظ القرآن الكريم ، حتى ينقض ما يستشهد به أصحاب الجبر وتعطيل إرادة الإنسان وحريته من بعض آيه التى لا تعطيهم الدلالة البينة الملزمة . وكان يتعمق ببعض مناظراته فى مسائل فلسفية كقوله إن حركات أهل

الجنة والنار لا تبقى بل تنقلب إلى سكون دائم ، تجتمع فيه اللذات لأهل الجنة ويجتمع العذاب لأهل النار ، إلى غير ذلك من الآراء المبسوطة فى الملل والنحل للشهرستانى وفى مقالات الإسلاميين للأشعرى.

وكان ابن أخته النظام لا يقل عنه قوة فى الجدل والإقناع وإفحام الخصوم ، ومرّ بنا فى غير هذا الموضع كيف أفحم أبا شَمِر الجَبْرِىّ المرجئ وقطعه بالبراهين الساطعة ، حتى زحف إليه وأمسك بيديه ليسكت . ويقول ابن النديم إنه ما زال يناظر الحسين النجار فى الجبر وحرية الإرادة ، حتى انصرف محموماً مغموماً وكان ذلك سبب علته التى مات فيها[١] . وهو يُعَدُّ أكبر من جادلوا الدهرية والمانوية وغيرهما من أصحاب النحل غير الإسلامية لعصره ، حتى ليقول الجاحظ على نحو ما مر بنا فى ترجمتنا له بين الشعراء : « لولا مكان المتكلمين لهلكت العوامُّ من جميع الأمم ، ولولا مكان المعتزلة لهلكت العوام من جميع النحل ، فإن لم أقل ولولا أصحاب إبراهم (النظام) وإبراهيم لهلكت العوام من المعتزلة ، فإنى أقول إنه قد أنهج لهم سُبُلاً وفَتَقَ لهم أموراً واختصر لهم أبواباً ظهرت فيها المنفعة وشملتهم بها النعمة[٢] ». وحكى الجاحظ كثيراً من جداله وروده على الدهرية والمنّانية والدَّيْصانية ، وفى الجزء الخامس من كتاب الحيوان مادة من ذلك كثيرة ، نراه فيها يرد على من يقولون بأن أصل العالم ضياء وظلام وأن الحرارة والبرودة واللون والطعم والصوت والرائحة إنما هى نتائج على قدر امتزاجها ، ويلاحظ أنهم يقفون عند حاسَّة اللمس فقط دون غيرها من الحواس. ويبحث مباحث واسعة فى النار وأنها حر وضياء وأن الضياء ليس بلون لأنه إذا سقط على الألوان المختلفة كان عمله فيها واحداً . ويفيض فى ردود كثيرة على المجوس ، واحتفظ أبو الحسين الخياط هو الآخر بكثير من هذه الردود ، من ذلك قول المنانية بالنور والظلمة وأن النور هو مصدر كل خير والظلمة مصدر كل شر ، فالصدق خير لأنه من النور والكذب شر لأنه من الظلمة ، مما جعله يقول لهم : « حدثونا عن إنسان قال قولا كذب فيه مَنْ الكاذبُ ؟ قالوا الظلمة ، قال : فإن ندم بعد ذلك على مافعل من الكذب ، وقال : قد كذبت وقد أسأت ، من القائل : قد كذبتُ ؟ فاختلطوا عند ذلك ولم يدروا مايقولون ، فقال لهم إبراهم : إن زعمتم أن النور هو

---

(١) الفهرست لابن النديم ص ٢٥٤ . (٢) الحيوان ٤/٢٠٦ .

القائل : قد كذبت وأسأت فقد كذب لأنه لم يكن الكذب منه ولا قاله والكذب شر ، فقد كان من النور شر وهو هدم قولكم ، وإن قلتم إن الظلمة قالت : قد كذبت وأسأت فقد صدقت ، والصدق خير ، فقد كان من الظلمة صدق وكذب ، وهما عندكم مختلفان ، فقد كان من الشيء الواحد شيئان مختلفان : خير وشر على حكمكم ، وهذا هَدْم قولكم بقدم الاثنين[1] » أى الخير والشر وإلهيهما اللذين يؤمنون بهما . وعلى نحو ما كان يناظر المنانية ويَقْطعهم كان يناظر الدهرية القائلين بالدهر وخلوده وأن حركات الأفلاك لا تتناهى ، ويفحمهم بمنطقه وقوة نسجه للأدلة ، من ذلك أنه تعرَّض لهم يوما يجادلهم فيما يزعمون من عدم التناهى فى حركات الأفلاك ، وكان مما قاله لهم : « ليس تخلو الكواكب من أن تكون متساوية الحركة ، لا فضل لبعضها على بعض فى السير والقطع أو بعضها أسرع قطعًا وسيراً من بعض ، فإن كانت متساوية القطع فقطعُ بعضها أقل من قطع جميعها ، وإذا أضيف قطع بعضها إلى قطع البعض الآخر كان قطع الجميع أكثر من قطع الواحد ، وإن كان بعضها أسرع من بعض قطعا ، فقد دخلته القلة والكثرة وما دخلته القلة والكثرة متناه[2] » وهو تناه يدل على حدوث الحركة . وكان يكثر من مناظرة خاله أبى الهذيل ويعلو عليه بقوة حججه ، مما جعله يراوغه كثيراً ويعتلُّ عليه ، حتى قال له بعض مستمعيهما : « إنك إذا راوغتَ واعتللت وأنت تكلم النظام فأحسن حالاتك أن يشك الناس فيك وفيه ، فقال : خمسون شكًّا خير من يقين واحد[3] » . ومر بنا فى غير هذا الموضع بعض آرائه الفلسفية وفى الحق أنه هو وخاله وغيرهما من المعتزلة غمسوا آراءهم وتفكيرهم فى الفلسفة غمساً. ونراه يحوِّل كل شيء إلى المناظرة ، فهو يناظر فى الآراء العقيدية وفى الآراء الفلسفية مما ذكرناه فى ترجمته السابقة كما يناظر فى المسائل الطبيعية وفى الحيوان . ومناظرته لمعبد فى مساوىء الديك ومحاسنه ومنافع الكلب ومضاره مشهورة وقد شغلت نحو مجلد ونصف من كتاب الحيوان للجاحظ ، إذ استقصيا جميع الجوانب المتصلة بذلك استقصاء يدل على مدى الرقى الفكرى الذى رقيه العقل العربى فى العصر

---

(١) كتاب الانتصار لأبى الحسين الخياط (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٣٠ .

(٢) انظر كتاب الانتصار ص ٣٥ .

(٣) حيوان ٣/٦٠ .

العباسي . وهي وما يماثلها لم تكن تُراد لنفسها وإنما كانت تراد للبرهنة على عجائب تدبير الله جل جلاله في خَلْقه وما أودعه فيه من ذخائر الحكمة ، كما كانت تُراد للفرق بين مذاهب الدهرية ومذاهب الموحدين لا في بحث عجائب الكون في الحيوان فقط بل في بحث كل صور الوجود أيضا وما يتصل بذلك من الآراء الفلسفية العميقة ، ومن أجل ذلك آثر المعتزلةُ هذا الجدالَ العقلي على النسك والعبادة وجعلوه فوق الحج والجهاد(١) .

وفي الحق أنهم بسطوا بهذا الجدال وما اتصل به من مناظرةٍ العقلَ العربيَّ إلى أبعد غاية ، فقد أمدُّوه بسيول من دقائق المعاني وخفيات البراهين ، وجعلوه عقلا جدلا ما يزال ينقب عن خبيئات الأفكار ، وما يزال يجلب من أعمق الأعماق دُرَرَها الباهرة . وقد تعاوروا على الأشياء المشهورة يصحِّحونها ويسددونها ، وتعاور معهم كثير من معاصريهم الذين مضوا يتفننون على شاكلتهم الحوار في كل شيء . ومن طريف ما يصوِّر ذلك أن نجد الجاحظ يذكر أن شخصًا يسمى جعفر بن سعيد كان يفضل الديك على الطاووس ، كأنه يريد أن يعكس ما شاع عند الناس من جمال الطواويس ، ويسوق الجاحظ ما كان يقوله في ذلك على هذا النمط(٢) :

« كان جعفر بن سعيد يزعم أن الديك أحمدُ من الطاووس وأنه مع جماله وانتصابه واعتداله وتقلّعه(٣) إذا مشى سليم من مقابح الطاووس ومن مُوقه(٤) وقبح صورته ! ومن تشاؤم أهل الدار به ومن قبح رجليه ونذالة مَرْآته . وزعم أنه لو ملك طاووسا لألبس رجليه خُفًّا . وكان يقول : وإنما يُفْخَر له بالتلاوين وبتلك التعاريج والتهاويل التي لألوان ريشه ، وربما رأيت الديك النَّبطي وفيه شبيه بذلك إلا أن الديك أجمل لمكان الاعتدال والانتصاب والإشراف وأسلم من العيوب من الطاووس . وكان يقول : ولو كان الطاووس أحسن من الديك النبطي في تلاوين ريشه فقط لكان فضل الديك عليه بفضل القَدّ والخَرْط وبفضل حسن الانتصاب وجودة الإشراف أكثر من مقدار فضل حسن ألوانه على ألوان الديك ولكان السليم من العيوب في العين أجمل لاعتراض تلك الخصال القبيحة على حُسْن الطاووس

(١) حيوان ١/٢١٦ .
(٢) حيوان ٢/٢٤٣ .
(٣) التقلع : التحدر في المشي .
(٤) الموق : الحمق .

فى عين الناظر إليه . وأول منازل الحمد السلامة من الذم . . والعامة لا تبصر الجمال ، ولفرسٌ رائع كريم أحسن من كل طاووس فى الأرض ، وكذلك الرجل والمرأة . وإنما ذهبوا من حسنه إلى حسن ريشه فقط ، ولم يذهبوا إلى حسن تركيبه وتنصُّبه كحسن البازى وانتصابه ، ولم يذهبوا إلى الأعضاء والجوارح وإلى الشيات والهيئة والرأس والوجه الذى فيه . وكان جعفر يقول : لما لم يكن فى الطاووس إلا حسنه فى ألوانه ولم يكن فيه من المحاسن ما يزاحم ذلك ويجاذبه وينازعه ويَشْغل عنهُ ذكر وتبين وظهر . وخصال الديك كثيرة وهى متكافئة فى الجمال » .

وواضح أن هذه قدرة بارعة فى الجدل وفى تأليف الحجج والأدلة ، وهى تدل على ما أصاب العقل العربى حينئذ من رقى جعله يستقصى ما يتحدث عنه أحسن استقصاء وأدقه ، استقصاء يحرص فيه المتكلم على التدقيق والتعمق كأشد ما يكون التعمق والتدقيق وكان يصحب ذلك بكثير من الظرف ومن السفسطة التى تدل على ترف العقل وارتفاعه عن الآراء الشائعة ، ويصوِّر ذلك من بعض الوجوه ما حكاه الجاحظ فى فاتحة كتابه البخلاء عن مذهب مَنْ يسمَّى باسم الجَهْجاه « فى تحسين الكذب فى مواضع وفى تقبيح الصدق فى مواضع وفى إلحاق الكذب بمرتبة الصدق وفى حطِّ الصدق إلى موضع الكذب وأن الناس يظلمون الكذب بتناسى مناقبه وتذكُّر مثالبه ويحابون الصدق بتذكُّر منافعه وبتناسى مضاره وأنهم لو وازنوا بين مرافقهما وعدَّلوا بين خصالهما لما فرَّقوا بينهما هذا التفريق ولما رأوهما بهذه العيون » . ويتلو الجاحظ هذا المذهب بمذهب من يسمَّى باسم صَحْصَح « فى تفضيل النسيان على كثير من الذكر وأن الغباء فى الجملة أنفع من الفطنة فى الجملة وأن عيش البهائم أحسن موقعا فى النفوس من عيش العقلاء وأنك لو أسمنت بهيمة ورجلا ذا مروءة أو امرأة ذات عقل وهمة وأخرى ذات غَباء وغفلة لكان الشحم إلى البهيمة أسرع وعن ذات العقل والهمة أبطأ ، ولأن العقل مقرون بالحذر والاهتمام ولأن الغباء مقرون بفراغ البال والأمن ، فلذلك البهيمة تَقْنو شحما فى الأيام اليسيرة ، ولا تجد ذلك لذى الهمة البعيدة ، ومتوقِّع البلاء فى البلاء وإن سلم منه ، والغافل فى الرجاء إلى أن يدركه البلاء » .

وقد يقال إن هذا التقبيح للأشياء المستحسنة والتحسين للأشياء المستقبحة عُرف

فى الأدب الفهلوى القديم ، وأن العباسيين تأثروا فى هذا الاتجاه بما كان منه فى هذا الأدب ، ونحن لا ننفى ذلك ، وإنما نلاحظ أنه حتى إن صح فإن العباسيين توسعوا فى هذا الاتجاه بتأثير مناظرات المتكلمين وما داخلها من سفسطة أحيانا ، بحيث أصبح هذا التحسين والتقبيح نمطا من أنماط التفكير العباسى ، وبحيث عمّ فى كل شىء ، مما هيأ فيما بعد هذا العصر لظهور كتب المحاسن والمساوى . ونضيف أن المتكلمين تأثروا أيضًا فى مناظراتهم بما كان فى التراث الفلسفى اليونانى من جدال وحوار ، وبخاصة فى المسائل الفلسفية الخالصة ، ومعروف أن أفلاطون كان يدير كثيراً من رسائله على الحوار والجدل بين نَفَرٍ من الفلاسفة ، على نحو ما هو معروف فى رسالته أو كتابه الذى سماه المأدبة وفيه جلبَ سقراط وبعض المتفلسفة ليتحاوروا فى عاطفة الحب ، ومرّ بنا فى غير هذا الموضع أن يحيى البرمكى دعا من كانوا يتناظرون بمجالسه فى المسائل الفلسفية والكلامية إلى الحديث عن العشق ، وكان حديثًا طويلا تبادل هؤلاء المتناظرون آراءهم فيه ، وأكبر الظن أنهم سمعوا بمأدبة أفلاطون إن لم يكن بعضهم قد اطلع عليها مترجمةً ، ولم يُنْقَلْ لنا جميع هذا الحديث الطريف ، إنما نُقل بعض ما تحدَّث به مَنْ شاركوا فى هذه المحاورة البديعة ، نَقَلَه المسعودى فى كتابه مروج الذهب على هذه الشاكلة(١) :

« قال على بن ميثم (المتكلم الشيعى) : العشق ثمر المشاكلة وهو دليل على تمازج الروحين ، وهو من بحر اللطافة ورقة الطبيعة وصفاء الجوهر ، والزيادة فيه نقصان من الجسد .

وقال أبو مالك الحضرمى وهو خارجى المذهب : العشق نفث السحر ، وهو أخفى وأحر من الجمر ، ولا يكون إلا بازدواج الطبعين وامتزاج الشكلين ، وله نفوذ فى القلب كنفوذ صَيِّب المزن فى خَلَل الرَّمْل تنقاد له العقول وتستكين له الآراء .

وقال أبو الهذيل العلاف المعتزلى : العشق يختم على النواظر ويطبع على الأفئدة مرتعه فى الأجساد ومسرعة فى الأكباد ، وصاحبه منصرف الظنون متغير الأوهام لا يصفو له موجود ، ولا يسلم له موعود ، تسرع إليه النوائب . وهو جرعة من نقيع الموت ، وبقية من حياض الثكل ، غير أنه من أريحية تكون فى الطبع وطلاوة

(١) مروج الذهب ٣/٢٨٦ .

توجد فى الشمائل وصاحبه جواد لا يَصْغو (يميل) إلى داعية المنع ولا يسنح به (يصرفه) نازع العذل.

وقال إبراهيم النظام بن يسار المعتزلى : العشق أرق من الشراب ، وأدبّ من الشباب ، وهو من طينة عطرة عُجنت فى إناء من الحلى ، حلو المجتنى ما اقتصد ، فإذا أفرط عاد صِلاً قاتلا ، وفساداً معضلا ، لا يُطْمَعُ فى إصلاحه. له سحابة غزيرة على القلوب ، فتُعْشب شغفاً وتُثْمر كلفا . وصريعه دائم اللوعة ضيق المتنفَّس طويل الفكر إذا جَنَّه الليل أرق وإذا أوضحه النهار قلق ، صَوْمُهُ البَلْوَى ، وإفطارُه الشكوى .

ثم قال الخامس والسادس والسابع والثامن والتاسع والعاشر ومن يليهم ، حتى طال الكلام فى العشق بألفاظ مختلفة ومعان تتقارب وتتناسب ، وفيما مرّ دليل عليه » .

وكنا نتمنى لو أن المسعودى أورد كل ما قاله هؤلاء المتحاورون إذن لورثنا عن العباسيين مأدبة فى العشق تقابل مأدبة أفلاطون . والذى لا شك فيه — كما أسلفنا — أن هذه المأدبة كانت تحت أعين معاصريهم كما كانت تحت بصر من جاءوا بعدهم مثل المسعودى ، وأن الشعراء استمدوا منها كثيراً من معانيهم فى العشق والغزل . ومضى المسعودى يذكر بعض ما أثر عن الفلاسفة والأطباء فى العشق ، مما يقطع بأن العباسيين إن لم يعرفوا مأدبة أفلاطون فقد سقطت إليهم آراء يونانية مختلفة فى الحب والهوى .

وواضح ما فى هذا الحوار عن العشق من دقة فى المعانى ومن حسن سبك وأداء ، حتى ليُعْنَى بعض المتحاورين بأن يكون كلامه مسجوعا ، مما يدل دلالة بينة على أن المتناظرين كانوا لا يزالون يتعهدون كلامهم ويصوغونه صياغة باهرة ، وبذلك أعدوا لتطور النثر تطوراً واسعا فى مضامينه الجديدة التى لم يكن للعربية بها عهد وفى أساليبه وبما شفعوها به من حسن السبك وجمال الصياغة والأداء.

وليس ذلك فحسب كل ما قدمه فن المناظرة للنثر فى هذا العصر ، فقد جعل المتكلمون والمتناظرون وفى مقدمتهم المعتزلة يبحثون فى بلاغة القول ويكثرون من ملاحظاتهم فى هذا الاتجاه على نحو ما صوَّرنا ذلك فى غير هذا الموضع ، مما أعدّ لوضع أصول البلاغة العربية .

٤

الرسائل الديوانية والعهود والوصايا والتوقيعات

تحدثنا فى الفصل الأول عن تعقد الدواوين فى هذا العصر وتنوعها ، فدواوين للخراج ودواوين للنفقات ودواوين للجيش ودواوين للحروب ودواوين للرسائل ودواوين للخاتم ودواوين لشرقىّ الدولة ودواوين لغربيها ، ولكل ولاية ديوان ، وفوق هذه الدواوين ما يسمَّى ديوان الزمام الذى ينظر فى ضبط كل ديوان على حدة. وبجانب هذه الدواوين العامة فى بغداد دواوينُ فى الولايات للخراج والرسائل ودواوين أخرى لأولياء العهد وللأمراء وللوزراء وكبار القواد ، ومَنْ لم يتخذ من هؤلاء ديوانا كبيراً كان له كاتبٌ يكتب عنه وينظر فى تدبير أمواله ونفقاته وضياعه ، وحتى نساء الخلفاء كن يتخذْنَ الكتاب ، وكذلك كان يتخذهم بعض القضاة والعلماء للكتابة عنهم .

وبذلك نشطت الكتابة فى هذا العصر نشاطًا واسعًا ، فقد توفر عليها مئات من أصحاب الأقلام يحدوهم فى ذلك ما كانت تدرُّه عليهم من أرزاق واسعة . وكان مَنْ يُظْهر منهم مهارة فى دواوين الخلافة سرعان ما يرقى إلى رياسة الديوان الذى يعمل فيه . وقد تُقْبل عليه الدنيا فيصبح رئيسًا لمجموعة من الدواوين ، وقد يصبح وزيراً للخليفة يسوس الدولة ويدبر أمورها وشئونها ، فإن لم يصبح وزيراً أصبح والياً لإقليم من الأقاليم مثل الحسن بن البحباح البلخى الذى كتب للمهدى والهادى والبرامكة وقد ولى مصر فى عصر الهادى والأمين ، ومثل الحسن بن رجاء كاتب المأمون الذى ولى فارس ومثل عمر بن مهران كاتب الخيزران أم الرشيد وقد ولاه مصر فى بعض السنين . وكثير من الولاة والقواد كانوا يحسنون الكتابة إلى أبعد غاية مثل جعفر بن محمد بن الأشعث والى خراسان للرشيد ومثل طاهر بن الحسين قائد المأمون وواليه على خراسان وابنه عبدالله بن طاهر والى مصر والشام والجزيرة ثم والى خراسان ومثل أبى دلف العجلى قائد المأمون المشهور .

وعلى هذا النحو كانت الكتابة فى هذا العصر الجسر الذى يصل الشخص إلى أرفع المناصب ، وكان من يتقنها من الوزراء والقواد والولاة يَلْقَى الإكبار

والإعجاب فى كل مكان ، وقد أخذ يسيل لها لعاب كل من أحسّ فى نفسه قدرة عليها ، حتى يَحْظَى بما يكفل له العيش فضلا عما قد يصيب من رَغَد ونعيم ، ومن أجل ذلك كثر الوافدون على أبواب الدواوين وخاصة من الناشئة ذوى المطامح البعيدة ، وكانوا يعرضون أنفسهم ، فيُمْتَحَنُونَ امتحاناً عسيراً ، تُبْحَثُ فيه مهارتهم الأدبية والعقلية ، ومن جاز الامتحان أمرهم رؤساءالدواوين بملازمتهم ، ثم ضموهم إلىدواوينهم وترقوا بهم منحال إلى حال ، على قدر مهاراتهم حتى بلغوا بهم المنزلة التى يستحقونها ، وربما ألحقوهم ببعض الولاة والقواد أو جعلوا لهم التصرف فى بعض الأعمال أو فى بعض دواوين الخراج .

ولم يكن نجاح الكاتب الناشىء هينا ، فقد كان لا بُدَّ له من إحسان صناعة الكتابة ، وهو إحسان جعله يتوفر على مادتها اللغوية والأسلوبية ، حتى يتقنها الإتقان المنشود من حيث الوضوح والجمال الفنى ، أما الوضوح فلأنه كان يكتب غالبًا إلى الرعية ولا بد للرعية أن تفهم عنه ، وأما من حيثالجمال الفنى فلأنه كان يكتب عن الخلفاء والوزراء والولاة والقواد ، ولا بد أن يروعهم ببيانه وبلاغته ، وقد توقَّفَ الجاحظ مراراً فى كتاباته يُشيد ببراعتهم فى القول وعذوبة آدائهم وطلاوةصياغاتهم من مثلقوله : «إنهم لايقفون إلا على الألفاظ المتخيرة والمعانى المنتخبة وعلى المخارج السهلة والديباجة الكريمة وعلى الطبع المتمكن وعلى السبك الجيد وعلى كل كلام له ماء ورونق وعلى المعانى التى إذا صارت فى الصدور عمرتها وأصلحتها من الفساد القديم وفتحت للسان باب البلاغة ودلَّت الأقلام على مدافن الألفاظ وأشارت إلى حسان المعانى[١] » .

وكان لا بد لهم بجانب هذه القدرة البلاغية من أن يتقنوا طائفة من المعارف وفى مقدمتها علوم اللسان العربى وعلم الفقه ، وكان العلم الأخير ضروريًّا لهم ، لأنهم كانوا يكتبون فى شئون الخراج وفيما يجب على أهل الذمة أن يؤدوه من أموال ، وكذلك كان علم الحساب من الضرورة لهم بمكان . وكانوا يلمونبكل علم مثل الكيمياء والطب والنجوم ، وأكبوا على الفلسفة والمنطق ليدعموا عقولهم . ولم يكن ذلك كل ثقافة الكاتب ، فقد مضى يقرأ كل ما تُرْجِم من الحكمة اليونانية ومأثور

---

(١) البيان والتبيين ٤ / ٢٤ .

ما تبادله الإسكندر المقدونى وأرسطو من رسـائل وما نُقل عن الفلاسفة اليونانيين من أقوال وكذلك ما نقل عن الهنود من حكم وقصص يتصل بتدبير الملك وخاصة كتاب كليلة ودمنة . ومرّ بنا مدى إعجاب يحيى البرمكى بهذا الكتاب مما جعله يطلب إلى أبان بن عبد الحميد أن ينقله شعراً حتى يسهل حفظه ، وكان قد نقله ابن المقفع قبل ذلك نثرا ، ومرّ بنا فى غير هذا الموضع أنه نقل كثيراً من سير ملوك الفرس وأنظمتهم فى الملك وتدبيرهم فى السياسة والحكم وأن مما نقله « خُداى نامه » فى سير ملوكهم و« آيين نامه » فى أنظمتهم و « التاج » فى سيرة كسرى أنوشروان و« الأدب الكبير » و« اليتيمة » و« الصحابة » . وأكبّ الكاتب العباسى على هذه الكتب وغيرها مما عرضنا له فى الفصل الثالث كأمثال بزرجمهر وكتاب« جاويدان خرد » فى الآداب والأخلاق و « عهد أردشير بن بابك إلى ابنه سابور » .

ولعلنا لا نبالغ إذ قلنا إن المادة الفارسية السياسية والأخلاقية المترجمة كانت من أهم المؤثرات فى رقى الكتابة الديوانية وتطورها ، وحقًّا أن هذا التأثير بدأ منذ عبد الحميد الكاتب ولكنه لم يبلغ أشده إلا فى هذا العصر إذ اتسع نقل الآداب الفارسية وكل ما أُثر عن ملوك الفرس ووزرائهم من عهود ووصايا ورسائل إلى العمال والولاة ، مما سالت مادته الغزيرة فى كتابات الكاتب العباسى ، ولعل ذلك ما جعل الجهشيارى يقدم لكتابه الوزراء والكتاب بتمهيد واسع عرض فيه لتدوين الفرس للدواوين ونظمها المختلفة ، متحدثًا فى ثنايا ذلك عن كتب الأكاسرة إلى عمالهم ومقتبسًا فصولاً عن سابور إلى ابنه ومن كلام أردشير وكلام أبرويز إلى وزرائه ووصيته لابنه شيرويه ووصية أردشير لوزرائه واستشارة سابور لوزيرين نابهين . وعرض الجهشيارى لبعض رسائل أرسطو للإسكندر ، ولبعض وصايا الهند وحكمهم . وفى ذلك كله الدلالة الواضحة على مدى ما كان يأخذ به الكاتب العباسى نفسه من ثقافة سياسية ، وخاصة ما كتبه الفرس فى وصاياهم وعهودهم . وكان لابد له من إلمام واسع بأخبار العرب وأشعارهم وكل مايتصل بهم وبخلفائهم ، وكان أحياناً يحسن نظم الشعر ورصفه ، ويستشهد به فى رسـائله وكلامه ، وكذلك كان يحفظ القرآن الكريم ويقتبس منه أحيانًا ، وأحياناً يحاول مجاراة

أساليبه وما يجرى فيها من حسن التأليف والتئام الكلم وجودة المقاطع وحلاوة البيان وعذوبته . وحتّى الخطّ كان لا بد للكاتب العباسى من إجادته .

ومَنْ ينظر نظرة عامة فى موضوعات الرسائل الديوانية لهذا العصر يلاحظ أنها كانت تتناول تصريف أعمال الدواة وما يتصل بها من تولية الولاة ، وأخْذ البيعة للخلفاء وولاة العهود ، ومن الفتوح والجهاد ومواسم الحج والأعياد والأمان وأخبار الولايات وأحوالها فى المطر والخصب والجدب ، وعهود الخلفاء لأبنائهم ، ووصاياهم ووصايا الوزراء والحكام فى تدبير السياسة والحكم . وأيضًا فإنها أخذت تتناول بعض الأغراض التى كان يتناولها الشعر من تهنئات وتعزيات وشكر مما سنعرض له فى الرسائل الإخوانية التى تصور عواطف الأفراد ، وقد تفننوا حينئذ طويلا فى التحميدات التى تُصَدَّر بها الرسائل ، وتُنْسب إلى الرشيد أنه أول من أمر أن تبتدىء مكاتباته بعد البسملة بالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم[١] . وفى رواية ثانية أن يحيى البرمكى وزيره أول من زاد فى الرسائل : « وأسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله » وأنه أنشأ فى ذلك كتابًا ذكر فيه فضل الأنبياء عليهم السلام[٢] .

ونحن نقف عند طائفة من الكتاب النابهين مرتبين لهم على عهود الخلفاء وأول كاتب لمع اسمه فى مطالع العصر عُمارة بن حمزة كاتب السفاح والمنصور وقد ولاه الأخير فى سنة ١٥٦ على كور دجلة والأهواز وفارس ثم ولاه المهدى خراج البصرة ، وعاش حتى سنة ١٩٩ للهجرة[٣] ، وكان المهدى يجلّه ، وكان جواداً غير أنه كان فيه تيه شديد حتى ضُرب المثل بتيهه ، فقيل أتْيه من عمارة ، وتُرْوَى له فى التيه والكرم حكايات كثيرة . وهو أحد الكتاب البلغاء وقد اشتهر بتدبيجه لأول رسالة من رسائل الخميس ، وهى رسالة كانت تُكْتَبُ فى عهد كل خليفة عباسى ، وكان موضوعها تأييد الدعوة العباسية وتأييد الخليفة الحاضر وتعداد مناقبه وبيان مآثره وأنه أحق أهل بيته بالخلافة . واشتهر أيضًا برسالة

---

(١) النجوم الزاهرة ٢ / ١٠٣ .

(٢) الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ١٧٧ .

(٣) النجوم الزاهرة ٢ / ١٦٤ وانظر فى ترجمته الفهرست لابن النديم ص ١٧١ ومعجم الأدباء ٥ / ٢٤٢ والجهشيارى ص ٩١ ، ١٣٣ وفى مواضع أخرى متفرقة ، راجع الفهرس .

لُقِّبت باسم الماهانية وفيها يقول ابن النديم : « الكتب المجمع على جودتها عهد أردشير ، كليلة ودمنة ، رسالة عمارة بن حمزة الماهانية ، اليتيمة لابن المقفع ، رسالة الخميس لأحمد بن يوسف » . ويظهر أنها كُتبت لعامل كى يستشير عيسى بن ماهان فى كل ما يأخذ من الأمر ويدع ، وفيها يقول له على لسان الخليفة[1] :

« أمير المؤمنين لا ينكر قرب الطاعة من المعصية قُرْبَ بعض الأمور من بعض ، لسرعة تقلب القلوب واختلاف الحالات عند مَيْل الهوى ولا يُنْكِرُ جَرْىَ المقادير بغَيْب ذلك عن العباد واستئثار الله بعلم ما لم يأتهم إلا بغتة . بل قد علم أمير المؤمنين أن أقواما فى قلوبهم ضغائن ، دونها الغَدْر ، يُظْهر أسرارهم ويخرج أضغانهم ، ثم يبلغ بغضبه منهم ما لم يكن فى ذلك عنده عزيزاً ، ولم يكن بهم امتناع . غير أنه قد أنكر أن تعجل إلى ابن ما هان — وإن كان محلا بارزا — بأمرٍ دون مؤامرته (مشاورته) ويكره لك العجلة فإنها موكَّلٌ بها النَّدم وإنه كان يقال : أصاب متأمل أو كاد . وقالت العرب : فإما تَرَيَنَّ أمراً رَشَداً فتبيَّن ثم ارْعَوِ أو أقْدِمْ وأحْكم . ولحقُّ ما أمر الله عزَّ وجلَّ به من التَّبَيُّن وما حذَّر أن يصاب قوم بجهالة وما خوَّفَ على ذلك من الندامة ، فليس يبرح المرء بخير ما فرغ لقول الله عز وجلَّ واتعظ واستيقظ » .

وواضح حرص عمارة على التمثل بكلام العرب واستعارة ألفاظ القرآن ومعانيه ، فقد حلَّ فى آخر كلامه قوله جلَّ شأنه : (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنَبَأ فتبيَّنوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) .

ومن كُتَّاب المنصور مَسْعدة بن سعد بن صُول أحد ملوك جرجان فيما يقال ، وكان يكتب أولا لخالد بن برمك وزير المنصور ثم لواليه على فارس . ولما اتخذ المنصور أبا أيوب المورياني وزيراً وقلَّده الدواوين أقام مسعدة على ديوان الرسائل ، ويَرْوى ياقوت فى ترجمته لابنه عمرو أن المنصور قال يوماً لكتَّابه : اكتبوا لى تعظيم الإسلام ، فبَدر مسعدة فكتب[2] :

---

(١) انظر الرسالة بأكلها فى جمهرة رسائل العرب لأحمد زكى صفوت ١٢٧/٣ .

(٢) معجم الأدباء لياقوت ١٢٨/١٦ .

« الحمد لله الذى عظَّم الإسلام واختاره وأوضحه وأناره وأعزَّه وأنافه (أعلاه) وشرَّفه ، وأكمله ، وتمَّمه ، وفضَّله ، وأعزَّه ، ورفعه ، وجعله دينه الذى أحبَّه واجتَبَاه (اختاره) واستخلصه وارتضاه ، واختاره واصطفاه ، وجعله الدين الذى تعتدُّ به ملائكته وأرسل بالدعاء إليه أنبياءه وهدى له من أراد إكرامه وإسعاده من خلقه فقال جَلَّ من قائل : (إن الدين عند الله الإسلام) وقال جَلَّ وعلا : (ومن يَبْتغِ غير الإسلام دينًا فلن يُقْبَلَ منه) وقال : (ملَّة أبيكم إبراهيم هو سمَّاكم المسلمين من قبل) . فبهذا الإسلام والدخول فيه والعلم به وأداء شرائعه والقيام بمفروضاته وصلت ملائكته ورسله إلى رضوان الله ورحمته ، وجواره فى جنَّته ، وبه تحرَّزوا من غضبه وعقوبته ، وأمنوا نكال عذابه وسطوته ».

فقال المنصور : حَسْبُكَ يا مسعدة ، اجْعَلْ هذا صدر الكتاب إلى أهل الجزيرة بالإعذار والإنذار . وفى جوانب من التحميد أسجاع مما يدل على القصد إلى العناية الفنية وأن الكاتب يريد أن يأسر الأسماع بجمال الجرس والأداء.

ومن كُتَّاب المنصور أيضا يوسف[1] بن صُبَيْح ، وكان يكتب ، فى ديوان الكوفة لبنى أمية ، ثم كتب لعبد الله بن على عم المنصور فى مطلع الدولة العباسية ، حتى إذا أخفقت ثورته على ابن أخيه واستتر بالبصرة عند إخوته لجأ يوسف إلى أصحابه من الكتاب فى ديوان المنصور ، فألحقوه به . ويظهر أنه ظل يعمل فى ديوان الخلافة ، حتى إذا كان البرامكة قربوه ، فكان يختلف بين دواوينهم ودواوين الرشيد ، ومن مأثور ما يُرْوَى له رسالة قصيرة كتبها عن عبد الله بن على إلى ابن أخيه السفاح يعزيه عن ابن له على هذا النمط[2] :

« أما بعد فإن أحق الناس بالرضا والتسليم لأمر الله جلَّ وعزَّ مَنْ كان إماما لخلق الله وخليفةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتعزَّ أميرَ المؤمنين بفهمك ، وارجعْ فى وَعْدِ الله جَلَّ وعز من الصابرين إلى علمك ».

ومن الكُتَّاب لعصر المنصور جبل بن يزيد كاتب عمارة بن حمزة وفيه يقول صاحب الفهرست : « كان مترجمًا وكان من معدودى البلغاء والبرعاء[3] » وقد

---

(١) انظر فى ترجمته الأوراق للصولى (أخبار الشعراء) ص ١٤٦ والجهشيارى ١٣١ ، ١٧٥

(٢) جمهرة رسائل العرب ٣ / ٩ .

(٣) الفهرست ص ١٧١ .

احتفظ له ابن طيفور فى كتابه « اختيار المنظوم والمنثور » بطائفة بديعة من رسائله، منها رسالة كتب بها إلى المهدى يعزيه عن أبيه ويهنئه بالخلافة، ويظهر أنه كتبها عن عمارة بن حمزة وفيها يقول[1]:

« أعظمُ بالمصيبة مصيبةٌ نزلتْ ، وأعظم بالنعمة نعمةٌ حدثتْ ، وإن أحق من انتصح لله فى قضائه واعترف بوجود حُسْن بلائه من علم أن الفجائع أمرٌ جرتْ به سُنَنَ الله بين عباده تذكيراً وتحذيراً . . ولولا ذلك لم يكن لمعزٍّ أن يروم تعزية أمير المؤمنين . . فعظَّم الله على الحادث النازل أجره ، وأحسن على الخلافة عوْنه ، ثم لا وكله الله فى شىء من الأمور إلى نفسه ، وألهمه العمل بما يرضيه ويبلغ به تأدية حقه ، فيما استرعاه واستحفظه وجعله أهله وأحقَّ به » .

ومن الكتّاب أيضا لعصر المنصور غسّان بن عبد الحميد كاتب[2] عمه سليمان بن على واليه على البصرة لسنة ١٣٣ للهجرة ، وفى الفهرست أنه كتب لابنه جعفر بن سليمان على المدينة سنة ١٤٦ للهجرة ويقول : « كان بليغا حلو الكلام لطيف المعانى[3] » واحتفظ له أيضًا ابن طيفور بطائفة جيدة من رسائله ، وأكثرها يدور فى التعزية ، ويظهر أنه كان يتقنها إتقانًا بعيداً على نحو ما نرى فى هذه القطعة من رسالة يعزى بها المهدىّ عن أبيه[4] :

« أما بعد فإن الله تبارك وتعالى جعل المقادير علما ثابتاً عنده وكتابًا سابقا منه ، فجرت عليه ومضت به الأمور فى قدرته، والعباد فى قبضته . وليس عَبْدٌ من عبيده إلا وقد كان عمره فى الدنيا موظوفا قبل خلقه ، وكان ما يصيبه منها مكتوبًا عليه قبل أن ينزل به ، ثم جعل أهل عبادته أهل حظوظ متكاملة فى السعادة وأهل فضائل متظاهرة فى الكرامة ، فاصطفى منهم أنبياءه، وانتجب منهم خلفاءه ، وألزمهم على ذلك الموت الذى لا بد منه وجعله الحياة لهم فيما عنده ، فكانت وفاة من توفِّى منهم له سعادةً فيما يصيِّرهم إليه وحياةَ مَنْ أحيا منهم له كرامة فيما يصطنعهم له، فيمضى الأول منهم سعيداً ويبقى الباقى منهم مصطنعا فلا تنقطع الدنيا بماضيهم إلا إلى خير منها ولا يبقى باقيهم إلا ليزداد خيراً فيها .

(١) جمهرة رسائل العرب ١٤٨/٣ .
(٢) الجهشيارى ص ١١٠ .
(٣) الفهرست ص ١٨٣ .
(٤) جمهرة رسائل العرب ١٤٩/٣ .

والماضى مفقود مستخلَف منه ، والباقى محمود مرضىّ به ، وأمر الرعية قائم معدول فيــه » .

وننتقل إلى عصر المهدى فنلتقى بأبى عبيد الله معاوية[١] بن عبيد الله بن يسار وكان المنصور ضمّه إليه حين أنفذه إلى الرىّ ليكتب له ويصدر عن رأيه ومشورته ، فلما ولى الخلافة استوزره وفوّض إليه الدواوين ، حتى إذا كانت ســنة ١٦٣ صرفه عن وزارته واقتصر به على ديوان الرسائل وما زال يليه حتى سنة ١٦٧ . ثم صرفه المهدى عنه أيضا ، ولم يلبث أن توفى سنة ١٧٠ للهجرة . وكان غزير العلم جذاب الحديث بارعاً فى القول ، ومن طريف ما رواه له الجاحظ قوله : « التماس السلامة بالسكوت أولى من التماس الحظ بالكلام ، وقمع نخوة الشرف أشد من قمع بَطر الغنى ، والصبر على حقوق النعمة أصعب من الصبر على ألم الحاجة ، وذل الفقر قاهرٌ لعز الصبر ، كما أن عز الغنى مانع من الإنصاف إلا لمن كان فى غريزته فضل كرم وفى أعراقه مناسبة لعلو الهمة[٢] » . وكان أهل الخراج يعذّبون بصنوف من العذاب : من السباع والزنانير والسنانير ، فكتب إلى جميع العمال برفع العذاب عنهم . وقد اشتهر ببراعته فى التحميدات التى كانت تصدّر بها الرسائل والكتب من مثل قوله[٣] :

« الحمد لله الذى جعل الإسلام رحمة قدّمها لعباده قبل خلقه إياهم واستيجابهم إياها منه ، فاصطفاه لنفسه وشَرعه لهم ديناً يدينون به ، ثم جعل تجديد وحيه ومتابعة رسله رحمة تلافاهم بها بعد تقديمها ومِنّة ظاهَرها عليهم قبل استيجابهم لها ، تطولا على العباد بالنعماء ، وإعذاراً إليهم بالحجج وتقدمةً بالوعد وإنذارا إليهم عواقب سخطه فى المعاد . والحمد لله الذى ابتعث محمداً صلى الله عليه وسلم بهداه وشرائع حقه على فترة من الرسل وطموسٍ من معالم الحق ودروسٍ من سُبل الهدى ، عند الوقت الذى بلغ فى سابق علمه ومقاديره أن يجتبى فيه لدينه الأصفياء ، ويختار له الأولياء ، الظاهرين بحقه القاهرين لمن ابتغى

(١) الجهشيارى ص١٢٦ وفى ثنايا حديثه عن أيام المهدى ووزرائه وكتابه ، وانظر فيه كتب التاريخ مثل الطبرى وابن الأثير والفخرى ص ١٣٤ .

(٢) الجهشيارى ص ١٥٦ .

(٣) جمهرة رسائل العرب ص ١٦٥ .

سبيلا غير سبيله ، فعظّم حُرْمته ووسّع حَوْزته وصدع بأمره وجاهد عن حقه في حَوْمات الضلالة وظلمات الكفر بالحق المبين والسراج المنير ، ثم جعله مصدقا لمن سبقه من الرسل ومجدداً لما بُعثوا له وهدى ورحمة »

ومن البلغاء المجيدين الذين كتبوا له في دواوينه إسماعيل بن صَبيح ومطرّف [١] ابن أبي مطرف العَبْدى الذى كان يتقلد ديوان الخراج ، ويظهر أن أبا عبيد الله كان يستعين به من حين إلى حين في كتابة بعض الرسائل الديوانية ، فما أثر له رسالة إلى بعض العمال كلها إعذار وإنذار على هذه الشاكلة [٢] :

« أما بعد فإن الله حبّب إلى كل مسلم شُعْبة من دينه ، فمنهم من حبّب إليه الصلاة فهو قانت آناء الليل ساجداً وقائمًا ، يَحْذَرُ الآخرة ويرجو رحمة ربه ، ومنهم من حبّب إليه الزكاة فهو ينفق ماله بالليل والنهار سرًّا وعلانية ابتغاء مرضاة الله وتثبيتًا من أنفسهم ، ومنهم من حبّب إليه الجهاد فهو بين المسلمين وبين عدوهم يذبُّ عن حريمهم ويقاتل مِنْ دونهم وفاءً بعهد الله وتسليما لبيعة الله ، فأما الراسخون في العلم ممن قد عرف سيرتك ، وما أبدى لهم الله من سريرتك ... فهم يعرضونك على الله في أدبار السجود وعند إدبار النجوم ويسألونه بآلائه مخلصين وبأسمائه مُلْحفين أن يصيبك بعذاب من عنده أو بأيديهم ، لما استحلّت جنودك من سفك الدماء ، وأباحت رسلك من حُرَم النساء ، ولظلمك اليتامى وافترائك على ذوى القُرْبى وتعريضك إياهم في فتوحك للعقاب والهلكة والخلاف والمعصية ، فويل لك ولكتّابك مما كتبتْ أيديكم وويل لكم مما تكسبون ، وقد وردتْ كتبك — بحمد الله — من أمير المؤمنين — على حلم لا يوهنه الغضب وعلى عمل لا يغيره الكذب وعلى إيمان لا يستخفّه الذين لا يوقنون » .

وواضح كثرة اقتباساته من ألفاظ الذكر الحكيم ، من مثل قوله تعالى : (أمّنْ هو قانت آناء الليل ساجداً وقائما) وقوله : (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرًّا وعلانية) وقوله : (ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة

---

(١) انظر في أخباره ترجمة ابنه عمر بن مطرف في معجم الأدباء ١٦/٧٢ والجهشيارى ص ١٦٦ .

(٢) جمهرة رسائل العرب ٣/٢١٣ .

الله وتثبيتاً من أنفسهم . .) وقوله : (ومن الليل فسبحه وأدبار السجود) (ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم) وقوله : (ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا) وقوله جل ذكره : (فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون) . وقد توفى مطرّف سنة ١٦٤ للهجرة وكان له ابن كاتب يسمى عمر [١] تقلد ديوان المشرق للمهدى والهادى وقلّده الرشيد ديوان الأزمّة .

ومن الكتاب الذين اشتهروا بالبلاغة فى عصر المهدى ، وربما لحقته هذه الشهرة فى عصر المنصور محمد[٢] بن حجر كاتب ولاة أرمينية والشام ، واتخذه العباس بن محمد أخو المنصور كاتباً له ، ولعله تعرف عليه فى أثناء نهوضه بقيادة الجيوش فى غزو الروم ، وقد كتب عنه رسالة إلى المهدى حين جعل ابنه الرشيد ولى عهده بعد أخيه الهادى سنة ١٦٣ وفيها يوثّق البيعة لولى العهد الجديد على هذا النمط[٣] :

« قد أتتنا بيعة هرون على حين ظمأ إليها وتطلُّع نحوها ، فتبادرتْها أكفُّنا ، وأسرع إليها شاهدنا وغائبنا وبايعنا بيعة رضوان من الله بصحة من نيّاتنا وسلامة من صدورنا ، مستبشرين ببيعتنا راغبين فيما صَفقت[٤] عليه أيماننا ، عارفين بأنها مُفْتَتَحُ نعمة ومقدمة فضيلة ودرجة فى الخير رفيعة مقدمين للسرور بها نُصْحَ الجُيوب[٥] باذلين للرجاء فيها ثمار القلوب » .

ونمضى إلى عصر الرشيد ، ويلقانا يحيى[٦] البرمكى ، أحد من جمع جمعاً رائعاً بين ثقافة العرب وثقافة الفرس ، وكان قلده المهدى الكتابةَ لابنه ، منذ جعله ولىَّ عهده ، والقيامَ على نفقاته وتدبير أمر الجيوش التى كان يقودها الرشيد ضد الروم . وحَسُنَ أثره عنده إلى أقصى غاية حتى إذا ولى الخلافة قلده أمور الرعية وسلمه خاتم الخلافة يأمر وينهى كما يشاء ويستعمل على الولايات والأعمال

(١) انظر ترجمته فى ياقوت ١٦/٧١ والفهرست ص ١٨٤ .
(٢) انظر ترجمته فى الفهرست ص ١٧٢ .
(٣) جمهرة رسائل العرب ٣/١٦٩ .
(٤) صفق يده بالبيعة : ضرب يداً بيد دلالة على التزامها .
(٥) ناصح الجيب : ناصح القلب والصدر .
(٦) انظر فى ترجمة يحيى كتب التاريخ فى خلافة الرشيد من مثل الطبرى وابن الأثير واليعقوبى وراجع الفخرى والجهشيارى ص ١٥٠ ، ١٦٨ وفى أيام الرشيد ، وراجع فى بلاغته وبلاغة أبنائه العقد الفريد ٥/٥٨ .

ويعزل كما يريد ، ولم يلبث الرشيد أن ولى ابنه جعفراً على المغرب كله من الأنبار إلى إفريقية وولّى ابنه الفضل على المشرق كله من النهروان إلى أقصى بلاد الترك ، وسبق أن تحدثنا عن ذلك كله فى الفصل الأول من فصول هذا الجزء ، ومضى ما نهض به البرامكة فى الشئون الإدارية والثقافية إلى أن نكبهم الرشيد فى سنة ١٨٧ للهجرة إذ أمر بقتل جعفر وحبس أبيه وأخيه الفضل حتّى ماتا فى الحبس .

وكان يحيى سَيوساً حصيفا دقيق الحس مهذب الذوق رقيق الشعور ، وحوّل مجلسه كما أسلفنا إلى ندوة علمية أدبية كبرى يتحاور فيها كبار العلماء من كل صنف ، وكان آية فى البلاغة والإيجاز ، وتوقف الجهشيارى مرارا ليروى بعض المأثور من كلامه من مثل قوله : « البلاغة أنْ تكلم كلَّ قوم بما يفهمون » وقوله لجعفر ابنه : « يا بنى انْتَقِ من كل علمٍ شيئاً فإنه من جهل شيئا عاداه وأنا أكره أن تكون عدوًّا لشىء من الأدب » وقوله : « الناس يكتبون أحسن ما يسمعون ويحفظون أحسن ما يكتبون ، ويتحدثون بأحسن ما يحفظون » وقوله : « العَجَبُ للسلطان كيف يحسن ، ولو أساء كل الإساءة لوجد من يزكّيه ويشهد بأنه محسن » وقوله : « لست ترى أحداً تكبَّر فى إمارة إلا وقد دل على أن الذى نال فوق قدره ، ولست ترى أحدا تواضع فى إمارة إلا وهو فى نفسه أكبر مما نال فى سلطانه » . وكتب إلى الرشيد لما نكبه وسجنه رسالة بليغة ، وفيها يقول(١) :

« من شخص أسلمتْه ذنوبه وأوثقتْه عيوبه ، وخذله شقيقه ، ورفضه صديقه ، ومال به الزمان ، ونزل به الحِدْثان(٢) ، فحلَّ فى الضيق بعد السعة وعالج البؤس بعد الدَّعة ، وافترش السخط بعد الرضا ، واكتحل السهاد بعد الهجود(٣) ، ساعته شهر ، وليلته دهر ، قد عاين الموت ، وشارف الفَوْت ، جزعا لموجدتك يا أمير المؤمنين وأسفا على ما فات من قربك » .

---

(١) العقد الفريد ٥/٦٨ وغرر الخصائص الواضحة للوطواط (طبعة بولاق سنة ١٢٨٤هـ) ص ٤٠٦ وجمهرة رسائل العرب ٣/٢٢١ .

(٢) الحدثان : نوازل الدهر ونوائبه .

(٣) الهجود : النوم .

وفى هذه العبارات المحبوكة المسجوعة ما يدل على عناية يحيى بتعبيره وحَوْكه الفنى ، ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن البرامكة كانوا من أهم العوامل فى شيوع السجع فى الكتابة الديوانية ، وحقا أنه لا يطرد دائمًا فى كتاباتهم ، ولكن نحس ميلهم الواضح له هم وبعض كُتابهم ومَنْ كانوا يكتبون إليهم .

وكان جعفر[١] لا يقل عن أبيه بياناً وفصاحة وبلاغة ، إن لم يتقدم فى ذلك خطوات ، وكان مثقفًا بمعارف عصره ثقافة واسعة وضمَّه أبوه إلى أبى يوسف القاضى فعلَّمه وفقَّهه حتى صار نادرة زمنه . وحظى عند الرشيد حظوة كبيرة لم ينلها أحد قبله ، حتى قتله سنة ١٨٧ لما ثبت عنده من إطلاقه يحيى بن عبدالله العَلَوىّ من سجنه ، على نحو ما مر بنا فى الفصل الأول . وكانت تُضْرَبُ ببلاغته الأمثال ووصفه ثُمامة بن أشرس فقال : « قد جمع الهدوء والتمهل والجزالة والحلاوة وإفهاما يغنيه عن الإعادة ، ولو كان فى الأرض ناطق يستغنى بمنطقه عن الإشارة لاستغنى جعفر عن الإشارة كما استغنى عن الإعادة[٢] » . ومن رسالة له فى العفو إلى أحد عماله[٣] :

« عندنا الاغتفار لما اقترفت ، وتصديقُ كل ما قلت ، واحتججت بذكره ، واعتذرت بوصفه ، والإسقاط لما جَحدته ، والإكذاب للجور الذى اقترفته ، والرجوع عما أنكرته ، والزيادة فيما اخترته ، استدعاءً لك وإن انصرفت ، وحياطة لما قدمت وإن ذُممتَ ، وإيثارًا للإغضاء والاحتمال فإنهما أبلغ فى الإصلاح ، وأنجع فى الاستنجاح ، وأسرع فى التعليم ، وأكبر فى التقويم ، إن احتيج إليه فى مثلك ممن تؤمن عليه قريحته ، وترده إلى الاستقامة تجربته »

والرساله مبنية على السجع ، وكان جعفر يؤثره فى كتاباته ، مبالغة منه فى التأنق والتنميق ، وهو تنميق كان يطلبه فى كل ما يتصل به حتى فى ثيابه[٤] .

وكثير هم الكتاب البلغاء الذين كتبوا فى دواوين الرشيد والبرامكة وفى مقدمتهم

(١) انظر فى جعفر كتب التاريخ فى خلافة الرشيد والجهشيارى (انظر الفهرس) .
(٢) البيان والتبيين ١ / ١٠٦ . وانظر وصف سهل بن هارون لبلاغته فى زهر الآداب ٢ / ٦٩ والعقد الفريد ٥ / ٥٨ .
(٣) جمهرة رسائل العرب ص ١٩٠ .
(٤) الجهشيارى ص ٢١٥ .

إسماعيل(١) بن صبيح وكان يكتب فى أول حياته لأبى عبيد الله معاوية بن عبيدالله ابن يسار وزير المهدى ورئيس دواوينه ، ولما ألحق المهدى يحيى البرمكى بابنه الرشيد اتخذه كاتبه ، حتى إذا ولى الهادى توسط له عند وزيره إبراهيم الحرانى فقلده ديوان زمام الشام وما يليها ، ولما صارت الأمور بيد يحيى فى عصر الرشيد قلده ديوان الخراج ، ولم يلبث أن قلده ديوان الرسائل ، وظلّ على هذا الديوان مدة فى عصر الأمين . ومما يؤثر له رسالة عن الرشيد إلى جميع العمال بما عقد بين ولديه الأمين والمأمون من العهد بعده وتعليق هذا العهد فى بيت الله الحرام ، وفيها يقول(٢) :

« قد كان من نعمة الله عز وجل عند أمير المؤمنين وعندك وعند عوامّ المسلمين ما تولى الله من محمد وعبد الله ابنى أمير المؤمنين من تبليغه بهما أحسن ما أمَّلت الأمة ومدَّتْ إليه أعناقها . وقذف الله لهما فى قلوب العامة من المحبة والمودة والسكون إليهما والثقة بهما لعماد دينهم ، وقوام أمورهم ، وجمع ألفتهم ، وصلاح دَهْمائهم ، ودفع المحذور والمكروه من الشتات والفرقة عنهم ، حتى ألقوا إليهما أزِمَّتهم وأعطوهما بيعتهم وصَفقات أيمانهم بالعهود والمواثيق ووكيد الأيمان المغلَّظة عليهم . أراد الله فلم يكن له مَرَدّ ، وأمضاه فلم يقدر أحد من العباد على نقضه ولا إزالته ، ولا على صَرْفٍ له عن محبته ومشيئته ، وما سبق فى علمه منه . وأمير المؤمنين يرجو تمام النعمة عليه وعليهما فى ذلك وعلى الأمة كافة ، لا عاقب لأمر الله ولا رادّ لقضائه ولا معقب لحكمه » .

ومن الكُتَّاب البلغاء الذين اتصل عملهم فى الدواوين من عهد المنصور حتى هذا العهد يوسف بن صبيح ، وقد عرضنا له آنفا ، وفى الجهشيارى أن يحيى البرمكى أمره بالكتابة إلى الآفاق بتولية الرشيد(٣) ، وفى الأوراق للصولى رسالة له عن الفضل بن يحيى فى حاجة لشخص إلى أحد العمال ، وهى تجرى على هذه الشاكلة(٤) .

---

(١) انظر فى اسماعيل الجهشيارى ص ١٥٠ ، ١٦٨ ، ٢٥٧ ، ٢٧٧ ، ٣٠١ وفى مواضع متفرقة .

(٢) الطبرى ٦/٤٨١ وما بعدها .

(٣) الجهشيارى ص ١٧٥ .

(٤) الأوراق للصولى (قسم الشعراء) ص ١٥٨ .

« فلان قد استغنى باصطناعك إياه عن تحريكى لك بأمره ، لأن الصنيعة حُرْمة المصطنَع وسيلة إلى مصطنعِه سيَّما عند من يحسن الصنيعة ويستتمها ، مستثبتا للشكر عليها والثناء الجميل بها ، بسط الله بالخير يديك ، ووصل به أسبابك وأعانك عليه وجعلك من أهله » .

ومن الكتاب المفوَّهين حينئذ محمد بن الليث ، وفيه يقول صاحب الفهرست : « كتب ليحيي بن خالد . . ويعرف بالفقيه وكان بليغا مترسلاً كاتباً فقيها متكلما بارعا[1] » . ومن أروع ما أُثر عنه رسالته[2] التى كتبها للرشيد إلى قسطنطين السادس إمبراطور بيزنطة ، وهى تمتد إلى نحو سبعين صحيفة ، وفيها يدعوه الرشيد إلى الإسلام ، وقد أفاض ابن الليث فى وصف رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم وما طُوِى فيها من الهدى للبشر وإنقاذهم من ظلمة الضلال ، كما أفاض فى وحدانية الله ورسالات الأنبياء وهيمنة الإسلام وسلطانه على تلك الرسالات والرسالة أشبه بدفاع قوى عن الإسلام وشريعته ، وكأن ابن الليث استمد فيها كثيراً مما كان يجادل به المتكلمون النصارى وأصحابَ الملل والنحل من حوله . وهو تارة يجادل بالمنطق وتارة يجادل بآيات الرسالة الباهرة ، ناقضًا ما يردده الرهبان من أن عيسى ابن الله وما يكررونه من نظرية الأب والابن والروح القدس ، مناقشا فى ثنايا ذلك آيات من الإنجيل ومن العهد القديم ، وملوِّحا بما سينزله الرشيد فى ديارهم من خراب ودمار ، وأن الروم لو تابعوه لعمّ مساكينهم وزُرَّاعهم وفقراءهم وضعفاءهم من العدل ما يجعلهم يعيشون فى أمن وسلام ، ولذاقوا لذة الخفض ودعة الحال ورفاهية العيش والرخاء ، ولاستقاموا على الشريعة الصحيحة والتوحيد القويم . ويروى الرواة أن جعفر بن يحيي كتب إلى محمد بن الليث يستوصفه الخطَّ ، فكتب إليه رسالة بديعة فى الخط والقلم على هذا النمط[3] :

« أما بعد فليكن قلمك بحريًّا ، لا متينا ولا رقيقا ما بين الرقة والغلظ ، ضيق الثقْب ، وابْرِه بَرْيًا مستويا كمنقار الحمامة ، واعطِفْ بطنه ورقِّقْ شفتيه ، وليكن مدادُك فارسيًّا خفيفا إذا وزنته ، وانقعْه ليلة ، ثم صَفِّه فى

(١) الفهرست ص ١٧٥ .

(٢) انظر فى هذه الرسالة جمهرة رسائل العرب ٣/٢٥٢ .

(٣) العقد الفريد ٤/١٩٥ .

الدَّواة ، وليكن قرطاسك رقيقا مستوىَ النَّسْج ، تخرج السَّحاة[١] مستوية من أحد الطرفين إلى آخره ، فليست تستقيم السطور إلا فيما كان كذلك ، وليكن أكثر تمطيطك فى طرف القرطاس الذى فى يسارك ، وأقله فى الوسط ، ولا تَمْطُطّ فى الطرف الآخر ، ولا تمط كلمة ثلاثة أحرف ولا أربعة ، ولا تترك الأخرى بغير مَطّ ، فإنك إذا قرنت القليل كان قبيحًا ، وإذا جمعت الكثير كان سَمِجًا . ثم ابتدىء الألف برأس القلم كله واخْطُطْه بعرضه واختمه بأسفله . واكتب الياء والتاء والسين والشين والمطَّة العليا من الصاد والضاد والطاء والظاء والكاف والعين والغين ورأس كل مُرْسَل برأس القلم . واكتب الجيم والحاء والخاء والدال والذال والراء والمطة السفلى من الصاد والضاد والطاء والظاء والكاف والعين والغين بالسن السفلى من القلم . وامْطُطْ بعرض القلم ، والمط نصف الخط ، ولا يقوى عليه إلا العاقل ، ولا أحسب العاقل يقوى عليه أيضا إلا بالنظر إلى اليد فى استعمالها الحركة ، والسلام » .

وإنما نقلنا هذه الرسالة بطولها ، لندل على مدى احتفال الكتاب باختيار الأقلام وبجودة الخط ، حتى تجرى الأقلام فى القراطيس جريان الماء ، وحتى يروع الخط برونقه وبهائه ، وحتى الحروف ومطاتها العليا والسفلى ، كل ذلك يُكْتب بقسطاس. ولا بد من أن تكون السطور معتدلة متناسقة، وقطع القراطيس مقطوعة بانتظام ، حسنة النسج والهندام ، ولا بد للكاتب من أن يراعى مواضع سِنّ القلم من كتابة الحروف ، ولا بد من أن يراعى التوازن فى مدات هذه الحروف ومطاتها . وبأيدى محمد بن الليث وغيره من الكتاب فى العصر العباسى تطوّر الخط العربى وارتقت صناعته رقيا بعيداً ، وهو رقى كان يرافق احتفالهم بألفاظهم وأساليبهم ومعانيهم حتى تصبح الكتابة كأنها وَشْىٌ خالص ، وَشْىٌ فى العين ، ووَشْىٌ فى السمع ، ووَشْىٌ فى العقل والذهن .

وكان يكتب لجعفر بن يحى البرمكى أنس بن أبى شيخ ، وقد سلكه ابن النديم فى البلغاء العشرة الأُوَل فى العصر ، وفيه يقول الجاحظ : « كان زكيا فَهِمًا نقى الألفاظ جيد المعانى حسن البلاغة[٢] » وعدَّه الرشيد شريك جعفر

(١) السحاة : القطعة من القرطاس .
(٢) الجهشيارى ص ٢٣٩ .

فى إثمه ، فلما قتله أذاقه نفس المصير وصلّبه . ويُؤْثر من تحميداته قوله[١] :

« الحمد لله الذى بالقلوب معرفته ، وبالعقول حُجّته ، الذى بعث محمداً صلى الله عليه أميناً فوفّى له ، ومبلّغًا فأدّى عنه ، فحجّ به المنكر ، وتألّف به المدبر ، وثبّت به المستبصر ، إلى أن توفّاه على منهاج طاعته ، وشريعة دينه ثم أورثكم عهده ، وخصّكم بكلمة التقوى ، وجعلكم الأمة الوسطى » .

والسجع واضح فى هذا التحميد ، ولعل فى ذلك ما يؤكد من بعض الوجوه ما قلنا من أن البرامكة أشاعوا فى كتّاب دواوينهم ذوق التسجيع ، وإن لم يطّرد فى جميع رسائلهم وآثارهم ، لكنه على كل حال أخذ يشيع فى كتاباتهم ، وقد عمل فى دواوينهم ودواوين الرشيد كثير من الكتّاب الذين لمعت أسماؤهم فيما بعد مثل الفضل بن سهل وأخيه الحسن ومثل سهل بن هرون وعمرو بن مسعدة .

ومن الكتاب الذين اشتهروا فى عهد الرشيد قمامة بن أبى يزيد، وكان يكتب أولاً لصالح[٢] بن على ، ثم أصبح كاتباً للقاسم[٣] بن الرشيد ، ثم اختص بعبد الملك بن صالح والى الرشيد على الجزيرة والشام ومصر . وسعى على عبد الملك إلى الرشيد وثبت كذبه فقتله صبرا سنة ١٧٨ للهجرة . وكان لسناً فصيحا بليغًا، ومما أثر له قوله من رسالة وجهها — فيما يبدو — عن عبد الملك بن صالح إلى الرشيد[٤] :

« كل ما قِبَلنا وما يتناهى إلينا من ثغور أمير المؤمنين وأطرافه وبلاده أقصاها وأدناها فى صلاح ذلك كله واستقامته وهدوئه على أفضل ما عوّد الله أمير المؤمنين فيه العلوّ والعافية ، وأنا أحتذى فيه من أمير المؤمنين أمرين : إما تقدمة عرّفنى فيها رأيه فأنا ألزمها ولا أعدل عنها ، وإما أثر قد نهجه أمير المؤمنين فأنا أركبه وأتبعه ولا أفارقه . فعلى هذا — بحول الله — قوتى ومعتمدى ، قد كفى الله به فى الهداية ، وأعطى فيه الخير والمنّ والسعادة ، فله الحمد والشكر » .

وممن عُرفوا لعصر الرشيد بالكتابة البليغة جعفر بن محمد بن الأشعث ، وكان

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٣ / ١٩١ .

(٢) الجهشيارى ص ٢٦٢ وانظر الفهرست ص ١٧٣ .

(٣) الجهشيارى ص ٢٦٥ .

(٤) جمهرة رسائل العرب ٣ / ٣٣٨ .

الرشيد جعل ابنه الأمين فى حِجْره ثم جعله فى حجر الفضل[١] بن يحيى البرمكى، وولاه على خراسان ثم صرفه عنها سنة ١٧٣ للهجرة[٢]، ولعله لذلك كله كان يضطغن على يحيى البرمكى ويُرْوَى أن يحيى حاول أن يسند إليه بعض الأعمال فكتب إليه يستعفيه برسالة يقول فيها[٣]:

« شكرى لك على ما أسألك الخروج منه شكر من نال الدخول فيه، فأما عذرى فى تطويل الكتاب إليك فلم يذهب. على أن وجوه الحوائج قد يكثر الكلام فيها وتشتد قراءتها، وإن من الحق على الراغب الاكتفاء ببعض ما بلغ، وإن نفسى جاشت بعظيم حاجتها ».

ومن الكتّاب لعصر الرشيد أيضا عمر بن مهران كاتب[٤] الخيزران أم الرشيد، وقد ولاه الرشيد على خراج مصر سنة ١٧٦ للهجرة وكان بعض أهلها قد اعتادوا المَطْل بالخراج وكسره، فأحضر عمر أشدهم مدافعة وإلطاطا[٥] فاستمهله مدة، فأمهله، ثم طالبه ثانية، فأقسم عمر أن لا يؤديه إلا ببغداد. وسرعان ما قدم له الخراج فلم يقبله منه، وحمله إلى بغداد فأدّى الخراج بها، وخاف الماطلون، فأدّوا خراجهم، وكتب عمر مع الرجل إلى الرشيد[٦]:

« إنى دعوت بفلان وطالبته بما عليه من الخراج فلوانى واستنظرنى[٧]، فأنظرته ثم دعوته فدافع ومال إلى الإلطاط، فآليت أن لا يؤديه إلا فى بيت المال بمدينة السلام، وجملة ما عليه كذا وكذا، وقد أنفذته مع فلان، فإن رأى أمير المؤمنين أن يكتب إلىّ بوصوله فعل إن شاء الله ».

ونخرج إلى عصر الأمين، ويتولى وزارته ورياسة دواوينه الفضل بن الربيع، ويظل إسماعيل بن صبيح على ديوان الرسائل، ويروى الطبرى أنه لما عزم الأمين على خلع المأمون أشار عليه إسماعيل أن يكتب إليه بحاجته له للاستعانة برأيه ويسأله القدوم عليه، فقال الفضل للأمين: القولُ ما قال يا أمير المؤمنين، قال

(١) الجهشيارى ص ١٩٣.
(٢) النجوم الزاهرة ٧٢/٢.
(٣) كتاب الصناعتين لأبى هلال (طبعة الحلبى) ص ٣٣٨ وانظر الجهشيارى ص ١٧٩.
(٤) الجهشيارى ص ٢١٨ وانظر النجوم الزاهرة ٧٨/٢ وما بعدها.
(٥) إلطاطاً: جحوداً ومماطلة.
(٦) طبرى ٤٥٩/٦.
(٧) لوانى: مطلنى. استنظرنى: استمهلنى وأجلنى.

الأمين فليكتبْ بما رأى ، فكتب إليه الرسالة التالية[١] :

« من عند الأمين محمد أمير المؤمنين إلى عبد الله بن هرون أمير المؤمنين ، أما بعد فإن أمير المؤمنين روّى[٢] فى أمرك والموضع الذى أنت فيه من ثَغْرك وما يؤمل فى قربك من المعاونة والمكانفة[٣] على ما حمّله الله وقلّده من أمور عباده وبلاده ، وفكر فيما كان أمير المؤمنين الرشيد أوجب لك من الولاية وأمر به من إقرارك على ما تصيَّر إليك منها . ورَجَا أمير المؤمنين أن لا يدخل عليه وَكَفٌ[٤] فى دينه ، ولا نكث فى يمينه إذ كان إشخاصه إياك فيما يعود على المسلمين نفعه ، ويصل إلى عامتهم صلاحه وفضله . وعلم أمير المؤمنين أن مكانك بالقرب منه أسدُّ للثغور ، وأصلح للجنود ، وآكد للفَيْء ، وأردُّ على العامة ، من مقامك ببلاد خراسان ، منقطعًا عن أهل بيتك ، متغيبًا عن أمير المؤمنين وما يجب الاستمتاع به من رأيك وتدبيرك . . فاقْدم على أمير المؤمنين على بركة الله وعَوْنه ، بأبسط أمل ، وأفسح رجاء ، وأحمد عاقبة ، وأنفذ بصيرة ، فإنك أولى من استعان به أمير المؤمنين على أموره ، واحتمل عنه النَّصَب فيما فيه صلاحُ أهل بيته وذمته ، والسلام .

والرسالة تحمل خصائص إسماعيل وما كان يعنى به فى كتابته من إجادة القول وإتقانه ، وهى إجادة تُرَدُّ إلى دقته فى اختيار الألفاظ والصياغات بحيث تصبح مظهراً للجمال الفنى الأدبى ، وبحيث يجد فيها السامع من لذة الكلام ما يمتعه ويروعه .

ومن الكتّاب البلغاء الذين عملوا فى دواوين الأمين موسى[٥] بن عيسى بن يزدانيروذ ، وقد احتفظ ابن طيفور برسالة له إلى الأمين يتحدث فيها عن موسم الحج وسلامته ودَعته ، وهى تجرى على هذا النمط[٦] .

« أما بعد فإن الله بحمده ومَنّه هو ولىّ أمير المؤمنين وولىّ النعمة عليه فيما حمّله واستحفظه ، وجعله القائم به والمحافظ عليه ، من ولاية دينه ورعاية أهله ،

(١) الطبرى ١١/٧ .
(٢) روى : فكر .
(٣) المكانفة : المساعدة .
(٤) وكف : عيب وفساد .
(٥) الجهشيارى ص ٢٨٩ .
(٦) جمهرة رسائل العرب ٣/٣٥٠ .

والمرجوُّ لإتمام ذلك بمنّه ورحمته . وإني كتبت إلى أمير المؤمنين يوم النَّفْر الأول ، وقد قضى الله مناسكنا ، وتمّم حَجّنا ، وأرانا في مواقفنا وإفاضتنا ومَنْ حضر الحج معنا من رعيّة أمير المؤمنين أفضل ما لم يزل يُبْلِي[1] الله أمير المؤمنين ويعوّده ويُبْلي الرعية في خلافته من السلامة والعافية والتوفيق والكفاية ، والله المحمود. ولم أر موسما كان أعمّ عافية وسلامة ، وأحسن هَدْيًا ودعة ، وأكثر داعيا لأمير المؤمنين وولىّ عهده بطول البقاء من موسم الناس في عامهم هذا بنعمة الله وفضله . أحببتُ الكتاب إلى أمير المؤمنين لمعرفتي بعنايته وتطلعه إلى عمله ، ليُسَرّ به ، ويحمدَ الله عليه ويشكره ، فإنه يحب الشاكرين » .

وسرعان ما يخلف المأمون الأمين ، وفي عصره تبلغ الكتابة الديوانية الذروة المنشودة ، فقد تكاثر الكتاب البارعون وتكاثرت آثارهم ، واتضح فيها نزعة قوية إلى العناية بالجمال الفني والتدقيق في المعاني أشد التدقيق . وأول من نلقاه من هؤلاء الكتاب البارعين الفضل بن سهل وأخوه الحسن وزيرا المأمون ، وكان سهل مجوسيًّا وأسلم على يد يحيي البرمكي وأصبح من أتباعه ، فأحضر له ابنيه الفضل والحسن ، فأعجب بهما يحيي وطلب إلى الفضل أن ينقل له كتابا من الفارسية إلى العربية فأعجب بنقله وجودة عبارته ووصله بابنه جعفر ووصل الحسن بابنه الفضل[2] ، ولم يلبث جعفر أن ضَمّ الفضل إلى المأمون ، فأسلم على يديه وغلب عليه بحصافة رأيه وسعة عقله وبلاغته ، حتى إذا أنفذه أبوه إلى مرو أصبح أمر المأمون كله بيده . ولما احتدم النزاع بينه وبين الأمين وخلعه من ولاية العهد قام على تدبير أموره خير قيام ، من تنظيم للجيوش بقيادة طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين ، ومن حسن سياسة ودقة تصريف لشئون المأمون في ولايته حتى تم له القضاء على أخيه وصارتْ له الخلافة . وقد عقد له المأمون في سنة ١٩٦ والنزاع بينه وبين أخيه على أشده على الشرق طولا وعرضًا ولقّبه ذا الرياستين : رياسة السيف ورياسة القلم والتدبير ، ويظهر أنه كانت فيه ميول شيعية فقد

---

(١) يبلى هنا : ينعم ويحسن .

(٢) انظر في ترجمة الفضل بن سهل كتب التاريخ والوزراء والكتاب للجهشياري ص٢٢٩ وفي مواضع متفرقة والفخري ص ١٦٥ وزهر الآداب ٢/١٤ .

دفع المأمون فى سنة ٢٠١ إلى البيعة بولاية العهد من بعده لعلوى كان يعظمه المأمون ويبجله ويتخذه رفيقا ، هو على الرضا ، وكتب بذلك إلى الآفاق . فغضب آله العباسيون ببغداد ، وبايعوا إبراهيم بن المهدى بالخلافة ، فعزم المأمون على المبادرة إلى بغداد ، وفى طريقه إليها قُتل الفضل بسَرَخْس ، وفتك المأمون بقتلته ، ولم يلبث على الرضا أن توفِّى بطوس ، وعادت ولاية العهد إلى العباسيين . وتُرْوَى للفضل كلمات كثيرة مأثورة ، ومما رُوى له من رسائله الرسالة التالية وقد وجَّه بها مع جائزة منحها لبعض خاصَّته ، وفيها يقول[١] :

« قد وجهت إليك بجائزة لا أعظمها تكبْراً ، ولا أقلّلها تجبراً ، ولا أقطع لك بعدها رجاء ، ولا أستثيبك عليها ثناء » .

أما الحسن[٢] أخوه فقد ولاه المأمون دواوين الخراج فى سنة ١٩٦ للهجرة ، وفى سنة ١٩٩ جعله نائبه فى بغداد ، فقدم إليها وفرق عُمَّاله على البلاد ، ولما مات أخوه الفضل اتخذه وزيراً له بعده ، حتى إذا تزوج ابنته بوران سنة ٢٠٧ طلب منه أن يعتزل الوزارة ، فأعفاه . وظل وافر الحُرْمة حتى توفى بسَرَخْس سنة ٢٣٦ للهجرة . وكان لا يقلّ عن أخيه لَسَنًا وبلاغة ، وله رسالة بديعة كتب بها إلى محمد بن سَماعة قاضى بغداد فى اختيار شخص يتولَّى بعض أموره وقد وصف له فيها الخصال التى ينبغى أن يشتمل عليها ، وهى تجرى فى هذه الصورة[٣] :

« أما بعد فإنى احتجت لبعض أمورى إلى رجل جامع لخصال الخير ذى عفّة ونزاهة طُعْمَة[٤] ، قد هذبته الآداب وأحكمته التجارب ، ليس بظنين فى رأيه ، ولا بمطعون فى حسبه ، إن اؤتمن على الأسرار قام بها ، وإن قُلِّد مهمًّا من الأمور أجزأ[٥] فيه ، له سِنٌّ مع أدب ولسان ، تُقْعده الرزانة ، ويسكّنه الحلم ، قد فُرَّ[٦] عن ذكاء وفطنة ، وعَضّ على قارحة[٧] من الكمال ، تكفيه

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٢/٣٤٢ .

(٢) انظر فى الحسن كتب التاريخ والفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٦٧ والجهشيارى ص ٢٣٠ وفى مواضع متفرقة وزهر الآداب ٤/٢٥ .

(٣) الأمالى للقالى ١/٢٥٣ .

(٤) طعمة : مكسب .

(٥) أجزأ : أغنى وكفى .

(٦) فر : اختبر وجرب .

(٧) قارحة هنا : تجربة ناضجة .

اللحظة ، وتُرْشده السكتة ، قد أبصر خدمة الملوك وأحكمها وقام فى أمورهم فحُمِدَ فيها . له أناةُ الوزراء، وصولة الأمراء ، وتواضع العلماء، وفهم الفقهاء، وجواب الحكماء ، لا يبيع نصيبَ يومه بحرمان غده ، يكاد يسترقُ قلوب الرجال بحلاوة لسانه وحسن بيانه ، دلائل الفضل عليه لائحة ، وأمارات العلم له شاهدة ، مضطلعا[1] بما استنْهض ، مستقلا[2] بما حمل . وقد آثرتك بطلبه ، وحبوتك بارتياده ، ثقة بفضل اختيارك ، ومعرفة بحسن تأتّيك » .

وتلك الخصال فى الواقع كانت حينئذ الخصال المنشودة فيمن يتولّون أعمال الدواوين ، وخدمة الوزراء والخلفاء ، وهى ترينا ما كان يُطْلَبُ فى الكاتب من ثقافة واسعة ومن حصافة وتهذيب فى الذوق وحلم وأناة وذكاء وقدرة على تصريف الأمور وإحسان للجواب ولباقة فى الخطاب وبلاغة فى الكلام بحيث يجذب القلوب والأسماع إليه ، بل بحيث يسترق أفئدة الرجال ويستولى على عقولهم استيلاء .

ومن الكتّاب الذين طارت شهرتهم فى دواوين المأمون أحمد بن يوسف وعمرو بن مسعدة ، وسنتحدث عنهما فى الفصل التالى ، وكان وراءهما كثيرون لم يبلغوا مبلغهما فى الشهرة ، منهم محمد بن يزْداد « وكان بليغا مترسلا شاعراً » وله رسائل مجموعة[3] ، ومنهم محمد[4] بن سعيد ، ومنهم على بن عبيدة الريحانى الكاتب وكان أديباً فصيحا بليغا صنّف الكتب فى الحكم والأمثال واختص بالمأمون[5] .

وفى مقدمة القواد والولاة الذين اشتهروا بالكتابة البليغة فى عصر المأمون طاهر[6] بن الحسين ، وهو الذى قاد جيوش المأمون ضد أخيه الأمين وحاصره ببغداد حتى ظفر به وقتله فى سنة ١٩٨ للهجرة . وولاه المأمون خراسان والمشرق سنة ٢٠٥ ولم يلبث أن توفى سنة ٢٠٧ ، وله وصية طويلة كتب بها إلى ابنه عبد الله حين ولاه المأمون الرّقة سنة ٢٠٦ وهى أشبه بدستور للحكم القويم والحاكم الرشيد ، وقد وزعها بين ما يجب على الحاكم فى دينه وخلقه وما يجب عليه فى

---

(١) مضطلعاً : ناهضاً .

(٢) مستقلا : محتملا فى قوة .

(٣) الفهرست ص ١٧٩ .

(٤) الفهرست ص ١٨٢ .

(٥) النجوم الزاهرة ٢٣١/٢ وانظر الفهرست ص ١٧٣ وزهر الآداب ١٢٢/٢ .

(٦) انظر فى طاهر كتب التاريخ ووفيات الأعيان لابن خلكان ٢٩٥/١ .

سيرته مع حاشيته وخاصته ومع الجند والرعية ، استهلها بحديثه عما ينبغى على ابنه من تقوى الله وطاعته والأخذ بسنة رسوله واقتفاء آثار السلف الصالح من بعده ، ثم نصحه بالاقتصاد فى أموره وعدم الريبة فى عماله مع المسألة عن شئونهم ، وأمره بالحياطة للرعية وإقامة حدود الله ، والنظر فى استصلاح العامة وعمارة ديارهم وبلادهم وانتظام معايشهم ، كما أمره بتفقد الجند ورواتبهم والعناية بهم وبالقضاء الذى به يستقيم العدل والأمن ، والعناية بالخراج وعدم الشطط فى تقديره ، والعناية بأمور الفقراء والمساكين بتعاهد ذوى البؤس منهم واتخاذ دور يأوى إليها فقراؤهم وأطباء يعالجون أسقامهم ، مع العمل بشريعة الله ، ومع تصفح الأعمال والعمّال وما ينبغى أن يكونوا عليه من العون فى سياسة أمير المؤمنين ، ومن قوله فى تضاعيفها[1] :

« اعلمْ أنك جُعلت بولايتك خازنا وحافظا وراعيًا ، وإنما سُمّى أهل عملك رعيتك لأنك راعيهم وقيّمهم تأخذ منهم ما أعطوك من عفوهم ومقدرتهم وتنفقه فى قِوام أمرهم وصلاحهم وتقويم أوَدهم ، فاستعملْ عليهم فى كُوَر عملك ذوى الرأى والتدبير والتجربة والخبرة بالعمل والعلم بالرياسة والعفاف ووسّع عليهم فى الرزق فإن ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت وأُسند إليك ، ولا يشغلنّك عنه شاغل ، ولا يصرفنّك عنه صارف ، فإنك متى آثرته وقمت فيه بالواجب استدعيتَ به زيادة النعمة من ربك وحُسْن الأحدوثة فى عملك واحترزتَ النّصَحة من رعيتك وأعنتَ على الصلاح فدرّت الخيرات ببلدك ، وفشت العمارة بناحيتك ، وظهر الخصب فى كُوَرِك ، فكثر خراجك وتوفرت أموالك وقويتَ بذلك على ارتباط جندك وإرضاء العامة بإفاضة العطاء فيهم عن نفسك وكنت محمود السياسة مرضيّ العدل . . واستعمل الحزم فى كل ما أردت ، وباشرْ بعد عون الله بالقوة ، وأكثر استخارة ربك فى جميع أمورك وافرُغْ من عمل يومك ولا تؤخره لغدك ، وأكثرْ مباشرته بنفسك ، فإن لغد أمورًا وحوادث تلهيك عن عمل يومك الذى أخرت ، واعلمْ أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه ، فإذا أخرت عمله اجتمع عليك أمرُ يومين ، فشغلك ذلك حتى تُعرض عنه ،

---

(١) تاريخ الطبرى ٧/١٦٠ وما بعدها .

فإذا أمضيت لكل يوم عمله أرحت نفسك وبَدنك وأحكمت أمور سلطانك »

وشاعت هذه الوصية فى الناس ، فكتبوها وتدارسوها ، وسمع بها المأمون ، فطلبها ، ولما قرأها قال ما أبقى طاهر شيئًا من أمر الدين والدنيا والتدبير والرأى والسياسة وإصلاح الملك والرعية وحفظ البَيْضة وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة إلا وقد أحكمه وأوصى به . وأمر أن تكتب منها نسخٌ وترسَل إلى جميع العمال فى نواحى الأعمال .

وكان ابنه عبد الله[1] بارع الآداب حسن الشعر ، وقد عُنى بتأديبه فى صغره ، واختلافه إلى حلقات المحدثين والفقهاء ، وكانت فيه نزعة قوية إلى الفنون ، فلم يكتف بالشعر ، بل حذق بجانبه الموسيقى ، وروى أبو الفرج أصواتا تؤثر له . وقلده المأمون الأعمال الجليلة ، فجلَّى فيها ، وكان أول ما قلَّده الجزيرة والرقة ، فقمع المفسدين فيهما ، ثم ولاه مصر سنة إحدى عشرة ومائتين فلمَّ ما كان بها من شعث ومهَّدها ورتب شئونها ، حتى إذا انتظمت أمورها غادرها سنة اثنتى عشرة ومائتين مستخلفا عليها عيسى بن يزيد الجلودى . وتوفى أخوه طلحة والى خراسان فولاه المأمون عليها سنة ٢١٣ وظلت له ولايتها حتى توفى سنة ٢٣٠ . وكان بحرا فياضًا ، كما كان كاتبا بارعا ، وله أمان طريف[2] كتبه فى ولايته على الجزيرة لنصر بن شبث حين ضَيَّق عليه وعاذ بالأمان وطلبه ، ويقال إنه لم يطلبه إلا بعد أن كتب إليه وقد اعتصم منه بأحد الحصون[3]

« اعتصامك بالقِلال[4] ، قيَّد عزمك عن القتال ، والتجاؤك إلى الحصون ، ليس ينجيك من المَنون ، واستَ بمفلت من أمير المؤمنين فإما فارس مطاعن أو راجل مستأمن » . فلما قرأ هذه الرسالة حَصِره الرعب عن الجواب ، فلم يلبث أن طلب الأمان وخرج من حصنه إلى عبد الله بن طاهر مستأمنا صاغراً ، فوجَّه به إلى بغداد .

ونمضى إلى عصر المعتصم والواثق ، وفيه يتألق فى الكتابة البليغة اسم ابن

---

(١) انظر فى ترجمة عبد الله كتب التاريخ والنجوم الزاهرة ١٩١/٢ وما بعدها ووفيات الأعيان ٣٢٧/٢ .

(٢) تاريخ الطبرى ١٧٣/٧ .

(٣) زهر الآداب ١٢٦/٤ .

(٤) القلال : أعالى الجبل .

الزيات وزيرهما ، وسنخصه بحديث مفصل فى الفصل التالى ، وممن اشتهر ببلاغته حينئذ إبراهيم بن العباس الصولى ، وقد عمل فى دواوين المأمون ووزيره الحسن بن سهل، وتولى الأهواز حينا من الزمن وعزله عنها ابن الزيات ، فوجَّه إليه باستعطافات طريفة ، ونحن نؤخر الحديث عنه إلى العصر العباسى الثانى ، إذ تولى ديوان الرسائل فيه للمتوكل وكتب عنه كثيراً ، مما يجعله أحق بوضعه فيه . وقد تولى ابن الزيات وزارة المعتصم وعلى ديوان الرسائل عبد الله بن الحسن الأصبهانى ويروى صاحب[1] الأغانى أنه كتب عن المعتصم إلى قائده وواليه على أرمينية خالد ابن يزيد بن مزيد :

« إن المعتصم أمير المؤمنين ينفخ منك فى غير فَحْم، ويخاطب امرءًا غير ذى فهم » .

فقال محمد بن عبد الملك الزيات : هذا كلام ساقط سخيف جعل أمير المؤمنين ينفخ بالزِّق كأنه حدّاد . وأبطل الكتاب. ثم كتب محمد بن عبد الملك إلى عبد الله بن طاهر :

« وأنت تجرى أمرك على الأربح فالأربح ، والأرجح فالأرجح ، لا تسعى بنُقْصان ، ولا تميل برُجْحان » فقال عبد الله الأصبهانى : الحمد لله ! قد أظهر من سخافة اللفظ ما دل على رجوعه إلى صناعته من التجارة[2] ، بذكره ربح السلع ورجحان الميزان ونقصان الكيل والخسران من رأس المال . فضحك المعتصم وقال : ما أسرع ما انتصف الأصبهانى من محمد ، وحقدها عليه ابن الزيات حتى نكبه » .

واستخدم ابن الزيات بعده على ديوان الرسائل الحسن[3] بن وهب ، وهو من بيت قديم فى الكتابة إذ خدم أجداده فى دواوين الأمويين، جدًّا بعد جد ، حتى إذا آلت الخلافة إلى العباسيين توالى أجداده يعملون فى دواوينهم . وقد كتب جده سعيد وأبوه وهب للبرامكة ، وعمل وهب فى دواوين الفضل بن سهل

(١) انظر الأغانى ٢٠/٤٩ .
(٢) يشير إلى حرفة أبيه إذ كان تاجراً بالكرخ .
(٣) انظر فى أخبار الحسن بن وهب وترجمته الفهرست ص ١٧٧ وترجمته أخيه سليمان فى ابن خلكان والأغانى ٢٠/٦٧ .

وأخيه الحسن وتوفّى قبل دخول المأمون بغداد ، وعمل ابنه سليمان فى دواوين المأمون . ولا نشك فى أن الحسن أخاه هو الآخر اشتغل فى تلك الدواوين ، وعرف ابن الزيات حذقه فى الكتابة فأسند إليه ديوان الرسائل ، ونهض به خير نهوض ، ويقول ابن النديم : « كان شاعراً مترسلا فصيحا وأحد ظرفاء الكتاب ، وله ديوان كتاب رسائله » . وقد عاش شطراً فى العصر العباسى الثانى ، ولكنه أُبْعد عن الديوان منذ نكبة ابن الزيات لأول عصر المتوكل ، ولذلك لم نؤخره إلى هذا العصر ، فنشاطه الكتابى إنما كان فى وزارة ابن الزيات وعصر المعتصم والواثق . ومع ذلك ليس بين أيدينا رسائل ديوانية له ، سوى ما تبادله مع ابن الزيات فى المودة والتزاور والشكر ، وهما تارة يتكاتبان شعراً وتارة يتكاتبان نثْراً ، وله بجانب ذلك بعض رسائل فى التعزية ، ونحن نسوق له رسالة فى الشكر لندل بها على مقدار بلاغته وحسن بيانه ، وهى تجرى على هذا النمط[1] :

« من شكرك على درجة رفعته إليها ، أو ثروة أفدته إياها ، فإن شكرى لك على مهجة أحييتها وحشاشة[2] أبقيتها ، ورمق أمسكت به وقمت بين التلف وبينه ، فلكل نعمة من نعم الدنيا حد يُنْتَهى إليه ، ومَدًى يوقف عنده ، وغاية من الشكر يسمو إليها الطرْف ، خلا هذه النعمة التى قد فاقت الوصفَ ، وطالت الشكر وتجاوزت كل قَدر ، وأنت من وراء كل غاية . رددتَ عنا كيد العدو ، وأرغمت أنف الحسود ، فنحن نلجأ منك إلى ظل ظليل وكنَف كريم ، فكيف يشكر الشاكر وأنَّى يبلغ جهد المجتهد » .

ولم نتحدث حتى الآن عن التوقيعات ، وهى عبارات موجزة بليغة ، تعودّ ملوك الفرس ووزراؤهم أن يوقّعوا بها على ما يقدَّم إليهم من تظلمات الأفراد فى الرعية وشكاواهم ، وحاكاهم خلفاء بنى العباس ووزراؤهم فى هذا الصنيع ، وكانت تشيع فى الناس ويكتبها الكتَّاب ويتحفظونها ، وقد سموا الشكاوى والظلامات بالقصص لما تحكى من قصة الشاكى وظلامته ، وسموها بالرقاع تشبيها لها برقاع الثياب . ودارت فى الكتب الأدبية توقيعات كثيرة أُثرت لكل خليفة عباسى وكل وزير خطير ، من ذلك توقيع السفاح فى كتاب جماعة من

---

(١) العقد الفريد ٢٣٣/٤ .
(٢) الحشاشة : بقية الروح .

بطانته يشكون احتباس أرزاقهم : « من صبر في الشدة شارك فى النعمة[١] »، وتوقيع المنصور على شكوى لأهل الكوفة من عاملهم « كما تكونون يؤمَّر عليكم[٢] » وتوقيع المهدى لشاعر : « أسرفت فى مديحك فقصَّرنا فى حِبائك[٣] » وتوقيع الرشيد على رسالة لوالى خراسان : « داوِ جرحك لا يتسع[٤] » وتوقيع المأمون على قصة متظلم : « ليس بين الحق والباطل قرابة[٥] » .

ولعل وزيراً لم يبرع فى التوقيعات براعة جعفر بن يحيى البرمكى « وكان إذا وقَّع نُسِخَتْ توقيعاته وتدورست بلاغاته » وحكى على بن عيسى بن يزدانيروذ أنه جلس للمظالم فوقَّع فى ألف قصة ونيف ، ثم أُخرجت فعُرضت على العمال والقضاة والكُتَّاب وكتَّاب الدواوين فما وُجد فيها شيء مكرر ولا شيء يخالف الحق[٦] » وقال ابن خلدون : « كان جعفر بن يحيى يوقِّع فى القصص بين يدى الرشيد ويرمى بالقصة إلى صاحبها ، فكانت توقيعاته يتنافس البلغاء فى تحصيلها للوقوف فيها على أساليب البلاغة وفنونها ، حتى قيل إنها كانت تباع كل قصة منها بدينار[٧] » ومما رواه له الجهشيارى من توقيعاته[٨] توقيعه على رقعة لمحبوس متظلم من حبسه : «العدوان أَوْبَقه ، والتوبة تُطْلقه» وتوقيعه على كتاب لعلى بن عيسى ابن ماهان يعتذر فيه عن أشياء بلغته عنه : « حُبِّب إلينا الوفاء الذى أبغضته ، وبُغِّض الغدر الذى أحببته ، فما جزاء الأيام أن تحسن ظنك بها وقد رأيت غَدَراتها ووقعاتها عياناً وإخبارا» . واشتهر الفضل بن سهل ذو الرياستين بتوقيعاته البليغة المحكمة ، فمن ذلك توقيعه على قصة مظلوم « كفى بالله للمظلوم ناصرا[٩] » وتوقيعه على كتاب لتميم بن خزيمة بن خازم : « الأمور بتمامها والأعمال بخواتيمها والصنائع باستدامتها ، وإلى الغاية جَرْىُ الجواد ، فهناك كشفت الخبرة قناعَ الشك فحُمد السابق وذُمَّ الساقط[١٠] » . وكثيرًا ما كانوا يوقعون بآية من الذكر الحكيم أو ببيت من الشعر أو بمثل من الأمثال .

---

(١) العقد الفريد ٢١١/٤ .
(٢) العقد الفريد ٢١٢/٤ .
(٣) العقد الفريد ٢١٣/٤ .
(٤) العقد الفريد ٢١٣/٤ .
(٥) العقد الفريد ٢١٥/٤ .
(٦) الجهشيارى ص ٢٠٤ .
(٧) مقدمة ابن خلدون ص ١٧٣ .
(٨) الجهشيارى ص ٢٠٥ .
(٩) الجهشيارى ص ٢٠٥ .
(١٠) الجهشيارى ص ٣٠٧ .

٥

الرسائل الإخوانية والأدبية

نمت الرسائل الإخوانية فى هذا العصر نمواً واسعاً ، ونقصد الرسائل التى تصور عواطف الأفراد ومشاعرهم ، من رغبة ورهبة ومن مديح وهجاء ومن عتاب واعتذار واستعطاف ، ومن تهنئة واستمناح ورثاء أو تعزية ، وكانت هذه العواطف تؤدَّى فى العصر الأموى بالشعر ، وكان من النادر أن تؤدى بالنثر ، أما فى هذا العصر فقد زاحم فيها النثر الشعر بمنكب ضخم ، وأتاح له ذلك أمران : أولا ظهور طبقة ممتازة من الكتَّاب الذين يجيدون فيه إجادة رائعة ، وخاصة من كان منهم يكتب فى الدواوين ، إذ كانوا يأخذون أنفسهم بثقافة واسعة وكانوا يُعْنَوْنَ بتحبير كلامهم وتجويده وحَشْد كل ما يمكن فيه من عناية فنية ، على نحو ما مر بنا آنفا . والأمر الثانى مرونة النثر ويُسْر تعابيره وقدرته على تصوير المعانى بجميع تفاريعها قدرة لا تتاح للشعر لارتباطه بقواعد موسيقية معقدة من وزن وقافية . وقد طوَّع هؤلاء الكتاب الديوانيون أو السياسيون أساليبه ومرَّنوها على أن تحمل كثيراً من المعانى الجديدة غير المألوفة .

وبذلك كله ثبت النثر للشعر فى التعبير عن العواطف التى طالما عبَّر عنها ، بل لقد أظهر فى ذلك طواعية لعلها لم تكن تتاح حتى لكبار الشعراء ، ومن أجل ذلك رأينا منهم كثيرين يتخذون النثر أداة للتعبير عن مشاعرهم على نحو ما سنرى عند العتَّابىّ وأبى العتاهية ، وكأنهم وجدوا فيه يسراً فى التعبير ونسحة لعرض بعض المعانى التى يلموِّن بها بجميع دقائقها مما لا يستطيع الشعر أداءه .

وتدور فى كتب الأدب رسائل إخوانية كثيرة مما دبَّجه كتَّاب الدواوين والشعراء وغيرهم من الأدباء ، فقد تعاور عليها كثيرون ، وكل منهم يتأنق فيما يكتب منها ويحاول الإطراف بمعانيه وصياغاته وما يبثُّ فيها من مهارته الفنية . وممن كان يُعْنَى بها عناية واسعة فى أوائل هذا العصر ابن المقفع وسنفرد له بعض الصحف فى الفصل التالى ، ومنهم محمد بن زياد الحارثى ، وهو أخو يحيى بن

زياد الحارثي رفيق مطيع بن إياس وجيله ، وفيه يقول ابن النديم « شاعر مترسل بليغ [١] » وله في الشكر [٢] :

« قد يجب على من يتقلب في ظل كرامتك ، ويأوى إلى كنف نعمتك ، أن يقول بما هو أولى ويُخْبِر عما هو به مرتَهَنٌ من شكر بلائك [٣] ، وحق نعمتك ، فنحن الذين سبقت نعمتك عليهم ، وعظمت منتك لديهم ، فيما أبليت وأوليت من جميل رأيك، وحُسْن أثرك، بعطفك وتحنُّنك، واستخلاصك إياه مِقَةً وأنسا ... في أيادٍ من أياديك عظمت فلا تُجْحَدُ، ونعم من نعمك شُهرت فلا تنكر ، ولا يُحْصَى عددها وإن اجتهدنا في حفظها ، ولا نبلغ في شكرها ، وإنْ دأبْنَا في بلوغ تأديته، فقد اعتقدتها منَّة علينا، ويداً عندنا ، فنحن لك صنيعة ما بقينا وبقي الخَلَفُ منا» .

وكانت ترجمة ابن المقفع للأدب الكبير وما جاء في كتاباته من حديث عن الإخاء والمودة مادة غزيرة للكتّاب كي يستمدوا منها كل ما يريدون من تصوير الأخوة الحقة والصداقة الصادقة ، ويصور ذلك من بعض الوجوه رسالة لجبل بن يزيد إلى بعض إخوانه وهي تجرى على هذا النمط [٤] :

« اعلم أني إليك مشوق وأن صلة الإخوان كرم ، وخير الصلات ما لم يكن لها وجه إلا الرجاءُ والحفظ وتجديد المودة وتصحيح الإخاء ، فإن الذي يكاتب إخوانه على حال الرغبة . . . إن أحبَّ مال به إلى الصحة ، وإن شاء وضعه للرغبة ، والرغبة أملكهما به . والذي يكاتب إخوانه على حال الضرورة فقد يستقطع الصلة عند الحدث مخافة الملامة من الناس على القطيعة الشّنْعاء المشهورة لإخوانه ، فإن الذي لا مودة له قد يصل ذلك في تلك القطيعة بأهل البلاء . والكتاب على مثل حالنا وحالك اليوم شاهد على أن ذلك ليس إلا صحة الإخاء والشوق إلى المحادثة بالكتاب حين لا يلومك اللائمون لمنزلة البلاء تلك اللائمة على التقصير ولا توضَعُ منك الرغبة في الإطماع . إياك أن تعتلَّ بالأشغال أن كنت في خاصة نفسك ، فإن أداء الحق وصلة الأخوان أعظم الخاصة بك خاصة ،

(١) الفهرست ص ١٧١ .
(٢) جمهرة رسائل العرب ٣/ ٧٩ .
(٣) البلاء هنا : الإحسان .
(٤) جمهرة رسائل العرب ٣/ ١٣٦ .

وإنما أمرنا فى كل هذا كأمرك فى الذى تستغنى به من خاصتك تلك التى لنا ، فإن لنا مالك ، وهذه التى لنا لك ، أليس ما سرَّنا سرَّك، والله يوفقنا وإياك » .

وواضح أنه يتسع فى تصوير صحة الإخاء ، وهو يجعل المتودِّدين الملحفين فى الأخوة أصنافا ، فنهم من يطلبها للرغبة ، وإخاؤه لذلك مشوب ، ومنهم من يطلبها للضرورة وإخاؤه بذلك موقوت ، بحيث إذا ألمَّ بصاحبه مكروه قطعه القطيعةَ الشنيعة . ويقول إن إخاءه ليس من هذين الضربين الممقوتين، بل هو إخاء سليم صحيح ، ويدعوه أن لا يعتل بشغل عنه بخاصة نفسه وانصرافه إلى بعض شئونه فالإخاء الصادق أخصُّ ما ينبغى له أن يشغل صاحبه ويصرفه عن كل شىء سواه .

ومما أكثروا فيه التعازى ، وعادة يتحدثون فيها عن ثواب المنكوب ببعض أهله على حسن صبره وما ينبغى عليه من التسليم لأمر الله والرضا بقضائه ، وقد يعرضون لذم الدنيا وأنها دائمًا تكدر الصفاء وتنغص السرور ، ويُرْوَى أن المهدى جزع جزعا شديدا حين ماتت ابنته البانوقة ، فأكثر الناس من تعازيه ، وكان ممن عزاه إبراهيم بن أبى يحيى الأسلمى بهذه الرسالة الموجزة(١) :

« أما بعد فإن أحقَّ مَنْ عرف حق الله عليه فيما أخذ منه من عظَّم حق الله عليه فيما أبقى له . واعلم أن الماضى قَبْلَك هو الباقى لك ، وأن الباقى بعدك هو المأجور فيك ، وأن أجر الصابرين فيما يصابون به أعظم من النعمة عليهم فيما يُعافَوْن منه » .

وكثيراً ما تعاتبوا عتابا رقيقًا، وقد يَعْنُفون فى عتابهم،ولكن عنف المتحضر المهذب الذى قد يمسّ ولكنه لا يَخْدش ، ومن رسائلهم الطريفة فى العتاب التى تدل بوضوح على دقة الحس ورهافة الشعور رسالة يوسف بن صبيح إلى محمد بن زياد الحارثى ، وفيها يقول(٢) :

« حفظك الله وحاطك ، رأيتك — أكرمك الله — فى خَرْجتك هذه رغبت عن مواصلتنا بكتبك ، وإبلاغنا خبرك ، وقطعتنا قطعَ ذى السَّلْوة أو أخى المَلَّة(٣) ،

---

(١) البيان والتبيين ٢ / ٧٤ .
(٢) الأوراق للصولى و (قسم الشعراء) ص١٥٢ .
(٣) الملة : الملال .

حتى كأنك كنت إلى مفارقتنا مشتاقا ، وإلى البعد منا تـوّاقا ، فوقع بُعـْدك بحيث تحبّ من جهتين : إحداهما حلاوة الولاية ، والأخرى لذة الراحة منا ، فإن يكن ذلك كما رجّيناه قاطعناك مجملين ، أو لبسناك على يقين . وما أدرى ما أقول فى اختيارك ترك الكتب المحدثة عن العتْب بالأسرار المفهومة ، حتى كأنها محادثة الحضور ، على تنائى الدور ، والقلوب بها مشاهدة ، وإن كانت الأبدان متباعدة ، ولئن كذب فيك الرجاء ، لقديما عزّ الوفاء ، وقد أصبتك من مرارة العتاب بما لا تقيم بعده على قطيعة ولا جفاء ، ولا تتوهمن أنى أردت ، إعناتك بإعتابى ، ولاأن أزْرى عليك بكتابى ، فإن وصلتَ فمشكور ، وإن قطعت فمعذور ، والسلام »

وتأنقُ يوسف وتنميقه ودقته فى التعبير واضح فى تلك الرسالة ، وقد تفنّن الكتاب طويلا حينئذ فى صور الاعتذار ، ومن رسالة لمحمد بن الليث فى اعتذاره لشخص ظنّ به بعض الظنون الخاطئة دون تبين ولا روية[١] :

« كيف يسعك أن تأخذنى بظن لو كنت فيه على حقيقة علم لما وسعك أخذى ولا عقابى عليه ، ولو كانت العقوبة على الذنب الكامن فى سُوَيْداء القلب واسعة لك فى حكم الربّ لكان فيما حجبت الغيوب عن العمل ما ينتقل فى القلوب التى لا تثبت على حال ، إلا ريثما يتبعها انتقال ما يدعوك إلى أن تمسك عنى ، وتقف ، حتى تعرف أيمضى رأى أم ينصرف » .

وهو يشير إلى معنى نفسى دقيق ، وهو أن الخواطر التى تلم بالإنسان لا تثبت على حال ، ومن أجل ذلك كان الإنسان يتنقل بين لحظات وخواطر متناقضة ، ولا يصح أخذ الإنسان بخاطر إلا إذا ثبت فيه وعاش طويلا ، فقد يمر به خاطر سريع ويمضى دون أوبة ولا رجعة . ولعل رسالة استعطاف لم تشتهر فى هذا العصر كما اشتهرت رسالة إبراهيم[٢] بن سيّابة الشاعر التى استعطف بها يحيى بن خالد البرمكى ، وكان قد أنكر منه شيئًا ، فكتب إليه يترضاه على هذه الشاكلة[٣] .

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٣/١٨٥ .

(٢) انظر ترجمته فى الأغانى (طبع دار الكتب) ١٢/٨٨ وانظر البيان والتبيين ١/٤٠٥ والوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٢٠٣ .

(٣) البيان والتبيين ٣/٢١٥ .

« للأصيد[١] الجواد ، الوارى الزناد[٢] ، الماجد الأجداد ، الوزير الفاضل ، الأشَم[٣] الباذل ، اللُّباب الُحلاحِل[٤] ، من المستكين المستجير ، البائس الضرير فإنى أحمد الله ذا العزة القدير ، إليك وإلى الصغير والكبير ، بالرحمة العامة ، والبركة التامة . أما بعد فاغْنَمْ واسلم ، واعلمْ إن كنت تعلَمُ ، أنه من يَرْحم يُرْحم ، ومن يَحْرم يُحْرَم ، ومن يحسن يغنم ، ومن يصنع المعروف لا يَعْدَم[٥] ، وقد سبق إلىّ ، تغضُّبك علىّ ، واطراحك لى ، وغفلتك عنى ، بما لا أقوم ، له ولا أقعد ، ولا أنتبه ولا أرقد ، فلست بحىّ صحيح ، ولا بميت مستريح ، فَرَرْتُ بعد الله منك إليك ، وتحملت بك عليك ، ولذلك قلت :

أسرعتْ بى حَثًّا إليك خِطائى ... فأناختْ بمُذْنبٍ ذى رجاء[٦]

راغبٍ راهبٍ إليك يُرَجِّى ... منك عفوًا عنه وفضلَ عطاء

ولعمرى ما مَنْ أصرَّ ومن تا ... بَ مُقِرًّا بذنبه بِسَواء

فإن — رأيت — أراك الله ما تحبّ ، وأبقاك فى خير — أن لا تزهد فيما ترى من تضرُّعى ، وتخشُّعى ، وتذللى ، وتضعضُعى ، فإن ذلك ليس منى بنَحيزة[٧] ، ولا طبيعة ، ولا على وجه تصيّد تصنُّع ، وتخدُّعٍ[٨] ، ولكنه تذلل ، وتخشع ، وتضرع من غير ضارع[٩] ولا مَهين ولا خاشع لمن لا يستحق ذلك إلا لمن التضرع له عِزٌّ ورفعةٌ وشرف »

وما إن تلاها يحيى حتى عفا عن جرمه ، ورضى عنه ووصله . ويقول الجاحظ إن عامة أهل بغداد كانوا يحفظون هذه الرسالة ، إعجابًا ببلاغتها ، وهى بلاغة تُرَدُّ إلى ما أجرى فيها ابن سَيابة من هذا السجع الرشيق الذى يدل بوضوح على أن العبارات كانت طيعة على لسانه ، بحيث يتصرف فيها كما يريد دون أن

---

(١) الأصيد : السيد الرافع رأسه أنفة وشمما.
(٢) وارى الزناد : أصله مخرج النار منه ، وهو كناية عن مضاء العزيمة .
(٣) الأشم : المملوء أنفة .
(٤) الحلاحل : السيد الشجاع ذو المروءة .
(٥) لا يعدم : يريد لا يعدم مكافأته .
(٦) حثا : مسرعة . خطائى : جمع خطوة أناخت : بركت وأقامت .
(٧) نحيزة : طبيعة .
(٨) تخدع : خداع .
(٩) ضارع : ذليل .

يستعصى عليه منها شيء ، حتى مع ما اختاره لها من ممرَّات السجع ودروبه الضيقة.

ومن الشعراء الذين جمعوا بين براعتهم فى الشعر والكتابة الإخوانية العتَّابى ، وقد ترجمنا له بين شعراء العصر النابهين وكانت قدرته فى الكتابة لا تقل عن قدرته فى الشعر ، وكان يعمد فيهما جميعًا إلى الإيجاز وأن يروع السامع بمعانيه كما يروعه بأساليبه ، ومما يصوِّر ذلك فى كتابته ما كتب به إلى صديق انتجعه فى أيام شحيحة مجدبة ، على هذه الشاكلة(١) .

« أما بعد أطال الله بقاءك وجعله يمتدُّ بك إلى رضوانه والجنة ، فإنك كنت عندنا روضة من رياض الكرم تبتهج النفوس بها ، وتستريح القلوب إليها ، وكنا نُعفيها من النُّجْعة(٢) استنماما لزَهْرتها ، وشفقة على خضرتها ، وادخارا لثمرتها ، حتى أصابتنا سنةٌ كانت عندى قطعة من سِنِى يوسف ، اشتدَّ علينا كَلَبُها(٣) ، وغابتْ قِطّتُها(٤) ، وكذبتْنا غيومها ، وأخلفتْنا بروقها ، وفقدنا صالح الإخوان فيها ، فانتجعتُك(٥) ، وأنا بانتجاعى إياك شديد الشفقة عليك ، مع علمى بأنك موضع الرائد(٦) ، وأنك تُغَطِّى عين الحاسد . والله يعلم أنى ما أعدُّك إلا فى حَوْمة(٧) الأهل . واعلمْ أن الكريم إذا استحيَى من إعطاء القليل ولم يمكنه الكثير لم يُعْرَف جوده ولم تظهر همته ، وأنا أقول فى ذلك :

إذا تكرَّهتَ من بذل القليل ولم تقدرْ على سَعَةٍ لم يظهر الجودُ
بُثَّ النَّوالَ ولا تمنعْك قِلَّتُهُ فكلُّ ما سَدَّ فقرًا فهْو محمودُ »

ويقال إنه بلغ من تأثيره فى صديقه حين قرأ هذه الرسالة الرقيقة أن شاطره ماله حتى أعطاه إحدى نعليه ونصف قيمة خاتمه . وعلى نحو ما كان يقصد فى أشعاره إلى المعانى الدقيقة الطريفة يصوغها فى مقطوعات قلما تجاوزت بيتين

(١) الأمالى ٢/١٣٧ .
(٢) النجعة : الاستمناح ، وأصلها طلب الكلأ .
(٣) كلبها : سوءها وقحطها .
(٤) كناية عن الجدب ، فالقطة لاتجد ماتأكل.
(٥) انتجعتك : طلبت نائلك ومعروفك .
(٦) الرائد : الذى يتقدم القوم فى طلب العشب .
(٧) حومة : موضع.

كان يصنع برسائله، فهو يصوغها غالباً فى عبارات قليلة قد لا تتجاوز سطرين أو ثلاثة، ولكنها مع قلتها تحمل من المعانى والصور النادرة ما يجعلها آية من آيات البلاغة العباسية، فمن ذلك ما كتب به إلى بعض أصحاب السلطان[١].

« أما بعد فإن سحائب وعدك قد أبرقت، فليكن وَبْلُها[٢] سالما من علل المَطْل، والسلام ».

وهى صورة طريفة عرف كيف يستتمها وكيف يرسمها فى عبارات موجزة رسماً يبهر قارئها ويجعله يكرر النظر فيها. ومن ذلك ما كتب به إلى بعض إخوانه يسأله مواصلة مودته بعد جفوة حادثة[٣]:

« لو اعتصم شوقى إليك بمثل سلوِّك عنى لم أبذل وجه الرغبة إليك، ولم أتجشَّم مرارة تماديك، ولكن استخفَّتنا صَبابتُنا، فاحتملنا قسوتك، لعظيم قدر مودّتك، وأنت أحق من اقتصَّ لصلتنا من جفائه، واشوقنا من إبطائه ».

واتسع استخدام الكتَّاب للنثر فى كل فنون الشعر، حتى فن الهجاء، بل إن بعض الشعراء كانوا يستخدمونه ويؤثرونه أحيانا على الشعر كما رأينا عند العتَّابى وابن سَيابة، وكانوا يسلكون فيما يكتبون أحياناً بعض أبيات الشعر من نَظْمهم أو نظم سواهم، وقد ينثرون معناها قبلها، على نحو ما مرَّ بنا آنفاً فى رسالة العَتَّابى. ومن خير ما يصور ذلك رسالةٌ لأبى العتاهية فى هجاء الفضل بن معن بن زائدة، وكان قد استرفده وطلب نواله ببعض شعره، فردَّه ردًّا غير جميل، مما أغضبه وجعله يكتب إليه بهذه الرسالة[٤]:

« أما بعد فإنى توسلت إليك فى طلب نائلك[٥] بأسباب الأمل وذرائع الحمد فراراً من الفقر ورجاءً للغنى، فازددتُ بهما بُعْداً مما فيه تقربتُ، وقرباً مما فيه تبعّدتُ. وقد قسمت اللائمة[٦] بينى وبينك، لأنى أخطأت فى سؤالك وأخطأت فى منعى، أُمِرْتُ باليأس من أهل البخل فسألتهم، ونُهيتَ عن منْع أهل الرغبة، فمنعتهم، وفى ذلك أقول:

---

(١) العقد الفريد ١/ ٢٥٠.
(٢) الوبل: المطر الغزير.
(٣) زهر الآداب ٤/ ١٢٢.
(٤) العقد الفريد ٤/ ٢٣٦.
(٥) النائل: الرفد والعطاء.
(٦) اللائمة: اللوم.

فررتُ من الفقر الذى هو مُدْركى إلى بُخْل محظورِ النَّوالِ مَنُوعِ
فأَعقبنى الحِرْمانَ غِبَّ مطامِعى كذلك من تلقاه غير قنوعِ
وغيرُ بديعٍ مَنْعُ ذى البخل مالَه كما بَذْلُ أَهلِ الفضل غيرُ بديع
إذا أَنت كشَّفْتَ الرجالَ وجدتّهم لأَعراضهم من حافظٍ ومذيع »

ومن يقرن هذه الأبيات الأربعة إلى ما قبلها من النثر يجده أشد لذعا ، وأكثر مرونة على أداء الهجاء الذى كان يريده أبو العتاهية ، ومرَّ بنا أن الشعر كان يسيل على لسانه سيلانا لم يعرف لشاعر فى عصره وأنه لم يكن يجد فيه مشقة ولا جهدا ، ومع ذلك فهو لا ينهض عنده بالمعانى العاطفية التى يستطيع النثر أداءها فى يسر وسهولة ، مما يدل دلالة واضحة ، على أنه رقى فى هذا العصر رقيا واسعًا ، حتى فى المجال العاطفى الخالص الذى طالما مرنت اللغة على أدائه شعراً ، وهو رقى تتزاوج فيه اللذة العقلية بما استنبط الكتَّاب من دقائق المعانى ، واللذةُ الشعورية بما استنبطوا من دقائق الأحاسيس والصور وما بثوا فى ألفاظهم من حسن الاختيار للصيغ ومن جمال التقابل بين العبارات والجمل ، حتى ليحاول بعض الكتاب أن يسجع فى كلامه ، حتى يصوغه صياغة موسيقية تامة .

ومما أكثر الكتاب من الكتابة فيه الدعوة إلى الزيارة لقضاء بعض الوقت فى اللهو أو فى الشراب أو فى سماع المغنين والقيان أو فى المسامرة المستحبة ، ومما يصور ذلك من بعض الوجوه دعوة الحسن بن سهل لبعض أصدقائه كى يصطبح[1] معه فى يوم دَجْنٍ غامت فيه السماء ولم تمطر[2] :

« أما ترى تكافُؤَ الطمع واليأس فى يومنا هذا بقرب المطر وبعده كأنه قولُ كثيِّر :

وإنى وتَهْيامى بعزَّة بعدما تخلَّيْتُ مما بيننا وتَخَلَّتِ
لكالمُرْتجى ظلَّ الغمامة كلما تبوَّأَ منها للمَقِيل اضمحلَّت[3]

---

(١) يصطبح : من الصبوح وهو الشرب فى الصباح .
(٢) زهر الآداب ٢/١٤٦ .
(٣) المقيل : النوم وقت القيلولة بعد ارتفاع الضحى .

وما أصبحتْ أمنيتى إلا فى لقائك ، فليت حجابَ النأى هُتك بينى وبينك ، ورقعتى هذه وقد دارتْ زُجاجات أوقعتْ بعقلى ولم تتحيّفه ، وبعثتْ نشاط حركتى للكتاب ، فرأيك فى إمطارى سروراً بسارِّ خبرك ، إذ حُرِمت السرور بمطر هذا اليوم موفقا إن شاء الله » .

وعلى نحو ما أكثروا فى طلب الزيارة من الكتب والرسائل أكثروا منها أيضًا مع الهدايا التى كانوا يرسلون بها إلى أصدقائهم أو إلى بعض الوزراء وأصحاب السلطان ، وكانوا يختارون لها عادة مناسبة مثل عيد من الأعياد أو ختان بعض الأولاد ، من ذلك ما يروى من أن يحيى البرمكى عزم على ختان أحد أولاده ، فأهدى إليه وجوه الدولة كل منهم بحسب حاله وقدرته ، وتظرّف بعض من كانوا من أسبابه ، للدلالة على قصور همته ، فملأ وعاء من أدَمٍ مِلْحًا مطيبا ووعاء ثانيا سُعْدًا[1] معطّرا وكتب معهما هذه الرقعة[2] :

« لو تمت الإرادة ، لأسعفت العادة ، ولو ساعدت القدرة ، على بلوغ النعمة ، لتقدمتُ السابقين إلى خدمتك ، وأتعبت المجتهدين فى كرامتك ، لكن قعدت بى القدرة ، عن مساواة أهل النعمة ، وقصّرت بى الجِدَةُ[3] عن مباهاة أهل المُكْنَة[4] ، وخشيت أن تُطْوَى صحيفة البِرِّ ، وليس لى فيها ذكر ، فأنفذت المُفْتَتح بيُمْنه وبركته وهو المِلْحُ ، والمُخْتَتَم بطيبه ونظافته وهو السُّعْد ، باسطا يد المعذرة ، صابراً على ألم التقصير ، متجرعا غُصَصَ الاقتصار على اليسير ، والقائمُ بعذرى فى ذلك : (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حَرَجٌ) . والمُهْدى ضارع فى الامتنان عليه بقبول معذرته ، والإحسان إليه بالإعراض عن جراءته » .

وعُرِضت الهدية على يحيى ، فلما قرأ الرقعة أمر أن يُفْرغ الإناءان ويملأ أحدهما دنانير والآخر دراهم ، إعجابا بتلطف صاحبهما وبلاغته وحسن بيانه . وكانت أكثر هداياهم طيبًا وعطراً وتحفًا ثمينة ، وربما أهدوا السيوف والخيل ، ويروى أن عبد الله بن طاهر أهدى المأمون فرساً وكتب إليه[5] :

---

(١) السعد : نبت طيب الرائحة .
(٢) غرر الخصائص الواضحة للوطواط ص ٤٤٨ .
(٣) الجدة : الغنى .
(٤) المكنة : الاستطاعة والقدرة .
(٥) زهر الآداب ١٧/٢ .

« قد بعثتُ إلى أمير المؤمنين بفرس ، يلحق الأرانب فى الصَّعْداء[١] ، ويجاور الظّباء فى الاستواء ، ويسبق فى الحُدور[٢] جَرْىَ الماء ، فهو كما قال تأبّط شرّاً :

ويسبقُ وفْدَ الريحِ من حيث يَنْتحى بِمُنْخرقٍ من شَدِّهِ المتدارِكِ[٣] »

وأكثروا من التهانى مع كل مناسبة ، فهم يهنئون الخلفاء حين جلوسهم على أريكة الخلافة ، وهم يهنئون الوزراء حين استيلائهم على مقاليد الحكم ، وهم يهنئون بالزواج وعقد القران ، وهم يهنئون بإنجاب الأولاد ، وهم يهنئون بحكم الولايات ، وهم يهنئون بنعمة الحج وقضاء مناسكه ، وهم يهنئون بالظفر على الأعداء ، ولإبراهيم بن المهدى من رسالة هنأ فيها المعتصم بخروجه عن أرض الروم بعد فتحه لعمورية[٤] :

« الحمد لله الذى تمَّم لأمير المؤمنين غزوته ، فأذلَّ بها رقاب المشركين وشَفَى بها صدور قوم مؤمنين ، ثم سهل الله له الأَوْبَةَ سالما غانما . . . ولْيَهْنِئْهُ ما كَتب الله له مما أحصاه فلا ينساه ، ليَقفه به موقفا يرضاه ، فإنه عزَّ وجَلَّ يقول : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسَهم وأموالهم بأن لهم الجنَّة ، يقاتلون فى سبيل الله فَيَقْتلون ويُقْتَلون ، وَعْداً عليه حَقَّا فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومَنْ أوْفَى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم) . فطوى الله لأمير المؤمنين نازح البُعْد بَرًّا وبَحْراً ، ووقاه وَصَبَ السفر سهلا ووعراً ، وحاطه بحراسته كالئا ، ودافع عنه بحفظه راعيا ، حتى يؤدِّيه إلى المحل من داره ، والوطن من قراره ، وجزاه عن الإسلام خاصة ورعيته كافة » .

وعلى هذا النحو لم يترك الكتاب فنا من فنون الشعر إلا كتبوا فيه وعبروا عنه بكتاباتهم موجزين تارة ومطنبين تارة أخرى ، محاولين بكل ما استطاعوا أن يُظهروا القارىء على براعتهم وتفننهم فى الأداء ، وقد مضوا مثل الشعراء يعرضون لوصف

---

(١) الصعداء : الصعود الشاق .
(٢) الحدور : الجرى السريع .
(٣) وفد الريح : جماعاته ، ينتحى : يقصد . بمنخرق : بمتسع . شده : عدوه ، المتدارك : المتتابع .
(٤) جمهرة رسائل العرب ٤ / ٨ .

الطبيعة أحيانًا ، وبلجبل بن يزيد رسالة جيدة فى وصف الأمطار عقب سنة مجدبة أهلكت الحرث والضرع حتى استيأس الناس ، وهى تمضى على هذه الشاكلة(١) :

« عادتْ لنا من الله عائدةُ رحمةٍ بِوَلىٍّ(٢) مطرٍ أنزله الله بأحسن ما رأينا من المطر ، وابلا جَوْداً(٣) ، لا يَفْتُر غزيره ، ولا يَرْعوى جَوْده إلا إلى دِيمة(٤) عن دِيمة ، يتراخى إليها يسيراً ربما تعود ، فأقامتْ علينا سماؤه مستهلّةً(٥) بذلك إلى غروب الشمس ، ثم انقطع مطرها بسكون من الريح وفتور من القُرِّ(٦) وفضلٍ من الله عظيم ينشر به رحمته ، ويبسط به رزقه ، فأسبغ النعمة ، وأوسع البركة ، وأوثق(٧) بحمد الله معارف الخِصْب . والله محمود على آلائه(٨) ، مشكور على بلائه(٩) ، وما أنزل من سُقْياه ورحمته بعد الذى أقبلت به السَّنَةُ البَرِّيّة(١٠) ، والقحطُ وعدم الإمطار ، وشدةِ ما بلغ الناسُ من القنوط(١١) وسوء الظنون » .

ومرَّ بنا فى حديثنا عن الشعر أن الشعراء كانوا أحيانًا يصفون روعة شعرهم وقدرتهم على استنباط الدرر واللآلىء الشعرية ، ومعروف أن من أكثرهم ترديداً لهذا الوصف أبا تمام ، ونرى صديقه الحسن بن وهب يكتب إليه رسالة بديعة يجعل موضوعها وصف شعره الرائع الذى كان يخصُّه أحيانا ببعض منظوماته مشيداً ببلاغته ، على نحو ما أشاد ببلاغة ابن الزيات فى وصفه لقلمه المشهور ، وكأن الحسن بن وهب رأى أن يجاريه فى هذا المضمار نثراً لا شعراً ، فكتب إليه هذه الرسالة(١٢) :

« أنت — حفظك الله — تحتذى من البيان فى النِّظام ، مثل ما يُقْتصد بَحْرٌ من الدرر فى الأفهام ، والفضل لك — أعزك الله — إذ كنت تأتى به فى غاية الاقتدار ، على غاية الاقتصار ، فى منظوم الأشعار ، فتَحلُّ متعقَّده ،

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٣/١٣٧ .
(٢) ولى المطر : الذى يسقط دفعة بعد دفعة .
(٣) الجود : المطر الغزير .
(٤) الديمة : المطر المنهمر بدون برق ولا رعد .
(٥) مستهلة : منصبة .
(٦) القر : البرد .
(٧) أوثق هنا : أنبت وأعشب .
(٨) الآلاء : النعم .
(٩) البلاء هنا : الإحسان .
(١٠) البرية : المجدبة .
(١١) القنوط : اليأس .
(١٢) زهر الآداب ٣/٢٤٨ .

وتربط متشرده ، وتنظم أشطاره ، وتجلو أنواره ، وتفصِّله فى حدوده ، وتخرجه فى قيوده . ثم لا تأتى به مهما اقتبسته مُشْتَرَكًا فيُلْبس ، ولامتعقِّدا فيطول ، ولا متكلفا فيحول ، فهو كالمعجزة تُضْرَبُ بها الأمثال ، ويُشْرَحُ فيها المقال ، فلا أعدمنا الله هداياك واردة وفرائدك وافدة » .

وهذه الرسائل الإخوانية التى كانوا يصورون بها عواطفهم ومشاعرهم من ثناء أو هجاء أو استمناح أو استعطاف أو عتاب أو عزاء أو تهنئة أو تهاد دفعهم تفننهم فى بعضها إلى أن يتحولوا بها إلى ما يشبه الرسائل الأدبية الخالصة ، وهى التى تتناول خصال النفس الإنسانية وتصور أهواءها وأخلاقها وتوضح لها طريقها إلى الخير ، حتى لا تسقط فى مهاوى الشر . ومن خير ما يصور ذلك رسالة يحيى بن زياد التى ردَّ بها على رسالة لابن المقفع طلب إليه فيها أن تنعقد بينهما أسباب الأخوة والوداد ، وهو يستهلها على هذه الشاكلة[١] :

« أما بعد فإنا لما رأينا موضع الإخاء ممن يحتمله فى تأنيسه من الوحشة وتقريبه لذى البُعْدة ومشاركته بين ذوى الأرحام فى القُرْبة لم نرض بمعرفة عينه دون معرفة نِسْبته ، فنسبنا الإخاء فوجدناه فى نسبته لا يستحق اسم الإخاء إلا بالوفاء ، فلما انتقلنا عنه إلى الوفاء فنسبناه انتسب لنا إلى البِرّ ، فوجدناه محتويا على الكرم والنَّجْدة والصدق والحياء والنَّجابة والزَّكانة[٢] وسائر ما لا يأتى عليه العدد من المحامد. ثم انحدرنا فيما أصعدنا فيه من هذا النسب ، فعُدْنا إلى الإخاء ، فوجدناه لا يقوم به إلا مَنْ هذه الخصالُ كلها أخلاقه . ولما استوجب الإخاء مسالك المحمدة كلها رأينا أن نتخير له المواضع فى صواب التروِّى وإحكام التقدير ، وعلمنا أن الاحتباس به أحسنُ من الندم بعد بذله ، واستوجب — إذ كان جماع المحامد — أن نتخيَّر له محامله التى يُحْمَلُ عليها ، وكان الناس فيما احتسبنا به عنهم من الإخاء على صنفين ، فصنفٌ عذرونا بالتحبس للخير إذ كان التخير من شأنهم ، وصنف هم ذوو سرعة إلى الإخاء ، وسرعة فى الانتهاء ، فقدَّموا اللائمة ، واستعجلوا بالمودة ، وتركوا باب التَّرْوِية ، واستَحْلوا عاجل المحبة ،

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٣/٦٧ .

(٢) الزكانة : صدق الحس .

ولهوا عن آجل الثقة ، فكانوا بذلك أهل لائمة ، ولم يجد المُعْذِرون[١] إلا الصبر على تلك والاستعمال للرأى والاستعداد بالعذر عند الحاجّة ».

وواضح أن يحيى بن زياد لا يتحدث هنا عن إخائه لابن المقفع ووداده له ، إنما يحدث حديثا عامّا عن الإخاء ، فهو ينظر فيه نظرة عامة ، أو قل ينظر إليه من حيث هو نظرة كلية يرتفع فيها إلى الحديث عن حقيقته المجرّدة وما ينبغى أن يكفَلَ له من الوفاء . ويراه يقوم على البر ، ويتغلغل فى بحث جوهره ، فيراه يحتوى مجموعة من الخصال النبيلة لا يتمُّ كيانه بدونها وفى مقدمتها الكرم الذى يجعل الأخ يبذل لأخيه ماله ، والنجدة التى تجعل الأخ يبذل لأخيه دمه ، والصدق الذى يدل على صدق القلب وإخلاص السريرة ، والحياء الذى يكفُّ صاحبه عن التطاول وسوء الأدب وسَوْرة الغضب ، والنجابة التى تحوط صاحبها بحسن الرأى وتبين حقيقة الأمر ، والزكانة أو صدق الحسّ الذى يَكفُلُ لصاحبه صواب القول والرأى . ويقول يحيى بن زياد لما كان يتطلب الإخاء التحلى بجميع الخصال الحميدة كان على كل شخص أن يتأنّى فى اختيار أخيه وأن يتحبّس حتى لا يتورط فى الأخ السوء ، وهو ما يأخذ نفسه به . ومَنْ حوله مِنَ الناس صنفان : صنف يَعْذرونه لأنهم ممن يرون رأيه فى تخير الإخوان ، وصنف لا يعذرونه لأنهم يتسرعون إلى بذل إخائهم إلى من يستحقه ومن لا يستحقه ، ولذلك سرعان ما ينتقض إخاؤهم وتَذْوى صداقتهم إذ لا يُصيبون بها مواضعها الصحيحة من الإخوان الجديرين بالأخوة .

ومن الرسائل التى نَحَتْ هذا النحو من التجريد والنظر من أعلى إلى الموضوع الذى تتحدث فيه رسالة غسّان بن عبد الحميد فى العتاب ، وهو يفتتحها على هذه الصورة[٢] :

« أما بعد فإن الله جعل العباد أطواراً فى أخلاقهم ، كما جعلهم أطوارا فى صُورهم وجعل بينهم أمورًا يتآلفون عليها ويُعْملون أحلامهم فيها : مِنْ حُرَمٍ يتجاملون بها ، وحقوقٍ يتنازعونها ، ومودّة يتعاطونها ، وأخوّة يتداولونها تُرْعَى

---

(١) المعذر : من له عذر.

(٢) جمهرة رسائل العرب ٣/١١٣ .

بوفاء ، وتؤدّى بأمانة ، وتضيَّع بتقصير ، وتُنْتَقَصُ بخيانة ، ليس مَنْ أُدِّيَتْ إليه فيما يحفظ منها بأسعد من المؤدّى لها فيما يأخذ به من الفضل لنفسه ، وليس من ضُيِّعَتْ منه بأشقى ممن ضيَّعها فيما يُدْخِلُ من التقصير عليه ، فإن من أخطأه الوفاء من أخيه فإنما يدخل عليه تقصير غيره ، ومن ضَيَّع الوفاء لإخوانه فقد أدخل النَّقْصَ فى خاصَّة نفسه ، والمرء يجد من أخيه إذا خانه بدلا ، ولا يجد عن نفسه إذا قصَّرتْ به متحوَّلا ، وليس نقصٌ يستبدل به كنقص لا يستطيع مُزايلته » .

وغسان يتحدث عما بين الناس من حُرَمٍ وحقوق ومودة وأخوة ، ويرى أنه لا بد للأخوة من الوفاء الذى يحفظ على الإخوان عهودهم ، ولا بد لها من الأمانة التى تمنع الخيانة بين الإخوان وتحول بينهم وبين القطيعة المرذولة ، ولا بد لها من النهوض بجميع متطلباتها من الصيانة والثقة وتوطين النفس على أن لا يقوم هجران بين الأخ وأخيه . ويأخذ غسان فى تصوير معنى دقيق غاية الدقة ، وهو أن مَنْ يؤدى حقوق الأخوة إلى أخيه لعله أكثر منه سعادة بما يؤدى إليه منها ، وكذلك من يضيع حقوقها لعله أشقى من أخيه الذى يغمُّه تضييع هذه الحقوق ، لأنه إنما يدخله الغم بتقصير غيره ، أما صاحبه المضيِّع لتلك الحقوق فإنه يُدْخل لغم والشقاء والنقص على نفسه بنفسه ، والأول يجد من أخيه إذا خانه عوضًا فى أخ آخر صادق ، أما الثانى فإنه لا يخسر شخصاً ولا أخاً ، إنما يخسر نفسه التى ين جنبيه بما أدخل عليها من كَرْب الخيانة ، وليست خسارة يمكن تلافيها ، خسارة لا يمكن مزايلتها ، ولا يجد صاحبها عنها حِوَلا ولا منصرفا . ويمضى غسان يفصل القول فى خيانة الأخ لأخيه وتضييعه لنعمة الوفاء التى أنعم الله بها على عباده ، وما يلبث أن يقول :

« ليس من كانت منه فجيعة لأهل الإخاء والحُرْمة الذين ارتادوا ارتيادا واختار واختاروا فوقع رأيه عليهم ، ووقع رأيهم عليه ، وارتضوه لأنفسهم ، وارتضاهم لنفسه ، واقتصروا عليه بمودتهم ، واقتصر عليهم بمودته ، فحمَّلوه أخوتهم ، وحملهم أخوته ، واسترعوه الوفاء لهم ، حتى ثبَّت الله بينهم وبينه ما كان داعيا لكل رأى جميل ، نافيا لكل صَنيع معيب ، وأمرٍ مريب ، فأىُّ

نَقْصٍ أكثر وأىّ دناءة أبين من أن يكون امرؤ بمنزلة ثقة قد حُفظت منه حُرْمة، واعتُقدت بها عليه أمانة، فوجبت منه مصافاةٌ، وانتُظِرت منه صلةٌ، ثم ينكشف عن خيانة وغدر وقطيعة وفجيعة ؟

وغسان يصور هنا مذمة قطيعة الإخوان ، ويجعلها فجيعة فيمن اؤتمن فخان وعاهد فغدر، وأى غدر؟ إنه غدر بالحرمة التى قامت بينه وبين إخوانه، حرمة الوداد الصادق الذى لم يحدث فجأة ، إنما حدث عن طول اختيار وتفقد وتوقف وتثبت ، فإذا مَنْ وثقتَ فيه وملَّكته زمام نفسك قد نكث كل عهوده، بل قد طعن الأخوة المفقودة الطعنة التى ليس منها برء ولا إقالة . وأطال غسان فى تصوير وقيعة واش به لصديقه ومايراه على نفسه وعلى صديقه من حقوق الأخوة وأن لا يأخذ بالظنة وأقوال الوشاة الكاذبين . والرسالة أشبه ببحث واسع فى واجبات الإخوان وحقوقهم .

وعلى هذا النحو أخذ بعض الكتَّاب ينمُّون الرسائل الإخوانية حتى غدَت رسائل أدبية بديعة ، وكان ابن المقفع — كما أسلفنا — قد ترجم عن الفارسية كثيراً من الرسائل الأدبية التى تتصل بالأخلاق وسلوك الناس مع أولى الأمر فى الحياة العامة كما تتصل بالسياسة وتدبير الحكم ، وأيضًا فإنه ترجم قصص كليلة ودمنة ، وكل ذلك أخذ بعض الكتَّاب يحاكونه ، من ذلك ما يذكره ابن النديم عن العتَّابى من أن له رسالة فى فنون الحكم ورسالة أخرى فى الآداب[١] ، ويذكر عن محمد بن الليث الكاتب أنه كتب ليحيى البرمكى كتابا فى الأدب[٢] ، وأن لسعيد بن هرون أحد خَزنة دار الحكمة للمأمون رسالة فى الحكمة ومنافعها[٣]، وأن للعتبى المتوفى سنة ٢٢٨ للهجرة كتابا فى الأخلاق[٤] ، ومر بنا أن على ابن عبيدة الريحانى الكاتب فى دواوين المأمون صنف كتبا مختلفة فى الحكم والأمثال . وكل هذه الرسائل كان يُرَادُ بها أن ترشد الناس فى حياتهم إلى الخير بما تقدّم لهم من الأمثال وتفصِّل من الحكم . وأخذ بعض الكتَّاب يُعْنَوْنَ بالكتابة فى السياسة ، على هدى ترجمات ابن المقفع فيها ، على نحو ما يذكر ابن النديم عن أبى دلف[٥] العجلىْ وسهل[٦] بن هرون ، واشتهر سهل بأنه استوحى كليلة

(١) الفهرست ص ١٧٥ .
(٢) الفهرست ص ١٧٥ .
(٣) الفهرست ص ١٧٤ .
(٤) الفهرست ص ١٧٦ .
(٥) الفهرست ص ١٦٩ .
(٦) الفهرست ص ١٧٤ .

ودمنة فى كتابة قصص على شاكلتها ، وسنفرد له حديثًا مستقلا فى الفصل التالى . ويقول ابن النديم عن على بن داود كاتب زبيدة زوج الرشيد إنه « كان أحد البلغاء، وكان يَسْلُك فى تصنيفاته طريقة سهل بن هرون، وله من الكتب كتاب الجرهمية وكتاب الحرة والأمة وكتاب الظِّراف[1] » . وفى اسم الكتاب الأخير ما يشير إلى أن الكتّاب عرفوا فى هذا العصر الرسائل الأدبية التى يقصد بها إلى التفكهة والترويح عن النفس .

---

(١) الفهرست ص ١٧٤ .

الفصل التاسع

أعلام الكتّاب

١

ابن[١] المقفع

فارسى الأصل، اسمه رُوزْبِه بن داذُوِيه، كان أبوه من قرية إيرانية تسمى جور، نزل البصرة، وظل على دينه مجوسيا مانويا، غير أنه استعرب سريعا، لاختلاطه بمواليه آل الأهتم التميميين، وهم يشتهرون باللسن والفصاحة والخطابة، ولم يلبث أن عمل فى دواوين الخراج للحجاج، وظهرت عليه خيانة فى أموال الدولة، فضربه الحجاج ضربًا مبرّحا تقفّعتْ (يبست) منه يده، فسمّى من حينئذ المقفّع، ولم يُسْلم، بل مات على دينه، وعليه نشأ ابنه، ويظهر أنه عُنى عناية شديدة بتأديبه، حتى أتقن اللغتين الفارسية والعربية، وقد مضى يتكسّب بصناعة أبيه، فاشتغل، فى دواوين العراق آخر زمن بنى أمية، إذ كتب لعمر بن هبيرة والى العراق لهشام بن عبد الملك، وكتب لابنه يزيد فى ولايته العراق لمروان بن محمد، ولابنه الثانى داود فى ولايته على كِرْمان بإيران وأفاد منهما أموالا كثيرة. ولما قامت الدولة العباسية كتب لسليمان بن على عم المنصور وواليه على البصرة، ولأخيه عيسى بن على والى الأهواز وعلى يديه أعلن إسلامه وتكنى بأبى محمد، ويقال إنه حين حاول اعتناق الإسلام طلب إليه عيسى أن

---

(١) انظر فى ترجمة ابن المقفع وأخباره الفهرست ص ١٧٢ والجهشيارى ص ١٠٣، ١٠٩ وفى مواضع متفرقة وأمالى المرتضى ١/١٣٤ وثلاث رسائل للجاحظ (طبعة فنكل) ص ٤٢ و ٤٧ والبيان والتبيين ١/١١٥ وفى مواضع متعددة (انظر الفهرس) والحيوان ١/٧٦، ٦/٣٣٠ ومروج الذهب للمسعودى ٤/٢٤٢ واعجاز القرآن للباقلانى ص ١٨ وزهر الآداب ١/١٨١ والأغانى (طبعة الساسى) ١٨/٢٠٠ وغرر الخصائص الواضحة للوطواط (طبعة بولاق) ص ٤٠٨ وخزانة الأدب للبغدادى ٣/٤٩٥ وتحقيق ما للهند من مقولة (طبعة ليبزج) ص ٧٦ ومقدمة كليلة ودمنة لعبد الوهاب عزام (طبع دار المعارف) وضحى الإسلام لأحمد أمين ١/١٩٥ ومن حديث الشعر والنثر لطه حسين (طبع دار المعارف) ص ٤٦.

يؤجل ذلك إلى الغد حتى يكون إعلان إسلامه فى حفل عظيم ، وحدث أن حضر طعام العشاء ، فلاحظ عيسى أنه يأكل ويزمزم ، أو بعبارة أخرى يدعو بأدعية المجوس ، فسأله عيسى : أتصنع ذلك وأنت على نية الإسلام ، فأجابه : كرهت أن أبيت على غير دين . وظل بعد إعلانه الإسلامَ يعمل فى دواوينه .

واتفق أن خرج عبد الله بن على عم المنصور وواليه على الشام ، إذ أعلن ثورته عليه ، غير أن جيوش المنصور هزمته ، ففرّ إلى أخويه سليمان وعيسى ، فطلبه المنصور منهما ، فأبيا أن يسلماه إليه إلا إذا كتب له أماناً ، فقبل ما عرضاه ، وكلفهما كتابته ، فأمرا ابن المقفع أن يكتبه ، فكتبه ، وتشدّد فيه تشدداً أغضب المنصور وأحفظه وملأه موجدة ، إذ طلب إليه أن يكتب فى أسفل الأمان هذا التوقيع[١] :

« وإن أنا نلتُ عبد الله بن على أو أحداً ممن أقدمه معه بصغير من المكروه أو كبير ، أو أوصلتُ إلى أحدمنهم ضرراً سرًّا أوعلانية، على الوجوه والأسباب كلها ، تصريحاً أو كناية أو بحيلة من الحيَل ، فأنا نَفِيٌّ من محمد بن على ابن عبد الله ، ومولود لغير رِشْدة ، وقد حلّ لجميع أمة محمد خَلْعى وحَرْ والبراءة منى ، ولا بيعة لى فى رقاب المسلمين ولا عهد ولا ذمة ، وقد وجب عليهم الخروج من طاعتى وإعانة من ناوأنى من جميع الخلق ، ولا موالاة بينى وبين أحد من المسلمين . وهو متبرئ من الحوْل والقوة ، ومدّع إن كان ، أنه كافر بجميع الأديان ، ولقى ربه على غير دين ولا شريعة ، محرَّم المأكل والمشرب والمناكح والمركب والرِّقّ والمِلْك والملبس على الوجوه والأسباب كلها . وكتبت بخطّى ، ولا نية لى سواه ، ولا يقبل الله منى إلا إياه ، والوفاء به » .

واحتدم المنصور غيظاً حين قرأ هذا الأمان وسأل عن كاتبه ، فقيل له ابن المقفع كاتب عيسى بن على عمك ، فقال : أما أحد يكفينيه ؟ وأوعز إلى سفيان بن معاوية المهلبى عامله على البصرة حينئذ أن يقتله ، وتصادف أن كان يضطغن عليه ، فانتهز فرصة قدومه إليه ذات مرة ، وأمر بتَنُّور ، فمُلِىء وقوداً

(١) الجهشيارى ص ١٠٤ .

حتى إذا حميتْ ناره أخذ يقطعه جزءاً جزءاً ويرمى بكل جزء فى التنور حتى أتى عليه . ويقال إن المنصور إنما أمر بقتله لما ثبت عنده من زندقته وكيده للإسلام، ويبدو أن التعليل الأول لمقتله هو الصحيح ، لما صعّب فى صيغة الأمان على المنصور تصعيباً امتهن فيه كرامته ووطئها بالأقدام ، إذ طلب إليه أن يكتب بخط يده أنه إن غدر بعمه أو بأحد ممن معه فنساؤه طوالق وعبيده أحرار ودوابّه محرمة عليه والمسلمون فى حل من بيعته بل عليهم أن يحاربوه حتى يعطى عن يد وهو صاغر ، وأيضًا فإنه إن فعل يكون كافراً خارجاً من جميع الأديان . فكان طبيعيًّا أن يثور المنصور لكرامته وأن يوعز إلى سفيان بقتله ، ويقول الجاحظ إن ابن المقفع أغرى عبد الله بن على بالمنصور ، ففُطن له وقُتل ، وأغلب الظن أنه لا يريد بإغرائه لعبد الله بن على سوى صيغة هذا الأمان المشئوم ، واختلف الرواة فى السنة التى قُتل فيها ، فقيل سنة ١٤٢ وقيل سنة ١٤٣ وقيل سنة ١٤٥ للهجرة .

وليس معنى استظهارنا أن يكون الأمان السالف هو السبب الحقيقى فى قتل ابن المقفع أننا ننفى عنه الزندقة ، فقد شهد بها كثيرون من معاصريه ومن جاءوا بعده ، وكان المهدى يقول : « ما وجدت كتاب زندقة قط إلا وأصله ابن المقفع »[1] ويقول المسعودى: « أمعن المهدى فى قتل الملحدين . . لما انتشر من كتب مانى وابن ديصان ومرقيون مما نقله عبد الله بن المقفع وغيره وترجم من الفارسية والفهلوية إلى العربية »[2] ويُقال إنه مرَّ ببيت نار للمجوس بعد إسلامه، فلما رآه أحسّ بحنين شديد إلى دينه المانوى القديم ، وأنشد بيتى الأحوص[3] :

يا بيتَ عاتكةَ الذى أتعزَّلُ حذَرَ العِدا وبك الفؤادُ مُوكَّلُ
إنى لأمنحك الصدود وإننى قَسماً إليك مع الصدود لأميلُ

وقد يكون فى ذلك ما يشير إلى أنه ظل على اعتقاده المانوى القديم فهو يظهر الإسلام ويضمر مانويته، وقد مضى ينقل ديانات قومه المجوسية ومذاهب الملحدين

(١) أمالى المرتضى ١/١٣٥ .
(٢) مروج الذهب ٤/٢٤٢ .
(٣) أمالى المرتضى ١/١٣٥ .

مثل ابن ديصان ومرقيون ، مما جعل العرب يتنبهون إلى غايته من هذا النقل وما كان يتصل به من ترجمة الحكم الفارسية ، فقالوا إنه إنما كان يريد على الأقل ببعض ترجماته وتصنيفاته معارضة الذكر الحكيم ، وعرض لذلك الباقلانى فقال : « وقد ادعى قوم أن ابن المقفع عارض القرآن ، وإنما فزعوا إلى الدرة اليتيمة ، وهى كتابان : أحدهما يتضمن حكما منقولة .. والآخر فى شىء من الديانات[١] » وقد ألف القاسم بن إبراهيم بن طباطبا المتوفى سنة ٢٤٦ للهجرة كتاباً فى نقض زندقته سماه « كتاب الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع عليه لعنة الله » . وذكر فى أوائله أن ابن المقفع وضع كتاباً عاب فيه المرسلين وافترى الكذب على رب العالمين[٢] ، ولذلك تصدى له يهدم مزاعمه هدماً . وشك أحمد أمين فى هذا الكتاب الذى نسبه ابن طباطبا إلى ابن المقفع ، ولا ينفى هذا الشك عنه زندقته فقد شهد بها معاصروه ومن تلاهم ممن قرءوا كتاباته ، وكثير منها سقط من يد الزمن .

وكان — مع زندقته — نبيل الخلق وقورا يترفع عن الدنايا ولا يجعل للهوى سلطاناً على عقله ، وكان يأخذ نفسه بكل ما يمكن من خصال المروءة والشعور بالكرامة ، ويقول الجهشيارى إنه « كان سرياً سخياً يطعم الطعام ويتسع على كل من احتاج إليه . . وكان يجرى على جماعات من وجوه أهل البصرة والكوفة ما بين الخمسمائة إلى الألفين فى كل شهر » . وتروى عنه حكايات مأثورة تدل على كرمه الفياض ، كما تروى عنه أخبار تدل على دقة حسه ، من ذلك أن عيسى بن على دعاه يوما للغداء فاعتذر بأنه مزكوم ، والزكمة قبيحة الجوار ، مانعة من عشرة الأحرار[٣] . وكان يلفت معاصريه بأدبه الجم ، فسأله سائل : من أدبك ؟ فقال : نفسى ! إذا رأيت من غيرى حسناً أتيته ، وإن رأيت قبيحاً أبيته » . وكان يقدر الأخوة والصداقة حق قدرها ، وقد بنى عليهما كثيراً من حكمه ونصائحه فى الأدبين : الصغير والكبير . وكان ذكياً ذكاء مفرطاً حتى قال ابن سلام : « سمعت مشايخنا يقولون : لم يكن للعرب بعد

---

(١) إعجاز القرآن (طبع مطبعة الإسلام) ص ١٨ .

(٢) كتاب الرد على الزنديق اللعين (نشر جويدى) ص ٨ .

(٣) أمالى المرتضى ١ / ١٣٦ .

الصحابة أذكى من الخليل بن أحمد ولا أجمع ، ولا كان فى العجم أذكى من ابن المقفع ولا أجمع»[1] . وكان يرى أن الذكاء لا يعمر القلوب ولا يثمر الثمرة المرجوة بدون العلم ، وإلا كان كالأرض الطيبة الخراب . ولعله لذلك دأب على التثقف بكل ما استطاع من الآداب الفارسية وما تُرْجِم إلى لغته من الهندية وكذلك ما ترجم إليها من اليونانية زمن كسرى أنو شروان.

وبذلك كان ابن المقفع يجمع بين الثقافات العربية والإسلامية والفارسية والهندية واليونانية ، وقد نقل إلى العربية عن لغته خير ما عرف من الثقافات الأخيرة ، وكان للثقافة الفارسية الحظ الأكبر ، فقد نقل عنها كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع كتاباً فى تعاليم مزدك وكتاب «خداى نامه» وهو فى سير الملوك الإيرانيين ، وعليه اعتمد الفردوسى فى نظم «الشاهنامه» وكذلك نقل كتاب التاج فى سيرة أنوشروان . ونقل عنها فى أنظمة الملك وتدبير السياسة والحكم كتاب « آيين نامه » ورسالة « تنسر » وفى عيون الأخبار منهما ومن كتاب التاج نقول مختلفة . وكان فى الفهلوية أدب أخلاقى كثير مما فى بلاط الساسانيين ، وكان يُراد به إلى تثقيف الفرس بما يوضح لهم سبل الحياة العامة عن طريق الأمثال وما تُشْفَعُ به من الحِكم ، ونقل من ذلك ابن المقفع مادة غزيرة فى الأدب الصغير والأدب الكبير واليتيمة ورسالة الصحابة . وعمد إلى خير أثر فى لغته للهنود وهو كتاب كليلة ودمنة فنقله إلى العربية ، كما نقل عن لغته بعض ما تُرْجم إليها عن اليونانية من كتب أرسطو فى المقولات والقياس المنطقى .

وما نقله عن أرسطو من لغته مفقود ، ولم يصلنا ما نقله عن الفهلوية من الكتب الخمسة الأولى إلا ما اقتبسه ابن قتيبة مما يتصل ببعض وصايا الفرس السياسية وأنظمتهم فى الملك والقضاء وفنون الحرب . ونحن نقف قليلا عند الأدبين الصغير والكبير واليتيمة ورسالة الصحابة .

والأدب الصغير رسالة قصيرة[2] فى نحو ثلاثين صحيفة تتضمن طائفة من

---

(١) مراتب النحويين لأبى الطيب اللغوى (طبعة مكتبة نهضة مصر) ص ٢٨ .

(٢) انظر الأدب الصغير فى رسائل البلغاء لمحمد كرد على (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١ وما بعدها .

الوصايا الخلقية والاجتماعية التي ترشد الناس إلى صلاح معاشهم في أنفسهم وفي علاقاتهم بعناصر المجتمع من أهل السلطان ومن الأصدقاء ومن غيرهم ، ونراه يقول في أوائلها : « قد وضعت في هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ حروفاً ، فيها عَوْنٌ على عمارة القلوب وصِقالها وتجلية أبصارها، وإحياءٌ للتفكير ، وإقامة للتدبير ، ودليل على محامد الأمور ومكارم الأخلاق » ومن قوله في تضاعيفها :

« على العاقل أن لا يستصغر شيئاً من الخطأ في الرأى والزَّلل في العلم والإغفال في الأمور. إن من استصغر الصغير أوشك أن يجمع إليه صغيراً وصغيراً، فإذا الصغير كبير ، وإنما هي ثُلَمٌ[1] يَثْلمها العجز والتضييع ، فإذا لم تُسَدّ أوشكت أن تنفجر بما لا يطاق . كلامُ اللبيب وإن كان نَزْرًا أدب عظيم ، ومقارفة[2] المأثم وإن كان محتقراً مصيبة جليلة . لا يمنعنَّك صِغَر شأن امرئ من اجتباء ما رأيت من رأيه صوابا ، واصطفاءِ ما رأيت من أخلاقه كريما ، فإن اللؤلؤة الفائقة لا تُهان لهوان غائصها الذى استخرجها . أعدلُ السِّير أن تقيس الناس بنفسك ، فلا تأتى إليهم إلا ما ترضى أن يُؤْتَى إليك . حقٌّ على العاقل أن يتخذ مِرْآتين فينظر من إحداهما في مساوئ نفسه فيتصاغر بها ، ويصلح ما استطاع منها ، وينظر من الأخرى في محاسن الناس فيحكيهم بها ويأخذ ما استطاع منها . عمل الرجل فيما يعلم أنه خطأ هَوًى ، والهوى آفة العفاف . من أشد عيوب الإنسان خفاءُ عيوبه عليه فإنه من خفى عليه عَيْبُه خفيت عليه محاسن غيره ، ومن خفى عليه عيب نفسه ومحاسن غيره فلن يقلع عن عيبه الذى لا يعرف ، ولن ينال محاسن غيره التى لا يبصرها أبداً . لا يتمّ حسن الكلام إلا بحسن العمل كالمريض الذى قد علم دواء نفسه ، فإذا هو لم يتداوَ به لم يُغْنه علمه . والرجل ذو المروءة قد يُكْرَم على غير مال كالأسد الذى يهاب وإن كان عَقيراً[3]، والرجل الذى لا مروءة له يهان وإن كثر ماله كالكَلْب الذى يهون على الناس وإن طُوِّقَ وخُلْخِلَ »[4] .

وأكثرُ وصايا الأدب الصغير على هذا النحو من القِصَر وقلما يطَّرد فيها

(١) ثلم : جمع ثلمة وهى الخلل .
(٢) مقارفة : ارتكاب .
(٣) عقيراً : جريحاً .
(٤) خلخل : وضع فى رجله خلخال .

السياق . أما الأدب(١) الكبير فرسالةٌ أكثر طولا إذ تمتد إلى نحو مائة صحيفة ، موزعة بين موضوعين كبيرين ، هما السلطان وما يتصل به من السياسة والحكم ، والصداقة وما يتصل بها من صفات الصديق الصالح . ونراه يصرح فى تقديمه لهذه الرسالة بما صرَّح به فى أوائل الأدب الصغير من أنه يفيد فى وصاياها من أقوال الأسلاف القدماء ، إذ يقول : « منتهى علم عالمنا فى هذا الزمان أن يأخذ من علمهم وغاية إحسان محسننا أن يقتدى بسيرتهم ، وأحسنُ ما يصيب من الحديث محدثنا أن ينظر فى كتبهم ، فيكون كأنه إياهم يحاور ومنهم يستمع ... ولم نجدهم غادروا شيئًا يجد واصف بليغ فى صفة له مقالا لم يسبقوه إليه » . ويشير مع ذلك إلى أنه بقيت فى وجوه الأدب وضروب الأخلاق أشياء من لطائف الأمور تشتقها الفطن السليمة من حكم الأولين وأقوالهم ، وأنه سيضمِّن كتابه أو رسالته منها أطرافا . ومعنى ذلك أن وصايا الرسالة إما نَقْلٌ عن القدماء ممَّا قرأه فى الأدب الساسانى السياسى والأخلاقى ، وإما استنباطات وَصَلَ إليها على هَدْيهم ، وهو يستهلُّ رسالته بالحديث عن أصول الأدب ويريد به التهذيب الخلقى والاجتماعى والسياسى ، ثم يورد بعض الوصايا لمن يتقلد شيئًا من أمور السلطان وينصحه فيما يتولاه أن يُرْضِى ربه ومَنْ فوقه من أصحاب السلطان ومن تحته من صالحى الرعية ، ويقول له : لا تلتمسْ رضا الناس جميعًا ، لأن ذلك شيءٌ لا يُدْرَك ، إذ بينهم مَنْ رِضاه الجَوْرُ ومَنْ رِضاه الضلالة ، فيكفيك رضا الأخيار منهم والعقلاء ، ومن طريف ما يوصيه به قوله :

« لا تتركنَّ مباشرة جسيم أمرك ، فيعودَ شأنك صغيرا ، ولا تلزم نفسك مباشرة الصغير فيصير الكبير ضائعًا ، واعلم أن رأيك لا يتسع لكل شيء ففرِّغْه للمهم . . وأن ليلك ونهارك لا يستوعبان حاجتك وإن دأبت فيهما ، وأنه ليس إلى أدائها سبيل مع حاجة جسدك إلى نصيبه من الدعة فأحسنْ قسمتهما(٢) بين دعتك وعملك . واعلمْ أنك ما شغلت من رأيك فى غير المهم أزرى بالمهم . . وما شغلت من ليلك ونهارك فى غير الحاجة أزرى بك فى الحاجة . واعلم أن من

(١) انظره فى رسائل البلغاء ص ٣٩ وما بعدها .

(٢) قسمتهما : أى قسمة الليل والنهار .

الناس ناساً كثيراً يبلغ من أحدهم الغضب إذا غضب أن يحمله ذلك على الكُلوح [١] والتقطيب فى غير مَنْ أغضبه ، وسوء اللفظ لمن لا ذنب له ، والعقوبة لمن لم يكن يهمّ بعقوبته ، وشدّة المعاقبة باليد واللسان لمن لم يكن يريد به إلا دون ذلك . ثم يبلغ به الرضا إذا رضى أن يتبرّع بالأمر ذى الخطر [٢] لمن ليس بمنزلة ذلك عنده ، ويعطى من لم يكن يريد إعطاءه ويكرم من لا حق له ولا مودة فاحذرْ هذا الباب الحذر كله » .

ويسترسل ابن المقفع فى مثل هذه الوصايا للوالى ، ويتحدث عن صحبة السلطان وواجباتها وآدابها وكذلك صحبة الولاة والحكّام ، ثم ينتقل إلى الصديق والصداقة ، ويصور الخلال التى ينبغى أن يتصف بها فى رأيه الصديق الحق حتى ليرى من واجب الصديق على الصديق أن يبذل له ماله ودمه وأن يلقاه بالتواضع والحياء وأن يمدّ له يَدَ العَوْن فى الشدة . ويستطرد إلى الحديث عن جار السوء وعشير السوء وجليس السوء ، كما يستطرد إلى الحديث عن العدو وما ينبغى من استعمال الدهاء معه والعمل على القضاء عليه أو اجتنابه والبعد عنه ، ويُفيض فى الأخلاق الحميدة والأخلاق السيئة التى تنفّر الناس من صاحبها فضلا عن الصديق ، ومما يسوقه فى الطرفين قوله :

« انظُرْ مَنْ صاحبتَ من الناس من ذى فَضْل عليك بسلطان أو منزلة ومَنْ دون ذلك من الخلصاء والأكفاء والإخوان فوَطِّنْ نفسك فى صحبته على أن تقبل منه العَفْوَ ، وتسخو نفسك عما اعتاصَ عليك مما قِبَلَه غير معاتب ولا مستبطئ ولا مستزيد ، فإن المعاتبة مقطعة للود ، وإن الاستزادة من الجشع ، وإن الرضا بالعفو والمسامحة فى الخلق مقرب لك كلّ ما تتوق إليه نفسك مع بقاء العرض والمودة والمروءة . . ولا تلتمس غلبة صاحبك والظفر عليه بكل كلمة ورأى ، ولا تجترئنّ على تقريعه وتبكيته بظفرك إذا استبان وحجّتك إذا وضحت. وتعلَّمْ حسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام ، ومن حسن الاستماع إمهالُ المتكلم حتى يقضى حديثه ، وقلة التلفت إلى الجواب ، والإقبال بالوجه والنظر إلى المتكلم ، والوعى لما يقول . . واعلم أن المستشار ليس بكفيل وأن الرأى ليس بمضمون ، بل

---

(١) الكلوح والتقطيب : العبوس . (٢) الخطر : الشرف .

الرأى كله غَرَرٌ[١] ، لأن أمور الدنيا ليس شىء منها بثقة ، ولأنه ليس شىء من أمرها يدركه الحازم إلا وقد يدركه العاجز ، بل ربما أعْيَى الحَزمة[٢] ما أمكن العجزة ، فإذا أشار عليك صاحبك برأى فلم تجد عاقبته على ما كنت تأمل ، فلا تجعلْ ذلك عليه لوما وعَذْلا بأن تقول: أنت فعلت هذا بى ، وأنت أمرتنى ، ولولا أنت لم أفعل ، ولا جرم لا أطيعك فى شىء بعدها ، فإن هذا كله ضجر ولؤم وخفة . وإن كنت أنت المشير ، فعمل برأيك أو تركه فبدا صوابك فلا تَمنَّ ولا تكثِرنَّ ذكره إن كان فيه نجاح ، ولا تَلُمْهُ عليه إن كان استبان فى تركه ضرراً بأن تقول : ألم أقل ، ألم أفعل ، فإن هذا مجانب لأدب الحكماء .. واعلم أن من تنكُّب الأمور ما يسمى حَذَراً ، ومنه ما يسمى خَوَراً فإن استطعت أن يكون تجنُّبك من الأمر قبل مواقعتك إياه فافعلْ ، فإن ذلك هو الحذر ، ولا تنغمس فيه ثم تتهيبه ، فإن ذلك هو الخور ، وإن الحكيم لا يخوض نهراً ، حتى يعلم مقدار قَعْره » .

وردَّد محمد كرد على فى نشرته للأدب الكبير بكتابه رسائل البلغاء بين هذا العنوان وعنوان ثان هو الدرة اليتيمة ، وهما كتابان لا كتاب واحد ، كما يشهد بذلك كلام الباقلانى عن اليتيمة الذى سبق أن نقلناه عنه ، وفيه أنها قسمان قسم فى الحكم المنقولة ، وقسم فى شىء من الديانات ، وليس فى الأدب الكبير حديث عن الديانات ، إنما هو حديث كما رأينا عن السلطان والصداقة . ومما يقطع بأن الدرة اليتيمة ليست هى الأدب الكبير أن ابن طيفور احتفظ فى كتابه « اختيار المنظوم والمنثور » بقطعة طويلة من صدرها لا توجد فى الأدب الكبير ، ونرى ابن المقفع يذكر فيها أن الناس قد سألوه أسئلة ، وأنه سيجيبهم عما سألوا ، واحتفظت القطعة بالسؤال الأول ، وهو يدور على الزمان ، وقد أجابهم بأن الزمان الناس ، وهم رجلان ، وال ومولًّى عليه . وقسم الأزمنة على أساس الوالى والرعية أربعة أقسام : قسم هو خير الأزمنة لصلاح الحاكم والمحكومين ، وقسم ثان يليه وفيه يصلح الحاكم ويفسُدُ المحكومون ، وقسم ثالث يصلح فيه المحكومون ويفسد الحاكم ،

---

(١) غرر : خداع .
(٢) الحزمة : جمع حازم .

وقسم رابع هو شر الأزمنة لفساد الحاكم والمحكومين جميعا ، وفى الأول يقول[١] :

« خيار الأزمنة ما اجتمع فيه صلاح الراعى والرعية ، فكان الإمام مؤدّيًا إلى الرعية حقهم : فى الرد عنهم والغيظ على عدوهم ، والجهاد من وراء بَيْضتهم[٢] والاختيار لحكّامهم ، وتولية صلحائهم ، والتوسعة عليهم فى معايشهم ، وإفاضة الأمن فيهم ، والمتابعة فى الحق لهم ، والعدل فى القسمة بينهم ، والتقويم لأوَدهم[٣] والأخذ لهم بحقوق الله عز وجلّ عليهم . وكانت الرعية مؤدية إلى الإمام حقه فى المودة والمناصحة والمخالطة وتَرْك المنازعة فى أمره ، والصبر عند مكروه طاعته ، والمعونة على أنفسهم ، والشدة على من أخلّ بحقه وخالف أمره ، غير مؤثرين فى ذلك آباءهم ولا أبناءهم ، ولا لابسين[٤] عليه أحدا . فإذا اجتمع ذلك فى الإمام والرعية تمّ صلاح الزمان ، وبنعمة الله تتمّ الصالحات »

ويظهر أن الأسئلة الأولى فى الرسالة كانت تخوض فى السياسة ، وتلتها أسئلة كانت تخوض فى شئون الديانات ، ولعل ذلك هو الذى جعل الدرة اليتيمة تسقط من يد الزمن ، وكأن الناس تحاموا تداولها . أما رسالة الصحابة[٥] فهى فى صحابة السلطان وبطانته ومن يستعين بهم فى حكمه من جنده وما ينبغى له فى سياسته إزاء رعيته ، كتب بها إلى المنصور ، وكأنه يضع له دستوراً للحكم ، وقد استهلّها بمدحه وبيان فضله على خلفاء بنى أمية وما تحلّى به من تشجيع ذوى النصح والرأى على الإدلاء بنصائحهم وآرائهم فيما يعود على الأمة بالنفع والخير . ثم أخذ فى تصوير الدستور الذى يريد من المنصور اتباعه فى حكمه ، واصفًا حسن سياسته ، إذ اقتلع الولاة والأعوان المفسدين ، واجتمعت حوله قلوب الرعية لما اشتمل عليه من حسن العفو واللين . ولم يلبث أن تحدث عن الجند ، ومعروف أن الجند حينئذ كانوا خراسانيين فى جمهورهم ، ومن ثَمّ أخذ يشيد بجند خراسان وأنه لم يُدْرَك مثلهم فى الإسلام لما امتازوا به من الطاعة والفضل والعفاف والكف عن الفساد والإعطاء عن يَدٍ للولاة والحكام ، ومن أجل ذلك كانت تجب العناية

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٣/٤٩ .

(٢) البيضة : حوزة كل شيء وساحة ، القوم والمراد بلدهم .

(٣) الأود : الاعوجاج .

(٤) لابسين هنا : مقدمين ، وأصل لبس القوم التمل بهم زمناً .

(٥) انظر فى هذه الرسالة رسائل البلغاء ص ١١٧ و جمهرة رسائل العرب ٣/٢٥ .

بهم بوضع قانون لهم ، يوضح فى دقة واجباتهم وما ينبغى أن يفعلوه وما ينبغى أن يذروه ويتجنبوه ، وأن مثلهم مثل الخليفة ينبغى أن يطيعوا الدين وأوامره ونواهيه ، كما يطيعون الخليفة فى الأحداث المتجددة من إعلان حرب أو مهادنة أو تنظيم أمور حادثة . ومما يُنْظَرُ فيه لصلاح الجند أن لا يولّى أحد منهم على شىء من الخراج فإن ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة ، إذ يخرجهم عن وظيفتهم الحربية ، ويشغلهم بأمور المال والدراهم والدنانير . ولفت المنصورَ إلى أن من عامتهم من هم خير من قادتهم . ولذلك ينبغى أن يعيد النظر فيمن جعلهم منهم قادة ، فيردّ بعضهم عن القيادة ويوليها الكفء المجهول من الجند. وطلب إليه أن يُعنَى بتعليمهم القرآن والتفقه فى السنة وأن يتحلوا بالأخلاق الفاضلة من الأمانة والعفاف والتواضع والبعد عن الهوى وأن يجتنبوا الترف فى المطعم والملبس ، كما طلب إليه تعيين مواقيت محددة لأرزاقهم ورواتبهم وأن يتفصّى أحوالهم بثقات لا يكتمون عنه منها شيئًا . وانتقل ابن المقفع من الجند إلى أهل العراق عامة وأهل البصرة والكوفة خاصة ، لأنهم شيعة العباسيين . وتحدث عن تفوق أهل العراق على غيرهم فى الفقه والعفاف والعقول والفصاحة ، وهم لذلك خير من يستعين بهم المنصور فى دولته ، وكان الأمويون قد حرموهم من تدبير الحكم مع أنهم أهله ومستحقوه . وأوصاه — كما أوصاه فى الجند — أن يتتبع خيارهم من المجاهيل عنده ، فيسند إليهم شئون الدولة ، ويردّ عنها من وقع فيهم الخطأ ومن اختيروا دون تثبت وفحص كاف . وسرعان ما يعرض لفوضى القضاء الناشئة عن كثرة الاختلافات بين الفقهاء ، حتى ليُحْكَمُ فى القضية الواحدة بحكمين مختلفين أو أحكام مختلفة لا فى البلاد المتباعدة بل فى البلد الواحد ، واقترح لدَرْءِ هذه الفوضى أن يضع المنصور قانوناً يلتزمه القضاة على اختلاف منازعهم الفقهية ، سواء أكانوا ممن يقدّمون الرأى ويعتدُّون به أو كانوا ممن يقدمون السنة ويعتدُّون بها ، ويَسْخر من الأخيرين ، إذ تمادوا فى الأخذ عن التابعين وخلفاء بنى أمية مسمّين ذلك سُنَّةً ، مما دفع إلى هذا الاضطراب الواسع فى الأقضية ، يقول :

« ومما ينظر أمير المؤمنين فيه من أمر هذين المصرين (البصرة والكوفة) وغيرهما من الأمصار والنواحى اختلاف هذه الأحكام المتناقضة التى قد بلغ اختلافها

أمراً عظيماً فى الدماء والفروج والأموال ، فيُستَحلّ الدم والفرج بالحيرة ، وهما يحرّمان بالكوفة ، ويكون مثل ذلك الاختلاف فى جوف الكوفة ، فيُستحَلّ فى ناحية منها ما يحرَّم فى ناحية أخرى . غير أنه على كثرة ألوانه نافذ على المسلمين فى دمائهم وحُرَمهم ، يقضى به قضاة جائز أمرهم وحكمهم ، مع أنه ليس ممن ينظر فى ذلك من أهل العراق وأهل الحجاز فريق إلاقد لجَّ بهم العجب مما فى أيديهم والاستخفاف بمن سواهم ، فأقحمهم ذلك فى الأمور التى يتبيَّغ[1] بها من سمعها من ذوى الألباب . أما من يدَّعى لزوم السنة منهم فيجعل ما ليس له سنَّة سنَّة ، حتى يبلغ ذلك به إلى أن يسفك الدم بغير بينة ولا حُجَّة على الأمر الذى يزعم أنه سنة ، وإذا سُئل عن ذلك لم يستطع أن يقول : هُريق[2] فيه دم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أئمة الهدى من بعده ، وإذا قيل له : أىُّ دم سُفك على هذه السنة التى تزعمون ؟ قالوا : فعل ذلك عبدالملك ابن مروان أو أمير من بعض أولئك الأمراء . وربما يأخذ بالرأى ، فيبلغ به الاعتزام على رأيه أن يقول فى الأمر الجسيم من أمر المسلمين قولا ، لا يوافقه عليه أحد من المسلمين ، ثم لا يستوحش لانفراده بذلك وإمضائه الحكمَ عليه ، وهو مقرٌّ بأنه رأىٌ منه ، لا يحتجّ بكتاب ولا سُنَّة . فلو رأى أمير المؤمنين أن يأمر بهذه الأقضية والسنن المختلفة فتُرفع إليه فى كتاب ، ويرفع معها ما يحتجُّ به كل قوم من سُنَّة أو قياس ، ثم نظر فى ذلك أمير المؤمنين وأمضى فى كل قضية رأيه الذى يُلهمه الله ، ويعزم عليه عزماً ، وينْهَى عن القضاء بخلافه ، وكتب بذلك كتابا جامعا لرجونا أن يجعل الله هذه الأحكام المختلطةَ الصواب بالخطأ حكمًا واحداً صوابا ، ورجونا أن يكون اجتماع السُّنَن قرينةً لاجتماع الأمر برأى أمير المؤمنين وعلى لسانه ، ثم يكون ذلك من إمام آخر ، آخرَ الدهر ، إن شاء الله » .

ومضى ابن المقفع يذكر أن اختلاف الأحكام إذا كان يرجع إلى سنن مأثورة غير مجمع عليها فينبغى الأخذ بما هو أشبه بالعدل ، وإذا كان يرجع إلى استخدام الرأى والقياس ، فإن القياس قد يخطئ ، وليس المدار على القياس فى حد ذاته ،

(١) يتبيغ : يهيج . (٢) هريق : لغة فى أريق .

وإنما المدار على ما يقود إليه فإن قاد إلى حسن أُخِذَ به وإن قاد إلى قبيح تُرِكَ ، إذ المراد ليس عين القياس ، وإنما المراد إحقاق الحق لأهله . ولعل هذه الدعوة إلى إصلاح التشريع وجَمْع السنن والأحكام والأقضية ووَضْع قانون عام للقضاء هي التي دفعت المنصور ليطلب إلى مالك أن يؤلّف فى الفقه كتابه « الموطّأ » وقد قال له : إنى أريد أن تُرْسل لى به لأكتب منه نسخاً يرجع إليها الناس فى الأمصار ، غير أن مالكاً لم يرتض الفكرة ، لأن المسلمين فى كل بلد رووا من السنة النبوية ما دانوا به ، غير أنه ألف « الموطأ » وذاعت أحكامه الفقهية فى الحجاز ، وفى كثير من الأمصار وخاصة فى مصر والمغرب والأندلس . ويدعو ابن المقفع بعد ذلك المنصور إلى العطف على أهل الشام مع ما يكنّونه للدولة من عداوة ، لسَلْبها السلطانَ منهم ، وأن يصطنع خيارهم ، فيتبعهم فى محبة الدولة غيرهم ، وتأخذ دائرة هذه المحبة فى الاتساع . ويطلب إليه أن يردّ عليهم فَيْئهم ، حتى يذعنوا للدولة عن رضا ، وحتى تهدأ نفوسهم فلا تكون منهم وثبات ولا ثورات . ويتحول ابن المقفع إلى بطانة الخليفة ورجال دولته ويطلب إليه أن يعيد النظر فيهم ، فإن بينهم كثيرين ليسوا بذوى بلاء ولا فيهم غَناء ، بل بينهم من اشتهروا بالفجور والأعمال القبيحة ، مع أن منهم من يصرِّف أمور الدولة ومن يعمل فى دواوينها . وحرى بالخليفة أن يجعل أساس اختياره لحاشيته الأمانة ، والعدالة وجودة الرأى وأن لا يقرِّب منه إلا من صنع مكرمة عظيمة أو أبلى بلاء حسنًا ، أو عُرِف بأصالة رأيه وحصافته أو كان عالمًا ينتفع الناس بعلمه ، وعليه أن يجعل لكل منهم اختصاصاً فى عمله لا يتعداه . ونصحه بأن يستخدم أهل بيته ويُسْند إليهم جسام الأمور والأعمال . ثم وقف عند الخراج أو بعبارة أخرى الضرائب المفروضة على الأراضى والضياع فى الدولة ، ولفت المنصور إلى ما فيها من فوضى ، إذ ليست هناك قواعد مقررة ، وكل عامل يفرض الضريبة حسب مشيئته ، ودعاه إلى وضع وظائف ثابتة على كل أرض وكل ضيعة ، وبذلك يقف ظلم العمال ويأمن الزراع على عمارة ضياعهم وأراضيهم ، كما دعاه إلى تخير عُمّال الخراج وتفقّدهم واستبدال من تظهر عليه خيانة . وتحدث عن أهل الجزيرة العربية من الحجاز واليمن ومَنْ وراءهم من البدو ، وطلب إلى

المنصور أن تسخو نفسه عن أموالهم من الصدقات وغيرها مما يُجْبَى منهم، وكأنه نظر فى ذلك إلى فقر بلادهم وجَدْبها وأنهم كانوا مادة الإسلام والفتوح . ودَعاه إلى أن يولى عليهم الخيار من أهل بيته . وطلب إليه أخيراً أن يعين فى الأمصار طائفة من الفقهاء والمحدثين النابهين تكون مهمتهم تأديب العامة وتبصيرها الخطأ ومنعها من البِدَع والفتن ، وبذلك رشَّح ابن المقفع لقيام وظيفة المحتسب فى الدولة العباسية ، وكان يُعْهَدُ إليه بمراقبة الأسواق والحكم فيما ينشأ فيها من منازعات وجنايات وما يكون من خطأ فى البيع والشراء أو نقص فى المكاييل والموازين .

وقد يكون ابن المقفع تأثر فى هذه الرسالة ببعض أنظمة الحكم الساسانية وبما سمعه عن قانون جوستنيان الرومانى ولكن من المحقق أنه صَدَرَ فيها عن فطنة وقوة ملاحظة لأحوال الدولة الإسلامية فى عصره وما حذقه من شئون السياسة التى استوحاها مما قرأه عند الأوائل . ودائمًا لا نستطيع أن نُخْليه فى كتاباته من التأثر بالثقافات الأجنبية إذ كان أكبر من اطلعوا عليها فى عصره ، وكان ذهنه من الخصب ، بحيث يستنبط كثيراً من الآراء والأفكار وخاصة ما يتصل بالإصلاح الاجتماعى والسياسى . ولعل هذا الإصلاح الذى كان ينشده للدولة العباسية هو الذى دفعه إلى ترجمة القصص الخيالى الهندى ، أو بعبارة أخرى ترجمة كليلة ودمنة ، ويقال إنها نُقلت فى عهد كسرى أنو شروان من الهندية إلى الفهلوية ، وقد عثر الباحثون على بعض أصولها الهندية ، من مثل « بَنْجَ تانترا » ومثل « هتو بادشا » ووجدوا منها بعض أصول فى « المهابهارتا » مما يؤكد أنها هندية الأصول ، بل يثبته إثباتا قاطعـًا[1] . ورجّح كثير من الباحثين أن ابن المقفع زاد فى الكتاب بعض الفصول والقصص ، ولكن ربما زاد ذلك بعض مَنْ جاء بعده ، إذ تُرْجِمَ الكتاب مرارا ، شعراً ونثراً ، وأكبر الظن أن ابن المقفع لم يزد إلا الفصل الذى وضعه بين يدى القصص وسماه « عرض الكتاب » وذكر البيرونى قديمًا أنه زاد أيضا باب برزويه« قاصدا تشكيك ضعفى العقائد فى الدين وكسرهم للدعوة إلى مذهب المنانية ، وإذا كان متهماً فيما زاد لم يخل عن مثله فيما نقل[2] »

(١) مقدمة كليلة ودمنة (طبع دار المعارف) ص ٣٥ وما بعدها .

(٢) تحقيق ما للهند من مقولة ص ٨٦ .

غير أن أبحاث المحدثين أثبتت أن هذا الفصل كان موجوداً فى الأصل الفارسى ، مما يجعلنا نظن أن أصحاب الدعوة المانوية من الفرس استغلُّوا الكتاب قبل نَقْله إلى العربية فى الدعوة لمذهبهم المانوى .

ومَثَلُ ابن المقفع فى ترجمة هذا الكتاب مَثَلُهُ فى ترجمة الحكم والآداب الفارسية السياسية والاجتماعية والخلقية يصبُّ فى دقة المعنى الذى يترجمه فى القوالب العربية التى تلائمه وتلائم الذوق العربى ، بحيث خُيِّل إلى كثير من القدماء أن كل تلك الترجمات من تأليفه وتصنيفه ، إذ لم يجدوا أى فارق فى الصياغة بين ما يترجمه وينشئه . وحقًّا حمل عليه الجاحظ فى ترجمته لمنطق أرسطو ، إذ لاحظ فى ألفاظه قصوراً أحيانا عن أداء المعانى المنطقية[1] ، وهو قصور منشؤه صعوبة أداء هذه المعانى لأول مرة فى العربية ، ومهما يكن فله فضل الرائد . وهو إن فاته التوفيق فى نقل المنطق الأرسطاليسى فإنه لم يفته فى بقية ترجماته ، وأمامنا كليلة ودمنة التى لا تُعَدُّ آية من آيات بلاغته فحسب ، بل تعد آية من آيات البلاغة العباسية على الإطلاق . وفى رأينا أن غَضَّ الجاحظ من ترجمته لمنطق أرسطو هو الذى دفع طه حسين فى كتابه « من حديث الشعر والنثر » إلى التشكك فى مقدرته على أداء المعانى الدقيقة العميقة حتى ليقول عنه : « له عبارات من أجود ما تقرأ فى العربية وبنوع خاص فى الأدب الكبير وفى كليلة ودمنة ، ولكنه عند ما يتناول المعانى الضيقة التى تحتاج إلى الدقة فى التعبير يضعف ، فيكلف نفسه مشقة ويكلف اللغة مشقة »[2] ويبلغ من إزرائه عليه أن يقول إنه « كان مستشرقا كغيره من المستشرقين يحسن اللغة العربية فهما ، وربما أعياه الأداء فيها» ويستشهد لذلك بأمثلة من رسالة الصحابة والأدب الكبير ، كل ما يلاحِظُ عليها اضطرابٌ فى بعض الضمائر ، وكأنه نسى أن الرسالتين تداولتهما أيدى النساخ بعد ابن المقفع وأنه ربما دخلها هذا الارتباك من أيديهم . والحق أنه أسرف فى إزرائه عليه وفى عده مستشرقا كالمستشرقين الغربيين فى عصرنا ، فهؤلاء لا ينشأون فى بيئات عربية كبيئة البصرة التى نشأ فيها ابن المقفع ، وهم لا ينقلون إلى العربية آثار قومهم الأدبية على نحو ما كان ينقل ابن المقفع عن

---

(١) الحيوان ١/٧٦ .

(٢) من حديث الشعر والنثر ص ٤٨ وما بعدها

الفارسية ، ثم هم لم يوظَّفوا فى الدواوين العربية ولم يعملوا فيها كتّابا يكتبون الرسائل السياسية الرسمية ، على نحو ما وُظّف ابن المقفع . ولم يكن كاتباً فحسب بل كان أيضاً يحسن صوغ الشعر العربى ، وقد أجمع معاصروه على أنه كان آية فى البلاغة ، وجعلوه على رأس البلغاء العشرة الذين سمّوْهم فى هذا العصر[1] ، وبلغ من إعجابهم به أنهم كانوا يكثرون من أسئلته عن البلاغة ، على نحو ما مرّ بنا فى غير هذا الموضع ، ونفسُ الجاحظ يقول فى بعض رسائله إن الكتاب الناشئين كانوا يتدارسون آثاره ليحذقوا البيان وليلقحوا عقولهم وألسنتهم بخير لقاح[2] .

ولم يكن ابن المقفع بليغا فحسب ، بل كان أكبر بلغاء عصره ، إذ استطاع أن يملأ أوانى العربية بمادة أجنبية غزيرة ، دون أن يُحدْث فيها انحرافًا من شأنه أن يجرّ ضرباً من الازدواج اللغوى ، إذ من المعروف أن لكل لغة صياغتها وأنماطها الخاصة فى التعبير ، ولها أيضا صُوَرُها وأخيلتها التى قد تستعصى على الأداء فى لغة أخرى . وشىء من ذلك لا يصادفنا عند ابن المقفع ، فقد استطاع أن يحتفظ للعربية فى ترجماته بمقوماتها الأصيلة ، كما استطاع الملاءمة بين الأخيلة والصور الفارسية وذوق اللغة العربية ، بحيث لا نحسُّ عنده نُبُوًّا ولا انحرافاً ، مما يشهد له بقدرته البيانية وأنه استطاع أن يحوز لنفسه السليقة العربية التامة بكل شاراتها وسماتها اللغوية .

والحق أنه كان آية فى البلاغة وجزالة القول ورصانته مع سهولته ، وقد نصح مرة لبعض الأدباء ، فقال له : « إياك والتتبع لوحشىّ الكلام طمعًا فى نَيْل البلاغة فإن ذلك هو العِىُّ الأكبر » . ولعل خير ما يصف بلاغته إجابته لسائل سأله عن البلاغة فقال : « هى التى إذا سمعها الجاهل ظنّ أنه يحسن مثلها » .

والمسألة لا تقف عند وصفه بالبلاغة ، فهى أوسع من ذلك وأبعد مدى ، إذ كان من أوائل من ثبّتوا الأسلوب الكتابىّ العباسىّ المولّد ، وهو أسلوب يقوم على الوضوح وأن تشفّ الألفاظ عن معانيها وأن تخلو من كل غريب وحشىّ ومبتذل

---

(١) الفهرست ص ١٨٢ .

(٢) ثلاث رسائل للجاحظ (طبعة فنكل) ص ٤٢ .

عامى . ولم يقْصر ابن المقفع هذا الأسلوب على ما ينشئه من رسائل ديوانية أو إخوانية ، بل عممه فى ترجماته ، وبذلك وطّده أقوى توطيد ومكّن له أوسع تمكين ، إذ جعله أساوب النثر العام فى العصر مهما اختلفت فنونه . وكانت غزارة معانيه سبباً فى أن يتميز هذا الأسلوب عنده بالإيجاز والاقتصاد الشديد ، فالألفاظ بقدر المعانى لا تنقص ولا تزيد ، والمعانى تؤدّى أداء فصيحاً رصيناً ، دون قصد إلى الجمال التعبيرى من سجع أو ترادف صوتى . ويظهر أنه على الرغم من زندقته كان يبهره جمال القرآن وصياغاته فاستعار من ألفاظه وأساليبه كثيراً فى جوانب كتاباته حتى فى القصص الحيوانى قصص كليلة ودمنة ، وطبيعى أن تبلغ هذه الاستعارة عنده الغايةَ فى تحميداته التى كان يفتتح بها الرسائل السياسية الرسمية والتى كان يعظّم فيها الدين الحنيف على نحو ما نرى فى هذا التحميد[1] :

« الحمد لله ذى العظمة القاهرة ، والآلاء الظاهرة ، الذى لا يُعْجزه شىْءٌ ولا يمتنع منه ، ولا يُدْفَعُ قضاؤه ولا أمره : (إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كُنْ فيكون) . والحمد لله الذى خلق الخلق بعلمه ، ودبّر الأمور بحكمه ، وأنفذ فيما اختار واصطفى منها عزمه بقدرة منه عليها ومِلْكَة[2] منه لها (لا معقب لحكمه) ولا شريك له فى شىء من الأمور (يخلق ما يشاء ويختار) وما كان للناس الخِيرَة فى شىء من أمورهم (سبحان الله وتعالى عما يشركون) . والحمد لله الذى جعل صفوة ما اختار من الأمور دينه الذى ارتضى لنفسه ولمن أراد كرامته من عباده ، فقام به ملائكته المقرّبون ، يعظّمون جلاله ويقدسون أسماءه ويذكرون آلاءه لا يَسْتحسرون[3] عن عبادته ولا يستكبرون (يسبحون الليل والنهار لا يفتّرون) وقام به من اختار من أنبيائه وخلفائه وأوليائه فى أرضه يطيعون أمره ويذبّون عن محارمه ، ويصدّقون بوعده ، ويوفون بعهده ويأخذون بحقه ويجاهدون عدوّه . وكان لهم عند ما وعدهم من تصديقه قولهم وإفلاجه[4] حُجّتهم وإعزازه دينهم وإظهاره حقهم وتمكينه لهم ، وكان لعدوه وعدوهم عند ما أوعدهم من خزيه وإحلاله بأسه ، وانتقامه منهم وغضبه عليهم . مضى على ذلك أمره ونفذ فيه قضاؤه

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٣/٥٣ .
(٢) ملكة : ملك .
(٣) يستحسر بالشىء : يعيا به .
(٤) إفلاجه : نصره .

فيما مضى ، وهو ممضيه ومنفذه على ذلك فيما بقى (ليُتمّ نوره ولو كره الكافرون) و(ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون) . والحمد لله الذى لايقضى فى الأمور ولا يدبِّرها غيره ، ابتدأها بعلمه وأمضاها بقدرته ، وهو وليُّها ومنتهاها ، وولىّ الخيرَة فيها والإمضاء لما أحبَّ أن يمضى منها (يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرَة سبحان الله وتعالى عما يشركون) . والحمد لله الفتاح العليم العزيز الحكيم ، ذى المَنّ والطَّوْل [١] والقدرة والحَوْل [٢] ، الذى لا ممسك لما فتح لأوليائه من رحمته ، ولا دافع لما أنزل بأعدائه من نقمته ، ولا رادّ لأمره فى ذلك وقضائه ، يفعل ما يشاء ، ويُحْكم ما يريد . والحمد لله المثيب بحمده ومِنْه ابتداؤه ، والمنعم بشكره وعليه جزاؤه ، والمثنى بالإيمان وهو عطاؤه » .

والآيات المقتبسة من الذكر الحكيم كثيرة فى هذا التحميد ، وقد وضعناها بين أقواس لتتضح مواضعها ، ووراءها ألفاظ كثيرة مستمدة من القرآن الكريم . وبَدَا عنده هنا شىء من السجع الذى يأتى عفواً سمحًا ، وكأنما ابتغى هنا التنميق بأكثر مما كان يبتغيه فى ترجماته . ونحن نسوق طائفة من رسائله الإخوانية ليتضح لنا ما كان يبذل فيها من جهد فنى ، وأول ما نذكر منها تهنئة بمولودة لأحد أصدقائه على هذا النمط [٣] :

« بارك الله لكم فى الابنة المستفادة ، وجعلها زَيْنًا ، وأجرى لكم بها خيراً ، فلا تكرهْها ، فإنهن الأمهات والأخوات والعمَّات والخالات ، ومنهن (الباقيات الصالحات) ورب غلامٍ ساء أهله بعد مسرَّتهم ، وربَّ جارية فرَّحتْ أهلها بعد مساءتهم »

واقتبس هنا من القرآن كلمة (الباقيات الصالحات) وعُنى بالإيجاز والاقتصاد الشديد ، ومما كَتَب به فى التعزية عن ولد [٤] :

« إنما يستوجب على الله وعده مَن صبر لله بحقّه ، فلا تجمعنَّ إلى ما فُجعت به من ولدك الفجيعةَ بالأجر عليه والعوض منه ، فإنها أعظم المصيبتين عليك ، وأنكى المَرْزِئتَيْن [٥] لك ، أخلف الله عليك بخير ، وذخر لك جزيل الثواب» .

---

(١) الطول : الإنعام .

(٢) الحول : القوة .

(٣) جمهرة رسائل العرب ٣/ ٥٧ .

(٤) جمهرة رسائل العرب ٣/ ٥٨ .

(٥) المرزئتين : المصيبتين .

والدقة المنطقية واضحة فى هذه الرسالة مع ما يجرى فيها من طرافة التفكير ، فقد جعل الجزع على الولد فجيعة لا تقل عن فجيعة فقده ، بل جعلها أعظم وأنكى ، إذ تحرم صاحبها الثواب . وتلطّفَ فدعا لصاحبه أن يعوضه الله من ولده ويخلف عليه بخير منه ؛ ومن رسائله الإخوانية البديعة ما كتب به إلى بعض إخوانه يستقضيه حاجة[1] :

« أما بعد فإن من قضى الحوائج لإخوانه واستوجب بذلك الشكر عليهم فلنفسه عملَ لا لهم ، والمعروف إذا وُضع عند من لا يشكره فهو زرعٌ لا بد لزارعه من حصاده أو لِعَقِبِه من بعده . وكتبت إليك ، ولحالنا التى نحن بها فيما نذكر لك حاجة ، أولُ ما فيها معروف ، تستوجب به الشكر علينا ، وتدّخِرُ به الأيادى قِبَلنا » .

ودقةُ التفكير واضحة فى الرسالة ، فقد جعل قضاء أخ لأخيه حاجة ليس مِمَّا يؤديه إليه ، وإنما يؤديه إلى نفسه ، لقيامه بحقوق أخيه ونهوضه بواجبه نحوه . ويتحدّث عن بذل المعروف ، ويتبادر إليه جحود بعض الناس ، فيقول إن المعروف غَرْسٌ لا بد من حصاده حتى عند من يجحدون ولا يشكرون . ومرت بنا فى الفصل السالف رسائل إخوانية تحوّل بها بعض الكتّاب إلى ما يشبه رسائل أدبية تصف الأخوة والصداقة من حيث هما مفصَّلةٌ صفاتِهما وشرائطهما ، ولابن المقفع قطعة أدبية بديعة فى وصف أحد إخوانه ، وفى رأينا أنه لم يصف فيها أخاً بعينه ، إنما وصف المثل الأعلى للأخ الكامل ، أو بعبارة أدق للرجل الفاضل ، وهى تمضى على هذه الشاكلة[2] :

« إنى مخبرك عن صاحب لى كان أعظمَ الناس فى عينى ، وكان رأس ما عظّمه عندى صِغَرُ الدنيا فى عينه . كان خارجاً من سلطان بطنه فلا يشتهى ما لا يجد ، ولا يكْثِر إذا وجد . وكان خارجاً من سلطان فَرْجه ، فلا يدعو إليه ريبةً ، ولا يستخفّ له رأياً ولا بدنا ، وكان لا يَأْشَرُ[3] عند نعمة ، ولا يستكين عند

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٣ / ٦٠ .

(٢) انظر هذا الوصف فى آخر الأدب الكبير . وفى زهر الآداب ١ / ١٧٩ وفى جمهرة رسائل العرب ٣ / ٥٦ .

(٣) يأشر : يبطر .

مصيبة . وكان خارجاً من سلطان لسانه ، فلا يتكلم بما لا يعلم ولا يمارى[1] فيما علم . وكان خارجاً من سلطان الجهالة فلا يقدم إلا على ثقة بمنفعة . وكان أكثر دهره صامتاً ، فإذا نطق بذّ القائلين . وكان يُرَى ضعيفاً مُستَضْعفاً ، فإذا جدّ الجِدُّ فهو اللَّيْثُ عادياً . وكان لا يدخل فى دعوى ، ولا يشارك فى مِراء ، ولا يُدْلى بحجة ، حتى يرَى قاضياً فَهِماً وشهوداً عدولا . وكان لا يلوم أحداً على ما قد يكون العُذْر فى مثله ، حتى يعلم ما اعتذاره . وكان لا يشكو وجعاً إلا إلى من يرجو عنده البُرْء ، ولا يستشير صاحباً إلا من يرجو عنده النصيحة . وكان لا يتبرَّم ، ولا يتسخَّط ، ولا يتشكَّى ، ولا يتشهَّى . وكان لا ينقم على الولىّ ولا يغفل عن العدو ، ولا يخصّ نفسه دون إخوانه بشىء من اهتمامه وحيلته وقوته . فعليك بهذه الأخلاق إن أطقتها ، ولن تُطيق ، ولكنّ أخْذَ القليل خَيْرٌ من تَرْك الجميع ».

وواضح أن هذا الوصف للرجل الكامل وخصاله يُعَدّ درة ثمينة من درر البلاغة العباسية ، ومن الخطأ البين أن يقال عن صاحبه وصاحب النصوص التى أسلفناها إنه كان كأحد المستشرقين يتعثر فى أساليبه وتضطرب لغته ، ويعييه أحياناً الأداء السليم ويستعصى عليه استعصاء ، فقد كانت اللغة العربية تستقيم له ، وكان أعجوبة زمانه فى البيان والبلاغة مع الجزالة والنصاعة حيناً ، وحيناً آخر مع العذوبة والرشاقة .

٢

سهل بن[2] هرون

هو سهل بن هرون بن راهبونى كما جاء فى البيان والتبيين ، وفى كتاب البخلاء

---

(١) يمارى : يجادل .

(٢) انظر فى ترجمة سهل وأخباره البيان والتبيين ١/٥٢ ، ٨٩ ، ١٩٦ ، ٢٣٨ ، ٣٤٦ ، ٣/٢٩ والحيوان ٢/٣٧٤ ، ٣/٦٦ و٤٦٦ ، ٥/٦٠٣ ، ٧/٢٠٢ والفهرست ص ١٧٤ وزهر الآداب ٢/٢٥٧ — ٢٥٩ والتنبيه والإشراف للمسعودى (طبع ليدن) ص ٧٦ وعيون الأخبار ٣/٢٥ ، ١٣٨ ، ٤/١١٢ وشرح قصيدة ابن عبدون لابن بدرون (طبعة دوزى) ص ٢٤٣ والعقد الفريد ٥/٥٨ وفى مواضع متفرقة (انظر الفهرس) وفوات الوفيات ١/١٨١ وسرح العيون فى شرح رسالة=

« راهبون » وفى الفهرست « رامنوى » وفى حياة الحيوان للدميرى « راهويه » . وهو فارسى الأصل، وعلى نحو ما اختلف الرواة فى اسم جده اختلفوا فى مسقط رأسه ، فقيل إنه من أهل دَسْتميسان ، وهى كورة بين البصرة وواسط والأهواز ، وقيل إنه من أهل مَيْسان قرية بتلك الكورة، وقيل إنه من أهل نيسابور . ولا يُعْرَفُ تاريخ مولده ، وأغلب الظن أنه وُلد حوالى منتصف القرن الثانى الهجرى ، وقد ترك مسقط رأسه مبكراً إلى البصرة ، وأقبل على التزود من ينابيع الثقافة التى كانت منبثّة بها، وخاصة علم الكلام وما نُقل عن الأجانب من مختلف الترجمات فارسية ويونانية وهندية ، وأخذ هو نفسه يشارك فى ترجمة بعض الرسائل عن لغته الأصلية . وتجذبه بغداد إليها آملا أن ينال بها شيئاً من المجد والشهرة ، وسرعان ما يقرّبه يحيى البرمكى وزير الرشيد منه ، فيُلْحقه بالدواوين ، حتى إذا أسس الرشيد دار الحكمة عُين بها للإشراف على بعض الكتب وبعض ما كان يُتَرْجَمُ فيها من الآداب الأجنبية ، إذ كان أحد النقلة النابهين من لسانه الفارسى إلى العربية . وفى أثناء صلته بالبرامكة وبعد نكبتهم سنة ١٨٧ للهجرة انعقدت صداقة وثيقة بينه وبين الفضل بن سهل مدبر شئون المأمون ومستشاره وكاتبه ، فقدّمه إلى المأمون، فأُعْجب ببلاغته وصحة منطقه وذكائه ، حتى إذا تحوّلت الخلافة إليه وأخذ يعنى بشئون دار الحكمة عنايته الواسعة المعروفة ، إذ حولها إلى ما يشبه أكاديمية ضخمة، جعله قيّماً على خزائن كتب الفلسفة التى جُلبت من قبرص ، ليشرف على نقلها إلى العربية . وكان يلزم المأمون فى مجالسه وندواته التى كان يعقدها لكبار العلماء والمتكلمين ، وما زال خازناً بدار الحكمة حتى توفى سنة ٢١٥ للهجرة .

واشتهر سهل فى زمانه بالحكمة والبلاغة حتى سماه معاصروه بُزُرْجمهر الإسلام ، إشارة إلى أنه يحل فى العربية محل بزرجمهر فى الفارسية وما أثر عنه من حكم وأمثال كثيرة، ووصفه الجاحظ فقال: «كان سهل سهلاً فى نفسه عتيقَ الوجه[1] ، حسن الشارة ، بعيداً من الفَدامة[2] ، تقضى له بالحكمة قبل الخبرة

ـــابن زيدون لابن نباتة (نشر دار الفكر العربى) ص ٢٤٢ وحياة الحيوان للدميرى ٥١٣/١ وحولية الجامعة التونسية العدد الأول سنة ١٩٦٤.

(١) عتيق الوجه : جميل .
(٢) الفدامة : العى .

وبرقة الذهن قبل المخاطبة وبدقة المذهب قبل الامتحان ، وبالنبْل قبل التكشف [١] » ووصفه الحسن بن سهل وزير المأمون فقال : « وازن العلم ، واسع الحلم ، إن حودث لم يكذب ، وإن موزح لم يغضب ، كالغيث أين وقع ، وكالشمس حيث أولت ، أحيت ، وكالأرض ما حمَّلتها حملت ، وكالماء طَهورٌ للتمسه وناقع لغُلَّة مَنْ حَرَّ [٢] إليه ، وكالهواء الذى تُقْتطَفُ منه الحياة بالتنسم ، وكالنار التى يعيش بها المَقْرور ، وكالسماء التى قد حسنت بأصناف النور » . ويقول ابن النديم إنه كان « شعوبى المذهب ، شديد العصبية على العرب ، وله فى ذلك كتب كثيرة ورسائل فى البخل » وكأنه أراد بتلك الرسائل أن ينقض فضيلة الكرم العربية . وكان البخل سجية وطبعاً ركِّب فيه ، ورُويت عنه فى ذلك نوادر كثيرة ، منها أن شخصاً لقيه ، فقال له : هَبْ لى ما لا ضرر به عليك ، فقال : وما هو يا أخى ، قال : درهم ، فقال سهل : لقد هوَّنت الدرهم ، وهو طائع الله فى أرضه لا يَعْصى ، وهو عشر العشرة ، والعشرة عشر المائة ، والمائة عشر الألف ، والألف دية المسلم ، ألا ترى إلى أين انتهى الدرهم الذى هَوَّنته ، وهل بيوت الأموال إلا درهم على درهم . فانصرف الرجل ، ولولا انصرافه لم يسكت سهل . ومن حكاياته العجيبة فى البخل ما حكاه دِعْبل ، قال : « كنا عنده يوماً ، فأطلنا القعود ولم نَبْرح ، حتى كاد يموت جوعاً ، فلما اضطررناه قال : يا غلام ويلك غَدِّنا ، فأتاه بصَحْفة فيها مَرَقٌ ، تحته ديك هرم لا تحزُّ فيه السكين ولا تؤثر فيه الأضراس ، فاطَّلع فى الصحفة وقلَّب بصره فيها ، ثم أخذ قطعةَ خبز يابس ، فقلَّب جميع ما فى القصعة ، حتى فقد الرأس من الديك . فبقى مطرقاً ساعة ، ثم رفع رأسه إلى الغلام ، فقال : أين الرأس ؟ فقال : رميتُ به ، قال سهل : ولم رَميتَ به ؟ قال : لم أظنك تأكله ، قال : ولأى شىء ظننت أنى لا آكله ؟ فوالله إنى لأمقت من يرمى برجليه ، فكيف من يرمى برأسه ، ثم قال له : لولم أكره ما صنعته إلا للطِّيرة (التشاؤم) والفأل لكرهته ، الرأس رئيس وفيه الحواس الخمس ، ومنه يصيح الديك ، ولولا صوته ما أُريد ، وفيه فَرْقه الذى يتبرَّك به ، وعينه التى يُضْرَب بها المثل ، يقال شراب

(١) البيان والتبيين ١ / ٨٩ .

(٢) حر : عطش ، والصفة حران .

كعين الديك فى الصفاء ، ودماغه عجيب لوجع الكُلْيَة ، ولم أر عظماً قط أهش تحت الأسنان من عظم رأسه ، فهلا إذ ظننت أنى لا آكله ظننت أن العيال يأكلونه ؟ وإن كان بلغ من نُبْلك أنك لا تأكله فإن عندنا من يأكله ، أما علمت أنه خير من طرف الجناح ومن الساق والعنق ؟ انظر أين هو ؟ قال : والله ما أدرى أين رميتُ به ، قال سهل : لكنى أدرى أنك رميتَ به فى بطنك ، واللهُ حسيبك » . ولعل فى هذه النادرة وسابقتها ما يدل على ظرفه ، وهو ظرف كان يشوبه بالفكاهة الحلوة أحياناً ، وأحياناً بالسخرية المرة ، من ذلك أنهم قَصُّوا عنه أنه حدَّث بعض الأمراء ، فقال له كذبت ، فأجابه على البديهة : إن وجه الكذاب لا يقابلك ، يعنى أن الأمير هو الكذاب ، لأن وجه الإنسان لا يقابله . وطلب إليه أبو الهذيل العلّاف المتكلم المشهور أن يكتب له رسالة إلى الحسن بن سهل يوصيه فيها به ، فلبَّى طلبه ، ولما تقدم بها إلى الحسن وفضَّها وقرأ ما فيها أغرب فى الضحك ، إذ وجد سهلا ينهاه عن أن يمدَّ لأبى الهذيل العَوْنَ بأبيات تتحيَّفه وتقبض يد قارئها عن مساعدته ، استهلَّها بقوله :

إن الضميرَ ـ إذا سألتُك حاجةً ... لأبى الهُذَيل ـ خِلافُ ما أُبْدِى
فامنَحْه روحَ اليأس ثم امْدُدْ له ... حَبْلَ الرَّجاء بِمُخْلِفِ الوَعْدِ
حتى إذا طالتْ شقاوةُ جدِّهِ ... وعَنــائه فاجْبَهْــهُ بالرَّدِّ

وقال الحسن : هذه صفته لا صفتنا ، وأمر لأبى الهذيل بمال ، فعاد إليه ، وعاتبه ، فقال سهل : تُرَى أين عَزَبَ عنك الفهم ، أما سمعتَ قولى : « إن الضمير خلاف ما أبدى ، فلو لم يكن ضميرى الخير ما قلت هذا . وهى مغالطة واضحة ، غير أنها تدل على قدرته العقلية فى الإتيان بالحجة الصحيحة تارة ، والحجة المدخولة تارة ثانية .

وكان سهل يحسن القول نثراً وشعراً ، وفيه يقول الجاحظ : « ومن الخطباء الشعراء الذين جمعوا الشعر والخطب والرسائل الطوال والقصار والكتب الكبار المجلدة والسِّيَر الحسان المدَّونة والأخبار المولَّدة سهل بن هرون بن راهبونى الكاتب صاحب كتاب ثعلة وعفراء فى معارضة كتاب كليلة ودمنة ، وكتاب الإخوان وكتاب المسائل

وكتاب المخزومى والهذلية وغير ذلك من الكتب» . وذكر ابن النديم من كتبه أيضاً « كتاب النَّمِر والثعلب ، وكتاب الوامق والعذراء ، وكتاب ندود وودود ولدود وكتاب الضربين وكتاب الغزالين وكتاب أدب أسل بن أسل وكتاب إلى عيسى ابن أبان فى القضاء وكتاب تدبير الملك والسياسة » . وذكر ابن نباتة كتاباً له فى سيرة المأمون .

ويظهر أنه عُنى فى كثير من كتبه بالقصص على ألسنة الحيوان ، مشاكلة لكتاب كليلة ودمنة ، وكان من أهم ما وضعه فى ذلك كتاباه : « ثعلة وعفراء » و « النمر والثعلب » وقد أشاد المسعودى بأولهما وقال إنه يزيد على كليلة ودمنة بحسن نظمه . وقد اتخذ من الحيوان وسيلة للعظة والتربية الاجتماعية والسياسية بما يفصِّل من الكلام وضرب الحكم والأمثال بالضبط كما صنع واضع كليلة ودمنة ، ولم يبق لنا من كتاب ثعلة وعفراء سوى هذه النصيحة :

« اجعلوا أداء ما يجب عليكم من الحقوق مقدَّماً قبل الذى تجودون به من تفضلكم ، فإن تقديم النافلة مع الإبطاء عن الفريضة مُظاهِرٌ على وهَن العقيدة وتقصير الرويَّة ، ومضر بالتدبير ومخِلٌّ بالاختيار ، وليس فى نفع تُحْمَدُ به عوضٌ من فساد المروءة ولزوم النقيصة » .

ويقول الحُصْرى بعد ذكره لهذه النصيحة : إن هذا الكتاب مملوء حكماً وعلماً . وعثر السيد عبد القادر المهيرى حديثاً على كتاب النمر والثعلب ، ونشر مقتطفات منه مع مقدمة فى العـــدد الأول من حولية الجامعة التونسية ، والكتاب ، أو بعبارة أدق القصة تدور على ثلاث شخصيات هى الثعلب الحكيم والذئب الجحود والنمر الطاغى ، وتتسلسل القصة تسلسلاً دقيقاً ، فالثعلب كان يعيش مع زوجه فى واد غبر عليه زمان فيه وهو حسن الحال رخىّ البال ، ومرّ به ثعلب آخر ، فأنكر موضع جحره من الوادى ونصحه أن يتحول عنه ، مخافة أن يهجم عليه السيل ، واستشار زوجه ، فأبت عليه التحول ، ولم يلبث أن جاء طوفان من السَّيْل حمله وحده إلى جزيرة لم يسمع بها حَسيساً ، ولم ير أنيساً ، فبات ليلته طاوياً حتى أصبح ، وبينما يتلفت من حوله إذا ذئبٌ يمرُّ به ، فتعارفا ، وسرعان ما عرف منه أن الجزيرة تمتلئ بالظباء وبقر الوحش غير أنه لا يستطيع أن يصيدها ولا أن

يقربها ولا أن يتجاوز موضعه ، لخضوع الجزيرة وكل ما بها من وحش للملك طاغ باغ هو النمر الذى تجبَّر وتكبر . وقال له : إننى لا أكلمك الآن إلا فزعاً مرتعباً خشية أن يرانا ، فلننصرف ، ولنلتق غـَداً فى مكان خفىّ ، فالتقيا ، وأشار عليه الثعلب أن يقدم على النمر فيتلطف له ويطلب منه ولاية فى الجزيرة يقوم على حكمها ويشاطره خيراتها ، ويتخذ منه وزيراً يعينه على إدارتها . ويبدى الذئب خوفه من لقاء الملك الباطش ، وما يزال يشجـّعه حتى يلقاه . ويُعْجبه حديثه وما عرض عليه ، فيعيـِّنه واليـًا على مناهل الظباء . ونحن نسوق هذه القطعة من القصة لندل على أسلوب سهل وطريقته فى هذا القصص الحيوانى الخيالى ، وهى تحكى ما حدث بعد لقاء الثعلب للذئب فجأة واتفاقهما على اللقاء ، وما كان بينهما من حوار فى هذا اللقاء ، وما أثمر الحوار للذئب من الولاية وللثعلب من الوزارة :

« انصرف الثعلب حزينا مغتمـًا لما حـَزَره من عداوة النمور وعدم القوت ، ثم فكر فقال : إنما يُعـْرَفُ فضل عقل المرء فى شدائد الأمور ونوازل الخطوب ، فأما عند الرخاء فما أقرب الجاهل من العالم والأحمق من العاقل ، وذلك أن مساعدة الدنيا للجاهل ساترة لنقصه عن زيادة العاقل وحاجبة عن التمييز بينه وبين اللبيب وليس لمثلى قوة على صيد الظباء وبقر الوحش ، وإنما يصيد كل امرئ [على] قدره ، وليس ههنا إلا طلب الحيلة . فلما أصبح الصبح قصد المكان الذى وعد الذئبَ فيه والتقيا هنالك عن رِقْبة (تحفظ) من النمر ، فقال له الثعلب يا أبا الفَرَّاء كنت مهموماً بنفسى ، فزادنى اهتماماً ما أبثثتنى من حديثك وألقيتَ إلىّ من سوء حالك ، وههنا تدبيرٌ إن أعنتنى عليه بهمة صادقة ، فلعله أن يعود إلى صلاح ، فقال الذئب : وما هو ؟ قال الثعلب : ائت النمرَ ، فسَلْهُ أن يوليك ولاية تردُّ عليك نفعاً وتردّ لك ذكراً وتكسبك حمداً ، قال الذئب : فأين ما أخبرتك عن بخله وشراسة خلقه ، وإنه لكما قال القائل : سواء هو والعدم ، قال الثعلب : فأعلمـْه أنك لا تفيد شيئـًا إلا بعثت إليه بشطره فإن لك فيما يبقى منتفعـًا وصلاحاً ، فإن أجابك فلن تعدم منى معونة حسنة وقياماً بالذى يجب ، وكن كما قال الشاعر :

وليس الرزقُ عن طلبٍ حَثيثٍ ولكن ألْقِ دلْوك فى الدِّلاء

تجئك بملئها طورًا وطورًا تجىءُ بِحمْأَةٍ وقليل ماء[1]

قال الذئب : يا أبا الصّباح إنه كان يقال : اتقوا مقارفة[2] الحريص الغادر ، فإنه إن رآك فى القوة رأى منك أخبث حالاتك . وإن رآك فى الفضول[3] لم يدعك وفضولك ، قال الثعلب : يا أبا الفراء : إنه ليس الرأى . . من عاش غير خامل الذكر والمنزلة إذا أفضل على نفسه وأصحابه فهو وإن قلّ عمره طويل العمر ، ومن كان عيشه فى ضيق وقلّ خيره على نفسه وعلى الناس فهو وإن طال عمره قصير العمر . قال الذئب : إنه كان يقال : أمور ثلاثة لا يجترئ عليها إلا أهوج ولا يسلم منها إلا قليل : صحبة السلطان وائتمان النساء على الأسرار وشرب السمّ على التجربة . قال الثعلب : قد يُبْلَغُ الخَضْمُ بالقَضْم[4] ، ويركب الصعْبَ من لا ذَلول له . وليس يواظب على باب السلطان أحد ، فيُلْقى عن نفسه الأنفة ويتحمل الأذى ويكظم الغيظ ويرفق بالناس إلا خلص إلى حاجته من السلطان . قال الذئب : إنه كان يقال : لا تغتبط بسلطان من غير عدل ، ولا بغنى من غير فضل ، ولا ببلاغة من غير صدق ، ولا بجود من غير إصابة ، ولا بحسن عمل من غير خشية . قال الثعلب : إنه ينبغى للعاقل أن يدارى الزمان مداراة الرجل السابح فى الماء الجارى ، وقال المتمثل : أرْضَى من المركب بالتعلق . قال الذئب : السبب الذى يدرك به العاجز حاجته هو السبب الذى يحول بين الحازم وطلبته . قال الثعلب : المال زيادة فى القوت والرأى ، وليس الإخوان والأهل والأعوان إلا مع المال ، ولا يُظْهِر المروءة إلا المال ، لأن من لا مال له إذا أراد أن يتناول أمراً قعد به العُدْم فقصّر عنه . قال الذئب : إنّ للسلطان سكرات ، فمنها الرضا عن بعض من يستوجب السخط ، والسخط عمن يستوجب الرضا ، ولذلك قيل : قد خاطر من لَجَّجَ فى البحر ، وأشدُّ منه مخاطرة مَنْ صاحب السلطان . قال الثعلب : من لم يركب الأهوال على صعوبتها لم ينل الرغائب ، ومن ترك الأمر الذى لعله أن يبلغ فيه حاجته مخافة ما لعله يُوَقّاه فليس ينال

---

(١) الحمأة : الطين الأسود .

(٢) مقارفة : مخالطة .

(٣) الفضول : جمع فضل وهو النعمة .

(٤) مثل معناه أن الغاية البعيدة قد تدرك بالرفق . وأصل الخضم الأكل بجميع الفم ، والقضم : الأكل بأطراف الأسنان .

جسيماً ، وقد كان يقال : أعمال ثلاثة لا أحد يستطيعها إلا بمعونة ارتفاع همة وعظم خطر : صحبة الملوك وتجارة البحر ومناجزة العدو . فأعجب الذئبَ كلامُه ، فأتى النمر ، فشكر له ، وأقام بين يديه ، وكان لا يعرفه بمثل هذه الذلة . فافتتح الكلام ، فقال : أيها الملك إنى لما أنا عليه من المناصحة والموالاة تأملت باب الملك فوجدته خالياً من صالحى الأعوان وثقات الخدم ، ولما رأيت الملك كثير الكُلف عظيم المؤن رحب الفِناء جزل العطاء ، وليس له من عبيده من يعينه على مئونته ويكفيه المهم من عمله ندبتُ نفسى للذى رأيتنى أقوى عليه من حسن السياسة وضبط الناحية التى أتولاها وردّ المنفعة على الملك منها . فأعجب النمر كلامه وطمع فيما وعده ، فقال له : صدقت وبَرَرْتَ ، وأنا مستكفيك ومقلّدك ، فأنظرُ كيف يكون ضبطك وكفايتك وغناؤك ووفاؤك بما شرطتَ على نفسك . اكتبْ له يا غلام عهدَه على مناهل الظباء ، واجمعْ له أعمال ما هنالك ، فخرج الذئب إلى عمله ، واستخلف الثعلب وأحلّه محل الوزير الكاتب » .

ومضى الذئب إلى ولايته مستصحباً وزيره ، حتى إذا دانت له رعيته واستتبّ أمره وتمكن سلطانه أمسك بما كان يرسله للنمر من الخيرات والطيبات ، وراسله النمر وذكّره بعهوده ووعوده ، ولكنه ظل سادراً فى غَيّه ، فكتب إليه يحذره وينذره بالعقاب والنكال ، وكان الذئب قد صمم على التمرد ونقض الطاعة ، فردّ على النمر بهذه الرسالة العنيفة :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد النبى الكريم ، أما بعد فإن كتاب الملك — أمتع الله به — وصل إلىّ بما حذّر فيه وأنذر ، وقدّم وأخّر ، وفهمته ، وقد كان الملك — حفظه الله — أسند إلىّ أمر هذا الثغر المخوف على حين انتشار من العدوّ به ، وانقطاع من سُبُله ، واختلاف من الكلمة بين أهله وتفرق من الأهواء فيه ، فرأبتُ[1] صَدْع الآفة ، وجمعت شمل الطاعة وكشفت دُجْيَة[2] الفتنة وأسغت الريق بعد الشّجا[3] ، وقمعت أولى العداوة والبغضاء ، وأقمت حقّاً كان معلمه[4] متروكاً ، ودمغت ضلالة كان طريقها

(١) رأبت : أصلحت.

(٢) الدجية : الظلمة .

(٣) الشجا : الغصة وما يعترض فى الحلق .

(٤) معلمه : مفرد معالمه .

مسلوكاً ، ألتمس بذلك جزيل الثواب وكريم المآب ورضا الملك والزلفة عنده ، فعاد ما عملته هباء، ولم أجد منه شيئًا مشكوراً ، وما يُقَعْقَعُ لمثلى بالشِّنان[1] وإنى لألْوَى بعيد المُسْتَمَرّ[2] فإن يستتم الملك صنيعته ويَرُبّ[3] نعمته فأنا بين العَصا ولحائها[4] ، وإلا فسيجدنى جِذْلَ حِكاك[5] إذا نكأت[6] قُرْحَةً أدميتها ، أحمر[7] ، ضراباً بالسيف ، والسلام » .

فلما قرأ النمر الرسالة عرف أنه عزم على الانتقاض عليه فجمع وزراءه ، وكانوا ثلاثة ، فاستشارهم فى أمره ، فأشار الأول بالكتابة إليه فى إيجاز لتَبَيُّن دخيلة أمره وحقيقة موقفه إنْ سِلْمًا فسِلْمٌ وإن حَرْباً فحرب ، وأشار الثانى بالصفح عن زَلَّته ، فإن الحرب سجال ، وهى حتى على الظافر خسارة فى الأموال والرجال ، وأشار الثالث بمحاربته قبل استفحال أمره وحتى لا يظن غيره من الولاة أن بالنمر ضعفاً ، فيحاكوه ويسقطوا عن ظهورهم فرائض السلطان وخراجه ، وأخذ النمر بقول الوزير الأول ، فكتب إلى الذئب رسالة ، نُسْختها :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، صلى الله على سيدنا محمد النبى الكريم ، أما بعد فإنى رأيتك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى ، فإذا نظرت فى كتابى هذا فاعتمد على أيهما شئت فإن كنت سِلْمًا فأقْبِلْ وإلا فَأْذَنْ بحربٍ ، والسلام » .

ولجَّ الذئب فى عصيانه ، ونشبت بينه وبين النمر معارك حامية الوطيس ، انتهت بمقتله والقبض على الثعلب وزيره ومدبر أموره ، وكاد أن يُقْتَل لولا ما لاحظ النمر من ذكائه ودقة تفكيره ، مما جعله يَعِدُه أن يُبْقِى على حياته إن هو أحسن الإجابة على ما يُلْقَى عليه من أسئلة . وتتوالى الأسئلة فى الإنسان والعقل وحظ العقلاء منه وتفاضلهم فيه وفى مكانة العقل من العلم وأثره فى سلوك الإنسان وشيمه الخلقية وما يصيبه من خير أو شر . وتلقانا فى هذه الإجابات طرافة تفكير سَهْل

---

(١) الشنان : جمع شن وهو الجلد اليابس . وقعقع : ضرب . وكانوا إذا ضربوا عليه نفرت الإبل ، ويضرب ذلك مثلا لمن لا يرهبه وعيد ولا إنذار ولا تخويف .

(٢) ألوى : عسر، يلتوى على خصمه . بعيد المستمر : قوى فى الخصومة .

(٣) يرب : ينمى ويزيد .

(٤) لحاء العصا : قشرها . والكناية واضحة.

(٥) الجذل : أصل الشجرة . حكاك من الحك وهو الدلك . وجذل حكاك : مثل يضرب لمن يستشفى برأيه .

(٦) نكأ القرحة : قشرها قبل أن تبرأ .

(٧) كنى بالحمرة عن البأس الشديد .

ودقته وتعمقه ، ومن خير ما يصور ذلك حديثه عن تفاضل العقول والعقلاء ونزولهم فى درجات متفاوتة تفاوتاً بعيداً ، ومع ذلك يطلق عليهم جميعاً اسم واحد، يقول مورداً السؤال والإجابة ، ومنتهياً إلى أن العقل الكامل من صفات الله وحده .

«أخبرنى عن العقل أهو شىء إذا نال الإنسان أدناه فقد بلغ أقصاه أم الناس فى نَيْله مستوون أم متفاضلون ؟ قال : بل متفاضلون . قال : فكيف دُعى ذو الحظ اليسير منه باسم ذى الحظ الكبير ، فقيل لهما عاقلان وهما فى العقل متباينان ؟ فهل يقع اللقب الواحد على ذوى الدرجات الشتى ؟ قال : نعم ، وليس ذلك بخطأ من القائل ، لأن هذه الدرجات الشتى من جنس واحد ، واللغة تضيق عن هذا وما أشبهه أن يُدْعَى كل ذى درجة من درجات الجنس الواحد بلقب غير لقب الآخر ، ولو كُلِّفت اللغة ذلك لطال الكلام . . . لتوزع المعنى المستوجب للاسم ولكنها شملتها كلها باللقب الواحد ودعت المختلفين فيه باسم واحد . قال : فكيف يعرف الناقص من الزائد وقد جمعهما اسم واحد؟ . قال : بالتمييز وكشف المعرفة ، ومثل ذلك فى اللغة ما يُدْعَى به أهل صناعة من الاسم الواحد وهم فى تلك الصناعة متباينون فى التفاوت ، إذ يقال : بُناة ونجّارون وتجار وخياطون ، ولكل منهم على صاحبه فضل أو عليه له فضل . فالناس كلهم مستوون فيما يلحقهم من النقص فى العقل ، وهم فيما أتوا منه متفاضلون ، أحدهم فيه أكثر حظًّا منه . قال : كيف مُدّت هذه الغاية ومُنع ذوو العقل بلوغها ؟ قال : لأن الغاية كمال ، والكمال صفة لا تصح إلا للخالق ، ولا يستوى الخالق والمخلوق فى صفته ، تعالى الله عن ذلك » .

وواضح ما أودعه سهل هذه القصة الحيوانية من تصوير لحكم الملوك المتجبرين والولاة المتمردين وحيل الوزراء الدهاة ، مستخلصًا فى ثنايا ذلك كثيراً من العظات وناثراً كثيراً من الحكم والأمثال . وهو يبتغى بذلك نفس الغاية التى ابتغاها واضع كليلة ودمنة من نصح الملوك والحكام عن طريق ما يجرى على ألسنة الحيوان من مقت الظلم والبغى وسوء السيرة ومحبة العدل والإنصاف . وهو يتعمق أكثر مما تعمق صانع كليلة ودمنة ، إذ يعرض للعلم والجهل والعقل وإرشاده الإنسان إلى الخير وصرفه عن طريق الشر . والقصة مشوقة لا بما فيها من حوار فحسب ، بل بطرافة الحوار

وما يجرى فيه من حيل وأفكار دقيقة نادرة . وفى أسماء كتب سهل التى ذكرناها آنفاً ما يدل على أنه أجرى بعض قصصه على ألسنة الإنسان مباشرة على نحو ما يدل على ذلك اسم كتابه « المخزومى والهذلية » واسم كتابه الثانى : « الوامق والعذراء » .

واحتفظ الجاحظ فى أول كتابه البخلاء برسالة طويلة له يحتج فيها للبخل وينصره على الكرم ، ومرَّ بنا ما يقال من أنه كتبها شعوبيةً على العرب ، إذ حاول فيها أن يهدم فضيلة الكرم العربية هدماً . ويذكر الرواة أنه قدمها إلى الحسن ابن سهل يرجو مكافأته عليها ، فكتب له على ظهرها : « وصلت رسالتك ووقفنا على نصيحتك وقد جعلنا المكافأة عنها القبول منك والتصديق لك» . ونراه فى فاتحتها يتوجَّه بالحديث فيها إلى بنى عمه ، وظن القدماء أنه يريد بنى عمه الحقيقيين من آل راهبون، وأغلب الظن أنه يقصد العرب . وقد مضى يذكر أنه إنما يقصد هدايتهم وأنه إن أخطأه سبيل إرشادهم فلن يخطئه سبيل حسن النية ، ثم أخذ يورد دفاعه عن البخل ومحاسنه، مستعيناً بقدرته على الجدل وصنع الحجج المنطقية و بما حفظ من بعض أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين ، وهم إنما كانوا يريدون الاقتصاد وعدم الشطط فى الإسراف ، أما البخل فلا يرضاه التابعون ولا الصحابة فضلا عن الرسول الكريم الذى حَضَّ على البذل والإيثار والسخاء بكل ما فى اليد، كما حَضَّ القرآن الكريم لا على الصدقات فحسب، بلى على الاتساع بالإطعام وتقديم الماعون، وصوَّر المثل الأعلى فى ذلك فقال جَلَّ شأنه : (ويُؤْثرون على أنفسهم ولو كان بهم خَصاصة ومن يُوقَ شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون) . وكل ذلك كان يعرفه سهل معرفة دقيقة ، غير أنه كان يريد الدفاع عن البخل ، فاختار من أقوال الرسول صلى الله عليه والصحابة والتابعين ما قد يشهد له ، وهو إنما يشهد على زهادتهم فى الدنيا وصغر متاعها فى أعينهم حتى بَعْدَ إقبالها عليهم ، وفَرْقٌ بين الزهد والبخل والحرص والشح ، ونحن نسوق قطعة من هذه الرسالة ، لنطلع من جهة على قدرته فى الجدل والحجاج ، ومن جهة ثانية على قدرته البيانية ، يقول :

« وعبتمونى حين ختمت على سَدٍّ[1] عظيم وفيه شىء ثمين من فاكهة نفيسة

(١) السد : السلة .

ومن رُطَبة[١] غريبة على عبد نَهِم[٢]وصبي جَشِع وأمَة لَكْعاء[٣] وزوجة خَرْقاء[٤] . وليس من أصل الأدب ولا فى ترتيب الحِكَم ولا فى عادات القادة ولا فى تدبير السَّادة أن يستوى فى نفيس المأكول وغريب المشروب وثمين الملبوس وخطير المركوب والناعم من كل فن واللباب من كل شكل التابعُ والمتبوع والسيد والمسود كما لاتستوى مواضعهم فى المجالس ومواقع أسمائهم فى العنوانات وما يُسْتَقْبلون به من التحيات . . وعبتمونى بِخَصْف[٥]النعال وبَتَصْدير[٦]القميص ، وحين زعمت أن المخصوفة من النعل أبقى وأوطأ[٧] وأقوى وأنفَى للكِبْر وأشبه بالنُّسْك ، وأن الترقيع من الحزم ، وأن الاجتماع مع الحفظ . وأن التفرق مع التضييع . وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يَخْصف نعله ، ويَرْقَعُ ثوبه ، ويقول : « لو أتيت بذِراعٍ لأكلت ،ولو دُعيت إلى كُراع [٨] لأجبت» ولقد لَفقت[٩]سُعْدَى بنت عوف إزارَ طلحة[١٠] وهو جواد قريش ، وهو طلحة الفياض ، وكان فى ثوب عمر رِقاع أدَمٍ وقال : من لم يَسْتَحْيِ من الحلال خَفَّتْ مؤونته وقلَّ كبْره ، وقالت الحكماء: لا جديد لمن لم يلبس الخلَق[١١] .. فترقيع الثوب يجمع مع الإصلاح التواضع ، وخلاف ذلك يجمع مع الإسراف التكبر ، وقد زعموا أن الإصلاح أحد الكَسْبين ، كما زعموا أن قلة العيال أحد اليسارين . . وعبتمونى حين قلت : لا يغتَرَّنَّ أحدكم بطول عمره وتقوس ظهره ورقة عَظْمه ووهن قوته وأن يرى أُكْرومته[١٢] فيدعوه ذلك إلى إخراج ماله من يديه وتحويله إلى ملك غيره وإلى تحكيم السَّرَف فيه وتسليط الشهوات عليه فلعله أن يكون معمَّراً وهو لا يدرى ، وممدوداً له فى السنّ وهو لا يشعر ، ولعله أن يُرْزَق الولد على اليَأس أو يحدث عليه بعض مخبَّآت الدهور ، مما لا يَخْطُر على البال ولا تدركه العقول فيستَرده ممن لا يرده ، ويظهر الشكوى إلى من لا يرحمه أضعفَ ما كان عن

---

(١) الرطبة : التمر المرطب .
(٢) نهم : شره .
(٣) لكعاء : لئيمة .
(٤) خرقاء : حمقاء .
(٥) خصف النعال : ترقيعها و إصلاحها .
(٦) تصدير القميص : ترقيع صدره .
(٧) أوطأ : ألين .
(٨) الكراع : مستدق الساق .
(٩) لفقت : ضمت جانباً منه إلى آخر وخاطتهما .
(١٠) هوطلحة بن عبيد الله كان غيثا مدراراً فى الكرم فلقب بالفياض .
(١١) الخلق : البالى .
(١٢) الأكرومة : فعل الكرم .

الطلب ، وأقبحَ ما يكون به الكسب ، فعبتمونى بذلك وقد قال عمرو بن العاص : اعْمَل لدنياك عمل من يعيش أبدا ، واعمل لآخرتك عمل من يموت غداً . . وعبتمونى حين زعمت أنى أقدّم المال على العلم ، لأن المال به يُفاد العلم ، وبه تقوم النفوس قبل أن تعرف فضل العلم ، فهو أصل والأصل أحق بالتفضيل من الفرع ، وأنى قلت : إن كنا نستبين الأمور بالنفوس فإنا بالكفاية نستبين وبالخلّة[1] نَعْمَى[2] . وقلتم : كيف تقول هذا وقد قيل لرئيس الحكماء ومقدّم الأدباء : العلماء أفضل أم الأغنياء ؟ قال : بل العلماء ، قيل : فما بال العلماء يأتون باب الأغنياء أكثر مما يأتى الأغنياء أبواب العلماء ؟ قال : لمعرفة العلماء بفضل الغنى وبجهل الأغنياء بفضل العلم . فقلت : حالهما هى الفاصلة بينهما ، وكيف يستوى شىء تُرَى حاجة الجميع إليه وشىء يَتَغْنَى بعضهم فيه عن بعض . . وعبتمونى حين قلت إن فضل الغنى على القوت إنما هو كفضل الآلة تكون فى الدار ، إن احتيج إليها استُعملت ، وإن استُغْنى عنها كانت عُدّة . . وقال بعض الحكماء : عليك بطلب الغنى فلو لم يكن لك فيه إلا أنه عزٌّ فى قلبك وذلٌّ فى قلب عدوك لكان الحظ فيه جسيماً والنفع فيه عظيماً . ولسنا ندَع سيرة الأنبياء وتعليم الخلفاء وتأديب الحكماء لأصحاب الأهواء » .

وبمثل هذه الحجج دافع سهل عن البخل ، وهى حجج يستمد فيها من المأثور عن الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين وعن حكماء الأمم القديمة وخاصة حكماء أمته الفارسية ، مما يدل على اتساع ثقافته . وليس هذا ما يلفتنا وحده فى تلك الحجج فإنه يلفتنا فيها أيضًا قدرته المنطقية التى تتضح فى إيراد الأقسام المتقابلة إيراداً مستقصياً ، كما تتضح فى استخدام الأقيسة وتصحيح الأدلة استخداماً دقيقًا ، وفى تضاعيف ذلك تتضح غزارة فكره وكأنه يستمد من معين لا ينضب ، كما يتضح إلحاحه على المعانى حتى لكأنه يريد أن يحصرها ويحيط بكل دقائقها ، وتأملْ فى رده على من يَسْتَحِثُّ الهَرِمَ على إنفاق ماله على الناس وفى الملذات ، وفى الوجوه التى وضعها تحت عينه مخوِّفاً له ومحذراً من تضييع ماله ، فستراه يجمع هذه الوجوه فى استقصاء وتفصيل دقيق ، فهو قد يعمَّر ، وقد يرزق الولد ، وقد

(١) الخلة : الحاجة والفقر.

(٢) نعمى : نضل .

تنزل به بعض الكوارث ، وحينئذ إما أن يحاول استرداد ماله من بعض من أعطاه لهم . ويُرَدّ خائباً محسوراً . وإما أن يشكو إلى بعض الناس قلته ولكن لن يرحموه، وفي الحالين يكون قد ضعف عن الكسب وطلب الرزق وبذلك ضيّق سَهْلٌ الأبوابَ على من يتسع في العطاء والإنفاق حين تتقدم به السن ، بل لقد أغلقها إغلاقاً إلا باباً واحداً فتحه على مصاريعه هو باب الشح . وتؤديه غزارة معانيه وأفكاره وحججه وأدلته إلى أن يثير موضوعاً طريفاً ، هو الموازنة بين العلم والمال وأيهما أفضل من صاحبه ، ويورد من الأدلة ما يجعل المال يَفْضُلُ العلم، ويقتبس من الفقهاء حديثهم عن الأصول والفروع ، فيجعل المال الأصل والعلم والفرع ، ولا يستوي فرع وأصل. وسهلٌ في ذلك كله يرينا تطور العقل في العصر العباسي ومدى ما أصابه من رقي ومن نمو ومن ثراء ومن قدرة على الحجاج وبسط الأدلة، حتى ليتحول الكاتب بإزاء بعض الموضوعات إلى ما يشبه مناظراً جدلا ، لا يزال يورد من الحجج والأدلة المنطقية ما يحاول به أن يفحم خصمه ويقهره . ويظهر أن هذه الطريقة استقرّت في نفس سهل بتأثير المتناظرين من المتكلمين في عصره وكثرة مناظراتهم في كل شيء ، في العقيدة وغير العقيدة ، وكان يرى الناس من حوله يُعْجَبون بالظافر المنتصر على خصمه، وخاصة حين يدافع عن رأي ضعيف، فينصره نصراً مؤزراً ، على نحو ما نصر البخل على الكرم، ومن أجل ذلك نفتح الباب للظن بأنه رُبّما لم ينصره شعوبية على العرب ، وإنما نصره إظهاراً لقوة جدله ومقدرته في صوغ الأدلة وتأليف الحجج والبراهين، أو على الأقل كان بيان قدرته على الدفاع عن البخل الأثيم أقوى في نفسه من الطعن على فضيلة الكرم العربية . ومما يوضح هذا الجانب عنده أن نراه يفضل الزجاج على الذهب في رسالة طويلة وكان سبب كتابته لها أن رأى النظّام يذم الزجاج ، كما رأى شداداً الحارثي يطنب في وصف الذهب ، فكتب هذه الرسالة معارضة لهما ونصرة للزجاج الضعيف، وقد سقطت من يد الزمن إلا قطعة منها رواها صاحب سَرْح العيون، وهي تمضي على هذا النمط :

« الزجاج مجلوٌّ نوري ، والذهب متاع سائر ، والشراب في الزجاج أحسن منه في كل معدن ، ولا يُفْقَدُ معه وجه النديم ، ولا يُثْقِل اليد ، ولا يرتفع في

السَّوْم[١] واسم الذهب يُتَطَيَّر منه، ومن لؤمه سرعته إلى اللئام، وهو فاتن فائك[٢] لمن صانه، وهو أيضًا من مصايد إبليس، ولذلك قالوا: أهلك الرجال الأحمران[٣]. والزجاج لا يحمل الوَضَر[٤]، ولا يداخله الغَمَر[٥] ومتى غُسل بالماء وحده عاد جديداً، وهو أشبه شيء بالماء، وصفته عجيبة، وصناعته أعجب».

ولسهل بجانب رسائله الأدبية الطويلة رسائل إخوانية يتضح فيها جمال التعبير ودقة التفكير على نحو ما نرى فى الرسالة التالية[٦]، وقد كتب بها إلى صديق تماثل للشفاء من مرض:

«بلغنى خبرُ الفَتْرة[٧] فى إلمامها وانحسارها، والشَّكاة فى حلولها وارتحالها، فكاد يَشْغل القلقُ بأوله، عن السكون لآخره، وتُذْهل الحيرةُ فى ابتدائه، عن المسرة فى انتهائه. وكان تعيرى فى الحالين بقدرهما ارتياعًا للأولى وارتياحاً للأخرى».

وواضح ما فى هذه الرسالة الموجزة من الغوص على المعانى، فهو يقابل بين خبر المرض وخبر الشفاء، وكيف شغلته حركة القلق مع الخبر الأول عن السكون وراحته مع الخبر الثانى، وكيف أذهلته الحيرة وكَرْبها أولا عن المسرة ومتعتها ثانياً. ويقول إن ما دخله من تغير فى الحالين يقاس بارتياعه مع بدء العلة وارتياحه مع انحسارها. وهو فى جميع جوانب كتاباته شديد الغوص والتدقيق فى معانيه، وجاء السجع على لسانه فى أكثر هذه الرسالة، وهو إنما يجىء عنده أحيانًا عفواً. وليس معنى ذلك أنه لم يكن يُعْنَى بتوفير الجمال لأساليبه فهو من هذه الناحية يتقدم ابن المقفع خطوات، إذ يعنى ببسط عباراته، حتى يجْرى فيها ضروباً من التقطيعات والتوقيعات الصوتية ومن أجل ذلك يكثر عنده الترادف، حتى يصل إلى ما يريد من ازدواج وإيقاعات متقابلة، ودائماً حين نقرؤه يلذ عقولنا بغزارة معانيه ودقتها كما يلذ أسماعنا بجرس كلامه وحسن أدائه وما يكفل له من تلوينات صوتية بديعة.

---

(١) السوم: المساومة فى البيع.

(٢) فائك: غالب.

(٣) الأحمران: الذهب وطيب الزعفران.

(٤) الوضر: الوسخ.

(٥) الغمر: الدسم.

(٦) انظرها فى سرح العيون ص ٢٤٥.

(٧) الفترة: الوعكة والضعف.

٣

أحمد[١] بن يوسف

هو أحمد بن يوسف بن صبيح الكاتب الكوفى مولى بنى عجل ، وقد ألممنا بأبيه فى الفصل الماضى وقلنا إنه كان يكتب فى دواوين الكوفة لولاة بنى أمية ، ثم لما تحولت مقاليد الخلافة إلى العباسيين كتب لعبد الله بن على ثم التحق بدواوين المنصور ، وظل يكتب فى دواوين المهدى والهادى ، ولمع نجمه فى عصر الرشيد والبرامكة ، فكان يخلف يحيى البرمكى على الدواوين فى قصره وقصر الرشيد . ولا نعرف بالضبط متى ولد له ابنه أحمد ، ويغلب أن يكون ميلاده حول منتصف القرن الثانى للهجرة ، ويظهر أنه عُنى بتأديبه عناية واسعة ، كى يَصْلح للعمل فى الدواوين على شاكلته ، فأخذه بثقافة عربية دقيقة حتى غدا شاعراً يحسن نظم الشعر وصَوْغه ، كما أخذه بثقافة إسلامية واسعة ، حتى يعرف الحدود وأحكام أهل الذمة وأصول الدين وفروعه ، وأخذه أيضاً بثقافة رياضية واسعة تعينه فى الخراج وشئونه . ولا بد أن يكون قد أخذه بثقافات العجم مما يتصل بآداب السياسة وبكتب الفلسفة والحكمة ، ولا بد أن يكون أيضاً قد أخذه بآداب اللياقة حتى يُحْسن مخاطبة الخلفاء والوزراء ، وحتى الخطّ نراه يوجهه إلى إتقانه مما جعله يشتهر مع فصاحته وبلاغته بحسن خطه ، ويُرْوَى أن قائلا قال له يوماً : ما أدرى ممّ أعجب ، مما وليه الله من حسن خَلْقك أو مما وليته من تحسين أخلاقك .

وعلى هذا النحو أُعِدّ أحمد بن يوسف ليكون مثالا للكاتب الحاذق النابه ، وأغلب الظن أن أباه ألحقه بالدواوين معه ، وأنه كتب بين يديه فى دواوين الرشيد ، وأعجبت الفضلَ بن سهل مدبر شئون المأمون نجابتُه ، فالتقطه وحثّه على التحول معه ومع المأمون إلى مرو حين اتخذها قاعدة لولايته على شرقى الدولة كى يكتب فى

(١) انظر فى ترجمة أحمد بن يوسف وأخباره كتاب الأوراق للصولى (قسم الشعراء) ص ١٤٣ ، ٢٠٦ وكتاب بغداد لطيفور فى مواضع متفرقة (انظر الفهرس) وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٥/٢١٦ والأغانى (طبعة الساسى) ٢٠/٥٦ وزهر الآداب ٢/١٣٠ والفخرى ص ١٦٩ ومعجم الأدباء لياقوت ٥/١٦١ وغرر الخصائص الواضحة للوطواط ص ١٠٩ وانظر الجهشيارى ص ٣٠٤ والعقد الفريد ٢/١٤٥ .

دواوينه ، وأذعن لرغبته ، وظل يعمل فى الدواوين هناك ، حتى بعث طاهر بن الحسين فى سنة ١٩٨ إلى المأمون برأس أخيه الأمين؛ فلما رآها تأثر،وقال للفضل ابن سهل : ينبغى أن تأمر الكتّاب بكتابة رسالة عن طاهر يخبرنى فيها بهذا الخبر ، مع الاحتيال للاعتذار منه ، لتُقْرَأ على الناس ، فكتب الكتّاب عدة كتب لم يرضها الفضل واستطالها . ولم يلبث أحمد بن يوسف أن كتب رسالة محكمة موجزة فى شبر من قرطاس كما يقول بعض الرواة ، فلما عرضها على الفضل رجّع نظره فيها مستحسناً متعجباً من بلاغته ودقة بيانه ، ثم قال له : ما أنصفناك وأمر بصلات وفُرُش وكُسًى وآلات . وقال له : إذا كان الغَدُ فاقعُدْ فى الديوان وليقعد جميع الكتاب بين يديك ، واكتبْ بذلك إلى الآفاق .

ويدور العام ، فيجعل المأمون الحسن بن سهل نائبه على بغداد ، فيصطحبه معه ، وكأنّ أخاه الفضل آثره به ، ليُعينه فى عمله ، ويكتب له فى دواوينه . ويَقْدُم المأمون إلى بغداد بعد خمس سنوات ، فيصبح كاتبه على ديوان الرسائل كما يصبح أثيراً عنده قريباً من نفسه ، لظرفه ورقته . وكان فيه ميل شديد إلى الترف فعاش عيشة يحفها النعيم فى الفُرُش وأوانى الطعام وألوانه . وشارك فى متاع عصره من الشراب والسماع للقيان،ولكن دون إغراق ومع الاحتفاظ بمروءته وكرامته. ولما توفى أحمد بن أبى خالد وزير المأمون سنة ٢١١ شاور الحسن بن سهل فيمن يخلفه على الوزارة فأشار عليه بابن يوسف ، فاستوزره ورفع منزلته ، فكان يعرض القصص أو رقاع الشكوى عليه ، ويوقع عليها بما يلائمها من العبارات ، غير أنه لم يلبث أن وافاه القدر سنة ٢١٣ للهجرة ، ويقال إنه أشرف ، وهو على وشك الاحتضار على بستان داره وكانت مطلة على دجلة ، فظل يتأمله ويتأمل دجلة ، ثم تنفس . وقال :

ما أطيبَ العيشُ لولا موتُ صاحبهِ ... ففيه ما شئتَ من عيبٍ لعائبهِ

وسرعان ما التقمه الموت . ولأخيه القاسم الشاعر رثاء له يتفجع فيه تفجعاً ، وكانت له جارية يقال لها نسيم كانت تحظى بحبه ويشغف بها شغفاً شديداً ، فقالت ترثيه :

ولو أن مَيْتًا هابه الموتُ قبله لما جاءه المِقْدارُ وهو هيوبُ
ولو أن حَيًّا قبله جازه الرَّدَى إذنْ لم يكن للأَرض فيه نَصيب

وهو يُعَدُّ فى الذروة من كُتَّاب الدواوين فى العصر العباسى الأول، لبلاغته ودقة تفكيره وحسن تأتيه فى الرسائل الديوانية السياسية والرسائل الإخوانية الشخصية، وأولُ ما نقف عنده رسالته التى أشرنا إليها آنفًا، والتى كتبها للناس على لسان طاهر بن الحسين، وهى تجرى على هذه الصورة[1]:

«أما بعد، فإن المخلوع وإن كان قَسِيمَ أمير المؤمنين فى النَّسب واللُّحْمَة (القرابة) فقد فرَّق حكم الكتاب والسُّنَّة بينه وبينه فى الولاية والحُرْمة، لمفارقته عصمة الدين، وخروجه من الأمر الجامع للمسلمين، يقول الله عزَّ وجلَّ فيما اقتصَّ علينا من نَبَأ نوح وابنه: (يا نوحُ إنه ليس من أهلك، إنه عمل غير صالح) ولا صلة لأحد فى معصية الله، ولا قطيعة ما كانت القطيعة فى ذات الله. وكتبتُ إلى أمير المؤمنين، وقد قتل الله المخلوعَ وردَّاه[2] رداء نَكْثِه، وأحْصَدَ[3] لأمير المؤمنين أمره، وأنجز له ما كان ينتظر من وعده، فالأرض بأكنافها[4] أوطأُ مهاد لطاعته، وأتبعُ شىء لمشيئته . . . والحمد لله الآخذ لأمير المؤمنين بحقه، والكائد له من خان عهدَه ونكث عقده، حتى ردَّ به الألفة بعد فرقتها، وجمع به الأمةَ بعد شتاتها، وأحْيَا به أعلامَ الدين بعد دروسها[5]، والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته».

ودقة التعبير واضحة فى الرسالة، وكذلك المهارة فى تصوير عصيان الأمين والربط بينه وبين عصيان ابن نوح وما وصفه به القرآن من دفعه عن بنوَّة أبيه وقرابته. وبذلك لم تعد للأمين ولاية ولا حرمة، فقد خرج من أهله، وهو إنما تولى الخلافة ميراثاً منهم، وقد نكث عهده فى الوفاء لأخيه بولاية العهد من بعده، هذا العهد الذى كتبه بيده وعلَّقه أبوه هرون على الكعبة، حتى لا يستطيع الخروج منه، وقد نال جزاء خيانته، وعادت الأمور إلى نصابها، فاجتمعت كلمة الأمة

(١) زهر الآداب ٢/١٣٠ ومعجم الأدباء ٥/١٦٧ والجهشيارى ص ٣٠٤.
(٢) ردَّاه: ألبسه.
(٣) أحصد: قوى وأحكم.
(٤) أكنافها: نواحيها.
(٥) دروسها: امحائها.

بعد فرقتها وردّ صولجان الحكم إلى صاحبه تحوطه عناية الله ورعايته . وكان توفيق أحمد بن يوسف فى هذه الرسالة دافعًا لأن يطلب منه المأمون والفضل بن سهل أن يكتب رسالة الخميس ، وهى الرسالة التى كان يوجهها خلفاء العصر العباسى الأول بمجرد توليهم الخلافة إلى أهل خراسان مادّة جيوشهم وغيرهم يبسطون فيها حقّهم فى الخلافة واستحقاق الخليفة القائم لها لما امتاز به من مناقب حميدة وما ينبغى على أهل خراسان من الولاء له . وأحكم ابن يوسف الرسالة إحكاماً دقيقاً ، وطال فيها نفسه حتى بلغت نحو خمس عشرة صحيفة ، وأُعجب بها معاصروه إعجاباً شديداً مما جعل ابن النديم يقول : « الكتب المجمع على جودتها : عهد أردشير ، كليلة ودمنة ، رسالة عمارة بن حمزة الماهانية ، اليتيمة لابن المقفع ، رسالة الخميس لأحمد بن يوسف» وقد استهلها بتحميد طويل طريف على هذا النمط [1] :

« من عبد الله الإمام المأمون أمير المؤمنين إلى المبايعين على الحق والناصرين للدين ، من أهل خراسان وغيرهم من أهل الإسلام : سلام عليكم فإن أمير المؤمنين يحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، ويسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله ، أما بعد فالحمد لله القادر ، القاهر ، الباعث ، الوارث ، ذى العزّ والسلطان ، والنور والبرهان ، فاطر [2] السموات والأرض وما بينهما ، والمتقدم بالمنّ والطَّوْل [3] على أهلهما ، قبل استحقاقهم لمثوبته ، بالمحافظة على شرائع طاعته . الذى جعل ما أودع عباده من نعمته ، دليلا هادياً لهم إلى معرفته ، بما أفادهم من الألباب [4] ، التى يفهمون بها فصل الخطاب ، حتى أقيموا على موارد الاختبار ، وتعقّبوا مصادر الاعتبار ، وحكموا على ما بطن بما ظهر ، وعلى ما غاب بما حضر ، واستدلوا بما أراهم من بالغ حكمته ، ومتقن صنعته ، وحاجة مُتَزايِلِ [5] خَلْقه ومتواصله إلى القوم [6] بما يَلُمُّه ويُصْلحه ، على أن له بارئاً [7] هو أنشأه ، وابتدأه ، ويسّر بعضه لبعض ، فكان أقرب وجودهم ما يباشرون من أنفسهم فى تصرُّف أحوالهم ، وفنون انتقالهم ، وما يَظْهرون [8] عليه من العجز عن التأتّى [9] لما تكاملت

(١) جمهرة رسائل العرب ٣/٣٧٧ .
(٢) فاطر : خالق .
(٣) الطول : الإنعام .
(٤) الألباب : العقول .
(٥) متزايل : متفرق .
(٦) القوم : القيام .
(٧) بارئاً : خالقاً .
(٨) يظهرون : يطلعون .
(٩) التأتى : الترفق .

به قوامهم، وتمت به أدواتهم ، مع أثر تدبير الله عزّ وجلّ وتقديره فيهم ، حتى صاروا إلى الخِلْقة المحكمة ، والصورة المعجبة ، ليس لهم فى شىء منها تلطُّفٌ يَتَيَمَّمُونه ، ولا مقصد يعتمدونه من أنفسهم ، فإنه قال تعالى ذكره : (يا أيها الإنسان ما غرَّك بربك الكريم الذى خلقك فسوَّاك فعدَلك فى أى صورة ما شاء رَكَّبَكَ) . ثم ما يتفكَّرون فيه من خلق السموات ، وما يجرى فيها من الشمس والقمر والنجوم مسخرات ، على مسير من تصاريف الأزمنة التى بها صلاحُ الحَرْث والنَّسْل وإحياء الأرض ولِقاحُ النبات والأشجار ،وتعاور[1] الليل والنهار ، ومرُّ الأيام والشهور والسنين التى تُحْصَى بها الأوقات . ثم ما يوجد من دلائل التركيب فى طبقات السقْف[2] المرفوع ، والمهاد[3] الموضوع ، باتساق أجزائه والتئامها ، وخَرْق الأنهار وإرساء الجبال . ومن البيان الشاهد على ما أخبر الله عزَّ وجلَّ به من إنشائه الخلق حدوثُه بعد أن لم يكن، مترقياً فى النماء ، وثباته إلى أجله فى البقاء، ثم مَحاره[4] منقضياً إلى غاية الفناء . ولو لم يكن له مُفْتَتَح عدد ، ولا منقطع أمَد ، ما ازداد بنشوء ولا تحيَّفه نقصان ، ولا تفاوت على الأزمان . ثم ما يوجد عليه منفعته من ثبات بعضه لبعض وقِوام كل شىء منه بما يُسِّر له فى بدء استمداده ، إلى منتهى نفاده ، كما احتج الله عزَّ وجلَّ على خلقه ، فقال : (أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً) وقال عزَّ وجلَّ : (كلُّ مَنْ عليها فانٍ ويبقى وَجْهُ ربك ذو الجلال والإكرام) . وكل ما تقدَّم من الإخبار عن آيات الله عزَّ وجلَّ ودلالاته فى سمواته التى بَنَى ، وأطباق الأرض التى دحا[5] ، وآثار صُنْعه فيما برأ ، وذرَأ[6] ، ثابتٌ فى فِطَرِ العقول حتى يَسْتجرَّ أولى الزَّيْغ ما يدخلون على أنفسهم من الشُّبْهة فيما يجعلون له من الأضداد ، والأنداد ، جلَّ عما يشركون . ولولا توحُّده بالتدبير ، عن كل مُعين وظهير ، لكان الشركاء جُدَراء أن تختلف بهم إراداتهم فى الخلق ، ولأمكن التخلف فيه من إثبات وإزالة فيخلو من أحد وجهيه ، وأيهما كان فيه فالعجز والنقص فيما ذرأه وبرَأه ، جلَّ البديع خالق الخلق ومالك الأمر عن ذلك ، وتعالى

---

(١) تعاور : تداول .
(٢) السقف المرفوع : السماء .
(٣) المهاد الموضوع : الأرض .
(٤) محاره : رجوعه .
(٥) دحا : بسط .
(٦) برأ وذرأ : خلق .

علوًّا كبيراً ، كما قال سبحانه : (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذن لذهَبَ كلُّ إلهٍ بما خلق ولعَلا بعضهم على بعض سبحانَ الله عما يصفون) » .

وواضح أن أحمد بن يوسف تحوّل بهذا التحميد إلى ما يشبه مقالة من مقالات المتكلمين ، فهو يورد فيه الحجج على وجود الله الذى أنشأ العالم وخلق الإنسان فى صورة مقدرة محكمة ، وقد أعطاه من العقل ما يجعله إذا فكر فى خلق السموات والأرض يؤمن بأن للعالم إلهاً ، لما يجرى فى أفلاكه من نظام دقيق لا بد له من منظم ، أحكم تَصاريفَ الأوقات التى يتم بها صلاح كل حى فى الأرض من إنسان وحيوان ونبات كما أحكم صَنْعة الكون فى عالم السماء وعالم الأرض بما مهد فيه من سهول وخطَّ من أنهار وأرسى من جبال . ويتعمق فى الدلالة على وجود الخالق البارئ وإنشائه للخلق أنهم يحدثون بعد أن كانوا معدومين وأنهم لا يزالون يترقَّوْن فى النمو حتى تمتد لهم يد الفناء ، فلا بد من محدث لهم ، وفرقٌ واضحٌ بينه وبين الحادث ، فالحادث له أول وله آخر ، أو كما يقول : « مفتتح عدد ، ومنقطع أمد » أما المحدِث فلا أول له فى الزمن ولا آخر . وهو مصدر الوجود وقوامه ، وهو مدبِّره ومصرِّفه . ويقول إن كل ما ذكره من دلالات على وجود الله ثابت فى فِطَر العقول السليمة ، وثابت معه أنه واحد أحد لا شريك له ، إلا عند من زاغت عقولهم ممن يجعلون له الأضداد والأنداد كمجوس الفرس الذين آمنوا بأن للعالم إلهين : إلهاً للخير وإلهاً للشر ، وكغيرهم ممن جعلوا له نِدَّيْن أو أكثر ، ولو صح ذلك لتفاوتت إرادة الآلهة فى الخلق واختلفوا فيه بين الإثبات والإزالة ، وبذلك يخلو الخلق من أحد وجهيه ، ويتم العجز والنقص على الله فيما برأه عليه من الحدوث ثم العدم أو من الإثبات ثم الإزالة . وعلى هذا النحو يتطور التحميد عند أحمد بن يوسف فى رسالة الخميس إلى ما يشبه مبحثاً كلامياً فى الدلالة على وجود الله ووحدانيته وحدوث الخلق وفناء العالم . ونلاحظ أيضاً فى هذا التحميد أن أحمد بن يوسف يحاول أن ينمق فيه ما وسعه التنميق وجرَّه ذلك إلى الاتساع باستخدام السجع فيه ، وهو لا يطَّرد فى كل صياغات التحميد ولا فى بقية الرسالة ، ولكنه يكثر ، ونحسُّ كأن ابن يوسف يقصد إليه قصداً ، وخاصة حين نراه يسجع بين كلمة وكلمة . ويمضى فيتحدث عن نعمة الله على خلقه

بإرسال أنبيائه وتعاقبهم بالنور الساطع والبرهان القاطع مبشرين ومنذرين حتى ختمهم بالرسول صلى الله عليه وسلم ، ويصور جهاده فى سبيل دعوته ورسالته حتى أعزّ الله كلمته واستقام دينه ودخل الناس فيه أفواجاً . ويتحدث عن حق العباسيين فى الخلافة ، إذ ورثوها بحكم قرابتهم للرسول صلوات الله عليه ، وكانوا أحق بميراثها من جميع آله ، وبذلك يخوض فى تأييد الدعوة العباسية . وينتقل من ذلك إلى تأييد الدعوة للمأمون بادئاً بتقرير موقفه من الأمين ومسترسلا فيما ينبغى على شيعته الخراسانيين من مواصلتهم نصرته . ويفيض فى وعظهم وما ينبغى عليهم من مجاهدة أعدائهم وأهوائهم ومن الشكر للمأمون الذى يحوطهم برعايته لما فيه خيرهم ورشدهم والذى ينتوى جزاءهم بالحسنى وحَمْلهم على الطريقة المثلى .

وطلب إليه الحسن بن سهل حين ولاه المأمون وزارته بعد قتل أخيه الفضل سنة ٢٠٢ للهجرة أن يكتب رسالة يشكر المأمون فيها على صُنْعه جَبْراً لمصابه ، فكتب رسالة ضافية(١) ، استهلها بتحميد الله وذكر آلائه واصطفائه محمداً لرسالته بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً وتقفيته على آثار الأئمة الراشدين بالمأمون أمير المؤمنين . وأخذ يطنب فى الثناء على عدله وما منح الرعية من عطفه ، وأشاد باختياره علياً الرضا لولاية عهده ومؤازرة الفضل بن سهل له فى رعاية رعيته والقيام بدعوته وقمع أعدائه ، حتى حُمّ أجله شهيداً فقيداً من إمامه ومن الخاصة والعامة . ويتجه إلى شيعته وشيعة الحسن بن سهل بتصوير حرمة الفضل عند المأمون بعد موته وإكثاره من الترحم عليه . ويشكره بلسان الحسن بن سهل على ما منحه من الوزارة وسنىّ الرتبة . ويعود إلى بيان ما خصّ به الفضل فى حياته من المنزلة الرفيعة ومن رياسة الحرب ورياسة التدبير وتقليده سيفه وخاتمه وما خصّه فى وفاته من إكرام ومن حزن ممض وعبرات سائلة ومن حفظ لأصحابه وإقرار خاصّته وقُوّاده وعمّاله وكتّابه على مراتبهم وما أولى الحسن أخاه من وزارته وعطفه . ويفيض فى التنويه بالمأمون وقضائه على خصومه شرقاً وغرباً ورحمته بفقراء المسلمين وضعفائهم وما اقترن له من الملك والدين والقدرة والعفو ، ويشكره عن الإسلام ونصرته له وعن المساجد وتأسيسها على التقوى وتلاوة القرآن وعن الرسول صلى الله

(١) انظرها فى جمهرة رسائل العرب ٣/٤١١ .

عليه وسلم وحفظه لعِتْرته وآله وعن القواد والأجناد وما رفع من منازلهم ووفَّر من رواتبهم ، وعن الأخلاق وما وطد من شيمها الرفيعة وعن المسلمين وما رعى من شئونهم وهزم من أعدائهم ، ويختم الرسالة بالدعاء له دعاء كثيراً : أن يَرْأبَ الصدع وترتق الفتوق به وينكِّل فى أعدائه .

ولأحمد بن يوسف رسالة فى تهنئة عبد الله بن طاهر بقضائه على ثورة عبيدالله ابن السَّرِىّ بمصر وأخرى فى تعنيت بعض العمال على ظلم أنزله ببعض الناس ، ولكنهما لا تبلغان من التنميق ما بلغته الرسائل السابقة . ومن طريف رسائله الديوانية ما كتب به عن المأمون إلى عمال النواحى فى الاستكثار من القناديل بالمساجد فى شهر رمضان ، وقد جاء فيها[1] :

« فإن فى ذلك عمارة للمساجد، وإضاءة للمتهجدين[2] ، وأنساً للسَّابلة[3] ، ونفياً لمكامن الرِّيب ، وتنزيهاً لبيوت الله عزَّ وجلَّ عن وحشة الظُّلَمِ » .

وكان يكتب أحياناً إلى المأمون فى بعض الشئون ، فيتلطف غاية التلطف ، ومما يُرْوَى له من ذلك أن طُلاَّب الصِّلات كثروا بباب المأمون ، وتأخرت صلاتهم ، فلما طال ذلك عليهم كتب إليه[4] :

« إن داعى نَدَاك ، ومنادى جَدْواك[5] ، جمعا ببابك الوفود ، يرجون نائلك[6] المعهود ، فنهم من يَمُتُّ بِحُرْمة ، ومنهم من يُدْلى بسالف خدمة ، وقد أجحف بهم المُقام ، وطالت عليهم الأيام ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يُنْعِشهم بِسَيْبه[7] ، ويحقق حسن ظنهم بِطَوْله[8] ، فعل إن شاء الله »

فوقع المأمون فى كتابه : الخير متبع ، وأبواب الملوك مغانٍ[9] لطالبى الحاجات ومواطن لهم . وأمره أن يكتب أسماء مَنْ بالباب ومراتبهم ليصير لكل شخص منهم قدر استحقاقه .

---

(١) الصناعتين للعسكرى ص ٢٣ وزهر الآداب ٢/١٣٢ .
(٢) المتهجدين : من التهجد وهو الصلاة فى جوف الليل .
(٣) السابلة : السائرون فى السبل ولا مأوى لهم .
(٤) زهر الآداب ٣/١٣١ ومعجم الأدباء ٥/١٦٩ .
(٥) الجدوى : العطية والنوال .
(٦) النائل : النوال والعطاء .
(٧) السيب : العطاء .
(٨) الطول : الإنعام .
(٩) مغان : منازل ومواطن .

وكان كثيراً ما يُهْدى إلى المأمون هدايا فى أيام النيروز[١] ، ويُرْفقها برسالة رقيقة ، تحمل سطراً أو سطرين من النثر وبعض أبيات من الشعر ، فمن ذلك أنْ أهداه مرة — فيما يقول الرواة — سَفَطَ ذهب فيه قطعة عودٍ هندىّ فى طوله وعرضه ، وكتبَ معه[٢] :

« هذا يوم جرت فيه العادة ، بإتحاف الناسِ السادةَ ، وقد قلت :

على المرءِ حقٌّ وهْو لاشك فاعلُهْ وإن عَظُم المولى وجلَّتْ فَواضِلُهْ[٣]

ألم ترنا نُهدى إلى الله مالَهُ وإن كان عنه ذاغِنًى فهْو قابله

ولو كان يُهدَى للجليل بقدرِهِ لقصَّر عنه البَحْرُ يومًا وساحله

ولكننا نُهْدِى إلى من نُجِلُّهُ وإن لم يكن فى وُسْعنا ما يشاكلُهْ »

وروتْ كتبُ الأدب كثيراً من الرسائل الإخوانية لأحمد بن يوسف ، وهو فيها يتروَّى ويتأنق فى اختيار لفظه ، مع حسن البيان ورصانة القول ، من ذلك ما كتب به إلى بعض إخوانه يهنئه بمولود له[٤] :

« بارك الله فى مولودك الذى أتاك وهَنَأَك نعمته بعطيته ، وملَّاك[٥] كرامته بفائدته ، وأدام سرورك بزيادته ، وجعله بارًّا تَقيًّا ، ميمونًا مباركاً زَكيًّا ، ممدودًا له فى البقاء مبلغًا غاية الأمل مشدوداً به عَضُدك ، مكثَّرًا به ولدك ، مُداماً به سرورك ، مدفوعًا به الآفات عنك ، مشفوعًا بأكثر العدد ، من طيِّب الولد».

وهو دائمًا فى التهنئة بالمواليد يتحدث عن أنها نعمة من الله وهبة ، ويدعو للأب أن تقر عينه بابنه ، وأن يبارك الله له فيه ، ويجعله بارًّا بأبويه ، تقيًّا زكيًّا ميموناً سعيداً ، وأن يشدّ به أزْر الوالد ويكثر من أحفاده : أولاد هذا الولد الصالح. وله من تهنئة لأحد إخوانه بإبلاله من مرضه[٦] :

« قد أذهب الله وَصَبَ العلة ونَصَبها[٧] ، ووفَّر أجرها وثوابها ،

---

(١) النيروز : من أعياد الفرس وهو أول يوم عندهم فى السنة .
(٢) صبح الأعشى ٢ / ٤٢٠ .
(٣) الفواضل : النعم .
(٤) جمهرة رسائل العرب ٣ / ٤٣٨ .
(٥) ملاك : متعك .
(٦) العقد الفريد ٤ / ٢٣٩ .
(٧) النصب : التعب الشديد ، والوصب : الوجع .

وجعل فيها إرغام العدو بعُقْباها[1] ، أضعاف ما كان عنده من السرور بمَقْبَح أولاها » .

وتأنقه فى العبارة واضح لا بما يُجْرى فيها من سجع فحسب ، بل بما يوفر أيضًا فى أوائلها من ترادف النصَب مع الوَصَب والثواب مع الأجر ، ليستتم الجمال الصوتى . ومن رسائله فى الشكر[2] :

« من اتسع فى الأفضال[3] ، اتسعت به الأقوال من شاكر مُثْنٍ ، ومادحٍ مُطْرٍ ، ولسنا نصفك بما يَعِنُّ لنا ، ويَذِلُّ على ألْسُنِنا ، مما يتقرَّب به ذو الرغبة ، ويتضرع به ذو الرَّهْبة ، لاستنزال مرغوب ، أو استنجاز مطلوب ، ولكننا ننطق عن سيرتك بإفصاح ، ونُبين عنها بإيضاح ، فنَتَكَفُّ شَغَبَ الكائد ، ونُطيل نفس الحاسد » .

وسجعه المطرد فى هذه الرسالة ليس معناه أنه كان يسجع دائماً ، فهو يسجع حيناً ، وحيناً لا يسجع ، ولكنه يُعْنَى كما قلنا بالترادف بين الألفاظ والعبارات ، على نحو ما نرى فى هذه الرسالة إذ تلا كلمة « شاكر مثن » بكلمة «مادح مطر» وهى بنفس معناها ، ليحكم لتعبيره التلاؤم الصوتى والتعادل الموسيقى ، وهو ما كان يسميه القدماء بالازدواج ، ودائماً تتردد أساليبه بينه وبين السجع على شاكلة قوله فى المديح[4] :

« لقد أحلك الله من الشرف أعلى ذِرْوته ، وبلَّغك من الفضل أبعد غايته ، فالآمال إليك مصروفة ، والأعناق إليك معطوفة . عندك تنتهى الهمم السامية ، وعليك تقف الظنون الحسنة ، وبك تُثْنَى[5] الخناصر ، وتسْتَفْتَح أغلاق المطالب ، ولا يستريث[6] النُّجْح مَنْ رجاك ، ولا تعروه النوائبُ فى ذَرَاك[7] » .

وعلى نحو ما كان يتفنن فى المدح والثناء كان يتفنن فى الذم والهجاء ، وكان أحياناً يَخِزُ فيه وخز الإبر وأحياناً يطعن طعنات مدمية ، من ذلك ما كتب به إلى آل سعيد بن سلم[8] :

---

(١) عقباها : عاقبتها .
(٢) الأوراق للصولى (قسم الشعراء) ص ٢٣٣ .
(٣) الأفضال : النعم والأيادى .
(٤) الصولى ص ٢٣٢ .
(٥) تثنى الخناصر : كناية عن أن الآمال تعقد به .
(٦) يستريث : يستبطىء .
(٧) الذرا : الكنف والظل .
(٨) زهر الآداب ٢/١٣٢ .

« لولا أن الله عزّ وجلّ ختم نبوته بمحمد صلى الله عليه وسلم وكُتُبَهُ بالقرآن لبعث لكم نبيّ نقمة ، وأنزل فيكم قرآن غدْر ، وما عسيتُ أن أقول فى قوم : محاسنهم مساوى السفلة ، ومساويهم فضائح الأمم ، وألسنتهم معقولة بالعِيّ ، وأيديهم معقودة بالبخل ، وأعراضهم أغراض للذم ، وهم كما قال الشاعر :

لا يكثرون وإن طالتْ حَياتُهُمُ ولا تَبيد مخازيهم وإن بادوا »

وله معاتبات واعتذارات كثيرة ، وكان يعرف فى الأولى كيف يتحدث عن رعاية حق الصديق ، كما كان يعرف فى الثانية كيف يتسع بالحجة والفكرة اللبقة ، حتى يستلّ من صاحبه عفوه ورضاه ، من ذلك ما كتب به إلى أحد أصدقائه[١] :

« أتيتك وافداً بذنوبى على عفْوك ، واثقاً لعقوقى ببِرّك ، لا مستظهراً عليك بشفيعٍ قدَّمتُه ، خلا تطوُّلك[٢] بالعفْو عن الإخوان ، وتفضلك عليهم بالإحسان ، فإن تُعاقب فقد حكمت بالمعدلة[٣] بعقوبتك على نفسى ، وإن تجافَ عن ذلك فإن الله يعلم أن قلبى لم يُصِرّ لك على قطيعة ، وكلُّ ذنب كان أصله الاستبطاء لدالّة الحرمة ، والاستعطاف بماتّة[٤] الخدمة ، فهو مما يُعَدُّ فى الحسنات ، لا السيئات » .

وتدور فى كتب الأدب له توقيعات طريفة كان يوقّع بها على رقاع الشكوى . وكتبِ بعض العمال ورسائل الاسماحة وبَذْل المعروف ، فمن ذلك ما حكى الرواة من أن رجلا غصب آخرَ ضيعةً فى أثناء غيابه واستغلّها سنوات معدودة ، فلما قدم طالبه بضيعته ، فاشتكاه قائلاً : الضيعةُ لى وفى يدى ، واطّلع ابن يوسف على الشكوى ، فوقّع عليها بقوله[٥] :

« الحق لا تَخْلُقُ جِدّته ، وإن تطاولتْ بالباطل مُدّته ، فإن أنطقتَ حُجّتك بإفصاح ، وأزلتَ مشكلها بإيضاح — غير «لى وفى يدى» فكثيراً ما أراها ذريعةَ الغاصب ، وحجّةَ المغالب — وُفّر حقك عليك ، وسِيقَ بلا كَدٍّ إليك ، وإن ركنتَ من البيان إليها ، ووقفت عن الاحتجاج عليها كانت حجته بالبيّنة

(١) جمهرة رسائل العرب ٣/٤٥٢ .
(٢) تطولك : تفضلك .
(٣) بالمعدلة : بالعدل .
(٤) ماتة : صلة .
(٥) جمهرة رسائل العرب ٤/٤٥٨ .

أعلى ، وكان بما يدّعيه أولى ، إن شاء الله » .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يصور بلاغة أحمد بن يوسف وكيف أنها كانت تعتمد على غزارة فى الفكر وبراعة فى الأداء وهى براعة يتقدم بها مَنْ سبقوه من كتّاب الدواوين فى القرن الثانى الهجرى تقدماً واسعاً وخاصة فى الرسائل السياسية، إذ تأنق فى ألفاظها وعباراتها تأنقًا جعله يتخللها بالسجع ، فإن لم يواته تخلّلها بالازدواج والترادف الصوتى ، وبذلك أسبغ عليها ضروباً من الجمال الموسيقى لم تكن مألوفة قبله إلا فى بعض الرسائل الإخوانية وبعض التوقيعات ، على نحو ما مرّ بنا فى الفصل السابق عند ابن سيّابة وجعفر بن يحيى البرمكى . ولا ننسى سهل بن هرون ، فقد كان يُعْنَى مثله بالازدواج والترادف والموسيقى غير أن ابن يوسف هو الذى أعدّ هذا الأسلوب وما طُوى فيه من سجع ليشيع فى الكتابات الديوانية.

٤

عمرو [1] بن مسعدة

كان جده الأعلى صول أحد ملوك جرجان ، وكان من الترك الذين اعتنقوا المجوسية وتشبهوا بالفرس ، وقد اعتنق الإسلام فى زمن بنى أمية ، ودخل ابنه سعيد فى الدعوة العباسية ، فلما نجحت صارت له منزلة فى الدولة إذ كان من دُعاتها النابهين ، ولم يلبث خالد البرمكى أن استخلص ابنه مسعدة للكتابة بين يديه فى وزارته للسفاح والمنصور ، وظل يعمل فى دواوين الأخير حتى قلده وزيره أبو أيوب الموريانى رياسة ديوان الرسائل ، ويولَدُ له ابنه عمرو ، فيُعْنَى بتأديبه حتى يَصْلح للكتابة فى دواوين الدولة . ويظهر أنه مضى يتثقف ثقافة عربية وإسلامية واسعة ، حتى غدا لَسِنًا فصيحاً ، بل لقد غدا شاعراً ينظم الشعر ، كما غدا يحسن شئون الفقه مما يتصل بالخراج ، ووقف على العلوم الرياضية ، وما يتصل بها من الحساب مما كان يَتَثقفه الكتاب ، كما وقف على آداب الفرس وكتاباتهم فى السياسة والأخلاق وتدبير الحكم ، وربما وقف أيضًا على شىء من

---

(١) انظر فى ترجمة عمرو بن مسعدة معجم الأدباء ١٦/١٢٧ ووفيات الأعيان لابن خلكان ١/٤٩٢ وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٢/٢٠٣ وزهر الآداب ٣/٢٤٩ .

الفلسفة اليونانية والحكمة الهندية . وكل تلك كانت أدوات ترشح الشخص لكى يعمل فى الدواوين لعصره ، ويتقن العمل فيها ، ويظفر بما يريد من الإعجاب والترقى فى المراتب السنية .

وما نصل إلى زمن الرشيد والبرامكة حتى نجد جعفر بن يحيى البرمكى يستخلص عمرًا لنفسه ، ويتخذه كاتباً للتوقيع بين يديه ، إذ حدَّث عن نفسه قائلا : « كنت أوقِّع بين يدى جعفر بن يحيى فرفع إليه غلمانه ورقة يستزيدونه فى رواتبهم ، فرمى بها إلىّ ، وقال : أجِبْ عنها ، فكتبت : قليل دائم خير من كثير منقطع . فضرب بيده على ظهرى وقال : أىُّ وزير فى جلْدك ! » . وأفاده عمله مع جعفر فى التوقيعات إفادة واسعة ، إذ كان جعفر يُعْنَى — كما قدمنا — بتنميق عباراته والاقتصاد فيها أشد ما يكون الاقتصاد ، فطُبع بطوابعه البلاغية على نحو ما سنرى عما قليل .

ونراه بعد ذلك متصلا بالفضل بن سهل القائم على تدبير شئون المأمون حين كان يحكم من مرو الولايات الشرقية ، وقد اتخذه كما مرّ بنا فى غير هذا الموضع وزيراً له وأسلم إليه مقاليد الحكم ، فما زال بالأمين حتى قضى عليه كما قدمنا ، وبايع الناس المأمون بالخلافة ، وظلاَّ جميعاً بمرو حتى سنة ٢٠٢ للهجرة ، فبارحاها قاصدين إلى بغداد ، وقُتل الفضل فى الطريق ، كما أسلفنا . وإنما ذكرنا ذلك لما نظنه من أن عمرو بن مسعدة إذا كان عمل فى دواوين الفضل فلا بد أن يكون عمل بها فى مرو ، مثله مثل أحمد بن يوسف ، وكأن الفضل أعجب به ، فأدناه منه واصطحبه معه هناك . وعاد إلى بغداد ، فعمل فى دواوين أخيه الحسن وزير المأمون أو بعبارة أدق عمل فى دواوين الخلافة ، ووقع من نفس المأمون موقعًا حسَنًا فعَهِدَ إليه أحيانًا تفتيش الولايات ، وما زال يعجب به وببلاغته ، حتى إذا رَفَع أحمد بن يوسف إلى مرتبة الوزارة أقامه على ديوان الرسائل ، وكان يأنس له ويستطيب حديثه ، فلما أخذ فى غزو الروم كان يستصحبه فى غزواته . ولعظم منزلته عنده ظن بعض الشعراء أنه استوزره ، وذكر ذلك فى بعض مديحه له ، إذ يقول :

لقد أَسعدَ اللهُ الوزيرَ ابن مَسْعَدَهْ وبَثَّ له فى الناس شُكْرًا ومَحْمدَهْ

وكان جواداً ممدَّحاً ، كما كان فاضلا نبيلا حميد العشرة محبباً إلى معاصريه ، وما تُوافى سنة ٢١٧ للهجرة حتى يُلَبِّى نداء ربه بأذَنَة فى غزوة مع المأمون . ويُرْوى أنه لما مات رُفعت إلى المأمون رقعة فيها أنه خلَّف ثمانين ألف ألف درهم ، فوقَّع فى ظهرها :

« هذا قليل لمن اتصل بنا ، وطالتْ خدمته لنا ، فبارك الله لولده فما خلَّف وأحسن لهم النظر فيما ترك » .

وكان عمرو بن مسعدة يروع معاصريه ببلاغته ، وهى تُعَدُّ امتداداً لبلاغة جعفر بن يحيى البرمكى ، تتصف بصفتين أساسيتين بارزتين هما الإيجاز الدقيق والوضوح البالغ ، وهما نفس الصفتين اللتين امتازت بهما بلاغة ابن مسعدة ، أما الإيجاز فقد بلغ منه أنه كان يُضْرَبُ به المثل فيه ، كما كان يُضْرَبُ بجعفر بن يحيى من قبله ، وكان يقول للكتَّاب : إذا استطعتم أن تجعلوا كتبكم كلها توقيعات فافعلوا . وكأنما استقر ذلك فى نفس عمرو فإذا هو يُحيل كتبه فى مختلف الأغراض إلى ما يشبه التوقيعات اختصاراً واقتصاداً فى القول . وأما الوضوح فقد كان جعفر شديد الكلف به ، وكثيراً ما كان يوصى به الكُتَّاب من حوله ، ومرَّ بنا فى الفصل الماضى وَصْفُ ثُمامة بن أشرس المعتزلى لبلاغته ومدى ما كان يَجْرى فيها من بيان ووضوح وإيجاز شديد ، ويُرْوَى أن الفضل ابن سهل وصف بلاغة ابن مسعدة فقال : « هو أبلغ الناس ، ومن بلاغته أن كل أحد إذا سمع كلامه ظن أنه يكتب مثل كتبه فإذا رامها تعذرت عليه[1] » . وهذا كما قيل لجعفر بن يحيى : ما حَدُّ البلاغة ؟ فقال : التى إذا سمعها الجاهل ظن أنه يقدر على مثلها ، فإذا رامها استصعبت عليه .

وليس هذا كل ما أخذه عمرو عن جعفر ، فقد كان جعفر يتأنق فى اختيار لفظه ، حتى لينمقه أحياناً بالسجع الرشيق ، فحاكاه عمرو فى تنميقه وتأنقه وإشاعة السجع أحياناً فى كلامه ، وخاصة إذا كان موجزاً وطال نظره فيه ، إذ كان لا يزال يبحث عن اللفظة الملائمة التى تروق فى السمع ، كما يبحث عن المعنى الدقيق ، فالكتابة عنده وخاصة إذا اتجه بها إلى الحسن بن سهل أو إلى المأمون أو كلَّفاه بالكتابة عنهما لم تعد شيئاً يجرى عفو الخاطر ، بل أصبحت بحثاً بأدق

(١) الصناعتين ص ٦١ .

ما تدل عليه كلمة بحث ، بحثاً فى استقطار المعانى ، بحيث لا يفوت المعنى على إيجازه الدلالةُ الواضحة البينة عن طائفة واسعة من الأفكار ، وبحيث لا يفوت الألفاظ حمل المعنى وأداءه أداء يخلب الألباب . ولعل من الخير أن نسوق طائفة من رسائله نستشفُّ منها خصائصه البلاغية ، فمن ذلك ما كتب به إلى الحسن ابن سهل يستتم صنائعه عنده[1] :

« أما بعد فإنك ممن إذا غَرس سَقَى ، وإذا أسَّس بَنَى ، ليستتم تشييد أُسُسه ، ويجتنى ثمار غَرْسه ، وبناؤك عندى قد شارف الدُّروس[2] ، وغَرْسُك مُشْفٍ[3] على اليبوس ، فتدارَكْ بناءَ ما أسست ، وسَقْيَ ما غَرَسْتَ ، إن شاء الله » .

وواضح تأنقه فى الكتاب وتنميقه ، حتى ليبنيه على السجع ، وواضح أيضاً تدقيقه فى اختيار الألفاظ ، وأنه لا يعمد إلى الإطناب ، إنما يعمد إلى الاقتصاد ، مؤدياً بصورتين كل ما فى نفسه ، فصنائع الحسن عنده تشبه بناء ، وضع أساسه ، ولا بد من متابعة الإنفاق عليه حتى يرتفع فى الجو وتقوم أركانه ، أو هى تشبه غرساً ، لا بد له من تعهد بالماء والتربية حتى يشتد ويؤتى ثماره . ويقول إن الأساس قد أشرف على الامحاء والغرس قد أشرف على الذبول فلا تضن بالنفقة والتعهد عليهما حتى لا يضيع ما أنفقت وتعهدت أولا . أرأيت كيف أننا حين نعمد إلى فهم كلام ابن مسعدة نُضْطَرُّ إلى شيء من البَسْط والإطناب ، وكأننا بإزاء صياغة تشبه صياغة الشعر الغنائى المركزة التى يُثْقِلها ما تحمل من معانٍ كثيرة فى عبارات مسرفة فى الإيجاز . ومع ذلك فالألفاظ واضحة غاية الوضوح ، ولكنها مع وضوحها تحمل معانى غزيرة ، مع قلة عدد الحروف والكلمات ومع سهولة الألفاظ وخفتها فى النطق .

وقال أحمد[4] بن يوسف : « دخلت على المأمون وفى يده كتاب ، وهو يعاود قراءته مرة بعد مرة ، ويصعِّد فيه بصره ويصوِّبه ، فالتفت إلىَّ وقد لحظنى فى أثناء قراءته للكتاب ، وقال : يا أحمد أراك متفكراً فيما تراه منى ! قلت : نعم ، وَقَى الله أمير المؤمنين من المكاره وأعاذه من المخاوف ، قال : لا مكروه إن شاء الله ، ولكنى أقرأ كتاباً وجدته نظير ما سمعت الرشيد يقوله فى البلاغة ،

---

(١) معجم الأدباء ١٦/١٣٠ .

(٢) الدروس : الإمحاء .

(٣) مشف : مشرف .

(٤) انظر وفيات الأعيان ١/٩٤ وقارن بزهر الآداب ٣/٢٤٩ والعقد الفريد ٢/٢٧٢ .

فإنى سمعته يقول : البلاغة التباعد من الإطالة والتقرب من البغية والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى . وما كنت أتوهم أن أحداً يقدر على هذه البلاغة حتى قرأت هذا الكتاب من عمرو بن مسعدة إلينا ، ورمى به إلىّ وقرأته ، فإذا فيه :

« كتابى إلى أمير المؤمنين ، ومَنْ قِبَلِى من قُوَّاده وسائر أجناده فى الانقياد والطاعة على أحسن ما تكون عليه طاعة جُنْد تأخَّرتْ أرزاقهم ، وانقياد كُفاة تراختْ أعطياتهم ، واختلَّتْ لذلك أحوالهم ، والتاثتْ [1] معه أمورهم » .

فلما قرأته قال : إن استحسانى إياه بعثنى أن أمرت للجند قِبَله بعطائهم لسبعة أشهر ، وأنا على مجازاة الكاتب بما يستحقه مَنْ حَلَّ محله فى صناعته . وفى رواية أخرى أنه قال لابن يوسف : لله دَرُّ عمرو ما أبلغه ! ألا ترى إلى إدماجه المسألة فى الإخبار ، وإعفائه سلطانه من الإكثار » .

ولا ريب فى أن عَمْرًا تعب طويلا فى كتابة هذا الكتاب الموجز ، حتى يقع على العبارات القليلة التى تؤدى إلى المأمون امتعاض القواد والجند من تأخُّر رواتبهم ، وقد أخذ يحتال لإنبائه بهذا الخبر بحيث لا يضيق بهم وبحيث لا يظن أنهم عمدوا إلى شغب أو ما يشبه الشغب ، فذكر أولا أنهم مذلَّلون له منقادون ، وأنهم مستمسكون بعُرَى طاعته استمساكاً يستغرق قلوبهم كأحسن ما يكون استمساك جيش بطاعة خليفته ، ثم أتبع ذلك بتأخر أرزاقهم ورواتبهم حتى أجهدهم ما تحملوه من هذا التأخر وحتى اضطربت أمورهم ، ومثلهم — مع طاعتهم وانقيادهم — حرى أن يُسَدَّ اختلالهم وأن يُرْعَى لهم وفاؤهم ، فتُعَجَّل رواتبهم وأرزاقهم . وكان للكتاب أثر بالغ فى نفس المأمون إذ أمر أن تُصْرَفَ للجند والقادة فى الحال أعطياتهم ، لا لشهر ولا لشهرين بل لسبعة أشهر متتابعة . ويقال إنه أمر بأن يعطى لعمرو أيضاً راتبه لثمانية أشهر جزاء وفاقاً لحسن عرضه للمسألة ودقة تلطفه فى إيرادها وتصويرها .

ويَرْوِى صاحب [2] زهر الآداب أنه قدم على المأمون رجل من أهل الشام على عِدَة سلفت له منه بتوليته بلده ، فطال على الرجل انتظار خروج أمر المأمون بما وعده به ، فقصد عمرو بن مسعدة ، وعرض عليه المسألة ، وسأله

---

(١) التاثت : اضطربت . (٢) زهر الآداب ٤/١٥٨ .

إيصال رقعة إلى المأمون بها ، فقال له : اكتبْ بما شئت ، فإنى موصله . فتوسل إليه أن يتولى هو كتابة الرقعة عنه ، حتى يكون له فَضْلان ، فكتب عمرو :

« إن رأى أمير المؤمنين أن يَفُكَّ أسْرَ عِدته من رِبْقة[1] المَطْل بقضاء حاجة عبده ، والإذن له بالانصراف إلى بلده ، فعل موفَّقاً » .

فلما قرأ المأمون الرقعة دعا عمرًا ، فأطلعه عليها وجعل يعجب من حسن لفظها وإيجاز المراد فيها ، فقال له عمرو : فما نتيجتها يا أمير المؤمنين ؟ قال : الكتابة له فى هذا الوقت بما سأل ، لئلا يتأخر فضل استحساننا كلامه ، وبجائزة تفى دناءة المَطْل » .

وأكبر الظن أن المأمون لم يستحسن كلام الرقعة لدقة إيجازها وتعبيرها السريع عن مقصودها فحسب ، بل استحسنها أيضاً للصورة المبثوثة فيها ، وكان ابن مسعدة كثيراً ما يُعْنَى بالتصوير فى كتابته على نحو ما مرَّ بنا فى رسالته للحسن ابن سهل . وبذلك تحوَّل فن الرسائل عنده إلى عبارة موجزة كعبارات التوقيعات وإلى صور نادرة تستهوى القلوب بطرافتها ودقتها فى التعبير عن المعنى الذى يريد تجسيمه . وكان يضيف إلى ذلك رقة فى الشعور ، هى رقة الكاتب المتحضر الذى أرهف ذوقه ، والذى عوَّدته آداب اللياقة الاحتياط فيما يورده على سمع الخليفة والوزير ، بحيث ينال إعجابه واستحسانه . ويَرْوى صاحب المثل السائر[2] أن رجلا من بنى ضَبَّة ضَرَعَ إليه أن يشفع له عند المأمون فى الزيادة لمنزلته وراتبه المقدَّر له ، فكتب إلى المأمون مستشفعاً له :

« أما بعد فقد استشفع بى فلان يا أمير المؤمنين — لتطوُّلك[3] علىَّ — فى إلحاقه بنظرائه من الخاصة فيما يرتزقون به ، وأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلنى فى مراتب المستشفعين ، وفى ابتدائه بذلك تعدِّى طاعته ، والسلام » .

وأُعجب المأمون بدقة عرضه لشفاعته وإخراجه لها فى معرض التعريض ، تلطفاً ، وإشارةً من طرف خفى إلى حرمته منه ، وما يختصه بالعطف والحظوة عنده . وبذلك كانت أوكد وسيلة وأوثق ذريعة لإجابة طلبه وشفاعته ، مما جعل

(١) ربقة : عروة .
(٢) المثل السائر ص ٣٩١ .
(٣) تطولك : تفضلك .

المأمون يوقّع على الكتاب بقوله : « قد عرفنا توطئتك له،وتعريضك لنفسك ، وأجبناك إليهما ، ووافقناك عليهما » .

وكان إيجازه المفرط مع دقته فى أداء المعانى يروع المأمون روعة شديدة ، ويُرْوَى أنه أحبَّ يومًا أن يرى مدى مقدرته فى هذا الإيجاز ، فأمره أن يكتب إلى بعض العمال فى العناية بشخص والاهتمام بأمره ، وأن يوجز كتابه ما أمكنه ، بحيث لا يتجاوز ما يكتبه سطراً واحداً ، فكتب[1] :

« كتابى إليك كتاب واثقٍ بمن كُتب إليه، معْنِىٍّ بمن كُتب له، ولن يضيع بين الثقاية والعناية حامله ، والسلام » .

ولا ريب فى أن هذا الكتاب القصير — بل المفرط فى القصر — يصور مدى ما كان يبذل ابن مسعدة من جهد عنيف فى جمع المعانى الكثيرة وتركيزها فى معنى يؤديها أجمل ما يكون الأداء ، سواء بما يختار من لفظ أنيق أو صورة بديعة ، وكأنه لا يصوغ كلاماً ، وإنما يقطّر من الكلام شذًى فائحاً شديد التأثير فى قارئه وسامعه .

وعلى هذا النحو تحوّلت الكتب عند ابن مسعدة إلى كلمات قصار ، ككلمات التوقيعات ، بل لعلها أشد قصراً ، وأقوى منها حدة . وما نشك فى أنه تأثر فى هذا الاتجاه بالحكم الكثيرة التى تُرْجمت فى عصره ، على نحو ما نرى فى الأدب الصغير والكبير لابن المقفع ، وكأنه أراد أن يجعل كتبه أو على الأقل طائفة منها حكماً وأمثالاً تدور على ألسنة الكتّاب والأدباء . وروَى له ابن خلكان رسالة طويلة مسجوعة كتب بها إلى بعض الرؤساء ، وقد أهمّه وأحزنه زواج أمه، لينفّس عنه ، وما إن قرأها حتى سحره بيانه واعتذاره عن أمه وذهب عنه الهم والحزن . وشكّ ابن خلكان فى الرسالة وقال إنها تنسب إلى ابن العميد ، وهو محق فى شكه ، لسبب بسيط ، هو طولها الذى لا نألفه عند ابن مسعدة ، فقد كان يقبض يده عنه ولا يبسطها إلا على حروف معدودة محكمة .

---

(١) وفيات الأعيان ١/٤٩٣ .

٥

ابن[١] الزيات

هو محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة ، اشتهر بابن الزيات ، لأن جده أباناً كان يجلب الزيت من مواطنه إلى بغداد متجراً فيه ، وأصله من مقاطعة جيل جنوبى بغداد ومن قرية تسمى الدسكرة . وقد دفع ابنه عبد الملك إلى احتراف التجارة ، وجَدّ فيها حتى صار من تجار الكَرْخ[٢] المياسير ، ووُلد له محمد سنة ١٧٣ ونشأ يحب الأدب ، فأقبل ينهل منه ، كما ينهل من علوم اللغة ومن ينابيع الآداب الأجنبية الشائعة فى عصره ، حتى شدا الشعر ونبغ فيه كما نبغ فى النثر . وحاول أبوه أن يصرفه عن هذا الاتجاه إلى التجارة المربحة فكان يصدُّه ، ويلزم الأدب وطلبه ، ويلازم الدواوين محاولاً أن يلفت من فيها إلى مهارته الأدبية ، وقال له أبوه يوماً : « والله ما أرى ما أنت ملازمه ينفعك وليضرّنك ، لأنك تدع عاجل المنفعة وما أنت فيه مكفىٌّ ، ولك ولأبيك فيه مالٌ وجاه ، وتطلب الآجل الذى لا تدرى كيف تكون فيه ، فقال : والله لتعلمَنّ أينا ينتفع بما هو فيه : أنا أم أنت ، ثم شخص إلى الحسن بن سهل ، فامتدحه بقصيدة ، فأعطاه عشرة آلاف درهم ، فعاد بها إلى أبيه فقال له أبوه : لا ألومك بعدها على ما أنت فيه» . ويقال إنه لما مدح ابن سهل ووصله بالدراهم المذكورة مثَلَ بين يديه ، وأنشده :

لم أمتدحك رجاءَ المال أطْلُبُهُ ... لكن لتُلْبِسنى التَّحْجيلَ والغُرَرا[٣]
وليس ذلك إلا أننى رجــلٌ ... لا أطلب الوِرْدَ حتى أعرفَ الصَّدَرا[٤]

يشير بذلك إلى مأربه من مديحه ، وأنه لم يمدحه طلباً للمال ، وإنما مدحه طلباً لتعيينه كاتباً بالدواوين ، وعيَّنه الحسن بن سهل ، فحقّق له أملاً طالما كان يراوده .

---

(١) انظر فى ترجمة ابن الزيات الأغانى (طبعة الساسى) ٢٠/٤٦ والفهرست ص ١٧٧ وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٢/٣٤٢ والفخرى ص ١٧٥ والمسعودى ٤/٣٩ والطبرى ٧/٣٤٣ وغرر الخصائص الواضحة للوطواط ص ١٤٢ ، ٤١٠ ووفيات الأعيان لابن خلكان ٢/٧٠ .

(٢) الكرخ : محلة الأسواق والتجار ببغداد.

(٣) التحجيل : بياض فى قوائم الفرس . الغرر : جمع غرة ، بياض فى وجهه . والاستعارة واضحة.

(٤) الورد : ورود الماء . الصدر : الصدور والرجوع عنه .

ومضى ابن الزيات يختلف إلى الدواوين وهو يتابع مدارسته لعلوم اللغة والنحو ، ويظهر أنه تزوّد منها زاداً وافراً ، فقد ذكر الرواة أن أبا عثمان المازنى حين قدم بغداد كان أصحابه وجلساؤه يخوضون بين يديه فى مسائل علم النحو ، فإذا اختلفوا فى مسألة يقع فيها الشك قال لهم : ابعثوا إلى هذا الفتى الكاتب — يعنى ابن الزيات — واسألوه واعرفوا جوابه ، وكانوا يفعلون ، ويعرضون ما يجيب به على المازنى ، فيرى أنه الصواب الذى يرتضيه ، ويشرحه لهم ويقفهم عليه .

وعلى نحو ما كان عالماً باللغة والنحو كان شاعراً بارعاً ، ومرّت بنا فى حديثنا عن الشعر مرثية لزوجه ، وهى من روائع المراثى ، وله وراءها مراث أخرى فيها وأشعار كثيرة ، كوّنت له ديوانًا نُشر فى القاهرة ، ومن يرجع إليه يجد شاعريته فياضة ، كما يجد الشعر مذللا له فى المواقف المختلفة التى قد يصعب فيها على غيره ولا يسلس قياده . ويقال إنه لما وثب إبراهيم بن المهدى على الخلافة حين عقد المأمون لعلى الرضا البيعةَ بولاية العهد ، وتطورت الظروف على نحو ما قدمنا ولم يتم أمره استتر خوفاً من المأمون وانتقامه ، وظل مستخفياً سنوات لا يُعْرَفُ موضعه، حتى إذا ظهر وعفا عنه المأمون طالبه التجار بأموالهم التى كان قد اقترضها منهم فكان يقول : إنما أخذتها للمسلمين وأردت قضاءها من فَيْئهم والأمر الآن إلى غيرى ، وكان قد اقترض من عبد الملك بن أبان عشرة آلاف درهم ، وكان إذا طالبه بماله لقيه بنفس الجواب ، فنظم ابنه محمد قصيدة يصور فيها ثورته على المأمون مقارناً بينها وبين ثورة الأمين وما ناله من القتل جزاء غدره ونكثه ، حتى يوغر صدر المأمون عليه ، ويطير به طيرة بطيئاً سقوطها . ومضى بالقصيدة إلى ابن المهدى ، فأنشدها له ، وقال : والله لئن لم تعطنى المال الذى اقترضته من أبى لأوصلنّ هذه القصيدة إلى المأمون ، ففزع إبراهيم وجزع ، وقال له متوسلا : خذ منى الآن بعضَ المال، واجعل الباقى أقساطًا ، ولا تظهر القصيدة، وَوَفى كل منهما لصاحبه .

وما زال ابن الزيات يعمل فى الدواوين حتى وَلِىَ مقاليدَ الخلافة المعتصمُ ، فقرّبه منه ولم يلبث أن استوزره ، ويقال إنه طلب حينئذ أن لا يلبس القَبَاء[1] على

(١) القباء : ثوب فارسى قصير .

عادة الوزراء وأن يلبس الدُّرَّاعة(١) ويتقلّد عليها سيفاً بحمائل ، فأجيب إلى طلبه ، ويحس بإقبال الدنيا عليه ، فيفتح أبوابه للشعراء ، ويُجْزل لهم فى العطاء ، ومن أهم مُدَّاحه كما مرّ بنا أبو تمام، وأنشدنا فى غير هذا الموضع بعض أبيات من قصيدته التى وصف فيها قلمه وبلاغته . وكانت قد انعقدت أيام عمله فى الدواوين صلة وثيقة بينه وبين الحسن بن وهب ، فلما ولى الوزارة قلّده ديوان الرسائل ، وربما كان الجاحظ أهم أديب توثقت به صلته فى وزارته .

وتوفِّى المعتصم ووَلِىَ ابنه الواثق ، فظل وزيراً له ، ولعل من الغريب أن نجده فى وزارته لهما جميعًا يعادى أحمد بن أبى دؤاد المعتزلى المشهور ، وكان المعتصم جعله قاضى القضاة واتخذه كما اتخذه ابنه الواثق ناصحاً ومشيراً ، ودبَّ التنافس بينه وبين ابن الزيات ، حتى انقلب إلى عداوة وتهاجٍ بالشعر ، وكان ابن أبى دؤاد يحرِّض الشعراء على هجائه ويصلهم، ويقال إنّ بعض الشعراء هجاه بقصيدة عدة أبياتها سبعون بيتاً ، فبلغ خبرها ابن أبى دؤاد ، فقال :

أحسنُ من سبعين بيتاً سُدًى ... جمعك إياهن فى بَيْتِ

ما أحوج الناسَ إلى مَطْرةٍ ... تُذْهِبُ عنهم وَضَرَ الزيتِ

وكان ابن الزيات لبراعته فى الشعر يكيل له الصاع صاعين ، فاضطرمت العداوة بينهما اضطراماً . وكانت فى ابن الزيات قسوة شديدة قلما تُؤْلَفُ فى أمثاله من الأدباء الذين رُزقوا دقة فى الحس ، ورهافة فى الشعور ، ويُؤْثَرُ عنه أنه كان يقول : « الرحمة خَوَرٌ فى الطبيعة وضعف فى المُنَّة(٢) ، ما رحمت شيئًا قط » . وبلغ من قسوته أن اتخذ تَنُّوراً من حديد ، وجعل فيه مسامير ، ليعذِّب به المطالَبين بالأموال من أرباب الدواوين . وكان فى وزارته للواثق ، يتجهم للمتوكل ، وحاول أن يصرف الخلافة عنه إلى ابن الواثق ، وطمح إلى إنفاذ ذلك بعد وفاته ، بينما تحمس ابن أبى دؤاد للمتوكل ، فلما ولى الخلافة استوزر ابن الزيات أربعين يومًا ليطمئن، وظل ابن أبى دؤاد يغريه به لينكبه، حتى أصاخ له وقبض عليه وطالبه بالأموال ، ولم يلبث أن أدخله التَّنُّور الذى صنعه ، وقيّده فيه بخمسة عشر رطلا من حديد ، وظل به أربعين يوماً يعذّب عذاباً شديداً ،

(١) الدراعة : جبة فارسية . (٢) المنة : القوة .

حتّى مات ، وكان موته فى آخر ربيع لسنة ٢٣٣ للهجرة .

ولم تَدُرْ لابن الزيات رسائل كثيرة فى كتب الأدب ، مع كثرة ما يدور فيها من رسائل موجهة إليه ، ويظهر أنه وَكَلَ فى وزارته للحسن بن وهب كتابة الرسائل الديوانية والرد عليها ، ومن القليل الذى احتفظت به تلك الكتب العهدُ للواثق على مكة ، وقد كتبه بحضرة المعتصم على هذه الصورة[١] :

« أما بعد، فإن أمير المؤمنين قد قلّدك مكة وزمزم، تُراث أبيك[٢] الأقدم، وجدّك[٣] الأكرم ، وركضةَ جبريل ، وسُقيا إسماعيل وحَفْر عبد المطلب ، وسِقاية العباس ، فعليك بتقوى الله تعالى والتوسعة على أهل بيته » .

وابن الزيات يشير فى هذا العهد المقتضب إلى قصة هاجر زوج إبراهيم عليه السلام حين ولدت ابنها إسماعيل منه ، وغارت زوجه الثانية سارة ، واضطرته أن يُنْزِلهما منزلا بعيداً عنها، فأنزلهما بوادى مكة الجدب ، وذكر ذلك القرآن الكريم فى قوله جلّ شأنه على لسان إبراهيم : (ربنا إنى أسكنت من ذريتى بِوادٍ غير ذى زَرْع عند بيتك المحرّم) . وأعياهما أن يجدا ماء يستقيان منه ، وبينما هاجر قد أخذها اليأس من وجوده إذا جبريل يهبط راكضاً علىَ موضع ، لا تلبث بئر أن تتفجّر منه ، هى بئر زمزم، فتستقى منه هاجر وإسماعيل . وتمر الأيام فتطمر البئر وتمحى معالمها وتظل مطمورة ، حتى يُلْقَى فى رَوْع عبد المطلب جد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يحفرها ، وما إن ضرب بمعوله فيها حتى فاض الماء ، واتخذها لسِقاية الحجيج ، وورث ابنه أبو طالب شرف هذه السقاية بعده وورثها عنه العباس أخوه جد العباسيين . وإلى كل هذه القصة يشير ابن الزيات فى عهد الواثق، وكأننا نلتقى عنده بأسلوب ابن مسعدة المبنى على الإيجاز والاقتصاد فى القول من جهة ، وعلى التأنق فى التعبير من جهة ثانية، تأنقًا يجره إلى السجع

ويظهر أن ابن الزيات لم يكن يعمد إلى السجع دائما ، وكأنما كان يرى فيه مبالغة فى التكلف ، فقد احتفظ له ابن عبد ربه برسالة إلى أحد العمال تخلو من السجع ، وهى تجرى على هذا النمط[٤] :

---

(١) زهر الآداب ٤ / ١٦٠ .

(٢) يريد بأبيه الأقدم: إسماعيل عليه السلام .

(٣) يريد بجده الأكرم : إبراهيم الخليل .

(٤) العقد الفريد ٤ / ٢٤١ .

« أما بعد فقد انتهى إلى أمير المؤمنين (كذا) فأنكره ، ولا تخلو من إحدى منزلتين ، ليس فى واحدة منهما عذر يوجب حجة ولا يزيل لائمة[١] : إما تقصير فى عملك دعاك للإخلال بالحزم والتفريط فى الواجب ، وإما مظاهرة [٢] لأهل الفساد ومداهنة لأهل الرِّيَب ، وأيَّة هاتين كانت منك مُحلَّة النُّكْرَ بك وموجبة العقوبة عليك ، لولا ما يلقاك به أمير المؤمنين من الأناة والنَّظِرة[٣] والأخذ بالحجة والتقدم فى الإعذار والإنذار ، وعلى حسب ما أُقِلْتَ[٤] من عظيم العَثْرة يجب اجتهادك فى تلافى التقصير والإضاعة ، والسلام » .

والقصد إلى الإيجاز واضح فى الرسالة ولكنه إيجاز من درجة ثانية غير درجة الإيجاز عند ابن مسعدة ، فإيجاز ابن الزيات لا يتحول إلى ما يشبه التوقيعات والحكم والأمثال ، إنما هو ضرب من الاقتصاد فى التعبير ، مع الاتساع فى المعنى وبسط أطرافه قليلا ، ليحيط بكل ما يدور فى نفس الكاتب ، ومع الوفاء برصانة اللفظ وجزالته ومتانته ، ومع الدقة فى انتخابه واختياره ، دون تكلف لجمال صوتى يجرُّ إلى السجع أو إلى الازدواج الذى كان يستخدمه أحمد بن يوسف وسهل بن هرون وأضرابهما من الكتَّاب ، ومما يصور ذلك عنده ما احتفظ به ابن عبد ربه من بعض فصوله مثل قوله[٥] :

« إن الله أوجب لخلفائه على عباده حق الطاعة والنصيحة ، ولعبيده على خلفائه بَسْط العدل والرأفة وإحياء السنن الصالحة . فإذا أدَّى كلٌّ إلى كلٍّ حقه كان ذلك سبباً لتمام المعونة واتصال الزيادة واتساق الكلمة ودوام الألفة » .

فالفكرة تؤدَّى فى عبارة موجزة تُلِمُّ بأطراف المعنى ولكن دون إسهاب أو إطناب ، ودون محاولة لتحقيق اللذة الفنية عن طريق السجع والازدواج وما ينحو نحوهما ، على شاكلة قوله فى فصل آخر[٦] :

« إن أعظم الحق حقُّ الدين ، وأوجبَ الحُرْمة حرمةُ المسلمين ، فحقيق لمن راعى ذلك الحق وحفظ تلك الحرمة أن يُرَاعى له حسب ما رعاه الله به ، ويُحْفَظ له حسب ما حفظ الله على يديه » .

---

(١) اللائمة : اللوم .
(٢) مظاهرة : مساعدة .
(٣) النظرة : التأجيل .
(٤) أقلت : نهضت
(٥) العقد الفريد ٤ / ٢٤٠ .
(٦) العقد الفريد ٤ / ٢٤٠ .

والرغبة في الإيجاز والاقتصاد في القول واضحة في هذا الفصل وخاصة في كلماته الأخيرة . ولم تُؤْثَرْ لابن الزيات رسائل شخصية نثرية ، وكأنه كان يقدم الشعر على النثر في هذه الرسائل ، لمطاوعته له وسهولته عليه، إذ تَرْوِى له كتب الأدب بعض رسائل إخوانية شعرية كان يتبادلها مع بعض أصدقائه وخاصة الحسن بن وهب ، وقلما تجاوزت أبياته فيها عدد أصابع اليدين . ويُرْوَى أن ابن وهب مرض أياماً ولم يأته رسوله ولا تعرَّف خبره ، فكتب إليه رسالة شعرية يعاتبه فيها ، وردَّ عليه ابن الزيات برسالة شعرية أيضاً ، يعتذر إليه متنصلا من علمه بمرضه ، وطالباً إليه التفضل بصفحه والتطوُّل بعفوه ، على هذه الشاكلة[1] :

دَفَعَ اللهُ عنك نائبةَ الدَّهْـ ـرِ ، وحاشاك أن تكون عليلا
أُشْهِدُ اللهَ ما علمتُ وماذا لك من العُذْر جائزًا مقبولا
ولعمرى أن لو علمت فلا زَمْـ ـتُلك حَوْلاً لكان عندى قليلا
فاجعلنْ لى إلى التعلق بالعُذْ رِ سبيلا إن لم أجد لى سبيلا
فقديماً ما جاد بالصفح والعَفْـ ـو وما سامح الخليلُ الخليلا

ويقول صاحب الأغانى إنه كان بليغًا حسن اللفظ إذا تكلم وإذا كتب ، ويسوق شاهداً على ذلك أنه « جلس يوماً للمظالم ، فلما انقضى المجلس رأى رجلا جالساً ، فقال له : ألك حاجة ؟ قال الرجل : نعم تُـدْنيني إليك ، فإنى مظلوم، فأدناه ، فقال : أنا مظلوم ، وقد أعوزنى الإنصاف ، قال : ومن ظلمك ؟ . قال : أنت ، ولست أصل إليك فأذكر حاجتى ، قال : ومن يحجبك عنى وقد ترى مجلسى مبذولاً ؟ قال الرجل : يحجبنى عنك هيبتى لك وطول لسانك وفصاحتك واطراد حجتك ، قال : ففيم ظلمتك ؟ قال الرجل : ضَيْعتى الفلانية أخذها وكيلك غَصْبًا بغير ثمن ، فإذا وجب عليها خراج أدَّيته باسمى لئلا يثبت لك اسم فى ملكها ، فيبطل ملكى ، فوكيلك يأخذ غلَّتَها وأنا أؤدى خراجها » . وتمضى القصة فتذكر أن ابن الزيات ردَّ على الرجل ضيعته ووهبه بعض المال ليستعين على عمارتها . وأبو الفرج إنما ساق القصة ليدل على ما شاع عند معاصرى ابن الزيات من فصاحته وبلاغته ولسنه وقوة حجته .

---

(١) أغانى (ساسى) ٢٠/٥٥ .

خـاتمـة

تحدثتُ فى هذا الجزء الخاص بتاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى الأول عن الحياة السياسية وما اتصل بها من قيام الدولة العباسية وبناء بغداد وسامرّاء واتخاذهما حاضرتين متعاقبتين ، كما تحدثت عن غلبة الطوابع الإيرانية على نظم الحكم وما ارتبط بها من دواوين ووزراء وتقاليد مختلفة . وقد مضى العلويون يقاومون أبناء عمهم العباسيين سرًّا وجهراً ، بينما ضعف شأن الخوارج ضعفاً شديداً . ويُعتَدّ أبو جعفر المنصور المؤسس الحقيقى لدولة بنى العباس ، ويخلفه المهدى فيقضى على ثورات الخرمية وترتعد فرائص البيزنطيين أمام جيوشه فى غير موقعة . ويعقبه ابنه الهادى لمدة قصيرة . ويتولى مقاليد الخلافة بعده أخوه هرون الرشيد ، وعصره يعد أزهى عصور الخلافة العباسية ، بما شاع فيه من رخاء ، وقد محقت جيوشه الخوارج محقاً وسحقت البيزنطيين سحقًا . ويخلفه ابنه الأمين لسنوات قصيرة ، ويتولى بعده المأمون ، ويقود حركة عقلية واسعة ينتصر فيها للمعتزلة وقولهم بأن القرآن مخلوق ، بينما يقضى قواده على كثير من الثورات ، ويقلم أظافر البيزنطيين مراراً ، ويخلفه أخوه المعتصم فيقضى على ثورة بابك الحرمى ، ويدق أعناق البيزنطيين دقًّا فى عمورية وغير عمورية ، ويعقبه ابنه الواثق ، وبه يُخْتَتَمُ العصر العباسى الأول .

وكانت بغداد وسامرّاء تحفل بالقصور الباذخة وتكتظ بالثراء ، وصبّت سيول منه فى حجور المغنين والشعراء والعلماء ، مما أعدّ لنهضة واسعة فى الفنون والآداب والعلوم ، وشاع الترف فى الملابس والمطاعم والمشارب كما شاعت أدوات مختلفة للترويح عن النفوس ، وكثر الرقيق والجوارى وشُغِفَ الناس بالغناء وبضروب مختلفة من الظَّرْف وتورط كثيرون فى الخمر والمجون . وكان انتصار العنصر الفارسى على العنصر العربى فى الثورة العباسية سبباً فى أن تبرز موجة حادة من الشعوبية ، ورافقتها موجة حادة من الزندقة ، جعلت المهدى ينصب ديواناً لتعقب الزنادقة ومحاكمتهم ، ويبعث العلماء للرد على بُهْتانهم . وتغنّى كثيرون بالزهد ورفض

الدنيا ومتاعها الزائل ، وتعالت أصوات الوعّاظ والقُصّاص وأخذت تظهر مقدمات التصوف .

وقد حدث امتزاج جنسي ولغوي وثقافي واسع بين الشعب العربي والشعوب المستعربة ، إذ امتزجت به في السكنى والتزاوج وفي الأخلاق والعادات ، واتخذت لغته لساناً لها تُتَرْجِمُ به عن ضميرها ومشاعرها وذات نفسها ، وسرعان ما استوعبت تلك اللغة الثقافات التي كانت مبثوثة في هذا المحيط الجديد سواء أكانت هندية أم فارسية أم يونانية أم دينية خالصة . ونشطت الحركة العلمية نشاطاً واسعاً ، فشاع التعليم في الكتاتيب والمساجد وكثر العلماء في كل فن ، وانتشر اقتناء الكتب والمكتبات الخاصة ، وتُرْجمت علوم الأوائل إلى العربية من هندية وفارسية ويونانية ، وأنشأ الرشيد للترجمة داراً كبيرة هي دار الحكمة وألحق بها المأمون مرصداً فلكيًّا ضخماً . وأخذت تُوضَعُ منذ أوائل العصر العلومُ اللغوية : علوم النحو والتصريف والعروض ووُضعَ أول معجم للعربية ، وهو معجم العين المشهور . ونمت المصنفات التاريخية . وصُنّفت في الحديث النبوي كتبٌ جامعة . وكثرت المصنفات في تفسير القرآن الكريم . ووُضعت مذاهب الفقه الأساسية : مذهب أبي حنيفة ومذهب مالك ومذهب الشافعي ومذهب ابن حنبل . وأحكم المتكلمون أصولهم العقيدية وخاصة المعتزلة الذين تعمقوا في المباحث الفلسفية .

وازدهر الشعر ، وحذق الشعراء الموالي لغته ، واستوعبوا مقوّماتها وخصائصها نافذين إلى أسلوب مولّد جديد ، اعتمدوا فيه على الألفاظ الواسطة بين لغة العامة المبتذلة ولغة البدو الجافية ، أسلوب يموج بالجزالة والرصانة حيناً ، وحيناً بالعذوبة والنعومة . واصطبغ شعرهم ومعانيه بحكم رقيهم الفكرى بطوابع عقلية دقيقة ، وقد مكن لها المعتزلة بمباحثهم العميقة وطرقهم في الاستدلال وتوليدات المعاني وتفريعاتها المتشعبة . وظل الشعراء ينظمون في موضوعات الشعر العربي القديمة متطورين بها قليلاً أو كثيراً ، وبذلك حافظوا على شخصيته الموروثة ، مع الوصل بينه وبين حياتهم الاجتماعية والعقلية والحضارية . وقد اضطرم المديح اضطراماً بما صوروا فيه من المثالية الخلقية والبطولات العربية والأحداث الكبيرة ، وبما أضافوا إلى عناصره البدوية القديمة من عناصر حياتهم الحضارية وماكاتهم العقلية . وتطور

الهجاء بما أشاعوا فيه من روح الاستخفاف والسخرية المريرة والفكاهة السامّة . وتحولوا بالفخر القبلي إلى فخر شعوبي محتدم . واتسعوا بالرثاء . فرثوا المدن المنكوبة والحيوان والطير . وتفننوا في الغزل بنوعيه الإباحي والعفيف . وتبذلوا في شعر المجون والخمر . ونظموا كثيراً في الزهد . ونفذوا إلى موضوعات جديدة ، إذ أفردوا قصائد لتصوير بعض المثل الخلقية أو تصوير الرياض ومظاهر الحضارة العباسية أو بكاء البصر والتفجع على فقده أو وصف بعض الغرائز كغريزة الغَيْرة أو وصف حياة الشظف والبؤس والمسغبة أو نظم بعض الفكاهات والنوادر . واستحدثوا فن الشعر التعليمي ونظموا فيه كثيراً من التاريخ والقصص والمعارف والنحل المختلفة . وأكثروا من النظم على الأوزان القصيرة والمجزوءة ونفذوا إلى اكتشاف أوزان المضارع والمقتضب والمتدارك أو الخبب ، وإلى أوزان أخرى لم يستخدمها العرب قبلهم ، غير أنه لم يكتب لها الشيوع لنقص أنغامها بالقياس إلى الأوزان الموروثة . وعرفوا وزناً شعبيًّا هو وزن المواليا . وجددوا تجديداً واسعاً في القوافي ونمط القصيدة ، فاستحدثوا المزدوجات والرباعيات والمسمطات . ونظموا صورة تُعَدّ أمًّا للموشحات مما يدل على أنها ترجع إلى أصول عباسية .

وأعلامُ الشعراء في العصر بشار وأبو نواس وأبو العتاهية ومسلم بن الوليد وأبو تمام ، فأما بشار فكان فارسي الأب رومي الأم ، وكان أكمه ، ووُلد على الرِّقّ ، ونشأ في البصرة نشأة عربية خالصة ، فحذق اللغة وبرع في الشعر ، وكان يجالس المتكلمين وأصحاب المقالات الدينية ، فاضطرب بين هذه المقالات وصار إلى الشك ثم إلى الزندقة ، واستظهر شعوبية آثمة . وهو يُعَدّ زعيم الشعراء المحدثين بما رسم لهم من التمسك بأصول الشعر التقليدية والملاءمة بينها وبين العصر ومجتمعه وحضارته وثقافته . وقد أكثر من الفخر الشعوبي الذميم، وأثّر فَقْده لبصره واضحٌ في غزله فهو في أكثره غزل حسي يصدر فيه عن الغريزة النوعية صدوراً يُزْرِي بمروءة الرجل الحر الكريم مما جعل الوعاظ يذمونه ذمًّا شديداً . وأكثر أيضاً من وصف مجالس الخمر والغناء دون رادع من خلق أو دين إذ كان زنديقاً وقُتل على الزندقة . وكان أبو نواس فارسي الأب والأم ، ونشأ مثل بشار في البصرة ، وتحول عنها إلى الكوفة مع شيطان كبير نفث فيه من غَيِّه ومجونه

وإثمه هو والبة ، ورحل إلى البادية يتزود من ينابيع اللغة الأصيلة وعاد إلى البصرة ولزم مجالس اللغويين والمتكلمين والقصّاص والمحدّثين وعبّ من الثقافات الأجنبية عبًّا . ونزل بغداد وامتدح الرشيد والبرامكة ، ورحل إلى مصر وعاد إلى بغداد فاتصل بالأمين . وشعره يجرى فى اتجاهين : اتجاه تقليدى فى المديح والرثاء واتجاه تجديدى فى الهجاء والغزل والمجون والطّرْديات ، وهو أكثر شعراء عصره مجوناً وإفحاشاً فيه . ومع إكثاره من الجهر بالفسق والمعصية يردد اعتماده على عفو الله ومغفرته ، وهو — غير منازَعٍ — شاعر الخمرية على توالى العصور العربية بما ابتكر فى صورها ومعانيها وما أشاع فيها من حيوية دافقة . أما أبو العتاهية فكان نبطيًّا ونشأ بالكوفة لأب يشتغل بالحجامة ، وكان سيئ السيرة فى صباه إذ انتظم فى سلك المخنَّثين ، وعمل مع أخ له فى بيع الجِرار وصنعها ، واختلف إلى بيئات الرواة واللغويين والعلماء والمتكلمين ، ولم يلبث أن أتقن العربية وبرع فى الشعر فرَحل إلى بغداد ومدح المهدى وتعلق بجارية من جوارى قصره تسمى عُتْبة ونظم فيها غزلا كثيراً ، ومدح ابنيه الهادى والرشيد ، ويقبل على الخمر والمجون مفرطاً فيهما . ويحدث انقلاب فى حياته ، فيتزهد ويلبس الصوف ، ويظل متصلا بالخلفاء والحسن بن سهل وزير المأمون حتّى يبرح دنياه . وأشعاره تمثل حياته وما حدث بها من انقلاب فهو فى جانب منها يمدح ويتغزل ويصف الخمر ، وفى جانب يتزهد وينثر الحكم مع التفنن فى المراثى ، وتشيع فى أساليبه سهولة وليونة مفرطة . وكان يعاصره مسلم بن الوليد ، وهو أيضًا ينتظم فى عِداد الموالى ، وقد نشأ بالكوفة ثم انتقل إلى البصرة ، وأكبّ على الشعر القديم وشعر بشارٍ خاصة ، حتى إذا لمع اسمه بين الشعراء المجيدين رحل إلى بغداد فمدح الرشيد وقواد الدولة ووزراءها وعمّالها وولاّه بأخرةٍ الفضلُ بن سهل وزير المأمون بريدَ جرجان فظلّ بها حتّى وفاته. واشتهر بتجويده لشعره والتدقيق فى معانيه والعناية برصانة اللفظ وجزالته ونصاعته والإكثار من ألوان البديع . وأبو تمام الطائى خاتمة هؤلاء الأعلام ، وقد ولد بجاسم ، وهى قرية من قرى دمشق ، وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، فرحل إلى حمص ، ثم إلى الفسطاط ، وعاد إلى الشام وتردّد بينها وبين الرّقة والموصل ، ثم هبط بغداد ، ورحل عنها إلى خراسان ، ثم عاد إليها ، وتحوّل عنها مع المعتصم إلى « سُرّ من رأى » ولزم بابه وأبواب وزرائه وكبار رجال الدولة ، وظل وثيق الصلة بابنه

الواثق ووزيره ابن الزيات وكاتبه الحسن بن وهب ، وولاّه الأخير بريد الموصل وسرعان ما وافته منيته . وشعره يفيض بثقافات عصره العربية والأجنبية وخاصة الثقافة الفلسفية والكلامية ، واشتهر بأنه صاحب مذهب جديد ، يقوم على التدقيق فى المعانى والأخيلة والتعمق فيها تعمقاً قد يفضى إلى الغموض ، كما يقوم على استخدام ألوان البديع ، حتى لا يكاد يخلو منها بيت من أبياته ، بل حتى لتتوهج فيها توهجاً .

وكثر حينئذ شعراء السياسة والمديح والهجاء ، فكان هناك شعراء الدعوة العباسية الذين ينافحون عن العباسيين زاعمين أنهم أصحاب الخلافة الشرعيون ، ومن أشهرهم أبو دلامة نديم السفاح وغيره من الخلفاء ، ومروان بن أبى حفصة وسلم الخاسر اللذان وجها شعرهما نحو الدفاع عن حق العباسيين فى الخلافة وإنكار حق العلويين فيها والرد عليهم ردّاً عنيفاً . وكان شعراء الشيعة يدافعون بدورهم عن حق العلويين فى الخلافة ، يجهرون بذلك كلما سنحت لهم الفرصة ويُخفونه كلما أشفقوا على أنفسهم من العباسيين ، ومن أشهرهم السيد الحميرى وكان كيسانى العقيدة لا يرى بأساً فى مديح الخلفاء العباسيين ، كما كان لا يخفى حبه للعلويين ،وأكثرَ من تغنيه بمناقب على بن أبى طالب وَذَمّ قاتلى الحسين وثَلْبهم. ومِثْلُه منصور النمرى الشيعى الإمامى ، وكان يمدح العباسيين ويأخذ جوائزهم ويتفجع على قتلى آل البيت وحقوقهم المهدرة فى الخلافة . ومثلهما دعبل ، وكان يعلن تشيعه إعلاناً صريحاً ، وتشكك أبو العلاء المعرى فى صدقه وقال إنه كان يريد التكسب بإعلان تشيعه . وكان ديك الجن مخلصاً فى تشيعه ، غير أن ما أثر من شعره الشيعى قليل . وكان البرامكة بحوراً فياضة ، فنظم الشعراء فيهم كثيراً من المدائح ، وفى مقدمتهم أبان بن عبد الحميد اللاحقى مترجم كليلة ودمنة شعراً ، وأشجع بن عمرو السُّلَمى ، وله قصائد طنانة فيهم وفى انتصارات الرشيد على نقفور إمبراطور بيزنطة . وكان كثير من الوزراء والقواد والولاة يجْزلون العطاء للشعراء ، فدبّجوا مدائح كثيرة فيهم ، على نحو ما يلقانا عند أبى الشيص شاعر عقبة بن جعفر الخزاعى والى الرّقّة بالموصل ، وعبد الله بن أيوب التَّيْمى شاعر يزيد بن مزيد قائد الرشيد ، وعلى بن جبلة شاعر أبى دلف العِجْلى قائد

المأمون ، والخريمى شاعر عثمان بن خُرَيْم المُرِّىّ والى أرمينية . وبرع فى الهجاء شعراء كثيرون من أمثال أبى عيينة المهلبى وكان يُكثر فى هجائه من الإقذاع الشديد ، وعلى شاكلته عبد الصمد بن المعذَّل وكان هجّاءً شكساً حديد اللسان .

وتكاثر شعراء الغزل بنوعيه النقى العفيف والمادى الصريح ، وكان النوع الثانى أكثر شيوعاً لكثرة الجوارى والإماء ، وخير مَنْ يصور النوعَ الأول العباس بن الأحنف الذى عاش يتغنى بالغزل العذرى الطاهر . أما النوع الثانى فخير من يصوره ربيعة الرّقى وغزله يسيل عذوبة . وكان شعراء المجون والزندقة كثيرين كثرة مفرطة لما شاع من فساد الأخلاق وكثرة النحل والمقالات والمذاهب الدينية والفلسفية ومن أشهرهم حماد عجرد، وكان يخالط مجونه بزندقة أُشْربتها روحه . ومنهم مطيع ابن إياس وهو من أكثر الشعراء مجاهرة بالفسق والعصيان . ومنهم صالح بن عبد القدوس ولم يكن ماجناً ، ولكنه كان زنديقاً كبيراً ، إذ كان يعتنق عقيدة الثنوية المانوية مجاهراً بها ، ومجادلا مناظراً إلى أن أمر الرشيد بضرب عنقه، وجمهور شعره أمثال وحكم . وكان غير شاعر يأخذ نفسه بحياة زاهدة ناسكة على نحو ما نجد عند عبد الله بن المبارك ودعوته إلى الجهاد فى سبيل الله وإلى التقوى واجتناب الآثام ، وعند محمد بن كناسة الكوفى وتغنيه طويلا برفض الدنيا ومتاعها الزائل ، وعند محمود الوراق ودعوته إلى طاعة الله والرضا بقضائه والتوكل عليه والقناعة بكفاف العيش مع التفكير الدائم فى الموت والفناء . وشارك المعتزلة فى الشعر وفنونه، وكان منهم من ينظم فى نفس الأغراض التى ينظم فيها الشعراء من حوله مثل العتّابى الذى يروع قارئه بمعانيه الطريفة ، ومثل النظّام الذى يصبغ أشعاره فى الغزل وغير الغزل بصبغة كلامية واضحة . ومنهم من كان ينظم فى حوار أهل الملل والنحل مثل بشر بن المعتمر وكان يكثر من الحديث عن عجائب الله فى خلقه . وصوّر نفر من الشعراء فى أشعارهم النزعات الشعبية صادرين عن روح العامة وأحاسيسها ، وخير من يمثلهم أبو الشمقمق وكان يستخدم فى شعره أحياناً ألفاظ العامة ، مجسماً فقره وبؤسه ومسغبته وأسماله البالية ، وكثيراً ما يعرض ذلك فى صورة فكهة .

وتطور النثر فى هذا العصر وتنوّع وكثرت فنونه بما ملأ أوانيه اللفظية من

الثقافات اليونانية والفارسية والهندية وماستوعبه من صنوف العلوم وذخائر الفلسفة ، وقد انبرى المتكلمون معتزلة وغير معتزلة يبحثون فى الأسس التى تقوم عليها براعة القول وبلاغته ، واقتبسوا كثيراً مما سجلته الأمم القديمة من أصول البيان . وعُنى كتّاب الدواوين هم الآخرون بفصاحة الكلام وبلاغة القول ، مما جعلهم يتحولون بدواوينهم إلى ما يشبه مدارس بيانية كبيرة . وحقًّا ضعف شأن الخطابة السياسية والحفلية ، غير أن الخطابة الدينية وما اتصل بها من وعظ ووعّاظ وقَصص وقُصّاص ازدهرت ازدهاراً عظيماً ، كما ازدهرت المناظرات وخاصة فى بيئة المعتزلة إذ كانوا يكثرون من حوار زعماء الفرق والنِّحَل فى المساجد ومجالس البرامكة ومجالس المأمون ، مثيرين ما لا يُحْصَى من دقائق المعانى وخفيات الأدلة ، وبلغ من إتقانهم للجدل وقدرتهم على الإقناع وإفحام الخصوم أن نفذوا كثيراً — بقصد إظهار المهارة الجدلية — إلى تقبيح الأشياء المستحسنة وتحسين الأشياء المستقبحة ، مما هيأ لظهور كتب المحاسن والمساوى . واتسع نقل الآداب الفارسية وكل ما اتصل بها من عهود ملوك الفرس ووزرائهم ورسائلهم إلى العمال ووصاياهم وتوقيعاتهم ، وكان لذلك أثر بعيد فيما كان يصدر عن الخلفاء والوزراء ويدبّجه الكتاب من رسائل وعهود ووصايا وتوقيعات . وكان الكتّاب يحرصون فى هذا النثر الديوانى الرسمى على بلاغة القول والتفنن فى الأفكار والمعانى ، ويلقانا فى عصر كل خليفة كُتّاب ذاع صيتهم وطارت شهرتهم كل مطار . وازدهرت حينئذ الرسائل الإخوانية ، إذ تناول كثير من الكتاب الأغراض التى كان ينظم فيها الشعراء من ثناء وشكر وهجاء وذم وعتاب واعتذار واستعطاف وتهنئة وتعزية ، وأخذوا يحبّرون فيها رسائل شخصية مفتنّين فى أساليبها البيانية وما يصوّرون بها من عواطفهم وأهوائهم . ونفذ نفر منهم إلى كتابة رسائل أدبية طريفة تتناول النفس الإنسانية وعواطفها وسلوكها وحياتها العاملة وما يهديها سبيل الرشاد . وأخذ بعض الكتّاب البارعين يحاكون ما نقله ابن المقفع وغيره إلى العربية من القصص الحيوانى والرسائل السياسية الفارسية .

وأعلام الكتاب فى العصر ابن المقفع وسهل بن هرون وأحمد بن يوسف وعمرو بن مسعدة وابن الزيات . أما ابن المقفع فكان فارسى الأصل ونشأ بالبصرة

فى ولاء آل الأهتم ، وهم بيت فصاحة وخطابة ، فحذق العربية ،وعمل فى دواوين العراق آخر زمن بنى أمية ، ثم فى دواوين سليمان بن على وعيسى بن على عمى المنصور ، وكان لا يزال مجوسيًّا فأسلم على يد الأخير . وأغرَى به المنصور سفيان بن معاوية والى البصرة ، فقتله . وقد اشتهر بترجمته عن لغته بعض كتب الأدب الفارسى وكتاب كليلة ودمنة الهندى الأصل وبعض منطق أرسطاليس . وكان آية فى البلاغة وحسن الأداء وفصاحته . على نحو ما يتضح فى الأدب الصغير والأدب الكبير وكتاب اليتيمة ورسالة الصحابة ، وهى جميعاً تفيض بالوصايا السياسية والاجتماعية والخلقية . وتُعَدّ ترجمته لكليلة ودمنة من روائعه الفذة . وله رسائل إخوانية وأدبية بديعة . وكان سهل بن هرون مثله فارسى الأصل ، وعكف على الآداب الأجنبية ، وشارك فى الترجمة عن لغته الأصلية ، ويقال إنه كانت فيه نزعة شعوبية . وكان فيه ميل إلى التندر، ووظّفه الرشيد بخزانة الحكمة التى أنشأها ، وقرّبه المأمون وجعله خازناً لبعض أقسامها . وكان من أفراد عصره فى البلاغة والبيان وصحة المنطق ، وعُنِى بتأليف قَصَص حيوانى على شاكلة كليلة ودمنة ، وهو يملؤه بالتربية السياسية والاجتماعية والحكم والأمثال على شاكلة كتابه « النمر والثعلب » . ومن رسائله الأدبية الطريفة رسالته فى الاحتجاج للبخل . ورسالته الأخرى فى نصرة الزجاج على الذهب . وله رسائل شخصية بديعة . ومن أهم ما يميزه عنايته بدقة معانيه وتوفير الازدواج والجمال الصوتى لألفاظه وأساليبه . أما أحمد بن يوسف فكان من بيت كتابة ، إذ كان أبوه يوسف بن صبيح ممن ذاع صيتهم فى دواوين القرن الثانى ، وقد عُنِى بتأديب ابنه وإعداده للعمل فى الدواوين . وسرعان ما استخلصه الفضل بن سهل للمأمون ، فجعله على ديوان الرسائل ، ثم اختاره وزيراً له ، وظل على وزارته حتى توفى . وكان واحد زمانه فى الكتابة الديوانية ، ومن أروع رسائله السياسية رسالة الخميس التى كتبها فى تأييد الدعوة العباسية ، وثقافته الكلامية واضحة فى تحميدها إذ تحول به إلى مايشبه مبحثاً كلاميًّا فى الدلالة على وجود الله ووحدانيته وحدوث الخلق وفناء العالم . وله رسائل شخصية يتضح فيها ما يتضح فى رسائله الديوانية من تأنق التعبير . حتى ليمكن أن يقال إنه هو الذى أعدّ فى قوة لأن يشيع فى النثر الديوانى الرسمى أسلوبُ الازدواج والترادف الصوتى وما يجرى فيه أحياناً من السجع . وكان عمرو بن مسعدة مثله من بيت كتابة ،

إذ كان أبوه مسعدة يلى ديوان الرسائل للمنصور ، وقد أحكم تأديبه وتثقيفه ، وتلقفه جعفر بن يحيى البرمكى ، فاتخذه كاتباً للتوقيع بين يديه ، وغرس فيه شغَفه بالإيجاز والتأنق فى التعبير، حتى أصبح ذلك جزءاً لا يتجزأ من جوهر نفسه . والتحق بدواوين المأمون ، حتى إذا رفع أحمد بن يوسف إلى الوزارة أقامه مقامه على ديوان الرسائل وظل يليه إلى وفاته . وتتميز كتابته الديوانية بالاقتصاد المسرف حتى كان يُضْرَبُ به المثل فى الإيجاز ، وهو يضيف إليه ميلا شديداً إلى التأنق والتنميق . وكان ابن الزيات من بيت تجارة ، غير أنه نشأ محبًّا للأدب ، فأقبل على التزود بعلوم اللغة وكنوز الآداب الأجنبية والعربية ، حتى برع فى الشعر والكتابة جميعاً ، وسرعان ما التحق بدواوين المأمون ، وما زال نجمه فى صعود ، حتى استوزره المعتصم ، وظل وزيراً فى عهد ابنيه الواثق والمتوكل إلى أن نكبه الأخير نكبته المشهورة . وكان لسناً بليغاً ولم يكن يصدر فى بلاغته ولسنه عن تكلف ، وإنما كان يصدر عن طبع مهذب دون قصد إلى التأنق المسرف أو التنميق المفرط ، وكان يحرص دائماً على فصاحة اللفظ وحسن الأداء مع الجزالة والنَّصَاعة .

فهرس الموضوعات

تاريخ
الأدب
العربى
٤

دكتور شوقى ضيف

العصر العبّاسىّ الثانى

دار المعارف بمصر

تاريخ
الأدب العربى
٤

العصر العباسى الثانى

تأليف
الدكتور شوقى ضيف

الطبعة الثانية

دار المعارف بمصر

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. م. ع.

العصر العبّاسيّ الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا الجزء الرابع من تاريخ الأدب العربى خاصٌ بالعصر العباسى الثانى، وقد تناولتُ فيه الحياة السياسية وما حدث فيها من تحوُّل مقاليد الحكم من أيدى الفُرْس إلى أيدى التُرْك . ولم يكونوا أصحاب ثقافة ولا حضارة ، ولا كان لهم معرفةٌ بإدارة ولا بنظم سياسية، ففسدت الأداة الحكومية فساداً شديداً . وكانت هناك طبقةٌ تغْرق فى الترف والنعيم ، وكان جمهور الشعب يعيش فى الضَّنْك والبُؤْس . وظلت الحياة العقلية مزدهرةً بما نُقل — وما كان يُنْقَلُ — من الثقافات الأجنبية . مما هيَّأ لظهور فلاسفة عِظام وعلماء بارعين فى جميع العلوم اللغوية والبلاغية والنقدية والتاريخية والإسلامية والكلامية .

وصوَّرتُ نشاط الشعر حينئذ وكيف تمثَّل الشعراء خصائص العربية ودقائقها الجمالية والموسيقية تمثلا تامًّا ، وكيف أودعوا أشعارهم ذخائر فكرية غزيرة ، مما جعلهم يجدّدون فى الموضوعات القديمة والأخرى المُستحدَثة فى العصر العباسى الأول صُوَراً مختلفة من التجديد ، تَحفِلُ بما لا يكاد يُحصَى أو يُستقصَى من الأفكار المبتكرة والأخيلة المُبتَدعة . وظلوا يَنمُّونَ الشعر التعليمى وينظمون فيه التاريخ وغير التاريخ من صنوف المعرفة .

وبحثتُ بحثًا تحليليًّا تاريخيًّا أعلام الشعراء فى العصر ، وهم على بن الجَهْم والبُحتُرِىّ وابن الرومى وابن المُعتز والصَّنَوْبَرِىّ، أما ابن الجَهْم فكان داعيةً للمتوكل يصيح مهللا مع كل عمل له ، وأروعُ أشعاره ما نظمه فى الاستعطاف وفى تصوير صلابة نفسه حين ادلهمَّت له الخطوب ونزلت به الكوارث . وكان البُحتُرِىُّ الشاعرَ الرسمىَّ فى بلاط الخلفاء من زمن المتوكل إلى زمن المعتمد ، وأشعاره تمثل النزعة المحافظة التى سادت حينئذ فى الشعر ونقده وتذوقه ، مع ما سَخَّر

له فيها من تلاوين الجمال الموسيقى الآسر وأنغامه وألحانه الرائعة ، ومع مهارته فى وصف المعارك البَحْرية ومظاهر الحضارة والعُمْران . وكان يقابله ابن الرومى ممثل النزعة التجديدية فى الشعر وموضوعاته وأساليبه ومعانيه ، وقد نفذ بعبقريته النادرة إلى لون جديد من شعر الطبيعة الرائع ولون جديد آخر من الهجاء الساخر ، غير أفكار وخواطر وتصويرات لم تخطر لمعاصريه ولا لسابقيه على بال . وتبرز حياة ابن المعتز وبيئته المترفة ومأساة أبيه وجده فى أشعاره ، وهى تزخر بالصور والأخيلة . وكان الصنوبرى يُعْنَى بصنعته الشعرية ، وهو من شعراء الطبيعة ، ويُعَدّ أول ناظم للثلجيات فى العربية .

وعرضتُ لكثيرين وراء هؤلاء الأعلام ، ووزّعتهم على طوائفَ متقابلة ، فشعراءُ للسياسة مع الخلفاء العباسيين أو مع الشيعة أو مع بعض الثوّار ، وشعراء لبعض الوزراء والولاة والقواد ، وشعراء هجاء عادىّ أو مرير ، وشعراء غزل عفيف أو مادّىّ صريح . وشعراء لهو ومجون ، وشعراء زهد وتصوف ، وشعراء شعبيون . وحاولتُ أن أتحدث فى كل طائفة عن خير من يمثّلونها ، مع تصوير موجز لشخصياتهم الأدبية .

ومضيتُ أبحث النثر والتحامَ الفلسفة فيه بالعبارة الأدبية مصوّراً كيف تعاونتْ بيئاتٌ مختلفة فى وَضْع مقاييسه البلاغية ، وكانت الخطابة قد ضعفت ، ولكن الوعظ نشط نشاطًا واسعًا ، وتحوّل من مواعظ زُهْدية إلى مواعظ صوفيّة ، وأخذ ينشأ نثر صوفىّ شَعْبِىّ يعتمد على القَصَص والحكاية بأسلوب بسيط تفهمه العامّة . وتكثر المناظرات فى جميع البيئات العلمية ، وتصبح من طوابع الكتابات الأدبية . وتُجمْمَعُ أقاصيص كثيرة عربية وغير عربية فى صور متقابلة من القَدْح والمَدْح . وتظل الرسائل الديوانية مزدهرة بفضل كُتّابها النابهين . وتنشط الرسائل الإخوانية ، ويساعد ضيقُ رُقْعتها على أن يتكاثر فيها التأنق والتنميق . ويكتب ابن المعتز رسالةً أدبية يملؤها بسجع كثير . ولا نصل إلى عصر الخليفة المقتدر حتى يصبح السجع اللغة العامة للنثر الأدبى جميعه .

وبحثتُ أعلام الكتّاب حينئذ ، وهم إبراهيم بن العباس الصُّولىّ ، والجاحظ ، وابن قتيبة ، وسعيد بن حُمَيْد ، وأبو العباس بن ثَوابة . وكان الصولى أول رئيس

لديوان الرسائل فى العصر ، وعنه كانت تَصْدر الكتابات الديوانية من منشورات وغير منشورات ، وهو يُعْنَى بدقة ألفاظه واصطفاء كلماته وحُسْن جَرْسها فى الأداء . والجاحظ أكبر كتَّاب العصر غير منازع ، وكتاباته مرآة صافيةٌ لعصره بجميع طبقاته ، مع ما يَسْرى فيها من الاستطراد ومن روح الدعابة ، ومع ما تموج به من أسلوب الازدواج الرائع . وقد عرضت خمسة ألوان من فنه النَّثْرى، هى المناظرة ، والرسائل الإخوانية ، والرسائل الأدبية ، والقَصص ، والنوادر . وابن قتيبة أكبر مؤلف أدبى بعده ، وهو يمزج فى كتابه : « عيون الأخبار» بين الثقافات العربية والإسلامية والفارسية والهندية واليونانية وكذلك ثقافة أهل الكتاب . وبذلك ألغى الحواجز بين تلك الثقافات مثبتًا أنها أقواس وهمية ، فقد استحالت جميعها فى كتابه ثقافة عربية ، ولم يَعُدْ يرتفع صوت للشعوبية . ويتشبَّه ابن قتيبة كثيراً بالجاحظ فى تمسكه بالواقع ومَزْج الهزل بالجِدّ وفى استخدامه لأسلوب الازدواج من حين إلى حين . وما زال سعيد بن حُمَيْد يترَقَّى فى الدواوين ، حتى أُسْنِد له ديوان الرسائل ، وكان يُعْنَى بالتدقيق فى ألفاظه ومعانيه ، نافذاً من خلال حِيَل عقلية كثيرة إلى أفكار مبتكرة طريفة ، مع تقطيعات صوتية تُضْفِى على أسلوبه جمالا . ويَلْمَعُ اسم أبى العباس بن ثَوابة ، وكان بدوره من رؤساء ديوان الرسائل ، وكان يكثر من التأنق والتكلف فى كتابته ، مما جعله يَسْتخدم فيها أحياناً السجع ، مع العناية بالتصوير ، ومع وزن الكلام بمعيار بيانىٍّ دقيق . والله وَلِىُّ الهُدَى والتَّوْفيق .

القاهرة فى أول مايو سنة ١٩٧٣م .

شوقى ضيف

الفصل الأول

الحياة السياسية

١

استيلاء الترك على مقاليد الحكم

مرّ بنا فى العصر العباسى الأول كيف هيّأ العباسيون لقيام دولتهم عن طريق الدعوة السريّة لإمام هاشمى يخلّص الموالى فُرْسًا وغير فرس من حكم بنى أمية الجائر، محققًا لهم المساواة المشروعة – بحكم الإسلام – بينهم وبين العرب فى جميع الحقوق الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. وسرعان ما أقبلت الجيوش الخراسانية مكتسحة كل ما لقيها من مقاومة للدولة الأموية حتّى قضت عليها قضاء مبرمًا. وأعلن العباسيون أنهم أصحاب الحق الشرعى فى الحكم والخلافة، وبذلك استأثروا بها من دون أبناء عمهم العلويين، مما جعل كثيرين منهم يثورون عليهم طوال العصر، كما جعل أنصارهم يدعون لبيتهم العلوى سرًّا كلما وجدوا إلى ذلك سبيلا، فى حين مضى العباسيون يعلنون أنهم أصحاب حق إلهى فى الحكم والسلطان وتمادوا فى حكم استبدادى أشد ما يكون الاستبداد محيطين أنفسهم بكثيرين من الحجّاب، أما الشعب فلم يزد فى رأيهم عن أن يكون أدواتٍ مسخرةً لجمع الخراج والضرائب الفادحة، مما دفع لقيام ثورات إيرانية مختلفة، على نحو ما صورنا ذلك فى كتاب العصر العباسى الأول. وحقًّا كانت أعلى المناصب وأكثرها فى أيدى الفرس، وكان منهم أكثر الوزراء والقواد، غير أن العباسيين نكبوهم نكبات متوالية، على نحو ما هو معروف عن نكبة البرامكة ونكبة بنى سهل. ونشب من جرّاء ذلك عداء شديد بين الفرس والعرب، فالعرب يريدون استرداد مجدهم فى العصر الأموى والفرس لا يكتفون بما لهم من مجد حادث فى الدولة، وكأنهم يريدون أن يستعيدوا مجد دولتهم الساسانية القديمة ويمحقوا العرب محقًا، مما أعدّ

لظهور تيار شعوبى بغيض رافقه تيار إلحاد وزندقة لا يقلّ عنه عُنْفًا ولا محاولة لهدم الإسلام والعروبة جميعًا . وفى أثناء ذلك كانت الثورات مضطرمة فى شرقى الدولة ، وكلما خمدت ثورة اندلعت أخرى ، وكان آخرها اندلاعًا ثورة بابك الخُرَّمى فى آذربيجان التى ظلت نحو عشرين عامًا والتى كلفت الدولة كثيراً من الجيوش إلى أن سَحَقَها المعتصم وقواده سَحْقًا .

وقد أخذ المعتصم حينئذ يفكر فى عنصر جديد يعتمد عليه فى حروبه سوى الفرس ، فثوراتهم لا تنقطع ، وأمانيهم فى إحياء مجدهم القومى لا تخمد ، واستظهارهم للشعوبية والزندقة لا تهدأ فورته ، وهداه تفكيره إلى الاعتماد على عنصر من الرقيق اشتهر لعصره بالصبر تحت ظلال الرماح ، مع حذقه بالرمى يمنة ويسرة ومقبلا ومدبراً ، وهو الرقيق التركى الذى كثر توافده على بغداد والعراق ، فأخذ يستكثر من شرائه وطلبه من سمرقند وفَرْغانة وأشْروسنة إلى أن بلغت عدّته ثمانية عشر ألفًا[1] ، وكل يوم يزيد ، حتى ضاقت به بغداد وشوارعها . وكان جمهور هذا الرقيق بدواً جُفاة فكانوا يركبون الخيل ويركضونها فى الشوارع فتطأ بعض الشيوخ والأطفال والنساء ، مما اضطر المعتصم أن يبنى لهم مدينة سامراء[2] شمالى بغداد ، وانتقل معهم إليها ، وظلت حاضرة للخلفاء حتى أواخر عهد المعتمد سنة ٢٧٦ للهجرة .

وكان ذلك تحولا خطيراً فى تاريخ الدولة العباسية ، فقد كانت تعتمد كل الاعتماد على الفرس وكانوا أصحاب مدنية وحضارة فبثّوهما فى الحياة العربية ، وأعدّوا لنهضة حضارية واسعة تستقى منهم ومن موارد الإسلام والعروبة ومن الثقافات الأجنبية المختلفة ، وخاصة الثقافتين اليونانية والفارسية . أما الترك فلم يكونوا أصحاب ثقافة ولا مدنية ولا حضارة ، إذ كانوا بدواً لا يعرفون الصناعة ولا الزراعة ولا التجارة ولا الفنون ولا الآداب ولا قواعد الملك والسياسة ، إنما هم سكان صحار وقفار وحرب وجلاد وبأس ومراس ، وقد صورهم الجاحظ تصويراً دقيقًا فى رسالته التى

---

(١) النجوم الزاهرة ٢ /٢٣٣ .

(٢) انظر فى تخطيط سامراء والسبب فى بنائها كتاب البلدان لليعقوبى ومعجم البلدان لياقوت وسامراء فى دائرة المعارف الإسلامية وبلدان الخلافة الشرقية تاليف لسترانج وترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد .

تحدث فيها عن مناقبهم قائلا : « الترك أصحاب عَمَد (خيام) وسكان فياف وأرباب مواشٍ ، وهم أعراب العجم . . . فحين لم تشغلهم الصناعات والتجارات والطب والفلاحة والهندسة ، ولا غرْس ولا بنيان ولا شق أنهار ولا جباية غلات ، ولم يكن همهم غير الغزو والغارة والصيد وركوب الخيل ومقارعة الأبطال وطلب الغنائم وتدويخ البلدان ، وكانت هممهم إلى ذلك مصروفة ، وكانت لهذه المعانى والأسباب مسخرة ومقصورة عليها وموصولة بها ، أحكموا ذلك الأمر بأسره وأتوا على آخره ، وصار ذلك هو صناعتهم وتجارتهم ولذتهم وفخرهم وحديثهم وسمرهم ، فلما كانوا كذلك صاروا فى الحرب كاليونانيين فى الحكمة وأهل الصين فى الصناعات... وكآل ساسان فى الملك والرياسة » .

وهؤلاء البدو الموغلون فى البداوة الذين لم يُعرَفوا بحضارة ولا ثقافة ولا عُرفوا بزراعة ولا صناعة ولا تجارة ولا بسلطان ولا بسياسة سرعان ما قبضوا على زمام الحكم ، والمعتصم هو الذى هيأ لهم ذلك لا بجعلهم جُنْدَ الخلافة العباسية فحسب ، بل أيضًا باتخاذه لهم مدينةً خاصة وجعلها عاصمة الدولة ، فأتاح لهم الفرصة كى يُخلّى بينهم فى المستقبل وبين الخلفاء ، فيصبحوا مسخَّرين بأيديهم يصرِّفونهم كما يشاءون . وليس ذلك كل ما صنع فقد ولَّى كبيرهم « إشناس » مصر وجعل له الحق فى أن يولِّى عليها ولاة من قِبَله ، فكان يُدْعَى له فيها على المنابر [١] . وبذلك فتح المعتصم الباب لقواد الترك كى يمسكوا بزمام الشئون الإدارية بجانب ما أمسكوا به من زمام الشئون العسكرية . وخلفه ابنه الواثق فزاد الطين بِلَّةً إذ ولَّى إشناس من بابه فى بغداد إلى آخر أعمال المغرب ، جاعلا له أمر كل هذه البلدان يولِّى عليها من شاء بدون مراجعته ، واستخلفه على السلطنة وألبسه وشاحين بجوهر [٢] . وليس ذلك فحسب ما أسبغه على الترك ، فقد ولَّى على الجانب الشرقى للدولة من كُوَر دجلة حتى خراسان والسند « إيتاخ » [٣] حتى إذا توفِّى إشناس سنة ٢٣٠ منحه مرتبته وأكثر أعماله [٤] . ولم يقف تجنِّى الواثق على الخلفاء من بعده عند هذا الحد ، فقد ارتكب خطأ خطيراً فى حقهم بانصرافه عن اتخاذ ولى عهد بعده للخلافة ، وسرعان

(١) النجوم الزاهرة ٢ /٢٢٩ .

(٢) اليعقوبى (طبعة النجف) ٣/٢٠٥ والنجوم الزاهرة ٢/٢٥٢ .

(٣) اليعقوبى ٣/٢٠٥ .

(٤) اليعقوبى ٣/٢٠٦ .

ما استغلّ قوادُ الترك : إيتاخُ وصاحباه وصيف وبُغا الكبير هذه الفرصةَ حين توفى سنة ٢٣٢ للهجرة ، إذ حملوا رجال الدولة على البيعة للمتوكل ، وكان ذلك نذير شؤم إذ أصبحت تولية الخلفاء فيما بعد بيد الترك ، وعما قليل سيصبح عزلهم — كما سنرى — بأيديهم ، وبذلك يتحول إليهم السلطان جميعه ، ونصبح منذ خلافة المتوكل بإزاء عصر جديد هو العصر العباسى الثانى .

ويبدو أن المتوكل تنبّه — منذ استيلائه على الحكم — إلى خطورة ازدياد النفوذ التركى ، مما دفعه إلى التخلص سريعاً من إيتاخ ، وكان قد صار إليه أمر الجيش والأتراك والمغاربة والموالى وديوان الخبر أو البريد والحجابة والقيام على دار الخلافة ، وكأنه نائب للخليفة ، بل لكأنما أصبح الخليفةُ ولا سلطان له ، مما جعل المتوكل يوحى إلى بعض أوليائه أن يشيروا على إيتاخ بالاستئذان للحج ، وما إن خرج من سامراء وأبعد فى الطريق إلى مكة حتى عزله المتوكل عن الحجابة وولاها وصيفاً التركى [1]. وهى سياسة سيتّبعها الخلفاء بعد المتوكل أن يضربوا قواد الأتراك بعضهم ببعض. وعاد إيتاخ من الحج ودخل بغداد فقبض عليه حاكمها بأمر من المتوكل وأودعه غياهب السجون مقيداً بالحديد إلى أن توفى لسنة ٢٣٥ . ولكن المتوكل لم يسدّد للترك ضربة قاضية ، بل أخذ يراوغهم ، مما جعله يضيف بُغا الكبير إلى وصيف فى الحجابة . وتتوالى السنوات وهو ضيّقٌ بقادة الترك ويفكر فى التخلص منهم جميعاً ويهديه تفكيره فى سنة ٢٤٣ أن يترك سامرّاء ويتخذ دمشق حاضرة له ، حتى يصبح بمنأى عن الترك وشرورهم ، ويَشْخَصُ إليها فى ذى القعدة ، ويبدو أن فكرته ذاعت فى الناس مما جعل يزيد بن محمد المهلبى ينشد من قصيدة طويلة [2] :

أظنّ الشام تَشْمت بالعراقِ إذا عزم الإمامُ على انطلاقِ
فإن تَدَعِ العراقَ وساكنيها فقد تُبْلَى المليحةُ بالطلاقِ

ودخل المتوكل دمشق فى صفر لسنة ٢٤٤ عازماً على المقام بها ونقل دواوين الخلافة إليها ، وأمر أن يُبْنَى له بها بعض القصور . غير أن الترك فطنوا لمأربه ، وأنه يريد الإطاحة بهم فطالبوا برواتبهم ، وهو سيف سيظلون يشهرونه على الخلفاء

(١) تاريخ الطبرى (طبع دار المعارف) ١٦٧/٩ وما بعدها .
(٢) الطبرى ٢٠٩/٩ .

كلما أرادوا منهم أمراً أو أرادوا لهم عزلا ، واضطر المتوكل أن ينزل على إرادتهم وأن يبرح دمشق بعد نحو شهرين[١] . وعاودته الفكرة ، ولكن لا بعيداً ، بل قريباً ، شمالى سامراء ، إذ فكر فى انتقاله إلى الماحوزة على بعد ثلاثة فراسخ منها وأقطع القواد وحواشيه فيها ، وسماها « الجعفرية » ، وبنى لنفسه فيها قصره «الجعفرى» وقصراً سماه « لؤلؤة » وقصوراً أخرى . وفى أثناء ذلك أخذ يجفو الترك ويجيل الآراء فى استئصالهم والاستبدال بهم ، وكان أول ما صنعه من ذلك أن ضمّ إلى وزيره عبيد الله بن يحيى بن خاقان اثنى عشر ألفاً من العرب[٢] ، وكأنه يريد أن يعيد العرب إلى الجيش وقيادته . وترامت شائعات بأنه يريد أن يفتك بحاجبيه وصيف وبُغا الكبير وغيرهما من قواد الترك ، فصمّموا على مبادرته ، وكانت الأمور قد ساءت بينه وبين ابنه المنتصر ولى عهده ، فوضع يده فى أيديهم ، وعزموا على قتله والتخلص منه ، وأعدّوا لذلك نفراً من أصاغر الترك . منهم بُغا الشرابى وباغر وموسى بن بُغا الكبير فدخلوا عليه هو ووزيره الفتح بن خاقان فى ليلة من ليالى شوال سنة ٢٤٧ للهجرة ، وقتلوهما غير مراعين فيهما عهداً ولا ذمّة[٣] . ومن حينئذ أصبح للترك كل شىء فى الدولة ولم يعد للخلفاء شىء ، وفى ذلك يقول ابن الطقطقى : « استولى الأتراك منذ قتل المتوكل على المملكة ، واستضعفوا الخلفاء ، فكان الخليفة فى يدهم كالأسير ، إن شاءوا أبقوه ، وإن شاءوا خلعوه ، وإن شاءوا قتلوه »[٤] .

واعتلى المنتصر عرش الخلافة بأيدى قتلة أبيه من الترك ، بايعوه ثم أخذوا له البيعة من الناس ، ولم يلبثوا أن حضّوه على خَلْع أخويه المعتز والمؤيد من ولاية العهد بعده ، وكان المتوكل أبرمها لهما مع المنتصر ، فخشى الترك أن يخلفه أحدهما فيبطش بهم ثأراً لأبيه ، وتمّ خلعهما . وتوفّى المنتصر بعد ستة أشهر من خلافته لسنة ٢٤٨ فاجتمع بُغا الكبير وبُغا الصغير وأوتامش ابن أخت بغا الكبير ، وكانوا قد أخذوا المواثيق على مَنْ سواهم من قواد الترك والمغاربة والأشروسنيّة على

---

(١) مروج الذهب للمسعودى (طبعة دار الأندلس) ٤/٣٢ والطبرى ٩/٢١٠ .

(٢) التنبيه والإشراف للمسعودى (طبعة أوربا) ص ٣٦١ .

(٣) طبرى ٩/٢٢٥ .

(٤) الفخرى فى الآداب السلطانية (طبع المطبعة الرحمانية بمصر) ص ١٨١ .

أن يرتضوا من يرضونه للخلافة ، واختاروا أحمد بن محمد بن المعتصم ولقبوه بالمستعين ، وبايعوه وبايعه الناس . وتُوفِّى بُغا الكبير وأصبح أوتامش المتصرف الأول فى شئون الدولة ، وأخذ يختزن أموالها هو وشاهك وأم المستعين ، فكل ما يرد من الآفاق يصير إلى الثلاثة ، ووصيف وبُغا الشرابى الصغير بمعزل من ذلك مما أثار حفيظتهما على أوتامش وجعلهما يغريان به القواد الآخرين حتى ثاروا عليه وسفكوا دمه وانتهبوا داره[1]. واستدارا إلى باغر قاتل المتوكل، وكان شره قد تعاظم فى قصر الخلافة فقتلوه بدوره . وسئم المستعين حركات الترك ودسائسهم ، فرأى النزول إلى بغداد والاستقرار بها ، وجزعوا لصنيعه ، فأرسلوا إليه وفداً يسترضيه سنة ٢٥١ ، ولكنه رفض العودة إلى سامراء ، فخلعوه ، وبايعوا المعتز بالله ولى العهد القديم للمتوكل بعد المنتصر ، فكان هناك خليفة مولَّى بسامراء وخليفة معزول ببغداد، هو المستعين ، ونشبت الحرب بينهم وبينه ، وحاصروا بغداد ، وما زالوا به حتى خلع نفسه من الخلافة وانحدروا به إلى « واسط » وهناك تم تدبير قتله[2]. وبذلك أصبحت الخلافة خالصة للمعتز سنة ٢٥٢ وسمع بأن نفراً من الترك يراودون أخاه المؤيد على تولى الخلافة وعزله ، فسجنه ثم فتك به . وأخذ يحاول الفتك بقواد الترك مستثيراً ضدهم المغاربة والفراغنة ، وفتك بوصيف وبُغا الشرابى الصغير قاتل أبيه ، يقول المسعودى: « ولما رأى الأتراك إقدام المعتز على قتل رؤسائهم وإعماله الحيلة فى إفنائهم وأنه قد اصطنع المغاربة والفراغنة صاروا إليه بأجمعهم لأربع بقين من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين وجعلوا يقرّعونه بذنوبه ويوبّخونه على أفعاله وطالبوه بالأموال (رواتبهم) وكان المدبر لذلك صالح بن وصيف مع قواد الأتراك[3] . وأرسلوا تـوًّا إلى بغداد فى طلب محمد بن الواثق ، وأمروا المعتز بأن يخلع نفسه من الخلافة وصدع بأمرهم ، وبايعوا محمداً ولقبوه بالمهتدى ، وسجنوا المعتز ثم قتلوه سريعًا . وحاول المهتدى أن يسير سيرة عمر بن عبد العزيز فى العدل ورفع المظالم والاقتصاد فى النفقات ، ويقال إنه أمر بإخراج آنية الذهب والفضة من الخزائن فكُسرت وضُربت دنانير ودراهم ، وقرَّب العلماء ورفع منازل الفقهاء وحرَّم الشراب ونهى عن القيان فثقلت وطأته على الخاصة والعامة . وكان قد مضى مثل ابن عمه المعتز يفتك برؤساء الأتراك وقادتهم

---

(١) طبرى ٢٦٣/٩ .

(٢) طبرى ٣٤٨/٩ ومروج الذهب ٧٧/٤ .

(٣) مروج الذهب ٩٣/٤ .

وفى مقدمتهم صالح بن وصيف وبايكباك أحد زعمائهم ، فقتلوه فى رجب[١] سنة ٢٥٦ .

ويتولى الخلافة المعتمد أحمد بن المتوكل ، يبايعه الترك ثم تبايعه العامة ، وكانت ثورة الزنج قد نشبت فى عصر المهتدى ، وعبثاً استطاع قواد الترك أن يُجهِزوا عليها ، إذ استفحل شرها وتفاقم ، فضعف شأنهم من جهة ، وشُغلوا من جهة ثانية عن لعبهم المعتاد بالخلفاء ، وخلْعهم وسفْك دمائهم . ويُتاح للمعتمد ودولته قائد عظيم من أهل بيته هو أخوه أبو أحمد طلحة الملقب بالموفق فيقود بنفسه المعارك مع الزنج ومع مَن ثاروا بإيران ويُكتَب له الظفر والقضاء على الزنج قضاء مبرماً ، وبذلك يرد إلى الخلافة العباسية هيبتها ، ويحْنى الترك رءوسهم لها ولا نعود نسمع بفتنة حُجَّاب الخليفة عليه وتدبيرهم لخلعه ، وكانوا حينئذ يارجوخ وكيغلغ وبكتمر بن طاشتمر ، وقد ظلوا جميعاً يصدعون لأوامره وأوامر أخيه الموفق حتى توفيا جميعاً ، وبويع من بعده لسنة ٢٧٩ ابنُ أخيه الموفق أبو العباس أحمد واُلقّب بالمعتضد ، وكان قد أبلى مع أبيه فى حرب الزنج وغيرها من الحروب بلاء حسناً فهابه الترك وقوادهم ، ونراه فى سنة ٢٨٢ يقبض على كبيرهم بكتمر بن طاشتمر ويسجنه ويصادر أمواله وضياعه ولا يحركون ساكناً رهبة منه وهيبة له[٢] ، وظلوا من بعده خانعين لابنه المكتفى الذى ولى الخلافة سنة ٢٨٩ غير أنه اقترف خطأ فاحشاً إذ ارتضى أخاه المقتدر وهو صبى ولياً للعهد من بعده ، وكان حرياً به أن يجعل ولاية العهد فى شخص حصيف من أهل بيته يستطيع أن يقف الترك وقادتهم عند حد من السلطان لا يتجاوزونه . وتوفى سنة ٢٩٥ فخلفه المقتدر وهو فى الثالثة عشرة من عمره ، وعظم كلام الناس فيه ، وقالوا كيف يلى الخلافة من لم يبلغ الحلم ، وأجمع أمرهم على أن يتولاها عبد الله بن المعتز ، وأخذ له البيعة على الناس محمد بن داود ابن الجراح الفقيه والأديب المشهور ، وبايعه القضاة والعدول ، وتلقب بالمنتصف وقيل بالراضى وقيل بالقائم بالحق وتقلد ابن الجراح الوزارة ولكن الأمر لم يدم له أكثر من يوم وليلة ، إذ ثار الترك عليه يتقدمهم كبيرهم مؤنس ، وأُخذ عنوةً وقُتل ، وتفجّع عليه كثير من الشعراء . أما ابن الجراح فاستتر مدة ثم انكشف أمره ،

(١) طبرى ٤٥٦/٩ ومروج الذهب ٩٦/٤ . (٢) طبرى ٤٠/١٠ .

وقُتل بدوره ، وعادت الخلافة إلى المقتدر[١] ، وعاد الترك إلى نفوذهم القديم قبل المعتمد وأخيه الموفق . وزاد الأمور سوءاً أن أم المقتدر « شغب » وهى أم ولد رومية شركت مؤنساً فى تصريف شئون الحكم والسياسة ، فكانت الوزارة لا تُسْنَدُ إلى شخص فى عام حتى ينحىَّ عنها فى عام قابل ، ودارت الأيام ، فإذا مؤنس يسخط على المقتدر وتعود مع السخط قصة رواتب الجند ، ويتفاقم الأمر بينهما فى سنة ٣١٧ ويُعْزَلُ الخليفة ويولَّى أخوه محمد ويلقب بلقب القاهر بالله ، ويُرْتَقُ الفتق بين مؤنس والمقتدر فيعيده إلى الخلافة ويجدَّد له البيعة [٢] . وما تلبث السماء أن تكفهرّ ، فيعود الصدام بين مؤنس والمقتدر ، ويُقْتَل الخليفة سنة ٣٢٠ ويولّى مؤنس الخلافة بعده القاهر بالله ، وكان شجاعاً غير أنه كان أحمق أهوج شديد الإقدام على سفك الدماء ، وكان لا يكاد يصحو من سكر ، ومع ذلك حرَّم على الناس الخمر والسماع ، واستطاع القضاء على مؤنس ونفر من القواد[٣] ففسد ما بينه وبين الترك وسرعان ما خلعوه سنة ٣٢٢ وسملوا عينيه[٤] ، وبايعوا بعده الراضى بالله أبا العباس أحمد بن المقتدر ، وظل يلى الخلافة حتى توفى سنة ٣٢٩ ، وفى عهده تغلَّب أصحاب السيوف ولم يعد للخليفة سوى الاسم . وكان شاعراً بليغاً سمحاً واسع العطاء مات وهو فى الثانية والثلاثين من عمره ، وخلفه أخوه المتقى بالله ، وكان تقياً صالحاً ، إلا أنه لم يكن على بصر بالحكم والسياسة ، فحدثت فى زمنه فتن وحروب كثيرة بين الجند ونُهبت دار الخلافة ، وقُبض عليه لسنة ٣٣٣ وخُلع وسُملت عيناه[٥] . وتولاها بعده المستكفى بالله ابن المكتفى ، ولم يكد يدور به عام فى خلافته حتى نزل معز الدولة البويهى بغداد ، فلقَّبه المستكفى بأمير الأمراء وأعطاه الطوق والسوار وآلة السلطنة وعقد له لواء . غير أن معز الدولة لم يلبث أن أمر بالقبض عليه ، فخُلع من الخلافة ونُهبت داره وسُملت عيناه [٦] ، وبذلك ينتهى العصر العباسى الثانى بدخول البويهيين الفرس بغداد وزوال تسلط الترك وقوادهم على مقاليد الحكم دون مآب .

---

(١) طبرى ١٠/١٤٠ - ١٤١ .

(٢) تكملة تاريخ الطبرى للهمدانى (طبع المطبعة الكاثوليكية ببيروت) ص ٥٨ .

(٣) مروج الذهب ٤/٢٢١ والهمدانى ص ٧٨ .

(٤) مروج الذهب ٤/٢٢١ والفخرى ص ٢٠٥ . والهمدانى ص ٨٠ .

(٥) الفخرى ص ٢١٠ ومروج الذهب ٤/٢٤٧ والهمدانى ص ١٤٣ .

(٦) مروج الذهب ٤/٢٧٦ والفخرى ص ٢١٢ والهمدانى ص ١٤٩ .

٢

تدهور الخلافة

رأينا الترك يسيطرون على أداة الحكم بعد مقتل المتوكل فى السنوات الثمان التى تلته، ثم منذ عصر المقتدر ، إذ كانوا هم الحكام الحقيقيين للدولة ، ولم يكن للخلفاء حينئذ أى سلطان ، ومن أين يأتيهم السلطان والترك يولّونهم ويعزلونهم بل يسفكون دماءهم وكل ما يأتون من الأمر أو يدعون فإنما هو بتدبيرهم ؟ وصوّر ذلك بعض الشعراء لعهد الخليفة المستعين (٢٤٨ — ٢٥٢ هـ) ، فقال [١] :

خليفةٌ فى قَفَصٍ بين وصيفٍ وبُغا
يقول ما قالا له كما يقول الببّغا

فالخليفة حينئذ كان أشبه ما يكون ببيّغاء فى قفص يردّد ما يقوله مخاطبه ولا أمر يملكه ، فالأمر كله لحاجبيه : وصيف وبغا ، حتى إذا دارت فكرة خلعه بذهنيهما خلعاه ، وولّيا بعده المعتز بالله (٢٥٢ — ٢٥٥ هـ) ويُرْوَى أنه لما جلس على سرير الخلافة أحضر أصحابُه المنجمين وسألوهم كم يظل خليفة للمسلمين ؟ وكم يعيش ؟ وكان بالمجلس بعض الظرفاء فقال :أنا أعْرَفُ من هؤلاء المنجمين بمقدار خلافته وعمره ، فقالوا له : فكم تقول إنه يعيش ؟ وكم يملك ؟ فقال : طالما أراد الترك ذلك ، فلم يبق فى المجلس أحد إلا غلبه الضحك [٢] . ولم يمكث المعتز فى دست الخلافة سوى ثلاث سنوات إذ سرعان ما خلعه الترك وسفكوا دمه ، وولوا بعده المهتدى (٢٥٥ — ٢٥٦ هـ) وكان حسن السيرة ورعًا تقيًّا اطرح الملاهى وحرّم الشراب والغناء ، وكأنما آذت الترك سيرته الطاهرة فخلعوه ، وولوا المعتمد (٢٥٦ — ٢٧٩ هـ) ، وكان منهمكًا فى اللهو واللذات غير أن أخاه طلحة الذى لُقب بالموفق نهض بالأمر من دونه فثبّت الخلافة إلى أبعد حد ، وأعاد إليها بحزمه وعزمه وجِدّه هيبتها ومكانتها المهدرة ، وقد ترك

---

(١) مروج الذهب ٤/٦١ . (٢) الفخرى ص ١٨١ .

أخاه عاكفًا على ملذاته ، واحتمل أعباء الخلافة فى البطولة والحرب والنفوذ من المشكلات الصعاب ، بحيث أصبح هو الخليفة الحقيق ، أما أخوه المعتمد فلم يكن له من الخلافة سوى الاسم وصوّر ذلك بنفسه قائلا [(١)] :

أليس من العجائب أنّ مثلى يرى ما قلَّ ممتنعاً عليْهِ
وتُؤْخَذُ باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شيءٌ فى يَدَيْهِ

وتصادف أن توفى الموفق قبل المعتمد بقليل وكان وليًّا للعهد ، فجعل المعتمد ولاية العهد لابنه المعتضد وكان مثل أبيه بطلا مغواراً ، فولى الخلافة بعد عمه المعتمد (٢٧٩ — ٢٨٩) ، فأكمل لها ما أحاطها به أبوه من العزة والمهابة ، فلم يرتفع للترك فى عهده صوت ، وكان اسمه — كما مرّ بنا — أبا العباس أحمد فتلقب بالمعتضد بالله ، وفيه يقول ابن تغرى بردى : «كان المعتضد شجاعًا مهيبًا أسمر نحيفًا معتدل الخلق ظاهر الجبروت وافر العقل شديد الوطأة من أفراد رجالات بنى العباس وشجعانهم ، كان يتقدم إلى الأسد وحده » ، ويقول : « هو آخر خليفة عقد ناموس الخلافة ثم أخذ أمر الخلفاء بعده فى إدبار»[(٢)] . وخلفه ابنه المكتفى (٢٨٩ — ٢٩٥ هـ) وكان قصير النظر فاتخذ ولى عهده أخاه المقتدر وهو لا يزال صبيًّا ، فولى بعده الخلافة (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ) ، وسنه ثلاث عشرة ، فكأن كل ما أحكمه جده الموفق وأبوه المعتضد قوّضه فى لحظات ، فبمجرد أن تسلم مقاليد الحكم وهو غلام عاد للترك سلطانهم وطغيانهم وعاد معهما الخلع وسفك الدماء ، وزادوا سَمْل الأعين .

وإذا كان المكتفى أخطأ فى أواخر العصر بتولّى أخيه المقتدر للعهد وهو صبى فإن المتوكل اقترف بدوره خطأ عظيمًا فى أوائل العصر ، إذ عقد ولاية العهد لثلاثة من أبنائه[(٣)] ، وكان حريًّا به أن يتعظ بجده الرشيد وتوليته العهد للأمين والمأمون والقاسم ، مما جرّ بلاء كبيراً ذهب ضحيته الأمين وأحرقت بغداد على نحو ما مرّ بنا فى كتاب العصر العباسى الأول ، فكان حريًّا بالمتوكل ألا يعرّض أبناءه

(١) الديارات للشابشتى (الطبعة الثانية — مطبعة المعارف ببغداد) ص١٠١ .

(٢) النجوم الزاهرة ٣/١٢٧ — ١٢٨ .

(٣) طبرى ٩/١٧٥ ومروج الذهب ٤/٥ والنجوم الزاهرة ٢/٢٨٠

للتنافس على الخلافة ، وكان المنتصر أولهم فى الولاية ،ويليه المعتز والمؤيد، فأوغر المتوكل صدره حتى أصبح خصماً له . وإذا كانت حادثة الرشيد جرّت مقتل ابنه الأمين فإن صنيع المتوكل أدى إلى مقتله وسفك دمه . وكأن المتوكل هو الذى هيأ للترك أن يغلبوا على الخلافة وأن يصبحوا هم أصحاب السلطان الحقيقى يولّون ويَعْزلون ويَسْجنون ويقتلون ، وتمادوا فى ذلك حتى ردّ الموفق إلى الخلافة مهابتها ، وتبعه فى صنيعه ابنه المعتضد ، ولكن لم يلبث المكتفى أن هوى بها من حالق ، فعاد إلى الترك كل سلطانهم وكل بغيهم وعدوانهم على الخلافة والخلفاء .

وكان من أهم الأسباب فى تدهور الخلافة العباسية أن كثرة الخلفاء انغمست فى اللهو والترف والإقبال على كل متاع مادى من بناء قصور باذخة ومعيشة كُفلت لها كل وسائل النعيم وأدواته ، وأولهم المتوكل ، ونراه لا يبنى لنفسه بسامراء قصراً واحداً ، بل قصوراً ينفق عليها أموالا طائلة ، منها الشاه والعروس والشبداز والبديع والغريب والبرج ، ويقال إنه أنفق على القصر الأخير مليوناً وسبعمائة ألف دينار . وبنى فى سنة ٢٤٦ بالمحوزة على بعد ثلاثة فراسخ من سامراء شمالا قصوراً عدة ، منها الجعفرى والهارونى واللؤلؤة ، كلفته ملايين الدنانير [١] . ويروى أنه سأل شخصاً حين أتمّ بناء الجعفرى كيف قولك فى دارنا هذه ؟ فأجابه بقوله : إن الناس بنوا الدور فى الدنيا وأنت بنيت الدنيا فى دارك [٢]، وهو سَفَهٌ وخُرْق ، فالخليفة لا يفكر إلا فى نفسه وملذاته ،وكأن ليس هناك جيوش تُعَدّ للحرب بأسلحتها وعددها الكثيرة ، وكأن ليس هناك رعية يقوم الخليفة على مصالحها ، فيبنى لها المستشفيات ويوفر لها الغذاء والكساء ، بل الرعية تكدح وتشقى وتذوق مرارة الشقاء والكدح لينعم الخليفة ويلهو ويبنى القصور ويملأها بالجوارى من كل لون . وتبع الخلفاء المتوكل يقتدون بسيرته السيئة ، ما عدا المهتدى والمتقى وكانت مدة خلافتهما قصيرة ، وحتى المعتضد الفارس الحازم حزماً لا يدانيه حزم يقول عنه المسعودى لم تكن له رغبة إلا فى النساء والبناء ،ويذكر أنه أنفق على قصره المعروف بالثريا أربعمائة ألف دينار ، وكان مجموعة من الدور والقصور تمتد ثلاثة فراسخ [٣]، ثم تكون النكبة الكبرى بتولى المقتدر الخلافة وهو صبى ، ويقال إنه كان فى قصره أحد عشر

---

(١) معجم البلدان فى سامراء والطبرى ٩/٢١٢ ومروج الذهب ٤/٤٠ والنجوم الزاهرة ٢/٣٢٠ .

(٢) مروج الذهب ٤/١٤٧ .

(٣) مروج الذهب ٤/١٤٥ .

ألف غلام خصيّ من الروم والصقالبة والسودان ، ويقال أيضًا إنه أتلف من الأموال ثمانين مليونًا من الدنانير [١] غير ما بدّده من الجواهر الثمينة التي كانت تحتفظ بها خزائن الدولة منذ خلفائها الأولين .

وطبيعي أن يقضي هذا السفه على هيبة الخلافة وأن يستذلها الترك وخاصة حين يطلبون للجيش رواتبه فيجدون الخزينة خالية الوفاض . وقد فسد حينئذ الحكم فساداً شديداً، إذ كان الوزراء يرتشون ومثلهم الولاة على الأقاليم وكبار الكتاب ، بل إنهم جميعًا كانوا يختلسون أموال الخراج والضرائب وما كان يصير إلى الدولة من البلدان المختلفة ، وقد بدأ هذا الوباء بأخرة من العصر العباسي الأول في زمن الواثق إذ صادر في سنة ٢٢٩ للهجرة كتّاب الدواوين واستخلص منهم نحو مليوني دينار [٢] ، وكلما تقدمنا في العصر العباسي الثاني اتسع الخرق ولم يعد من الممكن رَتْقُه ، والمذلك مظهر واضح هو كثْرة المصادرات لأموال الوزراء والكتّاب ؛ إذ نرى المتوكل يصادر أموال ابن الزيات وزير آبائه ، ويصادر أموال كاتبه عمر بن الفرج الرُّخَّجِيّ . ويقال إنه أخذ من أمواله ما قيمته مائة وعشرون ألف دينار وأخذ من أخيه نحو مائة وخمسين ألفًا [٣]، ونكب كاتبًا ثانيًا استوزره مدة قليلة يسمى أبا الوزير واستخلص منه مائتي ألف دينار [٤]، ونكب كاتبًا ثالثًا من كتاب التوقيع يسمى نجاح بن سلمة وأخذ منه ومن ابنه مائة وأربعين ألف دينار [٥] ، ونكب القاضي أبا الوليد محمد بن أحمد بن أبي دؤاد واستخلص منه مائة وستين ألف دينار [٦]، ونكب يحيى بن أكثم قاضي قضاته واستخلص منه خمسة وسبعين ألف دينار [٧]. وأثرى قواد الترك في السنوات التي تلته ثراء فاحشًا وأثرى كثير من الوزراء ، ونرى المعتمد يصادر أموال وزيره إسماعيل بن بلبل ويسفك دمه كما يصادر أموال وزيره سليمان بن وهب وابنه عبيد الله ويستخلص منهما تسعمائة ألف دينار [٨] .

ومعنى ذلك أن الوزراء ومثلهم الكتّاب والولاة كانوا يختلسون أموال الدولة والأمة ، ويخيَّل إلى الإنسان أنه لم يعد هناك موظف كبير في الدولة لا يقترف

(١) النجوم الزاهرة ٢٣٤/٣ .
(٢) طبري ١٢٥/٩ .
(٣) طبري ١٥٨/٩ ومروج الذهب ١٩/٤ .
(٤) الفخري ص ١٧٧ .
(٥) طبري ٢١٥/٩ .
(٦) مروج الذهب ١٤/٤ .
(٧) طبري ١٩٧/٩ .
(٨) النجوم الزاهرة ٤٠/٣ .

هذه الجريمة النكراء . وكان الولاة يرشون الوزراء ليظلوا فى ولاياتهم ، وبلغت الرشوة أحياناً مائتى ألف دينار غير ما يرافقها من التحف والهدايا[١] ، وحتى رجال الحِسْبة كانوا يرتشون ويختلسون الأموال ، فى أثناء مراقبتهم للتجار وحركة البيع والشراء فى الأسواق على نحو ما يروى عن أحمد بن الطيب بن مروان السرخسى الفيلسوف ، إذ خان الأمانة فى ولايته الحسبة ببغداد ، وكان جملة ما أخذه مائة وخمسين ألف دينار[٢] . ولا نبالغ إذا قلنا إنه كان يتورط فى هذا الاختلاس وما يطوى فيه من الرشوة أكثر موظفى الدولة ، وخاصة من كانوا منهم يقومون على جباية الضرائب وأموال الخراج ، وكثيراً ما كانوا يعذّبون أصحاب الضياع والأعيان وذوى الوجاهة بالضرب والسَّحب على الوجوه والرسف فى القيود وصَبِّ الزيت على رءوسهم أو النفط وتعليقهم فى الجُدُرِ من أيديهم وأرجلهم ، حتى يستخرجوا منهم كل ما يريدون من أموال ، ويصور ذلك ابن المعتز فى أرجوزته[٣] التى أرّخ فيها خلافة المعتضد وأعماله الجليلة مبيناً كيف كانت تجبى أموال الخراج قبله فى قسوة بل فى عنف بل فى أهوال من التعذيب والتنكيل ، يقول :

فكَمْ وكم من رجلٍ نبيلِ ... ذى هَيْبَةٍ ومَرْكَبٍ جليلِ
رأيتُه يُعْتَلُ بالأعوانِ ... إلى الحبُوس وإلى الديوان
وجعلوا فى يده حِبالا ... من قِنّبٍ يقطِّع الأوصالا
وعلّقــوه فى عُرَى الجدارِ ... كأنه بَرّادةٌ فى الدارِ
وصفّقوا قفاه صَفْقَ الطَّبْلِ ... نَصْباً بعينِ شامتٍ وخِلٍّ
وصَبَّ سَجّانٌ عليه الزَّيْتا ... فصار بعد بِزّةٍ كُمَيْتا

ويمضى ابن المعتز فيذكر أنهم ما يزالون يعذّبون المرء بصنوف العذاب حتى لا تبقى فيه قدرة على المقاومة ، فيتوسل إليهم أن يعرضوه على التجار كى يقرضوه بعض أموالهم ، أو حتى يبيعهم بعض عقاره ، وأن يؤجلوه لذلك خمسة أيام ، وبعد لأْيٍ يجعلونها أربعة ، ويأتيه أصحاب الربا الفجرة ، فيقرضونه واحداً

(١) الفخرى ص ١٧٨ .
(٢) مروج الذهب ٤/١٧٠ .
(٣) انظر الديوان (طبعة دار صادر ببيروت) ص ٤٨١ .

بعشرة ، ويكتبون عليه صَكًّا بأنه باع ضيعته ، وينزل على إرادتهم ، حتى يخلص من هذا التعذيب الذى لا يطاق بدفع ما يريده أرباب الخراج . ويقول ابن المعتز إن المعتضد أزال هذا التعذيب وقمع هذا الظلم الصارخ ، ولكنه كان قمعًا إلى أجل محدود، إن كان حقًّا قمَعَه أو استطاع قمْعه. ويصور لنا ابن المعتز كيف كان هؤلاء الجباة يبتزون أموال التجار أصحاب الجواهر والأموال العريضة ، وخاصة من كانت له معاملات منهم مع الدولة ، فقد كانوا يدَّعون عليه أن للسلطان عنده ودائع يجب أن يردها ، وكانوا لا يزالون يتفنَّنون فى تعذيبه :

حتى إذا مَلَّ الحياةَ وضَجِرْ وقال ليت المال جمعاً فى سَقَرْ
أعطاهمُ ما طلبوا فأُطْلِقَا يستعمل المشىَ ويَمْشِى العَنَقا

والعَنَقُ مشية سريعة ، وكأنه يخشى أن يردوه إلى التعذيب ، فهو يطير طيرانًا . وويل لمن كان يرث عن أبيه ميراثًا ضخمًا ، فقد كانوا يحاولون الاستيلاء على ميراثه بطرق شتى ، إذ يسجنونه، ويطلبون إليه أن يثبت أنه ابن المتوفى ، وما يزالون يضربونه ويلكمونه ويصفعونه ، يقول ابن المعتز :

وأسرفوا فى لَكْمِهِ ودفعِهِ وانطلقتْ أكفُّهم فى صَفْعِهِ
ولم يزل فى أضيق الحُبوسِ حتى رمى إليهمُ بالكيسِ

وكأننا لم نعد بإزاء دولة تحكم بقوانين الشريعة الإسلامية ، وإنما أصبحنا بإزاء لصوص ومختلسين وقطاع طرق . وما إن يجئ عصر المقتدر على صدر الأمة حتى يفسد الحكم فساداً لا حد له ، وقد استوزر اثنى عشر وزيراً منهم من وزر له المرتين والثلاث، أولهم ابن الفرات، ويروى أنه حاسَب كتَّاب العطاء فوجد لهم خيانة بلغت نحو مائة ألف دينار [١]، ولم يلبث المقتدر أن صادره فى سنة ٢٩٩ واستولى على أمواله وإقطاعاته ، فاجتمع له نحو سبعة ملايين من الدنانير [٢]، ومع الشك فى أمانته على هذا النحو نراه يعود إلى الوزارة حتى إذا توفى فى سنة ٣١٢ وُجد له من الدنانير ما يزيد على عشرة ملايين [٣] . وولى الوزارة بعد إقالته الأولى منها

---

(١) صلة تاريخ الطبرى لعريب ص ٢٥ .
(٢) عريب ص ٢٦ .
(٣) النجوم الزاهرة ٣/٢١٢ .

الخاقانى ، وكان سيئ السيرة ، فأخذ يبيع الولايات غير مراعٍ للأمة عهداً ولا ذمة ، ويقال إنه ولّى على الكوفة فى يوم واحد تسعة عشر والياً آخذاً من كل واحد منهم رشوة حسبما تيسر ، وفيه يقول بعض معاصريه[١] :

وزيرٌ لا يملُّ من الرَّقاعَهْ   يولِّى ثم يعزل بعد ساعَهْ
إذا أهلُ الرُّشا صاروا إليهِ   فأحْظى القوم أوفرهم بِضاعه

ونعجب أن تُدرّ إقطاعات الوزير فى عهد المقتدر مائة وسبعين ألف دينار سنوياً[٢] ، ولا يكفيه هذا الراتب الضخم ويختلس ويسرق أموال الدولة والأمة حتى يصبح من ذوى الملايين . وبذلك نفهم كيف كان بعض الوزراء حينئذ يبذل فى سبيل حصوله على الوزارة خمسمائة[٣] ألف دينار ، مؤملا أن يستردها فى أسرع وقت . ويُرْوَى أن حامد بن العباس حين وزر للمقتدر أهداه بستاناً أنفق عليه مائة ألف دينار وفرشه باللبود الخراسانية[٤] . واستوزر المقتدر بعده ابن الفرات ثانية ، فاستخلص منه مليوناً وثلثمائة ألف ، ويقال إنه كان ينفق على موائده يومياً مائتى دينار[٥] ، فى حين كان المستكفى ينفق بأخرة من العصر على مائدته كل يوم خمسين ألف درهم[٦] . وكان الولاة يستنّون سنة الوزراء فى نهب الأموال واختلاسها[٧] .

وبهذه الصورة كانت أموال الدولة تُخْتَلَسُ وتُنْهَبُ ، ينهبها ويختلسها الولاة والكتّاب والوزراء ، ينعمون ويترفون ، والشعب يتمرّغ فى البؤس والحرمان والشقاء ، وكأنما تعطلت أداة الحكم ، بل لقد فسد فساداً لا يقف عند حد . وكان مما زاد فى هذا الفساد غلبة النساء على الحكم ، فكن كثيراً ما يصرّفنه بحسب أهوائهن ، وكن يقتنين الجواهر الباهظة الأثمان والضياع والعقارات والأموال الطائلة ، حتى يقال إن المستعين مات وفى خزائن الدولة نحو نصف مليون دينار ، على حين كان فى خزائن أمه مليون دينار كاملة[٨] ، وكانت أم المعتز أكثر منها جشعاً ، ويقال إن

(١) الفخرى ص ١٩٨ وعريب ص٢٩–٣٠ .
(٢) الهمدانى ص ٥١ .
(٣) الفخرى ص ٢٠٢ .
(٤) الهمدانى ص ٢٢ .
(٥) الهمدانى ص ٣٦ .
(٦) الهمدانى ص ١٤٨ .
(٧) النجوم الزاهرة ١٨٣/٣ وعريب ص ٣١ والهمدانى ص ١٣ .
(٨) طبرى ٢٨٤/٩ .

قواد الترك طلبوا من ابنها قبل قتله خمسين ألف دينار ، فلم يجدها فى خزائن الدولة ، ففزع إليها يطلب منها أن تقرضه هذا المبلغ ، حتى يَفْتَدى نفسه به من القتل ، فأنكرت أن يكون عندها مال ، وخُلع ابنها وقُتل بعد أيام ، وصادر أموالها حاجبه صالح بن وصيف ، وملأه العجب حين وجد فى خزانة لها مليوناً من الدنانير ، غير جواهر قُدِّرت قيمتها بمليونى دينار . ولما رأى وصيف ذلك قال : قبَّحها الله ، عرَّضت ابنها للقتل فى خمسين ألف دينار يدفعها رواتب للجيش ، وعندها هذا كله فى خزانة واحدة من خزائنها [1] . وثالثة الدواهى الطامة شغب أم المقتدر ، وهى أم ولد رومية ، كانت تمسك بيديها زمام الأمر والنهى فى الدولة ،وكانت تستعين بقهرمانتها ثمل ، وأقعدتها فى الرُّصافة كل يوم جمعة للنظر فى المظالم ، فكانت تكتب بأحكامها على رقاع الناس بحضرة الفقهاء والقضاة[2] . وأثْرَتْ شغب حتى كان دخلها فى العام من غلات ضياعها مليون دينار[3] ، ويقال إنها غضبت على إحدى وصيفاتها ، فاستخلصت ثمل منها مليوناً من الدنانير[4] ، كأن مليون دينار فى أيدى نساء القصر وجواريه شىء عادى تتملكه أى وصيفة . وكان المقتدر متلافاً فأنفق أموال الدولة على النساء وأهداهن جواهرها وتحفها النفيسة ، من ذلك إهداؤه الدرة اليتيمة — التى ظل آباؤه يحتفظون بها حقباً طوالا — لبعض حظاياه ، وكانت زنتها ثلاثة مثاقيل . وأهدى حظية ثانية سُبْحَةَ جوهر لم يُرَ مثلها ، قيمتها ثلثمائة ألف دينار ، وأهدى حظية ثالثة فَصَّ ياقوت اشتراه الرشيد بثلثمائة ألف دينار ، ويقال إنه أنفق على ختان أبنائه ستمائة ألف دينار[5] وكأن كل ذلك وقع فى يد معتوه ، فهو ينثره يميناً وشمالا . واستولى قواد الترك لعهده على كثير من الإقطاعات والضياع ، ويقال إن إقطاعات يانس الموفقى المتوفى سنة ٣١١ كانت تغلّ له سنوياً ثلاثين ألف دينار[6] . وكانت قهرمانة شريرة هى علم الشيرازية تستولى على كل أمور الدولة لعهد المستكفى[7] .

وعلى هذا النحو لم يعد الخلفاء يحكمون منذ عهد المقتدر المشئوم ، فقد أصبح

---

(١) طبرى ٩/٣٩٥ والنجوم الزاهرة ٣/١٩٣ .

(٢) عريب ص ٥٠ والنجوم الزاهرة ٣/١٩٣ .

(٣) النجوم الزاهرة ٣/٢٣٩ .

(٤) الهمدانى ص ٣١ .

(٥) الهمدانى ص ٦٥ والفخرى ص ١٩٢ والنجوم الزاهرة ٣/٢٣٤ .

(٦) عريب ص ٨٠ .

(٧) الهمدانى ص ١٤٣ .

الترك والنساء والجند هم الذين يصرّفون أمور الدولة ، وعمّ الفساد وانتشرت الدسائس والمؤامرات ، وفسدت أداة الحكم فساداً شديداً ، حتى لنجد أبا جعفر بن شيرزاد حاكم بغداد نيابة عن توزون لعهد الخليفة المتقى يؤمّن لصًّا فاتكًا هو حمدى، ويشترط عليه أن يدفع له شهريًّا خمسة عشر ألف دينار ، فى حين يكبس هو بيوت الناس بالمشاعل والشموع وينهب منها ما يريد من الأموال والجواهر . ويستظهر ابن تغرى بردى أن هذا اللص هو الذى سُمِّى عند العامة فى سالف الأعصار أحمد الدنف ، وقصته فى ألف ليلة وليلة مشهورة[1] .

وهيّأ ذلك منذ أوائل العصر لا إلى نهب الأموال والجواهر فحسب ، بل إلى نهب الأقاليم والولايات ، فإذا أسرة طاهر بن الحسين قائد المأمون تقيم انفسها فى خراسان إمارة تظل بها حتى سنة ٢٥٩ غير أن صلتهم بالدولة ظلت حسنة وظلوا يرسلون لها الضرائب ، وكان منهم نفر يتولون شرطة بغداد حتى بعد انتهاء حكمهم لخراسان وما وراء النهر . وفى سنة ٢٤٧ للهجرة استطاع يعقوب بن الليث الصفار أن يقيم الإمارة الصفارية فى إقليم بلوخستان شرقى إيران ، ومدّ حدودها حتى شملت كرمان إلى الجنوب من إيران كما شملت أفغانستان والسند ، واستولى على ما بيد محمد بن طاهر آخر الحكام الطاهريين فى خراسان . وتوفى يعقوب لسنة ٢٦٥ فخلفه أخوه عمرو حتى سنة ٢٨٧ إذ قضى عليه السامانيون حكام ما وراء النهر . وحدث فى سنة ٢٥٥ أن أهدى المعتز بايكباك حاجبه مصر فولّى عليها أحمد بن طولون فاستقلّ بها ومدّ حكمه إلى الشام ، وخلفه على الإقليمين ابنه خمارويه ، وزواجُ ابنته بوران من المعتضد مشهور . وظلت تلك الإمارة الطولونية فى أبناء أحمد بن طولون وأحفاده حتى سنة ٢٩٢ إذ عادت فى عهد المكتفى إلى حظيرة الدولة ، فولّى عليها عيسى النوشرى ، وتبعه ولاة مختلفون إلى أن وليها محمد ابن طُغْج الإخشيد ولايته الثانية سنة ٣٢٣ فأسس بها الإمارة الإخشيدية التى ظلت تلى شئون مصر حتى تسلّمها منها المعز الفاطمى سنة ٣٥٨ . وإمارة السامانيين فى خراسان وما وراء النهر أطول هذه الإمارات عمراً ، فقد بدأت حوالى سنة ٢٦١ وظلت إلى ما بعد هذا العصر حتى سنة ٣٨٩ وكانت العلاقة بينها وبين الخلافة

(١) النجوم الزاهرة ٣/٢٨١ .

العباسية حسنة ، فكان أمراؤها يتوادونها بعهود من الخلفاء حتى تكون ولايتهم شرعية ، وأذن لهم الخلفاء فى أن تُذكَرَ أسماؤهم معهم فى خطبة الجمعة وأن يضربوا أسماءهم على الدنانير ، وكانوا سُنِّيِّين ، ودعم ذلك الصلة بينهم وبين الخلافة .

ولا نصل إلى أواخر العصر ، حتى يتغلب كثير من الحكام على ولاياتهم ، فتصبح فارس والرَّىّ وأصبهان والجبل فى أيدى بنى بويه ، وخراسان فى يد نصر بن أحمد السامانى ، وطَبَرِسْتان وجُرْجان فى يد الديلم ، وكِرْمان فى يد محمد بن إلياس ، والموصل وديار ربيعة وبكر ومضر فى أيدى بنى حمدان ، والأهواز وواسط والبصرة فى يد البريدى ، واليمامة والبحرين فى يد أبى طاهر الجنَّابى القرمطى ، ومصر والشام فى يد محمد بن طغج الإخشيد ، والمغرب وإفريقية فى يد القائم بأمر الله ابن المهدى الفاطمى المتلقب بأمير المؤمنين ، والأندلس فى يد عبد الرحمن الناصر الأموى . ولم يبق فى يد الخليفة سوى بغداد ، واستولى عليها منه — كما أسلفنا — البويهيون وخلعوه ، وولّوا المطيع لله ، وأصبحوا هم الذين يولّون الوزراء والقضاة والولاة وأصحاب الشرطة والحسبة ، ولم يعد للخليفة سوى سلطان اسمى وأن يُدْعَى له على المنابر ، وخفِّضت نفقاته ، وقُرِّرت له نفقة طفيفة .

وليست هذه الكوارث كل ما حاق بالخلافة العباسية فى العصر العباسى الثانى ، فقد نشبت ثورات كثيرة استنزفت موارد الدولة ، وخاصة ثورتى الزنج والقرامطة ، أما الزنج فقد استطاع الموفق لعهد أخيه المعتمد أن يقضى بعد جهاد عنيف عليهم وعلى ثورتهم قضاء مبرمًا ، وأما القرامطة فقد ظلوا حتى نهاية العصر ينازلون الدولة وينزلون بها خسائر فادحة فى الرجال والأموال ، ولعل من الخير أن نخص كلا من الثورتين بكلمة موجزة .

٣

ثورة الزنج

شغلت هذه الثورة الدولة أربع عشرة سنة ونحو أربعة أشهر لم تَضَعْ فيها الحرب أوزارها منذ رمضان سنة ٢٥٥ للهجرة حتى صفر سنة ٢٧٠ وكان الذى

أعدّ لها وأشعلها رجل فارسي من وَرْزَنِين: قرية من قرى الرّىّ بإيران ، زعم فى أول الأمر أنه من بنى عبد القيس سكان البحرين ، وفيهم أخذ ينشر آراءه الثورية ضد الدولة لأوائل العقد السادس من القرن الثالث الهجرى ، فتبعه نفر قليل . وأحسّ كأن البحرين لن تتبعه ، فتركها إلى البصرة لسنة ٢٥٤ وأخذ ينشر فيها آراءه ، وارتفع أمره إلى الوالى فطلبه ، غير أنه أسرع بالخروج منها إلى بغداد ، حتّى إذا استدار العام عاد بفكرة جديدة هى أن يثير الزنج الذين كانوا يكسحون السباخ هناك ، وكان يسخرّهم كبار الملاك الإقطاعيين فى هذا الكسح وفى زرع أرضهم لقاء أجرزهيد لايسدّ ما يحتاجون إليه من الغذاء البسيط والكساء الخشن . ومضى يثيرهم ويتجمعون إليه ، ورأى إحكامًا لدعوته أن يُسْبِغ عليها صبغة دينية ، فزعم أنه يُوحَى إليه وأن العناية الإلهية بعثته واختارته لإنقاذ الزنج من جَوْر الملاك الظالمين ، وأشاع أن اسمه على بن محمد ووصل نسبه بإمام الزيدية : زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب ، حتّى يثبت حقه الشرعى فى الثورة ضد الخلافة العباسية[1] ، وهو نسب مكذوب إذ هو فارسى كما قدمنا ، وحقًّا نجد ابن المعتز ينعته فى الأرجوزة التى تمثلنا ببعض أبياتها فيما أسلفنا بأنه علوى إذ يقول عنه :

والعلويّ قائدُ الفُسّاقِ وبائعُ الأَحرارِ فى الأَسواقِ

ونؤمن بأن ابن المعتز تعمد ذلك حتّى يلطّخ العلويين خصوم أسرته بعارِ هذا الرجل الذى لم يكن يَرْعَى فى الأمة إلاّ ولا ذمة على نحو ما سيتضح عما قليل . وكان لا يزال يردّد بأن العباسيين انغمسوا فى إثم الخمر والمجون والمعاصى ، وأنه تجب حربهم حتّى يتخلص الناس من شرورهم ، وحتّى يُرَدّ الأمر إلى نصابه وإلى مستحقيه العلويين من أمثاله المنتسبين إليهم زوراً وبهتانًا .

وكان الزنج يبلغون ألوفًا ، وكلهم يعملون فى كَسْح السباخ والزراعة ، وكانوا يُجْلَبُون من شرقى إفريقيا ، وسرعان ما التفوا حول هذا الثائر والتفّ معهم كثير من عَبِيد الفرات بحيث غدت الثورة كأنها ثورة العبيد على السادة الجائرين ، وثبّت

(١) طبرى ٤١٠/٩ ومروج الذهب ١٠٨/٤ والفخرى ص ١٨٦ والنجوم الزاهرة ٢١/٣ ودراسات فى العصور العباسية المتأخرة لعبد العزيز الدورى (طبع بغداد) ص ٧٩ .

ذلك فى نفوسهم أن صاحبهم كان يدعو إلى تحريرهم ، وهى دعوة كريمة ، غير أنه لم يمض فيها إلى النهاية ، إذا استباح فى حروبه استرقاق الأحرار ، مما يؤكد أنه لم يكن يفكر جِديّاً فى إلغاء الرق . ويدل أكبر الدلالة على أنه لم يكن محرراً للعبيد حقًّا ولا كان علويًّا ما رواه المسعودى عنه من أنه «كان ينادى فى عسكره على المرأة من ولد الحسن والحسين والعباس بن عبد المطلب وغيرهم من ولد هاشم وقريش ومن سائر العرب وأبناء الناس ، فتُباع الجارية بالدرهمين والثلاثة ، ويُنادَى عليها بنسبها : هذه ابنة فلان ، ولكل زنجى منهن العشرة والعشرون والثلاثون . . . واستغاثت به امرأة هاشمية من ولد الحسن بن على بن أبى طالب كانت عند بعض الزنج ، وسألته أن ينقلها إلى غيره من الزنج أو يعتقها مما هى فيه، فقال لها : هو مولاكِ وأولى بكِ من غيره»[1]. ولو كان علويًّا ما استباح استرقاق العلويات، ولو كان ثائراً على الرق داعياً إلى تحرير العبيد بإخلاص ما أسقط العبودية عن الزنوج وردَّها على الأحرار، بل كان يُبقى لهم حريتهم . ويبدو أنه لم تدر بذهنه خطة واضحة لنمط من أنماط الاشتراكية يصحح به معيشة الناس عبيداً وأحراراً ويُصْلح به أوضاعهم المالية والاقتصادية. ولذلك حوَّل ثورته سريعًا من ثورة ضد الملاَّك الإقطاعيين إلى ثورة ضد الدولة، فالدولة يجب أن تقاوَم ويقاوَم معها الخلفاء وولاتهم . ويذهب بعض المؤرخين إلى أنه كان يعتنق آراء الأزارقة من الخوارج إذ كان يستحلّ مثلهم قتل نساء المسلمين وأطفالهم ، وكان يرى رأيهم فى أن المسلمين جميعًا كافرون وينبغى قتالهم واستئصالهم حتى لا تبقى منهم باقية، ويحاول المسعودى أن يبرهن على أنه كان يؤمن بمبادئ الخوارج بشواهد مختلفة ، منها أنه كان يبدأ خطبه بعبارة الخوارج المشهورة التى رددوها حين ثاروا فى وجه على بن أبى طالب : « ألا لا حكمَ إلا لله » ، وأنه كان يردد أن الذنوب تفضى إلى الشرك على نحو ما كان يقول الخوارج من قديم بأن مرتكب الكبيرة كافر ، وأنه هو وأصحابه كانوا إذا خطبوا على المنابر ترحموا — مثل الخوارج الأولين — على أبى بكر وعمر ولم يذكروا عثمان وعليًّا غضبًا عليهما ولعنوا جبابرة الأمويين والعباسيين [2] . وعلى نحو ما اعتزل الخوارج الأولون على بن أبى طالب إلى حروراء بقرب الكوفة مهاجرين عن الجماعة

---

(١) مروج الذهب ١٢٠/٤ . وراجع النجوم الزاهرة ٤٨/٣ .

(٢) انظر مروج الذهب ١٠٨/٤ ، ١١٩ .

الضالة ، كما هاجر الرسول عليه السلام عن أهل مكة إلى المدينة ، كذلك هاجر صاحب الزنج بأتباعه إلى سبَخة بمآخير أنهار البصرة تسمى سبخة أبي قرّة ، فأقام فيها ، وأمر أصحابه باتخاذ الأكواخ بها ، وبثّ الزنج والسود يُغير بهم على القرى وينهب الأموال والدوابّ(١) ، ثم تحوّل إلى الجانب الغربي من نهر أبي الخصيب واتخذ عليه مدينة(٢) سماها « المختارة » بنَى له فيها دوراً حصينة ، وأمر أصحابه بالبناء فيها .

وكثرت إغاراته على البصرة وقُراها ، فاستغاث أهلها بالخليفة المهتدى ، فأرسل إليهم فى سنة ٢٥٦ جيشاً أكثره من الفرسان فلم يستطع الوصول إلى مدينة صاحب الزنج لكثرة ما كان يقوم دونها من القنوات والنخيل والأدغال . ويشعر صاحب الزنج بقوته ، فيقتحم مدينة الأبُلّة مما يلى نهر دجلة ويقتل بها خلقاً كثيراً ، ويُشْعل بها ناراً تأتى على كثير من منازلها ، إذ كانت مبنيةً من خشب الساج ، ويُعْمل فيها النهب والسلب . ويهاجم بعدها مدينة عبّادان ، وكان أهلها قد سمعوا ما صنعه بمدينة الأبُلّة ، فألقوا له عن يد ، وانضمّ إليه من كان بها من العبيد ، ونهب كل ما كان بها من السلاح والمئونة . وولّى وجهه نحو مدينة الأهواز فدخلها بعد مناوشات قليلة ، واستولى على كل ما كان بها من الأسلاب والأمتعة(٣) .

وتولى المعتمد الخلافة ، فأرسل إليه فى سنة ٢٥٧ هـ جيشاً كثيفاً انتصر على بعض كتائبه ، غير أن الزنج استتروا منه بالقنوات والأدغال ، فاضطر إلى الانسحاب ، ونازلهم منصور بن جعفر الخياط بجيش ثان لم يصنع شيئاً(٤) . وما يلبث صاحبهم أن يهاجم البصرة . وكان يردّد على مسامع أصحابه أنه اجتهد فى الدعاء عليها أن يصيبها الخراب من جميع جهاتها ، وأنه خوطب فى أمرها ، فقيل له : إنما البصرة خُبْزَةٌ لك تأكلها من جوانبها . وانضمّ إليه حينئذ كثير من الأعراب ، هاجمها بهم وبأتباعه من الزنج والعبيد فى أثناء صلاة أهلها إحدى الجمعات ، وقد انقضّ عليها من ثلاث جهات ، معملاً فيها النهب والسلب والقتل وإشعال

---

(١) طبرى ٩/٤٣٧ .
(٢) طبرى ٩/٤٧٠ .
(٣) انظر الطبرى ٩/٤٧٠ وما بعدها .
(٤) طبرى ٩/٤٧٨ .

النار[١] ، وتقول أقل الروايات مبالغة إن عدد القتلى بلغ ثلثمائة ألف بين ذكر وأنثى وشيخ وطفل وإنه أحرق المسجد الجامع وأحال البلدة أنقاضاً ، يقول المسعودى : « واختفى الناس ذعراً فى الدور والآبار ، وكانوا يظهرون بالليل فيأخذون الكلاب فيذبحونها ويأكلونها ، وكذلك الفئران والسنانير ، وأفنوها حتى لم يقدروا منها على شىء ، وكانوا إذا مات منهم الواحد أكلوه ، وعدموا مع ذلك الماء العذب »[٢] وتسامع الناس والشعراء فى بغداد وسامراء بهذه النكبة المروّعة التى حلّت بالبصرة ، فبكوها بدموع غزار ، وفى مقدمتهم ابن الرومى ، وقصيدته :

ذادَ عن مُقْلتى لذيذَ المنامِ شغلُها عنه بالدموع السِّجامِ

ندبٌ حارٌّ لها وتفجع وتوجع لما نزل بها من تلك الكارثة التى لا تكاد تتخيلها الأوهام ، وقد مضى يصور قتلى الزنج وصرعاهم وانتهاكهم الحرمات وسَبْيهم الحرائر المصونات ممزقات الثياب داميات الوجوه ، وكيف أشعلوا النيران فيها وحوّلوا قصورها تلالا ورماداً ، وكيف ملئوا شوارعها بالرءوس والجثث والأيدى والأرجل المبتورة ، وهو فى تضاعيف ذلك يستصرخ الأمة لنجدة البصرة والذّياد عن الحرمات والفتك بالزنج الذين ارتكبوا آثاماً يشيب لها الولدان فتكاً لا يُبْقِى ولا يَذَرُ .

وكأنما استجابت الدولة لصرخة ابن الرومى ، فجهّزت جيشاً ضخماً بقيادة الموفق أخى الخليفة المعتمد ، وكان بطلا لا يبارى وصاحب رأى وحزم لا يدانيه حزم وتدبير لا يشبهه تدبير ، غير أن الزنج وصاحبهم استتروا منه بالقنوات وبالأدغال الملتفّة والنخيل الكثيف . فندب إليهم منصور بن جعفر بن دينار فاستباحوا عسكره وقتلوه . فتقدم الموفق إلى نهير يسمى نهير معقل ، ونازل الزنج وهزمهم مراراً وأسر قائداً من قوادهم هو يحيى البحرانى وأرسل به إلى سامراء حيث ذُبح وأحرق[٣] . وعاد الموفق إلى سامراء ، وخلّف على قتال الزنج موسى بن بغا ، ونشبت حروب متتابعة قُتل فيها كثير من الجانبين[٤] . وبولّى المعتمد فى سنة ٢٦١ على الأهواز قائداً من قواده يسمى أبا الساج ، وينازل الزنج وترجح كفتهم ، ويدخلون الأهواز وينهبونها ويحرقون دورها[٥] .

(١) طبرى ٤٨١/٩ .
(٢) مروج الذهب ١١٩/٤ .
(٣) طبرى ٤٩١/٩ .
(٤) طبرى ٥٠٤/٩ .
(٥) طبرى ٥١٣/٩ .

وتُشْغَلُ الدولة وقائدها الموفق بيعقوب بن الليث الصفار ، وكان قد استولى على سجستان وكرمان وفارس وقضى على الطاهريين واستولى منهم على خراسان، وأقبل بجموعه فى سنة ٢٦٢ يريد الاستيلاء على بغداد ، ولم يكد يلمّ بدير العاقول على بعد اثنى عشر ميلا منها حتى تصدّى له الموفق وهزمه هزيمة ساحقة ، فرّ على أثرها إلى الأهواز ، وإلى ذلك يشير ابن المعتز فى أرجوزته آنفة الذكر إذ يقول عن الموفق :

وحاربَ الصَّفّار بعد الزَّنْجِ ... فطار إلا أنه فى سَرْجِ
وفَرَّ من قُدَّامه فِرارًا ... وكان قِدْماً بطلا كرَّارًا

وظل الموفق مشغولا به بعد هزيمته إلى أن توفى سنة ٢٦٥ . وفى هذه الأثناء وجد صاحب الزنج الفرصة سانحة له ، فكان يُغير على بعض المدن ، يفتك بأهلها وينهبها من مثل الأهواز وواسط ودَسْت ميسان . وكانت أنباؤه لا تزال تصل إلى الموفق ، فصمم على منازلته ثانيًا ، وجهّز لحربه جيشًا جراراً تسنده سفن حربية ، وأسند قيادته إلى ابنه أبى العباس .(الذى ولى الخلافة بعد عمه المعتمد وتلقّب بالمعتضد) وكان شجاعًا حازمًا من أهل الرأى الصائب مثل أبيه ، فخفَّ إليه فى ربيع الآخر لسنة ٢٦٧ فواقع قائداً يسمى سليمان بن جامع ومزّق جنوده واستولى على ما كان بيده من قرى دجلة [١]، ودخل مدينة واسط وردّها على أهلها، وعسكر بجيشه فى جوارها ، وأخذ يقف بنفسه على القرى والمسالك المؤدية إلى صاحب الزنج ومدينته . وجمع له الزنج وحشدوا واتخذوا سفنًا تسمّى بالسُّمَيْريَّات ، لكل منها أربعون مجدافًا والملاّحون من فوقها يحملون السيوف والرماح والترس، ولكن أبا العباس عرف كيف يُنْزل بهم هزيمة نكراء ، استولى فى أثنائها على أكثر سُمَيْريَّاتهم [٢]، وأخذت هزائمهم تتلاحق . وبلغ الموفق نبأ بأن صاحب الزنج يعدُّ جيشًا كثيفًا لمساعدة قائديه: سليمان بن جامع وعلى بن أبان، فأعدّ جيشًا ضخمًا بدوره لنصرة ابنه ، ومضى معه إلى حصن الزنج الشمالى فى البطيحة الذى سموه باسم « المدينة المنيعة » وأوقعا بقائد لهم يسمى الشعرانى وبجنده وقعة ماحقة . واتخذ

---

(١) طبرى ٩/٥٥٧ وما بعدها . (٢) طبرى ٩/٥٦١ .

الموفق حينئذ خطة سديدة أن يعفو عمن يستسلم له من جند العدو ويضمه إلى جيشه واستسلم له كثيرون[١]. واتجه إلى حصن الزنج الأوسط الذى سموه مدينة « المنصورة » وكان بجوار « طهيثا » والتقى هناك بسليمان بن جامع وأصحابه ، فقتل منهم مقتلة عظيمة ، واستولى على المدينة وكل ما بها من الأموال والذخائر والميرة ، وفرّ سليمان على وجهه لا يلوى ، وفرّ كثيرون من الزنج إلى الآجام المحيطة بالمدينة ، وأعلن الموفق مرة ثانية أنه يعفو عفواً تامًّا عن كل من يستسلم راضيًا ، واستسلم له كثيرون ، فكان يخلع عليهم ويضمهم إلى جيشه . وكانت سياسة قويمة إذ أخذ كثيرون من أتباع صاحب الزنج يغادرون معسكره إلى معسكر الموفق[٢]. ومضى إلى الأهواز والقرى التى بينها وبين فارس ، وفرّ عنها سريعًا قائدان من قواد الزنج هما المهلبى وبهبوذ بن عبد الوهاب تاركَيْن وراءهما عتاداً ضخمًا من الميرة احتواه الموفق . وكاتبه كثيرون من فرسان هذين القائدين وجنودهما يطلبون الأمان فأمّنهم وسلكهم فى جيشه ، واستأمن قائد اسمه « منتاب » وكثير من المقاتلين فى سميريات الزنج وسفنهم[٣]. وتقدم الموفق بجموعه إلى المدينة «المختارة» حاضرة صاحب الزنج آخر معاقله . ورأى من مناعتها ما جعله يؤمن بأن حصارها سيطول، فبنى لجيشه أمامها على الضفة الثانية لدجلة مدينة سماها «الموفقية» شيّد فيها جميع المرافق ، وساق إليها أصناف المنافع ، وشدّد فى حصار المختارة، حتى غدت كأنها سجن كبير لصاحبها وأتباعه ،ونادى بأن الأمان مبسوط للناس أحمرهم وأسودهم ، واستسلمت له من الزنج جموع كثيرة ، إذ رأوا صاحبهم كالأسير وقد عزّته الميرة والمؤن ، وفى ذلك يقول ابن الرومى للموفق من قصيدة طويلة[٤] :

حَصَرْتَ عميدَ الزّنْج حتى تخاذلتْ ... قُــواه وأوْدَى زادُه المتزوَّدُ
فظــلّ ولم تقتله يلفظ نفسه ... وظلّ ولم تأسره وهْو مقيَّد
تُفَرِّق عنه بالمكايد جُنْــدَهُ ... وتزدادهم جندًا ، وجُنْدك مُحْصَدُ[٥]

وما زال الموفق يحاصر المدينة وصاحبها حتى رأى أن يَشُنّ عليها حملة حاسمة سنة ٢٦٩ إذ هاجمت سفنه الحربية قصر صاحب الزنج وصمم على الفرار منه ، والتقى

---

(١) طبرى ٩/٥٦٦ وما بعدها .
(٢) طبرى ٩/٥٧١ وما بعدها .
(٣) طبرى ٩/٥٧٥ وما بعدها .
(٤) زهر الآداب للحصرى ٣/١٩٤ .
(٥) محصد : مجتمع محكم .

الموفق فى هذه الأثناء بجيش له فى غربى نهر أبى الخصيب فمزّقه شر ممزق ، وطلب الأمان كثيرون من الزنج وقوادهم وفى مقدمتهم الشعرانى وشبل[1] بن سالم . وجمع الموفق المستأمنة من الزنوج العارفين بمسالك المدينة المختارة ومضايق طرقها وحصونها كى يمحضوه النصيحة فى الوصول إلى صاحبها ، ودلّوه راضين ، فاستولى على قصره فى صفر لسنة ٢٧٠ بعد موقعة عظيمة ،ووافاه البشير بقتله، فخرّ لله ساجداً على ما أولاه ، وأمر بصلب قائديه سليان بن جامع وعلى[2] بن أبان المهلبى . وكان الموفق قد جُرح جرحًا بليغًا فى صدره فى أثناء المعارك الأخيرة ، ولم يثنه ذلك عن الحرب حتى كُتب له فيها النصر المبين ، ولذلك يقول ابن المعتز فى تهنئته بهذا النصر من قصيدة صوّر فيها بطولته :[3]

شَقَّ الصفوف بسيفهِ وشَفَى حـــزازاتِ الإِحَنْ
دامى الجـــراحِ كأنهـــا وَرْدٌ تفتَّح فى غُصُنْ

وبذلك انتهت ثورة الزنج ، ويقال إنه ذهب ضحيتها نحو مليون ونصف ، وأمر الموفق بالنداء فى أهل البصرة والأُبُلَّة وكور دجلة والأهواز وواسط بقتل صاحب الزنج ورجوع كل مواطن إلى داره وبلده آمنًا على نفسه وماله وأهله[4] .

٤

ثورة القرامطة

مرّ بنا فى كتاب العصر العباسى الأول أن الشيعة كانوا فرقًا ، وظلت هذه الفرق نشطة فى العصر العباسى الثانى ، وأهمها فرقة الزيدية التى حملت السلاح دائمًا فى وجوه العباسيين ، ثم فرقة الإمامية التى كانت تعيش على التقية وتعمل سرًّا ضد العباسيين ، وقد انقسمت مبكرة إلى اثنى عشرية آمنت بأن الإمامة توالت فى اثنى عشر إمامًا ، آخرهم محمد المهدى المنتظر المتوفى سنة ٢٦٠ للهجرة ، وإلى إسماعيلية نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ، وكان قد توفى قبل أبيه ، فقالوا إن

(١) طبرى ٦٤٣/٩ .
(٢) طبرى ٦٥٤/٩ وما بعدها .
(٣) ذيل زهر الآداب ص ١٥٧ .
(٤) طبرى ٩ / ٦٦٣ .

الإمامة انتقلت منه إلى ابنه محمد ، لأنها تنتقل حتماً إلى الابن الأكبر ، حتى لو مات فى عهد أبيه . وأخذت تتكوّن سريعاً حول محمد الحركة[1] الإسماعيلية، وكان الذى نظّمها ووضع مبادئها عبد الله بن ميمون القداح ، وهو فارسى كان واسع المعرفة بجميع المذاهب والأديان،وأخذ فى سرعة يكوّن حول محمد بن إسماعيل جمعية سرية تعمل على تقويض الدولة العباسية، وكان يستعين على جذب الناس إليه بطرق تتناسب مع كل شخص ، فأشخاص يجذبهم بالسحر والشعوذة،وأشخاص يجذبهم بإظهار التقوى والنسك . وكان يزعم أن دينه دين النور الخالص ،ودعا كل أعضاء جمعيته إلى الاشتراك فى كل ما يكسبون مقيماً بينهم ضرباً من الألفة. وبدأ بدعوته فى موطنه بالأهواز ، ثم تركها إلى البصرة ومعه رفيقه الحسين الأهوازى ، وأحسّ بمطاردة والى البصرة لهما ، فهرب مع رفيقه إلى «سَلَمْيَة» بقرب اللاذقية فى الشام ، ومن هناك أخذ يرسل دعاته إلى العراق ، كما أخذ ينظم الدعوة الإسماعيلية باثّاً فيها تعاليم مانوية فارسية وفلسفية يونانية غير بعض تعاليم جلبها من فرق الشيعة الغالية كفرقة الخطابية . ودعا فى قوة إلى فكرة التأويل فى الآيات القرآنية حتى يمكن فهم معانيها الباطنة المستترة أو قل معانيها الخفية التى ترمز إليها من بعيد . وزعم أن تاريخ الأمة ينقسم إلى حلقات ، كل حلقة يمثلها سبعة من الأئمة ، سابعهم هو الإمام الناطق الذى ينسخ بشريعته ما قبله من الشرائع ، أما الأئمة الستة قبله فأئمة صامتون . وزعم أيضاً أن أئمة الدعوة قسمان : أئمة حقيقيون مستورون أو مستقرّون ، وأئمة بجانبهم مستودَعون وهم رءوس الدعاة المسمون بالحجج ، وبذلك أصبح هو نفسه إماماً مستودَعاً ، وتبعه على ذلك أبناؤه ، ومن هنا جاء الشك فى نسب الأسرة الفاطمية الإسماعيلية التى حكمت مصر نحو قرنين من الزمان ، فهل كان أئمتها مستقرين أو كانوا مستودعين ؟ وجعل ابن ميمون الدعوة مراتب يصعد فيها التابعون ، وهى سبع مراتب ، مرتبة للعامة ، ومرتبة لمن فوقهم ، ومرتبه لمن مرّ عليه عام ، ومرتبة لمن مرّ عليه عامان ، ومرتبة لمن مرّ عليه ثلاثة أعوام ، ومرتبة لمن مرّ عليه أربعة أعوام ، ثم المرتبة السابعة ، وجُعلت المراتب فيما بعد تسعاً .

وما يلبث عبد الله بن ميمون — وقيل بل ابنه أحمد خلفه — أن يرسل الحسين

(١) انظر فى الحركة الإسماعيلية والقرامطة كتاب عبد العزيز الدورى ص ١٢٦ وما بعدها .

الأهوازى إلى الكوفة وسوادها ليدعو إلى الجمعية ، فالتقى فى السواد بنبطى يحمل بعض الغلات على أثوار له اسمه حمدان ، كان أهل قريته يلقبونه — فيما زعم الطبرى — لقباً نبطياً هو قرمط لاحمرار عينيه الدائم [١]، وزعم بروكلمان أن معنى هذا اللقب المعلم السرى [٢]. وكأنما وجد الأهوازى فى هذا الرجل طلبته ، فدعاه إلى مذهبه واستجاب له فى حماسة بالغة ، وأحسّ الأهوازى بدنو أجله ، فعهد إليه برياسة الدعوة ، وجَدّ فيها حتى أصبحت له فرقة كبيرة دُعيت جميعها باسم القرامطة نسبة إليه . وكان داهية فأخذ فى تنظيم الحركة ، وفرض على جميع أتباعه أن يدفع كل منهم سنوياً درهماً واحداً ، ثم جعله ديناراً تأهباً للانتقال إلى دار الهجرة ، وفرض على أهل المرتبة السابعة سبعة دنانير ، ولم يلبث أن فرض على كل إنسان من أتباعه أن يؤدى إليه خمس ماله ، وأخيراً فرض عليهم جميعاً الألفة ، وهى الشركة فى الأموال ، وبذلك هيّأ لظهور نظام اشتراكى كامل . ولما اطمأن إلى نجاح دعوته أخذ يحلّ لأتباعه ترك الفرائض الدينية وأن يتخذوا بيت المقدس قبلتهم ويحجوا إليه ، وزعم لهم أن الصوم يومان فى السنة : يوم عيد المهرجان ويوم عيد النيروز وأن النبيذ حرام والخمر حلال ، ووضع قانوناً هو أن كل من حاربه وجب قتله ، ومن لم يحاربه وخالفه يجب أخذ الجزية منه [٣] . وفى سنة ٢٧٧ اتخذ لأتباعه دار هجرة بقرب الكوفة سماها « مهما باد » نزلها كثيرون من الرجال والنساء . وكان أكبرَ معاونيه فى حركته صهره عبدان ، ويُذْكَرُ له كتاب صوَّر فيه طريق التابع ومراتبه السبع آنفة الذكر التى تنتهى به إلى الخضوع المطلق للإمام الخفى أو المستتر وممثليه من الأئمة المستودَعين .

وأقبل على الانضمام إلى الدعوة كثير من الفلاحين فى سواد الكوفة والبصرة لما وعدتهم به من تغيير ظروفهم الاقتصادية السيئة ، إذ كان الملاك الإقطاعيون يسومونهم سوء العذاب مع التقتير الشديد فى الأجور ، وانضم إليها أيضاً كثير من الطبقة الكادحة فى المدن ممن كانوا يعيشون فى بؤس مدقع ، وقد وعدهم جميعاً حمدان وأتباعه بأنهم سينقلونهم من الشقاء إلى السعادة ومن الفقر وذله إلى الغنى وعزه . غير أنهم لم يقفوا

---

(١) طبرى ١٠/٢٦ .

(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان (الطبعة العربية) ص ٢٢٩ .

(٣) طبرى ١٠/٢٥ وما بعدها .

جميعاً بدعوتهم عند إنشاء مجتمع اشتراكي ، إذ مضوا يدعون إلى التحلل من الدين الحنيف وفروضه حتى ليقول البغدادي إنهم أنكروا البعث والحساب والجنة والنار ، وقالوا : هل الجنة إلا هذه الدنيا ونعيمها وهل النار وعذابها إلا ما فيه أصحاب الشرائع من التعب والنَّصَب في الصلاة والصيام والحج والجهاد [١] ، وزعموا : « أن الأنبياء كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وكل من ادعى النبوة كانوا أصحاب نواميس ومخاريق أحبوا الزعامة على العامة ، فخدعوهم بنيرنجات واستعبدوهم بشرائعهم »[٢]. ومضى حمدان يتخذ لهم أعلاماً بيضاء دلالة على أن دينهم دين النور ، ويقال إنه كان يكتب عليها : (ونريد أن نَمُنَّ على الذين استُضْعِفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين) .

وقد أرسل مبكراً دعاة إلى اليمن جاهروا فيها بدعوته وأحدثوا شغباً كثيراً ، ونزل « كلواذى » وأخذ يدير منها دعوته ، ومن أهم دعاته الذين اتخذهم حينئذ أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنَّابيّ . وجَنَّابة من قرى بحر فارس ، وقد أرسل به إلى جنوبي إيران ، واستطاع أن ينشر هناك الدعوة ، والتفَّ حوله كثيرون اتخذ من نفسه مشرفاً على إدارة أموالهم . غير أن ولاة العباسيين تنبهوا لحركته هناك وصادروا ما جمع من أموال ، ففرَّ على وجهه إلى حمدان ، يبلغه الخبر ، فأمره أن يتجه إلى منطقة أخرى ، واختار له الأحساء في منطقة البحرين ، وهناك استجابت له قبيلة عبد القيس وعشائرها البدوية ، واستطاع لسنة ٢٨٦ أن ينشئ في تلك الأصقاع النائية دولة اشتراكية جعل عاصمتها « المؤمنية » بدلا من « هجر » العاصمة القديمة وهي المسماة اليوم باسم « الهفوف » « وفي السنة نفسها أغار على « القطيف » القريبة من البصرة وقتل من لقيه بها من الرجال والنساء[٣]. وفي السنة التالية هددت جنوده البصرة[٤]. وأحسَّ حمدان بقوته فأخذ يدفع أتباعه إلى الإغارة على قرى السواد ، وتصدَّى لهم بدر غلام الطائي . وأوقع بهم على غرة بنواحي روذميستان وقتل منهم مقتلة عظيمة[٥]. ويعودون إلى الانتشار في سواد الكوفة لسنة ٢٨٩ ويفتك بهم شبل غلام الطائي ويقع في أسره قائدهم المعروف بابن أبي قوس[٦] ، فيرسل به إلى المعتضد ،

---

(١) الفرق بين الفرق للبغدادي (طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد ص ٢٩٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٠٢ .

(٣) طبري ١٠ / ٧١ .

(٤) طبري ١٠ / ٧٥ .

(٥) طبري ١٠ / ٨٢ .

(٦) في الطبري : فوارس .

فيضرب عنقه ، ويصلبه على الجسر فى جماعة من القرامطة ، ويذكر ذلك ابن المعتز فى أرجوزته آنفة الذكر ، منددًا بالدعوة القرمطية ، قائلا :

ابنُ أبى قَوْسٍ لهمْ نبىٌّ — إمامُ عَدْلٍ لهمُ مَرْضِىٌّ
خَفَّفَ عنهم من صلاة الفَرْضِ — وقال : ناب بعضها عن بعضِ
فاذهبْ إلى الجِسْر تجده فارسا — على طِمِرٍّ[1] لأَسيرٍ جالسا
وتلكَ عقبى الغَىِّ والضلالِ — والكُفْر بالرحمن ذى الجلالِ

وهو يسجل هنا على القرامطة جهلهم حتى ليزعمون أن ابن أبى قوس نبى ، مع تخفيفهم للصلاة وكفرهم بالرحمن ، وسجل عليهم فى الأرجوزة قبل هذه الأبيات الشريعة الجديدة التى اتخذوها وأنهم يجاهدون فيها عن إمام مختف لا يظهر أبداً

ومنذ هذا التاريخ الذى قُتل فيه ابن أبى قوس يختفى من العراق وسواده اسم حمدان وصهره عبدان ، ونفاجأ بداعية يتولى زعامة القرامطة مكانهما يسمى زكْرويه[2] . ويبدو أنهما أحسَّا بتغير فى المبادئ التى[3] كانا يدعوان إليها ، فأرسل حمدان بعبدان إلى سَلَمْيَة ليقف على حقائق الأمور ، فوجد أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح توفى وخلفه ابنه الحسين ، ولما اجتمع به سأله عن الإمام الذى يدعون إليه وعن حُجَّته ، فعجب الحسين من سؤاله ، وقال له : « من هو الإمام إذن ؟ » فأجابه عبدان إنه محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق الذى دعا له أبوك وكان حجته ، فاستنكر الحسين القداحى إجابته ، وقال له : إن الإمام إنما كان والده ، وحلّ هو محله الآن . وعندئذ أدرك عبدان حقيقة القدّاحين وأنهم تظاهروا بالدعوة لمحمد بن إسماعيل خداعًا للناس وتمويهًا عليهم حتى يجتذبوهم إلى صفوفهم . وعاد عبدان إلى حمدان فوقفه على حقيقة الأمر ، وأشار عليه بوقف الدعوة وأن يجمع الدعاة ويبين لهم الحقيقة . وأخذ حمدان برأيه ، فوقف الدعوة فى الأماكن القريبة منه ، ولم يستطع توضيحها لمن كانوا فى الأماكن النائية ، وترك كلواذى واختفى هو وصهره عبدان من مسرح التاريخ ، ويبدو أن

---

(١) طمر : فرس . — ١٠ / ٩٤ .
(٢) كان أحد دعاة قرمط المهمين . الطبرى — (٣) الدورى ص ١٦٥ .

القداحين عملوا على اغتيالهما ، واتُّخذ زَكْرويه أداة لتنفيذ هذا الاغتيال .

وعلى هذا النحو صارت رياسة الدعوة فى سواد الكوفة والعراق إلى زَكْرويه الدَّندانى ، وكان أعظم نشاطًا من حمدان قرمط وصهره عبدان ، ولما رأى الدولة تتعقب القرامطة بسواد الكوفة وأنه لا غَنَاء عندهم سعى فى استغواء البدو من أسد وطيِّئ وتميم وغيرهم ، وتابعته منهم جماعات ، غير أن كثرة البدو المحيطين بجنو بى العراق لم تستجب له ، فأرسل أولاده يحيى والحسين ومحمداً إلى عشائر قبيلة كلب فى بادية السماوة بين العراق والشام ، فأصاخوا لهم وبايعوهم ، وكان مما زعموه لهم أنهم من ولد محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، حتى إذا رأوهم يدعونهم إلى العقيدة القرمطية نفروا منهم ولم يتابعهم إلا بنو العليص ، إذ بايعوا فى آخر سنة ٢٨٩ يحيى بن زكرويه متلقبًا لهم بالشيخ وزاعمًا أنه أبو عبد الله على بن محمد ابن إسماعيل بن جعفر الصادق ، وقيل بل زعم أن اسمه محمد بن عبد الله . وزعم لهم فيما زعم أن أباه — ودعاه أبا محمود — يدعو له ، وأنه يتبعه فى السواد بالعراق وفى المشرق والمغرب مائة ألف ، وأيضًا زعم لهم فيما زعم أن ناقته التى يركبها مأمورة ، وأنهم إذا اتبعوها فى لقاء عدوّ نزل عليهم الفتح المبين ، وتكهّن لهم أو ادعى فيهم الكهانة ، وأظهر لهم عضداً له ناقصة ، وذكر أنها آيته[1]. ومضى فى سنة ٢٩٠ بمن تبعوه يعيث فساداً فى المدن السورية ، وكانت تتبع حينئذ الدولة الطولونية ، وكانت تعانى من ضعف شديد ، وكانت قد ولت عليها طُغْجًا الإخشيدى قبل ولايته على مصر ، فأرسل لابن زكرويه جيشًا سرعان ما هُزم وقُتل قائده[2] . وقصد ابن زكرويه الرقة فى جمع كثير يَقْتُلُ وينهب ، وواقع هناك جيشًا للخليفة المكتفى وهزمه وقتل قائده . وحاصر دمشق غير أنها صمدت لحصاره . وسرعان ما قُتل على أبوابها ، فبايع أتباعه أخاه الحسين ونادوا به خليفة من بعده ، وزعم لهم بدوره أنه أحمد بن عبد الله بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، وأظهر لهم شامة فى وجهه الملثّم ذكر أنها آيته ، ولذلك سُمِّى بصاحب الشامة ، ووفد عليه ابن عم له يسمى عيسى بن مهرويه ، فزعم أنه مثله من نسل جعفر الصادق ولقّبه المدَّثِّر ، وزعم أنه المقصود بسورة المدثر[3] ! وأجابه كثير

(١) طبرى ١٠ / ٩٥ .
(٢) طبرى ١٠ / ٩٧ .
(٣) طبرى ١٠ / ٩٦ .

من البدو ، واشتدت شوكته ، فزحف بجموعه على دمشق وخافه أهلها فصالحوه على خراج يؤدونه إليه . وتقدّم إلى حمص ، فتغلب عليها ، وخُطب له على منابرها باسم المهدى المنتظر ، ثم سار إلى حماة والمعرة وبعلبك يقتل ويسفك الدماء وينهب . ونزل سَلَمْيَة ، وبدأ بقتل مَنْ بها من بنى هاشم ثم قتل أهلها أجمعين حتى صبيان الكتاتيب ، ولم يُبْق بها عيناً تطرف[1] . ويظهر أنه كان يريد القضاء على الأئمة المستودَعين من أسرة القداحين ومن وراءهم من الأئمة المستورين إن كان يوجد أحد منهم حقًّا ، حتى يصفو الجو له ولإمامته ودعوته وخلافته ، ونرى الطبرى يحتفظ بكتاب منه إلى بعض عماله يستهله على هذا النمط : « بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله أحمد بن عبد الله المهدى ، المنصور بالله ، الناصر لدين الله ، القائم بأمر الله ، الحاكم بحكم الله ، الداعى إلى كتاب الله ، الذابّ عن حُرَم الله ، المختار من ولد رسول الله ، أمير المؤمنين ، وإمام المسلمين ، ومذلّ المنافقين ، خليفة الله على العالمين ، وحاصد الظالمين ، وقاصم المعتدين ، ومبيد الملحدين ، وقاتل القاسطين ، ومهلك المفسدين ، وسراج المبصرين ، وضياء المستضيئين ، ومشتت المخالفين ، والقائم بسنة سيد المرسلين ، وولد خير الوصيين ، صلى الله عليه وعلى أهل بيته الطيبين ، وسلّم كثيراً . . . »[2] .

وواضح أن الحسين بن زكرويه لم يكتف بأن يكون إماماً مستودَعاً مثل القداحين ، بل رأى أن يكون الإمام المستور نفسه . ولذلك ادّعى له نسباً إلى محمد ابن إسماعيل بن جعفر الصادق ، وتلقب بالمهدى وخليفة الله أمير المؤمنين . وفرّ منه عبيد الله المهدى رأس الدولة الفاطمية ، ومضى فى فراره حتى شمالىّ إفريقيا . ولما تكاثرت فظائعه وضجّ أهل الشام منه بالشكوى إلى الخليفة المكتفى أرسل إليهم جيشاً جراراً بقيادة محمد بن سليمان ، فنازل الحسين وأتباعه بالقرب من حماة فى المحرم لسنة ٢٩١ وسحقهم سحقاً ذريعاً . ففرّ كثيرون من جنده إلى البوادى ، وفر على وجهه مع بعض خاصته إلى الشرق ميمماً الفرات ، وأُسروا هناك جميعاً ، وصُلبوا ببغداد مع عشرات من القرامطة جيء بهم من الكوفة ، وكان بينهم بغداديون ذاقوا المصير نفسه[3] . ويذكر الطبرى أن أخاً لصاحب الشامة — لعله الأخ الثانى

(١) طبرى ١٠٠/١٠ .
(٢) طبرى ١٠٥/١٠ .
(٣) طبرى ١٠ / ١٠٨ .

المسمى محمداً — عاث ببعض الأعراب فى نواحى دمشق لسنة ٢٩٣ ثم صار إلى طبرية فغلب عليها ودخلها وقتل عامة أهلها من الرجال والنساء ونهبها وانصرف إلى ناحية البادية[١]. وأرسل زكرويه فى السنة نفسها داعية له إلى بادية الشام يسمى أبا غانم، فالتف حوله كثيرون وانتهب بهم بعض المدن القريبة من البوادى مثل بصرى وأذرعات، وتعقبتهم جنود الخلافة من ماء إلى ماء، وقتل أبا غانم أحدُ أتباعه[٢] فقُضى على تلك الثورة. وبذلك تنتهى حركة زكرويه فى بوادى الشام، إذ يقضى العباسيون عليهم هناك قضاء مبرمًا، وأحكم لهم ذلك أنهم قضوا فى الوقت نفسه على الدولة الطولونية التى كانت قد ضعفت ضعفًا شديداً، مما مكن لزكرويه وأبنائه وأتباعه أن يحدثوا هناك شغبًا وفتنًا كثيرة.

واستعادت الدولة سيطرتها كاملة على سواد الكوفة ومَن كان به من أتباع زكرويه ويذكر المؤرخون أنه أنفذ إلى البدو داعية له من أهل السواد يسمى القاسم بن أحمد يدعوهم للخروج معه ومع شيعته من سواد الكوفة، واجتمع له كثيرون، حتى إذا كان المحرم من سنة ٢٩٤ هاجم قوافل الحجاج فى أوبتها من المسجد الحرام ونهب جميع ما كان معها من الأموال مما قُدّرت قيمته بنحو مليونين من الدنانير وقتل من الحاج نحو عشرين ألفًا، وبلغ النبأ بغداد، فندب له الخليفة المكتفى وصيف بن صوارتكين فى جيش جرار، فلقيه فى الرابع من شهر ربيع الأول وقتل من شيعته مقتلة عظيمة، وخلص بعض الجند إلى زكرويه فضربه بالسيف وهو فارٌّ ضربة اتصلت برأسه، فاستسلم، وأخذه أسيراً، وأسروا نائبه وخواصه وابنه وأقاربه وكاتبه وامرأته، وحُمل وهو جريح فتوفى فى الطريق إلى بغداد من أثر الضربة[٣]. وبذلك قُضى على حركة زكرويه فى سواد الكوفة وبوادى الشام قضاء نهائيًّا.

وإذا كانت حركة القرامطة قد باءت فى هاتين المنطقتين بإخفاق ذريع فإنها نجحت إلى حد بعيد فى منطقة الأحساء والبحرين على يد أبى سعيد الحسن بن بهرام الجنَّابى الذى مرّ ذكره آنفًا، وكان من كبار دعاة حمدان قرمط، واستطاع أن

(١) طبرى ١٠/١٢١ والنجوم الزاهرة ٣ / ١٥٨.
(٢) طبرى ١٠ / ١٢٢.
(٣) طبرى ١٠ / ١٢٤ وعريب ص ١١ والنجوم الزاهرة ٣ / ١٥٩.

يؤسس هناك دولة ظلت آماداً متطاولة إلى نحو منتصف القرن الرابع إذ دخلوا منذ سنة ٣٥٨ فى طاعة الخليفة العباسى وخطبوا له على المنابر . وكانت تسود فى دولة أبى سعيد الروح الاشتراكية التى بثَّها أستاذه حمدان قرمط ، وعظم أمره . وكثيراً ما كان يحدث لعهد الخليفة المكتفى أن يتقدم بجنوده نحو البصرة ، وتلقاه جيوش الخلافة ، ويقتتل الطرفان قتالا شديداً[١] . وما زال يسوس دولته ، حتى قتله غلام له صقلبي فى سنة ٣٠١ وقتل معه جماعة من قواده[٢] ، فقام بالأمر من بعده ابنه أبو طاهر سليمان بن الحسن الجنَّابىّ ، ونراه يهاجم البصرة بأتباعه بمجرد استيلائه على الحكم[٣] ، حتى إذا كانت سنة ٣٠٧ عاد إلى مهاجمتها وإعمال النهب والسلب فيها[٤] . ودخلها لسنة ٣١١ فى ألف وسبعمائة من أتباعه ، وضعوا السيف فى أهلها ، وقتلوا واليها سبكًا المفلحى ، وأحرقوا المربد وبعض الجامع ومسجد قبر طلحة ، وظل بها سبعة عشر يومًا يحمل على إبله ما نهبه من الأموال والمتاع[٥] . وفى السنة التالية رصد الحاجّ فى مقدمهم من مكة لشهر المحرَّم وأخذ يوقع بقوافلهم ، وينهب الأموال ، ويأسر ويقتل ، وجاء الخبر إلى بغداد بذلك فوقع النَّوْح والبكاء وخرج النساء منشَّرات الشعور مسوّدات الوجوه يلطمن ويندبن[٦] . وفى سنة ٣١٣ سار الحجاج من بغداد ومعهم جعفر بن ورقاء فى ألف فارس ، فلقيهم أبو طاهر ، فناوشهم بالحرب ، فخاف الناس ورجعوا إلى بغداد ، فاتجه إلى الكوفة ، فقاتلوه ورجحت كفته ودخل البلدة وأقام بها ستة أيام ينهب ويسلب ، وكان مما نهبه منها أربعة آلاف ثوبِ وشيٍ وثلثمائة راوية زيت[٧] . وفى سنة ٣١٥ خرج فى ألف فارس وخمسة آلاف راجل متجهًا إلى الكوفة ، وعلم المقتدر فجهَّز لحربه يوسف بن أبى الساج فى عشرين ألفًا ، وتقاتلا على أبواب الكوفة ، ودارت الدوائر على ابن أبى الساج وأسر جريحًا ، وقُتلت جماعة كثيرة من أصحابه . وبلغ ذلك المقتدر فراعه الخبر ، وندب مؤنسًا لقتاله ، فخرج بالعساكر إلى الأنبار فى أربعين ألفًا ، وانضم إليه أبو الهيجاء بن حمدان وإخوته فى أصحابهم وأعوانهم ، ووقعت بينهما

---

(١) طبرى ١٠ / ٧٥ ، ٧٩ ، ٨٥ .
(٢) طبرى ١٠ / ١٤٨ والهمدانى ص ١٤ والنجوم الزاهرة ٣ / ١٨٢ .
(٣) الهمدانى ص ١٤ .
(٤) النجوم الزاهرة ٣ / ١٩٧ .
(٥) الهمدانى ص ٤٠ والنجوم الزاهرة ٣ / ٢٠٧ .
(٦) الهمدانى ص ٤٣ والنجوم الزاهرة ٣ / ٢١١ .
(٧) الهمدانى ص ٤٨ والنجوم الزاهرة ٣ / ٢١٣ .

مناوشات ليست بذات بال ، مما أغرى أبا طاهر بمنازلة بلدان كثيرة فى جنوب العراق سالبًا ناهبًا سافكًا للدماء[١] . وفى السنة التالية دخل الرحبة جنوبى قَرْقِيسْياء شمالى العراق ، ووضع فيها السيف ، فبعث إليه أهل قَرْقِيسْياء يطلبون الأمان فأمَّنها ، ثم دخلها . وتوجه إلى الرقة ، فأخذها ، وتفاقم أمره وكثر أتباعه[٢] . حتى إذا كان موسم الحج لسنة ٣١٧ حدثت الطامة الكبرى إذ وافى أبو طاهر الحاجَّ يوم التَّرْوِية ، وهم يهلُّون ويلبُّون ، وقتل الحجاج قتلا ذريعًا فى فِجاج مكة وداخل البيت الحرام وهم متعلقون بأستاره ، ويقال إنه قتل منهم نحو عشرة آلاف ، طُرِح كثير منهم فى بئر زمزم ، وعَرَّى البيت من كسوته وقلع بابه واقتلع الحجر الأسود وأخذه معه إلى هجر ، وظل هناك حتى رُدَّ إلى موضعه فى عهد الخليفة المطيع سنة ٣٣٩ . ونهب جميع التحف التى زيَّن بها الخلفاء الكعبة على مر الأزمنة وما كانوا رصَّعوها به من الجواهر النفيسة ، ويقال إنه كان يجلس على باب الكعبة والحجيج يُصْرَعون حوله فى المسجد الحرام ، وهو ينشد مثل قوله :

أنا لله وبالله أنا يَخْلق الخلقَ وأُفنيهم أنا

ويقال إنه كان زنديقًا لا يصلى ولا يصوم ولا يؤدى فرائض الإسلام ، مع تظاهره بأنه مسلم وزعمه أنه داعية عبيد الله المهدى بإفريقيا[٣] . ولم يحج أحد منذ هذا التاريخ حتى سنة ٣٢٦ ، خوفًا من شره وشر أتباعه من القرامطة ، غير أن شرّه لم ينحسر عن العراق ، إذ هاجم الكوفة لسنة ٣١٩ ، وعاود الهجوم عليها فى سنة ٣٢٥ ونازلته جنود الخلافة فى سنة ٣٣٠ ، ومات فى شهر رمضان لسنة ٣٣٢ بالجُدَرى بعد أن تقطعت بسببه أوصاله وأطرافه وهو ينظر إليها ، وبعد أن طال عذابه ورأى فى جسده العِبَر . وخلفه أخوه سعيد[٤] بن الحسن الجنَّابىّ ، وهو الذى ردّ الحجر الأسود إلى مكانه بالكعبة ، وكان العراق قد دخل فى حكم البويهيين فضعف شأن قرامطة البحرين والأحساء ، واضطروا بأخرة إلى الدخول فى طاعة الخلافة العباسية ونَبْذ عقيدتهم القرمطية .

---

(١) الهمدانى ص٥٢ والنجوم الزاهرة ٣/٢١٧ .
(٢) النجوم الزاهرة ٣ / ٢٢٠ .
(٣) الهمدانى ص٦٢ عريب ص٩٥ والنجوم الزاهرة ٣/ ٢٢٤ .
(٤) الهمدانى ص ١٠٢ ، ١٣٩ والنجوم الزاهرة ٣ / ٢٢٨ ، ٢٧٥ ، ٢٨١ .

٥

أحداث مختلفة

لعل أهم ما أمر به المتوكل فى أوائل خلافته وَقْفُ القول بخلق القرآن وإنهاء حمل الناس بالقوة عليه وما كان من العنف بجلّة الفقهاء السنّيين وفى مقدمتهم أحمد ابن حنبل ممن رفَضُوا اعتناق هذا القول، وكانت المحنة بذلك بدأت — كما مرَّ فى كتابنا العصر العباسى الأول — منذ عصر المأمون سنة ٢١٢ ، إذ جعل القول بخلق القرآن عقيدة رسمية للدولة وكتب إلى الآفاق بامتحان الفقهاء فيها ، فمن لم يعلن جهاراً اعتناقه لها ضُرب وقُيِّد وأرْسل إلى بغداد لمحاكمته وحبسه. وتظل المحنة قائمة فى عهد المعتصم ، وإن خفَّت حِدَّتها كثيراً ، ثم تعود إلى الاشتداد لعهد الواثق ويعود معها العنف بالفقهاء ممن لا يجاهرون بأن القرآن مخلوق . حتّى إذا ولى المتوكل أمر بوقف هذا العنف وكل ما اتصل به من امتحان وأن يترك الناس الخوض فى ذلك ويهتموا بالحديث والسنة[1]. وبذلك هيأ لأن يأفل شأن الاعتزال ورجاله الذين دفعوا إلى هذه المحنة وظلوا يمدونها بالحطب الجزل، حتّى أطفأ المتوكل نارها المشتعلة وأحالها رماداً، وكان لذلك أثر بعيد فى الحياة العقلية والفنية ، فقد أفل نجم المعتزلة أصحاب الفكر الحر ، وتألق نجم أهل السنة المحافظين ، وأخذ الذوق المحافظ يسود فى كل شىء فى الشعر وفى الغناء ، وحتّى فى الدراسات الدينية ، إذ ظهر مذهب داود الظاهرى الذى يرفض القياس .

وثار فى أذربيجان لسنة ٢٣٤ ، محمد بن البعيث وقُضى على ثورته . وتدخل سنة ٢٣٦ ، فيأمر المتوكل بهدم قبر الحسين فى كربلاء وهدم ما حوله من المنازل والدور وأن يُحرَثَ ويبذر ويُسْقَى موضع قبره ويُمْنَعَ الناس من إتيانه ، فحرِث الموضع وزُرع ما حواليه حتّى يزول أثره ، وحلت بذلك محنة عظيمة على آل أبى طالب وشيعتهم . ويقول المسعودى إنه حين انتهى الفَعلة إلى الحفرة وموضع اللحد لم يروا فيه أثر جثة ولا غيرها[2]. ويقول الطبرى : نُودى فى

---

(١) مروج الذهب ٣/٤ والنجوم الزاهرة ٢/ ٢٧٥ . (٢) مروج الذهب ٤ / ٥١ .

الناس : من وجدناه عند قبره بعد ثلاثة بعثنا به إلى السجون ، فامتنع الناس من المصير إليه[١]. وكان ذلك إنذاراً شديداً للعلويين ، فلم يتحرك منهم أحد لعهد المتوكل خشية بطشه ، وبالمثل لم يتحرك الخوارج لا فى الموصل ولا فى خراسان .

وتظل الغزوات الصيفية للروم البيزنطيين — ويسمونها الصائفة — قائمة طوال عصر المتوكل ، وينزلون فى سنة ٢٣٩ دمياط وينهبون كثيراً من الأمتعة والأموال ، ثم يفرون إلى البحر المتوسط وما وراءه[٢]. ويحاولون الإغارة على سُمَيْسَاط وبعض الثغور فى شمالى الشام والموصل ، ويُنْزِل بهم على بن يحيى الأرمنى فى سنة ٢٤٥ هزائم متلاحقة[٣]، ويدور العام ، فينكل بهم فى غزو الصائفة ويعود بأسلاب وغنائم كثيرة ، كما ينكل بهم الفارس المغوار عمر بن عبد الله الأقطع وتكثر مغانمه ، ويغزوهم الفضل بن قارن فى عشرين مركبًا ويفتتح حصن أنطالية[٤]. وما يزال غزو صقلية مستمراً فى عهد المتوكل منذ نزول العرب بها فى عصر المأمون حتى تستسلم نهائياً[٥]. وفى ديوان البحترى غزوة بحرية دمَّر فيها أسطول المتوكل بقيادة أحمد بن دينار أسطول الروم لم يعرض لها المؤرخون[٦] .

ويولِّى المتوكل سنة ٢٣٧ محمد بن عبد الله بن طاهر الشرطة وأعمال السواد فى العراق ونيابته فى بغداد ، وهى وظيفة تشبه وظيفة المحافظ لعصرنا ، وظل يتولاها حتى وفاته سنة ٢٥٣ وظلت بعده فى بيته طويلا . وفى سنة ٢٤١ ثارت البجة فى شمالى السودان على والى مصر وامتنعت من دفع الخراج ، واشتبك معها محمد بن عبد الله المعروف بالقمى فى سلسلة من المعارك توالت فيها انتصاراته ، وما زال يقاتلهم حتى أنابوا إلى الطاعة وعادوا إلى أداء ما كانوا يؤدونه من الخراج[٧]. وفى سنة ٢٤٤ غضب المتوكل على بختيشوع المتطبب وصادر أمواله وأمر بنفيه إلى البحرين[٨]. ويقول المسعودى : « كانت أيام المتوكل أحسن أيام وأنضرها من استقامة الملك وشمول الناس بالأمن والعدل »[٩] .

---

(١) طبرى ٩ / ١٨٥ .
(٢) طبرى ٩ / ١٩٣ وانظر العرب والروم لفازيلييف ترجمة محمد عبد الهادى شعيرة ص١٨٧ .
(٣) طبرى ٩ / ٢١٨ .
(٤) طبرى ٩ / ٢١٩ .
(٥) العرب والروم ص ١١٥ ، ١٢٩ ، ١٨٠ ، ٢٢٨ وما بعدها .
(٦) ديوان البحترى (طبع دار المعارف) ٩٨٠/٢ .
(٧) طبرى ٩ / ٢٠٣ وما بعدها .
(٨) طبرى ٩ / ٢١١ .
(٩) مروج الذهب ٤ / ٤ .

وخلفه ابنه المنتصر في شوال سنة ٢٤٧ ، وكانت خلافته قصيرة لم تزد على ستة أشهر ، وفيها وجّه جيشًا كثيفًا بقيادة وصيف لغزو الصائفة[١]. ولعل أهم أعماله أنه أمر بالكف عن العلويين وألا يمنع أحد من زيارة كربلاء والنجف وما بهما من قبور آل أبي طالب ، وأمر بردّ أرض فَدَك في الحجاز إلى أولاد الحسن والحسين ، وأطلق أوقاف العلويين جميعًا وأمر ألا يتعرض أحد لشيعتهم بأذى أو مكروه[٢]. وخرج لعهده محمد بن عمرو الشارى بناحية الموصل ، وتجمع حوله كثيرون من الخوارج تزعمهم وحضهم على الثورة وانضم إليهم كثيرون من الأكراد ، فوجه إليه جيشًا بقيادة سيما التركى ، هزمه هزيمة ساحقة ، وساقه مع طائفة من أصحابه أسيرًا إلى سامرَّاء ، فقُتلوا وصُلبوا جميعًا[٣] . وفي عهده بدأ يعقوب ابن الليث الصفار ثورته في سجستان وتحرك إلى هراة[٤] .

ويتولى الخلافة المستعين بالله نحو ثلاث سنين وثمانية أشهر ، وفي عهده يعود أبناء عمه الطالبيين إلى التحرك ، فيخرج بالكوفة لسنة ٢٤٨ يحيى بن عمر الطالبي حفيد زيد بن علي زين العابدين ، ويرسل إليه المستعين بجيش كثيف يقضي على ثورته ويُقْتَلُ ويُحْمَلُ رأسه إلى بغداد ويُصْلَبُ ويبكيه كثير من الشعراء لورعه وتقواه[٥] ، وجيمية ابن الرومي في رثائه والتفجع عليه مشهورة ، وفيها يقول :

سلامٌ وريحانٌ ورَوْحٌ ورحمةٌ ... عليك وممدودٌ من الظل سَجْسَجُ[٦]

وفي سنة ٢٥٠ يخرج الحسن بن زيد، وهو من حفدة زيد بن علي زين العابدين ابن علي بن أبي طالب ، وكان خروجه بطبرستان ويغلب هناك على بلاد الديلم جميعها[٧]، ويظل ثابتًا لجيوش الدولة العباسية حتى يلبي نداء ربه لعهد المعتمد سنة ٢٧٠ ويخلفه من بعده أخوه محمد[٨]. ويخرج على المستعين علويون مختلفون

---

(١) طبرى ٩ / ٢٤٠ والعرب والروم ص٢١٧ . والفخرى ص ٢٤٠ .
(٢) مروج الذهب ٤ / ٥١ .
(٣) طبرى ٩ / ٢٥٥ ومروج الذهب ٤ / ٥٣ .
(٤) طبرى ٩ / ٢٥٥ .
(٥) طبرى ٩ / ٢٦٦ ومروج الذهب ٤ / ٦٣
(٦) سجسج : معتدل لا حار ولا شديد البرد .
(٧) طبرى ٩ / ٢٧١ ومروج الذهب ٤ / ٦٨ .
(٨) طبرى ٩ / ٦٦٦ ومروج الذهب ٤ / ٦٨ ، ١٧٧ .

بالرّى وقزوين والكوفة ويقضى عليهم جميعاً[١]. ويتحرك بعض الخوارج ويلقاهم المصير نفسه[٢]. وتحدث حينئذ أكبر فاجعة أصابت الغزاة المقاتلين فى جبهة الروم إذ استشهد فى سنة ٢٤٩ بطلان مغواران من أهل البأس والنجدة والمكيدة فى الحروب ، هما عمر بن عبيد الله الأقطع وعلى بن يحيى الأرمنى اللذان طالما دوّخا الروم وأنزلا بهم هزائم ساحقة ، أما عمر فكان يغزو الصائفة فى جمع من أهل ملَطْية فلقيه إمبراطور بيزنطة فى جيش جرار بلغ خمسين ألفاً ، ونشب القتال بينهما ، واستبسل عمر فى الجموع القليلة التى كانت معه استبسالا رائعاً ، ولكنهم استطاعوا لكثرتهم أن يحيطوا به ، فاستشهد فى ألف من المسلمين الأبرار ، بعد أن أبلوا فى المعركة بلاءً عظيماً . وأما على فكان قد انصرف من الثغور إلى ديار بكر شمالى العراق ، وجاءه نعىّ عمر المفجع ، فاستشاط غضباً وأسرع إليه فى أربعمائة مقاتل ، وهو لا يعلم عدّة الروم ، فأحاطوا به مثل صاحبه ، ومضى إلى ربه شهيداً[٣].

وبويع بالخلافة المعتز فى المحرم من سنة ٢٥٢ وفى عهده أوقع مفلح بعبد العزيز ابن أبى دلف الثائر بالكرج وهزمه هزيمة نكراء[٤]، ودخل مفلح لسنة ٢٥٥ طبرستان ، وهزم الحسن بن زيد العلوى وأحرق منازله ، وفر الحسن إلى الديلم ، وتوجه مفلح نحوه[٥]. وعلا حينئذ شأن يعقوب بن الليث الصفار ، واستولى على كرمان وفارس[٦]. وأقطع المعتز حاجبه بايكباك مصر لسنة ٢٥٤ فولى عليها أحمد بن طولون ، وسرعان ما أسس بها الدولة الطولونية .

وتولى الخلافة المهتدى فى سنة ٢٥٥ ومكث فى الخلافة أحد عشر شهراً ، وكان صالحاً تقيًّا عادلا طاهر السيرة ، أمر بالمعروف ونهى عن المنكر وحرّم الشراب والاختلاف إلى القيان للسماع ، وبنى قبة جلس فيها لاستقبال العام والخاص ، والنظر فى المظالم وأقل من المطعم والمشرب ، وكان يخطب بنفسه خطبة الجمعة ويؤم الناس فى المسجد الجامع ، وكانت الخلفاء قبله تنفق على موائدها فى كل يوم

---

(١) مروج الذهب ٤/ ٦٩ .

(٢) طبرى ٩/ ٣٠٨ .

(٣) طبرى ٩/ ٢٦١ ومروج الذهب ٤/ ١٢٥ والعرب والروم ص ٢٢٠ ، ٢٢٤ .

(٤) طبرى ٩/ ٣٧٣ .

(٥) طبرى ٩/ ٣٨٢ .

(٦) طبرى ٩/ ٣٨٢ وما بعدها .

عشرة آلاف درهم ، فأزال ذلك وجعل لمائدته وسائر مؤنه كل يوم نحو مائة درهم ، وكان يواصل العبادة والصيام[(١)]، فبدا غريباً عن روح العصر ، وثقل حكمه على الأتراك فأعملوا الحيلة عليه حتى قتلوه . وفى عهده بدأ أمر صاحب الزنج يظهر على نحو ما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع .

وخلفه المعتمد فى رجب سنة ٢٥٦ وكان يؤثر اللذة ويعكف على الملاهى غير أنه رُزق حظوة بأخيه أبى أحمد الموفق وكان حازماً مقداماً بعيد النظر عارفاً بأمور الحرب وشئون السياسة ، فغلب على الخلافة وتدبيرها ، وأصبح المعتمد معه كالمحجور عليه . وكانت الخلافة العباسية تردَّت فى هوة بعيدة القرار ، فأعاد إليها هيبتها ، وقضى كما مرَّ بنا على ثورة الزنج قضاء مبرماً ،وهزم يعقوب بن الليث الصفار هزيمة نكراء ، اضطر على إثرها إلى الفرار إبقاء على نفسه من الموفق وجنوده . وتحركت حينئذ الخوارج فى الموصل وخراسان ، وقضى على حركاتها جميعاً[(٢)]. وكان القواد من أصحاب الثغور وغيرهم لا يزالون ينازلون الروم فى الصوائف وفى مقدمتهم البطل يازمان الذى نكَّل بهم لسنة ٢٧٤ ودارت السنة فغزاهم فى البحر ، وأخذ لهم أربعة مراكب[(٣)].

ويلى الخلافة المعتضد لسنة ٢٧٩ ، وكان صورة قوية للحزم والجد اللذين ليس بعدهما جد وحزم ، كما كان فارساً شجاعاً وبطلا مغواراً أنقذ الخلافة مع أبيه الموفق من الزنج الثائرين الذين دوَّخوا القواد قائداً تلو قائد . وفى أيامه سكنت الفتن وصلحت البلدان واستقامت له الأمور ورخصت الأسعار . وأديل له دائماً من المخالفين عليه ، وكانت جيوشه تغدو وتروح بالنصر ، وممن ظفر بهم هرون الشارى الذى خرج بالموصل[(٤)] وثار عليه بأصبهان والجبل فى سنة ٢٨٣ بكر بن عبد العزيز بن أبى دلف العجلى الشيبانى فوجه إليه عيسى النوشرى ففرَّ من أمامه ، ثم عاد إلى الظهور فى سنة ٢٨٤ ، وقُضى على ثورته. ونازل له السامانيون محمد بن زيد العلوى أخا الحسن الذى مر ذكره ، إذ هاجموه بطبرستان وقتلوه على أبوابها [(٥)] لسنة٢٨٧. ونازلوا له الترك وفتحوا حاضرتهم وأسروا ملكهم وامرأته خاتون ونحواً من

---

(١) مروج الذهب ٤ / ٩٧ ، ١٠٣ .

(٢) طبرى ٩ / ٥١٢ ، ٥٣٢ .

(٣) طبرى ١٠ / ١٣ وما بعدها .

(٤) طبرى ١٠ / ٤٣ .

(٥) طبرى ٨١/١٠ ومروج الذهب ١٧٧/٤ .

عشرة آلاف مع ما أخذوا من الأسلاب والغنائم الوافرة[١]، وغزت جيوشه الروم وكبدتهم خسائر فادحة ،أ وغزاهم قائده راغب فى البحر لسنة ٢٨٥ ، واستولى منهم على مراكب كثيرة ، غير ما أغرقه ، وضرب أعناق ثلاثة آلاف منهم وفتح كثيراً من حصونهم[٢]. ويغادر أبو عبد الله الشيعى فى عهده الشام إلى المغرب وينزل بقبيلة كتامة ويدعوهم إلى عبيد الله المهدى جد الخلفاء الفاطميين الذى كان قد فرَّ من الحسين بن زكرويه ، على نحو ما أسلفنا فى حديثنا عن القرامطة والإسماعيلية[٣]. ويحدث لعهد المعتضد حادث مفجع إذ يوغر دميانة أحد قواده فى الثغور صدره على أهل طرسوس لشىء كان فى نفسه منهم ، ويشير عليه أن يحرق سفنهم التى كانوا يغزون فيها الروم . والعجب العجاب أن يصيخ له المعتضد المعروف بكياسته ، غير أن هذا الشيطان عرف كيف يؤثر فيه ، فأمر بإحراق جميع سفنهم البحرية وإحراق جميع آلاتها الحربية ، يقول الطبرى : « وكانت خمسين مركباً قد أنفقت عليها أموال جليلة فأضرَّ ذلك بالمسلمين وكسر فى أعضادهم وقَوِىَ به الروم وأمنوا أن يُغْزَوْا فى البحر أو تُدَمَّر سفنهم وأساطيلهم فيه »[٤].

ويتولى الخلافة المكتفى سنة ٢٨٩ ، وكان يتوخى العدل والإنصاف فى حكمه ، فردَّ المظالم إلى أهلها ومالت إليه قلوب الرعية . وفى عهده تَمَّ القضاء على زِكْرويه القرمطى ومن بقى من أبنائه وفتح جيشه المقيم بطرسوس أنطالية على ساحل البحر المتوسط عنوة ،وقتل من أهلها خمسة آلاف ، وأسر مثلهم ، واستولى على ستين مركباً للروم حمَّلها ما غنم من الرقيق والمتاع والذهب والفضة[٥]. ويذكر آدم ميتز أنه فى السنة نفسها ، وهى سنة ٢٩٣ ، استولى المسلمون على مدينة سالونيق ثانية مدن الدولة البيزنطية وأسروا من أهلها اثنين وعشرين ألفاً[٦]. وفى السنة التالية غزت جنود المكتفى سلندو وآلس وفتح الله عليهم وقتلوا من أهلهما مقتلة كبيرة[٧]. وفى السنة نفسها ظهر السفيانى بالشام ، ودعا إلى نفسه ، وتبعه نفر ، فحُملوا جميعاً مقيَّدين إلى باب المكتفى[٨].

---

(١) طبرى ١٠ / ٣٤ .
(٢) طبرى ١٠ / ٦٨ .
(٣) انظر النجوم الزاهرة ٣ / ١٢٤ .
(٤) طبرى ١٠ / ٨٠ .
(٥) طبرى ١٠ / ١١٧ .
(٦) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى لآدم ميتز ترجمة الدكتور أبى ريدة (الطبعة الأولى) ١ / ٥ .
(٧) طبرى ١٠ / ١٣٠ .
(٨) طبرى ١٠ / ١٣٥ .

ويخلفه أخوه المقتدر سنة ٢٩٥ وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، وما يوافى شهر ربيع الأول لسنة ٢٩٦ ، حتى يجتمع كثيرون من الكتاب والقضاة وذوى الرأى ويُجْمعوا على خلعه وتولية ابن المعتز ، وتتم له البيعة ، ولا يكاد يمضى عليه يوم وليلة حتى ينتقض الأمر عليه كما مر بنا فى غير هذا الموضع ، فيُقْتَل وتُرَدّ الخلافة على المقتدر ، ويصبح لعبة فى أيدى الترك يحركونه كما يشاءون ، وتعود الدولة إلى سيرتها القديمة السيئة قبل المعتمد وأخيه الموفق . وكان فى بيت المال يوم تولى الخلافة خمسة عشر مليوناً من الدنانير بدّدها كلها ، وبدّد معها القناطير المقنطرة من الأموال التى كانت تُجْبَى من أطراف الدولة الواسعة. وتحكمت أمه « شغب» ووصيفاتها فى شئون الدولة ، وعاد الأتراك إلى طغيانهم وفسادهم ، فكثرت الرشوة وعمّ الظلم والبغى ، وكثر الوزراء وكثرت مصادراتهم ومصادرات الكتّاب والتجار ، كما كثر الاستيلاء على أموال ذوى اليسار بغير حق ، مما ألممنا به فى غير هذا الموضع . وكان هذا الفساد سبباً فى كثرة الفتن والثورات ، وما توافى سنة ٣٠٠ للهجرة حتى يثور على الدولة بطبرستان والديلم الأطْروش العلوى وهو الحسن بن على الحسنى ، اقّب نفسه بالداعى ، واستطاع أن يُدْخل فى الإسلام كثيرين استجابوا له ، وبنى لهم المساجد ، وكان حصيفاً فاضلا أصلح الله الديلم به [1] . وأغار الروم على اللاذقية بَحْراً وسبَوْا منها خلقاً كثيراً ، وردّ دميانة قائد الأسطول العربى فى البحر المتوسط على هذا الغزو فى السنة نفسها وهى سنة ٢٩٨ فغزا بأسطوله قبرص وفتح بها كثيراً من الحصون وحرق وسَبَى كثيرين [2] . وفى سنة ٣٠٤ غزا مؤنس بلاد الروم من ناحية مَلَطْيَة وفتح حصوناً كثيرة [3] ، وردّ الروم على هذا الغزو فى سنة ٣١٤ فدخلوا مَلَطْية بالسيف ، وقتلوا وسبوا ، وظلوا فيها أياماً [4] . وفى سنة ٣١٣ فُتحت بلوخستان ، وكانت لا تزال وثنية فدخلت فى دين الله.

وتولى الخلافة القاهر بالله سنة ٣٢٠ ، وكان مولعاً بالشراب والغناء ، وكان سفاكاً للدماء ، شديد البطش بمن يغضب عليه من الأتراك ، وقتل منهم نفراً فى مقدمتهم مؤنس الملقب بالمظفر أكبر الحجاب فى عصره وعصر المقتدر ، وهابه الناس وخشوا

---

(١) طبرى ١٠/١٤٩ ومروج الذهب ٤/٢١٩ والنجوم الزاهرة ٣ / ١٨٥ .

(٢) مروج الذهب ٤/ ٢١٨ .

(٣) النجوم الزاهرة ٣ / ١٩٠ .

(٤) النجوم الزاهرة ٣/٢١٥ .

صوانه ، ومع إدمانه للخمر أمر بتحريمها وتحريم السماع وقبض على المغنين وكسر آلات اللهو وأمر بتتبع الجوارى من المغنيات[١]، وما زال مخوف السطوة حتى احتيل عليه بعد سنة ونصف من خلافته فخُلع وسُملت عيناه ، وهو أول من عوقب هذا العقاب الصارم من الخلفاء ، وهى عادة بيزنطية ذميمة ، وقد عاش بعدها سبعة عشر عاماً .

وخلفه الراضى بالله ابن أخيه المقتدر سنة ٣٢٢ ، وكان سمحاً جواداً مقرباً للعلماء والأدباء ، ولم يكن ينصرف عنه أحد من ندمائه إلا بخلعة أو صلة ، ومن أهمهم أستاذه الصولى أبو بكر محمد بن يحيى وابن الأنبارى . وخصَّه الصولى بترجمة ضافية فى كتابه الأوراق ، فى القسم الخاص بأبناء الخلفاء ، روى فيها طائفة كبيرة من أشعاره ، وهو آخر خليفة له شعر مدوّن ، وآخر خليفة انفرد بتدبير الجند ، وآخر خليفة خطب فى صلاة الجمعة ، وآخر خليفة جالس الندماء[٢]. وفى عهده قُتل ابن مُقْلة الأديب والخطاط المشهور بعد أن اعتلى كرسى الوزارة مراراً. وعَظُم أمر ابن رائق بعد توليه الوزارة ، إذ قلّده الراضى جميع أمور الدولة ، غير أنه لم يلبث أن صار محجوراً عليه وكالأسير فى يده[٣]. وفى أوائل عهده سنة ٣٢٤ شنّ سيف الدولة الحمدانى أول حرب على الدمستق فى آمد[٤]، وتوالت بعد ذلك حروبه مع البيزنطيين .

ويتولى الخلافة المتقى سنة ٣٢٩ ، وكان ناسكاً تقياً يصوم الدهر ، ولم يشرب النبيذ قط ولا اتخذ جلساء ولا ندماء ، وكان يقول : المصحف نديمى ولا أريد جليساً غيره ، غير أنه كان تعس الحظ إذ جاء بأخرة وقد فسدت الأمور وأفلت الزمام من يد الدولة ، لاشتداد المنافسة بين الوزراء والأمراء وخاصة آل البريدى بالموصل . وبلغ من اضطراب الأحوال أن استولى أبو الحسين البريدى على بغداد ، ومضى البريدى يسوم الناس ظلماً فادحاً فى الخراج وغير الخراج ويأخذ أموال التجار وغيرهم غصباً ، أما الخليفة فلجأ إلى الحمدانيين فى الجزيرة ،

---

(١) التنبيه والإشراف ص ٣٨٨ والنجوم الزاهرة ٣ / ٢٣٩ .

(٢) النجوم الزاهرة ٣ / ٢٧١ .

(٣) النجوم الزاهرة ٣ / ٢٥٨ .

(٤) نفس المصدر والصفحة .

وما زال ينتقل معهم إلى أن قدموا به إلى بغداد وهرب منها البريدى ، وخلع حينئذ على الحسن بن عبد الله بن حمدان ولقبه بناصر الدولة وعلى أخيه علىّ ولقّبه بسيف الدولة[١] . ولم تهدأ الأمور فى بغداد فقد تفاقم أمر العيّارين وازداد النهب حتى خلت الدور من أهلها وعُطلت المساجد والأسواق وأغلقت الحمامات . وكأنما كُتب على المتقى أن يعيش سنى خلافته بائساً تعيساً . حتى القصور وقبابها يصيبها الدمار فقد سقطت لأوائل خلافته قبة قصر المنصور الخضراء ، وكأنما كان ذلك إيذاناً بأفول نجم الدولة العباسية ، إذ كانت تلك القبة تاج بغداد وعلمها المعلم[٢] . وفى سنة ٣٣١ زحف الروم على أرزن بأرمينية وميّافارقين ونصيبين بديار بكر ، فقتلوا وسبوا كثيرين ، وطلبوا من أهل مدينة الرُّها منديلا من كنيستها زعموا أن المسيح عليه السلام مسح به وجهه فارتسمت صورته ، وقالوا إن سلمتموه لنا أطلقنا كل من بأيدينا من أسرى المسلمين . وكوتب الخليفة المتقى فى ذلك ، فاستفتى الفقهاء والقضاة ، واختلفوا فى الرأى ، ورجحت كفة من قالوا بإعطائهم إياه ، لأن خلاص المسلمين من الأسر أوجب . فأُرسل المنديل إلى الروم وأطلقت الأسارى ، وحملوا المنديل إلى القسطنطينية ، وخرج البطريرك ورجال الدين والدولة لاستقباله فى موكب كبير[٣] . وما زالت الأمور تسوء والحكم يزداد فساداً ، وتوقف جهاد الروم ، ونُهب الحجاج وقُطعت الطرق ، وأخذت دعائم الدولة تتداعى تداعياً شديداً ، ولم يلبث توزون القائد التركى للمتقى أن غدر به ، فقبض عليه وخلعه ، لقاء ستمائة ألف دينار أخذها من أحد الطامحين إلى الاستيلاء على الخلافة . وتولت الجارية الشيرازية «حُسْن» سمل عينيه بيد غلام لها سندى . وعاش بعد خلعه خمساً وعشرين سنة[٤] ، ومات توزون بعد خلعه بقليل .

ويخلفه المستكفى سنة ٣٣٣ بعد أن تآمر عليه مع توزون والجارية الشيرازية ، ونادراً ما كان يهنأ بأيامه فى الخلافة ، إذ كان يتقاذفه الترك وهذه المرأة الجشعة ، فلم يهدأ له بال . ولم يدر عليه عام فى خلافته حتى دخل بنوبويه بغداد وصارت

(١) النجوم الزاهرة ٣/٢٧٤ وما بعدها .

(٢) النجوم الزاهرة ٣/٢٧٠ ، ٣/٢٧٨ ومتز ١/٥ .

(٣) الهمدانى ص ١٣٥ والنجوم الزاهرة .

(٤) الهمدانى ص ١٤٢ والنجوم الزاهرة ٣/٢٨٢ ومتز ١/١٦ .

إليهم مقاليد الأمور ، وسرعان ما طلبوا إليه أن يخلع نفسه ، فنزل على مشيئتهم ، غير أنه اشترط ألا يقطع شيء من أعضائه ؛ وكان المطيع أخو المتقى هو الذى خلفه فأمر بأن تسمل عيناه انتقاماً لأخيه . وبذلك انتهت الحقب التى استولى فيها الأتراك على مقاليد الخلافة العباسية ، وأنزلوا بالخلفاء ما لا يطاق من الذل والهوان .

الفصل الثانى

الحياة الاجتماعية

١

طبقات المجتمع

كان يتوزّع مجتمعَ العصر العباسى الثانى ثلاثُ طبقات أساسية : طبقة عليا تشتمل على الخلفاء والوزراء والقواد والولاة ومن يلحق بهم من الأمراء وكبار رجال الدولة ورءوس التجار وأصحاب الإقطاع من الأعيان وذوى اليسار ، وطبقة وسطى تشتمل على رجال الجيش وموظفى الدواوين والتجار والصناع الممتازين ، ثم طبقة دنيا تشتمل على العامة من الزرّاع وأصحاب الحرف الصغيرة والخدم والرقيق ، ويأتى فى إثر تلك الطبقات أهل الذمة .

وكانت الطبقة الأولى تغرق فى النعيم ، يتقدمها الخلفاء وكانت تُجْبَى إليهم أموال الخراج من سواد العراق وأقاصى الدولة وأدانيها غير ما كان يجبى من المكوس على الواردات والصادرات ، وعادة كان الوالى يرسل إلى بغداد ما تبقّى لديه من الإنفاق على شئون إمارته وحاجتها من المساجد والبيمارستانات ومَنْ بها من الجند والموظفين . وذكر ابن خرداذبة أن الدخل من سواد العراق لسنة ٢٤٠ للهجرة بلغ ثمانية وسبعين مليونًا من الدراهم ، وبلغ دخل جزء منه فى عهد المعتضد لسنة ٢٨٠ مليونين وخمسمائة وعشرين ألفًا من الدنانير[١] . وتدهور الدخل فى عهد المقتدر ومع ذلك نرى خراج سواد العراق يبلغ مليونًا وخمسمائة وسبعة وأربعين ألف دينار ، ويورد الصابى مع هذا الإحصاء الدخل العام لعهده فى سنة ٣٠٦ ، ويذكر أنه بلغ أربعة عشر مليونًا وثمانمائة وتسعة وعشرين ألفًا وثمانمائة وأربعين دينارًا[٢] .

---

(١) كتاب الوزراء للهلال بن المحسن الصابى ص ١٠ وما بعدها .

(٢) رسوم دار الخلافة للهلال الصابى ص ٢١ .

وكانت هذه القناطير المقنطرة من الدراهم والدنانير تُنْفَق سنويًا ، وقلما كان يتبقى منها شيء ويقال إنه لما ولى المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ) ادّخر من كل سنة من سني خلافته مليونَ دينار ، بلغ ما ادخره تسعة ملايين [١] ، وخلفه ابنه المكتفي (٢٨٩ — ٢٩٥ هـ) ، فبلغ بالمدّخر أربعة عشر مليونًا [٢]. وجاء بعده المقتدر فلم يقف عن الادخار فحسب ، بل أتلف كل المدّخر مع ما صار إليه من أموال الخراج سنويًا ومما كانت تُغلّه الضياع السلطانية الواسعة ، حتى قالوا إنه بدّد — كما مرّ بنا في الفصل الماضي — ثمانين مليونًا من الدنانير . ويورد الصابي في كتابيه : الوزراء ورسوم دار الخلافة أثباتًا [٣] بما كان يُنْفَق على حواشي الخليفة وداره في عصر المعتضد والمقتدر (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ) ، وهي تصور عِظَم هذه النفقات . فقد كان يُنْفَق على القصر والحرم والخدم أكثر من ستين ألف دينار شهريًا وكان يُنْفق على المطابخ الخاصة والعامة أكثر من عشرة آلاف دينار شهريًا ، بل قد يبلغ ذلك أكثر من ثلاثين ألفًا ، غير ما يُنْفَق على البوابين من البيض والسودان وكان يبلغ ألف دينار ، وغير ما يُنْفَق على المماليك والحرس وكانوا يُعَدّون بالآلاف ، وغير ما ينفق على المرسومين لخدمة الدار من القرّاء وأصحاب الأخبار والمنجمين والبوقيين والمضحكين والطبالين وأصحاب الصيد والملاّحين في السفن وأصحاب المشاعل والأطباء ، ويقول الصابي إن نفقة ذلك كله وما يجري مجراه مما يلزم الدار كان يبلغ أكثر من مليونين وخمسمائة ألف دينار سنويًا . ويقال إنه كان في الدار لأيام المكتفي عشرون ألف غلام للحرس وعشرة آلاف خادم من السود والصقالبة ، أما في أيام المقتدر فكان بها أحد عشر ألف خادم منهم سبعة من السود وأربعة من الصقالبة وأربعة آلاف امرأة بين حرة ومملوكة وألوف من الغلمان الحُجْرية (المقيمين في الحُجَر) ، وكانت النوبة لحفظة الدار خمسة آلاف غير أربعمائة من الحراس ، وكان عدد الفراشين ثمانمائة [٤]. ويروي المؤرخون أن الراضي (٣٢٢ — ٣٢٩ هـ) ، عمل على القَصْد الشديد في نفقات دار الخلافة ، حتى بلغت مع

---

(١) كتاب الوزراء ص ١٨٩ .

(٢) كتاب الوزراء ص ١٩٠ .

(٣) الوزراء ص ١١ وما بعدها ورسوم دار الخلافة ص ٢١ ويذكر الصابي في الكتاب الأول أن نفقات الحضرة لعهد المعتضد كانت سبعة آلاف دينار يوميًا .

(٤) رسوم دار الخلافة ص ١٠ ويقال إن الخدم في عهد المتوكل كانوا سبعمائة . انظر الديارات للشابشتي (الطبعة الثانية) ص ١٦٠ .

شدة الحذف والاقتصاد ثلاثة آلاف دينار [١] يومياً .

وقد بدأ العصر بالمتوكل ، ويقال إن النفقات لم تبلغ فى عصر من عصور الخلفاء ما بلغته فى عصره ، وخاصة فى بناء القصور ، وقد أحدث فيها البناء الموسوم باسم البناء الحيرى ، وكان يُجْعَلُ فيه دون القصر ثلاثة أبواب عظام ، وكان فى الرواق مجلس الخليفة ، وأمامه بيتان بهما خواصه وعلى اليمين خزانة الكسوة وعلى اليسار ما يُحْتَاج إليه من الشراب [٢] . وكان كلما بنى قصراً أتبعه بآخر ، حتى بلغت قصوره نحو العشرين ، وهى : بركوار (دار الهناءة) والشاه والعروس والبركة والجوسق والمختار والجعفرى والغريب والبديع والصبيح والمليح والشبداز والقصور والجامع والقلاية والبرج والمتوكلية والبهو واللؤلؤة ، وبلغ ما أنفقه على تلك القصور مائتين وأربعة وسبعين مليوناً من الدراهم [٣] . وكان البرج من أجملها زينة إذ جُعل فيه صور عظيمة من الذهب والفضة ، وبركة جُعل فرشها ظاهراً وباطناً صفائح الفضة ، وشجرة ذهب على أغصانها وفروعها طيور تغرّد وتصفر مكللة بالجوهر ، وسُميت طُوبى (من أشجار الجنة) . واتُّخذ له سرير كبير من الذهب عليه تمثالا سبعين عظيمين ودرجٌ عليه صور السباع والنسور . وأُلْبست حيطان القصر من الداخل والخارج بالفسيفساء والرخام المذهب ، ويقال إن نفقة هذا القصر وحده بلغت مليوناً وسبعمائة ألف دينار [٤] . وتبارى الخلفاء بعد المتوكل فى بناء القصور ، فبنى المعتز ابنه قصره المعروف باسم التاج أو الساج وكان قصراً ضخماً [٥] ، وبنى المعتمد (٢٥٦ — ٢٧٩ هـ) قصره المعشوق على شاطئ دجلة [٦] ، وبنى المعتضد قصر الثُّرَيَّا ، وكان أبنية متلاصقة ، ووصل بينها وبين قصر التاج بسرداب طويل لتمشى فيه حظاياه ، وفيه يقول ابن المعتز [٧] :

وبُنْيان قَصْرٍ قد علتْ شُرفاتُه ... كصفٍّ نساءٍ قد تربَّعْنَ فى الأُزْرِ

---

(١) رسوم دار الخلافة ص ٣٠ .

(٢) مروج الذهب ٤/٤ .

(٣) الديارات للشابشتى (الطبعة الثانية) ص ١٥٩ .

(٤) الديارات ص ١٦٠ وانظر المروج ٤/٤٠ .

(٥) انظر ياقوت فى التاج وديوان البحترى (طبع دار المعارف) ٣/١٤٨٣ .

(٦) ديوان البحترى ٣/١٤٦٧ .

(٧) ديوان ابن المعتز (طبعة دار صادر ببيروت) ص ٢١٥ وانظر معجم البلدان فى الثريا .

ولعل فى كثرة هذه القصور ما يشير إلى أن دار الخلافة كانت واسعة ، وكان القصر الواحد أحياناً يمتد إلى فرسخ أو يزيد ، ويقال إن قصر الثريا كان يمتد إلى ثلاثة فراسخ وإنه كلّف المعتضد — كما قدمنا فى الفصل الماضى — أربعمائة ألف دينار . وكأنما كانت دار الخلافة وقصورها أشبه بمدينة ، ومرّ بنا آنفاً عدد من كان بها فى عصر المكتفى والمقتدر من الغلمان والحرس والخدم ، وأنهم كانوا يُعَدّون بالآلاف ، فطبيعى أن يكون بها فلاحون وأكرة للعمل ومساجد وحمامات تفوت الحصر حتى قالوا إن الحمامات بلغت بها أحياناً أربعمائة[1] . وكانت الدار تشتمل على بساتين وجداول متصلة بدجلة وقباب شتى وأروقة وبرك ومياه جارية .

وكان الوزراء يعيشون فى هذا النعيم نفسه لما كانوا يأخذونه من رواتب ضخمة وإقطاعات وما كانوا يختلسونه لأنفسهم من أموال الدولة ، ويقال إن الوزير كان يأخذ إقطاعاً يدرّ عليه مائة وسبعين ألف دينار ، حتى إذا كان عهد المقتدر أجْرِى عليه راتب قدره خمسة آلاف دينار فى كل شهر ، ثم صار سبعة آلاف[2] . ولكى نتصور مبلغ ثراء الوزراء يكفى أن نعرف أن المعتمد (٢٥٦ — ٢٧٩) استخلص — كما مر بنا فى الفصل الماضى — من وزيره سليمان بن وهب وابنه عبيد الله نحو مليون دينار ، ويروى أنه أحْصى ما وجد لوزيره صاعد من الرقيق والمتاع والكسوة والسلاح والآلات فى خاصة نفسه دون ما وُجد لأخيه عبدون فكان مبلغه ثلثمائة ألف دينار ، وكان مبلغ غلته فى سائر ضياعه مليوناً وثلثمائة ألف[3] . ويذكر المؤرخون عن ابن الفرات وزير المقتدر أنه كان يملك — كما ذكرنا فى غير هذا الموضع — من الفضة والضياع والأثاث ما يزيد على عشرة ملايين من الدنانير . وكانت لسليمان بن وهب دار كبيرة جعلتها الدولة بعده لكل وزير حتى سنة ٣٢٠ ، وكانت تسمى دار المخرّم ، وكانت مساحتها تربو على ثلثمائة ألف ذراع[4] . وكانت دار ابن الفرات مدينة ضخمة حتى كان بها فوجان من الخياطين[5] ، ويقال إنه

---

(١) رسوم دار الخلافة ص ٨ .

(٢) كتاب الوزراء ص ٢٨٢ ، ٣٥١ .

(٣) مروج الذهب ٤/١٢١ .

(٤) مسكويه ٥/٤١٠ .

(٥) كتاب الوزراء ص ١٧٦ .

لما عُين وزيراً زاد ثمن الشمع فى يوم تعيينه لأنه كان من رسمه ألا يخرج أحد من داره وقت العشاء إلا ومعه شمعة، وسُقى فى داره فى ذلك اليوم وليلته أربعون ألف رطل ثلجاً [١].

وكان للوزير بدار الخلافة بناء مفرد يجلس فيه والخواصّ والحواشى بين يديه إلى أن يستدعيه الخليفة ، وكان يَغْدو إليه الكتّاب ، فيقفهم على الأعمال المطلوبة منهم ويسلم إلى كل كاتب ما يتعلق بديوانه ويوصيه بما يريد منه ، ثم يروحون إليه بما عملوا ، وفى أثناء ذلك تُعْرَض عليه الكتب بالنفقات والتسبيبات والحسبانات [٢]، والكتّاب جلوس بين يديه كلٌ فى مكانه ومعه دواته .

وكان الوزير يتخذ مثل الخليفة حرساً على باب داره وقد يُعَدون بالعشرات [٣] وكان مجلسه يَغَصّ بغلمان مسلّحين ، وكان يركب إلى دار الخلافة وبين يديه الحجاب والقواد والغلمان ، ويقال إنه كان لحامد بن العباس أحد وزراء المقتدر أربعمائة مملوك يحملون السلاح أمامه ، ولكل مملوك نفر من المماليك والغلمان يتبعونه ، ويَرْوى بعض الكتاب أنه أحصى الموائد المنصوبة فى داره فوجدها ثلاثين ونيفاً ويقال ، بل كانت أربعين ، وكان يجلس إلى كل مائدة ثلاثون رجلا ، وعلى كل واحدة جدى أو جداء وبوارد وحلوى مما لذ وطاب [٤]. وكان الوزير يتولّى إدارة مالية البلاد والقيام على الدخل والخرج وفرض الضرائب . واشتهر غير بيت بتوليه الوزارة مثل بيت بنى وهب وأصلهم من نصارى العراق ، وعمل كثير منهم فى الدواوين وبلغوا فيها أعلى المناصب ، أما الوزارة فتولاها منهم فى هذا العصر أربعة ، كان فى مقدمتهم سليمان بن وهب الذى مرّ بنا ذكره ثم ابنه عبيد الله ، ثم ابن عبيد الله القاسم ، ويقال إن المكتفى زوّج ابنه أبا أحمد من ابنته ، وإنه خلع عليه أربعمائة خلعة ، أما الصداق فكان مائة ألف دينار [٥]، وأنفق على

(١) كتاب الوزراء ص ٦٣ ، ١٩٥ .

(٢) كتاب الوزراء ص ٢٣٨ .

(٣) كتاب الوزراء ص ١٢١ .

(٤) كتاب الوزراء ص ١١٢ والنجوم الزاهرة ٣/٢٠٨ والهمدانى ص ٢٠ ، ٣٧.

(٥) النجوم ٣/١٣١ .

الوليمة أكثر من عشرين ألف دينار[1].

وعلى نحو ما كان الوزراء والخلفاء يعيشون فى هذا الترف كان يعيش فيه أيضاً القواد ، وكان بيدهم مصير الخلفاء وكانوا يفدون أنفسهم منهم بكل ما يطلبون من أموال ، وكانوا يُقْطعونهم إقطاعات كثيرة على نحو ما كانوا يقطعون الوزراء ، فكانت لهم ضياع واسعة تغلُّ عليهم أموالا وفيرة ، ولعل خليفة لم يكثر من الإقطاع لهم كما أكثر المقتدر ، ويقال إن إقطاعات يانس الموفقى فى عهده كانت تغلّ سنويًّا ثلاثين ألف دينار . وبلغ حينئذ من مكانة القواد أن خلع المقتدر على مؤنس لقب المظفر[2] ، ولما قدم بغداد فى عام ٣١٢ للهجرة ركب الوزير ابن الفرات للسلام عليه وتهنئته بمقدمه[3] ، وهو ما لم تجر به عادة وزير من قبله ، فقد أصبح القواد يقدّمون على الوزراء . وكان لهم حجّابهم ومماليكهم وحشمهم وخدمهم ونفقاتهم الواسعة على نحو ما كان للوزراء . وبالمثل كان ولاة الأقاليم ، وكان حامد ابن العباس الذى مر بنا ذكره قبل توليته الوزارة للمقتدر واليًا على فارس والبصرة ومن ولايتهما كوّن ثروته الواسعة . ويُرْوَى أن خمارويه صاحب مصر حين زوّج ابنته قطر الندى من المعتضد الخليفة العباسى حمل معها من الجهاز ما لم يُرَ مثله ولا يُسمع به ، وكان ابن الجصاص الجواهرى البغدادى القائم على الجهاز ، ويقال إنه سأله هل بقى بينى وبينك من الحساب شىء ؟ فأجابه كَسْرٌ (باق) طفيف وإذا هو أربعمائة ألف دينار[4] ، فما بالنا إذن بنفقات الجهاز كله . ويتوقف المؤرخون ليقصوا لنا هدايا الصفار والى فارس للمعتضد وما كان معها من تماثيل وملايين الدراهم وصناديق الثياب[5]. وكان مما أرسله إسماعيل بن أحمد السامانى والى خراسان إلى المكتفى سنة ٢٩٢ ثلثمائة بعير عليها صناديق فيها المسك والعنبر والثياب من كل لون[6]. وكأنما أموال الولايات ودخولها كانت ملكًا للولاة ينفقونها فى بذخهم ويهدونها بحسب مشيئاتهم . وتوفى لسنة ٣٠١ على بن أحمد الراسبى وكان متوليًّا من حدود واسط فى العراق إلى جُنْديسابور ومن السوس إلى شهرزور ، وخلّف مليون دينار ومن آنية الذهب والفضة ما قيمته مائة ألف دينار

---

(١) عريب ص ٥٣ .
(٢) النجوم ٢٠٣/٣ .
(٣) الوزراء ص ٥٠ .
(٤) النجوم ٦٢/٣ .
(٥) مروج الذهب ١٤٨/٤ .
(٦) النجوم ١٥٦/٣ .

ومن الخزّ ألف ثوب ، وخلّف ألف فرس وألف بغل وألف بعير ، وكان له ثمانون طرازاً (مصنع ثياب) تُنْسج فيها الثياب التى لملبوسه[١] وملبوس حُرَمه وحواشيه وخدمه .

وكان أبناء البيت العباسى يتقاضون من الدولة رواتب ثابتة ، ومثلهم العلويون والهاشميون بصفة عامة ، وكثيرون منهم كانوا يتولون مناصب هامة ، وكان منهم دائمًا من يحج بالناس فى كل عام . وكان الخلفاء ما يزالون يقطعون المقرّبين منهم إقطاعات وضياعًا كثيرة ، بالإضافة إلى كثير من الضياع التى كانوا يَرِثُونها عن آبائهم وأجدادهم . وكان الوزراء كثيراً ما يتقربون إليهم بالهدايا والعطايا ، ويقال إن على بن عيسى وزير المقتدر كان ينفق فى كل سنة – على شُحّه – أربعين ألف درهم فى صلات الطالبيين والعباسيين وأولاد الأنصار والمهاجرين وفى مصالح الحرمين[٢] وكان المعتضد يُجْرِى على أبناء المتوكل وأولادهم ذكوراً وإناثًا ألف دينار شهريًّا ، وكان يُجْرى على أولاد الواثق والمهتدى والمستعين خمسمائة دينار فى الشهر[٣] .

وأعان ذلك كله على اتساع الطبقة الأرستقراطية وأن تنشأ أجيال من أبنائها غارقة فى الدعة والنعيم ، وفى مقدمتهم أبناء الخلفاء والوزراء والقواد والأمراء وبالمثل أبناء كبار الكتاب ، وكثيراً ما كان يصل آباؤهم إلى الوزارة ، وحتى من لم يصل إلى الوزارة كان يتقاضى أحيانًا مائة دينار فى الشهر وقد يرتفع راتبه إلى خمسمائة[٤] ، غير ما كان يأتيهم من الهدايا وأحيانًا من الرشوة وخاصة من عمال الخراج . وكان منصب القاضى منصبًا رفيعًا ، وكان يتقاضى راتبًا عاليًا مائة وعشرين أو مائتين من الدنانير[٥] ، ومن الحق أن منهم من كان يتعفف عن أخذ شىء نظير عمله ، ولكن من الحق أيضًا أن منهم من كان مترفًا موسّع الرزق مثل إبراهيم بن جابر القاضى بحلب والعواصم من أرض الشام إذ يروى المسعودى أنه « قطع لزوجته أربعين ثوبًا تُسْتَريًّا وقصبًا (حريراً) وأشباه ذلك من الثياب فى يوم واحد وخلّف أموالا عظيمة »[٦] .

---

(١) النجوم الزاهرة ٣/١٨٣ .

(٢) كتاب الوزراء ص ٣٢٢ .

(٣) كتاب الوزراء ص ٢٠ .

(٤) كتاب الوزراء ص ١٥٦ وانظر ص ٢٠ ، ٣١٤ .

(٥) الولاة والقضاة للكندى ص ٣٧٧ ، ٤٢١ .

(٦) مروج الذهب ٤/١٧٤ .

وكان يدخل فى هذه الطبقة الأرستقراطية ورثة الإقطاع والضياع الواسعة وكبار التجار الذين كانوا يتجرون برءوس أموال ضخمة فى مطالب تلك الطبقة من أدوات الترف والزينة ، وكان فى مقدمتهم النخاسون الذين كانوا يجلبون الرقيق والجوارى من أطراف الأرض ، وتجار الطرف النفيسة التى كانت تجلبها السفن من جميع أنحاء العالم . وبالمثل تجار الجواهر ويكفى أن نذكر ابن الجصاص التاجر الجوهرى البغدادى الذى أشرف على جهاز قَطْر الندى بنت خمارويه كما أسلفنا ، فقد هيأ لها من الثياب والجواهر وأدوات الزينة ما كلف أباها مئات الألوف ، وحين صودرت أمواله لعهد المقتدر سنة ٣٠٢ للهجرة أُخِذَ منه من المال والجوهر ما عُدَّ بالملايين حتى قيل إنه بلغ ستة عشر مليوناً من الدنانير ، ويقول المسعودى : «الذى صَحَّ مما قُبِض من ماله من العين (الذهب) والوَرِق (الفضة) والجوهر والفرش والثياب والمستغلات خمسة ملايين وخمسمائة ألف دينار»(١) . وكانت كل طائفة من التجار تقيم فى سوق واحد فيقال سوق النخاسين وسوق الوراقين ، وكان من أقربهم إلى الترف البزازون (تجار الأقمشة) والعطارون . وكانت أسواق الأخيرين وأصحاب الدهون والخزازين (تجار الحرير) والجوهريين والصيادلة بعضها إلى جانب بعض ببغداد . وكان الأطباء يحصلون على أموال ضخمة ، وخاصة أطباء دار الخلافة وبيمارستانات بغداد ، وتزخر كتب طبقات الأطباء بملايين الدراهم والدنانير التى صارت إليهم من الخلفاء ، ويقول محمد بن زكريا الرازى الطبيب المشهور إن سبب تعلقه بتعلم الطب إنه أصيب برمد فى عينيه ، فأبى الطبيب الذى عرض نفسه عليه أن يعالجه إلا بخمسمائة دينار(٢) . وحتى الشعراء والعلماء والندماء كان منهم من يغدق عليهم الخلفاء الصلات ، وكذلك الوزراء ، حتى ليغدون من علْية القوم مثل على بن يحيى المنجم الذى أثرى ثراء طائلا من منادمته للخلفاء .

وإذا تركنا الطبقة العليا إلى الطبقة الوسطى وجدنا كثيرين يندمجون فيها ، وفى مقدمتهم علماء العربية والفقه والتفسير والحديث ، وكان كثير منهم يأخذ رواتب

---

(١) مروج الذهب ٤/٢١٨ والنجوم ٣/١٨٥ .

(٢) حكماء الإسلام للبيهقى ص ٢١ .

من الدولة ، وكان منهم معلمون يختلف إليهم الناشئة ، وكانوا يدفعون إليهم أجوراً قليلة ، حتى لقد تكون رغفانًا من الخبز أحيانًا ، وكانت هذه الرغفان تختلف اختلاف أسر الصبيان فى الغنى والفقر ، ولذلك ضُربت الأمثال فى الاختلاف والتفاوت بتفاوت رغفان المعلم واختلافها فى الجودة ، وكان من الآباء من يدفع أجر أولاده دراهم معدودة . وكان من يعلم أولاد الطبقة العليا تنهال عليه الهبات ويقدَّر له راتب شهرى معلوم .

ويدخل فى عداد هذه الطبقة المغنون والشعراء وكان كثير منهم تتدفق عليه الأموال تدفقًا ، وسنعرض لذلك فى موضع آخر ، والمهم أن هذا التدفق كان خاصًّا بأفراد منهم ارتفعوا إلى الطبقة الأرستقراطية وعاشوا فى بذخ وترف شديد ، أما عامتهم فيُسْلكون فى الطبقة الوسطى ، وقد رأينا كبار الكتاب فى الدواوين ينتظمون فى الطبقة العليا ، ولكن كان وراءهم عشرات إن لم يكن مئات يعملون فى الدواوين ويأخذون رواتب متوسطة ، وخاصة فى دواوين الخراج ودواوين الجيش وفى أعمال الحسبة ورقابة الأسواق وفى البريد ودواوين الأخبار وفى المكوس والضرائب الجمركية . ويُضَمّ إلى كتّاب الدواوين وعمّالها رؤساء الجند ممن يَلُونَ القادة ، فلم تكن لهم رواتبهم الرفيعة ، ولكن كانت لهم رواتب متوسطة تكفل لهم رزقًا حسنًا .

ومن هذه الطبقة أوساط الصناع وخاصة من كانوا يقومون على أثاث المساكن والأزياء والطعام ، ويدخل فى الأثاث صناعة البسط والسجاجيد والنمارق والمقاعد والتخوت والوسائد . وكان مركز الصناعات الأسواق مثلها مثل التجارات ، وكانوا جميعاً يتناولون غداءهم بمطاعم فى أسواقهم أو فى دكاكينهم ، وكانوا لا يتركونها إلا فى المساء . وكان هناك جهابذة كثيرون لاستبدال النقود ، وكانت هناك فنادق للغرباء ، وكانت المساكن تستأجَرُ وكذلك أثاثها . وإذا عرفنا أنه كان يسكن بغداد بضعة ملايين فى تقدير بعض المؤرخين عرفنا كثْرة من كان بها من التجار والصناع ، ونجد من كبارهم من كان يربح فى صفقة واحدة ألوف الدنانير[1] ، أما أوساطهم

---

(١) الوزراء والكتاب للجهشيارى (طبعة الحلبى) ص ١٨٥ ، ٣١٩ .

فقلما كان يزيد رأس أموالهم فى تجاراتهم على ثلاثة آلاف دينار[١]، وكان الناس يودعون أموالهم لدى بعض التجار الأمناء للاتجار لهم بها مناصفة فى الأرباح. ونستطيع أن نتصور مستوى المعيشة فى بغداد مما يروى من أن الأسرة المتوسطة كان يكفيها شهريًّا خمسة وعشرون درهمًا، كأن نفقات اليوم المتوسطة لا تحتاج إلى أكثر من درهم واحد[٢]. وفى الفرج بعد الشدة للتنوخى خبر يدل على مستوى الحياة وأوسط ما كان الناس يتجرون فيه، إذ يُرْوَى عن شخص رقيق الحال أنه ورث أربعين ألف دينار فجأة وعلى غير انتظار، فبنى لنفسه داراً بألف دينار، واشترى آلات وفرشًا وثيابًا وجوارى ثلاثتًا بسبعة آلاف دينار، وأعطى تاجراً ألفى دينار ليتَّجر له فيها، وخزن عشرة آلاف للشدائد، واشترى بالباقى ضيعة تُغِلُّ له فى كل سنة ما يزيد على مقدار نفقته[٣]. وقد لا يصوّر ذلك حياة الطبقة الوسطى تمامًا، ولكنه يشير إلى أن نفقاتها لم تكن كبيرة، وكان يُعتَدُّ من يقتنى سبعمائة دينار صاحب ثروة كبيرة، وكثير من الصناع والتجار لم تكن ثرواتهم تزيد على ذلك، وهم الذين كانوا يندمجون فى الطبقة الوسطى من الأمة.

وتأتى بعد ذلك الطبقة العامة من الرعية، وهى التى كان يقع عليها عبء العمل كله فى الزراعة وفى الصناعات الصغيرة وفى خدمة أرباب القصور، فهى التى تعمل فى الإقطاعات والضياع، وهى التى تقوم على تقديم أسباب الحياتين للطبقتين الوسطى والعليا، عاملة تارة أو صانعة، أوخادمة تارة ثانية. فكل ما تتقلب فيه الطبقتان من النعيم إنما هو من أيدى هذه الطبقة العامة، يسلبونه منها بطرق شتى ولا يبقون لها سوى الضنك والضيق والبؤس والشقاء. ومرّت بنا فى الفصل السابق ثورة الزنج وكيف أنهم كادوا يدمرّون الدولة تدميراً، لشدة نقمتهم على الأوضاع التى كانت سائدة، وما كادت تخمد حتى هبّت ثورة القرامطة، وعنفت بالدولة هى الأخرى عنفًا شديداً، وشاعت معها فكرة المهدى المنتظر الذى ينشر العدالة بين الناس فى الأرض، ولو أن دعوة القرامطة وُجهت توجيهًا سليمًا على أساس العدالة التى

(١) البخلاء للجاحظ (طبعة دار الكاتب المصرى) ص ١٠١.

(٢) مصارع العشاق ص ١٥٩.

(٣) الفرج بعد الشدة للتنوخى ٢/ ١٧.

لا تصلح حياة الناس بدونها وبيان فساد الحكم العباسي حينئذ وما داخله من جور وعسف لنجحت إلى أقصى حد ، ولكنها وُجهت توجيهاً خاطئاً على أساس دعوة باطنية ، حتى لكأنما مُحى منها مقصد الإصلاح الاجتماعى ، ولذلك أخفقت إخفاقاً ذريعاً .

ووسائل شتى كانت تُبتَزّ بها أعمال هذه الطبقة العامة وما بأيديها من أموال قليلة ، أما من يعملون فى الأرض من الأكرة والزراع فكانوا عبيداً لا يُترَكُ لهم إلا ما يسدّ رمقهم ، وإنْ سدّه كان ذلك شيئاً كثيراً . وأما صغار الصناع والتجار الأصاغر والفَعَلة والفرّاشون والبوّابون وكل من يؤلفون الطبقة العامة فقد كان مثلهم مثل رقيق الأرض لا يكادون يجدون ما يتبلّغون به إلا نادراً وحين يعملون فى الدولة بأجر مهما يكن طفيفاً ، لأنه يضمن لهم القوت اليومى . وكان مَنْ يوجد لديه مال كأنما يقع تحت طائلة العقاب بسبب كثرة الضرائب التى كانت تُفرَضُ حتى على الأسواق وما يُصنَع فيها وما يباع ويُشترَى . ومما زاد هذه الطبقة بؤساً أن الأسعار لم تكن ثابتة ، فكثيراً ما كان يرتفع ثمن القمح والشعير حتى يصبح حصول العامة عليهما عسيراً وحتى لتجأر بالشكوى إلى الخليفة ، على نحو ما صنع أهل البصرة فى عهد المعتضد إذ أرسلوا وفداً كبيراً إليه يشكو ما نزل بمدينتهم من غلاء فاحش آملين أن يمدّ الخليفة لهم يد المساعدة [١]

وكانت هذه الطبقة تعمل فى كل المهن الحقيرة ، ومن المؤكد أنه نشأت طبقات كثيرة حينئذ من الحِرْفيين أو المهْنيين وأن التخصص أخذ طريقه إليهم ، فكان لكل حرفة أصحابها الخاصون ، يؤكد ذلك ما روى من أن الجاحظ لم تكن له حلقة على وجه بابه إذا أراد اصطفاقه فطلب من نجار أن يثقب له موضعها ، فلما ثقبه قال له : قد جوّدت الثقب وانظرْ أى نجّار يدق فيها « الرُّزّة [٢] » وكأن من النجارين مَنْ كان للثقب ومَنْ كان لتركيب الرزة ، وهو ما يعنى الاختصاص الدقيق . ولا ريب فى أن ذلك هو الذى أدّى إلى أن تنشأ فى العالم العربى من قديم فكرة النقابات للحِرْفيين والصناع وإن كانت حينئذ

---

(١) مروج الذهب ٤/١٤٩ . (٢) الحيوان ٣/٢٧٦ – ٢٧٧ .

لا تعدو دَوْرَ النشأة البسيطة .

وأدَّى بؤس هذه الطبقة العامة إلى أن ينشأ فيها كثير من القرَّادين وأصحاب الملاهى الصغيرة الطوَّافين والحوَّائين كما ينشأ فيها كثير من المهرجين اللذين ينقطعون لإضحاك الطبقتين الوسطى والعليا ، وكان منهم من يتصل بخليفة أو وزير فتبتسم له الدنيا . ونشأ فيها أيضًا كثير من رَاضَة الخيل والسوَّاس وأصحاب القنْص والصيد بالكلاب والفهود . ونشأت طبقة من الأدباء المتسولين المسمون بالمُكَدِّين ، وكانوا حينئذ خليطًا من هؤلاء الأدباء ومن متظاهرين بالنسك ، مستعملين كل حيلة من شعر أو تُقًى أو رُقْيَة ، فهم يطلبون المال من كل طريق ، مستخدمين كل حيلة . ويدل دلالة قوية على ما كانت تعانيه هذه الطبقة العامة من البؤس والعيش المر أن كثر بها اللصوص ، حتى غدوا فى أوقات كثيرة مصدر خطر عظيم ببغداد ، لكثرتهم ، ولشدة فتكهم ، ويشير الجاحظ إليهم فى كتاباته مراراً كما يشير إلى رؤسائهم وأنه كانت لهم مروءة الفرسان ، وكأنهم كانوا امتداداً لصعاليك الجاهلية[١] .

ووراء تلك الطبقات الدنيا والوسطى والعليا كان هناك عدد ضخم من أهل الديانات الأخرى ، من النصارى واليهود والمجوس والصابئة ، وكانوا يسمون أهل الذمة إشارة إلى أنهم فى ذمة الإسلام وعهده ورعايته وما وضعه من مبادئ التسامح الرائع ، فإذا هم يصانون ويُحْرَسُون ويُحْرَسُ نساؤهم وأسَرهم ، حتى ليصبح لكل أهل ملة منهم كيانهم الخاص فلهم معابدهم ولهم رؤساؤهم الدينيون : للنصارى مثلا الجاثليق والبطرك . ولهم محاكمهم الخاصة التى تفصل بينهم فى خصوماتهم . تسامح لم يَعْرفه دين ولم تَعْرفه أمة قبل الإسلام ، ولا ظلم ولا جور ، بل عدالة مطلقة تعمهم وحماية بدون حدود ، وليس عليهم للدولة إلا ضريبة مالية محدودة هى الجزية التى لم يكن يدفعها إلا القادر على حمل السلاح ، أما المريض بعلة لا بُرْءَ منها وذوو العاهات والأطفال والنساء والشيوخ ورجال الدين فى كل ملة فلا يؤدون شيئًا ، ولم تكن هذه الضريبة أو الجزية تتعدَّى ثلاثة دنانير لأصحاب

---

(١) انظر قصة خالد بن يزيد فى مطالع كتاب البخلاء .

الثراء الطائل منهم ودينارين لمتوسطى الثراء وديناراً لعامتهم ممن يتكسبون كسبًا لا يضيرهم معه دفعه ، وكانت قيمة الدينار حينئذ نحو اثنى عشر درهمًا ، وهذا كل ما يدفعونه فى العام المتطاول ، وهو فى حقيقته لم يكن سوى ضريبة دفاع عنهم . ويتراوح ما كان يؤديه أهل الذمة ببغداد فى أوائل القرن الثالث بين مائة وعشرين ألف درهم ومائتى ألف[1] ، مما يدل على أن دافعى الجزية فى تلك الحقب كانوا لا يزيدون على نحو عشرين ألفًا ، فإذا أضفنا إليهم العاجزين عن الكسب من النساء والأطفال والشيوخ وغيرهم ممن ذكرناهم آنفًا تبين أن عدد أهل الذمة حينئذ ببغداد كان لا يقل عن نحو ستين ألفًا . وكانوا جميعًا يشدون إلى أوساطهم زنانير أشبه بأحزمة .

وكان أهل بغداد وغير بغداد من المسلمين يعاملونهم معاملة حسنة ، فكانوا يوسعون لهم فى كل عمل معهم ، وكانت العامة تأنس خاصة للمسيحيين منهم ، إذ كانوا يؤثرونهم على المجوس ويرونهم أسلم صدوراً من اليهود ، كما يقول الجاحظ فى رسالته الرد[2] على النصارى ، وفيها يذكر أن الخلفاء والولاة قربوهم منهم واستخدموهم فى الدواوين وقاموا لهم على كثير من شئونهم وأنهم كانوا ينهضون بحرف جليلة مثل العطارة والصيرفة ، وكان منهم أطباء الخلفاء والوزراء وعِلْيَة القوم وأطباء البيمارستانات ، حتى استقر فى أنفس الناس أن الطبيب الحاذق لا يكون إلا مسيحيًا . أما اليهود فكانوا يعملون فى أحقر المهن ، حتى ليقول الجاحظ فى الرسالة آنفة الذكر : « لا تجد اليهودى إلا صباغًا أو دباغا أو قصابًا (جزاراً) أو شعابًا (مصلح جرار وأحذية) » ؛ ويقول ابن قتيبة إنهم أنتن خلق الله فناء[3] . وكان النصارى يتخذون أفخر الدواب والثياب والخدم ويتمتعون مثل العلية بلعب الصوالجة وحتى تسموا بأسماء المسلمين مثل الحسن والحسين كما يقول الجاحظ .

ويأمر المتوكل لسنة ٢٣٥ ، بأن يلبس أهل الذمة كلهم الطيالس العسلية

---

(١) كتاب الخراج لقدامة (طبع ليدن) ص ٢٥٠-١ وابن خرداذبة ص ١٢٠ .

(٢) انظرها فى ثلاث رسائل للجاحظ نشر فنكل .

(٣) أدب الكاتب لابن قتيبة (طبعة ليدن) ص ٦٦ .

ويشدوا فى أوساطهم الزنانير وأن يركبوا السروج بركب الخشب ويجعلوا على مؤخرها كرتين ومَنْ لبس قلنسوة مثل قلنسوة المسلمين يجعل عليها زرّين ، وأمر أيضاً أن يجعلوا رُقْعتين على ثياب مماليكهم يخالف لونهما لون الثوب الموضوعتين عليه ، وتوضع إحدى الرقعتين على الصدر والأخرى خلف الظهر ، وكل من الرقعتين بمقدار أربع أصابع ويكون لونها عسليّاً ، وتلبس المرأة منهم إزاراً عسليّاً وأمر بهدم بِيَعِهِم وكنائسهم المحدثة وألا يُستعان بهم فى الدواوين وأعمال الدولة ، حتى لا تجرى أحكامهم على المسلمين [١] .

ويبدو أنه منذ المتوكل أخذت هذه الأوامر الشديدة تخفّف عن النصارى حتى لنجده هو نفسه يجعل النفقة فى سنة ٢٤٥ على بناء قصره الجعفرى بيد دُليل بن يعقوب النصرانى كاتب بُغا [٢] . وكثر أهل الذمة بعده فى الدواوين ولعل ذلك ما جعل العامة فى سنة ٢٧٢ للهجرة تثور عليهم [٣] .

ويعظم أمر أهل الذمة فى أواخر القرن الثالث ، إذ يكثر استخدامهم فى الكتابة وفى أمور المسلمين فيأمر المقتدر سنة ٢٩٦ بألا يستخدم أحد منهم إلا فى الطب والجهبذة وأن يطالبوا بلبس العسلى وتعليق الرقاع المصبوغة على أظهرهم [٤] ، ومع ذلك نرى وزيره ابن الفرات يتخذ منهم أربعة كتّاب كان يدعوهم يومياً إلى طعامه مع خمسة آخرين اختصّ بهم جميعاً [٥] .

وواضح من هذا كله مايدل على أن أهل الذمة لم يكونوا مضطهدين طوال العصر وأن الأوامر التى كانت تصدر أحياناً بالتشديد عليهم لم تكن تنفّذ ، وأنهم كانوا يعملون فى مختلف الأعمال حتى الوظائف الديوانية وأعمال الخراج . وكان كثير منهم — وخاصة من النصارى — يعيشون فى نعيم غدق لما يصير إليهم من الطب والصيرفة والأعمال التجارية المربحة .

---

(١) طبرى ١٧١/٩ وانظر ١٩٦/٩ .
(٢) طبرى ٢٧٢/٩.
(٣) طبرى ٩/١٠ .
(٤) النجوم الزاهرة ١٦٥/٣ .
(٥) كتاب الوزراء ص٢٤٥ وانظر ص٩٥.

٢

الحضارة والترف والملاهى

رأينا تفنّن الخلفاء والوزراء فى بناء القصور ،حتى ليشبه بعضها مدناً صغرى تمتلئ بالأبنية والأفنية والأساطين والقباب والبساتين والجداول والبرك والنافورات، مع التأنق فى أبوابها ونوافذها وشرفاتها وزخرفة حيطانها بالنقوش والصور وتعليق الستائر الحريرية عليها، ومع ما يموج فيها من البسط والسجاجيد والطنافس والمناضد والتحف المرصعة بالجواهر.

وقد افتُتِحَ العصر بالمتوكل وقصوره الباذخة التى كلفت الدولة ملايين الدنانير ، ويكفى لتصور ما كان فى عصره من بذخ وترف شديد أن نروى ما قصّه الرواة عن حَفْله الذى أقامه بمناسبة إعذار (ختان) ابنه المعتز ، فقد أمر وزيره الفتح بن خاقان أن يلتمس فى خزائن الفرش بساطاً لإيوان قصر البركوار الذى أقام فيه الإعذار ، وأن يكون فى طوله وعرضه ، وكان طوله مائة ذراع وعرضه خمسين ، ووجد طلبته : بساطاً مذهباً مبطناً ، يقال إن التجار قوّموه بعشرة آلاف دينار . وبُسط فى الإيوان ووُضع للمتوكل فى صدره سرير ، مُدَّ بين يديه أربعة آلاف مرفع (كرسى) مذهبة مرصعة بالجواهر وعليها تماثيل العنبر والندّ والكافور . ومدّت الموائد وتغدّى المتوكل والناس . وجلس على السرير ، وأحْضِرَ الأمراء والقواد والندماء فأجْلسوا على مراتبهم ، وجىء بأوعية مملوءة دراهم ودنانير نصفين ، صُبَّتْ فيها حتى ارتفعت . ووزّع الغلمان الشراب ،ودعوا كل من يشرب إلى أن يأخذ ثلاث حفنات أو ما حملتْ يداه من ذلك المال . وكان الناس يجمعونه فى أكمامهم الواسعة ويخرجون إلى غلمانهم فيدفعونه إليهم ويعودون إلى مجالسهم . وكلما خلا وعاء مما فيه أتى الفراشون بما يملؤه من الدنانير والدراهم حتى يعود كما كان . وخلع على سائر

مَنْ حضر ثلاث خلع ، وحُملوا عند انصرافهم من الحفل على الخيل المطهَّمة ، وأعتق المتوكل ألف رقبة ، وأمر لكل عتيق بمائة درهم وثلاثة أثواب . وكان فى صحن الدار بين يدى الإيوان أربعمائة جارية بين أيديهن أطباق الفواكه من كل صنف ، وخمسة آلاف باقة نرجس ، وعشرة آلاف باقة بنفسج . ترف لا يماثله ترف ! . ونثر المتوكل على هؤلاء الجوارى وخدم الدار والحاشية عشرين مليون درهم ، ونثرت زوجه قبيحة أم المعتز مليون درهم على المزين ومن كانوا فى جانبه من الغلمان وبعض الجنود وقهارمة الدار والخدم الخاصة من البيضان والسودان . مال ينفق ويبعثر بدون حساب ، وكأنما أمسك به سفهاء ، لا يعرفون حقوقاً لرعية ولا يقدرون مسئولية . وحضر الحفل كثير من الندماء فى مقدمتهم ابن حمدون وابن المنجم ، وكثير من الشعراء فى مقدمتهم الحسين بن الضحاك وعلى ابن الجهم ، وكثير من المغنين فى مقدمتهم عمرو بن بانة وابن المكى وعثعث وسليمان الطبال وصالح الدفاف وزُنام الزامر ، وكثير من المغنيات فى مقدمتهن عريب وبدعة جاريتها وشارية وجواريها . ويُقال إنه أُنفِقَ على هذا الإعذار أو الختان ستة وثمانون مليوناً من الدراهم [١] سفه ما بعده سفه !

وعلى هذا النحو كانت ملايين الدنانير والدراهم تُنْفَقُ بدون حساب وبدون أى رقابة فى حفلات القصر ، وهى حفلات أمدَّت القَصَص فى كتاب ألف ليلة وليلة بكل ما يقع فى الخيال الواهم من بذخ وترف لا ضفاف له ، وبدلا من أن توجَّه هذه الملايين إلى مرافق الشعب وحاجاته أو إلى إعداد الجيوش فى حروب الترك والبيزنطيين كانت تبدَّد هذا التبديد الأحمق والشعب يكدح ويشق ويسيل عرقه مدراراً ويتجرَّع غُصَص البؤس والحرمان ليعبث المتوكل وغير المتوكل بأمواله ، فإذا قصور شماء تُبْنَى ويُنْفَق فيها الملايين تلو الملايين ، وإذا هى تستحيل إلى مقاصف يدور فيها الكاس والطاس وتُنْثَر حمول الذهب والفضة . ويروى أن المتوكل شرب يوماً فى القصر السالف ذكره المسمى بالبركوار ، فقال لندمائه ، ولم تكن الأيام أيام ورود ورياحين : أرأيتم إن عملنا احتفالا بالورود

(١) الديارات للشابشتى (الطبعة الثانية) ص ١٥٠ ومابعدها .

أو كما نطقه بالفارسية : «شاذكلاه» ، فقالوا له : لا يكون الشاذ كلاه إلا بالورد ، وليست الأيام أيام ورد ، فقال : ادعوا لى عبيد الله بن يحيى – وكان أحد وزرائه – فحضر ، فقال له : اضرب لى دراهم ، فى كل درهم حبتان من الفضة ، فسأله : كم المقدار يا أمير المؤمنين ؟ فأجابه خمسة ملايين درهم ، فأمر عبيد الله بضربها ، فضربت ، وأنبأ المتوكل بضربها ، فقال له : اصبغ طائفة منها بالحمرة وطائفة بالصفرة وطائفة بالسواد ، واترك طائفة على حالها ، فصنع عبيد الله ما أمره به ، ثم تقدم المتوكل إلى خدمه وحواشيه – وكانوا سبعمائة – فأمرهم أن يعد كل منهم قباء جديداً وقلنسوة بخلاف لون قباء صاحبه وقلنسوته ، ففعلوا ، ثم تحين يوماً فيه ريح ، فأمر أن تنصب قبة لها أربعون باباً ، فاصطبح فيها والندماء حوله وعلى الخدم الكسوة الجديدة ، وأمر المتوكل بنثر الدراهم كما ينثر الورد ، طائفة طائفة ، فنثرت تباعاً ، وكانت الريح تحملها لخفتها ، فتتطاير فى الهواء كما يتطاير الورد(١) .

وكل هذا من الفراغ ومن الترف المفرط ، فإذا الخلفاء ينعمون بالحياة إلى حد السفه والهوس . وطبقات من وزرائهم قتر عليها فى الرزق ، فهى تعيش فى ضنك وضيق شديد . ولعل هذا هو السبب فى أن الشعب لم يهتم أى اهتمام بما كان يجرى فى القصر من تحكم الأتراك فى الخلفاء ، كأنهم لا يعنونهم فى شىء . وكل يوم يسمعون بجديد من هوسهم وسفههم ، كأن يسمعوا بأن المتوكل حين انتهى من بناء قصره الجعفرى استدعى أصحاب الملاهى ، فقدموا له بعض المساخر والملاعب المضحكة ، ومنحهم مليونين من الدراهم(٢) . ويحق يقول المسعودى إن النفقات لم تبلغ فى وقت من الأوقات ما بلغته فى أيام المتوكل(٣) . وكان أكثر أبنائه على غراره من مثل المعتز ، وكان يكثر من عقد مجالس الشراب فى قصوره ، وهو أول من ركب من الخلفاء بحلية الذهب(٤) . ولم يتوقف هذا البذخ والترف طوال العصر ، ويصور ذلك من بعض الوجوه استقبال المقتدر لرسل ملك الروم سنة ٣٠٥ للهجرة وقد جاءوا يطلبون عقد هدنة ، إذ فرشت قصوره بأجمل الفرش وملئت دار الخلافة

(١) الديارات ص ١٦٠ .
(٢) طبرى ٢١٢/٩ .
(٣) مروج الذهب ٣٩/٤ .
(٤) مروج الذهب ٩٤/٤ .

ودهاليزها وممراتها وصحونها بالجند والسلاح ، وابتدأ ذلك من باب الشـمَّـاسية إلى دار الخلافة ، وكان عدد الجند مائة وستين ألفـًا بالدروع والسلاح ومن تحتهم الخيل بسروج الذهب والفضة ، وكان عـَدَدُ الغلمان سبعة آلاف خادم وسبعمائة حاجب بالبـِزَّة الرائقة والسيوف والمناطق المحلاة . وكان فى دجلة الشذاءات والطيارات والزبازب والشبـَّارات والزلالات والسـُّمـَيريـَّات (سفن شتى) بأفضل زينة وعلى أحسن تعبئة . وسار رسل ملك الروم ومن معهم من المواكب إلى أن وصلو إلى دار الخلافة ، ودخلوا قصر الجوسق بين بستانين رائعين ، ورأوا بركة عجيبة يمدُّها جدول وبها أربع طيارات مذهبة مزينة بالدبيقى المطرز ، ثم أُدخلوا قصر الشجرة ، وهى شجرة من الفضة كانت قائمة وسط بركة مدورة ، ولها ثمانية عشر غصنـًا عليها الطيور والعصافير المذهبة والمفضضة تصفر ، والشجرة تمايل وورقها يتحرك على نحو ما تُحدث الرياح للأشجار الطبيعية ، ثم أُدْخلوا إلى قصر الفردوس وبه من الفرش ما لا يقوَّم ، وفى الدهاليز عشرة آلاف درع مذهبة معلقة[1] ، مما راع رسل ملك الروم روعة شديدة .

ويقول هلال بن المحسن الصابى جرت العادة أن يكون جلوس الخليفة على كرسى مرتفع فى عرش أرمنى من الحرير أو من الخز وأن يلبس قباء أسود من الإبريسم (الحرير) وعلى رأسه معممة سوداء ، ويتقلَّد سيف الرسول عليه السلام ويلبس خفـًّا أحمر ويضع بين يديه مصحف عثمان وعلى كتفيه بُرْدَةَ النبى صلى الله عليه وسلم ويمسك بقضيبه ، ويقف الغلمان والخدم من خلف السرير وحواليه متقلدين بالسيوف ، وفى أيديهم الطـَّبـَرْزينات والدَّبابيس (من أسلحة الحروب) . وكان يقوم من وراء السرير وجانبيه خدم صقالبة يذبـُّون عن الخليفة بالمذابِّ المقمـَّعة بالذهب والفضة ، وتـُمـَدُّ أمامه ستارة ديباج إذا دخل الناس رُفعت ، وإذا أُريد صرْفهم مُدَّت . ورُتب فى الدار قريبـًا من المجلس خدم بأيديهم قِسِيُّ البندق يرمون بها الغربان والطيور لئلا ينعب ناعب أو يصوِّت مصوِّت . ترف ليس فوقه ترف ، حتى أذن الخليفة يحرسونها من أصوات الغربان والطيور ! . وكان زىّ الأمراء من أهل البيت العباسى الأقبية السود ، ويلبس القضاة الطيالسة

---

(١) رسوم دار الخلافة للصابى ص ١١ وما بعدها والنجوم الزاهرة ١٩٢/٣ .

والقلنسوات الضخمة[١] . ويلبس الوزراء الأقبية السود وينتطقون بالسيوف وقد يلبسون دراعة وقميصاً ومبطنّة وخفاً .[٢] وكان السواد هو اللباس الرسمى العام ، وكانوا يلبسون فى أرجلهم الجوارب والأحذية السود المشدودة بالزنانير . وفى يوم الموكب كان يحضر حاجب الحجاب بأكمل لباسه من القباء الأسود والعمامة السوداء والسيف والمنطقة ، وأمامه الحجاب ونوّابهم ، ويجلس فى الدهليز من وراء الستر ، ثم يحضر الوزير وقائد الجيش ، ويتكامل الناس فيراسل حاجب الحجاب الخليفة ، فإذا أذن الإذنَ العام دخل وحده حتى يقف فى الصحن ويقبل الأرض ، ثم يؤذن له بتقديم الناس ، فيخرج ويدعو ولىّ العهد إن وُجد ، وكذلك أولاد الخليفة ، إن كان له أولاد ، ثم يدخل الوزير ، ويمشى الحجاب بين يديه إلى مقربة من العرش ، فإذا قرب تأخروا عنه ، وتقدم الوزير بعد تقبيل الأرض إلى أن يدنو من الخليفة فإن مدّ يده إليه أخذها وقبّلها وتراجع حتى يقف فى يمين العرش على بعد خمسة أذرع منه ، ويدخل بعده قائد الجيش أو أميره فيقبل الأرض ويقف على يسار العرش ، ثم يدخل أصحاب الدواوين والكتّاب ، ثم القوّاد ونوّاب الحاجب على مراتبهم ، ويقفون يميناً وشمالا على رسومهم ، ثم ينادَى على بنى هاشم والقضاة ومن يلبسون القلانس ويسلمون ويقفون منفردين ، ثم يقع الإذن العام فيدخل الجند ويقفون صفّين . وكل ذلك تعقيد أدت إليه الحضارة والترف وأن الناس لا يشتركون فى الحكم ولا يشاطرون فيه ، فتحول إلى رسوم وشكليات وآداب لا يعرفها العرب ولا يعرفها الإسلام . وكان للوزراء بالمثل مواكبهم ، وكذلك كان للقواد ، ويروى أن نازوك أحد قواد المقتدر كان يمشى فى موكبه بين يديه أكثر من خمسمائة فراش بالشموع الموكبية سوى حملة المشاعل[٣] .

وكان يرافق هذه الأبهة أبّهةٌ فى المسكن والملبس والمطعم ، فكانت الستور الجميلة تعلّق دائماً على حيطان المسكن ، وكانت تُفْرَش أرض غرفه وممرّاته وصحونه بالبسط والسجاجيد ، وتمتد فوقها المقاعد والوسائد والنمارق ، وكانت القصور تكتظ بذلك اكتظاظاً شديداً ، ويصوّر ذلك من بعض الوجوه أن المتوكل حين غضب على عمر بن فرج الرُّخَّجِىّ أحد كبار موظفى الدولة ، وصادر أمواله ،

(١) رسوم دار الخلافة ص ٩٠ .

(٢) كتاب الوزراء للصابى ص ٣٢٥ .

(٣) رسوم دار الخلافة ص ١٠ .

حملت فُرُش وأمتعة من داره على خمسين بعيراً [١] ، فما بالنا بما كان فى قصور الوزراء ، فضلا عن الخلفاء ، من فرش فخمة . وعلى نحو ما كانوا يهتمون بالفرش كانوا يهتمون بالثياب ، حتى كانت صناعتها أهم الصناعات وأرقاها ، وكان الصناع يتفننون فى صنعها من الخز والديباج والحرير . ويروى صاحب الديارات أن المتوكل جلس يوماً فى أحد قصوره على عرش من الذهب وعليه ثياب وشى مثقلة ، وأمر ألا يدخل عليه أحد إلا فى ثياب وشى مثله [٢] ، وكان الخدم يقفون بين يديه وعليهم ثياب حمراء موردة [٣] . ويقال إن المستعين هو الذى أحدث لبس الأكمام الواسعة فجعل عرضها ثلاثة أشبار ، وصغر القلانس وكانت طويلة كأقباع القضاة [٤] . وكان المعتضد يلبس الثياب الدبيقية الرفيعة التى كانت تصنع بمصر والثياب الحريرية التى كانت تصنع بمدينة تستر وغيرها من المدن الفارسية [٥] . ويروى أن إسحق بن إبراهيم المصعبى حاكم بغداد لعهد المتوكل أهدى إلى عمرو بن بانة مغنى العصر عشرة أثواب خز أقلها قيمة بمائة دينار [٦] ، وكان خليفته على بغداد محمد بن عبد الله بن طاهر يتأنق فى ثيابه ، وقيل إنه كان بينها ثوبان من الوشى قيمتهما ألف وخمسمائة دينار [٧] ، ومر بنا أن الراسبى والى إيران كان له مصنع خاص تنسج فيه ثيابه وثياب حواشيه وأصحابه . وكان الشعراء مثلهم مثل المغنين يلبسون الخز والوشى والثياب الحريرية [٨] . وكانوا يلبسون فى الشتاء الفراء والثياب الصوفية . واشتهر ثوب باسم الممطر كان يصنع من القماش المشمع للوقاية من المطر ، ونرى البحترى يسأل إبراهيم بن الحسن بن سهل ثوباً منه [٩] . ولبسوا الجوارب الصوفية والقطنية والجزائرية والأحذية الحمراء [١٠] . ويبدو أن الرجال كانوا يتنافسون فى اقتناء الحجارة الكريمة ، إذ نرى نفراً منهم حين تصادر أمواله تضاد بينها جواهر ثمينة تبلغ قيمتها ألوف الدنانير [١١] . وكانت خزائن الخلفاء تكتظ بالجواهر من كل صنف ،

---

(١) طبرى ٩ / ١٦٦ . (٧) الديارات ص ٢٠٣ .
(٢) الديارات ص ١٦١ . (٨) البيان والتبيين ٣ / [illegible]
(٣) الديارات ص ٥٧ . (٩) ديوان البحترى (طبع دار المعارف) ٢ / ٨٩٢ .
(٤) مروج الذهب ٤ / ٩٤ . (١٠) تاريخ بغداد ١١ / ٦٦ والأغانى ٦ / ٨٥ .
(٥) مروج الذهب ٤ / ١٦٨ . (١١) طبرى ٩ / ١٦١ ، ٢٠٠ .
(٦) الديارات ص ٤٤ .

ويُذْكَرُ أنه كان عند المستعين فَصٌّ ياقوت أحمر اشتراه الرشيد بأربعين ألف دينار[١]، ويُرْوَى أن المقتدر طلب الصناديق وأوعيتها المحفوظة بالخزائن، فاختار منها مائة حبة، ونظمها سُبْحَةً يسبح بها وعُرضت على تجار الجواهر فقوَّموا كل حبة منها بمائة ألف دينار أو تزيد[٢].

وكان النساء جرائر وجواري يبالغن في أناقتهن وزينتهن، فكن يلبسن ثياب السندس والإستبرق والوشي النفيس من كل لون وكن يتحلين بالجواهر من كل صنف: من الذهب والفضة والزمرد والياقوت واللؤلؤ، وكنَّ يتخذن منها تيجاناً وعقوداً وأقراطاً وخلاخيل، وكنَّ يضعنها بصور مختلفة على عصائبهن ومراوحهن. ويُرْوَى أنه كان لدى قبيحة زوجة المتوكل وأم المعتز ثلاثة أسفاط: سَفَطٌ مملوء زمرداً، وسَفَطٌ مملوء ياقوتاً، وسفط مملوء دُرًّا كبيراً، وقُوِّمت الأسفاط فبلغت قيمتها مليونين من الدنانير. وكان النساء يتخذن أمشاطاً من الصدف والصندل[٣]. وكن يتفنن في أوضاع شعورهن على رءوسهن وجباههن، وقد يلوينها على أصداغهن في هيئة حرف النون أو على هيئة العقرب، وفي ذلك يقول ابن المعتز[٤]:

لَوَى صُدْغَهُ كالنونِ من تحتِ طُرَّةٍ ... مُمَسَّكَةٍ تزهى بعاجِ جبينِ

ويقول أيضاً[٥]:

ريمٌ يَتيهُ بحسنِ صورتهِ ... عَبَثَ الفتورُ بلحظِ مُقْلَتِهِ

وكأنَّ عَقْرَبَ صُدْغِهِ وقفتْ ... لما دنتْ من نارِ وَجْنَتِهِ

وكن يتعطرن بطيب المسك كما أشار إلى ذلك ابن المعتز في البيت الأول وبطيب الغالية والزعفران والعنبر. ويقال إن عَرِيب المغنية المتوفاة سنة ٢٧٧ عن سن عالية كانت تغسل شعرها من أسبوع إلى أسبوع وتغلفه في كل غسلة بستين مثقالاً من المسك والعنبر[٦]. ويقول الجاحظ إن المرأة من الطبقة الوسطى حين كانت تهيئ ابنتها للزواج كانت تحليها بالذهب والفضة وتكسوها الثياب الحريرية وتعطرها

---

(١) مروج الذهب ٤/ ٨٣.

(٢) طبرى ٩/ ٣٩٥.

(٣) نساء الخلفاء لابن الساعي (طبع دار المعارف) ص ٦٢.

(٤) ديوان ابن المعتز (نشر دار صادر ببيروت) ص ٤٠٢.

(٥) الديوان ص ٤١٩.

(٦) أغاني (طبعة الساسي) ١٨/ ٨٧.

بالطيب العبِق[١]. وازدهرت حينئذ بفارس صناعة الروائح العطرية من الزهور والورود والرياحين المتنوعة .

وتفننوا فى المطاعم إلى غير حد ، تدل على ذلك المصنفات الكثيرة التى ألفت حينئذ فى فن الطبيخ للحارث بن بُسْخنَّر (من المغنين) ولإبراهيم بن العباس الصولى ولعلى بن يحيى المنجم ولجَحْظة البرمكى وغيرهم على نحو ما يشير إلى ذلك ابن النديم فى كتابه الفهرست[٢]، وكان الخلفاء يأكلون فى آنية الذهب والفضة ، ويذكر أن المكتفى كانت تقدَّم على مائدته عشرة ألوان فى كل يوم سوى صنوف الحلواء[٣]، وكان ما يقدم قبل الخليفة القاهر على مائدة الخلفاء من صنوف الطعام والحلواء يقدَّر بثلاثين ديناراً[٤]، ويقال إن ثمن المسك الذى كان يُنْفَق يومياً فى مطبخه عشرة دنانير[٥] فما بالنا بما كان ينفق على الطعام والحلواء والفاكهة . . .

وبالمثل كان الوزراء يسرفون فى الإنفاق على طعامهم وموائدهم ، ومرَّ بنا أنه كان لحامد بن العباس وزير المقتدر أربعون مائدة يختلف إليها فى كل غداء أفواج من الناس . ويقول الصابى فى كتابه الوزراء إنه كان لابن الفرات مطبخان : مطبخ للخاصة ، ومطبخ للعامة ، وكان يقدم إلى الأخير يومياً تسعون رأساً من الغنم وثلاثون جَدْياً غير المئات من الدجاج ، وكان الخبَّازون وأصحاب الحلواء يعملون ليل نهار . ويصف لنا الصابى مائدته الخاصة به وبأصحابه المقربين ، فيقول : إنه كان يدعو إلى طعامه فى كل يوم تسعة من أصفيائه الكتَّاب ، وكان بينهم أربعة نصارى : « فكانوا يقعدون من جانبيه وبين يديه ، ويقدَّم إلى كل واحد منهم طبق فيه أصناف الفاكهة الموجودة فى الوقت من خير شىء ، ثم يُجْعَلُ فى الوسط طبق كبير يشتمل على جميع الأصناف ، وكل طبق فيه سِكّين يقطع بها صاحبها ما يحتاج إلى قطعه من سفرجل وخوخ وكمثرى ، ومعه طستُ زجاج يُرْمَى فيه بالثفل . فإذا بلغوا من ذلك حاجتهم واستوفوا كفايتهم شِيلت الأطباق وقُدّمت الطسوت والأباريق ، فغسلوا أيديهم ، وأحضرت المائدة مغشَّاة بدبيقى فوق مكبَّة خيازر ، ومن تحتها سفرة (مفرش) أدم فاضلة عنها ، وحواليها مناديل . . . فإذا

(١) البخلاء (طبعة دار الكاتب المصرى) ص ٢٥ .

(٢) الفهرست لابن النديم (الطبعة الثانية للمكتبة التجارية بمصر) ص ٤٥٤ .

(٣) مروج الذهب ١٩١/٤ .

(٤) عريب ص ١٨٣ .

(٥) كتاب الوزراء ص ٣٥٢ .

وُضعت رُفعت المكبَّة (غطاء الآنية) والأغشية ، وأخذ القوم فى الأكل ، وابن الفرات يحدّثهم ويؤانسهم ويباسطهم . فلا يزال على ذلك ، والألوان تُوضَعُ وتُرْفَعُ أكثر من ساعتين . ثم ينهضون إلى مجلس فى جانب المجلس الذى كانوا فيه ويغسلون أيديهم ، والفرّاشون قيام يصبون الماء عليهم ، والخدم وقوف على أيديهم المناديل الدبيقيّة ورطليّات ماء الورد لمسح أيديهم وصبّه على وجوههم»[1] وكأن العباسيين لم يتركوا للمدنية الحديثة شيئاً .

وكان فى بيوت الكبراء شرابى يعنى بالشراب وآلته وبالفاكهة والروائح[2] ، وكان بجانبه الشوّاء والطبّاخ والخبّاز والخبّاص وهو الذى يصنع الحلوى ، وفى كتاب البخلاء للجاحظ وغيره من كتب العصر أسماء أطعمة كثيرة مثل السكباج ، وهو لحم يُطْبَخُ بخلّ ويضاف إليه شىء من الزعفران لتطيب رائحته ، والمَضيرة وهى لحم ممزوج ببعض التوابل ، والشبارقات وهى شرائح مشوية من اللحم ، والطباهج وهو طعام من لحم وبيض وبصل ، والهريسة وهى لحم وماء وسميذ إلى غير ذلك من أطعمة كثيرة . ثم الحلوى من الفطائر والرقاق ، ومنها اللوزينج ، وكان يتخذ من اللوز والدقيق والفستق ويُرَشُّ بماء الورد ، ومنها الفالوذج وهو حلوى من النشا وعسل النحل والسمن ، والخُشْكنان وهو كعك يُحشَى بالجوز والسكر . ثم الأشربة ومنها الجُلاّب وهو شراب ممزوج بماء الورد . وكانت تقدّم مع الطعام المشهيات ويسمونها النُّقْل ، وكانت تتألف — كما فى عصرنا — من أشياء حرّيفة . وكتبوا كثيراً عن آداب الطعام نجد ذلك منثوراً فى كتاب البخلاء للجاحظ وعيون الأخبار لابن قتيبة وأدب النديم لكشاجم وكتاب الموشى للوشاء ، وفيه فصل طريف عن زى الظرفاء فى الطعام .

وكانوا يفصلون وقت الشراب عن وقت الطعام ، وفيه يكون السمر ، ودائماً نجد الندماء ، وكان لكل خليفة ندماؤه من العلماء والمنجمين والأطباء ومن يوردون

---

(١) كتاب الوزراء ص ٢٤٠ .

(٢) كتاب الفرج بعد الشدة للتنوخى ١١/٢ .

النوادر والفكاهات وممن يعرفون كيف يرضونه فى ساعات صفوه وساعات سخطه ، وكانت تغمرهم الصلات السنية على نحو ما يروى عن على بن يحيى المنجم وما قيل من أنه وصله من المتوكل وحده ثلثمائة ألف دينار ، وكان نديماً ممتازاً ، فهو شاعر وطبيب وأديب ومضحك وصاحب نوادر . وتخصصت أسرة حمدون بهذه الصناعة ، وهى من سلالة حمدويه صاحب الزنادقة فى عصر المهدى ، فكان إبراهيم بن حمدون ينادم المعتصم ثم الواثق ولحق عصر المتوكل ، وكان ينادم المعتمد منهم أبو محمد بن حمدون ، أما أبو عبد الله أحمد بن حمدون فكان ينادم المتوكل وغيره من الخلفاء ، ويقال إن المتوكل وصله فى مدة خلافته بثلثمائة وستين ألف دينار وإن المستعين وصله بأكثر مما وصله به المتوكل[(١)] . ونجد فى بلاط المتوكل كثيرين من الندماء ، ومنهم أبو العبر وأبو العنبس الصيمرى الذى قلد أمامه البحترى فى إنشاده الشعر تقليداً مضحكاً . وكان المعتمد كثير الندماء مثل المتوكل ، وفى مروج الذهب حديث دقيق لبعض ندمائه عن آلات الطرب والغناء والرقص ، ويقول المسعودى بعقب ذلك : « وللمعتمد مجالسات ومذاكرات ومجالس فى أنواع من الأدب ، منها مدح النديم وذكر فضائله »[(٢)] ، ولا بد أن يكون كشاجم استفاد فى كتابه « أدب النديم » من ذلك فوائد كثيرة . وكان المعتضد يفرد حجرة للندماء ، ليستدعيهم منها ، وكان لكل منهم نوبته أو دوره[(٣)] . واشتهر الراضى بأنه كان يوسع فى مجالسه للندماء « ولم يكن ينصرف عنه أحد من ندمائه فى أى يوم إلا بصلة أو خلعة أو طيب ، منهم محمد بن يحيى الصولى وواحد من بنى حمدون »[(٤)] . وكان للوزراء ندماؤهم ، بل كان أيضاً لعلية القوم وكبار الموظفين فى الدولة ، ويكفى أن نعرف مثلا أن أحمد بن المدبر كان له سبعة ندماء لا يأنس بغيرهم ولا ينبسط إلى سواهم[(٥)] ، ومن المؤكد أن وظيفة هؤلاء الندماء هى التى دفعت الجاحظ إلى كتابة مصنفه البخلاء للتسلية والتندير ، وكثر من حوله

---

(١) معجم الأدباء (طبع القاهرة) ٢١٧/٢ .
(٢) مروج الذهب ١٣٨/٤ .
(٣) تاريخ بغداد ٢٨٠/٧ .
(٤) مروج الذهب ٤/ ٢٤٤ .
(٥) مروج الذهب ١٦٣/٤ .

التأليف فى المغفلين وأصحاب النوادر والفكاهات(١).

وكانوا يشغفون – وفى مقدمتهم الخلفاء – بضروب كثيرة من الملاهى، ويقال إن مجالس المتوكل كانت تمتلئ باللعب والهزل(٢)، وممن كان يعجب بهم أصحاب السماجة أو كما نقول الآن التمثيل الهزلى، الذين كانوا يقلدون الناس فى حركاتهم وأصواتهم(٣). وكان هو وخلفاؤه كثيراً ما يتفرجون على نطاح الكباش والديكة(٤) وتواثب السباع والفيلة. ويحكى عبيد الله بن عبد الله بن طاهر أن المعتز استدعاه، حتى إذا كان بمجلسه أسمعه غناء شارية وزَمْرَ زُنام، وأراه آلة عملها أحمد بن موسى الخوارزمى من نحاس يرسل فيها الماء فيُسْمَع لها زمر السرناى (آلة من آلات الطرب)، ثم أدخله إلى نافذة رأى منها الفيل والسبع كيف يتواثبان(٥). ومن أهم ملاهيهم لعبة الشطرنج، وكان من يحسنها تُفتَح له أبواب الخلفاء والوزراء والكبراء مثل أبى القاسم التوّزِىّ الشطرنجىّ، ومثل محمد بن يحيى الصولى، ويقال إن المكتفى استقدمه حين علم بإحسانه لعبة الشطرنج، وجعله يلعب بين يديه مع لاعب آخر كان مشهوراً بلعبه هو الماوردى، ولكن الصولى قهره وغلبه(٦). ويحدثنا المسعودى بعقب ذكره ذلك عن الشطرنج وكيف أنه كان يُلْعَب على رُقْعة أدم مربعة حمراء، ويعرض لآلاته وأنواعها واختلاف هيئاتها، فيذكر بجانب الرقعة المربعة السالفة رقعة مستطيلة ورقعة مدورة ورقعة نجومية وتسمى الفلكية. ويقول المسعودى إنه استحدثت فى زمانه رقعة للشطرنج تسمى الجوارحية، سموا كل بيت من أبياتها باسم جارحة من جوارح الإنسان، ويقول إن للاعبيها وهواتها فنوناً من الهزل والنوادر البديعة. وكانوا يقامرون ويراهنون فى لعبة الشطرنج، وكذلك فى لعبة النَّرْد (الطاولة)، وكانوا يلعبونها عادة على رقعة

---

(١) الفهرست ص ٤٤٩.

(٢) مروج الذهب ٤/٤.

(٣) الديارات ص ٣٩.

(٤) مروج الذهب ٤/١٠٣.

(٥) الديارات ص ١١٠ ومعروف أنه كان بدار الخلافة منذ المعتصم حظيرة للحيوان تسمى حير الحيوان. انظر الأغانى (طبعة الساسى) ١٠/١٣٠.

(٦) مروج الذهب ٤/٢٣٢.

بها أربعة وعشرون منزلا بثلاثين حجراً وفصَّين يجرى بهما اللعب كما هو معروف فى عصرنا . وكان إبراهيم بن المدبر وزير المعتمد مشغوفاً به وكان ماهراً فيه ، فكان يطلب بلعبه القمار وكسب الرهان ، ويروى صاحب الديارات أنه ربح من شخص ذات يوم عشرين ديناراً[١] .

ولعل ملهى لم يشغل الناس كما شغلهم الغناء ، وسنعرض لذلك فى موضع آخر ، وكثيراً ما كانوا يتجمعون فى تلك الحقب للفرجة على سباق الخيل ، حتى كانت أيامه أشبه بأيام الأعياد . وكذلك كان اللعب بالصوالجة على الخيل ، حيث تضرب كرة ويتقاذفها الخيَّالة والفرسان ، وكانت فى دور الخلفاء ميادين خاصة لتلك اللعبة[٢] ، وكان يلعبها الخلفاء والوزراء والقواد وحواشيهم ، ويُرْوَى أن عبيد الله بن يحيى ابن خاقان وزير المعتمد دخل ميداناً فى داره يوم جمعة ليضرب الصوالجة مع بعض غلمانه ، فركب فرسه ، وثقل ، فصدمه غلامه رشيق ، فسقط عن فرسه ميتاً[٣] . ويصور ابن قتيبة هذه اللعبة والتفوق فيها ، فيقول إن الضارب يضرب الكرة بالصولجان خِلْسَةً من تحتِ مِخْزَم الدابَّة تلقاء لبَّتها ، وعليه أن يحسن كفَّ الدابَّة فى شدة جريانها متوقياً من الصَّرْعة والصَّدْمة المفاجئة .

وكانوا يخرجون للصيد والقَنْص أفواجاً ، واشتهر غير خليفة بالخروج له ومعه الكلاب والصقور والفهود ، وكان من أشد الخلفاء شغفاً به المعتضد « وكان كالمعتصم فى أكثر أموره ومآربه وأشبه به من سائر بيته وبنيه من الخلفاء فى محبته لمباشرة الحرب والصيد وما أشبههما ، ولم يكن ينفكّ من حرب إلا إلى صيد ولا من صيد إلا إلى حرب ، وكان يخرج لصيد الأسْد، فيخيم عليها حتى لا يبقى منها باقية »[٤] وكان ابنه المكتفى مشغوفاً مثله بالصيد «وكان أكثر ما يُدْمنه الصيد بالفهد والعقاب ، وهما سَبُعا الضوارى والجوارح ، ويباشر ذلك بنفسه ويمتهنها فيه لشدة الشغف به

(١) كتاب الديارات ص ١١ .
(٢) كتاب الوزراء ص ١٣٨ .
(٣) النجوم الزاهرة ٣/٣٨ .
(٤) المصايد والمطارد لكشاجم (طبع بغداد) ص ٥ .

والارتياح إليه »[١]. ومنذ أبى نواس والشعراء يكثرون من النظم فيه بجميع صوره ،
ويعرض كشاجم آلاته عرضًا مفصلا فى كتابه المصايد والمطارد ، كما يعرض روائع
٩ ما قيل فيه من أراجيز وأشعار كانوا يسمونها الطَّرديات . ومن طريف ملاهيهم
المهارشة بين القردة والفيلة[٢] .

وكانت العامة تجد تسليتها المحبَّبة عند قُصَّاص كانوا منتشرين فى طرقات بغداد وكانوا يقصون عليها نوادر الأخبار وغرائبها ، ويبدو أنهم كثروا كثرة مفرطة حتى لنرى المعتمد يأمر فى سنة ٢٧٩ بالنداء فى بغداد ألا يقعد على الطريق ولا فى المسجد الجامع قاص ولا صاحب نجوم ولا زاجر[٣]. وكان اللعب بخيال الظل معروفًا حينئذ ، وكان يعتمد على الهزل والسخرية والإضحاك[٤]. وكان هناك كثير من المضحكين الذين يتفننون فى طرق الهزل ، وكان كثير منهم يخلط هزله بحكاية لهجات النازلين ببغداد من الأعراب والخراسانيين والزنوج والفرس والهنود والروم أو يحاكون العميان ، وكأنما يجمع الحاكى سمات من يحكيه جميعًا ، وقد يحاكون بعض الدواب وخاصة الحمير[٥]. ومن أشهر هؤلاء الحكَّائين المضحكين لعصر المعتضد ابن المغازلى ، وكان يتكلم على الطريق ويقص على الناس أخبارًا ونوادر ومضاحك ، وكان فى نهاية الحذق لا يستطيع من يراه إلا أن يضحك ، وكان لا يدع حكايته لأعرابى أو مكى أو نَجْدِى أو تركى أو نبطى أو زنجى أو سِنْدى إلا حكاها ، وكان يخلط ذلك بنوادر تضحك الثكلى ، وسمع به المعتضد فأحضره ، فما زال يذكر له نوادر وهو متماسك ، حتى أخرجه عن طوره ووقاره إلى الضحك ، فضرب بيده وفحص الأرض بقدمه ، واستلقى من كثرة الضحك وغلبته عليه[٦] .

---

(١) المصايد والمطارد ص ٧ .

١ (٢) الحيوان ٧/ ٦٢ .

(٣) طبرى ١٠/ ٢٨ ، والنجوم الزاهرة ٣/ ٨٠ .

(٤) الديارات ص ١٨٧ وما بعدها .

(٥) البيان والتبيين ١/ ٦٩ .

(٦) مروج الذهب ٤/ ١٦٣ .

٣

الرقيق والجوارى والغناء

كان الرقيق منتشراً فى كل مكان ، فى القصور وفى الأكواخ وفى الصناعات وفى الزراعة ، وكان كثيراً كثرة مفرطة ، فمنه السندى ومنه الإفريقى الزنجى والحبشى والسودانى ومنه التركى والصقلبى ، ومنه الصينى والخراسانى والأرمنى والبربرى ، وكأنما كانت تجتمع فيه كل الأجناس . ومع أن الإسلام قصر الرق على من يؤخذ فى الحرب أسيراً كافراً ، فقد مضى المسلمون — محاكين شعوب العالم القديم — يفسحون للتجارة فيه وجلبه من البلاد الأجنبية ، وكأنهم لم يستطيعوا أن يبطلوا هذه العادة عند الأمم المغلوبة كما كان منتظراً ، بل لقد شاركوهم فيها . ولم تلبث تجارة الرقيق فى ديار الإسلام أن أصبحت ذات شأن عظيم ، حتى ابتنى لها فى كل مدينة كبيرة سوق خاصة يقوم على مراقبتها موظف يسمى قيم الرقيق . ويذكر اليعقوبى أن سوق سامراء فى القرن الثالث الهجرى كانت مربعة ، وبها طرق متشعبة ، وفيها الحجر والغرف والحوانيت[1] .

ومعروف أن الإسلام عمل على تحرير الرقيق بوسائل شتى ، إذ جعله فداء لأعظم الجنايات مثل القتل خطأ وأخفها مثل الحنث فى اليمين ، وأباح للعبد حق التملك وأن يكاتب صاحبه على جزء من المال يدخره من العمل ، حتى إذا وفاه ردت إليه حريته . واستطاع كثير من الأرقاء المحررين أن يصلوا إلى أعظم المناصب فى الدولة ، وكان من هؤلاء الأرقاء من يتمتعون بجاه عظيم مثل قواد الترك طوال العصر ، غير أن جمهوراً كبيراً منهم كان يعامل معاملة سيئة ، وخاصة الزنوج الذين كانوا يقومون بأعمال الحرث والزراعة فى البصرة ، مما جعلهم يثورون لعصر المعتمد — كما مر بنا — ثورة عارمة . ولا ريب فى أن هذه المعاملة السيئة تخالف روح الإسلام مخالفة صريحة ، لا من حيث استرقاق الناس بالشراء لا بالحرب فقط ، بل أيضاً من حيث أخذهم بالعنف والعسف والظلم ، فقد دعا القرآن

---

(١) جغرافية اليعقوبى ص ٢٥٩ .

والحديث جميعًا إلى الإحسان للأرقاء والبرِّ بهم والمعاملة الكريمة على نحو ما يلقانا في آية سورة النساء: (وبالوالدين إحسانًا وبذى القربى واليتامى . . . وما ملكتْ أيمانكم إن الله لا يحب مَنْ كان مختالا فخوراً)، وفى الحديث النبوى: «شر الناس مَنْ أكل وحده ومنع رِفْدَه (عطاءه) وضرب عبده»، وفيه أيضًا: «العبيد إخوانكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسْه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم»، وكانت الجارية بمجرد أن يستولدها سيدها تصبح أم ولده، وليس له حق بيعها، وابنها حر مثل أبيه، وبمجرد موت سيدها تصبح حرة. وفى مواضع كثيرة من القرآن والحديث نجد الدعوة قوية إلى تحرير العبيد، ولذلك كان كثيراً ما يوصى الرسول من ملكوهم بعتقهم بعد موتهم، ويُرْوَى أن المعتصم أوصى بعد موته بعتق ثمانية آلاف من مماليكه، ومثله كان يصنع الوزراء والكبراء من الأمة.

على كل حال كان الأرقاء كثيرين كثرة مفرطة، وكان أهم ما يقومون به فى المدن الخدمة، ويقول المسعودى إن الخدم كانوا عادة من السودان أو الصقالبة أو الروم أو الصين[1]. ويبدو أن جمهورهم كانوا من الخصيان، ومع أن الإسلام حرَّم الخصاء تحريمًا باتًّا نجد الخصيان منتشرين فى العالم الإسلامى انتشاراً واسعًا. وكانوا يُخْصَوْن خارج حدود الدولة الإسلامية: فى بيزنطة وأواسط آسيا، ثم يُجْلَبُون ويباعون فى أسواق الرقيق ببغداد وغير بغداد، ويتردَّد ذكرهم كثيراً منذ أواخر القرن الثانى الهجرى. «وكانت انتشارهم باعثًا على أن تلبس بعض الجوارى المسمَّيْن بالغُلاميات ملابسهم، وترتبط بذلك حادثة مشهورة فإن زبيدة أم الأمين حين رأته يستكثر من الخصيان اتخذت الجوارى المقدودات الحسان الوجوه، وعمَّمت رءوسهن، وجعلت لهن الطرَر والأصداغ والأقفية (صور من تجميل أوضاع الشعر على الرأس تشبهًا بالفتيان) وألبستهن الأقبية والقراطق والمناطق (ملابس الفتيان) فماست قدودهن وبرزت أردافهن، وبعثت بهن إلى ابنها الأمين، فاختلفن بين يديه، فاستحسنهن، واجتذبن قلبه إليهن وأبرزهن للناس»[2] فقلَّده كثير من أهل بغداد، وظل ذلك من بعده حتى عصر الخليفة القاهر المتوفى

(١) مروج الذهب ١٥٨/٤ .

(٢) مروج الذهب ٢٢٦/٤ .

سنة ٣٢٢ إذ يروى بعض الإخباريين أنه رأى فى قصره جوارى يلبسن القراطق والأقبية والطُرَر ومناطق الذهب والفضة[١].

وكثرة الخصيان هى التى هيّأت لظهور هؤلاء الغلاميات ، ويكفى أن نذكر ما قاله المؤرخون من أنه كان فى قصر المقتدر أحد عشر ألف غلام خصىّ[٢]. ومنذ أواسط القرن الثالث أخذ الناس — احتراماً لمن صارت إليهم مقاليد الأمور منهم ، وخاصة من الترك — يسمون الخصىّ الخادم والأستاذ[٣]. ولم يكونوا يستطيعون التعرض للخصيان البيض خوفاً من الترك وبطشهم ، أما السود فكانت العامة تكثر من الصياح بهم : يا عقيق[٤]. ويروى المسعودى أن الخدم السود جأروا بالشكوى إلى المعتضد لما يلحقهم فى الأزقة والشوارع والدروب وسائر الطرق من الصغير والكبير من العوام إذ كانوا جميعاً يصيحون بهم : « يا عقيق صُبّ ماء واطرح دقيق يا غاق (صوت الغراب) يا طويل الساق »[٥]. وكان المضحكون الهزليون فى الطرق كثيراً ما يحاكون الخدم المختلفين وأصواتهم[٦].

وكانت الإماء والجوارى فى الدور والقصور أكثر من الخصيان وأرقاء الرجال ، إذ أباح الإسلام للمسلم أن يتملك ما شاء من الجوارى والإماء ، وكثير من الرجال كانوا يفضلونهن على الحرائر ، لأنهن كن من أجناس وأشكال مختلفة ، ولم يكن بينهن وبين الرجال حوائل الحجاب مثل الحرائر اللائى يقترنون بهن وهم لا يعرفون من أمرهن شيئاً ، بخلاف الجارية فإنها كانت معرّضة لهم فى دور النخّاسين ، فكانوا يختارونها بحسب مشيئتهم وموقعها فى أنفسهم ، بخلاف الحرائر فقد كان الحجاب يحول بينهم وبين التعرف عليهن ، وكانوا يُضْطَرّون لاتخاذ دلاّلات يصفونهن لهم ، وقلما يتطابق الوصف مع الحقيقة . وكان بين الجوارى المعروضات للبيع دائماً كثير من الفاتنات الفارسيات والخراسانيات والأرمنيات والتركيات والروميات ، فكنّ يستأثرن بقلوب الرجال . ومن أجل ذلك لم يكونوا يعددون زوجاتهم ، فقد كفاهم اتخاذ الجوارى والإماء هذا التعدد ، وأكبّوا عليه إكباباً .

---

(١) مروج الذهب ٢٢٧/٤ .

(٢) النجوم الزاهرة ٢٣٤/٣ .

(٣) مروج الذهب ١٧٨/٤ ، ١٨٠ .

(٤) طبرى ٥٣/١٠ .

(٥) مروج الذهب ١٧١/٤ .

(٦) مروج الذهب ١٦٣/٤ ، ١٦٤ .

وكان إمامهم فى ذلك الخلفاء فإنهم أكثروا من الجوارى كثرة مفرطة ، حتى ليروى أنه كان لدى المتوكل منهن أربعة آلاف جارية (١)، وهى رواية مبالغ فيها ، غير أنها تدل على ما ثبت لدى الناس من كثرة جواريه ، ويقال إنه لما أفضت إليه الخلافة أهداه عبيد الله بن طاهر هدية فيها مائتا وصيف ووصيفة ، وكان فى الهدية محبوبة (٢). وكانت شاعرة مغنية فوقعت عنده أعظم موقع واقترن بها ، ووفت له بعد موته وفاء منقطع النظير . وظلت هذه السيول تتدافع إلى قصر الخلافة طوال العصر من كل قطر ، ويُرْوَى أن زيادة الله بن الأغلب أهدى المكتفى حين ولى الخلافة مائة وخمسين جارية (٣). ولعلنا لا نعجب بعد ذلك إذا عرفنا أن أمهات الخلفاء فى العصر كُنّ من الجوارى ، وخاصة جوارى الترك والروم ، وكُنّ يتدخلن فى شئون الحكم ، فكل جارية تحاول أن تقيم فى المناصب العليا أقرباءها والمقربين منها ، على نحو ما كانت تصنع أم المقتدر بأخرة من العصر ، حتى فسد الحكم لعهده فساداً لا يمكن إصلاحه ، وفسحت لأخيها الرومى المسمى غريبًا فى النفوذ والسلطان ، فزاد الطين بلة ، وزاد بلة ثانية بما أتاحت لقهرمانتها أم موسى من إسنادها نقابة بنى هاشم لأخيها ، وأتاحت لقهرمانتها الثانية ثمل — كما مر بنا فى غير هذا الموضع — أن تقعد فى الرصافة كل يوم جمعة للنظر فى المظالم .

وكانت الجارية الجميلة تباع بألف دينار وأكثر ، وكان الناس يغدون ويروحون إلى سوق الرقيق ودور النخاسين يتفرّجون على الوافدات الجديدات من الجوارى الفاتنات ، وكان النخاسون يجمعون منهن كثيرات ، حتى لقد كانت رءوس أموالهم تبلغ الألوف ، ويقول ابن المعتز عن نخّاس منهم يسمى أحمد بن الحارث إنه كان يجتمع أحيانًا عنده من الرقيق ما يبلغ مائة ألف دينار (٤)، ويذكر أبو الفرج الأصبهانى عن نخاس يسمى أبا عمير أنه كان له جوار لهن ظرف وأدب ، وكان ابن البواب الشاعر يألف جارية منهن يقال لها عبادة ويكثر غشيان منزل أبى عمير من أجلها فأصابه ضيق شديد ، فانقطع عن زيارتها ثم نازعته نفسه إلى

---

(١) مروج الذهب ٤/٠٤ .

(٢) أغانى (ساسى) ١٩/١٣٢ ونساء الخلفاء لابن الساعى ص ٩٢ .

(٣) مروج الذهب ٤/٢٠٠ .

(٤) طبقات الشعراء لابن المعتز (طبع دار المعارف) ص ٤٢٦ .

لقائها وصعب عليه الصبر عنها ، فأتى عبادة ، ووجد الجارية ورفاقه يعاتبونه على تأخره عنهم وعن صاحبته ، ولم يلبث أن أنشأ يقول :

لو تشكَّى أبو عميرٍ قليلاً   لأتيناه من طريق العِيادة
فقضينا من العيادة حقًّا   ونظرنا فى مُقْلتى عبادة

فقال أبو عمير : مالى ولك يا أخى ، انظر فى مقلتى عبادة متى شئت غير ممنوع ، ودعنى أنا فى عافية لا تتمنَّ لى المرض لتعودنى[1] . وواضح من امتناع ابن البواب عن زيارة أبى عمير حين ألمت به ضيقة أن الشعراء وغيرهم حين كانوا يختلفون إلى دور النخاسين كانوا يحملون معهم كثيراً من الهدايا للنخاسين وجواريهم ، مما كان يكلفهم أموالا كثيرة ، وإلى ذلك يشير الجاحظ فى رسالته عن القيان إذ يذكر عن النخاس «أن من فضائله أن الناس يقصدونه بالرغبة كما يُقْصَدُ بها الخلفاء والعظماء فيُزار ولا يكلَّف الزيارة ، ويوصَل ولا يُحْمَل على الصلة ، ويُهْدَى إليه ولا تُقْضَى منه الهدية »[2]. ويصور الجاحظ تفنن الجارية فى اللعب بألباب الرجال ، إذ لا تزال تنصب أشراكها باللحظ والتبسم وإظهار الشوق إلى طول مكث من يختلف إليها والحزن لفراقه والصبابة لسرعة عودته ، فإذا أحسَّت أنه وقع فى الشَّرَك أوهمته أنها تعلَّقت به وأنه شَجْوها فى فكرها وضميرها وليلها ونهارها وأنها لا تريد سواه ولا تؤثر أحداً على هواه وأنها لا تبتغيه لماله وهداياه وإنما لنفسه ، ثم جمَّشته بعضوض تفاحها وتحيات من ريحانها وزوَّدته بخصلة من شعرها وقطعة من ثيابها ، يقول الجاحظ وربما زارته فى بيته وأمكنته من القبلة فما فوقها . لذلك لا نعجب حين نراهن يَسْتَعْرِنَ قلوب الشعراء ، وحين نرى الشعراء عاكفين عليهن وقد بذلن لهن كل ما استطاعوا من هدايا وتحف وطرف نفيسة ، وفى ذلك يقول على بن الجهم متحدثًا عن جوارى نخَّاس يسمى المفضل وابتزازهن وابتزاز صاحبهن أموال من يزورونهن[3] :

أوانِسُ ما فيهنَّ للضيف حِشْمَةٌ   ولا رَبُّهن بالمهيبِ المُبَجَّلِ

---

(١) أغانى (ساسى) ٢٠ / ٤٣ .

(٢) رسائل الجاحظ نشر فنكل ص ٧٣ .

(٣) ديوان ابن الجهم (نشر المجمع العلمى العربى بدمشق) ص ٥٢ .

يُسَرُّ إذا ما الضَّيفُ قَلَّ حَياؤه ... ويَغْفل عنه وهْو غيرُ مغفَّلِ
ولا يدفع الأَيدى السفيهةَ غيرةً ... إذا نال حظًّا من لبوسٍ ومأْكلِ
لك البيتُ ما دامتْ هداياك جمَّةً ... ودُمْتَ مليًّا بالشراب المعسَّل

وكأن دار النخاس تعد « باراً » كبيراً وجواريه ما يزلن يختلفن إلى رُوَّاده . وكان كثيرات منهن مثقفات بفنون الآداب ، فكن يجذبن الرجال والشباب والشعراء بجمالهن وعذوبة حديثهن ، بل كان منهن كثيرات يحسنَّ نظم الشعر مثل فضل الشاعرة ومثل محبوبة جارية المتوكل .

ولم يكن المجتمع العباسى يُعْنَى بفن كما كان يعنى بالغناء والموسيقى ، ويتضح ذلك من كثْرة الكتب المترجمة منذ مطالع العصر فى الفن الموسيقى على نحو ما يتضح فى أوائل ترجمة إسحق الموصلى فى كتاب الأغانى وكذلك ما ساقه منها كتاب الفهرست لابن النديم ، ولم يلبث العرب أن شاركوا مشاركة قوية فى هذا التأليف منذ الخليل بن أحمد صاحب العروض المتوفى سنة ١٧٠ للهجرة . ويتكاثر هذا التأليف فى القرن الثالث ، وخاصة فى بيئة المتفلسفة مثل الكندى وله فى الموسيقى كتب مختلفة[١] ، وكذلك لتلميذه[٢] أبى الطيب السرخسى وقسطا[٣] بن لوقا البعلبكى ، فلكل هؤلاء مؤلفات فى الموسيقى أحصاها ابن النديم فى فهرسته . وخلف من بعدهم الفارابى بأخرة من العصر فأربى على كل سالف وخالف من اليونان والعرب جميعًا على نحو ما يتضح فى مصنَّفه كتاب الموسيقى الكبير ، وقد استطاع أن يدخل تحسينات على آلة القانون الإغريقية . وعلى نحو ما يسوق ابن النديم كتب المتفلسفة فى الموسيقى يسوق كتب المغنين فيها وفى الغناء والمغنين والمغنيات ، ولإسحق الموصلى فى ذلك نشاط واسع ، ومن أشهر من خلفوه فى القرن الثالث على التأليف فى هذا الفن بَذْل[٤] ، وكان لها كتاب فى الأغانى يشتمل على اثنى عشر ألف صوت ، ودنانير البرمكية ويقول أبو الفرج لها كتاب مجرد فى الأغانى مشهور[٥] ، وممن ذكرهم ابن النديم النَّصْبى وله كتاب فى الأغانى ألفه

(١) الفهرست ص ٣٧٣ .
(٢) الفهرست ٢١٩ ، ٣٨٠ .
(٣) الفهرست ص ٤٢٤ .
(٤) الأغانى (ساسى) ١٥ / ١٣٨ .
(٥) الأغانى (ساسى) ١٦/ ١٣١ .

على حروف المعجم للمتوكل [١].

ومنهم جحظة وله كتاب فى الطنّبوريين [٢]، ويذكر أبو الفرج أن لعمر وبن بانة كتابًا فى الأغانى يُعَدّ من الأصول المهمة فيها [٣]، كما يذكر أنه كان لأحمد ابن يحيى المكى كتاب سماه المجرد فى الأغانى كان يحتوى على أربعة عشر ألف صوت [٤]، وكان لمحمد بن على بن أمية المعروف باسم أبى حشيشة كتاب فى أخبار الطنبوريين [٥]. وعمل فى هذا العصر كثير من المغنين على تحسين آلات الغناء وتغذيته بالألحان الأجنبية، وخاصة أن كثرتهم كانت من الموالى فُرْسًا وغير فرس، بل إن منهم مَن اخترع بعض الآلات مثل زُنام الزامر، فقد اخترع نايًا نُسب إليه، فقيل ناى زُنامىّ [٦]. ومما يدل على ما كان للغناء حينئذ من سمو المنزلة أننا نجد طائفة من الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة تشارك فى وضع أصواته مثل المنتصر [٧] والمعتز [٨] والمعتمد [٩] وابن المعتز [١٠] وعبيد [١١] الله بن عبد الله بن طاهر، واشتهر بأنه كان يستطيع أن يجمع ألحانًا كثيرة فى صوت واحد، وكانت له كتب فى النغم وعلل الأغانى.

وكانت تتقابل فى الغناء حينئذ مدرستان: مدرسة محافظة تتمسك بالأصول والأوضاع الموروثة ويمثلها إسحق الموصلى، ومدرسة مجددة لا تزال تضيف إلى التراث الفنى فى الغناء أصواتًا وأنغامًا وألحانًا ويمثلها إبراهيم بن المهدى، ويحكى أبو الفرج بعض وجوه الخلاف بينه وبين إسحق، فيقول إنهما كانا يختلفان فى مداول بعض المصطلحات، فما كان يسميه إسحق ثقيلا أولا وخفيفه كان يسميه إبراهيم بن المهدى ثقيلا ثانيًا وخفيفه، وما كان يسميه إسحق ثقيلا ثانيًا وخفيفه كان يسميه إبراهيم بن المهدى ثقيلا أولا وخفيفه، ويقول أبو الفرج: «وأما التجزئة والقسمة فإنهما أفنيا أعمارهما فى تنازعهما فيهما، حتى كان يمضى لهما

---

(١) الفهرست ص ٢١٤.
(٢) الفهرست ص ٢١٤.
(٣) أغانى (دار الكتب) ١٥/٢٦٩.
(٤) أغانى ١٦/ ٣١١.
(٥) الفهرست ص ٢١٤.
(٦) تاج العروس للزبيدى ٨/ ٣٣٠.
(٧) أغانى (دار الكتب) ٩/٣٠٩ وانظر فى أصوات أخيه أبى عيسى الأغانى ١٠/٢٠١.
(٨) أغانى ٩/٢٠٥.
(٩) أغانى ٩/٣٢٣.
(١٠) أغانى ١٠/٢٧٧.
(١١) أغانى ٩/٤٠ وما بعدها.

الزمان الطويل لا تنقطع مناظرتهما ومكاتبتهما فى قسمة وتجزئة صوت واحد[(١)]» .
وقد توزّعا المغنين والمغنيات فى القرن الثالث ، فكان من ينكر تغيير الغناء القديم يأخذ بمذهب إسحق، ومَنْ رأى التجديد والتغيير فى الألحان يأخذ بمذهب ابن المهدى . ونستطيع أن نعين أهم من تعصبوا لهذا أو ذاك، فمن كان يتعصب لإسحق من المغنين المشهورين فى هذا العصر أحمد بن يحيى المكى ، وله ترجمة[(٢)] فى كتاب الأغانى وكان إسحق يقدمه ويؤثره ، ولحق عصر المستعين ، وكان ابنه محمد يحذق الغناء على شاكلته ولحق عصر المعتمد . وممن كان ينهج منهج إسحق بُنان ، وكان أخصّ الناس بالمتوكل والمنتصر ، وكان إذا اجتمع هو وزنام الزامر على الضرب بالعود والزمر أحسنا وفتنا وأعجبا . ومنهم أيضًا عبد الله[(٣)] بن أبى العلاء، وقد عُمِّر إلى آخر أيام المعتصد وكانت تقوّم دابّته وثيابه إذا ركب بألف دينار ، وابنه أحمد كان من المغنين النابهين . وممن كان على نهج إسحق أيضًا القاسم بن زُرْزُور وولده وجوارى آل هاشم وآل الفضل بن الربيع ومَنْ جرى مجراهم ممن تمسّك بالغناء القديم وحمله كما سمعه[(٤)] . وممن كان على مثاله أيضًا الزُّبير بن دَحْمان ، وكان متعصبًا لإسحق، فى حين كان أخوه عبد الله يتعصب لابن المهدى، فكان كل منهما يرفع من صاحبه ويشيد بذكره . يقول أبو الفرج : «فعلا الزبير بتقديم إسحق له» لجلالته عند الناس وتمكنه منهم وقبولهم منه[(٥)]، وكأن أنصار إسحق كانوا أكثر نفراً إذ كان الذوق العام يميل إلى المحافظة أكثر مما يميل إلى التجديد ، ولم يكن ذلك شيئًا خاصًّا بالغناء ، بل كان عامًّا فيه وفى الشعراء ، فقد كان الشعراء والمغنون جميعًا يستمسكون بالتقاليد الموروثة . وممن كان ينزع منزع إبراهيم بن المهدى ورغباته فى التجديد بالغناء عمرو بن بانه ، المنسوب إلى أمه ، وكان المتوكل أنيسًا به ، ونال منه جوائز كثيرة «وكان يذهب مذهب إبراهيم بن المهدى فى الغناء وتجنيسه ويخالف إسحق ويتعصب عليه تعصبًا شديداً ويواجهه بذلك وينصر إبراهيم بن المهدى عليه »[(٦)]، ويقول أبو الفرج إنه علّم الغناء عشرة من الغلمان ، وطال عمره حتى سنة ٢٧٨ وكان يشاركه فى مذهبه محمد بن الحارث بن بسخنّر ،

(١) أغانى ١٠/٩٦ وما بعدها .
(٢) أغانى ١٦/٣١١ .
(٣) أغانى ساسى ٢٠/١١٤ .
(٤) أغانى (دار الكتب) ١٠/٧٠ .
(٥) أغانى (ساسى) ٢٠/١٤٤ .
(٦) أغانى (دار الكتب) ١٥/٢٦٩ .

وكان من المتعصبين على إسحق ، ويقول أبو الفرج : « أخذ الغناء عن إبراهيم بن المهدى ومن بحره استق» ، وكان يُغَنِّى على المعزفة فنقله ابن المهدى إلى العود وواظب عليه حتى حذقه[1] ، وكان الخلفاء يسكبون عليه أموالهم سكبًا ، وخرّج كثيرات من الجوارى اللائى برعن فى الغناء .

وعلى نحو ما كان المغنون حزبين : حزبًا يتبع إسحق الموصلى وحزبًا يتبع إبراهيم بن المهدى كذلك كانت المغنيات ، وممن كان يأخذ منهن بمذهب إسحق عَرِيب وجواريها من أمثال تحفة الزمارة وبدعة ،وترجم أبو الفرج ترجمة ضافية لها[2] ذكر فى صدرها أنها كانت نهاية فى الجمال والظَّرْف وحسن الصوت وجودة الضرب وإتقان الصنعة والمعرفة بالنغم والألحان ورواية الأشعار ، اشتراها الأمين من مولاها المراكبى وكان عمرها سبعة عشر عامًا ونظمها فى جواريه الغلاميات ، واشتراها المأمون بعده بخمسين ألف درهم ، ثم اشتراها المعتصم بمائة ألف وأعتقها فهى مولاته ، وظلت تغنّى طوال حياتها وماتت عن سن عالية سنة ٢٧٧ لعهد المعتمد ، وقد أمر على بن يحيى المنجم أن يجمع غناءها الذى صنعته فأخذ منها دفاترها وصُحفها التى كانت سجّلت فيها أصواتها ، وكتب ذلك كله فكان ألف صوت بارع ، واشتهرت جاريتها بدعة [3] بالغناء وإتقانه على طريقة الموصلى ، وعاشت حتى سنة ٣٠٢ . وحاول بعض أعيان بغداد شراءها فطلب إلى على بن يحيى المنجم أن يفاوض عريب فى شرائها بمائة ألف دينار ، وجعل له عشرين ألفًا ، ورفضت بدعة فأعتقتها عريب ، ويقال إنها خلفت مالا كثيراً وجوهراً وضياعًا وعقارات . أما اللائى كن يتعصبن لإبراهيم بن المهدى فعلى رأسهن شارية[4] جاريته ، وكان قد اشتراها بثمانية آلاف درهم ، حتى إذ اخرّجها وذاع صيتها عرض عليه المعتصم فيها سبعين ألف دينار ، فأبى أن يبيعها له ضَنًّا بها ، واشتراها المعتصم بعد ذلك من تركته بخمسة آلاف وخمسمائة دينار . وكان المعتز يأنس لغنائها ، وطالت حياتها حتى لحقت المعتمد ، وكان يأبى أن يلحّن له أشعاره سواها وسوى عريب ، وأمر لها ذات مرة وقد غنته صوتًا بألف ثوب من الثياب الأنيقة . ومن جواريها اللائى

---

(١) أغانى (ساسى) ٢٠/٨٢ .

(٢) أغانى ١٨/١٧٥ وما بعدها .

(٣) أغانى ١٩/١٢٥ وعريب ٣٨ والطبرى . ١٠/١٥٠ والهمدانى ص ١٥ .

(٤) أغانى (دار الكتب) ١٦/٣ وما بعدها .

اشتهرن بالغناء على طريقتها وطريقة ابن المهدى : مهرجان ومطرب وقمرية وشرّة وقد اشتراها المعتمد بعشرة آلاف دينار

ومن كنّ يحسنّ الغناء فريدة[١] زوجة المتوكل وجاريته محبوبة[٢] وقلم[٣] الصالحية وشاجى[٤] جارية عبيدالله بن عبدالله بن طاهر ، وقد نسب إليها كل ما صنع، من الغناء والأصوات . وكانت هناك جماعة كبيرة اشتهرت بالغناء على الطنبور فى مقدمتها أبو حشيشة[٥] الطنبورى الذى عاش إلى عصر المعتمد ، وسليمان[٦] بن القصار الطنبورى ، وكان المعتز أنيسًا به ، ويقال إنه غناه يومًا صوتًا فأعطاه مائة دينار مكيّة ومائتين مما ضُرب لخزانته ، وجحظة البرمكى وله ترجمة طويلة فى معجم الأدباء ، وعمر[٧] الميدانى ولم يكن فى الطنبوريين أصح غناء وأكثر تصرفًا منه ، وعبيدة[٨] الطنبورية ، وكانت تتقن الضرب على الطنبور إتقانًا بعيداً . وكثيراً ما كان يأخذ الغناء شكل جوقة ، وكانت آلات الغناء عادة أربعًا هى العود والجنك والقانون والمزمار ، وقد يوضع مكان القانون الطنبور[٩]. وكثيراً أيضًا ما كان يقترن الغناء بالرقص ، وفى مروج الذهب للمسعودى فصل[١٠] طريف يوضح صلته بالغناء والموسيقى وما كانت ترتفع به الحناجر من أشعار ، وفيه تسمّى أنواع الرقص وفنونه بأسماء أوزان الشعر من مثل الخفيف والرمل والهزج ، وبالمثل كانوا يقيسون الغناء ، مما يدل أقوى الدلالة على الصلة الوثيقة بين الفنون الأربعة : الغناء والموسيقى والرقص والشعر .

وكان للجوارى فى هذا الجو المشبع بالموسيقى والغناء أثر كبير فى شيوع الظَّرف والرقة واللطف ، إذ دفعوا الشباب والشيوخ إلى تمثل كثير من العواطف والمشاعر التى تملأ قلوبهم لينًا وبرًّا وعطفًا وودًّا ، وقد خلبوا ألبابهم بحديثهن الساحر الذى يصب فى القلوب تارة رحيقًا وتارة حريقًا : حديث العشق وما يشيع فيه من

---

(١) أغانى ٤/ ١١٤ .

(٢) أغانى (ساسى) ١٩/ ١٣٢ .

(٣) أغانى (دار الكتب) ١٣/٣٤٧ .

(٤) أغانى (ساسى) ٨/٤٢ ونشوار المحاضرة ٦٣/١ والديارات ص ١١١ وما بعدها .

(٥) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٣/٥٧ والفهرست ص ٢١٤ .

(٦) أغانى (دار الكتب) ١٤/١١٢ .

(٧) أغانى (ساسى) ٢٠/٦٦ .

(٨) أغانى ١٩/١٣٤ .

(٩) التنوخى على المستطرف ٢/١٤٤ .

(١٠) مروج الذهب ٤/١٣٧ .

العواطف والمواجد ونور الأمل وظلام اليأس وما قد يتحول إليه من حب مادى كثير الشباك : شباك التضرع والأمل والطلب ، وحبّ أفلاطونى نقى كثير الحجُبُ : حُجبِ الطّهْر واليأس والبراءة ، مما جعل الشعر يكتظ بمعانى الرقة واللطف المفرطين كما يكتظ بالظرف حتى ليصبح للظرفاء تقاليد خاصة فى الزى والنظر وتناول الطعام والشراب ، وقد أفرد لها الوشاء فصلا خاصًّا فى كتابه « الموشى » يدل على رقة الحسّ أوسع دلالة . ونستطيع أن ندخل فى فنون الظرف التى أشاعها الجوارى حينئذ إعجابهن بالأزهار وتعلقهن بها وشغف كثيرات منهن بكل زهر وريحان ، حتى لتلحق بالقصور حدائق كثيرة ويقام كثير من البساتين . وألهمت الأزهارُ الشعراء بكثير من الأشعار ، حتى ليصبح وصف الطبيعة بابًا مهمًّا من أبواب الشعر ، وليس ذلك فحسب ، فقد أحس الشعراء فى الأزهار معانى السلوى فى الحب والوصل ودنوه واتصاله وانقطاعه ، إلى غير ذلك من معان لا تحصى ، كأن يحس شاعر فى معنى الورد الخجل لاحمراره ويحس آخر انقطاع الوصل لسرعة ذبوله ، أو يحس شخص فى البنفسج عودة الوصل ورجوعه . وكانوا يتهادون بالأزهار والرياحين دالين بها على أمثال تلك المعانى ، كما كان يحيِّى بها بعضهم بعضًا ، وكثرت التحية عندهم بالتفاح ، وكانت الجارية تترك على التفاحة أثر أخذها بفمها ، وقد تشققها بالمسك أو بالغالية أو بغيرهما من أنواع الطيب ، وقد تكتب عليها بيتًا أو بيتين تدل بهما على اللوعة ، ويقول ابن المعتز (١) :

وآثار وصلٍ فى هواكِ حفظتها تحيَّات ريحانٍ وعضَّات تُفَّاحِ

وكن يكتبن أبيات الحب الرقيقة على الثياب والأكمام والقلانس والعصابات والطرر والذوائب والمناديل والبسط والوسائد والأسرة (٢) ، ويُرْوَى أن عريب كانت تلبس قميصًا موشحًا بالذهب ، كُتب فى وشاحه :

وإنى لأَهواه مسيئاً ومحسناً وأَقضى على قلبى له بالذى يقضى

فحتَّى متى روحُ الرِّضا لا ينالنى وحتى متى أيام سخطك لا تمضى

---

(١) الديوان ص ١٣٩ . (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٦/٤٢٥

(٢) انظر الموشى للوشاء والعقد الفريد وما بعدها .

وكن يتنافسن فى التهادى بالتحف الجميلة وتبعهم الشباب والرجال . وليس ذلك فحسب ، فقد كن يتثقفن بثقافات العصر ، وعملن على شيوع الثقافة ، إذ كان منهن كثيرات يروين الأشعار والأخبار ، وينظمن الشعر نظماً بديعاً .

٤

المجون والشعوبية والزندقة

رأينا فى كتابنا العصر العباسى الأول كيف كانت موجة المجون حادة ، وقد انتقلت إلى هذا العصر بحدتها ، إن لم تكن زادت حدة فوق حدة ، إذ ظل الناس يُمْعنون فى شرب الخمر واحتساء كئوسها ، مدمنين عليها لا يرعوون ولا يزدجرون . ومعروف أن القرآن الكريم حرَّمها ، ولذلك أجمع الفقهاء على تحريمها ، لمجىء ذلك بنص القرآن ، وما كان محرَّماً بنصه لا يحلّ منه قليل ولا كثير . أما النبيذ فسكره محرم أيضاً بالقياس ، غير أن اجتهاد بعض فقهاء العراق الأحناف أداهم إلى تحليل بعض الأنبذة غير المسكرة كنبيذ التمر والعسل والتين والبُرّ وكالزبيب المطبوخ أدنى طبخ . فشرب الناس هذه الأنبذة وشربها الخلفاء، وتجاوزوا ما حلّله الأحناف إلى المسكر المحرم من الأنبذة وغيرها ، وفى ذلك يقول ابن الرومى :

أباح العراقىُّ النبيذَ وشُرْبَهُ ... وقال حَرامان : المُدامَةُ والسُّكْرُ
وقال الحجازىُّ : الشرابان واحدٌ ... فحلٌّ لنا من بين قَوْليهما الخَمْرُ
سآخذ من قوليهما طرفيهما ... وأشربها لا فارق الوازرَ الوِزْرُ

وابن الرومى يريد بالحجازى الشافعى وبالعراقى أبا حنيفة ، وقد استحدث لنفسه مذهباً ثالثاً لم يحل فيه الأنبذة المسكرة فحسب بل أحلّ أيضاً الخمر ، وساد هذا المذهب لا بين أضرابه من الشعراء فحسب بل بين كثير من الناس ، وإن كان يجب أن نحتاط بالقياس إلى الخلفاء ، وأن نظن أنهم إنما تورطوا فى

---

(١) ديوان ابن الرومى (اختيار وتصنيف كامل كيلانى) ص ٧٨ .

الأنبذة فلم يقفوا عند أنواعها المحللة ، بل شربوا أنواعها المسكرة . وكان المتوكل يعقد فى قصوره مجالس كثيرة للمنادمة والشراب ، وكان يحب الشرب ومن حواله الورود والرياحين[١] وكان المعتز ابنه يزور الأديرة للشراب[٢] ، وكان يشرب فى قصوره بين ندمائه والمغنون يغنون بين يديه ، كما كان يشرب فى البساتين[٣] . وفرغ المعتمد — كما مر بنا فى غير هذا الموضع — للهو والشراب ، ويقول المسعودى : « كان مشغوفاً بالطرب والغالب عليه المعاقرة ومحبة أنواع اللهو والملاهى[٤] ، وديوان ابن المعتز ملىء بالخمر ودنانها وكئوسها وغَبوقها وصَبوحها . وكان القاهر مدمناً شرب الخمر[٥] كما كان مولعاً بالغناء والسماع وجعله ذلك يأمر بأن تباع الجوارى المغنيات على أنهن لا يعرفن الغناء حتى يحصل منهن على من يريد بأرخص الأثمان ، وبالمثل حرم الخمر على الناس وكأنه يريد أن يعبها وحده[٦] ، وكان الراضى عاهد ربه ألا يشرب وظل على ذلك سنتين من خلافته مع إذنه لجلسائه وندمائه بالشرب ، ثم وجدوا له رخصة من يمينه فكفَّر عنها وعاد إلى الشراب ، وآخر الخلفاء المستكفى وكان قد ترك الشراب ، فلما ولى الخلافة دعا به تَدَوِّياً وعاد إلى شربه[٧] .

وعلى هذا النحو كانت قصور الخلافة فى عصور كثير من الخلفاء كأنها مقاصف للشراب والسماع والغناء ، وبالمثل كانت قصور الأمراء والوزراء وكبار أصحاب المناصب فى الدولة وعلية القوم ، وتورط فيها بعض القضاة عن طريق النبيذ المحلل ، كما تورط كثير من علماء اللغة وغيرهم أمثال ابن دُرَيد ، كان يعكف عليها عكوفاً شديداً ، ويقول أبو حفص بن شاهين : « كنا ندخل عليه فنستحى مما نرى من العيدان المعلَّقة والشراب وقد جاوز التسعين »[٨] . وأوغل الشعراء فيها إيغالا . ومن يتصفح كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى يحس أن بعض الناس أدمنوها إدماناً شديداً . وكانوا يعقدون لها المجالس فى المساء والليل والصباح ، وآثروا ألا يقل عدد

---

(١) الديارات ص ١٦٠ وانظر فى صبوح المنتصر أغانى (ساسى) ١٧/ ١٣٠ .
(٢) الديارات ص ١٦٤ وما بعدها .
(٣) الديارات ص ١٦٦ وما بعدها .
(٤) مروج الذهب ٤/١٣١ .
(٥) النجوم الزاهرة ٣/٢٤٥ .
(٦) ابن الأثير (طبعة أوربا) ٨/٢٠٤ .
(٧) مروج الذهب ٤/٢٦٧ .
(٨) النجوم الزاهرة ٣/٢٤١ .

الندماء عن ثلاثة ، وكان يدور عليهم بها السقاة والساقيات من الغلمان والجوارى وكانوا يزينون مجالس الشراب بالورود والرياحين ، كما كانوا يزينون رءوسهم أحياناً بأكاليل الزهر .

وكان كرخ بغداد يكتظ بالمقينين وكانوا منبثين أيضاً فى سامراء ، وتحولوا بدورهم إلى ما يشبه حانات كبيرة ، ففيها الخمر ، وفيها القيان المغنيات ، وفيها الجوارى الظريفات الأديبات ، وكان الشعراء يختلفون إلى هذه الدور أو قل إلى هذه الحانات ومثلهم الناس من حولهم فيعبون من كئوسها ويتمتعون بالسماع ومغازلة الجوارى والقيان .

وكانت البساتين حول سامرّاء وبغداد تمتلئ بحانات الخمر والسماع ، وكان الشعراء والناس يختلفون إليها ، وقد يختلون بأنفسهم إلى زاوية فى بستان ويتخذون منها لأنفسهم حانة ، يشربون فيها على أزهار الرياض وأبصارهم تتملّى بجمال الجوارى وآذانهم تتمتع بالسماع ، وكثيراً ما يصور الشعراء هذا المتاع المضاعف بجمال الطبيعة وجمال المرأة ونشوة الخمر من مثل قول البحترى [1] :

اشربْ على زهر الرياض يَشُوبه ... زَهْرُ الخدود وزهرةُ الصَّهْباء
من قهوةٍ تُنْسِى الهمومَ وتبعث الـ ... شَّوْقَ الذى قد ضَلَّ فى الأَحشاء

وكان من يعملون بالحانات من الأجانب سواء الرجال والنساء، ويقول الجاحظ : « من تمام آلة الخمار أن يكون ذمياً وأن يكون اسمه آذين أو مازيار أو أزدانقاذار أو ميشا أو شلوما ويكون أرقط الثياب مختوم العنق »[2] وتختلط فى النص أسماء فارسية ونصرانية ويهودية . أما الجوارى فكن من القيان الأجنبيات غالباً ، وكانت تعجّ بهم حانات البساتين وحانات الكرخ ودور المقينين ، والشباب والشعراء يختلفون إليهن ، وكن من أجناس مختلفة ، وقلما كن يشعرن بشىء من الكرامة أو يستشعرن شيئاً من التحفظ والاحتشام ، بل لقد كن يتفنن فى الحيل التى يجذبن بها الرجال ، وكن يستكثرن من الخِلان بطرق غير مستقيمة ، فدفعن إلى

(١) الديوان ١ / ٦ .

(٢) البيان والتبيين (طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١/٩٢ .

كثير من الفجر والمجون ، وكل شيء من حولهن يُغْريهن على هذا السلوك الآثم ، وصوَّر ذلك الجاحظ ، فقال : «كيف تسلم القينة من الفتنة أو يمكنها أن تكون عفيفة ، وإنما تُكْتَسَبُ الأهواء وتتعلَّم الألسن والأخلاق بالمنشأ ، وهي إنما تنشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها فيما يصدّ عن ذكر الله من لهو الحديث . . . وبين الخلعاء والمجان ومن لا يُسْمَع منه كلمة جِدّ ، ولا يُرْجَعُ منه إلى ثقة ولا دين ولا صيانة مروءة . وتَرْوى الحاذقة منهن أربعة آلاف صوت (أغنية) فصاعداً يكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات ، وعددُ ما يدخل فى ذلك من الشعر إذا ضُرب بعضه ببعض عشرة آلاف بيت ، ليس فيها ذكر الله إلا عن غفلة ولا ترهيب من عقاب ولا ترغيب فى ثواب ، وإنما بُنيت كلها على ذكر . . . القيادة والعشق والصبوة والشوق والغُلْمة ، ثم لا تنفكُّ من الدراسة لصنعتها منكبَّة عليها تأخذها من المطارحين الذين طَرْحُهم كله تجميش وإنشادهم مُراودة »[1] . وكان الزوار ينالون منهن ما يريدون ما داموا يقدمون للمقيّن هداياهم النفيسة ، وكن بدورهن يتخذن من بينهم المعشوقين ، فما يزلن يغمزن هذا بعين وذاك بعين ، وما يزلن يُقمن من حولهن الشباك ، وكثير من الشعراء والشباب يتعثَّرون فيها ، وكثيرون كانوا يصلون إلى قلوبهن ، وهن لا يحتشمن ولا يتحرَّجن ، ودائماً يُقمن حفلات الغناء والموسيقى والرقص .

واستحالت الأديرة فى هذا الجو الماجن إلى دور للعبث واللهو ، وهيأ لها ذلك أنها كانت تقدّم لروّادها الخمور المعتقة . وكانت متناثرة فى ضواحى بغداد وسامراء وغيرهما من مدن العراق ، فحوَّلها الشعراء والناس إلى مجالس للخمر والمجون ، وأكثروا من التغنى بها ووصف متاعهم بخمورها ونشوتها وسقاتها من الرهبان والراهبات ، حتى لتُؤلَّف فى ذلك كتب مستقلة مثل كتاب « الديارات » للشابشتى وهو يكتظ بأشعار ابن المعتز وغيره ، وله يذكر لياليه بالمطيرة إحدى متنزهات سامرَّاء وبالكرخ وحاناته وبدير السوسى وراهباته[2] :

---

(١) انظر ثلاث رسائل للجاحظ نشر فنكل ص ٧١ وما بعدها .

(٢) الديارات ص ١٤٩ .

ياليـالىَّ بالمَطيرة والكَرْ خ ودير السُّوسىِّ بالله عودى
كنتِ عندى أُنموذجاتٍ من الجَنَّ ةِ لكنها بغير خلـود

وكانت هناك أيام سنوية يخرج فيها أهل سامراء وبغداد وغيرهما من مدن العراق للهو والقصف والمجون وهى أيام الأعياد: أعياد الإسلام وأعياد الفرس وأعياد النصارى ، وكانت تشبه كرنفالات ضخمة يلهو الناس فيها لهواً مباحًا وغير مباح ويتفرجون على القصَّاص والحكَّائين وأصحاب المساخر المزليين ، أما أعياد الإسلام فهى [redacted] عيد الفطر وعيد الأضحى . وفى ديوانى البحترى وابن المعتز إشارات لهما مختلفة[١]، وأما أعياد الفرس فمن أهمها عيد النيروز فى أول الربيع ، وهو أول السنة الفارسية ، وينوه الشعراء بذكره كثيراً كقول البحترى يهنئ المعتمد به وبلحظات سروره[٢]:

لا تَخْلُ من عيش يكرُّ سروره أبدًا ونَيْروزٍ عليك معادِ

وكانو يكثرون من التهادى فيه ، ويروى أن المتوكل كان يهدى فيه هدايا متنوعة فيها تماثيل من عنبر وورود حمراء[٣]. وكانو يخرجون فيه إلى المتنزهات والبساتين يقصفون ويمرحون ويلهون ملاهى مختلفة . ومن أعياد الفرس عيد المهرجان فى أول الشتاء ، وفيه يقول البحترى[٤]:

وكأَن الأَيام أُوثر بالحُسْ نِ عليها ذو المهرجان الكبيرِ

ولابن الرومى قصيدة طويلة يهنئ فيها عبيد الله بن عبد الله بن طاهر به ، وقد حشد فيها كثيراً من فنون اللهو فيه[٥]،وكان للفرس عيد يسمى عيد السَّذق كانوا يوقدون فيه النيران على الجبال والتلال ، ويظلون يجمعون لها الأحطاب أيامًا ، ومن أشهر ما كان فى هذا العيد احتفال مرداويج الديلمى أمير الجبل فى غربى إيران به ، ويقال كان فى السماط الذى صنعه فيه ألف رأس من البقر[٦] .

---

(١) انظر ديوان البحترى ٢/١٠٧١ ، ١٠٩٦ وديوان ابن المعتز ص ١٨١ ، ٢٤٧ .
(٢) ديوان البحترى ٢/٧٣٤ .
(٣) الديارات ص ٥٧ .
(٤) الديوان ٢/٨٨٧ .
(٥) ديوان ابن الرومى (نشر كيلانى) ص ٨٢ .
(٦) مسكويه ٥/٤٧٩، وأبو الفدا فى عام ٣٢٣ وابن الأثير ٨/٢٢٢ .

أمّا أعياد النصارى فكان تقريبًا لكل دير عيد يخرج فيه الناس إليه للهو والمجون والهزل ، وكانت لهم أعياد عامة ، منها عيد الميلاد وكانو يكثرون فيه من إيقاد الشموع والنيران [١] ، ومنها عيد الشعانين أو عيد الزيتونة وهو يقع فى يوم الأحد الذى يسبق عيد الفصح من كل سنة ، وكان النصارى يتقلدون فيه الصلبان ويتوشحون بالمناديل المنقوشة ويحملون بأيديهم الخوص والزيتون . وكان الدير الأعلى فى الموصل يحتفل بهذا العيد احتفالا كبيراً . ومن أعيادهم عيد الفصح ، وعندهم أن عيسى قام فيه بعد الصلب بثلاثة أيام ، وكان يحتفل به دير سمالو شرقى بغداد ، ولا يبقى أحد من أهل الطرب واللهو إلا قصده للقصف والمجون ، وفيه يقول محمد بن عبد الملك الهاشمى [٢] :

ولرُبَّ يومٍ فى سمالو تَمَّ لى ... فيه السرور وغُيِّبَتْ أحزانُهُ
فتلاعبتْ بعقولنا نشواتُه ... وتوقَّدتْ بخدودنا نيرانُه
حتى حسبتُ لنا البِساط سفينَةً ... والدَّيْرَ ترقُص حولنا حيطانُه

وكان يقام فى أكتوبر عيد للقديسة أشمونى فى قُطْرَبُّل ، وهى قرية فى شمالى بغداد كانت أشبه بحانة للخمارين ، وكان الناس يذهبون من بغداد وسامراء إلى هذا العيد عن طريق الدواب أرضًا والسفن فى دجلة بحراً ، متنافسين فيما يُظْهِرونه هناك من زيهم وزينتهم ومباهين بما يُعِدُّونه لقصفهم ، وكانوا يضربون فى شط القرية وديرها وحاناتها وأكنافها الخيم والفساطيط وتعزف عليهم القيان وهم يحتسون كئوس الخمر ، وبالمثل كانوا يصنعون فى عيد دير الزندورد بالجانب الشرقى لبغداد ، وفيه يقول جحظة [٣] :

ديرٌ تدور به الأقداحُ مترَعةً ... من كفِّ ساقٍ مريض الطَّرْف وَسْنانِ
والعــودُ يتبعه نايٌ يوافقه ... والشَّدْوُ يُحْكمه غُصْنٌ من البَانِ

ولا شك فى أن كل ما قدمنا أعدَّ لانتشار المجون والخلاعة فى سامراء وبغداد ،

---

(١) ابن الأثير ٨/٢٢٢ وأبو الفدا فى عام ٣٢٣ .
(٢) الديارات ص ١٤ .
(٣) الديارات ص ٣٣٨ .

إذ كانت الخمر في كل مكان ومعها القيان والجواري المبتذلات ، فكان طبيعيًّا أن يعم كثير من الشعر الصريح ، بل المفرط في إباحيته وفي التعبير عن الغرائز الجسدية . ولم يكن كل ما في المدينتين العراقيتين الكبيرتين المجون وآثامه ، بل كان هناك تقى كثير ونسك وعبادة ، وهو ما حماهما من السقوط . على أن هؤلاء المجان والخلعاء تورطوا في آفة مزرية ، هي آفة الشغف بالغلمان المرد ، وهي آفة ورثوها عن العصر العباسي الأول . على أن من أصحاب هذا الغزل المزرى من ارتفعوا به عن أدران المادة ، وجعلوه غزلا أفلاطونيًّا نقيًّا ، وسنفصل القول في ذلك في أثناء حديثنا عن شعراء الغزل ، على نحو ما هو معروف عن الفقيه محمد بن داود الأصفهاني وتعلقه بمحمد بن جامع الصيدلاني . ولا بد أن نذكر أن كثيرين من الفقهاء وعلماء الدين والوعاظ كانوا لا يزالون يشدّدون النكير على المجون وما اتصل به من خمور ومن سماع ، وبتأثيرهم حاول — كما قدمنا — المهتدى أن يحمل الناس على الجادة ، فحرم الشراب ونهى عن القيان والسماع إليهن ، غير أن العامة والخاصة استطالوا حكمه واحتال عليه الأتراك حتى قتلوه بعد سنة واحدة من خلافته ، وصنع صنيعه بأخرة من العصر المتقى ، ولكنه لقى سريعًا المصير نفسه . ويذكر ابن الأثير أنه في عام ٣٢٣ للهجرة دبّر الحنابلة ببغداد حملة شعواء على المجون وفتشوا دور القواد والعامة ، وكانوا كلما وجدوا نبيذاً أراقوه أو آلة للغناء حطموها أو مغنية ضربوها ، وحرّموا على الرجال رفقة الصبيان والغلمان[(١)] .

وظلت مستعرة في هذا العصر نيران الشعوبية على نحو ما كانت مستعرة في العصر العباسي الأول ، إذ مضى كثيرون يشيدون بفضائل الشعوب القديمة وحضارتها ومدنيتها ، وفي مقدمتها الفرس بسياساتهم وآدابهم والروم بعلومهم وفلسفاتهم والهند بسحرها ومعارفها الرياضية وغير الرياضية . وانضم إلى هذه الدعوة كثيرون من أبناء الشعوب الأخرى ، من النبط والسريان وغيرهما ، منوهين جميعًا بما كان بديارهم من علوم وآداب وفنون وعمارة . وكأنما ذهبت أدراج الرياح مناداة الإسلام بهدم الفوارق العصبية بين القبائل والفوارق الجنسية بين الشعوب ، وكأنما كان هؤلاء الشعوبيون يبتغون أن يحدثوا صدْعًا لا يلتئم ولا يمكن رأبه بين أفراد الأمة ، وقد لجئوا في

---

(١) ابن الأثير ٨/٢٢٩ وما بعدها .

تصوير ما كان عليه الجاهليون — وعرب البوادى لعصرهم — من العيش الخشن ومن الغلظة والأطعمة اليابسة الجافة ، وكيف أن العرب كانوا — ولا يزال كثيرون منهم — بدواً رُعاة أغنام وإبل ، وأين هم من ملك الأكاسرة والقياصرة ؟ وأين هم من الحضارة الفارسية الروية ؟ وأين هم من علوم الروم والفرس ؟ وكان كثير من العلماء قد كتب فى إفاضة عن مثالب القبائل فى القديم ، فاستغل الشعوبيون ذلك واتخذوا منه أسلحة لدعوتهم ،وحتّى فضائل العرب من مثل الكرم والشجاعة حاولوا طمسها ، ناقضين لها نقضًا .

وتصدّى الجاحظ وابن قتيبة لهذه النزعة الآثمة وردّا عليها ردّا عنيفًا ،أما الجاحظ فعقد فى كتابه « البيان والتبيين » بابًا طويلا سماه «كتاب العصا » صوّر فيه طعن الشعَوبية على العرب فى خطابتهم ، إذ كانوا يشيرون فيها بالعصى والمخاصر ، كما كانوا يتكئون على القسىّ ، مما يصرف — فى رأى الشعوبيين — الخاطر ويشغل الذهن فى أثناء الخطابة . وزعموا أن الخطابة ليست ميزة ينفرد بها العرب دون سواهم ، إذ هى فى جميع الأمم حتّى الزنج . وزعموا — فيما زعموا — أن الفرس أخطب من العرب وأن لهم فى صناعة البلاغة كتبًا متوارثة . وطعنوا على العرب أيضًا فى أسلحتهم الحربية الساذجة بالقياس إلى أسلحة الفرس والروم وما عُرفا به من التنظيمات الحربية وآلات الحرب الضخمة من مثل المجانيق والعرّادات . وكل ذلك نازعهم فيه الجاحظ فى عنف شديد ، ولكى يبلغ كل ما كان يريد من إفحامهم ومقاومتهم جعل كتابه « البيان والتبيين» ردّا مفحمًا عليهم ، إذ خصصه لعرض الثقافة العربية الخالصة فى صورها المختلفة من الخطابة والشعر والأمثال ، كى يروا رؤية العين ما فى هذه الثقافة من قيم بلاغية وجمالية ، فينتهوا عن مزاعمهم ويثوبوا إلى رشدهم . وأما ابن قتيبة فألف فى الرد عليهم مبحثًا سماه [1] « كتاب العرب أو الرد على الشعوبية » وهو فى مطالعه يذكر أن من أشد الشعوبيين عداوة للعرب قومًا من كتّاب الدواوين امتعضوا لآداب أقوامهم ، حتّى اعتزى أو انتسب نفر منهم إلى أشراف العجم وأساورتهم ، داخلين بذلك فى باب فسيح من الدعوى

(١) انظر هذا الكتاب فى رسائل البلغاء لمحمد كرد على (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٣٤٤ وما بعدها .

والنسب المتهم لا حجاب عليه ولا مدافع عنه ، ويقول إنهم كانوا يُزْرون على الحكم والأمثال العربية ويتبجَّحون بما يروون عن الفرس واليونان من آداب وعلوم . ولم يكتف بعنفه عليهم فى هذا المبحث الطريف ، فقد عنف بهم فى مقدمة كتابه « أدب الكاتب » مصوراً قصورهم عن النهوض بوظيفتهم الأدبية فى الدواوين لنقص ثقافتهم العربية ، وحاول محاولة طريفة فى كتابه « عيون الأخبار » أن يجمع بين تلك الثقافة والثقافات الأجنبية ليبين أنها كلها ضرورية ولا تعارض بينها بوجه من الوجوه مما قضى على الشعوبية قضاء مبرمًا على نحو ما سنُصَوِّر ذلك فى الفصول التالية .

ومن أهم الكتَّاب الذين كانوا يستشعرون هذه النزعة الحمقاء سعيد بن حميد بن البَخْتكان ، وكان من أبناء دهاقين الفرس وزعم أنه من سلالة ملوكهم ، وله فى الشعوبية والتعصب لقومه كتب مختلفة ، منها كتاب فضل العجم على العرب وافتخارها[1] . ويبدو أن الجاحظ وابن قتيبة جميعًا استطاعا أن يقضيا قضاء مبرمًا على الشعوبية فقلما نسمع بعدهما بشعر شعوبى أو بمن ألف فى الشعوبية وانتصر لها . وقد أشرنا فى كتاب العصر العباسى الأول إلى أن بعض الباحثين أدخل فى هؤلاء الشعوبيين مَنْ يقولون بالتسوية بين العرب وغيرهم ، ويجب أن ينحوا عن هذه الجماعة الضالة ، لأنهم كانوا فى الواقع ينادون بنظرية الإسلام وما دعا إليه من المساواة بين جميع الأفراد فى الأمة عربًا وغير عرب ، مساواة تشمل جميع الحقوق والواجبات بحيث لا يَفْضُلُ مسلم صاحبه إلا بالتقوى والعمل الصالح كما جاء فى الذكر الحكيم : (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير) . وأيضًا كما جاء فى خطبة حجة الوداع : « أيها الناس إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى » ، وبذلك يتضح أن التسوية بين الشعوب هى نظرية الإسلام ، فلا عربى يفضل أعجميًّا ولا أعجمى يفضل عربيًّا من حيث النسب والقومية ، إذ ليست العروبة ولا العجمة فى الإسلام ميزة تُعلى من شأن صاحبها ، فالناس جميعًا سواسية . وإذن فمن

(١) الفهرست لابن النديم ص ١٨٥

الخطأ أن نَحْملِ القائلين بالتسوية على الشعوبيين أو على القول بالشعوبية، إنما الشعوبيون هم الذين يُعْلون الأعاجم على العرب وينادون بعدم التسوية حانقين حنقاً شديداً على كل ما هو عربى ، بل إن الضغينة لتأكل قلوبهم أكلا فإذا هم يودون لو ثأروا لآبائهم من العرب حين أزالوا ملكهم ونقضوا عروشهم فردوهم إلى ديارهم على أعقابهم مدحورين . وممن كان يذهب هذا المذهب فى الحماقة والجهالة والعداوة للعرب المتوكلى الشاعر المنسوب إلى المتوكل لأنه كان من ندمائه ، إذ يقول فى شعوبية حاقدة ذميمة(١) :

أنا ابنُ الأكارم من نَسْل جَمّْ وحائزُ إرثِ ملوكِ العجمْ
وطالبُ أوتارهم جَهْـرةً فمن نام عن حقِّهم لم أَنَمْ
فقُلْ لبنى هاشمٍ أجمعين هلموا إلى الخَلْع قبل النَّدمْ
وعــودوا إلى أرضكم بالحجاز لأكل الضِّباب وَرَعْيِ الغَنَمْ
فإنى سأعلو سريرَ الملوك بحدِّ الحُسام وحَرْف القَلَمْ

وواضح أن قلب المتوكلى يضطرم حقداً وضغينة على العرب ، حتى ليظن نفسه أنه من أبناء جم أو جمشيد الملك الفارسىّ القديم وأنه قد وُكل إليه أخذ الثأر أو الأثآر من هؤلاء الذين قوضوا ملك آبائه ، وإنه ليتجه إلى حكام الأمة من بنى هاشم مهدداً لهم متوعداً ومنذراً أن يبادروا إلى خلع أنفسهم والعودة إلى موطنهم الأصلى فى الحجاز ، ليعيشوا كما كان يعيش آباؤهم معيشة غليظة خشنة يأكلون فيها اليرابيع والضباب ، ويرعون الأغنام ، على نحو ما يرعى ويأكل نازلة القفر والفلوات ، وكأنه نسى أن بنى هاشم من قريش سكان مكة فى القديم وأنهم لم يكونوا رعاة ولا أهل جفاء وخيام ، ولكنها الشعوبية العمياء الرَّعْناء .

ولعل أسوأ ما أدت إليه هذه الشعوبية الحمقاء الزنا قة والزنادقة الذين كانوا يبغضون العرب وكل ما اتصل بهم من إسلام وغير إسلام . ويوضح ذلك الجاحظ قائلا : « إن عامة من ارتاب بالإسلام إنما كان أول ذلك رأى الشعوبية والتمادى فيه وطول الجدال المؤدى إلى الضلال ، فإذا أبغض شيئاً أبغض أهله ، وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة ، وإذا أبغض تلك الجزيرة أحبَّ من أبغض تلك

(١) ضحى الإسلام (الطبعة السابعة) ١/ ٦٥ .

الجزيرة ، فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام ، إذ كانت العرب هي التي جاءت به ، وهي السلف والقدوة »[١] . ومرّ بنا فى العصر العباسى الأول أن الزندقة إنما كان يُوصَمُ بها أولا من يتابعون مانى فى عقيدة النور والظلمة وما اتصل بها من مبادئ ، بالضبط كما كانت تطلق عند الفرس . والزنادقة المعتنقون لهذه الأفكار هم الذين كانوا يحاكمون زمن المهدى وابنه الرشيد ، ثم اتسع مدلولها فشملت كل من اعتنق نحلة فارسية من نحل المجوس كنحلة المزدكية وما دعت إليه من التحلل الخلقى والإباحية المسرفة ، واتسعت أوسع من ذلك فشملت كل إلحاد بالدين الحنيف أو بالديانات مطلقًا وكل مجاهرة بالعصيان والإثم والفسق . ومر بنا أيضًا فى العصر العباسى الأول كيف أن المتكلمين — وفى مقدمتهم المعتزلة — تجردوا لجدالهم ونَقْض أقوالهم وآرائهم الخبيثة ، وعقدوا لذلك مناظرات كانوا يُفْحمونهم فيها إفحامًا شديداً ، على نحو ما صوّر ذلك الجاحظ عن النظّام فى كتابه الحيوان ، وألّفوا أيضًا الكتب والرسائل الطوال .

ولم تهدأ حركة الإلحاد والزندقة فى هذا العصر التالى ، بل لقد اشتد أوارها ، إذ تحول كثيرون منهم إلى التشكيك فى النبوات عامة ، وكان من أشدهم نفر بدءوا حياتهم فى صفوفهم المعتزلة ، وما زالوا يُبْطنون الإلحاد حتى افتضح أمرهم وانكشف سرهم ، وفى طليعتهم أبو عيسى الوراق المتوفى سنة ٢٤٧ للهجرة[٢] وكان فى أول أمره معتزليًّا ، وأحسّ المعتزلة فيه إلحاده فطردوه عنهم ، فتحول شيعيًّا رافضيًّا ، وينعته الخياط بأنه كان مانويًّا يؤمن بأزلية النور والظلمة وقدم العالم[٣] ، ويبدو أنه أنكر النبوات وأن له فى ذلك بعض الرسائل[٤] . وقد أثر تأثيراً واسعًا فى تلميذه أبى الحسين أحمد بن إسحق الرّاوَنْدى[٥] المولود فيما بين سنتى ٢٠٥ و ٢١٥

---

(١) الحيوان ٧/ ٢٢٠ .
(٢) مروج الذهب ٤/ ٢٣ .
(٣) كتاب الانتصار (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١٥٢ .
(٤) انظر مجموعة من النصوص غير المنشورة متعلقة بتاريخ التصوف فى الإسلام لماسينيون (طبع باريس ١٩٢٩) ص ٨٢ .
(٥) انظر فى ابن الراوندى وأستاذه أبى عيسى الوراق كتاب من تاريخ الإلحاد فى الإسلام لعبد الرحمن بدوى (نشر مكتبة النهضة المصرية) وانظر فى ترجمة ابن الراوندى ووفاته مروج الذهب ٤/ ٢٣ وابن خلكان ومعاهد التنصيص (طبعة بولاق) ١/ ٧٦ ومرآة الجنان لليافعى ٢/ ١٤٤ ، ٢٣٧ والنجوم الزاهرة ٣/ ١٧٥ وشذرات الذهب لابن العماد ٢/ ٢٣٥ ومقدمة نيبرج لكتاب الانتصار وتاريخ أبى الفدا فى عام ٢٩٣ .

وكان يعتنق فى أول الأمر الاعتزال وصنّفَ عدداً من الكتب فى مناصرته ونَشْرِه بين الناس ، ثم تحول عنه إلى التشيع على مذهب الرافضة مثل أستاذه أبى عيسى وصار أعنف خصوم المعتزلة فى القرن الثالث الهجرى، بل لقد تمادى فى ذلك حتى كفر بالدين وجميع الديانات وألف فى ذلك كتباً مختلفة يسميها صاحب الفهرست باسم الكُفْريات . ولما ارتفع اسمه إلى مسامع الحكام خشى مغبة ذلك وأن يُرْمَى به فى غياهب السجون فاختبأ فى منزل أبى عيسى بن لاوى اليهودى الأهوازى ، وله صنّف بعض كفرياته ، وما زال مختبئاً بمنزله حتى توفى على ما يقول المسعودى وابن خلكان حوالى سنة ٢٥٠ للهجرة وقال ابن الجوزى وابن تغرى بردى إنه توفى سنة ٢٩٨ ويرجح التاريخ الثانى ما يذكره ابن الأنبارى فى نزهة الألباء بترجمة المبرد عن كتابه المقتضب وأنه لم يُكتب له الرواج ، لأن ابن الراوندى الملحد رواه .

وسقطت كتب ابن الراوندى فى العصور التالية من أيدى الزمن ، فلم يصلنا منها شىء ، ولكن وصلتنا شذور ومقتطفات فى كتب بعض من ردوا عليه أو من ترجموا له ، من ذلك كتاب المجالس المؤيدية لهبة الله الشيرازى داعى دعاة الفاطميين لعصر المستنصر إذ جلب اقتباسات[١] من كتابه « الزمردة فى دفع النبوات » وفيها نراه يردُّ إنكار النبوات إلى البراهمة الهنود تضليلا حتى يبعد التهمة عن نفسه ، وكأنه إنما يتكلم بلسانهم ، وهو يستهلُّ كلامه بأن الله أنعم على الإنسان بالعقل ليميز الحسن من القبيح والخير من الشر ، وإذن فلا داعى للرسل ، لأنهم إما أن يؤكدوا هذا التمييز العقلى الذى يُغْنِى عنهم فيه العقل ، وإما أن يبطلوه أو ينقضوه وحينئذ تكون نبوتهم عبثاً ولا حاجة للإنسان بها ، ويقول إن الرسول عليه السلام أتى بما ينافر العقول من مثل الصلاة وشعائر الحج ومناسكه ، وينفى المعجزات النبوية ، ويزعم أن فصاحة القرآن ليست معجزة وخاصة بالقياس إلى العجم الذين لا يدركون الفصاحة العربية . ويردد نفى المعجزات النبوية وأن الملائكة نصروا رسول الله فى غزوة بدر وأنه أُسرى به إلى بيت المقدس ، ويمضى فى لغو من هذا النوع ، ونرى ابن الجوزى ينقل فى كتابه المنتظم شذرات[٢] أخرى من مصنفه الزمردة ،

---

(١) انظر فى هذه الاقتباسات وتحليلها كتاب من تاريخ الإلحاد فى الإسلام ص٧٥—١٨٨ .

(٢) راجعها فى كتاب من تاريخ الإلحاد فى الإسلام ص ١١١ .

ويبدو أن ابن تغرى بردى نقلها عنه ، من ذلك أنه كان يقول : « إنا نجد فى كلام أكثم بن صيفى الحكيم الجاهلى أحسن من (إنا أعطيناك الكوثر) و (قل أعوذ برب الفلق) وإن الأنبياء وقعوا (اهتدوا إلى) بطلسمات تجذب كما أن المغناطيس يجذب الحديد أما قوله صلى الله عليه وسلم لعمار : تقتلك الفئة الباغية (كان مع على بن أبى طالب فى صفين وقتله جيش معاوية) : فإن المنجم — فى رأيه — يقول مثل هذا إذا عرف المولد وأخذ الطالع . ويقول ابن الجوزى : «كان ابن الراوندى وأبو عيسى محمد بن هرون الوراق الملحد يترامبان بكتاب « الزمرد » ويدعى كل واحد منهما على الآخر أنه تصنيفه ، وكانا يتوافقان على الطعن فى القرآن[١] » . أما كتابه الكفرى الثانى الذى خصّ به الرد على القرآن فهو كتاب « الدامغ » ، ويقال إنه صنف هذا الكتاب إرضاء لليهودى الذى كان يؤويه ، وهو فيه ينكر إعجاز القرآن كما مر بنا فى حديث داعى الدعاة الفاطمى ، ويزعم أن فى كلام الجاهليين ما هو أفصح منه وأبلغ ، ويقول ابن الجوزى إنه بدأ فيه بالطعن فى القرآن وبلاغته حتى لقد زعم — بهتانًا وزوراً كبيراً — أن به أخطاء لغوية .

ولعل فى ذلك ما يصور — من بعض الوجوه — الهجمات العنيفة التى كان يصوبها الملحدون فى القرن الثالث الهجرى إلى الإسلام والقرآن الكريم بل إلى الديانات عامة . ومن هنا نفهم السر فى أن الخليفة المعتمد حلّف الورّاقين لسنة ٢٧٩ ألاّ يبيعوا كتب الكلام والجدل والفلسفة[٢] ، فقد كان من المتفلسفة والمتكلمين من يبطنون الإلحاد[٣] والزندقة ويدخلونهما على ما يصنفون من الكتب . وكان أهمّ من نقض على ابن الرّاوندى كفرياته معاصره أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد المعروف بالخياط ، وقد نشر له المستشرق نيبرج كتابه « الانتصار والرد على ابن الراوندى الملحد ما قصد به من الكذب على المسلمين والطعن عليهم » ، وكذلك عُنى بالرد عليه معاصره أبو على[٤] محمد بن عبد الوهاب

---

(١) من كتاب تاريخ الإلحاد فى الإسلام ص ١١٣ .

(٢) طبرى ٢٨/١٠ وابن تغرى بردى ٣/ ٨٠.

(٣) الفهرست ص ٤٨٧ .

(٤) يقول ابن الجوزى إنه نقض خمسة كتب له فى مقدمتها الزمردة والدامغ . انظر من تاريخ الإلحاد فى الإسلام ص ١٦٢ ويورد الكتاب هنا من نقضوا كتابه فى تفصيل وإسهاب .

الجبّائى . وكان أهم من ورث عن ابن الراوندى إلحاده وزندقته وطعنه على الدين الحنيف ، بل على جميع الديانات الطبيب أبو بكر محمد[١] بن زكريا الرازى المتوفى سنة ٣٢٠ ، وكان كيمائياً ماهراً إلا أنه اتبع هواه وضل ضلالا بعيداً إذ مضى على هدى ابن الراوندى وأشباهه ينكر النبوات وألف فى ذلك كتابه « مخاريق الأنبياء » وسقط بدوره من يد الزمن ، إلا أن أبا حاتم الرازى أورد فى كتابه « أعلام النبوة » اقتباسات كثيرة منه رداً عليها ونقضها نقضاً ، وقد حللها الدكتور بدوى تحليلا[٢] جيداً ، وأظهر أنه يتابع فى حججه وأدلته ابن الراوندى . فالعقل يكفى وحده لمعرفة الخير والشر ، ولا حكمة ولا داعى لإرسال الأنبياء ، وأيضاً لا معنى لأن يخص الله نفراً (يريد الأنبياء) من البشر لإرشادهم وتوجيههم ، والناس جميعاً متساوون فى الفطن والمواهب . وبرهانه المنكسر ما ذكره من أن الأنبياء متناقضون فيما بينهم ، زاعماً أن اختلافهم لم يصدروا فيه عن الله جاهلا بأنه كان من حكمة الله أن يحدث هذا الاختلاف تخفيفاً على الناس ورحمة بهم . وينقد الأديان عامة ويدخل فيها ديانات المجوسية ، كما ينقد الكتب المقدسة ، ويزعم أنها جميعها زاخرة بالتناقض ، وأن خيراً منها للناس العلوم التى استنبطها الفلاسفة والعلماء بعقولهم . وهو خلط بين حاجات البشر المادية وحاجاتهم الروحية . ولعل فى هذا كله ما يصور نشاط الملحدين والزنادقة فى العصر وكان لهم المعتزلة والمتكلمون بالمرصاد فنقضوا آراءهم وأوضحوا ما فيها من فساد وزيف ودحضوها دحضاً .

٥

الزهد والتصوف

يجب ألا يتبادر إلى الأذهان من حديثنا عن الزندقة والشعوبية والمجون فى العصر العباسى الثانى أنه كان عصراً مُلحداً غلبت عليه العنصرية كما غلب المجون

---

(١) انظر فى ترجمته الفهرست ص ٥١٨ وابن أبى أصيبعة والقفطى ص ٢٧١ ودائرة المعارف الإسلامية .

(٢) انظر كتاب من تاريخ الإلحاد فى الإسلام ص ١٩٨ .

والإلحاد وانحلال الأخلاق فإن ذلك إنما كان يشيع فى طبقات خاصة ؛ أما المجون فكان يشيع فى الطبقة المترفة ،وأما الشعوبية فكانت تشيع بين نفر من أبناء الأعاجم، وبالمثل الزندقة كانت مقصورة على أفراد . ومن الخطر أن نجعل ذلك كله صفات عامة للمجتمع ، فقد كان المجتمع مجتمعًا إسلاميًّا ، وكانت الطبقة العامة فيه حسنة الإسلام تتمسك بفرائضه وسننه وشعائره ، ولم تكن تعرف الترف ولا ما يجر إليه من مجون وانحلال وفساد فى الأخلاق ، إنما كانت تعرف الشظف والبؤس والحرمان ، وكانت ساخطة سخطًا شديداً على المجان وعلى الشعوبيين والملحدين من أعداء الإسلام والعروبة .

وإذا كانت الحانات ودور النخاسة اكتظت فى بغداد وسامراء وغيرهما من مدن العراق بالخمر والقيان والضرب على الآلات الموسيقية ، وشركتها فى ذلك البساتين والأديرة من بعض الوجوه فإن مساجد سامراء وبغداد وغيرهما كانت مكتظة بالعبَّاد والنسَّاك وكانوا أكثر كثرة من المجَّان وأهل الفساد . وكان فى كل مسجد حلقة ، بل حلقات لوعاظ مختلفين كانوا لا يزالون يذكّرون الناس بالله واليوم الآخر وأنهم معروضون يوم الحساب فإما إلى الجنة والنعيم وإما إلى النار والجحيم . واختلط الوعظ بقصص دينى كثير على، نحو ما صوَّرنا ذلك فى كتاب العصر العباسى الأول ، وكثر حينئذ النساك والزهاد فى متاع الحياة الدنيا ، وعاشوا معيشة كلها شظف وتقشف وتبتل وعبادة ، واقرأ فى تراجم الفقهاء والمحدّثين لهذا العصر فستجدهم أو على الأقل ستجد كثرتهم وهم يُعَدُّون فى العالم الإسلامى بالمئات إن لم يكن بالآلاف قد أخذوا أنفسهم بالانصراف عن متاع الحياة الدنيا ، بل لكأنما تجرَّدوا للجهاد فى سبيل ذلك أسوة بزاهد الأمة الأول محمد صلى الله عليه وسلم ، منتظرين ما عند الله من النعيم الخالد الذى لا يزول . ويكفى أن نرجع إلى ترجمة واحد منهم مثل إبراهيم[1] بن إسحق الحربى ، وكان من كبار المحدثين ، وكان لا يأخذ على محاضراته فى الحديث أجراً من أحد ، إذ عزف عن كل متاع فى الحياة ، وعاش معيشة زاهدة مبالغة فى الزهد إلى أقصى حد ، حتى إنه ليرفض

(١) راجع فى ترجمته تاريخ بغداد ٢٧/٦ ومعجم الأدباء ١١٢/١ والأنساب للسمعانى ١٦٢ وصفة الصفوة ٢٢٨/٢ وشذرات الذهب ١٩٠/٢ والنجوم الزاهرة ١١٦/٣ ويقال : كان يقاس بابن حنبل فى علمه وزهده .

فى إباء أى مال يأتيه من خليفة أو صاحب سلطان أو جاه ، ويُروَى أن المعتضد أرسل إليه بعشرة آلاف درهم مع بعض أتباعه ، فردَّها ، وعاد الرسول يقول له إن المعتضد يسألك أن تفرقها فى جيرانك ، فقال له : عافاك الله ، هذا ما لم نشغل أنفسنا بجمعه فلا نشغلها بتفرقته ، قل لأمير المؤمنين إن تركتنا أقمنا وإلا تحوَّلنا عن جوارك .

وظل يلزمه صداع خمسًا وأربعين سنة بدون أن يخبر به أحداً ، وقد أفنى من عمره ثلاثين سنة لا يأكل إلا رغيفًا واحداً فى اليوم والليلة ، إن جاءته به زوجته أو إحدى بناته أكله وإلا بقى جائعًا ظامئًا إلى الليلة الثانية . وهى درجة رفيعة فى الزهد ، وكان على غراره كثيرون من المحدثين والفقهاء يصومون الدهر ويعيشون على الكفاف بل على أقل من الكفاف كما يعيشون على العبادة والورع .

وأخذت تتسع فى هذا العصر موجة التصوف ، وكانت مقدماتها أخذت تظهر منذ أواخر القرن الثانى الهجرى عند إبراهيم بن أدهم وشقيق البلخى صاحب اليد الطولى فى مبدأ التوكل وإشاعته[1] بين أوائل المتصوفة ومعروف الكرخى الذى أشاع مبدأ المعرفة الإلهية وأنها غاية المتصوف وحدها لا النجاة من عذاب الآخرة[2] . ويعرض القشيرى فى رسالته أقوالا مختلفة فى اشتقاق كلمة صوفى ، وهل هى من الصوف لأنهم كانوا يلبسونه تمييزاً لهم من أهل الرَّفَه والتنعم ، أو هى من الصَّفاء أو هى من الصُّفَّة نسبة إلى أهل الصفة الذين كانوا ينقطعون للعبادة فى المسجد لعهد الرسول عليه السلام ، ولا يُدْلى القشيرى برأى حاسم ، وذهب البيرونى إلى أنها مشتقة من كلمة صوفيا اليونانية بمعنى الحكمة[3] . ويبدو أن أوجه الآراء الرأى القائل بأن الكلمة مشتقة من الصوف لأن كثيرين من الزهاد فى القرن الثانى الهجرى كانوا يلبسونه ، وشاع لبسه بين المتصوفة بعد ذلك .

ومنذ أواسط القرن الماضى يُعْنَى المستشرقون بدراسة التصوف وبيان التأثيرات الأجنبية التى أثرت فى نشأته وتطوره ، وكان من أسبقهم إلى ذلك فون كريمر ،

---

(١) النجوم الزاهرة ٢/٢١ .

(٢) فى التصوف الإسلامى لنيكلسون ترجمة أبى العلا عفيفى وطبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ص ٥ .

(٣) ما للهند من مقولة للبيرونى (الطبعة الأوربية) ص ١٦ .

وكان يذهب إلى أن التصوف يشتمل على عنصرين أساسيين : عنصر مسيحى وعنصر بوذى هندى ، ويتضح العنصر الثانى - عنده - فى فكرة وحدة الوجود التى تمثلها ، كما يقول ، الحلاج فى أواخر القرن الثالث[١] الهجرى . وذهب نيكلسون فيما بعد إلى أن الحلاج لم يتمثل هذه الفكرة لاهو ولا غيره من متصوفة القرن الثالث. وممن شدد على التأثير الأجنبى جولدتسيهر ، إذ ربط بين التصوف وتعاليم الأفلاطونية الحديثة وما يندرج فيها من مذهب الفيض ووحدة الوجود ، كما ربط بينه وبين البوذية[٢] الهندية . وخفف من حدة القول بهذا التأثير الأجنبى ماسينيون فى بحوثه عن الحلاج ، إذ ذهب إلى أن التصوف نشأ من صميم الإسلام نفسه ، وإن تأثر فى الطريق بمؤثرات الثقافة الهيلينية التى كانت منتشرة فى الشرق منذ ميلاد المسيح[٣]. وبالمثل خفّف من حدة القول بالتأثير الأجنبى نيكلسون ، وإن لاحظه مع مر الزمن ، كما هو الشأن عند ذى النون وتأثره فى رأيه بالأفلاطونية الحديثة إذ كان على علم بالحكمة اليونانية الشائعة فى عصره ، وأيضاً كما هو الشأن عند أبى يزيد البسطامى وتأثره فى رأيه بالفلسفة الهندية الفارسية . على أنه مضى فى بحوثه يُعْلى من شأن التأثير الإسلامى فى نشأة التصوف ، ويقلل من أهمية التأثيرات الأجنبية ، وكان أهم معول هدم به القول بهذه التأثيرات ما كان قد تبادر لكثير من الباحثين من إيمان أبى يزيد البسطامى والحلاج بنظرية وحدة الوجود ، فقد نفاها عنهما ، ولم يثبتها إلا منذ ابن عربى المتوفى سنة ٦٣٨ . وبذلك انتهى إلى القول بأن جميع الأفكار التى وُصفت بأنها دخيلة على المسلمين ووليدة ثقافة أجنبية غير إسلامية إنما هى وليدة الزهد والتصوف اللذين نشآ فى الإسلام وكانا إسلاميين فى الصميم[٤] .

وإذن فالتصوف إسلامى فى جوهره وفى نشأته ونموه وتطوره ، وهو الرأى العلمى الصحيح ، ولكى نتصور التصوف فى دقة فى أثناء هذا العصر ، يحسن أن نستعرض أئمته الذين غرسوا مبادئه وأحواله ومقاماته ومصطلحاته فى نفوس العصور التالية ،

---

(١) انظر نيكلسون فى مبحثه عن الحلاج ومقدمة عفيفى .

(٢) العقيدة والشريعة فى الإسلام لجولد تسيهر (طبعة دار الكاتب المصرى) ص١٣٦ وما بعدها.

(٣) راجع مقدمة عفيفى لكتاب نيكلسون السالف .

(٤) انظر مقدمة عفيفى وكتاب فى التصوف الإسلامى فى مواضع مختلفة .

وأولهم الحارث[١] بن أسد المحاسبي المتوفى سنة ٢٣٤ وقد نُشرت له رسائل مختلفة ، وهي تدل بوضوح على أنه جدّ في ربط التصوف بالشريعة على طريقة أهل السنة . وكان يعتنق مذهب الشافعي ويرى أن الرافضة خرجوا على حدود الإسلام وملته ، ولذلك يُروَى أنه لما مات أبوه وكان هو في عَوَز وإملاق في حين خلّف أبوه ثروة طائلة رفض أن يأخذ منها درهمًا ، لأن أباه كان رافضيًّا ، وقال : أهل ملتين لا يتوارثان . ومن أهم ما يميزه بين خلفائه ومعاصريه من المتصوفة أنه دعا في قوة إلى محاسبة النفس ومراقبتها ومجاهدتها وتزكيتها باتباع الكتاب والسنة ، وهو أول من فرق بين التوكل على الله وبين الرضا بقضاء الله وأحكامه ، وجعله — وتابعه في ذلك متصوفة العراق — من الأحوال التي لا تكتسب ، على حين جعله متصوفة خراسان من المقامات[٢] ، ورفض أن يفضي التوكل إلى عدم التكسب ، فلا بد من السعي في الأرض سعيًا ينال به الإنسان الفضل والثواب .

وكان يعاصره ذو النون[٣] المصري المتوفى سنة ٢٤٥ ويرى نيكلسون أنه الواضع الحقيقي لأسس التصوف ، إذ هو — كما يقول ابن تغرى بردى — أول من تكلم في مصر في الأحوال والمقامات ، ويعمم ذلك نيكلسون ، فيجعله لا أستاذ المصريين وحدهم في التصوف ، بل أستاذ المشارقة أيضًا ، وينقل عن تذكرة الأولياء للجامي حديثه عن العارف والمعرفة ، وفيه قسم المعرفة ثلاثة أقسام : قسما مشتركًا بين عامة المسلمين ، وقسمًا خاصًّا بالفلاسفة والعلماء ، وقسمًا خاصًّا بالأولياء الذين يرون الله بقلوبهم . وبذلك فصّل المعرفة الصوفية عن المعرفة العلمية والفلسفية ، فالأولى قلبية ، تنزع نحو القلب ، وتعتمد على التجربة الحدسية ، والثانية عقلية

---

(١) نشأ في البصرة ثم انتقل في شبابه إلى بغداد ، انظر في ترجمته تاريخ بغداد ٨/٢١١ والأنساب للسمعاني ٥٠٩ وابن خلكان وطبقات الشافعية للسبكي ٢/٢٧٥ ومرآة الجنان ٢/١٤٢ والنجوم الزاهرة ٢/٣١٦ والتهذيب لابن حجر ٢/١٣٤ وكتاب طبقات الصوفية للسلمي (طبع باريس) ص ٤٦ .

(٢) انظر باب الرضا في الرسالة القشيرية .

(٣) راجع في ترجمة ذي النون وآرائه الفهرست ص ٥١٧ وطبقات الصوفية للسلمي ص ٢٣ ، وتاريخ بغداد ٨/٣٩٣ وتاريخ دمشق لابن عساكر ٥/٢٧١ ومرآة الجنان لليافعي ٢/١٤٩ والنجوم الزاهرة ٢/٣٢٠ والطبقات الكبرى للشعراني ١/٥٩ وأخبار الحكماء للقفطي ١٨٥ وشذرات الذهب ٢/١٠٧ ورسالة القشيري في ص ٩ وفي مواضع متفرقة ونيكلسون ص ٧ وما بعدها .

تعتمد على الأفكار كما تعتمد على المنطق . ومن هنا كان التصوف ليس علماً ولا فلسفة ولا مذهباً ، وإنما هو أحوال ومقامات ، ويقال إنه سُئل كيف عرف ربَّه ؟ فقال : « عرفتُ ربِّى بربى ولولا ربِّى لما عرفت ربِّى » ، وسُئل عن الذكر ، فقال : « هو غيبة الذاكر عن الذكر » ، وقال : « ليس من احتجب عن الخلق بالخلوة كمن احتجب عنهم بالله » . وكأنه هو الذى وصل فى قوة بين التصوف وعلم الباطن ، أو قل هو الذى فسح فيه للباطن ، وقد قال إنه مقصور على الخواص من أهل الله ومن هنا فرق دائماً بين الخواص والعوام ، ومن قوله : « توبة العوام تكون من الذنوب وتوبة الخواص تكون من الغفلة » . وكان يقول : « إياك أن تكون بالمعرفة مدّعياً » يقصد معرفة الصوفية القلبية القائمة على الإدراك الحدسى . ومن قوله أيضاً : « الصوفى مَنْ إذا نطق أبان نطقه عن الحقائق وإن سكت نطقت عنه الجوارح بقطع العلائق » وكان يقول إن العارف (الصوفى) لا يلزم ربه فى حالة واحدة وإنما يلزمه فى الحالات كلها . وكانت تجرى فى كلامه ألفاظ المحبة والوجد ، وكان يقول علامة التوكل انقطاع المطامع . وكان يقول : « من علامات المحب لله متابعة حبيب الله فى أخلاقه وأفعاله وأوامره وسننه » . وفى ذلك ما يدل بوضوح على أنه لم يحدث عنده أى انفصام بين التصوف والشريعة ، فهو يكملها بمحتواه وممارساته العملية ، بل هو لا يكون له قوام بدونها ، وبدون ما شرعت من فرائض ونوافل وعبادة وتقوى .

وكان السَّرِىّ[1] السَّقَطى المتوفى سنة ٢٥١ شيخ متصوفة بغداد وإمامهم فى وقته ، وكان تاجراً فهجر التجارة ولزم بيته وانقطع للعبادة ، ويقال إنه أول من تكلم ببغداد فى لسان التوحيد وحقائق الأحوال ، أو هو بعبارة أخرى أول من تكلم فى المقامات والأحوال هناك ، وبذلك يكون أول تال لذى النون تحدث فيها حديثاً مستفيضاً . وكان يقول : « التوكل الانخلاع عن الحول والقوة » و : « من علامات المعرفة بالله القيام بحقوق الله » ، وهو بذلك كان يصل بين التصوف والشريعة ، بل يجعلها قوامه ، ويوضح ذلك أنه سُئل عن المتصوف من هو ؟ فقال :

---

(١) راجع فى ترجمة السقطى طبقات الصوفية للسلمى ص ٤١ وابن خلكان وتاريخ دمشق لابن عساكر ٧١/٥ وطبقات الشعرانى ٦٣/١ .

« هو اسم لثلاثة معان ، هو الذى لا يطفئ نور معرفته نورَ ورعه ولا يتكلم بباطن عن علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب ، ولا تحمله الكرامات من الله على هتك أستار محارم الله »[١] ، وهو يذكر الكرامات ولعله لم يكن يريد معناها الدقيق الذى عُرِف للكلمة فيما بعد وأن الله يُجْرى على أيدى الأولياء ما يشبه معجزات الأنبياء . وكان يكثر من الحديث عن محبة الله منشداً :

مَنْ لم يَبِتْ والحبُّ حَشْوُ فؤادِهِ لم يَدْرِ كيف تفتُّت الأَكْبادِ

ويبدو أنه كان يأخذ نفسه بمجاهدات زهدية وتقشفية عنيفة .

وإذا كان ذو النون هو الذى أدخل فى التصوف بقوة النزعةَ نحو المعرفة الإلهية، فإن أبا يزيد طيفور[٢] بن عيسى البسطامى المتوفى سنة ٢٦١ هو الذى أدخل فيه — على ما يظهر — فكرة الفناء فى الذات العلية ، وقد أثبت له نيكلسون كثيراً من الأقوال من مثل قوله : « للخلق أحوال ولا حال للعارف لأنه مُحيت رسومه وفنيت هُويَّته بهُويَّة غيره ، وغُيِّبتْ آثاره بآثار غيره » ، وقوله : « خرجت من الحق إلى الحق حتى صاح منى فىَّ : يا مَنْ أنت أنا ! فقد تحققت بمقام الفناء فى الله ». وروى من أقواله التى تنعكس عليها أفكار وحدة الوجود قوله : « سبحانى ما أعظم شانى » وقوله : « خرجتُ من بايزيديَّتى كما تخرج الحية من جلدها ، ونظرت فإذا العاشق والمعشوق والعشق واحد ، لأن الكل واحد فى عالم التوحيد ». ويمكن أن يُرَدَّ هذان القولان وما ساقه نيكلسون من أقوال له أخرى إلى فكرة الفناء . ومما نسبوه إليه أيضاً قصة معراجه إلى السماء وقد قصَّها العطار بالتفصيل إذ رُوى عنه قوله : « صعدت إلى السماء وضربت قبتى بإزاء العرش » . ولا شك فى أنها قصة منحولة عليه هى وأقواله التى قد تفهم منها فكرة وحدة الوجود على نحو ما أشار إلى ذلك الذهبى فى كتابه ميزان الاعتدال إذ قال : « وقد نقلوا عنه أشياء يشك فى صحتها عنه ، منها : « سبحانى » و : « ما فى الجُبَّة إلا الله » و : « ما النار ؟! لأستندنَّ إليها غداً وأقول

(١) تهذيب ابن عساكر ٦/٧٨ ونيكلسون ص ٢٩ .

(٢) انظر فى ترجمته طبقات الصوفية للسلمى ص ٦٠ وابن خلكان والرسالة للقشيرى فى مواضع مختلفة وطبقات الشعرانى ١/٦٥ وميزان الاعتدال للذهبى ٢/٣٤٦ والنجوم الزاهرة ٣/٣٥ ونيكلسون ص ٢٢ وما بعدها .

اجعلني لأهلها فداءً ، وما الجنة ؟ ! إنها لعبة صبيان . ونسب إليه أهل بلدته بسطام — فى الجنوب الشرقى لبحر الخزر — أنه زعم أن له معراجاً إلى السماء كمعراج الرسول عليه السلام » . ولعل فى ذلك ما يدل على أنه وضعت على لسانه من قديم أقوال وقصص غريبة ، وكأنه تحول شخصية أسطورية فى تاريخ التصوف ورجاله ، ويبدو أنه كانت تجرى على لسانه شطحات وعبارات موهمة كثيرة أعدّت لأن تصبح له هذه الشخصية ، غير أنه مما لا ريب فيه أنه صاحب فكرة الفناء فى الذات الإلهية ، تلك الفكرة التى أخذت مكاناً مهمّاً فى التصوف الإسلامى . ويبدو أنه أول من أدخل فى التصوف فكرة السكر بجانب فكرة العشق الإلهى ، فى الرسالة القشيرية أن معاصره الصوفى يحيى بن معاذ كتب إليه : « سكرت من كثرة ما شربت من كأس محبة الله » فأجابه : « غيرك شرب بحور السموات والأرض وما روى بعد ولسانه خارج من العطش ، ويقول هل من مزيد »[١] ، وكن ينكر ما يردده الناس عن كرامات الصوفية . وكان يؤمن بأن التصوف لا يقوم بدون الشريعة والمحافظة على فرائضها والصدوع بأوامرها ونواهيها [٢] .

ونشعر أن معالم التصوف ومبادئه أخذت فى الوضوح منذ أوائل النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ، حتى لتنشأ طبقة تحاضر فيه مثل يحيى بن معاذ الذى ذكرناه آنفاً ، ومثل أبى حمزة الصوفى المتوفى سنة ٢٦٩ ، وهو أول من تكلم على رءوس المنابر ببغداد فى اصطلاحات الصوفية من صفاء الذكر وجمع الهمة والعشق والقرب والأنس[٣] ، ومثل أبى سعيد الخراز المتوفى سنة ٢٧٧ وهو أول من توسع فى الكلام عن الفناء[٤] . ويظهر حينئذ حمدون[٥] القصّار النيسابورى المتوفى عام ٢٧١ وقد ذهب بعيداً فى تقشفه ، إذ دعا مريديه إلى سلوك طريق الملامة بأن يتظاهروا

---

(١) الرسالة القشيرية ص ١٤٦ وانظر شذرات الذهب ٢/١٤٣ .

(٢) انظر ترجمته فى ميزان الاعتدال ، ويقول الذهبى : ما أحلى قوله : لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتفع فى الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف هو عند الأمر والنهى وحفظ حدود الشريعة .

(٣) النجوم الزاهرة ٣/٤٦ .

(٤) طبقات الصوفية للسلمى ص ٢٢٣ .

(٥) انظر السلمى ص ١١٤ وكتاب الملامتية والصوفية وأهل الفتوة لأبى العلا عفيفى .

باتخاذ أشياء ينكرها الشرع ، حتى يتلومهم العوام من حولهم فلا يقفوا على حقيقة تصوفهم وإخلاصهم لله ، ومنهم انتشر مذهب الملامتية بنيسابور، إذ يُبْدون فى مظهر المذنبين دائما ، مما أعدّ للقعود — فيما بعد — عن النهوض بفرائض الشريعة . أما فى هذا العصر فنجد المتصوفة دائمًا يعلنون تمسكهم بها ، حتى ليقول سهل ابن عبد الله التسترى الصوفى المتوفى سنة ٢٨٣ : « أصولنا سبعة أشياء : التمسك بكتاب الله تعالى ، والاقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأكل الحلال ، وكفّ الأذى ، واجتناب الآثام ، والتوبة ، وأداء الحقوق »[١] وفى رسالة القشيرى أنه كان ينكر الكرامات إنكاراً شديداً .

وأهم صوفى ظهر بأخرة من القرن الثالث الجنيد[٢] المتوفى سنة ٢٩٧ ويُنْعت بالقواريرى الخزّاز ، لأن أباه كان يبيع الزجاج وكان هو يبيع الخزّ ، وأصله من نهاوَنْد بالقرب من همذان ، إلا أن مولده ومنشأه ببغداد ، وهو ابن أخت السرىّ السقطى وعنه أخذ الطريقة ، وأخذها السَّرِىُّ بدوره عن معروف الكرخى . وكان ورده فى اليوم ثلثمائة ركعة وثلاثين ألف تسبيحة ، وفى طبقات الصوفية للسُّلمى أنه كان يقول : « ما أخذنا التصوف عن القيل والقال ،ولكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات » . ويقال إنه أقام عشرين سنة لا يأكل إلا من الأسبوع إلى الأسبوع ، وكان يصلى كل ليلة أربعمائة ركعة . وكان يقول : « طريقنا مضبوط بالكتاب والسنة ، ومن لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ولم يتفقّه لا يُقْتَدَى به » . وتتردد على لسانه كلمتا الطريق والمريد ، مما يدل على أنه أخذ يشيع منذ العصر العباسى الثانى نظام الطرق والمريدين فى التصوف ، فللإمام الصوفى طريقة ، يحملها عنه مريدوه من تلاميذه وأتباعه وينشرونها فى موطنه وغير موطنه من العالم الإسلامى . وأتاح هذا النظام البقاء لكثير من طرق الصوفية ، وصَبْغها بصبغة جماهيرية شعبية ، وإن كان قد رشّح لأن يكون الارتباط فى الطريقة بالإمام الصوفى نفسه لا بمبادئه وأفكاره ، وبذلك أوجد صلة وثيقة بين الشيخ

(١) السلمى ص ٢٠٣ .

(٢) انظر فى ترجمة الجنيد تاريخ بغداد ٢٤١/٧ والرسالة القشيرية فى مواضع مختلفة وابن خلكان والسلمى ص ١٤١ وطبقات الشافعية للسبكى ٢٦٠/٢ ومرآة الجنان لليافعى ٢٥١/٢ والنجوم الزاهرة ١٦٩/٣ وشذرات الذهب ٢/١٠

ومريديه وتلاميذه ، فكانوا يأتمرون بتوجيهاته ، وكانوا يحيطونه بهالة من الإجلال والتوقير ، هيأت فيما بعد لأن تصبح لكل شيخ قداسته . وكان الجنيد يستخدم أسلوبًا مليئًا بالمبالغات فى الترغيب والترهيب زاخراً بالألفاظ الطنانة الكثيرة الإيهام والإيحاء، وأخذ عنه تلميذه الحلاج هذا الأسلوب وأصبح ميزة أساسية له فى أقواله وأشعاره ، وهو أسلوب كثرت فيه الشطحات ، ولاحظ ذلك القدماء إذ نرى السراج فى كتابه اللمع يعرض طائفة من شطحات الجنيد ويفسرها تفسيراً بينًا . وأشهر تلاميذ الجنيد الحسين بن منصور المشهور باسم الحلاج وسنعرض له بالحديث فى غير هذا الموضع .

ومن أهم الصوفيين المتأخرين فى العصر الحكيم(١) الترمذى محمد بن على بن الحسن بن بشر المتوفى سنة ٣٢٠ وكان يحاول صنع أسس فلسفية لعلم الكلام ، غير أنه مضى يدرس التصوف وتعمق فيه كما تعمق فى دراسة اتجاهات الشيعة ، وعاش للتصوف يؤلف فيه كتبًا كثيرة . ويقال إنه هو الذى أدخل بقوة نظرية الولاية فى البيئات الصوفية وكل ما جرّت إليه من إيمان بكرامات الصوفية أولياء الله وصفوته فى خلقه ، وقد ألف فيها كتابًا سماه ختم الولاية زعم فيه أن للأولياء خاتمًا كما أن للأنبياء خاتمًا وأن الولاية تفضل النبوة لقوله عليه السلام : « يغبطهم النبيون والشهداء » إذ لو لم يكن الأولياء أفضل منهم ما غبطوهم ! ! وذكر فى الكتاب المذكور أن عيسى يعود فى آخر الزمان ، وبذلك يكون خاتم الأولياء ، وثار عليه أهل بلدته « ترمذ » ففر إلى نيسابور وبها توفى . وقال السبكى : دافع عنه السلمى معتذراً عنه ببعد فهم الفاهمين . وعلى كل حال يُعَدّ الترمذى الحكيم أول من عمل على إشاعة فكرة الاعتقاد بولاية الصوفية وما جرت إليه من تصور الكرامات .

ومنذ أواخر القرن الثالث الهجرى تلقانا ظاهرة جديدة فى بيئات المتصوفة ، فقد كان السابقون منهم لا ينظمون الشعر بل يكتفون بإنشاد ما حفظوه من أشعار المحبين ، وهم فى أثناء ذلك يتواجدون وجداً لا يشبهه وجد ، أما منذ أبى الحسين النورى

(١) انظر فى ترجمة الحكيم الترمذى طبقات الصوفية للسلمى ص ٢١٦ وطبقات الشافعية للسبكى ٢/٢٤٥ وطبقات الشعرانى ١ / ١٠٦ ورسالة القشيرى فى مواضع مختلفة وتذكرة الحفاظ للذهبى ٢/٢١٨ .

المتوفى سنة ٢٩٥ فإن صوفيين كثيرين ينظمون الشعر معبرين به عن التياع قلوبهم فى الحب آملين فى الشهود مستعطفين متضرعين ، مصورين كيف يستأثر حبهم لربهم بأفئدتهم استئثاراً مطلقاً ، نذكر منهم سمنون أبا الحسين الخواص المتوفى سنة ٣٠٣ وأبا على الروذبارى المتوفى سنة ٣٢٢ والشبلى دُلَف بن جحدر المتوفَّى سنة ٣٣٤ وجميعهم من تلامذة الجنيد .

وواضح مما تقدم أن العصر العباسى الثانى لم يكد ينتهى حتّى تأصلت فى التصوف فكرة المعرفة الإلهية ومحبة الله ، كما تأصلت فكرة أن الصوفية أولياء الله ، وسنرى فى موضع آخر كيف أن الحلاج أحاط الرسول عليه السلام بهالة قدسية تشبه الهالة التى يحيط بها المسيحيون المسيح عليه السلام ، وكان لكل ذلك أثر عميق فى حياة التصوف وتطوره على مر الأجيال .

الفصل الثالث

الحياة العقلية

١

الحركة العلمية

دعا الإسلام أمته فى قوة إلى العلم والتعلم ، فبمجرد أن اكتسح العرب العراق وإيران والشام ومصر مضوا ينهلون من كل الثقافات والمعارف التى كانت منبثة فى هذه البلدان ، وأسعفهم فى ذلك أنهم عرَّبوا شعوبها وأخذتْ بنفسها تعرِّب لهم كل مدَّخراتها وكنوزها الثقافية ، وتجرَّد بعض العرب لمعرفة اللغات الأجنبية التى كانت تحمل تلك الكنوز والمدخرات ، وما ينقضى القرن الثانى الهجرى حتى تكون قد دخلت العربية سيولٌ ثقافية وعلمية لا حصر لها ، مما مكَّن العرب أن يتحوَّلوا سريعًا إلى أمة علمية تُعْنَى بكل جوانب العلم الذى كان معروفًا عند الأمم القديمة وخاصة الفرس والهنود والسريان واليونان ، وتشارك فيه مشاركة جادَّة خصبة ، وتضيف إليه علومًا جديدة تتصل بالقرآن والشريعة والشعر واللغة والنحو والعروض .

ونشط التعليم حينئذ نشاطًا واسعًا فمن تعليم للناشئة بالكتاتيب إلى تعليم للشباب بالمساجد، وكان الناشئة يبدءون بتعلم الخط والكتابة والقراءة ويحفظون بعض السور القرآنية ، ويَنْشُدون بعض الأشعار والأمثال، ويدرسون شيئًا من الحساب والسنن والفرائض والنحو والعروض ، وعُنى معلمو البنات بتحفيظهن القرآن وخاصة سورة النور ، على نحو ما صورنا ذلك كله فى كتاب العصر العباسى الأول نقلا عن

الجاحظ ، وذكر هو وابن قتيبة أسماء طائفة مشهورة من معلمى الكتاتيب ، ونراه يخصهم برسالة لا تزال منها بقايا بين رسائله المطبوعة على هامش كتاب الكامل للمبرد ، وفيها يصوّر نوادرهم وحماقاتهم المضحكة ، ومن حينئذ أصبحت شخصية معلم الكُتّاب تدور بين الشخصيات الهزلية فى أدبنا العربى ، ويقول محمد بن حبيب العالم اللغوى المتوفى سنة ٢٤٥ : إذا قلت للرجل ما صناعتك ؟ فقال : معلم صبيان فاصفَعْ ، يشير إلى حماقته ، وكان ينشد :

مَنْ عَلَّم الصِّبيان صَبَّوْا عَقْلَـهُ   حتى بنى الخلفاءِ والخلفاءِ[١]

وصَبَّوا عقله : جعلوه مثل عقلهم : عقل الصبيان حمقًا وبلاهة ، وكأنما تصيب عقله عدوى من عقولهم لطول ملابسته لهم ، وابن حبيب يعمم ذلك حتى فيمن يعلمون أبناء الخلفاء وآباءهم حين كانوا فى المهد صغاراً . ويقول ابن قتيبة إنهم كانوا يعلمون الصبيان على حسب الهدايا التى كانت تأتيهم من آبائهم[٢] ، أو بعبارة أدق على حسب الأجور التى كانوا يأخذونها منهم .

وطبيعى ألا تكون حياة معلم الكتّاب على هذا النحو رافهة ، بل كان كثيراً ما يحفُّ بها الضيق والبؤس على نحو ما يحدثنا الرواة عن أبى زيد البلخى المتوفى عام ٣٢٢ وكان فى بدء حياته معلم كُتّاب ، وقد شكا شكوى مرة حينذاك من حياته[٣] البائسة . وكثير من اللغويين والنحاة قبل أن ينالوا شهرتهم العلمية بدءوا معلمى صبية مثل يعقوب بن السكيت المتوفى سنة ٢٤٣ ، فقد كانت له فى مطالع حياته حلقة فى درب القنطرة ببغداد يؤدّب فيها مع أبيه صبيان العامة[٤] . ويخيّل إلى الإنسان كأنما أولاد العامة جميعًا كانوا يختلفون إلى الكتاتيب لما استقر فى نفوس آبائهم من ضرورة التعلم وأنه مثل الطعام والشراب لا يمكن الاستغناء عنه ، وأن من لم يتعلم فى صغره فاته العلم فى كبره ، ومثّلوا العلم فى الكبر بالنقش على الماء ، وفى الصغر بالنقش على الحجر يثبت ولا يزول أبداً . وكان الأولاد يكتبون فى ألواح من الآبنوس أو الخشب ، كل على حسب قدرة أبيه

---

(١) معجم الأدباء لياقوت (طبعة القاهرة) ٣٩/٤ .

(٢) عيون الأخبار (طبعة دار الكتب المصرية) ١١٢/١٨ .

(٣) معجم الأدباء ٨١،٦٥/٣ .

(٤) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٢٧٣/١٤.

المادية ، وكان المعلمون يأخذونهم بالتأديب ، فيضربونهم أحيانًا أو يحبسونهم ، حتى يؤدوا واجباتهم على خير وجه .

وكان معلمو أبناء الخاصة أحسن حالا ومعاشًا من معلمى أبناء العامة ، ومع ذلك نرى الجاحظ يأسى لحالهم إذ يقول : « يكون الرجل نحويًّا عروضيًّا وقسَّامًا فَرَضيًّا وحسن الكتاب جيد الحساب حافظًا للقرآن راوية للشعر وهو يرضى أن يعلّم أولادنا بستين درهمًا ، ولو أن رجلا كان حسن البيان حسن التخريج للمعانى ليس عنده غير ذلك لم يرض بألف درهم »[١] وهذا إنما ينصب على معلمى أبناء الطبقة الوسطى ، أما من كانوا يعلمون أبناء الخلفاء والوزراء والأمراء والقواد وكبار رجال الدولة والأعيان وكبار التجار فكانوا يحظون برواتب كبيرة ، فمثلا يعقوب ابن السكيت الذى بدأ ، كما أسلفنا ، معلم كتاتيب حين عهد إليه بعض الحكام فى تعليم ابنه جعل له راتبًا شهريًّا خمسمائة درهم وسرعان ما جعلها ألفًا ، واتخذه المتوكل لتعليم ولده وأسنى له الراتب وأجزل فى العطاء[٢] ، ولما أسند محمد بن عبد الله ابن طاهر نائب المتوكل على بغداد وجماعة من الخلفاء بعده تعليم ابنه إلى ثعلب الإمام الكوفى النحوى المشهور ظل ثلاث عشرة سنة يتناول الغداء معه على مائدته ، وفرض له أن يأخذ يوميًّا خبزاً فاخراً ولحمًا كثيراً حين انصرافه إلى منزله وجعل له ألف درهم شهريًّا . وقالوا إنه حين مات خلّف واحداً وعشرين ألف درهم وألفى دينار وحوانيت أو دكاكين بباب الشام فى بغداد قيمتها ثلاثة آلاف دينار[٣] ، ويقال إن الخاقانى وزير المقتدر أو لم وليمة ضخمة بمناسبة دخول ابن له الكُتَّاب وأعطى المعلم ألف دينار .

ولم تكن هناك مراحل للتعليم مثلنا اليوم ، بل كان الكُتَّاب يحلُّ محل تعليمنا الابتدائى والإعدادى ، ومن يريد أن يكمل تعلمه بعده يختلف إلى حلقات المساجد ، وكانت أشبه بمعاهد عليا ، فلم تكن فقط دوراً للعبادة ، بل كانت أيضًا دوراً ، بل قل جامعات ، للعلم والعلماء ، إذ كان لكل عالم فى كل فرع من فروع

---

(١) البيان والتبين ١/٤٠٣ .

(٢) تاريخ بغداد ١٤/٢٧٣ .

(٣) إنباه الرواة للقفطى (طبعة دار الكتب المصرية) ١/١٤٧ وما بعدها ومعجم الأدباء ٥/١٢٥ .

العلم حلقة كبرى ، يتحلّق فيها طلابه من حوله . وكان عادة يستند إلى أسطوانة فى المسجد ، ثم يملى محاضراته والطلاب يكتبون ، وإذا كانوا كثيرين بحيث لا يسمعه البعيد عنه ردّد مُسْتَمْلٍ كلامه حتى يستطيع البعيدون عنه سماع ما يقوله وكتابته ، وكان العالم لا يغير مكان حلقته الذى اختاره منذ نهض بالتدريس ، ويُرْوَى أن نَفْطَوَيْه المتوفى سنة ٣٢٣ ظل يملى دروسه فى اللغة والنحو بجامع المنصور ببغداد خمسين سنة وهو جالس إلى أسطوانة بعينها لا يزايل مكانه منها(١). وكانت أكثر الحلقات طلاباً حلقات المتكلمين والفقهاء ، أما المتكلمون فلكثرة ما كان يجرى بينهم من مناظرات كان الطلاب يختلفون إليها للفرجة والتعلم ، وأما الفقهاء فلأن الإلمام بالفقه كان الوسيلة إلى تولى مناصب الحِسْبة والشرطة والقضاء والولاية أحياناً. وكان الطلاب يمسكون فى أيديهم بالأقلام والأوراق للكتابة وأمامهم محابرهم ، وكانوا يُعَدُّون بالمئات فى بعض الحلقات ، ويُرْوَى أن الطبرى حين سأله الطلاب الحنابلة عن إمامهم ابن حنبل وخلافه مع بعض الفقهاء وأجابهم بأن خلافه لا يُعَدُّ أو لا يُؤْبَهُ له رموه بمحابرهم وكانت ألوفاً(٢).

وكانت المساجد حينئذ أشبه بجامعات حرة ، فالطلاب يختلفون إلى من يشاءون الاستماع إليه بدون أى شرط ، منهم من يأخذ الفقه أو الكلام أو الحديث النبوى أو التفسير أو اللغة أو النحو أو الشعر ، وكثير منهم كان يأخذ ما عند شيخ ، ثم يتحول عنه إلى شيخ آخر أو حلقة أخرى ، ويبدو أن بعض علماء النحو واللغة كان يتقاضى من طلابه أجوراً على حسب قدرتهم ، ففى أخبار الزجاج أنه رغب فى تعلم النحو فلزم حلقة المبرد بجامع بغداد لتعلمه ، فسأله أى شىء صناعتك ؟ فأجابه : أخرط الزجاج وكَسْبى فى كل يوم درهم ونصف ،وأريد أن تهتم بتعليمى وأنا أعطيك كل يوم درهماً ، وسأظل أعطيك إياه أبد الدهر ، فلزمه وعُنى بتخريجه ، وطلبت منه أسرة معلماً شاباً يعلم أولادهم النحو فسمَّاه لهم ، وعلم أولادهم وظل يعطى المبرد فى كل شهر ثلاثين درهماً ويزيده بما يقدر عليه(٣). ويبدو أن المبرد كان شحيحاً بعلمه ، إذ فى تاريخه أن المتوكل والفتح بن خاقان وزيره كانا يجزلان له فى العطاء حتى إذا توفيا أجرى عليه محمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد راتباً

(١) معجم الأدباء ١ / ٢٥٦ .
(٢) معجم الأدباء ١٨ / ٥٨ .
(٣) معجم الأدباء ١ / ١٣١ .

شهرياً ، ويتوفى فيتابع أخوه عبيد الله الذى خلفه على بغداد إجراء الرواتب عليه ، وهو مع ذلك كله لا يتورع عن أن يأخذ من طالب فقير درهماً كل يوم .

على كل حال كان المبرد مثله مثل المحاضرين الكبار بالمساجد ترعاهم الدولة وتفرض لهم رواتب شهرية ، وكانوا أنواعاً كثيرة ، فمنهم فقهاء ومنهم لغويون ونحاة ومنهم محدّثون ومفسرون ، ومنهم أدباء يأخذون من كل علم بطرف وعلى أيديهم كان يتخرج الندماء . وكان كل عالم وصاحب فن يأخذ راتبه مع جماعته ، وكان منهم من يُسْلَكُ فى جماعات كثيرة ، فيأخذ مع كل جماعة الراتب الذى تأخذه ، كالزجاج تلميذ المبرد ، فقد جعل المعتضد له راتباً فى الفقهاء وراتباً فى العلماء وراتباً فى الندماء ، فبلغ راتبه من الدولة ثلثمائة دينار شهرياً[١] . وكان الموفق يُجْرِى على ثعلب راتباً سنياً[٢] . وكان المقتدر يجرى على ابن دريد العالم اللغوى المتوفى سنة ٣٢١ خمسين ديناراً فى كل شهر[٣] . وكان أبو الحسن بن الفرات وزير المقتدر يطلق لطلاب الحديث سنوياً عشرين ألف درهم[٤] . وكان القضاة ورجال الحسبة من الفقهاء يتقاضون رواتب كثيرة ، حتى ليُثْرِى بعضهم من راتبه ثراء طائلا ، على نحو ما مرّ بنا فى الفصل الماضى عن إبراهيم بن جابر القاضى بحلب .

ولم يكن الخلفاء العباسيون ووزراؤهم وحدهم الذين عملوا على تنشيط العلم وإعطاء الرواتب الجزيلة للقضاة والعلماء من كل صنف ، فقد كان يشركهم فى ذلك حكام الولايات ، وفى مقدمتهم أسرة الصفاريين حكام سجستان ، إذ نرى أبا عبد الله البُوشَنْجِىّ شيخ أهل الحديث بنيسابور المتوفى سنة ٢٩١ يذكر أنه أخذ من تلك الأسرة سبعمائة ألف درهم ، ولما دالت دولتهم تحوّل عنهم إلى السامانيين ببخارى ، ففرضوا له راتباً مجزياً[٥] ، وقد بعثوا فى إمارتهم بتشجيعهم للعلماء نهضة علمية عظيمة ، ويُرْوَى أن أميرهم إسماعيل بن أحمد السامانى كان يصل محمد بن نصر المروزى إمام المحدثين فى دياره المتوفى سنة ٢٩٤ بأربعة آلاف درهم كل سنة ، وكان أخوه إسحق يصله بمثلها ، كما يصله بمثلها سكان موطنه سمرقند[٦] .

---

(١) الفهرست ص ٩٦ وإنباه الرواة ١ / ١٦١ .

(٢) معجم الأدباء ٥ / ١٤١ وإنباه الرواة ١ / ١٤٢ .

(٣) انظر ترجمته فى ابن خلكان .

(٤) كتاب الوزراء للصابى ص ٢٠١ .

(٥) طبقات الشافعية للسبكى ٢ / ١٩٢ .

(٦) السبكى ٢ / ٢٤٨ .

ولم يكن حكام الولايات يُنْفقون على علماء ولايتهم وحدهم ، بل كانوا ينفقون أيضًا على كل من ينزل بها من العلماء الوافدين الذين قد يقيمون بها شهراً أو أشهراً ، ومن طريف ما يُرْوَى من ذلك أن الرحلة فى طلب الحديث إلى مصر جمعت بين محمد ابن نصر المروزى آنف الذكر ومحمد بن إسحق بن خزيمة النيسابورى المتوفى سنة ٣١١ ، ومحمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ ومحمد بن هرون الرُّويانى المتوفى سنة ٣٠٧ ولم يبق عندهم ما يقوتهم ، فاتفق رأيهم على أن يخرج أحدهم فيسأل لأصحابه الطعام ، وإذا هم بالشموع ورسول من قبل والى مصر يدقّ عليهم الباب ، وسألهم أين محمد بن نصر فقيل له هو هذا فأخرج صُرَّة فيها خمسون ديناراً فدفعها إليه ثم قال لهم أيكم محمد بن جرير ؟ فقالوا هو هذا ، فأعطاه صرة فيها خمسون ديناراً ، وكذلك صنع مع محمد بن إسحق بن خزيمة ومحمد بن هرون الرويانى ، ثم قال لهم إن الأمير يقسم عليكم إذا نفدت هذه الدنانير أن تبعثوا إليه أحدكم(١) . على أنه يجب أن نعرف أنه كان هناك كثيرون وراء الولاة والوزراء والخلفاء من أعيان الأمة وأثريائها يعدُّون العلماء بالمكافآت والأموال الجزيلة بل ربما أمدوا الطلاب تشجيعًا وحثًّا على طلب العلم ، ويروى أن ابن زرعة قاضى دمشق المتوفى سنة ٣٠٢ كان يهب لمن يحفظ مختصر المزنى فى الفقه الشافعى مائة دينار(٢) . وكان ابن ماسى يُنْفذ إلى أبى عمر اللغوى المعروف باسم غلام ثعلب من وقت إلى وقت كفايته(٣) ، وسنرى فى حديثنا عن علوم الأوائل القناطير المقنطرة من الأموال التى كانت تنفق على الأطباء والمترجمين . ولا بد أن نشير هنا إلى أن نَفَراً من الفقهاء والمحدّثين وحتى من القضاة كانوا يأبون أن يأخذوا على عملهم وتعليمهم أجراً ، كما مر بناء فى الحديث عن زهاد الأمة أمثال إبراهيم الحربى ، وكان كثيرون منهم يعيشون من التجارة أو من الوراقة أو من بعض الحرف الصغيرة . غير أن الكثرة الغامرة كانت تعيش من رواتب الدولة ، وممن وضعوا أنفسهم موضع الحماة للعلوم والآداب من الوزراء والسَّراة ، وكان كثيراً ما يهديهم العلماء والأدباء آثارهم ، فيهدونهم بدورهم كثيراً من أموالهم وخير مثل يصور ذلك الجاحظ ، فقد أهدى كتابه « الحيوان » إلى محمد بن عبد الملك الزيات فأعطاه خمسة آلاف

---

(١) السبكى ٢ / ٢٥١ .

(٢) السبكى ٣ / ١٩٧ .

(٣) السبكى ٣ / ١٩٠ .

دينار ، وأهدى كتابه «البيان والتبيين» إلى أحمد بن أبي دؤاد فأعطاه أيضًا خمسة آلاف دينار ، وأهدى كتابه : « الزرع والنخيل » إلى إبراهيم بن العباس الصولى فأعطاه مثلهما خمسة آلاف دينار . وكلهم كانوا من كبار رجال الدولة . وصنف للفتح ابن خاقان وزير المتوكل رسالته فى فضائل الترك فأجرى عليه راتبًا شهريًّا من خزانة الدولة(١) . وأمثال الجاحظ كثيرون فى كل فن وفى كل علم كانوا ينالون هذه العطايا الجزيلة ويأخذون الرواتب السنية على جهودهم فى المحاضرات للطلاب وفى تأليف الكتب وتصنيفها ، مما أشعل فى نفوس الشباب والناس محبة العلم والعكوف عليه ، حتى يُعَدُّوا من أهله ، وفى شرفه وفضله يقول الجاحظ (٢) :

يطيب العيشُ إذ تَلْقَى لَبيباً ... غَذَاه العلمُ والرَّأْىُ المصيبُ
فيكشف عنك حيرةَ كل جَهْلٍ ... وفَضْلُ العلم يعرفه الأَريبُ
سقام الحِرْصِ ليس له دواءٌ ... وداءُ الجهل ليس له طبيبُ

وكانت الطريقة الشائعة فى المحاضرات ، وخاصة محاضرات المتكلمين والمحدّثين واللغويين هى الإملاء ، ويعرض السيوطى لإملاء اللغويين حينئذ ، فيقول : « أملى ثعلب مجالس عديدة فى مجلد ضخم ، وأملى ابن دُرَيْد مجالس كثيرة ، وأملى أبو محمد القاسم بن الأنبارى وولده أبو بكر ما لا يحصى ، وطريقتهم فى الإملاء كطريقة المحدّثين سواء ، يكتب المستملى أول القائمة : « مجلس أملاه شيخنا فلان بجامع كذا فى يوم كذا ، ويورد التاريخ ، ثم يورد المُمْلِى بأسناده كلامًا عن العرب والفصحاء فيه غريب يحتاج إلى التفسير ثم يفسّره ، ويورد من أشعار العرب وغيرها بأسانيده ومن الفوائد اللغوية بإسناد وغير إسناد ما يختاره . . . وآخر من علمته أملى على طريقة اللغويين أبو القاسم الزجاجى له أمال كثيرة فى مجلد ضخم ، وكانت وفاته سنة ٣٣٩(٣) » . وبلغ من عناية العلماء المملين حينئذ أن كانوا — وخاصة أهل الحديث — يراجعون ما كتبه تلاميذهم ، ويكتبون لمن يأنسون منهم القدرة على روايته عنهم شهادة بأنهم أجازوا لهم تلك الرواية ، ويسمّى ذلك

(١) معجم الأدباء ١٦ / ٧٩ ، ٩٩ وأمالى المرتضى (طبعة الحلبى) ١ / ١٩٥ .

(٢) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (طبع إدارة الطباعة المنيرية بمصر) ١ / ٥٨ .

(٣) المزهر (طبعة الحلبى) ٢ / ٣١٣ .

عند المحدّثين باسم الإجازة ، وهى شهادة قيمة على صحة الرواية[١]. وقد يسجل التلميذ على نسخته أنها من سماع هذا الشيخ أو ذاك، وقد يسجل أنه قرأها عليه ، وقد يسجل له ذلك الشيخ . وكان الشيخ أحياناً يملى عملا له فى بلد ، ثم ينتقل إلى بلدة أخرى ويمليه مضيفاً إليه أو مهذباً ، وكانوا ينصُّون على ذلك ، مثل معجم الجمهرة لابن دُرَيْد ، إذ نصوا على أنه مختلف النسخ كثير الزيادة والنقصان ، لأنه أملاه مراراً بفارس وببغداد ، فلما تعدد الإملاء زاد المعجم ونقص ، ويقول ابن النديم أصح النسخ نسخة أبى الفتح عبد الله بن أحمد النحوى ، لأنه كتبها من عدة نسخ وقرأها عليه[٢]. وتلك هى أعلى مرتبة فى تحقيقنا العلمى الحديث للكتب ، إذ نراجع مخطوطات الكتاب ونعرضه عليها ، ونستخلص منه أصلا صحيحاً غاية الصحة ، وقد اهتدوا مبكرين إلى ذلك يرشدهم نظر علمى سديد . وكان كثير من العلماء حين يُمْلى كتاباً ثم يزيد فيه ويضيف يهمل نسخته أو نسخه الأولى ، ولا يقرُّ سوى النسخة الأخيرة ، على نحو ما يلقانا عند أبى عمرو المطرز ، فإنه أملى فى سنة ٣٢٦ كتابه الياقوت فى اللغة ، ثم رأى الزيادة فيه فأملاه على تلاميذه ثانية سنة ٣٢٩ ، ثم رأى أن يضيف إليه بعض إضافات ، فجمع نسخه وعارضها بعضها على بعض سنة ٣٣٢ وجعل هذه العرضة الصورة النهائية للكتاب وأهدر ما سواها من الصور السابقة[٣].

وكان من أهم ما عمل على إشعال الجذوة العلمية وإمدادها بوقود جزل لا ينفد مناظرات العلماء فى المساجد وقصور الخلفاء والوزراء فى الكلام وفى الفقه وفى اللغة والنحو وغير ذلك من العلوم التى كان يشتد فيها الخلاف والجدل . وكان الشباب يختلف فى المساجد إلى هذه المناظرات ، ليتعلم قَرْع الحجة بالحجة وغلبة الخصم بالحق وبالباطل أحياناً ،وتفيض كتب المتكلمين بأخبار هذه المناظرات وكذلك كتب الفقهاء واللغويين والنحاة وكثيراً ما أثيرت فى أثناء هذه المحاورات بعض القضايا والمسائل كقضية العشق فى مجلس المنتصر[٤] وأنواع اللهو والملاهى فى مجلس المعتمد[٥].

---

(١) انظر فى أقدم هذه الإجازات كتابنا البحث الأدبى ص ١٥٧

(٢) الفهرست ص ٩٧

(٣) الفهرست ص ١١٩

(٤) مروج الذهب ٤ / ٥٥

(٥) مروج الذهب ٤ / ١٣١

وكان استخدام الورق فى الكتابة وتصنيف الكتب استخداماً عاماً منذ عصر الرشيد عاملا مهماً فى ازدهار الحركة العلمية حينئذ ، فقد كانوا يكتبون قبل عصره غالباً فى الجلود والقراطيس المصنوعة بمصر من ورق البردى وكانوا يكتبون فى ورق الكاغد المستورد من الصين وكان مرتفع الثمن جداً ، فنقلوا صناعته إلى بغداد فى عصر الرشيد ، إذ أنشأ الفضل بن يحيى البرمكى وزيره مصنعاً للورق ، فرخص ثمنه ، وانتشرت الكتابة فيه لخفته ، وسرعان ما كثرت الكتب والمصنفات ، كما كثر الورّاقون الذين يعيشون من نسخها ، وأنشأ كثيرون منهم دكاكين للتجارة فيها ، واختلف إليها الشباب والعلماء لا لشراء الكتب والمؤلفات فحسب ، بل ليقرءوا فيها وينهلوا من مصنفاتها ، وكانوا يكترونها لذلك ويبيتون فيها يقرءون على المصابيح ويقيّدون أو ينسخون ما يشاءون من الأفكار والصحف والرسائل . وعمل ذلك على نهضة الحركة العلمية نهضة واسعة ، إذ أصبحت الكتب والمصنفات تحت أعين الطلاب والشباب وبأيديهم ، يتزودون منها كما يريدون أزواداً كانت أيسر وأسهل من التلقى عن الشيوخ والعلماء فى المساجد ، إذ كانت تجمع لهم مسائل العلم الذى يريدونه وأصوله وفروعه ، ويصور ذلك الجاحظ مقارناً بين من يطلب الفقه عن طريق الاختلاف إلى حلقات العلماء ومن يطلبه عن طريق الكتب ودكاكين الوراقين ، يقول : « وقد تجد الرجل يطلب الآثار (الحديث) وتأويل القرآن ويجالس الفقهاء خمسين عاماً ، وهو لا يُعَدُّ فقيهاً ولا يُجْعَلُ قاضياً ، فما هو إلا أن ينظر فى كتب أبى حنيفة وأشباه أبى حنيفة ويحفظ كتاب الشروط فى مقدار سنة أو سنتين حتى تمر ببابه فتظن أنه من بعض العمال ، وبالحَرَى ألا يمر عليه من الأيام إلا اليسير حتى يصير حاكماً (قاضياً) على مصر من الأمصار أو بلد من البلدان »[١] . وارواج هذه التجارة حينئذ اتخذ كثير من العلماء المحاضرين بالمساجد ورّاقين يقيّدون إملاءاتهم ويذيعونها فى الناس ، ويذكر ابن النديم ورّاقَى المبرد إسماعيل ابن أحمد الزجاجى وإبراهيم بن محمد الساسى[٢] ، ويذكر ياقوت من وراقى الجاحظ زكريا[٣] بن يحيى ، ومن حين إلى آخر تلقانا أسماء هؤلاء الوراقين فى تراجم العلماء وأخبارهم .

(١) الحيوان للجاحظ (طبعة الحلبى) ١ / ٨٧ .
(٢) الفهرست ص ٩٥ .
(٣) معجم الأدباء ١٦ / ١٠٦ .

وبجانب الوراقين ودكاكينهم التى كانت تحلّ حينئذ محل دور النشر والطباعة كانت هناك مكتبات يختلف إليها الناس والشباب فى كل مكان ، ويشيد أبو معشر البلخى المتوفى سنة ٢٧٢ بعناية ملوك الفرس بالمكتبات وما كان بها من كتب مودعة أصناف علوم الأوائل[١] ، وقد ذكرنا فى كتاب العصر العباسى الأول خزانة الحكمة التى شادها ببغداد هرون الرشيد ، وأقام عليها يوحنا بن ماسويه لترجمة الكتب الطبية القديمة ،وكيف تحوّل بها المأمون إلى ما يشبه معهداً علمياً كبيراً إذ ألحق بها مرصداً ضخماً ، ووظّف بها كثيرين للترجمة . وقد تأسست مكتبات كثيرة فى العصر ، منها ما كان عاماً ، ومنها ما كان خاصاً ، أما العام فعلى رأسه مكتبات المساجد ، إذ كان كثير من العلماء يقفون كتبهم عليها ليفيد منها الطلاب ، وقلّدهم فى ذلك السَّراة . وعُنى بعض المثقفين والعلماء ببناء مكتبات عامة يتزود منها الناس أزواداً علمية مختلفة ،ومن أشهرها حينئذ مكتبة على بن يحيى المنجم نديم الخلفاء من زمن المتوكل إلى زمن المعتمد وكان أديباً مثقفاً ثقافة واسعة كما كان شاعراً ، وكانت له ضيعة نفيسة بنى فيها قصراً جليلا جعله خزانة كتب عظيمة وسماه خزانة الحكمة مشاكلة لخزانة الرشيد والمأمون ، وكان الناس يؤمونها من كل بلد ، فيقيمون فيها ويعكفون على المصنفات العلمية دارسين ، والكتب مبذولة لهم ، والنفقة مشتملة عليهم من مال على بن يحيى ،فقدم عليها أبو معشر من خراسان يريد الحج ، وهو إذ ذاك لا يحسن شيئاً ذا بال من النجوم ، فلما رآها هاله أمرها ، فأقام بها وأضرب عن الحج ، وتعلم فيها علم النجوم وتعمق فيه حتى ألحد كما يقول ياقوت ، وحتى كان ذلك آخر عهده بالحج وبالدين والإسلام أيضاً[٢] ، ويذكر ياقوت أن جعفر بن محمد بن حمدان الموصلى الشافعى — من أدباء العصر وعلمائه — أسس مكتبة ملأها بكتب من جميع العلوم والفنون ، وقفها على كل طالب للعلم ، وكان لا يمنع أحداً من دخولها ، فهى مفتوحة للجميع ، وإذا ألمّ بها معسرٌ أو بائس فقير صُرِف له ورق للكتابة فيه وفضة أودراهم لمعاشه . وكانت تُفْتَتَحُ فى كل يوم ، وكان ابن حمدان يجلس فى بعض غرفها ، ويحاضر قاصديها مملياً عليهم من أشعاره وأشعار غيره وحكايات مستطرفة وشذوراً من الفقه وما يتعلق به[٣] . ولا يكاد يكون

(١) الفهرست ص ٣٤٨
(٢) معجم الأدباء ١٥ / ١٥٧
(٣) معجم الأدباء ٧ / ١٩١

هناك عالم أو أريب نابه أو سَرِيّ إلا وله مكتبة خاصة تموج بالكتب ، وكانوا يوظفون لها بعض الوراقين كما كانوا يجلدونها[١] ويتفننون في العناية بكتابتها وتجليدها ، وكان المانوية شديدى الاهتمام بزخرفة كتبهم [٢] يريدون أن يجعلوها تحفاً فنية استمالة للقراء . ويتوقف الجاحظ في كتابه « الحيوان » ليعجب من مكتبة إسحق بن سليمان العباسي وما كانت تزخر به من الكتب والأسفاط والرقوق والقماطر والدفاتر والمساطر والمحابر [٣] ، وكانت لابن حنبل مكتبة قُدّرت كتبها باثنى عشر حملا وعدلا[٤] ، أما الفتح بن خاقان وزير المتوكل المتوفى سنة ٢٤٨ فكانت له خزانة كتب جمعها له على بن يحيى المنجم لم يُرَ أعظم منها كثرة وحسناً ، وكان يحضر مجلسه فصحاء الأعراب وعلماء البصرة والكوفة [٥] ، وكانت لثعلب مكتبة حافلة ، قوَّم خيران الورّاق ما يساوى عشرة دنانير منها بثلاثة ، ومع ذلك بلغ ثمنها ثلثمائة دينار [٦] ، وكذلك كانت لأبى بكر محمد بن القاسم الأنبارى مكتبة كبيرة ، وسأله بعض أصحابه كم يحفظ منها ؟ قال : ثلاثة عشر صندوقاً[٧] . ونسوق خبراً يدل على عظم المكتبات الخاصة عند بعض الأفراد ، فقد روى الرواة أن أبا عمر غلام ثعلب كان يؤدّب ولد القاضى أبى عمر محمد بن يوسف فأملى عليه ثلاثين مسألة بشواهدها من كلام العرب واستشهد فى تضاعيفها ببيتين غريبين جداً ، فعرضهما القاضى أبو عمر على ابن دُرَيْد وابن الأنبارى وابن مِقْسم فلم يعرفوهما ولا عرفوا غالب ما استشهد به من أبيات : وقال ابن دريد : هذا مما وضعه أبو عمر من عنده . فلما جاء أبو عمر ذكر له القاضى ما قال ابن دريد . فطلب من القاضى أن يحضر له ما فى داره من دواوين العرب ، فلم يزل يأتيه منها بشاهد لما ذكره بعد شاهد ، حتى خرج من الثلاثين مسألة وشواهدها ، ثم قال للقاضى : وأما البيتان فإن ثعلباً أنشدناهما وأنت حاضر فكتبتهما فى دفترك فطلب القاضى دفتره ، فإذا هما فيه[٨] وتلك مكتبة قاض كان بها جميع دواوين العرب ، ولو لم تحدث هذه القصة لما عرفنا شيئاً

---

(١) رسائل الجاحظ (طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٧٤ .
(٢) الحيوان ١ / ٥٥ .
(٣) الحيوان ١ / ٦٠ .
(٤) السبكى ٢ /٢٧ .
(٥) معجم الأدباء ١٦ / ١٧٤ .
(٦) إنباه الرواة ١ / ١٤٨ .
(٧) معجم الأدباء ١٨ / ٣٠٧ .
(٨) السبكى ٣ / ١٩١ .

عنها ، فما بالنا بمكتبات المؤلفين العظام فى العصر ، وكثير منهم ألّف مكتبة ضخمة فلو لم يكن له سوى مؤلفاته لكانت لديه منها خزانة كتب حافلة ، ويكفى أن نذكر مثلا الجاحظ وقد خلف من الكتب العظام وعشرات الرسائل ما يؤلف مكتبة كبيرة . ومما لا ريب فيه أن مكتبته كانت تحتوى المصنفات التى جمع منها المادة اللغوية والأدبية والكلامية لكتبه . ونذكر بجانبه الطبرى ، وقد أحصى بعض تلاميذه الأوراق التى كتبها وألّف منها كتبه ، فقال إنه مكث أربعين سنة يكتب فى كل يوم أربعين ورقة ،وحسب آخرون أوراق كتبه من يوم ولد إلى أن مات فوجدوه كتب كل يوم أربع عشرة ورقة[١] .

ويحس كل من يتعقب الحركة العلمية فى العصر كأن سباقًا نشب بين العلماء والعلم ، فهم يجدُّون فى طلبه وتحصيله وهم يصارعونه صراعًا متصلا يريدون أن يذللوه ويقهروه فى جميع الميادين . وهو صراع كان يداخله شغف شديد به ، كما كان يداخله إيمان بأنه لن يخضع لهم إلا إذا تجرّدوا له وتوفّروا عليه وأمضوا فيه بياض النهار وسواد الليل فى غير كلل ولا ملل ، بل فى حب لا يفوقه حبّ ، ويحدثنا الرواة عن كثيرين عشقوا الكتب أو بعبارة أخرى العلم عشقًا لا يشبهه عشق ، ويقول أبو هفان : «لم أر قط ولا سمعت من أحبّ الكتب أكثر من ثلاثة : الجاحظ فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائنًا ما كان حتى إنه كان يكترى دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر ، والفتح بن خاقان فإنه كان يحضر لمجالسة المتوكل ، فإذا أراد القيام لحاجة أخرج كتابًا من كمه أو خفّه وقرأه فى مجلس المتوكل إلى حين عوْده إليه ، وإسماعيل بن إسحق القاضى فإنى ما دخلت إليه إلا رأيته ينظر فى كتاب أو يقلب كتبًا أو ينفضها[٢]» .

وهذا الشغف العلمى الشديد هو الذى دفع العلماء إلى الرحلة من بلد بعيد إلى بلد بعيد طلباً للعلم ،مهما تجشموا فى ذلك من مشاق ،فكان اللغويون يرحلون إلى البوادى محتملين ما فيها من شظف العيش وخشونته فى سبيل جمع اللغة ، وكان الفقهاء يرحلون بدورهم للتتلمذ على أئمتهم ، ومثلهم العلماء المختلفون فى كل فرع من فروع العلم ، ومن خير ما يصور ذلك ما رواه ياقوت عن أبى زيد البلخى أحمد

(١) السبكى ٣ / ١٢٢ وما بعدها

(٢) معجم الأدباء ١٦ / ٧٥

ابن سهل من أن نفسه دعته وهو فى عنفوان شبابه إلى أن يرحل عن بلخ ويدخل أرض العراق ويجثو بين أيدى العلماء ويقتبس منهم العلوم ، فتوجه إليها راحلا مع الحاج وأقام بها ثمانى سنوات ، فطوف البلاد المتاخمة لها ، ولقى الكبار والأعيان وتتلمذ لأبى يوسف يعقوب بن إسحق الكندى ، وحصل من عنده علوما جمة ، وتعمق فى علم الفلسفة ، وهجم على أسرار علم التنجيم والهيئة ، وبرز فى علوم الطب والطبائع وبحث فى أصول الدين[1] » . وأكبر من شغفوا بالرحلة فى العصر المحدثون ، لأن الصحابة كانوا قد نزلوا فى أمصار العالم الإسلامى من إيران إلى المغرب ، وكانوا يروون أحاديث كثيرة عن الرسول حملها عنهم تلاميذهم من التابعين ومن جاءوا بعدهم ، فكان فى كل مصر أحاديث لا تعرفها الأمصار الأخرى ، فرحل مصنفو الحديث وحفاظه فى طلبها من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، ورحلة البخارى من خراسان إلى مدن إيران والعراق والحجاز والشام ومصر مشهورة ، ومثله بقية المحدثين الذين جمعوا متفرقات الأحاديث فى العالم الإسلامى . وسنرى الرحلة تشيع بين المترجمين إلى بلاد الروم ، كما سنراها تشيع بين الجغرافيين ليصفوا ما شاهدوه بأعينهم ، وكذلك سنراها تشيع بين المؤرخين من أمثال المسعودى .

ويبدو أن الشغف المفرط بالعلم لم يكن مقصوراً على الطبقات الخاصة من العلماء ومن يبتغون من الطلاب أن يكونوا على شاكلة أساتذتهم المتخصصين ، بل كان حظاً مشتركاً بين الطبقات العامة ، إذ كان العلم مطروحاً فى المساجد مباحاً للجميع ، وكذلك فى المكتبات العامة ، ولم يكن هناك كتاب طريف إلا وتعرضه دكاكين الوراقين . ويدل على ذلك أكبر الدلالة أن من يرجع إلى تراجم العلماء سيجد كثرتهم الغامرة من الطبقة العامة ، وتصور ذلك ألقابهم من مثل الحداد والخزاز والقواريرى والتمار والقواس والنبال والقلال والعطار والمطرز . وأبعد من ذلك وأعمق أن نجد الجاحظ فى رسالته «الرد على النصارى » يشكو من مناقشة العامة للملحدين والزنادقة فى آرائهم الضالة ،لعدم معرفتهم الدقيقة بتلك الآراء وما يفندها من الأدلة الساطعة ، حتى ليقول : « ومن البلاء أن كل إنسان من المسلمين يرى أنه متكلم وأنه ليس أحد أحق بمحاجة الملحدين من أحد » ، وكأن كل

(١) معجم الأدباء ٣ / ٧٢

فرد من أفراد العامة لعصره كان يظن نفسه نال حظًا أوحظوظًا من مناهج المتكلمين فى جدال أصحاب الملل والنحل الضالة . وظاهرة ثانية تدل على مدى تغلغل الثقافة بين جميع أفراد الأمة بلا استثناء، إذ نرى من النساء من يختلفن إلى حلقات المتكلمين [(١)] والفقهاء وغيرهم ، ويبدو أنه برزت حينئذ فى الثقافة الدينية غير امرأة حتى لنرى — كما مر بنا — قهرمانة لأم المقتدر ، هى ثمل ، تجلس فى سنة ٣٠٦ لسماع المظالم والحكم بين المتظالمين ويجلس معها القضاة والعلماء ، واختلف الفقهاء حينئذ فى جواز ولاية المرأة للقضاء ، وأجاز ذلك الطبرى [(٢)] ، وهى فتوى تدل على ما بلغته المرأة من التعمق فى الفقه وعلوم الشريعة لهذا العصر ، ولابن بسام المتوفى سنة ٣٠٣ أبيات يقول فيها [(٣)] :

ما للنساء وللكِتا بةِ والعِمالة والخطابَهْ

وقد يدل البيت على أن من النساء حينئذ مَنْ كُنَّ يطالبن بمساواة المرأة بالرجل فى الوظائف المهمة مثل كتابة الدواوين وولاية الأقاليم والخطابة فى المحافل العظام .

ولم تكن هذه الجوانب وحدها ثمار اشتراك الطبقة الشعبية العامة فى العلم والثقافة، فقد كانت هناك ثمرة مهمة غاية الأهمية ، هى محاولة أن يصبح العلم شعبيًّا بحيث لا يعلو على أفهام العامة ، وبحيث يصل إليهم من أسهل الطرق وأيسرها ، ويتضح ذلك عند الجاحظ فى كتابه « البيان والتبيين » و « الحيوان » وعند ابن قتيبة فى كتابه « عيون الأخبار » . ومرَّ بنا أن الجاحظ أراد بكتابة « البيان والتبيين » أن يردَّ على الشعوبية رداً مفحمًا ببيان ما تحمل الثقافة العربية فى الخطابة والشعر والأمثال من قيم بلاغية رائعة ، ونضيف هنا أنه أراد أن يذلل هذه الثقافة بعرضها فى أسلوب عصرى يقرّبها من أفهام العامة بحيث تُسيغها بدون أى عسر أومشقة . وبَوْنٌ بعيد بين عرض هذه الثقافة عند اللغويين من أمثال الأصمعى وأبى عبيدة وأبى زيد وعرضها عند الجاحظ فى البيان والتبيين ، فهى عند الأولين جافة جفافًا شديداً ولا يستطيع غير المتخصصين فهمها والفقه بمسائلها العويصة . أما فى البيان والتبيين فعذبة سائغة لا للطبقة الوسطى من المثقفين فقط . بل أيضًا للطبقة الشعبية الدنيا. وبالمثل عرضه

(١) انظر ترجمة الأشعرى فى ابن خلكان .
(٢) الأحكام السلطانية للماوردى ص ١٠٧ .
(٣) صبح الأعشى (طبعة دار الكتب المصرية) ٦٤/١ .

لهذه الثقافة فى كتابه الثانى « الحيوان » فهو يقرّب هذه الثقافة من الشعب، بحيث يجد فيها لذة ومتاعاً، وهو يمزج بينها وبين ما عُرف عند أرسطو وغيره من علم الحيوان، ليتضح أن هذا العلم لم يكن غريباً ولا بعيداً عن العرب، بل لقد استظهروا منه كثيراً فى أشعارهم. وهو لا يقرّب هذا العلم من العامة وحده، بل يقرّب أيضاً علم الكلام ونظريات أصحابه من المعتزلة أمثال النظام، بل أدق الدقائق من هذه النظريات وما حملت من براهين عقلية سديدة، وكأنما كان يريد للعامة أن تتمثل هذه البراهين حتى تتسلح عقليًّا فى مناقشتها للمسائل ومحاورتها لأصحاب الملل وخاصة النصارى كما أسلفنا منذ قليل. وأما كتاب عيون الأخبار فقد عرض فى مجلداته الأربعة الثقافات المعاصرة له عرضًا بسيطًا سهلا، حتى يجعل قطوفها دانية للعامة، وحتى لا يظنوا — كما أشرنا إلى ذلك فى غير هذا الموضع — أن بينها تعارضاً. فتلك آداب الفرس وتقاليدهم فى السياسة والحكم، وتلك وصايا العرب فى القضاء وغير القضاء وخطبهم وأشعارهم، وتلك أقوال المسيح عليه السلام وأقوال أصحاب الكتب السماوية فى الزهد، وتلك أحكام وقواعد فى الطعام والنبات والحيوان منقولة عن اليونان. وكل ذلك يسوّى منه الكتاب فى لغة سهلة يسيرة واضحة أشد الوضوح، بحيث تتيح له أن يتغلغل فى طبقة الشعب، وبحيث يتبين فى وضوح أنه لا توجد حواجز ولا سدود بين الثقافة العربية والثقافات الأجنبية وما قد يُظَنّ من ذلك كله إنما هو أقواس وهمية. وبلغ من قرب هذا الكتاب من نفوس جميع طبقات الشعب الخاصة والعامة أن أكبّ الناس على ما فيه من آداب الفرس وأهملوا كل ما صوّر هذه الآداب من كتب أخرى، إذ استطاع ابن قتيبة أن يعطيها صبغة شعبية تجعلها واضحة كل الوضوح، كما استطاع أن يَكْسُوَها بأساليبه البديعة ثوبًا عربيًّا ناصعًا، بحيث أصبحت فى ثوبها الجديد أنصع وأبهى وأنضر من ثوبها القديم.

٢

علوم الأوائل : نقل ومشاركة وتفلسف

تحدثنا فى كتاب العصر العباسى الأول عن حركة الترجمة فيه وكيف أنها شملت كل ما استطاع العرب نقله من علوم الهند والفرس واليونان، وكان أكثر ما نقلوه عن الفرس والهند فى مجال الفلك والرياضيات، ونقلوا عن اليونان

إما عن اليونانية مباشرة وإما عن السريانية والفارسية مجموعات العلوم التى تتصل بهم من الرياضيات والعلوم الطبيعية ، وسرعان ما أخذوا يشاركون فى هذا التراث فإذا يوحنا بن ماسويه ينفذ إلى إضافة مباحث جديدة فى التشريح ، وإذا هم يضعون لحركات الأفلاك زيجات وجداول جديدة أكثر دقة من المأثورات الفارسية واليونانية ، وإذا محمد بن موسى الخوارزمى ينشئ عصراً جديداً فى التاريخ العالمى للرياضيات فيكتشف علم الجبر وقواعده ويعطيه اسمه الذى عُرف به فى العالم كله . والدولة هى التى هيأت لذلك كله منذ أبى جعفر المنصور ، فقد شجعت على الترجمة والنقل بكل الوسائل، ولم يلبث هرون الرشيد أن أنشأ دار الحكمة وجلب إليها المترجمين من مدرسة جنديسابور الفارسية ومن السريان والفرس ، وخلفه المأمون فاستحالت هذه الدار جامعة كبرى ، إذ ألحق بها مرصداً ومكتبة ضخمة ، وأرسل البعوث إلى بيزنطة وبلاد الروم تأتيه بالمأثورات اليونانية المختلفة، وأخذت هذه المأثورات تستولى على معظم النشاط فى النقل والترجمة ، حتى أصبحت لها نهائياً الغلبة على المأثورات الفارسية والهندية .

وأشرنا فى حديثنا عن الترجمة فى العصر العباسى الأول إلى ما تُرجم عن اليونانية من الأصول المختلفة ، فقد ترجمت فى الرياضيات النظريات الفلكية الإغريقية ومن أهم مصنفاتها التى عُنى النقلة بترجمتها كتاب المجسطى لبطليموس الإسكندرى ، كما عنوا بترجمة كتاب الأصول لأقليدس فى الهندسة ، وترجموا كثيراً من المؤلفات اليونانية فى العلوم الطبيعية وخاصة ما اتصل عند أرسطو بعلم الحيوان وبوصف النباتات مما يهم الصيادلة ، وترجموا فى الطب مصنفات جالينوس وبقراط . وترجموا لكثيرين من اليونان غير أرسطو ، فترجموا لأفلاطون وغير أفلاطون مصنفات مختلفة . ويلاحظ أن العرب استعانوا فى هذه الترجمة بالسريان ، وكانوا قد نقلوا إلى لغتهم قبل الإسلام كثيراً من المأثورات اليونانية ، وتصادف أن أخذوها من علماء المذهب الأفلاطونى الجديد ، مع ما أضافوه إليها من شروح اقتبسوها من آراء أفلاطون أو من الأفلاطونية الجديدة المتأثرة بفيثاغورس أو بالرواقيين . وليس ذلك فحسب ، فإن السريان فيما يبدو نسبوا إلى أرسطو وأفلاطون كتباً كثيرة، ونُقلت إلى العرب بهذه النسبة الخاطئة، مثل كتاب

الربوبية المنسوب خطأ إلى أرسطو ومحوره بحوث فى النفس والإنسان تُمزَجُ بقصص كثيرة وبقواعد فى السياسة والصحة والتغذية . على أن كثيراً مما نسبوه إليه صحيح وخاصة ما يتصل بالطب والحيوان والعلوم الطبيعية . وكلما تقدمنا مع الزمن كثر الاهتمام به وبترجمة آثاره ، حتى غدا المعلم الأول للعرب وعلمائهم وفلاسفتهم المختلفين ، وخاصة فى علم المنطق والطبيعيات ، أما فى الرياضيات فكان أساتذتهم فيها فيثاغورس وبطليموس وأقليدس .

ويذهب العصر العباسى الأول ، ونمضى فى العصر العباسى الثانى فنجد حركة النقل والترجمة تزداد حدة وقوة وتنمو الترجمة عن اليونانية نمواً عظيماً ، ويتم لها الانتقال من الترجمة الحرفية التى تمتلئ بالعثرات والصعوبات اللفظية إلى ترجمة الفقر والعبارات بالمعنى ترجمة دقيقة . وهذا هو السر فى أننا نجد كثيراً فى ترجمات المترجمين أنهم أعادوا ترجمة هذا الكتاب أو ذاك مما ترجمه الحجاج بن مطر وغيره من مترجمى العصر العباسى الأول . ويخيل إلى الإنسان أنهم لم يتركوا حينئذ كتاباً يونانياً فى أصله اليونانى أو فى ترجمته السريانية إلا ترجموه إلى العربية . وكان الذى أذكى الترجمة والنقل حينئذ الأموال الضخمة التى كان يُغْدقها المتوكل وغيره من الخلفاء على المترجمين ، ويكفى أن نذكر ما أهداه المتوكل إلى حنين بن إسحاق المتوفى سنة ٢٦٤ فإنه أهداه ثلاث دور من دوره وحمل إليها كل ما تحتاج إليه من الأثاث والفرش والآلات والكتب وأنواع الستائر الأنيقة وأقطعه بعض الإقطاعات وجعل له راتباً شهرياً خمسة عشر ألف درهم غير ثلاثة خدم من الروم وغير ما أسبغه على أهله من الأموال والخلع والإقطاعات[1] . وكان الوزراء بدورهم يغدقون على المترجمين أموالا كثيرة ، سواء أهدوا إليهم بعض ترجماتهم أو بعض ما ألفوه على هدى ما قرءوه فى اللغتين اليونانية والسريانية ، وفى أخبار قسطا بن لوقا أنه أهدى إبراهيم بن المدبر كتابين كما أهدى الحسن بن مخلد وزير المعتمد كتاباً[2] . وفى أخبار إسحق بن حنين أنه كان منقطعاً إلى القاسم بن عبيد الله وزير المعتضد[3] . وكان ثابت بن قرة لا ينقطع عن إسماعيل

---

(١) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة (نشر مكتبة دار الحياة ببيروت) ص ٢٧٠ .

(٢) ابن أبى أصيبعة ص ٣٣٠ .

(٣) ابن أبى أصيبعة ص ٢٧٤ .

ابن بلبل وزير المعتمد وله ألّف مقالة فى الهندسة.[١] وكان كثير من الأطباء يكلفون المترجمين نقل كتب طبية أو كتب تتصل بالطب ، يقول ابن أبى أصيبعة : « وكان مما نُقلت له الكتب اليونانية وترجمت باسمه جماعة من أكابر الأطباء مثل يوحنا بن ماسويه وجبرائيل بن بختيشوع وابنه بختيشوع وداود بن سرابيون وسلمون بن بنان واليسع وإسرائيل بن زكريا بن الطيفورى وحبيش بن الحسن»[٢] . وكانت هناك أسر وأفراد كثيرون يَعُدُّون أنفسهم حماة للترجمة والمترجمين ، وكانوا يتنافسون فى هذه الحماية مع أنفسهم ومع الخلفاء ، ذكر منهم ابن أبى أصيبعة طائفة[٣] ، منها على[٤] بن يحيى المنجم صاحب خزانة الحكمة التى سبق أن تحدثنا عنها ، وأحمد بن المدبر . وممن نَوّه بهم القدماء طويلا فى هذا الجانب بنو موسى[٥] بن شاكر وهم محمد والحسن وأحمد ، وكان الأول والثانى يُشْغَفان بالهندسة فى حين شُغف الثالث بالحيل (الميكانيكا) وكان لهم مرصد أسسوه على دجلة ، وكانوا يُغْدقون رواتب شهرية على جماعة من المترجمين بينهم حنين بن إسحق وحبيش ابن أخته وثابت بن قرة ، ويقال إنها كانت تبلغ فى الشهر خمسمائة دينار[٦] . وكل هذا الاهتمام بالترجمة والإنفاق عليها والتنافس فيها أحدث ازدهاراً عظيماً لها فى العصر العباسى الثانى فقد أكبّ المترجمون على المأثورات الإغريقية فى كل فروع العلم والفلسفة يترجمونها ، وكادوا لا يبقون كتاباً بدون ترجمة وبدون شرح أو تلخيص . ومن يرجع إلى ابن أبى أصيبعة والقفطى تهوله الكثرة الغامرة مما ترجموه ، إذ يبلغ أحياناً عند المترجم الواحد مئات الكتب والرسائل ، سوى ما ألّفوه وصنفوه .

وأهم المترجمين حينئذ وأشهرهم حنين[٧] بن إسحق المتوفى سنة ٢٦٤ وكان طبيباً

---

(١) ابن أبى أصيبعة ص ٣٠٠ .

(٢) ابن أبى أصيبعة ص ٢٨٤ .

(٣) ابن أبى أصيبعة ص ٢٨٣ .

(٤) انظر أيضاً تاريخ الحكماء القفطى (طبعة ليبزج) ص ١٣٢ .

(٥) راجع فى بنى موسى ابن أبى أصيبعة ص ٢٦٠ والفهرست ص ٣٩٢ والقفطى ص ٣١٥ ، ٤٤١ والعلم عند العرب لألدوميلى (نشر الجامعة العربية) ص ١٣٩ .

(٦) ابن أبى أصيبعة ص ٢٦٠ وانظر ترجمة الرازى ص ٤١٤ وكثرة من ألف الكتب بأسمائهم وأهداها إليهم .

(٧) انظره فى الفهرست ص ١٢٣ والقفطى ص ١٧١ وابن أبى أصيبعة ص ٢٥٧ وألدوميلى ص ١٣٢ ، ١٣٩ وتاريخ الفلسفة فى الإسلام لدى بور (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر — الطبعة الرابعة) ص ٣٧ .

مسيحياً نسطورياً من مدرسة جنديسابور ، رحل إلى بلاد الروم وتعلم اليونانية وكان يجيد بجانبها السريانية والفارسية والعربية ، وهو وابنه إسحق[١] وابن أخته حبيش[٢] أكثر المترجمين فى العصر إنتاجاً ، وكانوا يعملون معاً ، فنسبت بعض الترجمات لهذا تارة والذاك تارة أخرى . وكان يعاونهم تلاميذ كثيرون ، يدل على ذلك ما جاء فى ترجمة حنين من أن الخليفة المتوكل « جعل له كتاباً نحارير عالمين بالترجمة يترجمون بين يديه وهو يتصفح ما ترجموا ، وفى مقدمتهم أصطفن بن بسيل[٣] » ، ويبدو من اسمه أنه يونانى الأصل . وكان حنين يُشْغَف بترجمة الكتب الطبية ، وقد ترجم لجالينوس منها عشرات إلى العربية والسريانية ، غير ما أصلحه لتلاميذه من آثاره مما ترجموه إلى اللغتين . ويصور لنا فى مقدمة بعض الكتب التى ترجمها مدى دقته العلمية فى الترجمة إذ كان لا يزال يجمع للكتاب الذى يريد ترجمته كل ما يمكنه من نسخ ، حتى إذا اجتمعت اه قابل بينها وعارض عباراتها بعضها على بعض واستخلص للكتاب ترجمة دقيقة[٤] . وكان ابنه إسحق يعنى بترجمة الكتب الحكمية والفلسفة ، فلم يقف عنايته مثله على الكتب الطبية ، ولذلك كثرت ترجماته لأرسطو وأقليدس وأرشميدس وبطليموس . أما حبيش فعُنى مثل خاله بترجمة الكتب الطبية . واشتهر أصطفن بأنه كان أول من ترجم كتاب ديوسقريدس فى النبات وكتاب أوريباسيوس فى الأدوية المفردة[٥] .

وبجانب هذه المدرسة الكبيرة للترجمة وأستاذها حنين كان هناك مترجمون يفوقون الحصر ، من أشهرهم ثابت[٦] بن قرة المتوفى سنة ٢٨٨ ومن أهم ما ترجمه كتاب الأصول لأقليدس ، ويقول ألدوميلى إن النص العربى يصلح النص الإغريقى فى

---

(١) راجع الفهرست ص ٤٢٩ والقفطى ص ٨٠ وابن أبى أصيبعة ص ٢٧٤ ودى بورص ٣٧ وألدوميلى ص ١٤٢ .

(٢) انظر الفهرست ص ٤٢٨ والقفطى ص ١٧٧ وابن أبى أصيبعة ص ٢٧٦ ودى بورص ٣٧ وألدوميلى ص ١٤٢ .

(٣) ابن أبى أصيبعة ص ٢٦٢ والقفطى ص ١٧١ .

(٤) انظر أصول نقد النصوص ونشر الكتب لبرجستراسر (طبع مطبعة دار الكتب المصرية) ص ٩٤ .

(٥) القفطى ص ٧٤ وألدوميلى ص ١٤٢ .

(٦) راجع الفهرست ص ٣٩٤ والقفطى ص ١١٥ وابن أبى أصيبعة ص ٢٩٥ ودى بورص ٣٧ وألدوميلى ص ١٤٢ .

مواضع مختلفة ، وترجم كتاب أرسطو فى النبات تفسير نيقولاوس ، وله كتاب قرسطون فى نظرية الميزان واعتدال الأجسام الميكانيكية ، وكان له أثر كبير فى لاتينية العصور الوسطى كما يقول ألدوميلى ، ومن مصنفاته كتاب الذخيرة فى الطب ألفه لابنه سنان . ومن أنبه المترجمين حينئذ قسطا[١] بن لوقا البعلبكى المتوفى سنة ٣٠٠ وكان مسيحيًّا من أصل يونانى ، ومن ترجماته شرح الإسكندر الأفروديسى وشرح جون فيلوبون على السماع الطبيعى وكتاب آراء الفلاسفة المنسوب إلى فلوطرخس وكتاب الحيل لهيرون المنشور فى ليبزج سنة ١٩٠٠ وكان قد ترجمه للخليفة المستعين. وترجم لإبراهيم بن المدبر كتابه الجامع فى الدخول إلى علم الطب غير كتب أخرى ألفها أو ترجمها لكثيرين . وله رسالة صغيرة فى الفرق بين النفس والروح ترجمت إلى اللاتينية . وخاتمة هؤلاء المترجمين النابهين أبو بشر متى[٢] ابن يونس ، وكان من أصل يونانى ، وقد عُنى بترجمة جميع آثار أرسطو فى المنطق وغير المنطق ، وترجم له كتاب الشعر ترجمة مضطربة ، لأنه يدور — كما هو معروف — حول المأساة اليونانية ، ولم يكن العرب ولا المترجمون حينئذ يتصورونها ، ولذلك يكون لمتى عذره فى اضطراب ترجمته لهذا الكتاب[٣]. وقد انتهت إليه رياسة المنطقيين فى عصره ، وله مناظرة فى المنطق والنحو مع السيرافى سنة ٣٢٠ احتفظ بها ياقوت فى معجمه[٤].

وبمتى بن يونس ينتهى عصر الترجمة العظيم ، ومنذ أوائل هذا العصر ، بل منذ عصر المأمون ، يشارك العرب فى علوم الأوائل التى ترجموها ، بحيث يظهر عندهم علماء يزاحمون العلماء الأوائل عند الأمم القديمة بمناكب ضخمة ، ويكفى أن نذكر محمد بن موسى الخوارزمى وابتكاره لعلم الجبر الذى أشرنا إليه فى غير هذا

---

(١) انظر الفهرست ص ٤٢٤ والقفطى ص ٢٦٢ وابن أبى أصيبعة ص ٣٢٩ ، وألدوميلى ص ٤٢٤ والقفطى ص ٢٦٢ وابن أبى أصيبعة ص ٣٢٩ وألدوميلى ص ١٥٥ ، ١٦٥ ودى بورص ٣٩ .

(٢) راجع الفهرست ص ٤٢٩ وابن أبى أصيبعة ص ٣١٧ والقفطى ص ٣٢٣ وعبد الرحمن بدوى فى كتاب فن الشعر لأرسطو مع الترجمة العربية القديمة لمتى بن يونس نشر مكتبة النهضة المصرية .

(٣) انظر كتابنا البلاغة تطور وتاريخ (طبع دار المعارف) ص ٧٦ .

(٤) انظر معجم الأدباء ١٨٠/٨ .

الموضع والذى ليس له سابقة عند علماء الأوائل ، وله شروح على كتاب أقليدس فى الهندسة وكتاب بطليموس فى الجغرافية ، وقد خلّف فيها أول كتاب عربى جغرافى سماه صورة الأرض ، ونشطت الكتب والمباحث الجغرافية منذ هذا التاريخ المبكر. ومع افتتاح هذا العصر العباسى الثانى يؤلف عبيد الله بن خرداذبة الفارسى الأصل كتابه « المسالك والممالك » وهو يصرح فى مطالعه بأنه اعتمد فى بيان حدود الأرض ومسالكها على كتابات بطليموس . وأخذ غير عالم يتناول هذا الموضوع ، تناوله أبو عبد الله الجيهانى وأبو زيد البلخى ، وأهم منهما ابن الفقيه ، غير أنه لم يذكر إلا المدائن العظمى ولذلك سمّى كتابه « البلدان » . وأدق منه وأمهر علميًّا اليعقوبى أحمد بن يعقوب العباسى ، إذ نراه فى كتابه الذى سماه أيضًا باسم البلدان يعتمد على الرحلة والطواف ببلاد ديار الإسلام واصفًا لها وصف المشاهد المتثبت من الأخبار. وبذلك تم تكامل علم الجغرافيا عند العرب . واهتموا حينئذ بإفراد جزيرة العرب وجغرافيتها ببعض الكتب على نحو ما نجد عند الهمدانى المتوفى سنة ٣٣٤ فى كتابه « صفة جزيرة العرب » .

وعلى نحو ما نهضوا حينئذ بعلم الجغرافيا نهضوا بالرياضيات والفلك ، يتقدمهم محمد بن موسى الخوارزمى ، ومن تلاميذه فى مرصد المأمون حبش الحاسب ، وله جداول فلكية مهمه . ومن نابهى الفلكيين فى أواسط العصر أحمد ابن محمد بن كثير الفرغانى وكتابه : « أصول الفلك » له ترجمات كثيرة إلى اللاتينية ، وترك هناك تأثيراً كبيراً حتى عصر كوبرنيقوس[1] ، وله كتب مختلفة فى الإسطرلاب. ومن الفلكيين الذين اشتهروا حينئذ شهرة واسعة أبو معشر البلخى المتوفى سنة ٢٧٢ وكان له تأثير واسع فى العرب ومسيحيي العصور الوسطى وترجمت له كتب كثيرة إلى اللغة اللاتينية[2] . ومن الفلكيين النابهين فى العصر الفضل[3] بن حاتم النيريزى المتوفى سنة ٣١٠ وكان متقدمًا فى علم الهندسة وهيئة الأفلاك وحركات النجوم وله شروح على أصول أقليدس ترجمها جيرار دى كريمونا ونشرها كورتزه فى ليبزج سنة ١٨٩٩ وله شروح أيضًا على كتاب بطليموس فى الفلك وزيج على مذهب

(١) ألدوميلي ص ١٦٧ وانظر فى ترجمة الفرغانى الفهرست ص ٤٠٣ والقفطى ص ٢٨٦ .

(٢) ألدوميلي ص ٢٦٩ وراجع ترجمته فى الفهرست ص ٤٠٠ والقفطى ص ١٥٢.

(٣) انظر فيه ألدوميلي ص ١٥٥ ، ١٦٢ والفهرست ص ٤٠٣ والقفطى ص ٢٥٤ .

الهند وكتابها « السند هند » وكتاب سمت القبلة أو معرفة اتجاهها . وكان يعاصره البتّانى[1] محمد بن جابر بن سنان المتوفى سنة ٣١٧ « ولا يُعْلَم أحد فى الإسلام بلغ مبلغه فى تصحيح أرصاد الكواكب وامتحان حركاتها » وكان له مرصد فى الرَّقّة على نهر الفرات ، وله زيج جليل ضمَّنه أرصاد النيرين وإصلاح الحركات المثبتة لهما فى كتاب المجسطى لبطليموس ، وتُرجم زيجه إلى اللاتينية ، وقد لخص نلّينو أهمية مباحثه الفلكية وتصحيحه لبطليموس كثيراً من أخطائه فى دراسته القيمة عنه بدائرة المعارف الإسلامية .

وبالمثل نهضت العلوم الطبية والطبيعية وكانت تشمل حينئذ الصيدلة والكيمياء ، وقد أنتج العصر العباسى الأول أكبر كيميائى فى تلك الحقب القديمة ، وهو جابر بن حيان ، وسبق أن ألممنا به فى كتابنا عن العصر المذكور ، وكان قد تُرْجم كتاب الحيوان لأرسطو وعلى هديه ألّف الجاحظ كتابه « الحيوان » فى هذا العلم ، وحلّل بلاسيوس هذا الكتاب فى مجلة إيزيس العدد الرابع عشر سنة ١٩٣٩ مبيناً ما يشتمل عليه من الطبيعة الكيمائية وعلم الحيوان وعلم الإنسان[2] . وظل المترجمون يتوفرون على ترجمة كتب الصيدلة والكيمياء والطب ،وكل يحاول تصحيح ترجمة من سبقه وإفادة الأطباء بكل ما يستطيع . ومرَّ بنا أنهم كانوا يشجعون بأموالهم الغدقة الترجمة وأن كثيراً من الكتب تُرجم باسمهم . ومن أهمهم بختيشوع[3] ابن جبرائيل بن بختيشوع ، وبلغ من كثرة ثرائه أن كان يضاهى الخليفة المتوكل فى الزينة والفرش والمأكل والمشرب ، ويقال إنه وصف للمتوكل دواء فى بعض وعكاته فأمر له بثلثمائة ألف درهم وثلاثين تختاً من الثياب ، ونقل له حنين كثيراً من كتب جالينوس الطبية . وكان يعاصره سابور[4] بن سهل المسيحى صاحب بيمارستان جنديسابور المتوفى سنة ٢٥٥ واشتهر بكتاب له فى الصيدلة كان يقع فى ٢٢ باباً وظل الأطباء والصيادلة يعتمدون عليه حتى ظهر كتاب ابن التلميذ فى القرن السادس .

---

(١) انظر فيه ألدوميلى ص ١٥٥ ، ١٦٨ والفهرست ص ٤٠٣ والقفطى ص ٢٨٠ .

(٢) ألدوميلى ص ٩٦ .

(٣) راجع فيه الفهرست ص ٤٢٧ والقفطى ص ١٠٢ وابن أبى أصيبعة ص ٢٠١ وفى القفطى أنه كان يلبس الجبة المثقلة بالوشى قيمتها ألف دينار .

(٤) انظر فى سابور الفهرست ص ٤٢٧ والقفطى ص ٢٠٧ وابن أبى أصيبعة ص ٢٣٠ وألدوميلى ص ١٧٠ ، ١٧٢ .

ومن كبار الأطباء فى العصر سنان[1] بن ثابت بن قرة الذى أسلم على يد الخليفة القاهر بالله ، وقد عاش حتى سنة ٣٣١ وتقلد مارستانات بغداد الخمسة سنة ٣٠٤ وبنى فى سنة ٣٠٦ مارستانين كبيرين ، أحدهما للخليفة المقتدر وكانت نفقته مائتى دينار فى كل شهر والثانى لأمه وكانت النفقة عليه شهريًّا ستمائة دينار وأقام للوزير ابن الفرات مارستانًا ثالثًا ببغداد سنة ٣١١ كانت النفقة عليه شهريًّا ، مائتى دينار ، وبنى لبجكم حاكم بغداد سنة ٣٢٩ مارستانًا رابعًا ببغداد على الشاطئ الغربى لدجلة وزوّده بالأطباء والأدوات المختلفة . ومن طريف ما يُرْوَى أن نجد حامد بن العباس أحد وزراء الخليفة المقتدر يأمره أن يفرد أطباء للمسجونين يزورونهم يوميًّا ومعهم الأدوية والأشربة ، وظل ذلك تقليداً مرعيا حتى نهاية العصر ، ونراه يأمره أيضًا بإرسال متطببين إلى الفلاحين فى سواد العراق بحوض دجلة والفرات يطوفون به ويقيمون فى كل جانب منه المدة التى تدعو إليها الحاجة ، ومعهم خزانة الأدوية والأشربة . ويبدو أن المتطببين كثروا فى العصر ، حتى ليذكر ابن أبى أصيبعة أن عددهم فى جانبى بغداد وحدها بلغ فى سنة ٣١٩ ثمانمائة رجل ونيفًا وستين سوى من كان فى خدمة السلطان .

وطبيب المسلمين غير مدافع فى العصر ، كما يقول القفطى ، هو أبو بكر محمد[2] بن زكريا الرازى المتوفى حوالى سنة ٣٢٠ وُلد كما يتبين من اسمه بالرى ، وسبق أن عرضنا له فى حديثنا عن الزندقة وألممنا بكتابه « مخاريق الأنبياء » وقد بدأ حياته بدراسة العلوم الرياضية ، ثم اشتغل بالكيمياء والطب ، وعمل فى بيمارستان موطنه وبيمارستانات بغداد وتنقل فى مدن إيران وخراسان ، وألف باسم كثيرين من الأمراء وذوى الجاه طائفة من كتبه المهمة ، وتُرْجم إلى اللاتينية كثير من كتبه الطبية وظل حجة الطب غير مدافع حتى القرن السابع عشر ، وما زال المستشرقون يُعْنَوْن به وبآثاره حتى اليوم وقد نُشر فى باريس سنة ١٩٣٣

---

(١) راجع سنان بن ثابت فى الفهرست ص ٣٩٤ ، ٤٣٥ والقفطى ص ١٩٠ وابن أبى أصيبعة ص ٣٠٠ والنجوم الزاهرة ٣/ ١٩٣ ، ٢٧٩ .

(٢) انظر فى ترجمته المراجع المذكورة فى حديثنا عنه بين الزنادقة فى الفصل السابق ، وراجع دى بورص ١٤٧ وألدومييل ص ١٧١ — ١٧٨ .

فهرس كتبه الذى ذكره البيرونى ومنه تبين أنه خلَّف فى الطب ٥٦ كتابًا وفى الطبيعيات ٣٣ وفى الفلسفة ١٧ وفى الرياضيات ١٠ وفى الميتافيزيقا ٦ وفى المنطق ٨ وفى علم الكلام ١٤ وفى الكيمياء ٢٣ وأكبر كتبه فى الطب كتابه الحاوى ، وهو دائرة معارف طبية ضخمة ، وقد ترجمت منه أجزاء إلى اللاتينية ، واستخرج منه ماكس ما يرهوف ٣٣ ملاحظة إكلينيكية لها خطرها . ويلى هذا الكتاب الطبى فى الأهمية كتابه المنصورى الذى أهداه إلى الأمير السامانى بخراسان المنصور بن إسحق ، وهو كتاب نفيس ، تُرجم إلى اللاتينية مراراً فى العصور الوسطى وعصر النهضة . وتُرجم له أيضًا إلى اللاتينية مراراً كتابه فى الجُدَرى والحصبة ، وهو بحث طبى رائع فى الوبائيات ، وله ترجمات حديثة إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية . ولم يُعْنَ بالطب الجسمى وحده فقد عنى أيضًا بالطب النفسى ، إذ ألف كتابًا فى الطب الروحانى نشرته جامعة القاهرة ، وهو فيه يُكْبِر من شأن العقل عارضًا النقائص الخلقية التى تسبب الأمراض والعلل النفسية مبينًا أن المصاب بها إذا حكَّم معياره العقلى موازنًا بين نفعه وضرره تخلص من تلك العلل والأمراض وفارقته إلى غير مآب . وكان ينصح الأطباء أن يوهموا مرضاهم أنهم أصحاء وإن لم يثقوا بذلك لأن مزاج الجسم فى رأيه تابع لأخلاق النفس . وكان يهتم بالكيمياء معلنًا أن الفيلسوف لا يكون فيلسوفًا حقًّا إلا إذا تعلم صناعة الكيمياء ومهر فيها ، وله فيها كتب مختلفة كما قدمنا . وكان يؤمن بخمسة مبادئ قديمة تأثر فيها بفلاسفة اليونان مثل إنباذوقليس وأنكساجوراس وهى : الله تعالى والنفس الكلية والهيولى الأولى والمكان المطلق والزمان المطلق ، وكان يؤمن بقدم هذه المبادئ وأنه لا بد منها لوجود العالم .

وكان طبيعيًّا وقد نُقلت الفلسفة اليونانية إلى العربية أن تصبح للعرب بدورهم فلسفة ذات طوابع مستقلة ، ومر بنا أن ما تُرجم إليهم من تلك الفلسفة صُبغ بالصبغة الأفلاطونية الجديدة عن طريق تأثر السريان بها ، وكان ذلك سببًا فى أن تشوب فلسفتهم تلك النزعة . ولعل أول فيلسوف عربى بالمعنى الدقيق لكلمة فيلسوف نلتقى به فى هذا العصر هو الكندى[1] يعقوب بن إسحق ، وهو عربى أصيل من

(١) انظر فى الكندى الفهرست ص ٣٧١ والقفطى ص ٣٦٦ وابن أبى أصيبعة ص ٢٨٥ ودائرة المعارف الإسلامية وبحثاً للشيخ مصطفى عبد الرازق فى مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة لعام=

قبيلة كندة ، ولذلك لُقب فيلسوف العرب ، نشأ بالبصرة ثم تركها إلى بغداد ويبدو أنه أكبَّ فى نشأته على الاعتزال ، ولعل ذلك ماجعل نجمه يأفل فيما بعد حين أفل نجم المعتزلة لعهد المتوكل. ولا تُعْرَفُ سنة وفاته ويبدو أنه عاش حتى أواخر العقد السادس من القرن الثالث. وله كتب ورسائل تعد بالعشرات بل بالمئات ، وهى تبلغ عند ابن النديم نحو مائتين وأربعين وعند القفطى نحو ما ئتين وثلاثين وعند ابن أبى أصيبعة نحومائتين وثمانين ،وتتناول العلوم الرياضية والهندسية والفلكية والجغرافية والطبيعية والمنطق والأخلاق والسياسة والكلام والجدل والطب . وقد تُرجم كثير منها إلى اللاتينية وأثَّر فى شعوبها تأثيراً عميقًا ، ويقول ألدومييلى إن كتابه فى الهندسة أثَّر تأثيراً ملحوظًا فى روجر بيكون. وقد يفهم من بعض ما كتبه ابن أبى أصيبعة وغيره عنه أنه كان يترجم عن اليونانية والسريانية ويرى الباحثون أنه لم يكن يعرفهما ، إنما كان يُصْلح ويصحح بعض ما تُرجم عنهما ، وله تهذيباتٌ لكثير مما تُرجم ، وله أيضًا شروح وتعليقات. ويذكر ابن النديم وغيره أن له كتبًا فى التوحيد والعدل والاستطاعة أو حرية الإرادة ، مما قد يدل على اتجاهه الاعتزالى ، ومما يدل بقوة على هذا الاتجاه عنده إشادته بالعقل . وهو فيلسوف إسلامى بالمعنى الدقيق ، إذ له رسائل فى إثبات النبوة والدفاع عنها دفاعًا قويًّا ، وكان يذهب إلى أن العالم محدث مخالفًا بذلك أرسطو فى زعمه أنه قديم ، وذهب إلى أن النفس بسيطة وأنها من نور الله ، وعنها صدر عالم الأفلاك ، والنفس الإنسانية تفيض عن هذه النفس الكلية ، وهى تتصل بالجسد ، ولكنها تظل فى جوهرها مستقلة عنه ، حتى إذا فارقته التذت لذة كبيرة ، وقال إن الكواكب لا تؤثر فيها ، لأنها إنما تؤثر فى الأمور الطبيعية . وله بحوث فلسفية فى الرياضة ، ولكنها دون بحوثه الطبيعية وفيما وراء الطبيعة . وربما كانت أهم نظرية فلسفية له طبع بها الفلسفة الإسلامية هى نظريته فى أن العقل مصدر المعارف وتقسيمه له إلى عقل فاعل هو الله ، وعقل

= ١٩٣٣ ودى بورص ١٧٦ وألدومييلى ص ١٤٩ ، ١٥٣ ومقدمة الدكتور محمد عبد الهادى أبى ريدة لرسائل الكندى الفلسفية) طبع مطبعة الاعتماد بالقاهرة ، وكذلك مقدمة الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى لمجموعة أخرى من رسائله ، وكتاب دور العرب فى تكوين الفكر الأوربى لعبد الرحمن بدوى (طبع دار الآداب بيروت) .

بالقوة يكمن فى داخل الإنسان ، وعقل بالملكة هو العقل المنفعل بعد حصول المعقولات فيه ، وعقل مبين يؤدى للغير معقولاته . ومما قرره أن الحواس تُدْرِك الجزئيات والصور المادية فى حين أن العقل يُدْرِك الكليّات وما يتصل بها من الأنواع والأجناس . وذهب إلى تناهى الجسم والزمان والحركة من جهة الفعل لا من جهة القوة ، وهاجم الكيمياء هجومًا عنيفًا ، وأكبر الظن أنه إنما كان يقصد ضربًا خاصًّا من الكيمياء شاع فى عصره ، هو المتصل بالسحر والخرافة وكشف الأسرار .

وإذا كان العصر قد افتُتِح بفيلسوف هو الكندى فإنه اختُتِم أيضًا بفيلسوف له مكانة كبيرة فى الفلسفة الإسلامية هو الفارابى [١] أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان المتوفى سنة ٣٣٩ ويقال إنه من أصل فارسى ، وُلد فى فاراب من بلاد الترك فيما وراء النهر . ويبدو أنه تلقن فى نشأته ما كان فى خراسان من علوم الأوائل وسرعان ما مضى يطلبها فى بغداد ، وأكبَّ على الرياضيات والطبيعيات والإلهيات واستوعب ذلك كله استيعابًا منقطع القرين ، وسرعان ما أخذ يوفق بينه وبين الدين الحنيف من جهة وبينه وبين العقل الذى أكبره الكندى من جهة أخرى ، واستطاع أن ينفذ من خلال ذلك إلى تشكيل الفلسفة الإسلامية فى صورتها المبكرة ، بحيث عُدَّ فيلسوف المسلمين غير مدافع . ولعل أول ما يلاحظ على فلسفته أنها تعنى بالإلهيات ، فهو لا يعنى بالطبيعيات ، وهو يرغب عن فيثاغورس وأضرابه من الرياضيين . ويتضح إكباره العقل فى اهتمامه بالمنطق وما يؤدى إليه من استنباطات كلية مما جعله يُعْنَى بشرح كتبه عند أرسطو وتفصيل مسائله من تصور وتصديق وقضايا وبراهين وأقيسة ومراتب ظنّ متفاوتة ، ويتعمق فى بحث الكليات . وفى كل جانب من فلسفته الإلهية يتضح فكره العقلى المنطقى ، من ذلك ذهابه إلى أن كل موجود إما واجب الوجود وإما ممكن ، وبذلك جعل أول صفة لله هى أنه

---

(١) راجع فى الفارابى الفهرست ص ٣٨٢ والقفطى ص ٢٧٧ وابن أبى أصيبعة ص ٦٠٣ ودائرة المعارف الإسلامية وبحثاً للمرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق فى الجزء السابع من مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ودى بورص ١٩٢ ومقدمة ديتريصى لرسائله (طبعة ليدن) ، وانظر مجموعة أخرى طبعت فى حيدر آباد وظهر الإسلام لأحمد أمين (الطبعة الأولى) ٢ : ١٣١ .

الموجود الواجب الوجود فى حين أن كل ما عداه ممكن الوجود أو بعبارة أخرى حادث فهو القديم وحده . وصلة هذه الفكرة بالدين الحنيف واضحة ، وهو عنده الموجود الأول الفرد بالذات ولا جنس له ولا تركيب فيه ولا يمكن حدّه ، إذ هو لا يتحيز فى مكان ، وهو أكمل الموجودات ويجب أن تكون معرفتنا به أكمل معرفة . وإذا كانت معرفتنا بالرياضيات أكمل من معرفتنا بالطبيعيات للتعميم السارى فى قضاياها وجب أن تكون معرفتنا به فوق معرفتنا بالرياضيات والطبيعيات جميعًا . ويقبس من الفلسفة قبسًا يمزجه بقبس آخر من التصوف لعصره ، فإذا هو يذهب إلى أن الله يفيض عنه منذ الأزل مثاله وهو العقل الأول الذى يحرّك الفلك الأكبر ، وتلى هذا العقل عقول الأفلاك الثمانية ، وهى التى تصدر عنها الأجرام السماوية ، والعقول التسعة مجتمعة هى ملائكة السماء ومرتبتهم فى الوجود مرتبة ثانية ، وفى المرتبة الثالثة العقل الفعّال فى الإنسان وهو روح القدس الذى يصل العالم العلوى بالعالم السفلى . وفى المرتبة الرابعة النفس الكلية ، ومنها [illegible] أفراد الإنسان . وفى المرتبة الخامسة الصورة . وفى السادسة المادة . والمراتب الثلاث الأولى : الله وعقول الأفلاك والعقل الفعال ليست أجسامًا ، أما المراتب الأخرى فتلابس الأجسام . وواضحٌ الأثرُ الإسلامى فى هذا التفلسف ، فقد ذُكر الله وهو العلة الأولى عند الفلاسفة وذكرت الملائكة وروح القدس مع محاولة وضع تفسير جديد لهما . وكان يذهب إلى أن النفس كمال الجسم ، أما كمال النفس فهو العقل . وبحث فى السعادة مبحثًا تأثر فيه أيضًا بالتصوف تحدث فيه عن شروطها ودرجاتها ، وصرّح فى قوة بأن اللذات العقلية والروحية تفوق اللذات المادية الجسمية ، وأن السعادة لا تُطْلَبُ لغاية وراءها وإنما تُطْلَبُ لذاتها ، وأداتها فى رأيه الأفعال والأخلاق الجميلة ، وهى لا تُدْرَكُ إلا إذا تحررت النفس الناطقة من أغلال المادة والشهوات . ويصرّح فى كتابه آراء أهل المدينة الفاضلة بأن الحاكم ينبغى أن يكون متحليًا بكل الفضائل الإسلامية والفلسفية متجنبًا اللذات الجسمية ، إذ فيه تتمثل المدينة بخيرها وشرها ، فإذا كان خيراً فاضلاً كانت المدينة فاضلة ، وإذا كان شرّيراً فاسقًا انهارت المدنية وفسد الحكم فيها فساداً شديداً . وهو يذكر النبوة كثيراً ، وهى عنده أعلى مرتبة يبلغها الإنسان فى العلم والعمل ، وهو يضعها — كى يوضحها — فى مرتبة وسطى بين الإدراك الحسى

والمعرفة العقلية الخالصة . ونحن إنما لمسنا السطح فقط لنصور فلسفة الفارابى ، وهى فلسفة إسلامية عقلية استمدّت من روحانية الإسلام ومن نظريات العقل ومن أفكار الفلاسفة وخاصة أرسطو وأفلاطون مازجة بين هذه العناصر جميعًا ، مستخلصة منها فلسفتنا الإسلامية الوسيطة وأصولها السديدة .

٣

علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد والتاريخ

رأينا فى كتاب العصر العباسى الأول مدى التنافس الذى نشب بين علماء البصرة والكوفة فى جمع اللغة وكيف كانوا يرحلون إلى نجد والبوادى ومعهم قوارير المداد وأحمال الصحف ليدّونوا كلمات اللغة من ينابيعها الأصلية. وقدمضى كثيرون من علماء البلدتين وتلاميذهما ببغداد فى هذا العصر يخرجون إلى البادية ونجد لمشافهة الأعراب والسماع منهم لما يجرى على ألسنتهم من أقوال وأشعار وأضافوا إلى ذلك ما سمعوه من أساتذتهم الأصمعى والمفضل الضبى وأبى زيد وأضرابهم . وأخذ تلاميذهم يحملون عنهم رواياتهم ، وسرعان ما تكوّن فى هذا العصر السند ، إذ يقول العالم اللغوى مثل الأشناندى أبى عثمان سعيد بن هرون المتوفى سنة ٢٨٨ : عن التوّزى أبى محمد عبد الله بن محمد بن هرون المتوفى سنة ٢٣٣ عن أبى نصر أحمد ابن حاتم الباهلى عن الأصمعى . ومعروف أن علم الأصمعى حمله مع أحمد بن حاتم جماعة منهم الأثرم أبو الحسن على بن المغيرة المتوفى سنة ٢٣١ والزيادى أبو إسحق إبراهيم بن سفيان المتوفى سنة ٢٤٩ والرياشى العباس بن الفرج المتوفى سنة ٢٥٧. وكل أولئك وأضرابهم من رواة اللغويين القدماء كانوا يعتمدون قبل كل شىء على الإملاء ، وكان تلاميذهم يحرصون عليه مخافة دخول غلط عليهم فى قراءة النصوص. ومع ذلك كان منهم من يأخذ أحيانًا عن الكتب ، وكانوا يميزونه من سواه ، خشية أن يكون قد صحّف فيما قرأ ، واتسع التصحيف حتى ألف فيه العلماء كتبا مفردة . وجعلهم الاهتمام بالسند يتأثرون برجال الحديث فى تجريح الرواة وتعديلهم ، وكان علماء البصرة فى ذلك أشد تحرجًا من علماء الكوفة وبغداد ، وبالمثل تأثروا بهم فى تلقيب بعض الروايات بألقاب الجودة والضعف، ويُؤْثَرُ عن ابن الأنبارى

الكوفي المتوفى سنة ٣٢٨ قوله : « الكلمات قسمان : كلمات متواترة وآحاد ، فأما المتواترة فلغة القرآن وما تواتر من السنّة وكلام العرب ، وهذا قطعي يفيد العلم ، وأما الآحاد فما تفرّد بنقله بعض أهل اللغة ولم يوجد فيه شرط التواتر[1] » . وكانوا يجمعون فيما يُمْلونه أشتاتاً من بعض أقوال العرب وأشعارهم وأقاصيصهم ، ومما يصور ذلك مجالس ثعلب الكوفي المتوفى سنة ٢٩١ . وأحياناً كانوا يؤلفون الكتاب في أقوال وأشعار وأمثال حينما اتفق مثل مجالس ثعلب ، وأحياناً يجمعون كلمات في موضوع واحد مثل كتاب المذكر والمؤنث ليعقوب بن السكيت الكوفي المتوفى سنة ٢٤٣ وكتاب النخل وكتاب الطير لأبي حاتم سهل بن محمد بن عثمان السجستاني البصري المتوفى سنة ٢٥٠ . وكان طبيعياً أن تظهر حينئذ معاجم تحصي كلمات اللغة إحصاء دقيقاً دالة على معانيها ، ولم يلبث أن تداول الورّاقون معجم العين المنسوب إلى الخليل حتى إذا كان ابن دريد محمد بن الحسن البصري المتوفى سنة ٣٢١ وجدناه يؤلف معجمه اللغوي الكبير : الجمهرة في اللغة ، وعلى الرغم من نقد القدماء له وقول نفطويه الكوفي معاصره المتوفى سنة ٣٢٨ إنه ليس أكثر من تحريف لمعجم العين للخليل يعدّ عملا باهراً . ودفعتهم فكرة تعليم اللغة للناشئة إلى أن يجمعوا كثيراً من الألفاظ والعبارات الغريبة في طائفة من الموضوعات والمعاني ويؤلفوا فيها كتاباً مثل كتاب الألفاظ لابن السكيت ، وهو يحتوي كثيراً من أبيات الرجز المسرفة في الغرابة ومن الألفاظ المهجورة ، وهو جانب يميز اللغويين الكوفيين إذ كانوا يكثرون من رواية الغريب المهجور في مصنفاتهم . وعُنوا في هذا العصر أشد العناية بجمع دواوين الشعر القديم جَمْعاً علمياً ، عماده التوثق والتحقيق ، وهو عمل يُعَدّ متمماً لما نهض به في العصر الماضي المفضل الضبي والأصمعي وابن الأعرابي ، وكانوا يضيفون إلى الدواوين غالباً شروحاً للتوضيح ، ويشتهر في هذا المجال محمد بن حبيب البصري وثعلب الكوفي والسكري أبو سعيد الحسن بن الحسين البصري تلميذ الرياشي وأصغر تلاميذ الأصمعي المتوفى سنة ٢٧٥ وكان شديد الطموح ، فلم يكتف بجمع دواوين طائفة كبيرة من الشعراء ، بل مضى يجمع دواوين القبائل ، ويقال إنه جمع منها نيفاً وثمانين ، لم يُبْقِ الزمن منها إلا قطعاً من ديوان هذيل

---

(١) المزهر (طبعة الحلبي) ١ / ١١٤ .

نُشرت فى خمس مجموعات أربع منها فى أوربا وواحدة طُبعت فى دار الكتب المصرية ، ودائمًا نراه يذكر ما اختلف فيه أئمة البصريين والكوفيين فى رواية أبيات وألفاظها المختلفة . وصنفوا كثيراً من المختارات الشعرية . وكان مما صنفوه فى العصر الماضى المعلقات والمفضليات والأصمعيات . أما فى هذا العصر فمن أهم ما صنفوه من كتب الاختيارات جمهرة أشعار العرب لأبى زيد محمد بن أبى الخطاب القرشى ، ولا تُعْلَمُ سنة وفاته بالضبط ، ولكن الوسائط فى مقدمته لكتابه بينه وبين علماء القرن الثانى جيلان أو ثلاثة مما يؤكد أنه عاش فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، ومختاراته تضم تسعًا وأربعين قصيدة موزعة على سبعة أقسام ، فى كل قسم سبع قصائد ، والقسم الأول خاص بالمعلقات . وتغلب القصائد الجاهلية على المجموعة ، وتمتاز بالقصائد الطويلة . ويُعَنَى ابن الأنبارى بشرح مفصل على المفضليات يسوق فيه الفروق بين الروايتين البصرية والكوفية لأبيات هذه المجموعة الكبيرة . وعُنِى حينئذ شاعران بعمل ديوانين للحماسة هما أبو تمام والبحترى ، وكأن اللغويين جعلوا فكرة الاختيار من الشعر القديم والحديث تعمّ فى جميع البيئات . وظهرت عندهم بقوة فكرة عمل مختارات من الشعر والنثر تُقَرّبهما من أفهام الشباب والناشئين عامة ، فصنع المبرد كتابه « الكامل » وبه مختارات كثيرة ذلّلها ويسّرها لشُداة الأدب واللغة . وكأنما أحسّ الجاحظ وابن قتيبة ، كما مر بنا ، أن غاية اللغويين من هذا التيسير والتذليل لا تزال أبعد من أن يحققوها ؛ لأن فكرة التعليم اللغوى من أجل اللغة قبل كل شىء لا تزال غالبة عليهم ، فألف الجاحظ البيان والتبيين ليدخل على هذه الفكرة الأفكار الجمالية والبلاغية ، وألف ابن قتيبة كتابه عيون الأخبار ليدخل بدوره عليها الأفكار الفارسية واليونانية ، مازجًا بينها مزجًا يثير رغبة الناشئة والشباب فى قراءته ، وألف بجانبه مصنفه « أدب الكاتب » ليضرم فى قلوبهم الحمية للفصحى وتنقية اللغة مما لابسها أو يكاد يلابسها من الشوائب الأعجمية والعامية . وأُلِّفت فى العصر كتب كثيرة[1] تصوّر ما يلحن فيه العامة ، منها ما هو لأحمد بن حاتم الذى مر ذكره أو لأبى حاتم السجستانى أو للمازنى أبى عثمان بكر بن محمد البصرى المتوفى سنة ٢٤٩ أو للمفضل بن سلمة

(١) انظر كتاب الفهرست ص ٨٩ ، ٩١ ، ٩٣ ، ١١٥ .

الكوفى المتوفى سنة ٢٩٠ ونيف بقصد جذب الشباب والمتأدبين إلى دوائر الفصحى. وللغاية نفسها ألف ثعلب كتابه « الفصيح » جامعًا فيه كثيراً من الصياغات الفصيحة الناصعة ، كما ألف عبد الرحمن بن عيسى الهمذانى المتوفى سنة ٣٢٧[١] مصنَّفه « الألفاظ الكتابية » وهى عقود نظم فيها درراً من الصياغات البليغة الزاخرة بحيوية دافقة : وعلى غرارها ما جمعه قدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣٣٧ فى كتابه « جواهر الألفاظ » وبذلك بثّ اللغويون فى نفوس كثيرين مشاركتهم فى تحبيب العربية للناشئة والشباب المتأدبين بوسائل كثيرة . ومنها وسيلة لم نتحدث حتّى الآن عنها ، ونقصد ما حاوله بعض اللغويين من اتخاذ بعض القصص وسيلة تعليمية ، إذ كانوا يقصون بعض حكايات عن الأعراب ، مدمجين فيها بعض ألفاظ غريبة كى يسهل على الناشئة حفظها ، وممن اشتهر باتخاذ هذه الوسيلة التعليمية ابن دريد إذ ألف أربعين أقصوصة قصيرة — كان يسمى كلا منها حديثًا —[٢] لغرض التعليم اللغوى وتبسيطه وتيسيره ، وبذلك أوحى لبديع الزمان أن يؤلف فيما بعد مقاماته مبتغيًا بها الوجهة التعليمية نفسها .

ومن يرجع إلى كتابنا «المدارس النحوية» يطلع فى وضوح على نشاط النحاة فى العصر ، فقد كانت المدرستان البصرية والكوفية قائمتين ، وأخذت المدرسة البغدادية طريقها إلى الظهور بأخرة من العصر . وإلى المدرسة البصرية يرجع الفضل فى إقامة صرح النحو العربى بكل ما يتصل به من قواعد ، لا فى هذا العصر بل فى العصر السابق له ، وخاصة منذ الخليل بن أحمد ، فهو الذى صاغه فى صورته العامة المعروفة بأبوابه وعوامله ومعمولاته وكل ما سند بناءه من سماع وتعليل وقياس قويم . وأتمّ سيبويه صنيعه فى مصنفه « الكتاب » الذى عدّه النحاة آية كبرى لا سابقة لها ولا لاحقة . وخلفه الأخفش الأوسط ، ففسح للغات والقراءات الشاذة محتجًّا لها ومدافعًا دفاعًا سديداً . وفى هذه الأثناء استطاع الكسائى وتلميذه الفرّاء أن يشيدا فى الكوفة مدرسة نحوية ، تعتمد على صورة النحو البصرى العامة وتستقل بطوابع تميزها ، من حيث بسط القياس وقبضه ومن حيث الاتساع فى الرواية ومن

---

(١) راجع مقدمة الألفاظ الكتابية (طبعة بيروت سنة ١٨٨٥) .

(٢) زهر الآداب للحصرى ١ / ٣٠٧

حيث وضع بعض المصطلحات الجديدة ، ومن حيث تلقيب بعض العوامل والمعمولات ، وعُنى الفرّاء خاصة بإنكار بعض القراءات الشاذة .

وعلى هذه الشاكلة لا ينتهى العصر العباسى الأول ،حتى تكون المدرستان البصرية والكوفية تميّزتا تميزاً تاماً ، وكان أهم الأئمة البصريين فى هذا العصر المازنى والمبرد ، أما المازنى فهو بكر[1] بن محمد الملقب بأبى عثمان المتوفّى كما مر آنفاً سنة ٢٤٩ وهو تلميذ الأخفش الأوسط ، وكان لَسِناً قوى الحجة ، وله مناظرات مأثورة مع ابن السكيت وغيره من الكوفيين أفحمهم فيها بأدلته القاطعة ، وعاش يدرس لطلابه وتلاميذه كتاب سيبويه ، وله حوله تعليقات وشروح عدة ، منها تفاسير كتاب سيبويه والديباج فى جوامعه ، وصنف فى علل النحو كتاباً ، وعُنى بالتصريف عناية واسعة جعلته يخصه بكتاب التصريف ، ولابن جنى عليه شرح مبسوط سماه « المنصف » . وفى كتاب « المدارس النحوية » طائفة من آرائه فى النحو احتفظ بها النحاة فى مصنفاتهم ، وهو أول من أعطى علم التصريف صيغته النهائية فى كتابه السالف ذكره ،ويقول فى مطالعه بعد ذكره أمثلة الأسماء والأفعال المجردة والمزيدة : « إنما كتبت لك فى صدر هذا الكتاب هذه الأمثلة (الأبنية) لتعلم كيف مذاهب العرب فيما بنت من الأسماء والأفعال ، فإذا سُئلت عن مسألة فانظر هل بنت العرب على مثالها ، فإن كانت بَنَتْ فابْنِ مثل ما بنتْ . . . وسأصنع لك من كل شىء من هذا الباب رسمًا تقيس عليه ما كان مثله[2]» . وهو يُعَدّ أول من فتح بقوة باب التمارين غير العملية فى الصرف ، إذ نراه يبنى من ضرب على مثال جعفر أو على مثال سفرجل وما إلى ذلك من أبنية غير مستعملة فى اللغة[3] . وكان يتشدد فى الأخذ بالقياس ، مما جعله يردّ — على هدى الفرّاء — بعض القراءات التى تشذ على قواعد النحو ومقاييسه[4] . وأنبه تلاميذه المبرد محمد[5] ابن يزيد الأزدى إمام نحاة البصرة لزمنه المتوفى سنة ٢٨٥ وهو آخر أئمتهم المهمين ،

---

(١) انظر فى ترجمة المازنى تاريخ بغداد ٧ / ٩٣ ، وإنباه الرواة ١ / ٢٤٦ ومعجم الأدباء ٧ / ١٠٧ .

(٢) راجع المنصف على التصريف ١ / ٩٥ .

(٣) انظر المنصف ١ / ١٧٣ وما بعدها .

(٤) المدارس النحوية (طبع دار المعارف) ص ١١٩ .

(٥) راجع فى ترجمة المبرد تاريخ بغداد ٣ / ٣٨٠ وإنباه الرواة ٣ / ٢٤١ ومعجم الأدباء ١٩ / ١١١ .

وفيه يقول ابن جنى : «كان يُعَدُّ جيلا فى العلم ، وإليه أفضت مقالات أصحابنا (البصريين) وهو الذى نقلها وحرَّرها وأجرى الفروع والعلل والمقاييس عليها(١)» وكان يشرح لتلاميذه كتاب سيبويه وكتب الأخفش والمازنى وله مصنفات كثيرة ، منها كتاب الكامل فى اللغة والأدب الذى أشرنا إليه فيما أسلفنا من حديث وكتاب المقتضب فى النحو المطبوع فى القاهرة بتحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، وهو كتاب نفيس ، وطُبع له كتابه « الفاضل » ونسب عدنان وقحطان ، وسقطت من يد الزمن مصنفات له كثيرة . وأهميته فى تاريخ النحو البصرى إنما ترجع — كما لاحظ ابن جنى — إلى أنه حرَّر مسائل النحو البصرى وقواعده ، وإلى أنه اشتق من أصوله فروعاً كثيرة ، وإلى أنه بسط فيه كثيراً من العلل والمقاييس التى لم يُسْبَقْ إليها ، وقد نفذ إلى كثير من التعريفات والآراء المبتكرة فى العوامل المحذوفة والمضمرة والملفوظة ، وبالمثل فى المعمولات ومواقعها فى الإعراب ، واستكثر من العلل كثرة مفرطة ، فكل رأى لا بد له من علة أو علل تسنده ، كما استكثر من القياس ، مع اعتداده بالسماع عن العرب ومع حس أدبى دقيق فى التذوق اللغوى . وله تلاميذ كثيرون ، لعل أهمهم الزجاج إبراهيم بن السرىّ المتوفى سنة ٣١٠ وهو امتداد له فى عنايته بكتاب سيبويه وفى تصنيفه لبعض الكتب النحوية وفى محاولته النفوذ إلى بعض الآراء المبتكرة مع العناية بالتعليل والقياس . ومن تلاميذه المهمين ابن السراج أبو بكر محمد بن السرىّ المتوفى سنة ٣١٦ وقد عكف على المنطق حتى أتقنه ، وعاش يقرأ لتلاميذه كتاب سيبويه وفى مقدمتهم السيرافى وأبو على الفارسى ، وله كتاب الأصول عُنى فيه عناية واسعة بعلل النحو ومقاييسه ، انتزعه من كتاب سيبويه ، وأثَرُ دراسته للمنطق واضحة فيه وفى تقاسيمه .

وإذا تركنا المدرسة البصرية إلى المدرسة الكوفية وجدنا لها إماماً مشهوراً فى هذا العصر هو ثعلب(٢) أبو العباس أحمد بن يحيى المتوفى سنة ٢٩١ وقد قرأ على شاكلة أستاذيه الكسائى والفراء كتاب سيبويه وكتب الأخفش ، وأضاف إلى ذلك زاداً كبيراً حصَّله من الشعر القديم ودواوينه ومن القراءات والحديث النبوى . وذكر

---

(١) سر صناعة الإعراب لابن جنى ١ / ١٣٠ .

(٢) انظر فى ثعلب تاريخ بغداد ٥ / ٢٠٤ وإنباه الرواة ١ / ١٣٨ ومعجم الأدباء ٥ / ١٠٢

مترجموه له مصنفات كثيرة فى النحو واللغة والقراءات والأمثال والمنتخبات الشعرية والنثرية ، وقد وصلنا منها « الفصيح » الذى عرض له فى غير هذا الموضع والذى ابتغى به تقويم ألسنة المبتدئين. وطُبع له كتابه « المجالس» وهو إملاءات لمختارات شعرية ونثرية تكتظ بالنحو والأشعار الغريبة والشاذة والقراءات والأمثال والأخبار والأقوال المنثورة . وصَنَعَ طائفة كبيرة من الدواوين القديمة. ومن يرجع إلى كتابه المجالس وما تناثر فى كتب النحاة له من آراء يجده يطبق تطبيقاً دقيقاً آراء أستاذه الفراء وأستاذيهما جميعاً الكسائى وكل ما أصَّلاه لمدرستهما الكوفية من أصول فى النحو ومن مصطلحات وألقاب جديدة وما كانا يأخذان به أنفسهما من التوسع فى الرواية عن العرب والاعتداد بالشواذ اللغوية . وله كتاب مطبوع يسمى قواعد الشعر ، وسنعرض له فى حديثنا عن البلاغة والنقد . وله — مثل المبرد منافسه — تلاميذ كثيرون ، لعل أهمهم أبو بكر محمد بن القاسم الأنبارى المتوفى — كما مر بنا— سنة ٣٢٨ ، وتضاف إليه مصنفات كثيرة فى غريب الحديث وعلوم القرآن وفى اللغة وكتابه الأضداد فيها مطبوع وأيضاً فى النحو . وعُنى مثل أستاذه بإخراج الدواوين الشعرية القديمة ، وسبق أن تحدثنا عن شرحه للمفضليات ، وهو ملىء بمعارفه الواسعة فى اللغة والأشعار والأخبار . وكان — فيما يظهر — مثقفاً ثقافة منطقية ، فدعم النحو الكوفى بكثير من العلل السديدة .

وتنشأ بأخرة من العصر المدرسة البغدادية متميزة بمنهجها القائم على الانتخاب من آراء المدرستين البصرية والكوفية مع النفوذ إلى كثير من الآراء المبتكرة ، وقد تداولها جيلان : جيل مبكر كانت تغلب عليه النزعة الكوفية من أمثال ابن كَيْسان ، وجيل تال كانت تغلب عليه النزعة البصرية من أمثال الزجاجى . ولكى تتضح المدرسة وهاتان النزعتان نقف قليلا عند ابن كيسان والزجاجى . أما ابن كيسان[1] فهو أبو الحسن محمد بن أحمد بن كيسان المتوفى سنة ٢٩٩ وهو تلميذ ثعلب والمبرد ، وأهَّله ذلك لكى ينتخب من آرائهما آراءه النحوية ، ولم يكتف بذلك فقد حاول النفوذ إلى بعض الآراء الجديدة ، وكان فى أول أمره كوفياً ، فعُنى ببسط

(١) انظر فى ابن كيسان تاريخ بغداد ١ / ٣٣٥ وإنباه الرواة ٣ / ٥٧ ومعجم الأدباء ١٣٧/١٧ .

العلل لآراء الأئمة الكوفيين ، تُسْعفه فى ذلك ثقافة منطقية عميقة ، وجعله ذلك يصطبغ بصبغة كوفية ، حتى بعد استقلاله عن تلك المدرسة ، وقد ألف فيها وفى المدرسة البصرية كتابه « اختلاف البصريين والكوفيين » وله وراءه كتب فى النحو والتصريف ، وكتاب مهم فى علل النحو قال القدماء إنه كان يقع فى ثلاثة مجلدات ، ولعله هو الذى عرض فيه احتجاجاته لآراء المدرسة الكوفية . ويعرض كتاب المدارس النحوية ما اختاره من آراء المدرسة البصرية وكذلك من آراء المدرسة الكوفية ، ثم ما نفذ إليه من آراء اجتهادية انفرد بها من دون غيره من أئمة المدرستين . وهو بذلك مثل دقيق من أمثلة المدرسة البغدادية التى كانت تمزج بين آراء المدرستين السالفتين وتحاول أن تتخذ لنفسها آراء جديدة فريدة . والزجاجى[١] هو أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحق المتوفى سنة ٣٣٧ تلميذ الزجاج البصرى ، وله مصنفات كثيرة ، طُبع منها كتاب الجمل وهو مختصر فى النحو كانت له شهرة مدوّية فى العصور الوسطى وشُرح شروحاً لا تكاد تحصى ، وطُبع أيضاً له أماليه الوسطى مع تعليقات للشنقيطى ، ومجالس العلماء وهى مناظرات بينهم فى مسائل لغوية ونحوية ، وكتاب الإيضاح فى علل النحو ، وقد عرض فيه علل النحو عند البصريين والكوفيين ملاحظاً أن ابن كيسان وأضرابه من الجيل البغدادى الأول هم الذين وضعوا للنحو الكوفى أكثر علله واحتجاجاته ، وقد يضيف من عنده وجوهاً من العلل ، يدعم بها العلل الكوفية والبصرية جميعاً . وهو بالمثل فى النحو ينتخب من آراء الطرفين ويضيف آراء جديدة ، وإذا كان ابن كيسان تتضح عنده نزعة كوفية فالزجاجى على العكس تتضح عنده نزعة بصرية ، إذ كثيرا ما يقف مع البصريين مناضلا مدافعاً ، وكأنه كان إرهاصاً لغلبة النزعة البصرية على النزعة الكوفية فى المدرسة البغدادية ، على نحو ما سيتضح فيما بعد عند أبى على الفارسى وابن جنى .

ونشطت فى العصر الأنظار البلاغية ، وفى كتابنا « البلاغة تطور وتاريخ » ما يصور مراحل نشأتها فى العصر العباسى الأول ونموها فى هذا العصر ، فقد مضى كثيرون من الكتّاب مثل ابن المقفع ومن الشعراء مثل بشار يبدون بعض

(١) انظر فى الزجاجى إنباه الرواة ٢ / ١٦٠ (طبعة الحلبى) ص ٣٠٦ . والأنساب للسمعانى الورقة ٢٧٢ ونزهة الألباء

ملاحظات بلاغية على ما يُكْسِبُ الكلام حسناً وجمالا حتى إذا ظهر مسلم بن الوليد اتخذ ما اكتشفه الأدباء من محسنات مذهباً وأطلق عليه لأول مرة اسم البديع ، وكان يشمل وجوه حُسْنٍ بيانية وبديعية ، وأخذ اللغويون من أمثال الأصمعى وأبى عبيدة فى هذه الأثناء يبدون بعض ملاحظات على وجوه الحسن فى الكلام ، وألف الأصمعى كتاباً فى التجنيس وسجل بعض ألوان هنا وهناك مثل الطباق والالتفات ، فى حين عُنى أبو عبيدة معاصره — وخاصة فى كتابه « مجاز القرآن — ببيان بعض الخصائص البلاغية مثل التقديم والتأخير والتشبيه والكناية والاستعارة . وأخذ المتكلمون — وخاصة المعتزلة — يعنون بالبحث فى وجوه البلاغة ، وجعلهم ذلك يحاولون التعرف على ما عند الأمم الأجنبية منها وأضافوا إليه كثيراً من ملاحظاتهم . ومضى اللغويون والأدباء طوال القرن الثالث للهجرة يحاولون التعرف على مواطن الجمال والبلاغة فى الكلام ، ونثر ابن قتيبة فى كتابه : « تأويل مشكل القرآن » ملاحظات متنوعة عن الخصائص البيانية والأسلوبية ، على حين ألم المبرد فى كتابه « الكامل » بالكناية والتشبيه ، وفصَّل القول فيهما تفصيلا جيداً ، وانسابت من ذلك كله مسارب إلى كتاب قواعد الشعر لثعلب . غير أن هذه الجهود كلها ليست شيئاً بالقياس إلى ما نثره الجاحظ المعتزلى المتكلم المتوفى سنة ٢٥٥ فى كتابيه « البيان والتبيين » و « الحيوان » وهو يتحدث طويلا عن فكرة مطابقة الكلام لمقتضى الحال التى شاعت فيما بعد عند البلاغيين ، ويتسع فى الحديث عن الإيجاز والإطناب ومواضعهما وعن أصوات الكلام وموسيقاه ومواقع الألفاظ ومواضعها التى لا تعدوها وعن السجع والازدواج والاقتباس ، وحلل الاستعارة بأقسامها المختلفة تحليلا بديعاً ، وألم بالتشبيه وبكثير من فنون البديع واستنبط فنًّا جديداً منها هو المذهب الكلامى . وبذلك كان يُعَدّ المؤسس الحقيقى لمباحث البلاغة العربية .

وأخذت تتضح منذ مطالع العصر بيئات [1] ثلاث تتناول كل منها البلاغة تناولا متميزاً ، وهى بيئة اللغويين المحافظين وبيئة المتفلسفين والمترجمين المجددين وبيئة المعتزلة المعتدلين ، أما البيئة الأولى فكانت تحاول بكل ما استطاعت

---

(١) انظر فى هذه البيئات كتاب البلاغة تطور وتاريخ (طبع دار المعارف) ص ٦٢ وما بعدها .

أن تفرض المثال العربى القديم ، فهو النموذج الذى يحسن أن يحاكى ، وكل ما سواه غثٌ سقيم، وأخذت تتجه إلى ملاحظات نحوية ولغوية مدرسية على نحو ما يتضح فى كتاب الموشح للمرزبانى . وأما البيئة الثانية بيئة المتفلسفة والمترجمين فكانت مجددة مسرفة فى التجديد،إذ رأت من الواجب أن تتخذ الفلسفة اليونانية ومعايير اليونان البلاغية أصولا فى تقويم البلاغة العربية ، مما جعل البيئة اللغوية تعلن النكير عليها وكان يقف معها أصحاب البلاغة العربية الخالصة وكانوا أكثر نفراً وأنصاراً لما قلناه فى غير هذا الموضع من أنه سادت فى العصر نزعة محافظة غلبت فيه على كل شيء وكان طبيعيا أن تغلب على الذوق الأدبى العام . وكان المتكلمون — وفى مقدمتهم المعتزلة — يقفون موقفاً معتدلا بين الطرفين المتعارضين ، إذ يقرءون ما لدى الأجانب من مقاييس بلاغية ويقرنونه إلى أنظار العرب فى البلاغة ، بل إنهم يُخْضعونه للذوق العربى الأصيل ومقاييسه على نحو ما يتضح عند الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين ، وبذلك التحموا بالبيئة اللغوية المحافظة . وكان حريا بالمتفلسفين ورفقائهم من المترجمين أن يثوبوا إلى رشدهم وينضموا إلى المتكلمين فى موقفهم السديد ، ولكن المسألة لم تكن مسألة عقلية أو منطقية يُحتَكَمُ فيها إلى المنطق والعقل ، بل كانت مسألة شعوبية ، فهى التى أمدَّتهم فى هذا الموقف بوقود جزل من الخصام والجدال والحجاج ، وكانوا لا يزالون يدَّعون أن كل ما شُغف به الشعراء لهذا العصر من محسنات بيانية وبديعية إنما مرده إلى البلاغة اليونانية ، ولذلك تصدى لهم ابن المعتز فى كتابه « البديع » يُثْبت أن فنونه التى يلهجون بها فنون عربية خالصة، إذ تتعمق فى القدم حتى العصر الجاهلى ،وكل ما للمحدثين من أمثال بشار وأبى تمام إنما هو الإكثار منها ، وهو إكثار جعلهم — كما يقول — يحسنون فيها تارة ، وتارة يسيئون إساءة شديدة . ومضى فى الكتاب يدرس فنونه الأساسية ، وهى عنده خمسة ، الاستعارة والتجنيس والطباق ورد الأعجاز على ما تقدمها والمذهب الكلامى ، وإنما خص هذه الفنون بالدراسة لأنها كانت موضع الأخذ والرد بين أصحاب الفلسفة وأصحاب البلاغة العربية الخالصة . على أنه لم يلبث أن ضم إليها ثلاثة عشر فنا بَسَطَها بَسْطاً ، وهى الالتفات والاعتراض والرجوع والخروج من معنى إلى معنى وتأكيد المدح بما يشبه الذم وتجاهل العارف والهزل يراد به الجد وحسن التضمين والتعريض

والكناية والإفراط فى الصفة أو المبالغة وإعنات الشاعر نفسه فى القوافى أو ما سُمى فيما بعد باسم لزوم ما لا يلزم وحسن الابتداءات. ويمكن أن نضم إلى هذا المبحث المفصل فى البديع وفنونه مبحثًا لابن طباطبا المتوفى سنة ٣٢٢ فى كتابه « عيار الشعر » جعل موضوعه التشبيه ، مفصلا القول فى أنواعه تفصيلا دقيقًا .

ولم تقف البيئة الفلسفية مكتوفة الأيدى أمام ابن المعتز وكتابه البديع ، فقد تجرَّد منهم كثيرون لنقل كتابى الشعر والخطابة لأرسطو ، واشتهر نَقْلُ مَتَّى بن يونس لأولهما ونَقْل إسحق بن حنين لثانيهما . ولم يلبث قدامة المتوفى سنة ٣٣٧ الذى اشتهر حينئذ بثقافته الفلسفية أن حاول صنع تشريع لبلاغة الشعر العربى مستضيئًا من حين إلى حين بما كتبه أرسطو فى كتابه الشعر ، وسمَّى صنيعه « نقد الشعر » . ولن نعرض الآن لما فى الكتاب من نقد فسنعرض له عما قليل ، إنما نعرض لما فيه من حديث عن المحسنات البديعية ، وقد حاول جاهداً أن يبدِّل ويعدل فى بعض المصطلحات التى وضعها ابن المعتز معارضة له ، وكأنه إنما ألَّف كتابه محادَّةً لكتاب البديع ، واستطاع أن يضيف إلى محسنات ابن المعتز الثمانية عشر ثلاثة عشر محسنًا جديداً أهمها الترصيع والغلو وصحة التقسيم وصحة المقابلات وصحة التفسير والتتميم والمبالغة والإشارة والإرداف والتمثيل . وبعضها يتداخل مع محسنات ابن المعتز . وكتاب ثان أنتجته بيئة المتفلسفة هو كتاب البرهان فى وجوه البيان لإسحق ابن سليمان بن وهب ، وكان معاصراً لقدامة ، ويتضح فيه أنه يريد أن يخضع البلاغة العربية للبلاغة اليونانية وما كتبه فيها أرسطو عن الشعر والخطابة بأقوى مما حاول قدامة ، حتى لنراه يضيف إلى انتفاعه بكتابى أرسطو السالفين كتابيه فى المنطق والجدل ، مازجًا ذلك بمباحث المتكلمين وفقهاء الشيعة ، وكأنما تستعجم البلاغة عنده ، وقد حاول أن يطبق بعض ما ذكره أرسطو من وجوه البلاغة ، ولكنه فاته فى كثير من الأحوال أن يُحْسن هذا التطبيق ، واقترح بعض ألقاب ومصطلحات جديدة لم يكتب لها الذيوع كما كُتب لنظائرها عند قدامة وابن المعتز ، ويبدو أن أصحاب البلاغة العربية التالين ضاقوا به وبكتابه ، فلم يذكروه ولم ينقلوا عنه . وكان ذلك سببًا فيما بعد ، لأن ينصرف الناس عن هذه البلاغة الأعجمية وأذواق أصحابها المتفلسفين ، وأن يستميلهم المتكلمون المعتدلون ببحوثهم البلاغية ،

حتى ليسيطروا ببحوثهم على العصور والأجيال التالية .

وإذا كانت البلاغة خطت خطوات واسعة فى سبيل تحولها إلى علم فى هذا العصر فكذلك النقد خطا بدوره خطوات كثيرة نحو تقنين مسائله ، ولا بد من ملاحظتين قبل الحديث فيه، أولاهما أن أكثر الكتب التى عرضنا لها فى البلاغة عرضت له ، وثانيتهما أن البيئات اللغوية والاعتزالية والفلسفية التى تحدثنا عنها فى البلاغة هى نفسها التى حاولت أن تشرّع النقد وأن تضع له معاييره ومقاييسه . وأولى هذه البيئات البيئة اللغوية المحافظة ، وقد هاجم الجاحظ ذوقها فى غير موضع من كتاباته[1]، ولعله كان يأخذ عليها اهتمامها بالغريب فى الأشعار ونسيانها أو إهمالها جوانب الجمال والبلاغة فيها ، مما جعله يؤلف كتابه «البيان والتبيين» على نحو ما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع . ومن المحقق أن روحها كانت محافظة ، ولكن من المحقق أيضًا أنها هى التى نقدت الشعر القديم لأول العهد به ، وهى التى ميزت وثيقه من منحوله ، مع كثير من الأحكام واللفتات النقدية الجديدة ، ولعل كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام المتوفى سنة ٢٣١ خير ما يصور عمل هذه البيئة المحافظة حتى عصره ، ونراه يعرض فيه قضية الانتحال فى الشعر القديم عرضًا علميًّا رائعًا ، موضحًا عبث القبائل والرواة المختلفين به ومدى ما دخله من فساد ، ثم تقدم يضع الشعراء فى طبقات حسب جودتهم الفنية ، راويًا لكل منهم كثيراً مما صححته البصرة له وخاصة فى العصر الجاهلى . ونمضى إلى العصر العباسى الثانى فنلتقى بثعلب وكتابه « قواعد الشعر » وهو كتيِّب مدرسى جافّ وزّع فيه الشعر توزيعًا نحويًّا على أربعة أنواع : أمر ونهى وخبر واستخبار ، وتحدث عما تجرى فيه من أغراض الشعر ومن التشبيه ، وعرض لبعض ملاحظات نقدية سطحية ، وليس فى الكتاب نظرية نقدية ، إنما هى لمحات سريعة ، وقد سمى الطباق الأضداد وسمى الجناس المطابق ، وتابعه فى التسمية الأخيرة قدامة . والكتاب لا يضيف إلى النقد العربى شيئًا ذا قيمة يمكن الوقوف عنده . وفى الحق أن البيئة اللغوية أخذت تتخلف فى مجال النقد ، على نحو ما تخلفت فى مجال الدراسات البلاغية ، إذ لم يعد يلقانا فيها سوى ملاحظات طائرة كأن نجد عند المبرد فى كتابه « الكامل » كلمة هنا أو هناك

---

(١) البيان والتبيين ٣ / ٣٢٤

عن صحة المعنى أو جزالة اللفظ أو رداءته أو عوار الفكرة أو استغلاقها أو ضرورة الشعر والموسيقى ،، وشركه فى مثل هذه الملاحظات كثير من اللغويين بحيث نراهم يخصصون كتباً فى أخطاء الشعراء مثل كتاب أخطاء أبى تمام فى الألفاظ والمعانى لأحمد بن عبيد الله بن عمار المتوفى سنة ٣١٩ .

وإذا كانت البيئة اللغوية لم تستطع أن تتطور مع روح العصر فى نقدها ، بل ظلت به عند نقد لغوى جاف لا يكوّن نظرية ولا ما يشبه نظرية فإن بيئة المعتزلة استطاعت أن تتمثل فى نقدها روح العصر مع المحافظة على روح العربية والتقاليد الموروثة ، ومرّ بنا فى الحديث عن البلاغة أنها كانت توازن بين معايير البلاغة اليونانية ومعاييرها العربية وأنها لم تحاول أن تُعْلى الأولى على الثانية ، إنما حاولت أن تفيد منها بدون أن تطغى على الفكر العربى وبيانه وبلاغته . ويمكن أن يلاحَظ ذلك بوضوح عند بشر بن المعتمر المعتزلى المشهور وقرينه أو معاصره الجاحظ ، أما بشر فنراه فى الصحيفة التى دوَّنها له الجاحظ فى البيان [1] يدعو إلى الملاءمة بين الكلام وأحوال السامعين ونفسياتهم ، وهى فكرة مطابقة الكلام لمقتضى الحال التى كانت شائعة عند اليونان فى أحاديثهم عن البلاغة والنقد ، كما يدعو إلى البعد عن التكلف واستكراه المعانى والألفاظ وتجنب الغريب المتوعر فى الألفاظ والتراكيب ، وينفذ إلى فكرة طريفة هى أن شرف المعنى لا يرجع إلى أنه من معانى الخاصة أو من معانى العامة ، فكلٌ فى موضعه شريف ، ومدار الشرف على الملاءمة بين الكلام ومقامه ، ويدعو فى قوة إلى تبسيط الأسلوب وجعله فى لغة وسطى بين لغة البدو الجافة الخشنة وبين لغة العامة المسفَّة المبتذلة . ويخلفه الجاحظ ، وتستعر نار المتفلسفة والشعوبية جميعاً ، فينادى بأن مدار الجمال فى القرآن الكريم إنما يعود إلى نظمه الذى تنقطع الرقاب دون محاكاته ، ويمدُّ فى قوة ملاحظة بِشْر عن اللغة الوسطى ، حتى يتلاءم مع الحداثة ومع روح العصر ، فالألفاظ يجب ألا تكون ساقطة عامية ولا غريبة وحشية ، ويجب أن يلائم الخطيب بين كلامه والسامعين فلا يورد خطيب على الجماهير اصطلاحات المتكلمين ، وللإيجاز موضع وللإطناب موضع

---

(١) البيان والتبيين ١ / ١٣٥ وانظر البلاغة تطور وتاريخ ص ٤٣ .

لا فى الألفاظ وحدها ، بل أيضًا فى الأساليب ، ويلاحظ أن للأديب شاعراً أو ناثراً معجمه اللغوى الخاص ، وهى ملاحظة دقيقة ، وعرَض طويلا للفظ وفصاحته وجزالته ورقته وتناسبه مع ما قبله وما بعده فى الكلام حتى لكأن واشجة من الرحم تربط بينه وبين الأسرة اللفظية التى يسلك فيها . وأنكر الترادف ذاهبًا إلى أن لكل لفظة معناها الخاص الذى يفترق قليلا أو كثيراً عن معنى أو معانى مرادفها ، وعاب مراراً التكلف وفرق بينه وبين التنقيح . وجعله إعجابه باللفظ المونق يشيد به مضائلا من المعانى وقيمتها ، وكأنما كان يريد أن يُسقط إلى الأبد ما تقوله الشعوبية عن كثرة المعانى فى الآداب الأعجمية ؛ وكذلك ما تقوله البيئة المتفلسفة عن المعانى الفلسفية اليونانية ، إذ هى تحمل أفكاراً صحيحة ، ولكن ينقصها جمال الصياغة وحسن السبك والرصف والنظم . ومع إعجابه بالشعر العربى القديم كان يعجب بالشعر الحديث ، حتى ليفضّل أبا نواس على كل من سبقه من الشعراء[1]. وهو معنى ما نقول من اعتدال المعتزلة وأنهم كانوا يوازنون بين القديم والحديث وبين معايير النقد العربى واليونانى ملائمين بين ذلك كله نافذين إلى نقد عربى عباسى حديث .

وأفاد ابن قتيبة من نظرات الجاحظ النقدية إفادة واسعة ، مع أنه لم يكن من المعتزلة بل كان من أهل السنة ، ولكنه اشترك معه كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع فى الرد العنيف على الشعوبية ، ونراه يكتب مقدمة طويلة لكتابه الشعر والشعراء يضمنها كثيراً من آرائه النقدية ، وتارة يوافق الجاحظ فى بعض آرائه وتارة يخالفه ، فمما وافقه فيه رفض معيار القدم والحداثة فى الحكم على الشعراء فلا يُنْظَرُ إلى متقدم بعين الجلالة ولا إلى متأخر بعين الاحتقار ، بل يوزن كل منهما بموازين الجودة الفنية الدقيقة . ووافقه فى فكرة الطبع والتكلف ، واستعار قبسًا من فكرته عن المطابقة بين الكلام وأحوال النفس استضاء به فى بيان الدوافع النفسية التى تبعث على قول الشعر كالطمع والغضب والشوق والطرب ، كما استعار قبسًا من فكرة

---

(١) الحيوان ٢ / ٢٧ وانظر فى تحليلنا لآرائه كتاب البلاغة : تطور وتاريخ ص ٤٦ وما بعدها وكتابنا « النقد » (طبع دار المعارف) وقد أشرنا فيه إلى حديثه عن السرقات ، وهو أول من فتح بابها على مصراعيه للنقاد ، وقد أخذوا فى أواخر هذا العصر يخصون بعض الشعراء بمباحث مستقلة فيها مثل كتاب سرقات أبى نواس لمهوت ابن المزرع المتوفى سنة ٣٣٤ وسرقات البحترى لأحمد [illegible] أبى طاهر المتوفى [illegible]

بشر بن المعتمر عن الأديب ألا يُقْبِل على عمله إلا إذا كان مستعداً له استعداداً كاملا ، فتحدث عن العلاقة بين الشاعر والأوقات التى يستحبُّ فيها نظم الشعر . وخالف الجاحظ فى قَصْر الجمال الفنى على اللفظ فجعله شركة بينه وبين المعنى ، فقد يحسن اللفظ والمعنى معاً وقد يقبحان معاً ، وقد يحسن أحدهما ويقبح الآخر . وكل ذلك كان يبشر بأن ابن قتيبة لن يرتد إلى الوراء وخاصة أنه سوّى بين القدم والحداثة فى الشعر ولكنه عاد فطلب إلى الشاعر ألا يحيد عن منهج المتقدمين فى نظام القصيد . ونلتقى فى أواخر العصر بناقد يتأثر بالجاحظ فى كثير من آرائه النقدية ، كما يتأثر بابن قتيبة فى رده الجمال الفنى إلى اللفظ والمعنى معاً، وهو ابن طباطبا صاحب عيار الشعر ، ونراه فى مواضع من كتابه يشير إلى تماسك المعانى وارتباط أول الكلام بما يليه ، ويشدد فى وحدة السياق وأن تتواصل أبيات القصيدة حتى تغدو بناء محكماً بل حتى تغدو كأنها جسد واحد لا يمكن وضع عضو فيه مكان عضو آخر ، وكأنما أحسَّ ما يردده النقاد فى هذا العصر من فكرة الوحدة العضوية فى القصيدة بحيث يطرد فيها التناسق والالتحام حتى تصبح كلا واحداً ، بل حتى كأنها لفظة واحدة ومعنى واحد[١] .

ولم نتحدث حتى الآن عن البيئة الثالثة بيئة المتفلسفة فى النقد، ولعل خير من يمثلها قدامة فى كتابه «نقد الشعر» وهو فى مطالعه يصرّح ولا يجمجم بأنه إنما سيُعْنَى بعلم جيّد الشعر ورديئه وأن أحداً لم يسبقه إلى وضع هذا العلم فى العربية . ويجعل الكتاب فى ثلاثة فصول ، يخص أولها بتعريف الشعر وبيان أجزائه ، والثانى بنعوت الجودة فى الشعر ، والثالث بنعوت الرداءة . ويقف عند تعريف الشعر وقفة منطقية يستمد فيها بوضوح من منطق أرسطو وما ذكره عن الحدود والتعريفات وأجزائها ، ويبدو هنا أنه لم يفهم نظرية أرسطو فى المحاكاة وأن المعوّل فى الشعر عليها لا على الوزن ، وجاءه ذلك من سوء الترجمة لكتاب الشعر عند متى بن يونس فإن كثيراً من معانى الكتاب فى الأصل طُمست طمساً ، وهو ما جعل قدامة يضطرب فى الإفادة منه على صور شتى . وأجزاء الشعر عند قدامة اللفظ والمعنى والوزن والقافية ،

---

(١) راجع فى تحليل عيار الشعر كتاب البلاغة تطور وتاريخ ص ١٢٣ .

ويقول إن نعوت الجودة تتصل بكل منها مفردة ومركبة ، ونراه يتأثر فى هذا الفصل بنظرية الحدود الوسطى التى شُغف بها أرسطو فى حديثه عن الأخلاق ، ويفيض فى الفصل الثانى فى الحديث عن نعوت الجودة ، ويعرض لأغراض الشعر ، ويحاول متأثراً بطريقة أرسطو أن يضع لها قواعد كلية عامة ، وهو فى هذه القواعد يستمد كثيراً من كتابى الخطابة والشعر لأرسطو ، وكأنه يريد بكل ما يستطيع من قوة أن يخضع البلاغة العربية للبلاغة اليونانية ، وخانه التوفيق فى كثير من الأحيان . ولولا ما أضافه إلى ابن المعتز من بعض فنون البديع لتناسى النقاد التالون كتابه ولم يلتفتوا إليه أى التفات [١] .

ولا بد أن نلاحظ بصفة عامة أن الذوق الذى كان مسيطراً على النقد والشعر جميعا كان ذوقاً محافظاً ، وكان طبيعياً أن يُرْفَضَ نقد المتفلسفة المفرطين فى التجديد. وكان من المنتظر للغويين الذين يمثلون بدقة النزعة المحافظة أن يسيطروا على الحركة النقدية ولكنهم لم يستطيعوا لسبب مهم ، وهو أنهم لم ينفذوا إلى وضع نظرية أو أصول من شأنها أن تشيع ، ولذلك سيطر المتكلمون الذين استطاعوا أن يضعوا للنقد أصولا ورسوماً واضحة ، وساعد على سيطرتهم أنهم لم يكونوا يرفضون القديم بل كانوا يوازنون بينه وبين روح العصر كما أسلفنا ، وبذلك ظلوا يحافظون للشعر على تقاليده الموروثة .

ونشطت فى العصر الكتابات التاريخية نشاطاً عظيماً فمن كتابة فى تاريخ السيرة النبوية إلى كتابة فى الأحداث الإسلامية والأمم والدول ، وكتابة فى المدن ، وكتابة فى التراجم والطبقات ، ومرَّ بنا فى كتاب العصر العباسى الأول أن ممن عنوا بالسيرة النبوية حينذاك ابن إسحاق وراوى سيرته ابن هشام والواقدى ومحمد بن سعد فى كتابه الطبقات وكذلك المدائنى أبو الحسن على بن محمد المتوفى سنة ٢٣٤ ، وله كتب ورسائل كثيرة فى السيرة النبوية وفى تاريخ القبائل والخلفاء بلغت عند ابن النديم نحو ٢٣٠ مصنفاً . ومن أهم المؤرخين للسيرة النبوية فى العصر أبو زرعة [٢] عبد الرحمن بن عمرو الحافظ شيخ الشام فى وقته المتوفى سنة ٢٨٢ ، وفى مكتبة

(١) انظر فى تحليل نقد الشعر كتاب البلاغة تطور وتاريخ ص ٧٨ .

(٢) انظر فى أبى زرعة تاريخ دمشق لابن عساكر ٧ / ٢٧٤ والنجوم الزاهرة ٣ / ٨٧ .

الفاتح بإستانبول مخطوطة من هذه السيرة . وكتب كثيرون فى الأحداث الإسلامية وفى تاريخ الأمم والدول منهم اليعقوبى الذى مر ذكره بين الجغرافيين وتاريخه فى ثلاثة أجزاء طُبع بأوربا وبالنجف فى العراق ، ومنهم البلاذرى [١] أحمد بن يحيى بن جابر المتوفى سنة ٢٧٩ ، وله كتاب فتوح البلدان المعروف نشره دى خويه بليدن فى القرن الماضى ونشر بالقاهرة مراراً ، وله كتاب أنساب الأشراف فى التراجم والتاريخ طُبعت منه بعض أجزاء وبعض قطع ويعاد نشره كاملا فى دار المعارف بالقاهرة . وكان يعاصره أبو حنيفة [٢] الدينورى المتوفى سنة ٢٨٢ صاحب كتاب الأخبار الطوال المنشور أولا بليدن ، ثم بعد ذلك فى القاهرة ، ونراه يستهله بالحديث عن تاريخ الإسكندر والفرس ودولتهم الساسانية ، ثم يتحدث عن فتوح العراق وحروب صِفّين وتاريخ الأمويين وما كان فيه من مقتل الحسين وأحداث المختار بن أبى عبيد ، ثم يوجز فى الحديث عن الخلفاء من عبد الملك إلى المعتصم . وأتاحت ترجمة تاريخ الأمم القديمة وخاصة الفرس فى العصر العباسى الأول والكتابات الكثيرة عن الرسل والأنبياء لمحمد [٣] بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ أن يكتب تاريخه الضخم : « أخبار الرسل والملوك » ، وهو تاريخ للعالم منذ بدء الخليقة حتى عصره ، ونراه حين يصل إلى تاريخ الهجرة النبوية ينهج فى الكتاب منهج الحوليات فكل سنة مستقلة بأحداثها حتى إذا تمت أيامها انتقل إلى السنة التالية حتى يصل إلى سنة ٣٠٢ واتبع طريقة المحدّثين ، فكل خبر وكل حادثة تُروَى مع إسنادها ، وتتعدد الروايات ويتعدد الإسناد ليقابل المؤرخ الحصيف بين الروايات مع رواتها ويستخلص منها الخبر الصحيح ، وله نشرات مختلفة فى ليدن وفى مصر ، وطبعته الأخيرة بدار المعارف محققة ومزودة بفهرس دقيق . ومن أهم المؤرخين فى العصر المسعودى [٤] أبو الحسن على بن الحسين المتوفى سنة ٣٤٥ وله

---

(١) انظر معجم الأدباء ٥ / ٨٩ والنجوم الزاهرة ٣ / ٨٣ والفهرست ص ١٧٠ .

(٢) راجعه فى الفهرست ص ١٢٢ ومعجم الأدباء ٣/٢٦ .

(٣) انظر ترجمته فى تاريخ بغداد ٢/١٦٢ ومعجم الأدباء ١٨ / ٤٠ وتذكرة الحفاظ ٢ / ٢٥١ وطبقات القراء ٢ / ١٠٦ وطبقات الشافعية ٣ /١٢٠ .

(٤) راجع ترجمته فى الفهرست ص ٢٢٥ ومعجم الأدباء ١٣/٩٠ وتذكرة الحفاظ ٣/٧٠ والنجوم الزاهرة ٣ /٣١٥ .

كتب تاريخية مختلفة ، وهى تتدفق بحيوية جمّة ، إذ أخذ نفسه بالطواف فى البلدان الإسلامية فى الشام وإيران والهند وزنجبار ومصر والبلاد البعيدة الخارجة عن عالم الإسلام حول بحر الخزر وركب المحيط الهندى والهادى إلى الصين فى رفقة التجار ، فاتسعت مداركه ، ومن أهم كتبه التاريخية مروج الذهب ، طُبع فى باريس ثم فى مصر وبيروت طبعات مختلفة ، وهو يبدأ فيه بتاريخ الخليقة منذ نشأتها ويتحدث عن الأمم القديمة وبلدانها ومشاهداته فيها ، ثم يوجز السيرة النبوية ، حتى إذا انتهى منها أخذ يتحدث عن الخلفاء خليفة خليفة حتّى المطيع لله سنة ٣٣٦ وله كتاب التنبيه والإشراف وهو موجز تاريخى ، وطُبع له بمصر الجزء الأول من كتابه أخبار الزمان .

وبجانب هذه الكتب التاريخية العامة نجد كتبًا خاصة ببعض المدن مثل أخبار أهل البصرة لأبى زيد عمر بن شبة المتوفى سنة ٢٦٤ وتاريخ واسط لأسلم بن سهل بن زياد المتوفى سنة ٢٨٨ وتاريخ أصبهان لابن منده الأصبهانى المتوفى سنة ٣٠١ وتاريخ الموصل لأبى زكريا يزيد بن محمد الأزدى المتوفى سنة ٣٣٤ وأهم من هذه الكتب جميعًا تاريخ بغداد لأحمد بن أبى طاهر الملقب بطيفور المتوفى سنة ٢٨٠ وهو من مصادر تاريخ الطبرى ، وقد نشر كلر Keller الجزء السادس منه . وذكرنا فى كتاب العصر العباسى الأول مدى اهتمام مؤرخى العصر بالأنساب والأيام ، وظل ذلك بعدهم مستمراً إذ نرى ابن الأنبارى يعنى فى شرحه للمفضليات بالأيام عناية واسعة ، وللزبير بن بكار المتوفى سنة ٢٥٦ كتاب ضخم فى نسب قريش وأخبارهم ، نشر منه بالقاهرة محمود أحمد شاكر مجلداً كبيراً . وألفت فى العصر كتب كثيرة فى رجال الحديث للبخارى وغيره ، وانتقل التأليف فى الرجال إلى التأليف فى الشعراء ، فألف ابن قتيبة كتابه « الشعر والشعراء » وألف ابن المعتز كتابه « طبقات الشعراء المحدثين » وهما منشوران ، وألف يحيى بن على بن يحيى المنجم المتوفى سنة ٣٠٠ كتابين مفقودين هما البارع فى أخبار الشعراء المولدين والباهر فى أخبار الشعراء المخضرمين من بشار إلى مروان أبى حفصة . وأُلفت كتب فى الوزراء وكتّاب الدواوين مثل كتاب الوزراء والكتاب لمحمد بن عبدوس الجهشيارى المتوفى سنة ٣٣١ وهو مطبوع . وأفردت كتب لأخبار العباسيين وأشعارهم مثل كتاب

الأوراق لمحمد بن يحيى الصولى المتوفى سنة ٣٣٥ وقد نشر منه المستشرق دان (Dunne) أخبار الشعراء المحدثين وهو تراجم لطائفة منهم ، ونَشَر منه أيضًا أخبار الراضى المتقى ، وأشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم ، وهو كتاب جدير بالتحقيق والنشر . وأخذوا يهتمون بالسيرة الفردية ، فألف أبو عبد الله محمد ابن عبد الله بن الحكم المتوفى سنة ٢٦٢ كتابًا فى سيرة عمر بن عبد العزيز طُبع بالقاهرة ، وألف بمصر أبو جعفر أحمد بن يوسف بن الداية المتوفى سنة ٣٤٠ كتابًا فى سيرة أحمد بن طولون وابنه خمارويه . وعلى هذا النحو نشط التأليف فى التاريخ لهذا العصر نشاطًا واسعًا ، فمن تأليف فى السير إلى تأليف فى الطبقات وتأليف فى الأمم والدول وتأليف فى المدن ، وكادوا لا يتركون فى التاريخ جانبًا إلا رصدوه وسجلوه ودوّنوه .

٤

علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه

معروف أن القرآن الكريم حُمل عن الرسول صلى الله عليه وسلم تلاوةً ومشافهة ، واشتهر بتلاوته قُرّاء مشهورون منذ الصدر الأول فى مقدمتهم الخلفاء الراشدون وزيد بن ثابت وأبىّ بن كعب وعبد الله بن مسعود وأبو موسى الأشعرى وغيرهم من جلة الصحابة أمثال عبد الله بن عباس ، وخلفتهم أجيال من التابعين فى كل بلد إسلامى ، كلهم يحافظون على تلاوته بجميع حروفه وحركاته كما أثرت عن الرسول الكريم ، وأخذوا يُعَدّون بالعشرات ، وأخذ يتبع كل قارئ منهم تلاميذ يلازمونه ويأخذون عنه قراءته بأدق صورة ممكنة ، وفى الوقت نفسه أخذ قُرّاء موثّقون يروون قراءات عن ابن مسعود إمام أهل الكوفة أو عن على بن أبى طالب أو عن غيرهما من جلة الصحابة ، فتكاثرت القراءات ، حتى لنجد أبا عبيد القاسم بن سلام يؤلف كتابًا يحتوى على أكثر من عشرين قراءة .

ونمضى بعده إلى العصر العباسى الثانى ، فتستمر القراءات فى كثرتها ، وتبدو الحاجة واضحة إلى عالم بالقراءات يختار منها طائفة تذيع وتنتشر فى العالم الإسلامى ، ويؤكد الحاجة إلى ذلك أن بعض القُرَّاء كان لا يجد حرجًا فى القراءة بشواذ منها متناهية فى الشذوذ[1] ، وحينئذ تجرَّد للنهوض بهذه المهمة الخطيرة أبو بكر أحمد[2] ابن موسى بن مجاهد التميمى إمام القُرَّاء ببغداد منذ سنة ٢٩٠ فأكبَّ على القراءات وكتبها المصنفة ، واستخلص منها سبعًا هى قراءات نافع فى المدينة وعبد الله بن كثير فى مكة وعاصم وحمزة والكسائى فى الكوفة وأبى عمرو بن العلاء فى البصرة وعبد الله بن عامر فى دمشق، اتخذها إمامًا للناس ، وألف فى ذلك كتابه السبعة ، وكل من يراجعه يرى الجهد الهائل الذى أدَّاه عن علماء القراءات فى عصره ، فكل إمام من السبعة تُذْكَرُ الطرق التى روى بها ابن مجاهد قراءته ، وينص فى الكتاب على الاختلاف بين الطرق للإمام الواحد فضلا عن الطرق مجموعة لكل الأئمة . وانبرى من بعده تلميذه أبو على الفارسى لكتابة شرح على هذا المصنف: « السبعة » يحتج فيه لوجوه القراءات المبثوثة به وجهًا وجهًا ، سماه كتاب الحجة . وألف ابن مجاهد كتابًا ثانيًا فى شواذ القراءات ، عُنِى ابن جنى بشرحه على نحو ما عُنِى أستاذه أبو على الفارسى بشرح السبعة ، سماه المحتسب ، وهو محقق ومنشور بالقاهرة .

ونما تفسير القرآن الكريم فى هذا العصر نموًا واسعًا ، واتضحت فيه اتجاهات أربعة سيطرت على اتجاهاته فى العصور التالية ، هى اتجاه التفسير بالمأثور ، والتفسير بالرأى أو التفسير الاعتزالى ، والتفسير الشيعى ، والتفسير الصوفى ، أما التفسير بالمأثور فقد بلغ القمة المرجوَّة التى كانت تنتظره عند محمد بن جرير الطبرى ، إذ استطاع أن يجمع فى تفسيره عن طريق الروايات المسندة كلَّ ما أثر

(١) انظر فى ذلك مقدمتنا لكتاب السبعة لابن مجاهد (طبع دار المعارف) حيث أوضحنا هناك موقف ابن مجاهد من معاصره ابن شنبوذ لقراءته حروفاً تخالف مصحف عثمان المجمع عليه ، وكذلك موقفه من ابن مقسم العطار لقراءته حروفاً تخالف الإجماع وإن كانت موافقة لخط المصحف العثمانى ومعروف أنه لم يكن منقوطاً ، فكان يصحف بعض الكلمات ويستخرج لها وجوهاً ظنية . وكل منهما ناظره ابن مجاهد واعترف بخطئه وتوبته من صنيعه بحضرة القراء والفقهاء .

(٢) انظر فى ترجمة ابن مجاهد طبقات القراء لابن الجزرى ١ / ١٣٨ وطبقات الشافعية ٣/٥٧ والنجوم الزاهرة ٣/ ٢٥٨ .

عن التابعين والصحابة فى تفسير الآى القرآنية . وكان الصحابة يحملون كل ما ذكره الرسول من تفسير لبعض آياته وبعض كلماته . وتفسير الطبرى من هذه الناحية يمكن أن يُستخلَص منه تفسير الرسول عليه السلام ، وكذلك من عُرفوا بكثرة التفسير من الصحابة والتابعين مثل ابن عباس وابن مسعود وتلاميذهما من مثل مجاهد وعكرمة . ومما يلاحظ عنده أنه لم يتوسع فى حَمْل الإسرائيليات ، إذ كان يرى أنه لا غناء فيها وخاصة فى التفاصيل التى لا يضر الجهل بها ، كمسألة المائدة التى أنزلت على عيسى فى سورة المائدة فى الآيات ١١٢ إلى ١١٥ فإنه وجد عند أصحاب الإسرائيليات من يتحدثون عما كان عليها من طعام هل كان سمكاً أو خبزاً أو ثمراً من ثمار أهل الجنة فقال إن العلم بذلك غير نافع ، وبالمثل الآية رقم ٢٠ من سورة يوسف إذ باعه إخوته (بثمن بَخْس دراهم معدودة) فقد وجدهم يتساءلون عن عدد الدراهم . هل كانت عشرين أو اثنين وعشرين أو أربعين ، فأضرب عن ذلك قائلا إنه « ليس فى العلم بمبلغ ذلك فائدة تقع فى دين . . . والإيمان بظاهر التنزيل فرض وما عداه فموضوعٌ عنا تكلف علمه » . ودائماً يذكر مع كل آية القراءات المختلفة فيها ، ويعرض لمعنى الكلمات من الوجهة اللغوية ويستشهد عليه بالأشعار الجاهلية والإسلامية ، وكثيراً ما يفصِّل شرح معنى للفظ على شرح معنى آخر . وكان يأخذ بفكرة حرية الإرادة التى أخذ بها المعتزلة ، ولكنه لم يتعصب لهم ، بل جادلهم فى بعض آرائهم وردّها عليهم من مثل رأيهم فى الرؤية البصرية لله وتأويلهم لها ويعلن مراراً أنه يقف مع السلف كما فى الآية رقم ٧٤ من سورة البقرة وأنه يحسن أن يراعى المفسر المعنى الظاهر للفظ بدون تأويل ، والأساس الذى لا محيد عنه هو عرض أقوال الصحابة والتابعين وعلماء الأمة لتبين معانى التنزيل الصحيحة الدقيقة .

ومنذ القرن الثانى يرجع المعتزلة إلى القرآن مفسرين مستشهدين ومتمثلين ، محتكمين إلى عقولهم ، ومحاولين أن يطابقوا بينه وبين آرائهم ، وأداهم ذلك إلى أن يحملوا منذ أول الأمر على أصحاب التفسير بالمأثور الذين كانوا يقفون أحياناً معَ ظاهر الآيات . وكانوا أحياناً لا يحكِّمون عقولهم فيما يسمعون ، فيروون غرائب لا يصدقها العقل السليم ، وفى الجزء الرابع من كتاب الحيوان للجاحظ حملات شعواء للنظام

على أمثال هؤلاء المفسرين ، وكان طبيعيًّا ألا يقفوا عند تفسير آيات بعينها تخالف آراءهم الاعتزالية ، بل يحاولوا بسط هذه الآراء فى تفسير القرآن جميعه ، وأول تفسير عندهم هو تفسير أبى بكر الأصم المتوفى حوالى منتصف القرن الثالث وتفسيره مفقود ، وأهم منه تفسير أبى على الجُبَّائى محمد بن عبد الوهاب المتوفى سنة ٣٠٣ ، وهو بيد بعض المحققين بالقاهرة فى سبيل نشره ، ولابد أنه يمتلئ بالتأويلات الاعتزالية ، ولا ريب فى أن الزمخشرى انتفع به فى تفسيره انتفاعًا كبيراً .

وتأويلات المعتزلة لآى الذكر الحكيم إنما كانت تأويلات عقلية ، وكان وراءهم فريقان يؤولان القرآن تأويلات اعتقادية ، وهم الشيعة والصوفية ، وكان الشيعة يخرجون عن ظاهر القرآن ملتمسين تأويلات بعيدة ، إذ يذهبون إلى أن لفظًا بعينه يُقْصَدُ به علىّ أو غيره من أئمتهم وأن لفظًا آخر يقصد به خصم من خصومهم ، وصور ذلك ابن قتيبة عنهم . فقال إن منهم من يزعم أن الجبْت والطاغوت فى الآية رقم ٦٠ من سورة النساء هما معاوية وعمرو بن العاص[١] . ونسبوا لأئمتهم تفسيرات مبكرة ، فى مقدمتها تفسير نسبوه إلى جعفر الصادق المتوفى سنة ١٤٨ وتفسير ثان نسبوه إلى الحسن العسكرى المتوفى سنة ٢٦٠ وهو آخر الأئمة الظاهرين عند الإمامية. وتفسيراتهم من هذه الناحية تَطْبَعُ بطابع الرواية عن أئمتهم وآل البيت بعامة . أما تأويل المتصوفة حينئذ فلم يكن يبعد عن ظاهر اللفظ بُعْدَ التفسير الشيعى ، إذ كان كل مـأربه أن يوضّح من خلال بعض الآيات بعض الأفكار الصوفية ، وربما كان أقدم تفسير لهم هو تفسير سهل التُّسْتَرِىّ المتوفى حوالى سنة ٢٨٣ ونراه فى آية سورة النور : (الله نور السموات والأرض — إلى قوله : والله بكل شىء عليم) يجعل النور المحمدى فى سابق الأزل أساسًا للآية . وكأن سهلا سبق الحلاج فى فكرة النور المحمدى الأزلى .

وقد عرضنا فى كتاب العصر العباسى الأول لتطور منهج التأليف فى الحديث النبوى وأنه بدأ بتصنيفه على أبواب الفقه غالبًا . وأن خير ما يصور هذه الطريقة

---

(١) انظر تفسير غلاة الشيعة فى كتاب تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٨٤ .

كتاب الموطأ لمالك بن أنس المتوفى سنة ١٧٩ ثم نشأت طريقة ثانية توزّع فيها الأحاديث على رواتها من الصحابة ، فتجمع الأحاديث مثلا التى رواها أبو هريرة بدون نظر إلى اختلاف موضوعاتها الفقهية ، فالأساس وحدة الصحابى لا وحدة الموضوع ، على نحو ما هو معروف عن مسند ابن حنبل المتوفى سنة ٢٤١ ، وظل محدّثون يؤلفون على هذه الطريقة حتى نهاية هذا العصر مثل أبى عبد الله محمد بن نصر المروزى المتوفى سنة ٢٩٤ وتوجد من مسنده مخطوطتان بمكتبة دار الكتب المصرية . وأخذت تقترن بهذه الطريقة سريعًا طريقة ثانية هى امتداد للطريقة الأولى آنفة الذكر ، وكأنما رأوا أن الإفادة من طريقة المسانيد يكتنفها غير قليل من الصعوبة إذ لا بد لمن يريد الاطلاع على حديث ، لراوٍ من الصحابة فى مسألة من مسائل الفقه ، من قراءة كل ما له من أحاديث ، وكانت دراسات الفقه نمت حينئذ واحتاج الفقهاء إلى الاطلاع سريعًا على بعض الأحاديث للاحتجاج بها فى كتبهم وضد مجادليهم ، وأول مصنَّف وصلنا من هذه الطريقة هو مصنف عبد الله بن محمد بن أبى شيبة المتوفى سنة ٢٣٥ . ثم ألفت مصنفاتها الستة المشهورة ، وهى الجامع الصحيح للبخارى المتوفى سنة ٢٥٦ والصحيح لمسلم المتوفى سنة ٢٦١ والسنن لابن ماجه المتوفى سنة ٢٧٣ وسنن أبى داود المتوفى سنة ٢٧٥ والجامع للترمذى المتوفى سنة ٢٧٩ وسنن النَّسائى المتوفى سنة ٣٠٣ وتُعَدّ أصح كتب الحديث المؤلفة لا فى هذا العصر وحده بل فى جميع العصور . ولم يكن الاعتماد فى هذه المصنفات وما يماثلها على دراسة الكتب ، وإنما كان الاعتماد على الرواية ولقاء الرجال ، مما جعل المحدّثين يرحلون إلى الأمصار الإسلامية المختلفة يجمعون من هنا وهناك ما تفرق من الأحاديث على نحو ما هو معروف عن البخارى فى تطوافه بأكثر مدن خراسان وإيران والعراق والشام والحجاز ومصر . وظل المحدّث الكبير يعتمد على حافظته فى إملائه الأحاديث ، وكانوا إذا نزلوا بلداً ربما تعرضوا لامتحان العلماء لهم كى يعرفوا مدى حفظهم ، ويُحكى عن البخارى أنه قدم بغداد ، فاجتمع أصحاب الحديث ورأوا اختباره فعمدوا إلى مائة حديث ، قلبوا متونها وأسانيدها بأن جعلوا الإسناد مع غير متنه ، واجتمع الناس ، فألقوها على البخارى ، فأنكرها حديثًا حديثًا . حتى إذا فرغوا أخذ يرويها رادًّا كل متن إلى إسناده ، وله فى

ذلك حكايات أخرى عجيبة[١] . ومن طريف ما يروى فى هذا الجانب أن أبا داود صاحب السنن المذكور آنفاً كان له ابن من حفاظ الحديث هو عبد الله قدم سجستان ذات مرة ، فسألوه أن يحدثهم ، فقال لهم : ليس معى أصل ، فقالوا متعجبين : ابن أبى داود وأصول ! وأثاروه ، فأملى عليهم ثلاثين ألف حديث من حفظه ، وعاد إلى بغداد فوجد المحدثين يذكرون قصته مع غير قليل من الريبة ، ولم يلبثوا أن أرسلوا إلى سجستان من يكتب لهم نسخة من الأحاديث التى أملاها ، فكُتبت وجىء بها ، وعُرضت على الحفاظ ، فخطّأوه فى ستة أحاديث ، منها ثلاثة حدّث بها كما سمعها، وثلاثة أخطأ فيها ، وكأنه لم يخطئ فى كل عشرة آلاف حديث إلا فى حديث واحد [٢] .

ولا بد أن نقف قليلا عند البخارى ومسلم لنرى مبلغ دقتهما فى رواية الحديث ورفضهما لضعيفه ، أما البخارى[٣] محمد بن إسماعيل فقد أمضى ستة عشر عاماً يجمع صحيحه من أفواه الرواة الثقات فى مختلف الأمصار ، وكل حديث معه سنده من زمنه إلى زمن الصحابى راويه الأول ، وهو يدرس ويفحص ، حتى لا يروى إلا الحديث الصحيح الذى لا يرْقَى إليه شك ، يفحص المتون ويفحص الرواة ليعرف المتهم من الوثيق عقيدة وقوة حافظة وخلوا من شوائب الكذب والغفلة ، والملك كان طبيعياً أن يؤلف تاريخه الكبير فى الرجال ، ويروون عنه أنه كان يقول : « قلّ اسم فى التاريخ إلا وله عندى قصة » وكان عفّ اللسان لا يشتد فى تجريح المتهمين من الرواة ، بل يكتفى بمثل قوله : « فيه نظر » أو « سكتوا عنه » أو « هو منكر الحديث » . وجمع فى صحيحه — كما يقول ابن حجر فى مقدمته لشرحه عليه — ٧٣٩٧ حديثاً وإذا أضفنا إلى ذلك الأحاديث التى استأنس بها بلغت أحاديثه ٩٠٨٢ ، ويقال إنه انتخبها من نحو مائتى ألف حديث محكّماً فى انتخابه شروطاً غاية فى الشدة ، حتى يحيطها بأقوى سياج من الصحة والثقة . وأول شروطه

---

(١) طبقات الشافعية ٢ / ٢١٨ .

(٢) السبكى ٣ / ٣٠٨ .

(٣) انظر فى ترجمته تهذيب التهذيب ٩ / ٤٧ وشذرات الذهب ٢ / ١٣٤ وطبقات الحنابلة بن أبى يعلى (طبع القاهرة) ١/ ٢٧١ وكتاب الجرح والتعديل لابن أبى حاتم (طبع حيدر آباد) ق ٢ ج٣ ص١٩١ ووفيات الأعيان لابن خلكان (طبعة محمد محيى الدين عبد الحميد) ٣ / ٣٢٩ .

أن يكون الإسناد متصلا ، فلا يسقط من رواته أحد ، وأن يكون كل راو مسلماً ، معروفًا بالصدق ، وعدم التدليس ، والتخليط ، عدلا ، ضابطًا ، حافظًا ، سليم الذهن ، قليل الوهم ، سليم الاعتقاد ، وكان يرى أن رواة كل إمام من أئمة الحديث يختلفون فى درجة الصلة به . فأصحاب الدرجة الأولى من لازموه فى السفر والحضر ، ووراءهم من لم يلازموه سوى مدة قصيرة ، واشترط فى رواة أسانيده أن يكونوا من أصحاب الدرجة الأولى ، وبذلك اشترط فى الراوى المشافهة والملازمة . وقد يقال إن فى الصحيح أحاديث لا يتصل فيها الرواة يريدون التى ذكرت — كما قدمنا — للاستئناس فقط ، وقد أخرجها ابن حجر فى عده لأحاديث الكتاب كما مرّ آنفًا وكتاب الجامع الصحيح يبدأ بالحديث عن الوحى والإيمان وتتوالى كتب الفقه وأبوابه ، ويقحم عليها أبوابًا أخرى كحديثه عن بدء الخلق والجنة والنار وتراجم الأنبياء ومناقب قريش وفضائل الصحابة والمهاجرين والأنصار والسيرة النبوية والمغازى والأطعمة والأشربة والأدب وتعبير الرُّؤيا . وختمه بكتاب التوحيد . وهو موزع على ٩٧ كتابًا تشتمل على ٣٤٥٠ بابًا وبعضها فيه أحاديث كثيرة وبعضها فيه حديث واحد ، وقد يوضع عنوان الباب دون كتابة شىء تحته ، وكأنه كان ينوى أن يكتب فيما بعد تحته بعض الأحاديث وعاجله الموت . ومعروف أن الكتاب لم يكن قد وُضع فى صورته النهائية . وهو يُعَدّ بحق أصحّ كتب الحديث إذ تحرّى البخارى فى جمعه تحرّياً ليس له سابقة ولا لاحقة فى تاريخ مصنفات الحديث ، باذلا جهداً عنيفًا تتقطع دونه الأمانى .

وأما مسلم فهو مسلم[1] بن الحجاج القشيرى النيسابورى المتوفى سنة ٢٦١ وصحيحه مثل صحيح البخارى فى الثقة والمنزلة ، وقد روى أكثر أحاديث البخارى ولكن بطرق أخرى غير طرق أسانيده ، ورتبه على كتب الفقه وأبوابه كما صنع البخارى ، ولكنه لم يستكثر منها مثله . ونراه فى مقدمة صحيحه يذهب إلى أن الأحاديث ثلاثة أقسام : قسم رواه الحفاظ المتقنون لا يترقّى إليه الشك ، وقسم رواه المستورون المتوسطون فى الحفظ وهو يهبط درجة عن سابقه ،

(١) انظر فى مسلم تاريخ بغداد ١٣/ ١٠ وتذكرة الحفاظ للذهبى (طبع حيدر آباد) ٢/ ١٦٧ ومرآة الجنان لليافعى ٢/ ١٧٤ ومقدمة النووى بشرحه عليه .

وقسم رواه الضعفاء والمتروكون ، ويقول إنه إذا فرغ من رواية القسم الأول أتبعه القسم الثانى ، أما القسم الثالث فإنه يهمله ولا يعرّج عليه . وتصريحه بأنه يروى من القسم الثانى جعل المحدثين من قديم يضعون صحيحه فى منزلة دون منزلة صحيح البخارى ، بل إن منهم من حمل عليه مثل أبى زرعة[1] الرازى . على أن هناك من قدمه على صحيح البخارى [2] لأنه أدق منه تأليفاً ، وساد ذلك خاصة بين حفاظ المغرب فكانت كثرتهم تفضله على صحيح البخارى . والحق أنه لا يفضله من وجهة التوثيق الخالصة ، لسبب مهم ، وهو أن البخارى اشترط فى الرواة الملازمة فى السفر والحضر لمن يروون عنهم ، فى حين تخفف من ذلك مسلم ، فاكتفى بالمشافهة والمعاصرة ولم يطلب الملازمة . ومما لا ريب فيه أن صحيح مسلم مع ذلك يُعَدّ فى الذروة من التوثيق ، إذ كان دقيقاً غاية الدقة ، حتى إنه ليذكر الفروق بين روايات الحديث ، ولو كانت حرفاً ، وكان على علم لا يبارَى فى معرفة رجال الحديث الموثَّقين والمتهمين . وذكروا أن عدد أحاديثه نحو ٧٢٧٠ حديثاً . وهو مع صحيح البخارى أعلى كتب الحديث منزلة وأوفرها حظاً من الصحة والتوثيق ويليهما الكتب الأربعة التى سميناها آنفاً والتى يطلق عليها معهما اسم كتب الصحاح الستة ، وهى سنن أبى عبد الله محمد بن يوسف بن ماجه[3] القزوينى وقد اشتهر برحلاته الكثيرة فى ديار الإسلام ، وتُعَدُّ هذه السنن أضعف كتب الصحاح الستة لأن ابن ماجه ضمنها كثيراً من الأحاديث الضعيفة ، ويقال إنها لم توضع فى سلك الكتب الستة إلا منذ المائة السادسة للهجرة ، والكتاب الثانى سنن أبى داود سليمان[4] بن الجارود بن الأشعث الأزدى السجستانى ، ولم يسلك فيها غير أحاديث الفقه والتشريع ، ولعله لذلك حظى بتقدير رفيع بين المحدثين . وثالث الكتب الجامع لأبى عيسى محمد[5] ابن عيسى بن سهل الترمذى وقد عُنى فيه بأحاديث الأحكام وذكر معها من احتج بها من أهل المذاهب . ولذلك كان الكتاب يفيد فائدة جُلَّى مَنْ يُعْنَوْنَ

---

(١) تاريخ بغداد ٤/ ٢٧٤

(٢) طبقات الشافعية ٢/٢٧٦ .

(٣) تذكرة الحفاظ للذهبى ٢/ ٢٠٩

(٤) انظر فى ترجمة أبى داود تاريخ بغداد ٩/ ٥٥ وتذكرة الحفاظ ٢/ ١٦٧ ومرآة الجنان اليافعى ٢/ ١٨٩ وطبقات الشافعية ٢/ ٢٩٣ .

(٥) انظر تذكرة الحفاظ ٢/ /١٨٧ والتهذيب لابن حجر ٩/ ٣٨٧ وميزان الاعتدال ٣/ /١١٧ والأنساب للسمعانى الورقة ١٠٦ .

بدراسة الخلاف بين الفقهاء. ورابع الكتب سنن أبى عبد الرحمن أحمد[١] بن شعيب ابن على النَّسائى ، وقد عنى فيه بصيغ ونصوص فى المعاملات ، كما عنى برواية أحاديث الاستعاذات والأدعية التى تقال فى الصلاة . وبجانب هذه الصحاح الستة أُلفت كتب أحاديث مختلفة فى العصر ، كما ألفت كتب مختلفة فى الرجال أى رواة الحديث ، من أهمها تاريخ البخارى الذى أشرنا إليه ، ويلحقه فى الأهمية كتاب التاريخ الكبير لأبى بكر أحمد ابن أبى خيثمة زهير بن حرب تلميذ ابن حنبل المتوفى سنة ٢٧٩ وفيه تحدث عن تعديل الرواة وتجريحهم . وعُنيت البيئات الشيعية بأن يكون لها حظ فى الاهتمام بالحديث ، ومن أهم الكتب التى صنفتها كتاب جامع لأحاديث الإمامين : جعفر الصادق وموسى الكاظم ، جمعه أبو العباس عبد الله بن جعفر بن الحسين بن مالك بن جامع الحميرى القمى فى أواخر القرن الثالث الهجرى. وواضح من ذلك كله مدى النشاط الذى نهض به المحدثون فى تأليف كتب الحديث لهذا العصر ، ويكفى أنه أُلفت فيه كتب الصحاح الستة التى شغلت المحدثين بالتعليق والشرح والتفسير طوال العصور الماضية .

وكان هذا العصر متمماً للعصر العباسى الأول فى نشاط الدراسات الفقهية والتشريعية ، وقد رأينا هناك كيف أن المذاهب الفقهية الأربعة تكونت نهائياً ، وظل الاجتهاد نشيطاً ، فالفقهاء يجتهدون ويتناظرون ويختلفون ويكثرون من التآليف والمصنفات ، وتظهر مذاهب ثانوية لا يُكْتَبُ لها البقاء ، سوى مذهب داود الظاهرى ، ولكن ظهورها يحمل الدلالة الواضحة على حرية الاجتهاد الفقهى حينئذ وأن أبوابه كانت مفتوحة على مصاريعها . وكان طبيعيا أن يصبح لكل مذهب مجموعة كبيرة من أساتذته وشيوخه يذيعونه فى العالم الإسلامى ، ومن أهمهم فى المذهب الحنفى أبو بكر أحمد[٢] بن عمر الشيبانى الخصاف المتوفى سنة ٢٦١ وله كتاب أحكام الوقف وهو منشور بالقاهرة وكتاب الحيل والمخارج فى الفقه ، وهو منشور فى هانوفر والقاهرة . ولا يقل عنه أهمية فى هذا المذهب أبو جعفر

(١) انظره فى تذكرة الحفاظ ٢ / ٢٧٦ والتهذيب لابن حجر ١ / ٣٦ ومرآة الجنان اليافعى ٢ / ٢٤٠ وشذرات الذهب ٢ / ٢٣٩ والسبكى ٣ / ١٤

(٢) انظر فى الخصاف الجواهر المضية لابن أبى الوفاء ١ / ٨٧ والفوائد البهية للكنوى ١٧ .

أحمد[1] بن محمد بن سلامة الحَجْرى الطحاوى المتوفى سنة ٣٢١ وقد انتهت إليه بمصر رياسة أصحاب أبى حنيفة ، وهو الذى نشر بها المذهب وعمل على إذاعته، وله معانى الآثار ، وهو منشور فى جزأين بمدينة لكنو وكتاب مشكل الآثار وهو منشور بحيدر آباد ، ولا تزال له كتب كثيرة غير منشورة أحصاها بروكلمان . وقد حمل المذهب المالكى عن مؤسسه مالك بن أنس كثيرون فى مصر والمغرب والأندلس ولمع من فقهاء المذهب فى هذا العصر عبد السلام[2] بن سعيد بن حبيب التنوخى المشهور باسم سحنون القيروانى المتوفى سنة ٢٤٠ وهو الذى نشر المذهب فى المغرب ودفعه إلى أن يشيع فى جميع أرجائها ، وله فيه مصنفه الذى ظل اسمه يدوّى هناك منذ ظهوره ، وهو المدونة الكبرى التى لا تزال تتّخذ المرجع الأساسى بتلك الديار لتعليم الفقه المالكى وتدريسه ، وقد نُشرت بالقاهرة من قديم ، ونشرت لها شروح مختلفة . وقد خلف الشافعى وعمل على نشر مذهبه وعُنى بالتصنيف فيه كثيرون فى مقدمتهم تلاميذه المصريون : البويطى والربيع المرادى ، وأهم منهما المُزَنى[3] أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى المتوفى سنة ٢٦٤ ناصر المذهب وبدرسمائه كما يقول السبكى ، وله مختصر من علم الإمام النفيس محمد بن إدريس ظل الشافعية يتدارسونه طويلا ، وفيه يقول أبو العباس أحمد بن سريج المتوفى سنة ٣٠٦ أكبر أئمة المذهب لأواخر القرن الثالث الهجرى الذى انتشر منه فى أكثر الآفاق[4] :

لَصِيقُ فؤادى منذ عشرين حِجَّةً وصَيْقَلُ ذهنى والمفرِّجُ عن هَمِّى
جَموعٌ لأصناف العلوم بأَسْرِها فأَخلِقْ به أنْ لا يفارقه كُمِّى

وطُبع هذا المختصر على هامش كتاب الأم للشافعى . وكان أحمد بن حنبل قد تتلمذ للشافعى ثم استقل بمذهب فقهى خاص اعتمد فيه على الحديث النبوى ، وبذلك عُدّ مذهبه ممثلا لأهل السنة . ومن أهم أتباعه فى هذا العصر

(١) راجعه فى الجواهر المضية ١ / ١٠٢ وتذكرة الحفاظ للذهبى ٣ / ٢٩ والأنساب للسمعانى ١٥٧ وتاريخ دمشق لابن عساكر ٢ / ٥٤٢ والنجوم الزاهرة ٣ / ٢٣٩ .

(٢) انظره فى الديباج المذهب لابن فرحون (طبع فاس) ١٧١ وابن خلكان ومرآة الجنان لليافعى ٢ / ١٥١ .

(٣) انظره فى وفيات الأعيان وشذرات الذهب ٢ / ١٤٨ والأنساب للسمعانى ٥٢٧ ومرآة الجنان لليافعى ٢ / ١٧٧ والنجوم الزاهرة ٣ / ٣٩ وطبقات الشافعية للسبكى ٢/ ٩٣.

(٤) السبكى ٣ / ٢١ .

أبو القاسم عمر[1] بن الحسين بن عبد الله الخرقى المتوفى سنة ٣٣٤ ، وله فى الفقه الحنبلى كتاب المختصر فى الفقه ، طُبع فى القاهرة بشرح عبد الله بن أحمد ابن قدامة أكبر أئمة المذهب الحنبلى فى القرن السابع الهجرى .

وهيأ الاجتهاد الفقهى الواسع فى هذا العصر لظهور مذاهب فقهية وراء المذاهب الأربعة الكبرى، برز منها خاصة المذهب الظاهرى نسبة إلى أبى سليمان[2] داود بن على بن خلف الأصبهانى الظاهرى المتوفى سنة ٢٧٠ ، وكان يتبع فى أول أمره مذهب الشافعى ويتعصب له ، ثم أسس له مذهبا عُرف بمذهب أهل الظاهر ، وهو مذهب يقوم على إنكار القياس فى الدين ومسائل التشريع ، لأن القياس عقلى والدين إلهى ، ويكفى لبيان الأحكام ما فى القرآن والحديث من عموم . ومن أجل ذلك كان يرى الوقوف عند ظاهر الكتاب والسنة وعدم فتح الأبواب للقياس والآراء التى تنبثق عنه . وفى رأينا أن ظهور هذا المذهب يُعَدّ إشارة واضحة فى العصر إلى بروز نزعة محافظة قوية فى دراسات الفقه ، وقد كُتب له أن يذيع فى الأندلس والمغرب فيما بعد ، وأن يتحمّس له فقهاء نابهون مثل ابن حزم ، بل أحيانًا دول مثل دولة الموحدين فى الأندلس والمغرب .

٥

الاعتزال وانبثاق المذهب الأشعرى

مرَّ بنا فى كتاب العصر العباسى الأول كيف نشأ الاعتزال ونما وازدهر وكثر أعلامه وأتباعه ، وكيف أحالوا البصرة وبغداد إلى ساحتين كبيرتين للجدال فى المسائل العقيدية والدفاع عن الدين الحنيف وكل ما اتصل به من توحيد الله وحقائق النبوة والثواب والعقاب فى الآخرة ، ولم يكونوا يوجهون دفاعهم إلى أصحاب الملل والنِّحل الأخرى فحسب ، بل أيضًا إلى المجبرة والمرجئة والشيعة الغالية ، ونازلوا الدهريين

(١) طبقات الحنابلة لابن أبى يعلى ٣٣١ والأنساب للسمعانى ١٩٥ وتاريخ بغداد ١١/٢٣٤ والنجوم الزاهرة ٣ / ٢٨٩ . والسبكى ٢ / ٢٨٤ واليافعى ٢ / ١٨٤ والنجوم الزاهرة ٣ / ٤٧ وشذرات الذهب ٢/ ١٥٨

(٢) انظره فى تاريخ بغداد ٨/٣٦٩

والمانويين الثَّنَوِيين نزالا عنيفًا . وكانت مناظراتهم لهذه الفرق لا تتوقف يومًا ، والناس يتجمعون حولهم فى المساجد يسمعون ويتفرجون ، وقد جذبوا الشباب إليهم ، بحيث كانت حلقاتهم أكبر الحلقات وأوفرها سامعين . وقد عكفوا على الثقافات والمعارف الأجنبية يتزودون بها ، وخاصة الفلسفة اليونانية وما يتصل بها من منطق ، وسرعان ما كوَّنوا لأنفسهم مذهبًا ضخمًا تميز بأصوله الخمسة المعروفة ، وهى التوحيد والعدل والوعد والوعيد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والقول بأن مرتكب الكبيرة فى منزلة وسطى بين منزلتى المؤمن والكافر . وأخذوا على هدى ثقافتهم يتعمقون فى مسائل الطبيعة وما وراء الطبيعة ، وإذا أئمتهم ينفذون إلى آراء جديدة كل الجدة فى البحوث الطبيعية والفلسفية والإلهية ، بل إن منهم من استطاع أن يكوّن له فلسفة مستقلة ، فتلك فلسفة واصلية نسبة إلى واصل بن عطاء المتوفى لآخر العصر الأموى ، وهذه فلسفة بِشْرِية نسبة إلى بشر بن المعتمر أو ثُمامية نسبة إلى ثُمامة بن أشرس أو هُذَيْلية نسبة إلى أبى الهذيل أو نظَّامية نسبة إلى النظَّام . وعلى هذا النحو لم يتكوَّن للاعتزال أئمة أو باحثون ممتازون فقط بل تكوَّن له هؤلاء الفلاسفة فى العصر العباسى الأول ، وهو العصر الذى بلغ فيه الاعتزال الذروة المأمولة ، حتى لتصبح له السيطرة التامة على الحكم فى عهود المأمون والمعتصم والواثق ، فإذا أئمته يحملون علماء الدين كرهًا على القول بخلق القرآن ، وتنشب المحنة المعروفة ، ويُمْتَحَنُ كثير من الفقهاء ويسامون العذاب . وكان ذلك نذير شؤم ، إذ أسخطوا الفقهاء والمحدِّثين والناس عليهم ، وسرعان ما دالت دولتهم مع افتتاح العصر العباسى الثانى ، إذ ولى المتوكل الخلافة ولم يلبث أن أعلن إبطال القول بخلق القرآن ، واستقدم المحدِّثين إلى سامرَّاء عاصمته وأجزل عطاياهم وأمرهم بالجلوس إلى الناس وإظهار السنة والأخذ بالتسليم . وكان من أثر ذلك أن اندحر المعتزلة على حين انتصر الفقهاء والمحدِّثون ، وأخذ كثير منهم يجرِّحون المعتزلة ، وقوى نفوذهم وسلطانهم على العامة ، ولم يستطع المعتزلة بعد ذلك أن يستردوا سلطانهم .

على أن الاعتزال استمر فى نشاطه ، وخاصة أن كثيرين من تلاميذ فلاسفته الذين سميناهم عاشوا فى العصر العباسى الثانى ، ومنهم من طالت حياتهم فيه ،

فكان طبيعياً أن يظل له جهابذته وأن تظل له حلقاته فى البصرة وبغداد ، بل إن كثيرين من المعتزلة الجدد فى العصر استطاعوا أن يكوّنوا لهم فلسفة أو كما اصطلح القدماء فرقة نسبت إليهم ، وفى مقدمتهم الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ وهو تلميذ النظام ، وكان واسع الثقافة إذ لم يترك ثقافة أجنبية إلا اطلع عليها وخاصة الثقافة اليونانية وما يتصل بها من الفلسفة الطبيعية والمنطق ، وقد ظل يدافع عن المعتزلة ويجادل خصومهم جدالا عنيفاً ، وله فى ذلك كتاب مستقل سماه « فضيلة المعتزلة » . ويقول ابن المرتضى فى كتابه طبقات المعتزلة : « إنه أُغْرِىَ بشيئين : كون المعارف ضرورية والكلام على الرافضة (١) » والمراد الرد على الرافضة من الشيعة وبيان ما فى اعتقاداتهم من فساد. ويفسر الأشعرى قوله بأن المعارف ضرورية بأنه كان يذهب إلى أن « ما بعد الإرادة فهو للإنسان بطبعه وليس باختيار ، وليس يقع منه فعل باختيار سوى الإرادة(٢) » ويزيد الشهرستانى ذلك بياناً بقوله : « انفرد الجاحظ بمسائل منها قوله إن المعارف كلها ضرورية طباع وليس شىء من ذلك من أفعال العباد ، وليس للعبد كسب سوى الإرادة وتحصل أفعاله منه طباعاً ». (٣) ويقول البغدادى فى الفَرْق بين الفِرَق . « مما نسب إلى الجاحظ قوله : « إن المعارف كلها طباع ، وهى مع ذلك فعل للعباد وليست باختيار لهم ، ووافق ثُمامة ابن الأشرس فى أن لا فعل للعباد إلا الإرادة ، وأن سائر الأفعال تنسب إلى العباد على معنى أنها وقعت منهم طباعاً وأنها وجبت بإرادتهم (٤) » . ولعل فى ذلك كله ما يوضح رأيه فى أن المعارف ضروريةٌ طباعٌ ، يريد أنها تحصل بلا اكتساب ، إنما كل ما هناك أن الإنسان يوجه إليها إرادته ، فتحدث اضطراراً وطبيعة ومثلها أفعال الإنسان تحدث طبيعة واضطراراً ما دامت قد اتجهت إليها إرادته . فالمدار على الإرادة ، وما يحدث بعدها فناشئٌ عنها ، ويقول الشهرستانى إنه : «كان يقول بإثبات الطبائع للأجسام كما قال الطبيعيون من الفلاسفة ، وقال باستحالة عدم الجواهر فالأعراض تتبدل والجوهر لا يجوز أن يفنى » ، ويقول أحمد أمين : « وهى عبارة

(١) انظر كتاب طبقات المعتزلة لابن المرتضى (طبع بيروت) ص ٦٧ .

(٢) مقالات الإسلاميين ٢ / ٤٠٧ .

(٣) الملل والنحل للشهرستانى (طبع مؤسسة الحلبى) ١ / ٧٥ .

(٤) الفرق بين الفرق للبغدادى ص ١٧٥ .

على إيجازها تدل على معان عديدة فهو يقرر فيها القوانين الطبيعية للأشياء، فللماء وللنار ولأشياء هذا العالم كلها قوانين طبيعية لا تتخلف ، وهو يقرر المبدأ الهام الحديث وهو أن المادة لا تنعدم ، فالجوهر عنده لا يفنى وإنما تتغير الأعراض فجوهر المادة ثابت لا ينعدم ، وإنما يتحول ويتغير فيكون مرة ماء ومرة زرعًا ومرة معدنًا ومرة خشبًا، وهذه كلها أعراض طارئة على المادة ،وإن شئت فقل : إنها طارئة على العناصر الأولية التي تتكون منها المواد[١]» . وذكر الشهرستاني تكملة لنظرية الجاحظ في الطباع أنه كان يقول في أهل النار «إنهم لا يخلدون فيها عذابًا بل يصيرون إلى طبيعتها» ، وأنه كان يقول : النار في الآخرة تجذب أهلها إلى نفسها بدون أن يدخل أحد فيها ، فهي التي تدخلهم نفسها وتخلِّدهم فيها . وقد رد أبو الحسين الخياط على نسبة هذا القول إلى الجاحظ ، وقال إنه مما نسبه إليه ابن الراوندي الكذاب ، وقال إنه كذب عليه أيضًا في نسبته إليه إحالة فناء الأجساد وعدمها [٢]. ولعل في ذلك ما ينبهنا إلى أنه يجب الاحتياط في التعرف على آراء المعتزلة وأنه يحسن استقاؤها من كتبهم الخاصة .

وعاصر الجاحظ وتلاه كثير من المعتزلة في البصرة وبغداد ، وهم يكوِّنون في هذا العصر الطبقات السابعة والثامنة والتاسعة من كتاب طبقات المعتزلة لابن المرتضى ، ومن أهمهم أبو يعقوب يوسف بن عبد الله بن إسحق الشحَّام من أصحاب أبي الهذيل ، وإليه انتهت رياسة المعتزلة في البصرة في وقته[٣]، وكان يعاصره في بغداد جعفر بن مبشر وجعفر بن حرب ، وكانا ورعين زاهدين ، ويسوق أبو الحسين الخياط في كتابه الانتصار بعض آرائهما ، ويذكر أن أولهما صنَّف كتبًا كثيرة في الفقه ، وأن له كتابًا في الردّ على أصحاب الرأي والقياس في الشريعة[٤].

ومن تلامذة جعفر بن مبشر أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان الخياط الذي عاش حتى نهاية القرن الثالث الهجري . وكان من أكثر المعتزلة علماً بأقوالهم

---

(١) ضحى الإسلام (طبع ونشر مكتبة النهضة — الطبعة السابعة) ٣ / ١٣٥ .

(٢) الانتصار للخياط ص ٢١ — ٢٢ .

(٣) طبقات المعتزلة ص ٧١ .

(٤) الانتصار ص ٨١ .

واختلافاتهم ، وكان فقيهاً مثل أستاذه ومحدّثاً مرموقاً . وله كتب كثيرة فى الرد على ابن الراوندى ، نُشر منها — كما مر بنا فى غير هذا الموضع — كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندى الملحد ، وهو يدل بوضوح على سعة معرفته بآراء المعتزلة ، وكان ابن الراوندى نسب إليهم آراء كثيرة غير صحيحة ، فزيّفها وبيّن بطلانها ، ومن عجب أن نرى البغدادى فى الفرق بين الفرق والشهرستانى فى الملل والنحل ينسبان إليهم بعض هذه الآراء ، كما يتضح من المقارنة بين ما جاء فيهما عن الجاحظ مثلا وما جاء فى كتاب الانتصار . ويمكن من هذا الكتاب استخلاص كثير من آراء الخياط مؤلفه ، ومن آرائه المهمة ذهابه إلى أن المعدوم يُعَدّ شيئاً ، محتجا بأن الشىء ما يعلم ويخبر عنه ، وبذلك عدّ الجوهر جوهراً فى العدم والعرض عرضاً فى العدم ، وأطلق على المعدوم لفظ الثبوت[١] .

وأنبه من هؤلاء المعتزلة جميعاً وأشهر أبو على[٢] محمد بن عبد الوهاب الجُبّائى المتوفى سنة ٣٠٣ وهو تلميذ أبى يعقوب الشحام البصرى ، وهو وابنه أبو هاشم من معتزلة البصرة . ولعل خير ما يصور آراءه كتاب مقالات الإسلاميين للأشعرى تلميذه وفيه أنه كان يرى أن الله سبحانه لم يزل عالماً بالأشياء والجواهر والأعراض وأن الأشياء تُعْلَم أشياء قبل كَوْنها وتسمى أشياء قبل كونها وكذلك الجواهر والحركات والسكون والألوان والطعوم والأراييح والإرادات[٣] . وكأنه فى موقفه إزاء الأشياء يلتقى بالخياط فى رأيه الذى مرّ بنا آنفاً ، وقد حاول بعض خصومهما أن يلزمهما بأنهما يقولان بأزلية الأشياء وقدم الأجسام والجواهر والأعراض ، ومن المحقق أنهما لم يقولا بذلك إنما يريدان أزلية العلم الإلهى . ومن تتمة رأى أبى على أنه كان يرى أن ما علم الله أنه يكون لا بد أن يكون . وكان يرى أن من الذنوب صغائر وكبائر ، وأن الصغائر تستحق غفرانها باجتناب الكبائر ، وأن الكبائر تُحْبِط الثواب على الإيمان ، وكان يذهب إلى أن العزم على الكبيرة كبيرة والعزم على الكفر كفر[٤] . وكان يقول إن الله خير بما

---

(١) الشهرستانى ١ / ٧٧ .

(٢) انظر فى ترجمة أبى على الجبائى وآرائه طبقات المعتزلة لابن المرتضى ص ٨٠ ومقالات الإسلاميين للأشعرى فى مواضع مختلفة والشهرستانى ١ / ٧٨ ومذاهب الإسلاميين لعبد الرحمن بدوى ، الجزء الخاص بالمعتزلة والأشاعرة ص ٢٨٠ وما بعدها .

(٣) مقالات الإسلاميين ١ / ٢٢٢ .

(٤) مقالات الإسلاميين ١ / ٣٠٥ .

فعل من الخير ، وقال إن الأمراض والأسقام ليست بشرّ فى الحقيقة وإنما هى شر فى المجاز ، وكذلك كان قوله فى جهنم إذ كان يقول إن عذابها ليس بخير ولا بشرّ فى الحقيقة ، لأن الخير هو النعمة وما الإنسان فيه منفعة ، والشر هو العبث والفساد وعذاب جهنم ليس بصلاح ولا بفساد وليس برحمة ولا منفعة، ولكنه عدل وحكمة[١] .

وكان يرى أن معنى قوله تعالى : (الله نور السموات والأرض) إنما هو على سبيل التوسع ، ومعناه أنه هادى أهل السموات والأرض ، وأنهم يهتدون به كما يهتدون بالنور والضياء وقال إنه لا يجوز أن نسميه نوراً على الحقيقة إذ هو ليس من جنس الأنوار[٢] . وكان يُجِلُّ العقل إجلالا شديداً ، وهو إجلال كان يتابع فيه المعتزلة ، حتى ليمكن أن نسميهم جميعاً باسم العقليين ، غير أنه مضى فى الشوط إلى نهايته « فأثبت — وتابعه ابنه أبو هاشم — شريعة عقلية ، وردّ الشريعة النبوية إلى مقدّرات الأحكام ومؤقتات الطاعات التى لا يتطرق إليها عقل ولا يهتدى إليها فكر[٣] » .

ويقال إن تلاميذه حرّروا ما أملاه فوجدوه مائة وخمسين ألف ورقة، ولم يبق من مصنفاته الكثيرة سوى تفسيره .

وأبو هاشم[٤] الجُبَّائى عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب المتوفى سنة ٣٢١ لا يقل عن أبيه أبى على الجُبَّائى شهرة ، بل إنه يتقدمه فى الشهرة وذيوع الاسم ، بل لقد تحول المعتزلة فى القرن الرابع الهجرى إلى مذهبه وآرائه ، مؤمنين بأنه لم يبلغ غيره فى الكلام مبلغه . وأبوه هو أستاذه الذى خرّجه فى المباحث الاعتزالية ، وهو يتفق معه فى كثير من آرائه ، وينفرد عنه فى آراء كثيرة أيضاً ، يقول ابن المرتضى : « وقد استنكر بعض الناس خلافه على أبيه ، وليست مخالفة التابع للمتبوع فى دقيق الفروع بمستنكر ، وفى ذلك يقول أبو الحسن الكرخى :

يقولون بين أبى هاشمٍ ... وبين أبيه خلافٌ كثيرُ
فقلتُ وهل ذاك من ضائرٍ ... وهل كان ذلك مما يَضيرُ

---

(١) مقالات الإسلاميين ٢/ ١٩٥ .
(٢) مقالات الإسلاميين ٢/ ١٩٢ .
(٣) الشهرستانى ١/٨١ .
(٤) انظر فى ترجمة أبى هاشم تاريخ بغداد ١١ / ٥٥ وطبقات المعتزلة ص ٩٤ والفهرست ص ٢٦١ والملل والنحل للشهرستانى ١/٧٨ وما بعدها والفرق بين الفرق للبغدادى (طبعة محيى الدين عبد الحميد) ص ١٨٤ ومذاهب الإسلاميين لبدوى ١/ ٣٣٠.

فخَلُّوا عن الشيخ لا تعرضوا   لبحرٍ تضايقُ عنه البحورُ
وإن أبا هاشمٍ تِلْوُهُ   إلى حيث دار أبوه يدورُ
ولكنْ جَرى من لطيف الكلامِ   كلامٌ خفىٌّ وعامٌ غزيرُ

فهو قد دار مع أبيه فى آراء كثيرة ، واستقل عنه فى أخرى استقلالا ، لا يضيره ، فحبُّه أباه وتقديره شىء ، وحبه الحقيقة الاعتزالية وتقديره إياها شىء آخر . وأدرك الشهرستانى ما بين الأب والابن من الاتفاق ، فجمع بينهما فى فصل واحد ، عارضًا فيه أولاً وجوه اتفاقهما ، ثم ذكر ما خالف فيه أبو هاشم أباه . ولعل أهم نظرية عُرف بها هى نظرية الأحوال ، وهى نظرية تتصل بصفات الله الأزلية ، ومعروف أن المعتزلة نفوها من قديم ذاهبين إلى أنها هى عين الذات الإلهية ، فالله عالم بذاته ، أى علمه هو ذاته ، وهكذا بقية الصفات ، وقال أبو على الجبائى إن الله عالم لذاته وقادر لذاته ، وهلم جرًّا ، وتنبَّه أبو هاشم إلى فساد قول أبيه لما يترتب عليه من جعل الله علة لصفاته[١] . فحاول النفوذ إلى رأى دقيق وهداه عقله إلى أن الصفات أحوال تدرك بها الذات على نحو إدراكها للمعانى الكلية ، ويوضح ذلك الشهرستانى قائلا : «عند أبى هاشم هو عالم لذاته أى ذو حالة هى صفة معلومة وراء كونه ذاتًا موجوداً إنما تُعْلَمُ الصفة على الذات لا بانفرادها ، فأثبت أحوالا هى صفات لا موجودة ولا معدومة ولا معلومة ولا مجهولة ، أى هى على حيالها لا تُعْرَفُ كذلك بل مع الذات ، قال : والعقل يدرك فرقًا ضروريًّا بين معرفة الشىء مطلقًا وبين معرفته على صفة ، فليس من عرف الذات عرف كونه عالمًا ولا من عرف الجوهر عرف كونه متحيزاً قابلا للعرض[٢]» . وهى نظرية دقيقة ، إذ حاول بها أبو هاشم أن يلغى ما قد يُظَنّ من نفى المعتزلة : أبى الهذيل العلاّف وأضرابه للصفات الأزلية عن الله أنه ليس لها وجود مع أنها مكررة مرددة فى الذكر الحكيم ، فقد ذهب إلى أنها فى حال وسطى لا موجودة ولا معدومة ، وأنها تُدْرَكُ كما تدرك الكليات بدون أن تكون هى نفسها عين الذات ، وكأنه خشى أن يؤول ذلك عند بعض الناس إلى أن تكون جواهر أو أقانيم ، فأثبت أنها أحوال ، وفى الوقت

---

(١) أصول الدين للبغدادى (طبعة استانبول) ص ٩٢ .
(٢) الشهرستانى ١/٨٢ .

نفسه كان يرد على زميله الأشعرى كما سيلى عما قليل فى فكرته القائلة بأن الصفات الإلهية زائدة على الذات . ومن آراء أبى هاشم الطريفة تعليله للعقاب الأخروى إذ يقول : « إن القديم تعالى خلق فينا شهوة القبيح ونفرة الحسن ، فلا بد أن يكون فى مقابلته من العقوبة ما يزجرنا عن الإقدام على المقبّحات ، ويرغبنا فى الإتيان بالواجبات ، وإلا كان يكون المكلّف مُغْرًى بالقبح ، والإغراء بالقبح لا يجوز على الله تعالى [١] » . وكأنّه تنبّه بوضوح إلى أن الغرض من العقاب التربيةُ وأن يتحذّر الإنسان عواقب عمله الوخيم حتى ينتهى عنه . وكان أبوه يرى أن التوبة عن الصغائر تجب سمعًا وعقلا ، أما أبو هاشم فكان يرى أنها لا تجب إلا سمعًا ، لأن التوبة — فى رأيه — إنما تجب لدفع الضرر عن النفس ولا ضرر فى الصغيرة فلا التوبة تجب عنها [٢] . وكان أبوه يرى أن التوبة عن بعض الكبائر مع الإصرار على بعض آخر تصحّ ، أما أبو هاشم فكان يرى أنه لا تصح التوبة عن بعض الكبائر دون بعض ، فلا بد أن يتوب المذنب من جميع الكبائر توبة نصوحا[٣] .

وتلميذ ثان لأبى على الجُبّائى انفصل عنه بأكثر مما انفصل ابنه أبو هاشم ، بل لقد استطاع أن يقيم مذهباً جديداً لا يعارض به أستاذه فحسب ، بل يعارض به المعتزلة جميعا ، إذ أقامه على التوسط بين آرائهم وآراء أهل السنة ، حتى لقد عُدّ هو نفسه مذهب أهل السنة ، ونقصد أبا الحسن [٤] على بن إسماعيل ، سليل أبى موسى الأشعرى الصحابى الجليل ، المتوفى سنة ٣٢٤ ، وقد ظل على مذهب المعتزلة أربعين عامًا كان يختلف فيها إلى حلقات أستاذه أبى على الجبائى ، ثم تاب من القول بالعدل وخلْق القرآن وعدم رؤية الله بالأبصار وأن الإنسان يفعل أعماله بقدرته وإرادته الخالصة ، وظل يلقى محاضراته بالبصرة والناس يقبلون عليه إلى أن بدا له أن يتركها إلى بغداد وظل بها إلى وفاته .

وقد نُشرت له كتب مختلفة ، منها مقالات الإسلاميين التى رجعنا إليها مراراً ،

---

(١) شرح الأصول الخمسة للقاضى عبد الجبار ص ٦٢٠

(٢) المصدر نفسه ص ٧٩٢

(٣) المصدر نفسه ص ٧٩٤

(٤) انظر فى ترجمة الأشعرى تاريخ بغداد ١١/٣٤٦ والفهرست ص ٢٧١ والجواهر المضية فى طبقات الحنفية ١ / ٣٥٣ وابن خلكان وطبقات الشافعية للسبكى ٣٤٧/٣ والنجوم الزاهرة ٢٥٩/٣ ومذاهب الإسلاميين لبدوى ٤٨٧/١ .

ومنها رسالته : الإبانة عن أصول الديانة واللمع ، وهما يصوران مذهبه تصويراً دقيقًا ، وهو مذهب كما قدمنا يوازن بين آراء أهل السنة ، وكل مسألة تُذْكر فيها الأدلة العقلية والأدلة السمعية من الكتاب والسنة ، ونضرب مثلا لذلك البراهين على وجود الله ، وقد اشتقها من القرآن اشتقاقًا على هذا النمط الذى ساقه الشهرستانى إذ يقول : قال الأشعرى : الإنسان إذا فكر فى خلقته من أى شىء ابتدأ ، وكيف دار فى أطوار الخلقة طوراً بعد طور حتى وصل إلى كمال الخلقة ، وعرف يقينًا أنه بذاته لم يكن ليدبر خلقه ، ويبلغه من درجة إلى درجة ويرقاه من نقص إلى كمال — عرف بالضرورة أن له صانعًا قادراً عالمًا مريداً ، إذ لا يُتَصَوَّرُ صدور هذه الأفعال المحكمة من طبع لظهور آثار الاختيار فى الفطرة وتبين آثار الإحكام والإتقان فى الخلقة[1] » ، وواضح أنه يستلهم فى هذا البرهان ما جاء فيه من أطوار خلق الإنسان وتحوله من نطفة إلى علقة فضغة فعظام فكسوة من لحم ، ثم أطواره فى حياته . وإذا عرض مثلا لبيان أن الله لا يشبهه شىء أدلى بالبرهان العقلى ثم أتبعه بالبرهان السمعى من مثل قوله تعالى : (ليس كمثله شىء) . وعلى هذه الشاكلة دائمًا يسوق الأشعرى مع الأدلة العقلية الأدلة السمعية . وقلنا آنفًا إن مذهبه وسط بين مذهبى المعتزلة والمحدّثين ، وقد تابع الأولين فى تنزيه الذات العلية عن التشبيه وكل ما يتعلق بالتجسيد ، وأخذ بقول المحدّثين فى أن الله يُرَى بالأبصار يوم القيامة ، مستدلا على ذلك بأدلة سمعية أوضحها فى رسالته « الإبانة » إيضاحًا تاما وبأدلة أخرى عقلية أوضحها فى « اللمع » . وتوسط بين المعتزلة والجبرية فى أفعال الإنسان وخالقها ، فقد كان الجبرية يذهبون إلى أن الله خالق أفعال الإنسان ، وقال المعتزلة ، بل الإنسان هو الذى يخلق أفعاله ، وتوسط الأشعرى فقال إن أفعال الإنسان لله خلقًا وصنعًا وهى للإنسان كسبًا وإرادة فهو يريدها والله يخلقها فيه[2] . وكان يرى أن صفات الله أزلية قائمة بذاته ، فهى ليست عين الذات الإلهية كما يقول أكثر المعتزلة ولا هى أحوال كما قال أبو هاشم الجبائى بل هى زائدة على الذات قائمة بها[3] . وحاول التوفيق فى مسألة خلق القرآن بين المعتزلة والمحدّثين من أمثال ابن حنبل أى بين القولين القائلين بأن القرآن حادث أو هو قديم ، فقال إن « العبارات

---

(١) الشهرستانى ١ / ٩٤ .

(٢) اللمع ص ٤٥ وما بعدها .

(٣) الشهرستانى ١ / ٩٥

والألفاظ المنزلة على لسان الملائكة إلى الأنبياء عليهم السلام دلالات على الكلام الأزلى ، والدلالة مخلوقة محدثة ، والمدلول قديم أزلى[١]» ، وبعبارة أخرى كان يرى أن القرآن وكلام الله القائم بذاته قديم ، أما الكتاب الذى بين أيدينا والذى نزل به الوحى فى زمن من الأزمان فحادث . وأنزل العقل من مكانته القدسية عند المعتزلة وخاصة فى الإلهيات ، إذ قال إن معرفة الله وشئونه الإلهية ليس سبيلها ولا أداتها العقل ، بل الوحى والشرع ونصوص القرآن والسنة ، فالعقل عنده لا يوجب شيئًا ولا يقتضى تحسينًا ولا تقبيحًا ، ولا يوجب على الله رعاية لمصالح العباد ، والواجبات كلها واجبات بالسمع ، وقد تُحَصَّل معرفة بالعقل ، ولكنها لا تجب إلا عن طريق السمع[٢].

---

(١) الشهرستانى ١/ ٩٦

(٢) الشهرستانى ١/ ١٠١

الفصل الرابع

نشاط الشعر

١

علم الشعراء بأسرار العربية

كل من يتابع جهود اللغويين فى القرنين الثانى والثالث للهجرة يلاحظ تـوًّا كثرة ما أدوه للعربية وشعرائها من دراسات متنوعة ، فقد جمعوا مادتها الشعرية واللغوية جمعاً مستقصيا صوَّروه فى مباحث مفردة كمبحث عن الإبل أو الشجر أو الكلأ أو النخل و الكَرْم أو خَلْق الإنسان أو الميسر والقداح أو الأنواء ، وكمبحث عن الاشتقاق أو عن علامات التأنيث أو الهمز وتحقيقه أو عن فعلت وأفعلت أو عن الأضداد ، أو عن الوحش والسباع والطير والهوام وحشرات الأرض . وكادوا لا يتركون موضوعاً ولا صيغة لغوية فيها بعض الاشتباه إلا دوَّنوا فيها الرسائل القصيرة والطويلة . ثم ألَّفوا الكتب المجلدة . واستطاعوا منذ أواسط القرن الثانى للهجرة أن يضعوا قواعد النحو العربى وضعاً نهائيًّا و بالمثل قواعد الصرف والتصريف ، وأيضًا قواعد الأوزان الشعرية والقوافى ، بحيث أصبح الشعر العربى ولغته جميعًا مذلَّلين منقادين للناشئة ، وفى أثناء ذلك وُضعت القواعد لوضع المعجم العربى ، بحيث يضم بين دِفَّتَيْه كل الكلمات العربية المستعملة والأخرى المهملة ، على نحو ما هو معروف عن معجم العين المنسوب إلى الخليل بن أحمد ، وألَّف على غراره بأخرة من العصر ابن دريد معجمه المشهور : الجمهرة ، كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع .

وعلى هذا النمط أخذ اللغويون يجمعون للناشئة من الشعراء وغير الشعراء مادة اللغة ، كما أخذوا يبسطون لهم قواعدها النحوية والصرفية والموسيقية ، وقد مضوا منذ مطالع العصر العباسى يجمعون لهم عيون الشعر العربى فى مجاميع كثيرة ، غير ما جمعوه

من الدواوين القديمة الجاهلية والإسلامية، وما أخذوا يجمعونه من دواوين العصر
العباسى للشعراء النابهين، وكانوا يشرحون ما يجمعونه من أشعار تلك الدواوين
٦ حتى تفقهه الناشئة فقهًا حسنًا، وشاركهم الشعراء فى هذا الصنيع على نحو ما مر
بنا فى الفصل السالف مما صورناه عند أبى تمام والبحترى، وقد يكون مما دفعهما إلى
هذه المشاركة أنهما وجدا اللغويين يهتمون فى كثير من الأمر بالشعر الغريب،
ليتخذوا منه مادة للتعليم على نحو ما يلقانا فى كتابات ابن السكيت وثعلب، فأرادا
أن يقفا الناشئة بجانب ذلك على طرائف الشعر القديم والحديث، وكان كثير من
اللغويين قد عُنى بالترجمة للشعراء القدماء الجاهليين والإسلاميين، فانبرى بعض
الشعراء والأدباء يترجم للشعراء العباسيين فى كتب يفردها لهم، كما يلقانا فى كتاب
طبقات الشعراء المحدثين لابن المعتز وكتاب الورقة لمحمد بن داود بن الجراح، وجمع
ابن قتيبة بين القدماء والمحدثين فى كتابه «الشعر والشعراء». وكانت قد سبقت ذلك
كله كتب فى تراجمهم للأصمعى وأبى عبيدة ودعبل، وكتاب طبقات الشعراء
لابن سلام مشهور.

وكل ذلك مكَّن الناشئة من إتقان العربية والوقوف على كثير من أسرارها التركيبية والموسيقية، وزاد من وقوفهم على هذه الأسرار أن بيئة المتكلمين أخذت تُعْنَى منذ القرن الثانى الهجرى بتلقين الناشئة بعض قواعد البيان والبلاغة، حتى يحسنوا الجدل والحوار وحتى يخلبوا ألباب سامعيهم، وإذا هذه القواعد تتفجر على ألسنتهم عند بشر بن المعتمر وأمثاله، وإذا الجاحظ يؤلف فى ملاحظاتهم وملاحظاته البيانية كتابه «البيان والتبيين» مصوّراً فيه كثيراً من أسرار البيان العربى تصويراً يتيح للشباب أن يقفوا فى غير مشقّة على خصائص العربية وأن يتذوّقوا هذه الخصائص تذوقًا دقيقًا. وشارك الجاحظ فى هذا المجال كثير من اللغويين، على نحو ما مرَّ بنا فى الفصل السالف أمثال أبى عبيدة والمبرد، ولم يلبث أن انبرى شاعر نابه هو ابن المعتز لتصوير فنون البيان الشعرى الرائع فى كتابه «البديع» واستطاع أن يضع لها المصطلحات التى كانت تجمعها فى عصره، وأن يتيح لها من التعريف بها ووصف أساليبها ما لم يتح لمتكلم أو لغوى أو شاعر من قبله، باثا فى ثنايا ذلك ملاحظات دقيقة فى الفن الشعرى وجماله المتنوع الذى لا ينضب معينه.

ومعنى ذلك كله أن العربية بخصائصها الجمالية والموسيقية والصرفية والنحوية وُضعت تحت أعين الناشئة فى القرن الثالث الهجرى وضعاً علمياً دقيقاً حتى أصبح فى ميسور كل ناشئ أن يُتقنها ، إذ يستطيع أن يقرأ أشعارها فى غير عناء ويفهمها فى غير مشقة ويتذوقها فى غير تكلف ، بحيث يستطيع أن يسيغها ، بل أن يتمثلها تمثلا دقيقاً . على أنه يحسن أن نعترف بأن عربية مولدة أخذت تشيع على ألسنة العامة بجانب العربية الفصحى ،وكانت تتداولها الطبقات الدنيا وقد يشركها أفراد من الطبقات الوسطى ، وكانت تنتشر فى العراق على ألسنة النبط وأهل الذمة ، وساعد على انتشارها تحول مقاليد الحكم العباسى من أيدى الفرس أصحاب الحضارة العريقة إلى أيدى الترك، وكانوا لا يعرفون أى حضارة ولم يكن يعنيهم أن يحسنوا العربية، فاستخدموا اللغة الدارجة فى أحاديثهم ، وكان ذلك عاملا مساعداً فى إشاعتها لهذا العصر بين من يعلمون معهم فى الدواوين وأعمال الدولة المختلفة ، وليس ذلك فحسب ، فقد كان نفر من كتابهم يستظهرون على ألسنتهم بعض الكلمات العامية ، وعمّم ذلك بعض الباحثين فى الشعراء ، إذ رأوا ابن قتيبة يحيل كتابه « أدب الكاتب » إلى أسواط حامية يشوى بها وجوه الكتاب لعصره معلناً النكير عليهم لعنايتهم بالمنطق والفلسفة والهندسة وعلم الفلك ، مسجلا قعودهم عن التثقيف ثقافة عميقة باللغة واشتقاقاتها وأبنيتها، وكيف أنهم لا يعرفون المدلولات الدقيقة للألفاظ ولا مواضع استخدامها، مع جهلهم بكثير من الصيغ وما بينها من الفروق، فهم لا يعرفون فرق ما بين اسم المرة واسم الهيئة فى الصيغة، ولا كيف تتبادل الحروف أمكنتها، وكذلك الأفعال اللازمة والمتعدية ، مع ما يلوكون من الكلمات الفارسية .

وطبيعى أن هذه الحملة التى شنّها ابن قتيبة على الكتّاب لا تشمل جمهورهم ، إنما هى تشمل أفراداً منهم، لم يكونوا من بلغاء العصر ولا من كتّابه الممتازين ، ومن أجل ذلك يجب ألا نعممها فى الكتّاب فضلا عن الشعراء ، ويجب ألا يغيب عن بالنا أن اللغويين كانوا لهم بالمرصاد ، فمن انحرف منهم عن جادة الفصحى شنّعوا عليه وسقطوا به من حالق سَقْطَةً لا إقالة له منها أبداً، إذ كانوا يَعُدُّون أنفسهم حُماة الفصحى، وأن من نوّهوا به من الشعراء طار اسمه ومن أزْرَوْا به لم تقم له قائمة ، وكان الشعراء يسلمون لهم بهذه المنزلة، فكانوا يعرضون عليهم أشعارهم

وخاصة فى أول أمرهم ، كما يحدثنا أبو الشبل أحد الشعراء لعصر المتوكل إذ يقول : « لما عرض لى الشعر أتيت جاراً لى نحويا هو المازنى وأنا يومئذ حديث السن ، فقلت له إن رجلا لم يكن من أهل الشعر ولا من أهل الرواية قد جاش صدره بشيء من الشعر ، فكره أن يُظهره حتى تسمعه ، قال : هاته ، وكنت قد قلت شعراً ليس بجيد ، إنما هو قول مبتدئ ، فأنشدته إياه فلما سمعه نهرنى عليه وذمَّه[1] » ، ومنذ بشار بن برد فى العصر العباسى الأول نجد اللغويين يتعقبون الشعراء فى أساليبهم ، فكلما بدا من أحدهم انحراف عن جادّة الفصحى أعلنوا النكير عليه ، حتى لو كان فى انحرافه الظاهر إنما يقيس على أمثلة الشعراء القدماء وأبنيتهم أو على بعض أبنية العرب المسموعة ، ومما يصوّر ذلك عند بشار أنه رأى العرب يصوغون من الفعل فَعَلَى للدلالة على السرعة فيقولون حَجَلَى للدلالة على سرعة السير ، فقاس على هذه الصيغة وَجَلَى من الوَجَل قائلا :

والآن أقصَر عن سُمَيَّة باطلى ... وأشار بالوَجَلَى علىَّ مشيرُ

فأخذ كثير من اللغويين يحمل عليه مخطئًا له[2] ، وبشار محق ، لأن من حقه القياس ، وإذا كان من حقنا أن نقيس فى شئون الدين ، كما قرّر ذلك الفقهاء المعاصرون له من أمثال أبى حنيفة فأولى أن يقيس الشعراء فى أبنية اللغة واشتقاقاتها الصرفية ، وارتضت كثرة اللغويين منهم أن يخضعوا أحيانًا لضرورات الأوزان وأنغامها التى يصوغون عليها أشعارهم ، وسمّوا ذلك ضرورات شعرية ، غير أن بعض المحافظين المسرفين فى محافظتهم كانوا يعُدُّون الضرورات عيوبًا ، وكانوا لا يزالون يحصونها على الشعراء كما يحصون عليهم بعض أقيستهم مما لم يسمع عن العرب ، وظل ذلك دأبهم فى هذا العصر كما كان دأبهم فى العصر العباسى الأول حين كانوا يراجعون بشاراً وأضرابه . واحتفظ كتاب الموشح للمرزبانى بطائفة كبيرة من مراجعاتهم لمعاصريهم ، من ذلك قول على بن الجهم :

ونحن أناسٌ أهل سَمْعٍ وطاعةٍ ... يصحُّ لكم إسرارُها وعِلانُها

---

(١) الأغانى (طبع دار الكتب المصرية) ١٤ / ١٩٦ .

(٢) أغانى ٣ /٢٠٩ .

فقد ذكروا أنه أخطأ فى قوله : « علانها » بكسر العين وإنما سُمع عن العرب : « إعلانها » وكأن ابن الجهم صاغ من كلمة العلن عالنه كما قالوا أعلنه واشتق منها : عالنه عِلانًا . وسمعه المبرد يقول فى بعض حديثه : « أظنني مأزوراً فى قعودى» ، فقال : لقد نقص فى عينى حين سمعت منه هذا القول ، إذ المسموع موزور لا مأزور[١] ، وكأن ابن الجهم قاس هذه الصيغة على مثال مأجور ومأثور . وهذان المثالان هما كل ما رواه اللغويون من أخطاء ابن الجهم ، وحتى على فرض خطئه فيهما وأنه لم يُصبْ فى اجتهاده كان يحسن أن يغفروهما له وأن يشيدا بمدى معرفته للعربية وأمثلتها فى البنية والصياغة ، إذ لم يحدث أن أخطأ فيها — إن سلمنا لهما بهذا الخطأ — سوى مرتين . وشاعر ثان هو على بن محمد العلوى الكوفى المعروف بالحِمَّانى فقد أخذوا عليه خطأين : خطأ نحويًّا وخطأ اشتقاقيًّا صرفيًّا ، فأما الخطأ النحوى فى قوله :

وجْهٌ هو البدر إلا أن بينهما فضلاً تلألأَ فى حافاته النُّورُ
فى وجه ذاك أخاطيطٌ مسوَّدةٌ وفى مضاحكِ هذا الدرُّ منثورُ

فقد قالوا إن حق كلمة « منثور » فى آخر البيت الثانى النصب ، لأنها فى موقع الحال ، والطريف أن المرزبانى حاول إخراج الحمانى من هذا الخطأ وردَّه عنه ، فقال إن رفع منثور جائز بمعنى هو منثور[٢] ، والمسألة لا تحتاج إلى كل هذا التأويل فإن الحمانى تبادر إليه أن كلمة منثور خبر لكلمة الدر ، وكلمة « فى مضاحك هذا » متعلقة بها ، ولا عيب ولا خطأ فى ذلك . وأما الخطأ الاشتقاقى الذى عابوه على الحِمَّانى فى قوله :

أَرِقتُ وماليلُ المُضَام بنائمٍ وقد ترقُد العينان والقلبُ ساهرُ

فقد قالوا إن الصواب مَضيم بفتح الميم ، إذ لا يقال أضمته وإنما يقال ضمته[٣] فهى فى غير حاجة إلى التعدية بالهمزة . وربما سمع الحمانى من العرب من يقول أضام أو ربما قرأ ذلك فى بعض الأشعار القديمة . وهو على كل حال خطأ واحد يشهد

(١) انظر الموشح للمرزبانى (طبعة دار نهضة مصر) ص ٥٢٨ .
(٢) الموشح ص ٥٢٠ .
(٣) الموشح ص ٥٤٤ .

بسلامة لغته . وحتى البحترى الذى اشتهر بفصاحته وإتقانه للعربية وعلمه بأسرارها وقدرته البارعة على استخدام مفاتيحها الموسيقية نجد اللغويين يتوقفون بإزاء بعض استعمالاته ليثبتوا عليه الخطأ فى هذا الموضع أو ذاك، وقد زعموا أن من اللحن عنده قوله فى بعض شعره :

يا عليًّا بَلْ يا أبا الحسن الما لكَ رِقَّ الظريفةِ الحسناءِ

وواضح أن المنادى العلم ، وهو على ، فى أول البيت منصوب منون ، وحقه الضم[١] ، وهى مسألة يعرفها الناشئة ومن يَنْشُدون شيئًا من النحو ، وغريب أن يخطئَ فيها البحترى، وهو فعلا لم يخطئْ ، فإن رواية الكلمة فى الديوان « يا على » وإذن لا خطأ ، وقد يكون تقوَّل عليه ذلك بعض خصومه . وأخذوا عليه قوله فى الفتح بن خاقان :

يا مادحَ الفَتْحِ ويا آملَهُ لستَ امرأً خابَ ولا مُثْنٍ كذَبْ

فقد قالوا إن كلة « مثن» فى البيت كان حقها النصب ، فيقال مثنيًا ، لأنها معطوفة على منصوب هو كلمة « امرأ » وفاتهم أن البحترى رفع الكلمة على إضمار مبتدأ محذوف أى : « ولا أنت مثن كذب » ومن حقه أن يصنع ذلك حين يريده . وأخذوا عليه أيضًا قوله :

ولو أنصفَ الحسَّادُ يوماً تأمَّلوا مساعيك هل كانتْ بغيرك أَلْيَقَا

فإنه سكَّن كلمة « مساعيك » وكان حقها النصب : « مساعيَك » لأنها مفعول به ، وأنكروا عليه قوله فى مطلع رثائه للمتوكل :

محلٌّ على القاطول أخلق دَاثِرُهْ وعادتْ صروف الدهر جَيْشاً تغاوره[٢]

وقالوا المرويّ : دَثرٌ مُخْلِقَة ، ولا يقال : « أخلق داثره » لأن الداثر لا بقية له فتخلق أى تبلى وتستجد ، وهم مبالغون فى قولهم ، لأن العرب يقولون أطلال داثرة ، وهم يريدون بقاياها أو قل بقايا الديار قبل أن تُمْحَى محواً نهائيًّا .

---

(١) انظر فى هذا اللحن وما يتلوه مما أخذوه على البحترى الموشح ص١١٥ وما بعدها .

(٢) المحل هنا : قصر المتوكل الذى قتل فيه وكان قد بناه على جدول القاطول بسامراء .

ويلاحظ الصاحب بن عباد أنه ذكر الفعل الناقص : « نسيَه » بإشباع الياء وإسكانها بدلا من فتحها فى قوله[١] :

أَبو غالبٍ بالجودِ يذكر واجبي إذا ما غَبِيٌّ الباخلين نَسيه

وكأن ابن عباد لم يلتفت إلى أن البحترى إنما صنع ذلك لضرورة القافية التى تنتهى بها قصيدة البيت ، وأيضًا فإنه لم يلتفت إلى أن هذه لغة معروفة لطيئ قبيلة الشاعر إذ ينطقون مثل « رَضِيَ » بفتح الياء « رضى » بإسكانها وإشباعها . ومما يدل دلالة واضحة على تعنت اللغويين إزاء البحترى وغيره من الشعراء أن نجد صاحب خزانة الأدب يَرْوِى عنهم أنهم أنكروا عليه تسكين اللام فى كلمة « طَلْحاته » من قوله مادحًا :

عدلتم بِطَلْحَةَ عن حَقِّه ونكّبتمُ عن مـوالاتهِ
وكيف يجوز لكم جَحْدُهُ وَطلْحتكم بعضُ طَلْحاته

قالوا كيف يسوّغ لنفسه تسكين اللام والوجه أن تكون مفتوحة[٢] ، وواضح أنه صنع ذلك لضرورة الشعر ، ومعروف أنها تبيح للشاعر أن يخرج على القواعد النحوية والصرفية أحيانًا ، فما بالنا بالحركة والسكون حين يتبادلان مواضعهما وفى الحق أن كل ما أنكروه على البحترى مما يحق له ولا تجوز مؤاخذته عليه ، وهى صورة من التزمّت وضيق الأفق عند بعض اللغويين . ومما يدخل فى هذا الباب من التعنت القبيح أن نجد بعض اللغويين يستمع إلى ابن الرومى يمدح الموفق حين قضى على ثورة صاحب الزنج التى مرت بنا فى غير هذا الموضع ، فيقول فى بعض مديحه مخاطبًا الموفق :

ثناك له مقدارُه فكأنَّما تقوَّض ثَهْلانٌ عليه وصِنْدَدُ[٣]

فيعترض على نطقه : « صِنْدَدَ » بفتح الدال الأولى قائلا إنها « صند دٌ » بكسرها[٤] . وإنما أطلنا فى بيان ذلك كله لندل على أن اللغويين لم يكونوا يستطيعون

---

(١) الكشف عن مساوئ المتنبى للصاحب ابن عباد (طبعة القاهرة) ص ٩ .
(٢) خزانة الأدب للبغدادى ٣/٣٩٤ .
(٣) ثهلان وصندد : جبلان .
(٤) ديوان المعانى لأبى هلال العسكرى (طبعة بغداد) ٢/ ٥٦ .

أن يتعلقوا فى هذا العصر على الشعراء النابهين بأخطاء جوهرية فى اللغة أو فى التصريف ، بل لقد كانوا لا يزالون يلتقطون بعض الضرورات الشعرية ليعدوها أخطاء ، وحتى الحركات الداخلية فى الكلمات وأبنيتها كانوا لا يزالون يتعقبونها على نحو تعقبهم لابن الرومى فى كلمة « صندد » . وكل ما ذكره المرزبانى وسجله عن علماء اللغة فى هذا الباب لا يعدو مثل هذه الصور التى وصفناها ، ومثلها ما حاول بعض معاصريه أن يسجلوه مثل الصاحب بن عباد وأبى هلال العسكرى ، فإنهم لم يتجاوزا فى الغالب الضرورات الشعرية ، مما يدل دلالة قاطعة فى العصر على سلامة اللغة وسلامة الألسنة ، وحقًّا كما قلنا كانت هناك لغة عامية تتداول فى الحياة اليومية ، ولكنها ظلت لا تجور على العربية ، وظلت الناشئة فى كل مكان تتغذى بالفصحى وتتلقنها على أساتذتها النابهين . وكان هناك كثيرون لا يزالون يستخدمونها فى حياتهم اليومية العاملة ، كان ذلك يرفع منهم فى أعين الناس ، حتى ليقول إسحق[1] بن خلف الطَّنْبُورِىّ :

النحو يبسط من لسان الألْكن ... والمـرء تُعْظمه إذا لم يَلْحَنِ
وإذا طلبتَ من العلوم أجلَّها ... فأجلُّهـا عندى مقيمُ الألْسُنِ

وإذا كان الإعراب فى رأى بعض المغنين أو الضاربين على الطنبور يبلغ هذا المبلغ من المنزلة الرفيعة ، فأولى أن تكون منزلته أرفع وأعلى شأنًا عند الشعراء الذين عاصروه ، وفى الحق أنهم ظلوا يحافظون بكل قوة على الصياغة العربية فى المفردات والتراكيب وعلى قواعد الإعراب والتصريف ، بحيث نجد شاعراً ضخمًا مثل البحترى أو ابن الرومى لا يكاد اللغويون يتعلقون عليه بشىء ذى بال ، بل حتى الشعراء الذين اشتهروا بأنهم كانوا أميين لا يقرءون ولا يكتبون والذين لم يجالسوا العلماء لأخذ قواعد النحو والتصريف مثل الخُبْزأرزىّ ، الذى كان يخبز بالبصرة خبز الأرز ويبيعه فى دكان متكسبًا به ، والناس يزدحمون عليه لسماع شعره كان لا يعدو الفصحى فى نظمه .

---

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة (طبعة دار الكتب المصرية) ١٥٧/٢ .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يصور من بعض الوجوه كيف كان الشعراء يتزودون بالعربية الفصيحة أزواداً مكَّنتهم من الوقوف على خصائصها ودقائقها الإعرابية والصرفية ، بحيث نفوا عن أساليبهم كل الشوائب التى كان من المفروض أن تسيل من العامية المتداولة إلى الفصحى ، ولم ينفوها فحسب ، بل عملوا جاهدين على أن يحتفظوا بالصياغة العربية الأصيلة بدون أن يدخل عليها نبوٌ أو انحراف أو أى اعوجاج أو أى نقص فى الأداء . ويكفى أن يكون همّ جماعة كبيرة من اللغويين أن يتعقبوا سقطات شاعر مثل البحترى فيعوزهم المثال ، فيلجئون إلى بعض الضرورات الشعرية عنده يسجلونها ، ومعروف أن شاعراً لم يكثر فى هذا العصر كما أكثر ابن الرومى ، ومع ذلك لم يسعفهم الفحص فى أشعاره إلا أن يسجلوا فى بناء عنده حركة داخلية على تقدير صحتها إن سلم لهم ذلك . فإذا قلنا إن الشعراء فى هذا العصر تمثلوا العربية وأسرارها التركيبية أقوى تمثل وأروعه لم نكن مغالين ولا مُبْعدين ، بل لقد تمثلوا أسرارها الجمالية كما مر بنا تمثلا بارعًا ، وهو تمثل جعل الشعراء يُعْنَوْنَ عناية بالغة باختيار الألفاظ والملاءمة الصوتية بين اللفظة واللفظة فى الجرس ، بل بين الحروف نفسها ، حتى يلذ الشعر الألسنة التى تنطق به والآذان التى تستمع له والأفئدة التى تصغى إليه ، وما زال الشعراء مكبين على قيثاراتهم يستخرجون منها أعذب الأنغام ، حتى استطاع البحترى أن يصل من ذلك إلى كل ما كان يحلم به الشاعر العربى منذ وُجد امرؤ القيس حتى عصره ، فإذا شعره يستحيل أنغامًا وألحانًا خالصة .

والبحترى إنما هو رمز لحركة التمسك بالصياغة العربية ، بل التمثل لها بحيث تجرى فى نفس الشاعر سليقة الشعر العربى بكل سماتها وشاراتها وبكل معانيها وخواصها ، بل بحيث يفقه ذلك كله فقهًا تامًّا دقيقًا ، بما أتيح له عند العلماء وأصحاب البلاغة من ملاحظات جمالية ، تنبع من الثقافة بالشعر السابق قديمه وحديثه ومن الذوق المصفى المتحضر ومن الشعور المرهف الرقيق . وإذا لغة الشعر تصبح تارة رصينة ناصعة كأتم ما تكون النصاعة والرصانة ، وحينًا تصبح عذبة خفيفة تكاد تطير لخفتها ورشاقتها عن الأفواه طيرانًا . ومن هنا كنا نستطيع أن نقول إن أساليب الشعر فى العصر ظل لها رونقها وبهاؤها ، بل لقد ازدادت بهاءً

ورونقًا ، بفضل تمثل الشعراء الفريد فى العصر للصياغة العربية السليمة وبصرهم بأسرارها وحذقهم لخصائصها حذقًا جعلهم يُسَوُّونَ منها جواهر ولآلئ كثيرة . وإذن فمن واجبنا أن نحترس أشد الاحتراس من حديث يوهان فك فى كتابه « العربية » عن اتساع الضيم الذى دخل فى العصر على لغة الشعر وصياغته ، فإن هذا الضيم الذى ساقه حين يُبْحَث لا يعدو ما لاحظناه آنفًا عند البحترى ومعاصريه من أشياء تُعَدّ على الأصابع ، وهى تدخل جملة فى الضرورات الشعرية ، وكأن كل الضيم الذى خاله إنما هو سراب ظنه ماء ، ولا ماء هناك ولا ضيم حدث فى الفصحى على ألسنة شعراء العصر ، بل لقد كانوا يتقنون المعرفة بأسرارها ورسومها وصياغاتها الباهرة كأشد ما تكون المعرفة دقة وعمقًا .

٢

ذخائر عقلية خصبة

مرَّ بنا نشاط الترجمة فى العصر كما مر بنا النشاط العام للحياة العقلية ، حتى ليكاد يظن الإنسان أنه لم يكن هناك أحد لا تتسع قراءاته ، فتشمل جميع مواد الثقافات المعروفة حينئذ من عربية وإسلامية وأجنبية من موارد شتى : موارد هندية وفارسية ويونانية ، مع ما كان يداخل المعارف الهيلينية من موارد شرقية فارسية وغير فارسية . فكل ذلك كان تحت أبصار الناس من شباب وغير شباب ينهلون منه كما يشاءون دون حجاب ودون أية صعوبات ، فدار الحكمة مكتبة الدولة مفتوحة على مصاريعها ودور أخرى كثيرة عرضنا لها فى غير هذا الموضع ، ودكاكين الوراقين بالمثل تعرض كل ما يطلبه القارئ ، وحلقات المساجد تموج بالمحاضرين فى مختلف فروع المعرفة ، ولكل شخص الحق فى أن يستمع إلى ما يرغب فيه من هذه المحاضرات .

وأخذ العرب حينئذ يشاركون مشاركة قوية فعالة فى تاريخ الفكر الإنسانى ؛ فإذا علماء وفلاسفة عظام يأخذون فى الظهور بينهم ، ويكفى أن نذكر الخوارزمى العالم

الرياضى النابه واضع علم الجبر ، والكندى الفيلسوف أو أول فلاسفة العرب بالمعنى الدقيق لكلمة فلاسفة ، وهما معلمان كبيران فى العصر يدلان أقوى دلالة على نهضة العقل العربى وازدهاره حينئذ ، مما عرضنا لبعض مظاهره فى الفصل الماضى . وحدث فى أثناء ذلك أن أخذ بعض الأدباء يتجرد للمزج بين ثقافات العصر واستخلاص ثقافة عربية لها طوابعها ومشخصاتها المستقلة ، على نحو معروف عن الجاحظ المعتزلى ، وكان المعتزلة قد أكبوا منذ أوائل العصر العباسى فى القرن الثانى الهجرى على الثقافات الأجنبية يتزودون منها ، واستطاع كثيرون منهم أن يكوّنوا لأنفسهم نظريات تتصل بالطبيعة وما وراء الطبيعة مما صورناه فى كتابنا العصر العباسى الأول ، ونفذ الجاحظ فى العصر كما قلنا آنفاً إلى الوصل فى كتاباته بين الثقافتين العربية والإسلامية والثقافات الأجنبية ، بحيث غدت كتبه تغذّى العقول والقلوب ، فالأدب فيها يلتقى بالفكر والعلم التقاء خصباً مثمراً ، على نحو ما نجد فى كتابه «الحيوان». وخطا ابن قتيبة فى هذا الاتجاه من المزج بين الثقافات خطوة أخرى كما أسلفنا ، فمزج فى كتابه « عيون الأخبار » بين الثقافة العربية والثقافة الفارسية مزجاً قويا ، مزاوجاً بين طائفة كبيرة من الآداب فى الثقافة الأولى والآداب السياسية فى الثقافة الثانية ، مع ما أضافه من الحكم الطريفة التى جلبها من كتاب كليلة ودمنة المترجم عن الهندية ، وكذلك ما أضافه عن الثقافة اليونانية .

وكان طبيعياً لذلك كله أن تنمحى الأبعاد والفوارق بين الفكر العربى الخالص والفكر الأجنبى ، فإذا هما يمتزجان فى بيئة الشعراء وغيرها من البيئات ، وإذا كثير من الشعراء يتعمقون الفلسفة والثقافات الأجنبية ، وحقاً ظلت طائفة لا تُعْنَى بهذا التعمق على نحو ما مر بنا فى الفصل الماضى عند البحترى وأضرابه ، ولكن حتى هؤلاء وحتى البحترى نفسه لم يستطيعوا التخلص من معرفة بعض جوانب الفكر الأجنبى ، على حين نجد كثيرين غيره من أمثال ابن الرومى تعمقوا فى هذا الفكر ، بل لقد أقبلوا عليه يلتهمونه التهاماً ، بل لقد انقضوا عليه انقضاضاً ، وكأنما لا يريدون أن يبقوا منه بقية. على أنهم لم يفنوا فى هذا الفكر ، فقد ظلوا يحتفظون للشعر العربى بشخصيته ومقوماته الأساسية. فهم لا يذيبونه فى الفكر الأجنبى ، بل هم يخضعون هذا الفكر له ، أو بعبارة أدق هم يتخذون من هذا الفكر وسائل كى يتعمقوا فى تصوير المشاعر

والأفكار التي طالما عرض لها الشعر العربي ، مضيفين إليها معانى وخواطر حافلة بما يملأ النفس إعجاباً .

ولا ريب فى أن ذلك كان على درجات ، فمن الشعراء من كان يغرق فى التثقف بالثقافات الأجنبية ، ومنهم من كان لا يشق على نفسه ، فهو إنما يلم بأطراف منها تقل وتكثر حسب ملكاته العقلية ، ومهما أسرف الشاعر فى هذا الإلمام فإنه يحتفظ لأساليبه بالنصاعة والنقاء ، حتى من كان يرجع إلى أصول غير عربية ، فقد استقر فى نفوس جميع الشعراء الاحتفاظ بتقاليد الشعر الموروثة وأن يظل شعرهم موصولا بماضيه ، وحقاً حاول الشعوبيون أن يشككوهم فى هذا الماضى وأن يقطعوا صلتهم به ، ولكنهم لم يصيخوا إليهم ولا استمعوا إلى ضجيجهم ، فقد كانت شخصية الشعر العربى فى نفوسهم أقوى من أن تزعزعها أو تهزها صيحات هؤلاء الشعوبيين المارقين ، فلم يزايلوها ولا انحرفوا عنها ولا عن أصولها التقليدية . بل لقد استطاعوا أن يثبتوا مرونة هذه الأصول، وأنها تتسع لفنون البديع الجديد التى سجلها ابن المعتز اتساعاً كانت تحمل مقدماته فى صدورها من قديم ، بل لقد وجدوا فى مرونة هذه الأصول ما يمكنها من أن تحمل كل صنوف الغذاء الفكرى الجديد على اختلاف ألوانها، غذاء الفلسفة والمنطق والعلوم المختلفة وغذاء الآداب الفارسية واليونانية والحكمة الهندية ، فكل سيول هذا التراث الثقافى الأجنبى من كل جنس يستوعبها الشاعر العباسى ويتمثلها ويتقنها علماً وفقهاً وتحليلا دون أن ينحرف بشعره عن أصوله الموروثة ، بل إن هذه الأصول تونق وتزدهر ويصبح كل ما يُنْقَلُ إليها من الفكر الأجنبى عربى اللسان والصياغة المصفاة ، بل أهم من ذلك أن ذهن الشاعر العباسى يصبح ذهناً عميقاً يتغلغل فى حقائق المعانى نافذاً إلى دخائلها وأغوارها البعيدة ، نفوذاً يتيح له ما لا ينفد من الخواطر الشعرية المبتكرة .

وحقا أن هذا العمق فى ذهن الشاعر العباسى يلاحظ منذ بشار ومن تلاه فى القرن الثانى ، غير أننا كلما تقدمنا مع الزمن ازداد هذا العمق بعداً فى بواطن المعانى المستمرة ، وهو عمق رافقته صور كثيرة من دقة التحليلات والاستنباطات والتقسيمات ، فمن ذلك ما يرويه ابن قتيبة من أن بعض الشعراء أنشد الكندى الفيلسوف :

وفى أَربعٍ منى حَلَتْ منك أَربعٌ فما أَنا أَدرى أَيها هاج لى كربى

أوجهُك فى عينى أم الطعم فى فمى أم النطقُ فى سمعى أم الحب فى قلبى

فقال له الكندى : والله لقد قَسَّمتها تقسيماً فلسفياً[١] ، وتكثر مثل هذه التقسيمات بين الشعراء إذ كانت تُعَدُّ من بدع العصر ومستحدثاته الطريفة ، ومنها قول ابن المعتز فى جمال الذوائب[٢] :

سقتنىَ فى ليلٍ شبيهٍ بشعرها شبيهةَ خَدَّيها بغير رقيبِ

فأمسيتُ فى ليلين بالشعر والدُّجَى وخَمْرين من راحٍ وخَدٍّ حبيب

وهو تقسيم طريف لليل والخمر جميعاً . وعلى نحو ما كانوا يغربون فى التقسيم كانوا يغربون فى الأخيلة ، وقد نقلوا منها ما أعجبهم فى آداب العجم ، من مثل قول على بن الجهم فى وصف الورد :

أما ترى شجراتِ الورد مظهرةً لنا بدائعَ قد رُكِّبْنَ فى قُضُب

كأنهنَّ يواقيتٌ يُطيف بها زَبَرْجَدٌ وسْطَها شَذْرٌ من الذَّهَب

والصورة من قول أرديشير : « الورد ياقوت أحمر وأصفر ودر أبيض على كراسى زبرجد يتوسطه شذور ذهب»[٣] . ولا تكاد تُحْصَى صور الشعراء الطريفة ، بل إن صور شاعر واحد أكثر من أن تحصى ، غير أنه مما يلاحظ أنهم عُنوا كثيراً بأن يغرقوا فى الوهم والتجريد على شاكلة قول العطوى أحد متكلمى المعتزلة الحذاق[٤] :

فوحقِّ البيان يعضده البر هان فى مأْقِط أَلدِّ الخصامِ

هى تجرى مَجْرى الأَصالة فى الرأْ يِ ومجرى الأَرواح فى الأَجسامِ

وواضح مدى إغرابه فى الصورة إذ مثل صاحبته بجمال الأصالة فى الرأى ، وهى صورة فريدة ، وتوضح إحساس العطوى بما كان ينفذ إليه المعتزلة لعصره من تفكير أصيل منتهى الأصالة ، وهو تفكير كثيراً ما كان يدفعهم إلى صور غير

---

(١) ابن أبى أصيبعة ص ٢٨٧ .

(٢) زهر الآداب للحصرى ٣ / ١٦ .

(٣) ديوان المعانى للعسكرى ٢ / ٢٣ وانظر الديوان (طبعة المجمع العلمى بدمشق) ص١١١ .

(٤) معجم الشعراء للمرزبانى (طبعة الحلبى بالقاهرة) ص ٣٧٧ .

مألوفة من التجريد والوهم البعيد ، وكأن الحسين بن الضحاك استعار منهم قبسًا حين قال فى بعض غزله[١] :

إن من لا أرى وليس يرانى ... نُصْبَ عينى ممثَّلٌ بالأمــانى
بـأبى مَنْ ضميرُه وضميرى ... أبدًا بالمغيب يَنْتَجِيَــانِ
نحن شخصان إن نظرتَ وروحا ... ن إذا ما اختبرتَ يمتزجــانِ
فإذا ما هممتُ بالأمر أوهـ ... ـمَّ بشىءٍ بدأته وبَدانِى
كان وَفْقًا ما كان منه ومنى ... فكأنى حكيتُــه وحكانى
خطراتُ الجفون منا سواءٌ ... وسواءٌ تَحرُّكُ الأبدان

وهو يعبر عن اتحاده بالمحبوب وفنائه فيه حتى كأنما هما شخص واحد وروح واحدة وإن بديا شخصين وروحين فخواطرهما واحدة ، بل حتى حركات الأجسام واحدة . وكل ذلك بعد فى الخيال إلى درجة الوهم ، وعلى شاكلته قول ابن المعتز :

وشكوى لو انَّ الدمع لم يُطْفِ حرَّها ... تولَّد منهــا بينهن حريقُ

فلولا الدموع لاحترق العاشقان ، حرقتهما الشكوى الممضة التى لا يخمد أوارها ، وقد تكون الصورة حسية ، ولكن نشعر إزاءها بالبعد فى الخيال والإغراق فى الوهم كقول أبى العباس الناشئ المعتزلى فى وصف سحاب يهطل ولا يكفّ عن سقوطه[٢] :

خليلىَّ هل للمُزْنِ مقلةُ عاشقٍ ... أم النارُ فى أحشائه وهْى لا تدرى
سحابٌ حكتْ ثكلى أُصيبتْ بواحدٍ ... فعاجتْ له نحو الرياض على قبر

فالمزن أو السحاب مقلة عاشق ما تزال تتساقط منها حبات الدموع ، وما بريقه إلا نار العشق الملتهبة فى الأحشاء ، بل لكأنه ثكلى فقدت وحيدها ، فهى تبكى عليه بكاء مرًّا لا ينقطع . وللشاعر أشعار كثيرة فى الإشادة بأصحابه من المتكلمين

---

(١) أغانى (طبعة دار الكتب) ٧/ ١٨٧ .
(٢) زهر الآداب ١/ ١٧٧ .

وكيف أنهم ينيرون دياجى المشاكل المظلمة بأفكارهم الثاقبة، وكانت مناظراتهم لا تزال دائرة فى العصر على الرغم من استعلاء أهل السنة عليهم ، ولكنهم ظلوا يشعلون العراق بحجاجهم وحوارهم وجدالهم وظلوا يثيرون دفائن المعانى بردودهم ومناقضاتهم لخصومهم ، مما نرى آثاره عند الشعراء ، ومعروف أن الشاعر العربى من قديم كان يشكو طول الليل حتى ليبدو عند بعض الشعراء مظلماً لا آخر لظلامه، ويلم ابن بسام بهذا المعنى ، فينفى هذا الظلم عن الليل قائلا[1] :

لا أظلم الليل ولا أدَّعى … أن نجوم الليل ليستْ تَغُورْ
ليلى كما شاءتْ فإن لم تَزُرْ … طال وإن زارتْ فليلى قصيرْ

فالطول والقصر نسبيان ، وهما معلقان بصاحبته إن هى زارت قَصُرَ الليل وإن لم تزر طال ، وبذلك نقض المعنى على من سبقه نقضاً ، منصفاً لليل من الشعراء السابقين الذين طالما ظلموه. وقد يُقال : وأين شعر المعتزلة الذى استظهروا فيه عقيدتهم الاعتزالية ومصطلحاتهم الكلامية ، ويبدو أنه كان لهم شعر كثير فى هذا الباب سقط من يد الزمن ، فالمرزبانى فى معجم الشعراء يترجم لشخص منهم يسمى محمد بن دكين المتكلم ويذكر أن له أشعاراً يحض فيها على القول بالعدل والتوحيد ، غير أنه لا ينشد منها شيئاً[2] .

وليست الأشعار الاعتزالية فى نفسها شيئاً إلا ما قد تدل عليه من صلة أصحابها المعروفة بالفلسفة والفكر الأجنبى اليونانى وغير اليونانى، وأهم منها ما استودعه هذا الفكر فى العقل العربى من خصب ، ليس هو وحده مورده الوحيد ، بل لعل تفاعل هذا العقل مع عناصر الفكر الأجنبى كانت أكثر خصباً ، إذ استطاع أن يستوعبها ويتمثلها ، ويصطنع لنفسه من خلالها مواد لا تقل عنها روعة ولا جمالا ، وهى مواد يمكن رؤيتها رؤية واضحة فى كثرة التوليدات العقلية . ولا نبالغ إذا قلنا إنه لا يوجد شاعر فى هذا العصر إلا وقد نفذ إلى كثير من هذه التوليدات حتى الشعراء الشعبيون من أمثال الحمدونى إسماعيل بن إبراهيم ، ويروى أن أحد ممدوحيه وهو أحمد بن حرب المهلبى وهب له طيلساناً (ثوباً فارسياً)

---

(١) المختار من شعر بشار للخالديين (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٢٠ .

(٢) معجم الشعراء ص ٤٠٧ .

أخضر فلم يرضه ، فأخذ ينشد فيه مقطعات تجاوز بها الخمسين من مثل قوله[١] :

طَيْلَسانٌ لابن حرب جاءنى   قد قضى التمزيق منه وَطَره
فهْو قد أدرك نوحاً فعسى   عنده من علم نوحٍ خبره
أبدًا يقرأ من أبصرَهُ :   (أئذا كُنَّا عِظاماً نَخِرَةْ)

ولا شك فى أن هذه قدرة بارعة ، والحمدونى لم يملكها عفواً ، وإنما ملكها واستحوذ عليها بفضل خصب ملكته وما أتاحت الثقافة المعاصرة له من محصول غذاها به ، فإذا هو حين يتناول موضوعًا مثل طيلسان ابن حرب وأنه خَلَق بال يستطيع أن يعرضه فى صور متعددة لا تبلغ فى العدد أصابع يد ولا أصابع يدين ، بل تتجاوز ذلك إلى عشرات من المقطوعات ، ولكل مقطوعة صورتها الطريفة الخاصة .

ويكاد الإنسان يقطع بأنه لا يوجد شاعر فى العصر إلا وقد أذعن للثقافات المعاصرة المتنوعة واتخذ منها غذاء لعقله وقلبه ، وكأن شاعراً لا يستطيع منها فكاكًا ولا خلاصًا ، ونضرب مثلا بالبحترى الذى رأيناه فى الفصل السابق يحمل حملة شعواء على من يكلفون الشعراء دراسة المنطق والفلسفة ، فإننا حين نتصفح أشعاره نجد فيها آثار الثقافات التى عاصرته ، حتى لنراه يشيد بالعلم والمعرفة فى بعض ممدوحيه ، إذ يقول له[٢] :

عرف العالمون فضلك بالعلـ   ـم وقال الجهَّال بالتقليدِ

وهو لا يشيد بالعلم فحسب ، بل ينكر أيضًا التقليد وكأنه يدعو للاجتهاد واستخدام العقول ، بل إنه ليزعم أن التقليد جهل ما وراءه جهل ، وحرىٌّ بمن يدعو هذه الدعوة أن يطبقها على نفسه ، وأن يأخذها بالعلم والتثقيف ، وكل ما فى الأمر أنه لم يكن يسرف فى ذلك إسراف بعض معاصريه من الشعراء ولا كان يفرغ له ، فقد كان يعيش فى شعره مع نفسه أكثر مما كان يعيش مع الثقافة التى

---

(١) زهر الآداب ٢ /٢٣٥ .
(٢) ديوان البحترى (طبع دار المعارف) ١ / ٦٣٨ .

عاصرته ، بل إننا نحتاج إلى تقييد هذا الكلام ، فقد جمع من أشعار القدماء والمحدثين ديوان حماسة ضخماً . مما يؤكد أنه عكف على دراسة هذه الأشعار حتى استطاع أن يستخلص منها هذا الديوان ، وكأننا نعدم فى العصر الشاعر الذى لا يطلب الثقافة الفنية ، بل الثقافة العامة ، وكل من يتابع البحترى فى شعره يلاحظ أنه حوى لنفسه أطرافاً من تلك الثقافة أتاحت له أن يصبح من ذوى الملكات الخصبة ، وتثقفه بأشعار أستاذه أبى تمام ذائع مشهور ، وهى نفسها تحبب إلى من يديم النظر فيها أن يأخذ بحظ أو حظوظ من الثقافات المعاصرة ، وصوَّر بنفسه مدى تنوع هذه الثقافات وتنوع الكلام الذى يحملها فى قوله لبعض ممدوحيه[١] :

ولقد جمعتَ فضائلاً ما استُجْمِعَتْ ... يَفْنَى الزمانُ وذكرها لم يَهْرَمِ
مثلَ الكلامَ تفرَّقَتْ أنـــواعُهُ ... فِرَقاً وتَجْمَعُها حروفُ المُعْجَمِ

وحقًّا لم يكن البحترى صاحب تعمق فى معانى الشعر مثل أبى تمام أو مثل معاصره ابن الرومى ، ولكن كانت ملكته خصبة ، وكانت ما تزال تمده بخواطر لا تنفد ، ونستطيع أن نلاحظ ذلك فى سينيته التى وصف فيها إيوان كسرى وصفاً لم يُسْبَقْ إليه ، كما نستطيع أن نلاحظه فى تنوع اعتذاراته للفتح بن خاقان تنوعاً خلب معاصريه ، كما خلبهم عنده إبداعه فى وصفه لخيال المحبوبة أو طيفها حين يلم به فى رُؤَاه وأحلامه ، وتغنى الشعراء بالخيال قديم منذ أوائل العصر الجاهلى ، ولكن الجديد عند البحترى أنه استطاع بملكته العباسية الخصبة التى تقتدر على التوليد والإتيان بالصور المبتكرة والإكثار منها أن يستولى على إعجاب الأسلاف بمثل قوله[٢] :

سَقَى الغَيْثُ أَجْرَاعاً عهدتُ بجوِّها ... غزالا تُراعيه الجآذرُ أَغْيَدَا[٣]
إذا ما الكرى أهدى إلىَّ خيالَهُ ... شفى قربهُ التَّبْريحَ أو نَقَعَ الصَّدا[٤]
ولم أرَ مثْلَيْنَا ولا مثل شأْننا ... نُعَذَّبُ أيقاظاً ونَنْعَمُ هُجَّدا[٥]

---

(١) الديوان ٤/٢٠٦٦ .
(٢) الديوان ٢//٦٧٠ .
(٣) الأجراع : الرمال الطيبة . الجو : منخفض الأرض . الجآذر : بقر الوحش .
(٤) نقع الصدا : سكن الظمأ .
(٥) هجدا : نائمين .

وقوله (١) :

أَلَمَّتْ بنا بعد الهدوِّ فسامحتْ ⁂ بوصلٍ متى نطْلبه فى الجِدِّ تَمْنَعِ (٢)
وما بَرِحَتْ حتى مضى الليل وانْقَضَى ⁂ وأَعْجلها داعى الصباح المُلَمَّعِ (٣)
فولَّت كأَن البَيْنَ يَخْلُجُ شَخْصَها ⁂ أَوانَ تولَّتْ من حَشَاىَ وأَضلعى (٤)

وواضح ما فى الشطر الأخير بالأبيات الأولى من لفتة ذهنية واضحة ، ومثله آخر الأبيات الثانية فقد ولَّت وكأنها تُنْتَزَع من حشاه وأضلعه وروحه ، وكان يعرف البحترى كيف يمس قلب سامعه ، كما كان يعرف كيف يتأثر لنفسه ببعض الصور والمعانى ، فقد سمع أو حفظ قول القائل فى وصف أحاديث بعض النسوة وما يبْدِعْنَ فيه من جمال وسحر :

إذا هن ساقَطْنَ الأَحاديث بالضُّحَى ⁂ سِقاطَ حَصَى المرجان من كَفِّ ناظمِ

فما زال يدير البيت فى نفسه وما زال يحاول أن يضيف إليه إضافة بارعة ، وإذا ملكته تسعفه بقوله فى وصف لقائه بمن خلبت لُبَّه (٥) :

ولما التقينا والنَّقَا مَوْعِدٌ لنـــا ⁂ تَبَيَّن رامى الدُّرِّ منا ولاقِطُهْ (٦)
فمن لؤلؤٍ تجلوه عند ابتسامها ⁂ ومن لؤلؤ عند الحديث تُساقطه

ولعل أكبر شاعر فى العصر يصور ذخائر الفكر حينئذ فى الشعر ومدى ما أثرت الحياة العقلية فيه ابن الرومى ، ويبدو عنده بوضوح أنه عكف على جميع الثقافات التى عاصرته ، وأنه أخذ ينهل منها حتى تحولت إلى ذهنه وقلبه ، فإذا هو يستوعبها ، وإذا هو يتقنها ، بل إذا هو يتمثلها تمثلا نادراً ، وكان مما دفعه إلى ذلك دفعاً اعتناقه مبكراً مذهب الاعتزال ، وفى

---

(١) الديوان ٢/ ١٢٢٧ .
(٢) الهدو : شطر من الليل .
(٣) الملمع : الممزوج سواده ببياضه إشارة إلى أوائل الصباح .
(٤) يخلج : ينتزع .
(٥) ديوان المعانى ١ / ٢٣٨ وانظر الديوان ٢/ ١٢٢٨ .
(٦) النقا : قطعة من الرمل .

شعره ما يدل على حرصه الشديد عليه كقوله(١) :

أأرفض الاعتزال رَأياً كــلاّ لأنى بــه ضَنينُ

فهو يؤمن به ويعتنقه منحازاً إليه ، ولا يرضى به بديلا ، وإنه ليمنحه كل حبه ، حتى ليصبح ضنينًا به ، وكأنه غدا جزءاً من جوهر نفسه ، ولعله لذلك كان يحسُّ بواشجة رحم بينه وبين نظرائه ممن يعتنقون هذا المذهب الذى كان معروفًا حينئذ بمبدئين يجادل فيهما أصحابه طويلا ، وهما العدل على الله بحيث لا يعطل حرية الإرادة عند الإنسان حتى يكون مسئولا عن أعماله وينال ما يستحقه من الثواب والعقاب ، فلا جبر ولا حتم ولا إلزام ، ثم التوحيد وما يُطْوَى فيه من تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين ، فهو ليس بجسم ولا عرض ولا يحده زمان ولا مكان ، وإلى ذلك يشير فى بيان علاقته الوثيقة ببعض معاصريه قائلا له(٢) :

إن لا يكن بيننا قُرْبَى فآصِرَةٌ للدين يقطع فيها الوالدُ الولدا
مقالةُ « العدل والتوحيد » تجمعنا دون المضاهين : مَنْ ثَنَّى ومن جحدا

وواضح أنه يجعل لُحْمة الاعتزال فوق لحمة القربى ، وكأنه يؤمن بأن القربى دم أما الاعتزال فعقل وروح ، وهو لذلك فوق القربى وشائجَ وأواصرَ . ولا يهمنا أنه كان يؤمن بالاعتزال من حيث هو ، وإنما يهمنا أن الاعتزال وصله بالثقافات الأجنبية على اختلاف صنوفها وألوانها ، فقد كان المعتزلة يتصلون مباشرة بهذه الثقافات لدعم عقولهم من جهة ولتبين ما فيها من آراء فاسدة كانوا ينقضونها نقضًا ، وكانت أهم ثقافة أكبوا عليها الثقافة اليونانية بما فيها من فلسفة ومنطق ، وأكبَّ معهم كثير من الشعراء — وخاصة من كانوا يعتنقون الاعتزال — على هذه الثقافة ينهلون منها ويعبون ، وفى مقدمتهم ابن الرومى الذى يبدو أنه كان يفرغ لها وخاصة فى مطالع حياته ويُنْفق فى ذلك أوقاتًا طويلة ، مما أتاح لأشعاره أن تصطبغ بأصباغ عقلية واضحة .

وأول ما يطالعنا من هذه الأصباغ صبغ يعم جميع أشعاره كما تعم الخضرة أشجار

(١) ديوان ابن الرومى (نشر كامل كيلانى) ص ٩٢ .

(٢) ابن الرومى : حياته من شعره (طبع المكتبة التجارية) ص ٢٢٣.

الطبيعة فى الربيع ، ونقصد استقصاءه للمعانى ، فهو إذا ألمّ بمعنى لم يكد يترك فيه بقية لأحد من بعده ، وكان لذلك تأثير مهم فى قصائده إذ تبدو الأبيات فيها مترابطة ترابطاً لا يُعْرَفُ لأحد غيره من شعراء العربية ، ترابطاً يجعل البيت لا يُفْهَمُ تمام الفهم إلا إذا نظر القارئ فيما يسبقه وما يتلوه ، حتى لتصبح القصيدة بناء متكاملا متناسقاً ، مما يوثق الوحدة بينها لا الوحدة الموضوعية فحسب، بل أيضاً الوحدة العضوية ، إذ تصبح كُلا واحداً مؤلفاً من أجزاء ولكل جزء أو بيت مكانه ، بحيث لو نُزع منه إلى مكان آخر لنبا به المكان الجديد . ومنشأ ذلك أن الأبيات يتولد بعضها من بعض ، أو قل هى الأفكار والمعانى ما تزال تتوالد وتتشعب ، وكل شعبة تنشأ عن سابقتها وتلتحم بها لحمةَ القرابة ، بل لحمة الأعضاء فى الجسد الواحد .

وتتصل بهذا الجانب عند ابن الرومى خصائص عقلية كثيرة ، لعل أولها هذا الخصب الذى لا حد له ، فقد أصبح العقل العربى يتعمق المعانى حتى يصل إلى قاعها وقرارها ، ويستخرج كل ما كان مستوراً بها من لآلئ كانت خافية عن الأنظار، بل إن الشاعر يغوص فى مسارب المعانى فيطّلع على شُعَب لاتكاد تحصى وهما جانبان : جانب التشعيب والتفريع وجانب الكشف والاستقصاء ، حتى يتضح المعنى من جميع جوانبه ، وحتى نصبح كأننا نستمع إلى صور من الحوار المعروف عند المعتزلة ، فهم ما يزالون بحوارهم يثيرون دقائق المعنى حتى ينكشف من جميع أطرافه، وإذا هو واضح أشد ما يكون الوضوح بفضل علم المنطق الذى يستهدون به فى مباحثهم وبفضل ملكاتهم العقلية التى صقلها الفكر الفلسفى . وكأنما تحولت المعانى الشعرية عند ابن الرومى إلى صورة من صور حوارهم ، فهى تتفرع إلى أقصى حد ، وهى تتضح أيضاً إلى أقصى حد ، ولذلك كانت القصيدة عنده تطول طولا مسرفاً لا يُعْرَفُ لشاعر عربى من قبله ولا من بعده ، لأن المعانى تُذْكَرُ بجميع شعبها ، وما يزال يستقصيها حتى تبدو واضحة أشد ما يكون الوضوح وهو الوضوح نفسه الذى يُشْغَفُ به أهل المنطق أو قل من يعكفون على دراسة المنطق ، حتى يستأثر بكل ما يفكرون فيه ، وحتى يمنحوه عنايتهم الكاملة .

ليس من شك إذن فى أن شعر ابن الرومى يصور تعمقه فى دراسة المنطق وليبس

ذلك فحسب ، فإن المنطق بأقيسته وعلله يستحيل عنده شعراً وفنًّا ، فإذا بنا نتنقل فى طرائف لا تحصى من المعانى ، وكأنما أصبحت هذه الطرائف حدوداً للشعر ، فهو لا يُتَصَوَّر بدونها ، وإلا يكون شيئًا غَثًّا لا قيمة له ، وصوَّر ذلك ابن الرومى نفسه فى بعض حواره مع شاعر أنشده شعراً سليمًا من العيوب مطبوعًا عاريًا من دقائق المعانى ، فقال له : « نحن — أعزَّك الله — نطلب مع السلامة الغنيمة »[1] . فلا شعر بدون غنيمة أو بدون معنى مبتكر أو بدون قياس سديد أو تعليل لافت دقيق ، من مثل قوله[2] :

عدوُّك من صديقك مستفاد ... فلا تستكثرنَّ من الصِّحابِ
فإن الداء أكثرُ ما تراه ... يكون من الطعام أو الشراب

وهذا التحذير من الصديق يدور فى كثير من الأقوال والأمثال ، ولكن الطريف عند ابن الرومى هو التعليل البارع ، إذ قاس الصديق على الطعام والشراب الممتعين وكيف يستحيلان أحيانًا داء لا شفاء منه ، وكأنما يؤتى الحذر من مأمنه ، ومن تعليلاته الطريفة تعليله لمحبة الأوطان ، إذ يقول[3] :

وحبَّبَ أوطانَ الرجال إليهمُ ... مآربُ قَضَّاها الشبابُ هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكَّرتهمُ ... عهودَ الصبا فيها فحنّوا لذلكا
فقد ألفتْه النفسُ حتى كأنه ... لها جسدٌ إن بان غودر هالكا

وكان الشعراء قبله يتشوقون إلى أوطانهم ولا يعرفون العلة فى ذلك حتى كشفها لهم ابن الرومى ، فكل يتعلق بوطنه ويشغف به ، لأنه ملاعب صباه وشبابه التى لا يبرح خيالها ذاكرته ، والتى طالما ألفتها النفس وأنِستْ لها ، بل لقد التصقت بها التصاق الروح بالجسد ، بحيث لو انفصم أحدهما عن صاحبه أصبح فى الهالكين . وتكثر فى شعر ابن الرومى كثرة مفرطة التعليلات والأدلة والأقيسة كقوله فى بعض غزله[4] :

(١) ذيل زهر الآداب (طبع المطبعة الرحمانية بمصر) ص ١٩٠ .
(٢) الديوان ص ١٣٩ .
(٣) الديوان ص ١٣ وزهر الآداب ٩٩/٣ .
(٤) زهر الآداب ١ /١٢ .

لا تكثرنَّ ملامةَ العُشَّاقِ فكفاهمُ بالوجد والأشواقِ
إن البلاءَ يُطاق غيرَ مضاعفٍ فإذا تضاعف كان غير مُطاقِ
لا تطفئنَّ جَوًى بلومٍ إنَّه كالريح تُغْرِى النار بالإحراقِ

فهو يقيس تكرار اللوم للعشاق على تضاعف البلاء الذى لا يطاق ، ولا يكفيه هذا القياس ، وإذا هو ينفذ إلى قياس بديع ، فالهوى نار مشتعلة فى الصدور ، واللوم ريح عاصفة تفرقها يمينًا وشمالا ، حتى تأتى على كل ما تجاوره ، وكأنما لا يزال يغريها بأن تزداد تلظيًا وإحراقًا واشتعالا . وبجانب هذه القدرة لدى ابن الرومى على الأقيسة والعلل ، نحس قدرة فائقة على الجدل وكسب القضية بالحق وغير الحق ، وكأنه معتزلى كبير يناقش بعض مسائل الاعتزال ويحاول أن ينقض على خصمه حججه وأدلته ، أو قل إنه يُدلى بحجج وبراهين تمحو كل براهينه وحججه ، وهى براهين وحجج شعرية ، فيها فن وفيها جمال وفيها حس الشاعر وفطنته ، من ذلك أن يجد الناس من حوله مجمعين على إيثار الورد على النرجس ، فيرد عليهم إجماعهم بالدليل القاطع والبرهان الساطع يقول[1] :

خجلتْ خدودُ الورد من تفضيلهِ خَجَــلاً توردُها عليهِ شاهدُ
أين العيونُ من الخدود نفاسةً ورياسةً لولا القياسُ الفاسدُ

فاحمرار الورد الذى طالما شبَّهه الشعراء بالخدود إنما هو احمرار خجل من تفضيل من لا يقدرون الجمال له على النرجس الذى يشبهه الشعراء بالعيون ، وأين الخدود من العيون روعة وجمالا ، وهو بون بعيد لا يخطئ فيه إلا أصحاب القياس الفاسد الكليل . ومما يتضح عنده فيه أثر الاعتزال واختلاطه بالمعتزلة أن نراه يعمد إلى ذم شىء ذمًّا طبيعيًّا ، لأنه يستحق الذم ، ثم يعمد بعد ذلك إلى مدحه ، بيانًا لقدرته فى الحجاج والجدل . ويُنْسَب إلى الجاحظ كتاب فى المحاسن والأضداد بعامة ، وهو منحول عليه ، ولكنا نجد معاصراً لابن الرومى هو إبراهيم بن محمد البيهقى يؤلف كتاب المحاسن والمساوى وهو منشور ، ويدل بوضوح على أن الناس شغفوا فى العصر — يقودهم المعتزلة من أمثال الجاحظ — بمدح الشىء وذمه ، وعلى

---

(١) الديوان ص ٣٨٩ .

قبس من هذا الصنيع عمد ابن الرومى إلى ذم الحقد البغيض ، فقال[١] :

الحقدُ داءٌ دفينٌ لا دواءَ له يَرِي الصدورَ إذا ما جَمْرُهُ حُرِثا[٢]
فاستَشْفِ منه بصفحٍ أو معاتبةٍ فإنما يبرئُ المصدورَ ما نفثا[٣]

فالحقد داء لا يمكن الشفاء منه ، وما يزال جَمْره متقداً فى الصدور ولا يمكن إطفاؤه ، ويحاول ابن الرومى أن يكتشف دواء لصاحبه ، فيوصيه بالصفح والعتاب فقد ينفسان عنه بعض الشيء ، ولكن أى تنفيس ؟ إنه تنفيس المصدور الذى قد ينفس عنه الحظة ما ينفثه ، وسرعان ما ينطوى صدره ثانية على مرضه أو قل على هذا الجمر جمر الحقد الذى يشوى صدر صاحبه شيًّا . وابن الرومى فى ذلك كله متفق مع الناس جميعًا فى ذم الحقد الكريه ، ولكن أليس من حقه أن يُغرب عليهم كما يغرب أحيانًا المعتزلة أصحاب الحجاج واللسن واللدد فى الخصومة ، فيمدح لهم الحقد البشع ويحيله شيئًا مستحبًا لا بشاعة فيه ولا قبح ، يقول[٤] :

وما الحِقْدُ إلا تَوْأَمُ الشكر فى الفتى وبعضُ السجايا يَنْتَسِبْنَ إلى بعضِ
فحيث تَرى حِقْدًا على ذى إساءةٍ فثَمَّ ترى شكرًا على حَسَن القَرْضِ
ولولا الحقودُ المستكنّاتُ لم يكن لينقضَ وِتْرًا آخر الدهر ذو نَقْضِ

فالحقد توأم للشكر وقرين له ، وحرى بنا إذا تأملنا فى حقيقته أن نعيد النظر فيه ، فإنه يُستَحَبّ إزاء بعض الأشخاص ممن يسيئون إلى الناس ، بينما يستحب الشكر إزاء من يحسنون القرض والتفضل على من حولهم ببعض ما أنعم الله عليهم . ويلفت ابن الرومى إلى دليل قاطع يدل على أن الحقد محمود ، فلولاه لضاع الوتر أو الثأر ولم يأخذ موتور حقه من واتر . وبذلك استطاع أن يخرج الحقد الذميم فى صورة حسنة محمودة ، بفضل مهارته فى الحوار والجدل ، وكأنه معتزلى كبير يدافع عن قضية من قضايا المعتزلة الشائكة . وكثيرون من الشعراء وراءه أفادوا على شاكلته من حوار المعتزلة ومناظراتهم ، كما أفادوا من ثقافات العصر ما استحالت به ملكاتهم

(١) الديوان ص ١٣٧ .
(٢) يرى : يشعل .
(٣) المصدور : المريض بذات الصدر أو الرئة .
(٤) الديوان ص ١٦٣ .

العقلية خصبة إلى أبعد حدود الخصب ، بحيث أتاحت لهم ما لا يحصى من دقائق المعانى والأخيلة .

٣

التجديد فى الموضوعات القديمة

ظلت الموضوعات القديمة المألوفة من مدح وغير مدح وهجاء تسيطر على الشعر والشعراء ، وكأنما كان هناك إصرار قوى أن تظل للشعر العربى شخصيته وموضوعاته وأن يظل حيًّا على الألسنة مع حياة الأمة ، فلا يضعف ولا يذوى عوده ، بل يقوى ويزدهر ، غير متحوّل عن أصوله ، مهما غذّته الثقافات الفلسفية وغير الفلسفية ومهما عبَّر عن الحضارة العربية الحديثة ، فهو موصول دائمًا بقديمه ، شأنه فى ذلك شأن الآداب الحية التى لا تنقطع صلتها بماضيها ، مهما وقع عليها وعلى أهلها من تأثيرات حضارته وثقافته ، إذ تظل متصلة بها اتصالا يمكّن لها فى التاريخ وفى الخلود . وحقًّا تنعكس على موضوعات الشعر حينئذ آثار حضارية وثقافية كثيرة ، ولكنها لا تُحْدِثُ تعديلا فى جوهرها ، فجوهرها ثابت ، إنما تحدث بعض إضافات تكثر وتقل حسب ملكات الشعراء وحسب ما كانوا يتغذون به من الثقافات وما كان يداخلهم من إعجاب إزاء مظاهر الحضارة الجديدة .

وأول ما نتحدث عنه من الموضوعات المديحُ ، ومعروف أن الشاعر الجاهلى كان يصوّر فيه المثل الخلقى الرفيع فى عصره ، من الكرم والشجاعة والوفاء وحماية الجار والحلم والحزم وإباء الضيم وحصافة العقل ، حتى إذا كان العصر الإسلامى أخذ الشاعر يضيف إلى هذه المثالية مثالية الدين ، وخاصة إذا كان يمدح خليفة ، وكانوا يسجلون أعمال الخلفاء والولاة وما ينشرون من الأمن والعدالة التى لا تطيب حياة الناس بدونها ، وسجلوا أيضًا مواقع القواد مع الترك وغيرهم وبطولاتهم الحربية المختلفة . وبذلك كانت المدحة فى العصرين الجاهلى والإسلامى تشتمل بما تعرض من مثاليات على أسس قويمة خلقية ودينية لتربية الشباب ، كما كانت تشتمل على أعمال الدولة وأمجاد العرب الحربيه . وكل ذلك اضطرم اضطرامًا فى المدحة عند

شعراء العصر العباسي الأول ، مع محاولاتهم الجادة فى التطور بمعانى المديح عمقًا وسعة وتنوعًا ، وظلت رغباتهم ومحاولاتهم فى هذه الإضافة تزداد خصبًا فى هذا العصر ، وهم فى ذلك لا ينسون مثالية المديح الموروثة ، فإذا مدحوا خليفة أو واليًا أو قائداً تمثلوا فيه الفضائل العربية مرسومة ، وكذلك الفضائل الإسلامية ، وتمثلوا أيضًا العدل الذى يعصم الحاكم من الطغيان ويعصم الشعب من العبث والظلم والفساد. ويتردد ذلك دائمًا على ألسنة الشعراء من مثل قول البحترى فى المتوكل ، وكان اسمه جعفراً[١] :

خَلَقَ اللهُ جَعْفَرًا قَيِّمَ الدُّنْـ ... ـيَا سَدَادًا وقيِّمَ الدين رُشْدَا

أظهر العدلَ فاستنارتْ به الأَرْ ... ضُ وَعَمَّ البلادَ غَوْرًا ونَجْدا

وقد مضى الشعراء يُضَمِّنون هذه المثالية على الخلفاء فى الحكم وفى التقوى وأيضًا فى الخلق والشيم ، مهما كانت سيرتهم وكأنهم لم يكونوا يفكرون فيهم من حيث هم إنما كانوا يفكرون فيهم من حيث خلافتهم وقيامهم على حكم الرعية ، وهم لذلك يرفعون أمام أعينهم ما ينبغى أن يكون عليه الخليفة فى خلقه وفى دينه وفى سيرته وفى حكمه ، وكأنما هو رمز ، رمز للأمة فى حاكمها الرشيد ، وهم يبرزونه لها بالصورة التى تريدها ويريدونها معها ، صورة الحاكم المخلص الأمين الذى ينكر الظلم أشد الإنكار ، والذى يعمل بكل ما فى وسعه على إشاعة العدالة بين أفراد رعيته حتى يتساووا فى الانتفاع بالحياة تساوياً تامًا . وكان هنالك من يبالغون فى مديح الخلفاء حتى ليضفون عليهم صفات قدسية ، وهى صفات خلعها شعراء الشيعة على أئمتهم منذ عصر بنى أمية ، وأخذ شعراء الخلفاء من حينئذ يستعيرونها ليسبغوها بدورهم على الخلفاء الأمويين والعباسيين ، من مثل قول ابن الجهم فى المتوكل[٢] :

إمامُ هُدًى جَلَّى عن الدين بعد ما ... تعادتْ على أشياعه شِيَعُ الكُفْرِ

وقوله[٣] :

له المِنَّةُ العُظْمَى على كل مسلمٍ ... وطاعتُه فرضٌ من الله مُنْزَلُ

---

(١) الديوان ٢ /٧١٢ .

(٢) الديوان ص ٢٢٢ .

(٣) الديوان ص ١٦٤ .

فهو الهادى المهدى الذى تجب طاعته على جميع المسلمين ، وكان الشعراء من وراء ابن الجهم يبالغون فى بيان ذلك مبالغات شتّى ، مما سنعرض له فى غير هذا الموضع . ونرى كثيرين منهم يسجلون الأعمال الكبرى فى عصور الخلفاء ولنأخذ مثلا المتوكل ، فجميع أعماله مثبتة فى دواوين الشعراء وفى كتب التاريخ ، فمن ذلك أمره لأهل الذمة بلبس الطيالسة العسلية والزنانير مما وقفنا عنده فى الفصل الأول ، فقد تغنى بهذا العمل ابن الجهم فى أشعاره[١] ، ومن ذلك عقده البيعة لبنيه الثلاثة : المنتصر والمعتز والمؤيد ، فقد تغنى شعراؤه بهذا الصنيع طويلا[٢] .

ويكثر فى عهده بناء القصور على نحو ما أسلفنا ، وكلما شاد قصراً نوّه الشعراء به وبروعة بنائه وما يدل عليه من مظاهر الحضارة والعمران لعصره. وليس هناك حادثة جُلَّى من سجن وزير وتعذيبه مثل ابن الزيات ، أو غضب على قاض وتصفية أمواله مثل ابن أبى دؤاد ، أو على طبيب وقبض أمواله مثل بَخْتَيْشُوع أو على كاتب من كتاب الدواوين أو على بعض الولاة إلا ويسجل الشعراء ذلك فى أشعارهم مما يجعلها بحق وثائق تاريخية ، وأروع ما سجلته هذه الوثائق أمجاد قوادنا وأبطالنا وجيوشنا فى حومات الوغى شمالا وشرقاً ، وهى ليست تاريخاً يُسْرَدُ كما تصنع كتب التاريخ ، وإنما هى أناشيد انتصارات رائعة لجنودنا وقوادهم البواسل فى حروب الروم والترك والأرمن ، وماتنى الجيوش العربية تخوض إليهم بحوراً من الدماء منزلة بهم صواعق الموت التى لا تبقى ولا تذر . وكان من أبطال هذه المعارك لعهد المتوكل يوسف بن محمد الثغرى ، وكان المتوكل قد ولاه بعد وفاة أبيه على أرمينية ، وكانت قد نشبت بها ثورات فأخذ يسحقها بجنوده المغاوير سحقاً ، وفيه وفى انتصاراته على بعض البطارقة الأرمنيين يقول البحترى[٣] :

هو الملكُ المرجوُّ للدين والعُــلا ... فللَّه تَقْواه وللمجد سائرُهْ
له البأْسُ يُخْشَى والسماحة تُرْتَجَى ... فلا الغيث ثانيه ولا الليل عاشِرُهْ[٤]
كَسَرْتَهُمُ كَسْرَ الزُّجاجةِ حِــدَّةً ... ومن يجبر الوَهْىَ الذى أنت كاسرُه
حسامٌ وعزمٌ كالحسام وجَحْفَلٌ ... شِدادٌ قُوَاهُ مُحْصَدَاتٌ مَرَائرُه[٥]

(١) الديوان ص ١٩٢ .
(٢) الطبرى ٩ /١٨١ .
(٣) الديوان ٢ /٨٧٧ .
(٤) عاشره : يبلغ معشاره .
(٥) محصدات : محكمات . مرائره : قواه ، وأصلها طاقات الحبال .

وليست هناك وقائع حربية كبيرة إلا ودوّن الشعراء فيها البطولات العربية ، وكان من أهم هذه الوقائع ثورة الزنج ، وقد تغنى الشعراء فيها ببطولة الموفق غناء مدويا ، ونرى الطبرى يسجل فى تاريخه طائفة كبيرة من أشعار هذا الغناء . وبالمثل نراه يدوّن أغانى وأناشيد أخرى فى حروب القرامطة ، وكأنما استقر فى نفوس المؤرخين أن الشعر الذى تغنّى بهذه الحروب ووصفها لا يقل أهمية عن وثائق التاريخ ، فهو ليس مديحًا للبطولات وتمجيداً فحسب ، بل هو أيضًا تاريخ ، وهو تاريخ نابض بالحياة . ومن المحقق أنه حتى الآن لم يستغلّ هذا التاريخ الشعرى فى كتابة تاريخ العصر ، إذ كثيراً ما يحوى من التفاصيل ومن دقائق الأحداث مالا نجده مصوراً فى كتب التاريخ ، ولذلك كان ينبغى على المؤرخين ألا يكتفوا بما يقرءون فى كتب التاريخ عن الأحداث والوقائع الحربية ، بل يضموا إلى ذلك وصف تلك الوقائع والأحداث المبثوث فى دواوين الشعراء ، حتى يطلعوا على كل جوانبها اطلاعًا مضبوطًا دقيقًا .

وظل شعراء المديح فى كثير من مدائحهم يقلدون الأقدمين فى الوقوف على الأطلال والبكاء على الدمن والآثار العافية ، وفى رأينا أن استبقاء الشاعر العربى على مدى العصور الماضية لهذا المطلع فى كثير من قصائده لم يكن لبيان صلته بأسلافه ولا استبقاء لصورة من صور حياتهم الرعوية فى العصر الجاهلى وما كان يتصل بها من الرحلة الدائرة حول مساقط الغيث والكلأ . وإنما كان لإحساس الشاعر إحساسًا عميقًا بتعبير هذا المطلع عن كل ما ينمحى من حياة الإنسان إلى غير مآب ، سواء فى ذلك حبه وغير حبه ، فدائمًا لحظات ماضيه تذهب منه إلى غير مآب فى الشباب وغير الشباب ولا يستطيع لها رجعة ولا أوبة . وكأنما تصوّر الأطلال نوازع الفناء التى تطبق مخالبها على كل ما يمضى من حياة الإنسان ، وعادةً تُطْبِقُ هذه المخالب عليه آخر الأمر ، فيصبح أثراً بعد عين . وهو لذلك يقف بالأطلال باكيًا بدموع غزار ، متمنيًا لو عادت إليها نضرة الحياة القديمة . ولذلك قد يستسقى لها السحاب حتى تعود إليها النباتات والظلال وحتى تدبّ فيها الحياة ، فمن ذلك قول ابن المعتز يصف داراً وأطلالا[1] :

---

(١) الديوان (طبعة دار صادر ببيروت) ص ٣٥٤ وزهر الآداب ١ / ١٦٦ .

لا مثل مَنْزلة الدُّوَيْرَةِ منزلٌ ... يا دارُ جادكِ وابلٌ وسقاكِ
بُؤْساً للدهرِ غَيَّرَتْكِ صُرُوفُهُ ... لم يَمْحُ من قلبي الهوى ومحاكِ
لم يَحْلُ للعينين بعدكِ منظرٌ ... ذُمَّ المنازلُ كلُّهن سواكِ
أيُّ المعاهد منك أندبُ طيبَه ... مُمْساكِ بالآصال أم مَغْداكِ
أم بَرْدُ ظِلِّكِ ذى الغصون وذى الجَنَا ... أم أرضكِ المَيْثاءُ أم رَيَّاكِ[1]
وكأنما سَطَعَتْ مجامرُ عَنْبَرٍ ... أوفُتَّ فَأْرُ المِسْكِ فوق ثَرَاكِ
وكأنما حَصْباءُ أرضك جـوهرٌ ... وكأن ماءَ الورد دمعُ نَدَاكِ
وكأنما أيدى الربيع ضُحَيَّةً ... نشرتْ ثيابَ الوَشْىِ فوق رُبَاكِ

وابن المعتز يلمُّ بتلك الدار ، ويراها وقد فقدت بهجتها القديمة وغيَّرتها صروف الزمان حتّى محت أطلالها الدوارس ، ولا يزال هواه بها ماثلا فى قلبه ، وهو يدعو لها الغيث أن يجودَها حتّى تستعيد حُلَّتها الداثرة . وتتراءى له من خلال ذكرياته وعهود حبه الماضية ، فيرى كل الديار دونها ولا تقاس إلى جمالها ، ويبكيها ويندبها ، ويندب كل معهد فيها وما كان ينتشر فيه من طيب على الصباح الباكر وعلى الآصال فى المساء وعلى الغصون ذات الظلال والثمار ، وتفوح الأرض برائحتها الساطعة ، وكأنما تفوح مجامر عنبر ، أو كأنما تفوح فأرة مسك ، وحتّى الحصى كأنه جواهر سقطت من أهل تلك الدار ، وكأن قطرات الندى ماء ورد عاطر ، والربيع ينشر بها وشيا عجيب الألوان . وهو وصف يحمل حنينًا ووجداً لا نهاية لهما للدار وما كان بها من لقاء بين الأحبة ، لقاء جعل كل ما حولهم يبدو فى هذه الصورة الفاتنة المحفورة فى ذهن ابن المعتز حفراً لا يمكن أن يطمس أو تأتى عليه الأيام .

وكان الشاعر القديم ينزع نفسه من الأطلال وما يتصل بها من ذكريات الهوى والشباب الداثرة ، مفضيًا إلى وصف رحلة له فى الصحراء ، يتحدث فيها عن طول سُراه وعن الفلوات وحيوانها الأليف والوحشى ومَدى ضَنَا بعيره فى رحلته

(١) الجنا : الثمر . الميثاء : السهلة . الريا : الرائحة .

الطويلة الشاقة ، وكأنما يريد أن يجذب نفسه جذبًا من أفكار الغناء ويتغلغل فى نوازع الحياة . وتبعه الشاعر العباسى مستبقيًا على كل هذه العناصر فى قصيدة المديح ، وقد يفرد لوصف هذه الرحلة قصائد أو مقطوعات طريفة ، وهى متناثرة فى دواوين الشعراء من مثل قول على بن الجهم[١] :

كم قد تجهّمنى السُّرَى وأزالنى ليـــلٌ ينوءُ بصدره متطاولُ
وهززتُ أعناقَ المطىِّ أسومُها قصدًا ويحجبها السوادُ الشامل
حتّى تولَّى الليلُ ثانىَ عِطْفِـــهِ وكأن آخره خِضَابٌ ناصِلُ
ورأيت أغْباش الدُّجَى وكأنَّها حِزَق النَّعام ذُعِرْنَ فهْى جوافلُ[٢]

وهو يصور سُراه فى ليل متطاول يجثم سواده على آفاق الكون ، وما زال يقطعه حتّى نَصل خضابه الأسود وبدت أغباشه وبقاياه وكأنها نعام مذعور ، فهى تفر فراراً من الضوء الذى أخذ ينتشر على قطع الظلام . وطالما وصف الشعراء نحول إبلهم وضناها كناية عن طول سُراها ومدى ما عانته من نصب فى وعثاء السفر الطويل الذى لا يكاد ينتهى . وألمّ شعراء العصر كثيراً بهذا المعنى كقول البحترى فى وصف إبله[٣] :

يَتَرَقْرَقْنَ كالسَّراب وقد خُضْـ نَ غِمارًا من السَّراب الجارى
كالقِسِىِّ المعطَّفات بل الأَسـ هُمِ مبريَّةً بل الأَوتارِ[٤]

فهى لا تكاد تبين نحولا وهزالا حتّى لكأنها أصبحت سرابًا ، وإنها لتشبه القسىّ المنحنية ، بل هى أكثر نحولا فهى كالأسهم ، بل هى أيضًا أكثر ضَنًا وهُزالا حتّى غدت كالأوتار ضموراً . وكانوا فى أثناء ذلك يعرضون لوصف حُمُرِ الوحش وأتُنها التى يصادفونها فى الفلاة ، وكذلك لوصف الظباء وبقر الوحش ، وكل يحاول أن ينفذ إلى صورة دقيقة من مثل قول ابن المعتز[٥] :

---

(١) الديوان ص ١٦٨ .
(٢) أغباش : بقايا . حزق : جماعات . جوافل : منزعجة .
(٣) الديوان ٢ /٩٨٧ .
(٤) المعطفات : المنحنيات .
(٥) الديوان ص ١٥٩ .

وجَرَتْ لنا سُنُحاً جآذرُ رَمْلَةٍ   تتلو المهَا كاللؤلؤ المتبدِّدِ(١)
قد أطلعتْ إبَرَ القرون كأنها   أخذُ المراود من سَحيق الإثْمِدِ(٢)

وكان ابن المعتز قد سُبق بوصف إبر القرون وأطرافها المدبَّبة بالمراود المغموسة فى الكحل شديد السواد واللمعان ، فما زال يحاول النفوذ إلى صورة جديدة حتّى قال يصف ثوراً وحشيّاً يقود إجْلا أو قطيعًا من بقر الوحش(٣) :

كأنّى على طاوٍ من الوحش ناهضٍ   تخالُ قرون الإجْل من خلفه غابا

فقرون البقر تتكاثر حتّى ليخالها ابن المعتز غابة نبتت فى الفلاة فجأة .

وكان الشعراء يعرضون أحيانًا مع الربيع ووصفه للحديث عن الخمر ، على نحو ما كان يصنع أسلافهم العباسيون ، وشاعت حينئذ التهنئة بعيد النيروز وبيوم المهرجان الكبير ، وكانت بغداد وضواحيها تتحول فيه إلى ساحات كرنفالات ضخمة على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع ، وكان الشعراء يهنئون الخلفاء والولاة به ، وكثيراً ما كانوا يتحدثون عن ملاهيه ، وقد يسوقون الحديث إلى الخمر ، على نحو ما يلقانا عند ابن الرومى فى قصيدة يوم المهرجان التى مدح بها عبيد الله بن طاهر محافظ بغداد حينئذ ، ونراه يصور تصويراً رائعًا ما كان بمجلسه من قيان يتغنين غناء يأسر القلوب ، يقول(٤) :

وقيانٍ كأنّها أمّهــاتٌ   عاطفاتٌ على بَنِيها حَوانِ
مُطْفِلاتٌ وما حملْنَ جَنِيناً   مرضعاتٌ ولسْنَ ذاتَ لِبانِ(٥)
كلُّ طفلٍ يُدْعَى بأسماءَ شَتّى   بين عودٍ ومِزْهَرٍ وكِرَانِ(٦)
أمُّه دهرَها تترجم عنه   وهْو بادى الغِنى عن الترجمـــان
غير أن ليس ينطق الدهر إلا   بالتزامٍ من أمه واحتضانِ(٧)

(١) سنحا : عرضاً أو مارة من اليمين . الجآذر : جمع جؤذر وهو ولد البقرة . المها : بقر الوحش .
(٢) الإثمد : الكحل .
(٣) الديوان ص ٣٨ وطاو : جائع .
(٤) الديوان ص ٨٤ .
(٥) لبان : لبن .
(٦) الكران والمزهر من آلات الطرب الوترية .
(٧) التزام : اعتناق .

وقد مضى يتحدث عن تأثير هؤلاء القيان بغنائهن وبما كن يحملن من آلات الطرب على صدورهن ، وكأنها أطفال لهن، فهن يعانقنها وكأنما يرضعنها، ولكن لابلبن وإنما بألحان شجية تشفى المحزون من دائه، ولكل منهن جمالها وسحرها وفتنتها وصوتها الذى يدلع الحزن والفرح جميعًا ، صوت تمده وتعلو به كما أرادت أو كما يقول فى قصيدته :

ذات صوتٍ تهزّه كيف شاءتْ　　مثلما هَزَّتِ الصَّبا غُصْنَ بانِ

وإنما أردنا بذلك كله أن نصور كيف أن شاعر المديح فى هذا العصر حاول أن يضيف إلى عناصره الموروثة عناصر مستمدة من بيئته الحضارية ، ممثلا فيها كثيراً من المعانى والصور الدقيقة ، وكانوا دائمًا يلائمون بين مدائحهم وممدوحيهم ، فإذا مدحوا وزيراً مثلا عرضوا لسياسته وتفننه فى الكتابة ، وإذا مدحوا قائداً عرضوا لوقائعه وأمجاده الحربية ، وإذا مدحوا عالمًا أشادوا بعلمه ، وكذلك إذا مدحوا مغنياً أشادوا بغنائه . واضطرم حينئذ الهجاء كما اضطرم المديح ، ولم يكد يترك الشعراء خليفة ولا وزيراً ولا قاضيًا ولاعالماً ولا مغنياً إلا كالوا له الهجاء كيلا ، وأدّاهم تنافسهم إلى أن يتبادلوا الهجاء ويريشوا كثيراً من سهامه . واقرأ فى أى ديوان من دواوين العصر فستجد دائماً هجاء كثيراً على نحو ما يلقانا فى ديوان البحترى مثلا ، وقد اشتهر بهجائه بعض ممدوحيه حين يقلب لهم الدهر ظهر المجن ، مثل أحمد ابن الخصيب ممدوحه ، فإنه حين نكبه المستعين أنشده قصيدة يحثه فيها على مصادرة أمواله وسفك دمه ، وظل يَسْلقه بلسانه طويلا بمثل قوله[1] :

لابن الخصيب الوَيْلُ كيف انْبَرَى　　بإفْــكه المُرْدِى وإبطالِه

كاد أمينَ الله فى نفسهِ　　وفى مواليـــه وفى ماله

والرأىُ كلُّ الرأى فى قتلـــه　　بالسيف واستصفاءِ أموالِه

وله قصائد كثيرة يمجد فيها المستعين وعهده ، حتى إذا خُلع وولّى الترك بعده المعتز أصلاه ناراً حامية من هجائه فى ثنايا مديحه للخليفة الجديد . ولم يكن البحترى حاذقًا فى هذا الفن ، غير أنه كان هناك كثيرون يتقنونه ، مثل على

(١) الديوان ٣ /١٦٣٧ .

ابن بسام ، وكان يتعرض فى هجائه كثيراً للخلفاء والوزراء وقلما سلم أحد من لسانه ومن قوله فى العباس بن الحسن وزير المكتفى(١) :

وزارة العباس من نَحْسِها تستقلع الدولةَ من أُسِّها
شبَّهته لما بدا مقبلا فى حُلَلٍ يُخْجَلُ من لبسها
جاريةً رَعْناء قد قدَّرتْ ثيابَ مولاها على نفسها(٢)

وكان أكثر ما يعتمدون عليه فى الهجاء من معانٍ التهوين والتحقير والتصغير وما إلى ذلك من طعنات مصمية نافذة ، بما تحمل من سموم الانتقاص والسخرية المريرة ، كقول إبراهيم بن العباس فى صديق تنكر له وجحد معروفه(٣) :

ولما رأيتك لا فاسقاً تهابُ ولا أنت بالزاهدِ
وليس عدوّك بالمتقى وليس صديقك بالحامدِ
أتيتُ بك السوقَ سوقَ الرقيقِ فناديت هل فيك من زائد
على رجلٍ غادرٍ بالصديقِ كفورٍ لنعمائه جاحدِ
فما جاءنى رجلٌ واحدٌ يزيد على درهمٍ واحدِ
سوى رجلٍ حارَ منه الشَّقا وحلَّتْ به دعوةُ الوالدِ
فبعتُك منه بلا شاهد مخافة أُدْرَكُ بالشاهد
وأُبْتُ إلى منزلى سالماً وحَلَّ البلاءُ على الناقد(٤)

والمقطوعة تمسخ هذا الصديق مسخاً ، حتى لتجعله حياً كميت وموجوداً كمعدوم ، فلا هو من أهل المجون ولا من أهل الزهد ولا يخشى بأسه عدو ولا يحمده صديق ، إنه كنودٌ مهين ، ولذلك ذهب ببيعه الصولى فى سوق الإنسان الكبيرة ، معلناً عيوبه من الغدر وكفر النعمة والجحود ، مما جعل الناس يكفُّون عن شرائه إلا

(١) زهر الآداب ٣ /٨٨.
(٢) قدرت : فصّلت وقطّعت .
(٣) ديوان المعانى ١ /١٨٣ .
(٤) الناقد : المشترى .

أن يكون بدرهم واحد ، إلا ما كان من رجل سيئ الحظ كأنما استجيبت فيه دعوة لأبيه ، أقدم على شرائه ، فباعه منه بدراهم معدودة ، وولى الصولى على وجهه يطلب السلامة من هذا البلاء الذى كان حلّ به . وكان مما يؤذى المهجوين حينئذ إيذاء شديداً أن يوصفوا بالقذارة ، إذ كان العرب قد تحضروا وأسرفوا فى صور النظافة وفى التطيب بالعطور ، وكأن من يوصف بنتن الرائحة يتلطخ بعار ما بعده عار ، ويستغل ذلك الصولى فى أحد مهجويه قائلا له[1] :

وكن كيف شئتَ وقل ما تشا ... وأبْرِقْ يميناً وأرْعِدْ شِمالا

نجابك لُؤْمُكَ مَنْجَى الذبابِ ... حمته مقاذيره أن يُنالا

فليكن كما يشاء فإن أحداً لن يستطيع التعرض له لحقارته وقذارته . ومعروف أن ابن الرومى هو أكبر شعراء الهجاء فى العصر وأكثرهم سهاماً لمهجويه ، وكان يعرف كيف يصب عليهم التصغير والحقارة والضعة . كقوله المشهور فى وصف بخيل[2] :

يقتِّر عيسى على نَفْسِهِ ... وليس بباقٍ ولا خالدِ

فلو يستطيع لتقتيره ... تنفَّس من مَنْخِرٍ واحدِ

فنفحة أنف واحدة كانت تكفيه ، ولو أنه رأى فيها حقًّا كفاية ما انتفع بالفتحة الأخرى ، ولا حاول ذلك حرصًا وبخلا وشُحًّا جُبل عليه . وكانت لابن الرومى حاسة تلتقط العيوب الجسدية وتستطيع تكبيرها على نحو ما يصنع أصحاب الصور الكاريكاتورية الهزلية ، فإنهم يعرفون كيف يستغلون دقائق العيوب فى الوجوه والأجسام ، وتستحيل مقطوعات وقصائد كثيرة فى ديوان ابن الرومى إلى صور ساخرة من مهجويه ، حتى ليأخذوا أحيانًا شكل حيوانات مجترة وغير مجترة ، كقوله فى بعض مهجويه[3] :

ما ظننت الإنسان يجترُّ حتى ... كنتَ ذاك الإنسان عَيْنَ اليقينِ

---

(١) الديوان فى مجموعة «الطرائف الأدبية» ص ١٦٣ .

(٢) الديوان ص ٣٧٥ .

(٣) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (الطبعة السابعة بدار المعارف) ص ٢١٤ .

أما أبو سليمان الطنبورى المغنى فقد استمع إلى غنائه القبيح يوماً، فتراءى له فى صورة بغل لطحان ما يزال يحرك فكيه فى أكل طعامه من الفول وغيره، أو كما يقول[(١)]:

وتحسب العين فكيْه إذا اختلفا عند التنغم فكَّىْ بَغْلِ طحَّانِ

وهو جانب طريف عند ابن الرومى سنعرض له ثانية فى ترجمته، والمهم أن نعرف الآن أنه استطاع أن ينمى الهجاء فى هذا الجانب الساخر إلى ذروة لم يصل إليها الشعر العربى قبله ولا بعده.

وظل الفخر نشطاً فى العصر، وكان قد ضعف الفخر القبلى منذ العصر الماضى وظل ضعيفاً فى هذا العصر لضعف الشعور بالعصبية القبلية، وإن كنا نجد هذا الشعور من حين إلى حين. ولكنه على كل حال كان شعوراً خافتاً، ونجده أحياناً على لسان البحترى حين يفتخر بطيْ قبيلته، وكذلك على لسان ابن الجهم القرشى حين يفتخر بقريش وجدها فهر بن مالك قائلا[(٢)]:

أبتْ لى قُرومٌ أنْجَبَتْنى أن أرَى وإن جَلَّ خطبٌ خاشعاً أتضجَّرُ
أُولئك آل الله فِهْرُ بن مالكٍ بهم يُجْبَرُ العظمُ الكسيرُ ويُكْسَرُ
همُ المنكِبُ العالى على كل مَنْكِبٍ سيوفُهم تُفْنى وتُغْنى وتُفْقِرُ

وبقيت من ذلك بقية عند ابن المعتز، إذ نراه يفخر طويلا على بنى عمومته العلويين، وهو فخر سياسى يدور حول الخلافة وأن العباسيين أولى بها من العلويين، وربما كان أروع من هذا الفخر عنده فخره العام الذى يخلطه بشكواه، والذى يتحدث فيه عن حبه مقدماً لبعض صواحبه فضائله من الشجاعة والبأس والكرم الفياض والوفاء، ومن طريف فخره قوله[(٣)]:

لا أشرب الماء إلا وهْو منجردٌ من القَذَى ولغيرى الشَّوْبُ والرَّنَقُ[(٤)]
عزمى حسامٌ وقلبى لا يخالفه إذا تخاصم عَزْمُ المرء والفَرَقُ[(٥)]

(١) الديوان ص ٣٦١.
(٢) الديوان ص ١٣٢.
(٣) الديوان ص ٣٣٠.
(٤) الشوب: الماء المخلوط. الرنق: الكدر.
(٥) الفرق: الخوف.

مَيْتُ السَّرائر ضَحَّاكٌ على حَنَق ... ما دام يَعْجِز عن أَعدائِىَ الحنَقُ

فهو يشرب الماء صفواً وغيره يشرب به كدراً وشوبًا وطينًا ، وهو قوى العزيمة ، يكتم سره ونيته ، أو هو بعبارة أخرى رجل كامل المروءة ، وقد تغنى الشعراء معه طويلا بالكرامة والعزة والأنفة والشيم العربية الرفيعة التى ظلت لا تبرح ذاكرة العرب على مر العصور .

واحتدم الرثاء فى العصر ، فلم يمت خليفة ولا وزير ولا قائد ولا نابه مشهور إلا رثاه الشعراء ، وكان يحدث أن يقتل الخليفة أو يخلع ويموت فى سجنه ، وكان من الشعراء من يتأثر لذلك تأثراً عميقًا ، فتتفجر لوعاته على لسانه رثاء حارًّا ، ومما يصور ذلك مقتل المتوكل الذى مرَّ بنا الحديث عنه ، وكان البحترى حاضراً مقتله فتعمق التأثر نفسه ، فبكاه بقصيدته[1] :

مَحَلٌّ على القاطول أَخلق دَاثِرُهْ ... وعادتْ صروف الدهر جيشاً تغاوِرُهْ

ويقال إنه نظمها حين ولى ابنه المعتز الخلافة وهى ليست رثاء ولا تأبينًا فحسب ، بل هى أيضًا ثورة على الجناة وفى مقدمتهم ولى العهد المنتصر ، إذ تحول صدره إلى ما يشبه بركانًا لا يزال يقذف بالحُمَم الملتهبة ، حتى ليحرم على نفسه كل متاع إلا أن يهب من يأخذ بثأر المتوكل ويسفح دماء قاتليه دمًا بدم ، ويعجب أن ابنه وولى عهده يشترك فى دمه ، ويدعو الله ألا يمتعه بتراثه ، يقول :

حرامٌ علىَّ الرَّاحُ بعدك أَو أَرى ... دماً بدمٍ يجرى على الأَرض مائرُه[2]

أَكان ولىُّ العهد أَضمر غَدْرَةً ... فمن عجب أَنْ وُلِّىَ العَهْدَ غادِرُهْ

فلا مُلِّىَ الباقى تُراثَ الذى مضى ... ولا حملتْ ذاك الدعاةَ منابره[3]

وكان ابن المعتز صديقًا حميمًا للخليفة المعتضد ، وكان لا يبارَى فى شجاعته وبأسه ، وكانت أيامه أيام أمن وسعود للخلافة ، فلما وافاه القدر جزع عليه ابن المعتز جزعًا شديداً ، وبكاه وبكى دولته بطائفة من المراثى الحارة، منها مرثيته[4] :

---

(١) الديوان ٢ /١٠٤٥ .

(٢) مائره : سائله .

(٣) ملى : متع .

(٤) النجوم الزاهرة ٣ /١٢٧ .

يا دهرُ وَيْحك ما أبقيتَ لى أحدا   وأنت والدُ سوءٍ تأكل الولدا

وقد مضى فيها يندب سكناه فى دار موحشة ، وقد خلّف من ورائه الجيوش والكنوز التى لم تكن تُحْصَى عدداً ، والسرير أو العرش الذى كان يملؤه مهابة وسؤدداً ، ويذكر سحقه للأعادى سحقاً لا يبقى ولا يذر ، والجياد والرماح تغدو عليهم وتروح ، كما يذكر قصوره ووصائفه وملاهيه وأمجاده الحربية ، يقول :

ثم انقضيتَ فلا عَيْنٌ ولا أَثَرٌ   حتى كأنك يوماً لم تكن أحدا

وعلى نحو ما تفجعوا على الخلفاء تفجعوا على أبنائهم وعزّوهم فيهم ، وبالمثل صنعوا مع الوزراء وذوى النباهة والشأن ، ومرّ بنا فى حديثنا عن خزانات الكتب ما أقام على بن يحيى المنجم فى ضيعة له من خزانة ضخمة للكتب كان الناس يؤمونها من كل بلد ، فيجدون فيها نفقتهم وما يشاءون من كتب لا تكاد تحصى ، وكان الخلفاء منذ المتوكل يسبغون عليه عطايا جزيلة ، فكان ينفقها على مكتبته وعلى الناس من شعراء وغير شعراء ، فلما توفى رثاه على بن بسام رثاء رائعاً على هذا النمط[1] :

قد زرتُ قبرك يا علىُّ مسلِّماً   ولك الزيارةُ من أقلِّ الواجبِ
ولو استطعت حملتُ عنك ترابه   فلطالما عنى حملتَ نوائبى
ودمى فلو أنى علمت بأنه   يَرْوِى ثَراك سقاه صَوْبُ الصائب
لسكبته أسفاً عليك وحسرةً   وجعلتُ ذاك مكان دمعٍ ساكبِ
فلئن ذهبتَ بملء قبرك سُؤْدُدًا   لجميلُ ما أبقيت ليس بذاهب

والقطعة تفيض حسرة ولوعة ، حتى ليتمنى ابن بسام أن لو فداه بروحه ومات مكانه وحمل عنه ترابه ، ويقول إنه لو عرف أن دمه يروى ثراه لسكبه عليه ولم يسكب دموعه المنهلة . ثم يسترجع نفسه فجميل ما أسدى إلى الناس من صُنْع لن يذهب سُدًى ، بل سيظل خالداً على مر الزمان . وكانوا يعزون الآباء فى البنات وأن يحتسبوهن عند الله ، ولهم فيهن تعزيات طريفة ، من ذلك تعزية ابن الرومى

(١) زهر الآداب ٣ /٨٨ وانظر معجم الشعراء للمرزبانى ص ١٤٧ .

لابن المنجم المذكور فى ابنة له على هذه الشاكلة[١] :

لا تبعدنّ كريمةٌ أودعتَها صِهْرًا من الأَصهار لا يُخْزيكا
إنى لأَرجو أن يكون صَداقُها من جَنَّة الفردوس ما يرضيكا
لا تيأَسنَّ لها فقد زوَّجتَها كُفْؤًا وضمَّنْتَ الصداق مَلِيكا

وكانوا يحاولون النفوذ إلى العزاء بأن الموت مصير لا بد منه، وأن أحداً لن يعيش إلا إلى أجل محدود فنحن دائمًا مشدودون إلى الموت، وكل لحظة تمضى تموت ولا تعود إلى الحياة أبداً ، فالدهر لا يعيدها ولا تعيدها أيامه ، بل لكأن الأيام خُلقت لكى تنزل الكوارث على الناس ، أما ما قد تجلبه لهم من حسن ونعم فهى إنما تجلبه عن غير عمد ، وفى ذلك يقول ابن المعتز فى بعض مراثيه[٢] :

أَلستَ ترى موت العُلا والمحامِد وكيف دفنَّا الخلق فى قَبْرٍ واحدِ
وللدَّهر أيامٌ يُسِئْنَ عوامدًا ويحسنَّ إن أحسنَّ غيرَ عوامِد

وسَعَّرَ موتُ الأبناء وذوى الرحم قلوب الشعراء ، فبكوهم بدموع غزار وأنوا أنينًا حارًّا من قلوب جريحة كوتها نار الفراق الملتهبة ، ومضوا يتأوهون وجذوات الحزن الممض تلذع أفئدتهم لذعًا ، ويشتهر فى هذا الجانب ابن الرومى برثائه لابنه الأوسط وقد مات منزوفًا وهو لم يزل فى المهد صبيًّا ، وأحس كأن القدر اختطف منه فلذة كبيرة من كبده ، فامتلأت نفسه حزنًا وشقاء ، وقعهما على قيثارته ودموعه تنحدر على خديه ، وإنه ليخاطب عينيه أن ترسل الدموع غزيرة ، علَّها تنفس عنه شيئًا من محنته فى ابنه ، يقول[٣] :

بكاؤكما يَشْفِى وإن كان لا يُجْدِى فجودا فقد أَوْدَى نَظِيرُكما عِنْدِى[٤]
أَرَيحانةَ العينين والأَنف والحَشَا أَلاليت شعرى هل تغيَّرتَ عن عهدى
كأَنِّىَ ما استمتعتُ منك بِضَمَّةٍ ولا شَمَّةٍ فى ملعبٍ لك أَو مَهْدِ
وأَنت وإن أُفردتَ فى دار وحشةٍ فإِنى بدار الأُنس فى وحشة الفرد

---

(١) زهر الآداب ٢ /١٧٣ .
(٢) الديوان ص ١٨٧ .
(٣) الديوان ص ٢٩ .
(٤) يجدى : يفيد . أودى : هلك .

والقصيدة جميعها على هذا النمط من التحسر الممض واللوعة المحرقة ، حتى لكأنما أصبحت الدنيا كلها فى عين ابن الرومى قبراً موحشاً كبيراً ، قبراً يصب عليه حزناً ثقيلا . وممن رُزِئَ بابنين له وبكاهما طويلا إبراهيم بن العباس الصولى ، وكان الموت قد فجأه فى أولهما ، ثم لم يلبث أن فجأه فى الثانى ، فقال[1] :

كلَّ لسانى عن وصف ما أجدُ   وذُقْتُ ثُكْلاً ما ذاقه أَحَدُ
ما عالج الحزن والحرارة فى الأ   حشاء مَنْ لم يمت له ولد
فُجِعْتُ بابنىَّ ليس بينهما   إلا ليالٍ ما بينها عَدَدُ
وكلُّ حُزْنٍ يَبْلَى على قدم الـ   دَّهْر وحُزْنى يُجِدُّهُ الكَمَدُ

وشاعرية الصولى كانت دون شاعرية ابن الرومى ، ولذلك لم يبلغ فى تصوير حزنه وأساه على فلذتى كبده ما بلغه ابن الرومى من تصوير كارثته فى ابنه وفاجعته فيه .

وذكرنا فى كتاب العصر العباسى الأول أن شعراء هذا العصر بكوا بغداد حين أصابتها كوارث النهب والتحريق فى حروب المأمون والأمين ، وبذلك عرف الشعر العربى لأول مرة رثاء المدن ، ونجد فى هذا العصر الجديد بقية لهذا الرثاء حين هجم صاحب الزنج بجموعه على البصرة وأنزل بها النهب والسلب والحرق وفتك بأهلها فتكًا ذريعًا ، حتى قيل إنه قتل منهم فى هذا الهجوم ثلاثمائة ألف على نحو ما مر بنا فى هذا الموضع ، وقد أشرنا هناك إلى مراثى الشعراء لتلك المدينة وفى مقدمتها مرثية ابن الرومى :

ذَادَ عن مُقْلتى لذيذَ المنامِ   شغلُها عنه بالدموع السِّجامِ

وهو يستهلها ببيان ضخامة الحادثة وخطورتها ، فقد نزل بالبصرة من ضروب الذل والهوان والخسف والعسف ما ملأ نفسه ألمًا وهولا وحسرة ولوعة ، حتى إنه ليبكى بكاء مرًّا طوال نهاره وطوال ليله ، فقد انتهك الزنج محارم الإسلام ، وإن

---

(١) الديوان فى « مجموعة الطرائف الأدبية » ص ١٧٥ .

لهفته عليها لتدلع لهبًا فى قلبه كلهب النار التى حرقتها ، وإنه ليندب مجدها وأمنها ومن سفكوا الدم فيها ، حتى كان الأخ لا يفكر فى أخيه ولا الأب فى بنيه ، فالجميع مشغولون بأنفسهم كل يريد النجاة ولا منجى فالسيوف تحصدهم حصداً ، أما النساء فساقوهن سبايا حاسرات الوجوه ، وباعوهن بيع الرقيق . وخرّت المدينة الكبيرة عند أقدام الزنج ترنّح إعياء ، وأصبحت القصور بالتحريق تلالا ، وأصبح الناس أشلاء مبعثرة فى كل مكان ، وأصبح المسجد الجامع قفراً من عبّاده ونسّاكه . ويتحول ابن الرومى من وصف الكارثة المروعة إلى استصراخ الناس كى يردوا سيل الزنج الكاسح عن البصرة ومدن العراق ، ويرفع لهم شعارات الجهاد الدينى ، ويستحثهم بما يكون بينهم وبين الله من حوار إزاء تلك الفاجعة إن هم قعدوا عنها ، ويناديهم بلسان الرسول صلى الله عليه وسلم أن يردّوا عدوان الزنج الأثيم ، ويستنفرهم فى حماسة بالغة لرد هذا العار وللثأر والانتقام ، ويختم ابن الرومى المرثية ببيان فضل المجاهدين وما أعِدّ لهم من الجنان والرضوان العظيم . وهى بذلك تُعَدّ مرثية من جهة واستصراخًا واستنفاراً لحرب الزنج من جهة ثانية ، وهو استنفار يكتظ بالغيظ والحنق الشديد .

ومن موضوعات الرثاء التى استحدثت فى العصر العباسى الماضى رثاء المدالل من الحيوانات المستأنسة ، ونرى شعراء هذا العصر يحاكون أسلافهم فى هذا الباب ، ومن أروع ما نظموه فيه مرثية الحسن بن على بن أحمد بن بشار المعروف بابن العلاّف الضرير النهروانى ، وكان من أصدقاء ابن المعتز وابن الفرات وزير المقتدر ، وكان له هر يأنس به تعوّد أن يدخل أبراج الحمام لدى الجيران ويأكل أفراخها ، وكثر ذلك منه ، فأمسكه بعض أربابها وذبحوه ، وحزن عليه ابن العلاف ، فرثاه رثاء حارًّا وكأنه يرثى صديقًا عزيزاً لديه نكبه بعض الخلفاء ، ولذلك قيل إنه كنى بالهر عن ابن المعتز وقيل عن ابن الفرات ، خوفًا على نفسه من المقتدر الذى نكبهما إن هو صرّح بالاسم الحقيقى ، ويضيف ابن خلكان إلى هذين القولين قولا ثالثًا ، هو أنه كانت لعلى بن عيسى وزير المقتدر جارية هويت غلامًا لابن العلاف ، ففُطن بهما فقُتلا ، وبكى ابن العلاف غلامه وكنى عنه بالهر . وفى رأينا أن روعة هذه المرثية هى التى جعلت القدماء يظنون بها هذه الظنون ، وهى خمسة وستون بيتًا ،

كلها من عيون الرثاء وغرره . وفيها يقول[١] :

يا هِرُّ فارقْتَنا ولم تَعُدِ ... وكنتَ مِنَّا بمَنْزِلِ الولدِ
فكيف ننفكُّ عن هواك وقد ... كنت لنا عُدَّةً من العُدَدِ
تطردُ عنا الأذى وتحرسنا ... بالغيب من حَيَّةٍ ومن جُرَدِ[٢]
وتُخرِجُ الفأر من مكامنها ... ما بين مفتوحها إلى السُّدَدِ
حتى اعتقدتَ الأذى لجيرتنا ... ولم تكن للأذى بمعتقد
وحمتَ حول الرَّدى بظلمهم ... ومن يَحُمْ حول حَوْضه يَرِدِ
صادوك غيظاً عليك وانتقموا ... منك وزادوا ومَنْ يَصِدْ يُصَدِ
ما كان أغناك عن تصعُّدك الـ ... بُرْجَ ولو كان جنة الخُلْدِ

والمرثية كلها تفجع على هذا المنوال ، وتزخر بالحكم مع الحسرة على فقد الهرّ ومع التأمل فى الموت وحقائق الحياة . ومن طريف ما نجد من مرثيات فى العصر رثاء أبى الشبل البُرْجُمِىّ التميمى لقنديل حطمه كبش دخل بيته وعاث فيه[٣] وكذلك بكاؤه قرطاسًا سُرق منه خلسة[٤] .

وأكثر الشعراء فى العصر من العتاب والاعتذار ، سواء بين المتحابين أو بين الأصدقاء ، وقد تفننوا فى ذلك على صور شتّى تسعفهم ملكاتهم العقلية الخصبة بمعان وخواطر لم تفد على سابقيهم ، أو لعلها وفدت ولكنهم أبرزوها إبرازاً جديداً ، تسعفهم فى ذلك مشاعرهم المرهفة وأذواقهم المتحضرة الرقيقة ومهارتهم فى الإتيان بالمعانى التى تروق وتروع العقول والقلوب جميعًا ، وربما كان من أجمل ما صاغوه فى العتاب قول سعيد بن حُمَيد[٥] :

أَقْلِلْ عتابك فالبقاءُ قليلُ ... والدهرُ يعـــدل تارةً ويميلُ

(١) انظر فى القصيدة وترجمة ابن العلاف ابن خلكان (طبع مطبعة الوطن) ١/٢٤٥ وانظر طبقات الشعراء لابن المعتز (طبع دار المعارف) ص ٣٥٩ وتاريخ بغداد ٧/٣٧٩ ونكت الهميان ص ١٣٩ .

(٢) الجرد : الفأر .

(٣) الأغانى (طبعة دار الكتب المصرية) ١٤/٢٠٤ .

(٤) الأغانى ١٤/٢٠٩ .

(٥) زهر الآداب ٢/٢٤٦ .

لم أبكِ من زمنٍ ذممتُ صروفه إلا بكيت عليه حين يزول
ولعل أحداث المنيَّة والرَّدى يوماً ستصدع بيننا وتحول
فلئن سبقتُ لتبكينَّ بحسرةٍ وليكثرنَّ عليك منك عَويل
ولتفجعنَّ بمخلصٍ لك وامقٍ حَبْلُ الوفاء بحبله موصول
ولئن سبقتَ-ولاسبقتَ-ليمضينْ من لا يشاكله لدىَّ خليل
وأراك تكْلف بالعتاب وودُّنا صافٍ عليه من الوفاءِ دليل
ولعل أيام الحياة قليلةٌ فعلام يكثر عَتْبُنا ويطول

إنها حماقة أن يتمادى الأصدقاء فى العتاب، والحياة من شأنها ألا تجرى سويّة، وكل ما نبكى منه يومًا نبكى عليه فى يوم تال، فأولى بنا ألا نفضى إلى التشاؤم، إذ سرعان ما يُطوَى بساط الحياة، ولذلك خليق بالأصدقاء أن يعفوا عما قد يظنون بصداقتهم من كدر. ويعرض ابن حميد على صديقه الفراق الأخير الذى لا بد منه فراق الموت وكيف سيملأ صديقه عليه الفزعُ ويلتاع لوعة لا ينفعه إزاءها صراخ ولا عويل، وكذلك شأنه إن سبقه صديقه، وقيم العتاب وصداقتهما كلها صفاء وبِرٌّ، وحرى بهما أن ينعما بتلك الصداقة قبل أن يقرع الموت الأبواب ويفترق الصديقان افتراقًا لالقاء بعده. ولابن الرومى فى العتاب كثير من المعانى البارعة، من مثل قوله فى آل وهب(١):

تخذتكمُ دِرْعاً وتِرْساً لتدفعوا نِبالَ العِدَا عنى فكنتم نِصَالَها
وقد كنت أرجو منكمُ خير ناصرٍ على حين خِذلان اليمين شِمالَها
فإن أنتمُ لم تحفظوا لمودَّتى ذِماماً فكونوا لا عليها ولا لها

وعفاء على هؤلاء الأصدقاء فقد كان يتخذهم دروعًا وتروسا، فإذا هم عون للأعداء، وإذا هم يخذلونه خذلانًا مروعًا. خذلان اليمين للشمال، وإنه ليتوسل إليهم إن لم يحفظوا ذمام مودته وحرمته أن يكفوه شرهم كما كفوه خيرهم، فيكونوا

(١) الديوان ص ٨٨.

لا عليه ولاه . ولعل أشهر شعراء العصر فى الاعتذار وأكثرهم تفننًا فيه البحترى ، وقد أجمع القدماء على الإعجاب باعتذاراته للفتح بن خاقان وزير المتوكل ومن طريف ماله فيها قوله من قصيدة ميمية مدحه بها[١] .

عَذِيرى من الأَيام رَنَّقْنَ مَشْرَبِى ولقَّيننى نَحْساً من الطير أَشْأَمَا[٢]
وأَكسبْنَنى سُخْطَ امرئٍ بتُّ مَوْهِناً أَرى سُخْطَه ليلاً مع الليل مظلما[٣]
وقد كان سهْلاً واضحاً فَتَوعَّرتْ رُباه وطَلْقاً ضاحكاً فتجهَّما[٤]
أُعيذك أن أخشاك من غير حادث تبيَّن أو جُرْمٍ إليك تقدَّما
ولو كان ما خُبِّرْتَه أو ظَنَنْتَه لما كان غَرْوًا أَن أَلُوم وتكرُما[٥]
أُقِــرُّ بما لم أَجْنِهِ مُتَنَصِّلاً إليك على أَنى إخالُك أَلْوما[٦]
لِىَ الذنبُ معروفاً ، وإن كنت جاهلاً به فلك العُتْبى علىّ وأَنْعما[٧]
ومثلُك إن أَبدى الفَعال أعاده وإن صنع المعروفَ زاد وتمما[٨]

ولم ننقل الاعتذار كله فى القصيدة لطوله ، وجميعه يجرى على هذه الشاكلة من التلطف ورقة الحاشية ، وحسن التأتى ، ودقة التنصل ، مع التضخيم للذنب الذى لا يعرفه والذى جعل الفتح يتغير عليه ، وهو لذلك يقدم شتى المعاذير ، فقد أتى جرمًا لا يغتفر ، جرمًا لم يجنه ، كدَّر وِرْدَه ، وأحال أيام سعده نحسًا لا يطاق ، إذ غضب عليه الفتح ، وكأنما اسودَّت الدنيا فى عينه ، ومثلُ الفتح حرىٌّ بالعفو لو أن هناك جريرة حقيقية ، فما بالنا ولا جريرة ولا جرم ولا ذنب ، ويسلِّم البحترى بذنبه رقة وتلطفًا ، منوهًا بالفتح وَفعاله الحميد ومعروفه الذى يواليه ، وكيف أنه من أهل الصفح الجميل .

ولا نغلو إذا قلنا إن أهم موضوع استغرق الشعراء واستنفد أشعارهم الغزل ، وكانوا ينظمونه تعبيراً عن عاطفة الحب الإنسانية الخالدة ، وتلبية لحاجات الناس

---

(١) الديوان ٣ /١٩٨٢ .
(٢) رنقن : كدرن . الطير : التطير .
(٣) الموهن: نحو منتصف الليل .
(٤) التجهم : عبوس الوجه .
(٥) غروا : عجباً . ألوم : ألؤم .
(٦) ألوما : أكثر لوماً .
(٧) وأنعم هنا : وزيادة على ذلك .
(٨) الفعال بفتح الفاء : الصنع الجميل .

الوجدانية وحاجات المغنين والمغنيات من المقطوعات والأشعار التي كانت توقّع على الآلات والمعازف الموسيقية ، ولذلك تطلبها دائمًا دور القيان والطرب ، وكان الشعراء يختلفون إلى هذه الدور لسماع الغناء فى أشعارهم ولمغازلة الجوارى والإماء . وكان منهن من يتقن نظم الشعر ، ومنهن من كن يُطارحن الشعراء فى أغانى الحب وأناشيده . ولعبن دوراً واسعًا فى دفع المجتمع العباسى نحو الصبابة والعشق ، وكان منهن من ينحرفن عن الطريق السوىّ ، كما كان من الشعراء والشباب من حولهن شياطين لا يعرفون دينًا ولا خلقًا ولا عرفًا . وكان ذلك سببًا فى أن يكثر الغزل الإباحى ، الذى لا يحتشم فيه الشاعر ، بل الذى يعبر فيه أحيانًا عن جوعه الجسدى وغرائزه الحيوانية . ومن الحق أن ذلك كان امتداداً لموجة الغزل المكشوف الذى شاع فى العصر العباسى الأول ، وكأنما ظلت لتلك الموجة حِدّتها ، وكانت دور القيان كما قلنا آنفًا من أسباب هذه الحدة ، إذ كان بعض جواريها يتحولن أدوات للإغراء والريبة والمجون ، وساعدهن على ذلك أنهن كن يُبَعْنَ ويُشْتَرَين ولم يكن يشعرن بشيء من الكرامة ، وكن يعشن بين الخلعاء والمجّان وبين كثيرين ممن لا يعرفون دينًا ولا صيانة مروءة ولا يفكرون فى عقاب ولا ثواب ، إنما يفكرون فى المتاع المادى وغرائزهم النوعية ومآربهم الرخيصة ، وطبيعى لذلك أن يشيع الغزل الإباحى المكشوف الذى لا يعرف للمرأة كرامة ولا للرجل مروءة ، إنما يعرف الهوان والابتذال البغيض . وعلى نحو ما ظل الغزل الماجن الخليع شائعًا فى هذا العصر ظل كذلك الغزل الشاذ بالغلمان الذى يُزرى بكرامة الرجال . وأكبر الظن أن كثيراً من هذا الغزل وسالفه لم يكن يصور حقائق واقعة ، إنما كان يصور حقائق خيالية من بعض الوجوه ، إذ كان يراد به إلى التندير والفكاهة فى مجالس هؤلاء المجان الخليعين ، فهم ينظمونه ويتداولونه للضحك والدعابة ، وعادة يصحبه الشاعر فى إنشاده بحركات ليزيد من ضحك السامعين . ونظن ظنًّا أنه فات مؤرخى الأدب العباسى أن يلاحظوا هذه الظاهرة ، وكأنه يشبه من بعض الوجوه ما قد يجرى على بعض الألسنة فى عصرنا من نكت جنسية . وليس معنى ذلك أننا نريد أن ننكر إنكاراً باتًّا الغزل المكشوف وأخاه الشاذ فى العصر العباسى الأول والثانى ، إنما نريد أن نلفت إلى أن كثيراً منه صُنع للتندير والفكاهة ، وأنه غاب ذلك عمن أرخوا للأدب العباسى ، وتاريخهم لذلك فى حاجة إلى غير قليل من التصحيح . ولا بد أن نلاحظ من جهة

ثانية أن هذا الغزل المادى الماجن كانت تحفه دائمًا وتتخلله معانى الغزل العربى العفيف الذى شاع فى العصر الأموى ، وكانت هذه المعانى تخفف من ماديته كما كانت تُشعل فيه جذوة الحب الظامئ وآلامه الثقال ، فلم يسقط فى كثير من جوانبه ومقطوعاته ، إذ ظلت فيه الحيرة والحنان والتضرع والاستعطاف وظل الشوق الجامح الذى يملك على النفس عواطفها وحسها وشعورها وأهواءها . وأيضًا لا بد أن نلاحظ بجانب ذلك أن الغزل العذرى العفيف نفسه ظل حيًّا لا من خلال معانيه التى تسربت فى الغزل المادى الصريح كما ذكرنا آنفًا ، وإنما من خلال بعض الشعراء الذين ارتفعوا عن أدران الحس وأعراضه ، وعاشوا فى حبهم معيشة طاهرة نقية أعظم ما يكون الطهر والنقاء على نحو ما هو معروف عن محمد ابن داود الأصبهانى صاحب كتاب « الزهرة » فى الحب وأشعاره . وملاحظة أخيرة هى أن الضربين من الغزل المادى الإباحى والعذرى العفيف استطاعت ملكات الشعراء الخصبة حينئذ أن تستثير فيهما كثيراً من خطرات الحب ودقائقه البديعة ، وابن الرومى لا يبارَى فى نفوذه إلى هذه الدقائق ، كقوله فى العناق وطموحه إلى امتزاج الروحين[1] :

أعانقُها والنفسُ بعدُ مشوقةٌ … إليها ، وهل بعد العناق تدانِ
وألثم فاها كى تزول حرارتى … فيشتد ما ألقى من الهيمانِ[2]
كأن فؤادى ليس يَشْفِى غليله … سوى أن يرى الروحين يمتزجان

فالعناق لا يروى ظمأه ، وفى قلبه جذوة لا تطفئها القبلات ، بل تزيدها تلظيًا واشتعالا ، ويحس أن عذابه بحب صاحبته لن يخلصه منها إلا أن تمتزج روحه بروحها ، حتى ينعم بالوصل الحقيقى . وكثيراً ما يلم بالعناق وكثيراً ما يودع فيه صوراً طريفة ، كقوله[3] :

طالما التفتُّ إلى الصُّبْـ … ـح لنا ساقٌ بساقِ
فى قناعٍ من لثامٍ … وإزارٍ من عناق

(١) الديوان ص ٢٧ .
(٢) الهيمان : العشق الشديد
(٣) ديوان المعانى ١ /٢٤٤ .

فقد كانا مكسوين طوال الليل كسوة غريبة من اللثام والعناق ، ونحس دائمًا عنده بطفرات الفكر العبقرى وأخيلته كأن نراه يقول فى الصدور [١] :

صدورٌ فوقهنَّ حِقاقُ عاجٍ   وحَلْىٌ زانه حُسْنُ اتِّساقِ
يقول الناظرون إذا رأَوها   أهذا الحَلْىُ من هذى الحِقاقِ

وهى صورة لا تفد بحق فى ذهن شاعر من هذا العصر سوى ذهن ابن الرومى الذى كان يشبه متحفًا كبيراً ما يزال يستخرج منه الدرر والتحف النفيسة ، من مثل قوله فى جمال العيون ومدى تأثيرها وسحرها فى العشاق [٢] :

نظرتْ فأَقصدتِ الفؤادَ بسهمها   ثم انثنتْ عنه فكاد يَهِيمُ
ويلاه إنْ نظرتْ وإن هىَ أعرضتْ   وَقْعُ السهام ونَزْعهنَّ أليم

وكان مَنْ حوله من الشعراء لا يزالون يحاولون بكل ما وسعهم أن يأتوا بدرة أو تحفة تخلب ألباب سامعيهم ، ولتكن خاطرة طريفة أو صورة بديعة ، ولا يهم أن يكون أصلها قد دار على ألسنة الشعراء ، فالمهم طرافة العرض وتحوير المعنى أو الصورة ، من مثل قول ابن المعتز [٣] :

يا غُصناً إن هزَّه مَشْيه . خشيتُ أن يسقط رُمَّانُهُ

وقول أبى العباس الناشى فى بكاء إحدى صواحبه وقد أحسَّت أن فراقه لها سيطول أمده ، فقال وهو محزون الفؤاد [٤] :

كأَن الدموع على خَدِّها   بقيَّة طَلٍّ على جُلنّارْ

وينفذ أحمد بن صالح بن أبى فنن إلى معنى دقيق فإنه حين ينظر إلى صاحبته تتورد وجنتها خجلا ، فتقتص منه فى قلبه بما تصيبه به من سهام عينيها المصمية ، يقول [٥] :

أَدميتُ باللحظات وَجْنَتَها   فاقتصَّ ناظرُها من القَلْبِ

---

(١) ديوان المعانى ١ /٢٥٣ .
(٢) ديوان المعانى ١ /٢٣٦ .
(٣) الديوان ص ٤٢٢ .
(٤) زهر الآداب ٢ /٢١٦ .
(٥) تاريخ بغداد ٤ /٢٠٢ .

ومرَّ بنا فى فصل الحياة الاجتماعية أن موجة المجون ظلت على تفاقمها وحدتها فى هذا العصر ، وظل معها شرب الخمر المعتقة ، وكانت حاناتها تكتظ بها الكرخ فى بغداد ودور النخاسة والبساتين كما كانت تكتظ بدنانها وكئوسها الديارات . وكان سقاتها أخلاطاً من النصارى والمجوس واليهود ، وأقبل يعبُّها المجَّان والفسَّاق وكان منهم المتمرد على الدين الحنيف ، ومنهم المجوسى ، ومنهم من لا يؤمن بأى دين ، فأكبوا عليها جميعاً ، دون رادع أو وازع ، ويفيض كتاب الأغانى بأخبارهم ، وكذلك كتاب الديارات للشابشتى ، حيث يتوقف مع كل دير ليترجم لماجن كبير مثل الحسين بن الضحاك وأبى الشبل البرجمى وعبد الله بن العباس الربيعى ، وغيرهم ممن كانوا يعكفون على الشراب فى الأديرة وغير الأديرة ، وممن عاشوا سكارى لا يفيقون إلا لكى يعودوا إلى الشراب والمجون ، وهم فى أثناء ذلك يصفون الخمر والنشوة بها وكئوسها ودنانها وسقاتها مضيفين إلى ذلك غزلا مسعوراً بالجوارى والغلمان . ويخيل إلى الإنسان كأنما تردَّى فى حمأة هذه الرذيلة أكثر شعراء العصر ، ولذلك تزخر دواوينهم وأشعارهم بنعت الخمر والنشوة بها ، وجعلوا يحاولون فيها ما حاولوه فى أغراض الشعر الأخرى من النفوذ إلى معان وأخيلة تبهر السامعين ، من مثل قول ابن المعتز [(١)] :

شِربْنا بالكبير وبالصغيرِ ولم نَحْفل بأَحداث الدهورِ
وقد ركضتْ بنا خَيْلُ الملاهى وقد طِرْنا بأَجنحة السرور

وهو يصور نشوته بتلك الخمر التى شربوها بالقداح الكبيرة والصغيرة ، فملأتهم مسرة وفرحة ، حتى لكأنما يحملهم الاغتباط على خيوله ، بل على جناحيه ، فهم يطيرون طيراناً ، ولم يبلغ شاعر مبلغ ابن الرومى فى بيان ما تفسح الخمر من آمال السكران حتى ليتمنى المستحيلات ، يقول [(٢)] :

ومدامةٍ كحشاشة النَّفْسِ لطفتْ عن الإدراك والحِسِّ
لنسيمها فى قلب شاربها رَوْحُ الرجاء وراحةُ النفس
وتمدُّ فى أمل ابنِ نشوتها حتى يؤمِّل مرجع الأَمسِ
وكأنهــا وكأن شاربها قمرٌ يقبِّل عارضَ الشمس

(١) الديوان ص ٢٣٨ .
(٢) الديوان ص ١٠٧ .

وقد صور ابن الرومى فى البيتين الأولين رقة المدامة وخفتها حتى لتكاد تدق عن الحس، كما صور أثرها فى قلب شاربها وما تمنحه من أمل بعد يأس وراحة بعد تعب، بل إنها لتمد فى أمله، حتى ليظن أن ما يستحيل رجوعه سيعود ثانية وأنها تخلو من كل كدرة.

وينبغى أن نؤمن بأن حركة المجون فى العصر لم تكن تعم الناس جميعًا، إنما كانت تعم فى بعض قصور ذوى السلطان ومن كانوا يفيضون عليه من أموالهم من المغنين والشعراء، أما عامة الشعب فكانت تربض فى مسغبة شديدة وقلما عرفت شيئًا من الترف أو من الفراغ والثراء.

وكان الموضوع الذى يتصل بالعامة حقًّا هو الزهد وما نشأ عنه من التصوف، وبدون شك كانت الحانات والأديرة لا تقاس من حيث الكثرة ولا من حيث عدد من يؤمونها إلى المساجد، وكانت تكتظ بالفقهاء والمحدثين والعُبَّاد والنسَّاك الذين رفضوا متاع الحياة الدنيا، وعكفوا على عبادة الله. وكان بينهم كثيرون من الوعاظ الذين يعظون الناس صباح مساء، وقد رفعوا نصب أعينهم ثواب الآخرة من الجنان والفراديس وعقابها من الجحيم والعذاب المقيم، وهم فى أثناء ذلك يدعون إلى الزهد وازدراء المتاع الفانى والإقبال على ما عند الله من المتاع الباقى، مكررين الحديث عن الموت وأن الحياة إنما هى رحلة قصيرة والناس فيها كركب وقوف ينتظر كل منهم دوره، وسرعان ما يختطفهم الموت، فأولى لهم أن يتدبروا حياتهم وأن يتزودوا زاداً كبيراً لآخرتهم، زاداً من التقوى والصلاح والقناعة. ويكثر الشعر الزاهد فى العصر حتى ليتَّخذ أحيانًا مقدمة للمديح من مثل قول على بن الجهم[1]:

وعاقبةُ الصبرِ الجميل جميلةٌ ... وأفضلُ أخلاقِ الرجال التفضُّلُ
وما المالُ إلا حسرةٌ إن تركته ... وغُنْمٌ إذا قدَّمتَه متعجِّلُ
وللخيرِ أهلٌ يسعدون بفعلِهِ ... وللناس أحوالٌ بهم تتنقَّلُ
ولله فينا علمُ غَيْبٍ وإنما ... يوفِّق منا من يشاءُ ويَخْذُلُ

وبلغ من شيوع شعر الزهد حينئذ أن اشترك فيه كثير من الشعراء الذين تطفح

(١) الديوان ص ١٦٣.

دواوينهم بالحديث عن الخمر والمجون ، لما كانوا يتنفسون فيه من ترف بالغ مثل ابن المعتز ، فكانوا ينظمون منه مقطوعات وأحيانًا قصائد طويلة ، ولابن الرومى فيه قصائد ، بل مواعظ بديعة ، من مثل قوله[1] : ٩

نَبْلُ الرَّدَى يَقْصِدْنِ قَصْدَكْ ... فأَجِدَّ قبل الموت جِدَّك[2]
ودَع البطـالة والغَوا ... يَةَ جانباً وعليك رُشْدَكْ
فــكأَننى بك قد نُعِيـ ... ـتَ وقد بكى البـاكون فَقْدَكْ
وتركت منزلك المَشِـ ... ـيدَ معطَّلاً وسكنتَ لَحْدَكْ
وخلوتَ فى بيت البِلَى ... وخلا بك الملكان وحدَكْ
وسلاكَ أَهلُك كلهم ... ونسوا على الأَيام عهدك
يتمتَّعــون بما جمعـ ... ـتَ ولا يرون عليه حَمْدَكْ
متنعِّمين وأنت تحـ ... ـتَ الرَّمْسِ يَرْعَى الدودُ جِلْدَك

وهو يرفع الموت نُصْب أعين الناس ، وكأنه مطبق عليهم ، حتى يرتدعوا عن البطالة والغىّ ، فعمّا قريب سينزل بهم ، وسيرتفع الصياح والضجيج عليهم ، وسيتركون القصور المشيدة وينزلون اللحود المقفرة ، ويسألهم الملكان عما قدمت أيديهم ، ويسلوهم الأهل وينسونهم كأن لم يكونوا شيئًا مذكوراً ، على حين يتمتعون بأموالهم التى جمعوها دون حمد لهم أو ثناء عليهم ، وعلى حين يرعى الدود جثثهم وجلودهم ، فحرى بالعاقل أن يتدبر أمره ، وأن يتزود للآخرة زاداً كبيراً من التقوى ، فإن الموت له بالمرصاد ، وهنيئًا لمن انتفع بالموعظة وقدم من يومه وبره لغده. وقد أخذ ينمو من هذا الزهد موضوع جديد من موضوعات الشعر العربى هو التصوف وسنعرض له فى غير هذا الموضع .

---

(١) الديوان ص ١٢٧ .

(٢) أجد جدك : اجتهد فى الإخلاص لله والتوبة إليه .

٤

نمو الموضوعات الجديدة

على نحو ما حدث فى الموضوعات القديمة من إضافات كثيرة سواء من حيث المعانى أو من حيث التصاوير، أخذت الموضوعات الجديدة التى عرضنا لها فى كتاب العصر العباسى الأول تدخلها إضافات متنوعة، كما أخذت فروع من الموضوعات القديمة تستقل وتنمو نموًّا واسعًا حتى لتصبح موضوعات جديدة جدة خالصة، وأول ما نقف عنده مما تفرع عن الموضوعات القديمة أو تولد منها، شعر التهانى الذى تحول إليه شعر المديح فى بعض جوانبه، وخاصة التهانى بأعياد النيروز والمهرجان كما مر بنا آنفًا، وكان أولَ من افتتح التهانى أحمد بن يوسف للمأمون[١]، ثم أصبح ذلك سنة عامة، ثم أخذ هذا الموضوع يتسع، فأكثروا من التهنئة بالمواليد، وأيضًا فإنهم أكثروا من إرفاق الهدايا بأبيات من الشعر الرقيقة، من مثل قول سليمان بن وهب، وقد أهدى إلى سليمان بن عبد الله بن طاهر سِلال رُطَب من ضيعته[٢]:

أذنَ الأميرُ بفضله وبجوده وبنَيْلهِ
لوليِّـه فى برِّهِ بجَنَاهُ سُكَّرَ نَخْلِهِ
فبعثتُ منه بِسَلَّةٍ تحكى حلاوة عَذْلِهِ

وكثيراً ما كانوا يتهادون بالورود والرياحين فى أيام الربيع ويرسلون معها ببعض الأشعار، وكذلك كانوا يتهادون ببعض التحف والطرف النفيسة، وقد يصفون مايهدونه تظرفًا كقول ابن الرومى فى قدح أهداه إلى على بن يحيى المنجم[٣]:

وبديع من البدائع يَسْبِى كلَّ عقل ويطَّبِى كل طَرْفِ
كفم الحبِّ فى الملاحة بل أشْـ ـهَى وإن كان لا يناجَى بِحَرْفِ
وسط القَدر لم يكبَّر لجرْعٍ متوالٍ ولم يصغَّر لرَشْفِ

---

(١) ديوان المعانى ١ /٩٥.
(٢) الأغانى (طبعة الساسى) ٢٠/ ٧١.
(٣) الديوان ص ٣٣.

وظل الشعراء يقدمون لمدائحهم كثيراً بوصف الأطلال كما مر بنا ، ونفذ البحترى من ذلك إلى موضوع جديد هو الحديث عن آثار الفرس ممثلة فى إيوان كسرى على نحو ما هو معروف فى قصيدته السينية التى تُعَدّ من روائع الشعر العباسى ، وفيها يصور أطلال هذا الإيوان التى لا تزال ماثلة جنوبى بغداد إلى اليوم ، وكان قد زاره بعد قتل المتوكل ، فبكى همومه وأشجانه ، وبكى الأطلال الكسروية ودولة الفرس القديمة ودولتهم الحديثة التى أدال منها الترك لعصره وأصبح لهم السلطان والصولجان ، فإذا هم يطيحون بالخليفة، وإذا هم يسفكون دمه غير مراعين إلاًّ ولا عهداً . وإنه ليذكر يد الفرس فى العصر العباسى الأول وتشييدهم لحضارته ومدنيته ، مما يجعله ينوه بمجدهم القديم حتى ليكاد يرفعهم على العرب تحسراً على ما آلت إليه شئون الملك والحضارة فى عهد الترك . وهو لا يكاد يتماسك حزناً وحسرة ولوعة فى مستهل قصيدته لنبوّ ابن عمه عنه، وكأنه يرمز بذلك لقتل المتوكل ، فإن أحداً من أهل بيته أو من أبناء عمومته لم ينصره ، بل لقد اشترك ابنه وولى عهده المنتصر فى مؤامرة قتله ، ويشتد بنفسه تأثير المحنة ، فيتجه إلى المدائن عاصمة الفرس القديمة وإيوان كسرى تنفيساً عن نفسه ، ويلمّ به كثير من الشجون ، ويذكر إيران القديمة واتساع ملكها فى الشمال من باب الأبواب على بحر قزوين إلى جبال أرمينية ، كما يذكر رفاهة العيش التى كانت بها ، ولين الحياة ونعيمها وتملأ نفسه أطلال الإيوان ومانقش عليها من الرسوم والصور وخاصة ما سُجِّل بها من تصوير معركة حامية الوطيس بين الفرس بقيادة كسرى والروم وقعت بإنطاكية سنة ٥٤٠ للميلاد ، يقول وقد لفظ كلمة الإيوان باسمها الفارسى « الجرماز[١] » :

فكأَن الجِرْمازَ من عَدم الإنْـ ... ـسِ وإخلاقه بَنِيَّةُ رَمْسِ[٢]

لو تراه علمتَ أنَّ الليـــالى ... جعلتْ فيه مَأْتماً بعد عُرْسِ

وإذا ما رأيتَ صورة أَنْطا ... كيَّةَ ارتعتَ بين رومٍ وفُرْسِ

والمنايا مواثلٌ وأنوشرْ ... وانَ يُزْجِى الصفوف تحت الدِّرَفْسِ[٣]

وعِراكُ الرجال بين يَدَيْهِ ... فى خفوتٍ منهم وإغماض جَرْسِ[٤]

---

(١) الديوان ١١٥٥/٢ .

(٢) رمس : قبر . الإخلاق : البلى .

(٣) يزجى : يسوق . الدرفس : العلم الكبير .

(٤) خفوت : صمت . جرس : صوت خفى.

من مُشيحٍ يَهْوِى بعامل رُمْح ومُليحٍ من السِّنان بتُرْس[١]
تصف العَين أنهم جِدُّ أحيا ءٍ لهم بينهم إشارةُ خُرْس
يَغْتلى فيهمُ ارتيابىَ حتّى تتقراهمُ يداىَ بِلَمْسِ[٢]

والبحترى لا يُبارى فى تصويره الحسى ، حتّى لكأنما ينقل المشهد بحذافيره ، لالنبصره فحسب ، بَل أيضًا لنلمسه بأيدينا ، فهذا الإيوان لم يعد إيوان قصر يكتظ بالترف والنعيم ، بل أصبح بناء قبر ضخم لحضارة الفرس الباذخة وحال كل ما كان فيه من أعراس إلى مآتم ، غير أن صفحة منه لا تزال ناطقة بشجاعة الفرس ومجدهم الحربى ، إذ تجسدت فيها صورة معركة أنطاكية بين الروم والفرس ، وكسرى هاجمٌ بجموع جيشه تحت العلم الفارسى الكبير ، يمزق جموع الروم تمزيقًا ، والفرسان بين مهاجم ومدافع ولا صوت فى المعركة ولا جلبة ، إنما هو تصوير ولكن بلغ من نطقه وقوة تعبيره أن تظن العين أنها ترى المعركة كأنما تحدث تحت بصرها ، بل إن هذا الظن ليزداد فى نفس البحترى ، حتّى ليندفع إلى الصورة ، يلمسها بيده ارتياعًا وانبهاراً . ويمضى فى الحديث عن الإيوان وثباته على الدهر حتّى لكأنما قُدَّ أو نُحت فى جبل عال ويصور ما يجلله من كآبة ممضة ، وكأنما هو أليف غاب عنه أنسُ أليفه ، أو زوج محزون لفراق عروسه ، فانعكست أيامها ولياليها ، بل لقد انعكست ليالى هذا الأيوان فغربت عنه كواكب السعد وأطلت عليه كواكب النحس المقيم ، حتّى ما كان يرفل فيه من بُسط الديباج وستور الحرير نُزِع عنه نزعًا ، ومع ذلك لا تزال له كبرياؤه ولا تزال شرفاته شامخة شموخ جبال المدينة والقدس تختال فى ثيابها البيضاء الرائعة . وينقله خياله إلى ماضى هذا الإيوان التليد ، فالوفود مزدحمة بأبوابه والجوارى من كل صنف تغص بها المقاصير والغرف ، وكأن ذلك كان أول أمس ، كان اللقاء والفراق ، وصارت الرباع التى كانت مكتظة بالسرور ومتاعه منازل للعزاء والحزن الذى لا يريم ، والبحترى يبكيها بدموع غزار ، لما كان لأهلها قديمًا من عون للعرب فى حروبهم من الأحباش وما كان لهم حديثًا من عون فى تشييد الخلافة العباسية وما رافقها من ازدهار الحضارة العربية ،

(١) مشيح : مقبل . عامل الرمح : صدره مليح : خائف حذر .

(٢) يغتلى : يتجاوز الحد ويعظم . تتقراهم : تتبعهم .

ويبكي من خلال ذلك همومه وحزنه لمقتل المتوكل بأيدي الترك الذين صار إليهم بعد الفرس السلطان والصولجان .

وإذا كان وصف الأطلال القديم أوحى للبحتري بهذا الموضوع الجديد ، فإنه أوحى له ولكثيرين من حوله أن يصفوا قصور الخلفاء التي كانوا يشيدونها ويطيلون في وصفها ووصف ما حولها من رياض وما يتقدمها من فوّارات وبرك على شاكلة قول علي بن الجهم في وصف أحد القصور الكثيرة التي كان يسكنها المتوكل بضواحي سامراء ووصف فوارتها أو نافورتها(١) :

صحونٌ تسافر فيها العيونُ ... وتَحْسِرُ عن بُعْدِ أقطارهـا
وقُبَّةُ مُلْكٍ كأن النجو ... م تُفْضِى إليها بأسرارها
لها شُرُفاتٌ كأن الربيع ... كساها الرياضَ بأنوارها
نَظَمْنَ الفُسَيْفِسَ نَظْمَ الحليِّ ... لعُون النِّساء وأبْكارها(٢)
فَهُنَّ كمُصْطَبِحاتٍ بَرَزْنَ ... بفِصْح النصارى وإفطارها(٣)
فمنهنَّ عاقِصةٌ شَعْرَها ... ومصلحةٌ عَقْدَ زُنَّارها(٤)
وفوارةٍ ثأرها في السَّماءِ ... فليستْ تقصِّر عن ثارها
تردُّ على المُزْنِ ما أنزلتْ ... على الأَرض من صَوْب مدرارها

وواضح أنه صوَّر سعة أفنية هذا القصر وعظم قُبَّته وصعودها في السماء حتى لكأنما تفضى إليها النجوم بأخبار الغيب وأنبائه ، كما صوَّر شرفات القصر وما زينت به من الفسيفساء الملونة الجميلة جمال الحلي على جيد النساء وأعناقهن ، وتنوعت أشكال تلك الشرفات ، حتى لقد أشبهت الفتيات حاملات الشموع في عيد الفصح

(١) الديوان ص ٢٩ .

(٢) الفسيفساء : قطع من الرخام الملون الرقيق كانت تزين بها الحيطان والسقوف والشرفات . العون : جمع عوان ، وهي السيدة النصف .

(٣) مصطبحات هنا : من أصبح أي أسرج ، يريد حاملات الشموع . برزن : خرجن . فصح النصارى : عيد ذكرى القيامة .

(٤) تعقص شعرها : تشده على جيدها من خلف أو من وراء . والزنار : حزام يشد وسط الثوب على الخصر .

وذكرى قيامة المسيح ، ومنهن من تلبّد شعرها وتشدّده وتجمّعه ، ومنهن من تنتطق بأحزمة الزنّار مختالة ، وفوارة ماتني ترسل سهامها إلى السماء كأنما لها ثأر عندها ، وكأنما تردّ على المزن قطرها .

وأهم من وصف القصور وصف الطبيعة ، وكان الشعراء في العصر العباسي الأول أكثروا من تصويرها في مقدمات مدائحهم ، وتبعهم شعراء هذا العصر يصفونها تارة في إيجاز وتارة في إطناب وإسهاب رامزين بها إلى عهد الممدوح وجماله ، وكثيراً ما وصفوا في هذه المقدمات الغيث والسحب والبروق لبيان كرم الممدوح من جهة وما شمل البلاد في زمنه من خصب وامتد على صفحاتها من جنات وعيون وزروع ، وتصور ذلك من بعض الوجوه حائية ابن المعتز في مديح المعتضد ، وقد استهلها بوصف البرق والسحاب الهاطل من مثل قوله[1] :

مَنْ رأى بَرْقاً يُضيء التماحـا ... ثَقَبَ الليلَ سناه فلاحا[2]
وكأن البرق مصحَفُ قارٍ ... فانطباقًا مرةً وانفتاحا
في رُكامٍ ضاق بالماء ذَرْعاً ... حينما مالتْ به الريحُ ساحا[3]
لم يَدَعْ أرضاً من المَحْل إلا ... جادَ أو مَدَّ عليها جَناحا[4]
وسَقى أطلالَ هندٍ فأضحتْ ... يمرح القَطْرُ عليها مِرَاحَا

فالليل أضاءته مصابيح البروق ، وكأنها حين تشتعل وتنطفئ مصاحف بأيدى قُرّائها تنفتح وتنطبق ، وسيول المطر تتدافع من كل صوب نافثة لعابها من جدب إلى جدب ومن حوض إلى حوض ؛ والسحب تمد جناحها وتبسط ركامها والأرض تمرح في نباتاتها ورياحينها وبطاحها الخضراء .

ومرّ بنا أنهم كانوا يكثرون من وصف الربيع في تهنئاتهم بعيد النيروز ، وأخذ حينئذ وصف الطبيعة يستقل عن المديح ويصبح فنًّا قائمًا بنفسه ، له قصائده وأشعاره ، وهي تارة تُعْنَى بوصف جميع الأنوار في الربيع ، ولا يبارى ابن المعتز

---

(١) الديوان ص ١٤١ .
(٢) التماحا : التماعاً .
(٣) ركام : سحاب مركوم : متراكم بعضه فوق بعض .
(٤) المحل : الجدب .

فى هذا الاتجاه ، إذ يحاول فى كثير من قصائده إحصاء كل نور وكل زهر من أبيض وأحمر وأصفر ، وكانت له مخيلة تشبه آلة تصويرية دقيقة ، فهى ماتنى تصور وتلتقط الدقائق وكأنها لا تريد أن تترك شيئًا ، ومن خير ما يصور ذلك عنده أرجوزته البستانية التى ذم فيها الصبوح أو خمر الصباح ، وهو يفتتحها على هذا النمط [١] :

أما ترى البُسْتانَ كيف نَوَّرَا ... ونَشَر المنثورُ زهرًا أصفرا
وضحكَ الورد إلى الشقائق ... واعتنق القَطْرَ اعتناق وامقِ
فى روضةٍ كحُلَلِ العروسِ ... وخُرَّمٍ كهامةِ الطاووسِ [٢]

ومضى يذكر الياسمين والخشخاش والسوسن والبهار والجلنار إلى غير ذلك من أزهار ، ولكل زهر صورته ، الحية النابضة . وتعلق كثيرون بوصف الورد والتعبير عن روعته وفتنته التى تأخذ بالألباب ، ولابن الجهم فيه قطعة بديعة يتحدث فيها عن رياحين الربيع وطيوره الغردة ونشوة النفوس به نشوة لا تقل عن نشوة الراح يقول [٣] :

لم يضحك الوردُ إلا حين أعجبه ... حُسْنُ الرياضِ وصوتُ الطائر الغَرِدِ
بدا فأبدتْ لنا الدنيا محاسِنها ... وراحتِ الرَّاحُ فى أثوابها الجُدُدِ
ما عاينتْ قُضُبُ الريحان طَلْعَتَه ... إلا تبيَّن فيها ذِلَّةُ الحَسَدِ
وقابلتْه يَدُ المشتاق تُسْنِده ... إلى الترائب والأحشاء والكبدِ
كأن فيه شفاءً من صبابتِه ... أو مانعاً جَفْنَ عينيه من السُّهُد
بين النديمين والخِلَّين مَضْجعه ... وسَيْرُه من يَدٍ موصولةٍ بيدِ
قامتْ بحجَّته ريحٌ معطَّرةٌ ... تَشْفِى القلوب من الأوصاب والكَمَدِ

وهو تصوير بارع لصبابة الناس بالورد ، حتى إنهم ليضمونه إلى الصدور والأحشاء والكبد يريدون أن يطفئوا به نيران أشواقهم ، ويشفوا به لوعات صباباتهم

(١) الديوان ص ٤٧٣ .
(٢) الخرم : زهر بنفسجى اللون .
(٣) الديوان ص ٨٩ .

وسهادهم الطويل، وإنه ليُتَرَاءَى دائمًا يتهاداه الأحبة وقد اتخذ مضجعه بينهم، وهم يتبادلون كئوس الحب الصافية، وأريجه ينتشر شذاه فى كل ما حولهم بلسماً يشفى القلوب الكليمة. ولعل شاعراً لم يتعلق بالطبيعة فى العصر تعلق ابن الرومى والصنوبرى، ونحس عندهما بقوة الإحساس بفتنة الرياض النضرة والفاكهة اليانعة والمياه الجارية، وغلب ذلك على الشعراء حينئذ، حتى لنجد ابن قتيبة يدعو إلى نبذ وصف البساتين والورود والرياحين والعودة إلى وصف الفيافى وأزهارها ونباتاتها[1]، ولم يقف هذا التحول الجديد عند مجرد التخفف من موضوع الطبيعة الصحراوية الجافة والعناية بطبيعة الحياة الحضرية وورودها ورياحينها، بل لقد تحولت هذه العناية إلى فتنة شديدة بجمال الرياض والبساتين، فتنة خلبت ألباب الشعراء وملأت عليهم حواسهم وملكت عليهم قلوبهم، وخير من يصور ذلك ابن الرومى، إذ نحس فى وضوح شغفه بالطبيعة شغفاً يفوق كل وصف، شغف العاشق بمعشوقته، حتى ليحس كأنما الدنيا فى الربيع تتبرج له ولكل ناظر، إذ يقول[2]:

تبرَّجتْ بعد حياءٍ وخَفَرْ تبرُّج الأُنثى تصدَّتْ للذكر

بل لكأنما تحولت جوانبها تحت عينيه إلى معابد، فهو ما ينى يقدم لها قرابينه وأدعيته وابتهالاته مصوراً جمالها المنبث فى كل أجزائها وما يجرى فيها من حياة، وبدون ريب يتقدم ابن الرومى شعراء العربية عامة فى الإحساس بخفقات الطبيعة وهمساتها وكل حركة فيها، حتى ليشبه فى هذا الجانب من بعض الوجوه شعراء الرومانسية الغربية الذين يفنون فى الطبيعة، ويحسون امتلاءها بالحياة، فكل ما فيها حى متحرك ناطق، وكل ما فيها يخفق بالأحاسيس والمشاعر، ومن خير ما يوضح ذلك عنده تصويره لمشهد الغروب، يقول[3]:

لقد رنَّقَتْ شمسُ الأصيلِ ونَفَّضَتْ على الأُفق الغربىِّ وَرْسًا مُذَعْذَعَا[4]
وودَّعتِ الدُّنْيا لتقضىَ نَحْبَها وشَوَّلَ باقى عُمْرِها فتَشَعْشَعَا[5]

---

(١) الشعر والشعراء (طبع دار المعارف ١٩٦٦) ص ٧٦.
(٢) الديوان ص ٨٩.
(٣) الديوان ص ٣٠٠.
(٤) رنقت: ضعفت. الورس: نبات أصفر. مذعذعا: متفرقاً.
(٥) شول: ذهب. تشعشع: بقى أقله.

ولاحظتِ النُّوّارَ وهْيَ مريضةٌ وقد وضعتْ خدًّا إلى الأرض أضرَعَا(١)
كما لاحظتْ عُوَّادَهُ عَيْنُ مُدْنَفٍ توجَّع من أوصابه ما توجعا(٢)
وبيَّن إغضاءُ الفراق عليهما كأنهما خِلاَّ صفاءٍ تودعَا(٣)
وظلت عيونُ النَّوْرِ تخضَلُّ بالندَى كما اغرَوْرَقَت عَيْنُ الشجِيِّ لتَدْمَعَا(٤)
وأزكى نسيمَ الروض ريعانُ ظِلِّهِ وغَنى مغنِّى الطيْرِ فيه فسجَّعا(٥)
وكانت أرانينُ الذُّباب هناكمُ على شَدَوات الطيْر ضرباً موقَّعا(٦)

وهو يصور وداع الشمس للطبيعة ساعة الغروب وما ترسل من الشفق الأصفر الشبيه بنبات الورس وزهره ، وأشعتها تتبدّد إلا بقايا قليلة ، فهى توشك أن تلفظ أنفاسها ، وقد غلبها النزع الأخير فهى تذل وتستكين وتضع خدها على الأرض إيذاناً بالفراق وإعلاناً لما ألم بها من شدة الأوصاب والآلام ، آلام الوداع المرير للنوار والأزهار التى تترقرق عيونها بندى بل بدمع سخين كما تترقرق بالدموع عيون المحبين المحزونين ، على حين كان النسيم العليل يزكو وينمو والطير يشدو مرجعاً ومردداً ، وحتى الذباب لا ينساه ابن الرومى فقد كان رنينه يخالط شَدْوَ الطير وغناءه . ولم يكن الصنوبرى يبلغ هذا المبلغ من الإحساس بالطبيعة وعناصرها الحية ، ومع ذلك فهو أهم شعرائها فى العصر بعد ابن الرومى ، إذ عاش مشغوفاً برياض بلدته حلب شمالى الشام وحدائقها وأزهارها ، وأشعاره لا تصور فتنة عميقة بتلك الرياض على نحو ما نجد عند ابن الرومى ، وإنما تصور براعة فى الخيال وإبراز الصور الظاهرية أو الخ.بية .

والطريف عند الصنوبرى وابن الرومى جميعاً أنهما يعنيان بتصوير الفواكه والثمار بجانب عنايتهما بتصوير الرياحين والورود والرياض ، ومما يدل على أن موضوع الطبيعة ازدهر فى العصر أن نجد حينئذ فصولاً تفرد لها فى بعض الكتب مثل كتاب

(١) أضرع : ذليل .
(٢) مدنف : مريض سقيم .
(٣) إغضاء الفراق : وحشته وكآبته .
(٤) تخضل : تترقرق وتندى . اغرورقت العين بالدموع : جالت بها .
(٥) أزكى : نمّى .
(٦) أرانين : جمع إرنان أى رنين .

الموشى ، فإن به فصلا خاصًّا لما نظم فى وصف الورود، بل قد نجد كتبًا فيها مثل كتاب مفاخرة الورد على النرجس لابن أبى طاهر أحد شعراء العصر النابهين .

ويدخل فى وصف الطبيعة وصف حيوانها الوحشى ، ونرى البحترى يسوق مبارزة الفتح بن خاقان للأسد فى بعض مدائحه وكان قد خرج إلى الصيد ، ففاجأه أسد فى طريقه ، فنازله ، وقتله ، وصور ذلك البحترى فى مدحة بائية للوزير نراه فيها يتحدث حديثًا مفصلا عن حياة الأسد فى الغابات والرياض وبطون الأودية وأعاليها ، وكيف يهجم على قطعان الحمر وبقر الوحش وكيف يستلب عقائلها وينحرها لأشباله ، ثم يصور المعركة بين الأسدين ، إلى أن خرّ السبع يتضرج فى دمائه ، يقول[١] :

فلم أرَ ضِرْغامَيْنِ أصدقَ منكما ... عِراكاً إذا الهيابَةُ النِّكْسُ كَذّبا[٢]

فأحجمَ لما لم يجد فيك مطمعاً ... وأقدم لما لم يجد عنك مَهْرَبَا

فلم يُغْنِه أن كرَّ نحوك مُقبلاً ... ولم يُنجه أن حادَ عنكَ مُنَكِّبا

حملت عليه السيفَ لا عزمُك انثنى ... ولا يَدُك ارتدَّتْ ولا حدُّه نَبَا

ولا يكتفى البحترى بوصفه لهذا الحيوان الوحشى ، فقد تصادف أن لقيه ذئب فى بعض أسفاره ، فنازله وقضى عليه ، وأفاض فى تصوير هذا الذئب مستمدًّا من ملكته البارعة فى تصوير الحسيات تصويراً يجسد ما يصفه تجسيداً قويًّا؛ على شاكلة قوله[٣] :

وأطلَسَ ملءِ العيْنِ يَحْمِلُ زَوْرَهُ ... وأضلاعَه ، من جانبيه شَوًى نَهْدُ[٤]

له ذَنَبٌ مثل الرِّشاءِ يجسرُّهُ ... ومَتْنٌ كمتن القوس أعوجُ مُنأَدُّ[٥]

طواه الطَّوَى حتى استَمرَّ مَرِيرُهُ ... فما فيه إلا العظمُ والروح والجِلْدُ[٦]

---

(١) الديوان ١/٢٠٠ .

(٢) الضرغام : الأسد . النكس : الجبان الضعيف .

(٣) الديوان ٢/٧٤٣ .

(٤) أطلس : مغبر إلى سواد. الزور : الصدر . الشوى : اليدان والرجلان . نهد : بارز .

(٥) الرشاء : الحبل . منأد : معوج .

(٦) طواه الطوى : أضمره الجوع : استمر مريره : قوى واشتد .

يقَضْقِضُ عُصْلًا فى أسِرَّتها الرَّدَى ... كقضقضة المقرور أرغده البَرْدُ[١]
سَمَالٍ وبى من شدة الجوع مابه ... ببَيْداءَ لم تُعْرَف بها عيشة رَغْدُ[٢]
كلانا بها ذئبٌ يحدِّث نَفْسَهُ ... بصاحبه والجَدُّ يُتْعسه الجَدّ

وهو يصف لون الذئب المغبر إلى سواد، وأعضاءه المكتنزة من الصدر والأضلاع واليدين والرجلين، وذنبه الرفيع ومتنه الصلب، وكيف أضمره الجوع وهزله حتى لم يبق فيه إلا العظم والجلد، وهو يصوّت بأنياب صلبة معوجة كأنها السكاكين القاطعة وكأنه مقرور تصطك أسنانه من شدة البرد وهوله. وقد التقيا فى فلاة موحشة، كأنما استحال البحترى فيها بجوعه بدوره ذئبًا مفترسًا. ويحدثنا البحترى عقب ذلك عن استثارته للذئب ونزاله وطعناته فيه حتى خرّ صريعًا. ويشتهر البحترى بوصفه للخيل وإتقانه لهذا الوصف حتى ليسبق فيه معاصريه بمثل قوله فى وصف فرس[٣]:

يَهْوِى كما تَهْوِى العُقابُ وقد رأت ... صَيْدًا وينتصبُ انتصابَ الأَجْدَلِ[٤]
وتراه يَسْطَعُ فى الغبار لهيبُه ... لوناً وشَدًّا كالحَرِيق المُشْعَلِ[٥]
هَزِجُ الصهيل كأنَّ فى نغماته ... نبراتِ معبدَ فى الثقيل الأَولِ[٦]
مَلَكَ العيونَ فإن بَدَا أَعْطَيْنَهُ ... نظرَ المحبِّ إلى الحبيب المقبلِ

والفرس يسرع كأنه عقاب تنقضّ على فريسة، ويقف منتصبًا انتصابًا تامًّا كالصقر المترقب، وكأنه حين يجرى فى الغبار المتكاثف شعلة نار أو كأنه البرق الخاطف، وإن لصيهله لرنينا جميلا جمال أنغام معبد المغنى المشهور فى العصر الأموى، وإنه ليسحر العيون حين تنظر إليه حتى ليقيدها به كما يقيدها المحبوب فلا تلتفت عنه يمينًا ولا يساراً. ويكثر حينئذ وصف الديك والهرّ، وأهم من ذلك أنه يكثر شعر الطرد والصيد.

---

(١) يقضقض عصلا: يصوت بأنياب معوجة: أسرتها: خطوطها. الردى: الهلاك. المقرور: الذى يحس البرد بشدة.
(٢) رغد: ناعمة.
(٣) الديوان ٣/١٧٤٥.
(٤) العقاب: من الجوارح ومثلها الأجدل وهو الصقر.
(٥) الشد: ارتفاع النار.
(٦) معبد: أشهر مغن فى العصر الأموى. الثقيل الأول لحن كان يودع فيه أكثر أغانيه.

وكان الشعراء منذ العصر العباسي الأول يلمون بوصف الأطعمة وألوانها الحضارية الجديدة ، ونراهم فى هذا العصر يكثرون من وصفها ويخصونها بقصائد طويلة ، ويروى المسعودى فى كتابه « مروج الذهب » مجلساً للخليفة المستكفى جعله لإنشاد جلسائه وندمائه — ما نظمه الشعراء فى أنواع الطعوم المختلفة ، وليس من شك فى أن ابن الرومى يُعَدُّ أكبر من عُنِى بوصفها ، وكان منهوماً بالطعام ، فكاد لا يترك لوناً من ألوانه دون أن يخصه بقصيدة أو مقطوعة ، من مثل قوله فى دجاجة مشوية وما قُدِّم معها من الثريد والمرقات والقطائف[1] :

وسميطة صفراء دينــارِيَّة ثمناً ولوناً زفَّها لك حَزْوَرُ[2]
عظمتْ فكادت أن تكون إوزَّةً وثَوَتْ فكاد إهابُها يتفطَّرُ[3]
ظِلْنَا نُقَشِّرُ جِلْدَها عن لحمها وكأن تِبْرًا عن لُجَيْنٍ يُقْشَرُ
وتقدَّمتْها قبل ذاك ثرائِدٌ مثل الرياض بمثلهن يُصَدَّرُ
ومرقَّقـــاتٌ كلهن مزخرف بالبَيْض منها مُلْبَسٌ ومدثَّر[4]
وأتت قطائفُ بعد ذاك لطائفٌ ترضى اللهاةُ بها ويرضى الحَنْجَرُ

ويخيل إلى الإنسان أنه لم يترك على موائد عصره طعاماً إلا وصفه وصوَّره مبدعاً فى تصويره سواء أكان من طعام اللحوم أم طعام السمك ، وربما كان من أسباب اهتمامه بذلك عناية معاصريه بالولائم ، ومرَّ بنا فى غير هذا الموضع أنهم أكثروا حينئذ من التأليف فى الأطعمة ، وأيضاً فإن أشعاره تدل على شدة نهمه بالأطعمة وحدة شراهته ، وكأن السببين جميعا جعلاه يولع بالحديث عن المآكل والمشارب ، ومن طريف قوله فى الرءوس والأرغفة[5] :

رُوسٌ وأَرغفةٌ ضخامٌ فخمةٌ قد أُخرِجت من جاحمٍ فوارِ
كوجوه أهل الجنة ابتسمتْ لنا مقرونةً بوجوه أهل النــار

---

(١) الديوان ص ٤٧٨ وذيل زهر الآداب ص ٢٣٦ .

(٢) حزور : غلام فيه فتوة . دينارية : نسبة إلى الدينار . سميطة : دجاجة مسموطة .

(٣) إهابها : جلدها . يتفطر : يتشقق .

(٤) ملبس ومدثر : مغطى .

(٥) ذيل زهر الآداب ص ٢٣٩ .

ويحدثنا فى بعض شعره عن تخمته وبشَمه ، كما يحدثنا عن تشوقه دائمًا لكل ما على الموائد ولهفته عليه كقوله فى قطائف قُدِّمَتْ إليه(١) :

قطائفٌ قد حُشِيَتْ باللَّوْزِ والسكَّر الماذىّ حَشْو المَوْز(٢)
تَسْبح فى آذِىٍّ دُهْن الجَوْزِ سررتُ لما وقعتْ فى حَوْزى(٣)
سرورَ عباسٍ بقرب فَوْزِ

فهو يغرم بتلك القطائف ، وكأنها معشوقته أو كأنه عباس بن الأحنف الذى اشتهر بعشقه لفوز عشقًا ملك عليه كل مشاعره وعواطفه وأهوائه . ، ولم يكن ابن الرومى يعشق القطائف وصنوف الحلوى والأطعمة فحسب ، بل كان يعشق معها أيضًا الفاكهة ، وكأنها كانت غذاء لقلبه قبل أن تكون غذاء لمعدته ، ومما كان يعشقه من ألوانها الموز وكذلك العنب الرازقى ، وفيه يقول(٤) :

ورازقىٌّ مُخْطَفِ الخصُورِ كأنه مخـــازنُ البَلُّورِ(٥)
وفى الأَعالى ماءُ وردٍ جُورى لم يُبْقِ منه وَهَجُ الحَرور(٦)
إلا ضياءً فى ظروف نورِ لو أنه يبقَى على الدهور
قُرِّط آذانَ الحسان الحورِ له مـــذاقُ العسل المَشُورِ
ونكهة المِسْكِ مع الكافورِ

ومرَّ بنا فى حديثنا عن الملاهى أنه كان من أهم ملاهيهم لعبتا النَّرْد والشطرنج ، ويسوق المسعودى فى « مروجه » طائفة من الأشعار التى نُظمت حينئذ فى اللعبتين ، ويذكر أن أصحابهما وصفوهما فى أشعار كثيرة ، ومما اختاره منها فى الشطرنج ووصف اللعب به وما يدور على رقاعه من معاركه قول على بن الجهم(٧) :

---

(١) الديوان ص ٤٧٧ .
(٢) الماذى : شديد الحلاوة .
(٣) آذى : موج .
(٤) الديوان ص ١٩٥ وزهر الآداب ٢/ ٩ .
(٥) مخطف : ضامر .
(٦) الورد الجورى : ورد شديد الحمرة .
(٧) مروج الذهب ٤/٢٣٥ والديوان (طبعة المجمع العلمى العربى بدمشق) ص١٧٩.

أرضٌ مربعةٌ حمراءُ من أَدَمٍ ما بين إلفين مَوْصُوفَيْن بالكرمِ
تذاكرا الحرب فاحتالا لها شَبَهًا من غير أن يأثما فيها بسفك دمِ
هذا يُغير على هذا وذاك على هذا يغير وعَيْنُ الحرب لم تنَمِ
فانظرْ إلى الخيل قد جَاشَتْ بمعركةٍ فى عسكرين بلا طَبْلٍ ولا عَلَمِ

ويبدو أنهم بلغوا حينئذ مبلغًا بعيداً من المهارة فى لعب الشطرنج ، وكانوا يعقدون له مجالس يتفرجون فيها على لاعبيه وحذقهم فيه، وكانوا يملئونها بفنون النوادر، وممن اشتهر حينذاك بالبراعة فى لعبه وإحسانه إحسانًا يفوق كل وصف أبو القاسم التوَّزى الشطرنجى . ووصفَ ابن الرومى مهارته فى قصيدة طويلة وصفًا رائعًا ، استهله ببيان نفاذ فكره وبصيرته فى تلك اللعبة، وكيف أنه كان يهزم كل من يلاعبه ويعصف به وبجنوده ورخاخه بتدبيره اللطيف الخفى ، حتى ليوشك أن يكون أخفى من السر فى ضمير محب أدَّبته عقوبة الإفشاء ، وما يلبث أن يخاطبه بقوله(١) :

غَلِطَ الناس لست تلعب بالشطـــرنج لكن بأنفس اللُّعَباء
لك مكرٌ يدبُّ فى القوم أخفى من دبيب الغذاء فى الأعضـــاء
أو دبيب الملال فى مستهامَيْـ ـن إلى غايةٍ من البغضـــاء
أو مسير القضاء فى ظُلَمِ الغيْـ ـب إلى من يريده بالتواء
تقتل الشاه حيث شئت من الرُّقـ ـعة طَبًّا بالقِتْلة النكراء
غير ما ناظرٍ بعينيك فى الدَّسْـ ـت ولا مقبل على الرُّسَـــلاء
بل تراها وأنت مستدبرُ الظهـ ـر بقلبٍ مصوَّرٍ من ذكاء
ما رأينا سواك قِرْناً يولِّى وهْو يُرْدِى فوارسَ الهيجاء

وأبو القاسم — فى رأى ابن الرومى — لا يلعب بالشطرنج ولكن يلعب بأنفس لاعبيه بدهاء أشد خفاء من سريان الغذاء فى الجسم، بل سريان الملال فى متحابين حتى ينتهى بهما إلى حافة البغضاء ، بل مسير القضاء فى حجب الغيب إلى من

(١) الديوان ص ٣٩ .

يبرْديه ، ويصوره قاتلا للشاه فى كل مكان من الرقعة بفنه وطبه ، دون أن ينظر إليه وإلى مكانه من جنوده ، بل أيضًا يقتله وهو مدبر عن الدست بظهره ، وكأنما له عين يرى بها من خلفه حدة ذكاء ونفاذ بصيرة .

وذكرنا فى كتاب العصر العباسى الأول كيف أن بعض الشعراء ، وفى مقدمتهم أبو تمام ، كانوا يضعون أحيانًا فى مقدمات قصائدهم شكوى مرة من الزمن وهمومه وأن منهم من أفرد للشكوى بعض قصائد ومقطوعات ، ولكن هذه الشكوى تظل فى العصر السالف فردية ، أما فى هذا العصر العباسى الثانى فإنها تصبح موجة عامة قل من لم تعمه ، لفساد الأحوال السياسية التى وصفناها فى غير هذا الموضع ، فإذا المناصب يتولاها غير أهلها ، وإذا السعايات تفشو ويفشو معها ارتفاع الوضيع وتعظم المحنة ويستسلم الناس إلى غير قليل من اليأس ، ويحسون كأن لا أمل فى الإصلاح ، فقد عم الظلم واضطربت القيم وكأنما لم يعد للشر والنكْر غاية ينتهيان إليها أوحد يقفان عنده ، أو قل كأنما أصبحت الحياة يأسًا متصلا ، لذلك كان طبيعيا أن نجد الشكوى على كل لسان ، شكوى مريرة من الزمن وأهله ، على شاكلة قول الكندى الفيلسوف[1] :

أناف الذُّنابى على الأرؤس ... فغمِّض جُفونك أونكِّس[2]
وضائلْ سوادك واقبضْ يديك ... وفى قَعْر بيتك فاسْتجلس
وعند مليكك فابْغِ العلوَّ ... وبالوحدة اليوم فاستأنِس
فإن الغِنى فى قلوب الرجالِ ... وإن التعــزُّزَ بالأنفس
وكائنْ ترى من أخى عُسْرَة ... غنيٌّ وذى ثروةٍ مفلس
ومن قائمٍ شخصه ميِّتٌ ... على أنه بعدُ لم يُرْمَس[3]

والكندى متشائم إلى أبعد حد ، فقد اختلت موازين الحياة ، فارتفع الوضيع وهبط الرفيع ، ولم يعد هناك مفر من هذا البلاء ولا خلاص ، فاعتزل الدنيا ، وعش وحيداً بعيداً عن هذا النكر الذى يصطلى الناس ناره ، ولا تؤمل فى أن ينقشع هذا

(١) ابن أبى أصيبعة ص ٢٨٨ .
(٢) أناف : أشرف : نكس : طأطئ الرأس ذلا .
(٣) يرمس : يقبر .

الظلام ، فلم يعد لك من أمل سوى الالتجاء إلى مليكك وساحات بِرّه . ويزدرى الكندى ما فى أيدى أصحاب الجاه والسلطان من مال تعافه النفوس الكريمة ، فيقول إن الغنى غنى النفس العزيزة ، وكم من فقير هو فى حقيقته غنى بقلبه وأخلاقه الرفيعة ، وكم من غنى هو فى حقيقته فقير بأخلاقه الذميمة ، بل إنه ميت وإن بدا حيًّا ، ميت لم يُقْبَر ولم يوضع فى رمسه . وإذا كان الكندى قد بلغ من الشكوى هذا الحد فإن من عاصره من الشعراء ومن جاءوا بعده كانوا يشعرون بنفس المحنة ، حتى من نشأ منهم فى بيوت الترف والدعة أمثال ابن المعتز ، والشكوى تكثر فى ديوانه من مثل قوله(١) :

لم يبق فى العيش غيرُ البؤْسِ والنَّكَدِ ... فاهربْ إلى الموت من همٍّ ومن نَكَدِ
ملأْت يا دهرُ عينى من مكارهها ... يا دهرُ حسبك قد أسرفتَ فاقتصِدِ

وكان طبيعيًّا أن يتعمق هذا الإحساس ابن الرومى الذى لم يكن يوسع له الوزراء والكبراء فى مجالسهم وعطاياهم ، بل كانوا يلقونه فى كثير من الأحوال بالحرمان والنكران ، وكان يعرف فى دقة عبقريته الشعرية ، فضاق بالناس وضاق بالحياة ، وكانت كما أسلفنا شرًّا ونكراً خالصين ، فعاش يتجرعها غصصًا ، ولا مغيث ولا مخلص ولا معين ، فكان طبيعيًّا أن يتحول متشائمًا وأن يصبح التشاؤم فلسفة له ، فالحياة كلها سواد وكلها ظلام وكلها بلاء لا يطاق ، ويصور ذلك تصويراً بديعًا فى بكاء الطفل حين ولادته ، يقول(٢) :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها ... يكون بكاءُ الطفل ساعةَ يُولَدُ
وإلا فما يبكيه منها وإنها ... لأَفْسَحُ مما كان فيه وأَرْغَدُ
إذا أبصر الدنيا استهلَّ كأنه ... بما سوف يلقى من أذاها مهدَّد
وللنفس أحوالٌ تظلُّ كأنها ... تشاهد فيها كل غيبٍ سَيُشْهَدُ

فالدنيا آلام ثقال وأهوال طوال ، والطفل يشعر بذلك ساعة ولادته فيبكى بكاء مراً ، وكان من الواجب أن يفرح لا أن يبكى ، لأنه أخذ حظًّا من الحرية

---

(١) الديوان ص ١٨٦ . (٢) الديوان ص ٣٩٣ .

بالقياس إلى المكان الذى كان فيه ، وكأنما رأى بعينيه ما يتهدده فى دنياه من الأذى الممض الذى سيملأ نفسه شقاء وعناء .

وصوّر الشعراء — على غرار أسلافهم العباسيين — كثيراً من العواطف الدقيقة ، وحللوا كثيراً من المشاعر والشيم الرفيعة والأخلاق الزرية ، فمن ذلك تصوير ابن المعتز لحساده وما يأكل قلوبهم من الحسد والضغينة ، يقول من قصيدة طويلة[1] :

يا مَنْ يناجي ضِغْنَهُ فى نفسهِ ... ويَدِبُّ تحتى بالأفاعى اللُّدَّغِ
ويبيتُ تَنْهَضُ زفرةٌ فى صدرِهِ ... حَسَدًا وإن دميتْ جراحى يُولغِ[2]
ما زال يبغى لى بكل قـــارةٍ ... حُمَةَ الأذى ويشير إن لم يلدغ[3]
نَغِلَتْ ضمائرُ صدرِه من دائِهِ ... نَغَلَ الإهابِ معطَّناً لم يُدْبَغِ[4]
لا تبتغى منى التى لا أبتغى ... إن كنتَ مشغولا بشأنى فافرغِ

وابن المعتز يصور حسّوده فى صورة كريهة ، فهو ما يزال يدب من تحته بأفاعيه السامة وما تزال زفراته تصعد فى صدره وما يزال يلتمس جرحاً له ليولغ فمه فى دمائه ، وما يزال يريد به الطامة الكبرى ، كعقرب إن لم تلدغ بحُمَتِها أشارت تريد نزول الكارثة ، وقد نغلت وفسدت طوايا صدره وكأنها إهاب معطن يتمزق . وابن الرومى لا يبارى فى تحليل مثل هذه المعانى وما يتصل بها من الطباع والشيم ، وله قصيدة طويلة يحلل فيها شيمة الصبر وكيف أنها تُحْمَدُ حين لا تكون لها ضرورة فكيف بها إذا أوجبتها الضرورة والحاجة الملحة حين تنزل بالإنسان مكاره ليس له منها مهرب ، إن الصبر حينئذ يكون نعم الجُنَّة والدرع الواقى . ويدفع ما يقال من أن من الناس من خُلق جزعاً هلوعاً ، فهو لا يستطيع الصبر وكظم النفس عند الشدائد ، يقول[5] .

وقد يتظنَّى الناسُ أنَّ أساهمُ ... وصبرهمُ فيهم طباعٌ مركَّبُ

---

(١) الديوان ص ٣١٥ والمختار من شعر بشار ص ٦٨ .

(٢) ولغه : شربه بطرف اللسان ، أو حرك لسانه فيه .

(٣) الحمة : السم أو إبرة العقرب التى يلدغ بها .

(٤) نغل : فسد .

(٥) الديوان ص ٣١٥ .

وأنهما ليسا كشيء مصرَّفٍ يصرِّفه ذو نكبة حين يُنْكَبُ
وليسا كما ظنوهما بل كلاهما لكل لبيبٍ مستطاعٌ مسبَّبُ
يصرِّفه المختار منا فتارةً يُراد فيأتى أو يذاد فيذهب

فالصبر الجميل والجزع الذميم مكتسَبان يكتسبهما الإنسان بمحض إرادته واختياره ، ولا جبر فيهما ولا طبع ، بل هما من عمل الإنسان وبمشيئته ، إن شاء جزع عند المصيبة وإن شاء لم يصبه جزع ولا هلع ، بل عصم نفسه منهما واحتملهما صابراً جلْداً شجاعاً أروع ما تكون الشجاعة والجلد والصبر .

وأخذ التصوف ينمو سريعاً منذ فاتحة هذا العصر ويستقل عن الزهد استقلالا تامًّا ، إذ مضى أصحابه يتحدثون عن الحب الإلهى ومقاماته وأحواله ، وكانوا يأخذون أنفسهم بمجاهدات عنيفة فى التقشف والنسك مع الانقطاع عن الدنيا والخلوص التام للمحبة الإلهية والنشوة بها إلى درجة الفناء فى الذات العلية ، ولهم أشعار كثيرة يصورون بها هذا العشق وما دلع فى قلوبهم من لوعة لا يمكن إطفاؤها ، لوعة حب قوى حار ، استأثر بكل ما فى قلوبهم من عواطف ومشاعر ، وشغلهم عن كل شىء ، إذ شُغفوا بمحبوبهم شغفاً عظيماً ، بل لقد تحول هذا الشغف عقيدة جمعوا فيها بين محبة الله وبين تقديسه وعبادته ، آملين منه فى الوصال وأن يرفع ما بينه وبينهم من حجب ، ولكن أنى يكون ذلك ؟ إن الدرب دائماً يبدو طويلا ودونه أهوال لا حصر لها ، أهوال تملأ قلوبهم حسرات ألا يستطيعوا آخر الأمر لقاء المحبوب ، ويصور ذلك من بعض الوجوه أبو الحسن النورى إذ يقول[1] :

كم حسرةٍ لى وقد غَصَّتْ مرارتها جعلتُ قلبى لها وقفاً لبلواك
وحقِّ ما منك يُبْليني ويُتْلفنى لأَبكينَّك أو أَحْظَى بلقياك

وواضح أن النورى يتجرَّع غُصَصَ الحسرات المرة ، بل إنه لينتظر البلى والتلف فى سبيل فرحة نفسه باللقاء المنتظر ، وإنه ليحس الضنا ، بل إنه ليحس السقم والعلة ، ولا يجد شفاء لعلته وسقمه ، بل إنه ليجد لذة لا تعد لها لذة فى هذا

(١) طبقات الصوفية للسلمى ص ١٥٣ .

السقم وما يتصل به من عذاب هذا الحب الظامئ وناره التى لا تخمد أبداً ، حتى ليقول(١) :

إن كنت للسقم أهــلا فأنت بالشكر أوْلَى
عَذِّبْ فلم تُبْقِ قلباً يقول للسُّقم مَهْــلَا

فهو يشكره على سقمه لأنه يجد فيه متاعًا لا يشبهه متاع ، بل إنه ليطالب عذابه لأنه لم يعد يشعر بقلبه ولا بما قد يألم من العذاب والسقم .

وكان طبيعيًّا أن ينمو فى العصر الشعر الذى يصور حياة الشعب وما كان يجرى فيها من بؤس وإقلال ومسغبة ، ومن خير الشعراء الذين يصورون هذا الجانب جحظة البرمكى ، إذ نراه يكثر من بيان الشقاء والبؤس اللذين يعيش فيهما بمثل قوله(٢) :

إنى رضيت من الرحيق بشراب تَمْرٍ كالعقيقِ
ورضيت من أكل السَّميـ ـذ بأَكل مسودِّ الدقيق
ورضيت من سَعة الصحـ ـون بمنزلٍ ضَنْكٍ وضيقِ

وكان يذهب مذهبه فى الكدية واحتراف التصعلك والشحاذة ا لأدبية غير شاعر ، وكان لهذه الطائفة مقدمات فى العصر العباسى السالف ، ولكنها اتسعت فى هذا العصر ، وأصبح هناك كثيرون يتخذون الكدية حرفة لهم يبتزون بها أموال الناس .

وظلت مجالس الخلفاء وعلية القوم تُعْنَى بالفكاهات والنوادر المستملحة ، وأشاع ذلك روحًا هزلية فى كثير من الشعراء ، وكانوا ما يزالون يتخذون الوسائل إلى ذلك ، كأن نجد شخصًا يسمى سعيد بن أحمد بن خوسنداد يهدى إلى ابن حمدون شاة هزيلة ، فينظم فى وصفها كثيراً من المقطوعات ، تارة يصور هزالها وتارة يصور جوعها وحرمانها وبؤسها فى أبيات كلها دعابة وكلها سخرية وفكاهة من مثل قوله(٣) :

(١) السلمى ص ١٥٦ .
(٢) ذيل زهر الآداب ص ١٤٩ .
(٣) زهر الآداب ٢ / ٢٣٤ .

لسعيـد شُوَيْهَـةٌ سلَّها الضُّرُّ والعَجَفْ
قد تغنَّتْ وأبصرتْ رجـلا حاملا عَلَفْ
بأَبي من بكفِّه بُرْءُ ما بى من الدَّنَفْ
فأتاهـا مطمِّعاً وأتتـه لتعتلفْ
فتـولى فأقبلتْ تتغنى من الأَسف
ليتـه لم يكن وقَفْ عـذَّب القلب وانصرف

فهى ليست شاة بل شويهة مصغرة من الضنا والهزال الذى أصابها لطول تعلقها بالعلف ، ولا تجده ولا تراه ، حتى إذا رأت يومًا رجلا يحمل علفًا توسلت إليه وتضرعت أن يبرئها من سقمها ، وأطمعها الرجل ، ولكنه سرعان ما تولى عنها تاركًا لها الحسرة واللوعة ، وهى تتمنى لو أنه يقف ، فقد آلم قلبها وانصرف . ومن الموضوعات التى تندروا بها كثيراً فى العصر وصف الثقلاء والأكلة وموائد البخلاء وما عليها من قلة الطعام ، ولابن الرومى فى ذلك كله أشعار كثيرة ، وقد أشرنا فيما أسلفنا إلى ابتكاره فى الهجاء لونًا جديداً من التصوير الهزلى وقد تعقب فيه أصحاب العيوب الخلقية من مثل جاحظ العينين والأحدب وأصحاب اللحى الطويلة ، فعرضهم عرضًا هزليًا مضحكًا فى كل رسومه وصوره .

٥

نمو الشعر التعليمى

عرفنا فى كتاب العصر العباسى الأول أن الشعراء استحدثوا فيه فن الشعر التعليمى وأن أبرع من استخدمه أبان بن عبد الحميد ، فقد نظم فيه كليلة ودمنة فى نحو أربعة عشر ألف بيت ، والأحكام الفقهية المتعلقة ببابى الصوم والزكاة ، وسيرتى أردشير وأنوشروان كما نظم قصيدة فى مبدأ الخلق ضمنها شيئًا من المنطق . وظل هذا الفن قائمًا بعد أبان ، كما ظل ينمو عند بعض الشعراء ، وفى مقدمتهم على بن الجهم وابن

المعتز وابن دريد . أما ابن الجهم فعنى بنظم مزدوجة فى التاريخ تقع فى أكثر من ثلثمائة بيت ، جعلها فى جزءين : جزء تناول فيه بدء الخليقة وتاريخ الأنبياء، وجزء تناول فيه تاريخ الإسلام والخلفاء ، وربما تأثر فى الجزء الأول بالقصيدة المنسوبة إلى أبان والتى قال الرواة عنها إنها كانت فى بدء الخلق ، أما الجزء الثانى وهو الخاص بتاريخ الخلفاء، فيعد سابقًا فيه فإن الشعراء من قبله لم يفكروا فى نظم هذا التاريخ، ونراه حريصًا فى مفتتح الجزء الأول على ذكر مصادره فيه إذ يقول ، وقد بدأ بقصة خلق آدم :

يا سائلى عن ابتداء الخلقِ ... مسألَةَ القاصدِ قَصْدَ الحقِّ
أخبرنى قومٌ من الثِّقاتِ ... أولو علومٍ وأولو هيئـاتِ
تفرّغوا فى طلب الآثارِ ... وعرفوا موارد الأَخبـارِ
ودرسوا التوراة والإنجيلا ... وأحكموا التأْويل والتنزيلا
أن الذى يفعل ما يشاءُ ... ومَنْ له القدرة والبقاءُ
أنشأَ خلق آدمٍ إنشاءَ ... وقَدَّ منه زوجه حَوَّاءَ

ويستمر فى قصة حواء وآدم ووسوسة إبليس لهما وهبوطهما من الجنة إلى الأرض، وواضح أنه عُنى بذكر مآخذه لهذه القصة وما يليها من قصص الأنبياء عن رجال الآثار والأخبار، الذين درسوا التوراة والإنجيل وأحكموا دراسة التنزيل أو القرآن الكريم ، ويعرض لابنى آدم قاين (قابيل) وهابيل ، ويأخذ فى عرض تاريخ الرسل تباعًا ، بادئًا بنوح وقصة الطوفان وخالفيه من الرسل وأقوامهم ، وخاصة إبراهيم وما كان من كسره للأصنام ودعوته إلى التوحيد ، ويذكر زوجتيه : هاجرَ وسارة وسُكْنَى هاجر فى البلد الأمين مع ابنها إسماعيل فى جوار القبيلة القديمة جُرْهم ، ويتحدث عن إسحق ويعقوب وقصة يوسف وإخوته ويصور عصيان بنى إسرائيل لأنبيائهم ، ويذكر أخبارهم مع بختنصّر ، كما يذكر سليمان وأيوب ويونس والخضر وزكريا ويحيى وعيسى ، وبذلك ينتهى الجزء الأول من الأرجوزة . ويأخذ فى التقديم للجزء الثانى فيتحدث عن أحوال الأمم بين زمن المسيح

ومجيء الإسلام وما ساد من شرك وإثم إلى أن أشرقت الدنيا بطلعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، يقول :

ثم أزال الظلمةَ الضياءُ وعاودتْ جِدَّتَها الأَشياءُ
أتاهمُ المنتَجب الأَوَّاه محمدٌ صلى عليه اللهُ

ويتحدث عن رسالته وموقف أهل مكة منه وخصومتهم له وهجرته إلى المدينة ثم يتحدث عن خلافة أبى بكر من بعده محددالها بالسنة والشهر ، ودائماً يحدد المدة التى وليها كل خليفة تحديداً دقيقاً ، كما يعرض لأهم الأعمال فى عهده ، يقول:

وقام من بعد أَبى بكر عُمَرْ فبرزتْ أَيامه تلك الغُرَرْ
تضعضعتْ منه ملوك فارس وخرَّت الرومُ على المعاطس[1]

ويتحدث عن عثمان وعلى بن أبى طالب ، ثم ينتقل إلى بنى أمية متعقباً لهم خليفة خليفة ، كما يتعقب أهم الأحداث فى عهودهم ، ويُنْحى على يزيد بن معاوية باللوم والتعنيف لمقتل الحسين فى عهده ، ولا يكاد يثنى على سيرة خليفة أموى إلا ما كان من عمر بن عبد العزيز فإنه خصَّه ببعض الثناء . ثم انتقل إلى الحديث عن الخلفاء العباسيين مهللا لخلافتهم وتحوُّل صولجان الملك إليهم ، منوهاً بهم . حتى إذا انتهت الخلافة إلى جعفر المتوكل أشاد بخلافته وانتظام شئون الملك والرعية لعهده ، ويأسى لقتل الفراغنة الأتراك له وماصارت إليه الخلافة من الاختلال يقول :

وبايع الناسُ الإمامَ جعفرا خليفةَ اللهِ الأَغرَّ الأَزهرا
قد سكَّن اللهُ به الأَطرافا فما ترى فى ملكه خلافا
ثم تولَّى قتله الفَرَاغِنَهْ وساعدتْهم عُصْبةٌ فراعنه
لأَربعٍ خَلَوْنَ من شَوَّالِ فأَصبح الملك أَخا اختلالِ

---

(١) خرت على المعاطس: ذلت . والمعاطس : الآناف .

ويذكر بعده الخليفة المنتصر ثم المستعين الذى تلاه لسنة ٢٤٨ للهجرة ، وقد توفى لعهده سنة ٢٤٩ وكأنه نظم هذه الأرجوزة بأخرة من حياته . والأرجوزة قوية النسج مع سهولة فى الصياغة ونصاعة فى العبارة .

ونرى ابن المعتز يُعْنَى بنظم سيرة المعتضد الخليفة العباسى معاصره وكانت بينهما صداقة وثيقة ، وكان أبوه الموفق من قبله ولى عهد المعتمد ، وقد أعادا معًا للخلافة العباسية هيبتها على نحوما مر بنا فى غير هذا الموضع فقضيا على ثورة الزنج وهزما الصفار وأخمدا أنفاس كل ثائر ، واستقامت شئون الملك السياسية . وكانت أيام المعتضد أيام أمن ورفاهية وازدهار . وكان المذلك وقع بعيد فى نفس صديقه ابن المعتز فرأى أن ينظم فى سيرته أرجوزة[1] تصور استقرار الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية وما عمّ البلاد من العدل فى عهده ، مقارنًا بين تشعث الأمور قبله وانتظامها لزمنه ، وهى فى نحو أربعمائة بيت ، وقد افتتحها بحمد الله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أخذ فى تصوير سيرة المعتضد وكيف كانت الخلافة قبله مختلة : فالترك يخلعون الخلفاء ويقتلونهم وينتهكون الحرمات وينهبون الأموال :

كذاك حتى أفقروا الخلافه وعوّدوها الرعبَ والمخافه

وارتُكبت عظائم الآثام ، وهبّ الثوار فى كل مكان ، يتقدمهم قائد الزنج قاتل الشيوخ والأطفال ومخرب البصرة والأهواز . ويذكر ابن المعتز القواد الذين هزمهم ، حتى تصدّى له الموفق وابنه المعتضد . وكان الموفق صورة للبأس الذى ليس بعده بأس والحزم الذى ليس بعده حزم . وبعد جهاد وصراع شديدين قضى الله له بالنصر المبين — وحارب يعقوب الصفار بعد الزنج . فهزمه هزيمة ساحقة — ويذكر تنكيله بالوزير أبى الصقر إسماعيل بن بابل انتقاما طغيانه وماأذاق عمالُه وجنودُه الشعبَ من ظلم لايطاق ، حتى كان الوارث لايرث أباه الموسر إلا إذا دفع الرشوة الباهظة ، وحتى كان التاجر الثرى تُغْتَصَبُ منه أمواله قسراً ، مع مجونه وإيمانه بالتعطيل واعتناقه للشرك . هكذا كان الظلم فاشيًا قبل المعتضد حتى إذا ولى شئون الرعية نشر فيها العدل الذى لاتصلح حياتها بدونه ، وسارع الثوار

(١) انظر فيها الديوان ص ٤٨١ .

بالإذعان خوفاً من بطشه وانتقامه، وهربَ اللصوص . وقبضَ الجند على أصحاب النهب والسلب وكبلوهم بالأصفاد والأغلال . وبعث برسله إلى ابن عيسى بن الشيخ ينذره ويتوعده ، فاستسلم خائفاً وأدّى أموالا جليلة ، واستنزل حمدان من حصنه فى ماردين . وأسرهرون صاحب الشراة الخوارج ، ويطيل فى ذمه وذم عقيدته وأنصاره ، كما يطيل فى ثورة رافع بن هرثمة بخراسان وماكان من القضاء عليها وصلبه ببغداد . وكان المعتضد قد أخر المطالبة بالخراج من شهر آذار إلى الحادى عشر من حزيران حتى يتم الحصاد . وكان ذلك صنعاً جميلا بالزراع والناس ، فأشاد ابن المعتز بهذه المكرمة وصوّر فى ثنايا ذلك صفوف التعذيب التى كانت تُصَبُّ على الناس صبّاً لاستخراج أموال الخراج منهم بالعنف . وقد عرضنا لذلك فى حديثنا عن الحياة السياسية، إذ كانوا لايزالون يرهقونهم وينكلون بهم حتى لاتبقى فيهم قدرة على المقاومة ، وحتى يتنازلوا عن كل مايملكون جملة . ويتحدث عن أبنية المعتضد الشامخة وخاصة قصره الرباب وبركته الكبيرة ، وهو أحد قصوره المعروفة باسم الثريا . ويعود إلى حديثه عن إخماد المعتضد للثورات وينوه بموظفيه وعلى رأسهم القاسم بن عبيد الله وزيره ، ويصور كيف فتك بعض قواده بصالح بن مدرك الذى كان يعيث فى الأرض فساداً قاطعاً الطريق على الحجاج سافكاً للدماء ومنتهكاً للحرمات وناهباً للأموال ، كما يصور قضاء إسماعيل بن أحمد السامانى والى خراسان على عمرو بن الليث الصفار الذى طالما تمادى فى غيه بفارس ، فعادت مذعنة إلى الطاعة . ومثلها طبرستان وقضاء السامانيين فيها على محمد بن زيد العلوى . وكذلك قضاؤه على وصيف الخادم حين نقض الطاعة فى الثغور . ويتحدث ابن المعتز عن القرامطة وتمزيق قواد المعتضد لهم ولجنودهم فى عهده ، ويذكر وصول وفد الروم يحملون كتاب إمبراطورهم صاغرين طالبين الهدنة والفداء . ويعود إلى القرامطة ، ويفيض فى ذم الكوفة مستقر الفرق الشيعية الغالية التى نبتت منها — فى رأيه — فرقة القرامطة ، وفيها يقول :

واستمع الآن حديثَ الكوفه مدينـــةً بعينها معروفه
كثيرة الأديان والأئمّه وهمُّهـــا تشتيتُ أمر الأمه

ويتحدث عن خذلان أهلها لعلى بن أبى طالب وقتله وقعودهم عن نصرة الحسين ومصرعه تحت أعينهم دون أن يهبوا لنجدته ويعصفوا بقتلته ، يقول :

ثم بكوا من بعده وناحــوا   جهلا كذاك يفعل التمساحُ

ويبالغ فى ذمهم حتى ليجعلهم أس كل ضلال ومنبت كل الفرق لا من الشيعة فحسب ، بل أيضًا من الخوارج . وينوه بانتصار شبل غلام الطائى على القرامطة فى سواد الكوفة وأسره لقائدهم ابن أبى قوس على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع ، وما كان من صلبه لسنة ٢٨٩ على الجسر ببغداد ، وهى السنة التى توفى فيها المعتضد . وقد يدل ذلك على أن ابن المعتز لم يفرغ من نظمه لتلك الأرجوزة إلا فى هذه السنة ، وربما فرغ منها قبل ذلك وأضاف إليها بأخرة هذا الجزء ، ولا ريب فى أنه ألحق بها الأبيات الثلاثة الأخيرة التى تشير إلى وفاة المعتضد وانتهاء خلافته لعام تسع وثمانين ومائتين . والأرجوزة قوية النسج ، وهى تتفوق فى هذا الجانب على أرجوزة ابن الجهم ، إذ تتناسق فيها الصياغة تناسقا بديعا ، وتبدو فيها بوضوح عواطف ابن المعتز ومشاعره ، مما يجعلها تخفق بحيوية قوية . وقد استطاع أن يودع فيها سيرة المعتضد وأحوال الشعب فى عهده من جميع جوانبها السياسية والاجتماعية والاقتصادية . وبون بعيد بينها وبين كتب التاريخ مثل الطبرى من هذه الناحية ، ففى تلك الكتب إنما نعرف الثورات والحروب وبعض الأعمال الكبرى ، وقلما اطلعنا على جانب من جوانب حياة الشعب ، أما فى تلك الأرجوزة فالشعب ماثل أمامنا وسياط جباة الضرائب تنوشه ويُزَجّ به فى السجون ظلمًا وعدوانًا وأمواله تُسْلَب منه بغيًا وطغيانًا .

وأما ابن دريد فكان عالمًا لغويًّا كبيراً ، ينظم الشعر ويحسنه ، وله ديوان مطبوع ، وقد عُنى بتضمين طائفة من أشعاره بعض المعارف . وأشهر ماله فى هذا الباب مقصورته[1] التى مدح بها عبد الله بن محمد بن ميكال والى الأهواز وابنه إسماعيل ، وقد بنى قافيتها على الحرف المقصور وجعلها فى نحو مائتين وخمسين بيتًا ، ويقال إنه ضمَّنها ثلث المقصور فى اللغة[2] ، وقد استهلها بالنسيب على طريقة

(١) انظر المقصورة فى الديوان ، وهى مطبوعة بشرح الخطيب التبريزى فى دمشق .

(٢) خزانة الأدب للبغدادى ٣ / ١٠٥ .

الشعراء القدماء مفتتحًا لها بقوله :

يا ظبية أشبه شيء بالمَهَا ترعى الخُزامى بين أشجار النَّقَا[١]

وقد مضى يشكو من شيبه وحبه وسهاده لطول الفراق ، وكيف أنه يحتمل من آلام الشوق وعذابه ما لا يحتمله الصخر الأصم ، حتى لقد ذوى غصنه الرطيب وأصبحت حياته كلها غُصَصًا لا تطاق ، ويتجه إلى الدهر الذى يصب عليه المحن بالخطاب قائلا :

يا دهرُ إن لم تك عُتْبَى فاتَّئِدْ فإن إرْوادك والعتبى سَوَا[٢]
لا تحسبَنْ يا دهر أنى جازعٌ لنكبة تَعْرِقُنى عَرْق المُدَى[٣]
مارسْت من لو هوتِ الأفلاك من جوانب الجوِّ عليه ماشكا
لكنها نفثةُ مصدورٍ إذا جاش لغامٌ من نواحيها عَمَا[٤]

وهو يُبْدى أمام محن الدهر وخطوبه صلابة وقوة لا حد لها حتى لو خرَّت عليه الأفلاك ما تألم ولا شكا ، وقد مضى يتعزى بمن سطا الدهر عليهم قبل أن يحققوا آمالهم من أمثال امرئ القيس ويزيد بن المهلب . واستطرد يتحدث عن بعض ذوى الهمم الشامخة أمثال سيف بن ذى يزن وعمرو بن هند . وكأنما سرت فى روحه شجاعتهم فإذا هو فى عُدَّة الحرب رفيقاه السيف والفرس، ويفيض فى وصفهما وخاصة فى أوصاف الفرس . وكأنه يكتب فيه رسالة لغوية مستقلة . ويصف رحلته إلى الأهواز بفارس ، ثم يأخذ فى مديح الأميرين . حتى إذا فرغ منه وصف فتاة ساحرة خلبت لبه . ويُعقّب ذلك بطائفة من الحكم يحشدها حشداً من مثل قوله :

وإنما المَرْءُ حديثٌ بعده فكن حديثاً حسناً لمن وَعَى

---

(١) المها : بقر الوحش . الخزامى : نبات زهره طيب . النقا : القطعة من الرمل .
(٢) اتئد : تأن . الإرواد : الترفق .
(٣) تعرق : تفصل اللحم عن العظم . المدى : السكاكين .
(٤) اللغام : الزبد على فم البعير . عما : سقط

ويستطرد إلى وصف رحلة له فى الصحراء مع بعض الفتية، مصوراً ما تجشمه فى السُّرى من الصعاب وما كان ينزله من الآبار والذئاب تعوى حوله، ثم ينتقل فجأة إلى وصف الخمر، وكان منهوماً بها، وهو يصرح بذلك ولا يخفيه، بل إنه يتسع فى تصريحه بأنه عبٌّ من كل ما كان يشتهيه. والطريف أن هذه الأرجوزة التى قصد بها ابن دريد إلى أخذ الناس بحفظ الألفاظ المقصورة فى اللغة لا تتعمق فى الإغراب اللفظى، فقد استطاع أن يسلك الكثرة من ألفاظها فى أساليب سهلة يسيرة، وحتى الأساليب والصياغات الأخرى لا تتعمق فى الإغراب، مما يدل على مقدرته الشعرية البارعة.

ولابن دريد وراء هذه القصيدة قصائد أخرى تتضح فيها هذه الغاية اللغوية التعليمية، من ذلك قصيدته[١] فى المقصور والممدود، وقد اشتملت على سبع وخمسين كلمة مقصورة ومثلها ممدودة من نفس مادتها، وقد بدأها بما يفتح أوله فيُقْصَرُ ويُمَدّ والمعنى مختلف من مثل قوله:

لا تركننَّ إلى الهَوَى ... واحذرْ مفارقة الهواء
يوماً تصير إلى الثَّرَى ... ويفوز غيرك بالثراء

وتلا ذلك بما يكسر أوله فيقصر ويمد والمعنى مختلف من مثل: اللِّوَى[٢] واللواء. ثم ما يكسر أوله فيقصر، ويُفْتح فيمد، والمعنى واحد مثل: سِوَى وسواء. ثم ما يضم أوله فيقصر، ويكسر فيمد والمعنىء واحد، مثل: لُقًا ولِقاء. ثم ما يفتح أوله فيقصر، ويكسر فيمد، والمعنى واحد مثل: الغَدَا والغِذاء. ثم ما يفتح أوله فيقصر، ويكسر فيمد، والمعنى مختلف، مثل: السَّحا والسحاء[٣]. ثم ما يُضَمّ أوله فيقصر، ويفتح فيمد، والمعنى مختلف، مثل: ضُحًى وضَحاء[٤]. وفى ديوانه قصيدة[٥] ملأها بالغريب، نظمها تحدياً لبعض علماء اللغة موردا عليه طائفة كبيرة من ألفاظها الآبدة، وهى لذلك تُضَمّ إلى القصيدتين التعليميتين السابقتين،

(١) ديوان ابن دريد (طبع القاهرة) ص ٢٩.
(٢) اللوى: منقطع الرمل.
(٣) السحا: القرطاس: السحاء: ضرب من الشجر.
(٤) الضحى: وقت ارتفاع الشمس. الضحاء: النهار.
(٥) الديوان ص ٨٨.

فغايتها هي الأخرى علمية أو تعليمية واضحة . وأيضاً فى الديوان بجانب ما قدمنا ثلاث مقطوعات [1] أودع فى أولاها ما يذكر من أعضاء الجسم ولا يؤنث، وفى ثانيتها ما يؤنث ولا يذكّر ، وفى ثالثتها ما يجوز فيه التذكير والتأنيث. وعلى هذا النحو سخر ابن دريد الشعر ليحمل مواد لغوية تعليمية بجانب ما حمل قبله من مواد تاريخية وغير تاريخية .

(١) الديوان ص ١٢٣ وما بعدها .

الفصل الخامس

أعلام الشعراء

١

على بن الجهم [١]

يرجع نسب على بن الجهم إلى بنى سامة بن لؤىّ القرشيين ، وقد نزل أحد أجداده مدينة مَرْو بخراسان واستوطن هذا البلد النائى مع من استوطنه من أبناء العرب الفاتحين لأواسط آسيا . وإلى هذا الموطن يشير على بن الجهم فى إحدى مدائحه للمتوكل ، إذ يفاخر بأنه من أهل خراسان الذين أدالوا للعباسيين من الأمويين قائلا [٢] :

مذهبى واضحٌ وأصلى خُراسا نُ وعِزّى بعِزّكم موصولُ

ويبدو أن الجهم رحل عن موطن أجداده بخراسان مبكراً إلى بغداد مع بعض إخوته وأسرته طلباً للرزق وشَغْل بعض الوظائف فى الدولة . ويفتح له المأمون أبوابه ، ويولّيه بريد اليمن وبعض الثغور ويتولّى فى عهد الواثق شرطة بغداد [٣] وفى ديوان أبى تمام أشعار فى أخيه عثمان وابنه إدريس ، مما يدل — من بعض الوجوه — على أنه كان لهذه الأسرة بعض الجاه والوجاهة . ولا تُعْرَفُ بالضبط السنة التى أنجب فيها الجهم ابنه عليا ، ويغلب أن يكون مولده سنة ١٩٠ للهجرة وأن تكون بغداد مسقط رأسه؛ ونراه فى نعومة أظفاره يختلف من داره فى شارع دُجَيْل

---

(١) انظر فى على بن الجهم وترجمته وأشعاره طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣١٩ والأغانى (طبعة دار الكتب المصرية) ١٠ /٢٠٣ ومعجم الشعراء للمرزبانى (طبعة الحلبى) ص ١٤٠ ووفيات الأعيان لابن خلكان فى على وتاريخ بغداد ١١ /٣٦٧ وتاريخ ابن الأثير والنجوم الزاهرة فى سنة ٢٤٩ والموشح للمرزبانى ص ٣٤٤ وطبقات الحنابلة لابن أبى يعلى ص ١٦٤ وقد طبع ديوانه فى المجمع العلمى العربى بدمشق خليل مردم ووضع له مقدمة قيمة .

(٢) الديوان ص ٢٦ .

(٣) تاريخ بغداد ٧ /٢٤٠ .

إلى كُتَّاب بالحى كان يتعلم فيه الأطفال ذكوراً وإناثًا مجتمعين، ولفتته ذات يوم بُنَيَّة صغيرة بمحاسنها الدقاق فكتب إليها فى بعض الألواح (١) :

ماذا تقولين فيمن شفَّه سَهَرٌ   من جَهْد حبك حتى صار حيرانا

وسرعان ما أجابته البُنَيَّة فى نفس اللوح على البديهة :

إذا رأينا محبًا قد أَضرَّ بهِ   جَهْدُ الصبابة أو ليناه إحسانا

وفى بعض الروايات أن هذا البيت أول شعر نظمه ، وكأن هذه البُنَيَّة هى التى ألهمته الشعر وأنطقته . وكان لا يزال يملأ الدار على أبيه شغبًا وعبثًا ولعبًا ، فسأل معلمه فى الكُتَّاب أن يحبسه تأديبًا له ، وأجابه المعلم إلى حبسه ، فاغتاظ على من أبيه غيظًا شديداً ، ولم يلبث أن كتب إلى أمه فى شِقِّ لَوْح مستغيثًا(٢) :

يا أُمَّتا أفديكِ من أُمٍّ   أَشكو إليكِ فظاظةَ الجَهْمِ

قد سُرِّح الصبيان كلهمُ   وبقيتُ محصورًا بلا جُرْمِ

وتوسطت له أمه عند أبيه وأطلق سراحه ، وكأنما كان هذا الهجاء لأبيه إرهاصًا بما سيصير إليه من حدة لسانه التى سيصلى فيما بعد نارها . والحادثتان كلتاهما تدل على أن موهبته الشعرية تفتحت مبكرة ، فإنه لم يكد ينهى دروسه فى الكتَّاب حتى كان قد أصبح شاعراً ينظم الشعر فى يسر . وكانوا يتعلمون فى الكتَّاب شيئًا من علم الحساب ومن النحو والعروض وبعض سور القرآن وبعض الأشعار والأحاديث النبوية . ولا ريب فى أنه كان يغدو ويروح بعد ذلك مع الشباب إلى حلقات العلماء المتكلمين فى المساجد ينهل منها ، وربما اطلع على شىء من علوم الأوائل صنيعَ لداته فى عصره . وكانت فى المسجد الجامع حلقة كثيراً ما اختلف إليها وكثيراً ما اجتذبته ، ونقصد حلقة الشعراء إذ «كانوا يجتمعون كل جمعة فى القبة المعروفة بهم فى جامع بغداد ، ينشدون الشعر ويعرض كل منهم على أصحابه ما يكون قد نظمه بعد مفارقتهم فى الجمعة السابقة» . وفى هذه الحلقة تعرف

---

(١) الديوان ص ١٨٤ .   (٢) الديوان ص ١٨٠ والجرم : الذنب .

على كثير من شعراء عصره وفى مقدمتهم أبو تمام الذى أصفاه ودّه وصوّر ذلك تصويراً رائعاً فى شعره بمثل قوله[١] :

إنْ يختلفْ ماءُ الوِصال فماؤُنا عَذْبٌ تحدَّر من غمامٍ واحدِ
أو يفترقْ نَسَبٌ يؤلِّفْ بَيْنَنَا أدبٌ أقمناه مُقام الوالدِ

ولم يكد على يتجاوز العشرين ربيعاً حتى أخذ نجمه بين الشعراء المعاصرين له فى الصعود ، وإذا هو يصبح من مُدَّاح المعتصم ومن يحظون بالوفود عليه ، ويُعْجَبُ به ، فيجعله على مظالم حلوان بالعراق[٢]. ويفد على الواثق يمدحه ، غير أن ابن الزيات وزيره كان يزورُّ عنه ، ويبدو أنه عزله عن عمله ، إذ نراه يصبُّ عليه جام غضبه[٣] . وفى هذه الأثناء نراه يعقد صلة وثيقة بينه وبين عبد الله بن طاهر أمير خراسان ، مؤتسياً فى ذلك بصديقه أبى تمام ، ويتوفى سنة مائتين وثلاثين للهجرة ، فيعزّى فيه ابنه طاهراً خليفته على ولاية خراسان ويبكيه بكاء حارًّا .

وتُقبل الدنيا على ابن الجهم مع خلافة المتوكل سنة ٢٣٢ للهجرة إذ يصبح من أقرب الشعراء إلى نفسه ، ويتخذه جليساً ونديماً ، ويسرّ إليه بما يدور بينه وبين جواريه ومحظيَّاته من مثل محبوبة وقبيحة أم المعتز ، ويغدق عليه أمواله وجوائزه حتى ليروى الرواة أنه دخل عليه يوماً وبيده دُرَّتان نفيستان يقلّبهما تعجباً واستحساناً ، ويبالغ الرواة فيقولون إن الواحدة منهما كانت تزيد قيمتها على مائة ألف ، وأنشده ابن الجهم قصيدة جعلته يقدم له إحدى الدُّرَّتَيْن ، وكانت فى يمينه ، والأخرى لا تزال فى يساره ، فأسرع ابن الجهم يقول على البديهة :

بِسُرَّ مَنْ رَا إمامُ عَدْلٍ تغْرف من بحره البحارُ
الملكُ فيه وفى بَنيــهِ ما اختلف الليل والنهارُ
يُرْجَى ويُخْشَى لكل أمرٍ كأنه جَنَّةٌ ونــارُ

(١) ديوان أبى تمام ١ / ٤٠٧.
(٢) أغانى ١٠ / ٢١٠ .
(٣) الديوان ص ١١٨ .

يداه في الجود ضَرَّتانِ عليه كلتاهما تَغارُ
لم تأتِ منه اليمينُ شيئاً إلا أتت مثلَه اليسارُ

واهتز المتوكل طرباً وأعطاه الثانية[١]. وقد يكون في منادمته للمتوكل وملازمته له ما يدل على أنه كان ظريفاً جميل المحضر. ونراه يتحول منذ اليوم الأول في خلافته داعية كبيراً من دعاته، بل لقد تحول إلى ما يشبه أداة إعلام، فليس هناك عمل ينهض به المتوكل إلا ويدعو له إن احتاج إلى دعوة، بل إنه ليبالغ في الدعوة له مبالغة مفرطة. وليس هناك عمل يستحق التنويه إلا ويهتف به في أشعاره ويشيد إشادة بعيدة، وحتى هو إن غضب على بعض الوزراء أو بعض الكتّاب والعمال رأيناه يَسْقط عليهم بسياط أشعاره طالباً لهم التنكيل الشديد. وكان أول عمل عامّ نهض به المتوكل وقفه محنةَ القول بخلق القرآن على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع؛ فقد كان الخلفاء منذ المأمون جعلوا هذا القول عقيدة رسمية للدولة، وعَنُفوا بالفقهاء المنكرين لذلك وفي مقدمتهم أحمد بن حنبل عنفاً شديداً، حتى إذا ولي المتوكل وقف هذه المحنة التي أوشكت أن تؤدي إلى فتنة خطيرة، وبذلك أفل نجم أصحابها من المعتزلة الذين كانوا يُغْرون الخلفاء بها وسطع نجم الفقهاء وأهل السنة. ولا يزال ابن الجهم يُشيد بهذا الصنيع، إذ رأب المتوكل صدع فتنة كان يخشى أن تتفاقم وتؤدي إلى شر خطير، ونراه في أثناء ذلك يكيل هجاء ذميماً للمعتزلة، حتى ليصفهم بالكفر على شاكلة قوله[٢]:

قام وأهلُ الأَرض في رَجْفةٍ يَخْبِطُ فيها المقبلَ المدبرُ
في فتنة عمياءَ لا نارُها تخبو ولا مُوقدها يفتُرُ
فقال والألسنُ مقبوضةٌ ليُبْلغِ الغائبَ من يَحْضُرُ
إنّي توكلتُ على الله لا أُشركُ بالله ولا أَكْفُرُ
لا أدّعي القدرةَ من دونهِ بالله حَوْلي وبهِ أَقْدِرُ

(١) الديوان ص ١٣٦ وانظر العقد الفريد (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١/ ٣٢١.
(٢) الديوان ص ٧٣.

وابن الجهم يزعم فى الأبيات أن القول بأن القرآن مخلوق من شأنه أن يؤدى بالإنسان إلى الكفر والشرك بالله ، وقد مضى ينفى عن المتوكل القول بحرية الإرادة وأن الإنسان يصرّف أفعاله كما تشاء له قدرته ، على نحو ما كان يؤمن المعتزلة ، فهو سنىٌّ يأخذ بأقوال أهل السنة ، وبأن كل شىء بقضاء وقدر مقدور على الإنسان لا حول له إزاءه ولا قوة . ونراه فى نفس القصيدة يزعم بأن أبا بكر قضى على الردة الأولى فى الإسلام وأن المتوكل قضى على هذه الردة الثانية للمعتزلة . وكل ذلك زلل منه ، وكان حريا به ألا يرسل لسانه فى المعتزلة وأن يقف بعيداً عن خصومتهم ، أو على الأقل ألا يصمهم بوصمات الردة والشرك والكفر ، ولكنه كان قد وضع نفسه موضع الداعية للمتوكل وأعماله المحامى عنه أمام خصومه ، فبالغ وتورط فى مبالغته أكثر مما ينبغى .

ومشكلة ثانية تورط فيها على نحو ما تورط ضد المعتزلة مندفعًا وراء المتوكل إذ كان شديد الانحراف عن على بن أبى طالب وآله ، ومرّ بنا فى غير هذا الموضع ما يصور مدى هذا الانحراف إذ أمر فى سنة ٢٣٦ بهدم قبر الحسين فى كربلاء وهدم ما حوله من الدور وأن يُحرَث موضع القبر ويُزْرَع ما حواليه ، ونرى ابن الجهم منذ ولى المتوكل الخلافة يُبْدِئ ويعيد فى أن العباسيين أولى الناس بالأمر وحكم الأمة . وحقًّا بدأ ذلك عنده فى مدائحه للمعتصم ، ولكنه أصبح الآن نغمًا مستمرًّا يوقعه على قيثارته كلما مدح المتوكل ، فبَيْته أحق من البيت العلوى بالخلافة ، وهم أفضل الناس وخيرهم جميعًا علويين وغير علويين ، أما المتوكل فهو صفوة الله ، اختاره لعباده ، بل هو الميثاق والعهد الذى عاهد الله الناس عليه أن يسمعوا ويطيعوا ، يقول له[1] :

أنت ميثاقنا الذى أخذ اللـ ... ـهُ علينا وعهدُه المسئولُ
بك تَزْكو الصلاةُ والصوم والحـ ... ـجُّ ويزكو التسبيحُ والتهليلُ

وكان هذا الموقف من على يثير عليه الشيعة ويجعلهم يبطنون له ضغينة مماثلة لما كان يبطنه له المعتزلة . وبجانب ذلك كان المتوكل كلما نكب أحداً زيّن عمله للرعية ،

(١) الديوان ص ٢٥ .

ومعروف أنه نكب لأول عهده ابن الزيات وعذبه فى سجنه حتى مات ، وكذلك نكب عمر بن فرج الرُّخَّجِيّ وكان من علية الكتاب ومشاهيرهم ، وينوّه ابن الجهم بعمله وأنه إنما انتقم منهما للرعية ، إذ كان ابن الزيات — فى رأيه — ظالماً جائراً يُزْرى على سنن النبي ، وكان الرخجي يجور فى أحكامه وتصرفاته[١] . ويعقد المتوكل البيعة فى سنة ٢٣٥ لبنيه الثلاثة محمد المنتصر وأبى عبد الله المعتز وإبراهيم المؤيد عاهداً إليهم بولاية العهد على التوالى، فيشيد ابن الجهم بهذا الصنيع وأن المتوكل أراد به صلاح الدين[٢] . وأمر المتوكل كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع لسنة ٢٣٥ بأن يلبس النصارى وأهل الذمة جميعاً الطيالسة العسلية تمييزاً لهم ويشدُّوا فى أوساطهم الزنانير وكتب بذلك إلى عماله فى الآفاق ، فقال ابن الجهم[٣] :

العَسَلِيَّاتُ التى فَرَّقَتْ بين ذوى الرِّشْدَةِ والغَىّ
وما على العاقل أنْ يَكثروا فإنه أكثَرُ لِلفَىّ

وآذى البيتان النصارى وأهل الذمة جميعاً ، وبذلك لم يوغر صدور المعتزلة والشيعة عليه وحدهما ، فقد أوغر أيضاً صدور النصارى وأهل الذمة ، ولم يَقِفْ إيغارُه الصدور عند هذه البيئات الثلاث ، فقد أوغر أيضاً صدور حاشية المتوكل جميعاً شعراء وغير شعراء ، وكان منهم مروان بن أبى الجنوب والبحترى والحسين بن الضحاك وعلى بن يحيى المنجم وأبو العَيْناء وابن حمدون وعَزّون وبَخْتيشُوع الطبيب النصرانى وعبادة المضحك ، وساءهم جميعاً أنه كان كثير السعاية بهم إلى المتوكل والذكر لهم بالقبيح عنده ، وتصدّى له منهم البحترى ومروان بن أبى الجنوب يهجوانه . وأخذ هؤلاء الندماء يسعون به إلى المتوكل، فتارة يقولون له إنه يجمّش غلمانك ويلاعبهم ، وتارة ثانية يقولون له إنه كثير الإزراء عليك . وساعدهم كثيرون من حاشية المتوكل ممن لم نسمهم ، وكان منهم المعتزلى والشيعى والنصرانى ومن يودلو انتقم منه شر انتقام ، غير من كان يحسده على منزلته من المتوكل ، فما زالوا يقعون فيه حتى ملأوا قلب المتوكل غيظاً وحنقاً عليه ، فأمر بحبسه لسنة ٢٣٧ ونراه يرسل إلى أخيه من سجنه بقصيدة يصور فيها تجلده لنكبته وشكواه من رفاقه شكوى أليمة وأن

---

(١) الديوان ص ٣٩ وما بعدها .
(٢) الديوان ص ١٢٥ .
(٣) الديوان ص ١٩٢ والفى فى البيت الثانى : الفىء وهو الغنيمة .

أحداً منهم لم يحام عنه فى بلائه ، بل لقد خذلوه جميعًا ، وما يلبث أن يقول [١] :

تضافرتِ الرَّوافِضُ والنَّصارَى وأهلُ الإعتزال على هجائى

وكأنه كان يعرف فى وضوح خصومه الذين ما زالوا يرجفون به عند المتوكل حتى ألقى به فى غياهب السجون ، إنهم المعتزلة والشيعة والنصارى من حواشى الخليفة ثم منافسوه من الشعراء والندماء وإن لم يتعرض لهم فى هذه القصيدة بالذكر ؛ ويقول ابن المعتز : « إنما عنَى بالروافض الطاهريين وبأهل الاعتزال بنى دؤاد وبالنصارى بختيشوع بن جبريل »[٢] . ومعروف أن الطاهريين هم أسرة عبد الله بن طاهر ، وكان ابنه محمد حاكماً لبغداد لعهد المتوكل ، وكان ابنه طاهر — كما أسلفنا — واليًا لخراسان بعد أبيه عبد الله ، وأسرَّها طاهر لابن الجهم كما سنرى عما قليل . وكان أحمد بن أبى دؤاد رأسًا من رءوس الاعتزال ، كان المتوكل يفسح له فى مجالسه ، لأنه كان أحد من أخذوا له البيعة بعد وفاة الواثق ، فحفظ له المتوكل صنيعه ، على أنه لم يلبث أن نكبه هو وابنه أبا الوليد بعد نكبته لابن الجهم . أما بختيشوع فكان لا ينسى له ذكره العسليات فى بيتيه السابقين وكان يكنُّ له عداوة شديدة .

وظل ابن الجهم فى محبسه يتوسل إلى المتوكل أن يعفو عنه ، مرسلا له بقصائد يصور فيها ولاءه له وإخلاصه ووفاءه ، منددًا بخصومه بل هاجيًا لهم أشد الهجاء وأعنفه ، ورقَّ له المتوكل فردَّ إليه حريته بعد عام ولكن بطانة السوء من حوله دبروا لابن الجهم مكيدة لا تُقْبَلُ فيها التعلاَّت والمعاذير ، إذ اتهموه عند المتوكل بأن نفسه سوَّلت له أن يهجوه هجاء قبيحًا ، وثار المتوكل ثورة شديدة وأمر لسنة ٢٣٩ بمصادرة أمواله ونفيه إلى خراسان وكتب إلى أميرها طاهر بن عبد الله أن يُصْلَبَ يومًا إلى الليل ، فلما وصل إلى ضاحية من ضواحى نيسابور تسمى الشَّاذياخ حبسه طاهر بها ، ثم أُخْرِج من محبسه وصُلب يومًا إلى الليل مجرَّداً ثم أُنزل[٣] ، وكأن طاهراً رأى فى ذلك فرصة

---

(١) الديوان ص ٨٤ .

(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٢٠ .

(٣) أغانى ١٠ /٢٠٨ .

أن يقتصّ من ابن الجهم على هذا النحو البشع ، لوصفه السالف له هو وبيته فى أشعاره بأنهم روافض أو شيعة غالية ، وكأنما يريد أن يسجل عليهم الخيانة للمتوكل ودولته . وظل فى سجن طاهر بالشاذياخ إلى أن كتب إليه المتوكل بإطلاقه فأطلقه ، ومَثَل ابن الجهم بين يديه ، يقول :

أطاهرُ إنى عن خراسانَ راحِلُ ومسْتخْبَرٌ عنها فما أنا قائلُ

فقال له طاهر : لا تقل إلا خيراً فإنى لا أفعل بك إلا ما تحبّ ، ووصله وحمله وكساه [١] ، وأخذ يبتغى إلى مودته كل الوسائل . ويبقى ابن الجهم فى جواره مدة يَسْمُرُ فيها عنده ويلزمه فى غدوه ورواحه إلى الصيد [٢] . وكان طبيعيًّا أن تترك هذه المحنة التى طالت سنواتها والتى شقى بها فى بغداد وخراسان شقاء شديداً ظلاًّ كئيباً على نفسه حتى لنراه عقب ردّ حريته إليه يطيل المكث فى القبور ، ويسأله رجل ما يجلسك بين المقابر ، فيجيبه [٣] :

يشتاق كلُّ غريبٍ عند غربتهِ ويذكر الأهلَ والجيران والوطنا

وليس لى وطنٌ أمسيت أذكره إلا المقابر إذ صارتْ لهم وطنا

وعاد ابن الجهم إلى العراق ، ولكنه لم يولّ وجهه نحو سامرّاء ؛ فقد ازورّ عنه المتوكل وأغلقت أبواب قصوره من دونه ، إنما ولّى وجهه نحو بغداد ، ونراه حينئذ يأسى لانصراف الناس عنه ، فقد تغيَّر عليه الخليفة فتغير عليه الناس جميعاً ، ولم يعد يجد من بينهم الصديق الوفىّ ولا الأخ المخلص ، وحزن لذلك حزناً شديداً ، وأداه حزنه إلى أن يُغْرِق أساه فى كئوس اللهو علّها تنسيه كارثته ، ولازم جماعة ماجنة من فتيان بغداد كانوا يختلفون إلى منزل مقيِّن (نخَّاس) بالكرخ يسمى المفضّل ، كان منزله مكتظًّا بالجوارى العابثات اللائى يتفنَّنّ فى جذب الشعراء والشباب إليهن ، ومرت بنا فى الفصل الثانى أبيات لابن الجهم من قصيدة يصف فيها هؤلاء الجوارى وكيف كن يَعْبَثْن بقلوب الفتيان ويَسْعَرْن أفئدتهم ناراً [٤] . ويُنْعَى إليه المتوكل لسنة ٢٤٧ للهجرة فيرثيه رثاء حارًّا . وماتوافى سنة ٢٤٩ حتى يتناقل العالم

(١) أغانى ١٠/٢٠٩ وما بعدها.

(٢) أغانى ١٠/٢٢٧.

(٣) أغانى ١٠/٢٢٤.

(٤) الديوان ص ٥٢ :

العربى المأساة التى سبق أن أشرنا إليها فى الفصل الأول ، وهى مقتل البطلين عمر بن عبيد الله الأقطع وعلى بن يحيى الأرمنى فى حروب الروم ، ويتصايح المتطوعون لتلك الحروب فى كل مكان ، ونجد ابن الجهم كأنما يثوب إلى نفسه أخيراً ، فيعتزم الجهاد فى سبيل الله مع المجاهدين ، ويخرج فى قافلة إلى حلب لغزو الروم ، ويحاول أن يتجه من حلب إلى بعض الثغور[1] ، ويعترضه أعراب من بنى كلب ، ويقاتلونه ، وهو يصيح فيهم بأشعار حماسية ملتهبة ، وتصيبه طعنة قاتلة ، فيقتل شهيداً دون غايته[2] .

وأشعار ابن الجهم موزعة بين المديح والاستعطاف والرثاء والهجاء والغزل والفخر والوصف والحكمة وجُلُّ مدائحه فى المتوكل ، فقد كاد لا يترك فيه فضلا لغيره ، ومرَّ بنا آنفاً أنه ظل منذ توليه الخلافة سنة ٢٣٢ للهجرة حتى سنة سجنه وسخطه عليه يسجل كل أعماله ، بل لقد تحول داعية له ، يحامى عنه ويدافع ، بل يبرر ويزين ما يصدر عنه من فعل ، وظل ينوه بموقفه من المعتزلة وفتنة خلق القرآن ، بمثل قوله[3] :

بهِ سَلم الإسلامُ من كل ملحدٍ وحَلَّ بأهل الزَّيْغِ قاصمةُ الظَّهْرِ

وبالمثل كان يندد بالشيعة والعلويين ، وكان ما يزال يرفع من المتوكل والعباسيين ، حتى ليجعلهم فوق كل الناس علويين وغير علويين ، وحتى ليقول[4] :

لنا فى بنى العباس أكرمُ أسوةٍ فهم خيرُ خلق اللهُ طُرًّا وأفْضَلُ

ويقول للمتوكل[5] :

ولن يُقْبَلَ الإيمانُ إلا بحبِّكم وهل يقبل الله الصلاةَ بلا طُهْرِ

وكان لا ينِى يمدح المتوكل بحب الخيِّر والرفق بالرعية والصفح عن الزلات ونشر الأمن الذى يحرر الناس من الخوف ونشر العدل الذى لا تصلح الحياة بدونه ، يقول[6] :

(١) تاريخ بغداد ١١ / ٣٦٩.
(٢) الأغانى ١٠/ ٢٣٣ وما بعدها .
(٣) الديوان ص ٢٢٢ .
(٤) الديوان ص ٧٠.
(٥) الديوان ص ١٤٨.
(٦) الديوان ص ٣٥ .

ملكٌ باسطُ اليَدَيْن إلى الخَيْـ ـرِ صفوحٌ عن الذنوب غفورُ
أمِّنَ الناس واستفاض به العدْ لُ فلا خائفٌ ولا مقهورُ

وله فى المتوكل وراء مدائحه تهنئة بعيد المهرجان ، ونراه يسوق فى فاتحتها دعوة للصبوح بالخمر من أيدى الخُرَّد الغيد ، ويُشيد بمجالسها وما فيها من غناء تهفو إليه النفوس ، ثم يأخذ فى مديح المتوكل وأن خلافته تفتح للناس أبواب الرحمة على مصاريعها وما تزال تمسهم بأجنحة من الرفق والعطف ، ويعلن فى صراحة صريحة أنه خراسانى من شيعة بنى العباس أصحاب الرايات السود شعارهم أو كما يسميها الخرق للسود ، يقول[1] :

نحن أبناءُ هذه الخرقِ السُّو دِ وأهل التشيُّع المحمودِ

وأروع من هذه التهنئة تهنئة المتوكل بقضاء قائده بُغا قضاء مبرمًا على إسحق ابن إسماعيل الثائر بأرمينية وهى أرجوزة أنشدها ارتجالا ، وفيها يصور بأس الجيش العباسى فى تلك الحرب ، وكيف كان يهدم الحصون هناك بمجانيق ترسل عليهم صواعق من حجارة السجيل ، يشير بذلك إلى سورة الفيل ، وقد تخلل الاقتباس منها أبياته[2]، وهى تدل على طواعية الشعر له وأنه كان يصدر فيه عن نَبْع غزير .

ويدخل ابن الجهم السجن ، ويتحول من مديح المتوكل إلى استعطافه، ونراه فى ميمية قدَّمها إليه يذكر سِنَّه التى أشرفت على الخمسين ، وكيف أن الناس أخذوا ينكرونه لإنكار الخليفة له ، ويظل يأسى لقلة الصديق حتى يقول للمتوكل مستعطفاً[3] :

أما وأميرِ المؤمنين لقد رمى الـ ـعدوَّ فلا نِكْساً ولا متهضِّما
ولا ناسياً ما كان من حسن رأيه لخُطَّة خَسْفٍ سامنيها محتِّما

فخطة الخسف والظلم والهوان ستنقشع عنه ، ولكنها لم تنقشع ، فعاد إلى

(١) الديوان ص ٣٥ .
(٢) الديوان ص ١٧٦ .
(٣) الديوان ص٢١ .

استعطافه فى لامية له استهلّها بالحديث عن الصبر الجميل ، ويسترسل فى مديحه ، ويقول إنه خير خلق الله وأعلمهم وأشدهم توخيًا للإنصاف ، وكأنه يشير إلى ما يأمل منه من العفو والصفح والغفران حين يقول[1] :

يعاقب تأديباً ويعفو تطوُّلا ويَجْزى على الحُسْنى ويعطى ويُجْزِلُ
ولا يُتْبع المعروف مَنّاً ولا أذًى ولا البُخْلُ من عاداته حين يُسْأَلُ
رعاك الذى استرعاك أمرَ عبادهِ وكافاك عنا المنعم المتفضِّلُ

وينكل به طاهر بن عبد الله بن طاهر ، كما أسلفنا ، وكان يمدح أباه وبيته ، غير أنه زلّ زَلّته التى تحدثنا عنها حين أحسّ أن الطاهريين لا يتوسطون له عند المتوكل ولا يهمهم أمره ، فسماهم رافضة ، وكأنما أراد من المتوكل أن يَتطير بهم طيرةً بطيئًا سقوطها ، وظل طاهر يسرّها له ، حتى تمكن منه ، ويرسل له ابن الجهم من سجنه فى الشاذياخ شعراً يستعطفه به من مثل قوله[2] :

إن كان لى ذنبٌ فلى حُرْمَةٌ والحقّ لا يدفعه الباطــلُ
وحُرْمتى أعظمُ من زلّتى لو نالنى من عدلكم نائل

ولكن الزلة فى رأى طاهر كانت أكبر من الحُرْمة ، فلم يأبه باستعطافه ، حتى أمره المتوكل برد حريته إليه . حينئذ خشى معرّة لسانه ، فقرّبه منه وجعله من ندمائه وجلسائه .

ولابن الجهم مراث قليلة فى مقدمتها مرثيته لعبد الله بن طاهر ، يعزى بها طاهراً ابنه ، مصوراً عظم الفادحة فيه ، حتى ليظن كأن ركنًا من أركان الإسلام انقضّ انقضاضًا ، فى يوم عبوس من أخنى الأيام وأشدها بلاء على الأنام ، على نحو ما يقول فى مطلعها[3] :

أى ركنٍ وَهَى من الإسلامِ أى يومٍ أَخنَى على الأيامِ

ومضى يعزى آل الفقيد مصوراً عظم الكارثة فيه ، ثم انتقل إلى مديح طاهر

(١) الديوان ص ١٦٥ .
(٢) الديوان ص ١٦٩ والأغانى ١٠/ ٢١٨.
(٣) الديوان ص ١٨٢.

ابنه وأنه نعم الخلف لسلفه . وأهم من هذه المرثية مرثيته لصديقه الروحى أبى تمام ، وهى أبيات أربعة صور فيها شاعريته وكيف عدتْ عليها الأيام ، حتى إن الشعر ليبكيه بكاء مرًّا ، فقد هلك مثقفه ومرّوض قوافيه وجفّ غدير روضته ، وجفت بدائع فطنته ، يقول[١] :

غاضَتْ بدائعُ فطنةِ الأَوهامِ ... وعــدتْ عليها نكبةُ الأَيَّامِ
وغدا القريضُ ضئيلَ شخصٍ باكياً ... يشكو رزيّته إلى الأَقلامِ
وتـأَوَّهت غُرَرُ القوافى بعده ... ورمى الزمانُ صحيحها بسقامِ
أَودى مثقِّفها ورائضُ صعبها ... وغديرُ روضتها أَبو تمام

ومرَّ بنا أنه رثى المتوكل رثاء حارًّا حين قتله بعض حرسه وحواشيه ، وهو يستهل رثاءه له بوصف سحابة أطلّت العراق وملأته أمطاراً وخصبًا ، غير أن عاصفة هوجاء نـحّتها عنه ، وكأنما يرمز بها إلى المتوكل ، ثم أخذ يتفجع عليه تفجعًا مريراً ، مزريًا على جنوده أن لم ينصروه . منددًا بمن قتلوه تنديداً شديداً[٢] .

والهجاء عنده ليس كثيراً ، وهو يَـخِزُ فيه وخز الإبر ، وأحيانًا يطعن طعنات دامية ، مما جعل ابن المعتز يقول : إنه كان هـجّاء يضع لسانه حيث يشاء ، ويقول المسعودى : « كان فى لسانه فضل قَلَّ مَـنْ سلم معه منه » ، ولعله يقصد تعرضه للشيعة والعلويين والمعتزلة ، وكان يشتد هجاؤه حين يحس بأنه أوذى أو وقعت عليه إهانة ، وممن تعرَّض لهم بالهجاء كثيراً أحمد بن أبى دؤاد شيخ المعتزلة ، لأنه سأله الشفاعة حين أمر المتوكل بحبسه فقعد عنه ولم يهتم به ، حتى إذا نكبه المتوكل شمت به هو وابنه أبى الوليد ، وسلّ عليهما لسانه بمثل قوله[٣] :

يا أَحمدُ بنَ أَبى دُؤادٍ دعوةً ... بعثتْ إليك جنادلا وحديدا
ما هذه البِدَعُ التى سميتها ... بالجهل منك العدلَ والتوحيدا
أَفسدت أَمرَ الدين حين وليتَه ... ورميته بـأَبى الوليد وليدا

---

(١) الديوان ص ١٨١ .
(٢) الديوان ص ٥٦ .
(٣) الديوان ص ١٢٥ .

وكان أبو الوليد يتولى المظالم بسامرّاء وعزله عنها المتوكل حين صادر أمواله وأموال أبيه لسنة ٢٣٧ وابن الجهم يشير بالعدل والتوحيد إلى مبدأين أساسيين فى الاعتزال، إذ كان المعتزلة يوجبون العدل على الله مما أداهم إلى القول بفكرة خلق الناس لأفعالهم وحرية إرادتهم حرية تامة دون جبر أو إلزام ، حتى يثابوا ويعاقبوا على أعمالهم وما يأتون من الخير والشر . وأما التوحيد فأرادوا به تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين ، بحيث لا يحصره مكان ولا زمان . وكان مروان بن أبى الجنوب كثير التعرض له يذمه ويهجوه ، ويقال إنه هجاه يوماً فى مجلس المتوكل ، فأطرق ثم رماه بهذين البيتين المُصْمِيَيْن [١] :

بلاءٌ ليس يشبهه بلاءٌ   عداوةُ غير ذى حسبٍ ودينِ
يُبيحك منه عِرْضاً لم يَصُنْهُ   ويَرْتَعُ منك فى عِرْضٍ مصونِ

وقد جرّده من الحسب والدين والعرض والشرف .

ولابن الجهم غزل كثير ، وهو تارة يضعه فى مقدمات قصائده ، مذيباً فيه لواعج حبه ، وتارة يفرده بمقطوعات تصور ما يثير الحب فى فؤاده من العواطف والمشاعر ، ومن مقدماته المشهورة التى طارت على كل لسان قوله فى فاتحة إحدى مدائحه للمتوكل [٢] :

عيونُ المَهَا بين الرُّصافة والجِسْرِ   جَلَبْنَ الهوَى من حيث أدرِى ولا أدْرِى
أعَدْنَ لىَ الشَّوْقَ القديم ولم أكن   سلوتُ ولكنْ زِدْنَ جَمْرًا إلى جَمْرِ

وهو تصوير بديع لما ترسل العيون من سهام الحب التى تفد من كل مكان مكشوف وخبيء من حيث يدرى ابن الجهم ومن حيث لايدرى، وقد أعَدْنَ له جذوة الحب القديم التى لا سبيل إلى إطفائها وأوقدن بجانبها جذوات كثيرة حديثة ، وقلبه يلتاع لوعة شديدة . ومضى يتحدث عن صواحب تلك العيون وكيف أنهن يُضِئْنَ من بعيد كالأهلة تتزود منها الأبصار ، ولامتاع سوى متاع النظر والخيال ،

---

(١) الديوان ص ١٨٧ .   (٢) الديوان ص ٢٢٠ .

وقد التهبت منه جوانح الفؤاد ، ويشكو المشيب ويذكر اقتطافه زهرات الحب ذات ليلة ، ثم يعود إلى الشكوى من الهجر والفراق ، ويجرى حواراً طريفاً عن حبه بين فتاتين تتبادلان الرأى فى وصله وصَدّه ، ومن طريف ما له فى الغزل قوله(١) :

سَقَى اللهُ ليلا ضَمَّنَا بعد فُرْقةٍ ... وأدنى فؤادًا من فؤادٍ معذَّبِ
فبِتْنَا جميعاً لو تُرَاقُ زُجاجةٌ ... من الرَّاحِ فيما بيننا لم تَسَرَّبِ

وكأنهما أصبحا روحين فى بدن .

والفخر كثير فى أشعار ابن الجهم ، وهو يردد الفخر بقرشيته وبفتوته التى أغرته بأن يكون صاحب لهو ومجون على الأقل فى فترات من حياته ، وصوَّر حين حُبِس وصُلب عريانًا صلابة نفس غير مألوفة ، إذ ظلت نفسه قوية وظلت لا تنكسر أبداً ، ويستشعر هذا المعنى فى عمق حين يفتتح إحدى قصائده التى استعطف بها المتوكل بقوله(٢) :

هى النفس ما حمَّلتها تتحمَّل ... وللدهر أيامٌ تجور وتعدلُ
ولا عار إن زالتْ عن الحرِّ نعمةٌ ... ولكنَّ عارًا أن يزول التجمُّلُ

وكان لا يزال يشعر بقرشيته وأنه من أرفع الأسر العربية مكانة وأعلاها منزلة ، وكاد له خصومه عند المتوكل واستتبع كيدهم السجن والقيود والأغلال والظلم والعسف ، ولكنه احتمل وقاوم ، حتى ليقول لبعض صواحبه(٣) :

فلا تجزعى إمَّا رأيتِ قيودَه ... فإن خلاخيلَ الرجالِ قيودُها

إنها ليست قيوداً وسلاسل بل هى حلِيٌّ الرجولة والفتوة ، وهو خليق أن يتحلَّى بها مهما عرضته لشر أو ضيق أو ضر ، ويحاول مراراً وتكراراً أن يظهر تجلده واحتماله لأثقال السجن وقيوده ، فنفسه لا تضعف ولا تهون ، بل لعل نيران هذه المحنة قد زادتها صلابة فوق صلابة ، إنها من جوهر كريم لا تذيبه المحن والخطوب

(١) الديوان ص ٩٥ .
(٢) الديوان ص ١٦٢ وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٢١ .
(٣) الديوان ص ٥١ .

ولا كل ما يسام به من ضروب الخسف والعسف، ويبلغ ابن الجهم من ذلك حداً يفوق كل وصف حين يقول لصاحبته[1] :

قالتْ حُبِسْتَ فقلتُ ليس بضائرى حَبْسى وأىُّ مهنَّدٍ لا يُغْمَدُ[2]
أو ما رأيتِ اللَّيْثَ يَأْلَفُ غِيلَهُ كِبْرًا وأوباشُ السِّباع تردَّدُ[3]
والشمسُ لولا أنها محجوبةٌ عن ناظريك لما أضاء الفرْقَدُ
والبَدْرُ يُدْرِكه السِّرارُ فتَنْجَلى أيَّامُهُ وكأنَّهُ متجسِّدُ[4]
والغَيْثُ يَحْصُرُهُ الغمامُ فما يُرَى إلا وريِّقُهُ يَراحُ ويَرْعُدُ[5]
والنارُ فى أحجارها مخبوءةٌ لا تُصْطَلَى إن لم تُثِرْها الأزْنُدُ
والزَّاعِبِيَّةُ لا يقيم كعوبَها إلا الثِّقافُ وجذْوَةٌ تتوقَّدُ[6]

وهو يمثل نفسه لصاحبته سيفاً مسلولا وُضع فى غمده، بل كأنه أسد فى أجَمته وشمسٌ فى حجابها وبدرٌ فى سِراره، بل لكأنه غيث مضمر فى غمامه ونار مكنونة فى زندها ورمح يَصْقله مثقفه. وهى صور تعبر عن نفس صلبة قوية وأنها ظلت على الرغم من محنة السجن سالمة لم يصبها وَهَنٌ ولا خَوَرٌ. ويُنْفَى إلى خراسان ويُسْجَن ويصلبه أميرها يوماً عارياً وتظل له نفسه الصلبة ويزأر منشداً[7] :

ما عابه أن بُزَّ عنه لِباسُهُ فالسيفُ أهولُ ما يُرَى مسلولا

فهو مثل السيف أهول وأهيب ما يُرَى حين يُجَرَّد من غمده ويصوَّب إلى الرقاب.

ولابن الجهم أشعار كثيرة فى وصف الطبيعة الصحراوية وأطلالها ونوقها وفى وصف الطبيعة الحضرية ورياضها ورياحينها، ومرت بنا فى الفصل الماضى قطعة له بديعة

(١) الديوان ص ٤١ والأغانى ٢١٣/١٠ .
(٢) المهند : السيف .
(٣) الغيل : أجمة الأسد .
(٤) السرار : آخر أيام الشهر .
(٥) ريق الغمام : أوله . يراح : تكثر معه الرياح والعواصف الممطرة .
(٦) الزاعبية : ضرب من الرماح المصمية .
(٧) الديوان ص ١٧٢ .

فى وصف الورد وتهاديه ووصف شذاه العطر الذى يشفى القلوب الكليمة ، وله أشعار مختلفة فى وصف اللهو والملاهى ، ومن قوله فى وصف مجلس أنس[١] :

الوَرْدُ يضحكُ والأَوتارُ تَصْطَخِبُ والنَّایُ يندبُ أَشْجَاناً ويَنْتَحِبُ
والرَّاحُ تُعْرَضُ فى نَوْرِ الربيع كما تُجْلَى العروسُ عليها الدرُّ والذهب

وقد مضى يصور نشوته بالراح وبالورد وبالغناء . وأنشدنا فى الفصل الماضى قطعة من وصفه لقصر من قصور المتوكل ونافورته العجيبة ، وكذلك وصفه للُعْبة الشطرنج وله قصيدة جيدة فى وصف سفينة[٢] .

وجعلته نكبته يكثر من التأمل فى الحياة وفى سلوك الناس وأخلاقهم وأصنافهم ، مما جعل تجاربه تتسع وجعله ينثر منها كثيراً فى أشعاره من مثل قوله[٣] :

ومَنْ طلب المعروفَ من غير أهلهِ أطال عناءً أو أطال تندُّما
ومَنْ سامح الأَيام يَرْضَ حياته ومَنْ مَنَّ بالمعروف عاد مذمَّما

وواضح مما أسلفنا من أشعار ابن الجهم أنه لم يكن ممن يتكلفون فى أشعارهم ولا ممن يكثرون من ترصيعها بأصناف البديع وأصدافه ، ومما لا ريب فيه أن ملكاته كانت خصبة ، وكان كثيراً ما يلم بمعان دقيقة وصور طريفة مع سهولة الألفاظ ومع شفافيتها وصفائها ومع نصاعتها ورصانتها ومع جمال الجرس والأداء .

٢

البحترى[٤]

هو أبو عبادة الوليد بن عُبَيْد ، طائىُّ الأب شَيْبانىُّ الأم غلب عليه لقب البحترى نسبة إلى عشيرته الطائية بُحتُر ، ولد سنة ٢٠٤ للهجرة بِمَنْبِج إلى

(١) الديوان ص ١٠٥ .

(٢) الديوان ص ١١٤ .

(٣) الديوان ص ٢٠ .

(٤) انظر فى البحترى وشعره الأغانى (طبعة الساسى) ١٨ /١٦٧، والموشح للمرزبانى والموازنة بين الطائيين للآمدى ، وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٩٤ ، ٤٥٨ والشريشى على مقامات الحريرى ١/ ٤٠ وعبث الوليد لأبى العلاء ، وأخبار البحترى للصولى (طبع المجمع العلمى العربى بدمشق) =

الشمال الشرقى من حلب على الطريق المؤدية منها إلى الفرات ، وقيل: بل وُلد بقرية تجاورها تسمَّى « زَرْدفنة » والرأى الأول أصح ، لأن البحترى نفسه يكرِّر كثيراً ٩ فى شعره « مَنْبج » مسقط رأسه ، وكانت تنزلها عشائر من طيء ، وهى كما يقول ياقوت فى معجم البلدان : مدينة كثيرة البساتين عذبة الماء باردة الهواء ، أقطعها الرشيد عبد الملك بن صالح الهاشمى ، وفى ديوان البحترى مدائح كثيرة لابنه محمد ولطائفة من أسرته عاشت فى منبج وحلب .

وليس لدينا أخبار عن هيئته وصورته إلا ما رُوِىَ عنه فيما بعد من أنه كان أسمر طويل اللحية ، وقد نشأ فى أحضان عشيرته يتغذى من فصاحتها ويبدو أنه اختلف مبكراً إلى الكتَّاب ، فحفظ القرآن أو شطراً كبيراً منه ، كما حفظ كثيراً من الأشعار والخطب ، واختلف حين شبَّ إلى حلقات العلماء فى المساجد يأخذ عنهم اللغة والنحو وشيئاً من الفقه والتفسير والحديث وعلم الكلام . واستيقظت فيه موهبة الشعر مبكرة ، وسرعان ما أخذ يكثر من نظمه فى بعض من عرفهم من عامة أهل بلدته أو كما يقول ابن خلكان من أصحاب البصل والباذنجان ، وامتد به طموحه فتجاوز به بلدته إلى بلاد أكبر من حولها ؛ إذ نراه ينزل حلب ، وهناك تعرَّف على علوة بنت زريقة التى شغفته حبًّا ، ويبدو أن زريقة كانت مغنية ، وتعرَّف أيضًا على صديق يسمى الذفافى مدحه ببعض شعره ، وهجاه فيما بعد لاقترانه بعلوة ، على شاكلة قوله[1] :

نُبِّئْتُها زُوِّجَتْ أخا خَنَثٍ أَغَنَّ رَطْبَ الأطراف لَيِّنَها

وظلت دار علوة قائمة بحلب ، حتى عصر ياقوت إذ يقول : « وفى وسط البلد "حلب" دار علوة صاحبة البحترى» . وقد يدل ذلك على يسار الذفافى وأنه شيد لها داراً فخمة . وظلت ذكراها لا تبرح ذاكرة البحترى حتى الأنفاس الأخيرة من

= وتاريخ بغداد ١٣ /٤٤٦ ، ومعجم الأدباء لياقوت ١٩ /٢٤٨ ، وابن خلكان ، ومرآة الجنان لليافعى ٢/٢٠٢ ، وشذرات الذهب لابن العماد ١٨٦/٣ والنجوم الزاهرة ٣/ /٩٩، وحياة البحترى وفنه لأحمد أحمد بدوى ، والفن ومذاهبه فى الشعر العربى (الطبعة السابعة — طبع دار المعارف) وديوانه بتحقيق حسن الصيرفى ومقدمته (طبع دار المعارف) .

(١) الديوان ٤ /٢٣٢٥ .

حياته . واتسع برحلاته إلى حمص ، وكأنما كان السّعد معه على ميعاد ، فإذا هو يسمع بأن أبا تمام بها والشعراء يعرضون عليه أشعارهم ، فعرض عليه شعره ، فأقبل عليه ، وقال له : أنت أشعر من أنشدنى فكيف حالك ، فشكا إليه خلّة ، فكتب إلى أهل معرّة النعمان : « يصل كتابى مع الوليد أبى عبادة الطائى وهو على بذاذته " سوء حاله " شاعر فأكرموه » واستقبلوه استقبالا حسنًا ووظّفوا له أربعة آلاف درهم[1] . وفى رأينا أنه لم يصله بأهل معرة النعمان فقط ، فقد وصله أيضًا ببعض ممدوحيه إذ نراه يقبل على بعض من خصّهم بمديحه فيمدحهم ، مثل آل حميد الطوسى فى الموصل ، وخالد بن يزيد الشيبانى والى أرمينية والثغور ، وأبى سعيد محمد بن يوسف الثغرى الطائى الذى ولاه المعتصم حلب وثغور الشام والجزيرة ، وقد لزمه ولزم ابنه يوسف ، ويبدو أنه أول من اتصل بهم من ممدوحى أبى تمام . وتُخْرج بعض الروايات ذلك مخرج القصص ، فتذكر أنه دخل عليه وأبو تمام عنده ، فأنشده قصيدته :

أأفاق صَبٌّ من هَوًى فأُفِيقا   أم خان عهدًا أم أطاع شَفيقا

فردّها أبو تمام عليه من حفظه كأنها من نظمه ، وعرّفه أبو تمام نفسه ، ولزمه البحترى[2] . ونظن أن الرواة زادوا فيها أنه لم يكن يعرف أبا تمام ، فمعرفته به أسبق من ذلك كما أسلفنا ، بل هو الذى حثه على مديح أبى سعيد الثغرى ولقائه له وهو عنده . ولم يكتف أبو تمام بتقديم الشاعر الشاب إلى بعض ممدوحيه ، فقد مضى يتعهد شاعريته ، ويلقنه كيف يجيد الشعر ويحسنه ، حتى خرّجه فيه شاعراً ممتازاً راع معاصريه ، ويصرّح بذلك البحترى معترفًا بجميل أستاذه إذ يقول[3] :

«كنت فى حداثتى أروم الشعر وكنت أرجع إلى طبع ، ولم أكن أقف على تسهيل مأخذه . . . حتى قصدت أبا تمام ، فانقطعت فيه إليه ، واتكلت فى تعريفه عليه ، فكان أول ما قال لى : يا أبا عبادة تخيّر الأوقات وأنت قليل الهموم صِفْرٌ من الغموم . واعلمْ أن العادة فى الأوقات أن يقصد الإنسان لتأليف شىء أو حفظه فى وقت السحر ، وذلك أن النفس قد أخذتْ حظها من الراحة ، وقسطها من

(١) أخبار البحترى ص ٥٦ ، والأغانى ١٦٩/١٨ .

(٢) أخبار البحترى ص٦٣ ، والأغانى ١٦٩/١٨ .

(٣) زهر الآداب للحصرى ١ /١٠١ .

النوم ، فإذا أردت النسيب فاجعل اللفظ رقيقاً والمعنى رشيقاً ، وأكثِرْ فيه من بيان
الصبابة ، وتوجع الكآبة ، وقلق الأشواق ، ولوعة الفراق . وإذا أخذت فى مدح
سيد ذى أياد ، فأشهرْ مناقبه ، وأظهرْ مناسبه ، وأبنْ معاطه ، وشرّفْ مقامه
وتقاصَّ المعانى واحذر المجهول منها ، وإياك أن تَشِين شعرك بالألفاظ الزريّة . ١
وكن كأنك خيّاط يقطع الثياب على مقادير الأجسام وإذا عارضك الضجر فأرِح
نفسك ، ولا تعمل إلا وأنت فارغ القلب . واجعل شهوتك إلى قول الشعر الذريعةَ
إلى حسن نظمه ، فإن الشهوة نعم المعين . وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من
شعر الماضين ، فما استحسنه العلماء فاقصده ، وما تركوه فاجتنبْه ترشدْ إن شاء الله
تعالى » .

وكأنما وضع أبو تمام نُصْبَ عينى البحترى دستوراً قويماً لإحسانه صناعة الشعر ، بل إن هذا بعض الدستور الذى وضعه ؛ إذ لا بد أنه أوصى البحترى وصايا كثيرة حتى يتقن صناعته . وهو فى هذا الجزء من وصاياه ينصحه أن يتخير أوقات إلهامه ، ثم يصف له الجودة التى يقوم عليها النسيب والمديح جميعاً ، مع العناية بدقائق المعانى وجمال الألفاظ والأساليب ، ونظن ظنّاً أنه حين وجد فى تلميذه حسن الاستجابة ، واطمأن إلى أنه شاعر سيكون له شأن ، أخذ يعرّفه لا على أهل معرة النعمان فحسب ، بل أيضاً على ممدوحيه فى حلب والشام والجزيرة والموصل وأرمينية . وكاد محمد بن يوسف الثغرى بطل حروب بابك قديماً وحروب الروم حديثاً أن يستخلصه لنفسه ، وقد ظل يمدحه ويصف بلاءه فى الثغور حتى توفى سنة ٢٣٦ للهجرة ، وتغنّى طويلا بمدح كاتبه محمد بن عيسى القمى ، ويتحول إلى ابنه يوسف الذى خلفه على إمارته الأخيرة فى أرمينية وأذربيجان ويكثر من مدائحه . ونظن ظنّاً أن من أوائل مدائحه لأبى سعيد محمد بن يوسف الثغرى رائيته[1] التى يعزيه فيها عن المعتصم حين توفى سنة ٢٢٧ للهجرة . ويبدو أن أبا تمام دفعه بعد هذا التاريخ لزيارة سامرّاء بعد أن وثق من براعته الشعرية ، إذ نراه ينزل بها ، ونرى أبواب الخليفة الواثق ووزيره ابن الزيات وكاتبه الحسن بن وهب مفتوحة أمامه ، وكأن صداقة أبى تمام للأخيرين

---

(١) الديوان ٢ /٨٨٢ .

هى التى فتحت له سريعًا تلك الأبواب ، وإذا هو يَمْثُلُ بين أيديهم جميعًا مادحًا ممجداً .

ويتولى الخلافة المتوكل سنة ٢٣٢ للهجرة ويعصف بابن الزيات ويظل البحترى بعيداً خوفًا على نفسه ، وخاصة أنه كانت قد جرت على لسانه بعض أبيات يتعصب فيها للمعتزلة وقولهم بأن القرآن مخلوق ضد أهل السنة من مثل قوله فى بعض الخارجين على أبى سعيد الثغرى :

يرمون خالقهم بأقبح فعلهم ويحرِّفون كلامه المخلوقا

وسأله سائل : أكنت معتزليًّا ، فأجابه : «كان هذا دينى فى أيام الواثق ثم نزعت عنه فى أيام المتوكل ، فقال له : يا أبا عبادة ! هذا دين سوء يدور مع الدول ! »[1] . فقد نزع عن نفسه لعهد المتوكل ثوب الاعتزال الذى كان يدين به الواثق ووزيره ابن الزيات ، ولبس ثوب أهل السنة الذى فرضه المتوكل . وهو جانب سيئ فى البحترى إذ كان متقلبًا مسرفًا فى التقلب ، يلتمس المنفعة لنفسه ما وجد إلى ذلك سبيلا . على كل حال أحسَّ بادئ الأمر أن أبواب المتوكل مُوصَدة من دونه ، ولكن ذلك لم يدفعه عن طريقه ، فقد أخذ يمدح بعض خاصَّته وخاصَّة وزيره الفتح بن خاقان وهو يحيى بن على المنجم ، الذى اشتهر بوصله الشعراء بهما وأخذه لهم الصلات السنية منهما ، ووعده علىٌّ أن يصله بالفتح ، ونراه يستنجز وعده فى بعض شعره[2] ، وينجح على فى وصله بالفتح لسنة ٢٣٣ ويمدحه[3] وينال جوائزه ، ولكن عينه لا تزال طامحة إلى مديح المتوكل ، ويلوِّح للفتح بطموحه ويعده الفتح ويتعجله أن يفى بوعده فى غير قصيدة من مثل قوله[4] :

وعدتَ فأوشكْ نُجْحَ وعدك إنه من المجد إعجالُ المواعيد بالنُّجْحِ
وأنت ترى نُصْحَ الإمام فريضةً وإخبارُه عنى سبيلٌ من النُّصْحِ

(١) أخبار البحترى للصولى ص ١٢٣ .
(٢) الديوان ٢ /١١٣٢ .
(٣) فى أخبار البحترى للصولى ص ٨٣ أن أول قصيدة مدح بها البحترى الفتح بن خاقان لسنة ٢٣٣ هى :

هب الدار ردت رجع ما أنت قائله
وأبدى الجواب الربع عما تسائله

انظر الديوان ٣/ ١٦١٠ .

(٤) الديوان ١ /٤٤٦ .

ويفتح له المتوكل بيد الفتح أبوابه ، ويستمع إليه وتتواتر صلاته وإقطاعاته عليه ، وكذلك إقطاعات الفتح وصلاته، فقد كان ديوان الخراج إليه . ونراه يمدح الوزير الثانى للمتوكل عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، ولم يكد يترك أحداً من معاونى الفتح ومساعديه إلا مدحه ، فهو يمدح أبا نوح عيسى بن إبراهيم أحد كتّابه فى دواوين الخراج وكان نصرانيًّا ، وكأن نصرانيته لم تمنعه من مديحه ، وسنراه فيما بعد يكثر من مديح عبدون بن مخلد الراهب أخى صاعد وزير المعتمد . ويمدح أيضاً من كتاب الخراج والدواوين أعوان الفتح من أمثال أحمد بن المدبر وأخيه إبراهيم ، ويظل يمدحهما طويلا ، حتّى بعد خروج أحمد للعمل فى دواوين مصر والشام . وكان قد ترك زوجته فى منبج وأنجب منها ابنه أبا الغوث فكان كثير الرحلة إلى مسقط رأسه ، ويبدو أنه كان يقضى فى وطنه الصيف كله فراراً من حر العراق ولَفْحه ، يقول[1] :

نَصَبُّ إلى طيبِ العراق وحُسْنِها ... ويمنع منها قَيْظُها وحَرُورها

هى الأرضُ نهواها إذا طاب فَصْلُها ... ونهرُب منها حين يَحْمَى هَجيرُها

وكان لا يترك وجيها ولا وليًّا ولا صاحب خراج فى طريقه من سامرّاء إلى منبج إلا ويقدّم إليه مدائحه ويأخذ جوائزه، من مثل بنى حميد الطوسى الطائى وأبى سعيد الثغرى وابنه يوسف صاحبى أرمينية وأذربيجان وآل عبد الملك بن صالح الهاشمى ، بل يبدو أنه كان يمد رحلاته فى الشام فيمدح بعض العمال والولاة مثل مالك بن طوق صاحب دمشق والأردن وأبى مسلم الكجّى ، كما كان يمد رحلاته إلى بغداد وما وراءها من مدن العراق ، ونراه يكثر من مديح القائمين عليها من آل طاهر ، فهو يمدح منهم إسحق المصعبى ومحمد بن عبد الله بن طاهر الذى حكم بغداد منذ سنة ٢٣٧ ، وكذلك أخواه سليمان وعبيد الله ، وله فى الأسرة شعر كثير . وممن أكثر من مديحهم لعهد المتوكل قائداه عبد الله بن دينار وابنه أحمد، وإبراهيم ابن الحسن بن سهل وله فيه نحو عشر قصائد ، وله فى الفتح بن خاقان تسع

---

(١) الديوان ٢ /٩٤٣ .

وعشرون قصيدة، ومن عمال المتوكل الذين مدحهم دُلَيل بن يعقوب النصرانى [١] . وتحوَّل إزاء أعمال المتوكل وكل ما حدث فى عصره إلى ما يشبه آلة راصدة ، فهو يسجل لسنة ٢٣٥ عقده ولاية العهد لأبنائه الثلاثة : المنتصر والمعتز والمؤيد قائلا [٢] :

قُدَّامهم نورُ النبيِّ وخَلْفهم هَدْىُ الإمام القائم المحمود

ولا يترك نصراً على ثائر إلا ويدوّنه ، وكان بطارقة أرمينية خلعوا الطاعة وفتكوا لسنة ٢٣٧ بيوسف بن محمد بن يوسف الثغرى والى إقليمهم ، فوجه إليهم المتوكل جيشاً سحقهم سحقًا وألقوا عن يد وهم صاغرون ، ونوَّه البحترى بهذا الانتصار طويلا . وكانت قد حدثت فى أواخر العقد الرابع من القرن أو أوائل الخامس حروب دامية بين قبائل ربيعة : تغلب وشيبان وغيرهما ، واستطاع الفتح بن خاقان أن يَحْقِنَ الدماء بينها وأن يردَّها إلى الطاعة ، ومن الغريب أن لا تُعْنَى كتب التاريخ بهذا الحدث العناية المنتظرة ، بينما نرى البحترى يسجلها ، وقد بلغ به الأسى أقصاه إذ يرى هذه القبائل المنحدرة من أب وأصل واحد تفقد ما ينبغى أن يكون بينها من البِرِّ والعطف ، فإذا هى تفزع إلى السيف وإلى القوة والقهر وسفك الدماء ، يقول [٣] :

وفُرْسانُ هيجاءٍ تجيشُ صدورُها بأَحْقَادها حتى تَضيق دُرُوعُها
تقتِّل من وِتْرٍ أعزَّ نفوسها عليها بأَيْدٍ ما تكادُ تطيعُها
إذا احتربتْ يوماً ففاضَتْ دماؤها تذكَّرتِ القُرْبَى ففاضَتْ دموعُها
شواجرُ أرماحٍ تقطِّع بَيْنهم شواجرَ أرْحامٍ مَلُومٍ قَطوعُها [٤]

فبعضهم يسفك دم بعض ويده لا تطاوعه ، والدماء تفيض والدموع تسيل والرماح تقطع علائق الأرحام . وأعاد المتوكل ووزيره الفتح الأمر إلى نصابه من الأمن والسلم ، فأُغمدت السيوف وقرَّت القلوب الخافقة ونامت العيون المسهَّدة . ويثب أهل حمص بعاملهم [٥] لسنة ٢٤٠ ويعودون إلى الوثوب والثورة فى سنة ٢٤١ وينكل

(١) الديوان ٣/١٦٨٩ .
(٢) الديوان ٢/٧٠١ .
(٣) الديون ٢/١٢٩٩ .
(٤) الشواجر : المتشابكة المتداخلة .
(٥) تاريخ الطبرى ٩/١٩٧ وما بعدها .

بهم المتوكل وسرعان ما يعفو عنهم ، ويسجل البحترى الحادث منوّهاً بعفوه قائلا[١] :

تداركتَ بالإحسان حمصَ وأهلَها ۞ وقد قارفوا فعل الإساءة والخُرْق[٢]

وترسل تذورة إمبراطورة القسطنطينية إلى المتوكل لسنة ٢٤١ وفداً يطلب الفداء بين أسرى الروم والعرب ، ويستقبل الخليفة الوفد فى حفل كبير يصفه البحترى ، ويطيل فى وصف السماط الذى مُدّ فيه وما علا وجوههم وسيماهم من ذهول وحيرة[٣]. وكان المتوكل قد فكَّر لسنة ٢٤٣ فى أن يجعل دمشق حاضرة الخلافة حتى يبتعد عن سامراء ومَنْ بها من قواد الأتراك الطغاة ، ورحل إليها فى سنة ٢٤٣ وتنبَّهوا لمقصده فعملوا على العودة به إلى سامراء واضطرّ أن ينزل على إرادتهم ، ويذكر البحترى خروجه إلى دمشق وقدومه منها فى غير قصيدة[٤]. ويأخذ منذ سنة ٢٤٥ فى وصف قصوره التى سميت باسم المتوكلية والتى بلغت — كما مر بنا فى الفصل الثانى — نحو العشرين ، وكان من أهمها البرج الذى عرضنا له هناك ، ويتوقف البحترى مراراً فى مدائحه ليصف تلك القصور من مثل القصر المعروف بالجعفرى والصبيح والمليح وشبداز[٥] ، وما يزال ينوه بها مباهياً الأمم والشعوب . وفى قصر الجعفرى لقى المتوكل ووزيره الفتح مصرعهما لسنة ٢٤٧ تحت بصر البحترى وسمعه ، وهاله ما رأى ، مما جعله يرثى المتوكل برائيته زاعماً أنه دافع عنه بيديه ، ويسجل على ابنه المنتصر — كما مرّ بنا فى الفصل الماضى — اشتراكه فى المؤامرة الباغية والفتك به ، قائلا[٦] :

أكان ولىُّ العهد أضمر غَدْرَةً ۞ فمن عجبٍ أنْ وُلِّىَ العهد غادرُهْ

وحرىٌّ بنا أن نذكر أن البحترى لم يتورط مثل ابن الجهم فى هجاء المعتزلة إرضاء للمتوكل ولا فى هجاء العلويين ولا فى هجاء النصارى . وأظلمت الدنيا فى عينيه بعد مقتل المتوكل وصاحبه الفتح ، فخرج إلى المدائن يتعزى ، وهناك نظم

---

(١) الديوان ٣/١٥٤٦ .
(٢) قارفوا : ارتكبوا . الخرق : الحمق .
(٣) الديوان ٣/١٦٠٢ .
(٤) الديوان ٢/٧٠٧ ، ٧٠٩ ، ٩٩١ ، ٣/١٥١٤ .
(٥) انظر الديوان ٢/١٠٤١ ، ٣/٢٠٠٤ .
(٦) الديوان ٢/١٠٤٨ .

سينيته مودعًا فيها حزنه وأساه ، وعاد إلى سامراء وتركها إلى منبج وأهله . ودفعه الطمع إلى أن يعود إلى المنتصر سريعًا وأن يقف بباب وزيره أحمد بن الخصيب متوسلا إليه بكاتبه الحسن بن مخلد حتى يقرّبه منه ويسترضيه له ، ويجيبه إلى أمنيته ، فيعفو عنه المنتصر ، ويستمع إلى قصيدته فيه ، وكان قد رفع المحنة التى أنزلها أبوه بالعلويين ودفع الأذى عنهم والتعرض لشيعتهم ، فأشار إلى ذلك البحترى منشدًا[١] :

وآلُ أبى طالبٍ بعد مـا أُذيع بسِرْبهم فابْذَعَـرْ
ونالتْ أدانيَهم جفـوةٌ تكاد السماءُ لها تَنْفَطِـرْ
وصَلْتَ شوابكَ أرحامهم وقد أوشكَ الحَبْلُ أن يَنْبَتِر

ويتوفّى المنتصر بعد ستة أشهر من خلافته ويخلفه المستعين فيستبقى ابن الخصيب فى الوزارة ، وسرعان ما يغضب عليه قواد الترك فتُسْتَصْفَى أمواله ويُنْفَى إلى جزيرة إقريطش (كريت) وحينئذ نجد البحترى يتنكّر له ، ويبالغ فى تنكره إرضاء للمستعين وقواده ، فيُؤلبهم عليه ، ويحثهم — كما مرّ بنا فى الفصل الماضى — على قتله قائلا[٢] :

لابن الخصيب الوَيْلُ كيف انبَرى بإفْكِهِ المُرْدِى وإبطـالِهِ

وهو جانب فى البحترى لاحظه بعض معاصريه — كما مرّ فى غير هذا الموضع — إذ تحدثوا عن كفره للإحسان وعدم وفائه ، حين يقلب الدهر مجنّه لبعض ممدوحيه أو حين يسبق إليهم الموت ، فإنه بدلا من أن يثير ذلك فى نفسه ضروبًا من الشفقة والرحمة ، يسارع إلى الوقوف مع خصومهم الجدد أصحاب الحكم والسلطان ابتغاء ما فى أيديهم من المال والنفع ، ويضرب القدماء لذلك مثلا موقفه من الخليفة المستعين إذ كان يمدحه ، وينال جوائزه حتى إذا خلعه قواد الترك وتولى المعتز الذى يرتجى نفعه أسرع إليه بقصيدة يمدحه فيها ويهجو المستعين هجاء مقذعًا بمثل قوله[٣] :

---

(١) الديوان ٢ /٨٥٠ . ابذعر : تفرق .
(٢) الديوان ٣ /١٦٢٧ .
(٣) الديوان ١ /٢١٥ .

بكى المِنْبَرُ الشرقُّ إذ خارَ فوقــه على الناس ثَوْرٌ قد تدلَّتْ غَباغِبُهْ[١]
فكيف رأيت الحقَّ قَرَّ قراره وكيف رأيت الظلم آلتْ عواقبه

وكان المعتز من أقرب الخلفاء إلى نفسه ، فأكثر من مديحه ووصف قصوره وتسجيل الأحداث لزمنه ، ومدح معه ابنه عبد الله وتوثقت بينهما الصداقة ، ومما سجله من الأحداث لعهده وعهد المستعين قتل القائد التركى أتامش وكاتبه شجاع[٢] لسنة ٢٤٩ وقتل بُغا الشرابى[٣] قاتل المتوكل لسنة ٢٥٤ ونراه يمدح القائد التركى وصيفاً[٤] الكبير وابنه صالحاً[٥] ويكرر حينئذ تشوقه إلى وطنه ، ويستأذن مراراً فى الإلمام به . ويُكثر من مديح الشاه ابن ميكال قائد المستعين ووزيره أبى صالح محمد بن يزداد وابنه عبيد الله وأخيه القاسم . ويَضطر قواد الترك المعتزَّ إلى خلع نفسه فى سنة ٢٥٥ ويتولى المهتدى بعده الخلافة لنحو عام واحد ، ويغدو إليه ويروح بقصائده مصوراً تقاه وزهده وانصرافه عن الملاهى ومتاع الحياة الزائل ونشره للعدل فى ربوع دولته وإذلال جيوشه للروم ونزولهم على إرادته صاغرين . وسرعان ما ثار عليه الأتراك وخلعوه وولوا بعده المعتمد ، وهو آخر الخلفاء الذين مدحهم البحترى ، وكان الخليفة الحقيقى لعهده أخاه الموفق ، وكان حازماً شجاعاً واسع التدبير ، وهو الذى قضى على ثورة الزنج وهزم يعقوب الصفار الثائر بإيران هزيمة ساحقة . ويصور البحترى فى مديحه للمعتمد بأس جيوشه وانتصاراتها الحربية ، ويصف القصر الذى احتفل ببنائه وسماه المعشوق ونوّه به ، وله قصيدة رائعة يهنئ فيها الموفق بقمعه لثورة الزنج ، وفيها يخاطبه بقوله[٦] :

أخذتَ بوِتْرِ الدين مَثْنَى وظُفِّرَتْ يداك فلم يُفْلِتْ عدوٌّ تطالبُه

ولم يترك حينئذ وزيراً ولا كاتباً كبيراً إلا ويمدحه ويأخذ جوائزه ، وكان المعتمد استوزر عبيد الله بن يحيى بن خاقان الذى وزر قديماً لأبيه المتوكل ، فازمه البحترى ، وفكّر فى أن يرتجع منه الضياع الكثيرة التى كان المتوكل أقطعها إياه ؛ فأكثر الشاعر من التوسل إليه ، حتى يتركها له ، وقصيدته[٧] :

(١) خار : صاح . الغباغب : ماتغضن من الجلد فى منبت العثنون أو اللحية حول الذقن .
(٢) الديوان ١ /٥٢٤ .
(٣) الديوان ٣ /٢٠١٩ .
(٤) الديوان ٣ /١٤٠٣ .
(٥) الديوان ٣ / ٢١٧٤ .
(٦) الديوان ١ /٢٢٤ .
(٧) الديوان ١ /٤٩٣ .

أمرتجعٌ منى حباءُ خلائفٍ   توليتُ تسييرَ المديحِ لهم وحدى

تصور جزعه المفرط ، ويتوفّى عبيد الله سنة ٢٦٣ ويخلفه الحسن بن مخلد ، فيمدحه بقصائد مختلفة شاكيًا ضارعًا ، فيجعل أمره إلى كاتبه السِّيبى ، ولا يسارع إلى استرضائه ، فيشكوه إلى ابن مخلد بحائيته[١] :

لك الخلائقُ فينا السهلةُ السُّمُحُ   والنَّيل يَسْلُس للرَّاجى ويَنْسَرِحُ

ولا يكاد يسمعها الحسن حتى يبلغ بالبحترى ما يريد ، ويزيل المطالبة عنه[١] . ويترك الحسن الوزارة سريعًا ويتولاها سليمان بن وهب الذى استوزره المهتدى من قبل ، ويقدم إليه البحترى مدائحه ، ويعصف به الموفق فى سنة ٢٦٥ فيحبسه ويصادر أمواله . ويخلفه على الوزارة أحمد بن صالح بن شيرزاد لمدة شهر واحد ، وللبحترى فيه مدائح مختلفة ، ويلى الوزارة بعده أبو الصقر إسماعيل بن بلبل بينما يلى الكتابة للموفق صاعد بن مخلد ، ويُكثر البحترى من مديح ابن بلبل ، ويهجو له فى بعض مديحه ابن شيرزاد الذى طالما مدحه ، ويمدح كاتبه جرادة على حين يذم كاتباً آخر كان نصرانيًّا يسمى إسرائيل ، ويلحّ على ابن بلبل فى قصائد كثيرة أن يأذن له بالرحيل إلى موطنه بمثل قوله[٢] :

وأعتقتَ الرِّقاب فمُرْ بِعتقى   إلى بلدى وأنت به جديرُ

وأكثر حينئذ من مديح صاعد بن مخلد كاتب الموفق ، وكان من وجوه النصارى ، وحين استكتبه الموفق أعلن إسلامه وله فيه وفى أخيه عبدون الراهب وابنه أبى عيسى العلاء مدائح كثيرة . وكان أبو عيسى مثقفًا ثقافة واسعة بعلم الفلك ، مما جعل البحترى يُكثر له فى إحدى مدائحه من ذكر النجوم[٣] . ومن كبار الكتَّاب الذين مدحهم حينئذ أبو العباس أحمد بن ثوابة صاحب ديوان الرسائل . وفى أثناء ذلك كان يمدح كثيرين من العمال والولاة وأصحاب الخراج والكتَّاب والقواد مثل وصيف الصغير وأذكوتكين والهيثم بن عبد الله التغلبى والى الموصل وأحمد بن محمد بن بسطام والى الشام وسيما الطويل والى حلب والعواصم ورافع بن هرثمة والى الرى

---

(١) الديوان ١ /٤٣٨ وأخبار البحترى ص ١١٠ .
(٢) الديوان ٢ /٩١٦ .
(٣) الديوان ٢ /١٢٦٨ .

وكتّاب الجبل وأنفذ إليهم ذات مرة غلامه نصراً ليطالبهم برسومه[١] . وممن كان يمدحهم كثيراً أبو جعفر أحمد بن محمد الطائى والى الكوفة وآل نوبخت . وكان كثير الإلمام ببغداد ،وعُنى بمديح كثيرين من آل طاهر حكّامها كما مرّ بنا ، كما مدح بعض أعيانها وعلمائها مثل عبد الله بن الحسين بن سعد القطربّلى والمبرّد النحوى ، ومدح عبيد الله بن خرداذبة الجغرافى صاحب البريد بناحية الجبل . ويبدو أن أصحاب الخراج عادوا يتعقبون البحترى ويطالبونه بخراج إقطاعاته الكثيرة ، مما جعله يسأل ابن بلبل المعونة فى خراجه ، كما يسأل المعتمد نفسه قائلا[٢] :

أَأَخْشَى الخراجَ وقد دعوتُ لعُظْمه ملكَ الملوك ورافــد الرُّفّاد

ومضى عمال الخراج يُثْقلون عليه ، وهو كل يوم يَمْثُلُ بين أيديهم شاكيًا ملحًّا فى أن يحطّوا عن كاهله ما يطلبونه منه ، ولا يكاد يظفر بما يبتغى منهم ، فيفكر فى مبارحة العراق ، ويمدح ابن طولون صاحب مصر والشام حينئذ ويصرّح فى مديحه له بما فى نفسه قائلا[٣] :

فأصبحتُ فى بغدادَ لا الظلُّ واسعٌ ولا العَيْشُ غَضٌّ فى غَضارته رطْبُ
أأمدح عُمَّال الطَّساسيجِ راغباً إليهم ولى بالشام مُسْتَمْتَعٌ رَغْبُ[٤]

وكل شيء يؤكد أن البحترى كان قد أثرى ثراء فاحشًا منذ عصر المتوكل ، فإنه نثر عليه أموالا جمة وإقطاعات عديدة ، بالإضافة إلى ما أغدق عليه الفتح بن خاقان وغيره من رجال الدواوين ، وخاصة آل المدبر وفى مقدمتهم إبراهيم ، وكان هو وأخوه أحمد من كبار الموظفين فى دواوين الخراج والضياع ، ويقول الصولى إنه كان يوجب على إبراهيم فى كل سنة أن يُسْقط أكثر خراجه أو يؤديه عنه ، وإنه استماحه مرة لشراء ضيعة فلانه لكثرة ضياعه ، وقال له : تكفيك ضياعك فقد

(١) الديوان ٣ /١٨٥٦ .
(٢) الديوان ٢ /٧٣٤ .
(٣) الديوان ١ /١٢٣ .

(٤) الطساسيج : الإقطاعات والضياع ، ويقال إن سواد العراق كان مقسماً إلى ستين طسوجا . رغب : متسع .

كثرت وعظمت ، غير أن البحترى تمادى فى إلحاحه عليه ، وأنشده قصيدته التى يقول فيها[١] :

وما زالتِ العِيسُ المراسيلُ تَنْبَرِى   فيُقْضَى لدى آل المدبِّر حَاجُها[٢]
ولمْ لا أغالى بالضِّياع وقد دَنَا   علىَّ مَدَاها واستقام اعوجاجُها
إذا كان لى ترْبِيعُها واغتـــلالُها   وكان عليك عُشْرُها وخراجها[٣]

فأمر له بالمال الذى يشترى تلك الضيعة به[٤] . وكلما تقدمنا مع البحترى فى الزمن بعد المتوكل زادت ضياعه ، وقد وصلته من المعتز ضياع وأموال كثيرة ، وهو مع ذلك لا يزال يلحُّ عليه بالطلب حتى ليستهديه خاتم ياقوت ويُهْديه إليه[٥] . وكان المعتز قد أهدى إلى ابنه عبد الله إقطاعـًا جاوره البحترى فى بعضه ، وكأنه لم يكتف بما صار فى يده ، فقد مضى يسأل عبد الله أن يهب له من إقطاعه الضيعة التى تجاوره ، وتشفَّع إليه بأبيه وصنع فى ذلك أشعاراً ، منها قوله للمعتز :

يا واحدَ الخلفاء غيرَ مدافَعٍ   كرماً وأحسنَهم نَدًى وصَنيعا

فاتجه إلى ابنه عبد الله قائلا له : اقْضِ حاجة البحترى ، فوهبها له[٦] . وتظل عنده شهوة تملك الضياع والإقطاعات ، إذ نراه يطلب من صاعد بن مخلد إقطاعـًا[٧] ومن ابنه أبى صالح ضيعة[٨] ومن سليمان بن عبد الله بن طاهر حين أصبح حاكماً لبغداد إقطاعاً[٩] . ويكثر عنده أن يسأل ممدوحيه أفراساً[١٠] وسيوفاً[١١]

---

(١) الديوان ١ / ٤٢٧ .

(٢) العيس : الإبل . المراسيل : النوق السهلة السير .

(٣) التربيع : الإنماء . والعشر : عشر الثمار وهو الخراج المفروض .

(٤) أخبار البحترى للصولى ص ١١٩ .

(٥) انظر التحف والهدايا للخالديين نشر سامى الدهان ص ٧٣ ، وزهر الآداب ٣/٩٧ ، وأخبار البحترى ص ١٠٨ وقد عدد فى القصيدة عطايا المعتز له من الدنانير والخلع وكيف أنه أمر بأن يزور بلده على خيل البريد الرسمى . انظر الديوان ٣ /١٥٣٦ .

(٦) أخبار البحترى ص ١٠٥ والديوان ٢ /١٣٠٩ .

(٧) الديوان ٣ /١٥٢٤ .

(٨) الديوان ٢ /١٠٠٨ .

(٩) الديوان ٣ /٢٠٤١ .

(١٠) انظر الديوان ١ / ٣٩٩ ، ٣/ ١٤٨٥ ، ١٧٤٤ ، ١٩٨٩ ، ٢٠٣٠ .

(١١) الديوان ٣ /١٧٤١ .

وشرابًا[١] وثيابًا[٢] وغلمانًا[٣] . وبذلك نستطيع أن نوفق بين شُحِّه وما يقال من أنه كان يمشى فى موكب من غلمانه[٤] ، فقد كانوا جميعًا هبات من ممدوحيه ، وخصّ نسيمًا من بينهم بغزل كثير ، وكان قد أهداه إليه محمد[٥] بن عيسى القمى كاتب أبى سعيد الثغرى ، وفى الأغانى « أن البحترى جعله بابًا من أبواب الحيل على الناس فكان يبيعه ويتعمد أن يصيّره إلى ملك بعض أهل المروءات ومن يَتَنفقُ عنده الأدب ، فإذا حصل فى ملكه شبَّب به وتشوَّقه ومدح مولاه حتى يهبه له ، ولم يزل ذلك دأبه حتى مات نسيم فكُفِى الناس أمره »[٦] . وقد يكون أبو الفرج مبالغًا فى ذلك ، فإنه لم يثبت أن أحداً اشتراه سوى إبراهيم بن الحسن بن سهل، وقد مدحه بأشعار كثيرة يصور فيها ندمه ، فرده عليه[٧] ، ولعل فى ذلك كله ما يصور مدى ثراء البحترى من جانب وشدة طمعه من جانب آخر ، وقد ظلَّ يُلْحِفُ فى سؤال العطاء والضياع فكان طبيعيًّا أن يلفت إليه أنظار معاصريه ، وحتى الخراج أو عشر الثمار كان ما ينى يحتال فى التخلص منه بالتضرع إلى وزير أن يدفعه عنه أو إلى كاتب كبير مثل إبراهيم بن المدبر . ويفكر فى الإفادة من أحمد بن طولون —كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع— فيمدحه لسنة ٢٦٩ ويمدح بعض كتابه وقواده مثل عفاص ويونس بن بُغَا وجعفر بن عبد الغفار ومحمد بن العباس الكلابى . ويُتَوَفَّى ويخلفه ابنه أبو الجيش خمارويه لسنة ٢٧٠ وترى البحترى فى بعض قصيده[٨] يجمع بين مديحه ومديح أبى الصقر إسماعيل بن بابل وزير المعتمد . وفى سنة ٢٧٢ يغضب الموفق على صاعد كاتبه ويقبض عليه وعلى ابنيه أبى عيسى العلاء وأبى صالح وعلى أخيه عبدون ويصادر جميع أموالهم وأسبابهم[٩] ، ويتوفَّى أبو عيسى العلاء فى الحبس بعد ثلاثة عشر يومًا ويكتئب البحترى ، ويرثيه بقصيدة يقول فيها[١٠] :

---

(١) الديوان ١/٤٠٧ ، ٤٢٧ ، ٤٩١ ، ٥٥٩ ، والأغانى ١٨/١٧١ .

(٢) الديوان ٢/٨٣٧ ، ٨٩٢ وأخبار البحترى ص ١١٥ .

(٣) انظر مثلا ٢/٩٨٦ ، ١٠٦٧ ، ١٤٨٥/٣ .

(٤) راجع الأغانى ١٨/ ١٧٠ وقابل بالعمدة لابن رشيق ٢/١٥٠ .

(٥) الديوان ١/ ٥٢٧ .

(٦) الأغانى ١٨/١٧١ .

(٧) أخبار البحترى ص ١٢٧ وما بعدها .

(٨) الديوان ٢/٩٠٩ .

(٩) تاريخ الطبرى ١٠/ ١٠ .

(١٠) الديوان ٣/١٥٥٣ .

ولم أرَ كالدنيا حَليلةَ وامق محبٌّ متى تحْسُنْ بعينيه تَطْلُقِ
تراها عِياناً وهْى صنعةُ واحدٍ فتحسبها صُنْعَىْ لطيفٍ وأخرقِ

وحين سمع بعض خصومه البيتين شنَّعوا عليه بأنه ثَنَوىّ يؤمن بإلهى النور والظلمة ، وشاع ذلك فى عامة بغداد وكانت غالبة عليها حينئذ ، فخافهم البحترى على نفسه وخرج إلى منبج . ويبدو أن إقامته بها لم تطل وأنه عاد منها إلى سامراء وبغداد بعد حين إذ يحكى الصولى أن أول ما رأى البحترى سنة ٢٧٦ بمجلس المبرد فى مسجده ببغداد . ونظن ظنًّا أن رحلاته إلى العراق لم تنقطع إلا بعد قبض الموفق على صديقه إسماعيل بن بلبل سنة ٢٧٧ وكأنما كانت هذه الحادثة سببًا فى أن يصمم على مبارحة العراق إلى الأبد . وربما ولَّى وجهه حينئذ نحو مصر وصاحبها خمارويه[١] ، ويبدو أنه كان يلقاه فى رحلاته بالشام ، ثم مدَّها إلى مصر للقائه . ويؤكد نزوله بها كثرة مدائحه لكاتب خمارويه إسحق بن نصير . غير أنه كانت علته كبيرة فلم يقم بمصر طويلا وعاد إلى منبج ، وظل بها سنواته الأخيرة حتى لبَّى نداء ربه لعام ٢٨٤ .

وكان البحترى يأخذ بحظوظ مختلفة من الثقافة الإسلامية والعربية فى عصره ، وليس معنى ذلك أنه تخصص فى أحد فروعها ، ولكنه كان يلم بها ، إذ كانت حلقاتها مفتوحة للصادر والوارد فى جميع أنحاء العالم العربى حينئذ ، ويرمز إلى ذلك فى شعره أننا نراه فيه يعرض لبعض اصطلاحات علم الحديث ، إذ يقول فى مديحه لإبراهيم بن الحسن بن سهل[٢] :

خُلُقٌ أتيتَ بفضله وسَنائه طبعاً فجاءَ كأنه مصنوعُ
وحديثُ مجدٍ عنك أفرط حُسْنُهُ حتى ظنَنَّا أنه موضـــوع

وفى ذلك ما يؤكد صلته بالدراسات الإسلامية لعصره من حديث نبوى وتفسير وفقه ، وبالمثل كان على صلة بالدراسات العربية من تاريخية ولغوية ونحوية ، وهذا طبيعى لأنه أعد نفسه ليكون شاعراً مرموقًا ، فكان لا بد له أن يتزوَّد من اللغة ومن

(١) النجوم الزاهرة ٣ /٩٧ . (٢) الديوان ٢ /١٣١٦ .

النحو ومن التاريخ العربي الإسلامي ، ونراه في بعض شعره يعرض لعالم لغوي في عصره هو الفضل بن محمد اليزيدي ، رآه يزري على جميل وكثيّر ، فيقول إنه لا علم له بالشعر ، وكل علمه إنما هو التعمق في الفاعل والمفعول[1] .

وكان لا يبارَى في ثقافته بالشعر ، مما جعله يضع فيه ديوان حماسة مشاكلةً ومشابهةً لأستاذه أبي تمام في حماسته المشهورة ، ويقول ابن النديم إن له كتاباً ثانياً في معاني الشعر ، غير أن هذا الكتاب سقط من يد الزمن . والكتاب الأول كاف في تصور إكبابه على الشعر القديم إكباباً منقطع النظير . وبالمثل كان يكبّ على دواوين الشعراء المحدثين ، مما أتاح له ثقافة شعرية واسعة . ولكن هل نستطيع بذلك كله أن نقول إن البحتري كان مثقفاً بالثقافة الحديثة لعصره وما يتصل بها من علوم الأوائل ؟ حقاً له قصيدة ، كما أسلفنا ، أكثر فيها من ذكر النجوم ، ولكن هذا لا يعني أنه كان ملماً بعلم الفلك والنجوم لعصره ، فقد كان منصرفاً عن هذا العلم وغيره من علوم الأوائل . وكان إذا ألم بها يلمّ من الظاهر إن صح هذا التعبير ، فهو لا يتعمقها أو هو بعبارة أدق لا يستطيع أن يتعمقها إذ كانت نشأته نشأة بدوية كما لاحظ القدماء ، وإن كان قد تحضّر فيما بعد ، ولكنه ظل بعيداً عن الفقه بالثقافة الحديثة ، وخاصة الثقافة الفلسفية والمنطقية .

وكانت قد أخذت تتكوّن في النقد والبلاغة — كما أشرنا إلى ذلك في غير هذا الموضع — ثلاث بيئات : بيئة محافظة مسرفة في المحافظة ترى أن الشعر ينبغي ألا يقاس إلا بالمقاييس العربية الخالصة ، وهي بيئة اللغويين ، وبيئة مجددة مسرفة في التجديد ترى أن يقاس الشعر بمقاييس البلاغة اليونانية ، وهي بيئة المتفلسفة ، ممن كانوا يترجمون عن اليونان أو يقرءون ما ترجم عنهم ، وبيئة معتدلة ، فهي لا تحافظ محافظة اللغويين ولا تجدد تجديد المتفلسفة ، بل تقف موقفاً وسطاً ، فهي تقرأ ما يترجم وهي تنظر فيما أُثر عن العرب من ملاحظات بلاغية ، ثم تحاول أن تنفذ من ذلك إلى مقاييس للبلاغة العربية تَزِنُها موازين دقيقة ، وهي بيئة المتكلمين ، على نحو ما نعرف عن الجاحظ في كتابه البيان والتبيين ، وانحاز الشعراء غالباً إلى البيئتين المحافظة والمعتدلة ، وقلما انحاز أحد منهم إلى البيئة الثالثة

---

(١) الديوان ٣ /١٨١٧ وما بعدها .

لأنها كانت تجافى الذوق العربى . غير أن هذه البيئة أخذت تشنُّ حملات شعواء على بيئة المحافظين وخاصة على ممثلها البحترى الذى لم يكن يتقن الثقافة الفلسفية ، ونرى بعض من يمثلون البيئة المعتدلة ينضمون إلى هذه الحملة بعامل المنافسة بينهم وبين البحترى وفى مقدمتهم ابن الرومى . وكانت قد ساءت العلاقة بين البحترى وعبيد الله بن عبد الله بن طاهر صاحب شرطة بغداد ، ونظن ذلك حدث فى بعض فترات عزْله عن وظيفته ، وسارع البحترى فلمَّح إليه فى بعض شعره بما يشبه الذم ، وردَّ عليه عبيد الله يمدُّه صديقه ابن الرومى بأشعار ملتهبة ، ويبدو أنهما ندَّدا بضعف ثقافة البحترى وأنه لا يعرف فلسفة ولا منطقا ، مما جعله يهجو عبيد الله ببائية يقول فيها(١) :

كلَّفتمونا حدودَ مَنْطقكم والشعرُ يغنى عن صدقه كَذِبُهْ
ولم يكن ذو القُرُوح يَلْهَجُ بالـ مَنْطق ما نَوْعُهُ وما سَبَبُهْ
والشِّعْرُ لَمْحٌ تكفى إشارتُه وليس بالهَذْر طُوِّلَتْ خُطَبُه

وحقًّا لم يكن امرؤ القيس الملقَّب بذى القُروح يعرف فلسفة ولا منطقًا لا لأنه صَدَّ عن ذلك ، ولكن لأن عصره كله لم يكن يعرفهما ، ولو أنه تأخر به الزمن إلى عصر البحترى لعكف على الفلسفة والمنطق كما عكف ابن الرومى وأضرابه وغذَّى بهما شاعريته غذاء رفيعًا . وهو يلمِّح فى الشطر الأخير إلى ابن الرومى وما اشتهر به من مطولات شعره .

وقد ساعد الذوق المحافظ الذى ساد فى العصر — كما أشرنا إلى ذلك مراراً — إلى أن ترجح كفَّة البحترى المحافظ كفَّة ابن الرومى المجدد، وأن يقف فى صَفِّه لا علماء اللغة وحدهم من أمثال المبرد بل كثرة كثيرة من الشعراء ، على حين كان ابن الرومى يعيش لعصره فيما يشبه عُزْلة من معاصريه مع تفوقه على زميله تفوقًا واضحًا بملكاته الشعرية الخصبة ، ولكنه لم يكن يحتفظ للشعر بصياغته الموروثة وتقاليدها على نحو ما يحتفظ البحترى ، فوقع بعيداً عن ذوق الكثرة الغالبة من الشعراء والنقاد .

(١) الديوان ١ /٢٠٩ .

وليس معنى ذلك أن البحترى انفصل تماماً عن روح العصر ، فقد كان يلائم بين شعره وبين تلك الروح عن طريق ثقافة واسعة بشعر أستاذه أبى تمام وشعر من سبقوه ... أمثال مسلم وأبى نواس وبشار، المرة تلو المرة ، والمرات تلو المرات ، حتى أصبح ذلك جزءاً لا يتجزأ من جوهر شعره ، ولذلك نعته معاصروه طويلا بأنه يغير على أشعار من سبقوه فيسلبها لنفسه ، وفى ذلك يقول ابن الرومى لأبى عيسى العلاء بن صاعد حين نشر الأمن فى ربوع بغداد[1] :

أيسرق البحترىُّ الناسَ شعرهمُ جَهْرًا وأنت نكَال اللِّصِّ ذى الرِّيَبِ

وأهم ديوان ألحَّ على تمثله ديوان أستاذه أبى تمام ، ولاحظ ذلك كله القدماء فأفردوا سرقاته بالبحث، وكان أول من عُنى بذلك عنده معاصره أحمد بن أبى طاهر؛ إذ استخرج له ستمائة بيت ردها إلى أصولها عند الشعراء وخاصة عند أبى تمام ، وقد بلغ ما سلبه منه فى رأى ابن أبى طاهر مائة بيت . وتلاه بشر بن تميم بمصنف ذكر فيه سرقاته من أبى تمام ، وعليه اعتمد الآمدى فى الفصل الذى عقده لهذا الجانب من سرقات البحترى . وفى رأينا أنه استطاع بذلك أن يتلافى نقص ثقافته الحديثة ، فقد خالط الشعراء المحدثين وخاصة أبا تمام مخالطة نادرة ، بحيث تمثل المعانى والأخيلة الحديثة ، بل قل بحيث استخلصها لنفسه ، وأخذ يصدر عنها كما يصدر الضوء عن الشمس والشذى عن الزهرة . وحقًّا أنه يوجد بون بعيد بين عرض هذه الأخيلة والمعانى عنده وعند أبى تمام ، فقد كان أبو تمام يغمس أفكاره وأشعاره فى ليقة المنطق، فإذا القصيدة عنده توشك أن تتحقق فيها الوحدة العضوية، فالمعانى والصور يتولد بعضها من بعض ولا خنادق ولا ممرات بين الأبيات ، على حين تكثر هذه الممرات والخنادق عند البحترى ، ولاحظ ذلك القدماء فقالوا إنه لا يحسن الخروج من موضوع إلى موضوع فى الشعر[2]، لسبب بسيط وهو أنه لم يكن يخضع فى شعره للمنطق على نحو ما صرح بذلك آنفاً . وظاهرة ثانية هى أنه جارى أستاذه فى

---

(١) ديوان ابن الرومى (نشر كامل كيلانى) ص ٣٥ .

(٢) العمدة لابن رشيق ١/١٥٩ .

الاحتفال بألوان البديع واستظهارها فى أشعاره ، ولكن حين نقرن أى لون عنده إلى أصله عند أبى تمام سنجد مفارق واسعة ، فأبو تمام مثلا يجنح إلى استخدام نوافر الأضداد فى أشعاره كما مر بنا فى كتاب العصر العباسى الأول ، ولم يكن البحترى يستطيع أن يتعمق هذا التعمق ولذلك نراه يكتفى بالطباق بحيث إذا ذُكر الوصل مثلا ذُكر معه الهجر ، وإذا ذكر الذل ذكر معه الكبر ، وإذا ذكرت السهولة ذكرت معها الوعورة ، وإذا ذكرت الحرية ذكرت معها العبودية . ولون آخر يتعمقه أبو تمام هو الاستعارة على نحو ما مر بنا أيضًا فى حديثنا عن العصر العباسى الأول ، ولم يكن البحترى يتعمق هذا اللون تعمقًا من شأنه أن يبعده عن الذوق القديم ، ولذلك كله قال النقاد إنه يحافظ على عمود الشعر العربى[1] ، يريدون محافظته على أصوله الموروثة ، ومن تتمة ذلك عنده أنه لم يكن يكثر من ألوان البديع إكثار أبى تمام ، ولا كان يستطيع أن يتغلغل فى دقائق الفكر والأخيلة على نحو ما كان يتغلغل أبو تمام بحكم ثقافته الفلسفية وموارده التى لا تنضب فى أشعاره ، ولذلك كان يشيع فى أشعاره الغموض ، مما جعل القدماء يختلفون فى فهم كثير من أبياته وتفسيرها وتأويلها ، لكثرة ما توحى به من معان ، وهو اختلاف لا يضيع منك هباء ، بل إنك تجد فى أثنائه ما يشبه أقواس قزح ممتدة فى أشعاره ، وهى أقواس بهيجة ، تزهى بالفكر العميق والخيال الواهم البعيد .

ولكن إذا كان البحترى لم يستطع أن يحقق لنفسه هذا المدى الرائع من الشعر والفن ، بسبب ضعف ثقافته الفلسفية ، فإنه استطاع أن يحقق لنفسه مدى مقابلا لا يقل روعة ، وهو مدى الجمال الصوتى البديع ، بحيث استطاع أن يرتفع باصطفاء الكلمات والملاءمة بينها فى الجرس؛ بل بين حروفها وحركاتها ملاءمة رفعته إلى مرتبة موسيقية لم يلحقه فيها سابق ولا لاحق ، وكأنما كانت له أذن داخلية مرهفة ، تقيس كل حرف وكل حركة وكل ذبذبة صوتية ، فإذا به ينظم شعراً مصفى مروقًا ، شعراً يلذ الألسنة والآذان والأذهان لذة لا تعادلها لذة . وقد وقفنا طويلا عند هذا الجانب فى الفصل الثانى من كتابنا « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » وأوضحنا مدى مشاكلته بين أصوات الألفاظ والقوافى فى بعض القصائد وموضوعاتها كما أوضحنا

(١) الموازنة للآمدى (طبعة الجوائب) ص ٢ .

مدى التوافق الصوتى عنده بين الحروف والكلمات والحركات والسكنات ، وكأنما أعطت الموسيقى الشعرية كل مفاتيحها وكل أسرارها للبحترى ، فإذا هو يوقع على قيثارته أروع ألحان عرفتها العربية[١] . وبذلك استطاع أن يتلافى بقوة قصوره الثقافى ، فإذا هو يوضع على قدم المساواة مع أبى تمام ، وإذا النقاد يتقابلون فى صفَّين : صَفّ يرفع أبا تمام إلى الذروة ، وهم المتفلسفة ومن يعنون بالتعمق فى المعانى والأخيلة ، وصف يرفع البحترى إلى نفس المرتبة ، وهم أصحاب الآذان المرهفة الذين يُكبرون اللذة الصوتية ، وكان ينضم إليهم طوائف من الحافظين واللغويين ، وكان البحترى نفسه إذا سُئل عنه وعن أبى تمام قال : جيده خير من جيدى ورديئى خير من رديئه ، وهو يريد بجيد أبى تمام معانيه وأخيلته الدقيقة التى لم يكن أحد من أهل زمانه يستطيع أن يحلق فى آفاقها ، أما رديئه فيريد به بعض أبياته التى يضطرب فيها اللفظ لأنه لم يكن يُعْنَى بألفاظه وأصواته عناية البحترى .

والمديح أهم موضوع استنفد شعر البحترى ، فقد عاش ، كما مرَّ بنا ، يمدح الخلفاء العباسيين من المتوكل إلى المعتضد ووزراءهم وولاتهم وقوادهم وكتَّابهم ، وكأنما وقف نفسه على الإشادة بالدولة ورجالاتها ، بحيث يُعَدُّ الشاعر الرسمى لها ، وكان طبيعيًّا لذلك أن ينتصر للعباسيين ضد خصومهم العلويين ، وأن يتغنى بذلك فى أشعاره ، حتى يثبت ولاءه لهم وأنه يقف فى صفوفهم مدافعًا عنهم مناضلا بمثل قوله للمتوكل[٢] :

شَرَفاً بنى العباس إن أباكمُ ... عَمُّ النبىِّ وعِيصُه المتفرِّعُ
إن الفضيلة للذى استَسْقَى بِهِ ... عُمَرٌ وشُفِّع إذ غدَا يَسْتَشْفِعُ
وأرى الخلافة وهْى أعظم رتبة ... حَقًّا لكم ووراثةً ما تُنْزَعُ
أعطاكموها الله عن علمٍ بكم ... واللهُ يُعْطى مَنْ يشاءُ ويَمْنَعُ

فالعباس جد العباسيين وعم الرسول صلى الله عليه وسلم من العيص ومنبت الشجر الضخم ، يريد أنه من الأصول بينما على بن أبى طالب من الفروع ، ويستدل على

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (الطبعة السابعة – نشر دار المعارف) ص٧٧ وما بعدها .
(٢) الديوان ٢ /١٣١١ .

فضله بأن عمر استسقى به فى عام الرمادة حين أصاب الجزيرة القحط مستشفعًا به لربه ، ولم يَسْتَسْقِ بابن أبى طالب ، ويشير إلى حكم الميراث فى الإسلام وما فرضه من حَجْب العم لابن أخيه ، فالخلافة حق من حقوق العباسيين ، كما تقرر ذلك الشريعة الإسلامية ، وليس لأبناء على وحفدته أى حق فى منازعتهم . ويكرر البحترى فى مديحه للمتوكل وغيره من الخلفاء العباسيين تقواهم ، وعدلهم الذى ينشرونه فى ربوع الدولة ، ومدى رعايتهم للأمة ورفقهم بها ورقتهم لها وكيف يقومون على حمايتها بجنودهم وجموعهم الجرَّارة . وكان ينتهز كل فرصة ليدبج قصائده فيهم ، فمن ذلك قصيدته فى وصف موكب المتوكل فى أثناء خروجه لأداء الصلاة فى عيد الفطر ، وقد صوَّر فى فاتحتها قوة الإسلام حينئذ مجسمة فى جيش ضخم كان يحفّ بالمتوكل وكأنه جبال تتحرك ، فترجف الأرض وتهتز لضخامته وعدده الكثيفة ، ويتحدث عن جلال الموكب وما استدار حول المتوكل من هالات قدسية ومن محبة للشعب وإعظام ، يقول(١) :

افتنَّ فيك الناظرون فإصْبَعٌ ... يُومَى إليك بها وعَيْنٌ تَنْظُرُ
يجدون رويتك التى فازوا بها ... من أنعم الله التى لا تُكْفَرُ
ذكروا بِطَلْعتك النبيَّ فهلَّلوا ... لما طلعتَ من الصفوف وكبَّروا
حتى انتهيتَ إلى المصلَّى لابساً ... نور الهدى يبدو عليك ويظهر
فلو انَّ مشتاقاً تكلف فوق ما ... فى وسعه لسعى إليك المِنْبُرُ

ولعل أهم وزير استصفاه لنفسه الفتح بن خاقان ، فله ألف ديوانه الحماسة ، وقد عاش نحو خمسة عشر عامًا يمدحه منوهًا بسياسته وحزمه وشجاعته وأناته فى تسديد الأمور ، وعونه للضعيف ورده للمظالم ونشره للعدل الذى لا تصلح حياة الناس بدونه وبُعْد غَوْره ويقظته وكفايته لحمل أمانة الحكم على خير وجه ممكن ، مع تقواه وتواضعه ومع صيانته للثغور وحَطْمه بجيوشه للثوار والأعداء حطما لا يبقى ولا يذر ، ومع أخلاقه الرفيعة التى تتحلَّى بها نفسه الأبية ، وكان ربما بدر منه ما يجعل الفتح ينصرف عنه . فكان يعتذر له بأشعار رائعة ، سبق أن صورناها فى الفصل الماضى . ومديحه

(١) الديوان ٢ / ١٠٧٢ .

فيه يكتظ بعاطفة حقيقية ، فقد كان يكنّ له ودًّا وحبًّا وإخلاصًا ، وكان ما ينى يتغنّى بمديحه ، ومن طريف قوله فيه مصوراً هيبته[١] :

إذا ما مَشَى بين الصفوف تقاصرتْ رءوسُ الرِّجال عن طُوالٍ سَمَيْدَعِ[٢]
وإن سار كُف اللحظُ عن كل منظرٍ سواه وغُضَّ الصوت عن كل مَسْمَعَ
فلستَ ترى إلا إفاضةَ شاخصٍ إليه بعينٍ أو مشيرٍ بإصْبَعِ[٣]

ومرَّ بنا أن أول نابه اتصل به وخصه بمديحه محمد بن يوسف الثغرى ممدوح أبي تمام الذى كان فى مقدمة من قمعوا ثورة بابك الخرمى ، كما كان فى مقدمة جيوش المعتصم فى غزوه لعمورية ، وقد ظل ينازل الروم ويمحق جموعهم حتى وفاته سنة ٢٣٦ . وقد سجل البحترى حروبه وانتصاراته القديمة والحديثة جميعًا ، مجسمًا بأس جيوشه ، وكيف كانوا يتهافتون على الوغى كما يتهافت الفراش على النار ، إنهم أبناء موت يطرحون أنفسهم تحت رَحَاه ، فلا تطحنهم وإنما تطحن أعداءهم طحناً ، وله فى تمجيد شجاعة محمد بن يوسف الثغرى أشعار وقصائد كثيرة ،ومن طريف ماله فى تصوير رباطة قلبه وسكون نفسه فى الحرب قوله[٤] :

لقد كان ذاك الجَأْشُ جَأْش مسالمٍ على أن ذاك الزِّيَّ زِيُّ محاربِ
تسرَّع حتى قال من شهد الوَغَى لقاءُ أعادٍ أم لقاء حبائبِ
وصاعقة فى كفِّه يَنْكفِى بها على أَرْؤُسِ الأَقران خمسُ سحائب

فجأشُهُ مطمئنٌّ ونفسه هادئة ، حتى ليظن من يراه أنه فى سِلْم وأمن ودعة مع أن الزى زى محارب باسل ، وإنه ليُقبل على ميادين الحرب إقبال المحب على حمى معشوقته هانئًا مغتبطًا ، وإن السيف فى يده ليشبه أدق الشبه صاعقة تسقط على الأعداء بشواظها من أصابعه الخمس ، وكأنها خمس سحائب ماتنى ترسل عليهم الصواعق المدمرة . والبطل الثانى فى ديوان البحترى هو أحمد بن دينار ، وقد سجَّل بطولته فى معركة بحرية دمَّر فيها بأسطوله الأسطول البيزنطى تدميراً ذريعًا ، ومن عجب أن الطبرى وغيره من مؤرخى العرب لم يدونوا هذه المعركة الخطيرة ،

---

(١) الديوان ٢ /١٢٣٩ .
(٢) السميدع : السيد الكريم الشجاع .
(٣) الإفاضة : الاتجاه بالبصر .
(٤) الديوان ١ /١٧٨ .

ولا أشاروا إليها ، والمظنون أنها كانت لعهد المتوكل ، ولعل فى تسجيل البحترى لها ما يؤكد ما قلناه مراراً من أن شعر المديح عند العرب يُعَدّ فى بعض جوانبه وثائق تاريخية مهمة ، وفيها يقول البحترى مصوراً زحف ابن دينار بمركبه « الميمون » ومن حوله المراكب تغص بجنوده البحريين الذين محقوا الأسطول البيزنطى وجنوده محقًا[١] :

غدوتَ على الميمون صُبْحاً وإنما غدا المَرْكَبُ الميمونُ تحت المظفَّرِ
وحولك رَكَّابون للهول عاقروا كئوسَ الردَى من دارعين وحُسَّرِ[٢]
صَدَمْتَ بهم صُهْبَ العَثَانين دونهم ضرابٌ كإيقاد اللَّظَى المتسعِّرِ[٣]
يسوقون أسطولا كأنَّ سَفينه سحائبُ صَيْفٍ من جَهامٍ ومُمْطرِ[٤]
فما رِمْتَ حتى أجْلَت الحربُ عن طُلًى مقطَّعةٍ فيهم وهامٍ مطيَّرِ[٥]

وكل شىء يشهد بأن الشعر كان لا يستصعب على البحترى ، فقد كان يتدفق على لسانه تدفقًا ، ومع ذلك يقال إنه نقل كثيراً من مدائحه ، حتى ليبلغ ذلك عشرين قصيدة ، إلى مدح أناس جدد[٦] . وقد يكون فى ذلك مبالغة ، على أننا نجد فى الديوان رائية مرددة بين أبى الصقر إسماعيل بن بلبل ، والخضر بن أحمد والى الموصل ، واختلفت لذلك رواية بعض أبياتها[٧]. ويدخل فى هذه الظاهرة عند البحترى ما قيل من أنه هجا كثيرين ممن مدحهم ، حتى ليبلغ بهم بعض الرواة أربعين شخصًا[٨]، وقد عرضنا لذلك فى غير هذا الموضع ، ولا شك فى أن فى العدد مبالغة .

وفى ديوانه أهاج مختلفة ترجع إما إلى حرمانه من جائزة ، وإما إلى كفران صنيعة عند بعض معاصريه ، وإما إلى منافسة بينه وبين الشعراء وخاصة من كان منهم

---

(١) الديوان ٢/ ٩٨٢ .
(٢) الردى : الموت . الدارع : لابس الدرع . الحاسر : عكس الدارع .
(٣) صهب العثانين : شقر اللحى ، ويريد بهم الروم .
(٤) السحاب الجهام : الذى لا ماء فيه .
(٥) رام يريم عن المكان : زال عنه وفارقه . الطلى : الأعناق . الهام : الرءوس .
(٦) الموشح ص ٣٣٦ .
(٧) الديوان ٢/ ٨٧٠ وما بعدها .
(٨) الموشح ص ٣٣٦ .

يتعرض لشعره بالذم والنقد اللاذع . ويلاحظ أبو الفرج الأصبهانى فى ترجمته أن بضاعته من هذا الفن قليلة ، ويُرْوَى عن ابنه أبى الغوث أن السبب فى ذلك أن أباه أحرق هجاءه فى الناس خوفاً من مغبة عداوتهم له ولأبنائه ، وكأن هذه الرواية لم تعجب أبا الفرج ، فقد عاد يؤكد أن أكثر هجائه ساقط غث الألفاظ ركيك لا يشاكل طبعه ولا يليق بمذهبه(١) .

وبالمثل الفخر عند البحترى ضعيف ، هو حقًّا يفخر فى بعض قصائده بآله وعشيرته بحتر وقبيلته طيئ ناعتاً لهم بالكرم والشجاعة والكثرة والحصافة ، ولكنه لا يصدر فى ذلك عن إيمان قوى بالمجد ، وكأنما كانت عصبيته القبلية ضعيفة ، بل لقد كان إحساسه بعروبته أيضاً ضعيفاً ، ومرت بنا فى الفصل السالف قصيدته فى إيوان كسرى وبكاؤه لأمجاد الفرس ، وكأنما لم يكن يستشعر شيئاً من الإحساس العميق بالأمجاد العربية فى مقابل الأمجاد الفارسية ، ولعله من أجل ذلك كان كثيراً ما يسترسل فى إشادته بالأصول الفارسية لبعض ممدوحيه ، على نحو ما يلقانا فى مديحه للحسن بن سهل بمناسبة عيد المهرجان ، وله يتوجه بالخطاب قائلا(٢) :

إن للمِهْرَجان حقًّا على ك ... ل كبيرٍ من فارسٍ وصغيرِ
عيدُ آبائكِ الملوكِ ذوى التِّيـ ... ـجانِ أهلِ النُّهَى وأهلِ الخِيرِ(٣)

ويعدِّد طائفة من هؤلاء الملوك فى مقدمتهم يَزْدَجِرْد، وكسرى، وأَرْدَشير ، ويصور ما كان لهم من أبهة الملك وما كانوا يغدون ويروحون فيه من السندس والحرير . وحتى العاطفة الإسلامية بدورها نجدها ضعيفة عند البحترى ، إذ امتدح كثيرين من النصارى على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع .

وذكرنا فى الفصل السالف مرثيته للمتوكل ، وأوضحنا كيف أعلنها ثورة مدوية على قاتليه وولى العهد الذى ناصرهم ، وقد استهلها بوصف قصر الجعفرى الذى قُتل به الخليفة وما حلَّ عليه من سواد وكآبة ، حتى غدا كأنه مأتم كبير ،

---

(١) الأغانى (طبعة الساسى) ١٦٧/١٨ .
(٢) الديوان ٢/ ٨٨٦ .
(٣) الخير : الكرم والشرف .

ويصور فزع سيداته الجميلات حين علمن بالخبر الفاجع وكيف انتهكت حرماته ثم يصف القتل والقتلة وصفًا مؤثراً . وله مرثية رائعة يرثى بها طائفة من بنى حميد الطوسى خرّوا صرعَى فى ميادين الثغور دفاعًا عن العرين العربى ، وفيهم يقول[١] :

قبورٌ بأطراف الثُّغور كأنما مواقعُهم منها مواقعُ أنجمِ
مضوا يستلذّون المنايا حفيظةً وحفظاً لذاك السؤدد المتقدِّم
وكلُّهم أفضى إليه حِمَامُــه أميرًا على تدبير جيش عَرَمْرَمِ[٢]
مساعٍ عظامٌ ليس يَبْلَى جديدها وإن بَلِيَتْ منهم رمائمُ أعظم

والمرثية بكاء حار لهؤلاء الأبطال الذين استشهدوا تحت ظلال السيوف فداء لوطنهم بأرواحهم واستبسالا بعد أن أذاقوا الأعداء كئوس الموت دهاقًا .

واشتهر البحترى بإجادته للغزل ، ومرَّ بنا أنه أحبَّ فى شبابه علْوة الحلبية وظلت ذكراها لا تبارحه ، وظلت تستولى على قلبه ، وكانت قد صبت إليه كما صبا إليها وبادلته وداً بود ، ثم تزوجها الذفافى كما أسلفنا ، فسلت عنه ، ولكنه لم يسل عنها ، وفى ديوانه مقطوعة يهجوها بها قد يكون نظمها فيها ساعة غضب انتابته ، وإن كنا نظن ظنًّا أنها منحولة عليه ، فقد ظل قلبه لها فى سامرَّاء وبغداد كما ارتحل عنها ، فهو لاينى يذكرها بمثل قوله فى مقدمة ملحه للمعتز[٣] :

كم ليلةٍ فيكِ بِتُّ أَسْهَرُها ولوعةٍ فى هواكِ أُضمرها
وحرقةٍ والدموعُ تُطْفئها ثم يعود الجَــوى فيُسْعِرها
يا عَلْوُ عَلَّ الزمانَ يُعْقبنا أيام وصلٍ نظلُّ نشكرها

وكأن السنوات الطويلة التى مضت بين حبه لها فى شبابه ومديحه للمعتز وهو فى نحو الخمسين من عمره لم تطفىء لوعته وحرقته ، فقد ظلت نار شوقه وحبه

---

(١) الديوان ٣/١٩٤٥ .
(٢) عرمرم : كثيف .
(٣) الديوان ٢/١٠٧٤ .

لها مشتعلة بين جوانحه ، وظل يصدر عنها فى قطع مفردة وفى مقدمات مدائحه من مثل قوله[١] :

وخلافُ الجميل قولُك للذّا كر عهدَ الأَحباب صَبْرًا جميلا
لا تَلُمْه على مواصلة الدَّم ع فلوْمُ لَوْمُ الخليل الخليلا
عل ماءَ الدموع يُخمد نارًا من جَوَى الحبِّ أَو يبلُّ غليلا

وكانت لدى البحترى قدرة بارعة فى وصف مظاهر العمران ، بما أتيح له من دقة فى التصوير والتعبير ، ولم يكد يترك قصراً بناه المتوكل دون أن يصفه موجزاً أو مسهبًا ، وبالمثل وصف ما بناه الخلفاء بعده من قصور . ومرَّ بنا وصفه الرائع لإيوان كسرى ، ومن القصور التى أجاد فى وصفها قصر الكامل الذى بناه المعتز وفيه يقول[٢] :

ذُعِرَ الحَمامُ وقد ترنَّم فوقه من منظرٍ خَطِرِ المزلَّةِ هائل[٣]
رُفعتْ لمنْخَرَقِ الرِّياح سموكُه وزهتْ عجائبُ حسنه المتخايل[٤]
وكأَنَّ حِيطان الزجاج بجَوِّهِ لُجَجٌ يَمُجْنَ على جُنوب سواحل
لبستْ من الذهب الصقيل سُقوفُه نورًا يضىء على الظلام الحافل[٥]

وقد مضى يصف رخامه وخطوطه المتقابلة وما امتد أمامه من بستان أنيق وما يجرى فيه من مياه دجلة المفضضة ومن نسيم الصَّبا الحانى . وكان القدماء يعجبون أشد الإعجاب بوصفه لبركة أقامها المتوكل بأحد قصوره فكانت فتنة للناظرين ، وفيها يقول البحترى[٦] :

يا مَنْ رَأَى البِرْكةَ الحسناءَ رُؤْيَتُها والآنساتِ إذا لاحتْ مغانيها[٧]
تنصبُّ فيها وفود الماء معجلةً كالخيل خارجةً من حَبْلِ مُجْرِيها

(١) الديوان ١٧٦٧/٣
(٢) الديوان ٣ / ١٦٤٨ .
(٣) المزلة : المزلق .
(٤) منخرق الرياح : مهبها . سموكه : أعاليه .
(٥) الحافل : الكثير .
(٦) الديوان ٤ /٢٤١٦ .
(٧) الآنسات هنا جوارى المتوكل وكانت منازلهن تحفُّ بالبركة .

كأنما الفضةُ البيضاءُ سائلةً من السبائك تَجْرى فى مجاريها
فرونقُ الشمس أحياناً يضاحكها ورَيِّق الغيث أحياناً يباكيها
إذا النجومُ تراءتْ فى جوانبها لَيْلًا حسبتَ سماءً رُكِّبتْ فيها

ويتحدث عن السمك المحصور فى البركة والصحن الممتد فى أسفلها والبهو الممتد فى أعاليها وتمثال الدُّلْفيَين الذى كان مقاماً عليها ، والبساتين والرياض التى تحف بها والأزهار التى تشبه ريش الطواويس فى تلاوينها العجيبة . ولعل فى كل ما قدمنا ما يصور شاعرية البحترى الرائعة وكيف أنه استطاع أن يتلافى بملكاته الخصبة القصور فى ثقافته الحديثة ، فإذا هو يملك من أدوات التعبير ما يستحيل به شعره إلى أنغام وألحان خالصة .

٣

ابن الرومى

هو على[1] بن العباس بن جريج ، ويبدو أن أول من أسلم من آبائه أبوه القريب العباس ، وقد نشأ على الولاء لعبد الله بن عيسى بن جعفر بن المنصور العباسى . وكان يونانى الأصل كما يشهد بذلك اسم جده ، ونراه فى شعره ينسب نفسه إلى اليونان مراراً وقد يسميهم الروم أحياناً من مثل قوله :

ونحن بنو اليونان قومٌ لنا حِجًى ومجدٌ وعيدانٌ صِلابُ المعاجمِ

(١) انظر ترجمته وأشعاره فى مروج الذهب ٤ / ١٨٢ ، ١٩٤ ، وتاريخ بغداد ٢٣/١٢ والموشح للمرزبانى ص ٣٥٧ ، وابن خلكان والنجوم الزاهرة ٣ /٩٦ وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلى ١٨٨/٢ ، ومرآة الجنان لليافعى ٢ /١٩٨ وابن داود فى كتابه الزهرة وديوان المعانى للعسكرى فى مواضع متفرقة (انظر الفهرس) وابن الرومى (حياته من شعره) للعقاد وحصادالهشيم للمازنى، ومن حديث الشعر والنثر لطه حسين ، والفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ٢٠٠ . واختيارات كامل كيلانى من ديوانه الضخم وقد نشرها باسم ديوان ابن الرومى ولايزال الديوان مخطوطاً لم ينشر . وانظر اختيارات روفون جيست منه مع دراسة عن حياة ابن الرومى وشعره ترجمة حسين نصار .

وقوله فى مواليه العباسيين :

مولاهمُ وغَذِىُّ نعمتهم والرُّوم – حين تنصُّنى – أَصْلى

ولم تكن أمه رومية ، بل كانت فارسية ، وعلى نحو افتخاره بأصوله من الروم يفتخر بأصوله وخئولته من الفرس ، حتى لينسب نفسه إلى ملوكهم الساسانيين ، وهى نسبة لم يكن عليها حجاب ، فكان كثير من الشعراء ذوى الأصول الفارسيّة يدّعونها ، ومن فخره بنسبه العريق – فى رأيه – من قِبَل أبيه وأمه قوله :

كيف أُغْضِى على الدنيّة والفُرْ سُ خُئُولى والرومُ هم أَعْمامى

وقد وُلد لأبويه ببغداد سنة ٢٢١ للهجرة نِضْوا ضئيلا نحيلا دميم الوجه تقتحمه العيون ، وظل طوال حياته يَنْعَى على نفسه دقة جسمه وضآلته وقبحه ، وله فى ذلك أشعار كثيرة يصرّح فيها بدمامته وما انضم إلى ذلك من صلعه الذى كان يأخذ معظم رأسه حتى اضطر ألا يخلع العمامة أبداً ، وله مقطوعة يصور فيها صلعه وقبح وجهه ، ونراه يختمها بقوله[1] :

شُغفت بالخرَّد الحسان وما يصلح وجهى إلا لذى ورعِ

كى يعبد الله فى الفلاة ولا يشهد فيها مساجدَ الجمعِ

ويبدو أن أباه كان على شىء من اليسار ، وحقًّا توفى فى مطالع حياته ، ولكن يظهر أنه ترك للأسرة ما يتيح لها على الأقل كفاف العيش . وكان له ابن آخر يسمى محمداً عمل فى الدواوين الحكومية ، كما كانت له فتاة ماتت قبل أمها ، وابن الرومى فى نحو الخمسين من عمره . على كل حال مكّن يسار هذه الأسرة لابن الرومى أن يتجه إلى التعلم فالتحق ببعض الكتاتيب ، وكانت تعنى بتحفيظ القرآن الكريم وتلقين الناشئة النحو وبعض الأشعار والخطب وشيئا من الحساب ، فالتهم ذلك كله الصبى ، ثم مضى يختلف إلى حلقات العلماء فى المساجد تارة يستمع إلى محمد بن حبيب الراوية المعروف أو إلى زميله ثعلب ، وأخرى يستمع إلى بعض المحدّثين أو بعض الفقهاء أو بعض رواة التاريخ والأخبار . وكانت دار الحكمة التى عُنى

---

(١) الديوان (مختارات الكيلانى) ص ١ .

بها الرشيد والمأمون مدّ يده وعينه ، وكانت تكتظ بكتب الفلسفة وعلوم الأوائل فانقض عليها انقضاضاً يقرأ ويستوعب ويستسيغ ويتمثل تمثلا نادراً[١] . وتكثر فى أشعاره الإشارة إلى حكماء اليونان الأقدمين ، كما تكثر أسماء الكواكب والنجوم . ومما لا ريب فيه أنه كان — كما مر بنا فى غير هذا الموضع — يعتنق الاعتزال .

ويذكر معاصروه أنه كان ضيق الصدر سريع التغير والانقلاب ، وسنرى أثر ذلك فى أشعاره إذ كثيراً ما كان يضيق ببعض ممدوحيه فينقلب هاجياً لهم ، ويذكر معاصروه أيضاً أن من كان يلقاه يراه كالمتوجّس المذعور ، وكأنما كان فى أعصابه شيء من الاختلال ، ولعل ذلك هو الذى أعدّه لأن يصبح أكبر شاعر متطيّر فى عصره . وكان إذا روجع فى كثرة تطيُّره احتج بقوله إن النبى صلى الله عليه وسلم كان يحب الفأل ويكره الطيرَة ، أفتراه كان يتفاءل بالشيء ولا يتطيَّر من ضده ، ويقول إن علياً لم يكن يغزو غزاةً والقمر فى برج العقرب ، وكان يزعم أن الطِّيَرَةَ موجودة فى الطباع قائمة فيها[٢] . ويقصُّ معاصروه عن طيرته أخباراً كثيرة ، من ذلك أنه أغلق باب داره ثلاثة أيام لما تصادف من أنه كان يصير إلى الباب والمفتاح معه فيضع عينه على ثقب فى خشب الباب فيرى جاراً له أحدب كان نازلا بإزائه يقعد على الباب . فإذا نظر إليه رجع عن عزمه على الخروج وخلع ثيابه وقال لا يفتح أحد الباب[٣] . وافتقده فى مجلسه بعض الأمراء ، وكان يعلم حاله من الطيرة ، فأرسل له غلاماً يسمى إقبالا ليتفاءل به عند سماع اسمه ، غير أنه لم يكد يعزم على المضى معه حتى بدا له اسمه معكوساً هكذا : لا بقاء ، فقال له امض إلى سيدك وأنبأه بما فى نفسه ! . وأرسل له بعض الأصدقاء غلاماً له يسمى حسناً ، وكان حسن الوجه ، طالباً إليه أن يزوره ، فخرج معه ، وإذا أمام داره دكان خياط درفتاه على هيئة اللام ألف ، هكذا : لا ، وحانت منه التفاتة فرأى تحت الدرفتين نوى تَمْر ، فتطير ، وقال إن هذا يشير إلى :

---

(١) أشار أبو العلاء فى رسالة الغفران إلى تفلسف ابن الرومى قائلا إنه كان يتعاطى الفلسفة . انظر طبعة كيلانى ٢/ ٧٤ .

(٢) زهر الآداب للحصرى ٢/ ١٧٢ .

(٣) زهر الآداب ٢/ ١٧٧ .

أن « لا تمرّ » ورجع إلى داره ولم يذهب مع الغلام[1]. ومن المؤكد أن هذه الأخبار وما يماثلها دخلتها مبالغة كثيرة ، وقد يكون بعضها اختُلق عليه اختلاقاً . ويتوقف القدماء عند قصيدة بائية مدح بها أبا العباس بن ثوابة الكاتب ، وكان قد دعاه لزيارته فى سامرّاء ، فتعلل على سبيل الفكاهة بتصوير مخاطر الرحلة إليها من بغداد براً وبحراً بمثل قوله[2] :

لقيتُ من البَرِّ التباريحَ بعد ما ... لقيت من البحر ابْيضاضَ الذوائبِ

وقد مضى يصف دجلة وبلاء الركوب فيه متفكها ، فأدخلوا ذلك فى باب طيرته ، ولا طيرة ولا ما يشبه الطيرة . وليس معنى ذلك أننا نريد أن ننفى تطيره ، إنما ننفى المبالغة فيه ، أما بعد ذلك فقد كان ابن الرومى يتطير حقًّا ، واشتهر بذلك بين معاصريه ، حتى لنرى الأخفش على بن سليمان النحوى ، وكان قد هجاه ، يقتصّ لنفسه منه ، بأن يقرع عليه الباب فى الصباح ، فإذا قال من القارع ؟ أجابه بمثل مُرَّة بن حنظلة أو حرب بن مقاتل وغير ذلك من الأسماء التى تملؤه طيرة ، فيحبس نفسه فى بيته ، ولا يخرج يومه أجمع[3] .

وقد تفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، وهو لا يزال حَدَثاً فى الكتّاب ، إذ تُرْوَى له أبيات حينئذ فى هجاء غلام عباسى يسمى جعفراً كان زميلا له ، وكأن ذلك كان إرهاصًا بأن الهجاء سيغلب عليه طوال حياته . وقد مضى يتخذ الشعر — كلِداته — حرفة يتكسب بها ، فهو يعرضه على عِلْية أهل بغداد ، وكان طبيعيًّا أن يعرضه على كبار الموظفين ورجال الدولة وفى مقدمتهم أبو العباس محمدبن طاهر حاكم بغداد منذ سنة ٢٣٧ ، وأسرة الطاهريين معروفة كان طاهر بن الحسين قائداً للمأمون وهو الذى قضى على ثورة الأمين ، وكان ابنه عبد الله بن طاهر أميرًا لخراسان وخلَفَه عليها ابنه طاهر . وحاول ابن الرومى الزلفى إلى محمد بالمديح ، ويبدو أنه لم يكن يتسع فى ثوابه ومكافأته ، وكان على علم بالشعر ، فأخذ ينقد بعض أشعار ابن الرومى ، وغاظ الشاعر الشاب نقده . بل لقد أخذ يحرمه نواله ، مما جعل ابن

---

(١) انظر فى هذه الأخبار زهر الآداب وذيله ص ٢٤٢ والعمدة لابن رشيق ١ /٤٠ ومعاهد التنصيص ١ /١٤٣ .

(٢) انظر القصيدة فى الديوان ص ٢ .

(٣) ذيل زهر الآداب ص ٢٤٣ ومعاهد التنصيص ١ /٤٣ .

الرومى يوجه إليه مثل قوله[1] :

مدحت أبا العباس أطلب رِفْده ... فخيَّبَنى من رفده وهَجَا شعرى

ويبدو أنه كان بخيلا ، وأن بخله كان السبب الحقيقى فى انصرافه عن الشاعر ، متعللا بأنه لا يعجب بشعره ، مما جعل ابن الرومى يصبّ عليه سياطًا حامية من الهجاء ، وهو يعمم فلا يقف بهجائه له عنده وحده ، بل يعمّ به أسرة الطاهريين جميعًا من مثل قوله[2] :

إذا حسنتْ أخلاق قوم ٍ فبئسما ... خلقتم به أسلافكم آلَ طاهرِ
جنوا لكمُ أن تُمْدَحوا وجنيتمُ ... لموتاكمُ أن يُشْتَمُوا فى المقابر

وترنو عينه إلى سامرّاء حاضرة الخلافة ومجمع كبراء رجال الدولة ووزرائها وموظفيها العظام ، ويقْدم عليها لعهد المنتصر سنة ٢٤٨ ، ويمدح أحمد بن الخصيب وزيره ، ويعود سريعًا إلى بغداد ويظهر أنه وجد الأبواب مغلقة أمامه . وقد يكون السبب الحقيقى فى ذلك أنه عزف عن سامراء لتشيُّع فيه كان يضمره فى نفسه ، فتركها وعاد إلى مسقط رأسه . ولا يلبث يحيى بن عمر العلوى أن ينهض بثورة عارمة فى الكوفة ضد الدولة ، ويجند جيشًا كثيفًا لحرب العباسيين ، ويلتقى به محمد بن عبد الله بن طاهر لسنة ٢٥٠ ، وتدور عليه الدوائر ، ويقتل فى ساحة المعركة ويغضب له ابن الرومى غضبًا شديداً ، ويرثيه بجيمية[3] طويلة ، يندبه فيها ندبًا حارًّا ، مصوراً حرقة حزنه عليه بمثل قوله :

سلامٌ وريحانٌ ورَوْحٌ ورحمةٌ ... عليك وممدودٌ من الظل سَجْسَجُ
ويا أسفى أن لا يردّ تحيّةً ... سوى أرَج ٍ من طيب نَشْرك يَأْرَجُ
ألا إنما ناح الحمائم بعد ما ... ثويتَ وكانت قبل ذلك تَهزج

ولا يبكيه وحده ، بل يبكى العلويين جميعًا منذ شهيدهم الحسين المقتول فى كربلاء ، ويتفجع على قتله مصوراً جزاءه فى عليِّين ، ويأسى أن يكون للعلويين

(١) الديوان ص ٤٣٨ .
(٢) الديوان ص ٣٩٦ .
(٣) الديوان ص ٢٢٤ .

دائمًا قتيل مضرج بالدماء دون خوف من الله وانتقامه ودون أى رعاية للرسول عليه السلام وآل بيته ، ويتناول العباسيين فى جرأة ، ويتوعدهم أن يُرَدّ الأمر إلى نصابه وأن يرجع الحق إلى أهله ، على يد علوى ثائر ، يحطم العباسيين بجيشه الكثيف حطمًا . ويتوجه إلى محمد بن عبد الله بن طاهر بالخطاب متمنيًا أن تزول دولته ودولة آله فى خراسان ، ويعلن أنهم أعداء الرسول والإسلام جميعًا ، وأن دولتهم لا بد أن تدول وتُمْحَق محقًا فينطفئ غليل الصدور وتبرأ القلوب الكليمة .

وعلى هذا النحو أصبح ابن الرومى يجاهر بتشيعه ، ولعل هذا الجانب فيه هو السبب الحقيقى فى أنه لم يحاول المثول بين يدى الخلفاء مادحًا ، وبالتالى لم يظهر فى مجالسهم بسامراء ، ومع ذلك كان كثير التردد عليها ، ولكنه لم يكن يتجاوز عتَبَة الوزراء ، ويلاحظ أنه لم يحاول أن يمدح قواد الترك ، وكأنهم كانوا أبعد من أن يفهموا الشعر أو يثيبوا عليه ، ويشير الطبرى إلى ذلك بقوله : إنهم لم يكونوا يعرفون حدود الكلام[1] . ونمضى مع ابن الرومى بعد مرثيته الشيعية الآنفة الذكر ، فنجده يقف مع عامة بغداد لسنة ٢٥١ حين لجأ إليها الخليفة المستعين ، ووقعت الحرب بينه — ومعه أهل بغداد — وبين المعتز الذى بايعه الترك والجند فى سامراء وينضم محمد بن عبد الله بن طاهر إلى عامة بغداد ، ويحارب معهم جند المعتز ، وتصفو العلاقة حينئذ بين ابن الرومى وابن طاهر ، وبدا فى نهاية الأمر رجحان كفة جند المعتز ، فجنح ابن طاهر إلى الصلح وخلع المستعين ، وانتهت الأمور بعزله ثم قتله فى سنة ٢٥٢ . ويغضب ابن الرومى ولكن كأنما ذلك كان سحابة عارضة ، فتظل صلته بابن طاهر وثيقة ، على نحو ما يتضح من دالية له يرثيه بها حين توفى سنة ٢٥٣ افتتحها بقوله[2] :

إن المنيَّة لا تُبقى على أحَـدِ ... ولا تَهاب أخا عزٍّ ولا حَشَدِ

وفيها يُشيد بكرمه وعدله فى الرعية واصفًا حزنها لفقده وألمها لموته وما سكبت عليه من عبرات . ويتولى مكانه حكم بغداد أخوه عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ،

(١) الطبرى ٩/ ٢٨٤ . (٢) الديوان ص ٥٠ .

وهو أكثر الطاهريين معرفة وأدبًا ، وله كتب مصنفة مختلفة وأغان مدوّنة . وهو أقرب ممدوحى ابن الرومى إلى نفسه ، فقد أغدق عليه جوائز وأموالا كثيرة ، وكان شاعراً ، يحسن فهم الشعر وتذوقه ، كما كان يحسن الفلسفة وفروعها المختلفة ، ومرّ بنا تعرضه للبحترى ووقوفه ضده مع ابن الرومى ممثلا للذوق الجديد فى الشعر لعصره . ووجد فيه ابن الرومى راعيه الحقيقى ، راعيه المادى الذى يجزل له فى العطاء وراعيه المعنوى الذى ينوّه بأشعاره ويصفق لطرائفه استحسانًا ، وراعيه ضد خصومه أصحاب الذوق الأدبى المحافظ من أمثال البحترى . وهكذا وجد عنده كل ما كان يبتغيه لنفسه ، وكان عبيد الله يذهب إلى سامراء كثيراً للقاء الخليفة ، فكان يصحب معه ابن الرومى . ونراه يمدح أحمد بن إسرائيل وزير المعتز لسنة ٢٥٣ ويتعرّف فى هذه الأثناء بأبى العباس أحمد بن ثوابة كاتب القائد التركى بايكباك لعهد المعتز والمهتدى ، وأصبح فيما بعد رئيس ديوان الرسائل ، وهو كاتب نابه ، ومرّت بنا إشارة إلى مدحة له نظمها حين دعاه لزيارته فى سامراء معتذراً بمخاطر الرحلة برًّا وبحراً ، آملا أن تصله مكافأته فى بغداد ، ولا تمضى صلته بابن ثوابة إلى نهاية الطريق[1] . وهكذا هو دائمًا سرعان ما يتغير على ممدوحيه ، إما لقلة الجائزة وإما لمنعها منه وحرمانه ، وإما لأنه تخيّل أى شىء عارض جعله يظن بصديق الأمس الظنون . ويتعرف عنده على أبى الحسن بن على الباقطانى كاتبه ونراه يعاتبه لتقديمه البحترى عليه[2] . وأهم من ابن ثوابة وكاتبه أنه تعرف منذ سنة ٢٥٥ على أبى الصقر إسماعيل بن بلبل رئيس ديوان الضياع ، إذ نراه يهنئه برياسته لهذا الديوان ، وسنراه فيما بعد يكثر من مديحه حين أصبح وزيراً للمعتمد . ويتردد على واسط ليمدح آل أبى شيخ .

ويُعْزَل عبيد الله بن عبد الله بن طاهر عن حكم بغداد سنة ٢٥٥ ويولَّى مكانه أخوه سليمان ، وكان أميراً لطبرستان فأخرجه منها الحسن بن زيد العلوى بعد حروب ومعارك طاحنة ، وكأنما أُعْطِى بغدادَ مكافأة له على هزيمته ! . ويقف ابن الرومى فى صف عبيد الله ، ويعجب كيف يُعْزَل ويولَّى مكانه هارب ، وكأنما يُجْزَى بذلك خير الجزاء ، أو قل كأنما هى غنيمة نالها ببأسه وشجاعته ، وإنه

---

(١) انظر مدحته له فى الديوان ص ٦١ . (٢) الديوان ص ٢١٧ .

الخذلان من شأنه أن يصرف الناس عن الإقدام فى الحروب ، ويسخر منه فى مقطوعات مختلفة من مثل قوله[١] :

هو الأَسدُ الوَرْدُ فى قَصْرِهِ ولكنه ثَعْلَبُ المعركه

ويحدث أن يُجْمع الأتراك أمرهم ويصمموا على خلع المعتز ، لإقدامه على قتل بعض رؤسائهم ، ويرسلوا إلى سليمان بن عبيد الله بن طاهر حاكم بغداد أن يبعث إليهم بمحمد بن الواثق ليبايعوه بالخلافة ، ويبعث به ، وكأنما يجد ابن الرومى فى فى ذلك نكثاً من سليمان لبيعته للمعتز ، فيُصليه بقطعة من هجائه قائلا[٢] :

جاءَ سليمان بنى طــاهرٍ فاجتاح معتزٌّ بنى المعتصمْ
كأَن بغداد لَدُنْ أبصرتْ طلعتَه نائحةٌ تَلْتدم
مستقبَلٌ منه ومستدبَرٌ وَجْه بخيلٍ وقفا منهزم

وتتطور الظروف ، ويجيب المعتز قواد الأتراك إلى الخلع ، ويُحْبَس ويقتل فى محبسه بعد خلعه بستة أيام ، وحينئذ نرى ابن الرومى يغيّر موقفه من المعتز فيحذّره حين حُبس من أن يعاوده التفكير فى الخلافة ، وينظم فى ذلك قصيدة بائية يقول فيها[٣] :

دَعِ الخلافة يا معتزُّ من كَثَبٍ فليس يكسوك منها اللهُ ما سَلَبا

ويتغيَّر تبعاً لذلك موقف ابن الرومى من سليمان بن عبد الله بن طاهر ، ويهديه بعض مدائحه ، ويمنحه سليمان بعض الجوائز ، ثم يحدث أن جاراً ،اكراً له من تجار بغداد كان يعرف باسم ابن أبى كامل تطمح نفسه إلى شراء داره ، ويحاول أن يجبره على بيعها باغتصابه لبعض جدرانها وإفساد بعض جوانبها ، ويَسْتعدى عليه سليمان[٤] بن عبد الله بكافية طريفة سبق أن أنشدنا منها فى الفصل الماضى تعليله المشهور فيها لمحبة الأوطان ، وهو يدور على كل لسان ، وفيها يقول مصرّاً على أنه لن يبيع داره :

ولى وطَنٌ آليتُ أَن لا أَبيعَهُ وأَنْ لا يُرَى غيرى له الدهرَ مالكا

(١) الديوان ص ٣٤١ .
(٢) الديوان ص ٢٨ .
(٣) الديوان ص ٤٥١ .
(٤) انظر زهر الآداب ٣/٩٩ .

ولوَّح لسليمان بأنه يريد منه عونًا ماليًّا يصلح به داره ، ولكن سليمان لم يبادر إلى عونه ، فسخط عليه سخطًا شديداً وعاد إلى هجائه بالجبن والبخل ، وكان جده طاهر يلقب بذى اليمينين ، فقال فيما قال من هجائه :

له شِمالان حاز إرْثَهما عن ذى اليمينين شدَّ ما اختلفا

ويدخل عصر المعتمد وأخيه الموفق الذى كان يُعَدّ الحاكم الحقيقى حينئذ ، إذ قلَّم أظفار الجند الأتراك وقضى على ثورة الزنج قضاء مبرمًا وهزم يعقوب الصفار هزيمة نكراء ، ودان له الولاة : الطولونيون وغيرهم مذعنين خاضعين ، وكان يتخذ صاعد بن مخلد كاتبًا له ، ورفعه إلى مرتبة الوزارة سنة ٢٦٥ وامتد يُمْنه حينذاك إلى ابنه العلاء فأصبحت بغداد وواليها تابعين له ، وكان عبيد الله قد عاد إلى حكم بغداد سنة ٢٥٩ وظل يحكمها ثلاث سنوات ، ثم وليها محمد بن طاهر بن عبد الله ابن طاهر ثم عاد إليها عبيد الله تابعًا للعلاء بن صاعد سنة ٢٦٦ حتى سنة ٢٧١ . وأقبلت الدنيا على ابن الرومى مع إقبالها على صديقه عبيد الله . فكانت تلك السنوات أهنأ أيامه ، وأكثر فيها من مديح عبيد الله مع كل مناسبة : مع أعياد النيروز والمهرجان ومع عيدى الفطر والأضحى . وفى ديوانه مدائح مختلفة لصاعد وابنه العلاء ، ويغلب أن يكون اتصل بهما مبكراً ، حتى إذا أصبحت بغداد وعبيد الله ابن عبد الله بن طاهر تابعين للعلاء أكثر من الصلة بهما ومن مديحهما ، وله فيهما دالية[1] طويلة . وفيهما يقول :

وكل مديحٍ لم يكن فى ابن صاعدٍ ولا فى أبيه صاعدٍ فَهْوَ حابِطُ

وكانت قد أخذت المنافسة بينه وبين البحترى تمتدّ ، وانقسم الأدباء قسمين : قسمًا هو الأكثر لما كان يؤازره من اللغويين ، وهم أنصار البحترى ، وقسمًا مقابلا هو أنصار ابن الرومى وفى مقدمتهم عبيد الله بن عبد الله بن طاهر كما أسلفنا ، ونرى ابن الرومى يهجو خصمه ببائية طويلة[2] يقول فيها إن الحظ أعمى ولولا ذلك ما نال البحترى ما نال من الشهرة بشعره الغث فى رأيه ، ويزعم أنه ليس له فيه شىء فكله إغارات وسرقات ونهب من دواوين أسلافه ، ويستعدى عليه — كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضوع — العلاء بن صاعد الذى أمَّن الطرق من اللصوص قائلا :

---

(١) الديوان ص ٣٩٠ . (٢) الديوان ص ٣٤ .

أيسرقُ البحتريُّ الناسَ شعرهمُ جهرًا وأنت نكال اللصِّ ذى الرِّيب
يعيبُ شعرى وما زالت بصيرتُه عمياءَ عن كل نور ساطع اللَّهَبِ

وفى البيت الثانى ما يدل على أن البحترى كان بدوره يبادله نقداً لشعره ، وغضب له عبيد الله بن عبد الله بن طاهر كما مرَّ بنا ، وأصلَى البحترى أشعاراً حامية ، نعى فيها عليه أنه غير مثقف بالثقافة الفلسفية الحديثة مثل ابن الرومى الذى لا يُلْحَقُ شأوه ، والذى تعمق الفلسفة والمنطق . وردَّ عليه البحترى كما أسلفنا فى حديثنا عنه . وما زالت المنافسة مشتدة بين الشاعرين حتى جمع بينهما بعض الأدباء مثل سليمان بن الحسن بن مخلد وعبد الله بن الحسين القطربُّلىّ ، فتصافيا وتوادَّا واعترف كل منهما بفضل صاحبه .

ومن الغريب أن ابن الرومى لم يكن يستطيع أن يُبْقِى على علاقة حسنة بوزير أو بابن وزير ، فقد كان يكفى كل منهما ألا يُنفذ إليه الجائزة أو يقال منها ، فإذا هو خصم لَدُودٌ ، وإذا هو يَسُلُّ لسانه ويَبْرى شعره سهامًا مُدْمية . وهو ما حدث بينه وبين صاعد وابنه العلاء ، فقد أخذا يهملان نواله على مدائحهما بعض الإهمال واستشاط غضبًا ، وأخذ ينزل عليهما شُواظ هجائه من مثل قوله[1] :

لِيَهْنِكُمُ أنْ ليس يوجد منكمُ لبوسُ ثياب المجد لكن خَلُوعها

وظل يتشفَّى حتى بعد سقوطهما والإلقاء بهما فى غياهب السجون سنة ٢٧٢ . وكان يتصل ببعض كبار موظفى الدولة ، وكان منهم من يتعصب للبحترى فكانوا يردُّونه ردًّا قبيحًا ، وقد يهملونه ولا ينيلونه أى عطاء على ما يقدِّم إليهم من المدائح ومن خير الأمثلة على ذلك إبراهيم بن المدبر ممدوح البحترى وصديقه الذى ولى ديوان الرسائل حينًا وتولى ولايات مختلفة . وكان قد اشترك — كما مر بنا فى الحديث عن البحترى — فى حرب الزنج ، ومدحه ابن الرومى فلم يلتفت إليه ، وتصادف أن كان يلى خراج الأهواز سنة ٢٥٧ ودخلها بعض جنود صاحب الزنج فثبت لهم فيمن ثبتوا ، وأصابته شَجَّة فى وجهه ، وأسر ، واستطاع التخلص من أسره ، ونرى ابن الرومى يشمت به ، ويسجل عليه جبنه وبخله فى قصائد ومقطوعات مختلفة ، وله يقول[2] :

(١) الديوان ص ٥١ .
(٢) الديوان ص ٦٦ .

قل لى بأيّة حيلة أعملتَها هتفوا بأنك - لاحُفظتَ - جوادُ
لقد استفاض لك الثناءُ بحيلة صعب الأُمور بمثلها ينقادُ

ومرّ بنا أنه تعرف على أبى الصقر إسماعيل بن بلبل منذ عصر المعتز حين أصبح رئيس ديوان الضياع فى سامرّاء ، وظل منذ هذا الحين موصولا به ، وكان الموفق قرّبه منه واتخذه كاتبًا له ، فكان يغدو عليه ويروح سواء حين يكون فى سامرّاء ، أو مع الموفق فى واسط فى أثناء معاركه مع الزنج . ورفعه الموفق إلى مرتبة الوزارة فترة لسنة ٢٦٥ حتى إذا نكّل بصاعد سنة ٢٧٢ استوزره من بعده له ولأخيه المعتمد ، وفرح ابن الرومى بما ناله ، فدبّج فيه قصيدة طويلة[1] ، استهلها بالغزل نافذاً إلى طريقة جديدة ، إذ عرض من خلال وصفه لصاحبته ما فى الحدائق من فواكه شهية ، حتى سماها عبيد الله بن عبد الله بن طاهر دار البطيخ أى حانوت الفواكه ، ومضى بعد ذلك فى مديح أبى الصقر مدحا رائعًا ، غير أنه لما استمع إلى قوله :

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم كلا لعمرى ولكن منه شيبانُ

ظن أنه يعرّض به ، لأنه كان يدعى نسبه من شيبان ولم يكن شيبانيًّا حقيقة فقال : هجانى ، وراجعه بعض الحاضرين قائلا له : إن هذا من أحسن المدح ، ألا تسمع ما بعده :

وكم أبٍ قد علا بابنٍ ذُرَى شرفٍ كما علتْ برسول الله عدنانُ

فقال : أنا بشيبان ، وليست شيبان بى ، وملأه الغيظ والغضب على ابن الرومى ، فقيل له : ألم تسمعه يقول :

ولم أُقَصِّر بشَيْبانَ التى بلغتْ بها المبالغَ أعراقٌ وأَغصانُ
لله شيبانُ قومٌ لا يشوبهمُ رَوعٌ إذا الرَّوع شابتْ منه وِلْدان

فاستمر فى غيّه وسوء فهمه ، وقال : والله لا أثيبه على هذا الشعر[2] . وواضح أن أبا الصقر لم يفهم معانى القصيدة ولا مراد ابن الرومى فى البيت الأول وغيره من

(١) الديوان ص ٢٠ .
(٢) زهر الآداب ١/ ٢٤٤ وما بعدها .

الأبيات ، فكان طبيعيًّا أن يحرمه الجائزة ، وكأنه أيضًا لم يفهم قوله فى القصيدة مادحًا له :

فَرْدٌ جميعٌ يراه كلُّ ذى بصرٍ كأنه الناسُ طُرًّا وهْو إنسانُ

ولم يكن هذا وبالا على ابن الرومى بقدر ما كان حرباً على ابن بلبل فقد أخذ يهجوه ابن الرومى هجاء مرًّا ساخراً من ادعائه أنه شيبانى حقيقة ، مثبتًا عليه أنه دعىٌّ فى شيبان لصيقٌ بها ، يقول ساخراً هازئًا به[1] :

تَشَيْبَن حين همَّ بأن يشيبا لقد غلط الفتى غلطاً عجيباً ؟

وقد مضى يذكر أن شيبان ستشيب من هذا الخطب الجسيم ، إذ يدعى النسب فيها أعجمى نبطى ، وينعى كيمياء الحظوظ التى أتاحت له مجد الوزارة . ويظل يهجوه حتى يزج به المعتضد فى السجن لعام ٢٧٩ وما يلبث أن يموت فى سجنه ، وابن الرومى فى أثناء هذه النكبة التى حلّت به يهجوه أهاجى كثيرة من مثل قوله[2] :

فلئن نُكبتَ لطالما نُكبتْ بك همةٌ لجأتْ إلى سَنَدِكْ
يا نعمةً ولّتْ غضارتُها ما كان أقبحَ حُسْنها بيدكْ

وكان عبيد الله بن عبد الله بن طاهر قد عُزل عن حكمه لبغداد سنة ٢٦٢ ثم عاد إلى حكمها — كما مرَّ بنا — فى سنة ٢٦٦ فكان يكتفى بالمعيشة فى ظلاله . وكانت العلاقة بينهما — كما أسلفنا مراراً — وثيقة ، ووظّف له أخوه محمد فى بعض فترات حكمه لبغداد ، ومات وهو فى خدمته وماتت قبله بمدة أمه ، وله فيهما مرثيتان .

وكان طبيعيًّا أن يكثر مديحه لبعض ذوى البيوتات فى بغداد وفيما حولها من المدن والضواحى ، وممن نراهم ماثلين فى ديوانه بنو فياض وهم يرجعون إلى أصول فارسية ، وكانت لهم إقطاعات وضياع واسعة فى دير العاقول بالقرب من بغداد ، وتَمثُلُ فى ديوانه أسرة بنى نوبخت الفارسية الأصل ، وهى تشتهر من قديم بثقافة

---

(١) الديوان ص ٤٨ .

(٢) زهر الآداب ١/٢٤٤ وما بعدها .

أبنائها وكثرة ما ترجموا من الفارسية إلى العربية ، وأهمُّ شخص يُكثِر من مدحه بينهم أبو سهل إسماعيل بن على ، وكان من رءوس الشيعة ، ويقال إنه مؤسس الفرقة الإثنى عشرية ، وفى صلته به ما يؤكد تشيعه وأن من الممكن أن يكون على مثاله إماميًّا يعتنق مذهب الاثنى عشرية . ومن الأسر التى أكثر من مدحها أسرة بنى حماد قضاة بغداد ، خاصة منهم القاضى إسماعيل بن حماد المتوفى سنة ٢٨٢ ونراه يمدحه فى قصيدة بائية محاولا أن يبرئ نفسه من تهمته بالزندقة التى نُقلت إليه ، ويستشهد على صحة براءته بابنين عدلين للقاضى يعرفان حقيقة أمره ، ويستحثه على التنكيل بوشاة السوء الذين دبَّروا اتهامه بهذه التهمة النكراء ، ويقول إنهم هم الذين دبَّروا الثورة عليك وجعلوا العامة ترمى دارك بالحصى والحجارة ، يقول[١] :

حملوا حملةً على الدين تَحْكى — حملة الروم رافعين الصَّليبـــا

وأرادوا بك العظيمة لكنْ — أوسع الله سعيهم تخييبا

وكأن الغوغاء لما تَغاووا — فرموا داركم قضوا تحصيبا[٢]

زعموا أن ذاك غزوٌ وحجٌّ — تبَّب اللهُ أمرهم تَتْبيبَـــا

ولم ترْوِ كتب التاريخ هذه الفتنة أو الثورة ضد القاضى ، ولعل فى ذلك ما يدل على أن الشعر فى هذا العصر يقدم إلى المؤرخين وثائق تاريخية قد لا يجدونها فى كتب التاريخ المعروفة ، على نحو ما مرَّ بنا عند البحترى وتسجيله لمعركة ابن دينار البحرية ضد الأسطول البيزنطى وحرقه ، فإن كتب التاريخ لم تشر إلى ذلك بحرف . وتتردد فى الديوان أسماء أصدقاء كثيرين فى مقدمتهم أبو عثمان الناجم راويته ، وقد حضر موته ، وابن المسيب الكاتب وأحمد بن عبيد الله وأحمد بن بشر المَرْثدى وكان كاتبًا فى ديوان الموفق وابن عمار[٣] ، وكان شاعراً ومن نقدة الشعر فى عصره . وأكثر قصائده التى وجه بها إلى المرثدى يطلب إليه فيها بعض السمك ، ويقال إنه كان قد وعده أن يبعث إليه كل يوم بوظيفة منه لا يقطعها ، فبعث إليه يوم سبت

(١) الديوان ص ٣٠٩ .

(٢) التحصيب هنا : رمى الجمار بمنى .

(٣) انظر توصيته لأبى سهل بن نوبخت به فى الديوان ص ١٢٣ .

بهدية منه ، ولم يرسل السبت التالى . فكتب إليه قصيدة يقول فيها[١] :

ما لحيتاننا جَفَتْنا وأنّى أخلفَ الزائرون منتظريهم
قد سَبَتْنَا وما أتَتْنا وكانوا يوم لا يسبتون لا تأتيهم

ومن الشخصيات التى ظل يمدحها طويلا على بن يحيى المنجم ، وهو من كبار المثقفين فى عصره ، وسبق أن تحدثنا عن مكتبته العظيمة ، وكان شاعراً ونديماً رفيعاً للخلفاء من المتوكل إلى المعتمد، ولا يُعْرف بالضبط بدء اتصال ابن الرومى به وله فيه قصائد ومقطوعات كثيرة ، وله يعاتبه[٢] :

لِيَهْنَأْ رجالٌ لا تزال تجودهم سحائبُ من كلتا يديك مواطرُ
عُنيت بهم حتى كأنك والدٌ لهم وهم - دونى - بنوك الأصاغر

وممن تدور أسماؤهم فى ديوانه جَحْظة ، وكان شاعراً ويحسن الضرب على الطبل ، وكان ينادم المعتمد ، وهو نديم من نوع آخر غير نوع على بن يحيى المنجم ، نديم مضحك ، يتّخذ للهزؤ به والفكاهة . وكان يصطدم بكثير من الشعراء فى عصره فيكويهم بأهاجيه ، وفى مقدمتهم مثقال وهو محمد بن يعقوب الواسطى ، وإبراهيم البيهقى شاعر عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، وأبو حفص الوراق ، وابن أبى طاهر وابن الخبازة وخالد القحطبى ، فقد كان يُشبُّ مع كل شاعر منهم معركة حامية الوطيس ، وكان دائماً هو المنتصر لخصب ملكاته وخياله . وتعرض بالهجاء للمبرد لأنه كان يقف فى صف البحترى ضده ، وتبعه تلميذه الأخفش فى هذا التعصب ولم يكتف بإعلان رأيه فى شعره ونقده فقد كان يأتيه من قبل تطيره كما أسلفنا ، وممن كان يعيب شعره نفطويه النحوى ، ولذلك لم يسلم من أهاجيه .

ويُظلُّه عصر المعتضد منذ سنة ٢٧٩ ، وكانت قد عادت الخلافة إلى بغداد حاضرتها السابقة منذ سنة ٢٧٦ ، ويحس كأن الحياة أقبلت عليه وعلى مسقط رأسه كليهما . ويكثر من ذكر المعتضد فى قصائد ومقطوعات مختلفة ، ويبدو أنه لم ينشد أمامه واحدة منها ، فقد كان تشيعه لا يزال يبعده عن القصر ، وفى رأينا أنه

---

(١) ذيل زهر الآداب ص ٢٣٩ .
(٢) الديوان ص ٣٤٢ .

هو السبب الأهم فى أن الوزراء كانوا يقبلون عليه ثم يزورُّون عنه اضطراراً لما ذاع من تشيعه. ونرى ابن الرومى يتعرض فى أشعاره له لبسالته فى حروب الزنج، ولتأخيره النيروز مفتتح الخراج إلى الحادى عشر من حزيران وسماه النيروز المعتضدى قاصداً بذلك إلى الرفق بالرعية — كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع — وكان عملا جليلا . ويذكر بسالته فى صيد الأسد ، ويهنئه بالأعياد وبزواجه من قَطْر الندى الأميرة المصرية بنت خمارويه لسنة ٢٨١ وله يقول فى هذه المناسبة[1] :

يا سيد العُرْب الذى زُفَّتْ له ... باليُمْن والبركات سيدة العجَمْ
اسْعَدْ بها كسُعودها بك إنهـا ... ظفرتْ بما فوق المطالب والهمم
ظفرتْ بِمِلْئَ ناظريها بهجةً ... وضميرها نبلا وكفَّيها كرم
شمس الضحى زُفَّتْ إلى بدر الدُّجَى ... فتكشَّفت بهما عن الدنيا الظُّلم

وكانت الوزارة قد تحولت منذ سنة ٢٧٨ إلى آل وهب ، ويبدو أن صلة الشاعر بهم ترجع إلى أمد أبعد من ذلك ، وبمجرد وصولهم إلى الوزارة نراه يقدم مدائحه لعبيد الله بن سليمان بن وهب ، وكان كاتبًا مجيداً ، ومدبراً لشئون الدولة حصيفًا ، وكان له أخ يسمى وهبًا مدحه ابن الرومى فى غير قصيدة كما مدح ابنيه الحسن والقاسم ، وهو يهلل طويلا لمجيء دولتهم ، وتارة يمدحهم مجتمعين باسم آل وهب ، وتارة يفرد لكل منهم القصائد الطويلة ، ومن قوله فى مديح عبيد الله[2] :

إذا أبو قاسمٍ جادتْ يداهُ لنـــا ... لم يُحْمد الأَجودان : البحر والمطَرُ
وإن مضى رأيه أو حَدَّ عزمتهُ ... تأخر الماضيان : السيفُ والقدر
وإن أضاءتْ لنا أضواءُ غُــرَّتِهِ ... تضاءل النيِّران : الشمسُ والقمر
ينال بالظن ما يَعْيَى العِيانُ بهِ ... والشاهدان عليه : العَيْن والأَثَرُ

وكان القاسم الابن الأصغر لعبيد الله إلا أنه كان مقدماً عنده لذكائه ، ولذلك

(١) مروج الذهب للمسعودى ٤/١٨٢ .
(٢) ابن الرومى للعقاد (نشر المكتبة التجارية) ص ٢٦٥ .

أخذ يولّيه بعض المناصب وهو صغير ، وكان إذا غاب أنابه عنه . وكان يعطف على ابن الرومى قبل تولى أبيه الوزارة ، ويقال إنه كان يجرى عليه راتباً ، حتى إذا دانت الدنيا لأبيه أخذ يُجزْل له فى العطاء ، مما جعل ابن الرومى يُصفيه مديحاً رائعاً . ولا نكاد نقبل على سنة ٢٨٢ حتى تُعاود ابن الرومى طبيعته ، وكأنما ضاق القاسم وأبوه بكثرة شكواه وإلحاحه المتكرر على العطاء ، ويبدو أن بعض الوشاة الحساد أخذوا يدسون عليه عندهما ، فحاولا إبعاده ، وشعَر بضيق شديد فأخذ يعاتبهما ، وازداد الأمر — فيما يبدو — سوءاً إذ منعا عنه الجائزة أحياناً ، فأخذ يستعطفهما ، غير أنهما لم يصيخا له ، على الرغم من استصراخهما لبؤسه ، وعبثاً يناديهم ألا يضنوا عليه بالقوت وأن يعرفوا له حق الأديب[1] حينئذ يفزع إلى قوسه القديم ، قوس الهجاء المرير ، ويريش لهما سهاماً مصمية من مثل قوله[2] :

تسميتمُ فينا ملوكاً وأنتمُ ... عبيدٌ لما تَحْوى بطونُ المزاودِ
لكم نعمةٌ أَضحتْ بضيق صدوركم ... مبرَّأَةً من كلِّ مُثْنٍ وحـامد
فإن هى زالت عنكمُ فزوالها ... يجدِّد إنعاماً على كل ماجد

ويفسد ما بينه وبين آل وهب فساداً لا يمكن رأبه .

وتتردد فى الديوان بأخرة من حياة ابن الرومى شخصيات من آل الفرات الذين سيسطع نجمهم فى عهد المقتدر ، كما تتردَّد أسماء شخصيات كثيرة مثل أحمد بن محمد الطائى والى الكوفة لعهد المعتمد ، ويبدو أنه ظل متصلا به حتى أواخر حياته . ويلقانا محمد بن داود بن الجراح الكاتب وأحمد بن محمد الواثقى صاحب شرطة بغداد وعيسى بن موسى المتوكل الذى نعى عليه بخله بمقطوعات ساخرة ، وكاتب مسيحى للقاسم يسمى عَمْراً ، وله فيه أهاج تقطر سمًّا زعافاً ، وابن فراس وكان فيما يبدو لغوياً .

---

(١) الديوان ص ٢١٢ .

(٢) الديوان ص ٣٩٦ — ٣٩٧ وانظر مقطوعة فى كتاب ابن الرومى لروفون جيست ص ١٧٨ يدعى فيها أن آل وهب أحيوا دين الصليب وعنوا بتشييد الكنائس وهدم المساجد .

ويغَصّ الديوان بأسماء كثير من الجوارى القيان المطربات مثل بستان وجلنار وبدعة وشاجى ودُريرة وغنَّاء ووحيد ومظلومة وظلوم ، وأكثرهن كن لوزراء أو لأمراء مثل عبيد الله بن عبد الله بن طاهر والقاسم بن عبيد الله ، وكان بجوارهن قينات وجوار لا يعجب بأصواتهن ولا بسماعهن ، مثل شُنْطف ، وفيها يقول[1] :

وإن سكوتها عنـــدى لبُشْرى   وإن غناءها عنـــدى لمَنْعَى

فقرِّطْهـــا بعقرب شَـــهْر زُورٍ   إذا غنَّت وطوِّقهـــا بأفْعى

ومن أهم جوانب الضعف فيه أنه كان نهماً فى الأكل نهماً شديداً، ولذلك يكثر فى أشعارِه وصف الأطعمة من كل لون حلو وحامض، كما يكثر وصف الأشربة ، ومن عجب أن القدماء وصلوا بين هذا النهم وموته لسنة ٢٨٣ أو ٢٨٤ فقالوا إن القاسم بن عبيد الله دسَّ إليه السم فى خشكنانجة ، فلما ازْدَرَدَها أحسَّ بالسم فى بطنه فقام مسرعًا ؛ فقال له القاسم إلى أين ؟ فأجابه إلى حيث أرسلتنى ، فقال له : سَلِّم على والدى عبيد الله ، فأجابه : ما طريقى على النار . والصحيح أنه توفى عن نحو ستين عامًا نتيجة لعلله وأمراضه ، وهى على كل حال سن عالية .

ولابن الرومى ديوان ضخم لم ينشر حتى الآن ، إنما نشر منه الشيخ محمد شريف سليم جزءين ، ونشر منه كامل كيلانى مختارات باسم ديوان ابن الرومى ، وهو الذى نرجع إليه غالبًا . ومن يتصفح ما نُشر منه يلاحظ توًّا أنه يختلف عن دواوين الشعر العربى التى عاصرته وسبقته ، ففيه موضوعات متنوعة عن الحياة وشرورها وعن الناس وحرفهم وملابسهم وعن الموت وعن الأطعمة والأشربة ومُتَع الحياة، وعن طبائع الناس وعن النساء وأخلاقهن وعن الطَّرد والقَنص وعن المسرات والآلام ، بحيث يصبح من الصعب تشكيل موضوعاته بأعداد رقمية . ومع ذلك سنعرض شعره على الموضوعات الأساسية للشعر العربى ، مع ملاحظة ما يمتاز به من صفات خاصة به وبشخصيته الشعرية الخصبة . ومرَّ بنا فى الفصل الماضى تصويرٌ من بعض الوجوه لذخائره العقلية ، وكيف أدَّاه اعتزاله مبكراً إلى أن

---

(١) الديوان ص ١٠٥ .

يتمثل جميع الثقافات فى عصره فلسفية وغير فلسفية . وإذا هو يستقصى المعانى استقصاء نادراً حتى لايكاد يترك فى معنى شعبة دون عرضها والإلمام بها ، وإذا هو يوغل فى الأفكار ويستنبط منها مستوراتها الخفية ، وإذا هو يسلط عليها أشعة المنطق بكل أقيستها وعللها ، فتبدو فى أضواء واضحة وضوحاً مطلقاً ، وليس ذلك فحسب فإنه استطاع أن يغير فى سمات كل موضوع قديم بفضل ما ألقاه عليه من الأضواء والظلال العقلية . وهو بحق يمثل النزعة التجديدية فى العصر ، على حين كان البحترى يمثل النزعة التقليدية على نحو ما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع .

وأول ما نقف عنده المديح ، وبعض قصائده فيه يطول طولا مسرفاً حتى لتبلغ القصيدة نحو ثلثمائة بيت ، وعادة يقدم لمدائحه بما تعارف عليه الشعراء من قبله من مقدمات ، ولكنه ينوّع فيها ، فقد يختار النسيب مثلا ، ولكنه يتحوَّل به كما فى قصيدته النونية[١] التى مدح بها أبا الصقر إسماعيل بن بلبل إلى تجسيد فواكه البستان فى المرأة ، حتى سَمَّى بعض معاصريه — كما أسلفنا — القصيدة باسم دار البطيخ وكانوا يطلقونها على دكان الفاكهة . وقد يختار وصف[٢] الطبيعة والربيع ويُبْدع فى وصفه ، إذ كان مفتوناً بها فتنة العاشقين الوالهين ، مما يميزه بحق عن شعراء العربية . وقد يلمج فى القصيدة وصف[٣] مجلس سماع ؛ فيصور آلات الطرب ومن يَحْمِلْنَها من القيان فى صور بديعة على نحو ما يلقانا فى نونيته التى مدح بها عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، والتى يفتتحها بقوله[٣] :

وقيانٍ كأنها أمهاتٌ عاطفاتٌ على بَنيها حَوانِ

وقد أنشدنا منها قطعة فى الفصل الماضى . ويضيف إلى وصف مثل هذا المجلس ذكر الخَمر . وقد يختار بكاء الشباب الذى طالما تغنَّى به الشاعر العربى ، ولكنه يعرضه عرضاً جديداً على نحو ما نرى فى مقدمة قصيدته البائية[٤] التى مدح بها على بن يحيى المنجم ، فقد تحدث فيها عن الشيب والخضاب ودعاه حداداً كئيباً

(١) الديوان ص ٢٠ .
(٢) الديوان ص ٢٩٩ ، وقد دون كامل كيلانى المقدمة وحدها دون المديح .
(٣) الديوان ص ٨٤ .
(٤) الديوان ص ١٧٧ .

على الشباب من شأنه أن يبكى صاحبه بدموع غزار ، ثم أخذ يصور سخرية الفتيات بخضابه باكياً الشباب بكاء لاذعاً . ويحذف المقدمة أحياناً طلباً للاختصار والوقوف عند عشرات الأبيات لا عند المئات — وتبلغ بعض المقدمات عنده أحياناً نحو مائة بيت — ويتفنن بعد ذلك فى المديح ، ومن الطريف أنه كان يلاحظ أن الشعراء فيه يبالغون ويفرطون فى مبالغاتهم فينسبون إلى الممدوحين ما لا يفعلون ، مسبة لا تمحى وعار ما بعده عار ، حتى ليصدق عليهم قوله تعالى : (والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون) ويستوحى ابن الرومى الآيات قائلا[1] :

يقولون مالا يفعلون مسبةٌ ... من الله مسبوبٌ بها الشعراءُ
وما ذاك فيهم وحده بل زيادة ... يقولون مالا يفعل الأُمراءُ

فهم يقولون ما لا يفعلون ، وليس ذلك فحسب ، بل يقولون أيضاً ما لا يفعل الأمراء ، كذباً وبهتاناً . وكأن ابن الرومى أحسَّ فى قوة ما كان يحمله المديح لعصره من كذب صراح . وإذا كنا لاحظنا أنه حاول التنويع فى مقدمات المديح فإننا نلاحظ أنه حاول التنويع فى المديح نفسه ، فإنه لم يقصره على المعانى المطروقة ، ويوضح ذلك مديحه لعلى بن يحيى المنجم فى بائيته التى أشرنا إليها ، آنفاً ، فإنه مضى فيها يمدحه على هذه الشاكلة :

لَوْذَعِيّ له فـؤادٌ ذكىٌّ ... ماله فى ذكائه من ضَريبِ
ألمعىّ يرى بأول ظَنٍّ ... آخرَ الأمر من وراء المغيبِ
لا يروِّى ولا يقلِّب كفًّا ... وأكفُّ الرجال فى تقليب
حازم الرأى ليس عن طول تجريـ ... ـبٍ لبيب وليس عن تلبيب
يتغابى لهم وليس لموقٍ ... بل للبٌّ يفوق لُبَّ اللبيب
ليِّنٌ عِطفه فإن رِيم منه ... مَكْسر العود كان جِدَّ صليب

وواضح أن هذا مديح من نوع غير مألوف ، مديح بالطباع والشمائل والملكات ؛

---

(١) الديوان ص ٣٧٦ .

فهو يمدحه بالذكاء وحسن البديهة والنظر الثاقب ، دون إبطاء فى الرأى أو ندم يلحقه ، وهو حازم لبيب بالفطرة ، يتغابى قصداً وسيد القوم المتغابى ، ويبدو ليّن الملمس وهو صلب العود صلابة شديدة . ومصدر هذا الجانب فى مديحه بدون ريب قدرته الخارقة على تحليل المعانى واستقصائها ، وكانت له قدرة خارقة أيضًا على النفوذ إلى كثير من الأخيلة المبتكرة من مثل قوله فى حُسَّاد صاعد مصوراً مجده الوطيد[1] :

وضدٌّ لكم لا زال يسْفُلُ جَدُّهُ ... ولا برحتْ أنفاسُهُ تتصعَّد
ولو قاس باستحقاقكم ما منحتمُ ... لأطفأ نارًا فى الحشا تتوقَّد
وآنق من عِقْد العَقيلةِ جيدُها ... وأحسن من سِرْبالها المتجرِّد

وكانت لديه قدرة بارعة على عرض أخيلته فى مثل هذه الأقيسة ، فصاعد يستحق مجداً عظيما فوق ما مُنح من مجد الوزارة الذى أُسبغ عليه بفضل حزمه وحسن تدبيره ، وما مثل الوزارة بالقياس إليه إلا مثل العقد فى الجيد الجميل جمالا يفوقه ، بل مثل الثوب يُضفَى على الجسد الفاتن . ويجمع بين جمال الخلقة والأخلاق فى بعض ممدوحيه وينفذ إلى هذه الصورة البديعة[2] :

كلُّ الخصال التى فيكم محاسنكم ... تشابهتْ منكم الأخلاق والخِلَقُ
كأنكم شجر الأترجّ طاب معاً ... حمْلاً ونَوْرًا وطاب العود والورق

فهم مثل شجر الأترج يطيب عوده وورقه وزهره وثمره ، طيب على طيب ، وكثيراً ما تلقانا مثل هذه الأخيلة الدقيقة فى مديحه كقوله فى بعض ممدوحيه :

أوفى بأعلى رتبةٍ وتواضعتْ ... آلاؤه فأحطْن بالأعناقِ
كالشمس فى كبد السماء محلُّها ... وشعاعُها فى سائر الآفاقِ

والهجاء فنُّه الذى لا يبارَى فيه ، وهو يتخذ عنده لونين : لونًا قاتمًا كله إقذاع وسَبٌّ وهتك للأعراض وقد يُطيل فيه إلى مئات من الأبيات ، ولونًا زاهيًا ينحو

(١) زهر الآداب ١ / ١٨٣ وانظر المختار من شعر بشار للتجيبى (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٧٠ .
(٢) زهر الآداب ٤/ ١٤٦ .

فيه منحى السخرية والإضحاك ، وهو اللون الأهم فى هجائه ، لأن اللون السابق كثيراً ما نجده عند سابقيه ومعاصريه ، أما الهجاء الساخر فقد نَمَّاه إلى أبعد حد تُسْعفه فى ذلك قدرة بارعة على استغلال العيوب الجسدية فى مهجوِّيه ، حتى ليصبح شبيهًا أدق الشبه بأصحاب الصور الكاريكاتورية ، فهم يستغلون العيوب الخلقية ويبرزونها بالطول أو بالعرض أو بالتضخيم أو بالتصغير إبرازاً مضحكًا فى كل صوره ، وكذلك كان ابن الرومى هَجَّاءً ساخراً يعرف كيف يصور العيوب الجسدية والمعنوية تصويراً مضحكًا ، ومرَّ بنا فى الفصل الماضى تصويره لشُحِّ عيسى بن موسى بن المتوكل وأنه لو استطاع لتنفس من منخر واحد أو فتحة واحدة من فتحتى أنفه بخلا وحرصًا ، وكذلك تصويره لبعض مهجويه بحيوانات مجترة ، ولم يعجبه بعض المغنين فصوَّره فى تحرك فكَّيه بالغناء بالبغل حين يحرك فكيه لأكل طعامه . ومرَّ بنا أنه كانت تؤذيه إيذاء شديداً رؤية جار له أحْدب ، وانتقم لنفسه منه بقوله فيه(1) :

قَصُرتْ أخادعُه وغاب قَذَالُهُ   فكأنَّه متربِّصٌ أنْ يُصْفعا
وكأنَّما صُفِعتْ قفــاه مرَّةً   وأحسَّ ثانيةً لها فتجمَّعا

فجعله الدهر مصفوعًا يحاول أن يتقى صَفْعه بتجميع قفاه إلى ظهره ، وكانت تؤذيه اللحى حين تخرج عن مقدارها الطبيعى فيهجوها ويهجو أصحابها هجاء ساخراً مضحكًا ، وله فيها مقطوعات هزلية قصيرة وطويلة ، ومن أطرفها وأجمعها للهزؤ والسخرية قوله فى لحية بعض مهجوِّيه(2) :

إن تَطُلْ لحيةٌ عليك وتَعْرُضْ   فالمخالى معروفةٌ للحمير
علَّق اللهُ فى عِذاريْك مِخْــلا   ةً ولكنها بغير شعير
أَرْع منها المُوَسَى فإنك منها   يشهد الله فى أثامٍ كبير
ما تَلَقَّاك كَوْسجٌ قَطُّ إلا   جوَّر الله أيما تجوير
لحيةٌ أُهملتْ فطالتْ وفاضتْ   فإليها تشير كفُّ المشير

(1) الديوان ص١٤٦ .   (2) ديوان المعانى للعسكرى ١ / ٢١٠ .

ما رأتها عينُ امرئٍ ما رأتها قَطُّ إلا أهلَّ بالتكبيرِ
روعةٌ تستخفُّه لم يُرَعْهَا من رأى وَجْهَ مُنْكرٍ ونكير
فاتَّق الله ذا الجلال وغيِّر مُنْكَرًا فيك ممكن التغيير
أو فقصِّرْ منها فحسبك منها نِصْفُ شِبْرٍ علامة التذكير
لو رأى مثلها النبيّ لأجرى فى لِحىَ الناس سُنَّةَ التقصير
واستحبَّ الإحفاء فيهنّ والحلـ قَ مكان الإعفــاء والتوفير

وقد استهل ابن الرومى المقطوعة بتشبيه تلك اللحية بمخلاة حمار ولكن بدون شعير ، ونصح صاحبها أن يجعل الموسى يرعاها ويأخذها من جميع أطرافها ، ويجعل محافظته عليها إثمًا كبيراً فإن الكوسج خفيف اللحية إذا رآها نسب إلى الله الجور والظلم فى قسمة الأرزاق ، وقد طالت حتى غدت فرجة للرائحين والغادين يشيرون إليها بأكفهم وأصابعهم متعجبين ، بل إنهم ليصيحون الله أكبر ، للروعة الشديدة التى تأخذهم ، وإنها لأكثر هولا من وجه ملكى القبر : منكر ونكير ، ويدعوه أن يتقى الله ويغير هذا المنكر الذى يحمله على وجهه فى ذهابه وإيابه ، أو ليُقَصِّرْهَا ، فنصفُ شبر منها كاف على التذكير والرجولة ، ويقول إن الرسول عليه السلام لو رآها لأبدل السنّة فلم يجعلها تطويل اللحى بل جعلها تقصيرَها ، بل لعله كان يجعل السنّة قصّها ومحوها محواً . وهو يشير فى البيت الأخير إلى الحديث النبوى : « احفوا الشوارب واعفُوا اللِّحَى » . وكان كاتبٌ مسيحى للقاسم بن عبيد الله يسمى عمْراً كثيراً ما كان يحجبه ، فأصلاه ناراً حامية من أهاجيه[1]. وكان لا يزل يلمح العيوب الجسدية فى مهجويه ، عابثًا بهم عبثًا كله سخرية وفكاهة وتندير .

وكان ابن الرومى يجيد فن الرثاء ، بحكم قدرته على التعبير عن الأحاسيس والمشاعر ، وأيضًا فإنه كان يستشعر فى أعماقه حزنًا ممضًا ، لأنه لا يأخذ حقوقه فى عصره بالقياس إلى غيره من الشعراء الذين يتفوق عليهم تفوقًا واضحًا ، فكان شعوره

---

(١) الديوان ص ٢٤٠ .

بالبؤس والحرمان يضاعف حزنه ، وكأنما الحياة كلها أمامه كانت أحزانًا ومآتم ، وتصادف أن مات له ثلاثة أبناء، فبكاهم بكاء حارًّا، ومرّ بنا فى الفصل الماضى بكاؤه على ابنه الأوسط الذى مات منزوفًا وهو لا يزال فى المهد طفلا صبيًّا ، وقد نصب بقصيدته له مأتمًا كبيراً صوّر فيه موته ونزيفه تصويراً محزنًا ، ثم بكاه بكاء مُرًّا . ومن قوله فى رثاء ابنه الثالث [١] :

أَبُنَىَّ إنك والعزاء معاً بالأمس لُفَّ عليكما كَفَنُ
ما فى النهار- وقد فقدتك - من أنس ولا فى الليل لى سكن
ماأَصبحتْ دنيایَ لى وطناً بل حيث دارك عندىَ الوطن

وله مرثية فى أمه وأخرى فى أخيه محمد ، وبجانب ذلك نجد له عزاء من حين إلى حين ، وأسلفنا فى الفصل الماضى عزاءه فى ابنة على بن يحيى المنجم ، وله عزاء مشابه للمسيّبي الكاتب صديقه يعزيه عن ابنته بأن أحداً لن يخلد فى الدنيا، وأن تلك إرادة الله ولا راد لمشيئته ، يقول [٢] :

أُصبتَ وما للعبد عن حكم ربه محيصٌ وأَمرُ الله أعلى وأَقْهَرُ
تعزَّيتَ عمن أَثمرتْك حياتُهُ ووَشْكُ التعزى عن ثمارك أَجدرُ
فلا تَهلكنْ حزناً على ابنة جنَّةٍ غدتْ وهْى عند الله تحيا وتُحْبَرُ

وكان ما ينى ينفذ إلى أخيلة ومعان طريفة حتى فى الموت ،ولعله أول من حبَّب الموت إلى غيره ، وكأنما كان يراه خلاصًا من حياته ومن الناس والأصدقاء الذين لا ينصفونه ، مما جعله يقول [٣] :

قد قلتُ إذ مدحوا الحياة فأَكثروا للموت أَلف فضيلةٍ لا تُعْرَفُ
فيــهِ أَمانُ لقائه بلقائه وفــراقُ كل معاشرٍ لا يُنْصف

وتعبيره عن أن الموت أمان للإنسان من خوفه المروِّع بلقائه من أدق ما يمكن ، وهو لا يبارَى فى النفوذ إلى كثير من المعانى والأحاسيس الدقيقة . وقد عرضنا فى

(١) الديوان ص ٣١ .
(٢) الديوان ص ١٠٤ .
(٣) ديوان المعانى ١٧٢/٣ .

الفصل الماضى مرثيته الملتهبة للبصرة حين حرقها الزنج ودمروها .

ويكثر العتاب فى ديوان ابن الرومى ، وقصيدته فى عتاب أبى القاسم التوَّزى الشطرنجى مشهورة ، ومرَّ بنا فى الفصل السالف قطعة بديعة منها فى وصف لعب أبى القاسم بالشطرنج ، وكان أمهر معاصريه فى لعبه ، غير أنا نقف الآن عند عتابه ، وقد عرضه عرضًا طويلا طريفًا ، إذ أخذ يذكره بما كان بينهما من صفاء ، ثم نشأت بعد ذلك هنوات لا يرضاها الصديق ، يقول :

كشفت منك حاجتى هنوات　　غُطِّيَتْ برهةً بحسن اللقاء

تركتَنى ولم أكن سَيِّئَ الظَّـ　　ـنِّ أُسِيءُ الظنون بالأصدقاء

قلت لما بدتْ لعينىَّ شُنْعاً　　رُبَّ شوهاءَ فى حَشَا حسناء

ومضى فى حوار طويل بينه وبين تلك الهنوات الصغيرة ، يقول لها ليتَكِ لم أهتك سِتْرَكُنَّ وهن يقلن له بل لقد صنعت حسنًا ، إذ لو لم تفعل ذلك لظللت فى ظُلَمِ الشك من صاحبك ضالا حائراً ، وإن من الخير أن ننكشف لك حتى تعرف أمكنة الداء منه وتطبَّ لها طِبًّا يداويها دواء يشفى الصديق ، ويعتب على أبى القاسم أنه لم يُنِلْهُ نوالا ولا رَدًّا كريمًا ، ويظل يستعطفه طويلا . وقد أسلفنا فى الفصل الماضى قطعة بديعة له فى عتاب آل وهب .

ولابن الرومى غزل كثير يأتى به مستقلا تارة ، وتارة فى مقدمات قصائده ، وقلما يصوغه بصيغة المذكر مما يدل على أنه لم يكن صاحب غلمان مثل أبى نواس أو حتى مثل البحترى ، ومرت فى الفصل الماضى قطع مختلفة له فى وصف العناق وجمال العيون ومن بديع ماله فى وصف الشعر المسترسل حتى مواطئ القدم قوله(١) :

وفاحمٍ واردٍ يقبِّل مَمْـ　　ـشاكِ إذا اختال مسبلا غُدَرَهْ(٢)

أقبل كالليل من مفارقه　　منحدرًا لا يذمّ مُنْحَدَرَه

حتى تناهى إلى مواطئه　　يلثم من كل موطئٍ عَفَرَه(٣)

كأنه عاشقٌ دنا شغفاً　　حتى قضى من حبيبهِ وَطَرَه

(١) زهر الآداب ٣ /١٦ .

(٢) الغدر : ذوائب الشعر وقطعه .

(٣) العفر : ظاهر التراب .

وهى صورة فريدة أسعفته بها قدرته على الاستقصاء فى وصف المحسوسات، وكثيراً ما يفجأ قارئه بمثل هذه الصور النفيسة فى غزله ، وكأنما تحول عقله إلى ما يشبه كنزاً سائلا بالدرر ، فهو لا ينى يُطْرِف قارئه بمعنى مُسْتحدَث أو خيال مبتكر من مثل قوله(١) :

لا شىء إلا وفيه أحسنه فالعين منه إليه تنتقلُ
فوائد العين منه طارفةٌ كأنما أُخْرياتهـا الأُوَلُ

فكل شىء وكل عضو فى صاحبته فتنة من الفتن حسناً وجمالا ، فالعين ما تزال تنتقل ، وكلما تركت عضواً عادت إليه مفتونة ، حتى لكأنما انمحت فكرة الأُوَلِ وأعقابها ، فكل شىء من الأُوَلِ ، وكل شىء لا يكاد النظر يفرغ منه حتى يعود إلى التملى به . وله قافية نظمها فى جارية سوداء لممدوح له من البيت العباسى هو عبد الملك بن صالح ، وفيها يقول معللا علة حسنة لسوادها :

أكسبها الحب أنها صُبغت صبغة حَبِّ القلوب والحدقِ

ويبدو أن بعض الجوارى عَبَثْنَ به وغَدَرْنه فى حبه ومَكَرْنَ مكراً خبيثاً ، ولذلك نراه فى نونيته المسماة بدار البطيخ يُصْدِر أحكاماً قاسية على النساء عامة ، من مثل قوله(٢) :

ومن عجائب ما يُمْنَى الرجـال به مستضعفاتٌ لهم منهن أقرانُ
مناضلاتٌ بنَبْلٍ لا تقوم له كتائبُ التُّرْك يُزْجيهنَّ خاقانُ
ولا يدُمْنَ على عَهْدٍ لمعتقدٍ أنَّى وهن - كما شُبِّهْنَ - بستانُ
يميل طوراً بحمل ثم يُعْدَمه ويكتسى ثم يُلْفَى و هو عريانُ
يغدرن والغدر مقبوحٌ يزيِّنه للغاويات وللغـاوين شيطانُ

وقد يكون دافع ابن الرومى إلى مثل هذه الأحكام القاسية على المرأة فى عصره شيوع دور القيان ببغداد وأن كثيرات من الجوارى لم تكن سيرتهن حسنة .

(١) ديوان المعانى للعسكرى ٢٣٢/١ .
(٢) الديوان ص ٢٠ وما بعدها .

وكانت الطبيعة تستأثر بكل مشاعره وعواطفه ، مما جعله يَكْلَفُ بها كَلَفاً شديداً ، بل لقد تَحَوَّل عاشقاً لها عشقاً لا نألفه عند شعراء العربية من قبله ، فهو يعيش فيها مع كل حركة وكل همسة وكل وسوسة معيشة قوية حارة ، معيشة محب واله ، يرى الطبيعة من حوله ، وقد تحولت وجوهاً فاتنة ناطقة ، وكل شيء فيها يُغْرِيه بالنظر واللمس والشم ، حتى لنحس كأنما يفنى فى الطبيعة فناء أصحاب المنزع الرومانسي الغربي ، وكأنما الحجب تُرْفَعُ بينه وبينها فى كل يوم فيزداد بها ولهاً ويزداد سروراً وغبطة ، وقد عرضنا فى الفصل الماضي منظر الغروب وتجسيده لوداع الشمس للطبيعة وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة . ونكتفي هنا بأن نسوق مثلا لتصويره الربيع ، يقول(١) :

ورياضٍ تخايَلُ الأرض فيها ... خُيَلاءَ الفتاة فى الأَبْرادِ

ذات وَشْيٍ تناسجته سوارٍ ... لبقاتٌ بحَوْكه وغوادى(٢)

فهى تثنى على السماء ثناء ... طيِّبَ النَّشْر شائعاً فى البلادِ

من نسيمٍ كأَن مسراه فى الأَر ... واح مسرى الأَرواح فى الأَجسادِ

منظرٌ معجبٌ تحيَّةُ أَنْفٍ ... ريحُها ريح طيِّب الأَولادِ

تتداعى بها حمائمُ شَتَّى ... كالبواكى وكالقيان الشوادى

تتغنَّى القِرانُ منهن فى الأَيْـ ... ـكِ وتبكى الفِرادُ شَجْوَ الفراد

فالأرض تتراءى له كأنها فتاة حسناء تختال فى برود الربيع البهيجة ، ووشيها الذى نسجته السحب نسجاً بديعاً ، وهى تُثْنى على السماء ثناء عاطراً ، والنسيم يسرى فى الأرواح سريان الأرواح فى الأجساد ، وما أجمله من منظر وما أروعه من عطر للطبيعة يملأ النفس حناناً وعطفاً كرائحة الأولاد النجباء ، والحمائم تتناغى بين باكيات وشاديات ، أما الشاديات فيتغنين لرفقائهن ، وأما الباكيات فمنفردات ليس لهن قرين ، وكأنهن يبكين الانفراد . والقطعة تعجُّ بالحياة ، بل قل إنها تعج بالحب حب شاعر أُغْرِم بالطبيعة وملأت قلبه برًّا وحناناً ومودة . ولفت هذا الجانب

(١) الديوان ص ٧٥ ... السوارى والغوادى : السحب .

(٢) تناسجته : اشتركت فى نسجه .

عند ابن الرومى العقاد ، فقال إنه أثر من آثار وراثته اليونانية ، ولكن اليونان لمْ يُعرف عندهم شعر الطبيعة ، هم ملأوها بالآلهة ،ولكنهم لم يفصحوا عن مشاعرهم إزاءها على نحو ما نجد عند ابن الرومى ، وأوربا نفسها فى عصرها الكلاسيكى فى أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر ، حين كانت تحاكى الآثار اليونانية ، لم يُعْرَفْ عندها هذا النوع من الشعر ، إنما عُرف فى العصر الرومانسى فى أثناء القرن التاسع عشر ، حين انفكَّت من محاكاة الآثار اليونانية[1] . على كل حال كان ابن الرومى يُشْغَفُ بالطبيعة ويَكْلَفُ بها كَلَفًا لم يعرف لشاعر قديم .

وجعلته قدرته على نقل المشاهد الحسية يَبْرع فى وصف مجالس الأنس وما يجرى فيها من خمر وسماع . وهو لا يتورط فى المجون والإثم تورط أبى نواس وأمثاله ، وليس معنى ذلك أنه لم يكن يحتسى الخمر ، فقد كان شربها شائعًا فى عصره ، ومرّت بنا فى غير هذا الموضع الأبيات المشهورة التى يقول فيها إن أبا حنيفة أحلَّ النبيذ . ودعا الخمر فى بعض شعره ريق الدنيا ، يقول :

فتًى هجر الدنيا وحرَّم رِيقَها وهل رِيقُها إلا الرَّحيقُ المبرَّدُ

وقد أكثر من وصف مجالس السماع ، وجعله ذلك يكثر من وصف المغنين والمغنيات ، وكانت أذنه مرهفة وشعوره حادًّا ، فإذا لم يقع المغنى أو المغنية من أذنه موقعًا حسنًا صبَّ عليهما شواظًا من هجائه ، على نحو ما مرَّ بنا فى هجائه لشنطف ، ولعل أروع تصوير لمغنية محسنة تصويره لغناء وَحيد ، وكانت فتنة صوتًا وحسنًا ، وفيها يقول[2] :

تتغنَّى كأنها لا تُغَنِّى من سكون الأوصال وهى تجيد
لا تراها هناك تجحظ عَيْنٌ لك منها ولا يَدُرُّ وَرِيدُ[3]
من هدوٍّ وليس فيه انقطاع وسُجُوٌّ وما به تبليد[4]
مَدَّ فى شأْو صوتها نَفَسٌ كا فٍ كأنفاس عاشقيها مديد

---

(١) انظر فى مناقشة هذه المسألة كتابنا الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (طبع دار المعارف) ص ٢٠٨ وما بعدها .
(٢) الديوان ص ٩٨
(٣) يدر : ينتفخ ويتوتر . الوريد : عرق فى العنق .
(٤) الهدو : انخفاض الصوت . السجو : مده . التبليد : التقطع .

واشتهر بإكثاره من وصف ألوان الطعام والفاكهة ، وقد ذكرنا له فى الفصل الماضى قطعاً مختلفة فى وصف دجاج مشوىّ ومرقبات وقطائف وعنب رازقى ، وديوانه زاخر بأمثالها ، وهى أثر من آثار نهمه فى الطعام ، وأيضاً من آثار براعته فى ١
وصف كل ما يشاهده ويقع عليه حسه ، وله قطعة معروفة فى وصف الرّقاق وأخرى فى وصف قالى الزلابية يقول فيها [1] :

كأنما زَيْتُه المقلىُّ حين بدا ... كالكيمياء التى قالوا ولم تصبِ
يُلْقِى العجين لُجَيْنًا من أنامله ... فيستحيل شبابيكاً من الذهب [2]

وهذا الجانب عنده جعله قريباً من ذوق العامة ، وأدنى إلى أن يصبح شاعراً شعبيًّا ، ومن تتمة هذه الشعبية فيه أن نراه يصف الحمّالين والشوّائين ، كما يصف الثياب البالية ، وكان قد تعلق بوصفها الشاعر المعروف باسم الحمدونى ، فنزع منزعه فى هذا الجانب بمثل قوله [3] :

معمَّرٌ قال نوحٌ حين أبصره ... إنا محيُّوك فاسْلَمْ أيُّها الطَّللُ
أميل فى الطُّرْقِ خوفاً من مزاحمة ... تهدُّه فكأنّى شاربٌ ثَمِلْ

وأكبر الظن أن هذا الجانب الشعبى هو الذى جعله يهتم بالزهاد والوعاظ ، وليس فى حياته ما يصله بالوعظ والزهد ، وقد ذكرنا له موعظة فى الفصل الماضى ، وكأنما كان يتغنى مشاعر الشعب فى وعظه وتصويره للزهاد . وحقًّا أن ديوانه يجرى فيه تشاؤم واسع ، ولكن التشاؤم شىء والزهد شىء آخر ، فالزهد انصراف عن الدنيا ومتاعها الزائل ، والتشاؤم — وخاصة عند ابن الرومى — نقمة على فقدان المتاع بالحياة ؛ وهى نقمة صُبَّت على شاعر نابه امتاز بقلب ذكى وحس مرهف وشعور دقيق ، فمضى فى كثير من جوانب شعره يصور الحياة سوداء حالكة ، ويتخذها هى والناس وشرورهم وطباعهم موضوعاً لدرسه وشعره . وعلى نحو ما كانت لديه قدرة على وصف كل ما يقع عليه حسه بجميع جزئياته كانت لديه قدرة على النظرات الكلية الجامعة . فإذا

---

(١) الديوان ص ٣٧١ .
(٢) اللجين : الفضة .
(٣) انظر مقطوعات أخرى فى الديوان ص ٣١٨ .

هو يضع لبعض الأخلاق الذميمة صوراً مجسمة كصورة المتكبر[١] والأكول[٢] والثقيل[٣]، وبالمثل الأخلاق المحمودة كالصبر والتجلد ، وقد مثلنا فى الفصل الماضى لهما بقطعة من شعره .

وكان ابن الرومى لا يعود إلى أشعاره بتنقيح ولا تهذيب، وكان إذا نظم أكثر وامتد نفسه امتداداً بعيداً . فكان طبيعيًّا أن يكون فى أشعاره ما يهبط درجات عما حوله ، ففيها المصقول وغير المصقول، وفيها ما يرتفع إلى الأفق الأعلى وما يدنو إلى الآفاق الدنيا ، بحكم أنه لا يعاود عمله، ويؤكد ذلك ما يروى عن تلميذه أبى عثمان الناجم من أنه رآه ذات مرة قد غضب، فصنع قصيدة طويلة لساعته كلها هجاء، فسأله أين مسوَّدتها ؟ . فأجابه : هى هذه، فقال له الناجم : ما فيها حرف مصلح ، فقال: قد استوت بديهتى وفكرتى فما أعمل شيئًا فأكاد أصلحه. وليس معنى ذلك أنه يوجد فى أشعاره غَثٌّ كثير ، فقد تلافى ذلك عنده ما امتاز به من أفكار وأخيلة نادرة ، وما كان يحرص عليه من بث الفنون الجديدة فى أشعاره وخاصة الجناس ، وكانت له أذن موسيقية رائعة . وكل ذلك حمى الصياغة عنده من الهبوط عن المستوى الرفيع إلا ما كان يريد أن يقترب فيه من الذوق الشعبى ، لشعبية كانت متأصلة فى ذات نفسه. والحق أنه كان شاعراً بارعًا ، بل لا شك فى أنه أبرع شعراء العصر لما يحفل به ديوانه من الموضوعات والمعانى والأخيلة المبتكرة مما يملأ النفس إعجابًا متصلا به وبأشعاره .

٤

ابن المعتز[٤]

وُلد عبد الله لأبيه المعتز بسامرَّاء قبل مقتل جده المتوكل فى سنة ٢٤٧ للهجرة بأربعين يومًا ، فلم يكد يستقبل الحياة حتى صُرِع جده هذا المصرع الخطير ،

(١) الديوان ص ٩٥ .

(٢) الديوان ص ١٧٥ .

(٣) الديوان ص ٧٣ .

(٤) انظر فى ابن المعتز وحياته وشعره كتاب الأوراق : أشعار أولاد الخلفاء للصولى ص ١٠٧ وما بعدها وكتاب الأغانى (طبعة دار الكتب المصرية) ١٠ /٢٧٤ والفهرست ص ١٧٤ وتاريخ بغداد ١٠/٩٥ ومروج الذهب ٤ /٢٠٣ والطبرى ١٠ /١٤٠ ونزهة الألباء لابن الأنبارى وابن خلكان =

صرّعه جنده وقواده الأتراك الذين فَسَحَ لهم فى الحكم والسلطان والتسلط ، فإذا هم يسفكون دمه غير مراعين عَهْداً ولا ذِمّة . وسرعان ما يتوفّى ابنه المنتصر الذى خلفه ، ويصبح الخلفاء لعبة فى أيديهم ، فيولّون المستعين ويخلعونه ويقتلونه ، ويولّون المعتز (٢٥٢ — ٢٥٥ ﻫ) وكان لا يزال فى نحو العشرين من عمره ، وكان جميل الوجه ، وكأنما ورث جمال أمه الرومية التى سماها المتوكل قبيحة لجمال صورتها ، من أسماء الأضداد ، وكان مرهف الحس رقيق الذوق دقيق المشاعر ، مما أنطقه بالشعر المصفّى . وكان يعكف على اللهو والصيد . فمجالسه لا تزال غاصة بشارية وعَرِيب وزُنام وابن بنان وغير هؤلاء من المغنيات والمغنين ، ومواكبه لا تزال ذاهبة آيبة من الصيد . وفى مواضع مختلفة من كتاب الديارات للشابشتى نرى قصفه وشرابه وسماعه للغناء فى قصره وفى بعض الأديرة [١] ، ونطلع على جانب من ترفه فى قصريه « الزوّ » و « الكامل » بسامراء ، ويمرّ بنا وصف البحترى للقصر الأخير وبستانه الممتد أمامه ، ولعله نفس البستان الذى كان يزخر بالحيوانات ، والذى كان يتسلّى بالفرجة فيه هو وأصدقاؤه على السبع والفيل كيف يتواثبان [٢] .

وكانت أم عبد الله بدورها من الجوارى ، ولعلها كانت أيضاً رومية الأصل مثل جدته ، فقد كان جميل المحيّا ، وورث عن أبيه كل طباعه ، فهو مثله جميل السجايا رقيق المشاعر . وكان ذكى القلب صافى العقل ، فأضاف إلى ترفه الذى نشأ منغمساً فيه إقبالا متصلا على الدرس منذ نعومة أظفاره ، حتى ليلفت ذلك البحترى ، وهو لا يزال فى التاسعة من عمره ، فيمدحه قائلا [٣] :

أَبا العباسِ بَرَّزْتَ على قَـوْمـ ... ـك آداباً وأَخلاقاً وتبريزا

فأَما حَلْبَةُ الشعر فتستولى ... على السبق بها فَرْضاً وتمييزا

— وفوات الوفيات ١ / ٢٤١ ومرآة الجنان لليافعى ٢ /٢٢٥ وشذرات الذهب ٢ /٢٢١ والنجوم الزاهرة ٣/ ١٦٤ وفى مواضع مختلفة وعبد الله بن المعتز العباسى لمحمد عبد العزيز الكفراوى (طبع مكتبة نهضة مصر) بالقاهرة وديوانه طبعة بيروت ، وهى التى نرجع إليها وطبعة القاهرة ، وطبع بعض المستشرقين منه جزءين فى إستانبول . وتوجد منه مخطوطة برواية الصولى بدار الكتب المصرية .

(١) الديارات ص ١١٠ ، ١٦٤ .

(٢) الديارات ص ١١١ .

(٣) ديوان البحترى ٢/ ١١١٩ .

وقد يكون فى ذلك مبالغة على عادة الشعراء فى المديح ، لكن على كل حال فى البيتين وقصيدتهما ما يدل بوضوح على أن ابن المعتز كان يكبّ على القراءة وأن موهبة الشعر بدأت تستيقظ فى نفسه فى هذه السنّ الصغيرة . ويبدو أن أباه كان معجبًا به إعجاباً شديداً مما جعله يضرب باسمه الدنانير . ويسجل ذلك البحترى فى مدحة [١] طويلة له ، يصور فيها جمال طلعته وشمائله الكريمة ، ثم يقول :

وأبهجنا ضَرْبُ الدنانير باسمِه وتقليده من أمرنا ما تقلَّدا

وفى الشطر الثانى ما يصور إرهاص البحترى للمعتز بأن يولىّ عبد الله العهد ، ومضى يصرّح بذلك ويطالب به ويهتف فى وضوح . ونراه فى قصيدة[٢] ثالثة يتشفع لعبد الله بأبيه كى يهب له من إقطاع أقطعه له ضيعة تجاور ضياعه بالشام ، وفى ذلك يقول فى قصيدة رابعة[٣] :

ومُلِّيتَ عبدَ الله إنَّ سَمَاحَهُ هو القَطْرُ فى إسْباله وأخو القَطْرِ

شفعتَ إليه بالإمام وإنما تَشَفَّعْتُ بالشمس اقتضاءً إلى البَدْرِ

ولم يلبث الدهر أن قلب ظهر المجن للمعتز وابنه ، فإن جند الأتراك طالبوه فى السنة الرابعة من خلافته برواتبهم وكانت خزائن القصر خالية من المال ، فاعتذر ، ولم يقبلوا عذره ، وظلوا يفاوضونه حتى قبلوا أن يدفع إليهم خمسين ألفًا ، ولكنه لم يجدها ، فصمموا على خلعه ، وهجموا عليه وضربوه بالدبابيس ، ثم جعلوه فى بيت أوصدوا بابه حتى مات بعد أن أشهدوا عليه أنه خلع نفسه . وصادروا أموال أمه قبيحة كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع ، ونفوها إلى مكة ونفوا معها عبد الله ابنه وابنى عميه قُصَىّ بن المؤيد وعبد العزيز بن المعتمد . وهما محنتان قاسيتان أثَّرتَا فى نفس الصبى آثاراً بعيدة : محنته التى امتُحن بها فى أبيه الذى منحه الحياة والذى كان يغمره ببِرّه وحنانه وعطفه ، ومحنته بالنفى وعذابه ونكاله وعنائه ، وما مرَّ به فى أثناء ذلك من أمل ويأس ورجاء وقنوط ، مع ما صَلِىَ به من حزن عميق على أبيه ، مما ظل له أثر بعيد فى نفسه ، وهو أثر يتراءى بوضوح فى أشعاره ، إذ يُطالعنا

---

(١) الديوان ٢ / ٦٧٠ .

(٢) الديوان ، ٢ /١٣٠٩ .

(٣) الديوان ٢ /١٠٠٧ .

فيها دائماً الإحساس بآلام الحياة وما تكتظ به من كوارث وفواجع ، كبَّرها فى نفسه وخياله ما كان ينعم به فى صباه من ترف وحياة لاهية لم تلبث أن حَفَّتْ بها الدماء المسفوكة ، دماء أبيه ، كما حفَّ بها النفى والتشريد ، فإذا النعيم يصبح جحيماً ، وينقضى عهده إلى غير مآب ، وفى ذلك يقول ابن المعتز باكياً صباه بدموع غزار [١] :

لَهْفِى على دهر الصِّبا القصيرِ وغُصْنه ذى الورَقِ النَّضيرِ
وسُكْرِهِ وذَنْبه المغفورِ ومرَح القلوب فى الصُّدُورِ
وطول حَبْل الأَمَلِ المجرورِ فى ظِلِّ عَيْشٍ غافلٍ غريرِ

ودار عام وتولَّى المعتمد الخلافة لسنة ٢٥٦ فأرسل فى طلبه وطلب جدته وابنى عمه وردَّهم إلى سامرَّاء ، وكانت شئون القصر أخذت تستقيم ، فلم يعد للترك تسلطهم ولا استطالتهم على الخلفاء ، إذ جعل المعتمد الأمر والنهى والسلطان لأخيه الموفق طلحة ، وكان من أحزم بنى العباس وأشجعهم وأنبغهم فى إدارة السياسة والحرب وهو الذى قضى على ثورة الزنج وثورة الصفّاريين كما أسلفنا فى غير هذا الموضع. فاطمأن الغلام المروَّع وأخذت جدته قبيحة تُعْنَى بتربيته، وأحضرت له المعلمين فى الفقه والحديث والأدب واللغة ، من مثل محمد بن عمران والحسن العنزى الإخباريين ، ومحمد بن هبيرة صاحب الفراء، ويبدو أنه كان يأتى المبرد وثعلباً فى أثناء زياراتهما لسامراء قبل انتقاله ونزواله ببغداد لسنة ٢٧٦ . وفى المختار من شعر بشار أن ثعلباً كان أحد مؤدبيه فقطعه وقتاً، فكتب إليه من قصيدة طريفة [٢] :

يا فاتحاً لكل علم مُغْلَقِ وصَيْرَفِيًّا عالمــاً بالمنطقِ
إنا على البعاد والتفرُّقِ لنلتقى بالذكر إن لم نَلْتَقِ

وكان يقصد فصحاء الأعراب ويأخذ عنهم [٣] . وأهم معلميه أحمد بن سعيد الدمشقى المحدِّث الإخبارى ، ويُرْوَى أن البلاذرى المؤرخ سعى عند جدته كى يصبح من معلميه ومؤدبيه ، فغضب ابن سعيد ولزم بيته ، وكانت سن ابن المعتز

---

(١) ديوان المعانى ١٥٣/٢ .
(٢) المختار من شعر بشار (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٥٤ .
(٣) الفهرست ص ١٧٤ .

حينئذ ثلاثة عشر عامًا ، وعلم بغضب أستاذه فكتب إليه أبياتًا يترضاه بها ، وهى تصور ثقافته تصويراً دقيقًا ، إذ يخاطبه بقوله[١] :

أَصبحتَ يابن سعيدٍ حُزْتَ مكرمةً ... عنها يقصِّر مَنْ يَحْفَى وَيَنْتَعِلُ
سَرْ بَلْتَنِى حكمةً قد هذَّبتْ شِيمَى ... وأَجَّجَتْ غَرْبَ ذهْنِى فهْوَ مُشْتَعِلُ
أَكون إن شئتُ قُسًّا فى خطابتهِ ... أو حارثاً وهْوَ يوم الفَخْر مُرْتَجِلُ
وإن أَشَأْ فكزَيْدٍ فى فَرائضِهِ ... أَو مثل نعمانَ ما ضاقتْ بِىَ الحِيَلُ
أَو الخليل عروضيًّا أخا فِطَنٍ ... أَو الكسائِىِّ نحويًّا له عِلَلُ
عُقْباك شكرٌ طويلٌ لا نفادَ لهُ ... تَبْقَى مَعَالِمُهُ ما أَطَّتِ الإِبلُ[٢]

وهو يقول إن ابن سعيد خرّجه خطيبًا فصيحًا لا يقل عن قُسّ فى خطابته التى اشتهر بها بين الجاهليين، كما لا يقل عن الشاعر الجاهلى الحارث بن حلزة فى شعره وبداهته ، ولا عن زيد بن ثابت فى عمله بالميراث ، ولا عن أبى حنيفة فى علمه بالفقه، ولا عن الخليل بن أحمد فى علمه بالعروض، ولا عن الكسائى فى النحو واستنباط علله . وهذه هى مواد ثقافته فى سن الثالثة عشرة، ولم يذكر بينها فلسفة ولا منطقًا ، غير أنه ينبغى أن نحذر التعميم فى الحكم على ثقافته مما قاله عن نفسه فى تلك السن المبكرة، ومن الطبيعى — وكان نهما بالقراءة — أن يكون قد اطلع على شىء من الفلسفة وقرأ بعض كتب الفلك والتنجيم ، ففى أشعاره إشارات لهما[٣]، وإن كنا نظن ظنًا أنه لم يلمّ بذلك فى مطالع حياته . ولعل من الطريف أن نجده يقول[٤] :

ولا تفزعنْ من كل شىءٍ مفزِّعٍ ... فما كل تربيع النجوم بضائرِ

وكأنه كان يتشكك فى حسابات المنجمين وما يزعمونه من طوالع السعد والنحس. ومضى يمنح أوقاته للشعر والأدب ،وكأنما قرر بينه وبين نفسه الانصراف عن السياسة وشئون السلطان ، فقد بلا منهما فى جده المتوكل وأبيه المعتز ما جعله يقرر فى حزم

(١) معجم الأدباء ١ / ١٣٣ .
(٢) أطت : أنّت تعباً أو حنينا .
(٣) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (الطبعة السابعة) ص ٢٦٣ .
(٤) الديوان ص ٢٤٩ .

الفراغَ للحياة الأدبية ، وأنفق فى ذلك أعواماً كثيرة . وكان يقرأ كتابات سابقيه ويفكر فيما يقرأ منها ناقداً محللا ، وما نصل إلى سنة ٢٧٤ للهجرة حتى نجده يصنّف كتابه « البديع » محاولا أن يضع من جهة لأول مرة فنونه وضعاً علميا دقيقاً ، وأن يثبت من جهة ثانية أن هذه الفنون قديمة فى الأدب العربى وكل ما للمحدثين العباسيين منها إنما هو الإكثار ، أما بعد ذلك فهى منثورة فى القرآن الكريم والحديث النبوى وأشعار الجاهليين والإسلاميين . وألف كتباً أدبية أخرى كثيرة مثل كتاب الزهر والرياض ومكاتبات الإخوان بالشعر وكتاب الجوارح والصيد ، وكتاب فصول التماثيل فى الشراب وآدابه ، وكتاب السرقات ، وكتابه « طبقات الشعراء المحدثين » ذائع مشهور وهو يصور ثقافة واسعة بالشعر العباسى الحديث كما يصور نظرات نقدية طريفة وذوقاً مهذباً صافياً . وكان يُعْنَى منذ فواتح حياته بالغناء والموسيقى ، وفى ذلك يقول أبو الفرج الأصبهانى : «كان عبد الله حسن العلم بصناعة الموسيقى والكلام على النغم وعللها ، وله فى ذلك وفى غيره من الآداب كتب مشهورة ، ومراسلات جرتْ بينه وبين عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وبين بنى حمدون وغيرهم تدل على فضله وغزارة علمه وأدبه[١] » . ويسوق أبو الفرج رسالة لعبيد الله إلى ابن المعتز ، ومنها نعرف أنه كان يميل فى الغناء إلى التجديد ولا ينكر أن يغير الإنسان بعض نغم الغناء القديم ، ثم يورد أبو الفرج من صنعته بعض أصوات أو أدوار تدل فى وضوح على أنه استطاع أن يتخطى دَوْرَ المتاع بالغناء لعصره إلى دور الإنتاج فيه إنتاجاً ممتازاً جعل العصور تحمله من بعده ، وكثيراً ما كان يزوره بعض المغنين والمغنيات ويغنونه فيما يصنع من الشعر . ومن الجوارى اللائى كن يكثرن من الاختلاف إليه والغناء فى شعره زرياب وبنت الكُرَّاعة وخزامى ، على نحو ما يحدثنا عنهن أبو الفرج فى ترجمته .

وكان ابن المعتز يأخذ بنصيب غير قليل من متاع الحياة [٢] ، وكأنه ورث عن أبيه كل مزاجه ، أو قل هى حياة القصور المترفة التى تدفع من يعيشها إلى اللهو ، مما جعله يفتح بيته للندماء فى بعض الأيام وبعض الليالى يسمعون ويشربون ، وكان أكثرهم من الشعراء أمثال النميرى ، وبينهما مراسلات شعرية طريفة ، وعلى بن مهدى

(١) الأغانى ١٠ / ٢٧٦ .

(٢) الديارات ص ٧٢ .

الأصبهانى الكسروى وبينهما مكاتبات بالأشعار ومجاوبات[١] وجَحْظَة وهو الذى أعطاه لقبه الذى اشتهر به . وكان شغوفاً مثل أبيه بالصيد ، وسنعرض لبعض أشعاره فيه . وينبغى أن نلاحظ أن مجالسه لم تكن لهواً خالصاً ، فقد كان يختلف إليه نابهون كثيرون من علماء اللغة والأدب وفى مقدمتهم المبرد وثعلب أستاذاه وصديقاه ، ويقول الصولى فى ترجمته له بكتابه الأوراق : « كانت داره مَغاثاً لأهل الأدب وكان يجالسه منهم جماعة » .

ومرَّ بنا أن أباه وهبه إقطاعاً كبيراً بالشام ، ولا بد أن يكون قد وهبه إقطاعاً أو إقطاعات أخرى فى العراق ، ومن أجل ذلك كنا نخالف من زعموا أنه كان يعيش فى إقلال ، ثم كان عنده ما ورثه عن جدته قبيحة وإن كان القائد التركى صالح ابن وصيف صادر أموالها ، فقد كانت لها بقية عاشت منها حتى توفيت سنة ٢٦٤ . ولا بد أنه كان ينال راتباً كثيراً أو قليلا من الدولة لعهد عمه المعتمد الذى امتد حتى سنة ٢٧٩ ، ويروى الصولى قصيدتين له مدحه بهما ، وفى إحداهما يقول[٢] :

أهلا وسهلا بالإمام ومرحباً ... لو أستطيع إلى اللقاء سبيلا

ولعل ابن المعتز نظم هذه القصيدة بعد أن ردَّ الموفق أخاه المعتمد عن الموصل إلى بغداد لسنة ٢٦٩ وكان قد ظن بأخيه الموفق الظنون وعزم على اللحاق بمصر . وقد يكون فى ذلك ما يدل على أن الناس ومعهم ابن المعتز كانوا يخشون حينئذ لقاء الخليفة خوفاً من غضب أخيه وبطشه . وفى أخبار ابن المعتز أنه كان يروى أشعار عمه المعتمد ، مما يدل على أنه كان كثير الاختلاف إلى مجالسه ، وكان عاكفاً على الملاذ والملاهى ، فكان طبيعياً أن يتصل الود بين العم وابن أخيه وخاصة إذا كان مثل ابن المعتز شاعراً وإخبارياً ظريفاً . ونراه يسوق إلى عمه الموفق الذى أبلى بلاء عظيماً فى محاربة الزنج والقضاء على صاحبهم قضاء مبرماً غير مدحة ، ويبدو أنه

---

(١) معجم الشعراء ص ١٤٩ .

(٢) الديوان ص ٣٧٦ وفى أشعار أولاد الخلفاء ص ١٣١ أنها فى المعتضد .

أكثر حينئذ من تهانيه بظفره . من مثل قوله[١] :

ولما طغى أَمْرُ الدعيِّ رميتَهُ بعَزْمٍ يردُّ السيف وهو كليل
وأعلمته كيف التصافح بالقَنَا وكيف تروِّى البيض وهْى مُحول[٢]

ويتوفى الموفق فى سنة ٢٧٨ ويخلفه ابنه المعتضد وكان لا يقل شجاعة وحزماً عنه وكان عونه وظهيره فى حرب الزنج ، ويسلم عمه المعتمد مقاليد الأمور إليه ، ويتوفى سنة ٢٧٩ فيخلفه المعتضد ، وكان مهيباً شديد الوطأة ، فخافه قواد الترك ، وظلوا كما كانوا فى عهد أبيه خانعين . ويتحول بالخلافة إلى بغداد وتصبح حاضرة الدولة ، ونرى ابن المعتز يوجه إليه مدائح مختلفة يطلب فيها الإذن له بالتحول من سامراء إلى بغداد من من مثل قوله[٣] :

لعمرى لئن أمسى الإمامُ ببلدةٍ وأنت بأُخرى شائقُ القلب نازعُ
وما أنا فى الدنيا بشىءٍ أناله سوى أن أرى وجه الخليفة قانع

ويأذن له المعتضد وينزل بغداد، وتتحول داره إلى ندوة كبيرة للعلماء والأدباء، ويُكثر المبرد من الاختلاف إليه فيها ، وترْوى كتب الأدب بعض ما كان يدور بينهما من محاورات فى الشعر والشعراء[٤]. ويصبح من ندماء ابن عمه ورفقائه على الشراب والسماع إلى الغناء ، وتُقْبل الدنيا عليه ، وتنعقد صداقة بينه وبين عبيد الله بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد القديم وصديق أبيه ، ويهنئه باختيار ابنه محمد لشرطة بغداد قائلا[٥] :

فرحتُ بما أَضعافه دون قدركم وقلت عسى قد هَبَّ من نومه الدَّهْرُ
فترجعَ فينـــا دولةٌ طاهريَّةٌ كما بدأَتْ والأَمر من بعده الأَمر

وتتوثق صداقة ثانية بينه وبين عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتضد، ويبدو أنها صداقة قديمة منذ وزر عبيد الله للمعتمد ، وهو يكثر من مدحه وشكره

(١) زهر الآداب للحصرى ٣ / ١٩٣ وفى أشعار أولاد الخلفاء ص ١٣١ أنها فى المعتضد .
(٢) البيض : السيوف - محول : مجدبة .
(٣) الديوان ص ٣٠٧ وأشعار أولاد الخلفاء ص ١٢٨ .
(٤) أخبار البحترى للصولى ص ١٦٤ .
(٥) أغانى ١٠ / ٢٨٦

على ما يصله به من أعطيات الدولة ، وتنشأ بينه وبين ابنه القاسم الذى وزر بعده صداقة ثالثة ومودة أكيدة ، وفى ذلك يقول منوّهًا بتلك الأسرة[١] :

لآل سليمان بن وهبٍ صنائعٌ إلىَّ ومعروف لدىَّ مُقدَّمَا
همُ علَّموا الأيام كيف تبرُّنى وهم غسلوا عن ثوب والدىَ الدّما

ويتوفَّى المعتضد سنة ٢٨٩ ، وكان ابنه المكتفى غائبًا ، ويُضْطر رئيس الحرس مؤنس إلى حبس جماعة من وجوه العباسيين حتى تؤخذ البيعة للمكتفى ، وتمضى بسلام ، ويَسْلُك فيهم ابن المعتز ، ونراه يجأر إلى القاسم بالشكوى من هذا الحبس الاضطرارى وسرعان ما يَرُدُّ إليه القاسم حريته ، كما يرد إليه أعطياته ويوالى له العطاء ، فيُكْثر ابن المعتز من مدحه ، معترفًا له بصنيعه من مثل قوله[٢] :

أصلح بينى وبين دهرى وقام بينى وبين حَتْفِى

ولا يلبث القاسم أن يلبى نداء ربه لسنة ٢٩١ ويظل المكتفى يفسح لابن المعتز فى مجالسه ، وابن المعتز يكثر من مدائحه ، وينوه بانتصارات جيوشه على قرامطة الشام وزعيمهم الحسين بن زَكْرَوَيْهِ القرمطى المعروف بصاحب الشامة ، وينادمه ويحضر مجالس سماعه وشرابه .

ويتوفَّى المكتفى لسنة ٢٩٥ للهجرة ويتولى الخلافة من بعده ابنه المقتدر وسنه لا تتجاوز الثالثة عشرة ، فيكثر اللغط حوله ويتكلم الناس فى شأنه ويقولون كيف يتولى الخلافة من لم يبلغ الحُلُمَ ، كما يقول كثيرون ينبغى خلعه . وتدخل سنة ٢٩٦ وما يوافى شهر ربيع الأول حتى يزداد اللغط والكلام لاستيلاء أمه شغب وقهرمانتها على الحكم كما مر بنا فى غير هذا الموضع ولقصوره الواضح عن تدبيره شئون الخلافة . وفى يوم السبت لإحدى عشرة ليلة بقيت من ربيع الأول اجتمعت جماعة كبيرة من القواد والقضاة واتفقت على خلع المقتدر وتولية عبد الله بن المعتز وبايعته فى اليوم التالى[٣] ، وكان الرأس المدبر المدلك محمد بن داود بن الجراح الكاتب ،

---

(١) مروج الذهب ص ٢٠٤ .
(٢) الديوان ص ٣١٩ .
(٣) انظر فى بيعة ابن المعتز ومقتله الطبرى ١٠ / ١٤٠ والنجوم الزاهرة ٣/ ١٦٤ وذيل زهر الآداب ص ٢٠٤ .

وقلّده ابن المعتز الوزارة وتكلم فى المقتدر قائلا: إنه لم يبلغ الحلم وإنه لا تصح للناس صلاة معه ولا حج ولا غزو وقد آن للحق أن يتضح وللباطل أن يفتضح . ولم يكد يمر يوم على هذه البيعة حتى هبَّ مؤنس الخادم فى جند كثيرين فنقضها وجدَّد للناس بيعة المقتدر وأخرج لهم الأموال وزاد فى الأعطية . ولم يبق مع ابن المعتز أحد فهرب إلى دار ابن الجصاص تاجر الجواهر المشهور وقبض عليه مؤنس وقتله ، وبذلك لم تتم له الخلافة إلا لمدة يوم وليلة ، وقيل بل لمدة نصف نهار فحسب . وما كان أحراه أن يبتعد عنها ، متعظًا بما أصاب أباه منها ، ولكن النفس أمارة بالسوء .

ولعل فيما سبق ما يوضح العناصر التى كونت شخصية ابن المعتز الأدبية ، فهو عربى عباسى يعتز بعروبته وأسرته ، وُلد فى القصر العباسى وفى كل ما انبثَّ فيه من لَهو وطرب ، على نحو ما هو معروف عن آبائه : الرشيد والمتوكل والمعتز ، إذ كانوا يفرغون للهوهم ومتاعهم كلما أتيح لهم الفراغ ، وقد يكون فى ذلك بعض البواعث عنده على الإحساس المادى للأشياء ، أو قل على وصفها وصفاً ماديًّا ، إذ كان هذا الوصف هو الذى يلائم مزاجه المترف ، كما كان يلائم عقله الذى يعيش فى النعيم فلا يستطيع أن يتعمق الأشياء ، وإنما يقف عند ظاهرها الحسى المكشوف ، وقديمًا أشار ابن الرومى إلى تأثير بيئته المترفة فى شعره ، وإن كانت إشارته من طرف آخر ولكنه يلتقى بما قدمنا ، فقد سأله شخص : لِمَ لا تشبه تشبيه ابن المعتز وأنت أشعر منه ؟ فقال له : أنشدْنى شيئًا من شعره أعجز عن مثله ، فأنشده وصف ابن المعتز للهلال :

انظُرْ إليه كزَوْرقٍ من فِضَّةٍ   قد أثقلتْه حمولةٌ من عَنْبَرِ

فقال ابن الرومى له : زِدْنى ، فأنشده :

كأَنّ آذَرْيُونَهـا   والشمسُ فيه كاليَهْ (١)

مداهنٌ من ذهب   فيها بقايا غاليَهْ (٢)

وصاح ابن الرومى : واغَوْثاه ! لا يُكَلِّف الله نفسًا إلا وُسْعها ، ذلك إنما

(١) الآذريون : زهر أصفر فى وسطه حمل أسود.

(٢) الغالية : المسك ، وهو أسود.

يصف ماعون بيته . لأنه ابن الخلفاء وأنا مشغول بالتصرف فى الشعر وطلب الرزق به ، أمدح هذا مرّة وأهجو هذا كرّة . وأعاتب هذا تارة وأستعطف هذا طوراً[١] .
وابن الرومى يلاحظ التأثير المادى المترف للبيئة على ابن المعتز . وعنصر آخر اشترك فى تكوين شخصيته الأدبية بقوة ، وهو عنصر ثقافته العربية الإسلامية ، وقد جعله ذلك أقرب إلى ذوق المحافظين منه إلى ذوق المجددين ، حتى إذا انقسمت بيئات النقاد فى عصره إلى مجددين مسرفين فى التأثر بمقاييس البلاغة اليونانية وتحكيمها فى الشعر العربى من جماعة المترجمين ومن التف حولهم ، ومحافظين مسرفين فى رفض هذه المقاييس والتأثر بالمقاييس العربية الخالصة من جماعة اللغويين أمثال ثعلب والمبرد والبحترى من الشعراء ، ومعتدلين يتأثرون الضربين من المقاييس دون إفناء الشخصية الأدبية العربية فى المقاييس الأجنبية من أمثال أبى تمام وابن الرومى وجدناه يأخذ صف المحافظين لتعمق إحساسه بعروبته وتغلغل الثقافة العربية الإسلامية فى نفسه ، ويصرّح بذلك فى كتابه البديع الذى أنشأه ليثبت أن كل ما استحدثه العباسيون المستظهرون للثقافة اليونانية الفلسفية ليس محدثاً فى حقيقته ، بل هو يستمد من أصول قديمة فى الشعر الجاهلى والإسلامى والقرآن الكريم والحديث النبوى . وخصّ أبا تمام برسالة احتفظ بها فى ترجمته كتاب الموشح للمرزبانى ، وهى تحمل كل الأسس التى كوّن منها الآمدى حملته على أبى تمام . ومعنى ذلك أنه على الرغم من ذوقه المرهف وحسه الرقيق كان ينحو نحو المحافظين فى فهم الشعر ونقده ونظمه . وكتابه « طبقات الشعراء المحدثين » ، يدل على ثقافة واسعة بالشعر العباسى ولكنه استعان بتلك الثقافة نفسها على تأكيد الاتجاه المحافظ عنده ؛ إذ سخرّها كما يتضح فى كتابه « البديع » لإثبات أن العباسيين لم يأتوا بشىء ذى بال ، وأن كنوز الشعر العربى القديم لا تزال مفتوحة على مصاريعها ليشتق منها العباسيون كل بارع طريف .

ولا بد أن نلاحظ بجانب ذلك مؤثراً نفسيًّا أثر فيه وفى شخصيته وشعره آثاراً عميقة ، ونقصد به مقتل أبيه وجده من قبله ، مما آذى نفسه إيذاء شديداً ، إذ نشأ لا يعرف الأمن ولا اطمئنان القلب ، وظل يرافقه هذا الإحساس طوال حياته ،

---

(١) النجوم الزاهرة ٣ / ٩٦ .

إذ يجلل شعره يأس عميق ، وحقاً كان يُكِبُّ كثيراً على اللهو يُغْرِق فيه أحزانه ، ولكنها كانت أعظم من أن تغرق أو تنمحى من نفسه ، ولعل ذلك ما جعله يكثر من الفخر بشجاعته ، وهو يخاف الترك وغير الترك ويتملق عمومته وأبناءهم خوفاً على حياته وإيثاراً لعافيته .

وتلك هى مكونات شخصيته ، بيئة مترفة ينغمس مَنْ فيها فى ضروب عدة من اللهو والمتاع بالحياة ، وثقافة عربية إسلامية محافظة ، وأحداث خطيرة جعلت الشر يلمّ به مبكراً ، وتدلهمّ من حوله الخطوب ، فيفكر فى الحياة والموت وما فى الدنيا من بؤس وآلام ، وكأنما كُتب عليه ألا يشرب كئوس الترف واللهو صافية ، فدائماً أو قل كثيراً ما تمتزج بها صور من الضيق بالحياة وما فيها من شر ونُكْر وما ينتظر الإنسان من مصيره المحتوم ، وابن المعتز مع ذلك كله غَزِل ظريف حلو الدعابة جميل المحضر يألفه كثير من الأدباء .

ويبدو أن أكبر شاعر محدث كان يعجب به هو البحترى ، فقد رُوِىَ عنه أنه قال : كان مما حبّب الشعر إلىّ أنى سمعت البحترى يُنْشد الماضى (يريد أباه المعتز) شعراً تشوّقه الناس واستحسنوه ووصفوه ، تصرّف فيه بغزل ووصف ومدح وشكر ، وعدّد أصناف ما أخذ ، وطلب خاتمَ ياقوتٍ ، وهو عندى من أحسن شعره ، وهو :

بودِّىَ لو يَهْوَى العَذولُ ويَعْشَقُ فيعلم أسباب الهوى كيف تَعْلَقُ (١)

والبحترى يستهل القصيدة بغزل ملىء بالشوق إلى علوة صاحبته الحلبية ، ويصف طيفها الذى ألمّ به فى حلمه ولهفته على لقائها ، وعناقها وصبابته بها ودموعهما وقبلاتهما والتصاق خدودهما حين يلتقيان ، حتى ليقول :

فلو فهم الناسُ التَّلاقى وحُسْنَهُ لحُبِّبَ من أجـل التلاقى التفرُّقُ

ويُفيض فى مديح المعتز وما أضفى عليه من عطايا ، ويستوهبه فى رقة ولطف خاتماً . ويلفتنا إعجاب ابن المعتز بهذه القصيدة التى أنشدها البحترى أباه وسنه

(١) أخبار البحترى ص ١٠٨ والتحف والهدايا للخالديين نشر الدكتور سامى الدهان ص ٧٣ وانظر الديوان ٣ / ١٥٣٤

لا تتجاوز التاسعة ، وتذوقه لها فى هذه السن الباكرة يدل ذلك على أنه كان قد حفظ كثيراً من الشعر ، حتى تكوّن له ذوق يستطيع به أن يفقه ما فى الشعر من جمال . ومرّ بنا وصف البحترى له فى حياة أبيه بأنه يستولى على حلبة الشعر مما يدل على أن الشعر سال على لسانه وهو بعد فى الثامنة أو التاسعة من حياته .

ولم يكن البحترى وحده أستاذه فى مطالع حياته ، فأهم منه أبوه المعتز إذ كان شاعراً بارعًا ، ولو قُدّر له أن تمتد حياته لشغل النقاد بأشعاره على نحو ما شغلهم ابنه ، وكان ينفق كثيراً من أوقاته فى اللهو والمجون والصيد ، وينظم فى ذلك كله أشعاره ويطلب إلى هذا المغنى أو ذاك أن يتغنى فيما ينظم ، وكل ذلك ورثه ابن المعتز عن أبيه . وبذلك كان له فى أوائل حياته أستاذان : أستاذ من بيته هو أبوه الذى كان يدرّبه على نظم الشعر ، وأستاذ من غير بيته هو البحترى .

ومن المحقق أن نسيج صياغته لا يرتفع فى متانته وجزالته إلى مرتبة صياغة البحترى ، حقًّا كثيراً ما يرتفع ، ولكنه قد يهبط درجات عن صياغته الجزلة الرصينة ، مما جعل كثيرين فى عصره و بعد عصره يحملون عليه ، وتصدى لهم أبو الفرج ملوّحًا فى وجوههم بقوله : « شعره إن كان فيه رِقّة الملوكية وغزل الظرفاء وهلهلة المحدثين فإن فيه أشياء كثيرة تجرى فى أسلوب المجيدين ولا تقصر عن مدى السابقين وأشياء ظريفةً من أشعار الملوك فى جنس ما هم بسبيله ليس عليه أن يتشبّه فيها بفحول الجاهلية ، فليس يمكن واصفًا لصَبوح فى مجلس شَكِل ظريف بين ندامى وقيان على ميادين من النَّوْرِ والبَنَفْسَج والنَّرْجس ومنضود من أمثال ذلك . . . أن يعدل عما يشبهه من الكلام السَّبْط (السهل) الرقيق الذى يفهمه كل من حضر إلى جَعْد الكلام ووَحْشِيّه وإلى وصف البيد والمهامه والظَّبْى والظَّليم والناقة والجمل والديار والقفار والمنازل الخالية المهجورة ، ولا إذا عدل عن ذلك وأحسن قيل له مسىءٌ ، ولا أن يُغْمَط حقُّه كلّه إذا أحسن الكثير وتوسّط فى البعض وقصّر فى اليسير ويُنْسب إلى التقصير فى الجميع لنشر المقابح وطىّ المحاسن . فلو شاء أن يفعل هذا كلٌّ أحد بمن تقدّم لوجد مَسَاغًا[1] » . وأبو الفرج بذلك أنصف ابن المعتز ، ووضعه فى مكانه الصحيح ، فهو فى أكثر شعره محسن ، وهو فى بعضه متوسط الإجادة ، وفى اليسير

---

(١) الأغانى ١٠ / ٢٧٤

منه مقصّر ، وأكبر الظن أن هذا اليسير من شعر الارتجال إنما كان فى أثناء سمره أو فى أثناء سماعه للغناء وشربه . على أنه لا بد أن نشير إلى مهارته فى الغناء والموسيقى وأن هذه المهارة جعلته من أصحاب الآذان الدقيقة التى تزن جرس الكلام ، ولذلك كنا نحس عنده دائمًا بأنه لا يهمل الأسماع فى شعره ، إذ كان يحاول أن يلذّها بأنغامه وألحانه . وظاهرة ثانية فى أشعاره هى عنايته فيها بالتشبيهات والاستعارات والجناس والطباق وهى ظاهرة طبيعية ، إذ كتب فى هذه الفنون كتابه « البديع » ونوّه بها ، غير أنه لم يفرط فى الجناس والطباق إفراطًا بعيداً ، وقد عاب أباتمام بذلك فى كتابه ، لأنه يخرج فيه على طريقة القدماء . والمحافظون من أمثاله وأمثال البحترى كانوا يوازنون بين البديع المستحدث وصوره عند القدماء ، فلم يكونوا يُسْرِفون فيه مثل أبى تمام ومسلم ابن الوليد .

ولعل من الواجب أن نستعرض فنون الشعر عنده ، لتتضح لنا شاعريته ، وأول ما نقف عنده من تلك الفنون المديح ، ومرّ بنا أنه مدح من الخلفاء المعتمد والمعتضد كما مدح عمه الموفق البطل المظفر ، ونحس ببهجة حقيقية ومشاعر صادقة فى مديحه لابن عمه المعتضد ، أما مديحه فى غيره ففاتر ، وكان المعتضد كما أسلفنا بطلا مغواراً واستطاع — كما استطاع أبوه الموفق — أن يخضد شوكة الترك ، بل أن يقلم أظفارهم ، وكأنما كان يشفى غليل ابن المعتز وضغنه القديم عليهم ، إذ هم قتلة أبيه وسافكو دمه ، وليس ذلك فحسب هو الذى جعل المعتضد يقرب من نفسه ، فقد اتخذه نديمًا وجليسًا وتوالت عطاياه عليه ، فكان إذا مدحه انبعث فى مديحه عن عاطفة صادقة حارة ، وربما كانت خير مدائحه فيه رائيته التى يستهلّها بقوله[١] :

سلمتَ — أمير المومنين — على الدَّهْر ... ولا زلتَ فينا باقياً واسعَ العُمْر
حللت الثريّا خير دارٍ ومنزلٍ ... فلا زال معمورًا وبورك من قَصْرِ
فليس له فيما بَنَى النَاسُ مشبهٌ ... ولا ما بناه الجِنُّ فى سالف الدَّهْرِ

والثريا مجموعة من الدور والقصور بناها المعتضد ، ويقال — كما مر بنا فى غير

(١) الديوان ص ٢١٥ .

هذا الموضع — إنه أنفق عليها أربعمائة ألف دينار وإنها كانت تمتد نحو ثلاثة فراسخ ، ومن حولها البساتين والرياض ، وقد صوَّرها ابن المعتز تصويراً رائعاً ، إذ يقول فى نفس القصيدة :

وأنهارُ ماءٍ كالسلاسل فُجِّرَتْ لتُرْضِعَ أولادَ الرياحين والزهر
جِنانٌ وأشجارٌ تلاقت غصونُها فأَوْرَقْنَ بالأثمار والورق الخُضْرِ
تَرى الطير فى أغصانهنَّ هواتفاً تَنَقَّلُ من وَكْرٍ لهنَّ إلى وَكْرِ

ويتحدث عن بأس المعتضد وجراءته وأنه يفوق فيهما ليث الغاب الذى يجرُّ إلى أشباله كل ليلة ذبيحة وحْش أو ذبيحاً من البشر ، والذى ما يزال يُفْزِع الناس بزئيره وبمن يفترس منهم ويَقْضمه قضماً . وكان المعتضد حقاً شجاعاً شجاعة خارقة ، ويصور ابن المعتز ما بسط فى البلاد من عدل ومن رفق بالعباد وجبروت شديد بمثل قوله فى القصيدة :

حكمتَ بعَدْلٍ لم يَرَ الناسُ مِثْلَهُ وداويتَ بالرِّفق الجُمُوحَ وبالقهر

وليس فى أشعاره مديح أو تهنئات لولاة أو وزراء سوى عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وعبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتضد وابنه القاسم كما أسلفنا ، وخير مدائحه فيهم جميعاً ما مدح به عبيد الله بن سليمان بن وهب ، وهو على كل حال لا يبالغ فى إطرائه له على عادة الشعراء المتكسبين بأشعارهم ، إنما هى أبيات ينفث بها صدره من مثل قوله[1] :

أَيا موصل النُّعْمَى على كل حالةٍ إلىَّ قريباً كنتَ أو نازحَ الدَّارِ
كما يلحق الغيثُ البلاد بِسَيْلِهِ وإن جاد فى أرضٍ سواها بأمطارِ
لقــد عمر الله الوزارةَ باسمه وردَّ إليها أهلها بعد إقفارِ
وكانتْ زماناً لا يَقِرُّ قرارُها فلاقتْ نصابا ثابتًا غير خَوَّارِ

---

(١) الديوان ص ٢١٧ .

وفى ديوانه وبين أشعاره مراث قليلة وأهمها ما نظمه فى ممدوحيه السالفين وخاصة المعتضد صديقه فقد حزن عليه حزنًا شديداً ، إذ أحسّ كأنما انهار ركن العباسيين الوطيد وانقض من أساسه ، كما أحسّ أن أيام أنسه عادت ظلامًا ، فقد طوت المنية صديقه الحميم ، وطار قلبه فزعًا ، واسودّت الدنيا من حوله ، وقد مضى يرثيه ويتفجع عليه وعلى دولته وما بذله فى حمايتها ووقايتها من جهد جهيد وبأس له شديد ، يقول والدموع تنهمر من عينيه وتكاد تخنقه خنقًا[١] :

يا ساكنَ القبر فى غَبْراء مظلمةٍ بالطاهريّة مُقْصَى الدّار منفردا[٢]
أين الجيوش التى قد كنت تَسْحَبُها أين الكنوز التى لم تُحْصِها عَدَدَا
أين السرير الذى قد كنت تملؤه مهابةً ، مَنْ رأتْه عينُه ارتَعَدَا
أين الرِّماح التى غَذَّيْتَها مُهَجًا مُذْ مِتَّ ما وردتْ قلباً ولا كبدا

ويتحسر على قصره الثّريا ووصائفه وملاهيه، وكأنما أصبح طللا مهجوراً ، ولا أثر ولاعين ، كأنما لم يكن به المعتضد يومًا . ويحزن حين توفى قبله وزيره عبيد الله ابن سليمان بن وهب ، ولكنه لا ينظم فيه قصائد إنما ينظم أبياتًا قليلة يبكى فيها قدرته الكتابية أو قدرته السياسية فى الحكم والتدبير من مثل قوله[٣] :

هذا أبو القاسم فى نَعْشِهِ قوموا انظروا كيف تسير الجبالْ
يا ناصر الملك بآرائِهِ بعدك للمُلْكِ ليالٍ طِوَالْ

وطبيعى ألا نجد عند ابن المعتز هجاء، فقد كان يرتفع بنفسه عن هذا الفن الذى يستحيل فى أيدى الشعراء سهامًا يسددونها إلى خصومهم ، ولم يكن له خصوم ، ولا كان يكنّ لأحد خصومة إلا ما قد يقوله تندُّراً ودعابة من مثل قوله لعلى بن بسام هجّاء عصره[٤] :

يا قَذًى فى العيون يا حرقةً بيـ ـنَ التراقى حزازةً فى الفؤادِ
يا طلوع العذول ما بين إلفيـ ـن يا غريماً وافى على ميعادِ

---

(١) النجوم الزاهرة ٣ / ١٢٧ .
(٢) الطاهرية : الدار التى دفن بها المعتضد غربى بغداد .
(٣) الديوان ص ٣٨٩ .
(٤) ذيل زهر الآداب ص ١٨١ .

يا ركوداً فى يوم غيم وصيفٍ يا وجوه التجار يومَ الكسادِ
خَلِّ عنا فإنما أنتْ فينا واو عمرو أو كالحديث المعاد

ويُكثِر ابن المعتز فى شعره من الفخر بجوده وشجاعته ومضائه فى الحروب وفروسيته ، وهو يحاكى فى ذلك القدماء فى حماستهم ، فهو فخر مصطنع متكلَّف فى جمهوره ، ويفخر طويلا بأسرته وبجده العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم وبلائه فى موقعة حنين ، وبشجاعة آبائه وعمومته وبلاغتهم ، وفى ذلك يقول[1] :

إنا لننتاب العُداة وإن نـأَوا ونَهُزُّ أحشاء البلاد جموعا
ونقول فوق أسرَّةٍ ومنابرٍ عجباً من القول المصيب بديعا
قومٌ إذا غضبوا على أعدائهم جَرُّوا الحديد أَزِجَّةً ودروعا
وكأن أيدينا تنفِّر عنهمُ طيرًا على الأَبدان كنَّ وقوعا

والصورة الأخيرة بديعة ، فهو يتصور رءوس الأعداء كأنها طير يتطاير بالسيوف مزايلا لمكانه من أبدانهن . ويمتزج الفخر عنده بشكوى كثيرة ، وهى شكوى مردُّها إلى ما كان يتعمق نفسه من حزن وألم منذ ألمت به محنته فى مقتل أبيه ، على نحو ما مرَّ بنا آنفًا ، فقد خلَّفت هذه المحنة فى نفسه ضيقًا شديداً ولعل ذلك ما جعله يشكو من إخوانه أحيانًا .

وكان كثيراً ما يوجه فخره بأسرته إلى العلويين ، مبينًا أن بيته أحق بالخلافة من بيتهم ، وقد ظلت ثوراتهم مشتعلة لا تخمد طوال عصره ، مما جعله يكثر من وعيدهم وتهديدهم ، مذكراً لهم بأن بيته هو الذى استطاع أن يثأر لهم من الأمويين قتلة الحسين وزيد حفيده[2] ، ويحاول فى مقطوعات وقصائد مختلفة أن يستلَّ البغض والإحَن من نفوسهم على شاكلة قوله[3] :

بنى عَمِّنا عودوا نَعُدْ لمودَّةٍ فإنَّا إلى الحسنى سِراعُ التعطُّفِ
لقد بلغ الشيطان من آل هاشمٍ مبالغَه من قبلُ فى آل يوسف

(١) الديوان ص ٣٠٠ وأشعار أولاد الخلفاء ص ١٦٥ .
(٢) الديوان ص ٥٠ .
(٣) الديوان ص ٣٢٧ .

فهم فى رأيه بيت واحد وإخوة وينبغى أن يتحابوا لا أن يتباغضوا ويتقاطعوا كما حدث بين إخوة يوسف عليه السلام وبينه ، حتى باعوه لسيَّارة بثمن بَخْس دراهمَ معدودة . ويبدو أن بعض معاصريه لامه على ما يوجه للعلويين من لوم وأشاعوا أنه يسب على بن أبى طالب ، فنظم قصيدة طويلة فى مديحه والثناء عليه ، يقول فى مطالعها[1] :

أآكل لحمى وأحْسُو دمى فيا قومِ للعجب الأَعجب[2]
علىٌّ يظنّون بى بُغْضَهُ فهلاَّ سوى الكفر ظنّوه بى

ومضى يقول إن الذى يُشيع ذلك هم القرامطة الذين حادوا عن جادَّة الدين باسم التشيع لعلى وهو منهم برىء وفضله لا ينكره أحد ، وأخذ يصور بسالته وبلاغته وأخوّته للرسول عليه السلام ونفوذ بصيرته فى الحكم والقضاء وزواجه من السيدة فاطمة بنت الرسول ، وسَمَّاه بحر العلوم ، وذكر مواقفه العظيمة ، وأشاد بالحسن والحسين وما كان من مقتل الأخير بيد الأمويين الغاشمة ، وبكاء العباسيين عليه وأخذهم لثأره . ولا بد أن نفصل بين شعر ابن المعتز الموجَّه إلى العلويين ، والآخر الموجه إلى القرامطة والروافض ، فهو فى الأول يغلب عليه الاعتدال والميل إلى الإنصاف أما فى الثانى فيملؤه بإنذارات وتهديدات شديدة ، مع ما يسمهم به من الإلحاد والكفر والزندقة .

وتلقانا فى ديوانه مقطوعات غزلية كثيرة ، ولكنها لا تنبئ عن حب حقيقى كان يكتوى بناره ، فهى مقطوعات وقد تكون استهلالات لقصائد ، لا تصدر عن وجد شديد ، وإنما تصدر غالباً عن ود ، وكأن مثله من أبناء القصور لا يستطيع الحب أن يتعمقه ، ولذلك كنا نفقد عنده الإلحاح فى الطلب والأمل والشوق المبرح والتضرع الحار ، وكل ما نجد إنما هو حب الشباب المترف الذى لا ينبع من أعماق النفس والقلب ، أو قل هى أبيات ينظمها فيمن كن يغشين مجالسه من الجوارى أمثال نشر وشِرَّة على سبيل الدعابة من مثل قوله[3] :

(١) الديوان ص ٦٧ .
(٢) أحسو : أشرب .
(٣) الديوان ص ٥٢ وأشعار أولاد الخلفا ص ٢٢١ والأغانى ١٠ — ٢٧٨ .

وابلانى من محضر ومغيب وحبيب منى بعيد قريب
لم تَرِدْ ماءَ وَجْهِه العينُ إلا شَرِقَتْ قبل رِيِّها برقيبِ

وقوله[١] :

زاحم كُمّى كُمَّهُ فالْتَوَيَا وافق قلبى قلبه فاستويا
وطالما ذاقا الهوى فاكتويا يا قُرَّةَ العين وياهمى ويا

وهى أبيات لا تصور عذاباً فى الحب ولا ألمًا من ناره المحرقة، إنما هى أقرب ما تكون إلى الدعابة ، وختم البيت الرابع بقوله : « ويا » كما يقول الناس : يا أختى ويا ويا مستغنين بذلك عن الشرح . وقد تحولت هذه الصورة من التعبير فيما بعد إلى لون من ألوان البديع سمَّاه المتأخرون باسم الاكتفاء . واقرأ فى ابن المعتز فإنك لن تقف على حب لاهب ، إنما تقف على دعابات وصوروفنّ من مثل قوله[٢] :

تقول العاذلات تعزَّ عنها واطفِ لهيبَ قلبك بالسُّلُوِّ
وكيف وقُبْلَةٌ منها اختلاساً ألذُّ من الشماتة بالعدوِّ

وقوله[٣] :

إذا اجتنى وَرْدَةً من خَدِّها فمهُ تكوَّنتْ تحتها أخرى من الخَجلِ

وكان — كما أسلفنا — ينفق على شاكلة أبناء القصور — كثيراً من أوقاته فى اللهو والخمر ، وديوانه طافح بكئوسها ودنانها وسُقاتها وأديرتها ، فهو لا يشربها فى بيته ومجالسه مع أصدقائه فحسب ، بل يشربها أيضًا فى أمكنتها المعروفة لعصره وخاصة الأديرة مثل دير عبدون ، وهو يصرّح بأنه كان يغرق فيها همومه إذ يقول[٤] :

وليس للهمِّ إلا شُرْبُ صافيةٍ كأنهـا دمعةٌ من عين مهجور

(١) الأغانى ١٠ / ٢٧٩ .
(٢) مروج الذهب ٤ / ٢٠٣ .
(٣) مروج الذهب ٤ / ٢٠٥ .
(٤) الديوان ص ٢٣٠ .

فهو يقبل عليها لتنسيه همومه ، ولتمسح على كدر حياته بنصاعتها وصفائها ، وليتسلى ويتعزّى عن مقتل أبيه الذى لم ينسه يوما ، ومثله فى الخمر مثله فى الحب ، فهو لا يتعبّد لها كما كان يتعبد أبو نواس ولا يسبّح بآلائها مقدّماً إليها قرابينه من الشعر ، إنما هو يتسلّى بها ويتسلّى بما ينظمه فيها بمثل قوله فى مديح الصبوح [1] :

اسْقِنِى الراحَ فى شباب النهارِ ... وانْفِ هَمِّى بالخَنْدَرِيس العُقارِ [2]

قد تولَّتْ زُهْرُ النجوم وقد بَشَّـ ... ـرَ بالصُّبْح طائرُ الأسحارِ

مــا ترى نعمةَ السماء على الأرْ ... ضِ وشكرَ الرياض للأمطارِ

وغنــاء الطيور كلَّ صباحٍ ... وانفتَــاقَ الأشجار بالأنوارِ

فكــأنَّ الربيع يجلو عروساً ... وكأنَّا من قَطْرِهِ فى نِثارِ [3]

وهى أبيات تصور إحساسه بما ينعكس على بصره من جمال الطبيعة صباحاً فى الربيع ، ولكنها لا تصور حبًّا ولا تهالكًا على الخمر ، ولا عاطفة جامحة أو متقدة ، إنها ليست أكثر من أبيات يتسلى بها ويتعزى ويُظْهر مقدرته على النظم فى الخمر ، ولذلك يكون من السهل عليه أن ينقض هذا المدح للصبوح ويضع قصيدة بل قل مزدوجة [4] فى ذمه امتدت إلى نحو مائة وعشرين بيتًا وفيها يقول :

فأىُّ فَضْل للصَّبُوح يُعْرَفُ ... على الغَبوق والظلامُ مُسْدِفُ [5]

ويطيل فى الأسباب التى من أجلها يذمه ذمًّا قبيحًا ، كأن يعرّض المصطبحين للبرد القارص شتاء والحر اللافح صيفًا . وقد يكون مصدر هذا الذم شيوع المناظرات لعصره وبيان محاسن الشىء ومساوئه ، كما مرَّ بنا عند ابن الرومى فى ذمه للورد ، ولكن من المؤكد أن ابن المعتز لم يصور فى ذلك عاطفة ، وإنما صور عبثًا عقليًّا ، وقد

---

(١) الديوان ص ٢٣٢ وأشعار أولاد الخلفاء ص ١٩٠ .

(٢) الخندريس العقار : الخمر .

(٣) النثار : ما ينثر على العروس من الدراهم الفضية .

(٤) الديوان ص ٤٧٣ وأشعار أولاد الخلفاء ص ٢٥١ .

(٥) مسدف : مرخى الستور .

يكون أهم من هذا العبث وصفه للبستان فى مزدوجة مشهورة له ، إذ يقول :

وياسمينُ فى ذُرَى الأَغصانِ　　منتظمٌ كقطَعِ العِقْيانِ
والسَّرْوُ مثل قضب الزبرجدِ　　قد استمَدَّ العَيش من تُرْبٍ نَدِى
على رياضٍ وثَرًى ثَرِىِّ　　وَجَدْولٍ كالمِبْرَدِ الجَلِىِّ
وجُلَّنارٌ كاحمرار الخـــدِّ　　أَو مثل أَعراف ديوكِ الهندِ

ويستمر فى رصف مثل هذه التشبيهات والصور ، وكانت لديه مهارة خارقة فى اجتلابها ، والملاءمة بينها وبين ماعون بيته كما لاحظ ذلك ابن الروى آنفًا . وقد لا يستمدها من ماعون بيته ، ولكن نحس كأنما عقله كان كنزاً زاخراً بالتشبيهات والصور . وأكثر من تصوير أضواء الصباح وهى تحسر عن الأفق خيوط الظلام وسواده ، فتارة يشبه الظلام بحبشى أسود والصباح يفترّ عن أسنانه ضاحكًا من فراره ، أو يشبهه بغراب قوادمه بيضاء أو مقصوص الجناح ، أو بأسود عريان يمشى فى الدجى بسراج ، وقد يشبه الهلال بزورق من فضة مملوء بالعنبر ، ومن بديع تشبيهاته له تصويره بقوله(١) :

كمنْجَلٍ قد صِيغَ من فضَّةٍ　　يَحْصُدُ من زهر الدُّجَى نَرْجِسَا

وتكثر فى الديوان مثل هذه التشبيهات البارعة لعناصر الطبيعة ، ولم يقف عند الطبيعة المتحضرة وحدها فقدكان يلم بالطبيعة الصحراوية . ولعل أبا الفرج الأصبهانى لم يرد فى دفاعه عنه الذى مرَّ بنا أن ينكر عليه أنه نظم بعض شعره فى الأطلال والبيد وحيواناتها ، إنما أراد الإكثار من النظم فى الصحراء إذ له أشعار مختلفة فى وصفها ، وقد مرت بنا فى غير هذا الموضع أبيات طريفة له فى وصف الأطلال والديار الخالية ، وأخرى فى وصف ثور الوحش وبقره ، ومن طريف ماله فى وصف الإبل قليلة اللبن وهى تُحْلَبُ قوله(٢) :

رأيت انهمار الدرِّ بين فروجها　　كما عصرتْ أيدى الغواسل أثوابا

---

(١) الديوان ص ٢٧٨ .　　(٢) الديوان ص ٣٦ .

وقوله فى أخرى وسُراه عليها طوال الليل ، كأنها هائمة تطلب شيئًا ضالا منها[(١)] :

فكأن أيديَهُنَّ دائبةً يَفْحَصْنَ ليلتهن عن صُبْح

وله فى الخيل أشعار مختلفة ، وطبيعى أن يُعْنَى بها ، إذ كان شغوفًا بالصيد ، حتى ليحتل الطَّرَدُ جزءاً كبيراً من ديوانه وأشعاره ، ومن طريف ما نعته بها قوله فى مقدمة إحدى طردياته يصف فرسًا له[(٢)] :

قد أغتدى والصبح كالمشيبِ فى أفقٍ مثل مداك الطيبِ[(٣)]

بقارحٍ مسوَّمٍ يَعْبُوب ذى أُذن كخُوصة العَسِيب[(٤)]

أو آسة أوفتْ على قضيب يسبق شَأْوَ النظرِ الرحيب[(٥)]

أسرعُ من ماءٍ إلى تصويب ومن رجوع لحظة المريب

وينتقل من وصف الفرس إلى وصف الصقر أداته فى تلك الرحلة للصيد ، ويصف مهارته فى تعقب طرائده من الطير وانقضاضه عليها بمنسره ومخالبه ، يخزها ويطعَنها مسيلا لدمائها مزهقًا لأرواحها ، يقول :

وأجدلٍ أُحْكِم بالتأديبِ سَوْطِ عذاب واقعٍ مجلوبِ[(٦)]

يَهْوى هُوِيَّ الماء فى القَلِيب ما طار إلا لدمٍ مصبوب[(٧)]

وعلى نحو ما يصور الصقور الجارحة فى طرده وصيدها للطير يصور البزاة بأبصارها الثاقبة ومناسرها الحادة المرهفة كالأسنة المُشْرَعة ، ومن طريف ماله فى تصوير عين باز قوله[(٨)] :

ومقلة تَصْدُقه إذا رَمَقْ كأنها نَرْجِسَةٌ بلا وَرَقْ

---

(١) الديوان ص ١٤٠ .

(٢) الديوان ص ٨٦ وزهر الآداب ٢ / ٢٣ وأشعار أولاد الخلفاء ٢٠٩ .

(٣) المداك : الحجر الذى يسحق عليه الطيب .

(٤) قارح : مكتمل الخلق . مسوم : معلم حسن الخلق . يعبوب . سريع الجرى .

(٥) أوفت : أشرفت .

(٦) أجدل : صقر .

(٧) القليب : البئر .

(٨) أشعار أولاد الخلفاء ص ٢١٨ وديوان المعانى ٢ / ١٤٠ .

وله فى الكلاب طرديات كثيرة يأتسى فيها بأبى نواس ، بل هو فى طردياته جميعًا يأتسى به ويحاكيه حتى فى ألفاظه التى يفتتح بها تلك الطرديات ، من مثل : قد أغتدى . وقد مضى فى إثره يتحدث عن ضمورها ومتانة أعضائها وشدة سمعها وحدّة براثنها ونشاطها وسرعة عدوها على شاكلة قوله فى إحدى طردياته(٢) :

مُخطَفٍ موثَّق الأَعضاءِ ذى أذنٍ ساقطةِ الأَرجاءِ(٣)
كوردة السَّوْسَنَة الشَّهْلاء وبُرْثنٍ كمِثْقَبِ الحذَّاء(٤)
ومقلةٍ قليلةِ الأَقذاءِ صافيةٍ كقطرةٍ من ماءِ
تنساب بين أكم الصحراء مثل انسياب حَيَّةٍ رَقطاء(٥)

وله طرديات أخرى فى الفهد ، وفى قوس البندق ، ويُكثر فيها جميعًا من التشبيهات والصور الطريفة ، ومن الحق أنه كان بارعًا فى تصوير أى شىء يلم به من كوكب فى السماء أو نجم أو سحابة أو رياض وأزهار فى الطبيعة المتحضرة أو حيوانات وأطلال فى الطبيعة المتبدية ، وليس بين المحدثين من وصف الحيَّة وصفه لها فى قوله(٦) :

كأنّنى ساورتنى يوم بَيْنِهِمُ رقشاءُ مجدولةٌ فى لونهــا بَلَقُ
كأنّها حين تبدو من مكامنها غُصْنٌ تفتّح فيه النوْرُ والوَرَقُ
ينسلّ منها لسانٌ تستغيث به كما تعوَّذ بالسَّبَّابة الغَــرِقُ

وله مراسلات بالشعر بينه وبين إخوانه وهى تكثر كثرة تجعلنا نظن ظنًّا أنه من أوائل من أعدوا لفتح باب الإخوانيات فى الشعر العربى ، وهو فى طائفة منها ينحو نحو الدعابة . ويكثر فى شعره — كما قدمنا — من التفكير فى الموت ومصير الحياة

(١) الديوان ص ١٨ وأشعار أولاد الخلفاء ص ٢٠٧ .
(٢) مخطف : ضامر . ساقطة الأرجاء : شديدة السمع .
(٣) السوسنة : الزنبقة
(٤) رقطاء : رقشاء أى بها نقط سود وبيض .
(٥) الديوان ص ٣٣٠ .

والشكوى من الدنيا ومن الأصدقاء ، وعللنا ذلك آنفاً بأنها طوابع طبعتها فى نفسه نكبته بأبيه ونفيه إلى مكة فى صباه ، وقد ظل يحن إلى سامراء بعد نزوله ببغداد وما لقى من بعوضها ونقيق ضفادعها (١) .

وقد تحدثنا فى غير هذا الموضع عن اهتمامه بالشعر التعليمى ونظمه فيه مزدوجة تاريخية صوَّر فيها سيرة صديقه وابن عمه المعتضد والأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية لعصره . ولعل فى كل ما أسلفنا ما يشهد ببراعته وامتيازه بين الشعراء لعصره .

٥

الصنوبرى (٢)

هو أحمد بن محمد بن الحسن الضبى الصَّنَوْبرىّ ، وفى بعض المصادر أن اسمه محمد(٣) ، وهو خطأ ، إذ ذُكر اسمه فى ديوانه غير مرة باسم أحمد، من مثل قوله معزيًّا نفسه فى بعض الظروف :

ارْضَ حكم الزمان يا أحمد ارْضَهُ ... إن تَذُقْ ضَيْمَهُ فقد ذُقْتَ مَحْضَهُ (٤)

وصُحِّف لقبه « الضبى » نسبة إلى قبيلة ضَبَّة فى فوات الوفيات ، فصار « الصينى » ولا علاقة له بالصين ، إنما هو تصحيف النساخ . أما لقبه الثانى « الصنوبرى » فزعم هو نفسه أن جدّه كان يعمل فى دار الحكمة لعهد المأمون فاشترك فى مناظرة بين يديه وأعْجب به فقال له : إنك لصنوبرى الشكل دلالة على ذكائه وحدة مزاجه ، ولعل المأمون لم يُرد بذلك إلا سَمْته وصورته وأن وجهه على

(١) الديوان ص ٤٠١ .

(٢) انظر فى ترجمته وأشعاره تهذيب تاريخ ابن عساكر ١/ ٤٥٦ وفوات الوفيات (طبعة محيى الدين عبد الحميد) ١/ ١١١ والوافى بالوفيات للصفدى ٧/ ٣٧٩ وشذرات الذهب ٣/ ٣٣٥ ومعجم البلدان لياقوت فى (حلب) وديوانه بتحقيق الدكتور إحسان عباس طبع الثقافة بيروت .

(٣) الفهرست ص ٢٤٥ .

(٤) الضيم : المزوج بالشوائب . والمحض : الخالص غير المشوب

هيئة ثمر الصنوبر المخروط الصورة ، ويفخر الصنوبرى بهذا اللقب لأسرته قائلا [١] :

إذا عُزِينا إلى الصَّنَوْبر لم ... نُعْزَ إلى خاملٍ من الخشبِ

لا بل إلى باسق الفروع عَلَا ... مناسباً فى أرومة الحسبِ

وهو من أهل أنطاكية، ولكن منشأه ومَرْباه فى حلب، ولا ندرى كيف تحوّل أبوه به إليها ، وقد مضى مثل لداته يحفظ شيئًا من القرآن ويُكِبُّ على حفظ الشعر وتعلم العربية ، وكانت حلب مثلها مثل المدن الكبرى فى العالم العربى تزخر بعلماء اللغة والحديث والفقه وكان بها بعض الأطباء ، وكانت الكتب على رفوف المكتبات تحت أعين الصبية والشبان. وفى ديوانه إشارات مختلفة إلى بعض العلماء فى اللغة وإلى بعض القضاة وبعض الأسر المهتمة برواية الحديث النبوى وإلى بعض المتطببين ، ونراه يذكر أرسطاليس وبقراط فى بعض أشعاره [٢]. وقد يدل ذلك من بعض الوجوه على أنه عكف منذ نعومة أظفاره على الدرس والتحصيل ، وأنه قضى فى ذلك شطراً من حياته حتى تخرج شاعراً مثقفا ، على الأقل ملمًّا بالثقافات لعصره ، إن لم يكن إلمامًا عميقًا ، فإنه على كل حال معرفة واطلاع .

وقد عاش حياته فى حلب ، وكان يلم كثيراً بالموصل والرقتين ، وألم بدمشق ، ونجده لا يترك واليًا على موطنه إلا ويقدم له مدائح وأشعاراً كثيرة ، وهو يستهل ذلك بمديحه لِنَذَكَا [٣] بن عبد الله الأعور والى حلب منذ سنة ٢٩٥ حتى سنة ٣٠٢ وتحتفظ بقية الديوان المنشورة باسم الصنوبرى بقصيدة فى مديح ابنه المظفر [٤] يصفه فيها بالكرم والشجاعة ، ويوصيه بشاعر يسمى الطبرانى أن يسبغ عليه من كرمه وجوده . وكان هذا الوالى يتخذ يحيى بن محمد التفرى وزيراً له وعوناً وظهيراً ، وللصنوبرى فيه قصيدة طنانة يصور فيها بلاغته وبعوثه لحروب القرامطة والروم ، ويخلف هذا الوالى على حلب أحمد بن كَيَغْلَغ القائد المشهور فى العصر ويظل

---

(١) الديوان ص ٤٥٦ .

(٢) الديوان ص ٢٧٩ .

(٣) انظر فى هذا الوالى ومن بعده كتاب زبدة الحلب لابن العديم بتحقيق الدكتور سامى الدهان طبع دمشق الجزء الأول ص ٩٢ وما بعدها .

(٤) الديوان ص ١٥٦ .

بها نحو سنة ويعود إليها فى سنة ٣١٧ ويظل بها سنة أخرى ، وكان عونه فى حكمه لحلب ابنه العباس ، ويضفى عليهما مدائح كثيرة ، ويبدو أن صلات العباس له كانت متوالية، ولذلك أكثر من مديحه . كما مدح محمود بن حبك الخراسانى الذى حكم حلب بعد ولاية ابن كَيَغْلَغ الأولى عليها وظل يحكمها حتى سنة ٣١٢ ونمضى مع الشاعر بعد ولاية ابن كيغلغ الثانية فنجده يمدح طريفًا السبكرى حتى إذا خلفه أحمد بن سعيد الكلابى سنة ٣٢٤ وجّه إليه مدائحه . وتدخل حلب فى حكم ابن رائق صاحب دمشق ويعينه فى حكمها أبو الحسين بن مقاتل منذ سنة ٣٢٧ ويمدحه الصنوبرى مهنئًا له بشهر رمضان، وسرعان ما يستولى يانس المؤنسى من قبل الحسن بن عبد الله بن حمدان صاحب الموصل على حلب سنة ٣٣٠ ويمدحه الصنوبرى بمثل قوله[١] :

هو الفارسُ المُرْوِى من الدم سَيْفَهُ ... إذا لم يُطِق رىَّ السيوف الفوارِسُ

وتنشب حروب بين الإخشيد والحمدانيين أصحاب الموصل من جهة وبين الخليفة والبريدى من جهة أخرى ، وينزل الخليفة عند الحمدانيين وينصرونه على خصومه لسنة ٣٣٠ فيخلع على الحسن بن عبد الله بن حمدان لقب ناصر الدولة ، كما يخلع على أخيه على لقب سيف الدولة . وتشتعل الحروب بينه وبين الإخشيد فى سنة ٣٣٣ ولكنهما يفيئان إلى الصلح وتخلص حلب لسيف الدولة ، وهو فى أثناء ذلك ينازل الروم ويكبدهم خسائر فادحة فى الأرواح . ومنذ قرّع سيف الدولة لأبواب حلب واستيلائه عليها نجد الصنوبرى يقدّم له مدائحه ، وأعجب به سيف الدولة ، فلم يكتف بما أجزل إليه من صلات إذ اتخذه أمينًا لمكتبته[٢] . ويبدو أن سيف الدولة لم يتعرف عليه قبل نزوله حلب ، وقد يؤكد ذلك أننا لا نجد فى ديوانه مديحًا لأخيه ناصر الدولة وآبائهما فى الموصل ، مع أن نجم الأسرة الحمدانية كان قد أخذ فى التألق منذ أواخر القرن الثالث الهجرى ، ومع أنها كانت أسرة شيعية ، وكان الصنوبرى نفسه شيعيًّا ، غير أنه ظل منحرفًا عنها ، حتى قدم سيف الدولة حلب وقد يرجع ذلك إلى اضطراب الأحوال فى بغداد واشتراك هذه الأسرة فى الفتن التى كانت تتعاقب

(١) الديوان ص ١٩٢

(٢) مطالع البدور للغزولى ٢ / ١٧٦ وآدم ميتز ص ٣٦٤ .

هناك ، ولعل هذه الفتن نفسها هى التى جعلته ينأى بنفسه عن بغداد وتقديم مدائحه لوزرائها وحكامها المختلفين . على أنه كان كثير المقام بالرقة ، وكان يمدح بعض ذوى الوجاهة والنباهة بها ولكنه لم يفكر فى مديح أمرائها الحمدانيين ، إلا إذا كانت هناك أشعار أخرى لم يحملها ديوانه خصَّها بمديحهم .

على أن هذا الجانب يجعلنا نفكر فى شأن تشيعه ، فديوانه يمتلئ بمراث لآل البيت وللحسين خاصة ، مما يؤذن بأنه كان متشيعًا حقًّا ، وهو يذكر فيه ما يؤمن به الشيعة من أن الخلافة ليست مفوضة للأمة وأنها تنتقل بالوصية من الرسول إلى على وأبنائه ، على نحو ما نرى فى مثل قوله [١] :

حبَاه بالوصيَّـــة إذ حَباه وهْو ذو دَنفِ

ويبدو أنه لم يكن غاليًا فى تشيعه ، بل يبدو أنه لم يعتنق مذهب الإمامية الاثنى عشرية الذى كان قد أخذ ينتشر فى بعض أركان العراق لعصره . وفى ديوانه قصيدة وجَّه بها إلى جعفر بن على صاحب الزاب فى المغرب الأوسط ، وصلة جعفر وأبيه على بالدعوة الإسماعيلية التى كانت قد أخذت فى الذيوع بتلك الديار مشهورة ، ولكن ينبغى ألا نفهم من ذلك أن الصنوبرى كان على صلة بتلك الدعوة لا فى مقرها الجديد بالمهدية فى المغرب ولا فى مقرها القديم بسَلَمْيَة فى الشام [٢] ، وقد يؤكد ذلك أننا نجده يهاجم القرامطة [٣] الذين كانوا متصلين بتلك الدعوة حين أغاروا على الحجيج يوم التروية لسنة ٣١٧ وقتلوهم قتلا ذريعًا ، كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع . وربما كان أكثر من ذلك تأكيداً أننا نجده يمدح زيادة الله بن الأغلب صاحب تونس ، بعد أن هزمه أبو عبد الله الشيعى داعية الفاطميين لسنة ٢٩٦ ، وخرج من بلاده إلى العراق وأقام — حسب أوامر الخليفة — بالرقة [٤] ، وظل بها حتى توفى سنة ٣٠٤ للهجرة [٥] . ونرى الصنوبرى حينئذ يمدحه بغير قصيدة [٦] ولو أنه كان على صلة بالدعوة الفاطمية الإسماعيلية ما نظم فيه بيتًا مثنيًا عليه أو مادحًا . ونجده

---

(١) الديوان ص ٣٩٨ .

(٢) فى ديوانه مديح لصديق هاشمى من سلمية هو أبو إسحق السلمانى ، ولكن ليس فى مديحه له ما يصور شيئاً من الدعوة الإسماعيلية .

(٣) الديوان ص ٩٦ .

(٤) النجوم الزاهرة ٣ / ١٦٨ .

(٥) النجوم الزاهرة ٣ / ١٩٠ .

(٦) الديوان ص ٣١٧ ، ٤٠٩ .

حين يمدح آل البيت يمدح حمزة وجعفراً الطيار كما يمدح العباس[١] جد العباسيين. وهو يكثر من مديح بعض الهاشميين من سلالة على بن أبى طالب ، ولكنه أيضًا يكثر من مديح الهاشميين من سلالة العباسيين أمثال أبى العباس أحد أحفاد الرشيد وله يقول[٢] :

أأبناءَ الخلافةِ من قريشٍ وساسةَ أمرِ عالمنا المسُوسِ
ألَنتُمْ من حُزون الدهر حتى توهمتُ الحزونَ من الوعوس[٣]

وفى ديوانه ما يدل بوضوح على أنه كان لا يزال يرْتحلُ من حلب إلى الرقة على الفرات ، حتى لتُعَدّ كأنما كانت موطنه الثانى وخاصة فى أيام شبابه وإدمانه على اللهو وخَلْعه للعذار . وكان لا يزال يؤمّ فيها مع بعض الفتيان والرفاق دير زكّى لجمال متنزهاته ، ولما كان يجاوره من أماكن الصيد براًّ وبحراً . وكثيراً ما كان يلمّ بمدينة الرّها هناك وكان بها دكان ورّاق يسمى سعداً ، وكان يجتمع فيه بكثير من أدباء العراق والشام ومصر . ومن الرقة حتى دمشق كان ينزل فى كل ما بينهما من البلدان ، ولم يدع جواداً أو حامياً من حماة الأدب فى تلك الأنحاء حتى قدم له مدائحه ، ونستطيع أن نميز بين ممدوحيه عبد الرحمن الجلاّبى من أهل حرّان بالموصل وابن كوجك فى طرابلس وعلى بن سهل بن روح فى حمص، أما الحلبيون فكثيرون من مثل أسرة السبيعيين ،وكان منهم من يعنى برواية الحديث النبوى مثل الحسن بن أحمد السبيعى وله كتاب « التبصرة فى فضيلة العترة الطاهرة » ومثل القاضى أبى عبد الرحمن بن أخى الإمام ومثل على بن محمد بن حمزة العباسى الهاشمى وكان له قصر منيف وبساتين فى موضع يسمى فارث ، وله فيه قصائد رائعة ، ومثل أبى عبد الله الكرخى صاحب الخراج . وكثيرٌ هم العلويون الذين مدحهم مثل إسماعيل بن الفضل الهاشمى وابنه أبى بكر وحفيده أبى عيسى ومثل طاهر بن محمد ومحمد بن الحسين الهاشميين . وكان يختلط فى كل البلدان التى ينزل فيها بشعرائها وأدبائها ، وكان من أقربهم إلى

---

(١) انظر الديوان ص ٣٢

(٢) الديوان ص ١٨٥

(٣) الحزون : جمع حزن وهو الأرض الصلبة ، والوعوس جمع وعس وهو الأرض السهلة .

نفسه المعوج الرقى ويقال إنه أستاذه ، وقد توفى سنة ٣٠٧ وبكاه بمرثية طويلة يقول فيها[1] :

يا سماء الشعر التى لى عليها ... كلَّ يوم سماءُ دَمْعٍ تفيضُ

كيف تجنى الأفهامُ زهرَ المعانى ... بعد ماجفَّ رَوْضُهنَّ الأريضُ

ولعل أهم صداقة كانت بينه وبين شاعر الصداقةُ التى انعقدت بينه وبين كشاجم ، ونظن ظنًّا أنها بدأت فى الرقة ، وكان كشاجم قد اتصل هناك بأبى الهيجاء عبد الله بن حمدان والد سيف الدولة ، فرعاه وصار من حاشيته ، ثم صار من حاشية ابنه ، ورافقه حين ألقى عصاه بحلب ، حتى نهاية حياته ، وكان أصغر سنًّا من الصنوبرى ، وكأنه اتخذ منه معلمه ورائده فى الشعر ، فنسج على منواله ، فى وصف الرياض وفى الخمريات والغزل ، وبينهما مداعبات ومعابثات واستعطافات كثيرة ، وكأن الأستاذ دائمًا كان حريصًا على رضا تلميذه . وتمنى التلميذ يومًا لو أصهر إلى أستاذه فى ابنة[2] له ، ولعل عالمًا لغويًّا لم يحظ بصداقة الصنوبرى كما حظى على بن سليمان الأخفش الصغير ، وكان قد رحل عن بغداد إلى مصر سنة ٢٨٧ ثم تركها سنة ٣٠٠ موليًّا وجهه نحو حلب ، فظل فيها حتى سنة ٣٠٥ . وفى هذه السنوات الخمس انعقدت له حلقة كبيرة بالمسجد الجامع أمَّها الشباب للتثقف ، وكان بينهم الصنوبرى ، فلك الأخفش عليه لبَّه ، وإذا هو ينظم فيه قصيدة طويلة يصوِّر فيها نهله هو ورفاقه من ينبوعه العظيم ، بمثل قوله[3] :

كَرَعْنا منه فى أبْحُـ ... ـرِ علمٍ غير مَنْزوفه

وطالعْنا رياضَ العِلْـ ... ـم بالآداب محفوفه

وتضطره بعض ظروفه إلى أن يبرح محاضراته إلى أنطاكية مسقط رأسه ، فيكتب إلى الأخفش متشوقًا كما يقول ، واصفًا فراقه لهذا الفردوس العلمى ، متمنيًا لو ذاءت عليه ظلاله . وتمتد به الأيام بعد ذلك نحو ثلاثين عامًا يقضى معظمها فى اللهو ، ويفيق مرة من كئوسه فى نحو الستين من حياته فيتمنى لو زهد فى الدنيا ومتاعها الزائل

(١) الديوان ص ٢٦٢ . (٣) الديوان ص ٣٧٧ .

(٢) ديوان كشاجم (طبعة بيروت) ص٧٩ .

معلناً أنه بلغ السابعة والخمسين وآن له أن يزدجر ويرعوى ويكف عن اللهو وآثامه ، يقول(١) :

أَلقتْ رداءَ اللهو عن عاتقى خمسٌ وخمسون مضَتْ واثنتانْ

وفى البيت ما يدل على أنه لم يمت وقد ناهز الخمسين كما يقول ياقوت(٢) ، بل مات وقد ناهز على الأقل الستين ، ولا ندرى هل هجر اللهو فعلا كما تمنى أو ظل يشرب كئوسه صافية وممزوجة حتى الأنفاس الأخيرة من حياته لسنة ٣٣٤ للهجرة . وكان يعيش على ما يظهر فى يسر دائماً ، إذ نراه يذكر — كما يذكر ذلك كشاجم — أن له بحلب ضيعة وبستاناً وقصراً حوله الأشجار والورود والرياحين(٣) . وكثيراً ما نراه يدعو صحابه ورفاقه لمآدب عنده(٤)

وأخذ كثيرون يروون أشعاره وهو على قيد الحياة ، وعُنى أحد تلاميذه من الشعراء وهو أبو العباس الصفرى برواية ديوانه وعنه رواه القاضى أبو عمر عثمان بن عبد الله الطرسوسى(٤) ، واهتم به معاصره أبو بكر الصولى فجمعه ورتبَّه على حروف الهجاء فى مائتى ورقة(٥) . ولم يلبث الديوان أن دخل الأندلس بعد وفاة صاحبه بنحو عشرين عاماً لعهد الحكم المستنصر (٣٥٠ — ٣٦٦ هـ) . على يد مواطن للصنوبرى ترجم له ابن الفرضى فى تاريخ(٦) علماء الأندلس ، هو محمد بن العباس الحلبى ، وعنه رواه اللغوى المشهور أبو بكر الزبيدى الإشبيلى ، وذاعت هذه الرواية بين أدباء الأندلس ، ونرى ابن خير يذكر طرقها فى فهرسته(٧) . ولم يصل إلى عصرنا من الديوان إلا جزء منه يشتمل على قصائده من قافية الراء حتى القاف . أما الجزء الذى يسبقه والآخر الذى يلحقه فمفقودان ، وحقّق الجزء الباقى تحقيقاً علمياً الدكتور إحسان عباس وألحق به ما وجده فى المصادر المخطوطة والمطبوعة من أشعار الصنوبرى

(١) الديوان ص ٥٠٣ .

(٢) انظر حلب فى معجم البلدان .

(٣) الديوان ص ٣٤٧ وانظر ديوان كشاجم ص ٧٤ .

(٤) انظر مثلا ص ١٥٥ فى الديوان .

(٤) الديوان ص ١٨٧ .

(٥) الفهرست ص ٢٤٦ .

(٦) تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى رقم ١٤٠٢ .

(٧) فهرسة ما رواه ابن خير عن شيوخه ص ٤٠٨ .

ونشر هذا الملحق مع الجزء المذكور باسم ديوان الصنوبرى ومعه فهارسه فى نحو ٥٨٠ صفحة .

ومن يقرأ فى شعر الصنوبرى يلاحظ تـوًّا أنه كان يعنى بصناعة شعره وأنه أكبّ على الشعراء من قبله يقرأ فيهم ويستوعب ويتمثل، وخاصة أبا تمام والبحترى وابن الرومى وابن المعتز ، فهو أحيانًا يكثر من الجناس ومن فنون البديع على طريقة أبى تمام ، وأحيانًا لا يذهب بعيداً فى استخدام هذه الفنون على طريقة البحترى ، وهو يكثر من التشبيهات والصور على طريقة ابن المعتز كما يكثر من وصف الطبيعة على طريقة ابن الرومى . وظل يمرن نفسه على نظم الشعر ويروضها على صناعته حتى قال[1] :

ما حَلَّ بى منك وقتَ مُنْصَرفى ؟ ما كنت إلا فريسةَ التَّلَفِ
كم قال لى الشوق قِفْ لتلثمــه فقال خوف الرقيب لا تقفِ
بسطت خطوى كرهاً وقد قبضتْ رجلى عن الخطو شدةُ الكلف
فكان جسمى فى زِىٍّ منطلقٍ وكان قلبى فى زى منعطفِ

فارتضى حينئذ أن يعلن عن شاعريته وأن يقدم أشعاره لمن حوله، والأبيات فيها غير قليل من التكلف فى التعبير ، وخاصة البيت الثانى، ومع ذلك تنمّ عن شاعرية جيدة ، وواضح فيها العناية بالطباق والمقابلة على نحو ما يلاحظ القارئ لبيتيه الثالث والرابع . وأخذ يسلس له الشعر وأسلم له قياده حتى أصبح من المجلّين فيه البارعين .

وإذا أخذنا نستعرض موضوعات الشعر عنده لاحظنا أنه عُنى بالمديح عناية واسعة ، إذا اتخذ شعره متجراً له ومربحًا . فهو يقدّمه لولاة حلب ونوابهم وأبنائهم ومساعديهم ، وكثيراً ما يصرّح فيه بتنجز الوعود ، وأنه لا يزال ينتظر هبة الممدوح وجائزته ، وأكثر من مديح العباس بن أحمد بن كيَغَلَغ ، وفيه يقول[2] :

---

(١) الديوان ص ٣٨٨ . (٢) الديوان ص ١٦٠ .

وكيَغْلَغيٌّ المجد يُلْفَى مجدُه   ثَبْتَ الدعائم محصدَ الأَمْراسِ (١)
فَرْدُ الكيان فكفّه من رحمةٍ   تَسَعُ الأَنام وقلبه من باسِ
أعْدَى على صَرْف الليالى المعتدى   وألان من طبع الزمان القاسى
يوماه ذا عيدٌ وذا عُرْسٌ وإن   جَلاّ عن الأَعياد والأَعراسِ
يـأْبى الحجابَ وليس يحجب بشره   عن أَعين الندماء والجُلاَّسِ

والأبيات مليئة بالجناسات والمقابلات والتقسيمات ، على نحو ما يلاحظ فى أعدى والمعتدى والحجاب ويحجب ، وفى الكف والقلب واللين والقسوة والعيد والعرس . وكأنما كتب أشعاره على أضواء من ديوان أبى تمام ، وإن كان لا يبلغ مبلغه فى اقتناص المقابلات والجناسات . فقد كان أبو تمام أكثر دقة وأنفذ بصيرة . ولا نبالغ إذا قلنا إن أجود ما صاغه من مدائح صاغه فى الهاشميين من عباسيين وعلويين ، وأهم هاشمى عباسى أسبغ عليه مديحه على بن محمد بن حمزة الهاشمى . وكانت له — كما مرّ بنا — ضياع يتوسطها قصر فى مكان يسمى فارث ، وكان الصنوبرى كثيراً ماينزل عنده بهذا القصر وينعم بما فيه من ترف ومن أسباب النعيم ووسائله ، وله فيه قصيدة عينية رائعة يصور فيها ما نعم به عنده من غناء بعض الجوارى ومن راح وخمر . كما يصور بستاناً حافلا بالورود والرياحين وبركة حسناء تنهل فيها النجوم ويتحول إلى مديح ابن حمزة هاتفاً (٢) :

ابْقَوا بنى العباسِ مابقىَ الحصَا   لنَدًى يُؤَمَّلُ أَو لخَرْقٍ يُرْقَعُ (٣)

ويمدح كثيراً من العلويين المقيمين بحلب وغير حلب . ودائمًا يذكر أنهم عترة المصطفى وأنهم الجوهر المصفّى وسراج الدنيا . ومن خير مدائحه فى الهاشميين مدائحه لأبى إسحق السلمانى . ويصفه بالعلم الغزير والاطلاع الواسع على الثقافة اليونانية حتّى ليرفعه درجات على أرسطاطاليس وبقراط ، قائلا (٤) :

وأدقُّ من رَسْطالِسٍ نظَرًا إذا   ناظرْتَه وأشفُّ من بُقْرَاط

(١) محصد : قوى متين .
(٢) الديوان ص ٣٢٧ .
(٣) يريد بالخرق : الفتنة .
(٤) الديوان ص ٢٧٩ .

فِكَرٌ غَدَتْ أقفالَ فكرٍ كلُّها   لكنهنَّ مفاتحُ استنباط

والرثاء كثير فى الديوان بصوره الثلاث من العزاء والتأبين والندب ، فهو يعزى جعفر بن طاروف عن أخيه[1] بأن تلك حال الزمان يعصف بكل الأحياء ، وقديمًا عصف بجرهم وطسم وأقيال حمير وكسرى وقيصر ، ويعزّى ابن حمزة الهاشمى العباسى صديقه عن زوجته[2] وأن طائراً لم يطر إلا كما طار وقع ، ولا شرب أحد فى دنياه جرعة حلوة إلا أعقبتها جرعة مرة . وحزن طويلا على صديقه أبى إسحق السلمانى حين وافاه القدر ، فأبّنه كثيراً واصفًا علمه وباكيًا عليه بمثل قوله[3] :

غاب أبو إسحقَ فى الأَرض بل   غابَ سِراجُ الأَرض فى الأَرضِ

بكتْه عيناىَ وفوق البكا   حتى بكى بعضى على بعضى

ومن أروع مراثيه ندبه للنبى عليه السلام ولآله ، وهو فيه يتحدث عن ابنته فاطمة الزهراء وعن على واصفًا مقتله الأثيم ومؤكداً وصية الرسول له بالخلافة كما أسلفنا ، ويذكر حديثه له فى غدير خم وأنه منه بمنزلة هرون من موسى ، ويعرض مقتل الحسين وما صبّه فى نفوس المسلمين من جزع وكمد . ويخصّه بمراث كلها تفجع عليه ولوعات وزفرات ، ونراه فى بعضها[4] يصوّر سيرة جده المصطفى العاطرة ليظهر مدى الإثم فى مقتله ، كما يصور سيرة أبيه على ونصرته للإسلام وماله من حقوق على الأمة ، ويبكى مقتله فى كربلاء بالقرب من الفرات ، وهو ساغب ، يريد بعض الماء ، فتلعق السيوف من دمه ودم شباب وصغار من بيته كانوا معه ، وتُعْوِل أم كلثوم ومن كان فى ركبه من النساء عويلا مُرًّا ، ويندد بقاتليه وفظاعة جريمتهم وما يزال يئنُّ لمصرع الحسين وهتك حُرمه بمثل قوله[5] :

يومَ الحُسَيْن على الد   ين كنت يوماً عسيرا

ملأْتِ والله كَرْباً   يا كربــلاءُ الصدورا

---

(١) الديوان ص ١٠٦ .

(٢) الديوان ص ٣٤١ .

(٣) الديوان ص ٢٦٥ .

(٤) أنظر الديوان ص ٢١٨ .

(٥) الديوان ص ٩٥ .

والفاطميون تَفْرِي بهم السيوفُ الطيورا
والفـــاطميات يَنْحَرْ ن بالدموع النُّحُورَا

ونراه فى جوانب من تفجعه على الحسين وآل البيت يتوسل إلى الرسول عليه السلامُ وفاطمة الزهراء وعلى وابنيه الحسن والحسين أن يكونوا شفعاء له يوم القيامة ، حتى يغفر الله له ذنوبه ، وهو يضيف إلى شفاعة الرسول المقررة عند أهل السنة شفاعة آل البيت ، تشيعًا لهم ، كأنهم ورثوها فيما ورثوه عن النبى صلى الله عليه وسلم. ويلتقى فى الديوان تفجعه على الحسين بتفجعه على ابنته ليلى وحيدته كما يقول، ويندبها فى كثير من القصائد والمقطوعات ، وقد امتلأت نفسه شقاء وعناء ممضًّا وامتلأ قلبه حسرات ولوعات محرقة ، وما يزال يطلب إلى السحب أن تكسو الأرض من حول قبرها وشيًا بعد وشى وحريراً بعد حرير وأزهاراً وأنواراً فائحة العبير ، ويناجيها فى رمضان ذاكراً عبادتها فيه وعكوفها على القرآن الكريم ، وكيف تحوَّل العيد بعدها لغيابها عنه مأتمًا ، ويبكيها فى قصيدة ضادية ، ويبكى معها أختها التى ماتت منه فى الرقة ، وفى ذلك يقول(١) :

لنا فى الرَّقَّتين مضيضُ حزنٍ وفى حَلب المضيضُ على المضيضِ

وظل جُرْحه فى ليلى لا يرقأ ، وكانت عروسًا ، فانقلبت الفرحة حزنًا بل كارثة ، وانقلب الرحيق حريقًا يصطلى الصنوبرى بناره ، ويتعذب عذاباً شديداً ، ولا مغيث له ولا ملجأ سوى الدموع والأنات والزفرات وأن ينوح عليها بمثل قوله(٢) :

يا ربة القبر المضىء الذى يضىء ضوءَ الكوكب السَّارِى
أشتاق رؤياكِ فآتى فلا أرى سوى تُرْبٍ وأحجارِ
قومى إلى دارك قد أنكـرتْ صبركِ عنها أىّ إنكارِ
استوحشتْ دارُكِ من أهلها واستوحش الأَهــلُ من الدارِ

ومن أروع مراثيه مرثيته فى أمه ، وهو من أقدم من رثوا أمهاتهم إن لم يكن

---

(١) الديوان ص ٢٦٣ .
(٢) الديوان ص ١٠٠ .

أقدمهم ، وهو فى رثائه لها يصور شعوراً عميقاً بالحزن ، وقد استهله بقوله: [1]

قد صَوَّحَتْ روضتىَ المونقه وانتُزعتْ دوحتىَ المورقه

ومضى يصور مرضها قبل موتها وكيف كان يئن لها أنيناً متصلا . وله مرثية طريفة لثوب أبلاه الدهر .

وهزَّته بل أثَّرت فى نفسه تأثيراً عميقاً فاجعة الحرم المكى الكبرى لسنة ٣١٧ حين هجم القرامطة على الحجاج، وهم يُهلون ويُلَبّون يوم التَّرْوية فأعملوا فيهم السيوف فى طرق مكة وفى البيت الحرام وهم متعلقون بأستاره ، حتى ليقال إنهم قتلوا منهم نحو عشرة آلاف ، ونرى الصنوبرى يبكيهم بكاء حارًّا ، هاتفاً[2] :

دموعهمُ تجرى خشوعاً وخشية وأرواحهم تجرى على البيض والسُّمْر

وما غُسلوا بالماء بل بدمائهم وما حُنِّطوا إلا من التُّرْب لا العْطِرِ

ومضى يصف القرامطة بالكفر وأنهم لا يعرفون صلاة ولا سجوداً ولا طهراً ولا وضوءاً ولا صوماً ولا حَجاً ولا شيئاً من فرائض الإسلام .

وله قصائد عدة فى الفخر ، وهو كثيراً ما يفخر فيها بقبائل قيس والقبائل المضرية عامة وبضبة قبيلته، وأيضاً كثيراً ما يفخر فيها بالمصطفى وآله . ونراه فى قافية له يضيف إليه أبا بكر الصديق وعمر الفاروق وخلفاء بنى العباس ، إذ يقول فى عَدِّ قومه لمناقبهم ومفاخرهم[3] :

عَدُّوا النبىَّ الهاشمىَّ ورهطــه ووزيرَهُ الصدِّيق والفــاروقا

ولهم خلائفُ من بنى العباس قد أعيــوا جميع العالمين لحُوقا

وفى ذلك ما يدل بوضوح على أنه لم يكن غالياً فى تشيعه ، إذ يرتضى خلافة الصديق والفاروق وخلفاء العباسيين ، بل يمجّدها ويشيد بها فى قوة . وله أهاج كثيرة يملؤها بالفحش، ومن أطرفها هجاؤه لزوج ابنته ليلى التى رثاها طويلا ، ويبادر

(١) الديوان ص ٤٤٢

(٢) الديوان ص ٩٧

(٣) الديوان ص ٤٠٤

أنها توفيت عقب إعراسه بها ، فعدّه طائر شؤم وطالع نحس بغيض ، وهجاه مراراً وتكراراً بمثل قوله (١) :

ألا يابنَ الجُنَيْد اسمع وما أنت بذى سَمْع
على التَّفْريق إمْلاكُ ـكَ هَدًّا لا على الجَمْعِ (٢)
على التَّعْس عَلَى الغَمِّ على النَّحْسِ على الفَجْعِ
علىَّ تحــرُّقُ القلبِ علىَّ تحدُّرُ الدمْع

وله قصيدة(٣) فى هجاء بعض الشمامسة ، يصفه فيها بالشره فى الأكل وببعض العادات القبيحة ، وبالثقل حتى إنه ليتفوق على جبل رَضْوَى فى ثقله ، وبالشؤم حتى ليوازى البوم فى شؤمه ، ومن قوله فى ثقيل(٤) :

لو مَرَّ من ميلٍ توهمتَه قد مرَّ بين العَيْن والحاجبِ

وفى ديوانه معاتبات واستعطافات بينه وبين بعض أصدقائه ، وألطفها ما نظمه فى استعطاف صديقه ورفيقه الحميم كشاجم ، وكانا كأنهما روح واحدة فى جسدين أو جسد واحد فى ثوبين ، فقد جمعت بينهما لحمة الشعر ، ووثقت بينهما من الصداقة ما لا توثقه قرابة الدم ، وله يقول متودّداً مستعطفاً(٥) :

أَخٌ لى عاد من بعد اجتنابهْ وفَرَّق بين قلبى واكتئابهْ
وخاطبنى فخلتُ بأن زهر الـ ـرُّبَى الموشىَّ يُجْنَى من خطَابهْ
فقرَّب بين أجفانى وغُمْضِى وباعد بين دَمْعِى وانسكابهْ
أتانى أَرْىُ منطقه فعفَّى على ما ذُقْتُه من طَعْم صَابهْ(٦)

وله غزليات كثيرة ، غير أن كثيراً منها فى الغلمان ، وحاولنا — فى غير هذا الموضع — أن نخفف من حِدّة هذه المثلبة السيئة عند الصنوبرى وغيره ، فقلنا إن

(١) الديوان ص ٣٤٦ .
(٢) الإملاك : الزواج .
(٣) الديوان ص ٢٠٠ .
(٤) الديوان ص ٤٥٩ .
(٥) الديوان ص ٤٥٧ .
(٦) الأرى : الشهد أو عسل النحل . والصاب : العلقم .

كثيراً من شعر الغلمان ، إن لم يكن جُلُّه ، كان يُقال على سبيل الدعابة والتندير في أثناء السكر وشرب الخمر . وله غزل في فتيات ونساء كثيرات ، ويغلب عليه التكلف إذ نراه يبحث غالباً عن تشبيه أو صورة ، ومن غزلياته الطريفة قوله[١] :

تزايد ما ألقى فقد جاوز الحَدَّا   وكان الهوى مزحاً فصار الهوى جِدًّا
وقد كنت جَلْدًا ثم أوهننى الهَوَى   وهذا الهوى ما زال يستوهن الجَلْدَا
فلا تعجبى من غُلْبِ ضَعفك قوّتى   فكم من ظباءٍ فى الهوى غلبتْ أُسْدَا
جَرَى حبُّكم مجرى حياتى ففقدكم   كفقد حياتى لا رأيتُ لكم فقْدَا

ومع ذلك فالقطعة لا تخلو من تكلف ، حين يحوِّل الهوى من المزح إلى الجد وحين يصبح واهنًا بعد أن كان جلداً ، وحين يغلب الضعف القوة ، كل ذلك ليأتى بالطباق . وأطرف من هذه المقطوعة مقطوعته التالية[٢] :

لا النومُ أدْرِى بِهِ ولا الأَرَقُ   يَدْرِى بِهذين مَنْ به رَمَقُ
إن دموعى من طول ما اسْتَبَقَتْ   كلَّتَ فما تستطيع تستبق
ولى مليكٌ لم تَبْدُ صورته   مُذْ كان إلا صَلَّت له الحَدَق
نويتُ تقبيلَ نارِ وَجْنَتِهِ   وخفت أدْنو منها فأحترق

والقطعة مع ما يترقرق فيها من جمال يتعمقها التكلف ، على نحو ما يلاحظ فى البيت الثانى وتعب دموعه من استباقها وتقاطرها على خديه ، وتعبيره عن عبادته لمليكه بصلاة الحدق فيه أيضًا غير قليل من التكلف ، وواضح أن الشطر الأول فى البيت الأخير مجلوب اجتلابًا ليهيئ مكانًا للشطر الأخير . وله مقطوعة نظمها فى فتاة مسيحية ، تمضى على هذا النمط[٣] :

لا ومكان الصَّليب فى النَّحْرِ   منكِ ومجرى الزنّارِ فى الخَصْرِ
والحلقِ المستديرِ من سَبَجٍ   على الجبين المصوغ من دُرِّ[٤]

---

(١) الديوان ص ٤٧٢ .
(٢) الديوان ص ٤٣٦.
(٣) الديوان ص ٦٣ .
(٤) السبج : قطع الشعر المرسلة على الجبين .

وسُكْر أجفانك التي حلف الـ ـفتورُ ألا تُفيق من سُكْرِ
وأقحوانٍ بفيك مُنْتَظِمٍ على شبيه الغدير من خَمْرِ
ما صبر المشوقُ لى فأصبرَ يا منْ حُسْنُهُ فيه قِلَّةُ الصَّبر

ويكثر الصنوبرى من الحديث عن الخمر ووصف كئوسها وسقاتها ونداماها ومجالسها ، يفرد لذلك القصائد والمقطوعات . وقد يضع نعت الخمر فى مقدمة بعض مدائحه ، مضيفاً إليها نعت بعض ليالى الأنس وما كان فى مجالسها من غناء وقيان وجوار معقربات الأصداغ . وقد يضيف إلى ذلك وصف البستان وما فيه من أزهار ممتدة حول القصور ومجالسها . وكثيراً ما يقرن وصف الربيع إلى الخمر ، فهو ربيع الدنيا وهى ربيع الفرح والسرور فى رأيه . ويقرنها أيضاً دائماً إلى الأمطار ، ولعله أول من قرنها بالثلج وانتثاره فى الطبيعة ، وعرف له القدماء ذلك فقالوا إنه أول من تغنى بالثلجيات على شاكلة قوله [1] :

ذَهِّبْ كئوسَك يا غُلا مُ فإن ذا يومٌ مُفَضَّضْ
الجَوُّ يُجْلَى فى البَيَـا ضِ وفى حلىٍّ الدُّرِّ يُعْرَضْ
أظننتَ ذا ثلجاً وذا وردٌ على الأغصان يُنْفَضْ
وَرْدُ الربيـع ملوَّنٌ والـورد فى كانونَ أبْيَضْ

وهو يفرح بهذا اليوم من أيام كانون شهر الشتاء القارس ، الذى يكسو الأشجار ثياباً بيضاء ، وكأنها تُجْلَى فيها ، فهو يوم من أيام عُرْسها ، وهو يعبّ فيه من كئوس الخمر المذهبة الصافية ، فرحاً بمنظر الثلج على الأغصان ، وكأنما قِطَعُهُ فى عينه ورودٌ تُنْفَضُ على الأغصان وعلى الأرض ، وورود بيضاء ، تكسو الطبيعة غلائل فضية بهيجة . وكان أكثر ما يفرغ لخمره ولهوه ولذاته فى الرقة ، وكان يختلف مع رفاقه إلى بساتينها ومتنزهاتها على جداول البليخ والهنىّ والمرىّ . وله رائية [2] يصور فيها نزهة فى بساتين تلك الجداول وفى دير زكىّ الذى كان يجاورها ، ذاكراً قُرَاها التى كان يتنقّل بينها من مثل هرقلة والصالحية

(١) الديوان ص ٢٥٥ . (٢) الديوان ص ٥٤ .

وبطنْياس والرافقة وما كان يمتد فى المروج هناك من أنوار وأزهار ، ويصف عكوفه على الخمر وسُقاتها من الغلمان والجوارى ، كما يصف صيده بالكلاب هناك من الغزلان ، وكذلك صيده بالجوارح من الصقور والبُزَاة للطير من مختلف الألوان ، ويصوّر من معه من الرفاق كما يصور نهر الفرات وسفنه المسرعة . وله وراء ذلك أشعار كثيرة فى دير زَكىّ ونُزَهه فى بساتينه وخَلْعه مع بعض رفاقه للعذار فيه ولهوهم مع بعض فتياته ، على نحو ما يحدّثنا فى قوله(١) :

لو على الدّير عجتَ يوماً لألهتْ لك فنونٌ وأطربتك فنـــونُ
كم غزالٍ فى كفّه الوردُ مبذو لٌ وفى الخدّ منه وردٌ مصونُ

ويبدو أنه ارعوى حين تقدمت به السن بعد الخمسين ، وربما كان لموت ابنته ليلى أثر فى ذلك ، فقد صحا من خمره ولهوه على موتها فى سن البراعم الغضة ، ولعل ذلك ما جعله يعلن أنه كفّ عن النبيذ فى حزم وعزم أكيد ، حتى ليقول(٢) :

كنت أُحبّ النبيذ جِدًّا فصـــار حُبّى النبيذ بُغْضَا
فلست أرضاه لى شراباً والحمد لله لست أرْضَى

وينظم بعض أشعار فى الزهد ، وله فيه قصيدة(٣) طويلة ، يتحدث فيها عن الموت وعن ذنوبه ومعاصيه وأنه آن له بعد ما اقترف من الآثام أن يرعوى ويكف عن السير فى طريق اللهو ودروبه . ويتصل بهذا الموضوع عنده أن نجده يفرد بعض القصائد لنصائح خلقية وسلوكية فى الحياة ، وهو الباب الذى يسمّى فى الشعر وأغراضه باسم باب الأدب ، حيث تتوالى النصائح للبصر بالحياة ومسالكها الصعبة ، من مثل قوله فى إحدى قصائده التى خصّها بهذا الباب(٤) :

أضاع الحَزْمَ مَنْ أمْسَى مُطِيعاً طوالَ الدهر ذا حَزْمٍ مضاعِ
وأكثرْ ما استطعت الحلم إنى رأيت الحلم من كرم الطباعِ
ولا تَتْبَعْ أخا سَفِه ودَعْـــهُ وكُنْ للحُرِّ ـ دهرَكَ ـ ذا اتباعِ

---

(١) الديوان ص ٤٩٥ .
(٢) الديوان ص ٢٥٨ .
(٣) الديوان ص ٣٩٣ .
(٤) الديوان ص ٣٢٣ .

ولم نتحدث حتى الآن عن الموضوع الأساسي فى شعره ، وهو وصف الطبيعة التى عاش لها وعاش بها وعاش فيها معيشة جعلته أستاذ هذا الموضوع فى العربية . وقد مضى معاصروه ومن حوله ومن خلفهم فى العصور التالية لا فى المشرق وحده، بل أيضًا فى المغرب والأندلس يسيرون على هديه فيه ، حتى ضُرب المثل بروضياته . وحقًّا كان ابن الرومى مشغوفًا بالطبيعة ووصف الرياض فى الربيع ، ولكنه لم يعِشْ لهذا الموضوع معيشة الصنوبرى ولا اتخذ له بستانًا يزرع فيه الورود والرياحين والأزهار ويتعهدها تعهد المحب الوامق كما صنع الصنوبرى . فهو بحق شاعر من شعراء الطبيعة ، عاش يتغذى خياله وروحه منها ، واصفًا لحدائقها وبساتينها ورياضها ، حتى ليصبح ذلك كل شغله وكل وكْده من حياته ، وقديمًا عاش تلك المعيشة أبو نواس ، ولكن فى الصهباء وكئوسها ودنانها ، مما جعله يُعلى وصفها على وصف الأطلال والديار العافية ، وبالمثل نجد الصنوبرى يُعلى وصف الطبيعة على وصف الديار والأطلال ، فى مثل قوله [١] :

وَصْفُ الرياض كفانى أن أقيم على ... وصف الطلول فهل فى ذاك من باسِ

يا واصف الروض مشغولا بذلك عن ... منازلٍ أَوْحَشَتْ من بعد إيناسِ

قُلْ للذى لام فيه هل تَرَى كَلِفاً ... بأملح الروض إلا أملحَ الناسِ

فهو يُعْلِى وصف طبيعة بلاده على وصف الأطلال ، وكأنه أول تعبير قوى عن شغف شعراء الشام بطبيعة ديارهم الخلاّبة . ورأيناه فى غزله لا يهيم بالمرأة ، وكأنما استأثرت الطبيعة بكل ما فيه من عاطفة ، وشغلته بجمالها الهاجع فى الكون عن كل شىء ، حتى لكأنما يعيش لها كل لحظة من حياته ، وفى كل لحظة يصبو لها قلبه ويشتد وجده وتتتابع أنفاسه ، ويصور ذلك فى قصيدة الأبيات السالفة قائلا عن رفاق له فى أحد البساتين :

ما كدتُ أكتمهم وَجْدى بنرْجِسِهِ ... إلا استدلُّوا على وَجْدى بأنفاسِى

فهو يجد بالرياض وجداً لا يكاد يشبهه وجد ، وكان يشتد به هذا الوجد فى الربيع ، حين تأخذ الأرض زخرفها ويعبق الجو بروائح الأنوار والأزهار ، وتتغنّى

---

(١) الديوان ص ١٨١ .

الطيور على الأشجار ، وكأنما تتحوَّل الرياض فى عينيه إلى أعياد وأعراس ، حتى ليقول[١] :

ما الدهر إلا الربيعُ المستنير إذا … أتى الربيع أتاك النَّوْرُ والنُّور[٢]
فالأرض ياقوتة والجو لؤلؤةٌ … والنبت فيروزَجٌ والماءُ بَلُّورُ[٣]
تظلُّ تنثر فيه السُّحْبُ لُؤْلُؤَهــا … فالأرض ضاحكةٌ والطير مسرورُ
حيث التفتَّ فقُمْرِىٌّ وفاختةٌ … يغنِّيانِ وشِفنِينٌ وزُرْزُورُ[٤]
إذا الهزارانِ فيه صَوَّتَا فهما السُّـ … رْ نايُ والنَّاىْ بل عودٌ وطُنْبورُ[٥]

فالربيع كأنه دكانٌ ملىء بالجواهر ، والدنيا مليئة بالبشر والسرور والطيور تغنى ويشدو عندليبان بصوتهما الساحر ، وكأنما تجتمع جوقة موسيقية تخلب الألباب بأغانيها الجميلة . ويهتف بالناس أن يفتحوا عيونهم وأبصارهم فى الربيع ليروا مفاتنه ويهتف بصواحبه من النساء أن يتأملنَ فى جماله الذى يملأ القلوب غبطة وابتهاجاً ، يقول[٦] :

يا ريمُ قومى الآن ويحك فانظــرى … ما للرُّبَى قد أظهرت أعجابها[٧]
كانت محاسنُ وجهها محجوبةً … فالآن قد كشف الربيع حجابها
وردٌ بدا يحكى الخدودَ ونَرْجِسٌ … يحكى العيون إذا رأتْ أحبابها
وكأنَّ خُرَّمَهُ البديعَ وقد بدا … روسُ الطَّواوس إذ تدير رقابها[٨]
والسَّرْوُ تحسبه العيونُ غوانياً … قد شَمَّرتْ عن سوقها أثوابها[٩]

فهو يوقظ صاحبته لترى الطبيعة وقد حسر الربيع نقابها ، فبدت خدودها وعيونها الرانية ورءوسها الزاهية ، وكأنما السرو غانيات أقبلت مشمرة عن سيقانها

---

(١) الديوان ص ٤٢

(٢) النوْر : الزهر .

(٣) الفيروزج : الفيروز وهو حجر كريم أخضر اللون .

(٤) القمرى والفاختة : من الحمام ، والشفنين اليمام ، والزرزور : من العصافير .

(٥) السرناى والناى : من آلات الطرب .

(٦) الديوان ص ٤٥٤ .

(٧) أعجاب : جمع عجب .

(٨) الخرم : زهر بنفسجى زاه .

(٩) السوق : السيقان جمع ساق .

تريد الرقص فى هذا الجو العطر البهيج . ويفرد كثيراً من مقطوعاته لوصف بعض الأزهار ، ولم يكن زهر يملك لبُبَّه كما كان يملكه زهر النرجس ، وهو أعظم الأزهار فى الشام وأكثرها انتشاراً فيه ، وقد تغنى به طويلا على نحو ما نرى فى قوله[1] :

أرأيتَ أحسنَ من عيون النَّرْجِسِ ... أَم من تلاحظهن وَسْطَ المجلسِ
دُرٌّ تشقَّق عن يواقيتٍ على ... قُضُبِ الزمرُّدِ فوق بُسْطِ السُّنْدُسِ
أجفانُ كافورٍ حُبِينَ بأَعْيُنٍ ... من زعفرانٍ ناعمات الملمسِ

وهو فى كثير من وصفه للنرجس يستهدى بابن الرومى ، إذ كان معجباً به مثله ، ومرَّ بنا فى غير هذا الموضع أن ابن الرومى أدار مناظرةً فى شعره بينه وبين الورد ، وقف فيها مع النرجس مُورداً من الحجج ما يؤكدّ فضله على الورد وأنه يفوقه حسناً وجمالا ، وكأنما أراد الصنوبرى أن يعارضه فنظم مقطوعة[2] نصر فيها الورد، ثم عاد فأقام معركة بين الأزهار ، حاول فيها أن ينتصر للنرجس ، وفيها يقول[3] :

خَجِلَ الورد حين لاحظه النرْ ... جِسُ من حُسْنِهِ وغارَ البَهارُ[4]
فعَلَتْ ذاك حمرةٌ وعَلَتْ ذا ... حَيْرَةٌ واعترى البَهارَ اصفرارُ
وغدا الأُقْحُوَانُ يضحك عجباً ... عن ثنايا لِثَاتُهُنَّ نُضَارُ[5]
عندها أبرز الشَّقيق خدودًا ... صار فيها من لَطْمه آثارُ[6]
وأضرَّ السَّقامُ بالياسمين الـ ... غَضِّ حتى أذابه الإضرارُ

ويمضى الصنوبرى على هذا النمط واصفاً القتال بين النرجس والأزهار المختلفة، وكل منها يبوءُ بالهزيمة أمام النرجس وما يسلط من سهام عيونه الساحرة. وكان كلما وصف بلدة من بلدان الشام وصف طبيعتها الجميلة ، وله فى دمشق والرقة قصائد بديعة ، وأبدع منها قصيدته فى موطنه حلب ، وهى أربعة أبيات ومئة استهلَّها

---

(١) الديوان ص ١٨٠ .
(٢) الديوان ص ٤٩٨ .
(٣) الديوان ص ٧٨ .
(٤) البهار : نبت أصفر .
(٥) الأقحوان : زهر أبيض فى وسطه اصفرار وأوراقه مفلجة ، ولذلك يشبهونه بالأسنان .
(٦) الشقيق : ورد كبير أحمر .

بالتشبيب ، ثم أخذ فى وصف متنزهاتها وقراها ونهرها قويق وبركها ، ثم وصف المدينة نفسها وجامعها وفيه يقول[١] :

حبذا جامعُها الجا معُ للنفس تُقاها
ومـراقى مِنْبَـرٍ أعْ ظَمُ شىءٍ مُرْتقاها
وذُرَى مِئْـذنةٍ طـا لتْ ذُرَى النَّجم ذُراها
قُبـةٌ أَبْدَعَ بانيـ ـها بنـاءً إذ بناهـا
لو رآهـا مبتنى قُبَّـ ـةِ كسرى مابناهـا

وتحدث عن حلقاتها الأدبية والعلمية ، ووصَفَ الطبيعة حولها وأشجارها وأزهارها وصفًا رائعًا ، وتحدث مراراً عن نهر قويق مصرحًا بضحولة مياهه وأنه ليس فيه شىء من سفن الفرات ولا من تماسيح النيل وإنما فيه فقط نقيق الضفادع . وكان طبيعيًّا أن يصف الفستق أعظم نُقْل تشتهر به حلب وفيه يقول[٢] :

زبرجدةٌ ملفوفة فى حريرةٍ مضمَّنةٌ دُرًّا مُغَشًّى بياقوتِ

وكانت لديه قدرة على ملاحظة دقائق الأشياء، ولذلك كان يُحْسِن وصف أى شىء وصفاً دقيقاً ، ومما اشتهر به وعُرِف له وصفه لديك الصباح الذى ينبهه وينبه الرِّفاق معه لخمر الصباح التى تسمى بالصَّبوح ، وكان الشعراء قبله يلمّون به أحيانًا ، أما هو فخصَّه بمقطوعة طريفة وفيها يقول [٣] :

مغرِّدُ الليل ما يألُوكَ تَغْريدا ملَّ الكَرَى فهْو يدعو الصُّبْحَ مجهودا[٤]
لما تطرَّب هزَّ العِطْفَ من طربٍ ومدَّ للصوت — لما مدَّه — الجيدا
كلابسٍ مُطْرَفاً مُرْخٍ جوانبه تضاحكُ البيض من أطرافه السودا[٥]
رانٍ بِفَصَّىْ عقيقٍ يدركان له من حِدَّةٍ فيهما ما ليس محدودا
حالى المقلَّد لو قيستْ قلادتُه بالورد قصَّر عنها الورد توريدا

(١) الديوان ص ٥٠٦ .
(٢) الديوان ص ٤٦٤ .
(٣) الديوان ص ٤٧٣ .
(٤) الكرى : النوم .
(٥) المطرف : ثوب من حرير مخطط .

وكان كثيراً ما يخرج مع رفاقه للصيد والقَنَص ، وخاصة في الرقة ، يصيدون بالكلاب الغزلان أو يصيدون بالجوارح طير الماء ، وقد يصيدون السمك من الفرات بالشباك ، وكل ذلك نجد وصفه في أشعاره ، وله طائية[1] يصف فيها جواده الذى يركبه للصيد وقد جُنَّ جنونه من السرعة حتى لكأنه حاقد على الفضاء ، أما يده فكأنها منبر للشاهين الذى سيطلقه على بَطّ الماء أو طَيْره ، وفيه يقول :

كأنمـــا مِخْلَبُـــهُ لأُذُن الطَّيْر قُرْطْ

ويصور سرعة مضيه حتى كأنه سهم يخرج عن قوس ، فلا يكاد يرتد البصر حتى يأتى بصيده . ويتركه إلى وصف ما معه من كلاب الصيد ، مصوراً سرعتها هى الأخرى وهيئتها وانقضاضها على فرائس الصيد من الغزلان وغير الغزلان ، وفيها يقول :

موكَّـــلات بالفَلا يَطْوِينها طَيَّ البُسُطْ
كأنمـــا آذانُهُ نَّ سَوْسَنٌ لم يُجْنَ قَطْ
كأنمـــا أجفانُها عن قِطَعِ الجمر تُعَطْ[2]

وساعدته حاسته التصويرية على أن يصور كل ما حوله وكل ما يقع عليه نظره ، من ذلك تصويره للجُرْذان والهِرّ[3] ، ونراه يقدم لذلك بتصوير هيئة كل منهما ، فالهر أحدب الظهر منتصب الرأس ، والجرذان دقيقة الخراطيم والآذان والأذناب حادة الأظفار والأنياب ، ثم يتحدث عن إفسادها لكل شيء وكيف تنقب الحيطان والجدران وتصيب من كل طعام وشراب ، والهِرُّ لها بالمرصاد ، يقول :

ناصبٌ طَرْفَهُ إزاءَ الزَّوايا وإزاءَ السقوف والأَبوابِ
يسحب الصَّيْدَ فى أقل من اللَّمْـ ح ولو كان صَيْدُه فى السحاب

ويصور لنا فرحه به حتى لقد ألبسه قُرْطًا وقلادة ، وخضبه بالحنَّاء ، وكأنه عروس مقلدة عقداً نفيساً ، تمشى بأقدامها الحمراء على عُنَّاب ، وكل ذلك

---

(١) الديوان ص ٢٨٣ .
(٢) تعط : تشق .
(٣) الديوان ص ٤٥١ .

فرحٌ بهذا الليث الذى قضى له على الجرذان قضاءً مبرمًا . ومن تصاويره قوله فى شمعة (1) :

مَجْدُولَة فى قَدِّهــا تَحْكى لنا قَدَّ الأَسَلْ
كأنهــا عُمْرُ الفَتَى والنــارُ فيها كالأَجَلْ

وهى صورة طريفة ، ولعل فى كل ما أسلفنا ما يشهد بخصب خيال الصنوبرى وأنه كان خيالا خالقًا ، لا يزال يرسل الصور الطريفة تلو الصور ، صور تحفل بما يملأ نفس قارئه إعجابًا ، وكان إلى ذلك شغوفًا بالرياض والطبيعة شغفًا ملك عليه حواسَّه ، حتى أصبح فيه قدوة للعصور التالية .

(١) الديوان ص ٤٨٥ .

الفصل السادس

شعراء السياسة والمديح والهجاء

١

شعراء الخلفاء العباسيين

عرفنا فى كتاب العصر العباسى الأول أن حزب الخوارج الذى كان يصارع الأمويين مصارعة عنيفة خَمَدَ أُوَارُه ، ولم تَبْقَ منه حينئذ إلا أسراب قليلة حتى إذا كنا فى هذا العصر العباسى الثانى كادت تجفُّ هذه الأسراب ، ولم يَعُدْ من يُعْلن أنه خارجى أو يدافع عن الخوارج إلا أفراد قد نجدهم هنا أو هناك دون أن يكوّنوا حزبًا أو يعملوا على نشر دعوة ، إنما هى أفكار قد تَعِنّ لشخص ، وقد يتبنَّاها ، ولكن دون أن يَحْمِل من أجلها السلاح ودون أن يتغنَّى بها شعراً ، إلا ما كان من صاحب الزنج فإنه مزج فى دعوته بين التشيع ومذهب الأزارقة من الخوارج على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع ، إذكان يستحلّ قتل أطفال المسلمين ونساءهم ويرى المسلمين جميعًا كفاراً ينبغى استئصالهم ، بالضبط على نحو ما كان يذهب الأزارقة . ولكن حتى هذه الحركة الثائرة حركة الزنج لا نستطيع أن نسميها حركة من حركات الخوارج ، لأنها كانت تزعم أو يزعم صاحبها أنها حركة شيعية ناسبًا نفسه إلى فاطمة الزهراء كذبًا وافتراء . وكأنما كان اضمحلال مذاهب الخوارج هو الذى جعله ينسب دعوته إلى البيت العلوى .

أما حزب الشيعة فقد ظلت نيرانه لا تخمد فى هذا العصر ، بل لعلها ازدادت اشتعالا ، بكثرة من كانوا يثورون من العلويين فى الحجاز وفى طبرستان وشرقى الدولة ، وكان وراء هذه الثورات شعر كثير يؤازرها ويناصرها ويرمى بقذائفه وشعله على العباسيين . وكان كثير من الشعراء يقف مع العباسيين ، بل لقد كانت كثرتهم

الغامرة تقف معهم ؛ لأنهم أصحاب الدولة وفى أيديهم خزائنها وأموالها يكيلون لهم منها كَيْلا ، فكان طبيعيا أن يكثر مُدَّاحهم ودُعاتهم ، بل إن كثيرين من شعراء الشيعة أنفسهم كانوا يُظْهرون غير ما يُبْطنون ، فيمدحون هذا الخليفة العباسى أو ذاك لقاء ما يُنْثَرُ عليهم من دراهم ودنانير . وكان منهم الخليفة المعتدل الذى لا يَحْمل على البيت العلوى ولا يضْطغن مثل المنتصر ، وكان منهم المتحامل المبغض مثل أبيه المتوكل أول خلفاء هذا العصر ، وقد مرَّ بنا أمره بحَرْث قبر الحسين ومَحْو أرضه ومَنْع الناس من زيارة مكانه وكذلك زيارة قبر أبيه فى النجف ، وغدا آل أبى طالب فى محنة عظيمة طوال عهده يخافون على أنفسهم من القتل أو من الحبس . وتقرَّب إليه غير شاعر من مثل على بن الجهم بشَتْم على رضى الله عنه كما أسلفنا ، إما نَصًّا وإما تعريضًا كقول الجمَّاز أحد ندمائه[1] :

ليس لى ذنبٌ إلى الشـ ـيعة إلا خَلَّتين
حبُّ عثمانَ بن عفَّا ن وحبُّ العُمَرَيْن

يريد بالعمرين أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب ، ملوِّحًا بأنه من أهل السنَّة ، وأنه على مذهب المتوكل فى التَّسَنُّن ومَقْت الشيعة . وفتح المتوكل أبوابه للشعراء كى يمدحوه ويمدحوا بيته ويبرهنوا على أنه هو البيت الوارث حقًّا للخلافة ، ملوِّحين فى وجوه العلويين ومن يتمذهب معهم من الشيعة . وعرف الشعراء فيه هذا الجانب ، فاستغلوه يتقدمهم ابن الجهم ومروان بن أبى الجنوب وغيرهما كثيرون ، وأتوه من كل فجٍّ من الشام والموصل والكوفة والبصرة والجزيرة العربية . وكان ممن أقبل عليه من الكوفة أبو الشِّبْل البُرْجُمِىّ ، حتى إذا دخل عليه أنشده قصيدة مؤلفة من ثلاثين بيتًا استهلَّها بقوله[2] :

أَقْبِلِى فالخَيْرُ مقبلْ واتركى قولَ المعلِّلْ
وثِقى بالنُّجْح إذْ أبـ صرتِ وجهَ المتوكل

وما إن انتهى منها حتى أمر له بألف درهم لكل بيت ، فانصرف بثلاثين ألف

(١) معجم الشعراء للمرزبانى (طبعة الحلبى) ص ٣٧٥ .

(٢) الأغانى (طبع دار الكتب المصرية) ١٤ / ١٩٣ .

درهم . وكان يَغْدو ويَرُوح في ركابه البحترى يمدحه في كل مناسبة مشيداً بآبائه ووراثته لنور النبوة وإمامته وهديه وعدله ، ويتحول إلى ما يشبه داعية له فى كل عمل من أعماله . ومن طريف ما نقرأ من مدائح للمتوكل عند غيره مدحة لإبراهيم بن المدبر وكان لا يزال شابًّا يعمل فى دواوينه ، فمرض المتوكل ثم عوفى ، ودخل الناس على طبقاتهم يهنئونه بالإبلال من مرضه ، ودخل إبراهيم ، ولم يكد يقف بين يديه حتى أنشده قصيدة يهنئه فيها بسلامته مهللا مبتهجًا مع المبتهجين المهللين ، وفيها يقول[1] :

اليوم عادَ الدِّينُ غـ ـضَّ العودِ ذا وَرَقٍ نَضِـيرِ
يا رحمــةً للعالمِيـ ـنَ ويا ضياءَ المستنيرِ
يا حجــةَ اللهِ التى ظهرتْ له بِهُدًى ونورِ

والمبالغة واضحة وكأننا بإزاء غالٍ من غلاة الشيعة يمدح إمامه ، وقد لعبت فيما بعد كلمة « حجة الله » دوراً كبيراً فى المذهب الإسماعيلى الفاطمى . وكان طبيعيًّا أن يَطْرَب المتوكل حين سمع القصيدة ، فيأمر له بخمسين ألف درهم ويتقدم إلى وزيره عبيد الله بن يحيى أن يوليه عملا جليلا ينتفع به . وكان كثيرون يسيل لُعابهم لمثل هذا العطاء الجزيل ، حتى كبار الكتّاب من أمثال إبراهيم بن العباس الصولى ، وكانوا ما يزالون ينتهزون الفرص من الأعياد والمناسبات ، وكان من أكبر هذه المناسبات عقد المتوكل البيعة لولاة العهود أبنائه الثلاثة : المنتصر فالمعتز فالمؤيد ، وصنع لذلك موكبًا ضخمًا ، سار فيه مع أولاده حتى نزل القصر الذى سمّاه العروس وأذن للناس فدخلوا إليه . فلما تكاملوا بين يديه وقف الصولى بين الصَّفَّيْن ، واستأذن فى الإنشاد فأذن له فقال[2] :

أَضْحَتْ عُرَى الإسلام وَهْىَ منوطةٌ بالنَّصْرِ والإعزاز والتـأْييدِ
بخليفــةٍ من هاشمٍ وثــلاثة كَنَفُــوا الخلافة من وُلاة عهودِ

(١) أغانى (طبعة الساسى) ١٩ / ١١٤ .

(٢) أغانى (طبعة دار الكتب) ١٠ / ٦٤ وانظر الطبرى ٩ / ١٨١ والديوان (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) مع مجاميع شعرية أخرى ص ١٣١ .

قمرٌ تواقَتْ حوله أقمــارُهُ فَحَفَفْنَ مَطْـلَعَ سَعْدِهِ بسعود
كَنَفَتْهُم الآباء واكتنفت بهم فَسَعَوْا بـأَكْرَمِ أنفُسٍ وجدود

فأمر له المتوكل بمائة ألف درهم وأمر له ولاة العهود بمثلها . ويتولى بعده المنتصر، فيرفع المحنة عن آل أبي طالب ويدفع عنهم الأذى ويردّ عليهم الأمن ، ويتغنى شعراؤه بهذا الصنيع ، يتغنّى البحترى ويتغنى غيره ، ويتغنى شعراء الشيعة من أمثال يزيد[1] بن محمد المهلبي . وسرعان ما يخلفه المستعين ، وفيه يقول أحمد بن يحيي البلاذرى [2] :

ولو أنَّ بُردَ المصطفى إذ لِبَسْتَهُ يظنُّ لظنَّ البُرْدُ أنك صاحبُهْ
وقال وقد أعْطيته ولِبسَتهُ نعم هذه أعطافه ومناكِبُهْ

ويتولّى الخلافة بعده المعتز ، وكان شاعراً مجيداً ، ولو امتدت به الخلافة لكان مثل ابنه عبد الله فى خصب ملكاته الشعرية ، وقصده كثير من الشعراء ، ليأخذوا جوائزه أو ليصبحوا من ندمائه إذ كان صاحب لهو وقصف ، فلم يكد يتسلم مقاليد الخلافة حتى فتح أبوابه لهم ، وكان ممن دخل عليه وأنشده مهنئًا أبوعلى البصير قائلا [3] :

آبَ أمرُ الإسلام خير مآبهْ وغدا الملك ثابتاً فى نِصابهْ
مستقرًّا قـــراره مطمئنًّا آهلا بعد نَأْيِهِ واغترابِهْ

وتطول مدة المعتمد نحو عشرين عامًا أو تزيد سنوات ،وكان فيه لهو وانغماس فى الترف ، ولكن يده كانت مكفوفة عن المال ، كفّها أخوه وولىّ عهده الموفق أشد بنى العباس شكيمة لعصره وأحزمهم بكل معانى الحزم وأروعه . وكأنما اختاره القدر فى عصر أخيه لينازل الزنج وصاحبهم فى ثورتهم العارمة ويقضى عليها قضاء مبرمًا . فكان طبيعيًّا أن ينصرف الشعراء عن الخليفة إلى ولى عهده وأمجاده الحربية فى وقائعه مع الزنج من جهة ومع يعقوب الصفّار من جهة ثانية . وقد صورنا هذه

---

(١) مروج الذهب ٤ / ٥٢ .
(٢) النجوم الزاهرة ٣ / ٩٨ .
(٣) مروج ٤ / ٨٢ .

الوقائع فى غير هذا الموضع ، وفى وقائعه مع الصفار يقول ابن فَيْد الطائى مصوّراً انتصاره[١] :

وولىُّ عهد المسلمين موفّقٌ　　بالله أمضى من شهابٍ ثاقبِ

يافارسَ العُرْب الذى ما مثله　　فى الناس يُعْرَفُ آخَرٌ لنوائبِ

وتولّى الخلافة المعتضد ، وكان مثل أبيه شجاعة وفروسية وحزمًا . ومرّ بنا أنه كان من مدّاحه ابن الرومى فهو يهنئه فى الأعياد المختلفة وينتهز كل مناسبة لينظم فيه أشعاره مهللا ممجداً . ونظم فيه ابن المعتز كثيراً من مدائحه ، كما أسلفنا ، وكان قُرّة عينه ، وله صنع أرجوزته التاريخية التى صوّر فيها عهده تصويراً بارعًا ، وفيها أصْلَى خصوم العباسيين ناراً حامية ، مصوراً بشاعة ثورتى الزنج والقرامطة ، وكأنما جرّد من نفسه محاميًا أمام أبناء عمومته العلويين مدافعًا عن بيته وحقوقه فى الخلافة ، ومرّ بنا ذلك فى حديثنا عنه . ويتولّى المكتفى بعد أبيه المعتضد ويُسْبغ عليه ابن المعتز مدائحه ، كما يُسْبِغها أبو بكر الصولى وغيره . ثم تكون خلافة المقتدر وتأخذ الدولة فى الانتكاس . ويظل الشعراء يقدمون مدائحهم للخلفاء طلبًا للنوال من أمثال ابن بَسّام[٢] وغير ابن بسام . ونحن نقف عند ثلاثة من شعراء العصر طالما مدحوا خلفاءه ، وهم مروان بن أبى الجنوب وعلى بن يحيى المنجم وأبو بكر الصولى .

مروان بن أبى الجنوب أبو السمط[٣]

حفيد مروان بن أبى حفصة شاعر الخليفة المهدى ، أصل موطنهم اليمامة ، وقد سلك مسلك جدّه فى الطعن على آل على بن أبى طالب ، فكان طبيعيًّا أن يفتح له جعفر المتوكل أبواب قصره وقد بلغ من حنقه على أبناء عمه العلويين

---

(١) طبرى ٩ / ٥٢٠ .

(٢) انظر أخبار الراضى والمتقى فى كتاب الأوراق للصولى .

(٣) راجع فى أخبار مروان وأشعاره الشعر والشعراء لابن قتيبة وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٩٢ ومروج الذهب ٤ / ٥٢ ، ٨٣ والطبرى ٩ / ٢٣٠ والأغانى (طبعة الساسى) ٩ / ٣٤ وتاريخ بغداد ١٣ / ١٥٣ والفهرست لابن النديم ٢٣٥ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٣٢١ والموشح ص ٣٤٤ ووفيات الأعيان وخزانة الأدب للبغدادى ١ / ٤٤٧

صوَّرناه فى غير هذا الموضع . ويبدو أن الواثق لم يكن يُعْجَبُ به ولا بشعره فنفاه إلى اليمامة ، فلما ولى الخلافة بعده المتوكل بعث إلى ابن أبى دُؤاد مستشاره بقصيدة مدحه بها ، ذم فيها ابن الزيات وزير الواثق ذمًّا قبيحًا ، وكان المتوكل قد قبض على أمواله وعذَّبه فى تَنّور من خشب ملأه بمسامير من حديد حتى مات فقال فيه مروان :

وقيل لىَ الزَّيَّاتُ لاقى حِمَامَهُ فقلتُ أتانى الله بالفتح والنَّصْرِ
لقد حفر الزيات بالغدر حُفْرَةً فأُلْقِىَ فيها بالخيانة والغَدْرِ

وكان ابنُ الزيات أولَ من عمل هذا التنُّور ، وعذَّب به نفراً . وما إن صارت القصيدة إلى ابن أبى دؤاد حتى طار إلى المتوكل وأنشده البيتين السالفين ، فأمره بإحضاره . فقال له إنه باليمامة ، كان الواثق نفاه لمودَّته لأمير المؤمنين ، وعليه دَيْنٌ : ستة آلاف دينار ، فقال المتوكل : يُعْطاها . فأعطيت له ، وجىء به إلى سامرَّاء ، فدخل على المتوكل وأنشده قصيدة لامية يقول فيها :

كانتْ خلافة جعفرٍ كنبوَّةٍ جاءت بلا طَلبٍ ولا بتنحُّلِ
وهبَ الإلهُ له الخلافةَ مِثْلَمَا وهبَ النبوة للنبىِّ المرسلِ

فأمر له بخمسين ألف درهم . وأخذت هباتُ المتوكل الغدقة تنثر عليه نَثْراً ، فهو يغدو ويروح عليه بالمدائح . والمتوكل يُسْبِغ عليه عطاياه ، وكان مما أخذ فيه نوالا كبيراً قصيدته التالية التى أنشدها المتوكل حين عقد ولاية العهد لأبنائه الثلاثة : محمد المنتصر وعبد الله المعتز وإبراهيم المؤيد ، وفيها يقول :

ثلاثة أمــلاكٍ فأما محمدٌ فنورُ هُدًى يهدى به اللهُ مَنْ يَهْدِى
وأمــا أبو عبد الإله فإنه شبيهك فى التقوى ويُجْدِى كما تُجْدى
وذو الفضل إبراهيمُ للناس عصمةٌ تَقِىٌّ وَفِىٌّ بالوعيد وبالوَعْدِ
فأولهم نــورٌ وثانيهمُ هُدًى وثالثهم رُشْدٌ وكلهم مَهْدِى

فلما أتمَّ إنشادها أمر له المتوكل بمائة وعشرين ألف درهم وخمسين ثوبًا وبغلة وفرس وحمار . فما برح حتى قال فى شكره :

تخيَّر رَبُّ الناس للناس جعفرًا   فملَّكه أمـرَ العباد تَخَيُّرا

حينئذ رَدَّ عليه ضياعه التي كان ابن الزيات قد صادرها ، وجعل له راتبًا في الديوان ، ولعل أهم من كل هذا المديح أنه دافع بحرارة في جوانب من مديحه عن حقوق العباسيين في الخلافة مؤتسيًا في ذلك بجدّه مروان بن أبي حفصة ، وانتسى به أيضًا في الرد على العلويين ونَقْض ما يدّعونه من وراثة الرسول في الخلافة ، إذ هم أبناءُ السيدة فاطمة الزهراء والعمُّ مقدم على أولاد البنت في الوراثة حسب حكم الشريعة . ومن خير ما يصور ذلك عنده قصيدته الميمية التي تمضي على هذا النمط :

مُلْكُ الخليفـة جعْفَرٍ   للدين والدنيا سلامَهْ

لكم تراثُ محمَّدٍ   وبِعَدْلكم تُنْفَى الظُّلامَهْ

يرجو التراث بنو البنا   تِ وما لهم فيها قُلامَه

والصِّهْرُ ليس بوارثٍ   والبنتُ لا تَرِثُ الإمامَهْ

أخذ الوراثةَ أهْلُها   فعلامَ لَوْمُكُمُ علامه

وهو يشير بوضوح في الأبيات إلى أن مصاهرة على بن أبي طالب للرسول عليه السلام لا توجب له وراثة ، كما يشير إلى أن السيدة فاطمة بنتٌ ، والبنت لا ترث الولاية على المسلمين ولا تحق لها الإمامة ، فكيف تُورَثُ الإمامة من قبلها ؟ والشريعة واضحة في ذلك . وطار المتوكل حين سمع القصيدة ابتهاجًا ، وقلَّده اليمامة والبحرين وخلع عليه أربع خلع ، وخلع عليه ولى عهده المنتصر . وأمر المتوكل له بثلاثة آلاف دينار فنُثرت على رأسه ، وأمر ابنه المنتصر وسعداً الإيتاخيّ بالتقاطها له دون أن يلتقط هو منها شيئًا إكرامًا له ، ويقال إنه حشا فمه جوهراً . ومن طريف ماله فيه قوله :

تخشى الإله فما تنام عنايةً   بالمسلمين وكلهم بك نائمُ

لو كان ليس لهاشم فيما مضى   سلفٌ سواك لقامَتْ بك هاشم

وقال بعض معاصريه إن المتوكل أعطاه مائتي ألف دينار من [illegible]

وذهب وكُسْوة . وكانت هذه العطايا الغامرة تملأ نفوس بعض الشعراء من حوله وحول المتوكل حسداً أن تعلو جائزته جوائزهم ، فكانوا يتبادلون معه بعض الأهاجى حتى شاعرٌ نابهٌ مثل على بن الجهم نراه يتهاجى معه ، ولم يكن مروان يَصْمت بل كان يبادر أحيانًا إلى الهجاء ، ويُرْوَى أن ابن الجهم قال فى فاتحة قصيدة له فى المتوكل :

اللهُ أكبرُ والنبىُّ محمَّدٌ والحق أَبْلَجُ والخليفة جعفرُ

ولم يكد يسمع مروان قوله ، حتى أعمل فكره ، وبادره يقول له ساخراً منه سخرية شديدة بل سخرية مرة شديدة المرارة :

أراد ابنُ جَهْمٍ أن يقول قصيدةً بمدح أمير المومنين فأَذَّنا
فقلتُ له لا تعجلنْ بإقامةٍ فلستُ على طُهْرٍ فقال : ولا أنا

وكان يقدّم لمدائحه بنسيب رقيق يحيِّى فيه نجداً ويدعو لها ولأهلها بالسقيا ويتمنى زورةً لهم أو إلمامة قصيرة . وله أبيات جيدة يتحدث فيها عن الشيب ، والشباب وعهده وعهوده ، وحبه الماضى ، وفيها يقول :

شمسُ الشباب علىَّ اليومَ طالعةٌ وسوف تغرب إن الدهر ذو غِيَرِ
إذا الشبابُ مضَتْ عنا بشاشته فما نُبالى متى صِرْنا إلى الحُفَر
لنا من الشوق أكبادٌ مصدَّعــةٌ وأَعْيُنٌ كُحِلَتْ بالدَّمْعِ والسَّهَر
سَقْياً ورَعْيًا لأَظعانٍ مُوَلِّيَةٍ فيها خَرائدُ كالغزلان والبقر
ودَّعتهنَ وداعاً زادنى كَمَدًا ما كان إلا كوِرْدِ الطائر الحذِرِ

وله شعر فى المعتز رواه المسعودى فى المروج مما يدل على أنه عاش حتى عصره . ولعل فيما قدمنامن أشعاره ما يدل على خصب شاعريته وأنه كان مثل جدّه يعنى بصقل أشعاره وانتخاب ألفاظه حتى تروق سامعيه بما فيها من جزالة وطلاوة .

علي (١) بن يحيى المنجم

من أصل فارسي أسلم أبوه يحيى على يد المأمون وخُصَّ به ، ويقال إن جدّ يحيى أبرسام البُزُرْج كان وزيراً لأردشير وصاحب أمره . وشملته عناية المأمون هو وابنه على ، وتوالى عليهما برّه ، وأخذ نجم الأسرة فى التألق ببلاط المأمون والمعتصم ، وتوثقت الصلة بين على ومحمد بن إسحق بن إبراهيم المصعبى ، ثم بينه وبين الفتح بن خاقان وزير المتوكل ، ووصفه له وقدّمه إليه ، وأعْجب به المتوكل وقرّبه منه ، حتى صار أكبر ندمائه ، يساعده فى ذلك علمه الواسع بالرواية والأخبار . وكان أشبه بالموسوعيين فهو يأخذ من كل علم وكل أدب بطرف ، مع إحسانه اختيار الطرائف والنوادر ، حتى كان المتوكل لا يصبر على بعده . ويقال إنه بلغ مجموع ما وصله به ثلاثمائة ألف دينار ، وخلفه المنتصر فغلب عليه أيضًا ، وقدّمه على جميع جلسائه ، وقلّده أعمال الحضرة ، وأقرّه المستعين على ما تقلده من تلك الأعمال . ثم خلص الأمر للمعتز ، فكان أول من طلبه لمنادمته على بن يحيى ، وحين قدم عليه تلقاه أجمل لقاء وخلع عليه ووصله ، وقلّده الأسواق والعمارات ، وقدّمه على جميع الندماء ووصله بثلاثة وثلاثين ألف دينار وقلّده قصره الكامل فبناه ووصله عند فراغه منه بخمسة آلاف دينار ، وأقطعه ضيعة كبيرة . ثم أفضى الأمر إلى المعتمد ، فحَظِيَ فى عهده حُظْوة كبيرة ، ووصله صلات سَنِيَّة ، وقلّده أعمال الحضرة ، وما زال يحظى برعايته ورعاية أخيه الموفق حتى نهاية حياته .

وابن المنجم نموذج رفيع لندماء الخلفاء ، فقد كان هناك ندماء كثيرون مضحكون كل همهم إضحاك الخلفاء وإدخال السرور على نفوسهم بما يوردون على أسماعهم من الأجوبة الهازلة أو ما يدخلون على ملابسهم وحركاتهم من الصور المضحكة . وكان ابن المنجم مع ظَرْفه وما يورد على الخلفاء من النوادر والأخبار والقصص المستحبّة ، بل قل مع اكتمال خصال المنادمة فيه ومعرفته بضروب الثقافات ، حتى

(١) انظر فى حياة على بن يحيى وأشعاره معجم الأدباء ١٥ / ١٤٤ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ١٤١ والفهرست ص ٢١١ والأغانى (طبعة الساسى) ٩/٢٢ وتاريخ بغداد ١٢/١٢١ ومروج الذهب ٤/١٩١ والنجوم الزاهرة ٣/٧٣ .

قيل إنه طبيب ومنجم وأديب وشاعر ومغن وجليس ومضحاك ، مع هذا كله كان فيه غير قليل من الوقار . وكان يُعَدُّ من رعاة الأدب فى عصره حتى كان بيته مألفاً للأدباء ، وكان يصل كثيراً منهم بالخلفاء والأمراء، ويستخرج لهم منهم الصلات، وكان يبلغ من عنايته بهم أن يهدى إلى الخلفاء والوزراء عنهم الهدايا الطريفة ، حتى ينفحوهم بالنوال السابغ ، وكان كثيراً ما يهب من ماله لمن يحرمون الصلات من الأدباء . وليس ذلك كل ما يرفع منه ، فقد ألهمه تفكيره الصائب أن يستغلَّ الأموال الكثيرة التى كانت تُنْثَرُ عليه من المتوكل وغيره من الخلفاء فى إقامة مكتبة ضخمة، مرَّ بنا حديث عنها فى غير هذا الموضع ،وكان طلاب العلم يقصدونها من كل مكان والكتب مبذولة لهم ، وكذلك النفقة مهما طالت إقامتهم . وبذلك كان من رعاة طلاب العلم والأدب فى عصره ، بل لعله كان أكبر رُعاتهما ، ولا شك فى أن ما عُرِف عنه من خبرة تامة بالكتب وثقافة واسعة بها هو الذى جعل الفتح بن خاقان يطلب إليه صُنْعَ مكتبة له يباهى بها معاصريه . ومن تتمة ثقافته أن يُذْكَرَ له من التصانيف كتاب الشعراء القدماء والإسلاميين، وكتاب أخبار إسحق الموصلى وكتاب الطبيخ ، والكتابان الأخيران يتصلان بمنادمته لاتصالهما بأخبار المغنين وبتذُّوقِ الأطعمة .

وكان شاعراً ، وله شعر كثير كما يقول ياقوت فى ترجمته ، غير أنه لم يكن يُعْجَبُ بشعره ، ولذلك لم يكثر من الاستشهاد به إلا ما جاء فى سياق أخباره ، ولو أنه صنع لاطلعْنا بوضوح على أشعاره فى الخلفاء والوزراء . ولعل أول شعر قاله ما نظمه فى رثاء المأمون ومديح المعتصم ، مما رواه ياقوت فى ترجمته ، وبدون ريب كانت له أشعار كثيرة فى المتوكل ومن تلاه من الخلفاء ، ونستطيع أن نتخذ صورة لهذه الأشعار قوله فى المعتز حين استولى على مقاليد الخلافة :

بَدَا لابساً بُرْدَ النبىِّ محمدٍ ... بأحسنَ مما أقبل البدرُ طالعا
سَمِىُّ النبىِّ وابن وارثه الذى ... به استشفعوا أكرمْ بذلك شافعا
وكل عزيزٍ خشيةً منه خاشعٌ ... وأنت تراه خشية الله خاشعا

وهو شعر متوسط ، شعر يعتمد على المناسبة الحاضرة . ولذلك كان يستساغ فى

وقتها كما تستساغ كلمات الندماء ونوادرهم وفكاهاتهم . وهكذا دائماً شعرهم ، فهو إنما يُعْجب فى لحظة قوله ، ولذلك كان يُرْوَى مع أخبارهم . ومن هذا الطراز نفسه قصيدته فى الفتح بن خاقان التى أنشد ياقوت منها بعض أبياتها ، وله وراء ذلك أشعار يصوّر بها سمو نفسه ، لعل من أطرفها قوله :

سيعلم دهرى إذ تنكَّر أننى صبورٌ على نكرانه غير جازعِ
وأنى أسوس النفس فى حال عُسْرها سياسةَ راضٍ بالمعيشة قانع
كما كنت فى حال اليسار أسوسها سياسة عَفٍّ فى الغنى متواضع
وأمنعها الوِرْدَ الذى لا يليق بى وإن كنت ظمآناً بعيد الشَّرائع

فهو يصوّر نفسه صابرة لا تجزع مهما ادلهمَّت الخطوب ، كما يصور نفسه لا تهون فى حال عسر او شدة ، بل تتقبَّلها راضية قانعة كما تقبَّلت اليسر قَبْلاً مزدرية مغرياته فى تواضع غير مسفّ دون أى إحساس باستعلاء ، وإنه ليمنع نفسه الإلمام بأى وِرْد دنىّ مهما كان ظمآنَ ، كاظمًا لظمئه ، محتملا لحرارة عطشه . وله فى الطيف :

بأبى واللهِ مَنْ طَرَقا كابتسام الصبح إذ خفقا
زادنى شوقاً برؤيتــه وحَشَا قلبى به حُرَقا
زارنى طَيْفُ الحبيب فما زاد أن أغرى بىَ الأَرقا

وكأنما أراد أن يحاكى البحترى فى كثرة أشعاره التى نظمها فى الطيف . ولا شك أنه من طراز متوسط ، فأجنحته ليست من القوة بحيث تستطيع أن تحلق به فى الأفق الذى يحلق فيه البحترى . ومرَّت بنا آنفًا رعايته للأدباء والشعراء ، مما جعل غير شاعر ينظم فيه بعض مدائحه ، مصوراً كرمه الفياض من مثل قول أبى هفان :

لربيع الزمان فى الحَوْل وقتٌ وابنُ يحيى فى كل وقت ربيعُ
رجلٌ عنده المكارم سوقٌ يشترى دهره ونحن نبيعُ

ولذلك حين وافاه القدر سنة ٢٧٥ عن أربعة وسبعين عامًا بكاه كثير من الشعراء ، وفى مقدمتهم ابن بسّام ، وقد أنشدنا فى غير هذا الموضع مرثيته له ، وهى مرثية جيدة .

أبو بكر الصولى[1]

هو محمد بن يحيى بن عبد الله بن العباس الصولى من بيت كتابة وشعر ، تقلد أصحابه كثيراً من الأعمال السلطانية ، مثل عمه إبراهيم بن العباس ، وكان أكبر كاتب فى دواوين المتوكل. وهما من أسرة صول تكين أحد أمراء جرجان . كان قد ظفر به يزيد بن المهلب فى بعض حروبه وهو وال على خراسان للحجاج ، فأسلم على يديه ، ولزمه وأصبح من رفاقه ، حتى إذا ثار يزيد على بنى أمية فى أوائل القرن الثانى للهجرة ثار معه عليهم محاربًا فى صفوفه ، ودارت عليهما معًا الدوائر فسقطا قتيلين فى ميادين المعارك . وقد تتلمذ أبو بكر لعلماء عصره فى بغداد : أبى داود السجستانى وثعلب والمبرد ، وكذلك لأصحاب الأخبار والمؤرخين ولأصحاب الهندسة ، وتدل صلته بالأخيرين على معرفته بعلوم الأوائل . وكان يُحْسن لُعْبة الشّطرنج حتى قالوا إنه كان أكبر حاذق لها فى زمنه . وأكبّ على معارف عصره إكبابًا منقطع النظير ، وجعله هذا الإكباب يُعْنَى بجمع الكتب ، وما زال يجمعها حتى كوّن لنفسه مكتبة ضخمة تحدث عنها معاصروه ، كما أسلفنا ، وراعتهم فيها جلود الكتب المختلفة الألوان ، إذ جعل لكل صفّ من الكتب لونًا ، فصف أحمر وصف أخضر إلى غير ذلك . وفتحت له معارفه الواسعة ومهارته فى لعبة الشطرنج أبواب الخلفاء منذ عهد المعتضد ، وهو مع ذلك يغدو عليهم ويروح بمدائحه ، وهم ينثرون عليه أموالهم ، مما جعله يعيش معيشة رَغْدة . وكلّفه المقتدر تعليم ولديه الراضى وهرون ، فأحسن تعليمهما ، وخرّج أولهما شاعراً وأديبًا لَسِنًا ، حتى إذا ولى الخلافة اتّخذه نديمه ومستشاره . ويزورّ عنه الخليفة المتقى بعده فيترك بغداد إلى

---

(١) انظر فى أخبار أبى بكر الصولى وأشعاره الفهرست ص ٢٢١ وتاريخ بغداد ٣ / ٤٢٧ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٤٣١ وديوان المعانى للعسكرى (انظر الفهرس) وذيل زهر الآداب ص ٢٤٥ ومعجم الأدباء ١٩ / ١٠٩ ووفيات الأعيان والنجوم الزاهرة ٣ / ٢٩٦ وله فى كتابه أخبار الراضى والمتقى أشعار كثيرة .

بجكم التركى حاكم واسط سنة ٣٢٩ ويتوفّى المتقى سنة ٣٣٣ فيعود إلى بغداد وسرعان ما تحل به ضائقة ، فيتركها إلى البصرة سنة ٣٣٥ حيث لبّى نداء ربه ويقال بل إن الخليفة المستكفى عرف تشيعه لآل على بن أبى طالب فطلبه ، وفرّ منه إلى البصرة .

وقد صنع الصولى دواوين كثيرة لطائفة كبيرة من الشعراء المحدثين فى مقدمتهم أبو نواس وأبو تمام وابن الرومى وابن المعتز . وصنّف كتباً جليلة فى أخبار الخلفاء وسيرهم وأخبار من تقدم وتأخر من الشعراء والوزراء والكتّاب والرؤساء . ومن كتبه النفيسة كتابه « الأوراق » وقد نُشر منه ثلاثة أجزاء : جزء خاص بأخبار الشعراء المحدثين وجزء خاص بأشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم وجزء خاص بالخليفتين : الراضى والمتقى . ونُشر له مصنفه أدب الكتّاب وكتاب أخبار أبى تمام وهو فيه ينتصر له ضد خصومه، ولعل فى ذلك ما يصور بصره بالشعر العباسى ، وأنه كان يقف فى دقة على أساليبه ومذاهبه ؛ إذ نبّه على أن أبا تمام صاحب مذهب جديد فى الشعر ولامَ من يعيبونه ببعض أبيات فاته التوفيق فيها متناسين تحليقه فى آفاق الشعر العليا التى تنقطع من دونها الرقاب .

وعلى هذا النحو كان أبو بكر الصولى شاعراً ناقداً عالماً ، وكان متثقّفاً ثقافة واسعة بكل مواد المعرفة فى عصره . ولم يصل إلينا ديوانه ولكن وصلت طائفة من أشعاره التى كان يُنْشدها الراضى فى حفلات القصر وفى المناسبات المختلفة دوّنها بنفسه فى أخباره ، كما وصلت إلينا مقطوعات متنوعة احتفظت بها الكتب الأدبية والتاريخية . وسقطت من يد الزمن مدائحه فى المعتضد إلا بعض أبيات دالية ذكر المسعودى أنه أنشدها فى قصيدة مدحه بها ، وفيها يقول :

لأَميرُ المؤمنين المعتضدْ ... بحرُ جودٍ ليس يَعْدوه أحدْ

ولم يصل إلينا من مديحه للمكتفى سوى قصيدة واحدة ، وقد اضطر — كما يقول — إلى أن ينشدها المتّقى حين استولى على مقاليد الخلافة ، وكان قد طُلب إليه أن ينشده عاجلا قصيدة يهنئه فيها بالخلافة ، ويقول إنه وضع فيها كلمة المتّقى بدلا من كلمة المكتفى ، وفيها يقول :

مددت على الإسلام أكنافَ نعمةٍ لأعطافها ظلٌّ عليه ظَلِيلُ
ولولا بنو العباس عمِّ محمَّدٍ لأصبح نور الحق فيه خُمول
لكم جبلا اللهِ اللذان اصطفاهما يقومان بالإسلام حين يميل
نبوّته ثم الخـــلافةُ بعدها وما لهما حتى اللِّقاءَ حَوِيلُ (١)

وكلُّ ما فى القصيدة من صياغة وخيال يدلُّ على أن الصولى كان يتكلف هذا المديح تكلفاً. حقًّا هو يبالغ فيه ويغلو على عادة شعراء الدعوة العباسية، ولكن نحس أن الكلام يفقد الروح وأنه لا يصدر عن عاطفة حقيقية، وبالمثل ما رواه له عريب فى ذيل الطبرى من مديح للمقتدر، وحتى الراضى تلميذه الذى أغدق عليه عطاياه حتى لكأنما تحولت إلى نهر فياض نجد فى مدائحه له نفس هذا الطراز المتكلف. وكان لا يترك مناسبة من عيد أو نيروز أو فتح إلا أنشده فيها قصيدة، وقد تطول طولا مسرفاً، ومع ذلك نفقد فيها الحرارة من مثل قوله يهنئه بانتصار جيوشه على مرداويج الثائر بأصبهان :

آنَسَ اللهُ بالخليفة مُلْكاً مُوحِشَ الرَّبْعِ واهنَ التأسيسِ
يا نسيمَ الحياة أضحكت دهرًا كان لولاك دائمَ التَّعْبِيسِ
مرْدويجٌ بسيف حَظِّك مقتو لٌ فأَهْوِنْ بذاك من مَرْموسِ (٢)
قَصَفَتْهُ رياحُ أيامك الغُرِّ فأَخْمَدْن منه نار المجوسِ
وتولَّتْ بمأتم الدَّهر أيامٌ أتتنا تجرُّ ذيل العروسِ

والتكلف واضح فى الأبيات، والصور لا تقع فى مكانها، فالخلافة كانت موحشة وكانت واهنة، والخليفة نسيم الحياة، نسيم أضحك دهراً كان عبوساً قمطريراً ومرداويج لم يهزمه أبطال الدولة وإنما هزمه الحظ ورياح دولة الراضى الغراء، وخلعت الأيام سواد الحزن، وجاءت تجر ذيول الفرح. كلام متلاصق، وليس شعراً حيًّا نابضاً بروح، وربما كانت خير قصائده فيه قصيدته الدالية التى أنشدها فى مجلسه لسنة ٣٢٧ وفيها يقول :

---

(١) حويل : تحول. (٢) مرموس : من الرمس وهو القبر.

خليفةٌ أُكمِلَتْ فضائلُهُ ففَرْعُهُ طيِّبٌ ومَحْتِدُهُ
تعبَّد المجد فهو يَمْلكه طارفُه عنده ومُتْلَدُهُ
قد رضى الراضىَ الإلهُ لإصـ ـلاح زمان سِواه مفسدُهُ
فهو بتفويضه الأمور إلى اللـ ـهِ بحسن التوفيق يعضدُهُ

ولا يخفى ما فى هذه الأبيات من تكلف يتضح فى بناء الشطر الثانى من البيت الأول على سابقه ، كما يتضح فى جعل المجد عبداً للممدوح وكأنه استذلَّه ، والجناس بين رضى والراضى شديد التكلف ، وكلمة سواه نابية فى مكانها غير مستقرة والصياغة فى البيت الرابع تتنافر أجزاؤها تنافراً شديداً . ومن هذا الطراز نفسه عزاؤه للراضى فى أخيه هرون ، وهو يستهلُّه على هذا النمط :

تَعَزَّ يا خير الوَرَى عن أخٍ لم يَشُبِ الإخلاص باللَّبْسِ
كان صديقاً وافرًا ودُّهُ صداقةَ الأنفس والجِنْسِ
تعزَّ عنه بنبيِّ الهُدَى محمَّدٍ إذْ حَلَّ فى الرَّمْسِ

والقصيدة مزيج من الندب والتأبين والعزاء ، مع أنه افتتحها بطلب التعزّى والتَّسلى ، فكان ينبغى أن يقصرها على العزاء لا أن يندب فى هرون إخلاصه وصداقته لأخيه كما فى هذه الأبيات ، ولا يحاول أن يذكر همته وسؤدده مؤبناً له كما فى أبيات تالية . ونحس نبوًّا شديداً فى البيت الثانى إذ يذكر عن هرون أنه كان وافر الودّ ، وكان يحسن أن يغير كلمة وافر بكلمة أخرى مثل صادق ، وأيضًا فإنه جعل صداقته لأخيه صداقة جنس ، والتعبير عن الرسول عليه السلام بأنه حَلّ فى الرمس خلو من رهافة الحس أو من الحس الأدبى الدقيق . وقد يكون مصدر التكلف فى العزاء والمديح جميعًا أنه كان مواليًا للعلويين كما قال بعض من ترجموا له ، وكأن هذا الرثاء والمديح لم يكونا يتصلان بروحه وقلبه ، فقلبه وروحه مع آل أبى طالب ، ولسانه وحده مع العباسيين ومع ما يغدقون عليه من صلات ثَرَّة . وقد يشهد لذلك أننا إذا تركنا مدائحه لبنى العباس ونظرنا فيما رُوى له من غزل لقيْنا له مقطوعات كثيرة بديعة من مثل قوله :

أَحْبَبْتُ من أجله مَنْ كان يشبهه ... وكلُّ شيء من المعشوق معشوقُ
حتى حكيتُ بجسمي ما بمقلتِه ... كأَن سقمىَ من جفنيه مسروق

وقوله يصف الدموع فى ساعة الوداع ، وهى تسقط بيضاء سقوطًا متتابعًا على خدود حمراء حمرة الورد فى الربيع :

لو كنت يوم الوداع حاضرنا ... وهنَّ يطفئن لوعة الوَجْدِ
لم تر إلا الدموع جاريةً ... تسقط من مقلة على خَدِّ
كأَن تلك الدموع قطر نَدًى ... يقطر من نَرْجس على وَرْدِ

وكان ينفذ فى أثناء ذلك إلى كثير من الصور النادرة الغريبة التى تنبىء عن شاعرية جيدة من مثل قوله فى بيان إعجابه بغناء إحدى القيان :

وغناءٍ أرق من دمعة الصَّـ ... ـبِّ وشكوى المتيم المهجورِ

وله فى وصف أرمد ومحاولة تعليل رمده بعلة غريبة لا تقع إلا فى عقل واهم بعيد الخيال بيتان كان القدماء يعجبون بهما إعجابًا شديداً إذ يقول :

يكسر لى طرفاً به حمرةٌ ... قد خالط النرجس فى وردهِ
ما احمرت العين ولكنه ... يكحلها من وَرْدَتَىْ خَدِّهِ

وكأن هذه الأبيات وما وراءها من أبيات فى الخمر لم نَرْوها كانت تصدر عن نفسه ، مما جعل صياغتها سَوِيَّةً وأخيلتها بديعة بعيدة الغرابة فى بعض الأحيان . وله بجانب ذلك حِكَمٌ يصوِّر فيها عِبَرَ الدهر ومواعظه من مثل قوله :

يابانياً والدهرُ فى نقضه ... يا راكضاً يسرع فى رَكْضه
يلهو وأيدى الموت أَخَّاذةٌ ... من طوله طوراً ومن عرضه

فالإنسان يَبْنى ، ولا يعرف أن داره ستنقضُ بعد أيام ، بل هو نفسه سينقضُه الدهر ويحيله ضعفًا من بعد قوة ، يوهن عظمه وينحل جسمه ، ويَحْنى

ظهره ويأخذ من طوله ومن عرضه ، حتى يصبح أنقاضًا خالصة ، وكأنما الدنيا أضغاثُ أحلام . والصولى فى كل هذه المقطوعات الأخيرة شاعر بارع ، لا تنقصه جزالة الصياغة ولا روعة الخيال .

٢

شعراء الشيعة

ذكرنا فيما أسلفنا أن الخوارج خمدت دعوتهم وحروبهم منذ العصر العباسى الأول ، وعمّ هذا الخمود فى هذا العصر التالى بحيث لم يعودوا يكوّنون حزب معارضة حقيقيًّا للدولة العباسية ، وقد نهض بتلك المعارضة فى أحدّ صورها حزب الشيعة فكان كثير من العلويين يخرجون ويُعْلنون خروجهم ويشهرون هم وأنصارهم سيوفهم فى وجه الدولة ، وكانت تلقاهم بجيوشها وقلما كُتب لهم النصر ، ولكن ما كانت حرب لهم تكاد تخمد حتى تنشب حرب أخرى ويشتد أوارها وبذلك ظلت المعارك بينهم وبين الدولة محتدمة طوال العصر . وتنبّه لذلك المتوكل ، فرأى أن يقف زيارة الشيعة لقبر الحسين وبكاءهم عنده وتفجعهم عليه ، ومضى يأخذهم بغير قليل من الشدة ، محرّضًا شعراءه على النَّيْل منهم ومن آل على عامة ، وأمر — فيما أمر — بحبس الطالبيين فى سامرّاء[1] وأخذ يُنْزِل بهم نكالا شديداً ، ومع ذلك لم يسلم عهده من خروج نفر منهم فى الحجاز على نحو ما سنرى عما قليل فى حديثنا عن محمد بن صالح العلوى .

ولا بد أن نلاحظ أن الكوفة كانت لا تزال أكبر مركز للشيعة وأن مذاهبهم التى عرفناها فى العصر العباسى الأول كانت لا تزال حية ، فكان كثيرون يؤمنون بالنظرية الزيدية ، وأكثر منهم من كان يؤمن بالنظرية الإمامية الاثنى عشرية ، وأخذت النظرية الإسماعيلية تجد لها أنصاراً ، واستغلها القرامطة فى ثورتهم ، دون أن تصبح عقيدة حقيقية لهم ، وبذلك كان ينبغى أن ننحيهم عن الشيعة . وملاحظة ثانية هى أن المذهب الشيعى الذى غلب على العراق حينئذ كان مذهب الإمامية ، وكان يجعل

(١) أغانى (ساسى) ١٩ / ١٤١ .

التقية أصلا من أصوله، فكان يعمل سرًّا وقلّما عمل جهراً ، وكان يأذن لأنصاره أن يمدحوا العباسيين تقيّة ، ومضى كثيرون منهم يمدحونهم طلبًا لما فى أيديهم من أموال ، وهم يُسِرُّون لهم كرهًا وحنقًا ، ومن هنا كنا كثيراً ما نقرأ عن شاعر أنه مدح هذا الخليفة أو ذاك ويقال إنه كان يتشيع . وهم أكثر من أن نسميهم أو نحصيهم . وملاحظة ثالثة هي أنه قيل شعر شيعى كثير فى العصر ، وهو موزّع بين بعض آل البيت وبين أنصارهم ممن يَنْشُدون الشعر وينظمونه ، ومن أهم الشعراء العلويين حينئذ محمد بن صالح العلوى الآنف ذكره والحِمّانى وسنخصه هو الآخر بترجمة قصيرة ، ومنهم محمد[1] بن على بن عبد الله أحد أحفاد العباس بن على بن أبى طالب ، وكان فى أيام المتوكل ، وهو يكثر من الافتخار بآبائه وبنسبه الطاهر إلى الرسول الكريم ، ويردّد فى أشعاره نظرية بيته العلوى فى الخلافة وأن الرسول عليه السلام أوصى بها إلى جده على حين نزل بغَدير خُمّ إذ قال له : « أنت منى بمنزلة هرون من موسى » وإلى ذلك يشير بقوله :

وجدّى وزيرُ المصطفى وابن عمّه ... علىٌّ شهابُ الحرب فى كل ملْحَمِ
وأول من صَلَّى ووحّد ربّه ... وأفضل زوّار الحطيم وزمزمِ
وصاحب يومَ الدّوح إذ قام أحمدٌ ... فنادى برفع الصوت لا بِتَهمْهُمِ
جعلتك منى يا علىٌّ بمنزلٍ ... كهرون من موسى النجىِّ المكلَّم

وما نصل إلى سنة ٢٥٠ فى عصر المستعين حتى تثور ثائرة الشعراء الشيعيين ، وذلك أنه كان قد أعلن الثورة فى الكوفة يحيى بن عمر الطالبى ، وكان قد تورّع عن أخذ أموال الناس ظلمًا وأمر بحقن الدماء ، وكان ورعًا زاهداً ناسكًا ، فتبعته ألوف ، ونشب القتال بينه وبين جيوش محمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد وجنوبى العراق . وتمزّقت جموعه ، وخرّ قتيلا ، وحُمِل رأسه إلى بغداد . وضَجّ الناس لمقتله وصَلْب رأسه ، ويُرْوَى أنه لما جلس محمد بن عبد الله بن طاهر للشعراء يستقبل تهانيهم بالفتح دخل عليه أبو هاشم الجعفرى ، وقال له : أيها الأمير إنك لتهنّأ بقتل رجل لو كان رسول الله صلى الله عليه حيًّا لعُزّى به ، فلم يجبه

(١) انظر فيه معجم الشعراء ص ٣٨١ .

الأمير ، فولّى وجهه خارجاً ، وهو يقول[1] :

إن وِتْراً يكون طالبَه الله ه لِوِتْرٌ نجاحُه بالحرىّ

ونصب له الشيعة مأتماً كبيرا ناح فيه الشعراء وبكوا طويلا ، ومرت بنا فى غير هذا الموضع مرثية ابن الرومى له ، وهى صرخة من أعماقه تناول فيها العباسيين تناولا ذميماً ، واصفاً لهم بالظلم والطغيان هم وولاتهم ، ومنذراً برجوع الحق إلى نصابه ، بل متوعداً بجيش يأخذ بثأر يحيى ويدمر خصومه تدميراً . وكثر رثاؤه وندبه والنواح عليه بمثل قول أحمد بن أبى طاهر[2] :

سلامٌ على الإسلام فهْو مودَّعُ إذا ما مضى آلُ النبيِّ فودَّعوا
فقدنا العُلا والمجد عند افتقادهم وأضحتْ عروش المكرمات تَضَعْضَعُ
لقد أقفرتْ دارُ النبي محمَّدٍ من الدين والإسلام فالدارُ بَلْقَعُ
وقُتِّل آلُ المصطفى فى خلالها وبُدِّد شَمْلٌ منهم ليس يُجْمَعُ

وسرعان ما يثور فى نفس السَّنَة بطبرستان الحسن بن زيد العلوى سليل الحسن بن على بن أبى طالب ، ويغلب عليها وعلى جرجان بعد حروب ومعارك كثيرة ، ويظل مسيطراً عليها إلى أن يلبى نداء ربه لسنة ٢٧٠ وطبيعى أن يصبح مقصداً للشعراء ، وأن يتغنى غير شاعر باسمه فى المناسبات المختلفة ، ونجد شاعراً من جرجان يسمى محمد بن إبراهيم يهنئه حين افتصد بقوله[3] :

قد رأينا مجالساً عطراتٍ هُيِّئَتْ عندنا لفَصْدِ الإمامِ
إنما غيَّب الطبيبُ شَبا المِبْ ضَع عندى فى مهجة الإسلام
سُرَّتِ الأرض حين صُبَّ عليها دمُ خَيرِ الوَرَى وأعلى الأنام

والنزعة الشيعية واضحة فى الأبيات . وكان من الشعراء حينئذ من يستر تشيعه ماكراً برجال الدولة العباسية ، إذ ينزل عليهم بسياط هجائه ، لا لشىء إلا لأنهم

---

(١) الطبرى ٩ / ٢٧٠ والمروج ٤ / ٦٤ .
(٢) مروج الذهب ٤ / ٦٤ .
(٣) معجم الشعراء ص ٣٩٧

يخاصمون آل على ، وربما اتخذ لذلك وسائل ماكرة ، وممن اشتهر بهذه الطريقة أبو نعامة الدقيقى الكوفى ، إذ قال الرواة إنه استنفد شعره فى هجاء رجال الجيش العباسى ، يرميهم بالأبنة ، وصنع فى قُوَّادهم ورؤساء الدولة قصيدة مزدوجة سماها السنيَّة ، رماهم فيها بالقبائح الشنيعة . وما زال هذا شأنه ، حتى تصادف أن دخل بغداد مفلحٌ القائد التركى فى طريقه إلى حرب صاحب الزنج ، فدلَّه عليه قوم من أهل بغداد ، وقالوا إنه يتشيع وشهدوا عليه بالرَّفض ، فضربه مفلح بالسياط حتى تلفت نفسه ومات لسنة ٢٦٠ .

وكان قد خَلَفَ الحسنَ بن زيد على طبرستان حين توفى أخوه محمدٌ ، واستقام أمره فيها وعظم شأنه ، فدخل ديار الدَّيْلم ودانت له ، حتى إذا كانت سنة ٢٨٧ جَهَّز جيوشًا كثيرة من الديلم وغيرهم لغزو جرجان ، فلقيته جيوش إسماعيل بن أحمد السامانى صاحب خراسان من قبل العباسيين ، ودارت عليه الدوائر وأُثْخِنَ بالجروح ، وتوفى ، فدُفن بباب جُرْجان ، يقول المسعودى : وقبره هناك معظم إلى اليوم . ويبدو أنه كانت له بطانة كبيرة من الشعراء تنصر دعوته من مثل محمد بن حبيب الضبىِّ القائل فيه[1] :

إن ابن زيدٍ كلَّ يوم زائدٌ علا علوًّا لا يساويه أَحَدْ
لو صال بالطود إذن أذلَّه أو زجر البحر إذن صار زَبَدْ

وأهم من هذا الشاعر شاعر يسمى أبا المقاتل نصر بن نصير الحُلْوانى ، نراه يغلو فى مديحه ، حتى لنصبح وكأننا بإزاء بعض غلاة الشيعة وما يحيطون به أئمتهم من هالة قدسية ترفعهم عن البشر درجات ، وفيها يقول[2] :

لا تقل بُشْرَى وقُلْ لى بُشْرَيانِ غُرَّة الداعى ويوم المهرجان
ابن زَيْدٍ مالكٌ رِقَّ الزمانِ بالعطايا والمنايا والأمـانى
خُلِقَتْ كفَّاه مَوْتاً وحياةً وحوتْ أخلاقُه كُنْهَ الجنانِ
مختفٍ فكرتُه فى كل شىء فَهْوَ فى كل مَحَلٍّ ومكان

(١) معجم الشعراء ص ٣٩٧ .
(٢) مروج الذهب ٤ / ٢٥١ .

يتناءى لفظنا عنه ولكن هو بالأوصاف فى الأذهان دان
كافرٌ بالله جَهْرًا والمثانى كلُّ من قال : له فى الخلق ثانِ

ويبدو أن محمد بن زيد كان قد خطا فى الدعوة الشيعية خطوات فسمَّى نفسه الداعى ، وأخذ يوحى إلى الشعراء أن يُسْبغوا عليه صفات إلهية ، فهو ظاهر فى العيان ، وهو مختف فى كل مكان ، وهو لا تحدُّه الألفاظ ، وإنما تقرّبه الأوصاف وليس له ندٌّ ولا شبيه ، وكافر بالله والمثانى السبع أو القرآن من يقول له فى الخلق ثان . ونحن نعرض ثلاثة من شعراء الشيعة منهم اثنان علويان والثالث من الأنصار المخلصين ، وهم محمد بن صالح العلوى والحِمَّانى والمفجَّع البصرى .

محمد بن صالح العلوى [1]

من فتيان البيت العلوى وشجعانه وشعرائه، امتعض لبيته حين أنزل به المتوكل ما أنزل من سخطه وغضبه ، وما كان من هدمه لقبر الحسين ومنعه الناس من زيارة قبره وقبر أبيه على بالنجف . وكان موطنه سُوَيْقَة فى بادية الحجاز كان ينزلها مع أسرته من الحسنيين أحفاد الحسن بن على بن أبى طالب ، فعزم على الخروج وأخذ يجمع الناس لذلك ، وتصادف أن حَجَّ بالناس فى نفس السنة أبو الساج أحد قواد المتوكل الترك فسمع بنيَّته وأنه لبس البياض مع كثير من أنصاره ، وكأن البياض كان حينئذ يتخذ شعاراً للعلويين ضد العباسيين المسوّدين أو الذين يتخذون السواد شعاراً لهم . وفاجأه هو وأنصاره أبو الساج فأخذهم وقيَّدهم وقتل نفراً منهم وأخرب سويقة وحرق منازلهم بها واستأصل كثيراً من نَخْلها وأثر فيها آثاراً سيئة ، وحمل محمد بن صالح فيمن حمل منهم إلى سامرّاء ، فحُبس ثلاث سنوات ، ثم عفا عنه المتوكل بسبب شعره وبفضل وساطة وزيره الفتح بن خاقان له ، وذلك أنه نظم أبياتًا جيدة يعزّى فيها نفسه عن حبسه ، ويتجمَّل بالصبر قائلا :

---

(١) انظر فى محمد بن صالح الأغانى (طبع دار الكتب المصرية) ١٦/٣٦١ ومقاتل الطالبيين للأصبهانى (طبعة الحلبى) ص ٦٠٠ ومعجم الشعراء ص ٣٨٠ .

طَرِبَ الفؤادُ وعاودَتْ أحزانُه ... وتشعَّبَتْ شُعَباً به أشجانُهُ
وبَدا له من بعد ما اندمل الهَوَى ... بَرْقٌ تألَّق مَوْهِناً لمعانُهُ
فدنا لينظر كيف لاح فلم يُطِقْ ... نظرًا إليه وردَّه سَجَّانُهُ
فالنارُ ما اشتملتْ عليه ضلوعُه ... والمـــاء ما سحَّتْ به أجفانُه
ثم استعاذ من القبيح وردَّه ... نحو العَزاء عن الصِّبا إيقانُه
وبَدَا له أن الذى قد ناله ... ما كان قدَّره له دَيَّانُه

والشعر جزل مصقول ، والشاعر يبثُّ فى أوائله حنيناً لأيامه الماضية وكأنها عهود هوى وحب سقطت منه ، وينظر إلى البرق متطلعًا لليوم الذى تُرَدُّ إليه فيه حريته ، فيعنف به السجّان ، ويحس كأن نار الوجد اندلعت فى ضلوعه ظمئًا إلى أهله وموطنه . وتسحُّ الدموع وتنهل لا تجفّ ، ويرده إيمانه ويقينه ، فيستسلم للقضاء محزون الفؤاد شجيّه . وتشيع الأبيات وتصل إلى سمع الفتح بن خاقان ومغنى المتوكل بنان ، ويصنع بنان فيها صوتًا يلحنه أمام المتوكل فيستحسن الشعر واللحن ويسأل عن قائله ، فيُذْكَرُ له ، ويكلمه الفتح فى أمره وما يزال يرقق قلبه حتى يعفو عنه ، غير أنه يشترط أن يظل عند الفتح وفى يده وألا يبرح سامرّاء حتى لا تحدثه نفسه بالعودة إلى الثورة . وتُرَدّ إليه حريته فيمدح المتوكل ويُغْدق عليه من صلاته ، كما يمدح المنتصر . ونراه يبالغ فى التقية من المتوكل فلا يكتفى بمديح له عام ، بل يسوق الدليل والبرهان على أن العباسيين أحق من العلويين بالخلافة ، يقول :

يابنَ الخلائف والذين بِهَدْيهِمْ ... ظهر الوفاء وبانَ غَدْرُ الغادرِ
وابنَ الذين حَوَوْا تُراثَ محمَّدٍ ... دون الأقارب بالنصيب الوافر
نطق الكتابُ لكم بذاك مصدِّقاً ... ومضَتْ به سُنَنُ النبيِّ الطاهر

وهو يشير فى البيت الأخير إلى قوله تعالى ذكره فى سورة الأنفال : (وأولوا الأرحام بعضُهم أوْلَى ببعضٍ فى كتاب الله) يريد أن العباسيين مقدَّمون فى وراثة الخلافة على أبناء بنت الرسول عليه السلام ، لأن العم يتقدمهم فى الميراث كما تنصُّ

على ذلك شريعة الإسلام فى القرآن الكريم ، وكما مضت بذلك السنة النبوية الطاهرة . ولم يتورَّط فيما كان يتورط فيه شعراء بغداد من التعلق بالجوارى والإماء ، فقد كان يَكْلَفُ بزوجه وحدها ، وكانت تَحتلُّ قلبه بجمالها ، ويُشْغَفُ بها شغفًا شديداً وفيها يقول :

لعمرُ حمدونةَ إنى بهـا ... لمُغْرَمُ القلب طويلُ السَّقَامِ

مجاوزٌ للقدر فى حبها ... مباينٌ فيها لأهل الملام

جشَّمنى ذلك وجدى بها ... وفَضْلُها بين النساء الوِسام

زَيَّنها الله وما شانهـا ... وأُعطيتْ مُنْيَتَها من تمام

وكان جميل المحضر حلو الحديث رقيق الشمائل ، فانعقدت الصداقة بينه وبين نفر من الأدباء ، فى مقدمتهم سعيد بن حميد أحد كتَّاب الديوان المجيدين وممَّن كانوا يحسنون صنع الشعر بجانب إحسانهم لفن الكتابة ، وكان محمد بن صالح يمنحه وُدًّا حقيقيًّا وفيه يقول :

أصاحبُ من صاحبت ثُمَّتَ أنثنى ... إليك أبا عثمانَ عطشانَ صاديا

وكنا إذا جئْناك لم نَبْغِ مشرباً ... سواك ورَوَّينا العظام الصَّواديا

وتصويره لمودته له وأن عطشه للقائه يبلغ منه عظامه تصوير جيد ، وكان إبراهيم ابن المدبر زميل سعيد فى الدواوين يُوليه فضلا كثيراً ، وانعقدت بينهما صداقة وثيقة حتى كانا يُمْضيان كثيراً من الليالى والأيام معًا لا يفترقان ، وله رائية طويلة فى مديحه ، وفيها يقول :

أخٌ واساك فى كَلَبِ الليالى ... وقد خَذَل الأقاربُ والنَّصيرُ

فإن تشكر فقد أولى جَميلاً ... وإن تكفر فإنك للكفورُ

وله مقطوعة يصور فيها جوارى يندبن ويلطمن عند قبر لبعض ولد المتوكل ، وهو فيها يتحدث عن فتور عيونهن وجمالها ، ويخال كأنما سينفخ هذا الجمالُ

الفاتن فى العظام الهامدات ، فتعود مرة ثانية إلى الحياة الدنيا ، يقول :

رأيت بسامرًّا صبيحةَ جُمْعَةٍ عيوناً يروق الناظرين فتورُها
تزور العظامَ البالياتِ لدى الثَّرَى تجاوزَ عن تلك العظامِ غَفُورُها
فلولا قضاءُ الله أن تَعْمُرَ الثَّرَى إلى أن ينادَى يوم يُنْفَخُ صُورُها
لقلتُ عساها أن تعيش وأنها ستُنْشَرُ من جرَّا عيونٍ تزورها

ولعل فى كل ما قدمنا ما يصوِّر شاعرية محمد بن صالح العلوى الفذَّة ، ويُظِلُّه عصر المنتصر فيصيبه فيه جُدَرِىٌّ ويلبى نداء ربه ، ويرثيه غير صديق باكياً خصالَه الحميدة .

الحِمَّانى العَلَوِىّ

سُمى الحِمَّانى نسبة إلى حى بالكوفة نشأ وعاش فيه ؛ وهو على بن محمد بن جعفر العلوىّ ، خرج أبوه محمد الملقب بالديباجة فى المدينة لأوائل عصر المأمون قبل تحوله من خراسان إلى بغداد ، غير أن ثورته ضد العباسيين لم تنجح ، وحُمل إلى بغداد ، ونُفى منها إلى خراسان ، فنزل بساحة المأمون هنالك ، وسرعان ما وافاه الموت ويقال إنه لما حمل الرجال نعشه دخل المأمون بين عموديه ، فاشترك فى حَمْله حتى نزوله فى لحده ، وكان مما قال : هذه رَحِمٌ مجفوَّة منذ مائتى سنة .

وانتقلت أسرة الديباجة بعده إلى الكوفة ، وبها نشأ ابنه على ، وعُنيت الأم والأسرة بتثقيفه ، فلم يُحْسِن صنع الشعر فحسب، بل أحسن صنوفاً من الآداب وعلوم الشريعة ، مما جعل العلويين فى تلك البلدة يختارونه نقيبهم ومدرِّسهم ولسانهم ، كما يقول المسعودى . ونُمى إلى المتوكل أن فى داره سلاحاً وأن الشيعة يجتمعون عنده ، وقيعة فيه من بعض حساده ، فوجَّه إليه جنداً اقتحموا عليه داره فجأة ، فوجدوه يتعبَّد ربه فى غرفة مغلقة مرتدياً ثوباً بسيطاً من الصوف ،

(١) انظر فى الحمانى وأشعاره مروج الذهب ٤ / ٢٩ ، ٦٥ ومقاتل الطالبيين ص ٦٦٢ وكتاب الزهرة نشر نيكل طبع بيروت سنة ١٩٣٢ (انظر الفهرس) وكتاب الديارات ص ٢٣٧ والمختار من شعر بشار للخالديين ص ١٦ ، ٢٥١ وديوان المعانى ١ / ١٠٩ ، ٢ / ٦٥٨

ولا بساط فى البيت إلا الرمل والحصى ، وهو يتلو القرآن مترنمًا بآيه . فحملوه إلى المتوكل ووصفوا له ما يعيش فيه من شظف ، فرقّ له ، وسأله : ما يقول آل بيتك فى العباس بن عبد المطلب (جد العباسيين) ، فأجابه بقوله : وما يقول آل بيتى يا أمير المؤمنين فى رجل افترض الله طاعة نبيه على خلقه وافترض طاعته على نبيه ؟ ولان قلب المتوكل له فأمر بإعطائه أربعة آلاف دينار ، وقيل بل مائة ألف درهم . ولم يُرِدِ الحِمَّانى فى إجابته ظاهرها من طاعة العباس على نبيه كما يتضح فى الشطر الثانى من الجواب ، وإنما أراد طاعة الله على نبيه .

ومرّ بنا أن الشعراء أكثروا فى عصر المتوكل من ذمّ العلويين إرضاء له ، وكان من أكثرهم قَدْحًا فى على وآله على بن الجَهْم وكان ينتسب إلى بنى سامة بن لؤىّ القرشيين ، وافتخر مراراً بهذا النسب فى أشعاره ، وكان طبيعيًّا أن لا يسكت الحِمَّانى على هذا القَدْح ، وخاصة أنه تتداوله الألسنة وتعمل بغداد على نشره ، فطعن على بن الجَهم طعنة بطعنات ، ولكن لا بالقدح فى خلقه وعِرْضه على عادة الشعراء فى عصره ، وإنما بالقدح فى نسبه إلى سامة ، فهو ليس من أحفاده ، وبالتالى ليس قرشيًّا ولافيه من القرشية شىء يقول :

وسامةُ مِنَّا فأَما بنوه فأَمرهمُ عندنا مظلمُ
أناسٌ أتونا بأَنسابهم خـرافةَ مضطجعٍ يَحْلُمُ

وعرف على بن الجهم له فضله وحقه وحق أسرته العلوية ، فلم ينبس ببنت شفة واجداً عليه ولا هاجياً ، وإنما اكتفى بأبيات ينوّه فيها بفضله ، ويعترف له فيها بحقه وحقوق بيته .

وقد حزن الحِمَّانى حزنًا شديداً على ابن عمه يحيى بن عمر حين خرج لعهد المستعين داعيًا لنفسه بالخلافة ، وقُتل دون أمنيته ، وحدث أن الحسن بن إسماعيل قائد الجيش الذى نَكَّل به دخل الكوفة عقب انتصاره مهدّداً متوعداً ، ولم يمض الحمانى للسلام عليه ، وكان الوحيد الذى تَخلَّف من العلويين عن لقائه ، ولاحظ ذلك الحسن بن إسماعيل ، فبعث إليه بجماعة أحضروه حتى إذا دخل مجلسه أظهر شجاعة

وجَلَداً وأنه لا يخشى سطوة القائد ، ولم يلبث أن أنشده :

قتلت أعزَّ مَنْ ركب المطايا وجئتك أَسْتلينك فى الكلامِ
وعزَّ علىَّ أن أَلقــاك إلا وفيما بيننـــا حَدُّ الحِسَامِ

وهو موقف كريم إذلم يتملق القائد كما كان يظن ولا داراه ، بل جاهره بما فى نفسه دون خوف أو وجل . وله مراث كثيرة فى يحيى ، يبكيه فيها ويندبه ، ويصور أنه مات موتًا كريمًا ، موت البطل الشجاع الذى لا يرهب الموت بل يلقاه فى قوة وصلابة مهما ادلهمت الخطوب من حوله ، ومهما أظلمت الدنيا فى عينيه ، حتى لتهول بطولته خصومه ، وحتى ليطلبون لقبره السُّقْيا وله الرحمة ، يقول :

فإن يَكُ يحيى أَدرك الحتفُ يومه فما مات حتى مات وهْو كريم
وما مات حتى قال طلاَّب روحه سقى اللهُ يحيى إنه لصميم

ويصوّر فى مراثيه له مأساة البيت العلوى وأن أفراده دائمًا بين قتيل وجريح . وللحِمَّانى مراث كثيرة — بجانب مراثيه لابن عمه يحيى — فى أهله ، وفى أخيه لأمه إسماعيل وهو لا يرثى فيه الأخ والرحم القريبة فقط ، بل أيضًا يرثى الصديق شقيق النفس والروح ، ويتفجَّع عليه تفجعًا شديداً بمثل قوله :

هذا ابن أمى عديل الروح فى جسدى شَقَّ الزمانُ به قَلْبى إلى كبدى
مَنْ لى بمثلك يا روحَ الحياة ويا يمنى يدىَّ التى شُلَّتْ من العَضُدِ
قد ذُقْتُ أَنواعَ ثُكْلٍ أَنت أَبلغها على القلوب وأخناها على الجَلَدِ
فاليوم لم يبق شىء أَستريح له إلا تفتُّت أَحشائى من الكمد
قل للرَّدى لا يغادرْ بعده أَحدًا وللمنيَّة مَنْ أَحْبَبْتِ فاعتمدى
إن السرور تقضَّى ، بعد فُرْقته وآذن العيشُ بالتكدير والنَّكدِ

والمرثية مؤثرة وهى سيل من الدموع والزفرات والأنين الموجع . وللحِمَّانى

غزليات كثيرة تتداولها بعض كتب الأدب وهى تنُمُّ على شعور رقيق وخيال خصب من مثل قوله :

متى أرتجي يوماً شفاءً من الضَّنَا ... إذا كان جانيه علىَّ طبيبى

وله فخر يتحدث فيه عن آبائه . ويصوّر سمو نفسه وارتفاعها عن النقائص ، كما يصور كبر همته وأنها ملء قلبه بل أكبر من قلبه ، يقول :

قلبى نظير الجبل الصعبِ ... وهمّتى أكبر من قلبى

فاستخرِ اللهَ وخُذْ مُرْهفاً ... وافتك بأَهل الشرق والغرب

ولا تمتْ إن حضرت ميتةً ... حتى تميتَ السيف بالضرب

وهو ممن أكثروا من ذم الشيب وكراهته ، وصوَّر ذلك فى أشعار كثيرة كأن نراه يكره الشيب ويكره مفارقته لأنها تعنى فقده للحياة ، وكأنه — على بغضه له — يود أن لا يفارقه ، يقول :

بكى للشيب ثم بكى عليهِ ... فكان أعزَّ فقدًا من شبابِ

فقل للشيب لا تَبْرَحْ حميدًا ... إذا نادى شبابُك بالذهاب

وبجانب ذمه للشيب يأسى كثيراً على الشباب وأيام لهوه ومتاعه بالنظر إلى الغانيات فقد ضل ذلك منه، أضله الشيب ، وهل من غانية تنظر إلى شيخ فان ، يقول :

لقد كنت تملك أَلْحَاظَهُنَّ ... فصِرْنَ يُعِرْنَك لحْظاً مُعارا

وأَصْبحْنَ أَعْقَبْنَ بعد الودادِ ... بِعادًا وبعد السكون النِّفارا

وله وصف كثير فى سُرَى الليل وفى اعتساف الفلوات بالإبل والخيل نجد منه مقتطفات فى كتب الشعر ، ومن طريف نعته لطول الليل وسكونه وجثومه على الكون دون أى حركة قوله :

كأَنّ نجوم الليل سارت نهــارَها ... ووافَتْ عِشاء وهْى أنضاءُ أَسفارِ

فخَيَّمْن حتى تستريحَ رِكابها ... فلا فلكٌ جارٍ ولا كوكبٌ سارِ

وكان يكثر من ذكر المنازل والديار ، وله قصيدة بديعة يتحدث فيها عن المنازل القريبة من الكوفة مثل آثار قصرى الخورنق والسدير ، وكانا من قصور الحيرة ، وديارات الأساقف المطلة على نهر الغدير هناك وما حول هذه المنازل من رياض نضرة ترفّ فيها الأنوار والأزهار ، ومن قوله فى تلك القصيدة :

كم وقفةٍ لك بالخوَرْ نقِ لا توازَى بالمواقف
بين الغدير إلى السَّدِير إلى ديارات الأساقف
دِمَنٌ كأن رياضَها يُكْسَيْنَ أعلامَ المطارف
تلقى أوائلَها أوا خرُها بألوان الزخارف

وواضح من هذه الأشعار التى وقفنا عندها للحمانى أنه كان شاعراً مجيداً ، فعنده كثير من الخواطر والأخيلة البارعة ، وبالغ بعض الشيعة المتحمسين له فقالوا إنه كان أشعر شعراء قرْنه . وقد توفى سنة ٢٦٠ للهجرة .

المفجّع البَصْرِىّ(١)

هو أبو عبيد الله محمد بن أحمد الكاتب ، عالم أديب ، وتدل كلمة الثعالبى فى اليتيمة أنه حين توفى ابن دريد العالم اللغوى الإخبارى المشهور سنة ٣٢١ قام مقامه فى التأليف والإملاء ، على أنه كان واسع الرواية وصاحب معرفة دقيقة باللغة والأخبار ، ويشهد لذلك أنه ترك مصنفات مختلفة مثل كتاب سماه كتاب الترجمان فى الشعر ومعانيه . وفى كتاب الفهرست لابن النديم بيان كامل بأسماء مصنفاته . ويلفت النظر أنه شيعى وليس من أهل الكوفة بل من أهل البصرة ، ومعروف أن الكوفة كانت حتى القرن الثالث الهجرى مركز التشيع وداره . بينما كانت البصرة بعيدة عن التشيع وأهله(٢) ، وكأنما امتد تيار التشيع مع نهاية القرن الثالث وأوائل الرابع إلى البصرة ، وأخذت تتحول إلى مركز من مراكزه .

---

(١) انظر فى المفجع وأخباره وأشعاره اليتيمة للثعالبى (طبعة محيى الدين عبد الحميد) ٢/ ٣٦٣ والفهرست ص ١٢٩ ومعجم الأدباء لياقوت ١٧ / ١٩٠ ومعجم الشعراء ص ٣٨٠ والوافى بالوفيات (طبعة إستانبول) ١/ ١٢٩ .

(٢) ثلاث رسائل للجاحظ (طبعة فان فلوتن) ص ٩

ويبدو أن المفجع كان شيعيًّا إماميًّا . فقد شاع مذهب الإمامية فى العراق من قديم ، ويقولون إن لقبه المفجع لزمه ببيت قاله ، وأكبر الظن أنه لُقب بهذا اللقب إشارة إلى تفجعه الكثير على قتلى العلويين ، وكان — على ما يظهر — يكثر من مديح الهاشميين ، وخاصة أبا الحسن محمد بن عبد الوهاب الزينبى الهاشمى البصرى وفيه يقول :

للزينبيِّ – إلى جلالة قدره – خلقٌ كطعم الماء غير مزنَّدِ
وشهامةٌ تَقِصُ الليوث إذا سطا ونَدًى يفرِّق كل بحر مزبدِ[1]
يحتلُّ بيتاً فى ذؤابة هاشمٍ طالت دعائمه محل الفرقدِ
بضياء سنَّته المكارمُ تقتدى وبجـود راحته السحائب تهتدى

وله قصيدة طويلة يمدح فيها عليًّا — رضى الله عنه — سماها « ذات الأشباه » إشارة إلى أثر مسند إلى أبى هريرة ذُكر فيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال وهو فى محفل من أصحابه : « إن تنظروا إلى آدم فى علمه ونوح فى همه وإبراهيم فى خلقه وموسى فى مناجاته وعيسى فى سِنّه ومحمد فى هَدْيه وحلمه فانظروا إلى هذا المقبل . فتطاول الناس فإذا هو على بن أبى طالب» . وعلى هُدَى هذا الأثر نظم المفجع قصيدته مصوراً فيها مناقب على وهى تطَّرد على هذا النمط :

أيها اللائمى لحبِّى عَلِيًّا قُمْ ذميماً إلى الجحيم خَزِيًّا
أشبه الأنبيـاء كهلا وزَوْلا وفطيماً وراضعاً وغَذِيًّا[2]
كان فى علمه كآدم إذ عُلِّـ ـم شَرح الأسماء والمكنيّا
وكنوح نَجَّى من الهُلْكِ مَنْ سَـ ـيَّر فى الفُلْك إذ علا الجُودِيَّا[3]
وجَفَا فى رضا الإله أباهُ واجتواه وعَـدَّه أجنبيًّا
كاعتزال الخليل آزَرَ فى اللـ ـه وهجرانه أباه مَلِيًّا[4]
ولو انَّ الوصىَّ حاول مَسَّ النَّـ ـجْم بالكف لم يجده قَصِيًّا

(١) تقص : تدق وتحطم .
(٢) الزول : الفتى .
(٣) الجودى : جبل بشمالى العراق .
(٤) آزر : أبو إبراهيم .

وطبيعى أن تفقد القصيدة العذوبة لأنها إلى الشعر التعليمى أقرب منها إلى الشعر الغنائى وافر النغم والألحان . وليس معنى ذلك أن شعره جميعه يجرى على هذا المنوال فالأبيات السابقة فى مديح الزينبى أسلوبها مستو وليس فيه استواء فقط، بل أيضًا فيه جزالة ورصانة . ويقول الثعالبى إن شعره كثير الحلاوة يكاد يقطر منه ماء الظرف من مثل قوله :

زفراتٌ تعتادنى عند ذكرا ك وذكراك ما تريم فؤادى
وسرورى قد غاب عنىَ مذ غبـ ـتِ فهل كنتما على ميعادِ
ليس لى مَفْزَعٌ سوى عبرات من جفونٍ مكحولة بالسُّهادِ
وبحسبى من المصائب أنى فى بلاد وأنتمُ فى بلادِ

وكان مثل أستاذه ابن دريد لا يجد بأسًا فى أن يُقْبل أحيانًا على الشراب ، إذا صح ما رُوى عنه من احتساء الخمر ، ونراه يصف مجلسًا من مجالسها فى ليلة من ليالى الأنس بها ، يقول :

أداروها ولِلَّيْل اعتكارُ فخلتُ الليل فاجأه النهارُ
فقلتُ لصاحبى والليل داجٍ ألاحَ الصُّبْحُ أم بَدَتِ العُقارُ
فقال : هى العُقار تداولوها مُشَعْشَعةً يطير لها شَرارُ
ولولا أننى أمتاح منها حلفتُ بأنها فى الكأس نارُ

وبين أشعاره مقطوعات فى بعض الغلمان ، ومرَّ بنا ما قلناه من أن أكثر ما كان ينظمه الشعراء فيهم إنما كانوا ينظمونه دعابة وفكاهة على مجالس الخمر بقصد التندير والضحك ، ولذلك كان ينبغى ألا نصنع صنيع المستشرقين فى تضخيمهم لهذه السَّوْءة سواء عند المفجع البصرى أو عند غيره . ورآه «متز» ينظم قصيدة فى الجامع الكبير بالبصرة ومن فيه من الغلمان قائلا :

ألا يا جامع البَصْر ةِ لا خَرَّبك اللهُ
وسقَّ صحنَك المُزْنُ من الغيث فــروّاه

فكم ظبي من الإنسِ مليح فيك مَرْعـاه
نَصَبْنا الفَخَّ بالعلم له فيك فصِدْناه
وكم من طالبٍ للشِّعْـ ـرِ بالشعر طلبنـاه

فظن أنه وقع على وَصْمة كبرى ، وذهب يقول إن الشاعر يحكي كيف كان يُغْوِى الصبيان فى الجامع المذكور ويستنزل العاصى الصعب منهم[1] . والدليل على أنه لم يكن خالص النية فى حكمه أنه أنشد القصيدة وأسقط منها هذين البيتين :

ألا يا طالبَ الأمر دِكذْبٌ ما ذكرناهُ
فلا يَغْرُرْك ما قلنا فما بالجِدِّ قُلنـاه

فالمفجّع إنما قال ما قال من هذه القصيدة كذبًا وبهتانًا وعبثًا ودُعابة ، فكان يحسن بمتز أن لا يسوقها فى مجال الحديث عن التولع بالغلمان ونصب الشباك لهم وأين ؟ فى المساجد الطاهرة ، فالمفجع إنما أراد إلى أن يدفع سامعيه إلى الفكاهة والضحك العريض . ولم يطل به المقام فى مكان أستاذه ابن دريد يُمْلى ويحاضر الطلاب ، فما هى إلا ست سنوات بعد وفاة ابن دريد حتى لبّى نداء ربه سنة ٣٢٧ للهجرة .

٣

شعراء الثورات السياسية

لم تكن ثورات الشيعة بزعامة العلويين وحدها هى التى أقضّت مضاجع الخلفاء فى هذا العصر ، فقد اشتعلت بجانبها ثورات أخرى ، كان بعضها يزيف لنفسه شعاراً علويـًا حتى يجمع العامة فى صفوفه وتحت لوائه . وكان من زعماء هذه الثورات من ينظم الشعر ، فهو ثائر من جهة ، وهو شاعر من جهة ثانية . ويهمنا الوقوف

(١) انظر الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ٢ / ١٣١

على هؤلاء الشعراء الثوار ومن كان يُعينهم أحيانًا بأشعاره من أنصارهم . ونلاحظ أن هؤلاء الشعراء من الأنصار لم تهتم بهم كتب التاريخ ، فهى دائمًا تسوق ما قيل فى انتصارات العباسيين على الثوار ولا تُعْنَى أى عناية بما قاله أصحاب هؤلاء الثوار فى قليل ولا كثير .

ومن أوائل من ثاروا فى العصر محمد بن البعيث لعهد المتوكل سنة ٢٣٤ وكان يحسن الشعر ، وسنعرض له فى موضع آخر . وما نصل إلى رمضان لسنة ٢٥٥ للهجرة حتى يُشْعِل فارسى ثورة الزنج بالبصرة متزعمًا لها ، وفصّلنا فى الفصل الأول القول فى هذه الثورة وكيف دوّخت الدولة العباسية وعرّضتها لكارثة عظيمة ، إذ استطاع أن يستثير الزنج ويجعلهم يستشعرون سُخْطًا هائلاً على كبار الملاّك الإقطاعيين الذين كانوا يُسخرونهم فى كَسْح أرض البصرة وزرعها دون أى رحمة أو شفقة وبأجور زهيدة لا تكاد تحقق لهم غذاء ولا كساء . وتجمّع حوله الزنج واستحالوا إلى جيش لَجِب اجْتَاحَ جنوبىّ العراق وكاد يجتاح العراق كله فى بعض الأوقات لولا أن تجرد لهم وازعيمهم الموفق ولى عهد الخليفة المعتمد ، كما مرّ بنا فى غير هذا الموضع ، وكان بطلا مغواراً لا يُشَقّ غباره ، وكانت الجيوش توالت فى حرب هذا الثائر وأصحابه ، وكان يمزقها شر ممزق ، حتى تولى قيادتها الموفق ، فاستحالت الهزيمة نصراً ، ولكن أى نصر ؟ لقد كان نصراً بطيئًا ، إذ كانت تقف بينه وبين الثوار مستنقعات البصرة ، وظل يأخذها منهم قطعة قطعة .

ومن المحقق أن هذه الثورة أقدم ثورة عرفها العرب فى المطالبة بالحرية ونقض الاسترقاق وتحقيق العدل الاجتماعى ، ولكن زعيمها لم يمض بها فى السعى إلى هذه الغايات كما كان يَعِدُ فى أول ثورته ، فقد استباح فى حروبه استرقاق الأحرار ، وكأنما ألغى ردّه الحرية على الزنج بفرضه الاسترقاقَ على غيرهم ، فانعكست صورة الاسترقاق ، ولكنها ظلت كما هى وظلت طبقات من الناس تسترقُّ طبقات أخرى . وكان قد رأى إنجاحًا لثورته أن يُضْفِى عليها مسحة دينية ، كما مر بنا فى الفصل الأول ، فأشاع فى الناس أن اسمه على بن محمد وأنه من سلالة زيد بن على بن الحسين ، حتى يؤمنوا بأنه صاحب حق شرعى فى الخلافة وأن من حقه الثورة على العباسيين ، بل من حقه عليهم أن ينصروه ويؤازروه . وانضم إليه كثيرون من

الأحرار وأعراب البوادى بجانب من انضموا إليه من الزنج وعبيد العراق ، ولكن ثورته باءت — بعد أربعة عشر عامًا من المعارك العنيفة — بالإخفاق الذريع .

ولا نريد أن نقف عند هذه الثورة الآن وما كان من صاحبها الذى ظلت ثورته أربعة عشر عامًا أو تزيد ، والذى كان يُسْرِف فى القتل وسفك الدماء ، حتى قالوا إنه قتل فى البصرة فى يوم واحد من غاراته الكثيرة ثلاثمائة ألف ، وإنه كان يُنْهِب أصحابه الأموال ويُحرِّق الدور والقصور . كل ذلك لا نريد أن نقف عنده ، ولا عند ما يقال من أنه كان دائمًا يخطب فى أنصاره[١] . إنما نريد أن نقف عند ما بقى لنا من بعض أشعاره[٢] . يقول المرزبانى : « تُرْوَى له أشعار كثيرة فى البسالة والفتك » ، ويذكر أن ابن دريد كان يؤكد أنها من نظمه وأنها قُرِئت عليه أمامه ، فشهد بأنها له ، ولم يُنْكِرها ، وكأن من معاصريه مَنْ كان يشكُّ فى أنه شاعر يحسن صنع الشعر ونظمه ، مما جعل ابن دريد يؤدى الشهادة السالفة . وكان من قرية تسمى وَرْزَنِين بإيران ، وكأنه تلقَّن فيها من الآداب العربية ما جعله يحسن الخطابة والشعر جميعًا ، وله يخاطب بنى العباس :

بَنِى عَمِّنا لا توقدوا نارَ فتنةٍ بَطِىءٍ على مَرِّ الليالى خمودُها
بنى عمنا إنا وأنتم أنامــلٌ تضمُّنها من رَاحَتَيْها عقودُها
بنى عمنا ولَّيْتُم التُّرْكَ أمرنا بديئاً وأعقاباً ونحن شهودُها
فأُقسم لاذُقْتُ القَراحَ — وإنْ أذُقْ فبُلْغَةُ عَيْش — أو يُبَارَ عميدُها[٣]

وهو يسوق كلامه إلى العباسيين كأنه حقًّا ابن عمهم على بن أبى طالب أو حفيده ، ويزعم أنهم يوقدون ضده نار فتنة ، وكان ينبغى أن يستسلموا له فليسوا جميعًا إلا أنامل يد هاشمية واحدة . ويلومهم أن أسلموا قيادة الدولة للأتراك ، وأنه سيجاهدهم جهاداً مريراً . وكان يكثر من تصوير ما يجرى فى قصورهم من خمر ومجون ينبغى أن تبرأ منه

---

(١) الطبرى ٩ / ٤١٤ وما بعدها .

(٢) انظر فى أشعار صاحب الزنج معجم الشعراء للمرزبانى ص ١٤٨ وذيل زهر الآداب ص ١٥٥ وما بعدها .

(٣) الماء القراح : البارد العذب . بلغة العيش : أقل ما يكفى . يبار : يهلك .

قصور الخلافة وأن تكون قصور نسك وطهارة لا قصور إثم وعصيان ، وفى ذلك يقول :

لَهْفَ نَفْسى على قصورٍ ببغدا دَ وما قد حوتْه من كلِّ عاصِ
وخمورٍ هناك تُشْرَبُ جَهْرًا ورجالٍ على المعاصى حِراصِ
لستُ بابن الفواطم الزُّهر إن لم أُقْحِم الخيلَ بين تلك العِراصِ

وهو يسجل على العباسيين انصرافهم عن حياة الدين والعبادة إلى حياة اللهو والمجون والعبث واقتراف الآثام ، حتى يستثير الناس معه . وينسب نفسه إلى فاطمة الزهراء ، بل إلى الفواطم الزهر ، حتى يستهوى القلوب. ويعلن أنه سيجاهد العباسيين ويستمر فى جهاده حتى تسقط بغداد . وظل ثابتًا فى جهاده مخلصًا له فى أحلك الظروف ، حتى بعد أن فقد الأمل ، فإنه لم يستسلم للموفق بعد أن استسلمت عامة أنصاره ، ولا رضى الأمان حين عرضه عليه كما رضيه أكثر جنده والبقية الباقية منهم ، بل ظلَّ يقاتل حتى سُفِكَ دمه أمام منزله وهو ينشد :

عليك سلامُ الله يا خير منزلٍ خرجنا وخَلَّفناه غير ذميمِ

وتلقانا بعد ثورة صاحب الزنج ثورة بكر بن عبد العزيز بن أبى دُلَف فى الكرج وكان شاعراً ، وسنعرض له عما قريب . ونشبت ثورة القرامطة ، وكان دعاتها يَصلونها بالدعوة الإسماعيلية الشيعية ، كما مرَّ بنا فى الفصل الأول . وكان غير ثائر من هؤلاء الدعاة يصِلُ نفسه مباشرة بمحمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، مزيفًا لذلك سلسلة نسب كاذبة ، على نحو ما صنع صاحب الزنج لنفسه نسبًا يصله بزيد بن على زين العابدين . وكان داعيتهم الأول قرمط مكوّن الفرقة قد التقى فى سواد الكوفة بأحد دعاة الحركة الإسماعيلية ، فانضم إليه ، وأخذ فى تنظيم حركته القرمطية واضعًا لها من المبادئ الاشتراكية العادلة ما استهوى به قلوب العامة ، فتبعه خلق كثير أخذ يُغير بهم على سواد الكوفة . وما نصل إلى سنة ٢٨٩ حتى نجده يختفى فى ظروف غامضة ، ويتولى زعامة حركته زِكْرَوَيْه الدَّندانى ، ويرى — كما مرَّ بنا — الدولة بالمرصاد له ولجماعته ، فيرسل بأبنائه : يحيى والحسين ومحمد إلى قبيلة كلب ببادية السماوية بين العراق والشام ، لعلهم يستجيبون إلى دعوتهم ، ويتبعهم كثيرون ، ويبايعون أكبرهم يحيى بن زكرويه الذى زعم لهم أنه من سلالة

محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق!، وتسمى لهم باسم أبى عبد الله على بن محمد ، وقيل بل تسمى باسم محمد ، وتكهّن لهم مدعيا أنه يوحَى إليه ، وكشف لهم عن عَضُد له ناقصة وزعم أنها آيته أو معجزته، كما زعم أن ناقته التى يركبها مأمورة وأنهم إذا ساروا وراءها فى لقاء أى عدو جاءهم نصر الله والفتح المبين . ومضى بجموعه فى سنة ٢٩٠ يهاجم المدن السورية ويَعيثُ فى الأرض فساداً . وكانت الشام حينئذ تتبع الدولة الطولونية ، ولقيه أحد قوادها فتغلب عليه ومضى إلى الرقة يقتل ويسفك الدماء ، ودَحَرَ جيشاً للعباسيين ، وعاد يحاصر دمشق ، غير أنه قُتل على أبوابها . وكان شاعراً ، ترجم له المرزبانى فى معجمه[١] . ونراه فى بعض أشعاره على شاكلة صاحب الزنج ينسب نفسه إلى الفواطم من بنى هاشم ، يقول :

أنا ابنُ الفواطم من هاشمٍ وخيرُ سُلالةِ ذا العالَم
وطئتُ الشامَ برغم الأنامِ كوَطءِ الحِمام بنى آدم

وهى نسبة كاذبة . ومن المؤكد أنه لم يكن يقصد بثورته نصرة العلويين ولا كان فيها متشيعًا لهم ، إنما كان متشيعًا لنفسه يريد أن يصل إلى الملك والسلطان ، ولذلك فصلناه مثل صاحب الزنج — على نحو ما مرّ بنا — عن العلويين وثوراتهم ودعواتهم السياسية، وله أبيات يذكر فيها النجوم والكواكب : المريخ والعيُّوق وسعد الذابحين ملوّحًا للعامة التى تتبعه بأن علم التنجيم قد كشف له عن نصر عظيم يلقاه فى الموصل ومدينة الرَّحْبة التى بناها طوق بن مالك ومدينة الرافقة، بل إنه سيدمر بغداد تدميراً وينهب كل ما فى قصورها من أموال يقول :

تقاربت النجومُ وحان أمرٌ قرانٌ قد دَنا منه النذيرُ
فمرِّيخُ الذبائح مستهلٌّ قَوِىٌّ ما لِوَقْدَتِهِ فتورُ
معَيُّوقُ الحروب له احمرارٌ وسَعْدُ الذابحين له بدورُ
فبَشِّرْ رَحْبَتَىْ طَوْقٍ بيومٍ من الأَيام ليس له نظيرُ
ورافقةُ الضلالةِ ليس يُغْنِى إذا ما جئتها بابٌ وسورُ

(١) معجم الشعراء للمرزبانى ص ١٥٣ .

وبغدادٌ فليس بها اعتياصٌ على أمرى وليس لها نكيرُ
أُصبِّحها فأتركها هَشيماً وأَحْوِى ما حوتْه بها القصُور

ومن ثوار القرامطة الشعراء أبو طاهر الجنَّابى صاحب الأحساء والبحرين، وكان أبوه أبو سعيد من أنصار قَرْمط، وكلفه بنشر الدعوة فى جنوبى إيران، وأخفقت مساعيه، وعاد إلى قرمط، فأرسله إلى البحرين والأحساء، وسرعان ما استجابت له قبيلة عبد القيس. ودخلت المنطقة فى سلطانه منذ سنة ٢٨٦ للهجرة، وقتله غلام صقلبى فى سنة ٣٠١ فخلفه ابنه أبو طاهر، وعظم أمره، إذ واقع عساكر الخليفة المقتدر مراراً كما مرَّ بنا فى الفصل الأول وفتك بغير جيش من جيوشه، واتسع ملكه فى شرق الجزيرة العربية، وكثر أتباعه وجنوده، ونال ما لم ينله قرمطى قبله. وكان يزعم أنه داعية عبيد الله المهدى الخليفة الفاطمى الإسماعيلى، وكان شأنه قد أخذ يعظم فى إفريقية، ولم يكن يدعو له حقيقة، بل كان يتخذه ستاراً لخروجه على الخلافة العباسية. وكان كثيراً ما يُغير على البصرة وينكِّل بأهلها، ويسفك دماءهم، ويحرق دورهم كما يحرق المساجد. وكثيراً ما كان يُغير على قوافل الحجاج يفتك ويقتل وينهب، وجيوشه تَغْدُو وتروح إلى عاصمته «هجر» محمَّلة بالأموال، فكان طبيعيًّا أن يمتدّ به طمعه وطموحه إلى أن يستولى على بغداد، بل إلى أن يستولى على العالم الإسلامى كله وبلغ به تهويله على العامة أن كان يزعم لها أنه سيظلّ حيًّا حتى ينزل عيسى من السماء بأخرة، وفى ذلك كله يقول من قصيدة طويلة مهدداً متوعداً (١) :

فمَنْ مبلغٌ أهلَ العراق رسالةً بأنى أنا المرهوبُ فى البَدْوِ والحضَرْ
فيا ويلهم من وقعةٍ بعد وقعةٍ يُساقون سَوْقَ الشَّاء للذَّبْحِ والبقَرْ
سأَصرفُ خيلى نحو مصرَ وَبَرْقةٍ إلى قَيْرَوانِ التُّرْكِ والرُّومِ والخزَرْ
أَكيلُهمُ بالسيف حتى أُبيدَهم فلا أُبْقِ منهم نَسْلَ أُنْثَى ولا ذَكَرْ
أعمَّر حتى يأتِ عيسى بن مريم فيحمدَ آثارى وأرضى بما أمَرْ

وعزم فى سنة ٣١٥ على غزو بغداد، فخرج إليها فى ألف فارس وخمسة

(١) النجوم الزاهرة ص ٣/٢٢٥

آلاف راجل ، فجهَّز المقتدر لحربه جيشًا بقيادة يوسف بن أبى السَّاج ، والتقى الجيشان ، ودارت الدوائر على ابن أبى الساج وجيشه ، وأُخذ أسيراً ، وأسرع مؤنس بجيش كثيف فى نحو أربعين ألفًا ، وانضم إليه الحمدانيون وغيرهم من عرب العراق والموصل ، والتقى بأبى طاهر وجيشه عند الأنبار ، غير أن أبا طاهر انصرف راجعًا إلى بلاده ، ولم يواقعه مؤنس مع ما اشتهر به من شدة بأسه ، وكأنما خشى على نفسه مغبَّة الحرب ، مما جعل أبا طاهر يرسل له بالأبيات التالية ساخراً منه سخرية شديدة (١) :

قُولُوا لمُؤْنسكم بالرَّاح كُنْ أَنِساً ... واستتبع الراحَ سُرْناياً ومزمارا
وقد تمثلتُ عن شوقٍ تقاذف بى ... بيتاً من الشعر للماضين قد سارا
نزوركمْ لم نؤاخذكم بجفوتكم ... إن الكريم إذا لم يُسْتَزَرْ زارا

وهو يهزأ به وبشجاعته التى عُرف بها ، ويقول له إنك لست من أهل الحرب والبأس ، وإنما أنت من أهل الكاس والطاس وآلات الطرب من السرْناى وغير السرناى ، ويستمر فى هزؤه ، فهو سيزوره ويزور بلاده للفتك به وبجنوده .

وتُطْغى أبا طاهر الجنَّابى انتصاراتُه على جند الخلافة ، ويَغُرُّه بالله الغرور ، ويشتهر عنه أنه لا يصلى ولا يصوم ولا يعرف حدود الله . وما يوافى شهر ذى الحجة فى سنة ٣١٧ حتى ينقل غاراته على الحجَّاج من قوافلهم إلى البيت الحرام ، وإذا السيوف تنوشهم وتسيل دماؤهم أنهاراً يوم التَّرْوِية ، وهم يهللون لربهم ويُلَبُّون ، وهو وأنصاره يَنْحرون فيهم ، كأنهم كباشٌ أُعِدَّتْ للذبح ، دون أى شفقة أو رحمة . ولم يكتفوا بمن ذبحوهم فى فجاج مكة ، فقد دخلوا المسجد الحرام ينحرون ويذبحون والناس يتعلقون بأستار الكعبة وهم يمزقونها ويمزقون جلودهم بسيوفهم ، ولا شفيع لهم ولا نصير من هذا الشيطان الرجيم . وبلغ من سفهه وخُرقه أن أمر بطرح القتلى فى بئر زمزم ، واقتلع الحجر الأسود من موضعه ، وأخذه معه إلى هجر وظل بها حتى سنة ٣٣٩ إذ أعاده القرامطة إلى مكة خوفًا من الخليفة المطيع وخَشْية من بأسه وبأس البويهيين . وجرَّد أبو طاهر الكعبة من كل ما كان بها من تحف

(١) تكملة تاريخ الطبرى للهمدانى ص ٥٥ .

أهداها الخلفاء على مرّ السنين . وروى المؤرخون أنه كان فى أثناء هذا العمل الوحشى الفظيع يترنّم بأشعار له مبتهجاً ، وكأنما كان يشفى غليل نفسه من الإسلام وصاحبه وأهله بما ارتكبه من هذه الخطايا الموبقات ، وبما كان يُنْشده من هذه الأشعار التى يحادّ بها الله ورسوله من مثل قوله[1] :

ولو كان هذا البَيْتُ بيتاً لربِّنا لصبَّ علينا النارَ من فوقنا صَبَّا
لأنَّا حَجَجْنا حِجَّةً جاهليَّـــةً محلَّلةً لم تبق شرقاً ولا غرْبا
ولكنَّ ربَّ العرش جَلَّ جلالُه ولم يتخذ بيتاً ولم يتخذ حُجُبَا

وكأنه بذلك يعلن كفره ، صريحًا غير موار ، بفريضة الحج إلى بيت الله ، التى تُعَدّ ركنًا أساسيًّا من أركان الإسلام . وبذلك يتضح أن أبا طاهر لم يكن ثائراً عنيفا فحسب مثله مثل يحيى بن زكرويه وصاحب الزنج ، بل إنه يتقدمهما خطوات فى الثورة الدامية والعنف والانفصال عن العلويين ، إذ خلع الإسلام كله من عنقه ومضى يحارب أهله ويسيل دماءهم ويذبحهم ذبحًا حيث لا يحل صيد الحيوانات ولا الطيور ، غير ما انتهكه من حرمات بيت الله المقدس انتهاكًا ليس له سابقة ولا لاحقة فى التاريخ . ولعل من الخير أن نبسط القول قليلا فى شاعرين ثارا على الخلافة العباسية فى القرن الثالث الهجرى ، وهما محمد بن البعيث وبكر بن عبد العزيز بن أبى دُلَف .

محمد[2] بن البعيث

من فتيان بنى أسد نزلت عشيرته فى أذْرَبيجان ، واشتهر أبوه بأنه كان من الفُتَّاك الصعاليك ، واستطاع محمد أن يمتلك فى تلك الديار قلعتين : قلعة تسمى شاهى وأخرى تسمى بكذُر ، وكانت شاهى أشد مناعة فكان يقيم فيها كثيراً . واشتهر أمره فى عصر المعتصم وحروب بابك ، فإنه كان يحاول أن يكون محايداً بين الطرفين المتخاصمين ، فإذا نزلت سَرايا أحدهما أضافها وأحسن الضيافة ، وهو فى أثناء ذلك يراوغ ،وقد ينقل للجيش العباسى وقواده أخبار بابك،وقد ينقل إلى بابك

(١) تكملة تاريخ الطبرى للهمدانى ص ٦٢ .

(٢) انظر فى ثورة محمدبن البعيث وأخباره الطبرى ٩ / ٢٥ ، ٢٧ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٧٠ ، ١٧١ ومروج الذهب ٤ / ٤١ ومعجم الشعراء ص ٣٨٥ .

أخبار الجيش العباسي . وكان هواه مع العباسيين ، غير أن وقوفه متفرجًا دون أن يُقْحم نفسه فى تلك الحروب وينصر العباسيين جعل إسحق بن إبراهيم المصعبى أحد قواد المعتصم يقبض عليه ويُلْقَى به فى غياهب السجون . ويتوسط له بعض القواد، فيُفْرج عنه ، على ألا يبرح سامرَّاء حتى إذا كانت سنة ٢٣٤ لعصر المتوكل هرب إلى دياره وحصونه فيها ، واختار حصن مَرَنْد، فجمع فيه عُدَده وأسلحته وأنصاره وزادهم ، ورمَّ ما كان وَهَى من سورها ، وكان فى داخلها وخارجها بساتين ، تدور من حولها أشجار كثيرة . ووجَّه إليه المتوكل بعض الجيوش فلم تستطع أن تصل إليه ، ثم وجَّه إليه بُغا الشرابى ، فزحف إلى الحصن وقطع ما حوله من الشجر نحواً من مائة ألف شجرة ، ونصب عليه المجانيق ، ويئس ابن البعيث من مطاولة الحصار ، ففرَّ على وجهه وهو ينشد :

كم قد قضيتُ أمورًا كان أهملها غيرى وقد أخذ الإبْلاسُ بالكَظَم[1]

لا تعذلينىَ فيما ليس ينفعنى إليكِ عنى جَرَى المقدارُ بالقَلَم

سأتلف المال فى عُسْرٍ وفى يُسْرٍ إن الجواد الذى يعطى على العدمِ

وتبعه نَفَرٌ من الجيش العباسى ، فلحقوه ، وهو راكب دابة متقلد سيفًا يريد أن يصير إلى نهر عليه رَحًى ليستخفى فى الرَّحى ، وأخذوه أسيراً ذليلا ، وانتهب الجند داره ودور أصحابه وبعض دور المدينة ، ونادى مناد بالامتناع عن النهب . وأُتِىَ بابنِ البعيث إلى المتوكل ، فأمر بضرب عنقه ، فطُرح على نِطْع ، وجاء السيَّافون فلوحوا له بسيوفهم ، وقال له المتوكل حانقًا غاضبًا : ما دعا يا محمد إلى ما صنعت ؟ فأجابه : الشِّقْوة وأنت الحبل الممدود بين الله وبين خلقه ، وإنَّ لى فيك لظنَّين أسبقهما إلى قلبى أولاهما بك ، وهو العفو ، ثم اندفع ينشده :

أبَى الناسُ إلا أنك اليوم قاتلى إمامَ الهدى والصَّفْحُ بالحُرِّ أجْمَلُ

وهل أنا إلا جُبْلَةٌ من خطيئةٍ وعفوُك من نور النبوة يُجْبَلُ[2]

تضاءل ذنبى عند عفوك قِلَّةً فَمُنَّ بعَفْوٍ منك والعَفْوُ أفضلُ

فإنك خير السابقين إلى العُلا ولا شك أنْ خَيْرُ الفَعالين تَفْعَلُ

---

(١) الكظم : مخرج النفس من الحلق . الإبلاس : انقطاع الحجة .

(٢) الجبلة : الخلقة والطبيعة .

فقال المتوكل : أفعل خيرهما وأمُنُّ عليك ، ارجعْ إلى منزلك ، وخفّف عنه الحكم من الإعدام إلى الحبس وظل فيه حتى وافاه الموت . وفى الطبرى أنه كما كان ينظم بالعربية بعض أشعار له كان ينظم بالفارسية أشعاراً أخرى . وكان جواداً ممدَّحاً طالما قصده الشعراء بمدحهم ، وأجزل لهم فى عطائه ، وممن ذكر منهم المرزبانى فى معجمه يحيى [1] بن أحمد من أهل مدينة الرَّحبة فى الموصل ، وفيه يقول : «كان فى ناحية محمد بن البعيث ، ومدحه مدحًا كثيراً» منه قصيدة أولها :

لا زال محسودًا على أفعــالهِ ... وحَسوده فى الناس غيرُ محسَّدِ
شطراه بين معاقبٍ أو غافرٍ ... أو عائدٍ متفضِّلٍ أو مُبْتَدِى
شَفْعاً ووِتْرًا كلّ ذاك فَعاله ... كالدهر إلا أنه لا يعتدِى
فالناسُ تحت لوائه من راغبٍ ... أو راهبٍ أو رائحٍ أو مُغْتدِى

وكان ابن البعيث يستخدم يحيى فى الدعاية له ، وهو يصوره فارسًا رائحًا غاديًا على أعدائه ، والناس بين راهب من بطشه وراغب فى كرمه الفياض ، وتارة يعاقب أعداءه عقابًا أليمًا ، وتارة يعفو عفواً رحيمًا ، ويدعو له أن يظل محسوداً متسنمًا لذروة المجد الرفيعة . ومن قوله فيه :

متى ألْقَ منْ آل البَعيث محمَّدًا ... أحلُّ رياضاً للعُلا بمحمَّدِ
وتضحك أم البِشْرِ عنى بنَيْلِهِ ... فأَرجِــع محسودًا بِنَيْلٍ محسَّدِ

ويبدو أن ابن البعيث كان شخصية ممتازة ، فهو جواد ، وهو شجاع من أهل البأس والفتوة ، وهو أديب يحسن العربية والفارسية . وبلغ من ثبات جأشه وجنانه أن أنشد المتوكل الأبيات السالفة وهو على النطْع والسَّياف شاهر سيفه يريد أن ينقضَّ عليه وأن يحزَّ رأسه ويُزْهق روحه ، وشَرَرُ الغضب يتطاير من عينى المتوكل وقد انتفخت أوداجه . وكأن ذلك كله لم يملأ نفسه خوفًا ولا هلعًا ، فظل رابط الجأش مجتمع القلب ، لا تخونه الكلمة فى اللحظة الحرجة ، بل لا يخونه البيت

---

(١) انظر فى ترجمته وأشعاره معجم الشعراء ص ٤٩١ .

الذى يستلُّ الغضب من نفس المتوكل . وقد بلغ منه مبلغًا خطيراً ، حتّى أوشك أن يقضى عليه قضاء مبرمًا . وهى قدرة نفسية كانت تمتزج بقدرته البيانية .

بكر [1] بن عبد العزيز بن أبى دلف

حفيد أبى دُلَف القاسم بن عيسى العِجْلى الشيبانى البطل المغوار الذى أبلى بلاء عظيمًا فى حروب بابك لعهد المأمون والمعتصم ، وكان هرون الرشيد ولاّه — وهو حَدَث السنّ — أعمال الجبل فى إيران ، ولم يزل عليها إلى أن تُوُفّى سنة خمس وعشرين ومائتين . وكان أديبًا شاعراً وله مقطوعات تتردّد فى كتب الأدب ، وهو ممدوح أبى تمام وعلى بن جَبَلَة الذى قال فيه :

إنما الدنيا أَبو دُلَفٍ بين باديه ومحتَضَرِهْ
فإذا وَلَّى أبو دُلَفٍ وَلَّت الدنيا على أَثره

وقد تولّى إقليم الجبل ابنه عبد [2] العزيز وكان شاعراً ، وشجاعًا باسلا ، وعزله عنه المعتز وولى عليه موسى بن بغا ، فثارت ثائرة عبد العزيز وفرّ إلى قلعة له ولعشيرته فى الكَرَج بين همذان وأصفهان ، وظل ينازل الدولة العباسية . ونراه فى سنة ٢٥٤ يَجْبى همذان . ويخلفه ابنه أحمد ، فيتولى زعامة أسرته ويمدّ سلطانه إلى أصبهان ويتوفى سنة ٢٨٠ فيتنازع الرياسة بعده أخواه عمر وبكر ، ويتمّ لعمر القيام بالأمر ، ولا يرسل إليه الخليفة المعتضد بالولاية ، حتّى لا يثور بكر ، غير أنه عاد فولّى فى سنة ٢٨٣ عيسى النُّوشَرِىّ على أصبهان ، وغضب بكر ومن كانوا ينضوون تحت لوائه من الأعراب ، فولّى وجهه معهم نحو الأهواز ، وخرج فى طلبه القائد التركى وصيف حتّى بلغ حدود فارس . ولحقه ، ولكنه لم يحاول أن يبادره بالحرب ، وباتا كلٌّ واحد منهما قريب من صاحبه ، وارتحل بكر ليلا ولم يتتبّعه وصيف ، وعاد بكر إلى أصبهان ورجع وصيف إلى بغداد . وكتب المعتضد إلى بدر غلامه المعروف باسم بدر المعتضدى يأمره بطلب بكر بن عبد العزيز وعربه .

وكان بكر شاعراً انحدر إليه الشعر من أبيه وجده ، وله ديوان صغير نُشر فى

---

(١) انظر فى بكر وأشعاره ديوانه وتاريخ الطبرى ١٠ / ٤٧ ، ٥١ ، ٦٣

(٢) انظر فى عبد العزيز وولايته على الجبل الطبرى ٩ / ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٨١ .

دهلى باسم شعر بكر بن عبد العزيز وهو يتغنى فى أشعاره بفتوته وفروسيته ، وله ميمية طريفة نظمها حين سمع بأن المعتضد أمر بدراً غلامه أن يتعقبه، وفيها يتوعده ويتهدده بمثل قوله :

أَلْقَى الأَحِبَّةُ بالعراقِ عِصِيَّهُمْ وبقيت نُصْبَ حوادث الأيامِ
وتشعَّب العرب الذين تصدَّعوا فذببتُ عن أحسابهم بحُسامى
فلأقرعَنَّ صَفَاة دَهْرٍ نابَهم قَرْعًا يهدُّ رواسىَ الأعلامِ
ولأتركنَّ الواردين حياضَهم بقرارةٍ لمواطئ الأقدامِ
يا بَدْرُ إنك لو شهدتَ مواقفى والموت يلحظ والصِّفاحُ دوامى
لذممتَ رأيك فى إضاعة حُرْمَتِى ولضاقَ ذَرْعُك فى اطِّراح ذِمامى
حرَّكْتَنِى بعد السكون وإنمــا حَرَّكتَ من حِضْنِى جبالَ تِهام

وواضح من حديثه فى مطالع هذه الأبيات أنه يأسى للعرب فى عصره ، فقد تشعَّبوا وتَفرَّقوا شِيَعًا وطرائق شتى ، فعضَّهم الدهر بنابه وأصبحت حياضهم مباحة يَرِدُها الأعاجم وغير الأعاجم ، وها هو وحده يقف للدفاع عن عَرِينهم ، ولا معين له غير عزيمته الماضية وسيوفه القاطعة . وإنه ليتهدد الدهر أن ينزل به أشد النكال كما يتهدد من استباحوا حِمىَ العرب والعروبة بالذل والهوان حتى ليصبحون موطئًا للأقدام ، ويتحول إلى بدر المعتضدى واصفًا له مواقفه البطولية حين تُسَلّ السيوف وتسدَّد الرماح ويلتقم الموت الأبطال ، حتى يستشعر الندم على تضييعه لذمامه وتحريكه للحرب المبيرة بعد سكونها . ويبدو أن بدراً رأى أن يَكِلَ أمره إلى غيره ، فكلَّف عيسى النُّوشَرِىَّ بمهاجمته ، وصَدَعَ لتكليفه ، ولكنه لم ينجح سريعًا فى مهمته ، واضطر فى بعض المواقف أن ينسحب بجيشه ، فقال بكر يذكر فراره من بين يديه ، ويتهدد بدراً صاحبه ، من قصيدة طويلة :

ليس كالسيف مؤنسٌ حين يَعْرُو حـادثٌ معضلٌ ويَفْدح أمْرُ
أوقدوا الحرب بيننا فَاصْطَلَوْهَـا ثم حاصوا فأين منها المَفَرّ(١)
وبَغَوْا شَرَّنا فهذا أوانٌ قد بدا شَرُّه ويتلوه شَرُّ

---

(١) حاصوا : حادوا .

قد رأى النُّوشَرِىُّ لما التقينا   مَنْ إذا أُشْرِعَ الرماحُ يَفِرُّ
جاء فى قَسْطَلٍ لُهامٍ فَصُلْنَا   صَوْلَةً دونها الكماةُ تَهِرّ
غرَّ بَدْرًا حلمى وفَضْلُ أناتى   واحتمالى وذاك مما يَغُرّ

على أنه سرعان ما اضطُرَّ إلى الفرار أمام جيوش الخلافة سنة ٢٨٤ إذ التقى به النوشرى فى حدود أصفهان ، فقتل رجاله واستباح عسكره . وأفلت فى نفر يسير ، وغادر إقليم الجبل متجهًا إلى محمد بن زيد العلوى صاحب طبرستان ، فأكرم وفادته عليه ، وقرَّبه منه ، وولاه على إقليم رويان ، غير أنه مات مسمومًا فى طريقه إليها لسنة ٢٨٥ .

٤

شعراء الوزراء والولاة والقواد

لا نبالغ إذا قلنا إن جميع وزراء العصر وأكثر ولاته وقواده داروا على ألسنة الشعراء يمدحونهم طلبًا للنوال ، إذ كانت بأيديهم أموال الدولة ، وكانوا ينثرونها نَثْراً على الدعاية لهم ، ولم يكن للدعاية حينئذ لسانٌ سوى الشعر ، فالوزير وكذلك الوالى والقائد حين يُطْرِيه شاعر ويثنى عليه يطير اسمه فى الناس ، ولذلك كان كثيرون يَتَجَشَّمُون الشعراء من حولهم ، لكى يعدّدوا مناقبهم ، ويصوّروا كفاءتهم وأنهم من الصفوة المختارة للأمة . وكان من بينهم شعراء وأدباء يقدرون الشعر وأصحابه ، ويرفعون منزلتهم عالية . وكان فى مقدمتهم لعصر المتوكل وزيره الفتح بن خاقان وكان كثيرون يكادون يقصرون أنفسهم على مديحه وما يصلهم من نواله (١) ، وهو من ممدوحى البحترى كما مر بنا فى غير هذا الموضع ، وكان شاعراً مرهف الذوق ، وله البيت المشهور (٢) :

ليس يُسْتَحْسَنُ فى شَرْعِ الهَوَى   عاشقٌ يُحْسِنُ تأليفَ الحُجَجْ

(١) انظر مثلا ترجمة ابن أبى فنن الشاعر فى تاريخ بغداد ٤ / ٢٠٢ .

(٢) معجم الشعراء ص ١٩١ .

ومثله من وزراء المتوكل فى كثرة مادحيه عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، وهو أيضًا ، من ممدوحى البحترى ، ومن مادحيه [1] محمد بن غالب الأصبهانى والقنبرىّ [2] ، وفيه يقول أبو هِفَّان يوم النَّيْروز وفيه تقدَّم هدايا كثيرة [3] :

إذا نحن مدحناك رَعَيْنا حُرْمة المجدِ
وما استطرفتُ للإهدا ء إلا طُرَفَ الحَمْدِ

وكان يَزِرُ للمنتصر أحمد بن الخصيب ولم تكن له رصانة صاحبيه، بل كان فيه حمق كثير ، ومع ذلك مدحه غير شاعر طلبا للربح والنوال ، من مثل قول محمد بن غياث الكاتب فيه [4] :

سَمَّوْهُ أحمد فالإسلامُ يحمدُه والدهر كاسم أبيه ممرعٌ خَصِبُ
فلا فضائل إلا منه أوَّلُها ولا مواهبَ إلا دون ما يَهبُ

ووزر للمستعين أبو محمد صالح بن يزداد ، ويردِّد البحترى فى ديوانه مديحه، وتلقانا مدائح فى وزراء المعتز مثل عيسى بن فرخانشاه وجعفر بن محمود الإسكافى. ويتولى وزارة المهتدى سليمان بن وهب ، وهو كما يقول الفخرى أحد كتَّاب الدنيا وأحد عقلاء العالم ، وكان يُحْسن الشعر كما كان يحسن الكتابة ، وهو من ممدوحى البحترى ، وفى كتاب الأغانى ترجمة طويلة له ، وكثير من المدائح قُدِّمت إليه من مثل قول هرون بن محمد البالسى [5] :

أسفرَ الشَّرْقُ منك والغرب عن ضو ءٍ من العَدْل فاق ضوءَ البدورِ
أنشر الناسَ غيثُكُم بعدما كا نوا رُفَاتاً من قبل يوم النُّشورِ [6]

ووزر للمعتمد الحسن بن مَخْلد ، وكان ماهراً فى الكتابة ، وهو أيضًا من ممدوحى البحترى ، وكان مقصداً للشعراء . ويخلفه إسماعيل بن بلبل ، وهو كسابقه

---

(١) معجم الشعراء ص ٤٠٩ .
(٢) نفس المصدر ص ٤٢٣ .
(٣) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤٠٩ .
(٤) معجم الشعراء ص ٣٧٨ .
(٥) أغانى (ساسى) ٢٠ / ٦٧ ومعجم الشعراء ص ٤٦٤ .
(٦) أنشر : أحيى.

من ممدوحى البحترى، ومدائح ابن الرومى وأهاجيه فيه مشهورة . ويُكثر البحترى وابن الرومى معًا من مديح وزير المعتمد صاعد وابنه العلاء وأخيه عبدون ، كما يكثر ابن الرومى من مديح عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتمد وابنه القاسم وزير المعتضد ، وفى ديوان ابن المعتز مدائح لهما مختلفة . وتدور أسماء وزراء المكتفى والمقتدر على ألسنة الشعراء ، وفى ابن الفرات وزير المقتدر يقول ابن العلاف[1] :

يتلقَّى النَّدَى بوجهٍ حَيِىٍّ ... وصدورَ القَنَا بوجهٍ وَقَاحِ
هكذا هكذا تكون المعالى ... طُرُقُ الجِدِّ غير طُرْق المِزَاحِ

ولأبى بكر يحيى بن محمد الصولى أشعار ومدائح كثيرة فى وزراء العصر المتأخرين منذ عصر المقتدر، وكان يدمج مديحهم فى مديح الخلفاء ، وقد يمدحهم مدحًا مستقلا من مثل قوله فى أبى عبد الله البَرِيدىّ وزير الخليفة المتقى[2] :

ما رأى الناسُ بالوزير البريد ... ىِّ كذا اليومِ منه حُسْناً وفخرا
الذى يعشَق المكارم والمج ... دَ ويَشْرِى بالمال حمدًا وشكرا

ولعل أكثر الولاة مديحًا فى هذا العصر آل طاهر ، وفى مقدمتهم طاهر بن عبد الله بن طاهر والى خراسان ، ومحمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد وأخواه عبيد الله وسليمان ، وعرضنا فيما أسلفنا مدائح البحترى وابن الرومى فيهم ، وممن كان منقطعًا إليهم أبو الأشعث المروزى[3] . وفى طاهر يقول مدرك بن غزوان الجعفرى من قصيدة[4] :

حَمَى طاهرٌ شرقَ البلاد بيُمْنِهِ ... وشعثُ النواصى لا تجفُّ لبودها[5]
يُنيخ بها أرض العدو ويبتنى ... مآثر مَجْدٍ كان قِدْماً يَشِيدها

---

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٥٩ مقابلة على ص ٤٥٤ .
(٢) أخبار الراضى والمتقى بالله للصولى ص ٢٠٢ .
(٣) معجم الشعراء ص ٣٩٢ .
(٤) معجم الشعراء ص ٣٣٤ .
(٥) شعث النواصى : الخيل .

وممن كان يخصّ محمد بن عبد الله بن طاهر بمدائحه ابن أبي فَنَن ، وتصادف أن كانت له ضيعة بجوار إقطاع له ، وكان عامل الخراج والعشور يلحُّ عليه في طلب عُشوره وخراجه ، وربما آذاه ، فكتب إلى محمد يستغيث به من قصيدة طويلة (١) :

أبني حُسَينٍ إنني أصبحتُ في كنف الأَمير
ولنا معاشٌ في قطيـ عتهِ على الماءِ النَّمير
لولا تردُّد عـامل كالكلب في يومٍ مطيرِ
فهل الأميرُ بجوده من قبْح طلعته مجيرى

فلما قرأ محمد القصيدة وقَّع تحتها قد أجرناك أبا عبد الله وأمرنا لك باحتمال خراجك — وكان في كل سنة ستة آلاف درهم — وحمل إليه ألف دينار ، وحلف عليه أن يقبلها . قال ابن أبي فنن : وصرت منذ هذا الحين أمدحه في كل عام بقصيدة . ومن الولاة الذين طالما مدحهم الشعراء أبو جعفر أحمد بن محمد الطائي والي الكوفة ، وهو من ممدوحي البحتري وابن الرومي ، ومثله إبراهيم بن المدبر الذي ولي الدواوين في سامرَّاء وبغداد وولي في بعض السنوات البصرة فأغرق الشعراء بأمواله وأغرقوه بمدائحهم ، وهو ممدوح البحتري . ونرى شاعراً يكاد يخصه بمديحه وخاصة طوال مقامه في البصرة ، وهو أبو شُرَاعَة شاعرها ، وكان لا يفارقه أيام تقلده لها ولا يمنعه حاجة ولا شفاعة يسألها إلا حققها له ، وفيه يقول (٢) :

إنما لذَّتاك في المال شَتَّى صَوْنُك العِرْضَ وابتذال المالِ
ما نبالي إذا بقيتَ سليماً من تولَّتْ به صُرُوفُ الليالي

ومرَّ بنا في حديثنا عن البحتري أنه مدح أحمد بن طولون أمير مصر وابنه خمارويه وبعض قواده ، وأنه كان يمدح الهيثم بن عبد الله التغلبي والي الموصل وسيما الطويل والي حلب ورافع بن هرثمة والي الريّ ، كما مدح بعض قواد الترك مثل وصيف الصغير وأذكوتكين . ولا بد أن شعراً كثيراً نُظم في مديح القواد ، إذ تشير

---

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٩٦ والديارات ص ١٢٥ .

(٢) أغاني (طبع الساسي) ٢٠ / ٣٦ .

نصوص كثيرة إلى أن هذا الشاعر أو ذاك كان من شعراء العسكر ، ومع ذلك نفتقد الشعر الذى يصوّر بطولة قواد العصر إلا ما نُظم فى الموفق وابنه المعتضد ، مما مرّت بنا الإشارة إليه عند البحترى وابن الرومى وابن المعتز . ويتعرض أبو بكر الصولى لبعض القواد فى عصره وخاصة فى مديحه لبعض الخلفاء من مثل محمد بن ياقوت القائد فى عصر الراضى ، وكان يتحكم فى شئون الدولة حتى أصبح ابن مقلة الوزير معه كالعارية وله فيهما ضادية طويلة [١] . وامتدح الشعراء كثيرين من الكتاب ورؤساء الدواوين — وأكثر من سميناهم من الوزراء عملوا فى الدواوين أولا — وممن كان ممدَّحًا منهم آل ثوابة ، وقد توارثوا ديوان الرسائل منذ عصر المعتمد ، وكان من أكثرهم جوداً وكرمًا أبو العباس أحمد بن محمد بن ثوابة ، وهو ممدوح البحترى ، وكان يمدحه شعراء كثيرون دَبَّجُوا فيه أشعاراً بديعة من مثل قول أبى هِفان [٢] :

الثوابىّ فتىً ليس له فى سوى السؤددِ والمجد وَطَرْ

وقوله [٣] :

نفسى فداءُ أبى العباس من رجـلٍ لم يَنْسنى قَطُّ فى نَأْىٍ ولا كَثَبِ
يقرى وبالرَّقة البيضاء منزلُه من بالعراقين من عُجْمٍ ومن عربِ

ولعل من الخير أن نعرض ثلاثة من شعراء هؤلاء الرؤساء ليتضح لنا مديحهم فى أضواء أكثر وضوحًا ، وهم أبو على البصير وأحمد بن أبى طاهر وابن دُرَيْد .

أبو على [٤] البصير

اسمه الفضل بن جعفر بن الفضل بن يونس ، أصل أسرته من الأنبار ، انتقلت إلى الكوفة فنزلت فى حى النَّخَع ، وهى أسرة فارسية الأصل . وكان أبو على ضريراً

(١) أخبار الراضى والمتقى للصولى ص ١٠.

(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤١٠.

(٣) ديوان المعانى ١ / ٦٥.

(٤) انظر فى أخبار أبى على البصير وأشعاره كتاب طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٩٨ ومروج الذهب للمسعودى ٤ / ٦٢ ، ٨٤ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ١٨٥ ونكت الهميان ص ٢٢٥ وزهر الآداب للحصرى ٣ /٩٥ ، ١٩٣ والديارات ص ٨١ ، ٢٤٨ والفهرست ص ١٨٤

ولُقّب البصير على العادة فى التفاؤل أو لذكائه وفطنته . وكان شيعىّ الهوى على مذهب أهل بلدته الكوفة ، وأكبر الظن أنه كان إماميًّا يؤمن بالتقيّة ، ولذلك لم ير بأسًا فى أن يترك الكوفة إلى بغداد وسامرّاء . ونزل الأخيرة فى خلافة المعتصم ومدحه ومدح جماعة من قواده ، ولزم المتوكل والفتح بن خاقان يمدحهما وينال جوائزهما ، ولحق زمن المعتز وهنأه بالخلافة كما مر بنا فى غير هذا الموضع . ولم يكن شاعراً فحسب ، بل كان أيضًا صاحب رسائل نثْرية بارعة ، وفى الجزء الرابع من جمهرة رسائل العرب لأحمد زكى صفوت قطعة منها بديعة . ويقول المسعودى : « كان من أطبع الناس فى زمانه لا يزال يأتى بالبيت النادر والمثل السائر الذى لا يأتى به غيره ، وله فى الفضل حفيد الحسن بن سهل :

ملكٌ ندفع – ما نخشى – بهِ ... وبه – نُصْلح منا ما فَسَدْ

ينجز الناس إذا ما وعدوا ... وإذا ما أنجز الفضلُ وعد

ودقة العبارة واضحة ، وواضح معها دقة الفكرة فى البيت الثانى ، فالفضل لا يزال يُؤدى وعوده وكلما أدّى وعداً وعد ثانية ، فهو بحر من الجود لا ينقطع فَيَنْضه ، ومن طريف ماله فى الفتح بن خاقان قوله واصفًا بلاغته وشعره :

سمعنا بأشعار الملوك فكلُّها ... إذا عضَّ مَتْنيه الثِّقافُ تأوَّدا

سوى ما رأينا لامرىء القيس إننا ... نراه متى لم يشعر الفَتْحُ أوحدا

أقام زماناً يسمع القول صامتاً ... ونحسبه إن رام أكْدَى وأصْلدا[1]

فلما امتطاه راكباً ذلَّ صعبه ... وسار فأضحى قد أغار وأنْجدا

فأشعار الملوك قبل الفتح لا تثبت عند الثقاف والتمحيص ولا تستقيم بل تتأوّد وتتثنى إلا ما كان من شعر امرئ القيس ، ولكن بشرط ألا ينظم الفتح وكأنه يعلو به على أبى الشعر العربى كله . وصوّره يطيل إرهاف سمعه لمادحيه ، حتى ليظن الرائى أنه لا يحسن قول الشعر ولا نظمه ، حتى إذا رامه ونظمه ذاع فى طول البلاد وعرضها وفى حَزْنها وسهولها ونجادها وأغوارها . ويقول الرواة إنه كان يتشيع وإن له فى ذلك أشعاراً ، ولم يصلنا من هذه الأشعار شىء ولعل كثيراً منها كان فى مدح آل البيت .

(١) أكدى وأصلد : أعطى قليلا .

وروى له الحصرى تهنئة بمولود ، نظن ظنًّا أنه قدمها لأحد أفراد البيت العلوى ، وفيها يقول :

أتانى البشير بأن قد رُزقتَ غلاماً فأَبهجنى ما ذكَرْ
فعمَّرك اللهُ حتى ترا ه قد قارب الخَطْو منه الكِبَرْ
وحتى ترى حوله من بَنيه وإخوته وبَنِيهم زُمَــرْ
وأوزعك الله شكرَ العطاء فإن المزيدَ لعبدٍ شكر
وصَلَّى على السَّلف الصَّالحـ ـين منكم وبارك فيمن غَبَرْ

وكان يؤذى نفسه إيذاء شديداً أن يقدّم شعره أحيانًا لبعض الرؤساء أو بعض رجال الدولة فلا يأبه له أو لا يعطيه ما يستحقه ، وتصادف أن أفراداً مختلفين وقفوا منه هذا الموقف فى صور مختلفة ، فعزَّت عليه نفسه وكرامته ، وأنشأ يقول :

وإنى قد بلوتكمُ جميعــاً فما منكم على شكرى حريصُ
وأَرخصتُ الثناء فعِفْتموه وربَّما غلا الشَّىْءُ الرخيص
فعفتُ نوالكم ورغبتُ عنه وشَرُّ الزاد ما عاف الخَصِيصُ(١)

ولعل شخصًا لم يؤذ نفسه وكبرياءه كما آذاه المعلَّى بن أيوب أحد قواد الجيش ، ولعل ذلك ما جعله يخصّه ببيتين كأنهما سَهْمان مُصْميان ، إذ يقول فيه :

لعمُر أبيك ، ما نُسب المعلَّى إلى كرمٍ وفى الدنيا كريمُ
ولكن البلاد إذا اقشعرَّتْ وصَوَّح نَبْتُها رُعِىَ الهَشيم(٢)

وكان يحس ّ فقده لبصره إحساسًا عميقًا ، ولكن ذلك لم يكسر نفسه ولا أصابه بهوان ، إذ نراه يُدِلُّ بأن غيره من المبصرين يستمدُّون علمهم من الكتب المجلَّدة ، أما علمه فدَفْتَرُهُ القلب وحِبْرُه السمع ، ويعتذر اعتذارات طريفة عن أنه لا يستطيع شيئًا إلا بغيره كما نرى فى مثل قوله :

(١) الخصيص : من الخصاصة ؛ وهى الفقر والاحتياج .
(٢) اقشعرت : أجدبت . وصوَّح : يبس .

لئن كان يهدينى الغلام لِوجْهتى ويقتادنى فى السير إذ أنا راكبُ
لقد يستضيء القومُ بى فى أمورهم ويخبو ضياءُ العين والرَّأىُ ثاقب

وهو كثير السخرية فى أشعاره . وله مداعبات ومجاوبات تدل على بديهة حاضرة حضوراً شديداً ، وكثير منها كان يدور بينه وبين أبى العيناء الضرير ويُرْوَى أنه قال له: إننى وُلدت وقت طلوع الشمس، فقال له توًّا: لذلك خرجت مُكْدياً (شحاذاً) لأنه وقت انتشار المساكين . وله غزل بارع من مثل قوله :

ألمتْ بنا يومَ الرَّحيل اختلاسَةً فأَضْرَم نيرانَ الهوى النَّظَرُ الخَلْسُ (١)
تَأَبَّتْ قليلا وهْىَ تُرْعَدُ خِيفةً كما تتأَبَّى حين تعتدل الشَّمْسُ
فخاطبها صَمْتى بما أنا مضمرٌ وأنبسْتُ حتى ليس يُسْمَعُ لى حِسُّ (٢)
وولَّتْ كما وَلَّى الشبابُ لِطِيَّةٍ طوت دونها كَشْحاً على نفسها النَّفْسُ

والقطعة بديعة وتدل على رهافة الحس ودقة الشعور وخصوبة التفكير ، وكأن البصير روى لنا قصة لا مجرد خطرات فى الحب والوجد. وكان يشارك أحيانًا فى الخمر والمجون واللهو ، وله دعابة نظمها وهو يريد الحج ، صوَّر فيها نفسه ألمَّ بالكوفة والأديرة القائمة حولها فى الحيرة ، فنازعته نفسه أن يشرب فى أحد الأديرة ويتزوَّد من خمرها ما يكفيه حتى العودة ، فقال لصاحبه : حُطَّ أثقالنا ، وسار الناس وأقاما ، يقول :

خرجنا نبتغى مكـ ـة حُجَّاجاً وزُوَّارا
فلما شارف الحِيرَ ةَ حَادِى جَملى حارا
فقلت : احْطُطْ بها رَحْلِى ولا تحفِلْ بمن سارا
فقضَّينا لُبَاناتٍ لنا كانَتْ وأوطارا
وما ظنك بالحَلْفا ءِ إنْ أَشْعَلْتها نارا

(١) الخلس : المختلس . (٢) أنبس : همس بكلامه .

ويقال إنه تغيَّر عقل أبي علي البصير قبل موته بقليل ، وكان يثوب إليه عقله ، فيأسى على نفسه وما أصابه من خرف الشيخوخة ، وفى ذلك يقول :

خَبَا مصباحُ عقلِ أبى علىٍّ وكانتْ تستضيء به العقولُ
إذا الإنسان مات الفهم منه فإن المـوت بالباق قليل

ولعل فى كل ما ذكرناه من شعره ما يدل على حذقه حقًّا وأنه كان خِصْب الذهن . وكان لا يزال يعرض على معاصريه ما يزيدهم به إعجابًا وبشعره استحسانًا .

أحمد [1] بن أبى طاهر

اسم أبى طاهر طيفور ، وأحمد ابنه رُزق به فى بغداد لسنة ٢٠٤ ، وأصل الأسرة من مَرْو ، ويقال إنها من سُلالة ملوك خراسان . أخذ عن علماء بغداد ، حتى إذا استوى عوده جلس للتعليم فى بعض الكتاتيب ، ثم ترك التعليم واحترف الوراقة ، مما جعله يقرأ كثيراً من مصنفات عصره والعصر السابق له ، وسرعان ما تحوَّل إلى مؤرخ كبير ، كما يشهد بذلك كتابه تاريخ بغداد فى أخبار الخلفاء والأمراء وأيامهم ، وهو أحد المصادر الأساسية التى اعتمد عليها الطبرى فى تأليف كتابه تاريخ الرسل والملوك : أهم مرجع تاريخى للخلفاء حتى أوائل القرن الرابع الهجرى . وله بجانب ذلك كتاب المنثور والمنظوم الذى يشتمل على أبرع الرسائل المدوَّنة فى العصر . وله كتاب فضائل الورد على النرجس وكأنه صنعه ردًّا على ابن الرومى وأمثاله ممن كانوا يفضلون النرجس على الورد . وكان يتشيَّع ، ولكن ليس لدينا من شعره الشيعىّ سوى القصيدة التى أشرنا إليها فى غير هذا الموضع والتى رثى بها يحيى بن عمر الطالبى المقتول بالكوفة فى زمن المستعين . ويبدو أنه كان إماميًّا يأخذ بالتقيَّة، ولا يجد بأسًا فى مديح الخلفاء العباسيين ورجال دولتهم،

(١) انظر فى أخبار أحمد بن أبى طاهر طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤١٦ ومروج الذهب ٤ / ٦٤ والفهرست ص ٢١٥ حيث ذكر له ثمانية وأربعين كتاباً وتاريخ بغداد ٤ / ٢١١ ومعجم الأدباء ٣ / ٨٧ وكتاب الزهرة لابن داود (انظر الفهرس) وديوان المعانى ١ / ٤٨ ، ٩٤ والموشح للمرزبانى ص ٣٥١ .

وفتحوا له جميعاً أبوابهم . وربما كان من أهم الأسباب فى فتحها كتابه السالف « تاريخ بغداد » الذى أرّخ فيه للدولة وخلفائها . وفتح له كتاب المنثور والمنظوم أبواب الأدباء لا فى بغداد وحدها ، بل أيضاً فى سامرّاء طوال اتخاذها حاضرة للخلافة.

وبجانب تصنيفاته كان شاعراً بارعاً ، ولكن قبل أن نعرض لشعره يحسن أن نقف عند ما قاله بعض معاصريه من أنه « كان مُؤدِّبَ كُتَّاب عاميًّا ثم تخصص وجلس فى سوق الوراقين فى الجانب الشرقى ببغداد ، وليس فيمن شُهر بمثل ما شُهر به من التصنيف للكتب وقول الشعر أكثر تصحيفاً منه ولا أبلد علماً ولا ألحن ، قال : ولقد أنشدنى شعراً يعرضه علىّ فى إسحق بن أيوب لحنَ فى بضعة عشر موضعاً منه وكذا قال لى البحترى فيه » . وشهادة البحترى فيه مردودة ، لأنهما كانا يتهاجيان ولا يرضى كل منهما عن صاحبه ، ونفس أبى طاهر — كما فى كتاب الموشح للمرزبانى — يصف البحترى باللحن فى شعره . وبالمثل شهادة هذا المعاصر له مردودة لأنه كان يخاصمه على ما يبدو . وليس فى شعره الذى بين أيدينا ما يصوّر هذا اللحن ، ونرى معاصريه ومن جاءوا بعدهم يشهدون له بالفصاحة والبلاغة ، فالخطيب البغدادى — ومثله ياقوت — يقولان : « كان أحد البلغاء الشعراء الرواة » . وشعره يشهد ببلاغته ، وأخباره تدل على إعجاب معاصريه به وبشعره . وكان يغدو به ويروح على الوزراء ، فيُسْبغون عليه جوائزهم من مثل قوله فى أبى الصقر إسماعيل بن بلبل وزير المعتمد يهنئه بأحد أعياد النيروز أوائل الربيع :

أَبا الصَّقْرِ لا زالتْ من اللهِ نعمةٌ   تجدِّدها الأَيامُ عندك والدَّهرْ
ولا زالتِ الأَعيادُ تمضى وتنقضى   وتَبْقَى لنا أيامُك الغُرَرُ الزُّهْرُ
فإنك للدنيا جمالٌ وزِينَـــةٌ   وإنك للأَحرار ذُخْرٌ هو الذُّخْرُ
رأَيت الهدايا كلها دون قدركم   وليس بشىءٍ عند مقداركم قَدْر
فأَهديتُ من حَلْىِ المديح جواهرًا   مفصَّلةً يُزْهَى بها النظم والنَّثر

وكانوا يتقدمون للوزراء وعلية القوم فى أعياد النيروز بالهدايا كل حسب قدرته من الجواهر أو من الرياحين ، ورأى ابن أبى طاهر أن خير ما يهديه لإسماعيل بن بلبل عقود أشعاره المرصوفة بالجواهر واللآلىء . والأبيات قوية جزلة مصقولة ، وتدل

على أن يَدَ شاعر صَنَاع هي التي كتبتها وصاغتها هذه الصياغة المتينة . وأروع من هذه القصيدة قصيدته في أبي أحمد عبيد الله بن عبد الله بن طاهر نائب أخيه محمد في حكم بغداد ، ثم حاكمها بعد وفاته سنة ٢٥٢ ، وهي تلتقي بقصيدة تُرْوَى لابن الرومي سبق أن أنشدنا منها في ص ٣١٠ بعض أبيات . ولعل القصيدتين اختلطتا في أذهان الرواة ؛ ومن قصيدة ابن أبي طاهر في مديح أبي أحمد كما جاءت عند بعض الرواة :

مَنْ لم يكن حَذِرًا من حَدِّ صَوْلَتِه ... لم يدر ما المزعجان : الخوف والحَذَر
حُلْوٌ إذا أنتَ لم تبعثْ مرارته ... فإن أمرَّ فحُلْوٌ عنده الصَّبِرُ
سهلُ الخلائق إلا أنه خَشِنٌ ... لَيْنُ المهزَّة إلا أنه حَجَرُ
إذا الرجال دَجَتْ آراؤهم وعَمُــوا ... بالأمر رُدَّ إليه الرَّأْيُ والنظر
الجودُ منه عِيانٌ لا ارتياب بهِ ... إذْ جودُ كلِّ جوادٍ عنده خَبَرُ

وبلغ من إعجاب القدماء بهذا المديح أن قال بعض أدبائهم : لو استُعمل الإنصاف لكان هذا أحسن مدح قاله متقدم ومتأخر . وهي أبيات — إن صَحَّ أنها لابن أبي طاهر — تدل على بصر بالشعر وروعة فنونه البديعية ، وله رسالة في سرقات البحتري تدل من بعض الوجوه على ثقافته الشعرية ، بل لقد اتسعت دراسته للشعر العربي على نحو ما يصور ذلك كتابه المنظوم والمنثور . وقد مضى يُحْكم في القصيدة التقسيم كما في الأبيات الأربعة الأولى ، كما أحكم الطباق والتقابل بين المعاني والألفاظ على نحو ما يتضح في الأبيات الأربعة الثانية . وكان يُحْكم — بجانب المديح — الهجاء اللاذع الذي يلسع كما تلسع الإبر دون فحش من مثل قوله في أبي العيناء الضرير نديم المتوكل والخلفاء ومضحكهم بإجاباته ونوادره :

كُنَّــا نخاف من الزمــا ... ن عليك إذ عميَ البَصَرْ
لم نَدْرِ أنك بالعَمَى ... تَغْنَى ويَفْتَقِرُ البَشَرْ

وكان يتعرض أحيانًا للمبرّد ، فيخشى معرّة لسانه ، ويقال إنه استقبله في

يوم صيف شديد الحرارة فأكرمه وبالغ فى إكرامه . فأطعمه غذاء طيبًا ، وسقاه بارداً ، وأخذ يباسطه فى الحديث ، مؤملا أن يمتدحه ببعض شعره ، وإذا هو ينشده :

ويوم كحرِّ الشَّوْقِ فى صَدْرِ عاشقٍ … على أنه منهُ أَحرُّ وأَرْمَــدُ
ظللت به عند المبرِّد قائلا … فما زلتُ فى ألفاظه أتبرَّد[1]

فقال له المبرّد : قد كان يسعك إذا لم تحمد أن لا تذم ، ومالك عندى جزاء إلا أن تَغْرُبَ عن عينى . فتركه وهو يضحك من أثر دعابته فى نفس المبرد شيخ العربية لعصره . وأنشد له ابن داود طائفة كبيرة من غزلياته ، من مثل قوله :

حبيبى حبيبٌ يكتم الناسَ أنه … لنا – حين ترمينا العيونُ – حبيبُ
يباعدنى فى الملتقى وفــؤاده … – وإن هو أبدى لى البعادَ – قريبُ
ويُعرض عنى والهوى منه مقبلٌ … إذا خاف عَيْناً أو أشار رَقيبُ
فتخرَسُ منا ألسنٌ حين نلتقى … وتنطق منا أَعْيُنٌ وقلوبُ

فهما يتناكران أمام الناس ، وكل منهما شديد الكَلَف والوَلَع ، يتجرع غصص الهوى وآلامه ، ولا يستطيع البوح بما فى ضميره ، وهما لذلك يصطنعان التحفظ والاحتشام ، وقلوبهما تحترق وجداً . وقد خرست منهما الألسنة ونطقت العيون بمكنون الضمير . وهو مع ذلك يكثر من الاختلاف إلى دارها ومجلس مولاها وليس من رسل بينه وبينها سوى لغة العيون ، يقول :

إذا ما التقينا والوشاةُ بمجلسٍ … فليس لنا رُسْلٌ سوى الطَّرْف بالطَّرْفِ
فإن غَفَلَ الواشون فُزْتُ بنظرةٍ … وإن نظروا نَحْوِى نظرتُ إلى السَّقفِ

فهو يسارقها النظر ويختلس منها النظرة فى الحين بعد الحين ، حتى لا يفتضح أمرهما للواشين ويجعلهم يقفون على حبه للمرأة وحبها له وأنها لا تفرّط فيه ، بل شديدة الحرص عليه . ومع ذلك يجرى بينهما حديث صامت لا أول له ولا آخر

(١) قائلا : مستريحا وقت القيلولة ؛ وهى نصف النهار .

عن عذابهما فى الحب وما يصطليان من ناره ، على الرغم من الرقباء والوشاة ، يقول :

عرفتْ بالسَّلام عَيْنَ الرَّقيبِ وأشارتْ بلحظِ طَرْفٍ مُريبِ
وشكتْ لوعةَ النَّــوَى بجفونٍ أعربتْ عن ضمير قَلبٍ كئيب
رُبَّ طَرْفٍ يكون أفصحَ من لَفْـ ـظٍ وأبْدَى لمُضْمَراتِ القلوبِ

فهى تلفته بلحظها الفاتن إلى الرقيب ، وتشكو لوعة النَّوَى وحرقة الحب بعيونها ، واصلة نظرها الشَّزْرَ إلى الرقيب بنظرها اللَّين إليه مُعْرِبة عن ضميرها وما يخفى فى صدرها من الحب له والكلَف به . وهو يحدثها بنفس اللغة ، فيفهم قلبها عن قلبه وضميرها عن ضميره ، وتبادله بنفس اللغة أنها على الوفاء له مقيمة ، يقول :

ألاحظُها خوفَ المراقب لحظةً فأشكو بطَرْفى ما بقلبى من الوَجْدِ
فتفْهَمُهُ عن لَحْظِ عينى بقلبها فتومى بِطرْفِ العين أنى على العَهْدِ

فهما دائمًا يتكلمان بلغة الطرف ، لغة يصمت فيها اللسان ، وتنطق القلوب بما تضمنت من الوجد ولوعاته ، وهما يتغامزان بالنظرات ويتلاحظان ، وكأنما لا يتكلمان بتلك اللغة الصامتة الفصيحة فقط بل يتراسلان بها ويتكاتبان مكاتبات حارة ، يقول :

كتبتُ إلى الحبيب بكسر عينى كتاباً ليس يَقْرَؤُهُ سِــوَاهُ
فأخبرنى تورُّدُ وَجْنَتَيْهِ وكَسْرُ جفونه أن قد قَراهُ

ولعل فى كثرة رسوم ابن أبى طاهر لهذا الموقف ما يدل على دقة حسِّه من طرف وثراءخواطره وأفكاره من طرف آخر ، وفى كثير من هذه الرسوم براعة فى التصوير كما نرى فى البيت الأخير ، ومن بديع تصويره قوله فى إحدى المحجَّبات اللائى شُغف بهن :

حجابٌ فإن تبدو فللدَّمع جــولةٌ يكون له من دون رؤْيتها سِتْرَا

فهو دائمًا منها فى حجابين، حجاب حين لا يلقاها . وحجاب من دموعه حين يلقاها ، وكأنها محجبة دائمًا ، وراء أستار من الحجاب صفيقة وأستار أخرى رقيقة من الدموع الغزار . ويحدثنا ياقوت نقلا عن أحد الرواة أنه كان يلمّ ببعض الأديرة أحيانًا فى طريقه إلى سامرّاء أو بعد رجوعه منها ، ويُنْشد له خمرية ، ويبدو أن الخمر لم تكن من متاعه إلا فى بعض أحوال عارضة . وما زال يُعْنَى بالتصنيف ونظم الشعر حتّى توفى سنة ٢٨٠ للهجرة .

ابن دريد (١)

هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد، من أزد عُمان ، كانت أسرته على شيء من اليسار ، وقد استوطن أبوه البصرة ، وفيها وُلد له سنة ٢٢٣ وعُنى عمه الحسين بتعليمه فألحقه منذ نعومة أظفاره بالكتاتيب ثم بحلقات العلماء ، وكانت له ذاكرة عجيبة لا يكاد شيء يسمعه يفلت منها ، مما أعدّه لأن يكون من كبار اللغويين فى عصره . وقد أكبّ على محاضرات الرّياشى وأبى عثمان الأشْنَانْدانيّ وأبى حاتم السجِستانى وغيرهم من علماء البصرة ، فأخذ كل ما عندهم . ولما استباح الزنج البصرة سنة ٢٥٧ ونكّلوا بأهلها تنكيلا شديداً فرّ مع عمه الحسين إلى عُمان وطن قبيلته الأزد ، وظل بها اثنى عشر عامًا إلى أن قضى الموفق على ثورة الزنج قضاء نهائيًّا ، وحينئذ يعود إلى البصرة حين عاد إليها الأمن والسلام . ويظل بها إلى أن يستدعيه عبد الله بن محمد بن ميكال والى الأهواز وفارس لتأديب ابنه أبى العباس إسماعيل وتثقيفه . ويلبيّ الدعوة ، ويرحب به الوالى ترحيبًا عظيمًا ، ويقلده ديوان إمارته فارس وتقبل عليه الدنيا إذ تنهال عليه الأموال . وينظم فى الوالى وابنه قصيدته الطويلة المشهورة باسم المقصورة ، التى عرضنا لها فى حديثنا عن الشعر التعليمى وتطير شهرتها وتتكاثر شروحها ، وتُطْبَعُ فى عصرنا بشرح التبريزى وبشروح

---

(١) انظر فى ترجمة ابن دريد وأشعاره معجم الشعراء ص ٤٢٥ وتاريخ بغداد ٢/ ١٩٥ وابن خلكان ومعجم الأدباء ١٨/ ١٢٧ ونزهة الألباء . والفهرست ص ٩٧ وشذرات الذهب ٢/ ٢٨٩ ولسان الميزان ٥/ ١٣٢ وتكملة تاريخ الطبرى للهمدانى ص ٧٦ والوافى بالوفيات للصفدى ٢ / ٣٣٨ ومروج الذهب للمسعودى ٤ / ٢٢٩ وطبقات الشافعية ٣ / ١٣٨ والنجوم الزاهرة ٣ / ٢٤٠ روضات الجنات ٦٠٥ وقد طبع ديوانه فى القاهرة .

أخرى وتكثر تخميساتها على مر القرون . وفى أثناء عمله عند ابن ميكال ألّف الجمهرة لابنه إسماعيل ، وهى معجم لغوى بدأ فيه على طريقة معجم العين المنسوب إلى الخليل بالثنائى ثم بالثلاثى ثم بالرباعى ثم بملحقه ثم بالخماسى والسداسى وملحقاتهما ، وجمعَ النوادر فى باب منفرد . أملاها أولا فى فارس ، ثم أملاها فى البصرة ثم فى بغداد ولذلك اختلفت نسخها اختلافات كثيرة . وكان من أهم ما ألفه لإسماعيل، كى يحسن العربية، كتاب الأربعين حديثًا، قصّ فيه حكايات عربية قديمة تقوم على الحب غالبًا كما تقوم على التاريخ ، ويقول الحُصْرى عن هذه الأحاديث إنها هى التى ألهمت بديع الزمان مقاماته[1] . ويبدو أنه ألّف عند ابنى ميكال كثيراً من مصنفاته ، ومما نُشر له منها فى عصرنا كتاب الاشتقاق وكتاب السَّرْج واللجام وكتاب صفة السحاب والغيث وكتاب الملاحن ويشتمل على ألغاز لغوية . وما زال يعيش فى رحاب ابنى ميكال حتى عُزلا عن فارس، فانتقل إلى مسقط رأسه ، ثم تركها إلى بغداد سنة ٣٠٨ وكان صيته وشهرته العلمية سبقاه، فاستقبلته بغداد استقبالا حافلا ، وأجرى عليه المقتدر خمسين ديناراً شهرياً إلى أن توفى سنة ٣٢١ عن نحو ثمانية وتسعين عامًا . وأهم مدائحه وأشعاره مقصورته التى ذكرناها آنفًا ، وقد حلّلناها فى حديثنا عن الشعر التعليمى ، ونقف منها الآن عند مديحه للأمير عبد الله بن محمد بن ميكال وابنه أبى العباس إسماعيل ، وفيهما يقول :

تلافيا العَيْشَ الذى رَنَّقَــهُ ... صَرْفُ الزمان فاستساغ وصَفَا [2]

وأجــريا ماء الحَيَا لى رغَــدًا ... فاهتزَّ غُصْنِى بعد ما كان ذَوَى [3]

إن ابن ميكال الأميرَ انتاشنى ... من بعد ما قد كنت كالشىءِ اللَّقَا [4]

ومَدَّ ضَبْعَىَّ أبو العباسِ من ... بعد انقباض الذَّرْعِ والباع الوَزَى [5]

(١) انظر زهر الآداب ١ / ٣٠٧ وكتابنا الفن ومذاهبه فى النثر العربى (طبع دار المعارف — الطبعة السادسة) ص ٢٤٨ .

(٢) رنقه : كدره .

(٣) الحيا : الغيث والخصب .

(٤) انتاشنى : تناولنى . واللقا : المرمىّ فى عرض الطريق لا يعبأ به .

(٥) الضبع : وسط العضد . ومد ضبعيه : بسطهما ، كناية عن اتساع حاله . وانقباض الذرع والباع كناية عن ضيق الحال .

ذاك الذى ما زال يسمو للعلا بفعله حتى علا فوق العُلا
لو كان يَرْقَى أحــدٌ بجودِهِ ومجــده إلى السَّماء لا رْتَــقَى
ما إن أتى بحرَ نَدَاهُ مُعْتَفٍ على أُوارَى عَلَم إلا ارْتَوَى[١]
نَفْسِي الفِداءُ لأَميرىَّ ، ومَنْ تحتَ السماء لأَميرى الفِدا

وطبيعي أن يُعْنَى ابن دريد فى هذا المديح بإدماج شيء فيه من الألفاظ الغريبة ، لأنه أراد بالقصيدة أن تكون متناً لغوياً ، وتحققت له إرادته ، لا بما وضع فيها من ألفاظ غريبة فحسب ، بل أيضاً بما حشد فيها من الألفاظ المقصورة . ومع ذلك فقد استطاع فيها أن يوازن بين ما جمع من الألفاظ الغريبة ولغة الشعر العذبة ، فاختار لها أسلوباً وسطاً بين الإغراب والسهولة ، كما أشرنا إلى ذلك فى غير هذا الموضع . وهذه الأبيات نفسها تصور هذا المسلك ، فهى لا تتعمق فى الإغراب ، بل تظل فيها نضرة الشعر وجماله . وله وراءها مدائح مختلفة لا يغمسها فى الغريب وألفاظه من مثل قوله فى أبى أحمد حُجْر الجويمىّ أحد رجالات فارس النابهين :

حُجْرُ بن أحمد فارعُ الشرف الــذى خضعتْ لعزَّته طُلَى الأَعناقِ[٢]
انظــرْ أنامله فلسنَ أناملاً لكنهن مفــاتحُ الأَرْزَاقِ
وانظــرْ إلى النور الذى لو أنه للبدر لم يُطْبَعْ بِرَيْن محاقِ[٣]

وكان يجيد فن الرثاء ، وله مرثية بديعة فى عمه الحسين بن دريد الذى تعهد تربيته ، ومن خير مراثيه مرثية فى محمد بن جرير الطبرى عَلَمِ الدراسات الدينية والكتابات التاريخية فى عصره ، وفيها يقول :

إن المنية لم تُتْلِف به رجــلا بل أتلفتْ علماً للدين منصوبا
كان الزمان به تصفو شاربُه والآن أصبح بالتَّكدير مَقْطوبا[٤]
كلا وأيامِه الغُرِّ التى جُعلتْ للعلم نوراً وللتقوى محاريبَــا

(١) الندى : الكرم . المعتفى : طالب النوال والأوارى : النار . العلم : الجبل .
(٢) طلى : جمع طلية ، وهى أصل العنق .
(٣) الرين : الأذى . يطبع : يدنس .
(٤) مقطوباً : ممزوجاً .

وتُنْسب له قصيدة فى ذكرى الرسول عليه السلام نشك فى نسبتها إليه لأن قصائد هذه الذكرى إنما ذاعت وشاعت فى عصر متأخر . وله قصيدة طويلة فى رثاء الإمام الشافعى ، أو بعبارة أدق فى بيان مكانته العلمية الخطيرة ، وفيها يقول :

لرأْيِ ابنِ إدريسَ ابن عمٍّ محمَّدٍ ضياءٌ – إذا ما أظلم الخطبُ – صادعُ
إذا المعضلاتُ المشكلات تشابهتْ سما منه نور فى دُجَاهُنَّ ساطع
أَبَى اللهُ إلا رَفْعَهُ وعلوه وليس لما يُعليه ذو العرش واضع

وهى قصيدة بديعة . وبحقٍّ يقول المسعودى إنه كان يذهب فى الشعر كل مذهب ، فطوراً يجزل وطوراً يرقّ ، وطوراً يصبح بدويًّا متعمقًا فى الفلوات وفى وصف الإبل والخيل ، وطوراً يصبح حضريًّا يصف الرياض والزهور ، ومن قوله فى النرجس :

عيونٌ ما يلمّ بها الرُّقَادُ ولا يمحو محاسنَها السُّهادُ
لها حَدَقٌ من الذهب المصفّى صياغةَ مَنْ يدين له العباد
وأَجْفانٌ من الدُّرِّ استفادتْ ضياءً مثلُه لا يستفاد

ومن تمام هذا الإحساس الحضارى عنده أن نجده يتغزل أحيانًا غزلا رقيقًا ، من مثل قوله واصفًا مدى فتنة الناس بمحبوبته ، حتى كأنهم جميعًا شركاء له فى الحب وضَنَاه :

أُعاد من أجلك لا من ضَنًى وسائر العُوَّاد أشراكى
ولست أشكوك إلى عـائدٍ أخـاف أن أشكو إلى شاكى

فالناس يزورونه من ضَنَاه فى حب صاحبته لا من ضَنا مرضٍ ألمّ به ، وهو لا يشكو لهم من عذابه فى حبها ولا من وصَبَه فيه ، لأنه يراهم جميعًا مثله ، يعانون ما يعانيه من لوعات الحب وآلامه . وكان يتورط فى الخمر وإثمها ، كما كان يتعلق بالغناء وآلاته ، حتى ليقول بعض معاصريه ممن كانوا يزورونه فى شيخوخته إنه كان يستحى مما يرى من الشراب والعيدان المعلقة ، ومن قوله يصف الخمر قبل المزج وبعده :

وحمراء قبل المَزْج صفراء بعــده أتتْ بين ثَوْبَىْ نَرْجِسٍ وشقائقِ
حكتْ وجْنَةَ المعشوق صِرْفاً فَسَلَّطوا عليها مِزاجاً فاكتستْ لونَ عاشِقِ

ويقال إنه عرض له فى أواخر عمره فالج (شلل) وسُقِى الدرياق فبرئ ، ورجع إلى أفضل أحواله وإملائه على تلامذته . ثم مرض به ثانية ، وظل سنتين توفى فى نهايتهما ، وتصادف أن كانت وفاته فى نفس اليوم الذى توفى فيه أبو هاشم الجُبَّائى المتكلم المعتزلى المشهور ، ودُفنا معاً ببغداد فى مقبرة الخيزران .

٥

شعراء الهجاء

مرَّ بنا فى كتاب العصر العباسى الأول أن شعر العصبيات القبلية خبت ناره فيه وخبت معه نار النقائض، وحل محله شعر شعوبى أحياناً ، ولكن الكثرة الكثيرة كانت هجاء شخصياً يتعرض للأعراض مزريا بالمهجوّين محقِّراً لهم ومهوِّناً . ونستطيع أن نطرد هذا الحكم فى العصر العباسى الثانى، مع ملاحظة أن الشعر الشعوبى خبت ناره بدوره . ويبدو أن الفرس هم الذين كانوا يمدون تلك النار بوقود جزل ، فلما ضعف شأنهم فى العصر وحل الترك محلهم فى السلطان ولم يعد لهم حول ولا قوة خفَّت حدَّة شعوبيتهم ولم يعد شعراؤهم يتغنون بها إلا نادراً . وحتى هذا النادر لم تحتفظ به المصادر إلا قليلا جداً، لأنه لم يكن لشعراء نابهين إنما كان لشعراء مغمورين قلما عُنِى بهم أحد مثل محمد بن أبان الذى كان يكثر من الافتخار بالعجم[1]، ولم يبق من افتخاره شىء . وبذلك كان الهجاء الشخصى هو اللون العام فى العصر ، وسبق أن لاحظنا فى كتاب العصر العباسى الأول أن شعراءه أكثروا فى هجائهم من القول الفاحش المقذع فى الأمهات والأخوات وظل ذلك فى هذا العصر وظل معه ذكر العورات مما ينبو عن الذوق هو وكل ما يتصل به من بذاءة، لن نقف عندها، إنما نقف عند الهجاء غير البذىء، وكانت نيرانه مضطرمة طوال العصر ، فالشعراء

(١) معجم الشعراء ص ٢٧٩ .

يسارعون إليه كلما حجبهم وزير أو قصَّر فى عطائهم ، وكذلك كلما لقيهم قائد أو وال أو كاتب أو شخص نابه أو عالم لقاء غير حميد . وكثيراً ما كانت تجرُّهم المنافسة إلى الدخول فى معارك هجاء حامية الوطيس . ومرَّ بنا فى غير هذا الموضع ، ما قيل عن البحترى من أنه هجا كثيراً من ممدوحيه ، وبالغ بعض القدماء فقالوا إنه هجا نحواً من أربعين رئيساً ممن مدحهم ، منهم خليفتان هما المنتصر والمستعين ، وساق بعدهما الوزراء ورؤساء القواد ومن جرى مجراهم من جلة الكتاب والعمال ووجوه القضاة والكبراء[1] . وإذا صح هذا عن البحترى الذى كانت تُفْتَحُ له الأبواب الموصَدة ، وكان يمشى — بفضل جوائزه الكثيرة — فى موكب من عبيده فضلا عما كان يملك من الضياع فإن كثيرين غيره تورطوا فى الهجاء للرؤساء بأكثر من تورطه . ومرَّ فى حديثنا عن ابن الرومى إكثاره من الهجاء ونفوذه فيه إلى لون من التصوير الهزلى الساخر يكبرٌ فيه عيوب المهجوين الجسدية والمعنوية . وابن الرومى والبحترى أكبر شعراء العصر ، وعلى غرارهما كان الشعراء جميعاً يُسْهمون فى هذا الفن ، وكثيراً ما كانوا يخصُّون به الوزراء حين يَحْرمونهم الجائزة ، ولن ينفع الوزير عندهم أن يكون ممدَّحًا ، بل لعل ذلك أدعى إلى أن يسلِّط عليه الشاعر سهام هجائه ، من مثل قول دَنْدن فى عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل وكاتبه ابن يزداد[2] :

وإن ابن يَزْداد لأَحولُ حُوَّلٌ	ولكنه يَقْرَا (إذا الشمسُ كُوِّرَتْ)
فقُلْ لعبيد الله أحييتَ دولتىْ	مكاسير زَمْنَى (عُطِّلت) فتحيَّرتْ
وأنت — إذا مُيِّزْت — أبلدُ منهمُ	فصوتكمُ : حَىَّ المنازلَ أقفرتْ

ومجيئه بالآية القرآنية وكلمة (عُطلت) الواردتين فى سورة التكوير يريد أن يشير بذلك إلى خراب الدولة ، لأن السورة فى وصف نهاية العالم وما يكون بعد ذلك من البعث والنشور . وكان الشعراء كثيراً ما يتعرضون لأحمد بن إسرائيل وزير المعتز بالهجاء من مثل قول محمد بن مكرم[3] :

---

(١) الموشح للمرزبانى ص ٣٣٦ .
(٢) معجم الشعراء ص ٣٩٦ .
(٣) معجم الشعراء ص ٣٩٧ .

إن زماناً أَنت ' مستوزرٌ فيه زمانٌ عَسِرٌ أَنْكَدُ
يذمّك الناسُ جميعاً فما يلقاك منهم أَحدٌ يَحْمَدُ

ولما انتكست الوزارة فى عصر المقتدر وكثرت الرشوة وعم الفساد فى الحكم وعم معه الظلم كما عمت مصادرة الأموال، توالى على الوزارة اثنا عشر وزيراً، ومنهم من تولى الوزارة مرتين وثلاثًا ، وكل وزير يصادر الذى قبله ويعمل كل ما فى وسعه لينهب أكثر ما يمكن من أموال الدولة ، لما حدث كل هذا الانتكاس لأداة الحكم كثر هجاء الوزراء من مثل قول بعضهم فى هجاء الخاقانى الوزير (١) :

للدواوين ـ مذ وليتَ ـ عويلُ ولمال الخراجِ سقمٌ طويلُ
يتلقى الخطوبَ حين أَلمَّتْ منك رأىٌ غَثٌّ وعقلٌ ضئيلُ
إن سمنتم من الخيانة والجَوْ رِ فللإرتفاع جسمٌ نحيلُ

وكان الخاقانى معروفًا بسوء السيرة والتدبير ، وأخذ الرشوة ممن يولّيهم الأعمال ، ولذلك كثرت فى أيامه الولاية والعزل ، وكأن الدولة أصبحت دولة لصوص وقُطّاع طرق . ومن هؤلاء اللصوص وقطاع الطرق ابن البريدى الوزير بأخرة من العصر وفيه يقول أبو الفرج الأصبهانى من قصيدة طويلة (٢) :

يا سماءُ اسْقُطى ويا أرضُ مِيدى قد تولَّى الوزارةَ ابنُ البَرِيدى
هُدَّ ركنُ الإسلام وانهتك الملـ ـك ومَحَّتْ (٣) آثاره فهْو مُودى
فاستهلِّى ياعينُ بالدمع سَحًّا وقليلٌ أن تَذْرِفى وتجودى

ومرَّ بنا آنفًا أن المنافسة بين الشعراء كثيراً ما دفعتهم إلى التهاجى ، وممن تعرّضوا له بالهجاء كثيراً مروان بن أبى الجنوب شاعر المتوكل ، إذ كانوا ينفسون عليه الجوائز الطائلة التى كان يخصّه بها المتوكل ، حتى من كانت تصلهم منه جوائز مماثلة ، وكأنه تحاسد أهل الحرفة الواحدة ، على نحو ما حدث بينه وبين على بن

(١) الفخرى ص ١٩٨ .
(٢) تكملة تاريخ الطبرى للهمدانى ص ١١٣ .
(٣) محت : درست .

الجهم، وكان أكثر توقراً منه فى هجائه ، إذ لم يكن يُسِف فيه إلى ذكر الأعراض. ويتهاجى مع أبى نعامة الدقيق ، ويكويه بمثل قوله فى نعت شعره (١) :

رأينـــا البَرْدَ مشتَدًّا فساءلْنا عن القصَّه
فقالوا مُنْشِدٌ يُنشد شعرَ ابن أَبى حَفْصَه

وكان أبو نعامة كما مرَّ بنا شيعيًّا وكان خبيث اللسان ، فقصر شعره على هجاء القواد ورؤساء الدولة فى أيام المتوكل ورماهم بأشنع القبائح ، وهو هجاء كانت بواعثه سياسية. وكانوا ربما يهجون بالتزندق والانحراف عن الدين والإلحاد من مثل قول الجمَّاز فى الجاحظ (٢) :

يا فتى نفسُـــه إلى مِلَّة الكُفْر تائِقَـــهْ
لك فى الفضل والتزهـ دِ والنُّسْك سابِقه
فدَعِ الكفرَ جانباً يا دَعِيًّ الزنادقه

وهو كذب وبهتان على الجاحظ أحد المحامين عن الإسلام فى عصره المدافعين المناضلين ، ولكنه الهجاء يصمُ الناس بوصمات كاذبة افتراء وبهتاناً . ومن مثل هذا الافتراء والبهتان قول شاعر فى محمد بن يزيد المبرّد العالم النحوى المشهور (٣) :

سألنا عن ثُمالةَ كلَّ حَيٍّ فقال القائلون ومَنْ ثمالَهْ
فقلت محمد بن يزيد منهم فقالوا زدتنا بهمُ جَهَالَهْ

وثمالة هى عشيرة المبرد ، والبيتان يحملان تحقيراً شديداً وتهوينا بعيداً للمبرد وأنه خامل الذكر، وكان قد طبّق آفاق البلاد العربية شهرة فى عصره وقصده الطلاب من كل بلد يحملون عنه علمه . وبلغ من شيوع الهجاء حينئذ وانتشاره فى كل الأوساط أن المرأة شاركت فيه ، وكان لها قديماً مشاركة فى رثاء أهلها وندبهم والتفجع عليهم والنواح ، وكذلك كان لها مشاركة فى الغزل والتعبير عن عواطف الحب ومشاعره ، حتى إذا كان هذا العصر رأيناها تضيف إلى هذين الموضوعين مشاركة فى الهجاء من

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٩٢ .
(٢) معجم الشعراء ص ٣٧٥ .
(٣) ديوان المعانى ١/١٧٨ .

مثل قول الخنساء جارية هشام المكفوف فى أبى الشبل الشاعر الماجن ، تهوّن من رجولته طاعنة له فى الصميم(١) :

ما ينقضى عجبى ولا فكرى — من نعجةٍ تكنى أبا الشِّبْلِ
لما اكتنيْتَ لنا أبا الشِّبْل — ووصفتَ ذا النقصان بالفضل
كادتْ تميد الأرضُ من جَزَعٍ — وترى السماء تذوب كالمُهْلِ

وهى تصوره متمرداً على حقيقته ، فهو من النعاج ويزعم أنه من الآساد ، وكأنما الدنيا انقلبت صورها وأوشكت على الزوال ، فالأرض تميد جزعًا ، وكأن يوم القيامة حل موعده ، فالسماء تذوب كالمُهْل أو الزيت المغلى . ولعل من الخير أن نعرض ثلاثة من كبار الهجائين فى العصرهم الصَّيْمرى والحَمْدونى وابن بَسَّام .

الصيمرىّ (٢)

هو أبو العَنْبَس محمد بن إسحق ، أصله من الكوفة ، وتولى القضاء بالصَّيْمُرة فنُسب إليها ، وهى نهر بالبصرة عليه قرى وبلد وزروع ، قدم سامرّاء فى عصر المتوكل فقرَّبه منه واتخذه نديمًا له ، لما كان يمتاز به من الفكاهة والتندير ، وكأنما أتيح له مبكراً أن يفرغ للتأليف ، إذ روى له ابن النديم فى الفهرست طائفة كبيرة من المصنفات ، ونجد بينها ما يتصل بالمنادمة ، ككتب الأطعمة وكتاب الجوابات المسكتة . وكان عالماً بالنجوم ، وله فيها كتابان . ولم يكن يجمع بين الهزل والعلم ، فقط ، فقد كان يضيف إليهما الشعر ، ويقولون إنه كان خبيث اللسان ، هاجى أكثر شعراء زمانه ، ومع ذلك لم يصلنا من هجائه إلا أشعار قليلة من مثل قوله فى إبراهيم بن المدبر ، وكان قد تولى الولايات الكثيرة وترأس بعض الدواوين ، فى سامرّاء وبغداد :

---

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤٢٥ .

(٢) انظر فى الصيمرى وأخباره وأشعاره كتاب الأغانى (طبعة الساسى) ١٨/١٧٣ والفهرست ص ٢٢٢ وتاريخ بغداد ١/ ٢٣٨ ومروج الذهب ٤ / ٩ ومعجم الأدباء ١٧ / ٨ والنجوم الزاهرة ٣ / ٧٤ والوافى بالوفيات ٢ / ١٩١ .

أَسَلُ الذى عطَف المــوا كبَ بالأَعنَّة نحو بابكْ
وأذلّ مــوقفَ العزيـ زَ على وقوفٍ فى رِحابكْ
وأراك نفسَك مالــكا مالم يكن لك فى حسابك
ألاَّ يُطيل تجرُّعى غُصَصَ المنيَّة من حجابك

وله خبر طويل مع البحترى هجاه فيه وسخر منه سخرية مرة ، إذ حدَّث الرواة أنه كان من عادة البحترى إذا أنشد المتوكل شعره أن يتشادق ويتزاور فى مشيه مرة متقدماً ومرة متأخراً ويهز رأسه مرة ومنكبيه مرة أخرى ويشير بكمه ويقف عند كل بيت ويقول : أحسنت والله . ثم يقبل على المتوكل ومَنْ فى مجلسه فيقول : مالكم لا تقولون أحسنت ؟ هذا والله ما لا يحسن أحد أن يقول مثله . وكان المتوكل يضجر من ذلك . فأقبل على الصيمرى والبحترى ينشده مدحته فيه :

عن أىِّ ثغرٍ تبتسمْ وبأَى طَرْفٍ تحتكمْ

وقال له : أما تسمع ما يقول ؟ فقال له الصيمرى : بَلَى . فمُرْنى فيه بما أحببت . فقال: اهْجُه على هذا الرَّوِىِّ ، فحضرتْه على البديهة قصيدةُ هجاء طويلة من نفس الوزن والقافية ، وفيها يقول :

يا بُحْتُرِىُّ حذار وَيْـ لك من قُضاقضةٍ ضَغِمْ (١)
فبأَىِّ عِرْضٍ تعتصم وبهتكه جَفَّ القَلَمْ
ولقد أَسلتَ بوالديـ ك من الهجا سَيْلَ العَرِمْ
يا بن الثقيلة والثَّقيـ ل على قلوب ذَوِى النِّعم

ومضى يُفْحِش فى القصيدة ويُقْذِع فيها إقذاعاً قبيحاً . ولا ريب فى أن نَظْمه قصيدة طويلة بهذا النمط على البديهة يدل على شاعرية قوية . وظلَّ خفيفاً على قلوب الخلفاء . يسلكونه فى ندمائهم حتى عصر المعتمد . أو بعبارة أخرى حتى توفى فى عصر هذا الخليفة لسنة ٢٧٥ . وله يهجو طبَّاخه المسمى صالحاً :

---

(١) القضاقضة : الأسد . ضغم : مفترس .

يا طيبَ أيامى بمعشوقِ ونحن فى بُعْدٍ من السُّوقِ
إذا طلبت الخبز من فارسٍ ينفخ لى صالحُ بالبُوقِ

وله بجانب أهاجيه مدائح لبعض الوزراء ورؤساء الدواوين . ومما احتفظت له المصادر به قطعة فى مديح الحسن بن مخلد وزير المعتمد حين كان يتولى ديوان الضياع للمتوكل ، وهى تطرد على هذا النمط :

زارنى بدرٌ على غُصُنٍ قابلا وَصْلى يقبِّلنى
خلتـــه لما أتى حُلُماً وهْو روحى رُدَّ فى بدنى
إن لى عن مثله شُغُلا بمقال الشعر فى الحَسنِ
وأبيه مخلَدٍ قَبــهِ قد لبسنا سابغ المِنَنِ
كاتبٌ قَـــلَّ النَّظيرُ له فاضلٌ فى العلم واللَّسَنِ

وشعره يسيل عذوبة ، وكأنما كان يقول أكثره ارتجالا . فلا تكلف فيه ولا تعمُّل ، ومع ذلك لا نجد فيه هلهلة فى النسيج ، إنما نجد المتانة التى تجعله سائغاً فى الآذان والأسماع . وله بعض نظرات وتأملات جيدة من مثل قوله :

كم مريضٍ قد عاش من بعد يأْسٍ بعد مـــوت الطبيب والعُوَّادِ
قد يُصاد القَطَا فينجو سليماً ويحــلُّ القضاءُ بالصيَّادِ

وهى فكرة دقيقة ، فقد يعيش المريض الميئوس من شفائه المبكىّ عليه من محبيه وأودّائه . ويموت الطبيب الصحيح المعافى . وبالمثل قد يصاد طائر ، ويختطف الموت صائده ، بينما تُرَدّ له حريته ويعود إلى رفرفته فى الهواء طليقاً .

الحمدونى (١)

اسمه إسماعيل بن إبراهيم الحمدونى ، جدُّه حَمْدَوَيْه صاحب الزنادقة لعهد الرشيد الذى كان يتعقبهم ويأمر بحبسهم أو محاكمتهم ، ونجد أبناءه وأحفاده فى أواخر العصر العباسى الأول وفى هذا العصر يخدمون الخلفاء ويتخذونهم ندماء لهم . وعُرف إبراهيم أبو اسماعيل بأنه كان ينادم المعتصم ثم الواثق ثم المتوكل ، وكان ابنه أحمد على غراره نديمًا للمتوكل ثم للمستعين . ولا نشك فى أن إسماعيل كان على شاكلة أخيه وأبيه ينادم الخلفاء ، وكل شىء فيه كان يُعِدُّه لهذه المنادمة ، إذ كان فكهًا خفيف الروح ، وكان شاعراً ، وصاحب قصص وأخبار ونوادر مضحكة ، واتجه بشعره إلى الهجاء ، ولكن أى هجاء ؟ الهجاء الذى يَلْسَعُ لَسْعَ الإبَر من مثل قوله فى سعيد بن حميد حين ولى رياسة ديوان الرسائل سنة ٢٤٩ ساخراً منه ومن ملابسه الديوانية الجديدة :

لبس السيفَ سعيدٌ بعد ما ... عاش ذا طِمْرين لا نَوْبَةَ لَهْ
إن لله لآيـــاتٍ وذا ... آيةٌ لله فينا مُنْزَلَــهْ

فقد جرَّده من كل استحقاق للوظيفة وزِيِّها والسيف الذى كان يتقلده مَنْ يشغلها لعصره ، فهو خلو من كل كفاءة ، حتى ليعد تعيينه فيها معجزة لله لا يعلم سرها سواه . وكان سعيد ممن أتقنوا فن الكتابة لعصره وبلغوا فيه شأواً بعيداً . ومن هجائه اللاذع قوله فى بَغيض :

سألتك بالله إلا صدقتَ ... وعلمى بأنك لا تصـــدقُ
أتُبْغِض نفسَك من بُغضها ... وإلا فأنت إذنْ أحْمَقُ

(١) انظر فى الحمدونى وأخباره وأشعاره طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٧١ وفوات الوفيات ١ / ٢٤ والأغانى ١٢ / ٦١ وترجمة أخيه أحمد فى معجم الأدباء ٢ / ٢١٧ وتاريخ الطبرى ٩ / ٢٦٤ والعقد الفريد (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة) ٢ /٢٩٨ و٣/ ٢٤ ، و٥ / ٣٤٣ و٧ / ٢٨٧ وديوان المعانى ١ / ٢٧٨ وزهر الآداب ٢٣٣ وما بعدها

فهو خليق بأن يشترك مع مبغضيه فى بغض نفسه . وكأنما أصبح تمثالا للبغض الكريه ، لا عند الناس فحسب ، بل أهم من ذلك عند نفسه . ويا ويل من كان يسلّط عليه سهام هجائه ، فإنه كان ما ينى يرسلها عليه . وحدث أن ممدوحه أحمد بن حرب المهلبى الذى طالما دبّج فيه مدائحه وهب له طَيْلَسَانًا أخضر لم يرضه ، فمضى ينظم فى طيلسانه مقطوعات . وكلما فرغ من مقطوعة نظم مقطوعة جديدة حتى أكملها خمسين مقطوعة طارت على ألسنة الأدباء والناس فى عصره كل مطار منها :

يا بنَ حَرْبٍ كسوتنى طَيْلساناً ... مَلَّ من صحبة الزمان وَصَدَّا
إن تنفَّسْتُ فيه ينشقُّ شَقًّا ... أو تَنَحْنَحْتُ فيه ينقدُّ قَدًّا
طال تَرْداده إلى الرَّفْوِ حتى ... لو بعثناه وحده لتهدّى

وألذع الأبيات البيت الأخير ، بل كلها لاذعة . فالطيلسان أكل الدهر عليه وشرب ، حتى لكأنما ملّ صحبة الدهر ، فقد آن له أن يَبْلَى ويستريح ، وإن أى حركة فيه لتمزّقه إربًا ، وكل يوم ينخرق فيه خرق ويذهب به إلى دكان الرّفاء ، حتى لو بعث به إليه لعرف الطريق من طول ترداد سيره فيه . وتنوّع هجاؤه لهذا الطيلسان القديم البالى ، فهو تارة يضمنه بعض ألفاظ قرآنية من مثل قوله :

طيلسانٌ لابن حربٍ جاءنى ... خلعةً فى يوم نَحْسٍ مستمرّْ
فإذا ما الريحُ هَبَّتْ نحوه ... طيَّرتْه كالجراد المنتشر

وقوله :

فيما كسانيه ابنُ حربٍ مُعْتَبَرْ ... فانظر إليه فإنه إحدى الكُبَرْ
قد كان أبيض ثم ما زلنا بهِ ... نرفوه حتى اسودّ من صَدَإِ الإبَرْ

وتتوالى ألفاظ القرآن فى الأبيات كما هو واضح فى ألفاظ :(فى يوم نحس مستمر) و (كالجراد المنتشر) و(إحدى الكبر) ، وكان يعرف كيف يضع اللفظة والآية القرآنية فى مكانها السوىّ. وتارة كان يضمّن هذا الهجاء بعض أبيات شعرية من مثل قوله :

وهبتَ لنا ابن حربٍ طَيْلَسَاناً يزيد المرءَ ذا الضَّعَةِ اتِّضاعا
ولست أشكُّ أنْ قد كان قِدْماً لنـــوحٍ فى سفينته شِرَاعا
فقد غَنَّيْتُ إذ أبصرت منه جـــوانبه على بدنى تَداعَى
«قِفِى قبل التفرُّق يا ضُباعا ولا يكُ موقفٌ منكِ الوداعا »

وسخرية مرة أن يزعم أن هذا الطيلسان العتيق كان شراعًا لسفينة نوح فى أعتق الأزمنة ، وصوَّر نفسه ملتاعًا إزاء تداعيه على جسده نفس لوعة القطامى التى اشتعلت فى صدره عند فراقه لصاحبته « ضُباعة » . وقطع كثيرة كان يتغنى فى نهايتها بأبيات على شاكلة بيت القطامى تصور أساه ، ودائمًا يعرف كيف يختارها ، مما جعل القدماء يقولون إنه كان يحسن التضمين فى شعره سواء لأبيات الشعر أو للألفاظ والآيات القرآنية . ومرَّ بنا فى غير هذا الموضع أن سعيد بن أحمد بن خوسنداذ أهداه شاة هزيلة فمضى يكثر من نظم مقطوعات كثيرة فى تلك الشاة مصوراً هُزالها وبؤسها ، صانعًا نفس ما صنعه بهجاء طيلسان ابن حرب من التضمين لأبيات الشعر المشهورة فى الغزل والحب ، من مثل قوله :

مَــرَّتْ على عَلَفٍ فقامتْ لم تَسِرْ عنه وغَنَّتْ والمدامعُ تَسْجُمُ
« وقف الهوى بى حيث أنتِ فليس لى متـــأَخَّرٌ عنه ولا متقدَّمُ »

والبيت الثانى من قطعة فى الغزل مشهورة لأبى الشيص كان يعجب بها معاصره أبو نواس إعجابًا شديداً . وعلى الرغم مما كانت منادمة الخلفاء توفّره له من أموال كان يدعى الحاجة وأنه مقتَّر عليه فى الرزق ، وإنه يشكو ضيق عيشه ، بينما غيره موسَّع له فى الرزق ينعم بأسباب الترف والنعيم :

مَنْ كان فى الدنيــا له شارةٌ ... فنحن من نَظَّارة الدُّنْيَــا
نَرْمقهــا من كَثَبٍ حَسْرَةً ... كأننــا لفظٌ بلا مَعْنَى

وله قصيدة رواها ابن عبد ربه فى العقد الفريد نظمها معارضة للامية تأبط شراً المشهورة ، وفيها يتحدث عن حبه وفتوته وعزمه ومضائه وبأسه وشجاعته من مثل قوله :

هو سيفٌ غِمْدُهُ بُرْدَتَاهُ ... يَنْتضيــه الحزمُ حين يُسَلُّ
لا يشك السمع حين يراه ... أنه بالبِيد سِمْعٌ أزلُّ [1]

وألفاظه فى القصيدة وقوافيه تلتقى مع قوافى تأبط شراً وألفاظه ، وكأنما قصد إلى ذلك قصداً يريد تضمين قصيدته نفس كلماته . وله فى الغزل قطع تصور حبه ولوعته فيه وظمأه إلى رؤية محبوبته وما قد يصلاه من عذاب الهجر ونيرانه ، وله فى وصف طروق طيف الخيال فى المنام قطعة جيدة يقول فى تضاعيفها :

وصلَ الحلمُ بيننا بعد هَجْرٍ ... فاجتمعنا ونحن مفترقــانِ
وكأن الأرواح خافتْ رَقِيباً ... فطــوتْ سِرَّها عن الأبدانِ

ولعل فى كل ما قدمنا ما يصور خصب شاعريته . ومن أكبر الدلالة على ذلك القطع الكثيرة التى أنشدها فى هجاء شاة سعيد وطيلسان ابن حرب ، وكأنه كان يستمد من نبع لا ينضب رصيده .

---

(١) السمع : الذئب . الأزل : المتولد بين ذئب وضبع

ابن بسام (١)

هو علي بن محمد بن نصر بن منصور بن بسام ، من بيت كتابة وأدب ، كان جده نصر يتولى دواوين الخاتم والنفقات والأزمَّة في أيام المعتصم وهو من ممدوحي أبي تمام ، بينما كان أبوه محمد من ممدوحي البحتري . ويقول المسعودي إنه كان مترفاً حسن الزيّ ظاهر المروءة مشغوفاً بالبناء ، ويتروْى عن بعض معاصريه ما يصوّر بذخه في بناء داره وفي ثيابه وطعامه وشرابه . وكان قد تزوج أمامة بنت حمدون النديم ، والحديث عن بني حمدون في المصادر مضطرب ، ويبدو أنها كانت أخت إسماعيل المترجم له آنفاً ، ومنها أنجب ابنه علياً ، وقد عُني بتربيته أبوه ، حتى أصبح شاعراً ، وحتى أصبح التأليف إحدى هواياته . ويروى له ابن النديم ومترجموه كتباً مختلفة عن عمر بن أبي ربيعة والأحوص ومناقضات الشعراء ، ويذكرون له ديوان رسائل ، مما يدل على أنه كان كاتباً كما كان شاعراً . ونراه يتجه منذ نشأته بشعره نحو الهجاء ، وقد يكون لخاله الحمد وني أثر في ذلك. وكان شيعيا ، وربما كان لتشيعه أثر في ذلك أيضاً ، فقد كان الشيعة ناقمين على الدولة والناس انصرافهم عنهم ، بل كانت نقمتهم على الدولة أشد وأدهى ، للزّجّ بهم في السجون وتقتيلهم ، وكأنما اتخذ الهجاء سلاحاً له ضد الخلفاء والمجتمع ويبدو أن أباه كان موالياً للعباسيين ، ولعل هذا هو السر في كثرة أهاجيه له ، حتى عُدّ في العققة الذين لا يبرّون آباءهم بل يجحدون فضلهم ، وله في أبيه أهاج كثيرة من مثل قوله فيه وكان يكنى أبا جعفر :

بَنَى أبو جعفرٍ داراً فشيَّدها ... ومثلُه لخيار الدُّور بَنَّاءُ
فالجوع داخلَها والذلُّ خارجَها ... وفي جوانبها بُؤْسٌ وضَرَّاءُ

وكانت قصراً عظيماً يدور من حوله بستان وتلمع أمامه بركة ويموج بالغزلان والطيور البهيجة الألوان . ويتمادى في هجائه له حتى ليقول فيه وفي داره أيضاً :

---

(١) انظر في ابن بسام وأخباره وأشعاره الفهرست ص ٢٢٠ ومعجم الشعراء ص ١٥٤ وتاريخ بغداد ٢ / ٦٣ ومروج الذهب للمسعودي ٤ / ٣٠٦ وما بعدها وزهر الآداب ٣ / ٨٧ وما يليها وذيل زهر الآداب ص ١٨٠ وديوان المعاني ٢ / ٢٣ ، ٢٣٤ والنجوم الزاهرة ٣ / ١٨٩

شِدْتَ دارًا خِلْتَها مكرُمَةً سلَّط الله عليهـا الغَرقا
وأرانيك صريعـاً وَسْطها وأرانيهـا صَعِيدًا زَلَقا[1]

صورة سيئة من العقوق أن يتلقى من أبيه الحياة ، فلا يشعر بأن له عليه دَيْناً إذ منحه الوجود وقام على تربيته، بل لكأنما جَنَى عليه جناية لا تغتفر،ولا يمكن أن يزيلها عن نفسه ويمسح أوضارها عن جسده إلا اللعنات يصبُّها على أبيه . ومضى يصبها على الخلفاء والوزراء والكتَّاب وكبار رجال الدولة غير هيَّاب ولا وجل، بل لكأنما كان يبحث عمن ينتقم منه ويطير به طيرة بطيئًا سقوطها . وكان من أوائل من تعرض لهم بالهجاء الموفق صاحب البلاء العظيم فى حروب الزنج والصفار . ونراه ينظم فيه وفى ولاته ووزرائه وموظفيه قصيدة يستهلُّها بقوله :

أيرجو الموفَّقُ نصرَ الإلٰهِ وأمـرُ العبادِ إلى دَانِيَـهْ

ويأخذ فى هجاء ولاته من مثل الطائى أمير البصرة وإسحق بن عمران أمير الكوفة ووزرائه من مثل إسماعيل بن بلبل ، وصاعد بن مخلد وكان نصرانيًّا وأسلم واستوزره الموفق ، ويصيح :

فخلِّ الزمـانَ لأوغادِهِ إلى لعنة الله والهـاويه

ويُظلُّه عصر المعتضد المعروف بجبروته وأنه كان يلقى الأسد وحده وأنه إذا غضب على قائد أمر أن تُحفَر له حفيرة ويُلْقَى فيها وتُطَمّ عليه ، ومع ذلك نراه لا يخاف بطشه ولا يخشى بأسه . إذ نراه يتعرض له بالهجاء ، وتارة يقذع فيه وتارة يخز وخز الإبر من مثل قوله فى احتفاله بختان ابنه المقتدر :

انصرف الناس من ختانٍ يَرْعَـون من جُوعهم خُزامى[2]
فقلت لا تعجبوا لهذا فهكـذا تُخْتَنُ اليتامى

وهو يصفه بالبخل الشديد وأن احتفاله بهذا الختان كان بائسًا . حتى لكأنما هو ختان بعض اليتامى الذين لا يجدون من يتيح لهم احتفالا عظيمًا بختانهم .

---

(١) صعيداً زلقا : أرضا ملساء . (٢) الخزامى : من أزهار البادية

ونراه يكثر من هجاء إسماعيل بن بلبل ، على نحو ما أكثر من هجاء صاعد ابن مخلد ، وفيه يقول :

سجدنا للقرود رجـــاءَ دُنْيا حَوَتْها دوننا أيدى القرودِ
فما نالت أناملُنا لشيءٍ عملناه سوى ذل السجودِ

وكان نصيب عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير الموفق وأخيه الخليفة المعتمد من أهاجيه كبيراً ، تارة يصفه بخطل الرأى ، وتارة يهدده بسوء المصير . ونراه ينتهز فرصة وفاة ابنه الحسن فيهجو ابنه القاسم ، مادحًا للحسن حتى يملأ نفس القاسم غيظًا وحنقًا إذ يقول :

قُلْ لأبى القاسم المرجىِّ قابلك الدهرُ بالعجائبْ
مات لك ابنٌ وكان زَيْناً وعاش ذو الشَّيْن والمعايب
حياة هذا كموت هذا فلستَ تخلو من المصائب

ولاكت الألسنة البيت الأخير وسمعه المعتضد فنصح وزيره القاسم أن يوظفه فى عمل وأن يبرّه ويصله حتى يكفّ عن هجائه ، فولاّه بريد الصَّيْمَرَة وما والاها ، وقيل بل ولاه بريد قنَّسْرين والعواصم ، وبقى فى عمله إلى آخر أيام المعتضد ، ويبدو أن العباس بن الحسن وزير المكتفى رأى الاستغناء عنه ، ولعله لذلك أكثر من هجائه ، ومرّ بنا بعض هذا الهجاء فى حديثنا عن نشاط الشعر ، وفيه يقول :

تحمَّل أوزارَ البريَّةِ كلَّها وزيرٌ بظلم العالمين يُجاهِرُ

واتخذ من شعره سياطًا يلهب بها ظهور ابن الفرات والخاقانى وزيرى المقتدر وله فى الأخير أهاج كثيرة تصور خياناته لأموال الأمة وما كان يدفع إليه الناس من تقديم الرشوة فى كل عمل يحققه لهم ، وسبق أن عرضنا بعض هذا الهجاء فى حديثنا عن فساد الحكم حينئذ . وكانت له مناقضات مع الشعراء يقصد بها إلى الدعابة ، ومرّ بنا فى حديثنا عن ابن المعتز أنه نظم فيه مقطوعة دالية داعبه فيها واصفًا ثقله ، ونرى ابن بسام يردّ عليه بقوله على نفس طريقته :

فقدتُك يا قَذاةً فى شرابِ   دخلتَ من الدناءة كلَّ بابِ
وأثقل ـــ حين تبدو ـــ من رقيبٍ   وأكذب ـ حين تنطق ـ من سَرابِ
وأغدر للصديق من الليالى   وأنْكَى للقلوب من العتاب

وكان يناقض جحظة البرمكى كثيراً . وكان على غراره كثير الهجاء ، وكان قبيح الخلقة تقتحمه العيون ، وصوَّر ذلك ابن بسام عابثًا به وبقبحه . إذ يشكره على إقباله عليه بدابّته وانصرافه عنه بوجهه الذميم ، يقول :

لِجَحْظةَ المحسنِ عندى يَدٌ   أشكرهـا منه إلى المحشَرِ
لما أرانى وجه بِرْذَونه   وصـانى عن وجهه المنكر

وعلى هذا النحو لم يسلم من هجاء ابن بسام خليفة ولا وزير ولا أمير ولا صغير ولا كبير ، بل لم يسلم منه أبوه وأهل بيته . وله وراء هذا الهجاء مديح لبعض الوزراء مثل ابن مُقْلة ونعت لبعض الأزهار مثل النرجس . وله فى الزهد وفناء الحياة أبيات طريفة تجرى على هذا النمط :

أقْصَرْتُ عن طلب البَطالة والصِّبـا   لمـا علانى للمَشِيب قِناعُ
لله أيامُ الشـباب ولهـوه   لو أن أيام الشبـاب تُباع
فدَعِ الصِّبا يا قلبُ واسْلُ عن الهَوَى   ما فيك بعد مشيبك استمتاع
وانظرْ إلى الدنيا بعين مودِّع   فلقد دنا سَفَرٌ وحان وداع
والحادثاتُ موكَّلاتٌ بالفَتَى   والنـاسُ بعد الحادثات سماعُ

والأبيات تصوِّره قد وخطَتْه الشيب وأخذ يفكر فى غده ويستعدّ لمصيره ، بعد تلك الرحلة الطويلة التى كان يجاهد فيها مجتمعه بأهاجيه حتى وفاته سنة ٣٠٣ للهجرة . ومن المؤكد أن أهاجيه تصور العصر فى صورة أدق من تلك التى يصورها المديح ، وأن الحياة فيه لم تكن صافية ولا رائقة ، بل كانت كدرة قاتمة ، اختلَّت فيها الموازين والقيم اختلالا شديداً .

الفصل السابع

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل وشاعراته

ظل تيَّار الغزل حادًّا في العصر ، وظل الشعراء ومن كان ينْطق به من الجوارى ينظمونه ، مضيفين فيه كثيراً من الخواطر والمعانى ، ويخيَّل إلى الإنسان كأن كل من شدَا بالشعر نظم فيه ، مصوِّراً ألواناً من هذا الحب الذى كان يستأثر بالنفوس ويملك عليها من أمرها كلَّ شيء . وكانوا ينظمونه في نفس الاتجاهين اللذين عرضنا لهما في العصر العباسي الأول ، ونقصد اتجاه الغزل الصريح واتجاه الغزل العفيف ، وكان الاتجاه الأول هو الغالب على الشعراء ، بسبب كثْرة الإماء ودور النخاسين التى كانت تزخر بالجوارى من كل جنس : روميات وفارسيات وغير فارسيات ورويات . ويصور الجاحظ في رسالته الخاصة بالقيان مدى ما كنَّ يُشعن في جوّ بغداد من التحلل الخلقي ، فكان طبيعياً أن تنْفُقَ سوق الغزل المادى ، وخاصة أن القيان والجوارى كن يُكثْرن من التغنّى به على إيقاعات الطبول والآلات الموسيقية ، فسَعّرْن قلوب الشعراء شباناً وكهولا ، ولم يعودوا يستطيعون أن يردُّوا أنفسهم إلى شيء من القَصْد ، فقد أخذ الحب الصريح يثور في نفوسهم وأخذوا يعبرون عنه تعبيراً صريحاً حُرًّا ، بل حارًّا له حرارة الحُمَّى .

وظل اتجاه الغزل العفيف النقى الطاهر حيًّا بجانب هذا الاتجاه ، وكانت تمده أسراب كثيرة من غزل العُذْريين في العصر الأموى ومن غزل مَنْ ساروا في دروبهم من شعراء العصر العباسي الأول أمثال العباس بن الأحنف ، غزل له حُمَّاه ولكن بثوره لا تظهر على الجسد ، غزل قوى حار ، لا يعرف المتاع المادى ولا اقتطاف زهرات الحب وثماره ، إنما يعرف ناره المحرقة كما يعرف الحرمان والشقاء به ، مهما أمَّل صاحبه ومهما استعطف ومهما تضرَّع ، فليس

هناك إلا العذاب وإلا تجرُّع الغصص واحتمال الأهوال والآلام ، ولا مشفق ولا رحيم .

وعلى هذا النحو ظل الغزل الصريح بجوار الغزل العفيف ، يَحْيَى معه هذه الحياة التي تضيف إليه خصباً فوق خصب ، إذ كان الغزلون الماديون يستمدون دائماً من مخازن الغزل العفيف كثيراً من المعاني التي تصور لوعات الحب وعذابه . ولن نستطيع أن نعرض طرائف النوعين . فقد مرت من ذلك لمحة ، إنما يكفي أن نذكر شيوعهما على ألسنة الناس جميعاً من خلفاء ووزراء وولاة وكتّاب ورجال ونساء ، مكتفين ببعض النماذج والأمثلة . وأكبر شاعر بين الخلفاء — وإن لم تبق خلافته سوى يوم وليلة — هو ابن المعتز ، ومرّ بنا حديث مفصّل عنه . وكان عمه المنتصر شاعراً ، وله قطع مختلفة في الحب ، كان يطرحها على المغنين ويوقعونها على آلات الطرب ، وفي مقدمتهم مغنيه بنان . ومما غنّاه به قوله[1] :

رأيتك في المنام أقلَّ بُخْلاً ... وأطوعَ منك في غير المنـامِ
ولو أن النعاسَ يُباع بَيْعاً ... لأغليتُ النعاسَ على الأنام

وكان أشعر منه الخليفة الراضي ، وكان له ديوان شعر سقط من يد الزمن ، وروى له الصولي في كتابه : « أخبار الراضي بالله والمتقي بالله » طائفة كبيرة من أشعاره . وله قطعة تداولتها الكتب في ترجمته وهي في وصف جارية مغنية كان يُفْتَتَنُ بها ، وتجري على هذا النمط[2] :

قد أفصحتْ بالوتَر الأعْجَمِ ... وأفهمتْ مَنْ كان لم يَفْهَمِ
جاريةٌ تحبُّ من لُطْفِها ... مخاطَباً ينطق لا من فَمِ
جَسَّتْ من العود مجاري الهوى ... جَسَّ الأطباءِ مجاري الدَّمِ

وكثير من الوزراء كانوا شعراء ، ومعروف أنهم كانوا يُخْتارون من صفوة كتّاب الدواوين . وكان كثير منهم يسيل الشعر على لسانه ، فيعبّر به عن عواطفه

---

(١) مروج الذهب ٤/ ٤٨ .

(٢) معجم الشعراء ص ٤٣١ وفوات الوفيات ٢/٣٧٦ .

ومشاعره وأهوائه ، وطبيعى أن يوقد الحب فى نفوسهم الجذوة التى طالما أوقدها فى نفوس المحبين ، فإذا هم ينظمون قطعاً من الأبيات يسجلون بها بعض خواطرهم ، من مثل قول الفتح بن خاقان وزير المتوكل[١] :

أيها العاشقُ المعذَّب صَبْرًا ... فخطايا أخى الهوى مغفورَهْ
زفرةٌ فى الهوى أحطُّ لذنبٍ ... من غزاةٍ وحِجَّةٍ مَبْرُورَه

وكان سليمان بن وهب وزير المهتدى يحسن الشعر ونظمه ، وله فى الأغانى ترجمة طويلة ومثله القاسم حفيده وزير المعتضد كان يصوغ بعض خواطره شعراً، وروى له المرزبانى مقطوعات متعددة فى الحب من مثل قوله[٢] :

كئيبٌ حزينٌ واكفُ الدَّمْع هامِلُهْ ... تخوَّنه من آجلِ البَيْن عاجلُهْ
جريحُ صدودٍ قد أضرَّ به الهَوَى ... ورقَّ له عُوَّادُه وعَوَاذلُه

واشتهر بعض كبار رجال الدولة من الولاة ورؤساء الدواوين ممن كانوا يحسنون الشعر بحب عنيف كان يحتل أفئدتهم ويستأثر بكل ما فيهم من عواطف ومشاعر ، وفى مقدمتهم إبراهيم بن المدبر وسعيد بن حميد وعبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، وقد تولى إبراهيم — كما مرَّ بنا — ولايات مختلفة منها ولاية البصرة ورأس بعض الدواوين التى كان يعمل بها منذ زمن المتوكل وكان يهوى عَرِيب ولهما أخبار كثيرة ساقها أبو الفرج الأصبهانى فى ترجمته لكل منهما[٣] . كما ساق كثيراً مما كان بينهما من المعاتبات والمحاورات ، ومن قوله فيها[٤] :

زعموا أنى أحب عَرِيبَا ... صدقوا والله حُبًّا عجيبا
حلَّ من قلبى هواها محلاً ... لم تَدَعْ فيه لخلقٍ نصيبا
هى شمسٌ والنساءُ نجومٌ ... فإذا لاحتْ أَفَلْنَ غيوبا

وهو فى هذه الأبيات يصرّح بأنه لا يشرك معها جارية فى حبه وهيامه ، ولكن

---

(١) معجم الشعراء ص ١٩١ .
(٢) معجم الشعراء ص ٢٢٠ .
(٣) أغانى (طبعة الساسى) ١٨ / ١٧٥ ، ١٩ / ١١٤ .
(٤) أغانى ١٩ / ١٢٤ .

يبدو أنه كان يشرك معها من حين إلى حين أخريات ، كن يأسرنه بجمالهن وفتنتهن وما يزرعن فى القلوب من الهوى مثل جارية تسمى نبتا ، كانت من الجوارى القيان ، وفيها يقول[1] :

نَبْتٌ إذا سكتتْ كان السكوتُ لها زَيْناً وإن نطقت فالدرُّ ينتثرُ
وإنما أقصدتْ قلبى بمقلتها ما كان سهمٌ ولا قوسٌ ولاوتَرُ

وكان سعيد بن حُمَيْد يعمل فى الدواوين ، وأُسندت إليه رياسة ديوان الإنشاء فى عهد المستعين ، واشتهر بتبادله الحب مع فضل الشاعرة ، وسنعرض فى ترجمتها لما كان بينهما من محاورات شعرية طريفة ، وله فيها غزل كثير بديع من مثل قوله يشكو السهاد وطول الليل[2] :

يا ليل بل يا أبَدُ أنائمٌ عنك غَدُ
يا ليل لو تلقى الذى ألقى بها أو تَجِدُ
قصَّر من طولك أو ضُعِّفَ منك الجلَدُ
أشكو إلى ظالمةٍ تشكو الذى لا تجد
وَقْفٌ عليها ناظرى وَقْفٌ عليه السُّهُدُ

وعُرِف عبيد الله بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد بأن قينة تسمى شاجى شَغَفَت قلبه حبًّا ، فنظم فيها شعراً كثيراً ، وتزوجها وظل يهيم بها ويشملها بحبه وعطفه وحنانه ويكْلف بها كلفًا شديداً ، كما كان يكلف بها قبل زواجه وفى شبابه ، وإلى ذلك يشير بقوله[3] :

زرعتُ وشاجى بيننا فى شبيبتى غِراسَ الهوى فاعتمَّ بالثمر العَذْبِ

وماتت قبله ، فظل يبكيها بكاء مرًّا ، جازعًا عليها جزعًا لم يُرَ مثله ، وظل يزور قبرها وهو ينوح عليها ويتفجع بمثل قوله[4] :

(١) أغانى ١٩ / ١١٧ وأقصدت : جرحت .
(٢) المختار من شعر بشار ص ١٨ .
(٣) كتاب الديارات ص ١١١ .
(٤) الأغانى (طبعة الساسى) ٨ / ٤٣

يميناً بأنى لو بُليتُ بفقْـدها   وبى نَبْضُ عِرْقٍ للحياة وللنكْسِ
لأوشكتُ قتل النفسِ عند فراقها   ولكنها ماتتْ وقد ذهبتْ نفسى

وكثير من الجوارى فى العصر كن ينظمن الشعر ويحسنّ نظمه ، وكُنّ — كما مرّ بنا فى غير هذا الموضع — يكتبن أبياتًا منه على طُررهن وعصائبهن وجوانب ثيابهن ، فيوقدن الحب فى قلوب الرجال ويشعلنه إشعالا . ونرى ابن المعتز يفرد لمجموعة منهن صحفًا فى كتابه طبقات الشعراء المحدثين ، ويذكر بينهن عريب وفضلا الشاعرة ، والخنساء جارية هشام المكفوف . ومن الجوارى اللائى كن يحسنّ الشعر إحساناً بعيداً محبوبة جارية المتوكل ، وكانت قد أُدّبت وثُقفت ، وتمرنت على قول الشعر حتى أحسنته . وكانت تلحّنه وتغنى به على العود . وكانت تحلّ من قلب المتوكل محلا رفيعًا ، ويُرْوَى أنه غاضبها ذات يوم ، ولم يلبث قلبه أن نازعه إليها ، فاقترب من حجرتها ، فإذا هى تضرب على عود وتغنّى على ضَرْبها مصوّرة لوعتها من خصامه ومغاضبته و أنها لا تطيق الصبرعن لقائه[1] :

أدور فى القصر لا أرى أحدا   أشكو إليه ولا يكلمنى
حتى كأنى أتيت معصيةً   ليس لها توبةٌ تخلّصنى
فمَنْ شفيعٌ لنا إلى ملكٍ   قد زارنى فى الكرى وصالحنى
حتى إذا ما الصباح عادلنا   عـاد إلى هجره وقاطعنى

فصفّق المتوكل طربًا ، ودخل إليها ، وتصالحا . ويُرْوَى أنه رأى ذات يوم جارية من جواريه كتبت على خدها بالمسك اسمه : « جعفراً » . فأعجبه ذلك وتمنى لو صوّر ذلك شاعر من شعرائه : البحترى أو على بن الجهم أو مروان بن أبى الجنوب ، وبادرت محبوبة ممسكة بعودها ، وتغنّت[2] :

وكاتبةٍ فى الخَدِّ بالمسك جعفرًا   بنفسى محطُّ المسك مِن حيث أثّرا

(١) مروج الذهب ٤ / ٤٣ والأغانى (طبعة الساسى) ١٩ / ١٣٤ .

(٢) مروج الذهب ٤/٤٢ .

لئن أودعتْ خطًّا من المسك خدَّها ... لقد أودعتْ قلبي من الوجد أَسْطُرا
فيا من لمملوكٍ يظلُّ مليكــه ... مطيعاً له فيما أَسرَّ وأظهرا

وهى من أبيات قالتها على البديهة مما يدل على شاعرية جيدة . وكانت محبوبة وأضرابها يتطارحن مع الشعراء خواطرهن الرقيقة ، وليس من ريب فى أنهن عملن على أن يعبر الشعراء فى الحب عن حس دقيق وذوق مرهف . ونعرض بالتفصيل ثلاثة : شاعرين وشاعرة اشتهروا بكثرة ما نظموا من الغزل فى العصر ، وهم خالد ابن يزيد الكاتب، ومحمد بن داود، وفضل .

خالد[1] بن يزيد الكاتب

كان أحد كتَّاب الجيش ، وأصله من خراسان ، وليس بين أيدينا عنه أخبار كثيرة ، وأول ما يلقانا من أخباره أنه كان على ديوان النفقات فى الجيش الذى خرج بقيادة على بن هشام أحد قواد المأمون للقضاء على فتنة بمدينة « قم » الفارسية وفى الطريق بلغ عليًّا أنه شاعر فأحضره وأنس به واتخذه فى ندمائه . ولما وزر الفضل بن خالد للمعتصم قرَّبه منه ، حتى إذا أخذ المعتصم فى بناء سامرًّا بادر خالد ينظم مقطوعة يشيد فيها بالخليفة وبناء تلك المدينة العظيمة ، ونقلها الفضل إلى المعتصم فسُرَّ بها ، وأمر لخالد بخمسة آلاف درهم . وينظم فيه وفى المدينة أشعاراً أخرى ويغنىّ المغنون المعتصم بها ، وينثر على خالد جوائزه . وظل قريبًا منه ومن وزيره محمد بن عبد الملك الزيات . ولا نقرأ له أشعاراً فى مديح الخلفاء فى العصر مع أنه عاصر منهم المتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدى والمعتمد، إذ يقال إنه توفى سنة ٢٦٢ وقيل بل سنة ٢٦٩ . ويقول مترجموه إنه قصر نفسه على الغزل فكان لا ينظم إلا فيه، ولا يُعْنَى بمديح ولا هجاء ، ومع ذلك نجد له بعض الهجاء القليل فى بعض منافسيه من الشعراء ، غير أنه لم يبرز فيه فانصرف عنه ، وقصر نفسه على الغزل ، ويقال إنه وسوس واختلط عقله

(١) انظر فى ترجمة خالد وأشعاره الأغانى (طبعة الساسى) ٢١ / ٣١ وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤٠٥ وتاريخ بغداد ٨ / ٣٠٨ والديارات (انظر الفهرس) ومعجم الأدباء ١١ / ٤٧ والنجوم الزاهرة ٣ / ٣٦ وله ديوان مخطوط بالمكتبة السموية بدمشق

فى أواخر حياته . ويُجمع من ترجموا له على أنه لم يكن يتجاوز فى الغزل أربعة أبيات ، وكأنه كان يرى الزيادة عنها فضلا ، ويقول ابن المعتز : شعره حسن جداً ، وليس لأحد من رقيق الغزل ماله ، وينشد من غزله قوله :

وَضَع الدموعَ مواضعَ الحُزْنِ   حَىٌّ السهاد وميِّتَ الجَفْنِ
عَبَراتُه نُطُقٌ بما ضَمِنَتْ   أحشــاؤُه ولسانُه يَكْنى
فى كل جارحةٍ له مُقَلٌ   تبكى على قلبٍ له رَهْنِ
لم يَدْرِ إلا حين أسلمه   قَدَرٌ للحظة واحدِ الحُسْنِ

والأبيات فيها دقة فى التفكير وفيها خيال بعيد، وتعبيره بميت الجفن تعبير غريب، ومثله فى الحسن تعبيره عن الجوارح بأن لها مقلا تبكى على قلبه الذى رهنته منه صاحبته ، وأيضًا تعبيره عن صاحبته بأنها واحدة الحسن ، وكأنه كان يحاول أن يأتى بأفكار مبتكرة ، من مثل قوله :

كيف خانتْ عينُ الرقيب الرقيبا   أخطــأتنى لما رأيتُ الحبيبا
رحمتْنى فساعــدتنى فقبَّلْـ   ـتُ بعينى مع الحبيب الرقيبا

فهو لا يشكو من الرقيب على عادة الشعراء ، فالرقيب قد رحمه وساعده ، وقلب الشكوى المنتظرة شكراً ، وإذا كان الشعراء ألموا بالليل ووصف استطالته شاكين من ذلك متبرمين فإنه يعترف بأن ليل المحبين دائمًا طويل لسهادهم المستمر ، يقول :

رقدتَ ولم تَرْثِ للسَّاهرِ   وليلُ المحب بــلا آخرِ
ولم تَدْرِ بعد ذهاب الرقا   دِ ما صنع الدمعُ بالناظــر

وهو ليس سهاداً فحسب ، بل هو سهاد ودموع وإحساس عميق بظلام لا ينتهى ، وصاحبته بجانبه ولا تدرى ما يعانى من عذاب الحب المبرّح ، وهو يتجرع غصص حبه محتملا مقاومًا ، والصباح كأنما ضل طريقه ، فعم الكون ليل لا آخر له ، ومن قوله :

قد استعار الحسنُ من وجهِهِ والغصُنُ الناعمُ من قَــدِّهِ
وقد تعاتبنــا بأبصــارنا فيما جناه الخُلْف من وعدِهِ
حتّى تجارحنا بتكرارنا للَّحْظ فى قلبى وفى خدِّهِ
فأدرك الثأر وأدركتــه وسرَّنى بالصَّدِّ عن صَدِّه

فمنها يستعير الحسن جماله والغصن قدَّه وقوامه ، وهما يتعاتبان عتاباً رقيقاً ، ويكرران النظر ، وكأنما يؤلم طرفه خدّ صاحبته ويترك فيه أثراً من طول تكراره ، أما طرفها فيؤلم قلبه بما يرسله من سهامه التى تجرحه فى الصميم . وكأنما كل منهما ظفر من صاحبه بثأره ، ولكن شتان ما بين الثأرين : ثأر يجرح الخدود وثأر يجرح القلوب . ويختم الأبيات بفكرة طريفة إذ يقول إنها صدّت عن الصد وانصرفت عن الهجر . وكان يلمّ أحياناً ببعض الأديرة أو يفضى إلى تعاطى بعض كئوس الخمر ، أو لعله كان يذكر ذلك على سبيل الدعابة ، وكان يمزج هذا الحديث بغزله على عادته ، فالغزل دائماً مبتغاه من شعره على نحو ما نرى فى قوله :

رأتْ منه عينى منظرين كما رأت من البدر والشمس المضيئة بالأَرضِ
عشيَّة حيَّانى بوردٍ كأَنَّه خدودٌ أُضيفتْ بعضُهن إلى بَعْضِ
وناولنى كأساً كأَنَّ رُضَابَها دموعىَ لما صَدَّ عن مقلتى غُمْضى
وولَّى وفعلُ السُّكْر فى حركاتهِ من الراح فعلُ الرِّيح بالغصُن الغَضِّ

وتشبيه الورود المجتمعة بخدود المحبين ، وقد تلاصقت وسرى فيهم الخجل ، نوَّه به القدماء طويلا . وهذه الكأس التى ناولها صاحبته كأس المحبين التى طالما شربوا منها لا الخمر وإنما الدموع ، دموعهم التى لا تجف والتى ماتنى تسقط فتمتلئ منها كئوسهم التى لا يعرف الناس أتمتلئ شراباً أم ناراً . وله :

إذا كنت فى كُلِّى بكُلِّك مُفْرَغاً فأَىُّ مكانٍ من مكانك أَلطفُ
فمنِّى إذا ما غِبْتَ فى كل مَفْصِلٍ من الشوق داعٍ كلما غِبْتَ يهتف

فهما روحان فى جسد ، وهو يحس فراغاً لا حدّ له إذا غابت عنه ، وكأن كل

جزء فيه يفقد تمامه ، فهو ماينى يهتف بها حتى يستكمل وجوده ، فقد غاب نصفه وهويتبعه ،ويتبعه قلبه من ورائه؛ قلبه الممزق مثل مفاصله ،ومثل كبده الجريح ، يقول :

كبدٌ شفَّها غليلُ التَّصابى بين عَتْبٍ وسَخْطَةٍ وعَذابِ
كلَّ يوم تَدْمَى بجرحٍ من الشو ق ونوعٍ مجدَّدٍ من عــذاب
ياسقيمَ الجفون أسقمتَ جسمى فاشْفِنِى كيف شئت ،لابلك مابى

فهو يَصْلَى نيران العتاب والسخط ، وكل يوم يتجدد جرحه ويتجدد عذابه ، وقد أعداه مريض الجفون ولكن لا فى جفونه وإنما فى جسمه بما أصابه به من نحول وذبول وهزال وضَنًا . ومن أرق الدعاء قوله فى آخر الأبيات : « لا بك ما بى » . وتدور له فى كتب الأدب أبيات مفردة تروع بخفتها وطرافة فكرتها من مثل قوله :

كيف تُرْجَى لذاذة الإغماضِ لمريضٍ من العيــون المراضِ

وقوله :

ليت مــا أصبح من رقَّـ ـة خَــدَّيك بقلبك

وقوله :

وبكى العاذلُ من رَحْمتى فبكائى لبُــكا العاذلِ

ولعل فى كل ما أسلفنا مايدل أوضح الدلالة على صدق كلمة ابن المعتز عنه من أنه يبلغ الغاية فى رقة الغزل . وجعله ذلك مألفًا لكثير من معاصريه أمثال على بن المعتصم . وكان كثيرون يدعونه إلى مجالسهم ليسمعوا منه غزله ويطرحوه على المغنين والمغنيات ، ليكتمل الأنس والطرب ، ونحس دائمًا أنه ظامئ إلى لقاء محبوبته ، ويقال إنه فعلا أحب جارية فى مطالع حياته . ولم يستطع لقاءها وقد ظل ظامئًا إلى هذا اللقاء حتى مماته .

محمد[1] بن داود الظاهرى

أبوه داود بن على بن خلف الأصفهانى مؤسس المذهب الظاهرى فى الفقه ، أصله من الكوفة ودرس ببغداد ، واعتنق مذهب الإمام الشافعى ، ومضى يجتهد حتى استطاع أن يؤسس له فى الفقه مذهبًا مستقلا عن المذاهب الأربعة : المذهب الحنفى والمالكى والشافعى والحنبلى . وقد أقامه على رفض القياس والرأى والتقليد للأئمة المذكورين واشتقّ الأحكام الفقهية من ظاهر الكتاب والسنة ، ولذلك سُمى مذهبه باسم المذهب الظاهرى . وعُنى بتربية ابنه محمد ، وبدأ من ذلك بتحفيظه القرآن ، ويقال إنه حفظه وله سبع سنوات . ثم دفعه إلى التأدب على ثعلب الإمام اللغوى والنحوى المشهور ، وهو يروى فى كتاب الزهرة كثيراً من الأشعار عنه . ولزم حلقة أبيه وتمثّل مذهبه ولما توفى سنة ٢٧٠ كان لا يجاوز السادسة عشرة من سنه ، فخلفه على رياسة المذهب ، ومضى يحاور ويجادل فيه العلماء وخاصة ابن سريج إمام المذهب الشافعى فى عصره . وكانت حلقة تدريسه تغصّ بالطلاب ، وله مصنفات مختلفة فى المذهب الظاهرى . ومن أهم مصنفاته كتاب الزهرة الذى عُنى نيكل وإبراهيم طوقان بنشر جزئه الأول . والكتاب كله مائة باب جعلها فى جزءين خصّص الأول منهما بالحب العذرى العفيف ، وهو يتضمن خمسين بابًا فى كل باب مائة بيت من الشعر . وبالمثل أبواب الجزء الثانى الخمسون . فكل منها يشتمل على مائة بيت . وأهمها ما دار فى تعظيم أمر الله عز وجل والتنبيه على نعمه وقدرته والتحذير من سطوته . ويهمنا فى حديثنا عن الغزل الجزء الأول ، وهو فى الأبواب الأولى منه يتحدث عن أسباب الهوى ، ثم يتلوها بأحواله من الفراق والشوق ويخص الأبواب الأخيرة بالحديث عن الوفاء ، وعادة يضع للباب عنوانًا مسجوعًا مثل « مَن كثرتْ لحظاته دامت حسراته » و « ليس بلبيب مَن لم يصف ما به لطبيب » و « التذلل للحبيب من شيم الأديب» . وهى عناوين غير مضبوطة ،

---

(١) انظر فى حياة ابن داود وأشعاره تاريخ بغداد ٥/ ٢٥٦ ومروج الذهب للمسعودى ٤ / ٢٠٥ وابن خلكان والوافى بالوفيات للصفدى ٣ / ٥٨ ومرآة الجنان لليافعى ٢ / ٢٢٨ وطبقات الشافعية للسبكى فى ترجمة ابن سريج ٣ /٢٣ وما بعدها ، وطُبع له الجزء الأول من كتاب الزهرة ببيروت .

وبالمثل ما يليها من الأشعار ، ولاحظ هو نفسه ذلك فقال إنه اضطُرَّ لأن يضيف إلى البيت المتصل بموضوع الأبيات أبياتًا أخرى حتى لا يكون مبتوراً . والأبيات أو قل الشواهد فى الأبواب تمتد على طول الزمن من العصر الجاهلى حتى عصره . وقد بدأ بتأليف الكتاب فى حياة أبيه وهو لا يزال حَدَثًا ، وفى ذلك يقول : « بدأت بعمل كتاب الزهرة وأنا فى الكُتَّاب ونظر فى أكثره » . وكان فطنًا ذكيًّا نافذ البصيرة كما كان شاعراً . ويُرْوَى أن شخصًا سأله فى حلقته عن حد السكر متى هو؟ ومتى يكون الإنسان سكران ؟ فأجابه : إذا عزبت عنه الهموم وباح بسره المكتوم . وفى هذه الإجابة ما يدل على أنه كان ظريفًا . ويُرْوَى أيضًا أن رجلا جاء إلى حلقته فدفع إليه ورقة ، فأخذها وتأملها طويلا ، وظن تلامذته أنها مسألة فقهية ، وقلبها وكتب فى ظهرها الإجابة ، فراجعوها ، وخاصة حين عرفوا أن الرجل هو ابن الرومى الشاعر المشهور ، وإذا فى الرقعة مكتوب :

يا بنَ داودَ يا فقيهَ العراقِ أفْتِنــا فى قواتل الأَحــداقِ
هل عليهن فى الجروح قصاصٌ أَم مباحٌ لها دمُ العشاقِ

وإذا الجواب :

كيف يفتيكمُ قتيلٌ صريعٌ بسهام الفراق والإشتيــاقِ
وقتيلُ التــلاق أحسنُ حالا عند داودَ من قتيل الفراق

ويقال إنه كان يهوى فتى من أصبهان يقال له محمد بن جامع الصيدلانى العطار وكان طاهراً فى هواه . فهو إن صح كان هوى نقيًّا . أو قل إنه كان تعلقًا أوشك أن يكون هوى أو ظنه الناس هَوًى . وكان ترجمانًا للهوى العذرى فى عصره كما كان مؤلفًا فيه ، إذ صنَّف فى أشعاره الجزء الأول من كتابه الزهرة كما أسلفنا . وله فيه أشعار كثيرة يعزوها أو ينسبها إلى أهل عصره كما لاحظ ذلك المسعودى . من مثل قوله :

عى كبدى من خيفة البَيْنِ لوعةٌ يكاد لها قلبى أسىً يتصدَّعُ
يخاف وقوعَ البَيْنِ والشملُ جامعٌ فيبكى بعينٍ دمعُها متسرِّعُ

فلو كان مسرورًا بما هو واقعٌ كما هو محزونٌ بما يتوقّع
لكان سواءً بُرْءُهُ وسَقَامُهُ ولكنَّ وشْكَ البَيْنِ أدْهَى وأوجع

وهو يشكو من لوعات الحب التى تكاد تمزق قلبه حسرات . وهو يخاف البين قبل وقوعه، فيبكى بدموع غزار، فما باله والبين يوشك أن يقع؟ إنه يُمْعِن فى البكاء ويمعن فى الالتياع ويمعن فى الألم والعذاب ، ومن قوله :

تمتَّعْ من حبيبك بالوَداعِ إلى وقت السرور بالاجتماعِ
فكم جرَّبتُ من وَصْلٍ وهَجْرٍ ومن حال ارتفاعٍ واتِّضاع
وكم كأسٍ أمرّ من المنايا شربتُ فلم يَضِقْ عَنْها ذِراعى
ولم أرَ فى الذى لاقيتُ شَيْئاً أمرّ من الفـراق بلا وداعِ
تعالىْ الله كلّ مواصـلاتٍ وإن طالتْ تؤول إلى انقطـاعِ

وهو يدعو إلى ألا يشكو المحب من الفراق ولحظة الوداع التى طالما عصرت قلوب المحبين ، ويقول إنها ليست آخر لحظة يلقى فيها الحبيب ، فستأتى بعدها لحظات لقاء ، وهكذا الحب أحوال من وصل وفراق ولقاء وهجر . ويقول كم شرب من الحب كئوسًا مرة أمر من الموت ، فتحمَّلها صابراً . وليس أمر من الفراق بلا وداع ولا سلام ولا حتى تحية من بعيد ، فإن هذا عذاب لا يطاق ، عذاب كأنه الجحيم. ويثوب الفقيه إلى رشده فالله قد كتب على كل شىء الزوال والفناء . ومن تتمة ذلك عند الفقيه أن يرضى بالقدر المقدور وما كتبه القضاء المحتوم ، كأن يقول فى بعض غزله :

أفوِّض أسبابى إلى الله كلِّها وأقنعُ بالمقدور فيها وأرتضى

فهو دائمًا يسلِّم — فى عذابه بالحب وآلامه فيه وما يَصْلَى من هجر وبعد وفراق — بما أرادته له المقادير. وتشيع فى شعره كلمات فقهية كثيرة مثل كلمات الحلال والحرام والتوبة ، ويعلن غير مرة أن حبه عفيف نقى طاهر لا تشوبه أدنى شائبة ، يقول :

لا تُلزمنِّىَ فى رَعْىِ الهَوَى سَرَفاً　　وما أُوفِّيه إلا دون مـــا يجبُ
فى عِفَّةٍ نتحامى أن يُلم بها　　سُوءُ الظنون وأن تغتالها الرِّيَبُ

ويُكثر فى غزله من ذكر المنازل والديار والفيافى والقيعان والرُّكْبان والمطايا ، وهو يتساءل والمنازل لا تجيب ، فقد رحل الأحبة وخلفوا له وَجْداً ما مثله وجد ، وعبثًا يخفيه فكل ما حوله يبصره ، يقول :

يُخْفى هواه وما يَخْفى على أحدٍ　　حتى على العِيس والرُّكْبان والحادى

ويَذيع شعره فى بغداد ويغنىّ فيه المغنون والمغنيات ، وهو لا يدرى من أمره شيئًا فقد كان منكبًّا دائمًا على حلقات الدرس وعلى التصنيف والتأليف . ويساير ذات يوم القاضى محمد بن يوسف فيَسمع جارية تغنىّ بقوله :

أشكو غليلَ فؤادٍ أنت متلفُه　　شكوى عليلٍ إلى إلْفٍ يعلّلُهُ
سقمى تزيد على الأيام كثرتُه　　وأنت فى عُظم ما ألقى تقلّله
اللهُ حَرَّم قتلى فى الهوى سلفاً　　وأنت يا قاتلى ظلماً تحلّله

ويلتفت إلى صاحبه قائلا : كيف السبيل إلى ارتجاع مثل هذا الشعر الذى تلوكه أفواه المغنين والمغنيات ، فيؤنسه من ردّه قائلا : هيهات سارت به الركبان . ومن طريف ما يُرْوَى له :

فلا تُطْفِ نارَ الشوق بالشوق طالباً　　سُلُوًّا فإن الجَمْر يُسْعَر بالجَمْرِ

ولم تمتد حياته طويلا . فقد توفى سنة ٢٩٧ وهو فى الثانية والأربعين من عمره ، ويقال إنه لما مات جلس ابن سريج مناظره المذكور آنفًا فى مجلسه وبكى وجلس على التراب . وقال : ما آسى إلا على لسان أكله التراب من ابن داود . وحزن عليه تلاميذه حزنًا شديداً . ويقال إن نفطويه جزع عليه جزعًا عظيمًا . ولم يجلس فى حلقته للناس يحاضرهم سنة كاملة .

فضل[١]

كانت أمها من مولَّدات اليمامة ، وكانت هى من مولَّدات البصرة ، نشأت فى دار رجل من قبيلة عبد القيس أدَّبها وثقفها ثم باعها ، ووقعت لرجل من النخَّاسين فى الكرخ ببغداد يقال له حَسْنويه ، فاشتراها منه محمد بن الفرج الرُّخَّجى ، وأهداها إلى المتوكل سنة ٢٣٣ للهجرة . ولم يكن بين الجوارى فى زمانها أفصح منها ولا أشعر ، ويقول فيها بعض النخاسين : كانت فى نهاية الجمال والكمال . ولما دخلت على المتوكل سألها أشاعرة أنت ؟ فقالت : كذلك زعم من باعنى واشترانى ، فضحك ، وقال لها : أنشدينا شيئًا من شعرك ، فأنشدته تمدحه :

استقبل المَلْكُ إمامُ الهُدَى ... عـامَ ثلاثٍ وثلاثينـا
إنا لنرجو يا إمامَ الهدى ... أن تملك النـاس ثمانينا
لا قدَّس اللهُ امرءًا لم يَقُلْ ... عند دعـائى لك آمينا

فاستحسن الأبيات ، وأمر لها بجائزة وأمر عَرِيب أن تغنيه بها ، فغنت وطرب طربًا شديداً . وكانت حاضرة البديهة فكان الشعراء من حاشية المتوكل ومن غيرها يتعرضون لها ببعض أبيات يُلْقونها عليها ، فتجيزها فى سرعة شديدة ، وكان المتوكل نفسه يلقى عليها أحيانًا بعض الأبيات فتُسْرع فى إجازتها ببديهتها الحاضرة ، من ذلك قول بعض الشعراء :

تعلمتُ أَسبابَ الرِّضا خوفَ عَتْبِها ... وعلَّمهـا حُبِّى لها كيف تغضبُ

ولم يكد يلفظ بالبيت حتى قالت :

تصدُّ وأَدنو بالمـودَّة جاهدًا ... وتبعد عنى بالوصال وأَقربُ

---

(١) انظر فى فضل وأخبارها وأشعارها الأغانى (طبعة الساسى) ٢١ / ١١٤ ، ٢/١٧ وفوات الوفيات للكتبى وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤٢٦ والنجوم الزاهرة ٣ / ٢٨ وزهر الآداب للحصرى ٤ / ١٦٥

وكما كان لها مديح كان لها هجاء خصّت به معاصرتها الخنساء ، ولكن جمهور أشعارها كان فى الغزل ، وهو غزل رقيق رقة شديدة من مثل قولها :

عَلَم الجمال تركتَنى ... فى الحب أشهرَ من علَمْ
ونصبتَنى يا مُنْيَتِى ... غرضَ المظنة والتُّهم
فارقتنى بعد الدنوّ ... فصرت عندى كالحلم
ما كان ضرَّك لو وصلـ ... ـتَ فخفَّ عن قلبى الألم

وهى تقول لصاحبها إنك وصلتنى وشهرتنى بحبك ثم هجرتنى وأنزلتنى هذه المنزلة المخزية من القطيعة ، حتى صرت وصارت أيام وصلك كأنها حلم وخيال ، وهى تود لو ظفرت بحبه ثانية وظفرت بوصله ، فخرجت من آلامها المبرّحة . وأكثر غزلها فى معشوقها سعيد بن حُمَيْد رئيس ديوان الرسائل لعصر المستعين ، وله فيها بدوره غزل كثير ، وبينهما محاورات ومكاتبات شعرية طريفة ، من ذلك أنه عتب عليها يوماً أنها لا تُقْبل عليه فى مجلسها ولا تذكره باسمه فى غزلها ، فكتبت إليه :

وعيشك لو صرَّحت باسمك فى الهوى ... لأَقْصَرْت عن أشياء فى الهزل والجِدِّ
ولكننى أُبْدِى لهذا مودتى ... وذاك وأخلو فيك بالبثِّ والوجد

فكتب إليها سعيد :

تنامين عن ليلى وأسهره وحدى ... وأَنْهَى جفونى أن تبثَّكِ ما عندى
فإن كنت لا تدرين ما قد فعلتِه ... بنا فانظرى ماذا على قاتل العَمْدِ

وكان لا يقلُّ عنها كلَفاً ولا غراماً . وكانا كثيراً ما يتغاضبان ويتعاتبان ويعودان إلى الرضا بعد أن يصف كل منهما هيامه بصاحبه ودموعه المتحدرة . وكانت لاتنى الرقاع والرسائل بينهما ذاهبة راجعة ، ومما كتبته له فى إحدى الرقاع :

الصَّبْرُ ينقصُ والسَّقامُ يزيدُ ... والدارُ دانيةٌ وأنت بعيدُ
أَشكوك أم أَشكو إليك فإنه ... لا يستطيع سواهما المجهود

وكان حريًّا بصاحب الأغانى أو قل بمعاصريهما أن يحتفظوا للأجيال التالية بهذه الرسائل التى اتصلت بينهما ، ولكنهم لم يحتفظوا منها إلا بالقليل مع أنها تُعَدُّ من طرائف الشعر العباسى . ويقال إنه بلغها أنه واصل جارية من جوارى القيان وملأت قلبه فتونًا ، فكتبت إليه غاضبة ساخطة :

يا عالىَ السِّنِّ سَيِّئَ الأَدبِ شِبْتَ وأنت الغلامُ فى الأَدبِ
وَيْحَكَ إن القِيانَ كالشَّرَك الـ منصوب بين الغرور والعَطَب
لا يتصدَّيْنَ للفقير ولا يَتَبْعَنَ إلا مواضعَ الذهب

فالجارية لا تحبه لشخصه وإنما تحبه لذهبه ودنانيره ، وكأنها تريد أن تقطع أوصال هذه العلاقة الناشئة ، حتى لا يعود إلى التفكير فى تلك الجارية أبداً . ويقال إنها كانت فى الغاية والنهاية من التشيع . فلما هويت سعيداً انتقلت إلى مذهبه من الانحراف عن آل الرسول عليه السلام . وكانت منذ مقتل المتوكل تمر بها أوقات حزينة تشعر فيها بالبؤس فكانت تنفّس عن نفسها بمثل قولها :

إن الزمان بِذَحْلٍ كان يطلبنا ما كان أَغفلنا عنه وأَسْهانا[1]
مالى وللدهر قد أَصبحتُ هِمَّته مالى وللدهر . ما للدهر ، لا كانا

والبيتان رائعان ، ويدلان كما تدل الأبيات السابقة على نبع شعرى غزير ، واختُلف فى زمن وفاتها ، فقيل سنة ٢٥٨ وقيل سنة ٢٦٠ ، ويقال إن سعيد بن حميد كان يقول بعد موتها : ما رسائلى المدوَّنة عند الناس إلا من إنشائها تجلَّةً لها ولأدبها وملكتها الشعرية .

٢

شعراء اللهو والمجون

ظل كثيرون من الشعراء ينغمسون فى اللهو والمجون كما انغمس أسلافهم فى العصر الماضى ، وكان بعض هذا الانغماس يرجع إلى تحلل فى الأخلاق ، وبعضه يرجع إلى الهروب من الحياة والتخفف من أعبائها الثقيلة ، وساعد على ذلك اختلال فى الموازين

(١) ذحل : ثأر

وفساد فى القيم شاعا فى حياة الدولة وفى حياة الناس . وكان الشك يتسلط على نفوس كثيرين وتتسلط معه ألوان الإلحاد والزندقة ، وكان الكَرْخ مليئاً بالحانات وبدور النخاسين ، والشعراء المجّان يغدون ويروحون ليل نهار ، وبعض الجوارى لم يكنّ يعرفنَ حشمة ولا وقاراً إنما كنّ يعرفن اللهو والابتذال . وكانت هناك الديارات متناثرة حول بغداد وعلى طول الطرق إلى البصرة والكوفة جنوباً والموصل شمالا ، وكانت مفتوحة الأبواب للشعراء دائماً لا فى الأعياد المسيحية فحسب ، بل طوال العام ، فهم يلمّون بها ويتناولون الخمر منها ، وقد يعكفون على الشرب فيها أياماً متصلة . وكل ذلك عمل على أن يكثر بين الشعراء أصحابُ الخلاعة والمجون فى أسوأ صورهما ، حتى لنجد كثيرين يتغزلون غزلا شاذّاً بالغلمان ، وَصْمَةً ظلت فى هذا العصر كما كانت فى العصر الماضى ، وكثير من هذا الغزل كان يُنْظَمُ فى أثناء السكر وشرب الخمر ، للضحك والفكاهة ، ولكن تبقى بقايا وراء ذلك تصوّر الفساد الخلقى فى أبشع صوره . وحقاً لا نجد خليفة تورط فى حب غلام ، ولكن أيضاً كان كثيرون منهم يعكفون على الملاهى والملذات ، وكانت قصورهم تطفح بجماعات المجان فى صورة ندماء ومضحكين ، وأكثرهم كانوا مُجّانا محترفين . وفى كل مكان نلتقى بهذه الجماعات أو العصابات ، وكانوا يتعاشرون ويترافقون تارة فى الديارات وتارة فى دور النخاسين أو فى الحانات أو فى بيوتهم ، ومن أهمهم جماعة أو عصابة أبى هفان ومحمد بن الفضل ومحمد بن مكرم وأبى على البصير وأبى العيْناء ، وفيهم يقول المرزبانى : كانوا يتعاشرون وكانوا شياطين العسكر فى الظرف والمجون[1] ، ومنهم جماعة أبى السفاح الأنصارى وعبد الله بن رضا وإسماعيل بن يوسف ، وقد تعاهدوا ألا يقولوا شعراً إلا فى صفة الخمر ، ويقول ابن المعتز إنهم ظلوا على ذلك إلى أن ماتوا[2] . وكان لشيوع مجالس الخمر حينئذ أثرها فى ظهور كتابات كثيرة عن آداب المنادمة والنديم ، ومما اشترطوه لها قلة الخلاف والمعاملة بالإنصاف والمسامحة فى الشراب والتغافل عن رد الجواب وإدمان الرضا واطّراح ما مضى وإسقاط التكليف وستر العيب وحفظ الغيب . ونعرض لبعض هؤلاء الشياطين وخمرياتهم فمنهم أبو العيناء الضرير ، وكان ظريفاً لسناً سريع الجواب ، واتخذه

---

(١) معجم الشعراء ص ٣٩٨.

(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٣٩ .

المتوكل فى ندمائه . وكان ينزل مع رفاقه الأديرة ويستطيب خمرها المعتقة ، وقد يبقى فيها أيامًا لا يفيق من سكره ، وله فى دير باشَهرا ، وكان بين سامراء وبغداد قوله[1] :

نزلنـــا دِيرَ با شَهْرَا   على قِسِّيسِهِ ظُهْرَا
وسقَّانا وروَّانـــا   من الصَّافية العَـذْرا
وطاب الوقتُ فى الدَّيْرِ   فرابطْنـــا به عَشْرا
ونِلْنا كلَّ ما نهـوا   ه من لذَّاتنا جَهْرَا

ومن كبار الشياطين فى العصر مصعب الوراق . وكان من أشد المجان تهتكًا وأكثرهم خلاعة وتطرحًا فى الحانات والديارات ، وكثيراً ما كان يلم بدير الزعفران من ديارات الموصل ، وفيه يقول[2] :

عمرتُ بقـــاعَ دَيْرِ الزَّعفرانِ   بفتيـــانٍ غطارفةٍ هِجانِ[3]
بكل فَتًى يحنّ إلى التصابى   ويَهْوَى شُرْبَ عاتقةِ الدِّنان
بكل فتى يميل إلى الملاهى   وأصواتِ المثالثِ والمثانى[4]
ظَلِلْنا نُعمل الكاساتِ فيه   على روضٍ كنقش الخُسْروانى
وأغصانٍ تميل بها ثمارٌ   قريباتٌ من الجـــانى دوانى

وممن كانوا يتورطون حينئذ فى الخمر وآثامها أبو عثمان الناجم راوية ابن الرومى ، إذ روى عنه أكثر شعره وكان يلزمه ولا يكاد يفارقه ، وله كثير من المعانى الدقيقة فى الخمر وغير الخمر ، وكأنما كان يتأثر بأستاذه ، وفيها يقول[5] :

مشمولةٌ كشعاع الشمس فى قَدَحٍ   مثل السَّراب يُرَى من رِقَّةٍ شَبحا
إذا تعاطيتها لم تدر من لُطُفٍ   راحاً بلا قدحٍ عاطتْك أم قدحاً

وكثيراً ما كان يلمّ بدير الحوات ، وهو دير كبير شمالى سامراء وسط البساتين والكروم ، وكانت تسكنه نساء مترهبات ، وكان من منازل القَصْف ومواطن اللهو .

(١) الديارات للشابشتى ص ٨٠ .
(٢) الديارات ص ١٩٢ .
(٣) غطارفة هجان : سادة كرام .
(٤) المثالث والمثانى : من أوتار العود .
(٥) المختار من شعر بشار ص ١٢٧ وانظر الديارات ص ٩٣ .

وذكره كثيراً فى أشعاره . ومثله دير العذارى وكان قريباً من بغداد ، وواضح من اسمه أنه كان ينزله جوار متبتلات عذارى ، ونزل به عبيد الله بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد . فأقام به يومين واستطابه وشرب فيه . وله مقطوعة يصوّر فيها ما امتد حول الدَّيْر من بساتين فاتنة وعكوفه على الشرب فيه بمثل قوله[1] :

ورياضٍ كأنهن برودٌ كلّ يوم لهن صِبْغٌ جديدُ
وكأن الشَّقِيقَ فيها عشيقٌ وكأن البَهار صَبٌّ عَميد[2]
وكأن الثمار والورقَ الخُضْرَ ثيابٌ من تحتهن نهودُ
فاسقنيها راحًا تريح من الهمّ وتُبْدى سرورنا وتُعيد
وانتهز فرصة اللذاذات فى دَيْرِ العَذارى فعلَّها لا تعود

وكان كثيرون لا يَغْلُون فى المجون ولا يغرقون فى اللذات . وإنما يلمون بالخمر من حين إلى حين . وقد يكون فى حياتهم ما دفعهم إلى ذلك ، إما سخط شديد على الحياة السياسية . وإما شك واستهانة بكل شىء ، وإما محنة نزلت بهم أو إحساس بضرب من ضروب الإخفاق . وبذلك نستطيع أن نعلل إقبال بعض المتكلمين على تناولها أحيانًا أو قل بعبارة أدق على وصفها ، إذ ربما وصفوها مجاراة للشعراء فى عصرهم ، على نحو ما نجد عند أبى العباس الناشئ إذ يقول[3] :

ومُدَامة يَخْفَى النهــارُ لنورها وتَذِلّ أكنافُ الدُّجَى لضيائها
صُبَّتْ فأحْدق نورُها بزجاجها فكأنها جُعِلَتْ إناءَ إنائِها
وتكاد إن مزِجَتْ لرقَّة لونهــا تمتــاز عند مِزاجها من مائها
صفراء تَضْحَى الشمسُ إن قِيستْ بها فى ضوئها كالليل فى أَضــوائها
وإذا تصفحتَ الهواء رأيتــه كَدِر الأديــة عند حُسْن صفائها
لا شىء أعجبُ من تولُّد بُرْئها من سُقْمها ودوائهــا من دائهــا

---

(١) الديارات ص ١٠٩ .
(٢) الشقيق : ورد أحمر . والبهار : زهر أصفر ، والكناية واضحة.
(٣) زهر الآداب ٢/١٤٩ .

وهى خمرية بديعة لعب فيها خيال الناشئ بفكرة ضوء الخمر ، فهى تارة تحيل الشمس ظلامًا، وتارة تُرَى وكأنما لا يحملها إناؤها أو قل كأسها الزجاجى . وهى متناهية فى الرقة حتى لتكاد تتميز من الماء حين يُمْزَجُ بها ، وهى أيضًا متناهية فى الصفاء حتى ليُرَى الجو الصافى كدراً بالقياس إليها . وهى داء ودواء وسقام وشفاء . ونقف عند ثلاثة اشتهروا باللهو والمجون فى العصر . وهم الحسين بن الضحاك وأبو الشبل البُرْجمىّ وعبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع .

الحسين [1] بن الضحاك

من كبار الخلعاء المجان ، وُلد بالبصرة ونشأ بها ، ثم تركها إلى بغداد لعصر الأمين ، وربما قبل عصره ، فقد عاش دهراً طويلا ، وكان ظريفًا ، فاتخذه الأمين نديمًا له ، ونادم من بعده المعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر ابنه . وقد جزع جزعًا شديداً حين توفى الأمين ، ورثاه مراثى كثيرة ، وكان مما قال فيه باكيًا متفجعًا .

هلا بقيتَ لسَدِّ فاقتنا فينا وكان لغيرك التَّلَفُ
قد كان فيك لمن مضى خلفٌ فاليوم أَعْوز بعدك الخلف

فلما جاء المأمون من خراسان إلى بغداد علم بموقفه منه ، وأنه طالما نظم أشعاراً ضد طاهر بن الحسين قائده فى حرب الأمين كما نظم أشعاراً يبكى بها بغداد حين ضربها طاهر بالمجانيق ، وكان أشد ما أسخطه عليه البيتان السالفان ودعاؤه فيهما عليه بالتلف . فلما ذُكر له فى الشعراء قال : لا حاجة لى به ولا يرى وجهى إلا على قارعة الطريق أى فى مواكبه العامة . وظل لا يقْرب القصر طوال خلافة المأمون ، بل لقد بارح بغداد إلى البصرة ، حتى إذا خلفه المعتصم استقدمه من موطنه وقرّبه منه . فمضى يمدحه وينال جوائزه . وقد أقطعه كما أقطع رجال

---

(١) انظر فى ترجمة الحسين بن الضحاك وأشعاره ابن المعتز ص ٢٦٨ وتاريخ بغداد ٨ / ٥٤ والأغانى (طبع دار الكتب) ١٤٣/٧ ومعجم الأدباء وابن خلكان ومرآة الجنان ٢ / ١٥٦ وشذرات الذهب ٢ / ١٢٣ وأشعار الخليع الحسين بن الضحاك جمع وتحقيق عبد الستار فراج (طبع دار الثقافة ببيروت) .

حاشيته داراً فى سامرَّاء ، واتخذه الواثق نديماً له ، وله فيه مدائح كثيرة ، وخلفه المتوكل فسلكه فى ندمائه ، وكذلك صنع ابنه المنتصر ، وله فيه مدائح مختلفة مثل أبيه ، ومن قوله فى تهنئته له بالخلافة :

هَنَتْكَ أميرَ المؤمنين خلافةٌ جمعتَ بها أهواءَ أمةِ أحْمد

وأُعْجب المنتصر بالقصيدة ، فقال له : إن فى بقائك بهاءً للملك ، ولحق بعده عصر المستعين ، وفيه توفى سنة ٢٥١ للهجرة .

وكان يُعْرَفُ باسم الخليع لكثرة مجونه وعكوفه على الخمر ، حتى أصبح اسمه مقرونا باسم أبى نواس أكبر ماجن فى العصر السابق ، وهو مثله فارسى الأصل ، وكان يصحبه فى شبابه ، ويبدو أنه تمثل أشعاره تمثلا نادراً وخاصة أشعار الخمر والمجون ، حتى اختلط الأمر على القدماء فنسبوا كثيراً من أشعاره إلى أبى نواس ، وزعم نفر منهم أن أبا نواس كان يحاكيه فى بعض أشعاره . والصحيح أن الحسين هو الذى كان يحاكى أستاذه وأستاذ الخمر والمجون فى العربية عامة . ويقول ابن المعتز إنه كان أنقى من أبى نواس شعراً وأقل تخليطاً منه ، وهى ملاحظة صحيحة غاية الصحة ، فإن أبا نواس كان يختلط بأبناء الشعب البغدادى من المجَّان وغيرهم فى الحانات بالكرخ وغير الكرخ وفى الأديرة ، وكان لا يرتفع بلغته وألفاظه عنهم ، بل كان يدنو منهم دنوًّا شديداً . وكان ينظم كثيراً من خمرياته فى أثناء سكره ، فبدا فى أشعاره تخليط كما لاحظ ابن المعتز ، فهو تارة يرتفع حين ينظم فى مجلس الأمين أو فى مجلس بعض الوزراء والنابهين . وتارة يُسِفّ حين ينظم فى مجالس العامة ، وخاصة حين يخاطب غلمان الحانات وكانوا أخلاطاً من الفرس ممن لا يحسنون العربية الفصيحة . أما الحسين فكان فى جمهور حياته يعيش فى قصور الخلفاء والوزراء وأبنائهم ، فكان يُعْنَى أشد العناية بلغته وألفاظه ، ولا يكتفى فيها بالفصاحة بل يطلب أيضاً الرصانة والجزالة حيناً ، وحيناً العذوبة والنعومة وما يلائم الأذواق الرفيعة فى المجتمع ، لذلك قل التخليط عنده كما يلاحظ ابن المعتز ، بل كاد ينعدم انعداماً ، ولذلك أيضاً شاع فى أشعاره النقاء والصفاء إذ كان يطلب فيها دائماً أن تلذ الأسماع والأفئدة . وظاهرة ثانية يختلف فيها عن أستاذ المجون والخمر فى عصره هى شىء من الحشمة المصطنعة فى مجونه ، فهو لا يذيع فيه ما يذيعه

أبو نواس من الفحش، لأنه كان يعيش فى أوساط الخلفاء والوزراء وأبنائهم ، فكان يحتشم وقلما يعلن أنه يقترف إثمًا منكراً ، أما أبو نواس فلم يكن يعرف شيئًا من الحشمة ولا كان يخفى شيئًا من آثامه . وليس معنى ذلك أن الحسين كان أقل من أبى نواس مجونًا وشغفًا بالخمر ، فقد كان مثله مفتونًا بها فتنة شديدة ، وكان يطلبها فى الحانات وفى الأديرة وكان دائم الاختلاف إليها ، ومن طريف ما نظمه فى دَيْر سابر بقرب بغداد وخمره المعتقة قوله :

وعـواتقٍ باشرتُ بين حدائقٍ ففَضَضْتُهُنَّ وقد حَسُنَّ صِحَاحَا[1]
أتبعت وَخْزَةَ تلك وَخْزة هذه حتى شربتُ دماءهن جِرَاحَا
أبرزتهنَّ من الخدور حَوَاسِرًا وتركت صَوْنَ حريمهنَّ مُبَاحا

وهو يصور فتنته بزقاق الخمر الممتلئة التى لم يمسسها أحد قبله ، وقد ضحكت الطبيعة فى دير سابر من حوله ، وهو يفتح الزقاق ويشرب من دمائها أرطالا . وكان يختلف إلى ديارات العراق عامة ، وله فى دير سَرْجِس بالقرب من الكوفة قصيدة بديعة ، يقول فيها :

أخوىَّ حَىَّ على الصَّبوح صَباحا هُبَّا ولا تَعِدا النديم رَواحا
مهما أقام على الصَّبوح مساعدٌ وعلى الغَبُوق فلن أريد بَراحا[2]
عُودَا لعادتنا صبيحةَ أمسِنا فالعَوْدُ أحمدُ مُغْتَدىً ومَرَاحا
هل تَعْذِران بِدَيْر سَرْجِسَ صاحباً بالصَّحْو أو تريانِ ذاك جُناحا
إنى أعيذكما بألفة بَيْننـــا أنْ تشربا بقرى الفُرات قَراحا[3]
عَجَّتْ قَواقِزُنَا وقَدَّس قَسُّنا هَزَجاً وأصخبنا الدَّجاج صِياحا[4]

وهو يتلطف إلى صاحبيه فى آخر الليل ويدعوهما أن يتناولا معه الصبوح كما تناولاه بالأمس، ويَعْذِراه ولا يريا فى ذلك جُناحًا ولا إثمًا ، ويستحلفهما بما

---

(١) العواتق : زقاق الخمر.

(٢) الصبوح : شرب الصباح ، والغبوق: شرب المساء .

(٣) الماء القراح : الماء الصافى .

(٤) القواقز : القداح . وقدس القس : رتل بعض التراتيل .

بينهما وبينه من ألفة ومودة وأخوة ألا يشربا ماء الفرات النمير ، بل يشربا معه صبوحه المسكر المحبب إلى نفسه . وكان أبو عيسى بن الرشيد يدفع غلامه « يُسْرا » إلى معابثته فكان ينظم فيه بعض غزله . وكذلك كان المتوكل يدفع غلامه « شفيعاً » إلى العبث به ، وكان وضيءُ الوجه مثل يسر فكان ينظم فيه أيضاً بعض الغزل ، وواضح أنه غزل كان يُرَاد به إلى الهزل وإضحاك المتوكل وأبى عيسى . وله فى الغزل عامة شعر كثير من مثل قوله :

وَصَفَ البَدْرُ حُسْنَ وجهك حتى ... خلتُ أنى – وما أراك – أراكا
وإذا ما تنفَّس النَّرْجِسُ الغَضُّ ... توهَّمته نسيمَ شَذَاكا
خُدَعٌ للمنى تعلِّلنى فيـ ... ـك بإشراق ذا وبهجةِ ذاكا
لأدومنَّ يا حبيبى على الوُدِّ ... لهذا وذاك إذ حَكَيَاكا

والقطعة رائعة التصوير وتسيل عذوبة ، وهى عذوبة تشيع فى كثير من أشعاره الغزلية والخمرية ، وهى طبيعية لشاعر كان يعيش فى قصور الخلفاء ومجالسهم ، ويسمع فى كل ليلة أوتار العيدان والطنابير والمعازف من كل لون ، مما جعل أذنه الموسيقية تُرْهَفُ إرهافاً شديداً ، فإذا كثير من شعره يتحول ألحاناً وأنغاماً خالصة على شاكلة قوله :

عالمٌ بِحبِّــهِ ... مُطْرِقٌ من التِّيــهِ
يوسفُ الجمالِ وفر ... عــونُ فى تعدِّيه
وهْو غيرُ مكترثٍ ... للذى ألاقيــه
لا وحقِّ ما أنا من ... عَطْفِــه أُرَجِّيــه
ما الحياة نافعةٌ ... لى على تـأَبِّيــه
النعيمُ يشغله ... والجمــالُ يُطغيه

والقطعة من وزن عباسى حديث هو وزن المقتضب ، وهى تطير عن الفم بخفة . ولم يقف تأثير الغناء وآلات الطرب لعصره فى شعره عند الملاءمة بين

جرس الكلمات ، بل تجاوز ذلك إلى الأوزان ، فكان يفزع إلى مجزوءاتها كثيراً إرضاءً لآذان السامعين ، وحتى يتيح للمغنين والمغنيات في شعره الفُرَص كي يجهروا بألفاظه ويهمسوا بها حسب حاجاتهم الغنائية .

أبو الشبل(١) البرْجُمِيّ

اسمه عاصم بن وهب ، وُلد بالكوفة ونشأ وتأدّب بالبصرة . يقول أبو الفرج : «قدم إلى سامرّاء في أيام المتوكل ومدحه ، وكان طَيِّبًا نادراً ، كثير الغزل ، ماجنًا فنفق عند المتوكل بإيثاره العبث ، ونادمه وخَصّ به فأثرى » ثم يذكر بعض مديحه للمتوكل وما أسبغ عليه من عطاياه . ويبدو من اصطفاء المتوكل له أنه كان ظريفًا خفيف الروح ، ويقصّ ابن المعتز بعض نوادره ، مما يدل على أنه كان فكه المحضر . وكان خليعًا مثل الحسين بن الضحاك يسرف على نفسه في المجون ويتهالك على اللذات ، ويطلبها في الحانات وفي الديارات ، ويقول من ترجموا له إنه كان عاكفا على الشراب لا يفارقه ، ولا يوجد إلا سكران قد أخذ منه السكر مأخذاً شديداً ، ويقولون إنه كان يتطرّح في الديارات والحانات ومواطن اللهو ، لا يُغيبّها ولا يتأخر عنها ، بل دائمًا في حانة أو في دَيْر أو في بستان أو متنزّه وقد شرب وأغرق في الشرب حتى لم يعد يستطيع أن يقف على قدميه ، بل لم يعد يستطيع حراكًا . وكان كثير الاختلاف إلى دير أشموني بقرية قُطْرَبُّل شمالىّ بغداد وكانت القرية أشبه بحانة كبيرة يختلف إليها أصحاب البطالة والمجون . وكان عيد هذا الدير في اليوم الثالث من أكتوبر ، وكان يجتمع فيه كل من ببغداد من أهل الطرب واللهو ، يخرجون إليه جماعات ، منهم من يركب السفن النهرية بدجلة ، ومن يركب الخيل المطهمة ، وينزلون في أكناف القرية وحاناتها ودَيْرها الكبير ضاربين خيامهم وفساطيطهم ، وكلٌّ قد أعدّ ما استطاع لقَصْفه ولهوه ، والقيان تعزف عليهم ، وآلات الطرب تُسْمَع في كل مكان ، والناس يطربون ويشربون وقد يرقصون طربًا واستحسانًا لما يسمعون . وطبيعي أن يتأثر الماجن الكبير أبو الشبل

---

(١) انظر في أبي الشبل وأخباره وأشعاره طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٨٠ والأغاني (طبع دار الكتب المصرية) ١٤ / ١٩٣ ومعجم الشعراء للمرزباني ص١٢٣ والديارات للشابشتي ص ٥٠ وما بعدها .

بمناظر هذا العيد ، وقد أخذ الشراب منه مأخذاً عظيماً فيتغنّى بمثل قوله :

شهِدْتُ مواطِنَ اللّذّاتِ طُرًّا ... وجُبْتُ بِقاعَها بَحْرًا وبَرًّا
فلم أر مثلَ أشمونى مَحَــلاً ... ألذَّ لحاضريه ولا أَسَرَّا
به جيشان من خَيْلٍ وسُفْنٍ ... أناخا فى ذُراه واستقــرَّا
كأنهما زحوفُ وَغىً ولكنْ ... إلى اللذات ماكرًّا وفــرًّا
سلاحُهما القَواقِزُ والقَنانى ... وأكواسٌ تدور هلمَّ جَــرًّا(١)
وضَرْبُهما المثالثُ والمثانى ... إذا ما الضربُ فى الحرب استحرَّا

وكان مثل الحسين وعامة مجّان عصره يكثر من الغزل ، وكان يستهتر فيه أحيانًا ويتهتك ويتمدح بالتهتك والاستهتار مسفًّا فى شعره ، وكأنما كان ينظم مثل هذا اللون من الغزل للمجان من أمثاله مُشيعًا فيه غير قليل من الفحش . وكان ينظم بجانبه غزلا آخر لا يسفّ فيه هذا الإسفاف ، بل يُبْقى فيه على مروءته وكرامته إن كان للمجان من أضرابه فضل من كرامة ، على شاكلة قوله :

بأبى ريمٌ رمى قَلْـ ... ـبى بألحاظٍ مِراضِ(٢)
وحَمَى عينىَ أن تَلْـ ... ـتَذَّ طيبَ الإغماضِ
كلما رُمت انبساطاً ... كفَّ بَسْطِى بانقباضِ
أو تعالَى أملى فيـ ... ـه رمـاه بانخفاضِ
فمتى ينتصف المظـ ... ـلومُ والظالمُ قاضى

والأبيات خفيفة ،ولكنه لا يلحق الحسين بن الضحاك فى عذوبة نغمه وخفة روحه وحرارة عاطفته . وكان الحسين أعف منه لسانًا إذ لم يكن يسف إلى الفحش إسفافه . وقد عُمِّر عمراً طويلا حتى وهن العظم منه واشتعل الرأس شيبًا وبلغ من الكبر عتيًّا . وكان طبيعيًّا أن ينصرف عنه حينئذ الجوارى . وفى ذلك يقول :

عذيرى من جــوارى الحَـــىِّ إذ يرغَبْن عن وَصْلِى

(١) القواقز : القداح كما مر . والأكواس : الكئوس .

(٢) الريم : الظبى خالص البياض .

رأين الشيب قد ألبـ سنى أُبَّهَةَ الكَهْــلِ
فأعــرضْنَ وقد كُنَّ إذا قيل أبو شِبْلِ
تساعَيْنَ فرقَّعن الـ كُوَى بالأَعْيُنِ النُّجْلِ[1]

ومرَّ بنا هجاء الخنساء جارية هشام المكفوف له ، وله فيها هجاء مسف إسفافًا شديداً ، وهو فى هجائه يفحش إلى درجة بعيدة تؤذى الأذواق السليمة . وكان قد اشترى كبشًا لعيد الأضحى فظل يعلفه ويسمِّنه ، وأفلت يومًا منه على قنديل كان يُسرجه بين يديه وعلى سراج وقارورة للزيت ، فكسر القنديل وانصبَّ الزيت على ثيابه وكتبه وفراشه ، فلما رأى منه ذلك ذبحه قبل الأضحى ، ونظم قصيدة فى رثاء قنديله يقول فيها :

يا عَيْنُ بَكِّى لفقد مَسْرَجةٍ كانتْ عمودَ الضياء والنورِ
صينيَّةٍ الصين حين أَبْدعها مصوِّرُ الحسن بالتصــاوير
مَسْرَجتى كم كشفتِ من ظُلَم جَلَّيتِ ظلماءَها بِتَنْوِيرِ
إن كان أَوْدَى بك الزمانُ فقد أبقيتِ منك الحديثَ فى الدُّورِ

ومضى يصور كيف انتقم للمسرجة ، فذبح الكبش ومزقه بالمُدَى وأتى به فى القدور وكيف أن السَّنانير والحِدأة والغربان والكلاب طعمت من لحمه وعظامه ، وكان ذلك عرُسًا لها جميعًا بدون مزامير ومغنين . وتلك عاقبة البغى ، مصرعه وخيم . ودخل داره بعضُ أصدقائه ورأى أن يعبث به ، وافته ثلث قرطاس كان يحتفظ به أبو الشبل ، فأخذه ولم يُعلمه بما صنع ، فلما مرت بعض أيام جاء صديقه ، فأنشده مرثية طويلة لذلك الجزء من القرطاس ، وفيه يقول :

فِكَرٌ تَعْتَرِى وحُزْنٌ طويلُ وسقيمٌ أَنْحَى عليهِ النُّحولُ
ليس يَبْكى رسماً ولاطللاًمَـ حَّ كما تَنْدُبُ الرُّبى والطُّلولُ[2]
إنما حزنه على ثُلُثٍ كا ن لحَاجاتهِ فغالتْه غولُ[3]

---

(١) الكوى: الخروق فى الأبواب والنوافذ.
(٢) مح : عفا ودرس.
(٣) غالته : أهلكته .

كان للسرِّ والأمانة والكِتْـ ـمان إنْ باحَ بالحديث الرسولَ

وضحك صديقه طويلا ، واعترف له بأخذه ، وردّه عليه . وهذا هو أبو الشبل ماجن خليع ، يسرف فى الخلاعة والمجون ، بل فى الاستهتار والتهتك ، وهو مع ذلك صاحب نوادر ، لا نوادر يحكيها فحسب ، بل نوادر حدثت له كان يحكيها وينظم فيها أشعاره .

عبد الله(١) بن العباس بن الفضل بن الربيع

حفيد الفضل بن الربيع وزير الرشيد والأمين ، نُشِّئ فى الحلية والترف والنعيم ، وقد عُنى أبوه بتعليمه وتثقيفه حتى أحسن الشعر ، وكان يقوله على الطبيعة مُرْسلا نفسه على سجيتها ، لا يتكلف فيه ولا يتعمَّل . ويقول أبو الفرج شعره مطبوع ظريف مليح المذهب من أشعار المترفين وأولاد النعم ، ويقول : كما كان شاعراً مطبوعاً كان مغنياً محسناً جيد الصنعة . ويقال إن سبب تعلمه الغناء أنه تعلق بجارية لعمته رقَيّة كانت تتقن الغناء ، تسمى عَسَاليج ، شغفت قلبه حبًّا ، فكان يلزمها بعلة الغناء ، وكان يأخذ عنها وعن صواحبها ما أحسنَّه من الأصوات والأدوار ، حتى أقررن له بالحذق . وصار يلازم من يختلفون إلى بيته من المغنين أمثال إسحق الموصلى ، وكاد لايترك لهم صوتاً دون أن يأخذه . وكان جوارى الحارث بن بسخنَّر وابنه محمد يدخلن إلى داره فيطرحن على الجوارى بها ما ليس عندهن من غناء . وكل ذلك أتاح له أن يتثقف بالغناء ، بل أن يصبح ماهراً فيه . وترتفع شهرته فى إحسانه إلى آذان الخلفاء ، فيطلبونه لسماع أغانيه ، وكان أول من طلبه الواثق ، وله فيه أصوات مدحه بها ، وغنّاه فيها فملأه طرباً ، من ذلك ما يُرْوَى من أن الواثق عوفى من مرض ألمَّ به فطلبه مع طائفة من المغنين ، فلما صار قريباً من مجلسه بحيث يسمع صوته ضرب على عود مغنياً بيتين قالهما فى طريقه إليه على هذا النمط :

---

(١) انظر فى عبد الله وحياته وأشعاره الأغانى (طبعة الساسى) ١٧ / ١٢١ وتاريخ بغداد ١٠ / ٣٦ والديارات ص ٦٣ وما بعدها وذيل زهر الآداب ص ١١٥ .

اسلمْ وعمَّرك الإلهُ لأُمـــةٍ بك أصبحتْ قهرتْ ذوى الإلحادِ
لو تستطيع وَقَتْكَ كلَّ أذيَّةٍ بالنفس والأمـــوال والأولادِ

وكان الواثق يغمره بجوائزه وصلاته ، وغمره من بعده المتوكل بالأموال ، ويقص صاحب الأغانى من ذلك بعض أخبار ، وله فيه أيضًا مدائح قصيرة كان يغنيه بها فيهتز طربًا ، وفيه يقول :

أكرمَ اللهُ الإمامَ المرتضى وأطال اللهُ فينا عُمُرَهْ
سَرَّه اللهُ وأبقـــاه لنا ألفَ عامٍ وكفانا الفَجَرَه

وكان يغنى الخليفتين والمنتصر من بعدهما فى غزل كثير من أشعار السابقين وفى كثير من غزله الذى نظمه فى عساليج وفى غيرها من الجوارى اللائى فتنَّ قلبه وفى مقدمتهن مصابيح جارية الأحدب المقيِّن وكانت تغنى فى كثير من شعره . وهى جارية نصرانية هام بها قلبه هيامًا شديداً ، ويقال إنه كان يلزم بِيَعَ النصارى فى أعيادهم من أجلها شغفا بها ، وفيها يقول :

تتثنَّى بحسنِ جِيدِ غزالٍ وصليبٍ مفضَّضٍ آبنوسِ
كم رأيتُ الصليبَ فى الجِيد منها كهلالٍ مكلَّلٍ بشموسِ

وتتردَّد فى غزله أسماء الأعياد المسيحية كما يتردد ذكر كثير من الديارات مثل دير سَرْجِس ودير قوطا القريب من بغداد ، وكان ينزل فيهما أيامًا مع بعض رفاقه ، يشربون ويقصفون ويتمجنون ، وله يصوِّر ما كان من هذا المجون والقصف والشراب مع بعض صَحْبه فى دير قوطا ، إذ يقول :

يا دَيْرَ قُوطا لقد هيجتَ لى طربًا أزاح عن قلبِيَ الأحزانَ والكُرَبا
كم ليلةٍ فيك واصلتُ السرور بها لما وصلتُ لها الأدوار والنُّخَبا
فى فتيةٍ بذلوا فى القَصْف ما ملكوا وأنفقوا فى التَّصابى المالَ والنَّشَبا[1]

(١) النشب : المال والعقار .

وهو يكثر من الحديث عن صاحبته النصرانية وعن جوارى البِيَع والأديرة ، وكأنما كان قلبه يتبعهن جميعاً ويتمنى او استطاع أن يجنى معهن زهرات الحب ، أو او أتيح له ذلك من حين إلى حين ، ومن قوله فى إحدى جوارى الدير السالف :

وشادنٍ ما رأتْ عينى له شَبها ... فى الناس لا عَجَماً منهم ولا عَربا
إذا بدا مقبلا ناديتُ واطَرَبا ... وإن مضى مُعْرِضاً ناديتُ : واحَرَبا

ويصرّح مراراً بأنه لا يحب سوى خمر الأديرة المعتقة ، لما كان يخامره فيها من سكرين : سكره بالخمر الحقيقية وسكره برؤية الراهبات المتبتلات ومن يراهن هناك من العذارى الفاتنات . وله يتحدث عن خمر قرية من قُراهن تسمى كركين وعن يوم الشعانين وهو العيد المسيحى الذى يقع فى يوم الأحد قبل عيد الفِصْح :

ألا اصْبحانى يومَ الشّعانينِ ... من قهوةٍ عُتِّقت بِكَرْكينِ
عند أُنَاسٍ قلبى بهم كَلِفٌ ... وإن تولَّوا دِيناً سوى دينى

ومن الحق أنه لم يكن يُبْقى لنفسه شيئاً من الحشمة فى مجونه، وهو من هذه الناحية شبيه بأبى الشبل، بعيد الشبه من الحسين بن الضحاك مع أنه كان مثله يعاشر الخلفاء والأمراء ، وكأن هذه العشرة كانت شيئاً سطحيًّا ، وهو نفسه كان حفيد وزير ومن أسرة رفيعة أو أرستقراطية . وربما جاءه ذلك من أنه كان لا يفيق من الخمر ، إذ يقول أبو الفرج إنه كان يشرب الصَّبُوحَ كل يوم من دهره ما عدا أيام الجمع وشهر رمضان ، فهو نهاره سكران ، وكذلك كان ليله . ومثله يسفّ ويهبط إلى الدنيَّات ، لذلك لا نعجب إذا رأينا الشابشتى يقول عنه : «كان صاحب غزل ومجون كثير التطرح فى الديارات والحانات والاتّباع لأهل اللهو والخلاعة» . ومع ذلك له غزل كثير رقيق اشتهر به بين معاصريه، ويُرْوَى أن ابن الزيات وزير الواثق وكان أديباً بارعاً فى الشعر والنثر قال له : أنشدنى شيئاً من شعرك ، فقال إنما أعبث ببعض الأبيات ، ولست بمكان من ينشدك شعره ، فقال له : أتقول هذا وأنت القائل :

يا شادناً رامَ إذ مَـ ـرَّ فى الشعانين قَتْلى
تقول لى كيف أَصْبَحْـ ـت كيف يُصْبِحُ مثلى

أنت والله أغزل الناس وأرقهم شعراً ، ولو لم تقل غير البيت الأخير لكفاك ولكنت شاعراً مجيداً . وروى له الأغانى أشعاراً كثيرة كان يغنى فيها هو وعساليج ومصابيح وغيرهما من مغنيات العصر ومغنيه . ومن الأصوات التى طرب لها الواثق طرباً شديداً حين غنَّاه بها قوله :

بأَبى زَوْرٌ أَتَانى بالغَلَسْ قمت إجلالاً له حتى جَلَسْ
فتعانقنا جميعاً ساعةً كادت الأَرواحُ فيها تُخْتَلَسْ
قلتُ يا سُؤْلى ويا بَدْرَ الدُّجَى فى ظلام الليل ما خفتَ العَسَسْ
قال : قد خفتُ ولكنَّ الهوى آخذٌ بالروح منى والنَّفَسْ
زارنى يَخْطِر فى مِشْيته حوله من نور خَدَّيْه قَبَسْ

والقطعة بديعة فى خواطرها وفى تصويرها للهيام بالمعشوق، وللمعشوق نفسه وجماله الساحر الوضىء، وأيضاً فى صياغتها وموسيقاها .وشعر عبد الله كله شعر وافر الموسيقى ، وهو شىء طبيعى لأنه كان يغنيه ويوقعه على آلات الطرب ، وكان الجوارى والمغنون من حوله يغنون فيه ، فكان يضعه فى نسق موسيقى ، تشترك فيه آذانه الداخلية : أذن الشاعر وأذن المغنى وأذن الموسيقىّ ، شركة تصفيه من كل الأدْران ، فإذا ألفاظ الشعر متلاحمة مع قوافيه تلاحماً إلى أبعد حدود الدقة ، فلا عوج ولا انحراف لا فى لفظ بل لا عوج ولا انحراف فى حرف ولا فى حركة ، إذ يعمّ الانسجام والإحكام . وهذا الأثر الموسيقى فى الألفاظ والحروف والحركات كان يرافقه أثر آخر فى الأوزان إذ نرى عبد الله يشغف بالأوزان المجزوءة والأخرى القصيرة حتى يوفر لأغانيه أو قل لبعضها كل ما يريد من خفة ورشاقة موسيقية .

٣

شعراء الزهد والتصوف

هذه الموجة من اللهو والمجون إنما كانت مقصورة على البيئات المترفة التى أفسدها الترف وعلى الحانات والأديرة ومن كان يختلف إليها من الناس والشعراء؛ ولم يكونوا يؤلفون إلا شطراً ضئيلا من الجمهور. أما شطور الجمهور الأخرى فلم تكن تعرف الترف ولا كانت تنغمس فى الخمر والإثم، إنما كانت تعرف شظف العيش وتعرف تقوى الله وتجد فيها ما يعينها على احتمال أعباء الحياة، مما جعلها تنصرف إلى سماع الوعاظ فى المساجد ببغداد وغير بغداد وسماع أهل الحديث والفقه والتفسير. وكانت دائماً تدوّى فى آذانهم كلمات الوعاظ والنسّاك وما يدعون إليه من رفض الدنيا ومتاعها الآثم والتفكير فى مصير الإنسان وما ينتظره من ثواب وعقاب فى الآخرة. وكان هؤلاء النساك والوعاظ كثيرين كثرة مفرطة، وكان لكثير منهم حلقات فى المساجد يستدير الناس من حولهم فيها لسماع ما يتحدثون به عن الوعد والوعيد وعذاب النار ونعيم الجنان والمحشر وما يكون فيه من أهوال. وفى كل مكان نجد بينهم قُصّاصاً يقصُّون على الناس من سير الأنبياء والأمم الدائرة ما يدفعهم دفعاً إلى العمل الصالح. وتقرأ ترجمات هؤلاء القصاص والوعاظ فتحس فيهم إيماناً صادقاً وورعاً مخلصاً، وكانوا كلما عرض خليفة أو وال على شخص منهم عملا أو منصباً رفضه فى إصرار، مؤثراً حياته الخشنة على اللباس الليّن والطعام الطيب والماء البارد، حياة كلها خشوع وزهد واحتقار لمتاع الدنيا فى جانب ما أمّل من متاع الآخرة. وظل نفر منهم يرافق الجيوش فى الثغور واعظاً وقاصّاً ومذكراً بما أعدّ الله للمجاهدين والمستشهدين من ثواب عظيم، على نحو ما هو معروف عن أبى العباس الطبرى المتوفى سنة ٣٣٥، وكان من أخشع الناس قلباً إذا قصّ، ويُروى عن موته أنه قص على الناس بطرسوس (من ثغور الشام) فأدركته روعة مما كان يصف من جلال الله وعظمته وملكوته فخرّ مغشيّاً عليه من الموت[١].

(١) طبقات الشافعية للسبكى ٣/٥٩.

ولا نبالغ إذا قلنا إن القصاص والوعاظ جميعًا كانوا من هذا الطراز ، وكانوا لذلك قريبين من قلوب العامة ، وقد استطاعوا أن ينشروا موجة حادة من الزهد ، لافى الطبقة العامة وحدها ، بل أيضًا فى الطبقات الأرستقراطية ، على الأقل من حين إلى حين ، كأن نرى واعظًا يقف بين يدى هذا الخليفة أو ذاك محذراً من الظلم وعواقبه وداعيًا إلى الإقبال على ما عند الله ونَبْذ متاع الحياة الزائل ، أو مخوفًا منذراً بالموت وما بعده من العذاب الأليم والنعيم المقيم . وطبيعى — والزهد قوت العامة فى حين كان المجون قوت الخاصة — أن يتعلق بالنظم فيه أكثر الشعراء ، حتّى شعراء المجون أنفسهم نرى لهم شعراً زاهداً كثيراً على نحو ما هو معروف عن أبى نواس فى العصر الماضى فقد كان الشعرَ الذى تتطلبه العامة والذى تجد فيه غذاء مشاعرها وعواطفها ، مما جعل الشعراء ينظمون فيه قصائد ومقطوعات كثيرة . وكان الخلفاء إذا سمعوا منه شيئًا غلبهم التأثر حتّى لو كانوا فى مجلس شراب على نحو ما يُرْوَى عن المتوكل فإن الحِمَّانى نقيب العلويين فى الكوفة الذى ترجمنا له فى الفصل الماضى دخل عليه وهو فى مجلس شراب ، فأنشده[1] :

باتوا على قُلَلِ الأَجْبال تحرسهم غُلْبُ الرِّجال فما أَغْنَتْهُمُ القُلَلُ
واستُنزِلوا بعد عِزٍّ من معاقلهم فأُودِعُوا حُفَرًا يابئسَ مانزلوا
ناداهمُ صارخٌ من بعد ما قُبِروا أين الأَسِرَّة والتِّيجان والحُلَلُ
وأفصح القَبْرُ عنهم حين ساءلهم تلك الوجوه عليها الدودُ يَقْتتل
قد طالما عَمروا دورًا لتُحصنهم ففارقوا الدور والأَهلين وانتقلوا

ومضى فى موعظته وبكى المتوكل بكاء طويلا حتّى بَلَّتْ دموعه لحيته وبكى مَنْ حضره ، وأمر برفع الشراب ، وكأنما ثاب إلى رشده . وممن كان يكثر فى العصر من الوعظ فى شعره العتاهية وأشعار أبيه الزاهدة مشهورة . ويقول ابن المعتز عن الأب إنه كان ناسك الظاهر وكان خبيث الدين يذهب مذهب الثَّنْوِيَّة ، أما الابن فكان صحيح الدين ورعًا وولى القضاء برهة ، ويُرْوَى له موعظة حائية يستهلها بقوله[2] :

---

(١) مروج الذهب ٤ / ١١ . (٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٦٤ .

أراعك شَيْبٌ فى السوادِ يلوحُ   يبثّ بأسباب البِلا وينوحُ

والموعظة تدور على أن الشيب ناقوس الموت . وقد بدأ يدق بقوة ، فعما قليل ستزهق الروح . ويذكر المرزبانى شاعراً معاصراً للمعتز من المعتزلة ، ويقول إن له أشعاراً يحض فيها على القول بالعدل والتوحيد المبدأين المعروفين فى الاعتزال ، ثم يذكر له أشعاراً(١) كلها مواعظ ودعوة إلى التقوى ، وتخويف من الموت وما بعده . وقد قلنا آنفاً إن شعراء اللهو ومن وراءهم من شعراء الخمر كثيراً ما نظموا فى الزهد ، ولا يكاد شاعر ممن ترجمنا لهم يخلو ديوانه أو تخلو أشعاره من بعض أبيات زاهدة ، وفى ديوان ابن المعتز والصنوبرى وابن الرومى زهد كثير ، ولعل أحداً لم يرسم صورة الزاهد فى هذا العصر كما رسمها ابن الرومى فى قصيدة بديعة من قصائده ، نكتفى منها بالأبيات التالية(٢) :

بات يَدْعو الواحد الصمدا   فى ظلام اللَّيْل منفـــردا

فى حَشَـــاه من مَخافتِهِ   حُرُقاتٌ تَلْذع الكبِدا

كلمـــا مَرَّ الوعيد بهِ   سَحَّ دَمْعُ العَيْن فاطَّردا

قائلٌ : يا منتهى أمـــلى   نَجِّنى مما أخاف غَدا

وخطيئاتى التى سَلَفَتْ   لستُ أُحصى بعضها عددا

وَيْحَ عينى ساء ما نظرتْ   وَيْحَ قلبى ساء ما اعتقدا

وهذه الموجة الحادة من الزهد أخذت تلتقى بها منذ أواخر القرن الثانى الهجرى موجة صوفية ، تعد وليدة الموجة السابقة ، ومرَّ بنا فى الفصل الثانى حديث مفصل عن نشأتها وتطورها ومقوماتها وكيف أنها قامت على فكرة المحبة الإلهية وما يتصل بهذه الفكرة من إنكار الذات ومن التوكل على الله توكلا خالصاً . ونمضى فى العصر ويلقانا ذو النون المصرى الذى يُعَدّ الأب الحقيقى للتصوف ، وهو أول من تكلم عن المعرفة الصوفية فارقاً بينها وبين المعرفة العلمية والفلسفية التى تقوم على

(١) معجم الشعراء ص ٤٠٨ ص ٧٦ وانظر ٤٩ .

(٢) ديوان ابن الرومى (نشر كامل كيلانى)

الفكر والمنطق ، على حين تقوم المعرفة الصوفية على القلب والكشف والمشاهدة ، فهى معرفة باطنة تقوم على الإدراك الحدْسى ، ولها أحوال ومقامات ، ومن قوله يخاطب ربه[١] :

أموتُ وما ماتتْ إليك صَبابتى ولا قُضِيَتْ من صِدْق حُبِّك أوْطارى
تحمَّل قلبى فيك ما لا أبثُّه وإن طال سقمى فيك أوطال إضرارى

ويخلفه أبو يزيد البسطامى فيذيع فكرة الفناء فى الذات الإلهية ، كما مر بنا فى غير هذا الموضع ، ويقصد بها تجرد النفس عن رغباتها وقمْعها لشهواتها وانمحاء إرادتها فى الإرادة الإلهية . ونمضى حتّى نلتقى بالجنيد رأس الطبقة الثانية من المتصوفة ونراه يعبِّر عن فنائه فى الذات الربانية بمثل قوله[٢] :

أفْنَيْتَنِى عن جَمِيعى فكيف أرْعَى المحلاَّ

وهو الذى عمل على ترسيخ نظام الطرق والمريدين فى التصوف ، وكان يكثر من العبارات والشطحات الموهمة فى مواعظه . وكان يعاصره أبو الحسن النورى ، وكان شاعراً ، ويكثر فى أشعاره من التعبير عن الحب الإلهى وفكرة الفناء فى الذات العلية بمثل قوله[٣] :

تـأمَّلْ بعين الحق إن كنت ناظرًا إلى صِفَةٍ فيها بدائعُ فاطرِ
ولا تُعْطِ حظًّ النفس منها لما بها وكُنْ ناظرًا بالحق قدرةَ قادر

ويلقانا أبو الحسين سَحْنون الخَوَّاص ، وله شعر كثير فى المحبة الربانية وما يصحبها من وجد لا يماثله وجد وشوق لا يماثله شوق ، وكذلك فى فكرة الفناء المطلق فى الله بحيث لا يصبح فى المتصوف أى فضل لإحساس أى شىء من حوله ، فقد فنيت فيه جميع الصفات والرغبات ولم تبق إلا رغبة واحدة هى رغبة الانمحاء فى الذات الربانية التى تملك عليه كل شىء من أمره ، يقول[٤] :

---

(١) طبقات الصوفية للسلمى ص ٢٧ .
(٢) السلمى ص ١٥٦
(٣) السلمى ص ١٥٥
(٤) السلمى ص ١٨٩

وكان فؤادى خالياً قبل حبِّكم | وكان بذكر الخلقِ يلهو ويمزحُ
فلما دعا قلبى هــواك أجابه | فلست أراه عن فِنائك يبرح
رُميتُ ببينٍ منك إن كنتُ كاذباً | وإن كنتُ فى الدنيا بغيرك أفرح
وإنْ كل شىء فى البلاد بأسْرها | إذا غبتَ عن عَيْنى بعينىَ يَمْلُحُ

ومن تلامذة الجنيد المهمين أبو على الرُّوذْبارى ، وكان يقول : المريد الذى لا يريد لنفسه إلا ما أراد الله له ، يريد أنه هو الذى تفنى إرادته فى الإرادة الإلهية ، بحيث لا يحس المريد أو المتصوف شيئاً فى الكون سوى الله ، وكان شاعراً ومن شعره فى فكرة الفناء وغياب روحه عن حِسٍّ أى شىء من أشياء الكون[1] :

روحى إليك بكلِّها قد أجمعتْ | لو أنَّ فيها هُلْكها ما أقلعتْ
تبكى عليك بكلِّها عن كلِّها | حتى يُقال من البكاء تقطَّعتْ

والبيتان يحملان فكرة الفناء وفكرة المحبة التى تخلِّص النفس لربها . والفكرتان تتداخلان فى التصوف . فالمحبة التى تنكر الذات تنتهى إلى فكرة الفناء والغياب عن كل حسٍّ وكل خاطرة إلا الذوبان فى الذات العلية . ونعرض لاثنين من كبار المتصوفة بشىء من التفصيل وهما الحلاَّج والشِّبْلى .

الحلاج [2]

أشهر تلاميذ الجنيد هو الحسين بن منصور المعروف باسم الحلاَّج ويقال إن أباه هو الذى كان حلاَّجاً يحلج الصوف أو القطن أما جدُّه فكان مجوسياً أسلم ودخل فى الدين الحنيف ، وقد نشأ فى مدينة تُسْتَر ، فلزم سهلا التسترى

---

(١) السلمى ص ٣٦٧

(٢) راجع فى ترجمة الحلاج وأخباره وأشعاره السلمى ٣٠٨ وتاريخ مسكويه ١ / ٧٦ والفهرست ص ٢٨٣ والفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٩٢ وتاريخ بغداد ٨/ ١١٢ والطبرى ١٠/ ١٤٧ وابن الأثير وتكملة تاريخ الطبرى ص ٢٣ وابن خلكان والنجوم الزاهرة ٣/٢٠٢ وشذرات الذهب ٢/ ٢٥٣ وكتاب أخبار الحلاج (طبع باريس) وكتاب فى التصوف الإسلامى لنيكلسون (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) وكتابه الطواسين نشر ماسينيون بباريس وكتاب ماسينيون عنه .

الصوفى ، الذى أضاف إلى التوبة عند المتصوفة عنصر الندم ، والذى أخذ عن الشيعة فكرة عمود النور محل نفوس المؤمنين . وكأن الله يتجلّى فيهم منذ البدء. وقدم بغداد بعد أن أصبح مزوّداً بكثير من المعارف وصحب الجنيد وأخذ عنه شطحاته وعباراته الطنانة الموهمة ، وبالغ فيها وأسرف إسرافاً شديداً ، ووقع فى نفسه أنه أعلى من الجنيد فى عالم التصوف وأرفع ، وأنه رقى مرتبة الكمال التى طالما حلم الجنيد ببلوغها دون أن يدركها . وفارقة متجهاً إلى أداء فريضة الحج وأقام بمكة سنة ، ثم أخذ يطوف فى البلدان وتعرّف فى طوافه على أبى بكر الرازى أشهر أطباء العصر وتخرج عليه فى الفلسفة اليونانية وعلم الكيمياء ، وتعمق فى طوافه ورحلاته حتى بلغ الهند ، وتعرف فيها على ما يشيع بها من السحر والشعبذة والنيرنجيات . وفى عودته التحق بالقرامطة وتمثّل عنهم عقيدتهم . وأدى فريضة الحج للمرة الثانية ، وعاد إلى بغداد سنة ٢٩٥ للهجرة وأخذ ينشر بها آراءه فى أن الزاهد إذا تحمل المشاق والآلام وظل يصفّى نفسه بالمجاهدات والرياضات المضنية انتهى إلى الدرجة الرفيعة التى يبتغيها إذ يتمثّل فى نفسه حقيقة الصورة الإلهية التى سوّاها الله فيه ، وبذلك يصبح هو والحق بمنزلة سواء . وجاداه أستاذه الجنيد فى هذه الفكرة طويلا ، غير أن كثيرين من المريدين اجتمعوا حوله ، وأخذ يكثر من الشطحات ومن الكلام الموهم للكفر والخروج حتى على متصوفة عصره من مثل «أنا الله» ، ويقال إن الشبلى قال له : بل أنت بالله ، ومثل «أنا الحق» ، ويقال إن الجنيد قال له : بل أنت بالحق. ويبدو أنه كان يضيف إلى ذلك بعض الشعبذات والمخلوطات الكيمائية التى تعلمها على الرازى والنيرنجيات التى تعلمها فى الهند ، وأحاطت به ريب المعتزلة واتهموه بالزندقة ، وأثار الفقهاء عليه رجال الدولة ، فسيق إلى السجن لسنة ٣٠١ وظل فيه ثمانى سنوات ، كان يُسْمَح له فيها بأن يزوره مريدوه وأن يتراسل مع من يشاء . وحاولت «شغب» أم الخليفة المقتدر وحاجبه نصر أن يخلصاه من السجن ، فدعا الوزير حينئذ حامد بن العباس قضاة المذاهب الأربعة لمحاكمته ، وانعقدت جلسات المحاكمة ، وتقدم الشهود ، وشهدوا بأنه ادعى الربوبية والنبوة ، ولكنه أنكر ذلك ، وثبت عليه أنه يقول بأن الحج ليس من الفرائض الواجب أداؤها شرعاً . ولعل هذه التهمة هى التى دفعت الفقهاء إلى الفتوى بصلبه ، فقد أنكر ركناً أساسياً من أركان الدين . ويبدو أنه لم يكن يُحيل المتصوف الذى بلغ مثل منزلته بالمجاهدات

الشاقة من فريضة الحج وحدها ، بل كان يحلّه من جميع الفرائض رافعًا عنه التكليف إذ أصبح مساويًا للحق. ومن الممكن أن يكون دعا سرًّا للقرامطة وأن تكون هذه الدعوة من الأسباب فى سجنه وصلبه. وقد نُفِّذ الحكم عليه فى الثانى عشر من ذى القعدة لسنة ٣٠٩ فضُرب ألف سوط ثم قُطعت يداه ورجلاه ، وحُزَّ رأسه ونُصب يومين على الجسر ، ثم حُمل إلى خراسان فطيف به هناك ، أما جثته فأُحرقت وأُلقى برمادها فى دجلة . وهرب مريدوه إلى خراسان وأخذوا يُحيُون بها ذكراه ، وظلت خالدة على مَرِّ الأجيال بين متصوفة العرب والفرس والترك .

وكان أهم ما جعل بعض العلماء والناس فى عصره حتى اليوم يذهبون إلى زندقته نظريته فى الخالق وخَلْقه فقد كان يظهر أنه يؤمن فى الخالق بتنزيهه كما يبدو ذلك فى كلمات كثيرة له مثل : «إن الله تعالى لا تحيط به القلوب ولا تدركه الأبصار ولا تمسكه الأماكن ولا تحويه الجهات ولا يتصوَّر فى الأوهام ولا يتخايل للفكر ولا يدخل تحت كيف ولا يُنْعت بالشرح والوصف » وهذا تنزيه مطلق عن التشبيه بالمخلوقات ولكنه كان يعود فيقول إن الإنسان إذا أقبل على تحمل المشاق والآلام انطبعت فى نفسه الصورة الإلهية ، فالله يُرَى فيه ، مع إيمانه بأنه غير مخلوقاته وأنه فوق كل شىء ، وهذا هو معنى قوله : أنا الله وأنا الحق ، فهو صورة له ، وليس هو بعينه ، وكأنما الأثر القديم : «إن الله خلق آدم على صورته» ، هو الذى جعله ينطق بالكلمتين السابقتين ، وهو لا يريد ظاهرهما ، إنما يريد أن الله يتجلّى فيه ، كما يتجلّى فى خلقه ومن هنا أُثر عنه أنه كان يقول : ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله فيه . وهو لم يستمد النظرية من الأثر السابق وحده فقد استمدها أيضًا من نظرية الناسوت واللاهوت اللذين يؤلفان الطبيعة الثنائية للمسيح ، إذ آمن باتحاد الناسوت وهو الروح الإنسانى فى اللاهوت وهو الروح الإلهى ، وبذلك يظهر الله بصورته فى الإنسان ، ونراه يصرح بذلك إذ يقول فى الطَّواسين :

سُبْحانَ من أظهرَ ناسوتُه سِرَّ سَنَا لاهوتِه الثاقبِ
ثم بدا لخلقه ظاهـرًا فى صورة الآكل والشارب
حتى لقد عايَنه خَلْقُهُ كلَحْظـةِ الحاجب بالحاجبِ

وهو يشير فى البيت الأول إلى آدم وفى البيتين الثانى والثالث إلى ذريته ، فهم جميعًا ناسوت يُظْهر أسرار اللاهوت، ويصدق ذلك على الحلاج كما صدق عند المسيحين على عيسى ، ومن هنا قال عن نفسه كما قدمنا : أنا الحق أو أنا الله ، ومثَّل ذلك فى عبارات طنانة، وهو فيها تارة يشعر بالانفصال بين الطبيعتين وأنهما لا تمتزجان فى مثل قوله : « اللهم إنك المتجلى من كل جهة المتخلى من كل جهة ، بحق قيامك بحقى وبحق قيامى بحقك ، وقيامُك بحقى يخالف قيامى بحقك ، فإن قيامى بحقك ناسوتية وقيامك بحقى لاهوتية » . وتارة ثانية يشعر بأنهما ممتزجتان امتزاجًا تامًّا ، يقول مخاطبًا ربه :

مُزِجَتْ روحُك فى روحى كما　　تُمْزَجَ الخمرةُ بالماء الزُّلالْ
فإذا مسَّك شىء مَسَّنى　　فإذا أنت أنا فى كلِّ حال

وكأنه يشاهد الله فى ذاته ، أو كأنما حلّ اللاهوت فيه بالضبط كما آمن المسيحيون فى المسيح ، فالروح الإلهية أو اللاهوت يحلّ فيه حتى لتشعّ أنواره فى كل كيانه ، ويصور ذلك بمثل قوله :

حويتِ بكُلِّى كلَّ كلِّك ياقُدْسِى　　تكاشفنى حتى كأنك فى نفسى

وقوله :

أنت بين الشِّغاف والقلب تجرى　　مثل جَرْيِ الدموع من أجفانى
وتَحُلُّ الضميرَ جوفَ فؤادى　　كحلول الأَرواح فى الأَبدانِ

وهكذا تجرى على لسانه كلمة الحلول ، وكل ذلك يؤكد أنه تثقف بالثقافة المسيحية وعرف ما قيل فيها من طبيعة المسيح معرفة بيِّنة واستقر فى نفسه أن كل ما قيل عن اللاهوت والناسوت فيه يصدق على كل متصوف جاهَد جهاداً عنيفًا فى الاتصال بربه ومحبته محبة تملك عليه الشغاف من قلبه ، حتى ليحس فى قوة بالاتحاد معه ، مما جعله يقول :

أنا مَنْ أهوى ، ومَنْ أهوى أنا　　نحن روحان حَلَلْنَا بدَنَا
فإذا أَبْصَرْتَنى أَبْصَرْتَهُ　　وإذا أَبْصَرْتَهُ أَبْصَرْتَنَا

وقد رفع الرسولَ صلى الله عليه وسلم مراتبَ فوق جميع الخلق . ويبدو أنه أول من أعدّ لفكرة الحقيقة المحمدية ، وأن محمداً بتلك الحقيقة لا بصورته الجسدية يُعَدّ مبدأ العالم ، إذ هو النور الذى تَفجّرت من ينابيعه جميع أنوار النبوات ، بل هو مبدأ الوجود كله ونَبْعُه الفيّاض السابق لكل موجود ، أو بعبارة أخرى هو الحقيقة الإلهية السارية فى الوجود .

وتكثر عنده كلمات الوجد ولهيبه المشتعل فى القلب والسكر ونشوته التى تفقده وَعْيه والفناء الذى تفنى فيه جميع حواسه ، حتى ليرى كأن وجوده هو نفس وجود الذات العلية ، وفى ذلك يقول :

إذا بلغ الصَّبُّ الكمالَ من الهــوى وغاب عن المذكور فى سطوة الذكرِ
فشاهَدَ حَقًّا حين يشهده الهوى بأن صلاة العارفين من الكفر

فكمال الحب الصوفى عنده أن يجاهد المتصوف ويعانى ويلقى الأمرّين فى حبه بمداومة ذكر محبوبه وتسبيحه حتى ليغيب عند ذكره حين تأخذه نشوته به ، فيغيب عن ربه ويغيب عن الوجود كله . وحينئذ يصل المتصوف إلى حال تجعله يؤمن بأن صلاة أمثاله من الكفر ، وهو يريد أنه حين يصل إلى هذه الحال يرتفع عنه التكليف . وبذلك يتضح أنه هو الذى أعدّ للانفصام بين أهل الحقيقة من المتصوفة وأهل الشريعة من الفقهاء . وظل هذا الانفصام قائمًا بعده عند الغلاة من المتصوفة حتى رتق فتقه القشيرى والغزالى فى القرن الخامس الهجرى . ويُبْدِئ ويُعيد فى تصوير مجاهداته وما يحتمل فيها من أهوال طوال وآلام ثقال ، كقوله فى بعض مناجاته للذات العلية : « أنت تَعْلم ولا تُعْلَم ، وتَرَى ولا تُرَى . . . وأنا بما وجدت من روائح نسيم حبك وعواطر قربك أستحقر الراسيات ، وأستخفّ الأرضين والسموات ، وبحقك لو بِعتَ منى الجنَّة بلمحة من وقتى أو بطرفة من أحرّ أنفاسى لما اشتريتها ، ولو عرضتَ علىّ النارَ بما فيها من ألوان عذابك لاستهونتُها فى مقابلة ما أنا فيه من حال استتارك عنى » . ومن قوله فى وصف مجاهداته :

لقد ركبتُ على التغرير واعجَبا ممن يريد النَّجا فى المسلك الخَطِرِ
كأننى بين أمواجٍ تقلّبنى مقلَّبٌ بين إصعــادٍ ومنحدَر

الحزنُ في مهجتي والنارُ في كِبدي والدَّمْعُ يشهد لي فاستشهدوا بَصَرِي

ولعلنا لا نُبْعد إذا قلنا إنه هو الذي وضع في التصوف الإسلامي فكرة أن الأديان جميعًا تؤدّي إلى الله . وفقط تختلف شعائرها ، ولكنها تتحد في الغاية . وبذلك تخطّى حدود الإسلام إلى حدود الديانات جميعًا، مما جعله يقول :

ألا أَبلغْ أَحبَّائي بأَنّي ركبتُ البحر وانكسرَ السَّفينه
ففي دِين الصَّليبِ يكون موتي ولا البَطْحَا أُريد ولا المدينه

وهو لا يريد أن يقول إنه انسلخ عن الإسلام وأصبح لا يريد الموت في بطحاء مكة ولا في المدينة المقدسة . إنما يريد أن يقول إنه يرى الله في المسجد وفي الدَّير وفي كل معبد من معابد الديانات . فالديانات جميعًا عنده سواء . وفي الحق أن أشعاره وأقواله تحمل كثيراً من الإبهام والغموض حتّى لتصبح أحيانًا — كما في كتابه الطواسين — ألغازاً خالصة .

الشبلي[*](1)

كنيته أبو بكر . واسمه دُلَف بن جَحْدر . وقيل : جعفر بن يونس . وقيل جعفر بن دلف ، وقيل غير ذلك . وأصل أهله من أشْروسنة جنوبي طَشْقَنْد الحالية . فهو تركي العِرْق . رقي أبوه في قصر الخلافة حتّى أصبح حاجب الحجّاب ، وكان خاله يلي إمرة الإسكندرية بمصر . ويبدو أنه استعان به في عمله لعدة سنوات إذ يزعم بعض من تحدثوا عنه أنه كان مصريًّا وأنه ورد بغداد من مصر . وقد تركت مصر والإسكندرية فيه بعض طوابعهما . إذ نراه يعتنق مذهب

(١) انظر في الشبلي وحياته وأشعاره السلمي ص ٢٤٠ وتاريخ بغداد ١٤/ ٣٨٩ وابن خلكان ونشوار المحاضرة للتنوخي ١٧٢ والديباج المذهب لابن فرحون ص ١١٦ وصفة الصفوة ٢/ ١٦١ والأنساب للسمعاني الورقة ٣٢٩ وتذكرة الأولياء لفريد الدين العطار ٢/ ١٢٧ وحلية الأولياء لأبي نعيم ١٠/ ٣٦٧ وتلبيس إبليس لابن الجوزي ٣٤٧ وشذرات الذهب ٢/٣٣٨ وروضات الجنات ص ١٦٠ وديوانه (طبع المجمع العلمي العراقي) بتحقيق كامل مصطفى الشيبي وما ذكر فيه وفي تقديمه من مراجع

المالكية الذى كان يعتنقه أهل الإسكندرية ومحافظة البحيرة القريبة منها . وعاد إلى العراق ، فقرّبه منه الموفّق – ولى عهد المعتمد وصاحب الأمر من دونه فى خلافته – واتخذه حاجبًا له ، ثم ولاّه دُنْباوند بالقرب من الرّىّ ويَحدُثُ منه ما يجعل أمير الرى التابع له يصرفه عن عمله . وكان ذلك نعمة كبرى عليه ، فإنه انصرف إلى مجالس المتصوفة وخاصة مجلس خير النسّاج تلميذ السَّرِىّ السقطى ، وأبى حمزة البغدادى وعلى يديه تاب وأناب . ولم يلبث أن لحق بالجُنَيْد أستاذ الصوفية ببغداد حينئذ ، ويقال إنه عاد إلى ولايته يستسمح الناس ويطلب منهم العفو إن كان قد أساء إلى أحد منهم وفرّق أمواله فى الفقراء ، ورجع إلى الجنيد فأخذه برياضات ومجاهدات عنيفة ، ويذكرون أنه قال له فى أول سلوكه الطريق : « لقد حدثونى أن عندك جوهرة العلم الربّانى . فإما أن تمنحنيها ، وإما أن تبيعنيها ؟ فقال له الجنيد : لا أستطيع أن أبيعكها فما عندك ثمنها ، وإن منحتها لك أخذتها رخيصة فلا تعرف قدرها ، ألْقِ بنفسك غير هَيّاب فى عُبابِ هذا المحيط مثلما فعلتُ ، فعلّك – إن صبرت – أن تظفر بها » . ومضى الشبلى يجاهد ويَضْنَى فى جهاده ويَشْقَى طوال حياة شيخه الجنيد حتى إذا توفى سنة ٢٩٧ صحب الحلاج ، وكان يزوره فى سجنه ، ولكنه لم يعتنق مذهبه الذى صوّرناه آنفًا وما اتصل به من أفكار اللاهوت والناسوت والحلول والاتحاد ورفع التكاليف الشرعية ، فقد كان يصل بقوة بين الحقيقة أو الحقائق الصوفية والشريعة متابعًا أستاذه الجنيد فى اتباع الكتاب والسنة ، بل فى التفقه ورواية الحديث النبوى ، وبذلك لم يترك الحلاج فيه أى أثر . ويزعم بعض من تحدثوا عنه من القدماء أنه كان شيعيًّا ، وقد عرفنا آنفًا أنه كان مالكى المذهب ، وهو لذلك يُسْلَك مع أهل السنة . ويقال إنه لما قُتل الحلاج خشى على نفسه لتردده عليه ، فتظاهر بالخبل لئلا يُمْتَحن ، وأُدْخل المارستان ، ثم خرج منه ، وتفرّغ للوعظ ، فكان ينعقد له مجلس أيام الجمع ، يحضره الناس على تفاوت طبقاتهم ، وكان يحضره على بن عيسى وزير المقتدر ، وذاع صيته ، فكان يقصده الطلاب والمتصوفة من كل فَجّ . وما زال يحتلّ ببغداد هذه المكانة العليّة حتى توفى سنة ٣٣٤ للهجرة عن سبعة وثمانين عامًا .

وكان الشبلي في تصوفه دائمًا سُنيًا ، فلم يكن يزعم لنفسه حال غيبة ولا ابتعد عن ظاهر الشريعة ، ويقال إنه سُئل مَنْ أسعدُ أصحابك بصحبتك؟ فقال : أعظمُهم لحرمات الله وألهجهم بذكر الله وأقومهم بحق الله وأسرعهم مبادرةً في مرضاة الله وأعرفهم بقضائه وأكثرهم تعظيمًا لما عظّم من حرمة عباده . وكان يقول إن الله موجود عند الناظرين في صُنْعه مفقود عند الناظرين في ذاته ، وسأله سائل : هل يتحقق العارف بما يبدو له ؟ فقال : كيف يتحقق بما لا يثبت ؟ وكيف يطمئن إلى ما لا يظهر ؟ وكيف يأنس بما يخفى ؟ ولم يلبث أن قال :

فمَنْ كان في طول الهوَى ذاقَ سَلْوَةً ... فإنيَ من لَيْلَى لها غَيْرُ ذائقِ
وأكثَرُ شيءٍ نلتُه مِنْ نَوَالها ... أمانيُّ لم تَصْدُقْ كلَمْحَةِ بارقِ

فهو لم يكن يقول حتى بالشهود فضلا عن الحلول والاتحاد . وكان ينكر كل ما قيل ، أو بعبارة أدق كل ما قاله الحلاج عن تجلي الله في عبيده ومخلوقاته ، فالله واجب الوجود وخالق العالم شيء والعالم بكل ما فيه من مخلوقات شيء آخر ، وهو يخاطَبُ ولكن لا يُرَى ولا يشاهد ، يقول :

وخاطبتُ موجودًا بغير تكلُّمٍ ... ولاحظتُ معلوماً بغير عِيانِ

وكان يقول : « تعززت به وما افترقنا وكيف نفترق ولم يتجشر علينا حال الجمع أبداً » . وكان يتحدث كثيراً عن الأحوال والمقامات ، ويُبْدِئ ويعيد في الحديث عن حبه ، ومن قوله : « أدْخِلْتُ المارستان كذا وكذا مرة ، وأسْقِيت الدواء كذا وكذا مرة ، فلم أزدد إلا جُنونًا » ، وكثيراً ما كان ينشد قوله :

جرى حبّك في قلبي ... كجَرْى الماء في العودِ

وقوله :

هذه دارهم وأنت محبٌّ ... ما بقاءُ الدموعِ في الآماقِ

ويطيلُ الحديث عن عذابه في حبه وما يتحمل فيه من أهوال وما يسكب من دموع غزار ، حتى في العيد ، فالناس فيه يفرحون ويُعِدّون الراح والريحان وآلات الطرب ، أما هو فيُفْضي إلى حزن شديد ونوح وتعديد ، حتى لكأنما يحمل تحت

ثيابه قبراً ، فهو دائم البكاء دائم النواح ، يقول :

قبورٌ الوَرَى تحت الترابِ وللهوى رجالٌ لهم تحت الثيابِ قبورُ
وعندى دموعٌ لو بكيتُ ببعضها لفاضتْ بحورٌ بعدهن بحورُ

وكان يؤمن بالفناء فى الذات الإلهية مثل أستاذه الجنيد ، ولكن لم يكن يَفْنَى فيه عن نفسه الواعية، فتصوفه دائمًا تصوف صَحْو لا تصوف غَيْب ، وإن بدا فى كلامه أحيانًا أن فناءه إنما يكون فى حال غيبة من مثل قوله وقد سُئل : متى يكون العارف بمشهد الحق ؟ فأجاب : إذا بدا الشاهد وفنيت الشواهد وذهبت الحواس واضمحلَّ الإحساس » ، وذُكر عنه أنه كان يقول : « هذا مجنون بنى عامر كان إذا سُئل عن ليلى يقول : أنا ليلى ، فكان يغيب بليلى عن ليلى حتى يبقى بمشهد ليلى ويغيِّبه عن كل معنى سوى ليلى ، ويشهد الأشياء كلها بليلى » . ولكن ينبغى ألا نظن من مثل هذا القول أنه كان يؤمن بانمحاء التفرقة بين الشاهد والمشهود مثل الحلاَّج ، إنما يريد الإحساس بالفناء فى الذات العلية ، ومن طريف ماله من ذلك قوله :

تَسَرْمَدَ وقتى فيك فهو مُسَرْمَدٌ وأفْنَيْتَنى عنى فعُدْتُ مُحَدَّدًا
وكُلِّى بكلٍّ الكلِّ وَصْلٌ محقَّقٌ حقائقُ حَقٍّ فى دوامٍ تخلَّدَا

وقوله :

تَغَنَّى العــودُ فاشْتَقْنَا إلى الأَحباب إذ غَنَّى
وكُنَّا حيثُما كانُوا وكانوا حيثُما كُنَّـــا

وكان ينكر كل ما تورط فيه الحلاج من شعوذات ونيرنجيات مما رواه عنه بعض مريديه، وتتردد على لسانه كثيراً كلمة السكر ، وسأله سائل : هل شاهد اللهَ أحدٌ بحقيقته ؟ فقال : الحقيقة بعيدة ، ولكن ظنون وأمانىّ وحُسْبان .

---

(١) السرمد : الدائم ، وتسرمد : خلد

٤

شعراء الطرد والصيد

مرّ بنا فى كتاب العصر العباسى الأول أن الخلفاء والوزراء وعلية القوم شُغفوا بالصيد والطَّرَد حينذاك وأن الشعراء وفى مقدمتهم أبو نواس نظموا طَرَدِيَّات كثيرة، اختاروا لها وزن الرجز، ولأبى نواس نحو خمسين طَرَدِيَّة أحسن فيها غاية الإحسان. واستمر الخلفاء وأبناؤهم وكثير من الناس فى هذا العصر يُولَعُون بالصيد، وممن كان يولع به من الخلفاء وَلَعًا شديداً المتوكل، إذ كان يُولَعُ بالفهود والصيد بها كما كان يولع بالشباك. ولعل خليفة فى العصر لم يُشْغَف بالصيد كما شُغف المعتضد ومرّ بنا فى الفصل الثانى أنه كان يخرج لصيد الأسود، ويقال إنه كان يتقدَّم لها وحده، وفى ذلك يقول له بعض معاصريه[1]:

يا صائد الأُسْد إن صَيْدَكها لجامعٌ خَلَّتين من رَشَدِ
فَلذَّة تُجْتَنَى ومنفعـةٌ للسالكين السَّبِيلَ والقَعَد[2]

ويذكر الصابى أنه كان يُنْفق يوميًّا سبعين ديناراً لأصحاب الصيد من البازياريين والفهَّادين والكلاَّبين[3]. وورث ابنه المكتفى عنه هذه الهواية، فكان يولع بالفهود والعقبان والصيد بهما. وكان المعتز مثلهما يخرج للصيد فى مواكب حافلة. وانتشر ذلك بين ذوى الوجاهة انتشاراً واسعًا. مما أهَّل لازدهار شعر الطرد فى العصر، حتى كاد لا يكون هناك شاعر نابه لا ينظم فيه طَرَدِيَّة بل طرديات، وقد مضوا ينظمونها فى بحور وأوزان مختلفة غير مكتفين بالرجز، إذا نحن استثنينا ابن المعتز، وكأنه رأى أن يظل متمسكًا بوزنها القديم، أما معاصروه فرأوا الاتساع بها، بحيث تُنْظَمُ فى أى وزن حسب مشيئاتهم الفنية، ولم يتركوا ضاريًا من ضوارى الصيد إلا وصفوه ولا جارحًا من جوارحه إلا نعتوه، نعتوا الكلاب

(١) المصايد والمطارد لكشاجم ص ١٧٢.
(٢) القعد: جمع قاعد.
(٣) كتاب الوزراء ص ١١ وما بعدها.

والفهود والبُزاة والشواهين والصُّقور والعقْبان ، ونعتوا الصيد من حُمر الوحش وأتُنه وثيرانه وبقره وظبائه ونَعامه وكذلك من الأرانب والثعالب والذئاب والآساد والطير والإوزّ ، وألموا بآلاته من النَّبْل والسهام والنشّاب والفِخاخ والشباك والحبال المسماة بالأوْهاق التى تُجْعَلُ فى أطرافها أنشوطة وتُرْمَى على الحيوان فتمسك بعنقه ، والجُلاهق وهو بندق مدوَّر من طين يُرْمَى به. وكان لهذا النشاط الواسع فى الصيد وما يتصل به من الشعر أثر فى أن أخذت تؤلَّف كتب مختلفة فى البَيْزرة وفى المصايد والمطارد ، تفصِّل القول فى الصيد وآلاته وضواريه وجوارحه . وقد نُظمت حينئذ طرديات كثيرة ، لا نستطيع أن نستقصيها ولا أن نستقصى شعراءها لكثرتهم المفرطة ، ونكتفى بالوقوف عند أعلامهم ، وأول من نقف عنده على بن الجهم ، وكان قد خرج يومًا مع طاهر بن عبد الله بن طاهر أمير خراسان إلى الصيد واتفق لهما فى مَرْج للزعفران كثيرٌ من الطير والوحش . فاصطادا منهما كثيراً بالبزاة والصقور والشواهين والكلاب . وفى ذلك يقول[1] :

وَطِئْنا رياضَ الزَّعْفَران وأمسكتْ ... علينا البُزَاةُ البِيضُ حُمْرَ الدَّرَارِجِ[2]

ولم تَحْمِها الأدْغالُ منا وإنَّما ... أَبَحْنَا حِمَاها بالكلاب النَّوابِج[3]

بمُسْتَرْوِحاتٍ سابحاتٍ بطونُها ... على الأرض أمثال السهام الزَّوالج[4]

ومستشرفاتٍ بالهوادى كأنها ... وما عَقَفَتْ منها رُءوس الصوالج[5]

ومن دالعاتٍ ألْسُنًا فكأنها ... لِحىً من رجالٍ خاضعين كَوَاسج[6]

فَلَيْنَا بها الغِيطانَ فَلْيًا كأنها ... أناملُ إحدى الغانيات الحوالج[7]

قَرَنَّا بُزَاةً بالصقور وحوَّمتْ ... شواهِينُنا من بعد صيد الزَّمامج[8]

وهو يصور الصقور والكلاب تصويرات بديعة . فمنقار الصقر كأنه صَوْلجان ،

---

(١) ديوان على بن الجهم ص ١٢٠ .

(٢) الدرارج : جمع دراج وهو طير ملون الريش .

(٣) النوابج : النوابح .

(٤) مستروحات : تشم آثار الصيد . سابحات : مسرعات. الزوالج : التى تنزلق بسرعة.

(٥) الهوادى : الأعناق . عقفت : تعوجت . الصوالج : جمع صولجان.

(٦) دالعات : مخرجات . الكواسج : جمع كوسج وهو من لحيته على ذقنه دون عارضيه .

(٧) فلينا : فحصنا . الحوالج : اللائى يخلصن البذور من القطن.

(٨) الزمامج : جمع زمج : طير جارح أصغر من العقاب

والكلاب حين تَدْلَعُ ألسنتها لاهثات كأنما ألسنتها لِحىً مرسلة على الذقون ، وقد فحصت المرج البُزاة والكلاب فحصاً دقيقاً حتى لكأنها أنامل دقيقة لسيدة تفلى القطن وتخلّص الحبَّ منه ، فلا تبقى حبة مختبئة ، بل كل الحب يُسْتَخْلَصُ ، تستخلصه أنامل مرهفة . ومرَّ بنا فى الفصل الرابع تصوير البحترى لصيد الأسد وكذلك تصويره لصيده الذئب وقد لقيه فى فلاة موحشة ، وهما لوحتان رائعتان . ولابن الرومى غير قصيدة فى الطَّرَدِ والصيد ، ونكتفى من طردياته بالقطعة التالية التى يصور فيها صَيْدَ صحابه للطير . وقد تقلّدوا أوعية حمراء من جلد أودعوها كثيراً من البُنْدق الذى يُرْمَى به . وأشرعوا أقواسهم مسدِّدين البندق منها للطير الهاجع وقت السحر ، يقول[1] :

وجَدَّتْ قِسِىُّ القَوْمِ فى الطير جِدَّها ... فظلَّتْ سجودًا للرُّماة ورُكَّعَا
طرائحَ من بِيضٍ وسُودٍ نَوَاصِعٍ ... تخال أديمَ الأرض منهن أبْقَعَا[2]
فكم ظاعنٍ منهن مُزْمعِ رِحْلَةٍ ... قَصَرْنا نَواه دونَ ما كان أزْمعا[3]
وكم قادمٍ منهنّ مُرْتادِ منزلٍ ... أناخَ به منا مُنِيخٌ فجَعْجَعَا[4]
هنالك تَغْدو الطيرُ ترتادُ مَصْرَعاً ... وحُسْبانُها المكذوبُ ترتاد مَرْتَعا
مباحٌ لراميها الرَّمايا كأنما ... دعاها له داعى المنايا فأسمعا
لها عَوْلَةٌ أَوْلَى بها ما تُصيبه ... وأجدرُ بالإعوال مَنْ كان موجَعاً
وما ذاك إلا زَجْرُها لبناتِها ... مخافةَ أن يذهبن فى الجوِّ ضُيَّعَا
وظلَّ صِحابى ناعمين ببؤسها ... وظلَّتْ على حَوْضِ المنيَّة شُرَّعا[5]

ويبثُّ ابن الرومى فى وصفه حيوية خافقة ، فالطير ما تنى ساقطة ساجدة راكعة ، منها ما هبط إلى الأرض جُثَّةً هامدة ، ومنها ما هو فى سبيله إلى الهبوط ، وهى مطروحة فى الأرض أبيضها وأسودها ، وكأنما أصبحت الأرض أديمًا مخطَّطًا ،

---

(١) الديوان ص ٣٠٠ .
(٢) الأبقع : ما به سواد وبياض .
(٣) يريد بالنوى وجهته فى الارتحال . مزمع : عازم .
(٤) الجعجعة : صوت البعير ورغاؤه عند إناخته .
(٥) شرعاً : واردة الماء .

وكم طائر كان يريد الارتحال فحالوا بينه وبين وجهته ، وكم طائر كان يريد المقام سقط دون أمنيته ، وهو يصرخ صراخ البعير عند إناخته ، لقد كان يريد المرتع الخصب فإذا هو يجد المصرع الذى لم يكن له على بال ، وكأنما دعاه ودعا رفاقه من الرمايا داعى الموت فأسمع وأصْمَى ، والطير تُعْوِل غير متنبهة للرمى والرماة ، خيفة على بناتها من أن تضل الطريق فى الجو ، على حين تترامى على حياض الموت ، بؤس ما بعده بؤس والصائدون ناعمون نعيماً ما بعده نعيم . وقد عرضنا فى غير هذا الموضع بعض طرديات لابن المعتز . ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنه أكبر شاعر نظم طرديات فى العصر . ويذكر مترجموه أنه صنَّف كتاباً فى جوارح الصيد وضواريه ، ولا يكاد ضار أو جارح يُفْلت منه فى شعره أو قل فى طردياته ، فمنها ما يصف فيه كلاب الصيد وفهوده ومنها ما يصف فيه بُزاته وصقوره ، ومنها ما يصف شباكه وبندقه ، ودائماً تجرى الكلاب وراء الظباء والأرانب حتّى تصيدها وقلما أفلتت منها . ومن قوله فى كلبة ماهرة فى الصيد[1] :

قد أغْتَدِى والليلُ كالغُرابِ ... دَاجِى القِناعِ حالكِ الخِضابِ
بكلبةٍ تاهتْ على الكــلابِ ... تفوت سبقاً لَحْظة المرتابِ
تنساب مثل الأرقم المنسابِ ... كأنما تنظر من شهاب
بمقلةٍ وَقْفٍ على الصوابِ

فهو يخرج بكلبته وقت السحر ، والليل لا يزال فى دُجاه وحلوكته ، تصحبه كلبة تيَّاهة على الكلاب بسرعتها حتّى لتسبق لحظة من وقعت فى نفسه الريبة ، فهو ينظر خِلْسَةً وفى سرعة يريد أن يتحقق من صحة رَيْبه . وهى تنساب زاحفة كأنها أفعى ، مسرعة لا تلوى ، ناظرة لا بعين المَّاحة ، وإنما بشهاب قبس ، مقلة لا تخطئْ الصيد ، بل دائماً تصيب وتصيد . ومن قوله فى وصف باز من بُزَاته[2] :

(١) الديوان وأشعار أولاد الخلفاء ص ٢٠٩ . والمصايد والمطارد الكشاجم ص ٦٧ .

(٢) أشعار أولاد الخلفاء للصولى ص ٢٠٩ .

ذو مقلةٍ تَهْتِك أستار الحُجُبْ كأنها فى الرأس مسمارُ ذَهَبْ
يعلو الشمالَ كالأمير المنتصِبْ أمكنه الجودُ فأعطى ووَهَبْ
ذو مِنْسَرٍ مثل السِّنان المُخْتَضِبْ وذَنَبٍ كالذيل ريَّان القَصَبْ(١)
كأن فوق ساقه إذا انتصَبْ من حُلل الكتَّان رَاناً ذا هُدُبْ(٢)

وتشبيه مقلة البازى الصفراء بمسمار الذهب تشبيه بديع ، ويقول إنه يقف رافع الرأس كالأمير يفرّق عطاياه ويهب ما يصيد . ثم يصف منسره بأنه كسنان الرمح المخضب بالدماء من كثرة ما يصيد ، ويقول إن ذنبه كالذيل الزاهى بريشه ، وكأن فوق ساقه ثوباً أبيض من الكتان تسترسل أهدابه . وله فى باز آخر(٣) :

فارسُ كفٍّ ماثلٌ كالإسْوَارْ ذو جُؤْجُؤٍ مثل الرخام المَرْمارْ(٤)
أو مصحفٍ مُنَمْنَمٍ ذى أسْطارْ ومقلةٍ صفراءَ مثل الدينارْ
ترفع جفناً مثل حرف الزُّنَّارْ ومخلبٍ كمثل عطف المسمارْ

وهو فارس كف لأنه يُحْمَلُ على الكف عادة . ويقول إن صدره مثل الرخام الناعم أو مثل المصحف المزخرف بالسطور ، أما مقلته فصفراء مثل الدينار ، وأما جفنه فكحرف الزنَّار الذى يضعه النصارى فى أوساطهم تمييزاً لهم ، وأما المخلب فكعطفة المسمار . وله يصف فهدة(٥) :

ولا صَيْدَ إلا بوثَّابةٍ تطيرُ على أربعٍ كالعَذَبْ(٦)
فإن أُطْلِقَتْ من قِلاداتها وطــار الغبارُ وجَدَّ الطَّلَبْ
فزوبعــةٌ من بنات الرياحِ تُريك على الأرض شيئاً عَجَبْ
تضمُّ الطَّريدَ إلى نَحْرها كضَمِّ المحبة من لا يحبُّ

فأرجلها كالخيوط من خفتها ، وحين تطلق من قلائدها ويجدُّ طلبها لطرائدها

(١) المنسر لسباع الطير بمنزلة المنقار لغيرها . الإسوار : الحاذق فى الرمى .
(٢) رانا : ثوباً .
(٣) الديوان وديوان المعانى ٢ / ١٤٠ .
(٤) الجؤجؤ : الصدر . المرمار : الناعم .
(٥) المصايد والمطارد ص ١٩٢ وأشعار أولاد الخلفاء ص ١٢١ .
(٦) العذب : خيوط ترفع بها الموازين.

ويعلوها الغبار لسرعة عَدْوها تصبح كأنها زوبعة أو عاصفة من بنات الرياح ، مما يملؤك عجبًا ، وإذا هى قد صادت الطريد وضمته إلى نَحْرها وصدرها لا ضمّ حنان ولكن ضم عُدْوان ، كضم المحبة من لا يحبها . وهو تصوير رائع . وللصنوبرى طرديات مختلفة ، منها قوله فى باز[1] :

ذو مِنْسَرٍ أَقْنَى ورُسْغٍ كَزّ ومِخْلَبٍ لم يَعْدُ إشْفَا[2] الخَرْزِ
مُسَرْبَلٌ مثل حَبِيك القَزّ أو مثل جَزْعِ اليمن الأَرُزِّى[3]
لما لَزَزْنا الطير بعد اللَّزّ بأسفل القاع وأعلى النَّشْز[4]
آبَ لنا بالقَبْجِ والإوَزّ من جَبَلٍ صَلْدٍ ومَرْجٍ نَزّ[5]

وهو يصور منسره ومخالبه الحادة التى ينْقَض بها على الطير انقضاضًا فلا تستطيع منه خلاصًا ، ويصور ثيابه من الريش كأنها الحرير أو كأنها الجزْع أو الحرز اليمانى الذى تغنّى به امرؤ القيس ، والطير مبثوثة فى القيعان وعلى المرتفعات وقد آب منها بكثير من الحجل والإوز . ومن قوله فى الطَّرَد ووصف كلابه وما صادت من الوحش[6] :

يا روضةً من حُلَلٍ ما خاطَها خَيَّاطُ
الوحشُ فى أرجائها قبائلٌ أخْلاطُ
غادَيْتُها ولم يُقِمْ أعلامها الغَطَاطُ[7]
بأكلبٍ لو لم تَطِرْ أطارَها النشاطُ
فجِئْنَ والطَّلُّ على آذانها أقْراط
انبسطتْ كالشُّهْبِ لا يُعْجِزها انبساط

---

(١) ديوان الصنوبرى ص ١٢٣ .
(٢) إشفا : مخرز .
(٣) حبيك : محبوك . القز : الحرير . والجزع اليمانى : خرز . أرزى : أبيض كالأرز .
(٤) النشز : المرتفعات .
(٥) القبج : الحجل . نز : به بعض المياه .
(٦) الديوان ص ٢٨٧ .
(٧) الغطاط : القطا .

وطفقتْ والوحشُ فى مجالهـا بسـاطُ
صَرْعَى تُشَقُّ قُمْصُها عنهـا ولا تُخَـاطُ

وهو يبدأ بالحديث عن الروضة مكان الصيد وما انتشر عليها من حُلَل الأزهار والأنوار ، ويذكر كثْرة الوحش بها وأنه باكرها قبل أن يستيقظ القَطَا وغيره من الطير مُرْسلا عليها كلابه المسرعة التى تكاد تطير طيرانًا ، غير آبهة ببرودة الطَّقْس وما قرَّط به آذانها من النَّدَى ، فقد زحفت وانتشرت كالشهاب الساطع ، تصرع كثيراً من الوحش وتشق عنه جلده وأديمه وتمزّقه تمزيقًا لا يمكن رتقه . وكما يعرض لصيد البَرِّ يعرض لصيد البحر بصنانيره الشبيهة بالأظفار وبالشبكة وعيونها الكثيرة ، وفى ذلك يقول[1] :

أفضَلُ ما أعددتهُ من العُدَدْ وما حَوَى صَحْبِى بهِ غِنَى الأَبَدْ
بناتُ قَيْنٍ حاز فى الحذق الأَمَـدْ على مقاديرِ مخاليبِ الصُّرَد[2]
لها رءوسٌ فى أعاليها أَوَدْ كمثل أنياب الأَفاعى وأَحَدّ[3]
عُجْنَا بها من حيث ما عاج أحد فى ظل صَفْصاف علينا قد بَرَدْ[4]
شاطئ نَهْرٍ لابسٍ دِرْعَ زَبَدْ ولم تزل تُرْسَلُ طورًا وتُمَدُّ
ثم بعثنا ألف عَيْنٍ فى جَسَدْ فجئننا بمثلهنَّ فى العَـدَدْ
ألفٍ من الحِيتان بيضٍ كالبَرَدْ

وواضح أنه صَوَّر الصنانير والصيد ثم الشبكة وماصوَّر أفاء الله عليهم من الحيتان الكثيرة . ولعل من الخير أن نكتفى بهذا العرض عند أعلام الشعراء ، وأن نتركهم إلى شاعر اشتهر بكثْرة طَرَديَّاته فى العصر هو أبو العباس الناشئ فقد كان مولعًا بالطَّرَد والصيد ، وله طرديات كثيرة .

---

(١) الديوان ص ٤٧٥ .
(٢) القين : الحداد صانعها . الصرد : طائر ضخم الرأس والمنقار وهو من الجوارح .
(٣) أود : عوج إذ تشبه حرف الراء .
(٤) عجنا : عرجنا وانعطفنا .

أبو العباس[1] الناشئ الأكبر

هو عبد الله بن محمد المعروف بابن شرشير ، من أهل الأنبار وفيها وُلد ونشأ ، ثم تركها إلى بغداد ، واستقر بها طويلا ، وفيها تلقّن علم الكلام كما تلقن كثيراً من العلوم ، وكان ذكيًّا ذكاء حادًّا ، وصرف ذكاءه فى مناهضة العباقرة من عالمه والعالم الخارجى ، إذ ألف كتابًا ينقض به منطق أرسطو وكتابًا ثانيًا ينقض به آراء الخليل ابن أحمد فى العروض ومثّل لقواعده بغير أمثلته . وحاول أن ينقض علل النحويين . ونظم قصيدة طويلة فى فنون العلوم والآداب بلغت أربعة آلاف بيت فى روىّ واحد وقافية واحدة لم تصلنا ، وربما كانت منها الأبيات التى أنشدها الحصرى له فى موضوعات الشعر وصفاته اللفظية والمعنوية . وكان شيعيًّا ، وربما شيعيته هى التى جعلته يترك بغداد عاصمة الدولة العباسية إلى مصر ويتوفّى بها سنة ٢٩٣ للهجرة .

وله كتاب فى تفضيل الشعر مما يدل على أنه لم يكن شاعراً ولا عالمًا فقط بل كان أيضًا ناقداً ، ولعل هذا الكتاب هو الذى جعل أبا حيان التوحيدى يعجب به وبنقده للشعر إذ يقول : « ما أصبت أحداً تكلم فى نقد الشعر وترصيفه أحسن مما تكلم به الناشئ المتكلم ، وإن كلامه ليزيد على كلام قُدامة وغيره ، وله مذهب حلو وشعر بديع واحتفال عجيب » ، وينقل أبو حيان فى تضاعيف كتابه بعض ما قرأه له ، فمن ذلك حديثه عن دواعى الشعر وبواعثه ، وهو يجرى على هذا النمط : « أول الشعر إنما يكون بكاءً على دِمَن ، أو تأسفًا على زمن ، أو نزوعًا لفراق ، أو تلوعًا لاشتياق ، أو تطلعا لتلاق ، أو إعذاراً إلى سفيه ، أو تغمداً لهفوة ، أو تنصلا من زلّة ، أو تحضيضا على أخذ بثأر ، أو تحريضًا على طلب أوتار ، أو تعديداً للمكارم ، أو تعظيمًا لشريف مقام ، أو عتابًا على طويّة أو متابًا من مقارفة ذنب ، أو تعهداً لمعاهد أحباب ، أو تحسراً على مشاهد أطراب ، أو

(١) انظر فى الناشئ وحياته وأشعاره طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤١٧ وتاريخ بغداد ١٠ / ٩٢ وابن خلكان والنجوم الزاهرة ٣/ ١٥٨ وشذرات الذهب ٢/ ٢١٤ والبصائر والذخائر لأبى حيان ٢/ ١١٧، ٢٦٠ ، ٢٧٣ ، ٦١٩ ومقالات الإسلاميين ص ١٨٤ ، ٥٠٠ وزهر الآداب ١ / ٣،١٧٧ / ٥٠ ، والمصايد والمطارد لكشاجم (انظر الفهرس) والعمدة لابن رشيق ١ / ٧ والديارات ص ٢٦ والفهرست ص ٢٥٥ وديوان المعانى ١ / ٢٥٤ و ٢ / ٢٢٨ .

ضربًا لأمثال سائرة ، أو قَرْعًا لقوارع زاجرة ، أو نظمًا لحكم بالغة ، أو تزهيداً فى حقير عاجل ، أو ترغيبًا فى جليل آجل ، أو حفظًا لقديم نَسب أو تدوينًا لبارع أدب » . والقطعة تلمُّ فى دقة بالبواعث النفسية لنظم الشعر ، فهو شاعر بصير بفنه وبصناعته وقد روى له الحصرى قطعة فى وصفه لشعره يقول فيها :

يتحيَّر الشعراءُ إن سمعوا به ... فى حُسْن صَنْعتِهِ وفى تأليفهِ
شَجَرٌ بدا للعين حُسْنُ نباته ... ونَأى عن الأيْدِى جَنَا مَقْطُوفه

ويذكر من ترجموا له أنه كان شاعراً بارعًا غزير الشعر ، وسلكه ابن خلكان فى طبقة ابن الرومى والبحترى ، ويبدو من بقايا أشعاره أنه نظم فى موضوعات شتى ، منها ما يتصل بعلم الكلام وافتخاره بالمتكلمين عامة لما ينيرون من المشكلات الصعبة ، يقول :

مطالعُ الحق ما من شُبْهةٍ غَسَقَتْ ... إلا ومنهم لديها كوكبٌ يَقِدُ(١)

ومنها ما يتصل بالطبيعة وبالغزل ومجالس الأنس ، وصبَّ أكثر عنايته على وصف الطرد والصيد وجوارحه وضواريه ومَصيداته وآلاته . ويكفى لبيان كثرة هذا الجانب عنده واستنفاده لأكثر شعره أن نجد « كشاجم » يجعل أشعاره ركنًا أساسيًّا صنع « كتابه المصايد والمطارد» فقد اعتمد فيه على طَرَدياته اعتماداً شديداً ، وأول ما نقف عنده فى هذا الكتاب طردية له فى صيد أحد الكلاب يستهلُّها على هذا النمط :

قد أَغْتدى والفَجْرُ فى حِجابهِ ... لم يَخْلُلِ العُقْدَةَ من نِقابهِ
بأَغْضَفٍ عَيْشُهُ من عذابهِ ... من صَوْلةٍ بظُفْرِه ونابه(٢)
يَرَاح أن يُدْعَى ليُغْتَدى بهِ ... روحةَ ذى النَّشْوة من شرابهِ(٣)
يَخُطُّ بالبُرْثن فى ترابه ... خطَّ يد الكاتب فى كتابهِ(٤)

والطريف فى هذا الاستهلال أنه جعل الكلب كادحًا لا يقيم أوده إلا بعرق جبينه وصولاته بظفره ونابه ، وأيضًا فإنه جعله يشعر بنشوة ما بعدها نشوة حين

---

(١) غسقت : دجت وأظلمت . يقد : يشتعل .
(٢) أغضف : مسترخى الأذن .
(٣) يراح : يجد خفة ونشاطا .
(٤) البرثن : المخلب

يندبه صاحبه للصيد ، وتستحيل الأرض كأنها مَشْق أو صحيفة وهو يخطّ فيها ببراثنه ، ويُتْبع كشاجم هذه الطَّرَدية بطردية أخرى تطّرد على هذا السياق :

يا ربَّ كلبٍ ربُّه في رزقِهِ ... يَرَى حقوقَ النفسِ دون حَقِّهِ

متّبعاً بِخُلْقه لِخَلْقِــهِ ... كأنّمـــا يملك عَقْدَ رِقِّه

يَصُونُه بجُلِّهِ ودِقِّــهِ ... كآملٍ من مالكٍ لعِتْقِهِ[1]

تراه في تَسْريحهِ ورَبْقِهِ ... كعاشقٍ أضناه طُولُ عشقِهِ[2]

أَصفرَ يُلْهِي العينَ حسنُ خَلْقِهِ ... كذهبٍ أبرزتَه من حُقِّهِ

ذو غُرَّةٍ فارقةٍ لفَـــرْقِهِ ... وذو حُجولٍ بُيِّنَتْ عن سَبْقِهِ[3]

وقد جعل الناشئ رَبَّ هذا الكلب وصاحبه يقدّمه على نفسه في غذائه ، ويأتسي به ، حتى لكأنما يشتق أخلاقه من أخلاق هذا الكلب أو قل السيد المطاع الذي يملك رقه . وإنه ليرعاه في كل كبيرة وصغيرة . وكأنه عبد يتقرب لمالكه بكل ما يصونه ويحفظه حتى يفك رقبته ويرد عليه حريته . ويعود إلى فكرة عشق الكلب للصيد ، فيجعله حين يكون في ربقته وحبله كعاشق طال عليه البَيْنُ والهجران ، حتى أصابه ضَنًى شديد ، ويتحدث عن حسنه وجمال صفرته الأخاذة وغُرَّته في جبهته وحجوله في سيقانه ، وبياضها يلمع في أثناء عدوه كأنه ضوء ساطع . وله في البازى طرديات مختلفة يصور فيها حسنه وما خلع عليه الخالق من ريشه وجماله ، وفيه يقول :

أَلبسه الخالقُ من ديباجِهِ ... ثوباً كفى الصانعَ من نِسَاجِه

حالٍ من السّاق إلى أوداجِهِ ... وَشْياً يحار الطَّرْف في اندراجه[4]

في نَسَقٍ منه وفي انعــراجِهِ ... وزانَ فَوْدَيْه إلى حِجَاجِه[5]

بزينةٍ كفتهُ عِـــزَّ تاجِهِ ... وظُفْرُهُ يخبر عن علاجِه

لو استضاء المرء في إدلاجه ... بعينه كفته عن سراجه

فالخالق جلّ شأنه كساه ثوبًا من الديباج يملأ النفس إعجابًا بوشيه وخطوطه

---

(١) الجل والدق : الكثير والقليل .

(٢) الربق : من الربقة وهي حبل يشد منه الكلب.

(٣) الحجول : بياض في سيقان الكلب .

(٤) الأوداج : عروق في العنق .

(٥) الحجاج : عظم الحاجب .

ونقوشه من ساقه إلى مفرقه وعلى رأسه ، وكأنما حَلاّه بتاج كتاج الملوك المتألق بحليه وزينته ، ويذكر مخالبه الحادة حدة الإبر ، وعينه المضيئة ضياء السراج فى الليالى الداجية . وينظم فى الصقر غير طردية ، وفى إحداها يقول :

سَباه مَنْ كان به خليقا ... فَرْخاً صغيرًا ما أقلَّ موقا

زيَّنه برأيه شفيقــا ... كما يصون العاشق المعشوقا

حتّى انتهى وحملَ الحقوقا ... ونفَع الصاحبَ والصديقا

وهو يصوّر تدريب صاحبه له ، وكيف أنه ربّاه صغيراً وما زال يرعاه محبًّا له حب العاشق لمعشوقه ، وما زال يثقفه ويدرّبه على الصيد ، حتى مهر فيه ، وحتى أصبح يتجلب من الإوزّ وغيره ما ينفع به أصدقاء صاحبه وأحبّاءه . ومن قوله فى وصف شاهين :

يَظَــلُّ من جناحه المَزِينِ ... فى قُرْطُقٍ من خَزِّه الثَّمينِ[1]

يشبه فى طرازه المصونِ ... بُرْد أنُو شِرْوانَ أو شِيرِينِ

ذو مِنْسَرٍ محدَّدٍ مَسْنُونِ ... وافٍ كشطر الحاجب المقرون

منعطفٍ مثل انعطاف النونِ

وهو يتحدث عن جمال هذا الشاهين وتلاوين ريشه التى تجعله يلبس قرطقًا أو قباء مفوفًا من الحرير كأنه ثوب أنوشروان أو ثوب شيرين زوج كسرى أبرويز ، وإن منسره أو مخلبه المنحنى كحرف الراء ليشبه شطر حاجب مقرون أو كأنه انعطاف حرف النون . وله طردية طريفة فى وصف صيد الطير بالجُلاهق أو البندق ، تحدّث فيها عن صيد الكراكى ، وهى طير طويل المنقار والرجلين ، مفرده كركيّ ، ويسمّى الغرنيق وجمعه غرانق ، ويطرّد وصفه عند الناشئ على هذا النمط :

وَوَرْدٍ يُجْذِلُ قلبَ الوامقِ ... منظَّم بالغُــرِّ والغَرانقِ[2]

(١) القرطق : قباء ذو طابق واحد . الخز : طير
(٢) يجذل : يسر . الوامق : مديم النظر . الغرانق : الكراكى .

وكلِّ طيرٍ صافرٍ أو ناعقِ　　مكتهلٍ وبالــغٍ ولاحقِ
مَوْشِيَّةِ الصدور والعواتقِ　　بكل وَشْيٍ فاخرٍ وفائقِ (١)
تختال فى أجنحةٍ خوافقِ　　كأنمــا تختال فى قَراطِقِ
يَرْفُلْنَ فى قُمْصٍ وفى يَلامقِ　　كأنهن زَهَرُ الحــدائقِ (٢)
حُمْرِ الحِداق كُحُلِ الحَمالقِ　　كأنما يَجُلْنَ فى مَخانقِ (٣)

وهو يصوِّر مورداً عذباً يسر قلب الناظر إليه رُصِّع بالطير والكراكى من صافرة وناعقة وكبيرة وصغيرة، إذ وُشِّيت فى صدورها وكواهلها بوشى بديع، وقد اكتست أجنحتها بقراطق وأقبية أنيقة، بل إنها لترفل فى كُسْوَة ذات تلاوين حتى لكأنها زهر حدائق تختلفُ الأصباغ والنقوش. وهى هناك بأحداقها الحمر وجفونها المكحولة، تطوّق أعناقها القلائدُ الباهرة. وفى كتاب المصايد والمطارد بجانب الطرديات السابقة طرديتان فى صيد الأسد، ونرى الناشئ يصوره فى إحداهما بهذه الصورة الفذة :

رُبَّ ذِى شِبْلَيْنِ قَسْوَرَةٍ　　قد أَحمَّ الحَيْنُ فى أَجَمِهْ (٤)
لا ترى حَيًّا يُطِيفُ به　　لا، ولا يَدْنو إلى حَــرَمِهْ
كَمِجَنٍّ الحرب هامَتُهُ　　وكَغَوْرِ الغارِ رَحْبُ فَمِهْ (٥)
وكأَن البرق ما قدحتْ　　عَيْنُــه باللَّحْظِ من ضَرَمِهْ
وكأَن الموتَ مُعْتَرِضٌ　　بين لَحْيَيْهِ ومُلْتَثَمِهْ

وهو يقول إن هذا الأسد القَسْوَرة هبط به القضاء فى عرينه، إذ حان حينه، بعد أن كان الناس لا يلمّون بحرمه مخافة بأسه وسطوته، لما ملأهم به من الرعب والفزع والهلع، ويقول إن هامته كانت مثل تُرْس حرب صلابة وقوة، وكان فمه كالغار

(١) العواتق : الكواهل .
(٢) اليلامق : جمع يلمق وهو نوع من القباء .
(٣) الحمالق : جمع حملاق، وهو باطن جفن العين . المخانق : القلائد .
(٤) أحم : نزل . الحين : الموت . الأجم : بيت الأسد
(٥) المجن : الترس .

يسقط فيه كل ما يَقْضمه، أما عينه فمن شدة توقدها كانت كأنها البرق الخاطف، وكأن الموت كان يجثم على فمه بين لحييه وملتثمه .

وللناشئ وراء طردياته أشعار كثيرة تدل على أنه حقًّا كان صاحب شاعرية خصبة ، وقد رفدها مبكراً بثقافته الكلامية التى أعدته ليحاور ويداور أرسطو والخليل بن أحمد وعلماء النحو واللغة ، ولا ريب فى أنها وصلته بكل ينابيع الثقافة فى عصره يونانية وغير يونانية ، ويقول من ترجموا له إنه كان يقول فى خلاف كل معنى قالت فيه الشعراء ، غير أنهم لم يوردوا لنا شيئًا من هذا القول ، إنما أوردوا له هنا وهناك بعض أبيات رائعة الصور من مثل بيتيه اللذين أنشدناهما فى الفصل الرابع وهما فى وصف سحاب هاطل .

وفى الحق أنه كان يعرف كيف يولّد الصور وكيف يستخرجها من مكامنها وكيف ينظمها شعراً عذبًا ، يحفل بكل ما يملأ النفس إعجابًا به على شاكلة قوله :

متعاشقان مُكاتمان هواهما ... قد نام بينهما العتابُ فطابا
يتناقلان اللحظَ من جَفْنَيْهما ... فكأنما يتدارسان كتابا

وقوله :

يلوح فى خدّه وَرْدٌ على زهرٍ ... يعود من حسنه غَضًّا إذا قُطِفا

والزهر فى البيت طبعًا هو زهر النرجس الذى تشبه به العيون ، وعبّر عن القبلة بأنها اقتطاف لورد الخدود ، وجعلها تثير فيها من الحمرة ما يعود بها غَضَّةً إلى أول مُجْتناها وباكورته . وله :

ليس شيء أحرُّ فى مُهْجة العا ... شق من هذه العيون المراضِ
والخدودِ المضرَّجات اللواتى ... شِيب جِرْيالُها بِحُسْن البياضِ
وطروقِ الحبيبِ والليلُ داجٍ ... حين هَمَّ السُّمَّار بالإغماضِ

فهذه العيون مع مرضها وفتورها تَدْلَع في قلب العاشق قطعاً من النار ، وتدلع فيه نفس القطع الخدودُ المشربة بالحمرة ، ويشعله إشعالا ، زيارةُ المحبوبة ليلا ، وقد همَّ السُّمَّارُ بالنوم . والقطعة جيدة ، ويبدو أنه كان قريباً من نفوس الجوارى فى بلدته ، فابن المعتز يروى أنه اجتمع مع بعض رفاقه على الشراب فى بعض المتنزهات ومعهم قينة محسنة طيبة الصوت ، وما زالت تغنيهم حتى إذا أنشدها مقطوعة له ختمها بقوله :

وقد آذنونا بوقت الرحيلِ فإن كنت تهوينني فارْحَلي

يقول ابن المعتز : فلما سمعت الجارية هذا البيت وقعت فى قلبها النيران ، وكانت تهواه ويهواها ، فقامت وارتحلت معه ، لكلفها به . واجتمع مع رفاق آخرين ، ودعوا مغنية ، فجاءت ومعها رقيبة جميلة ، فلما أخذ الشراب منه ومن صحبه طلب رقعة وكتب فيها ، موجهاً حديثه إلى تلك الرقيبة :

فديتكِ لو أنهم أنصفوكِ لردّوا النواظرَ عن ناظـريكِ
تردِّين أعْيُنَنَا عن سِواكِ وهل تنظر العينُ إلا إليكِ
وهم جعلوكِ رقيباً علينا فمن ذا يكون رقيباً عليكِ
ألم يقرءوا — وَيْحهم — ما يَروْ نَ من وَحْيِ حُسْنكِ فى وَجْنَتَيْكِ

ولعل فى كل ما أسلفنا ما يدل بوضوح على روعة الملكة الشعرية عند الناشئ ، وهى ملكة استطاع أن يَغْذُوَها بالثقافات المعاصرة له ، فإذا هى تُصْقَلُ وإذا هى تزداد خصباً ، وإذا الناشئ لا يزال يُطْرِف سامعيه بخواطر وأخيلة طريفة رائعة .

٥

شعراء شعبيون

لا نغلو إذا قلنا إن الشعر العربى دائماً كان موصولا بالشعب ، اتصل به فى العصر الجاهلى ، فقد كان الشاعر وشعره صورةً لقبيلته ، وظلتْ له هذه الصلة

فى العصر الأموى، وإن تحولت أحياناً من الشعور القبلى إلى الشعور الجماعى، أما منذ العصر العباسى الأول فقد أخذ يغلب الشعور بالروح الجماعية ويقلّ الشعور بالروح القبلية، حتى إذا كان هذا العصر نضب هذا الشعور جداً بينما ظل الشعور بالروح الجماعية حيّاً مشتعلا. وكان من أهم العوامل فى ذلك أن جمهور الشعراء كان من الطبقة العاملة، وقلما نبغ شاعر من الطبقة الأرستقراطية. حتى مَنْ عاش مِنْ هؤلاء الشعراء حول موائد الخلفاء وفى قصورهم ظلّ موصولا بروح الشعب، فهو يتغنّى بتقوى الخليفة وبما ينشر من العدالة التى لا تصلح حياة الرعية بدونها. وكانوا يمدحون أبطال المعارك الحربية معبّرين عن روح الشباب والحمية الوطنية والإسلامية. وإذا كان المديح يتصل بروح الشعب على هذا النحو فأولى لغيره من أغراض الشعر أن تكون صلته أوثق وأقوى. وحتى حياة المجون وما اتصل منها بوصف الأعياد الإسلامية والمسيحية والفارسية وملاهيها كان يُحسُّها الشعب وتعيشها على الأقل فى تلك الأعياد أسراب منه. أما شعر الزهد والتصوف فكان يُلقَى على العامة وكان من وَحْى حياتها وما يسرى فيها من شظف وضنك وإعسار. وبهذا الأسلوب نفسه يمكن الوصل بين الغزل والفنون الأخرى وبين الشعب، ولكن ليس هذا ما نريده من الشعر الشعبى الذى نتحدث عنه، فنحن نريد منه نوعاً خاصاً، هو النوع الذى يصوّر ما كانت عليه الرعية من تعاسة وبؤس، فالخلفاء والوزراء والأمراء وذوو الوجاهة ومَنْ لحق بهم من بعض المغنين والشعراء يعيشون فى النعيم وأدواته ووسائله مستمتعين بالحياة أقصى ما يكون الاستمتاع دون أن يبذلوا أى جهد ودون أن يحتملوا أى عناء، على حين تَرْزَحُ عامة الشعب تحت أثقال البؤس الممضّة جائعة ظامئة، غير آمنة من العبث والطغيان اللذين صورناهما فى فصل الحياة الاجتماعية. وكان طبيعياً أن يكثّر الشعراء الذين يصورون ما يتجرّعونه ويتجرعه الشعب من الفقر والإمعان فى البؤس والتعاسة. ومن المؤكد أن جُلّ ما نظموه ضاع، لأنهم من أبناء الشعب، وهم عادة لا يهمهم تسجيل ما ينظمونه، بل هم آخر من يهتم بمثل هذا الشرف، وحتى ما سُجِّل من هذا الشعر لم يسجَّل معه اسم صاحبه إلا نادراً(١).

(١) انظر المحاسن والمساوى للبيهقى (طبعة مكتبة نهضة مصر) بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ١ / ٤٤٨ وما بعدها.

وقد هيّأ هذا البؤس لظهور طائفة بين الناس تُعْرَف بالمُكْدين ، وأولُ من تحدث عنهم الجاحظُ فى مطالع كتابه البخلاء ، وهو يورد فيه أسماءهم وحِيَلَهم فى اقتناص الدراهم من الناس ويصوّر البيهقى أعمالهم ونوادرهم[١] ، وهم جماعات من المتسولين وكان ينضم إليهم كثير من الأدباء والشعراء ، وهم يكوّنون فى العصر طبقة كبيرة ، طبقة تتكسب بالتحامق وإضحاك الناس .

وخير من يصوّر طائفة الشعراء المكدين حينئذ أبو العِبَر[٢] العباسى الذى عاش فى هذا العصر إلى خلافة المنتصر وكان قد ظل خمسين عامًا يَحْيَا حياة جادّة إلى أن ولى المتوكل فترك الجِدّ وعدل إلى الحمق والشهرة به ، ويقال إنه لم يكن فى عصره صناعة إلا وهو يعملها بيده حتى العجين والخَبْز ، وفى بعض أحاديثه ما يدل على أنه كان ببغداد لعصره معلمون يعلمون الأحداثَ الهزل ، وأنه أخذ عن معلم منهم ما عُرِف به من قلب الكلام رقاعة إذ كان يقول له ولرفقائه : أول ما تصنعون قلبُ الأشياء فكنت أقول إذا أصبح كيف أمسيت ؟ وإذا أمسى كيف أصبحت ؟ وإذا قال لى : تعال ، تأخرت إلى الخلف . ويقال إنه حاول أن يَلْفت المتوكل إليه فقلب زِيّه إذ جعل فى رجليه قلنسوتين وعلى رأسه خُفًّا (حِذاء) وجعل سراويله قميصًا وقميصه سراويل . فلما لمحه المتوكل قال علىّ بهذا المُثْلة ودخل عليه فقال له : أنت شارب إنى أضع الأدهم (القيد) فى رجليك وأنفيك إلى فارس ، فقال توًّا : ضَعْ فى رجلى الأشهب وانفنى إلى راجل ، فقال المتوكل أترانى فى قتلك مأثوم ؟ فقال : بل ماء بصل ، فضحك المتوكل . ويقال إنه أخذ منه أكثر مما أخذه أى شاعر بالجِدّ ، وقد اتخذه فى مجلسه أضحوكة ، فكان يرمى به فى البركة التى وصفها البحترى فى بعض مدائحه ، وتُطْرَحُ عليه الشباك ويُصاد ، ويخرج وهو يقول :

ويأْمر بى ذا الملكْ فيطرحنى فى البِرَكْ
ويصطادنى بالشَّبكْ كأنّىَ بعضُ السَّمكْ

---

(١) المحاسن والمساوى ٢ / ٤١٣

(٢) انظر فى أبى العبر وحياته وأخباره وأشعاره طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٤٢ وأشعار أولاد الخلفاء للصولى ص ٣٢٣ والأغانى (طبع الساسى) ٢٠/ ٨٩ والفهرست ص ٢٢٣ والوافى بالوفيات (طبع إستانبول) ٢ / ٤١ .

وسأله ثعلب العالم النحوى المشهور : الطَّبْنِيُ معرفة أو نكرة ؟ فأجابه : إن كان مشويًّا على المائدة فمعرفة وإن كان فى الصحراء فهو نكرة، فقال ثعلب له : ما فى الدنيا أعرفُ منك بالنحو . وكان يتجلس الغلمان « الأدباتية » إليه ليسجلوا كلامه ، مما جعله يصنِّف لهم كتابَ جامعِ الحماقات ومأوى الرقاعات وكتاب نوادره وكتاب المنادمة ، ويُرْوَى أن غلامًا سأله : لم صار نهر دجلة أعلى من نهر الفرات والقطن أبيض من الكمْأة (ثمرة صحراوية أرضية) فأجابه : لأن الشاة ليس لها منقار وذنب الطاووس أربعة أشبار . وكان بهذا وأشباهه تروج بضاعته عند المُكْدِين من الأدباتية وغير المكدين ، وسُئل عن لغته التى يتكلم بها وما فيها من استحالات أىُّ شىء أصلها ؟ فقال : إننى أبكِّر فأجلس على الجِسْرِ ومعى دواة وقرطاس فأكتب كل شىء أسمعه من كلام الذاهب والجائى والملاحين والمُكارين حتى أملأ القرطاس من الوجهين ، ثم أقطعه عرضًا وألصقه مخالفًا فيجىء منه كلام ليس فى الدنيا أحمق منه . وكان ما يزال يُغْرِب فى كل ما ينظم من شعر ، ملتزمًا للغة العامَّة وما يشبهها ، ومن قوله فى بعض غزله :

وباضَ الحبُّ فى قلبى ... فوَاوَيْلى إذا فَرَّخْ

ويستمر فى مثل هذا الهزل ، وكان ينصح بعض شباب الشعراء من حوله أن يقولوا الشعر جيداً جيداً وإلا فليكن بارداً بارداً مثل شعره ، ومما رواه له ابن المعتز من كلامه الهزلى البارد المضطرب الوزن قوله :

أنا أنا أَنت أنا ... أيا أبـــو العبرنَّهْ
أنا الفتى الحمقوقو ... أنا أخـــو المجنَّه
أَنا أحـــرِّر شعرى ... وقد يجى بَرْدَنَّـــهْ

وواضح أنه أضاف إلى أبياته النون المشددة الهاء هزلا وطلبًا لإضحاك من حوله . وله أشعار من هذا النمط كلها هزل ودعابة ، وقد اتخذه الشعراء « الأدباتية » الذين خلفوه إمامًا لهم فى مثل هذا الهزل وما كان يسلكه فى أشعاره من ألفاظ العامَّة وأساليبهم الركيكة .

ومن شعراء الكُدية الذين ذهبوا مذهب أبي العبر في التحامق والهزل أبو العجل[1] وله أشعار كثيرة يدعو فيها إلى اتخاذ التحامق حرفة ، وأي حرفة ، لقد درّتْ عليه خيراً كثيراً وأموالا وبغالا وغلمانًا . يقول :

أيا عاذلي في الحُمْق دَعْني من العَذْلِ ... فإني رَخِيُّ البالِ من كثرة الشُّغْلِ
ومُرْني بِما أَحببتَ آتِ خلافَه ... فإن جئتَني بالجِدِّ جئتُك بالهزلِ
وإن قلتَ لي : لِمْ كان ذاك؟ جوابه ... لأني قد استكثرت من قلَّة العقل
فأَصبحتُ في الحَمْقَى أميرًا مؤمَّرًا ... وما أَحدٌ في الناس يمكنه عَزْلي
وصيَّر لي حُمْقِي بِغَالاً وغِلْمَةً ... وكنت زمانَ العقل ممتطياً رِجْلي

فلا داعي للعذل واللوم فإن حرفة الكُدْية جعلته سيداً مطاعًا وأثرته ثراءً واسعًا ، وأصبح الناس لا يضيقون به ، بل يرحّبون به في كل مكان . وكان الشعراء المكدون حينئذ يطوفون في بلدان العراق وغير العراق ، جوّالين مكثرين من الأسفار في الاحتيال لجلب الأموال . وفي ذلك يقول أبو العجل لبعض من عذلوه على كُدْيته وحرفته :

أَعَلَى الحماقة لُمْتَنِي ... قد كنت مثلَك أولا
فدخلت مصرَ وأرضها ... والشامَ ثم المَوْصلا
وقُرَى الجزيرة لم أَدَعْ ... فيها لِحَيٍّ منزلا
إلا حَلَلْتُ فِنَـاءَهُ ... بالعقل كي أتمـوَّلا

وممن اتخذ الكُدْية حرفةً في العصر أبو عبد الله اليعقوبي وكان كثير الوصف لنفسه بالجوع والفقر والتطفيل ، وروى له المرزباني أشعاراً[2] تدخل في الزهد . ونقف قليلا عند جحظة والخبز أرْزي وتصويرهما لبعض جوانب النزعة الشعبية .

---

(١) انظر فيه وفي أشعاره طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٤٠ .

(٢) معجم الشعراء ص ٣٩٩ .

جحظة(١)

اسمه أحمد بن جعفر من نَسْل البرامكة ، كان شاعراً حسن الشعر ، وكان يحسن الغناء على الطُّنْبور كما كان يحسن فنوناً مختلفة مثل الطبيخ والنجوم ، وله فى الطُّنْبُوريين كتاب غير كتب أخرى فى عدة فنون ، وكان من ظرفاء عصره وصاحب أخبار ومنادمة حاضر النادرة . وابن المعتز هو الذى لقبه بجحظة لقبه الذى اشتهر به إذ كان فى عينيه نتوء شديد ، وكان قبيح الوجه تقتحمه العيون ، وفى ذلك يقول ابن الرومى :

وارَحْمَتــا لمنادميه تحمَّلوا ألمَ العيونِ للذَّةِ الآذانِ

وكان الخليفة المعتمد يقرّبه منه ، ولكن بيوت الخلفاء لم تُفْتَحْ له بعده ، وفُتِحت بعض بيوت الوزراء مثل العباس بن الحسن وزير المكتفى وابن مقلة وزير المقتدر . وكان لا يُبْقِى على شىء يَصله من خليفة أو أمير أو وزير ، فأكثر أيامه كانت بائسة ، ولولا صنعته الطنبورية لعاش معدمًا . وهو من خير من يمثلون حياة الشعب التعسة ، فقد كان كثير من الحكام والوجهاء يزورُّون عنه لا لمدامته فقط ، بل أيضًا لما قيل من أنه كان دائمًا وسخ الثياب ، وكان شيعيًّا ، فانصرف عنه كثيرون وأغلقوا أبوابهم فى وجهه . وكل ذلك كان يدفعه دفعًا للاختلاط بأبناء الشعب وكانوا يتعلقون بشعره ، فما إن ينظم شعراً حتى يدور فى بغداد وحتى تتناقله المجالس ويرويه الشباب وغير الشباب ، حدَّث هو نفسه ، قال : كنت يومًا عند عبد الله ابن المعتز فطلبت نَعْلِى فلم أجده ، فجعلت أقول :

يا قومُ مَنْ لِى بنَعْلى أو فى مصحَّفِ نَعْلِ

يقصد بَغْلا يركبه . يقول : فسار هذا البيت حتى رواه الصبيان . وكان كثير من أشعاره الأخرى يرويها الصبيان أيضًا ، وكثير منها يحكى قصة بؤسه من مثل قوله :

(١) راجع فى جحظة وأخباره وأشعاره تاريخ بغداد ٤ / ٦٥ والفهرست ص ٢١٤ ومعجم الأدباء ٢ / ٢٤١ وابن خلكان والديارات ص ٢١ ، ٤٧ ، ٩٧ وزهر الآداب ٢ / ١٣٧ وذيل زهر الآداب ص ١٤٩ وتكملة الطبرى ص ٨ ، ١٩٠ والنجوم الزاهرة ٣ / ٢٥٠ .

أنا الذى دينُه إسعافُ سائلِهِ والضُّرُّ يعرفه والبؤْس والعَدمُ
أنا الذى حُبُّ أهلِ البيتِ أفقرَه فالْعَدل مستعْبِرٌ والجَوْرُ مُبْتَسِمُ

وهو يعلل لبؤسه من بعض وجوهه بتشيعه لأهل البيت كما أسلفنا ، وكأنما عملت عوامل كثيرة على أن يعيش معيشة بائسة أكثرُ جوانبها ضيقٌ وإقلال فى الرزق ، وليس المهم أن يعيش تلك المعيشة ، ولكن المهم أن تتعمق أحاسيسه وأن يَصْدُرَ عنها بمثل قوله :

أَحْمَدُ الله لم أَقلْ قطُّ يا بَدْ رُ ويا مُنْصفاً ويا كافورُ
لا ، ولا قلت أين أين الشواهِـــبنُ ووزَّانُنا وأين البذور[1]
لا ، ولا قيل : قد أتاك من الضَّيْـ عة بُرٌّ موفَّرٌ وشَعير
أنا خلْوٌ من المماليك والأَمْـ لاك جَلْدٌ على البَلا وصَبُور
ليس إلا كُسَيْرةٌ وقُدَيْحٌ وخُلَيْقٌ أتتْ عليه الدهورُ

فهو ليس ممن يخدمهم الغلمان وتكتظُّ بهم داره من مثل بَدْر ومُنْصف وكافور ، وهو ليس ممن يحتاج إلى ميزان ووزَّان يزن الحصاد ، لأنه ليس من أصحاب الضياع الذين يَجْنون من ضياعهم البُرَّ والشعير . ليس عنده أملاك ولا مماليك إنما عنده الجلد والصبر على احتمال حياة الشظف والحرمان ، عنده ما يقُوته من كِسْرة وقدح ماء وثوب خلَقٍ أكل الدهر عليه وشرب ، وقلبه يمتلئ حسرة ولوعة ، فغيره يتقلب فى أعطاف النعيم وهو يتقلب فى أشواك الحسرات والشقاء والعناء ، يقول :

الحمد لله ليس لى كاتبْ ولا على باب منزلى حاجبْ
ولا حمارٌ إذا عزمتُ على ركوبه قِيلَ جحظةٌ راكبْ
ولا قميصٌ يكون لى بدلا مخافةً من قَميصىَ الذاهب
وأجرةُ البيتِ فهْى مُقْرِحةٌ أجفانَ عينى بالوابل الساكب

---

(١) الشاهين هنا : عمود الميزان .

إن زارني صاحبٌ عزمتُ على بَيْعِ كتابٍ لشَبْعَةِ الصاحبْ

فهو ليس من أصحاب الجاه والسلطان فلا كاتب له ولا حاجب ، بل ليس من أصحاب الوجاهة والثراء فلا حمار له يركبه لقضاء مهمَّاته كُسِيَ كسوة حسنة ، ولا قميص له جديد بدلا من قميصه البالي ، وما أشد كدره ، فأجرة البيت وعجزه عن سدادها ينغصانه ، بل يُبْكيانه ، حتى لقد تقرَّحت أجفانه لكثرة بكائه ، ولا من رحيم يرقّ قلبه له أو يعطف عليه . وحتى إن زاره صاحب لم يجد ما يغذوه به ويطعمه له إلا أن يبيع كتاباً من كتبه يشترى له به بعض ما يقيم أَوَدَه . فيا للبؤس ويا للظلم الصارخ الذى جعل أبناء الشعب يَكْدَحون ويَضْنَون والحكام يَجْنُونَ ويقطفون ثمار أعمالهم ولا يُبْقون لهم منها إلا الذلّ والهوان . وينتابُه مراراً الشك فى حرفته الأدبية وتآليفه وما ينظم من أشعار ، فيقول :

حسبي ضَجِرْتُ من الأَدَبْ ورأيتــه سببَ العَطَبْ
وهجرتُ إعرابَ الكلا مِ وما حفظت من الخُطَبْ
ورهنتُ ديوان النَّقــا ئضِ واسترحتُ من التعب

فهو قد صمم على أن يهجر حِرْفة الأدب التى لم يجن منها سوى الشقاء والعناء أما كتاب النقائض بين جرير والفرزدق فمع نفاسته رَهَنَه ليَسُدّ به رَمَقَه ، وكأنما أحسّ فيه وفى غيره من كتب الأدب التى صمّم على هجرانها أعباء ثقالا كانت تَبْهظ كتفيه ، فهو يتخلص منها ليريح ويستريح .

وكان طبيعياً أن يشتد سخطه — مع أبناء الشعب — على فساد الحياة السياسية فى عصر المقتدر وأن يصبّ جام غضبه على الوزراء الذين كانوا يعتصرون الشعب ليعيشوا هم والخلفاء والقواد فى النعيم ، ولا ضَيْرَ من أن يعيش الشعب فى الجحيم ، لذلك كان طبيعياً أن يتمنى للوزراء أن تَحيق بهم الكوارث حتى يتخلص الشعب من ظلمهم وفساد حكمهم . ويُرْوَى أن بعض أصدقائه دخل عليه فى عصر المقتدر ، فقال له : ما تتمنَّى ؟ فقال تَوًّا : لم يبق لى مُنًى غير نكبات الوزراء ، فقال له : قد نُكب ابن الفرات ، فقال جحظة على البديهة :

أحسنُ من قهوة معتقة تخالها فى إنائهــا ذهبا

من كفٍّ مَقْدودةٍ منعَّمةٍ تَقْسِمُ فينا ألحاظُها الوَصَبا[1]
نعمةُ قومٍ أزالها قَدَرٌ لم يَحْظَ حُرٌّ فيها بما طلبا

فقد أفرحته نكبة ابن الفرات وانتشى بها كما ينتشى السكارى بالخمر نشوة لا تَعْدلها نشوة . ويشمت به لأن أحداً لم يُصب شيئًا مما كان فيه من نعمة ، وإنه ليضيق به كما ضاق به الشعب ، إذ كان يملأ الأرض ظلمًا وشرًّا ونُكْراً ، وإنه ليبغضه ويبغض دولته التى حرمت الأحرار كل بِرٍّ وكل خير . وكان يكثر من هجاء البخلاء الأشحاء الذين يقدمون الطعام للضيوف على كره منهم ، وكثيراً ما يصوغ هذا الهجاء فى قالب فكه من مثل قوله فى صديق :

دعانى صديقٌ لى لأكل القطائفِ فأمعنتُ فيها آمناً غير خائفِ
فقال وقد أوجعتُ بالأكل قلبه رُوَيْدَك مَهْلاً فهْىَ إحدى المتالفِ
فقلت له : ما إن سمعنا بهالكٍ ينادَى عليه : يا قتيلَ القَطَائفِ

وكانت القطائف صادفت منه مسغبة وجوعًا شديداً ، فأكل منها أكل النَّهِم وصديقه ينظر إليه شَزْراً ، فقال له : إنى أخاف عليك التخمة ، بل التلف والهلاك ، فردّ عليه هذا الرد الظريف . وله فى قوم بخلاء يحفظون القرآن :

قد حفظوا القرآن واستعملوا ما فيه إلا سورةَ المائِدَه

وتُرْوَى له أبيات مختلفة من هذا الطراز تدل على أنه كان حلو الدعابة على الرغم من قبح وجهه ورثاثة ثيابه . وله هجاء كثير لاذع يدل على أنه كان سريع الإحساس طويل اللسان . ولم يكن يخشى أحداً فهو يهجو الوزراء والحجَّاب وغير الحجاب والوزراء ، وخاصة البخلاء منهم ، وكانوا يتحامونه لما يعلمون من شيوع شعره على ألسنة الصبيان فى الشوارع والأزقة . ومن قوله فى ثقيل :

يا لفظةَ النَّعْىِ بموت الخليلْ يا وَقْفَةَ التَّوْدِيع بين الحُمولْ

---

(١) مقدودة : رشيقة القد . الوصب : التعب

يا طلعة النَّعْشِ ويا منزلا أقفرَ من بعد الأَنيس الحلولْ
يا نعمةً قد آذنتْ بالرَّحيلْ ونكسةً من بعد بُرْءِ العَلِيل

ويستمر طويلا فى وصف الثقيل بمثل هذه الصفات التى تجعله تمثالا لكل شر ، وكأنما تجمعت له شرور الحياة فى أسوأ صورها ، لكى يتصمه بما يشاء منها ، وتتوالى الشرور فى أبشع هيئاتها ، ويضع بينها طلعة النعش ونكسة العليل . وكان يلم بالديارات ، وقد روى الشابشتى له بعض أشعار فى الخمر كان يغنيها على طُنْبُوره من مثل قوله فى دَيْر أُشْمونى ولهوه فيه :

سَقْياً لأُشمونى ولذَّاتهـا والعيشِ فيما بين جَنَّاتهـا
سَقْياً لأَيامٍ مضتْ لى بها ما بين شَطَّيْها وحاناتها

ويبدو أن إلمامه بالأديرة كان قليلا لقلة أشعاره فيها ، وربما كان الذى أقعده عنها بؤسه الذى كثيراً ما كان يرافقه . وله فى الغزل بعض قطع وأبيات طريفة من مثل قوله :

فقلتُ لها : بَخِلْتِ علىَّ يَقْظَى فجُـودِى فى المنام لمستهامِ
فقالتْ لى : وصرتَ تنام أيضاً وتطمـع أن أزورك فى المنام

وقد توفى سنة ٣٢٣ عن سن عالية ، ويقال إنه عاش نحو قرن ، ولعل فيما أسلفنا من أشعاره ما يصوّر شاعريته الخصبة . وقد أسقطنا من أشعاره ما كان يستخدمه من الألفاظ والأساليب العامية ، وهى أثر من آثار شعبيته واختلاطه بالعامة فى بغداد .

الخُبْزُ أرْزِيّ(١)

اسمه نصر بن أحمد ، شاعر بصري ، كان أميًّا لا يكتب ولا يقرأ ، وكان يَخْبِزُ خُبْزَ الأرْزِ فى دُكَّانه بِمِرْبَد البصرة يتكسب بذلك معاشه ، وفى أثناء عمله كان يُنْشِد أشعاره المقصورة على الغزل ، والشبابُ والناس يزدحمون عليه لاسماع شعره ، ويتعجَّبون من حاله وأمره ، وشعره يذيع فى الناس لقرب مأخذه وسهولته . وعُنى بعض معاصريه ممن كانوا ينتابون دُكَّانه بجمع أشعاره ، وجمعوا له ديوانًا ، وفى معهد المخطوطات بالجامعة العربية نسخة مصورة منه ، ويقول المسعودى فيه : «أحد المطبوعين المجوِّدين فى البديهة المعروفين بالغزل» . ويقول أيضًا : «أكثر الغناء المحدث فى وقتنا هذا من شعره» . والخبز أرزى بكل ما قدمنا شاعر شعبى بالمعنى الكامل ، فهو من بيئة شعبية ، صاحب صناعة وحرفة ، وهو أمى لا يعرف القراءة ولا الكتابة ، وشعره يدور على كل لسان فى بلدته والشباب والصِّبْية ينشدونه فى كل مكان والمغنون يغنُّون فيه على جميع آلات الطرب . وقدم بغداد فاستقبله أدباؤها وشبابها استقبالا حسنًا لما كان قد سبقه إليهم من أشعاره الخفيفة السهلة العذبة . ومن الغريب أن نجد الثعالبى فى اليتيمة يقول إنه كان على وشك إهماله وَطىِّ أشعاره لسفسفة كلامه ، لولا أن وجد من معاصريه من اهتم بجمع ديوانه ، فرأى أن يضمِّن كتابه «اليتيمة» لُمَعًا من شعره علقت بحفظه ، وفى الوقت نفسه رأى الإعراض عن التصفح لباقى شعره وترك الفحص فيه عما لا يصلح لإلحاقه باليتيمة من مُلَحه . وبذلك فوَّت على نفسه عملا أدبيًّا ونقديًّا جليلا كان يمكن أن يضيفه لكتابه ولا ينقص منه ، بل لعله يرفعه درجات ، إذ يحتوى مادة شعرية شعبية كان جديراً أن تُعْرَض كاملة ، حتى يُرَى مدى ما حدث من تطور فى اللغة الشعبية البصرية بالقياس إلى الفصحى ، سواء فى جوانبها اللغوية أو الأسلوبية ، ويُرَى أيضًا مدى ما ظل بينهما من تواصل . ولكن هذا غاب عن

---

(١) انظر فى الخبز أرزى وحياته وأشعاره اليتيمة ٢/٢٦٧ ومروج الذهب ٤/٢٥٩ وابن خلكان فى نصر بن أحمد والنجوم الزاهرة ٣/٢٧٦ وديوان المعانى ١/٢٧٢، ٢٩٧ وزهر الآداب ٢/١٣٧ وذيل زهر الآداب ص ١٤٩ .

ذهنه ، وأكبر الظن أنه إنما اختار أشعاراً ليس فيها عامية . ومع ذلك فنحن نؤمن بأن الفوارق حينئذ بين العامية والفصحى لم تكن واسعة . ومن مُلَحه التى رواها له قوله :

خليلىَّ هل أبصرتما أو سمعتُما ... بأكرم من مولًى تمشَّى إلى عَبْدِ
أتى زائرًا من غير وَعْدٍ وقال لى ... أصونُك عن تعليق قلبك بالوَعْدِ
فما زال كأْسُ الوصل بينى وبينه ... يدورُ بأفلاك السعادة والسَّعْدِ
فطورًا على تقبيل نَرْجِسِ ناظرٍ ... وطورًا على تَعْضيض تفاحة الخَدِّ

وفى كلمة أصونك عن تعليق قلبك ما يصور رقَّتَه وأنه يَخْشَى عليه من تعلق قلبه بالانتظار ، والبيتان الثالث والرابع جيدان فى التصوير . ومما روى له الثعالبى أيضًا من مُلَحه قوله :

كم أناسٍ وَفَوْا لنا حين غابوا ... وأناسٍ جَفَوْا وهم حُضَّارُ
عرَّضوا ثم أعرضوا واستمالوا ... ثم مالوا وجَاوَرُوا ثم جاروا
لا تَلُمْهم على التجنِّى فلو لم ... يتجنَّوا لم يَحْسن الإعتذارُ

والأبيات زاخرة بجناسات وطباقات تدل على أنه كان يتفقَّه صنعة الشعر وصناعة البديعيين فيهافقها حسنًا. فوفوا تقابل «جفوا» وغابوا تقابل «حُضَّار» وبين كل كلمتين متعاقبتين فى البيت الثانى جناس وطباق محكمان ، وحسن التعليل واضح فى البيت الأخير . والكلمات عذبة حلْوة خفيفة . ومن مُلحه قوله :

رأيت الهلالَ ووجهَ الحبيبِ ... فكانا هلالين عند النَّظَرْ
فلم أَدْرِ من حَيْرتى فيهما ... هلالَ الدُّجَى من هلال البشَر
ولولا التورُّد فى الوَجْنَتَيْنِ ... وما راعنى من سواد الشَّعَرْ
لكنتُ أظن الهلال الحبيبَ ... وكنت أظن الحبيبَ القَمَرْ

والخيال جميل ، وأحاله إلى طرفة نفيسة حقا بتلك الحيرة التى انتابته ، فلم يَدْر أين هلال الدُّجَى وأين هلال البشر ، ثم أخذ يتأمل ، وبعد أناة طويلة لاحظ

تورُّد الوجنتين وسواد الشعر فعرف أين الهلال وأين الحبيب وإلا ظل غارقًا فى حيرته . ومن مُلَحه :

قد كان لى فيما مضى خاتمٌ فاليوم لو شئتُ تمنطَقْتُ بِهْ
وذُبْتُ حتى صِرْتُ لو زُجَّ بى فى مُقْلة النائم لم ينْتَبِهْ

وهى مبالغة واضحة فيما أصابه من ضَنًا بسبب حبه وشقائه فيه وعذابه . فحتى المبالغة التى كانت قد أخذت تشيع بين الشعراء نجدها عنده ، وكأنه توفَّر على الشعر فى عصره وقبل عصره حتى استقامت له ملكته ، وحتى تمثَّله بجميع مقوماته وخصائصه . وكان خفيف الروح فكهًا مما جعله محبوبًا عند أهل البصرة فى حياته وبعد مماته . ومن طريف ماله قولُه فى قلة الطعام على مائدة أحد أصدقائه :

ولعمرى كان الخِوانُ ولكنْ لم يكن ما يكون فوق الخِـوانِ
وجِفانٍ مثل الجَوابى ولكنْ ليس فيهن ما يُرَى بالعِيانِ[1]
فإذا ما أدرتُ فيها بَنـانى لم أَجِدْ ما أَمسُّه بِبَنانِ
إننى ما ضغٌ على غَيْر شىء غير صَكِّ الأَسنان بالأَسنانِ
ترجع الكفّ وهْى أفرغ منها عند مَدِّى لها فَدأْبى وشانى

والأبيات تدل على روح الدعابة عنده وأنه كان جميل المحضر عذب الفكاهة خفيف الظل على نفوس مواطنيه وعارفيه وعلى الشباب البصرى خاصة مما جعلهم يتعلقون به تعلقًا شديداً . ويبدو أنه نظم بجانب مقطوعاته التى كان ينشدها فى خبزه للأرز قصائد طويلة ، فقد أشار من ترجموا له إلى قصيدة طويلة طنانة استهلَّها بقوله :

بات الحبيبُ منـادمى والسُّكْرُ يَصْبِغُ وَجْنَتَيهِ

وواضح مما أنشدناه له أنه كان عذب الشعر رقيقه وهو شعر شعبى بالمعنى الدقيق ، فقد نظمه صانع من صناع الشعب، لم يكن يحترف صنع الشعر للتكسب

(١) الجوابى : أحواض الماء

به وعَرْضه على الخلفاء وغير الخلفاء ليمنحوه الجوائز المالية الضخمة ، فهو ليس ممن يقدمون شعرهم للطبقة الأرستقراطية إنما هو شاعر شعبي يقدِّم أشعاره للجمهور ، متبغيًّا إرضاءه بتصويره لأحاسيسه فى الغزل ، وباتخاذه لُغَتَه السهلة التى لا تجد فى فهمها أى عسر أو مشقة . وقد لبَّى نداء ربه سنة ٣٣٠ للهجرة ، ويقول المسعودى أُشيع أن الوزير البريدى غرَّقه لأنه كان هجاه ، وقيل : بل فرَّ من البصرة إلى هجر والبحرين وتوفى هناك ، ومهما يكن فقد حزنت البصرة وشبابها لوفاته ، وظلت ذكراه ماثلة لأهلها طويلا .

الفصل الثامن

نشاط النثر

١

تطور النثر

رأينا في كتاب العصر العباسي الأول كيف أن النثر العربي تطوّر تطوراً خطيراً ، فقد حملت أوانيه الثقافات الأجنبية المختلفة من يونانية وفارسية وهندية وسريانية حَمْلاً لا يزال يروع الباحثين ، وكأنما كان في اللغة العربية طاقات مستكنَّة لكي تحمل في يُسْر هذه الثقافات ولا تتأبّى عليها ، واشتهر كثيرون بالنهوض بهذا العمل وفي مقدمتهم ابن المقفع. ثم رَعَت الدولة الترجمة ، وأنفقت عليها إنفاقات هائلة ، بحيث كاد أن لا يبقى كتاب نفيس في الثقافات المذكورة إلا نُقل إلى العربية وبحيث يمكن أن يسمَّى العصر العباسي الأول عصر النقل والترجمة . وظلت من ذلك بقايا إلى هذا العصر ، وتحول المترجمون فيه يعيدون النظر في كثير مما تُرْجِم في العصر الماضي ، وكانت عامةُ الترجمة فيه حرفية ، فالفقرة من الفقر في كتاب تُتَرْجَمُ حرفيًّا ، اللفظة مقابل اللفظة ، مما قد يصيب الكلام بشيء من الالتواء أو التعثر أو الاضطراب في التعبير . وكان ذلك دافعًا للمترجمين أن يعيدوا النظر في كثير مما تُرْجم وأن يترجموه ثانية على أساس جديد ، هو ترجمة المعاني لا الترجمة الحرفية ، بمعنى أن المترجم يقرأ الفقرة وينقل معناها كما ارتسم في ذهنه دون التقيد الحرفي حتى يطَّرد نسق الكلام ولا يظهر فيه شيء من الاختلال الذي كثيراً ما تدفع إليه الترجمة الحرفية. وحقًّا من المترجمين الأوائل من استطاعوا أن ينفذوا إلى هذه الطريقة الثانية للترجمة مبكرين ، على نحو ما هو معروف عن ابن المقفع وترجماته ، ولكنه كان يُعَدُّ شاذًّا وعُدَّ في الوقت نفسه من بلغاء العربية ، لأننا قلما نحس عنده نشازاً أو التواء أو انحرافًا من شأنه إفساد التعبير ،

إلا ما قد يكون أصاب بعض رسائله لطول المسافة بيننا وبينه ، وما أدخلته أيدى النسَّاخ على مر العصور فى كتاباته، من بعض الخلل . وهو على كل حال خلل قليل جداً، وبين أيدينا ترجمته لكليلة ودمنة ، وهى من أروع التّرجمات القديمة ، وتَدُلُّ بحق على أنه كان أحد بلغاء العربية لعصره . ولكن ابن المقفع يُعَدّ شخصية نادرة بين مترجمى العصر العباسى الأول ، إذ لم يكن لكثرتهم بلاغته ولا فصاحته ، لذلك أحسّ المترجمون فى العصر العباسى الثانى عندهم غير قليل من الانحراف فى التعبير ، وتنبَّهوا إلى أن ذلك جاءهم من الترجمة الحرفية ، فأخذوا يعيدون ترجمة كثير مما نقلوه . وكان هذا كَسْبًا للنثر العربى فإن الضَّيْمَ الذى كان يداخل الترجمات أخذ يزايلها. واتبع حنين بن إسحاق — أكبر مترجمى العصر — منهجاً فى ترجمته أن يجمع للكتاب المترجَم كلَّ ما يمكنه من مخطوطاته، وأن يعارضها بعضها على بعض مقابلا بين عباراتها ، محاولا أن يستخلص منها المعانى بكل دقة . وهو أستاذ المترجمين والترجمة فى العصر العباسى الثانى الذى وضع بقوة فكرة ترجمة المعانى لا ترجمة الألفاظ أو الترجمة الحرفية . وكان يَعْمَلُ بين يديه كثير من الشباب فى مقدمتهم ابنه إسحق وابن أخته حبيش ، يترجمون حسب منهجه ، وهو يراجعهم ويُصْلح لهم بعض ما ترجموه على هدى طريقته الجديدة .

وكان من الكتب التى أعادت ترجمتها هذه المدرسة كتابُ الخطابة لأرسططاليس ، ترجمه إسحق بن حنين ويَنص ابن النديم فى الفهرست على أنه كان قد نُقل قبل ذلك نقلا آخر ، ولا يعيِّن صاحبه ، غير أنه يسميه « النقل القديم » . وقد يقال إذا كانت الترجمة فى هذا العصر أصلحت الترجمات القديمة ، وبَدَتْ فى أسلوب عربى مستقيم ، فلماذا يبدو الخلل والاضطراب الشديد فى ترجمة متَّى بن يونس لكتاب أرسططاليس عن الشعر ؟ وأكبر الظن أن هذا الاضطراب والخلل مصدرهما أن موضوع الكتاب وهو المأساة وما اتصل بها من الشعر القصصى لم يرتسما فى ذهن متَّى رسما بيِّنًا ، إذ كان السريان — مثل العرب — لا يعرفون شيئًا عن الشعر اليونانى وفنونه التى ظهرت عندهم القصصية والغنائية والتمثيلية . وهذا هو السبب فيما أصاب ترجمة كتاب الشعر لأرسطو عند متَّى من تعثر وخلل . وقد يكون الخلل والعثر موجودين فى الأصل السريانى الذى نُقل عنه الكتاب .

على كل حال انتقلت الترجمة فى هذا العصر نقلة واسعة ، فقد أخذ المترجمون يتمثلون المعانى التى ينقلونها ويُسيغونها ثم يترجمونها إلى لغة عربية فصيحة لا تشوبها شوائب الترجمة الحرفية القديمة . والذى لا ريب فيه أن معرفتهم بخصائص العربية كانت أدق من معرفة أسلافهم، إذ ذلّلها لهم علماء اللغة والبيان ، وكانت قد ألفت كتب كثيرة فى بيان طوابعها ومقوماتها ، مما عرضنا له فى غير هذا الموضع ، فطبيعى أن يتقنها غير مترجم . وهذا نفسه يُلاحَظُ فيما أخذ ينشأ منذ العصر العباسى الأول من الأساليب الفلسفية والعلمية ، فإن هذه الأساليب لانت وأخذ يزايلها الالتواء ، بل أخذ يجرى فيها الاستواء والتناسق ، وكأن الفلاسفة والعلماء أخذوا أنفسهم بإرادة قوية فى التثقف بالعربية . وليس ذلك فحسب ، بل أيضًا بالسيطرة على أساليبها سيطرة تقيم تلاؤمًا وتوازنًا دقيقين بين الألفاظ والمعانى التى تؤدّيها ، بل إن منهم من شارك فى الشعر والنثر مثل الكندى أول فيلسوف بالمعنى الكامل ظهر عند العرب، فقدْ أثرت عنه بعض أشعار ، كما أثرت عنه بعض رسائل جيدة، سنعرض لها فى موضع آخر ، فهو قد أتقن العربية وفَقِهَ أسرارها وخصائصها فقهًا جيداً ، ونضرب لذلك مثلا من أسلوبه الفلسفى ، وفيه يتحدث عن صانع الكون ومدبره والشواهد العقلية على وجوده، يقول[1] :

« إن فى الظاهرات للحواس ، أظهرَ الله لك الخفيات ، لأوضحَ الدلالة على تدبير مدبِّر أول ، أعنى مدبراً لكل مدبر ، وفاعلا لكل فاعل ، ومكوِّنًا لكل مكوَّن ، وأولا لكل أولا ، وعلة لكل علة ، لمن كانت حواسه الآلية موصولة بأضواء عقله ، وكانت مطالبه وجدانَ الحق وخواصه (معرفة) الحق وغرضه الإسنادَ للحق واستنباطَه والحكمَ عليه . والمُزكّى عنده — فى كل أمر شَجَرَ بينه وبين نفسه — العقل . فإن مَنْ كان كذلك انهتكت عن أبصار نفسه سُجوفُ[2] سُدَفِ الجهل ، وعافت نفسه مشارب عَكَرِ العُجْب ، وأنِفَتْ من ركاكة معالجة الزهو ، واستوحشتْ من تولُّج[3] ظُلَمِ الشبهات ، وخرجت من الرِّيَب على غير تبين ، واستحيت من الحرص على

(١) رسائل الكندى الفلسفية تحقيق الدكتور عبد الهادى أبى ريدة (طبع مطبعة الاعتماد بمصر) ص ٢١٤ .

(٢) سجوف : أستار . سدف : ظلمات.

(٣) تولج : دخول .

اقتناء ما لا تجد ، وتضييع ما تجد ، فلم تضاد ذاتها ولم تتعصب لأضدادها . فكُن كذلك ، كان الله لك ظهيراً ، أيها الصورة المحمودة والجوهر النفيس يتضح لك أن الله ، جلّ ثناؤه ، وهو الإنيّة (الموجود) الحقّ التى لم تكن ليْساً أبداً ، لم يزَل – ولا يزال – أيْسٌ أبداً ، وأنه هو الحى الذى لا يتكثّر بتّةً ، وأنه هو العلة الأولى التى لا علة لها ، الفاعلة التى لا فاعل لها ، المتممة ، التى لا متمم لها . . . وإن فى نظْم (انتظام) هذا العالم وترتيبه وفعل بعضه فى بعض وانقياد بعضه لبعض وتسخير بعضه لبعض وإتقان هيئته على الأمر الأصلح فى كون كل كائن وفساد كل فاسد وثبات كل ثابت وزوال كل زائل لأعظم دلالة على أتقن تدبير » .

والقطعة تدل بوضوح على مهارة الكندى البيانية ، وأنها لا تقف عند فصاحة التعبير ، بل تتعدى ذلك إلى إدخال تلاوين من التكرار ومن الصور البيانية ، وما المعنى الذى يريد أن يوضحه الكندى ؟ إنه يريد أن يقول إنما يبصره الإنسان من ظواهر الكون ويحسه من مشاهده ويراه من نظامه واتساق أجزائه دليل على أن هناك مدبراً أعلى للكون ، وضع له قوانينه ، التى تحول بينه وبين أى اختلاط أو اضطراب ، كما يشهد بذلك نظامه الذى يخلو من كل عوج وخلل وفساد ، ولكنه أخرج هذه الفكرة فى صورة فلسفية مُطْنبَة ، وهو فى إطنابه لا ينسى خصائص الأسلوب الأدبى وجمال الترادف فيه على نحو ما نرى فى قوله : « أعنى مدبراً لكل مدبر ، وفاعلا لكل فاعل ، ومكوّناً لكل مكوّن ، وأولا لكل أول ، وعلة لكل علة » ، فقد عبّر عن معنى واحد بخمس كلمات متوالية ، ليقوّى المعنى ، وليضيف إليه شيئاً من الجمال الذى يلاحَظ فى التكرار الصوتى . وهو لا ينسى أيضاً ما فى الأسلوب الأدبى من روعة التصوير التى تخلب ألباب السامعين ، على نحو ما نقرأ فى قوله : « فإن من كان كذلك انهتكت عن أبصار نفسه سُجوف سُدَف الجهل ، وعافَت نفسه مشارب عكر العُجْب ، وأنفت من ركاكة معالجة الزهو ، واستوحشت من تولّج ظُلَم الشبهات » ، والصور متلاحقة فى هذه العبارات ، وكأننا بإزاء كاتب أدبى لا كاتب فلسفى . وفى ذلك ما يدل بوضوح على التقاء الفلسفة بالأدب بل على امتزاجهما ، فهذا الكندى الفيلسوف يعرض فلسفته فى أسلوب أدبى يشتمل على غير قليل من الروعة البيانية . وتلقانا فى أسلوبه اصطلاحاته الفلسفية كاصطلاح (الإنّيّة) بمعنى

(الموجود) واصطلاح (ليس) بمعنى المعدوم و (أيْس) بمعنى الموجود . وهذه الاصطلاحات لا تجور على العبارات فى الأساليب ، بل يندمج فيها لقدرة الكندى كما قلنا آنفاً على المزج بين العبارة الفلسفية والعبارة الأدبية .

وحقاً لم يكن مَنْ وراء الكندى من المتفلسفين يبلغون مبلغه فى العربية والوقوف على أسرارها وخصائصها الأدبية ولكن من الحق أنهم جميعاً عُنوا بفصاحة عباراتهم وسلامتها بقدرما استطاعوا حتى عند من كان منهم ينادى باتخاذ مقاييس البلاغة اليونانية معياراً للفن البيانى فى النثر . ومرّ بنا فى غير هذا الموضع أنه كانت هناك ثلاثة أذواق : ذوق ينادى بالرجوع إلى اليونان ومعاييرهم البلاغية ، وكان يمثله المترجمون السريان ومن التفّ حولهم من الكتّاب الذين كانوا يعكفون على النظر فى علم النجوم وفى المنطق والفلسفة والذين كانوا يتحدثون دائماً عن الكَوْن والفساد ، وسمْع الكيان ، والكيفية والكمية ، والجوهر والعرض ، ورأس الخط النقطة ، والنقطة لا تنقسم مما كانوا يقرءونه فى الكتب المترجمة ، على نحو ما يصور ذلك ابن قتيبة فى مقدمة كتابه « أدب الكاتب » . وكان يقابل هذا الذوقَ المجدد إلى أبعد حدود التجديد حتى ليرفض المقاييس العربية ذوقٌ كان يرتضى هذه المقاييس ، بل كان يرى خَطَل الاحتكام إلى سواها ، فالأدب أدب عربى له ملكاته الراسخة ، وله أساليبه الموروثة المصفّاة . وينبغى ألا نعدل عن معاييره الذاتية إلى معايير أخرى ليست من طبيعته ولا من بيئته . وكان يمثل هذا الذوقَ علماء اللغة المحافظون ومن سار فى فلكهم . وبين الذوقين كان هناك ذوق ثالث معتدل ، لا يغلو غلو الأولين فى رفض المقاييس العربية ولا غلو الأخيرين فى رفض المقاييس الأجنبية ، بل يقف موقفاً وسطاً بين الطرفين المتعارضين ، فهو يعتدّ بالمقاييس العربية ويأخذ منها ما يوافق العصر ويلائمه ، وهو ينظر فى المقاييس الأجنبية ويأخذ منها ما يتفق وروح البيان العربى . وكان يمثل هذا الذوق المتكلمون على نحو ما يلاحَظ فى كتاب « البيان والتبيين » للجاحظ ، وهو فيه يَعْرِض ملاحظات العرب منذ الجاهلية عن البيان ومقوماته ولا يكاد يترك ملاحظة هنا أو هناك لخطيب عربى إلا ويسجّلها ، وينقل عن الهند واليونان والفرس آراءهم — التى استطاع الحصول عليها — فى البلاغة دون أن يُعْلِى فريقاً على فريق أو ينصر فريقاً ضد فريق .

وكانت بيئة المتكلمين أسبق من البيئتين الأخريين فى وضع قواعد البلاغة النثرية ، إذ أخذت تحاول منذ العصر العباسى الأول وضع هذه القواعد ، وكان من أهم ما دفعها إلى ذلك تدريبُ الشباب على المهارة فى الخطابة والبيان وكيف يتغلب على الخصوم فى حِجاجه وجدله . وكانت المناظرات مندلعة بينها وبين أصحاب الفرق الأخرى ، وكانت تندلع أحيانًا فيما بين أفرادها ، فكثر كلامهم عن صفات الخطيب وجهارة صوته ووضوح عبارته وخلابتها وملاءمة كلامه للسامعين وما يحسن من حركاته وإشاراته ودقة أدلته وبراهينه ، وكيف يَقْرع حجة الخصم بالحجة الناصعة وكيف ينقض كلامه نقضًا . وأخذوا يحاولون مبكرين التعرف على مقومات البيان العربى ، ودار بينهم كلام كثير عن البلاغة وقواعدها البيانية وما ينبغى فى ألفاظ العبارات أحيانًا من رشاقة وعذوبة وأحيانًا أخرى من جزالة ورصانة ، وما ينبغى للمعانى من وضوح مهما دقّت مسالكها . وبحق لاحظ ابن تيمية أن هذه البيئة هى التى فرّقت بين الحقيقة والمجاز وأعدّت لمباحث البيان العربى المعروفة[١] . ويلقانا فى هذا العصر الجاحظ وكتابه البيان والتبيين الذى ذكرناه آنفًا ، وهو يشتمل على كل الملاحظات البيانية والبلاغية التى أوصى بها المتكلمون الأدباء ، حتى يحوزوا لأنفسهم بيانًا ناصعًا رائعًا . وتهمنا ملاحظات الجاحظ نفسه ، لأنه هو الذى عايش العصر ، وترك آثاراً واضحة فيه ، ومن أهم ما ردّده طويلا فكرة مطابقة الكلام للسامعين ، فلا يصح لمتكلم أن يكلم العامة بمصطلحات علم الكلام أو يكلم علماء الكلام بكلام الأعراب الممتلئ بالغريب أو بكلام العوام المبتذل المسف يقول : « قبيح بالمتكلم أن يفتقر إلى ألفاظ المتكلمين فى خطبة أو رسالة أو فى مخاطبة العوامّ أو فى مخاطبة أهله . . . أو فى حديثه إذا حدث أو فى خبره إذا أخبر وكذلك من الخطأ أن يجلب ألفاظ الأعراب وألفاظ العوام فى صناعة الكلام ، ولكل مقام مقال ولكل صناعة شكل[٢] » . ولا يملّ الجاحظ من الدعوة إلى الوضوح ، وألا يوجز كاتب ولا عالم فى كلامه حتى يصبح ألغازاً ، وقد حمل على كتب الأخفش لما فيها من صعوبة وغموض ، كما حمل على كل تكلف ، يقول : « متى شاكل — أبقاك الله — اللفظُ معناه ، وأعرب عن فَحْواه ، وكان لتلك الحال وَفْقًا ، ولذلك القدر

---

(١) كتاب الإيمان لابن تيمية ص ٣٤.

(٢) الحيوان ٣/٣٦٨ والبيان والتبيين ١/١٤٤ .

ليفْقا ،وخرج من سماجة الاستكراه وسلم من فساد التكلف كان قمينًا بحسن الموقع وبانتفاع المستمع »[١] . وتحدث كثيراً عن جزالة الألفاظ وعذوبتها وعن تلاحمها وتنافرها وعن حسن موقعها فى مكان وسوئه فى مكان آخر ، كما تحدث عن دقة استخدام الكلمات ، يقول : « قد يستخف الناس ألفاظًا ويستعملونها ، وغيرها أحق بذلك منها ، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر فى القرآن الجوع إلا فى موضع العقاب أو فى موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر ،والناس لا يذكرون السَّغب ويذكرون الجوع فى حال القدرة والسلامة . وكذلك ذكر المطر ، لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا فى مواضع الانتقام ، والعامة وأكثر الخاصة لا يَفْصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث»[٢] . ويتوقف مراراً ليشيد بجمال اختيار الألفاظ وجودة الصياغة والسبك وحسن الرَّصْف والنظم ، ونراه ينوّه بالسجع وأثره فى نفوس السامعين[٣] ، كما ينوه بالازدواج وما فيه من جمال[٤] صوتى ، وكأنه هو الذى أعدَّ لهذين الأسلوبين كى يشيعا على ألسنة الأدباء منذ عصره ،وكان هو نفسه يستخدم الازدواج كثيراً فى أسلوبه ، واستخدم السجع قليلا ، وتردَّدت على لسانه فنون بديعية وبيانية كثيرة ، مثل : الأسلوب الحكيم والاحتراس ، وكان يسميه إصابة المقدار ، والاعتراض ، والكناية والحقيقة والمجاز والاستعارة والتشبيه والتمثيل . وبذلك هيَّأ فيما بعد لابن المعتز أن يكتب كتابه البديع مصوراً فيه المحسنات البيانية والبديعية وفيه ينص على أن الجاحظ اكتشف بين تلك المحسّنات محسّنا عقليًّا هو « المذهب الكلامى» ويريد به الجاحظ دقة حِيَلِ المتكلمين فى الغوص على الحجج والعلل والمعاذير . وظلت كتابات الجاحظ فى البيان والتبيين وكذلك فى الحيوان مخازن لا تنفد للبلاغيين المتأخرين ، كل يأخذ منها حسب ذوقه وقدرته العقلية .

وقدَّمت بيئة اللغويين كتبًا مختلفة ، منها ما يعتمد على رواية الأشعار الغريبة وبعض أخبار عن الأعراب مثل مجالس ثعلب ، ومنها ما يُعْنَى بضبط ألفاظ وتفسيرها مثل كتابه «الفصيح» ، وأهم كتاب قدمته هذه البيئة كتاب الكامل للمبرد ، وهو معرض جيد لنماذج من الشعر والنثر ، لا تبلغ فى الغرابة مبلغ نماذج ثعلب فى

(١) البيان والتبيين ٢ /٧ .
(٢) البيان والتبيين ١ /٢٠ .
(٣) البيان والتبيين ١/٢٨٤، ٢٩٧، ٤٠٨ .
(٤) البيان والتبيين ٢/١١٦ .

مجالسه ، ولذلك شُغف الأدباء فى عصر المبرد وبعد عصره بهذا الكتاب ، وعدُّوه أحد كتب الأدب الأربعة الأساسية . ونراه يتأثر بما كتبه الجاحظ عن فنون البيان ، فيشير إلى الحقيقة والمجاز والاستعارة ، ويتحدث عن الكناية ويوزّعها على ثلاثة أنواع ، فهى إما للتعمية وإما لتحاشى اللفظ الخسيس وإما للتفخيم[1]، ويجعل التشبيه أربعة أضرب ، فهو إما تشبيه مفرط ، وإما تشبيه مصيب ، وإما تشبيه مقارب ، وإما تشبيه بعيد[2]. والكتاب يمثل ذوقًا محافظًا ، فليس فيه أى شىء يتصل بآراء الأجانب فى البيان والبلاغة ، وليس فيه أىّ استضاءة بهذه الآراء . ومن الغريب أن نجد ابن قتيبة ، وسنعرف فى موضع آخر أنه كان مثقفًا بالثقافات الأجنبية المعاصرة ، يجنح فى ذوقه إلى هذه البيئة اللغوية المحافظة فى كتابه « أدب الكاتب » وقد مضى فيه يعرّف الكُتَّاب بالاستعمالات اللغوية الصحيحة للكلمات ، فمن ذلك الطَّرب يذهب الناس إلى أنه فى الفرح دون الجزع ، وليس كذلك إنما الطرب خفّةٌ تصيب الرجل لشدة السرور أو لشدة الجزع [3] ، ومن ذلك المأتم يذهب الناس إلى أنه المصيبة ، يقولون كنا فى مأتم ، وليس كذلك إنما المأتم النساء يجتمعن فى الخير والشر ، والجمع مآتم ، والصواب أن يقولوا كنا فى مناحة ، وإنما قيل لها مناحة من النوائح لتقابلهن عند البكاء[4]. ويظل يفتح نحو خمسين بابًا لتعليم الكُتَّاب ألفاظًا يجب أن يعرفوا دقة استخدامها ، منها ما يتصل بأسماء الحيوان ومنها ما يتصل بأسماء الأفلاك ، ومنها ما يتصل بأسماء النبات ، ومنها ما يُعْرَفُ واحده ويُشْكل جمعه ، ومنها ما يتصل بالطعام أو الشراب أو الثياب أو السلاح . ويخرج من ذلك إلى أبواب تتصل بكتابة الكلمات من ذوات الألف أو الواو أو الياء إلى غير ذلك . وينتقل إلى أبواب تقويم اللسان ناصًّا فيها على ما يسبّبه السماع للعامة من الوقوع فى الخطأ كأفعال تُهْمَزُ والعامة تدع حذفها وما هو بالسين ويقولونه بالصاد وما جاء مفتوحًا وهم يكسرونه إلى جمّ من مثل هذه المسائل . ويمضى إلى أبنية الأفعال ومعانيها وأبنية الأسماء ومعانيها ، وفى أثناء ذلك يعقد بابًا طريفًا[5] لما يتكلم به العامة من الكلام الأعجمى ، سواء

---

(١) الكامل للمبرد (طبعة رايت) ص ٤١٢ .

(٢) الكامل ص ٥٠٦ .

(٣) أدب الكاتب لابن قتيبة (طبعة ليدن) ص ٢٢ .

(٤) أدب الكاتب ص ٢٤ .

(٥) أدب الكاتب ص ٥٢٦ .

أكان أصله رومياً أم نبطياً أم فارسياً أم سريانياً . والذوق العام فى الكتاب ذوق لغوى محافظ شديد المحافظة .

وعلى ضوء الذوقين اللذين وصفناهما للبيئتين السالفتين صنَّف معاصر لابن قتيبة هو إبراهيم بن المدبر المتوفى سنة ٢٧٨ رسالة[1] بديعة فى موازين البلاغة وأدوات الكتابة ، سماها الرسالة العذراء ، وهى أول رسالة تناولت بدقة صناعة النثر ، وهو يستهلها بأن شخصاً طلب إليه أن يعرِّفه بجوامع أسباب البلاغة وآداب الكتابة ، ويُشيد بهذه الصناعة ، ويطلب ممن يريد حِذْقها طول الاختلاف إلى العلماء ومدارسة كتب الحكماء ورسائل المتقدمين والمتأخرين والوقوف على الأشعار والأخبار والسير والأسمار والخطب ومحاورات العرب ومعانى العجم وحدود المنطق وأمثال الفُرْس ورسائلهم وعهودهم وسيرهم ، مع التزود بالنحو والتصريف واللغة والفقه . وابن المدبر بذلك كله يلتقى بذوق علماء الكلام كما يمثلهم الجاحظ فيما حكاه من الثقافات الأجنبية ، كما يلتقى بعلماء اللغة والتصريف ، فهو يستضىء بهم جميعاً . ويدعو من يريد التخصص بهذه الصناعة أن يمهر فى نَزْع آى القرآن الكريم ووضعها فى مواضعها ، وكذلك الأمثال والأشعار وإن كانت الأخيرة لاتُستَحسَنُ فى مخاطبة الخلفاء، وهو فى هذه الملاحظة يستمد من الجاحظ مباشرة[2] وقد استمد منه كثيراً فى رسالته . والمهم أنه يشيد فى تكوين ثقافة الأديب بالثقافة العربية ، ويضعها جنباً إلى جنب مع الثقافات الأجنبية ، مما يدل بوضوح على أنه كان يتأثر ببيئة المتكلمين تأثراً عميقاً . ويتحدث عن زِىِّ الكاتب وحسن هندامه ، ويطالب — فى إلحاح — كما طالب الجاحظ من قبله بالملاءمة الدقيقة بين الكلام وطبقات الناس من الخلفاء والوزراء والكُتَّاب وولاة الثغور وقواد الجيوش والقضاة والعلماء وذوى النباهة والظَّرْف . ويقول إن لكل طبقة من هذه ما يناسبها من الألفاظ والمعانى ، حتى لا يُجْرى الأديب شعاع بلاغته فى غير مساربه ولا يَنْظم جوهر كلامه فى غير سِلْكه. ولا بد — كما قال الجاحظ مراراً وتكراراً — من المشاكلة الدقيقة بين الألفاظ والمعانى ، حتى توضع الألفاظ فى مواضعها وتنزل

(١) جمهرة رسائل العرب لأحمد زكى صفوت ٣ / ١٩٩ .

(٢) البيان والتبيين ١/١١٨ .

مواطنها . ثم يتوقف — مهتدياً بابن قتيبة — إزاء أبنية ينبغى تركها واستعمال أبنية أخرى ، فمثل الدعاء : « أبقاك الله طويلا » ليس مُسْتَحَبّاً ، إنما المستحب « أطال الله بقاءك » مع أنه لافرق فى المعنى بين العبارتين ، ولكنهم جعلوا الثانية أرجح وزناً وأنبه قدراً . وكذلك الدعاء : « جُعلت فداك » يرى أنه قد ابتُذل حتى مَجَّتْهُ الأفواه ، إلى غير ذلك من أدعية كانت تنبو عن ذوق الأدباء من أمثاله . ويقول إن مديح الخلفاء والوزراء فى الرسائل ينبغى ألا يكون بالفروض الواجبة مثل : يصدق فى وعده ويفى بعهده ، لأن ذلك من الواجبات التى ينبغى أن تكون فى كل شخص . ولا بد أن يعرف الأديب لكل كلمة مكانها . ويضرب مثلا لذلك أن شخصاً كتب إلى داود بن خلف الأصبهانى معاصره صاحب مذهب الظاهرية عن شخص آخر على هذا النمط : «وإن قال كذا فقد خرج عن الملّة ، والحمد لله » وردّ عليه داود متعجباً عن وضع الحمد فى هذا المكان قائلا : «تحمد الله على أن تُخْرِج امرءاً مسلماً من الإسلام . هذا موضع استرجاع ، وللحمد مكان يليق به . وإنما يقال فى المصيبة : إنا لله وإنا إليه راجعون » . ويَطْلُبُ ابن المدبِّر أن يوضع مع ذكر الشكوى مثل : « والله المستعان ، وحسبنا الله ونعم الوكيل » ، ومع ذكر البَلْوَى : « نسأل الله دفع المحذور ، ونسأل الله صَرْفَ السوء » ومع ذكر النعم مثل : « الحمد لله خالصاً ، والشكر لله واجباً » . ويمضى فى إثر الجاحظ : فيقول إنه لا يجوز فى الرسائل الإيجاز المفرط ولا استعمال الألفاظ المشتركة أو المبهمة ولا محاكاة الشعر فيما يجرى فيه من حذف أو ضرورات . ويحذّر من استعمال كلمة « إياك » ويحسُّ ثقلها فى مثل «كلمت إياك» . ويُبْدئ ويُعيد — على ضوء الجاحظ — فى أن الألفاظ ينبغى أن توضع فى مواقعها بدقة . ويدعو إلى الاستهلال فى مقدمات الرسائل بحيث تشير فى صدرها إلى المراد منها ، ويوصى بعدم إطالة المقدمات فى الكتابة ، ويقول إنها ينبغى ألا تزيد عن سطرين أو ثلاثة . ثم يُفيض فى أوصاف القلم واختيار مادته وطريقة بَرْيه وأنواعه وأجودها ، ويوصى بعدم إغفال الصلاة على الرسول عليه السلام . ويلْفت إلى كيفية كتابة التاريخ بالقياس إلى الشهر ، فإن كان الماضى أقل من نصف الشهر قال الكاتب : لكذا ليلةً مضت من شهر كذا ، وإن كان الباقى أقل من النصف قال : لكذا ليلةً بقيت . ويتحدث عن القراطيس والكتابة فيها وطيِّها . ويشير — على هدى ابن قتيبة — إلى العناية

بميزان التصريف . ويعود إلى وضع الألفاظ فى أماكنها ، ويَنْهَى — كما نهى المتكلمون من قبل — مَنْ ليست له موهبة أدبية عن محاولة الانتظام فى هذه الصناعة . وينقل عن أحد المتكلمين ، وهو العتَّابى ، رأيه فى اختيار الألفاظ وصعوبته . وينصح الكاتب بعَرْض ما يكتبه فى باكورة حياته على المختصين ليروا مقدار صلاحيته للصناعة . ويَنْهَى — على هدى الجاحظ — عن الألفاظ الحوشية والمبتذلة ، وينقل عنه إعجابه بالكتَّاب إذ قال : « ما رأيت قوماً أمثل طريقة فى البلاغة من الكُتَّاب ، فإنهم التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعّراً وحشيًّا ولا ساقطاً سوقيًّا » . ويعود إلى فكرة الوضوح الجاحظية . وينقل عنه بعض كلامه . ويذكر أرسطو وينقل عنه بعض ما قاله فى النِّصْبة التى تدل على اللفظ والإشارة والخط والعقد كأعلام الأفراح ، وينقل أيضاً عنه حَدَّه للإنسان وأنه الحى الناطق ، وهو بذلك يقترب من ذوق المتكلمين وانتفاعهم ببعض ما تُرجم دون الذوبان فيه . ويبيِّن أهمية الكتب المحبَّرة تحبيراً جيداً فى استنزال الجبابرة وأنها قد تصنع ما لا تصنعه الجيوش اللَّجبة . ثم يسوق صفحات جلَبها من البيان والتبيين عن تعريف اليونان والروم والفرس للبلاغة . ولا يكتفى بذلك بل ينقل أيضاً الصحيفة التى دوَّنها الجاحظ عن الهنود فى البلاغة ، ويتلوها بما دوَّنه عن بعض بلغاء العرب والمتكلمين مثل خالد بن صفوان وعمرو بن عبيد والخليل بن أحمد ، وكل ذلك دليل واضح على أن ابن المدبر وضع نُصْبَ عينه فى كتابته لرسالته العذراء ابن قتيبة والجاحظ ، ولكن أثر الجاحظ وكتابه البيان والتبيين أبعد مدى وأعمق أثراً .

وحتى الآن لم نتكلم عن كتاب يمثل بيئة المترجمين والمتفلسفة ومن كان ينهج نهجهم فى الدعوة لمعايير البلاغة اليونانية ، ولعل خير كتاب قدمته هذه البيئة فى مجال النثر والكتابة هو الكتاب الذى نُشر باسم نقد النثر منسوباً إلى قدامة بن جعفر ، وقد تبيَّن فيما بعد أنه جزء من كتاب البرهان فى وجوه البيان لإسحق بن إبراهيم بن سليمان ابن وهب ، وهو من أسرة ظلت تعمل فى دواوين الخلفاء العباسيين منذ المأمون ، وكان جده وزيراً للمهتدى والمعتمد ، وتوفى سنة ٢٧٢ فبينه وبين حفيده جيل واحد مما يدل على أنه ممن عاشوا بأخرة من هذا العصر . ونراه فى مستهل كتابه يُزْرى على كتاب الجاحظ : « البيان والتبيين » ، وهذا طبيعى لأنه يمثل بيئة المتفلسفة

والمترجمين التى كانت تعارض المتكلمين فى مقاييسهم البلاغية ، لأنهم لم يستوعبوا فى رأيه كتابات أرسطو فى المنطق والجدل والخطابة . وهو يفتتح كتابه بمباحث فى العقل تدل على أنه شيعى إمامى ، ويعقد فصلا للقياس يحلله فيه على طريقة أرسطو ، ويقول إنه جُعل عماداً وعياراً على العقل كما جُعل البركار لتقويم الدائرة والمسطرة لتقويم الخط . ويفيض فى مباحث تتصل بالأخبار وبالفقه . ويتكلم عن بعض خصائص التعبير كما يتكلم عن الرمز ويقول إنه أتى منه كثير فى كتب المتقدمين من الفلاسفة وكان أكثرهم استعمالا له أفلاطون . ويعود إلى الحديث عن بعض خصائص العبارات وعن الأمثال والالتفات وعن المبالغة ويرتضيها متأثراً بأرسطو ، ويعرض لمبحث الفصل والوصل بين العبارات وكذلك لمبحث التقديم والتأخير . ويقسم الكلام المنثور إلى خطابة وترسل واحتجاج وحديث ، وينوّه بالإيجاز الذى حذّر الجاحظ منه ، ويقول إن أرسطو وأوقليدس كانا شديدى الإيجاز ، بينما امتاز بالإطناب جالينوس ويوحنا النحوى . ويعقد فصلا فى نحو عشرين صحيفة ، أجمل فيه كتاب الجدل لأرسطو . وواضح أنه توسّع فى تشريعه للنثر العربى ووضْعه لمعاييره فى الأخذ عن كتابى أرسطو فى المنطق والجدل . وهو أخذٌ يبدو فيه الجفاف وأنه ينبو عن الذوق العربى ، ولذلك لم يلْقَ هذا الكتاب ترحيباً من المتأدبين . وكان لذلك أثره فى أن نقاد العرب لم ينقلوا عنه شيئاً فى كتاباتهم عن الخطابة والنثر . إذ رأوه يحتكم إلى أشياء غير وثيقة الصلة بأدبهم ، ومن أجل ذلك ظل الكتاب وصاحبه مجهولين من عامة النقاد . ولا نبعد إذا قلنا إن بيئة المتكلمين هى التى سيطرت بما وضعته من معايير على أذواق الكتاب والأدباء فى العصر ، وظل ذلك حقباً متطاولة ، وهى كما قلنا بيئة معتدلة كانت تزاوج بين المعايير العربية والمعايير الأجنبية بحيث ظلت أوضاع العربية قائمة ، كما ظلت مقوّماتها حيّةً ، مقومات تعتمد على التراث القديم وتتطور بما يلائم العصر والثقافات الحديثة ، تطوراً لا يَجْنِى على العربية ، بل تجنى منه ثماراً رائعة ، غذاء للعقول وشفاء للقلوب والأرواح .

وعلى هذا النحو كان ذوق بيئة المتكلمين هو الذوق الأدبى العام ، وكان لذلك أثره فى أن ازدهر النثر العربى وأخذت موضوعاته تتنوّع تنوعاً واسعاً ، وقاد هذا الازدهارَ الجاحظُ المتكلم المشهور ، إذ نراه يُعْنَى بتصوير الطبقات فى مجتمعه ، فهو يكتب عن الأتراك والسودان والموالى والعرب والنصارى واليهود ، ويَفْسَحُ

للطبقات العامة ، فيكتب عن اللصوص والمُكْدِين وحيَلِهِم والقيان والمرأة . وكأنما أحدث موضوعات جديدة لكتب السَّمَر التى كانت تُقْرَأ فى كل مكان . وكانت قبله لا تعدو بعض كتب الآداب الفارسية وبعض قصص الحب العربية وقصص البطولة والإسرائيليات . وظل الاتجاه إلى ترجمة بعض القصص الفارسية قائمًا ، وكان أهم ما تُرجم فى هذا العصر حكايات ألف ليلة وليلة واسمه بالفارسية هزار أفسان أى ألف حكاية . ويُفْهَمُ من كلام المسعودى عنه أن حكايات السندباد لم تكن جزءاً منه فى عصره ، بل كانت مستقلة . ويقول إن مؤلفها حكيم هندى يسمى السندباد ، وهى تشتمل على كتاب الوزراء السبعة ، والمعلم والغلام ، وامرأة الملك . ويذكر المسعودى أنه كانت هناك حكايات مماثلة تُرْجمت عن الرومية[1] . ومما تُرجم حينئذ أو قل مما استمدَّ من أصول فارسية كتاب التاج المنسوب إلى الجاحظ ، وقد ألَّفه أحد معاصريه وقدَّمه إلى الفتح بن خاقان وزير المتوكل ، وهو يصور نُظُمَ الساسانيين حُكَّام الفرس قبل الإسلام وتقاليدهم . ومعنى ذلك أن النقل عن الفارسية ظل محتدمًا فى هذا العصر ، ولكن أخذت الشخصية العربية تُثْبت وجودها فى قوة ، فبمجرد أن تُرْجم كتاب ألف ليلة وليلة ألف محمد بن عبدوس الجهشيارى المتوفى سنة ٣٣١ للهجرة كتابًا على نسقه به ألفُ حكاية من حكايات العرب وغيرهم . وظهرت فى العصر كتب أسمار كثيرة ، كانت تتلهف عليها العامة ، وخاصة ما دار منها حول الحب وأقاصيصه أو حول الجن أو حول بعض النساء . وكثرت كتب النوادر والكتب التى تصوّر أحوال الحمقى وأقوالهم وأفعالهم ، وكتب الندماء والمنادمة ، وكذلك الكتب التى تصور أخلاق العامة مثل كتابات مساوئ العوام وأخبار السفلة والأغتام للصَّيْمَرى .

وكثرت كتب الأدب التهذيبى ، وممن أكثر منها ابن أبى الدنيا المتوفى سنة ٢٨١ وقد نُشر فى القاهرة مختصر صنعه السيوطى لكتابه الفرج بعد الشدة ، وكانت له كتب مختلفة فى مكارم الأخلاق . ومثله محمد بن خلف بن المرزبان

---

(١) انظر فى ذلك كله مروج الذهب ١/ ٩٧ ، ٢/ ٢٥١ .

المتوفى سنة ٣٠٩ وقد ترجم كتبًا كثيرة عن الفارسية وله تصانيف حسان فى الأخلاق وأحوال الناس ، منها كتابه : « تفضيل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب » ، ومثلهما أبو بكر الخرائطى السامرى المتوفى سنة ٣٢٥ ، وله مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها ومراضيها ، نُشر بالقاهرة .

وبجانب كتب الأدب والسمر فتح الجاحظ موضوعًا جديداً ، هو وصف البلدان ، إذ ألَّف كتابًا فيه سماه كتاب الأمصار وعجائب البلدان تحدث فيه عن مكة وقريش والمدينة ومصر والبصرة ، وذكر خصائص كل بلدة وطباع أهلها وأثر البيئة فيها[1] . ويبدو أنه اعتمد فى وصف بعض البلدان على بعض الإخباريين مما جعله يخطئ فى جوانب من كلامه على نحو مالاحظ المسعودى إذ يقول : « وقد زعم عمرو بن بحر الجاحظ أن نهر مهران الذى هو نهر السند من نيل مصر ، ويستدل على أنه من النيل بوجود التماسيح فيه ، ولست أدرى كيف وقع له هذا الدليل ، ذكر ذلك فى كتابه المترجم بكتاب الأمصار وعجائب البلدان . . . لأن الرجل لم يسلك البحار ولا أكثر الأسفار . . إنما كان ينقل من كتب الورَّاقين[2] » . وملاحظة المسعودى صحيحة ، ولكنها لا تغض من أهمية هذا الكتاب الذى فتح به الجاحظ لمعاصريه موضوعًا جديداً للكتابة ، وكان ممن تابعه فيه معاصره اليعقوبى أحمد بن أبى يعقوب بن واضح ، وكتابه البلدان منشور . وتعاقبت بعد ذلك الكتب فى هذا الموضوع . والمهم أن الجاحظ أثار فى كتابه بقوة فكرة البيئة وطوابعها فى السكان ، وقد كتبه بأسلوبه الأدبى البارع .

٢

الخطابة والمواعظ والنثر الصوفى

ضعفت الخطابة السياسية فى هذا العصر ، كما ضعفت الخطابة الحفلية ، فكلاهما أصبح شيئًا نادراً ، وحتى ما بقى منهما إنما هو شظايا قليلة كتلك الشظايا

(١) راجع كتاب الجاحظ للدكتور طه الحاجرى (طبع دار المعارف) ص ٣٨٩ وما بعدها .

(٢) انظر مروج الذهب ١/١١٤ .

التى حكاها الطبرى عن صاحب الزنج ، بل لقد أجمل ما رواه من خطبه[1] بحيث لا نكاد نتبينها فى وضوح . وضعفت الخطابة الدينية على ألسنة الخلفاء وإن ظلت مزدهرة فى المساجد وفى خطب الجمع والعيدين ، فقد أصبح من المعتاد ألا يخطب الخليفة يوم الجمعة إلا ما كان من الخليفة المهتدى الورِع الذى ظل فى الحكم نحو عام ، فإنه كان يذهب إلى المسجد الجامع بسامرّاء فى كل جمعة ويخطب الناس ويؤمّهم[2] ، ويُرْوَى أن الخليفة المعتضد حاول أن يخطب فى بعض الأعياد ، فأُرتِجَ عليه ولم تُسْمَعْ خطبته[3] ، ولم يخطب خليفة بعده فى العصر سوى الراضى ، ولم تُؤْثَرْ خطبه .

ولكن الخطابة الدينية إن كانت قد ضعفت على ألسنة الخلفاء فإنها نشطت نشاطاً عظيماً فى المساجد فقد كانت تُعْقَدُ حلقات للوعاظ والقُصّاص وكان الناس يتحلّقون من حولهم فيما يشبه احتفالات الأعياد ، وكان منهم الرسميون الذين تعيّنهم الدولة للخطابة فى أيام الجمع ومنهم غير الرسميين ، وهم الجمهور الأكبر . وكانوا يستمدّون فى وعظهم وقصصهم من القرآن الكريم والحديث النبوى وقصص الأنبياء والمرسلين ، ومنهم من كان يقرأ القرآن الكريم ويفسره ، وكانوا يُعْنَوْنَ بعَوْن الضعفاء والمَساكين واليتامى وبالجهاد وحرب الأعداء مستعينين فى ذلك بأعمال البِرّ . وكثير منهم كان يذهب مع الجيوش المجاهدة للوعظ فى الحرب وبَثّ روح الحماسة الدينية فى نفوس المجاهدين من مثل أبى العباس الطبرى الذى مَرّ ذكره والذى كان يعظ ويقصّ على المجاهدين فى طَرَسُوسَ . ولم يكن يخلو يوم من أيام رمضان من واعظ أو قاصّ بعد الصلاة . وكانت العامة تشغف بهم شغفاً شديداً ، حتى ليُحْكى عن الطبرى أنه تعرّض لقاصّ ببغداد يُنْكر عليه بعض ما يقوله ، فصاحت به العامة ورموا باب داره بالحجارة . ولا بد أن نفرق بين هؤلاء القصاص الوعاظ وبين قُصّاص آخرين كانوا يجلسون للشباب والغلمان فى الطرقات ببغداد ويقصّون عليهم نوادر الأخبار والحكايات الهزلية ، وكانوا يُسْلَكون فى المشعوذين ، ويضطرب بعض المستشرقين فيخلط بينهم وبين القصّاص الوُعّاظ ،

(١) الطبرى ٩ / ٤١٤ وما بعدها .
(٢) مروج الذهب ٤ / ٩٦ .
(٣) طبرى ١٠ / ٣١ .

ولا صلة بين الطرفين إلا فى الاسم ، وهؤلاء هم الذين كانت الدولة تطاردهم أحيانًا كما مَرَّ بنا فى غير هذا الموضع ، أما قُصَّاص المساجد الوعَّاظ فكانوا موضع رعاية الدولة منذ عصر بنى أمية ، وظل ذلك بعدهم ، حتى لنجد بعض من يُسْنَد إليهم القصص فى المساجد يُسْنَدُ إليهم القضاء[1] . أما الوعَّاظ فكان منهم دائمًا خطباء المساجد فى الجمع والأعياد وأئمتها فى الصلاة ، وكان منهم كثيرون فُصَحاءَ بُلغاءَ ، فكان الناس يحتشدون حولهم ، مُكْبِرين لهم إكباراً عظيمًا .

وكانت المساجد دائمًا مفتوحة ليلا ونهاراً ، ودائمًا يوجد فيها الناس للصلاة وتوجد فيها حلقات التدريس ، فكان الواعظ يختار أى وقت يشاء لموعظته ، وإن كان عادة يجعلها تالية لبعض الصلوات . ومن كبار الوعاظ الذين شهدتهم بغداد فى العصر أبو الحسن على بن محمد الواعظ المصرى المتوفى سنة ٣٣٨ وكان يحضر مجلس وعظه الرجال والنساء .

وأخذت تنشأ منذ أوائل العصر طبقة جديدة من الوعَّاظ ، كانوا يسمَّون بالمذكِّرين ، ويسمَّى مجلسهم باسم مجلس الذكر أى ذكر الله وتسبيحه ، وكانوا من الصوفية ، بل كانوا خطباءهم ووعَّاظهم الممتلئين صلاحًا وتقوى وورعًا ، وكانوا يعظون الناس فى المساجد وفى الزوايا ، خالطين الخوف بالرجاء ، مستشهدين ببعض آى القرآن وبعض الحديث ، وقد يفسرونهما ويعلقون عليهما ، مضيفين من حين إلى حين عباراتهم الصوفية التى تَأسِرُ العقول والقلوب . ومن وعَّاظهم فى العصر يحيى بن معاذ الرازى المتوفَّى عام ٢٥٨ ويُرْوَى أنه جاء إلى شيراز ، فصعد المنبر ، واجتمع إليه الناس فأول ما بدأ به قوله :

مواعظُ الواعظِ لَنْ تُقْبَلاَ حتى يَعِيها قَلْبُهُ أَوَّلاَ

وانهال الناس عليه بعد ذلك انهيالا . ومن أكبر وُعَّاظهم فى العصر أبو حمزة الصوفى المتوفى سنة ٢٦٩ وهو — كما مَرَّ بنا فى الفصل الثانى — أول من تكلم على رءوس المنابر ببغداد خالطًا مواعظه باصطلاحات

---

(١) الولاة والقضاة للكندى (طبعة جيست) ص ٤٢٧ .

الصوفية وأفكارهم من صفاء الذكر وجمع الهمّ والمحبة والعشق والأنس . وكان هؤلاء الوعّاظ يَجتذبون إليهم الناس بأكثر مما يجذبهم الوعّاظ العاديون لقيام حياتهم على الزهد والتقشف ورَفْض كل متاع .

وتكوّنت حول هؤلاء الوعّاظ من المتصوفة سريعًا حكاياتٌ كثيرة تصوّر جهادهم العنيف فى قَمْع شهوات النفس ولذاتها وكيف كان الصوفىُّ يَفْرض على نفسه عَنَاءً شاقًّا مُضْنيًا لا يُطيقه إلا أولو العَزْم . وعادة تحتوى القصة أو الحكاية ما يلفت الصوفى إلى تقصيره وأن عليه أن يتحمل أهوالا ثقالا ، فمن ذلك ما يُرْوَى عن بشر الحافى المتصوف المتوفى قبيل هذا العصر سنة ٢٢٧ من أنه مَرّ ببعض الناس فسمعهم يقولون : هذا الرجل لا ينام الليل كله ولا يُفْطر إلا فى كل ثلاثة أيام مرة ، فبكى حين سمعهم يردّدون هذا الكلام ، وسأله سائل : ما يُبْكيك ؟ فقال : إنى لا أذكر أنى سهرت ليلة كاملة ، ولا أنى صمت يومًا ولم أفْطر من ليلته ، ولكن الله سبحانه وتعالى يلقى فى القلوب أكثر مما يفعله العبد لطفًا منه سبحانه[1] وكرمًا . ويُحكى عن السَّرِىِّ السَّقطى المتوفى سنة ٢٥١ أنه كان إذا أفطر كل ليلة ترك لقمة ، فإذا أصبح جاءت عصفورة ، وأكلت تلك اللقمة من يده ، وذات يوم اشتهى أن يأكل الخبز بالقديد (لحم مقدّد) فامتنعت العصفورة من أكل اللقمة التى تعودت أكلها ، فعاهد نفسه ألا يتناول أبداً شيئاً من الإدام[2] ! . ويَرْوِى ابن أخته الجُنَيْد أنه دخل عليه يومًا ، فوجده يبكى ، فقال له : ما يُبْكيك ؟ فقال : جاءتنى البارحة الصبية ، فقالت : يا أبَتِ هذه ليلة حارة ، وهذا الكوز أعلّقه ههنا ، ثم إنى نمت فرأيت جارية من أحسن الخلق نزلتْ من السماء فقلت لها : لمن أنت ؟ فقالت : لمن لا يشرب الماء المبرّد فى الكيزان ، فتناولت الكوز ، فضربت به الأرض فحطمته[3] . وهما خبران رمزيان يصوران ما كان يأخذ به السَّرِىُّ نفسه من الشظف فى العيش والحرمان الشديد . ويحكى عن رُوَيْم بن أحمد المتوفى سنة ٣٠٣ ، وكان مجرداً من الدنيا زاهداً ورعًا ، أنه اجتاز فى بغداد وقت الهاجرة ببعض الطرقات وهو عطشان ، فاستسقى من دار ، ففتحت

---

(١) رسالة القشيرى (طبعة سنة ١٣٤٦هـ بمصر) ص ٢٠ .

(٢) القشيرى ص ١٠ .

(٣) القشيرى ص ١١ .

الباب صبيّة ومعها كوز ماء ، فأخذه منها وشرب ، فاستدارتْ له قائلة : صوفيّ يشرب بالنهار ! فما أفطر بعد ذلك اليوم قط[١] .

وهذه الحكايات الصوفية أخذت تكوّن ضرباً من ضروب الآداب الشعبية العربية ، إذ كان الناس يتداولونها رجالا ونساء وشيباً وشبّاناً ، وكأن التصوف كان عاملا قويًّا فى ظهور تلك الآداب وَطبْعها بطوابع الشعب ولغته وألفاظه . وتتصل بها الحكايات التى أخذت تُؤْثَرُ عن كرامات المتصوفة . ومرَّ بنا فى الفصل الثالث أن الحكيم الترمذى المتوفى سنة ٣٢٠ صنَّف فى تلك الكرامات كتاباً سمَّاه « ختم الولاية » يريد ولاية الصوفية وأنهم أولياء الله فى أرضه ، ولذلك تظهر على أيديهم كرامات كثيرة. وممن تكثر إضافة الكرامات إليه فى هذا العصر بُنان الحمَّال المصرى المتوفى سنة ٣١٦ ، فقد قيل إن خمارويه أمر بأن يُطْرَحَ بين يدى سَبُع ، فطُرح وبقى ليلته ، وجعل السبع يشمه ولا يضره ، فلما أصبحوا وجدوه قاعداً مستقبل القبلة والسَّبعُ بين يديه. وعجب خمارويه ، فأطلقه واعتذر إليه[٢]. وحُكى أنه كان لرجل على آخر دين : مائة دينار ، بوثيقة ، فطلب الرجل الوثيقة فلم يجدها ، فجاء إلى بُنان ليدعو له ، لعله يجد الوثيقة الضائعة ، فقال له بنان : أنا رجل قد كبرتُ وأحب الحلواء ، اذهب إلى قريح (حلوانى) فاشتر رطل حلواء وائتنى به ، أدعو لك ، ففعل الرجل ، وجاءه . فقال له بنان : افتح ورقة الحلْواء ، ففتحها ، فإذا هى الوثيقة ، فقال : هذه وثيقتى ، فقال بنان : خُذْها ، وأطعم الحلواء صبيانك . ولم يكن يؤمن بمثل هاتين الكرامتين إلا عوامُّ المتصوفة ، وهو ما يعنينا ، إذ دارت حكايات هذه الكرامات على ألسنة العامة ، وبذلك كان التصوف عاملا قويًّا فى العصر على ذيوع لون شعبى جديد من الأدب ، وهو لون قصصى ، وقد أخذت تؤلف فيه المصنَّفات مثل كتاب « ختم الولاية » الآنف ذكره ، وكانت بدورها مصنفات شعبية تتداولها كثرة من الأيدى. ولعله من المهم أن نعرف أن خاصة المتصوفة وكبارهم فى العصر كانوا ينكرون هذه الكرامات إنكاراً باتًّا ، فيُحكَى عن أبى يزيد البسطامى المتوفى سنة ٢٦١ أنه قيل له إن فلاناً يمشى فى ليلة إلى مكة ، فقال :

---

(١) القشيرى ص ٢١ .

(٢) انظر فى هذه الحكاية وتاليتها النجوم الزاهرة ٣ / ٢٢١ .

الشيطان يمشي في ساعة من المشرق إلى المغرب في لعنة الله . وقيل له : فلان يمشي على الماء ويطير في الهواء ، فقال : الطير يطير في الهواء والسمك يمر على الماء[1]. وجاء رجل إلى سهل التستري المتوفى سنة ٢٧٣ ، فقال له : إن الناس يقولون إنك تمشي على الماء ، فقال له : سَلْ مؤذّن المحلّة ، فإنه رجل صالح لا يكذب ، قال : فسألته ، فقال المؤذن : لا أدري هذا . ولكنه نزل حوض الماء في بعض الأيام ليتطهر ، فوقع في الماء ، فلو لم أكن أنا لبقي فيه[2] . ويُروى عن بعض الصوفية أنه قال : كان في نفسي شيء من هذه الكرامات ، فأخذت قصبة من الصبيان وقمت بين زورقين ، ثم قلت : وعزّتك لئن لم تخرج لي سمكة قدرها ثلاثة أرطال لأغرقنّ نفسي ، قال : فخرجت لي سمكة قدرها ثلاثة أرطال ، فبلغ كلامه الجُنَيْد ، فقال : كان حقه أن تخرج له أفعى تلدغه .

والمهم أن التصوف نشرَ بهذه الحكايات المتصلة باحتمال المتصوفة لأثقال الشظف وما اعتقدته العامة فيما جرى على أيديهم من الكرامات أدبًا شعبيًا قصصيًا كان يدور بين الناس . ولون ثالث من هذه الحكايات كان يقص أخبار المتصوفة لعل خير ما يصوره كتاب أخبار الحلاج ، وهو أخبار وحكايات عنه بألسنة تلاميذه ، تحمل أحواله وآراءه ومُعتقده . فمن ذلك ما رواه تلميذه إبراهيم الحلواني . قال[3] :

« دخلت على الحلاج بين المغرب والعشاء ، فوجدته يصلي . فجلست في زاوية البيت ، كأنه لم يحسّ بي لاشتغاله بالصلاة ، فقرأ سورة البقرة في الركعة الأولى . وفي الركعة الثانية آل عمران ، فلما سلّم سَجَد وتكلّم بأشياء لم أسمع بمثلها ، فلما خاض في الدعاء رفع صوته كأنه مأخوذٌ عن نفسه ، ثم قال : يا إله الآلهة ويا ربّ الأرباب ويا من (لا تأخذه سِنة ولا نوم) رُدّ إليّ نفسي لئلا يفتتن بي عبادك . يا هو أنا ، وأنا هو . لافرق بين إنّيّتي (وجودي) وهُويّتك إلا الحدوث والقِدَم . ثم رفع رأسه ونظر إليّ وضحك في وجهي ضحكات . ثم قال : يا أبا إسحق أما ترى أن ربي ضرب قِدَمه في حدوثي حتى استهلك حدوثي في قِدَمه ، فلم

(١) القشيري ص ١٦٣ .

(٢) القشيري ص ١٦٤ .

(٣) أخبار الحلاج ص ٢٠ .

يبق لى صفة إلا صفة القديم ، ونُطقى فى تلك الصفة . والخلق كلهم أحداث ينطقون عن حدوث . ثم إذا نطقتُ عن القدم ينكرون عليّ ويشهدون بكفرى ويسعون إلى قتلى . وهم بذلك معذورون ، وبكل ما يفعلون بى مأجورون » .

والحكاية تصور عقيدة الحلاج فى أنه بتحمله للآلام الثقال أصبح – كما يزعم – فى مرتبة عليا ، بحيث ارتسمت الصورة الإلهية فيه ، إذ ظهر فيه اللاهوت ، وأصبح لا يفرّق بين نفسه وربه . فقد امتزج الحدث أو الحداثة فيه بالقدم ، بل إنه لم تبق فيه صفة إلا صفة القدم ، بخلاف من حوله من الناس . فهم جميعاً يستشعرون الحدوث ، أو قل كلهم حادثون ، وهو وحده الذى أصبح يستشعر القدم ، فلماذا ينكرون عليه التكلم عن القدم . مع أنه هو – كما يزعم – والقديم شيء واحد ! .

وله عبارات تدل على أنه كان فى بعض أحواله يؤمن بتنزيه الذات العلية عن التشبيه بالمخلوقات وفى أخباره عن أحمد بن سعيد الإسبينجانى قال(١) :

سمعت الحلاج يقول : ألزم (اللهُ) الكلّ الحدوث لأن القدم له . والذى بالجسم ظهوره العرضُ يلزمه . والذى بالإرادة اجتماعه قواها تُمسكه . والذى يؤلفه وقت يفرّقه وقت . والذى يقيمه غيره الضرورة تمسّه . والذى الوهمُ يظفر به التصويرُ يرتقى إليه . ومن آواه محل أدركه أينٌ . ومن كان له جنس طالبه كيفٌ . إنه تعالى لا يظلّه فوقٌ ولا يقلّه (يحمله) تحتٌ . ولا يقابله حدٌّ ولا يزاحمه عندٌ ، ولا يأخذه خلفٌ ولا يحدّه أمامٌ . ولا يظهره قبلٌ ولا يفنيه بعدٌ . ولا يوجده كان ، ولا يفقده ليس (عدم) . وصفُه لا صفة له . وفعلُه لا علّة له . وكونه لا أمدَ له . تنزّه عن أحوال خلقه . ليس له من خلقه مزاج ، ولا فى فعله علاج ، باينهم بقدمه كما باينوه بحدوثهم » .

ويستمر الحلاج فى مثل هذا التنزيه لله ، فهو لا يشبه الكائنات فى شيء ولا يشبهونه فى شيء ، تفرّد بذاته وصفاته عن ذواتهم وصفاتهم فهم حادثون وهو قديم ، لا يلزمه شيء ولا يمسكه شيء ، كلٌّ واحد لا أجزاء له ، لا تمسه ضرورة ولا يلحقه وهم ، ولا يؤويه مكان ولا تحتويه صفة ، لا شيء فوقه ولا آخر تحته ، لا يحدّه حدّ ولا جهة من الجهات ، موجود قبل كل وجود ، ولا يلحقه عدم

---

(١) أخبار الحلاج ص ٣١ .

ولا فناء ، ولا يصفه وصف لا يُسأل عما يفعل ، أزليّ أبديّ ، ليس كمثله شيء ، قديم والخلق جميعًا حادثون . ومرّ بنا أنه ربما كان أول صوفي دعا للانفصام بين الحقيقة (التصوف) والشريعة ، وفي أخباره أنه قال في رسالة له أرسل بها إلى بعض تلامذته[1] :

« اعلم أن المرء قائم على بساط الشريعة ما لم يصل إلى مواقف التوحيد ، فإذا وصل إليها سقطت من عينه الشريعة واشتغل باللوائح الطالعة من معدن الصدق ، فإذا ترادفت عليه اللوائح وتتابعت عليه الطوالع صار التوحيد عنده زندقة والشريعة عنده هوَسًا ، فبقي بلاعين ولا أثر . إن استعمل الشريعة استعملها رسمًا . وإن نطق بالتوحيد نطق به غلبة وقهراً » .

وواضح أنه يجعل الشريعة للناس العاديين ، أما أهل الحقيقة من أمثاله فإنهم يُسقطون الشريعة ويسقطون معها الفروض الدينية ! فلا صلاة ولا صوم ولا حج ولا زكاة ، بل إن المتصوف إذا ظل راقيًا في مراقي الحقيقة العليا ، سقطت عنده لا الشريعة وحدها ، بل كل شيء حتى التوحيد ! . ولعل في الفقرة الأخيرة من كلامه ما يشير إلى لون رابع من ألوان النثر الصوفي ، هو تصوير الصوفية لمعتقداتهم في مصنفات خاصة . على نحو ما يلقانا في كتاب الطواسين له ، ويحسن أن نعرض منه قطعة أو فقرة تصور كتابته الصوفية ، ولتكن القطعة التي كتبها عن شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم في مستهل الفصل الأول من كتابه ، وهي تجرى على هذا النمط[2] :

« طس سراج من نور الغيب بَدَا وعاد . وجاوز السراج وساد ، قمر تجلّى من بين الأقمار ، برُجُه في فلك الأسرار ، سمّاه الحق أميًّا لجمع همته ، وحَرَميًّا لعظم نعمته ، ومكيًّا لتمكينه عند قربه ، شرح صدره ، ورفع قدره ، وأوجب أمره ، فأظهر بدره . طلع بدره من غمامة اليمامة ، وأشرقت شمسه من ناحية تهامة . . . (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقًا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون) . أنوار النبوة من نوره برزت ، وأنوارهم من نوره ظهرت ، همّته سبقت الهمم ، ووجوده سبق العدم ، واسمه سبق القلم ، لأنه كان قبل الأمم . . . وهو سيد البرية الذي اسمه أحمد ، ونَعْته أوحد ، كان مشهوراً

(١) أخبار الحلاج ص ٧٣ .

(٢) الطواسين ص ٩ — ١٤ .

قبل الحوادث والكوائن والأكوان ولم يزل ، كان مذكوراً قبل القبل وبعد البعد ، هو الذى جَلاَ الصَّدَأ عن الصدر المغلول . وهو الذى أتى بكلام قديم لا مُحدَث ولا مقول ولا مفعول . . . فوقه غَمامة برقت ، وتحته برقة لمعت وأشرقت وأمطرت وأثمرت . العلوم كلها قطرة من بحره . والحكم كلُّها غَرْفة من نهره ، الأزمان كلها ساعة من دهره ، هو الأول فى الوصلة ، والآخر فى النبوة ، والباطن بالحقيقة ، والظاهر بالمعرفة » .

و«طس» تبتدئ بها سور معروفة فى القرآن الكريم ، وقد اختار جمعها اسمًا لكتابه! وهو يشيد بالرسول عليه السلام متمثلا فيه فكرة اللاهوت ، بل إنه ليجعل نوره المحمدى أول شيء خلقه الله . وقد ظل يظهر فى نبوات الأنبياء منذ آدم ، وليس ذلك فحسب ، فهو مبدأ الوجود وروحه ، وهو منبع العلم والعرفان والحكمة ، أو هو الأول السابق فى الوجود لكل وجود ، وهو الآخر فى النبوات وبين الأنبياء ، وكأنه الحقيقة الإلهية السارية فى الوجود كله . فمنها يستمد الكون وجوده وكل نبى نوره . بل إنه هو المشاهد فى كل نور . وذكر أن الرسول عليه السلام أتى بكلام قديم ، وبذلك خالف المعتزلة مخالفة صريحة فى قولهم بأن القرآن كلام الله ليس قديمًا بل هو مخلوق وحادث .

وواضح أن الحلاج كان يستخدم فى كتابه الطواسين السجع . وبذلك لاءم بين أسلوبه وأسلوب الكتابة فى أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع فإن السجع أخذ يعم فى الكتابات الأدبية . وربما كان فى اختياره لهذا الأسلوب ما يدل على أنه أراد أن يرتفع بكتابه الطواسين عن الطبقة العامة إلى الطبقة الخاصة محاولا أن يؤثر فيها بما حشده فيه من السجع تارة ومن الشعر تارة ثانية ، وكأنه كان يعرف قبل غيره أن العامة لن تفهم أفكاره الصوفية المعقدة . فقدَّمها إلى الطبقة الخاصة مُودِعًا فيها من السجع والشعر ما يتَفَسَّحُ للرمز والتأويل .

٣

المناظرات

مرَّ بنا فى كتاب العصر العباسى الأول ما يصور اندلاع المناظرات بين المعتزلة وطوائف المتكلمين وبينهم وبين أصحاب الملل والنحل اندلاعاً هيَّأ لظهور كثير من كبار المناظرين فى شئون الدين والعقل كما هيأ لبسط المعانى ومدِّها بذخائر جديدة من توليد الأفكار وتشعيبها والتعمق فى مساربها الخفية، وقد أسلفنا أن مجد المعتزلة سقط فى هذا العصر منذ وقف المتوكل قولهم القائل بخلق القرآن وفسح لآراء أهل السنة ، وقد غضب غضباً شديداً على ممثل المعتزلة فى بلاط المعتصم والواثق من قبله ، ونقصد أحمد بن أبى دؤاد .

لم يعد للمعتزلة مجدهم القديم ، ولكنهم لم يتراجعوا عن الوظيفة التى ندبوا لها أنفسهم إزاء أصحاب النحل والملل ، فكانوا بالمرصاد للملاحدة ، ومرَّ بنا كتاب الانتصار للخياط المعتزلى الذى ردَّ ردًّا مفحماً على ابن الراوندى الملحد . وظل الجدل عنيفاً بين المعتزلة وغيرهم من المتكلمين ،على نحو ما يصور لنا ذلك الجاحظ فى كتاباته وخاصة فى كتابه « فضيلة المعتزلة » وتلاه فى رياسة المعتزلة بالبصرة أبو يعقوب الشحَّام ، وكان يعاصره فى بغداد جعفر بن حرب المعتزلى ، وحكى الخياط مناظرة بينه وبين السَّكاك الرافضى فى علم الله جلَّ جلاله وحدوثه وقدمه وإثباته ونفيه[1] ، وفى موضع آخر يحكى المناظرات التى انعقدت بين هذا الرافضى وأبى جعفر الإسكافى المعتزلى قائلا : « وهذه مجالسة مع أبى جعفر الإسكافى معروفة يعلم قارئها والناظر فيها مقدار الرجلين وفرق ما بين المذهبين[2] » . وكانت تدور فى مجالس أبى على الجُبَّائى المتوفى سنة ٣٠٣ مناظرات كثيرة أهمها ما دار بينه وبين ربيبه وتلميذه أبى الحسن الأشعرى المتوفى سنة ٣٢٤ ، وكانت ترجح كفَّة الأشعرى غالباً . من ذلك مناظرتهما فى الصلاح والأصلح إذ كانت المعتزلة ومعهم أبو على الجُبَّائى يوجبون على الله فعل الأصلح ، وقد سأله الأشعرى فى أثناء احتدام

---

(١) الانتصار للخياط ص ١١٠ . (٢) الانتصار ص ١٤٢ .

المناظرة عن عاقبة ثلاثة : مؤمن وكافر وصبى ماتوا جميعًا ، فأجابه بأن المؤمن من أهل الدرجات والكافر من أهل الهلكات والصبى من أهل النجاة . وأخذ الأشعرى يراجعه إلى أن قال له : فلو قال الكافر : يا رب علمتَ حال الصبى وأنه لو بقى لعَصَى وعوقب فراعيتَ مصلحته ، وعلمتَ حالى مثله ، فهلاّ راعيت مصلحتى . حينئذ انقطع الجُبَّائى وألزمه الأشعرى أن الله يخصُّ من شاء برحمته ومن شاء بعقابه وأن أفعاله غير معلّلة[1] .

وكان الخلاف واسعًا بين بعض أصحاب المذاهب الفقهية ، فكثرت المناظرات بينهم ، وفى طبقات الشافعية للسبكى أطراف من هذه المناظرات ، ومما يذكره أن أبا العباس بن سريج القاضى رئيس الشافعية ببغداد كان مشغوفًا بمناظرة داود الظاهرى ، حتى إذا توفى داود مضى يناظر ابنه محمداً فى المذهب الظاهرى ، يقول : ولهما المناظرات المشهورة والمجالس المروية ، ويحكى أن ابن داود قال لابن سريج يومًا : أبلعنى ريقى ، فقال له : أبلعتك نهر دِجْلة ، وقال له يومًا : أمهلنى ساعة ، فقال له : أمهلتك من الساعة إلى قيام الساعة[2] . وبالمثل كان اللغويون والنحاة يتناظرون ، وشائعةٌ معروفةٌ مناظرات المبرد مع ثعلب بدار محمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد فى مسائل اللغة والنحو[3] . وكان تلاميذ ثعلب يتعرضون أحيانًا للمبرد فى محاضراته بالمسجد ، فما يزال يناظرهم ويجادلهم ويحاورهم حتى ينزعهم من أستاذهم ثعلب ويلحقهم بتلامذته وحلقته[4] .

ومن المناظرات التى اشتهرت بأخرة من العصر مناظرة السيرافى ومتَّى بن يونس المترجم المتفلسف فى مجلس الوزير الفضل بن جعفر بن الفرات لسنة ٣٢٠ وكان السيرافى من علماء النحو النابهين ، وله كتاب كبير فى شرح كتاب سيبويه . وكان موضوع المناظرة النحو والمنطق أيهما أكثر نفعًا فى معرفة صحيح الكلام من سقيمه . وقد روى المناظرة أبو حيان التوحيدى ونقلها عنه ياقوت فى معجمه[5] ، والطريف أنه يذكر فى فاتحتها من كان فى المجلس من العلماء والفضلاء ، ويذكر

---

(١) طبقات الشافعية للسبكى ٣ / ٣٥٦ وما بعدها .
(٢) السبكى ٣ / ٢٣ .
(٣) تاريخ بغداد ٥ / ٢٠٨ وإنباه الرواة ١ / ١٤١ ومعجم الأدباء ٥ / ١٣٧ .
(٤) معجم الأدباء ١٩ / ١١٧ .
(٥) معجم الأدباء ٨/ ١٩٠ .

أنهم كتبوا المناظرة فى ألواح وبمحابر كانت معهم ، مما يعطى صورة عن مجلس المناظرات حينئذ . وتبدأ المناظرة بسؤال السيرافى لمتَّى بن يونس عن المنطق ما يَعْنى به ، حتى يكون كلامه معه فى قبول صوابه وَرَدّ خطئه على سَنَن مرضىّ وطريقة معروفة ، ويجيبه متى : أعنى به أنه آلة من الآلات يُعْرَفُ بها صحيح الكلام من سقيمه وفاسد المعنى من صالحه كالميزان فإنه يُعْرَفُ به الرجحان من النقصان والشائل من الجانح . ويقول السيرافى :

« أخطأتَ لأن صحيح الكلام من سقيمه يُعرف بالعقل . هَبْكَ عرفتَ الراجح من الناقص من طريق الوزن مَنْ لك بمعرفة الموزون أهو حديد أو ذهب أو شبه (نحاس) أو رصاص ؟ وأراك بعد معرفة الوزن فقيراً إلى معرفة جوهر الموزون وإلى معرفة قيمته وسائر صفاته التى يطول عَدُّها ، فعلى هذا لم ينفعك الوزن الذى كان عليه اعتمادك ، وفى تحقيقه كان اجتهادك ، إلا نفعاً يسيراً من وجه واحد ، وبقيتْ عليك وجوه ، فأنت كما قال الأول : « حفظت شيئًا وضاعت منك أشياء » وبعد فقد ذهب عليك شىء ههنا ، ليس كل ما فى الدنيا يُوزَنُ ، بل فيها ما يوزن ، وفيها ما يُكال ، وفيها ما يُذْرع (يقاس بالذراع) وفيها ما يُمْسح ، وفيها ما يُحزَر . وهذا وإن كان هكذا فى الأجسام المرئية فإنه أيضاً على ذلك فى المعقولات المقروءة ، والإحساس ظلال العقول ، وهى تحكيها بالتبعيد والتقريب مع الشبه المحفوظ والمماثلة الظاهرة . ودَعْ هذا إذا كان المنطق وضعه رجل من يونان على لغة أهلها واصطلاحهم عليها وما يتعارفونه بها من رسومها وصفاتها من أين يلزم الترك والهند والفرس والعرب أن ينظروا فيه ويتخذوه حكماً لهم وعليهم وقاضياً بينهم ما شهد له قبلوه وما أنكره رفضوه . قال متَّى : إنما لزم ذلك لأن المنطق يبحث عن الأغراض المعقولة والمعانى المُدْرَكة ويتصفَّح الخواطر السانحة والسوانح الهاجسة والناس فى المعقولات سواء ، ألا ترى أن أربعة وأربعة ثمانية عند جميع الأمم ؟ وكذلك ما أشبهه » . قال السيرافى :

« لو كانت المطلوبات بالعقل والمذكورات باللفظ ترجع مع شعبها المختلفة وطرائقها المتباينة إلى هذه المرتبة البينة فى أربعة وأربعة أنهما ثمانية زال الاختلاف

وحضر الاتفاق ، ولكن ليس الأمر هكذا ، واقد موهتَ بهذا المثال ، ولكم عادة فى مثل هذا التمويه . ولكن ندع هذا . إذا كانت الأغراض المعقولة والمعانى لا يوصَلُ إليها إلا باللغة الجامعة للأسماء والأفعال والحروف أفليس قد لزمت الحاجة إلى معرفة اللغة ؟ » .

ويناقش السيرافى متّى فى ترجمة المنطق من اليونانية إلى السريانية ثم إلى العربية وأنه ربما حدث حَيْف على المنطق فى أثناء هذا الطريق الطويل الذى سلكه إلى الفصحى ، ويقول له : كأنك تقول لا حجة إلا عقول يونان ولا برهان إلا ما وضعوه . ويقول متّى إنهم أصحاب عناية بالحكمة ولولاهم ما نشأت العلوم وأصحاب الصناعات . وهو تعميم أكثر مما ينبغى . ويَحْتَدُّ الجدال ، ويسأله السيرافى عن حرف واحد من الحروف التى يهتمّ بها النحو يدور فى كلام العرب وهو حرف الواو ومعانيه المتميزّة عند النحاة ، ويقول له استنبطْها من ناحية منطق أرسطاليس الذى تُدِلّ به وتباهى بتفخيمه وعرّفْنا ما أحكامه وكيف مواقعه وهل هو على وجه واحد أو وجوه . ويُبْهَتُ متّى ، ويقول : هذا نحوٌ ، والنحو لم أنظر فيه ، لأنه لا حاجة بالمنطق إلى النحو ، أما النحوى فحتاج إلى المنطق ، لأن المنطق يبحث عن المعنى والنحو يبحث عن اللفظ ، فإن مرّ المنطق باللفظ فبالعَرَض وإن عبّر النحوىّ بالمعنى فبالعرض ، والمعنى أشرف من اللفظ ، واللفظ أوضع من المعنى . وينكر عليه السيرافى قوله ويحاول أن يثبت أن النحو يدور على المعانى ويسأله عن معانى الواو وكيف أنه يجهلها ، وهى حرف واحد ، فما باله لو سأله عن معانى جميع الحروف ، ويصوّر له معانيها وأن المنطق الذى يَزْهى به متّى لا يستطيع بيانها . ثم يعرض عليه قولهم : « زيد أفضل الإخوة » ، ويسأله أيجوز أن يقال : زيد أفضل إخوته ، ولا يستطيع متّى التفرقة بين العبارتين فيقول له إن العبارة الثانية لا تصح فى الكلام لأن إخوة زيد هم غير زيد ، وزيداً خارج عن جملتهم ، ويُقْحِمه فى متشابكات نحوية وعبارات موهمة لا يَحُلّها سوى النحو . ويعرض عليه طائفة من مصطلحات المناطقة والفلاسفة ، ويقول له إن كل ذلك لا حاجة للعقل السليم به . وفى الحق أن لَسَنَ السيرافى وفصاحته وقدرته على التعبير كل ذلك هو الذى أتاح له الظفر بخصمه فى تلك المناظرة الطويلة التى امتدت إلى أكثر من عشرين صحيفة ،

وقد أردنا بعرضها أن نصور احتدام المناظرات فى العصر وأنها تناولت كل جوانب المعرفة .

وحتّى الكتب المؤلفة فى العصر نجد عليها مسحة المناظرة والجدل واضحة ، حتّى على عنواناتها ، إذ كثيراً ما تُعَنْوَن بكلمة الرد أو كلمة النقض ، فالكتاب يؤلَّف ردًّا أو نقضًا لكتاب آخر ، وكأن المناظرات لم تقف عند المجالس والمحاضرات فى المساجد ، بل امتدت إلى الكتب والمصنفات ، ويوضح ذلك الجاحظ فى بعض كتبه ورسائله . فقد بُنيت فى جمهورها على فكرة المناظرات إذ نرى « الحيوان » يُبْنَى على مناظرة امتدت إلى أكثر من مجلد بين معبد والنظام فى الكلب والديك أيهما أفضل ؟ . وله كتاب افتخار الشتاء والصيف وهو مناظرة واضحة بين الفصلين ، وكتاب الفخر ما بين عبد شمس ومخزوم ، وهو مناظرة بين العشيرتين القرشيتين ، وكتاب فخر القحطانية والعدنانية وهو مناظرة بين اليمنية والمضرية . وقد يمدح الشيء فى رسالة ثم يذمــه فى أخرى ، وكأنه يكتب منــاظرة فى رسالتين مثــل رسالته فى مدح النبيذ ورسالته فى ذم النبيذ ومثل رسالته فى مدح الكتّاب ورسالته فى ذم الكتّاب ، ومثل رسالته فى مدح الورّاق (بائع الكتب) ورسالته فى ذم الوراق. وله كتب مختلفة يجعل عنوانها كلمة الرد مثل كتاب الرد على المشبّهة وكتاب الرد على النصارى وكتاب الرد على اليهود ، وله كتاب العثمانية وكتاب الرد على العثمانية ، وله كتاب نقض الطب. ومن رسائله التى أدارها على المناظرة رسالته «فخر السودان على البيضان » ورسالته « مفاخرة الجوارى والغلمان » . وقد لا توضع فكرة المناظرة أو الرد والنقض أو المدح والذم على الكتاب والرسالة ، فإذا قرأنا فيهما وجدناهما يأخذان شكل مناظرة كبيرة مثل كتاب التربيع والتدوير ، نراه فيه ينتصر للقصر تارة وللطول تارة ثانية ، وتارة ثالثة للتوسط بين الطرفين المتناقضين .

وكأنما كانت المناظرات والمحاورات لغة العصر الفكرية ، فدائمًا مناظرات ومجادلات فى كل مكان وفى كل موضوع علمى أو فلسفى أو أدبى ، والمناظر ينتصر تارة ، وتارة ينهزم فى تلك الساحة الفكرية الكبيرة : بغداد ، وهم لا يكلّون ولا يملُّون ولا يتوقفون فدائمًا جدل وحوار وتشعيب لدقائق المعانى وغَوْصٌ على خفيّاتها وكوامنها

المستورة ، ولا يمنع الانهزام يوماً صاحبه من التجمع للمناظرة والتحفز للحوار فى يوم ثان أو لقاء ثان ، بل قد ينهزم المناظر وينتصر فى المجلس الواحد مراراً ، وفى هذا الحوار الواسع ومعاركه الدائرة دون توقف يقول ابن الرومى مشيراً إلى المتناظرين وجدالهم العنيف :

لذوى الجِدال إذا غَدَوْا لجِدالهم ... حُجَجٌ تَضِلُّ عن الهدى وتجورُ

وهمُ كآنيةِ الزجاجِ تصادمتْ ... فهَوَتْ وكلٌّ كاسِرٌ مكسورُ

ويبدو ابن الرومى نفسه فى شعره مناظراً كبيراً ، إذ تُطْبَعُ جوانب من شعره — كما أسلفنا — بطوابع الجدال وما يُطْوَى فيه من قدرة وبراعة على نَسْجِ الأدلة تارة ونقضها تارة أخرى . ومرَّ بنا ذمه للورد ونقضه لمحاسنه وقلبها مساوئ ذميمة فى قصيدته « النرجس والورد » وهى مناظرة شعرية طريفة .

وتسرى هذه الروح فى قصص وحكايات وأخبار جُمعت ونُسِّقت فى الكتاب المسمى بكتاب المحاسن والأضداد المنسوب خطأ إلى الجاحظ . لأنه يُفْتَتَح بكلمة : « قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ » وتتوالى نقول عنه فى فضائل الكتب ووصف فوائدها ، نجدها مبثوثة فى كتاب الحيوان . ولعل هذا الاستهلال هو الذى جعل القدماء يظنون أن الكتاب من تأليف الجاحظ ، وأيضاً فإنه ينقل عنه فى بعض فصوله نقولا مختلفة . ولكن من يعرف أسلوب الجاحظ المطَّرد فى كتبه يعرف توّاً أن الكتاب ليس له ، والطريف أن صاحبه ذكر فى مستهله عن الجاحظ قوله فى بعض رسائله : « إنى ربما ألفت الكتاب المحكم المتقن فى الدين والفقه والرسائل والسيرة والخطب والخراج والأحكام وسائر فنون الحكمة وأنسبه إلى نفسى فيتواطأ على الطعن فيه جماعةٌ من أهل العلم بالحسد المركّب فيهم ، وهم يعرفون براعته ونصاعته ، وأكثر ما يكون هذا منهم إذا كان الكتاب مؤلفاً لملك معه المقدرة على التقديم والتأخير والحطّ والرفع والترهيب والترغيب فإنهم يهتاجون عند ذلك اهتياج الإبل المغتلمة . . . وهم قد ذموه وثلبوه لما رأوه منسوباً إلىّ وموسوماً بى . وربما ألفت الكتاب الذى هو دونه فى معانيه وألفاظه فأترجمه باسم غيرى وأحيله على من تقدمنى عصره مثل ابن المقفع والخليل وسَلْم صاحب بيت الحكمة ويحيى بن

خالد والعتّابى ومن أشبه هؤلاء من مؤلفى الكتب فيأتينى أولئك القوم بأعيانهم الطاعنون على الكتاب الذى كان أحكمَ من هذا الكتاب لاستنساخه وقراءته علىّ ، ويكتبونه بخطوطهم ويصيّرونه إمامًا يقتدون به ويتدارسونه بينهم ويتأدبون به ويستعملون ألفاظه ومعانيه فى كتبهم وخطاباتهم ويروونه عنى لغيرهم من طلاب ذلك الجنس فتثبت لهم به رياسة . ويأتمّ بهم قوم فيه لأنه لم يترجم باسمى ولم يُنْسَبْ إلى تأليفى » . وقد يكون فى ذلك ما يدل على أن المؤلف رأى أن يحاكى الجاحظ فى إنكاره لاسمه أحيانًا على بعض آثاره . فنسبه إليه . ليرى رأى الناس فيه وحكمهم عليه . وربما كان هو نفس مؤلف كتاب المحاسن والمساوى الذى سنعرض له عما قليل . ومما يشهد بأن الكتاب ليس للجاحظ وإنما هو لمؤلف تال لعصره أن نجد فيه نقولا عن عبد الله بن المعتز[1] ، وكان فى الثامنة من عمره حين توفى الجاحظ .

والكتاب مجموعة كبيرة من المناظرات فى الأخلاق والشمائل ، فكل خلق أو كل شىء تُعْرَضُ محاسنه ثم تعرض معايبه ، وتصوّر المعايب والمحاسن فى أخبار وأقاصيص وحكايات ، تلتقى فيها الثقافات المعروفة حينئذ وما كان يتسرب منها إلى كتب السمر . وفى مقدمتها الثقافة الإسلامية ، وهى تتضح فى الاقتباس أحيانًا من الذكر الحكيم[2] والاستشهاد الدائم بالأحاديث النبوية[3] . وتتسع الثقافة الدينية لتجلب بعض أقوال الزهاد أو بعض قصص الأنبياء أو بعض وصايا من التوراة من مثل : « اشكر من أنعم عليك ، وأنعمْ على من شكرك ، فإنه لا زوال للنعم إذا شُكِرتْ ولا إقامة لها إذا كُفِرتْ . والشكر زيادة فى النعم وأمان من الغيرَ »[4] وبجانب ذلك تلقانا عناصر كثيرة من الثقافة العربية فى مقدمتها الأمثال[5] ، والأشعار وهى أكثر من أن ندلّ عليها فى موضع معين من الكتاب . وتكثر أخبار الجاهليين وأقاصيصهم المصوّرة لمكارم أخلاقهم أو مذامها . وبالمثل أخبار حكّام العرب وحكاياتهم على توالى الحقب من إسلاميين وعباسيين وخاصة حكام بنى أمية والرشيد والمأمون ، وتكثر أخبار الأعراب وأقاصيصهم ويلمع فيها اسم الأصمعى .

---

(١) المحاسن والأضداد (طبع دار مكتبة العرفان ببيروت) ص ١٣٨ ، ١٦٩ .
(٢) المحاسن والأضداد ص ٣٩ ، ٤٢ .
(٣) انظر مثلا ص ٣٢ .
(٤) المحاسن والأضداد ص ٣١ .
(٥) انظر مثلا ص ٥٥ ، ١٠٤ ، ١٧٥ .

وتلقانا حكم وأقاصيص منقولة عن بعض كتب الهند من مثل : « ليس الكذوب مروءة ولا لضجور رياسة ولا لملول وفاء ولا لبخيل صديق »[١]، وبالمثل تلقانا أقاصيص وأخبار وحكم منقولة عن اليونان من مثل : « كلّم رجل سقراط عند قتله بكلام أطاله، فقال أنساني أولَ كلامك طولُ عهده وفارق آخرَه فهمي لتفاوته، ولما قُدّم بكت امرأته فقال لها : ما يبكيك ؟ قالت : تُقْتَلُ ظلماً قال : وكنت تحبين أن أُقْتَل مظلوماً أو أقتل ظالماً»[٢]. وللملوك الفرس ووزرائهم شطر كبير من الأقاصيص والأخبار . ونختار باباً من أبواب المحاسن نسوق منه ما يصور سيول هذه الثقافات ، وهو باب محاسن السخاء ، ومما جاء فيه[٣] :

« رُوِى عن نافع قال : لَقِى يحيى بن زكريا عليه السلام إبليس لعنه الله فقال له : أخبرنى بأحب الناس إليك وأبغضهم ، قال : أحبهم إلىّ كل مؤمن بخيل وأبغضهم إلىّ كل منافق سَخِىّ قال : ولم ذاك ؟ قال إبليس : لأن السخاء خُلُقُ الله الأعظم فأخشى أن يطلع عليه فى بعض سخائه فيغفر له . وقال النبى صلى الله عليه وسلم : السخىّ قريب من الناس بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله بعيد من الجنة قريب من النار ، والجاهل السخى أحب إلى الله عزّ وجل من عابد بخيل ، وأدوأ الدواء البخل . وقال صلى الله عليه وسلم : ما أشرقت شمس إلا ومعها ملكان يناديان يُسْمعان الخلائق غير الجن والإنس وهما الثقلان : اللهم عجل لمنفق خلفاً ولممسك تلفاً ، وملكان يناديان : أيها الناس هلموا إلى ربكم فإن ما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى . وعن الشعبى قال : قالتْ أم البنين ابنة عبد العزيز أخت عمر بن عبد العزيز وزوجة الوليد بن عبد الملك : لو كان البخل قميصاً ما لبسته أو طريقاً ماسلكتها ، وكانت تعتق فى كل يوم رقبة (عبداً) وتحمل على فرس مجاهداً فى سبيل الله . . . وقال بهرام جور : من أحب أن يعرف فضل الجود على سائر الأشياء فلينظر إلى ماجاد الله به على الخلق من المواهب الجليلة والرغائب النفيسة ... وقال الموبذان لأبرويز (ملك فارس) : أكنتم تَمُنُّون أنتم وآباؤكم بالمعروف وتترصَّد ون عليه المكافأة ؟ قال : ولا نستحسن ذلك لعبيدنا ، فكيف

(١) المحاسن والأضداد ص ٣٨ .
(٢) المحاسن والأضداد ص ٢٢ .
(٣) المحاسن والأضداد ص ٦٢ وما بعدها .

نرى ذلك وفى كتاب ديننا (كتاب زرادشت : الأفستا) من فعل معروفاً خفياً وأظهره ليتطوّل به على المنعم عليه فقد نبذ الدين وراء ظهره واستوجب ألا نعدّه من الأبرار ولا نذكره فى الأتقياء والصالحين . وسئل الإسكندر : ما أكبر ما شيّدت به ملكك ؟ قال : ابتدارى إلى اصطناع الرجال والإحسان إليهم . وكتب أرسطاليس فى رسالته إلى الإسكندر : اعلم أن الأيام تأتى على كل شىء فتُخلقه (فتبليه) وتخلق آثاره وتميت الأفعال إلا ما رسخ فى قلوب الناس ، فأوْدِعْ قلوبهم محبةً بأثرك تُبقى بها حُسْنَ ذكرك وكريم فعالك وشريف آثارك . ولما قُدِّم بزرجمهر (وزير فارسى) إلى القتل قيل له : إنك فى آخر وقت من أوقات الدنيا وأول وقت من أوقات الآخرة ، فتكلم بكلام تُذْكَرُ به ، فقال : أى شىء أقول ، الكلام كثير ولكن إن أمكنك أن تكون حديثاً حَسَناً فافعل . وتنازع رجلان أحدهما من أبناء العجم والآخر أعرابى فى الضيافة فقال الأعرابى : نحن أقْرَى للضيف ، قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأن أحدنا ربما لا يملك إلا بعيراً فإذا حلّ به ضيف نحره له ، فقال له الأعجمى : فنحن أحسن مذهباً فى القِرَى (الضيافة) منكم ، قال : وما ذاك ، قال : نحن نسمى الضيف : مِهْمان ، ومعناه أنه أكبر مَنْ فى المنزل وأملكناله . وقال المأمون : الجود بذل الموجود والبخل سوء الظن بالمعبود . وشكا رجل إلى إياس بن معاوية (قاضى البصرة المشهور فى العصر الأموى) كثرة مايهب ويصل وينفق ، فقال : إن النفقة داعية إلى الرزق ، وكان جالساً بين بابين فقال للرجل : أغلقْ هذا الباب ، فأغلقه ، فقال : هل تدخل الريح البيت قال : لا ، قال : فافتحْه ، ففتحه ، فجعلت الريح تخترق البيت ، فقال : هكذا الرزق أغلقتَ البيت فلم تدخل الريح ، فكذلك إذا أمسكت لم يأتك الرزق . ونزل على حاتم ضيف ولم يحضره القِرَى فنحر ناقة الضيف وعشّاه وغدّاه ، وقال له : إنك أقرضتنى ناقتك فاحتكمْ علىّ ، قال الرجل : راحلتين قال حاتم : لك عشرون أرضيتَ ؟ قال : نعم وفوق الرضا . . . وقيل فى المثل هو أجود من كعب بن مامة الإيادى ، وبلغ من جوده أنه خرج فى ركْب فيهم رجل من بنى النَّمِر فى شهر قَيْظ . فضلّوا وتَصَافنوا (تقاسموا بالحصص) ماءهم ، فجعل النمرى يشرب نصيبه ويُظْهر أنه عطشان ، فكان كعب إذا أصاب نصيبه قال للساقى : آثِر أخاك النَّمَرِىَ حتى أضرّ به العطش فلما رأى ذلك استحثّ راحلته وبادر حتى وصل

إلى وِرْد ماء ، وقيل له : رِدْ كعب ، إنك وارد ، ولكن العطش غلبه فمات . . .
ومن قول أبي تمام :

ولو لم يكن في كفه غير نفسه   لجاد بها فليتّق الله سائِلُهْ »

وإنما سُقْنا ذلك كله لندل على المزيج الثقافي الذي يتكوّن منه كتاب المحاسن والأضداد ، وهو مزيج به عناصر قصصية عن الأنبياء وعناصر إسلامية من الحديث النبوي وعناصر عربية من أخبار العرب رجالا ونساء ، وعناصر فارسية من أخبار الفرس وحكاياتهم وعناصر يونانية من أخبار الإسكندر المقدوني وكلام أرسططاليس . وبين السطور نحسُّ شعوبية المؤلف حين يُعْلي ضيافة الفرس وكرمهم على ضيافة العرب وما عُرِف عنهم من خصلة الكرم والجود . ولم يكفه ذلك فقد جعل حاتمًا يذبح ناقة ضيفه ليقدّم له الغداء والعشاء ، وإن عاد يقول إنه أعطاه بدلا منها عشرين ناقة ، فكأنه يريد أن يستر شعوبيته . ولعل هذا الجانب في الكتاب هو الذي جعل المؤلف لا يُظهر اسمه ، حتى لا يؤخذ به . وفي هذه الفقرة الطويلة ما يصور سيول الأخبار وما قد يكون فيها من قَصص . ودائمًا نلتقي في الكتاب بطرائف من الحكم والأخبار ، على نحو ما جاء في محاسن حفظ اللسان إذ قيل : إنه تكلم أربعة من الملوك بأربع كلمات كأنما رُميتْ عن قوس واحد ، قال كسرى : أنا على ردّ ما لم أقل أقدر مني على ردّ ما قلت . وقال ملك الهند : إذا تكلمت بكلمة ملكتْني وإن كنت أملكها . وقال قيصر : لا أندم على ما لم أقل وقد ندمت على ما قلت . وقال ملك الصّين : عاقبة ما قد جرى به القول أشد من الندم على ترك القول[1] . وفي الكتاب قصص كثير متنوع في موضوعاته وفي مصادره وموارده ، ويكثر فيه القصص عن المرأة العربية ، وكذلك عن المرأة الفارسية ، فما جاء فيه عن المرأة العربية قصة رواها العُتْبي على هذا النمط[2] :

« قال العتبي : كنت كثير التزوج فمررتُ بامرأة فأعجبتني ، فأرسلتُ إليها ألك زوج ؟ قالت : لا فصرت إليها ، فوصفت لها نفسي ، وعرّفتها موضعي فقالت : حَسْبُكَ قد عرفناك ، فقلت لها : زوّجيني نفسك ، قالت نعم :

(١) المحاسن والأضداد ص ٢١ .
(٢) المحاسن والأضداد ص ١٨٤ .

ولكن ههنا شيء هل تحتمله ؟ قلت : وما هو ؟ قالت : بياض فى مفرق رأسى . قال : فانصرفت ، فصاحت بى ارجعْ ، فرجعت إليها ، فأسفَرَتْ عن رأسها : فنظرتُ إلى وجه حسن وشعر أسود ، فقالت : إنا كرهنا منك ، عافاك الله ، ما كرهت منا ، وأنشدتْ :

أرى شَيْبَ الرجال من الغَوانى   بموضع شَيْبهنَّ من الرجالِ »

وهى قصة طريفة ، وفى الكتاب قصص عن النساء ووفائهن وكيدهن ، تكثر فيها عناصر التشويق ، مما يجعلها قصصاً بديعة من ذلك قصة أضيفت إلى شيرين الملكة الفارسية المشهورة ملخصها أن زوجها كسرى أبرويز أتاه صياد بسمكة كبيرة(١) فأُعجب به وأمر له بأربعة آلاف درهم ، فقالت له شيرين : أمرت لصياد بأربعة آلاف درهم فإن أمرت بمثلها لرجل من وجوه حاشيتك قال : إنما أمر لى بمثل ما أمر به للصياد . فقال لها كيف أصنع وقد أمرت له بما أمرت ؟ قالت إذا أتاك فقل له : أخبرنى عن السمكة أذكر هى أم أنثى ؟ فإن قال : أنثى فقل : لا تقع عينى عليك حتى تأتينى بالذكر ، وإن قال : ذكر ، فقل له : لا تقع عينى عليك حتى تأتينى بالأنثى ، فلما غدا الصياد على الملك قال له : أخبرنى عن السمكة أذكرهى أم أنثى ؟ قال : بل أنثى قال : فتأتينى بذكرها ، قال : عمَّر الله الملك إنها كانت بكراً لم تتزوج بعد ، فقال له الملك : حسناً ، حسناً ، وأمر له بأربعة آلاف درهم ، وأمر أن يُكْتَبَ فى ديوان الحكمة : إن الغدر ومطاوعة النساء يورثان الغُرْم . وبعض قصص النساء بها غير قليل من الفحش ، وقد تذكر أشياء غريزية تنبو عن الأذواق(٢) على نحو ما يجرى فى بعض قصص ألف ليلة وليلة ، وكانت قد تُرْجمت ، فربما تأثر المؤلف بها ، وربما تأثر المؤلف فى ذلك بالشعر المفحش الكثير الذى كان موجوداً فى العصر . وقد يكون ذلك من أسباب تنكر المؤلف وإخفائه لاسمه . ويلقانا قصص دينى عن بعض الزهاد ، وقد نلتقى بحكايات صوفية ، بل قد نلتقى بما يصور كرامات المتصوفة التى سبق أن تحدثنا عنها التى كان ينكرها وشيوخهم الأجلاء ، فمن ذلك ما رواه الكتاب ،

---

(١) المحاسن والأضداد ص ٢٠١ .   (٢) انظر مثلاالقصة فى ص١٩٣ و ص٢١٤ .

قال(١) : « عن أبي مسلم الخولانى قال : إنه خرج إلى السوق بدرهم يشترى لأهله دقيقاً ، فعرض له سائل ، فأعطاه بعضه ، ثم عرض له سائل آخر فأعطاه الباقى ، فأتى درب النجّارين ، فملأ جرابه أو مزوده من نشارة الخشب ، لتنتفع بها امرأته فى إيقاد التنّور وأتى منزله ، فألقاه ، وخرج هارباً من زوجته . وأخذته فإذا هو دقيق أبيض حوّارَى (فاخر) لم تر مثله ، فعجنته وخبزته ، فلما جاء ووجد الخبز سألها : من أين لك هذا الخبز ، قالت له : من الدقيق الذى جئتنا به » ! . ويذكر الكتاب كرامة لسفيان الثورى لا تقل غرابة عن الكرامة السابقة . ولا نريد أن نسترسل فى نقل هذا القصص الكثير الذى يزخر به كتاب المحاسن والأضداد ، إنما نريد أن نوضح كيف أن هذا القصص يحتوى على عناصر مشوقة كثيرة ، وأنه كان يدخل فى الأدب الشعبى العام ، ولذلك يخلو من استعمال السجع والأساليب المنمقة ، والطريف أنه عُرِض ليجسّم وجهين متقابلين فى كل خُلق وكل خصلة ، فمثلا الصدق له محاسنه ، ولهذه المحاسن أقاصيصها وله معايبه ، ولهذه المعايب أقاصيصها . وبالمثل كل فضيلة ، فوفاء النساء لمحاسنه أقاصيصها ولمعايبه أقاصيص تقابلها وتناقضها أشد المناقضة . وبذلك يأخذ عرض هذه الأقاصيص وما يتصل بها من الأخبار والأقوال والأشعار شكل مناظرات أدبية لا تعتمد على الجدال والحوار بالدليل ضد الدليل والحجة العقلية ضد الحجة العقلية ، وإنما على الحوار والجدال بالخبر ضد الخبر والشعر ضد الشعر والقصة ضد القصة والحكاية ضد الحكاية .

ويلتقى بهذا الكتاب فى موضوعاته وأكثر مادّته كتاب المحاسن والمساوى لإبراهيم بن محمد البيهقى ، وقد أغفلت الحديثَ عنه كتبُ التراجم ، غير أنه يُفْهم مما ذكره عن الخليفة المقتدر فى آخر حديثه(٢) عن محاسن المسامرة أنه ألف كتابه فى زمنه . وهو يستهلّ كتابه بالحديث عن فضائل الكتب ووَصْف محاسنها مثل المحاسن والأضداد ، ويماثله أيضاً فى النقل كثيرا عن الجاحظ . ثم يفتح طائفة من الفصول لم ترد فى الكتاب السالف يتحدث فيها عن محاسن الرسول صلى الله عليه وسلم

---

(١) المحاسن والأضداد ص ١٤١ .

(٢) انظر المحاسن والمساوى (نشر مكتبة نهضة مصر ومطبعتها) ٢ / ٢٣٨ .

وفضائله ومساوئ المتنبئين ومحاسن الخلفاء الراشدين ومناقبهم ومساوىء مَن عادى علي بن أبي طالب ومحاسن ابنيه الحسن والحسين ومساوئ قتلة الأخير ومحاسن السابقين إلى الإسلام ومساوئ المرتدين ومحاسن كلام الحسن بن علي وعبد الله بن العباس وفضائل بني هاشم ومحاسن الافتخار بالرسول . وكل هذه المقدمات ينفرد بها هذا الكتاب بالقياس إلى كتاب المحاسن والأضداد ، وبمجرد أن نفرغ منها نجد الكتابين يلتحمان ، حتى ليصبح كتاب المحاسن والمساوىء كأنه نسخة جديدة لكتاب المحاسن والأضداد ، مما يؤكد أن مؤلفهما واحد ، وكأن البيهقي ألّف الكتاب الأول ، وأقحم فيه ما أقحم من أفكار الشعوبية والفحش في القصص ، ثم رأى أن يخرجه إخراجاً جديداً وينسبه إلى نفسه ، مُتَنَحِّياً منه ما يصور شعوبيته وما ينبو عن الأذواق السليمة من القصص المفحش مع وضع المقدمات آنفة الذكر . ويبدو منها أنه كان يُكِنّ نزعة شيعية ، وإن لم يُبْرِزْها بقوة خوفاً على نفسه من المقتدر وحواشيه . وهو في هذه النسخة الجديدة للكتاب يذكر ابن المعتز[1] على نحو ذكره له في النسخة القديمة أو بعبارة أخرى في المحاسن والأضداد .

وطبيعي أن تكون مصادر هذا الكتاب هي نفسها مصادر الكتاب الأول المنحول للجاحظ ، لأنه ليس أكثر من نسخة مجدّدة له ، وغاية ما هناك أنه دخله تنقيح وتهذيب كثير ، وإذن فكل ما قلناه عن المزيج الثقافي في المحاسن والأضداد ينطبق بحذافيره على هذا الكتاب ، ففيه بعض آي القرآن والأحاديث النبوية وأقوال بعض الصحابة والزهاد ، وفيه أخبار وأقاصيص منقولة عن الأنبياء وعن عيسى وحوارييه ، ومن طريف ما نقله عنه ، قوله[2] :

« إن ابن آدم خُلق في الدنيا في أربع منازل ، هو في ثلاثة منها واثقٌ بالله عزّ وجلّ ، وهو في الرابعة سَيِّىء الظن ، يخاف خذلان الله عزّ وجلّ إياه ، فأما المنزلة الأولى فإنه خُلق في بطن أمه خَلْقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث : ظلمة البطن وظلمة الرَّحِم وظلمة المَشِيمة ، يُنْزِل الله جلّ وعزّ عليه رزقه في جوف ظلمة البطن . فإذا خرج من ظلمة البطن وقع في اللبن لا يخطو إليه بقدم

(١) راجع المحاسن والمساوى ص ١/٢٧٦ ، ٢/٤٤ ، ٤٥ .
(٢) المحاسن والمساوى ١ / ٤٥٩ .

ولا ساق ولا يتناوله بيد ولا ينهض بقوة ويُكْرَه عليه إكراهًا ، حتى ينبت عليه عظمه ودمه ولحمه . فإذا ارتفع من اللبن وقع فى المنزلة الثالثة فى الطعام بين أبوين يكتسبان عليه من حلال وحرام ، فإن مات أبواه من غير شىء عطف عليه الناس ، هذا يُطْعمه ، وهذا يسقيه ، وهذا يُؤْويه . فإذا وقع فى المنزلة الرابعة واشتدّ واستوى وكان رجلا خشى ألا يُرْزَق ، فيثب على الناس ، فيخون أماناتهم ، ويسرق أمتعتهم ويكاثرهم على (يغصبهم) أموالهم مخافة خذلان الله عزَّ وجلَّ إياه » .

والنص موجود فى المحاسن والأضداد[١] ، ولكن العبارة هنا نُقحت وهُذّبت بصور مختلفة ، وكذلك النصوص الأخرى حين نعارض الكتابين فيها بعضهما على بعض نجد دائمًا هذا التنقيح ، مما يشهد بأن يداً واحدة هى التى كتبتهما ، وأن أولهما كان أشبه بمسوَّدة واتخذ الثانى شكل نسخة مهذبة منقحة قد صُفّيت وأخْليت من كل الشوائب اللغوية وغير اللغوية ، ودخلتها إضافات من الأمثال والأحاديث النبوية والأشعار والأخبار والأقاصيص ، كهذه الأقصوصة التى تلقانا فى الحديث عن محاسن الولايات ، وهى تمضى على هذا النمط[٢] :

« دخل محمد بن واضح دار المأمون ، وخلْفه أكثر من خمسمائة راكب ، كلهم راغب إليه وراهب منه ، وهو إذ ذاك يلى عملا من أعمال السَّواد (الأرض المزروعة) فى العراق . فدعا به المأمون فلما حضر بين يديه قال : يا أمير المؤمنين أعفِنى من عمل كذا وكذا ، فإنه لا قوة لى عليه ، فقال له المأمون : قد أعفيتك . واستعفى من عمل آخر . وهو يظن أنه لا يُعْفيه . فأعفاه ، حتى خرج من كل عمل فى يده فى أقل من ساعة ، وهو قائم على قدميه . فخرج وما فى يده شىء من عمله . فقال المأمون لسالم الحوائجى : إذا خرج فانظر إلى موكبه وأحْص من بقى معه — وكان المأمون قد رآه من مستشرَف له حين أقبل — فخرج سالم وراء محمد بن واضح وقد استفاض الخبر بعزله عن عمله . فنظر فإذا هو لا يتبعه أحد إلا غلام له بغاشية[٣] . فرجع سالم إلى المأمون فأخبره ، فقال : ويلهم

---

(١) المحاسن والأضداد ص ١٢٨ .
(٢) المحاسن والمساوى ١ / ٢٧٣ .
(٣) غاشية : غطاء .

او تجمَّلوا اه رَيْثما يرجع إلى بيته كما خرج منه ، ثم تمثل فيهم :

ومَنْ يجعلِ المعروف فى غَيْرِ أهلِهِ يلاقِ الذى لاقى مجيرُ أمِّ عامِرِ[1]

ثم قال : صدق رسول الله وكان للصدق أهلا حين قال : لا تنفع الصنيعة إلا عند ذى حَسَبٍ أو دين » .

ويُفيض هذا الكتاب كما تفيض مسوَّدته : « المحاسن والأضداد » بكثير من أحوال العصور العربية السياسية والاقتصادية والحضارية ،وخاصة العصر العباسى ، ونرى البيهقى يفتح فيه — كما أشرنا إلى ذلك فى غير هذا الموضع — فصلا طويلا عن أصناف[2] المكدين وأفعالهم وهو فيه ينقل عن الجاحظ وما كتبه عنهم فى مصنَّفه البخلاء ، وقد عرض فيه حِيَلهم وتَجوالهم فى البلدان ونوادرهم ، فمن ذلك[3] :

« أنه أتى سائل داراً يسأل منها ، فأشرفت عليه امرأة من غرفة ، فقال لها : يا أمةَ الله بالله أنْ تصدَّقى علىَّ بشىء ، قالت : أى شىء تريد ؟ قال : درهمًا ، قالت : ليس عندى ، قال : فدانقًا (جزءاً من درهم) ، قالت : ليس عندى ، قال : ففَلْسًا (جزءاً من دانق) ، قالت : ليس عندى ، قال : فكُسْوة ، قالت : ليس عندى ، قال : فكفًّا من دقيق ، قالت : ليس عندى ، قال : فزيتًا . . . حتى عدَّ كل شىء يكون فى البيوت ، وهى تقول ليس عندى ، فقال لها : فما يُجْلسك عندك ، مُرّى ، اسألى معى » .

وواضح أننا لا نعثر فى المادة الأدبية التى يحتويها هذا الكتاب وسالفه على شىء من السجع أو التكلف لألوان البديع أو لأى زخرف أو تنميق ، فهى مادة سهلة ، ليس فيها أى حليات لفظية ولا غير لفظية ، وليس فيها أى صعوبات لغوية ، وهى لذلك تُعَدُّ مادة شعبية . أو قل إن الكتابين مصنفان كبيران من الأدب الشعبى فى العصر ، وضعهما أديب ممتاز فى شكل مناظرات ومحاورات ، حتى يشوّق إلى قراءتهما . ولم يكتف بهذا التشويق العام ، فقد أدخل فى الأخبار والأقاصيص عناصر كثيرة منه تدفع العامة والخاصة إلى الشغف بقراءة الكتابين .

---

(١) أم عامر : الضبع .
(٢) المحاسن والمساوى ٢ / ١١٣ .
(٣) المحاسن والمساوى ٢ / ١١٧ .

٤

الرسائل الديوانية

مرَّ بنا فى العصر العباسى الأول كيف أن الدواوين كانت كثيرة ومتنوعة ، فديوان للخراج ، وديوان للنفقات وديوان للضياع وديوان للرسائل وديوان للخاتم وديوان للجيش أو دواوين ، ودواوين لشرقىّ الدولة وغربيِّها ، ولكل ولاية ديوان وأحيانًا دواوين . وفوق كل هذه الدواوين ديوان الزمام الذى يُشْرِف عليها . وهذه الصورة العامة للدواوين فى سامرَّاء وبغداد كانت تقابلها دواوين أخرى فى حاضرة كل ولاية . وكان لأولياء العهد والوزراء ذواوين بدورهم ، وكذلك لكبار القواد ، وحتى نساء الخلفاء كان لهن دواوين يقوم عليها كُتَّاب ينظرون فى الدَّخْل والخرج والنفقات .

وكان ذلك عاملا قويًّا فى نشاط الكتابة إذ اشتغل بها كثيرون ، وخاصة أنها كانت تعود عليهم برواتب وأرزاق ضخمة . وكان الكاتب فى دواوين الدولة إذا أظهر نبوغًا ارتقى سريعًا ، وما يزال يرتقى حتى يصبح رئيس مجموعة من الدواوين وقد يصبح وزيراً يدبِّر أمور الدولة كلها ، فإن فاتته الوزارة أصبح واليًا لمدينة كبيرة مثل إبراهيم بن المدبر الكاتب إذ ولى — فيما ولى — البصرة . وكثير من الولاة كانوا يُسْتَقنون الكتابة مثل محمد بن عبد الله بن طاهر وأخيه عبيد الله حاكمى بغداد بالتعاقب .

وكانت الدواوين فى سامرَّاء وبغداد لذلك أشبه بمدرسة فنية كبيرة ، يَفِدُ عليها الشباب ، ويُخْتَبَرون اختباراً دقيقًا ، فمن نجح فى الاختبار وُظِّفَ فيها ، ولزم غيره من الكتاب القدماء وعمل بين أيديهم . ويدبِّج بعض الرسائل . فإذا نالت رسالةٌ حُظْوَةً من رئيس الديوان تمَّ له سَعْدُه . وربما ألحقوهم ببعض الولاة أو العمال ، وقد يقفزون بهم قفزاً إلى القيام على أحد الدواوين . ولا ريب فى أن ذلك جعل التنافس على النهوض بالكتابة فيها يبلغ الذروة ، وهو تنافس دفع إلى التثقف

الواسع بكل ألوان الثقافات ، وفى مقدمتها الثقافة اللغوية ، ومرَّ بنا كيف أن ابن قتيبة ألَّف لهم فى ذلك كتابه « أدب الكاتب » . ولا بد من إتقان الفقه لحاجة الكاتب إليه فى شئون الخراج ، وأيضًا لا بد من إتقان الحساب لنفس الغاية . وكانوا يُكِبُّون خاصة على علوم التنجيم والمنطق والهندسة وعلى الفلسفة مما جعل ابن قتيبة يظنُّ بهم الظنون وأنهم يغرقون إلى آذانهم فى علوم اليونان وفلسفتهم حتى ليفوتهم إتقان العربية . وتوفَّروا على ما تُرْجم من الثقافة الهندية من الحكم والقصص وكذلك على ما ترجم من الثقافة الفارسية مما يتصل بتقاليد الساسانيين وأنظمة الحكم وآداب السياسة وأخبار ملوكهم ووزرائهم . فكل ذلك كانوا يعكفون عليه ويتزوَّدون به ، حتى يستمدوا منه فى معانيهم ومنطقهم . وكانوا يلتزمون الوضوح لأن رسائلهم توجَّه إلى العامة ولا بد أن تَتَفَهَّم ما تسمع دون حاجة إلى شرح أو بيان . كما كانوا يلتزمون فيها شيئًا من التنميق حتى تنال استحسان مَنْ يكتبون عنه من الخلفاء والوزراء والولاة والأمراء والقواد . وكانت الرسائل تتناول جميع شئون الدولة من منشورات تتصل بأهل الذمة أو الرعية ومن ولاية عهود أو بيعة لخليفة أو خَلْع أو دعوة إلى الجهاد فى سبيل الله أو تولية وزير أو وال أو تنويه بموسم حج أو عيد أو أخبار الولايات أو أمر بمعاقبة بعض الجناة . وتفنَّنوا فى المقدمات وخاصة فى التحميدات وما اتصل منها برسالة الخميس التى كانت تُكْتَبُ إلى الولايات حين يستولى خليفة على مقاليد الحكم .

ونحن نعرض طائفة من الكتاب مرتَّبين على عهود الخلفاء لنتبين من خلال كتاباتهم روعة بيانهم من جهة وما حدث من تطور فى الكتابة الديوانية وأساليبها فى العصر . ومعروف أن أول كاتب نابه يلقانا فى العصر هو إبراهيم بن العباس الصولى الذى حرَّر أكثر ما صدر عن المتوكل من منشورات وكتب ورسائل فى الفتوح ، ولن نقف عنده لأننا سنخصه بحديث مفصل فى الفصل التالى . ومن كتَّاب المتوكل عبيد الله بن يحيى بن خاقان الذى استكتبه سنة ٢٣٦ ، ثم جعله وزيره وللبحترى فيه مدائح مختلفة ، وقد احتفظ له الطبرى برسالة كتب بها عن الخليفة إلى محمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد يأمره بضرب رجل ألفَ سوْط لِمَا صَحَّ من شهادة شهود كثيرين عليه بشتمه لأبى بكر وعمر والسيدة عائشة والسيدة

حفصة زوجي الرسول ، والرسالة تخلو من السجع ومحاولة التنميق[١] .

ويدخل عصر المنتصر ، ويستوزر أحمدَ بن الخصيب ، وكان كاتبًا أديبًا ، مما جعله يَعْهد إليه بكتابة الكتب التي تَصْدر عنه ، وكان من أوائلها كتاب في الجهاد كتبه لسبع ليال خَلَوْن من المحرم سنة ثمان وأربعين ومائتين حين اتّجه وصيف إلى الغزو في أرض الروم ، وفيه يقول[٢] :

« قال عزّ وجلّ آمراً بالجهاد مفترضًا له : (انْفِروا خِفافاً وثِقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون) . وليست تمضي بالمجاهد في سبيل الله حالٌ لا يكابد في الله نَصَبًا ولا أذًى ، ولا يُنْفق نفقة ولا يقارع عدوًّا ، ولا يقطع بلداً ، ولا يطأ أرضًا ، إلا وله بذلك أمر مكتوب وثواب جزيل وأجْر مأمول ، قال الله عزّ وجلّ : (ذلك بأنهم لا يُصيبهم ظَمَأ ولا نَصَبٌ ولا مَخْمَصَةٌ[٣] في سبيل الله ولا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدوّ نَيْلاً إلا كُتب لهم به عَمَلٌ صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين ولا يُنْفقون نفقة صغيرةً ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كُتب لهم ليجزيهم اللهُ أحسن ما كانوا يعملون) . . وليس من شيء يتقرّب به المؤمنون إلى الله عزّ وجلّ من أعمالهم ، ويَسْعَوْن به في حَطّ أوزارهم وفَكاك رقابهم ، ويستوجبون به الثواب من ربهم إلا والجهادُ عنده أعظم منه منزلةً ، وأعلى لديه رتبةً ، وأولى بالفوز في العاجلة والآجلة ، لأن أهله بذلوا لله أنفسهم ، لتكون كلمة الله هي العليا ، وسمحوا بها دون مَنْ وراءهم من إخوانهم وحريم المسلمين وبَيْضَتهم ووَقَمُوا (قمعوا) بجهادهم العدو » .

وصياغة الكتاب جزلة رصينة ، وفيها محاولة واضحة للدقة في التعبير وأن يروق السمع والذهن ، ولكن لا بسجع ، وإنما بعبارات متوازنة متقابلة . مما يشهد لابن الخصيب بأنه كان كاتبًا مجيداً . واحتفظ الطبري له بكتاب ثان خلع فيه المنتصر أخويه المعتز والمؤيد[٤] ، نحا فيه منحى الكتاب السابق في الصياغة .

ويتولى المستعين الخلافة ، ويتخذ سعيد بن حميد أحدَ الكتاب البلغاء على

---

(١) طبرى ٩ / ٢٠٠ .

(٢) طبرى ٩ / ٢٤١ .

(٣) مخمصة : جوع شديد .

(٤) طبرى ٩ / ٢٤٧ .

ديوان رسائله ، وسنخصه بحديث مستقل فى الفصل التالى . وسرعان ما يتولى المعتز الخلافة ، ويستوزر أحمد بن إسرائيل ، ويقول الفخرى إنه أحد الكتاب الحُذّاق الأذكياء[1] . وكان من كبار ولاته وأقربهم إلى نفسه محمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد ، وكان أديبًا بارعًا ، وفى الطبرى رسالة له وجّه بها إلى عمّال النواحى حين أعطاهم المعتز الحق فى التنكيل بأعدائه ، وهى تمتلئ وعيداً وتهديداً على هذا النمط[2] :

«أما بعد فإن زَيْغَ الهوى صَدَفَ بكم عن حَزْم الرأى ، فأقحمكم حبائلَ الخطأ ، ولو ملّكتم الحق عليكم وحكمتم به فيكم لأوردكم البَصيرة ونَفَى غَيَابة[3] الحَيْرة ، والآن فإن تَجنحوا للسّلْم تَحقنوا دماءكم وتُرْغدوا عيشكم ويَصفح أمير المؤمنين عن جريرة جارمكم[4] ، ويُسْبغ النعمة عليكم ، وإن مضيتم على غُلَوائكم وسوّل لكم الأمل أسوأ أعمالكم فأْذَنوا بحرب من الله ورسوله بعد نَبْذ المعذرة إليكم وإقامة الحجة عليكم . ولئن شُنّت الغارات وشُبّ ضِرام[5] الحرب ، ودارتْ رحاها على قُطْبها وحَسَمت[6] الصوارمُ أوصال حماتها ، واستجرّت[7] العوالى من نَهمها ، ودُعيَتْ نَزال[8] ، والتحم الأبطال ، وكَلَحت[9] الحرب عن أنيابها أشداقَها ، وألقتْ للتجرّد عنها قِناعها . واختلفت أعناقُ الخيل ، وزحف أهل النجدة إلى أهل البَغْى لتعلمُنّ أىُّ الفريقين أسمحُ بالموت نفسًا ، وأشَدّ عند اللقاء بطشًا ، ولات حينَ معذرة ، ولا قبول فدية ، وقد أعذر من أنذر (وسيعلم الذين ظلموا أىَّ منقلب ينقلبون)» .

وصياغة الرسالة صياغة مضبوطة محكمة ، ويكثر فيها التقابل بين العبارات ويكثر التفاصح واستخدام كلمات القرآن الكريم وبعض آيه مثل : (فإن تجنحوا للسلم) ومثل : (فأْذنوا بحرب من الله ورسوله) و (وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) مما يدل على تمكن الكاتب من العربية والثقافة الإسلامية القرآنية : وقد استخدم كلمة :

---

(١) الفخرى ص ١٨٢ .
(٢) طبرى ٩ / ٣٦٧ .
(٣) غيابة : غشاوة .
(٤) جريرة جارمكم : جريمة مذنبكم .
(٥) ضرام : وقود .
(٦) حسمت : قطعت .
(٧) استجرت : اجترت .
(٨) دعيت نزال : كناية عن احتدام الحرب .
(٩) كلحت : كشرت .

« واستجرت » بدلا من كلمة : « واجترت » دلالة على قدرته فى القياس والتصريف ، وأتى بأمثال مختلفة مثل : « ودعيت نزالِ » وهو مثل يضرب لاحتدام الحرب ، ومثل : « من أعذر فقد أنذر » . وشيء أهم من ذلك كله واضح فى الرسالة وضوحاً بيِّناً ، وهو كثرة الصور فيها مثل غيابة الحيرة وإسباغ النعمة وضرام الحرب و « دارت رحاها على قطبها ، وحسمت الصوارم أوصال حماتها واستجرَّت العوالى من نَهمها . . . وكلحت الحرب عن أنيابها أشداقها وألقت للتجرد عنها قناعها » . صور متراكمة ، قصد إليها الكاتب قصداً ليدل على براعته الفنية ، وأنه ليس الشعر وحده الذى يستطيع أن يحمل حشود الصور ، فالنثر بدوره يمكن أن يحمل منها ما يحمل الشعر ، بل يمكن أن يزداد حمله وأن يصبح صوراً خالصة يأخذ بعضها بزمام بعض .

ويخلف المعتز المهتدى ، وهو أعظم خلفاء العصر سيرة حميدة وتقوى وورعاً وعبادة ، وكان كما مرَّ بنا يخطب فى الناس كل جمعة يعظهم ويذكرهم الآخرة ، وكان يعمل فى دواوينه سعيد بن عبد الملك ، ويقول صاحب الفهرست : البلغاء الحديثون ثلاثة : الحسن بن وهب وإبراهيم بن العباس الصولى وسعيد بن عبد الملك[1] ، وله كتاب فى التنويه بخليفة وخطابته فى عيد الفطر . ولا نرتاب فى أنه يريد المهتدى ، لأن من وليه من خلفاء القرن الثالث كانوا يندبون عنهم من يخطب يوم الجمع ، ومرَّ بنا ما أصاب المعتضد من حَصَر حينما حاول الخطابة فى أحد الأعياد ، فالمهتدى المقصود بتلك الرسالة ، وفيها يقول[2] :

« أدام الله صلاح الأمة ولا أخلاها من بركة رعايته ، ومن ولايته وسياسته ، ولا زالتْ فى كنف السلامة بسلامته ، وظلِّ العافية بعافيته ، وعلى سبيل نجاة هدايته . وقد كتبتُ إلى أمير المؤمنين فيما وَليَهُ الله به فى مخرجه إلى عيده من يوم فطره وما وفَّقه له من التقرب إليه بوسائل التذلل فى طاعته والاجتهاد فى شكره والمناصحة فى مخاطبة من حضره وإنصاتهم لوعظه وتذكيره ، وما وليه الله به من العافية والسلامة الشاملة ، والنعمة الكاملة ، والعز الموصول بالسكينة . . . منًّا من الله خصَّ به

(١) الفهرست ص ١٨٨ .
(٢) جمهرة رسائل العرب لأحمد زكى صفوت ٤ / ٣٠٠ .

خليفته وأعطاه فضل مزيّته بما وفّقه له من العدل والنّصَفة ، والبر والمرحمه ، والعطف والرأفة » .

وفى هذه الفقرة ما يصوّر كيف أخذ كتّاب الرسائل الديوانية منذ أواسط القرن الثالث الهجرى يصطنعون السجع فى جوانب من رسائلهم على نحو ما نرى الآن عند سعيد بن عبد الملك ، وحقًّا أخذ السجع يدخل فى الرسائل الشخصية منذ القرن الثانى كما صوّر ذلك كتابنا العصر العباسى الأول على نحو ما يلقانا فى رسالة ابن سيّابة المشهورة ، ولكن الرسائل الديوانية ظلت تُكْتَب بأسلوب مرسل ، يشيع فيه أحيانًا الازدواج ، أما السجع فيندر أن نلتقى به فى تلك الرسائل ، وكأن الأذواق أخذت تستعد لشيوعه وانتشاره فى الكتابة الديوانية لهذا العصر .

ويخلف المهتدىَ المعتمدُ ، ويظل وزيراً له ، كما كان وزيراً لسابقه ، سليمانُ بن وهب ، ويقول الفخرى[1] عنه : أحد كتّاب الدنيا ورؤسائها فضلا وأدبًا وكتابة وأحد عقلاء العالم وذوى الرأى منهم ، ويرْوى عنه أنه كان يكتب ، فى أول عهده بالعمل ، بدواوين الدولة بين يدى محمد بن يزداد وزير المأمون . وكان إذا انصرف فى الليل إلى داره ناب عنه فى دار المأمون أحد الكتاب الصغار بالنوبة لمهمّ عساه يعرض فى الليل . يقول سليمان : وبينما أنا نائب عنه فى إحدى الليالى إذ طلبنى المأمون ، فقال لى : اعملْ نسخة فى المعنى الفلانى ، ووَسِّعْ بين سطورها وأحضرْها لأصلح منها ما أريد إصلاحه ، فخرجتُ سريعًا وكتبت الكتاب وبيّضته وأحضرته إليه ، فلما رآنى قال : كتبت مسوّدة ؟ قلت : بل كتبت الكتاب ، فقال : بيّضته ؟ قلت : نعم ، فزاد فى نظره إلىّ كالمتعجب منى ، فلما قرأه تبينت الاستحسان على وجهه ، وقال : يا صبىّ لا أدرى من أى شىء أعجب أمن سرعة فهمك أم من حُسْن خطّك ، بارك الله فيك . ونعجب أن يظل سليمان بن وهب يعمل فى الدواوين ويكتب رسائل ديوانيه مختلفة حتى عصر المعتمد ومع ذلك لا تحتفظ له كتب الأدب برسالة واحدة من تلك الرسائل ، وحتى رسائله الشخصية لم تحتفظ منها إلا بما كتبه شعراً على نحو ما يلاحظ قارئ ترجمته فى الأغانى ، وإلا فقرة نثرية من كتاب اعتذار على هذا النحو[2] :

---

(١) الفخرى ص ١٨٣ .

(٢) جمهرة رسائل العرب لأحمد زكى صفوت ٤ / ٣٢١ .

« أنا مقرٌّ معترف ، فما تُراك صانعاً بمن أعلَقك زِمامَه ، وأمكنك من قياده ، وحكّمك فى أمره ، معاقباً له أو متفضّلا عليه بالعفو عنه ؟ لكنى أرجو أن أستقبل طاعة لا تمتنع من شكرها ، واغتفار كل تقصير حَلّا فى جنْبها ، فالأيامُ بما تحبُّ أمامك » .

والقطعة قصيرة ، ولكنها على كل حال تصوّر صياغةً جزلة رصينة ، كما تصوّر ذوقاً مهذباً فى الاعتذار والاستعطاف ، حتى ليجعل زمامه وقياده بيد صديقه ويحكّمه فى أمره ، وله الخيار إما أن يعاقب ، وإما أن يتفضل بالعفو . وكان يكتب بين يديه حين وزر للمعتمد أبو العباس أحمد بن ثوابة ، وهو من أعلام الكتّاب فى العصر ، وسنخصه فى الفصل التالى بحديث مستقل .

وكان يلى وزارة المعتضد عبيد الله بن سليمان بن وهب ، وفيه يقول الفخرى [(١)] : « من كبار الوزراء ومشايخ الكتاب ، وكان بارعاً فى صناعته حاذقاً ماهراً لبيباً جليلا ، ماتت للمعتضد جارية كان يحبها فجزع عليها ، فقال له عبيد الله بن سليمان : « مثلك — يا أمير المؤمنين — تهون المصائب عليه ، لأنك تجد من كل مفقود عِوَضاً ، ولا يجد أحد منك عوضاً ، وكأن الشاعر عنَاك بقوله :

يُبْكَى علينا ولا نَبْكى على أحدٍ لنحن أغلظُ أكباداً من الإبلِ »

وليس بين أيدينا من رسائل عبيد الله الديوانية إلا رسالة كان قد أمره المعتضد بإنشائها فى لَعْن معاوية ، حتى يقرأ بها الخطباء بعد صلاة الجمعة على المنابر ، وقد استهلّها عبيد الله بالتحميد قائلا [(٢)] :

« بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله العلى العظيم ، الحليم الحكيم ، العزيز الرحيم ، المنفرد بالوحدانية ، الباهر بقدرته ، الخالق بمشيئته وحكمته ، الذى يعلم أسرار الصدور وضمائر القلوب لا تخْفَى عليه خافية ، ولا يعْزُب عنه مثقال ذَرّة فى السموات العُلا ، ولا فى الأرضين السُّفْلى ، قد أحاط بكل شىء علماً ، وأحصى كل شىء عدداً ، وضرب لكل شىء أمداً ، وهو العليم الخبير . والحمد لله الذى بَرَأ خلقه لعبادته ، وخلق عباده لمعرفته ، على سابق علمه فى

---

(١) الفخرى ص ١٨٩.
(٢) طبرى ١٠ / ٥٥ .

طاعة مطيعهم ، وماضى أمره فى عصيان عاصيهم ، فبيَّن لهم ما يأتون وما يتَّقون ، ونهَج لهم سبلَ النجاة ، وحذَّرهم مسالك الهلكة ، وظاهرَ عليهم الحجة ، وقدَّم إليهم المعذرة ، واختار لهم دينهم الذى ارتضى لهم وأكرمهم به ، وجعل المعتصمين بحبله والمتمسكين بعُرْوته أولياءه وأهل طاعته ، والعاندين عنه والمخالفين له أعداءه وأهل معصيته (ليَهْلِكَ مَنْ هلك عن بَيِّنَة ويَحْيَا مَنْ حَيَّ عن بيِّنة وإن الله لسميع عليم) . والحمد لله الذى اصطفى محمداً رسوله من جميع بريَّته ، واختاره لرسالته ، وابتعثه بالهدى والدين المرتضى إلى عباده أجمعين ، وأنزل عليه الكتاب المبين المستبين ، وتأذَّن له بالنصر والتمكين ، وأيَّده بالعز والبرهان المتين ، فاهتدى به مَن اهتدى ، واستنقذ به مَن استجاب له من العمى ، وأضلَّ مَنْ (أدبر وتولَّى) حتى أظهر الله أمره ، وأعزَّ نصره ، وقهر مَنْ خالفه ، وأنجز له وعده ، وختَم به رُسله ، وقبضه مؤدِّيًا لأمره ، مبلغًا لرسالته ، ناصحًا لأمته ، مرضيًّا مهتديًا إلى أكرم مآب المنقلبين ، وأعلى منازل أنبيائه المرسلين ، وعباده الفائزين ، فصلَّى الله عليه أفضل صلاة وأتمَّها ، وأجلَّها وأعظمها ، وأزكاها وأطهرها ، وعلى آله الطيبين » .

ويكثر السجع فى مقدمة هذه الرسالة التى كتبت لسنة ٢٨٤ وهو شىء طبيعى ، فقد دخل السجع الرسائل الديوانية ، وحقًّا لم يطَّرد فيها بعد ، حتى فى هذه الرسالة نفسها فإن عبيد الله تخلص بعد ذلك منه فى الرسالة . وقد مضى يصور استجابة بنى هاشم للرسول عليه السلام حين دعا قومه للهدى ومؤازرتهم له ومناصرتهم بينما كان ممن عانده ونابذه وكذبه وحاربه أبو سفيان بن حرب وأشياعه من بنى أمية ، حتى علت كلمة الله وهم لها كارهون . ثم يذكر آثاراً فى ذم أبى سفيان وابنه معاوية وما كان من حربه لأفضل المسلمين فى الإسلام مكانًا وأقدمهم إليه سبقًا وأحسنهم فيه أثراً وذكراً على بن أبى طالب . ويذكر أعمال معاوية وكيف أنه أباح المحارم ومنع الحقوق أهلها وقتل صبراً نفراً من خيار التابعين ويعرض أعمال يزيد بن معاوية وإيقاعه بأهل الحرَّة وسفكه دم الحسين مع موقعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومكانه منه ومنزلته من الدين والفضل ، اجتراءً على الله وكفراً بدينه وعداوة لرسوله ومجاهدة لعترته واستهانة بحرمته . ويذكر ما كان من

بنى مروان من تعطيل كتاب الله وأحكامه ونَصْبهم المجانيقَ على بيته ورميهم له بالنيران استباحه وانتهاكاً ، ويختمها بقوله :

« أيها الناس بِنَا هداكم الله ، ونحن المستحفَظون فيكم أمر الله ، ونحن ورثة رسول الله والقائمون بدين الله ، فقفوا عند ما نقفكم عليه . وانفذوا لما نأمركم به ، فإنكم ما أطعتم خلفاء الله وأئمة الهدى على سبيل الإيمان والتقوى . وأمير المؤمنين يستعصم الله لكم ، ويسأله توفيقكم ، ويرغب إلى الله فى هدايتكم لرشدكم وفى حفظ دينه عليكم ، حتى تلقوه به مُسْتحقين طاعته مُسْتحقبين (حاملين) لرحمته » .

وراجع المعتضد نفسه ، وخشى أن يجمع الكتابُ قلوبَ العامة حول العلويين ، لما كان لجدّهم على بن أبى طالب من بلاء عظيم فى إعلاء كلمة الله وإلقاء كفار قريش له عن يدٍ وهم صاغرون . وفى الكتاب إطراء عظيم له ولأبنائه . فأمسك عما كان عزم عليه . وواضح من الفقرة الأخيرة أن عبيد الله كاتبه ، إن كان تخلص من السجع بعد تقديمه فإنه ظل يحتفل بصياغته ، ويبدو أنه كان يستخدم السجع فى جوانب من كتابته فى الحين بعد الحين . وخاصة فى توقيعاته ، فقد كتب إليه أبو العيناء يذكّره بأمره وأنه من زرعه وغَرْس يده ، فوقّع فى رقعته[1] :

« أنا ــ أسعدك الله ــ على الحال التى عهدتَ ، ومَيْلى إليك كما علمتَ ، وليس من أنسيناه أهملناه . ولا من أخّرناه تركناه ، مع اقتطاع الشغل لنا ، واقتسامه زماننا ، وكان من حقك علينا أن تذكّرنا بنفسك ، وتُعْلِمَنا أمرك ، وقد وقّعت لك برزق (راتب) شهرين لتُزيح علتك وتعرّفنى مبلغ استحقاقك ، لأطلق لك باقىَ أرزاقك ، إن شاء الله ، والسلام » .

والتوقيع ــ كما هو واضح ــ سجع خالص . وسنرى عما قليل أن سريان السجع فى الرسائل الشخصية طوال القرن الثالث الهجرى كان أقوى منه فى الرسائل الديوانية ، حتى إذا كان عصر المقتدر (٢٩٥ ــ ٣٢٠ هـ) أخذ السجع يعم فى جميع ما يصدر من الرسائل الديوانية ، فليس هناك وزير ولا كاتب فى الدواوين إلا وهو يتأنق فى كتابته ويبالغ فى تأنقه حتى يجعل كتابته سجعاً خالصاً . وبذلك

(١) زهر الآداب ١ / ٢٩١ .

أخذ كل ما يصدر عن الخليفة منذ سنة ٣٠٠ للهجرة يوشّى بالسجع[١]، وبالمثل ما يصدر عن وزرائه وفى مقدمتهم ابن الفرات . وكان على بن عيسى الوزير لا يقل عناية عنه بالسجع ، وقد ذكر له الهلال مجموعة كبيرة من رسائله كلها مسجوعة . ومثله وزير المقتدر الثالث الخاقانى ، فقد كان شغوفًا بالسجع شغفًا شديداً ، وتُرْوَى له فى ذلك نوادر كثيرة ، منها أن عامل النيل أحد فروع الأنهار فى العراق تأخر فى حمل غَـلَّة إليه ، فكتب إليه هذه العبارات : « احمل الغلَّة ، وأزِح العِلَّة ، ولا تجلس متودّعًا فى الكِـلَّة (السّتر) » ولاحظ أنه قد حشر الكلة فى الكلام لاستكمال السجع ، فالتفت إلى الكاتب وقال له : أفى النيل بَقّ يحتاج إلى كلل ؟ فقال له الكاتب مداجيًا مرائيًا : إى والله وأى بَقّ ، ومن أجله يلزم الناس الكِلل ليلا ونهاراً[٢] . ووقّع فى رسالة وجّه بها إلى بعض عمّاله : « الزمْ — وفّقك الله المنهاج ، واحذر عواقب الاعوجاج ، واحمل ما أمكن من الدّجاج ، إن شاء الله » ، وكان أن حمل العامل إليه دجاجًا كثيراً ، فقال : هذا دجاج وفّرته بركة السجع[٣] . وكان الولاة يقلدون الوزراء فى هذا البدع الجديد فقد ذكر الرواة أن الوالى على كُوَر الأهواز كتب إلى على بن عيسى كتابًا سجع فيه ، فكتب إليه وقد صمّم على عزله : « عوّلتَ بنا على كلام ألّفته ، وخطاب سجّعته أوجب صرْفك عما توليته[٤] » .

وكان كتّاب الدواوين على شاكلة الوزراء يَسْجعون فى كتاباتهم ، وفى مقدمتهم محمد بن جعفر بن ثوابة القائم على ديوان الرسائل لعهد المقتدر والمتوفى سنة ٣١٢ ، وكان فى باكورة حياته يكتب بين يدى عبيد الله بن سليمان بن وهب ، وكلّفه أن يجيب على كتاب خمارويه حين أنفذ ابنته إلى المعتضد ، فقال فى الفصل الذى احتاج فيه إلى ذكرها :

« وأما الوديعة فهى بمنزلة شىء انتقل من يمينك إلى شمالك ، عنايةً بها ، وحياطةً عليها ، ورعايةً لمودتك فيها » ، ورآه عبيد الله يعجب بهذه العبارات ،

---

(١) تاريخ الوزراء للهلال بن المحسن ص ٣٣٧ وما بعدها .

(٢) تاريخ الوزراء ص ٢٧٧ .

(٣) نفس المصدر والصفحة .

(٤) تاريخ الوزراء ص ٣٣٥ .

فأخذ ينقدها له قائلا : « تفاءلتَ لامرأة زُفّت إلى زوجها بالوديعة ، والوديعة مستردَّة . وقولك من يمينك إلى شمالك أقبح ، لأنك جعلت أباها اليمين وأمير المؤمنين الشمال ، ولو قلت : بمنزلة شيء انتقل من حال إلى حال لكان أحسن . وكان خيراً من ذلك كله أن تقول :

« وأما الهدية فقد حَسُنَ موقعها منا ، وجَلّ خطرها عندنا . وهي وإن بعدت عنك بمنزلة ما قرب منك لتفقُّدنا لها ، وأُنْسنا بها ، واسرورها بما وردت عليه واغتباطها بما صارت إليه » لكان أحسن »[1] .

وواضح ما حمل نقد عبيد الله بن سليمان إلى الشاب فى مطالع عمله بالدواوين من لفت قوى إلى العناية بصياغته ومعانيه وكأنه هو الذى حمله على أن يأخذ نفسه بتكلف شديد . ومعروف أن عبيد الله توفى سنة ٢٧٨ ، ولا نصل مع محمد بن جعفر إلى عصر المقتدر ، حتى يصبح أكبر كاتب فى دواوينه ، وحتى يُعْهَد إليه بتولى ديوان الرسائل . ويأخذ حينئذ نفسه بالحرص على السجع فى كل ما يَصْدر عنه ، على نحو ما يصوّر ذلك منشورٌ وجّهه باسم الخليفة المقتدر إلى العمّال فى البلدان المختلفة ينوّه فيه بابن الفرات فى وزارته الثانية لسنة ٣٠٤ ، وفيه يقول[2] :

« لما لم يجد أمير المؤمنين غِنًى عنه ، ولا للملك بُدًّا منه . وكان كتّاب الدواوين على اختلاف أقدارهم ، وتفاوت ما بين أخطارهم مقرّين برياسته ، معترفين بكفايته ، متحاكمين إليه إذا اختلفوا واقفين عند غايته إذا استبقوا ، مذعنين بأنه الحُوَّل القُلَّب ، المحنَّك المجرَّب ، العالم بِدِرّة المال كيف تُحْلَب ، ووجوهه كيف تُطْلَب ، انتضاه[3] من غمده ، فعاود ما عُرِف من حَدّه ، فنفَّذ الأعمال كأن لم يغب عنها ، ودَبَّر الأمور كأن لم يَخْلُ منها » .

فالسجع أصبح ظاهرة عامة فى الرسائل الديوانية ، ويبدو أن ابن مُقْلة وزير المقتدر والخلفاء من بعده كان يستخدمه ، إن لم يكن دائمًا ففى الحين بعد الحين ، وكان كاتبًا بليغًا ، وفيه يقول الصولى : « ما رأيت وزيراً منذ توفّى القاسم بن عبيد الله

---

(١) معجم الأدباء ١٨ / ٩٨ وزهر الآداب ٢ / ٢٨٩ .

(٢) معجم الأدباء ١٨/ ٩٧ وانظر رسالة أخرى له مسجوعة فى الهمدانى ص ٢٠ .

(٣) انتضاه : سله .

ابن سليمان بن وهب (وزير المكتفى) أحسن حركة ، ولا أظرف إشارة ، ولا أملح خطًّا ، ولا أكثر حفظًا ، ولا أسلط قلمًا ، ولا أقصد بلاغة ولا آخَذَ بقلوب الخلفاء من ابن مُقْلة »[١] وهو صاحب الخطّ الذى تضرب به الأمثال ، وهو أول من نقله من الوضع الكوفى إلى الوضع الذى شاع فى العالم العربى ، وكان أول من رفع من قدره أبو الحسن بن الفرات ، وخاصة فى وزارته الثانية آنفة الذكر ، حتى علت حاله وعَرُضَ جاهه ، ولكنه عاد فاستوحش منه ونكبه . ثم خلص من المحنة ، واستوزره المقتدر ومن جاءوا بعده ، واحتفظ له كتاب النجوم الزاهرة برسالة أنفذ بها إلى ابن الفرات وقد طالت به المحنة، تجرى على هذا النمط[٢] :

« أمسكتُ — أطال الله بقاء الوزير — عن الشكوى ، حتى تناهت البَلْوَى ، فى النفس والمال ، والجسم والحال ، إلى ما فيه شفاء للمنتقم ، وتقويم للمجترم ، حتى أفضيت إلى الحَيْرة والتبلّد ، وعيالى إلى الهُتْكة والتشرد . وما أبداه الوزير — أيّده الله — فى أمرى إلا بحقٍّ واجب ،وظنٍّ غير كاذب . وعلى كل حال فلى ذِمامٌ وحُرْمَةٌ ، وصحبة وخدمة إن كانت الإساءة أضاعتها فرعايةُ الوزير ، أيّده الله تعالى بحفظه ، ولا مفزع إلا إلى الله بلطفه ، وكنف الوزير وعطفه ، فإن رأى — أطال الله بقاءه — أن يلحظ عبده بعين رأفته ، ويُنْعِم بإحياء مهجته ، وتخليصها من العذاب الشديد ، والجَهْد الجهيد ، ويجعل له من معروفه نصيبًا ، ومن البلوى فرجا قريبًا » .

وكأن السجع أصبح لغة جميع الرسائل منذ أوائل القرن الرابع للهجرة ، بل مع أواخر القرن الثالث ، فليس هناك كاتب إلا ويسجع ، وإن فاته السجع فى مكان من رسالته عاد إليه فى الأمكنة الأخرى . وقد خلف محمد بن جعفر بن ثوابة ابنه أحمد منذ سنة ٣١٢ ، وظل على ديوان الرسائل من بعده إلى أن توفى سنة ٣٤٩ ، فخلفه عليه أبو إسحق الصابى . ولا ريب فى أن أحمد مضى فى إثر أبيه يسجع فى رسائله وكل ما يصدر عنه من كتابات ديوانية ، وقد بقيت منها بقايا قليلة تصور سجعه وإغراقه فيه من مثل قوله فى وصف فتح[٣] :

---

(١) النجوم الزاهرة ٣ / ٢٦٨ .
(٢) النجوم الزاهرة ٣/ ٢٦٨ .
(٣) الهمدانى : تكملة تاريخ الطبرى ص ١٥٨ .

« فلم يُسْفِر العَجاج[1] إلا عن قتيل مرسل ، أو غريق معجَّل ، أو جريح معطَّل ، أو أسير مكبَّل ، أو مستأمَنٍ محصَّل ، أو حقيبة ملأها الله بلا تعب ، أو غنيمة أفاءها الله بلا نَصَب » .

وواضح من كل ما قدمنا أن السجع أصبح منذ خلافة المقتدر اللغة العامة للدواوين ، فالرسائل تمتلىء بزخارفه ولآلئه . إذ غدا المثلَ الأعلى للجمال الفنى فى الكتابة الديوانية ، فلا بد فيها من قوافيه وفواصله ، ولا بد من تساوق أنغامه وألحانه فى الكلام .

٥

الرسائل الإخوانية والأدبية

رأينا فى كتاب العصر العباسى الأول كيف أن الرسائل الإخوانية ازدهرت حينذاك ، إذ اتخذها الأدباء لتصوير عواطفهم ومشاعرهم فى الخوف والرجاء والرهبة والرغبة والمديح والهجاء والتهانى والعتاب والاعتذار والاستعطاف والتعزية والاستمناح. وبذلك نافس النثر الشعر فى مجالاته الخاصة : مجالات الوجدان ، وأظهر الكتَّاب فى ذلك براعة فائقة ، إذ كان كثير منهم بلغ الذروة فى الفن الكتابى ، وأيضًا فإن الشعراء أنفسهم أدْلَوْا بدِلائهم فى تلك الرسائل حين وجدوها شديدة التأثير فى نفوس من تُوَجَّه إليهم . وبذلك توفَّر للرسائل الإخوانية كثيرون من الكتَّاب والشعراء النابهين ، الذين استطاعوا أن يبثوا فى النثر طاقات جديدة من طرافة التفكير ودقة التعبير ، حتى لنرى قومًا إذا سُئلوا عن الكلام أو الوصف هل يكون شعراً أو نثراً فضَّلوا أن يكون نثراً ، فقد روى المسعودى عن أبى العباس المكى نديم محمد بن عبد الله بن طاهر أنه كان ينادمه ذات ليلة فى سنة ٢٥٠ للهجرة ، فسأله أن يصف له الطعام والشراب والطيب والنساء والخيل ، فقال له : أيكون ذلك منثوراً أو منظومًا ؟ قال : لا ، بل منثوراً[2]. فالنثر أصبح له القِدْح المعلَّى على

(١) العجاج : غبار الحرب .

(٢) مروج الذهب للمسعودى ٤/ ٧٠ .

الشعر ، لا لأن أصحابه كانوا يرقون إلى الوظائف العليا فى الدولة ودواوينها فحسب ولا لأنه كان يُختار منهم الوزراء فحسب ، بل أيضًا لأنه أصبح يضارع الشعر فى التأثير فى وجدان القارىء ، بما وفَّر له كتَّابه العظام من جزالة الألفاظ ورصانتها ومن حسن تلاؤمها فى الجَرْس . فالكاتب ما يزال يلائم بين لفظة ولفظة ، بل أحيانًا بين حرْف وحرف ، حتى يأسِر العقول والألباب . وكان أكثرَ من الشعر طواعية لحمل الأفكار بحكم يُسْرِ تعابيره وما يجرى فيها من مرونة ، مما جعل الشعراء أنفسهم يتخذونه فى بعض الأحوال أداة لتصوير خواطرهم ومشاعرهم وأفكارهم ، كما ذكرنا آنفًا . وتحمل كتب الأدب كثيراً من الرسائل الإخوانية لكتَّاب بارعين ، ونحن نعرض طائفة منها تصوِّر مدى ما كانوا يحققونه لها من إجادة وإتقان ، فمن ذلك رسالة للحسن بن وهب كتب بها إلى المتوكل فى عيد نيروز ، يهنئه بالعيد ، وكلها دعاء وابتهال ، يقول[1] :

« أسعدك الله — يا أمير المؤمنين — بكرِّ الدهور ، وتكامل السرور ، وبارك لك فى إقبال الزمان ، وبَسَطِ بيُمْنِ خلافتك الآمال ، وخصَّك بالمزيد ، وأبهجك بكل عيد ، وشدَّ بك أزْرَ التوحيد ، ووصل لك بشاشة أزهار الربيع المونق ، بطيب أيام الخريف المُغْدِق (كثير المياه) وبمواقع تمكين لا يجاوزه الأمل ، وغبطة إليها نهايةُ ضارب المثل ، وعمَّر ببلائك الإسلام ، وفسح لك فى القدرة والمدة ، وأمتع برأفتك وعدلك الأمة ، وسرْبلك (ألبسك) العافية ، وردَّاك السلامة ، ودرَّعك العزَّ والكرامة ، وجعل الشهور لك بالإقبال متصدِّية ، والأزمنة إليك راغبة متشوقة ، والقلوب نحوك سامية ، تلاحظك عشقًا ، وترفرف نحوك طربًا وشوقًا » .

وكانت قد أخذت تشيع التهنئات بالأعياد الفارسية والإسلامية شعراً فجعلها الحسن بن وهب نثراً ، وفى رأينا أنه لم يعش طويلا فى عصر المتوكل . وكانوا قد اعتادوا كثيراً فى العصر العباسى الأول أن يتهادوا التحف والطرف ، وعادة كانوا يرسلون مع الهدية بعض الأشعار ، وأخذ النثر يزاحم الشعر فى هذا الموضوع ، فمن ذلك أن نرى الكندى الفيلسوف المتوفى سنة ٢٦٠ كما مرَّ بنا يهدى إلى بعض إخوانه سيفًا ويكتب معه[2] :

---

(١) المحاسن والأضداد ص ٢٨٥ .

(٢) غرر الخصائص الواضحة ص ٤٤٧ .

« الحمد لله الذى خصّك بمنافع ما أُهْدِيَ إليك ، فجعلك تهتزُّ للمكارم ، اهتزاز الصارم (السيف) ، وتمضى فى الأمور ، مضاء السيف المأثور (المتألّق اللامع) وتصون عِرْضَك بالإرْفاد (الإعطاء) كما تُصان السيوف فى الأغماد ، ويظهر دم الحياء فى صفحة خدّك المَشُوف (المجلو) كما يَشِفّ الرونق فى صفحات السيوف ، وتَصْقل شرفك بالعطيّات ، كما تُصقَلُ مُتون المَشْرَفيّات (السيوف)» .

والرسالة تتقدم فى السجع خُطْوَةً عن سابقتها ، فإن الحسن بن وهب كان يترك السجع أحياناً أما الكندى فإنه فى رسالته يتشبث بالسجع ، وكأنما لحق عصرا كانت عنايته به أقوى وأشد من عصر الحسن بن وهب . ومرّ بنا أبو على البصير بين الشعراء ، ويقول ابن المعتز كان كاتبًا رِساليًّا (صاحب رسائل) ليس له فى زمانه ثان . . . وقد قلنا فى أخبار العتّابى (وكان شاعراً كاتبا) : إن هذا قلما يتفق للرجل الواحد ، لأن الشعر الذى للكتّاب ضعيف جدًّا ، فإذا اجتمعا فى الواحد فهو المنقطع القرين »[1] . وقد أُثرت عن أبى على البصير رسائل كثيرة ، فمن ذلك رسالة كتب بها إلى عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل مادحًا له معدّدا فضائله ، وفيها يقول[2] :

« إن أمير المؤمنين لما استخلصك لنفسه ، وائْتَمَنَكَ على رعيّته ، فنطق بلسانك ، وأخذ وأعطى بيدك ، وأورد وأصْدَرَ عن رأيك . . . ولم يزد — أكرمك الله — رفعة وتشريفًا إلا ازددتَ له هيبةً وتعظيمًا ، ولا تسليطًا وتمكينًا إلا زِدْت نفسك عن الدنيا عزُوفًا وتنزيها ، ولا تقريبًا واختصاصاً إلا ازددت بالعامة رأفةً وعليها حَدَبًا ، لا يُخرجك فرْطُ النصح له عن النظر لرعيته ، ولا إيثار حقه عن الأخذ بحقها عنده . . . ولا يشغلك معاناةُ كبار الأمور عن تفقد صغارها . . تمضى ما كان الرشد فى إمضائه ، وتُرْجِئُ ما كان الحزم فى إرجائه . . . وتلين فى غير تكبر ، وتعمُّ فى غير تصنع ، لا يشقى بك المحقُّ وإن كان عدوًّا ، ولا يسعد بك المبطل وإن كان وليًّا . . . وكافّة الرعية — إلا من غمط (بَطِر) منهم النعمة — مُثْنون عليك بحسن السيرة ، ويُمْن النقيبة » .

---

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٩٨ . (٢) زهر الآداب ١ / ٢٤١ .

وقدرة أبي على البصير على اختيار الألفاظ بارعة ، فقدكان يعرف كيف يختار مفرداته وكيف يؤلف بينها تأليفًا حسنًا ، يجرى فيه التقابل والتوازن ، وإن لم يتجشّم فى هذه الرسالة السجع ، ولكن يجرى فيها ماء ورونق . وهو لم يسق فى مديح عبيد الله عبارات طنانة فحسب ، بل ساق معانى سياسية جيدة ، فهو رءوف بالشعب حَدِبٌ عليه ، وحقُّ كل فَرْدٍ فوق حق الخليفة نفسه، مدبر حازم . مترفع عن الصغائر ، فى تواضع لا يسفُّ به إلى الدنيات دون تكلف . لا يؤذى محقا وإن كان عدوًّا ، ولا يَسُرُّ مبطلا وإن كان صديقًا . والرعية جميعها تحبه وتُثْنى عليه لسيرته وفضائله الطيبة . وله رسالة مسجوعة تدخل فى العتاب أو بعبارة أدق فى الهجاء كتب بها إلى أبي العيناء منافسه فى منادمة الخلفاء والوزراء ، وفيها يقول[(١)] :

« من أبي على البصير ، ذى البرهان المنير ، المبلغ فى التحذير ، المُعْذِرِ فى النكير ، إلى أبي العَيْناء الضَّرير ، ذى الرأى القصير ، والخَطَل الكثير ، والإقدام بالتعيير ، سلامٌ على المخصوصين بالسلام ، من أجل حقيقة الإسلام ، المؤمنين بالحلال والحرام ، والفرائض والأحكام ، فإنى أحمد الله إلى نفسه وأوليائه من خَلْقه ، على ما هدانى من دينه ، وعرَّفنى من حقه، وامتنَّ علىَّ به من تصديق رسله . . . أما بعد فإنك الرجل الدقيق حَسَبُه ، الرَّدىء مذهبه ، الدَّنىءُ مكسبه ، الخسيس مطلبه ، البذىء لسانه ، المُبْتَلَى به إخوانه . . . قد صَيَّرْتَ القِحة (الوقاحة) جُنَّة (وقاية) وشَتْم الأعراض سُنَّة . . . صديقُك على وَجَلٍ منك إن شاهدته عافك ، وإن غبت عنه خافك ، تسأله فوق الطاقة ، وتُرْهقه عند الفاقة (الفقر) فإن اعتذر إليك لم تَعْذره ، وإن استنظرك لم تُنْظره (تمهله) وإن أنعم عليك لم تشكره ، لا تزيدك السنُّ إلا نقصًا ، ولا يفيدك الغنى إلا حرصًا . . . وتعرض للناس بالسؤال ، غير محتشم من الإملال . . . من أطاعك فى ماله حَرَبْتَه (سلبته) ، ومن منعك بعذر واضح سَبَبْتَه . . . ومن أكرمك أهنته وتطاولت عليه ، ومن أهانك استكنت له ولِنْتَ فى يديه . . . إرْثُكَ عن أبيك السعاية ، ونقلُ الأخبار والوشاية » .

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٤/١٥٩ .

والرسالة كلها — على هذا النحو — هجاء وإقذاع فى الهجاء ، وقد استهلها لمسّحًا إلى أن أبا العيناء لا يؤمن بحلال ولا حرام ولا بفرائض ولا أحكام مخرجًا له من الملة حامداً لنفسه هداه وتصديق الرسل الذين يكفر بهم أبو العيناء. ثم يسبه فى حسبه وفى مذهبه ومكسبه واصفًا له بالخسّة والدناءة ، وأنه لا يحترم صديقًا مهما أكرمه، مع الشّحّ والتعرض للناس بالسؤال والإلحاف فيه . ويقول له فى نهاية رسالته : «قد مِلْتُ إلى السجع على علمى بخساسة حظه وركاكة معانيه ولفظه ، إذ كنت تَلْوى به لسانك ، وتَثْنى إليه عِنانك ، قطعًا لحجتك ، وإزاحة لعلتك ».

وكان أبو العيناء على شاكلة أبى على البصير يملأ رسائله بالسجع على نحو ما نجد فى رسالة كتب بها إلى عبيد الله بن يحيى بن خاقان يشكو له ابنه محمداً إذ أهداه فرسًا غير فاره ، وفيها يقول[1] :

«أعلم الوزير — أيده الله — أن أبا على محمداً أراد أن يبرّنى فعقّنى ، وأن يُركبنى فأرجلنى ، أمر لى بفرس كالقضيب اليابس عَجَفًا (هزالا) وكالعاشق المهجور دَنَفًا (سقمًا). قد أذكر الرواةَ عُرْوة العُذْرِىَّ، والمجنون العامرى ... قد حفظ الأشعار ، وروى الأخبار ، ولحق العلماء فى الأمصار . . . وإنما أتيت من كاتبه الأعور ، الذى إذا اختار لنفسه أطاب وأكثر ، وإن اختار لغيره أخبَثَ وأنزَر (قَلَّلَ)» .

والرسالة سجع خالص ، وكأن من الكتّاب من أخذ يصطنعه منذ أوائل هذا العصر فى بعض الرسائل ، فإن لأبى العيناء نفسه رسائل أخرى فى الاستمناح[2] وطلب النوال وفى الشكر[3] ، يكتفى فيها بالعبارة المصقولة والألفاظ المنتخبة المختارة دون أن يعنى بالسجع وترصيفه وتنميقه . ومن الكتاب البلغاء المعاصرين لأبى العيناء وأبى على البصير محمد بن مكرم ، وفيه يقول صاحب الفهرست : «كاتب بليغ مترسل ، وله كتاب رسائل »[4] ، وتدور له فى الكتب مجموعة من الرسائل ، منها رسالة فى الاعتذار لبعض الرؤساء على هذه الشاكلة[5] :

---

(١) زهر الآداب ٢ / ١٦٥ .

(٢) زهر الآداب ١ / ٢٩١ .

(٣) زهر الآداب ٣ / ٩٥ .

(٤) الفهرست ص ١٨٥ .

(٥) عيون الأخبار ٣ / ١٠٥ وزهر الآداب ٣ / ٣٨٢ .

« نَبَت بي عنك غِرَّة (غفلة) الحَدَاثة ، فردَّتني إليك التجربة ، وباعدتْني عنك الثقة بالأيام ، فأدنتني إليك الضرورة ثقةً بإسراعك إليّ ، وإن أبطأتُ عنك ، وبقبولك لعذري وإن قصَّرتُ عن واجبك . وإن كانت ذنوبي قد سَدَّت مسالك الصَّفح عني ، فراجع فيَّ مجدك وسؤددك . وإني لا أعرف موقفاً أذلَّ من موقفي ، لولا أن المخاطبة فيه لك ، ولا خُطَّةً أدْنى من خُطَّتي ، لولا أنها في طلب رضاك » .

والرسالة محكمة ، وكل عبارة كأنما حاكتها أو قل صَبَّتها في قالبها يَدٌ صَناع وحقًّا لم يُحمَّل الرسالة بالسجع ، ولكن العبارات كلها كأنها حلى مختارة ، سواء في اصطفاء الألفاظ ، أو في توشيتها بألوان البديع ، فالغرة أمام التجربة ، والبعد أمام الدنو ، والسرعة أمام البطء . ثم تتعاقب الاستعارات والصور ، فالذنوب قد سَدَّت بحجاب غليظ دروبَ الصفح ومسالكه ، وهو يتوسل أن يراجع فيه مجده وسؤدده . ثم يأتي التلطف وقبول الذل وكأنه يقبله من حبيب . وله رسالة جيدة في تعزية سليمان بن وهب عن أخيه الحسن حين ابتُلي نداء ربه ، ونكتفي منها بهذه الفقرة[1] :

« إن الرَّمَض (حرقة الغيظ) والهلع إنما يكونان للمصيبة الخاصة التي لا تَعْدُو صاحبها ، ولا يجد مُسْعِداً (معيناً) عليها ، ولا شريكاً فيها ، وقد أعانك الله على مصيبتك بالواشِج (المشتبك) رَحِماً بك والبعيد نسباً منك ، وجمع في ثِقْلِ مَحْمِلها وألم فَجْعها صديقَك وعدوَّك ، وكلٌّ مُكْتَسٍ منها سِرْبال وحشة ، ومنطوٍ على دخيل حزن ، وناظرٌ من أعقابها في منظر وَعْر ، فجميعهم فيها مشترك ، وأنت بالتعزّي حقيقٌ قَمِينٌ » .

والقطعة كالرسالة السابقة ، ألفاظها محكمة ، ويجري فيها الطباق والتقابل والاستعارات والصور والرَّصْف الدقيق للعبارات ، فالنسج متين ، وعليه ألوان وصور تلفت الأذهان . ومن الكتّاب البلغاء أحمد بن سليمان بن وهب ، وهو من بيت كتابة ، كان أبوه وعمه الحسن من البلغاء المفوهين ، وله في الصداقة رسالة كتب بها إلى بعض أصدقائه ، وفيها يقول[2] :

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٤ / ٢٤٨ .

(٢) معجم الأدباء ٣ / ٦٢ .

« ليس عن الصديق المخلص والأخ المشارك فى الأحوال كلها مذهب ، ولا وراءه للواثق به مطلب ، والشاعر يقول :

وإذا يُصيبك والحوادث جَمَّةٌ حَدَثٌ حَذاك إلى أخيك الأَوْثَقِ

وأنت الأخ الأوثق ، والولىّ المُشْفق ، والصديق الوَصول ، والمشارك فى المكروه والمحبوب ، قد عرَّفنى الله من صدق صَفائك وكرم وفائك ، على الأحوال المتصرّفة ، والأزمنة المتقلبة ، ما يستغرق الشكر ، ويستعبد الحر ، وما من يوم يأتى علىَّ إلا وثقتى بك تزداد استحكامًا ، واعتمادى عليك يزداد تأكداً والتئامًا . . . وأعيذك بالله من العيون الطامحة ، والألسنة القادحة ، وأسأله أن يجعلك فى حِرْزه الذى لا يُرام ، وكَنَفه الذى لا يُضَام ، وأن يحرسك بعينه التى لا تنام ، إنه ذو المَنّ والإنعام » .

واستخدامه للسجع واضح ، وليس سجعًا متكلفًا ، مما يدل على أنه حذق صناعته ، حتى أصبح السجع ينحدر عن لسانه انحداراً سهلا طبيعيًّا ، لاعوج فيه ولا التواء ، ولا تكلف ولا عثرات هنا أو هناك ، بل أسلوب مستو متناسق . ومن الشعراء الكتاب الذين نبغوا فى كتابة النثر والشعر أحمد بن أبى طاهر طيفور ، ومرّت بنا ترجمة له بين الشعراء ، ويحتفظ كتابه : « اختيار المنظوم والمنثور » بطائفة من رسائله ، منها رسالة فى شكر على بن يحيى المنجم على بِرٍّ واسع أغدقه عليه ، تمضى على هذا النحو[1] :

« إن أحقّ معروف بأن يُشْكَرَ ، ويَد بارّة بأن لا تُكْفَر ، وأحق واجب بأن يؤدَّى ، وإحسان وبِرٍّ بأن يُجَازَى معروفك — أعزَّك الله — عندى ، ويدك قِبَلى ، وحقك علىّ ، وإحسانك إلىّ ، لأن المعروف يحسن عند الأحرار موقعُه ، ويجب عليهم شكره ونَشْره والإشادة بذكره . تتطوَّع مبتدئًا ، وتشفع ما تقدّم معقبًا ، وتُحْسن رَبَّ ما أسْديته متفضلا ، لا أخلاك الله من بِرّ وإحسان ، ولا أخلانا منك فى حال » .

والرسالة فيها سجع قليل ، ولكن له رسائل أخرى يكثر فيها السجع ، وكان

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٤/٣٤٤ .

كثير الهجاء للكُتّاب ، ويبدو أنه قلما كان أحد يسلم من لسانه ، وممن هجاهم وأقذع في هجائهم ابن ثوابة وابن مكرم ، ومن قوله في رسالة كتب بها إلى أبي على البصير يذم له الأخير ويعدد مثالبه[١] :

« المَقْليّ المذمَّم ، المهين ابن مكرَّم . . . العاكف على ذنبه ، الصادف عن ربه ، الوضيع في خلائقه ، العاق على خالقه . . . عدوُّه آمنٌ من غائلته ، وصديقه خائف من بائقته . . . مَن استخفّ به أكرمه . ومَنْ وصله صَرَمه (قطعه) . . . يحلف ليحنث ، ويعهد لينكث ، إسناده عن المذمومين ، وبلاغته في ذم الصالحين ، وطُرَفُهُ قَذْف المُحْصَنات ، وسَعْيه في كسب السيئات » .

ولابن المعتز رسائل إخوانية كثيرة في التهاني والتعازي والاعتذار والشوق والفراق وفي السؤال عن بعض المرضى والدعاء لهم بالشفاء ، وبكل ذلك احتفظ كتاب الأوراق للصولي في ترجمته ، كما احتفظ بكثير منه كتاب زهر الآداب ، ويقلُّ السجع في رسائله الإخوانية ، ولكنه يُعْنَى أشد العناية بصياغة كلامه ، على نحو ما نرى في الرسالة التالية ، وهي في تهنئة صديقه عبيد الله بن وهب وزير المعتمد في يوم عيد[٢] :

« أخرتْني العلة عن الوزير — أعزَّه الله — فحضرتُ بالدعاء في كتابي لينوب عني ،، ويتَعَمَّرَ ما أخلته العوائق مني ، وأنا أسأل الله تعالى أن يجعل هذا العيد أعظم الأعياد السالفة بركةً على الوزير ،ودون الأعياد المستقبلة فيما يُحِبُّ ويُحَبُّ له ، ويقبل ما توسَّل به إلى مَرْضاته ، ويضاعف الإحسان إليه على الإحسان منه ، ويمتعه بصحبة النعمة ولباس العافية ، ولا يُريه في مسرَّة نَقْصًا ، ولا يقطع عنه مَزِيداً ، ويجعلني من كل سوءٍ فداءه ، ويصرف عيون الغِيَرَ (حوادث الدهر) عنه وعن حَظِّي منه » .

والرسالة أدْعية للوزير الصديق ، وهو يُعْنَى فيها أشد العناية بجزالة العبارة ونصاعتها ، ولكن دون أن يلجأ إلى سجع . ويحتفظ له كتاب الأوراق بفصول كثيرة من بعض رسائله ، فمن ذلك فصل في الشوق يقول فيه : « إني لآسف على كل يوم فارغ منك ، وكلِّ لحظة لا تؤنسها رؤيتك ، وسَقْيًا لدهر كان موسِمًا

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٤/ ٣٥٠ .   (٢) زهر الآداب ١ / ٢٠٧ .

بالاجتماع معك، معموراً بلقائك، جمع الله شمل سروري بك، وعمَّر بقائي بالنظر إليك»[١]. ومن ذلك فصل في شفاعة: «موصل كتابي فلان، وقد جعلت الثقة به مطيته إليك، فلا تُنْضِها (تهزلها) بِمَطْلِكَ، وأسْرِعْ ردَّها بسابق إنجازك، وتصديق الأمل فيك والظن بك»[٢]. ولا ريب في أنه كان يسجع أحيانًا في بعض فصوله: «قد ملت إليك فما أعتدل، ونزلتُ بك فما أرتحل، ووقفت عليك فما أنتقل»[٣] وفي فصل آخر: «تولَّى الله عني مكافأتك، وأعان على فعل الخير نيلك، وأصحب بقاءك عزًّا يبسط يدك لوليك وعلى أعدائك، وكلاءة (حراسة) تذبُّ عن ودائع مِنَنِه عندك، وزاد في نعمك وإن عظمتْ، وبلَّغك آمالك وإن انفسحتْ»[٤]. وله في وصف الكتاب والقلم[٥]:

«الكتاب والج الأبواب، جريء على الحجَّاب، مُفْهِم لا يفهم، وناطق لا يتكلم، به يَتَشَخَّصُ (يحضر) المشتاق، ومنه يُداوَى الفراق. والقلم مجهزٌ لجيوش الكلام يخدم الإرادة، ولا يملّ الاستزادة، يسكت واقفًا، وينطق سائراً، على أرض بياضها مظلم، وسوادها مضيء، وكأنه يقبِّل بساط سلطان، أو يفتح نُوَّار بُسْتان».

والوصف يكثر فيه السجع، كما يكثر التصوير، فقد شخَّص الكتاب وجسَّمه في صور كثيرة، وبالمثل صنع بالقلم، وأخرجه مع الصحف التي يكتبها في صور بديعة:

وكان الكتَّاب يكثرون من الدعوة للزيارة والقضاء بعض الوقت في اللهو وأسماع الغناء أو للسمر والطعام. وأكثروا من التهاني في كل مناسبة في الأعياد وفي الزواج وفي إنجاب الأولاد وفي ختانهم، وفي الحج وقضاء مناسكه، وفي وصف الطبيعة شتاء وفي الربيع... وقد تعقبنا انتشار السجع في الرسائل الإخوانية طوال العصر، لندل على أن ذوقًا عامًّا أخذ يُعْنَى به، وهي عناية جعلته يعمُّ في تلك الرسائل مع أواخر القرن الثالث، بل لقد أخذ يعمُّ — منذ أواسطه — عند أبي علي

---

(١) أشعار أولاد الخلفاء للصولي ص ٢٩٢.
(٢) الصولي ص ٢٩٠.
(٣) الصولي ص ٢٩١.
(٤) الصولي ص ٢٩٤.
(٥) الصولي ص ٢٩٢ وزهر الآداب ٢/ ٣٢.

البصير وأبى العيناء فى بعض رسائلهما . وقد أخذت تنتشر مع ذلك عناية باصطناع الصور البيانية وبعض ألوان البديع على نحو ما لاحظنا فى بعض رسائل ابن مكرم ، وكأن الكاتب لا يريد أن يؤلف كلاماً فحسب ، بل يريد أن يصوغ درراً ، مما هيأ لسيادة السجع وسيطرته على جميع الرسائل سياسية وإخوانية منذ عصر المقتدر، بل لقد هيأ ذلك لظهور كتاب الألفاظ الكتابية التى ألف فيها عبدالرحمن ابن عيسى الهمذانى المتوفى سنة ٣٢٠ كتابه الذى وقفنا عنده فى موضع آخر ، وهو يدل بوضوح على أنه أخذت تسود فكرة النموذج فى الكتابة : فى التهانى والتعازى والبشارة والإنذار والاعتذار ، وأيضاً فى كتابة الرسائل الديوانية ، ففى كل ذلك درر من السجع والصور تُحْنـَط وتصبح مادة للكتَّاب ، تُعينهم فى كتابة الرسائل ، وكأنما كان صنيع الهمذانى نذيراً بجمود النثر العربى وأن يصبح صيغاً برَّاقة ، تخلب بما فيها من أسجاع قبل أن تخلب بما فيها من معان .

ولم يقف انتشار السجع وشيوعه عند الرسائل الإخوانية والديوانية ، فقد أخذ يشيع فى الرسائل الأدبية الخالصة ، وكان الجاحظ قد أشاع فى تلك الرسائل أسلوب الازدواج المعروف به ، غير أن من تَـلَـوْه فى القرن الثالث الهجرى أخذوا يدخلون عليها السجع ويكثرون منه ، على نحو ما تصوّر ذلك رسالة لابن المعتز كتب بها إلى بعض أصدقائه يصف سامرَّاء ويأسى لخرابها ويذم بغداد وأهلها ، وهى أشبه بمناظرة بين البلدتين : العاصمة القديمة سامرَّاء ، والعاصمة الجديدة بغداد ، وكان قد انتقل إليها المعتمد منذ سنة ٢٧٦ وانتقل معه ابن المعتز . ولعل من الخير أن نسوق أكثر هذه الرسالة الطريفة ، وهى تمضى على هذه الصورة[1] :

« كتبت إليك من بلدة قد أنهض[2] الدهر سُكَّانها ، فشاهدُ البأس فيها ينطق وحَبْل الرَّجاء فيها يَقْصر ، فكأن عُمْرانها يُطْوَى وكأن خرابها يُنْشَرُ ، وقد وُكِلَتْ إلى الهجر نواحيها ، واستُحثَّ باقيها إلى فانيها ، وقد تمزَّقتْ بأهلها الديار ، فما يجب فيها حقٌّ جوار ، فالظَّاعن منها ممحوٌّ الأثر ، والمقيم بها على طَرَف سفر ، نهاره إرجاف ، وسروره أحلام . . . فحالُها تصف

(١) زهر الآداب ١ / ٢٠٧ وجمهرة رسائل العرب ٤ / ٤٠٣ .

(٢) أنهض هنا : بعث على الرحيل .

للعيون الشكوى ، وتشير إلى ذم الدنيا ، بعد ما كانت بالمرأى القريب جنّة الأرض ، وقرار الملك ، تفيض بالجنود أقطارُها ، عليهم أردِيَةُ السيوف وغلائل الحديد ، كأن رماحهم قرون الوعول ، ودروعهم زَبَد السيول ، على خيل تأكل الأرض بحوافرها ، وتمدّ بالنَّقْع (الغبار) سُرَادقها ، قد نُشِرَتْ فى وجوهها غُرَر كأنها صحائف البرق ، وأمسكها تحجيل كأنه أسورة اللجيْن ، وقُرِّطَتْ عُذُراً[1] كالشنوف ، فى جيش يتلقف الأعداء أوائله ، ولم تنهض أواخره ، قد صُبَّ عليه وقار الصبر ، وهبَّت له روائح النصر ، يصرِّفه ملك يملأ العيون جمالا ، والقلوب جلالا ... قبل أن تَخُبَّ (تعدو) مطايا الغِيَر ، وتُسْفِر وجوهُ الحذر ، وما زال الدهر مليئاً بالنوائب ، طارقاً بالعجائب ، يُؤْمِنُ يومه ، ويَغْدِر غَدُه . على أنها — وإن جُفِيَتْ — معشوقة السكنى ، حبيبة المَثْوَى (المنزل) كوكبها يقظان ، وجَوها عُرْيان (صحو) وحَصْباؤها جَوْهر ، ونسيمها معطَّر ، وترابها مِسْكٌ أذْفر (ذكيّ) ويومها غداةٌ (لطيف الطقس) وليلها سَحَرٌ ، وطعامها هَنِيءٌ ، وشرابها مَرِيءٌ ، وتاجرها مالك ، وفقيرها فاتك (غير محتاج) لا كبغدادكم الوسِخة السماء ، الومِدة (الراكدة) الهواء ، جوها نار ، وأرضها خَبَار (لينة) وحيطانها نزوز (تنز بالماء) وتشرينها (أكتوبر) تَمُّوز (يولية) فكم فى شمسها من محترق ، وفى ظلها من غَرِق ، ضيقة الدار ، قاسية الجوار ، ساطعة الدخان ، قليلة الضيفان ، أهلها ذئاب ، وكلامهم سِباب ، وسائلهم محروم ، ومالهم مكتوم ، لا يجوز إنفاقه ، ولا يُحَلّ خِناقه (كيسه) وحيطانهم خِصاص (أكواخ) وبيوتهم أقفاص (ضيقة) ولكل مكروه أجل ، وللبقاع دُوَل ، والدهر يسير بالمقيم ، ويمزج البؤس بالنعيم » .

والسجع زاخر فى الرسالة كما يرى القارئ ، وكأن ابن المعتز أراد أن يجعلها رسالة أدبية خالصة ، فهو يختار لها الأسلوب الذى أخذ يشيع فى عصره أسلوب دُرَر السجع ولآلئه التى أصبحت موضع إعجاب الكتّاب والتى كانت تروقهم إلى أقصى حد ، مما هيأ الأذواق لأن ترفع اللفظ فوق المعنى ، فالمدار على جمال

---

(١) العذر : جمع عذار وهو من اللجام ما سال على خد الفرس. الشنوف : جمع شنف وهو القرط .

الجسد لا جمال الروح ، والعبرة بالشكل لا بالجوهر ، وبالقالب لا بما يحتويه ، وبالبريق الخارجي للمعاني لا بالبريق الداخلي . وعمّ ذلك حتى طغى في كتابة بعض الأخبار ، وحتى نجد الخليفة القاهر (٣٢٠ — ٣٢٢ هـ) يطلب من بعض أصحاب التاريخ وَصْفَ الخلفاء العباسيين الذين سبقوه ، ويقول له : « لا تغيّب عني شيئاً ، ولا تحسّن القصة ولا تسجع فيها »[1] ، فهو لا يريد في وصفهم إدخال زينة السجع ، حتى لا يجور اللفظ على المعنى . وكأنما أصبح السجع أسلوب الكتابة العامة واطّرد ذلك في العصر التالي ، وظل آماداً متطاولة .

وابن المعتز لا يكتفي في هذه الرسالة الأدبية بالسجع ، بل يضيف إلى ذلك ألواناً من البديع ، إذ تطالعنا فيها تَوًّا الطباقات . فالنهوض أو الرحيل يقابل القعود ، واليأس يقابل الرجاء ، والخراب يقابل العمران ، والنشر يقابل الطيّ ، والباقي يقابل الفاني ، والظاعن يقابل المقيم . وبجانب الطباقات ما اشتهر به في شعره من كثرة التشبيهات وإيراد الصور الطريفة ، فالخيل تأكل الأرض بحوافرها وتمد من الغبار سرادقاً ضخماً يظل الجيش ، والغرر في وجوهها كأنها صحائف البرق ، والتّحجيل في سيقانها كأنه الأساور من فضة تحيط بها ، وما سال على خدودها من اللجم كأنه أقراط في آذانها ، والحصباء جوهر ، والتراب مسك أذفر . وتتوالى الصور والتشبيهات وابن المعتز دائماً يستمد من مخازن لا تنفد ، مخازن تعطيه كل ما يريد من زخارف السجع وزخارف الصور والأخيلة ، وكأنه لم يلبث أن انضم بقوة إلى الرّكْب ، ركب العناية بالوشي . ويُطِلّ القرن الرابع ، وإذا هذه العناية تصبح هي الذوق العام في الكتابة الأدبية ، فليس هناك كاتب نابه إلا ويتخذ هذا الأسلوب الفني الجديد أسلوب السجع وما يُطْوَى فيه من زخارف البديع .

---

(١) مروج الذهب ٤ / ٢٢٢ .

الفصل التاسع

أعلام الكتاب

١

إبراهيم[1] بن العباس بن محمد الصولى

كان جده صول حاكمًا لجُرجان مع أخيه فَيْروز ، وكانا تركيين يدينان بالمجوسية ويتشبَّهان بالفرس ، ودخل صُول الإسلام على يد يزيد بن المهلب والى خراسان للحجاج ، وأصبح من خاصَّته ، حتى إذا ثار يزيد على بنى أمية فى مطالع القرن الثانى الهجرى حارب تحت لوائه حتى قُتل معه فى موقعة العَقْر بالقرب من الكوفة . وكان ابنه محمد من رجال الدولة العباسية ودُعاتها ، ونشأ له ابنه العباس فى ظلال تلك الدولة ، ورُزق ولدين : عبد الله وإبراهيم ، وكان عبد الله أكبر سنًّا من أخيه. وقد وُلد إبراهيم سنة ١٧٦ للهجرة ، وقيل بل سنة ١٦٧ ويقول مترجموه إن أمه كانت أخت العباس بن الأحنف الشاعر المشهور ، وكأنه هو وأخاه تأدَّبا عليه فى باكورة حياتهما ، كما تأدبا على ابن عمهما عمرو بن مسعدة الكاتب المشهور فى عصر المأمون. ومن المؤكد أن إبراهيم لزم — على عادة لِداته — حلقات العلماء والشعراء حتى أصبح يُتقن العربية ، وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة . وكان أخوه عبد الله سبقه إلى العمل مع ابن عمه عمرو بن مسعدة فى دواوين الفضل بن سهل الملقب بذى الرياستين وزير المأمون ، حين كانا لا يزالان فى مَرْو قبل تحول المأمون

(١) انظر فى ترجمة إبراهيم بن العباس ورسائله وشعره وأخباره الأغانى (طبع دار الكتب) ١٠ / ٤٣ والفهرست لابن النديم ص ١٨٢ وتاريخ بغداد ٦ / ١١٧ ومعجم الأدباء لياقوت ١ / ١٦٤ ومروج الذهب ٤ / ٢٣ وكتاب الورقة لابن الجراح (طبع دار المعارف) ص ١٣٦ وابن خلكان فى إبراهيم وتاريخ الطبرى فى ترجمة المتوكل وجمهرة رسائل العرب لأحمد زكى صفوت ، وديوانه بتحقيق عبد العزيز الميمنى فى كتاب الطرائف الأدبية طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر .

إلى بغداد . ويبدو أن إبراهيم أراد الالتحاق بأخيه وابن عمه وعملهما ، فرحل إليهما ، وتصادف حين وصوله أن كان المأمون قد عهد بالخلافة من بعده إلى على بن موسى الرِّضا . ويمدح إبراهيم ولى العهد الجديد ، ويهبه عشرة آلاف درهم من دراهم كانت ضُربت باسمه ، ويقال إنه احتفظ بها وجعل منها مهور نسائه ، وأبقى بعضها لكفنه فيما بَعْدُ وجهازه إلى قبره[1] . وألحقه الفضل بن سهل بدواوينه ، ومن حينئذ ظلّ يعمل فى الدواوين إلى أن توفى سنة ٢٤٣ وهو على ديوان النفقات والضياع للمتوكل ، ويقول صاحب الفهرست : «كان إليه ديوان الرسائل فى مدة جماعة من الخلفاء »[2] .

وقد ترك الدواوين مدة قصيرة لعهد الواثق جرّت عليه بلاء عظيما ، ذلك أن ابن الزيات الوزير — وكان صديقًا له — ولاّه على معونة الأهواز وخراجها ، ثم تنكّر له ، فوجّه إليه بمحاسب كبير يسمى أبا الجهم ليكشفه ، فتحامل عليه تحاملا شديداً ، وقال إن أموالا كثيرة لم تُؤَدّ إلى بيت الخراج ، وغضب ابن الزيات ، وأمر بعزله واعتقاله فى ولايته . وكانت محنة كبيرة لإبراهيم لم يَبْلُ فيها صديقه ابن الزيات وحده ، بل بَلاَ فيها كثيراً من الأصدقاء ومن كانوا يظهرون له المودة ، إذ قَلَبَتْ له منهم جماعة ظهر المِجَنّ مثل أحمد بن المدبر ، الذى كان يُوغِر صدر ابن الزيات عليه ويحثه على محاسبة عمّاله واستخراج الأموال منهم ، مما جعله يزهد فيما بعد فى صحبة الإخوان والرفقاء وكان إذا سُئل فى ذلك قال : « ما مَثَلُ الإخوان إلا كمثل النار قليلُها مقنعٌ وكثيرها محرقٌ أو قليلها متاعٌ وكثيرها بَوَارٌ » . ولعل ذلك ما جعله ينظم أشعاراً كثيرة فى الصداقة والصديق ، كأنما يريد أن يرسم واجباتها ومسئولياتها . ولم يعدم بعض الإخوان الذين كانوا يشفعون له عند ابن الزيات وهو ماض فى النكاية به ، وقد كتب إليه شعراً ونثراً كثيراً يستعطفه ، ومن أطرف ما كتب له هذه الرسالة[3] :

« كتبتُ إليك وقد بلغت المُدْية المَحزّ ، وعَدَت الأيام بك علىّ بعد عَدْوى بك عليها ، وكان أسوأُ ظنى وأكثرُ خوفى أن تسكن فى وقت حركتها ،

(١) الأغانى ١٠ / ٥٢ .

(٢) الفهرست ص ١٨٢ .

(٣) الأغانى ١٠/٥٦ ومعجم الأدباء ١/١٧٠ :

وتكفّ عند أذاها ، فصرتَ عليّ أضرّ منها ، وكفّ الصديق عن نصرتى وبادر إلىّ العدوّ تقرّبًا إليك . وكتب تحت ذلك :

أَخٌ بينى وبين الدَّهـ ـرِ صاحبَ أَيّنا غَلَبا
صديقى ما استقام فإنْ نَبَا دَهْرٌ علىَّ نَبَا
وَثَبْتُ على الزمان بهِ فعاد به وقد وَثَبَا
ولو عاد الزمانُ لنا لعاد بهِ أخاً حَدِبَا »

والرسالة توضّح شخصيته الأدبية فهو كاتب شاعر ، ويقول المسعودى : «كان كاتبًا بليغًا وشاعراً مجيداً ، لا يُعْلم فيمن تقدم وتأخر من الكتّاب أشعر منه»[١]. ويقول ابن الجرّاح فى كتابه الورقة : « أشعر نظرائه الكتّاب وأرقهم لساناً ، وأشعاره قصار ثلاثة أبيات ونحوها إلى العشرة ، وهو أنعتُ الناس للزمان وأهله غير مدافع »[٢] ويقول أبو الفرج الأصبهانى : «كان يقول الشعر ثم يختاره ، ويُسْقط رَذْله ، ثم يسقط الوسط ، ثم يسقط ما سُبق إليه ، فلا يدع من القصيدة إلا اليسير ، وربما لم يَدَعْ منها إلا بيتًا أو بيتين »[٣]. وشعرُه مقطوعاتٌ حقًّا ، ولكنها مقطوعات تَرْقَى إلى مرتبة رفيعة فى البلاغة ، مَثَلُها مَثَلُ هذه الرسالة القصيرة التى كتب بها لابن الزيات راجيًا أن يخلصه من محنته ، فكل كلمة فيها قد اختارها ذوق أدبى مصفّى ، وكل عبارة قد أحْكمت ، أحكمتها يد صَناع ، فالمدية قد بلغت المحز كناية عن بلوغ المحنة الحد الأقصى ، والأيام تعدو بابن الزيات عليه بعد أن كان يعدو به عليها ، لقد كان ينتصر به عليها ، فإذا هى تقهره به ، وما أدق قوله له فى رسالة أخرى[٤] :

وكنت أعدّك للنائبات فها أنا أطلب منك الأَمانا

فناصره أصبح قاهره . ويتوالى الطباق فى الرسالة ، فالسكون يقابل الحركة والكف يقابل المبادرة والصديق يقابل العدو . وظل ابن الزيات لا يعفو عنه ، حتى بلغ منه كل مكروه ، ثم عرف الواثق تحامله عليه وأنه مظلوم فيما نسبه إليه

(١) مروج الذهب ٤ / ٢٣ .
(٢) كتاب الورقة ص ١٢٦ .
(٣) الأغانى ١٠ / ٤٣ .
(٤) الأغانى ٥٧/١٠ ومعجم الأدباء ١٧١/١ .

أبو الجهم ، فأمر ابن الزيات بردّ حربته إليه وانتظامه فى حاشيته وبلاطه مصونًا ، فبسط لسانه فى غريمه ونظم فيه أشعاراً كثيرة ذامًّا هاجيًا . وقد يكون ما حدث بينه وبين ابن الزيات هو الذى جعل المتوكل يقرّبه منه منذ أول عهده بالخلافة ، فقد كان بدوره ينقم على ابن الزيات أشياء كثيرة ، فلم يكد يتقلّد الخلافة حتى صادر أمواله ، وعذبه فى تنّور ملىء بمسامير من الحديد حتى مات .

وأصبح إبراهيم بن العباس حظيًّا عند المتوكل ، فقلّده ديوان رسائله ودواوين مختلفة ، وظل حتى وفاته يكتب عن المتوكل كل الكتب التى تصدر عنه ، سواء أكانت منشورات أم عهوداً لأولياء العهد أم فتوحًا أم تهنئات بالأعياد أم تعازىَ باسم الخليفة ، وأحيانًا ينصّ الطبرى أن هذا الكتاب أو ذاك من إنشائه ، وأحيانًا لا ينصّ . ومن أوائل ما كتب له المنشورُ الموجّه إلى عُمّاله فى الآفاق بشأن النصارى وأهل الذمة وأخذهم بلبس الطّيالسة والزّنانير ، مما عرضنا له فى غير هذا الموضع ، وهو يستهله على هذه الشاكلة (1) :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فإن الله تبارك وتعالى بعزّته التى لا تحاوَل وقدرته على ما يريد ، اصطفى الإسلام ، فرضيه لنفسه ، وأكرم به ملائكته ، وبعث به رسُلَه ، وأيّد به أولياءه ، وكنفه بالبِرّ ، وحاطه بالنصر ، وحرسه من العاهة ، وأظهره على الأديان ، مبرًّأ من الشبهات ، معصومًا من الآفات ، محبوًّا بمناقب الخير ، مخصوصًا من الشرائع بأطهرها وأفضلها ، ومن الفرائض بأزكاها وأشرفها ، ومن الأحكام بأعدلها ، ومن الأعمال بأحسنها وأقصدها ، وأكرمَ أهله بما أحلّ لهم من حلاله ، وحرّم عليهم من حرامه ، وبيّن لهم من شرائعه وأحكامه ، وحدّ لهم من حدوده ومناهجه ، وأعدّ لهم من سَعَته جزاءه وثوابه ، فقال فى كتابه فيما أمر به ونَهَى عنه ، وفيما حضّ عليه فيه ووعظ : (إن الله يأمرُ بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القُرْبَى ويَنْهَى عن الفحشاء والمنكر والبَغْى يعظكم لعلكم تذكّرون) » .

وواضح من هذا الاستهلال للمنشور مدى ما كان يأخذ به إبراهيم بن العباس نفسه من الاحتفال بصناعة الكلام . فهو لا يكتب ما يَرِدُ على ذهنه عَفْواً ،

---

(1) طبرى ٩ / ١٧٢ .

بل هو يفكر فيما يكتب ، ويختار له الألفاظ الجزلة الناصعة مُحدِثا بينها ضروبًا من التلاؤم بحيث يبدو كلامه مقطّعًا ، وإن لم يتخذ شكل تقطيع السجع ، وهو بذلك أقرب إلى ذوق أسلوب الازدواج الذى يوازن بين العبارات دون أن يُحيلها سجعًا وتنميقًا خالصين . وكان من أحداث خلافة المتوكل ثورة إسحق بن إسماعيل فى شمالىّ أرمينية وإحراقه لمدينة تفليس سنة ٢٣٨ وقد نازلته جيوش المتوكل ، وهزمته هزيمة ساحقة ، وأُخِذَ أسيراً ، فضُربت عنقه وصُلبت جثته وحُمل رأسه إلى سامرَّاء . ولإبراهيم بن العباس رسالة فى هذا الفتح نوَّه بها القدماء ، وفيها يقول [1] :

« قسَّم الله عدوَّه أقسامًا ثلاثة : روحًا معجَّلة إلى عذاب الله ، وجُثَّة منصوبة لأولياء الله ، ورأسا منقولا إلى دار خلافة الله ، استنزلوه من معْقل إلى عقال (أغلال) وبدَّلوه آجالا من آمال ، وقديمًا غذَّت المعصية أبناءها ، فحلبتْ عليهم من دَرِّها (لبنها) مُرْضعة ، وبسطت لهم من أمانيها مطمعة ، وركبت بهم مخاطرها مُوضِعةً (مسرعة) حتى إذا وثقوا فأمنوا ، وركبوا فاطمأنوا ، وانقضى رَضاع وآن فِطام ، سقتهم سُمًّا ، ففُجِّرت مجارى ألبانها منها دمًا ، وأعقبتهم من حُلْو غذائها مُرًّا ، ونقلتهم من عز إلى ذل ، ومن فرحة إلى ترْحة ، ومن مسرَّة إلى حسْرَة ، قتْلاً وأسْراً ، وغلبة وقسْراً ، وقلَّ مَنْ أوْضع (أسرع) فى الفتنة مُرْهِجًا (مثيراً) واقتحم لهبَها مؤجِّجًا ، إلا استَلْحمته (تبعته) آخذة بمخنَّقه (بحلقه) وموهنةً بالحق كيده حتى جعلته لعاجله جزَرًا ، ولآجله حطبًا ، وللحق موعظة ، وعن الباطل مزجرة ، أولئك لهم خِزْىٌ فى الدنيا ، ولعذابُ الآخرة أكبر ، وما ربك بظلاَّم للعبيد » .

وبلاغة الصولى التى اشتهر بها واضحة فى هذه الرسالة ، فهو يُعْنَى بكلامه محمِّلا له معانى غزيرة ، ومُطْرِفًا فيه بكل ما يستطيع من تقسيم على نحو ما صنع أول هذه الفقرة . وهو يضيف إلى ذلك مقابلة بين المعانى تنتهى إلى الطباق ، فقد كان إسحق بن إسماعيل فى معقل فأصبح فى عقال ، وكان فى آمال وحياة رغدة فأصبح فى آجالٍ وموت رهيب . ويضيف إلى ذلك الصور ، فقد أرضعتهم

---

(١) مروج الذهب ٤ / ٢٥ .

المعصية من لبنها وأطمعتهم باسطة لهم فى الأمانى العذاب ، وأسرعت بهم مخاطرها . وكل تلك صور متلاصقة . ثم يسوق عبارة كأنها مثل من الأمثال ، إذ يقول . انقضى رضاع وآن فطام . والكناية واضحة . وعاد إلى التصوير ، وكأنما يريد أن يرسم لوحة ذات خطوط وظلال وأضواء . ويعود إلى الطباق ، فيضع الرضاع مع الفطام والمر مع الحلو والذل مع العز والترحة مع الفرحة والحسرة مع المسرة . ثم يعود ثالثة إلى التصوير ، وكأنما الفتنة جحيم يتأجج باللهب ، وتعم حتى لتأخذ بمخنق كل شخص ، وحتى تجعله فى دنياه جزَرَاً وقطعاً من اللحم تنوشها السباع ، أما فى الآخرة فتجعله حطباً ووقوداً للنار . ويختم الفقرة بآى من القرآن . والطباق اللون البديعى العقلى الذى كان يروع العباسيين يكثر فيها ، كما يكثر التصوير ، وكأن إبراهيم بن العباس يريد أن يثبت إبداعه باستخدام فنون البديع التى كانت تخلب معاصريه ، فهو يبدؤها بالتقسيم ، وهو يشيع فيها الجناس كما يشيع الطباق على نحو ما يتضح فى مثل : معقل وعقال وآجال وآمال ، وفرحة وترحة وأسراً وقسراً وعاجل وآجل . ومضى يوغل فى الموازنة بين عباراته ، وإذا هو لا يكتفى بما قد يحدث فيها من تقطيعات صوتية ، إذ يطلب ازدياداً فى التلاؤم وفى الجرس ، فليس يكفى أن تتقابل العبارات وتتوازن ، بل يحسن أن تلتحم نغماتها وإرناناتها ، فإذا هو يكثر من السجع وترصيفه . واحتفظت كتب الأدب بتحميده لهذه الرسالة ، وهو يمضى فيه على هذا النحو[1] :

« الحمد لله معزّ الحق ومُديله (ناصره) وقامع الباطل ومزيله ، الطالب فلا يفوته مَن طلب ، والغالب فلا يعجزه مَنْ غلب ، مؤيدِ خليفته وعبده ، وناصر أوليائه وحِزْبه ، الذين أقام بهم دعوته ، وأعلى بهم كلمته ، وأظهر بهم دينه ، وأدال بهم حقَّه ، وجاهد بهم أعداءه ، وأنار بهم سبيله ، حمداً يتقبَّله ويرضاه ، ويوجب أفضل عواقبِ نَصْرِه ، وسوابغ نعمائه » .

والتحميد يحمل نفس الخصائص المبثوثة فى الرسالة ، وفيه اتجاه واضح نحو السجع وأن الكاتب يريد أن يَلَذّ كلامه الأسماع والآذان ، كما يَلَذّ العقول والأذهان ، بملاءماته بين الكلمة والكلمة فى الجرس ، وبما يستخدم من طباقات

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٤ / ١٧٤ .

وجناسات وتصويرات مختلفة . ولم تصلنا رسالة الخميس التي كتب بها إلى الولايات المختلفة بتولي المتوكل الخلافة ، ولكن وصلنا التحميد الذي وضعه في صَدْرها على هذا النحو[1] :

« أما بعد فالحمد لله الذي جَلَّت نعمه ، وتظاهرت مِنَنُه ، وتتابعت أياديه ، وعَمّ إحسانه ، إله كل شيء وخالقه ، وبارئه ومصوِّره ، والكائن قبله ، والباقي بعده ، كما قال في كتابه : (كلُّ شيء هالكٌ إلا وَجْهَه له الحكمُ وإليه تُرْجَعون) العالي في مشيئته والقاهر فوق عباده المتعالي عن شبه خَلْقه : (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) خلق العباد بقدرته ، وهداهم برحمته ، وأوضح لهم السبيلَ إلى معرفته ، بما نَصَب لهم من دلائله ، وأراهم من عِبَره ، وصرَّفهم فيه من صنعه ، كما قال جَلّ جلاله : (الذي أحسن كلَّ شيء خَلَقه وبدأ خَلْقَ الإنسان من طين ، ثم جعل نَسْله من سُلالة من ماء مَهين ، ثم سَوّاه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السَّمْعَ والأبصارَ والأفئدة قليلا ما تشكرون) . وذلك كله مِنْ خلقه إياهم بتمثيله ما مثّل لهم من الدلائل التي نصبها لهم والأعلام التي جعلها إزاء قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم ، ويسَّر لهم خواطرهم وفِكَرَهم ، والهيئة التي هيّأها لهم ، ليقع الأمر والنَّهي عليهم ، فلا يكلفهم فوق طاقتهم ، ولا يجشِّمهم ما يَقْصُر عنه وُسْعهم ، نظراً منه تبارك وتعالى إليهم ، ورحمةً بهم ، ليؤمنوا به ويعبدوه ، فيستحقّوا به رحمته ورضوانه والخلودَ في النعيم المقيم والظِّلِّ المديد والعيش الدائم ، كما قال تعالى ذكره : (إلاّ مَنْ رَحِمَ رَبُّك ولذلك خلقهم) . وكان من نَظَره ورأفته بهم أن بعث فيهم أنبياءه ورسله ، يدعونهم إلى طاعته ، ويبينون لهم هُداه ، ويوضّحون لهم سبيله ، ويَنْهَدونهم إلى رحمته ، ويَعِدونهم ثوابه ، وينذرونهم عقابه ، ويَبْسُطون لهم توبته ، ويحذّرونهم سخطه ، ويبينون لهم سُنَنه وشرائعه ، ويكشفون لهم مواعظه ، ويعلّمونهم كتابه وحكمته ، كما قال تبارك وتعالى : (ليَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَة ويَحْيَا مَنْ حَيَّ عن بيِّنة وإن الله لسميعٌ عليم) وكان من رأفته بهم ونظره لهم أن بعثهم إليهم بالحجج الظاهرة ، والأعلام البَيِّنَة ، والشواهد الناطقة التي أظهر بها صدقهم ، وأقام بها

(١) جمهرة رسائل العرب ٤ / ١٧٢ .

برهانهم ، وأوضح بها دليلهم ، وأثابهم عملَ سواهم ليكون أدْعَى لهم إلى تصديقهم والقبول عنهم ، وأوكد للحجة على مَنْ أبَى ذلك منهم » .

والتحميد يدور على موضوعين أساسيين هما : نعم الله وآلاؤه على الناس إذ بسط لهم الأسباب فى الهدى والرشاد ، ونعمه أيضًا وآلاؤه إذ أرسل لهم الرسل مبشرين ومنذرين . ونراه فى مستهل تحميده يشير إلى تنزيه الله عن شبه خلقه ، وهو أصل من الأصول الأساسية عند المعتزلة ، فهو منزه عن التحيز فى جوهر وعرض ، لا يدركه حِسٌّ ولا يحيط به خيال ، منزه عن كل شبه بالآدميين فى خَلْقهم وصفاتهم . وليس من الضرورى أن يكون من المعتزلة ، فيكفى أن يكون على صلة بمباحثهم ، وهو ما نريد إثباته ، فالتحميد كله كأنما كتبه اعتزالى كبير إذ كانوا يتكلمون كثيراً عن تنزيه الله فى صفاته وذاته وإبداعه للكون والإنسان بما يشهد بعظمته وقدرته . وكانوا يستمدون ذلك كله من القرآن وما دعا إليه من التأمل فى النظام الكونى وما بثَّ الله فيه من آيات تدل على وحدانيته وقدرته الباهرة . ويصوّر القرآن كما فى آيات خلق الإنسان التى اقتبسها الصولى كيف أنشأ الله الخلق إنشاء بديعًا وكيف أودع فيهم من ملكات السمع والبصر والأفئدة ما يحقق لهم جميع حاجاتهم وكمالاتهم ، وإنه لحرى بهم أن يستغلوا هذه الملكات ليستقر فى نفوسهم الإيمان بالكائن الأعلى . ويبثّ الصولى هذه الفكرة فى الشطر الأول من تحميده . ويخرج منها إلى الفكرة التى طالما كررها المعتزلة فكرة أنه كان من رحمة الله بالناس أن أرسل إليهم الرسل ليهدوهم إلى طريق الحق والخير ، إذ لم يخلقهم عبثًا ولا دون غاية سامية ، فقد خلقهم ليتَّبعوا هداه ، وليقع الأمر والنهى عليهم ، فكان لا بد لهم من رسل يوضحون لهم سبل الهُدى ، حتى يعرفوا العمل الصالح وما ينتظرهم فى الآخرة من ثواب وعقاب ، مبينين لهم السنن والشرائع التى تكفل لهم السعادة فى الدارين ، وكيف أن من يجور عن الطريق يحق عليه العذاب إلا من تاب وأناب فإن الله غفور رحيم . وقد صاغ إبراهيم بن العباس هذه المعانى فى ألفاظ جزلة رصينة ، يجرى فيها التقطيع الصوتى الذى ذكرناه آنفًا ، وإن لم يبلغ مداه فى الرسالة السابقة ، إذ لم يتحول به إلى إرنانات السجع التى شاعت فيها ، وكأنما كان مشغولاً هنا عن السجع بالمعانى التى أثارها فى تحميده والتى جعلته يتمثل ببعض

آى الذكر الحكيم. وبالمثل كان مشغولاً عن الجناسات والطباقات والصور إلا ماجاء فى النادر وعفو الخاطر . ومن تحميداته فى أحد الفتوح [1] :

« الحمد لله الغالب ذى القدرة ، والقاهر ذى العزّة ، الذى لم يقابل بالحق باطلاً فى موطن من مواطن التحاكم بين عباده إلا جعل أولياء الحق منهم حزْبه وجُنْده ، وجعل الباطل بهم فَلاًّ (هزيمًا) منكوبًا ، ودَحيضًا (باطلا) زَهوقًا إن نهض به أولياؤه كانت مراصد عواقبه مفرِّقةً ماجُمِعَ ، ومبتِّرةً (مستأصلة) ما أُعِدَّ ، وقائدة بأشياعه إلى مَصْرَع الظالمين، حتى يكون الحق الطالبَ الأعزَّ والباطلُ المطلوبَ الأذلَّ ، وأولياء الحق الأعْلَيْن يَداً وأيْداً(قوة) وأشياعُ الضلال الأخْسَرين أعمالاً وكيداً ، قضاءُ الله وسنته ، وعادة الله وإرادته ، فى الفئة المنصورة أن تَعزَّ فلا تُرَام ، وأن يمكّن لها فى الأرض كما مكّن للذين من قبلها ، وفى الفئة الناكبة عنه أن تذلَّ ، فتكونَ كلمتُها السفلى وكلمةُ الله هى العليا والله عزيز حكيم » .

ونحسُّ قدرته على اصطفاء الكلمات فى هذا التحميد ، ولا نصل إلى قوله : « وجعل الباطل بهم فَلاًّ منكوبا ودَحيضا زهوقا » ، حتى يتجسّد لنا هذا الاصطفاء وأن الكاتب يُعْنَى بالموازنة الدقيقة بين العبارات. ويتضح لنا ذلك أكثر حين نصل إلى قوله : « يكون الحقُّ الطالبَ الأعزَّ ، والباطلُ المطلوبَ الأذلَّ ، وأولياءُ الحق الأعْلَيْن يداً وأيْداً ، وأشياع الضلال الأخْسَرين أعمالا وكيداً » وكأن العبارات توضع فى صفوف لا فى سطور ، لتأخذ كل كلمة بيد أختها ، وكأننا فى مرقص للكلمات تتشابك فيه أيديها ، فكل كلمة توشك أن تُمْسك بيد أختها فى العبارة التالية لعبارتها . فكلمة الحق تتلاقى مع كلمة الباطل ، وتتلاقى كلمة الطالب مع كلمة المطلوب وكلمة الأعز مع كلمة الأذل . وبالمثل تتلاقى فى العبارتين التاليتين كلمة الحق وكلمة الضلال وكلمة الأعلين يداً وكلمة الأخسرين أعمالا . فالكلمات فى العبارات تتجاذب تجاذبًا شديداً ، فى الصوت والجرس والأداء وفى المعانى المتقابلة المتناقضة ، فقد عمّ فيها الطباق وكأنما أحدث بكثرته بينها نوعًا من صلة القُرْبى ووشائج الرحم . وانظر كيف وضع إبراهيم بن العباس كلمة « يداً »

(١) جمهرة رسائل العرب ٤ / ١٧٦ .

بجانب كلمة « أيدأ » طلباً للتلاؤم فى الجرس الذى قد يخفى أحيانًا ، وأحيانًا يتضح وضوح الشمس فى كبد السماء . وفى ذلك ما يدل بوضوح على مدى إحكامه لصنعة الكتابة وقدرته على اختيار اللفظ وانتخابه بحيث يروق اللسان والجنان . ويُنْهى الرسالة باقتباس من القرآن الكريم ، ويكثر عنده اصطناعه لبعض ألفاظه المونقة كقوله فى هذا التحميد : « الأخسرين أعمالا » . ودائمًا نحس عنده القدرة على استخدام العبارة المُطْنبة والأخرى المجملة الموجزة ، حتى لكأنما يصوغ أمثالا كما أشرنا إلى ذلك آنفًا . ومن خير ما يصوّر ذلك عنده رسالة كتب بها لسنة ٢٤٠ عن المتوكل إلى أهل حمص حين ثاروا على عامل المعونة وقتلوا جماعة من أصحابه وأخرجوا صاحب الخراج من مدينتهم ، والرسالة تمضى على هذا النمط [1] :

« أما بعد فإن أمير المؤمنين يرى من حق الله عليه ، مما قوّم به من أوَدٍ (عِوَجٍ) وعَدَّل به من زَيْغٍ ، ولمّ به من منتشر ، استعمالَ ثلاثٍ ، يقدّم بعضهن على بعض ، أولاهنّ ما يتقدّم به من تنبيه وتوقيف ، ثم ما يستظهر به من تحذير وتخويف ، ثم التى لا يقع حَسْمُ الداء بغيرها :

أناةٌ فإنْ لم تُغْنِ عَقَّبَ بعدها وعيدًا فإنْ لم يُغْنِ أغْنَتْ عَزَائِمهُ »

وقرأ إبراهيم بن العباس الرسالة على المتوكل فملأت نفسه إعجابًا ، وأومأ إلى وزيره عبيد الله بن يحيى بن خاقان — وكان حاضراً — أما تسمع ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إن إبراهيم فضيلةٌ خبأها الله لك ، وذخيرة ذخرها على دولتك . ويقال إن البيت فى هذه الرسالة أول شعر نفذ فى كتاب عن الخلفاء العباسيين . والمتوكل إنما أُعجب بالرسالة لأن إبراهيم أدّى الغرض الذى كانت تُكْتَبُ فيه الرسائل الطويلة بأوجز عبارة دون أى تقصير ودون أى إخلال ، بل مع الوفاء به إلى أبعد حد . وكأننا لا نقرأ صيغًا متعاقبة فى رسالة ، وإنما نقرأ حكمًا وأمثالا ، لدقة المعانى ودقة أدائها وصياغتها ، وقد أجرى فيها ضروبًا من التقطيعات الصوتية ، وإن لم تأخذ الصورة النهائية على نحو ما يتضح فى أوائلها ، ولم يلبث أن أضاف فيها سجعة طريفة ، كما أضاف صورة بديعة إذ عبّر عن الحرب بحسم الداء . والكتاب بحق

(١) معجم الأدباء ١ / ١٨٧ .

يصور مراناً طويلا على استخدام الكلام ووَضْعه فى مواضعه ، بل قل إنه يصوِّر خبرة طويلة امتدت عشرات السنين . ومن طراز هذه الرسالة رسالة أكثر منها قِصَراً كتب بها فى شفاعة إلى أحد أصدقائه يزكِّى رجلا يستحق العناية به(١) :

« فلانٌ ممن يزكو (ينمو) شكره ، ويحسن ذكره ، ويَعْنيني أمره ، والصنيعة عنده واقعةٌ موقعها ، وسالكةٌ طريقها :

وأفضلُ ما يأْتيه ذو الدِّين والحِجَى ... إصابَةُ شكرٍ لم يَضِعْ معه أَجْرُ »

والرسالة موجزة ولكنها تؤدّى الغرض منها أداء واضحاً ، وقد استخدم فيها إبراهيم بن العباس السجع ، وبلغ من شدة تدقيقه فى المعنى أن أخرج البيت الذى ضَمَّنه الرسالة مخرج الأمثال . وكان كُتَّاب الرسائل يكتبون فى عيدى الفطر والأضحى رسائل إلى الرعية يبشرونهم فيها بسلامة الخلفاء ، وقد يوجهونها إلى حكام الولايات ليحمدوا الله على سلامة الخليفة ويذكِّروهم واجبهم ، من ذلك قوله فى رسالة(٢) :

« أما بعد فإن لكل فرعٍ أصلا ، عنه مَوْرِدُه ومُسْتَنْبَطُه ، وإليه مَرْجعه ومَوْئِلُه ، ومتى رُجع من أصول الأمور إلى تأثلها (تأصُّلها) وتمكُّنها ، رُجِعَ من فروعها إلى استتبابها واستقامتها . وأفضل ماتدبّره أمورُ دين الله وخلافته ، وحقوقُ الله وعباده . فكان الأصلُ وزكاؤه (نماؤه) ما جمع بإذن الله سكون الدَّهْماء (العامة) وصلاح البَيْضَة (الولاية) وأمْن السِّرْب (الجماعة) وتظاهُرَ النِّعم فيما قَرُبَ وبَعُدَ ، ودنا ونأى ... فافْعَلْ ذاك مُعانًا على أمرك » .

والترادف والازدواج واضحان فى السطور الأولى من الرسالة ، فورده يليها مستنبطه بنفس المعنى ، وبالمثل مرجعه تليها موئله ، وتأثلها يليها تمكنها ، واستتبابها يليها استقامتها . وفى ذلك حرص واضح على إرضاء الأذن ، وفى كلامه عن الأصول والفروع ما قد يشير إلى أنه كان مثقفاً ثقافة فقهية ، وقد جمع الأصول الدالة على حسن الحكم وتدبيره فى أربعة : سكون الناس دون إحداث أى فتن أو ثغرات مما يدل على رضاهم عن حاكمهم ، وصلاح الولاية فى شئونها السياسية والاقتصادية

---

(١) الأغانى ١٠ / ٥٣ ومعجم الأدباء ١ /١٧٨ .
(٢) جمهرة رسائل العرب ٤ / ١٨٩ .

والإدارية ، وأمن الناس على نفوسهم ، وظهور النعم عليهم وأنهم لا يُعانون البؤس والضنك فى الحياة . ويكتب باسم المتوكل وأبنائه تعزيات مختلفة، من ذلك تعزية باسمه إلى طاهر بن عبدالله واليه على خراسان ، وفيها يقول[1] :

« أما بعد فإن أحقَّ مَنْ أرضى الله فى نعمته بشكره وفى مصائبه بالتسليم له ، مَنْ فَهِمَ ما فى شكر النعم من استدعاء تمامها ، وما فى التذلل للمقادير من استحقاق رضوانه ، وقد جعل الله محلَّك من الحالتين جميعًا محل المتقدم بنيَّته ومعرفته . والله يُمتِّع أمير المؤمنين فيك بصالح قَسْمه فيمن مضى ، والجارىَ على من بَقِىَ ويبقى ، حتى يؤدِّىَ الفناءُ الذى لا بقاء معه إلى البقاء الذى لا فناء بعده . وأمير المؤمنين يعظلك بالله ، وهو أحق مَن وعظ به ، ويُرْشدك من إيثار الله لما نَدَبك له منه . . . فقدِّمْ حق الله عليك بطاعتك له فيما أمرك به ، واتَّقِ الله فى مواقع أقداره بك ، تَقْتَضِ بذلك من ثواب الله أفضلَ عِوَض الصالحين » .

والرسالة تحمل طائفة من دقائق المعانى ، فواجب الإنسان إزاء ربه شكره على نعمه واستسلامه لما يُنزل به قضاؤه فإنه بذلك يستحق رضوانه. والله يمتع أمير المؤمنين به حتى يطوف به طائف الفناء الذى لا بقاء معه ، والذى ينتقل به إلى البقاء الذى لا فناء بعده . ويقول له : قَدِّم حق الله عليك بالطاعة له والرضا بقدره ، وبذلك تستحق ثوابه، هو خير عوض للراضين المقرَّبين . وفى كتب الأدب قطع مختارة لإبراهيم ابن العباس تزخر بالسجع ، ويبدو أنه كان يستخدمه أحيانًا فى جوانب من رسائله مُسْهِبًا فيه ، على نحو ما نرى فى القطعة التالية التى احتفظ بها ياقوت فى معجم الأدباء إذ يقول[2] :

« ووجَد أعداءُ الله زُخْرُفَ باطلهم ، وتمويهَ كذبهم سَرَابًا بِقِيعَة (يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا) وكوَميض بَرْقٍ عَرَض فأسرع ، ولمع فأطمع ، حتى إذا انحسرت (انكشفت) مغاربه ، وتشعَّبت مولِّيةً مذاهبه، وأيقن راجيه وطالبه ، أنْ لا مَلاذ ولا وَزَر ، ولا مَوْرِدَ ولا صَدَر (صدور) ولا من الحرب مفرٌّ ، هنالك ظهرت عواقبُ الحق منجيةً ، وخواتم الباطل مُرْدِيةً ،

---

(١) جمهرة رسائل العرب ص ١٨٢ .

(٢) معجم الأدباء ١/ ١٩٠ .

سنّةُ الله فيما أزاله وأداله (هزمه) (ولن تجد لسنّة الله تبديلا) ولا عن قضائه تحويلا » .

والقطعة سجع خالص ، وتحمل اقتباسات من آى القرآن ، وكلماتها منتخبة انتخبها ذوق مرهف ، وتجرى فيها الخصائص التى ذكرنا لإبراهيم بن العباس ، ففيها الازدواج والتكرار فى مثل : « زخرف باطلهم وتمويه كذبهم » ، ومثل « أزاله وأداله » ، وفى الكلمة الأخيرة جناس ناقص . وتلقانا بعض طباقات مثل : « ولا مورد ولا صدر » ومثل « عواقب الحق وخواتم الباطل » ونعثر على بعض صور مثل زخرف الباطل وتمويه الكذب ومثل تشبيه زخرف الباطل بالسراب . وكأنه كان فى نثره مثل شعره وما وصفه به أبو الفرج ، كما مر بنا ، يكتب ثم يختار ، وما يزال يُصْلح ويُسْقِط حتى تخرج الرسالة نخبة من الصياغات الأدبية الطريفة . وله توقيعات بديعة تدور فى الكتب الأدبية ، فمن ذلك أن بعض الكتاب كتب إليه يذم شخصًا ويمدح آخر ، فوقّع فى الرسالة[1] :

« إذا كان للمحسن من الجزاء ما يُقْنعه ، وللمسىء من النكال ما يَقْمعه ، بذل المحسن الواجبَ على رَغْبة ، وانقاد المسىءُ للحق رهبة » .

والسجع واضح فى التوقيع ، ولكن المهم طرافة التقسيم . ويقول المسعودى : « ولإبراهيم بن العباس مكاتبات قد دونت ، وفصول حسان من كلامه قد جمعت » . ويَرْوى عنه أنه كان يقول : « مثل أصحاب السلطان مثل قوم علوا جبلا ثم وقعوا منه ، فكان أقربهم إلى التلف أبعدهم فى الارتقاء »[2]. ويذكر ياقوت له ديوان شعر وديوان رسائل ، وفى الحق أنه كان كاتبًا بليغًا بلاغة رائعة .

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٤ / ٤٦١ .

(٢) مروج الذهب ٤ / ٢٦ .

٢

الجاحظ [١]

اشتهر بلقبه الدال على نتوء حَدَقَتَيْه وجحوظهما ، واسمه أبو عثمان عمرو بن بحر . وقيل إنه من كنانة ، وقيل بل هو كنانى ولاء وإن جَدَّه فزارة كان عبداً أسود جَمَّالا لعمرو بن قلع الكنانى . واختُلف فى السنة التى وُلد فيها ، على حين اتفق الرواة على أنه توفى سنة ٢٥٥ للهجرة ، والمظنون أنه وُلد فى العقد السادس من القرن الثانى للهجرة ، وكأنه عاش ما يقرب من مائة سنة ، ويُرْوَى عنه أنه قال فى أواخر حياته يشكو من الفالج (الشلل) والنقرس (الروماتزم) : « أنا فى هذه العلل المتناقضة التى يتخوَّف من بعضها التلف ، وأعظمها ست وتسعون سنة »[٢] . وليس بين أيدينا شىء واضح عن نشأته إلا أنه نشأ بالبصرة مسقط رأسه ، وفى مطالع الجزء الثانى من كتابه « الحيوان » ما يشير إلى أنه كان يختلف إلى بعض الكتاتيب مع لِداته من الصِّبْية ، وكانوا يتعلمون فيها القراءة وشيئاً من النحو والفقه والحساب ، ويحفظون بعض القرآن وبعض الأشعار ، حتى إذا شَبَّ عن الطوق مضى إلى المساجد يستمع إلى محاضرات العلماء فيها ، وكانوا يحاضرون فى كل فن ، وكانت أشبه بجامعات مفتوحة الأبواب لكل من أراد الدرس . وقد أخذ يلتهم كل ما يسمعه فيها من فقه وعلوم شريعة ومن نحو وعلوم لغة ومن مناقشات ومحاورات بين المتكلمين من كل الفرق. وكان يختلف إلى المِرْبد يأخذ عن فصحاء العرب اللغة وبعض ما ينشدونه من الأشعار ، وكان المِرْبَدُ سوقاً تجارية وأدبية كبيرة منذ

---

(١) انظر فى الجاحظ وحياته وأخباره وثقافته الفهرست ص ١٧٥ وتاريخ بغداد ١٢ / ٢١٢ ومروج الذهب ٤/ ١٠٩ ومعجم الأدباء ١٦ / ٧٤ ونزهة الألباء لابن الأنبارى وابن خلكان فى عمرو ومرآة الجنان لليافعى ٢ / ١٥٦ وأمالى المرتضى ١ / ١٩٤ ولسان الميزان ٤/ ٣٥٥ والأنساب الورقة ١١٨ وميزان الاعتدال ٣/ ٢٤٧ وضحى الإسلام لأحمد أمين ١/ ٣٨٦ وكتابنا الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ٥٤ والجاحظ لطه الحاجرى (طبع دار المعارف) والجاحظ لشارل بلات (طبع دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر) .

(٢) تاريخ بغداد ١٢ / ٢١٩ ومعجم الأدباء ١٦/ ١١٣ .

العصر الأموى . وفى أخباره أنه كان يبيع الخبز والسمك بسيْحان[١] أحد نهيرات البصرة ، وقد يشير ذلك إلى أن نشأته كانت بسيطة ، وأنه كان فى حاجة إلى أن يكتسب معاشه . ويُرْوَى أن أمه ضاقت بانهماكه فى الدرس والقراءة ، فطلب منها يوماً طعاماً ، فجاءته بطبق ملىء بكراريس أوْدَعها البيت ، وقالت له : ليس عندى من طعام سوى هذه الكراريس ، تريد أن تنبهه إلى التكسب . فذهب إلى الجامع مغتماً ، ولقيه مُوَيْس بن عمران أحد رفاقه الأثرياء فى الدرس ، فسأله ما شأنك ؟ فحدَّثه بحديث أمه ، فأخذه إلى منزله وأعطاه خمسين ديناراً ، فأخذها فرحاً ، ودخل السوق ، واشترى الدقيق وحمله الحمَّالون إلى داره ، وسألته أمه من أين لك هذا ؟ فقال لها من الكراريس التى قدَّمْتِها إلىَّ[٢] . وكأن مُوَيْس بن عمران كان رمزاً مبكراً لما سيصيبه من أموال وعطايا من الخلفاء والوزراء .

ولم تقف ساحات تثقفه عند المسجد والمِرْبَد وما كان يأخذه عن جلَّة العلماء أمثال الأصمعى وأبى زيد والأخفش وأبى عبيدة أصحاب اللغة والأخبار ولا عند أبى الهذيل العلاف وبشر بن المعتمر وثمامة بن أشرس والنظَّام من المعتزلة، ولا عند كبار الفقهاء والمحدِّثين فى عصره ، بل امتدت إلى كل فروع الثقافة ، عن طريق المكتبات ، وكان الكتاب بمجرد أن يؤلَّف أو يترجم فى البصرة أو فى بغداد تتكاثر نسخه فى أيدى الورَّاقين أصحاب المكتبات ودكاكين الكتب . ومعروف أن البصرة كانت دار الترجمة قبل نشوء بغداد وفيها ترجم ابن المقفع كليلة ودمنة وكتب الآداب الفارسية ومنطق أرسطاليس ، وبهذه الثقافة العلمية التى حققتها لنفسها مبكرة استطاعت أن تضع علم النحو وقوانينه النهائية ، كما استطاعت أن تظفر بالمعتزلة أصحاب الفكر الحر فى الدراسات الدينية ، وصلة المعتزلة بالفلسفة مقرَّرة معروفة ، ولذلك يكون من الخطأ أن يزعم زاعم أن الجاحظ لم يقرأ الترجمات اليونانية إلا فى بغداد[٣] بعد أن تجاوز الأربعين من عمره ، حين دخلها وأقام فيها لعهد المأمون ، فقد كانت تحت بصره فى دكاكين

(١) معجم الأدباء ١٦ / ٧٤ .

(٢) المعتزلة لابن المرتضى ص ٣٨٠ .

(٣) الجاحظ لشارل بلات ص ١١٥ وفى مواضع متفرقة .

الوراقين ، ولم يكن يكتفى بقراءة كتاب أو كتب فى اليوم الواحد ، إذ يذكر صاحب الفهرست أنه كان يكترى دكاكين الورّاقين ويبيت فيها للقراءة والنظر[١] . ويقول أبو هِفَّان : « لم أرقط ولا سمعت من أحبّ الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ ، فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائنا ما كان »[٢] . وكان أشبه بآلة مصورة فليس هناك شيء يقرؤه إلا ويرتسم فى ذهنه ، ويظل فى ذاكرته آماداً متطاولة . ومن أكبر الدلالة على شغفه بالقراءة والكتب المقدّمة الطويلة التى وضعها بين يدى كتابه الحيوان ، وهى نحو مائة صفحة فى تمجيد الكتب ، وقد ضمنها فهرست كتبه الكثيرة التى صنَّفها قبل الحيوان .

وكان من أهم ما شُغف به الاعتزال ، وقد مضى يلزم أساتذته فى عصره ، ويستوعب كل ما كان عندهم ، بادئاً بأبى الهذيل العلاّف ، وكلما اشتهر معتزلى لزم حلقته ، وكان من أهم من لزمهم النظام[٣] ، وكان لا يبارَى فى المناظرة وإفحام الخصوم بالبراهين والأدلة القاطعة ، فتلقَّن ذلك عنه ، وسنراه يطبقه فى كل جانب من جوانب كتاباته الكثيرة ، وفيه يقول : « لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام من جميع الأمم ، ولولا مكان المعتزلة لهلكت العوام من جميع النِّحَل ، وأقول لولا أصحاب إبراهيم ، وإبراهيم (النظام) لهلكت العوام من المعتزلة فإنى أقول إنه قد أنهج لهم سُبُلاً وفتق لهم أموراً واختصر لهم أبواباً ظهرت فيها المنفعة وشملتهم بها النعمة »[٤] وكان النظام يمزج بقوة بين الاعتزال والفلسفة ، وكأنه هو الذى دفع الجاحظ دفعاً للتزود من جداولها بكل ما استطاع . ويبدو أنه هو الذى غرس فى نفسه فكرة الثقافة الموسوعية فإن ما رواه عنه فى كتابه « الحيوان » يدل على أنه كان مستوعباً لكل الثقافات فى عصره من فارسية وهندية وعربية وإسلامية . وهداه طول تفكيره فى آراء أستاذه الاعتزالية وغيره من المعتزلة إلى أن يعتنق مجموعة من الآراء كوَّنت له فرقة سميت بالجاحظية نسبة إليه ، ويعرض الخياط المعتزلى فى كتابه الانتصار طائفة من هذه الآراء ، ويشيد بكتابه فضيلة المعتزلة طويلا[٥] . ولا نعرف متى بدأ الجاحظ كتاباته

(١) الفهرست ص ١٧٥ .

(٢) معجم الأدباء ١٦ / ٧٥ .

(٣) معجم الأدباء ١٦ / ٧٥ .

(٤) الحيوان ٤ / ٢٠٦ .

(٥) الانتصار ص ١٠٣ وانظر فى آراء الجاحظ فهرس هذا الكتاب والفرق بين الفرق للبغدادى ص ١٧٥ .

ويبدو أنه كان يَلْقَى كثيراً من الإهمال فى أول أمره ، حتى كان يُضْطر حين يؤلف كتاباً أو رسالة أن ينسب عمله إلى بعض الكتاب القدماء النابهين أمثال ابن المقفع أو الخليل أو العتَّابى أو سَلْم صاحب بيت الحكمة ، حينئذ كان الكتاب يروج ، ويأتى الناس لروايته[1] عنه . وكان زملاؤه وأساتذته من المعتزلة يعرفون فضله ، وفى مقدمتهم بشر بن المعتمر وثُمامة بن أشرس ، حتى إذا شُغل المأمون بعقيدة الإمامة ومستحقيها من العباسيين أو الشيعة بعد رجوعه من مَرْو إلى بغداد أشار عليه ثُمامة بأن يطلب إلى الجاحظ الكتابة فى هذا الموضوع ، وكتب الجاحظ وأعجب المأمون إعجاباً لا حَدّ له بما كتب [2] ، وكان ذلك فاتحة عهد جديد للجاحظ ، لا لأنه تحول من البصرة إلى بغداد ، ولكن لأنه أصبح كاتباً رسمياً للدولة ، ونظن ظنّاً أنه أصبح له راتب منذ هذا التاريخ ، ويقال إن المأمون حاول أن يقلده ديوان الرسائل ، ولكنه لم يستطع المقام به سوى ثلاثة أيام[3] ، عاد بعدها إلى صناعته من التأليف والكتابة الأدبية ، مكتفيا — فيما يبدو — براتبه . وربما كان قبحه الذى عُرف به هو السبب الحقيقى فى أنه وجد وظيفة ديوان الرسائل لاتلائمه . وفى بغداد طاب له المقام وأخذ يتعرف على بيئاتها الأدبية والعلمية فى النوادى والمساجد وحلقات الدرس والمناظرة . وتتحول الخلافة إلى سامرّاء فى عهد المعتصم ، ويتحوّل معها الجاحظ ، ويتخذ سامرّاء دار مُقام له وتتوثق الصلة بينه وبين وزير المعتصم ابن الزيات الكاتب الشاعر المشهور ، وفيها يتعرّف على كثير من الأدباء ، وخاصة أصحاب الفكاهات والنوادر من أمثال أبى العَيْناء والجمّاز وغيرهما من المضحكين ندماء الخلفاء ، وجعلته صلته بابن الزيات يقف فى صفه ضد خصمه أحمد بن أبى دؤاد قاضى القضاة ، ولا يلبث المعتصم أن يتوفَّى ويتبعه ابنه الواثق وتصير الخلافة إلى المتوكل ، وكان يَضْطَغِنُ على ابن الزيات أموراً كثيرة مما جعله يقبض عليه ويعذّبه فى تَنُّور محمىّ بالنار حتى يموت . ويقرّب المتوكل فى هذه الأثناء ابن أبى دؤاد، ويُرْسل فى طلب الجاحظ ، ويأتونه به مقيَّداً ، ويأخذ فى تعنيفه ، ويقول له الجاحظ :

(١) مجموعة رسائل الجاحظ (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١٠٨.

(٢) البيان والتبيين ٣ / ٢٢٣ .

(٣) معجم الأدباء ١٦ / ٧٨ .

« خفّض عليك – أيّدك الله – فوالله لأن يكون لك الأمر عليّ خيرٌ من أن يكون لى عليك ، ولأن أسيءَ وتحسن أحسَنُ من أن أحسن فتسيءَ ، وأن تعفو عنى فى حال قدرتك أجملُ من الانتقام منى » . وعفا عنه ابن أبى دؤاد[١] . ولا نلبث أن نرى الفتح بن خاقان وزير المتوكل شغوفاً به وبمجالسته ونراه يكتب إليه بأمر من المتوكل أن يصنف رسالة فى الرد على النصارى[٢] ، ويغلب أن يكون هذا التكليف فى سنة ٢٣٥ ، وهى السنة التى أخذ فيها المتوكل النصارى وأهل الذمة بلبس الطيالس كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع . وكأن مهمته كاتباً رسمياً للدولة ظلت قائمة منذ مطالع القرن الثالث الهجرى حتى هذا العام . ولا بد أن الدولة كانت تكفيه عيشه كما كانت تكفى كثيرين من العلماء والشعراء ، وكان حين يُهْدى الوزراء والقُوّاد وكبار الكتّاب بعض كتبه يُهْدونه بعض أموالهم ، فقد أهداه ابن الزيات خمسة آلاف دينار على كتابه الحيوان حين قدّمه إليه ، وبالمثل صنع ابن أبى دؤاد حين أهدى إليه كتاب البيان والتبيين وإبراهيم بن العباس الصولى حين أهدى إليه كتاب الزرع والنخيل . وكان قليل من المال يسدُّ حاجته ، إذ لم يتزوج ولم يرزق الأولاد ، إنما هو وجاريتان ، وهذا كل ماهناك . ويظهر أن مرض الفالج (الشلل) ألمّ به مبكراً ولكنه لم يُقْعده عن الحركة ولا عن الكتابة ، فقد ألّف كتاب الحيوان الذى قدّمه لابن الزيات المتوفى سنة ٢٣٣ للهجرة وهو مفلوج[٣] ، وبالمثل البيان والتبيين والزرع والنخيل وكثير من رسائله الأدبية . وأصابه النقْرس وطال به العُمر ، وإذا صح أنه صحب الفتح بن خاقان فى زيارته لدمشق سنة ٢٤٣ فإنه يكون قد ظل محتفظاً بقواه على الأقل حتى هذا التاريخ . وحين اشتد به المرض عاد إلى البصرة وأمضى بها بقية حياته . ويقول المبرد : « دخلت على الجاحظ فى آخر أيامه . فقلت له : كيف أنت ؟ فقال : كيف يكون مَنْ نصفه مفلوج لو حُزَّ بالمناشير ما شعَر به ، ونصفه الآخر منقرسٌ لو طار الذباب بقربه لآلمه » . ووجّه إليه المتوكل فى سنة ٢٤٧ شخصاً يحمله إليه ، فقال : « وما يصنع أمير المؤمنين بامرئ ليس بطائل ، ذى شِقّ مائل ، ولُعاب سائل ، وعَقل حائل[٤] ؟ ! » .

---

(١) معجم الأدباء ١٦ / ٧٩

(٢) معجم الأدباء ١٦ / ٩٩ وما بعدها وتراه فى كتابه إليه يشير إلى راتب شهرى معلوم كان يجرى على الجاحظ .

(٣) ذيل زهر الآداب للحصرى ص ١٦٥ .

(٤) انظر فى الخبرين السابقين معجم الأدباء ١٦ / ١١٣ .

ويُعَدُّ الجاحظ أكبر كاتب ظهر فى العصر العباسى ، وهو فى الحق الثمرة الناضجة لكل الجهود العقلية الخصبة التى نهض بها المعتزلة ، سواء من حيث وضوح المنطق أو من حيث قوة الاستدلال أو من حيث القدرة على التوليد للمعانى ، وكأنه يستمد من مخازن عقلية لا تنفد ، ولاحظ ذلك ابن المعتز وغيره من القدماء عنده ، فقالوا إنه يستخدم المذهب الكلامى فى كتاباته[1] ، ويريدون به قوة الحجة المنطقية والقدرة على التسبيب والتعليل ، وكأنما يأخذ من نهر لا ينضب ، نهر لايزال يجلب منه الحجة ونقيضها ، تسعفه فى ذلك قدرة على الجدل والحوار لا تتوقف عند حد ، ومن أجل ذلك قال ابن العميد عنه عبارته المأثورة : « إن كتب الجاحظ تعلم العقل أولا والأدب ثانياً » بما يستنبطه من خفيات المعانى وما يثيره من دقائق الفكر فى الروح والجسم والحواس والخير والشر والجوهر والعرض ، بل أيضاً من خفايا المجتمع الذى عاشه وظواهره وما فيه من أخلاق وغير أخلاق مما يتصل بطبقاته الشعبية من لصوص ومُكدِين ورقيق وغير رقيق وقيان وغير قيان وما يتصل بطبقاته الوسطى من تجار وموظفين فى الدواوين وعلماء وشعراء وما يتصل بطبقاته العليا الحاكمة وغير الحاكمة من خلفاء ووزراء ورؤساء دواوين وقضاة وقواد وما يتصل بأهـــل الذمة من المجوس والنصارى واليهود ، وما يتصل بالحيوان وبالنبات وبالعرب والعجم وفضائل الشعوب ، وكأنك تدور فى كتاباته بمتحف لاتزال تفجؤك فيه الطرف والصور . وتارة يعرض عليك مسألة كلامية معقدة ، وتارة يعرض حادثة من حوادث الحياة اليومية فى البصرة أو فى بغداد أو فى سامراء ، ومرة يطوف بك فى ردهات الفكر العميق أو فى بعض آى القرآن ، ومرة يطوف بك فى شارعات المدن السابقة وأزقتها وحوانيتها الصغيرة والكبيرة ودور النخاسة ومن فيها من الجوارى ، وهو فى هذا كله لا تفوته قسمة وجه ولا إشارة يد ولا دخيلة نفس .

وبجانب هذا الفكر المنطلق فى البحث وفى الوصف وفى الرواية الذى ينقل لك الواقع بكل شياته وسماته ، وكأنك بإزاء أشرطة سينمائية تعرض عليك كل ما فى مدن العراق الكبيرة من صور الحياة فى أشدها ترفاً ونعيماً وأشدها بؤساً وضنكاً ، حتى لكأنما كتبه دائرة معارف لكل ما كان هناك من أزياء وعادات ومستوى معيشة وأخلاق . ويبلغ من نقله لواقع مجتمعه أنه كان لا يتحرج من ذكر أى شيء حتى

---

(١) كتاب البديع لابن المعتز (طبعة كراتشقوفسكى) ص ٥٣ .

العورات أحياناً ، ويعلن ذلك فى صراحة صريحة دون أى مواربة إذ يقول : «وبعض الناس إذا انتهى إلى ذكر (العورات) ارتدع وأظهر التقزز واستعمل باب التورع ، وأكثر من تجده كذلك فإنما هو رجل ليس معه من العفاف والكرم والنبل والوقار إلا بقدر هذا الشكل من التصنع ،ولم يكشف قط صاحب رياء ونفاق إلا عن لؤم مستفحل ونذالة متمكنة .[١]»

وبجانب ذلك لا يزال الجاحظ يحاول إطرافك بالنوادر المضحكة ، وكان القدماء يلاحظون ذلك بوضوح ، حتى ليقول المسعودى: «كتبُ الجاحظ مع انحرافه المشهور (يريد خصومته للشيعة ، وكان المسعودى متشيعاً) تجلو صدأ الأذهان وتكشف واضح البرهان ، لأنه نظمها أحسن نظم ، ورصفها أحسن رصف ، وكساها من كلامه أجزل لفظ ، وكان إذا تخوف ملل القارئ وسآمة السامع خرج من جِدّ إلى هزل ، ومن حكمة بليغة إلى نادرة ظريفة»[٢] ويصوّر ذلك الجاحظ نفسه فيقول : « وليس ينبغى لكتب الآداب والرياضات أن يُحْمَلَ أصحابها على الجد الصِّرْف وعلى العقل المحض وعلى الحق المرّ وعلى المعانى الصعبة التى تستكدّ النفوس وتستفرغ المجهود ، وللصبر غاية وللاحتمال نهاية ، ولا بأس أن يكون الكتاب موشّحاً ببعض الهزل »[٣]. وخصّ الهزل والنوادر بكتابه المشهور « البخلاء » وهو مجموعة كبيرة من الأقاصيص الفكهة عن الأشحاء البخلاء فى عصره . وبنَى رسالة له فى هجاء أحد الكتاب المسمى بأحمد بن عبد الوهاب ، وهى رسالة التربيع والتدوير ، على الضحك به والتندر عليه إذ كان قصيراً مليئاً ، فجعل يصفه فى رسالته وصفاً مضحكاً ، ثم حوّله إلى دراسة واسعة فى الجمال ، وهل يكون فى القصر أو يكون فى الطول أو يكون فى النحافة أو يكون فى الامتلاء أو يكون فى التربيع والتدوير ، وهى تمتد إلى عشرات الصفحات وتمتلئ بالدعابة تارة وبالسخرية تارة أخرى ، وفيها يقول مدافعاً عن المزاح : « ولو استعمل الناس الرصانة فى كل حال والجد فى كل مقال . . . لكان السفه الصُّراح خيراً لهم ، والباطل محضاً أردّ عليهم . . . ولكن لكل شىء قدر ولكل حال شكل ، فالضحك فى موضعه كالبكاء فى موضعه »[٤] .

---

(١) الحيوان ٣ / ٤٥ .
(٢) مروج الذهب ٤ / ١٠٩ .
(٣) رسالة فى النساء مجموعة رسائل الجاحظ. نشر السندوبى ص ٢٦٦ .
(٤) رسالة التربيع والتدوير (طبعة شارل بلات بدمشق) ص ٥٣ .

وجَرَّتْ رغبةُ الجاحظ فى أن يتخلَّل كتاباته بالنوادر وما يُطْرِف القارئْ رغبةً مماثلة فى أن يورد فى تضاعيف كتاباته بعض آى القرآن وبعض الآثار والأخبار وبعض الأشعار والحكم ، مما أشاع فى رسائله وكتبه كثرة الاستطراد ، وكان يقصد إليه قصداً ويتخذه مذهبًا فى كتابته ، حتى لا يملَّ القارئُ ، وحتى يظل له نشاطه وإقباله على ما يكتبه ، وهو يعلن ذلك مراراً فى كتبه ، كقوله فى كتاب الحيوان : « قد عزمتُ — والله الموفِّق — أنى أوشِّح هذا الكتاب وأفصِّل أبوابه بنوادر من ضروب الشعر وضروب الأحاديث ليخرج قارئْ هذا الكتاب من باب إلى باب ومن شكل إلى شكل فإنى رأيت الأسماع تملّ الأصوات المطربة والأغانى الحسنة والأوتار الفصيحة إذا طال ذلك عليها ، وما ذلك إلا فى طريق الراحة التى إذا طالت أو رثت الغفلة »[1]. ويقول فى موضع آخر : « ومتى خرج (القارئْ) من آى القرآن صار إلى الأثر ، ومتى خرج من أثر صار إلى خبر ثم يخرج من الخبر إلى شعر ، ومن الشعر إلى نوادر ، ومن النوادر إلى حكم عقلية ومقاييس سداد ... حتى يُفْضى إلى مَزْح وفكاهة ، وإلى سُخْف وخرافة »[2].

ودائمًا يُعْنَى الجاحظ بصياغته ، بادئًا بموادّها من الألفاظ ، فهى تارة ألفاظ جزلة رصينة ، وتارة ألفاظ عذبة رشيقة ، ولكل لفظة موضعها من الكلام ومن المعنى الذى تؤدّيه ، وهو يصيح فى البيان والتبيين وغيره من كتاباته : التلاؤمَ التلاؤمَ ومطابقةَ الكلام لمقتضى الحال ، أو بعبارة أخرى لسامعيه ، يقول : « وكما لا ينبغى أن يكون اللفظ عاميًّا وساقطًا سوقيًّا فكذلك لا ينبغى أن يكون غريبًا وَحْشِيًا إلا أن يكون المتكلم بدويًّا أعرابيًا ، فإن الوَحْشِيَّ من الكلام يفهمه الوحشىُّ من الناس ، كما يفهم السوقيُّ رطانة السُّوقِيّ »[3] . ودائمًا يُبْدِئ ويُعيد فى أن الأسلوب ينبغى أن يكون وسطًا بين لغة العامة ولغة الخاصة ، وأن تشفّ الألفاظ عن المعانى حتى تتلذّ الأسماع والقلوب ، يقول : « أحسن الكلام ما كان قليله يُغْنيك عن كثيره ومعناه فى ظاهر لفظه ... وإذا كان المعنى شريفًا واللفظ بليغًا ... صَنَعَ فى القلوب صنيع الغيث فى التربة الكريمة »[4] . وأكثر من

---

(١) الحيوان (طبعة الحلبى) ٣ / ٧ .
(٢) الحيوان ١ / ٩٣ .
(٣) البيان والتبيين ١ / ١٤٤ .
(٤) البيان والتبيين ١ / ٨٣ .

الحديث فى البيان والتبيين عن حسن الصياغة وجمال العبارات ، وهو بحقّ الذى أعدّ فى قوة لشيوع أسلوب جديد فى الكتابة، هو أسلوب الازدواج، وهو أسلوب يقوم على التوازن الدقيق بين العبارات بحيث تتلاحق فى صفوف متقابلة ، دون أن تتّحد نهاياتها على نحو ما هو معروف فى السجع . هى تتقابل وتتعادل صوتيًّا، ولكن دون أن تحقق التوازن الصرفى المألوف فى السجع ، ومع ذلك تحقق ضروبًا من الإيقاع ، فالكلمات تتوازن وتتعادل ، وكأن كل كلمة فى عبارة تقابلها كلمة فى العبارة التالية على شاكلة قوله : « لا أعلم قرينًا أحسن موافاة ، ولا أعجل مكافأة ولا أحضر معونة ، ولا أخفّ مئونة ، ولا شجرة أطول عمراً ، ولا أجمع أمراً ، ولا أطيب ثمرةً ، ولا أقرب مُجْتَنَى، ولا أسرع إدْراكًا ، ولا أوْجَدَ فى كل إبّان من كتاب ، ولا أعلم نِتاجًا فى حداثة سِنه ، وقرب ميلاده ، ورخَص ثمنه وإمكان وجوده ، يجمع من التدابير العجيبة ، والعلوم الغريبة ، ومن آثار العقول الصحيحة ، ومحمود الأذهان اللطيفة ، ومن الحكم الرفيعة ، والمذاهب القويمة ، والتجارب الحكيمة ، ومن الإخبار عن القرون الماضية ، والبلاد المتنازحة ، والأمثال السائرة ، والأمم البائدة ، ما يجمع لك الكتاب » (١) . وبمثل هذا الأسلوب المتدفق الذى يُحفّ به جمال الصوت من كل جانب دون أن يخرج به الجاحظ إلى تكلف السجع كان يؤلف ويصنّف الكتبَ الطوال والرسائل المتنوعة الموضوعات ، دون أن تتأبّى عليه كلمة أو صيغة ، فقد أصبحت اللغة مرنة فى لسانه وعلى قلمه إلى أقصى حد ، لغة شفّافة يَشيع فيها الوضوح وهذا الأسلوب المصفّى الذى يروق الآذان والأسماع بأصواته كما يروق القلوب والعقول بمعانيه وأفكاره .

ودائمًا تلقانا هذه الخصائص العامة لكتابات الجاحظ،إذ يُعْنَى دائمًا بأسلوبه وسريان الازدواج فيه وبألفاظه وصياغاته وملاءمتها لمعانيها وموضوعاتها وقرّائها ، كما يُعْنَى بسرَيان روح الدُّعابة والاستطراد من شعر إلى خبر إلى فكرة كلامية إلى نادرة إلى بيان سِمة لشخص من معاصريه إلى قرآن أو حديث إلى فكرة عن علم من علوم عصره كالفلك إلى عقيدة للمجوس إلى ما لا يُحْصَى من المعارف

(١) الحيوان ١ / ٤٢ .

وأحوال مجتمعه . وبذلك ينفرد عن أدباء عصره إذ جعل أدبه أدبًا واقعيًا يصوّر مجتمعه وكل ما فيه من أخلاق وعادات تتصل بالرجال أو بالنساء والقيان وكيدهن . ودائمًا تلقاك طوابعه العقلية من القدرة على الجدل واستنباط البراهين والأدلة ودقائق المعانى والأفكار خائضًا بك فى أعمق المباحث الكلامية من تنزيه الله عن الشبه بالمخلوقات أو الكلام عن صفاته أو فى المعرفة أو فى الاستطاعة ، مع ذكر أطراف مما يجرى فيه الناس ويخوضون فيه ، ومع التنقل فى كل الموضوعات من الإنسان أو الحيوان أو النبات .

ولسنا بصدد البحث العام فى الجاحظ ، إنما نريد أن نقف قليلا عند عرضه لبعض المناظرات وما كتبه من رسائل إخوانية وأدبية ونثر قصصى ونوادر ، ومرّ بنا أنه طبَع كثيراً من رسائله بطابع المناظرة والحوار فى مدح الشىء وذمه ، ولعل أكبر مناظرة ساقها مناظرة النظام ومَعْبد فى الكلب والديك أيهما أفضل ، إذ شغلت نحو مجلّد ونصف من كتاب الحيوان ، ويذكر أن الغرض منها بيان حكمة الله وتدبيره فى الكلب والديك ، يقول : « إنما نتنظّر (نجادل) فيما وضع الله عز وجل فيهما من الدلالة عليه وعلى إتقان صُنْعه وعلى عجيب تدبيره وعلى لطيف حكمته ، وفيما استخزنهما من عجائب المعارف وأودعهما من غوامض الإحساس وسخّر لهما من عظام المنافع والمرافق ، ودلّ بهما على أن الذى ألبسهما ذلك التدبير وأودعهما تلك الحكم يجب أن يفكّر فيهما ويُعْتَبَر بهما ويسبَّح الله عز وجل عندهما » . وهو يردّد ذلك فى جوانب من المناظرة ليبين الغاية منها والغرض . وقد بدأ فيها بالحديث عن الكلب وما قاله معبد فى ذَمه وما قاله النظام فى مَدْحه ، ولخّص ذلك يقول[1] :

« باب ما ذكر صاحب الديك من ذَمّ الكلاب وتعداد أصنافها ومعايبها ومَثالبها من لؤمها وجُبْنها ، وضعفها وشرَهها ، وغَدْرها وبَذَائها ، وجهلها وتسرعها ، ونَتْنها وقَذَرها ، وما جاء فى الآثار من النَّهْى عن اتخاذها وإمساكها ومن الأمر بقتلها وطَرْدها ، ومن كثرة جناياتها وقلة ودّها ، ومن ضرب المثل بلؤمها ونذالتها ، وقبحها وقبح ملازمتها ، ومن سماجة نُباحها وكثرة أذاها ، وتقذّر المسلمين

(١) الحيوان ١ / ٢٢٢ .

من دنوّها وأنها تأكل لحوم الناس، وأنها كالخَلْق المركب، والحيوان الملفق: كالبغل فى الدوابّ وكالراعبىّ فى الحمام، وأنها لا سبع ولا بهيمة، ولا إنسية ولا جنّية، وأنها من الجِنّ دون الجِنّ، وأنها مطايا الجِنّ ونوع من المسْخ وأنها تنبش القبور وتأكل الموتى، وأنها يعتريها الكَلَبُ من أكل لحوم الناس. فإذا حكينا ذلك حكينا قول مَنْ عَدَّد محاسنها، وصنَّف مناقبها، وأخذنا فى ذكر أسمائها وأنسابها وأعراقها، وتفدية الرجال إيّاها، واستهتارهم بها، وذكر كَسْبها وحراستها، ووفائها وإلفها وجميع منافعها، والمرافق التى فيها، وما أودِعَتْ من المعرفة الصحيحة، والفِطَن العجيبة، والحِسّ اللطيف، والأدب ا' مود. وذلك سوى صدق الاسترواح وجودة الشم، وذكر حفظها ونفاذها واهتدائها، وإثباتها لصور أربابها وجيرانها وصَبْرها، ومعرفتها بحقوق الكرام، وإهانتها اللئام، وذكر صبرها على الجَفاء، واحتمالها للجوع، وذكر ذمامها وشدة مَنْعها معاقد الذّمار منها، وذكر يقظتها وقلة غفلتها، وبُعْد أصواتها، وكثرة نسلها وسرعة قبولها . . . مع اختلاف طبائع ذكورها . . . وتردّدها فى أصناف السباع، وسلامتها من أعراق البهائم، وذكر لقَنها وحكايتها، وجودة ثقافتها ومَهْنها وخِدْمتها، وجِدّها ولِعْبها فى جميع أمورها، بالأشعار المشهورة والأحاديث المأثورة، وبالكتب المنزلة، والأمثال السائرة، وعن تجربة الناس لها وفِراستهم فيها، وما عاينوا منها، وكيف قال أصحاب الفأل فيها وأخبار المتطيرين عنها، وعن أسنانها ومنتهى أعمارها، وعدد جِرائها، ومدة حملها وعن سِماتها وشِياتها، وعن دوائها وأدوائها وسياستها، وعن اللاتى لا تَلْقَنُ منها، وعن أعراقها والخارجىّ منها، وعن أصول مواليدها ومخارج بُلْدانها».

وعلى هذا النحو يستقصى الجاحظ جميع الوجوه التى تُذَمُّ بها الكلاب، فيذكرها على لسان مَعْبد وينقضها على لسان النظام، ثم يأتى بمحاسنها ومحاولات معبد فى نقضها، وفى أثناء ذلك يستعين بالأشعار وبآى القرآن والحديث ومعارف العرب، كما يستعين بمعارف غيرهم وبنوادرهم ونوادر اليونان. مع الرجوع دائمًا إلى التجربة. وهو فى تضاعيف ذلك يستطرد إلى كثير من المباحث الكلامية وإلى

كثير أيضًا من عادات العرب . والمناظرة فى رأينا مناظرة بين الشعوبية والعرب ، أما الشعوبية فرمزهم الديك الذى يُربّى فى قراهم ومدنهم ، وأما العرب فرمزهم الكلب الذى لا يفارقهم فى منازلهم ومراعيهم ، وكأن معبداً والنظام المعتزليين اسمان اختارهما الجاحظ ليقيم مناظرته ، أما فى حقيقة الأمر فليس هناك معبد ولا النظام ، وإنما هناك الجاحظ بلسنه وقدرته الرائعة على دراسة الموضوعات سواء اتصلت بالحيوان أو لم تتصل ، وهناك العرب والشعوبية التى تستقذر الكلب وحيوانات الصحراء ، مما جعل الجاحظ يعقد فى حيوانه مناظرة أخرى بين البعير والفيل[1] ، فدائمًا الشعوبية تتحرش بالعرب وتهجّن حياتها وكل ما اتصل بها ، وكأن الجاحظ أقام نفسه رصداً لهم ، ومن الممكن أن يكون من هذا الباب كتابه الزرع والنخيل الذى أهداه إلى إبراهيم بن العباس الصولى ، فالزرع رمز الحضارة والشعوبية ، والنخيل رمز العرب والبادية ، وقد هاجم الجاحظ الشعوبية مراراً ، فى كتابه البيان والتبيين إذ أفرد لها فصلاً طويلا وفى كتابات أخرى له متعددة عن العرب والعجم . ونسوق فقرة من ذم صاحب الديك للكلب وبعض صفاته وردّ صاحب الكلب عليه ، وهى تجرى على هذه الصورة[2] :

« قال صاحب الديك : إن أطعمه اللصُّ بالنهار كِسْرةَ خُبْزٍ خَلّاه ، ودار حوله ليلا ، فهو فى هذا الوجه مُرْتَشٍ وآكلُ سُحْتٍ ، وهو مع ذلك أسمجُ الخلق صَوْتًا ، وأحمق الخلق يقظة ونومًا ، ينام النهار كلّه على نفس الجادّة (الطريق) وعلى مَدَقِّ الحوافر ، وفى كل سُوق وملتقى طريق . . . وقد سَهِرَ الليل كله بالصياح والصخَب ، والنَّصَب والتعب ، والغيظ والغضب ، وبالمجىء والذهاب ، فيركبه من حب النوم على حسب حاجته إليه ، فإن وَطِئتْه دابة فأسوأ الخلق جَزَعًا ، وألأمه لؤمًا ، وأكثره نُباحًا وعُواءً ، فإن سلم ولم تطأه دابة ولا وَطِئه إنسان فليست تتم له السلامة ، لأنه فى حالِ متوقعٍ للبليَّة ، ومتوقعُ البليَّة فى بليَّة ، فإن سلم فليس على ظهرها مبتلًى أسوأ حالا منه ، لأنه أسوأهم جزعًا وأقلهم صبراً ، لأنه الجانى ذلك على نفسه ، وقد كانت الطرق الخالية له معرَّضة ، وأصول الحيطان مباحة ، وبعد فإن كلَّ خُلُق فارق أخلاق الناس فإنه

---

(١) الحيوان ٧ / ١٩٣ .

(٢) الحيوان ١ /٢٨٢ وما بعدها .

مذموم ، والناس ينامون بالليل الذى جعله الله تعالى سَكَنًا ، وينتشرون بالنهار الذى جعله الله تعالى لحاجات الناس مسرحًا . قال صاحب الكلب : لو شئنا أن نقول إن سهره بالليل ونومه بالنهار خَصْلة ملوكية لقلنا . ولو كان خلاف ذلك ألذّ لكانت الملوك بذلك أولى . وأما الذى أشرتم إليه من النوم فى الطرق الخالية ، وعِبْتموه به من نومه على شارعات الطرق والسكك العامرة ، وفى الأسواق الجامعة فكل امرئ أعلمُ بشأنه ، ولولا أن الكلب يعلم ما يلقى من الأحداث والسفهاء وصبيان الكُتّاب من رَضّ عظامه بألواحهم إذا وجدوه نائمًا فى طريق خال ليس بحضرته رجالٌ يُهابون ، ولا مشيخة يرحمون ويزجرون السفهاء ، وأن ذلك لا يعتريه فى مجامع الأسواق لقَلّ خلافه عليك ولما رَقَدَ فى الأسواق . وعلى أن هذا الخلق إنما يعترى كلاب الحُرّاس ، وهى التى فى الأسواق مأواها ومنازلها ، وبَعْدُ فمن أخطأ وأظلم ممن يكلف السباعَ أخلاقَ الناس وعاداتِ البهائم ؟ وقد علمنا أن سباع الأرض عن آخرها إنما تهيج وتَسْرَحُ وتلتمس المعيشة ليلا ، لأنها تبصر بالليل . . . أما تركه الاعتراض على اللصّ الذى أطعمه أيامًا ، وأحسن إليه مرارًا ، فإنما وجب عليه حفظ أهله لإحسانهم إليه وتعاهدهم له . فإذا كان عهده ببرّ اللصّ أحدث من عهده ببِرّ أهله لم يكلَّف الكلب النظر فى العواقب وموازنة الأمور . والذى أضمر اللص من البيّات غَيْبٌ قد سُتِر عنه ، وهو لا يدرى أجاء ليأخذ أم جاء ليعطىَ . . . ولعل أهله أيضًا أن يكون قد استحقوا ذلك منه بالضّرْب والإجاعة ، وبالسبّ والإهانة . وأما سماجة الصوت فالبغل أسمجُ صوتًا منه ، وكذلك الطاووس على أنهم يتشاءمون به . وليس الصوت الحسن إلا لأصناف الحمام من القمارىّ والدّباسىّ وأصناف الشفانين (ضرب من العصافير) فأما الأسد والذئب وابن آوى والخنزير وجميع الطير والسباع والبهائم ، فكذلك ، وإنما لك أن تذم الكلب فى الشىء الذى لا يعمّ . . . وربما كان من الناس — بل كثيرًا ما تجده — مَنْ صوته أقبح من صوت الكلب ، فلِمَ تَخُصّون الكلب بشىء عامةُ الخلق فيه أسوأ حالا من الكلب . وأما عُواؤه من وَطْءِ الدابة وسوء جزعه من ضرب الصبيان فجزع الفرس من وقع عَذَبة (طرف) السوط أسوأ من جزعه » .

وواضح كيف أن صاحب الديك ثلبَ الكلب مثالب مختلفة فى وفائه لأصحابه وفى غلظ صوته وفى نومه بالنهار على الطرق وفى الأسواق ، وفى كثرة نباحه وعُوائه حين تطؤه دابّة . وينْقُضُ صاحب الكلب كل تلك المثالب فهو ينام بالنهار مثل الملوك والسلاطين ، وفى الأماكن الجامعة لما يلقى من السفهاء والصبيان ، حتى يزجرهم الناس ، ومع ذلك ليست كل الكلاب ترقد فى الأسواق إنما تلك كلاب الحراسة ، وهذا طبيعى لأن الأسواق دورها ومنازلها . أما أنه لا يفى لأصحابه حين يُلْقى له لِصّ بكسرة خبز ، فإن محاسبته على ذلك لإحسانهم إليه ، وإحسان اللص أحدث من إحسانهم ، ثم هو كلب لا يعرف نية اللص وما أضمر من سرقة أهله ، ولا يدرى أجاء ليأخذ أو جاء ليعطى ، وربما كان أهله يعاملونه معاملة سيئة . وسماجة صوته ليست مثلبة ، فالبغل أسمج صوتاً منه ، وكذلك الطاووس الجميل المنظر ، والصوت الحسن إنما يكون لأصناف الحمام دون جميع الطير والسباع والبهائم . وحتى الناس منهم من تهبط منزلة صوته فى القبح درجات عن صوت الكلب، وذلك لا يعيبهم . أما جزعه من وطء والدوابِّ ضرب الصبيان له فربما كان جزع الفرس من ضرب السياط أسوأ من جزعه . وهكذا تسقط جميع المثالب التى وصف بها صاحب الديك الكلب ولا يبقى منها فى يده شىء . وهى براعة فائقة فى الحوار وفى الاستدلال والتلطف للبرهان والاحتيال له بالعقل الثاقب ، مع التأنى والتمكين للحجج ، وهى توضع فى صورة أدبية بديعة ، هى صورة الأسلوب المزدوج الذى تتوازن فيه العبارات والصيغ وتتعادل إيقاعاتها تعادلا محكماً . وتمتد المناظرة فى الكلب ومحاسنه ومساوئه من صفحة ١٩٠ فى الجزء الأول من الحيوان إلى صفحة ٢٣٣ من الجزء الثانى فتشغل بذلك مجلداً ضخماً ، ثم تبدأ المناظرة فى مساوئ الديك ومحاسنه وتستمر إلى صفحة ٣٧٥ من هذا الجزء الثانى . ومما احتج به صاحب الديك من محاسنه صياحه الدال على معرفته لساعات الليل فى الفجر وغير الفجر ، حتى كأنه فوق الإسطرلاب الذى يرصد الفلك ومنازل القمر ، ويردُّ عليه صاحب الكلب هذه المحمدة ، لأن الحمار يشرك الديك فيها بنهيقه فى الأسحار ، يقول[١] :

(١) الحيوان ٢ / ٢٥٥ وما بعدها .

« لولا أن وجدنا الحمار المضروب به المثل فى الجهل يقوم فى الصباح وفى ساعات الليل مقام الديكة لقد كان ذلك قولا ومذهبًا غير مردود ، ولو أن متفقداً تفقد ذلك من الحمار لوجده منظومًا يتبع بعضه بعضًا على عدد معلوم ، ولوجد ذلك مقسومًا على ساعات الليل ، ولكان لقائل أن يقول فى نهيق الحمار فى ذلك الوقت : ليس تجاوباً إنما ذلك شيء يتَسَاوى معًا ، لاستواء العلة ، فلم تكن للديك الموصوف بأنه فوق الإسطرلاب فضيلة ليست للحمار . . . والحمار أجهل الخلق ، فليس ينبغى للديك أن يُقْضَى له بالمعرفة ، والحمار قد ساواه فى يسير علمه » .

وعلى هذا النحو لا يُدْلى صاحب الديك بمحمدة إلا وينقضها عليه النظّام نقضا ، وبالمثل ينقض معْبد محامد الكلب . ويشتد الحوار بين المتناظرَيْن ، ونُصْبح وكأننا بإزاء بانيين لحصون من الأدلة والبراهين لا تلبث حين تقوم أن تنقضّ . وكما قلنا ليس البانيان والناقضان سوى الجاحظ نفسه ، فهو الذى أقام تلك المناظرة التى ظاهرُها كلب وديك وباطنها عرب وشعوبية ، وكان يتعصب للعروبة فى أعماقه ، مما جعله ينفض عن الكلب كل مذامّه ومثالبه ويُضْفى عليه كثيراً من المحامد والمحاسن فى حماسة بالغة .

وهذا لون من ألوان أدبه . ولون ثان هو رسائله الإخوانية ، وهى تموج بطُرف فكره وبلاغته ، فمن ذلك أن صديقه ابن الزيات تلوَّن له وتنكَّر فترةً إذ أحسَّ انشغاله عنه ، فكتب إليه الجاحظ يستعطفه بالرسالة التالية [1] :

« أعاذك الله من سوء الغضب ، وعصمك من سَرَف الهوى ، وصرف ما أعارك من القوة إلى حب الإنصاف ، ورجّح فى قلبك إيثار الأناة (الحلم) فقد خفتُ — أيّدك الله — أن أكون عندك من المنسوبين إلى نَزَق السفهاء ، ومجانبة سبل الحكماء ، وبعد فقد قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت :

وإنَّ امْرَأً أَمْسَى وأَصبح سالماً   من الناسِ إلا ماجَنَى لَسَعيدُ

وقال الآخر :

ومَنْ دَعَا الناسَ إلى ذَمِّهِ   ذَمّـوه بالحق وبالباطلِ

---

(١) زهر الآداب ٢/١٠٨ .

فإن كنتُ اجترأت عليك ـ أصلحك الله ـ فلم أجترئ إلا لأن دوام تغافلك عني شبيه بالإهمال الذى يورث الإغفال ، والعَفْوُ المتتابع يُؤْمن من المكافأة (المجازاة) ولذلك قال عيينة بن حصن بن حذيفة لعثمان رحمه الله : عمر كان خيراً لى منك : أرهبنى فأتقانى ، وأعطانى فأغنانى . فإن كنت لا تهب عقابى ـ أيّدك الله ـ لحُرْمة ، فهَبْه لأياديك عندى ، فإن النعمة تشفع فى النقمة ، وإلاّ تفعلْ ذلك لذلك فعُدْ لحسن العادة ، وإلا فافعل ذلك لحسن الأحدوثة ، وإلا فأْتِ ما أنت أهله من العفو ، دون ما أنا أهله من استحقاق العقوبة . فسبحان مَنْ جعلك تعفو عن المتعمد ، وتتجافى عن عقاب المُصرّ ، حتى إذا صرتَ إلى مَنْ هفوته بِكْرٌ (أولى) وذنبه نسيان ، ومن لا يعرف الشكر إلا لك ، ولا الإنعام إلا منك هجمتَ عليه بالعقوبة . واعلم ـ أيّدك الله ـ أن شَيْنَ غضبك علىّ كزَيْن صَفْحك عنى ، وأن موت ذكرى مع انقطاع سَبَبى منك ، كحياة ذكرى مع اتصالى سببى بك ، واعلم أن لك فطنة عليم ، وغفلة كريم ، والسلام » .

والرسالة على قصرها تحمل خصائص الجاحظ الأدبية ، ففيها شعر وخبر ، وفيها المهارة العقلية على التدليل واستنباط الأفكار ، فابن الزيات هو الذى طال تغافله عن الجاحظ ويشبّه التغافل بالإهمال ضرباً من القياس ليصل إلى إغفاله له ، ويسوق دليلا ملزماً ، فهو دائماً يعفو عنه والعفو المتتابع يجعل المعفوّ عنه آمناً من المجازاة وأن يصاب بسوء . ثم مضى يُلْزمه الرضا عنه ، بمنازل متعددة منه ، إما لمنزلة حرمته منه ، وإما لما تتابع عليه من أياديه ، والنعمة تشفع فى النقمة ، برهاناً ساطعاً ، وإما لحسن العادة ، وإما لحسن الأحدوثة ، وإما لأنه أهل للعفو عن المستحقين للعقوبة من أمثاله . ويتلطّف له قائلا إنه أول ذنب لى وليس ذنبى إلا النسيان ، وهل عرفت الشكر إلا لك ولا الإنعام إلا منك . فماذا يملك ابن الزيات إزاء هذا البيان الرائع إلا أن يعود إلى الرضا التام ؟ وتتقابل عبارات الرسالة فى صفوف ، وكأن كل كلمة فى عبارة سابقة تجذب قرينتها فى العبارة اللاحقة ، دون محاولة لسجع أو نغم متماثل فى نهايات الجمل المتلاحقة ، وهكذا الجاحظ دائماً يكتفى بجمال التوازن العام فى أسلوبه المزدوج. وانظر إلى التوازن الدقيق فى العبارات الأخيرة من الرسالة ، « فشين غضبك » توازن « زين صفحك » ، و« موت ذكرى

مع انقطاع سبي» توازن «حياة ذكرى مع اتصال سبي». وتكامل مثل هذا التوازن فى أسلوبه يتيح له وفرة فى النغم، مع ما يتسم به أسلوبه عامة من رصانة وجزالة ونصاعة.

ولون ثالث من كتاباته هو الرسائل الأدبية، وهى تُعَدّ بالعشرات، ويكفى أن نرجع لعنوانات المطبوع منها لنرى مدى تنوعها وأنها تناولت جوانب كثيرة من المجتمع ومن المسائل الكلامية ومن الأخلاق ومن الطوائف كالترك والمعلمين والقيان والمغنين غير ماله من رسائل فى حجج النبوة واستحقاق الإمامة وخلق القرآن. وكثير منها مكتوب بأسلوب الجدل والمناظرة، إن لم نقل إنها جميعها كتبت بهذا الأسلوب ونكتفى بعرض رسالة منها ولتكن رسالته[1] فى فخر السودان على البيضان، وقد عرض فيها مناقب السودان ممثلة فى شخصيات بارزة مثل لقمان الحكيم وسعيد بن جبير العبد الصالح الذى قتله الحجاج وبلال الحبشى والمقداد الصحابى الجليل أول مَنْ عَدَا به فرسه فى الإسلام، ومثل مكحول الفقيه والحَيْقطان الشاعر الذى يفتخر بقومه، ويذكر قصيدة له تحتج بها العجم والحبش على العرب، ويشرح أبياتها، ومثل سُنَيْح بن رباح المعاصر لجرير ويَرْوى قصيدته فى الفخر بالزنج، ويذكر أبناء الزنجيات من العرب مثل العباس بن مرداس وعنترة الفوارس. ويذكر من احتجاجهم أنهم ملكوا ذات يوم بلاد العرب من لدن الحبشة إلى مكة وقتلوا ذا نواس وأقيال (تبابعة) حمير، ويذكر مشاركتهم فى بعض الأحداث والحركات السياسية فى العصرين الأموى والعباسى، ثم يقول:

« الناس مجمعون على أنه ليس فى الأرض أمة السخاءُ فيها أعم وعليها أغلب من الزنج ... وهم أطبع الخلق على الرقص الموزون من غير تأديب ولا تعليم. وليس فى الأرض أحسن حلُوقاً منهم، وليس فى الأرض أخف على اللسان من لغتهم، ولا فى الأرض قوم أذرب (أفصح) ألسنة، ولا أقل تمطيطاً منهم . . . والرجل منهم يخطب عند الملك بالزنج من لدن طلوع الشمس إلى غروبها، فلا يستعين بلَفْتة ولا بسَكْتة حتى يفرغ من كلامه. وليس فى الأرض أمة فى شدة الأبدان وقوة الأسْر أعم منهم فيهما، وإن الرجل ليرفع الحجر الثقيل الذى تعجز عنه

---

(١) انظر الرسالة فى مجموعة رسائل الجاحظ.
(نشر مكتبة الخانجى) ١ / ١٧٧ - ٢٢٦.

الجماعة من الأعراب وغيرهم ، وهم شجعان أشداء الأبدان أسخياء . وهذه هي خصال الشرف . والزنجي مع حسن الخُلق وقلة الأذى لا تراه أبداً إلا طيب النفس ضحوك السنّ حسن الظنّ ، وهذا هو الشرف » .

ويرد على أناس قالوا إنهم صاروا أسخياء لضعف عقولهم ، ويقول لو كان البخل بمقدار قوة العقل ، لكان الصقالبة أعقل من الروم لأنهم أبخل منهم والروم أشد عقولا . ويقول لخصومهم إنكم أقررتم لهم بالسخاء وادعيتم عليهم ما لا يُعْرَفُ من ضعف العقل ، ولو كان هذا القياس صحيحاً لكان الجبان أعقل من الشجاع . ويذكر فخر الزنج بملوكهم . ثم يعود إلى ذكر طائفة من شعرائهم وافتخارهم بالنجاشي الذي أكرم المهاجرين إليه من الصحابة ، ثم يقول بلسانهم :

« ونحن أهولُ في الصدور وأملأ للعيون ... كما أن الليل أهولُ من النهار . . . ودُهْمَ الخيل أبهى وأقوى ، والبقر السودَ أحسن وأبهى ، وجلودها أثمن وأنفع وأبقى ، والحُمُرَ (ج حمار) السودَ أثمن وأحسن وأقوى ، وسودَ الشّاء أدْسَمُ ألباناً وأكثر زبداً . . . وكل جبل وكل حجر إذا كان أسود كان أصلب صلابة ، وأشد يبوسة ، والأسد الأسود لا يقوم له شيء ، وليس من التمر شيء أحلى حلاوة من الأسود ولا أعم منفعة ولا أبقى على الدهر ، والنخيل أقوى ما تكون إذا كانت سُودَ الجذوع ... وأحسن الخضرة ما ضارع السواد ، قال الله عز وجل : (ومن دونهما جنّتان) ثم قال لما وصفهما وشوّق إليهما : (مُدْهامّتان) قال ابن عباس : خضراوان من الريّ سوداوان ، وليس في الأرض عودٌ أحسن خشباً ولا أغلى ثمناً ولا أثقل وزناً . . . ولا أجدر أن ينشب فيه الخطّ من الآبنوس . . . والإنسان أحسن ما يكون في العين ما دام أسود الشعر ، وكذلك شعورهم في الجنة ، وأكرم ما في الإنسان حدقتاه وهما سوداوان ، وأكرم الكحل الإثْمِد ، وهو أسود . . . وأنفع ما في الإنسان له كبده » .

ونحس كأن الكلام سيول تتدافع ، وهي سيول تحيط بفكرة السواد وترفع منها محصية إحصاء دقيقاً مواقعه في الطبيعة وفي الحيوان وفي الجماد وفي الثمار والأشجار وفي الزروع والأعواد والأخشاب وفي الإنسان وفي الجنة ونعيمها الخالد . وكل ذلك

بسوّى فى أسلوب الازدواج وما يحمل من متاع موسيقى للآذان والأسماع . ويتحدث الجاحظ عن اقتران السواد بالشدة والصلابة والصرامة ، وأنه لا يوجد لون أرسخ فى جوهره من السواد ، ويذكر أن العرب تفخر بسواد اللون وأنه كان كثيرون من سادتهم سوداً دهماً . ويتحدث عن كثرة عدد الزنج ، وكيف أن كثيرين من العرب مثل الفرزدق كانوا يفضلون زوجاتهم السودانيات . ويجعل سكان الجزر الهندية وكذلك القبط جنساً من السودان ويذكر أن إبراهيم الخليل تزوج منهم امرأة ولدت له إسماعيل عليه السلام . ويقول إن الله تعالى لم يجعلهم سوداً تشويهاً لخلقهم ، وإنما فعلت بهم ذلك البيئة ، ويسلك فيهم من العرب بنى سُلَيم بن منصور وكل من نزل الحَرَّة لسريان السواد فيهم ، ويقول إنه بلغ من أمر تلك الحَرَّة (حَرَّة بنى سليم) أن ظباءها ونعامها ، وهوامَّها وذبابها ، وثعالبها وشاءها ، وحميرها وخيلها ، وطيرها ، كلها سود .

ونحس فى حرارة دفاعه عن السودان كأنه يدافع عن أصوله إذا صَحَّ أن جده كان عبداً أسود . وأكبر الظن أنه أول من أشاد بالسودان فى عصره ، وكأنما أصبح لهم شىء من الخطر فى الحياة الاجتماعية العباسية ، ولم تمض على وفاته سوى عشر سنوات حتى شبت ثورة الزنج التى تحدثنا عنها فى غير هذا الموضع .

ولون رابع من كتاباته هو النثر القصصى ، إذ كان بارعاً فى تصوير الشخصيات والنفوس ، ولو أنه عرف الأدب التمثيلى لأسعفته ملكته فى المناظرة والحوار بقصص تمثيلية كثيرة ، وهو بحق لا يبارَى فى وصف الحركات الجسدية والمشاعر النفسية ، ومن خير ما يصوِّر هذه النزعة القصصية عنده أقصوصته فى كتابه الحيوان عن « القاضى والذباب » وهى تجرى على هذه الصورة الرائعة (١) :

« كان لنا بالبصرة قاض يقال له عبد الله بن سَوَّار ، لم ير الناس حاكماً قط ولا زِمِّيتاً (٢) ولا رَكيناً (٣) ، ولا وقوراً حَليماً ضبط من نفسه ، وملك من حركته ، مثل الذى ضبط وملك . كان يصلِّى الغَداة (٤) فى منزله ، وهو قريب

(١) الحيوان ٣ / ٣٤٣ .
(٢) زميتا : وقوراً .
(٣) ركينا : رزينا .
(٤) الغداة : صلاة الضحى النافلة .

الدار من مسجده ، فيأتي مجلسه ، فيَحْتَبي ، ولا يتكئ ، فلا يزال مُنْتَصباً ، لا يتحرّك له عضو ولا يلتفت ولا يحل حُبْوته[1] ، ولا يحوّل رجلا عن رجل ، ولا يعتمد على أحد شِقَّيْه ، حتى كأنه بناء مبنيّ أو صَخْرة منصوبة فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة الظهر ، ثم يعود إلى مجلسه ، فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة المغرب . . . كذلك كان شأنه في طِوال الأيام وفي قِصارها ، وفي صيفها وفي شتائها ، وكان مع ذلك لا يحرّك يده ولا يشير برأسه ، وليس إلا أن يتكلم فيوجز ويبلغ بالكلام اليسير المعاني الكثيرة . فبينما هو كذلك ذات يوم وأصحابه حواليه وفي السماطين[2] بين يديه ، إذ سقط على أنفه ذباب ، فأطال المُكْث ، ثم تحول إلى مُؤْق[3] عينه ، فرام الصبر في سقوطه على المؤق وعلى عَضِّه ونفاذ خُرْطومه ، كما رام الصبر على سقوطه على أنفه من غير أن يحرك أرْنَبته[4] أو يغضّن وجهه أو يذبّ بإصبعه . فلما طال ذلك عليه من الذباب وشغله وأوجعه وأحرقه ، وقصد إلى مكان لا يحتمل التغافل أطبق جَفْنه الأعلى على جَفْنه الأسفل ، فلم ينهض (الذباب) فدعاه ذلك إلى أن والَى بين الإطباق والفتح ، فتنحيّ ريثما سكَن جفنه ، ثم عاد إلى مُؤْقه بأشد من مرّته الأولى ، فغَمس خُرْطومه في مكان كان قد أوهاه قبل ذلك ، فكان احتماله له أضعف وعجزه عن الصبر في الثانية أقوى . فحرّك أجفانه وزاد في شدة الحركة وفي فتح العين وفي تتابع الفتح والإطباق ، فتنحّى عنه بقدر ما سكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه ، فما زال يُلِحّ عليه حتى استفرغ صبره وبلغ مجهوده . فلم يجد بُدّاً من أن يذبّ عن عينيه بيده ، ففعل ، وعيونُ القوم إليه ترمقه . فتنحّى عنه بقدر ما ردّ يده وسكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه ، ثم ألجأه إلى أن ذبّ عن وجهه بطَرَف كُمِّه ، ثم ألجأه ، إلى أن تابع بين ذلك . وعلم أن فعله كله بعين مَنْ حَضره من أُمَنائه وجلسائه . فلما نظروا إليه قال : أشهد أن الذباب ألَحّ من الخُنْفُساء وأزهى من الغراب ، وأستغفر الله ، فما أكثر من أعجبته نفسُه ، فأراد الله عزّ وجَلّ أن يعرّفه من ضعفه ما كان عنه مستوراً . وقد علمت أني عند الناس من أزمت

---

(١) يحتبي : من الحبوة ، وهي أن يجمع الرجل بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها .

(٢) السماطين : مثنّى سماط وهو الصف .

(٣) المؤق : طرف العين مايلي الأنف .

(٤) أرنبته : طرف أنفه .

الناس ، فقد غلبني وفضحني أضعفُ خلقه ، ثم تلا قوله تعالى : (وإنْ يَسْلُبْهم الذُّبابُ شيئًا لا يَسْتنقذوه منه ضَعُفَ الطالبُ والمطلوبُ) .

والأقصوصة تتألف من ثلاثة أجزاء واضحة ، أما الجزء الأول فيصف فيه الجاحظ وقار القاضي عبد الله بن سَوَّار وتزمته وما بلغه من سيطرته الشديدة — التي لم يبلغها أحد — على نفسه وحركته . وهي سيطرة كانت تظل تلازمه طوال اليوم من الغداة حتى صلاة المغرب ، بل لكأنما أصبحت له فطرةً ثابتة ، فإذا هو يجلس مُحْتبيًا غير متكئٍ في المسجد ، منتصبًا كأنه سارية أو عمود من أعمدته ، لا يتحرك له عضو ولا يلتفت يمنة ولا يَسْرة ، ولا يغيِّر وضعًا له في جلسته ، حتى لكأنه بناء مبني أو صخرة منصوبة . ويقول إنه يتخذ هذا الوضع لا في يوم من أيام السنة ، بل في جميع أيامها طوالها وقصارها ، وشيء منه لا يتحرك ، لا رجل ولا يد ولا رأس ، حتى إذا اجتمع الناس له في سماطين وعظهم وعظًا بليغاً . وهذا هو الجزء الأول في القصة أو الأقصوصة ، ويليه جزء ثان يصور فيه الجاحظ إلحاح الذباب الضعيف على هذا البناء الضخم من الوقار والتزمت والرزانة وهو يسترسل في العظة ، ويصمد البناء لهذا الإلحاح فترة ، ثم تأخذ قواه في الوهن شيئاً فشيئاً ، والجاحظ يلاحظ ويسجل ملاحظاته مصوراً أدق الدقائق من حركة الذباب وكيف تحول من أنف القاضي إلى مؤقه ، والقاضي يستشعر وقاره صابراً صبراً عظيمًا على عَضِّ الذباب لمؤقه ونفاذ خرطومه فيه دون أن يُغْمض طرفه أو يغضّن وجهه أو يذبّه . ويظل على وقاره صابراً يوجعه الذباب ويحرقه ، حتى إذا نفد صبره أطبق جفنه الأعلى على جفنه الأسفل ، فلم يتنحّ الذباب وظل في إحراقه وإيجاعه ، فوالى بين الإطباق والفتح وهو لا يفقد وقاره . وتنحىّ الذباب قليلا ثم عاد بأشد مما كان ، لأن المكان كان قد وهى ، فكان احتماله له أضعف ، فحرّك أجفانه وزاد في شدة الحركة وفي تتابع الفتح والإطباق . فتنحى الذباب عن المؤق ولم يلبث أن عاد إلى موضعه ، وما زال يلحّ على القاضي حتى نفد صبره ، فذبَّ عن عينيه بيده وعيون الجالسين أمامه ترمقه . وتنحى عنه بقدر ماردَّ يده وسكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه. حينئذ خرج عن وقاره المألوف إذ لم يجد بدًّا أن يذبَّ عن عينيه بطرف كمه . وعاوده مراراً ، وهو يتابع ذبّه بطرف الكم . وننتقل مع الجاحظ إلى الجزء الثالث من الأقصوصة وفيه يصوّر تعلق أعين السامعين ،

الذين شهدوا المنظر بالقاضى ، ناظرين إليه وكأنهم يريدون منه تعليقاً أو عظة . ويبدأ ببيان إلحاح الذباب ، ويعترف بضعفه أمام أضعف مخلوقات الله ، ويصرّح بأن الذباب غلبه وقهره وفضحه ، وأنه لا يختلف فى ذلك عن بنى جنسه بشهادة الآية القرآنية الكريمة . والأقصوصة محبوكة حبكاً دقيقاً بما أودعها الجاحظ من دقائق التصوير والتفاصيل ، وكأنها مشهد نراه بأعيننا إذ نقله لنا بحذافيره نقلا واعياً ، أو قل نقل عين بصيرة لا يفوتها شىء فى الرؤية الحسية ولا فى الرؤية النفسية .

ولون خامس فى كتابات الجاحظ الأدبية هو كثرة ما أذاع فيها من نوادر ترويحاً عن نفس القارئ وتنشيطاً له ، على نحو ما صوّر ذلك بنفسه فيما أسلفنا من الحديث عن خصائصه ، وقد وضع لها قاعدة لغوية عامة ألا تغيّر ولا تبدّل صورتها اللفظية ، سواء جرت على ألسنة البدو أو ألسنة العامّة ، يقول[1] :

« ومتى سمعت — حفظك الله — بنادرة من كلام الأعراب ، فإياك أن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها ، فإنك إن غيّرتها بأن تلحن فى إعرابها وأخرجتها مخارج كلام المولّدين والبلديين خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير . وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوامّ ومُلْحة من مُلَح الحُشْوة والطغام فإياك أن تستعمل فيها الإعراب ، أو تتخيّر لها لفظاً حسناً أو تجعل لها من فيك مخرجاً سريّاً ، فإن ذلك يُفْسد الإمتاع بها ، ويخرجها من صورتها ومن الذى أريدت له ، ويُذْهب استطابتهم إياها واستملاحهم لها » .

وطبّق هذه القاعدة على نفسه تطبيقاً شديداً ، فالنادرة تُرْوَى بألفاظها كما نَدّت من ألسنة أصحابها ، وإذا كان لفظها عامياً أو أعرابياً مسرفاً فى البداوة ظلت كما اجتُلبت دون أى تعديل ، فإنها إن عُدّلت مُسخت وأصبحت مشوّهة الخلق ، وفارقتها طبيعتها ، ولم تعد مضحكة . وتكثر النوادر فى البخلاء بل كل الكتاب نوادر إن صح هذا التعبير ، وهو يعرض فيه شخصيات المجتمع الفذة الفلسفية والكلامية ومحركاته من شعوبية وغير شعوبية وكثيراً من تقاليده ومطاعمه وملابسه ، فكل مافى المجتمع البصرى من صور حياة يعرض عرضاً دقيقاً بكل شياته وسماته . وله فى المعلمين كتاب ملأه بنوادرهم ، ونسوق له هذه النادرة التى صوّر فيها حمق المعلمين وضعف عقولهم لملازمتهم الصِّبْية ، قال :

---

(١) البيان والتبيين ١/١٤٥ .

« كنت ألّفت كتابًا فى نوادر المعلمين وما هم عليه من الغفلة ، ثم رجعت عن ذلك وعزمتُ على تقطيع الكتاب ، فدخلت يومًا قرية ، فوجدت فيها معلمًا فى هيئة حسنة ، فسلّمت عليه فردّ علىّ أحسن رَدّ ، ورحّب بى ، فجلست عنده ، وباحثته فى القرآن ، فإذا هو ماهر ، ثم فاتحته فى الفقه والنحو وعلم المعقول وأشعار العرب ، فإذا هو كامل الأدوات ، فقلت : هذا والله مما يقوّى عزمى على تقطيع الكتاب . وكنت أختلف إليه وأزوره ، فجئت يومًا لزيارته وطرقت الباب ، فخرجت إلىّ جارية وقالت : ما تريد ؟ قلت : سيّدك . فدخلتْ وخرجتْ ، وقالت : باسم الله ! . فدخلتُ إليه ، وإذا به جالس كئيبًا ، فقلت : عظّم الله أجرك (لقد كان لكم فى رسول الله أُسْوة حسنة) ، (كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت) ، فعليك بالصبر ، ثم قلت له : هذا الذى توفى والدك ؟ قال : لا ، قلت : فوالدك ؟ قال : لا ، قلت : فأخوك ؟ قال : لا ، قلت : فزوجتك ؟ قال : لا . فقلت : وما هو منك ؟ قال : حبيبتى . فقلت فى نفسى : هذه أول المناحس . فقلت : سبحان الله ! النساء كثير ، وستجد غيرها ، فقال : أتظن أنى رأيتها ؟ قلت : هذه منحسة ثانية ، ثم قلت : وكيف عشقت مَنْ لم تَرَ ؟ فقال : اعلمْ أنى كنت جالسًا فى هذا المكان ، وأنا أنظر من الطاق (النافذة) إذ رأيت رجلا عليه بُرْدٌ (ثوب) وهو يقول :

يا أمَّ عمرٍو جزاكِ اللهُ مكرُمــةً رُدِّى علىَّ فؤادى أينما كانا

لا تأْخذين فؤادى تَلْعبين به فكيف يَلْعَبُ بالإنسان إنسانا

فقلتُ فى نفسى : لولا أن أم عمرو هذه ما فى الدنيا أحسن منها ماقيل فيهاهذا الشعر ، فعشقتها ، فلما كان منذ يومين مَرّ ذلك الرجل بعينه ، وهو يقول :

لقد ذهب الحمارُ بأمِّ عمرٍو فلا رجَعتْ ولا رَجع الحمارُ

فعلمت أنها ماتت ، فحزنتُ عليها ، وأغلقت المكتب ، وجلست فى الدار ، فقلت : يا هذا : إنى كنت ألفت كتابًا فى نوادركم معشر المعلمين ، وكنت حين صاحبتك عزمت على تقطيعه ، والآن قد قوّيتَ عزمى على إبقائه ، وأول ما أبدأ فيه بك إن شاء الله » .

والنادرة طريفة منتهى الطرافة ، والمعلم فيها يأخذ سمتاً جاداً ، يتزينه فى أول الأمر علمه الواسع بالقرآن وتفسيره وبالفقه والنحو وبأشعار العرب وما شدا من علوم الأوائل أو علم المعقول كما يقول الجاحظ ، حتى ظن أنه كامل الأدوات وعزم على تقطيع كتاب كان ألّفه فى نوادر المعلمين وغفلتهم وحمقهم. ويصحبه فترة ، ويلاحظ أنه أغلق كُتّابه فيزوره فى داره ، وإذا هو جالس جلسة حزين مكتئب ، فظن أنه فقد عزيزاً لديه ، وأخذ يسأله عنه ، وهو يجيب جاداً ، حتى عرف أنه فقد معشوقته . وكأنما أطلّ حمقه على الجاحظ ، وإذا هو يقول له إنه لم يرها ، وتتوالى غفلته فى هذا الحب الأحمق الذى تهوى فيه كل قواعد المنطق ، وكأننا فى مسرح هزلى نفضى فيه إلى الضحك ، وكلما مضينا فى النادرة أغربنا فيه ، لا نتوقف ، وكأنما اختلّ توازننا ، أو كأنما نندفع فى انحدار بقوة ولا نملك الوقوف أو السيطرة على أنفسنا من هذا السيل الجارف للغفلة المجسمة وما يُطْوَى فيها من حمق فظيع ، حمق يدفعنا إلى الضحك العريض . ولعل من الطريف أن الجاحظ كان يتندّر على كل شىء حتى على نفسه وشكله القبيح ، ويُرْوَى عنه أنه قال : « ما أخجلنى إلا امرأة مرت بى إلى صائغ فقالت له : اعملْ مثل هذا ، فبقيتُ مبهوتًا ، ثم سألت الصائغ فقال : هذه امرأة أرادت أن أعمل لها صورة شيطان ، فقلت : لا أدرى كيف أصوّره ، فأتت بك لأصوره على صورتك » .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يصور شخصية الجاحظ الأدبية وخصائصه الفنية فى كتاباته . ومن المؤكد أن العربية لم تعرف كاتبًا فرض نفسه على عصره والعصور التالية كما عرفت فى الجاحظ الذى ملأ الدنيا وشغل الناس بملكاته النادرة ، وما وصلها به من ذخائر الثقافات الأجنبية ، وما جسّدها فيه من طوابع عقلية ومن جِدّ وهزل ومن نقل لكل صور الحياة فى مجتمعه ومن استطرادات تحمل كثيراً من الطُّرَف والنوادر ومن أسلوب مليء بالنغم ، يجرى فيه دائمًا الازدواج الذى يروع القارئ بجَرْسِه ، إذ يُمتّع الألسنة حين تنطق به والآذان حين تُصْغِى إليه ، كما يُمتّع بمضامينه العقول والأفئدة .

٣

ابن قتيبة [١]

هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، ولد سنة **٢١٣** للهجرة ببغداد وقيل بالكوفة ، أصله فارسي أو تركي من مرو بخراسان ، ومن ثم نُسب إليها ، فقيل المروزي ، اختلف في صباه إلى الكتَّاب ، فحفظ شيئًا من القرآن الكريم والحديث النبوي والأشعار وشدا شيئًا من الفقه والنحو والحساب ، ولم يكد يشبّ عن الطوق حتى أخذ يختلف إلى المساجد الجامعة بموطنه بغداد يأخذ عن علمائها كل ما عندهم من علوم اللغة والشريعة والحديث ، وعكف على المترجمات يقرأ فيها ويستوعب ، وخاصة ما تُرْجم عن الفارسية ، ولمع اسمه في بيئة الفقهاء ، فتولّى القضاء بدِينَوَر ، ولذلك يقال له الدّينوري . وعاد إلى بغداد مؤثراً الاشتغال بالتدريس والتعليم حتى توفي سنة ٢٧٦ للهجرة . وقد أكبّ على كتب الجاحظ يدرسها ويتمثلها ، مع أنهما كانا على طرفي نقيض ، فقد كان الجاحظ معتزليًّا كما مرّ بنا ، وكان ابن قتيبة سُنّيًّا ، وله كتابان : مشكل القرآن وتأويل مختلف الحديث ، وفيهما وخاصة في الثاني يحمل على الجاحظ والمعتزلة حملات شعواء ، وهما منشوران . وله بجانبهما كتب كثيرة منها كتاب في الفقه وكتاب في دلائل النبوة وغريب القرآن وكتب غيرهما كثيرة في مختلف الميادين سقطت من يد الزمن. ومن كتبه المنشورة المعارف وفيه يتحدث عن مبدأ الخلق وقصة الطوفان نقلا عن ترجمة للتوراة ، ويُعقّب ذلك بتاريخ الأنبياء والرسل والعرب الجاهليين وسيرة الرسول عليه السلام ، ثم أخبار موجزة عن العلماء في كل فن وعن الفرس قبل الإسلام . وله كتاب الأشربة وهو منشور بدمشق وكتاب المَيْسر والقِداح وهو منشور بالقاهرة وكتاب الاختلاف في اللفظ والرد على الجهْمية والمشبِّهة وهو منشور أيضًا بالقاهرة ونُشر

---

(١) انظر في ابن قتيبة الفهرست ص ١٢١ والأنساب للسمعاني الورقة ٤٤٣ وتاريخ بغداد ١٠ / ١٧٠ وإنباه الرواة للقفطي ١٤٣/٢ ونزهة الألباء (نشر دار نهضة مصر) ص ٢٠٩ وابن خلكان والنجوم الزاهرة ٣ / ٧٥ والديباج لابن فرحون طبع القاهرة ص ٣٥ وشذرات الذهب ٢ / ١٦٩ ومرآة الجنان لليافعي ٢ / ١٩١ .

باسمه كتاب الإمامة والسياسة وهو منحول عليه . ومن أهم كتبه كتاب الشعر والشعراء وهو تراجم قصيرة لشعراء العرب حتى عصره ، وهو منشور مراراً . وله كتاب معانى الشعر الكبير . وألف طائفة من الكتب لتثقيف الكتّاب الناشئين ؛ منها كتابه « أدب الكاتب » ، الذى عرضنا له فى غير هذا الموضع ، وهو يمدّ الكاتب فيه بثقافة لغوية واسعة ، وأهم منه كتابه « عيون الأخبار » وهو يمد الكاتب فيه بكنوز الثقافات التى تُسْعفه فى مادة عمله .

وابن قتيبة يُعَدّ أكبر مؤلف أدبى ظهر فى العصر بعد الجاحظ ، وهو سنى محافظ ولذلك يكون من المنطقى أن تتضح محافظته فى آرائه النقدية ، غير أنه كان فيما يبدو يوازن بين النزعة المحافظة لعصره والنزعات المجدّدة المعتدلة عند الجاحظ وأمثاله من المعتزلة . ويتضح ذلك فى مقدمته الطويلة لكتابه « الشعر والشعراء » إذ نراه يعلن أنه لن ينظر إلى المتقدم من الشعراء بعين الجلالة لتقدمه ولا إلى المتأخر بعين الاحتقار لتأخره ، فإن الله لم يقصر البلاغة على زمن دون زمن ولا خصّ بها قوماً دون قوم . وهى نظرة مُنْصفة ، ولكنه يعود فيقول : « ليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين . . . فيقف على منزل عامر أو يبكى عند مشيَّد البنيان لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الداثر والرسم العافى ، أو يرحل على حمار أو بغل ويصفهما لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير ، أو يَرِدَ على المياه العِذاب الجوارى لأن المتقدمين وردوا الأواجن والطوامى ، أو يقطع إلى الممدوح منابت النرجس والآس والورد لأن المتقدمين جروا على ذكر منابت الشِّيح والحَنْوة[1] والعَرَارة » وهى لا شك نظرة محافظة تستمد من الجو السُّنِّى فى العصر الذى حل محل جَوِّ الاعتزال منذ فاتحة عهد المتوكل . وكانت هذه النظرة تلتقى مع النظرة السابقة التى لا تضع فى موازين القيمة الشعرية قدم الشعر وحداثته ، حتى لا يكون محافظاً جامد العقل ، بل هو محافظ أميل إلى روح التجديد والمعاصرة . ومرَّ بنا فى غير هذا الموضع أنه كان أحد خصوم الشعوبية ، بل كان ثانى اثنين خاضا معركة حامية مع أصحاب هذه النزعة ، وعرضنا هناك لمصنَّفه : « كتاب العرب أو الرد على الشعوبية » وكانت له وراء ذلك فى نفس الموضوع كتب مختلفة .

---

(١) الحنوة والعرارة : من أزهار البادية .

وأهم من هذا الموقف له ضد الشعوبية أن نجده يُدخل بقوة الثقافات الأجنبية: اليونانية والفارسية والهندية على الثقافة العربية الإسلامية، ويعمل على تكوين مزيج موحَّد منها جميعًا، بحيث لا يُشْغَلُ أصحاب كل ثقافة بالدعوة والترويج لها، مما أحدث هذا الصراع العنيف بين الشعوبيين والعرب الذى طال عليه الأمد منذ عهد المهدى حتى عصره. وحقًّا حاول ذلك الجاحظ من قبله، ولكن غلبة النزعتين الكلامية والأدبية عليه حالت دون النفوذ إلى نهاية الغاية، وكانت الثقافة اليونانية أكثر شيء يشغله، حتى ليقول: «لا يكون المتكلم جامعًا لأقطار الكلام متمكنًا فى الصناعة، يصلح للرياسة، حتى يكون الذى يحسن من كلام الدين فى وزن الذى يحسن من كلام الفلسفة»[1] وأشار غير مرة إلى أن كتابه «أخذ من طُرَفِ الفلسفة». ولم يكن اليونانيون أصحاب النزعة الشعوبية فى العصر، فقد كان الفرس هم الذين يحملون علَمها ويبذلون قصارى جهدهم فى الدعوة لها مشيرين دائمًا إلى كتب الآداب الفارسية. فكان لا بد كى يُقْضَى على هذه النزعة الحادَّة من أن تلتقى — على يد كاتب عظيم — ثقافتها وكذلك الثقافة اليونانية والهندية بالثقافة العربية الإسلامية، وتدخل جميعها فى مجرى النهر العربى الإسلامى بحيث تتلاشى فيه نهائيًّا، ولا يصبح لها وجود مستقل، فوجودها جزء لا يتجزأ من وجود الثقافة العربية الإسلامية العامة.

وهو ما نهض به ابن قتيبة فى أروع صورة، إذ مضى ينسِّق مختارات ومقتطفات من الآداب الفارسية، مع مقتطفات ومختارات من الآداب العربية الخالصة ومع مقتطفات ومختارات من الثقافتين الهندية واليونانية، وكانت ثمرة ذلك أربعة مجلدات ضخمة ألَّفت كتابه «عيون الأخبار»، وقد وزعه على عشرة كتب، أولها كتاب السلطان، وفيه يتحدث عن سيرته وسياسته وصُحْبته واختياره للعمال والقضاة والحجَّاب والكتَّاب، ويبدؤه بأحاديث نبوية، ثم يذكر بعض وصايا لشخصيات عربية فى الحكم وسياسة السلطان، ولا يلبث أن يقول: وقرأت فى كتاب من كتب الهند: «شر المال ما لا يُنْفَقُ منه، وشرُّ الإخوان الخاذل، وشرُّ السلطان من خافه البرىء، وشرّ البلاد ما ليس فيه خِصْب ولا أمن... وخير سلطان مَنْ أشبه النَّسْر

---

(١) الحيوان ٢ / ١٤٣.

(٢) الحيوان ١ / ١١.

حوله الجِيفُ لا مَنْ أشبه الجيفة حولها النسُورُ » ويذكر أقوالا لابن مسعود وعمر بن الخطاب ، ثم ينقل فصلاً طويلا من كتاب اليتيمة لابن المقفع وما يصوّر من الأدب الأخلاقى فى عهد ملوك الفرس الساسانيين ، ثم يقول : « وقرأت فى التاج (وهو فى سيرة أنوشِروان) لبعض الملوك : هموم الناس صغار وهموم الملوك كبار ، وألباب الملوك مشغولة بكل شىء يَجِلّ ، وألباب السُّوَق مشغولة بأيسر الشىء » . ويعود إلى النقل عن بعض النابهين من العرب ، ثم يقول : « وقرأتُ فى بعض كتب العجم كتابًا لأرْدَشير بن بابك إلى الرعية ، وينقل الكتاب جميعه ، ويعقب عليه بكتاب من أرسطاليس إلى الإسكندر وفيه : « املك الرعيةَ بالإحسان إليها تظفر بالمحبة منها ، فإن طلبك ذلك منها بإحسانك، هو أدوم بقاءً منه باعتسافك ، واعلم أنك إنما تملك الأبدان، فتخطَّها إلى القلوب بالمعروف ، واعلم أن الرعية إذا قدرتْ أن تقول قدرتْ على أن تفعل ، فاجْهَدْ ألا تقول تسلم من أن تفعل » . ويَتْلو ذلك بقوله : « وقرأت فى كتاب الآيين (فى أنظمة الملك والدولة الساسانية) أن بعض ملوك العجم قال فى خطبة له : « إنى إنما أملك الأجساد لا النيات ، وأحكم بالعدل لا بالرضا ، وأفحص عن الأعمال لا عن السرائر » ويذكر أخباراً عن أنوشروان ومعاوية وعبد الملك بن مروان وعمر الفاروق وعن سياسة الحجاج فى رعيته ، ثم يقول : « وقرأت فى كتاب التاج : قال أبرَويز لابنه شيرويه وهو فى حبسه : « لا توسعنّ على جندك فيستغنوا عنك ، ولا تضيِّقنّ عليهم فيضجّوا منك ، أعْطِهم عطاء قَصْدا ، وامنعْهم منعًا جميلا ، ووسِّعْ عليهم فى الرجاء ، ولا توسِّع عليهم فى العطاء » . ويَرْوِى عن عمر بن الخطاب « إن للناس نَفْرَةً عن سلطانهم ، فأعوذ بالله أن تدركنى وإياك عمياء مجهولة وضغائن محمولة ، أقِم الحدود ولو ساعةً من نهار ، وإذا عرض لك أمران : أحدهما لله والآخر للدنيا فآثِرْ نصيبك من الله ، فإن الدنيا تنفد والآخرة تبقى . . . وإياك يا عبد الله أن تكون بمنزلة بهيمة مرّت بواد خِصْب فلم يكن لها همٌّ إلا السِّمن ، وإنما حتفها فى السِّمن » . ثم أخبار عن عبد الله بن الزبير فى الرعية ، ولا يلبث أن يقول : وفى كتاب من كتب العجم أن أرْدَشير قال لابنه : « يا بُنَىَّ إن الملك والدين أخوان لا غنى بأحدهما عن الآخر ، فالدين أسٌّ والملك حارس ، وما لم يكن له أسٌّ فمهدوم ، وما لم يكن له حارس فضائع » ثم يذكر صفات ذميمة لا يصح

أن تكون فى السلطان . ويتحدث عن اختيار العمال ويختم حديثه بقوله : قرأت فى كتاب للهند « السلطان الحازم ربما أحبَّ الرجل فأقصاه واطَّرحه مخافة ضرّه ، فِعْلَ الذى تلسع الحية إصبعه ، فيقطعها لئلا ينتشر سُمّها فى جسده ، وربما أبغض الرجل فأكره نفسه على توليته وتقريبه لغَنَاء يجده عنده كتكاره المرء على الدواء البشع لنفعه» . ويعرض لصحبة السلطان وآدابها وتغير السلطان وتلونه، ويقول : « قرأت فى كتاب للهند : صحبة السلطان على ما فيها من العز والثروة عظيمة الخِطار ، وإنما تُشَبَّه بالجبل الوَعْر فيه الثمار الطيبة والسباع العادية ، فالارتقاءُ إليه شديد ، والمقام فيه أشد . . . ولا خير فى الشيء الذى فى سلامته مال وجاه ، وفى نكبته الجائحةُ والتلف» . وينقل عن بعض العرب ورجالاتهم وعن آداب ابن المقفع وعن بعض النساك والمعتزلة والوعَّاظ وعن بعض كتبه التى كتب بها إلى الحكام والوزراء وعن بعض الكتاب وعن أبْرويز فى بعض ما كتب به إلى ابنه شيرويه وعن بعض رجال الحكم من العرب ، ويستشهد ببعض الأشعار للقطامى وبشار وغيرهما ، ويعرض لخيانات العُمَّال ، وينقل من كتاب التاج : أن أبْرويز قال لصاحب بيت المال : « إنى لا أحتملك على خيانة درهم ، ولا أحمدك على حفظ ألف ألف درهم ، لأنك إنما تحقن بذلك دمك وتَعْمُرُ به أمانتك ، فإنك إن خُنْتَ قليلا خنت كثيراً » . ويُكثر فى فصل القضاء المعقود فى هذا الكتاب من النقل عن العرب وأحكام الإسلام ، ويروى كتاب عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى فى القضاء ، وهو دستور عظيم فى عدالة القضاء ونزاهته . وتتوالى فصول عن الأحكام والشهادات والظلم ، وفيها يُكثر من النقل عن العرب نثراً وشعراً ، ويعود فى الفصول التالية إلى النقل عن كتب الهند والفرس .

والكتاب الثانى كتاب الحرب ، وفيه يتكلم عن آدابها ومكايدها وأوقاتها وحيَلها وعُدَدها وسلاحها ، ويبدؤه بحديث عن الرسول عليه السلام وببعض وصايا أبى بكر وعمر للجيوش وقُوَّادها عند عقد الألوية ، ويذكُر بعض ما قرأ فى كتب العجم والهند ، ومما قرأه فى الأخيرة : « الحازم يحذر عدوه فى كل حال ، يحذر المواثبة إن قرب ، والغارة إن بَعُد ، والكمين إن انكشف ، والاستطراد إن ولَّى ، والمكر إن رآه وحيداً ، ويكره القتال ما وجد بُدًّا ، لأن النفقة فيه من الأنفس ، والنفقة فى

غيره من المال ». ويذكر بعض حِيَل الفرس والعرب في الحرب ، ويتحدث عن آداب الفروسية عند الأمتين ، ويُفيض في الحديث عن الشجعان وإنشاد الشعر الحماسي .

والكتاب الثالث كتاب السؤدد ، ويتكلم فيه عن مخايله وأسبابه ، ويعرض لجوانب كثيرة من الشرف والأخلاق الرفيعة ، ويفتح فيه فصلاً للمزاح والرخصة فيه ، ويدعو إلى التوسط في الدين والحلم والعقل والغنى والإنفاق ، وكأنه يتأثر بنظرية الأوساط المعروفة عند أرسططاليس . ويُفْرد الكتاب الرابع للطبائع والأخلاق المذمومة من مثل الحسد والغيبة والسعاية ، وفيها يقول : وقرأت في كتاب للهند : « قلما يُمْتَنَع القلب من القول إذا تردّد عليه ، فإن الماء ألين من القول ، والحجر أصلب من القلب ، وإذا انحدر عليه وطال ذلك أثّر فيه ، وقد تُقْطَعُ الشجرة بالفئوس فتَنْبُتُ ، ويُقْطَعُ اللحم بالسيوف فيندمل ، واللسان لا يندمل جرحه والنصول تغيب في الجوف فتُنْزَعُ ، والقول إذا وصل إلى القلب لم يُنْزَع ، ولكل حريق مطفئ : للنار الماءُ ، وللسم الدواءُ ، وللحزن الصبر ، وللعشق الفُرْقة ، ونار الحِقْد لا تخبو » . ويذكر أن واشياً وَشَى برجل إلى الإسكندر فقال له : « أتحب أن أقبل منك ما قلتَ فيه على أن أقبل منه ما قال فيك ؟ قال : لا ، قال فكُفَّ عن الشرّ يكفّ عنك الشر » ، وينقل في هذا الكتاب عن كثيرين من العرب شعراً ونثراً ، ويستطرد إلى الحيوانات وطبائعها متأثراً بالجاحظ ، ويعرض للحشرات وينقل فيها عن أطباء العصر ، كما يعرض للنبات . ويعقد الكتاب الخامس للعلم والبيان ، ويستهله بحديث عن الرسول ويقول : في كتاب للهند : العالم إذا اغترب فمعه من علمه كاف كالأسد معه قوته التي يعيش بها حيث توجّه ، ويذكر عن بُزُرْ جِمْهر أنه قيل له : بِمَ أدركتَ ما أدركتَ من العلم ؟ فقال ببكور كبكور الغراب ، وحرص كحرص الخنزير ، وصبر كصبر الحمار » ويذكر عن أفلاطون أنه قال : « لولا أن في قول لا أعلم سبباً لأني أعلم لقلت إني أعلم » . ويَرْوي بعض كلمات للمسيح عليه السلام ، ويفتح فصولا للقرآن الكريم والحديث الشريف والفِرَق والأهواء في الدين ، ويعرض لبعض صور الكلام والشعر ، كما يعرض طائفة كبيرة من الخطب منذ الرسول عليه السلام إلى المأمون .

والكتاب السادس كتاب الزهد ، وفيه تبرز بجانب مواعظ كبار النسَّاك والوعَّاظ والزهاد المسلمين ثقافة ابن قتيبة الدينية لا الإسلامية وحدها ، بل أيضًا ثقافته بالكتب السماوية وكيف أنه عكف عليها وعلى كل ما يتصل بها يقرأ وينقل ، تارة مما كتبه أمثال وهب بن منبه عما أوحى الله عزَّ وجلَّ إلى أنبيائه . وينقل من التوراة ومن الإنجيل ، من ذلك قوله : « قرأت فى الإنجيل : لا تجعلوا كنوزكم فى الأرض حيث يُفْسِدُها السوسُ والدود وحيث يَنْقُب السرَّاق ولكن اجعلوا كنوزكم فى السماء ، فإنه حيث تكون كنوزكم تكون قلوبكم » ويذكر أن رجلا من الحواريين قال للمسيح : أتأذن لى أن أدفن أبى ؟ فقال له : دع الموتى يدفنون موتاهم . ويذكر له دعاء طويلا حين أخذه اليهود ليصلبوه بزعمهم فرفعه الله إليه ، كما يذكر دعاءً لداود وتحميداً طويلا ودعاء ليوسف ؛ ويَرْوِى عن المسيح أنه قال : حبُّ الدنيا أصلُ كلِّ خطيئة ، والمال فيها داء ؛ قيل : ما داؤه ؟ قال : لا يسلم صاحبه من الفخر والكبر ، قيل وإن سلم ؟ قال : يشغله إصلاحه عن ذكر الله . وبذلك يكون ابن قتيبة قد أضاف إلى الثقافة الإسلامية ثقافة عامة بالكتب السماوية وأقوال أنبيائها المرسلين . والصلة بين هذا الكتاب وكتاب الزهد فى البيان والتبيين للجاحظ واضحة .

والكتاب السابع كتاب الإخوان ، وفيه يتحدث عن اختيارهم وما ينبغى أن يكون بينهم من الوشائج والصلات والاشتراك فى السَّرَّاء والضَّرَّاء . ، وتلقانا من حين إلى حين نقول عن بعض كتب الهند أو بعض ملوك العجم ، كما تلقانا أحاديث نبوية وأشعار وأخبار ونصائح ووصايا على ألسنة كثيرين من رجال العرب النابهين . والكتاب الثامن كتاب الحوائج واستنجاحها والمواعيد وتنجّزها ، ويظل فيه ينقل عن كتب العجم مثل قول بُزُرْجِمْهر : « إذا أقبلتْ عليك الدنيا فأنفق ، فإنها لا تَفْنَى ، وإذا أدبرتْ عنك فأنفق فإنها لا تبقى » . والكتاب التاسع كتاب الطعام وفيه يعرض صنوفه وأخبار العرب فى مآكلهم وآداب الطعام والضيافة وأخبار البخلاء وأوانى الأكل والحِمْية وشرب الدواء والتُّخَمَة والمياه والأشربة ومنافع بعض النباتات والبقول. وتلقانا نفس الثقافات العربية والفارسية واليونانية ، ويصرّح بأنه ينقل فى هذا الكتاب عن الجاحظ وأثر كتابه البخلاء واضح فيه ، ويذكر فى الحِمْية عن الطبيب اليونانى جالينوس أنه قيل له : إنك تُقِلُّ من الطعام ؟ قال : غرضى من

الطعام أن آكل لأحيَا وغرض غيرى من الطعام أن يَحيَا ليأكل. وبالمثل ينقل عن أبقراط اليونانى نقولا ، كما ينقل عن أطباء العصر العباسى مثل ابن ماسويه وعن كتاب الآيين الأعجمى . والكتاب العاشر كتاب النساء ،وفيه يتكلم عن أخلاقهن وما يُقْبَلُ منهن وما يُكْرَهُ والجمال والقبح والمهور والزواج وسياسة معاشرتهن والجوارى والقيان ومساوئ النساء، ويحكى هنا قصة حصار أرْدشير لمدينة الحَضْر الأسطورية التى يقال إنها كانت قائمة فى الزمن القديم بين دجلة والفرات ، وكيف أن فتاة ملك الحضر رأته فعشقته ، وسرعان ما أرسلت إليه أن تدله على موضع يفتتح منه المدينة إن هو وعدها الاقتران بها ، ووعدها ، فدلته على الموضع ، ودخل المدينة هو وجنوده .

ولعل فيما قدمنا ما يصور بوضوح كيف مزج ابن قتيبة بين الثقافات العربية والإسلامية والفارسية والهندية واليونانية ، وكذلك ثقافة أهل الكتاب ، فكل الثقافات الأجنبية والعربية من مدنية ودينية استحالت عنده إلى هذه الصورة الجديدة التى نقرؤها فى عيون الأخبار . وبلغت هذه الصورة من النجاح أنه خَفَتَ صوت الشعوبية ، فإن الكنوز التى كانت تباهى بها تحولتْ إلى عالم العروبة على يد ابن قتيبة وأصبحت من لُبُّه ، بحيث لم يعد هناك مجال للفخر بها ، إذ لم تعد مستقلة ولم تعد تشقُّ لنفسها جداول تجرى فيها وحدها ، فقد صَبَّتْ فى نهر العروبة الكبير وذابت فيه ، أذابها ابن قتيبة ببصيرته النافذة وقلمه الباهر ، وأكبر الدلالة على ذلك لاتضاؤل صوت الشعوبية تضاؤلا شديداً مع السنين فقط ، بل أيضاً أنا لانعود نسمع عن ترجمات لكتابات الفرس الأدبية والتاريخية ، فقد أصبحت غير ذات موضوع بعد أن تداولت الأيدى كتاب عيون الأخبار ، وبعد أن أصبح المصدر الأساسى لكل من يريد التعرف على الآداب الفارسية وما يمكن أن يفيده الأدب العربى منها ومن الثقافتين الهندية واليونانية وثقافة أهل الكتب السماوية . فكل ذلك قد أصبح تحت أيدى العرب وأبصارهم ، ولم يعودوا فى حاجة إلى مزيد منه ، ولذلك لم يهتموا فيما بعد بما دوَّن الفردوسى فى الشاهنامة من شعر قصصى ولا بما كتب حافظ الشيرازى وغيره من شعر صوفى . وكان من آثار ذلك أن أعداء العرب لم يعودوا يوصفون بوصف الشعوبية والزندقة معاً ، فقد أصبحوا غالباً يوصفون بالزندقة والإلحاد

فحسب ، وشاع ذلك على ألسن العرب وعلمائهم منذ أواخر القرن الثالث الهجرى ، مصوّرين بذلك بواعثهم وحقائقهم النفسية .

ولا نغلو إذا قلنا إن من أهم الأسباب فى أن كتاب عيون الأخبار أخذ هذه المكانة الممتازة أسلوبَ ابن قتيبة فيه ، فإن كل هذه المواد الثقافية التى نسّقها سبكها فى أسلوب أدبى رائع ، أسلوب يمتاز بوضوحه واصطفاء ألفاظه والمزاوجة بينها على طريقة الجاحظ أحيانًا ، وأحيانًا يسترسل دون محاولة الازدواج ، ولكن مع العناية باختيار الكلمات والملاءمة بينها بحيث لا تجد فيها أى نشاز ولا أى اضطراب أو انحراف ، فقد كانت اللغة مرنة فى يده ، وكان لا يتأبّى عليه أى لفظ ، ولا تستعصى عليه أى كلمة . وبهذا الأسلوب المتناسق وما يجرى فيه من استواء صنّف كتابه عيون الأخبار جميعه ، بحيث غدا كأنه مصبوب فى قوالب متماثلة ، قوالب تستريح لها الأذن ، وتجد فيها القلوب والعقول متاعًا لا ينفد ، واقرأ سطوره الأولى فى المقدمة ، فإنها تطرد على هذا المنوال :

« الحمد لله الذى يُعجز بلاؤه صفةَ الواصفين ، وتفوت آلاؤه عددَ العادّين ، وتسع رحمته ذنوبَ المسرفين ، والحمد لله الذى لا تُحجب عنه دعوة ، ولا تخيب لديه طِلْبة ، ولا يضل عنده سَعْى ، الذى رضى عن عظيم النعم بقليل الشكر ، وغفر بعَقْد الندم كبير الذنوب ، ومحا بتوبة الساعة خطايا السنين . والحمد لله الذى ابتعث فينا البشير النذير ، السراج المنير ، هاديًا إلى رضاه وداعيًا إلى محبّته ، ودالاًّ على سبيل جنّته ، ففتح لنا باب رحمته ، وأغلق عنا باب سخطه ... أما بعد فإن لله فى كل نعمة أنْعَمَ بها حقًّا ، وعلى كل بلاء أبلاه زكاة ، فزكاة المال الصدقة ، وزكاة الشرف التواضع ، وزكاة الجاه بَذْله ، وزكاة العلم نَشْرُه ، وخير العلوم أنفعها ، وأنفعها أحمدها مَغَبّةً ، وأحمدها مَغَبّةً ما تُعلِّم وعُلِّم لله وأريد به وجه الله تعالى » .

وهذه القطعة فى مستهلّ الكتاب تصور ضربًا من العناية بالألفاظ فيه يشبه عناية الجاحظ ، فالجاحظ يعمد إلى الازدواج أو العبارات المتقابلة ، وقد يجرى السجع على لسانه فى غير تكلف بالضبط كما نرى الآن عند ابن قتيبة . والعبارات الأخيرة التى ردّد فيها ابن قتيبة كلمة الزكاة ، وتعقّبَ فيها الكلمة الأخيرة وردّدها

كما فى كلمة « أنفعها » و « أحمدها » هذا الأسلوب بعينه نجده عند الجاحظ ، وكأن ابن قتيبة تمثّل أسلوبه بجميع خصائصه ونمضى معه فى المقدمة ، فنراه يقول :

« وهذه عيون الأخبار نظمتها لمغْفِل التأدُّب تبصرةً ، ولأهل العلم تذكرةً ، ولسائس الناس ومَسوسهم مؤدّباً ، وللملوك مُستَراحاً ، وصنّفتها أبواباً ، وقرنت الباب بشكله ، والخبر بمثله ، والكلمة بأختها ، ليسهل على المتعلم علمها ، وعلى الدارس حفظُها ، وعلى الناشد طَلَبُها ، وهى لِقاح عقول العلماء ، ونِتاج أفكار الحكماء ، وزُبْدة المَخْض ، وحِلْيَةُ الأدب ، وثمار طول النظر ، والمتخيَّر من كلام البلغاء ، وفِطن الشعراء ، وسِيَرُ الملوك ، وآثار السلف » .

ولو أننا لم نعرف أن ابن قتيبة هو الذى كتب هذا الكلام ، وسُئلنا عن صاحبه لأجبنا تواً الجاحظ ، إذ نشعر كأنما فَصَلَ من أسلوبه بخواصه من الموازنات والمعادلات بين العبارات ، بحيث تتقابل الكلمات فى صفوف ، وكل كلمة كأنما تمسك بمثيلتها فى العبارة التالية ، وكل عبارة كأنما تصافح أختها السابقة ، فهى على وتيرتها ومن نفس جنسها ونوعها ، وكان هذا يُحْدث تماسكاً شديداً فى أسلوب الجاحظ ، لولا ما يداخله أحياناً من استطراد . أما عند ابن قتيبة فلا استطراد ولا خروج من دائرة الفكرة التى يعالجها ، وكتابته من هذه الناحية مرتَّبة مبوَّبة فى أدقّ نَسَق . ويكفى أن ننظر فى فهرس عيون الأخبار فسنرى الكتاب من كتبه العشرة يُفْتَتَحُ ، ولكل كتاب فصوله المترابطة معه ، وكأنها حلقات فى سلسلة متتابعة وليس فى داخلها ما يوهن العلاقات المنطقية بين الكلام ، بل الكأنما الكتاب خيط ممتدٌّ أحكمت فصوله ونُسِّقت مواده تنسيقاً دقيقاً . وابن قتيبة يخطو بالتأليف الأدبى من هذه الناحية بعد الجاحظ خطوات واسعة ، إذ لا يسمح لأى فصل داخلى فى كتاب فضلاً عن الكتاب نفسه بأى استطراد يُخلْخل الكلام أو يُفْقده سياقه . ولكن إذا كان قد تفوّق على الجاحظ من حيث نَسَق التأليف فإن الجاحظ يتفوق عليه فى وَصْله الأدب بمجتمعه ، على نحو ما صوّرنا من صنيعه فى هذا الجانب . وحقاً نجد عند ابن قتيبة أشعاراً معاصرة له ، ولكنه لم يَحْك أخبار الخلفاء والوزراء الذين عاصرهم على نحو ما حكى الجاحظ ، ولا حكى أخبار

طبقات المجتمع وخاصة الطبقة العامة . وهو لذلك لا يُعَدُّ كاتباً واقعياً على نحو ما يُعَدُّ الجاحظ ، وإن كان قد حاول أحياناً أن يقتفى أثره . ومرَّ بنا أنه بلغ من واقعية الجاحظ أنه لم يكن يجد أى حرج فى أى شىء يخجل منه المتزمتون ، حتى العَوْرات كان لا يرى فى ذكرها أى بأس ما دام الكلام يستلزم ذكرها ، ويتابعه ابن قتيبة فى تقديمه لعيون الأخبار قائلا : « إنما مثلُ هذا الكتاب مثل المائدة تختلف فيها مَذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الآكلين ، وإذا مرَّ بك حديثٌ فيه إفصاح بذكر عَوْرة أو وصف فاحشة فلا يحملنَّك الخشوع أو التخاشع على أن تصعِّر خدَّك ، وتُعْرِض بوجهك ، فإن أسماء الأعضاء لا تُؤْثِم ، وإنما المَأْثَمُ فى شَتْم الأعراض وقول الزور والكذب وأكْل لحوم الناس بالغَيْب » . ومع ذلك فإنه لم يبلغ مبلغ الجاحظ فى صراحته ، إذ كان فى حقيقته محافظاً متزمتاً لا يستطيع أن يترك لنفسه — مثل الجاحظ — العنان فى الصراحة دون أى مواربة .

ومرَّ بنا أن الجاحظ كان يجعل خلط الجد بالهزل خاصة قوية من خصائص كتابته ، ومع أن ابن قتيبة كان من أهل السنَّة المحافظين الذين يأخذون أنفسهم بالجد والوقار نراه فى مقدمته لعيون الأخبار يعلن أنه سيأخذ بهذا المنهج فى كتابته ، يقول :

« ولم أُخْله من نادرة طريفة ، وفطنة لطيفة ، وكلمة معجبة ، وأخرى مضحكة . . لأروِّح بذلك عن القارئ من كَدِّ الجِدِّ وإتعاب الحق ، فإن الأذن مَجَّاجَةٌ ، وللنفس حَمْضة ، والمَزْح إذا كان حقًّا أو مقاربًا ، ولأحايينه وأوقاته ، وأسباب أوجبته مُشاكلا ، ليس من القبيح ولا من المنكر ولا من الكبائر ولا من الصغائر إن شاء الله . وسينتهى بك كتابنا هذا إلى باب المزاح والفكاهة وما رُوِىَ عن الأشراف والأئمة فيهما ، فإذا مرَّ بك أيها المتزمت حديث تستخفه أو تستحسنه أو تعجب منه أو تضحك له فاعرف المذهب فيه وما أردنا به » .

وإذا انتهينا — كما يقول ابن قتيبة — إلى باب المزاح والفكاهة وهو من أبواب كتاب السؤدد لاحظنا توًّا أن فكاهاته ونوادره من طراز آخر غير طراز الجاحظ ، فمنها كثير لا يثير ابتساماً ، وما يثير الابتسام قليل جدًّا ، ويكفى أن يقول إنها مما رُوِىَ عن الأشراف والأئمة لنعرف مقدَّماً أنها نوادر وفكاهات يمسح عليها الوقار وأنه يَنْدُر أن ترتسم معها ابتسامة على الشفاه . ونسوق منها هذه النوادر عن الشَّعْبِىِّ (من علماء الكوفة) لتَعْرِفَ طوابعها ومدى ما فيها من المزاح :

« دخل رجل على الشعبي ومعه فى البيت امرأة ، فقال لهما : أيكما الشعبي ، فأجابه الشعبي : هذه . وسأل سائل الشعبي عن لحم الشيطان هل يجوز أكله ؟ فأجابه : نحن نرضى منه بالكفاف . ودخل على الأعمش زميله يعوده فى مرض ، ونظر من حواله إلى المنزل وما فيه من أثاث بسيط ، ثم قال له : أما أنت فتُعْرَف فى منزلك أنك لست من أهل القَرْيتين (مكة والطائف) عظيما » .

وأين هذه النوادر ، من نادرة المعلم الأحمق التى رويناها آنفًا ، والتى مثّل فيها الجاحظ حُمْقه تمثيلا هزليًّا مضحكًا ؟ . ولا ريب فى أن هذا يرجع إلى اختلاف مزاج الشخصيتين ، فالجاحظ أديب فكه بطبعه متحرر من كل قيد ، يُضْحك وتستغرق فى الضحك ولا تستطيع أن تعود منه وتستردّ نفسك إلا بعد ضحك عريض ، وابن قتيبة أديب وقور تغلب عليه المحافظة وإن حاول التحرر ، ويغلب عليه استشعار الجد ، وكأنه إذا هَزَلَ أو تندَّر خرج عن طبعه ، أو قل كأنه إنما كان يريد أن يتشبه بالجاحظ . ومن بقية هذا التشبُّه عنده فى باب النوادر والمزاح أن نراه يزعم فى تقديمه لكتاب العيون أنه سيحكي النوادر العامية بلفظها وبما فيها من لحن ، ومرَّ بنا كلام الجاحظ فى هذا الموضوع وأنه ينبغي أن تظل النادرة العامية بصيغتها ولحْنها وإلا ضاع ما فيها من فكاهة إذا انقلبت ألفاظها من العامية إلى الفصحى وتبدّلت صورتها الفكهة ، ويقول ابن قتيبة محتجًّا لذلك : « اللَّحْنُ إن مَرَّ بك فى حديث من النوادر فلا يذهبنَّ عليك أنا تعمدناه وأردنا منك أن تتعمده ، لأن الإعراب ربما سلَب بعض الحديث حسنه ، وشاطر النادرة حلاوتها ، وسأمثل لك مثالا ، قيل لمُزَبِّد المديني (المضحك) — وقد أكل طعامًا كظَّه (أتخمه) — قِ (قيءْ) فقال : ما أقى ، أقى نَقَا (مخًّا) ولحم جَدْى ! مَرَتى طالق لو وجدت هذا قيًّا لأكلته . ألا ترى أن هذه الألفاظ لو وفيت بالإعراب والهمز حقوقها لذهبت طلاوتها ، ولاستبشعها سامعها » . والنادرة نفسها التى تمثَّل بها ابن قتيبة ثقيلة وتدل — هى وما سبقها بوضوح — على أنه من مزاج آخر غير مزاج الجاحظ .

والجاحظ فى الواقع قمة بعيدة المنال فى الأدب العربى كله ، ومن الظلم لابن قتيبة أن نزنه به ونقيسه إليه ، فقد كان فريداً فى عصره والعصور السابقة جميعها ، ويكفى ابن قتيبة مجداً أديبا أسلوبه الواضح الناصع الذى وصفناه وأنه أخرس إلى الأبد

أصحاب الشعوبية بما سوّى للعربية فى عيون الأخبار من هذا الأدب العربى الرفيع الذى وَسِعَ مختلف الثقافات ومزج بينها بحيث أصبح له طوابع جديدة مميزة .

٤

سعيد بن حميد [(١)]

أبوه حُمَيْد بن سعيد فارسى الأصل ، كان من أهل النباهة فى بغداد ووَجْهًا من وجوه المعتزلة وكان يُحْسن نظم الشعر ، ولا نعرف متى وُلد له سعيد ، ويبدو أنه عُنى به عناية شديدة منذ نعومة أظفاره ، فألحقه بكُتَّاب حفظ فيه شيئًا من القرآن والفقه والحديث والنحو واللغة والأشعار والحساب ، حتى إذا خطا خطوات فى العقد الثانى من عمره دفعه إلى حلقات الدرس فى المساجد، ويُرْوى أنه عُنى خاصة بأن يلحقه بحلقة ابن الأعرابى المتوفَّى سنة ٢٣١ وأنه سمع منه أرجوزة فى نحو عشرين بيتًا وحفظها بمجرد سماعها ، مما يدل على ذكائه وقوة ذاكرته . ولم يكتف سعيد بحلقة هذا العالم اللغوى الكبير ، فقد مضى يختلف إلى حلقات العلماء من كل صنف ، مُكِبًّا عليها ناهلا منها متمثلا لما يقدَّم فيها من غذاء أدبى وفكرى ، مما جعل المسعودى يقول عنه : «كان سعيد حافظًا لما يُسْتَحسن من الأخبار ويستجاد من الأشعار متصرفًا فى فنون العلم ، مُمْتِعًا إذا حدَّث ، مُفِيداً إذا جولس» . ولعل ذلك ما جعل فضلا الشاعرة تُعْجَبُ به ، وتعقد بينها وبينه مودة ظلت فترة طويلة ، وظلا يتبادلان فيها الرسائل الشعرية ، على نحو ما مرَّ بنا فى حديثنا عن فضل . وكان قد ملأه الطموح بالنجاح فى سامراء عاصمة الخلافة فتحول من بغداد إليها . ولا ريب فى أن حلاوة محضره وعذوبة أحاديثه جعلتا كثيرين من أدباء عصره تشرئب أعناقهم إلى صحبته ، وكانت فيه دُعابة تجعل مجلسه خفيف الروح ، مما جعل أبا على البصير وأبا العَيْناء نديمى المتوكل يألفانه ويختلفان إلى مجالسه ، وتدور بينهما وبينه مداعبات ومعاتبات ومكاتبات ، كما قال الرواة . ويبدو

---

(١) انظر فى ترجمة سعيد ورسائله الفهرست ص ١٨٥ والأغانى (طبعة الساسى) ١٧ / ٢ ومروج الذهب ٤ / ٦١ وابن خلكان وكتاب رسائل سعيد بن حميد وأشعاره ليونس أحمد السامرائى (طبع بغداد) وجمهرة رسائل العرب لأحمد زكى صفوت .

أنه كان ينتظم بين كُتَّاب الدواوين لعهد المتوكل ، إن لم يكن قد انتظم فيها قبل ذلك ، وإنما يدفعنا إلى هذا الرأى ما اشتهر به من تعصبه على آل على بن أبى طالب تعصبًا شديداً حتى ليقول ابن المعتز : « كان سعيد من أشد الناس نَصْبًا (عداء) لعلى وانحرافًا عن آل الرسول عليه السلام »[1] ويقول المسعودى : «كان يتنصَّب ويظهر التسنن والانحراف عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه وعن الطاهرين من ولده » . ومَرَّ بنا فى غير هذا الموضع موقف المتوكل من العلويين وأمره بهدم قبر الحسين فى كربلاء وانحرافه عن على وآله ، وكأن سعيداً اعتنق أفكاره إما حقيقة وإما رياء للخليفة الموظف بدواوينه . على كل حال نظن فى هذا الانحراف عند المتوكل وسعيد معًا أنه كان يعمل فى ظله ، وأنه استحال بوقًا من أبواقه . ويقول صاحب الفهرست إن له كتاب انتصاف العجم من العرب ويُعْرَفُ بالتَّسْوِيَةِ ، والكتاب لم يصلنا ، ولا ندرى هل كان ينحرف عن العرب بدورهم انحرافًا شديداً أو انحرافًا خفيفًا ، على أن فى كلمة ابن النديم أن الكتاب يُعْرَفُ بالتسوية ما قد يشير إلى أنه لم يكن شديد العصبية فيه على العرب وأنه إنما كان يطالب بالتسوية بينهم وبين الأعاجم ، والتسوية كما مرَّ بنا فى هذا الكتاب وكتاب العصر العباسى الأول لا تدخل فى العصبية المنحرفة لدى بعض الأعاجم والمعروفة باسم الشعوبية . وفى أشعاره ما يدل على أنه كان معتزليًّا مثل أبيه على نحو ما نرى فى قوله[2] :

قد قلتُ بالعدل ولكننى عدلتُ فى الحبِّ عن العَدْلِ
فقلتُ بالإجبار مستغفرًا لله من قولى ومن فعـلى

فهو يؤمن بنظرية العدل على الله المعروفة عند المعتزلة ، والتى تتيح للإنسان حرية الإرادة والاستطاعة ، حتى يكون ثوابه وعقابه جزاء لما قدمت يداه ، بينما يذهب أصحاب الجبر إلى أن كل شىء بقضاء وقدَر وأنه لا مفر من الاستسلام للمقادير .

ولعل فى ذلك كله ما يصور شخصية سعيد وأنه كان مثقفًا ثقافة واسعة ، ثقافة بالعربية وبمواد المعرفة الأجنبية ، وهيَّأ له ذلك أن يصبح من كتَّاب الدواوين

---

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤٢٦ .

(٢) كتاب رسائل سعيد بن حميد وأشعاره ص ١٤١ .

مبكراً . وما يزال يرقى فيها وأعين رؤسائها ترمُقه وتلاحظه ، إذ كان شاعراً بارعًا وكاتبًا نابغًا .

وكانت أولُ حادثة لمع فيها اسمه البيعةَ للمنتصر بعد مقتل أبيه المتوكل سنة ٢٤٧ ، فقد ذكر أن أحمد بن الخصيب وزير المنتصر قال له : ويلك يا سعيد ! أمعلك كلمتان أو ثلاث تأخذ بها البيعة ؟ قلت : نعم وكلمات ، وعملتُ كتابَ البَيْعة . وهو كتاب طويل استهلّه بقوله(١) :

« بسم الله الرحمن الرحيم . تبايعون عبد الله المنتصر بالله أمير المؤمنين بيعة طَوْع واعتقاد ورضًا ، ورغبة بإخلاص من سرائركم ، وانشراح من صدوركم ، وصدق من نيّاتكم لامُكْرَهين ولا مُجْبَرين ، بل مقرّين عالمين بما فى هذه البيعة وتأكيدها من طاعة الله وتقواه ، وإعزاز دين الله وحقه ، ومن عموم صلاح عباد الله واجتماع الكلمة ، ولَمّ الشّعَث ، وسكون الدّهماء ، وأَمْن العواقب ، وعزّ الأولياء ، وقَمْع الملحدين . . . لا تشكّون ولا تُدْهنون (تمالئون) ولا تميلون ، ولا ترتابون ، وعلى السمع له ، والطاعة والمسالمة ، والنصْرة والوفاء والاستقامة والنصيحة فى السر والعلانية ، والخُفوف والوقوف عند كل ما يأمر به » .

وأكبر الظن أن صوت سعيد اتضح فى هذه السطور القليلة ، فهو يُعْنَى أشد العناية باختيار لفظه ، وهو لا يطيل عباراته ، بل يجعلها قصيرة ، حتّى لتصبح كلمة مثل : « طوع واعتقاد ورضًا » ، ومثل « اجتماع الكلمة ، ولَمّ الشعث ، وسكون الدهماء ، وأمن العواقب ، وعز الأولياء ، وقمع الملحدين » فالكلمات تتعاقب ، جزلة حقا ، ولكنها خفيفة على الأفواه والشفاه ، إذ لا تلبث أن تحملها حتّى ترسلها . ويظل كاتبًا لأحمد بن الخصيب طوال خلافة المنتصر ، حتّى إذا ولى الخلافة بعده المستعينُ لسنة ٢٤٨ عزل ابنَ الخصيب من الوزارة ، واستوزر مكانه أبا صالح عبد الله بن محمد بن يزداد وسرعان ما عزله واستوزر محمد بن الفضل الجرجرائى ، فجعل رياسة ديوان الرسائل لسعيد بن حميد(٢) ، وبذلك أصبح الكاتبَ الأول فى الدولة الذى تَصْدر عنه جميع رسائلها الديوانية ، ومما كتبه حينئذ رسالةٌ خطيرة عن محمد بن عبد الله بن طاهر إلى أهل بغداد ، وكان المستعين قد

---

(١) انظر الطبرى ٩ / ٢٣٥ وما بعدها .
(٢) طبرى ٩ / ٢٦٤ .

نزلها سنة ٢٥١ بُعْداً عن سامرّاء مدينة الترك وبَغْيهم ، فبايعوا المعتز ،ونازلوا ابن طاهر ببغداد فهزمهم ، حينئذ نراه يأمر سعيد بن حميد بكتابة رسالة تذكر الوقعة حتى تُقرَأ على أهل بغداد فى مسجد جامعها ، وهى رسالة طويلة طولا شديداً نقتطف منها بعض الفقر التالية :

« ساروا نحو مدينة السلام (بغداد) معلنين للبَغْى والاقتدار ، مظهرين للغىّ والإصرار ، فتأنَّاهم أمير المؤمنين (المستعين) وفسح لهم فى النَّظِرة ، وأمر بالكتاب إليهم بما فيه تبصيرهم الرشد . . . وأن يبيّن لهم ما سلف من بلائه عندهم من أسْنَى المواهب ، وأرفع الرَّغائب ، والاختصاص بِسنِىّ المراتب ، والتقدم فى المحافل ، فأبوا إلا تمادياً ونفاراً ، وتمسكاً بالغىّ وإصراراً . . . وقابلوا الموعظة بالإصرار على الذنب ، وعارضوا التبصير بالاستبصار فى الباطل . . . وصَدَقَتهُم أولياء الله (جنود المستعين وابن طاهر) فى لقائهم بقلوب مستجمعة لهم ، وعلم بأن الله لا يُخْلف وعده فيهم ، فجالت الخيل بهم جولةً ، وعاودتْ كرَّةً بعد كرَّة ، طعناً بالرماح ، وضرباً بالسيوف ، ورَشْقاً بالسهام ، فلما مسَّهم ألم جراحها وكَلَمَتْهم (جرحتهم) الحرب بأنيابها ، ودارتْ عليهم رَحاها ، وصمد لهم أبناؤها ظَمَأً إلى دمائهم ، ولَّوا أدبارهم ، ومنح الله أكتافهم ، وأوقع بأسَه بهم ، فقُتلت منهم جماعة لم يحترسوا من عذاب الله بتوبة ، ولم يتحصّنوا من عقابه بإنابة . . . فمن قتيل غُودرتْ جثته بمصرعه ، ونُقلت هامته إلى مصير فيه معتبَرٌ لغيره ، ومن لاجىء من السيف إلى الغَرَق لم يجره الله من حذاره ، ومن أسير مصفود (موثق بالأغلال) يقاد إلى دار أولياء الله وحزبه ، ومن هارب بِحُشاشة نفسه . . . فِرَقاً أربعاً تجمعها النار ، ويشملها عاجل النكال عِظةً ومعتبراً لأولى الأبصار » .

وواضحٌ تقطيع العبارات وتقابل الكلم فى الرسالة ، وكأننا بإزاء حائك ، يقيس ثياباً متماثلة مقدَّرة على معانيها . وقد يتكامل التقطيع ، فيظهر السجع ، ولكنه ليس سجعاً متكلَّفاً ، فليس مردّه إلى محاولة صَنْعة ، وإنما مرده إلى دقة التقطيع ، حتى لتأخذ العبارات شكل سجعات متوالية . وما نزال نتنقل بين تقاطيع طريفة ، حتى نصل مع سعيد إلى تقسيم الجيش الذى دارت عليه الدوائر أقساماً أربعة :

فهم بين قتيل وغريق وأسير وفار على وجهه لا يلوى .

ولسعيد تحميدات طريفة كان يضعها بين يدى رسائله الديوانية ، فمن ذلك تحميد كتب به فى فتح نهض به القائد التركى وصيف ، يستهله بقوله [1] :

« أما بعد فالحمد لله الحميد المجيد ، الفعَّال لما يريد ، الذى خلق الخلق بقدرته وأمضاه على مشيئته ، ودبَّره بعلمه وأظهر فيه آثار حكمته ، التى تدعو العقول إلى معرفته ، وتشهد لذوى الألباب بربوبيته ، وتدلّ على وحدانيته ، لم يكن له شريك فى ملكه فينازعه ، ولا مُعين على ما خلق فتلزمه الحاجة إليه ، فليس يتصرّف عباده فى حال إلا كانت دليلا عليه ، ولا تقع الأبصار على شىء إلا كان شاهداً له بما رسم فيه من آثار صُنْعه ، وأبان فيه من دلائل تدبيره ، إعذاراً بحجَّته ، وتطولا بنعمته ، وهداية إلى حقِّه ، وإرشاداً إلى سبيل طاعته . . . والحمد لله العزيز القهَّار ، الملك الجبَّار ، الذى اصطفى الإسلام واختاره ، وارتضاه وطهَّره ، وأعلاه وأظهره ، فجعله حُجَّة أهله على مَنْ شاقَّهم (خالفهم) ووسيلتهم إلى النصر على مَنْ عَنَدَ (مال) فى حقهم ، وابتغى غير سبيلهم » .

والسجع كثير فى هذا التحميد ، وهو دليل على أنه ظهر ثمرة لكثرة التقاطيع فى العبارات ، وإحساس الكتاب بأنه لا بأس من استكمال هذه التقاطيع ، ولكن لا على أساس الجور على المعانى ، وإنما على أساس الوفاء بها . وسعيد يستوفى فى أول تحميده صفات الله جلّ شأنه من خلق وتقدير وعلم وحكمة فى تدبير الكون ، مما يشهد بوحدانيته . ونحس أثر قراءته لمباحث المتكلمين حين يلمّ بالوحدانية إذ يقول : لو كان هناك إلهان أو آلهة لتنازعت فيما بينها على السلطان ، وأيضاً فإن هذا يؤول إلى أن يكون هناك آلهة تُعينه فى الخَلق وتساعده ، ولو صحّ ذلك لأصبح الله محتاجاً إليها وانتفت عنه ألوهيته ، إذ يمسه الضعف والعجز من بعض الوجوه ، ويعرض حجة على ربوبيته التأمل فى خلق الإنسان وفى نظام الكون مما يهدى إلى طريق الرَّشاد .

ولسعيد بجانب الرسائل الديوانية التى كان يكتبها فى أثناء عمله بالدواوين رسائل إخوانية كثيرة ، منها تهنئات بعيد النَّيْروز وشوق وعزاء واعتذار ودعوة إلى

(١) جمهرة رسائل العرب ٤ / ٢٩٥ .

مجالس الأنس وشكر وهجاء واستمناح لبعض الأشخاص وتوصيات ، ونعم طائفة منها بادئين بتهنئاته فى عيد النيروز ، فمن ذلك رسالة إلى أبى صالح يزداد وزير المستعين[1] :

« النفسُ لك ، والمالُ منك ، والرجاءُ موقوفٌ عليك ، والأمرُ مصروفٌ إليك ، فما عسانا أن نُهْدى لك فى هذا اليوم ، وهو يوم سَهَّلت فيه العادة ، سبيل الهدايا للسادة ، وكرهتُ أن نخليه من سُنَّته فنكون من المقصّرين ، أو نَدَّعى أن فى وسعنا ما يَفِى بحقك علينا فنكون من الكاذبين ، فاقتصرنا على هدية تقضى بعض الحق ، وتقوم عندك مقام أجمل البرّ ، وهى الثناء الجميل ، والدعاء الحسن ، لا زلتَ أيها الأمير دائم السرور والغبطة فى أتم أحوال العافية ، وأعلى منازل الكرامة ، تمر بك الأعياد الصالحة ، والأيام المفرحة ، فتُخْلِقها وأنت جديد ، وتستقبل أمثالها ، فتلقاك ببهائها وجمالها . وقد بعثت الرسول بالسكّر لطيبه وحلاوته ، والسَّفرجل لفأله وبركته ، والدرهم لبقائه عند كل من ملكه ، ولا زلت حُلْوَ المذاق على أوليائك ، مُرًّا على أعدائك ، متقدِّمًا عند خلفاء الله الذين تليق بهم خدمتك وتحسن أفنيتهم (ساحاتهم) بمثلك » .

والرسالة تحمل أسلوبَ سعيد وما يميزه من التقطيعات المتوالية والمعانى المتقابلة ، فالنفس يقابلها المال ، والرجاء يقابله الأمر . ويسقط السجع سقوطًا طبيعيًّا ، كأنه ثمر يسقط من شجرة مورقة . ويمسح على ذلك لطف الحضارة ، وما يمتاز به أهلها من دقة الحِسِّ ورهافة الذوق ، على نحو ما يتضح فى المعانى التى تحملها الهدية ، فالسكر رمز للحلاوة والسفرجل رمز للبركة والدرهم رمز لبقاء الوزير فى عزّه . ويكتب برسالة مماثلة إلى الحسن بن مخلد وزير المعتمد على هذا المنوال[2] :

« أيها السيد الشريف ! عشتَ أطول الأعمار بزيادة من العمر ، موصولة بقرائنها من الشكر ، لا ينقضى حق نعمة ، حتى تجدَّد لك أخرى ، ولا يمر بك يوم إلا كان مقصِّراً عما بعده ، مُوفياً على ما قبله . إنى تصفحت أحوال الأتباع الذين تجب عليهم الهدايا إلى السادة ، فالتمست التأسى بهم فى الإهداء ، وإنى إن

---

(١) العقد الفريد ٦ / ٢٨٢ وديوان المعانى ١ / ٩٥ .

(٢) عيون الأخبار ٣ / ٣٩ ، والعقد الفريد ٦ / ٢٨١ وديوان المعانى ١ / ٩٤ .

أهديت نفسى فهى ملك لك، لا حظّ فيها لغيرك ، وإن رميتُ بطرفى إلى كرائم مالى وجدتها منك . . . وفزعتُ إلى مودتى فوجدتها خالصة لك قديمة غير مستحدثة فرأيت إن أنا جعلتها هديتى لم أجدّد لهذا اليوم الجديد بِرًّا ولا لَطَفًا (هدية) ولم أقِس منزلةً من شكرى بمنزلة من نعمتك إلا كان الشكر مقصراً عن الحق ، والنعمة زائدةً على ما تبلغه الطاقة ، فجعلت الاعتراف بالتقصير عن حقك هدية إليك ، والإقرار بما يجب لك بِرًّا أتوصّل به » .

والرسالة تحمل فى جوهرها معانى الرسالة السابقة ، وفيها نفس التلطف ، وإن كان قد ازداد رقة فى الدعاء وفى التعبير عن الاعتذار بالتقصير ، فليس هناك ما يستطيع تقديمه حتى نفسه ومودته قدّمهما من قبل ، ولم يبق فى طاقته سوى الحمد والثناء والشكر الذى لا يماثله شكر ، وتتوافر التقطيعات فى الرسالة ويظهر السجع أحيانًا فى خفة وبدون أى تكلف لجهد أو عناء . ويكتب لصديق عُزِل عن عمله ، مسليًا له[1] :

« حفظك الله بحفظه ، وأسبغ عليك كرامته ، وأدام إليك إحسانه ، إن سرورى بِصَرْفك أكثرُ من سرور أهل عملك بما خُصُّوا به من ولايتك . وقد كنت — أعزّك الله — فيما يُرْبَأُ بك عنه بما أنت عليه فى قدرك واستئهالك ، ولكنا رجونا أن يكون سببًا لك إلى ما تستحق ، فطِبْنا نَفْسًا بالذى رجونا . فالحمد لله الذى سلّمك منه ، ونسأله تمام نعمه عليك وعلينا فيك ، بتبليغك أملك وآمالنا فيك وشَفْع (قرْن) ما كان من ولايتك بأعظم الدرجات ، وأشرف المراتب ، ثم خصّك الله بجميل الصُّنْع ، وبلّغك غاية المؤملين . إن من سعادة الوالى —حفظك الله— وأعظم ما يُخَصّ به فى عمله وولايته السلامةَ من بوائق (دواهى) الإثم ، ونوائب الدنيا وشرها ، والعاقبة مما يخاف منها ، وقد خصّك الله منها — بِمَنِّه وطَوْله (إنعامه) ما نرجو أن يكون سببًا لك إلى نيل ما تستحق من المراتب ، والله نسأل إيزاعك (إلهامك) شكر ما مَنّ به عليك ، وتبليغك غاية أملك فى جميع أمورك ، برحمته وفضله » .

والرسالة طريفة غاية الطرافة إذ عكس سعيدٌ العزاءَ عن العمل ، وجعله تهنئة

(١) جمهرة رسائل العرب ٤ / ٢٨٧ .

خليقة بأن تُنْصب لها أعلام السرور . ومضى يصوّر سروره وأنه يزيد على سرور أهل عمله حين جاءهم نبأ تولية هذا العامل عليهم . ويؤكد سروره بقوله إنه طاب نفسًا ، وقد أحسن اختيار هذه الكلمة . ثم أخذ يحمد له السلامة من هذا العمل ويعدُّ ذلك نعمة ليس فوقها نعمة ، ويدعو له بأن يبلغ أعظم الدرجات وأشرف المراتب ، كما يدعو له بأن يعرف حق هذه النعمة ويشكر الله عليها أصدق الشكر ، ويتمنى له أن يبلغ غاية آماله . وكأنما الرسالة ضرب من الحيل العقلية التي كانت تدور في المجالس ، والتي كانت تعرض محاسن الشيء ومساوئه . فقد يكون حسنًا وينقلب سيئًا ، وقد يكون سيئًا وينقلب حسنًا ، ولا يرى فيه إلا الحسن ، بفضل الذخائر العقلية التي حازها لنفسه العصر العباسي . وله من رسالة تعزية[1] :

« إذا استوى المعزِّى والمعزَّى في النائبة استغنى عن الإكثار في الوصف لموقع الرزيَّة ... وأنا أقول إنا لله وإنا إليه راجعون ، إقراراً له بالهلكة ، واعترافًا بالمرجع إليه ، وتسليما لقضائه ، ورضًا بمواضع أقداره ، وأسأل الله أن يُصَلِّيَ على محمد صلاة متصلة بركاتُها ، وأن يُوَفقك لما يُرْضيه عنك قولا وفعلا ، حتى يُكمل لك ثواب الصابر المحتسب وجزاءَ المطيع المتنجزِ للوعد ، ويَرْحم فلاناً ويُحِله أعلى منازل أوليائه الذين رضى سَعْيهم ، وتطول بفضله عليهم ، إنه وليٌّ قدير » .

والحيلة أيضًا في هذه الرسالة واضحة ، فقد جعل وفاة الشخص شركة بينه وبين المعزَّى ، فهو أيضًا حرى بأن يُعَزَّى فيه ، وكأن المصيبة فيه مصيبة عامة ، والحزن عليه لا يقف عند من أرسل له هذه الرسالة ، بل يشمل كثيرين هو أحدهم . وقد أخذ يحتال على أن يَسْلُوَ عنه صاحبه ، تسليمًا للقضاء ، واعترافًا بأن كل من عليها فان ، ورضا بالمقادير ، وإنه ليدعو الله أن يوفق صاحبه للصبر على المصيبة ، حتى يحوز ثواب المحتسب الصابر ، ويدعو للمتوفى أن يرحمه الله وينزله مع أوليائه وأصفيائه في الدرجات العلية . وله يهنئ بعض إخوانه بولاية[2] :

« أنا أهنئ بك العمل الذى وَليته ، ولا أهنئك به ، لأن الله أصاره إلى من يورده موارد الصواب ، ويُصدره مصادر الحجَّة ويصونه من كل خلل وتقصير ، ويمضيه بالرأى الأصيل ، والمعرفة الكاملة . قرَنَ الله لك كل نعمة بشكرها ،

(١) جمهرة رسائل العرب ٤ / ٢٩٢ . (٢) جمهرة رسائل العرب ٤ / ٢٨٩ .

وأوجب لك بطوله المزيد منها، وأوزعك (ألهمك) من المعرفة بها مايصونها من الفتن ويحوطها من النقص » .

والرسالة مع إيجازها تبدأ بحيلة من حيل الفكر العباسي الخصب الحافل بما يلفت السامع ويروعه ، وهي أن العمل هو الذي يهنأ بهذا الوالي ، لا أن الوالي هو الذي يهنأ به ، إمعانًا في المدح والإطراء ، فقد كان من حسن حظ هذا العمل أن صار بيد من يدبره على خير وجه ممكن في الإيراد والإصدار ، ومن يصونه ويحفظه من أي خلل أو تقصير ، مع الفكر الحصيف والمعرفة التامة . ويدعو له بالأمن في عمله والسلامة من الفتن والثورات ، وهو خطاب مقتضب ، ولكنه جامع شامل ، مع اللفظ المنتقى والأسلوب المصفّى . وله من رسالة في ذم بعض الأشخاص وهجائه[1] :

« رجلٌ يتعنّفُ بالنعم عنْفَ من قد ساءته بمجاورتها ، ويستخفُّ بحقها استخفافَ من لا يخفّ عليه محملها ، ويقصّر في الشكر تقصير من لا يعلم أن الشكر يرتبطها . . فكيف يتسع الصدر للصبر عليه ؟ إن الله لا يخاف الفوت فهو يُمْهله ، وإنه إن مات لم يخرج من سلطان الله جلّ وعزّ إلى سلطان غيره فيعاجله » .

وهذه الكلمات على قصرها من ألذع الهجاء ، وهل هناك شخص تسوؤه النعم سوى هذا الشخص الذي لا يعرف قدرها ، بل إنه يعنف بها عنف عدوّ غاشم ، وإنه ليستخفُّ بحقوقها استخفافَ مَنْ ثقل عليه النهوض بها وحملها ، وهو لذلك كله يطّرح الشكر عليها اطراح الجاهل بأن الشكر هو الذي يكفل لها البقاء ، وهو لا يدري أنه مع طغيانه وبغيه على نعمة ربه سيلقى جزاءه ، إنه يُمْهله ، لأنه لا يعرف أنه لن يخرج حين يموت عن دائرة سلطانه . والكلمات والعبارات مختارة بدقة . وله في الدعوة إلى يوم أُنْس من رسالة[2] :

« لا عُذْر في التخلف عنك ، وإن حال الاشتغال بيننا وبينك ، فإن كنت سامحت على العُذر قبل الاعتذار ، وسبقت إلى فضيلة الاغتفار ، فلا زلت على كل خير دليلا ، وإليه داعيًا ، وبه آمرًا ، وقد التقينا قبل وصول كتابك لقاء أحدث قَطْرًا (دموعًا منهمرة) وهاج شوقًا ، وأرجو أن تتسع لنا الجمعة بما بخلت به الأيام ، فننال حظًّا من محادثتك والأنس بك » .

---

(١) صبح الأعشى للقلقشندي ٩ / ٢١٩ . (٢) زهر الآداب ٣ / ٣٦١ .

وهو يعترف بأنه مقصر وخليق بالاعتذار لتخلفه عن زيارة صديقه ، ويعتذر بكثرة أعماله ، ويتلطف معه ، فيجعله قَبِلَ عذره قبل تقديمه وغفر له تقصيره . وانظر كيف عبَّر عن مدى تأثرهما عند اللقاء بقوله إنه لقاء أحدث قَطْراً . ودائماً لا تفوته الكلمة الموجزة المعبِّرة أدق تعبير وأقواه. ومن رسالاته عن فضل محبوبته وقد ظن بها الظنون وأنها تعثَّرَتْ فى حبال غيره[1] :

« أصبحتُ — والله — من أمر فضل فى غرور ، أخادع نفسى بتكذيب العيان ، وأمنِّيها ما قد حِيل دونه . والله إن إرسالى إليها — بعد ما قد لاح من تغيُّرها — لذلٌ ، وإن عدلى عنها — وفى أمرها شُبْهة — لعجز ، وإن تصبُّرى عنها لمن دواعى التلف » .

والقطعة محبوكة العبارات ، وقد عمد فيها إلى بيان حالته النفسية إزاء تغيُّر فضل عليه ، متصوراً ثلاثة مواقف ، فهو إن راسلها كان ذلك ذلاً له وهواناً ما بعده هوان ، وهو إن انصرف عنها ولا يزال مشتبهاً فى أمرها لم يتبين بالضبط قطيعتها له كان ذلك عجزاً منه وتقصيراً ، وهو إن أخذ نفسه بالصبر عنها كان ذلك فوق طاقته وأدَّى به إلى التلف والهلاك . ودائماً نحسُّ عنده دقة التعبير ، وكأن الكلمات سهام تصيب مرماها . وله فصول بديعة تدور فى كتب الأدب من مثل قوله فى رسالة لصديق مصوِّراً مودته[2] :

« إنى أهديت مودتى إليك رغبةً ، ورضيت بالقبول منك مثوبةً ، فصرتَ بقبولها قاضياً لحق ، ومالكاً لرقٍّ ، وصرتُ — بالتسرع إلى الهدية والتخير للمثوبة — مُرْتَهَنَ اللسان بالرضا ، واليدين بالوفا » .

وانظرْ تصويره لمودته بأنها هدية أهداها لصاحبه ، ودائماً تُرَدُّ الهدايا ، وهو لا يريد لها ردًّا ولا جزاءً سوى قبول الصديق لها ، ويقول إنك إن قبلتها أصبحت ناهضاً بحق ومالكاً لعبد ، جعل رِقَّهُ فى يديك وحريته طوع مشيئتك ، وكل ذلك كناية عن مدى إخلاصه فى أخوته وصداقته . وهو يصوِّر نفسه، وقد قدَّم الهدية وتخيَّر جزاءها مودة صديقه بل قبوله لها ، قد أصبح لسانه مرتهناً بحرمتها ويداه مقيدتين بالوفاء لها ونفسه مستعبدة له . ولا تُعْرَف بالضبط السنة التى توفى فيها سعيد، وأكبر

(١) الأغانى (طبعة الساسى) ٢١ / ١١٩ . (٢) جمهرة رسائل العرب ٤ / ٢٩٧ .

الظن أنه عاش إلى أواسط عصر المعتمد (٢٥٦ــ ٢٧٨ هـ) . ولعل فى كل ما قدمنا ما يصور مهارته البيانية فى الرسائل الإخوانية والديوانية ، فقد كان يُعْنَى أشد العناية باختيار ألفاظه وتقطيع عباراته حتى لينتهى التقطيع أحيانًا إلى السجع ، كما كان يُعْنَى بمعانيه وجَلْب ما يروق منها بدقته وطرافته .

٥

أبو العباس بن ثوابة (١)

هو أبو العباس أحمد بن محمد بن ثوابة المتوفى عام ٢٧٧ للهجرة ، وهو من أسرة أصلها مسيحى ، عملتْ فى دواوين الخلافة ، منذ أواسط القرن الثالث للهجرة إلى منتصف القرن الرابع . وأول من لمع اسمه منهم محمد بن ثوابة وكان يعمل فى دواوين الدولة ، وهو من ممدوحى البحترى ، وكان ابنه جعفر يتولّى ديوان الرسائل فى أيام عبيد الله بن سليمان بن وهب الوزير بأخرة من عصر المعتمد ، وقد توفى سنة ٢٨٤ للهجرة ، وخلفه على رياسة هذا الديوان ابنه أحمد بن محمد بن جعفر بن ثوابة ، وسبق أن عرضنا له فى الفصل الماضى وقلنا إنه كان يسجع فى رسائله الديوانية ، وقد توفى سنة ٣١٢ فخلفه على رياسة الديوان ابنه أحمد حتى سنة ٣٤٩ للهجرة . ويبدو أن السجع نما على أيدى هذه الأسرة وكانت عاملاً من عوامل انتشاره فى الكتابتين الديوانية والإخوانية .

وليست بين أيدينا معلومات واضحة عن نشأة أبى العباس بن ثوابة ، ولكن لابد أن أباه وكان يشتغل فى الدواوين أخذه مبكراً بالدرس والتحصيل ، بادئًا معه من الكتّاب ، ومنتهيًا به إلى حلقات العلماء فى المساجد ، حتى إذا غزرت ثقافته تحول به إلى الدواوين الرسمية ونراه متألقًا فيها منذ عصر المهتدى (٢) (٢٥٥ــ٢٥٦ هـ) ، وما زال نجمه فى صعود حتى اختير لرياسة ديوان الرسائل لأوائل عصر المعتمد . وكانت لا تُعْقَدُ إلا لمن أثبت كفاءته وعُرفت بلاغته . وكان طبيعيًّا أن تكثر الصلات والمودات بينه و بين سعيد

(١) انظر فى أبى العباس بن ثوابة الفهرست ص ١٩٣ ومعجم الأدباء ٤ / ١٤٤ وجمهرة رسائل العرب ٤/٣٢٣ وما بعدها .

(٢) الأغانى (طبعة الساسى) ٢٠ / ٦٩.

ابن حميد وغيره من كتّاب عصره وشعرائه، ولابن الرومى فيه مدائح مختلفة ، وكذلك للبحترى ويُرْوَى له توقيع وقّع به فى قصيدة له ، استمنحه فيها قضاء حاجة على هذا النحو : « مقضيّة ولو أتلفت المال ، وأذهبت الحال ، فقل — رعاك الله — ما شئتَ منبسطًا ، وثِق بما أنا عليه لك مغتبطًا ، إن شاء الله تعالى » . ويبدو أنه ظلّ على ديوان الرسائل حتى تولى إسماعيل بن بلبل الوزارة للمعتمد سنة ٢٦٥ ، وكانت بينهما وحشة شديدة . ودخل عليه أبو العباس ووقف بين يديه ، ثم قال أيها الوزير : (لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين) ، فقال له ابن بلبل : (لا تثريب عليكم) يا أبا العباس ، ورفع مجلسه ، غير أنه صرفه عن الديوان وولاه نواحى بابل وسواد بغداد الغربى ، فضاعف — وزاد — فى الدعاء له ، ويقال إنه ظل على تلك النواحى حتى وفاته .

وأبو العباس أحد كتاب العصر وبلغائه ، وفى أخباره أنه كان شديد العناية بأناقته وبكل ما يتصل بحياته شديد التكلف ، ويضرب الرواة لذلك مثلا بعبارات له شديدة الغرابة ، وأنه قال يومًا وقد استمع إلى حاجم : علىّ بماء الورد أغتسل فى من كلام الحاجم . وأُثِرَ له عهد طويل إلى أحد الولاة من الموفق ولى عهد المعتمد ، ومرّ بنا أنه كان الخليفة الحقيقى طوال عصر أخيه ، ولذلك كانت العهود إلى الولاة تصدر عنه ، والعهد يبتدئ على هذا النمط[1] :

« هذا ما عهد به أبو أحمد الموفّق بالله ولىّ عهد المسلمين إلى فلان حين ولاّه الصلاة بأهل كورة الرّىّ ودُنْباوَنْد ونواحيها ، والحربَ والأحداثَ فيهما . أمره بتقوى الله وطاعته ، وخشيته ومراقبته ، فى سرّه وعلانيته ، وظاهر أمره وباطنه والعمل بما أمر الله به ، والانتهاء عما نَهَى عنه فيما وافقه وخالفه ، وأرضاه وأسخطه فإنه من يتّق الله يَقِهِ ، ومَنْ يعتصم به يَهْدِهِ ، ومَنْ يُطِعْه يتولّه ويكْفه (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) . وأمره أن يملأ قلبه خيفة الله وهيبته والتفويضَ إليه ، والاعتماد عليه ، وأن يجعل كتاب الله عزّ وجلّ له إمامًا ، وسُنّةَ نبيه صلى الله عليه وسلم مثالا ، فإن فيهما دلالةً وتبيانًا ، وضياءً ونوراً وشفاءً لما فى الصدور وهُدًى ورحمةً للمؤمنين . وأمره أن يكون أولُ

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٤/٣٣٤ .

ما يُعْنَى به ويقدّمه، ويراعيه ويؤثره، إقامةَ الصلاة لمواقيتها بإتمام ركوعها وسجودها وأداء فَرْض الله فيها ، إذ كانت عماد الدين ، وأفضلَ ما تقرَّب به المؤمنون ، وكان مَنْ أضاعها وقصَّر فى واجبها ، أشدَّ تضييعاً لما سواها من حقوق الله عزَّ وجلَّ وفرائضه ودينه وشرائعه (وإنها لكبيرةٌ إلا على الخاشعين) . وأمره أن يُلْهِم نفسه فى كل حال من حالاته وصغير وكبير من أمره ، ذكرَ الله جل ثناؤه ، وألا يُمْضِيَ أمراً إلا بعد استخارة الله عزَّ وجلَّ فيه ، واستقصائه فى ذلك بالذى هو له أرضى ، وعنده أزكى ، فإن العاقبة للتقوى ، وإن أفضل الأمور خَيْرُها عاقبةً ، وأحمدها مَغَبَّةً ، وما التوفيق إلا بالله ، عليه يتوكل المتوكلون » .

وقد استهلَّ أبو العباس بن ثوابة العهد — كما يلاحظ القارئ — بالسجع ، ثم رآه سيطول إذ يمتد نحو ثمانى صفحات ، فانصرف عنه مكتفياً بتقطيع العبارات وباصطفائها واصطفاء الألفاظ التى تتألف منها . وقد حاول أن يُنْهِى كل أمر بآية أو كلمة من القرآن تناسبه . وهو يمضى فى العهد ، فيأمر الوالى بحسن سياسته لأهل عمله وأخْذه لهم بالعدل والنَّصَفة وإحقاق الحقوق ، وأن يتخذ مساعديه فى إدارة الحكم من أهل العفاف والكفاية ، وأن يقدّم أهل الفضل والصلاح والمشايعين للدولة ويتخذ منهم مستشاريه ، وأن يقيم الحدود متبعاً لما جاء فى محكم التنزيل والسنة النبوية وما نصَّ عليه الفقهاء ، وأن يجعل دَبْرَ أذنه ما قد يكون بينه وبين بعض الرعية من حقد وضغينة ، وأن يقمع أهل الدعارة والفساد بإقامة الحدود عليهم دون إفراط ، فإن لكل شىء قدراً ، وأن يصرف عنايته إلى أطراف ولايته ، وخاصة التى تقابل الأعداء فيسدّ خللها ويرتق فَتْقها ، ويعاجل أى متسرع للفتنة أو الثورة بها . ويطلب إليه أن يراقب التجار ولا يدعهم ينقلون زَاداً ولا عَتَاداً من الأسلحة إلى ديار العدو ، وينزل العقاب بمن يخالف منهم هذا الأمر ، وهو يدلّ على يقظة الدولة . ويأمره أن يحسن التعاون مع صاحب الخراج وأن يقدم له ما يريد من المساعدين ، حتى يَدِرَّ الخراج ويكثر حلابه ، كما يأمره أن يتفقّد مَنْ فى السجون ، ويُكثر عَرْضهم والنظر فى أمورهم والأسباب التى حُبسوا بها ، آخذاً بمشاورة أهل الفقه فيهم . ومن أطرف ما فى العهد أن نراه يأمر الوالى بالأمانة فى

ولايته ، وألا يأخذ أى ضرائب استثنائية من الرعية ، لا بحجة الضيافة ولا بأى حجة أخرى . ومرّ بنا فى الفصل الأول كيف أن الولاة تحولوا لصوصًا وقُطّاع طرق يختلسون الأموال من الناس دون أى رحمة أو شفقة ، وكأن أبا العباس بن ثوابة يشير إلى ذلك على لسان الموفق إذ يقول للوالى إنه :

« أمره ألا يَقْسِم على أهل عمله قسمةً بسبب نُزُل (ضيافة) ولا غيره ، مما كان شرار العمال يُوظّفونه ويقسمونه على أهل أعمالهم ، ويتجنّب الطُّعَمَ (وجوه المكاسب) الشائنة ، والمكاسب الرديئة . ويحذر أن يعرض لشىء منها ، أو يطلقه لأحد من كُفاته (معاونيه) فيَرِد عليه من النكير ما هو حرىٌّ بتوقيه والتصوّن عنه » .
ويعرض فى العهد لوظيفة الحِسْبة . وكان المحتسب يراقب الأسعار فى الأسواق ، ويقوم فيها مقام رجل الشرطة والقاضى معاً ولذلك كان يُختار من رجال الفقه والشريعة . فهو يحقق ويحكم ويدين ويردّ عن المظلوم الظلم ، ويراجع المكاييل والموازين ، ويعاقب الغاشّ المخادع ، وفى ذلك يقول عن لسان الموفق لواليه :

« وأمره أن يتخيّر للحِسْبَة على أهل الأسواق وسائر أصحاب الصناعات والبياعات (السلع) فى عمله مَنْ يُعْرَف بالقصد فى مذهبه ، والسَّتْر فى نفسه ، والعفاف فى طُعمته (وجه مكسبه) واستيفاء الحق فيما يقلّده ويُستكفَى القيامَ به ، ويتقدّم إليه فى أخذ كل طبقة من أهل الطبقات التى يقع عمله فى الحسبة فيها بتصحيح المعاملة ورَفْع الغِشّ ، وتجنب كل ما عاد بمضرّة على المسلمين أو تحيّف (تنقص) لهم ، وتعيير (قياس) المكاييل والموازين فى سائر عمله ، وإقامتها على الوفاء والعدل ، وخَتْمها بالرصاص ، وحَمْل المبتاعين فيها وغيرهم عليها ، والإشراف على ما يرسُمه ، ويتقدم بامتثاله فى سائر وجوه الحسبة ، حتى لا يخالَفَ شىء منه إلى غيره ، ومعاقبة مَنْ عَسَى أ[illegible] على مخالفته فيه ، يَرْدَعه ، ويعظ مَن سواه ، فإن الله عزّ وجلّ [illegible] أوْفُوا الكَيْلَ ولا تكونوا من المُخْسِرِين وَزِنوا بالقِسْطاسِ المستقـ[illegible] [illegible]ناس أشياءهم ولا تَعْثَوْا فى الأرض مفسدين) » .

وهى قطعة طريفة فى العهد ، إذ تصوّر أعمال رجال ،

يُشْتَرَطُ فيهم من معرفة بالشريعة وحدودها وأن يكونوا من التقاة أهل السَّتْر والعفاف حتى لا يتحولوا إلى ذئاب فى الأسواق فارضين على التجار وأصحاب الصناعات هدايا ورشاوى ، من شأنها أن تفسد الذمم فساداً لا حَدَّ له ، وبالتالى تفسد الأسعار والبيع والشراء . ويصوّر مهمة المحتسب بأنها تصحيح المعاملات بين الناس ورفع الغش والخداع والمراجعة الدائمة لعيار المكاييل والموازين وختم الدقيق منها ختماً يدل على صلاحه ، بحيث لا يستعمل سوى الموازين والمكاييل المختومة التى أقرّها المحتسب ، وكلّ من حدثته نفسه بمخالفة ذلك ينبغى أن يُنْزِل به المحتسب عقاباً رادعاً . وقد كُتب العهد بدون سجع ، وكان ابن ثوابة يفزع إلى السجع كثيراً ، ولعله لاحظ أنه موجّه للرعية كما جاء فى نهايته ، وأنه ينبغى لذلك أن يكون فى لغة واضحة لا يحْجُبُ السجعُ بعض معانيها ، ولا يحول بين العوام وتبين ما فيها .

وأثرت له رسائل إخوانية كتب ببعضها إلى نفر من الوزراء ، وهو فيها تارة يُكْثِر من السجع وتارة يتخفّف منه بل قد يُهْمله تماماً على نحو ما نجد فى الرسالة التالية التى كتب بها إلى الوزير إسماعيل بن بُلْبُل يهنئه بمصاهرة الموفق ولىّ عهد المعتمد وفيها يقول[1] :

« بلغنى للوزير — أيّده الله — نعمةٌ زاد شكرُها على مقادير الشكر ، كما أربَى مقدارُها على مقادير النعمة ، فكان مَثَلُها قولَ إبراهيم بن العباس الصولى :

بنوك — غدًا — آلُ النبيِّ ووارثو الـ خلافـــة والحاوون كِسْرَى وهاشما

وأنا أسأل الله تعالى أن يجعلها موهبة ترتبط ما قبلها ، وتنتظم ما بعدها ، وتصل جلالَ الشرف ، حتى يكون الوزير — أعزّه الله — على سادة الوزراء موفيًا ، وبجميل العادة مستحقًّا ، ولمحمود العاقبة مُسْتوجبًا ، وأن يُلْبِس أولياءه من هذه الحُلَل الغالية ما يكون لهم ذكراً باقياً وشرفاً مخلّداً » .

والرسالة تخلو من السجع ، ولكنها تحوى الكثير من المهارة الفنية ، وخاصة فى تقطيع الجمل وتقابلها واستيفاء معانيها ، على نحو ما ينضح فى العبارتين الأوليين

(١) معجم الأدباء ٤ / ١٥٧ .

منها ، واقتبس فيها بيتًا لإبراهيم بن العباس الصولى شديد الصلة بما تريد الرسالة أن تؤدّيه من معان . ويُعقّبه بعبارات مقطّعة متقابلة ، وكأنما الكلمات تتشابك بالأيدى ، فقد كان يعرف كيف يضمُّ اللفق إلى اللفق والنظير إلى النظير ، بحيث تماسك الكلمات وكأنها فى بناء متراص . وأشرنا فى الفصل السابق إلى إنكار إبراهيم بن المدبر فى رسالته العذراء التى وجّه بها إلى الكتّاب أن يقولوا فى رسائلهم : « جُعلتُ فداك » وإنما أنكر العبارة لاشتراك معناها كما يقول واحتمالها أن تكون فداء من الخير أو فداء من الشر ، ويقول إن كتّاب العسكر (الجيش) وعوامّهم أولعوا بهذه اللفظة ، حتى استعملوها فى جميع محاوراتهم وجعلوها دأبهم فى مخاطبة الشريف والوضيع والكبير والصغير . وكأنما صدر أبو العباس بن ثوابة عن روح هذا النقد ، إذ كتب إلى الوزير عبيد الله بن سليمان رسالة خالية من قولهم : « جُعِلْتُ فداك » فعاتبه عبيد الله ، ولم يكد يسمع عتابه ، حتى كتب إليه برسالة ثانية ، يصوّر فيها نقد إبراهيم بن المدبر السالف ، وفيها يقول[1] :

« الله يعلم — وكفى به عليمًا — لقد أردت مُكاتبتك بالتفدية ، فرأيت عَيْبًا أن أفْديَك بنفس لابد لها من الفناء ، ولا سبيل لها إلى البقاء ، ومَنْ أظهر لك شيئًا يُضْمر خلافه فقد غَشّ ، والأمرُ إذا كانت الضرورة توجبه ، وتحقق أنه ملكٌ لا يتحقّق ، وعطاء لا يتحصّل ، لم يجز أن يخاطَب به مثلك ، وإن كان عند قوم نهايةً من نهايات التعظيم ، ودليلا من دلالات الاجتهاد ، وطريقًا من طرق التقرب » .

وقد التمس أبو العباس بن ثوابة لإنكار التفدية علة أخرى غير علة ابن المدبر ، لعلها أكثر منها تعبيراً عما أصاب الذوق الأدبى فى العصر من رقة بالغة عند بعض الكتاب ، حتى لتؤذيه الكتابة بالتفدية بنفس فانية غير باقية ، وهو إفراط فى الحسّ والشعور والرقّة والدماثة . وبذلك نفهم عبارة أبى العباس السابقة حين استمع إلى كلام حاجم ، فقال : علىَّ بماء الورد أغسل فمى من كلام الحاجم ، وكأن سماع الكلام الذى لا يعجبه لا يؤذى أذنه فحسب ، بل يؤذى فمه ، وإنه لإيذاء غريب ، ولكن لا غرابة أن يصدر من أبى العباس ، فقد كان يتكلف

---

(١) زهر الآداب ٣ / ١٦ وجمهرة رسائل العرب ٤ / ٣٣٢ .

الدمائة والحسّ المفرط والشعور الحاد . وله من فَصْل فى رسالة كتب بها إلى نفس الوزير عبيد الله بن سليمان ، يقول فيه[1] :

« لم يُؤْتَ الوزير من عدم فضيلة ، ولم أوتَ من عدم وسيلة ، وغُلّةُ (حرارة) الصَّادى (العطشان) تأبى له انتظار الوارد ، وتُعْجِل عن تأمل ما بين الغَدير والوادى ، ولم أزل أترقَّب أن يُخْطِرنى بباله ، ترقب الصائم لفطره ، وأنتظره انتظار السارى لفجره ، إلى أن بَرِح (انكشف) الخفاء وكُشف الغطاء ، وشَمِتَ الأعداء ، وإن فى تخلفى وتقدّم المقصّرين لآيةً للمتوسّمين ، والحمد لله رب العالمين » .

والفصلُ مكتوبٌ بكل دقة ، فالوزير لم ينسه نقصًا فيه إذ اكتملت فضائله وأوفت على الغاية ، وهو لم يُؤْتَ من نقص ، فبلاغته ذائعة معروفة يعرفها القصىّ والدانى ، وإذن فليبحث عن علة ، ويقول إن الحرارة المشتعلة فى صدر العطشان تدفعه إلى عدم الانتظار لما قد يرد عليه ، وتُعْجله عن النظر فيما بين الغدير والوادى من خيرات ومياه وطيبات . ويمضى فيقول إنه كان يترقب إقباله ترقب الصائم الجائع لفطره والسارى بالليل الداجى لفجره ، غير أن أضواء الصباح العابس تفلّتت من الأفق ، فاتضح الخفاء وانكشف الغطاء وأن الوزير لن يشمله برعايته ، وشمت الأعداء . وكأنما يعاتب عبيد الله بكل ذلك عتابًا رفيقًا وهو يختمه بقوله إنه أصبح فى عداد المتخلفين ، بينما تقدّمت فى رحاب الوزير كثرةٌ من المقصّرين الذين لا يبلغون شأوه ، ويقول إن فى ذلك لآية للناظرين ، ولا ينسى حمد الله رب العالمين الذى لا يُحْمَدُ فى مكروه سواه . والعبارات فى الفصل متسقة اتساقًا وثيقًا ، إذ لاءم أبو العباس بينها بقسطاس دقيق ، ونحسُّ انسجامًا بين الكلمات منذ العبارتين الأوليين ، وهو انسجام انتهى بهما إلى أن تصبحا سجعتين . ويضيف إلى ذلك فى العبارتين التاليتين مادة تصويرية طريفة ، حتى إذا سوّاهما تلاهما بعبارات يلتحم فيها السجع والتصوير معًا . وبذلك يَبْلغ أبو العباس بن ثوابة صاحب الدمائة المفرطة والرقة المتناهية كل ما كان ينتظر له من تأنق فى التعبير الأدبى ، إذ يتحول عنده إلى زخرف خالص ، زخرف يحمل كل ما يريد من وَشْىِ السجع ووشى الصور النادرة . وله من جواب عن تعزية[2] :

---

(١) معجم الأدباء ١٤٧/٤ .

(٢) جمهرة رسائل العرب ص ٣٣٣ .

« وصل كتابك بالتعزية عن أخي ، وقد جلّتْ مصيبتي به وعظمت ، فنكأت (جرحت) القلب ، وهدّت الركن ، وأذهبت القوة ، ونغّصت العيش ، وأزْرَتْ بالأمل . فعند الله أحتسبه ، وإياه أسأل تفضلا عليه ، وصفحًا عنه ، وتغمداً (غفرانًا) لذنوبه ، وصَبْراً على حادث قضائه فيه ، واستعداداً للموت وتأهبًا له ، فإنه مَصْرَعٌ لا بُدَّ منه ، وموردٌ لا مَحِيصَ عنه » .

والانسجام واضح بين الكلمات والعبارات ، فقد صوّر حزنه على أخيه بجمل متناسقة ، ولا شك فى أنه بذل جهداً عنيفًا فى اجتلابها ووضْعها متلاحقة ، وكل جملة تضيف خطًّا إلى لوحة الحزن السوداء ، فعبارةٌ تحمل جرح القلب ، وثانية تحمل انهداد الركن ، وثالثة تحمل ذهاب القوة ، ورابعة تحمل تنغص العيش ، وخامسة تحمل الإزراء بالأمل . ويتجه إلى الله بجمل مماثلة يدعو فيها لأخيه ولنفسه أما أخوه فيدعو له بالتفضل عليه والصفح عنه ، والغفران لذنوبه ، ثلاث دعوات ويقابلها لنفسه ثلاث أيضًا : الصبر على حادث القضاء، والاستعداد للموت بالعمل الصالح ، والتأهب له . وهكذا كل عبارة وكل كلمة كأنما توضع بميزان دقيق يزنها فى عبارتها ، ويزن عبارتها بالقياس إلى قرينتها أو قرائنها . ويذكر صاحب معجم الأدباء أن البحترى هجا بنى ثوابة فى قصيدة له فبعث إليه أبو العباس يترضّاه بهدية نفيسة فردّها وقال لحاملها قُلْ لأبى العباس : قد أسلفتكم إساءة فلا يجوز معها قبول صلتكم ، فكتب إليه :

« أما الإساءة فمغفورة ، والمعذرة مشكورة ، والحسنات يُذْهِبْن السيئات ، وما يأسو (يداوى) جراحك مثلُ يدك ، وقد رددتُ إليك ما رددته علىّ ، وأضعفته ، فإن تلافيت ما فرّط منك أثبْنا وشكرنا ، وإن لم تفعل احتملْنا وصبرنا » .

فتقبلَ البحترىُّ ما بعث به ووعد أبا العباس أن يأتيه ثناؤه ومديحه. والكلمات التى كتب بها إلى البحترى تحمل نفس خصائصه من وزن الكلام بقسطاس ، وجعله القسطاس هذه المرة يلائم أشد الملاءمة بين العبارات ، فإذا هى تأخذ صورة سجع خالص ، وهو سجع حافل بالعذوبة . ولا نبالغ إذا قلنا إن أبا العباس كان أحد من أعدوا بقوة فى القرن الثالث الهجرى لشيوع السجع وانتشاره .

خـــاتمة

هذا الجزء خاص بتاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني ، وقد بدأته بالحديث عن الحياة السياسية وما حدث فيها من تحول خطير ؛ إذ غرب نجم الفرس ولم يعد لهم شيء من السلطان والنفوذ ، فقد أصبح النفوذ كله والسلطان كله بيد الجند الأتراك وقوادهم ، وكانوا بدواً رُحّلاً ، لا علم لهم بصناعة ولا بزراعة ولا بتجارة ، ولا بفنون ولا بآداب ، ولا بنظم ملك وسياسة ، وكانوا قد قبضوا على زمام الحكم في أواخر العصر السابق ، وظلوا مسيطرين عليه طوال هذا العصر . وعبثاً حاول المتوكل التخلص منهم ، ولكنهم ظفروا به وقتلوه ، وولوا مكانه المنتصر ، ومضوا يولّون ويعزلون ويقتلون في الخلفاء ، وزادوا عنفهم بهم بأخرة من العصر ، فكانوا يسملون أعينهم . وطبيعي أن تتدهور الخلافة ، وزاد في تدهورها انغماس الخلفاء في اللهو والترف واشتداد سفههم ، إذ مضوا يبنون القصور بالأموال الطائلة ، غير مفكرين في خزائن الدولة ولا فيما ينبغي أن تُنْفَق فيه الضرائب من مرافق الشعب ومصالحه وإعداد الجيوش بالعتاد المادي والحربي . وفسد الحكم فساداً لا حدّ له فقد تحول الوزراء إلى لصوص ينهبون أموال الدولة ، وتؤخذ منهم الملايين ويصادَرون ولا رادع ولا زاجر ، والشعب يقاسي كل صنوف البؤس والشقاء . وتشبّ ثورة الزنج في البصرة وتظل أربعة عشر عاماً ، وتشبّ ثورات القرامطة وتظل سنوات متطاولة ويُقْضَى عليها في العراق والشام ، ولكن تظل منها شعبة في البحرين ، تهدّد الدولة وتكلفها كثيراً من الأموال والرجال حتى نهاية العصر . وتكاثرت الأحداث ، وكان من أهمها إعلاء الدولة لأهل السنة على المعتزلة ووقف القول بخلق القرآن وامتحان الفقهاء فيه . وكانت الغزوات الصيفية للروم البيزنطيين لا تزال ذاهبة آيبة ، وتكاثرت ثورات العلويين في الكوفة وطبرستان ، وثار الصفاريون في سجستان وكرمان وفارس ، واستسلموا آخر الأمر . ولا نصل إلى أواخر العصر ، حتى يتغلب كثير من الحكام على ولاياتهم ، وكأن ذلك كان إيذاناً بانتهاء هذا العصر وانتهاء

الحكم التركي معه ، إذ استولى بنو بويه الفرس على بغداد ، وصار لهم السلطان فيها والصولجان .

وكان المجتمع العباسي يتألف من ثلاث طبقات : طبقة تنعم بكل أسباب الترف والنعيم ، وهي طبقة الخلفاء والوزراء والأمراء وكبار موظفي الدولة وأصحاب الإقطاعات ورءوس التجار . وطبقة وسطى ، معيشتها بين الترف والشظف وهي طبقة رجال الجيش وصغار الموظفين ومتوسطي الدخل من التجار والصناع . وطبقة دنيا ، معيشتها بؤس وضنك وإعسار ، وهي الطبقة العامة من الزراع وأصحاب الحرف الصغيرة والرقيق . ومن يطلع على ما كان يُنْفَقُ حينئذ في قصور الخلفاء والوزراء يُخَيَّلُ إليه أنه يقرأ في أقاصيص ألف ليلة وليلة ، إذ يبلغ ما كان يُنْفَقُ على المطابخ أحياناً ثلاثين ألف دينار شهريًّا . أما القصر فكان يبلغ ما ينفق عليه أحيانًا مليونين ونصفًا ، والقصور الباذخة تشيَّد، والشعب يكدح ويتصبَّب من جبينه العرق ليصبح ما يملكه وزير أكثر من عشرة ملايين دينار ، ولكل وزير حرسه الذي يزيد عن المئات على حين يزيد حرس الخليفة عن الآلاف . وكان كثير من أهل الطبقة الوسطى تسيل إليهم من هذا الترف وأمواله سيول ، وخاصة الأطباء والمغنين والمترجمين والشعراء ، أما الطبقة الدنيا فكانت مع بؤسها تُبْتَزُّ منها الأموال بكل الطرق ، واضْطُرَّ كثيرون منها إلى أن يصبحوا قَرَّادين وحوّائين ومتسوّلين بطرق شتى . وكان أهل الذمة يعامَلُون معاملة سمحة ، وكان كثير من النصارى يعملون في البيمارستانات أطباء وفي الدواوين كُتَّاباً . وكان قصر الخلافة كثيراً ما يتحول إلى مقصف كبير للهو والغناء ، ولم يتوقف فيه البذخ والترف طوال العصر . وكان الرجال والنساء جميعًا يبالغون في الأناقة : الأناقة في الملبس وكل ما يتصل به من طيب وعطر . وتفننوا في المطاعم إلى غير حد كما تفننوا في الحلواء وفي الشراب . وعُنوا بالسمر والمنادمة وضروب كثيرة من الملاهي . وكان الرقيق — وخاصة رقيق الجواري — يملأ الدور والقصور ، وكانت النخاسة قائمة على ساق ، وكانت دورها في الكرخ وغير الكرخ تكتظُّ بالقيان . ولم يُعْنَ المجتمع العباسي بفن كما عُني بالغناء والموسيقى وكانت فيهما مدرستان : محافظة ومجددة ، وكانت المدرسة المحافظة أكثر أنصاراً . وأثَّر الجواري حينئذ آثاراً كبيرة في شيوع الظرف والرقة واللطف . وظلت موجة المجون

والشعوبية والزندقة حادّة فى العصر ، وكانت ضاحية الكرخ والبساتين والأديرة تمتلىء بحانات الخمر ، وكان الناس يقصفون ويمرحون فى أعياد الإسلام والمسيحية والمجوس . وكانت نار الشعوبية لا تزال متّقدة ، وصبّ عليها الجاحظ وابن قتيبة مياهاً كادت تطفئها إلا قليلا ، ولذلك قلما نسمع بها بعد هذا العصر إنما نسمع عن الإلحاد والزندقة ، ومن رءوس الزنادقة الملحدين فى العصر ابن الرّاوندىّ ومحمد بن زكريا الرازى . ولم يكن هذا كله الصوت القوىّ فى الأمة ، إنما كان الصوت القوى هو الانصراف عن المجون وكل ما يتبعه من إثم والعكوف على الدين الحنيف والاستماع لوعّاظه والالتفاف حول عبّاده ونسّاكه . وهيأ ذلك لاتساع حركة التصوف ، وكانت قد بدأت مع أواخر القرن الثانى الهجرى ولكنها تأخذ حقّاً فى الازدهار بهذا العصر ، إذ أتيح لها أعلامٌ أرسوها ، بحيث أصبحت لها قواعد وأصول ثابتة .

ونشطت الحياة العقلية نشاطاً واسعاً ، وكانت المساجد أشبه بجامعات حرة ، والطلاب يفدون عليها من كل صوب متحولين من حلقة إلى حلقة ناهلين ما يشاءون من العلوم اللغوية والشرعية والكلامية . وقامت بجوار المساجد دكاكين الوراقين التى كانت تحفل بكتب العلماء من كل صنف وبما تُرجم من علوم الأوائل وثقافات اليونان والفرس والهند . وتأسست مكتبات كثيرة منها ما كان عامّاً مثل خزانة الحكمة ، ومنها ما كان خاصّاً لبعض الأفراد . وتُروَى أقاصيص كثيرة عن شغف الناس بالعلم ورحلتهم فى سبيله وانقضاضهم — حتى العامة منهم — عليه انقضاض الأسد على فريسته ، ولعل ذلك ما جعل الجاحظ وابن قتيبة يحاولان تقريب الثقافة إلى الشعب ، حتى يتزوّد منها بطرق يسيرة سهلة . ويظل نقل الثقافات الأجنبية وخاصة الثقافة اليونانية محتدماً ، ويتطور النقل من النقل الحرفى إلى نقل معانى الفِقَر بحيث تصبح صياغة الكتب المترجمة ناصعة شديدة النصوع . ونهضت العلوم الطبيعية والطبية حينئذ نهضة واسعة ، وليس ذلك فحسب ، فقد أصبح للعرب بدورهم فلاسفة نابهون مثل الكندى فى أوائل العصر والفارابى فى أواخره . وتزدهر العلوم اللغوية والنحوية ، فتُشْرَحُ النصوص القديمة شروحاً موسّعة ، وتوضَعُ بعض المعاجم ، وينشط تلامذة المدرستين البصرية والكوفية فى النحو ، وتنشأ المدرسة البغدادية . وتكثر حينئذ المباحث البلاغية

فى بيئات اللغويين المحافظين والمترجمين والمتفلسفة المجددين والمعتزلة المعتدلين ، ويتم الغلب للأخيرين ، ويكتب ابن المعتز كتابه الطريف « البديع » ويخطو النقد خطوات نحو تقنين مبادئه ، ويشاطر فيه الجاحظ مشاطرة قوية يتأثره فيها ابن قتيبة ، ويُصْدر قدامة كتابه « نقد الشعر » . وتنشط الكتابة التاريخية فى السيرة النبوية وفى تاريخ الأمم والدول وتاريخ المدن وسير الرجال وتراجم الشعراء . وينهض علم القراءات ويفرض ابن مجاهد القرّاءَ السبعة المشهورين على العالم العربى الذى ارتضى ما أدّى فى ذلك من جهد علمى خصب . ونهض التفسير بدوره على يد أهل السنة والمعتزلة والصوفية ، وبالمثل نهض تدوين الحديث ، ووُضعت فيه كتب الصحاح الستة . وظلت الدراسات الفقهية مزدهرة ، وظهرت فيها مذاهب صغرى أهمها مذهب داود الظاهرى الذى كُتب له الذيوع فى الأندلس والمغرب وخاصة فى عصر دولة الموحدين . وعلى الرغم من إعلاء الدولة لأهل السنة على المعتزلة ظل لهم نشاطهم ، وظهر بينهم أئمة مرموقون على رأسهم أبو على الجُبَّائى وابنه أبو هاشم ، وتفرّع حينئذ من الاعتزال المذهب الأشعرى الذى يتوسط بين آراء المعتزلة وآراء أهل السنة ، والذى كُتب له الانتشار فى العالم الإسلامى .

ويظل للشعر نشاطه وازدهاره ، ويظل اللغويون يقدّمون للشعراء دراسات تمكنهم من إتقان العربية على خير وجه والوقوف على كثير من أسرارها التركيبية والموسيقية ، ودعَّمَ هذا الوقوف مباحثُ النقاد والبلاغيين وملاحظاتهم على الخصائص الجمالية للبيان العربى . وأخذت تنشأ عربية مولّدة ولكنها لم تَجرُ على ألسنة الشعراء ولا أدخلت على أساليبهم شيئًا من الضَّيْم ، إذ كانوا يتمثّلون العربية بخصائصها الجمالية والموسيقية تمثلا تامًّا . وتعمق الشعراء الثقافات الأجنبية والمباحث الفلسفية ، مما جعل عقولهم تحفل بذخائر خصبة من الأفكار الدقيقة والتقسيمات الطريفة والبعد فى الخيال إلى درجة الوهم وكثرة التوليدات العقلية ، وحتى البحترى الذى اشتهر بمحافظته على أصول الصياغة الموروثة للشعر العربى يمسّه حظ من الثقافات المعاصرة . وكان حظ ابن الرومى وافراً ، ولذلك كثرت عنده العلل والأقيسة والأخيلة المبتكرة والقدرة على مدح الشىء وذمه . وظل الشعراء يبالغون فى مديح الخلفاء حتى ليسبغون عليهم صفات قدسية ، وسجّلوا فى مدائحهم البطولات الحربية ،

واحتفظوا فيها أحيانًا بوصف الأطلال نافذين إلى خواطر بديعة . وظلوا يستطردون إلى وصف الصحراء ، واتسعوا فى وصف الربيع والطبيعة الحضرية والأعياد وملاهيها . ونشط الهجاء ، وكانوا يعمدون فيه إلى التهوين والتحقير ، ونفذ فيه ابن الرومى إلى نوع جديد من الهجاء الساخر . وظل الفخر نشطًا ، واحتدم الرثاء ، وتفجّعوا على أبنائهم تفجعًا مريرًا ، كما تفجعوا على البصرة حين هوت تحت أقدام الزنج . ولابن العلّاف مرثية فى هرّ تُعَدّ من عيون الرثاء ودُرَره . وصوّروا فى عتابهم واعتذاراتهم رقة أهل الحضر ودماثتهم . وظل للغزل ازدهاره سواء الغزل العفيف الطاهر أو الغزل المادىّ الماجن ، ونفذوا فيه إلى كثير من دقائق المعانى والأخيلة ، ولكثيرين منهم خمريات تطفح بالمتاع الآثم . ونشط شعر الزهد نشاطًا واسعًا . وأكثروا من التهانى والتراسل بالأشعار مع الهدايا ، وللبحترى وصف رائع لإيوان كسرى . ولهم أشعار كثيرة فى وصف قصور الخلفاء وبذخهم فى البناء ؛ وأكثروا من وصف الطبيعة والورود والرياحين ، كما أكثروا من وصف الوحش والصيد وكلابه والأطعمة على اختلاف ألوانها والملاهى ، وفسّحوا للشكوى من الزمن ولوصف الأخلاق ولشعر التصوف وللشعر التعليمى على نحو ما يلاحَظ عند ابن الجهم وابن المعتز فى نظمهما للتاريخ ، وعند ابن دُرَيد فى نظمه للمعارف اللغوية .

وأعلامُ الشعراء فى العصر على بن الجَهْم والبُحتُرى وابن الرومى وابن المعتز والصَّنَوْبَرىّ ، فأما ابن الجهم فقرشى الأصل وُلد ونشأ ببغداد ، وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، فمدح المعتصم والواثق ويتخذه المتوكل جليسًا ونديمًا بينما يدّبج فيه المدائح والأشعار وقد اندفع وراء المتوكل فى الهجوم على المعتزلة والعلويين والنصارى ، فتكاثر خصومه ، وسعوا به عند المتوكل فأمر بحبسه عامًا ، ثم نفاه إلى خراسان . وعاد منها إلى بغداد ثم رأى الاشتراك فى نضال البيزنطيين ، ولكنه قُتل دون غايته . وأروع أشعاره ما نظمه فى الاستعطاف وليالى الأنس بالكَرْخ ، وأكثرها توهجًا تصويره لصلابة نفسه حين سُجِنَ وصَلِىَ نار النّفْى ، وكأنما كان صخرة عاتية لا تستطيع الكوارث والمحن أنْ تمسّ نفسه .

وكان البحترى عربيًّا شاميًّا من طيء ، سال الشعر على لسانه مبكرًا ، وفى حلب تعرَّف بفتاة تسمَّى عَلْوة ، ظلت لا تبْرَحُ ذاكرته ، ولقى فى حمص أبا تمام حامل لواء الشعر فى عصره غير مدافَع ، واستمع إلى شعر الفتى الناشئ ،

فشجَّعه ، وأهداه بعض نصائح كان لها أثر بعيد فى شعره . وقد عكف البحترى على شعر هذا الشاعر الكبير يدرسه ويتمثله . وقدَّمه أبو تمام إلى ممدوحيه ، ونزل سامرّاء وأصبح شاعر البلاط الرسمى من عهد المتوكل إلى عهد المعتمد . ولم يكد يترك وزيراً ولا موظفاً كبيراً ولا أميراً ولا والياً إلا صاغ فيه مديحه . وهو ممن يمثلون النزعة المحافظة فى عصره ، ويعدُّ بحق أستاذ الفن الموسيقى فى الشعر العربى ، وكأنما وقف على جميع أسراره ودقائقه ، وأكثر شعره فى المديح ، ومن روائع مدائحه مدحته لأحمد بن دينار وفيها صورَّ معركة بحرية بقيادته دُمِّر فيها الأسطول البيزنطى . ولم يكن بارعاً فى الهجاء ، وله فخر ضعيف . ومراثيه قوية ، وله غزل يترقرق فيه الوجد كما يترقرق الماء فى الغصن ، وكان ماهراً فى وصف مظاهر العمران والحضارة والطبيعة .

وكان ابن الرومى يونانى الأصل وُلد ونشأ ببغــداد ، وكانت ملكاته خصبة أروع ما يكون الخصب ، وكان شديد الحساسية إلى درجة التطير ، وتُرْوَى عنه فيه أقاصيص كثيرة . وكان يتشيَّع ، ولعل ذلك ما جعل كثيرين يزورُّون عنه ، كما جعل أبواب الخلفاء والوزراء تُغْلَقُ دونه ، وويْلٌ لمن كان يهجوه . وتردَّد فى ديوانه أسماء ممدوحين كثيرين وكذلك أسماء كثيرات من الجوارى والقيان ، واستطاع بملكاته الخصبة أن ينفذ إلى لون ساخر جديد فى الهجاء كما أسلفنا ، وله مراث تفيض بالحسرات واللوعات ، وعتابه لأبى القاسم التَّوَّزىّ وحواره مع هنَاته من أطرف ما نظمه شعراء العربية ، وله فى الغزل معان وأخيلة نادرة وكان يُشْغَفُ بالطبيعة وله فيها أشعار رائعة ، وهو يُكْثِر من وصف مجالس الأنس وألوان الطعام ، وله أشعار بديعة فى الزهد .

وكلٌ الشعراء السالفين من أبنــاء الشعب ، أما عبد الله بن المعتز فكان أبوه ابن الخليفة المتوكل وظل فى الخلافة نحو ثلاثة أعوام ، وقتله الترك ونفوا أمه قبيحة وابنه عبد الله إلى مكة ، وأعادهما المعتمد إلى سامرَّاء وفيها مضى عبد الله ينهل من كل الثقافات ، وله مصنفات مختلفة أهمها كتابه البديع ، وكان يحسن الضرب على الآلات الموسيقية ، وله أصوات حملتها العصور بعده ، وله مدائح مختلفة فى عميه المعتمد والموفق وفى المعتضد وابنه المكتفى . وكانت مأساته فى أبيه وجدّه تصرفه عن التفكير فى الخلافة ، ولكن حدث أن تولاها المقتدر وهو

غلام ، وتُجْمع طائفة كبيرة من رجال الدولة على خَلْعه والبيعة لابن المعتز ، ويكون فى ذلك حتْفه . وآثار بيئته المترفة واضحة فى أشعاره ، وخير مدائحه ومراثيه ما نظمه فى ابن عمه وصديقه المعتضد ، وله فخر كثير وفيه يلوِّح من حين إلى حين فى وجوه العلويين ، بأن أسرته أحق منهم بميراث الخلافة. وله أشعار كثيرة فى الغزل واللهو والخمر وذم الصَّبوح ، وتكثر فى شعره التشبيهات والاستعارات كما يكثر وصف الصيد وكلابه وآلاته .

وكان الصَّنَوْبرى من أهل أنطاكية ، ولكنه نشأ وتربَّى فى حلب ، وعاش حياته بها إلا فترات كان يتردَّد فيها على الموصل . وأكثر من المديح ، وكان شيعيًّا ، وهو لا يَغْلو فى تشيعه، وانعقدت صداقة بينه وبين كشاجم مواطنه الذى ينزل منه منزلة التلميذ من أستاذه . وفى أشعاره عناية واضحة بصناعتها ونثر فنون البديع فيها ، وله مدائح كثيرة ، وأروع مراثيه بكاؤه على آل البيت وتفجعه على ابنته ليلى ، وله غزل فى فتاة مسيحية . ويكثر من وصف الخمر ، وله أشعار فى الزهد ، وأهم موضوع شغله واشتهر به وصف الطبيعة حتى ضُرب المثل بروضياته ، وله غناء كثير بالثلجيات ، ويُعَدُّ فاتح هذا الباب فى العربية ، وله أشعار بديعة فى وصف الديك والصيد والهِرِّ والجُرْذان ، مما يشهد بملكته التصويرية الدقيقة .

وتكاثر شعراء السياسة والمديح والهجاء فى العصر ، وفى مقدمتهم شعراء الخلفاء العباسيين ، إذ كانت أموال الدولة بأيديهم ، فكثر مدَّاحهم حتى بين الشيعة ، ولكل خليفة شعراؤه الذين أشادوا به وبأحقية بيته فى ميراث الخلافة ، ومن أهمهم مروان بن أبى الجنوب وعلى بن يحيى المنجم وأبو بكر الصولى ، أما مروان فكان يسير سيرة جدّه مروان بن أبى حفصة فى الطعن على البيت العلوى ، مما جعل المتوكل يغمره بعطاياه ، وكان يُعْنَى مثل جدّه بصقل أشعاره . وكان على بن يحيى المنجم من أصل فارسى ، وهو مثال للنديم المثقَّف ثقافة واسعة ، وله شعر كثير فى مديح الخلفاء والوزراء وفى تصوير سمو نفسه . وكان أبو بكر الصولى التركى الأصل من بيت علم وكتابة ، وفتحت له ثقافته الواسعة ومهارته فى لُعْبة الشَّطرنج أبواب القصور العباسية منذ خلافة المعتضد ، وخير مدائحه ما نظمه فى الخليفة الراضى ، وله غزل رقيق كثير . وكان شعراء البيت العلوى يقفون مدافعين منافحين عنه ، وأهمهم

فى العصر محمد بن صالح العلوى والحِمّانى والمفجّع البصرى، وكان محمد بن صالح قد ثار بالحجاز ، وزجّ به المتوكل فى غياهب السجون ، ثم عفا عنه وعاش فى سامرّاء يمدحه ، وله أشعار طريفة فى زوجه وفى بعض أصدقائه . وكان الحِمّانى نقيب العلويين فى الكوفة وله مراث كثيرة ليحيى بن عمر العلوى يبكيه فيها بكاء حارًّا . وكان المفجّع شيعيًّا إماميًّا ، وكان يُكْثر من مديح على وأبنائه . وكثرت الثورات السياسية فى العصر ، وكان بعض الثوار شاعراً مثل صاحب الزنج فله أشعار تدور فى كتب التاريخ والأدب، ومثله يحيى بن زَكْرَوَيْه القرمطى الثائر بالشام وأبو طاهر الجنّابى صاحب الأحساء والبحرين. وأهم شعراء الثورات محمد بن البعيث وبكر بن عبد العزيز بن أبى دُلف، أما ابن البعيث فثار بأذربيجان ، واستطاع حين أتى به أسيراً إلى المتوكل أن يستلّ غضبه بشعره فيعفو عنه . وأما حفيد أبى دلف فثار بأعمال الجبل بين همذان وأصفهان ، وله أشعار مختلفة يتهدّد بها قواد المعتضد وينذرهم — إن هاجموه — إنذارات خطيرة . ويَكْثُر كثرة مفرطة شعراءُ الوزراء والولاة والقواد ، وفى مقدمتهم أبو على البصير وابن أبى طاهر وابن دريد ، وللأول مدائح كثيرة فى الفتح بن خاقان وله مداعبات ومعان طريفة فى الغزل وفقد بصره وشيخوخته . ولابن أبى طاهر مدائح كثيرة فى الوزراء ، وله أهاج لاذعة . واشتهر ابن دريد بمدائحه لابن ميكال والى الأهواز ، وخاصة بمقصورته فيه وقد شُرحت مراراً وتكراراً . وخمد فى العصر الهجاء القبلى ، وظل الهجاء الشخصى محتدمًا ، ومن أكبر الهجّائين فى العصر الصَّيْمرى ، وخبره مع المتوكل والبحترى مشهور . وأشد إيلامًا ووَخْزاً منه فى الهجاء الحمدونى ، وقد دارت على كل لسان فى عصره أهاجيه فى طيلسان ابن حرب وشاة سعيد بن أحمد . وهَجّاء العصر غير منازَع ابن بَسّام ، وله فى أبيه أهاج كثيرة ، ولم يكد يترك خليفة ولا وزيراً ولا أميراً ولا كبيراً فى عصره دون أن يَكْوِيَه بميسم هجائه .

ويكثر شعراء الغزل وشاعراته ، ويظل الغزل العفيف حيًّا حياة خصبة بجوار الغزل المادى الصريح ، ويكثر الناظمون للغزل من كل الأوساط ، وكثيرات من الجوارى فى العصر كن يَنْظِمْنَهُ ويتقنّ نظمه ، وأشهر شعراء الغزل حينئذ خالد ابن يزيد الكاتب ومحمد بن داود الظاهرى وفضل الشاعرة وكان خالد كاتبًا فى الدواوين ، وله رقائق غزلية كثيرة يصوّر فيها حبًّا ظامئًا لا يَرْوَى أبداً ، أما

محمد بن داود فكان فقيهـًا ظاهريـًّا وغزله أفلاطونى نقى طاهر ، وكانت فضل من مولَّدات البصرة ، وهى أشعر الجوارى فى عصرها ، ولها معاتبات ومراسلات كثيرة مع سعيد بن حميد . وكان كثير من الشعراء ينغمس فى اللهو والمجون ، وكانوا يترافقون فى الديارات وفى الحانات وفى دور النخَّاسين ومن أكثرهم خلاعة ومجونـًا الحسين بن الضحاك وأبو الشِّبـْل البرُجْمِىّ وعبد الله بن العباس بن الفضل ابن الربيع . ونادم الحسين غير خليفة ، وهو فارسى الأصل ، وتَشيعُ فى غزلياته وخمرياته عذوبة مفرطة ، ولا يلحقه أبو الشبـْل فى تلك العذوبة ولا فى خفة روحه . وكان عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع يُسْرِف فى الخلاعة والمجون ، وله أشعار فى نصرانية هام بها هيامـًا شديداً ، وشعره مثل شعر الحسين بن الضحاك وافر الموسيقى . وكان يقابل شعراء الخمر والمجون شعراءُ الزهد والتصوف ، وكانوا أقرب منهم إلى قلوب العامة التى كانت تعيش على شظف العيش وتعرف ربـَّها وتتقيه فى السر والعلن ، ويتغنَّى كثيرون بأشعار زاهدة ، ويتكاثر المتصوفة ويتكاثر شعرهم فى المحبة الإلهية والفناء فى الذات العلية . ويظهر الحلاج الذى تمثل فى نفسه الحقيقة الإلهية ، مع إيمانه بتنزيه الله واتحاد الناسوت وهو الروح الإنسانى فى اللاهوت وهو الروح الإلهى على نحو ما يصوِّر ذلك كتابه الطواسين وما فيه من حديث عن هذا الاتحاد ، وهو أول من أعدَّ لفكرة الحقيقة المحمدية وأن الأديان جميعـًا تؤدِّى إلى الله جَلَّ جلاله . وكان الشبـْلىّ الصوفى لا يغلو غلوه ، إذ كان تصوفه سُنيـًّا ، مما جعله ينحىّ عن نفسه أفكار الاتحاد والشهود ، ومع ذلك كان يكثر من الحديث عن الأحوال والمقامات ، وكان يؤمن بفكرة الفناء فى الذات الإلهية . ويلقانا فى العصر شعراء كثيرون ينظمون فى الطرد والصيد ، وكان لهواً ومتاعـًا للخلفاء والوزراء وعلية القوم ، وكانوا يخرجون إليه فى مواكب ومعهم الشعراء وكادوا لا يتركون ضاريـًا من ضوارى الصيد ولا جارحـًا من جوارحه إلا نعتوه ، كما نعتوا الصيد من حُمُر الوحش وأتنه وثيرانه وبقره وظبائه ونعامه وأرانبه والطير والإوز ، وبالمثل نعتوا آلاته من النَّبـْل والسهام والفِخاخ والشباك والبندق . ومن أهم الشعراء الذين شغفوا بوصف الصيد والقَنَص أبو العباس الناشئ ، وكان من المعتزلة ، وكان عالمـًا وناقداً كما كان شاعراً بارعـًا ، وقد اعتمد كشاجم على أشعاره فى صنع كتابه المصايد والمطارد مما يدل بوضوح على كثرة نظمه فى الطَّرَدِ والصيد ، وله أشعار

بديعة في وصف الكلاب والبزاة والشاهين والطير وأيضًا في وصف الأسد وكانوا يفتخرون طويلا بصيده . ويكثر في العصر شعراء النزعات الشعبية ، وخاصة شعراء البؤس المكدين وغيرهم ممن صوّروا ضيق الحياة وما يجرى فيها من ضَنْك شديد ، وصوَّر كثيرون التحامق في صور هزلية . ولا يبارَى جَحْظة البرمكي — الضارب على الطُّنْبور— في تصوير تعاسة الطبقة العامة ، وكثيراً ما صَبَّ سياطه على الحكام الفاسدين. ويمثل الخُبْز أرْزِيّ هذه الطبقة فقد كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب ، ولغته حلوة خفيفة ، وكان مواطنوه في البصرة يشغفون بأشعاره شغفًا شديداً .

وازدهر في العصر النثر ازدهاراً عظيمًا ، وقد ظلت حركة الترجمة ناشطة ، وشاع الاستواء والتناسق فيما تُرْجم من آثار ، وظهر الكندى أول فيلسوف للعرب بالمعنى الدقيق لكلمة فلسفة ، وكان شاعراً وناثراً ممتازاً إذ كان يتمثّل العربية ودقائقها وخصائصها تمثلا بارعًا . وأخذت بيئات مختلفة تتجادل في معايير البلاغة العربية ، فكانت هناك بيئة محافظة مثّلها اللغويون ، وبيئة تفرط في التجديد مثّلها المترجمون ، وبيئة معتدلة مثّلها المتكلمون ، وهي التي كُتب لها السَّداد والنجاح ويمثلها الجاحظ وما وَضَع للبلاغة والبيان العربي من مقاييس فنية . وأبلى اللغويون بلاء حسنًا في تثقيف الناشئة والأدباء باللغة والشعر ويتأثر بهم ابن قتيبة في كتابه « أدب الكاتب » الذى وضعه نبراسًا للكتّاب يهتدون به . ويصنّف إبراهيم بن المدبر رسالة بديعة في موازين البلاغة وأدوات الكتابة . وتحاول بيئة المترجمين والمتفلسفة أن تضع تشريعًا لمقاييس البلاغة العربية في النثر على ضوء المقاييس اليونانية ، ويكتب في ذلك ابن وهب كتابه : «البرهان في وجوه البيان» ولا يقف عند الاحتكام إلى كتاب الخطابة لأرسطو ، بل يحتكم أيضًا إلى كتابيه في المنطق والجدل . غير أن الأدباء في عصره وبعد عصره ازورّوا عن كتابه ومنهجه ، وسادَ بينهم منهج المدرسة الكلامية وذوقها الأدبي العام الذى مثّله الجاحظ في كتاباته خير تمثيل . وضعفت الخطابة في العصر ، ولكن المواعظ لم تضعف ، بل ازدادت اضطرامًا على أيدى المتصوفة ، وأخذت تنتشر لهم حكايات وأقاصيص كثيرة تصور جهادهم في قمع شهوات النفس ومطالبها من لذات الحياة ، وتداولها الناس بحيث أصبحت ضربًا من ضروب الأدب الشعبي حينئذ ، كما تداولوا عنهم حكايات كثيرة عن كراماتهم وأخبارهم . وليس ذلك فحسب ، فإن

بعض المتصوفة كتب فى تصوفه مقالات نثرية بجانب ما كتب من أشعار على نحو ما يلاحَظُ فى كتاب الطواسين للحلاج . وكثرت المناظرات فى العصر بين المتكلمين وكذلك بين الفقهاء ، ومناظرةُ الحسن بن عبد الله السيرافى ومتّى بن يونس فى النحو والمنطق مشهورة ، وبالمثل مناظرات اللغويين . وكأنما أصبحت المناظرات لغة العصر الفكرية حتى ليُعَنْوَنُ كثير من الكتب باسم الردّ أو النّقْض ، وشاعت هذه الروح فى قصص وأخبار جُمعت ونُسِّقت فى كتابى المحاسن والأضداد والمحاسن والمساوى ، وهما كتابان نفيسان ، تلتقى فيهما الثقافات العربية والإسلامية والأجنبية ومأثورات قصصية كثيرة عن الفرس والهند واليونان . وطبيعى أن تظل الرسائل الديوانية ناشطة فى العصر فقد كانت الدواوين تجذب إليها كتّاب العصر البارعين من أمثال عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل وأحمد بن الخصيب وزير المنتصر . ونبغ بعض الولاة فى كتابة تلك الرسائل مثل محمد بن عبد الله بن طاهر ، ومن كتابها النابهين لعهد المهتدى سعيد بن عبد الملك . وارتقى كاتب من كتابها المرموقين إلى مرتبة الوزارة فى عصر هذا الخليفة هو سليمان بن وهب ، وكان ابنه عبيد الله وحفيده القاسم من كبار الوزراء ونابهى الكتّاب . ويشيع السجع فى الرسائل الديوانية لعصر المقتدر ، ويصبح منذ هذا التاريخ ظاهرة عامة لا تخلو رسالة من وَشْيه وزخارفه . ويظل للرسائل الإخوانية نشاطها بدورها ، ولا تترك موضوعاً للشعر إلا وتشاركه فيه ، ويشيع فيها السجع مبكراً ، وتلقانا بعض رسائل مسجوعة سجعاً خالصاً ، منها رسالة طويلة لأبى على البصير كلها هجاء مرير . وكان أبو العَيْناء يسجع فى رسائله الشخصية . وكان ابن مكرم لا يُشيع السجع فى رسائله ، ولكن ألفاظه كأنها درر مختارة سواء فى اصطفاء اللفظ أو فيما يوشّيها به من زخرف البديع . وكان أحمد بن سليمان بن وهب يسجع فى رسائله بينما كان يتخفف منه ابن أبى طاهر ، ومثله ابن المعتز . وتنشط كتابة الرسائل الأدبية ، وكان الجاحظ يشيع فيها أسلوب الازدواج ، على حين نجد ابن المعتز فى رسالة طريفة يمدح فيها سامرّاء ويذم بغداد يملؤها بالسجع وألوان البديع وزخارفه . وكأن ذلك كله كان إرهاصاً بأن السجع سيعمّ مع أواخر القرن فى جميع الرسائل سواء أكانت أدبية أو إخوانية أو ديوانية .

وأعلامُ الكتّاب فى العصر إبراهيم بن العباس الصولى والجاحظ وابن قتيبة وسعيد ابن حُميَد وأبو العباس بن ثوابة . وقد ولد إبراهيم بن العباس ونشأ ببغداد، وظهرت فيه مخايل الأدب مبكرة ، فالتحق بدواوين الفضل بن سهل ، وظل يعمل فى دواوين الدولة وولاياتها حتى نكبه ابن الزيات وزير المعتصم والواثق وسجنه ، وعفا عنه الواثق ، حتى إذا كان عهد المتوكل ابتسمت له الدنيا، فقلّده ديوان الرسائل ودواوين مختلفة ، وظل يكتب كل ما يصدر عن المتوكل من منشورات وفتوح وعهود لأولياء العهد وتهنئات بالأعياد . وكثير من ذلك كله احتفظ به الطبرى ، وهو يصوّر عنايته بتقطيع العبارات واصطفاء الألفاظ واستخدام بعض ألوان البديع دون إفراط ، وقد يضيف إلى ذلك أحيانًا اجتلاب بعض الأسجاع . وفى تحميداته ما يدل على ثقافة اعتزالية واضحة . وكان يوازن بين عباراته موازنات دقيقة فى الصوت والجرس والأداء، كما كان يعنى أشد العناية بمعانيه ، حتى تروق كتاباته اللسان والجنان ، وقد تصبح بعض القطع عنده سجعًا خالصًا .

والجاحظ أكبر كتّاب العصر ، بل أكبر كتّاب العربيه قاطبة ، وقد نشأ بالبصرة وتمثّل كل ما كان فيها من معارف ، وهو معتزلى كبير بل صاحب مذهب اعتزالى قائم بنفسه سُمّى الجاحظية نسبة إليه . وهو لا يبارَى فى وضوح كتاباته وقدرته على التوليد فى المعانى ، واستنباط خفياتها ودقائقها . وقد صوّر فى أعماله مجتمعه بجميع طبقاته العليا والوسطى والدنيا . وكان يُعْنَى بصياغته عناية كاملة ، واستطاع أن يفرض على العربية أسلوبه الذى ابتكره ، ونقصد أسلوب الازدواج ، وحقًا نجد له مقدمات عند غيره ، ولكنه هو الذى استمسك به وأشاعه فى جميع آثاره ، مع روح الدعابة التى يتميز بها ومع الاستطرادات الكثيرة حتى لا يمله القارئ . وقد عرضت خمسة ألوان من كتاباته : اللون الأول المناظرات واخترت مناظرة معبد والنظام التى وضعها فى أوائل كتابه الحيوان واحتلت فيه نحو مجلد ونصف ، وهى لا شك من عمله إذ جميعها بصياغته وأسلوبه. واللون الثانى رسائله الشخصية وهى حافلة بمهارته فى استنباط الأفكار وجمال أسلوبه . ومثلها اللون الثالث وهو رسائله الأدبية الباهرة . واللونان الرابع والخامس هما القصص والنوادر ، إذ كان قصّاصًا ممتازًا كما كان بارعًا فى سرد النوادر .

وأكبر مؤلّف أدبى ظهر فى العصر بعد الجاحظ ابن قتيبة ، وهو بحكم

ثقافته الدينية يبدو محافظاً فى بعض آرائه النقدية ويشتهر بسياطه التى ألهب بها ظهور الشعوبيين، وأهم أسلحته الحربية التى اتخذها ضدهم فى رأينا أنه حاول فى كتابه «عيون الأخبار» المزج بين الثقافات الإسلامية والعربية والفارسية واليونانية والهندية مزجاً أسقط به الصراع العنيف بين الشعوبيين والعرب ، فليس هناك ما يسمى فارسياً مستقلا أو هندياً أو يونانياً أو إسلامياً أو عربياً ، بل هى ثقافة واحدة ، وهى ثقافة تشمل أيضاً ما عند أهل الكتاب ، فكل الثقافات دينية ومدنية تستحيل إلى هذه الصورة الجديدة التى صاغها ابن قتيبة ، بحيث خَفَتَ صوت الشعوبية ، فكل ما كانت تفتخر به على العرب أصبح من صميم العربية . وصاغ ابن قتيبة ذلك فى أسلوب أدبى ناصع يمتاز بالوضوح وانتخاب الألفاظ الرصينة واستخدام الازدواج محاكاة للجاحظ أحياناً والاسترسال أحياناً أخرى . وقد يجرى السجع على لسانه ، ولكن دون أى تكلف ، ويتشبه بالجاحظ أحياناً فى نقل الواقع وفى خلط الجد بالهزل وإيراد بعض النوادر .

وسعيد بن حميد من أصل فارسى ، عُنى أبوه بتثقيفه والتحق بالدواوين وتألق نجمه فيها حتى أصبح رئيساً لديوان الرسائل فى عصر المستعين ، وينصُّ الطبرى على بعض ما كتبه من رسائل ديوانية ، وكان يُعْنَى أشد العناية بانتخاب ألفاظه وتقطيعها وتقابل الكلمات ، وقد يتكامل التقابل والتقطيع حتى يصبح الكلام سجعاً ، وله بجانب رسائله الديوانية رسائل إخوانية بنفس الأسلوب الذى وصفناه ، ونحس عنده دائماً رغبة قوية فى النفوذ إلى أفكار مبتكرة ، حتى لتصبح الرسالة ضرباً من الحيل العقلية يروع بطرافته ، مع دقة التعبير وجماله .

وأبو العباس بن ثوابة من أسرة أصلها مسيحى ، عملت فى دواوين الدولة العباسية ، وتميَّز هو من بين أفرادها فى منتصف القرن الثالث الهجرى إذ التحق بدواوين الدولة ، وما زال يصعد فى مراتبها حتى اختير لرياسة ديوان الرسائل ، وله عهد طريف إلى أحد الولاة كتبه عن الموفق ، وهو يصور فساد الحكم حينئذ ، كما يصور عمل صاحب الحسبة ، وله رسائل إخوانية مختلفة ، يتضح فيها الحس المفرط والشعور الحاد كما يتضح السجع مضيفاً إليه مادة تصويرية بديعة .

فهرس الموضوعات

صفحة

صفحة

كتب للمؤلف مطبوعة بالدار

فى الدراسات القرآنية

- سورة الرحمن وسور قصار : عرض ودراسة
الطبعة الأولى ٤٠٤ صفحات

فى تاريخ الأدب العربى

- العصر الجاهلى
الطبعة السادسة ٤٣٦ صفحة
- العصر الإسلامى
الطبعة السادسة ٤٦١ صفحة
- العصر العباسى الأول
الطبعة الخامسة ٥٧٦ صفحة

فى مكتبة الدراسات الأدبية

- الفن ومذاهبه فى الشعر العربى
الطبعة الثامنة ٥٢٤ صفحة
- الفن ومذاهبه فى النثر العربى
الطبعة السابعة ٤٠٠ صفحة
- التطور والتجديد فى الشعر الأموى
الطبعة الخامسة ٣٤٠ صفحة
- دراسات فى الشعر العربى المعاصر
الطبعة الرابعة ٢٩٢ صفحة
- شوقى شاعر العصر الحديث
الطبعة السادسة ٢٨٦ صفحة
- الأدب العربى المعاصر فى مصر
الطبعة الخامسة ٣٠٨ صفحات
- البارودى رائد الشعر الحديث
الطبعة الثانية ٢٣٢ صفحة
- البحث الأدبى : طبيعته ، مناهجه ، أصوله ، مصادره
الطبعة الأولى ٢٧٨ صفحة

- فصول فى الشعر ونقده
الطبعة الأولى ٣٦٨ صفحة

فى الدراسات البلاغية واللغوية

- البلاغة : تطور وتاريخ
الطبعة الثانية ٣٨٠ صفحة
- المدارس النحوية
الطبعة الثانية ٣٧٦ صفحة

فى مجموعة نوابغ الفكر العربى

- ابن زيدون
الطبعة السابعة ١٢٠ صفحة

فى مجموعة فنون الأدب العربى

- الرثاء
الطبعة الثانية ١٠٨ صفحات
- المقامة
الطبعة الثانية ١١٢ صفحة
- النقد
الطبعة الثالثة ١١٢ صفحة
- الترجمة الشخصية
الطبعة الثانية ١٢٨ صفحة
- الرحلات
الطبعة الثانية ١٢٨ صفحة

فى التراث المحقق

- المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد
الجزء الأول – الطبعة الثانية ٤٦٨ صفحة
الجزء الثانى – الطبعة الثانية ٥٧٢ صفحة
- كتاب السبعة فى القراءات لابن مجاهد
الطبعة الأولى ٧٨٨ صفحة

فى الدراسات النقدية

- فى النقد الأدبى
الطبعة الثالثة ٢٥٠ صفحة

فى سلسلة اقرأ

- العقاد
- البطولة فى الشعر العربى

تاريخ
الأدب
العربى
٥

دكتور شوقى ضيف

عصر
الدول والإمارات

الجزيرة العربية - العراق - إيران

دار المعارف

تاريخ
الأدب العربى
٥

عصر
الدول والإمارات

الجزيرة العربية - العراق - إيران

تأليف
الدكتور شوقى ضيف

الطبعة الثانية

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

عصر

الدوَل والإمَارات

الجزيرة العربية - العراق - إيران

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

هذا هو الجزء الخامس من تاريخ الأدب العربى ، وهو خاص بالجزيرة العربية والعراق وإيران فى عصر الدول والإمارات الممتد من سنة ٣٣٤ للهجرة إلى العصر الحديث . وكان المؤرخون للأدب العربى يدخلون منه نحو ثلاثة قرون فى العصر العباسى الثانى منتهين به حتى سنة ٦٥٦ حين أغارُ قُطعان التتار على بغداد وقوَّضوا ما كان فيها من مدنية وحضارة . وكان هؤلاء المؤرخون يسمون الحقب التالية حتى الغزو العثمانى لمصر والشام والعراق باسم العصر المغولى ، وسموا فترة حكم العثمانيين لتلك البلدان باسم العصر العثمانى . وكل ذلك تصور مخطئ ، لأن سلطان الخلافة العباسية تتقلص ظلاله منذ سنة ٣٣٤ بحيث لا يكاد يبقى للخلفاء العباسيين منه فى كثير من الأمر سوى بغداد ، فقد كانت إيران بيد بنى بويه ونفس العراق أظله سلطانهم ، وكانت البحرين واليمامة بيد القرامطة ، وكانت الموصل وحلب بيد الحمدانيين ، ومصر والشام بيد الإخشيد ، والمغرب وإفريقيا بيد الفاطميين ، والأندلس بيد عبد الرحمن الناصر. وتعاقبت دول كثيرة فى اليمن وفى أنحاء الجزيرة العربية ، وبالمثل فى كل البلدان والأقاليم المذكورة ، بحيث يصبح من الخطأ أن تنسب القرون : الرابع والخامس والسادس حتى منتصف السابع إلى الخلافة العباسية ، وحتى ما بقى لها من اعتراف بالولاء فى بعض الدول والإمارات إنما كان اعترافاً اسميًّا ، لا يدل على أى سلطان وراءه . ومن الخطأ الإبقاء على تسمية القرون الثلاثة التالية لغزو التتار بغداد باسم العصر المغولى ، بينما كان سلطان المغول فيها لا يتجاوز إيران والعراق دون بقية العالم العربى ، وتلك البقية هى الشطر الأكبر منه : الجزيرة العربية والشام ومصر والمغرب والأندلس ، لذلك رأينا أن ندمج العصر المغولى فى عصر الدول والإمارات ، لأن هذه التسمية هى الألصق بالعصر ، وهى أكثر دقة ومطابقة للواقع . وبالمثل أدمجنا فيه ما سُمِّى بالعصر العثمانى ، لأنه لم يكن عصراً بالمعنى الحقيقى ، وإنما كان حقبة مظلمة ، تتمة لعصر الدول والإمارات ، وثمرة مرة لما أصاب العرب فيه من انقسام وتفكك .

وحقًّا يكون عصر الدول والإمارات فى تاريخ الأدب العربى بذلك عصراً طويلا ، غير أن طوله لايعنى أى تفاصل روحى أو فكرى بين دوله وإماراته ، فقد كان هناك دائماً شعور عام فى كل مكان بأن هذه الإمارات والدول جميعاً إنما هى وطن عربى واحد ، وطن لاتُحدث فيه الانقسامات أى تقاطع علمى أو أى تنابذ أدبى ، وطن تتواصل أجزاؤه ووحداته تواصل الأفراد فى أسرة واحدة. ولذلك مظاهر شتى ، فقد كان العلماء حين يؤلفون كتاب تراجم عامًّا يجمعون فيه كل من عاشوا من النابهين فى هذا الوطن الكبير ، وكانوا إذا ألفوا كتاباً فى تراجم علم كالقراءات أو التفسير أو النحو أو حتى فى فرع كفقه الشافعية أو المالكية أو الأحناف أو الحنابلة جمعوا فيه علماءه فى جميع البلدان العربية ، وبالمثل حين يؤلفون أحيانا فى تراجم الشعراء يجمعون فى مؤلفاتهم كل الشعراء فى جميع الأقاليم العربية ، متناسين ، بل مهملين ، الفواصل السياسية والجغرافية بين الأقاليم والبلدان ، وكأنها فى رأيهم أقواس وهمية فى المخطَّطات السياسية والجغرافية ، لاتدل أى دلالة على فوارق علمية أو أدبية . ومظهر ثان ، هو أن الكتاب حين كان يؤلَّف يصبح ملكاً لعلماء العالم العربى جميعهم ، فهم يشرحونه أو يشرحون شرحه أو يكتبون تقارير عليه ، يشترك فى ذلك قاصيهم ودانيهم ومَنْ فى أقصى المشرق ومَنْ فى أقصى المغرب ، ونضرب لذلك مثلا كتاب أو متن التلخيص فى علوم البلاغة للقزوينى الدمشقى المتوفى فى القرن الثامن الهجرى ، فقد شرحه علماء من مصر ومن المغرب ومن أقصى المشرق ، فهو ليس كتاب دمشق وحدها بل هو كتاب البلدان العربية جميعها . ونضرب مثلا ثانياً ديوان المتنبى فإنه لم يكد يبقى بلد عربى إلا وتجرَّد له عالم من علمائه يشرحه ويعرض شرحه على الطلاب ، ومن أهم شروحه شرح ابن جنى والعكبرى فى العراق وشرح ابن المستوفى فى إربل وشرح أبى العلاء المعرى فى الشام وشرح الواحدى فى إيران وشرح الإفليلى وابن سيده فى الأندلس ، غير شروح أخرى ، وغير دراسات نقدية لا تكاد تُحْصَى ، وكأن ديوانه ليس ديوان بلد بعينه ، وإنما هو ديوان الأمة العربية جميعها . وليس ذلك فحسب ، فإن ابن هانىء الأندلسى توفى بعده بنحو ثمانية أعوام ، وقد درس شعره وتمثل منهجه تمثلا تامًّا ، بحيث كان ينظم أشعاره على غراره ، وبحيث سماه النقاد متنبى الأندلس . وكل ذلك يصور بقوة وحدةَ الشعور والفكر فى هذا العصر المتطاول عصر الدول والإمارات ، وهى وحدة ظل الشعر كما ظل النثر ، وظل الأدب كما ظل العلم ، مرآتها الصافية .

وإذا كنا قد أفردنا للجزيرة العربية والعراق وإيران جزءاً فى هذا العصر ، فسنفرد لمصر

والشام جزءاً ثانياً وللأندلس والمغرب جزءاً ثالثاً . وقد بدأنا حديثنا عن الجزيرة العربية بعرض الحياة السياسية لأقاليمها الأساسية فى هذا العصر ، وهى الحجاز ونَجْد واليمن وحَضْرَمَوْت وظَفار وعُمان والبَحْرين ، وعرضنا مجتمعها البدوى والحضرى وما كان فيها من نحل شيعية وخارجية وما شاع فى نجد من الدعوة الوهابية ، وما حفَّ بذلك من زهد ونسك . وصوّرنا جداول الثقافة التى كانت تجرى فى كل مكان ومارافقها من نشاط العلوم اللغوية والإسلامية . كما صورنا نشاط الشعر فى الأقاليم المختلفة للجزيرة وطوائفه المتقابلة من شعراء مديح ورثاء وفخر وهجاء وأهم شعراء الدعوات المختلفة من إسماعيليين وزيديين وخوارج ووهابيين ، وبالمثل شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية . وأوضحنا ماكان من نشاط للكتابة فى نجد وغيرها من أقاليم الجزيرة وماكان من نمو كتابة الرسائل الديوانية والشخصية ، ونمو الوعظ والمحاورات والرسائل الأدبية .

وبالمثل تحدثنا عن العراق وحياتها السياسية وما تعاقب عليها من دول وكيف أن مجتمعها كان يتألف من ثلاث طبقات : عليا مترفة ، ووسطى على شىء من اليسار ، ودنيا بائسة ، وشيوع المذهب الإمامى الاثنى عشرى بها وشيوع الزهد والتصوف وطرقه ، وما كان من نشاط الحركة العلمية بها وتأسيس جامعتى النظامية والمستنصرية ببغداد ، وكثرة المدارس هناك مع ماكان فى المساجد من نشاط علمى واسع ، بحيث أصبحت الثقافة – حتى الثقافة الفلسفية – غذاء شعبيًّا عامًّا . وتتكاثر ببغداد الندوات الفكرية ، وتتكاثر الكتابات الفلسفية والطبية والعلمية ، كما تتكاثر البحوث اللغوية والنحوية والنقدية ، وتنشط الدراسات الإسلامية والتاريخية . ويكثر الشعراء فى العراق كثرة مفرطة وينظمون فى الرباعيات والموشحات . وتتقابل طوائفهم من شعراء مديح على رأسهم المتنبى إلى شعراء رثاء وهجاء وشكوى ، وشعراء غزل وقد نفذوا إلى ضرب جديد من الشعر الوجدانى . وبجانبهم شعراء لهو ومجون ، وشعراء زهد وتصوف ومدائح نبوية ، وشعراء فلسفة وشعر تعليمى ، وشعراء شعبيون . ويتنوع النثر تنوعاً واسعاً ، فمن نثر فلسفى إلى نثر علمى ومناظرات ووعظ وقصص ورسائل شخصية وديوانية ، وتتألق أسماء طائفة من الكتاب النابهين .

وتحدثنا عن إيران وأحوالها السياسية والدول المتقابلة بها والمتعاقبة ، وعن مجتمعها والطبقات التى كانت تكوِّنه : العليا والوسطى والدنيا ، وعن نشاط الشيعة بها : الزيدية والإمامية والإسماعيلية وماكان يَسْرِى فيها من زهد وتصوف . وعرضنا الحركة العلمية بها والعناية بالمدارس والمكتبات وما حدث هناك من نشاط فى دراسة الفلسفة وعلوم الأوائل ، وفى وضع المعاجم والبحوث اللغوية والنحوية والبلاغية والنقدية ، وفى الدراسات

الإسلامية والكتابة التاريخية . ويزدهر الشعر بإيران فى القرنين الرابع والخامس للهجرة ، ويظل حيًّا نامياً حتى القرن التاسع ، ويتكاثر شعراء المديح والرثاء والفخر والهجاء والشكوى والغزل واللهو والمجون والزهد والتصوف والفلسفة والحكمة والأمثال وأصحاب الشعر الشعبى . ويتنوع النثر ويظهر فيه قصص صوفى كثير وقصص فلسفى بديع ويتكاثر كتّاب الرسائل الديوانية والشخصية ، ويلمع فى كل دولة وإمارة غير كاتب بارع .

وهذه الدراسة المتشعبة لتاريخ الأدب العربى فى الجزيرة العربية والعراق وإيران طوال حقب ممتدة من العصر العباسى الثانى إلى العصر الحديث جعلتنى أرجع إلى كل ما استطعت من كتب التاريخ والجغرافية والثقافة والأدب شعرا ونثرا لأجمع منها المادة العلمية التى تتطلبها الدراسة . ورجعت إلى طائفة من كتب المحدثين من العرب والمستشرقين . وأعترف بأن عقبات كثيرة صادفتنى وخاصة فى المصادر والحصول عليها ، وقلتّها أحيانا فى بعض الجوانب . وقد حاولت جهدى أن أرسم المعالم الأساسية لتاريخ الأدب فى تلك الأقاليم أثناء هذه الحقب المتطاولة ، ولا أزعم أننى استطعت أن أوفِّى هذا الرسم حقه كاملا من الدقة والاستقصاء . واللهُ ولىُّ الهُدَى والتوفيق .

القاهرة فى أول يونية سنة ١٩٨٠ م .

شوقى ضيف

القسم الأول

الجزيرة العربية

الفصل الأوّل

السياسة والمجتمع

١

أقاليم ودول وإمارات

تتعدد الأقاليم فى الجزيرة العربية لاتساع رقعتها ، فنى الغرب إقليم الحجاز بمدنه وسلسلة جباله المسماة بالسَّراة الممتدة من الشمال إلى الجنوب ، مشرفة غرباً على منطقة ساحلية رملية ضيقة ، هى تِهامة التى تفصل بينها وبين بحر القُلْزُم (البحر الأحمر) ومشرفة شرقاً على هضبة نَجْد الفسيحة التى تظل تنحدر نحو الشرق ، حتى تصاقب أرض العَروض : اليمامة والبَحْرين ، وتظل تنبطح شمالا فى إقليم القَصيم حتى جبلى أجاً وسلمى ، وتلتقى بصحراء النفود الممتدة من تيماء إلى الشرق ، حتى إذا قربت من العراق بسطت ذراعاً لها نحو الجنوب تسمى الدهناء أو رملة عالج ، وتستدير حول اليمامة منبطحة فى الربع الخالى ، وهو صحراء مجدبة تفصل بين اليمامة ونجد من جهة وبين حَضْرَمَوْت وظَفار وعُمان من جهة ثانية ، وما تلبث أن تتصل بصحراء الأحقاف التى تفصل بين اليمن وبين نجد والحجاز . وتستقل اليمن بالزاوية الجنوبية الغربية من الجزيرة ، وتتوسط حَضْرَمَوْت ومعها ظفار بينها وبين عُمان التى تشرف على المحيط الهندى من جهة وعلى الخليج العربى من جهة ثانية ، وكانت تشمل قديماً طائفة من الإمارات القائمة الآن على الخليج ، وهى رأس الخَيْمة والشارقة ودُبَىّ وأبو ظَبْى . وشمالىّ هذه الإمارات البحرين ، وكانت تشمل إمارة قَطَر الحالية وإمارة الكُوَيْت الحديثة ، وكذلك الأحساء . والأقاليم الأساسية فى الجزيرة العربية لهذا العصر الممتد من سنة ٣٣٤ للهجرة إلى العصر الحديث هى الحجاز ونجد واليمن وحَضْرَمَوْتُ وعُمان والبَحْرين ، وسنخص كل إقليم بطرف من الحديث عن دوله وإماراته .

الحجاز[١] وإماراته

كانت فى الحجاز لهذا العصر إمارتان : إمارة مكة وكانت تتبعها قرى الطائف وجدة وبطن نَخْـل وعُسْفان ومرّ الظَّهران . وإمارة المدينة وكانت تتبعها قرى خَيْبر وفَدك ويَنْبع والفَرْع ووادى القُرى ومَدْين . وكانت إمارة مكة للحسنيين من أحفاد الحسن بن على بن أبى طالب فى حين كانت إمارة المدينة للحسينيين من أحفاد الحسين بن على بن أبى طالب . وكان الأولون يعتنقون المذهب الزيدى الشيعى ، بينما كان الثانون يعتنقون المذهب الإسماعيلى على الأقل فى عصر الدولة الفاطمية . وكان لإمارة مكة المكانة الأولى ، إذ كان المسلمون – ولا يزالون – يؤمونها سنويا من بقاع الأرض قاصيها ودانيها لأداء فريضة الحج ، وكان مَنْ يُدْعَى له من الخلفاء على منابرها سواء الخلفاء العباسيون أو الفاطميون يعد نفسه خليفة المسلمين قاطبة .

وأول أسرة حسنية حكمت مكة لهذا العصر هى أسرة بنى سليمان أو بنى موسى ، وكان أول من حكمها منهم جعفر بن محمد بن الحسين لسنة ٣٥٦ فقد غلب عليها عقب وفاة كافور الإخشيدى ، وراسله الخليفة المعز الفاطمى كى يقيم باسمه الخطبة فى موسم الحج ، فأبى ، مما جعله يجهِّز له عسكراً لحربه سنة ٣٦٠ وساعد العسكر بنو الحسين أمراء المدينة ، واستولوا على مكة فترة قليلة عادت بعدها إلى جعفر . وتولى بعده ابنه عيسى سنة ٣٧٠ فأذعن للعزيز الفاطمى ، وأقام الخطبة باسمه ، وظلت تقام باسم الفاطميين مدة متطاولة ، وكانوا يرسلون لمكة وأميرها بالميرة ، ومضت تدين لهم بالولاء بعد وفاة عيسى وولاية أخيه أبى الفتوح الحسن بن جعفر سنة ٣٨٤ وهو أهم أمراء الأسرة ، وقد حاول أتباع الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمى أن يحملوه على أن يقرأ سجلا فى المسجد الحرام بالبراءة من أبى بكر وعمر وسَبٍّ بعض الصحابة وبعض أزواج الرسول ﷺ ، فرفض ذلك وقطع

(١) انظر فى أمراء مكة والمدينة تاريخ ابن الأثير وتاريخ ابن خلدون (طبعة بولاق) الجزء الرابع والفاسى فى كتابيه : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام (طبع دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة) والعقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين (طبع القاهرة) وصبح الأعشى للقلقشندى فى مواضع متفرقة والدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى (طبع دار الكتب المصرية) ومعجم البلدان لياقوت فى مكة والمدينة ووفاء الوفا بأخبار دار المصطفى للسمهودى (طبع مطبعة المؤيد) وخلاصة الكلام فى أمراء البيت الحرام لابن زينى دحلان وماضى الحجاز وحاضره للشيخ حسين محمد نصيف وقلب جزيرة العرب لفؤاد حمزة ومقدمة تاريخ العرب الحديث – الجزء الأول – للدكتور عبد الكريم غرايبة ومعجم الأنساب والأسرات الحاكمة لزامباور (الترجمة العربية – طبع القاهرة) .

صلته بمصر . ودفعه – فيما بعد – أبو القاسم المغربى حين فرَّ من مصر على أن يطلب الخلافة لنفسه ، فخُطب باسمه ، وتلقب بالراشد بالله ، وسار إلى مدينة الرملة بفلسطين ، وعاهده أميرها وأمير طيئ حسان بن مفرِّج على نُصْرته . وعلم بذلك الحاكم فأرسل إلى ابن مفرِّج بالأموال ، فنفض يده من أبى الفتوح وأسلمه إلى المصريين ، وفرَّ أبو القاسم المغربى إلى العراق . واضطرَّ أبو الفتوح أن يعلن طاعته للحاكم ، فعفا عنه وعاد إلى إمارته . وحدث بعد عودته فى سنة ٤١٣ أن ضرب رجل من شيعة الفاطميين فى أثناء الحج الحجر الأسود بدبوس ، فصدعه وهو يقول : إلى متى تُعْبَدُ ؟ إلى كم تقبَّل ؟ وبادر الناس إليه فقتلوه هو ونفراً من أصحابه . وما زال أبو الفتوح يلى مكة حتى سنة ٤٣٠ وخلفه ابنه شكر على إمارته ، وأضاف إليها المدينة لمدة ثلاث وعشرين سنة كان يجمع فيها بين الحرمين إلى أن توفى سنة ٤٥٣ وكان فارساً وأديباً شاعراً ، وله قصة ترويها كتب التاريخ عن زواجه من جارية هلالية تسمى الجازية ، وهى نواة قصص أبى زيد الهلالى . وبشكر انقرضت سلالته وحُكْمها فى مكة إذ لم يعقب ولداً ، وصار أمرها بعده إلى عبد له ، غير أن فرعاً من الأسرة الحسنية من بنى هاشم أو الهواشم تغلب على هذا العبد واضطر بنى سليمان إلى الهجرة من مكة إلى شمالىّ اليمن ، فأسسوا لهم إمارة هناك فى المخلاف السليمانى المنسوب إليهم . وكان أحد الهاشميين ، وهو محمد بن جعفر قد تولى أمر مكة بمساعدة الصُّلَيْحى أمير اليمن سنة ٤٥٤ ويقول المؤرخون إنه كان تارة يجعل الخطبة فى الموسم باسم الخلفاء الفاطميين وتارة باسم الخلفاء العباسيين ، تبعاً لما كان يُغْدق عليه من أموال وفيرة من بغداد أو القاهرة ،إذ كان كل من الجانبين يكثر من إرسال الميرة والأموال إليه . واستطاع أن يجمع فى ظل حكمه الحرمين وأن تكون له الإمارة على مكة والمدينة وقُراهما ، وبذلك اجتمع له الحجاز . وولى بعده ابنه القاسم سنة ٤٨٧ حتى سنة ٥١٨ وكانت الخطبة فى عهده تارة تكون باسم الفاطميين ، وتارة باسم العباسيين . ويخلفه ابنه أبو فُلَيتة ، فيجعل الخطبة باسم العباسيين حتى وفاته سنة ٥٢٧ . واتصلت الخطبة باسم بنى العباس فى عهد ابنه القاسم حتى قُتل سنة ٥٥٦ . وخَلَفه ابنه عيسى ، وفى عهده انتهت دولة الفاطميين وحكم مصر صلاح الدين واستولى على الحجاز ومدينتيه : مكة والمدينة ، ثم استولى على اليمن . ويظل أبناء عيسى يلون مكة ، فيخلفه ابنه داود سنة ٥٧٠ وفى عهده يبطل صلاح الدين المكوس التى كانت تؤخذ من الحجاج بجدة ، ويعوِّضه عنها فى كل سنة ثمانية آلاف أردب قمحاً ، ويرسل صلاح الدين مثل ذلك إلى أهل الحرمين . ويدخل سيف الدين طُغْتكين الأيوبى مكة سنة ٥٨٢ ويبطل فيها الأذان بحَىَّ على خير العمل ، عملا بأذان أهل السنة أو الجماعة .

ويخلف داود أخوه مكثر سنة ٥٨٤ ثم ابن أخيه المنصور بن داود . ومنه انتزع مكة قتادة الحسنى سنة ٥٩٧ وظلت إمارتها فى أبنائه إلى العصر الحديث .

وقد استطاع قتادة أن يضم تحت جناح إمارته المدينة والحجاز جميعه ، وكان يخطب للسلطان العادل بن أيوب بعد الخليفة الناصر ، وللكامل بن العادل سلطان مصر بعد أبيه ، وكان يؤذن فى الحرم بحىَّ على خير العمل على قاعدة الإسماعيلية كما يقول صاحب النجوم الزاهرة ، وأيضاً على قاعدة الزيدية من آبائه . وخلفه ابنه الحسن سنة ٦١٧ ونشبت الحرب بينه وبين مسعود الأيوبى أمير اليمن سنة ٦٢٠ واستولى منه مسعود على مكة والحجاز ، وولّى عليهما على بن رسول ثم طغتكين التركى . وعادت مكة إلى بنى قتادة ، ووليها راجح ابن قتادة سنة ٦٢٦ وظلت تتنقل بينه وبين أخيه على وجماز ابن أخيه الحسن ثم ابنه راجح حتى سنة ٦٥٢ . وفى كل هذه الفترة كان أمراء مكة يولّون من قبل العباسيين حتى انقراض دولتهم سنة ٦٥٦ . وكانت مصر بعد ذلك فى عهد السلاطين المماليك هى التى توليهم ، وكانوا يعيِّنون بجانبهم حكاماً لحماية الحجاج وتنفيذ الأوامر السلطانية . ومن أهم أمراء الأسرة أبونُمَىّ الأول الذى ولى مكة سنة ٦٥٢ وثبَّته عليها السلطان بيبرس ، وظل يلى شئونها خمسين عاماً ، ويقول صاحب النجوم الزاهرة : كان يقال لولا أنه زيدى النحلة لصلح للخلافة لحسن صفاته . وروى له الفاسى بترجمته فى كتابه العقد الثمين يميناً أقسمه للسلطان قلاوون صاحب مصر أشبه بعهد موثّق : أن يحمى الحجاج ويؤمِّنهم ، وأن يظل على طاعته وطاعة ابنه الصالح . وكان شاعراً جواداً ، ومدحه شعراء كثيرون فى مقدمتهم الخنديدى. ويخلفه فى سنة ٧٠١ ولداه : رُمَيْثة وعُطَيفة ، ويرسل السلطان الناصر بن قلاوون إلى مكة فى سنة ٧٠٢ عشرة آلاف أردب قمحاً تفرّق فى أهلها . ويستقل رميثة بمكة سنة ٧١٥ ويُقْبض عليه فى سنة ٧١٨ ويرسل إلى مصر ، ويتولاَّها أخوه حُمَيْضة . وتُرَدّ مكة إلى رميثة . ويبلغ الناصر فى سنة ٧٣١ أنه يجهر بمذهب الزيدية ، فينكر ذلك عليه ، ويرسل إليه عسكراً . ويحج السلطان سنة ٧٣٢ ويأمر بأن يشترك معه أخوه عطيفة فى الإمارة ، حتى إذا كانت سنة ٧٣٨ انفرد بها ثانية رميثة حتى سنة ٧٤٤ إذ ترك الإمارة لولديه : ثَقَبة وعجلان . ويتوفى سنة ٧٤٦ ويتأمَّر الأخوان على مكة ، ويجعلها المصريون لعجلان إذ كان ثقبة يعلن نصرته لمذهب الزيدية وأقام له خطيباً زيديا يخطب الناس أيام الحج ، وقبض عليه المصريون ولكنه فر من سجنهم ، وعاد إلى شغبه مع أخيه عجلان حتى توفى سنة ٧٦٢ فخلص الأمر لعجلان . وكان بخلاف آبائه يحب أهل السنة ، وينصرهم على الشيعة الزيدية وغيرهم ، وكانت مصر ترسل إليه بالميرة وبالمحمل على العادة . وكان

ممدَّحاً ، مدحه النِّشو شاعر مكة وغيره ، وأشرك معه ابنه أحمد فى الحكم ، وما زال يلى الإمارة حتى توفى سنة ٧٧٧ وخلفه ابنه أحمد حتى توفى سنة ٧٨٨ . ووليها بعده أخوه على وشركه فى الإمرة أخوه مغامس لمدة سنتين ، وما زال عليها حتى توفى سنة ٧٩٧ فخلفه أخوه الحسن حتى وفاته سنة ٨٢٩ . ويتولاها بعده ابنه بركات حتى سنة ٨٥٩ ويخلفه ابنه محمد حتى سنة ٩٠٣ فتصير لابنه بركات ، وأهم منه ابنه أبو نُمَىّ الثانى الذى سافر إلى مصر عقب استيلاء السلطان العثمانى سليم الأول عليها سنة ٩٢٢ ليعلن تسليم الحرمين إليه .

وكانت إمارة مكة فى العهد العثمانى تتبع ولاية مصر والخلافة العثمانية ، ووليتها ثلاث أسر من أبناء نُمَىّ : أسرة بركات ، ثم أسرة زيد ، ثم أسرة عون . وظلت الولاية فى الأسرة الأولى أكثر من مائة عام ، ثم نافستها أسرة زيد فى القرن الحادى عشر وظلت الإمارة تنتقل من بركاتى إلى زيدى حتى استقل بها بنو زيد ، وظلوا يلونها إلى زمن فتح محمد على للحجاز فى عام ١٢٢٧ هـ / ١٨١٢ م ويعين إبراهيم باشا قائد الجيش المصرى الشريف محمد بن عون عليه . وبذلك تنتقل الإمارة والحكم فيه إلى الأسرة الثالثة من أبناء أبى نُمَىّ ، ونقصد أسرة عون . وحين انسحب جيش محمد على من الحجاز سنة ١٨٤٠ عينت الدولة العثمانية عليه والياً لها ، واستبقت الشريف محمد بن عون ، فكانت السلطة ثنائية بينه وبين الوالى العثمانى ، حتى وفاته سنة ١٢٧٤ هـ / ١٨٥٧ م . وما زالت الإمارة فى أبنائه حتى استخلصها سعود الثانى من حسين بن على آخرهم لا فى هذا العصر ، وإنما فى العصر الحديث .

وكانت إمارة المدينة أقل شأناً من إمارة مكة ، وكانت الرياسة فيها لبنى المهنَّا أحفاد الحسين ، ويُروى أن أحدهم وهو الحسن بن طاهر رحل إلى الإخشيد بمصر ، فأكرمه وأقطعه ما يُغِلّ كل سنة مائة ألف دينار ، وتوفى سنة ٣٢٩ وانعقدت مودة وثيقة بين ابنه مسلم وكافور ، ويقال إن مسلماً كان يدعو للمعز صاحب إفريقية وفى هذا ما يشير إلى أن هذه الأسرة كانت إسماعيلية الهوى ، ويقال أيضاً إنه دخل مصر فطلب منه كافور ابنته لأحد أبنائه ، فردَّه ، فحنق عليه ونكبه ، وهرب ابنه طاهر إلى المدينة ، فأمَّره الحسينيون هناك عليهم ، واستقلَّ بها حتى سنة ٣٨١ وخلفه عليها ابنه الحسن ، واختلف المؤرخون هل الأمراء بعده من سلالته أوهم من سلالة ابن عمه داود بن القاسم الذى يقال إنه وليها بعده . ويذكر بعض المؤرخين أن الحاكم بأمر الله الفاطمى أمر الحسن بن جعفر السليمانى أمير مكة بالإغارة على المدينة سنة ٣٩٠ فأغار عليها وأزال عنها إمارة بنى المهنا ، غير أنها لم تلبث أن عادت إليهم ، وظلت فى أيديهم إلا فترات قليلة كانت تتبع فيها إمارة مكة .

وكانت الأسرة كما أسلفنا إسماعيلية ، وكان الفاطميون يولون أبناءها على المدينة ، الواحد تلو الآخر ، إذ كانوا من شيعتهم . ومن أهمهم منظور بن عمارة المتوفى سنة ٤٩٥ . وتنتهى الدولة الفاطمية على يد صلاح الدين وتدخل الحجاز فى طاعته ، ويُبْقِى على بنى مهنا أمراء للمدينة وكانوا يتولون إمارتها فى العهد الأيوبى من قِبل الخلفاء العباسيين ، ومن أشهرهم حينئذ أبو فُلَيْتَه الذى حضر مع صلاح الدين فتح أَنْطاكيَة سنة ٥٨٤ وولى بعده ابنه سالم ، وكان شاعراً ، وكانت بينه وبين قتادة شريف مكة موقعة بذى الحُلَيفة بالقرب من المدينة سنة ٦٠١ هزم فيها قتادة ، وفى ذلك يقول ملتاعاً :

مصارعُ آلِ المصطفى عُدْنَ مثلما بَدَأْنَ ولكنْ صِرْنَ بين الأقاربِ

ويقال إن سالماً حضر إلى مصر فى سنة ٦١٠ للشكوى من قتادة ، ومات فى طريق عودته قبل وصوله إلى المدينة ، وولى بعده ابنه شيحة وظل على المدينة حتى قتل سنة ٦٤٧ وخلفه ابنه عيسى ، وقبض عليه أخوه جَمَّاز سنة ٦٤٩ وملك مكانه ، وهو الذى ظلت الإمرة بعده فى بيته ، وطال عمره حتى سنة ٧٠٤ وعمى فى آخر أيامه ، وقدم مصر سنة ٦٩٢ فأكرمه سلطانها خليل وعظمه ، وقبل شفاعته فى أمير ينبع وفى أبى نُمَى أمير مكة وكان قد غاب عن لقاء الركب المصرى . وخلفه ابنه منصور ، ووفد أخوه مقبل على الظاهر بيبرس (هكذا فى ابن خلدون وصبح الأعشى وهو المظفر بيبرس الجاشنكير) فأشرك بينهما فى الإمرة وفيما عيَّنه من إقطاع لأمير المدينة ، وغاب منصور عن المدينة لأمر واستخلف ابنه كبيشة ، فملكها مقبل من يده ، ولحق كبيشة بأحياء العرب ، فنصروه على عمه وسقط قتيلاً سنة ٧٠٩ ورجع منصور إلى إمارته ، وظل بها حتى توفى سنة ٧٢٥ . ويكثر الخلاف بين أفراد هذه الأسرة وما يكاد يتولاها شخص منهم حتى ينقضَّ عليه آخر . ويكفى أن نذكر ممن تولوا إمارتها حتى نهاية القرن الثامن على الترتيب كبيشة بن منصور ، وودِّى بن جماز وطفيل بن منصور وسيف وفضل ومانع من عقب جماز ، ثم جماز بن منصور وهبة ابنه ، وهبة آخر من عقب وَدِّى وعُطَيفة بن منصور بن جماز وهبة بن جماز وجماز بن هبة بن جماز ونُعَيْر بن منصور وثابت بن نعير . وكثيراً ما كان يثب على الإمارة أحد هؤلاء الأربعة عشر والياً حتى سنة ٧٩٩ . ووراء هؤلاء أسماء أمراء للمدينة آخرين مثل محمد بن عطيفة المتوفى سنة ٧٨٨ وهُبازع بن هبة الله المتوفى بالسجن فى الإسكندرية سنة ٧٨٩ . وحقًّا كانت تتبع المماليك وكانوا هم الذين يولون عليها الأمراء ، ولكن الأمر أفلت من أيديهم إزاء هذا الصراع الحاد ، فما يكادون يولون شخصاً حتى تقيم الأسرة شخصاً آخر وتطلب توليته ، ويفزع إلى القاهرة كى تخلع عليه وتنصبه أميراً . على كل حال

ساء الحكم فى هذه الإمارة منذ القرن الثامن الهجرى ، وكلما قطعنا شوطاً فى الزمن اشتد سوءه ، حتى لنرى أحد أمرائها من أحفاد نُعَيْر المسمى الحسن بن الزبير يعتدى فى يوم الثلاثاء السادس من ربيع الأول سنة ٩٠١ على حراس الحرم النبوى وينهب ما فى الحجرة النبوية الطاهرة من تحف ونفائس . وتتدهور الإمارة منذ هذا التاريخ وتدخل مع الحجاز فى حكم الدولة العثمانية ، وتظل لهذا البيت الحسينى عليها إمارة اسمية . ويؤكد ابن خلدون والقلقشندى أنهم كانوا على مذهب الإمامية الرافضة ، بينما كان أمراء مكة زيدية ، ومرَّ بنا أن أمراء المدينة كانوا إسماعيلية ، ويبدو أنهم اعتنقوا المذهب الإسماعيلى فى العهد الفاطمى حتى إذا انقضت الدولة الفاطمية تحوَّلوا فيما بعد إمامية اثنى عشرية .

نجد وقبائلها وشيوخها [1] وإماراتها .

ظلت نجد تعيش حياتها الرعوية وتنتشر فيها قبائلها الباقية بعد من هاجر منهم فى عصر الفتوح ، ولا نكاد نعرف شيئاً واضحاً عن هذه القبائل منذ أوائل هذا العصر الممتد من سنة ٣٣٤ للهجرة إلى العصر الحديث إلا ما يتصل برحلات هذه القبائل إلى الشرق وما كوَّنته هناك من إمارات ، وكذلك ما يتصل برحلاتها إلى الغرب وقد مضت تتغلغل فيه متجاوزة مصر إلى بلاد المغرب ، وأيضاً ما يتصل بقبيلة طيئ التى كانت تحتل منطقة جبلى أجأ وسلمى وتنتشر فى بوادى الشام والعراق ، وقد جعلتها مواطنها فى هذه الأنحاء تتصل بدول العراق ومصر والشام .

ولعل أول ما نقرؤه من أخبار عن تحركات القبائل النجدية فى هذا العصر يتصل ببنى هلال بن عامر وأبناء عمومتهم عُقَيْل وربيعة ، وكذلك بنى سُلَيْم . وكان العامريون ينزلون فى جبل غَزْوان ، بينما كان بنو سليم ينزلون شرقى المدينة ، وكانوا جميعاً يطوفون بأطراف الجزيرة فى العراق والشام ويغيرون على القرى هناك ، وكان بنو سليم يغيرون أحياناً على الحجاج فى مواسم الحج ، وكانت البعوث تجهَّز لهم من بغداد للإيقاع بهم . ولما ظهر القرامطة بالبحرين تحيَّز كثيرون من العامريين وبنى سليم إليهم ، وصاروا جنداً لهم فى البحرين وعُمان ، وحين أغار الأعصم القرمطى سنة ٣٦٠ على الشام ، وهزمته جيوش

---

(١) انظر ابن خلدون وتاريخ ابن الأثير والمختصر فى أخبار البشر لأبى الفدا والجزء الرابع من صبح الأعشى وذيل تاريخ دمشق لابن القلانسى والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى فى مواضع متفرقة والخريدة للعماد الأصبهانى وابن خلكان فى أمراء بنى عقيل وبنى أسد وروضة الأفكار لحسين بن غنام وعنوان المجد فى تاريخ نجد لابن بشر وقلب جزيرة العرب لفؤاد حمزة ومقدمة تاريخ العرب الحديث - الجزء الأول (١٥٠٠ - ١٩١٨ م) للدكتور عبد الكريم غرايبة .

الفاطميين نقل الخليفة الفاطمى العزيز جنده من بنى هلال وبنى سليم إلى صعيد مصر ، وبعث بهم المستنصر بعده إلى المغرب ، فخربوا مدن تونس وملكت سليم شرقى البلاد وبنو هلال غربيها . وكان قد انضم إلى الأعصم فى حربه للفاطميين شيخ طيئ : حسان بن الجراح ، حتى إذا انهزم الأعصم دنا من العزيز وأكرمه، وتظل لبنى الجراح رياستهم لطيئ وعرب بادية الشام طوال العهد الفاطمى ، ويتوفى حسان سنة ٣٦٧ ويخلفه أخوه دَغْفل المفرج ويستولى على الرملة بفلسطين ، ويتولى زعامة طئ بعده ابنه حسان سنة ٤٠٤ وكان يعين الفاطميين فى حروبهم واستولى على عسقلان سنة ٤١٤ وعلى أفاميه سنة ٤٢٢ ولا نجد له ذكراً بعد سنة ٤٣٣ ومن أهم شيوخ بيته بعده فضل بن ربيعة حليف قِرْواش صاحب الموصل .

وإذا اتجهنا إلى الشرق وجدنا بنى خفاجة من عُقَيل بن عامر وقد توغلوا نحو اليمامة ، وزحزحتهم فتنة القرامطة صوب حدود العراق ، فملكوا ضواحيه ، وأصبحوا سادة الكوفة فى ظل أميرهم عِلْيان بن ثِمَال الخفاجى الذى أسس هناك إمارة بنى ثمال سنة ٣٧٤ للهجرة وخلفه فيها أبناؤه ، ونظل نسمع عن غاراتهم مع أبناء عمومتهم بنى المنتفق بن عامر بن عقيل طوال القرن الخامس الهجرى وحتى منتصف القرن السادس إذ كانوا يغيرون على الأنبار والعراق إغارات متصلة ، وكانوا لا يزالون ينزلون فى هذه الأنحاء فى بطائح البصرة وواسط حتى عصر ابن خلدون متنقلين بخيامهم من مكان إلى مكان .

ونزحت قبائل وعشائر كثيرة لبنى عُقَيل بن عامر إلى الموصل فى الشمال الشرقى من الجزيرة واستطاعوا أن يقيموا لأنفسهم فيها إمارة كان أولُ أمرائها ومؤسسها أبا الزَّهَّار محمد ابن المسيب العقيلى الذى تغلب على الموصل سنة ٣٨٠ وخَلَفه أخوه المقلَّد العقيلى الذى اتسعت مملكته ، وقد حارب بنى خفاجة واضطرهم إلى الدخول فى طاعته ، وكان شاعراً ومحبًّا لأهل الأدب وقتله أحد مماليكه الأتراك غيلة سنة ٣٩١ ورثاه الشريف الرضى بقصيدتين وجماعة من الشعراء . وخلفه ابنه قِرْواش ، وكان يمد سلطانه على الموصل جميعه والكوفة والمدائن وسِقْى الفرات ، وأدَّب بنى خفاجة مراراً ، وكان كريماً وهاباً نهاباً ، كما كان شاعراً مجيداً . ودامت إمارته نحو خمسين سنة حتى قبض عليه أخوه بركة وحبسه فى إحدى قلاع الموصل سنة ٤٤١ وتولى مكانه. وتوفى بعد سنتين ، فخلفه ابن أخ له يسمى قريش بن بدران ، وكان أول ما فعله قتل عمه قرواش وتوفى سنة ٤٥٣ فخلفه ابنه مسلم إلى أن قتل سنة ٤٧٨ وكان حسن السيرة عادلا ، كما كان ممدَّحاً ، مدحه ابن حَيُّوس شاعر

الشام وغيره ، ولا نكاد نصل إلى نهاية القرن الخامس الهجرى حتى ينحسر ملك بنى عقيل ابن عامر عن الموصل ويعودوا إلى البادية أو البوادي ، ويقول ابن خلدون إنهم كانوا لعصره فى الآجام بين البصرة والكوفة المعروفة باسم البطائح .

وإمارة ثالثة للبدو على حدود العراق أقاموها فى أوائل القرن الخامس أقامها بنو أسد فى أنحاء الحِلَّة ، وكان أول من تصدى منهم لذلك على بن مَزْيد المتوفى سنة ٤٠٨ وخلفه ابنه نور الدولة دُبَيْس ، ويحالف بنى خفاجة على حرب قِرْواش العقيلى ويحرقان الأنبار انتقاماً منه . وينعقد صلح بين قرواش ودبيس ويهزمان جموعاً للغُزّ ويمدح ابن الشبل البغدادى قرواشاً بهذا النصر المبين . وكان دبيس وأهل بيته وسائر أعماله شيعة ، مثله فى ذلك مثل قرواش . ويمتد حكمه إلى سنة ٤٧٤ وكان يكتب بين يديه على بن أفلح الكاتب المشهور ، ويخلفه ابنه منصور بهاء الدولة ، ويفتكُّ أسرى بنى عُقَيْل حين استولى العسكر السلطانى على حِللهم ويجهزهم ويردهم إلى ديارهم ، وقد تغنى الشعراء بهذه المأثرة طويلا وما يلبث أن يتوفى سنة ٤٧٩ مخلفاً ذكرى طيبة ، غير شعر جيد كان ينظمه . وخلفه ابنه سيف الدولة صدقة ، وكان ذا بأس وسطوة ، وكان يقال له ملك العرب . وكان يسكن هو وآباؤه قبله فى البيوت العربية (الخيام) فبنى الحِلَّة سنة ٤٩٥ وسكنها ، وله قدَّم ابن الهبَّارية كتاب الصادح والباغم ، وتوفى سنة ٥٠١ وخلفه ابنه دُبَيْس وكان أديباً وجواداً كريماً ، وهو الذى عناه الحريرى بقوله فى إحدى مقاماته — وهى المقامة العُمانية — والناس محيطون بأبى زيد يثنون عليه ويقبلون يديه حتى : « خُيِّل إلىَّ أنه القَرَنىّ أُوَيس (واعظ أموى) أو الأسدى دُبَيْس » وقد اشترك فى مؤامرات كثيرة ضد السلاجقة والخليفة المسترشد ، مما دفع السلطان مسعوداً السلجوقى إلى العمل على اغتياله سنة ٥٢٩ . وولى بعده ابنه صدقة ، وسرعان ما ضعفت الأسرة ، وزايلت الحلة ، وعادت مع قومها إلى الحياة البدوية . ولا نعود نسمع بعد ذلك بإمارات عربية على الحدود العراقية الغربية .

ونولّى وجوهنا فى العصرين الأيوبى والمملوكى نحو بوادى الشام ومنازل طيئ فى جبل شَمَّر أو جبلى أجَأ وسَلْمى ، ويذكر المؤرخون فخذين كبيرين من آل ربيعة الطائيين كانا يقومان على أحياء العرب فى بوادى الشام والعراق ، وهما آل فضل وآل مِرَا ، وكانت منازل الأخيرين بوادى حوران ، وكانوا يسقطون منها جنوباً فى الصحراء ويوغلون حتى تصبح مكة المعظمة وراء ظهورهم ، وأهمُ شُعبهم آل أحمد بن حِجِّى المتوفى سنة ٦٨٢ وكان صاحب المدينة الحسينى يؤدى له الخفر وكذلك أطراف الحجاز ، وكانت له منزلة عالية عند الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون . ويقول صاحب صبح الأعشى : آل مِرَا أبطال

مناجيد ، ورجال صناديد ، وكثيراً ما يتحاربون مع أبناء عمهم فضل . ويروى القلقشندى عن الشهاب محمود الحلبى أنه حين غزا التتار الشام فى أيامه وكان بحمص أقبل من أهل مِرَا زُهاء أربعة آلاف فارس شاكين السلاح على الخيل المسوَّمة والجياد المطهَّمة مقلدين بالسيوف وفى أيديهم الرماح ومعهم الظعائن والحمول ومعهم مغنية تعرف بالحضرمية طائرة السمعة سافرة فى الهودج تغنى أبياتاً حماسية .

وكانت ديار آل فضل الفخذ الكبيرالثانى من طيئ تمتد من حمص إلى أطراف العراق وتهبط يساراً إلى البصرة وتستدير نحو منازل بنى تميم واليمامة ، وتشمل منازل غطفان مما يلى وادى القُرى ، كما تشمل منازل بنى أسد ، وكان ينضم إليهم لفيف من قبائل العرب : من مَذْحج وعامر وزَبيد وغيرهم . وكان شيوخ هذا الفخذ يولَّون على إمرة العرب بتقليد من السلطان ، وأول من استن ذلك السلطان العادل بن أيوب ، إذ أقام على العرب أميراً منهم هو حديثة بن عقبة بن فضل ، وخلفه عيسى بن محمد ثم مانع بن حديثة المتوفى سنة ٦٣٠ وخلفه مهنا الذى حضر مع المظفر قطز قتال التتار فى عين جالوت . وولَّى بعده الظاهر بيبرس ابنه عيسى . وكانت العادة السلطانية أن يكتب لمن يولَّى تقليد شريف بذلك ، ويلبس تشريفاً أطلس أسوةً بالنواب إن كان حاضراً ويجهَّز إليه إن كان غائباً ، وتصدَّر إليه المكاتبات من الأبواب الشريفة ، وبالمثل كانوا يولون الأمراء على آل مِرا . وكانوا يوفِّرون لهم الإقطاعات لحفظ السابلة وقوافل الحجاج وظل عيسى أميراً على العرب وآل فضل حتى سنة ٦٨٤ وخلفه لعهد المنصور قلاوون ابنه المهنا ، وفى الجزء الثانى عشر من صبح الأعشى مرسوم شريف بإمرته . ويخلفه فى سنة ٧١٢ فضل أخوه ، ويقال إن ابنه حجَّ فى اثنى عشر ألف راحلة ، وظلت الإمارة فى طيئ طويلا .

ونسمع فى داخل نجد عن إمارات كثيرة بأنحائها وقراها المختلفة فى اليمامة والعارض والوشم والقَصِيم يتنافس فيها الإخوة وأبناء العم ، ومن أهم تلك الإمارات إمارة الدِّرْعِية التى تأسست فى منتصف القرن التاسع الهجرى ولا نمضى طويلا فى القرن الثانى عشرحتى نرى أميرها سعوداً يضم الواحات الصغيرة المجاورة لها تحت لوائه ، وتوفى سنة ١١٣٧ هـ/ ١٧٢٥م . وخلفه ابنه محمد ، وهو الذى تآزر مع محمد بن عبدالوهاب فى سنة ١١٥٨ هـ/١٧٤٥ م على نشر العقيدة السلفية وقمع البدع ، وأخذا يتعاونان فى ذلك حتى دان له أكثر نجد . وتوفى سنة ١١٧٩ هـ/١٧٦٥م ، وخلفه ابنه عبد العزيز ومضى فى نشر الدعوة بإقليم القصيم ووادى السرحان ، وفتح بلدة الرياض . ولم يلبث أن قُتل بيد شيعى سنة ١٢١٨ هـ/١٨٠٣م وولى بعده ابنه سعود ، وقد استطاع أن يمد لواء

سلطانه من أطراف عُمان ونجران واليمن إلى بادية الشام فى أقصى الشمال من الجزيرة ، ومن الخليج العربى ونهر الفُرات إلى بحر القُلْزم (البحر الأحمر) واستولى على الطائف ومكة ، مما جعل الدولة العثمانية تستعين بمحمد على واليها فى مصر ، كى يستخلص الحجاز منه ، فأرسل إليه جيشا بقيادة ابنه إبراهيم واستطاع الجيش الاستيلاء على المدينة ومكة سنه ١٢٢٧ هـ / ١٨١٢ م وسرعان ما توفى سعود فى الدرعية سنه ١٢٢٩ هـ / ١٨١٤ م وتولى بعده ابنه عبد الله ، وفى عهده أخذت البلاد تسقط واحدة تلو الأخرى فى يد إبراهيم باشا ، واستسلم عبد الله بن سعود ، وأرسل إلى القسطنطينية حيث قضى نحبه سنة ١٢٣٤ هـ / ١٨١٨ م . ويتولى حكم الدرعية تركى بن عبد الله بن محمد بن سعود . وبذلك ينتقل الحكم فى آل سعود من بيت عبد العزيز بن محمد إلى بيت أخيه عبد الله بن محمد ، ويبقى فيه إلى اليوم . وينشط تركى ، ويفتح الحسا والقَطيف ، ويعقد صلحا مع صالح بن على أمير حائل وزعيم منطقة شمر أو جبلى أجأو سلمى ويغتال سنة ١٢٤٩ هـ / ١٨٣٣ م ويخلفه ابنه فيصل وكان ضعيفا ، فيأسره المصريون ثم يعيدونه إلى إمارته ويظل بها حتى عام ١٢٨٢ هـ / ١٨٦٥ م وهو عام وفاته . وتعقبه فترة من الاضطرابات والفتن بين أبنائه استطاع فى خلالها محمد بن رشيد صاحب حائل أن يبسط سلطانه على أكثر البلاد الخاضعة للسعوديين ، لولا أن هبَّ لا فى هذا العصر بل فى العصر الحديث التالى عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل فاسترد الرياض وكل ما فُقد من إمارة آبائه .

اليمن ودولها[1]

توزعت اليمن فى هذا العصر دول كثيرة ، لعل أقدمها دولة بنى زياد فى زَبيد (٢٠٣–٤١٢ هـ) وخلفهم عليها دولة آل نجاح (٤١٢–٥٥٤ هـ) ثم دولة بنى مهدى

---

(١) راجع فى اليمن ودولها تاريخ ابن الأثير وابن خلدون وصبح الأعشى فى جزءيه الرابع والخامس وابن خلكان فى التراجم المشهورة وتاريخ المستبصر لابن المجاور وتاريخ اليمن لعمارة (نشرة كاى) وبلوغ المرام فى شرح مسك الختام فيمن تولى ملك اليمن من ملك وإمام للقاضى العرشى والعقود اللؤلؤية للخزرجى (طبع القاهرة) وكتاب تاريخ اليمن لعبد الواسع اليمانى (طبع القاهرة) وأنباء الزمن فى أخبار اليمن ليحيى بن الحسين وتاريخ ثغر عدن لبا مخرمة (طبع ليدن) والمقتطف من تاريخ اليمن للجرافى (طبع القاهرة) والمخلاف السليمانى للعقيلى (طبع الرياض) وطرفة الأصحاب فى معرفة الأنساب لابن رسول (طبع دمشق) والصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن (طبع القاهرة) ومقدمة تاريخ العرب الحديث ، الجزء الأول للدكتور عبد الكريم غرايبة ومعجم البلدان ومعجم الأنساب والأسرات الحاكمة لزامباور .

الخوارج (٥٥٤—٥٦٩ هـ) ومنهم أخذها الأيوبيون وخلفهم عليها وعلى اليمن دولة آل رسول . ولصنعاء دولها هي الأخرى وأولها بنو يعفر (٢٥٢—٣٩٣ هـ) وتلتها دولة الصُّلَيْحيين الإسماعيليين (٤٣٩ — ٥٣٢ هـ) . ثم دولة الهَمْدانيين (٤٩٢ — ٥٦٩ هـ) . وفى صعدة مستقر الزيدية دولة الرَّسيين منذ سنة ٢٨٨ ونازعهم عليها أبناء عمومتهم بنو سليمان منذ طردهم الهواشم بمكة ونزلوا المخلاف السليمانى سنة ٤٥٠ وقد أزال على بن مهدى دولتهم منه . ثم عادوا إليه ، وقد ظل أئمة الرسيين يتوالون واحدا بعد الآخر حتى العصر الحديث . وفى عدن دولة بنى زُرَيْع الإسماعيلية (٤٦٧—٥٦٩ هـ) . ومنهم أخذها الأيوبيون كما أخذوا صنعاء وصَعْدة عاصمة الرسيين . ونحن نسوق الحديث عن هذه الدول ، ثم ننتقل منها إلى الحديث عن الأيوبيين والرسوليين وبنى طاهر والعصر العثمانى ومقاومة الرسيين فى صَعْدة للعثمانيين ، حتى استخلصوا منهم البلاد .

ونبدأ بدول زَبيد قبل الفتح الأيوبى ، وأولها دولة بنى زياد ، ومؤسسها محمد بن زياد من نسل عبيد الله بن زياد حاكم العراق بعد وفاة أبيه زياد ، ولاه المأمون على اليمن سنة ٢٠٣ للهجرة فاستولى على تِهامة وحَضْرَموت ، ومن أهم أمراء هذه الدولة أبو الجيش إسحق بن إبراهيم (٢٩١—٣١٧ هـ) . وفى عهده استولى القرامطة على زبيد سنة ٣٠٣ ثم تركوها . ودانت له اليمن : عدن وصنعاء وحكامها بنو يَعْفر وصَعْدة وحكامها الرسِّيون واتسعت جبايته حتى بلغت مليونين وثلثمائة وستة وستين ألفا من الدنانير ، سوى ما كان يجبيه من مراكب السند ومن العنبر المجلوب إلى عدن وباب المندب ومن الغَوْص على اللؤلؤ ومن جزيرة دهلك . ومازال الحكم فى أسرته حتى تشاجر حَجَبَتُهم على الحكم ، وتغلب عليهم نجاح الحبشى سنة ٤١٢ وأسس دولة بنى نجاح ، ومازال يحكمها حتى دسَّ له بعض أنصار على بن الصُّلَيْحى صاحب صنعاء السم ففتك به سنة ٤٥٢ واستولى الصليحى على زبيد ، غير أن أبناء نجاح فروا إلى دَهْلك ، وأخذوا يحاولون استردادها واستطاعوا أن يغتالوا الصليحى فى طريقه إلى الحج سنة ٤٥٩ واستطاع جياش بن نجاح أن يستعيد زبيد من الصليحيين نهائيا سنة ٤٧٩ وكان شاعرا وكاتبا بليغا ، وصنَّف المفيد فى أخبار زبيد ، وبعث هو وأسرته ووزراؤهم نهضة فى زبيد أدبية وعلمية ، ومن وزرائهم مَنّ الله الفاتكى وسرور وكانا ممدَّحين عالبى الهمة . وتوارث أبناء جياش الحكم حتى سنة ٥٥٤ إذ ملكها بنو مهدى وزال ملك بنى نجاح . وقد نشأ مؤسس دولة بنى مهدى — وهو على بن مهدى الحميرى — فى سواحل زبيد على النسك والدين ، ولما شبَّ أخذ فى الوعظ فأحبه الناس والتفوا حوله ، وفكر فى إقامة دولة لنفسه فاستولى على زبيد وتسمى الإمام المهدى أمير

المؤمنين وقامع الكفرة والملحدين . وكان يؤمن بعقيدة الخوارج ويتبرأ من عثمان وعلى ، وكان يكفِّر بالمعاصى ، ويقتل من يقترف كبيرة ، وكذلك من خالف اعتقاده من أهل السنة ، وكان يستبيح نساءهم ويسترق أبناءهم وذراريهم ، وكان أنصاره يعتقدون فيه العصمة ، ولم يلبث أن توفى بعد استيلائه على زبيد بنحو ثلاثة أشهر ، وحين استولى عليها قتل قاضيها محمد بن أبى عَقامة وابنه وكانا فاضلين . وخلفه ابنه مهدى ثم أخوه عبد النبى . وقد أغار فى سنة ٥٦١ على المخلاف السليمانى وقتل فى الغارة أميره وهاس ابن غانم ، وأنشد فى ذلك قصيدة رواها صاحب كتاب المخلاف السليمانى ، ومازال على زبيد حتى تسلمها منه توران شاه الأيوبى سنة ٥٦٩ للهجرة .

وأول دول صنعاء دولة بنى يَعْفر التى أنشأها يَعْفر بن عبد الرحمن سنة ٢٥٢ وخلفه عليها أبناؤه ، وحدث فى سنة ٢٩٣ لعهد أسعد بن يعفر أن استولى القرامطة بإمرة على ابن الفضل على صنعاء . ولم يلبث أن ادعى النبوة ، وأباح لأصحابه شرب الخمر وزواج البنات ، وحطَّ عن الناس – بزعمه – أركان الإسلام الأساسية : الصلاة والصيام والحج . وفى سنة ٣٠٣ هلك على يد حسنى حجَّام ، جعل له السم فى المبضع . وعلم بذلك أسعد بن يعفر فاستنفر قبائل اليمن واستردّ صنعاء وظل يحكمها حتى وفاته سنة ٣٣١ وخلفه عليها ابن أخيه عبد الله بن قحطان حتى قضى نحبه سنة ٣٨٧ وولى بعده ابنه أسعد ، وبوفاته سنة ٣٩٣ تنتهى دولة آل يعفر .

وتخلف دولة اليعفريين بصنعاء دولة الصُّلَيحيين ، أسسها على بن محمد الصُّلَيحى ، وقد نشأ فقيها صالحاً بين قومه الهمدانيين وظل أمره ينمو فى مقره بِجُبْلَة منذ سنة ٤٣٩ وربما قبل ذلك بسنوات غير قليلة . وكتب إلى الخليفة المستنصر الفاطمى يستأذنه فى الدعوة للمذهب الإسماعيلى ، فأذن له واتسع نفوذه واستولى على زبيد ، كما أسلفنا ، من يد آل نجاح سنة ٤٥٢ كما استولى على صنعاء سنة ٤٥٤ واختط بها القصور واتخذها حاضرته ، وعظم ملكه . واستولى على مكة سنة ٤٥٥ ليزيل منها الإمارة الحسنية الزيدية ثم تركها . وكانت زوجه أسماء من فضليات النساء ، وكانت ممدَّحة كريمة ، مدحها كثير من الشعراء . وخلفه ابنه المكرم سنة ٤٥٩ واتخذ جُبْلة عاصمته ، وأصيب بمرض الفالج ، ففوَّض شئون دولته إلى زوجته الملكة الحرة أَرْوَى بنت أحمد الصليحى إلى أن توفى سنة ٤٨٤ فتولت بنفسها زمام الأمور ، وتزوجت سبأ بن أحمد الصليحى بأمر المستنصر الفاطمى ، وتوفى سنة ٤٩١ وأخذت تخرج عليها بعض القبائل وبعض البلدان ، واستولى بنوحاتم الهمدانيون على صنعاء سنة ٤٩٢ وظل يحكمها منهم حاتم بن غشيم الهمدانى حتى سنة ٥٠٢ وخلفه أبناؤه

عليها حتى تسلمها منهم توران شاه الأيوبى . وظل نجم الملكة الحرة يزداد أفولا والدولة الصليحية تتفكك أوصالها ، حتى لم يبق لها إلا بعض حصون قليلة . وقد خرجت أكثر الحصون فى الجنوب إلى بنى زُرَيْع أصحاب عدن . وتوفيت الملكة الحرة سنة ٥٣٢ وبوفاتها انتهت الدولة الصليحية الإسماعيلية .

وحرى بنا أن نسوق الحديث إلى دولة الرَّسِّيين الزيدية بصَعْدة فى اليمن ، ومؤسسها هناك الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم المولود بجبل الرَّسّ بالقرب من المدينة المنورة سنة ٢٤٥ فى زمن جده القاسم الإمام الزيدى المعروف بمؤلفاته فى المذهب الزيدى وفى الفقه . وقد خرج من موطنه إلى اليمن فى سنة ٢٨٤ واستولى على صَعْدة وأسس بها إمامة الزيدية باليمن ، وتوفى سنة ٢٩٨ فخلفه ابنه محمد ثم أخوه أحمد ، فالإمام الهادى إلى الحق وهو المؤسس الحقيقى للدولة . ومازال تلك الأسرة تتوارث الإمامة حتى يفد عليها أبو الفتح الديلمى سنة ٤٣٧ فيستخلص الإمارة لنفسه حتى وفاته ، ويخلفه عليها بنو سليمان أصحاب المخلاف السليمانى الزيديون وينسحب الرسيون إلى جبل قطابة ، وتتوالى أئمتهم هناك . وتتطور الظروف ويعود الرسيون إلى صعدة ، وتدخل صنعاء فى حوزتهم مرارا . ومن أشهر أئمتهم المتوكل على الله (٥٣٢ - ٥٦٦ هـ) . وكان شاعرا محسنا ، وله مكاتبات شعرية مع نشوان بن سعيد الحميرى . ومن أئمتهم فى العهد الأيوبى الإمام المنصور بالله المتوفى سنة ٦١٤ . ومن مشهوريهم فى عهد الدولة الرسولية الحسن ابن وهّاس ، والموطئ الرسى الذى بويع بالإمامة سنة ٦٤٥ وكان قواما صواما عالما فقيها ، وظل الحكم بعده فى أبنائه وتتوالى أئمتهم فى عهد الدولتين : الرسولية والطاهرية ، وسنعود إليهم بعد استيلاء العثمانيين على اليمن عقب فتحهم لمصر .

أما عدن فكانت قديما داراً لبنى معن بن زائدة منذ ولايته عليها فى عهد المأمون ، وقد امتنعوا على بنى زياد أصحاب زَبيد ، ولما استولى عليها الصُّلَيْحى داعية الفاطميين قنع منهم بإتاوة يؤدونها ، ثم عزلهم عنها ابنه المكرم ، وجعلها للهمدانيين ، ولم يلبث فرع منهم هو فرع بنى زُرَيْع أن استخلصها لنفسه ، وكانوا إسماعيلية ، ومن أهم أمرائهم محمد بن سبأ (٥٣٣ - ٥٥٠ هـ) . وكان يتلقب بالداعى المعظم المتوج سيف أمير المؤمنين ، وقد اشترى حصن جُبْلة من الصليحيين ، وخلفه ابنه عمران ممدوح أبى بكر العيْدى (٥٥٠ - ٥٦٥ هـ) . وكان يدبر دولته ودولة ابنيه ياسِر بن بلال ممدوح ابن قلاقس الشاعر المصرى وغيره من الشعراء . وحين قدم توران شاه إلى اليمن قبض عليه وانقطعت دولة بنى زريع . ويقال إن إيرادات عدن كانت مائة ألف دينار وارتفعت فى عهد الأيوبيين إلى

ستمائة ألف . وحين فتح اليمن توران شاه الأيوبى سنة ٥٦٩ أقام لنفسه فيها نوابا فى مدنها وحصونها ، وعادت إلى أحسن أحوالها من الخصب والعمارة والأمن ، غير أن الحكم فيها لم ينتظم تماماً لصلاح الدين إلا بعد أن أرسل إليها أخاه سيف الإسلام طغتكين ، فأقام بها منذ سنة ٥٧٨ ودخل كما مر بنا سنة ٥٨٢ مكة ومنع من الأذان فيها بحىَّ على خير العمل » وهو أذان الزيدية والإسماعيلية وغيرهما من الشيعة ، وتوفى سنة ٥٩٣ وخلفه على اليمن ابنه إسماعيل وأساء السيرة فقتل سنة ٥٩٨ ووليها بعده ابن عمه سليمان ، وَظلم الناس ، فولى السلطان الكامل صاحب مصر عليها ابنه الملك المسعود سنة ٦١٢ وأناب عنه فى بعض رحلاته إلى مصر نور الدين عمر بن على بن رسول أحد قواده ، فمكَّن لنفسه فيها ، ولم يلبث أن استقل بها سنة ٦٢٦ للهجرة .

وتظل اليمن فى قبضة الدولة الرسولية حتى سنة ٨٥٨ وقد اتخذ نور الدين تعزّ بالقرب من إقليم عدن عاصمة له وتلقب بالملك المنصور واعترف به الخليفة العباسى سنة ٦٣٢ للهجرة وامتدت مملكته من مكة إلى حضرموت . وكانت الحرب كثيراً ما تنشب بين الرسوليين وبين الأئمة فى صَعْدة . وقتله مماليكه سنة ٦٤٧ وخلفه ابنه الملك المظفر يوسف وهو صاحب جامع المظفرية بتَعِزّ ، وبنى جوامع ومدارس كثيرة فى مدن اليمن ، وفتح ظَفار فى أقصى بلاد حضرموت ونشبت بينه وبين أئمة اليمن حروب كثيرة ، وتوفى سنة ٦٩٤ فخلفه الملك الأشرف لمدة عامين فالملك المؤيد حتى سنة ٧٢١ وكانت له مشاركة حسنة فى العلوم والفنون ، فالملك المجاهد حتى سنة ٧٦٤ فالملك الأفضل ابنه حتى سنة ٧٧٨ فالملك الأشرف حتى سنة ٨٠٣ وله ألف الخزرجى كتابه العقود اللؤلؤية ، ويصف حفل ختان أبنائه وصفاً رائعاً . وتضعف الدولة بعده وتأخذ فى التدهور ، وينتهز بنو طاهر ولاتهم وأمناؤهم فى عدن وغيرها الفرصة ، ويؤسسون دولتهم .

وقد اتخذ بنو طاهر «زَبيد» حاضرة لهم ، وأول أمرائهم عامر بن طاهر الذى استولى على عدن سنة ٨٥٨ وتلقب بالملك الظافر وتوفى سنة ٨٧٠ فخلفه أخوه الملك المجاهد إلى وفاته سنة ٨٨٣ وولى بعده الملك المنصور حتى سنة ٨٩٤ وخلفه الملك الظافر عامر بن عبد الوهاب وقد استولى على صنعاء سنة ٩١٠ ولا نصل إلى سنة ٩٢١ حتى يستولى البرتغاليون على جزيرة كَمران فى البحر الأحمر ، وحينئذ يرسل قانصوه الغورى صاحب مصر حملة لمطاردة البرتغاليين ويطردون من الجزيرة وتنزل الحملة اليمن وتستولى على زبيد وتعز وتقضى على دولة بنى طاهر

وتدخل اليمن فى حوزة الدولة العثمانية ، وتنشب مناوشات كثيرة بين الأمراء أو الأئمة

الزيديين وبين العثمانيين ، وتترك الدولة العثمانية اليمن لأهلها سنة ١٠٤٥ فتكثر فيها الفتن والانقسامات حتى فى أسرة الأئمة الرسيين ويستتب الحكم للإمام المتوكل على الله إسماعيل ابن القاسم (١٠٥٤ – ١٠٨٧ هـ) وقد ظلت الإمامة فى عقبه إلى أن تخلصت منهم اليمن فى ثورتها الأخيرة ، وكان المتوكل مظفراً استولى على عدن وحضرموت وظَفار وجمع بلاد اليمن وتوالى الأئمة من بعده . وحدث فى عهد الإمام المنصور بالله على بن المهدى أن زاره القبطان الإنجليزى ولسن عند نزول نابليون بونابرت مصر ، ونزل له طائعا عن جزيرة ميّون المسماة ببريم فى مضيق باب المندب بالبحر الأحمر ! وهى تقسم البحر عندها قسمين . وما نصل إلى عهد الإمام الناصر لدين الله حتى يحتل الإنجليز سنة ١٢٥٥ هـ / ١٨٣٩ م ميناء عدن بالقوة بعد مناوشات قليلة مع جنود سلطان لحَج ، وأصبحت مستعمرة إنجليزية . ورأى الأتراك طمع الدول الأوربية فى اليمن ، وأحس أئمتها بحاجتهم إليهم ، فعادوا إلى احتلال اليمن سنة ١٢٦٥ هـ/١٨٤٩ م بينما مضى الإنجليز يضمون إلى مستعمرة عدن تسع محميات أهمها لحج وحضرموت . وأخذت المناوشات تعود ثانية بين الأئمة الزيديين وبين الأتراك العثمانيين إلى أن تولى مناهضتهم لا فى هذا العصر ولا فى أو اخره بل فى العصر الحديث الإمام الزيدى يحيى بن محمد حميد الدين

حَضْرَمَوْت [١] وظَفار وتاريخها

تقع حضرموت فى جنوبى الجزيرة على بحر العرب ، وهى إقليم جبلى يتوسطه واد يمتد من الشرق إلى الغرب وتتفرع منه أودية كثيرة وكانت تشتهر قديما باسم أرض اللُّبان ، وأهم مدنها فى الداخل شَبْوة وشِبام وَتريم وسيّون وعلى الساحل الشِّحْر والمُكَلاّ ، وكانت تسكنها قديما قبيلة كِندْة ، ومازال الولاة يتتابعون عليها من قبل الخلفاء فى صدر الإسلام وزمن الدولتين الأموية والعباسية . ولما تولى محمد بن زياد اليمن أضيفت إليه ، وظل لبنيه نفوذ فيها ، حتى ولى بنو يعفر صنعاء وأقاموا دولتهم بها ، فإنهم مدوا أيديهم إليها وظلت تتبعهم ، وحاول الحضارمة الثورة عليهم ، ولكن ثورتهم أخفقت ، وقدمها فى أثناء حكمهم لها سنة ٣١٧ للهجرة الشيخ أحمد بن عيسى جد آل باعلوى ، منتسبا نسبا شريفا إلى الحسين بن على ، ونزل بتريم وأصبح له فيها زعامة روحية هو وأسرته إلى اليوم ، وهى زعامة أتاحت للشيعة

---

(١) انظر فى حضرموت وظفار وتاريخها ابن الأثير وابن خلدون فى مواضع متفرقة ومعجم البلدان لياقوت وتاريخ حضرموت السياسى لصلاح البكرى وتاريخ الدولة الكثيرية لمحمد بن هاشم وصفحات من التاريخ الحضرمى لسعيد عوض باوزير ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع .

أن يتنفسوا هناك وكانت النحلة الغالبة فى حضرموت نحلة الخوارج ولذلك كان أهلها دائما يثورون ثورات متعاقبة . ونزلها القرامطة فى أوائل القرن الرابع الهجرى مدة ثم تركوها ، ويلمع بها فى القرن الخامس أبو إسحق الحضرمى الخارجى ، وقد ساعده الخليل بن شاذان إمام الخوارج فى عمان على أن يستقل بها بعد حروب دامية ، واستطاع أن يردَّ الصليحى عن حضرموت وهو يعد أول زعيم منها ولى شئونها واستقل بها . والشخصية الثانية بعده شخصية عبد الله بن راشد بن أبى قحطان الكندى المولود بتريم سنة ٥٥٣ وقد حكمها وسنُّه دون الثلاثين ، واهتم بالعلم والعلماء . ولما فتح صلاح الدين اليمن وولى على عدن عثمان الزنجيلى فتح حضرموت وأخذ معه عبد الله ، غير أن العام لم يدر حتى عاد إلى دياره ، وتمر سنوات ويعود ثانية إلى تريم ويستولى من آل النعمان على شبام ، وتمضى البلاد فى أمن حتى يغزوها عمر بن مهدى اليمنى بجيش أيوبى سنة ٦١٤ ويتمكن من الاستيلاء عليها جميعا : على الشِّحْر وشِبام وَتريم ، ويقتل سنة ٦٢٢ وينتهى بذلك عهد الأيوبيين فى حضرموت ، وتخلفهم دولة الرسوليين ، فيعملون على أن تظل حضرموت تابعة لهم ، وكان يليها بعض أبنائها نوابا عنهم . وحين دانت ظَفار شرقى حضرموت لسالم بن إدريس الحبوظى استولى بجموعه على حضرموت سنة ٦٧٣ غير أن الرسوليين قضوا عليه . ولا يزال شيوخ القبائل فى البلاد وفى مقدمتهم بنوراشد وبنو نهد يتناحرون على حكم المدن ، ويشتهر آل باكثير باستيلائهم على الشُّحْر سنة ٧٨٦ وتكون الغلبة لهم فى كثير من البلاد . وكان ينافسهم آل بادجانة وآل باوزير والكِنْديين ولكن آل باكثير ظفروا بهم وبغيرهم من العشائر أو قل ظهروا عليهم . وخلف الرسوليين بنو طاهر على اليمن ، وكانت حضرموت تستشعر الولاء لهم ، وقد ردوا عن الشحر محمد بن سعيد بن فارس المهدى سنة ٨٦٧ وعهدوا بها إلى آل باكثير ، واشتهر من بينهم بوطويرق المولود سنة ٩٠٢ وقد استولى على شبام سنة ٩٢٦ واحتل تريم سنة ٩٢٧ واتخذها مركزا لدولته وكان يجزل العطايا للعلماء والشعراء . واستولى العثمانيون على اليمن سنة ٩٤٥ ويعترف لهم بوطويرق بالطاعة سنة ٩٧٠ غير أن ابنه عبد الله رفض حكم الترك واستقل ببلاده ، وخلفه أخوه عمر وكان نصيره ومعاونه وكاتبه الشاعر الكبير عبد الصمد بن عبد الله باكثير . ويتولى ابنه عبد الله شئون حضرموت حتى سنة ١٠٢٤ ويخلفه أخوه بدر ويظهر ولاءه للزيدية وأئمتهم بصنعاء وينشب خلاف بينه وبين ابن أخيه بدر بن عبد الله بسبب ذلك ، ويقبض عليه ويعتقل ، فيغضب الإمام الزيدى المتوكل على الله إسماعيل ، ويرسل فى سنة ١٠٦٩ جيشاً إلى حضرموت يستولى عليها ، ويسلمها إلى بدر بن عمر ويظل يليها حتى وفاته سنة ١٠٧٣ ويتولاها ابنه محمد .

ويضعف شأن آل باكثير ، ويصبح ليافع وعشائرها الكلمة العليا فى البلاد ، ويتحول الحكم والسلطان إليها حتى سنة ١٢٦٣ إذ يعيد غالب بن محسن الكثيرى دولة آله ويستولى على تريم ، غير أن الشحر وأكثر البلاد تظل فى قبضة اليافعيين ، ويشتهر من بينهم عمر بن عوض القعيطى اليافعى ثم ابنه عوض الذى أخطأ خطأ فاحشاً فى حق بلده وأمته بتوقيع معاهدة مع الإنجليز سنة ١٣٠٥ هـ/١٨٨٨م أصبحت بها حضرموت إحدى حامياتهم على بحر العرب ، وصمة فى جبينه ما بعدها وصمة .

وظَفار هضبة يبلغ ارتفاعها ثلاثة آلاف قدم ، وفوق جبالها تنمو أشجار الكُنْدُر (اللُّبان) الذى يستعمله الهنود فى معابدهم ، وتاريخها غامض ومن أمرائها محمد بن أحمد المنجوى ، وخلفه سالم بن إدريس الحبوظى الذى مر بنا غزوه لحضرموت وقضاء الرسوليين عليه ، وكانوا يولون عليها نائبا لهم . وفى القرن السادس عشر الميلادى حكم البلاد سيف الإسلام الغسانى وهو من صنعاء ، وكانت قلعة بَلِد مقر حكمه ، وفى القرن السابع عشر الميلادى استولى عليها بنو كثير الحضرميون ، ولا يعرف عنها شيء فى القرن الثامن عشر ، وحكمها علوى فى القرن التاسع عشر ، وقتله بنو قرا ، وحاول العثمانيون حين عادوا إلى اليمن فى هذا القرن فرض سيادتهم عليها . وفزعوا إلى سعيد بن تركى بن سعيد جد أمراء عمان ، وظلت منذ هذا التاريخ تابعة لهم .

عُمان وأمراؤها[1]

تمتد عُمان على الشاطئ الجنوبى الشرقى لجزيرة العرب مشرفة على المحيط الهندى وبحر العرب من جهة وعلى الخليج العربى من جهة ثانية ، وقد ثار بها الخوارج منذ زمن الحجاج فى عصر بنى أمية ، وكانوا يتخذون مدينة نَزْوى فى الداخل جنوبى الجبل الأخضر مركزا لهم ، وكانوا يستولون عليها فى أكثر سنوات القرن الثالث الهجرى ، وتغلَّب على عمان أبو طاهر القرمطى عند اقتلاعه الحجر الأسود من الكعبة سنة ٣١٧ وخطب بها لعبيد الله المهدى ، وترددت عليها ولاة القرامطة والروافض إلى أن استعادها منهم الخوارج سنة ٣٦٢ وظلوا مسيطرين علها حقبة من الزمن . يدل على ذلك أننا نجد نفرا من أعيانها هم

(١) انظر فى عمان وتاريخها وأمرائها ودولها تاريخ ابن الأثير وتاريخ ابن خلدون وصبح الأعشى ومعجم البلدان لياقوت فى مواضع متفرقة وتحفة الأعيان بسيرة أهل عمان لنور الدين السالمى وعمان تاريخ يتكلم لمحمد ابن عبد الله السالمى وعمان قديماً وحديثاً لمحمد على الزرقا والإمارات السبع لأحمد البوريني ومقدمة تاريخ العرب الحديث للدكتور عبد الكريم غرايبة .

بنو مكرم وكانوا شيعة إمامية يسيرون إلى بغداد ويتفقون مع البويهيين على أن يغزوها معهم بالسفن من الخليج العربي. ويملكونها فعلا في عصر بهاء الدولة سنة ٣٩٠ وقد اختار منهم أبا محمد بن مكرم، واستطاع أن يطرد الخوارج إلى جبالهم فى نزوى وحولها، ويخطب لبنى العباس. وظل الخوارج فى عهد بنى مكرم يولون عليهم أئمة منهم، ومن أهمهم الخليل ابن شاذان ومر ذكره فى حضرموت وأنه أعان أبا إسحق الحضرمى على غزوها والاستيلاء عليها. وتوارث بنو مكرم ملك عمان، ومن أهم أمرائهم ناصر الدولة على بن الحسين بن مكرم، وكان جوادا ممدحا، ومدحه مهيار الديلمى وغيره وتوفى سنة ٤٢٨ بعد استئثاره بالإمارة مدة طويلة.

وفى سنة ٤٤٢ ضعف ملك بنى مكرم وتغلب عليهم النساء والعبيد، فزحف إليها الخوارج من نزوى وملكوها بقيادة إمامهم راشد بن سعيد، وله حروب مع قبيلتى نهد وعُقَيل سحقهما فيها، وامتدحه بذلك أبو إسحق الحضرمى منوها ببسالته وبطولة جنوده. ومن أهم هؤلاء الأئمة من الخوارج الذين حكموا عمان حفص بن راشد الذى تملكها بعد أبيه وتظل فى أيدى خلفائه.

وفى القرن السادس الهجرى تملك عمان من أيدى الخوارج بنو نبهان سنة ٥٧٩هـ/ ١١٨٣م وهم عشيرة من العتيك من الأزْد استولوا عليها بعد شيوع الفوضى فيها، وكانوا سنيين، وظل حكمهم فيها طويلا حتى نهاية القرن التاسع، وقد غزا الفرس عمان فى عهد أميرهم كهلان سنة ٦٥٠ وعادوا إلى غزوها فى عهد عمر بن نبهان سنة ٦٧٤ ولكنهم عادوا فى الغزوتين مدحورين، كما يصور ذلك شاعر النبهانيين أحمد بن سعيد الستالى الخروصى، ويشنّ المؤرخ نور الدين السالمى حملة على هذه الدولة النبهانية قائلا كانت دولة بنى نبهان مبنية على الاستبداد بالأمر وقهر الناس ولم نجد لدولتهم تاريخا ولا لملوكهم ذكرا اللهم إلا ما ذكره شاعرهم أبو بكر أحمد بن سعيد الستالى. وقد زار ابن بطوطة عمان فى عهدهم سنة ٧٢٥ وقال عنها إنها خصبة، وأشاد بأميرها النبهانى وحسن ضيافته ثم ذكر نَزْوى عاصمة الخوارج، وقال إنهم أهل نجدة وشجاعة. ومن أئمة الخوارج المهمين فى القرن التاسع عمر بن الخطاب بن شاذان الذى بويع له بالإمامة سنة ٨٨٥ وقد نازل سليمان بن سليمان النبهانى أمير عمان، وهزمه واضطره أن يفر إلى هُرْمز وتوفى عمر، فعاد سليمان ونازل الإمام التالى للخوارج أبا الحسن بن عبد السلام، وباء بهزيمة منكرة، فرحل ثانية الى هرمز، وتوفى أبو الحسن فاستردّ سلطانه، ونازل خليفته الإمام الخارجى محمد بن

إسماعيل الخروصى سنة ٩٠٦ وهُزم هزيمة لم تقم له بعدها قائمة . وانسحب النبهانيون إلى الجبل الأخضر .

وتصبح عمان تابعة للخوارج ، ويستردها سلطان بن محسن النبهانى سنة ٩٦٤ ويتوالى عليها حكام نبهانيون ، حتى يستولى عليها منهم الإمام الخارجى ناصر بن مرشد اليعربى (١٠٢٤ - ١٠٥٠ هـ) وكان البرتغاليون قد غزوا عمان سنة ٩١٣ واستولوا على بعض شواطئها ، فأخذ يناوشهم ، وظلت مدينتا صحار ومسقط فى أيديهم وقيل بل سقطت فى يده صحار ،وخلفه سلطان بن سيف اليعربى (١٠٥٠ - ١٠٩١ هـ) وهو أهم اليعربيين وأبعدهم شهرة إذ استطاع أن يطرد البرتغاليين من مسقط وصحار وبذلك طهّر البلاد منهم . وبنى لعمان أسطولا ضخما حطم به أسطول البرتغال وسيطر على شواطىء إفريقيا والهند ، وكانت تتبعه مُمْباسة فى كينيا على ساحل إفريقيا الشرقى وجزيرة زَنْجبار [١] وجزيرة سُقُطرة فى بحر العرب ، غير أن أسرته ضعفت بعده .

وتخلف أسره اليَعْربيين فى حكم عمان أسرة البوسعيديين على يد مؤسس دولتهم أحمد بوسعيد الذى جمع زمام الحكم فى عمان جميعها بيده سنة ١١٥٤ هـ/ ١٧٤١م ورد الفرس على أعقابهم سنة ١١٦٣ هـ/١٧٤٩ م حين حاولوا غزو بلاده . ومن حكام هذه الأسرة البوسعيدية سعيد بن سلطان الذى ولى عمان سنة ١٢٢١ هـ/١٨٠٦ م وظل فى الحكم خمسين عاما . وقبيل عهده استقلت عن عمان رأس الخيمة فى مدخل الخليج العربى بزعامة القواسم ، وكانت إمارتهم تمتد من مسقط إلى قطر فتشمل الشارقة وكانت عاصمتهم . وأخذ الأسطول الإنجليزى يظهر فى هذه الأنحاء ، فكان القواسم يقاومونه مقاومة عنيفة . وسرعان ماتزعم «دُبَىّ» آل بوفلاسا سنة ١٢٤٩ هـ/١٨٣٣ م كما تزعم «أبوظبى» آلُ فلاح وظلت أسرة البوسعيديين تحكم عمان إلى اليوم وتخلت منذ قيامها عن لقب الإمامة واكتفت بالسلطة الزمنية واستطاع الإنجليز منذ سنة ١٢٢٤ هـ/١٨٠٩ م أن يقيموا لهم حاميات على شواطئ عمان ، وظلوا بها إلى أن أرغموا على الخروج منها نهائيا .

البحرين ودولها [٢]

يقول ياقوت : « البحرين » اسم جامع لبلاد واسعة على ساحل البحر الواقع بين جزيرة

(١) زنجبار : جزيرة صغيرة بالقرب من ساحل تنزانيا سكانها عرب مهاجرون من منطقة الخليج العربى وكانت تتبع عمان غير أنها كانت تتمتع باستقلال ذاتى .

(٢) انظر فى البحرين ودولها تاريخ ابن الأثير والجزء الرابع من تاريخ ابن خلدون ومعجم البلدان لياقوت فى مواضع متفرقة وصبح الأعشى والضوء اللامع فى =

العرب وبلاد فارس تمتد من البصرة شمالا إلى عمان جنوبا ومن صحراء الدَّهْناء غربا إلى البحر (خليج العرب) شرقا . وهى بذلك كانت تشمل إقليم قَطر والإقليم الشرقى للمملكة العربية السعودية الآن المشتمل على الأحساء والقطيف وهجر ، ومجموعة من الجزر (البحرين الحالية) أكبرها جزيرة أوال ومساحتها نحو خمسة وثلاثين ميلا طولا ونحو عشرة أميال عرضا .

وقد سيطر القرامطة على هذا الإقليم مدة متطاولة من الزمن ، إذ غلب عليها بنو الجنَّابى بقيادة أبى سعيد سنة ٢٨٦ للهجرة وقد بدأ بالاستيلاء على القَطِيف . وفى سنة ٢٨٧ غلب على هجر ، وسرعان ما تم له الاستيلاء على الإقليم جميعه ونشر فيه عقيدته القرمطية. وقد تحدثنا فى العصر العباسى الثانى عن هذه العقيدة وعن أبى سعيد وابنه أبى طاهر وإغارته على مكة واستباحته دماء الحجاج ، واقتلاعه الحجر الأسود ونقله إلى بلاده ، ونهبه ما كان بالكعبة من تحف . ولما رجع إلى البحرين رماه الله فى جسده ، حتى طال عذابه وتقطعت أوصاله وأطرافه وهو ينظر إليها ، ولعذاب الآخرة أشد وأنكى . وفى سنة ٣٣٩ رُدَّ الحجر الكريم إلى موضعه . وفى عقيدتهم - كما صورناها فى كتاب العصر العباسى الثانى - ضلال كثير . ويبدو أن علاقتهم بالفاطميين - وكانوا لا يزالون فى المهدية بجوار تونس - أخذت فى الفتور . حتى إذا كانت سنة ٣٥٨ قطعوا علاقتهم بهم وأعلنوا خضوعهم للدولة العباسية . ومن أهم أمرائهم الحسين بن أحمد الملقب بالأعصم حفيد أبى طاهر ، وكان فارسا وشاعرا مجيدا تولى بعد أبيه سنة ٣٥٩ واتفق فى السنة التالية مع الخليفة العباسى المطيع لله على محاربة الفاطميين ، فأمده بالمال والسلاح ، وزحف على الشام تحت الرايات السود شعار الدولة العباسية ، وبذلك تنكر نهائيا للمذهب الإسماعيلى الفاطمى أساس عقيدته القرمطية ، وقد استطاع الاستيلاء على دمشق والرملة ، واتجه بجيشه نحو مصر ، والتقى بالفاطميين وعساكرهم المغاربة فى عين شمس ، وكاد ينتصر عليهم لولا خروج بعض قواده عليه وانضمامهم إلى الفاطميين ، فعاد إلى الشام ومنها إلى البحرين . ومر بنا فى حديثنا عن نجد نقل العزيز الفاطمى لجنده من بنى سليم وبنى هلال بن عامر إلى الصعيد وانتقالهم منها فيما بعد إلى المغرب . وفى سنة ٣٦٥ عاد الأعصم إلى الشام لمساعدة أفتكين الرومى مولى البويهيين ضد جوهر الصقلى القائد الفاطمى ، ولكن الموت عاجله بالرملة سنة ٣٦٦ .

= أعيان القرن التاسع للسخاوى وديوان ابن مقرب العيونى وتحفة المستفيد بتاريخ الأحساء فى القديم والجديد للشيخ محمد بن عبد الله آل عبد القادر (طبع الرياض) وساحل الذهب الأسود لمحمد سعيد المسلم (نشر دار مكتبة الحياة ببيروت) ومقدمة تاريخ العرب الحديث ١ / ٢٤٩ وما بعدها .

وتولى أمر القرامطة بعده ستة نفر ، وأخذت دولتهم فى الاضمحلال . ولا نصل إلى سنة ٣٧٨ حتى يجمع شخص يسمى الأحيفر من بنى المنتفق بن عامر بن عُقَيل جمعا كبيرا ، وينازل به القرامطة ، ويستولى منهم على القطيف ، ولا تقوم لهم بعد ذلك قائمة .

وعمَّت الفوضى فى البحرين إلى أن غلب عليها نهائيا الأصفر بن أبى الحسن الثعلبى سنة ٣٩٨ وكان يخطب للطائع العباسى ، واستقرت الدولة له . واختلفت فى أيامه قبيلة بنو ثعلب مع بنى عُقَيل ، فأخرجوهم من ديارهم إلى العراق ، وطالت أيام الأصفر ، واتسع به طموحه ، فحاول التغلب على الجزيرة والموصل ، ونازله بنوعقيل هناك سنة ٤٣٨ وعاد إلى البحرين ووافاه أجله . وبقى الملك فى البحرين بعده متوارثا فى بنيه إلى أن ضعفوا وتلاشوا .

وتخلفهم دولة بنى العيونى بزعامة مؤسسها عبد الله بن على . إذ استطاع الاستيلاء على البحرين بمساعدة ملكشاه السلجوقى سنة ٤٦٦ وقد جعل همه القضاء على البقية الباقية من دعوة القرامطة ، وكان لا يزال لها فى البحرين أتباع كثيرون . وتوفى سنة ٥٠٠ للهجرة ، فخلفه ابنه الفضل إلى سنة ٥٠٧ ووليها بعده ابنه محمد المكنى بأبى سنان حتى مقتله سنة ٥٢٥ وكان ذلك فاتحة عهد سيئ من المنازعات بين أبناء الأسرة . ووليها بعده ابنه أبوفراس غَرير ، وولى الأحساء فى أيامه عمه عبد الله بن على وولى ابنه أبو الحسن القَطيف . والمصدر الوحيد لتاريخ هذه الأسرة ديوان ابن المقرب الذى يقدم لنا تفاصيل كثيرة عن ولاة البحرين العامِّين من العيونيين وولاة مدنها المختلفين . ويختلط بعضهم ببعض فى الديوان ، ومن أهمهم محمد بن أبى الحسين الذى تولى زمام الأمور فى البحرين سنة ٥٨٤ وقد استطاع أن يفرض نفوذه على قبائل نجد مما جعل الخليفة الناصر (٥٧٥ — ٦٢٢ هـ) يعهد إليه بخفارة الحاج من بغداد إلى مكة ذهابا وإيابا وفرض له نظير ذلك ألفا وخمسمائة حمل حنطة وشعير وأرز وتمر وألفا ومائتى ثوب أكثرها من الإبريسم . وسمع فى سنة ٥٩٨ بأن بعض عشائر من طيئ تتجمع فى طريق مكة لقطع الطريق على الحجاج ، فنكل بهم تنكيلا شديدا . وجمعوا له جموعا كثيرة ولكنه أنزل بهم هزيمة ساحقة ، مما جعل جميع قبائل نجد تدين له بالولاء كما جعل الأمن يعم الجزيرة . ويغتال سنة ٦٠٣ ويخلفه غرير بن الحسن بن شكر ، ويسلبه الإمارة الفضل بن محمد بن أبى الحسين و يفتك به ثأراً لأبيه . وتكثر الخلافات والحروب بين أبناء الأسرة ، وتأخذ فى الضعف تدريجا ، و يستولى أبو بكر بن سعيد أحد ملوك فارس على جزيرة أوال (البحرين الحالية) سنة ٦٣٣ ويكون ذلك إيذانا بانتهاء دولة العيونيين .

ويغلب على البحرين بعد هذه الدولة دولة بنى عصفور من بنى عامر بن عوف العقيليين ، وتتوطد العلاقة بينهم وبين سلاطين مصر المماليك بعد هزيمتهم للتتار ، ويقدم منهم وفد على السلطان بيبرس فيكرم وفادته ، ويظلون يفدون على المماليك . وعلى رأس سنة سبعمائة للهجرة ينتقل ملك البحرين إلى سعيد بن مغامس من بنى جبر ، وينتزعها منه بنو جروان من بنى عامر بن عوف العقيليين ويظلون يحكمونها حتى سنة ٨٢١ وفى عهدهم استولى المغول على جزيرة أُوال وظلت فى أيديهم مدة .

ويعود بنو جبر إلى الاستيلاء على البحرين ، إذ خلَّصها من بنى جروان سيف بن زامل ، واتسع نفوذه فى نجد ، وخلفه أخوه زامل ثم ابنه أجود . ودبَّ الشقاق بين أبناء الأسرة ، فأخذها منهم راشد بن مغامس . وفى هذه الأثناء وفى غفلة من حكام البحرين استولى البرتغاليون فى سنة ٩٢٢ على جزيرة أُوال (البحرين الحالية) والقَطيف وقطر ، وظلوا بتلك الديار حتى طردتهم منها الدولة العثمانية وسرعان ما استولت على الأحساء سنة ٩٦٣ .

وقد انفصلت قَطر عن البحرين قبيل نهاية القرن العاشر الهجرى بزعامة آل ثانى ، وكانوا من يَبْرين ، فزاحموا قبيلة عبد القيس وتغلبوا عليها . أما بقية البحرين الشاملة حسب اصطلاح هذا العصر للأحساء والقطيف أو بعبارة أخرى للإقليم الشرقى من المملكة العربية السعودية ، والشاملة أيضا لجزيرة أوال فقد قام عليها بنو خالد منذ سنة ١٠٨١ واستولى عباس الصفوى على أوال سنة ١٠٩٢ وظلت تابعة للدولة الصفوية حتى سنة ١١٢٣ واستولى عليها بعد ذلك نادر شاه ملك فارس سنة ١١٥٠ واستخلصها سنة ١١٩٧ هـ/١٧٨٢ م أحمد بن محمد بن خليفة من أهل الزبارة ولا تزال أسرته تحكمها إلى اليوم ، ووقَّع أحدها وهو الشيخ محمد بن خليفة معاهدة مع الإنجليز سنة ١٢٨٤ هـ/١٨٦٧ م دخلت أوال (البحرين الحالية) بمقتضاها فى حمايتهم إلى أن استقلت أخيرا .

وظل يلى الأحساء والقطيف بنو خالد منذ سنة ١٠٨١ كما أسلفنا ، وكان أول من وليهما منهم براك بن غَرير حتى وفاته سنة ١٠٩٣ ، وخلفه ابنه أو أخوه محمد على اختلاف فى الروايات ، فسعدون بن محمد ، فسليمان أخوه المتوفى سنة ١١٦٦ ووليهما بعده عرعر ، فابنه بطين ، فأخوه دجين ، فأخوهما سعدون ، فأخوهم دويحس وقد اشتبك مع سعود ابن عبد العزيز سنة ١٢٠٤ هـ/١٧٨٩ م فى حروب رجحت فيها كفة سعود . وتتطور الظروف وتنشب الحرب بين محمد على والسعوديين . ويعود بنو خالد إلى حكم الأحساء والقطيف ، غير أن الحاكم السعودى تركى بن عبد الله يضطرهم إلى تسليمها سنة

١٢٤٥ هـ/١٨٢٩ م وتعودان إلى الدولة العثمانية سنة ١٢٨٨ حتى يستخلصها منها فى العصر الحديث الملك عبد العزيز آل سعود .

وكانت قطر قد دخلت مع الأحساء والقطيف فى حوزة العثمانيين سنة ١٢٨٨ هـ/ ١٨٧١ م وظل آل ثانى رؤساءها إلى أن نفض طاعة العثمانيين منهم الشيخ قاسم فى العصر الحديث ، واستقل ببلاده سنة ١٣١٠ هـ/١٨٩٢ م وتظل أسرته متولية أمرها ومدبرة شئونها إلى اليوم .

٢

المجتمع (١)

يتقابل فى الجزيرة أهل بواد وأهل حواضر ، والأولون عرب خُلَّص ، وقد دخل على الثانين أخلاط من أجناس مختلفة إفريقية وآسيوية ، والغلبة للعنصر العربى فهو قوام الحواضر . وربما كانت مكة بالذات من الحواضر التى كثر إليها نزوح الأجانب ، إذ توطنها كثيرون من المسلمين الوافدين عليها للحج ابتغاء رضوان الله ، وهم عناصر شتى من كل أنحاء العالم الإسلامى ، ومثلها المدينة وإن لم تبلغ درجتها من هذا التوطن . والعلاقة بين اليمن والحبشة قديمة مما جعل كثيرين من الأحباش والإفريقيين ينزلون بها ، ومرت بنا دولة آل نجاح فى زبيد ، وهم أحباش أو من أصل حبشى . ومن قديم كان الفرس ينزلون فى عمان ومدن الخليج ، وكان كثير منهم يستوطنها ، ولا يزال هذا شأنهم إلى اليوم . وبالمثل كان ينزل فى مدن الخليج وعمان إفريقيون كثيرون ، وثورة الزنج بالبصرة فى القرن الثالث الهجرى مشهورة ، ونسمع عنهم بعد ذلك كثيرا فى البحرين ، وكانوا كثيرين فى عُمان منذ أخذت تستولى فى القرن الثالث على سُقُطرة وبعض الجزر ، ونراها بعد ذلك تستولى على زنجبار وبعض شواطئ إفريقية الشرقية .

وكان عرب نجد يعيشون معيشة بدوية تعتمد على رعى الإبل والأغنام ، ويحفها غير

(١) انظر فى مجتمع الجزيرة صبح الأعشى والنجوم الزاهرة فى مواضع متفرقة وتاريخ اليمن لعمارة ومروج الذهب للمسعودى : الفصل الخاص بالغناء والموسيقى فى الجزء الرابع والعقود اللؤلؤية للخزرجى وعنوان المجد فى تاريخ نجد لابن بشر وشعر الغناء الصنعانى للدكتور محمد عبده غانم (نشر وطبع دار الكاتب العربى ببيروت) ورحلة ابن بطوطة وديوان ابن مقرب العيونى وتحفة المستفيد بتاريخ الأحساء فى القديم والجديد وتحفة الأعيان بسيرة أهل عمان للسالمى وقلب جزيرة العرب لفؤاد حمزة .

قليل من شظف العيش ، مما جعلهم أو بعبارة أدق جعل منهم عشائر تتعرض أحيانا للحجاج وتنهبهم ، وكانت بغداد ثم القاهرة تقاومانهم بصور كثيرة ، منها إرسال الحجاج فى قوافل مع حاميات ، ومنها أن يعهد البغداديون لعرب البحرين أو لبنى عُقَيل أو لبنى أسد أن يحموا الحجاج ، وكانت القاهرة بدورها تعهد لآل الجراح فى العهد الفاطمى وآل فضل فى العهدين الأيوبى والمملوكى بأن يؤمنوا السبل للحجاج المصريين والإفريقيين .

وكان وراء مكة والمدينة فى الحجاز مدن وقرى كثيرة على شىء من التحضر ، نجد ذلك فى الطائف وفى جدة وفى يَنْبع وفى خَيْبر وفى وادى القرى ، حيث يقيم الناس فى دور شيدوها ويستقرون بها . وهذا الاستقرار أساس التحضر والعمران إذ يتجه الناس إلى عمل يُقيمون به أَوَد حياتهم ، وكان الزراعةَ ، إذ نجدها فى كل هذه المدن . وطبيعى أن ينشأ فى المدن بجانب الزراع صناع ينهضون بالحرف المختلفة من عمارة ونجارة وحياكة ، وكذلك تجار يصدرون بعض ما يفيض عن حاجة مدنهم كالتمر مثلا ، ويستوردون بعض ما يحتاجه سكانها من توابل وغير توابل . وتشتهر المدينة بكثرة زروعها ، وكانت مصر منذ العصر الفاطمى ترسل إليها وإلى مكة بكميات كبيرة من القمح سنويا واستمر ذلك فى زمن صلاح الدين والأيوبيين ثم فى زمن المماليك . وكان ينزل المدينتين المقدستين كثير من الحجاج والزوار سنويا ، فيشيعون فيهما الرخاء ، وأهَّل ذلك لقيام إمارة كبيرة للحسنيين فى مكة وإمارة أخرى للحسينيين فى المدينة .

وقد وصف القرآن الكريم اليمن بأنها (جنَّتان عن يمين وشمال) . ومعروف أنه تهبّ عليها الرياح الموسمية صيفا ، فتهطل بها أمطار غزيرة تغذى المروج والزروع والأشجار المتكاثفة ، ويزرع أهلها فى الأودية والسهول الحنطة والشعير والذُّرة والأرز والسمسم ، ومن فواكهها العنب والرمان والتفاح والخوخ والموز والليمون والبطِّيخ والسفرجل ، ومن حيوانها الخيل العربية والبغال والإبل والبقر والغنم والغزلان والقردة . ومن أهم مصادر ثروتها التجارة وما يحمل إليها من إندونيسيا والهند وإفريقية الشرقية والحبشة والصين . وعدن ميناؤها ، ويقول القدماء إنه «لم يكن يخلو أسبوع من عدة سفن وتجار واردين عليها وبضائع شتى ومتاجر متنوعة ، والمقيم بها فى مكاسب وافرة وتجارة مربحة» . ومر بنا فى حديثنا عن دول اليمن ذكر أربع مدن ، هى زَبيد وصنعاء وصَعْدة وتَعِزّ ، وزبيد بتهامة اليمن فى سهل من الأرض وبها نخيل كثير ، وكانت مسوَّرة وبها قلعة ، وصنعاء فى منطقة الجبال بوسط اليمن ، وهى كثيرة الزروع والفواكه ، وصعدة فى منطقة جبلية وعرة شمالا ، أما تعزّ فحصن فى الجبال جنوبى اليمن مطل على تهامة وأراضى زبيد . وكان الرسوليون يقيمون بها

صيفا وبزبيد شتاء . واليمن بما قدمنا بلاد ذات ثراء عظيم ، وقد قامت بها قديما دول وحضارة باذخة ، فلا غرابة أن كان أهلها فى هذا العصر يتمتعون بغير قليل من نعيم الدنيا وخاصة الحكام والوزراء والقادة وكبار التجار ، وينقل صبح الأعشى عن بعض الأقدمين قوله : «لأكابر اليمن حظ من رفاهية العيش والتنعم والتفنن فى المأكل : يُطْبَخ فى بيت الرجل منهم عدة ألوان .. وتطيَّب أوانيها بالعطر والبخور ، ويكون لأحدهم الحاشية والغاشية ، وفى بيته العدد الصالح من الإماء ، وعلى بابه جملة من الخدم والعبيد والخصيان من الهند والحبوش ، ولهم الدور الجليلة والمبانى الأنيقة ، إلا الرُّخام ودهان الذهب واللازورد فإنه من خواص السلطان لا يشاركه فيه غيره من الرعايا» . ويدل من بعض الوجوه على ماكان فى اليمن من ثراء ما يذكر عن بعض وزراء بنى نجاح فى زبيد من أنه كان جوادا وأن نفقة مطبخه فى شهر رمضان كانت تبلغ كل يوم ألف دينار .

ويبدو أن مجتمع اليمن كان يكتظ بكثير من الجوارى والإماء ، ويذكر عمارة اليمنى أنه كان لآل نجاح أكثر من ألف أمة ، وقد أشاع الإماء والجوارى فى قصور آل نجاح وغيرهم الغناء والطرب . والغناء قديم فى اليمن ، وأشار المسعودى إلى أنه كان باليمن لعصره صنفان من الغناء حميرى وحنفى ، ولعله يريد صنفا قديما يرجع إلى عهد الدولة الحميرية قبل الإسلام وصنفا إسلاميا حنفيًّا أو حنيفيًّا . ولا نسمع بعد زمن المسعودى المتطابق مع أول هذا العصر عن مغنين أو مغنيات إلا ما ذكره عمارة فى زمن آل نجاح كما أسلفنا . ويبدو أن الأئمة الزيديين فى صَعْدة لم يفسحوا للغناء بل حاربوه طوال عصورهم ، أما الدول الأخرى فلعلها فسحت له ، يدل على ذلك ما يذكر من غناء ورقص فى بعض الاحتفالات ، ومن أهمها احتفال السلطان الرسولى الأشرف لسنة ٧٩٤ بختان أبنائه وهو احتفال له دلالات كثيرة ، ولا بأس من أن نوجزه نقلا عن الخزرجى فى كتابه العقود اللؤلوية إذ يذكر أن الإعداد لهذا الاحتفال بدأ فى شهر شوال عقب عيد الفطر وأنهم أخذوا يحضرون الطير وأنواع الحيوان والأطعمة والبقول والتوابل والفواكه وأنواع الطيب والرياحين مما لا حصر له وألوان الحلوى . ويُعدِّد الخزرجى أسماء الآنية وأنواعها الكثيرة ويذكر أن الأمراء وكبار رجال الدولة قدم كل منهم هدية ، وكان كل من يقدم هدية يجعل معها المغانى والرياحين والبوَّاقين يزفونها إلى باب الدار . وأقيمت للناس أربعة سماطات : سماط الطعام وسماط الحلوى وسماط المكسرات من اللوز والجوز والفستق والبندق وسماط رابع خاص بالعطور والمباخر ، ويشمل المسك والصندل والعود والبنفسج والعنبر والغالية وماء الورد . ويذكر الخزرجى أنه كان هناك من المغانى والراقصات ما أدهش الحاضرين ، وفى ذلك ما قد يدل

على أن الرسوليين لم يحاربوا الغناء فى دولتهم ، بل لعلهم شجعوا عليه. ويذهب الدكتور محمد عبده غانم إلى أن الغناء الصنعانى العربى التى اشتهرت به صنعاء واليمن ربما بدأ فى أواسط العصر الرسولى أو فى أواخره . وفى رأيى أنه على الرغم من محاربة الأئمة الزيدية له كانت هناك نهضة غنائية فى صنعاء وغيرها من مدن اليمن ، على الأقل منذ العهد الرسولى ، كما تدل على ذلك المغانى والراقصات فى الاحتفال السابق ، بل لعلها تتقدم هذا العهد متصلة بزمن النجاحيين فى القرن السادس ، إذ نجد لابن سناء الملك المصرى المتوفى سنة ٦٠٨ وابن النبيه المصرى المتوفى سنة ٦١٩ وابن الفارض المتوفى سنة ٦٣٢ أشعارا يلحنها اليمنيون بألحان غنائهم الصنعانى ، على نحو ما عرض ذلك الدكتور غانم فى كتابه ، وأيضا فإننا نجد للشاعر اليمنى ابن هُتَيْمل شاعر القرن السابع الهجرى أشعارا ملحنة بهذا الغناء ، وكذلك للبرعى الشاعر اليمنى الصوفى المشهور فى القرن الثامن ، وتتوالى بعد ذلك الأغانى فى شعر القاضى موسى بن يحيى بهران والأمير الزيدى محمد بن إسحق . وتكثر الأغانى الشعبية الصنعانية ، وكل ذلك دليل على نهضة غنائية باليمن .

وأشار الخزرجى فى الاحتفال السابق إلى أنه حضره كثيرات من النساء المُحْصَنات (العفيفات) وكثيرات من نساء الأمراء **المقدَّمين**. ولعل فى ذلك ما يدل من بعض الوجوه على أن المرأة كانت تحظى فى اليمن بغير قليل من الحرية . ومرَّ بنا أن أسماء زوجة على ابن محمد الصُّلَيْحى كانت من فضليات النساء ، وكان الناس من شعراء وغير شعراء يقصدونها فتبرُّهم ، وكان ابنها المكرَّم يجلُّها إجلالا عظيما ، وكانت لا تستر وَجْهَها من الحاضرين ، وكان زوجها يكل إليها تدبير بعض شئون الدولة .

وحين مرض ابنها المكرَّم بالفالج فوَّض شئون الدولة إلى زوجته الملكة الحرة أَرْوَى بنت أحمد الصليحى سنة ٤٦٧ فأحسنت القيام عليها وتدبيرها إلى أن توفى سنة ٤٨٤ وتولَّت بعده شئون الحكم ، كما مر بنا ، إلى أن توفيت سنة ٥٣٢ وهى التى أمرت ببناء جامع جُبْلة والجناح الشرقى فى جامع صنعاء .

وكانت حَضْرَمَوْتُ من قديم متصلة باليمن ، بل كانت أحيانا تعد جزءاً منها ، وكان واليها فى القديم هو نفس والى اليمن . وقد يعيِّن عليها نائبا له ، وحدث ذلك كثيرا على نحو ما مرَّ بنا فى تاريخها السياسى . ومما لا شك فيه أن اليمن تسبقها وتتفوق عليها أشواطاً فى الخصب وكثرة الزروع . وهى بلاد جبلية يشقّها واد عظيم تَتفرع منه أودية مختلفة ، كما مر بنا . وأهم حاصلاتها اللُّبان (الكُنْدر) والحنطة والذرة والتمور ، وأهلها يهبطون فى التحضر

درجات كثيرة عن أهل اليمن ، لشَظف العيش بديارهم ، وهم ملاّحون ممتازون وجعلت الملاحة شطراً كبيراً منهم تجاراً ، وإليهم يرجع الفضل الأكبر فى نشر الإسلام بشرقى إفريقيا وبالملايو وإندونسيا والهند . وهم بحق أبناء المحيط الهندى ، جابوه شرقا وغربا ، ونزلوا فى أقاليمه ، وعايشوا سكانها ، ولهم فى كل إقليم نزلوه منزلة رفيعة وأموال وتجارات واسعة . وبجانب حَضْرَمَوْت ظَفار ، وطبيعتها واحدة ، فهى الأخرى جبلية ، وأهلها يزرعون الموز والحنطة والذرة معتمدين فى ذلك على مياه الأمطار ، وهم يرعون الأنعام والأغنام ، ويشتهرون بتربية نوع من الخيل الأصيلة وطبيعى أن يعنوا بصيد السمك لطول شواطئهم على المحيط الهندى أو بحر العرب . وسقطت إليهم بعض مظاهر الحضارة ، التى رأيناها فى اليمن ، ويقول ابن بطوطة إنه شاهد الطبول والأبواق تضرب على أبواب أمرائهم بعد صلاة العصر من كل يوم .

وعُمان إقليم كبير فى الجنوب الشرقى من الجزيرة ، وهى تطل على بحر العرب من جهة وعلى الخليج العربى من جهة ثانية ، وترسو بها السفن من الزنج والهند وإندونيسيا ، وينزلها إيرانيون كثيرون من قديم ، وجعل ذلك أهلها يتألفون من عناصر كثيرة : عربية وإفريقية وإيرانية وهندية ، والغلبة للعنصر العربى . وبداخلها جبل عظيم الارتفاع تتشعب منه تسعة أودية جميعها لبنى رئام وبجنوبيه مدينة نَزْوى عاصمة الخوارج . ومن أهم موانى عُمان صُحار وكانت عاصمتها قديماً ، ومَسْقط وهى عاصمتها الآن . وتكثر على سواحلها مغاصات اللؤلؤ ، وهى كثيرة التمـــور والفواكه والزروع من الحنطة والذرة والشعير . وقال ابن بطوطة عنها حين نزل بها سنة ٧٢٥ : إنها خصبة وبها أنهار وأشجار وبساتين وحدائق نخل وفاكهة كثيرة متنوعة ، ويصف نَزْوَى عاصمة الخوارج بأنها مدينة بنيت فى سفح جبل ، تحفّ بها البساتين والأنهار ، ولها أسواق حسنة ومساجد معظمة ويذكر أن من عادات أهلها الأكل فى صحون المساجد ، يأتى كل إنسان بما لديه من الأكل ، ويأكل معهم الوارد والصادر ، ويثنى على أهلها قائلا : «لهم نجدة وشجاعة» . ثم يتحدث عن مدينة عمان وسلطانها أبى محمد بن نبهان ، ويقول إنه يجلس خارج باب داره فى مجلس هنالك ولا حاجب عليه ولا وزير بين يديه ، ولا يمنع أحدا من الدخول عليه سواء أكان مواطنا أم غريبا ، ويكرم الضيف على عادة العرب ، ويعيِّن له مدة الضيافة ويعطيه حسب قَدره . ويلاحظ ابن بطوطة ملاحظة عامة ، هى نقص الغيرة هناك على النساء وأكبر الظن أنه بالغ فى تصوره وملاحظته . وكل شئ يؤكد أن هذا الإقليم كان على شئ غير قليل من الثراء ، وهو ثراء مكّن سلطان بن سيف اليَعْربى فى القرن الحادى

عشر من بناء أسطول ضخم سحق به أسطول البرتغاليين واستولى على بعض شواطئ أفريقيا وجزر المحيط الهندى وبعض شواطئ الهند .

والبَحْرين شديدة الخصب ، وهي كثيرة العيون والفواكه والنخيل وبها من التمور أنواع لا تُحْصَى ومن زروعها الحنطة والأرُزُّ ، وكان يرد إلى موانيها وجزرها كثير من المراكب من الهند محملة بالعروض التجارية . وأخبار كثيرة تصور ماكان فيها من رواج وانتعاش اقتصادى ، من ذلك ما يروى من أن تجاراً غرقت سفينتهم بين جزيرة أُوال (البحرين الحالية) والقَطيف ، وسقط فى الخليج كل ماكان معهم ، وعلم بذلك أمير البحرين العيونى الفضل بن عبد الله (٥٠٠ — ٥٠٧ هـ) فتقدم إليهم أن يكتب كل تاجر ماكان يحمله وقيمته نقدا ، وأعطى كلا منهم ما فقده كاملا ، وكان بينهم جوهرى ، قال إنه كان يحمل عقودا من اللؤلؤ قيمتها مائة ألف ، فأعطاها له . وهى مأثرة جليلة وتدل على حال الإمارة حينئذ ، وأنها كانت فى يسر . ولم يكن مثل هذه المأثرة خاصا بأمير البحرين وحده ، بل كانت تشمل حكام مدنها ، ويروى أنه فى عهد أميرها غَرير الذى تولى إمارتها سنة ٥٢٥ أصابت أهل الأحساء سنة مجدبة ، فأمر حاكمها على بن عبد الله العيونى بفتح خزائن الغلال والتمر وأن يأخذ منها الناس كل حسب حاجته ، وأمر بحطِّ الزكاة والضرائب عنهم ، وما زال يوالى فتح خزائنه لهم حتى دارت السنة وأخصبت ديارهم . وكان يحكم القَطِيف فى نفس الفترة أبو الحسن بن عبد الله بن على ، فلجأ إليه سبعون فارسا من قبيلة عبد القيس ، فأكرمهم ، وأمر لكل منهم بدار وما يلزمها من أمتعة وخدم ، سوى إقطاعات مختلفة .

وفى كل البلدان السالفة كانوا يفتنُّون فى المطاعم ويكثرون فيها من التوابل وامتازت جميعا بكثرة الأسماك ،ويكثر السردين فى حضر موت ، ووراءه فى شواطئ الشحر واليمن وعُمان والبَحْرين أنواع سمك لا تكاد تحصى ، ويكثر فى الخليج الآمور (الوقار) والرُّبْيان (الجنبرى) . وكانت المرأة تتفنن فى زينتها وثيابها وفيما تتخذ من حلى . وكانوا يحتفلون احتفالات كبيرة بعيدى الفطر والأضحى . وكان الغناء منتشرا وخاصة فى اليمن كما أسلفنا ، وكانوا يخرجون للصيد والطرد فى الصحراء من حولهم فرادى وجماعات .

٣

التشيع [١]

عرفت الجزيرة العربية كل نحل التشيع الأساسية ، وهى الزيدية والإسماعيلية والإمامية والكيسانية ، وأطولها عمرا وأكثرها بقاء وأوسعها انتشارا نحلة الزيدية أتباع زيد بن على زين العابدين بن الحسين الذى ثار بالكوفة على هشام بن عبد الملك سنة ١٢٢ وقتل وصُلب ، وكان يرى أن الإمامة مقصورة على أبناء السيدة فاطمة ، ولا مانع من أن يكونوا من أبناء الحسن أو الحسين ، وكان يجوِّز إمامة المفضول مع وجود الأفضل ، وبذلك جوَّز إمامة أبى بكر وعمر مع وجود على بن أبى طالب لمصلحة رآها الصحابة وقاعدة دينية اتبعوها . وخالف بذلك جميع مذاهب الشيعة ونحلهم ، فكانت نحلته معتدلة ، لا تؤمن بفكرة النص على الإمام ، ولا بأن وحياً نزل يعيِّن الأئمة . وكان يشترط فى الإمام أربعة شروط : العلم والزهد والشجاعة والسخاء ، وهو لا يكون إماماً إلا إذا ثار على الخليفة فى عصره وطالب بالخلافة ، والإمامة بذلك عند الزيدية لا تعرف فكرة الإمام المستور مثل الإسماعيلية ولا فكرة الإمام المختفى مثل الاثنى عشرية والكيسانية .

وكل من ثار على العباسيين من العلويين وحمل السيف ضدهم فى القرنين الثانى والثالث للهجرة كان من هذه الفرقة ، وفى مقدمتهم محمد بن عبد الله « النفس الزكية » الذى أعلن ثورته فى المدينة على المنصور العباسى سنة ١٤٥ وكان قد أرسل أخاه إبراهيم إلى البصرة ، فاستثار أهلها ، وهبُّوا معه ثائرين ، وقضى المنصور على هذه الثورة . وظلت ثورات الزيديين بعد ذلك لا تهدأ إذ يخرج الحسين بن على الحسنى فى مكة والحجاز ، ويُهزَم هو ومن معه لعصر الهادى سنة ١٦٩ فى مكان يقال له « فَخّ » ويفرّ خاله إدريس بن عبد الله إلى فاس ويؤسس بها دولة الأدارسة . ويفرّ أخوه يحيى إلى خراسان ويُقْبض عليه ، ويلقى به فى غياهب السجون حتى موته . ويثور محمد بن إبراهيم الحسنى المعروف بابن طباطبا فى الكوفة لعهد المأمون ، ويُقْضَى على ثورته . وينشط الزيديون فى طبرستان

---

(١) انظر فى التشيع ونحله مقالات الإسلاميين للأشعرى والفرق بين الفرق للبغدادى والملل والنحل للشهرستانى وعقائد الشيعة الإمامية لابن بابويه القمى وفرق الشيعة للنوبختى والتبصير فى الدين للإسفراييني وفضائح الباطنية للغزالى ورسالة افتتاح الدعوة للقاضى النعمان بن محمد تحقيق د . وداد القاضى (طبع بيروت) ومقدمة ابن خلدون وفجر الإسلام والجزء الثالث من ضحى الإسلام لأحمد أمين والعقيدة والشريعة فى الإسلام لجولد تسيهر .

بالنصف الثانى من القرن الثالث ، وقد صورنا نشاطهم هناك فى الجزء الرابع من هذه السلسلة الخاص بالعصر العباسى الثانى .

وأكبر نشاط للزيدية إنما كان فى اليمن والحجاز ، أما اليمن فقد أسس فيها إمامة الزيدية الإمام يحيى بن الحسين بن القاسم الملقب بالهادى إلى الحق ، واتخذ مقرا له –كما مرَّبنا– «صَعْدة» فى الجبال الشمالية باليمن سنة ٢٨٤ وتوالى بعده فى صعدة الأئمة من أبنائه ، حتى سنة ٤٣٧ إذ تولى الإمارة أبو الفتح الديلمى الحسنى كما مرَّ بنا ، ووليها بعده أصحاب المخلاف السليمانى ، وتعود إلى الأسرة الرَّسِّية : أسرة الإمام الهادى إلى الحق وتظل فى أبناء المتوكل على الله الرسىِّ ، كما أسلفنا . وتمر أوقات رخاء على هذه الإمارة الزيدية ، فتتسع رقعتها وتستولى على صنعاء أحيانا . ولايزال أئمتها صامدين طوال أزمنة الأيوبيين والرسوليين والطاهريين ، ثم يصبحون وحدهم وجها لوجه أمام العثمانيين ، ويستخلصون منهم اليمن على نحو ما مرَّ بنا . أما الحجاز فكان مركز الزيديين فيه مكة ، وظلت إمارتهم قائمة فيها منذ أواسط القرن الرابع الهجرى حتى العصر الحديث ، وإن أخذت تلك الإمارة فى التضعضع والضعف منذ استيلاء العثمانيين على الحجاز ومدينتيه فى القرن العاشر الهجرى .

ومرَّ بنا فى الجزء الخاص بالعصر العباسى الثانى حديث مفصل عن نحلة الإسماعيلية وأن أصحاب هذه النحلة ينسبون إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ، وكانت قد أدركته المنية فى حياة أبيه ، فقالوا إن الإمامة انتقلت منه إلى ابنه ، لأنها – فى رأيهم – تتوارث فى الابن الأكبر حتى لو توفى قبل أبيه كما حدث لإسماعيل . ويخلفه –فى عقيدتهم– ابنه محمد ، ويخلف محمدا ثلاثة أئمة مستورون جاء فى إثرهم عبيد الله المهدى أول الخلفاء الفاطميين ومؤسس خلافتهم ، وتلقيبه بالمهدى يشير إلى عقيدتهم فى المهدى المنتظر . وعرضنا فى العصر العباسى الثانى تفصيلا لتلك النحلة وأهم مبادئها وأن الذى نظَّمها وكوَّن حولها جمعية سرية عبد الله بن ميمون القداح ، وكان ينزل فى سَلَمْيَة بقرب اللاذقية ، واتخذ له دعاة من أهمهم شخص يسمى حمدانا ويلقَّب بقرمط ، وقد أرسل به إلى الكوفة وسوادها ، وإليه ينسب القرامطة ، وكان يدعو فى جماعته إلى الأخذ بنظام الألفة ، وهى الشركة فى الأموال . وزعم ، وزعم معه القرامطة ، كما يقول البغدادى «أن الأنبياء كانوا أصحاب نواميس ومخاريق أحبُّوا الزعامة على العامة ، فخدعوهم بِنَيْرَنْجات (ضروب من السحر) واستعبدوهم بشرائعهم» وقالوا : «هل الجنة إلا هذه الدنيا ونعيمها ، وهل النار وعذابها إلا ما فيه أصحاب الشرائع من التعب والنصب فى الصلاة والصيام والحج

والجهاد» . ومن هنا كانوا يحلُّون أنفسهم من الفرائض ، واتخذوا بيت المقدس قبلتهم . والقرامطة – بهذا التصوير للبغدادى – كانوا فرقة مارقة من فرق الشيعة الإسماعيلية ، وكان من بين دعاة قرمط أبو سعيد الجنّابى أرسل به إلى منطقة البحرين ، فاستجابت له هناك قبيلة عبد القيس ، مما أتاح له أن يؤسس هناك دولة القرامطة التى ظلت نحو تسعين عاما . وخلفه ابنه أبو طاهر وكان شريراً كبيراً ، وكثيرا ما قطع الطريق على الحجاج ونهبهم ، وكثيرا ما أغار على البصرة والكوفة وأحرق مساجدهما وأعمل فيهما السلب والنهب . وفى سنة ٣١٧ حدثت الكارثة الكبرى بهجومه الوحشى على الحجاج فى موسم الحج يوم التروية وسفكه لدماء الآلاف منهم ورَمْى كثير من جثثهم فى بئر زمزم واقتلاعه الحجر الأسود ونقله إلى البحرين على نحو ما مرَّ بنا ، وهو فى أثناء ذلك ينشد أشعارا كافرة مارقة . ونرى القرامطة فى سنة ٣٥٨ ينفضون أيديهم من الدعوة الفاطمية الإسماعيلية ، ومر بنا كيف أن الأعصم (٣٥٩ – ٣٦٦ هـ) حارب الفاطميين تحت ألوية الدولة العباسية سنة ٣٦٠ وظلت دولة القرامطة قائمة بعده – كما مرّ بنا – حتى سنة ٣٧٨ . وعلى الرغم من انتهاء دولتهم ظلت عقيدتهم منبثة فى البحرين إلى أن قامت الدولة العيونية سنة ٤٦٦ وقد عنى مؤسسها عبد الله بن على بالقضاء على تلك العقيدة وكان مما قضى عليه عادة سيئة لهم هى عادة الماشوش ، إذ كان يجتمع رجالهم ونساؤهم فى الليلة العاشرة من شهر المحرم ، ويشعلون الشموع والمصابيح ويغنون ويرقصون ، ثم يطفئون الشموع ويختلطون . ويبدو أن عبد الله العيونى لم يستطع استئصال العقيدة القرمطية من نفوس أهل البحرين نهائيا ، فقد ظلت منها بقايا بعده ، بل يقول فؤاد حمزة فى كتابه «قلب جزيرة العرب» ! إنها لا تعدم فى الأحساء – إن صح ما يقول – من يعتنقونها إلى اليوم . وعُرفت الدعوة القرمطية فى اليمن ، فقد أرسل إليها حمدان قرمط داعيتين من دعاته ، هما المنصور بن حوشب وعلى ابن الفضل وكان على من أهل اليمن بينما كان المنصور من أهل الكوفة ، ونزلا على حافة اليمن النجدية ، غير أن دعوتهما اختلفت ، فكان المنصور يدعو للفاطميين قبل تحولهم من إفريقيا إلى مصر منذ العقد الثامن من القرن الثالث الهجرى ، وكأنما نفض يده من القرامطة ، وانتشرت دعوته فى بعض الجبال وبعض القبائل ، ويسميه الفاطميون منصور اليمن ، وقد ظل أربعين عاما يدعو لهم ، إذ توفى سنة ٣٣١ وخلفه ابنه فى الدعوة وشركه فيها بعض اليمنيين إلى أن تزعمها الصليحى ، كما سنرى عما قليل . ونَفَضَ على بن الفضل يده ولسانه من الدعوة الفاطمية ، فلم يَدْعُ للفاطميين ، بل أخذ يدعو لنفسه ، واستطاع الاستيلاء على صنعاء سنة ٢٩٣ وادَّعى أنه من بنى يَعْرُب أو قحطان ، كما مرَّ بنا ،

واستحلّ المحارم ، ودعا الناس إلى ارتكاب المآثم وانتهت دعوته بموته سنة ٣٠٣ كما قدمنا .

وظل دعاة الفاطميين الإسماعيليين نشطين باليمن إلى أن استمالوا على بن محمد الصليحى للدعوة الإسماعيلية ، واستطاع – كما رأينا فى غير هذا الموضع – أن يؤسس الدولة الصُّلَيْحِيَّة ، وأن يستولى على زَبيد وصنعاء وعدن ، واتخذ صنعاء عاصمة له . وحرى بنا أن نتوقف قليلاً للحديث عن المذهب الفاطمى الإسماعيلى الذى كان يدين به هو وكثيرون من أهل إمارته . وقد ذكرنا آنفاً أن القرامطة كانوا فرعاً من المذهب الإسماعيلى ضلَّ هداه . وقد اتخذ هذا المذهب فى أول أمره شكل جمعية سرية كوَّن مبادئها عبد الله بن ميمون القدَّاح ، وهى مبادئ غُمست غمساً فى نظرية الفيض الأفلاطونية التى سكبوها فى نظرية الأدوار عندهم ، إذ يذهبون إلى أن الأئمة يتوالون فى أدوار ، وكل دور يتألف من سبعة من هؤلاء الأئمة يتعاقبون والسابع هو العقل الكلى الناطق عن القوى الخارقة ، والأئمة الستة السابقون له نفوس كلية تمهد له وتدعم عمل الناطق قبل ظهوره . والإمام له نسبتان : نسبة إلى عالم القدس ، ونسبة إلى عالم الطبيعة . وفى مبادئهم أن قدرة الله تنتقل إلى العقل الكلى أو بعبارة أخرى إلى الإمام السابع فى كل دور ، ولذلك يوصف – عندهم – بما توصف به الذات العلية من أسماء وصفات ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وفى عقيدتهم أن آيات القرآن الكريم ينبغى أن تفهم فهماً باطناً مجازيا ، ولا تفهم فهماً ظاهراً أو ظاهرياً ، حتى يؤوِّلوها كما يشاءون . والمنتظم فى سلك الدعوة – عندهم – يتدرّج فى سبع مراتب وبلغت تسعاً . وظلت الدولة الصليحية قائمة – كما أسلفنا – حتى سنة ٥٣٢ ولم تنته الدعوة الإسماعيلية بانتهائها فقد كان بنو زُرَيْع حكام عدن إسماعيليين فاطميين ، وظلوا على عدن حتى تسلمها منهم توران شاه سنة ٥٦٩ . وتلاشت بذلك الدعوة نهائياً بقضاء الأيوبيين عليها فى اليمن ومصر ، وبقيت فترة حية فى المدينة بالحجاز لما ذكرناه من أن الأسرة الحسينية الحاكمة هناك كانت إسماعيلية ، ونظن ظناً أن هذه الأسرة لم تمض بعد القضاء على الدولة الفاطمية الإسماعيلية بمصر فى اعتناق هذه العقيدة طويلاً وأنها اعتنقت نحلة الشيعة الإمامية الاثنى عشرية .

ومعروف أن النحلة الإمامية تسربت إلى شرقىّ الجزيرة ، وعند أصحاب هذه النحلة أن الإمامية تتوالى فى اثنى عشر إماما . ولذلك يسمى أصحابها باسم الاثنى عشرية ، وآخرهم المهدى المنتظر المتوفى سنة ٢٦٠ وقد ذهبوا إلى أنه لم يمت وإنما غاب وسيعود ليملأ الأرض عدلاً . ولم تقم للإمامية دولة فى الجزيرة العربية ، غير أنها تسربت إلى بعض البيئات وبعض الأسر فى الخليج العربى ، وقد مر بنا أنه غلب على البحرين بعد القرامطة ولاة كانوا يدينون

بالولاء للخليفة العباسى وبالتالى للبويهيين ، ومعروف أنهم كانوا إمامية اثنى عشرية ، وفى نفس التاريخ يحدثنا المؤرخون أنه كان فى عُمان بيت إمامى اثنا عشرى هو بيت بنى المكرم ، وأنهم ، كما مر بنا ، دفعوا البويهيين إلى غزو عمان واستخلاصها من أيدى خوارج نَزْوَى ، وظلت هذه الأسرة الإمامية تحكم عمان حتى منتصف القرن الخامس الهجرى ، ولم يكن الإمامية غلاة متطرفين فى التشيع مثل الإسماعيلية وهم يؤمنون برجعة الإمام الثانى عشر المختفى كما أسلفنا . ولا يزال يوجد إماميون فى الخليج العربى وإماراته إلى اليوم .

والكيسانية أتباع محمد بن الحنفية ، وهو أخ ربيب للحسن والحسين ، وقد تبعته منذ حياته فرقة كانت تؤمن بالتناسخ وبالرجعة وكان ابن الحنفية يتبرَّأ منها أشد التبرؤ ، ويتوفى ، فيقول أتباعه إنه لم يمت ، بل غاب فى جبل رَضْوى ، ويقول فؤاد حمزة فى كتابه «قلب جزيرة العرب» يوجد فى الوقت الحاضر أتباع لمحمد بن الحنفية يقيمون فى جبل رَضْوَى بالقرب من يَنْبع وهم على شىء عظيم من البداوة والتوحش والبعد عن مخالطة أهل المدن .

٤

الخوارج : الإباضية (١)

الإباضية نسبة إلى عبد الله بن إباض التيمى أحد أربعة كانوا رءوس الخوارج فى منتصف القرن الأول الهجرى وحولهم تكونت فرقهم الأساسية : الأزارقة والنجدات والصفرية والإباضية ، والأزارقة أتباع نافع بن الأزرق وكان مسرح نشاطهم بلاد فارس وكرمان ، والنَّجَدات أتباع نجدة بن عامر الحنفى وكان مسرح نشاطهم اليمامة والبحرين ، والصُّفْرية أتباع زياد بن الأصفر وكان مسرح نشاطهم الموصل وبلاد الجزيرة . وكان مسرح نشاط الإباضية عمان وحضرموت واليمن ، وقد انتهت الفرق الثلاث الأولى أوكادت بانتهاء العصر الأموى ، أما فرقة الإباضية فظلت حية لا فى بيئتها الأصلية عمان وحضرموت فحسب ، بل أيضا فى بلاد المغرب ، فقد ذهب هناك دعاة مبكرون فى

(١) انظر فى الإباضية الكتب المذكورة فى تاريخ عمان وأمرائها والملل والنحل للشهرستانى ومقالات الإسلاميين للأشعرى والفرق بين الفرق للبغدادى وفجر الإسلام وضحى الإسلام لأحمد أمين وحاضر العالم الإسلامى لشكيب أرسلان ومختصر تاريخ الإباضية لأبى ربيع سليمان البارونى (طبع المطبعة السلفية بالقاهرة) .

العصر الأموى أو بعبارة أدق فى أواخره ، ومازالت الدعوة تنمو فى المغرب ، حتى استطاع الدعاة أن يكونوا دولة للإباضية فى تيهرت . ولا يزال الإباضية بالمغرب إلى اليوم وخاصة فى جنوبى الجزائر وليبيا .

أما فى عُمَان وحَضْرَمَوْت فقد اتخذ الإباضية نَزْوَى جنوبى الجبل الأخضر فى داخل إقليم عمان مركزا وحاضرة لهم وتوالى أئمتهم فيها منذ أول العصر العباسى ، وكثيراً ما كانت تخرج عمان والسواحل من أيديهم إلى أيدى العباسيين. وقد تغلب القرامطة على عمان سنة ٣١٧ كما مر بنا وظلوا بها حتى سنة ٣٦٢ ويعود إليها الإباضية غير أن بنى مكرم الإماميين يستخلصونها منهم سنة ٣٩٠ ويضعف بنو مكرم فيعود إليها الإباضية من نَزْوى قبيل منتصف القرن الخامس . وتخرج من أيديهم فى القرن السادس ويتملكها بنو نبهان ، وتعود إلى الإباضية فترة فى أول القرن العاشر الهجرى ، ثم تعود إليهم نهائيًّا ويتولاها أئمة الإباضية اليعاربة منذ سنة ١٠٢٤ . وتخلفهم أسرة إباضية أخرى هى أسرة البوسعيديين منذ سنة ١١٥٤ هـ / ١٧٤١ م وتظل عليها إلى اليوم ، وتترك السلطة الدينية لأئمة نزوى وتكتفى بالسلطة الزمنية . ومن قديم كان يغلب على ظفار وحضرموت مذهب الإباضية ، ومرَّ بنا أنه نزلها سنة ٣١٧ الشيخ أحمد بن عيسى جد آل باعلوى وقد نشر فيها مذهب الشافعى ودعوة علوية تحولت إلى دعوة سنية كانت تحدث تعادلا مع دعوة الخوارج ، ولأسرته نشاط علمى وأدبى كبير فى حضرموت ، ومرَّ بنا أن أبا إسحق الخارجى الحضرمى استقل بها فى القرن الخامس ، وكان خارجيًّا يدين بالولاء لإباضية نزوى وإمامهم الخليل ابن شاذان ، وكثيرا ماكانت تخضع حضرموت وظفار للإباضية فى نزوى أو فيها وفى عُمان . وقد نشر العمانيون المذهب الإباضى فى زنجبار والبلاد التى كانت تتبعهم فى شرقى إفريقيا مثل دار السلام ، ومعروف أنه أخذ يستقل بزنجبار فرع من أسرة البوسعيديين حكام عمان منذ الربع الأخير من القرن الثالث عشر الهجرى .

ومذهب الإباضية أكثر مذاهب الخوارج قربا إلى أهل السنة ، وهم يذهبون إلى أن دار مخالفيهم من المسلمين دار توحيد ويسمون الموحد العاصى كافرا ، ولا يقصدون بذلك أنه مشرك بالله ، بل يقصدون بكفره أنه كافر بالنعمة ، والكفر بذلك عندهم نوعان : كفر نعمة وكفر شرك بالله . وأحلوا التزوج من مخالفيهم المسلمين وأن يتوارث الإباضى معهم . ولم يستحلّوا من أموال المسلمين إلا غنائم الحرب ، وحرَّموا قتل المسلمين غيلةً وكذلك سَبْيهم سرًّا . وقالوا إنه لا يجوز قتالهم إلا بعد دعوتهم إلى مذهبهم الإباضى وإقامة الحجة عليهم وإعلان الحرب . وأجازوا شهادة مخالفيهم على أوليائهم وأتباعهم ، وقالوا فى مرتكبى

الكبائر إنهم موحدون لا يؤمنون ، وهم كفار نعمة لا كفار ملة . وعندهم أن الإيمان لا يكفى فيه القول ولا الاعتقاد والتصديق ، بل لا بد من العمل وأداء فروض الدين . ويتفقون مع المعتزلة فى نفى رؤية الله تعالى بالأبصار يوم القيامة وينزهون الذات العلية عن الشبه بالمخلوقات ، ويقولون إن القرآن مخلوق حادث ، وإذا صح ما يقوله الشهرستانى كانوا يتفقون مع الأشعرية فى رأيهم أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى إحداثاً وإبداعاً ومكتسبة للعبد حقيقة لا مجازا . ولا يتسمى إمامهم باسم أمير المؤمنين ، ولا يسمون أنفسهم مهاجرين .

وهذا الاعتدال فى مذهب الإباضية يجعلنا ننفى عنهم نفيا باتًّا دولة بنى مهدى الخارجية التى استولت على زبيد باليمن سنة ٥٥٤ للهجرة كما مر بنا ، فقد تسمى مؤسسها بأمير المؤمنين كما تسمى بالمهدى ، وكأنه جمع بين فكرتى الشيعة الإسماعيلية والخوارج الغالين معا مثل الأزارقة من جهة والقرامطة من جهة ثانية ، إذ كان – كما أسلفنا – يكفِّر بالمعاصى ويقتل من اقترف كبيرة وبالمثل كل من خالف عقيدته من المسلمين واستباح نساءهم وسمَّى دارهم دار حرب . وهو فى ذلك كله غال غلوا شديدا حتى ليتقدم الأزارقة خطوة فى الغلو ، ثم هو يدَّعى العصمة ويدعيها له أتباعه وهو فى ذلك غال غلو الشيعة الإسماعيلية ، بل إنه ليعد نفسه المهدىّ المنتظر ، ولم يلبث توران شاه – كما مرَّ بنا – أن قضى على من خَلَفَه ودولتهم الخارجية الشيعية .

٥

الدعوة الوهابية السلفية (١)

دعوة للرجوع إلى طريق السلف ونبذ البدع التى شابت العقيدة الإسلامية ونبذ تقديس الأولياء الصالحين والتوسل بهم إلى قضاء الحاجات ، كالبركة فى الزروع أو فى الأغنام والأنعام أو فى برء المرضى وشفائهم ، وابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ للهجرة هو أكبر من حمل على البدع وما يتصل بها من تقديس بعض الأشجار

(١) انظر كتاب الإيمان لابن تيمية (طبع دمشق) وقاعدة جليلة فى التوسل والوسيلة ومجموعة الرسائل الكبرى (طبع القاهرة) وكتاب التوحيد وكشف الشبهات فى التوحيد لمحمد بن عبد الوهاب طبع القاهرة ولمع الشهاب فى سيرة محمد بن عبد الوهاب للربكى وعنوان المجد فى تاريخ نجد لعثمان بن بشر وروضة الأفكار لحسين بن غنام وزعماء الإصلاح لأحمد أمين والعقيدة والشريعة فى الإسلام لجولد تسيهر

والأحجار ، وكان حنبليًّا يؤمن بعقيدة الحنابلة السلفية ، وقد مضى يحمل حملات شعواء على الصوفية وعقيدتهم ، وأنكر زيارة قبور الأولياء والتوسل بهم . وكان الغزالى قد وصل بين التصوف والشريعة محاولا تخليصه من نظريات الحلول وما يتصل بها وجعله تصوفا سنيا ، وقد شَنَّ ابن تيمية على التصوف بعض الحملات العنيفة ، وناهض المذهب الأشعرى وكل ما شاب العبادات والعقود والمعاملات مما رآه بدعاً جديدة .

وعلى هدى من هذه الدعوة التى وهب ابن تيمية نفسه ومؤلفاته لها انبرى محمد ابن عبد الوهاب المولود سنة ١١١٥ هـ/١٧٠٣م بالعُيَيْنة فى إقليم سدير بأواسط نجد يدعو دعوة حارة إلى مبادئه ، وكان أبوه قاضيا للعيينة وعليه تلقى دروسه الأولى وكذلك على علمائها ثم على علماء المدينة فعلماء البصرة ، وأعجب بكتابات ابن تيمية فأكبَّ على قراءته ، وعاد إلى موطنه ، يدعو إلى مذهبه الحنبلى وإلى كل ما دعا إليه من عبادة الله دون استعانة بولى أو شفيع ونَبْذ كل البدع المستحدثة بعد عصر الإسلام الأول وكل تقديس للأولياء وزيارة لقبورهم بقصد التيمن أو البركة أو طلب بعض الأغراض الدنيوية ، والرجوع إلى السنة والعمل على إحيائها ، واتباع السلف فى ذلك كله ، ولذلك يسمى الوهابيون أنفسهم سلفية . وكُتب لهذه الدعوة أن تعم وتنتشر حين وضع محمد بن سعود أمير الدِّرْعِيَّة (١١٣٧ – ١١٧٩ هـ .) يده فى يد محمد بن عبد الوهاب سنة ١١٥٨ هـ / ١٧٤٤ م وعاهده على أن ينشر دعوته السلفية وأن يقيم الحدود الشرعية ، وأن تصبح الدعوة عقيدة الدولة السعودية ، بحيث ينبذ النجديون البدع والخرافات ويتمسكون بأهداب الدين وأصوله من القرآن والحديث .

وأخذ محمد بن سعود وخلفاؤه يعملون على نشر الدعوة ، وأداهم ذلك إلى حروب طاحنة فى الجزيرة انتهت بقيام المملكة العربية السعودية التى تُظِلُّ نجدا والأحساء والحجاز اليوم . وفى الوقت نفسه أخذ محمد بن عبد الوهاب المتوفى سنة ١٢٠٦ هـ / ١٧٩٢ م فى الدرعية يبث تعاليمه وينشرها فى أتباعه بمحاضراته ومصنفاته الكثيرة ، وفى مقدمتها كتاب التوحيد ومجموعة التوحيد إلى غير ذلك من كتب تنادى بعبادة الله وحده وأن زيارة قبور الأولياء لقضاء الحاجات ضرب من الشرك. وبالغ أتباعه فى هذا المبدأ فمنعوا الاحتفال بالموالد وهدموا القباب المقامة على قبور بعض الصحابة والصالحين ، وتشددوا فى قمع كل عادة مستحدثة وعدوها بدعة حتى التذكير قبل الأذان وحتى استعمال المسابح وكذلك لبس الحرير والتختم بالذهب . والدعوة الوهابية إنما كانت تريد أن يعود الإسلام إلى صورته الأولى ، كما كان فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولذلك دعت إلى نبذ كل

ما اتخذ صفة شرعية على مر الزمن من عادات وسنن لم تعرف فى العهد الإسلامى الأول ، ونادت بأنه يجب إزالته ، حتى لوكانت بعض المذاهب السنية الأخرى أباحته ، بل حتى لو حبذته . وكان اعتناق الحكومة السعودية لهذه الدعوة اعتناقا فى الوقت نفسه للمذهب الحنبلى ، وتوثقت مع الزمن العلاقة بين أسرة السعوديين وأسرة محمد ابن عبد الوهاب عن طريق المصاهرة ، وظلت للأسرة السعودية السلطة الزمنية ، بينما ظلت لأسرة ابن عبد الوهاب السلطة الروحية ، فللأولين الحكم والسياسة وللثانين الإفتاء والتعليم والقضاء .

٦

الزهد والتصوف[١] :

لم تكن نجد تعرف شيئا عن الترف والنعيم ، إذ كانت حياتها تقوم على غير قليل من الشظف ، فطبيعى أن لا يتعلق الناس بمتاع الحياة الدنيا ، وحقا كانت بعض القبائل النجدية تقطع الطرق على الحجاج فى بعض السنوات طلباً لما فى أيديهم من مال ومتاع ، ولكن كان وراءهم أقوام لا يفكرون فى متاع الحياة العاجل انتظاراً لما عند الله من الثواب الآجل . ومعروف أن الوهابيين منعوا التلصص وقطع الطرق على الحجاج ، كما منعوا التصوف والانتساب إلى الطرق الصوفية .

وكانت المدينتان المقدستان فى الحجاز ، ولا تزالان ، موئلا للنساك والعباد ، ومن قديم كان يجاور فيهما وخاصة فى مكة كبار الزهاد والمتصوفة ، فيقيمون فيهما بضع سنوات ، وقد ينفقون فيهما العمر كله . ومعروف أن الحج ركن من أركان الإسلام وأن فؤاد كل مسلم يهوى إلى مكة لأداء فريضة الحج فكان طبيعيًّا أن لا يوجد زاهد ولا متصوف مشهور فى العالم الإسلامى دون أن يفد على مكة ، وقد يقرن حجه بالزيارة النبوية . ونذكر من كبار المتصوفة الذين ألموا بمكة وجاوروا فيها الحلاَّج المقتول سنة ٣٠٩ للهجرة ، جاور فيها سنة كاملة . ومرَّ بنا فى العصر العباسى الثانى ترجمة له وعرض لشعره الصوفى وبيان لتصوفه وأنه كان تصوفاً فلسفيًّا ، إذ جرت على لسانه كلمات الاتحاد

---

(١) انظر العقد الثمين فى مواضع متفرقة وكتاب طبقات فقهاء اليمن للجعدى (طبع القاهرة) والعقود اللؤلؤية ، وتاريخ الشعراء الحضرميين لعبد الله السقاف وسلافة العصر لابن معصوم وشعراء هجر لعبد الفتاح الحلو (نشر مكتبة دار العروبة) .

والحلول . وممن جاور فى مكة بعده القشيرى المتصوف السنى المتوفى سنة ٤٦٥ وقد سمع بها الحديث ، وهو الذى رأب الصدع المتفاقم بين الفقهاء والمتصوفة ، فنحّى عن التصوف أفكار الحلول والاتحاد والفناء ، وجعل من أول واجبات المتصوف أداء الفروض الدينية ، وجاور بمكة بعده شهاب الدين السُّهْروردى شيخ الصوفية ببغداد المتوفى سنة ٦٣٢ وبها لقى ابن الفارض المتصوف المصرى المشهور الذى كان يجاور هناك ، وطالت مدة مجاورته إلى خمسة عشر عاما طوالا ، وهو يطوف المشاعر مبتهلا إلى الله متغنيا بالحب الصوفى الإلهى ناظما أشعاره الرائعة . وإنشاد البوصيرى لميميته أمام قبر الرسول ﷺ ذائع مشهور . ومن متفلسفة المتصوفة الذين جاوروا بمكة ابن عربى المتوفى سنة ٦٣٨ وفيها نظم ديوانه الصوفى « ترجمان الأشواق » سنة ٥٩٨ ووضع عليه بمكة أيضا سنة ٦١٠ شرحه المسمى : « الذخائر والأعلاق من شرح ترجمان الأشواق » وجاور بها أيضا من متفلسفة المتصوفة ابن سبعين الأندلسى المتوفى بها سنة ٦٦٩ بعد أن أقام بها سنين كثيرة . ومن ذكرناه من هؤلاء المتصوفة المجاورين بمكة إنما هم قليل من كثير ، وأكثر منهم من جاوروا بمكة من الزهاد والعباد وهم لا يحصون كثرة . وكان يتعبد الله معهم أهل المدينتين ومن كان بهما من النساك وإنهم ليفوتون الحصر والاستقصاء ، ولنأخذ مثلا كتاب العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين « مكة » فإن من يتصفح تراجمه فى مجلداته الثمانية لا يزال يتنقل فيها من زاهد إلى زاهد ومن عابد إلى عابد .

وإذا ولينا وجوهنا نحو اليمن وجدنا كتاب طبقات فقهاء اليمن لعمر الجعدى لا يزال يتحدث عن زهدِ كثير من هؤلاء الفقهاء و إعراضهم عن متاع الدنيا الفانى ، وحقًّا أكثرهم من فقهاء زَبيد الشافعية ، ولكن الزهد كان يحيى فى كل البيئات وفى كل المدن . وكان كثير من أئمة الزيدية فى صَعْدة على جانب كبير من الورع والتقوى وكان لذلك أثره فى إمارتهم ، فأكبَّ فيها كثيرون على النسك والعبادة ، وبالمثل كان الرسوليون أوكانت كثرة حكامهم . ولم تكتف اليمن بالزهد ، فقد عرفت التصوف السنى وطرقه من شاذلية وجيلانية ورفاعية ، واشتهر عندهم صوفى كبير يسمى أحمد بن علوان المتوفى سنة ٦٦٥ للهجرة وله أتباع كثيرون أو بعبارة أدق دراويش يسمونهم فى اليمن المجاذيب ، وهم يطوفون فى البلدان اليمنية مرددين أغانى وأناشيد فى مديح قطبهم الربانى ، ويبدو أنه كان من كبار أتباع الطريقة الرفاعية العراقية التى شاعت منذ أواسط القرن السادس ، يدل على ذلك ما يُرَى عند أتباعه إلى اليوم من احتمال الآلام الجسمانية ، مصورين بذلك مقدرتهم الخارقة . ومرَّ بنا فى حديثنا عن المجتمع اليمنى والغناء فيه أنهم كانوا يتغنون هناك بمقطوعة

لابن الفارض ، ولعل فى ذلك ما يدل على صلة التصوف اليمنى بالتصوف السنى المصرى عند ابن الفارض وأمثاله ، ولا يبعد أن تكون أشعار البوصيرى فى مدائح الرسول ﷺ وصَلتْهم ، وتغنوا بها إذ لا نصل إلى نهاية القرن الثامن الهجرى حتى يلقانا عندهم شاعر صوفى سنى هو عبد الرحيم البرعى المتوفى سنة ٨٠٣ للهجرة ، وأشعاره موزعة بين التصوف أو الحب الإلهى والمدائح النبوية . وعلى غراره محمد بن إبراهيم الوزير ، وله ديوان شعر كله ابتهالات وزهد وتصوف . ومن صوفية اليمن وزهادهم وراء من سميناهم عبد الله بن أسعد اليافعى صاحب كتاب مرآة الجنان المتوفى سنة ٧٦٨ وكان كثير العبادة والورع وجاور بمكة وقد تجرد للعبادة والنسك عشر سنوات يتردد فيها بين الحرمين ، وزار مصر ، وكان ابنه عبد الرحمن زاهداً صوفيا على شاكلته وصحب الصالحين ببلاد كثيرة . وما زالت موجتا الزهد والتصوف تنتشران فى اليمن ، وإن كان يلاحظ أن موجة التصوف خفت فى عهد الإمامة الزيدية حين أصبح لها زعامة اليمن فى مواجهة العثمانيين ، ولم يكن العثمانيون يعارضون الطرق الصوفية ولا كانوا يتعرضون لأهلها ، بينما كان كثيرون من أئمة الزيديين وأتباعهم يحاربون حلقات الذكر المنتشرة فى البلاد ، حتى نهاية هذا العصر .

وعلى نحو ما كان الزهد والتصوف منتشرين فى اليمن كانا أيضا منتشرين فى حضرموت حتى لنجد عبد الله السقاف فى كتابه عن شعرائها يقول فى مقدمته : إنك ترى فى شعرهم جميعا طلاء صوفيا . وفى الكتاب شعر زاهد كثير وكذلك شعر صوفى كثير فى محبة الله ومحبة رسوله ومديحه . ويكثر عند السقاف وصف الشاعر بلقب الصوفى الزاهد التقى الورع . ومن الشعراء الصوفية الذين ترجم لهم أبو بكر العَيْدروس المتوفى سنة ٩١٤ وعمر بامخرمة المتوفى سنة ٩٥٢ وكان كلما سار حفَّ به مريدون يذكرون الله وقد يتغنون ويرقصون ، وكان له مجلس ذكر وسماع وغناء . وممن ترجم لهم أيضاً السقاف عبد الله الحداد العلوى المتوفى سنة ١١٣٢ وعبد الرحمن بن مصطفى العيدروس المتوفى سنة ١١٩٢ ويفيض كتاب السقاف بسيول من شعر الزهد والتصوف .

ولم تكن عُمان وإقليمها يوماً بيئة تصوف لغلبة الخوارج الإباضية عليها ، وهم بدون ريب أصحاب زهد وتقشف ، وقد وصف أبو حمزة الخارجى شبابهم قديما بأنهم «غضيضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، أنضاء عبادة وأطلاح (أنضاء) سهر» وطبيعى أن يتغنى شعراؤهم بالزهد والنسك والعبادة والتقشف ورفض عرض الحياة الزائل ابتغاء ما عند الله من الثواب الآجل . ونجد عند شعراء بنى نبهان لمعة من الزهد والمديح النبوى .

وكانت البحرين بعيدة عن الزهد والتصوف فى عصر القرامطة ، وفى ديوان ابن مقرب العيونى بعض أشعار قليلة زاهدة ، وهى تشيع فى كتابى سلافة العصر لابن معصوم ونفحة الريحانة للمحبى ، وتشيع معها أو تكثر ابتهالات ومناجيات للذات العلية وبعض غزليات فيها روح الغزل الصوفى وما يشيع فيه من وجد . وتلقانا فى كتاب شعراء هجر من القرن الثانى عشر إلى القرن الرابع عشر مواعظ وبعض أشعار زاهدة .

الحالة السياسية

١- [illegible]

٢- [illegible]

٣- [illegible]

٤- [illegible]

٥- [illegible] ٦- [illegible]

الحالة الاجتماعية فى الجزيرة

الحالة الدينية فى جزيرة العرب

١- التشيع

٢- الخوارج والإباضية

٣- الدعوة الوهابية [illegible]

٤- [illegible]

الفصل الثانى

الثقافة

١

الحركة العلمية (١).

منذ ظهور الإسلام وإرسال الرسول ﷺ معلمين إلى القبائل والقرى فى الجزيرة العربية يعلمون الناس شئون دينهم الحنيف اختطت الحركة العلمية لنفسها جداول ظلت تتدفق فى كل ركن من أركان الجزيرة ، وظلت تمدها جداول من البصرة والكوفة وبغداد ودمشق والفسطاط والقاهرة وكل مدن العالم الإسلامى . ومعروف أنه من أهم ما يميز الحركة العلمية العربية فى جميع ديار العرب وأقاليمهم أنها عامة ، وليست خاصة بإقليم معين ، إذ كان كل ما يظهر بإقليم من مصنفات علمية سرعان ما يفد على الأقاليم الأخرى ، وسرعان ما تتعهده وتضيف إليه إضافات كثيرة .

ومعنى ذلك أننا إذا تحدثنا عن الحركة العلمية فى الجزيرة العربية لهذا العصر لم يكن مؤدى ذلك أنه كان لها حركة علمية مستقلة ، فقد كانت حركتها العلمية فرعا من فروع الشجرة الكبرى ، شجرة الحركة العلمية العربية العامة ، إذ نلتقى فى كل مكان بأسماء الكتب العلمية المهمة المعروفة لنا فى بغداد وغير بغداد ، وكأنه كان هناك نهر كبير للثقافة العربية كانت جداوله ونهيراته تجرى فى كل مكان وفى كل دار من أقصى الشرق فى خراسان إلى أقصى الغرب فى الأندلس .

وتتغلغل جداول هذه الثقافة حتى فى نجد : البيئة التى يُظَنّ أنها كانت بعيدة عن الحركة

---

(١) انظر فى الحركة العلمية ترجمة ابن دريد والسيرافى فى ابن خلكان والعقد الثمين وتاريخ عمارة اليمنى والعقود اللؤلؤية وسلافة العصر لابن معصوم ونشر العرف لزبارة والبدر الطالع للشوكانى والنور السافر للعيدروس وتاريخ مكة لأحمد السباعى (مطابع دار قريش بمكة) وثغر عدن لبامخرمة والمقتطف من تاريخ اليمن للجرافى وتاريخ الشعراء الحضرميين للسقاف وصفحات من التاريخ الحضرمى لسعيد عوض باوزير وتحفة الأعيان لنور الدين السالمى وعمان تاريخ يتكلم لمحمد السالمى وعساف وشعراء هجر من القرن الثانى عشر إلى القرن الرابع عشر لعبد الفتاح الحلو وساحل الذهب الأسود لمحمد سعيد المسلم .

العلمية لما يحيط بها من أسوار الصحراء ، فقد كانت قراها لا تخلو من بعض المعلمين والوعاظ ، وكانت تُتْلَى فيها كتب الشريعة وأيضا كتب العربية بأخرة . وكانت القبيلة النجدية بمجرد أن تتحول قليلا أو كثيرا من البداوة إلى التحضر تنهض فيها حركة علمية نشطة ، على نحو ما حدث فى بنى مَزْيد وقبيلتهم بنى أسد حين أسسوا مدينة الحِلّة بالقرب من الكوفة واستقروا فيها بعض الاستقرار ، وأيضاً على نحو ما حدث فى بنى عُقَيْل حين اتخذوا لهم إمارة فى الموصل ، فإن القبيلتين جميعاً قادتا حركة علمية فى ديارهما ، وقد عادتا جميعاً إلى نجد وحياة البداوة مع القرن السادس الهجري . ومن المؤكد أن قرى نجد مثل اليمامة (الرياض فيما بعد) وبُرَيْدَةَ وحائل والعُيَيْنة والدِّرْعية لم تخلُ فى أى عصر من شيوخ يختلف الشباب والشيوخ إليهم لتلقى كتب الفقه والتفسير والحديث النبوى . ومنذ ظهور محمد ابن عبد الوهاب استحالت نجد إلى دار كبيرة للدعوة الوهابية ولمدارسة كتب محمد بن عبد الوهاب نفسه وكتب إماميه : أحمد بن حنبل وابن تيمية .

وإذا تركنا نجداً إلى المدينتين المقدستين فى الحجاز : مكة والمدينة وجدنا الحرمين المكى والمدنى يتحولان فى عصر مبكر إلى جامعتين كبيرتين ، بحيث يصبحان من أهم المراكز العلمية فى البلاد العربية ، لسبب مهم سبق أن عرضنا له فى غير هذا الموضع ، وهو أن كثرة كبيرة من العلماء النابهين بالأقطار العربية فى كل عصر كانوا ينزلون مكة ويقيمون فيها سنوات طوالاً ، وقد يمضون فيها بقية حياتهم ، وبالمثل كانوا ينزلون المدينة ، غير من كان فيها وفى مكة من علماء الشريعة والعربية . وتفيض كتب التراجم بأسماء هؤلاء العلماء ، ويكفى أن تتصفح مثلاً كتاب العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين : مكة لترى مبلغ من كان فيها من العلماء من كل صنف ، وكان لكل عالم حلقته ، فلمقرئ القرآن الكريم حلقته وكذلك للمفسر والمحدث والفقيه وعالم الكلام وعالم العربية وعالم المنطق وعالم الرياضيات وعالم التصوف . وتتعدد الحلقات بتعدد الشيوخ حتى لتُعَد بالعشرات . وأنشئت بجانب هاتين الجامعتين مدارس ، فقد بنى بمكة السلطان نور الدين رأس الدولة الرسولية مدرسة ، رتب لها مدرسين وإماماً ومؤذناً وطلاباً يتعلمون ، ووقف عليها أوقافاً دارَّة . وتعاقب بعده بناء المدارس فى مكة والمدينة ، يبنيها بعض السلاطين الرسوليين وبعض الأفراد وبعض سلاطين مصر على نحو ما هو معروف عن مدرسة السلطان قايتباى التى بناها بجوار الحرم المكى ورصد لها أوقافاً كثيرة . وعُنِى العثمانيون بعد استيلائهم على الحرمين ببناء المدارس ، من ذلك بناؤهم أربع مدارس بمكة سنة ٩٧٢ لتدريس مذاهب الفقه ، وتتكاثر المدارس فى المدينتين المقدستين وتتكاثر الكتاتيب وخاصة منذ القرن الثالث عشر الهجرى .

ونشطت الحركة العلمية فى اليمن من قديم ، بسبب توزعها بين إمارات كانت تتنافس فيما بينها علميا وأدبيا مما جعل كلا منها تحاول جذب العلماء إلى دائرتها ومحيطها ، وكان كثير من الأمراء أنفسهم علماء ، فالأمير على بن محمد الصليحى مؤسس الدولة الصُّلَيْحية الإسماعيلية كان عالما ، ويقول عنه عمارة : «كان عالما وفقيها مستبصرا فى علم التأويل وخطيبا بليغا» وكانت زوجة ابنه الأمير المكرم المسماة الملكة الحرة أروى بنت أحمد الصليحية تتعمق علوم الدعوة الفاطمية ، ووقفت أوقافا كثيرة لتدريس صحيح البخارى مع أنها كانت إسماعيلية العقيدة . وكان جياش من آل نجاح أمراء زبيد مؤرخا وصنف «المفيد فى أخبار زبيد» واختصره عمارة اليمنى ونُشر مختصره ، ومن وزراء هذه الدولة سرور الفاتكى ، وكان يشجع العلماء وفرض لهم رواتب . ويقول عمارة اليمنى إنه رأى جريدة هذه الرواتب التى كانت تُدْفَعُ إلى الفقهاء والقضاة وعلماء الحديث والنحو واللغة ، فوجدها اثنى عشر ألف دينار فى كل سنة . وبالمثل عُرف بنو زُرَيْع أمراء عدن بإكرام العلماء والشعراء وإسباغ العطايا والجوائز عليهم . وحين تسلم الرسوليون زمام الأمور أخذوا ينهضون بالحركة العلمية نهضة واسعة يتقدمهم فى ذلك مؤسس دولتهم نور الدين إذ بنى فى تعزّ عاصمته الصيفية مدرستين وفى عدن مدرسة وفى زبيد عاصمته الشتوية ثلاث مدارس : مدرسة للشافعية ومدرسة للحنفية ومدرسة للحديث النبوى ، ورتب فى كل مدرسة مدرسا ومعيدا وطلابا وإماما ومقرئا ومؤذنا ، ورصد لكل مدرسة أوقافا تقوم بكفايتها وتسدّ حاجتها . وخلفه ابنه السلطان المظفر وهو صاحب جامع المظفرية فى تعزّ وجوامع أخرى فى أنحاء إمارته وبنى مدرسة بتعزّ ، وأخرى بظفار وكانت تتبعه . وابتنى أحد رجاله المسمى بدراً المظفرى بزبيد مدرسة للشافعية ومدرسة للقراء بالقراءات السبع ومدرسة للحديث النبوى ووقف عليها جميعا أوقافا وفيرة . وخلفه ابنه السلطان الأشرف ، وكان عالما فى فنون مختلفة وله عدة مصنفات ، منها كتاب طرفة الأصحاب فى معرفة الأنساب وكتاب تحفة الآداب فى التاريخ والأنساب وكتاب جواهر التيجان ، وتعمق فى علوم الأوائل ، وله كتاب فى الأسطرلاب وكتاب الجامع فى الطب ، وولى بعده أخوه المؤيد ، وكان عالما أديبا ، ويقال إنه كان يحفظ مقدمة طاهر بن بشاذ النحوى المصرى وكتاب الجمل فى النحو للزجاجى وكفاية المتحفظ فى اللغة ، ودرس كتاب التنبيه فى الفقه الشافعى لأبى إسحق الشيرازى وسمع الحديث النبوى من حفاظه الأعلام وأجازه منهم أبو العباس أحمد بن محمد الطبرى شيخ السنة بالحرم المكى وأذن له فى رواية البخارى والترمذى عنه وناوله صحيح مسلم ، وجمع من الكتب ما لا يكاد يُحْصَى ، واختصر كتاب الجمهرة فى البيزرة وألف فى الطب كتاب

العمدة . واشتهر بعده حفيده السلطان الأشرف إسماعيل بتشجيعه الحركة العلمية ، وحين علم فى سنة ٧٨٨ بتأليف القاضى جمال الدين محمد بن عبد الله الريمى كتابه «التفقيه فى شرح التنبيه» فى أربعة وعشرين جزءاً أمر بحمل هذا الكتاب على رءوس الفقهاء من بيت المصنف إلى مجلسه ، مزفوفاً بالطبلخانة ، وحين وصل الكتاب ومصنفه منحه مكافأة لجهده العلمى : ثمانية وأربعين ألف درهم تعظيماً للعلم والعلماء ، ورَفْعاً لدرجة الشيخ . ويقول الخزرجى إنه طَرَّز كتبه التاريخية باسمه وإنه ألفها بناء على إشارته ، ويذكر عنه أنه رتَّب فى سنة ٧٩١ بجامع المملاح ستة مدرسين ومقرئاً للقراءات السبع ومحدِّثاً ومدرِّسين : شافعياً وحنفيا ومدرسين : فى النحو والفرائض ، ورتب فيه إماماً ومؤذنين وقيِّمين وخطيباً ومعلماً وأيتاماً يحفظون القرآن وشيخاً صوفيًّا . وكان الخزرجى نفسه أحد المرتَّبين لإقراء القرآن . وأمر السلطان الأشرف بعدِّ المساجد والمدارس فى سنة ٧٩٥ بزبيد فكانت مائتين وبضعا وثلاثين . ومعروف أن المساجد فى العالم الإسلامى كانت مدارس تُعْقَدُ فيها دائماً حلقات للطلاب والعلماء . ولعل فى هذا ما يدل على مدى النهضة العلمية باليمن فى عهد الرسوليين ، وبلغ من عنايتهم بذلك أن اشترك معهم نساؤهم فى بناء المدارس والجوامع والمساجد . وقصد اليمن حينئذ كثير من العلماء ، ومن أهمهم الفـيروزابادى صاحب كتاب القاموس المحيط ، ألفه فى زَبيد ، ونوَّه فى مقدمته بالسلطان الأشرف ، وقد أنزله منزلة رفيعة ، ويقال إنه لما ألَّف كتابه الإسعاد بالإصعاد إلى درجة الاجتهاد سنة ٨٠٠ للهجرة أمر السلطان الأشرف أن يُحْمَل الكتاب إلى بابه مزفوفاً بالطبول فى موكب كبير حضره سائر الفقهاء والقضاة والطلبة ، وأمر للفيروزابادى بثلاثة آلاف دينار ، إذ كان الكتاب فى ثلاثة أجزاء ، فجعل لكل جزء ألفاً . ومن مآثر هذا السلطان بناء مدرسة كبيرة فى تعزّ . وفى الحق أن دولة الرسوليين عملت بكل ما استطاعت على إحداث نهضة علمية خصبة فى اليمن ، ويقال إن بين سلاطينها من بلغت مكتبته مائتى ألف مجلد ، وكانوا يمنحون مكافآت كبيرة لمن يهديهم كتباً نفيسة أو نادرة . واهتم بنو طاهر الذين خلفوهم بهذه النهضة ولكن لم يبلغوا مبلغهم فى العناية ببناء المدارس وبالعلم والعلماء .

ومنذ اتخذ الرَّسِّيون صَعْدة مركزاً لدعوتهم فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، وهم يبعثون فيها حركة علمية كانوا هم قادتها ، فكثيرون منهم ألفوا فى الفقه الزيدى وفى علم الكلام وفى غير ذلك من مواد الثقافة العربية يتقدمهم الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم مؤسس الدعوة الزيدية فى اليمن . وللإمام المهدى المتوفى سنة ٤٠٣ مؤلفات مختلفة وكذلك لأبى الفتح الديلمى المتوفى سنة ٤٤٤ وللإمام المنصور بالله المتوفى

سنة ٥٩٨ وللإمام المهدى أحمد بن الحسين المتوفى سنة ٦٥٦ وللإمام المنصور بالله الحسن بن بدر الدين المتوفى سنة ٦٧٠ . وعلى هذا النحو شارك كثير من أئمة الزيدية باليمن فى النهضة العلمية . ويشتهر الإمام شرف الدين يحيى المتوفى سنة ٩٦٥ بإنشائه المساجد المعروفة بالمدارس فى صنعاء وذمار وكوكبان . ومَّر بنا أن الإمارة الزيدية اتسعت فى العصر العثمانى وشملت صنعاء وغيرها من المدن ، وقد بثوا فيها بقوة الدعوة الزيدية وكتبهم وكتب أنصارهم من الفقهاء والعلماء الزيديين .

ويلقانا فى حَضْرَمَوت كثير من العلماء النابهين ، وهم منبثون فى كتب التراجم ، ولهم دلالتهم على ما كان وراءهم من حركة علمية ، وفى كتاب طبقات فقهاء اليمن وكذلك فى كتاب العقد الثمين فقهاء ومحدثون وقراء حضرميون كثيرون استوطنوا اليمن أو جاوروا فى مكة . وفى كتاب تاريخ الشعراء الحضرميين وكتاب صفحات من التاريخ الحضرمى ما يصور من بعض الوجوه النشاط العلمى وازدهاره بحضرموت ومدنها : تريم وغير تريم .

وكانت عُمان من قديم مركزاً لحركة علمية نشطة ، يدل على ذلك من بعض الوجوه أن ابن دُرَيْد أكبر علماء اللغة فى عصره أزدى عُمانى وقد أمضى بعمان فترة طويلة من حياته كان لها أكبر الأثر فى تكوينه اللغوى ، ومن آثارها فى معجمه « الجمهرة » أنه يحمل كثيراً من لغة الأزد العُمانيين وخصائص لهجتهم ، ومعروف أنه توفى قبيل هذا العصر مباشرة ببغداد سنة ٣٢٤ . وشهرة عُمان العلمية فى القرن الرابع الهجرى هى التى جعلت أبا سعيد السيرافى ، كما قال الرواة ، يخرج من بلدته سيراف فى طلب العلم إلى عُمان ، ويتفقه بها ويتعلم العربية ، ثم يدخل بغداد بعد ذلك ، ويروى أنه تتلمذ لابن دُرَيْد . وقد عُنى حكام عُمان من بنى مكرم وخلفائهم من بنى نبهان بالحركة العلمية والأدبية بديارهم ، فكثر فى عمان الأدباء والعلماء والشعراء . وكان للخوارج فى عاصمتهم نَزْوَى ثم فى عمان حين استولوا عليها نهائيا فى العصور المتأخرة نشاطهم الخاص فى مذهبهم الإباضى والتأليف فيه مع العناية بالعربية .

ومنطقة البَحْرين هى منطقة قبائل عبد القيس وتميم قديماً ، وكانت تقام بها أسواق للأدب مثل سوق هجر وسوق دارين ، وأنجبت عبد القيس فى الجاهلية والعصر الإسلامى غير شاعر وخطيب ، وأشاد بخطبائها الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين ونوَّه بهم طويلاً . ونشعر حين استولى القرامطة على البحرين بجمود الحركة العلمية فيها ، غير أنها أخذت تنتعش سريعاً فى زمن العيونيين وبنى عصفور وبنى جبر ، فكان يقوم على الدراسات العلمية الدينية ودراسات العربية علماء وقفوا أنفسهم على تلقين الشريعة والعلوم اللغوية للناشئة وتفقيه

الناس بأمور دينهم ووعظهم . وتظل هذه الحركة العلمية نشطة حتى العصور الأخيرة ، على نحو ما يصور ذلك مثلاً كتاب سلافة العصر لابن معصوم ، وقد ترجم كتاب أنوار البدرين لطائفة منهم فى القرن الحادى عشر والثانى عشر مثل الشيخ سلمان آل عبد الجبار وله رسائل متنوعة فى المنطق وعلم الكلام . ومن يطلع على كتاب شعراء هجر من القرن الثانى عشر إلى القرن الرابع عشر يرى نشاطاً علميا وأدبيا واسعاً فى أواخر هذا العصر كان يعم البحرين ، بمعناها العام : فى الأحساء وقَطر والقَطيف وجزيرة أُوال (البحرين الحالية) .

٢

علوم الأوائل [١]

من مفاخر جزيرة العرب وحَضْرَمَوْت خاصة أنها قدَّمت إلى الفكر العربى فى نهاية العصر العباسى الأول ومفتتح العصر العباسى الثانى أول فيلسوف بالمعنى الدقيق لكلمة فيلسوف ، وهو يعقوب بن إسحق الكندى الذى تمثَّل علوم الأوائل والفلسفة اليونانية تمثلا رائعا ، فإذا هو لا يفقه ذلك كله فقهاً حسناً ، بل يشارك فيه ويضيف إليه إضافات باهرة ، سواء فى العلوم الطبيعية أو الرياضية أو فى المنطق والسياسة والأخلاق والطب . وقد أحصى ابن النديم فى الفهرست له نحو مائتين وأربعين كتاباً ، وكثير منها ترجم إلى اللاتينية ، ويقول ألدومييلى إن كتابه فى الهندسة أثَّر أثراً بعيداً فى روجر بيكون .

والكندى ثمرة الحركة العلمية فى البصرة التى نشأ بها وفى بغداد التى عاش فيها ، وطبيعى أن تكون بغداد مركز الحركة العلمية ، غير أن مراكز أخرى أخذت تتكون فى هذا العصر بإيران وبمصر والشام ، ولم تتحول الجزيرة ولا إقليم من أقاليمها إلى مركز ينافس هذه المراكز ، وربما كانت اليمن الثرية بمواردها أكثر أقاليم الجزيرة استعداداً للمشاركة فى علوم الأوائل أو على الأقل فى تعلُّمها تعلماً حسناً . ونحن لا نصل إلى نهاية العصر العباسى الثانى حتى نجد أبا محمد الحسن الهمدانى المتوفى سنة ٣٣٤ يتعمق علوم الأوائل ، ويتقنها فهماً وتحليلاً ، بل لقد ألف فيها مصنفات جيدة ، ومن أهمها كتابه « سرائر الحكمة » وفيه

---

(١) انظر العلم عند العرب لألدومييلى وترجمة الهمدانى فى مختصر الزوزنى لكتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطى (طبعة ليبزج) ص ١٦٣ وديوان السلطان الخطاب تحقيق إسماعيل قربان حسين (طبع دار المعارف – المقدمة) وترجمة ابن سينا فى ابن أبى أصيبعة وترجمة زيد بن عطية فى إنباه الرواة وكتاب العقود اللؤلؤية للخزرجى وتاريخ الشعراء الحضرميين وسلافة العصر لابن معصوم .

عرض علم هيئة الأفلاك ومقادير حركات الكواكب ، وبيّن علم أحكام النجوم واستوفى ضروبه ، وكذلك كتابه « القوى » فى الطب ، وكتابه « الإكليل » الذى ألفه فى ملوك حمير وأنسابها وهو فى عشرة أجزاء كبار ، وفيه مما يتصل بعلوم الأوائل « جُمَل من القرانات » فى النجوم وأوقاتها – كما يقول القفطى – ونُبَذٌ من علم الطبيعة وأصول أحكام النجوم وآراء الأوائل فى قدم العالم وحدوثه واختلافهم فى أدواره . ثم يقول القفطى : وله زيجه المعروف ، وعليه اعتماد أهل اليمن .

ونظن ظنا أن الدعوة الإسماعيلية فى عصر الدولة الصُّلَيْحية (٤٣٩ – ٥٣٢ هـ) هيأت من بعض الوجوه للعناية بالفلسفة وعلوم الأوائل ، إذ كانت ترتكز على المزج بين العقيدة الفاطمية ونظرية الفيض الأفلاطونية ، وكانت تتخذ من رسائل إخوان الصفا دعاية لها ، وهى من بعض الوجوه عرض للفلسفة اليونانية وخاصة لنظرية الفيض وما يتصل بها فى الأفلاطونية الحديثة وأيضاً عرضٌ لعلوم الأوائل . ونجد أحد دعاة الفاطميين فى اليمن المسمى الداعى الذؤيب وكذلك السلطان الخطاب يؤلف كل منهما رسالة فى النفس ، ومعروف أنها من المباحث الفلسفية ، ويحلل ناشر ديوان السلطان الخطاب مؤلفاته الفاطمية ، وهى تصطبغ بصبغة فلسفية واضحة كالبحث فى الطبائع الأربع والنفس الناطقة والكثائف واللطائف والمعقولات والمحسوسات .

وفى ترجمة ابن سينا ذُكر شخص همدانى يشدو الفلسفة وعلوم الأوائل ، وقد وجه رسالة إلى علماء بغداد يسألهم فيها الإنصاف بينه وبين ابن سينا ولم نقع على اسم هذا الهمدانى . وفى الجزء الثانى من كتاب إنباه الرواة ترجمة لزيد بن عطية الصَّعدى اللغوى ، وفيها أنه «كان لغويا شاعرا منجما حاسبا هندسيا ، يسلِّم إليه المنجمون فى ديار صنعاء وصعدة النجوم والحساب ، وله تصانيف فى ذلك ، منها زيجان : كبير وصغير ، ومنها « أحكام نجومية » و « فصول » .

ويبدو أن الدولة الرسولية بعثت فى اليمن اهتماما بالفلسفة وعلوم الأوائل وخاصة فى عهد سلطانها المظفر (٦٤٧ – ٦٩٤ هـ) . وولديه السلطانين الأشرف والمؤيد ، ولكل منهما فى الطب كتاب وكان الأشرف أكثر براعة فى الطب ، يدل على ذلك كتاب أرسله أبوه المظفر إلى الظاهر بيبرس سلطان مصر يطلب منه طبيبا قائلا : « ولا يظن المقام العالى أننا نريد الطب لأنفسنا فإننا نعرف من الطب ما لا يعرفه غيرنا ، وقد اشتغلنا به من أيام الشبيبة ، وولدنا عمر – يقصد السلطان الأشرف – من العلماء بالطب ، وله كتاب جامع فيه ليس لأحد مثله » . ومرَّ بنا أن للسلطان المؤيد فيه كتابا سماه « العمدة » . ويذكر

صاحب سلافة العصر ممن نزلوا اليمن فى القرن الحادى عشر طبيبا شيرازيا ، اسمه الحكيم أبو الحسين ويذكر له طائفة من أشعاره .

ويلقانا دائماً اهتمام واضح بالطب والرياضيات والهندسة والهيئة والنجوم ، ونقرأ عن ذلك أخباراً متناثرة هنا وهناك ، من ذلك ما نقرؤه فى تاريخ الشعراء الحضرميين من أن الشيخ محمد بن عمر المتوفى سنة ٩٣٠ صنف أرجوزتين : إحداهما فى الطب والثانية فى علم الحساب وأن الشيخ عبد الله بن عمر بامخرمة المتوفى سنة ٩٧٢ صنف رسالة فى علم الجبر والمقابلة . ونستطيع أن نعمم هذه النزعة فى عمان والبحرين وفى مكة والمدينة . ومما يدل على رغبة المثقفين فى الجزيرة العربية على الاطلاع على علوم الأوائل أننا نجد فى كتاب لمع الشهاب فى سيرة محمد بن عبد الوهاب أنه حين نزل البصرة عنى بالعلوم الرياضية وقرأ كتب أقليدس فى الهندسة وكتاب المجسطى فى الهيئة ، كما قرأ الحكمة الإشراقية . ونؤمن بأن المنطق ظل يدرس فى كل أنحاء الجزيرة ، لاقتناع العلماء فى كل مكان بضرورة درسه .

ونترك الرياضيات والهندسة والطب والفلك والفلسفة إلى علم الجغرافية ، ومن أهم المصنفات الجغرافية كتاب صفة جزيرة العرب للحسن بن أحمد الهمدانى المتوفى مع أول هذا العصر ، كما مربنا آنفاً ، ولأبى على الهجرى كتاب النوادر والتعليقات وهو زاخر بأماكن الجزيرة ، وأهم من عناية أهل الجزيرة بالأماكن عنايتهم بالرحلات البحرية ، ومعروف أن الأمم القديمة فى أفريقيا وآسيا وأوربا اخترقت البحار والمحيطات من حولها ، وبنت سفناً حملت فيها تجارتها وبعض جيوشها للغزو ، حتى إذا أنشأ العرب دولتهم أخذوا يقتحمون البحر المتوسط وبحر القُلْزُم أو البحر الأحمر ، كما اقتحموا المحيط الهندى إلى شواطئ إفريقيا الشرقية غرباً وإلى الهند شرقاً . وكان اقتحامهم له فى أواخر القرن الأول الهجرى سبباً فى أن تتغلغل تجارتهم إلى جزر الهند الشرقية وإندونسيا ، بل لقد اقتحموا المحيط الهادى ونزلوا على شواطئ الصين ، واشتهر أحد تجارهم المسمى سليمان بكتابة رحلة له قام بها فى سنة ٢١٧ للهجرة من البصرة ميمّما ديار الصين ، وقد تحدث فيها عما ركبه وخاضه من بحار بادئاً بالخليج العربى . وتوالى رحالة بعد سليمان يصفون رحلاتهم البحرية .

علم الملاحة البحرية (١)

كان ربابنة السفن فى البحار المتصلة بالبلاد العربية يعنون بكتابة دفاتر تضم جداول

---

(١) انظر فى هذا العلم وفى ابن ماجد وسليمان المهرى كتاب العرب والملاحة فى المحيط الهندى لجورج فضلو حورانى ترجمة الدكتور السيد يعقوب بكر (نشر مكتبة الأنجلو) بالقاهرة . وراجع قران فى مادتى شهاب الدين أحمد بن ماجد والمهرى فى دائرة المعارف الإسلامية وكتاب ثلاثة أزهار فى معرفة البحار لأحمد بن ماجا =

فلكية ومعلومات عن خطوط العرض والرياح والشواطئ والشعاب والجزر فى المحيط الهندى وما يتصل به من المحيط الهادى ، مما كان سبباً مباشراً فى نشوء علم الملاحة عند العرب وازدهاره على مر السنين . وكان يشترك فى هذه الملاحة سكان الخليج العربى وجنوبى الجزيرة العربية ، ونهض بها منهم ربابنة كثيرون .

وأشهر ربابنة الجزيرة العربية شهاب الدين أحمد بن ماجد المولود فى عُمان حوالى سنة ٨٣٠ للهجرة ، وقد نشر له المستشرق جبرييل ڤران فى باريس سنة ١٩٢١ – ١٩٢٣ مجموعة كبيرة من أعماله النثرية والشعرية أنشأها فى نحو ثلاثين عاماً بين سنتى ٨٦٥ و٨٩٥ ولڤران تحليل طريف لتلك الأعمال نشره فى دائرة المعارف الإسلامية تحت اسم شهاب الدين . ونشر المستشرق الروسى تيودور شوموفسكى فى موسكو سنة ١٩٥٧ ثلاث أراجيز لأحمد بن ماجد مع دراسة وتعليقات ، وعنى الدكتور محمد منير مرسى بهذه الأراجيز الثلاث ونشرها فى القاهرة بعنوان : « ثلاث أزهار فى معرفة البحار » ونقل معها تعليقات تيودور شوموفسكى ، وردَّ الاقتباسات المترجمة عن المصادر العربية إلى أصولها المطبوعة والمخطوطة ، وشرح طائفة من المصطلحات البحرية عند ابن ماجد وبذل فى ذلك كله جهداً محموداً .

والأعمال التى نشرها ڤران لابن ماجد إنما نشرها عن مخطوطة فى باريس يبلغ عدد أوراقها ١٨١ ورقة ، وبها أراجيز وقصائد تبلغ نحو العشرين ، تتناول أصول علم البحار والفلك والملاحة فى المحيط الهندى والبحر الأحمر وخليج عدن وخليج العرب كما تتناول النجوم والبروج والشعاب . وجميعها أشعار تعليمية تصور علم الملاحة البحرية عند العرب . وبجانب هذه الأشعار فى المخطوطة الباريسية كتاب ابن ماجد النفيس : « الفوائد فى أصول علم البحر والقواعد » ألفه سنة ٨٩٥ للهجرة ، وهو فى اثنى عشر فصلاً ، ويتحدث ابن ماجد فى الصفحات الأولى منه عن الأصول الأسطورية للملاحة والإبرة والبوصلة والإسطرلاب . ويعرض للكتابات فى الملاحة قبله ويشيد بثلاثة من الربابنة ، هم سهل بن أبان ومحمد بن شاذان وليث بن كهلان ، معتمداً فى ذلك على دفتر كتبه حفيد لسهل بن أبان تاريخه سنة ٥٨٠ وأغلب الظن أنه يقصد السنة الهجرية ، وليس

= تحقيق تيودور شوموفسكى ترجمة وتعليق الدكتور محمد منير مرسى والملاحة وعلوم البحار عند العرب للدكتور أنور عبد العليم (نشر المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب بالكويت) وانظر العلم عند العرب لألدوميلى ص ٥٣٢ وما بعدها ومقالاً للأستاذ حسن الصيرفى فى مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة العدد الرابع والعشرين بعنوان «علماء البحار العرب واصطلاحاتهم البحرية» .

بصحيح ما ذهب إليه بعض الباحثين من أن هذا التاريخ تعيين للمدة الزمنية بين ابن ماجد وبين كاتب النسخة وأنه كتبها – كما يظن – سنة ٣١٥ للهجرة وكأن هؤلاء الربابنة الثلاثة – فى رأيه – كانوا يعيشون فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ، وهو ما نستبعده ونظن أنهم عاشوا فى النصف الأول من القرن السادس. ويذكر ابن ماجد أن الدفتر كان يحمل معلومات الربابنة الثلاثة ويقول إنهم لم يكونوا ملاحين بالمعنى الدقيق لكلمة ملاحين وأن معارفهم البحرية لم تتجاوز الخليج العربى ، ويذكر طائفة من الملاحين الذين كانوا يعاصرونهم وغيرهم ممن سبقوهم . ويؤكد أن كتابه ليس كتاباً نظريا كالكتب السابقة له ، فهو كتاب أعلم الناس بالبحر ، ويقول إنه علم توارثه عن أبيه وجده ، فقد كانا رُبَّانين كبيرين ، ويذكر أنه كان لأبيه أرجوزة بحرية فى ألف بيت تُعَدّ دليلاً ومرشداً هادياً للملاحة فى البحر الأحمر . ومع أنه قلل من أهمية ما كتبه حفيد سهل بن أبان عن جده وصاحبيه من معارف فى الملاحة يسميهم الليوث ، ويسمى نفسه رابع الليوث أو رابع الثلاثة . ويذكر فى الكتاب منازل القمر الثمانية والعشرين والنجوم التى تطابق تقاسيم البوصلة الاثنين والثلاثين والطرق البحرية فى المحيط الهندى وخطوط العرض الخاصة بعدد من الموانى فى المحيطين : الهندى والهادى والعلامات الدالة على مشارف السواحل الغربية للهند وجزائر المحيط الهندى والخليج العربى والرياح الموسمية المواتية للرحلات والبحر الأحمر ومراسيه وشطآنه وشعابه المرجانية ورياحه وأغواره . ويقول فرّان إن وصفه لكل ذلك لا يفوقه بل لا يدانيه أى وصف لكاتب آخر فى الإرشادات والبيانات البحرية الهادية للسفن الشراعية . وهذا كله كان يصحب ببعض الخرائط . فكل ربان لابد أن تكون معه خريطة وبوصلة وإسطرلابات وحبال لقياس عمق المياه (واسمها عند ابن ماجد بُلُد) ومزاول لمعرفة ارتفاع الشمس والنجم القطبى .

ومن سوء طالع هذا العالم العربى الفذ فى علم الملاحة البحرية وهو على وشك أن يختم حياته وقد بلغ سبعين عاما ونيفا أن تعرَّف عليه فى « مالندى » بشرقى إفريقيا ڤاسكودى جاما البرتغالى ، وكان قد يئس من الوصول إلى الهند عن طريق البحر ، إذ كان يجهل هو وربابنته البرتغاليون الطريق البحرى إليها ، وكانت سفنهم كلما خرجت فى المحيط الهندى واتجهت نحو الهند تحطمت ولم ينج منها أحد . ونعجب أن نرى ابن ماجد يتحول له مرشدا يهديه الطريق فى سنة ٩٠٦ للهجرة إلى كلكتا فى الهند . وبذلك يكون – لغفلته – أداة للاستعمار البغيض : البرتغالى أولا ، ثم الإنجليزى والفرنسى والهولندى ، من شاطئ إفريقيا الشرقى إلى جزر الهند الشرقية وبحر الصين . وسرعان ما شعر بسوء فعله ، وصَوَّر ذلك مرارا

فى ألم ومرارة عن قاسكودى جاما وأصحابه البرتغاليين فى الأرجوزة الأولى من « ثلاث أزهار فى معرفة البحار » :

وجَا لكاليكوتَ خُذْ ذى الفائده لعام تسْعْمايَهْ وستٍّ زائده
وسار فيها مبغضُ الإسلامِ والناسُ فى خَوْفٍ وفى اهتمامِ
واشْتَرَوْا البيوت ثم سكنوا وصاحَبوا ولِلسَّوامرْ ركنوا

وهو يريد بالسوامر البرتغاليين نسبة إلى السامرىّ الذى صنع العجل وعبده بنو إسرائيل يريد أنهم كفار ، ومع ذلك صاحبَهم حكام ثغر كاليكوت فى الهند . وكأنما عرف قصر نظره وشناعة عمله بعد فوات الأوان . ومع أنه أكثر من الأراجيز والقصائد مما يدل على أن نبع الشاعرية عنده كان فياضاً يختل الوزن عنده أحياناً .

وخلف ابن ماجد ربان من سدنة البحر وملاحيه هو سليمان بن أحمد المهرى من مَهْرة فى الشِّحْر بين حضرموت وعمان ، عاش فى النصف الأول من القرن العاشر الهجرى ، وله فى الملاحة كتب لا تقل أهمية عن كتب ابن ماجد ، بل لعلها أوفى وأشمل فى بيانها لأحوال الملاحة فى المحيطين الهندى والهادى حتى بحر الصين ، ومن كتبه « تحفة الفحول » و « العمدة المهرية فى ضبط العلوم البحرية » و « المنهج الفاخر فى علم البحر الزاخر » وتاريخها جميعاً يرجع إلى النصف الأول من القرن العاشر ، وقد درس قران أعمال سليمان المهرى البحرية دراسة وافية .

٣

علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد

لا نبالغ إذا قلنا إن كل البلاد العربية كانت مشتركة فى التراث اللغوى والنحوى والبلاغى والنقدى ، بحيث لم يكن يظهر كتاب مهم فى بيئة من البيئات العربية إلا ونجده قد نُقل إلى البيئات الأخرى ، ونعجب أننا اليوم مع سرعة المواصلات ونقل الكتب عن طريق البواخر والسيارات ، بل عن طريق الطيارات ، لا نبلغ مبلغ أسلافنا فى سرعة التواصل بينهم فى الكتب ، لا فى مجالات الفقه والحديث وما إليهما من الدراسات الدينية فحسب بل أيضا فى جميع المجالات لغوية وغير لغوية . وساعدت على ذلك الرحلات السنوية للحج والزيارة والتقاء العلماء ، وكان بعض العلماء إذا افتقد كتابا ، ولم يستطع

الحصول عليه رغم تطوافه فى البلدان لجأ إلى النداء عليه فى الحج ، ليخبره عنه بعض من رآه فى مكتبة من المكتبات المتناثرة بين الأندلس وأواسط آسيا حتى الهند . وكان العالم فى أى علم أو فن يرى أن علمه فيه لا يكتمل إلا إذا رحل شرقا وغربا وأبعد فى رحلته ليلقى العلماء ويقرأ كتب التراث الخاصة بالعلم أو الفن الذى يريد التعمق فيه . ونقلوا فى أثناء ذلك إلى بلدانهم ما كتبه الأسلاف ومعاصروهم ، وفتحت المكتبات فى كل بلد صدرها لتستقبل الكتب وتجزى حَمَلتها خير الجزاء .

ومعنى ذلك أننا إذا تحدثنا عن النشاط فى علم بأى بلد من البلدان العربية وسمينا فيه بعض علماء إنما نتخذهم رموزا للحركة العلمية الكبيرة ، وهى أكبر جدا من أسمائهم ، لأنها تعنى النشاط العلمى فى العالم العربى جميعه ، إذ كانت كتبه ومصنفاته تُصَبُّ فى كل البلدان العربية ، وقام عليها علماء ومدرسون مختلفون يقدمونها للطلاب . وقد يضيفون إليها فى كل علم مصنفات جديدة وكان يكون عيداً لطلاب العلم وأساتذته أن يفد عليهم عالم من البلاد العربية ، إذ كانت معرفتهم بكتبه ومصنفاته تسبقه ، فكان بمجرد نزوله فى بلد يتحول فى التوِّ محاضرا ويتحلق حوله الطلاب يفيدون من علمه .

كانت هناك إذن بين البلاد العربية دورة علمية ، أشبه ما تكون بالدورة الدموية ، تدور فيها الكتب والمؤلفات من بلد إلى آخر ، ويدور العلماء أنفسهم . وكانت الجزيرة العربية تدخل فى هذه الدورة ، تدخل فيها نجد بقراها التى أخذت تعنى بتعلم العربية منذ أن هَجَرَتْ أوكادت الإعراب فى القرن السابع الهجرى وما بعده . أما الحجاز ومكة فكانا يعنيان باللغة من قديم ، كما كانا يعنيان بالنحو ، وكان يوجد لها دائما مدرسون ينهضون بهما سوى من كان ينزل مكة والمدينة من كبار علماء العربية ، ويكفى أن نذكر من بينهم عبد الله ابن طلحة [1] الأندلسى المتوفى بمكة سنة ٥٢٣ وقد اشتهر بإحسانه لتدريس كتاب سيبويه على الطلاب فى الحرم المكى ، مما جعل الزمخشرى [2] يرحل فى شبيته إلى مكة من موطنه خوارزم ليأخذه عنه ، وقد جاور بمكة – بدوره – مدة طويلة ألف فيها كثيرا من كتبه ، وكان لا يبارَى فى اللغة والنحو وألف فيهما مؤلفات دَوَّتْ شهرتها فى العالم العربى ، منها معجمه المشهور أساس البلاغة الذى رتب مواده بحسب الحرف الأول ، وأدخل فيها كثيرا

(١) انظره فى التكملة لابن الأبار ٢/٨١٥ والعقد الثمين ٥/١٨٢ وبغية الوعاة والبحر المحيط لأبى حيان ٤/٣٧٢ .

(٢) راجع فى الزمخشرى ابن خلكان (طبعة دار صادر ببيروت) ٥ / ١٦٨ وانظر بقية مصادر ترجمته فى الفصل الثانى من القسم الخاص بإيران .

من الشواهد والأساليب الأدبية ، ويغلب أن يقول فى ختام المادة : « ومن المجاز » فيقرن الأساليب المجازية إلى الأساليب الحقيقية . وألف فى غريب الحديث النبوى كتابه « الفائق » وهو معجم طريف للأحاديث المحتوية على بعض الألفاظ الغريبة ، وصنف فى تفسير القرآن الكريم وألفاظه « الكشاف » وشهرته تملأ الخافقين . ومن بحوثه اللغوية شرح لأبيات سيبويه والمستقصى فى أمثال العرب والقسطاس فى العروض . ومن بحوثه النحوية كتابه المفصل ، جعله فى أقسام أربعة : قسم للأسماء وقسم للأفعال وقسم للحروف وقسم للمشترك وأراد به الإمالة والوقف والإبدال والإعلال ، ولابن يعيش شرح مطول على هذا الكتاب مشهور . وللزمخشرى بجانبه فى النحو كتاب سماه النموذج . ولا ريب فى أن هذا العالم النحوى اللغوى العظيم بعث فى مكة حركة علمية مباركة فى فنون اللغة والنحو والتفسير ولا بد أن كثيرين شَدُّوا الرحال إليه فى مكة ليتلقوا عنه مصنفاته ، وليحملوا عنه الإجازات بروايتها سماعاً وإلقاء . وممن نَزَل بمكة وجاور بها سنين من كبار اللغويين الصغانى الحسن(١) بن محمد المتوفى سنة ٦٥٠ وحياته تقصُّ ما قلناه من وحدة الثقافة فى العالمين العربى والإسلامى ، فقد ولد سنة ٥٧٧ فى لاهور عاصمة إقليم بُنْجاب فى الهند ، ونشأ فى إقليم صغان كورة من بلاد السُّغد ، ويذكر مترجموه شيخين له فى الهند ، فالشيوخ ومعلمو العربية والشريعة منبثون فى أنحاء العالم الإسلامى ، حتى فى أبعد ديَاره . ورحل فى طلب العلم إلى بغداد ودخل مكة وجاور بها سنتين ، ودخل اليمن ، واستطاع بمن لقيهم من الشيوخ فى موطنه وغير موطنه ، وأهم من ذلك بما قرأ من كتب التراث ، أن يصبح إماماً من أئمة اللغة العربية ، مما جعله موئلاً للطلاب فى كل مكان نزل به وخاصة فى مكة . وعُنى بوضع المعاجم والكتب فى اللغة ، ومن أهمها : مجمع البحرين فى اثنى عشر مجلداً ويقول فى مقدمته إنه جمع فيه بين معجم الصحاح للجوهرى ومعجم له سماه « التكملة والذيل والصلة » . وعادة يفصل فى مجمع البحرين بين ما ينقله من الصحاح وما ينقله من معجمه بوضع حرف ص لما ينقله من الصحاح وحرف التاء لما ينقله من التكملة وحرف الحاء لما ينقله من الذيل والصلة . ونشر مجمع اللغة العربية معجم « التكملة والذيل والصلة » المذكور فى ستة مجلدات ، وقد ضمنه ما فات الجوهرى فى صحاحه من بعض مواد اللغة وما وقع فيه من أغلاط وأوهام . وله كتاب فى الأضداد ، وكتاب سماه النوادر فى اللغة روى فيه غرائب اللغة التى نصَّ عليها علماء اللغة الأقدمون ، وفى دار الكتب المصرية منه مخطوطة . وحاول بأخرة من عمره أن

(١) انظره فى العقد الثمين ٤/١٧٦ والجواهر المضية لابن تغرى بردى ٧/٢٦ .
١/٢٠١ وشذرات الذهب ٥/٢٥٠ والنجوم الزاهرة

يؤلف فى اللغة معجماً كبيراً سماه العباب الزاخر ، غير أن المنية عاجلته قبل إتمامه . ولا شك فى أن هذا الإنتاج الغزير يصوِّر عالماً لغويا كبيراً ، وهو لم ينشأ فى الجزيرة ولا فى بلد عربى ، وإنما نشأ فى الهند ، ومع ذلك استطاع أن يصبح من الأفذاذ فى العربية على مر العصور ، وهو شاهد على ما نقوله من أن العلم العربى كان ملبّى بكل مكان فى العالم العربى والعالم الإسلامى الكبير . وممن نزل بمكة من كبار شيوخ العربية ابن عبد [1] المعطى أحمد بن محمد الملقب بنحوىّ الحجاز المتوفى بها سنة ٧٨٨ وهو مغربى مصرى تتلمذ فى العربية على أبى حيان الغرناطى عالمها المشهور ، قرأ عليه كتاب التسهيل لابن مالك النحوى المعروف ، ثم جاور بمكة إلى أن توفى بها وانتصب فيها للتدريس والاشتغال بالعربية والعروض . ومن النحاة بعده محمد [2] بن أبى بكر المرجانى المكى المتوفى سنة ٨٢٧ . ومن يرجع إلى كتاب سلافة العصر يجد ابن معصوم يلقب غير شاعر بأنه من أئمة العربية . ولا ريب فى أن دراستها ظلت نشطة فى العصر العثمانى وحتى نهايته ، فكان هناك معلمون مختلفون للعربية فى مكة والمدينة وقرى الحجاز المختلفة .

وتنشط اليمن طوال هذا العصر فى الدراسات اللغوية والنحوية ، وهو يفتتح فى سنة ٣٣٤ للهجرة بوفاة عالم لغوى يمنى مهم ، هو الهمدانى [3] المذكور فيما مرَّ ، وفيه يقول القفطى فى إنباه الرواة «هو أحد عيون العلماء باللغة العربية وأشعار العرب وأيامها» . وسبق أن نوهنا بكتابه الإكليل وهو فى سير الملوك الحميريين وأخبار اليمنيين الأولين ، طبع منه الأجزاء : الأول والثانى والثامن ، وكذلك الجزء العاشر وهو فى أنساب همدان قبيلته وأخبارها وبه أشعار كثيرة . وله كتاب يسمى «اليعسوب فى فقه الصيد وحلاله وحرامه وكيفيته وما جاء فيه من أشعار» يقول القفطى عنه : إنه جيد جداً ومفيد للمتأدبين ، ومرَّ بنا ذكر كتابه صفة جزيرة العرب ، وهو يحمل مقداراً كبيراً من اللغة والشعر . وله القصيدة الدامغة افتخر فيها باليمن على مضر ، طبعت مشروحة بالقاهرة . وكان يكاتب ابن الأنبارى وغيره من لغويى بغداد ويعترفون بفضله ، ومن أجله رحل العالم النحوى المعروف ابن خالويه إلى اليمن وعنى بجمع ديوانه وتخريجه ، إذ كان شاعراً مجيداً . وتمضى اليمن فى نشاطها اللغوى والنحوى طوال أزمنة الدول التى مرت بنا فى زبيد وصنعاء وعدن وصَعْدة إذ كان أمراؤها يتنافسون فى جمع العلماء بإماراتهم ومن حولهم : علماء العربية وغيرهم ، ويلقانا

(١) انظره فى العقد الثمين ٣/١٤٩ والدرر الكامنة لابن حجر ١/٢٧٧ .

(٢) العقد الثمين ١/٤٢٩ .

(٣) إنباه الرواة ١/٢٧٩ وأخبار الحكماء ص١٦٣ ومعجم الأدباء ٧/٢٣٠ وروضات الجنات ٢٣٨ .

منهم فى زبيدببلاط جياش بن نجاح زيد بن عطية الذى سبق أن تحدثنا عن حذقه لعلوم الأوائل ، وكان يعاصره فى بلاط الصليحيين إسماعيل [١] بن إبراهيم الربعى النحوى اللغوى الشاعر ، من أهل صنعاء ، وكان مؤدباً لأولاد الأمراء الصليحيين ، وله قصيدة فى غريب اللغة جعل ترتيبها على ترتيب معجم العين المنسوب إلى الخليل بن أحمد وسماها « قَيْد الأوابد » وجعل لها شرحاً ضمنه نوادر وطرائف من الأخبار والأشعار . ومن نحاة اليمن القاضى أبو بكر اليافعى المتوفى سنة ٥٥٢ وله فى النحو مختصر سماه المفتاح ، وسرعان ما تنجب اليمن نشوان [٢] بن سعيد المتوفى سنة ٥٨٠ وله فى اللغة كتب مختلفة ، أهمها « شمس [٣] العلوم وشفاء كلام العرب من الكلوم » فى ثمانية مجلدات ، رتبه على حروف المعجم بحسب أوائل الكلمات لا أواخرها متابعا فى ذلك الزمخشرى فى معجمه أساس البلاغة ، وحرص فيه على دقة الضبط بالنقط والحركات ، وقسم كل باب فيه أو حرف قسمين : قسما للأسماء وقسما للأفعال ، وعُنى بأن يذكر فيه كثيرا من الكلمات اليمنية التى لم تسجلها المعاجم قبله ، وأكثر فيه من شواهد القرآن الكريم والحديث النبوى والشعر والأمثال . وكان يعاصره الحسن [٤] بن أبى عباد المتوفى سنة ٥٩٠ ويقول القفطى إن له مختصراً فى النحو مشهوراً فى اليمن يقرؤه المبتدئون ، ويقول السيوطى فى البغية عنه : « إمام النحاة فى قطر اليمن كانت الرحلة فى علم النحو إليه وإلى ابن أخيه إبراهيم » . وكان يعاصرهما على [٥] بن سليمان اليمنى النحوى المتوفى سنة ٥٩٩ وله مصنف فى النحو سماه كشف المشكل فى مجلدين ، وروى له ياقوت أبياتاً يحصر فيها جموع التكسير .

وتنهض الدولة الرسولية بعلوم العربية نهضة واسعة ، وكانوا يجزلون العطاء للعلماء فقصدوهم من كل فج ومرَّ بنا أن الفيروزابادى [٦] مجد الدين محمد بن يعقوب المتوفى سنة ٨١٧ بزبيد وفد على السلطان الأشرف ، فأكرمه إكراماً عظيماً ، وكان قبل أن يفد عليه جاور بمكة من سنة ٧٧٠ إلى سنة ٧٧٥ وكان له فيها دار كثيراً ما عاد إليها ، وجعلها فى سنة ٨٠٢ مدرسة باسم الملك الأشرف وقرر بها طلبة وثلاثة مدرسين : فى الحديث وفقه مالك وفقه الشافعى ، وزار المدينة المنورة وقرر بها ما قرر بمكة ، وكان الأشرف قد ولاه وظيفة قاضى

---

(١) إنباه الرواة ١/١٩١ .

(٢) انظر مصادره فى ترجمته بالفصل الثالث .

(٣) طبع الجزء الأول منه فى بريل ثم طبع بالقاهرة .

(٤) انظره فى معجم الأدباء ٨/٥٣ وإنباه الرواة ١/٢٩٠ وبغية الوعاة وروضات الجنات ٢٢٢ وانظر فى ابن أخيه الآتى ذكره معجم الأدباء ١/١٦٤ وله فى النحو مصنفات .

(٥) راجعه فى معجم الأدباء ١٣/٢٤٣ .

(٦) راجعه فى الضوء اللامع للسخاوى ١٠/٧٩ وفى العقد الثمين ٢/٣٩٢ وبغية الوعاة والروض العاطر للنعمانى ٢/٢٤٩ والبدر الطالع للشوكانى ٢/٢٨٠ والشقائق النعمانية على هامش ابن خلكان ١/٣٢ .

القضاة باليمن ، وظل يليها أكثر من عشرين سنة فى عهده وعهد ابنه السلطان الناصر إلى أن أدركته الوفاة . وكانت أكثر إقامته بزبيد ، وأقام مدة بتعزّ ، لما كان فُوِّض إليه من التدريس بمدارس البلدتين . وله مصنفات كثيرة فى الحديث وفى الفقه ، ومرت بنا المنحة التى أهداها إليه السلطان الأشرف حين ألف فى الفقه كتابه الإسعاد ، وله فى النحو كتاب سماه «مقصود ذوى الألباب فى علم الإعراب» . أما اللغة فكان فيها بحر لا يسبر غوره ، ومن مصنفاته فيها مصنف فى الترادف سماه : «الروض المسلوف فيما له اسمان إلى ألوف» . وله كتاب فى غريب الذكر الحكيم سماه «بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز» وقد طبعه المجلس الأعلى للشئون الإسلامية فى عدة مجلدات . ومن أروع أعماله معجمه النفيس «القاموس المحيط» الذى ألفه فى زَبيد ، ولا نغلو إذا قلنا إنه أروع المعاجم القديمة لجمعه بين الدقة والاختصار إذ هو فى أربعة مجلدات فقط ، ولكن كلما قرأت مادة منه خيل إليك أنه حولها إلى ما يشبه بحثاً قصيراً ، وقد اتبع فى ترتيب مواده طريقة الصحاح للجوهرى فرتب المواد حسب الحرف الأخير لا حسب الحرف الأول كما صنع الزمخشرى فى أساس البلاغة ، لأن الحرف الأخير فى المادة لا يتغير بخلاف الحرف الأول إذ تدخله زيادات مختلفة . وحاول بعض القدماء نقده ببيان ما فاته من بعض المواد أو ما سبق خطأ إلى وهمه ، وكان آخر من نهض بذلك أحمد فارس الشدياق فى كتابه الجاسوس على القاموس ، ومع ذلك فالمعجم بحق مفخرة للفيروزابادى ، وقد ضمنه أسماء كثير من المواضع وأعلام الأشخاص وكثير من الكلمات الأعجمية المعربة ، وهى جديرة بأن تجمع ويخرج فيها كتاب مستقل ، ولنفاسة المعجم تعهده يمنى بصنع شرح مطول له هو السيد مرتضى[1] الزبيدى المتوفى سنة ١٢٠٥ هـ/ ١٧٩٠ م وقد اتخذ القاهرة مهاجراً له وموطناً منذ سنة ١١٦٧ هـ / ١٧٥٣ م وفيها ألف هذا الشرح الذى سماه «تاج العروس فى شرح جواهر القاموس» وهو مطبوع فى عشرة مجلدات ، ويتلافى نواقص القاموس فى المادة اللغوية مستعيناً بلسان العرب لابن منظور وغيره من المعاجم المطولة ، ويتوسع فى الحديث عن المواضع والأعلام بحيث يصبح دائرة معارف جغرافية تاريخية ، مع ما يعرضه من بعض الأحكام الشرعية والفوائد العلمية .

وهذه النهضة بعلوم العربية فى اليمن كانت تتسع لتشمل إمامة الزيديين فى صَعْدة وفيما يتبعهم أحيانا من البلدان مثل صنعاء وَزبيد حتى إذا دانت لهم اليمن بعد عهد الطاهريين

---

(١) انظره فى فهرس الكتانى ١/١٩٨ والجبرتى ٢/١٩٦ والخطط التوفيقية ٣/٩٤ ونشر العرف لزبارة (طبع المكتبة السلفية) ٢/٢١ .

نشروا هذه النهضة فى كل مكان . وكان العثمانيون فى أثناء احتلالهم لليمن يعنون بالمدارس وبتعليم العربية ، وكان الزيديون ينافسونهم فى هذا المضمار والزبيدى نفسه من ثمرات هذا العصر المتأخر فى اليمن وهو رمز قوى لما كانت تحظى به العربية حينئذ من نشاط خصب .

ولم يكن هذا النشاط قاصرا على اليمن والحجاز بل كان عاما فى حضرموت وعُمان والبحرين وكانت العناية تبدأ أولا بتحفيظ القرآن الكريم وبعض الأشعار ، ثم يأخذ المتعلمون قسطا من العلوم اللغوية ليستعينوا به على ما يريدون أن يتعلموه من الدراسات الدينية ، وهل من شك فى أن كل ما نقرأ من شعر وأدب فى هذه البيئات المختلفة إنما هو ثمرة العناية بالعربية وعلومها اللغوية ، ونتخذ لهذه العناية مثالا هو الشيخ عبد الله البيتوشى [1] ، وأصله شهرزورى تثقف ببغداد واستوطن الأحساء حتى توفى سنة ١٢١١هـ/١٧٩٦م وله حاشية على شرح الفاكهى لقطر الندى تأليف ابن هشام ، وصرف العناية بكشف الكفاية وهو مطبوع بالقاهرة ، وله مؤلفات ومنظومات شعرية مختلفة فى اللغة والنحو والدين . وكان فى كل بلدة وقرية معلمون رصدوا أنفسهم لتعليم العربية حتى نجد وقراها المتوغلة فى الصحراء لم تكن تخلو من هؤلاء المعلمين . ويدل على ذلك ما نجده فى كتاب « لمع الشهاب فى سيرة محمد بن عبد الوهاب » من أنه تعلم العربية على شيخ لزم دروسه يسمَّى عبد الرحمن بن أحمد من أهل بُرَيْدَة إحدى القرى المتعمقة فى بوادى نجد . وإنه ليكفى من نشاط الجزيرة العربية فى هذا العصر فيما يخصّ الدراسات اللغوية أنها أهدت إلى العربية معجم الجمهرة لابن دريد ، ثم أهدت مجموعة المعاجم التى خلفها الصغانى والقاموس المحيط للفيروزابادى وتاج العروس للزبيدى فنشاطها اللغوى كان نشاطا جما مثمرا .

وإذا انتقلنا إلى مباحث البلاغة كان ينبغى أن لا يبرح أذهاننا أن كل ما كانت تنتجه بيئة عربية فى علم من العلوم يصبح حقاً مشاعاً لكل البيئات الأخرى ، ولذلك كنا نفاجأ من حين إلى حين بكتاب فى بيئة يتصل مباشرة بمباحث البيئات المختلفة ، ومما يصور ذلك من بعض الوجوه مقدمة فى شرح نهج البلاغة لعلى بن أبى طالب ، تلك التى قدم بها كمال الدين ميثم [2] بن على بن مَيْثَمَ البَحْرانى المتوفى سنة ٦٧٩ هـ / ١٢٨٠ م شرحه الأكبر المطبوع على الحجر بتبريز إذ له وراءه شرحان ، وفيه تحدث عن البيان فى النهج ووزع

(١) انظر فيه كتاب البيتوشى لمحمد الخال قاضى السليمانية (طبع بغداد) وكتاب شعراء هجر لعبد الفتاح الحلو ص ١٧ وما بعدها .

(٢) راجع فى ميثم كتاب سليمان البحرانى عنه باسم السلافة البهية فى الترجمة الميثمية .

حديثه على ثلاث قواعد ، جعل الأولى لدراسة الألفاظ والثانية لدراسة المعانى ، والثالثة لدراسة الخطابة ، والصلة بين مباحثه ومباحث السابقين له واضحة .

ولعل خير كتاب يصور النشاط البلاغى فى الجزيرة العربية لهذه العصور كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز للإمام الزيدى اليمنى يحيى [١] بن حمزة العلوى ، المتوفى سنة ٧٠٥ وهو يقول فى مقدمته إنه لم يطلع من كتب البلاغة إلا على أربعة كتب هى : المثل السائر لابن الأثير والتبيان فى علم البيان لابن الزملكانى ونهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز للفخر الرازى والمصباح فى البيان والبديع لبدر الدين بن مالك ، ويشيد بعبد القاهر وكتابيه : دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة وفيه يقول : « أول من أسس فى هذا العلم قواعده وأوضح براهينه وأظهر فوائده ورتب أفانينه الشيخ العالم النحرير ، علم المحققين عبد القاهر الجرجانى » غير أنه يصرح بأنه لم يطلع على كتابيه المذكورين آنفاً ، إنما اطلع على شذرات منهما فى كتابات البلاغيين . وقد ذكر السكاكى مراراً ، مما يدل على أنه اطلع على كتابه « المفتاح » ويقول إن الحافز الذى دفعه إلى تأليف كتابه أنه حين حاول أن يقرأ مع طلابه تفسير الزمخشرى المسمى بالكشاف وفيه مسائل بلاغية كثيرة طلبوا منه أن يؤلف لهم فى البلاغة كتاباً ، فاستجاب لهم ، وأثرُ ابن الأثير والفخر الرازى والسكاكى بيِّن فى الكتاب ، وقد وزعه على مقدمات ومقاصد وتكملات ، وسمى كل فرع من هذه الفروع فنا ، وفن المقدمات عنده يتناول علم البيان والبلاغة والفصاحة والحقيقة والمجاز ، وسَلَكَ فى الفصاحة والبلاغة علمى المعانى والبيان . ويتأثر بابن الأثير فيما كتبه عن معرفة الآلات الضرورية لإتقان البيان كاللغة والنحو والتصريف وحفظ القرآن . ونصوص الشعر والنثر ، ويستوحى الفخر الرازى فيما كتبه عن أنواع الدلالات الوضعية والالتزامية ، ويتحدث عن الحقيقة والمجاز ويذكر للحقيقة تعريفات مختلفة وينسب أحدها إلى ابن الأثير . ويطيل فى الحديث عن الحقيقة العرفية والشرعية ، ويتضح هنا تأثره بعلم أصول الفقه . ويعرض المجاز وماهيته ويتحدث عن المجاز اللغوى أو المرسل وعلاقاته ويسمى المجاز العقلى باسم المجاز المركب وينقل عن الرازى بعض أحكام المجاز . وينتقل إلى الفصاحة ويقول إنها خلوص اللفظ من التعقيد ويطيل مستضيئاً بابن الأثير فى بيان وجوه الحسن فى أفراد الحروف والكلمات . ويتحدث عن البلاغة مهتدياً بابن الأثير مع الانتفاع بما ذكره الرازى من جمال الرصف لحروف منقوطة أو بعضها منقوط وبعضها غير منقوط ويذكر آراءه فى معنى

---

(١) انظره فى البدر الطالع للشوكانى ٢/٣٣١ وكتابه « الطراز » نشرته دار الكتب المصرية فى ثلاثة مجلدات سنة ١٩١٤ وراجع كتابنا : البلاغة : تطور وتاريخ (طبع دار المعارف) ص ٣٢٠ .

الفصاحة والبلاغة وأن الطرف الأعلى لـلأخيرة هو الإعجاز . ويخرج إلى بيان مواقع الغلط فى اللفظ المفرد والمركب سواء من التصريف وفساده أو من النحو والغلط فيه . ويترك الفن الأول وهو المقدمات إلى الفن الثانى فى الكتاب ، وهو المقاصد ، ويعود إلى الحديث عن الدلالات الوضعية والعقلية أو الالتزامية ، ويعرض أبواب البيان مبتدئاً بالمجاز وأنواعه من الاستعارة والكناية والتمثيل ، ويفصل القول فى الاستعارة وتعريفاتها عند الرمانى والفخر الرازى وابن الأثير ، ويدخل فيها التشبيه البليغ ويمثل لها بشواهد كثيرة من القرآن الكريم والحديث ونصوص النثر والشعر ، ويتحدث عن أقسامها على هدى الرازى وبدر الدين بن مالك ، ويجعلها عدة أقسام باعتبارات مختلفة ، أما باعتبار ذاتها فتنقسم إلى حقيقية وخيالية ، وباعتبار لازمتها تنقسم إلى مجردة ومرشحة ، وباعتبار حكمها تنقسم إلى حسنة وقبيحة ، وباعتبار استخدامها تنقسم إلى استعارة محسوس لمحسوس أو معقول لمعقول . ويخرج إلى التشبيه ، ويذكر أن ابن الأثير أدخله فى المجاز ، ويفصل القول فيه ، متأثراً بالرازى وابن الأثير وبدر الدين بن مالك ، ويجعله أقساماً : قسماً يشترك فيه المشبه والمشبه به فى الأوصاف المحسوسة ، وقسماً يشترك فيه المشبه والمشبه به فى الأوصاف التابعة للمحسوسات كالشكل والاستدارة والقوام والليونة والصلابة ، وقسماً يشترك فيه المشبه والمشبه به فى الأوصاف العقلية . ويؤكد أن مدار الجمال فى التشبيه والاستعارة على الإتيان بالخيال الغريب غير المألوف . ويعود إلى تقسيمات أخرى فى التشبيه باعتبارات مختلفة ، إذ ينقسم باعتبار ذاته إلى أربعة أقسام : مفرد بمركب ومركب بمفرد ومفرد بمفرد ومركب بمركب ، وينقسم باعتبار حكمه إلى قبيح وحسن وباعتبار صورته إلى ما يسميه طرداً وعكساً وباعتبار أداته إلى مظهر ومضمر . ويعرض الكناية وتعريفات عبد القاهر وابن الأثير وبدر الدين بن مالك وبعض الأصوليين لها ، ويقف مع ابن الأثير فى عدِّها ضرباً من المجاز قائلاً إنها « اللفظ الدال على معنيين مختلفين : حقيقة ومجاز من غير واسطة لا على جهة التصريح » ويتحدث عن أقسامها وعن التعريض والتمثيل . وينتقل إلى الكلام عن علم المعانى ، مازجاً فيه بين مباحث الرازى وابن الأثير وبدر الدين بن مالك وابن الزملكانى ، وقد ذكر فيه – على هدى الأخير– المعرفة والنكرة والأحرف الجارة وبعض صيغ الأفعال والأسماء والنفى ، وأيضاً ذكر على هداه وهدى ابن الأثير صور الالتفات . وتحدث عن الفصل والوصل والحذف والإيجاز وعنده أن الإيجاز قسمان : قسم بالقصر وقسم بالتقرير يريد به المساواة .

وعرض المبادئ والافتتاحات والتخلص وصوراً من المبالغة ، وهو فى كل ذلك يستلهم

ابن الأثير. وفصَّل القول فى علم البديع * على هدى بدر الدين بن مالك ، وجعله نوعين : نوعاً يتعلق بالفصاحة اللفظية ، وينتظم عشرين محسناً بلاغياً من مثل الجناس والترصيع والألغاز ، وعَدَّ من هذا النوع الطباق ومردّه إلى المعنى ، ونوعاً ثانياً يتعلق بالفصاحة المعنوية وينتظم خمسة وثلاثين محسناً بلاغيًّا . وينتقل إلى التكميلات الملحقة بالكتاب ، وهى الفن الثالث من فنونه ، وهو فن خاص ببيان البلاغة فى القرآن الكريم وآياته ، وهو يوضح روعة فصاحته فى حروفه ومفرداته وتراكيبه ويطبِّق على تعبيراته ومواطن الجمال فيها علوم المعانى والبيان البديع ، ويتحدث فى إفاضة عن إعجازه البلاغى وجمال بيانه ونظمه وفصاحته ودقة معانيه الجمالية الإضافية .

وكانت قد نشطت منذ عصر يحيى بن حمزة العلوى البديعيات وهى قصائد فى مديح الرسول ﷺ تتضمن أبياتها كل ألوان البديع ومحسناته ، ومن أجل ذلك توضع لها الشروح ، وتوزع على المحسنات البديعية فى أبواب متلاحقة ، وأول من صنع ذلك على بن عثمان الإربلى المتوفى سنة ٦٧٠ وتبعه صفى الدين الحِلِّىّ المتوفى سنة ٧٥٠ وتلاحقت بعده سيول من هذه البديعيات فى جميع الأقطار العربية . وممن شارك فى هذا الاتجاه من الجزيرة العربية ابن معصوم [١] الحسينى من أهل المدينة المتوفى سنة ١١١٧ وهو صاحب كتاب السلافة ومطلع بديعيته :

حُسْنُ ابتدائى بذكرى جيرة الحَرَمِ ... له براعةُ شوق تستهلُّ دمى

وألف عليها شرحا سماه « أنوار الربيع فى أنواع البديع » وتتضمن ألفاظ الأبيات أسماء المحسنات البديعية ، وذكر فى مقدمة شرحه أسماء من سبقوه إلى نظم البديعيات والتأليف محاكيا بذلك أصحاب البديعيات وشروحها قبله .

وعلى نحو ما كانت البحوث البلاغية والبديعية نشطة فى الجزيرة العربية كذلك كانت البحوث النقدية ومن خير ما يصور ذلك كتاب تنبيه الأديب على ما فى شعر أبى الطيب من الحسن والمعيب لعبد [٢] الرحمن بن عبد الله باكثير الحضرمى المكى قاضى جدة المتوفى حوالى سنة ٩٧٥ للهجرة وقد بدأ مؤلفه بالحديث عن الفصاحة ثم فتح بابا لعرض وجوه من النقد لنحو خمسين قصيدة للمتنبى مرتبة على الحروف الهجائية وعادة يذكر مطلع القصيدة ثم بعرض الأبيات المستهجنة فيها والمستحسنة ، ويعقد بابا ثانيا يتحدث فيه عن السرقات الشعرية وسرقات المتنبى من الشعراء وسرقات الشعراء منه . ثم يسوق خاتمة فى

(١) انظره فى البدر الطالع ١ / ٤٢٨ وأمل الآمل ص ٥٢ .

(٢) راجع مقدمة محقق الكتاب : الدكتور رشيد عبد الرحمن صالح ، وما بها من مصادر عن المؤلف .

بيان وجوه من محاسن المتنبي فى إرسال الأمثال والحكم وينهيه بالثناء عليه وعلى شعره. والكتاب يدل على بصر جيد بمعرفة الشعر ونقده وفيه ما يصور ثقافة هذا الناقد الحضرمى المكى وأنه اطلع على كثير مما كتب عن المتنبى قبله وقد حاول أن يضيف إضافات جيدة فى بيان محاسن شعره ومعايبه ، وهو يشيد به فى فواتح كتابه إشادة بالغة وكذلك فى تضاعيفه وفى خاتمته ونهايته . ومن أطرف صحفه الصحف التى تحدث فيها عن السرقات إذ عرض فيها أسماء شعراء متأخرين نابهين كثيرين مما يدل على ثقافته الواسعة بالشعر والشعراء حتّى زمنه .

٤

علوم الفقه والحديث والتفسير والقراءات والكلام .

ما قلناه عن التراث اللغوى والنحوى والبلاغي وأنه كان مشتركا بين البلدان العربية على اختلاف أقطارها ينطبق أشد الانطباق على تراث الفقه والحديث والتفسير والقراءات وعلم الكلام ، فهو تراث مشترك يدرس فى كل أنحاء الجزيرة العربية كما يدرس فى كل أنحاء العالم العربى ، لا فرق بين بلد وبلد ولا بين زمن وزمن . ولم يكن طلاب العلم حينئذ يكتفون بأخذه عن علماء بلدهم ، بل كانوا يرحلون إلى لقاء العلماء النابهين فى كل بلد وخاصة فى العراق والشام ومصر ، ليتلقوا العلم عنهم شفاها . ولا يكتفى الطالب بالرحلة مثلا إلى بغداد ولقاء علمائها ، بل يرحل إلى بلاد أخرى طامعا فى أن يجمع لنفسه كل ما يستطيع من مواد المعرفة فى علم بعينه أو فى مجموعة من العلوم .

وجعل الحجُّ والزيارةُ النبوية مكةَ والمدينةَ قبلتين للطلاب والعلماء جميعا ، على نحو ما مرَّ بنا فى علوم العربية فكان يفد عليهما أنبه العلماء فى العالم الإسلامى ، وكثيرا ما ينزلون بهما سنة أو سنوات ، وطلاب البلدتين ينهلون من ينابيع علومهم الغزيرة . ونضرب مثلا فى الفقه بالجوينى[١] عبد الملك بن عبد الله النيسابورى شيخ الإسلام العلامة الأصولى الفقيه المتكلم المتوفى سنة ٤٧٨ وقد جاور بمكة أربع سنوات قضى منها شطرا فى المدينة ولذلك سُمّى إمام الحرمين ، وكان يدرس هناك ويفتى ويجتهد فى نشر العلم بفقه الشافعى ، وكان علمه بهذا الفقه قد أحدث دويا هائلا لاسمه فى موطنه وحين نزل بغداد ولقى علماءها وناظروه ، ويقولون عنه : وقفَ علماء المشرق والمغرب معترفين بالعجز بين يديه ، ويقول

(١) انظر مصادر ترجمته فى الفصل الثانى من القسم الخاص بإيران .

السبكي : «لا يشك ذو خبرة أنه كان أعلم أهل الأرض بالفقة والأصول والكلام وأكثرهم تحقيقا . وأن الوجود ما أخرج بعده له نظيرا ، مما جعل اسمه يطير فى الأقطار وذكره يملأ الديار» . ومن تصانيفه فى الفقه الشافعي النهاية فى الفقه ويقول السبكي : «لم يصنف فى مذهب الشافعي مثلها فيما أجزم به» ويذكر له فى أصول الدين أو علم الكلام كتاب الشامل وكتاب الإرشاد كما يذكر له فى أصول الفقه كتاب البرهان غير كتب أخرى . ولم يكن يحضر مجلسه طلاب الفقه والأصول والكلام فى مكة والمدينة فحسب ، بل كان يحضره أيضا الوافدون على البلدتين من أقطار العالم الإسلامى ، مما جعل اسمه يسير ويشتهر وتضرب به الأمثال . وعاد إلى نيسابور ، فبنى له نظام الملك وزير ألْب أرْسلان السلجوقى مدرسة ليلقى بها محاضراته من مدارسه المعروفة باسم المدارس النظامية وكانت حلقته تضم نحوا من أربعمائة طالب ، وحين توفى طافوا ببلده ينوحون عليه وكسروا المحابر والأقلام حزنا وجزعا . والفقهاء بمكة والمدينة كانوا كثيرين ، وكان لكل مذهب من المذاهب الأربعة المشهورة : مذهب أبي حنيفة ومذهب مالك ومذهب الشافعي ومذهب أحمد بن حنبل فقيه يمثله ، يسمى مثلا إمام الحنابلة أو إمام المالكية بالحرم ويضم منهم كتاب العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين للفاسي طائفة كبيرة . وكذلك غيره من كتب[1] التراجم ومن أهم فقهاء مكة المتأخرين ابن حجر الهيثمي المتوفى سنه ٩٧٣ وله شرح كبير على المنهاج للنووى ومصنفات كثيرة .

ونلتقى فى مكة بمحدث من كبار المحدثين فى العالم الإسلامى هو محب[2] الدين الطبرى المكي المتوفى سنة ٦٩٤ شيخ الحرم وحافظ الحجاز وعالمه المولود بمكة سنة ٦١٥ فهو من علماء مكة . وهى مسقط رأسه وموطنه ، نشأ بها ، وفيها طلب العلم وسمع الحديث على أستاذه أبي الحسن على بن المقيِّر ، ومما قرأه عليه سنن أبيَ داود عن أبي الفضل بن سهل الإسْفراييني وعن الخطيب البغدادى وسنن النسائى أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن على عن البزْدى عن عبد الرحمن بن محمد الدونيّ . وكانوا يدققون فيمن يذكرونهم من الحفاظ فلابد أن يكونوا حملوا كتب الحديث عن شيوخ نابهين على نحو ما حمل ابن المقير سنن أبي داود

(١) راجع مثلاً فى إمام للحنفية بالمسجد الحرام المنهل الصافى ١ / ٤٠٤ هو شيخ الإسلام شهاب الدين أحمد بن على بن يوسف ، وفى إمام للمالكية العقد الثمين ٤ / ٣٢٤ هو خليل بن عبد الرحمن القسطلانى المكى ، وفى إمام للشافعية العقد الثمين ١ / ٢٨٠ وهو الرضى الطبرى المكى ، وفى إمام للحنابلة العقد الثمين ٧ / ١١٩ وهو ابن الطباخ الحنبلى .

(٢) انظره فى طبقات الشافعية للسبكى ٨ /١٨ والمنهل الصافى ١ / ٣٢٠ وتذكرة الحفاظ ٤ / ١٤٧٤ وشذرات الذهب ٥ / ٤٢٦ ومرآة الجنان ٤ / ٢٢٤ والنجوم الزاهرة ٨ / ٧٤ .

عن علمين من أعلام الحديث هما الإسفراييني والبغدادي ، فلا يذكرون فقط أخذ كتاب الحديث عن محدث كبير بل يحاولون أن يذكروا عمن أخذه لصحة السند وللثقة بالرواية ، وينصون كما رأينا الآن على قراءة التلميذ على شيخه للكتاب كلمة كلمة ، وقد يقولون سمعه من شيخه ، وكانوا عادة يسمعون الكتاب وفى أيديهم نسخ للمراجعة والمعارضة . وقد يجمعون الحسنيين من السماع على الشيخ للكتاب وقراءته أمامه مرة واحدة ، فيقولون : سماعا وقراءة . وقرأ محب الدين الطبرى صحيح البخارى على عبد الرحمن بن حرمى سبط السلفى الحافظ المشهور ، وقرأه أيضا على عمين لأبيه وأخ له . وقرأ جامع الترمذى على يعقوب بن أبى بكر الطبرى وصحيح مسلم وصحيح ابن حبان على شرف الدين بن أبى الفضل المرسى ، وقرأ الأربعين للحافظ الثقفى على أبى الحسن بن الجُمَّيْزى وكذلك قرأ عليه الأربعين للسلفى ، وقرأ الأربعين البلدانية على شعيب الزعفرانى ، وقرأ بعض الجمع بين الصحيحين للحميدى عن ابن البَطِّى ، وقرأ على ابن العديم وريحان السُّكينى وشيخ الحرم نجم الدين التبريزى جزء الأنصارى . وكان يعنى بالفقه ، وقرأ كتاب التنبيه المشهور فى الفقه الشافعى والذى ألفه أبو إسحق الشيرازى على ابن سكينة وتفقه عليه . وسمع بعض كتاب الغريب لأبى عبيدة عن شُهدة ، وهى إحدى المحدثات الكبيرات . وكأنما تعب من يعدون كتب الحديث والفقه والغريب التى أخذها عن العلماء ، فيعقبون على ما سبق بقولهم : وأخذ العلم عن جماعة كثيرين من شيوخ مكة والقادمين إليها . والحرم المكى بذلك كان أشبه بجامعة كبيرة لعلوم الشريعة والعربية . ونقف قليلاً عند المشايخ والأعيان الذين تتلمذوا له فنهم القاضى جمال الدين الطبرى قاضى مكة قرأ عليه فى سنة ٦٤٩ بالروضة بالمسجد النبوى . وهذا يعنى أنه كان يدرس فى المدينة أحياناً .

ومن تلاميذه المحدث عبيد الله بن عبد العزيز المهدوى والقطب القسطلانى المصرى ثم المكى ونجم الدين بن عبد الحميد والحافظ الزاهد علاء الدين العطار وقاضى المدينة المنورة شمس الدين بن مسلم والحافظ الدمياطى المصرى المشهور وعلم الدين البِرْزالى الدمشقى المصرى وقاضى مكة نجم الدين الطبرى وقطب الدين الحلبى وأبو حيان الغرناطى وخلق كثير ، كما يقول مترجموه ، آخرهم وفاة عثمان بن الصفى الطبرى ، وآخر أصحابه بالإجازة الشهاب الحنفى . وأساتذته وتلامذته هم أعلام الحديث فى عصره بالحجاز وبغداد وإيران ودمشق والقاهرة ، غير من انتفع به فى الفقه الشافعى ، واستدعاه المظفر السلطان الرسولى مِرَاراً ، وسمع عليه بعض مروياته وتآليفه ولابد أنه كان يلقى فى أثناء ذلك محاضراته على الطلاب بزبيد . ونقف مرة أخرى عند مؤلفاته الكثيرة ، منها فى الحديث كتاب الأحكام

الكبرى جمع فيه صحاح الأحاديث وحسانها ، وهو فى خمسة أجزاء ، وكتاب الأحكام الوسطى مجلد كبير ، وكتاب الأحكام الصغرى يتضمن ألف حديث وخمسة عشر ، وكتاب المحرر للملك المظفر جمع فيه أحكام الصحيحين ، واختصره فى كتاب سماه العمدة ، وكتاب الرياض النضرة فى فضائل العشرة المبشرين بجنة الرضوان مجلدان وهو مطبوع ، وكتاب ذخائر العقبى فى مناقب ذوى القربى ، وكتاب السمط الثمين فى مناقب أمهات المؤمنين ، وتقرب المرام فى غريب القاسم بن سلام ، وكتاب القِرَى من ساكن أم القُرَى جرد فيه أحاديث المناسك من الكتب الستة وغيرها ، وغاية بغية الناسك من أحكام المناسك ، وصفة حجة النبى ﷺ على اختلاف طرقها وجميع ألفاظها ، غير كتب أخرى .

ومن مصنفاته الفقهية شرحه على كتاب التنبيه لأبى إسحق الشيرازى فى عشرة أجزاء ونكت كبرى عليه فى أربعة أجزاء وكتاب المسلك النبيه فى تلخيص التنبيه ، وكتاب مختصر المهذب ، مجلدان . ومما يتصل بالقرآن الكريم : القبس الأسنَى فى كشف الغريب والمعنى ، والكافى فى غريب القرآن ، وكتاب التحفة المدنية ، وكتاب مرسوم المصحف العثمانى المدنى . وله مختصر كتاب عوارف المعارف للسهروردى . ومحب الدين الطبرى ، بهذا كله رمز كبير لتلك الحركة العلمية التى كانت منبثة فى الحجاز والتى كان شررها يتطاير إلى جميع البيئات فى الجزيرة العربية . ومن الطريف أن المرأة كانت تشارك فيها ، وخاصة فى رواية الحديث ، فكانت تأخذه عن شيوخه ويأخذه عنها الشيوخ ، ومن يرجع إلى الجزء الثامن من كتاب العقد الثمين سيرى عشرات من النساء المحدثات من مكة أو النازلات بها يروى جلَّة العلماء عنهن الحديث النبوى .

وطبيعى أن تنشط دراسة التفسير فى مكة مع دراسة الحديث ، وقد رأينا محب الدين الطبرى بجانب عمله فى الحديث يخدم التفسير خدمات كبيرة ، ويقال إنه كان قد نشط لكتابة تفسير جامع غير أنه توفى قبل إتمامه . وقد صُنِّف بمكة تفسير من أعظم التفاسير ، صنفه الزمخشرى فى أثناء مجاورته بها وهو « الكشاف » ومع أنه ضمنه آراءه الاعتزالية أقبل عليه علماء السنة وغيرهم لروعته ، ويلقبه الفاسى المالكى بأنه « الإمام الكبير فى التفسير . . كان إمام عصره غير مدافع » ويقول ابن خلكان عن الكشاف وتفسيره للقرآن العزيز بأنه لم يؤلف قبله مثله . وكان يمليه فى مكة على الطلاب ، وممن رواه عنه قاضيها أبو المعالى يحيى ابن عبد الرحمن الشيبانى ، أخذه عنه بالحرم المكى الشريف ، وظل العلماء بعد الزمخشرى يعنون بالكشاف فى التفسير ، كما يعنون برواية كتب الزمخشرى المشهورة وإلقائها على

الطلاب والطالبات بالحرم المكى ، ويقال إن أم المؤيد زينب بنت عبد الرحمن الشَّعْرية خاتمة الرواة عن الزمخشرى وإن لها منه إجازة تفردت بها عنه ، ويقول الفاسى فى العقد الثمين من طريقها وقع لنا حديثه .

ومنذ انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى وقراء الذكر الحكيم يعلمون تلاوته وقراءته فى الحرمين المكى والمدنى ، ويختار ابن مجاهد فى القرن الرابع قراءة ابن كثير التى كان يقرأ بها أهل مكة وقراءة نافع التى كان يقرأ بها أهل المدينة بين القراءات السبع المشهورة لعصره ، وظلت قراءة كل منهما تتداول فى بلدته وينقلها جيل من القراء إلى جيل ، وتلقانا فى كتاب طبقات القراء لابن الجزرى أسماء طائفة منهم مثل أبى يحيى المكى المتوفى سنة ٣٤٤ وأبى عبد الله البلخى المولود بمكة المتوفى سنة ٣٧٢ ويكتظ كتاب العقد الثمين بتراجم كثير من القراء فى مكة والمدينة . وكانتا دارين للقراءات وعلوم الشريعة ، أما علم الكلام فلم يكن له بهما كبير شأن .

وإذا ما تحولنا إلى اليمن وجدنا للفقه فيها نشاطاً من قديم منذ معمر بن راشد المتوفى سنة ١٥٣ وإليه ارتحل سفيان الثورى وابن عُيَيْنة ، وخلفه تلميذة عبد الرزاق بن همام المتوفى سنة ٢١٠ وعنه روى الحديث أحمد بن حنبل وغيره ، وخلفه أبو قرة موسى بن طارق . وكان الغالبُ فى اليمن حتى القرن الثالث مذهبى أبى حنيفة ومالك ، ثم أخذ العلماء يعنون بمذهب الشافعى ، وفى مقدمتهم موسى بن عمران المَعَافِرىّ وآل زرقان إذ كان منهم عدة فقهاء عنوا بفقه الشافعى . ويقول الجعدى فى كتابه «طبقات فقهاء اليمن» : وخلف هذا الجيل إمام أئمة الشافعية فى صنعاء وعدن القاسم بن محمد القرشى المتوفى سنة ٤٣٧ وهو الذى نشر مذهب الشافعى فى مخلاف الجَند وفى صنعاء وعدن وَزبيد ، وكان قد جمع مع الفقه والحديث وأصول الفقة علم القراءات . وكان يعاصره الصعبى أحمد بن عبد الله وقد شرح مختصر المزنى المصرى صاحب الشافعى – كما يقول الجعدى – فى أربع سنوات مقابلاً الكعبة الشريفة . ويخلف القاسم بن محمد مجموعة كبيرة من التلاميذ ينهضون بتعليم فقه الشافعى وبيان مذهبه . ولما ألف أبو إسحاق الشيرازى كتابيه : المهذب والتنبيه فى الفقة الشافعى ، وأخذهما عنه حسين بن على الطبرى وأبو نصر البندنيجى وسكنا مكة حمل الفقهاء اليمنيون وغيرهم عنهما الكتابين ، كما حملوهما عن تلميذه محمد بن عَبْدويه الذى سكن عدن مدة ثم انتقل منها إلى زَبيد ، وكان ينفق على طلبة العلم ويكرمهم كما يقول الجعدى . وينشط الفقه الشافعى أو المذهب الشافعى فى الفقه بتهامة وزبيد نشاطاً واسعاً ،

ويكثر فقهاؤه ، ومن أهمهم يحيى[1] بن أبي الخير شيخ الشافعيين باليمن المتوفى سنة ٥٥٨ وقد تفقه على جماعة ، منهم خاله أبو الفتوح بن عثمان العمرانى وزيد بن عبد الله اليفاعى ، وقد قرأ كتاب التنبيه للشيرازى على موسى بن على الصعبى ، وحفظ كتاب الشيرازى : «المهذب» على عبد الله بن أحمد الهمدانى ، وكذلك كتابه «اللمع» وأخذ عن زيد ابن الحسن الفايشى تعليق الشيخ الشيرازى فى أصول الفقة مع ملخصه ، وحضر دروس فقهاء كثيرين ، وقرأ على القاضى مسلم بن أبي بكر الصعبى كتاب الحروف السبعة فى علم الكلام والتوحيد وأصول الدين لمؤلفة الحسين بن جعفر المراغى ، وسمع على الشيخ سالم ابن عبد الله كتاب الجامع للسنن للترمذى ، ومما قرأه ونصَّ عليه الجعدى شروح المزنى والمجموع للمحاملى والشامل لابن الصباغ والفروع لسليم وشروح المولدات لأبي الطيب والعدة للقاضى حسين بن على الطبرى تلميذ الشيرازى كما أسلفنا والإبانة وشرح التلخيص لأبي على السِّنجى وكتاب التبصرة لأبي الفتوح على مذهب السلف الصالح .

وكان الفقهاء فى اليمن منقسمين بين أشعرية وأهل سنة ينصرون مذهب الحنابلة مع أنهم شافعية ، وكان يحيى بن أبي الخير يختار مذهب أهل السنة ويناظر الفقهاء فى مذهب الأشعرى المتكلم . وكان يذكر لطلابه خلاف الإمامين مالك وأبي حنيفة ، وله مصنفات مختلفة ، من أهمها فى الفقه الشافعى كتابه الزوائد ألفه فى أربع سنوات وكتابه البيان ألفه فى ست ، وكتابه استخراج المسائل المشكلة فى المهذب .

ومن الطريف أن الجعدى فى كتابه طبقات فقهاء اليمن يوالى ذكر أسماء جماعات من الفقهاء الشافعية نبغوا فى بيت بعينه ، من ذلك أسرة بنى أبي عَقامة ، ويقول عنهم الجعدى : «وفضائل بنى أبي عقامة مشهورة ، وهم الذين نصر الله بهم مذهب الإمام الشافعى فى تهامة» ومن أهمهم أبو الفتوح [2] عبد الله بن محمد بن على بن أبي عقامة المتوفى سنة ٥٥٠ تفقه على جده على وعلى أبي الغنائم الفارقى ، وله مصنفات جيدة منها كتاب الخناثى وفيه نفائس حسنة ، قال النووى : لم يسبق إلى تصنيف مثله . وعقد العماد الأصبهانى لهذه الأسرة فصلاً فى الخريدة ، ويقول الجندى فى كتابه السلوك عن أحدهم ، وهو القاضى أبو محمد الحسن بن أبي عقامة : «له كتاب نوادر مذهب أبي حنيفة التى يستشنعها أصحاب الشافعية» وقد صار هذا الكتاب فى اليمن قليل الوجود ، لأن الحنفية

(١) طبقات فقهاء اليمن للجعدى (طبع القاهرة) ص ١٧٤ وطبقات الشافعية للسبكى (الطبعة الثانية) ٣٣٦/٧ وشذرات الذهب ١٨٥/٤ .

(٢) انظره فى طبقات فقهاء اليمن ص ٢٤٠ والسبكى ١٣٠/٧ وتهذيب الأسماء واللغات ٢٦٢/٢ وقسم الشام من كتاب الخريدة للعماد الأصبهانى ٢٤٦/٣ .

اجتهدت بتحصيله وإذهابه [١] » .

وكان للحنفية نشاطهم ومن أشهر علمائهم فى القرن الخامس فى اليمن القاضى محمد بن أبى عوف ، ويعقد لهم الجعدى فصلاً قصيراً فى كتابه يذكر أسماء طائفة منهم ، ويقف عند القاضى المذكور ، ويقول إنه صنف كتاباً بعنوان « القاضى » وهو مشهور فى اليمن والعراق عند الحنفية . واشتهر منهم فى القرن السابع أبو بكر بن عيسى المعروف بابن حنكاش [٢] المتوفى سنة ٦٦٤ وإليه انتهت رياسة الحنفية فى اليمن ، ويقال : لو لم يوجد لمات مذهب أبى حنيفة هناك ، إذ حمل السلطان نور الدين الرسولى على بناء مدرسة للحنفية بزبيد وكان قد بنى بها مدرسة للشافعية .

وكان يقابل فقه الشافعية فى تهامة وزَبيد فقه الزيدية فى صَعْدة من قديم ، وكان الأئمة الرسِّيون كلما غلبوا على بلد فى اليمن حاولوا أن يشيعوا فيه مذهبهم ، حتى إذا تمت لهم الغلبة فى العصر العثمانى أشاعوا مذهب الزيدية ، غير أن مركز الشافعية فى زبيد وتهامة ظل ثابتاً إلى اليوم . ومعروف أن الفقه الزيدى نشأ مبكرا . فإن زيد بن على زين العابدين بن الحسين المقتول سنة ١٢٢ بالكوفة هو الذى أرسى قواعده فى كتاب فقهى له اشتهر باسم المجموع الفقهى [٣] ، وهو أساس الفتوى والأحكام القضائية عند الزيدية ، وقد طُبع فى القاهرة سنة ١٣٤٠ وطبع قبل ذلك مع شرح له باسم الروض النضير للحسين الحيمى فى أربعة أجزاء سنة ١٣٣٧ وطبع أيضا بشرح شرف الدين السباعى ، والشرحان مطبوعان فى القاهرة . وعُنى أئمة الزيدية فى اليمن – منذ تأسيس الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين دعوتهم – بهذا الكتاب فهو عمدتهم فى الفقه والتأليف فيه ، وللإمام الهادى كتاب يسمى كتاب جامع [٤] الأحكام فى الحلال والحرام . ويتكاثر تأليف أئمة الزيدية لكتب الفقه فى اليمن ، ونذكر من كتبهم أطرافا ، فمن ذلك المنصور بالله عبد الله بن حمزة ، له فتاوى كثيرة مجموعة . ومن ذلك الإمام محمد بن المطهر المتوفى سنة ٧٢٨ له المنهاج الجلى شرح مجموع الإمام زيد بن على . ومن ذلك الإمام المؤيد بالله يحيى بن حمزة صاحب الطراز الذى تحدثنا عنه فى النشاط البلاغى له كتاب الانتصار الجامع لمذاهب علماء الأمصار فى ثمانية عشر جزءاً . ومن ذلك الإمام المهدى أحمد بن يحيى المتوفى سنة ٨٤٠ له البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار طُبع مع تخريج أحاديثه فى خمسة أجزاء ، وله أيضا كتاب

(١) كتاب (السلوك – النكت) للجندى ص ٦٣٢ .

(٢) العقود اللؤلؤية للخزرجي ١ / ١٥٥ .

(٣) انظر تاريخ الأدب العربى لبروكلمان (الطبعة العربية) ٣/٣٢٣ .

(٤) بروكلمان ٣ / ٣٢٨ .

الأزهار فى فقه الأئمة الأخيار وصنع عليه شرحا سماه « الغيث المدرار » . وهناك كثيرون من علماء الزيدية ، من الأمراء وغيرهم ، تعمقوا فى الفقه الزيدى وألفوا فيه وحوله كتبا ومصنفات مختلفة ، ومن طريف ما يذكر فى هذا الصدد أن أحد أمراء الزيدية فى القرن التاسع صنف رسالة استبعد فيها إمكان الاجتهاد حينئذ ، فرد عليه محمد بن إبراهيم الوزير بكتابه « العواصم والقواصم » فى أربعة مجلدات ، واختصره فى كتابه « الروض الباسم فى الذب عن سنة أبى القاسم » وهو مطبوع .

وبجانب هذا النشاط الفقهى فى اليمن كان هناك نشاط واسع فى علم الحديث ، وهو يبدأ فى الحديث كما بدأ فى الفقه بمعمر بن راشد فله الجامع المشهور فى السنن ، ونمضى بعده فى كتاب طبقات فقهاء اليمن فنجد لمحمد بن عبد الأعلى الصنعانى كتاب المنتقى فى السنن ، وقلما يذكر فقيه إلا ويذكر معه أنه حُمل عنه الحديث ، وكثيرا مايقول الجعدى عن هذا أو ذاك إنه سمع صحيح البخارى ، أو سمع موطأ مالك أو جامع السنن للترمذى أو صحيح مسلم أو سنن أبى داود أو سنن النسائى . ومن حين لآخر نجد الجعدى ينعت الفقيه الذى يترجم له بأنه الحافظ المحدث ، أو يقول سيف السنة . وبنفس النشاط فى هذه الرواية للحديث كانت بيئة الزيديين تنشط فى روايته ولـلإمام المنصور بالله المتوفى سنة ٦٧٠ كتاب فى الحديث يسمى الشفاء ، ولـلإمام القاسم المتوفى سنه ١٠٢٩ فى الحديث كتاب الاعتصام .

وعُنيت اليمن بالتفسير والقراءات كما عنيت بالحديث والفقه ، وكان فيها من المفسرين قديما طاووس بن كيسان تلميذ ابن عباس . وهو باب هذه الحركة ، ومضى اليمنيون بعده يعنون بكتب التفسير ، حتى إذا ظهر تفسير الطبرى أقبلوا على تداوله ، ولهم بحوث كثيرة تتصل بناسخ القرآن ومنسوخه وبشرح غريبه . ومر بنا نشاط الفيروزابادى لعهد الرسوليين فى هذا الاتجاه . ونجد الزيديين يعنون بالتفسير وكل ما يتصل به ، وقد ذكر بروكلمان لإمامهم زيد مخطوطات مختلفة منها تفسير غريب القرآن المجيد ، ومدخل إلى القرآن وتفسير لمواضع منه ، وذكر لـلإمام الهادى مؤسس العقيدة فى اليمن تفسيرا لبعض سور الذكر الحكيم . ولأبى الفتح الديلمى المتوفى سنه ٤٤٠ تفسير للقرآن المجيد ، ولـلإمام المهدى محمد بن المطهر المتوفى سنة ٧٢٨ كتاب عقود العقيان فى الناسخ والمنسوخ من القرآن . ولعل أروع تفسير صنفته اليمن فى عصورها جميعا على الإطلاق تفسير محمد[1]

(١) انظره فى كتابه البدر الطالع ٢/٢١٤ وترجم له ابن زبارة فى كتابه (نيل الوطر من تراجم اليمن فى القرن الثالث عشر) وقال إنه أستاذه .

ابن على الشوكانى المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ/١٨٣٤ م سماه «فتح القدير الجامع بين الرواية والدراية فى التفسير» وكان قد بدأ حياته زيديا ونزع إلى الدعوة الوهابية ، وهو يعد إماما مجتهدا ، وله عشرات المصنفات فى الفقه والأصول وعلم الكلام واللغة .

واهتمت اليمن من قديم بالقراءات ، ويشتهر من قرائها الأولين أبو قرة موسى بن طارق الذى حمل عن نافع أحد القراء السبعة قراءته التى كان يقرأ بها أهل المدينة ، وأذاعها فى اليمن ، ومن أعلام القراء هناك زيد[١] بن الحسن الفايشى المتوفى سنة ٤٥٨ وكان عالما بعلوم كثيرة ، منها التفسير ، ومنها القراءات أخذها عن أبى معشر الطبرى بمكة ، وكان شيخ الشافعية والفقهاء باليمن ، وعليه تفقه يحيى بن أبى الخير المار ذكره . ومن أعلام القراء أيضا ممن ترجم لهم الجزرى فى طبقاته ابن شداد البرعى على بن أبى بكر الزبيدى شيخ القراء ببلاد اليمن ، وكانت إقامته بزبيد أقرأ بها زمنا وأسمع الحديث ، توفى سنة ٧٧٠ وخلفه أحمد بن محمد الأشعرى العبدلى شيخ زبيد فى القراءات ، ويقول ابن الجزرى : لما دخلت اليمن لازمنى كثيرا وسمع منى نصف كتاب النشر وكتبا أخرى ، ويقول إنه أعطاه إجازة بالقراءات العشر[٢] . ومعروف نشاط ابن الجزرى فى القراءات ، ولاشك أن اليمن أفادت منه كثيرا . وهذا النشاط فى القراءات كان يمتد ليشمل البيئة الزيدية وجميع البلدان اليمنية .

وعنيت اليمن فى هذا العصر بالمباحث الكلامية ، وظلت عنايتها بها متصلة ، وقد توزع فقهاءها من غير الزيديين منزعان : منزع أشعرى ومنزع أهل السنة ، وكانت الكثرة تنزع المنزع السنى ، ونجد ذلك واضحا فى تأليف الكتب التى تعنى بنقض آراء المعتزلة ، مثل «كتاب الحروف السبعة فى الرد على المعتزلة وغيرهم من أهل الضلال والبدعة» للمراغى[٣] ومثل كتاب يحيى بن أبى الخير الذى تحدثنا عنه آنفا بين الفقهاء ، وقد جعل عنوانه : «الانتصار فى الرد على المعتزلة القدرية الأشرار» وفى مقدمته أنه ألفه للرد على شمس الدين جعفر بن أحمد بن عبد السلام ، أحد علماء الزيدية ، وكان قد ألف كتابا انتصر فيه لرأى المعتزلة بأن الناس يخلقون أفعالهم ، وأيضا لرأيهم بأن القرآن مخلوق وغير ذلك من آرائهم . وحاول يحيى بن أبى الخير تفنيد آرائه الاعتزالية ، إذ رد عليه برسالة ذكر فيها الأخبار المروية عن الرسول ﷺ فى التحذير من القدرية . ولم يكد يقرأ رسالته شمس

---

(١) راجع ترجمته فى طبقات فقهاء اليمن ص ١٥٥ والسبكى ٧/ ٨٥ .

(٢) غاية النهاية فى طبقات القراء لابن الجزرى ١/ ١٠٣ .

(٣) طبقات فقهاء اليمن ص ٨٣ .

الدين حتى نقضها بكتاب سماه « الدامغ للباطل من مذهب الحنابل » فأثار حفيظة يحيى ابن أبي الخير ، ورد عليه بهذا الكتاب ردا عنيفا ، وأضاف إلى المعتزلة فى الكتاب الأشعرية وأجحف بهم ، مما جعل الشريف العثمانى الأشعرى يناظره ويجادله فى مذهب الحنابلة أهل السنة [١] .

ومعروف أن زيد بن على زين العابدين صاحب مذهب الزيدية ومؤسسه تتلمذ لواصل ابن عطاء رأس المعتزلة ولذلك كان الزيدية جميعا ينتظمون فى المعتزلة ، مما جعل الاعتزال يستقر فى مباحثهم ، كما جعلهم يكثرون من هذه المباحث ، ومن يرجع إلى الجزء الثالث من تاريخ الأدب العربى لبروكلمان سيجد للقاسم بن إبراهيم الرسى جد الإمام الهادى مؤسس مذهب الزيدية فى اليمن كتاب أصول العدل والتوحيد ونفى الجبر والتشبيه ، وكتاب الأصول الخمسة وقد كتب فيها القاضى عبد الجبار أكبر معتزلى فى نهاية القرن الرابع الهجرى شرحا مطولا ، وللإمام الهادى كتاب المسترشد فى التوحيد ، وللإمام المهدى المتوفى سنة ٤٠٣ كتاب الأدلة على الله ومختصر فى التوحيد . وتتوالى كتب كلامية كثيرة فى بيئة الزيدية ، من ذلك شرح القلائد فى علم الكلام للإمام المهدى أحمد بن يحيى المتوفى سنة ٨٤٠ وكتاب الأساس فى علم الكلام للإمام القاسم المنصور بالله المتوفى سنة ١٠٢٩ . ولم تؤلف هذه البيئة فى الاعتزال وحده ، بل ألفت أيضا كتبا فى رجاله ، وكتاب ابن المرتضى فى المعتزلة مشهور .

ولم تكن حَضْرَمَوْت بعيدة عن كل هذه الحركة الثقافية فى اليمن والحجاز ، فقد كان طلاب العلم فيها والعلماء يفدون بصورة منتظمة على اليمن ومكة والمدينة لحمل العلم وتلقِينه ، ويلقانا منهم كثيرون فى كتب التراجم ، وعادوا أو عادت كثرتهم إلى موطنهم فى تَرِيم وشِبام وغيرهما من بلدان حضرموت وسرعان ما أخذت فى تلقينه للشباب . وبذلك كان هناك تواصل منظم بين حضرموت والعلماء اليمنيين والمكيين ، بل منهم من كان يرحل فى طلب العلم إلى بغداد وغير بغداد ، ويعود محملا بالكتب وبالإجازات العلمية التى تتيح له روايتها ونشرها . ويقول الرواة إن مجلس الفقيه زيد بن عبد الله اليفاعى اليمنى المتوفى سنه ٥١٤ كان يغصّ بالفقهاء من حضرموت [٢] ، ويذكر الجعدى من تلاميذ الفقيه يحيى بن أبى الخير الذى مر بنا فى الحديث عن فقهاء اليمن محمد [٣] بن عبد الله الحضرمى من تَرِيم حاضرة حَضْرَموت وأيضا محمد بن مفلح الحضرمى وهو الذى طلب إليه تأليف كتابه

(١) طبقات فقهاء اليمن ص ١٧٩ - ١٨٠ .
(٢) طبقات فقهاء اليمن ص ١٥٢ .
(٣) نفس المصدر ص ٢٠٣ .

« استخراج المسائل المشكلة فى المهذب » لأبى إسحق الشيرازى وأجابه إلى طلبه[١] .

ويذكر الجعدى من فقهاء حضرموت أبا زُنَيج وأبا جحوش وأبا أكدر قاضى تَريم وقد جمع بين الفقه والقراءات السبع [٢] ، وفى كتاب الجعدى فقيهان من شبْوة بحضرموت هما عيسى بن مفلح وأحمد[٣] بن سليمان . ويقول المؤرخون إنه قُتل كثير من فقهاء حضرموت وقُرّائها فى الحملة التى وجهها نائب توران شاه من عدن إلى حضرموت . ويشيد السبكى بقطب[٤] الدين الحضرمى شارح المهذب المتوفى سنة ٦٧٦ ويقول « تفقه به خلائق » وله مصنفات كثيرة . وفى ذلك ما يدل على نشاط الفقهاء والقراء هناك . وكانوا يعنون إلى جانب ذلك بالحديث والتفسير . ويحدثنا السقاف فى كتابه تاريخ الشعراء الحضرميين عن فقهاء كثيرين ترجم لهم ، نذكر منهم ابن عقبة المتوفى فى عدن سنة ٦٩٥ وعلى بن أبى بكر السقاف المتوفى سنة ٨٩٥ وعبد الله بن عمر بامخرمة المتوفى سنة ٩٧٢ وعلى بن عبد الرحيم باكثير المتوفى سنه ١١٤٥ وعبد الله بن حسين بن طاهر المتوفى سنة ١٢٧٢ . وممن ذكرهم السقاف من المحدِّثين عمر بن عبد الرحمن المتوفى بتعزّ فى سنة ٨٨٩ وقد رحل إلى اليمن ومكة وكان يقرأ للناس الصحيحين ، ومثله حسين بن عبد الله العيدروس المتوفى سنة ٩١٧ . وكثيرا ما ينعت السقاف أشخاصا بأنهم محدثون . وممن نعتهم بأنهم مفسرون ومحدثون عبد الرحمن ابن على السقاف المتوفى سنة ٩٢٣ . ومن مقرئيها العظام محمد ابن إبراهيم بن أبى مشيرح الحضرمى المجاور بمكة مقرئ الحرمين صاحب كتاب المفيد فى القراءات الثمان ، وقد أشاد به وبكتابه ابن الجزرى ، وقال إنه توفى فى سنه ٥٦٠ وإنه قرأ بكتابه المذكور على الشيوخ المصريين[٥] وممن ذكرهم السقاف من المقرئين محمد بن عمر بن مبارك المتوفى سنة ٩٢٢ وقال : له مختصر نهاية الناشرى فى القراءات وشرح الجزرية . ويذكر السقاف ممن عنوا بعلم الكلام شيخ بن عبد الله العيدروس المتوفى سنة ٩٩٠ ويذكر له مصنفات فى علم التوحيد ، وكان المقرئ محمد بن عمر بن مبارك يهتم بعلم الكلام وينهج منهج أهل السنة .

وهذه الصورة من النشاط العلمى لحضرموت هى صورة ظَفار وعُمان والبحرين ، ونجد لظفار فقيها ينسب إلى مينائها مرباط هو مفتيها محمد بن على القلعى ، ويقول الجعدى : له مصنفات حسنة ، منها قواعد المهذب وغيره[٦] . ولا ريب فى أن النشاط العلمى فى دراسة

---

(١) طبقات فقهاء اليمن ص ١٧٩ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٢٠ .

(٣) طبقات فقهاء اليمن للجعدى ص ٢٠٢ .

(٤) طبقات الشافعية للسبكى ٨ / ١٣٠ .

(٥) انظر طبقات القراء لابن الجزرى ٢ / ٤٦ وكتابه : « النشر فى القراءات العشر ١/ ٩٣ .

(٦) الجعدى ص ٢٢٠ .

الفقه والحديث والتفسير والقراءات ظل محتدما فى عُمان لزمن بنى مكرم وبنى نبهان ، أما فى نزوى عاصمة الخوارج وحين أصبح لهم حكم عمان فى العصور المتأخرة فكانوا يعنون بالحديث وقراءات القرآن وتفسيره ، وقد عنوا طويلا بمسند الربيع بن حبيب بن عمر الأزدى الإباضى المتوفى سنة ١٧٠ وهو أقدم كتب المساند المعروفة فى الحديث النبوى ، وانصبَّت عنايتهم الفقهية والكلامية على التأليف فى عقيدتهم الإباضية . وفرقتهم ، كما قدمنا ، أكثر فرق الخوارج اعتدالا ، وأقربها إلى الجماعة ، ونَصْبُ إمام المسلمين عندهم واجب ، وتجب طاعته ما اتخذ الحق والعدل شعاره ، فإن جار ولم يتب وجبت الثورة عليه ، ومر بنا حديث عن عقيدتهم فى الفصل الماضى .

وكانت البحرين مثل عُمان نشطة فى دراسة علوم الدين الحنيف ، وكانت تدخل فى دائرة بغداد ومدن العراق مثل البصرة والكوفة ، فكان طلابها وعلماؤها لا يزالون ذاهبين آيبين من العراق وإليه . وكان كثير من علماء العراق يرحل إلى البحرين ، ويتخذها مقاما له وموطنا ، وظلت هذه الصلة العلمية مستمرة حتى نهاية هذا العصر . وكانت علوم الشريعة مطروحة فى كل مسجد ، وظلت حلقاتها قائمة ، واشتهر كثير من الأسر بتوارثها للعلوم الشرعية واللغوية مثل آل عبد الجبار وآل عمران وآل عبد القادر وآل مبارك ، وبرز من بينهم الشيخ سلمان آل عبد الجبار بأخرة من العصر وله مصنفات مختلفة فى المباحث الكلامية وشروح على تهذيب المنطق للتفتازانى وكتاب إيساغوجى[1] وشاع هناك مذهب مالك قبل دخول المذهب الحنبلى مع الوهابيين ، وكانوا يعنون دائما برواية كتب الحديث وخاصة الصحاح الستة . ومنذ دخلت الأحساء فى المملكة السعودية سنة ١٣٣١ عمَّت فيها كتب محمد بن عبد الوهاب وأهل السلف ، غير أن هذا لا يدخل فى عصرنا إنما يدخل فى العصر الحديث .

ولم تكن نجد طوال هذا العصر غائبة عن الحركة العلمية العامة فى البلاد العربية ، فقد كانت كتب الفقه والتفسير تدرس فى قرى نجد ، وظل ذلك إلى الأزمنة المتأخرة ، إذ نجد من ترجموا للشيخ محمد بن عبد الوهاب يذكرون أنه لزم الشيخ عبد الرحمن بن أحمد فى قريته تَريم ست عشرة سنة ، وأنه قرأ عليه فيها صحيحى البخارى ومسلم ومسند ابن حنبل وأنه تركه إلى الشيخ حسان التميمى فى قرى القَصِيم حيث تتلمذ عليه فى علم الفقه والتفسير سبع سنوات . ورحل بعد ذلك إلى المدينة وأخذ عن علمائها ، ثم رحل إلى العراق

(١) ساحل الذهب الأسود لمحمد سعيد المسلم ص ٢٣٨ .

وتتلمذ على بعض شيوخ البصرة وعاد إلى موطنه وتعاقد مع الأمير محمد بن سعود ، كما مر فى الفصل الماضى ، على نشر عقيدته . وهى ليست عقيدة جديدة بل هى عقيدة أهل السنة من السلف وإمامهم ابن حنبل وأشهر من ساروا على دربه ابن تيمية . وكان ابن عبد الوهاب ينشر دعوته فى محاضراته ومؤلفاته ، ومرَّ بنا كتاب التوحيد ، ومجموعة التوحيد ومنها رسالة كشف الشبهات ومختصر زاد المعاد لابن قيم الجوزية تلميذ ابن تيمية وكتاب الكبائر ومعرفة العبد ربه ودينه ونبيه والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وكتاب المسائل وكتاب الثلاثة الأصول فى معرفة الله ودين الإسلام والرسول إلى غير ذلك من مصنفات بث فيها دعوته الوهابية . وتوالت بعده فيها مصنفات كثيرة منها : جواب أهل السنة النبوية فى نقض كلام الشيعة والزيدية لعبد الله ابنه ، ولسليمان بن عبد الله تيسير العزيز الحميد فى شرح كتاب التوحيد . واتسع التأليف فى الدعوة مبكرا وراء نجد ، إذ نجد محمد بن على الشوكانى اليمنى يؤلف فيها كتابه نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخيار .

٥

التاريخ

نشطت كتابة التاريخ فى الجزيرة العربية كما نشطت فى كل بلد عربى ، ونبدأ بالحديث عن هذا النشاط فى الحجاز ، ومن أهم ما يلقانا عن مكة كتاب الأزرقى «أخبار مكة» وهو كتاب مبكر . وأهم المصنفات التى تلقانا عنها فى هذا العصر مصنفات الفاسى[1] أبى الطيب محمد بن أحمد الحسنى المولود بمكة سنة ٧٧٥ وفيها نشأ وتكوَّن علمياً حتى أصبح من علمائها الأفذاذ ، وسرعان ما تحول مدرساً يفيد الطلاب من علمه . وتقلد منصب شيخ الحرم المكى إلى أن توفى سنة ٨٣٢ وعنى بتاريخ مكة ، فصنف فيها كتابه «شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام» فى مجلدين ، وهو مطبوع ، وأهم منه كتابه «العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين» الذى نرجع إليه ، وهو فى ثمان مجلدات ، افتتحها بالحديث عن مكة تاريخيًّا وجغرافيًّا ثم أجمل السيرة النبوية ، وأتبعها بالتراجم حتى عصره مبتدئاً بالمحمدين ، ولم يترك حاكماً ولا عالماً ولا مؤذناً ولا مجاوراً بمكة ولا شاعراً إلا أسهب فى الترجمة له ،

---

(١) انظره فى الضوء اللامع ١٨/٧ والشذرات ١٩٩/٧ ومقدمة كتابه «العقد الثمين» وقد ترجم لنفسه فيه انظر ١ /٣٣١

وهو بذلك تاريخ كامل لمكة : سياسى وثقافى وأدبى وحضارى . وللديار[١] بكرى المكى المتوفى سنة ٩٩٠ سيرة نبوية بعنوان «الخميس فى أحوال أنفس نفيس» فى مجلدين كبيرين ، طبعت مراراً ، وفيها تفصيل طويل عن تاريخ الكعبة . وكان يعاصره قطب الدين[٢] النهروالى المكى ، وكان مفتياً ومدرساً ، إلى أن توفى سنة ٩٩٠ وله «الإعلام بأعلام بلد الله الحرام» تحدث فيه عن تاريخ مكة وحكامها إلى زمنه فى عهد العثمانيين ، طبع مراراً . ولمكة مؤرخ عام هو عبد الحى[٣] بن العماد الحنبلى المتوفى بمكة سنة ١٠٨٩ وله «شذرات الذهب فى أخبار من ذهب» وهو كتاب تراجم مرتب على السنوات حتى سنة ألف للهجرة . ومن مؤرخى مكة المتأخرين أحمد زينى دحلان المتوفى سنة ١٣٠٤هـ/١٨٨٦م وله : «خلاصة الكلام فى أمراء البلد الحرام» .

وللمدينة بدورها مؤرخوها وفى مقدمتهم محمد بن الحسين بن زبالة الذى ألف كتاباً فى تاريخ المدينة سنة ١٩٩ للهجرة ومن مؤرخى العصر الذى نحن بصدده ، بل قل من أشهرهم نور الدين السمهودى[٤] المصرى المجاور بالمدينة حتى وفاته سنة ٩١١ وهو صاحب كتاب وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ، والكتاب دائرة معارف كبيرة فى جغرافية المدينة وتاريخها وأخبارها طُبع بمصر فى مجلدين وطبع مختصر له باسم « خلاصة الوفا » . ومن مؤرخى المدينة ابن خضر المدنى المتوفى فى أوائل القرن الثانى عشر ، وله مخطوطة فى طبقات الحنفية بدار الكتب المصرية . وجاء بعده جعفر البرزنجى[٥] المتوفى سنة ١١٧٩ وله قصة المولد النبوى ، طبعت بمصر مراراً منفردة ومع شرح لحفيده جعفر بن إسماعيل .

وتكتظ اليمن بالمؤرخين ومصنفاتهم التاريخية ومن أقدمهم على بن محمد بن عبيد الله العلوى الذى صنف كتاباً فى سيرة الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين مؤسس المذهب الزيدى باليمن عقب مبايعته بالإمامة سنة ٢٨٣ وصنف بعده بقرن الحسن بن أحمد بن يعقوب كتاباً فى أخبار المنصور بالله القاسم الرسىِّ المتوفى سنة٣٩٣ للهجرة . وتنشط الكتابة التاريخية باليمن ، ويلقانا من مؤرخيها جياش بن نجاح أمير زبيد المتوفى سنة ٤٩٨ وله كتاب «المفيد فى أخبار زبيد» فُقد ولم يصل إلينا ، غير أن عمارة اليمنى المتوفى سنة ٥٦٩ اختصره فى

---

(١) راجعه فى الشذرات ٨/٤١٩ ودائرة المعارف الإسلامية .

(٢) انظره فى الشذرات ٨/٤٢٠ والنور السافر ص ٣٨٣ والبدر الطالع ٢/ ٥٧ .

(٣) راجعه فى خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر للمحبى ٢/٣٤٠ .

(٤) انظره فى الضوء اللامع ٥/٢٤٥ والشذرات ٨/٥٠ والبدر الطالع ١/٤٧٠ .

(٥) راجعه فى سلك الدرر ٢/٩ والجبرتى ١/٣٦٣ .

كتاب سماه « مختصر المفيد فى أخبار زبيد » وقد طبع فى القاهرة . ويشتهر عمارة [١] بكتاب له فى تاريخ اليمن نشره كاى ثم نشر فى القاهرة ، وهو يؤرخ فيه لليمن وأحداثها حتى عصره ، وله كتاب سماه « النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية » تحدث فيه عن الوزراء فى آخر العهد بالفاطميين ، وهم طلائع بن رزيك وشاور والكامل ابنه ، وطُبع هذا الكتاب بشالون فى آخر القرن الماضى وطبع معه ديوانه . ومرَّ بنا ذكر طبقات فقهاء اليمن مراراً ، وهو لعمر [٢] بن على بن سمرة الجعدى المتوفى لأواخر القرن السادس الهجرى . وللقاضى حميد [٣] بن أحمد المحلى المتوفى سنة ٦٥٢ مصنفان تاريخيان هما « الحدائق الوردية فى سير الأئمة الزيدية » و « محاسن الأزهار فى فضائل العترة الأخيار » ومن مؤرخى اليمن الجندى [٤] بهاء الدين محمد بن يوسف المتوفى سنة ٧٣٢ وله « السلوك فى طبقات العلماء والملوك » ويتضح من عنوانه أنه يؤرخ فيه لحكام اليمن وعلمائها من كل صنف ، ومرَّ بنا ذكر السلطان الأشرف الرسولى وكتبه ، وللسلطان الأفضل عباس [٥] الرسولى المتوفى سنة ٧٧٨ كتاب « العطايا السنية والمواهب الهنية فى المناقب اليمنية » . ومن مؤرخى اليمن اليافعى عبد الله بن أسعد بن عفيف نزيل مكة المجاور بها حتى وفاته سنة ٧٦٨ وله كتاب مرآة الجنان فى التراجم العامة وهو مطبوع . ويلقانا مؤرخ كبير هو أبو الحسن الخزرجى [٦] المتوفى سنة ٨١٢ وكتابه العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية كتاب نفيس وهو يؤرخ لتلك الدولة حتى وفاة السلطان الأشرف إسماعيل سنة ٨٠٣ وكان من كبار الفقهاء والقراء والمحدِّثين فى عصره وقد رتب كتابه ترتيباً زمنياً محكماً ، وترجم للسلاطين الرسوليين ترجمات دقيقة . وهو لا يعرض فى الكتاب التاريخ السياسى فحسب بل يعرض أيضاً التاريخ الثقافى والحضارى عرضاً مفصلاً ، وهو مطبوع فى مجلدين كبيرين . وجاء بعده مؤرخ مهم هو ابن الدَّيْبع [٧] أبو عبد الله عبد الرحمن الزبيدى ، وكان محدثاً كبيراً درس الحديث فى الجامع الأعظم بزبيد وتوفى سنة ٩٤٤ وله مصنفات تاريخية متعددة ، منها قرة العيون بأخبار اليمن الميمون

---

(١) انظره فى ابن خلكان ٣/ ٤٣١ والخريدة قسم الشام ٣/١٠١ وستأتى مصادر ترجمته بين الشعراء .

(٢) انظر فى التعريف به وبكتابه مقدمة المحقق له : فؤاد السيد .

(٣) تاريخ اليمن للجرافى ص ١٢١ .

(٤) انظره فى إعلان التوبيخ للسخاوى ص ١٢٤ ويعتمد عليه الخزرجى فى كتابه العقود اللؤلؤية .

(٥) راجعه فى العقود اللؤلؤية للخزرجى وفى الشذرات ٦/ ٢٥٧ وفى هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج وعدن ص ٨٨ .

(٦) انظر ترجمته فى الضوء اللامع ٥/ ٢١٠ والشذرات ٧/ ٩٧ .

(٧) انظر فى ابن الديبع ترجمته لنفسه فى آخر كتابه بغية المستفيد والنور السافر ص ٢١٢ والشذرات ٨/٢٥٥ والبدر الطالع ١/٣٣٦ والكواكب السائرة ٢/١٥٨ .

حتى سنة ٩٢٣ وقد اعتمد على الخزرجى فى دولة الرسوليين ، ثم أضاف إليه دولة بنى طاهر التى خلفتهم ويعد أول من عُنى بالتاريخ لها . ومن كتبه التاريخية بغية المستفيد فى أخبار مدينة زبيد وهو يعرض تاريخها مفصلاً حتى المائة التاسعة للهجرة . ومن الكتب الجيدة التى ألفت فى القرن العاشر تاريخ ثغر عدن لبا مخرمة (طبع ليدن) . وتلقانا بعـــده كتب كثيرة فى أئمة اليمن وفى الحكام العثمانيين ، من ذلك ماكتبه الجرموزى المتوفى سنة ١٠٧٧ عن تاريخ الإمام المؤيد بالله بن القاسم ، وقد سماه «الجوهرة المضية فى تاريخ الخلافة المؤيدية» وكتب عن تاريخ المنصور بالله القاسم بن محمد المتوفى سنة ١٠٢٩ كتاباً سماه «النبذ المشيرة إلى جمل من عيون السيرة» . وصنَّف يحيى بن الحسين بن المؤيد بالله اليمنى فى أواخر القرن الحادى عشر تاريخاً لليمن حتى سنة ١٠٤٥ باسم أنباء الزمن فى أخبار اليمن» . وليوسف بن يحيى الصنعانى المتوفى حوالى سنة ١١٢٠ كتاب مشهور لم يطبع هو كتاب «نسمة السحر فيمن تشيَّع وشعر» ويتضمن عشرات التراجم لشعراء شيعيين من حين ظهور الشيعة إلى عصره . ولمحمد بن على الشوكانى العالم النابه كتاب فى التراجم لمن بعد القرن السابع حتى عصره فى القرن الثالث عشر سماه «البدر الطالع» وهو أحد المراجع التى يتكرر ذكرها فى هذا الجزء . وهناك كتب أخرى كثيرة نفيسة مثل منتخبات فى أخبار اليمن للهمدانى ، ومثل النور السافر فى تراجم القرن العاشر لعبد القادر العيدروس المتوفى سنة ١٠٣٨ وذيَّل عليه جمال الدين الشلى الحضرمى بكتاب سماه «السناء الباهر بتكميل النور السافر» .

ولنجد كتب تاريخية مختلفة فى الحقب المتأخرة منها «روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوى الإسلام» لحسين بن غنام الأحسائى المتوفى سنة ١٢٢٥ هـ / ١٨١٠ م وفيه يوضح تاريخ نجد ودعوة محمد بن عبد الوهاب ورسائله وآراءه والقتال فى سبيل الدعوة ، وهو يكثر من السجع فى كتابه . ويليه فى الأهمية كتاب عنوان المجد فى تاريخ نجد لعثمان بن بشر المتوفى سنة ١٢٩٠ هـ / ١٨٧٣ م وهو تاريخ على السنوات يبتدئ بسنة ١١٥٨ هـ / ١٧٤٤ م وينتهى بسنة ١٢٦٨ هـ / ١٨٥١ م أى من حين نزول محمد بن عبد الوهاب فى «الدرعية» ووضع الأمير محمد بن سعود يده فى يده لنصرته حتى وفاة فيصل بن تركى . وضمن الكتاب أحداثاً سابقة للدعوة منذ تأسيس السعوديين لإمارتهم فى الدرعية بمنتصف القرن التاسع للهجرة ، وأسلوب الكتاب مرسل خال من السجع . ويلى الكتابين السالفين فى الأهمية كتاب «عقد الدرر فيما وقع فى نجد من الحوادث فى آخر القرن الثالث عشر وأول الرابع عشر» لإبراهيم بن صالح بن عيسى وهو يبتدئ من حين انتهى ابن بشر سنة ١٢٦٨ ويستمر حتى سنة ١٣٤٠ هـ/١٩٢١ موزعاً حديثه التاريخى على السنوات .

الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

١

الشعر على كل لسان

ظل الشعر حيا يجرى على الألسنة فى الجزيرة العربية طوال هذا العصر ، ومعروف أنه منها نبع قديماً وأن ينابيعه كانت تمتد فى شمالى الجزيرة وشرقيها وغربيها ، أو قل فى الجزيرة جميعها ، باستثناء اليمن فى العصر الجاهلى أوبعبارة ادق باستثناء أعماقها ، إذ كانت اليمن الشمالية قد أخذت فى التعرب واستخدام الفصحى ، ولم تبق إلا أنحاء قليلة تتكلم الحميرية ، بينما كانت العربية تنتشر فى اليمن بإزاء الحجاز وفى نجران وفى حضرموت وبين أزد عُمان . وتم تعرب اليمن سريعاً بعد الإسلام أو قل تم تعرب ماكان قد بقى منها يتحدث الحميرية .

ونحن لا نصل إلى هذا العصر الذى نؤرخ له والذى يبتدئ بسنة ٣٣٤ للهجرة حتى نشعر بنشاط واضح للشعر والشعراء فى كل أنحاء الجزيرة ، وكانت الحجاز – وخاصة مكة – دارا كبيرة للشعر والشعراء ، وتزخر كتب التراجم بأشعارهم لا أشعار من هاجروا إليها وأمضوا فيها بقية حياتهم أو من ظلوا بها أعواماً طويلة فحسب فإن ذلك أكثر من أن يحصى أو يستقصى ، بل أيضاً أشعار الشعراء من أهلها الذين وُلدوا بها وأنفقوا حياتهم فيها . وكانوا يستمعون إلى من يفد عليها من الشعراء ويقيم فيها بين ظهرانيهم . فكان ذلك غذاء سائغاً لشاعرياتهم . وكانوا يقرءون دواوين الشعراء المشهورين ، وكثير منهم كانت لديه ملكة شعرية خصبة . ولا بد أن نلاحظ أن لغة شعرهم الفصحى لم تكن هى نفس لغتهم اليومية ، فمن قديم لم يأخذ علماء اللغة فى القرنين الثانى والثالث للهجرة اللغة والشعر عن المدينة ومكة لنزول كثير من الموالى بهما ومعيشتهم فيهما ، وقد ذكرنا فى كتاب العصر الإسلامى أن عدد القتلى من الموالى فى موقعة الحرة بالمدينة لعهد يزيد بن معاوية كان خمسة آلاف بينما كان عددهم من العرب ثلاثة آلاف مما يؤكد أن أكثر سكان المدينة حينئذ كانوا

من الأعاجم . ولابد أن الأعاجم بمكة كانوا أكثر من سكانها الأصليين فى هذا التاريخ وهو منتصف القرن الأول للهجرة أو قل بعده بنحو ثلاثة عشر عاماً ، فما بالنا فى هذا العصر؟ إن المعقول الذى يتفق مع حقائق الأشياء أن تكون نسبة الأعاجم إلى العرب فى المدينتين المقدستين زادت زيادة كبيرة ، وهى زيادة أعدت فى هذا العصر لشيوع لغة عامية متداولة على ألسنة العامة ، لغة تكثر فيها الألفاظ الأعجمية الدخيلة ، ويكثر فيها التحريف فى مقاطع الكلمات ونبراتها . وعلى الرغم من ظهور هذه اللغة العامية كانت لا تزال الفصحى حية بفضل القرآن الكريم وحفظه واستظهاره ، وكان هناك أساتذة كثيرون للعربية يعلمونها الناس ، وكان الحَرمان جامعتين كبيرتين تدرس فيهما جميع مواد الثقافتين الإسلامية والعربية ، وكان وراءهما مدارس وكتاتيب ، وكل ذلك عمل على أن تظل العربية مزدهرة ، ويظل كثيرون ينظمون الشعر العربى الفصيح .

ولم تكن العناصر الأجنبية فى اليمن كثيرة . ومع ذلك كان ينزلها الأحباش والإفريقيون بكثرة ، ومرَّ بنا أن الأحباش كونوا لأنفسهم فى حقبة إمارةً فى زَبيد ، وكان ينزل فى عدن قليلون من الهنود الذين كانوا يتجرون مع اليمنيين ، ويبدو أن العناصر الإفريقية – وهى الكثيرة – كانت تتعرب سريعاً . وليس معنى ذلك أنه لم تتكون فى اليمن على مر الزمن لغة عامية ، ولكن معناه أن هذه اللغة هناك تأخرت بالقياس إلى مكة والمدينة ، حتى القرن السادس الهجرى على الأقل فى بعض أنحائها ، فعمارة اليمنى المتوفى سنة **٥٦٩** للهجرة يحكى فى كتاب المفيد فى أخبار زَبيد أنه حين دخل من تهامة اليمن إلى مدينة زَبيد فى سنة **٥٣٠** ليطلب الفقه وهو دون العشرين من عمره تعجب الفقهاء فى جميع المدارس التى ألمَّ بها فى تلك البلدة من أنه لا يلحن فى شىء من الكلام ، ومن قوله : «وجبلا عُكاد فوق (قرية) الزرائب (موطنه) أهلها باقون على اللغة العربية من الجاهلية إلى اليوم ولم تتغير لغتهم . . ولما زارنى والدى وسبعة من إخوتى فى زبيد تحدَّثوا مع الفقهاء فلا والله ما لحن واحد منهم لحنة واحدة أثبتوها عليه»[1] . ويتضح من كلام عمارة أن المدن اليمنية مثل زبيد كان أهلها يلحنون فى لغتهم اليومية منذ القرن السادس الهجرى ، أما تهامة والبوادى وأهل الجبال فكانوا لا يزالون ينطقون بالفصحى نطقاً سليماً . ويبدو أن أنحاء كثيرة من اليمن ظلت إلى عصور متأخرة تلفظ العربية لفظاً صحيحاً ، بل يقال إنه لا يزال إلى اليوم من يتحدثون بها فى بعض تلك الأنحاء حديثاً غير ملحون ، إذ يقول صاحب المخلاف السليمانى إن الفصحى لا تزال صحيحة لم تتغير فى هذا المخلاف الذى يطلق عليه الآن اسم عَسير ، وقد ضُمَّ إلى

(١) المفيد فى أخبار زبيد ص **٥٤** .

المملكة العربية السعودية بأخرة ، ويصور ذلك تصويراً مسهباً فؤاد حمزة إذ يقول : «أفصح اللهجات (فى الجزيرة) وأقربها إلى الفصحى فيما نعتقد اللهجات الواقعة ما بين جنوبى الحجاز وشمالى اليمن (عَسير) وكثيراً ما سمعنا أهل هذه البلاد يلفظون الكلمات من مخارجها الصحيحة ويتكلمون بما هو أقرب إلى الفصيح من سواه . وبعض البدو من أهل هذه المنطقة يخرجون جُمَلا يظن منها الإنسان أنهم تمرنوا فى المدارس على إخراجها على ذلك النحو بينما أن الحقيقة هى بخلاف ذلك ، لأنهم يتكلمون بالسليقة وعلى البديهة ، فيجيء كلامهم فصيحاً معرباً لا غبار عليه . ويستعملون ألفاظاً نظنها فى الأقطار العربية المتمدنةمهملة متروكة ، ولكنهم هم يستعملونها على البداهة»[١] .

وليس معنى ذلك أن اليمن لم تعرف لنفسها لغة عامية كما عرفت الأقاليم العربية الأخرى، بل معناه أنها لم تسارع إلى إحداث هذه اللغة ، ولكنها على كل حال أخذت فى إحداثها بالمدن منذ القرن السادس الهجرى ، كما يدل كلام عمارة السابق فقد عجب فقهاء زبيد من أنه يوجد فى بعض أنحاء اليمن قوم يتكلمون الفصحى ولا يخطئهم السداد فيها ، مما يدل بوضوح على أن اللحن كان قد فشا على ألسنة أهل المدن ، وأخذت تتكوَّن بسرعة هناك لغة يمنية عامية . وكان ثراء اليمن عاملاً مهما فى أن يعنى حكامها بالعربية وبالعلوم الإسلامية ومرَّبنا كيف أن دولة الرسوليين نهضت نهضة عظيمة بالثقافة والعلوم فى اليمن ، وقد أنشأت عشرات المساجد والمدارس وخاصة فى زَبيد وتعزّ وصنعاء وعَدن ، وكل ذلك عمل على أن تظل العربية مزدهرة فى اليمن وأن تظل الأشعار تجرى على الألسنة . غير أنه يلاحظ أنه أخذت تُنْظَمُ هناك ، كما كان الشأن فى البلاد العربية الأخرى أشعار عامية . ولا نعرف متى ظهرت بواكير هذه الأشعار بالضبط ، وإذا احتكمنا إلى تاريخ أول أغنية عامية سجلها الدكتور محمد عبده غانم فى كتابه النفيس : «شعر الغناء الصنعانى» وجدنا هذا التاريخ يرجع إلى القرن الثامن الهجرى ، وهى للشاعر شهاب الدين أبى محمد أحمد بن فُلَيْته ، وقد اشتهر زمن السلطان الرسولى المجاهد على الذى حكم من سنة ٧٢١ حتى سنة ٧٦٤ ويسهب الدكتور غانم فى بيان خصائص هذه الأغانى اليمنية العامية من زمن ابن فليتة إلى نهاية الربع الأول من القرن الرابع عشر الهجرى . ويقول إنها جميعاً من الشعر الحُمَيْنى وهو اسم خاص بالشعر العامى اليمنى الذى لا يلتزم قواعد الفصحى النحوية والاشتقاقية ، كما لا يلتزم عروضها . وتكثر فيه المسمَّطات والموشحات ، وتبدو المحاكاة واضحة بينه وبين الموشحات والأزجال الأندلسية . ويوضح الدكتور غانم

(١) قلب جزيرة العرب لفؤاد حمزة ص ٩٩ .

توضيحاً مفصلاً كيف أن هذا الشعر الحُمَيْنى أو العامى اليمنى يرتفع فى لهجته عن اللغة اليمنية العامية ويهبط فى الوقت نفسه درجات عن اللغة الفصحى . وهو بذلك يُعَدّ فرعاً كبيراً من شجرة الشعر النبطى الذى أخذ يشيع فى الجزيرة العربية منذ القرن الثامن الهجرى ، بل لعله أخذ يشيع قبل ذلك بقرن أو يزيد . وهو شعر يلقانا فى كل أنحاء الجزيرة لهذا العصر ، نلقاه فى الحجاز وحضرموت وفى عمان والبحرين ونجده جنوباً وشمالاً . وجميعه شعر يعلو درجات فوق العامية لكل تلك الأقاليم ويهبط درجات عن الفُصحى ، شعر بلغة بين العامية والفصحى ، ويسمونه باسم الشعر النبطى ، وهو كله غير معرب ، وكأنه يحلّ فى الجزيرة محل الشعر الجاهلى فيها قديماً ، فقد كان شِعْرَ جميع القَبائل تُشارك فيه ، وكانت لها لهجاتها المحلية الخاصة ، وكأن الموقف فى هذا الشعر يتعاكس مع ماكان فى الجاهلية ، فالجاهليون كانوا يحافظون على النظم بالفصحى والحان عروضها وأنغامه ولم يكونوا ينفكُّون عنها أبداً ، مع أنها ليست لغتهم اليومية تماماً . وشعراء الجزيرة مع هذا الشعر النبطى يريدون أن يقتربوا من لغتهم اليومية ، فيترك نفر منهم النظم بالفصحى ويتخذ هذه اللغة دنوًّا من قبيلته ولغتها العامية ، ومع ذلك يظلون يرفدونه بالعناصر البيانية والبديعية للشعر الفصيح ، وكأنما فى دخائلهم إحساس أن الشعر ينبغى أن يظل مرتفعاً قليلاً أوكثيراً عن اللغة العامية اليومية ، وهو ما جعلهم ينفذون إلى لغتهم النبطية المستحدثة .

ومهما يكن فإن هذا الشعر العامى أو قل الحُمَيْنى اليمنى لم تَعْلُ كِفّته يوما على الشعر الفصيح الذى ظل صاحب الصولجان وظل له ازدهاره فى اليمن إلى اليوم . وما يَصْدق على اليمن يصدق على حضرموت ، فقد كان فيها شعراء ينظمون الشعر الحُمَيْنى العامى ، ولكن ظلت للشعر الفصيح السيطرة حتى على من ينظمون الشعر الحمينى ونمثّل لذلك بأبى بكر العيدروس الحضرمى المتوفى سنة ٩١٤ فإن له شعراً وأغانى حُمَيْنِيَّة عامية ولكن شعره الفصيح هو الذى ذاع وشاع أو قل هو الذى غلب عليه ، كما يصور ذلك ديوانه : «محجة السالك وحجة الناسك» . على أن شعره الحمينى يقترب من الفصحى اقتراباً شديداً .

وكانت تنزل عُمان عناصر أجنبية إفريقية وهندية وإيرانية ،ومما هيأ للأخيرة النزول كثيراً أن حاكم هُرْمز الإيرانية أوقل حكامها كانوا يغيرون من حين إلى حين على عمان ، وكانت أحياناً تتبعهم ، فكثر نزول الإيرانيين بها ، وكثرت لذلك الكلمات الإيرانية الدخيلة فى لغة العمانيين اليومية ، وطبيعى أن يتبع ذلك تغيرات فى الألفاظ العربية ذاتها فى بعض مقاطعها وبعض ضغوطها ونبراتها ، لذلك كان ابن بطوطة محقاً حين زار عمان ولاحظ على أهلها أن «كلامهم ليس بالفصيح مع أنهم عرب ، وكل كلمة يتكلمون بها يصلونها بلا فيقولون مثلاً لا تأكل ،

لا تمش ، لا تفعل كذا » . فكلامهم دخلته رطانة الإيرانيين ودخلته ألفاظهم ، أما لا التى ذكر ابن بطوطة أنهم يصلون الأفعال بها دائماً حين يطلبون من شخص شيئاً فأكبر الظن أنها لام الأمر حُرِّفت ومُدَّت قليلاً أو لعلها لام التوكيد . وينبغى أن لا نظن من ذلك أن العمانيين كانوا قد هجروا الفصحى فى عهد ابن بطوطة ، فهو إنما يتحدث عن لهجتهم ولغتهم اليومية ، أما بعد ذلك فكانوا يهتمون بالفصحى اهتمام الأقاليم العربية بها جميعاً ، يتخذونها لغة للعلم وللشعر ، وكثيراً ما نقرأ فى ترجمة من اشتهروا بالشعر هناك أنهم تلقوا العربية والعلوم الشرعية عن أربابها فى عُمان ، وقل ذلك نفسه فى نَزْوَى وفى صُحار وغيرهما من المدن .

وهذا نفسه نلاحظه على البحرين فمواجهتها لإيران جعلت عناصر إيرانية كثيرة تنزلها ، وكان لذلك بعض التأثير فى اللغة العامية التى نشأت هناك ، وإن كان لا يصل إلى تأثير الإيرانية فى عامية عمان لأن الإيرانيين كثيراً ما نزلوا هناك وحكموها . وقد ظل البحرانيون يعكفون على العلوم الإسلامية وعلوم العربية وظلوا يروون الشعر وينهلون من موارده مما أعد لظهور شعراء مختلفين على مر الزمن طوال هذا العصر ، وكأن سيل الشعر كان لا يمكن رَدُّه ولا صده فى أى إقليم عربى ، فهو دائماً زاد للعرب وعُدَّة وعتاد .

ومعرفتنا بالحركة الشعرية فى نجد قليلة ، ومع ذلك نستطيع أن نتعرف على أطراف منها من خلال من كانوا يرحلون عنها إلى الأقطار المجاورة ، إذ لم تكن وسائل حفظ الشعر عندهم مهيأة ، ونقصد وسائله الأولى من الأقلام والحبر والورق . وهؤلاء المهاجرون يَدُلُّوننا على ما كان من نشاط شعرى وراءهم ، وقد نشط الشعر فى عهد بنى مزيد الأسديين الذين شادوا الحِلَّة على حدود العراق وكذلك فى عهد بنى عُقَيْل العامريين حين هاجروا إلى الموصل على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع . ونفاجأ بنشاط واسع للشعر فى نجد مع دعوة محمد بن عبد الوهاب منذ أواسط القرن الثانى عشر الهجرى .

٢

كثرة الشعراء

بعثت دول الجزيرة العربية التى تحدثنا عنها فى أقاليمها المختلفة نشاطاً واسعاً فى الشعر ، فقد كان الحكام دائماً يعنون بأن تحفَّ بهم جمهرة من الشعراء وخاصة فى اليمن التى قامت فيها دويلات صغيرة تنافست فى جذب الشعراء ونثر الأموال والعطايا عليهم . غير أن أخبار هؤلاء الشعراء فى القرن الرابع الهجرى قليلة ، وكان المظنون أن يترجم الثعالبى فى اليتيمة وتتمتها لطائفة

منهم ، غير أنه لم يُعْنَ بهم ، وإن كان قد ذكر أبا الحسن التهامى ، وسنترجم له فى غير هذا الموضع ، وجاء عنده ذكر شعراء قليلين مغمورين خرجوا من الجزيرة إلى العراق أو إلى إيران مثل ابن أبى مرَّة المكى وينشد له قوله فى أبى الفتوح أمير مكة الآتى ذكره[١]:

يا سَيِّدًا فَدَيْتُه بِرُوحى خَوَّلَكَ اللهُ أبا الفتوحِ
مُلْكَ سليمانٍ وعُمْرَ نوحِ

وإذا كان الثعالبى قصَّر فى الترجمة لشعراء الجزيرة العربية لعصره فإن أبا الحسن الباخرزى المتوفى سنة ٤٦٧ للهجرة عُنِى بهم فى فاتحة كتابه «دُمْيَة القَصْر وعُصْرة أهل العصر» إذ ترجم لطائفة كبيرة منهم ، مقدما لهم بقوله :

«إن أحسن أبيات الأشعار ما طلعت من أبيات الأشعار[٢] ، ورعت مع الظِّباء الشِّيح ، وتزوَّدت مع الضِّباب[٣] الريح ، مستغنية بحسنها عن التصنع والتعمل ، حلوة إذا ذاقها الناظر بحسن التأمل . . وقد وقع لى من أشعار هذه الطبقة ما هو أعذب من الماء الزُّلال ، وأرقُّ من الشَّمول صُفِّقت بالشمال» .

وأول ما يلاحظ على مجموعة الباخرزى من الشعراء أنهم من مدن وقبائل شتى فى الجزيرة العربية ، فمنهم المكى والمدنى والطائفى الثقفى واليمنى ، ومنهم العامرى والأسدى والبكرى والطائى والغَسَّانى والرَّبَعى والشيبانى والهَمْدانى . وهم بذلك يمثلون الجزيرة فى جميع أنحائها غَرْباً وشرقاً ووسطاً وشمالاً وجنوباً . وفى ذلك ما يؤكد أن الفصحى كانت لا تزال مسيطرة على الجزيرة حتى منتصف القرن الخامس الهجرى ، ولا تزال حية ناضرة على ألسنة العرب فى نجد والحجاز واليمن ، كما توضح ذلك تراجم الباخرزى وما ساقه لأصحابها من أشعار . وهو لم يدخل الجزيرة إذ لم يمد رحلاته إلى ما وراء البصرة وبغداد ، ومنهم من لقيه فى هاتين المدينتين أو فى مدينة الرَّىّ حاضرة السلاجقة ووزيرهم العظيم نظام الملك الذى وفد عليه الشعراء من أنحاء الجزيرة العربية ليقدموا له مدائحهم . وجمهورهم لم يلقهم الباخرزى ، وقد روى أخبارهم وأشعارهم عن بعض الأدباء المكيين والمدنيين الذين ذكروهم له أو عن بعض الأدباء الإيرانيين وخاصة أبا عامر الفضل بن إسماعيل التميمى الجرجانى ، وهو تارة ينقل عنه مشافهة وتارة ثانية ينقل عن كتاب له يسمى «قلائد الشرف» . وأول من ترجم له أبو الفتوح[٤] الحسن بن جعفر الحسنى أمير مكة المتوفى سنة

---

(١) تتمة اليتيمة للثعالبى ١/٨٣ .

(٢) أبيات الأشعار هنا يقصد بها الباخرزى الخيام المتخذة من أوبار الإبل رمزاً للبادية .

(٣) الضب : من الزواحف فى نجد وذنبه كثير العقد .

(٤) انظره فى العقد الثمين ٤/٦٩ .

٤٣٠ للهجرة ، وقد أنشد له قوله :

وَصَلَتْنِى الهمومُ وَصْلَ هواكِ وجَفانى الرُّقَادُ مثلَ جَفاكِ
وحكى لى الرسولُ أنكِ غَضْبَى يا كَفَى اللهُ شرَّ ما هو حاكِ

والبيتان طريفان فكرة وصورة ، وقد نسبهما العماد فى الخريدة لابن أبى الفتوح شكر (١) الذى خلفه على إمارة مكة إلى أن توفى سنة ٤٥٣ وهو الذى حاك بعض بنى هلال قصة له بين أقاصيصهم الهلالية إذ زعموا ، كما مرَّبنا ، أنه تزوج الجازية بنت الحسن بن سرحان الهلالى ، ثم حدثت بينه وبين عشيرتها مغاضَبة ، فاحتالوا عليه بحجة أنهم يريدونها لزيارة أبويها ، وذهب معهم إلى نجوعهم فى نجد ، فذكروا له أنهم سيخرجون إلى الصيد وهى معهم ، ومضوا فى رحلتهم الكبرى إلى إفريقيا ، على نحو ما هو معروف عن رحلة بنى هلال المشهورة ، وظل لها بين جوانحه حب دفين ، وظلت تَكَلَّفُ به إلى أن ماتت وهى هائمة بحبه عاشقة . ويبدو أن بنى هلال نسجوا هذه القصة بعد رحلتهم من الجزيرة ، إذ يجرى فيها خلل الإعراب كما يجرى فى بقية أقاصيص الهلالية ، وإنما نزعم هذا الزعم ، لما رواه الباخرزى من أشعار النجديين فى هذا التاريخ ، وهى تدل على أن الخلل الإعرابى لم يكن قد فشا على ألسنتهم حتى أواسط القرن الخامس الهجرى ، وفى تقديرنا أن ذلك إنما حدث فى القرون التالية مباشرة . ومن طريف ما ينسب إلى الأمير شكر قوله (٢) :

قَوِّضْ خيامك عن أرضٍ تُضام بها وجانب الذُّلَّ إن الذُّلَّ يُجتنَبُ
وارْحَلْ إذا كان فى الأوطان منقصةٌ فالمَنْدَل الرَّطْبُ فى أوطانِه حَطَبُ

والبيتَان يصوران إباء العربى وشعوره بالكرامة ورفضه للضيم مهما احتمل فى هذا الرفض من العناء الشاق . ويترجم الباخرزى لشاعر يسمى المجاشعى ويلقبه بشاعر الحرمين ، ويسوق له مدحة فى نظام الملك ، ويتلوه بأبى الحسن العبشمى المكى ثم بأبى الفضل جعفر بن الحسين الشيبى ، ويسوق له أبياتاً سمعها منه فى مديح بعض الوزراء ، كما يسوق له أبياتاً فى النسيب ، ويترجم لعم له يسمى جعفر بن يحيى الحكَّاك وشعره متوسط . ويترجم الباخرزى بجانب هؤلاء الشعراء المكيين لشاعرين من المدينة : خزرجى وأوسى ، ثم لشاعر من الطائف يسمى سليمان بن خضر ، وينشد له غزلاً رقيقاً . ويضم إلى هؤلاء الشعراء الحجازيين شاعراً يمنيًّا يسلكه فيهم هو على بن محمد الصُّلَيْحى مؤسس الدولة الصليحية الإسماعيلية باليمن ، وكان فارساً ، وله أشعار جيدة فى تصوير فروسيته وفتكه بأعدائه فى القتال من مثل قوله (٣) .

---

(١) الخريدة (قسم شعراء الشام) نشر المجمع العلمى العربى بدمشق ٣/ ١٩ وانظر العقد الثمين ٥/ ١٥

(٢) العقد الثمين ٥/ ١٦ . والمندل : عود الطيب .

(٣) الخريدة (قسم شعراء الشام) ٣/ ٢٢٥ .

زَوَّجْتُ بِيضَ الهند سُمْرَ رِماحهم ... فرءوسُهم عِوَضَ النِّثارِ نِثارُ
وكذا العُلا لا يُسْتباح زواجُها ... إلا بحيث تطلَّق الأعمارُ

والنثار ما ينثر على العروسين فى الزفاف من الدراهم والدنانير والورود ، وهو يتصور معاركه مع أعدائه أفراحاً ، نثارها رءوس خصومه التى تطيح بها سيوفه وسيوف جنوده ، ويقول إن هذا دائماً مهر العلا وصَداقها .

ويترك الباخرزى شعراء غربى الجزيرة إلى شرقيها مصعداً إلى أقصى الشمال حيث إمارة بنى عُقَيل العامريين الذين أسسوها فى الموصل وبوادى نجد العراقية فى القرن الرابع الهجرى ، ويترجم الباخرزى لأمير منهم هو قِرْواش بن المقلَّد الذى ولى الإمارة سنة ٣٩١ وظل أميراً نحو خمسين عاماً إلى أن غلبه على إمارته أخوه بركة وسجنه وتوفى فى سجنه ، كما مرَّ بنا ، سنة ٤٤٤ ويقول المؤرخون : «كان كريماً وهاباً نهاباً» وكان يحسن صوغ الشعر وحوكه ، من مثل قوله الذى أنشده الباخرزى :

لى أشقرٌ سَمْحُ العِنان مغاورٌ ... يُعْطيك ما يُرضيك من مجهودِهِ
ومهنَّدٌ عَضْبٌ إذا جَرَّدتُهُ ... خلْتَ البروقَ تموج فى تجريدِهِ
ومثقَّفٌ لَدْنُ السِّنان كأنما ... أمُّ المنايا رُكِّبَتْ فى عوده
وبذا حويتُ المال إلا أننى ... سلَّطتُ جودَ يدى على تبديدِهِ

وهو يفتخر بأن ماله ليس ميراثاً عن آبائه ، وإنما هو مما أنعم به عليه فرسه الذى لا يُشَقّ غباره فى الغارات ، وسيفه القاطع المسلول دائماً للنزال ورمحه الذى يفتك بالرجال ، وتلك أدوات جلبه للمال وسرعان ما تبدده يداه فى الناس . ويترجم الباخرزى لابن عم له يسمى أبا جَوْنَة ، ثم يهبط من الموصل وبواديها إلى بوادى الحِلَّة بالقرب من الكوفة حيث إمارة بنى مَزْيد الأسديين التى أسستها قبيلتهم بنو أسد فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، ويترجم لدُبَيْس بن على بن مَزْيد الذى ولى إمارتها سنة ٤٠٨ حتى وفاته سنة ٤٧٧ وله حروب كثيرة مع بنى خفاجة ، واستنجد به قرواش ضد الغُزّ حين أغاروا على بلاده ، فنَجدَه . وينشد له الباخرزى بيتين يدلان على شاعرية متوسطة بل على شاعرية ضعيفة

ويأخذ الباخرزى بعد ذلك فى الترجمة لطائفة من شعراء نجد ، يبتدئهم بمحمد بن الجراح من قبيلة بكر ، ومما أنشده له فى كرم الضيافة الذى يشتهر به العرب من قديم قوله :

لا يرفع الضيفُ عَيْناً فى منازلنا ... إلا إلى ضاحكٍ منا ومبتسمِ

ويطيل الباخرزى فى الوقوف عند شاعر طائى ، هو أبو كامل تميم بن المفرجِ ، وفيه يقول : «كاملٌ» وبالكمال قد كُنى ، وإذا وُصف تمام الفضل فتميم عُنى ، وناهيك بذاك الألمعى» .

ويذكر الباخرزى أنه مدح الوزراء فى إيران ونال جوائزهم ، وأنه أبعد فى الرحلة حتى غَزْنة . ويلم ببعض مدائحه وخمرياته ، وينشد له أشعاراً فى الغزل تذوب رقة ، من مثل قوله :

ودِّعينا – إن كنت أزمعتِ – جارَه   قبل أن يمنع الفراقُ الزيارَهْ
زوِّدِى وامقاً أجَدَّ ارتحالاً   ما قَضَى فى مُقامه أوطارَهْ
لم يزل يَحْذَرُ التفرقَ حتَّى   حققوا يوم رَامَتَيْنِ حِذارَه
كان يكفيه – والمحبُّ قَنوعٌ –   وَقْفَةٌ أو تحيَّةٌ أو إشاره
كاعبٌ فى الحِجال يمنعها الزَّوْ   رَ حَياءٌ يصونها وغَـرَارَهْ
ذاتُ ثَغْرٍ كأنه حين يبدو   عِقْدُ دُرٍّ أو أُقْحُوان قَراره

والأبيات تسيل عذوبة ورشاقة ، والألفاظ فيها ملتحمة أوثق التحام ، وكلما قرأنا بيتاً فيها ، بل شطراً ، أحسسنا بجمال اتساقه ، وأنه يتصل بسابقه اتصال ذوى الرحم والقرابة ، وما أجمل قوله : « والمحب قنوع » فأى شيء يقنعه : وقفة أو تحية أو إشارة من بعيد . وقد عبَّر عن حجابها وأنها لا تستطيع أن تراه تعبيراً ظريفاً ، إذ ذكر أنها فى الحجال والأستار داخل بيتها ، ولا يصونها الحجاب وحده ، بل يصونها أيضاً حياؤها وخجلها . والمعانى رقيقة رقة بالغة ، والصور جميلة وطبيعية ، ولا تكلف ، ولا تصنع ، بل شاعر وامق يعبِّر عن حبه وهيامه تعبيراً حافلاً بالوجد والصبابة دون أى أثر للحب الحسى المادى وأدْرانه ، بل هو حب عذرى طاهر يخلو من كل إثم ووِزْر ،سوى اللوعة . ويترجم الباخرزى لشاعر من غسان ولشاعر ثان بدوى ، ثم لشاعر ثالث هَمْدانى يسمى المنيع ، وينشد له قطعة غزلية فى ابنة عم له تسمى ذؤابة شغفت قلبه حبا ، وفيها يقول :

كأنَّ ذُؤابَةَ فى القَزِّ تمشى   ربيبُ مَهاً تَرَدَّى بالظِّلالِ

وهى صورة بديعة ، إذ يصور صاحبته وثوبها الهفهاف بمهاة فى يوم قيظ شديد الحرارة ، وقد أوت إلى ظلال شجرة وسط الصحراء تتخذ منها غلالة تقيها حمارّة القيظ . ويمضى الباخرزى ، فيترجم لشاعر من ربيعة ثم لشاعر عامرى يسمى قيساً ، وكأنما يعيد لنا ذكرى قيس مجنون ليلى ، وهو يكثر من الحديث عن ديار صاحبته ومعاهدها من مثل قوله :

قِفا صاحبىَّ قليلاً عَلَيَّا   ولا تُعْجِلانىَ يا صاحبيَّا
وعُوجا علىَ طَلَل داثرٍ   لِرَيَّا وأين من العين رَيَّا
معاهدُ لم يُبْق صَرْفُ الزما   ن منها ومنِّىَ إلا شُوَيَّا

« وشُوَيًّا » تصغير شيء بمعنى بقية قليلة ، بالضبط كما نستعملها فى عاميتنا المصرية ، وكأن لها أصلاً صحيحاً فى العربية ، والأبيات تفيض بالوجد والحنين . ويترجم الباخرزى لشاعر شيبانى

من مدَّاح نظام الملك الوزير السلجوقى ولشاعر من بنى عِجْل من شيبان من مدّاحه أيضاً ، ويبدأ مدحته فيه بوصف الخمر . ويتبعها الباخرزى بثلاثة من الشعراء النجديين ، ويقف وقفة طويلة عند شاعر من اليمامة يسمى على بن الأزهر ، ويقول : «مماسحر لُبِّى من لُبِّ كلامه قوله :

دِيارَهمُ بالرَّقْمتَين سُقِيتِ ... سَحاباً من الوَسْمِىِّ ثم وُلِيتِ [١]
وما لكِ فى رِىِّ السحائب حاجةٌ ... فقد طالما من مُقْلتىَّ رَوِيتِ
وكم قد سَبَتْنى فيكِ من ذات بُرْقُعٍ ... بأحسن عينٍ للمهَاة وليتِ [٢]
أيا بأبى الفَوْرانِ طنَّبْتِ فيهما ... وأرضٌ من الفَوْرين كنتِ وطيتِ [٣]
وماءٌ حللتِيه وإن كان آجناً ... وروضٌ رعيتِ العُشْبَ فيه رُعيتِ

والصورة فى البيت الثانى بديعة ، إذ ذكر ، بعد أن دعا للديار بالسُّقيا ، أنها ليست فى حاجة إلى رى السحاب فقد طالما رويت من مقلتيه ، وقد سبته صاحبته بعينيها وصفحة جيدها . ويذكر فى البيت الرابع الفورين ، وهما موضعان باليمامة كثيراً ما التقيا فيهما ، ويهتف مفديا الأرض التى وطئتها قدماها وكل مامرت به أو نزلت عنده من مياه ورياض . وفى البيت الخامس يشبع الكسرة فى كلمة «حللتِه» فتمتد تاء التأنيث على نحو ما تمتد فى عاميتنا المصرية . والكلمات محبوكة ، وكل بيت يستدعى ما يليه فى سلاسة وعذوبة ، ويستطيب الماء الذى حلت به وإن كان آجناً متغيراً ، كما يستطيب الروض والعشب مع الدعاء لها ، ويقول الباخرزى : «ما أحسن ما جمع بين قوله : «رعيت العشب» على الإخبار و «رُعيت» على الدعاء» . ويستعجل الشاعر الركب معه فى السير ، وينشأ بينه وبين صاحبته حوار طريف على هذا النمط :

فقلت لهم سيروا ولا تتروَّحوا ... فليس لنا وادى الغَضا بمبيتِ
فقالتْ : ولِمْ أمسيتَ تطوى بلادنا ... فقلتُ أمرتِينى غداةَ نَهيتِ
وقد كنتِ لا تَرْضِينَ منهم بما أرى ... من الضَّيْم لى فاليومَ كيف رَضيتِ
وأقسمتِ أن لا تَقْبلى قولَ كاشحٍ ... كذوبٍ فكم أقسمتِ ثم نَسِيتِ

والحوار مع صاحبته طبيعى ، ولكل بيت رقته وعذوبته ودقته ، فلم يعد الغضا مبيتاً صالحاً لها ، وقد أمرته بالمسير غداة نهته ، ولم تكن ترضى له بالضيم والهوان فرضيت ، وكم أقسمت له وعاهدته أن لا تقبل فيه قول كاشح كاذب ، ولم يقل لها -كما لاحظ الباخرزى- نقضت

(١) الرقمة : جانب الوادى والروضة . الوسمى : أول مطر الربيع .
(٢) الليت : صفحة العنق .
(٣) طنبت : أقمت . وطيت : سرت فيها .

العهد وحنثت فى يمينك ، بل قال لها متلطفاً «نسيت» القسم والعهد بل الأقسام والعهود . وهو لطف ورقة حسٍّ ما بعدها رقة ، ويترجم الباخرزى بعده لشاعر بدوى نجدى يسمى على بن حسان ، وينشد له قوله :

سَقْياً لأيام التصابِى مع كلِّ خَرْعَبَةٍ كَعَابِ[1]
إذ نحن نَرْتَعُ فى الهوى ونجرُّ أرديةَ الشَّبابِ
والدَّهرُ عنا غافلٌ كالسيف يُؤْمَنُ فى القِرابِ

والأبيات سلسة سائغة ، والصور والأخيلة فيها طريفة ، وخاصة الصورة الأخيرة التى صور فيها الدهر وكأنه سيف احتواه غمده ، فلم يعد يخيفهم ولا يرهبهم ، فالسيف فى غمده ، والدهر بهمومه يغشاه حجاب من الغفلة إلى حين . وينشد له الباخرزى من قصيدة قافية :

وحقَّ لى وَجْدى على شادنٍ أدقَّ جِسْمِى منه خَصْرٌ دقيقْ
وشاهدٌ يشهد فى خَدِّهِ أن ليس فى الحسن لهذا رفيقْ
فكلما عـــــذَّبنى هَجْرُهُ صحتُ من الوَجْد الحريقَ الحريق

فخصر الشادن الدقيق أنحل جسمه ، وكأنما أعداه نحولاً وضَنىً ، وما أجمل البيت الثانى الذى جعل فيه من الخدِّ شاهدا يشهد بحسنه وجماله بل بتفوقه على كل حسن وجمال . والحب يكوى فؤاده ويلذعه ، وكأنه جمرات نار يصلى بها قلبه بل يحترق ، وهو ينادى ، الحريق الحريق . ويترجم الباخرزى بعده لشاعر أسدى من شعراء المديح ولمغنية بدوية تسمى أم كلثوم .

وإنما أطلنا عرض شعراء البدو فى الدُّمْية لأنها تكاد تكون المصدر الوحيد لشعراء نجد عامة فى الحقب الأولى من هذا العصر ، فلولاها ما اتضح لنا شعر البدو فى القرنين الرابع والخامس الهجريين ولا أن البوادى كانت لا تزال تكتظ بالشعر والشعراء . ومن الغريب أن العماد الأصبهانى وزير صلاح الدين الأيوبى وشاعره الذى عُنِى مثل الباخرزى بالترجمة لشعر العالم العربى جميعه لم يعن بشعراء نجد ولا أفرد لهم صحفاً فى خريدته إلا ما ذكره عن شعراء عُقَيْل أصحاب إمارة الموصل وبواديه ، أودعهم فى قسم الشام والجزيرة ، وكذلك ما ذكره من شعراء بنى مزيد الأسديين أصحاب الحِلَّة وبواديها أودعهم قسم العراق ، وبالمثل أودع شعراء الحجاز واليمن فى القسم الخاص بالشام ، أو قل ألحقهم به ، ولم يعن أى عناية بشعراء عُمان والبحرين . وكتابه يُعَدّ المصدر العام الثانى بعد الدمية لشعراء الجزيرة العربية فى القرنين الخامس والسادس الهجريين . وقد صنفه فى مطالع العقد الثامن من القرن السادس ، وهو يصرِّح بذلك مراراً فى تضاعيفه .

(١) الخرعبة : الشابة الحسنة

ولم يذكر العماد لبنى عُقَيل أصحاب الموصل وبوادى الجزيرة سوى مسلم [1] بن قريش ابن أخى قِرْواش الذى مرَّ ذكره ، وهو أعظم أمراء هذه الأسرة سلطاناً ، إذ كان يستولى على ديار ربيعة ومضر فى نجْد . وملك حلب من بنى مرداس ، وبذلك قضى على إمارتهم فيها نهائيا ، وأخذ الإتاوة من الروم . وكانت سيرته منذ ولى سنة ٤٥٣ من أحسن السير وأعدلها ، وعمَّ الأمن دياره ، وكان يصرف الجزية فى جميع بلاده إلى الطالبيين من أبناء على بن أبى طالب . وكان هو وأهله شيعة إسماعيلية على مذهب الفاطميين ، ومما يدل على ذلك أن قرواشاً عمه خطب فى بلاده للحاكم صاحب مصر ، كما يقول المؤرخون ، ثم رجع عن ذلك خوفاً من حُكَّام بغداد السلاجقة . وعُنى هو وأفراد أسرته بنثر الأموال على الشعراء فأتوهم من بغداد وغير بغداد . وكان مسلم يجزل العطايا للشعراء ، وحين قصده ابن حَيّوس شاعر الشام وأنشده مدائحه فيه بالغ فى إكرامه . ويقول العماد الأصبهانى إنه أقطعه الموصل ، غير أن ابن حيوس لم يلبث أن توفى ، وخلف أكثر من عشرة آلاف دينار ، فحُمل ذلك إلى خزانة مسلم فردَّه ، وقال : لا يَتحدَّث الناس عنى أننى أعطيت شاعراً مالاً ، ثم شرهت فيه وأخذته ، ويروى أنه لما ملك حلب هجاه بعض شعرائها ، فسأل عنه ، فقيل له : إنه من أهل قرية المعرَّة رعيتك ، فقال : أَوْصوا به الوالى ليحسن إليه ، وحذِّروه أن يجنى عليه ، فهذا لا يعرفنا ، ولو لم تكن له شكاية من والينا ما قال هذا القول [2] . وفى ذلك ما يدل على حصافته وبعد نظره وحسن سياسته وكان شاعراً يحسن صوغ الشعر ورصفه ، وله مكاتبات شعرية مع منصور بن دُبَيْس المزيدى أمير بَوادى الحِلَّة وأنشد له العماد إحدى هذه المكاتبات ، كما أنشد له شعراً شيعيًّا ، أو بعبارة أدق ثلاثة أبيات شيعية ، ويُرْوَى له [3] :

وما كنتُ مِجْزاعَ الفؤاد وإنما ... فؤادى على بَيْنِ الحبيب جَزُوعُ
وكانتْ سُلَيْمى للمحبين رَوْضَةً ... ووَصْلُ سُلَيْمى روضةٌ وربيعُ

والصورة فى البيت الثانى بديعة وتدلّ على شاعرية جيدة . وكان طموحاً كريم النفس يطلب العلا مهما يكن مطلبها باهظاً ، وله فى ذلك مهوِّنا من أهل عصره ومصغِّراً :

وإنى لأَحْقِر هذا الزمانَ ... ولا سيَّما أهل هذا الزَمَنْ
يريدون نَيْلَ العلا بالمُنَى ... ونَيْلُ العُلا برغيبِ الثَّمَنْ

وكانت وقفة العماد عند بنى مَزْيد الأسديين أكثر طولاً ، وأول من ترجم له منهم بهَاء الدولة

---

(١) انظر فى ترجمة مسلم الخريدة (قسم الشام) ٢/٢٥٥ وابن خلكان ٥/٢٦٧ والنجوم الزاهرة ٥/١١٩ .

(٢) الخريدة قسم الشام ٢/١٢٨ .

(٣) انظر فى هذين البيتين وما بعدهما هامش الخريدة فى ترجمة مسلم نقلا عن الوافى للصفدى .

منصور [١] بن دُبَيْس الذى خلف أباه على رياسة القبيلة سنة ٤٧٤ وكان إسماعيليًّا رافضيًّا مثل آبائه ، وله – كما ذكرنا آنفاً – مكاتبات شعرية مع مسلم بن قريش صاحب الموصل وبواديه ، وظل على رياسة قبيلته الأسدية حتى توفى سنة ٤٧٩ وبعث هو وأبوه دبيس نشاطاً أدبيا فى بيتهما ، فقصدهما الشعراء بالمديح . وكان منصور يجيد الشعر وله فى رثاء صاحب له يُكْنَى أبا مالك :

فإن كان أَوْدَى خِدْنُنا ونديمنا أبو مالكٍ فالنائباتُ تنوبُ
وكلُّ ابنِ أُنْثَى لا محالة ميِّتٌ وفى كلِّ حَىٍّ للمَنُون نصيبُ
ولو ردَّ حُزْنٌ أو بكاءٌ لهالكٍ بكيناه ما هبَّتْ صَباً وجَنُوبُ

وله فخر جيد . وخلفه ابنه سيف الدولة صدقة [٢] ، وهو الذى بنى مدينة الحِلَّة لقبيلته ، كى تنتقل من حياة البداوة إلى حياة الحضارة ، وفيه يقول العماد : «كان جليل القدر ، جميل الذكر . له دار الضيافة التى ينفق عليها الأموال الألوف . المعروف بإسداء المعروف ، وإغاثة الملهوف» وقد قصده الشعراء من كل فج ، وله قدم ابن الهَبَّارِيَّة – كما مرَّ بنا – كتابه الصادح والباغم» الذى نظمه فى عشر سنوات على غرار كليلة ودمنة . ونازل محمد بن ملكشاه السلجوقى سنة ٥٠١ وقُتل فى المعركة ، ولما سمع نظام الملك وزير السلجوقيين فى الرَّىِّ خبر موته قال : مات أجلُّ صاحب عمامة . وكان فارساً شجاعاً عادلاً فى رعيته ، كما كان محسناً للآداب حافظاً أشعار الجاهليين والإسلاميين والعباسيين . ويقول العماد : كان يقبل على الشعراء ، ويمدهم بحسن الإصغاء وجزيل العطاء» وكان يرتب لهم سنويا مكافآت ، كل حسب طبقته . واستطاع ابنه دُبَيس [٣] أبو الأغر سيف الدولة أن يلم شتات إمارته ، غير أنه خرج على المسترشد مراراً وتفرَّق عنه جنده تكراراً إلى أن قتله السلطان المسعودى السلجوقى صبرا سنة ٥٢٩ وهو الذى يشير إليه الحريرى – كما مرَّ بنا – فى مقامته «العُمانية» واصفاً كيف أقبل الناس يثنون على أبى زيد ، حين سمعوا فصاحته ، يقول : «حتى كأنه الأسدى دُبيس» فى إقبال الناس وتزاحمهم على رؤيته لشجاعته ، وكان شاعراً ، وأنشد له العماد محاورات شعرية مع أخيه بدران وكان ينشد :

حُبُّ علىٍّ بن أبى طالبٍ للنـــاس مقيـــاسٌ ومِعْيـــارُ
يُخْرِج ما فى أصلهم مثلما تُخْرِج غِشَّ الذهب النارُ

---

(١) ترجمته فى الخريدة (قسم العراق) ٤/١/١٥٧ وابن خلكان ٢/٤٩١ والنجوم الزاهرة ٥/١٢٢ .

(٢) انظر فى صدقة بن منصور الخريدة (قسم العراق) ٤/١/١٦٣ وابن خلكان ٢/٤٩٠ والنجوم الزاهرة ٥/١٩٦ .

(٣) راجعه فى الخريدة ٤/١/١٧٠ والمنتظم ١٠/٥٢ وابن خلكان ٢/٢٦٣ والنجوم الزاهرة ٥/٢٥٦ .

ولم يستقم لآل مزيد بعد دُبَيْس سلطان ، وأبْدلت العزة بالذلة ، كما يقول العماد . ويترجم لأخيه بدران (١) ، ويقول إنه تغرب عن الحِلَّة ، وقصد الشام ثم توجه إلى مصر وبها توفى سنة ٥٣٠ وروى له العماد أشعاراً يحنُّ فيها إلى الحِلَّةِ باكياً مجد آبائه ، وأخرى غزلية ، أو شيعية ، أو يذيب فيها بعض أمانيه الضائعة من مثل قوله :

لا والذى قصَد الحجيجُ على بُزْلٍ وما يَقْطَعْنَ من جَدَدِ (٢)
لاكنتُ بالراضى بمنقصةٍ يوماً وإلا لستُ من أسَدِ
لأُقَلْقِلَنَّ العِيسَ دامِيةَ الـ أخفاف من بلدٍ إلى بلدِ (٣)

ولم يستطع أن يبعث الإبل ولا غير الإبل لرد إمارة آبائه . ولا يلقانا بعده شاعر لبنى مزيد فى الحلة ، وأغلب الظن أن قبيلة بنى أسد عادت أو عاد معظمها إلى البوادى ، وكأنما كان ذلك كله دوراً نهضت به وانتهى بانتهاء بنى مزيد وانتقاض سلطانهم .

ويترجم العماد لشعراء الحجاز وتهامة ويريد بها مكة ، إذ يطلق عليها اسم تهامة أحياناً ، وأول من يترجم لهم شكر بن أبى الفتوح ، وقد مرت بنا ترجمته عند الباخرزى . وتلاه بترجمة لجعفر (٤) بن محمد بن إسماعيل الحسنى ، وقال إنه كان عارفاً بالنحو واللغة ، شاعراً يمدح الأكابر طلباً لرفدهم وعطائهم ، وقال نقلاً عن السمعانى إنه كانت فى رأسه دعاوى عريضة خارجة عن الحد ، لا يرى أحداً فى علم اللغة فوقه . رحل من الحجاز إلى العراق ، ثم دخل خراسان وأقام بها ، ثم عاد إلى بغداد وألَمَّ بواسط والبصرة فى سنة نيف وثلاثين وخمسمائة على عزم المسير إلى بلاد فارس ، وأنشد له العماد قطعتين : حائية ولامية ، ومن قوله فى أولاهما :

أما لظلام لَيْلِى من صباحِ أما للنجم فيه من بَراحِ
كأنَّ الأُفْقَ سُدَّ فليس يُرْجَى له نَهْجٌ إلى كل النواحى
كأنَّ الصبحَ منفىٌّ طريدٌ كأن الليلَ بات صريعَ راحِ

ويتلوه العماد بأبى عبد الله (٥) محمد بن إبراهيم الأسدى الحجازى ، ويقول إن مولده بمكة ومنشأه بالحجاز ، وإنه لقى أبا الحسن التهامى شاعر مكة المشهور فى صباه ، ويبدو أنه عُمِّر طويلاً ، إذ يقال إنه ولد سنة ٤٠١ وتوفى سنة ٥٠٠ وقد رحل إلى العراق واتصلت رحلاته إلى غَزْنه ، وينسب له البيتان المشهوران :

(١) الخريدة ٤/ ١/ ١٧٧ وابن خلكان ٢/ ٢٦٤ .

(٢) البزل : جمع بازل وهو البعير القوى المتين ، والجدد : الأرض المستوية .

(٣) العيس : الإبل .

(٤) انظر ترجمته فى الخريدة (قسم الشام) ٣/ ٢٠ والعقد الثمين ٣/ ٤٢٨ وإنباه الرواة للقفطى ١/ ٢٦٦ .

(٥) انظره فى الخريدة (قسم الشام) ٣/ ٢٣ والوافى بالوفيات للصفدى ١/ ٣٥٦ والعقد الثمين ٣/ ٣٩٨ والمنتظم لابن الجوزى ٩/ ١٥٣ .

قلت : ثَقَّلتُ إذ أتيتُ مراراً قال : ثقّلْتَ كاهلى بالأيادى
قلت : طوَّلتُ قال : لا بل تطوَّلْتَ ، وأبرمتُ قال : حَبْلَ الودادِ

وتتداول البيتين كتب البلاغة ، إذ يصوران لوناً من ألوان البديع وهو القول بالموجب وهو توجيه الكلام فى الحوار وجهة طريفة ، تنفى ظاهره المراد . ويترجم العماد عقبه لشاعر يسمى أبابكر[١] محمد بن عتيق السَّوارقى الذى توفى بطوس سنة ٥٣٨ وأنشد له العماد أشعاراً منها قوله :

أيا ساكنى نَجْدٍ سلامٌ عليكُم وإن كنت لا أرجو إيابا إليكمْ
وإن كان جسمى فى خُراسانَ ثاوياً فقلبى بِنَجْدٍ لا يزال لديكمُ

ويترجم العماد بعده لشاعر من خُدَّام سُدَّة المصطفى ﷺ يسمى كافوراً النبوى ، ويقول إنه رحل أيضاً عن المدينة ، وأوغل فى رحلته حتى بُخارى ، وينشد له العماد بعض شعره ، ثم يترجم لشريف سليمانى هو عَلَىّ[٢] بن عيسى كان أبوه عيسى أميراً على المخلاف السليمانى وقتله أخوه أبو غانم يحيى ، ففرَّ ابنه على إلى مكة ، وظل فيها إلى وفاته سنة ٥٥٦ يقول العماد : «وله تصانيف مفيدة وقريحته فى النظم والنثر مجيدة» ويقول القفطى : «لما نزل الزمخشرى مكة وجد بها الشريف على بن عيسى بن حمزة الحسنى فعرف قدره ، ورفع أمره وتتلمذ عليه ، ونشَّطه لتصنيف ما صنَّف» وقد ألف له تفسيره الكشاف المشهور ، وفيه يقول على مادحاً ومنوِّهاً :

جميعُ قُرَى الدنيا سوى القرية التى تبوَّأها داراً فِداءُ زَمَخْشَرَا
وأحْرِ بأن تُزْهَى زمخشرُ بامرئٍ إذا عُدَّ فى أُسْدِ الشَّرَى زَمَخ الشَّرَا[٣]

وينشد له العماد طائفة من أشعاره تدل على شاعرية خصبة وأنه كان يملك زمام اللغة ويعرف أساليبها السويَّة المونقة ، وله أبيات فخر كثيرة تصور عزة نفسه وإباءه الضيم ومروءته ، ومن قوله فى رثاء بعض آبائه :

غاضَ النَّميرُ العَذْبُ يا وارداً وحَالَ عن عهدِكَ ذاكَ الزُّلالْ

ويترجم العماد عقبه لابن عم له يسمى دَهْمش[٤] بن وَهَّاس ، يظهر أنه فارق المخلاف السليمانى مثله وأقام بمكة ، فترجم له العماد بين أبنائها ، ويقول إنه وفد على صلاح الدين فى

---

(١) الخريدة (قسم الشام) ٣/٢٦ .
(٢) راجع ترجمته فى الخريدة (قسم الشام ٣/٣٢ والعقدالثمين ٦/٢١٧ . ومادة زمخشر فى معجم البلدان لياقوت .
(٣) الشرى : مأسدة . زمخ : ترفع عليها وتكبر .
(٤) راجعه فى الخريدة (قسم الشام) ٣/٣٥ والعقد الثمين ٤/٣٦١ .

ذى الحجة سنة إحدى وسبعين ، وهو على باب حلب ، ثم يتلوه بابن الريحانى (١) على بن الحسن المكى الذى وفد على صلاح الدين فى سنة سبعين ، ويذكر له قطعة فى مدح أمير المدينة قاسم الحسينى ، وفيه يقول :

سمَا بكرامٍ من ذؤابةِ هاشمٍ غطاريفَ صِيدٍ ماجدين جَحَاجِحِ

ويلقانا بعد ذلك فى مكة القائد سالم بن أبى سليمان ، وهو مَغربىٌّ الأصل ، وينشد له العماد قصيدة فى المديح لعيسى بن فُلَيْتة أمير مكة ، تزخر بالعقيدة الزيدية ، وسنعرض لها فى موضع آخر ، حين نتحدث فى الفصل التالى عن شعر العقيدة الزيدية . و يتنقل العماد من شعراء الحجاز إلى شعراء اليمن ، ويترجم لأكثر من أربعين شاعراً منهم ، وهم يصورون ما بَثَّتْ دويلات اليمن من نهضة شعرية فى بلدانها ، وكان كثير من أمراء هذه الدويلات شاعراً ، وترجم العماد لأربعة منهم ، هم على بن محمد الصليحى مؤسس الدولة الصليحية ، وجياش أمير آل نجاح حكام زَبيد وحاتم بن أحمد الهمدانى أمير صنعاء والمهدى بن على بن مهدى أمير زَبيد الذى قضى على دولة آل نجاح . ومر بنا حديث عن الصليحى عند الباخرزى ، وكان جياش شاعراً مجيداً ، ويروى أن ابن القِمِّ شاعر اليمن فى عصره أرسل إليه عاتباً (٢) .

يأيها الملكُ الذى خَرَّتْ له غُلْبُ الملوك نواكسَ الأذقان
أترى الذى وَسِع الخلائقَ كلَّها يابنَ النصير يضيقُ عن إنسانِ

فأجابه جياش :

لا ، والذى أَرْسَى الجبال قَواعداً ذى القوَّة الباقى ، وكلٌّ فانِ
ما إن يضيق بِرَحْبنا لك منزلٌ ولو انَّه فى باطن الأجفانِ

ويشيد الشعراء طويلاً بما كان يصلهم من عطايا الأمراء وأضرابهم من مثل أمراء بنى زُريع والأمراء الزيديين وأئمتهم . وممن ترجم له العماد من شعراء الصُّلَيْحيين ابن القِمِّ وعمارة اليمنى وسنخص كلا منهما بكلمة فى حديثنا عن شعراء الإسماعيلية . وبالمثل ترجم لشاعر إسماعيلى ثالث من شعراء الصليحيين هو عمرو بن يحيى الهيثمى شاعر الداعى على بن محمد الصليحى . ومعروف أن آل زُرَيْع حكام عدن خلفوا الصليحيين حين انتهت دولتهم بموت الملكة الحرة أروى سنة ٥٣٢ وصارت إليهم حصونهم ومعاقلهم وأموالهم . كما صاروا هم القائمين على الدعوة الفاطمية الإسماعيلية ، ويترجم العماد لشاعرهم أبى بكر العَيْدِىّ وسنخصه بكلمة بين شعراء المديح . وشعراء زَبيد ودولة آل نجاح كثيرون ، وعلى رأسهم جياش كما

---

(١) انظره فى الخريدة (قسم الشام) ٣/٣٢ والعقد الثمين ٦/١٤٩ .
(٢) الخريدة (قسم الشام) ٣/٢٢٤ .

أسلفنا ، وله فضل تخليد أسمائهم فى كتابه «المفيد فى أخبار زبيد» والكتاب مفقود ، غير أن عمارة اليمنى كتب له مختصراً كما مرَّ بنا وهو الذى رجع إليه العماد فى الترجمة لجمهور شعراء اليمن ، وأول شاعر بارع يلقانا منهم زَكَرِىّ [١] بن شَكَيل وله مدائح بديعة فى جياش ، ويستهل إحداها بوصف طريف للخمر والمرأة الفاتنة ، وفيه يقول :

اسْقِنِى الرَّاحَ إنها تجلبُ الرَّوْ … حَ وريحانَها إلى الأرواحِ
بَزَلوها فامتدَّ منها لجوِّ اللَّـ … ـيْل نُورٌ أغنى عن المصباحِ [٢]
ما يُزِيل الهمومَ مثلُ اصطباحٍ … فى صَباحٍ لدى وجوهِ صِباحِ
إذ ترى الدِّيك كالبَعير ، وكالأرْ … ضِ السمواتِ ، أو فإنك صاحِ
وَارْعَ عينيك فى عيونٍ من الزَّهـ … ـرِ جلاها نَوْرٌ كنَوْرِ الأقاحى
شفتاها نُقْلِى وماءُ ثنايا … ها عُقَارى وخَدُّها تُفَّاحى [٣]
هذه الجَنَّةُ التى وعد اللَّـ … ـهُ وما عَنْ نعيمها من بَراحِ

والأبيات تسيل عذوبة ورشاقة وخفة وتكاد تطير عن الأفواه طيراناً ، والألفاظ تتداخل فيما بينها تداخل أفراد الأسرة المتشابكين فى الرحم ، وما أجمل الجناس بين الاصطباح والصباح بفتح الصاد والصباح بكسرها أى الوجوه المشرقة المضيئة . وصور خدر الخمر فى البيت الرابع تصويراً جيداً ، وأحكم مراعاة النظير فى البيتين الخامس والسادس ، إذ قرن العيون والثغر إلى الزهر ونور الأقاحى ، كما قرن الشفاه والرضاب والخدود إلى النُّقل من الفستق وغيره والخمر والتفاح ، وسمى ذلك كله الجنة ، مبعداً فى الخيال . ويلقانا بعده من شعراء آل نجاح القاضى العثمانى [٤] ، وله فى الصليحى حين فتك به سعيد بن نجاح هجاء مرير ، وساق له العماد خمريتين ، يتماجن فيهما ، أما الأولى فيقول إنه شرب حتى حسب المهر أرنبا ، وأما الثانية فيستوفى فيها ما سبقه إليه أبو نواس من فكرة العفو الإلهى عن الكبائر كما كان يزعم ذلك المرجئة ، يقول متماجناً :

قم فاسْقِنِى بالكأس من تلك التى … أهلُ النُّهَى فى وَصْفها قد حاروا
واشربْ ولا يلحقْك خَوْفُ عقوبةٍ … فيها فربٌّ حِسابِها غفَّارُ

ويترجم العماد لإسماعيل بن البوقا وزير جياش ، وأهم من ترجمته ترجماته لبنى أبى عَقامةَ قضاة زبيد فى عهد آل نجاح ، وفى مقدمتهم القاضى أبو عبد الله محمد بن أبى عَقامة

---

(١) الخريدة (قسم الشام) ٣/ ٢١٨ .
(٢) بزل الدن : ثقبه .
(٣) العقار : الخمر . النقل : مايرافق الشراب من المشهيات .
(٤) انظر الخريدة (قسم الشام) ٣/ ٢٣١ ولعله الشريف العثمانى المذكور فى طبقات فقهاء اليمن ص ١٧٧

الحفائلى[١] الذى قتله على بن مهدى حين دانت له زبيد سنة ٥٥٤ وينشد له العماد أشعاراً رائعة ، منها قوله فى مديح قوم راحلين :

للمجدِ عنكم رواياتٌ وأخبارُ ... وللعُلا نحوكم حَاجٌ وأوطارُ
تشتاقكم كلُّ أرضٍ تَنزلون بها ... كأنكم لبقاع الأرض أمطارُ
فحيث كنتم فثَغْر الرَّوض مبتسمٌ ... وأين سِرْتم فدَمْع المُزْن مِدْرارُ
لله قومٌ إذا حَلُّوا بِمَنْزِلَةٍ ... حَلَّ النَّدَى ويسير الجود إن ساروا
لا يَعْجب الناسُ منكم فى مسيركُمُ ... كذلك الفَلَكُ العُلْوِىُّ دَوَّارُ
والبَدْرُ مذ صِيغَ لا يَرْضَى بمنزلةٍ ... فيها يخيِّم فَهْو الدَّهْرَ سَيَّار

وهو مديح رائع ، فالمجد لا يزال يروى أخبارهم ، ولا يزال للعلا منهم أمانىُّ موصولة ، وكل أرض تشتاقهم وتتلهف عليهم ، كأنهم غيث جَدْبها المُمْحل ، وكل مكان ينزلون يصبح روضاً مشرقاً ، وكلما ساروا عن مكان بكاهم الناس بدمع هتون ، بكوا شمائلهم وكرمهم الذى يتبعهم أينما حلوا وساروا . وتصويره فى البيتين الأخيرين لهم فى رحيلهم بالفلك الدوار والبدر السيار تصوير دقيق بارع . ومن شعره فى الحداثة قوله يصف روضة :

وروضةٍ مارأى الراءون مُشْبِهَها ... كأنما سُرِقَتْ سِرًّا من الزمَنِ
غَيْمٌ وظِلٌّ وروضٌ مونِقٌ وهَوًى ... يجرى من الروح مَجْرَى الروح فى البدنِ
غَنَّتْ بها الطَّيْرُ ألحاناً وساعدها ... رَقْصُ الغصون على إيقاعها الحسنِ
لقد سكرتُ وما الصهباءُ دائرةٌ ... فيها ولا نغمات العود فى أذنى

وتصوير فتنته بالروضة تصوير جيد ، فقد تصوركأنها سرقت من الزمن سرا دون أن يدرى لما يرى فيها من اجتماع جمال الطبيعة وجمال صاحبته التى تأسر لبه ، ويتخيل الروض كله من حوله يتغنى ويرقص ، تتغنى فيه الطير وترقص الأغصان على ألحانها متعانقة مرة ومنفرجة مرة ، وهو مسلوب الحس فتنة وجمالاً ، حتى لكأنما هو فى مشهد غناء ورقص حقيقى . وكل شىء من حوله يأخذ بعقله . ويترجم العماد لابن مكرمان ، وهو شاعر زيدى ، سنعرض له فى حديثنا عن الدعوة الزيدية وشعرائها ، كما يترجم لشاعر خارجى من شعراء على بن مهدى هو ابن الهُتَيْمِىّ ، وسنلم به فى حديثنا عن شعراء الخوارج ، ويترجم أيضاً لنشوان بن سعيد وشعره يكتظ بفخر عنيف بأصوله اليمنية ، وسنتحدث عنه بين شعراء الفخر والهجاء . ووراء من سميناهم من شعراء اليمن فى الخريدة كثيرون لم نعرض لهم ، لأن شعرهم متوسط

(١) راجع فى ترجمة محمد بن أبى عقامة الخريدة (قسم الشام) ٣/ ٢٤٠ . وطبقات فقهاء اليمن ص ٢٤٠ والنجوم الزاهرة ٥/ ٣٣٠ .

أو دون المتوسط . ولعل القارئ لاحظ أننا اكتفينا بالخريدة عن عرض المختصر فى أخبار زبيد لعمارة اليمنى الذى أشرنا إليه آنفاً ، لأن الخريدة تستغرقه .

ونترك العماد ومصدره العام أو خريدته عن اليمن والحجاز وشعرائهما حتى منتصف القرن السادس الهجرى ، وبعد ذلك فالحجاز أهم مصدر له من منتصف هذا القرن حتى الربع الأول من القرن الثامن الهجرى كتاب العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين للفاسى وبه شعراء ممن جاوروا بمكة كثيرون ، وبه مكيُّون ، ولدوا فى مكة ونشئوا بها واستيقظت مواهبهم الشعرية فيها ، وأكثر أشعارهم مدائح زيدية فى حكام مكة وأمرائها الزيديين . وتكثر المدائح النبوية فى هذا الكتاب سواء لشعراء مكة أو لمن نزلوها وأنفقوا بقية حياتهم فيها أو فى المدينة ، ولهم غزل رقيق نحس فيه نفحات الوجد الصوفى . ويلى هذا المصدر فى الأهمية من الترجمة لشعراء الحجاز كتاب سلافة العصر لابن معصوم ، وقد ترجم فى مكة لأكثر من ثلاثين شاعرا من شعراء القرنين العاشر والحادى عشر الهجريين ، وأكثر أشعارهم مدائح لأمراء مكة ، وكثير منها معارضة لقصائد الشعراء السالفين النابهين ويلاحظ ذلك ابن معصوم فى غير موضع من كتابه ، كما يلاحظ كثرة تصنعهم لألوان البديع وللتعبير عن التواريخ . وتكثر فى أشعارهم المدائح النبوية (والمناجيات) الإلهية . ومثلهم شعراء المدينة الذين ترجم لهم ابن معصوم ، وهم أربعة عشر شاعراً وتجد عندهم الألوان الشعرية المتأخرة مثل الدوبيت . ويلقانا بعض شعراء الحجاز فى كتاب ريحانة الألبا للخفاجى المتوفى سنة ١٠٦٩ وبه قسم عن مكة والمدينة ، وألف ذيلا له المحبى سماه نفحة الريحانة ، وبه قسم عن نبغاء الحجاز وألف المحبى أيضاً كتاب خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر وبه تراجم لبعض شعراء مكة والمدينة ومثله كتاب سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر للمرادى وكتاب تاريخ الجبرتى ، ففيهما بعض تراجم لمكيين ومدنيين .

وإذا تركنا الحجاز إلى اليمن بَعْد من ترجم لهم العماد فى خريدته وجدنا توران شاه الأيوبى يفتتحها سنة ٥٦٩ ويزيل منها الدويلات التى تحدثنا عنها آنفاً ، ويتحول شعراء اليمن إلى مديحه وفى مقدمتهم أبو بكر العيْذى شاعر دولة الزُّرَيْعيين . ويتولاها بعده أمراء من أسرته ، لعل أهمهم الأمير المسعود بن الملك الكامل صاحب مصر ، وقد دخلها سنة ٦١٢ وكان يصحبه بعض الشعراء والأدباء وفى مقدمتهم أبو الغنائم الشيزرى ، ولخزانته وباسمه ألف فى اليمن كتابه «جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام» وقد قسمه إلى أكثر من عشرة كتب ، وختم كل كتاب ببعض أشعاره فى مديح المسعود . وكان قد حج الأمير المسعود فى سنة ٦٢٥ وأناب عنه عمر بن على بن رسول ، وتوفى بمكة ، فانتهز الفرصة عمر واستقل باليمن وأسس فيها دولة بنى رسول التى ظل

لواؤها مرفوعاً على اليمن من سنة ٦٢٦ إلى سنة ٨٥٨ وقد أرخ على بن الحسن الخزرجى تاريخاً بديعاً لهذه الدولة من منشئها إلى سنة ٨٠٣ وهى السنة التى توفى فيها السلطان الأشرف ، وتاريخه فى مجلدين ، وهو كما قلنا فى غير هذا الموضع تاريخ حضارى وسياسى وأدبى ، إذ عُنى بوصف احتفالات الرسوليين وبأحداثهم ووقائعهم الحربية وما نُظم فيها من أشعار ، ويذكر مع كل سلطان شعراءه وتهنئتهم له بالجلوس على أريكة الحكم وبالأعياد الإسلامية وبانتصاراته على أعدائه ، فعمر بن على بن رسول الذى تلقب بالملك المنصور معه شاعره محمد بن حمير الذى لم يكن يترك مناسبة إلا ويقدم له فيها مدائحه ، ومع ابنه المظفر شعراؤه : ابن حمير وابن هُتَيْمل وأضرابهما ، وبالمثل من خلفهما من السلاطين . ويلقانا بعد الخزرجى وكتابه العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية ابن الدَّيبع وكتابه قرة العيون ، وفيه حديث مفصل عن دولة آل طاهر وشعرائهم ، وقد ظلت من سنة ٨٥٨ إلى سنة ٩٢٢ وكان زوالها على يد الجراكسة جنود قانصوه الغورى ، على نحو ما مرّ بنا فى الفصل الأول ، فقد نازلوا آخر سلاطينها عامراً وقتلوه وقتلوا أخاه ، وفى رثائهما يقول عبد الرحمن الدَّيبع :

أخلاَّى ضاع الدِّينُ من بعد عامرٍ ... وبعد أخيه أعدلِ الناسِ بالناسِ

وينزلها العثمانيون سنة ٩٤٥ ويظلون بها نحو قرن . وتتحول اليمن إلى الرَّسِّيين أصحاب صَعْدة ، وينزلها العثمانيون ثانية سنة ١٢٦٥ هـ /١٨٤٩ م ويظلون بها حتى سنة ١٣٣٦ هـ / ١٩١٧ م . وكل المصادر العامة التى ذكرناها للشعراء فى الحجاز تفرد فصولاً طويلة لشعراء اليمن ، ومرَّ بنا ذكر كتاب «نسمة السحر فيمن تشيع وشعر» وهو كتاب نفيس غير أنه لم يطبع . ومن الكتب التى تحمل معلومات قيمة عن الشعر والشعراء فى اليمن كتاب سلافة العصر لابن معصوم وكتاب نفحة الريحانة للمحبى وكتاب البدر الطالع للشوكانى وكتاب نشر العرف لنبلاء اليمن بعد الألف حتى سنة ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥ م لابن زبارة الصنعانى وكتاب المخلاف السليمانى لمحمد بن أحمد العقيلى ، وشعر الغناء الصنعانى لمحمد عبده غانم ، غير الدواوين المطبوعة مثل ديوان ابن هُتَيْمل وديوان البرعى وديوان مدائح إلهية لمحمد بن إبراهيم الوزير وديوان الأمير الصنعانى محمد بن إسماعيل .

ولحضرموت نشاط شعرى غزير . وقد استطاع السيد عبد الله السقاف أن يؤلف كتاباً من ثلاثة أجزاء فى تاريخ الشعراء الحضرميين ، وهو يشتمل من شعراء هذا العصر الذى نؤرخ له على نحو مائة وعشرين شاعراً ، ويقول فى مقدمته : «لا أكتم أن شعراء حضرموت ليسوا فى رتبة المجيدين من الشعراء ولا المفلقين . . ولما كانت حضرموت تسودها الروح الصوفية والنزعة الفقهية فإنك ترى على شعرهم طلاء صوفيا ومسحة فقهية ، ومع هذا

الطلاء وتلك المسحة فإنهم لا يخرجون عن كونهم شعراء ، وإن لم يكونوا من المجيدين غالباً » .
ولعل السيد السقاف بالغ فى حكمه حين جعله عاما ، ومما لا ريب فيه أن بين من ترجم لهم شعراء نابهين يمكن أن يُعَدّوا فى رتبة المجيدين ، مثل أبى بكر العيدروس وعبد الرحمن بن مصطفى العيدروس المتصوفين ، ومثل عبد الصمد بن عبد الله باكثير وهو يعد من الشعراء الممتازين فى الجزيرة العربية لهذا العصر بعامة وسنترجم له بين شعراء المديح . ولم يترجم السيد عبد الله السقاف لأحد من شعراء المذهب الإباضى الخارجى فى حضرموت ، ومن أهمهم أبو إسحق الهمدانى وسنترجم له فى الحديث عن شعراء الإباضية.

ولم يكن للشعر فى عمان هذا النشاط جميعه الذى رأيناه فى حضرموت ، ولكن لا ريب فى أن الشعراء كانوا كثيرين فى هذا الإقليم كثرتهم فى الأقاليم الأخرى ، وممن يلقانا منهم فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى أبو على أبزون المجوسى الملقب بالكافى العمانى ، وقد ترجم له الباخرزى فى دمية القصر [١] ، وأنشد طائفة جيدة من شعره ، ويذكر من ترجمته عن الفارسية قوله :

وصَحْراءَ ردَّتْها الظِّباءُ حَفائراً بأظلافها أَحْبِبْ بها من حَفائِرِ
فهبَّتْ رياحٌ للصَّبا فملأْنها بمسكٍ فعادتْ نُزْهةً للنواظِرِ

وقد عُنى نور الدين السالمى فى كتابه تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان بعرض نماذج من أشعارهم على مر الحقب ، وخاصة الحقب الأخيرة من هذا العصر . وكان للخوارج فى نزوى شعراؤهم وأيضاً للدول السُّنِّيَّة حين كانت قائمة فى عمان ومسقط شعراؤهم ، فقد شجع بنو مكرم وبنو نبهان الذين خلفوهم الشعراء ، واشتهر للأخيرين شاعر عُنى بمدحهم هو أحمد بن سعيد الخروصى الستالى وسنترجم له بين شعراء المديح واشتهر من الأسرة نفسها بأخرة من زمنها شاعر هو سليمان النبهانى ، وسنترجم له بين شعراء الفخر ، ومن شعراء الخوارج الحبسى شاعر الأمير سيف بن سلطان الإباضى (١١٠٤ - ١١٢٣) ومن الشعراء بين الأئمة الإباضية المتأخرين بلعرب بن سلطان الذى خلف الإمام السابق ، ومن شعره [٢] :

ولما بلوتُ الناسَ لم أر صاحباً أخا ثقةٍ فى النائبات العظائمِ

وتحولت مقاليد الحكم إلى أسرة البوسعيديين إذ خلَّصوها من أيدى اليعاربة سنة ١١٥٤ هـ وظلوا فى دست الحكم إلى اليوم ، ومن أهم أئمتهم سعيد بن سلطان ، وكان شاعراً مجيداً ، وله يتغزل [٣] :

---

(١) دمية القصر ١/٩٨ .
(٢) تحفة الأعيان (طبع مطبعة الشباب) بعناية إبراهيم إطفيش الجزائرى ٢/٩٣ .
(٣) التحفة ٢/١٦٦ .

يا من هواه أعزَّه وأذلَّني ... كيف السبيلُ إلى وصالك دُلَّني
وتركتَني حيرانَ صَبًّا هائماً ... أَرْعَى النجوم وأنت فى نومٍ هَنِى
عاهدتَنِى أن لا تميل عن الهَوَى ... وحلفتَ لى يا غُصْنُ أن لا تنثنى
جادَ الزمانُ وأنت ما واصَلْتنى ... يا باخلاً بالوصل أنت قتلتنى
واصلتنى حتى ملكتَ حُشَاشتى ... ورجعتَ من بعد الوصال هجرتنى
لما ملكتَ قِياد سِرِّىَ بالهوى ... وعلمت أنى عاشق لك خُنْتَنِى

والأبيات جيدة والألفاظ فيها تتعانق فى خفة والمقابلات بارعة ، والصور دقيقة ، وقد أكمل صورة الغُصْنِ بانثنائه كناية عن جفاء صاحبته وإقبالها على غيره . وهو يأسى لنفسه أنها هجرته بعد وصالها وبعد أن ملكت عليه شغاف قلبه ، وإنه ليتعثّر فى شباك حبِّها ، بينما انصرفت عنه إلى غير مآب ، وعلى هذا النحو كان الشعر ناشطاً فى عهد البوسعيديين ويلقانا من شعرائهم بأخرة من العصر أبو الصوفى سعيد بن مسلم .

وكانت البحرين تكتظ بالشعر والشعراء طوال حقب هذا العصر ، ومن أوائل من نلقاهم بها الحسين بن أحمد الملقب بالأعصم الذى ولى أمر القرامطة سنة ٣٥٩ ومرَّ بنا حديث عنه وكيف أنه حارب الفاطميين تحت ألوية الخلافة العباسية ، وكان شاعراً مجيداً ، ومن شعره قوله :

إنى امرؤ ليس من شأنى ولا أدبى ... طَبْلٌ يَرِنُّ ولا نايٌ ولا عودُ
ولا اعتكافٌ على خَمْرٍ ومَخْمَرةٍ ... وذات دَلٌّ لها بالدَّلِّ تأويدُ(١)

وتوفى بالرملة فى فلسطين سنة ٣٦٦ وكان يتخذ أبا نصر (٢) بن أبى الفتح كشاجم كاتباً بين يديه ، وكان شاعراً محسناً ، وأنشد له الثعالبى فى اليتيمة طائفة من أشعاره فى الأطعمة وألوانها المختلفة لعصره ، ومن قوله فى وصف كتاب :

وصاحبٍ مؤنسٍ إذا حَضَرا ... جـالسَنِى بـالملوك والكُبَرا
جسمٌ مَوَاتٌ تَحْيَا النفوسُ بهِ ... يَجِلُّ معنى وإن دَنَا خَطَرا
أظلُّ منه فى مجلسٍ حَفِلٍ ... بالناس طُرًّا ولا أرى بشرَا

وسرعان ما انتهى عصر القرامطة وخلفهم بنو الأصفر ، ولا يظلون طويلاً ، ويعقبهم بنو العيونى منذ سنة ٤٦٦ ويعملون على النهوض بالبحرين علميا وأدبيا ، وتكون ثمرة ذلك ظهور شاعر نابه من الأسرة هو على بن مقرَّب العيونى ، وسنترجم له بين شعراء المديح . ويخلف

(١) تأويد : انعطاف . وانظر فى الأعصم وشعره ابن الأثير (تحقيق إحسان عباس) ٨/ ٦١٤ وما بعدها .
(٢) انظر ترجمته فى اليتيمة ١/ ٢٨٥ .

العيونيين – كما مرّ بنا – بنو عصفور وبنو جير العقيليون ، وتظل النهضة الشعرية مستمرة ويستولى البرتغاليون بأخرة على البلاد فى سنة ٩٢٧ ويخرجهم منها العثمانيون فى سنة ٩٤٣ ويلقانا للبحرين غير شاعر فى كتب التراجم الأدبية التى ذكرناها فى حديثنا عن شعراء الحجاز ، وخاصة فى «سلافة العصر» و «نفحة الريحانة» . ويسترجع بنو خالد البحرين من العثمانيين سنة ١٠٨١ ويظلون يحكمون الأحساء حتى يستولى عليها السعوديون فى أوائل القرن الرابع عشر الهجرى ، ومن الكتب التى تصور نشاط الشعر بعد خروج العثمانيين من البحرين كتاب شعراء هجر من القرن الثانى عشر إلى القرن الرابع عشر لعبد الفتاح الحلو ، وقد أنشد شعراً كثيراً من منظومات لهم نحوية وفقهية . ومن الشعراء فى أواخر العصر على نقى الأحسائى وهو شيعى إمامى وله ديوان مطبوع ومؤلفات مختلفة فى العقيدة الإمامية .

٣

شعراء المديح

يكثر شعراء المديح كثرة مفرطة فى جميع أقاليم الجزيرة ، وقد عرض الباخرزى فى دمية القصر طائفة من مدائح شعراء نجد فى الوزير نظام الملك السلجوقى ، وكثرتهم إنما رحلوا إلى العراق وإيران طلباً للنوال ، وخاصة من هذا الوزير الذى غمر الشعراء بجوائزه وعطاياه ، ولهُذَّاب بن دَهْثَم الشيبانى من قصيدة فى مديحه[١] :

ما خلق الله تعالى وجَلّْ مثلَ وزيرِ الوزراء الأجَلّْ
أروعُ كالنَّصْل ولكنَّهُ أمضى من النَّصْل إذا ما يُسَلّْ

وقد بعث بنو عُقَيْل فى الموصل وبواديها حركةً أدبية ظلت مزدهرة طوال حكمهم ، مما جعل شعراء إقليمهم يدبجون القصائد فى مديحهم ، وقصدهم الشعراء من العراق والشام ، وفى مقدمتهم أبوعلى بن الشِّبْل البغدادى مادح قِرْواش والمشيد بنصره على الغُزّ بمثل قوله[٢] :

نَزَّهْتَ أرضَك عن قبور جُسومهم فغدتْ قبورهمُ بطونَ الأنْسُرِ

ومن شعراء قِرواش الطاهر[٣] الجزرى . وكان مسلم بن قريش – ابن أخيه – ينثر الأموال نثراً على الشعراء فجاءوه من كل فَجٍّ وفى مقدمتهم ابن حَيُّوس شاعر الشام ، وبلغ من إعجابه بمدائحه فيه أن أقطعه – فيما قيل – الموصل على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع ، وله يقول من قصيدة طويلة[٤] :

(١) دمية القصر ١/ ٦٠ .
(٢) ابن خلكان ٥/ ٢٦٣ – ٢٦٤ .
(٣) انظره فى دمية القصر ١/ ١٢٦ .
(٤) خريدة القصر للعماد (قسم الشام) ٢/ ٢٥٧ .

ولقد جمعتَ فضائلاً ما استجمعتْ   يَفْنَى الزمانُ وذكرُها لم يَهْرَمِ
كرماً يُبيح حِمَى الغِنَى ومآثِرًا   وُضُحاً تُبيحُ بلاغةً للمُفْحَم

ولم يكن بنو مَزْيد الأسديون فى الحِلَّة وبواديها أقل اهتماماً بالأدب والأدباء من بنى عُقَيْل فى الموصل وبواديه ، وكانوا قريبين من بغداد ، فكثر إلمام الشعراء بديارهم لأخذ جوائزهم ، غير من كانوا يَنْشئون بينهم وفى مقدمتهم على[1] بن أفلح العَبْسى الشاعر ، ويقال إنه كتب بين يدى دُبيس بن مَزْيد فى شبيبته . وكان ابنه منصور ممدَّحا ، ومن مدَّاحه البندنيجى[2] الشاعر البغدادى ، ومحمد[3] بن خليفة أبو عبد الله السِّنْبِسى ، وكان ابنه سيف الدولة صدقة مفزعاً للشعراء ، وكان السنبسى شاعره الأثير وله فيه مدائح مختلفة ، ومن مدَّاحه أيضاً المطاميرى[4] وأبو طاهر[5] البغدادى وابن أبى الجبر.[6] وممن زار الحِلَّة عاصمة المزيديين ومدح أمراءها الأبيوردى الشاعر الإيرانى المشهور. ويغمر نجدا وراء دولتى المزيديين والعقيليين الظل ، فلا نكاد نتبيَّن شيئاً من أخبار شعرائها ، حتى تلقانا دعوة محمد بن عبد الوهاب وأصداؤها فى الشعر والشعراء .

ومن يرجع إلى كتاب العقد الثمين يجد مدائح كثيرة طوال هذا العصر موجهة إلى أمراء مكة والمدينة وبالمثل تلقاه هذه المدائح فى سلافة العصر لابن معصوم و «نفحة الريحانة» وفى كتب التراجم المتأخرة ، وكانت الإمارة فى مكة زيدية شيعية وفى المدينة إسماعيلية على الأقل فى الحقب الأولى وسنفرد لشعراء هاتين النحلتين فى الجزيرة دراسة خاصة فى الفصل التالى :

أما اليمن فقد نشط فيها الشعر طوال هذا العصر ، وكان لتنافس الإمارات والدويلات الكثيرة فى أوائله أثر بعيد فى ذلك ، فإن كل إمارة عملت على أن تجمع حولها الشعراء ليكونوا دعاة لها ، وفى سبيل هذه الغاية كانت تجزل لهم فى العطاء ، وتلقانا فيه إمارة الزيديين فى صَعْدة ، وسنتحدث عن شعرائها فى الفصل التالى . وبالمثل إمارة الصُّلَيْحيين الإسماعيلية كان لها شعراء كثيرون سنعرض لهم فى الفصل التالى أيضاً . وقل ذلك نفسه فى إمارة بنى مهدى الخوارج فسنتحدث عنهم مع الإباضية وشعرائهم . وربما كانت أهم إمارة عُنيت بالشعر فى القرن الخامس إمارة آل نجاح فى زبيد ، وكان جياش (٤٨٢ - ٤٩٨ هـ) أهم أمراء هذه الدولة وأكثرهم عناية بالشعراء حتى لقد صنف فيهم كتابه «المفيد» الذى مرَّ بنا

(١) انظره فى الخريدة القسم العراق ٢/٥٢ .
(٢) الخريدة ، الجزء الرابع ، المجلد الأول ص ١٣٣ .
(٣) نفس المصدر ص ٢٠٩ .
(٤) الخريدة ، القسم العراق ٢/١٩٥ .
(٥) نفس المصدر ص ٢٢٠ .
(٦) نفس المصدر ٤/٢/٥٢٥ .

ذكره ، ويذكر عمارة فى المختصر الذى صنعه لهذا الكتاب أنه كان لجياش ديوان ضخم وعدة مجلدات تجمع نثراً ونظماً ، ومن أهم شعرائه زَكِرى بن شكيل المارّ ذكره ، وفيه يقول من مدحة طويلة(١) :

المُشْتَرِى حُلَلَ الثناء بما حوتْ كفَّاه والحامى لها أن تُشترى
والموقدُ النارين : ناراً للوَغى لا تَنْطفى أبداً وناراً لِلْقِرَا

وكان بنو زُرَيْع فى عدن مورداً عذباً للشعراء ، وكانوا إسماعيلية ، وكان كل من تولى منهم يسمى نفسه الداعى أى للمذهب الفاطمى ، ولذلك سنؤخر شعراءهم إلى حديثنا عن شعراء المذهب الإسماعيلى فى اليمن . وقد تحول كثير من شعراء اليمن إلى مديح الأيوبيين منذ استولى توران شاه الأيوبى سنة ٥٦٩ على اليمن إلى أن تخلوا عنها وملكها قائدهم نور الدين عمر بن على بن رسول وأسس فيها الدولة الرسولية ، ومن طريف ما تقرأ لهؤلاء الشعراء قصيدة لأبى بكر العَيْذِى يمدح بها توران شاه حين فتح اليمن وفيها يقول (٢) .

أعساكراً سَيَّرْتَها وجنوداً أم أَنْجُماً أَطْلَعْتَهُنَّ سُعودا
أم تلك ماضيةُ العزائم أُرْهِفَتْ بالرأى منك وجُرِّدَتْ تجريداً
أم تلك أقدارُ الإله ونصره رفعتْ عليك لواءَها المعقودا

ومن أهم الحكام الأيوبيين هناك الملك المسعود ، وهو آخر من حكمها منهم ، وكان يصحبه أمين الدولة أبو الغنائم الشيرزى وصنف له كتابه «جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام» كما مرَّ ، وهو منتخبات شعرية ونثرية ، وكان شاعراً . ويؤسس نور الدين عمر بن على بن رسول منذ سنة ٦٢٦ دولة أسرته الرسولية ، ويبعث هو وأسرته فى اليمن نهضة شعرية ، بجانب ما بعثوا من النهضة العلمية على نحو ما مرَّبنا فى غير هذا الموضع . ويكثر مادحوه من الشعراء فى الأعياد وفى المناسبات المختلفة حين ينتصر فى بعض المعارك ، وحين يفضى إلى بعض مجالس أنسه وشرابه ، ولأبى الغنائم الشيزرى فيه مديح (٣) يدل على أنه عاش إلى ما بعد سنة ٦٢٣ وكان شاعره الأثير عنده محمد (٤) بن حمير ، وكان لا يترك مناسبة دون أن ينشد فيها بين يديه بعض مدائحه من مثل قوله(٥) :

قد قيل جاوِزْ – لتَغْنَى – البَحْرَ أو ملكا أنت المليكُ وأنت البحرُ يا عمرُ
ما حاز ما حُزْتَ لا عُرْبٌ ولا عَجَمٌ ما شاد ما شِدْتَ لا جِنٌّ ولا بشَرُ

(١) الخريدة قسم الشام ٣ / ٢١٩ .
(٢) تاريخ ثغر عدن لبامخرمة ٢ / ٣٧ .
(٣) العقود اللؤلؤية ١ / ٣٦ .
(٤) الخزرجى ١ / ١١٠ وفى مواضع متفرقة .
(٥) الخزرجى ١ / ٨٧ .

إذا الجدودُ بهم أبناؤهم شرُفوا أو فاخروا فبك الأجداد تفتخر
عَزُّوا بعِزِّك أولاهم وآخرُهم كما بأحْمدَ عزَّت كلها مُضَرُ

ويقول الخزرجى : كان ابن حمير أوحد شعراء عصره وقد توفى سنة ٦٥١ وبذلك لحق عصر المظفر الرسولى (٦٤٧ – ٦٩٤ هـ) . وشاعره غير مدافع القاسم بن هُتَيْمل ، وسنخصه بكلمة ، وتكثر تهنئات الشعراء له منذ استيلائه على صولجان الحكم بعد أبيه ، وكان كلما أهلَّ عليه عيد أو انتصر فى موقعة حربية أكثروا من مديحه وتهنئاته ، ومن المحقق أن كثيرين منهم كانوا يرددون معانى الشعراء العباسيين النابهين من أمثال أبى تمام والبحترى والمتنبى ، ومن الطريف فى هذا الصدد أن أحد شعراء المظفر البارزين – وهو ابن دَعَّاس – كان معاصروه من أهل زبيد يرمونه بسرقة الشعر ، ويقولون – متندرين عليه – إذا حوسب الشعراء يوم القيامة يؤتى بابن دعاس للحساب ، فيعترف بسرقاته من سابقيه ، ويقول هذا البيت لفلان وهذا الصدر لفلان وهذا العجز لفلان ، وبذلك يخرج بريئاً . ويذكر له الخزرجى مدحة فى المظفر يصفها بأنها باهرة ، ومع ذلك يلاحظ هو نفسه أنه افتتحها بقوله :

ليس فى قدرةٍ ولا إمكانِ نَيْلُ ما نلتَ يا مليكَ الزمانِ

ويقول إنه لابن الحجاج البغدادى (١) ، ويعرض الخزرجى فى أثناء حديثه عن السلطان المؤيد (٦٩٦ – ٧٢١ هـ .) أسماء جماعة من شعرائه ومدائحهم فيه ، وفى مقدمتهم العَنْسى والعفيف عبد الله بن جعفر من مثل قول الأخير (٢) :

ساد الملوكَ فلا تكون مثالَهُ أبدَ الزمان ولا يكونُ مثالَها
وحَوى الخلافَة لم تَكُنْ إلا له طولَ الزمان ولم يكنْ إلا ها

ومن الرسوليين الممدَّحين الأشرف إسماعيل (٧٧٨ – ٨٠٣ هـ .) ومن مُدَّاحه الخزرجى صاحب العقود اللؤلؤية ، وله فيه مدحتان أولاهما فى بيان (٣) ازدهار الدراسات الدينية التى أقامها السلطان الأشرف فى الجامع المبارك الأشرفى ، وقد مضى الخزرجى يسمى القائمين على هذه الدراسات وغيرها من القُرَّاء والمحدثين والفقهاء والنحاة وأصحاب الحساب والجبر ، والثانية (٤) فى وصف الاحتفال بختان أبناء الأشرف وتهنئته والإشادة بملكه وفتوحاته وأمجاده . ونمضى إلى عصربنى طاهر غير أنهم لا يُعْنونَ بالشعر والشعراء على نحو ما كان يعنى الرسوليون ، وبانتهاء دولتهم ، يُظِلُّ اليمن حكم الزيديين أصحاب صَعْدة ، وسنخصهم بحديث مستقل .

(١) الخزرجى ١ / ٢٨٣ .
(٢) الخزرجى ١ / ٣٣٤ .
(٣) الخزرجى ٢ / ٢٠٢ .
(٤) الخزرجى ٢ / ٢٣٦ .

وتكثر فى حضرموت مدائح العلماء والصوفية وهذا طبيعى لأن كثرة الشعراء من الزهاد والفقهاء ، ويمتلئ كتاب تاريخ الشعراء الحضرميين بهذه المدائح كقول أحمد السقاف العلوى فى شيخه محمد بن عبد الرحمن الأسقع [١] :

فقيهٌ شريفٌ حاز فَضْلاً ورفعةً   له نِسْبَةٌ تَعْلُو على كل نسبةِ

وأكبر الشعراء المدَّاحين فى حضرموت عبد الصمد بن عبد الله باكثير، وسنخصه بكلمة . ويكثر شعراء المديح أيضاً فى عمان ودائماً يتجه الشعراء بأشعارهم إلى مديح الأمراء النبهانيين ، وسنقف قليلاً عند شاعرهم السِّتالى . وبالمثل كان الشعراء فى البحرين لا يزالون يمدحون أمراءها من العيونيين وغيرهم وفى مقدمتهم شاعر البحرين غير مدافع على بن مقرب العيونى :

وواضح مما سبق أننا سنقف قليلاً عند أربعة من شعراء المديح فى اليمن وحضرموت وعمان والبحرين يصورون لنا ازدهار هذا الفن فى بلدانهم فى حقب مختلفة ، وهم القاسم بن هُتَيْمل اليمنى وأحمد بن سعيد الخروصى السِّتالى العُمانى وعلى بن مقرَّب العيونى البَحْرانى وعبد الصمد بن عبد الله باكثير الحضرمى .

القاسم بن هُتَيْمل [٢]

هو القاسم بن على بن هتيمل أكبر شعراء اليمن فى القرن السابع الهجرى ، وهو من نَجْران بوادى ضِمْد فى المخلاف السليمانى وهى غير نجران المشهورة وبها نشأ . وقد تيقظت موهبته الشعرية مبكرة ، وله ديوان شعر كبير يدل على أنه وجَّه شعره منذ شبابه إلى مديح أمراء المخلاف السليمانى وكانوا يتبعون الدولة الرَّسُولية ، كما وجهه إلى الرسوليين وأمرائهم وولاتهم وإلى الأمراء الزيديين فى جهة صَنْعاء وصَعْدة . ولا تُعْرَف سنة ميلاده ، والمظنون أنه ولد فى العقد الثانى أو أوائل العقد الثالث من القرن السابع ، وإن كان هناك من يظن أنه ولد فى أوائل هذا القرن ، غير أننا لا نجد له شعراً فى السلطان عمر بن على بن رسول نور الدين المتوفى سنة ٦٤٧ بينما يُعد بحق شاعر ابنه السلطان المظفر (٦٤٧ — ٦٩٤ هـ) وحفيده السلطان الأشرف (٦٩٤ — ٦٩٦ هـ) . ويبدو أنه توفى لزمنه إذ لا نجد له مديحاً فى أخيه المؤيد (٦٩٦ — ٧٢١ هـ) الذى استولى على صولجان الحكم بعده . وكان يتخذ شعره

---

(١) تاريخ الشعراء الحضرميين ١ / ٤٤ .

(٢) راجع فى ترجمة ابن هتيمل مقدمة تحقيق ديوانه لمحمد بن أحمد عيسى العقيلى ، وانظر العقود اللؤلؤية للخزرجى فى مواضع متفرقة (راجع الفهرس) والديوان مطبوع بدار الكتاب العربى بالقاهرة سنة ١٩٦١ .

متجراً ، فهو يمدح به المظفر وأسرته وعماله ، كما يمدح أمراء المخلاف السليماني وأعيانه ، والأئمة الزيديين وفى مقدمتهم الإمام أحمد بن الحسين ، وأمراء ظَفار ، وأمراء قبائل حلى بن يعقوب ، ويروى أنه قال فى أميرهم أحمد بن على الحرامى الكنانى من مدحة طويلة :

إن الملوك بنو يعقوبَ قاطبةً　　قطعاً وكلُّ ملوكٍ بعدهم سُوَقُ

والسوق جمع سوقة وهى الرعيَّة وبلغت المدحة سَمْعَ المظفر الرسولى ، فاستشاط غضباً حين سمع هذا البيت وطلب ابن هتيمل ليطير به طيرة بطيئاً سقوطها حتى إذا مثل بين يديه وأنشده البيت حَنِقاً ، تخلَّص تخلصاً لطيفاً ، قائلاً : أطال الله عمر السلطان ! إنما قلت : «وكل ملوك غيرهم سُبَق» فاستحسن تخلصه [١] ، وله فيه كثير من المدائح البديعة من مثل قوله

أغرُّ رسوليٌّ يَزُرُّ قميصَهُ　　على القمر التِّمِّ الخِضَمِّ الغَضَنْفَرِ
أعمّ سماحاً من سماحةِ حاتمٍ　　وأعظم بأساً من بَسَالةِ عَنْتَرِ

وقوله [٢] :

هَدْىٌ كَهَدْىِ رسولِ الله مُتَّبَعٌ　　ما سار آلُ رسول الله فى السِّيَر
وعزمةٌ كلُّ حدٍّ من صَرامتها　　أمضى من الموت أو أمضى من القدَر
لو أن هَيْبته أو بعضَ هيبتهِ　　تُلْقَى على الفلك الدوَّار لم يَدُر

ونسيجه اللفظى متين قوى ، وكلماته تروق السمع بجرسها وبحسن انتقائها ، إذ كان يعرف كيف يصطفى لفظه وكيف يلائم بين كلماته ملاءمات تلذ الأذن حين تصيخ إليها وتلذ اللسان حين ينطق بها وهو بحق صائغ ماهر . وممدوحه الثانى بعد المظفر فى ديوانه الإمام الزيدى أحمد بن الحسين ، وفيه يقول فى إحدى مدائحه [٣]

حفظ الله أحمداً حيثما كا　　نَ وجادتْه دِيمةٌ مِـدْرارُ
الشريفُ الشريفُ والجوهرُ الجو　　هر والخالص النُّضَارِ النُّضارُ
سَيِّدٌ أمُّه البَتولُ وجَدَّا　　هُ المُثَنَّى وأحمد المختارُ

والبتول : السيدة فاطمة الزهراء ، والمثنى : الحسن بن الحسن بن على جد الممدوح وأحمد المختار الرسول ﷺ ، وواضح ما فى لفظ ابن هتيمل من سهولة وعذوبة ، وهو عادة يقدم لمدائحه بغزليات تسيل رقة وخفة . كقوله فى مقدمة هذه القصيدة :

---

(١) انظر فى هذا الخبر مقدمة الديوان .
(٢) الخزرجى ١٥٩/١ .
(٣) الديوان ص ١٥٥ وشعر الغناء الصنعانى للدكتور محمد عبده غانم ص ١٧٩ .

يا قَضيباً من فِضَّةٍ يُقْطَفُ النَّرْ جِسُ من وَجْنَتَيْهِ والجُلَّنارُ
قُرْ طَوْقُه الهلالُ ومن شمـ ـسِ الدياجى فى ساعديه سِوارُ
عجباً منكِ تحت بُرْقعك النا رُ وفيه الجنَّات والأزهارُ
والليالى الطوالُ تنحتُ من جسـ ـمىَ ما أبقت الليالى القصارُ

وبيِّنٌ ما يتضمن هذا الغزل من روعة التصاوير، فالقد الرشيق لصاحبته قضيب أو غصن من فضة يقطف منه النرجس والجلنار إشارة إلى جمال عينيها وخدودها، وقلادة الفضة تطوِّق جيدها، بينما نور الشمس يلتف حول ساعديها سواراً، ويعجب أن تتوهج النار نار وجنتيها تحت برقعها بينما بجانبها الجنات من النرجس والجلنار والأزهار. وتطول به الليالى سهراً وسهاداً، حتى لتُضنيه، بل حتى كأنما تنحت جسمه، مخلِّفة له الألم والشحوب. ودائماً يلقانا هذا الغزل والنسيب الرائع فى مقدماته لمدائحه على شاكلة قوله فى استهلال مدحة ثانية لأحمد بن الحسين:

إذا جئتَ الغَضَا– ولك السلامَهْ فصارِحْ بالتحية رِيمَ رامَهْ (١)
وقل للوائليّة هل لروحى وما أتلفتِ من جسدى غَرامه
حَللتِ تِهامةً وحللتُ نجداً فأينَ وأين نَجْدٌ من تِهامَهْ

وسارت القصيدة مسيرة أختها السابقة وعارضها كثير من الشعراء، ولا ريب فى أنه كان يغنَّى بها كما كان يغنى بأختها الرائية السالفة. ومن طريف نسيبه:

أراك تروحُ ما ودَّعتَ نَجْدا ولا أحدثتَ بالعَلَمَيْن عَهْدا
ولا صافحتَ أهل الرَّمْل كَفًّا فكفًّا فيه أو خَدًّا فخدًّا
ضلالٌ ما أتيتَ من التجافى ألا بُعْدًا لما أضمرتَ بُعْدا
وكيف سلوتَ عن أرضٍ بأرضٍ يَفُوحُ تُرابُها مِسْكاً ونَدًّا (٢)

والأبيات تسيل رقة وعذوبة، ويُرْوَى أن بعض الوجهاء فى اليمن جاءه طلب عاجل من أحد الأمراء بأن يفد عليه لأمر مهم، وكانت زوجته اتخذت زينتها له أوشيئاً من زينتها، فلما رأته يهم بالخروج تعرضت له منشدة قول ابن هتيمل.

أراك تروح ماودَّعتَ نَجْدَا ولا جَدَّدتَ بالعَلَمين عَهْدا

فابتسم الزوج وأجَّل زيارة الأمير[٣]. وفى هذا الخبر ما يشير بوضوح إلى أن أهل اليمن رجالاً ونساء كانوا يتداولون شعر ابن هُتَيمل فى حياته وبعد مماته. وكان المغنون يتغنون فى بعض

---

(١) الغضا: من شجر نجد وبواديها. الريم: الظباء. ورامة: موضع بنجد.
(٢) الند: عود يتطيب به، طيب الرائحة.
(٣) مقدمة الديوان ص ٨.

أشعاره بل قد يغنون له بعض مدائحه بما يتقدمها من غزل ونسيب وما تذيع من ثناء ومديح . وله مراثٍ لزوجته وبعض أهله تفيض بالأسى واللوعة الممضة كقوله فى أخ وأخت له ماتا فى أسبوع واحد :

مضتْ ما ابيضَّت الضَّفِراتُ منها ومات وما بدا شَعَرُ العِذارِ
فأيُّهما على الخلوات أبْكى أبدرُ التِّمِّ أم شمسُ النهارِ

وفى الحق أن ابن هتيمل كان شاعراً مجيداً سواء فى مراثيه أوفى غزله ونسيبه أوفى مدائحه ، وهو فى المدائح يسجل أحداث عصره وماكان فيه من وقائع حربية ، وخاصة حروب السلطان المظفر ، مما جعل الخزرجى ينشد كثيراً من أشعاره فى العقود اللؤلؤية .

أحمد بن سعيد الخروصىّ الستالىّ (١)

عُمانى من وادى خَروص ، ومن قرية منه تسمى ستال ، وفيها ولد سنة ٥٨٤ وبها نشأ وتلقن الشعر واللغة والنحو والبلاغة وفى هذا دليل واضح على ما نقول من أن الثقافة العربية كانت منتشرة فى كل ركن من أركان الجزيرة ، بل فى كل قرية ، ومثلها الثقافة الإسلامية ، فقد كان الناشئة يبدءون بحفظ القرآن ، ويقعدون فى حلقات بعض الشيوخ لسماع العظات وشىء من التفسير للذكر الحكيم وبعض الأحاديث النبوية . ولما شب الستالى عن الطوق غادر قريته إلى عُمان ، وأخذ فيها ينهل من موارد العلم والعلماء فى عصره . وحين أنس من نفسه تدبيج المدائح قصد بها حكام عمان السنيين من بنى نبهان ، ويسجل شعره كثيراً من أحداث زمنه ، وخاصة ماكان بين بنى نبهان وبين الفرس من حروب ، فقد كانوا يكثرون من الإغارة على ديارهم ، غير أنهم كانوا يعودون دائماً مدحورين على نحو ما يصور ذلك الستالى فى مديحه للأمير النبهانى كهلان سنة ٦٥٠ وكذلك فى مديحه للأمير النبهانى عُمر بن نبهان بن عمر بن محمد بن عمر بن نبهان سنة ٦٧٤ وهو وأبوه نبهان وعمه أبو القاسم على وكذلك عمه محمد تتردد أسماؤهم فى مدائحه ومراثيه فى الديوان ، من ذلك قوله فى أبى القاسم على مادحاً ومهنئاً بالعيد :

أبا القاسمِ الميمونَ أوتيتَ فى الدُّنَى من الفضل ما لم يُؤتَ عُجْمٌ ولا عُرْبُ (٢)
لك الشِّيَمُ الغَرَّاءُ والهمم العُلا وأنت السِّنانُ الصَّدْقُ والمُرْهَفُ العَضْبُ (٣)
أبا القاسم اسْلَمْ وَابْقَ للمجد وادعاً وحَلَّ بشانيك المخافةُ والرُّعْبُ

---

(١) انظره فى تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان لنور الدين السالمى ١ / ٣٠٣ وراجع مقدمة ديوانه .

(٢) الدُّنَى : جمع دنيا .

(٣) المرهف : السيف . العضب : القاطع .

وعِيِّذْ سعيداً في علاءٍ ورفعةٍ وطول يدٍ مالاحتِ السَّبْعَة الشُّهْبُ [١]

وواضح أن صوت الشاعر يحمل غير قليل من الجزالة والرصانة ، وفيه استواء وتناسق وما يدل على أن الشاعر كان يُحْكم كلمه ويصوغها صياغة جيدة دون أى نبوٍّ والتواء ، وله يمدح نبهان بن عمر من قصيدة طويلة :

أنبهانُ إنك من عصبةٍ نَمَاها إلى المجد قَحْطَانُها
همُ العين فى يَعْرُبٍ كلِّها وأنت من العَيْن إنْسانُها
إذا طُلِبَتْ مكرُمات العلا بدا فى جَبينك عُنْوانُها
فعشتَ وبُلِّغْتَ من سَيِّدٍ مُنَـــاكَ وسرَّك لُقْيانها
ولازال يغدوك فى نعمةٍ شبابُ الحياة ورَيْعانُها

والأبيات تصافح الآذان فى خفة ، وهى تموج بالحركة ، وكأنما أعدَّها لكى تغنَّى وتملأ الحلوق بحلاوة رناتها ، وانظر إلى تكملة البيت الرابع : «وسرَّك لقيانها» فإنك تحس القدرة على تكملة البيت بقافية تروعك ، إذ لم تكن تتوقعها ، وكنت تحار كيف يأتى بها .

ويبدو أنه كان يكثر من الرحلات إلى العراق ، ففى أشعاره ذكر لبعض بلدانها مثل تكريت وهيت والجزيرة ، وكان يمد رحلاته إلى جزيرة زنجبار شرقى تنزانيا ، ونراه يمدح سَبَّخْت وغيره من أعيانها ، وفيه يقول :

إذا أنت أبصرتَ فى الدَّسْتِ سَبَّخْـ ـتَ كالشمس أنكرتَ خلقَ العبادِ
سما بمعالٍ وفضلٍ كمالٍ وحُسْنِ فعالٍ وصَفْوِ اعتقادِ
جرىءُ القتال غداةَ النِّزالِ ببيض النِّصال وسُمْرِ الصِّعادِ [٢]

ويكثر من تقديمه لمدائحه بالنسيب ، وهو – كغيره من شعراء الجزيرة العربية يكثر من التغزل بالأعرابيات ووصف جمالهن وسحرهن وكيف يشغفن القلوب ، وخاصة حين يرحلن ، فتتبعهن الأفئدة ، من مثل قوله :

لمن الظعائنُ ظُلَّعُ الأحْدَاجِ وقفتْ لشأنٍ وانثنتْ لمعاجِ [٣]
رفعوا هوادجَ كالسَّفين وكِلَّةً محفوفةً بالوشْيِ والدِّيبَاجِ [٤]
فيهن كلُّ معيدةٍ عُلَقَ الهوى بجمالها ودلالها الخَلاَّجِ [٥]

وهو يبدئ ويعيد فى وصف هذا الترحال الذى يقف أسباب المودة والحب ، والذى

---

(١) السبعة الشهب : الكواكب السبعة السيارة .
(٢) الصعاد : جمع صعدة وهى القناة .
(٣) الأحداج : الهوادج . معاج : انعطاف .
(٤) الكلة : ستارة الهودج .
(٥) علق : جمع علقة وهى التعلق . الخلاج : الخلاب .

يملأ قلوبَ العشاق فى البوادى فتنة وإغراء وصبابة ، ويذيبها أسى وحسرة ، فتذكر العهود والأطلال والربوع وأكناف الحمى ، وقد غابت الأقمار وأظلمت الدنيا ، وعم المحبين اليأس وتعمقهم الحزن . وقد يجعل الستالى المقدمة لقاء بهيجاً على شاكلة قوله :

قَصَرْن الخُطا وهَزَزْنَ الغُصونا ... وَرَقْرَقْنَ تحت النِّقاب العُيونا
ووشَّيْنَ بالتِّبْر بيضَ التراقى ... وغَشَّيْنَ سودَ الفروع المتونا
وأقبلن يَخْطِرْنَ مَشْىَ الهُوَيْنَى ... ويُبْدين من كل حسنٍ فنونا
فلما عَرَضْنَ لنا سافراتٍ ... أَعَدْنَ الهوى وبَعَثْنَ الشُّجونا

والأبيات تصور فرحة الستالى باللقاء وبرؤية صاحبته تسير وسط صواحبها ، وقد ترقرقت عيونهن بالدموع ولكن دموع الابتهاج وإنهن ليبدين زينتهن ، ويخطرن دلالاً ، ويسفرن عن وجوههن ، فتتلألأ الدنيا بجمالهن من حول الستالى ، ويعود الحب كما كان فتنة لا يستطيع إفلاتاً منه ولا خلاصاً . وللستالى خمريات ، يجمع فيها بين وصف الرياض والغزل ونعت الخمر والغناء من مثل قوله :

هاتِ اسقنى الرَّاحَ فى راووقِها عَلَلا ... وعاطِنى فى الحديث اللَّهوَ والغزلا
أما ترى نفحاتِ الصيف قد نشرتْ ... من النبات على وَجْه الثَّرى حُلَلا
والروضُ يختال فى زَهْرِ البهاء وقد ... غدا الثَّرى بفنون الوَشْى مشتملا
وشادنٍ يتهادى فى الصِّبا غَيَداً ... مَيْسَ القضيب تثنَّى ثُمَّت اعتدلا [١]
يَسْعَى علينا بنورٍ فى زجاجته ... لولا حدوثُ مزاجِ الماء لاشتعلا
وقينةٍ أنطقتْ صوتَ الكِران وقد ... غنَّتْ بَسيطاً على الأوتار أو رمَلاَ [٢]
والشَّرْبُ قد مزجوا صَفْواً خلائقهَم ... كما مزجتَ بماء المُزْنة العَسلا

ونحس بروح أبى نواس تطلّ علينا من خلال هذه الخمرية التى تصور مجلس أنس فى بستان وساقية تتثنى جمالاً ، تسعى على الشَّرْب بدَنِّ الخمر أو دنانها ، وقينة تشدُّ أوتار العود وتغنى عليه ألواناً من الغناء ، وكأننا فى مجلس من مجالس أبى نواس التى كانت تزخر باللهو والقصف . وهذا الجانب فى ديوان الشاعر يلتقى بجانب آخر من الدعوة إلى الزهد ورفض متاع الحياة ، ويتضح ذلك فى مراثيه إذ يتحدث فيها عن الحياة والموت وأن الدنيا ومتاعها إلى فناء ، وله ميمية كلها ثناء على الله وآلائه ، وقد ختمها بدعوة حارة إلى الانصراف عن الدنيا ومتاعها الزائل .

---

(١) غيدا : لينا وتثنيا . ميس : تمايل .

(٢) الكران : من أدوات الطرب ويسمى به العود والصنج . والبسيط والرمل من أوزان الشعر .

وتكثر فى أشعاره الحكم وربما كان يأتسى فيها وفى غزله بالأعرابيات البدويات بالمتنبى . وربما كان يأتسى به أيضاً فى شكواه الكثيرة من الدهر وما يصبُّه عليه وعلى الناس من فواجع وكوارث . وفى ديوانه بعض مخمسات طريفة ، وله لامية كلامية كثيرٍ يلتزم فى نهايتها أو قافيتها اللام قبل التاء ، ولكن من الحق أنه لم يكن متصنعاً فى أشعاره ولا متكلفاً ، وكأن ما وُهبه من ملكة شعرية أصيلة حال بينه وبين التكلف والتصنع ودفعه دفعاً إلى أن تكون أشعاره سلسة سائغة .

علىّ بن المقرَّب العُيونى (١)

شاعر من أسرة العُيونيِّين حكام الأَحْساء والبحرين من سنة ٤٦٦ إلى سنة ٦٣٣ وقد ولد سنة ٥٧٢ وعاش نحو ستين عاماً إذ توفى سنة ٦٣١ وديوانه يصور ثقافة لغوية وأدبية وإسلامية ، وهو يمتلئ بإشارات تاريخية ، إذ كثيراً ما يذكر تاريخ العرب القديم وأيامهم وملوكهم وملوك الفرس الأولين . ومما يدل على ثقافته الأدبية واتساعها كثرة معارضاته لقصائد المتنبى والشريف الرضى ومهيار ، مما يؤكِّد أنه أكبَّ على دواوين الشعراء النابهين وخاصة هؤلاء الثلاثة يتزود منها ويتخلَّق فيها . ويبدو أن الشعر جرى على لسانه فى باكورة حياته ، وسرعان ما قدمه إلى أمير أسرته محمد بن أبى الحسين (٥٨٤ - ٦٠٣) وهو أهم أمراء الأسرة العيونية جميعاً ، وقد شمل سلطانه البحرين بمدنها مثل القطيف والأحساء وجزرها مثل أُوال التى يطلق عليها الآن اسم البحرين . ودانت له قبائل نجد الشرقية ، ولعل ذلك ما جعل الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ) يعهد إليه بخفارة الحجاج من العراق إلى مكة ذهاباً وإياباً مع رسمٍ سَنِىٍّ فَرَضَه له . وفيه يقول على بن المقرب :

رِماحُ الأعادى عن حِماك قصارُ   وفى حَدِّها عما تروم عِثارُ
وكلُّ امرئٍ ليستْ له منك ذِمَّةٌ   يُضامُ على رَغْمٍ له ويُضَارُ
فَعِشْ فى عظيم الملك مالاح كوكبٌ   وأظلم ليلٌ أو أضاء نهارُ

ويحدث أن تفكر طيئ فى قطع الطريق على الحجاج سنة ٥٩٨ فينكل بها تنكيلاً شديداً ، ويشيد ابن المقرب ببسالته فى الحرب وانتصاره . وتضع بعض قبائل الشام يدها فى يد طيئ وتحاول الإغارة على الحجاج ، فيمزقهم محمد بن أبى الحسين شر ممزق . ويعم الأمن ربوع البحرين ونجد الشرقية جميعاً ، غير أن يداً آثمة تمتد إلى هذا الأمير الشجاع ،

(١) انظر ترجمته فى ساحل الذهب الأسود ص ٢٣٢ وتحفة المستفيد بتاريخ الأحساء فى القديم والجديد ومقدمات طبعات ديوانه وقد طبع فى الهند ودمشق والقاهرة . وراجع مقالاتنا عنه فى مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، الجزء الثامن والثلاثين .

فتغتاله ، ويبكيه شاعره ويندبه ندباً حارًّا بمثل قوله :

لِيَبْكِ العُلا والمجد والبأسُ والنَّدَى لقد صَلَّ واديها وَجَفَّتْ مسايلُه (١)
وتَنْدُبه البِيض الصوارمُ والقَنا لما أَهملتْها كفُّه وأناملُهْ
لقد مُنِيَتْ منه الأعادى بثائرٍ هُمامٍ أَبَى أن يَحْمل الضَّيْمَ كاهلُه

وطبيعى أن لا تفتح أبواب قاتليه الذين خلفوه فى دست الحكم لابن المقرَّب ، بل لقد زَجُّوا به فى السجن وصادروا أمواله ، ورُدَّت إليه حريته وخرج من السجن فرحل إلى العراق ، ونزل البصرة ومدح حاكمها باتكين بن عبد الله الرومى فى سنة ٦٠٥ ودخل بغداد ومدح الخليفة الناصر ، وتعرَّف على بعض علمائها وأدبائها . ورأى العودة إلى موطنه وأن يحمل معه طائفة من أعمدة الحديد للاتجار فيها . وألمَّ بواسط فى طريقه فطالبه ابن الدبيثى ضامن المكوس بضريبة كبيرة بلغت نصف ثمن بضاعته ، فصبَّ عليه جام هجائه بمثل قوله :

يابن الدَّبيثىِّ اللعين لقد رمتَ المحال فغُصتَ فى بَحْرِ
خُنْتَ الخليفةَ فى رعيَّته وعَصَيْته فى السرِّ والجَهْرِ

ومر بالبصرة فطالبه ضامن المكس بها ببعض الضرائب ، أو بالضريبة المقررة ، فاستجار منه بممدوحه باتكين أمير البصرة ، وينشده مدحة طويلة يقول فيها :

يا شمسَ دينِ الله كم لك من يدٍ يُثْنِى بها بادٍ ويشهد حاضرُ
ادْفَعْ بجاهك أو بمالك مُنْعماً عَنِّى فمالُك للعُفاةِ ذخائر

ويعود إلى موطنه ويقدم مدائحه إلى أمير الأحساء محمد بن على بن عبد الله الذى ردَّ إليه حريته ، ويأمل أن يرد عليه أمواله وبساتينه ، ولكنه لا يرد عليه شيئاً . ويحدث أن ينهض الفضل بن الأمير محمد بن أبى الحسين بأخذ الثأر لأبيه من قتلته ، ويصبح الحاكم العام للبحرين ، ويقدِّم إليه على بن المقرب مدائح كثيرة ، ولا يَحْظَى منه بشىء أو بما كان يأمله . وسرعان ما يثور عليه ابن أخيه على بن ماجد ، وتثور معه البحرين لتوقيعه معاهدة بينه وبين أمير جزيرة كيش تنازل له فيها عن بعض جزر البحرين ، مع تقديم خمسمائة دينار له سنويًّا ، ويفرح الشاعر بهذه الثورة ويدبج فى على بن ماجد مدائح كثيرة من مثل قوله :

أضحتْ بك الأحساءُ ساكنةً وقد رجفتْ بمن فيها وكادتْ تُقْلَبُ
وملأْتَها عَدْلاً وكانت عُمِّمَتْ جَوْراً تغورُ به الدِّيار وتَخْرَبُ

(١) صل : أجدب .

ويثور مقدم بن غَرير العيونى ، ويستخلص حكم البحرين لنفسه بمساعدة بعض عشائر عبد القيس النجدية . ويئس ابن المقرب لما صارت إليه أداة الحكم ، فأبناء الأسرة يتحاربون ، والحكم يفسد ويضعف . ويولِّى وجهه نحو العراق ويمتدح باتكين والى البصرة والخليفة ببغداد فى سنتى ٦١٣ و ٦١٤ . ويعود إلى موطنه ، وقد أصبح زمام الحكم بيد محمد بن مسعود ، ويمتدحه ويمتدح أخاه الفضل على بن مسعود الذى تحولت إليه مقاليد الأمور بعده ، بمثل قوله :

رفعتَ عِمادَ المجد من بعد ما وَهَى   ورَثَّ وأضحى رُكْنُهُ وهْوَ مائلُ
وقمتَ بأحكام الشريعة فاستوتْ   لديك ذوو الأجبال : طَىٌّ ووائلُ

ويترك البحرين إلى العراق فى سنة ٦١٧ ويمتدح باتكين فى طريقه إلى بغداد ويمتدح الخليفة الناصر ، ويوغل فى رحلته إلى الشمال حتى الموصل وديار بكر ويمتدح بدر الدين لؤلؤا مدبِّرَ الحكم فيها لسلطانها القاهر بن نور الدين أرسلان شاه ، وفيه يقول :

أرسى قواعدَ ملكٍ لو يدبِّرُهُ   كسرى وإسكندرٌ أعيتْهما الحِيَلُ

ويمد رحلاته إلى الملك الأشرف موسى بن العادل الأيوبى صاحب حَرّان وديار الجزيرة ، ويشيد ببلائه مع أخيه سلطان مصر الكامل فى قتال الصليبيين بدمياط وسحقهم سحقاً ذريعاً حين أغاروا عليها فى السنوات ٦١٥ — ٦١٨ وفيه يقول من مدحة طويلة :

سلِ الكُفْرَ من أَوْهَى بدمياطَ كفرُه   وقصَّر أَعْلَى فرعه وهْو باسقُ
وقد جاءت الإفرنجُ من كلِّ وِجْهةٍ   كأنَّ تَداعيها السيولُ الدوافق
فولَّوا فمكبوبٌ على أمِّ رأسِهِ   لَدُنْ ذاكَ لم يَنْفُقْ وآخر نافق (١)

ويعود ابن المقرب إلى موطنه ، فيجد أداة الحكم قد أصابها فساد لا صلاح لها بعده ، إذ وضع أمير البحرين الفضل البلاد تحت تصرف البدو من بنى عُقَيل ، فأفسدوا زروعها وثمارها ، حتى أصبح البستان الذى تبلغ قيمته مائتى دينار يباع بدينار واحد أو بثوب أو بشاة ، ويأسى لذلك فى شعره أسى عميقاً . وشعر ابن المقرَّب يعدُّ بحق سجلاًّ تاريخيًّا لأسرته وحكمها البحرين ، فكل من عاصرهم صوَّر حكمهم وأحوال البلاد فى أيامهم ، وله قصيدة ميمية سجَّل فيها تاريخ أسرته منذ مؤسسها الأول حتى زمنه ، مفاخراً مباهياً ، وفيها يفخر بأن جده عبد الله بن على قضى على القرامطة وما أذاعوا فى البلاد من عقيدتهم الفاسدة ، يقول :

سَلِ القرامطَ من شَظَّى جَماجمهم   فَلْقاً وغادرهم بعد العُلا خَدَما (٢)

---

(١) ينفق : يهلك .

(٢) شظى : حطم .

ويسترسل مبيناً أنهم كانوا أبطلوا الصيام والصلاة وهدموا المساجد ، فطهر البلاد منهم ، ويمضى فى القصيدة مسجلاً مآثر أبنائه وأحفاده لمدة قرن من الزمان . والديوان يمتلىء بفخر عنيف . وإذا كانت مدائح ابن المقرب سجلت تاريخ أمراء أسرته وأعمالهم ومآثرهم فإنها سجلت أيضاً جوانب من أعمال الخليفة الناصر ، وكذلك واليه باتكين حاكم البصرة فقد ضمن مدائحه له أعماله بمثل قوله :

بنى بالبصرة الفَيْحاءِ سُوراً يُضاهى السَّدَّ سَبْكاً وانعقادا
وزيّنها بأسواقٍ أرانا بها كلَّ البِلاد لها سوادا [1]
وكم من مشهدٍ ورباط زُهدٍ ومدرسةٍ بَنَى وهُدًى أفادا

ويردد فى مدائحه بجانب ذلك أنه بنى المدارس وأقام فيها علماء الفقه والحديث والتفسير وألحق بها المكتبات النفيسة ، ومدائح ابن المقرب بذلك تعد وثائق ذات أهمية بعيدة فى تاريخ عصره ، ولا نبعد إذا قلنا إنها هى الوثائق الوحيدة فى تاريخ الدولة العيونية ، لأن تاريخ حكامها لم يعن به المؤرخون .

عبد الصمد بن عبد الله باكثير [2]

الشعراء الثلاثة السابقون من شعراء القرن السابع الهجرى ، أما عبد الصمد بن عبد الله باكثير فمن شعراء القرن الحادى عشر وهو حضرمى ، ولد فى تَرِيس سنة ٩٥٥ للهجرة وتوفى بحَضْرَموت فى سنة ١٠٢٥ . تلقن علومه وحفظ القرآن الكريم فى مسقط رأسه ، واختلف إلى العلماء فى المدن الحضرمية . وحين سال الشعر على لسانه اتجه به أولا اتجاهاً صوفيًّا على عادة أهل إقليمه ، وأخذ يستغله فى مديح بعض الحكام والأعيان ، حتى إذا تحول صولجان الحكم فى حضرموت إلى عمر بن بدر أبى طويرق المتوفى سنة ١٠٢١ للهجرة أصبح شاعره المفضل ، وليس ذلك فقط ؛ بل أصبح أيضاً منشئ الرسائل فى عهده ، وكذلك فى عهد ابنه عبد الله (١٠٢١ – ١٠٢٤) . حتى إذا تنازل عن الحكم لأخيه بدر طلب الشاعر إعفاءه من العمل بديوان الرسائل . ولم يكد يدور العام حتى لبى نداء ربه . وجمهور مدائحه فى عمر بن بدر من مثل قوله :

---

(١) السواد : الريف بزروعة وقراه .

(٢) انظر فى ترجمة عبد الصمد خلاصة الأثر للمحبى ٢ / ٤١٨ وكتابه نفحة الريحانة ٣ / ٥٤٦ وملحق البدر الطالع ص ١٢١ وسلافة العصر ص ٤٦١ وتاريخ حضرموت السياسى ١ / ١٣٣ ، و٢ / ١٧١ وتاريخ الشعراء الحضرميين ١ / ١٩٠ وله ديوان كبير لما يطبع .

عُمَرُ الذى أَحْيا المكارمَ وابْتَنَى ... للمجد بيتاً دونه الجوزاءُ
فيه الزمانُ تفاخرتْ أيامُه ... وتعطَّرتْ بوجوده الأحياء
ملكٌ تفجَّر من منابع مجدهِ ... كرمٌ وحلمٌ واسعٌ ووَفاء

وكان لا يزال يروح ويغدو عليه بمدائحه وخاصة فى أعياده وفى الاحتفال بانتصاراته ، مردداً دائماً الثناء على خصاله وشجاعته وكرمه ، ومن مدحة له فيه :

إذا نابنى خَطْبُ الزمان فإننى ... إلى عُمر الخيرات بى ينتهى السَّيْر
مواهبُه موصولةٌ بمواهبٍ ... إذا ضنَّتِ الأنواءُ واحتبَس القَطْر (١)
له فى النَّدا أيدٍ تَسُحُّ بَنانُها ... لُجَيْناً وإبْريزاً ونائلُه غَمْرٌ (٢)

ومن مدحه الرصين فى عمر بن بدر تهنئة له بانتصاره على بعض أعدائه من رجال القبائل الثائرين عليه وعلى حكمه ، وفيها يقول مهنئاً :

نصرٌ عزيزٌ من الرحمن قارنَه ... فَتْحٌ وطالِعُه بالسَّعْد يَبْتَدرُ
من كان معتصماً بالله كان له ... عَوْناً وسار بما يختاره القَدَرُ
لما تألَّبتِ الأعداءُ واعتصموا ... بحَبْل غدرهمُ باءوا بما غدروا
فأمكن الله منهم فانثنَوْا هَرَباً ... كمثل مانفرتْ من قَسْوَرٍ حُمُرُ (٣)

وكان يخلص للسلطان عمر بن بدر إخلاصاً مصفى ، ولذلك أكثر من مديحه ، حتى إذا توفى أحس بحزن بالغ ولوعة ممضَّة ، مما جعله يرثيه مراثى حارة يبكى فيها خصاله الكريمة وما فقدته رعيته فيه ومحبوه من جود وعون وعفو عند المقدرة من مثل قوله :

هَوَى من سماء المجد كوكبُها القُطْبُ ... فأظلمَ فى أقطارنا الشَّرْقُ والغربُ
تضعضَع طَوْدُ المجد وانهدَّ رُكْنُه ... فيالكَ رُكْناً قد تضمَّنه التُّرْبُ
ثَوَى عُمَرُ الخيرات أكرمُ من سعى ... إلى ساحِهِ تَطْوِى سَبَاسِبَها النُّجْب (٤)
لقد كان للعافين ظِلاًّ وملجأً ... وللجاهل الإغضاءُ والصَّفْحُ والعَتْب (٥)

وله مرثية ثانية فيه تكتظ بزفراته ولوعاته . وله غزل رقيق يزخر بمشاعر فياضة ، تدل على أنه كان يجد أحياناً وجداً شديداً ، حتى ليقع فى شباك بعض النساء ،

---

(١) الأنواء : الأمطار .
(٢) تسح : تهطل . اللجين : الفضة ويريد الدراهم . الإبريز : الذهب ، ويريد الدنانير . والنائل : العطاء . غمر : كثير .
(٣) قسور : أسد . الحمر : حمر الوحش .
(٤) ساح : جمع ساحة . السباسب : المفاوز . النجب : الإبل الكريمة .
(٥) العافون : طلاب المعروف .

ويطول تعثره فيها ، وقد انقطعت به الحِيل فى الخلاص فيفزع إلى دموعه ، على شاكلة قوله :

يا ظَبْيَ وادى الأَجْرَعِ رِفْقاً بصبٍّ مولَعِ
يبكى أسًى وصَبابةً بكــآبـةٍ وتـوجُّـعِ
ودموعُه فوق المحَا جرِ كالغيوث الهُمَّعِ (١)
ويقول من وجدٍ ومن كمَدٍ بقلبٍ موجَعِ
حَيَّا المرابعَ والرُّبَا غيثٌ كفائض أدمعى
يَهْمِى على تلك الدِّيا رِ بوابلٍ لا يُقْلِعِ

فهو يبكى بدموع غزار لا تزال تنهمر كأنها أمطار ، ولا يزال يلتاع لوعات شديدة ، كلها أوجاع وأوصاب وآلام . ويكثر غزله الرقيق من مثل قوله :

ولى من العُرْبِ ظَبْىٌ ما رأى بصَرى شِبْهًا له فى الورى بَدْواً ولا حَضَرا
الوردُ فى خَدِّه المحمرِّ من خَجَلٍ يدعو إلى حُسْنه الفتَّانِ مَنْ نظَرا
كم ليلةٍ زارنى فيها على وَجَلٍ مستعجلاً خائفاً مستوفزاً حَذِرا (٢)

وتصويره لخوف المحبوبة فى البيت الأخير من أن يراها أحد معه رائع ، فهى عجلة حذرة لا تكاد تطمئن ، واختار بدقة شاعريته كلمة «مستوفزاً» ليصور فيها هذه الحركة النفسية ، فكأنها دائماً مستوفزة تتهيأ لفراقه وتتأهب لوداعه . وله بعض خمريات طريفة يجمع فيها بين الروض والخمر والغناء والصَّحْب ، مصوراً بذلك بعض مجالس أنسه كقوله :

تلاعبتْ مَرَحاً فى روضها القُضُبُ كشاربى خَنْدَريسٍ هزَّهم طَرَبُ (٣)
قُمْ يا نديمى فقد نادى الهَزازُ إلى صَهْبَا مُشَعْشَعَةٍ تُجْلَى بها الكُرَبُ (٤)
يديرها رَشَأٌ كالشمس طَلْعَتُهُ وكفُّه بِدَمِ الصَّهْباء مختضِبُ
فى روضةٍ أخذتْ بالزَّهْر زُخْرُفَها وازَّيَّنَتْ وتَجلَّتْ كلّها عجَبُ

ولم يكن اللهو غالباً على حياته ، فمثل هذه الخمرية ومَيضٌ كان يلمع حيناً فى سمائها وسرعان ما يخبو ، وقد أمضى شطراً كبيراً من حياته بائساً يشكو الفاقة قبل اتصاله بعمر بن بدر أميره ، ولذلك نجد عنده قطعاً يشكو فيها من حظه العاثر ، نذكر منها قوله :

(١) الهمع : الهاطلة السائلة .
(٢) مستوفزا : متحفزا للقيام .
(٣) القضب : الأغصان . الخندريس : الخمر .
(٤) الهزار : طائر صغير الحجم حسن الصوت . الصهباء : الخمر . المشعشعة : الممزوجة بالماء .

أرانى إذا ما الليلُ جاشتْ كتائبُهْ ‏ أبيتُ وقلبى حائرُ الفكر ذاهبُهْ
تبيتُ أفاعى الهم فى غَيْهب الدُّجَى ‏ تُساورُ قلبى بالعَنا وتُواثِبُهْ (١)
ومالىَ فيما قد دهانىَ حيلةٌ ‏ أُدارى بها دهرى إذا ازورَّ جانبه (٢)
فيارَبِّ ياذا المَنِّ والفضل والعَطا ‏ أغثْنى فموجُ الهمِّ فاضتْ غَواربُهْ (٣)

وتصوير عبد الصمد الهم بأفاع لا تزال تواثبه طوال الليل تصوير طريف ، وشعره فيه سهولة وعذوبة ويجنح كثيراً إلى استخدام ألفاظ اللغة اليومية ، ولعل ذلك ما جعله ينظم بعامية موطنه بعض أشعاره ، وكان يستخدم الموشحات أحياناً فيجيد فيها لسلاسة ألفاظه وكلماته .

٤

شعراء المراثى

بجانب مجرى المديح الذى كان يتدفق بالشعر من قديم كان يتدفق مجرى الرثاء ، فلم يمت حاكم ولا قائد ولا وال ولا قاض فى أقاليم الجزيرة العربية إلا رثاه الشعراء وأبنوه تأبيناً يفيض بالأسى والحزن ، وكثُر فى هذا العصر تأبين الشيوخ والفقهاء والمعلمين ، يؤبنهم تلاميذهم وزملاؤهم ويبكون فيهم خصالهم وخسارة العلم والعلماء فيهم ، من ذلك تأبين شهاب الدين محمود بن مسكِّن القرشى الفهرى لشيخه نجم الدين الطبرى قاضى مكة ، وفيه يقول (٤) :

ما للجفون بها التَّسْهِيدُ قد نزلا ‏ وما لطيب الكَرَى عن مُقْلتى رَحلا
ما بالُ قلبِى بتَذْكار الهموم له ‏ شُغْلٌ ودمعىَ إن كَفَفتُه هَملا
نجمٌ أضاء علينا صُبْحُ طُرَّته ‏ حتى إذا ما انجلتْ أيامه أفَلا
مفتاحُ كنزِ علوم الدين كم فُتِحتَ ‏ بهِ بصائرُ قومٍ للوَرَى ذُلُلاَ

ووراء مراثى الشيوخ والعلماء فى الحجاز مراث كثيرة فى أمراء مكة الزيديين حين يلبون نداء ربهم ، وبالمثل تلقانا مراثٍ كثيرة للأئمة الزيديين فى اليمن ، كما تلقانا مراث أخرى لدعاة النحلة الإسماعيلية الفاطمية من الصليحيين وآل زريع ، وسنعرض لها فى حديثنا عن

(١) تساور : تواثب .
(٢) ازور : مال وانحرف .
(٣) غواربه : أعاليه .
(٤) العقد الثمين ٣ / ٣٢ .

شعراء الدعوة الإسماعيلية .

وفى كل زمن وكل دولة تلقانا مراثى الشعراء ، ونفس من ترجمنا لهم من شعراء المديح نجد بجانب مدائحهم مراثى كثيرة على نحو ما نجد فى ديوان ابن هُتَيْمل ففيه باب خاص بالمراثى ، وهى تتردد عنده بين الندب والتأبين ، أما الندب فعلى أبنائه وإخوته ، وزوجته وقد بكاها فى مرثيتين ، يقول فى إحداهما [١] :

يعزّ علىّ أنْ عَظُمَ المصابُ ... ولا صَبْرٌ لدىَّ ولا احتسابُ
بنفسى عَصْرَ يومِ السَّبْت نَعْشٌ ... تداولهُ المناكبُ والرِّقابُ
من الخَفِرات يُخْفِى الليلُ منها ... إذا ما جَنَّ مالا يُستَرابُ
تكفَّنُ فى الثياب فليت جلْدى ... لها كَفَنٌ وليت دمى خِضاب

والمرثية تمتلئ بمشاعر صادقة ، مشاعر شخص اكتوى قلبه بالحزن على زوجته ، ولم يعد أمامه إلا أن ينظم فيها أشعاراً تعبر عن لوعته وما يكتظ به فؤاده لها من وجد وصبابة . وله تأبين لبعض أمراء المخلاف السليمانى وحكام مسقط رأسه «نَجْران» بوادى «ضِمْد» من ذلك تأبينه لحاكمها «سلطان» صاحب ضِمْد جميعها بمثل قوله [٢] :

الرُّزْءُ أكبر أن يقوم بيومه ... جَزَعُ الرجال ورَنَّةُ النسْوانِ
ويلٌ لأمِّ الأرضِ ماذا ضُمِّنتْ ... من أَعْظُمٍ أُدْرِجْنَ فى الأكفانِ
ذاك النَّدى والبَأْسُ بين حَفِيرةٍ ... أطباقُها طُوِيَتْ على ثَهْلانِ
إن التمسُّك بالسماح وبالوَفا ... من بعده ضَرْبٌ من الهَذَيانِ

ولم يكن يموت سلطان من سلاطين الرسوليين إلا ويكثر الشعراء من تأبينه وذكر خصاله وأعماله وما نهض به فى دولته ، وربما بالغوا فى بيان الحزن فجعلوا الدين والدنيا والكواكب السماوية محزونة تبكيه ، على شاكلة افتتاح الخزرجى لرثائه السلطان الأفضل المتوفى سنة ٧٧٨ يقول [٣] :

بكتِ الخلافةُ والمقامُ الأعظمُ ... والمُلْك والدِّين الحنيفُ القيِّمُ
والشمسُ والقمر المنير كلاهما ... والأرضُ تبكى والسَّما والأنجم
والبَيْتُ والحَرَمُ الشريف بمكةٍ ... والحِجْرُ والحَجَرُ اليمانى الأَسْحم [٤]

---

(١) الديوان ص ٨٣ .
(٢) الديوان ص ٩٧ .
(٣) العقود اللؤلؤية ٢ / ١٦٠ .
(٤) الحجر بكسر الحاء : ماحواه الحطيم بالكعبة . الأسحم : الأسود .

ومدارسُ العلمِ الشريف وأهْلُه والمسلمون فصيحهُم والأعجَمُ

فالعالم كله يبكى الأفضل والحرم الشريف وكل ما فيه من مقدسات والأرض والسماء والنجوم ومدارس العلم وأساتذته وطلابه . ومضى يصور مجده وحروبه وكرمه وبأسه وانصياع أمراء اليمن له وعدله الذى عمَّ به رعيته . ولم يلبث أن جعل الشمس عليه كاسفة تنوح وتلطم والأرض راجفة تميد وتهتز والجو مغبَّراً مظلماً وبكل ركن من بلاده حسرة وبكل بيت مأتم . وكل هذا إسراف فى التأبين ومبالغات مفرطة . ويتولى الحكم بعده ابنه الأشرف ، وله مآثر كثيرة ، وتتوفى زوجه فى سنة ٧٩٦ فيرثيها جماعة من الشعراء ، وهى ظاهرة كانت تشيع فى اليمن منذ عصر الصليحيين ، إذ تؤبَّن سيدات الأمراء ، وتُعْقد لتأبينها الاحتفالات ، ويتبارى الشعراء فى وصف فضائلها وبكائها وندبها ندباً حارًّا ، بمثل قول الخزرجى [١] :

بكتْها السما والأرضُ يومَ وفاتها وأمسى سحابُ الأفْق أدمعُه تَسْرِى
على وجهكِ الميمون حيًّا وميِّتا سلامٌ يزيد العِطْرَ عطراً إلى العطرِ
سلامٌ على ذاك الجبينِ ورحمةٌ على شخصك المدفون فى ذلك القبر

ويتوفى الأشرف سنة ٨٠٣ ولإسماعيل بن أبى بكر المقرئ فيه مرثية بديعة [٢] . ويموج كتاب تاريخ الشعراء الحضرميين بمراثٍ كثيرة ، وهى تتردد بين الندب والتأبين والعزاء ، أما الندب فإننا نجد فى الكتاب شعراء كثيرين يبكون آباءهم مشيدين بتقواهم وعلمهم الفياض ، كقول محمد بن عبد العليم الخولانى فى رثاء والده [٣] :

تبكى عليه منابرٌ ومَحابرٌ تبكى عليه محاجِرٌ بدماءِ
فالله يُسْكنه الجِنانَ بفضله ويعمُّه بسوابغ النَّعْماء

وقد أطال فى وصف خسارة العلم والعلماء بفقده ، إذ يجعله مفسراً كالواحدى وقتادة وعطاء بن أبى رباح ، ومتصوفاً كمكى والغزالى ، ومحدثاً يدرس لطلابه صحيحى البخارى ومسلم وموطأ مالك ، وفقيهاً شافعيا يتقن درس أمهات الفقه الشافعى من مثل الوسيط فى المذهب للغزالى والمهذب للشيرازى والروضة للنووى . ويكثر تأبين التلاميذ لشيوخهم من الفقهاء والمتصوفة ، وقد يخلطونه بالعزاء كقول عبد الله بن جعفر العلوى فى شيخه عبد الله بن أبى بكر باحسن [٤] :

---

(١) العقود اللؤلؤية ٢ / ٢٥٤ .
(٢) نفس المصدر ٢ / ٣١٨ .
(٣) تاريخ الشعراء الحضرميين ٢ / ١٤٤
(٤) نفس المصدر ٢ / ١١٣ .

خطبٌ ألمَّ وهولٌ هائلٌ ورَدا ونازلٌ فتَّتَ الأحشاء والكَبدَا
وقد شُغفنا بدارٍ لا وفاء لها وشَمْلُ سكانها أضحى بها بَدَدَا (١)
والمرء فيها كظلٍّ زائلٍ نَسَخَت أفياءه ظلماتُ الليل إذ وفدا (٢)
والطَّرْف باكٍ وإن الأرض تبكى أسًى كلاهما يَنْدُبان السيِّد السَّندا
تاجُ الكرام شريفٌ طاب عُنْصره لمطلب المجد فى الآفاق كم ورَدا
نَسْلُ الأفاضل ينبوعُ الفضائل بل كنزُ الأماثل خيرُ الأكرمين نَدَا

وللشاعر نفسه مرثية ثانية فى شيخ آخر جعلها عزاء ودعوة إلى الإذعان للقضاء فالدنيا دار زوال وانتقال ، والأيام تمضى بالناس جميعاً إلى وادى الفناء والعدم ، والسعيد من سارع إلى المتاب واعتبر بمن يموتون كل يوم ، واتجه إلى ربه وعمل لآخرته . وهذه الصورة من المراثى كانت تعم فى كل مكان : فى عمان والبحرين ونجد ، فالمراثى دائماً ندب أو تأبين أو عزاء ، وقد تمتزج الصور الثلاثة ، ومن طريف ما نقرؤه للستالى شاعر عمان من رثاء قوله فى أبى محمد بن نبهان المتوفى سنة ٦٧٤ للهجرة يؤبنه :

رُزِئْنا هُمَاماً يَعْلم الأزدُ أنه إذا خطرتْ صِيدُ الملوك خَطِيرُها (٣)
تبوَّأ من قحطانَ بَيْتاً تُقِلُّهُ قواعدُ بنيانِ العَتيك وسورُها (٤)
فطال به أَصْلُ المعالى وفَرْعها وطاب له خَيْرُ المساعى وخِيرُها (٥)

ولابن المقرب العيونى مراثٍ مختلفة فى بعض القضاة وبعض أهله ، ولعل من الخير أن نخص بالحديث شاعرين من شعراء المراثى هما : محمد بن على التهامى وجعفر الخَطِّى البَحْرانى .

التِّهامى (٦)

هو أبو الحسن على بن محمد الشاعر المشهور بلقبه التهامى أى المكى ، إذ تسمى مكة باسم تهامة . ولذلك يقال الرسول ﷺ تهامى ، لأنه من مكة . وتطلق تهامة على الساحل الممتد على طول الجزيرة شرقى الحجاز بين مكة واليمن ، ولكن نسبة الشاعر إنما هى إلى مكة

(١) بددا : متفرقاً .
(٢) أفياءه : ظلاله .
(٣) الصيد : السادة .
(٤) العتيك : عشيرة ابن نبهان الأزدية .
(٥) خيرها بكسر الخاء : خيارها .

(٦) انظر ترجمة التهامى فى تتمة اليتيمة ١ / ٣٧ ودمية القصر ١ / ١١٠ والنجوم الزاهرة ٤ / ٢٦٣ وشذرات الذهب ٣ / ٢٠٤ وابن خلكان ٣ / ٣٧٨ وعبر الذهبى ٣ / ١٢٢ وديوانه مطبوع بمطبعة الأهرام بالإسكندرية سنة ١٨٩٣ .

إذ ينسب نفسه إليها فى بعض شعره حين نزلت به كارثة السجن فى آخر حياته كما سيأتى قائلاً عن نفسه :

وهذا التهامىُّ من مكةٍ   برجليه يَسْعَى إلى حَتْفِهِ

ولا يُعْرَفُ زمن مولده ، وتدل مدائحه فى الديوان على أنه ارتحل من موطنه إلى العراق والموصل وديار بكر ، إذ بين ممدوحيه أناس من الكوفة وبغداد ومَيَّا فارقين وآمِد ونَصيبين ، وأيضاً بينهم قِرْواش (٣٩١ – ٤٤١ هـ) صاحب الموصل وبواديه . ويلاحظ أن ديوانه يخلو من مدائح أمراء مكة ، مما يدل على أنه غادرها مبكراً . ويبدو أنه بارح كل تلك الأنحاء إلى الشام كما يذكر صاحب دمية القصر ، وبها ألقى عصاه فى الرملة عند آل الجراح أمراء طيئ ، وقد عينوه خطيباً لبلدتهم . وفى ديوانه مدائح مختلفة لأميرهم المفرِّج دَغْفل المتوفى سنة ٤٠٤ ولعله أول من استقبله من آل الجراح أصحاب فلسطين ، وعاش فى رحابه ورحاب ابنه حسان (٤٠٤ – ٤٦٧ هـ) . وكانت نفسه حدثته بالشغب على الفاطميين – على عادة آبائه – فرأى أن يرسل التهامى إلى بنى قُرَّة فى صعيد مصر كى يحدثوا شغباً عليهم ، وأرسل معه كتباً كثيرة إليهم . فقدم القاهرة مستخفياً فى سنة ٤١٦ غير أن الفاطميين ظفروا به ، فاعتقلوه فى سجن خزانة البنود فى السادس والعشرين من شهر ربيع الآخر ، وظل به إلى أن توفى – أو قُتل – فى تاسع جمادى الأولى من نفس السنة .

والتهامى يُعَدّ فى الذروة من شعراء الجزيرة فى هذا العصر ، وفيه يقول صاحب الدمية : «له شعر أدقُّ من دين الفاسق ، وأرقُّ من دمع العاشق ، كأنما رُوِّح بالشَّمال (الريح) أو عُلِّلَ بالشَّمول (الخمر) فجاء كنَيْل البغية ودرك المأمول» وقال ابن تغرى بردى : «كان من الشعراء المجيدين وشعره فى غاية الحسن» ونقل ابن خلكان عن ابن بسام قوله عنه فى كتابه الذخيرة : «كان مشتهر الإحسان ، ذرب اللسان ، مخلًّى بينه وبين ضروب البيان ، يدل شعره على فوز القِدْح ، دلالة بَرْد النسيم على الصبح ، ويُعْرب عن مكانه من العلوم ، إعراب الدمع عن سر الهوى المكتوم» . وقد اشتهر بمرثيات له فى ابنه أبى الفضل الذى هصرت المنون غصنه النضير تحت عينه ، وأهم تلك المراثى رائيته ، وهو يستهلها واعظاً ، بقوله :

حُكْمُ المنيَّة فى البَرِيَّة جارِى   ما هذه الدنيا بدارِ قَرارِ
طُبِعَتْ على كدَرٍ وأنت تريدها   صَفْواً من الأَقْذاء والأكدارِ
ومكلِّفُ الأيامِ ضِدَّ طباعها   متطلِّبٌ فى الماء جذوة نارِ
والعيشُ نَوْمٌ والمنيَّة يَقْظةٌ   والمرءُ بينهما خيالٌ سارِى

فاقضوا مآربكم عِجالاً إنما أعمارُكم سَفَرٌ من الأسفارِ
ليس الزمانُ وإن حَرِصْتَ مسالماً خُلُقُ الزمانِ عداوةُ الأحرار

وبمثل هذه العظات التى تمس دخائل القلوب وأعماق النفوس يفتتح التّهامى مرثيته لفلذة كبده ، مصوراً الدنيا وكئوسها المليئة بالأقذاء وأيامها التى تدنى الآجال وتقطع الآمال ، وتجعل الإنسان دائماً بين يومين : يوم مضى بنكده وبؤسه ويوم بقى لا يدرى الإنسان هل سيقطعه إلى نهايته أو أن أنفاسه ستنقطع دون غايته ، فتَخْرج منه النَّفْس ويحل فى الرَّمْس ويتجه بعد هذا العزاء الذى يذيب فؤاده حسرات إلى بكاء ابنه الذى اختطفه الموت منه وهو لا يزال غَضًّا فى كِمِّه :

يا كوكباً ما كان أقصرَ عمرَه وكذاك عُمْرُ كواكبِ الأسْحارِ
وهلالَ أيامٍ مضى لم يَسْتَدِرْ بَدْراً ولم يَمْهَلْ لوقت سِرَارِ[١]
جَاورتُ أعدائى وجاور ربّه شتّانَ بين جِواره وجِوارى
أُخْفِى من الرُّقباء ناراً مثلما يُخْفِى من النار الزِّنادُ الوارى
وتلهُّبُ الأحشاءِ شيَّبَ مَفْرِقى هذا الضياءُ شعاعُ تلك النارِ

ويمضى فى وصف زفراته وعبراته ونيران الأسى تلذع فؤاده ، وقلبه يمتلئ حسرة وشقاء ونفسه تمتلئ لوعة وعناء ممضًا ، وما الحياة ؟ إنها لم تعطه ما كان يريد من ابتسام بل أعطته كل ما أمكن من أذى وآلام ، وإن ذكرى ابنه لهى نفس هذه الآلام الثقال ، وإنه ليحس إزاءها بحريق لا يزال يأخذ بسويداء فؤاده . والمرثية تمتد إلى مائة بيت ، ومثلها فى الطول مرثية رائية لابنه تبلغ ٧٨ بيتاً وفيها يقول محزوناً :

محاك الرَّدَى من رَأْىِ عينى وما محا خيالَك من قلبى وذكرَك من ذكرى

وهو من شعراء المديح المبدعين ، ويكاد المديح يستنفد شعره جميعه ، وهو فيه طويل النفس ، ومن خير مدائحه ما قدمه للمفرِّج الطائى وابنه حسان ، وفيه يقول :

فتًى جُبِلَتْ يداه على العطايا كما جُبِل اللِّسانُ على الكلامِ
ويُسْراهُ لنَيْــــلٍ أو عِنــانٍ ويُمْناه لرُمْحٍ أو حُسام[٢]
لقد أحيا المكارمَ بعد موتٍ وشادَ بناءها بعد انهدام
بصَفْحة خَدِّه للبِشْر ماءٌ كمثل الماء فى صَفْحِ الحُسَام[٣]

(١) السرار : ليالى آخر الشهر التى لا يظهر فيها القمر .
(٢) النيل : العطاء . والعنان : عنان الفرس .
(٣) الماء هنا : الرونق .

سواءٌ عنده قولُ المنادى هَلُمَّ إلى الطِّعان أو الطعامِ

وواضح فى مديحه سهولة الشعر عليه وأنه يُطْلق نفسه على سجيتها ، فيأتى بكثير من المعانى الطريفة والصور البديعة ، على نحو ما يلاحظ فى صورة البيت الأول ، فهى صورة بسيطة ، فالعطايا فى يد مفرج كالكلام فى لسانه لا يزال يرسلها ، ومثل هذه الصورة فى الطرافة صورة البيت الأخير ، فممدوحه لا يزال فى حشد من جوده وبأسه على طعامه وطعانه . وفيه يقول فى مدحة ثانية :

هو السالبُ الأعداء فى ساحة الوغَى ويَسْلُبه فى ساعة السِّلْم زائرُهْ
يخبِّرنا عن جوده بِشْرُ وجهِهِ وقبلَ انصداع الفَجْر تبدو بشائره
ويَصدُق فيه المَدْحُ حتى كأنما يسبِّح مِنْ صِدْق المقالة شاعرُهْ

والبيتان الأخيران تتضح فيهما الفكرة التى أشرنا إليها آنفاً وهى سهولة كلمه مع طرافة صوره ، مما يدل على فطرة شعرية أصيلة عند الشاعر ، ومن قوله فى مديح حسان بن المفرج من مدحة طويلة :

هو المَلْك يُبْلى بُسْطَهُ قبْل وقتها سجودُ ملوكٍ فوقها وقيامُها
بعيدُ مَداه ليس تألف كفُّه من المكرمات الغُرّ إلا جِسامُها
ولو أن للأقمار ضوءَ جَبينه لما زال عنها نُورها وتمامُها
وليس بمشغولِ البَنان عن النَّدَى إذا شَغَلَ الكفَّ اليمينَ حُسامُها

وواضح تخلصه فى البيت الأخير من أن تكون بنان الممدوح مشغولة دائماً بالسيف ، فتُشْغَلَ عن العطايا والكرم ، وتكثر فى أشعاره مثل هذه التخلصات والصور الدقيقة . وله نسيب بالديار وغزل رقيقان ، وكثير منها يقدِّم به مدائحه ، على شاكلة قوله فى إحدى مقدمات مدحة دالية :

أترومُ تغطيةَ الهوى بجحودِهِ ونحولُ جسمك من أدلِّ شهودِهِ
كم قلتُ إياك الحجازَ فإنّه ضَرِيَتْ جآذرُهُ بصَيْد أسوده
وأردتَ صَيْدَ مَهَا الحجاز فلم يُسا عدك القضاءُ فصرتَ بعض صُيودِه
أُخْفِى هواه وهْو نارٌ مثلما يُخْفِى الزنادُ ضِرامه فى عوده

والصورة فى البيت الثانى بديعة فظباء الحجاز أو جآذره تصيد أسوده ، ويحاول صيد المها فيصبح من صيودها ، ونار الحب كامنة فى فؤاده كمون نار الزناد فى عوده . ونحس دائما بأن الصور والمعانى طبيعية ، وكذلك الألفاظ فهى سلسة سائغة عذبة . وفى أشعاره حكم وزهد ورفض للدنيا ومتاعبها ، ومن طريف حكمه قوله :

وإذا جفاك الدَّهْرُ وهْو أبو الوَرَى طُرًّا فلا تَعْتِبْ على أولادهِ

فمن جفاه الدهر أو قلب له ظهر المجن ينبغى أن لا ينزل جام غضبه على الناس ، لأن ما أصابه إنما هو من أبيهم الدهر وليس منهم ، وما كان الابن ليسأل عما قدمته يد أبيه . والحق أنه كان شاعراً مبدعاً ، وكان الشعر طوع لسانه ومدَّ خيالاته ومشاعره .

جعفر الخَطِّىّ (١)

من قبيلة عبد القيس التى نزلت فى الأحساء والقَطيف وبواديها منذ العصر الجاهلى ، والخَطِّىّ نسبة إلى الخَطّ وكان يطلق على مدينة القَطيف وعلى ساحل الإقليم كله ، ولا يُعْرفُ زمن مولده ، ويبدو أنه نشأ فى القطيف ، وفيها حفظ القرآن وتلقَّن على الشيوخ مبادئ الكتابة والقراءة والعربية ، وسال ينبوع الشعر على لسانه ، واتخذه — مثل لداته — حرفة يتكسب بها منذ أواخر القرن العاشر الهجرى ولم يلبث أن غادر مسقط رأسه إلى جزيرة أُوال التى تسمى فى عصرنا باسم البحرين ، حاملاً مدائحه إلى بعض أمرائها وقضاتها وعلمائها ، واستقبلوه استقبالاً حسناً ، وأسبغوا عليه بعض عطاياهم ، وخاصة وزير أمير البحرين ركن الدين محمد بن نور الدين وقاضيها عبد الرءوف البحرانى . ولا توافى سنة ١٠١٢ للهجرة حتى يرحل إلى إيران وينزل شيراز ، ويتردد بينها وبين أصفهان ، ويلتقى فى الأخيرة ببهاء الدين العاملى صاحب كتاب الكشكول ، ويعارض بعض قصائده ويعجب بهاء الدين به وبشعره ، وكان يقدمه هناك لبعض ممدوحيه ويجزلون له فى العطاء مما جعله يفضل الإقامة فى إيران حتى وفاته سنة ١٠٢٨ للهجرة . وقد أشاد به وبشعره ابن معصوم فى كتابه «سلافة العصر» قائلاً فى نعته : «البديع الأثر والعيان ، الحكيم الشعر الساحر البيان ، أتى بكل مبتدع مطرب ، ومخترع فى حسنه مغرب . وقد وقفت على فرائده التى لمعت ، فرأيت مالا عين رأت ولا أذن سمعت» . ومن محاسن مراثيه مرثيته فى الشيخ أبى محمد حسين البحرانى سنة إحدى وألف ، وفيها يقول :

جَذَّ الرَّدَى سببَ الإسلام فانْجذما وهدَّ شامخَ دين الله فانهدما
نبكى فَتًى لم يحلَّ الضَّيْمُ ساحته ولا أباحَ له غَيْرُ الحِمام حِمَى
ذا منظرٍ يُبْصر الأعمى برؤيتهِ هُدًى وذا منطقٍ يستنطق البُكَما

---

(١) انظر فى ترجمة جعفر الخطى سلافة العصر لابن معصوم ص ٥٣٢ وخلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر للمحبى ١ / ٤٨٣ ونفحة الريحانة ٣ / ٢٠٤ وساحل الذهب الأسود لمحمد سعيد المسلم ص ٢٣٥ وديوانه طبع فى إيران سنة ١٣٧٣ هـ .

لو علَّم الوحشَ ما يُنْشيه من حكَمٍ لراحتِ الوحشُ من تعليمه عُلَمَا
ما راح حتى حَشا أسْاعنا دُرَراً من لفظه وسَقى أذهاننا حِكَمَا

والتكلف فى هذا الرثاء واضح ، ويكشفه ما يحمل من مبالغات على نحو ما نرى فى البيت الأول والثالث والرابع ، وكان يكفى الشاعر أن يعلِّم صاحبه الناس فيصبحوا علماء ، أما أن يعلم الوحش فتتحول علماء على يديه ، فهذه مبالغة مفرطة . ويتوفَّى فى نفس السنة الشيخ أبو على عبد الله بن ناصر الخطى ، فيشيِّعه بمرثية ، يقول فى تضاعيفها :

فتًى كرمتْ آباؤه وجُدودهُ وطابتْ مساعيه فتمَّ له الفَخْرُ
جوادٌ له فى كلِّ أُنْمُلةٍ مجدٌ بصيرٌ له فى كلِّ جارحةٍ فكرٌ
ويا بلدَ الخَطِّ اعتراكِ لفقده مدى الدهر كَسْرٌ لا يُرامُ له جَبْرُ
من الآن بَدْءُ الشرِّ فيك وإنه لمتصلٌ باقٍ وآخره الحَشْرُ
ولو خلَّد المعروفُ فى الناس واحدا لخلَّد عبدَ الله نائلُه الغَمْرُ

وفرق بعيد بين لغة هذه الأبيات ومعانيها وصورها ولغة الأبيات السابقة وما تحمل من معان وصور ، فهنا طواعية ومرونة فى التعبير ، فالألفاظ يشيع فيها التناسق كما يشيع فى الأفكار والأخيلة . وقد يكون السبب فى ذلك أن الشاعر لم يصدر فى المرثية الأولى عن تأثر حقيقى بخلاف الثانية التى رثى فيها مواطنه الخطى . وطبيعى أن تكون أكثر أشعاره مدائح ، مثله فى ذلك مثل معاصريه ومن سلفوا قبلهم ، من ذلك قوله فى وزير أمير البحرين ركن الدين محمد بن نور الدين من مدحة طويلة نظمها فى سنة إحدى وألف للهجرة .

ملكٌ رَقَى دَرَجَ الفخار فلم يَدَعْ فيها لراقٍ بعده من مَطْمَعِ
وتناولتْ كفَّاه أشرفَ رتبةٍ لو قام يلمِسُها السُّهَا لم يَسْطَعِ (١)
أندى من الغيث الملثِّ إذا اجْتُدِى أحمَى من اللَّيْث الهِزبْرِ إذا دُعِى (٢)
حُيِّيتَ يا كسْرى الملوك تحيَّةً تُرْبِى على كسرى الملوك وتُبَّعِ

والتكلف واضح فى هذا المديح ، وتبدو فى الأسلوب رقع غير ملائمة ، ككلمة «قام يلمسها» وكلمة «اجْتُدِى» أى طُلبت جداوه وفائدته ، بالإضافة إلى كلمة «كسرى» المكررة فى البيت الأخير . وهو يستهل هذا المديح بنغمة أبى نواس المعروفة من الدعوة إلى الانصراف عن ذكر الأطلال إلى ذكر الخمر ، وله بعض خمريات . لعل أطرفها خمرية حائية يقول فيها :

---

(١) السها : كوكب صغير من نبات نعش الصغرى . القوى .

(٢) الملث : الدائم الملح . الهزبر : الأسد الضخم

عاطِنيها قبل ابتسام الصباحِ فَهْى تُغْنيكَ عن سَنَا المصباحِ
أنت تدرى أن المُدامةَ نارٌ فاقتدحْها بالصبِّ فى الأقداحِ
فَهْى تمحو بضوئها صِبْغَةَ الليـ ـل فيغدو وَجْهُ الدُّجى وهْو ضاحِ
أرْسِلَنْها وَردِيَّةً كدمِ الكَبْـ ـشِ أسالتْه مُدْيَةُ الذَّباحِ

وواضح أن التكلف يسرى فى هذه الأبيات ، وأن كلمة : «أنت تدرى» فى البيت الثانى أفسدت النَّسقَ فيه . والشطر الثانى فى البيت الثالث تكرار للشطر الأول ، وكان يكفيه أن يشبه الخمر بدم الكبش ولا يضيف كلمة «أسالته مدية الذباح» . ومع ذلك كله يعد جعفر الخَطِّى أهم شاعر ظهر فى زمنه بالقطيف والأحساء أو بعبارة أخرى بالبحرين ، وهو بلا ريب أشعر من ترجم له ابن معصوم فى سلافة العصر والمحبى فى نفحة الريحانة بالقياس إلى مواطنيه .

٥

شعراء الفخر والهجاء

ظل الفخر والهجاء نشطين فى هذا العصر نشاطهما فى العصور السابقة ، ولكن يلاحظ أن المصادر احتفظت بشعر الفخر أكثر من احتفاظها بشعر الهجاء ، ومرَّ بنا أن الطاهر الجزرى كان من شعراء قِرْواش صاحب الموصل وبواديه ، وله ثلاث أبيات يصف فى أولها وثانيها الليل وظلماته وفى الثالث فرسه ، واستطرد من وصفه فى كل بيت إلى هجاء شخص يقول [١] :

وليلٍ كوجه البَرْقَعِيدىِّ ظُلْمَةً وبَرْدِ أغانيه وطولِ قُرونهِ [٢]
قطعتُ دَياجيهِ بنومٍ مشَّردٍ كعقل سليمانَ بنِ فَهْدٍ ودِينه
على أَوْلَقٍ فِيهِ التفاتٌ كأنَّه أبو جابرٍ فى خَبْطه وجُنونهِ [٣]

ويبدو أن البرقعيدى كان مغنياً ويصفه ببرودة غنائه وسوء خلقه إذ كان قواداً ، والهجاء فى البيتين التاليين مقذع كما هو واضح . ومن الهجَّائين المقذعين القاضى العثمانى اليمنى وله مدائح فى أمراء زَبيد آل نجاح وفى غيرهم من أمراء الدول اليمنية ، ومن أقذع هجائه قصيدته فى الداعى على بن محمد الصليحى حين قتله سعيد بن نجاح أمير زَبيد ، وفيها

---

(١) الدمية ١ / ١٢٨ .
(٢) البرقعيدى : نسبة إلى برقعيد قرية بالموصل .
(٣) الفرس الأولق : شديد السرعة إلى درجة الجنون .

يصف مظلته التى كان يحتمى بها من حرارة الشمس ، وكيف أن سعيداً رفع على عمودها رأسه ، يقول [١] :

بكرتْ مِظلَّتهُ عليه فلم تَرُحْ إلا على الملك الأجلِّ سعيدِها
ما كان أقبحَ شخصَه فى ظلِّها ما كان أحسنَ رأسَه فى عودها
وأرادَ مُلْكَ الأَرض قاطبَةً فلم يَظفَرْ بغير الباع من مَلْحودها
سودُ الأراقم قاتلتْ أُسْدَ الشَّرَى يا رحمةً لأسُودها من سُودها

وكان آل نجاح إفريقيين من الحبشة كما مر بنا ، ولذلك كنى عنهم بسود الأراقم أى الأفاعى ، والقصيدة مليئة بالتشفى من الصليحى وبهجاء مرير . وللشيخ محمد بن سعيد المكى فى هجاء بعض أهل عصره [٢] :

اترُكِ العُجْبَ فما أنت سوى رجلٍ إما لضحْكٍ أو لغمّْ
كغُراب السوء يَمْشى مَرِحاً مُعْجَباً وهْو أخو الشُّؤْم الأذَمّْ
يَغْسِلُ الثَّوْبَ وفى أكتافهِ وسَخُ العِرْض وآلاتُ التُّهَمْ

ويلقانا الفخر فى كل مكان من الجزيرة على ألسنة الأمراء والشعراء ، ومر بنا فخر عارم لِقرْواش أمير الموصل وبواديه . ولبهاء الدولة منصور بن دبيس المزيدى (٤٧٤ - ٤٧٩ هـ) أمير بوادى الحِلَّة قصيدة يفتخر فيها بمثل قوله [٣] :

أولئك قومى إن أعُدَّ الذى لهم أُكرَّمْ وإنْ أفخرْ بهم لا أُكَذَّبِ
همُ ملجأ الجانى إذا كان خائفا ومأوى الضَّريك والفقير المعصَّبِ [٤]
بِطاءٌ عن الفحشاء لا يحضرونها سِراعٌ إلى داعى الصَّباح المثوِّبِ [٥]
مناعيشُ للمولى مَساميحُ بالقِرَى مَصاليتُ تحت العارض المتلهِّبِ [٦]

وهو يفتخر بقومه ، ويقول إنهم ملجأ الجانى يلوذ بحماهم ، فلا تمتد إليه يد ، ومأوى الفقراء والبؤساء ، مع اجتناب للمحرمات لا يقترفونها ، ومع مسارعة إلى الصلاة فى الفجر وطوال النهار ، ومع إنعاش للصحاب وكرم مدرار ونفاذ فى الشدائد . ومن طريف ما للرسوليين من فخرٍ موشحٌ للسلطان المجاهد الرسولى يستهله بقوله [٧] :

---

(١) الخريدة (قسم الشام) ٣/٢٣٣ ، ٣٧٧ .
(٢) سلافة العصر ص ٢٢٥ .
(٣) الخريدة (قسم العراق) ٤/١/١٥٨ .
(٤) الضريك : البائس . المعصب : الذى لا يجد قوته .
(٥) داعى الصباح : المؤذن . المثوب : الداعى إلى الفرائض والنوافل .
(٦) مناعيش : يمنعون من الهلاك . القرى : الضيافة . مصاليت : نافذون فى الأمور .
(٧) الخزرجى ٢/١٢٤ .

نلت أنا العزَّ بأطراف القَنا
ليس بالعجز المعالى تُجتَنى
نحن بالسيف ملكنا اليَمنا
كلُّ فخر تَدّعى الناسُ لنا أعرق العالم فى المُلْك أنا

وهو يفاخر بأسرته فخراً شديداً ، ويمضى فيسمى آباءه متحدثاً أو مفاخراً بشجاعته وجوده وبذله للمال وانتجاع العُفاة السائلين له وصَفْحه الجميل وعفوه . والفخر كثير فى اليمن ، غير أننا نتركها إلى حضرموت وشاعرها ابن عقبة المتوفى سنة ٦٩٥ وشعره يموج بالفخر من مثل قوله [١] :

إنى امرؤٌ عَفُّ الإزار عن الخَنَا لم أَغْشَ مُنْذ نشأتُ بابَ المنكَرِ
إنى على كَسْب العلوم مخيِّمٌ وبُكاىَ فى طلب العُلا وتحسُّرى
إنى من العَرب الذين نِجارُهم من خالصِ العِقْيان لبِّ الجَوْهَرِ
وتخذتُ أصحاباً إذا نادمتهم لم أَخْشَ منهم من يَنُمُّ ويَفْتَرى
عِلْمى وحِلْمىَ والحصانُ وصارمى ونَدَى يمينى والعفافُ ودفترى

وابن عقبة يفتخر بسجاياه الكريمة من العفة والارتفاع عن المنكر والتحلى بالعلم فهو حبُّه الذى يقف نفسه عليه ويبكيه بكاء المحبين لصواحبهم ، ويفاخر بأصله العربى ، ويحدثنا عن صحابه وندمائه من العلم والحلم والفروسية والبأس والجود والعفاف ودفاتر الدراسة ، ويطيل فى الفخر بقومه من خَوْلان وكَهْلان وكندة وملوكها الأقدمين . ويكتظ ديوان ابن مقرب العيونى بالفخر بآبائه والأمراء من أسرته حكام البحرين وبيان ما لهم من أمجاد ومآثر ، ويفخر كثيراً بنفسه وبشعره ، وقد يخلط فخره بالشكوى من الدهر ، على شاكلة قوله :

تجاهلَ هذا الدهرُ بى فتكتَّبتْ علىَّ بأنواع البَلايا كتائبُهْ
وإنى وإن أبْدَى اصْعِراراً بخدِّهِ وأَوْجَفَ بى وازورَّ للبغض جانبه [٢]
لأُغضِى على بغضائِه وازْوِرارِهِ وأعجبُ من حُرٍّ كريمٍ يعاتبه
وأستقبل الخطبَ الجليل بثاقبٍ من العزم يعلو لاهبَ النار لاهبُهْ

وكأنه يحس نفسه صخرة عاتية لا يستطيع الدهر مهما ألح عليه ببلاياه أن ينال منه شيئاً ، مهما أبْدَى من تكبر واستعلاء ومهما عدا عليه بكوارثه ، ومهما انحرف عنه وأظهر من

(١) تاريخ الشعراء الحضرميين ١ / ٦٧ وتاريخ حضرموت السياسى ٢ / ١٦٩ .

(٢) اصعرارا بخده : ميلا ، كناية عن الكبر. أوجف بالخيل : عدا بها للقتال . ازور : مال وانحرف .

بغضائه . وإنه ليلقاه بعزم كالشهاب الثاقب تعلو ناره على نيرانه وتخمدها فلا تشتعل ضده أبداً . ونقف عند شاعرين من شعراء الفخر والهجاء ، هما نَشْوان بن سعيد الحميرى وسليمان النَّبْهانى العُمانى .

نشوان بن سعيد الحِمْيَرِىّ(١)

من أهل جبلٍ شامخٍ مطلٍّ على «تعِز» اسمه صَبِر ، ولا يعرف بالضبط تاريخ مولده ، وتدل نسبته إلى حمير أنه من سلالتها ، وكان ملوكها يسمون بالأقيال والأذواء ، ونراه ينسب نفسه فى قصيدته الحميرية إلى قَيْل يُدْعَى ذا سَحر ، يقول :

أو ذو مراشدَ جَدُّنا القَيْل ابن ذى　　　سَحَرٍ أبو الأذواء رَحْبُ الساحِ

ويبدو أنه أكبَّ منذ نشأته على العلوم المختلفة ينهل منها ، حتى أصبح علماً فى اللغة والتاريخ والنحو والفقه والأصول وعلوم الأوائل وعلم الكلام ، وينص من ترجموا له على أنه كان معتزليا . وذكروا أنه اشتغل بالقضاء فى بعض مخاليف اليمن وأنه كانت له فى الفرائض (المواريث) وقسمتها يد . وله مصنفات مختلفة ، أشهرها «شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم» فى نحو ثمانية مجلدات ، وذكرنا فى الفصل الثانى أنه معجم لغوى ، وهو فيه لا يكتفى بالحديث عن اللغة بل يتسع بالحديث عن المعادن والحيوانات والنباتات والتاريخ وبعض مسائل الطب والفلسفة . وبذلك حوَّله إلى دائرة معارف لغوية وجغرافية وتاريخية ونباتية وحيوانية وطبية وقد طبع من القسم الأول إلى آخر حرف الثاء فى ليدن ، ثم طبع منه جزآن فى القاهرة إلى آخر حرف الشين ، ويتخلل الكتاب فخر عارم باليمن وفضائلها وملوكها الأولين . وله رسالة الحور العين وقد طبعت مع شرحها طبعة سقيمة . وطبعت له بالقاهرة القصيدة الحميرية مع شرحها المسمى «خلاصة» السيرة الجامعة لعجائب أخبار الملوك التبابعة ، وهى فى أكثر من مائة وثلاثين بيتاً ، استهلها بقوله :

الأمْرُ جِدٌّ وهْو غيرُ مزاحِ　　　فاعْمَلْ لنفسك صالحاً ياصاحِ

ومضى قليلاً فى الوعظ ثم خرجَ إلى تعداد ملوك التبابعة والأقيال والأذواء ، والقصيدة بذلك من الشعر التعليمى التاريخى . وقد نال شهرة مدوية فى وطنه

---

(١) انظر فى ترجمة نشوان معجم الأدباء ١٩ / ٢١٧ وإنباه الرواة للقفطى ٣ / ٣٤٢ والخريدة (قسم الشام) ٣ / ٢٦٨ و ٣٨٥ وبغية الوعاة للسيوطى ومقدمات محقق كتبه ومقالة المستشرق سترستين عنه فى الجزء الأول من كتاب المنتقى من دراسات المستشرقين (طبع القاهرة) ص ٧٥ .

لعصره ، لمعارفه الواسعة ، ويبدو أنه لم يكتف بالمجد العلمى فقد رأى أن يضيف إليه مجد الحكم والسلطان ، واستطاع فعلاً أن يستقل بجبل صَبِر موطنه وقلاعه وحصونه وأن يظل ممسكاً بصولجان الحكم فيه حتى وفاته سنة ٥٧٣ للهجرة . وما تأليفه القصيدة الحميرية إلا صورة من صور اعتزازه اعتزازاً لا حدَّ له بقحطانيته . وهو يسوق أشعاره جميعها فى هذه العصبية المغرقة لقحطان من مثل قوله :

منا التَّبابعةُ اليمانون الأُلَى ... ملكوا البَسِيطَة ، سَلْ بذلك تُخْبَرِ
من كلِّ مرهوبِ اللقاء مُعَصَّبٍ ... بالتاج غازٍ بالجيوش مظفَّرِ
تَعْنُو الوجوهُ لسيفه ولرمحِهِ ... بعد السجودِ لتاجه والمِغْفَرِ[١]
فافخَرْ بقحطانٍ على كل الوَرَى ... فالناس من صَدَفٍ وهم من جَوْهَرِ
وإذا غَضِبنا غضبةً يمنيَّةً ... قطرتْ صَوارِمُنا بموتٍ أحمرِ
فغَدَتْ وِهادُ الأَرْض مُتْرَعةً دماً ... وغدتْ شِباعاً جائعاتُ الأَنْسُرِ

والأبيات تحمل عصبية عنيفة ، وهى عصبية لا يشيد فيها بالملوك والتبابعة الأولين من قومه ، بل أيضاً لا تزال الحماسة تشتد به وتتأجج فى صدره ، حتى يجعل قحطان فوق الورى والناس جميعاً ، بل حتى يجعلهم من معدن غير معدنهم ، فهم من جوهر والناس من صدف ، ولا كغضبهم ، فغضبهم يملأ الوهاد دماً وأشلاء ما تزال تحط عليها النسور والصقور ، تملأ بطونها الجائعة . ولم يكتف بهذه العصبية الجامحة لقومه ضد مضر والعالم جميعه ، فقد اندفع فى نقائض مع الأشراف الرسيين أصحاب صَعْدة ، وشاع أنه قال :

أما الحسينُ فقد حواه المُلحَدُ ... واغتاله الزمنُ الخئونُ الأَنْكَدُ
فتبصَّروا يا غافلين فإنه ... فى ذى عَرارٍ وَيْحَكم مُسْتَشْهَدُ[٢]

وحين وصل البيتان إلى أسماع الرَّسِّيِّين غضبوا غضباً شديداً ، وعظم هياجهم ، وردوا عليه بعنف ، مهددين متوعدين بمثل قول عبد الله بن قاسم الزيدى :

أما الصحيحُ فإن أصلك فاسدٌ ... وجزَاك منا ذابِلٌ ومهَّندُ[٣]

فى قصيدة طويلة . ووصلت أسماع نشوان ، فلم يخلد إلى الصمت والسكوت ، بل مضى يردُّ بقصيدة دالية يقول فيها :

من أين يأْتينى الفسادُ وليس لى ... نسبٌ خبيثٌ فى الأعاجم يوجَدُ
لا فى علوج الروم جَدٌّ أزرقٌ ... أبداً ولا فى السُّود خالٌ أسود

---

(١) تعنو : تنقاد . المغفر : زرد يضعه المحارب تحت القلنسوة .

(٢) العرار : زهر بدوى ويقصد بذى العرار أن الحسين استشهد بالفلاة قرب الكوفة مكان النجف الحالية .

(٣) ذابل : رمح . مهندا : سيف .

ومضى يتنصَّل من البيتين السالفين . غير أنه ساق تنصله فى تهكم وسخرية لاذعة من تهديده بسفك دمه ، قائلاً :

فدَعِ التهدُّدَ بالحسام جهالةً ... فحُسامُكَ القَطَّاع ليس له يَدُ
من قد تركتَ به قتيلاً ؟ ! أنْبِنِى ... ممن توعَّدُه ومن تتهدَّدُ
إن لم أمتْ إلا بسيفك إننى ... لقَرِيرُ عينٍ بالبقاء مخلَّدُ

وكل هذا يمكن أن يحتمل من نشوان فى سبيل دفاعه عن نفسه ، ولكنه لم يلبث أن وصم جبينه وصمة لا تمحى بالأبيات التالية :

مُوتِى قريشُ فكلُّ حَىٍّ ميِّتُ ... للموت منا كلُّ حَىٍّ يولَدُ
قلتم لكم إرْثُ النُّبُوَّة دوننا ... أزعمتمُ أن النبوةَ سَرْمَدُ
منكم نبىٌّ قد مَضَى لسبيلِهِ ... قِدْما فهل منكم نبىٌّ يُعْبَدُ

وهذه سفاهة وخُرْق وحماقة ، ويقول العماد الأصبهانى تعليقاً على هذه الأبيات : « قاتله الله ولعنه وأخزاه ، ما أشد افتراه على الله وأجراه ، وأية فضيحةٍ فوق هذا ولولا النبى المصطفى الذى اختاره الله واجتباه ، وجعله الوسيلة إلى نَيْل رضاه ، صلوات الله عليه وسلامه ، ما سعدوا ولا فازوا ولا حازوا من الشرف والفضيلة ما حازوا » وحقاً إنها كلمات خبيثة كلها نكد وخزى وبوار ، ولو أن الشاعر وجَّه شعره وجهة أخرى غير وجهة هذه العصبية الخرقاء لكان ذلك له أفضل وأجدى .

سليمان النبهانى (١)

آخر سلاطين بنى نبهان العُمانيين ولا يُعْرَفُ تاريخ مولده ، وقد عاش حتى سنة ٩١٥ للهجرة وكانت حياته فى الحكم سلسلة من الحروب بينه وبين أخيه وبينه وبين خوارج نَزْوَى ، منها وقعة « حَممت » بينه وبين خوارج نزوى لعهد إمامهم عمر بن الخطاب ، وفيها انهزم عمر ، ودارت الأيام وانتصر عمر عليه ، وسرعان ما توفى فتنفَّس سليمان الصعداء وعاد إلى عاصمته وأخرج منها شيوخ الخوارج المقيمين بها . وحاربه الخوارج فى « واقعة أزكى » ودارت الدوائر عليه . ومازال به أبو الحسن بن عبد السلام الذى ولى أمر الخوارج بعد عمر بن الخطاب ، حتى غادر الديار إلى هُرْمُز فى أرض فارس ومات أبو الحسن فعاد واسترد سلطانه ، غير أن العمانيين بايعوا إمام الخوارج محمد بن إسماعيل الخروصى سنة ٩٠٦

(١) انظر فى ترجمة سليمان النبهانى تحفة الأعيان لنور الدين السالمى ١ / ٣٢١ وما بعدها ومقدمة محقق ديوانه عز الدين التنوخى ، وهى مقدمة بديعة . والديوان مطبوع بدمشق .

ونشبت بينهما موقعة الحمة وهزم فيها سليمان ولم تقم له بعدها قائمة . وبذلك ضعفت دولة النبهانيين وكاد يقضى عليها قضاء نهائيا . وديوانه يفيض بثقافة لغوية وأدبية جيدة ، وهى ثقافة تتضح بجلاء خلال معارضاته الكثيرة للشعراء ، إذ كان يعارض أشعار الجاهليين من أمثال امرئ القيس وطرفة وعنترة وزهير وعمرو بن معد يكرب والنابغة والأعشى وأشعار الإسلاميين من أمثال جرير والفرزدق وذى الرمة وكثيِّر وقَطرىّ بن الفُجاءة وأشعار العباسيين من أمثال أبى نواس وأبى العتاهية وأبى تمام والبحترى وابن دريد والمتنبى وأبى العلاء . وقد تتبع محقق الديوان الأستاذ عز الدين التنوخى ذكره للمواطن والأماكن التى نثرها امرؤ القيس فى أشعاره ، كما تتبع أخذه من عنترة ومعارضته لطرفة فى معلقته وعمرو بن معد يكرب فى داليته وابن دريد فى مقصورته وأبى نواس فى خمرياته وما تطوى من معان وصور وأوزان وقواف ، ولاحظ معارضته لأبى العلاء فى قصيدته (ألا فى سبيل المجد) وأنه استعار منه المعانى وكثيراً من الألفاظ كما استعار الوزن والقافية ، على شاكلة قوله :

ألا فى سبيل المجْدِ ما أنا صانعُ ... نَفُوعٌ وضَرَّارٌ ومُعْطٍ ومانعُ
وإنى لذو طَعْمين شَهْدٌ يشوبه ... رحيقٌ وسمٌّ دونه السُّمُّ ناقع

ولكن من الحق أنه مع هذه المعارضات الكثيرة فى ديوانه وإغاراته على معانى الأسلاف وأخيلتهم وأفكارهم شاعر مجيد يحسن رَصْف الكلم . والموضوع الأساسى فى ديوانه هو الفخر ، وهو شىء طبيعى ، لأنه كان سلطاناً وصاحب دولة ومن فخره الذى يصور فيه بسالته وشجاعته :

يميناً بالصَّــوارم والحِرابِ ... وبالخيل المسوَّمةِ العِرابِ (١)
وكُلِّ مُفاضةٍ كالنِّهْىِ سَرْدٍ ... تَرُدُّ العَضْبَ مفلولَ الذُّباب (٢)
أنا ابنُ السابقين إلى المعالى ... ورغمُ الصِّيد والشُّوسِ الغِضابِ (٣)
أنا الملكُ الذى ساد البَرايا ... مَقَرُّ الفخر والحسب اللُّبابِ
ولى يومان من نُعْمَى وبُؤْسَى ... ولى طعمان من أَرْىٍ وصابِ (٤)

ويتضح لنا من هذه الأبيات صوته فى الفخر ، فهو يُقْسم بأدوات الحرب والبأس أنه

---

(١) المسوَّمة : المعلمة . العراب : الجيدة .

(٢) المفاضة : الدرع . النهى : الغدير . والشعراء يشبهون الدروع وغضونها بمياه الآبار حين تمر بها الريح فتحدث فيها حركات وغضونا . سرد . منسوجة . العضب : السيف . الذباب : حده .

(٣) الصيد : السادة . الشوس : جمع أشوس وهو المتعاظم الذى يتيه بنفسه زهواً .

(٤) الأرى : عسل النحل . الصاب : المر .

سليل السابقين إلى الشرف : شرف النسب وشرف الفعال ، ويتمدح بأنه كالمنذر بن ماء السماء الذى كان يتخذ له يومين كل عام يوم نعمى ويوم بؤسى وأن له طعمين حلواً ومرًّا . وهو يلتقى مع نشوان بن سعيد فى الإكثار من الفخر بقحطان وملوك اليمن وأقيالها بمثل قوله :

ونحن ملكنا الجنَّتين بمأربٍ ودُسْنا برغمٍ أَنْفَ كِسْرَى وقَيْصَرِ

ويكثر من تعداد أسماء هؤلاء الأقيال والملوك ، ولكنه لا يبلغ من التيه بهم والزهو مبلغ نشوان ، وإن كنا نحس عنده أيضاً نغمة الفخر على نزار حين يردِّد ما قدمه الأنصار للرسول ﷺ وما أدوه من جهاد فى سبيل إعلاء الإسلام وما بذلوا من الأرواح والأموال ، على نحو ما نرى فى قوله :

ولولا الملوكُ الصِّيدُ قومىَ لم يُقِمْ لعمرىَ قومٌ قِبْلَةَ الصَّلواتِ
ضَرَبْنا على الإسلام أبناءَ هاجرٍ فدانوا وأدّوا واجبَ الزَّكوات

ويقصد بأبناء هاجر قريشاً ، وهى أم إسماعيل عليه السلام كما هو معروف . وكثيراً ما يبالغ مبالغات مفرطة فى فخره تتجاوز الحدود كقوله :

وهبَ الإلهُ لىَ الفضائلَ مثلما أعطى الكليمَ الصُّحْفَ والأَلْواحا

والكليم هو موسى عليه السلام ، وما كان أغناه عن مثل هذه المبالغة . ويُكثر فى ديوانه من ذكر الأطلال والغزل ، وهو فيهما مقلد يحتذى على معانى الأسلاف وصورهم . ويتعرض كثيراً لوصف الناقة ، وأهم من وصفه لها وصفه للفرس لأنه يتصل بشجاعته وحروبه ، غير أنه لا يأتى فى الوصفين بجديد ، ويكثر من ذكر الصيد وهو طبيعى لأمير يجد فراغاً كثيراً . وله قصيدة ميمية يصف فيها حمار الوحش وأتنه ومسيرته معها فى الصحراء بحثاً عن ماء حتى إذا ألمَّ به أرسل عليه وعلى الأتن صائدٌ متربص وراء الأشجار سهامه ، فأخطأت الصيد ومضى الحمار وأتنه عبر الصحراء . ويتلو هذا المشهد بمشهد ثان لمعركة بين ثور وكلاب صائد ، ويذكر لنا لون الثور ومبيته بين أشجار تقيه صوب الغمام ، حتى إذا أسفر الفجر وخرج الثور من كِناسه أرسل الصائد عليه خمسة كلاب ، فقتل منها اثنين ، ومضى يشق طريقه فى الفلوات مثيراً للغبار من حوله . والمشهدان منقولان حرفيًّا من بائية ذى الرمة المشهورة التى عرضنا لها فى كتابنا «التطور والتجديد فى الشعر الأموى» ولم يلتمس الشاعر منه المشهدين فحسب ، بل التمس أيضاً بعض عباراته ومعانيه ، حتى وصف ذى الرمة لثوره بأنفته من الفرار من المعركة نجده عند النبهانى إذ يقول :

واعتاده أَنَفُ الكريـ ـمِ فكرَّ كالبطل المحامى

وللخمر حَيِّز كبير فى الديوان ، ويستظهر الأستاذ عز الدين التنوخى أنه كان يطلق لنفسه العنان فى مطالع حياته ، ويقرن إحدى خمرياته إلى خمرية لأبى نواس ، ويبين مدى إغارته على معانيها وصورها وعلى الوزن والقافية ، ومن شعره فى الخمر قوله :

وكم جنَّةٍ فى الأرض دانٍ قطُوفُها بها غُرُفاتٌ أيّما غُرْفاتِ
قضينا بها أيامنا بمُدامةٍ لدى قاصرات الطَّرْفِ بين سُقاةِ
وحُورٍ كأمثال الدُّمَى وبَراغزٍ يُطَرِّبْنَنا بالنَّايِ والنَّغماتِ

وواضح أنه لكى يجمِّل صورة الجنة جاء بقاصرات الطرف اللائى يقصرن عيونهن على صواحبهن ولا يلتفتن إلى غيرهم ، كما جاء بالحور العين وأضاف إليهن أولادهن من البراغز وهن يطرِّبنهم بالضرب والعزف والغناء على الآلات الموسيقية . ويبدو أنه كثيراً ما كان يفكر فى الدنيا ونوائبها إذ نرى له بعض مواعظ فى ديوانه – وله رثاء حار لأخ ثار عليه وقتله – ولعل من الطريف أن نجده يختم بعض قصائده بالصلاة على الرسول ﷺ ، على شاكلة قوله فى خاتمة إحدى قصائده :

وأختمُ شعرى بذكر الرسولِ نبيٍّ البريَّة نورِ الظلامِ

وفى الحق أنه كان شاعراً مجيداً ، وتكثر معارضاته واقتباساته من الشعراء السابقين ، غير أن ملكته الشعرية كانت ملكة خصبة .

الفصل الرابع

طوائف من الشعراء

١

شعراء الدعوة الإسماعيلية

كان أول ظهور للدعوة الإسماعيلية فى الجزيرة العربية على يد حمدان قرمط الذى ينسب إليه القرامطة ، وقد أخذ يدعو دعوته القرمطية الإسماعيلية منذ فواتح الربع الأخير من القرن الثالث للهجرة فى سواد الكوفة والبصرة . وأرسل أحد دعاته المسمى أبا سعيد الحسن بن بهرام الجنَّابى إلى البحرين ، فنشر الدعوة فيها واستطاع فى سنة ٢٨٦ أن يؤسس بها لنفسه وأبنائه دولة هناك ، على نحو ما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع . وظلت دولته قائمة يتناوب عليها أبناؤه وأحفاده حتى سنة ٣٥٨ إذ قطعوا علاقتهم بالفاطميين نهائيا – ودخلوا فى طاعة الخليفة العباسى وخطبوا له على المنابر ، وبذلك يتضح كيف أن الأعصم أميرهم حارب الفاطميين – كما مرَّ بنا – تحت راية العباسيين سنة ٣٦٠ . وقد أرسل حمدان قرمط داعيين من دعاته إلى اليمن أحدهما يمنى هو على بن الفضل والثانى كوفى هو منصور بن حوشب ، واستطاع علىّ أن يستولى على صنعاء ، كما مر بنا فى غير هذا الموضع ، غير أنه قلب للقرامطة وللفاطميين ظهر المجن ، فأخذ يدعو لنفسه ، وزعم لأتباعه أنه نبى وأنه جاءهم بشريعة جديدة تحلّ لهم المحارم والمآثم وترفع عنهم الصلاة والصيام والحج ، ويروى أنه صعد يوماً المنبر وأنشد له أو لبعض شعرائه (١) .

خُذى العودَ يا هذِه واضْرِبى ... نُقيمُ شرائعَ هذا النَّبِى
تولّى نبىٌّ بنى هاشمٍ ... وجاء نبىٌّ بنى يَعْرُب
أحلَّ البناتِ مع الأمهاتِ ... ومن فضله زادَ حِلَّ الصَّبِى
وقد حطَّ عنا فروضَ الصلاةِ ... وحَطَّ الصيامَ فلم نتعب

(١) المخلاف السليمانى ١ / ١٤٢ .

ولاتطلب السَّعْيَ عند الصَّفا ولا زورةَ القَبرْ فى يَثْرِبِ

فهو نبىٌّ يَعْرُب أَو قحطان كما يزعم زورا وبهتانا بل كفرا وضلالا . ولم يلبث عدو الله والإسلام أن لقِى حتفه - كما مرَّ بنا - فى سنة ٣٠٣ بمشرط حَسَنِىّ متطبب ظل يترصده حتى وجد الفرصة سانحة . أما منصور بن حوشب فنفض يده من القرامطة واتصل مباشرة بالفاطميين حين كانوا لا يزالون فى المهدية بالقرب من تونس ، واتخذوه داعية لهم فى اليمن فاستولى على بعض الحصون ، وتوفى سنة ٣٣١ فخلفه ابنه حسن على الدعوة . وتوفى وظلت الدعوة قائمة وظل لها دعاة مختلفون ، وتولاها الداعى الكبير على بن محمد الصُّلَيْحى (٤٣٩ - ٤٥٩ هـ) مؤسس الدولة الصليحية باليمن كما مر بنا ، وكان قد تتلمذ على داع فاطمى يمنى يسمى سليمان بن عبد الله الزواحى ، حتى إذا مات خلفه عليها ، وكان يستغل الحج إلى بيت الله الحرام وسيلة لنشر دعوته فى اليمنيين الذين يتجمعون هناك من أنحاء مختلفة . وبايعه رؤساء قبيلة هَمْدان على نصرته ، ولم يلبث أصحابه أن تكاثروا فاستولى بهم على صنعاء وعدن وزَبيد ودانت له البلاد من مكة إلى حضرموت ، وكان شاعرا ، وتنسب إليه أشعار جيدة ذكرنا منها بيتين فى مستهل حديثنا عن كثرة الشعراء فى الفصل الماضى ، ويشك بعض القدماء فيما ينسب إليه من شعر أحيانا ، ويقولون إنه كان ينظمه بعض الشعراء على لسانه (١) . ويذكرون أنه لما قطع الشريف شكر أمير مكة ذكر اسم المستنصر الفاطمى من خطبة الجمعة سنة ٤٥٣ تبادل معه رسائل تحمل تهديداً ووعيداً ، وكان مما أجابه به الشريف شكر قصيدة سينية ينذره فيها بحرب مُبيرة فأمر شاعره عمرو بن يحيى الهيثمى أن يرد عليه بقصيدة تنقض قصيدته نقضاً ، فردَّ بقصيدة طويلة يقول فيها على لسانه (٢) :

دَمُ الأبطال فى اليوم العَبوسِ مُدامى لاشرابُ الخَنْدَرِيسِ
وكم ملكٍ أسرتُ وكم خميسٍ أَباد سَرَاتَهُ قَتْلاً خَمِيسى (٣)

وكان الهيثمى ماينى يشيد بعلى الصليحى وحروبه وماسجَّل فيها من انتصارات . وكان لاينهض بعمل دون أن ينشده بعض مدائحه ، من ذلك أنه لما عزم على الحج فى سنة ٤٥٩ وأناب عنه ابنه أحمد المكرم انبرى الهيثمى ينشد (٤) :

إنَّ سَيْفَ الإمامِ كالبَحْرِ ذى المو جِ له فى البلاد مَدٌّ وجَزْرُ
ولئن ساءنا فراقُ علىٍّ فبِحَمْدِ ابنه لنا ما يَسُرُّ

ولم تكتب لعلى الصليحى العودة إلى عاصمته ودياره من الحج ، إذ كان قد استولى من

(١) الخريدة (قسم الشام) ٣ / ٢٢٦ .
(٢) المخلاف السليمانى ٢ / ٢٧ .
(٣) الخميس : الجيش . السراة : السادة .
(٤) الخريدة (قسم الشام) ٣ / ٢٢٧ .

آل نجاح على زَبيد ، فرصده سعيد بن نجاح – وكان معه أخوه جياش – فى عودته ، وكانت برفقته زوجته أسماء ، فاغتاله ، واقتاد زوجته أسيرة ، وأخذ الشعراء يعزُّون فيه ابنه المكرَّم ويرثونه ، من ذلك قول الهيثمى (١) :

وأنشأَ الحجَّ إلى مكَّةٍ   يبغى رضا الله وأجرًا جزيلْ
وارتجَّت الأرضُ له هيبةً   بمن بها بين فُراتٍ ونيلْ
فإن يكن نِيلَ على غِرَّةٍ   فالبدرُ لابُدَّ له من أفولْ

وظلت السيدة أسماء فى الأسر ثمانية أشهر إلى أن استطاع ابنها المكرَّم فى سنة ٤٦٠ أن يستخلصها من الأسر ويرد إليها حريتها . وفى العام التالى فتك بسعيد وهرب أخوه جيَّاش إلى الهند . وكانت للسيدة أسماء أعمال برٍّ كثيرة ، وكان يُخْطَبُ لها على المنابر بعد الخليفة المستنصر وزوجها على الصُّلَيْحى (٢) ، وفيها يقول الهيثمى (٣) :

رسمتْ فى السماح سُنَّةَ جودٍ   لم تَدَعْ من معالم البُخْل رَسْمَا
قلتُ إذ عظَّموا لبلقيسَ عَرْشاً   دَسْتُ أَسماءَ من ذُرَى النَّجْم أَسْمَى

وكانت السيدة أروى بنت أحمد زوجة السلطان المكرم لاتقلّ عنها فضلا ، وقد نشأت فى حجر السيدة أسماء وعُنيت بتربيتها وأحضرت لها الدعاة كى يعلِّموها أصول الدعوة الإسماعيلية الفاطمية . وتوفِّى زوجها سنة ٤٧٧ فأسندالفاطميون إليها الدعوة وتدبير شئون الدولة الصليحية ، فكان يُخْطَبُ لها على منابر اليمن . واستطاع جياش بن نجاح أن يسترد زبيد سنة ٤٧٨ وكان مما أعانه على ذلك نشوب نزاع شديد بين أسعد بن شهاب واليها الصليحى ووزيره على بن القِمّ ، ويقال ان ابن القِمّ أحسن استقبال جيَّاش حين دخل زبيد ، وتزوجت السيدة أروى بالداعى سبأ بن أحمد الصليحى وأشركته معها فى الحكم وكان شاعرا جواداً ، وفيه يقول ابن القاسم من قصيدة (٤)

ولما مدحتُ الهِبْرِزىَّ ابن أحمدٍ   أجاز وكافانى على المَدْح بالمدحِ
فعوَّضنى شعرا بشعرٍ وزادنى   عطاءً فهذا رأْسُ مالى وذا رِبْحى

وتوفى سبأ سنة ٤٩١ وظلت أزمَّة الأمور بيدها إلى أن توفيت سنة ٥٣٢ . وبوفاتها انتهت هذه الدولة الإسماعيلية ، وتزعَّم الدعوة فى اليمن بعدها آل زُرَيْع أصحاب عدن وكانوا يُجْزلون العطايا للشعراء حتى عُدُّوا عند بعض أمرائهم بالعشرات ، وأكبر

(١) الهمدانى ص ١٠٣ والخلاف السليمانى ٢ / ٣٢ .
(٢) الهمدانى ص ٦٧ .
(٣) تاريخ اليمن لعمارة طبعة كاى ١٦ والشاعر يسمى فيه خطأ أسعد بن يحيى . انظر الهمدانى ص ٦٧ .
(٤) ابن خلكان (طبع دار الثقافة ببيروت) ٢ / ٣٣٧ والهبرزى : الأسد .

شعرائهم غير منازع أبوبكر العَيْذى . وله مدائح طنانة فى الداعى الزريعى عمران بن محمد ابن سبأ من مثل قوله (١) :

ما إن تَخُطُّ يَدُ العُلَى أَوْصافَهُ ... إلا بِسُمْرِ الخطِّ لا بيرَاعِ (٢)
لو أن تُبَّعَ كان أدرك عصرَهُ ... أضحى له من جُمْلة الأتباعِ
خضعتْ له غُلْبُ الملوكِ وإنما ... خضعتْ لضَرَّارٍ لها نَفَّاعِ
وعنتْ لعالى القَدْر منه مؤيَّدٍ ... ماضى الأوامر فى الزمان مطاع
والمالُ مقتَسمٌ مُشاعٌ عنده ... بيَدِ النَّدى والمجدُ غيرُ مشاع

وروى له العماد فى الخريدة مدائح كثيرة مُعْجَباً بها ، وذكر أنه كان وزير الدولة الزريعية وصاحب ديوان الإنشاء بها ، وينقل عن عمارة اليمنى إشادة قوية ببيانه وبلاغته . ومع كثرة ما أنشده العماد من مدائحه للداعى الزُّرَيْعى لانجد فيها إشارات للمذهب الإسماعيلى ، وبالمثل ما أنشده لشعراء الصليحيين ، والعماد فى خريدته يتحاشى مثل هذه الإشارات إلا ماجاء عفوا على نحو مايلاحظ فى القسم الخاص بشعراء الدولة الفاطمية فى مصر ، واتخذتْ موقفه أكثر كتب التراجم فى عصره وبعد عصره ، وحرى بنا أن نقف عند ثلاثة من الشعراء الإسماعيليين اليمنيين فى العصر ، وهم ابن القم ، والسلطان الخطاب ، وعُمارة اليمنى .

ابن القِمّ (٣) .

هو أبو عبد الله الحسين بن على بن القم ، وُلد بزَبيد ، وبها نشأ وتلقى معارفه ، واستيقظت موهبته الأدبية مبكرة على مايظهر ، وكان أبوه على من أنصار على بن محمد الصليحى وشيعته ، فحين ولَّى الأسعد بن شهاب على زبيد وتهامة بعد استيلائه عليهما سنة ٤٥٢ جعله وزيره . ويبدو أن الأب ألحق ابنه بدواوين على الصليحى فى صنعاء منذ سنة ٤٥٨ على الأقل إذ نجده يهنئ المكرم ابنه بزواجه من السيدة أروى الملقبة بالملكة الحرَّة فى هذه السنة منشداً :

وكريمةِ الحَسَبَيْنِ تَكْنفُ قَصْرَها ... أُسْدٌ تخاف الأُسْدُ مِن صَوْلاتِها
ظفرتْ يداك بها فَبَخٍ إنما ... لك تَدْخَرُ العلياءُ مَضْنوناتها

(١) الخريدة (قسم الشام) ٣ / ١٨٢ .

(٢) سمر الخط : الرماح . اليراع : القلم .

(٣) انظر ترجمته وأشعاره فى الخريدة (قسم الشام) ٣ / ٧٤ ومعجم الأدباء ١٠ / ١٣٢ وفوات الوفيات (نشر مكتبة النهضة المصرية) ١ / ٢٧٨ ومعجم البلدان : مادة أشيح وكتاب «الصليحيون» للهمدانى فى صفحات مختلفة (انظر الفهرس) والمخلاف السليمانى ٢ / ٤١ . وراجع أيضاً فى ترجمته وشعره المفيد فى أخبار صنعاء وزبيد لعمارة اليمنى تحقيق محمد بن على الأكوع .

ولما توفى على الصليحى رثاه على لسان أخته السيدة تحفة . وسرعان ما أخذ الشعراء يحرِّضون ابنه السلطان المكرم على الأخذ بثأره والانتقام من سعيد بن نجاح وأخيه وكانوا حُبْشانا ودولتهم حبشية كما مر بنا . وانبرى الحسين بن على بن القم يحثه هو وقومه على الانتقام لعلى الصليحى بمثل قوله :

أَقَحْطانُ هُزِّى البيضَ واعتقلى السُّمْرا ورُدِّى العَوالى من دماء العِدَا حُمْرا (١)
ولا تُهْــدِرِى ثــأرَ المظفَّر إنَّهُ بَنى لكمُ مجداً وشاد لكم فخرا (٢)

وليس فى المصادر التى بين أيدينا مدائح له فى المكرم ، ولكن أُثرت له بعض رسائل وجَّهها على لسانه إلى المستنصر الخليفة الفاطمى ، مما يدل بوضوح على أنه كان كاتب الإنشاء فى عهده ، بينما كان أبوه وزير أسعد بن شهاب فى زَبيد ، كما أسلفنا ، ويبدو أنه استقبل جَيَّاش بن نجاح استقبالا حسنا حين استولى على زبيد ، وربما كان من أسباب استيلائه على زبيد . وأكبر الظن أن الحسين لم يَشْرك أباه فى خروجه على الصليحيين ، على كل حال شعره يدل على أنه ظل يخدم الملكة الحرة أرْوَى وزوجها سبأ ، وله فيها قصيدة دالية بديعة يقول فى تضاعيفها :

أعلمتَ أَن من الرماح قُدُودَا ومن الصِّفاح محاجراً ونُهُودا
أَعْلى الأَنام أَباً وأكرمُ طِينةً وأتمّ أعراقا وأصلبُ عودا
لو كان يُعْبَدُ للجلالة فى الوَرَى بَشرٌ لكانتْ ذلك المعبودا
هى نعمةُ الله التى ما ماؤها ثَمْداً ولامعروفُها مجحودا (٣)

والبيت الأول رائع فى تصوير حزم هذه السيدة وقدرتها على تصريف شئون الحرب ، إنها ذات بأس وجلال وجمال ، ومن المؤكد أنه ظل على كتابة الإنشاء لها بعد وفاة السلطان المكرم (٤) وكذلك لزوجها سبأ بن أحمد حتى توفى سنة ٤٩١ إذ ينص القدماء على أنه كان يقيم معه فى حصن أَشْيح حتى وفاته ، وفيه يقول من مدحة بائية :

إن ضامَك الدهرُ فاستعصمْ بأَشْيَحَ أو أَزْرَى بك الفقرُ فاستمطرْ بنانَ سَبَا
تَخالُ صارمَه يوم الوَغَى نَهَراً تَضرَّمتْ حافَتاهُ من دمٍ لهبا

والصورة فى البيت الثانى طريفة ، وكان يحسن اجتلاب الصور والمعانى ، مع جزالة الأسلوب ونصاعته ، وفى سبأ يقول من قصيدة ثانية :

---

(١) البيض : السيوف . السمر : الرماح . العوالى : أسنة السيوف والرماح .

(٢) المظفر : لقب على الصليحى .

(٣) ثمداً : قليلاً .

(٤) فى المفيد لعمارة أنه (كان شاعراً ومترسلاً يكتب عن السيدة الحرة إلى الديار المصرية) .

كريمٌ إذا جادتْ فواصلُ كفِّهِ تيقَّنتَ أَن البُخْلَ ماتَفْعلُ السُّحْبُ
وما كنت أدرى قبل قَطْعِ هباتِهِ إلىَّ الفيافى أَنَّ أَنْعُمَهُ رَكْبُ

والصورتان طريفتان ، ويروى أنه سمع بيتا لابن سنان الخفاجى معاصره ابتكر معناه كما يقول العماد -نقلا عن نجم الدين بن مَصَال -وقد أحسن صياغة مغزاه. وهو :

طويتُ إليك الباخلين كأننى سَرَيْتُ إلى شمس الضُّحَى فى الغَياهبِ

وهو بيت من قصيدة له فى ناصر الدولة أبى على بن ناصر الدولة بن حمدان ، فأعجب به إعجابا شديدا وقال : والله لآخذن هذا البيت منه ، وما هى إلا أن مدح سبأ ابن أحمد فقال فيه :

لفظتُ ملوكَ الأرضِ حتى رأيتهُ فكنتُ كمن شَقَّ الظلامَ إلى الصُّبْحِ

يقول العماد : « ولم يقصِّر فى هذا المعنى لكنه لم يبلغ رتبة ابن سنان فيه » . وربما لم تعجبه كلمة « لفظت » عند ابن القم وربما فضل شمس الضحى فى بيت ابن سنان على الصبح فى بيت ابن القم ، ولكن هذا تشريح أكثر مما ينبغى ، ومن المؤكد أن بيت ابن القم بديع . ولاحظ الدكتور شكرى فيصل فى تعليقاته على أبياته فى الخريدة أنه كان يتأثر غير شاعر ، من ذلك أنه ردَّ قوله فى جَيَّاش بن نجاح :

وماأنت إلا البدرُ أظلم مَنْزلى وكلُّ مكانٍ نورُه فيه ساطعُ

إلى قول البحترى فى مديح الفتح بن خاقان :

وبدرٌ أضاء الأرض شَرْقاً ومغربا وموضعُ رجْلى منه أسودُ مظلمُ

والصلة بين البيتين واضحة ، ولكن ابن القم مع ذلك حاول أن يحدث تحويرا فى الصورة بحيث تُنْسب إليه ، ويدل هذا البيت من قصيدة فى عتاب جياش وقصائد أخرى فى عتابه على أنه حاول الاتصال - أو اتصل - به فعلا مما جعل سبأ بن أحمد يسخط عليه ، وكأنما انضم ذلك إلى صنيع أبيه الذى أسلفناه مما جعله يكتب إلى سبأ بن أحمد معتذرا مستعطفا . ويرد الدكتور شكرى فيصل أيضاً أبياتا مختلفة له فى مدحة ميمية إلى المتنبى ، من ذلك قوله فيها :

كأن مَواضيه طُبِعْنَ من الشَّجَا فَهنَّ من الأَعداءِ بين الغَلاصِمِ

فقد ردَّه إلى قول المتنبى فى مديح على بن إبراهيم التنوخى :

وقد صُغْتَ الأسنة من هموم ٍ فما يَخْطرن إلا فى الفُؤَادِ

وبيت المتنبي أروع إذ أين الشجا والهموم من الغلاصم التي تصل بين الرأس والعنق . بينما موضعها القلب والفؤاد . وردَّ قوله فى نفس القصيدة يصف الإبل التى ركبوها إلى الممدوح :

قصَدْن بنا مَنْ لو تجنَّبْنَ قَصْدَهُ   سَرَتْ نحونا جَدْواه مَسْرى الغَمائمِ

إلى قول أبى تمام :

كالغيث إن جئتَه وافاك ريِّقُهُ   وإن ترحَّلتَ عنه لَجَّ فى الطَّلَبِ

وأيضا بيت أبى تمام أكثر روعة . وقد ردَّ العماد قديما قوله فى تصوير بأس البطل المحارب الذى يبلغ من شجاعته أن يُشْغف بسيفه شغفَ المحبين فيقبِّله ، ولايزال يعانقه :

يظن هِنْدِيَّه هِنْداً فَيَلْثِمهُ   فما يزال بليلٍ مُعْرِس الضَّرَبِ(١)

إلى قول أبى العلاء فى تصويره البطولة :

يقبِّل الرُّمْحَ حُبًّا للطعَان بهِ   كأنما هو مجموعٌ من اللَّعَسِ(٢)

وبيت أبى العلاء أجمل وأكثر روعة وإبداعا وهو فرق مابين كبار الشعراء وشاعر مثل ابن القمّ : وبدون شك يُشْكر ابن القم لمحاولته منافسة الشعراء السالفين البارعين ونفوذه إلى صور إن لم تكن لها روعة صورهم فإنها جيدة وتدل على لون من المهارة . وله أشعار مختلفة فى الهجاء والرثاء والغزل ، ونسب إليه ياقوت البيتين التاليين فى تحمل مشقات الحب والمتاع بلذاته :

تشكَّى المحبون الصبابة ليتنى   تحملتُ مايلقون من بَيْنهم وَحْدِى

فكانتْ لنفسى لذةُ الحب كلُّها   فلم يَدْرِها قبلى محبٌّ ولابَعْدى

ولايُعرف تاريخ مولده ولاتاريخ وفاته ، وزعم ياقوت أنه ولد سنة ٥٣٠ وتوفى سنة ٥٨١ وهو خطأ واضح ، فإنه من شعراء القرن الخامس الهجرى لاالقرن السادس ، وقد أنشدنا له أشعارا نظمها فى سنة ٤٥٨ وفيما تبعها من السنوات حتى وفاة سبأ بن أحمد الصليحى سنة ٤٩١ ، وربما رجع إلى مسقط رأسه زبيد بعد وفاة سبأ ، وقد حاول أن ينال شيئا من صلات جياش حاكمها كما تدل على ذلك أشعاره فى الخريدة . والجزء الأخير من حياته أوقل نهايته أوبعبارة أدق تاريخ وفاته غير واضح ، وربما أدرك أوائل القرن السادس .

---

(١) هنديه : سيفه . الضرب : عسل النحل .

(٢) اللعس : سمرة فى الشفة .

السلطان الخطّاب [1] :

هو الخطاب بن الحسن بن أبى الحفاظ الحَجْوِيرىّ الهَمْدانى ، كان أبوه الحسن حاكما لوادى الجُرَيب ومدينته فى إقليم الحجور ، وكان فيما يبدو من رجال الدولة الصليحية إذ يقال إن ابنه الخطاب كان أخا فى الرضاعة للملكة الحرة أروى . وتوفى الحسن لأوائل القرن السادس وخلفه ابنه سليمان فى حكم الجريب ، ودان له أخوه الخطاب بالطاعة ، ثم لم يلبث النزاع أن دبَّ بين الأخوين ، ونشبت بينهما حروب انتهت فى سنة ٥١٤ بغلبة الخطّاب على أخيه ، بفضل مساعدة الملكة أرْوَى له . وظل الخطاب يستدرج أخاه ، حتى أمن جانبه وعاد إليه ، غير أنه قتله غيلة سنة ٥٣٠ ولم يمهله القدر طويلا ، فقد عاجلته المنية فى سنة ٥٣٣ . وكان الأخوان شاعرين ، ولكل منهما ديوان ، وكان أحدهما سنيا وهو سليمان والثانى وهو الخطاب فاطميا إسماعيليا ، بل لقد كان الساعد الأيمن لداعى اليمن الفاطمى فى عصره الذُّؤَيْب بن إسماعيل ، وكان من مريديه وتلاميذه القريبين من نفسه ، فجعله نائبا له ومؤازرا ومعينا فى نشر الدعوة الفاطمية الإسماعيلية باليمن . وقد أخذ عنه علومها مثل الفقه والتأويل والعقيدة أوكما يقولون علم الحقائق . وحدث أن قتل الآمر الخليفة الفاطمى فى سنة ٥٢٤ وتولى بعده عبد المجيد ، أحد أبناء الأسرة ، الخلافة والإمامة وتلقب بالحافظ ، وأحدث ذلك انقساما ، فإن من أسس الدعوة الفاطمية عند كثيرين أن يعقب الخليفة فى إمامته وخلافته ابنه الأكبر ، وكانت زوجة الآمر حاملا ، فرأى بعض المتسبين إلى الدعوة أن خلافة الحافظ غير صحيحة وأن صاحبها هو الإمام المستور أبو القاسم الطيب بن الخليفة الآمر . وأعلنت الملكة الحرة أَرْوَى تمسكها بخلافة هذا الإمام المستور ، وبذلك انفصلت الدعوة الفاطمية فى اليمن عن مركزها فى مصر ، وانفصل معها داعيها الذُّؤيب ونائبه السلطان الخطاب حاكم الجريب .

وقد نشر إسماعيل قربان حسين ديوان السلطان الخطاب وألحقه بتعليقات تفسر إشاراته للعقيدة الفاطمية ، ويكاد القسم الأول منه يكون قسما عقائديا خالصا ، وكل من يقرؤه ويقرأ التعليقات يحس بالصلة الوثيقة بين السلطان الخطاب وابن هانئ شاعر المعز الفاطمى وأكبر من استظهروا العقيدة الفاطمية الإسماعيلية فى أشعارهم لأوائل الحقبة الفاطمية بمصر . وسنقف قليلا عند المبادئ الإسماعيلية فى الديوان من خلال مديح السلطان

---

(١) انظر فى ترجمة السلطان الخطاب الخريدة (قسم الشام) ٣ / ٢٠٧ وكتاب «الصليحيون» للهمدانى ومقدمة إسماعيل قربان حسين لديوانه المطبوع بدار المعارف بالقاهرة وما بها من مراجع إسماعيلية فاطمية .

الخطاب للآمر الخليفة الفاطمى ، من ذلك قوله فى قصيدته الأولى التى يمدح بها الآمر :

يامَنْ أسمِّيه بالألفاظ معترفاً ... أنَّ المعانيَ فيها عَنْه تَقْصِيرُ
وما ظهرتَ من النَّاسُوت أنت بهِ ... تجلِّياً لهُدانا فهْو مشكورُ
صَفْوٌ من الصَّفْوِ شَفَّافٌ تَقدَّسَ أَنْ ... يَشُوبَ جوهرَه الشفَّافَ تكديرُ

وهو يصرح فى الأبيات بأن الآمر فوق الحدود المعروفة لعقول البشر ، ويقول إنه فى الظاهر ناسوتٌ أى جسم ويشير إلى ما كان يردده دعاة الفاطميين من أن جسم الإمام ليس جسما ماديا ، هو شبح يكمن فيه اللاهوت وهو الجانب النورانى . وفكرة الناسوت واللاهوت مأخوذة عن عقيدة المسيحيين فى المسيح . ويقول الخطاب عن الآمر إنه صفو شفاف لاتشوبه الأكدار أى أنه نورانى خالص . ونمضى معه إلى القصيدة الثالثة ، وهى أيضا فى الآمر :

يامَنْ نسمِّيه تعريفا نقرِّرُهُ ... بشَخْصه فى نفوس القوم تقريرا
ولونشاءُ لقلنا فى النداء له ... بالصِّدْقِ ياحَىُّ ياقيُّوم مشهورا
ياعالِمَ الغَيب منا والشهادةِ يا ... بارى البريَّةِ تركيباً وتصويرا
شهدتُ أنك فردٌ واحدٌ صَمَدٌ ... شهادةً لم تكن مَيْناً ولا زُورا

والخطاب يشير فى الأبيات إلى مازعمه الفاطميون ودعاتهم من أن الله لايجوز أن يسمى باسم لأنه أسمى من كل اسم ، ومن ثَمَّ يُضْفُون أسماءه الحسنى فى القرآن الكريم على أئمتهم ، غلوا مذموما ، زاعمين أنهم ربانيون لهم ألقاب الله وصفاته ، على نحو مانرى الآن عند الخطاب ، إذ لايجد بأسا من أن ينادى على الآمر بأنه الحى القيوم وأنه الفرد الواحد الصمد : كبرت كلمات تخرج من فمه وفم أضرابه من دعاة الفاطميين المارقين ، ويزعم أنه عالم الغيب والشهادة ، ويمضى فى هذا الغلو الشنيع قائلاً للآمر :

أنت الذى كلُّ شيءٍ نحن نعلَمُه ... فانٍ سوى وَجْهه عكساً وتغييرا
أنت الذى فَطَرَ الأشياء قاطبةً ... خلْقاً وأمْرا وإيماراً ومأمورا
أنت الذى سَمَكَ السَّبْع الشِّداد على ... علمٍ أدار بها الأفلاكَ تدْويرا
أنت الذى سَطح الأرضَ المِهادَ لنا ... فَرْشا وقدَّر فيها الرزْقَ تقديرا

وهو يزعم أن الآمر سرمدى الحياة ، لايلحقه فناء ، وكأنه إلهى الذات ، ويشير فى البيت الثانى إلى وصف القرآن للذات العلية فى مثل قوله : (فاطر السموات والأرض) وقوله : (ألا له الخلق والأمر) . ويجعله فى البيت الثالث رافع السموات السبع ومدبرٌ الأفلاك فيها . والبيت الرابع مأخوذ من مثل قوله تعالى : (والأرض فرَشْنَاها فنِعْمَ الماهدون)

وقوله : (قُلْ إن ربى يَبْسُطُ الرزق لِمن يشاء ويقدر) . ويقول أيضا فى مديح الآمر :

يا عِلَّةً لوجود الشيء من عَدَمٍ وكاشفاً عنه بالأنوار للظُّلمِ
وعالماً بخفيَّات الأمور غدَا للناس أشهَرَ من نارٍ على عَلَمِ
شهدتُ أنك فردٌ واحدٌ نطقتْ بفضلِهِ سُوَرُ القرآنَ عن أَمَمِ
وجَّهْتُ وجهىَ فى سِرِّى وفى عَلَنِى إليك إذْ أنتَ مَعْنَى البَيْتِ والحَرَمِ

وهكذا يردد الخطاب ما كان يزعمه دعاة الفاطميين من أن الإمام ممثول العقل الأول الفعال وأن قدرة الله تحلُّ فيه ، بحيث يصبح العقل الكلى وجوهر الملكوت وعنه تصدر جميع المخلوقات ، فهو العلة الأولى ، علة لوجود كل ماسواه . ويزعم الخطاب أنه : (يعلم السر وأخفى) وأن آيات القرآن الكريم نطقت بفضله من أَمَم أى قريب ، يشير إلى مثل قوله تعالى : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرِّجْسَ أهلَ البيت ويطهركم تطهيرا) . وكلمة « البيت والحرم » مصطلحان إسماعيليان ، أما البيت فيريد به الإمام وأنه بيت معرفة الله ومستقر التوحيد وحقيقته . وأما الحرم فهو حِمى الإمام وعقيدته الفاطمية . وللخطاب رثاء فى الملكة الحرة أروى حين توفيت سنة ٥٣٢ يصدر فيه عن عقيدته الفاطمية منشدا مثل قوله :

أمولاتنا يا مَنْ بباهرِ نورها تجلَّيْنَ عن أبصارنا الظلماتُ
ويا حجَّة المَوْلَى التى ببيانها هَدَى الله مَنْ حَيَّرَتْهُ الشبهاتُ
أُجلُّكِ عن موتٍ بروحكِ نازلٍ وأنت لأرواح الأنام حَيَاةُ

وهو يصفها فى البيت الثانى بأنها حُجَّة الإمام ، والحجة فى الدعوة الفاطمية الإسماعيلية مرتبة تلى مرتبة داعى الدعاة فى المركز الأم مصر ، وصاحبها يتولى الدعوة فى إقليمه والنيابة عن الإمام . وكانت الملكة الحرة حجة المستنصر والآمر فى اليمن وزعيمة الدعوة الفاطمية فيها . ويزعم الخطاب فى البيت الأخير أنها لم تمت ، وكأن حياتها سرمدية كحياة الأئمة ، وكل ما قدمنا غلو ومروق واضح . ووراء هذا القسم من الديوان قسم ثان يتصل بأحداث حياة الخطاب وحروبه وصلاته بأمراء الدول من حوله ، وفيه كثير من المديح والهجاء والفخر ، وأجود مدائحه فيه ما قدمه للملكة الحرة أروى . وجعله تعمقه فى العقيدة الفاطمية الإسماعيلية يكتب رسائل مختلفة فى بعض قضاياها وأصولها ومبادئها الكلية ، وعرض إسماعيل قربان حسين لطائفة منها بالتحليل والتعريف .

عمارة اليمنى [1]

هو أبو حمزة عمارة بن أبي الحسن اليمنى ، من أهل الجبال فى تهامة . من قرية يقال لها مُرْطان فى وادى وَساع ، وهو قحطانى مَذْحجى من سلالة الحكم بن سعد العشيرة . ولد فى سنة ٥١٥ فى أسرة تهتم بالعلم والثقافة ، ولم تكد توافى سنة ٥٣١ حتى أرسله أبوه إلى زبيد فثقف فيها الفقه الشافعى ، وقُرئ عليه مدة ، وله فى الفرائض مصنف مشهور فى اليمن . واتصل بآل نجاح حكام زَبيد ووزرائهم ، كما اتصل بآل زُرَيْع حكام عدن وبعلى بن مهدى الذى خلف آل نجاح على زبيد ، وكان الأولون سُنِّيين والثانون إسماعيليين والثالث كان خارجيا . حتى إذا كانت سنة ٥٤٩ توجه إلى حج بيت الله الحرام ، وتعرف إلى أمير مكة قاسم بن هاشم بن فُليتة الزيدى ، وكلفه بحمل رسالة إلى الخليفة الفائز الفاطمى ، فقدم القاهرة سنة ٥٥٠ واستقبله طلائع بن رُزِّيك وزير الفائز فى قاعة الذهب بقصر الخلافة ، وأنشده عمارة ميمية طويلة يقول فى تضاعيفها :

قد رُحْتُ من كَعْبة البَطْحاءِ والحَرَمِ ... وَفْداً إلى كَعْبة المعروف والكرمِ

فهل دَرَى البيت أنى بعد فُرْقتهِ ... ماسِرْتُ من حَرَمٍ إلا إلى حَرَمِ

ولم يكد يفرغ من إنشاد القصيدة حتى أُفيضت عليه الخلع ، وأُغْدق عليه طلائع خمسمائة دينار . وصنعت مثله سيدة القصر بنت الخليفة الحافظ . وتهاداه أمراء الدولة وموظفوها الكبار . وقفل راجعا إلى مكة ، فإلى زَبيد . وعاد إلى الحج سنة ٥٥١ فكلفه أمير مكة برسالة ثانية إلى الخليفة بمصر ، فقدم إليها واستوطنها حتى آخر حياته . وبالغ طلائع وبنوه فى إكرامه ، وله فيهم مدائح كثيرة . وقُتل طلائع بعد قدومه الثانى بأربع سنوات سنة ٥٥٦ . وحظى بعده بجوائز الوزيرين شاوَر وضرغام ، وله فى شاور وطلائع مراث بديعة ، وكان قريبا من نفس الكامل بن شاور قبل وزارة أبيه ، فلما وزر أعرض عنه ، فعاتبه عتابا رقيقا . ومازالت العطايا تُسْبغ عليه ، حتى إذا ملك مصر السلطان صلاح الدين مدحه ومدح جماعة من بيته ، وخاصة توران شاه الأيوبى ، وله ميمية حرَّضه فيها على أخذ اليمن أولها :

---

(١) انظر فى عمارة وترجمته وأشعاره الخريدة (قسم الشام) ٣ / ١٠١ وابن خلكان ٣ / ٤٣١ والروضتين ١ / ٢ / ٥٧٢ ومفرج الكروب ١ / ٢١٢ ، ٢٣٨ والسلوك للمقريزى ١ / ١ / ٥٣ والنجوم الزاهرة ٦ / ٧٠ والسلوك فى طبقات العلماء والملوك للجندى وتاريخ ثغر عدن لبامخرمة والشذرات ٤ / ٢٣٤ وتاريخ ابن الأثير ١١ / ٣٩٨ وصبح الأعشى ٣ / ٥٢٦ والانتصار لواسطة عقد الأمصار لابن دقاق ص ٩٤ وكتابه النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية ، وذيل النكت وبه ديوانه .

العِلْمُ مذ كان محتاجٌ إلى العَلَمِ ... وشَفْرَةُ السيف تَسْتغنى عن القَلَمِ

ويقول ابن خلكان إنه كان فقيها شافعيا شديد التعصب للسنة ، ويبدو أن ذلك إنما يصدق على أوائل حياته حين كان يدرس مذهب الشافعى فى زبيد . أما بعد ذلك فإننا نراه يتصل بآل زُرَيْع الإسماعيليين وبأمير مكة الزيدى . ولعل السبب فى أن ابن خلكان أطلق كلامه عليه وعمَّمه أنه وجده فى كتابه « النكت العصرية » يتبرأ من التشيع ويذكر أن طلائع بن رزِّيك عرض عليه أن يدخل فى العقيدة الإسماعيلية ، فأجابه بأن يمنَّ عليه بسدِّ هذا الباب . ولكن كتاب النكت – فيما يبدو – أُلِّف فى عصر الأيوبيين ، فكان طبيعيا أن يُخْفى إسماعيليته أو تشيعه ، وأن يعلن براءته فى تصانيفه وقصائده من التشيع وآله . ونراه فى قصيدة له كتب بها إلى صلاح الدين وسماها « شكاية المتظلم ونكاية المتألم » يصف كثرة ما كان يصله من عطايا الفائز والعاضد ووزرائهما بمثل قوله :

مذاهبهم فى الجود مذهبُ سُنَّةٍ ... وإن خالفونى فى اعتقاد التشيُّعِ

وهذا وأمثاله كان – فى رأينا – سبب ضلال ابن خلكان فى الحكم عليه ، فإن من يرجع إلى ديوانه ومدائحه فى الخليفة الفاطمى العاضد وطلائع وزيره وابنه العادل لايشك فى أنه اعتنق المذهب الفاطمى الإسماعيلى ، من ذلك قوله من قصيدة فى مديح العاضد وطلائع :

لا يبلغ البلغاء وَصْفَ مناقِبٍ ... أَثْنى على إحسانها التنزيلُ
شِيَمٌ لكم غُرٌّ أتى بمديحها الـ ... ـفُرْقـان والتَّوْراةُ والإنجيل
سِيَرٌ نَسَخْناها من السُّوَرِ التى ... ما شانها نَسْخٌ ولا تَبْديلُ

وهو يشير إلى ماجاء فى الذكر الحكيم من مثل قوله تعالى : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرِّجْسَ أهل البيت ويطهركم تطهيرا) ويمد ذلك إلى التوراة والإنجيل وما جاء فيهما من ذكر الرسول على لسان موسى وعيسى ، وكأن ذكره يتضمن ذكر ذريته ، وقد جاء فى سورة الصفِّ على لسان عيسى : (ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد) وهذه الفكرة التى تصل بين الرسول والأئمة الفاطميين فى التوراة والإنجيل كان يرددها شعراؤهم من مثل قول السلطان الخطاب فى الخليفة الآمر :

هو الذى كَتَبِ التَّوْرَاةُ عَنْهُ وفى ... الإنْجيل ما ضُمِّنَتْ فيه المزاميرُ

ودائماً يقرِّر عمارة حق العاضد الثابت بالمعقول والمنقول كما يقول فى نفس اللامية السالفة ، ونراه يقول فى دالية مدح بها العاضد ووزيره العادل بن طلائع بن رزِّيك :

أغنى عن التَّقْليد نَصُّ إمامةٍ ... والنَّصُّ يَبْطُلُ عنده التَّقْليدُ

لا شيء من حَلٍّ وعَقْدٍ فى الوَرَى　　إلا إلى تدبيره مردودُ
ملكٌ أغاثَ المسلمين وحَاطَهُمْ　　منه وُجودٌ فى الزمان وَجودُ

وهو يردِّد ما يزعمه الشيعة من أن الإمامة فى الأمة إنما تورث بالنص عن الإمام السابق ، فهى ليست مفوضة للأمة ، بل هى من حق الأئمة وحدهم يتوارثونها خالفا عن سالف . ويشير عمارة فى البيت الثانى إلى نظرية العقل الفعال التى يمثّلها الإمام والتى تجعله – كما مر بنا عند السلطان الخطاب – يدبِّر الكون وشئون الورى وكل ما يتصل بها من حَلٍّ وعَقْد . أما البيت الثالث فيصور فيه فكرة الفَيض الأفلاطونى المعروفة عند الإسماعيليين والتى تجعل الأئمة ماثلين فى كل وجود إنسانى . ويقول فى مديح العاضد من قصيدة طويلة :

كم آيةٍ رُوِيَتْ لكم أسرارُها　　آلَ الوَصىِّ وللوَرَى إعلانُها
فكأنما تأويلُكم أرواحُها　　وكأنما تفسيركم أبْدَانُها
وكأنَّ عِلْمَ الكائنات وديعةٌ　　مخزونةٌ وصدوركم خُزَّانُها

وهو هنا يردِّد ما يؤمن به الشيعة الإسماعيلية الفاطميون من أن للقرآن الكريم وآياته ظاهرا وباطنا ، والباطن لايعلمه إلا الأئمة ، فهم الذين يعلمون أسرار الآيات القرآنية وحدهم دون غيرهم ، وهم الذين يعلمون تفسيرها وتأويلها علما حقيقيا . وليس ذلك فحسب ، بل هم يعلمون كل علم ، وما صدورهم إلا خزانات لهذا العلم : علم الحاضر وعلم الغيب . وكل هذه شواهد بينة على أن عمارة تحول فى مصر فاطميا إسماعيليا . وكان حزنه لا يُحَدّ ولا يوصف حين دالتْ دولة الفاطميين ، وبثَّ هذا الحزنَ الغاضب غضبا عنيفا فى لامية له مشهورة استهلّها بقوله :

رميتَ – يا دهرُ – كفَّ المجدِ بالشَّللِ　　وجيدَه بعد حُسْن الحَلْىِ بالعَطَلِ
هَدَّمْتَ قاعدةَ المعروف عن عَجَلٍ　　سُقِيتَ مُهْلاً أما تمشى على مَهلِ
يا عاذلى فى هوَى أبناءِ فاطمةٍ　　لك الملامةُ إنْ قصَّرتَ فى عَذلى

وهو فى هذا الاستهلال ملتاع لوعة شديدة على زوال الدولة الفاطمية ، وإنه ليسبُّ الدهر الذى أطاح بها ويدعو عليه أن يُسْقَى المُهْل شراب أهل الجحيم . ويدعو عُذّاله على حب الأئمة الفاطميين أن يظلوا فى عذلهم ولومهم وكأنه يجد فيه شفاء لغليل نفسه . ويمضى فيدعو رفيقه أن يبكى معه على ساحة القصرين لا على ساحات معارك صفين وواقعة الجمل ، وكأن النكبة هنا أكثر أسى وفجيعة ، ويقول إن الجرح الذى أصاب فؤاده بزوال الدولة الفاطمية لا يندمل ، وما يلبث أن يقول عجبا ينزل كل هذا بالفاطميين لا من الصليبيين ولكن من إخوان لهم فى الدين ، ويقول :

لربَّما عادتِ الدُّنيا لمَعْقِلِها منكمْ وأضحت بكم محلولةَ العُقُلِ[١]
والله لا فازَ يومَ الحَشْرِ مُبْغضكم ولا نجا من عذاب النار غَيْرٌ وَلِى

وهو فى البيت الأول يعلن الثورة صريحة على صلاح الدين زاعما أنه ربما عادت الدنيا لمعقلها ، وكأنما غاب عن صوابه ورشده أن أداة الحكم فى هذا المعقل كانت قد فسدت فساداً لاحدَّ له ، وبلغ من فسادها أن استلب الصليبيون فلسطين من مصر وأغاروا على القاهرة . وأراد الله لمصر بل للعرب أن تُرَدَّ القَوْسُ إلى باريها ، وأن يبدأ صلاح الدين حكمه بالقضاء على هذا المعقل الفاطمى إلى الأبد . وكأنما أصابت العقيدة بَصَرَ عُمارة بغشاوة ، فلم ير الحقيقة ، وقد مضى يتوعَّد مبغض الفاطميين بالنار وسوء المصير ، وتمادى فى هذا الغىّ والضلال ملوِّحًا بيده فى وجه صلاح الدين زاعما أن الأئمة الفاطميين باب النجاة وأن حبهم أصل الدين ، يقول :

أئمةٌ خُلقوا نورا فنورهُمُ من نور خالصِ نور الله لم يَفِلِ[٢]
والله لازُلْتُ عن حُبِّى لهم أبدا ما أخَّر الله لى فى مدَّة الأجَلِ

فالأئمة الفاطميون نور خالص ، نور شفاف ، وهو فيض من نور الله ، لا تشوبه أى مادة ، وهو غلو واضح فى تصور الأئمة كان يردده شعراؤهم . وكُتب لعمارة أن يظل يردده حتى بعد زوال دولتهم ، بل إنه ليعلن أنه سيظل على حبهم حتى الأنفاس الأخيرة من حياته . وكأنه كان يظن أن دولتهم ستعود إذ تسوِّل له نفسه أن يشترك مع ثمانية من أعوان الفاطميين ، فى مؤامرة كبيرة ضد صلاح الدين وكاتبوا الفرنج الصليبيين طالبين منهم مددا ، وعُرفت نيتهم ومؤامرتهم ، فأحيط بهم ، وأُعدموا فى يوم السبت ثانى شهر رمضان سنة ٥٦٩ بالقاهرة . وكان لابد لعمارة أن ينتهى هذه النهاية المفجعة بعد أن كاد لدولة صلاح الدين بلسانه وهمَّ أن يكيد بيده ، وكأنما غطَّى القدر - كما يقول العماد - على بصره . وقد طُبعت له مصنفات مختلفة ، منها أخبار اليمن نشركاى ، ومنها مختصر المفيد فى أخبار صنعاء وزبيد ، ومنها النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية .

٢

شعراء الدعوة الزيدية

تحدثنا فى الفصل الأول عن النحلة الزيدية وأنها كانت أكثر نحل الشيعة اعتدالا ،

(١) العقل : جمع عقال . (٢) يفل : يأفل : يغرب .

وهى تُنْسَبُ إلى زيد بن على زين العابدين بن الحسين الذى ثار على الأمويين بالكوفة سنة ١٢١ وانتهت ثورته بالقضاء عليه ، غير أن دعوته ظلت قائمة بعده ، ومر بنا أن كل العلويين الذين ثاروا على العباسيين فى القرنين الثانى والثالث للهجرة كانوا زيديين ، إذ لاتعرف نحلتهم التستر والتخفى للإمام فى الدعوة ، وهى لا تشارك نحلتى الإسماعيلية والإمامية فى العلم الباطنى ، ولا تتغلغل فى فكرة العقل الفعال التى مرت بنا عند الإسماعيلية والتى تعطى الإمام صفات الله وأسماءه الحسنى والتى تسند إليه تدبير الكون وأن الوجود بل كل موجود إنما هو فيض منه . وهى لا تأخذ بفكرة النص على الإمام وأن الإمامة تنتقل من الأب إلى الابن عن طريق الوراثة ، بل يكفى أن يكون الإمام الكفء الداعى لنفسه من أبناء السيدة فاطمة الزهراء وأن يكون عادلا عالما بالشريعة ورعا شجاعا جوادا ، وتجوِّز هذه النحلة إمامة المفضول مع وجود الأفضل ، وبذلك صحَّحت خلافة أبى بكر وعمر مع وجود على ، ولم تجوِّز القَدْحَ فيهما كما تصنع الإسماعيلية والشيعة الغالية . وارتبطت نحلة الزيدية ارتباطا وثيقا بمدرسة المعتزلة ومبادئها إذ كان إمامها زيد تلميذاً لواصل بن عطاء ، وقوى هذا الارتباط مع الزمن . وإذا كانت ثورات الزيديين فى الحجاز والعراق وإيران أخفقت فى القرن الثانى للهجرة فإنها نجحت فى المغرب على نحو ما هو معروف عن دولة الأدارسة التى أسسها إدريس بن عبد الله الحسنى بفاس فى عهد الرشيد ، وظلت نحو مائة وأربعين عاما . ونجحت كذلك فى طبرستان فى النصف الثانى من القرن الثالث للهجرة ، فقامت هناك دولة زيدية ظلت نحو سبعين عاما . واستطاعت أسرة بنى سليمان أو بنى موسى الرسيين أن يقيموا دولة لهم فى مكة منذ سنة ٣٥٦ على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع ، وظلت فيهم حتى اضطرهم الهواشم من أسرتهم أن يغادروا مكة إلى المخلاف السليمانى ، وهناك ظل هذا الفرع يدعو للنحلة الزيدية حتى ذاب فى دولة الرسوليين ، وقد أسلفنا أن محمد بن جعفر الحسنى عاد إلى مكة وأعاد الإمارة إلى أسرته الحسنية .

وقامت فى صعدة باليمن دولة زيدية أقدم من الدولتين السالفتين ، إذ أسسها هناك الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم فى سنة ٢٨٤ واستطاعت هذه الدولة أن تستولى على صنعاء فى حقب كثيرة ، حتى إذا كان القرن العاشر الهجرى انضوى اليمن جميعه تحت لوائها ، وإذن كانت للزيدية فى الجزيرة العربية لهذا العصر ثلاثة مراكز ، هى مكة والمخلاف السليمانى وصعدة وكان المركز الأخير كثيرا ما يتسع ، وشمل بأخرة ديار اليمن جميعها . وعنى الأمراء والأئمة فى كل مركز من هذه المراكز بالشعر وأصحابه ، لأنهم أقلام

الدعاية للدولة ، وكثير من الأئمة كانوا شعراء فكان طبيعيا أن يعنوا بالشعر والشعراء . وأول من يلقانا من أئمة مكة الشعراء الأمير أبو الفتوح وقد أنشدنا له أبياتا طريفة فى غير هذا الموضع ، وكان عيسى بن فُلَيْتة أمير مكة المتوفى سنة ٥٧٠ يجزل العطايا لشعرائه وفى مقدمتهم قائده النوبى الأصل سالم بن أبى سليمان ، وفيه يقول من مدحة طويلة [١] :

هو نورُ ربٍّ العرش بين عبادهِ   فليعلموا والحجَّةُ البيضاءُ
للّه يأمر باطنا أو ظاهراً   فتصرُّفُ الأقدار كيف يشاءُ
يوماه يومٌ للنَّوال وآخَرٌ   تُرْدَى بسَطْوة بأسهِ الأعداءُ
إن الثناء عليك من ربِّ السَّما   أغناك عما قالت الشعراءُ

وهو يغلو فى مديحه لهذا الإمام الزيدى ، وكأننا نقرأ عنده ما نقرؤه عند السلطان الخطاب من الغلو فى مديح الآمر الخليفة الفاطمى ، فإمامه نور خالص هو نفس نور الله ، وهو الحجة القائم على رعيته ، وتجرى الأقدار بما يشاء وكيف يشاء ، أما ثناء الله عليه فيريد به ثناءه على أهل البيت فى القرآن الكريم وأنه أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا . ومن أئمة مكة الحسن بن على بن قتادة المتوفى سنة ٦٥١ وكان شاعرا ، ومن قوله [٢] :

وأذَّنْتُ حين تجلِّى الصباحُ   بحىَّ على خَيْر هذا العمَلْ

وكان الزيدية فى الجزيرة بمكة وفى اليمن والمخلاف السليمانى ينادون فى الأذان : بحىَّ على خير العمل » . ويمتلئ كتاب العقد الثمين بمدائح أمراء مكة ، ويكفى أن نستشهد ببعض الأمثلة ، فمن ذلك قول موفق الدين على بن محمد الحَنْدِيدى فى حُمَيْضة أمير مكة المتوفى سنة ٧٢٠ للهجرة [٣] :

خليفةٌ لا يُخْلف الوَعْدَ ولا   يَضَنُّ عن سائله بما اقتَنَى
إمام حَقٍّ جَدَّ فى الله فما   فى الله مُذْ جَدَّ وَهًى ولاوَنَى
أخاف فى الله تعالى مَنْ بَغَى   وأمَّن الخائفَ حتى أمِنَا
هو ابنُ مَنْ أَسْرَى به الله ومَنْ   مِنْ قابِ قوسين تدلَّى ودَنَا

وليس فى مديحه غلو ، بل هو مديح لإمام زيدى بالكرم والتقوى والعدل ورفع البغى والظلم ونشر الأمن ، ويشير فى البيت الأخير إلى الإسراء بالرسول ومعراجه إلى السموات وما جاء فى سورة النجم : (ثم دَنا فتدلَّى فكان قابَ قوْسَيْن أو أَدْنَى) . وللحَنديدى فى مديح

(١) الخريدة (قسم الشام) ٣ / ٤٦ .
(٢) العقد الثمين ٤ / ١٦٢ .
(٣) العقد الثمين ٤ / ٢٤٨ .

أخيه رُميثة أمير مكة المتوفى سنة ٧٤٦ للهجرة[١] :

نَسَبٌ كمشتقٍّ الشموس ومفخرٌ باعُ الكواكب قاصرٌ عن طولهِ
أما الفروعُ فليس مثلُ فروعهِ وكذا الأصولُ فليس مثلُ أصولهِ
يابنَ المظلَّل بالغمامة والذى قد أُنْزِل القرآن فى تفضيلهِ
ماذا عَسَى مَدْحِى وقد نَزل الثَّنا فيكم من الرَّحمن فى تنزيلهِ

ووراء الحنديدى كثيرون من الشعراء كانوا يمدحون أمراء مكة الزيديين لا فى زمنه فحسب ، بل فى جميع الأزمنة ، وفى سلافة العصر لابن معصوم ونفحة الريحانة للمحبى طائفة كبيرة من مدائح الشعراء لهؤلاء الأمراء فى القرن العاشر الهجرى ، من ذلك قول عبد الرحمن بن وجيه الدين المتوفى سنة ١٠٣٧ للهجرة فى حسن بن أبى نُمَىّ أمير مكة من مدحة طويلة ، عارض بها رائية ابن هانئ المشهورة[٢] :

ملكٌ إذا ما جال يومَ كريهةٍ لم تَلْقَ غير مُجَدَّلٍ ومُعَفَّر
ملكٌ نَداه البَحْرُ إلا أنه عَذْبٌ أهذا البحرُ نهرُ الكوثَرِ
ذو الهمة العَلْيا الذى قد نال ما عنه تقصِّر همَّةُ الإسْكندر
أعْظِمْ بها من نِسْبَةٍ نبويَّةٍ عَلَوِيَّةٍ تَنْمِى لأصلٍ أَطْهَرِ

وكثيرون من أمراء المخلاف السليمانى وأشرافه كانوا شعراء مثل ابن وهَّاس ودَهْـمش وهما شاعران مجيدان ، ومن أمرائهم الممدّحين غانم بن يحيى بن حمزة السليمانى المتوفى سنة ٥٦٠ ويروى أن ابن مَكْرُمان مدحه بقصيدة لامية أعطاه عليها ألف دينار ، وفيها يقول[٣] :

علوىٌّ متـــــوّجَ هاشِمِىٌّ حسنىٌّ نوالُه مبـــــذولُ
يا سليلَ البَطينِ والحرّةِ الزّهْـ ـرا هيَ الطُّهْر والحَصَانُ البَتُول[٤]
خمسةٌ خصَّهم بتخصيصه الخا لقُ ربِّى وهْو اللطيف الجليلُ
مالهم سادسٌ غداةَ الذى مَـ ـدَّ عليهم كساءه جِبْرِيلُ

وهو يشير فى البيتين الثالث والرابع إلى ما تذكره الشيعة من أن الرسول ﷺ ألقى عليه وعلى علىٍّ وفاطمة الزهراء والحسن والحسين كساء وقال : نحن أهل البيت إيماء إلى قوله تعالى : (إنما يريد الله ليُذْهب عنكم الرِّجسَ أهلَ البيت ويطهِّركم تطهيرا) . ومعروف

(١) العقد الثمين ٤ / ٤١٩ .
(٢) سلافة العصر ص ٧٩ .
(٣) الخريدة (قسم الشام) ٣ / ٢٦٢ وما بعدها .
(٤) الحصان البتول : العفيفة الطاهرة .

أن المخلاف السليمانى أصبح جزءا من أرض الدولة الرسولية غير أنه اشتمل على إقطاعات كثيرة للسليمانيين ، وكانوا يصلون الشعراء ، ويقدمون لهم مدائحهم ، على نحو ما نجد عند ابن هُتَيْمل فى مديحه للأمير قاسم بن على صاحب صُبيا ، وله فيه مدائح كثيرة من مثل قوله[1] :

حسنيٌّ للسائلين وللمحْـ ـروم فيما حوتْ يداه نَصِيبُ
ساحةٌ لا يزال فيها رئيسٌ مستجيرٌ وسائلٌ لا يَخيب
عزّ فى ظلِّ رحلك القاسميّو نَ ومنهم قبائلٌ وشُعُوبُ
وسِنانُ القناة لولاه فى طَـ ـىِّ العَوالى لم ينفع الأُنْبوبُ[2]

والمركز الثالث للزيدية فى الجزيرة أهم مراكزهم ، وكانت صَعْدة نقطة الدائرة فيه ، فنها انبعثت النحلة ، وظلت فيها ثابتة وظل شأنها يتسع ، حتى انضوت اليمن جميعها منذ القرن العاشر الهجرى تحت رايتها . ومؤسس هذه الإمامة الزيدية – كما أسلفنا – يحيى بن الحسين بن القاسم ، وله مصنفات مختلفة فى الفقه والعقيدة والتفسير ، ويقول فيه ابن حزم : « له رأى فى الفقه وقد رأيته ، ولم يبعد فيه عن الجماعة » وكان شاعرا ، وله وصية شعرية ذكرها فى كتابه الأحكام عند ذكر الجهاد ، ومن شعره[3] :

بنى حَسَنٍ إنى نهضتُ بثأركمْ وثأرِ كتابِ الله والحقِّ والسُّنَنْ
وصيَّرتُ نفسى للحوادثِ عُرْضَةً وغبتُ عن الإخوان والأهل والوطنْ

ويتوالى أبناؤه على صَعْدة من بعده ، حتى يقدم أبو الفتح الديلمى الحسنى فى القرن الخامس فينتزعها منهم ، وينسحبون إلى جبل قطابة ، وتتوالى أئمتهم هناك ، ثم يعودون إلى حاضرتهم صعدة . ومن أهم أئمتهم وأشهرهم فى القرن السادس المتوكل على الله أحمد بن سليمان (٥٣٢ – ٥٦٦ هـ) وكان شاعرا مجيدا وله مكاتبات ومحاورات مع نشوان بن سعيد الحميرى الذى مرت بنا ترجمته بين شعراء الفخر والهجاء ، ومما كتبه إليه قصيدة مطلعها[4] :

دعينىَ أُطْفِى عَبْرتى مابدا ليا وأبكى ذُنوبى اليوم إن كنتُ باكيا

واستطرد فيها يتحدث عن الملوك ومآثرهم ومصيرهم ، ولم يكد يقرؤها نشوان بن سعيد حتى ردّ عليه بقصيدة وعظية مماثلة مطلعها :

ذكرتَ دياراً دارِساتٍ خَوَاليا رُسُوماً عَفَتْ عن أهلها ومغانيا

(١) ديوان ابن هتيمل ص ٣٥ .

(٢) العوالى : جمع عالية وهى النصف الذى يلى السنان من القناة . الأنبوب ما بين الكعبين من القناة .

(٣) صبح الأعشى ٥ / ٤٧ .

(٤) انظر فى هذا البيت والبيتين التاليين الجراف ص ١١٥ .

وهى قصيدة تاريخية طريفة لما ذكر فيها من الملوك الماضية والقرون الخالية ، ومما كتبه إلى المتوكل قوله فى أبيات :

وأنت تصلح للرّايات تَعْقِدُها　　وفى المواكب تُحْيِى الدِّينَ والسُّنَنَا

ومن الأئمة الذين عاصروا دولة بنى أيوب فى اليمن المنصور بالله عبد الله بن حمزة. أما فى عهد الرسوليين فأشهر الأئمة الذين عاصروهم الإمام المهدى أحمد بن الحسين المكنى بأبى طير (٦٤٦ – ٦٥٦) وله حروب كثيرة مع المظفر الرسولى ، انتهت بمقتله فى معركة الحُصَبات . وكان أحمد بن الحسين جوادا ، مدحه كثير من الشعراء ، وفى مقدمتهم ابن هُتَيْمل ، ويقال إنه أجازه على إحدى قصائده خمسين فرسا ، وقد عرضنا فى ترجمته طرفا من مدائحه الرائعة فيه ، ومن أشهر الأئمة الزيدية فى عهد أسرة آل طاهر الإمام المتوكل على الله شرف الدين (٩١٢ – ٩٦٥ هـ) ، وهو ممدوح موسى بن يحيى بهران ، وسنترجم له . أما أئمتهم فى عهد الاحتلال العثمانى الأول (٩٤٥ – ١٠٤٥ هـ) فأشهرهم المؤيد بالله محمد بن القاسم (١٠٢٩ – ١٠٥٤) وهو الذى قاوم العثمانيين مقاومة عنيفة حتى اضطروا إلى الجلاء عن البلاد ، ولشاعره محمد بن على بن شمس الدين قصيدة يذكر فيها وقائعه معهم وانتصاراته ، مطلعها[1] :

بلغتْ بنو الزَّهْرا بك المأمولا　　وبطولِ سَيْف عُلاك زادوا طولا

وخلفه المتوكل على الله إسماعيل (١٠٥٤ – ١٠٨٧ هـ) وقد استولى على عدن وحضرموت وظَفار ودانت له جميع الديار اليمنية ، وفيه يقول إبراهيم بن صالح المهتدى من ميمية طويلة[2] :

إمامٌ عظيمُ السرِّ أمَّا نهارُهُ　　فصومٌ وأمَّا لَيْلُه فقِيامُ
رياضُ الأمانى فى حِماه نَضِيرَةٌ　　وسُحْبُ النَّدى من راحتَيْهِ سِجَامُ[3]
تحمَّل سِرَّ المصطفى بسريرةٍ　　وسيرةِ عَدْلٍ لا تكاد تُرَامُ
تدفقَّ بَحْرُ العلم فى طىِّ صَدْرِه　　أواذىّ لُجٍّ دُرُّهُنَّ تُؤامُ[4]

ويموج كتاب « نشر العرف لنبلاء اليمن بعد الألف » وهو فى مجلدين ضخمين بشعر زيدى كثير . واشتهرت قصيدة تاريخية فى نحو ٢٤٠ بيتا لصارم الدين إبراهيم بن محمد الوزير الحسنى اليمنى المتوفى بصنعاء سنة ٩١٤ وتسمى البسامة ، عرض فيها لأئمة العلويين على مر التاريخ بالحجاز والعراق واليمن والمغرب حتى زمنه ، ومع مر الأزمنة أخذت تضاف

(١) الجرافى ص ١٤٨ .
(٢) سلافة العصر ص ٤٧٩ .
(٣) سجام : سائلة كثيرة والانصباب .
(٤) أواذى : أمواج . تؤام : مزدوج .

لها ذيول كثيرة تشير إلى الأئمة التالين فى اليمن [١] . وحرى بنا أن نقف عند ثلاثة من شعراء الزيدية ، أحدهم مكى هو يحيى بن يوسف الملقب بالنشْو ، والآخران يمنيان ، هما موسى ابن يحيى بهران وعلى بن محمد العَنْسى الصنعانى .

يحيى بن يوسف النَّشْو [٢]

مكى مولدا ومنشأ وحياة ، ولد سنة ٧١٢ للهجرة ولم يلبث أن حفظ القرآن الكريم واختلف إلى دروس ابن عمه شيخ العربية أبى العباس النحوى وأخذ كل ما عنده ، واستمع إلى غير محدِّث ، ونال فى الحديث إجازات مختلفة . وعُنى بالشعر والرسائل ، فكتب الإنشاء لأمراء مكة فى زمنه : عُطَيفة وابنيه مبارك ومحمد وابن عمهما عَجْلان بن رُمَيثة . وكانت ملكته الشعرية خصبة ، ويقول مترجموه : « له شعر كثير سائر مدح وهجا به جماعة من الأعيان » . وتوفى سنة ٧٨٢ . ونجده يكثر من مدائح أمراء مكة الزيديين وفى مقدمتهم من سميناهم آنفا ، وفى عُطَيْفة المتوفى سنة ٧٤٣ يقول فى بعض مدائحه له :

له هِمّةٌ تَسْمو إلى كلِّ غايةٍ   هو الطّاهِرُ الأنْسابِ والعَلَمُ الفَرْدُ
هو الملكُ الماحى لمن كان قبله   فما فى ملوك الأرض طُـرًّا لَهُ نِدُّ
هو المنعم المُولى الجميلَ تفضلاً   فمن سَيْبه قد أوْرَقَ الحَجَرُ الصَلْدُ [٣]
تَخِرُّ له كلُّ الملوكِ مهابةً   وتَخْرَسُ من إجْلاله الألْسُنُ اللُّدُّ [٤]

وواضح أنه يبالغ فى مديح عطيفة ، ودائما يصفه بأنه سيف دين الله وأن المقادير تجرى بما يشاء ، وينعته بالكرم والعدل ، ويشيد بنسبه من الرسول ﷺ ، وهو فخر ما وراءه فخر ، ويمدح ابنه مباركا المتوفَّى سنة ٧٥١ بنفس الشاكلة ، وفيه يقول :

ورثَ الفخرَ عن جدودٍ كرامٍ   قد بَنَى فوق ما بَنَى أمثالهْ
شرَفٌ ما استفاده من بعيدٍ   مَلِكٌ أرْفعُ الملوك جَلاله
نَسَبٌ بين أحمدٍ وعلىٍّ   فَهُوَ من خير [آلِ] تلك السُّلالَهْ
وهْوَ كالشمس مُدْرِكٌ آمالَهْ   وجميعُ البلاد تَهْوَى وِصاله

---

(١) انظر فى البسْملة وذيولها نشر العرف لزبارة ٢ / ١١٣ وما بعدها .

(٢) راجع فى ترجمة يحيى وأشعاره العقد الثمين ٧ / ٤٥٢ وكذلك ترجمة عطيفة فى ٦ / ١٠٢ وابنه مبارك فى ١٢٤/٧ وابنه محمد فى ٢/ ١٤٤ وابن أخيه عجلان فى ٦ / ٧٢ .

(٣) السيب : العطاء . الصلد : الصلب .

(٤) اللد : شديدة العدواة .

وواضح أنه سلس اللغة ، فالكلمات خفيفة الوقع على الآذان ، وهى شديدة الاستواء والتناسق يلائم بعضها بعضا ، ويشعر الإنسان إزاءها بجمال الجرس جمالا بديعا ، جمالا يلذ الألسنة والآذان والقلوب ، وله من قصيدة فى محمد بن عُطَيفة مدحه بها سنة ٧٣٩ للهجرة :

إمامٌ له فَضْلٌ عظيمٌ على الوَرَى ... كريمُ الأيادى بالسَّماحة أَوْحَدُ
يجودُ بما تَحْوِى يداه تكرُّماً ... ويعلَمُ أن المال ليس يُخَلَّدُ
فتى لم يَرَ الراءون مثلَ صفاتِه ... إذا قيل هذا حاتمٌ فَهْو أجود
أجلُّ الوَرَى جاهاً وقَدْراً ورفعةً ... وأكرمُ مَنْ يُرْجَى عَطاهُ ويُقْصَدُ

وعلى هذا النحو يشيع الانسجام فى كلماته ، إذ يلائم بينها موسيقيا ملاءمات دقيقة ، بحيث لا تجد فيها قصورا ولا انحرافا ، وإنما تجد صفاء فى الجرس ، سواء عمد إلى الأسلوب الرصين الجزل كما فى هذه الأبيات أو عمد إلى الأسلوب الرقيق كما فى الأبيات السالفة .

ومن قوله فى مديح عجلان بن رُميثة المتوفى سنة ٧٧٧ للهجرة :

ماذا يقولُ المدحُ فيه وما عسى ... إذ كان يخدم جَدَّهُ جبْريلُهُ
أما الملوك فكلُّهم من دونِهِ ... كالبدر فى أفق السماءِ حُلولُه
سلطانُ مكةَ والمشاعرِ والصَّفَا ... منْ لا يخاف من الزمان نزيلُهُ
لو حاول النَّجْمَ العظيمَ لنالَهُ ... تُنْبيك عنه رِماحُهُ ونُصُولُهُ
سكنتْ محبَّتُه القلوبَ جميعَها ... لما تقارنَ سَعْدُهُ وقبُولُه

وكان عجلان محبوبا حقا للقريب والبعيد إذ كان دون أمراء مكة الحسنيين من آبائه وأقاربه يحِبُّ أهل السنة وينصرهم على الشيعة ، ويقال إنه كان شافعى المذهب[1].

وقصيدة النَّشو فيه بديعة ، وقد افتتحها بغزل رائع ، إذ يقول :

لولا الغرامُ ووَجْدُهُ ونُحولُهُ ... ما كنت تَرْحمه وأنت عَذُولُهُ
إن كنتَ تنكره فسَلْ عن حالهِ ... فالحبُّ داءٌ لا يُفيق عَليلهُ
يامَنْ يلومُ على الهَوَى أهلَ الهَوَى ... دَعْ لَوْمَهُمْ فالصَّبْرُ مات جَميلُهُ

وأنشد صاحب العقد الثمين فى ترجمته للنشو مدائح له جيدة فى الشريف طُفَيْل بن منصور الحسينى أمير المدينة ، استهلها بغزل بديع ، يتحدث فيه عن الغرام وأنه يجد بمحبوبته وجدا لا يشبهه وجد ، إذ نزلت مع صواحبها بالمنحنى لا من الأودية والتلال ، ولكن من أضلعه ، ومن غزله الرقيق :

---

(١) النجوم الزاهرة ١١ / ١٣٩ .

أين المفرُّ لمن هواك طَلِيبُهُ ... وسِهامُ لَحْظِكَ بالسَّقام تُصِيبُهُ
يشكو ولا أحدٌ يرقُّ لما بهِ ... وارحمتاهُ لمـن جفاهُ حَبِيبُهُ
وجميعُ ما فى القلب منك عرفتَه ... أتكون ساكنَه وأنت تُذيبُه
حَنَّ العذولُ عليه حين هَجرْتَه ... ورَثَا له الواشى ورقَّ رقيبُهُ
يا وَيْحَ من يَرْثى لـه أعداؤه ... فشُجونُه لا تنقضى ونحيبُه

وهو غزل كله وجد ولوعة وهيام ، غزل يترقرق فيه الشوق واللهفة والحنان ، حتى ليحنّ على المحب العذولُ والواشى الرقيب ، فكلهم يأسى له ، وهو يلتاع بحبه وشجونه ، ولا يكفُّ عن النحيب ، إذ يحب صاحبته كما لم يحب فتاة قط ، ويحتمل فى ذلك آلاما ثقالا . وله مدائح نبوية كثيرة بديعة ، يستهلها بنسيب رائع ، من مثل قوله :

عَرِّجْ بِمُنْعَرَجِ اللِّوى والمُنْحَنَى ... فعساك تَظْفَرُ مِنْ لِقاهم بالمُنَى
أهواهُمْ وهواهُمُ لا ينقضى ... أبداً وإن شَطَّ التباعُد بيننا
فلئن ظفِرتُ بزورةٍ أَحْيَا بهـا ... فلِيَ السعادَةُ والمسرَّة والهَنا
يا أهلَ طَيْبَةَ إنَّ لى فى حَيِّكم ... قمراً لَـهُ كلُّ المحاسن والسَّنا
أنوارُهُ منهـا الدَّياجى أشرقتْ ... بَدْرٌ به قد نَوَّرتْ كلُّ الدُّنَا
ولهُ الفضائِل والمآثرُ والعُلا ... ولـه المفاخرُ والمحامد والثَّنا

والنسيب كالمديح النبوى يذوب رقة وخفة ورشاقة ، مما يدل بوضوح على قدرة الشاعر الموسيقية وأن أذنه كانت من رهافة الحس بحيث تحسن اختيار القوافى واصطفاء الألفاظ إحسانا بعيدا .

موسى بن يحيى بَهْران[(١)]

شاعر الإمام شرف الدين (٩١٢ — ٩٦٥ هـ .) وليس بَيْنَ أيدينا معلومات واضحة عن زمن مولده ووفاته . وكان شرف الدين مَدَّ يده إلى المصريين مُعينا حين أرسل قانصوه الغورى طائفة من الجراكسة فى سنة ٩٢١ إلى جنوبى البحر الأحمر لرد عدوان البرتغاليين ونزلت فى جزيرة كَمَران ، وطلبت من السلطان عامر آخر أسرة بنى طاهر أن يعينها ضدهم ، ولكنه رفض عونها ومنع عنها الميرة ، وكان شرف الدين قد أرسل إليها شيئا من

(١) انظر فى ترجمة موسى بن يحيى بهران وأشعاره كتاب شعر الغناء الصنعانى لمحمد عبده غانم ص ١٨٤ — ١٨٧ ، ١٩٩ — ٢٠٠ وتاريخ اليمن لعبد الواسع (طبع المطبعة السلفية) ص ٤٩ . وللشاعر ديوان نظمه فى مديح الإمام شرف الدين .

العون والمؤن ، وشكا من السلطان عامر ، فتعاون قائدها معه على حربه ، وقضيا عليه وعلى حكم أسرته سنة ٩٢٢ . ودخل شرف الدين صنعاء ، ودخلت البلاد جميعها فى طاعته وأكثرت الشعراء من تهنئته بهذا النصر المبين ، وفى مقدمتهم موسى بن يحيى بهران إذ هنأه بقصيدة رائعة ، فيها يقول :

خليفةُ الرحمن فى أرضـهِ   مباركُ الوَجْه كريمُ الجدُودْ
بَرٌّ كَريمٌ من بنى المُصْطفى   إمامُ حَقٍّ ساعدتْه الجُدود
قالتْ له الأيام إذ أقبلتْ   ما أحسنَ الوَصْلَ عقيبَ الصُّدودْ
وأهلَك الباغين حتى ثَوَوْا   واستبدلوا بعدَ القصور اللُّحودْ
واستبشرَ العدلُ بأيامهِ   فامتلأ الغَوْرُ بـهِ والنُّجُودْ
وأصبحتْ صنعاءُ من عُجْبِها   ترفُل فى مُسْتحسنات البُرودْ

وقد ورَّى الشاعر فى البيت الثانى بكلمة الجدود وهو لا يريد بها الآباء كما فى البيت الأول – وكما قد يتبادر – وإنما يريد بها الحظوظ . وهو يذكر نسب شرف الدين من الرسول ﷺ ، إذ هو من سلالة الحسن بن السيدة فاطمة الزهراء . ولا يلبث أن يمدحه برفع أعباء الظلم عن كواهل الشعب وإحلاله فى كل مكان للعدل الذى لا تصلح حياة الأمم بدونه ، ويشير فى البيت الأخير إلى فتح شرف الدين لصنعاء وكيف اتخذت زينتها ابتهاجا به وفرحا . ويسترسل فى القصيدة منشدا :

يا شرفَ الدين وُقيتَ الرَّدَى   ودمتَ تَحْمى بالحِداد الحدودْ
لا غَرْوَ أنْ سُدْتَ جميعَ الوَرَى   مثلُك يا بَحْرَ النَّدَى مَنْ يسود
علمُك بحرٌ ماله ساحلٌ   زَنْدُكَ أَوْرَى من جميع الزنودْ[١]
وجودُ كفَّيك إذا ما همَى   غيثٌ مُغيثٌ ما له منْ رعُود

وفى البيت الأول جناس واضح بين الحداد أى السيوف والحدود . ومنذ هذا التاريخ بل ربما قبله بحقب يكثر الجناس فى شعر اليمنيين ، وقد مضوا أيضا يكثرون من التورية محاكاة للمصريين . والشاعر يمدح شرف الدين بالكرم والشجاعة والعلم بالشريعة . وفى الأبيات السالفة مدحه بالعدل . وكل هذه مبادئ أساسية فى الإمامة الزيدية كما مر بنا فى صدر هذا الكلام . ومضى فى القصيدة مبالغا فى مديحه خاتما لها بالدعاء له . ولموسى قصيدة بائية بديعة يهنئ فيها شرف الدين بأحد أعياد الفطر ، وفيها يقول :

حَوى شرفُ الهدى والدين مَجداً   رفيعاً وابْتَنَى شَرَفاً عَلِيَّا

(١) أورى : من ورى الزند إذا خرجت ناره .

بَراه إلٰهنـا بَرًّا صَفيًا ولم يخلقه جبَّاراً عَصِيًّا
سَرى سِرُّ النبوَّة فيه حتى حكى عن جَدِّه خُلُقاً سَنِيًّا
حَوَى علمَ الذين مضوا جميعاً وأصبح وارثا لهمُ وليًّا
تأزَّرَ وارتدى بالحكْم كَهْلا وأُوتِيَ حُكْمَ خالقِه صَبيًّا

وواضح أن قوافى الأبيات مأخوذة من فواصل سورة مريم ، وأن الشاعر لم يكتف بذلك ، بل حاول أن يسبغ على شرف الدين بعض ما جاء فى السورة من نعوت للنبى يحيى ، وقارن بين البيت الثانى وقوله تعالى فى نعت يحيى بن زكريا : (وبرًّا بوالديه ولم يكن جبّارا عَصِيًّا) . ويشير الشاعر فى البيت الثالث إلى فكرة ميراث النبوة التى جاءت فى السورة على لسان زكريا إذ يدعو ربه أن يهبه غلاما : (فَهَبْ لى من لَدُنْكَ وَلِيًّا يرثنى ويرث من آل يعقوبَ واجعلْهُ ربِّ رَضِيًّا) . ويكمل الفكرة فى البيت الرابع . ولا يلبث أن يسلك فى البيت الأخيرة نهاية الآية الكريمة : (يا يحيى خُذِ الكتابَ بقوة وآتيناه الحكم صَبياً) . وهو غلو واضح . ويمضى فى القصيدة قائلاً :

وقُلْ يابنَ الأكارمِ من قريشٍ وأَحْسَنَهم – إذا ذُكِرُوا – نَدِيًّا
ومن دَنَتِ الملوك له وذلَّتْ وخرَّتْ من مهابته جثيًّا
بفضلك تُتَّقى نُوَبُ الليالى فكُنْ فى النائبات بنا حَفِيًّا

والشطر الثانى فى البيت الأول مستمد من قوله تعالى فى السورة : (أىُّ الفريقين خير مقاماً وأحسن نَدِيًّا) أى مجلسا وجماعة . والبيت الثانى يستضىء بالفاصلة (جثيًّا) الواردة فى السورة أى تَخِرُّ الملوك على ركبها ولا تستطيع الحراك هيبة له وإجلالا . وقافية البيت الثالث مأخوذة من قول إبراهيم فى السورة لأبيه : (سأَسْتَغْفِرُ لك ربى إنه كان بى حفيًّا) أى رءوفاً يرعانى . ويختم الشاعر القصيدة بالدعاء لشرف الدين والصلاة على رسول الله ﷺ ، يقول :

عليك سلامُ رَبك ما تَغنَّتْ حَمامُ الأَيْك صُبْحا أو عَشِيًا
وصلىَّ الله خالقُنا على مَنْ تَخَيَّره نَبِيًّا هاشميًا
محمدٍ المشفَّعِ فى البَرايا صلاة تُبْلغ الأمدَ القَصِيًا

وتكثر هذه الخاتمة عند شعراء الجزيرة وخاصة فى القرون الأخيرة من هذا العصر ، وكثيرا ما يضمنونها كما صنع الشاعر الإشارة إلى شفاعة رسول الله لأمته يوم القيامة . ولهذه القصيدة وسابقتها مقدمتان غزليتان بديعتان ، ومن قوله فى مقدمة القصيدة الأولى :

لمقلتى فى خدِّهِ جنَّـةٌ محفوفةٌ بالنَّار ذات الوَقُودْ

له سيوفٌ طالما سَلَّها ... من لَحْظه يَحْمى ورودَ الخدودْ
سبحانَ من صوَّره فتنةً ... لخلقهِ وهْو الرحيمُ الوَدُودْ
لم أدْرِ أين الثَّغْرُ من عِقْدهِ ... لما تساوى ثَغْرُهُ والعقودْ
وفى المَها ضِدَّان لم يَبْرحا ... قساوةُ القَلْبِ ولِينُ القُدودْ

والأبيات تكتظ بالصور وبعنصر المفاجأة الذى يجعلها طريفة كل الطرافة ، فالورود فى خَدٍّ صاحبته جنة محفوفة بجمرة شديدة كأنها النار الحامية ، وما لحظها إلا حامٍ بسيوفه لورود الخدود ، وإنها لفتنة لا تُحاكيها فتنة . ويعود إلى التصوير وعنصر المفاجأة ، فلا يدرى أين ثغرها ولآلئ أسنانها وأين العقود ولآلئها فقد اختلط عليه الأمر . ويخالها تحمل من المهَا قساوة قلبه ولين قدِّه وقامته . أما مقدمة القصيدة الثانية فجعلها حوارا بينه وبين محبوبته نقطتف منه هذه الأبيات :

فقلتُ له ونحن بخير حالٍ ... أتفقدُ من جنان الخُلْد شيَّا
فقال وقد تعجَّب من مقالى ... جنانُ الخُلْد قد جُمِعَتْ لديَّا
فقلت : فسِحْرُ بابلَ أين أَضْحَى ... فقال : أما تَراه بِمُقْلتيَّا
فقلتُ : الورْد أين يكون ؟ قل لى ... فقال : أما تراه بوَجْنَتيَّا
فقلت الشَّهْد أين ؟ فقال : هَذِى ... شِفاهى قد حوتْ شَهْداَ جَنِيّا

ويستمر فى حواره مع صاحبته سائلا عن البرق ، فتذكر له أنه يطلّ من مبسمها الوضىء ويسألها عن المرآة وجيد الغزال والثريا فتبدى له خدّها الباهى وجيدها الفاتن وقد استدار من حوله عقد جواهر أنيقة . ولولا خوف الإطالة لنقلنا الحوار جميعه ، وفى الحق أن شعره يحفل بما يملأ النفس إعجابا بتصاويره وأخيلته ولفظه العذب السائغ ونغمه الموسيقى المصفَّى ، ولعل ذلك ما دفع المغنين فى اليمن منذ عصره إلى أن يتغنوا بهاتين القصيدتين ، وخاصة بمقدمتيهما الغزليتين البديعتين .

على بن محمد العَنْسيّ (١)

يمنى صنعانى ، نشأ بمدينة صنعاء فى بيت علم وفضل ، وبدأ بحفظ القرآن واستظهار الأشعار ثم اختلف إلى مجالس النحاة والفقهاء وعلماء المنطق ، حتى إذا تزود من كل ذلك

(١) انظر فى ترجمة العنسى وأشعاره البدر الطالع للشوكانى ١ / ٤٧٥ وكتاب نشر العرف لزبارة ٢ / ٢٨٠ وراجع فيه تراجم شرف الدين القاسم والمتوكل القاسم بن الحسين والسيد عبد الله بن على الوزير ومصطفى الحموى وأحمد بن عبد الله الجربى وصلاح بن الحسين .

زادا كافيا قُلِّد القضاء ببلاد العدين من اليمن الأسفل لعهد الإمام الزيدى محمد بن أحمد ابن الحسن (١٠٩٧ - ١١٢٨ هـ) ومازال يتولى هذا المنصب حتى عهد إليه الإمام الزيدى التالى المتوكل القاسم بن الحسين (١١٢٨ - ١١٣٩ هـ) بالقضاء فى بلاده وفى وصاب غربى زَبيد . وفى سنة ١١٣٦ وُشى إلى القاسم أنه يسعى ضده مع بعض الثائرين وأنه صاحب القصيدة : «سماعا عبادَ الله أهلَ البصائرِ» وهى قصيدة تصور ظلمه وتدعو للثورة عليه . فقبض عليه القاسم وألقى به فى غياهب السجون ، وأخذ العَنْسىّ يرسل إليه قصائد مستعطفا بمثل قوله :

إمامَ الوَرَى عَطْفاً على خائفٍ عَطْفا   بحق الذى أبقاك فى خَلْقِه كَهْفا
فو الله مالى قَطُّ ذَنْبٌ عَرَفْتُه   وهذا الذى أُبْدِى ولله ما يَخْفى
إمامَ الهدى هَبْنِى جنيتُ جنايةً   فهبنى لأطفالٍ كطير القَطَا ضَعْفا

وتحقق القاسم من براءته ، فردَّ إليه حريته ، وعينه حاكما بالحَيْمَة من بلاد صنعاء ، وظل بها إلى أن لبىَّ نداء ربه سنة ١١٣٩ هـ / ١٧٢٦ م . ويكتظ كتاب نشر العرف بأشعار إخوانية متبادلة بينه وبين بعض الأمراء والأدباء فى ترجمته وتراجمهم . وله قصائد مختلفة تتصل بالأحداث فى عهد المتوكل القاسم بن الحسين ، من ذلك أنه لما أكمل بناء السور على بستان باب السبحة فى صنعاء سنة ١١٣٤ مدحه بنونية يقول فيها :

أما قيل فى البستان وهْو بأهلِهِ   وبالمُلْك سامٍ لا يدانيه غُمْدانُ(١)
ويَعْمُره من يَعْمُر الدينَ عدلُه   ويَحْيى بِهِ معنى الفخار ويزدانُ

ومن ذلك إيقاع المتوكل القاسم فى صنعاء بقبائل أرحب سنة ١١٣٨ حين اعتدوا على بعض فرسانه ، ففتك بهم فتكا ذريعا . وصوَّر ذلك العنسى فى ميمية عارض بها ميمية المتنبى فى سيف الدولة التى وصف فيها واقعة الحَدث وهزيمته للروم هزيمة ساحقة . وقد استعار منها كثيرا من قوافيه ومعانيه وصوره وألفاظه ، من مثل قوله :

نثرتَ دنانيرَ الوجوهِ على الثَّرى   كما نُثِرَتْ فوق العروسِ الدراهمُ
هنيئاً لضَرْب الهام والمجد والنَّدى   وراجيك والإسلام أنك سالم
وقوفُك ما بين الخميسين باسماً   وموجُ المنايا حولك المتلاطم
ولستَ مليكا هازما لنظيره   ولكنك الإسلامُ للشرك هازم

والأبيات شديدة الصلة بقصيدة المتنبى : « على قدر أهل العزم تأتى العزائم » . وهى ظاهرة تلاحظ فى شعراء اليمن المتأخرين إذ يكثرون من معارضة الشعراء النابهين لا فى المديح

(١) غمدان : قصر عتيق باليمن .

فحسب ، بل فى كل الأغراض الشعرية . ونرى العنسى يقول فى افتتاح قصيدة روضية :

يا سَميرى وللفتوة قومٌ خُلقوا من سُلالة الإنسجامِ
بطراز الرقَّا بتشبيب مِهْيا رِ بِلُطْف البَها بطبع السَّلامى

وهو يصرح فى البيتين بأنه من قوم يعنون فى شعرهم بالانسجام الموسيقى على شاكلة السَّرِىِّ الرَّفاء المشهور بعذوبة ألفاظه ومهيار الذى يمتاز بالسلاسة والبهاء زهير المشهور بالرقة والسلامى المعروف بجمال نغمه . وطبعا هؤلاء إنما هم بعض من قرأ لهم العَنْسى وحاكاهم وعارضهم فى شعره . وله قصيدة تاريخية شيعية فى نحو سبعين بيتا استعرض فيها نحو أربعين إماما بادئا بعلى بن أبى طالب الذى اقتلع باب الحصن فى خَيْبر ، فاستؤصلت شأفة الكفر ، ويذكر قتله لعمرو بن ودّ فارس قريش يوم الخندق ويُشيد بفاطمة الزهراء وبابنيها الحسن والحسين ريحانتى أهل الجنة وبعلى زين العابدين ، ثم بإمامهم زيد منشدا :

ويا خير من سَلَّ الحُسامَ وقد طغَى لئيمُ بنى مَرْوانَ أشْقَى بنى الدَّهْرِ
فأصبح مِنْه الجِذْع قد عانق العُلا ولكنها فى الدين قاصِمَةُ الظَّهْر

وهو يشير إلى ثورة زيد بن على زين العابدين على هشام بن عبد الملك فى الكوفة ومقتله هناك وصلبه ، ويذكر أخاه محمدًا الباقر وابنه جعفراً الصادق . ويذكر ثورات الحسنيين مبتدئا بثورة النفس الزكية على المنصور وسفك دمه ، ويذكر ثورة الحسين بن على الحسنى على الخليفة العباسى الهادى فى الحجاز ومقتله بفَخّ بالقرب من مكة ، كما يذكر وقوع يحيى أخى النفس الزكية فى يد الرشيد وإلقائه به فى غياهب السجون حتى مات . ويذكر الزيدية فى طبرستان وآمل . ثم يتحدث عن الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم الحسنى مؤسس مذهب الزيدية فى اليمن ، ويستعرض الأئمة التالين له منوها بهم ومشيدا بأمجادهم ، حتى يصل إلى المؤيد بالله محمد بن القاسم الذى تغلب على العثمانيين وردَّهم عن البلاد سنة ١٠٤٥ وفيه يقول :

ويا حُجَّةَ اللهِ الذى قام داعياً إلى الله فرداً لا بزيدٍ ولا عَمْرو
وبشَّرَتِ الناسَ الهواتفُ باسمِهِ كما بَشَّرتْ بالمصطفى مبدأَ الأمر
فأخلا عُلوجَ الترك عن يَمن الهُدَى بِضَرْبٍ كما هاجَ الوَهِيجُ من الجَمْر

ويلاحظ أن العنسى لا يقف عند مبادئ الزيدية فى مديحه ، إذ يضيف إليها بعض اعتقادات الشيعة الغالية فى أئمتهم . وقد ساق فى أوائل القصيدة وصفا لجعفر الصادق بأنه يكشف أسرار الخفىّ من علم الجفر ، وهو كتابات تكشف طلاسمها عن أنباء المستقبل وأحداثه ، ويقولون إن الرسول أودعها عليا وتناقلها الأئمة بعده من جيل إلى جيل ،

والزيدية لا يؤمنون فى إمامهم بمعرفته لهـــذا العلم وما يجر إليه من الاعتقادات الباطلة ، ومع ذلك نرى العنسى يشيد بمعرفة جعفر الصادق له ، وكأنه أحد الإسماعيلية الذين كانوا يؤمنون به . وقد يكون فى هذا دليل على ما دخل مذهب الزيدية مع الزمن من اعتقادات لا تعرفها نحلتهم ، ومن ذلك وصفه لمحمد بن القاسم بأنه حجة الله . ومرَّ بنا أنه اصطلاح إسماعيلى وأن المراد به أنه الداعى للمذهب فى بلاده . ويزعم أن الهواتف من الجن كانت تبشر به الناس كما بشرت قديما بالمصطفى ، وكل ذلك غلو مفرط يخرج عن حدود المذهب الزيدى الشيعى المعروف باعتداله وأنه لا يبالغ فى تصوُّر الأئمة وإسباغ الصفات الربانية عليهم ، كما يفعل الإسماعيلية . وَربما كتب العنسى هذه القصيدة فى سجنه تقربا إلى القاسم بن الحسين حتى يفك عنه أغلاله ، فخرج إلى هذه المبالغات المسرفة . وقبل أن نختم كلامنا عنه نشير إلى قصيدتين متبادلتين بينه وبين عبد الله بن على الوزير الذى التزم فى جميع أبيات قصيدته التورية وسماها أهرام مصر . ودفع ذلك العنسى إلى التماس التورية بدوره فى كثير من أبيات قصيدته . وواضح من تسمية عبد الله الوزير لقصيدته بأهرام مصر أنه كان يعرف بوضوح أن شعراء مصر هم الذين اتخذوا التورية مذهبا أداروا عليه كثيرا من أشعارهم . والقصيدتان من وزن الطويل ، وقد ضمن العنسى قصيدته بعض شطور من قصيدة مجنون ليلى مثل : (قضاها لغيرى وابتلانى بحبها) وأيضا بعض شطور من قصيدة المتنبى فى كافور مثل : (كفى بك داء أن ترى الموت شافيا) وكان هذا التضمين فى الحقب المتأخرة من ذلك العصر يُعَدّ من الطُّرَف البديعة .

٣

شعراء الخوارج

مرَّ بنا فى الفصل الأول حديث عن الإباضية وأنها كانت إحدى فرق الخوارج الأساسية بجانب الأزارقة والنَّجَدات والصُّفْرية ، وكان نشاط الأزارقة فى فارس وكرمان والصفرية فى الموصل والنجدات فى اليمامة ، وانتهت هذه الفرق الثلاث أو كادت بانتهاء العصر الأموى . أما فرقة الإباضية المنسوبة إلى إمامها عبد الله بن إباض التميمى فقد ظلت حية طوال عصر بنى أمية والعصور التالية ، واتخذت مركز نشاطها فى مدينة نَزْوَى داخل إقليم عُمان جنوبى الجبل الأخضر ، وظلت مدينة عمان طويلا تخضع لدول سنية أو شيعية كما مر بنا فى غير هذا الموضع ، حتى إذا كان القرن الحادى عشر الهجرى أظلت البلاد جميعها

راية الخوارج إلى اليوم . وكثيرا ما كانت تنشب الحروب بينهم وبين دول مدينة عُمان ، وكانت تقع أحيانا فى أيديهم ، واستطاعوا فى حقب مختلفة أن يمدوا دولتهم إلى ظفار وحضرموت ، ومن أهم أئمتهم القدامى الخليل بن شاذان ، وكان يمد سلطانه ومذهبه الخارجى الإباضى على حضر موت ، واتخذ عاملا له عليها أبا إسحق الحضرمى ، وكان شاعرا ، وله فى الخليل إمامه أشعار كثيرة يصور فيها عونه المالى والحربى ضد خصومه ، وفيه يقول [1] .

هذا الخليلُ إمامُ المسْلمين حَكَتْ ... أنوارُ سِيرته فى العَدْل نيرانا

ويكتظُّ ديوانه بمدائحه ، ولا تكاد تمر حادثة أو يمر له انتصار حربى إلا ويرسل إليه القصائد مهنئا . وخلفه راشد بن سعيد على إمامة الخوارج فأبقى على أبى إسحق عاملا له على حضر موت ، ويُعَدُّ راشد أهم إمام خارجى فى الحقب الأولى لهذا العصر ، إذ استولى على عُمان ، وأصبحت البلاد جميعها يُظِلُّها لواء الإباضية إلى أن استطاع بنونبهان فى القرن السادس أن يستخلصوا منهم عمان . وتستمر الحروب بين الطرفين إلى أن يفرض الخوارج سلطانهم على البلاد جميعها ، وتعود عمان إلى النبهانيين فترة فى القرن العاشر ، ثم يستولى عليها نهائيا ناصر بن مرشد اليعربى (١٠٢٤ — ١٠٥٠ هـ) وتظل منذ هذا التاريخ فى أيدى الخوارج ، وكان البرتغاليون قد نزلوا فى شواطئها ، فأخذ ينازلهم وظلت مدينتا صُحار ومسقط فى أيديهم واستطاع خلفه سلطان بن سيف اليعربى (١٠٥٠ — ١٠٩١ هـ) أن يطردهم من البلاد نهائيا وتبعهم أسطوله ينكِّل بهم وبأسطولهم فى شرقى إفريقية وغربى الهند . وفى ذلك يقول شاعره خلف بن سنان الغافرى ممجداً [2] .

ثُمَّ أَوْرَى لمَسْقَطٍ سِقْطَ عَزْمٍ ... أسقط الظالمين منه ضِرامُ [3]
وغدَتْ من عُمانَ كفُّ بنى الأصْـ ... ـفَرِ صِفرًا قد هزَّها الانهزامُ [4]
وبِـمِـمْـبـاسَّـةٍ أذاقـهـمُ بَـأْ ... سًا بَئيسًا سِيئَتْ بهِ الأَصْنام
ولدى زَنْجِبارَ زَمْجَرَ فيهم ... وَعْدُ زَجْرٍ لم يُنْجِ منه اعتصام
وبِبُمْباىَ نابهم منه نابٌ ... لم يَشُبْهُ عن المَضىِّ انهتامُ [5]

وهو يشير إلى انتصارات أسطول سلطان على الأسطول البرتغالى فى ممباسه وزنجبار وفى بمبى بالهند . وهى انتصارات جديرة بكل تمجيد وإشادة . وخلفه ابنه

---

(١) تحفة الأعيان ١ / ٢٥٨ وما بعدها .
(٢) التحفة ٢ / ٦٠ .
(٣) أورى : أوقد . سقط النار : شرارة أو شعلة منه .
(٤) يريد ببنى الأصفر البرتغاليين .
(٥) انهتام : تكسر ثنايا الأسنان من أصولها .

بِلَعْرُب ، وكان شاعرا . وقد تربى فى كنفه شاعر خارجي مهم يسمى الحُبْسى ، وله ديوان استهله بمدائح نبوية على عدد حروف المعجم ، وفيه مدائح كثيرة فى بلعرب بن سلطان ، وفيه يقول [1] :

يا مَنْ إذا ثارَ فى الهَيجْاء يفعل فى أعدائه فِعْلَةَ الجزَّار فى البُدُنِ [2]
ومَن إذا فاخر الأشراف فى مَلأٍ شاعتْ مفاخرُه فى الشام واليمن
هذا الكريم الذى تَشْفيك رؤيتهُ من كل داءٍ ومن هَمٍّ ومن حَزَنِ
بلْعُرْب نَجْلٌ لسلطانَ الذى حَسُنَتْ أخلاقهُ وهْو ربُّ المنظر الحسنِ

وواضح أن شعره متوسط . وأجود شعراء عُمان فى أواخر هذا العصر أبو مسلم ناصر بن سالم الرَّواحيّ العُمانى ، وهو شاعر بارع ، توفى سنة ١٣٣٨ هـ / ١٩٢٠ م ولذلك نرى أن نؤخرُه إلى العصر الحديث فى عمان .

ولابد أن نعرض لدولة بنى مهدى الخارجية التى استولت على زَبيد من يد بنى نجاح ، وقد ظلت نحو خمسة عشر عاما ، وكان مؤسسها على بن مهدى الحميرى يعتنق مذهب الأزارقة من الخوارج ، وهو أكثر مذاهبهم تشددا ، وكان يقتل على الكبيرة ويستحل دماء المسلمين من مخالفيه ، ويسترقّ ذراريهم . ولم يقف عند مبادئ الأزارقة ، فقد استباح نساء المسلمين . وخلط آراءه بشيء من مبادئ الإسماعيلية ، فادَّعى كما مر بنا العصمة وتسمى باسم الإمام المهدى . واستطاع الاستيلاء على زبيد سنة ٥٥٤ ، وعاجله الموت بعد ثلاثة أشهر ، وتولى بعده ابنه المهدى ، وسار سيرة أبيه فى سفك الدماء وسَبْى المسلمين ، واستولى على تعزّ والجنَد ، ويقول العماد الأصبهانى إنه ادعى الإمامة وأقبل على شرب الخمر . توفى سنة ٥٥٩ ، وخلفه أخوه عبد النبى ، وكان مثل أخيه وأبيه سفاكا للدماء ، قتله توران شاه حين استولى على اليمن سنة ٥٦٩ . ومن شعراء هذه الدولة القصيرة الأجل ابن المسيح [3] وعبد الله [4] بن أبى الفتوح الحرازى ومحمد بن عمر العمرانى وله من قصيدة يمدح بها عبد النبى [5] :

وضحتْ شموسُ الحق بعد أُفُولِهِ ورَسَتْ هنالك قاعداتُ أُصولِهِ

ونقف قليلا عند شاعر من شعراء الإباضية ، هو أبو إسحق الحضرمى ، وشاعر من شعراء دولة بنى مهدى الخارجية ، هو ابن الهُبَيْنى .

(١) التحفة ٢ / ٨٧ .
(٢) البدن : النوق والبقر المهيأ للذبح .
(٣) الخريدة قسم للشام ٣ / ٢٧٢ .
(٤) نفس المصدر ٣ / ٢٧٣ .
(٥) طبقات فقهاء اليمن للجعدى ص ١٩٣ .

أبو إسحق الحضرمي[(١)]

هو أبو إسحق إبراهيم بن قيس الهَمْدانى الحَضْرمى ، وُلد بحضر موت ولا يُعْرَفُ بالضبط تاريخ مولده ولكن يغلب أن يكون وُلد فى مستهل القرن الخامس الهجرى أو فى أواخر القرن الرابع . وهو من بيت علم وفضل ، كان أبوه –كما يقول مقدم ديوانه– عالما ورعا زاهدا متقشفا . ويبدو أنه كان يعتنق عقيدة الإباضية مثله ، ومثل كثيرين من أهل حضر موت ، ونشأ ابنه على عقيدته ، حتى إذا شبَّ أخذ يتحمس لها ويحاول أن ينشرها فى الناس من حوله ، وفى نسبه وإباضيته يقول :

فإنْ تَسْألى عَنِىّ وعن أهل مذهبى ومن أين دارى أنت يا أمَّ حازمِ
فَإنِىَ من هَمْدانَ أصلى وقُدْوتى فرداسُ والأوطان أرضُ الحضارِمِ
أنا الرجلُ الدَّاعى إلى الحقِّ والذى أبتْ نفسُه شَتْمَ الطُّغاة الأشائمِ
أنا الرجلُ الشارِى الذى باع نفسَهُ وأصبح يرجو الموتَ عند التصادم

وهو فى الأبيات يصرح بأنه حَضرمى من همدان ، وأنه أخلص نفسه للدعوة الإباضية ، ويصف نفسه بأنه من الشُّراة ، وقد سمى الخوارج أنفسهم بهذا الاسم إشارة إلى قوله تعالى : (ومن الناس من يَشْرى نفسه ابتغاء مرضاة الله) وهو يعلن أنه باع نفسه لربه والدعوة لنحلته ، وأصبح يطلب الموت والاستشهاد فى سبيلها حتى يفوز برضوان الله ، ويبدو أن الشعر سال على لسانه مبكرا ، مما جعله يخلف ديوانا ، وهو يصور فيه حياته وأحداثها تصويرا تاما ، وهى حياة وأحداث متصلة بأئمة الإباضية فى نَزْوى إذ نراه على رأس حملة للخليل بن شاذان إمام الإباضية استطاع بها أن يضم حضر موت إلى سلطانه وقد ظل واليا له عليها إلى وفاته ثم خلفه راشد بن سعيد الذى مَدَّ جناح سلطانه إلى عُمان ، ونجده يشيد بإمامه الخليل بن شاذان فى قصائد كثيرة ، بمثل قوله :

يا أيها العَلَمُ العَدْلُ الذى كملتْ له الخصالُ مُروءاتٍ وإيمانا
إنى أحبُّك والرَّحمن يعلمُـه حبَّ احتسابٍ إلى ذى الطَّوْل قُرْبانا

ويطلب فى القصيدة منه معونة ليحطم الغواة الضالين . وكانت لاتزال تأتيه المعونات ولايزال يحارب أعداء عقيدته فى حضر موت ، ويبدو أن كثيرين كانوا ينقضون طاعته بين

---

(١) انظر فى ترجمة أبى إسحق الحضرمى وأشعاره كتاب صفحات من التاريخ الحضرمى لسعيد عوض باوزير ص ٦٦ وتحفة الأعيان ١ / ٢٥١ وفى مواضع متفرقة . وقد طبع ديوانه مع مقدمة لسليمان البارونى .

البدو وفى المدن الحضرمية ، فكان لايزال يرسل إليهم الحملات ، ولا يزال بهم حتى يُلْقوا له عن يدٍ وهم صاغرون ، وصوَّر ذلك فى قصائد كثيرة ذاكرا نشره للدعوة الإباضية وكيف أن خطباء يوم الجمعة يخطبون باسم إمامه فى كل مكان بحضر موت ، وكيف أن البلاد والقبائل دانت له مذعنة مستسلمة ، يقول للخليل فى إحدى قصائده :

سلِ الخُطَبَا لما دَعَوْا لك جهرةً ... على رَغْم أهل الجَوْر بعد التصادمِ
وسَلْ عَرَب البَيْداء لما أذقتهم ... عشيَّة خانوا العهد سُمَّ الأراقم
وأمَّا نواحى حَضْرموتَ فإنها ... بحَوْل إلهى طَوْعُ أمرى كخاتمى
ولم يَبْقَ لى إلا الصُّلَيْحىُّ قائما ... وها هو أيضاً سَعْدُه غيرُ قائم
ونحن إليه واردون بجيشنا ... فما هُوَ أدهَى من ملوك الدَّيالِم

وهو فى البيتين الأخيرين يشير إلى أنه عازم على حرب الصليحى مؤسس الدولة الصليحية فى اليمن وكان قد أخذ يدعو لنفسه ويبدو أن كلا منهما كان يتحرَّش بصاحبه ، ويهدده بأنه سيستعين بإمامه ، وكان الصليحى يهدده بالخليفة الفاطمى وجنوده ، وإلى ذلك يشير أبو إسحق بقوله :

يخوِّفنى أنَّ المعزَّ مَلاذُهُ ... بمصرٍ وما خوفى لأهل المظالمِ
إذا وَفْده ولَّى إلى مصْرَ رائداً ... مَضَى وَفْدُنا قَصْداً لخير المعالم
ليعلَم أىُّ الحزب أسبقُ نُصْرةً ... وأيُّها أولَى بفعل المكارمِ

وواضح أنه سمى المستنصر خليفة مصر حينئذ المعز كأنه لا يعرف لقبه الحقيقى ، وخرج هُو وخصمه الصليحى من التهديد والوعيد إلى إشعال الحرب ، ونرى أبا إسحق يوجه قصيدة أشبه بنداء إلى إمامه الخليل بن شاذان كى يغيثه وينصره ضد الصليحى ، قبل أن تتفاقم المعارك وتقع الكارثة ، يقول له من قصيدته نونية :

انصُرْ أخاك فإن الحرب قائمةٌ ... والحق يطْلبُ من أهليه أرْكانا
اجْعَلْه أوَّل ما تَحْيا البلادُ بهِ ... إنا نؤمِّل جيشاً منك يَغْشانا
واعلمْ بأنك قد أثَّرْت مأثُرةً ... فارْفَعْ لها شَرَفاً فالأمرُ قد هانا

ويبدو من البيت الأخير أن الخليل بن شاذان كان قد أرسل إليه معونة مالية ، وهو يريد معونة حربية . واستطاع فعلا أن يرد جيوش الصليحى وأن ينزل بها خسائر فادحة ، ويتوفى الخليل بن شاذان إمامه ويخلفه راشد بن سعيد ، ويبقيه والياً له على حضر موت ، ويظل يرسل له بقصائد المديح ، وكان قد استولى على عُمان كما أسلفنا ، وله يقول :

أيا راشدُ إنا لعمرُك نَزْدَهى ... بذكراكمُ فى حَضْرموتَ تعاظما

إذا ما عُمانىٌّ ألمَّ بأرضنا أَحَطْنا به نسألْه عنكم تراحما

وله فيه قصيدة دالية يشيد فيها بالإباضية ، وأخلاقهم الفاضلة ، ومناقبهم الكريمة ، وكيف أنه أصبح إماما لهم وقيِّما عليهم ، يصلح أمرهم ، ويدفع عنهم الخطوب ، يقول :

إباضيَّةٌ زُهْـرٌ كرامٌ أفاضلٌ مناقبهم فى كل سامى عُلاً تَبْدُو
وأنت لنا من بعدهم صِرْتَ قَيِّماً حَمولا لِثقْل الخطْب يُورِى بك الزَّند[1]

ونراه فى نفس القصيدة يطلب إلى إمامه راشد أن يبعث إليه بنجدة تعينه فى حربه مع قبيلتى نَهْد وعُقَيل إن هما لم تستكينا نهائيا ، ولم تُلْقيا السلاح وهما صاغرتان ، يقول :

وإن عدلوا عـن بَغْيهم وتراجعوا إلى عَسْكر الإسلام والحقّ وارتَدُّوا
فأهلاً وسَهْلاً بالعشيرة إنهم إليكم بإخلاصٍ لربِّ السَّما أدُّوا
وإن هم أَبَوْا فاستَصْرِخونا فإننا قريبٌ وما للقوم من صَحْبِهم بُدُّ
وما بين وادى حضرموت وبينكم إذا سرَّكم إتيانُنا نحوكم بُعْدُ

وهو يسمى عسكر الخوارج عسكر الإسلام والحق ، ومن قديم كانوا يقولون إن معسكرهم هو معسكر الإسلام وحده ، ويَصفون خصومهم بالبغى والجور وأنهم خرجوا على حدود الدين . ومن الحق أن الإباضية معتدلون ويؤمنون بأن غيرهم من المسلمين أهل توحيد ، على نحو ما صورنا ذلك فى غير هذا الموضع . وليس فى الديوان ما يدل على أنه ظل عاملا لأئمة نَزْوى بعد راشد ، وظن بعض من عرضوا له أنه ربما استقل ودعا لنفسه بالإمامة ونستبعد ذلك ، ونظن أنه ظل على ولائه لأئمة الإباضية فى نزوى ، وحقا نراه فى بعض شعره يصرِّح بأنه وهب نفسه لنشر الهدى وإحيائه فى كل مكان ، على شاكلة قوله :

عَلِقَ الفؤادُ بأن أكون أنا الذى يُحْيِى الهُدَى بقواضبٍ ورماحِ
وعلى السيوف يموت كلُّ مكرَّمٍ وعَلَى السيوف قِيادُ كلِّ فلاحِ
وعلى السيوف ينال من طلب العلا غُرَفَ الجنان وَقصْدُهنَّ كفاحى

وهو يقصد بالهدى نحلته الإباضية ، ويقول إنه يشعر فى أعماقه أن عليه نشر دعوتها وإشاعتها فى كل بقعة ، ويردد ما يذكره شعراء الخوارج قديما من محبتهم للاستشهاد فى سبيل الله ، وكأنه أصبح شعارا لهم ، حتى يلحقوا بمن سبقوهم من رفاقهم إلى جنات ربهم ونعيمه . ولسنا نعرف سنة وفاته وأكبر الظن أنه توفى حوالى منتصف القرن الخامس الهجرى .

---

(١) يورى هنا : يتقد .

ابن الهُبَيْنى (١) ٩

من شعراء تهامة فى القرن السادس الهجرى ، تَبِعَ على بن مهدى حين استولى على زَبيد سنة ٥٥٤ وأصبح شاعره وشاعر ولديه من بعده . وكان يجعل شعره شركة بينه وبين على بن مهدى وولديه المهدى وعبد النبى ، فتارة ينظمه مستقلا ، وتارة ينظمه بلسانهم ، ونصَّ على ذلك القدماء . وقد وصفه عمارة اليمنى فقال : « هو أمتن كلاما ، وأقوى نظاما من كثير ممن سمعت به من شعراء اليمن » . وشعره على لسان أمرائه تهديد شديد ووعيد عنيف لخصومهم من القبائل والأمراء وأصحاب الحصون ، من ذلك قوله على لسان ابن مهدى يهدِّد قبائل خَوْلان وجَنْب وسِنْحان وهَمْدان :

ما بالُ خَوْلانَ لا توفى بما تَعِدُ   يدنو أبو حسنٍ منها وتبتعدُ
وما لِجَنْبٍ وسِنْحانٍ وأختها   هَمْدان تلك الأعاريبُ التى حشدوا

وتسميته لهم بالأعاريب كأنه يشير إلى شطر فى خمرية لأبى نواس يهزأ فيها بالأعراب قائلاً : « ليس الأعاريب عند الله من أحد » . وابن الهبينى يحمِّل الكلمة نفس المعنى . وله قصيدة ميمية طويلة على لسان علىّ بن مهدى وجَّه بها إلى أهل حصن تَعْكُر وقبيلة خَوْلان منذرا لها نذيرا شديدا ، وهو يفتتحها بقوله :

أبلغْ قُرَى تَعْكُرٍ ولا جَرَما   أن الذى تكرهون قد دَهَمَا
وقُلْ لجنَّاتها سأبدلُها   سَيْلاً كأيام مَأربٍ عَرِما
ظنَّتْ خُوَيْلانُ أنْ ستشغلنى   عَمًى لما ظنّتِ اللئامُ عَمَى
هل تَنْقُصُ البحر كفُّ غارفِهِ   أو يُخْمِدُ النارَ قابسٌ ضَرَما
تَعْساً لخولانَ لا أباً لهمُ   أمْسَوا وُجوداً وأصبحوا عدما
إذ نفخوا من صَوارمى ضَرَماً   واستَسْمنوا من ظنونهم وَرَما
وشمَّرتْ سَاقهَا الحروبُ وما   ألقَّها النيلُ سائقاً حُطَمَا

وهو يهدِّد فى أول قصيدته قرى تَعكُر بأنه سينزل بها ما أنزله الله بقرى سبأ ومدنها من سَيْل عَرِم ، يقول جلَّ شأنه : (لقد كان لسبأ فى مسكنهم آيةٌ جنَّتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدةٌ طيبة وربٌّ غفور فأعرضوا فأرسلنا عليهم سَيْلَ العَرِم وبَدَّلْنَاهم بجنَّتيهم جنَّتين ذَواتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وأثْلٍ وشىْءٍ من سِدْرٍ قليل) والأبيات تدل على براعة شعرية حقيقية فى الصياغة والفكرة ونسج الأسلوب . وهو يتأثر فى البيت الأخير

(١) انظر فى ترجمة ابن الهبينى وشعره الخريدة (قسم الشام) ٣ / ٦٥ وما بعدها و ٣ / ٢٨٤ وما بعدها .

بشطرين وردا فى خطبة الحجاج المشهورة التى خطبها فى الكوفة أول قدومه واليا على العراق ، وقد حمَّلها كل ما استطاع من عبارات الوعيد قائلا : « إنى لأنظر إلى الدماء ترقرق بين العمائم واللِّحَى » ثم أنشد هذا الشطر فى وصف الحرب وشدتها : « قد شَمَّرتْ عن ساقها فَشمِّروا » وتلاه ببيت عاصف من الشعر :

هذا أوانُ الشَّدِّ فاشتدِّى زِيَمْ ... قد لفَّها الليلُ بسوَّاقٍ حُطَمْ

والشد : العدو . وزيم : اسم فرس أو ناقة . واللف : الجمع . والحطم : الظالم للماشية . وواضح أن ابن الهُبَيْنى كوَّن بيته من الشطر السالف ، ثم من الشطر الثانى فى البيت ، ليصور ما سينزله بخولان من معارك مدمرة ساحقة . ويستمر فى وصف جنوده ووعيده .

إنَّ نسورَ الوَغَى إذا وقعتْ ... بأرضِ قومٍ أطارت الرَّخَما (١)

ترمى بنيرانها قُرَى عَـدَنٍ ... صُبْحاً فيُمْسى شرارُها الحَرَما

أيشرَبُ الخَمْرُ فى ذُرَى عَدَنٍ ... والمَشْرفيَّاتُ بالحُصَيْبِ ظِما

ويُلْجَم الدينُ فى محافلها ... والخيل من حَولى تعْلُكُ اللُّجُما

وما جنوده إلا نسور أما جنود خصومه فرخم وطير مأكول ، ويضيف إلى تهديد خولان تهديد عدن وأمرائها من آل زُرَيْع ، وكانت تعزّ والجَند وتَعْكُر فى حوزتهم ، فكان طبيعيا أن يصطدم بهم . والشاعر يزعم على لسان ابن مهدى أن أهل عدن غارقون فى الخمر إلى آذانهم ، ويقول إن السيوف فى الحصيب وادى زَبيد ظامئة إلى دمائهم وأن الخيل من حوله تَعْلُكُ اللجم ، تريد أن تهمّ بالمسير إليهم وقتالهم . وكان طبيعيا والحرب العسكرية قائمة بين ابن مهدى وولديه من جهة وعدن وأمرائها بنى زُرَيْع من جهة ثانية أن يصطدم ابن الهبينى شاعر بنى مهدى بأبى بكر العَيْذى شاعر الزريعيين ، وأن يأخذا فى التهاجى وما يتصل به من التهديد بالقوة والقهر ، وقد احتفظ العماد فى خريدته للشاعرين بنقيضتين من هذا الطِّراز ، أولاهما لابن الهُبَيْنى ونراه يستهلها بالإشادة بجنود على بن مهدى إمامه ، يقول :

أُسْدٌ إذا ما أبصرتْ أُسْدَ الشَّرى ... ورأتْ حِياضَ الموت لم تَتجهْجَهِ (٢)

تعدو أمام متوَّجٍ مُتَبلِّجٍ ... متيقِّظٍ متوقِّدٍ متنبِّهِ

متفقِّهٍ فى الدين لكنْ لم يكن ... من عند غير الله بالمتفقِّهِ

ملكٌ إذا اشتبه الملوكُ فما لـه ... فى ملكه وصلاحه من مُشْبِهِ

---

(١) الرخم : طائر غزير الريش كبير الجناح طويل الذنب .

(٢) تتجهجه : ترتد .

ومنزِّهُ الدين الحنيفىِّ الـذى لولا الإمامُ القطبُ لم يَتَنزَّه
بصوارمٍ ولهـاذمٍ وضراغمٍ وملاحمٍ بلغتْ به ما يشتهى[١]

وواضح أنه يشيد بجنود هذا الإمام فى رأيه وشدة بأسهم ، ويسبغ عليه صفات التفقه فى الدين وحمايته بسيوف قاطعة وأسود ضارية وملاحم ساحقة . ويمجد انتصارات على بن مهدى على آل نجاح الأحباش أو الذين يعودون إلى أصل حبشى ، ويعود إلى الإشادة به . قائلا :

أخبارُ أيَّام الإمـام فواكهٌ فأصِخْ بِسَمْعك نحـوها وتفكَّهِ
سِيَرُ الإمام قديمُها وحديثها فَرَحُ القلوب وروضةُ المتنزِّهِ
أشْهى من الماء الزُّلاَل على الظَّما وألذُّ من عَصْر الشباب الأَمْوَهِ[٢]

ولا شك أن ابن الهبينى يجور جورا فظيعا على الحقيقة ، فقد عرضنا لابن مهدى ومبادئه ، وأنه خرج فيها حتى على غلاة الخوارج ، ويكفى وصمة لا تفارق جبينه أنه استباح نساء المسلمين واسترقَّ الذرارى ، فكان ينبغى على ابن الهبينى أن لا يسخِّر شعره فى مديحه هذا المدح المفرط فى الثناء . وتُنسب لابن مهدى دالية لا شك أنها من نظم ابن الهُبَيْنى ، وفيها يقول على لسانه :

قسمتُ الرَّدَى والجودَ قسمين فى الوَرَى فللمعتدى حَدِّى وللمُجْتدِى رِفْدى[٣]
ومالىَ من مالى الذى كسبتْ يدى تُراثٌ أبقِّيه سوى الشكر والحَمد
تخوِّفنى جَنْبٌ بِكُثْر عديدِها وما لجنود الله حولىَ من عَدِّ
تُقَعْقِعُ نحوى بالشِّنان وهل ترى عُوَا الكلب يُخْفِى زَأْرَةَ الأسدِ الوَرْدِ[٤]

والبيت الرابع يشهد بأن القصيدة من نظم ابن الهُبَيْنى ، إذ جلب فيه عبارة من عبارات الحجاج فى خطبته التى أشرنا إليها آنفا فقد قال فى تضاعيفها : إننى لا أُغْمَز تغماز التين ولا يُقَعْقَع لى بالشنان ، وهى القرب البالية ، وكانوا يحركونها إذا استحثوا الإبل على السير لتفزع فتسرع . وابن الهُبَيْنى مثل أبى إسحق الحضرمى لا يُعْرَفُ زمن مولده ولا زمن وفاته ، ولكن من المؤكد أنه عاش فى زمن دولة بنى مهدى ، وربما لم تمتد به الحياة بعدها أو ربما فارق الحياة قبل قضاء توران شاه عليها فى نهاية العقد السابع من القرن السادس .

---

(١) الصوارم واللهاذم : السيوف . الضراغم : جمع ضرغام :
(٢) الأموه هنا : الناضر .
(٣) رفدى : عطائى .
(٤) الورد : الشجاع الجرىء .

٤

شعراء الدعوة الوهابية السلفية

مرَّ بنا أن الدعوة الوهابية السلفية قامت على الرجوع بالإسلام إلى صورته البسيطة الأولى وتخليصه من كل ما دخل عليه من شوائب ، كتقديس الأولياء ، والاعتقاد فيهم أنهم -كما يقولون- ينفعون الناس حتى فى قوتهم ، مما جعلهم يزورون أضرحتهم ويتوسلون إليهم أن يباركوا زروعهم وإبلهم وأنعامهم وشاءهم . وينبغى - فى رأى ابن عبد الوهاب - أن يكفَّ المسلمون عن مثل هذه الاعتقادات وأن يعودوا إلى القرآن الكريم والسنة النبوية ، فهما المصدران الأساسيان للإسلام وأحكامه ، والمدار فى الدين إنما هو على النقل ، أما العقل فيتخذ شاهدا ولا يستخدم حكما . وهذه الدعوة - كما قدمنا - تستضىء بأفكار ابن تيمية وإمامه أحمد بن حنبل الذى كان يقدم المنقول على المعقول ، فالمنقول من الكتاب والسنة أولا ، والمعقول يليه ويأتى ثانيا ، ولا يصح التقرب إلى الله بزيارة الولى الصالح ، فضلا عن زيارة جَدثه ورفاته . وتشدد ابن عبد الوهاب قائلا إن ذلك يعنى الشرك بالله أَنْ يزور شخص قبور الأولياء ويدعو عندها ، طالبا جَلْب منفعة أو دَفْع أذى ، إذ يظن أن الولىّ من شأنه أَنْ يُعينه على ذلك ، والله يقول لرسوله ﷺ فى كتابه : (قل لا أملك لنفسى نَفْعا ولا ضَرًّا إلا ما شاء الله) . وعلى هذا النحو تشدد محمد بن عبد الوهاب فى أنه لا يجوز إشراك غير الله معه فى الدعاء ، كأن يقول القائل المتوجه إلى ربه : أسألك بحق فلان من الصالحين ، بينما الله عز وجل يقول : (فلا تدعوا مع الله أحدا) . وبالمثل لا يجوز طلب الشفاعة من ولى أو غيره ، لمثل قوله تعالى : (من ذا الذى يَشْفع عنده إلا بإذنه) . وينبغى أن تُلْغى النذور للأولياء جملة ، إذ النذور إنما تكون لله ولا يصح إشراك أحد معه فيها ، ومن أكبر صور الشرك - فى رأى محمد بن عبد الوهاب - الإيمان بأن هناك من يعلمون الغيب من المنجمين أو أصحاب السحر والشعوذة ، والله يقول : (ولله غيب السموات والأرض) ويقول : (فلا يُظْهر على غَيْبه أحدا) فمن ظن أن هناك من يعلم الغيب فقد جعل لله مثيلا فى صفة علم الغيب المقصور على الله جل شأنه . ومدَّ حملته إلى المتصوفة والطرق الصوفية ، فأنكرها ودعا إلى إلغائها إلغاء باتا وإلغاء كل ما اتصل بها من حلقات ذكر وأوراد ودلائل خيرات ، فكل هذه - فى رأيه - بِدعٌ لم يعرفها الإسلام فى عهد الرسول ﷺ وعهود أصحابه ، وينبغى أن يعود الإسلام كما كان مع التمسك بالسنة

وإحيائها والاقتداء بالسلف الصالح . ولذلك يسمى الوهابيون سلفية . ومما دعا إليه محمد بن عبد الوهاب الإيمان بالقدر وأن لا يفزع أحد إلى التأويل فى آيات القرآن الكريم . وإنما عرضنا ذلك كله لنتبين الأسس التى دعا إليها محمد بن عبد الوهاب والتى صدر عنها بالتالى شعراء الدعوة الوهابية ، ولعل القارئ لا يعجب إذا عرف أنه من أوائل الشعراء الذين تصدوا بقوة لرفع علمها وتمثل مبادئها شاعر يمنى من الأسرة الزيدية ، هو محمد بن إسماعيل الحسنى الصنعانى ، وأن أبرع الشعراء الوهابيين الذين خلفوه فى هذا العصر هو ابن مشرف الأحسائى . ويتكاثر بعده شعراء الدعوة وفى مقدمتهم سليمان بن سَحْمان وابن عُثَيْمين ، ولن نعرض لهما لأنهما يدخلان فى العصر الحديث ، ومن شعراء الدعوة المبكرين حسين بن غنام الأحسائى المتوفى سنة ١٢٢٥ هـ / ١٨١٠ م ، وله مرثية فى ابن عبد الوهاب حين لبى نداء ربه افتتحها بقوله[١] :

إلى الله فى كَشْف الشدائد نفزعُ ... وليس إلى غير المهيمن مَفْزَعُ

وقصائد كثيرة نظمت فى الإشادة بابن عبد االوهاب ومبادئه ، ومن أهمها قصيدة للإمام محمد بن على الشوكانى اليمنى المار ذكره . ونقف قليلا عند محمد بن إسماعيل وابن مشرف .

محمد بن إسماعيل الحسنى الصنعانى[٢]

ولد بحصن كُحْلان باليمن سنة ١٠٩٩ هـ / ١٦٨٧ م وانتقل مع أبيه إلى صنعاء سنة ١١١٠ هـ / ١٦٩٨ م فأتم بها حفظ القرآن ، وسرعان ما أخذ يختلف إلى العلماء ينهل من حلقاتهم ودروسهم ، فتعلم النحو وعلوم البلاغة والفقه والمنطق وعلم الكلام والأصول ، وعكف على أمهات الكتب الكبيرة يقرأ ويدرس فى الفقه وفى النحو وفى غيرهما ، وأخذ يَدْرس كتب الحديثَ الكبرى على كبار الحفَّاظ المحدثين من مثل صحيح البخارى وصحيح مسلم وسُنَن أبى داود ، ونال فى ذلك إجازات مختلفة لا فى صنعاء فحسب ، بل أيضا على كبار المحدثين فى مكة والمدينة ، وعنى بالتبحُّر فى فقه الشافعى وفى الأصول . ودرس للناس بصنعاء الحديث سنوات طويلة ، وله فيه على الجامع الصغير شرح فى أربعة مجلدات ، وله فى الفقه كتاب العدة على شرح العمدة لابن دقيق العيد ، وله شرح فى علوم الحديث

---

(١) شعراء هجر ص ٥٠ .

(٢) انظر فى ترجمة محمد بن إسماعيل وأشعاره البدر الطالع للشوكانى ٢ / ١٣٣ ونشر العرف لزبارة ٢ / ٥٠٥ و ٢ / ٧٦٤ وفى مواضع مختلفة، وديوانه طبع بمطبعة المدنى بالقاهرة سنة ١٩٦٤ باسم ديوان الأمير الصنعانى . وراجع مقدمة على السيد صبح المدنى للديوان .

والآثار فى مجلدين ، غير كتب كثيرة فى الأصول وفى النحو وفى بعض الفتاوى . ومن كتبه « إيقاظ الفكرة لمراجعة الفطرة » ويبدو أنه كتبه فى الاحتجاج للدعوة الوهابية لأن مترجميه يقولون إنه ترك فيه مقالة الأصحاب ورجَّح أدلَّة السنة والكتاب . وكان يشتغل بالتدريس ويجمع إليه أحياناً الخطابة . ويُجْمع كل من كتبوا عنه أنه كان مجتهدا ينفر من التقليد ومن كل رأى فقهى لا دليل عليه ، ويقول الشوكانى إنه كان « من الأئمة المجددين لمعالم الدين » وكان الشوكانى مثله يعجب بالدعوة الوهابية ، ومر بنا أن هذه الدعوة أعلنت سنة ١١٥٨ للهجرة حين وضع محمد بن سعود يده فى يد محمد بن عبد الوهاب وعاهده على نصرته ، على أن تكون للأول وذريته السلطة الزمنية وللثانى وذريته السلطة الروحية . وما نتقدم مع هذا العهد والإعلان للدعوة أكثر من خمس سنين ، حتى نجد صوتا مدويا ينطلق من صنعاء باليمن ، هو صوت محمد بن إسماعيل إذ يرسل بقصيدة دالية طنانة إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب مشيدا وممجدا لدعوته استهلها بقوله :

سلامٌ على نَجْدٍ ومَنْ حَلَّ فى نَجْدِ ... وإن كان تَسليمى على البُعْد لا يُجْدِى

وقد مضى فيها يعلن إعجابه بمبادئ الدعوة الوهابية ، وهاجم الصوفية وما يزعم غلاتهم من القول بالحلول ، كما هاجم المتصوفة والطرق الصوفية وأورادها ، وأظهر استحسانه لما قيل من حرق الوهابيين لدلائل الخيرات ، يقول مبرراً صنيعهم :

غلوٌّ نهَى عنــه الرسولُ وفِرْيَةٌ ... بلا مِرْيةٍ فاتركْه إن كنت تَسْتهدى
أحاديثُ لاتُعْزَى إلى عَالمٍ ولا ... تُسَاوى لفَلْسٍ إن رجعتَ إلى النَّقْد

وهو يضع بذلك دليلين يجوِّزان حرقها فى رأيه : ما بها من غلو ومن أحاديث ضعيفة واهية ، ويقول إنها من البدع المستحدثة . وكان ماينى ينصح قومه بالانصراف عن مثل هذه الأوراد . وكان يؤذيه أشد الإيذاء تصديقهم للمنجمين وإيمانهم بأنهم يطَّلعون على الغيب . ويكتب إلى الإمام المهدى العباس سنة ١١٧٠ قصيدة دالية ينهاه عن الاستماع إلى المنجمين وافتراءاتهم الكاذبة ، وفيها يقول :

ولا تستمعْ من عابدٍ لنجومهِ ... تقاويمُ زورٍ ليس تُغْنى ولا تُجْدى
أكاذيبُ يُمْليها لكلِّ مغفَّلٍ ... يصدِّقها من ضلَّ عن طُرق الرُّشْدِ
وواللهِ ما عند النجومِ دلالةٌ ... على نَحْسِ يومٍ فى الزمان ولا سَعْدِ
وواللّه ما غيرُ الإلــه بعالمٍ ... بما فى غَدٍ مما يُسِرّ وما يُبْدِى

وصدق رسول الله ﷺ فى قوله : « كذب المنجمون ولو صدقوا » . وله قصيدة جعل مقدمتها فى ديوانه على هــــذا النمط : « هذه نفثة مصدور ، وكلمة صادرة عن قلب

من ضياع الشريعة محرور ، وفيها تفاؤل بمن يقوم بالدين ، ويُحْيِي شريعة سيد المرسلين ، وفيها إيقاظ للهمم لو كانت نائمة ، ولكنها ميتة لا تُرْجَى لها قائمة . والجهاد باللسان أحد الأقسام . نسأل الله قبول الأعمال وحسن الختام » . وفيها يصور جهاد المصلح الديني المنتظر هو وأنصاره فى سبيل دعوته ، وكيف يخوضون إليها غمار الحروب ، حتى تبسط سلطانها على الناس ، يقول :

يَحُفُّ به قومٌ على كلِّ سابحٍ　　تُعَدُّ المنايا فى الحروب مُناها
ولا جمعوا مالاً ولا كسبوا لهم　　قُصورا ولا باهوا برَفْعِ بُناها
وما ادَّخروا إلا حُساما وذابلاً　　ومُهْراً يبارى الرِّيحَ عند سُراها
وما قصدوا من سَفْكهم لدمِ العِدا　　وتَطْويقهم بالسَّيف بِيضَ طُلاها[1]
سوى أنهم يُحيون شِرْعَةَ أحمدٍ　　ويَنْفون عنها داءها بِدوَاها
سيغسل عنها السيفُ أدْرانَ بِدْعةٍ　　فيُشْرِق فى الآفاق نورُ سَناها

ويذكر بعض مترجميه أن الشاعر نظم هذه القصيدة فى سن مبكرة ، ولكن مقدمتها وما ترسمه من الجهاد لمصلح ديني وأنصاره يريدون إحياء السنة المحمدية وغسلها من أدران البدع المستحدثة فى الحياة اليومية ، وأنهم لا يريدون بذلك مالا ولا قصورا مشيدة ، إنما يريدون درء المنكرات ، وإنهم ليحملون فى سبيل ذلك السيوف حتى يكف الناس عن هذا الغي والضلال . كل ذلك يشهد بأن المقصود فى القصيدة محمد بن عبد الوهاب وأنصاره بزعامة محمد بن سعود الذين جردوا سيوفهم ورماحهم لحمل الناس فى الجزيرة العربية على الدعوة الوهابية . وفى الديوان دالية يعلن فيها تبرءه من ابن عبد الوهاب ودعوته ، وأكبر الظن أنها موضوعة على لسانه أقحمت من قديم على الديوان تقرباً للأمراء الزيديين من بيته ، وفى الحق أنه كان يحمل نفساً ثائرة تحب الحق وتؤثره ولو كان فيه خصومة لأهله ويبدو أن بعض خصومه استغلوا موقفه مع الوهابيين فكانوا يَشُون به لأئمته مما أدى أحيانا إلى سجنه على نحو ما نرى فى قوله سنة ١١٦٦ للهجرة :

وما حبسونى أننى جئتُ مُنْكراً　　ولا أننى نافستُ فى الملك والكُرْسى
ولكننى أحبَبْتُ سنَّةَ أحمدٍ　　وأبرزْتُها شمساً على العُرْب والفُرْسِ

وكان أهل بيته من الأئمة يتلقبون ألقابا كثيرة ، وقد لا يكتفى الإمام بلقب واحد بل يتخذ لقبين أو أكثر مثل الإمام المتوكل على الله شرف الدين والإمام الأعظم المهدى لدين

---

(١) الطلى : جمع طلية وهى أصل العنق .

، وكأنما كان ذلك يؤذى نفسه أن يسمع تلك الألقاب ولا يرى لأصحابها أعمالا حميدة ، بل يرى أعمالا ذميمة فقال :

تسمَّى بنور الدين وهْو ظَلامهُ   وهذا بشمس الدين وهْو له خَسْفُ
وذا شرفُ الإسلام يدعوه قومُه   وقد نالهم من جَوْره كلَّهم عَسْفُ
رُوَيْدك يا مسكينُ سوف ترى غداً   إذا نُصب الميزانُ وانتشر الصُّحْفُ
بماذا تُسَمَّى هل سعيدٌ فحبَّذا   أو اسمُ شقيٍّ بِئْس ذا ذلك الوَصْفْ

وهو نقد شديد بل تجريح للأئمة من بيته فى عصره وقبل عصره . وكان لا يخشى فى الله لومة لائم. وديوانه يكتظ بالمواعظ والأدعية والابتهالات إلى الذات العلية ، وله قصيدة فى التقوى ختم جميع أبياتها بشهادة : لا إله إلا الله ، وله غير مدحة نبوية وأيضاً له قصيدة فى مديح على سماها « التحفة العلوية » وكتب عليها شرحاً سماه « الروضة الندية » . وله أشعار فى فنون البديع المختلفة وخاصة فى التورية وهو يكثر من التضمين فى أشعاره وخاصة من شعر المتنبى . وطالت حياته حتى سنة ١١٨٢ للهجرة وبذلك يكون قد سبق محمد بن عبد الوهاب فى الوفاة بنحو ربع قرن تقريباً .

ابن مشرف الأحسائى (١)

هو أحمد بن على بن حسين بن مشرف الوهيبى التميمى الأحسائى ، وُلد وعاش فى الأحساء ولا يُعْرف تاريخ مولده . وبدأ فى نعومة أظفاره بحفظ القرآن الكريم على شاكلة لداته ، ثم أخذ يختلف إلى حلقات العلماء فى موطنه ، والتهم كل ماوجده فى هذه الحلقات من معارف وخاصة ما اتصل بالفقه والعربية ، واعتنق المذهب المالكى مثل آبائه . وليس فى ديوانه ما ينبئنا عن أحواله فى فواتح حياته أو فى شبابه المبكر ، وقصائده فيه مؤرخة على السنوات ، وهى تمتد من سنة ١٢٤٥هـ / ١٨٢٩م إلى سنة ١٢٨٣هـ / ١٨٦٦م وأكثرها أو قل جمهورها فى مديح فيصل بن تركى ، والسنة الأولى هى نفس السنة التى استولى فيها السعوديون على الأحساء ، وكأن شعره جميعه تظله الدولة السعودية إذ توفى سنة ١٢٨٥هـ/١٨٦٨م . وهو فى ديوانه يعتنق الدعوة الوهابية وكأنما يعيش لها وبها ، فهى كل حياته وكل أفكاره وكل مشاعره ولا نعرف هل تاريخ اعتناقه لها يسبق امتداد الدولة السعودية إلى الأحساء فى سنة ١٢٤٥ أو أنه يقترن بتلك السنة ، على كل حال الديوان كله

---

(١) انظر فى ابن مشرف وحياته وأشعاره شعراء هجر ص ٧٧ ومقدمة الناشر لديوانه (طبع الرياض) .

مستوحى من الدعوة الوهابية بل قل إنه صادر عنها ، أو قل إنها مادته سواء تغنّى بابن عبد الوهاب وأفكاره أو تغنى بفيصل وأعماله أو بغيره من قواده . فالدعوة الوهابية مادة الديوان وابن مشرف ليس متضامنا معها فحسب ، بل هو أداة من أدواتها يذيعها ويناضل عنها خصومه ويؤيدها بكل ما استطاع من حجة وبرهان . وقد سمى أول قصيدة فى الديوان باسم جوهرة التوحيد وهو يستضىء فيها بما كتبه محمد بن عبد الوهاب عن التوحيد ، ويستهلها بالحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأزواجه وأصحابه ثم تتوالى فصولها وأولها فصل عن الإيمان وفيه يقول :

الخيرُ والشرُّ جميعُه صَدَرْ   من أمر ربنا وذا هُوَ القدَرْ

ومرَّ بنا أن محمد بن عبد الوهاب كان يدعو إلى الإيمان بالقضاء والقدر وأن كل شىء مقدر على الإنسان منذ الأزل ولاصحة لما يقوله المعتزلة من أن الإنسان كامل الحرية فى تصرفاته يأتى ويترك من الأفعال ما يريد فهو خالق أفعاله باختياره . ويرد على ذلك ابن مشرف بعبارة أوضح فى موضع آخر منشدا :

وكلّ شىءٍ قضاهُ الله فى أزلٍ   طُرًّا وفى لوحِهِ المحفوظ قد سُطِرا
والله خالقُ أفعالِ العبادِ وما   يَجْرى عليهم فعنْ أمرِ الإله جَرَى
فليس فى مُلْكِهِ شىءٌ يكون سِوَى   ماشاءه اللهُ نَفْعاً كان أو ضَرَرا

ويعقد فصلا لأنواع التوحيد . ويقول كما قال محمد بن عبد الوهاب ، إن أضرب الوحدانية ثلاثة ويعدُّها على هذا النمط :

توحيدُ ربِّ الناس فى المُلْك وفى   صفاتهِ وفى العبادة اقْتَفِ

فالأولى وحدانية الربوبية وهى اعتقاد كون الملك لله وحده لا شريك له ، فهو المتصرف فيه بالخلق والتكوين والرزق والحياة والموت . والثانية وحدانية الأسماء والصفات ، من مثل الحى الباقى القديم الأول الآخر الصمد الواحد الفرد السميع العالم البصير المريد القدير والثالثة وحدانية العبادة لله وأنه لا شريك له ولا معبود سواه .

ويثير ابن مشرف تبعا لمحمد بن عبد الوهاب المشكلة القديمة لعصر المأمون والمعتصم والواثق مشكلة خلق القرآن وعدم خلقه أو مشكلة حدوثه وعدم حدوثه ، وهى المشكلة التى ورَّط المعتزلة فيها هؤلاء الخلفاء وجعلوهم يحاولون أن يحاكموا على أساسها بعض الفقهاء ممن لا يقولون بخلق القرآن وفى مقدمتهم ابن حنبل إمام الوهابية . ويقول ابن مشرف إن القرآن الكريم عين كلام الله لفظا ومعنى والمخلوق إنما هو نطق الناس به يقول :

الصوتُ للقارئ والكلامُ لله ذا به قد استقاموا
فاللفظ والمعنى من القرآنِ قد نَزَلا من ربنا الرحمنِ
ومن يَقُلْ بخلقهِ أو سَطْره فهْو مُضلٌّ فاستعِذْ من شرِّهِ

وكان المعتزلة ينزهون الذات العلية عن مشابهة المخلوقات فهو ليس جسما ولا عرضا ولا مادة ولا جوهرا ولا يحيط به مكان ولا زمان ، وأوّلوا الآيات التى قد تفيد مشابهة مثل (ثم استوى على العرش) بأن الاستواء فى الآية بمعنى الاستيلاء ومثل (يدُ الله فوق أيديهم) أوّلوا اليد فى الآية بمعنى القدرة . ونفوا الصفات عن الله لأنها من عوارض الأجسام فى رأيهم وقالوا إنها عين الذات . وكل ذلك ردَّه محمد بن عبد الوهاب متابعاً ابن تيمية وابن حنبل ، وأخذ مثلها فى الآيات التى تفيد التشبيه بفكرة التنزيه مع الإيمان بما جاء منها فى القرآن ، وعلى ضوء من ذلك كله يقول ابن مشرّف :

اللهُ ذو العَرْشِ على العرش استوى وعلمهُ لكلِّ شيءٍ قد حَوَى
وما اقتضى التشبيهُ مثلَ العينِ والوَجْه والإصبع واليديْنِ
نؤمنْ به لكن مع التنزيهِ له عن التمثيل والتشبيهِ
من شبَّه الله بخلقهِ كفَرْ ومن نَفَى صفاته أُصْلِى سَقَرْ

وهو فى البيت الأخير يحكم على من ينفى الصفات وهم المعتزلة كما أسلفنا بالكفر ويقول إن الله يخلق أفعال العباد ولكن لهم كسبا وكل امرئ يحاسَب على ما كسبت يداه ، ويتحدث عن إرسال الرسل ورسالة النبى ﷺ ومعجزاته من القرآن كالمعراج ويشيد بأبى بكر وعمر وعثمان وعلى وباقى العشرة المبشرين بالجنة وبأصحاب المذاهب الأربعة وبسفيان الثورى وداود الظاهرى . ويطيل فى الحديث عن البعث والمعاد والحساب . وبذلك يختم الحديث عن النوع الثانى من أنواع الوحدانية وهى وحدانية الأسماء والصفات ويأخذ فى الحديث عن النوع الثالث من أنواع الوحدانية وهو وحدانية العبادة ، فالله وحده هو الذى يُعْبَدُ دون سواه ، وهو وحده الذى تقدَّم إليه النذور ، ومن الشرك تقديمها لسواه وأيضاً من الشرك القَسَمُ بغيره يقول :

الحَلْفُ مطْلَقٌ بغير اللهِ شِرْكٌ بلاشكٌّ ولا اشتباهِ

ويهاجم زيارة القبور : قبور الأولياء والصالحين وما بُنِى عليها وشُيِّد من قُبب والطواف حول تلك القبور تقربا ، وسؤال الناس أصحابها أن يدفعوا عنهم الأذى ويجلبوا لهم النفع ، بل إنهم ليتوجهون إليهم بالدعاء ، كلما أحاط بهم كرب ، طلباً للنجاة ، يقول :

ألَم تنظر الشركَ الذى فيهمُ فَشا فكَمْ قُبَّةٍ قد شَيَّدوها على قَبْرِ

وطافوا عليها خاضعين تقرُّبا إلى ذلك المقبور بالذَّبْح والنَّذْرِ
وكم سألوا الأموات كَشْفَ كروبهم ولا سيَّما فى الفُلْك فى لُججِ البَحْرِ
فزادوا على شِرْكِ الأوائل إذ دعَوْا سِوَى الله فى حالِ الرَّخاءِ وفى العُسْر

وعلى هدى من الدعوة الوهابية مضى يهاجم كل ما هاجمته ، وكان مما استحدث فى الجزيرة التذكير قبل الأذان للصلاة ، وعنَّفت الدعوة الوهابية المؤذنين على هذا التذكير ، ورأت منعه منعاً باتا ، واصفة له بأنه بدعة وينبغى الكف عنها ، وفى إثرها يقول ابن مشرف :

وسلْ فاعلَ التذكير عند أذانهِ أهذا هُدًى أم أنت بالدِّين تلعبُ
وهل سَنَّ هذا المصْطَفى فى زمانهِ أو الخلفا أو بعضُ من كان يصحَبُ

واستمر يتساءل هل سنَّهُ التابعون أو سنَّه أحد أصحاب المذاهب الفقهية ، وانتهى إلى أنه من الأمور المحدثات التى ينبغى أن تجتنَب ، قائلا إن العلم ينبغى أن لايؤخذ إلا من الكتاب والسنة . ويخص هذه الفكرة بقصيدة يحث فيها على الأخذ بنصوص الحديث النبوى وآيات الذكر الحكيم ، ويسميهما وحيين ، وتسميته الذكر الحكيم وحيا واضحة ، أما تسميته الحديث بالوحى فلأنه إلهام وهدى ربانى ، يقول :

وقدِّمْ أحاديث الرَّسولِ ونَصَّه على كلِّ قولٍ قد أتى بإزائهِ
وإن جاء رأىٌ للحديث معارضٌ فللرأى فاطرَحْ واسترح من عنائهِ
ومَنْ يكنِ الوَحْىُ المطهَّر علمَه فلاريب فى توفيقه واهتدائه
وكلٌّ فقيهٍ فى الحقيقة مُدَّعٍ ويثبت بالوحْيين صدقُ ادِّعائه

فالكتاب والحديث هما مدار الفقه والفتوى ، فما يرسمه القرآن ويبينه الحديث هو الدين الحنيف ، وعلى العقل أن يسير وراءهما شارحا ومفسرا ومبينا ، لا موجها ولا متحكما ولا مؤولا . . وعلى هذا النحو تتجلى فى شعر ابن مشرف دائما الدعوة الوهابية بكل ما اتصل بها من مبادئ وتعاليم .

٥

شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية

لعل أكبر بيئة عربية شهدت شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية هى بيئة مكة والمدينة ، فلم يكن هناك زاهد ناسك ولا متصوف عابد إلا ويحج البيت الحرام ولم يكن

هناك مادح للرسول ﷺ . إلا ويسعى إلى زيارة ضريحه العِطر وإنشاده مديحه ، غير من كان يقيم فى البلدتين المقدستين من أهلهما النساك . وقد ذكرنا فى غير هذا الموضع كيف أن كبار المتصوفة المتفلسفة منذ الحلاج كانوا ينزلون فى مكة ويجاورون فيها ، وقلنا إنه نزلها ابن عربى وجاور فيها سنوات ، وفيها ألف الفتوحات المكية وديوانه الصوفى «ترجمان الأشواق» وفيه يقول :

مَرضِى من مريضة الأجفانِ عَلِّلانى بذكرها عَلِّلانى
هَفَتِ الوُرْقُ بالرياض وناحتْ شَجْوُ هذا الحمامِ مما شجانى [١]

وشاع الديوان فى مكة والمدينة وفى اليمن وتناقله الحجاج . ومن متفلسفة المتصوفة وشعرائهم الذين جاوروا فى مكة ابن سبعين ، أقام بها سنوات طويلة حتى توفى سنة ٦٦٩ وكان يقول بالاتحاد والحلول ، ومن شعره [٢] :

من كان يُبْصر شأن الله فى الصُّوَرِ فإنه شاخصٌ فى أكمل الصُّوَرِ
بل شأنه كَوْنه بل كونه كُنْهُهُ فإنه جملةٌ من بعضها وَطَرى

ووراء ابن سبعين وابن عربى والحلاج كان ينزل بمكة والمدينة المتصوفون السنيون وفى مقدمتهم القشيرى الذى لمَّ شعثَ الفُرْقة بين الصوفية وأهل السنة كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع . ونزلها الغزالى وشهاب الدين السهْرَوَرْدِىُّ العراقى وأقام بها ابن الفارض خمسة عشر عاما نظم فيها كثيرا من أشعاره الصوفية الوجدانية من مثل قوله :

هو الحبُّ فاسْلَمْ بالحشَا ما الهوى سَهْلُ فما اختاره مُضْنًى بهِ وله عَقْلُ
وعِشْ خاليا فالحبُّ راحتُه عَناً وأَوَّلُهُ سُقْمٌ وآخِرُهُ قَتْلُ
وإن شِئْتَ أن تحيا سعيداً فَمُتْ بهِ شهيداً وإلا فالغرامُ له أهلُ

ولم يبق مادح للرسول ﷺ إلا زار المدينة ، لتتأرج روحه بعطر قبره ، وقد زارها البوصيرى أكبر مداح الرسول ، وفيه نظم همزيته فى نحو أربعمائة وخمسين بيتا ، وسماها «أم القرى فى مدح خير الورى» وكذلك ميميته المشهورة باسم البردة ، وقد تناقلها الناس فى مشارق العالم الإسلامى ومغاربه إعجاباً وافتتاناً . ومديح الرسول قديم منذ ابن دريد فى مطالع القرن الرابع الهجرى . ولكن لم تنل قصيدة فى مديح الرسول حُظْوة هاتين القصيدتين .

وبجانب المدائح النبوية وأشعار التصوف المهاجرة إلى المدينتين المقدستين هاجرت إليهما أشعار زهد كثيرة ، كان يرددها النساك والعباد والمجاورون بمكة والمدينة ، على نحو ما نجد فى

(١) هفت الورق : خفق الحمام بأجنحته . (٢) العقد الثمين ٥ / ٣٣٩ .

ديوان الزمخشرى الذى جاور فى مكة طويلا ، حتى لُقِّب «جار الله» . وكان هؤلاء المجاورن الكثيرون يضمنون الزهديات مصنفاتهم التى يؤلفونها فى مكة أو المدينة ، ومن يقرأ تفسير الزمخشرى الذى ألف بمكة والذى سماه الكشاف يجده عند تفسير الآية الكريمة : (إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلاً ما بعوضةً فما فوقها) [١] ينشد توسلاً لطيفاً لشاعر على هذه الصورة :

يا من يَرَى مَدَّ البَعُوضِ جَنَاحَها ... فى ظُلْمة الليل البهيم الأَلْيَلِ [٢]
ويرى عروقَ نِياطها فى نَحْرِها ... والمخَّ فى تلك العظام النُّحَّلِ
اغفرْ لعبدٍ تاب من فُرُطاته ... ما كان منه فى الزمان الأوَّلِ

ولنترك المجاورين بالحرمين الشريفين إلى سكان البلدتين ، ومن أهم من نلقاه ابن ظفر[٣] المولود بمكة فى شعبان سنة ٤٩٧ وبها نشأ ، واختلف إلى حلقات العلماء فيها ينهل عنهم ، وكان ذكيا ذكاء شديدا ، وحُبِّبت إليه الرحلة ، فارتحل إلى صقلية ، وبها ألف لحاكمها فى سنة ٥٥٤ كتابه «سلوان المطاع فى عدوان الأتباع» وهو كتاب نفيس ترجمه المستشرقون إلى الإنجليزية والإيطالية ، ويمتلئ بأشعاره ، وهى تصور زهده وتقشفه مع براعة فى نسج الشعر ونظمه من مثل قوله [٤] :

يا مُتْعَباً كَدَّهُ الْحِرْ ... صُ فى الفُضول وكادَهْ
لو حُزْتَه ما حاز كسْرَى ... وما حَوَى وأفاده
ما كنت إلا مُعنًّى ... ومُغْرَماً بالزِّياده
لم يَصْفُ فى الأرض عَيْشٌ ... إلا لأهل الزَّهادَه

ولم يكن يقول ذلك عظة أو تمثلا ولكن كان يقوله عن اقتناع ، فقد كان أحد من رفضوا الدنيا وعاشوا فقراء زاهدين ، تكفيهم الكِسْرة . وكان يتحول واعظا كلما نزل بلدة ، ونزل بلادا كثيرة ، نزل مصر وبلاد المغرب وعاد إلى المشرق ، فألم ببغداد ودمشق ثم نزل حماة واستوطنها إلى وفاته سنة ٥٦٧ ومن زهدياته [٥] :

راقَكَ الزهدُ إنما الزُّهد رَفْضٌ ... لفضولٍ تُلْهى وتُطْغى وتُرْدِى [٦]
مَرْحَباً بالكفاف عيشا هنيئاً ... ثم لا مرحبا بحرصٍ وكَدِّ
لا يزال الحريصُ يَسْتامُه الحِرْ ... صُ بِنُصْبٍ من الشقاء ونَكْدِ [٧]

(١) سورة البقرة : الآية رقم ٢٦ .
(٢) الأليل : شديد السواد .
(٣) انظر فى ابن ظفر الخريدة (قسم الشام) ٣/٤٩ وابن خلكان ٤ / ٣٩٥ ومعجم الأدباء ١٩ / ٤٨ والوافى ١ / ١٤١ والعقد الثمين ٢ / ٣٤٤ .
(٤) الخريدة (قسم الشام) ٣ / ٥٥ .
(٥) نفس المصدر ٣ / ٥٦ .
(٦) تردى : تهلك .
(٧) يستامه : يذله ويصرفه .

ثم لا يستطيع أن يتعدَّى قَدرا ما لحكمِهِ من مَرَدِّ

فهو ينصح بعيش الكفاف وبالزهد فى كل ما وراء ذلك من فضول ومتع لا تفيد إلا اللهو والطغيان والهلاك إن كان يمكن أن يفيد الطغيان والهلاك أحدا . ولا يزال الحريص يدفعه حرصه إلى غير قليل من الشقاء والنكد والتعب ، ومع ذلك لن يعدو ما كتبه له القضاء .

ولشعراء مكة والمدينة مدائح نبوية كثيرة ، على نحو ما نجد عند النَّشْو ، وقد سُقنا له فى ترجمته مثالا ، ولمحب الدين الطبرى المكى المتوفى سنة ٦٩٤ مدحة نبوية استهلها بقوله : «رحلت إلى المختار خير البريةِ» ذكر فيها المنازل بين مكة والمدينة ، ولابنه محمد مدحة نبوية بارعة يقول فى أولها (١) :

أَنِخْ أيها الصَّادى الشديدُ ظَمَاؤهُ وردْ مَنْهَلاً أحْلَى من الشَّهْد ماؤهُ
وسَلْ عند باب المصطفى أىَّ حاجةٍ أردتَ وما تَهْوَى فَرَحْبٌ فِناؤهُ

ووراء هاتين المدحتين عشرات من المدائح يكفى أن نشير إليها ، ولشاعر متأخر يسمى عبد العزيز الزمزمى المكى ديوان مديح فى الرسول والصحابة .

وكثر بجانب ذلك الغزلُ الصوفى فى مكة والمدينة ، من مثل قول أبى إسحق المكى المتوفى سنة ٧٢٣ للهجرة (٢) :

مُعَذِّبَتِى كم ذا الصُّدودُ إلى متى مَضَى عُمْرِى والوَصْلَ منكِ أرومُ
فجودى ورِقِّى أو فَجُورِى وعَذِّبِى فما القلبُ إلا فى هواكِ مُقيمُ

وفى كتابىْ سلافة العصر ونَفْحة الريحانة لشعراء مكة والمدينة فى القرن الحادى عشر الهجرى مدائح ومناجيات وتوسلات مختلفة (٣) .

وإذا تركنا الحجاز إلى اليمن لقينا قصيدة بديعة لأبى بكر العيذى ابتدأها بوصف غرام له بالحجاز ليس يدفعه ، وينقاد له قلبه ويتبعه ، ويأخذ فى وصف مكة ويذكر مناسك الحج منسكا منسكا ، ثم ينتقل إلى وصف يثرب بمثل قوله (٤) :

وفى رُبَى يَثْربٍ غاياتُ كلِّ هَوًى يَجِلُّ عن مَوْقع الأشواق مَوْقِعُهُ
حيث النبوَّة مضروبٌ سُرادِقُها والفضلُ شامخُ طَوْدِ الفخر أفْرَعُه
وخاتمُ الأنبياء المصطفى شرفاً محمدٌ باهرُ الإشراق مَضْجعه
صلى الإلهُ عليه ما تكرَّر بالصَّـ ـلاة فَرْضُ مُصلٍّ أو تطوُّعه

---

(١) العقد الثمين ١ / ٢٩٥ .
(٢) العقد الثمين ٣ / ٢٤٥ .
(٣) انظر مثلاً سلافة العصر ص ١٤٧ ، ٢٥٤ .
(٤) الخريدة (قسم الشام) ٣ / ١٨٤ .

والقصيدة تكتظ بالحنين إلى الحج وزيارة قبر الرسول عليه السلام ، حنينا يشمل كل المواضع هناك ، وكأنما يريد أن يعانقها ، فهى هواه وحبه وأماكن افتتانه وصبابته . وتكثر فى اليمن كما كثرت فى مكة والمدينة الأدعية والابتهالات كما يكثر الشعر الصوفى والمديح النبوى ، وممن اشتهر بهما عبد الله [1] بن أسعد اليافعى اليمنى نزيل مكة وشيخ الحرم ، ولد سنة ٦٩٨ ونشأ بعدن واختلف إلى العلماء فيها ، وحج فى سنة ٧١٢ وعاد فأحب الخلوة والانقطاع عن الناس والسياحة فى الجبال ، ولزم شيخا صوفيا يسمى الشيخ الطواشى ، فسلكه فى الطريق . وعاد إلى مكة وجاور بها ملازما للعلماء نحو عشر سنوات ، ورحل إلى الشام ، كما رحل إلى مصر وكانت أكثر إقامته بها فى القرافة فى مشهد ذى النون المصرى . وعاد إلى الحجاز وجاور بالمدينة مدة ثم تركها إلى مكة ، وعاد إلى اليمن سنة ٧٣٨ لزيارة شيخه الطواشى . وألقى عصاه بمكة وتوفى بها سنة ٧٦٨ وله فى الصوفية وتراجمهم كما مرَّ بنا كتاب «روض الرياحين وحكايات الصالحين» ومن غزله الصوفى قوله [2] :

قفَا حدِّثانى فالفؤادُ عَليلُ عَسَى منه يُشفَى بالحديث غَليلُ
أَحاديثُ نَجْدٍ عَلِّلانى بذكرها فقَلبِى إلى نجدٍ أراه يميلُ
ولا تذكرا لى العامريَّة إنها يولِّه عقلى ذكْرُها ويُزيل
ولكنْ بذِكْرِى عرِّضا عندها فإنْ تقلْ كيفَ هُوْ قُولا بذاكَ غَليلُ
فإن تَعطفى يُشْفَى وإن تُعْرضى فنِى هواكِ المعنَّى المستهامُ قَتِيلُ

وهو يصور حبه ووجده وهيامه بليلى العامرية رامزا بها إلى الذات الإلهية دون تغلغل فى حلول أو اتحاد أو فناء ، فتصوفه تصوف سنى ، يقف عند إعلان المحبة الإلهية ولا يعدوها ، فهو محب مولَّه ، وحسبه أن يصور ولهه وحبه . وله بجانب هذا الغزل الصوفى مدائح نبوية كثيرة ، من مثل قوله فى إحدى مدائحه [3] :

نبىٌّ عَلا فوق السَّمَوات مَنْصِباً بَدا نُورهُ من قبل نَشْأةِ آدم
به الدَّهْرُ أضحى ضاحكا متبسِّماً عَبوسا على أعدائه غيرَ باسم
علا فوق كل المصْطَفَيْنَ مُقَرَّباً بأعلى مقامٍ ماله من مُزاحم

وهو فى البيت الأول يستلهم فكرة الحقيقة المحمدية المعروفة عند الصوفيين وما يتصل بها من فكرة أزلية النور المحمدى . وابنه عبد الرحمن يحاكيه فى الجانبين من شعر التصوف

---

(١) انظره فى العقد الثمين ٥/١٠٤ والنجوم الزاهرة ١١/٩٣ والدرر لابن حجر (طبع دار الكتب الحديثة) ٢/٣٥٢ والبدر الطالع ١/٣٧٨ وتاريخ ثغر عدن لبامخرمة ٢/١٠٩ .

(٢) العقد الثمين ٥/١١١ .

(٣) العقد الثمين ٥/١١٤ .

ثم المديح النبوى . ومن شعراء التصوف اليمنيين محمد بن إبراهيم بن الوزير [١] ، وله ديوان سماه «مجمع الحقائق والرقائق فى ممادح رب الخلائق» . وقد نشر فى القاهرة باسم مدائح إلهية ، وعُنى محمد بن إسماعيل الصنعانى الذى ترجمنا له بين شعراء الدعوة الوهابية بشرحه وسمى الشرح : «فتح الخالق فى شرح مجمع الحقائق» . وقد ترجم له الشوكانى فى كتابه البدر الطالع ترجمة ضافية ذكر فيها أنه ولد سنة ٧٧٥ وقال إنه عُنى بالتأليف وذكر بعض مؤلفاته ، وقال إنه لم يلبث أن أقبل على العبادة وانقطع عن الناس حتى وافاه أجله سنة ٨٤٠ هـ / ١٤٣٦م . والديوان جميعه شعر صوفى سنى ، ولكنه لا يتخذ الغزل وسيلة فى التعبير ، بل يسلك إلى ذلك مسالك العباد النساك من التوجه إلى الله بالتضرع والرجاء وحسن التوكل والشكر والتخويف من غضب الله وطلب العفو منه والغفران ، على شاكلة قوله فى التضرع والرجاء والتوكل :

أرجِّيك إذ كنتَ أهلَ الرَّجا ... وأخشاك إنى من الظالمينا
وأسألك العفوَ إذ كنت قد ... علمتُ بحبِّك للسائلينا
وفوَّضْتُ أمرىَ بعد الدُّعا ... بحقٍّ إلى أحْكم الحاكمينا
إذا شئتَ أعفيْتَنى من ذنوبى ... وسامحتَ يا أرحمَ الرَّاحمينا
وهذا الذى أنت أهلٌ له ... وأنت تحثُّ به الْمُحْسِنِينا
وأنت الذى قلت لا تَقْنطوا ... خِطَاباً خصَصْتَ بِهِ المُسْرِفينا

وهو يشير فى البيت الأخير إلى قوله تعالى : (قُل يا عبادىَ الذين أسرفوا على أنفسهم لا تَقْنطوا من رحمة الله) . وهو يكثر من نظم الآيات القرآنية فى الديوان ، وهذه الأبيات من أعذب ما فيه لغة وأسلوبا . وتبدو الكثرة وكأنها شعر وعظ مرصوف أو مركوم بعضه فوق بعض . وربما كان الذى دفع محمد بن إبراهيم بن الوزير إلى هذه الطريقة فى شعر التصوف معاصره إسماعيل [٢] بن أبى بكر المعروف بالمقرئ الشافعى شيخ الفقهاء فى زَبيد وتهامة ، فإنه حين رأى جماعة من صوفية زَبيد أوهموا من ليس له كثير نباهة علو مرتبة ابن عربى ونَفْى العيب عن كلامه هاجمه وهاجم طريقته وكل ما اتصل بها من فناء فى الله جل شأنه ومن حلول واتحاد ، وأودع ذلك قصائد طنانة كان لها دوى بعيد فى اليمن فانصرف الشعراء أوكثير منهم فى عصره – كما يبدو – عن الشعر الصوفى القائم على تصوير

(١) انظر البدر الطالع ٢ / ٨١ وراجع ديوانه «مدائح إلهية» طبع المطبعة السلفية بالقاهرة.

(٢) انظر فى ترجمته البدر الطالع ١ / ١٤٢ .

المحبة الإلهية ، تصويرا ينتهى إلى الإيمان بالاتحاد بالذات العلية وما إلى ذلك مما يردده أصحاب المنزع الصوفى الفلسفى .

ويفيض كتاب نشر العرف بشعر وعظ وزهد كثير فى الحقب المتأخرة على أنه ينبغى أن نذكر أنه شاع فى اليمن شعر صوفى متجوِّل بأخرة من العصر كان المداحون يغنونه على نقر الطَّار والطَّبْل ، وأكثره فى المديح النبوى لأكبر صوفية اليمن عبد الرحيم البرعى ، وسنخصه بكلمة مفردة .

ويكثر المديح النبوى والشعر الصوفى فى حضرموت ويفيض كتاب تاريخ الشعراء الحضرميين بهما وبزهديات كثيرة ، حتى ليظن الإنسان أنه لم يوجد شاعر هناك إلا وتغنى بمديح الرسول ﷺ وببعض غزليات صوفية وأشعار زهدية ، ولأبى بكر العيدروس[1] المتوفى سنة ٩١٤ هـ / ١٥٠٨ م ديوان صوفى سماه محجة السالك وحجة الناسك وهو يزخر بالشعر الصوفى ، وكثير منه بالعامية اليمنية ، فهو -كما يسمونه- شعر حُمَيْنى . وهو صوفى سنى وجميع صوفية حضرموت سنيون ومن قوله :

نعم لوصحَّ تحقيقى شهودى لأشغلنى الشُّهودُ عن المقالِ
ولوحلَّ اليقينُ صميمَ قلبى لكنت هجرتُ فى المَوْلَى الموالى
ولو كان الحضورُ نزيلَ صدرى لما بالغيرِ لذَّ لىَ اتصالى

وهو يصرح بأنه لم يصل إلى مرتبة الشهود للحضرة الإلهية فضلا عن الفناء فى الذات العلية وانفصاله عن وجوده البشرى ، حتى لا يكون هناك موجود ولا مشهود سوى الله . وهو بذلك صوفى سنِّى ، ويناجى ربه مناجيات كثيرة خاشعا متضرعا ، ويمدح الرسول ﷺ وهو يُعَد من كبار الصوفية الحضارمة . ولعمر[2] بامخرمة المتوفى سنة ٩٥٢هـ / ١٥٤٥م شعر صوفى تكثر فيه المناجيات والاستغاثات والتوسلات والمدائح النبوية ومن قوله فى أحد توسلاته :

اللهُ يا من لا إله نؤمُّهُ إلا هو انظُرْنى بِعَيْنِ تَفَضُّلِ
يامَنْ هو الله العظيمُ ومن له الـ ـعرشُ العظيمُ ومن عليه توكلى
يامن يُغيث المستغيثَ بِغوثِهِ غَوْثاه أدْرِكنى عدمتُ تحيُّلى

ومن متصوفة حضرموت عبد الله[3] الحداد العلوى . وقد أنشد له الثقاف أشعارا كثيرة فى التصوف والزهد والمديح النبوى والرجاء والصبر على الشدائد وفى الأشواق والمواعظ وفى

(١) تاريخ الشعراء الحضرميين ١ / ١٠٥ وما بعدها .
(٢) تاريخ الشعراء الحضرميين ١ / ١٣٠ .
(٣) نفس المصدر ٢ / ٢٤ .

المناجاة والاستغاثة بالله ، ومن قوله فى استغاثة نبوية :

يا رسولَ الله يا أهلَ الوفا يا عظيم الخلق يا بَحْرَ الصَّفا
أنت بعدَ اللهِ نعمَ المُرْتجَى واللَّجا يا مُجْتَبَى يا مصطفى
يا خِتامَ الرُّسْلِ يا خيرَ الوَرى يا سَريعَ الغَوْث أدركْ من هَفا

وفى كتاب السقاف مالا يكاد يحصى من أشعار صوفية وزهدية ونبوية ، وسنخص أحد من ترجم لهم وهو عبد الرحمن بن مصطفى العيدروس بكلمة مجملة .

وإذا تركنا حضرموت إلى عُمان لاحظنا ما ذكرناه فى غير هذا الموضع من أن الشعر الصوفى لم يشع فى هذه البيئة لغلبة الخوارج عليها ، إذ المعقول أن يشيع هناك شعر الزهد والتقشف لا شعر التصوف بفرعيه السنى والفلسفى . ونفس مدينة عُمان الإمامية حينا والسنية حينا آخر لم تعن بالشعر الصوفى الخالص . ونجد لشاعر النبهانيين السنيين حكام عمان أحمد ابن سعيد الستالى الذى ترجمنا له بين شعراء المديح ميمية كلها ثناء على الله وعلى آلائه ، ويختمها بدعوة حارة إلى الزهد والتقشف . ومن متأخرى الشعراء هناك الحبسى وقد ذكرنا أن له ديوانا افتتحه بقصائد نبوية بعدد حروف الهجاء .

ونتحول إلى البحرين وطبيعى أن تسهم فى شعر الزهد ، ومن يرجع إلى كتاب سلافة العصر يجد فيه لشعراء البحرين مناجيات ربانية ، ومواعظ مؤثرة ، وبعض أشعار صوفية من مثل قول أبى عبد الله محمد بن أبى شَبَابة البحرانى [1] :

لعمرى لقد ضلَّ الدليلُ عن القَصْدِ وما لاح لى برقٌ يدلُّ على نَجْدِ
فبِتُّ بليلٍ لا ينامُ ومهجةٍ تقلَّب فى نارٍ من الهمِّ والوَجْدِ
وقلتُ عسى أن أهتدى لسبيلها بنَفْحة طيبٍ من عَرارٍ ومن رَنْدِ [2]
وكم طامعٍ فى حبِّهم مات غُصَّةً وقد كان يرْضَى بالمحال من الوَعْدِ

ولابن مشرَّف الأحسائى الذى ترجمنا له بين شعراء الدعوة الوهابية أشعار فى الدعوة إلى الزهد ورفض متاع الحياة ، إذ تُضْحكُ وسرعان ما تُبْكى ، وما سرورها إلا أضغاث أحلام ، وحرى بالإنسان أن لا يبرح الموت خياله ، وأن يظل رافعا له بيديه نصب عينيه ، فكل من عليها فان ، ولن ينفع المرء إلا ما قدمت يداه . وله مدحة نبوية يشيد فيها بالرسول ورسالته الربانية . وحرى بنا أن نقف الآن عند عبد الرحيم البرعى اليمنى وعبد الرحيم بن مصطفى العيدروس الحضْرمى .

---

(١) سلافة العصر ص ٥١٣ . ونفحة الريحانة ٣ / ١٨٩ .
(٢) العرار والرند : من أزهار البادية .

عبد الرحيم البُرَعى [1]

شاعر صوفى سُنِّىّ يمنى ، وليس لدينا معلومات واضحة عن مولده ونشأته ، ويقول ابن زباره : «هو عبد الرحيم بن على البُرَعى الهاجرى اليمنى سكن فى النيابتين من جبل بُرَع باليمن ، حيث اشتهر بالعلم والشعر ، وتوفى سنة ٨٠٣هـ/١٤٠١م . وخطأ ما يقوله بروكلمان من أنه من شعراء القرن الخامس الهجرى وما يقوله نيكلسون من أنه من شعراء القرن الثانى عشر الميلادى . والديوان فى جمهوره مقسوم بين تسبيحات وتحميدات لله ومناجيات واستغاثات له وبيان وحدانيته ونعمه ولطفه ودلائل قدرته وبين مدح الرسول ﷺ والاستغاثة به والتوسل وبيان فضائله ومعجزاته وخصائصه وصفاته . وهو فى القسم الأول يعبِّر تعبيرا حارا عن تعلقه بربه ، ولا يتخذ لذلك صيغة الغزل الصوفى بالذات الإلهية وما يتبع ذلك من مجاهداته الروحية فى المحبة الصوفية ونشوته بشهود الجمال الربانى وما يبعث فيه من لوعة ووجد وهيام على نحو مانجد عند ابن الفارض مثلا ، إذ نجده يحاول بكل ما استطاع التخلص من عالمه المادى ليستغرق فى العالم الربانى بل لِيُمْحَى فيه محوا وليفنى فيه فناء مطلقا . وكأنما فَنِيَت فيه أو مُحيت كل إرادة وكل شعور ولم يعد يحسّ شيئا إلا الذات العلية وجمالها الذى تفيض أشعته على الوجود .

عبد الرحيم البرعى إذن ليس شاعرا صوفيا بهذا المعنى وإنما بمعنى آخر هو تمجيد الذات العلية دون اتخاذ رموز الحب الصوفى ، وهو تمجيد يصور فيه عجائب الخلق الإلهى وعلم الله الذى وسع كل شىء وقدرته التى تسيطر على كل ذرة فى الكون ، مع حَمْده على آلائه ، ومع بسط بعض ما جاء فى القرآن من صفاته الربانية ، ومع المناجيات والدعاء والوعظ الجميل والحض على التوبة والعمل الصالح ، ومن بديع ماله قوله :

قِفْ بالخضوع ونادِ ربَّك ياهُوْ ... إن الكريم يُجيب من ناداهُ
واقصدْه ِ منقطعاً إليه فكلّ مَنْ ... يرجوه منقطعا إليه كفاهُ
هو أوَّلٌ هو آخرٌ هو ظاهرٌ ... هو باطنٌ ليس العيونُ تراه
سَلْ عنه ذَرَّات الوجود فإنها ... تدعوه مَعْبُوداً لها ربَّاه

وهو يستخدم كلمة «هو» فى التعبير عن الذات الإلهية ، وهو استعمال مألوف عند

(١) انظر فى البرعى وأشعاره ملحق البدر الطالع لابن زبارة ص ١٢٠ وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان . (طبع دار المعارف) ٥ / ٥٨ وقد أخطأ فى اسمه واسم أبيه فسماه عبد الرحمن بن أحمد وانظر : «فى التصوف الإسلامى» لنيكلسون (ترجمة عفيفى) ص ١٦٥ وشعر الغناء الصنعانى لمحمد عبده غانم ص ٥٥ و ١٨١ و ١٩٨ وديوانه طبع مراراً بالقاهرة .

الصوفية وخاصة فى شعر الذكر ، إذ يهتفون : « هو هو » بسكون الواو وكأن كل ما فى الوجود يغيب عنهم ما عدا الله ، وهم يصيحون بكلمة هو وكأنها تعيِّنه وحده دون سواه مع عرفانهم به وبربوبيته . والقصيدة من أهم قصائد الغناء فى اليمن [١] . ويستمر البرعى فى القصيدة بمثل قوله :

أَبْدَى بِمُحْكَمِ صُنْعِهِ من نُطْفَةٍ   بَشراً سويًّا جَلَّ مَنْ سَوَّاهُ
وبنىُ السموات العُلَى والعَرْش والـ   ـكرْسىَّ ثم علا الجميعَ عُلاَهُ
ودَحَا بَسيطَ الأرضِ فَرْشا مُثْبَتاً   بالرَّاسيات وبالنباتِ حَلاه [٢]
تجرى الرياحُ على اختلاف هبوبها   عن إذنه والفُلْكُ والأمواهُ

وهو هنا يتحدث عن قدرة الله العظيمة وخلقه للإنسان وصنعه للكون وبسطه للأرض وتثبيتها برواسٍ من الجبال وتزيينها بنبات بهيج ، وتسخير الرياح بين السماء والأرض وإجراء الفلك فى البحر بريح طيبة ، وكل هذا يستمده من الذكر الحكيم لبيان قدرة الله التى تبسط سلطانها على كل ما فى العالم كما قال جَلَّ شأنه : (وسع كرسيُّه السمواتِ والأرضَ) فقدرته لا تحدُّها حدود . ويختم القصيدة بالتوسل إلى الله برسوله أن يشمله برحمته وكرمه وغُفْرانه ورعايته ورضاه ، يقول :

ياذا الجلالِ وذا الجمال وذا الكَرَمْ   يامُنْعِما عمّ الأنامَ نَداهُ
اقْبَلْ توسُّلنا بفضْل محمدٍ   وبمن له فضلٌ لديك وجاهُ
واشدُدْ عُرَى عبدِ الرَّحيم برحمةٍ   إن الحوادث قد فَصَمْنَ عُرَاهُ
وأَنِلْهُ فى دُنْياه كلَّ كرامةٍ   وقِهِ الذى يخشاه فى أُخْراه
وأذِقْه بَرْدَ رضاك عنه فلم يَخِبْ   من كان عَيْنُك بالرِّضا تَرْعاهُ

وتكثر هذه التوسلات فى الديوان مع إعلان الطاعة والخضوع والتذللَ لرب العالمين تذلل النفوس المخلصة المحبة لربها حبا يستأثر منها بمشاعرها وعواطفها فلا تستطيع عن تمجيد ربها انصرافا ولا حِوَلا . ويقابل هذا القسم فى الديوان قسم ثان يمكن أن نطلق عليه اسم المديح النبوى ولكنه مديح من نوع خاص مديح كله شغف وحب وتوله وهيام ووجد وبيان لمعجزات الرسول وفضائله وشيمه الكريمة . ولا تخلو مدحة من التوسل والتضرع إليه ليكون له شفيعا عند ربه ، فيشمله بعفوه ويرعاه فى دنياه وأخراه ، ونسوق بعض أبيات من مدحة نونية له :

والله ما حملتْ أُنثى ولا رضَعتْ   كمثل أحمدَ من قاصٍ ولا دانى

(١) انظر شعر الغناء الصنعانى ص ١٨١ .   (٢) دحا : بسط ووسع . الراسيات : الجبال .

مهذَّبٌ شرَّف اللهُ الوجودَ به وخصَّهُ بِـدلالاتٍ وبُـرهـانِ
ومعجزاتٍ بِعَدِّ الرَّملِ لو كُتبتْ لم يُحْصها ماءُ سيحانٍ وجيحانِ
محمدٌ سيِّدُ الكونَيْنِ والثَّقلَيْـ ـن والفريقين من عُجْمٍ وعُرْبانِ

وسيحان وجيحان نهران فى آسيا الصغرى . والأبيات عذبة ، ومدائح البرعى للرسول ﷺ من أسلس المدائح النبوية وأخفها وقعاً على الآذان ، بل إنها لتمتع الأسماع حين تُصْغِى إليها كما تمتع الألسنة حين تنطق بها لما تمتاز به من صفاء وحلاوة موسيقية . ومن روائع توسلاته قوله فى خواتيم هذه المدحة :

ياسيِّدى يارسولَ اللهِ يا أملى يامَوْئلى يامَلاذى يومَ يَلْقانى
هَبْنِى بجاهك ماقدَّمتُ من زَللٍ جوداً ورَجِّحْ بفضلٍ منك ميزانى
واسْمَعْ دعائىَ واكشفْ ما يُساورنى من الخطوب ونَفِّسْ كلَّ أحزانى
وامنعْ حِماىَ وأكرِمْنى وصِلْ نَسَبِى بـرحـمـةٍ وكـرامـاتٍ وغُـفْـرانِ

وكل أمله فى هذا التوسل برسول الله ﷺ أن يتقبله فى ساحته وأن يكون ملاذه وأن يغفر له زلله وعثراته ، وأن يجعله ممن ثقلت موازين حسناته ، حتى يستحق رضوان ربه ونعيمه وفردوسه ، وأن يكشف عنه كل ما يوائبه من الخطوب وينازله ، وأن يدفع عنه كل أحزانه وهمومه ، وأن يحمى حِمَاه . وأن يسبغ عليه كرمه ورحمته وغفرانه . والرسول ﷺ بذلك هو الشفيع المشفع لأفراد أمته ، ممن يمنحهم الغفران والإقالة من الخطيئات والفوز بالجنان ، كما يمنحهم العون فى الكوارث والخطوب وينقذهم من الضلال ويفرج عنهم الهموم ، إنه الإنسان الكامل الذى يتقبل الله منه شفاعاته ، وهو كمال فى الخلق والشيم لا يزال البرعى يتغنى به وبما أجرى الله على يديه من معجزات ، بل إنه يقول :

كانتْ نبوتُه وآدمُ صورةٌ فى الماء والطِّين المصوَّر منهما
وبه وجودُ الكوْن من عَدَمٍ فقد ملأ الزمانَ تفضُّلاً وتكرُّما

ونحس فى البيتين إيمانه بالحقيقة المحمدية التى تغنى بها البوصيرى وغيره ، إذ يستلهمون الأثر المشهور : «كنت نبيا وآدم بين الماء والطين» وكأن حقيقته أقدم من خلق آدم ، وإن الكون كله ليستمد وجوده منه كما يقول البرعى فى البيت الثانى ، وكأنه مبدأ الحياة ، الذى يسرى فى كيان الوجود كله . ويقول فيه مادحاً :

من نور ذى العَرْش معناهُ وصورتُهُ ومَنْشأُ النورِ من نورٍ يجسِّمهُ

فهو من نور الله ، وكل نور فى الوجود ناشئ من نوره ، فنوره يشاهَد فى كل نور . ويردد البرعى دائما فضائل الرسول المثالية الرفيعة . وله مخمسان بديعان فى وصف تلك

الفضائل ، استهل أولها بقوله :

بمحمَّدٍ خَطَرُ المحامدِ يَعْظُمُ وعُقودُ تيجانِ العقودِ تنظَّمُ
وله الشفاعةُ والمقامُ الأعظَمُ يومَ القلوب لدى الحناجرِ كُظَّمُ
فبحقِّهِ صَلُّوا عليه وسلِّموا

ويدور الشطر الأخير مع كل بيتين تاليين ، وبذلك جعل المخمس صالحا لأن ينشده منشد وترد عليه جماعة بالشطر الخامس . وعلى شاكلة هذا المخمس مخمسه الثانى ، وقد جعل الشطر المكرر فيه : «صلوا عليه وسلموا تسليما» . ونبوياته بحق رائعة وقد شُغف بها المغنون الجوَّالون فى اليمن يغنونها ويوقعون أشعارها على الطَّارات أزمنة متطاولة .

عبد الرحمن العَيْدَروس(١)

حَضْرمِى من بيت علم وفضل ، ولد بمدينة تَرِيم فى سنة ١١٣٦ هـ / ١٧٢٣م ، وبها نشأ فى رعاية أبيه وجده فحفظ القرآن الكريم وشَدَا العربية ، وتفقه على الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله بلفقيه . وسافر مع أبيه إلى الهند ، وكثرت رحلاته بعد ذلك ، فقد عاد منها ، بعد أن تزوَّد من علمائها زاداً حسنا . وذهب إلى مكة للحج وأخذ عن شيوخ الحجاز ، وزار مصر سنة ١١٥٨هـ / ١٧٤٥م وعاد إلى مكة وسكن الطائف ، ثم زار مصر سنة ١١٦٢هـ / ١٧٤٨م فمكث بها عاما واحداً وعاد إلى الطائف ، ثم رأى أخيرا أن يستوطن مصر فنزلها بأسرته سنة ١١٧٤هـ / ١٧٦٠م وفى أثناء استيطانه مصر زار دمشق سنة ١١٨٢ وزار الآستانة سنة ١١٩١ وعاد إلى مصر وتوفى بها سنة ١١٩٢هـ / ١٧٧٨م ودُفن فى مقام العتريس إلى جانب مسجد السيدة زينب . وكانت قد طارت شهرته بالصلاح والنسك فى حياته . وتعلق به شيوخ الطرق الصوفية . وله مصنفات كثيرة ، تغلب عليه فيها النزعة الصوفية ، ويذكرون له شرحا على بيتى ابن العربى :

إنما الْكَوْنُ خَيَــــالٌ وهْو حَقٌّ فى الحقيقَهْ
كلُّ مَنْ يفهم هذا حازَ أَسْرارَ الطريقَهْ

وهو لا يغلو غلوه فى التصوف الفلسفى ، فليس فى أشعاره حلول ولا اتحاد بالذات العلية ولا شعور بأن فيه قبسا من الحقيقة الإلهية ولا أنه ينعم برؤية النور الربانى . وحقا نجد

(١) انظر فى عبد الرحمن العيدروس وشعره تاريخ الجبرتى ٢ / ٢٧ وسلك الدرر للمرادى وتاريخ الشعراء الحضرميين ٢ / ١٨٩ ونشر العرف لزيارة ٢ / ٥٠ وشعر الغناء الصنعانى ص ١٩١ وديوانه تنميق الأسفار مطبوع بالقاهرة .

عنده بعض أحاديث عن الفناء وعن المَحْو والصَّحْو ، ولكن لا تظن أنه يستغرق فى ذلك استغراق ابن عربى ، أو حتى استغراق ابن الفارض ، كأنه يلمُّ بظاهر من ذلك دون توغل فيه ، كما يلم بالخمر ونشوتها على طريقة الصوفيين ، ولكن دون أن تسلبه حواسه على شاكلة قوله :

أنْعَشَتْنِى خمرةٌ للغير تَمْحُو فاعْتِلالى بالهوى القُدْسىِّ شَطْحُ
عاذلى كُنْ عاذِرى أو عاذلى أنا مِن خَمْرِ التجلِّى لستُ أَصْحُو
أنا فانٍ والفَنا عَيْنُ البقا فى رَشاً مِن دونه سَيْفٌ ورُمْحُ
هَامَ شَخصُ القلب من خمر الفَنا فَهْوَ مِن تلك الحُمَيَّا ليس يَصْحُو
أنا فى مَحْوٍ وصَحْوٍ دائما حيثُ لى فى مَجْمع البَحْرين سَبْحُ

وكل ما يمكن أن يقال عن تصوفه هو أن فكرة الفناء الصوفية ومايتصل بها من فكرة المحو حتى لتزول فى المتصوف جميع الصفات البشرية ليكون على استعداد لشهود ربه ، وأيضا فكرة الصحو وأنه يظل له القرب والشهود للذات العلية دون سكر ، كل ذلك نجد ظاهرا منه عند العيدروس ، ولكن لا نجد حرارة ولا استغراقا فى لذة الفناء المسكرة كما يقول المتصوفة ، ومن خير غزلياته غزلية يشدو بها اليمنيون ويتغنون بها إلى اليوم يستهلها بقوله :

شَرِحَ الدمعُ على مَتْن الخدودْ ما أُلاقيهِ من الظَّبْىِ الشَّرودْ
يالَقومى من غزالٍ صادنى وعجيبٌ رشأٌ صادَ الأسودْ
أهْيَفُ القامة فى وَجْنَتِهِ جنَّةُ الخُلْدِ ونيرانُ الخلودْ
غُصْنُ حُسْنٍ قد سُقِى ماءَ البَهَا مُثْمراً — أَضْحى — بِرُمَّان النُّهُودْ

وواضح أن هذا الغزل الإلهى لا يفترق فى شىء عن غزل الحب الإنسانى ، حتى ليؤمن من يقرؤه لأول وهلة أنه غزل فى فتاة حقيقية صَبَتْ قلب العيدروس بجمالها المغرى . وكأنى به يتأثر فى هذا الغزل المادى بديوان ابن عربى : «ترجمان الأشواق» الذى يكتظ بالوصف الحسى لجمال محبوبته ، حتى ليظن قارؤه أنه يتغزل غزلا إنسانيا ، وهو إنما يرمز به إلى حبه الربانى . ويمضى العيدروس منشداً :

أيها الظَّبْىُ الْتَفِتْ نحو الحَشا أيها الشمس أزِلْ نارَ الصدودْ
عَطْفَةً بالقَدِّ من هذا الجَفا وأبيك العَطْفُ من شأن القُدودْ
كم أرى بارقَ وَعْدٍ أوْمَضَا قد مَضَى وقتُ المعنَّى فى وعود
وصلاةُ الله تَغْشَى المصطفى ماتَلالا البرق من أقصى النُّجُودْ

وهو يتمنى لفتة من الظبى الشرود أو قبسا من الشمس الهادية يطفئ غليل ظمئه ،

ويأمل فى عطفة نحوه أو فى وصل طالما رأى بُروق وعوده ، وكأنه دائما فى هجر وفراق ومَطْل وبَيْنٍ وإنه ليتوسل إلى ربه ضارعا أن يمنحه القرب والشهود ، وإنه ليشكو دائما من الضَّنِّ بالوصال ، يقول :

أتسألُ عن عَيْنى لما هِىَ تَدْمَعُ   وجِسْمِى نحيلٌ والحَشَا يتقطَّعُ
ولَوْنِى كئيبٌ والفؤادُ بِحَسْرَةٍ   ومالى سهيرَ الطَّرْف والقلبُ موجَعُ
فما نالنى هذا سوى مِنْ فراقِ مَنْ   له النُّورُ يَبْدُو فى البقاع وَيلْمَعُ

فهو دائم البكاء ، حتى لقد شحب جسمه وضؤل ، وحتى لقد تَقطَّعت أحشاؤه واكتأب لونه والتاع فؤاده ، ودائما مسهّد الطرف ساهره ، وقلبه مكتظ بالأوجاع واللوعات لهجر محبوبه الذى يملأ العالم بنوره ، وهو ما ينى يذكره ويرسل دموعه ، لعل محبوبه —كما يقول— يعطف عليه ويخلصه من عذاب الهجر وأوصابه ومن قوله :

أَلْهَيْتَنى عن جهاتى   يا راحتى يا حياتى
ما ضرَّ يا مَنْ سَبَانى   لوجُدْتَ لى بالْتِفاتِ
بِالله يا مَنْ رمانى   بِأسْهُمٍ صائباتِ
عَطْفاً على الصَّبِّ عَطْفاً   من قَبْلِ كَأسِ المماتِ

وهو يصرِّح فى الشطر الأول من هذه الأبيات بأنه لم يعد يشعر بمكانه ولا بما حول مكانه ، وكأنما غاب عن وجوده ، ونتأهب لكى يتحدث لنا عن وجوده الإنسانى وفنائه فى الوجود الربانى ، وكأنما لم يعد له وجود ذاتى ، أوكأنه يدخل عالم الفناء الصوفى أوعالم الشهود الإلهى ، ولكنه لا يستمر فى بيان ذلك ، وكأنه استعار الشطر من ابن عربى وأمثاله ، ولم يفكر فى الشهود ولا فى الفناء . ولا نريد أن ننفى بذلك عنه صفة التصوف ، فهو متصوف سنى ، لا يتعمق فى تصوفه تعمقا من شأنه أن يجعله يتجرد من حواسه ومن وجوده ومن كيانه المادى . وله يائية يعارض بها يائية ابن الفارض يقول فى فواتحها :

صاحِى عَرِّجْ على نَجْدٍ وحَىّْ   أهلَ حَىٍّ لم يكن يحكيه حَىّْ

وهو إنما يعارض بيائيته ظاهرا من يائية ابن الفارض ، فليس عند وجده ولا التياعه ولا مجاهداته فى الوصول إلى مرتبة الشهود ولا شغفه بالجمال المطلق وفيوضاته الإلهية . لم يكن العيدروس يتعمق فى تصوفه هذا التعمق ، فتصوفه إنما كان تصوفا سطحيا نجد عنده لغة الصوفية ومصطلحاتهم ولكن دون حرارة ودون ولهٍ جارف .

الفصل الخامس

النَّثْر وأنواعه

١

تنوع الكتابة

كانت نجد أقل بيئات الجزيرة عناية بالكتابة لصعوبة حصولها على الورق والحبر وغيرهما من وسائلها المادية ، وأغلب الظن أن الإمارتين اللتين تأسستا فى شرقيها لأوائل هذا العصر : إمارة بنى مَزْيَد فى الحِلَّه وبنى عُقَيْل فى الموصل كانتا تعنيان بالكتابة ، فابن خلكان يذكر أن على بن أفلح الكاتب الشاعر المتوفى سنة ٥٣٧ للهجرة كان يكتب بين يدى أمير من أمراء بنى مزيد فى شبيبته [١] ونظن أنه كان لأمراء بنى عقيل كتاب يكتبون بين أيديهم على شاكلة ابن أفلح كاتب بنى مزيد . غير أنه ليس بين أيدينا رسائل للإمارتين جميعاً ، مما يدل على أن هذا النشاط الكتابى فيهما كان محدوداً . ومرّ بنا فى غير هذا الموضع أنه نشأت فى الشمال الغربى للجزيرة إمارات بدوية لآل فضل وآل مِرا وآل علىٍ ، كانت تدين بالولاء لحكام مصر من الأيوبيين والمماليك ، وفى صبح الأعشَى مراسيم كثيرة صادرة من مصر بإمرة أمرائهم ، وكذلك لآل مهدى فى البلقاء ، غير أننا لا نعثر بردٍّ من أحدهم أو بعبارة أدق برسالة موجهة إلى مصر أو أحد حكامها المختلفين ، وبالمثل لا نجد كتابات أو كتباً موجهة من أواسط نجد إلى خارجها ، فقد كانت بعيدة عن الحضارة وأكثر بداوة من أطرافها الشرقية والغربية ، ولعل ذلك ما جعل القلقشندى يقول : «إنه لا اعتناء لأهل البادية بفن الإنشاء جملة ، وإنما يُكتَبُ عنهم بحسب ما يقتضيه حالهم ، على أن فيما يأتون به مقنعا من الفصاحة والبلاغة بكل حال ، إذ عنهم قد عُلِم اللسان وعليهم فيه يعوَّل [٢] » . وهو قول دقيق وصحيح .

وإذا تركنا نجدا إلى الحجاز وخاصة مكة وجدنا أمراءها يتخذون كُتَّاباً للإنشاء ، أو بعبارة أدق ليكتبوا ما يريدون من رسائل فى مخاطبة سلاطين مصر وحكام اليمن والعراق .

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ٢ / ٤٩١ .

(٢) صبح الأعشى ٨ / ٧٦ .

وفى صبح الأعشى عهد فى صورة يمين لأبى نُمَىّ أمير مكة حلف بها لقلاوون . وفيه صور مختلفة لتنصيب أمراء مكة والمدينة وما كان يكتبه لهم سلاطين المماليك فى هذا التنصيب[1] ، إذ كان لهم أمر توليتهم وعزلهم ، فقد كانتا تتبعان مصر منذ عصر الأيوبيين ، بل فى حقب كثيرة منذ عصر الفاطميين . وكانت مصر فى أثناء ذلك هى التى تعيِّن أصحاب الوظائف الكبرى فى البلدتين ، وخاصة فى القضاء وفى مشيخة الحرم النبوى ، وفى صبح الأعشى نماذج مختلفة لهذا التعيين ، تُذْكر فيها واجبات الوظيفة[2] .

ويكثر تبادل الرسائل الشخصية بين العلماء والأدباء فى مكة والمدينة والطائف على نحو ما يلقانا فى كتاب سلافة العصر لابن معصوم ، وتلقانا فيه خُطَب زواج طريفة إذ ظلوا يحتفظون فى عَقْد الزواج بهذا التقليد القديم ، وهى خطب منمقة يشيع فيها السجع ، على نحو ما نقرأ لأحد القضاة ، وهو تاج الدين بن أحمد إمام المالكية بالمسجد الحرام من قوله فى خطبة زواج : «إن الزواج جُنَّة تُتَّقى بها الفتنة ، وجَنَّةٌ يُتْلى على متفيِّئ ظلالها : (اسْكُنْ أنتَ وزوجُك الجَنَّةَ) تُثْمر رياضه الرحمة بين الزوجين والوداد ، وتطلع زينةَ الحياة الدنيا إذا احتملت غرائسُه ثمرةَ الفؤاد ، وتُسْفر ليلته عن طرَّة صبح تحت أذيال الدُّجَى ، ويتبلَّج يومه عن شمس تتوارى بحجاب الحِجال[3] والحِجا ، وهو الغرض الذى لا يخطئ قاصده الإصابة ، والعَرَض الذى لا يقوم إلا بجوهر أفخر عصابة ، والحصن الذى يُعْتَصَمُ به عن الوقوع فى حمى الحَرَج ، ويُحْتَمى به من مصارع الرجال التى هى ما بين معترك الأحداق والمهج ، والوسيلة التى يتوسَّل بها الآخذ بزمام التقوى إلى مطلوبه ، ويُنْشده بلبل الأفراح هنيئا لمن أمسى سمير حبيبه ، وناهيك فى فضله ما ورد فيه من الآيات ، والأحاديث الثابتة فى صحيح الروايات[4] » والتنميق فى الخطبة واضح .

ومرَّ بنا فى الحديث عن الثقافة كيف تحول الحَرَمان : المكى والمدنى إلى ما يشبه جامعتين كبيرتين لكثرة العلماء من كل صنف فى البلدتين المقدستين ولكثرة المجاورين بهما من كبار علماء العالم الإسلامى . وشاعت منذ القرن الخامس الهجرى كتابة الإجازات العلمية ، فالعالم الكبير يكتب لبعض طلابه النابهين إجازات بمروياته ومصنفاته ، وعادة يذكر من أخذ عنهم المرويات من شيوخه ، ويكتب فى صدر الإجازة تنويها بالعلم وفضله وبالتلميذ ونباهته ، ثم يسرد المؤلفات والمرويات . وبجانب هذه الإجازات أخذ يتكاثر تقريظ

---

(١) صبح الأعشى ١٢ / ٢٣٣ ، ٢٤٢ وما بعدها .

(٢) صبح الأعشى ١٢ / ٢٤٠ ، ٢٥٨ وما بعدها .

(٣) الحجال : ستر أو أستار تضرب للعروس فى جوف البيت . الحجا : العقل .

(٤) سلافة العصر ص ١٤٢ .

الكتب المصنفة ، وعادة كان المصنف لكتاب يعرضه على عالم كبير إما من علماء الحرمين المقيمين وإما من العلماء المجاورين بالمدينتين . وقد ساق مؤلف كتاب العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين طائفة من التقريظات لمصنفاته فى ترجمته بالجزء الأول من كتابه [١] ، وهى تصور مدى ما كان يأخذ به المقرِّظون لكتابٍ أنفسَهم بتنميق كلامهم أو شهاداتهم وبنائها على السجع وما يشيع فيه من جمال فى الجرس والأداء .

ولعل قطراً فى الجزيرة العربية لم تزدهر به الكتابة كما ازدهرت فى اليمن ، ونلاحظ هذا الازدهار منذ عهد الدولة الصليحية الإسماعيلية (٤٣٩ - ٥٣٢هـ) إذ كانت تتخذ لنفسها ديواناً للإنشاء ، ومن كبار الكتاب فيه الحسين بن على بن القِمِّ الشاعر النابه الذى ترجمنا له بين الشعراء وله ديوان رسائل لما ينشر ، وسنعرض لرسالة سياسية له وأخرى شخصية . وقد ذيل السيد حسين بن فيض الله الهمدانى كتابه «الصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن» بطائفة من الرسائل المتبادلة بين الحكام الصليحيين والخلفاء الفاطميين ، وهى رسائل نفيسة لا لما تصور من شئون السياسة فحسب ، بل أيضاً لما تصور من نشاط الكتابة الفنية وازدهارها فى اليمن منذ القرن الخامس الهجرى . وكان يعاصر الصليحيين دولة آل نجاح فى زبيد ، ونجد بين أمرائها أديبا نابها هو جيَّاش بن نجاح صاحب كتاب المفيد فى أخبار زبيد الذى اختصره عمارة اليمنى ، وكان يضم شعراء زَبيد وأدباءها ، وقد وضع للكتاب مقدمة مسجوعة احتفظ عمارة بكثير منها . وأهم من ذلك أن عمارة يقول إنه كان له ترسل جيد بعيد من الكلفة وإنه رأى منه عدة مجلدات ، ويقول إنه عمل ممتع ، مقدماً بذلك لترجمته فى المختصر. ومن فقهاء هذه الدولة الحسن بن أبى عَقامة كما مرَّ بنا ، وكان شاعراً قتله جياش بن نجاح ، ويقول الجَندى عنه «إليه تنسب الخطب العقامية ، وله شعر فائق ، وترسل رائق» [٢] . وبالمثل بعث بنوزُرَيْع بعدن ٤٧٦ - ٥٦٩هـ) حركة أدبية قوية وكان لهم ديوان إنشاء اشتهر فيه غير كاتب مثل أبى بكر العَيْذى ، وفيه يقول عمارة اليمنى فى صدر ترجمته بكتابه مختصر المفيد : «سمعت الشيخ الموفق أبا الخلال فى الأيام الفائزية (أيام الخليفة الفائز الفاطمى) والقاضى الجليس أبا المعالى عبد العزيز ، وهما يومئذ صاحبا ديوان الإنشاء للدولة العلوية (الفاطمية) وما منهما إلا من يقول : لم يصل إلينا من الآفاق ، ولا رأينا لكتَّاب الشام والعراق ، أحسن من مكاتبات ترد علينا من جزيرة اليمن من إنشاء الشيخ الأديب الفاضل أبى العتيق أبى بكر بن محمد العيذى بعدن فإن له بلاغة تشهد عذوبة مطبوعها بكرم ينبوعها ، وألفاظاً تدل معانيها على فضل معانيها» وكان شاعراً

(١) العقد الثمين ١ / ٣٤٧ وما بعدها .

(٢) انظر الجندى فى السلوك - النكت ٦٣٢ .

بارعاً ، ومرَّ بنا بعض شعره . ولما فتح توران شاه اليمن حاول أن يتخذه كاتباً له ، فامتنع . وليس بين أيدينا شيء من رسائله لا هو ولا ابن أبي عقامة ولا جياش ، ولكن على كل حال فيما قدمنا ما يدل على ازدهار الكتابة باليمن . وندخل فى عهد جديد هو عهد الأيوبيين ، وسرعان ما تقوم بها الدولة الرسولية (٦٢٦ – ٨٥٨هـ) وتُعْنَى بالكتابة الديوانية ، ويحتفظ كتاب العقود اللؤلؤية للخزرجي ببعض عهود من الأمراء إلى أولياء عهودهم وببعض رسائل سياسية ، ويتبادل الرسوليون الكتب والرسائل بينهم وبين سلاطين المماليك ، وفى صبح الأعشى رسائل كثيرة موجهة من هؤلاء السلاطين إلى الرسوليين[1] .

ويبدو أن الكتابة كانت نشطة فى بيئة الأئمة الزيدية ، وفى صبح الأعشى ما يدل على كثرة المكاتبة بينهم وبين سلاطين المماليك ، إذ ينص على رسم المكاتبة إليهم وأنها كانت ، «أدام الله تعالى – أو ضاعف الله تعالى – نعمةَ – أو جلالَ – الجانب الكريم العالىَ السيدىّ الإمامى الشريفى النسيبى الحسنىّ العلامىّ سليل الأطهار ، جلال الإسلام ، شرف الأنام ، بقية البيت النبوىّ ، فخر النسب العلوىّ ، مؤيِّد أمور الدين ، خليفة الأئمة ، رأس العلياء ، صالح الأولياء ، علم الهداة ، زعيم المؤمنين ، ذخر المسلمين ، منجد الملوك والسلاطين ، ولا زال زمانه مُرْبعاً ، وغيله مُسْبعاً ، وقِراه مُشْبِعاً ، وكرمه لفيض نداه مَنْبعاً ، وهُداه حيث أَمَّ بالصفوف متَّبعاً[2] . . » وفى ذلك ما يدل على أن المراسلة بين هؤلاء الأئمة الزيديين وسلاطين مصر كانت لا تنقطع .

وطبيعى أن تكثر الإجازات فى اليمن كما كثرت فى المدينتين المقدستين بالحجاز . وتكثر تقاريظ الكتب ، من مثل تقريظ القاضى شرف الدين إسماعيل بن أبى بكر المعروف بالمقرئ اليمنى لأحد مصنفات صاحب العقد الثمين إذ يقول : «وقفت على هذا التأليف التالى فوائد العبر ، والآتى بأحاديث المواعظ الحسان بأصح خبر ، فللّه در مصنفه من إمام حافظ ، وبحر بجواهر العلوم لافظ ، ولاحق ، برّز على السابق ، وبَذْل فى علو مرتبة الأعلام الحفاظ موافق ، بلّغه الله غاية الأمنية ، وأجزل ثوابه على هذا المقرون بحسن النية» .

وطبيعى أن تكثر المواعظ باليمن ، واشتهر فيها وعاظ كثيرون من أهمهم الشيخ الصالح أحمد بن علوان المتوفى سنة ٦٦٥ وله فى الوعظ كتاب نحى فيه نحو ابن الجوزى ، وله فى التصوف فصول كثيرة وكلمات مأثورة بديعة[3] . وامتازت اليمن بأخرة من هذا العصر

---

(١) انظر صبح الأعشى ٧ / ٣٤٤ ، ٣٥٣ ، ٣٥٧ ، ٣٦٠ ، ٣٦٣ ، ٣٦٦ .

(٢) صبح الأعشى ٧ / ٣٣٤

(٣) العقود اللؤلؤية ١ / ١٦٠ – ١٦٢ .

بكتابات أدبية فكهة سنعقد لها حديثاً مستقلاً فى غير هذا الموضع .

وكل ما لقيناه فى اليمن من نشاط كتابى نلتقى به فى حضرموت . فهناك الرسائل السياسية والشخصية وهناك الإجازات ، من مثل إجازة الشيخ الحسن بن صالح البحر لتلميذه السيد عيدروس بن عمر ، وقد جاء فى صدرها : «الحمد لله جامع الظواهر والسرائر ، على ما يحبه ويرضاه الأول والآخر ، حتى ترتفع عنها الستائر ، وتتجلى لها من ظلمات الأغيار البصائر ، وتُقْبل بكليتها على من هو الباطن والظاهر ، لترتقى بعين عنايته ورعايته إلى تلك الحظائر ، ولم تزل تعتلى بعمارة ظواهرها وسرائرها بما تشاهده تلك النواظر ، وتتجلّى وراء ما هو آفل وغابر ، حتى تشاهد الجمال المطلق بقيمومية مَنْ هو فوق عباده قاهر ، حتى يأتيها النداء : إنَّ هذا جمال لا أول له ولا آخر[1] » . ويظل طويلا فى هذه النغمة الروحية الصوفية ، وكأنه يريد أن يصل تلميذه مع أخذه عنه لمصنفاته بنور الذات العلية المطلق الذى تعم الوجود أضواؤه .

وظلت عُمان تحتفظ بنشاط كتابى طوال العصر ، وقد عُنى نور الدين السالمى بعرضه فى كتابه «تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان» . وفى طليعة ما نجد عنده كتاب كتب به الإمام راشد ابن سعيد الإباضى الذى دانت له عُمان جميعها سنة ٤٤٢ للهجرة بعد قضائه على ملك بنى مكرم الشيعة الإماميين ولاة البويهيين هناك . والكتاب موجه إلى أحد ولاته وهو يستهله على هذا النمط : «إنى أوصيك بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ والانتهاء عما حرم الله عليك فى زواجره ، والعمل بما أمرك الله به من أوامره ، فيما ساءك أو سرك ، ونفعك أو ضرَّك ، وأن تأمر بالمعروف وتعمل به ، وتنهى عن المنكر وتكفّ [الناس] عن فعله ، وَلْتَحْذر من خدائع الشيطان ، ومن يؤازره على ذلك من الأعوان[2] » . وواضح أن الكتاب يحفل بالسجع . ومن الأئمة بعد هذا الإمام الإباضى راشد بن على المتوفى سنة ٥١٣ للهجرة ، ونرى قاضيه محمد بن عيسى السرى يكتب له شروطاً بها أسجاع[3] . ويخلفه محمد بن أبى غسان ويكتب إليه أهل إحدى الولايات العمانية كتاباً مسجوعاً من مثل قولهم : «الله تعالى يحرس علينا شريف بقائه ، ويزيد فى رفعته وارتقائه ، ويديم عليه ما اتسع من نعمائه ، وينعم علينا عاجلاً بكريم لقائه[4] » : ويتولى بعده موسى بن أبى المعالى بن نجاد سنة ٥٤٩ ونقرأ كتابا إلى بعض من تحدثهم أنفسهم بالخروج وهو كتاب

---

(١) تاريخ الشعراء الحضرميين ٣ / ١٥٤ .

(٢) تحفة الأعيان ١ / ٢٦٤ وما بعدها .

(٣) تحفة الأعيان ١ / ٢٧٥ .

(٤) تحفة الأعيان ١ / ٢٩٢ .

مسجوع[١] . وقلما يورد نور الدين السالمى فى كتابه «تحفة الأعيان» شيئاً من رسائل بنى مكرم الشيعة الإماميين الذين حكموا مدينة عمان من سنة ٣٩٠ إلى سنة ٤٤٢ وكذلك قلما يورد شيئاً من رسائل بنى نبهان السنيين الذين حكموها من القرن السادس الهجرى إلى القرن التاسع . حتى إذا رجع الحكم بعدهم إلى أئمة الإباضيين أخذ يورد رسائلهم ، وهى رسائل منمقة إذ يغلب عليها السجع والترصيع . ويشيع هذا الترصيع والسجع فى رسائل موجهة من بعض شيوخ الخوارج إلى أئمتهم فى شكل نصائح ووصايا أو موجهة إليهم من بعض أشياعهم أو من أهل نزوى ابتغاء إحقاق العدل ونشر الرأفة والعفو عند المقدرة .

وليس بين أيدينا نشاط كتابى كثير لأهل البحرين ، غير أننا نجد فى صبح الأعشى فى رسم المكاتبة إليهم فصلاً[٢] طريفاً مما يدل على تبادل الرسائل بينهم وبين حكام مصر وخاصة فى عهد المماليك . ودوّن ابن معصوم فى كتابه «سلافة العصر» بعض رسائل شخصية لأدبائها . وفى كتاب شعراء هجر من القرن الثانى عشر إلى القرن الرابع عشر بعض رسائل أخرى . وجميعها يشيع فيها السجع وقد يسود بعضها تصنع شديد .

٢

رسائل ديوانية

مرَّ بنا أن الرسائل الديوانية بين المدينتين المقدستين بالحجاز وبين مصر كانت متصلة فى العصرين الأيوبى والمملوكى بل لا شك فى أن تاريخها يرجع إلى ما قبل ذلك فى العصر الفاطمى ، غير أن ما بقى من هذه الرسائل فى المصادر التاريخية وغيرها قليل جداً من ذلك ما كتب به الظاهر بيبرس إلى أبى نُمَىّ أمير مكة سنة ٦٧٥ يزجره عن الظلم[٣] :

«من بيبرس سلطان مصر إلى الشريف الحسيب النسيب أبى نُمَىّ محمد بن أبى سعد : أما بعد فإن الحسنة فى نفسها حسنة ، وهى من بيت النبوة أحسن ، والسيئة فى نفسها سيئة ، وهى من بيت النبوة أوحش . وقد بلغنى عنك أيها السيد : أنك آويت المجرم ، واستحللت دم المحْرِم ، ومن يُهن الله فما له من مُكْرِم ، فإن لم تقف عند حدك ، وإلا أغمدنا فيك سيف جدك ، والسلام» . فكتب إليه أبو نُمَىّ :

«من محمد بن أبى سعد إلى بيبرس سلطان مصر : أما بعد فإن المملوك معترف بذنبه ،

---

(١) التحفة ١ / ٢٩٥ .

(٢) صبح الأعشى ٧ / ٣٧٠ .

(٣) العقد الثمين ١ / ٤٦٥ .

تائب إلى ربه ، فإن تأخذ فيدك الأقوى ، وإن تَعْفُ فهو أقرب للتقوى . والسلام » .

وكان سلاطين المماليك حين يتوقعون من أحد أمراء المدينتين المقدستين اعوجاجا فى حكمه أو جورا يأخذون عليه العهود والأيمان أن يسير مسيرة قويمة ملتزما فيها بما عاهدهم عليه من شأن رعية بلدته وشأن الحجيج ، مع ذكرهم فى الخطبة ، ومع ضرب السكة أو النقود بأسمائهم ، وفيما يلى عهد أبى نُمَىّ للسلطان قلاوون سنة ٦٨١ أن ينفذ السياسة المرسومة له وهو يمضى على هذا النمط [(١)] :

«أخلصت يقينى وأصفيت طويَّتى وساويت بين باطنى وظاهرى فى طاعة مولانا السلطان الملك المنصور (قلاوون) وولده السلطان الملك الصالح وطاعة أولادهما . . وإنى عدوٌّ لمن عاداهم ، صديق لمن صادقهم ، حرب لمن حاربهم ، سِلْمٌ لمن سالمهم . . وإننى ألتزم ما اشترطته لمولانا السلطان وولده فى أمر الكسوة الشريفة المنصورية الواصلة من مصر المحروسة وتعليقها على الكعبة المشرَّفة فى كل موسم وأن لا يتقدم عَلَمَه عَلَمٌ غيره ، وإننى أُسَبِّلُ زيارة البيت الحرام أيام مواسم الحج وغيرها للزائرين والطائفين والبادين والعاكفين اللائذين بحرمه والحاجِّين والواقفين ، وإننى أجتهد فى حراستهم من كل عاد بفعله وقوله ، وإننى أؤمنهم فى شربهم ، وأُعْذب لهم مناهل شربهم ، وأننى أستمر — والله — بتفرد الخطبة والسكة بالاسم الشريف المنصورى ، وأفعل فى الخدمة فعل المخلص الولى . وإننى — والله — أمتثل مراسيمه امتثال النائب للمستنيب ، وأكون لداعى أمره أول سميع مجيب» .

وواضح أن أبانمى لم يستخدم فى هذا العهد السجع كما استخدمه فى الخطاب الذى رد به على بيبرس ، وكأنه عنى هنا بالمضمون أكثر من عنايته بالأسلوب ، ولذلك لم يستخدم السجع ، أو لعل الخطاب السابق من صنع كاتب الإنشاء لعهده ، أما العهد فمن صنعه هو وإملائه ، ولذلك جاء خاليا من التنميق .

والرسائل الديوانية فى اليمن كثيرة منذ الدولة الصليحية ، ومن أبلغها بياناً رسالة الحسين ابن على بن القِمّ كاتب الإنشاء للدولة الصليحية على لسان الملك المكرم أحمد بن على الصُّلَيْحى سنة ٤٦٠ وهى موجهة إلى الخليفة المستنصر الفاطمى يخبره فيها باغتيال سعيد بن نجاح وأخيه جياش لعلى بن محمد الصليحى فى طريقه إلى الحج فى ذى القعدة لسنة ٤٥٩ وما كان من استردادهما لزبيد وكيف مضى الملك المكرم يستعد للأخذ بثأر أبيه ، مما مكنه أن ينقضّ على آل نجاح فى السنة التالية ، ويسحق جموعهم . ويفتك بسعيد ويهرب أخوه جياش إلى الهند ، وتدخل زبيد فى طاعته . ويصور ابن القِمّ فى الرسالة انتصارات الملك

(١) العقد الثمين ١ / ٤٦٢ .

المكرم على جيوش الزيدية والخارجين وكيف محقها محقاً . والرسالة تفتتح بالبسملة والحمد لله والصلاة على رسوله ، ويتوالى الثناء على الخلفاء الفاطميين وغَمْسه أو صَبْغه بالعقيدة الفاطمية الإسماعيلية ، ونحن نسوق منها أطرافاً تصور روعتها البيانية[١] :

« المملوك يناجي حضرة الإمامة ، ويناهي سُدَّة الخلافة ، جعل الله عزهما باقيا على الأيام ، ومجدهما غير منقطع الدوام ، عالماً أنه يَلْبَسُ بذلك شرف الدارين ، ويستولى به على الحُسْنَيَيْنِ ، شائماً (متطلعاً) من مولاه بَرْقاً مُضِيًّا ، ومستظلا من سحاب الإكرام وَدْقا (غيثاً) رَوِيًّا ، ومتبوِّئًا من رُتَب الاختصاص مكانا عَلِيًّا ، ومتعرضاً لمنزلة من أدناه وقَرَّبه نَجِيًّا . إنه قد كان قدَّم خدمة يطالع بها بأنباء جزيرته ، وينهى أخبار دعوته ، وما جرى عليه أمرها من الفتن ، ودارت فيه من دوائر المحن ، التى ملأت قلوب أعداء الدين سروراً ، وازداد بها الكافر طغياناً وكفوراً ، وأظهر كل منافق ما كان من الغدر كامنا مستورا ، وقال الذين فى قلوبهم مرض (ما وعدنا الله ورسوله إلا غُروراً) . . . وجَدَّ عزم المملوك (الملك المكرم) بعد خيرة الله تعالى وخيرة وليه صلوات الله عليه على المسير للعبيد (يريد آل نجاح الأحباش قتلة أبيه) إلى مدينة زَبيد . . فوردها فى التاسع والعشرين من صفر سنة ٤٦٠ وقد سبق النذير إلى العبد (يريد سعيد بن نجاح أمير زبيد) وألفاه المملوك صافاً على أحد أبواب المدينة ، وقد نفخ الشيطان ريح الطغيان فى أنفه ، وأراه الحياة فى حتفه ، قد عصب برأسه من الكبر تاجا ظن أن الله لا يستطيع له نَزْعا ، وتجلْبَبَ من الجبروت بثوب لا يروم له ما عاش خلعا . . (أو لم يعلم أن الله قد أهلك مِنْ قبله من القرون مَنْ هو أشدُّ منه قوةً وأكثر جَمعا) . فدَلَف إليه المملوك فى جماعة من المؤمنين قاموا لله أنصارا ، واتخذوا الصبر شعارا ، والله - عز وجلَّ جارُ المتمسكين بسبب الله الذى لا ينقطع من تمسك بسببه ، جائدين بأنفسهم فى ابتغاء رضاه وطلبه ، وخوف سخطه وغضبه . . فلما تراءى الجمعان وتدانى الفريقان ، ماجت الصفوف ، وسالت الزحوف ، ولمعت السيوف ، ووكفت (سالت) الحتوف ، وتزلزلت الأقدام ، وصال الحِمام ، واغبرَّ القَتام (الغبار) وتداعت الأبطال ، وتدانت الآجال ، واكتأبت الرجال ، وانقطعت الآمال . . وشخصت الأبصار ، والتحمت الشِّفار (السيوف) وطُلبت الأوتار ، وأعْوز الفرار . . وطفقت سيوف الحق تلتهمهم ، وأيدى المؤمنين تقتسمهم ، فتركوهم بين صَريع بدمه ، وهاوٍ ليديه وفمه ، وشاردٍ لم يُنْجِه سعى قدمه ، ونادم لم ينتفع بندمه . . . ومعفور نطيح ، ومطعون جريح ، قد عادوا فرصةً لكل واثب ، وأُكْلة لكل ناهب ، مصرّعين

(١) انظر الرسالة فى كتاب « الصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن » للدكتور حسين الهمذانى ص ٣٠٨ .

مصارع أمثالهم الكافرين ، ووواردين موارد أعمالهم خاسرين ، قد قطع الله أوصالهم ، وبتّ من حبله حبالهم » .

والرسالة طويلة وابن القِمّ يلتزم فيها السجع ، وواضح أنه يعني باصطفاء ألفاظه ، والملاءمة بينها حتى يحكم ما يريد من الجَرْس لكلامه وحسنه واستوائه بحيث لا نحس نبوًّا ولا نشازا فى عبارة من عباراته . ومما يصور عنايته بنغم كلامه أن الآيات القرآنية التى يقتبسها تلتقى فواصلها مع قوافيه التقاء طبيعيا ، وهو التقاء كان يقصد إليه قصداً حتى يلتحم جَرْس النغم فى الرسالة التحاما تاما .

وكأنّ ابن القم كان استهلالا قويا لأن تأخذ اليمن منذ عصره فى العناية برسائلها الديوانية عناية يعمّ فيها غير قليل من التنميق ورَصْف السجع وتدبيجه . ويلاحظ ذلك بوضوح فى الرسائل والعهود المكتوبة فى الدولة الرسولية ، على نحو ما يلاحظ فى العهد الذى فوَّض فيه السلطان المظفر (٦٤٧ – ٦٩٤) الحكم من بعده لابنه السلطان الأشرف عمر ، وهو يستهله بقوله بعد الحمد والثناء والصلاة على رسول الله ﷺ والدعاء[1] :

«أما بعد فقد ملّكْنا عليكم مَنْ لا نؤثر فيه – والله – داعى التقريب ، على باعث التجريب ، ولا عاجل التخصيص ، على آجل التمحيص ، ولا ملازمة الهوى والإيثار ، على مداومة البلوى والاختبار . وهو سليلنا الخطير ، وشهابنا المنير ، وذخيرتنا على المراد ، وبصيرنا الذى نرجو به صلاح البلاد والعباد ، ونؤمِّل فيه من الله الفوز والنجاة فى المعاد ، وقد رسمنا له من وجوب الذبِّ والحماية ، ومعالم الرفق والرعاية ، ما قد التزم بوفاء عهده . والمسئول فى إعانته مَنْ لا عون إلا من عنده . ولن نعرفكم من حميد خصاله ، وسديد فعاله إلا بما قد بدا للعيان ، وزكا مع الامتحان ، وفشا من قِبَلكم فى كل لسان »

وواضح ما فى العهد من ميل شديد إلى تصفية اللفظ وأن يكون سلسا سلاسة الماء النمير ، وواضح أيضاً ما فيه من موازنة دقيقة بين سجعاته ، فكلمة «داعى التقريب» توضع على وزنها كلمة «باعث التجريب» وكلمة «عاجل التخصيص» تليها موازنة لها كلمة «آجل التمحيص» وكلمة «ملازمة الهوى والإيثار» توازنها كلمة «مداومة البلوى والاختبار» وكل ذلك إرضاء لأذن السامع . ومثله محاولة الإتيان بالمترادفات فى نهاية السجعة مثل «الذب والحماية» و «الرفق والرعاية» و «حميد خصاله» و «سديد فعاله» مما يدل بوضوح على الرغبة فى اكتمال نغم الكلام .

وتلقانا فى عهد السلطان الأشرف وربما كان فى عهد أخيه المؤيد (٦٩٦ – ٧٢٠ هـ)

(١) العقود اللؤلؤية ١ / ٢٧٤ .

رسالة موجهة من الأمير الزيدى محمد بن المطهر إلى السلطان المملوكى . الناصر محمد بن قلاوون يستنصره فيها على السلطان الرسولى الذى طالت بينهما الحروب ، معددا قبائحه ، مؤملا أن يسعفه بجيش لإجلائه عن دياره ، وإجرائه مجرى الذين ظلموا فى تعجيل دَماره . وقال فى رسالته : إنه إذا حضرت الجيوش المؤيَّدة قام معها ، وقاد الأشراف والعرب أجمعها ، ثم إذا استنقذ منه ما بيده أُنعم عليه ببعضه ، وأُعطى منه ما هو إلى جانب أرضه ، ثم قال : «وكتبت إلى السلطان مؤذناً بالإجابة ، مؤدياً إليه ما يقتضى إعجابه . . ولا رغبة لنـــا فى السـلب ، وأن النصرة تكون لله خالصةً وله كل البلاد لا قدر ما طلب» . واقتطف القلقشندى قطعة من الرسالة مسجوعة [1] ، وكأن السجع أصبح منذ ابن القم صفة علمة فى الرسائل والعهود اليمنية . ونمضى إلى زمن السلطان الرسولى الأشرف إسماعيل (٧٧٨ – ٨٠٣هـ) فيرسل السلطان المملوكى برقوق إليه برسالة معها هدية ، يحملها القاضى برهان الدين إبراهيم بن عمر المحلى لتسهيل متجره وما يحمله من عدن من عُروض التجارة ، ويبادله الأشرف إسماعيل هدية بهدية ، وكتاباً بكتاب أو رسالة برسالة . ويطلب فى رسالته أن يرعى السلطان برقوق من يفد على مصر من رعيته اليمنية تاجرا وغير تاجر ، وأن يأذن له فى حج البيت الحرام ، لقضاء الفرض والتبرك بالمشاعر العظام . ويشكو من ارتفاع النفقات فى مكة على حاج اليمن لعله يتوسط لدى أميرها كى يخفضها ، لأنه تابعه ، وإن كان لم يصرح بذلك . ونحن نسوق قطعة من هذه الرسالة يتحدث فيها الأشرف إسماعيل عن هديته إلى السلطان برقوق وأنها دون مقامه ومكانته ، يقول[2] :

«لـو أهدينا إلى جلال المقام الشريف الظاهرى ، أعزَّ الله أنصاره ، بمقدار همته الشريفة العالية ، ورتبته المُنيفة السامية ، لاستُصغرت الأفلاكُ الدائرة ، والشهب السائرة ، واستُقِلَّت السبعةُ الأقاليم تحفة ، والأرض وما أقلته طُرْفة ، ولم نَرْض أن نبعث إليـه الأنـام مماليـك وخـولا (عبيـدا) ، ونجبى إليـه ثمرات كـل شىء قُبُلاً ، ولو رام محبُّ المقام (يقصد نفسه) هذه القضية لقَصُرَ عنها حَوْلُه ، ولم يصل إليها طَوْلُه (قدرته) ولكنه يرجع إلى المشهور ، بين الجمهور ، فيجد العمل يقوم مقامه الاعتقاد ، وليس على المستمر على الطاعة سوى الاجتهاد ، والمخلصُ فى الولاء محمول على قدرته لا على ما أراد» .

وللرسالة كلها من هذا الأسلوب الذى يمتاز بانتخاب ألفاظه والسجع فى عباراته ، حتى يروق الأسماع ، بل حتى يبهرها ، بحسن تنسيقه وجمال رَصفه ونسجه . وكان كتَّاب الإنشاء فى كل دولة عربية يتبارون فى تلك الحقب بما يصوغون من هذا الأسلوب

(١) صبح الأعشى ٧ / ٣٣٧ .
(٢) صبح الأعشى ٨ / ٧٣ .

الموسيقى ، حتى تلذ ألفاظه الألسنة ، وحتى تقع موقعاً حسناً من القارئين لها والسامعين .

ومربنا فى عُمان أن الأئمة الإباضيين كانوا يوجهون بكتب إلى عمالهم ، يأمرونهم فيها بالنهى عن المنكر والأمر بالمعروف وأن يسيروا فى الرعية سيرة عادلة ، وكانت الرعية كثيراً ما ترسل إليهم برسائل تطلب فيها العدل والحكم الصالح . ومضوا على ذلك طويلاً حتى إذا كنا فى القرن الحادى عشر الهجرى وجدنا الإمام الإباضى ناصر بن مرشد (١٠٢٤ - ١٠٥٠ هـ) يكتب إلى عماله عهودا كثيرة يشيع فيها السجع من مثل قوله لأحد عماله فى « الباطنة »[1] :

« إنى قد وليتك على قرية لوىّ من الباطنة . . على أن تأمر أهلها بالعدل والمعروف ، وتنهاهم عن المنكر المخوف ، وأن تعمل فيهم بكتاب الله المستبين ، وتُحْيى فيهم سنة النبى الأمين ، وآثار الأئمة المهتدين ، وسيرة القادة المخلصين ، الذين جعلهم الله منار الهدى ، وقادة الناس إلى التقوى ، وأورثهم الكتاب والسنة ، يدعون إلى طريق الجنة . . ولا تَخَفْ فى الله لومة لائم ، ولا عَذْل مجرم آثم ، وأن تخلط الشدة باللين ، وأن تخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين . . فالله ! الله يا أبا الحسن فى اكتساب الحسنات ، وإنكار المنكرات ، بغير تجاوز منك إلى غير واجب أوجبه الله فى الجدِّ والتشمير ، وترك التهاون والتقصير » .

ولا يطَّرد السجع دائماً فى عهود ناصر بن مرشد ، وحتى فى العهد الواحد يستعمله حيناً وحينا لا يستعمله . ويغلب فى سجعه وسجع غيره من الأئمة الإباضية أن لا يكون متكلفاً ، وكذلك ألفاظهم لا يبدو فيها شىء من الرَّيْث فى اختيارها إلا قليلاً ، وكأنهم يقبلون ما يفد عليهم عفو الخاطر . وولى سلطان بن سيف (١٠٥٠ - ١٠٩١ هـ) ويفتتح ولايته بعهد منه إلى جميع عماله يستهله بهذه الصورة[2] :

« الحمد لله العزيز عزَّ أن تعوم فى بحور صفاته جوارى (سفن) الفِكَر ، وأن تروم تنظر كواكب تكيُّفه بصائرُ أولى البصر ، أو أن تشاهده بمخارق العِيان والنظر ، العالم بدبيب النملة والذر . . الذى (لا يَعْزُبُ عنه مثقالُ ذرةٍ فى السموات ولا فى الأرض) ولا (فى ظلمات البر والبحر) الجليل قدره عن مشاكلة صفات البشر ، أو أن يدرك الأشياء بالسماع والخبر ، أو أن تجرى عليه أحداث القضاء والقدر . أحمده على ماصبَّ برياض قلوبنا من سلسال العبر ، وحَسم عنا من أوصاب الكدر . وأشكره على ما خوَّلنا من يانع نعمه وقدَّر ، وسقانا من عصير كَرْم كرمه وعزَّ وتكبَّر . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له شهادة أعدها جُنَّةً ليوم المحشر ، يوم لا ملجأ لنا من الله ولا وَزر . . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله

(١) تحفة الأعيان ٢ / ٢٦ .

(٢) التحفة ٢ / ٤٧ .

دعا إلى الله وأنذر ، وقاد الناس إلى الخيرات وبشَّر ، ونصب أنموذج الهداية لمن خاف الله من ذات نفسه وفكَّر» .

وأكبر الظن أن كاتب هـــذا العهد ليس سلطان بن سيف نفسه ، بل هو كاتب أديب من الإباضية كان يكتب بين يديه ، بل لقد كان أديباً عالماً ، فهو يصدر فى أول العهد عن عقيدة الإباضية التى تحدثنا عنها فى الفصل الأول وأنهم كانوا يؤمنون بما آمن به المعتزلة من نفى التجسيم عن الله بكل صورة من صوره وتنزيهه تنزيها مطلقاً عن الشبه بالمخلوقات وأن يلحق ذاته العلية كَيْفٌ أو جهة أو أى صفة من صفات البشر. والكاتب أديب بارع ، فقد التزم فى نحو صحيفة كبيرة صدَّر بها الرسالة قافية الراء ، وطاوعته دون أى عسر أو التواء ، مما يدل على تملكه لناصية الكلام . وهو يعنى بالتنميق فى عباراته ، إذ يضيف إليها وشى الجناس والتصاوير والاقتباس من الذكر الحكيم ، على نحو ما يتضح فى اقتباسه لقوله جَلَّ شأنه : (لا يَعْزُبُ عنه مثقالُ ذَرَّةٍ فى السموات ولا فى الأرض) وقوله (فى ظلمات البر والبحر) . وتكثر الاقتباسات والجناسات فى العهد بعد تلك المقدمة . وقد ذكرنا فى الفصل الأول أن سلطان بن سيف أهم سلاطين اليعربيين الإباضيين قَبض على صولجان الحكم فى دياره ومدينتا صُحار ومَسْقط فى أيدى البرتغاليين ، فطردهم كما مر بنا منهما ومن سواحل بلاده شر طردة مستعيناً فى ذلك بأسطول ضخم حطم به أسطول البرتغال وسيطر به على الهند وشواطئها الغربية ، كما سيطر به على شواطئ إفريقيا الشرقية وتعقب أسطولهم فى كل موقع ، ويبدو أن سفنا منه حاولت الإلمام باليمن ، فدمرها تدميراً . ونعجب أن يغضب من صنيعه أمير اليمن الزيدى إسماعيل بن القاسم (١٠٥٤ - ١٠٧٩ هـ) ويعجب سلطان بن سيف أشد العجب ، ويتبادلان رسالتين ، فى أولاهما يقول سيف بن سلطان لصاحبه [١] :

«إنكم علينا عاتبون ، ومنا واجدون ، لأجل قطع جنودنا فى العام الماضى رقاب المشركين على بابكم ، وأخذهم لسفنهم الواردة لجنابكم . ولعمرى إنا لندرى أن العتاب بين الأخلاء عنوان المودة الخالصة والصفاء ، وزائدٌ مَحْضَ المودة الصادقة والوفاء ، غير أنه يجب عند اقتراف الجرائم ، وانتهاك المحارم . ونحن لم نقصد إلى انتهاك دارك سبيلاً ، ولا نجد لك على إلزامنا فعل ذلك دليلاً ، إذ كنا لم نجهز مراكبنا ، ونتخذ مخالبنا ، لمشارَّة (لمخاصمة) رعيتك ، ولا لاستباحة دم أهل حُكْمك وأقضيتك (أقاليمك) ولكن جهزنا الجيوش والعساكر ، وأعددنا اللهاذم والبواتر ، لتدمير عبدة الأوثان ، وأعداء الملك الديَّان

(١) التحفة ٢ / ٥٦ .

تعرُّضاً منا لرضا رب العالمين ، وإحياء لسنة نبيه الأمين ، ورغبة فى إدراك أجر الصابرين المجاهدين . وحاشا لمثلك أن يغضب لقتال عَبدة الأصنام ، وأعداء الله والإسلام ، ألستَ من سلالة على بن أبى طالب ، الساقى المشركين وَبِىء المشارب ، وأنت تدرى ما جرى بيينا وإياَهم من قبلُ فى سواحل عُمان ، وفى سائر الأماكن والبلدان من سفك الدماء وكثرة الصِّيال ، وتناهب الأملاك والأموال ، وإنا لنأخذهم فى كل موضع تحلّ به مراكبهم وتغشاه ، حتى من كنج وجيرون بَنْدَرى الشاه (ملك فارس) ولم يُظْهر لنا من أجل ذلك عتاباً ولا نكيراً ، وإن كنت فى شك من ذلك فاسْئَلْ به خبيراً »

ويذكر سيف بن سلطان لإسماعيل بن القاسم أنه ترك فى تعقب البرتغاليين مدافع فى ظَفار التابعة له وأنه حرىّ أن يردها عليه . وتمتلئ قلوبنا أسى حين نقرأ رسالة إسماعيل بن القاسم التى ردَّ بها على سيف بن سلطان إذ بدلا من أن يطلب منه الصفح عن كبوته وعثْرته المُرْدِية ، ويرجع إليه مدافعه وأسلحته ، يُبْرق له ويُرْعد ، ويتهدد ويتوعد ، إذ تمضى رسالته على هذه الشاكلة [1] .

«وصل كتابك الذى شحنته بالإبراق والإرعاد وعدلت به من تحسين العتاب ، إلى تخشين الخطاب ، ظنا منك أن هذيان وعيدك ، وطنين ذباب تهديدك ، يزعزع من بأسنا صخرةً صمَّاء ، أو يحرِّك من وقارنا جبالاً شمَّاء ، وكيف يكون ذلك :

وأسيافُنا فى كل شرقٍ ومغربٍ بها من قِراعِ الدارعين فلولُ

أين ذهب حِجاك حتى طلبت منا المدافع بهذه الأراجيف والفقاقع ، وإنما تقطع أعناقَ الرجال المطامع . أما علمت أن الليث إذا هِيج على فريسة كان أشد إقداماً ، وأعظم جرأة واعتزاماً ، لا جرم أنها لما نأت بنا وبك الديار ، وحالت دوننا ودونك الأمصار ، استرسلت فى لفظك ، وجاوزت فى سوء المقدار حَدَّك ، وانفردت بأرضك ، فطلبت الطعن والنزال وحدك :

يا سالكا بين الصوارمِ والقَنا إنى أشُمُّ عليك رائحةَ الدَّمِ

فاقطع عُرى آمالك عن هذه المدافع ، فهى أول غنيمة — إن شاء الله — من قطرك الشاسع »

والكتاب حقاً محزن ، إذ كان المنتظر أن يضع إسماعيل بن القاسم يده فى يد سلطان بن سيف حين جاءه كتابه ، ويعود إليه صوابه ، ويعلن نصرته له ضد البرتغاليين الآثمين . وعلى العكس من ذلك مضى فى غَيِّه يتوعد سلطان بن سيف بمعركة كمعركة النهروان التى

(١) التحفة ٢ / ٥٨ .

تعقب فيها على بن أبي طالب الخوارج ومزّق جموعهم ، وكان حريا أن يحيّى فيه جهاده للبرتغاليين ويشدّ أزْرَه ، لا برد المدافع والأسلحة التي تركها في ظفار فحسب بل أيضا بإمداده بالأموال ، إن لم يستطع أن يمده بالفرسان والرجال ! . والرسالتان تتخذان السجع قرارا لها ، فهو اللغة العامة للرسائل الديوانية مهما شرقنا أو غربنا في الجزيرة العربية .

٣

رسائل شخصية

طبيعي أن نجد رسائل شخصية متنوعة لأدباء مكة والمدينة ، إذ كان يلم بهما كثير من العلماء والأدباء ، وكانوا يتكاتبون و يتراسلون مع علماء البلدتين وأدبائهما ، وقد أثبتت كتب التراجم طائفة من رسائل القوم ، من ذلك رسالة كتب بها مفتى مكة الحنفى وأحد أعلامها العلماء في نهاية القرن العاشر ومطلع القرن الحادى عشر للهجرة الشيخ وجيه الدين عبد الرحمن بن عيسى العمرى إلى أبي المواهب البكرى مفتى الديار المصرية ، وذلك في سنة ١٠٢٢ وفيها تحدث عن مواقف مشرفة له حين حج في السنة المذكورة ، وهو يستهل رسالته على هذا النمط (١) :

«إنَّ أشرفَ ما تتوَّج به المفارق والرءوس ، وأبهَرَ ما تبتهج به المهارق والطُّروس ، وأبهى ما يُنْظَمُ في سلك السطور ، من الدُّرَرِ الباهرة لدرر النحور ، وأنهى ما يُرْقَمُ (يكتب) في صكوك الصدور ، من الغُرر المضاهية للآلئ البحور ، تحيات نُظمت بأنامل الإخلاص عقودُها ، وتسليمات رُقمت بطراز الاختصاص بُرودها ، تشفعها الأدعية التي على ألسن المقربين تُتلى . . صادرة من قلب منيب أوّاه ، ناظرة أن ليس في الوجود إلا الله ، فها ملائكةُ الإجابة ، تحفُّها بالقبول والإنابة ، بأن يديم الله للعلم وأهله ، ويُبْقى للفرع وأصله ، ببقاء مولانا الأستاذ الأعظم ، والملاذ الأعصم ، والجهبذ النقاد ، والكوكب الوقاد ، والبحر الزخار ، والليث الزءَّار ، عالم الإسلام على الحقيقة ، الجامع للشريعة والطريقة ، كشاف مشكلات العلوم ، حلال معضلات الفهوم :

عَلاَّمةُ العلماء واللُّجُّ الذى لا ينتهى ولكلِّ لُجٍّ ساحلُ

الإمام العلامة ، الهمام الفهامة ، شيخ الإسلام ، ملجأ الأنام ، مفتى المسلمين ، صدر المدرسين ، الحَبْرُ النّحْرير ، إمام الفقه والتفسير . مفتى السلطنة الشريفة (يريد السلطنة

(١) سلافة العصر ص ٧٣ .

العثمانية) بالقاهرة الزاهرة المنيفة » . وإذا تساءلنا ماذا قرأنا فى الرسالة حتى الآن لاحظنا توًّا أننا لم نقرأ إلا سلاما وتحية ودعاء وثناء . وهذه المعانى البسيطة تتحول إلى ما يشبه خيطا تنشر عليه عبارات منمقة تستمد من مبالغات مفرطة ، صيغت فى أسجاع تحفّ بها استعارات تلمع ، ولكنها سرعان ما تتلاشى دون أن تترك وراءها مضموناً واضحاً ، على شاكلة ما نقرأ للشيخ حنيف الدين المكى من رسالة كتب بها إلى صديق له فى الطائف ردا على رسالة كان بعث بها إليه ، وهو يمضى فيها على هذا النحو[1] :

« ما روضة غنَّاء تدفقت أنهارها ، وما حديقة حسناء تصادحتْ أطيارها ، وما دَوْحةٌ أمال أغصانها النسيم ، وما سَرْحةٌ (شجرة) غرَّدتْ بأفنانها الطير فأسجعت بصوتها الرخيم ، وما هيفاء قد برزت متلثِّمة بالجمال ، وطلعت بأفق الحسن كالهلال ، وما الخزامى والمندل (العود) الرطب ، وما العنبر والعبير إذا فاح وشبّ (سطع). وما الدر المكنون فى الصَّدف ، وما ساعات السرور المعدومة من الصُّدف ، بأجل من كتاب ورد فبرَّد بوروده غليل مشتاق ، وأخجل بورده وعُوده روائحَ النرجس الغَضِّ وما يُنْثر فى الأطباق ، قد نظمتْ قلائدَ عِقْيانه أناملُ مولى تسنَّم ذروة المجد ، وأبرزته أفكار مخدوم حاز من الفضائل ما فاق به السعد ، تختال فى رياضه النضرة فرسان البلاغة فلا تلحق جواده ، وترشف حياضه العذبة أرباب الفصاحة والبراعة مقتفية آثاره كى لا تضل جادَّة الإصابة والإجادة ، قد هبَّ من خلال سطوره نسيمه الرطب فأشفى العليل ، وجرى من بحر منثوره شهده العذب ، فبرَّد اللوعة وأطفأ الغليل »

وهذه القطعة من الرسالة تحمل مبالغات مكررة واضحة ، وكأن ليس الغرض أن تؤدى الرسالة طائفة من المعانى ، إنما هى تؤدى طائفة من الألفاظ والأساليب المنمقة المسجوعة المليئة بالتكرار وبيان القدرة على جلب العبارات المحشوة بضروب الاستعارات والمجازات وألوان الجناس . وحاول الشيخ أن يظهر تفننه فى صنع العبارة المسجوعة ، فأطالها فى آخر هذه القطعة ، ولكن بعد أن جعلها تتوازن داخليا ، فكلمة « فرسان البلاغة » فى عبارة يقابلها « أرباب الفصاحة والبراعة » فى العبارة التالية ، وكذلك كلمة « نسيمه الرطب » فى عبارة يتلوها فى العبارة التالية « شهده العذب » وليس وراء ذلك كله إلا التكلف الشديد .

وإذا تركنا الحجاز إلى اليمن استقبلتنا فيه رسالة استعطاف بديعة للحسين بن على بن القِمّ وجَّه بها إلى السلطان سبأ بن أحمد الصُّلَيحى (٤٨٦ - ٤٩١هـ) يستعطفه ،

(١) سلافة العصر ص ٩٩ .

ولا ندرى بالضبط ما سبب هذا الاستعطاف وخاصة أنه كان – كما مر بنا فى ترجمته بين الشعراء – القائم على ديوان الإنشاء للدولة وكاتب رسائلها . وتذكر المصادر أن أباه وضع يده فى يد جياش بن نجاح حين استولى على زبيد من الدولة الصليحية . وربما حدثت نبوة بينه وبين سبأ فألم بزبيد فأغضبه ذلك منه ، والرسالة تمضى على هذا النمط [١] :

«كتب عَبْدُ حضرةِ السلطان الأجلّ مولاى ربيعِ المُجْدِين ، وقَريع المتأدبين ، جَلْوة الملتبس ، وجذوة المقتبس ، شهاب المجد الثاقب ، ونقيب ذوى الرشد والمناقب ، أطال الله بقاءه ، وأدام علوَّه وارتقاءه ، ماقُدِّمت العارية للمستعير ، ولزمت الياء للتصغير ، وجعل رتبته فى الأوَّلية عالية المقام كحرف الاستفهام ، وكالمبتدأ إن تأخر فى البِنْية ، فإنه مقدم فى النِّية . ولا زالت حضرته من الحادثات حِمَى ، وللوفود مُزْدَحماً وملتزَما ، حتى يكون فى العُلا ، بمنزلة حرف الاستعلا . ولا زال عدوُّه كالألف ، حالها يختلف ، تسقط فى صلة الكلام ، ولا سيما مع اللام ، فإنه – أدام الله علوه – أحسن إلىّ ابتداء ، ونشر علىّ من فضله رداء ، أراد أن يخفى ، وكيف يخفى ؟ لأن من شرف الإحسان ، سقوط ذكره عن اللسان – كالمفعول رُفع رَفْع الفاعل الكامل لما حُذف من الكلام ذكرُ الفاعل – وأنا أُهْدِى إليه سلامَا ما الروض ضاحكه النَّوْض [٢] ، غُرِس ، وحُرِس ، وسُقِى ، ووُقى ، وغِيب ، وصِيب [٣] ، فأخذ من كل نَوْءٍ [٤] بنصيب ، زهاه الزَّهر ، وسقاه النَّهر ، جاور الأَضا [٥] فحَسُن وأضا ، رتَع فيه الشُّحْرور [٦] ، ومَرِح العصفور ، فنظر إلى أقاحيه ، تفترُّ فى نواحيه ، وإلى البَهار ، يضاحك شمس النهار ، فجعل يَلْثِمُ من ورده خدوداً ، ويضم من أغصانه قدوداً ، ويقتبس النارَ من الجُلّنار [٧] ، ويلتمس العقيق من الشقيق [٨] فتثنَّى ثَمِلاً ، وغنَّى خفيفاً ورَملاً ، بأطيب من نفحته المسكية ، وأعطر من رائحته الذكية ، وإنى وإن أهديته فى كل أوان ، من أداء ما يجب غيرَ وان ، أعُدُّ نفسى السُّكَّيت [٩] فى السبق ، لتقصيرى لما وجب علىّ من الحق» .

وكل من يقرأ رسائل أبى العلاء المعرى يحس بوضوح صلة هذه الرسالة بها ، ومرَّ بنا فى حديثنا عن شعره أنه كان يستوحيه فى بعض أبياته ، ومعروف أن أبا العلاء كان يتصنع فى

---

(١) معجم الأدباء ١٠ / ١٣٢ .
(٢) النوض : مجرى الماء ، ويريد الماء نفسه .
(٣) غيب : غاب بذره فى الأرض . وصيب : أمطر .
(٤) النوء : المطر .
(٥) الأضا : الغدير .
(٦) الشحرور : طائر كالعصفور رخيم الصوت .
(٧) الجلنار : زهر الرمان .
(٨) الشقيق : ورد كبير أحمر .
(٩) السكيت : آخر خيل الحلبة .

رسائله تصنعاً واسعا لجلب مصطلحات العلوم اللغوية ، وهو أول من نهج بقوة هذه السبيل ومهّدها لمن جاءوا بعده[١] ، وتأثره فيها شرقاً وغرباً الكتّاب ، وها هو ابن القم اليمنى الذي يوشك أن يكون معاصراً له يتأثره في هذا الأسلوب الجديد ، فإذا هو يدعو لسبإ بن أحمد بدوام علوه وارتقائه دوام لزوم الياء عند الصرفيين للتصغير ، ويدعو له بدوام تقدم رتبته على الأمراء والسلاطين من حوله كدوام تقدم حرف الاستفهام على جملته أو عبارته ، وكدوام تقدم المبتدأ على الخبر ، وحتى إن هو تأخر عنه كان متقدماً عليه فى النية . وإنه ليتمنى له أن يظل دائماً متسنماً ذروة العلا ، مثله مثل حروف الاستعلاء عند أصحاب التجويد والقراءات وهى سبعة : ق ، ظ ، خ ، ص ، ض ، غ ، ط ، وهى دائماً تفخم فى النطق ، فلا يدخل عليها ترقيق . ويجعل عدوه كالألف ، حاله دائماً مختلفة ، إذ هى تأتى للوصل وللقطع ، ولا ينطق بها فى مثل الشمس والنور والصلاة .

ولا ريب فى أن ذلك تعقيد وتصنع شديد ، إذ لا يستطيع أن يفهم عبارات الرسالة إلا من عرف علوم الصرف والنحو والتجويد والقراءات . وظاهرة ثانية فى الرسالة اندفع فيها ابن القِمّ وراء أبى العلاء وإن لم يبعد إبعاده ، وهى ظاهرة التصنع للفظ الغريب ، فقد وشّاها به ، وكأنما أصبح غاية من غايات الكتاب البارعين أن يجلبوا الألفاظ الغريبة إلى رسائلهم ، حتى يثبتوا مهارتهم ، وهى مهارة لغوية خالصة . ونحمد لابن القِمّ أنه لم يسرف فى هذه المهارة . والرسالة تصور براعة حقيقية فى استخدام السجع ، فقد كان يستطيع أن يأتى به قصيراً ، بل مفرطاً فى القصر ، حتى لتكون السجعة أحياناً كلمة واحدة . والجناس كثير فى العبارات ، من مثل قوله : «جَلْوة الملتبس» و«جَذْوة المقتبس» و «البهار» و «النهار» إلى غير ذلك من جناسات ناقصة تكتظ بها الرسالة ، وهو يمضى فيها مستعطفاً محاولا بكل ما فى وسعه أن يستل الضغينة من صدر سبأ بمثل قوله :

«وأما حال عبده ، بعد فراقه فى الجلَد ، فحال أم تسعة من الولد ، ذكور ، كأنهم عِقبان وصقور ، كَنَوْا[٢] فى وُكور ، اختُرِم[٣] منهم ثمانية ، وهى على التاسع حانية . نادى النذير ، العُريان فى البادية ، للعادية ، بالْعادية[٤] ، فلما سمعت الدَّاعىَ ، ورأت الخيل وهى سراع ، جعلت تنادى ولدها : الأناة ! الأناة ! وهو ينادى العُداة ! العداة :

---

(١) انظر كتابنا الفن ومذاهبه فى النثر العربى (نشر دار المعارف – الطبعة الثامنة) ص ٢٧٣ وما بعدها .

(٢) كنوا : استتروا وأقاموا .

(٣) اخترم : مات .

(٤) العادية الأولى : الداهية ، والثانية : الخيل .

بَطَلٌ كأن ثيابه في سَرْحَةٍ   يُحْذَى نِعالَ السِّبْتِ ليس بتوءَمِ [١]

فحين رأته يختال في غضون الزَّرد المصون [٢] أنشأت تقول :

نَشَدْتُ أَضْبَطاً يَميـ   ـلُ بين طَرْفاءٍ وغِيلْ [٣]

لباسُه من نسْج دا   ودَ كَضَحْضاحٍ يَسِيل [٤]

فعرض له في البادية أسدٌ هَصُور ، كأن ذَرْعه مَسَدٌ [٥] مضفور :

فَتطاعَنا وتواقفتْ خيلاهما   وكلاهما بطلُ اللقاء مقنَّعُ

فلما سمعتْ صياحَ الرَّعيل [٦] ، بَرَزَتْ من الخِدْر بِصَبْرٍ قد عِيل [٧] . فسألت عن الواحد ، فقيل لها : لحَده اللاحد :

فكرَّت تبتغيه فصادفتْهُ   على دمهِ ومصرعه السِّباعا

عَبِثْنَ به فلم يتركن إلّا   أديماً قَدْ تمزَّق أو كُراعا [٨]

وما هذه الأم الثكلى بأشدَّ من عبدك تأسفاً ، ولا أعظم كمداً وتلهفاً ، وإنه ليعنِّف نفسه دائماً ، ويقول لها لائماً : لو فَطِنْتِ لَقَطَنْتِ [٩] ولو عقَلْتِ لما انتقلتِ ، ولو قَنِعْتِ لرجعتِ ، وما هَجَعْتِ :

يُقيم الرجالُ الموسِرون بأرضهم   وترمي النَّوى بالمُقْتِرينَ المراميا [١٠]

وما تركوا أوطانهم عن ملالةٍ   ولكنْ حذاراً من شَماتِ الأعاديا

أيها السيد ! أمن العدل والإنصاف ، ومحاسن الشِّيَم والأوصاف ، إكرامٌ لمهان ، وإذلال جواد الرِّهان ، يَشْبع في ساجُورَة [١١] كلبُ الزِّبْلِ ، ويَسْغَبُ في خِيسه أبو الشِّبْل [١٢] :

إذا حَلَّ ذُو نَقْصٍ مكانةَ فاضلٍ   وأَصبح ربُّ الجاه غيرَ وجيهِ

فإن حياةَ الحرِّ غيرُ شَهِيَّةٍ   إليه وطعمُ الموت غيرُ كريه

---

(١) البيت لعنترة والسرحة : شجرة طويلة . يصف خصمه بالبطولة والطول كأنه سرحة أو شجرة سامقة ويصفه بالترف إذ ينتعل بنعال السبت الجيدة ، كما يصفه بالقوة إذ ليس توأما شركه غيره في بطن أمه .

(٢) غضون : ثنايا . ويريد بالزرد المصون الدرع .

(٣) الأضبط : العامل أو المقاتل بيمينه ويساره . والطرفاء : شجر . الغيل : الغابة .

(٤) تصف درعه وأنه متين من نسج داود ، ويشبهون كثيراً الدروع وثناياها بغدران المياه حين هبوب الرياح عليها .

(٥) هصور : شديد . ذرع : طول . مسد : حبل .

(٦) الرعيل : القطعة من الخيل .

(٧) عيل : نفد .

(٨) الكراع : الساق .

(٩) قطنت : أقمت .

(١٠) المقترون : أصحاب العيش الضيق .

(١١) الساجور : خشبة صغيرة تعلق في عنق الكلب .

(١٢) يسغب : يجوع . الخيس : غيل الأسد .

أقول لنفسي الدنيَّةِ هُبِّي طال نَوْمُكِ ، واستيقظي لاعزَّ قومك ، أرضيتِ بالعطاء المنزور [١] وقنعتِ بالمواعيد الزور ، يقظةً فإن الجِدَّ قد هَجع ، ونُجْعَة فمن أجْدَب انتجع » .

ويتشبه ابن القم فى هذه القطعة بأبى العلاء من ناحية وببديع الزمان الهمدانى من ناحية أخرى ، أما تشبهه بأبى العلاء أو محاكاته له فتتضح فى الألفاظ الغريبة التى يحشدها فى نثره ، وحتى الشعر يرى أن يختار أبياته من ذوات اللفظ الغريب ، على الأقل إلى حد ما . وكان بديع الزمان يزين رسائله بالأشعار ، وقد حاكاه فى ذلك وفى تضمين رسائله بعض الحكايات القصصية ، حين شبَّه نفسه وتحسره على ما فقده من قرب سبأ وقيامه على ديوانه بأم لتسعة فقدت ثمانية منهم ، وبقى لها ولد واحد ، هو كل أملها فى الحياة ، فإذا غارة على الحى ، وركب ولدها فيمن ركبوا للدفاع والذود عن الحريم . وهى تصيح به من ورائه خائفة جزعة تريد أن ترده ، ويتراءى لها فى بطولته وبأسه وسلاحه ، وعبثا تحاول ردَّه . ويلقاه من الأعداء فارس ، بل أسد هصور ، وتدور عليه الدوائر ، وتسمع صياح الخيل حين عودتها ، فتبرز من بيتها تسأل عن فلذة كبدها ، وتعرف أنه سُفك دمه ، فتخرج إلى العراء باحثة عنه ، وتجده أشلاء ممزقة . فياللهول ويا للكارثة المقضَّة للمضاجع . ويقول إنه ليس أشد أسفاً منها ولا كمدا وتلهفا على فقده لعمله عند سبأ ولعطفه ورعايته . ويلوم نفسه أن ترك العمل بديوانه بل إنه ليعاتب سبأ عتاباً رقيقاً ، كله لطف ، ملوِّحا له بحقه عليه ، وأنه قرَّب إليه واصطفى من هم دونه فى المنزلة الأدبية ، وكأنه يَعْرِض عليه الصفح عنه والعفو ، آملا فى العودة ، إلى سابق مكانته ، وإنه ليصرح بأنه أجدب ، وخليق به أن ينتجع ، وأن يجد الوادى ممرعاً كعهده .

وإذا كنا قد وجدنا فى اليمن كاتبا مبكرا يحاكى أبا العلاء وبديع الزمان فى بعض رسائلهما فإننا نجد فى حضرموت كاتباً يحاكى الحريرى لا فى مقاماته ، ولكن فى بعض رسائله ، وكان الحريرى قد اشتهر برسالة سينية جميع كلماتها من ذوات السين كتبها على لسان بعض أصدقائه يعاتب فيها صديقاً أخلَّ به فى دعوة دعا غيره إليها . وعلى غرار هذه الرسالة كتب السيد عمر السقاف الحضرمى رسالة سينية طويلة نقتطف من مطلعها قوله [٢] :

« باسم السلام [٣] أستبدى ، وبإسعافه أستهدى ، وبأسمائه أستنجد ، ولنفثات سره

(١) المنزور : القليل .

(٢) تاريخ الشعراء الحضرميين ٣ / ١٤ .

(٣) السلام : من أسماء الله .

أستنشد ، وبإسبال ستره أستظل ، وبإسدال أستاره أستقلّ . . . تقدس سبحانه ، وسما إحسانه ، واستطال سلطانه ، وأستعينه وأستنصره ، وأستقيله وأستغفره ، وأستعيذه من دسائس إبليس ، وسائر التلابيس ، وسطوة النفوس ، وسؤال المنحوس . . وأسأله التيسير ، وسكون الفردوس لا السعير ، وأسلم سلاما مستمراً ، يتلمّس سيد السادات سنيّ السيرة ، حسن السريرة ، المخرس بلَسَنه المُلْسِنين ، السالك سبيل أسلافه السائدين » .

وتمضى الرسالة فى ألفاظ مبعدة فى الغرابة ، كى يدل الكاتب على مهارته ، وهى ليست مهارة أدبية ، ولكنها مهارة لغوية ، وكانوا يعدّونها زخرفاً وتنميقاً ، ونحس كأن الكلمات يُرَصّ بعضها بجوار بعض فى الرسالة ، فهى صفوف سينية ، أو هى صناديق سينية ، نقرأ فيها سينيات ، ولكن لا نقرأ فكراً ولا شعورا ، وقد كثر فيها الجناس كثرة مفرطة . وكل ذلك محاكاة للحريرى ومحاولة للدنو من طريقته فى رسالته السينية وبيان القدرة على جمع الكلمات ذوات السين ، مع ما يطوى فى ذلك من التصعيب والتعقيد . ويقول من ترجموا له وكتبوا عن هذه الرسالة إنه كان لها دوىٌّ بعيد فى الأوساط الأدبية الحضرمية ، إذ عدوها طرفة غريبة وظلوا يتداولونها طويلاً . على أن الكثرة من رسائل الأدباء الحضرميين لم تكن تُغْرب هذا الإغراب ، بل كانت تكتفى بالسجع ، وقلما اصطنعت الألفاظ الغريبة الآبدة .

ونترك حضرموت إلى البحرين ، ونلتقى فى كتاب سلافة العصر ببعض رسائل لأدبائها ، من ذلك رسالة كتب بها ابن أبى شبابة البحرانى إلى ابن معصوم صاحب الكتاب ، ونحس فيها بالتكلف الشديد منذ فواتحها ، يقول [1] :

« أُنْهى أَبْهَى سلام ، شَدَتْ بنغمات السرور أطياره ، وبَدَتْ على صفحات الدهور أنواره ، وأصلحَ دعاءٍ تعاضدت شرائط إجابته ، وترادفت وسائط إصابته ، وسمت مصاعد قبوله ، ونمت فوائد فروعه وأصوله ، وأنفس ثناء ثُنيت بالوفاء وسائده ومسانده ، وبُنيت على الولاء قواعده ومقاعده ، وخالص إخلاصٍ حديث خلوصه قديم ، وحظ خصوصه مستقيم ، أخدم به . . شمس سماء المحامد والفضائل ، وغُرّة سماء الأماجد والأفاضل ، ديباجة صفحتى الشرف والفتوة ، ونتيجة مقدمتى الولاية والنبوة ، صاحب ذيول العز الشامخ ، وصاحب أصول المحتد الباذخ ، مربع الكرم والجود ، ومرتع الآمال والمقصود ، الذى نيطت أعمدة فضائل أحسابه الفائقة بسلاسل أنسابه السامقة ، وأصبحت كعوبِ أعراقه فى الكرم متناسقة ، وشعوب أخلاقه فى الهمم متوافقة » .

(١) سلافة العصر ص ٥٠٦ .

وتطَّرد الرسالة على هذه الصورة من الجناسات المتلاحقة ، وأكثرها يظهر فيه التصنع وأنه مجلوب لا لأداء معنى وإنما لأداء وَشْيْ الجناس ، إن صح أن يسمى هذا وشيا ، وماهو بوشى ، بل هو ألفاظ متراصَّة ، قد وضعت متقابلة فكل عبارة تقابلها أخرى بعدد ألفاظها ، والعدد ليس كافياً ، بل لابد أن تكون موازِنة لها موازَنة تامة ، فكلمة « شدت بنغمات السرور أطياره » توازنها كلمة « بدت على صفحات الدهور أنواره » وكلمة « تغاضدت شرائط إجابته » توازنها كلمة « ترادفت وسائط إصابته » وفى أثناء ذلك تُرَصُّ الجناسات رصًّا ، فالوسائد تليها المساند ، والقواعد تليها المقاعد ، ويلى ذلك خالص وإخلاص وخلوص وخصوص . وكلمة « شمس سماء المحامد والفضائل » توازنها كلمة « غرة سماء الأماجد والأفاضل » وكلمة « ديباجة صفحتى الشرف والفتوة » توازنها كلمة « نتيجة مقدمتى الولاية والنبوة » . وناهيك بقدرة الكاتب على استخدام المثنى فى الكلمتين السالفتين واستخراج هذا التقسيم . ونحس وكأننا لسنا بإزاء عبارات طبيعية أو شبه طبيعية ، بل نحن بإزاء عبارات هندسية تقاس بالمسطرة والفِرْجار ، وقد حُشد الجناس بجميع صوره : جناسُ الاشتقاق والجناس الناقص ، وحُشد كثير من الاستعارات ، ولكنها متكلفة غاية التكلف على نحو ما يلاحَظ فى وسائد الثناء ومسانده وكعوب الأعراق وشعوب الأخلاق . وهذه الصورة التى يسودها التصنع كانت شائعة فى البلاد العربية وخاصة فى حقب هذا العصر المتأخرة .

٤

مواعظ وخطب دينية

لا ريب فى أن المواعظ كانت مزدهرة فى مكة والمدينة طوال هذا العصر بحكم من كان فيها من الوعاظ الذين يخطبون الناس ، أو يلقون عليهم المحاضرات ، واعظين مذكرين بالتقوى والعمل الصالح والاستعداد لليوم الآخر ، فالناس كأنهم سَفْر وقوف ، وكل منهم ينتظر أجله ، ولن ينفع أحداً إلا ما قدمت يداه . وكان يفد على المدينتين المقدستين كثير من وعاظ العالم الإسلامى ، بل كاد أن لا يفوت واعظ منهم الإلمام بالمدينتين أو على الأقل بمكة حتى يؤدى فريضة الحج ، وكان كثير منهم يجاور بها أو بالمدينة ، ويتحول واعظاً فى الحرم المكى أو الحرم المدنى . وكم كان الأدب العربى يَثْرَى ويَغْنَى لو أن الوعظ فى المدينتين سُجِّل فى الكتب وعُنى به من يحفظ عيونه . ولعله من الطبيعى أن نجد ابن ظفر المكى الذى

مَر بنا ذكره بين شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية يتحـول بكتابه « سلوان المطاع فى عُدوان الأتباع » واعظا ، وعادة يذكر المعنى ثم يتلوه بموعظة مسجوعة ، تعقبها أحياناً أبيات حكمية .

والمعنى الذى يلم به «سُلْوَانة» أو سَلْوة ومن هنا جاء اسم الكتاب . وكثيرا ما تجرى سلواناته فى شكل حكم ، كقوله فى سلوانة التأسى : « التأسِّى جُنَّةُ البلاء ، وسنَّة النُّبلاء . التأسِّى دَرَج الاصطبار ، كما أن الجزع دَرَك التَّبار (الهلاك) . ومن قوله فى سلوانة الرِّضا : من رَضِى ، حَـظِىَ . من تَـرَكَ الاقتراح ، أفـلـح واستراح . كـن بـالـرِّضـا عـاملا قبـل أن تكون له معمولا ، وسِرْ إليه عادلا وإلا صرتَ نحوه معدولا » . والكتاب يفيض بالحكم الواعظة من مثل قوله : « ما أحرى الملول ، بأن يُحْرَمَ المأمول . من لزم الرُّقاد ، حُرِم المراد . التنعم فى الدنيا يضاعف حسرة زيالها (مفارقتها) ويؤكِّد غُصَّة اغتيالها . الهوى طاغية فمن ملكه ، أهلكه . الهوى كالنار إذا استحكم اتِّقادها عَسُرَ إخمادها . الغريب ميت الأحياء قد أعاده البَيْن ، أثراً بعد عين» .

ونتحول من الحجاز إلى اليمن ، وتلقانا فيها المواعظ فى كل مكان وزمان ونجدها فى الرسائل وفى الوصايا على شاكلة ما نقرأ فى وصية الملكة الحرة الصليحية أرْوَى بنت أحمد ، وهى لا شك من عمل بعض الوعاظ ، وقد جاء فى فواتحها [1] :

« لا إله إلا الله تعالى مبدع المبدعات ، وخالق المخلوقات ، جَلَّ وعلا أن تناله صفة ، أو تدركه معرفة ، الخلائق فى قبضته ، والأشياء صادرة عن أمره وإرادته ، لا معقب لحكمه ، ولا رادَّ لأمره ، إنه العدل الذى لا يجور ، والحكم الذى لا يَحيف ، والصادق الذى لا يُخْلف ، والعفوُّ الذى لا يؤاخذ ، خالق السموات والأرضين ، وإله الأولين والآخرين ، ذو الأسماء الحسنى ، والكلمات التامَّة صدقا وعدلا . له ملائكة انتخبهم من بريته ، وانتخبهم للسفارة بينه وبين المصطفين من أمته (يسبحون الليل والنهار لا يَفْتُرون) و(لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون) . وإن الجنة حق ، خلقها الله للمطيعين من بريته ، الخائفين من سطوته ، المؤمنين به ، المصدقين لوعده ، الموفين بعهده ، المتبعين لرسله ، العاملين بمقتضى آياته وكتبه . وإن النار حق أعدها الله لمن جحد أنبياءه ؛ وخالف أولياءه . . وتمادى فى غَيِّه وأسرف فى أمره ، وأصرَّ على كفره » .

وهذه الموعظة فى مطلع الوصية كان وراءها مواعظ كثيرة ، لا فى بيئة الدولة الصليحية

---

(١) الصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن ص ٣٢٣ .

وحدها ، بل فى بيئات كل الدول والإمارات التى كانت تعاصرها ، وأيضا فى الدول التى جاءت بعد ذلك ، ونقصد إمارة الزيديين ودولتى الرسوليين والطاهريين ، حتى إذا أصبح الصولجان فى اليمن بيد الزيديين ظل الوعظ مزدهراً . وكانت ترفده دائماً خطابة الجمعة فى المساجد والجوامع أسبوعيا ، كما كان يرفده المتصوفة ، ومن أشهرهم فى عهد الرسوليين أبوالغيث[1] بن جميل الملقب بشمس الشموس المتوفى سنة ٦٥١ للهجرة ، وسُئل عن الصوفى من هو ؟ فقال : « هو مَنْ صَفَاسِرُّه من الكدر ، وامتلأ قلبه من العِبَر ، وانقطع إلى الله عن البشر ، واستوى عنده الذهب والمدَر[2] » . ومن دعائه : « اللهم إنى أسألك يا روح روح الروح ، ويالبَّ لُبِّ اللبِّ ، ويا قلْب قلب القلب ، هَبْ لى قلباً أعيش به معك ، فقد خَلقت كلَّ ما هو دونك لأجلك ، فاجعلْنى ممن شئت من هذه الجملة » . وكان يعاصره أحمد بن علوان الذى مرَّ ذكره وله فى الوعظ كتاب نَحَى فيه منحى ابن الجوزى فلذلك يقال له جَوْزىّ اليمن وله فى التصوف فصول كثيرة[3] ، وله أتباع من الدراويش المعروفين فى اليمن بالمجاذيب ، كانوا ينشرون هناك كلامه ومواعظه . ومرَّ بنا فى غير هذا الموضع حديث عن عبد الله بن أسعد اليافعى نزيل مكة وشيخ الحرم بها وله شعر صوفى ومواعظ كثيرة . وصنف فى الصوفية وتراجمهم - كما مر بنا - كتابا سماه « روض الرياحين وحكايات الصالحين » .

وكان الوعظ مزدهراً فى حضرموت ، إذ اشتهر فيها صوفيون كثيرون بمواعظهم ، غير من كانوا يعظون الناس وراءهم فى المساجد وفى خطابة الجمع ، ومن أشهر متصوفيها أبو بكر العيدروس ، ومرَّ بنا ذكره وبعض أشعاره الصوفية فى حديثنا عن شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية ، وله نثر صوفى ووعظ كثير ، ومن قوله فى الفرق بين الشريعة والحقيقة[4] :

« الحمد لله وهو الحامد لنفسه والمحمود ، ومنه انبعاث القصد للقاصدين وهو المقصود ، خلق لعبده إرادة بإرادته وأثبته ، حتى أقام عليه حجته ، وبإثباته له قام عليه أمره ونهيه وجازاه ، على مقتضى سعيه فناداه : ﴿ وأَنْ ليسَ للإنسان إلا ما سعى ﴾ وتارة أقام نفسه وأخفاه ، فقال : ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله ﴾ فحصلت الحيرة ، وعَمِيت الأبصار والبصيرة . فوفَّق من شاء من عباده للوقوف عند مكنون علمه ، فوقف مع الشريعة بجسمه ومع الحقيقة بقلبه ، فالعلم المتجلى على الجسم علم ظاهر ، وهو علم

(١) العقود اللؤلؤية ١ / ١٠٧ .

(٢) المدر : القطعة من الطين .

(٣) العقود اللؤلؤية ١ / ١٦٠ .

(٤) تاريخ الشعراء الحضرميين ١ / ١١٨ .

الشريعة ، والعلم المتجلى على القلب علم باطن ، وهو علم الحقيقة . فأقام ظاهر الإسلام على أركان ، القائم بها جوارح الأبدان ، وأقام حقيقة الإيمان والإحسان على يقين وبيان ، القائم بها صميم الجنان ، ولكن لما خفى عن الأسماع الحسية ما بالقلب جُعل له ترجمان وهو اللسان ، فارتبطت الشريعة بالحقيقة ، والحقيقة بالشريعة » .

وأبو بكر العيدروس يشير فى أول كلمته إلى الخلاف بين الجبرية القائلين بأن كل شىء قدر مقدور ولا مفر منه ، ولاحول ولا قوة للإنسان إزاءه ، وبين القدرية القائلين بأن كل عمل للإنسان إنما هو بإرادته وحريته وأن كل شىء إنما هو بمشيئته . ويقول إنهما جميعاً حائران ، ويضع فوقهما أهل الحقيقة من الصوفية القائمين بأداء فرائض الإسلام وأحكامه ويسمى ذلك عمل الجوارح ، ويقول إنهم يجمعون بين هذا العمل وعمل القلوب وصدق شعورها الباطن الذى لا ينضب معينه إذ يستمد من المحبة الإلهية ورحيقها الصافى . وتصوفه بذلك تصوف سنى كتصوف الغزالى وأضرابه ، ممن يقيمون تصوفهم على الجمع بين علم الشريعة الظاهر وعلم الحقيقة الباطن .

وطبيعى أن يكثر الوعظ فى خطابة الخوارج الإباضية بعمان ، وقد وقف الجاحظ فى كتاب البيان والتبين مراراً عند خطابة الخوارج من جميع فرقهم ، ونوّه بين الإباضية خاصة بخطابة أبى حمزة قائد عبد الله بن يحيى الكندى ، وروى بعض خطبه ، وهى تمتاز بألفاظها الطلية ومعانيها القوية . ولا شك فى أنه ظلت شعاعات من خطابته وخطابة عبد الله بن يحيى وعبد الله بن إباض تدور فى ألسنة خطباء الإباضيين بعدهم ، وتلقانا خطبة جمعة متأخرة فى عصر إمامهم ناصر بن مرشد (١٠٢٤ – ١٠٥٠ هـ) وهى تمضى على هذا النمط [١] :

« بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله الذى هدم بالموت مشيَّد الأعمار ، وحكم بالفناء على أهل هذه الدار ، وجعلهم أغراضاً لسهام الأقدار ، ووكَّل بهم أمراضاً تزعجهم عن القرار ، وتجرى منهم مجرى الدماء فى الأبشار ، لا يعتصم منهم معتصم بالحِذار ، ولا يختص بها الفقراء دون ذوى اليسار ، بل هى آيات عَدْلٍ عدل الله بها فى البادين والحُضَّار ، أحمده على نعمه المُسْبَلة الغِزار ، وأعوذ به من العتوّ والاستكبار ، وأستغفره للذنوب والأوزار ، من الكبائر والإصرار . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة منجية من عذاب النار ، مبوِّئة مَنْ شَهد بها دار القَرار ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المختار ، أرسله بأيمن شِعار ، وأبين فخار ، وأنور منار ، وأطهر إعلان وإسرار ، وأظهر

(١) تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان ٢ / ٣٦ .

برهان وإنذار ، من صميم العرب فى النضار[١] ،وأكرمها فى الفخار ، مؤيدا بالمهاجرين والأنصار ، منصوراً بالملائكة الأبرار ، ﷺ ، وعلى آله الأطهار ، آناء الليل وأطراف النهار : أيها الناس ! إن قوارع الأيام خاطبة فهل أذن لعظتها واعية ، وإن فجائع الأحكام صائبة فهل نفس لعجائبها مراعية ، وإن مطامع الآمال كاذبة فهل همة إلى التنزه عنها داعية ، وإن طوالع الآجال واجبة فهل قدمٌ إلى التزود من الدنيا ساعية » .

وتستمر الخطبة فى الوعظ بالموت وأنه لا ينجو منه الآباء الكبار ولا الأبناء الصغار بل الجميع بترت أعمارهم الدهور الغوابر ، وابتلعتهم الحفر والمقابر . ومثل السلف الخلف ، فهم دائماً هدف للتلف . عظة ينبغى أن يتعظ بها العاقل ، فينفق ساعاته فى التقوى والعمل الصالح . وتعود الخطبة إلى الصلاة على الرسول ﷺ وعلى آله قائلة : «اللهم صَلِّ على محمد وعلى آل محمد ما ذرَّ شارق[٢] ،وأومض بارق ، وفاه ناطق ، اللهم صَلِّ على محمد وعلى آل محمد بعدد أنفاس الخلائق ، وبعدد ما فى السموات السبع الطرائق ، وبعدد ما خلقت وما أنت خالق» . ثم تستنزل الخطبة الرضوان على صاحب الرسول فى الغار ورفيقه فى الأسفار ، معدن الجود والفخار ، وسيد المهاجرين والأنصار . أول ساع إلى شرف التصديق ، أبى بكر الصديق ، وأيضا على جميع المؤمنين من الأولين والآخرين . والخطبة مبنية على السجع ، وليس ذلك فحسب ، فإن منشئها تكلف فى الأسجاع الأولى أن يلتزم فيها الراء دلالة على مقدرته البلاغية ، حتى إذا انتهى من التحميد والشهادة والتمجيد لله ولرسوله وأخذ فى الوعظ بنى قوافى أسجاعه على الألف والعين والتاء ، فواعية تليها مراعية وداعية وساعية ، ورأى أن يضيف إلى ذلك قافية داخلية فى العبارات أو السجعات ، فكلمة خاطبة فى السجعة بأعلى هذه الصفحة تقابلها فى السجعات التالية كلمات صائبة وكاذبة وواجبة ، فكأن السجعات المتوالية لا تتوازن خارجيًّا فى القوافى النهائية فحسب ، بل تتوازن أيضاً داخلياً ، إذ تتقابل فيها قواف تتوسط العبارات ، وكأن كل قافية متوسطة تطلب قرينتها فى العبارة أو العبارات التالية .

وإذا كانت المصادر لم تسعفنا بمواعظ أو خطب دينية فى البحرين فإنه مما لا شك فيه أنه دُبِّجت هناك خطب ومواعظ كثيرة شأن البحرين فى ذلك شأن نجد وشأن جميع البلاد العربية فى الجزيرة ووراء الجزيرة إذ كان الوعظ دائماً قائماً ، كما كانت الخطابة فى المساجد يوم الجمعة قائمة لأنها جزء لا يتجزأ من الصلاة وكانت فى جملتها مواعظ خالصة .

---

(١) النضار : الذهب والخالص من كل شىء . (٢) الشارق : الشمس .

٥

محاورات ورسائل فكاهية ومقامات

تلقانا فى الحقب المتأخرة من هذا العصر باليمن محاورات ورسائل فكاهية متنوعة ، من ذلك محاورة لعلى بن صالح بن أبى الرجال جعل تاريخها سنة ١٠٨٥ للهجرة بين مسجد المذهب والمدرسة المرادية [١] ، وكان المسجد قد بناه العثمانيون قبل مغادرتهم الأولى لليمن سنة ١٠٤٥ وأصبح فى حال رثة فلا فراش ولا سراج ، فشكا حاله لمسجد جناح ، فأشار عليه من باب النصيحة ، لما بينهما من المودة الصحيحة ، أن يتزوج بمدرسة من مدارس الأتراك ، إذ النساء مصابيح البيوت ، وفوَّض له مسجد المذهب اختيار المدرسة التى يراها كُفْؤاً له ، وأشار عليه بإحدى مدرستين : البكيرية فريدة العصر ، أو المرادية خريدة القصر . وذهب معه إلى البكيرية ، فلما عرض عليها مسجد جناح الأمر أعرضت مدلَّة ، وقالت له : اخرجْ يا جناح أنت والمذهب ، قبل أن تُصْفَع وتُضْرب . وخرجا ، وجناح يتمثل بقول ذى الرمة :

على وجه مَىٍّ مسْحةٌ من ملاحةٍ وتحت الثيابِ الخِزْىُ لو كان باديا

ونهضا إلى المدرسة المرادية ، وأفهمها جناح أن المذهب جاء معه لخطبتها ، وأنه نعم الرجل الصالح ، العاقل الراجح ، فقبلت واشترطت على المذهب مفرشتين (سجادتين) تستتر بهما وتتجمل ، وقنديلاً تنتفع به ليلة تتأهل . ويمضى على بن صالح قائلا :

« فقال المذْهب : من هذا كنت أحاذر ، فلست على تحصيلهما بقادر ، فالمفارش غالية ، وليس عندى غير بُسُطٍ بالية . فقال له جناح : أشهد أنك رجل وقاح . أما علمت أن المفارش كسوة أمثالها ، وأنه لا يخطر البساط ببالها ، وسأشير عليك بما يأسو جراحك ، ويَريش جناحك ، فقال : سَمْعاً لأمرك ، وطوعاً لحكمك . فأْمُرْنى بما تراه ، فإنى لا أتعدَّاه ، فقال : قد علمت أن البكيرية طردتك ، وتهددتك بالضرب وتوعَّدتك ، فإذا كان جُنْح الظلام ، وقد هجع النَّوَّام ، انسللتَ انسلال الخائف الذليل ، وأخذت منها مفرشتين وقنديل [٢] فقال : قد أشرت بما فى النفس ، فإنى مُهَمْهِمٌ به من أمس . فلما نشر الظلام ثيابه ، ومدَّ على الأنام جلبابه ، خرج من محلِّه وانسلَّ ، وسقط عليها سقوط الطَّلِّ ، فأخذ المفرشتين والقنديل ، وعاد إلى منزله فرحاً بالتحصيل ، ولما أسفر ضوء

(١) نشر العرف لنبلاء اليمن بعد الألف لابن زبارة ٢ / ٢٢٤ .

(٢) الكلمة منصوبة وترك نصبها للسجع .

الصباح أشار إلى مسجد جناح ، بأن المطلوب قد حصل ، فانهضْ بنا لتمام العمل . فحملا إلى المرادية ما اشترطته . . »

وتمضي المحاورة ، فتذكر أن بعض الدواوين المجاورة للمدرسة المرادية توسل إليها بماله من حق الجوار أن يحمل مسجد المذهبْ له مفرشةً وقنديلاً . يقول على بن صالح :

« فقال له جناح : عاودْ ذلك المحل ، فلعلك تظفر بالأمل . وقد كانت البكيرية جمعت مَنْ حولها من المساجد القريبة ، وطلبت منها الرأى فى دفع هذه المصيبة ، فأجمع رأى المساجد والمدارس ، على أن يستأجروا لها حارس[١] فقالت : علىّ تحصيل الأجرة ، وعليكم تحصيل رجل من أهل الخبرة ، فاختاروا لها مسجد عقيل ، وقالوا لها : هذا نعم الحارس والنزيل . فلما جَنَّ الظلام وهجع النوّام ، أقبل مسجد المذهب ، وهو خائف يترقَّب ، فخرج عقيل ومَنْ حوله من المساجد ، وحملوا عليه حملة رجل واحد ، فهرب من بينهم وفرّ ، فما قعد فى مجلسه ولا استقرّ ، حتى وصلت إليه المساجد على الأثر وهتف بها أن عُقيلاً ومن معه يغيرون عليه ، فأقبلوا يُهْرَعون إليه ، واشتد بينه وبين المساجد الخصام وكثُر الكلام والزِّحام ، فقال : اعلموا ياجيرانى ، أنى راقد بمكانى ، فأتت المساجد فى جنح الدياجى ، تريد[٢] تسرق بســاطى وسراجى ، فأعينونى على الحق ، وأدركونى ولما أمزَّق ، فرجع كل مسجد إلى مكانه . واجتمعت المساجد عند البكيرية فى الليلة الثانية ، ليتفاوضوا فى دفع هذه الداهية ، فأجمعوا على أن يحفروا للمذهب حفرة فى أرض ، بقدر طوله والعرض ، وأن يربطوا الشِّباك إلى جانب المئذنة والشُّبَّاك . فسكت عنهم أيام[٣] ، ثم أقبل على حين غفلة من الأنام . . فوقع فى تلك الشِّباك ، وكاد أن يشرف على الهلاك » .

ويمضي على بن صالح فى المحاورة ذاكرا أن المساجد تجمعت من حوله ، وكل منها يشكو حاله وكيف أنه صابر على ما صار إليه من الشدة ، منتظرا انقضاء المدة ، وأخذت المساجد تضربه وتركله ، وافدة عليه رَعيلا فى إثر رعيل ، وهو بينهم كالأسير ، قد غلبه البكاء والزفير . وبعد محاورات ومداورات يحن عليه مسجد الإمام ويرق لشكواه ، ويدعو له المدرسة المرادية فى الحال . وأقبلت تتبختر فى ثيابها تائهة على أترابها . ويهجم عليها فى غير حياء . فتغضب المساجد ، وتقدمه إلى الجامع الكبير ليعظه . ويعزم على الرحيل ، ويأسى مسجد الإمام له . لافتتانه بالمرادية ويطلب إلى مساجد الأبزر وطلحة والأبهر أن تتوسط له

---

(١) لم ينصب كلمة حارس للسجع .

(٢) حذف أن بين الفعلين كما تحذفها العامة .

(٣) ترك النصب للسجع .

لدى المرادية ، فنهضوا إليها . وعرضوا الكلام عليها ، فرفعت النقاب ، وقالت : ما أشار به مسجد الإمام فهو الصواب ، وتقول : « على أن ما عند المذهب من الغرام إلا بعض ما عندى ، وكاد الهوى أن يخرجنى عن جلدى . . وإنى كنت لا أصلح لمثله ، ولم أكن قد تزوجت من قبله ، فقد أردت معرفة هذا الأمر ومعرفة الشيء خير من جهله ، واشهدوا بأنى قد وكلت مسجد الإمام ، يعقد لى بالمذهب ، قبل أن يتبع هواه أو يترهَّب . . وعقد لها مسجد الإمام بعد ما سمع شهادة الحاضرين وقال : بالرفاء والبنين» .

والمحاورة طريفة فى فكاهتها خفيفة فى ألفاظها وأسجاعها ، وهى تمتد إلى نحو اثنتى عشرة صحيفة ، ولها قيمة تاريخية ، لأنها تصور ما أصاب مساجد صنعاء فى عصر الكاتب من عدم العناية بفرشها ومصابيحها وتجصيصها أو طلائها بالجِصِّ وترميم جدرانها وما تآكل من حيطانها ، ولعلى بن محمد العنسى المترجم له بين الشعراء رسالة فكهة ، كتبها على إثر أمر للإمام الزيدى القاسم بن الحسين (١١٢٨ - ١١٣٩ هـ) الملقب بالمتوكل أمر به الفقيه الزهوانى أن يعطيه عشرين قدحاً من الشعير ، وقد سماها : الروض الأُقْحوانى فى الشعير الزَّهْوانى . وكان قد أعطاه أربعة أقداح وأخذ يمطله ويؤجله فى البقية فكتب إلى القاسم بن الحسين متفكها[1] :

« مولاى حامى حمى الدين ، وحافظ بَيْضة المسلمين ، خلَّد الله إقباله ، وضاعف جلاله ، حوَّلتم للمملوك بعشرين قدحاً على الفقيه الزَّهوانى ، الذى لا تُقْبَضُ الحوالة منه إلا بالأمانى ، فسلَّم للمملوك منها أربعة أقداح شعير كان قدسَها عنها خازن الإمام صلاح الدين فى ذلك العصر ، فتركها فى زاوية من زوايا القصر ، ثم مرَّت عليها الأعوام والدهور . . وغمرها التراب إلى كعب الشِّراك[2] . لما استولت على اليمن علوج الأتراك . ثم لاحت أنوار الدولة القاسمية التى لبس الدهر بها شبابه ، وزان جَبينه بأشرف عِصابه . وقد صار ذلك الشعير دفيناً تحت ترابه . وقد ذهب لُبُّه لطول المدة فلم يبق غير إهابه . ثم تعاقبت على المخزن أيدى الخُزَّان ولكنهم لم يبلغوا فى التحرى والتفتيش ما بلغه هذا الرجل النصيح ، ذو الطبع المَرضىّ والخلق الشحيح ، فإنه لفرط الأمانة لم يترك التلفت على الزوايا ، ولا أهمل المثل السائر : كم فى الزوايا من الخبايا ، فعثر فى بعض لفتاته على تلك الزاوية التى اشتد ظلامها ، وخفيت أعلامها ، فرأى شيئاً مجموعاً ، وتَلاًّ مرفوعاً . فلاحت له منه شعيرة بغير شعوره ، أسرف لأجلها فى حُبوره ، وتصحيف سروره[3] ، فأمر بإثارة ذلك الكنز

---

(١) نشر العرف ٢ / ٢٩٥ .

(٢) الشراك : الحذاء .

(٣) تصحيف سروره : يقصد شروره .

المدفون ، والدفين المخزون . ثم عيَّر[١] ، فحصل منه أربعة أقداح ، فجاءت وفق الاقتراح ، واتفق لسوء الحظ حضور الرسول الغَرير[٢] ، حال بُعث من مرقده ذلك الشعير ، فكيل له فى الغرائر[٣] على غِرَّة ، وقيل له : خُذها ، واحذر العَوْد بعد هذه المرَّة » .

والفكاهة واضحة فى الرسالة ، وهى تلسع ولا تجرح ولا تدمى ، فكاهة تحمل حيناً دعابة وحيناً سخرية خفيفة ، دون أن تؤذى ، وقد أنهاها بقطعة شعرية بديعة . وكانوا يُلبسون أحياناً الفكاهة ثياب قضية طريفة كأن نجد يحيى بن إبراهيم الجحَّاف يسوق سؤالا [٤] عن صديق عاهده على التعاون ، وخاصة حين تبتسم له هو الدنيا ، وتعبس فى وجه صديقه ، فإنه حينئذ يمد له يد العون ولا يتركه لمحن الدهر تعصف به ، غير أن هذا الصديق لم يف بعهده . وإنه ليسأل علماء العدل وقضاة الإحسان وحكام الإنصاف ومشايخ المروءة ما يقولون فى صديقين تغذَّيا بلبان المحبة واستظلا بظلال الصداقة جمعتهما أخوة الأدب التى هى أوثق من أخوة النسب ، وأقبلت الدنيا على أحدهما وأدبرت عن صاحبه ، فتناساه وأهمله ، فما حكمه ؟ يقول : « فهبت لأحدهما ريح الإقبال ، ولمعت له لمعة سعد ، وأمطرته سحابة خير . . وبقى الثانى فى ظل العفو وروض العافية . . يسبح من حسن الظن فى غير ماء ، ويطير مع طول الأمل بغير جناح . . إن التفت يمنة وجد محنة . أو نظر يَسرة رأى حسرة ، أو حاول به اللحاق احتاج إلى البُراق . وقد كان يقسم بالله الذى وسعت العباد رحمته ، وشملتهم نعمته أنه إذا أُثنيت له الوسادة ، ولاحظتْه عين السعادة ، وخرج من زاوية الخمول ، وطلع نجمه بعد الأفول . ليُبْلغَنَّه من الخيرات ما لا قلبٌ فكَّر فيه ، ولا لسان نطق به ، ولا جارحة تكلَّفته ولا عين رأته ولا أذن سمعته ، ولا خطر على قلب بشر قط . فافتونا مأجورين مثابين إن شاء الله تعالى : ما الذى يجب فى شريعة المودة ، ويُسَنُّ فى دين الفتوة ، ويُنْدَب فى ملة الوفاء ، ويباح فى فقه العرف . . وهل من توبة تعلمونها لهذا الصاحب » . .

والقضية طريفة ، وهى قضية اجتماعية ، فكم من صديق تعاهد مع صديقه على البر والتعاون ، وخاصة حين يرزق السعادة ، فإنه لن يترك صديقه يعانى بؤس الحياة ومرارتها ،

(١) عيَّر : كال من الكيل .

(٢) الغرير : الغر الذى لا تجربة له .

(٣) الغرائر : جمع غرارة ، وهى وعاء من الخيش يجعل فيه الشعير ونحوه .

(٤) نشر العرف ٢ / ٨١٣ .

بل سيأخذ بيده ، ويكون عند وعده له بالتكافل والتضامن . حتى إذا أقبلت الدنيا عليه لم يذكر صديقه ، وكأن لم يكن بينهما عهد ولا وعد ولا أخوة ولا مودة وثيقة .

وتلقانا – من حين إلى حين – مقامات فكهة ولكن لا بالصورة التى تركها الحريرى وإنما بالصورة التى تطورت إليها فيما بعد من المناظرات بين الموضوعات المتقابلة كالصيف والشتاء ، قصداً لبيان القدرة الأدبية ، وفى الجزء الرابع من نفحة الريحانة مقامة طريفة للسيد محمد بن حيدر على لسان الفقر والغنى جعل فيها الفقر يتفوق على الغنى فى العلم وتحصيله .

القسم الثاني

العراق

الفصل الأول

السياسة والمجتمع

١

البويهيون والسلاجقة والخلفاء العباسيون .

البويهيون [١] أسرة فارسية تُنْسب إلى بُويه ، وهو فارسي ديلمي ، ويقال إنه كان صَيَّاداً على بحر قزوين ، وكان أبناؤه علي والحسن وأحمد من حوله يَحْتَطِبون . ونراهم حين صار إليهم الملك ينسبهم المؤرخون – مَلقاً لهم فيما يبدو – إلى الملك الساساني بهرام جور . ومهما يكن فقد التحق بويه وأبناؤه بخدمة ماكان بن كاكى ، حتى إذا انتصر عليه مَرْداويج الزِّيارى صاحب جُرْجان تحولوا إليه ، وأيدوه في حروبه ضد الدولة العلوية الزيدية بطَبَرستان ، فولَّى عليا الكَرَج في الجنوب الشرقي من هَمَذان سنة ٣٢٠ للهجرة ، ولم يلبث على أن استولى على فارس وأَرَّجان واتخذ شيراز مقرا له . وقُتل مرداويج في سنة ٣٢٣ فاستولى هو وأخوه الحسن على أَصْفهان والرَّىّ اللتين كانتا تابعتين له وتولى الحسن شئونهما وشئون بلاد الجبل ، واستولى أخوهما أحمد على كَرْمان ، وظل يتقدم تدريجا نحو الغرب حتى استولى على الأهواز سنة ٣٢٦ ومضى يتقدم حتى استولى على واسط ، وفي هذه الأثناء كانت المجاعة تهدد بغداد ، وكان الجند الأتراك ثائرين على الخليفة وقواده لعجزه عن دفع رواتبهم ، فوجد أحمد الأبواب جميعها مفتوحة إلى بغداد فدخلها في جمادى الأولى سنة ٣٣٤ . ورحَّب به الخليفة المستكفي منقذاً ومخلِّصا ، ومنحه إمرة الأمراء ولقَّبه معز الدولة ، ولقَّب أخاه عليا صاحب فارس وشيراز عماد الدّولة والحسن صاحب بلاد

---

(١) انظر في الدولة البويهية تجارب الأمم لمسكويه وذيله لأبي شجاع والمنتظم لابن الجوزي وتاريخ ابن الأثير وابن خلدون والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي وأحسن التقاسيم للمقدسي في مواضع متفرقة وابن خلكان في تراجم أمرائها وكذلك الجزء الثاني من كتاب اليتيمة للثعالبي وابن طباطبا (الفخرى في الآداب السلطانية) والحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى لآدم ميتز (طبعة القاهرة) ص ٢٧ وما بعدها وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٢٤٤ وتاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدى لبراون ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشواربي ومادة بني بويه في دائرة المعارف الإسلامية .

الجيل ركن الدولة ، وضُربت ألقابهم على السكَّة ، وذُكرت أسماؤهم وألقابهم مع الخليفة فى خطبة الجمعة . ومن حينئذ بالغ البويهيون فى الألقاب الفخمة يُضفونها على أنفسهم وعلى وزرائهم . . ولم يكد الشهر التالى لدخول معز الدولة بغداد يتقدم حتى خُلع المستكفى وسُملت عيناه ، وولى الخلافة بعده ابن عمه المطيع لله ، ولم يكن له ولا لمن تلاه من الخلفاء العباسيين فى عهد البويهيين حَوْل ولا طَوْل ولا سلطان إلا ما كان من ذكر أسمائهم فى خطبة الجمعة وعلى السكَّة المضروبة . وكأنما أصبحوا مجرد صنائع فى أيدى البويهيين يسبغون عليهم الرواتب بالمقدار الذى يريدون .

وظل معز الدولة يلى شئون بغداد والعراق والأهواز وكَرْمان إلى أن توفى سنة ٣٥٦ وخلفه ابنه عز الدولة بَخْتيار ، وكان شديد البأس شجاعاً يمسك الثور العظيم بقرنيه فلا يتحرك ، وتزوج الخليفة الطائع ابنته شاه زمان فى سنة ٣٦٤ على صداق قدره مائة ألف دينار . وكانت ولاية فارس قد صارت إلى ابن عمه عضد الدولة ابن ركن الدولة منذ وفاة عمه عماد الدولة سنة ٣٣٨ للهجرة إذ لم يترك ولداً . فآلت ولايته إلى أخيه ركن الدولة ، فمنحها ابنه عضد الدولة . وتوفِّى ركن الدولة سنة ٣٦٥ وجعل لعضد الدولة أقاليم فارس وكرمان وأرَّجان وشيراز ، ولأخيه مؤيد الدولة الرىَّ وأصفهان ، ولأخيهما فخر الدولة هَمذان والدِّينور ، وجعل لعضد الدولة الرياسة على أخويه ، ولم تلبث الأمور أن ساءت بينه وبين بختيار ابن عمه معز الدولة ، فاشتبكا فى حروب ، قُتل فيها بختيار فى شوال سنة ٣٦٧ . وبذلك دخلت بغداد وما تبعها من العراق فى حوزة عضد الدولة منذ هذا التاريخ .

وعضد الدولة هو أعظم ملوك بنى بويه ، إذ بلغ سلطانه من سعة الملك ما لم يبلغه أحد من أسرته وهو أول من خُطب له – فيما يقال – على منابر بغداد بعد الخلفاء وأول من لُقِّب بشاهنشاه (ملك الملوك) فى الإسلام وأصبح البويهيون بعده يلقَّبون بهذا اللقب ، وكانت فيه قسوة شديدة ، ومما يصور ذلك رميه بابن بقية الوزير تحت أرجل الفيلة حين سلَّمه إليه بختيار لأمور ساءته ، فقتلته بأرجلها شر قتلة . وقد قضى على لصوص الطرق قضاء مبرما وأعاد الأمن إلى نصابه فى صحراء كَرْمان وصحراء جزيرة العرب ، ورفع عن قوافل الحجاج الجباية واحتفر لهم الآبار فى سُبلهم إلى مكة وأدار على مدينة الرسول ﷺ سوراً حصينا ، وأمر بعمارة منازل بغداد وأسواقها وابتدأ بعمارة المساجد ، وألزم أصحاب العقارات تشييد بيوتهم وأقرض من قصرت يداه من بيت المال وخاصة من كانت بيوتهم تقع على شاطئ دجلة ، وعُنى بالبساتين فامتلأت خرابات بغداد بالزهر والخضرة ، وجلب

إلى بغداد الغروس فى سائر البلاد ، وعُنى بجداولها وجسورها ، وأنشأ سوقاً للبزّازين . وبنى مارستانا كبيراً ببغداد ، وأجرى الرواتب على العلماء من كل صنف ، وكان عادلا سَيوسا يحسن اختيار ولاته وعماله ، وكانت جِراياته متصلة على الفقراء والمساكين . غير أن مدة حكمه لبغداد والعراق لم تطل ، فقد توفى سنة ٣٧٢ ، وكأنهما لم تنعما بحكمه إلا خمس سنوات متصلة . وكان قد قسم مملكته بين أبنائه الثلاثة : شرف الدولة وصمصام الدولة وبهاء الدولة ، وهو تقسيم أثبتت الأيام دائما أنه نذير بضياع الدولة واختلال شئونها . وتولى شئون بغداد والعراق صَمْصام الدولة يعاونه وزيره أبو عبد الله بن سَعْدان صاحب أبى حيان ، ولم ينجح أمر صمصام الدولة وغلب عليه أخوه شرف الدولة سنة ٣٧٦ وقهره وحبسه وأخذ بغداد منه ، ويتوفىَّ شرف الدولة سنة ٣٧٩ بعد أن عهد بالملك لأخيه بهاء الدولة وضياء الملة الذى ظل حاكماً لبغداد والعراق حتى وفاته سنة ٤٠٣ وكان – كما يقول المؤرخون – ظالما غَشوما سفاكا للدماء ، وقد قبض على الخليفة الطائع سنة ٣٨١ وخلعه من الخلافة ، وولاها القادر بالله ، ولم يكن فى ملوك بنى بويه أظلم منه ولا أقبح سيرة ، ويقال إنه جمع من المال ما لم يجمعه أحد . وتوزعت الدولة بعده بين أبنائه الأربعة : مشرّف الدولة وقوام الدولة وجلال الدولة وأبى شجاع سلطان الدولة وهو الذى ولى بغداد بعد أبيه بعهد منه ، وظل يلى شئون ولايته حتى سنة ٤١٢ حين عظم أمر أخيه مشرف الدولة وعلت كفَّته ، فخُطب له ببغدادَ فى المحرّم وخوطب بشاهنشاه . ويدور العام ، فيتم الصلح بين الأخوين ، ويعود ذكر سلطان الدولة إلى الخطبة ، ويتوفى سلطان الدولة فى سنة ٤١٥ ولا يلبث أخوه مشرف الدولة أن يتوفى بعده فى سنة ٤١٦ وتصبح بغداد خالصة هى والعراق لأخيهما جلال الدولة ، ويستوزر أباسعيد بن ماكولا ، ويلقبه علم الدين سعد الدولة أمين الملة شرف الملك ، مما يصور مدى تغالى البويهيين فى الألقاب . ويطول حكم جلال الدولة حتى وفاته سنة ٤٣٥ ويختل الحكم فى أيامه ويختل السلطان حتى يبلغ من ذلك أن يستولى العيّارون واللصوص على بغداد سنة ٤٢٦ ويفعلون بها أفعالا قبيحة ، واختلّت الشئون المالية ، وبلغ من سوء اختلالها أن باع جلال الدولة ثيابه وماعون بيته وآلاته فى الأسواق ، وخلت داره – كما يقول ابن الجوزى – من الحجّاب والفراشين والبوابين . وخلفه أبو كاليجار بن سلطان الدولة حاكم فارس والأهواز ، وكان شجاعا فاتكا مشغولا باللهو ، وفى عهده أخذ المدُّ السلجوقى يزداد حتى شمل أكثر إيران ، مما جعله يموت غماً سنة ٤٤٠ ويخلفه ابنه أبو نصر الملقب بالملك الرحيم ، وبلغ من ضعفه أن جرَّده أحد قواده الأتراك ، ويسمى البساسيرى ، من سلطانه

كله ، وأحسَّ الخليفة العباسى القائم بأمر الله بخطره ، وعرف أنه يكاتب سرًّا الخليفة المستنصر الفاطمى بمصر ، وأنه يدبّر أمرا خطيرا . وكانت الدولة السلجوقية قد أخذ يعظم شأنها فى خراسان بقيادة طُغْرُلْبَكْ ودانت لها خراسان وشطر كبير من إيران ، فكتب إليه الخليفة يستنهضه إلى المسير إلى بغداد سنة ٤٤٦ ، وأمر أن يذكر اسم طغرل فى الخطبة وعلى النقود قبل اسم الملك الرحيم . ولم يلبث أن دخل بغداد وقضى نهائياً على الدولة البويهية .

والسلاجقة [1] شعبة من الأتراك الغُزّ الذين أخذوا يُغيرون بقيادة زعيمهم سَلْجوق منذ سنة ٤٢٠ للهجرة على حدود إيران الشمالية والشرقية ، جاءوا من التركستان إلى بلاد ما وراء النهر ، وكانوا يقضون مشتاهم بالقرب من بخارى ومصيفهم بالقرب من سمرقند . وقد اعتنق سلجوق الإسلام السنى وتبعته قبيلته . ويقال إن السلطان محموداً الغزنوى دعاهم إلى الإقامة فى الأقاليم المحيطة ببخارى ، غير أنه عاد فتوجَّس منهم شرا ، مما جعله يأمر بالقبض على إسرائيل بن سلجوق ، وحَبسه فى قلعة ببلاد الهند ، ظل بها حتى مات . وتوفى محمود . وفكر السلاجقة فى الثأر فانقضّوا على بخارى . وهزموا جيوش مسعود بن محمود . وأعلن طُغْرُلْبَك نفسه ملكاً على خراسان فى صيف سنة ٤٣٠ للهجرة ، ودانت له مرو ونيسابور ، ولم يلبث مسعود أن توفى سنة ٤٣٢ فتمكنوا من الاستيلاء على بقية خراسان واستولوا على طَبَرستان وسِجِسْتان وهَراة وبُسْت وأخذ طُغْرُل يولِّى أبناء أسرته وعمومته على البلاد ، واتخذ الرِّىَّ حاضرة له . واستنجد به الخليفة القائم بأمر الله كى يضبط بغداد على نحو ما أسلفنا ، فدخلها فى سنة ٤٤٧ وهرب منها البساسيرى ، وخلع عليه الخليفة خلعاً سنية وأجلسه على العرش إلى جواره ، وألبسه حلة فاخرة ، وكان البساسيرى قد فرَّ إلى الشمال فتعقبه طُغْرُلْبَك حتى الموصل ، واضطر أن يتركه إلى حرب أخ لأمه يسمى إبراهيم بن يَنال خرج عليه فى همذان ، وعرف البساسيرى كيف يستغل الفرصة ، فوضع يده فى يد أحد أمراء بنى عُقَيْل ، وهو قريش بن بدران ، واستوليا على بغداد وأمر الخطباء على منابرها بذكر اسم المستنصر الخليفة الفاطمى فى خطبة الجمعة ، وكذلك صنعا بما استوليا عليه من

(١) انظر فى السلاجقة تاريخ ابن الأثير وابن طباطبا وابن خلدون وابن تغرى بردى فى مواضع متفرقة وكتاب راحة الصدور فى تاريخ الدولة السلجوقية للراوندى ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشواربى والدكتور عبد النعيم حسنين (طبع القاهرة) ومجموعة النصوص المتعلقة بتاريخ السلاجقة نشر هوتسما بليدن وتاريخ دولة آل سلجوق للعماد الأصبهانى (مختصر البندارى) ووفيات الأعيان لابن خلكان فى تراجم سلاطينهم وتاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى (ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشواربى) وسلاجقة إيران والعراق للدكتور عبد النعيم حسنين (طبع القاهرة) وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٢٧١ ومادة السلاجقة فى دائرة المعارف الإسلامية .

المدن . وأخرج البساسيرى الخليفة من بغداد إلى عانة من مدن الجزيرة ، ولكن طغرل لم يلبث أن عاد إلى بغداد وأعاد إليها الخليفة وقضى على هذه الفتنة قضاء مبرماً ، مما جعل الخليفة يلقبه بلقب ملك الشرق والغرب .

وطُغْرُل هو أول ملوك الدولة السَّلْجوقية العظام ، وكان شجاعاً مقداماً كريماً حليماً حازماً حريصاً على أداء واجباته الدينية ، وتوفِّى بمدينة الرَّىِّ سنة ٤٥٥ فخلفه ابن أخيه ألْب أرْسلان بن جُغْرى بَكْ ، كان اسمه بالعربية محمداً ، ولُقِّبَ بالملك العادل ، ويقال إنه أول من لُقب بالسلطان من بنى سَلْجوق ، وذُكر على منابر بغداد ، وكان شجاعاً مطاعاً ، وهو أعدل بنى سلجوق فى الرعية وقد وسع حدود مملكته من الصين شرقاً إلى الشام غرباً ، وقد استولى على ما بيد الفاطميين من البلاد حتى دمشق ، وقاد حملات مظفرة ضد دولة الروم الشرقية وأسر إمبراطورها « رومانوس ديوجين » سنة ٤٦٢ فى موقعة دمر فيها الجيش الرومى تدميرا . ويقال إن جيشه لم يكن يزيد على خمسة عشر ألف محارب بينما كان الجيش الرومى فى تلك الموقعة يتألف من مائتى ألف رجل من يونان وأرمن وقوقاز وروس وغيرهم . وفَدى الإمبراطور نفسه بمليون دينار ، وعقد معه ألب أرسلان معاهدة لمدة خمسين سنة ، على أن تلبيه جنود الروم إذا طلبها ، وأن تُرَدَّ إلى أسرى المسلمين حرياتهم .

وكان مدبِّر مملكته وزيرَه نظام الملك ، وكان حصيفاً وافر العقل ، وسياسيا حكيماً بصيراً بتدبير الأمور ، محبا للعلم ، وقد بعث فى دولته نهضة علمية أسس لها مدارسه المعروفة باسم المدارس النظامية ، أقامها فى كثير من البلدان ، وعُنى خاصة بمدرسته النظامية ببغداد واستقدم لها العلماء من نَيْسابور وغيرها وفى مقدمتهم أبو إسحق الشيرازى والغزالى وغيرهما من كبار العلماء . وخلف ألب أرْسلان حين توفى سنة ٤٦٥ ملكشاه ابنه ، وكان شابا فى الثامنة عشرة من عمره ، فأحكم له نظام الملك شئون دولته وفرَّق البلاد على أولاده ، وجعل مرجعهم إلى ملكشاه . وكان مظفراً ، استولت جيوشه على كثير من البلاد ، حتى قيل إنه ملك من الأقاليم ما لم يملكه أحد من السلاطين ، فكانت مملكته تشتمل على جميع بلاد ماوراء النهر وإيران والعراق وبلاد الروم والجزيرة والشام ، وكان ملكه يمتدّ من مدينة كاشْغر – وهى أقصى مدينة للترك – إلى بيت المقدس طولا – كما يقول ابن تغرى بردِى – ومن بحر قزوين والقسطنطينية إلى بحر الهند عرضاً .

وكان من أحسن الملوك سيرة ، وبالمثل كان وزيره نظام الملك ، ويروى أنه لما تسلطن خرج عليه عمه « قاورد بك » صاحب كَرْمان ، فحاربه وأخذه أسيراً فلما مثل بين يديه قال له : أمراؤك كاتبونى وأبرز له مكاتبات ، فأخذها ملكشاه وأعطاها إلى وزيره نظام

الملك ، فتناولها منه وألقاها فى موقد نار كان بين يدى ملكشاه فاحترقت . فسكنت قلوب الأمراء وبذلوا الطاعة ، وثبت ملكه بهذا الصنيع الجميل لنظام الملك . وكان ملكشاه مولعاً بالعمائر ، فعمَّر الأسوار والقناطر وحفر الأنهار ، وأبطل المكوس فى جميع بلاده ، وأقام مصانع الماء بطريق مكة وأنفق عليها أموالاً طائلة ، وهو الذى عمَّر جامع السلطان ببغداد سنة ٤٨٥ وكانت الطرق فى أيامه آمنة ، تسير القوافل من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب فى مملكته وليس معها خفير.

وتزوج الخليفة المقتدى بابنته سنة ٤٨٠ . ويقول ابن خلكان : كان اليمن والبركة مقرونين بناصيته ، وكان إذا دخل بغداد أو أصبهان أو أى بلد من البلاد دخل مع عدد لا يحصى لكثرته ، فيرخص السعر وتنحط أثمان الأشياء عما كانت عليه قبله . ويتكسب المتعيشون مع عسكره الكسب الكثير. وكان ينفق الأموال الكثيرة على المدارس والرباطات . وتوفى ببغداد فى شوال سنة ٤٨٥ وحُمل تابوته إلى أصبهان ودفن فى مدرسة موقوفة على الشافعية والحنفية . وبه ينتهى عهد السلاجقة العظام ، وخلفه ابنه بَرْكْيارُوق ، وكان أخوه السلطان سِنْجَر نائبه على خراسان ، ودخل فى حروب مع أخيه محمد صاحب أذربيجان ، وكانت كفته دائماً الراجحة ، وحاربه عمه تُتُش صاحب دمشق ، وقُتل فى بعض المعارك . ودوَّخ الإسماعيلية الباطنية فى إيران ، وقتل منهم كثيرين ، وكان عالى الهمة إلا أنه كان مولعاً بالشراب والإدمان عليه وتوفى سنة ٤٩٨ . وخلفه أخوه محمد ، وله وقائع مع الإسماعيلية وانتصارات متوالية استولى فيها على بعض حصونهم ، ويقول ابن خلكان : « له الآثار الجميلة والسيرة الحسنة والمعدلة الشاملة والبر بالفقراء والأيتام والحرب للطائفة الملحدة (يريد الإسماعيلية) والنظر فى أمور الرعية » . وتوفى سنة ٥١١ . وقام بالملك بعده ابنه محمود وهو يومئذ فى سن الحلُم ، وكان قوى المعرفة بالعربية حافظاً للأشعار والأمثال عارفاً بالتواريخ والسِّيَر شديد الميل إلى أهل العلم والخير ، وهو ممدوح حَيْص بَيْص الشاعر المشهور ، ويقول ابن خلكان إن السلطنة ضعفت فى أواخر أيامه وقلت أموالها حتى عجزوا عن إقامة وظيفة الفُقّاعى أو الشَّرابى ، فدفعوا له يوماً بعض صناديق الخزانة حتى باعها وصرف ثمنها فى حاجته .

وتوفى سنة ٥٢٥ بعد أن عهد لابنه داود وهو صغير فى المهد ، ولما كان لا يصلح لصغره تولى السلطنة عمه طُغْرل ، وتوفى سنة ٥٢٧ فصارت إلى أخيه مسعود . وكان قد سلمه أبوه إلى أتابكة الموصل : مودود ثم آق سنقر ثم جوش بك ، وكان شجاعاً ، غير أنه أقبل على

الاشتغال باللذات ، وطالت أيامه حتى سنة ٥٤٧ وقتل من الأمراء خلقاً كثراً ، وممن قتلهم الخليفتان لعهده المسترشد بالله والراشد . وفى هذا ما يدل على أن السلاحقة استهانوا بخلفاء بنى العباس ولم يَدعوا لهم حَوْلا ولا طَوْلا ، إذ استخلصوا منهم كل شىء حتى حق الحياة . ويقول ابن خلكان لم تقم للسلاجقة بعد مسعود راية ، وكأنه يختم دولتهم فى العراق ، أو قل كأن قتله للخليفتين المسترشد والراشد كان إيذاناً بانتهاء الدولة السلجوقية ، وأقيم بعده فى الملك ابن أخيه ملكشاه بن محمود ، ولم يلبث أن توفى بعد خمسة أشهر من حكمه .

ولابد أن نلاحظ أنه منذ انتهاء عهد السلاجقة العظام بموت ملكشاه سنة ٤٨٥ أخذ البيت السلجوقى يضعف لصغر السلاطين الذين كانوا يعتلون العرش وهم أحداث . وابتدع السلاجقة نظام الأتابكة ، وهم قواد يتولون تربية أبنائهم ، وكانوا يجعلونهم معهم حين يولونهم بعض الإمارات فيصبحون هم الحكام الحقيقيين ، وليس ذلك فحسب ، فكثيراً ما تنافسوا فيما بينهم ، فكان كل منهم يريد أن يفوز لأميره الذى فى رعايته بالسلطنة ، وبذلك حمل الإخوة وأبناء الأعمام السيوف وشهرها بعضهم فى وجوه بعض ، مما جعل عهود بركياروق ومحمد وابنه محمود ومسعود حروباً متصلة ، وبذلك ضعفت الدولة أو أخذت فى الضعف سريعاً .

وكانت تُمْنَحُ لبعض هؤلاء الأتابكة بلدان وإقطاعات تقطعها الدولة لهم ، حتى يساعدوها بما تحتاج إليه من مال وجُنْد . وانتهز بعض هؤلاء الأتابكة الفرصة فاستقلوا ببلدانهم وجعلوها وراثية فى أسرهم . نذكر منهم الأرتقيين أو الدولة الأرتقية فى ديار بكر والجزيرة وبلدانها مَيَّافارِقين وآمِد وحصن كَيْفا وحَرَّان ومارْدين ، كما نذكر منهم بنى زنكى فى الموصل ولهم الفضل الأكبر فى القضاء على الصليبيين فإن « زنكى » الملقب بعماد الدين هو الذى افتتح سلسلة دَحْرهم وطردهم من ديارنا باستيلائه على « الرُّهَا » من جوسلين الصليبى ، وبذلك سقطت أولى ممالكهم ، وتبعه ابنه نور الدين يمحقهم محقاً فى الشام ، وحين علا نجم صلاح الدين وتبعته الشام ترك للأسرة الموصل وبلدانها سِنْجار وغيرها .

على كل حال كان طبيعيا أن تهبط الدولة السلجوقية بعد صعود ويأفل نجمها ، وقد حاول محمد شاه بن محمود السلجوقى فى سنة ٥٥٢ الاستيلاء على بغداد غير أنه أرغم على فك الحصار ، أرغمه الخليفة المقتفى وجنوده ، ولم يستطع السلاجقة بعد ذلك العودة إلى بغداد ، بل انحازوا إلى هَمذان حيث توالى فيها سلاطينهم إلى حين . وعاد إلى بغداد وما يتبعها من البلدان جنوبى الموصل استقلالها ، ورُدَّت إلى الخلفاء حرياتهم وسلطانهم

وللمقتفى[1] (٥٣٢ – ٥٥٥هـ) الفضل فى عودة صولجان الحكم إلى أيدى الخلفاء العباسيين . وظلوا قابضين عليه حتى الغزو المغولى أو التتارى سنة ٦٥٦ وكان المتقى عالماً أديباً دمث الأخلاق .

وخلفه ابنه المستنجد (٥٥٥ – ٥٦٦ هـ) وكان عادلا محبوباً فى الرعية أزال المظالم والمكوس . وولى الخلافة بعده ابنه المستضىء (٥٦٦ – ٥٧٥ هـ) وكان حسن السيرة أسقط المكوس والضرائب فى أيام خلافته . وفى أيامه أعاد صلاح الدين الخطبة باسمه فى مصر والثغور الشامية ، وانقطعت دولة الفاطميين من مصر وأعمالها ، وبذلك عاد للأمة اجتماعها على خليفة واحد . وخلفه ابنه الناصر (٥٧٥ – ٦٢٢ هـ) وفى عهده سحق صلاح الدين الصليبيين فى الشام واستولى منهم على بيت المقدس وغيره من البلدان والحصون . واستطاع عبد الجبار البغدادى فى أيامه أن يحوِّل جماعة الفتاك الذين كانوا يُرْهبون الناس فى بغداد وينهبون الأموال إلى جماعة كبيرة للفتوة والبسالة ، واتخذ لهم سراويل مخصوصة ، وبذلك أحالهم إلى جماعة حربية ، واستنفر فئات منهم كثيرة لجهاد الصليبيين فى الشام مع الأيوبيين ، ورعى الناصر الجماعة خير رعاية ، وانضم إليها ولبس سراويلها ، وأرسل بها إلى ولاته كى يلبسوها ويصبحوا من فتيان الأمة المجاهدين . وممن أرسلها إليهم الملك العادل أخو صلاح الدين وأبناؤه ، فلبسوها ، ولبسها شهاب الدين صاحب غزنه والهند .

ويتولى الخلافة بعد الناصر ابنه الظاهر ، ولا يدور العام حتى يتوفى ، ويخلفه ابنه المستنصر (٦٢٣ – ٦٤٠ هـ) وكان شغوفاً بالعلم فأسس مدرسته المستنصرية المشهورة . ونشر السنن وكفَّ الفتن . وأخذ سيل المغول أو التتار يتعاظم فى عهده ويكتسح خوارزم وإيران وتمتد بعض سيوله إلى ديار بكر والجزيرة . وولى الخلافة بعده ابنه المستعصم (٦٤٠ – ٦٥٦ هـ) وكان ضعيفاً جاهلاً بتدبير الملك ، استوزر مؤيد الدين بن العلقمى ، وكان رافضياً حريصاً على زوال الدولة ، فكاتب هولاكو وأرسل إليه أخاه وغلامه ، وسهَّل عليه فتح العراق وأخْذَ بغداد .

وسارع هولاكو ، وهاجم بغداد ، ولقيه العسكر والبغداديون على مرحلتين من بغداد ،

---

(١) انظر فى المقتفى والخلفاء العباسيين التالين تاريخ ابن الأثير وابن طباطبا وابن تغرى بردى وابن خلدون والبداية والنهاية لابن كثير والعبر فى خبر من غبر للذهبى (طبع الكويت) وخلاصة الذهب المسبوك للإربلى (طبع بغداد) ومآثر الإنافة فى معالم الخلافة للقلقشندى وتاريخ الخلفاء للسيوطى (طبع القاهرة) وجامع التواريخ لرشيد الدين الهمدانى ترجمه إلى العربية محمد صادق نشأت ومحمد موسى هنداوى وفؤاد عبد المعطى الصياد (طبع القاهرة) وتاريخ العراق فى العصر العباسى الأخير للدكتور بدرى محمد فهد (طبع بغداد) .

وسرعان ما انكسروا وأخذتهم السيوف ، وأشار ابن العلقمي على المستعصم أن يخرج للقاء هولاكو ومفاوضته ، فقتله خنقاً ، ودخل التتار بغداد وظلوا يُعْملون السيف فى أهلها أربعة وثلاثين يوماً ، حتى بلغ عدد القتلى نحو ثمانمائة ألف ، وخربتْ بغداد خراباً لا حد له ، وأحرقت بها كتب العلم والأدب ، وانقضت الخلافة العباسية منها وزالت أيامها ، ورثاها الشعراء مراثى كثيرة من مثل مرثية الشيخ تقى الدين التنوخى ، وفيها يقول :

يا زائرين إلى الزَّوْراء لا تَفِدوا فما بذاك الحِمى والدارِ ديَّارُ

وذاق ابن العلقمي الذل والهوان من التتار ، كما ذاقها أيضاً مَنْ مالأهما من حكام الموصل والجزيرة ، وفى مقدمتهم بدر الدين لؤلؤ . وكان الأمير الزنكى أستاذه الملقب بالملك القاهر صاحب الموصل قد توفى سنة ٦١٥ وخلفه ابنه نور الدين وسنه عشر سنوات ، وكان قد جعل بدر الدين لؤلؤاً أتابكا له ، ولم يلبث نور الدين أن توفى ، فأقام لؤلؤ مكانه أخاه ناصر الدين ، وله من العمر ثلاث سنوات ، ومازال يعمل على تثبيت سلطانه ، حتى ملك الموصل فى سنة ٦٣٠ وأزال منها الأسرة الزنكية . وما إن تدافعت أمواج التتار نحو أَذْرَبيجان حتى أخذ يمدهم بما يحتاجون إليه من الزاد والعتاد منذ سنة ٦٣٤ وما إن علم بتقدم هولاكو نحو بغداد حتى أعد جيشاً لمساعدته بقيادة ابنه إسماعيل إلا أن الجيش تأخر قليلا ، فما كان من هولاكو إلا أن حزَّ رأس إسماعيل وأرسل بها إلى أبيه ، فذهب إليه هلعاً فزعاً يحمل الهدايا ، وتوفى بدر الدين فى سنة ٦٥٧ . ولم يلبث هولاكو أن اجتاح الموصل بجيوشه ، وقتل حاكمها الصالح بن بدر الدين لؤلؤ ، فلم تنفعه لا هو ولا أبوه خياناتهما المتكررة ، وأصبحت العراق كلها فى حوزة التتار .

٢

الدول : المغولية والتركمانية والصفوية والعثمانية

المغول أو التتار قبائل رُحَّل كانت تستوطن منغوليا على حدود الصين ، واستطاع أحد أبنائها وهو جنكِزْ خان أن يجمعها تحت لوائه ، وأن يفتح بها الصِّين وبكين ، حتى إذا تم له ذلك وجَّه جموعه نحو فارس فاستولت على بخارى ومملكة خوارزم وزحفت سيولها إلى الرَّىّ وهمذان ، مستولية على شمالى فارس فيما بين سنتى ٦١٦ و ٦٢٥ للهجرة وتوفى فى السنة الأخيرة بالصين . وخلفه ابنه أوكدى (٦٢٥ - ٦٣٩) الذى استطاع أن يُخْضع روسيا وبولندة لحكمه ، وخلفه ابنه كيوك حتى وفاته سنة ٦٤٦ وولى بعده ابن عمه منكو ، وهو

الذى أرسل بأخيه هُولاكو إلى إيران ، فقضى فيها على الإسماعيلية الحشاشين ، وأخذ يعمل على الاستقلال بإيران مع تبعيته لأخيه ، ولم يكتف بها ، فقد امتدت مطامعه إلى العراق وبغداد ، ولم يلبث أن خرَّب بغداد المدينة التاريخية العظيمة كما أسلفنا سنة ٦٥٦ ، واتخذ هولاكو لقب (إيل خان) أو تابع الخان وهو لقب ورثه عنه خلفاؤه على إيران والعراق مما جعل دولتهم تسمى الدولة الايلخانية ، بينما انتسب المد المغولى الثانى فى إيران والعراق إلى تيمورلنك ، مما جعل دولته هو وأبنائه تسمى الدولة التيمورية ، وبذلك تنقسم الدولة المغولية إلى دولتين : الدولة الايلخانية والدولة التيمورية .

الدولة المغولية الإيلخانية (١)

تنتسب هذه الدولة إلى هُولاكو (إيلخان) الذى أطبقت جموعه على بغداد والعراق فى سنة ٦٥٦ ومضت إلى الشمال فاستولت على ديار بكر والجزيرة وأخذت تعد العدة للاستيلاء على الديار الشامية والمصرية . ومضوا فى سنة ٦٥٨ يستولون على حلب وبلدان الشام ، وسلمت لهم دمشق ، وسقطوا إلى فلسطين فى الجنوب ، فلقيهم الجيش المصرى بقيادة قُطز والظاهر بيبرس فى عَيْن جالوت بالقرب من نابلس ، فمزق جموعهم تمزيقا ، وقُتل قائدهم ، وكانت مجزرة عظيمة لهم حتى إنه لم يسلم منهم إلا فلول قليلة ولت الأدبار ، وتبعها الظاهر بيبرس إلى أطراف الشام فى الشمال . وبذلك رُدَّ سيلهم عن الشام ومصر إلى غير مآب . ولم يملك هُولاكو – كما قدمنا – ملكاً مستقلا فقد كان نائباً عن أخيه منكو ، ولم يضرب باسمه مستقلا سكة درهم ولا دينار ، بل كانت تضرب باسم أخيه . وكان وثنيا كأجداده وقومه ، غير أنه كان يعطف على النصارى إرضاء لزوجه النصرانية : « دُقوز خاتون » ومات سنة ٦٦٣ وقيل سنة ٦٦٤ وخلفه على العراق وإيران ابنه « أَبْغَا » .

ولما ملك أضاف اسمه إلى اسم الخان الأكبر فى بكين ووجه أخاه مَنْكوتَمُر بالعساكر إلى الشام للاستيلاء عليها ، فالتقى مع الجيوش المصرية الشامية عند حمص « بقيادة قلاوون وهُزم هزيمة منكرة فلما بلغت الهزيمة أَبغْا سنة ٦٨٠ رجع إلى همذان فمات بها غَماً وكمدا . وخلفه مَنْكوتَمُر ، وكان نصرانيا ، ولم يلبث أن مات بنفس الكمد والغم . وملك بعدهما

(١) انظر فى هذه الدولة تاريخ ابن كثير وابن خلدون والنجوم الزاهرة والجزء الثانى من دول الإسلام للذهبى (طبع حيدر آباد) وجامع التواريخ لرشيد الدين الهمدانى (الترجمة العربية) ومسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى والجزء الرابع من صبح الأعشى وتاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى لبراون (ترجمة الشواربى) وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان وإيران : ماضيها وحاضرها لدونالدولبر ص٦٥ والعراق فى عهد المغول الإيلخانيين لجعفر خصباك (طبع بغداد) .

أخوهما بوكدار بن هولاكو سنة ٦٨١ وأسلم وحسن إسلامه ، وتسمى أحمد ، وبنى بممالكه الجوامع والمساجد وصالح السلطان الملك المنصور قلاوون الذى فرح بإسلامه . وحاول أن يحمل عسكره على الإسلام فقتلوه سنة ٦٨٣ وملك بعده ابن أخيه «أَرْغُون بن أَبْغَا» حتى سنة ٦٩٠ وكان سفاكاً للدماء شديد الوطأة ، وولى الملك بعده أخوه «كَيْخَتُو» فأفحش فى الفسق بنساء المغول وبناتهم فوثب عليه ابن عمه بَيْدو بن طَرْغاى بن هولاكو وقتله سنة ٦٩٣ ولم يلبث أن قُتل بدوره فى أواخر هذه السنة ، وملك بعده غازان بن أرْغون بن أبْغا بن هولاكو ، وأسلم فى سنة أربع وتسعين ، وتسمى محموداً ، واحتفل بإسلامه ونثر الذهب والفضة واللؤلؤ على رؤس الناس ، وأسلم غالب جنده وعساكره ، وفشا الدين الحنيف بإسلامه فى ممالك التتار ، وقد اختار المذهب السنّى .

وهو أجل ملوك المغول من بيت هولاكو ، ودخلت جيوشه الشام فى سنة ٦٩٩ وتمت لها الغلبة على جيوش الناصر محمد بن قلاوون ، وملك الشام ، ولا نمضى إلى سنة ٧٠٢ حتى يكيل له الناصر محمد بن قلاوون الصاع صاعين ، إذ تنشب بينهما الحرب بالقرب من دمشق ، ويدمَّر فيها جيش المغول أو التتار تدميراً ، وظلت الصرخات والنياحات فى ديارهم – حين بلغهم الخبر – شهرين . واغتم غازان غما عظيماً ، ويقال إنه لم يصل إليه من جيشه إلا واحد من كل عشرة انتخبهم للحرب . وكان مَنْ قبله منذ هولاكو يحكمون باسم الخان الكبير فى بكين ، فاتخذ لنفسه صفة الحاكم بإرادة الله ، وكان الخراج يُفرضُ قبله حسب أهواء الجباة من حكام المغول فأمر بأن تُمْسَحَ الأراضى وأن يتَّخذ ذلك أساساً فى فرض الضرائب حتى لايُظْلَمَ أحد ، وأصلح النظام النقدى فى الدولة وجعله نقداً معدنيا صحيح الوزن والقيمة ، وأعاد للشريعة الإسلامية سلطانها وقوتها .

وكان يتخذ تبريز حاضرة له فزينها بالمساجد ودور العلم وشيد بها مرصداً فلكيا عظيماً . وتوفى سنة ٧٠٣ وولى الملك بعده أخوه «خُدابندا» والعامة تسمية «خَرْبَنْدا» وكان سنيا ثم أصبح شيعياً غالياً وأظهر الرفض فى بلاده سنة ٧٠٩ وأمر الخطباء أن لا يذكروا فى خطبهم إلا على بن أبى طالب وولديه وأهل البيت ، وتوفى سنة ٧١٦ .

وخلفه بو سعيد ابنه ، وكان يعتنق المذهب الحنفى وكان ملكاً جليلاً مهاباً حصيفاً ، وكان يجيد ضرب العود والموسيقى وصنّف فى ذلك ، وكان حسن السيرة ، أبطل عدة مكوس فى مملكته وأراق الخمور فى بلاده ومنع الناس من شربها وهدَم الكنائس . وكانت بينه وبين الناصر محمد بن قلاوون مودة بعد وحشة ، ومكاتبات ومراسلات ، توفى سنة ٧٣٦ . وهو آخر ملوك المغول المهمين من بيت هولاكو ، وبوفاته تفرقت المملكة بأيدى حكّام

مختلفين ، وأصبحوا شبيهين بملوك الطوائف من الفرس . وفى مسالك الأبصار بعد ذكر بوسعيد : « ثم هم (أى التتار فى إيران والعراق) بعده فى دهياء مظلمة وعمياء مقتمة ، لايُفْضى ليلهم إلى صباح ، ولا فرقتهم إلى اجتماع ، ولافسادهم إلى صلاح ، وفى كل ناحية هاتف ، يُدْعَى باسمه ، وخائف أخذ جانبا إلى قسمه ، وكل طائفة تتغلب وتقيم قائماً تقول من أبناء الخان أو القان ، وتنسبه إلى فلان ، ثم يضمحل أمره عن قريب ، ولاتتحقق دعوته حتى يُدْعَى فلا يجيب ، وما ذلك من الدهر بعجيب » . وفى سنة ٧٤٠ صارت بغداد والعراق بيد الشيخ حسن الكبير ، وهو الحسن بن الحسين بن أقْبغا ، كان جده رفيقاً لهولاكو . وتوفى سنة ٧٥٧ .

وملك بغداد والعراق بعده ابنه أويس ، وهو سِبْط أرغـــون بن أبغا أو ابن ابنته ، وكان حسن السيرة عادلاً محباً للفقراء والعلماء توفى سنة ٧٧٦ وخلفه ابنه السلطان الملك المعز حسين ، وكان قد ولاه مكانه فى أواخر أيامه ، وكانت العراق فى عهده مطمئنة معمورة ، وقتله أخوه أحمد سنة ٧٨٤ وتولى الملك بعده ، وتلقب بالسلطان غياث الدين ، وكان ظالماً سفاكاً للدماء أسرف فى قتل أمرائه وبالغ فى ظلم الرعية وانهمك فى الفجور والفساد ، فكاتب أهل بغداد تيمورلنك بعد استيلائه على مدينة تبريز يحثونه على المسير إلى بغداد ، فتوجه إليها بعساكره سنة ٧٩٥ واستولى عليها وفر أحمد بن أويس إلى الديار الشامية ، مستغيثاً بالسلطان برقوق صاحب الشام ومصر وكان تيمور قد فارقها فأعانه على استردادها فى السنة التالية ، وسنرى فى حديثنا عن تيمورلنك وأسرته ما كان من أمره .

الدولتان : المغولية التيمورية (١) والتركمانية

قاد الموجه المغولية الثانية تيمورلنك المولود فى «كش» من بلدان ما وراء النهر ، وهو ينحدر من سلالة جنكز خان ، وكانت ولادته سنة ٧٣٦ للهجرة ، وكان أبوه واليا لكش وأعمالها ، وكان طموحه واسعاً ، فعمل على جمع زمام الأمور فى يده لا فى كش وحدها ، بل فى كل بلاد ما وراء النهر بحيث أصبحت لسنة ٧٧١ جميعاً فى قبضته ، ثم أخذ يُعدُّ العدة للانقضاض على خراسان واستولى عليها سنة ٧٨٢ ومضى فى سنة ٧٨٤ يستولى على مازندران وسِجِسْتان وجُرْجان ، ولم يلبث أن استولى على فارس وأذْرَبيجان سنة

---

(١) انظر فى تيمور وحكام بغداد بعده احمد بن أويس والتركمان ابن عربشاه فى كتابه « عجائب المقدور فى نوائب تيمور » وابن تغرى بردى فى الجزءين الثانى عشر والثالث عشر وخاصة فى ٢٥٤/١٢ حيث عقد لتيمورلنك ترجمة طويلة وبالمثل عقد لأحمد بن أويس ترجمة فى المنهل الصافى ٢٣٢/١ ، وراجع تاريخ ابن خلدون والضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ودائرة المعارف الإسلامية فى تيمور وأوزون حسن التركمانى ، وإيران : ماضيها وحاضرها لدونالدولبر .

٧٨٨ وأخذ يفتح البلدان فى شمالى العراق ، حتى إذا كان شهر شوال سنة ٧٩٥ حاصر بغداد ، وهرب منه أحمد بن أويس إلى السلطان برقوق فى الشام وخرَّب تيمور غالب العراق ومدنه : بغداد والبصرة والكوفة ، وقصد الشام فى سنة ٧٩٨ ورجع خائفاً من الظاهر برقوق إلى سمرقند عاصمته وكانت جيوشه قد تغلغلت فى روسيا واستولت على موسكو ، وسار إلى الهند فى سنة ٨٠٠ وعبر نهر السند واستولى على دلهى بعد أن قتل من أهلها ثمانين ألفا ، وكان أحمد بن أويس قد عاد إلى بغداد بمعونة المصريين ، ومثله قَرَا يوسف عاد إلى نيابته على الرُّها فى الجزيرة . وبلغ تيمور موت السلطان الظاهر بَرقوق صاحب مصر والشام وموت برهان الدين أحمد صاحب سيواس بالجنوب الغربى من آسيا الصغرى ، فَرأى أن الظفر بمملكتيهما أصبح قريباً ، وكاد أن يطير بموتهما فرحاً ، فاستناب بالهند من يثق به من أمرائه ، وعاد إلى سمرقند . ثم خرج منها مسرعاً فى أوائل سنة ٨٠٢ ومضى إلى تبريز فاستخلف فيها ابنه ميران شاه . وكان أحمد بن أويس قد سار مع أمرائه ورعيته سيرة سيئة ، فقاتلوه وخرج منهزماً واستنجد بالأمير قرا يوسف التركمانى صاحب تبريز والرُّها وديار بكر ، وعاد معه إلى بغداد . وصيَّف تيمور فى بلاده ثم مضى إلى سيواس فاستولى عليها أول سنة ٨٠٣ وخرَّبها ومَحَا رسومها . ثم قصد الديار الشامية ، واستولى على حلب بعد أن أعمل السيف فى جنودها وأهلها حتى امتلأت الجوامع والطرقات بالقتلى ، وعمل تيمور – فيما يقال – من رءوس القتلى منائر عدة ترتفع عن الأرض عشرة أذرع تهديدا ووعيدا . ورحل عن حلب بعد أن تركها خاوية على عروشها خالية من سكانها وأنيسها ، وكان ابنه ميران شاه قد أخذ حماة وأشعل النار بها وأصحابه يقتلون ويأسرون وينهبون ، وقتلوا الأطفال على صدور الأمهات ، واتجه إلى دمشق وواقعتْه جنود السلطان فرج بن برقوق ولم تثبت طويلا ، ولم يلبث أن وقَّع مع أهل دمشق صلحا ، ودخلها هو وجنوده وغدر بهم فأشعل جنوده بها النار ، فاحترقت وسقطت بعض سقوف الجامع الأموى ، وصارت أطلالا بالية ورسوماً دائرة كما يقول المؤرخون . وأقام هو وجنوده عليها ثمانين يوماً ، ثم رحل عنها فى شعبان سنة ٨٠٣ وظل فى انسحابه مع جنوده من الشام ، وأوهم أنه يريد سمرقند وهو إنما يريد بغداد ، وكان أحمد بن أويس قد استناب عنه فيها أميراً يسمى فرجاً ، واتجه هو وقرا يوسف صاحب الرُّها نحو آسيا الصغرى ، فندب تيمور بعض قواده لأخذ بغداد ، ثم تبعه وحاصر بغداد حتى أخذها عنوة فى يوم عيد النحر أو العيد الأضحى من نفس السنة ، ووضع السيف فى البغداديين ، حتى سالت الدماء أنهاراً ، ويقال إنه قتل من أهلها نحو مائة ألف إنسان ، وبنى من رءوسهم – على عادته كلما دخل

مدينة عنوة – مآذن كثيرة .

ثم رحل من بغداد إلى الشمال متجهاً إلى آسيا الصغرى وحَرْب بايزيد العثمانى ، وانضم إلى جيشه التركمان فى قَيْسارية وسيواس وتقدم نحو سهل أنقرة وكاتب مَنْ مع بايزيد من التتار وأنه أولى بأن ينضموا إليه لأنهم من أبناء جلدته ، فوعدوه أن ينضموا إليه حين تدور رحى الحرب بينه وبين بايزيد ، وكان بايزيد قد نكل ببعض أمراء السلاجقة واستولى على بلدانهم ، فانضموا إلى تيمورلنك . والتقى الجيشان فى الشمال الشرقى من أنقرة فى التاسع عشر من ذى الحجة عام ٨٠٤ وانفض عن بايزيد جنوده التتار منضمين إلى تيمور كما وعدوه وكانوا معظم عسكره ، وتلاهم ولده عثمان الذى عاد بجنده إلى مدينة بروسة ، ولم يبق مع بايزيد إلا نحو خمسة آلاف فارس ، فثبت بهم إلى أن أخذ أسيراً على بعد ميل من أنقرة وكان قد حاول الفرار ، وأكرمه تيمور ، وأسف لموته فى شعبان سنة ٨٠٥ وأذن بدفنه تكريماً له فى جامع بروسة .

وعاد تيمور إلى سمرقند عاصمته ، واستقبل فيها كثيراً من السفراء من بينهم سفير ملك قَشْتالة . وزَيَّن عاصمته بالقصور الفخمة مستعيناً بمن جلبهم إليها من بنَّائى الفرس وغيرهم ، وكان يعطف بوصفه مسلما على العلماء ورجال الدين من الصوفية وخاصة دراويش الطريقة النَّقْشَبندية وقد استطاع فعلا أن يستعيد مملكة جِنْكِزْخان من موسكو إلى نهر الكنج ومن حدود الصين حتى سوريا ورأى مقتدياً بسلفه أن يستولى على الصين ، فأرسل إليها حملة فى سنة ٨٠٧ غير أنه لم يلبث أن مرض وتوفى فى شعبان من نفس السنة بإحدى المدن فيما وراء النهر ، ونُقل إلى عاصمته ودفن بها فى ضريح فخم لا يزال قائماً بها إلى اليوم .

وتوزعت إمبراطوريته بين ولديه : شاه رخ وميران شاه ، وكان للأول النصيب الأكبر فحكم خراسان وسجستان وما وراء النهر وإيران ، وحكم ميران شاه العراق وأذربيجان والكَرَج أو جورجيا ، وكان يخضع لسلطان أخيه ، ولم يلبث أن قُتل فى حربه مع قرايوسف التركمانى صاحب تبريز سنة ٨١٠ هـ/١٤٠٧م فدخلت بلاده فى حوزة أخيه ، فأصبح يحكم كل مملكة أبيه تيمورلنك ما عدا الشام والعراق وعربستان ، وقد بسط سلطانه على الصين والهند ، وعاش طويلا حتى سنة ٨٥٠هـ/١٤٤٧م وكان يرعى العلوم والآداب فى مملكته الواسعة .

وخلفه ابنه أُلُغ بَك وكان عالما فلكيا واهتم برعاية الأدبين الفارسى والتركى غير أنه قتل بعد سنتين بيد ابنه عبد اللطيف . وينتاب الدولة التيمورية اضمحلال سريع ، ويتقاتل

الإخوة وأبناء العم ، ويستولى على صولجان الحكم بوسعيد سنة ٨٥٤ هـ - ١٤٥٠ م ويستقر زمام الحكم فى يده ويقتل فى حرب طاحنة مع أوزون حسن صاحب ديار بكر وأرمينية فى سنة ٨٧٤ هـ/ ١٤٦٩م وتعود المملكة إلى الاضطراب . وقد استطاع شيبانى زعيم الأوزبك فى سنة ٩٠٦ هـ / ١٥٠٠ م خلع بابر حفيد أبى سعيد عن عرشه فى سمرقند ، فهاجر إلى الهند وأسس بها دولة المغول العظام .

وأما العراق وبغداد فعادتا بعد وفاة تيمور إلى أحمد بن أويس وتنشب حرب بينه وبين قرايوسف التركمانى صاحب تبريز ويخرّ فى ميدانها صريعا سنة ٨١٣ وتقع العراق وبغداد فى قبضة التركمانيين بزعامة قرايوسف حتى وفاته سنة ٨٢٣ ويتوارثها عنه أبناؤه وأحفاده ، وفى أيامهم ودولتهم عمَّها الخراب لفساد حكمهم حتى ليقول ابن تغرى بردى : لا أعلم فى طوائف التركمان أقبح طريقة ولا أسوأ سيرة من أولاد قرايوسف وينتزعها منهم فى سنة ٨٧٢ هـ/ ١٤٦٧ م أوزون حسن المار ذكره وكان تركمانيا واسع الطموح ، فوضع نصب عينيه إنشاء دولة قوية لا يكتفى فيها بمقر حكمه وهو ديار بكر ، بل تتسع لتشمل أرمينية و إيران والعراق ، ودخل فى حروب طويلة مع العثمانيين . وفى هذه الأثناء كانت أسرة صوفية فى أردبيل قد أخذ نفوذها يتسع منذ عهد مؤسسها الشيخ إسحق صفى الدين ، وبلغ حفيده خوجا على من الشهرة بالتقوى ما جعل تيمورلنك بعد انتصاره على بايزيد العثمانى يقف أردبيل وضواحيها عليه وعلى عقبه . وسرعان ما تحولت إلى ما يشبه إقطاعاً لهم ، وعقد أحد أحفاده المسمى حيدراً صلة وثيقة بينه وبين أوزون حسن ، وزوَّجه أوزون ابنته مارثا وأنجب منها ابنه إسماعيل الذى أتيح له أن ينشىء لأسرته الصفوية دولة وطيدة فى إيران .

الدولة الصفوية[١]

كان حيدر بعيد النظر ، فأعاد تنظيم طريقة آبائه الصوفية الشيعية على أسس جديدة ، متخذاً لها شعاراً للرأس ، أو بعبارة أخرى عمامةً سُمِّيت تاج حيدر الأحمر ، وهى عمامة ذات اثنتى عشرة ذؤابة رمزاً إلى أن صاحبها شيعى إمامى اثنى عشرى . وما وافت سنة ٨٨٨ هـ / ١٤٨٣ م حتى بدأ حملاته الحربية ، فقاتل الجراكسة واشتبك فى سنة ٨٩٤ هـ / ١٤٨٨ م فى حرب مع صهره يعقوب بن أوزون حسن وسقط قتيلاً فى المعركة ،

(١) انظر فى الدولة الصفوية تاريخ الموصل لصايغ وتاريخ بغداد وتاريخ الدولة الفارسية فى العراق لنعمان الأعظمى وأربعة قرون من تاريخ العراق لستيفن لونكريك ترجمة جعفر خياط (طبع بيروت) وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ، وإيران : ماضيها وحاضرها لدونالدولبر .

وتوفى يعقوب بعده بنحو سنتين وتصارع أولاده واشتبكوا فى حروب دامية ، مما أتاح الفرصة لأبناء حيدر كى يعود لهم نفوذهم من جديد .

وتطورت الظروف سريعاً ، بحيث لا نصل إلى أوائل القرن العاشر الهجرى حتى نجد إسماعيل بن حيدر يخرج بعد وفاة أخوين له كانا أكبر منه للمطالبة بثأر أبيه ، ويمد سلطانه تدريجاً على شيروان وأَذْرَبيجان ويأخذ فى تأسيس دولة فارسية وطنية ويستولى على تَبْريز فى سنة ٩٠٨ هـ / ١٥٠٢ م ويتوج فيها ملكاً (شاه) على إيران . وأعلن أن العقيدة الشيعية الإمامية الاثنى عشرية مذهب الدولة الرسمى. ولم يكتف بذلك فقد أكره الرعية على سب أبى بكر وعمر وعثمان . وأخذ يُعِدُّ العدة لمنازلة مراد خان التركمانى صاحب بغداد والعراق ، وكان قد هزم أخاه أَلْوَنْد هزيمة ساحقة فى أذربيجان واستولى منه على فارس ، وما توافى سنة ٩١٣هـ/١٥٠٧م حتى يستولى من مراد على بغداد والعراق ، ويفرّ مراد آخر سلاطين التركمان إلى السلطان سليم العثمانى. ومضى فى سنة ٩١٦هـ/١٥١١ إلى الشرق لمحاربة شيبانى زعيم الأوزبك والتقيا قرب مَرْو ، ودارت الدوائر على شيبانى وجنده وسقط صريعاً فى الحرب ، وبذلك اتسعت مملكة إسماعيل ، حتى امتدت من هراة شرقاً إلى بغداد غرباً ، ووضح للعيان أنه لابد من الاصطدام بين دولة الشاه إسماعيل الصفوى الشيعى الإمامى وبين دولة السلطان سليم العثمانى السنى ، وخاصة أن الشاه إسماعيل كان قد بالغ فى اضطهاد أهل السنة ، مما جعل السلطان سليماً يدعو إلى الجهاد ضد الشاه والشيعة . والتقى الجيشان الصفوى والعثمانى بالقرب من تبريز بوادى جالداران فى المحرم سنة ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م ومنى الشاه بهزيمة منكرة ، وفَتحت عاصمته «تبريز» أبوابها للسلطان سليم ، واضطَّر الشاه إسماعيل إلى أن يعقد معه صلحاً ، ولم يفكر بعد ذلك فى حرب العثمانيين إلى أن توفى سنة ٩٣٠ هـ / ١٥٢٣ م وخلفه ابنه طهماسب وهو فى العاشرة من عمره ، وطالت مدته فى الحكم اثنين وخمسين عاماً امتلأت بالحروب المتصلة ضد أعدائه الشيبانيين فى الشرق والعثمانيين فى الغرب . واستطاع ذو الفقار خان رئيس قبيلة كردية أن يزحف على بغداد ويقتل حاكمها من قبل طهماسب سنة ٩٣٠ وتظل فى حوزته حتى سنة ٩٣٦ هـ / ١٥٢٩ م إذ استعادها طهماسب ومضى فى اضطهاد أهل السنة مما جعل السلطان سليمان العثمانى يوجِّه فى أواخر سنة ٩٤٠ هـ / ١٥٣٤ م حملة إلى تبريز ، فتستولى عليها ، ويتجه هو إلى بغداد فيدخلها فى أول المحرم سنة ٩٤١ . وبذلك ينتهى عهد الدولة الصفوية فى العراق .

الدولة العثمانية (١)

تم للسلطان سليمان العثمانى الاستيلاء على العراق وبغداد فى سنة ٩٤١ ورفرف العلم العثمانى على البصرة فى سنة ٩٤٦ وبذلك أصبح العراق جميعه ولاية عثمانية ، بل قل ولايات عثمانية ، إذ قُسِّم إلى أربع ولايات . ولاية البصرة ، وولاية بغداد ، وولاية شَهْرزور ، وولاية الموصل . وفى حقب متفاوتة عُدَّت الأحساء والبحرين ولاية خامسة ، وارتبطتا بالبصرة حيناً وببغداد حيناً آخر . وقسمت كل ولاية إلى ألوية ، على رأس كل لواء سنجق أو أمير لواء . وكان الوالى يُعَدُّ الرئيس للسلطة التنفيذية مع الإشراف على الشئون الإدارية ، وكان يعاونه عدد من الموظفين ، فى مقدمتهم « الكتخدا » وهو مدير مكتبه الخاص وكثيراً ما كان يخلفه بعد وفاته ، و « الدفتر دار » وهو مدير الخزانة ومدبِّر الشئون المالية . وكانت هناك دواوين مختلفة ، أهمها ديوان الروزنامه أى ديوان الدفتر اليومى ، وكان به كثير من الكتَّاب أو كما كانوا يسمونهم أصحاب الأقلام .

وكان يوجد بجانب الوالى قاض كبير يتبع قاضى القضاة فى الأناضول ، وكان للقاضى نواب كثيرون فى كل ولاية يضطلعون بمهمة القضاء . ويشرف القاضى على تنفيذ القوانين حسب الشريعة الإسلامية كما يشرف على تنفيذ أوامر الدولة العثمانية .

وكانت توجد بجانب الوالى قوة عسكرية أساسية تحمى المدن والقلاع ، وتُعَدُّ فرعاً من الإنكشارية جند الدولة العثمانية الذين كانت تأسرهم فى حروبها بأوربا ، وهم لا يزالون غلماناً وتربِّيهم تربية عسكرية ، وكانوا يُمْنحون إقطاعيات ، وكثيراً ما توارثوها أو وقفوها ، فلم تُرَدّ إلى الدولة . وكانوا كثيراً ما يؤذُون الناس فى بغداد والعراق ويتعدَّون عليهم . وكان يوجد بجانبهم للولاة جند يحصلون عليهم بطريق الأسْر أو الشراء .

ويمر حكم الدولة العثمانية للعراق بثلاثة أدوار : الدور الأول يبتدئ من سنة ٩٤١ هـ / ١٥٣٤ م إلى سنة ١١١٦ هـ / ١٧٠٤ م وأهم الأحداث فى هذا العهد فتن الجند كما حدث فى عام ١٠٣١ هـ / ١٦٢١ م فقد ثاروا على والى بغداد بزعامة ضابط يسمى بكراً برتبة

---

(١) انظر فى الدولة العثمانية بالعراق تاريخ بغداد وتاريخ البصرة لنعمان الأعظمى وعشائر العراق لعباس العزاوى (طبع بغداد) والبلاد العربية والدولة العثمانية للحصرى (طبع القاهرة) وأربعة قرون من تاريخ العراق لستيفن لونكريك ترجمة جعفر خياط (طبع بيروت) وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ، والمماليك فى العراق لأحمد على الصوفى (طبع الموصل) والعراق : دراسة فى تطوره السياسى لفيليب إيرلند ترجمة جعفر خياط (طبع بيروت) وإمارة العمادية للدملوجى (طبع الموصل) ومقدمة تاريخ العرب الحديث ١٥٠٠ – ١٩١٨ الجزء الأول - للدكتور عبد الكريم محمود غرايبة (طبع دمشق) .

سوباشي وقتلوا الوالى يوسف باشا وتولى بكر مقاليد الحكم وحاربته الدولة ، فاستعان ضدها بشاه إيران عباس الصفوى ، وسرعان ما احتل هذا الشاه بغداد سنة ١٠٣٣ هـ / ١٦٢٣ م وقتل بكراً ونكل بأهل السنة واعتقل الألوف منهم ، وحاول شيعة بغداد مخلصين إنقاذ مواطنيهم فشهدوا لكثيرين منهم بأنهم شيعة .

وسارع الشاه إلى احتلال بقية العراق ، غير أن البصرة استعصت عليه ، إذ دافع عنها حكامها من آل أفراسياب وكانوا قد أتاحوا لها استقلالا ذاتيا عن العثمانيين من ١٠٠٥ هـ / ١٥٩٧ م إلى ١٠٧٨ هـ / ١٦٦٨ م للهجرة وقد دافعوا عن مدينتهم أمام جيوش عباس الصفوى دفاعاً مجيداً فارتدت عنها .

وظلت بغداد وبقية العراق مع الإيرانيين نحوخمسة عشرعاماً إلى أن استرجعها العثمانيون بقيادة السلطان مراد الرابع سنة ١٠٤٨ هـ / ١٦٣٨ م وفى هذه الأثناء سمح حكام البصرة للبرتغاليين بتأسيس وكالة تجارية لهم فيها سنة ١٠٣١ هـ / ١٦٢٢ م وبالمثل سمحوا للإنجليز فى سنة ١٠٤٩ هـ/ ١٦٣٩ م بتأسيس وكالة تجارية لهم ، وأغلقت سنة ١٠٦٩ هـ/١٦٥٨ .

وينتهى الدور الأول لحكم العثمانيين العراق سنة ١١١٦ هـ/ ١٧٠٤ م كما مرَّ بنا ، ويبتدئ دور ثان سُمى دور المماليك ، وفيه تعرَّضت العراق لخطر إيرانى كبير ، أدَّى إلى أن يتسلَّم صولجان الحكم فيها حسن باشا وابنه أحمد باشا ومماليكهما الذين أخذوهما بضرب من التربية يشبه صنيع الدولة فى إستانبول بالإنكشارية ، وكان حسن باشا قد تدرَّج فى مناصب الدولة إلى أن أصبح وزيراً ، وولى بعض الولايات ، ثم نُقل إلى بغداد فى سنة ١١١٦ فعمل على الاستقلال بها واتخاذ هؤلاء المماليك سنداً له . وكانت الدولة حينئذ مشغولة بحروبها فى أوربا مع الروس والبلقان ، فتركت لحسن باشا وابنه أحمد ومماليكهما إدارة بغداد والعراق .

وطبيعى أن تصبح المناصب العليا فيهما وقفاً على المماليك . وقد آل إليهم حكمها بعد وفاة حسن باشا وابنه ، وكان الوالى منهم إذا وثق بأحد المماليك زوجه ابنته واتخذه «كتخدا» أو أميرا للأمراء ، حتى إذا توفى خلفه فى الحكم . وإذا عرفنا أنه حكم بغداد حينئذ عشرة من الولاة كان سبعة منهم من هؤلاء المماليك عرفنا أنه جدير بهذا الدور حقا أن يسمى دور المماليك ، وآخرهم داود باشا . وكانوا فى سبيل الوصول إلى أريكة الحكم يكثرون من التآمر ، مما زاد الأمن فى بغداد والعراق اضطراباً على اضطراب وفساداً على فساد .

ولما ساءت الأمور وتفاقم سوءها رأى الباب العالى فى سنة ١٢٤٦ هـ / ١٨٣٠ م أنه لابد من رَدِّ الأمور إلى نصابها فى العراق ، فأرسل حملة تأديبية أسرت داود باشا وقضت

على حكم هؤلاء المماليك قضاء نهائيا . وبذلك تدخل بغداد والعراق فى الدور الثالث من أدوار الحكم العثمانى الذى أظلَّ البلاد حتى سنة ١٣٣٦ هـ / ١٩١٨ م . ويمكن أن تدخل الشطر الأكبر من هذا الدور فى حقب العصر الحديث فى العراق ، إذ هبَّ جماعة من المصلحين فى تركيا يحاولون إصلاح أداة الحكم الفاسدة ، واضطر السلطان عبد المجيد أن يصدر أمراً بإلغاء الاحتكارات والمصادرات وتحديد الضرائب على أسس قومية من العدالة .

وكان ذلك إيذاناً بعصر جديد فى تركيا والولايات التابعة لها فى العراق وغير العراق ، غير أن الولاة الذين تعاقبوا على العراق حتى سنة ١٢٨٦ هـ/ ١٨٦٩م لم يصدروا عن ذلك فى حكمهم ، فظل الظلام والفساد مخيِّمين عليها إلى أن وليها مدحت باشا فى السنة آنفة الذكر ، وكان معروفاً بنزعته الإصلاحية وما قام به من خدمات عظيمة فى ولايته على بلغاريا . ولم يكد يستلم مقاليد الولاية فى العراق حتى نهض فيها بإصلاحات كثيرة فى إدارة الحكم ، فألغى نظام الالتزام وردَّ الأرض على الفلاحين العراقيين نظير أقساط محدودة ، وأنشأ مطبعة لطبع الجريدة الرسمية وطبع الكتب ، كما أنشأ طائفة من المدارس المهنية والعلمية النظرية ، وبنى مستشفى كبيراً ، ومدَّ بها خطا للبرق ، وأصلح نظام الموازين والنقود بحيث تعد ولايته بحق البدء الحقيقى للعصر الحديث فى العراق . وقد ظل العثمانيون فى العراق وبغداد قبله نحو ثلاثة قرون ونصف لم يعنوا فيها أى عناية بإصلاحات اجتماعية أو تعليمية أو اقتصادية .

الحالة الاجتماعية

٣

المجتمع

كان المجتمع فى بغداد والعراق يتألف من ثلاث طبقات : طبقة أروستقراطية ، على رأسها الخليفة والسلطان الحاكم ويتلوهما حواشيهما من الوزراء والقادة والأمراء والولاة وكبار الموظفين والإقطاعيين ، ويدخل فى هذه الطبقة بعض التجار الرأسماليين . وطبقة وسطى تتكون من صغار الموظفين والتجار والصناع والقضاة والعلماء ورجال الحَسْبة ، وطبقة دنيا هى طبقة العامة من الزراع والخدم والرقيق وأصحاب الحرف . ويُسْلَك أهل الذمة فى الطبقتين الأخيرتين عادة ، إلا من ارتفع منهم إلى الوزارة ، وكان ذلك يحدث نادراً كما حدث فى عهد عضد الدولة ، فقد اتخذ له وزيراً نصرانياً ، هو نصر بن هرون ، الذى ترك له تدبير شئون فارس بينما كان وزيره المدبر لشئون بغداد والعراق المطهر بن عبد الله .

وكانت الطبقة الأولى تعيش فى رخاء بل فى ترف ، لكثرة ما كان يُصَبُّ فى حجورها من الأموال ، عن طريق الضرائب التى كانت تؤخذ من الناس وكانت متعددة ، فهناك ضرائب الزكاة على الزروع ، وهناك ضرائب الصادرات والواردات التى تجبى على البضائع المنقولة وتسمى المكوس ، وهناك ضرائب على الأسواق والحوانيت . وأهم من ذلك الضرائب أو الأموال التى كانت تؤخذ من أصحاب الإقطاعات وقد توسع فيها البويهيون ثم مَنْ خَلَفهم من السلاجقة والمسئولين على البلاد ، إذ منحوها لكبار القواد ، حتى قد يمنحونهم قرى بِرُمَّتها . وهذه الإقطاعات العسكرية هى التى كانت شائعة ، وإحدى اثنتين إما أن تكون إقطاع تمليك يورث وعلى أصحابه دفع العُشْر للدولة ، وإما إقطاع يُسْتَغَلُّ طالما كان صاحبه حيا ، وكأنه كان منحة تُعْطَى للقواد بدلاً من رواتبهم . وكان كبار الموظفين والأثرياء من التجار وغيرهم يمتلكون الضياع ويدفعون عنها العُشْر ويُلْزَمُون بإصلاح القنوات التى تمرُّ بأرضهم . وطبيعى أن كانت هناك ضِياعٌ سلطانية للخليفة وللأمير البويهى وللحاكم لبغداد . وكانت هناك أراض موقوفة لأغراض دينية كالإنفاق على المساجد أو على الجهاد أو على الفقراء أو على الحرمين . وكان القاضى هو الذى يشرف على إدارة الأراضى الموقوفة . وحدث أن صادر عضد الدولة أراضى السواد الموقوفة [١] ، غير أن من بعده أعادوها إلى الوقف . وكان الوزراء كثيراً ما تصادَر أموالهم حتى بعد وفاتهم كما حدث للمهلبى [٢] وزير معز الدولة البويهى . وكانوا يصادرون أحياناً تركة بعض الإقطاعيين ذوى الثراء . ويُرْوَى أنه فى سنة ٣٥١ توفِّى رجل اسمه دَعْلج تاركاً ثلاثمائة ألف مثقال من الذهب فاستولى عليها معز الدولة ، ولم يمسّ أى مسٍّ ما خلَّفه من أوقاف .

على كل حال كانت موارد الدولة كثيرة ، ومن أجل ذلك تعددت الدواوين التى يُخَزَّنُ فيها المال أو يجلب إليها مثل ديوان الإقطاع ، وديوان الخراج ، وديوان الأوقاف ، وديوان الجوالى أو الجزية التى كانت مفروضة على أهل الذمة ، وديوان الخلافة الذى كان يُنْفق على القصر ومماليكه وحجَّابه وخدمه وحرسه وكانوا يُعَدُّون بالمئات ، وديوان التركات وكانت تؤخذ عليها ضريبة ، ومن ليس له وارث كانت الدولة تستولى على تركته . ثم ديوان الزمام وهو الذى يشرف على مالية الدولة ونفقاتها وكل ما يتصل بشئونها المالية من رواتب ومن إعداد للجيوش . وكان الخلفاء العباسيون ينثرون الأموال نثراً على حواشيهم وفى أعْراسهم ، كما حدث فى زواج الخليفة الطائع لابنة بَخْتيار ، وكان صداقها مائة [٣] ألف

(١) أبو شجاع ص ٧١ .

(٢) مسكويه ٦ / ٢٥٨ .

(٣) ابن خلكان (طبع دار صادر ببيروت) ١ / ٢٦٧ .

دينار . واتسع هذا الاحتفال بزواج الخلفاء من بنات الأمراء السلاجقة ، ويُرْوَى أنه حين تزوج الخليفة المقتدى بنتاً للسلطان ملكشاه نُقل جهازها على ١٣٠ بعيراً فى موكب كبير كانت تُدَقُّ فيـــــه الطبول والبوقات وتنثر الأموال على الرعية[١] . وبالمثل حين زُفَّت الخاتون ابنة ملكشاه إلى الخليفة المستظهر بالله سنة ٥٠٤ زُيِّنَتْ بغـــداد ، وقد حَمل جهازها ١٦٢ بعيراً و٢٧ بغلاً[٢] سارت فى شوارع بغداد بينما جماهير الناس رجالاً ونساء يرقصون ويغنون مبتهجين . وكانت قصور الخلفاء تكتظ بالتحف وأوانى الذهب والفضة ، ويُرْوَى أنه حدث حريق فى أواخر سنة ٦٥١ بدار الخلافة ، فاستُخْرِج بعد إطفائه من تلك الأوانى ما تزيد قيمته على مائتى ألف دينار ، وسبقه حريق فى سنة ٦٠١ فبلغ ما احترق بالدار فيه أكثر من نصف مليون دينار[٣] .

وكانت نساء الخلفاء وجواريهم يبالغن فى زينتهن ، حتى يقال إن زوجة الخليفة المستضىء كانت تزين نعالها باللآلئ الكبار [٤] ، فما بالنا بما كانت تتخذه وراء ذلك من الحلى والجواهر . ويقال أيضاً إن جارية للمستنصر بالله بلغ من عنايتها بثيابها وزينتها أن صاحب ديوانها رصد ما أنفقته فى شهر للزراكشة والصاغة والبزَّازين (تجار الملابس) والجوهريين ، فإذا هو مائة ألف دينار ونحو خمسمائة ألف درهم [٥] . ويُرْوَى عن هذا الخليفة أنه نفح كبير حرسه علاء الدين الطيبرسى ليلة زفافه على ابنة الأمير بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل مائة ألف دينار غير إقطاع كبير أهداه إليه [٦] ، ويقال إنه أُحْصيت فى عيد الفطر سنة ٦٢٦ الخلع التى وهبها الطيبرسى لمماليكه وأتباعه فبلغت ١٧٠٠ خلعة[٧] . فقصرُ الخلافة بل كلُّ حواشى القصر كانوا يعيشون فى ترف شديد . وقل ذلك نفسه عن السلاطين وحواشيهم من البويهيين والسلاجقة والإيلخانيين ومن جاء بعدهم ، وكانت الأموال تُصَبّ فى حجورهم وينفقون منها كثيراً على ترفهم وبذخهم . ويقال إن ميزانية الدولة بلغت فى عهد عضد الدولة نحو اثنين وثلاثين مليوناً من الدنانير . وكان يُعْنَى ببناء القصور وعمارتها ، ويُرْوى أن ميزانية الدولة فى عهد ملكشاه السلجوقى بلغت عشرين مليوناً من الدنانير [٨] ، وكثير من الملايين المذكورة كان يتحول فى قصورهم إلى ترف ما بعده ترف ،

---

(١) المنتظم لابن الجوزى ٩/٣٦ وانظر كتاب العامة البدرى فهد ص ٢١٣ .
(٢) المنتظم ٩/١٦٥ .
(٣) دول الإسلام للذهبى (طبع حيدر آباد) ٢/٨٠ .
(٤) انظر مضمار الحقائق وسر الخلائق لمحمد بن تقى الدين الأيوبى ١٢٣ – وراجع تاريخ العراق فى العصر العباسى الأخير للدكتور بدرى فهد (طبع بغداد) ص ٣٨٢ .
(٥) مضمار الحقائق ١٨٣ وبدرى فهد ص ٣٨٢ .
(٦) بدرى فهد ص ٢٥٢ .
(٧) بدرى فهد ص ٣٨٣ .
(٨) المنتظم ٩/٧ .

وظل ذلك بقصور الخلفاء فى العهد الأخير من الدولة العباسية كما مر بنا آنفا . ولا شك فى أن شيئاً كثيراً من التدهور أصاب بغداد بعد الغزو المغولى ، إذ أصبحت مع ما يتبعها من العراق ولاية ضمن ولايات متعددة يدبِّر شئونها الإيلخانيون ثم التيموريون ومن جاء بعدهم . ومعروف أن الإيلخانيين لم يتخذوا بغداد عاصمة لهم ، بل كانت عاصمتهم تبريز ومدينة بنوها سموها السلطانية ، وعاد حقا إلى بغداد شيء من النشاط فى عهد الشيخ حسن الكبير وأبنائه ، بل قبل ذلك فى عهد بوسعيد ، ولكن على كل حال لم يعد لها مجدها القديم ، بل سرعان ما تردت فى هوة من فساد الحكم . وغزاها تيمورلنك وتولاها بعده أحمد بن أويس ثم قرايوسف وأبناؤه ثم أوزون حسن كما أسلفنا ، وأصبحت إحدى الولايات فى الدولتين الصفوية والعثمانية . وإذا كان ابن جبير زارها سنة ٥٨٠ وقال إنه ذهب أكثر رسمها ولم يبق منها إلا شَهير اسمها وإنها أصبحت كالطلل الدارس والأثر الطامس[١] فإن ابن بطوطة حين زارها سنة ٧٢٨ فى عهد بوسعيد الإيلخانى أعاد إلى الأذهان كلام ابن جبير ، وعلق عليه بقول أبى تمام . قائلاً كأنه اطلع على ما آل إليه أمرها حين قال فيها :

لقد أقام على بَغْدادَ ناعيها فليَبْكها لخراب الدَّهْر باكيها[٢]

وبدون شك كانت حيوية بغداد أقوى من الخراب الذى أصابها مع غزو هولاكو ومع خروج صولجان الحكم منها فقد ظلت لها مسحة غير قليلة من عراقتها ، وظلت منزلاً للعلم والعلماء ، بفضل ما كان يجبيه حكامها من حوض دجلة والفرات وما به من أشجار وزروع وثمار . وإذا كنا قد رأينا الخلفاء والحكام وحواشيهم يتنفسون حياة مترفة ، فقد كان يتنفسها معهم الأشراف وكبار الموظفين والإقطاعيون والوزراء . وكان الأخيرون خاصة يدبرون شئون الدولة وتصير إليهم أموالها ، فأثرى منهم كثير ثراء فاحشاً ، وغرقوا فى الترف والنعيم. ويلقانا فى أول العصر المهلبى وزير البويهيين ، وكان يشتهر بمآدبه وكثرة ما كان يقدَّم فيها من أصناف الطعّام والحلوى ، وقالوا إنه كان « إذا أراد أن يأكل شيئاً بملعقة كالأرز واللبن وقف من جانبه الأيمن غلام معه نحو ثلاثين ملعقة زجاجاً مجروداً ، فيأخذ منه ملعقة يأكل بها من ذلك اللون لقمة واحدة ، ثم يدفعها إلى غلام آخر قام من الجانب الأيسر ، ثم يأخذ أخرى فيفعل بها فعل الأولى ، حتى ينال الكفاية ، لئلا يعيد الملعقة إلى فيه دفعة

(١) رحلة ابن جبير (طبعة ليدن) ص ٢١٧ .

(٢) رحلة ابن بطوطة (طبع المطبعة الأزهرية) ١٣٩/١ .

ثانية » (١) . وفى هذا الخبر ما يدل على مدى الترف وما دخله من تعقيد فى الوسائل ، فاللون من الطعام لا يؤكل بملعقة واحدة وإنما يؤكل بملاعق كثيرة . وأبعد من هذا الخبر دلالة على الترف الذى غرق فيه بعض الناس وكثرة ما كانوا ينفقون فيه ما يروى عن المهلبى أيضاً من أنه «ابتيع له فى ثلاثة أيام وَرْدٌ بألف دينار فُرشت به مجالسه وطُرح منه كمية كبيرة فى بركة عظيمة كانت فى داره ، ولها فوّارات عجيبة يطرح الورد فى مائها وينفضه » (٢) وإذا كان يَشْتَرى من الورد وحده فى ثلاثة أيام بألف دينار كى يزين به مجلسه وبركة قصره ، فماذا اشترى لهذا القصر من السجاجيد والبسط والطنافس والستور وأنواع الوسائد والديباج والتحف . لابد أنه اشترى من ذلك كله بمئات الألوف . ولم يكن هذا شأنه وحده ، بل كان أيضاً شأن الوزراء جميعاً وكبار الإقطاعيين والتجار . واشتهر بمجالس أنسه التى كان يعقدها بقصره ليلتين فى كل أسبوع ، ويقول ابن خلكان : «كان يجتمع فيها عنده ندماؤه من الفقهاء والقضاة على اطراح الحشمة والتبسُّط فى القصف والخلاعة ، وهم القاضى أبو بكر ابن قريعة وابن معروف والقاضى التنوخى وغيرهم ، وما منهم إلا أبيض اللحية طويلها ، وكذلك كان المهلبى . فإذا تكامل الأنس وطاب المجلس ولذّ سماع الغناء وأخذ الطرب منهم مأخذه وهبوا ثوب الوقار للعُقار وتقلبوا فى أعطاف العيش ، بين الخفة والطيش ، ووُضع فى يد كل واحد منهم طاس ذهب فيه ألف مثقال ، مملوء شراباً قُطْرُبُّلِيًّا أو عُكْبَرِيا ، فيغمس لحيته فيه ، بل يَنْقعها حتى تتشرب أكثره ويرشّ بعضهم بعضاً ، ويرقصون بأجمعهم ، وعليهم الثياب المصبَّغات ومخانق المنثور ، فإذا أصبحوا عادوا لعادتهم فى التوقر والتحفظ بأبهة القضاء وحشمة المشايخ الكبراء» (٣) .

وظل هذا الترف طويلاً فى مجالس الوزراء والسلاطين والأمراء ، واشتهر عضد الدولة بمجالس أنسه فى بغداد وغير بغداد وما كان بها من السماع وغناء الجوارى والمغنين وألوان الفاكهة والرياحين وأقداح الشراب ، ويقال إنه غُنِّى يوماً بأبيات للخليفة المطيع لله وكان قد لحنها ، فلم يعجبه لحنه (٤) وكأن الخلفاء وأبناء الخلفاء كانوا لا يزالون يضعون الألحان لبعض الأغانى كما مر بنا فى العصر العباسى الأول . وبدون ريب كان يعيش هذه المعيشة المترفة التى لا تخلو من خمر وغير خمر كبار القواد ورؤساء الدواوين والإقطاعيون وكبار التجار والموظفون . ويعرض محمد بن أحمد أبى المطهر الأزدرى – فى حكايته الطريفة عن

(١) معجم الأدباء ٥/١٥٣ وانظر الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ٢٧٩ .

(٢) معجم الأدباء ٩ / ١٣٨ .

(٣) ابن خلكان ٣ / ٣٦٦ .

(٤) معجم الأدباء ١٧ / ١٠١ وما بعدها .

أبى القاسم البغدادى التى تقص حياة شيخ طفيلى بغدادى فى يوم ببغداد فى القرن الخامس للهجرة – ما كانت تلبسه الطبقة المترفة من ملابس أنيقة مجلوبة من جميع البلدان العربية موشاة بديباج الذهب المنسوج وكأنما نُسجت من أزهار الربيع ، كما يقول ، يفوح منها العنبر والطيب . ويذكر بيوت هذه الطبقة فيقول إن سقوفها غشِّيت بالساج وزيِّنت تعاريجها بالآبنوس والعاج ، مع الأروقة المليحة والأبهاء المشرفة العالية ومع الأواوين (جمع إيوان) وقد فُرشت بالطنافس والمخادّ المذهبة والأبسطة والمقاعد المموهة بالذهب والمطارح المحشوة بريش العصافير الهندية والديباج التُّسْتَرِىّ المقصَّب الذهبى . ثم يُفيض فى القول فى الأطعمة من كل صنف والأفواه والعطور وأنواع المسك والعنبر والعود المطيَّب وأدوات الزينة من الأمشاط وغير الأمشاط . ويوازن بين هذه الحياة المترفة وحياة الطبقة الوسطى والدنيا الخشنة ، واصفاً أطعمتها ودورها . ويبدو أنهم كانوا يضيفون إلى كثير من الأطعمة أنواع الطيِّب وماء الورد والتفاح وحبّ الرمان والزعفران ، ويعرض أصنافاً كثيرة للحلوى ، وطبيعى أن تكثر فيها العطور . ويقول إنه حين يُرْفَعُ الطعام يأتى فراش متهلل الوجه نظيف الثياب خفيف الروح بيده خِلال سلطانى مطيَّب ، ويغسل الضيوف أيديهم ، ويناولهم الفراش مناديل ألين من القزّ وأنعم من الخزّ . ويطيل الوصف للوز والجوز المقشورين وأنواع الفواكه وما كانت تزيَّن به الموائد من الأزهار والأنوار ، ويتحدث عن الخمور وكئوسها ودِنانها مطنباً مطيلاً . ويذكر ما فى مجالس السَّراة من المغنين الذين يأخذون بمجامع القلوب ، إذ يملأون الآذان سروراً ويقدحون فى القلوب نوراً[1]

وكانت المغنيات يغنين فى مجالس السلاطين والخلفاء من وراء ستارة ، أما فى مجالس السراة وعلية القوم والنوادى فكن يغنين دون ستارة غالباً ، ويطيل ابن أبى المطهر الأزدى فى الإشادة بمغنيات بغداد وَزمَّاراتها وطبَّالاتها وصنَّاجاتها ورقَّاصاتها وضاربات العود بها ، ويصف إحداهن ممن يضربن على العود قائلاً : تدخل المجلس تعطره من نسيمها بالمسك والكافور والعنبر وتجرى عليها غِلالةٌ جَرْىَ الماء ورداءُ قصبٍ مزين مرصَّع بالزبرجد الأخضر والياقوت الأحمر وفى عنقها سُبْحة (عقد) من الحب الكبار بما يعادل ألف دينار ، والجوارى يحملن ذيول ثوبها . وتجلس وعلى وجهها إزار قصب أبيض رقيق ، وتبدو متنقِّبة لا يُرَى منها إلا المحاجر وأطراف الذوائب ، وتُلْقى بحديث كزهر الجنان أو صوب الغمام أعذب من الماء الزلال ، وأعلق بالنفوس من السحر الحلال ، ثم تحسر

---

(١) حكاية أبى القاسم البغدادى (نشر ميتز فى هايدلبرج) ص ٣٥ – ٤٦ .

النقاب وتتناول عوداً من ساج منقوشاً بالعاج وتجسّ أوتاره وتفتتح غناء – كما يقول أبو القاسم – أعذب من تيار الفرات وتُفَتّته فى مجارى الحلق وتكسّره فى مجارى النَّفَس. يقول: وهناك لا تسمع إلا شهقة عالية، ومقلة باكية، وجَيْباً مشقوقاً، وفؤاداً يطير خفوقاً[1].

ولم نلم إلا بكلمات قليلة من وصف أبى القاسم لهذه الجارية المغنية، لندل على أن الغناء كان لا يزال مزدهراً ببغداد حتى القرن الخامس، ونظن ظنا أن هذا الازدهار ظل له طويلاً، وغاية ما فى الأمر أنه لم يتح له عالم يؤلف فيه على نحو ما ألف أبو الفرج الأصفهانى كتابه الأغانى عن المغنين والمغنيات فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة. وفى كتاب الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى فى أوائل هذا العصر نص طويل[2] يصور ازدهاراً عظيماً للغناء فى زمنه ومدى تأثر الناس به وطربهم عند سماعه على لسان المغنيات والمغنين، ويحكى لنا كيف كان شخص يسمى البَرَدانى يطرب طرباً شديداً حين يستمع إلى عَلْوة جارية ابن عَلُّوية، وهى تغنّى بأبيات للسَّروىّ يقول فيها:

بِالوَرْدِ فى وَجْنَتَيْكَ مَنْ لَطَمَكْ ... ومَنْ سَقَاكَ الُمدام لِمْ ظَلَمكْ

ويسترسل أبو حيان فى وصف انفعال السامعين إزاء الغناء ببغداد فى عصره، من مثل ابن فَهْم، وكان يَطْرب إذا اندفعتْ «نِهاية» جارية ابن السُّلمِىَ بِشَدْوِها:

أستودعُ اللهَ فى بغدادَ لى قَمَراً ... بالكَرْخ من فَلَكِ الأزْرارِ مَطْلَعُهُ

ودَّعتُه وبوُدِّى لو يودِّعنى ... صَفْوُ الحياة وأنى لا أُودِّعُهُ

والبيتان من قصيدة أبى محمد على بن زريق وسَنُنْشِدُ منها أبياتاً أخرى فى الفصل الثالث. ولما سمعهما منها ضرب بنفسه الأرض وتمرّغ فى التّراب وهاج وأزبَد وتعفَّر شعره، وهيهات من الرجال مَنْ يَضْبطه ويُمْسكه ومَنْ يَجْسُرُ على الدنوِّ منه، فإنه يَعَضّ بنابه، ويَخْمُش بظفره، ويَرْكُل برجله ويخرِّق المرقَّعة (رداء الصوفية) قطعة قطعة، ويلطم وجهه ألف لطمة، كأنه عبد الرازق المجنون بباب الطاق. وكثيرون كانوا يطربون طرب هذا الصوفى، فتنقلب حماليق عيونهم، ويسقطون مغشيا عليهم، ويرشون عليهم الكافور وماء الورد – كما يقول أبو حيان – ويقرءون فى آذانهم آية الكرسى والمعوَّذتين، ويرقونهم رُقىً مختلفة، حتى يفيقوا من سكرتهم، منهم أبو الحسن الجرَّاحى قاضى الكَرْخ، فإنه كان إذا سمع الجارية «شُعْلة» وهى تغنى أغنيتها:

لابدّ للمشتاقِ من ذكْر الوطَنْ ... واليأسِ والسلوةِ من بعد الحزَنْ

(١) حكاية أبى القاسم ص ٥٠ وما بعدها.

(٢) الإمتاع والمؤانسة ٢/١٦٥–١٨٣.

ابتلّت شيبته بالدموع ، مع شجن قد ثقب القلب وأوهن الروح وفتّت الصخر وأذاب الحديد ، يقول أبو حيان : « وهناك ترى - والله - أحداق الحاضرين باهتة ، ودموعهم متحدِّرة ، وشهيقهم قد علاَ رحمةً له ، ورقَّةً عليه ، ومساعدةً لحاله . وهذه صورة إذا استولت على أهل المجلس وجدت لها عَدْوَى لا تُمْلَك ، وغاية لا تُدْرَكُ ، لأنه قلما يخلو إنسان من صَبْوَةٍ أو صَبابةٍ ، أو حسرةٍ على فائت ، أو فكرٍ فى متمنيٍّ ، أو خوفٍ من قطيعة ، أو رجاءٍ لمنتظَرٍ ، أو حُزْنٍ على حال » . ويسوق أبو حيان لنا صوراً من طرب الشعراء حين سماع بعض الجوارى أو المغنين ، فهذا ابن نباتة يطرب على صوت جارية تسمَّى « خاطف » وهذا ابن حجاج يطرب على غناء قِنْوةَ البصرية ، وهى جارته وعشيقته . ويذكر أبو حيان أن الطرب كان يأخذ بابن صُبْر القاضى كل مأخذ ، حين يستمع إلى « دُرَّة » جارية أبى بكر الجرّاحى وهى تغنيٍّ :

لستُ أَنْسىَ تلك الزيارةَ لما طرقَتْنا وأقبلتْ تَتَثَنَّى
كم ليالٍ بِتْنَا نَلذُّ ونَلْهو ونُسَقَّى شرابَنا ونُغَنَّى
هجرتْنا فما إليها سبيلٌ غَيْرَ أنا نقول : كانتْ وكُنَّا

يقول أبو حيان : « وإذا بلغتْ : « كانت وكنا » رأيت الجَيْبَ مشقوقاً ، والذَّيْلَ مخروقاً ، والدمع منهملاً ، والبال منخذلاً ، ومكتوم السر فى الهوى بادياً ؛ ودليل العشق على صاحبه منادياً » . ويعرض علينا أبو حيان صوراً مختلفة من طرب الصوفية مثل المعلم غلام الحُصْرى شيخ الصوفية ، ومثل ابن سَمْعون أكبر واعظ شهدته بغداد فى زمنه ، فإن الطرب كان يقيمه ويقعده حين يستمع إلى ابن بَهْلول ، وهو يزلزل الدنيا بصوته الناعم وغُنَّته الرخيمة وظرفه البارع ودماثته الحلوة . ويذكر أبو حيان جَارية كانت تنوح تسمَّى حَبابَه كانت فى النَّوْح واحدة لا أخت لها وقد تهالك الناس بالعراق على نوحها ، يقول : ورأيت لها أختا يقال لها « صَبابة » كانت فى الحسن والجمال فوقها . . وزلزلت هذه بغداد فى وقتها ، ولم يكن للناس غير حديثها لنوادرها وحاضر جوابها . ثم يقول أبو حيان فى ختام هذا الفصل الطريف .

« ولو ذكرت هذه الأطراب من المستمعين والأغانى من الرجال والصبيان والجوارى والحرائر لأطلت وأمللت وزاحمت كل من صنَّف كتاباً فى الأغانى والألحان . وعهدى بهذا الحديث سنة ستين وثلاثمائة . وقد أحصيت - أنا وجماعة فى الكرخ - أربعمائة وستين جارية فى الجانبين (جانبى بغداد الغربى والشرقى) ومائةً وعشرين حرة يجمعن بين الحسن والحذق والظرف والعشرة . وهذا سوى من كنا لا نظفر به ولا نصل إليه لعزَّته وحرسه

ورقبائه ، وسوى من كنا نسمعه ممن لا يتظاهر بالغناء وبالضرب إلا إذا نشط فى وقت أو ثَمِل (سكِرَ) فى حال ، وخلع العِذار فى هوى قد حالفه وأضناه » .

ولا ريب فى أنه كان بجوار أولئك المئات من المغنيات مئات من المغنين ، وكم كنا نتمنى لو أن أبا حيان أطال وأملَّ وصنف فى أغانى عصره كتاباً ككتاب أبى الفرج الأصبهانى ، ولكنه لم يُعْنَ بذلك فخَسر الشعر والغناء خسارة كبرى لأن معاصريه ومن جاءوا بعده لم يحاولوا التأليف فى الأغانى والمغنيات والمغنين على غرار صنيع الأصبهانى . وأكبر الظن أن هذا الازدهار للغناء ظل حتى غزو التتار لبغداد ، وبقيت منه أسراب فى الحقب المغولية ، إذ نجد ابن بطوطة حين زار بغداد سنة ٧٢٧ يذكر أنه رأى السلطان الإيلخانى بو سعيد فى سفينة بدجلة يتنزَّه ، وعن يمينه وشماله قوارب وسفن لأهل الطرب والغناء ، ويذكر أيضاً أنه رأى هذا السلطان فى أحد مواكب تنقله ، ومع كل أمير من أمرائه عسكرُه وطبوله ، وكان يتقدم الموكب الحجَّاب والنقباء ثم أهل الطرب وهم نحو مائة رجل ، كانوا يغنون فى مجموعات بالتناوب ، ولا يزالون يتداولون الغناء بينهم ، حتى ينزل بو سعيد ، فإذا ركب عادت المجاميع إلى الطرب والغناء[1] .

ولم تكن الطبقة الدنيا تنعم بالغناء نعيم الطبقة الأرستقراطية ، والمظنون أن الطبقة الوسطى كانت تنعم به بعض الشيء ، أما من وراءهم من عامة الناس فلم يكن لديهم من المال ما يجعلهم يأخذون بنصيب من هذا النعيم ، إلا ما قد ينعمون به فى الأعياد العامة ، وعادة كانت بغداد تزيَّن بالأعلام ذات الألوان الزاهية فى عيدى الفطر والأضحى ، ومع مواكب الحج فى رحيلها وقدومها ، وظل الاحتفال بذلك كله حتى نهاية هذا العصر ، وكانوا يحتفلون بأعياد الفرس ويخرجون فيها للمتنزهات وسماع المغنين والمغنيات ، وأهمها عيد المهرجان فى السادس والعشرين من أكتوبر ، ويستمر ستة أيام ويسمى اليوم السادس منه المهرجان الأكبر ، ويأتى بعده عيد السَّذَق ، وهو يوافق عيد الميلاد ، وفيه تُشْعَلُ النار فى السفن والزوارق بدجلة ، وتخرج العامة للفرجة عليها وبأيديهم الشموع ، ويلى هذا العيد عيد النيروز فى أول الربيع ، ويبتدئ فى الحادى والعشرين من مارس ويستمر ستة أيام مثل عيد المهرجان . وبجانب ذلك كانوا يحتفلون بأعياد النصارى ويخرجون فيها للمتنزهات والأديرة ، وكان لكل دير عِيده .

ومن المحقق أن العامة كانت تعانى كثيراً من الضنك والضيق لكثرة الضرائب التى كانت تُجبَى منها وقلة ما كان يعود عليها من الكسب ، وقد يدل على ذلك من بعض الوجوه أن

(١) ابن بطوطة ١٤٣/١ وما بعدها .

الطبيب حين كان يدور من بيت إلى آخر لمعالجة العامة كان يأخذ أجراً له عن كل مريض ربع درهم (١) ، ويذكر التنوخى أن رجلاً كان يستأجر حانوتاً بنصف درهم وزيدت إلى درهم (٢) . والخبران من أخبار أوائل العصر فى القرن الرابع الهجرى ، فما بالنا بما صارت إليه العامة بعد ذلك من بؤس وتعاسة ، وهذا هو السبب فى كثرة العيَّارين ببغداد طوال القرنين الرابع والخامس الهجريين ، ومن يقرأ أخبارهم يحس أنهم كانوا يستشعرون فكرة العدالة الاجتماعية ، إذ يرون طائفة قليلة من الوزراء والقواد وكبار الموظفين والإقطاعيين والتجار الموسرين يتمتعون بل يتمرَّغون فى الترف والنَّعيم وهم محرومون يتجرَّعون البؤس والمسغبة ، وقد أشعلوا فى شهر المحرم لسنة ٣٦٤ للهجرة ببغداد حريقاً عظيماً ، واستفحل أمرهم حتى خافهم الجند وتلقبوا بالقواد وتسلطوا على بغداد وأخذوا الضرائب من الأسواق (٣) ، ويذكر أبو حيان من قوادهم ابن كبرويه وأبا الدرد وأبا الذباب وأسود الزَّبَد (٤) . وعادوا إلى التسلط على بغداد سنة ٣٨٠ فنهبوها وعينوا عريفاً لهم فى كل محلة (٥) . وأخذ ينتظم مع الزمن فى صفوفهم كثير من العلويين والعباسيين كما حدث فى فتنتهم سنة ٣٩٢ مما يدل على أنهم كانوا ساخطين سخطاً شديداً على الأغنياء المترفين من رجال الدولة وغيرهم ، وأنهم كانوا ينادون بفكرة العدالة الدينية . ونمضى فى القرن السادس الهجرى فنجد فتنهم تشتعل ببغداد من حين إلى حين ، ويعظم شأنهم فى عهد السلطان مسعود السلجوقى (٥٢٧ – ٥٤٧ هـ) وينهبون بغداد مراراً . ومازالت فتنهم تنشب فيها طوال القرن السادس ، حتى إذا كنا فى عصر الخليفة الناصر (٥٧٥ – ٦٢٢ هـ) وجدناه فى سنة ٥٧٨ يستدعى شيخاً من بينهم عُرف بأن له أتباعاً كثيرين ، فعرض عليه أن ينتظم معه ومع أتباعه فى الفتوة ، على أن تتجه وجهة صالحة ، فلا تكون للإفساد ولا للنهب ولا للفتن ، بل تكون فتوة فاضلة تقوم على المروءة وشرف النفس . وشرب الناصر من يد الشيخ عبد الجبار ماء الفتوة وهو ماء مملوح ، وكأنه يشير عندهم إلى أنهم لا يشربون الخمر وأيضاً لبس الناصر سراويلها كما أسلفت وأخذ فى تنظيم هذه الفتوة الشريفة ، فدخل فيها أهل بغداد أفواجاً ، وعمد إلى نشرها فى الآفاق وطلب إلى الحكام أن يدخلوا فيها ، ودخل كثير منهم ، على هدى منشور فيها ، أرسله إلى الآفاق يحض على الانتظام فى سلكها ، وكان ممن انتظم فيها شهاب الدين الغورى سلطان غزنة والهند ، كما ذكر ابن الأثير فى حوادث سنة ٦٠٢ وانتظم فيها السلطان

---

(١) مسكويه ٢ / ١٩٨ .

(٢) الفرج بعد الشدة للتنوخى ٢/١٥٥ .

(٣) انظر حوادث سنة ٣٦٤ فى المنتظم وابن الأثير وابن تغرى بردى .

(٤) الإمتاع والمؤانسة ٣/١٦٠ .

(٥) راجع فى السنة المذكورة المنتظم وابن الأثير .

العادل الأيوبي وأبناؤه كما مرَّ بنا . وكان هذا عملاً جليلاً ، لا لأنه أنقذ بغداد من العيارين والنهب والسلب المستمر فحسب ، بل لأنه وجَّه شباب بغداد بل شباب الأمة إلى اتخاذ الفتوة الفاضلة درعاً فى حروبهم مع أعدائهم من الصليبيين ، وقد تحولت إلى نظام عظيم ، كتب فيه العلماء كتباً ، من أهمها كتاب الفتوة لابن المعمار البغدادى المتوفى سنة ٦٤٢ وهو يوضح فيه حقيقتها ومنشأها ومنزلتها من الشريعة الإسلامية وشرائطها ومصطلحاتها على ألسنة الفتيان النبيلة [١] . غير أن بغداد لم تلبث أن اكتسحتها أمواج التتار هى والعراق ، وحكمها الإيلخانيون ومن جاء بعدهم من التيموريين والتركمان والصفويين والعثمانيين ، وأخذت أحوال أهلها هى والعراق عامة تزداد سوءاً من عصر إلى عصر ، لكثرة ما كان يفرض على الناس فى المدن والريف من الضرائب الفادحة .

ولم نتحدث عن أهل الذمة من المجوس والنصارى والصابئة واليهود ، وكانوا يتمتعون بتسامح واسع نظير ما يدفعونه من الجزية ، وكانت لا تتجاوز ديناراً للعامة ودينارين للطبقة الوسطى وثلاثة دنانير لأصحاب الثراء ، وكانت أشبه بضريبة تؤخذ للدفاع الوطنى ، إذ لم يكن يؤديها إلا مَن يقدرون على حمل السلاح ، فلا يؤديها النساء ولا الرهبان ولا من لم يبلغ الحلم ولا العجوز ولا الفقير البائس ولا ذوو العاهات . وكانت الدولة وخاصة فى الحقبة البويهية تستخدم بعض النصارى فى الدواوين واتخذ منهم عضد الدولة وزيرا - كما مرَّ بنا - وكان منهم أطباء كثيرون فى مختلف الحقب ، أما اليهود فكانوا يشتغلون بأهون المهن ، فكان منهم الصَّباغون والخرَّازون وأمثالهم كالأساكفة .

وكان الرقيق كثيراً كثرة مفرطة ، وكان من أجناس مختلفة ، فمنه الإفريقى ومنه التركى الآسيوى ومنه الأوربى وخاصة الصقلبى والرومى . وكانت له سوق رائجة فى بغداد من قديم ، وكانت التجارة فيه تدرّ أرباحاً طائلة على النخاسين ، وكانت لهم حِيَل كثيرة يخدعون بها الناس عند شراء الجوارى والرقيق بعامة ، ومن أجل ذلك ألف ابن بطلان المتوفى بعد سنة ٤٥٥ للهجرة رسالة سماها «شراء الرقيق وتقليب العبيد» وفيها يصور حِيَل النخاسين فى تحسين الجوارى وطرق خداعهم فى إزالة آثار الجدرى والوشم والنمش من أجسادهن وصبغهن بألوان تُخْفى ما قد يكون من آثار البرص أو البهق وصبغ عيونهن بألوان تجعلها كحلاء أو زرقاء ، ويصور بعض مقاييس الحسن فى الجارية من أخمص قدمها إلى

(١) انظر فى الفتوة وتنظيم الناصر لها كتاب الفتوة لابن المعمار (طبع بغداد) والمقدمة الطويلة التى كتبها الدكتور مصطفى جواد لهذا الكتاب . وانظر الفتوة والخليفة الناصر للمستشرق الألمانى فرانزتيشنر فى كتاب المنتقى من دراسات المستشرقين (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) .

مفرق شعرها[١] وكانت المحظوظات منهن تُجْلَبُ إلى دور الخلفاء والسلاطين ، وكثير من الخلفاء كانوا من أبنائهن ، فالقائم بأمر الله (٤٢٢ – ٤٦٧ هـ) كانت أمه قطر الندى جارية رومية[٢] ، وابنه المقتدى (٤٦٧ – ٤٨٧ هـ) كانت أمة جارية أرمنية[٣] ، وكذلك كانت أم المستظهر (٤٨٧ – ٥١٢ هـ) من الجوارى[٤] . وكان منهن كثيرات فى قصر الخلافة يخدمن زوجات الخلفاء أو يكن وصيفات لهن[٥] .

وكانت الجارية المغنية تباع بأغلى الأثمان ، وكان فى بغداد بعض نوادٍ بها جوار مغنيات يختلف إليهن الشباب لسماع الغناء واللهو[٦] . واشتهر كثيرات منهن باللطف والظرف والبديهة الحاضرة ونظم الشعر[٧] وحب الأزهار ونقش الأبيات الرقيقة على الأردية والأكمام والعصائب والمناديل ، وكان لذلك تأثير فى رقىّ الأذواق ببغداد من قديم .

وكان شرب الخمر معتاداً فى كثير من مجالس السلاطين والوزراء وسَراة القوم ، على نحو ما مرَّ بنا عن المهلبى وزير معز الدولة البويهى ، وحكوا عن ابنه عز الدولة بختيار أنه «كان يحب أن يقضى أوقاته فى الصيد والأكل والشرب والسماع واللهو واللعب بالنرد وتحريش الكلاب والديكة والفِتاخ (العقبان)»[٨] . ومرَّ حديثنا عن عضد الدولة البويهى ومجالس أنسه وطربه وشربه . وكان السلطان مسعود السلجوقى منهمكاً فى اللذات والانعكاف على الخمور والراحات[٩] . ويكثر وصف الخمر على ألسنة الشعراء وفى حكاية أبى القاسم البغدادى وصف كثير لها فى غير موضع ، وفيه تُساق بعض أشعار الماجنين الكبيرين ببغداد فى القرن الرابع الهجرى : ابن حجاج وابن سكرة ، وهما أكبر مجان بغداد – إن لم يكن كل البلدان العربية – على مَرِّ التاريخ .

وكان الصيد لهواً عاما للسلاطين والناس ، وكان من أكبر هواته ملكشاه السلجوقى ، ويقول ابن خلكان : «كان لهجاً بالصيد ، حتى قيل إنه ضُبط ما اصطاده بيده فكان عشرة آلاف فتصدَّق بعشرة آلاف دينار . وصار بعد ذلك كلما قتل صيداً تصدق بدينار . . وخرج مرة من الكوفة لتوديع الحجاج . وصاد فى طريقه وحشاً كثيراً ، وبنى هناك منارة من حوافر الحمر الوحشية وقرون الظباء مما صاده[١٠]» . وكانت العامة تلهج بالصيد مما دفع

(١) انظر رسالة شراء الرقيق وتقليب العبيد بين الرسائل التى نشرها عبد السلام هرون باسم نوادر المخطوطات .
(٢) المنتظم ٥٨/٨ .
(٣) المنتظم ٢٩١/٨ و ٢٠٠/٩ .
(٤) المنتظم ٨١/٩ .
(٥) المنتظم ٢٣٠/٨ والمستجاد من فعلات الأجواد للتنوخى ٢٣ .
(٦) أخبار الظراف والمتماجنين لابن الجوزى (طبع دمشق) ص ٩٧ .
(٧) نفس المصدر ص ٩٧ وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٣١/٨ .
(٨) مسكويه ٣٨٦/٦ .
(٩) ابن خلكان ٢٠٢/٥ .
(١٠) ابن خلكان ٢٨٤/٥ .

الناصر إلى أن يجعله جزءاً من الفتوة ، إذ اشترط فيها إحسان المنتسب إليها الرمى بالبندق ، وكأنه كان يريد أن يمرِّن الشباب لا على الصيد من حيث هو وإنما على صيد أعداء العرب والإسلام ، ولمعاصره الفتى عمر بن السفت مخمس طويل فى وصف قوس البندق وإحكام الصيد (١) .

واستمر من هواياتهم فى هذا العصر اللعب بالنَّرْد وكذلك اللعب بالشطرنج وفى حكاية أبى القاسم وصف طويل للشطرنج واللعب به . وكان من تسلياتهم القديمة مهارشة الديكة ولُعْبة خيال الظل ، وكانوا يلعبون بالحمام ويتخذون له أبراجاً كبيرة ، وكانوا يقامرون عليه ، فيرسل كل حمامه ، ومن جاء حمامه أولاً كسب الرهان ، ومن أهم أنواعه الزاجل ، وكانت الحكومات تستخدمه فى البريد أو التراسل . وكان من ألعابهم سباق الخيل . وكانت الفروسية مهوى أفئدة الشباب ، وخاصة أصحاب الفتوة فكانوا يتمرنون على استخدام السلاح سواء أكان ضرباً بالسيف أو رمياً بالنبل . وكان من العادات الشائعة الاحتفال بالختان وبختم القرآن وبالزواج وكان الفقراء يستعيرون لفتياتهم ولأنفسهم الملابس والحلى للظهور بالمظهر الكريم فى حفل الزفاف . ومن المؤكد أنه ظل يجثم على صدر بغداد حزن كئيب منذ غزاها المغول حتى العصر الحديث .

الحالة الدينية

٤

التشيع

يقوم التشيع على أساس نظرية فى إمامة المسلمين يؤمن بها الشيعة جميعاً ، وهى نظرية تعتمد على أن هذه الإمامة وراثية فى على بن أبى طالب وأبنائه المختارين للنهوض بالخلافة الشرعية للمسلمين من الوجهتين الدينية والدنيوية . ولذلك لايسمون الحاكم الأعلى للمسلمين فى رأيهم خليفة كما يسميه أهل السنة ، وإنما يسمونه إماماً ليدل هذا اللقب على مكانته الدينية . والإمام الأول عندهم هو على الذى اختاره الرسول ﷺ فى اعتقادهم ، ليكون إمام المسلمين بعده ، ويسمون ذلك وصية ، إذ يقولون إن الرسول أوصى لعلى بالإمامة بجوار غَدير خُمّ بين مكة والمدينة . فهو وصىُّ النبى وكل إمام بعده وصَىٌّ لسلفه ، عيَّنه بعده صراحة وفقاً لترتيب إلهى . ويضيف الشيعة إلى ذلك أن الرسول ﷺ بَثَّ علياً علوماً خصَّه بها ، وهى علوم تجعل له – فى عقيدتهم – قدسية وصفات روحية خاصة ،

(١) مقدمة كتاب الفتوة لابن المعمار ص ٧٥ .

وهى صفات وعلوم يرثها كل إمام عن سالفه .

والشيعة فرق كثيرة ، ونقصر حديثنا على ثلاث منها عُرفت بالعراق لهذا العصر ، هى الإمامية الاثنا عشرية والزيدية والنُّصَيْرية . والأولى[١] هى التى يدين بها جمهور الشيعة فى العراق حتى اليوم ، أما الفرقتان الثانية والثالثة فعُرفتا فى بعض البيئات والمدن ، ولم تَعُمّاً فى العراق إنما التى عَمَّت الامامية الاثنا عشرية ، ولذلك ينبغى أن نفصِّل القول فيها بعض التفصيل . وعندهم أن إمامة على وأبنائه من السيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول ﷺ جزء لا يتجزأ من صحة العقيدة الإسلامية ، يقول الكلينى المتوفى سنة ٣٢٨ فى كتابه الأصول من الجامع الكافى : «ليس بمسلم حقا من لا يعترف بالله ورسوله والأئمة جميعاً وإمام عصره ومَنْ لا يفوِّض أمره للإمام ويبذل نفسه فى سبيله» والإمامية بذلك يجعلون من أركان الإسلام الأساسية – فى عقيدتهم – الإيمان بالأئمة والانضواء تحت لواء إمام العصر[٢] ويضفى الإمامية على الإمام صفات روحية قدسية أودعها الله فيه مع ما أودع من العلوم ، وهى صفات يعلو بها على المستوى البشرى للناس ، بها يكون هادياً لهم وموجِّها ، إذ ورثها عن الأئمة قبله ، وورث معها المعارف والأحكام الإلهية ، وكلٌّ ما يجدّ يعرفه عن طريق الإلهام بالقوة القدسية والمشيئة الإلهية . فكل علم له إنما هو من لدن الله وكل أمر إنما هو بتوجيه الله[٣] . وطاعة الأئمة لذلك واجبة ، إذ هم أبواب الله والسبل إليه والإدلاّء عليه ، وهم ذخيرة علمه وتراجمة وحيه وأركان توحيده وخُزّان معرفته . أَمْرهم أَمْرُ الله ، ونَهْيهم نَهْيُه ، وطاعتهم طاعته ، ومعصيتهم معصيته[٤] . ومما يستدلون به على وجوب طاعتهم قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) وأولو الأمر ليسوا هم – كما يدل ظاهر الآية – علماء الأمة المجتهدين ، وإنما هم الأئمة . ويقولون إن الله أوجب طاعتهم بالإطلاق كما أوجب طاعته وطاعة رسوله . وعلى هذا النحو يرتفع الشيعة الإمامية بأئمتهم عن الطبيعة البشرية إذ يجعلونهم معصومين عن الخطأ واقتراف الذنوب والآثام . وتُعَدّ هذه العصمة للأئمة من المبادئ الأساسية فى العقيدة الإمامية ، ويستدلون عليها باختيار الله لهم – على نحو ما تصور ذلك عقيدتهم – والله لا يختار لعباده

(١) انظر فى الإمامية الملل والنحل للشهرستانى وعقائد الشيعة الإمامية لابن بابويه القمى والعقيدة والشريعة فى الإسلام لجولدتسيهر والجزء الثالث من ضحى الإسلام لأحمد أمين .

(٢) راجع الكلينى ص ١٠٥ و٣٦٨ وجولد تسيهر ص ١٨١ وفى مواضع مختلفة

(٣) راجع عقائد الإمامية للشيخ محمد رضا المظفر (طبع القاهرة) ص ٧٢ والكلينى ص ١٤٦ ، ١٤٨ .

(٤) انظر المظفر ص ٧٤

فى رأيهم إلا المعصومين[١] .

ويؤمن الإمامية الاثنا عشرية بأن الأئمة اثنا عشر ، ولذلك يسمون الاثنى عشرية ، وهم – على الترتيب – على بن أبى طالب ، فابنه الحسن ، فأخوه الحسين ، فابنه على زين العابدين ، فابنه محمد الباقر ، فابنه جعفر الصادق ، فابنه موسى الكاظم ، فابنه على الرضا ، فابنه محمد الجواد ، فابنه على الهادى ، فابنه الحسن العسكرى ، فابنه محمد المهدى المولود سنة ٢٥٦ للهجرة ، وقد اختفى عندما كان طفلاً . ويؤمن الإمامية بأن هذا الإمام حى وأنه سيعود ليملأ الأرض عدلاً بعد أن مُلئت جوراً ، ويعيد سنن الرسول ﷺ ويستردّ حقّ أسرته فى الولاية على الأمة فى يوم موعود به من الله . هو سر من الأسرار الإلهية . ويقولون إن هذا حقا مخالف للمألوف أن يكون إماماً وهو قد رحل وعمره خمس سنوات وأن يظل قروناً متوالية حيا ، ولكنها – كما يعتقدون – معجزة سُتحَقّق ، إذ يعود إليهم هذا المهدى المنتظر الذى يحرِّر – فى عقيدتهم – العالم من مفاسده وشروره ، ويُشيع فى الناس العدالة . وهو بذلك حَىّ ، وكل ما فى الأمر أنه غائب خفى عن الأعين[٢] . وهو عندهم فى أثناء غيابه واختفائه «قائم الزمان» يسير بين الأحياء ولا يرونه ، ويرعى شئونهم ، ويدبر مصالحهم[٣] .

وتؤمن الإمامية الاثنا عشرية بنظرية الرجعة ، إذ يعيد الله بعض الأموات إلى الدنيا ليقرُّوا بين البشر نواميس العدالة الإلهية ، ثم يعودون بعد ذلك إلى الموت ، وكأنها بعث موقوت فى الدنيا ، وهى طبعاً غير التناسخ ، فالتناسخ انتقال الروح من بدن إلى بدن ، أما الرجعة فمعاد جسمانى فى الدنيا بنفس الصورة والشخصية . ويستدلون على هذه الرجعة بما جاء على لسان عيسى عليه السلام فى الذكر الحكيم : (وأُبْرِئُ الأَكْمَهَ والأَبْرَص وأُحْيِى المَوْتَى بإذن الله) وما جاء عن قصة أهل الكهف فى القرآن الكريم ، وأيضاً عن صاحب القصة فى قوله تعالى : (فأماته الله مائة عام ثم بعثه) . غير أن فكرة الرجعة اختلطت بفكرة المهدى الذى سيأتى آخر الزمان ويتم على يديه الإصلاح المأمول ، ويقول الشيخ المظفر : «على كل حال الرجعة ليست من الأصول التى يجب الاعتقاد بها ، وإنما اعتقادنا بها كان تبعاً للآثار الصحيحة الواردة عن آل البيت عليهم السلام[٤] » . وهو يلفتنا بذلك إلى أهمية

---

(١) انظر فى عصمة الإمام لدى الاثنى عشرية جولدتسيهر ص ١٨٨ .

(٢) انظر فى نظرية المهدى الكتب الشيعية السابقة وجولدتسيهر ص ١٩١ وما بعدها وراجع فى الغيبة عقائد الإمامية للمظفر ص ٨٠ .

(٣) انظر جولدتسيهر ص ١٩٦ .

(٤) عقيدة الإمامية للمظفر ص ٨٣ وما بعدها وراجع فى عقيدة الرجعة لدى الاثنى عشرية جولدتسيهر ص ١٩١ .

الروايات المنسوبة إلى الأئمة فى البيئة الإمامية فهى أقوى عندهم من كل برهان لأنهم فى رأيهم معصومون متزهون عن الخطأ.

وتلتقى العقيدة الإمامية مع الاعتزال فى كثير من الأصول ، فالإمامية كالمعتزلة يرون أن صفات الله قائمة بذاته ، فهو عالم بذاته لا بعلم ، وكذلك بقية صفاته ، وَيْروون عن جعفر الصادق : «العلم ذات الله ولا معلوم ، والسمع ذاته ولا مسموع ، والبصر ذاته ولا مبصر ، والقدرة ذاته ولا مقدور[1]» . وهم كالمعتزلة ينفون التشبيه عن الله ، فهو منزه عن المكان والزمان والشبه بالمخلوقات ، إذ ليس جسما ولا عرضاً ولا جوهراً ، وقد سلكوا مسلك المعتزلة فى تأويل الآيات القرآنية التى قد تفيد مشابهة الذات العلية للمخلوقات فى مثل (يد الله فوق أيديهم) فمعنى اليد القدرة . وهم كالمعتزلة فى إثبات العدل على الله ، أما أفعال العباد فيقفون فيها موقفاً وسطاً بين المعتزلة والقائلين بالجبر ، فهى بين بين ، أو هى بين الاستطاعة والجبر . وظلت الصلة قوية بين الإمامية والاعتزال طوال العصر.

وقد أخذ المذهب الإمامى الاثنا عشرى ينتشر فى العراق منذ أوائل هذا العصر ، إذ تحول صولجان الحكم إلى البويهيين وكانوا إمامية ، ونرى حاكمهم الأول معز الدولة يأمر فى سنة ٣٥١ بلعن معاوية وكبار الصحابة وكَتَبَ بَعض الشيعة ذلك على حيطان المساجد ، فمحا الكتابةَ أهلُ السنة[2] . ولم يلبث معز الدولة أن أمر أهل بغداد بالاحتفال بيوم عاشوراء فى سنة ٣٥٢ وهو اليوم الذى استشهد فيه الحسين ، وقد أصبح منذ هذا التاريخ أكبر عيد للشيعة ، وفيه أمر معز الدولة أن تُغْلَقَ الأسواق ويعطَّل البيع والشراء ولا يَذْبح القصَّابون ولا يَطْبخ الطبَّاخون وأصحابُ الحلوى ، والجميع ينوحون ويبكون الحسين وينصبون القباب ويتخذون المسوح وتخرج النساء منشورات الشعور مسوَّدات الوجوه مشقوقات الثياب وَيُدْرن فى بغداد نائحات لاطمات وجوههن على الحسين[3] . وفى هذا اليوم يُزار قبر الحسين بكربلاء ، ويقام فيها عليه مأتم كبير كمأتم بغداد ، ويقام أيضاً فى المدن العراقية الأخرى . ولا يزال يقام هذا المأتم إلى اليوم . وفيه يقام موكب كبير للنائحين ببغداد ، وتُتْلَى سيرة الحسين فى البيوت والنوادى وتنشد مراث كثيرة فيه وفى أبيه وفى الأئمة المستشهدين ، يصوِّر فيها الشعراء محن آل البيت على مر التاريخ . وبجانب هذا العيد الحزين عيد فرح

(١) الفصول المهمة فى أصول الأئمة للعامل (طبع النجف) ص ٥٣ وانظر جولدتسيهر ص ١٩٨ وما بعدها .

(٢) انظر ابن الأثير وأبا الفدا فى حوادث عام ٣٥١ .

(٣) المنتظم ٧ / ١٥ وابن الأثير وابن تغرى بردى فى حوادث عام ٣٥٢ .

وسرور فَرَضه أيضاً معز الدولة البويهى فى الثامن عشر من ذى الحجة سنة ٣٥٢ وهو عيد الغدير : غدير خُمّ الذى يذهب الشيعة –كما أسلفنا– إلى أن الرسول ﷺ عهد إلى على بالخلافة قريباً منه وأنه قال : مَنْ كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال مَنْ والاه وعادِ مَنْ عاداه . وقد أمر معز الدولة أن يستشعر الناس فيه الفرح ومظاهره من اتخاذ الزينة ونَصْب القباب وتعليق الثياب ، وأُشعلت النيران ليلاً وضُربت الدبادب والبوقات (١) . ولم يلبث أهل السنة ببغداد أن اتخذوا لهم عيدين بإزاء العيدين السالفين ، فجعلوا لهم عيداً بعد عيد الغدير بثمانية أيام ، سموه عيد الغار ، أحيوا فيه ذكرى اليوم الذى دخل فيه النبى ﷺ وأبو بكر الصديق فى غار حِراء ، وبالمثل جعلوا لهم عيداً بعد يوم عاشوراء بثمانية أيام أحيوا فيه ذكرى اليوم الذى قُتل فيه مصعب بن الزبير (٢) .

واشتهر الكرخ فى غربى بغداد بأنه كان حَىّ الشيعة الإمامية (٣) ، ويقول هلال الصابى إنهم لم يحتلوا باب الطاق إلا فى أواخر القرن الرابع الهجرى (٤) ، وكان يقابلهم فى القسم المواجه من بغداد أهل السنة وكان أكثرهم من الحنابلة ، ولهم فتن كثيرة مع الشيعة تقصها كتب التاريخ . ويذكر ابن بطوطة فى رحلته مدينة الحِلّة ويقول إن أهلها لزمنه فى القرن الثامن إمامية اثنا عشرية (٥) ، ومرَّ بنا فى حديثنا عن بنى مزيد فى الجزيرة العربية أنهم كانوا لعهدهم بالحِلّة فى القرن الخامس رافضة ، وقد يكون فى ذلك ما يدل على اكتساح مذهب الإمامية لمذهب الإسماعيلية فى العراق . ووصف ابن بطوطة كَرْبلاء ومشهد الحسين بها ، وقال إن «الروضة المقدسة داخلها وعليها مدرسة عظيمة وزاوية كريمة فيها الطعام للوارد والصادر ، وعلى باب الروضة الحجَّاب والقَومة ، ولا يدخل أحد إلا عن إذنهم ، فيقبِّل العتبة الشريفة وهى من الفضة ، وعلى الضريح المقدس قناديل الذهب والفضة ، وعلى الأبواب أستار الحرير» (٦) . وهى أول مرة يوصف فيها مشهد الحسين من داخله . وهو تحفة من التحف النفسية بما يغطِّى الضريح ومئذنة المشهد من صفائح الذهب ، وبالمثل مشهد أبيه على فى الكوفة . وتحضُّ العقيدة الإمامية على زيارتها وزيارة قبور الأئمة بالعراق وإيران . وقد أتيح لتلك العقيدة فى عهد إسماعيل الصفوى ودولته أن تصبح المذهب الرسمى للدولة فى العراق وإيران . غير أن تلك الدولة لم تدم فى العراق طويلاً .

---

(١) ابن الأثير والمنتظم فى حوادث عام ٣٥٢ .

(٢) كتاب الوزراء للهلال بن المحسن الصابى ص ٣٧١ .

(٣) انظر مادة كرخ فى معجم البلدان لياقوت .

(٤) كتاب الوزراء ص ٣٧١ وانظر المنتظم فى حوادث عام ٣٨٩ .

(٥) رحلة ابن بطوطة ١ / ١٣٨ .

(٦) ابن بطوطة ١ / ١٣٩ .

وكان بجانب العقيدة الاثنى عشرية فى العراق عقيدتان أخريان شيعيتان ، إحداهما متطرفة غاية التطرف حتى ليتبرأ منها الشيعة الاثنا عشرية ، والثانية معتدلة غاية الاعتدال ، أما المتطرفة ففرقة النُّصَيْرية كان لها أتباع فى مدينتى عانة والحديثة ، وهم فى الحق مسلمون اسماً فحسب ، أما بعد ذلك فهم خارجون على الإسلام إذ عَدُّوا على بن أبى طالب وأبناءه آلهة وعبدوهم من دون الله ، واتخذوا لأنفسهم كتاباً عَدّوا القرآن ثانوياً بالقياس إليه . وطبيعى ، أن يرفضوا بعض أركان الشريعة الإسلامية ، وقد أنزلوا الرسول ﷺ منزلة دون منزلة على ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم الآثمة ، ويقول جولدتسيهر إن عقيدتهم تحمل كثيراً من عناصر الوثنية الآسيوية القديمة [١] . وحرى بنا أن نلاحظ أنه كان يندسُّ بين الإمامية بعض النُّصيرية وبعض الشيعة الغالين أوبعبارة أدق الرافضة ، وخاصةً من يرفعون عليا إلى مرتبة رَبَّانية . ونجد أحد خطباء الشيعة ببغداد فى عام ٤٢٠ للهجرة يدعو فى خطبة الجمعة بعد الصلاة على النبى ﷺ فيقول : «وعلى أخيه أمير المؤمنين على ابن أبى طالب مكلم الجمجمة ، ومحيى الأموات ، البشرى ، الإلهى ، مكلم فتية أصحاب الكهف [٢] » . وكأنه يؤمن بأن عليا صورة جديدة لعيسى عليه السلام ، اجتمع فيه اللاهوت والناسوت مما يتيح له فى رأيه إحياء الموتى والخلود من أول الزمان . وهى نفس عقيدة النصيرية فيه إذ ذهبت إلى أن فيه جزءاً إلهيا وأنه كان موجوداً قبل خلق السموات والأرض ، وأن الإله ظهر بصورته وخلق بيديه وأمر بلسانه [٣] إلى غير ذلك من كفرٍ ما وراءه كفر .

وعلى عكس النصيرية كانت هناك فرقة معتدلة أشد الاعتدال ، هى فرقة الزيدية التى نشأت فى الكوفة على يد زيد بن على زين العابدين بن الحسين ، وقد ظل لها فى هذا العصر أنصار عديدون فى تلك المدينة ، وكانوا لا يَقْصُرون الإمامة على أشخاص معينين من أبناء الحسين كما ذهب الإمامية ، بل يرونها حق كل علوى فاطمى ما دام له من الاستعداد الروحى ما يؤهله للإمامة ، وكانوا ينكرون فكرة الإمام الغائب التى آمنت بها الإمامية وما يُطْوَى فيها من نظرية الرجعة وأيضا فكرة العصمة ، وأيضاً لم يضيفوا إلى الإمام فكرة العلم الباطنى المتوارث وما يطوى فيها من صفات روحية قدسية تُضْفَى على الإمام ، فيكفى

---

(١) العقيدة والشريعة فى الإسلام لجولدتسهير ص ١٨٤ ، ٢٢١ .

(٢) المنتظم فى حوادث سنة ٤٢٠ وانظر الحضارة الإسلامية لآدم ميتز (طبعة القاهرة) ١/٨٢ .

(٣) الملل والنحل للشهرستانى بتحقيق محمد سيد كيلانى (نشر مكتبة مصطفى الحلبى) ١/١٨٨ وما بعدها .

فيه أو قل يشترط فيه أن يكون فقيهاً ، ولكن دون تصور علم لدنّى يهبط عليه . واشترطوا فى الإمام أن يكون كريماً سمحاً عادلاً شجاعاً . ونهوا عن ذم الصحابة وأبى بكر وعمر ، لأنهم لم يبايعوا عليا بالخلافة ، وجَوَّزوا إمامة المفضول من غير ذرية على بن أبى طالب على الأفضل من ذريته . وعقيدتهم بذلك لا تبعد كثيراً عن عقيدة أهل السنة ولذلك كان يقال من قديم إنهم أكثر الفرق الشيعية إنصافاً واعتدالاً [١] .

٥

الزهد والتصوف

كانت موجة الزهد فى هذا العصر لا تقل حدة واتساعاً عنها فى العصور السابقة ، ومعروف أن القرآن دعا إليه مراراً كما دعا الرسول فى أحاديثه النبوية إلى الزهد فى عَرَض الحياة الدنيا وطلب ما عند الله من ثواب الآخرة ، وبذلك كان الزهد من طوابع الحياة الإسلامية المستقرة فى الأمة . وأخذت تتكون منذ عهد الرسول ﷺ طبقات كثيرة من الزهاد المتقشفين الذين ينبذون وراء ظهورهم مباهج الحياة ويتجردون لعبادة ربهم . ونراهم فى هذا العصر بكل بلد من بلدان العالم الإسلامى يُعَدّون بالعشرات بل بالمئات ، ويمكن أن نسلك فيهم بصفة عامة طبقات الفقهاء ، فمن يقرأ فى طبقات الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة يجد المترجمين لهم يسوقون أخباراً كثيرة عن مدى ما كان يأخذ به الفقهاء من كل مذهب أنفسهم من التقشف وطمأنينه النفس القانعة مع ما يُذْكَرُ من أن هذا الفقية أو ذاك اعتكف فى بيت الله خمسين سنة أو أنه صام حياته أو أنه صام خمساً وسبعين سنة . وتسوق كتب التاريخ أسماء زهاد كثيرين ومن يرجع إلى المنتظم لابن الجوزى وابن الأثير وابن تغرى بردى سيراهم يذكرون فى وفيات السنوات أسماء كثرةٍ من الزهاد ، فمثلاً فى سنة ٣٤٨ توفى جعفر بن حرب وكان فى نعمة كبيرة ، فاجتاز يوماً بموكبه ، فسمع قارئاً يقرأ : (ألم يَأنِ للذين آمنو أن تَخْشَعَ قلوبُهم لذكرِ الله ومانزل من الحق) فصاح : بلى والله قد آن ، ونزل عن دابته وفرق جميع أمواله ولزم العبادة حتى مات . وفى نفس السنة توفِّى عالم زاهد كان يصوم الدهر ويُفْطر كل ليلة على رغيف ويترك منه لقمة ، فإذا كان ليلة الجمعة تصدق بذلك الرغيف وأكل تلك اللقم التى استفضلها . وفى سنة ٣٨٤ توفِّى

---

(١) الشهرستانى ١ / ١٥٤ .

أبو العباس عبد الله بن محمد ، وكان قد ظل سبعين سنة ناسكاً عابداً لايستند إلى حائط ولا إلى وسادة أوغيرها . وكانوا يكرهون فى الزاهد أن يتولى عملاً للسلطان يكسب منه مالا[١] ، وكانوا إذا عرفوا أن طعام شخص من مال أخذه من السلطان امتنعوا من أكله[٢] . وكانت موجة الزهد عامة فكثيراً مانقرأ عن هذا الخليفة أو ذاك أنه كان زاهداً ، وبذلك اشتهر الخلفاء القادر والمسترشد والقائم ، ويقال عن الأخير إنه كان فى وجهه أثر صُفْرة من قيام الليل [٣] . وكان من الوزراء وأبنائهم من يرجعون إلى أنفسهم فينصرفون عن الدنيا ومتاعها الزائل إلى عبادة الله وما عنده من الثواب الآجل ، ويروى عن سليمان بن الوزير نظام الملك ، وكان يتولى المدرسة النظامية التى بناها أبوه ببغداد ، كما مر بنا ، أنه كان يحضر مواعظ ابن الجوزى واعظ بغداد المشهور ، فأخذه الوَجْد يوماً . فقام وأشهد ابن الجوزى والناس من حوله أنه قد أعتق جميع ما يملك من الرقيق ، ووقف ما يملك على أعمال البر[٤] . ويبدو أن كثيرين كانوا يبالغون فى الزهد ، حتى ليفرضون على أنفسهم العبادة ليل نهار ، بل حتى لينصرفون عن الحياة الزوجية ويمتنعون منها . وكل ذلك مغالاة فى الزهد لا يرضاها الإسلام ، الذى لا يريد للزاهد أن ينفصل عن المجتمع والحياة ، وقد رُوى أن جماعة من الصحابة كانوا فى سفر أثنوا للرسول عليه السلام على رفيق لهم كان لا يزال داعياً ربه فى ركوبه مصلياً له فى نزوله فقال لهم «فمن كان يكفيه عَلف بعيره وإصلاح طعامه؟ قالوا : كلنا ، قال : فكلكم خير منه [٥] » . فالزهد الإسلامى ينكر إهمال الشخص لشئونه الدنيوية ، كما ينكر بقوة فكرة العزوبة المعروفة عند رهبان النصارى [٦] . ونرى ابن الجوزى يحمل حملة شعواء على الزهاد الذين يمتنعون عن الزواج ونظرائهم الذين يمضون الليل والنهار فى العبادة والنسك وقد نحلت أجسامهم وشحبت ألوانهم ودقت عظامهم ، حتى إنهم لا يستطيعون الصلاة واقفين ، بل يصلون من قعود . ويقول إن هذا كله مخالف للشريعة والسنة [٧] .

---

(١) النجوم الزاهرة ١١٧/٥ .

(٢) النجوم ٥٧/٥ .

(٣) النجوم ٩٨/٥ .

(٤) الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة (طبع بغداد) ص ١٢٤ وانظر تاريخ العراق فى العصر العباسى الأخير لبدرى فهد ص ٣٩٧ .

(٥) أعلام النبوة للماوردى (طبع القاهرة) ص ١٥٣ وراجع طبقات ابن سعد ج٣ق١ ص ٢٨٧ وج ٤ق٢ ص٩ .

(٦) انظر عيون الأخبار لابن قتيبة (طبع دار الكتب المصرية) ١٨/٤ وروض الرياحين لليافعى (طبع القاهرة) ص ٣٨ .

(٧) صيد الخاطر لابن الجوزى (طبع القاهرة) ص ١٣٨ .

وكان طبيعيًّا أن يتحوَّل كثير من الزهاد إلى متصوفة ، لا يكتفون بالإعراض عن ملاذ الدنيا وطيباتها قانعين من الطعام بالكِسْرة ومن الثياب بالخِرْقة ، لا يشغلهم مال ولا زوجات ولا أولاد . وقد أخذت تُبْنَى لهم الرِّباطات والخانقاهات فى العالم الإسلامى ، تَبْنيها الدولة أحياناً ، ويبنيها ذوو اليسار ابتغاء وجه الله أحياناً أخرى . وكان ما بها من طعام يأتى عن طريق الصدقات أو عن طريق ما يُحْبَسُ عليها من الأوقاف ، ولم يكن يُسْمَحُ بالأكل من هذا الطعام إلا للعابد الناسك نسكاً لا يستطيع معه كسب قوته أو إلا إذا أصبح من الشيخوخة بحيث تُقْعِده عن العمل ، وبذلك لم يكن يؤذن لعاطل بالأكل من هذا الطعام . وكان فى الأربطة والخانقاهات مجاميع من الشيوخ والشباب أصحاب الخلوة . وعادة كان لكل رباط شيخ كبير يصبح كل مَنْ فيه من أتباعه . والمحور الأساسى للتصوف هو محبة الله محبة يفنى فيها الصوفى المحبُّ فى الحقيقة المطلقة حقيقة الكائن الإلهىّ ، وقد أخذ يتداخل غلو كثير فى هذه العقيدة . ومرَّ بنا فى كتاب العصر العباسى الثانى أنه بلغ من غلو الحلاَّج فى هذه العقيدة أن جرى على لسانه كلمات وأشعار كثيرة تصرِّح بفكرة الحلول من مثل قوله : «أنا الله وأنا الحق» مما جعل الفقهاء يفتون بزندقته وقتله . غير أن هذا الغلو لم يمت بموت الحلاج ، بل لقد رافقه غلو آخر عند بعض الصوفية لعله أكثر عنتاً إذ ذهب فريق منهم إلى أنه ينبغى أن يُظهِرُوا للناس أنهم لا يعملون بشرائع الإسلام وإن كانوا يعملون بها فعلاً ، وهم المسمون بالملامتيَّة أى المستحقين للوم ، مبتغين من ذلك أن يكونوا محل احتقار وازدراء حتى يبلغوا مرتبة عليا من التصوف والانصراف عن الدنيا . وكثير من الصوفية أخذوا يعلنون أنه لا عبرة بأداء الفرائض الدينية أو كما يسمونها عمل الجوارح ، إنما العبرة بعمل القلب . وكل هذا انحراف بالتصوف عن منهجه الصحيح .

وكان ذلك سبباً فى أن تنشأ حرب عاصفة منذ أوائل هذا العصر بين الفقهاء من جانب والمتصوفة من جانب آخر ، فكان الفقهاء يرونهم خارجين على الإسلام بما يشيعون من أفكار الحلول ومايتصل بها وبما يأخذ بعضهم به أنفسهم من القعود عن أداء فرائض الإسلام ، قاطعين بذلك كل سبب بينهم وبين دينهم الحنيف . وتفاقمت الحرب بين الطرفين بحيث أصبحت هناك ضرورةُ أن يوجد بعض المتصوفة المصلحين الذين يعيدون الأمر إلى نصابه ، حتى لا يخرج التصوف عن حدود الشريعة . وسرعان ما ظهر أبو نصر السرّاج الصوفى الطوسى المتوفى سنة ٣٧٨ وألف كتابه «اللمع» وفيه ينكر على الصوفية كل انحراف فلسفى وشطح صوفى يؤدى إلى نظرية الحلول ، كما ينكر تعطيل الفرائض الدينية ويجعلها جزءاً لا يتجزأ من التصوف ، فبدونها لا يتحقق له وجود . وحمل أفكاره تلميذه أبو عبد

الرحمن السُّلَمِىّ صاحب طبقات الصوفية ، ولقَّنها بدوره تلميذه عبد الكريم القُشَيْرى المتوفى سنة ٤٦٥ وقد ألف رسالة طويلة مشهورة رَأَبَ بها هذا الصدع الذى حدث بين الفقهاء والمتصوفة . ودوَّت الرسالة منذ عصره فى العالم الإسلامى ، وهو فيها يرسم مبادئ التصوف مبيناً أنها لا تناقض الدين الحنيف بل تتحد معه فى وئام ، ويعرض أعلام الصوفية مع طائفة من أقوالهم التى تربط بين التصوف والنهوض بفرائض الإسلام مع حملة شعواء على من يستخفُّون بالصوم والصلاة وأداء الفروض الدينية وعلى من لا يميِّزون بين الحلال والحرام مدَّعين أنه زالت عنهم أحكام الدين . وخلفه أبو حامد الغزالى حجة الإسلام المتوفى سنة ٥٠٥ فوصل بين التصوف والشريعة وصلاً وثيقاً لم يصبه وَهنٌ بعده ، بحيث أصبح التصوف فى صورته العامة سُنِّياً ، وحقا انفصلت عنه بعض أسراب فلسفية استمرت فيها فكرة الحلول ، ولكنها أسراب فردية على نحو ما هو معروف عن ابن عربى وابن سبعين الأندلسيين . أما بعد ذلك فقد عم التصوف السنى على نحو ما رسمه الغزالى فى كتابه «إحياء علوم الدين» وهو فى النصف الأول منه يتحدث عن الفرائض الدينية والنوافل من مثل الذكر وتلاوة القرآن والتهجد والأدعية . ويبدأ الحديث فى النصف الثانى بما ينبغى من صفاء القلب صفاء تقهر فيه النفس شهواتها وملاذها . ثم يتحدث عن صفات الكمال الروحى الذى يتطلبه الصوفى وما ينبغى له من التوبة والصبر والشكر والخوف والرجاء والزهد والتوكل والحب والإخلاص والمحاسبة والتفكر وتذكر الموت وما وراءه . وسنعود إلى الكتابة عن الغزالى والقشيرى وأبى نصر السراج الطوسى فى القسم الخاص بإيران . وسرعان ما أصبح هذا التصوف السنى القائم على أعمال الجوارح من الفرائض الدينية وأعمال القلب من الإخلاص وصدق المحبة الإلهية مطلبَ كثرةٍ من الناس فى العالم الإسلامى جميعه . والغزالى لا يضع أصوله فحسب ، بل يُعِدّ العدة لكى تشيع الطرق الصوفية فيه ، فقد تحدث فى الجزء الثالث من الإحياء عن الشيخ الصوفى وتلميذه أو مريده ، وقال إنه ينبغى أن يلزم شيخه لزوم الأعمى الماشى على شاطئ النهر لمن يقوده ، ويقول : على الشيخ أن يدفعه إلى الخلوة والصمت والصوم والأرق مع دوام الذكر ومع التخلص من كل الشهوات . وسرعان ما أخذت الطرق الصوفية فى الظهور ، ومن أقدمها الطريقة القادرية المنسوبة إلى الشيخ محيى الدين أبى محمد عبد القادر (١) الجيلانى مولداً الحسينى نسباً المتوفى سنة ٥٦١ وقد ولد بجيلان سنة ٤٧١ وجاء إلى بغداد فى شبابه ولزم حلقات الفقهاء والمحدِّثين ، ثم أخذ يعظ

(١) انظر فى الجيلانى الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب والنجوم الزاهرة ٥/٣٧١ وتلخيص مجمع الآداب لابن الفوطى (طبع لاهور) ٥/٣٨١.

الناس بعد سنة **٥٢٠** وبُنيت له مدرسة فلزمها وتكاثر الناس على سماع وعظه إلى أن لبَّى نداء ربه ، ويقول عنه ابن تَغْرى بَرْدى : «كان ممن جمع بين العلم والعمل أفتى ودرَّس ووعظ سنين ، وكان محققاً صاحب لسان فى التحقيق وبيان فى الطريق ، وهو أحد المشايخ الذين طنَّ ذكرهم فى الشرق والغرب» . وله كتابان مطبوعان يصوران طريقته هما سر الأسرار والغُنْية لطالبى طريق الحق ، وهو فيهما يدعو إلى التمسك بالشريعة الإسلامية وأداء الفرائض الدينية مع الخلوص للمحبة الإلهية . وقد وُضعت فى مناقبه كتب كثيرة ، منها كتاب بهجة الأسرار ومعدن الأنوار فى مناقب القطب الربانى سيدى محيى الدين أبى محمد عبد القادر الجيلانى ، وهو مطبوع بالقاهرة .

ومن الطرق الصوفية العراقية التى ذاعت فى العالم الإسلامى الطريقة الرفاعية المنسوبة إلى الشيخ الصالح العربى الأصل أبى العباس أحمد[١] بن أبى الحسن على المعروف بالرفاعى «إمام وقته فى الزهد والصلاح والعبادة» وقد شاعت طريقته فى عصره وكثر أتباعه . وُيقال إن شخصاً زاره فى ليلة النصف من شعبان ، فوجد عنده نحو مائة ألف إنسان «وكان متواضعاً مجرَّداً من الدنيا» . وكان مولده سنة **٥٠٠** ووفاته سنة **٥٧٨** . ومن قوله : «سلكت كل طريق ، فما رأيت أقرب ولا أسهل ولا أصلح من الذل والافتقار والانكسار لتعظيم أمر الله والشفقة على خلق الله والاقتداء بِسنَّة سيدى رسول الله ﷺ» . وله كتاب سماه «حالة أهل الحقيقة مع الله» حققه وقدم له محمد نجيب خياطة ، وهو مطبوع بحلب . وقد بناه الرفاعى على أحاديث نبوية ، وكثير منها يتصل بالمحبة الربانية ومعرفة الله ووَصْف المتصوفة أهلِ الحقيقة ، وقد سئل أحد أتباعه عن وِرْدِه ، فقال : كان يصلى أربع ركعات بألف (قل هو الله أحَد) ويستغفر كل يوم ألف مرة ، واستغفاره أن يقول : (لا إله إلا أنت سُبْحانك إنى كنت من الظالمين) عملت سوءاً وظلمت نفسى وأسرفت فى أمرى ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفرلى ، وتُبْ علىَّ ، إنك أنت التواب الرحيم ، ياحىّ ، يا قيوم ، لا إله إلا أنت» — ويقول ابن خلكان : لأتباعه أحوال عجيبة من أكل الحيات وهى حية والنزول فى التنانير وهى تتضرَّم ناراً فيطفئونها ، ومثل هذا وأشباهه .

وبجانب هاتين الطريقتين العراقيتين : الرفاعية والقادرية كان هناك أقطاب للصوفية

---

(١) راجع فى الرفاعى مرآة الزمان ٨ / ٣٧٠ والشذرات (طبعة عيسى البابى الحلبى) ٦ / ٢٣ ؛ وابن خلكان ٤ / ٢٥٩ والنجوم الزاهرة ٦ / ٩٢ وطبقات السبكى ١ / ١٧١ وطبقات الشعرانى ١ / ١٤٠ .

كثيرون من أمثال المرتضى الشهرزورى ، وشهاب الدين أبو حفص (١) عمر السُّهْرَوَرْدى البغدادى ، وهو تلميذ عبد القادر الجيلانى ، وله كتاب يسمى عوارف المعارف يوضح فيه ما يجب على المتصوف من أداء الفرائض الدينية ومتابعة السنة النبوية ، ومن أطرف ما فيه الحديث عن المريد وشيخه وأنه ينزل منه منزلة الولد من أبيه . ويتحدث عن المدة التى يقطعها المريد حتى يتهيأ لانتظامه فى طريقة شيخه ويصبح مُعَداً أو مهيَّأً لأن يخلع عليه « الخِرْقة » شعار الصوفية وهى ترمز رمزين : رمزاً إلى أن المريد تلاشت إرادته فى إرادة شيخة ، ورمزاً ثانياً إلى أنه قد تسلم منه الخرقة ويد الله ورسوله فوق يد شيخه وأنه قد تم له الإذن بانتظامه فى الطريقة . ويقول السهروردى إن « المريد الصادق إذا دخل تحت حكم الشيخ وصحبه وتأدب بآدابه يسرى من باطن الشيخ حال إلى باطن المريد كسراج يقتبس من سراج ، وكلام الشيخ يلقح باطن المريد . . . وينتقل الحال من الشيخ إلى المريد بواسطة الصحبة وسماع المقال » (٢) . ويتحدث السهروردى عن آداب الخلوة اللازمة للمتصوف ، ويقول إن الخلوة تستغرق أربعين يوماً من كل عام ، تُقْضَى فى الصلاة والصيام ، ويذكر أن الغرض منها تصفية النفس وإزالة الحجب البدنية ، ولذلك ينبغى على المريد إذا أراد الخلوة أن يجرد نفسه من العالم ومن كل ملكه ، ويصلى ركعتين ويتوب إلى الله توبة نصوحاً ، ويبكى ويتضرع إليه ولا ينقطع عن ذكره طوال خلوته (٣) . وكان على المريد أن ينشر طريقة شيخه فى المدن والقرى بكل ما يستطيع ، وبذلك أمكن للطريقتين القادرية والرفاعية أن ينتشرا لا فى العراق فحسب بل أيضاً فى كل العالم الإسلامى .

ومنذ القرن الخامس الهجرى أخذ يشيع فى التصوف وبين المتصوفة ما سُمِّى بالذكر ، وهو أن يتقابل الصوفية فى صفين ذاكرين الله مع التمايل يميناً وشمالاً ، ويقوم بين الصفين منشد ينشد بعض الأشعار الصوفية أو الغزلية الوجدانية التى تدلع المحبة الإلهية فى القلوب ، وقد عَمَّ هذا الذكر عند القادرية والرفاعية وما نشأ بعدهما من طرق صوفية . ولابُدَّ أن نلاحظ أنه أخذت تنشأ فى الحقب المتأخرة من هذا العصر أو قل منذ أواسطه جماعات الدراويش ، وهم صوفيون متجوِّلون كانوا يطوفون العالم الإسلامى ، وأخذت تظهر بينهم

---

(١) انظر فى ترجمته ابن خلكان ٣/٤٤٦ وعبر الذهبى ٥/١٢٩ وطبقات الشافعية ٨/٣٣٨ ومرآة الزمان ٨/٦٧٩ والنجوم الزاهرة ٦/٢٨٤ .

(٢) انظر كتابه عوارف المعارف (طبع دار الكتاب العربى ببيروت) ص ٩٦ ، وينسب الكتاب خطأ إلى عمه عبد القاهر بن عبد الله السهروردى .

(٣) عوارف المعارف ص ٢٢١ .

فى القرن الثامن الهجرى ومابعده فرقتان اشتهرتا ، هما النَّقْشَبَنْدية ، وقد رعاها تيمورلنك فى دولته ، والبكطاشية ، وقد نشأت فى جو الشيعة الإمامية ، بدلالة تقديسها للأئمة العلويين ، وهى تعتنق إلى حد ما نظرية الحلول ، ويقال إن بعض معتنقيها لم يكونوا يهتمون بالشعائر الدينية ، ولكن مما لا شك فيه أنها كانت طريقة صوفية تقوم على التقشف ، واشتهر عنها تقديس الأولياء .

وفرق صوفية كثيرة أو قل طرق صوفية كثيرة أخذت تتفرع عن الرفاعية والقادرية بجانب طرق جديدة نشأت بدورها ، وكان لهذه الطرق وأتباعها من الدراويش السائحين أو الجوالين أثر بعيد فى نشر الإسلام بشرق إفريقيا وغربيها ووسطها ، وأيضاً بالهند والملايو وجزر الهند الشرقية ، وكان لهم دور عظيم فى أن تظل للعالم الإسلامى وحدته على الرغم من توزعه بين دول شتى ، وكذلك كان لهم دور عظيم فى بث الروح الدينية فى نفوس العامة على مر الحقب حتى اليوم .

الفصل الثاني

الثقافة

١

الحركة العلمية

ظلت الحركة العلمية ناشطة وخاصة فى أوائل العصر وقبل الغزو التتارى ، فكانت هناك الكتاتيب للصِّبْية يتعلمون فيها القراءة وشيئاً من القرآن الكريم والشعر والحساب ، وكان الصبى لا يبلغ التاسعة إلا وقد حفظ القرآن واستظهر بعض مقامات بديع الزمان الهمذانى ، وحلت محلها منذ أوائل القرن الخامس مقامات الحريرى . وكان يستظهر أيضا بعض قصائد الشعراء المشهورين وخاصة أبا تمام والبحترى والمتنبى . وكان الناشئة يتحولون من الكتاتيب إلى المساجد ، حيث حلقات العلماء من القراء والمفسرين والمحدِّثين والفقهاء والمتكلمين واللغويين والنحويين والمؤرخين ومَنْ يشدون بعض علوم الأوائل ، فكانت المساجد فى بغداد تحل محل التعليم الثانوى والجامعات فى عصرنا ، وبالمثل فى البصرة والموصل وغيرهما من بلدان العراق . وكان الأستاذ عادة يستند فى المسجد إلى أسطوانة ، ويقعد الطلاب من حوله ، وقد يجلس على مقعد عالٍ والطلاب يستديرون حوله . وكان يملى على الطلاب محاضراته ، وهم يكتبون ، وإذا تكاثروا اتخذ مستمليا يردِّد كلامه حتى تسمعه الصفوف الخلفية . وكان المؤلف أو المحاضر يعيد أحيانا ما ألَّفه على طلابه ، وهم يعارضون نسخهم على قراءته . وقد يعنُّ له أن يدخل فى القراءة الثانية شيئاً من التصحيح أو التهذيب على ما صنَّفه ، فكان الطلاب يدخلونه على نسخهم ، ومن خير ما يصور ذلك ما يُرْوَى عن عالم لغوى يسمى أبا عمر المطرِّز من أنه أملى كتابه الياقوت فى اللغة على الطلاب بمسجد المنصور ببغداد سنة ٣٢٦ ثم عاد فقرأه على طلابه مضيفا بعض التصحيحات والزيادات . وعاد مرة ثانية ، فأدخل عليه زيادات وتصحيحات جديدة ، واعتمد العرضة الأخيرة للكتاب سنة ٣٣١ – وبها نشره تلاميذه[1] . وكان جامع

[1] الفهرست لابن النديم (طبع القاهرة) ص ١١٩ وراجع إنباه الرواة ٣/١٧٥ .

المنصور ببغداد يشبه جامعة كبيرة ، وكان كل أستاذ نابغ يتمنى أن تكون له فيه حلقة ، ويصوِّر ذلك من بعض الوجوه ما يُرْوَى عن الخطيب البغدادى حافظ بغداد – المتوفى سنة ٤٦٣ – من أنه حين حجَّ شرب من ماء زمزم ثلاث مرات ، وسأل الله ثلاث حاجات : الأولى أن يحدِّث بكتابه «تاريخ بغداد» والثانية أن يُملى على الطلاب بجامع المنصور ، والثالثة أن يُدْفَن إذا مات عند قبر بشر الحافى . وتحققت له الأمنيات الثلاث [1] . وكان الأساتذة والشيوخ فى المساجد أحيانا لا يُمْلون مؤلفات لهم ، بل يشرحون بعض كتب مشهورة للطلاب وقد يعمدون إلى إملاء شروح لهم على بعض المختصرات . واتسع ذلك منذ القرن السابع الهجرى بحيث نستطيع أن نسمى القرون التالية فى العصر قرون الشروح ، وقد تُشْرح الشروح بما يسمى حاشية ، وقد توضع على الحواشى ملاحظات تسمَّى تقارير .

وأخذت تظهر منذ أواخر القرن الرابع الهجرى بجانب المساجد دور للعلم ، عادة يكون فيها مقاعد للطلاب ، وقد يحاضرهم العلماء ، وتُلْحَقُ بها مكتبات ضخمة على نحو ما يحدثنا المؤرخون عن دار للعلم ، أسسها الوزير سابور بن أردشير فى سنة ٣٨٣ للهجرة بالكرخ غربى بغداد ، ووقفها على العلماء واشترى لها كتبا كثيرة ، بلغت عشرة آلاف وأربعمائة مجلد كان معظمها بخط أصحابها أو من الكتب الموثَّقة التى كان يملكها علماء وثقات مشهورون ، وكان بها مائة مصحف نفيس [2] . وأسس الشريف الرضى الشاعر المشهور نقيب العلويين المتوفى ببغداد سنة ٤٠٦ داراً للعلم فتحها للطلاب ورصد لهم جميع ما يحتاجون إليه [3] .

وحين خلفت الدولة السلجوقية دولة بنى بويه وأصبح الوزير نظام الملك مدبِّر الحكم فى زمن ألْب أرْسلان السلجوقى عُنِى ببناء طائفة من المدارس فى بلدان مختلفة فى العراق وإيران ، لمحاربة النحلة الإسماعيلية ونشر مذهب الشافعى فى الفقه ومذهب الأشعرى فى علم الكلام ، وكان منها ثلاث بناها فى بغداد والموصل والبصرة [4] وقف عليها أوقافا كثيرة ، وبنى فيها للأساتذة مساكن ، وجعل لهم رواتب ثابتة ، كما جعل لطلابها نفقات معيشة ، وألحق بها مكتبات نفيسة . وكان فى هذه المدارس أساتذة مختلفون يحاضرون – بجانب

---

(١) طبقات الشافعية للسبكى (الطبعة الثانية بتحقيق عبد الفتاح الحلو ومحمود الطناحى) ٤/٣٥ .

(٢) المنتظم وابن الأثير والنجوم الزاهرة فى حوادث سنة ٣٨٣ وأشار أبو العلاء إلى هذه الدار فى قصيدة مشهورة له وانظر شروح سقط الزند ص ١٢٣٩ .

(٣) ديوان الشريف الرضى طبعة سنة ١٣٠٧ ببيروت ص ٣ .

(٤) طبقات الشافعية للسبكى ٤/٣١٣ .

أساتذة علم الكلام والفقه – فى علوم الحديث والتفسير واللغة والرياضيات والأدب . وأخذ الوزراء بعد نظام الملك يبنون مدارس على غرار مدرسته النظامية ببغداد ، فبنى أبو الغنائم الملقب بتاج الملك سنة ٤٨٠ بباب أبْرز إحدى محالّ بغداد وأحيائها مدرسة سميت التاجية ضاهى بها النظامية [١] ، وأخذ بعض الموسرين يعنون ببناء المدارس ببغداد ، فابتنى المستوفى الخوارزمى – وكان متعصبا لأبى حنيفة – المدرسة الكبيرة بباب الطاق [٢] وأخذت المدارس تتكاثر فى بغداد حتى إذا زارها ابن جبير سنة ٥٨٠ قال إن ببغداد ثلاثين مدرسة ، وكلها بالجانب الشرقى «وما منها مدرسة إلا ويقصر القصر البديع عنها ، وأعظمها وأشهرها النظامية وهى التى ابتناها نظام الملك وقد جُدِّدت سنة أربع وخمسمائة ، ولهذه المدارس أوقاف عظيمة محبوسة تصير إلى الفقهاء المدرسين بها ، ويُجْرون منها على الطلبة ما يقوم بهم . ولهذه البلاد فى أمر هذه المدارس والمارستانات شرف عظيم وفخر مخلَّد ، فرحم الله واضعها الأول ، ورحم مَنْ تبع ذلك السَّنَن الصالح [٣] »

وكانت المدرسة النظامية أشبه بجامعة كبيرة ، ويتوقف ابن خلكان فى وفيات الأعيان وكذلك المؤرخون مرارا ، ليقولوا إن هذا الشيخ أو ذاك دَرَّس فى النظامية . وقل مثل ذلك فى نظامية البصرة ونظامية الموصل . وذكر ابن خلكان أنه بُنى بجوار النظامية الأخيرة فى الموصل تسع مدارس ، هى : القاهرية والأتابكية والعتيقة والنورية والعِزِّية والبَقْشية والعلائية والكمالية والبدرية [٤] . وبُنيت مدارس كثيرة فى المدن العراقية الأخرى ، ذكر ابن خلكان منها فى إربل ثلاثا هى المظفرية والقلعة والعقيلية [٥] . وبنى الخليفة المستنصر ببغداد جامعة كبيرة أو قل مدرسة كبيرة ، هى المستنصرية ، وقد كتب فيها الأستاذ ناجى معروف كتابا ، عرض فيه أساتذتها ونشاطها العلمى وهو يعطينا معارف كثيرة عنها حين فتحت أبوابها للطلاب ، وقد كان بها للفقه وحده عشرون فقيها ، يتقاضى كل منهم اثنى عشر دينارا فى كل شهر ، وكان بها للفقهاء ستة معيدين لكل منهم ثلاثة دنانير شهريا . وكان هناك فروع أخرى للقراءات والحديث لها شيوخها ومعيدوها ، وكان بها مئات من الطلاب لكل منهم ديناران شهريا . وكان لها موظفون مختلفون من مشرفين وخَزَنة وفراشين من كل لون . وكانت تقدَّم للشيوخ والطلاب يوميا جرايات أو قل كان يقدم لهم طعام كامل غير

(١) النجوم الزاهرة ٥/١٢٥ .

(٢) النجوم الزاهرة ٥/١٦٧ .

(٣) رحلة ابن جبير ص ٢٢٩ .

(٤) انظر ابن خلكان ١/١٠٨ ، ١٩٣ ، ٤/٤ ، ٢٥٣، ٥/٣١١، ٣١٣ .

(٥) ابن خلكان ١ /١٠٨ ، ٧ /٨٧ ، ٣٣٨

ما يقدم للطلاب من الحبر والورق والأقلام (١) . وعاد إلى هذه المدرسة ، أو قل الجامعة ، نشاطها بعد الغزو التتارى ، وقد وصفها ابن بطوطة لما زارها سنة ٧٢٧ بقوله : «بها المذاهب الأربعة – يقصد مذاهب المالكية والحنفية والشافعية والحنبلية – ولكل مذهب إيوان فيه المسجد وموضع التدريس وجلوس المدرس فى قبة خشب صغيرة على كرسى عليه البسط ، ويقعد المدرس وعليه السكينة والوقار ، لابساً ثياب السواد ، معتمًّا ، وعلى يمينه ويساره معيدان يعيدان كل ما يمليه . وهكذا ترتيب كل مجلس من هذه المجالس الأربعة ، وفى داخل هذه المدرسة الحمَّام للطلبة ودار الوضوء (٢) .

ويبدو أن ما شاع من أن الحركة العلمية فى بغداد خمدت خموداً تاما بعد الغزو التتارى غير صحيح ، يمكن أن يَصْدُقَ ذلك على العهد التتارى الوثنى أما منذ دخول غازان والتتار فى الإسلام فيبدو أن بغداد استعادت نشاطها العلمى ، وإن لم يبلغ مبلغه أيام ازدهارها فى العصر العباسى والمعروف أن هولاكو دمَّر كثيرا من مدارسها وقد أعيد بناء بعض هذه المدارس ، وعُنِى غازان – كما أشرنا – وخلفاؤه الإيلخانيون بها .

ولاشك فى أنه ران على الحركة العلمية غير قليل من الظلام فى العهدين التركمانى والعثمانى ، غير أن النشاط أخذ يدبُّ فيها أواخر الحقبة العثمانية منذ ولى العراق مدحت باشا فإنه أسس بها مطبعة كان لها أثر بعيد فى نهضة العراق وأسس بها أيضاً مدارس نظرية وفنية .

ولا بد أن نلاحظ أن مساجد بغداد الكبرى ظل لها نشاطها العلمى بعد الغزو التتارى ، وكان من أهمها لعهد ابن بطوطة جامع الخليفة المتصل بقصور الخلفاء ، ويقول إنه سمع فيه على مُسنِد العراق – سراج الدين أبى حفص عمر القزوينى – جميع مسند الدرامى (٣) . وكانت الدراسة فى مساجد بغداد ومدارسها بالمجان ، بل كان الطلاب فى المدارس خاصة يأخذون رواتب كما مر بنا . وربما كانت المساجد أهم من المدارس فى نشر العلم ، فقد كانت أبوابها مفتوحة دائما لكل قاصد ، وكان الناس من مختلف المهن والصناعات والحرف يختلفون إلى حلقات الشيوخ فيها ينهلون ما شاء لهم أن ينهلوا ، مما جعل العلم بحق شعبيا لجميع أفراد الشعب ، يصيبون منه ما يوافق أمزجتهم وميولهم . وكثيرا ما كان يحدث أن يشعر صاحب مهنة أو تجارة بقصوره فى علم من العلوم ، فإذا هو يترك مهنته أو تجارته ويتفرغ للعلم الذى يريده حتى يصبح من أقطابه ، وتلقانا من ذلك أخبار كثيرة فى ابن خلكان وغيره .

---

(١) انظر تاريخ علماء المستنصرية لناجى معروف ١/٥٧ ، ٧١–٨٢ وفى مواضع متفرقة .

(٢) ابن بطوطة ١ / ١٤١ .

(٣) ابن بطوطة ١ / ١٤٢ .

وعلى هذا النحو لم يكن العلم فى بغداد احتكارا لطبقة بعينها ، بل كان مباحا لجميع الناس ، ويخيَّل إلى الإنسان كأنما كان كل أهل بغداد على حظ من العلم والثقافة قليل أو كثير ، ومن خير ما يصور ذلك قصة المزين الثرثار الطريفة فى كتاب ألف ليلة وليلة ، فقد ذُكر فيها أنه قال لشاب بغدادى فى تضاعيف حديث وجَّهه إليه : « قدمَنَّ الله عليك بمزين منجم عالم بصناعة الكيمياء والسيمياء والنحو والصرف واللغة وعلم المعانى والبيان وعلم المنطق والحساب والهيئة والهندسة والفقه والحديث والتفسير . وقد قرأت الكتب ودرستها ومارست الأمور وعرفتها ، وحفظت العلوم وأتقنتها ، وعلمت الصنعة (الكيمياء) وأحكمتها ، ودبَّرت جميع الأشياء وركبتها » . ولم تكن العامة من الرجال فقط هى التى تحسن هذه الثقافة وحدها ، فقد كانت تحسنها أيضا الجوارى على نحو ما تصور ذلك قصة الجارية تودد فى ألف ليلة وليلة وفيها تُناظر جلّة العلماء فى مختلف العلوم والفنون وتُظْهر براعة فائقة فى ليال كثيرة ماتزال فيها تحاور محاورات علمية بديعة . وكانت النساء تحضر مع الرجال مجالس العلماء ، وتحمل عنهم كثيراً من كتب الحديث ، وعنهن يحملها كثير من الحفاظ المشهورين ، على نحو ما هو معروف عن الخطيب البغدادى وحمله أو أخذه صحيح البخارى عن كريمة المروزية [١] .

وطبيعى أن تنشط الوراقة فى هذا العصر الذى كان مكتظا بالعلوم والفنون من كل صنف وعلى كل لون ، وقد بلغ من ازدهار نَسْخ الكتب والأجور التى كانت تدفع للناسخ أن وجدنا بعض كبار العلماء والأدباء يتخذه وسيلة لعيشه هو وأسرته ، مثل يحيى بن عدى المتفلسف المتوفى سنة ٣٦٤ ويروى عنه أنه كتب بخطه نسختين من تفسير الطبرى [٢] ، ومثل أبى حيان التوحيدى أكبر أدباء عصره ، فقد اشتهر بنسخ الكتب ودقته فى هذا النسخ ، مما جعل الصاحب بن عباد يستخدمه لنفس الغاية [٣] . وكان للوراقين سوق معروفة فى بغداد تباع فيها الكتب ، وكانوا يقومون فى هذا العصر مقام أصحاب المطابع فى عصرنا ، إذ كانوا ينسخون الكتب أو يكلفون من ينسخها ويصححها ويجلدها ، وكانت من الكثرة بحيث يصعب إحصاؤها والوقوف عليها فى كل فن . ومع ذلك فقد اضطلع ابن النديم المتوفى سنة ٣٨٥ بهذا العمل الخطير فى كتابه « الفهرست » وقد وزع فيه الكتب على جميع أنواع العلوم والفنون مترجما لأصحابها ، ولم يترك كتابا إلا ذكره ، وأفرد لكتب الفرس والهند واليونان صحفا كثيرة . والكتاب طرفة من أروع الطرف ، وهو يموج

(١) السبكى ٤/٣٠ .

(٢) تاريخ الحكماء للقفطى (طبعة ليبزج) ص ٣٦١ .

(٣) معجم الأدباء ١٥/٢٦ .

بآلاف الكتب ، مما يدل بقوة على النهضة العلمية فى هذا العصر.

وكان من آثار هذه النهضة أن كثُر عدد العلماء فى كل علم وفن كثرة مفرطة ، أهَّلت فيما بعد لتأليف كتب فى تراجم كل مجموعة على حدة ، فكتب للفقهاء وكتب للمفسرين وكتب للقراء وكتب للنحاة وكتب للأطباء إلى غير ذلك من الأصناف . ووُضعت كتب عامة مثل معجم الأدباء ووفيات الأعيان لابن خلكان . ويخيل إلى الإنسان أنه لم يكن شخص فى بغداد – مددا متطاولة من هذا العصر الذى امتدَّ قرونا متعاقبة – إلا وهويلمٌّ بعلم أو بطائفة من العلوم . وكان هناك كثيرون يشبهون الصحفيين فى عصرنا ، فهم يستطيعون أن يتحدثوا فى كل موضوع ويناقشوا كل فكرة ، وهيأ ذلك لندوات كثيرة كانت تُعْقَدُ أحيانا فى قصور السلاطين والوزراء وعِلْية القوم ، وكثيرا ما دارت فى هذه الندوات مناظرات خصبة ، على نحو ما نسمع عن مجلس عز الدولة بخْتيار وما أثير فيه من مناظرات فى مسائل كلامية أو تتصل ببعض قراءات الذكر الحكيم [1] . ولعل مجلسا لم تحتدم فيه المناظرات كما احتدمت فى مجلس الوزير ابن سعدان المتوفى سنة ٣٧٥ وقد قصَّ علينا منها أطرافا كثيرة أبو حيان فى كتابه «الإمتاع والمؤانسة» وكان هذا المجلس يضم بعض الشعراء وبعض المتفلسفة وبعض المترجمين وبعض المهندسين وبعض الأخلاقيين وبعض إخوان الصفا وبعض الكتاب والأدباء . كان مجلسا حافلا ، وكانت تُعْرَضُ فيه كل جوانب الثقافة من لغة وشعر وإلهيات وأفكار فلسفية وخلقية ، ويتحاور هؤلاء المفكرون فى كل ذلك محاورات بديعة .

وكانت تثار مناظرات كثيرة فى المساجد بين الفقهاء بعضهم وبعض ، وكذلك بين المتكلمين واللغويين . وبلغ من اتساع المناظرات حينئذ أنهم نقلوها أحيانا إلى الأسواق ، فأبو حيان يعرض مناظرة طويلة ثارت فى سوق الوراقين بين طائفة من المفكرين المتفلسفين وبين أحد إخوان الصفا المسمى المقدسى ، وكان موضوعها ما يزعمه المقدسى وزملاؤه من الصلة بين الفلسفة والدين [2] . ومن الندوات المشهورة فى القرن الرابع ندوة أبى سليمان المنطقى السجستانى صاحب صِوان الحكمة المتوفى بعد سنة تسعين وثلاثمائة وهو من تلامذة الفارابى وامتاز بعقل خصب نادر ، وقد سجل أبو حيان فى كتابه «المقابسات» كثيرا مما كان يدور فى ندوته من شعب الفكر فى الإلهيات والطبيعيات والنفس والروح والأخلاق . ونذهل حين نقرأ الحوار فى المسائل الكثيرة التى كانت تدار فى هذه الندوة وكذلك فى ندوة ابن سعدان ، وكأننا بإزاء مصانع مستحدثة كانت تَصْنع الأفكار المتفلسفة صناعة غريبة

---

(١) مثالب الوزيرين لأبى حيان التوحيدى (طبع دمشق) ص ١٣٩ .

(٢) الإمتاع والمؤانسة ٢/٣ وما بعدها .

عجيبة ، مما أتاح بحق لبغداد أن تعظم منزلتها العلمية وأن يحج إليها العلماء وخاصة فى أوائل هذا العصر ، يريدون أن يتزودوا منها زادا علميا رفيعا .

٢

علوم الأوائل : تفلسف ومشاركة

رأينا فى كتاب العصر العباسى الثانى كيف ازدهرت الترجمة خاصة عن اليونانية ، وكيف تحوَّل المترجمون من الترجمة الحرفية إلى ترجمة المعنى الكلى للفقر ترجمة أكثر دقة ، وكادوا لا يتركون كتابا يونانيا مهما فى أصله اليونانى أو فى ترجمته السريانية إلا نقلوه إلى العربية ، وكانت الدولة حينئذ تغدق على المترجمين إغداقا واسعا ، ومَنْ يرجع إلى كتاب الفهرست لابن النديم أو أخبار الحكماء للقفطى أو طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة يبهره كثرة ما نقلوه من المأثورات الإغريقية فى الفلسفة والعلوم . ومنذ العصر العباسى الأول لا يكتفى النقلة بما يترجمون ، بل يضيفون إليه ، وكذلك يضيف إليه معهم من استوعبوا من الناطقين بالضاد علوم الأوائل إضافات لا تكاد تحصى فى كل فروع الفلسفة والعلم على هدى ما قرءوه وجرَّبوه بأنفسهم ونفذوا إليه بفطنهم . وقد افتتح العصر العباسى الثانى بعالم رياضى عظيم هو الخوارزمى مؤسس علم الجبر وبفيلسوف عربى هو الكندى . ومضت الترجمة فى النشاط والازدهار ، ومضت معها الحركة العلمية والفلسفية تؤتى ثمارها حتى ظهر الفارابى الفيلسوف الكبير الملقب بالمعلم الثانى .

وتبلغ الحركة الفلسفية والعلمية أَوْجَها فى القرن الأول من هذا العصر قرن ابن سينا والبيرونى فى إيران وابن الهيثم فى العراق ، وقد ظلت الترجمة حية ناشطة فيه ، وانصبَّ عمل المترجمين حينئذ على تصحيح بعض الترجمات القديمة ومن أهمهم يحيى [١] بن عدى النصرانى اليعقوبى المتوفى سنة ٣٦٤ وهو من تكريت على نهر دجلة ، تتلمذ على الفارابى ومتَّى بن يونس ، ويقول القفطى : «إليه انتهت رياسة أهل المنطق فى زمانه» ويذكر له كتباً عدة ترجمها لأرسطاليس وشراحه اليونانيين ، ويقول أبو حيان التوحيدى «تخرج

---

(١) انظره فى صوان الحكمة لأبى سليمان المنطقى السجستانى (طبع طهران) ص ٣٢٧ والإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى (طبع القاهرة) ١/٣٧ والفهرست لابن النديم (الطبعة الثانية بالقاهرة) ص ٣٨٣ وأخبار الحكماء للقفطى (طبعة ليبزج) ص ٣٦١ وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة (نشر دار مكتبة الحياة ببيروت) ص ٣١٧ والعلم عند العرب لألدوميلى (الترجمة العربية طبع القاهرة) ص ١٨٣ وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان (طبع دار المعارف) ٤/١٢٠

عليه كثير من المترجمين والمتفلسفة » مثل عيسى (١) بن على بن عيسى المتوفى سنة ٣٩١ وكان حاذقا فى الترجمة قيما بعلم الأوائل ، ويقول القفطى : رأيت نسخته من السماع الطبيعى التى قرأها على يحيى بن عدى بشرح يحيى النحوى وهى فى غاية الجودة والحسن والتحقيق » . ومن تلامذة يحيى بن عدى عيسى (٢) بن زُرْعة ، وكان نصرانيا يعقوبيا مثله توفى سنة ٣٩٨ يقول القفطى عنه : « أحد المتقدمين فى علم المنطق والفلسفة وأحد النقلة المجوِّدين » ويشيد به أبو سليمان المنطقى السجستانى وينوه بما ينقله إلى العربية تنويها كبيرا ومن تلامذة يحيى بن عدى أيضاً أبو الخير الحسن (٣) بن سُوار النصرانى المعروف بابن الخَمّار البغدادى وقد نقل عدة مؤلفات يونانية من السريانية إلى العربية . وكان متفلسفاً وطبيباً ومن علماء الطبيعة ، وكان فصيحاً متمكنا فى العربية ، وهناك مترجمون مختلفون سوى يحيى بن عدى وتلاميذه ، منهم من شطَّت به الدار فى إيران ، ومنهم من نزل بغداد مثل نظيف (٤) الرومى الشيرازى القَسّ ، وله ترجمة المقالة العاشرة لأقليدس ، وكان طبيباً حاذقاً .

ويخيل إلى الإنسان أنه لم تبق فى العراق وإيران مدينة إلا اهتمت بالفلسفة وعلوم الأوائل ، يدل على ذلك أكبر الدلالة ظهور إخوان الصفا فى البصرة أوائلَ هذا العصر ، وهى جماعة سرية متفلسفة ، دانت بالمذهب الإسماعيلى الشيعى ورأت أن تدعو له دعوة مستترة فى رسائل فلسفية وعلمية ، وهى عصابة – كما وصفها أبو حيان – تآلفت بالعشرة وتصافت بالصداقة ، واجتمعت على القُدْس والطهارة والنصيحة ، فوضعوا بينهم مذهبا زعموا أنهم قرَّبوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله والمصير إلى جنَّته ، وذلك أنهم قالوا : الشريعة قد دُنِّست بالجهالات واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل إلى غَسْلها وتطهيرها إلا بالفلسفة ، وذلك لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية . وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفةُ اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال ، وصنفوا خمسين رسالة فى جميع أجزاء الفلسفة : علميِّها وعمليِّها ، وأفردوا لها فهرستا وسموها « رسائل إخوان الصفا

(١) راجعه فى صوان الحكمة ص ٣٣٢ والإمتاع والمؤانسة ١/٣٦ والقفطى ص ٢٤٤ .

(٢) انظره فى صوان الحكمة ص ٣٣٣ والإمتاع والمؤانسة ١/٣٣ والفهرست ص ٣٨٣ والقفطى ص ٢٤٥ وابن أبى أصيبعة ص ٣١٨ وبروكلمان ٤/١٢٢ .

(٣) راجعه فى صوان الحكمة ص ٣٣٥ ، ٣٥٣ والإمتاع والمؤانسة ١/٣٣ والفهرست ص ٤٨٤ والقفطى ص ١٦٤ وابن أبى أصيبعة ص ٤٢٨ وبروكلمان ٤/١٥٨ .

(٤) انظره فى صوان الحكمة ص ٣٣٨ وفى الإمتاع والمؤانسة ١/٣٧ والمقايسات لأبى حيان التوحيدى (طبع بغداد) ص ٤٢٤ والفهرست ص ٣٨٥ وابن أبى أصيبعة ص ٣٢٢ ويقول إنه كان ينقل من اليونانية إلى العربية وراجع القفطى ص ٣٣٧ وبروكلمان ٤/١٨٣ .

وخلان الوفا ، وكتموا أسماءهم وبثوها فى الوراقين[١] » . ويسمى أبو حيان طائفة من مؤلفى هذه الرسائل هم زيد بن رفاعة وأبو سليمان المقدسى وأبو الحسن على بن هرون الريحانى وأبو أحمد المهرجانى والعوفى ، ويشير إلى أنه شركهم آخرون غيرهم[٢] . ويبدو أن هؤلاء المتفلسفة الكثيرين كانوا يُعِدُّون مادة هذه الرسائل وأن أبا سليمان المقدسى هو الذى أخرجها وأعطاها صورتها النهائية ، ولذلك ينسبها إليه معاصره أبو سليمان المنطق السجستانى أكبر متفلسفة بغداد حينئذ ، إذ يقول عنه : « له الرسائل الإحدى والخمسون المسماة رسائل إخوان الصفا[٣] » . والمظنون أنه أضيفت إليها فيما بعد رسالة ، فأصبحت اثنتين وخمسين رسالة ، منها ١٤ رسالة فى الرياضيات والمنطق و١٧ فى العلوم الطبيعية وعلم النفس و١٠ فى الميتافيزيقا والإلهيات و١١ فى التصوف والتنجيم والسحر. وهى مغموسة فى الأفلاطونية ، وتشوبها نزعات أرسططاليسية وأفكار مانوية وإسماعيلية ، وتهبط درجات عن مستوى الفلسفة والعلم المعاصرين لها ، ولعل ذلك ما جعل أبا حيان يقول عنها إنها نُتَفٌ من كل فن بلا إشباع ولا كفاية ، وفيها خرافات وكنايات وتلفيقات وتلزيقات ، وقد عَزَّ الصواب فيها لغلبة الخطأ عليها . ويقول إنه عرض منها عدة رسائل على شيخه أبى سليمان المنطقى السجستانى فنظر فيها أياما ، واختبرها طويلا ، وردَّها عليه قائلاً : « تعبوا وما أغنوا . . وحاموا وما وَردوا » . ويردّ أبو سليمان على نظريتهم فى وصل الدين أو الشريعة بالفلسفة ردا طويلاً سنلخصه فى الفصل الخامس ومن قوله : إن الدين وحى من السماء والفلسفة من عمل العقل ، ولا حاجة للدين بالفلسفة بكل فروعها من رياضيات وطبيعيات ومنطق وموسيقى[٤])

على كل حال توضح لنا هذه الرسائل لإخوان الصفا كيف أن الثقافة الفلسفية كانت شائعة فى كل الأوساط ، حتى لتلجأ جمعية سرية إسماعيلية لاتخاذها وسيلة لنشر مذهبها . وظن بعض المعاصرين حين رأوا فى هذه الرسائل إنكاراً لفكرة الإمام المهدى المختفى أن العصابة التى اجتمعت لتأليفها لم تكن شيعة وهو ظن مخطىء حقا يؤيد هذا الإنكار أنهم لم يكونوا إماميين يؤيدون فكرة الإمام المهدى المختفى ، ولكنهم كانوا أكثر إيغالا فى التشيع إذ كانوا يعتنقون المذهب الإسماعيلى ، يدل على ذلك مثل قولهم فى أهل البيت : « هذه الولاية المخصوصة لأهل بيتِ الرسالة لا يحتاجون فيها إلى مدبِّرين غيرهم وإلى علماء سواهم ، ولا يطلع الناس على أسرارهم . . إن هو إلا علم إلهى وتنزيل ربانى ، تنزل به

(١) الإمتاع والمؤانسة ٢ / ٥ .
(٢) الإمتاع والمؤانسة ٢ / ٤ .
(٣) صوان الحكمة ص ٣٦١ .
(٤) الإمتاع والمؤانسة ٢ / ٦ .

ملائكة كرام كاتبون ، وحفظة حاسبون ، يُلقونه بأمر الله على من اصطفاه من خلقه وارتضاه لخلافته فى أرضه»[١] . والإسماعيلية معروفون بترتيب أتباعهم فى طبقات ، ونرى أبا سليمان المنطقى السجستانى حين يقتبس نَصًّا من الرسائل لأبى سليمان المقدسى يقتبس له النص الذى رتب فيه جماعتهم ، وقد جعلهم فى أربع مراتب حسب أعمارهم وقواهم ، أما المرتبة الأولى فلمن بلغوا خمس عشرة سنة وهم أصحاب القوة العقلية والنفوس الصافية . والمرتبة الثانية لمن بلغوا الثلاثين سنة وهم أصحاب القوة الحكيمة الرؤساء ذوو السياسة . والمرتبة الثالثة لمن بلغوا الأربعين وهم أصحاب القوة الناموسية أولو الأمر والنهى . والمرتبة الرابعة لمن بلغوا خمسين سنة وهى مرتبة التسليم ومشاهدة الحق عيانا . ونراهم يطلبون إلى إخوانهم فى كل قطر أن يعقدوا اجتماعات دورية يتذاكرون فيها العلم وشئون الإخوان . وكل ذلك دليل على أنهم كانوا يريدون برسائلهم تنظيم الدعوة الإسماعيلية ، أما لماذا أخفوا أسماءهم فلأنهم كانوا يعيشون فى العراق وسط أصحاب المذهب الإمامى الاثنى عشرى ، فخافوا على أنفسهم وخاصة أنهم هاجموا هذا المذهب الشيعى كما قدمنا . ومع ذلك فيبدو أنهم حاولوا نشر مذهبهم فى بغداد ، إذ يحدثنا أبو حيان عن لقائه المتكرر لاحدهم ، وهو زيد بن رفاعة . وينقل مناقشة طويلة بين أبى سليمان المقدسى والحريرى فى وصل إخوان الصفا بين الشريعة والدين . ويبدو أن استيلاء عضد الدولة على بغداد سنة ٣٦٧ هيأ لهم هذه الفرصة ، فقد كان يقرب القرامطة الإسماعيليين منه ، وكان يتخذ أحيانا لنفسه منهم وزيرا أو نائبا ، ويقول صاحب النجوم الزاهرة إنه كان يتشيع ويكرم جانب الرافضة[٢] . على كل حال يبدو أن دعوة المقدسى وزيد بن رفاعة باءت بالإخفاق والخذلان فى بغداد خذلانا إلى أقصى حد .

وتشير هـــــذه الرسائل – كما مر بنا – إلى أن الفلسفة وعلوم الأوائل كانتا من مدارك الطبقة العامة المثقفة فى مطالع هذا العصر ، عصر الدول والإمارات ، وخاصة فى بغداد . ولعل أكبر شخصية متفلسفة كانت بها حينئذ شخصية أبى سليمان[٣] المنطقى السجستانى ، الذى نشأ بسجستان وشدا فيها علوم الأوائل ، ويبدو أنه أراد منها زادا أكبر ، فرحل إلى بغداد فى شبابه ، ولزم يحيى بن عدى وأخذ عنه كل ما عنده ، وسرعان

(١) رسائل إخوان الصفا ١٠٣/٤ وما بعدها .

(٢) النجوم الزاهرة ١٤٢/٤ .

(٣) انظر فى أبى سليمان المنطقى القفطى ص ٢٨٢ والإمتاع والمؤانسة فى مواضع متفرقة (انظر الفهرس) وكذلك المقابسات ، وراجع ابن أبى أصيبعة ص ٤٢٧ والفهرست ص ٣٨٣ وبروكلمان ص ١٥١ ومقدمة عبد الرحمن بدوى لصوان الحكمة .

ما عُرف فضله وتألق نجمه ، وكان دميم الخلقة وبه وضَحٌ ظاهر فلزم داره ، وتحوّلت هذه الدار إلى منتدى كبير يختلف إليه الفلاسفة والعلماء والمثقفون من حوله ، ينهلون من ينابيع فكره ما يمتعون به عقولهم ونفوسهم . وكانوا مختلفى المشارب ، فمنهم المسلم وغير المسلم ومنهم المتفلسف ، مثل الطبيب المجوسى المعروف بفيروز[١] وأبى إسحق[٢] الصابئ الكاتب وابن زرعه[٣] النصرانى ومثل أبى زكريا الصيمرى وأبى الفتح النوشجانى وأبى محمد العروضى المتفلسفين ، ومثل أبى القاسم عبيد الله بن الحسن المعروف بغلام زحل المنجم ، ومثل على بن عيسى الرمانى مفلسف النحو ومباحثه ومثل القومسى الكاتب والمقدسى صاحب رسائل إخوان الصفا وقد ترجم له أبو سليمان فى نهاية كتابه صوان الحكمة كما أشرنا إلى ذلك آنفا . يقول أبو حيان : «وكل واحد من هؤلاء إمام فى شأنه وفرد فى صناعته ، سوى طائفة دون هؤلاء فى الرتبة[٤] » . وهذا المنتدى الكبير ظل عشرات السنين تثار فيه مشاكل الميتافيزيقا والإلهيات والطبيعيات والرياضيات والأخلاق والنفس والروح والجسم والعقل وعلم التنجيم والكهانة وأطراف من اللغة والبلاغة والأدب . ويُلقى كل فيلسوف بدلوه ، ثم يُرَدّ الرأى النهائى إلى أبى سليمان ، فيسمعه الجميع خاشعين مُكْبِرين ، وبلسانهم يقول له فيروز : «عَيْنُ الله عليك أيها السيد ، فوالله ما نجد شفاء لداء الجهل إلا عندك ، ولا نظفر بقوت النفس إلا على لسانك ، ولا نعلم يقينا أنا لا نحسن شيئا إلا إذا فاتحناك ، ولا يحمل ظننا بأنفسنا إلا إذا بعدنا عن مجلسك ، ولو كانت هذه الفائدة (يريد ما سمعه منه فى المسألة المطروحة) بعينها عندنا متى كنا نأتى بها على هذه الطلاوة والحسن ، أمتع الله الأرواح برؤيتك ، والعقول بهدايتك[٥] » . ولأبى حيان التوحيدى يَدٌ لا تجحد ، لتسجيله ما كان يدور فى مجالس أبى سليمان من حوار يتناول كل وجوه الفكر والتفلسف فى عصره ، على نحو ما صنع فى كتابه النفيس «المقابسات» وهى تَعْنى مجالس أبى سليمان وما كان يُقْبَسُ منها من أضواء المعرفة . ويصرِّح أبو حيان مراراً بعمله فيها وأنه هو الذى أخرجها فى صورتها المكتوبة[٦] ، وينبغى أن لا نبالغ فى هذا التصور وخاصة بالقياس إلى أبى سليمان وإن قال إنه كان مصاباً «بلُكْنة ناشئة من العجمة[٧] » واللكنة شىء والتعبير الفصيح شىء

(١) المقابسات (طبع بغداد) ص ٤٢٧ .

(٢) المقابسات ص ٢٧٢ .

(٣) المقابسات ص ٢٤٢ وهنا أيضا يذكر أن عيسى ابن على بن عيسى كان حاضراً .

(٤) المقابسات ص ٥٧ وقد توقف أبو حيان فى هذا الكتاب وفى الإمتاع والمؤانسة ليعرف بهم (انظر فهرسيهما) .

(٥) المقابسات ص ٤٢٩ .

(٦) انظر المقابستين : الثانية والرابعة .

(٧) الإمتاع والمؤانسة ١/٣٣ .

آخر ، ومرت بنا آنفاً كلمة فيروز الطبيب ووصفه لما على كلامه من الطلاوة والحسن ، وقد نقل أبو حيان بعض المقابسات البديعة عن صوان الحكمة دون أن يخرم حرفاً من كلام أبى سليمان ! [١] . على أن بين المقابسات مقابسات لبعض المتفلسفة من ندوة أبى سليمان مثل عيسى بن على بن عيسى وأبى الحسن العامرى وغيرهما .

ومنتدى ثان ببغداد لم يكن عاما مثل المنتدى السابق ، فقد كان خاصا بوزير من وزراء الدولة البويهية وكان يعقده ليلا بداره ، هو ابن سَعْدان الذى وزر لصمصام الدولة فى سنة ٣٧٣ ولم يكد يدور عامان حتى قتله سنة ٣٧٥ . وكانتا سنتين غنيتين بالفكر والفلسفة والأدب ، إذ كان يختلف إلى ندوته صفوة من المتفلسفة المفكرين مثل ابن زُرْعة النصرانى المتفلسف ومسكويه صاحب تهذيب الأخلاق وأبى الوفاء الرياضى الفلكى المهندس وبهرام بن أردشير المجوسى وابن عبيد وأبى بكر القومسى الكاتبين وابن الحجاج الشاعر وزيد بن رفاعة أحد إخوان الصفا وقرمطى يسمى ابن شاهويه [٢] . وكان ابن سعدان يباهى برفاقه ويفخر بهم على رفاق غيره من الوزراء قائلا : « والله ما لهذه الجماعة بالعراق شكل ولا نظير ، وإنهم لأعيان أهل الفضل وسادة ذوى العقل [٣] . وكان أبو الوفاء قريبا من ابن سعدان فوصله بأبى حيان التوحيدى ، ليعرض عليه ثمار الفكر والفلسفة فى عصره ، واستقبله ابن سعدان استقبالا حسنا ، وأخذ يُلْقِى عليه فى ليال متصلة أسئلة فى مختلف فروع الفكر واللغة والأدب ، ويتلقى من أبى حيان إجاباته ، ويتشقق الحوار والحديث فى مسائل فلسفية وإلهية وطبيعية وأخلاقية ونفسية وروحية وسياسية وأدبية ولغوية . وقد يحكى له مناظرة طويلة كمناظرة السيرافى ومتى بن يونس فى النحو والمنطق وقد مرت بنا فى كتاب العصر العباسى الثانى ، ويروى له أحيانا أخبار بعض المتصوفة ، ويذكر له بعض جوانب الحياة فى بغداد . وبحق يقول القفطى عن الكتاب إنه « كتاب ممتع على الحقيقة لمن له مشاركة فى فنون العلم فإنه خاض كل بحر وغاص فى كل لُجَّة » [٤] . ولم يَرْوِ أبو حيان فى الكتاب الذى يقع فى ثلاث مجلدات كل الليالى التى قضاها محاورا مناقشا فى منتدى ابن سعدان ، فقد اقتصر منها على سبع وثلاثين ليلة وزع عليها الكتاب وقد ألفه لأبى الوفاء المهندس ، ذكرى عزيزة لابن سعدان . وربما صنفه لأبى الوفاء فى

---

(١) قارن المقابسة السابعة والثلاثين بصوان الحكمة ص ٣٣٣ وما بعدها .

(٢) انظر فى هؤلاء الجلساء الصداقة والصديق لأبى حيان (طبع القاهرة) ص ٧٧ والإمتاع والمؤانسة ٣/٢ وراجع النجوم الزاهرة ١٢٥/٤ .

(٣) الصداقة والصديق ص ٨٣ .

(٤) القفطى ص ٢٨٣ .

حياة صديقه ، ويبدو أنه كان قد كتب مسوَّدات هذه الليالى ، حتى إذا رأى إهداءها لأبى الوفاء عُنى أحياناً بتقويم بعض عباراتها مع شرح الغامض وصلة المحذوف وإتمام المنقوص ، ومع سبكها بناصع اللفظ[١] وما عُرف من ميله فى كتابته إلى الأزدواج .

وكان وراء هذين المنتديين الفلسفيين العلميين منتديات كثيرة فى دور العلماء والمتفلسفة مثل دار يحيى بن عدى وفى المكتبات الكبيرة مثل مكتبة سابور بن أردشير . ونذكر نفرا من الرياضيين والفلكيين فى القرن الرابع الهجرى لتدل على النهضة العلمية حينئذ ، وأول من نقف عنده أبو القاسم على بن الحسن المعروف بابن الأعلم[٢] المتوفى سنة ٣٧٥ وكان عضد الدولة يرعاه واشتهر بزيجه الذى ظل به العمل حتى زمن القفطى . وكان يعاصره وَيْجَن[٣] بن رُسْتَم الكوهى وكان رئيساً للمرصد الذى أسسه شرف الدولة البويهى فى حديقة القصر ببغداد ، وقد أمره فى سنة ٣٧٨ برصد الكواكب السبعة وعاونه فى ذلك فلكيون ورياضيون أهمهم أبو الوفاء[٤] محمد بن محمد بن يحيى البوزجانى صديق أبى حيان التوحيدى الذى توفى سنة ٣٨٨ وفيه يقول ابن خلكان : أحد الأئمة المشاهير فى علم الهندسة ، وله فيه استخراجات غريبة لم يسبق بها ، وكان شيخنا العلامة كمال الدين أبو الفتح موسى بن يونس ، تغمده الله برحمته وهو القيم بهذا الفن ، يبالغ فى وصف كتبه ويعتمد عليها فى أكثر مطالعاته ويحتج بما يقوله ، وكان عنده من تواليفه عدة كتب وله فى استخراج الأوتار تصنيف جيد نافع » . ويقول عنه ألدوميلى : «كان أحد المترجمين العظام الأواخر من اليونانية ، وشارح أقليدس وديوفانتوس وبطليموس وهو كذلك عالم أصيل رفيع المنزلة ، ويقترن اسمه على وجه الخصوص بتنمية حساب المثلثات ، والمسائل الهندسية التى عالجها بخبرة جد كبيرة ، وكان له تأثير قوى فى الفلكيين المحدثين» .

وبالمثل كانت العلوم الطبيعية ناهضة ناشطة ، ولعل خير ما يصور ذلك ظهور أبى على الحسن[٥] بن الهيثم البصرى المتوفى حوالى سنة ٤٣٢ للهجرة ، وقد ذكر له ابن أبى أصيبعة ثلاثة وأربعين كتابا فى الفلسفة والعلم الطبيعى وخمسة وعشرين كتابا فى الرياضيات

(١) الإمتاع والمؤانسة ٢/١ .

(٢) انظر فى ابن الأعلم القفطى ص ٢٣٥ .

(٣) راجعه فى الفهرست ص ٤٠٩ والقفطى ص ٣٥١ وبروكلمان ٢١٩/٤ وألدوميلى ص ٢١٢ .

(٤) انظره فى الفهرست ص ٤٠٨ والقفطى ص ٢٨٧ وابن خلكان ١٦٧/٥ والوافى بالوفيات للصفدى ١ / ٢٠٩ وتتمة البيهقى ٧٦ وبروكلمان ٤ / ٢٢٢ وألدوميلى ص ٢١١ ، ٢١٥ .

(٥) راجع فى ابن الهيثم القفطى ص ١٦٥ وابن أبى أصيبعة ص ٥٥٠ وألدوميلى ص ٢٠٦ وما به من مراجع وانظر كتاب ابن الهيثم لمصطفى نظيف ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع .

والهندسة ، وهو يُعَدّ بحق من علماء الطبيعة العالميين ، يشهد له بذلك كتابه «المناظر» فى البصريات وانعكاس الضوء والعدسات فقد ترك تأثيرا عميقا فى كل من روجر بيكون ووايتلو عن طريق ترجمته قديما إلى اللاتينية ، واتسع تأثيره فى كثيرين من علماء الغرب كما يحدثنا بذلك ألدوميلى . وسمع الخليفة الحاكم الفاطمى بذكائه وقدرته الهندسية وشاع عنه أنه يقول لو نزل مصر لوضع مشروعا ينظم المياه فى النيل ، واستقدمه الحاكم ، غير أنه رأى صعوبة تطبيق مشروعه . ويقول ابن أبى أصيبعة : إنه لخص كثيرا من كتب أرسطاليس وشرحها وكثيرا من كتب جالينوس فى الطب . وحين نزل مصر أقام بقبة على باب الجامع الأزهر . وكان يقتات من نَسْخه سنويًّا أقليدسَ والمجسطىَّ ، ويضيف إليهما القفطى كتابا ثالثا ، ويقول إنه كان يبيعها جميعا بمائة وخمسين دينارا مصريا ، وصار ذلك كالرسم المعتاد له .

وكان الطب والعلوم الطبية بالمثل ناهضين ، وساعد على ذلك منذ العصر العباسى إنشاء البيمارستانات فى بغداد ، ومن البيمارستانات المهمة التى أنشئت فى القرن الرابع الهجرى البيمارستان العضدى نسبة إلى عضد الدولة ، أنشأه فى الجانب الغربى لبغداد وأنفق عليه أموالا عظيمة . ويقول ابن خلكان : «ليس فى الدنيا مثل ترتيبه وبه من الآلات ما يقصر الشرح عن وصفه» ولما فرغ من بنائه سنة ٣٦٨ عيَّن به أربعة وعشرين طبيبا رتَّبهم فيه لمعالجة المرضى ، منهم نظيف القس الرومى وأبو الحسن بن كشكرايا وأبو الخير الجرائحى وأبو يعقوب الأهوازى وابن مندويه»[١] .

وهذه النهضة العلمية الفلسفية فى القرن الرابع اطردت فى القرنين التاليين إذ يلقانا بهما متفلسفة ورياضيون وفلكيون وطبيعيون وأطباء مختلفون فى كتابى القفطى وابن أبى أصيبعة ، نذكر منهم أبا الفرج عبد الله[٢] بن الطيب المتوفى سنة ٤٣٥ وفيه يقول القفطى «فيلسوف فاضل . . اعتنى بشرح الكتب القديمة فى المنطق وأنواع الحكمة من تأليف أرسطاليس وبشرح كتب جالينوس فى الطب ، ويقال إنه بقى عشرين سنة فى تفسير ما بعد الطبيعة . وأهم تلاميذه ابن بُطْلان[٣] النصرانى المتوفى بعد سنة ٤٥٥ وكان حاذقا فى الطب واشتهر برحلته إلى القاهرة حيث لقى الفيلسوف المصرى ابن رضوان ، ونشبت بينهما مناظرات حادة ، وأشهر مؤلفاته كتاب تقويم الصحة ، ولا يوجد منه إلا

---

(١) انظر القفطى ص ٣٣٧ ، ٤٠٣ ، ٤٠٧ ، وراجع ابن خلكان ٥٤/٤ .

(٢) القفطى ص ٢٢٣ .

(٣) القفطى ص ٢٩٤ وابن أبى أصيبعة ص ٣٢٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٨ . والدوميلى ص ٢٤١ ، ٢٥٣ ودائرة المعارف الإسلامية .

ترجمة لاتينية وأخرى ألمانية فى عصر النهضة . ومن الأطباء النابهين بعده أبو الحسن سعيد[1] بن هبة الله طبيب الخليفتين المقتدى والمستظهر ، وكان لايزال على قيد الحياة فى سنة ٤٨٩ ويظن أنه توفى سنة ٤٩٦ وقد اشتهر بكتاب كبير فى الطب صنفه للمقتدى ، سماه المغنى فى تدبير الأمراض وتعريف العلل والأعراض . وكان يعاصره يحيى بن عيسى[2] بن جزْلة المتوفى سنة ٤٧٣ وكان نصرانيا ثم اعتنق الإسلام ، وصنف كثيرا من الكتب باسم الخليفة المقتدى أهمها كتاب تقويم الأبدان فى تدبير الإنسان ، وقد ترجم إلى اللاتينية ثم الألمانية ، ويشتمل على ٤٤ لوحة ، وبه وصف لنحو ٣٥٠ مرضا . وأنبه الأطباء فى القرن السادس هبة[3] الله بن التلميذ النصرانى المتوفى سنة ٥٦٠ وكان طبيب الخليفة المقتفى ، ويقول ألدوميلى إن كتبه خالية من كل أصالة ، وهى صفة تشمل أطباء العراق بعامة بعده . وليس معنى ذلك أن العناية قلت بالبيمارستان وأطبائه ، فقد زار ابن جبير بغداد سنة ٥٨٠ وشاهد البيمارستان ووصفه بقوله : إنه «على دجلة وتتفقده الأطباء كل يوم اثنين وخميس ويطالعون أحوال المرضى به ويرتبون لهم أخذ ما يحتاجون إليه ، وبين أيديهم قَوَمة يتناولون طبخ الأدوية والأغذية ، وهو قصر كبير فيه المقاصير والبيوت وجميع مرافق المساكن الملوكية»[4] .

وتمضى الحركة العلمية والفلسفية فى نشاطها بالعراق إلى أن يكتسحه قُطْعان المغول فى منتصف القرن السابع الهجرى ، إذ قوَّضوا صرحها فى بغداد وغير بغداد ، وربما كان أنبه المشتغلين بعلوم الأوائل قبل هذا الانهيار الفظيع أثير الدين الأبهرى[5] الموصلى المتوفى سنة ٦٦٣ وله مختصر فى علم الهيئة ورسالة فى الإسطرلاب وشرح لإيساغوجى وكتاب هداية الحكمة فى المنطق والطبيعيات والإلهيات . ويَضْعُف الاشتغال بعلوم الأوائل أو يأخذ فى الضعف ، ومن المؤكد أنه ظل ، ولكن لم تعد له نفس القوة القديمة ، ويلقانا من حين إلى آخر بعض المتفلسفين أو العلماء مثل أبى القاسم محمد بن أحمد السماوى[6] العراقى الذى عاش فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى ، وله كتب كثيرة فى الكيمياء أشهرها كتاب العلم المكتسب فى زراعة الذهب ، وممن نلتقى بهم فى القرن التاسع الهجرى بدر

(١) راجع ابن أبى أصيبعة ص ٣٤٢ وألدوميلى ص ٢٤٢ ، ٢٥٤ .

(٢) ابن أبى أصيبعة ص ٣٤٣ والقفطى ٣٦٥ وألدوميلى ص ٢٤١ ، ٢٥٣ .

(٣) ابن أبى أصيبعة ص ٣٤٩ والقفطى ص ٣٤٠ وألدوميلى ص ٣٢١ .

(٤) ابن جبير ص ٢٢٥ .

(٥) راجع فيه ابن خلكان ٥/٣١٣ فى ترجمة كمال الدين بن يونس ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع وبروكلمان (فى الطبعة الألمانية) ١/٤٦٤ .

(٦) انظر ألدوميلى ص ٣٠٨ .

الدين محمد سبط الماردينى (١) المتوفى سنة ٨٩١ وله كتب مختلفة فى الحساب والهندسة . وتأخذ المعرفة بعلوم الأوائل فى الضعف مع الحقبة العثمانية إذ لم تعد هناك عناية بها ولا رعاية لها .

ولابد أن نقف قليلا عند مصنفاتهم فى السياسة على هدى كتابات أفلاطون وأرسطو وما ترجمه ابن المقفع عن الفارسية هو وغيره من آداب الحُكْم والسياسة ، وقد افتتح ابن قتيبة كتابه عيون الأخبار بباب طويل عن السلطان والسياسة والحكم ، وتناول هذا الموضوع كثيرون بعده مثل الوزير المغربى أبى القاسم الحسين بن على المتوفى سنة ٤١٨ فإنه ألف فى السياسة رسالة طريفة . ومن خير الكتب التى ألفت فى هذا الموضوع كتاب الأحكام السلطانية للماوردى (٢) أبى الحسن على بن محمد البصرى البغدادى المتوفى سنة ٤٥٠ للهجرة ، وكان فقيها شافعيا ، وتولى القضاء فى بلدان كثيرة بالعراق ، وهو فى كتابه يصل بين السياسة والمسائل الشرعية فى النظم الإسلامية ، وبذلك يصبح الكتاب فى سياسة الحكم الإسلامى ، وهو يستهله بالحديث عن إمامة المسلمين ثم يتحدث عن تقليد الوزارة وقيادة الجيوش المجاهدة فى سبيل الله ، ويتحدث عن ولاية القضاء والمظالم والولاية على الصلاة والحج والصدقات وأحكام الفىء والغنيمة والجزية والخراج وأحكام الإقطاع والدواوين وبيت المال .

وقد نشط العراقيون لهذا العصر فى الكتابات الجغرافية ، وأول من يلقانا منهم أبو إسحاق الفارسى الإصطخرى (٣) الكرخى المتوفى حوالى منتصف القرن الرابع الهجرى ، ويبدو أنه عاش طويلاً فى بغداد ، كما يدل على ذلك لقبه الكرخى ، وله كتاب جغرافى سماه « المسالك والممالك » تحدث فيه عن مملكة الإسلام وصور أقاليم الأرض ومدنها وبحارها وأنهارها وسُهوبها وجبالها ، وقد نقل إلى كتابه صور الأقاليم التى بثها أبو زيد البلخى فى كتابه المعروف بهذا الاسم ، ولابن حوقل البغدادى (٤) معاصره كتاب باسم المسالك والممالك أيضاً هو تهذيب لكتاب الإصطخرى . وكان شيعيا إسماعيليا ، واستغله الفاطميون فى الدعوة لهم على مايظهر وقد زار الأندلس وإفريقيا الشمالية وبلدان إيران وجزءا من الهند .

(١) راجع فيه بروكلمان (الطبعة الألمانية) ٢/٣٥٧ .

(٢) انظره فى ابن خلكان ٣/٢٨٢ والمنتظم ٨/١٩٩ وطبقات الشافعية ٥/٢٦٧ وتاريخ بغداد ١٢/١٠٢ ومعجم الأدباء ١٥/٥٢ ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع .

(٣) انظره فى إصطخر بمعجم ياقوت وفى دائرة المعارف الإسلامية . وتاريخ الأدب الجغرافى العربى لكراتشكوفسكى ١/١٩٩ .

(٤) راجعه فى ألدوميلى ص ٢٢٧ وفى دائرة المعارف الإسلامية . وفى كراتشكوفسكى ١/٢٠٠ .

وأهم جغرافى ظهر بالعراق لهذا العصر هو ياقوت الحموى البغدادى [١] المتوفى سنة ٦٢٦ وكتابه معجم البلدان أنفس كتب الجغرافية العربية ، وهو فى ست مجلدات ضخام ، ونراه يذكر فى مقدمته مصادره اليونانية والعربية وكاد أن لايترك كتابا فى المكتبة الجغرافية العربية إلا ذكر أنه اطلع عليه ونقل عنه ، ولم يكتف بتلك الكتب التى كوَّن منها مادة كتابه ، فقد رجع إلى دواوين الشعراء ينقل عنها ، وألمَّ فى كل بلدة بأهم من عاش فيها من العلماء والأدباء كتابًا وشعراء ، مما يضيف قيمة واسعة للكتاب إذ يصبح مصدرا من مصادر العلم والأدب ورجالها حتى عصره. وله أيضا فى الجغرافيا كتاب ثان بعنوان «المشترك وضعا المختلف صقعا» . ويمكن أن نلحق بكتب الجغرافية كتب الرحلات ، وربما كان أهمها كتاب الإفادة والاعتبار بما فى مصر من الآثار لعبد اللطيف [٢] البغدادى المتوفى سنة ٦٢٩ وقد وصف فيه وصفا بديعا آثار مصر ، وصوَّر كثيرا من شئونها الاجتماعية . وتُرجم الكتاب إلى اللاتينية ، كما تُرجم إلى الفرنسية ، وطُبع مرارا .

٣

علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد

تظل بغداد ومدن العراق ناشطة فى المباحث اللغوية والنحوية والبلاغية والنقدية ، ومن الصعب أن نفصل بين اللغويين والنحويين ، وبالتالى أن نفصل بين مباحثهما ، إذ يكثر أن ينهض اللغوى بمباحث نحوية ، وبالمثل يكثر أن ينهض النحوى بمباحث لغوية . ويلقانا ابن [٣] دُرُسْتَوَيه المتوفى سنة ٣٤٧ معنيا بشرح فصيح ثعلب ، وبالمثل ابن ناقيا والعكبرى وغيرهما كثيرون ، ويضع له عبد اللطيف البغدادى بعدهما ذيلا . وتكثر العناية بكتاب لغوى ثان ، هو إصلاح المنطق لابن السكيت ، فيضع السيرافى [٤] الحسن بن عبد الله

(١) انظره فى النجوم الزاهرة ٦/٢٨٣ وشذرات الذهب ٥/١٢١ وابن خلكان ٦/١٢٧ ومرآة الجنان ٤/٥٩ وتاريخ الأدب الجغرافى العربى لكراتشكوفسكى ١/٣٣٥ .

(٢) ترجم له ابن أبى أصيبعة فى طبقاته ص ٦٨٣ ترجمة ضافية نقلها عن كتاب له ، تحدث فيه عن سيرته ، وقد لخصته هذه السيرة فى كتابنا الترجمة الشخصية طبع دار المعارف ص ٣٢ .

(٣) انظر ترجمته فى تاريخ بغداد ٩/٤٢٨ وإنباه الرواة ٢/١١٣ وابن خلكان ٣/٤٤ .

(٤) راجعه فى تاريخ بغداد ٧/٣٤١ ومعجم الأدباء ٨/١٤٥ وإنباه الرواة ١/٣١٣ ونزهة الألباء لابن الأنبارى (طبعة أبى الفضل إبراهيم) ص ٣٠٧ والفهرست ص ٩٩ واللباب ١/٥٨٦ وشذرات الذهب ٣/٦٥ ومرآة الجنان ٢/٣٩٠ . وابن خلكان ٢/٧٨ .

المتوفى سنة ٣٦٨ شرحا لشواهده ، وتتوالى مختصرات هذا الكتاب وتهذيباته ، منها مختصر يسمى المنخل لأبى القاسم الوزير المغربى المار ذكره ، ومنها تهذيب للخطيب التبريزى[١] يحيى بن على المتوفى سنة ٥٠٢ للهجرة .

ومن الكتب اللغوية المهمة كتاب التنبيهات على أغلاط الرواة لعلى[٢] بن حمزة البصرى المتوفى بصقلية سنة ٣٧٥ ويشتهر بنزول المتنبى عليه حين قدم إلى بغداد من الكوفة، وهو فى كتابه يصحح الأغلاط التى وردت فى طائفة من كتب لغوية مهمة ، هى نوادر أبى زياد الأعرابى ، ونوادر أبى عمرو الشيبانى ، وكتاب النبات لأبى حنيفة الدينورى ، وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب فصيح ثعلب ، وكتاب الغريب المصنف لأبى عبيد القاسم ابن سلام ، وكتاب إصلاح المنطق لابن السكيت ، وكتاب خلق الإنسان لأبى ثابت ، وكتاب المقصود والممدود لابن ولاد وقد ذكر مع نقده لهذا الكتاب ما أملاه المتنبى عليه من نقد بالفسطاط . وتكثر الكتابة فى الأسماء المقصورة والممدودة ، منذ ابن دستورية وابن جنى فى القرن الرابع .

وتتكاثر شروح الشعر والنثر فى العصر منذ أوائله ، وشرح ابن جنى لديوان المتنبى مشهور وقد سماه الفَسْر ، ويعد التبريزى المذكور آنفا – وكان يدرس الأدب فى المدرسة النظامية – من أكثر شراح الشعر آثارا ، وله شروح مطولة على مجموعة القصائد المسماة بالمفضليات للمفضل الضبى ، وعلى المعلقات أو القصائد العشر ، وعلى حماسة أبى تمام وديوانه وعلى سقط الزند لأبى العلاء المعرى . وله شروح موجزة على لامية العرب للشَّنْفَرى ، وقصيدة «بانت سعاد» لكعب بن زهير ، ومقصورة ابن دريد . وإذا كان التبريزى وضع شرحا مطولا لديوان أبى تمام فإن العكبرى أبا البقاء فى القرن السادس الهجرى وضع شرحا مطولا بدوره للمتنبى . وعُنى ابن المستوفى الإربلى[٣] المتوفى سنة ٦٣٧ بوضع شرح مطول لديوانى أبى تمام والمتنبى سماه النظام فى شرح شعر المتنبى وأبى تمام فى عشر مجلدات . ومنذ وضع الحريرى مقاماته أخذت شروحها تتكاثر . ومن شروحها فى القرن السادس بالعراق شرح القاسم[٤] بن القاسم الواسطى ، وشرح العكبرى النحوى شارح المتنبى ، ولابن

---

(١) انظره فى معجم الأدباء ٧/٢٨٦ وبغية الوعاة والأنساب للسمعانى الورقة ١٠٣ ونزهة الألباء ص ٣٧٢ والمنتظم ٩/١٦١ ومرآة الجنان ٣/١٧٣ والشذرات ٤/٥ وابن خلكان ٦/١٩١ ودمية القصر ١/٢٣٧ .

(٢) راجعه فى بغية الوعاة ومعجم الأدباء ١٣/٢٠٨ .

(٣) انظره فى ابن خلكان ٤/١٤٧ وبغية الوعاة والشذرات ٥/١٨٦ . وعبر الذهبى ٥/١٥٥ .

(٤) راجعه فى إنباه الرواة ٣/٣١ وقد ذكر القفطى أنه صنف شرحين للمقامات وأن له شرحاً لديوان المتنبى اختاره من شرح الواحدى وأضاف إليه من كتاب المنصف لابن وكيع .

الخشاب [1] البغدادى المتوفى سنة ٥٦٧ مبحث لغوى فى أغلاط الحريرى فى مقاماته ورد عليه ابن برى العالم المصرى اللغوى المتوفى سنة ٥٨٢ بمبحث لغوى دقيق انتصر فيه للحريرى ، والمبحثان ملحقان بطبعة مقامات الحريرى نشر مكتبة ومطبعة الحلبى بالقاهرة ومنذ جمع الشريف الرضى خطب الإمام على بن أبى طالب وأخرجها باسم نهج البلاغة أخذ كثيرون يعنون بشرحها ، حتى بلغوا نحو أربعين شارحاً وربما كان شرح ابن أبى الحديد المتوفى سنة ٦٥٦ أكبر هذه الشروح وهو مطبوع ، ولابن الساعى [2] على بن أنجب المتوفى سنة ٦٧٤ شرح على نهج البلاغة وشرح لفصيح ثعلب ، وثلاثة شروح لمقامات الحريرى : كبير ومتوسط وصغير ، والمتوسط فى خمس مجلدات . وقد عنى محمود [3] بن أحمد الزنجانى المتوفَّى سنة ٦٥٦ بوضع مختصر لصحاح الجوهرى سماه «ترويح الأرواح فى تهذيب الصحاح» . ومنذ السيرافى تكثر الشروح لشواهد الشعر فى كتب النحو على غرار كتابه فى شرح شواهد سيبويه ، بل إننا نجد عبد القادر [4] البغدادى المتوفى سنة ١٠٩٣ يحوِّل شرحه لشواهد كتاب الكافية لابن الحاجب إلى موسوعة لغوية تاريخية ، وبحق سماه «خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب» وقد ذكر فى مقدمته مصادره من شروح الشواهد واللغة وأشعار العرب .ومما ذكره من كتب اللغة : الجمهرة لابن دريد ، والصحاح للجوهرى والعباب للصَّاغانى والقاموس المحيط للفيروزابادى واليواقيت للمطرِّز وكتاب ليس لابن خالويه ، والنهاية لابن الأثير والزاهر لابن الأنبارى وكتاب النبات لأبى حنيفة الدينورى وإصلاح المنطق لابن السكيت وتهذيبه وشروحها وفصيح ثعلب وذيله وشروحه وأدب الكاتب لابن قتيبة وشروحه والأضداد لغير مؤلف والفروق لأبى هلال العسكرى وخلق الإنسان للزجاج والمعرَّب للجواليقى والمثلثات لابن السيد البطليوسى والمرصع لابن الأثير والمزهر للسيوطى .

وإنما سقنا هذه الكتب اللغوية ، لندل على أن ما كان يكتب فى اللغة بأى بلدة من البلدان كان ينقل إلى بغداد وغيرها من الحواضر ، فالعالم العربى واحد ، وكل ماينتجه بلد

---

(١) انظره فى معجم الأدباء ١٢/٤٧ وإنباه الرواة ٢/٩٩ وبغية الوعاة والمنتظم ١٠/٢٣٨ والنجوم الزاهرة ٦/٦٥ وابن خلكان ٣/١٠٢ .

(٢) انظر فيه تذكرة الحفاظ ٤ / ٢٥٠ وشذرات الذهب ٥ / ٣٤٣ ومقدمة مصطفى جواد لكتاب نساء الخلفاء (طبع دار المعارف) وما ذكره من مصادر .

(٣) انظره فى الحوادث الجامعة لابن الفوطى (طبع بغداد) ص ٢٣٧ وطبقات الشافعية للسبكى ٨ / ٣٦٨ والنجوم الزاهرة ٧ / ٦٨ وتاريخ علماء المستنصرية لناجى معروف .

(٤) انظره فى خلاصة الأثر للمحبى ٢/٤٥١ ودائرة المعارف الإسلامية فى كلمة البغدادى .

فى علم من العلوم تتناقله البلدان الأخرى ، وهؤلاء الذين رجع إليهم عبد القادر البغدادى منهم من عاش فى أقصى الشرق من العالم العربى ، ومنهم من عاش فى أقصى الغرب منه أو فى أواسطه ، ولذلك يكون من الخطأ أن نعد إنتاج أى بلد إنتاجا مستقلا هو مدار الحكم عليه ، فقد كان يموج بإنتاج البلدان الأخرى فى كل علم وكل فن ، وتظل شروح الشعر ناشطة لا الشروح المأثورة فقط ، بل تضاف إليها شروح كثيرة ، ولعله لم تظهر قصيدة مهمة دون أن تُشْرح شروحا عدة ، نذكر من ذلك رَشْف الضَّرب فى شرح لامية العرب للشيخ عبد الله [١] السويدى المتوفى سنه ١١٧٤ للهجرة وشرح بانت سعاد للسيد [٢] عبد الله الفخرى المتوفى سنه ١١٨٨ . وهناك شروح لعلماء مختلفين شرحوا قصائد عاصرتهم أو شرحوا قصائد لابن الفارض . وعنى الشيخ حسن [٣] القفطان المتوفى سنة ١٢٧٥ بوضع تعليقات على القاموس والمصباح فى رسائل مختلفة ، ولشهاب الدين الألوسى [٤] المتوفى سنة ١٢٧٠ شرح على درة الغواص للحريرى باسم كشف الطُّرَّة عن الغرة وللشيخ إبراهيم [٥] الحيدرى المتوفى سنة ١٣٠٠ شروح مختلفة على ديوان أبى تمام ومقامات الحريرى وسقط الزند لأبى العلاء . وكأن النشاط اللغوى لم يتوقف بالعراق فى حقبة من حقب هذا العصر حتى أواخره وقد عنى العلماء بجانب بحوثهم فى لغة الفصحى أن يحيطوها بأسوار من الصحة ، حتى ينقّوها من أوضار العامية التى أخذت تنتشر بقوة منذ مطالع العصر ، ونجد القاضى أبا الحسن عليا المؤيدى يضع سنة ٤٢٠ كتاباً فى الأمثال البغدادية العامية [٦] وأهم من ذلك كتاب الحريرى : « دُرَّة الغواص فى أوهام الخواص » وهو فى أغلاط المثقفين ، ووضع له أبو منصور موهوب بن أحمد الجواليقى [٧] المتوفى سنة ٥٣٩ تكملة أو تتمة سماها « التكملة فيما تلحن فيه العامة » . وأهم من هذا الصنيع كتابه « المعرَّب »

---

(١) راجعه فى المسك الأذفر فى نشر مزايا القرن الثانى عشر والثالث عشر لمحمود شكرى الألوسى (طبع بغداد) ص ٦٠ .

(٢) راجعه فى تاريخ الأدب العربى فى العراق للعزاوى ٣٨/٢ .

(٣) العزاوى ٥٧/٢ وماضى النجف وحاضرها ج ٣ ق ٢ ص ١٠٩ .

(٤) انظر فى الشهاب أعلام العراق لمحمد بهجت الأثرى والآداب العربية فى القرن التاسع عشر لشيخو ٨٩/١ ونهضة العراق لمحمد مهدى البصير ٢١٩ ومقدمة تفسيره والعزاوى ٢ / ٥٢ وفى مواضع مختلفة .

(٥) العزاوى ٢ / ٥٨ .

(٦) انظر تاريخ الأدب العربى لبروكلمان (الترجمة العربية) ٥ / ١٦٠ وقد نشر ماسينيون كتابه فى القاهرة سنة ١٩١١ .

(٧) انظر ترجمته فى إنباه الرواة ٣ / ٣٣٥ ومعجم الأدباء ٢٠٥/١٩ والأنساب الورقة ١٣٩ واللباب ٢٤٤/١ وابن خلكان ٣٤٢/٥ ومرآة الجنان ٢٧١/٣ وبغية الوعاة وشذرات الذهب ١٢٧/٤ .

وهو معجم نفيس للألفاظ الأعجمية الدخيلة على العربية ، ولم يؤلف فى موضوعه أكبر منه ، وفيه يقول ابن خلكان : إنه من مفاخر بغداد .

وكانوا يعنون من حين إلى حين بجمع مختارات شعرية ، ولابن الشجرى [١] هبة الله بن على المتوفى سنة ٤٥٠ كتاب سماه الحماسة ضاهى به حماسة أبى تمام ، وهو مطبوع فى حيدر آباد ، وله كتاب الأمالى وهو أيضاً مطبوع فى حيدر آباد ، وهو أكثر تآليفه إفادة ، ويقول ابن خلكان إنه من الكتب الممتعة لروعة أشعاره المختارة . ومن كتب المختارات الشعرية كتاب منتهى الطلب من أشعار العرب لمحمد بن المبارك بن ميمون [٢] ، وهو مجموعة كبيرة من قصائد الجاهليين والإسلاميين ، وقد جمعه أو صنفه ببغداد سنة ٥٨٩ وهو فى الستين من عمره ، ومنه بعض مجلدات بدار الكتب المصرية . وصنَّف على بن أبى الفرج البصرى فى القرن السابع الهجرى الحماسة البصرية ، وقد حُققت وأُعدَّتْ للطبع . .

ولعل نشاط بغداد فى النحو لهذا العصر كان أكبر من نشاطها فى اللغة . فقد استحدثت فيه المذهب النحوى البغدادى على نحو ماصورنا ذلك فى كتابنا المدارس النحوية ، وهو مذهب كان أصحابه ينتخبون من المذهبين البصرى والكوفى آراءهم ، ويضيفون إلى ماينتخبون آراء جديدة ينفذون إليها . وأهم نحوى بغدادى نلقاه فى القرن الرابع الهجرى هو ابن جنى [٣] المتوفى سنة ٣٩٢ وكان اهتمامه بعلم الصرف عظيما ، فصنع فيه شرحا نفيسا لكتاب التصريف للمازنى سماه المنصف ، وهو فى ثلاثة أجزاء ، شرح فيه مادة الكتاب شرحا وافيا ، وأضاف إليها كثيرا من ملاحظاته كملاحظته أن الأفعال تشتق من أسماء الأعيان ومن الحروف . وله سر صناعة الإعراب وهو دراسة صوتية واسعة لحروف المعجم ومخارجها وأصواتها ، وله أيضا فى الصرف كتاب التصريف الملوكى ، وأهم كتبه فيه كتاب الخصائص ، وهو مطبوع فى ثلاثة أجزاء ، وفيه وضَع للصرف قضاياه الكلية ، وذكر فيه ماأسماه الاشتقاق الأكبر وهو يقوم على فكرة خاصة ، هى أن كل كلمة ومقلوباتها تشترك فى معنى واحد ، فكلمة قول . ومتقلباتها : قلو ، ووقل ، وولق ، ولقو ، ولوق . جميعها تفيد أوتعنى الخفة والحركة . وبجانب وَضْعه لأصول علم الصرف نراه فى النحو يختار من الآراء البصرية والكوفية جميعا ، ويضيف باجتهاده آراء جديدة ، وكان يكثر من متابعته لأستاذه

---

(١) نظره فى نزهة الألباء ص ٤٠٤ ومعجم الأدباء ١٩ / ٢٨٢ وإنباه الرواة ٣ / ٣٥٦ وبغية الوعاة وابن خلكان ٦ / ٤٥ ومرآة الجنان ٣ / ٢٧٥ وشذرات الذهب ٤ / ١٣٢ .

(٢) انظر بركلمان ٥ / ١٦٩ .

(٣) انظر فى ترجمة ابن جنى نزهة الألبا ص ٣٣٢ وتاريخ بغداد ١١ / ٣١١ ومعجم الأدباء ١٢ / ٨١ وإنباه الرواة ٢ / ٣٣٥ وابن خلكان ٣ / ٢٤٦ ويتيمة الدهر ١ / ١٠٨ ومرآة الجنان ٢ / ٤٤٥ والشذرات ٣ / ١٤٠ وروضات الجنات ص ٤٦٦ وكتابنا المدارس النحوية ص ٢٦٥ .

أبى على الفارسى ، وهو من طرازه بغدادى فى مذهبه النحوى ، وكل ذلك مصوَّر فى كتابنا المدارس النحوية . وكان يعاصره نحويان كبيران هما السيرافى شارح كتاب سيبويه والرمّانى وهو مثله شرح الكتاب ، غير أنهما لا ينتظمان فى المدرسة النحوية البغدادية الجديدة ، إذ كانا لا يخرجان عن المذهب البصرى ، فعدادهما فى المدرسة البصرية لا البغدادية ، وفى كتاب المدارس النحوية حديث مفصل عن السيرافى وكثرة تعليلاته وتخريجاته النحوية .

ويُعْنَى النحاة بشرح كتاب الإيضاح لأبى على الفارسى ، ويشرحه ابن جنى ، ويشرحه غير واحد من بعده مثل العكبرى ، ويعنون بشرح اللمع فى النحو لابن جنى ، وممن شرحوه عمر بن ثابت الثمانينى [1] تلميذه ، وشرحه مخطوط بدار الكتب المصرية ، ومن شراحه العكبرى ، وهم كثيرون . ومن نحاة مدرسة بغداد المهمين أبو البركات بن الأنبارى [2] المتوفى سنة ٥٧٧ وهو تلميذ ابن الشجرى الذى تتلمذ بدوره لأبى على الفارسى ، وبذلك يتصل به . وكان يدرس كتبه لتلاميذه فى المدرسة النظامية ، يدل على ذلك حاشيته على كتاب الإيضاح . وقد عنى بدراسة وجوه الخلاف بين المدرستين البصرية والكوفية فى مسائل النحو ، وألّف فى ذلك كتابين هما : الإنصاف المطبوع بمصر ، وقد طبعه فايل لأول مرة وقدم له بمقدمة طويلة ، والكتاب الثانى أسرار العربية المطبوع بدمشق ولاحظ فايل أنه رجح آراء الكوفيين بكتابه الإنصاف فى سبع مسائل ، وكان ينتخب آراءه من المدرستين البصرية والكوفية جميعا . وكان يقف مع الفارسى أستاذ شيخه ابن الشجرى فى كثير من المسائل فهو بغدادى المذهب . وله فى أصول النحو كتاب سماه لمع الأدلة وهو مطبوع بدمشق وطبع له مع الكتاب السابق كتاب الإعراب فى جدل الأعراب ، وله فى تراجم النحاة كتاب نزهة الألباء . وكان يجرى على غراره فى اتباع المذهب البغدادى فى النحو أبو البقاء العكبرى [3] الضرير ، المتوفى سنة ٦١٦ وتدل مصنفاته على توفره على كتب أبى على الفارسى وابن جنى وله كما أسلفنا شرح للإيضاح وكذلك للمع ، وأيضا « الإفصاح عن معانى أبيات الإيضاح » و « تلخيص أبيات الشعر لأبى على الفارسى » وتلخيص التنبيه لابن جنى و « المنتخب من كتاب المحتسب فى

---

(١) راجع فى الثمانينى معجم الأدباء ١٦ /٥٧ وابن خلكان ٣ /٤٤٣ ونزهة الألباء ص ٣٥٠ ونكت الهميان ص ٢٢٠ والشذرات ٣ /٢٦٩ .

(٢) انظر فى ابن الأنبارى إنباه الرواة ٢ / ١٦٩ وبغية الوعاة وابن خلكان ٣ /١٣٩ والسبكى ٧ / ١٥٥ ومرآة الجنان ٣ /٤٠٨ والمختصر المحتاج إليه من تاريخ ابن الدبيثى (طبع بغداد) ص ٢٠٩ وكتابنا المدارس النحوية ص ٢٧٨ .

(٣) راجعه فى إنباه الرواة ٢ /١١٦ وبغية الوعاة وابن خلكان ٣ /١٠٠ والشذرات ٥/٦٧ وابن الدبيثى ص ١٤٠ ونكت الهميان ص ١٧٨ وكتابنا المدارس النحوية ص ٢٧٩ .

شواذ القراءات » لابن جنى أيضا ، ومن كتبه « إملاء مامنَّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات فى جميع القرآن » . وله كتاب اللباب فى علل البناء والإعراب . وقد حققه بعض الطلاب وأعده للنشر . وله أيضاً إعراب مشكل الحديث . ذيَّل به كتاب جامع المسانيد لابن الجوزى . ومن كتبه المسائل الخلافية فى النحو وعُنى بنشره بعض المستشرقين . وقد صورنا فى كتابنا المدارس النحوية كيف كان يعوِّل على الاختيار من آراء البصريين والكوفيين والبغداديين . ومن نحاة بغداد فى القرن السابع الهجرى عز الدين عبد الوهاب [١] ابن إبراهيم الزنجانى وله كتاب باسم تصريف الزنجانى أوالعزى أومباديء التصريف ، وقد طارت شهرته فى الآفاق وصُنعت له شروح وحواش كثيرة ، عدَّدها بروكلمان فى تاريخه ، ومنها طائفة كبيرة فى دار الكتب المصرية . وقد طُبع فى روما مع ترجمته إلى اللاتينية ، وطُبع فى الآستانة والقاهرة ودلهى بالهند ومع ترجمة إلى الفارسية لمحمد بركة الله اللكنوى فى لكنو . ومن نحاة القرن السابع أيضا جمال الدين الحسين بن بدر الدين بن أياز [٢] البغدادى المتوفى سنة ٦٨١ وكان يتولى مشيخة النحو فى المدرسة المستنصرية ، وله كتاب القواعد فى النحو ، ولاتوجد منه سوى مخطوطة بدار الكتب المصرية كتبت سنة ٦٧٨ فى حياته ، وله أيضا المحصول شرح الفصول لابن معطى وشرح التصريف لابن مالك ومسائل الخلاف فى النحو . ومن النحاة المهمين ببغداد بدر الدين [٣] الإربلى المتوفى سنة ٧٥٥ وله حواش على كتاب التسهيل لابن مالك وشرح على الكافية لابن الحاجب وآخر على كتابه الشافية . وللشيخ عبد الله السويدى المار ذكره كتاب إتحاف الحبيب على مغنى اللبيب [٤] . وَيكثُر الشارحون للألفية ولقَطْرابن هشام وغيرهما من متون النحو كما يكثر من يصنعون الحواشى . ونكتفى بذكر مثال هو إبراهيم الحيدرى المار ذكره فى النشاط اللغوى ، فله حاشية على كتاب سيبويه وأخرى على شرح ألفية ابن مالك للسيوطى وحاشية على شرح الشافية لابن الحاجب للجار بردى وتقرير على حاشية عبد الحكيم الهندى على حاشية عبد الغفور اللارى على شرح الجامى لكافية ابن الحاجب ، وشرح على كتاب الاقتراح للسيوطى [٥] .

وكان للنشاط فى الدراسات البلاغية دوره فى العصر ، ومن خير هذه الدراسات كتاب

---

(١) انظره فى بغية الوعاة للسيوطى وفى تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٥/١٧٩ .

(٢) راجعه فى بغيه الوعاة للسيوطى وبروكلمان ٥/١٨٥ والعزاوى ١/١٦١ .

(٣) هدية العارفين ٢/١٣٥ والعزاوى ١/١٧١ .

(٤) المسك الأذفر ص ٦٠ والعزاوى ٢/١٢٨ .

(٥) هدية العارفين ١/٤٢ والعزاوى ٢/١٤٢ .

النكت فى إعجاز القرآن للرمانى [١] شارح كتاب سيبويه ، كما أسلفنا ، وقد توفى سنة ٣٨٤ للهجرة ، ويهمنا من الكتاب حديثه عن البلاغة وقد جعلها فى ثلاث طبقات [٢] : عليا ووسطى ودنيا ، والعليا بلاغة القرآن المعجز والوسطى بلاغة الأدباء حسب تفاوتهم فى البلاغة . ويوزعها على عشرة أقسام هى الإيجاز والتشبيه والاستعارة والتلاؤم والفواصل والتجانس والتصريف والتضمين والمبالغة وحسن البيان ، ويفصِّل القول فى كل قسم من هذه الأقسام بادئاً بتعريفه ثم باسطاً تفريعاته . وللحاتمى [٣] أبى على محمد بن الحسن البغدادى المتوفى سنة ٣٨٨ كتاب فى البلاغة وأنواع البديع سماه حلية المحاضرة فى صناعة الشعر ، وقد اعتمد عليه ابن رشيق اعتمادا واسعا فى كتابه العمدة فى صناعة الشعر ونقده أثناء عرضه لألوان البديع ، وقد تحدث فيه عن الاستعارة والجناس والطباق والمقابلة والتتميم والتشبيه والإغراق والإشارة والوحى والتصدير والتسهيم والترصيع والتوشيح والمماثلة والمبالغة والالتفات والمساواة إلى غير ذلك من فنون البديع ومحسناته . ويكتب الباقلانى الذى سنتحدث عنه فى علم الكلام المتوفى سنة ٤٠٣ كتابه « إعجاز القرآن » ويهمنا فيه حديثه عن وجوه البديع ، وهو يستهلها بالكلام عن الاستعارة ، ويتلوها بالإرداف ثم المماثلة فالمطابقة فالجناس فالموازنة ، فالمساواة ، فالإشارة ، فالمبالغة ، فالغلو ، فالإيغال ، فالتوشيح ، فصحة التقسيم ، فصحة التفسير ، فالترصيع والتتميم ، فالتكافؤ والتعطف إلى غير ذلك [٤]. وهو يتفق مع ابن المعتز وصاحب الصناعتين فى كثير من مصطلحاته ، ونلتقى بالشريف الرضى المتوفى سنة ٤٠٦ وله كتابان : أحدهما فى مجازات القرآن ، والثانى فى المجازات النبوية ، وهو يعرض فى الكتاب الأول مجازات الآيات القرآنية مرتبة على السور وفقا لترتيبها فى آياتها مبينا مافيها من استعارة أومجاز أوكناية . وبالمثل علَّق فى الكتاب الثانى على نحو ثلاثمائة وستين حديثا ، والكتابان بحث تطبيقى عام ، وإن كان يلاحظ أن الفروق عنده بين الاستعارة والمجاز والكناية غير دقيقة ، لأنها لم تكن قد حُرِّرت حتى زمنه [٥] .

وعُنيت طائفة من البلاغيين بالكتابة فى بعض جوانب من البلاغة مثل كتاب التشبيهات لابن أبى عون المتوفى سنة ٣٢٢ وقد نشره عبد المعيد خان فى سلسلة جب التذكارية

---

(١) انظر فى على بن عيسى الرمانى تاريخ بغداد ١٢/١٦ /ومعجم الأدباء ١٤/٧٣ وإنباه الرواة ٢/٢٩٤ والأنساب الورقة ٢٥٨ وشذرات الذهب ٣/١٠٩ .

(٢) انظر تحليل هذا الكتاب فى كتابنا البلاغة تطور وتاريخ ص ١٠٣ .

(٣) انظر فى الحاتمى تاريخ بغداد ٢/٢١٤ وإنباه الرواة ٣/١٠٣ والأنساب ١٤٨ وابن خلكان ٤/٣٦٢ ومعجم الأدباء ١٨/١٥٤ والوافى بالوفيات ٢/٣٤٣ والشذرات ٣/١٢٩ . واليتيمة ٣/١٠٣

(٤) انظر فى تحليل هذا الكتاب كتابنا البلاغة تطور وتاريخ ص ١٠٧ .

(٥) البلاغة تطور وتاريخ ص ١٣٩ .

بلندن ، وهو فى التشبيهات عامة من الشعر القديم والحديث ومن الذكر الحكيم . وأهم منه كتاب «الجمان فى تشبيهات القرآن» لابن ناقيا[١] البغدادى المتوفى سنة ٤٨٥ والعناية بالتشبيه قديمة تجدها فى كتابات الجاحظ وابن المعتز[٢] . وقد نُشر كتاب الجمان فى دمشق تحقيق عدنان زرزور ومحمد رضوان الداية ، والكتاب مرتب حسب السور القرآنية والآيات الواردة فى تضاعيفها وعادة يفسر الآية الكريمة بإيجاز ، ثم يذكر ما فيها من تشبيه ، وإذا كان له نظير فى القرآن ذكره ، ودائماً يذكر الأشعار التى اقتبسته ، وكثيراً ما يعرض المحسنين لهذا الاقتباس والمقصرين ، موضحاً بلاغة القرآن المعجز وأنه لا يبلغ مبلغه شاعر . يقول : «وكذلك كل ما ينقله الشعراء وغيرهم من أرباب البلاغة إلى كلامهم من معانى القرآن ، لا يبلغون شأوه ولا يدركون مناله إعجازاً وإبداعاً وإباء وامتناعاً» .

ويُعْنَى بعض البلاغيين بوضع كتب مستقلة فى الجناس ، مثل شُمَيْم[٣] الحلِّىّ المتوفى سنة ٦٠١ فله فيه كتاب باسم الأنيس الجليس فى التجنيس كما جاء فى معجم الأدباء ، وفى دار الكتب المصرية مخطوطة منه باسم الأنيس فى غرر التجنيس .

ولانلبث أن نستقبل كتاب المثل السائر لضياء الدين نصر الله بن محمد الشيبانى المعروف بابن الأثير الجزرى المتوفى ببغداد سنة ٦٣٧ وكان قد توجه إليها رسولا من لدن صاحب الموصل ، وكان كاتب إنشائه . وقد بنى كتابه على مقدمة[٤] ومقالتين ، أما المقدمة فجعلها لعلم البيان ومباحثه المتصلة بالمعانى والبديع ، ويقول إن موضوع هذا العلم البلاغة والفصاحة ، ويعرض لأدواته التى لابد من إتقانها لمن يتصدى للكتابة والشعر ويعقد فصلين للمعانى يتحدث فى أولها عن حمل الكلام على ظاهره والتأويل فيه بحيث يمكن أن يُفْهَمَ البيت أفهاما كثيرة . وفى الفصل الثانى يتحدث عن احتمالات النصوص والترجيح بين المعنيين المتقابلين . وتحسُّ صلته فى هذين الفصلين بعلماء الأصول وكلامهم عن دلالات العبارات ومايداخلها من الاحتمالات . ويتحدث بعد ذلك عن الفصاحة والبلاغة

---

(١) راجع فى عبد الله بن محمد بن ناقيا إنباه الرواة ١٣٣/٢ وابن خلكان ٩٨/٣ والجواهر المضية ٢٨٣/١ وميزان الاعتدال ٥٣٣/٢ ولسان الميزان ٣٨٤/٣ والخريدة (قسم العراق) ١٤٢/١ ومقدمة المحققين لكتابه .

(٢) البلاغة تطور وتاريخ ص ٥٥ ، ٧٣ .

(٣) انظر فى على بن الحسن بن عنتر الملقب بشميم الحلى معجم الأدباء ٥٠/١٣ وإنباه الرواة ٢٤٣/٢ وبغية الوعاة والشذرات ٤/٥ وميزان الاعتدال ٨٢/٢ والجواهر المضية فى طبقات الحنفية ٢٨٣/١ وابن خلكان ٣٣٩/٣ .

(٤) راجع فى تحليل كتاب المثل السائر كتابنا البلاغة تطور وتاريخ ص ٣٢٣ .

وأدوات الكتابة وأركانها . ويخرج إلى المقالة الأولى ، وقد جعلها للصناعة اللفظية وقسمها قسمين : قسما خاصا باللفظة المفردة ، وقسما خاصا بالألفاظ المركبة ، ويُطْنب فى بيان حسن الألفاظ وصفاته ، متأثرا فى وضوح بابن سنان الخفاجى فى كتابه « سر الفصاحة » . وبالمثل يتأثر به فى حديثه عن صفات الحسن فى الألفاظ المركبة مفصلا القول فى السجع والتصريع والتجنيس والترصيع ولزوم مالايلزم والموازنة واختلاف صيغ الألفاظ وتكرار الحروف . وينتقل إلى المقالة الثانية الخاصة بالصناعة المعنوية ، ويعرض للسرقات ، ثم يتحدث عن الاستعارة والمجاز والتشبيه والتمثيل ، ويعرض الالتفات وصوره وبعض الصيغ النحوية ، ثم يتحدث عن التقديم والتأخير وبعض صيغ الاختصاص والإيجاز والإطناب والكناية والتعريض ، ولجَّ فى بعض مسائل نقدية ، ثم تناول الجناس والاقتباس ، وفتح فصلا للسرقات ، وختم الكتاب بكلمة عن فضل الفصاحة والبلاغة ذكر فيها الفرق بين الشعر والنثر .

ونلتقى فى أواخر القرن السابع بكتاب « الأقصى القريب فى علم البيان » المطبوع بالقاهرة من نسخة قرئت على المؤلف محمد بن محمد التنوخى [1] سنة ٦٩٢ ويسمى صاحب كشف الظنون الكتاب باسم « أقصى القُرَب فى صناعة الأدب » ويقول إن مؤلفه توفى سنة ٧٤٩ للهجرة ، ولعله أخطأ فى سنة وفاته ولا يُعْرَفُ موطنه ، وقد ضممناه إلى العراق لغلبة النزعة المنطقية عليه وأصدائها الواضحة فى مباحثه . وواضح من عنوان الكتاب [2] أن مؤلفه أطلق على مباحث البلاغة اسم البيان متابعا فى ذلك ابن الأثير ، وهو يفتح الكتاب ببحث منطق فى التصور والتصديق وفى القضية المنطقية وصورها المختلفة ، ثم يتحدث عن الجملة النحوية ويفيض فى مباحث الحروف والأسماء والأفعال . ثم ينتقل إلى علم البيان ومباحث الفصاحة والبلاغة فيه والحقيقة والمجاز وحسن المفردات وقبحها وصفاتها . ويخرج إلى الحديث عن المعانى ويبتدئ حديثه فيها بالكلام عن الاستعارة ، ثم يتحدث عن التشبيه والالتفات والنفى والاعتراض والإيجاز والإطناب والكناية والتعريض والتقديم والتأخير والاشتقاق والتكرار وبعض ألوان البديع ، وهو شديد التأثر فى كل ذلك بابن الأثير فى كتابه المثل السائر . ويلقانا جلال الدين القزوينى صاحب كتاب التلخيص المولود بالموصل ، ويبدو أنه غادره فى مطالع شبابه ، وأنه أتم ثقافته فى بلاد الروم وديار الشام ، ولذلك سنرجىء الحديث عنه إلى الجزء الخاص بالشام ومصر .

(١) انظر فى التنوخى بروكلمان ١٨٥/٥ وكشف الظنون لحاجى خليفة (طبع إستانبول) ١/ ١٣٧ وكتابه نشرته مكتبة الخانجى بالقاهرة .

(٢) راجع فى تحليل هذا الكتاب كتابنا البلاغة تطور وتاريخ ص ٣١٦ .

وتُسهم العراق فى نظم القصائد المعروفة بالبديعيات . وعلى [١] بن عثمان الإربلى المتوفى سنة ٦٧٠ هو أول من فتح الطريق إلى هذا الاتجاه ، فقد نظم قصيدة فى مديح بعض معاصريه وضمَّن كل بيت فيها لوناً من ألوان البديع ، وذكر بإزاء كل بيت اللون الذى يُطْوى فيه ، ولم تصل إلينا القصيدة غير أن صاحب فوات الوفيات ذكر منها ستة وثلاثين بيتاً . وإذا مضينا إلى القرن الثامن التقينا بصفى الدين الحلى المتوفى سنة ٧٥٠ للهجرة ورأيناه ينظم قصيدة فى مديح الرسول ﷺ على شاكلة بردة البوصيرى مفتتحاً لها بقوله :

إن جئتَ سَلْعاً فسَلْ عن جيرة العَلَمِ ... واقْرَ السلامَ على عُرْبٍ بذِى سَلَمِ

وهى مائة وخمسة وأربعون بيتا من وزن البسيط ، وكل بيت فيها يحمل محسنا من محسنات البديع ، وهى تضم نحو مائة وخمسين محسنا ، إذ جعل للجناس فيها اثنى عشر لونا صورها فى الأبيات الخمسة الأولى ، ووأضح أن مطلعها يشتمل على المحسن المعروف باسم براعة الاستهلال ، كما يشتمل على لونين من الجناس بين سلام وسلم وبين العَلَم وسلم . وقدسماها الكافية البديعية فى المدائح النبوية وصنف لها شرحاً سماه النتائج الإلهية فى شرح الكافية البديعية . ويذكر فى مقدمته للشرح أنه قرأ ثلاثين كتابا قبل تأليفه لبديعيته وأنه زاد على ماقرأ محسنات جديدة . وتلقانا بعد صفى الدين بديعيات أخرى وشروح وتلخيصات لكتب البلاغة ، ويستمر العلماء فى صنع هذه التلخيصات والشروح لافى أزمان المغول والتركمان فحسب ، بل أيضاً فى زمن العثمانيين ، وللشيخ عبد الله السويدى المار ذكره كتاب فى الاستعارة ولمحمد أمين الخطيب العمرى بديعية وشرح لها ، وللشيخ إبراهيم الحيدرى كتاب فى البديع ولشهاب الدين الألوسى أبى الثناء شرح وحاشية على كتاب الاستعارات لابن عصام .

وإذا تركنا النشاط البلاغى إلى النشاط النقدى وجدناه على أتمه فى مطالع هذا العصر ، وأول مايلقانا منه كتاب الموازنة بين أبى تمام والبحترى للآمدى [٢] الحسن بن بشر المتوفى سنة ٣٧١ وقد استهل الكتاب [٣] بالحديث عن مذهبين مختلفين فى فهم الشعر ونقده وصنعه وعمله ، وهما مذهب المجددين من أنصار أبى تمام أصحاب المعانى والفلسفة والبديع ، ومذهب المحافظين من أنصار البحترى الذين يتمسكون بعمود الشعر العربى

---

(١) انظر فى ترجمة على بن عثمان كتاب فوات الوفيات (طبعة محمد محيى الدين عبد الحميد) ٢/١١٨ والنجوم الزاهرة ٧/٢٣٦ .

(٢) انظر فى الآمدى معجم الأدباء ٨/٧٥ وإنباه الرواة ١/٢٨٥ وما به من مراجع وروضيات الجنات ٢١٩ .

(٣) راجع فى تحليل كتاب الموازنة كتابنا النقد (طبع دار المعارف) ص ٦٤ وما بعدها وكتابنا البلاغة تطور وتاريخ ص ١٢٨ .

وتقاليده مؤثرين حسن العبارة وحلاوة اللفظ وجمال أنغامه . ويمضى الآمدى فيصور جدلا بين أصحاب المذهبين فى فن الشاعرين وأيهما يتفوق على صاحبه ، عارضا احتجاجات أصحاب أبى تمام وردود أصحاب البحترى عليهم ، ومن أطرف مااحتجوا به أن أبا تمام صاحب مذهب جديد فى الشعر وصناعته ونوقش مذهبه مناقشة واسعة . ويتحدث الآمدى بعد ذلك عن سرقات الشاعرين وأخطائهما ، وهو يتحيز فى الموازنة للبحترى تحيزاً واضحا .

وكان يعاصره المرزبانى [1] محمد بن عمران المتوفى سنة ٣٨٤ وهو خراسانى الأصل بغدادى المولد والموطن ، وله كتاب الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء ، وهو سجل لنقد اللغويين من القرن الثانى حتى القرن الرابع لشعراء الجاهلية والإسلام والعصر العباسى حتى نهاية القرن الثالث ، متخللا ذلك بنظرات نقدية كثيرة له ولسابقيه . ومن أطرف فصوله الفصل الخاص بأبى نواس ، وكذلك الفصل الخاص بأبى تمام ، وقد دوَّن فيه رسالة ابن المعتز فى بيان محاسن شعر أبى تمام ومساويه ومنها استمد كل من نقدوا أبا تمام بعده ، مثل ابن عمار القطربُّلى المتوفى سنة ٣١٩ فى رسالته التى كتبها فى أخطاء أبى تمام ، وكذلك الآمدى فى موازنته السالفة . وفى رأينا أن هذه الرسالة هى التى دفعت الصولى للانتصار للشاعر وكتابة مصنفه عنه المعروف باسم أخبار أبى تمام . وحينما يتحدث الآمدى عن أنصار أبى تمام إنما يريده . ونلتقى بناقد مهم للمتنبى سبق أن عرضنا له فى حديثنا عن النشاط البلاغى وهو أبو على الحاتمى البغدادى الذى تصدى للشاعر الكبير ينقده نقدا مجحفا فى كثير من الأحوال ، وله فيه رسالة عما وافق فيه المتنبى كلام أرسطو . حاول فيها أن يرد كثيرا من حِكَمه إلى أقوال الفيلسوف ، وبمجرد أن نطلع عليها نعرف أن المتنبى على فرض أنه استعار بعض حكمه من أرسطو أعطاها صياغة جديدة باهرة ، وفى الحق أن جمهور حكمه إنما هو من تجاربه ومن خبرته بالحياة الإنسانية . وللحاتمى فيه رسالة ثانية أو كتاب ثان هو الموضحة [2] وفيها يذكر أن الوزير المهلبى هو الذى دفعه إلى نقد المتنبى ، ويقول إن معارك نشبت بينه وبين المتنبى حين لقيه ، ويصور فى الكتاب هذه المعارك وأنها امتدت فى عدة مجالس ، كان أولها فى الدار التى نزل فيها المتنبى ، أمام طائفة من العلماء الأدباء . وقد أخرج الحاتمى الكتاب بعد وفاة صاحبه ولعله تزيَّد فيه ، وهو

---

(١) انظر فى المرزبانى تاريخ بغداد ١٣٥/٣ ومعجم الأدباء ٢٦٨/١٨ وابن خلكان ٣٥٤/٤ والشذرات ١١١/٣ وميزان الاعتدال ٦٧٢/٣ والوافى بالوفيات ٢٣/٤ وعبر الذهبى ٢٧/٣ ولسان الميزان ٢٣٦/٥ .

(٢) حقق الدكتور محمد يوسف نجم هذا الكتاب ونشره فى بيروت .

يذكر حدود الشعر ويتحدث عن سرقات المتنبي وعيوبه ويوازن بين معانيه ومعاني أبي تمام والبحترى . والتجنى على المتنبي واضح فى الكتاب ، فلم يكن يمسك فى يده بمعايير نقدية منصفة . ومع ذلك فإن كثيرين من نقاد المتنبي بعده حملوا عنه نقده وأذاعوه فى كتبهم ودراساتهم . ويُشْغَل كثيرون بالمتنبي فى جميع البلدان العربية ، وسنرى فى إيران مباحث كثيرة عنه وعن شعره .

ويلقانا فى العراق ابن الدهان [1] سعيد بن المبارك المتوفى سنة ٥٦٩ وله رسالة فى سرقات المتنبي سماها « الرسالة السعيدية فى المآخذ الكندية » وقد وقف فيها طويلاً عند سرقاته من أبى تمام الطائى ، وعُنى ببيان سرقاته من البحترى الطائى أيضاً ، ولذلك قد تسمى فى بعض المصادر باسم « المآخذ الكندية من المعانى الطائية » ولابن الأثير كتاب يرد فيه على هذه المآخذ سماه « الاستدراك فى الرد على رسالة ابن الدهان المسماة بالمآخذ الكندية من المعانى الطائية ، عنى فيها بالرد على ابن الدهان فى مآخذه على المتنبي وقد وزع أكثرها على جانبين هما : مآخذه على ابن الدهان فيما زعمه من مآخذ المتنبي من أبى تمام ، واستدراكه على ما فات ابن الدهان من مآخذ المتنبي أو سرقاته من أبى تمام . وهو يستهل الرسالة ببيان عيوب ابن الدهان فى مبحثه ، ذاكراً أنه ترك من سرقات المتنبي من أبى تمام مثلما أخذ ، وأنه قد يَعُدُّ بيتاً للمتنبي مسروقاً من صاحبه ، وبتأمله يلاحَظ أنه غير مسروق ، وأنه قد يعزو إلى المتنبي وأبى تمام والبحترى أبياتاً ليست لهم ، وأنه أطال مقدمة كتابه أو رسالته فكان كمن بنى داراً فجعل دهليزها ذراعاً وعرضها شبراً ؛ على أنها لا تناسب الكتاب ولا تشاكله . ولابن الأثير فى الكتاب – شأنه فى كتاب المثل السائر – نظرات نقدية كثيرة جيدة . ولابن أبى الحديد رسالة فى نقد المثل السائر لابن الأثير سماها « الفلك الدائر على المثل السائر » وهى إلى أن تكون نقداً لغوياً أقرب منها إلى أى نقد آخر ، ورد عليه كثيرون منتصرين لابن الأثير مثل محمود بن الحسين السنجارى المتوفى سنة ٦٤٠ فى كتابه « نشر المثل السائر وطى الفلك الدائر » .

ولصفى الدين الحلى المار ذكره فى البديعيات كتاب نفيس فى الأشعار العامية الشعبية سماه « العاطل الحالى والمرخص الغالى فى الأزجال والموالى » عرض فيه فنون الشعر العامى من الزجل والمواليا والقوما والكان وكان موضحا نشأتها وتاريخها وأوزانها وقوافيها ومايجوز فيها وما لايجوز . ويلاحِظ أنه سبقت الأزجال فى الأندلس قصائدُ عامية ذات قافية واحدة

(١) انظر فى ابن الدهان معجم الأدباء ٢١٩/١١ خلكان ٣٨٢/٢ والشذرات ٢٢٣/٤ . ونكت الهميان ص ١٥٨ وإنباه الرواة ٤٧/٢ وابن

كقصائد « الشعر الفصيح » كانت تسمى بالقصائد الزجلية ، ثم نوعوا فيها الأوزان والقوافى على شاكلة الموشح . وهو يقوم فى ضبط أوزان الأشعار العامية مقام ابن سناء الملك المصرى فى ضبطه للموشحات بكتابه المعروف « دار الطراز » . وتعرض صفى الدين الحلى لبعض أشعار ابن سناء الملك بنقد لغوى ذاهبا إلى أنه لما قلد الأندلسيين فى موشحاته وجعل خرجاتها عامية كثر فى نظمه استخدام اللفظ العامى ، ويضرب لذلك بعض الأمثلة - فى رأيه - من شعره . وقد صحح هذه الأمثلة وردَّها الصفدى فى شرحه للامية العجم الذى سماه « الغيث الذى انسجم فى شرح لامية العجم » . ولانعود نسمع عن كتاب مهم فى النقد بالعراق بعد كتاب العاطل الحالى ، فقد انصرف الباحثون إلى الدراسات البلاغية بين شروح وتلخيصات كثيرة .

٤

علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

مرَّ بنا فى كتاب العصر العباسى الثانى نشاط العراق فى روايته لقراءات الذكر الحكيم وكيف أن ابن مجاهد استخلص منها سبعا ، هى قراءات الأئمة : نافع فى المدينة وعبد الله ابن كثير فى مكة وعاصم وحمزة والكسائى فى الكوفة وأبى عمرو بن العلاء فى البصرة وعبد الله بن عامر فى دمشق ، وشاعت فى العالم الإسلامى إلى اليوم مدوَّنة بكتابه السبعة الذى مضى العلماء منذ عصره يتدارسونه [١] وألَّف كتابا ثانيا فى شواذ القراءات عنى بالتعليق عليه ابن جنى مسميا تعليقه المحتسب ، وهو محقق ومنشور بالقاهرة . وذهب كثيرون بعد ابن مجاهد إلى أنه لا تقل عن القراءات السبع التى دوَّنها بكتابه قراءة أبى جعفر يزيد ابن القعقاع شيخ نافع المتوفى سنة ١٣٠ للهجرة ويعقوب بن إسحق الحضرمى البصرى المتوفى سنة ٢٠٥ وخلف بن هشام البغدادى المتوفى سنة ٢٢٩ . وبضم هذه القراءات إلى قراءات ابن مجاهد تصبح القراءات عشرا وتؤلف فيها الكتب . ويضم إليها كثيرون أربع قراءات هى قراءة ابن مُحَيْصِن المكى معاصر ابن كثير وقراءة الأعمش الكوفى وقراءة اليزيدى البصرى تلميذ أبى عمرو بن العلاء وقراءة الحسن البصرى . وبذلك تصبح القراءات أربع عشرة . وتنشط العراق فى التأليف فيها ، تارة يؤلف العلماء فى السبع وتارة يؤلفون فى العشر أو فى الأربع عشرة . فمن ذلك كتاب الجامع فى القراءات العشر لعلى بن محمد الخياط المتوفى سنة ٤٠٥ وكتاب الروضة للحسن البغدادى فى إحدى عشرة قراءة وقد توفى

(١) حققتُ ونشرت فى دار المعاف هذا الكتاب .

سنة ٤٣٨ وكتاب المفيد فى القراءات العشر لأبى نصر البغدادى المتوفى سنة ٤٤٢ وكتاب التذكار فى القراءات العشر لابن شيطا البغدادى المتوفى سنة ٤٤٥ وكتاب المستنير لأحمد ابن على بن سوار البغدادى المتوفى سنة ٤٩٦ وهو أيضا فى القراءات العشر وكتاب المهذب فى القراءات العشر لمحمد بن أحمد بن الخياط البغدادى المتوفى سنة ٤٩٩ وكتاب الإرشاد فى العشر للواسطى المتوفى سنة ٥٢١ وكتاب الموضح والمفتاح فى القراءات العشر لابن خيرون البغدادى المتوفى سنة ٥٣٩ وكتاب المبهج فى القراءات الثمان لسبط الخياط البغدادى المتوفى سنة ٥٤١ وله كتاب الكفاية فى القراءات الست ، وكتاب المصباح فى القراءات العشر لأبى الكرم البغدادى المتوفى سنة ٥٥١ وكتاب الكنز فى القراءات العشر لأبى محمد عبد الله الواسطى المتوفى سنة ٧٤٠ وله كتاب الكفاية وهى قصيدة فى القراءات العشر على وزن القصيدة المشهورة باسم الشاطبية ورويها ، وكذلك لمعاصره أبى الحسن على الديوانى الواسطى المتوفى سنة ٧٤٣ قصيدة مماثلة للشاطبية . وكل هذه الكتب عرّف بها ابن الجزرى فى كتابه «النشر [١] فى القراءات العشر» وترجم لأصحابها فى كتابه غاية النهاية فى طبقات القراء .

وإذا انتقلنا إلى التفسير والمفسرين وجدنا العراق تنشط فى التفسير الفقهى والاعتزالى والسنى والشيعى ، وقلما عنيت بالتفسير الصوفى ، وكأنما تركته لمتصوفة خراسان وإيران من أمثال أبى عبد الرحمن السلمى والقشيرى ومتصوفة الأندلس من أمثال ابن عربى . وقد عنيت مبكرة بالتفسير الفقهى ، على نحو ما نرى عند ابن الجصاص [٢] أحمد بن على المتوفى سنة ٣٧٠ فى كتابه أحكام القرآن ، وهو مطبوع فى ثلاثة أجزاء بالقاهرة ، ومثله كتاب أحكام القرآن للكِيَا [٣] الهَرَّاسى المتوفى سنة ٤٥٤ وأصله مثل ابن الجصاص إيرانى ، ولكنهما نزلا بغداد ، واستقرا فيها أما ابن الجصاص فقد نزلها سنة ٣٢٥ وتلقى بها العلم ، ثم أصبح مدرسا للفقه الحنفى وتركها بأخرة إلى نيسابور حيث توفى فيها ، وأما الكِيا الهراسى فقد درس فى نيسابور وعلم فى إحدى قراها المسماة بيهق . ثم خرج إلى العراق وتولى التدريس فى المدرسة النظامية ببغداد حتى توفى ، وكان فى خدمته بها الشاعر الغَزِّى المشهور . وأُلفت فى أحكام القرآن كتب أخرى ليس لها شهرة الكتابين السابقين . وقد ذكرنا فى العصر

(١) انظر فى الكتب السالفة وأصحابها النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى (طبع القاهرة) ٧٤/١ - ٩٥

(٢) راجع فى ترجمة ابن الجصاص الجواهر المضية ٨٤/١ وتاج التراجم فى طبقات الحنفية لابن قطلو بغا رقم ١١ وبستان المحدثين لعبد العزيز الدهلوى ١٢٦ و«النجوم الزاهرة» ١٣٨/٤ والفوائد البهية ص ٢٧

(٣) انظر فى الكيا الهراسى المنتظم ١٦٧/٩ وتبيين كذب المفترى ٢٨٨ والسبكى ٢٣١/٧ وعبر الذهبى ٨/٤ والشذرات ٨/٤ وابن خلكان ٢٨٦/٣

العباسي الثاني تفسيرات المعتزلة فى القرن الثالث الهجرى ، ويستمر نشاط المعتزلة فى تفسير الذكر الحكيم لهذا العصر وخاصة فى أوائله ، ويلقانا فيه تفسير لعلى بن عيسى الرمانى المعتزلى ، ومر بنا أنه توفى سنة ٣٨٤ وكان يقول : تفسيرى بستان يُجْتَنى منه ما يشتهى ، وقيل للصاحب بن عباد معاصره هلا تصنف تفسيرا ؟ فقال : وهل ترك لنا على بن عيسى شيئا [١] ، ويقول صاحب النجوم الزاهرة : «له كتاب التفسير الكبير وهو كثير الفوائد إلا أنه صرح فيه بالاعتزال ، وسلك الزمخشرى سبيله وزاد عليه» [٢] . ومن هذا الاتجاه الاعتزالى كتاب التفسير الكبير لعبد السلام [٣] بن محمد القزوينى نزيل بغداد وشيخ المعتزلة المتوفى سنة ٤٨٨ ويقول السمعانى إنه مزج تفسيره بكلام المعتزلة وبث فيه معتقده وهو فى ثلاثمائة مجلد ، منها سبع مجلدات فى سورة الفاتحة ، ويقول صاحب النجوم الزاهرة إن الكتاب كان وقفا فى مشهد أبى حنيفة ببغداد . ويبدو أن المعتزلة اكتفوا فيما بعد بتفسير الزمخشرى المسمى بالكشاف ، إذ لم ينشطوا بعده للتأليف فى تفسير القرآن .

ويظل التفسير السنى مزدهرا بعد تفسير الطبرى الذى عرضنا له فى العصر العباسى الثانى ، ومن التفسيرات السنية المهمة فى العصر تفسير النقاش [٤] البغدادى محمد بن الحسن المتوفى سنة ٣٥٠ كان إمام أهل العراق فى القراءات والتفسير ، وقد سمى تفسيره شفاء الصدور ، وطوَّف من مصر إلى ما وراء النهر فى لقاء المشايخ ولكنهم ضعَّفوا أحاديثه ، وقالوا إنه ليس بثقة على جلالته ونبله . ولأبى الحسن الماوردى إمام الشافعية فى عصره المتوفى كما مر بنا سنة ٤٥٠ تفسير من أجل التفاسير . ويلقانا تفسير سنى لا يزال مخطوطا بدار الكتب المصرية وهو لأحمد [٥] بن محمد الغزالى أخى الإمام الغزالى مدرس النظامية ببغداد المتوفى سنة ٥٢٠ . واشتهر ابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ بتفسيره الذى سماه «زاد المسير فى علم التفسير» . ومن أصحاب التفاسير السنية الرَّسْعَنى [٦] عبد الرزاق المتوفى سنة ٦٦١ وفيه يقول السيوطى : «صنف تفسيراً حسناً يروى فيه بأسانيده» . ومنهم علاء الدين على بن محمد البغدادى صاحب التفسير المعروف بتفسير الخازن [٧] المتوفى سنة ٧٤١ ، وهو ملىء

---

(١) المنية والأمل لابن المرتضى ص ١١٥

(٢) النجوم الزاهرة ٤/١٦٨

(٣) انظر طبقات المفسرين ١٩ والنجوم الزاهرة ٥/١٥٦ وتذكرة الحفاظ ٤/٨ ولسان الميزان ٤/١١ والسبكى ٥/١٢١ والشذرات ٣/٣٨٥ .

(٤) راجعه فى تاريخ بغداد ٢/٢٠١ ومعجم الأدباء ١٨/١٤٦ وتذكرة الحفاظ للذهبى (طبع حيدر آباد) ٣/١١٥ وطبقات القراء لابن الجزرى ٢/١١٩ وميزان الاعتدال ٣/٥٢١ وابن خلكان ٤/٢٩٨ والسبكى ٣/١٤٥ .

(٥) انظره فى المنتظم ٩/٢٦٠ وميزان الاعتدال ١/١٥٠ وابن خلكان ١/٩٧ والسبكى ٦/٦٠ والشذرات ٤/٦٠ ومرآة الجنان ٣/٢٢٤ ولسان الميزان ١/٢٩٣ .

(٦) راجعه فى طبقات المفسرين للسيوطى رقم ٥٦

(٧) انظره فى طبقات المفسرين للداودى والدرر الكامنة ٣/١٧١

بالإسرائيليات . ومن خير التفاسير السنية تفسير ذاع وشاع منذ تأليفه فى القرن الماضى ، وهو كتاب «روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى» لشهاب الدين محمود الألوسى الذى مر ذكره والمتوفى سنة ١٢٧٠ هـ / ١٨٥٣ م ، وهو يعنى فى تفسيره ببيان أسباب النزول وبتفسير آى القرآن بعضها ببعض ، وتفسيرها بالحديث النبوى ، ويُعْنَى باللغة ومسائل النحو والبلاغة ، وقد اعتمد على كثير من مصادر التفسير فى القديم ، وخاصة على الكشاف والبيضاوى والفخر الرازى ، وهو يخوض مثل الفخر فى مباحث فلسفية ورياضية وطبيعية كثيرة . وقد عُنى عناية واسعة بالرد على الطبرسى الشيعى فى تفسيره ، وخاصة فى مسائل الإمامية الاعتقادية . ونراه يعنى بالرد فى مسائل كثيرة على حجج الشافعية ، وخاصة تلك التى يثيرها المفسر الشافعى الكبير الفخر الرازى فى تفسيره . ومع أنه كان حنفياً ، والحنفية غالباً كانوا معتزلة أو ماتريدية ، نراه فى تفسيره أشعريا، وهو بذلك يلتقى مع الفخر الرازى فى نصرته للمذهب الأشعرى . ويذكر ابن عربى مراراً فى تفسيره ، ويتضح تأثره به وبتفاسير الصوفية عامة حين نراه فى كثير من الآيات بعد أن يوضح المراد منها يتغلغل فى معان باطنة لا يدل عليها ظاهرها أى دلالة ، ومن الغريب أنه يذكر مراراً أن قَصْر مراد الله على التأويلات البعيدة كفر صريح ومع ذلك نراه أحياناً يتمادى فيها ، وكان حرياً أن يخلى تفسيره منها ومن شوائبها إخلاء تامًّا .

وقد ذكرنا فى العصر العباسى الثانى للتفسير الشيعى بعض التفاسير التى نسبها الشيعة إلى أئمتهم ، مثل تفسير الإمام الحسن العسكرى المتوفى سنة ٢٦٠ وهو الإمام الحادى عشر فى ترتيب الإمامية ، وبمجرد اطلاعنا عليه نستبعد أن يكون من صنعه حقا لركاكة أساليبه ولما فيه من تأويلات باطنية بعيدة . ويأتى بعده تفسير القمى [1] على بن إبراهيم المتوفى لأوائل القرن الرابع الهجرى ، وهو فى جملته نقول عن أئمة الإمامية وكثير منها يبعد عن ظاهر النص القرآنى ومراده ، مما يدل على أن نسبتها إليهم غير صحيحة . وما نصل إلى أواخر القرن الرابع حتى نلتقى بالشريف الرضى المتوفى سنة ٤٠٦ وبتفسيره الذى سماه «حقائق التأويل فى متشابه التنزيل» وقد نشر منه فى بيروت الجزء الخامس ، ومن يطلع عليه يجد له فيه عملين كبيرين : أولهما البعد عن التفسير الباطنى الشيعى لآيات الذكر الحكيم ، وثانيهما ترك الروايات عن الأئمة والاحتكام إلى العقل ، وهو احتكام وصَلَ تفسيرَه بتفاسير المعتزلة ،

(١) انظره فى طبقات المفسرين للداودى ٣٨٥/١ مطبوع بالنجف .
والذريعة إلى تصانيف الشيعة لأغابزرك ٣٠٢/٤ وتفسيره

والصلة بين المعتزلة والشيعة الإمامية قديمة ومعروفة ، وتتردد فى التفسير أسماء بعض أعلامهم مثل أبى على الجُبَّائى وعلى بن عيسى الرمَّانى والقاضى عبد الجبار . واتجه نفس الوجهة أخوه الشريف المرتضى[1] فى كتابه « الأمالى » إذ نراه فيه يقف إزاء الآيات التى قد يفيد ظاهرها التشبيه على الذات العلية أو الجبر ليؤولها على طريقة المعتزلة . وفى الوقت نفسه لا يروى فيها نقولاً عن الأئمة . وبذلك يُعِدّان للتفسير بالرأى والعقل فى بيئة الإمامية ، واستضاء بعملها فى هذا الاتجاه الطوسى[2] أبو جعفر محمد بن الحسن تلميذ الشريف المرتضى ، وقد توفى سنة ٤٦٠ واشتهر بتفسير للذكر الحكيم سماه « التبيان فى تفسير القرآن » وهو مطبوع بالنجف فى عشرة أجزاء ، وقد عُنِى فى تفسيره بالتقريب بين تفسيرات الشيعة وتفسيرات أهل السنة . إذ روى فى تفسيره عن الصحابة من أمثال أبى بكر الصديق وعمر . وكذلك عن التابعين دون تعصب مذهبى ، ووضع بجانبهم ما نقله عن الأئمة فى عقيدته الإمامية ، واتخذ تفسير الطبرى السنى هادياً له فى تفسيره ، وكما نقل عن كتب الحديث الشيعية مثل الأمالى لابن بابويه القمى وأمالى ابن النعمان المفيد نقل عن كتب الحديث المشهورة لأهل السنة مثل مسند ابن حنبل وكتب الصحاح الستة . وعلى ضوء دراسات الشريفين المرتضى والرضى عُنِى بالتفسير العقلى وفسح للتأثر بالمعتزلة فى نفى التشبيه عن الذات العلية . وليس معنى ذلك كله أنه تخلص فى تفسيره من عقيدته الإمامية ، بل لقد نصرها فى مواطن كثيرة وخاصة عقيدتهم فى الإمام وأنه معصوم وحجة الله فى أرضه وصاحب علم باطنى متوارث إلى غير ذلك من أصول العقيدة الإمامية ، وقد تأثر به الطَّبْرِسى فى تفسيره تأثراً واسعاً .

وكانت بغداد داراً قديمة للحديث ، وظلت شديدة العناية به وبحفَّاظه طوال هذا العصر ، وأول من نلقاه من أعلامه البَزّاز محمد[3] بن عبد الله المتوفى سنة ٣٥٤ وله كتاب العوالى فى الحديث وهى مجموعة يمتاز سندها بقلة رواته ، وكان يعاصره الآجرى[4] أبو بكر محمد بن الحسين المتوفى سنة ٣٦٠ وله كتاب يضم أربعين حديثاً مختارة ،

---

(١) راجع فى الشريف المرتضى تاريخ بغداد ٤٠٢/١٢ وتتمة اليتيمة ٥٣/١ وابن خلكان ٣١٣/٣ ومعجم الأدباء ١٤٦/١٣ وإنباه الرواة ٢٤٩/٢ وما به من مراجع

(٢) انظر فى الطوسى المنتظم ٢٥٢/٨ والنجوم الزاهرة ٨٢/٥ ولسان الميزان ١٣٥/٥ وروضات الجنات ٥٨٠ ودائرة المعارف الإسلامية .

(٣) انظره فى تذكرة الحفاظ ٩٠٦/٣ وطبقات الحفاظ للسيوطى ١٢١ . وبروكلمان ٢٠٧/٣ .

(٤) راجعه فى تذكرة الحفاظ ١٣٩/٣ وتاريخ بغداد ٢٠٣/٢ والسبكى ١٤٩/٣ وابن خلكان ٢٩٢/٤ والشذرات ٣٥/٣ والمنتظم ٥٥/٧ والوافى ٣٧٣/٢ .

ويخلفها الدارقُطْنى [١] على بن عمر المتوفى سنة ٣٨٥ وهو منسوب إلى محلة ببغداد تسمى دار قطن ، وله كتاب السنن» وقد نُشر قديماً فى دهلى ، واشتهر الدارقطنى بأنه تعقب فى كتابه الاستدراكات وجوه الضعف فى بعض أحاديث رواها الشيخان : البخارى ومسلم ، وله كتاب فى الضعفاء والمتروكين من الرواة «وكتاب فى العلل ، وآخر فى غريب الحديث . وكان يعاصره الكلاباذى[٢] أحمد بن محمد المتوفى سنة ٣٩٨ وله كتاب فى رجال البخارى ، وجاء بعده اللالكائى [٣] هبة الله بن الحسن محدث بغداد المتوفى سنة ٤١٨ وله كتاب فى رجال الصحيحين وكتاب فى السنن ، وكان يعاصره البَرْقانى[٤] أحمد بن محمد شيخ بغداد المتوفى سنة ٤٢٥ وله مصنفات مختلفة فى الحديث ، منها مسند ضمنه ما اشتمل عليه صحيح البخارى ومسلم . ثم يلقانا الخطيب [٥] البغدادى أحمد بن على بن ثابت المتوفى سنة ٤٦٣ وكان فى وقته حافظ المشرق الذى لا يدافَع ، وله مصنفات كثيرة فى الحديث ورجاله ، ومن أطرف ماله كتاب تقييد العلم ، وفيه يتحدث عن تدوين الحديث وأوائل من دونوه . وكان يعاصره ابن ماكولا[٦] المتوفى سنة ٤٧٥ وهو صاحب الإكمال تتبع فيه الألفاظ المشتبهة فى أسماء رواة الحديث ، يقول ابن خلكان : هو فى غاية الإفادة فى رفع الالتباس والضبط والتقييد وعليه اعتماد المحدثين وأرباب هذا الشأن فإنه لم يوضع مثله ولقد أحسن فيه غاية الإحسان .ومن محدِّثى القرن السادس ابن الجوزى عبد الرحمن ابن على المتوفى سنة ٥٩٧ ، وله عدة مصنفات فى الحديث من أهمها كتابه «الموضوعات» فى أربعة أجزاء ذكر فيه الأحاديث الموضوعة . وكان يعاصره مجد الدين المبارك بن محمد المعروف بابن [٧] الأثير الجزرى الموصلى المتوفى سنة ٦٠٦ وله جامع الأصول فى أحاديث الرسول جمع فيه بين الصحاح الستة ، وله أيضاً كتاب النهاية فى

---

(١) انظره فى تاريخ بغداد ١٢ / ٣٤ والمنتظم ٧/ ١٨٣ أو الأنساب ٢١٧ وطبقات القراء ١ / ٥٥٨ والسبكى ٤٦٢/٣ وتذكرة الحفاظ ١٨٦/٣ وابن خلكان ٢٩٧/٣ وعبر الذهبى ٢٨/٣ واللباب ١/ ٤٠٤ .

(٢) انظره فى تذكرة الحفاظ ٢١٦/٣ وتاريخ بغداد ٤٣٤/٤ وبروكلمان ٢٢٨/٣ .

(٣) تذكرة الحفاظ ٢٦٧/٣ وتاريخ بغداد ٧٠/١٤

(٤) تذكرة الحفاظ ٣ /٢٥٩ وتاريخ بغداد ٤ /٣٧٣ والسبكى ٤ /٤٧ والمنتظم ٨ /٧٩ .

(٥) انظره فى تذكرة الحفاظ ٣١٢/٣ وتهذيب ابن عساكر ٣٩٨/١ ومعجم الأدباء ١٣/٤ والمنتظم ٢٦٥/٨ والعبر ٢٥٣/٣ والشذرات ٣١١/٣ والسبكى ٢٩/٤ وابن خلكان ٩٢/١ وكتاب الخطيب البغدادى مؤرخ بغداد ومحدثها ليوسف العش .

(٦) راجعه فى تذكرة الحفاظ ١/٤ والمنتظم ٩/٥ ومعجم الأدباء ١٠٢/١٥ وابن خلكان ٣٠٥/٣ وعبر الذهبى ٣١٧/٣ والشذرات ٢ /٣١٨ وفوات الوفيات ٢ / ١٨٥ .

(٧) انظره فى تذكرة الحفاظ ١٨٥/٤ وابن خلكان ١٤١/٤ ومعجم الأدباء ٧١/١٧ وإنباه الرواة ٢٥٧/٣ ومرآة الجنان ١١/٤ والسبكى ٣٦٦/٨ والعبر ١٩/٥ وروضات الجنات ٥٨٥ .

غريب الحديث . وجاء بعده ابن نقطة [١] محمد بن عبد الغنى الحنبلى المتوفى سنة ٦٢٩ وله ذيل على الإكمال لابن ماكولا فى مجلدين ، وله كتاب التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد . وكان يعاصره ابن الدُّبَيْثى وابن النجار وسنعرض لهما فى حديثنا عن علم التاريخ . وجاء بعدهما من كبار الحفاظ ابن الفُوَطِىّ المتوفى سنة ٧٢٣ وسنذكره معهما . وجاء بعده صفى الدين الحسين [٢] بن بدران مدرس الحديث بالمستنصرية المتوفى سنة ٧٤٩ وخلفه الكرمانى شمس الدين محمد بن يوسف المتوفى سنة ٧٨٦ وله الكواكب الدرارى فى شرح صحيح البخارى ، وهو مطبوع بالقاهرة . وتلاه ابنه تقى الدين [٣] يحيى البغدادى المتوفى سنة ٨٣٣ وله شرح على صحيحى البخارى ومسلم .

وحتى الآن لم نعرض لكتب الحديث عند الشيعة الإمامية ، ومن أهمها عندهم كتاب الأمالى لابن بابويه القمى المتوفى سنة ٣٨١ ولا يقل عنه أهمية كتاب الأمالى للمفيد [٤] محمد بن محمد بن النعمان المتوفى سنة ٤١٣ وهو أستاذ الطوسى المفسر الذى مر ذكره ، وأماليه مطبوعة بالنجف ، وهى تشتمل على اثنين وأربعين مجلساً تقتصر على أحاديث مروية عن الرسول ﷺ وآل بيته . وللطوسى كتب مختلفة فى الحديث مطبوعة بالنجف وأهمها الاستبصار فيما اختلف من الأخبار ، وهو من الكتب الأربعة الأساسية فى العقيدة الإمامية . ودائماً كتب الشيعة الإمامية فى العقيدة مشحونة بالأحاديث ، وظل ذلك طوال هذا العصر على نحو ما نجد عند المطهر [٥] الحلى الحسين بن يوسف المتوفى سنة ٧٢٦ وكان رأس الشيعة الإمامية الاثنى عشرية بالحِلّة ، ولازم النصير الطوسى مدة واشتغل فى العلوم العقلية — كما يقول ابن حجر — فمهر فيها ، وله مصنفات كثيرة فى الإمامة والشريعة ، ردَّ عليه فيها ابن تيمية وأظهر — كما يقول ابن حجر — أن كثيراً من الأحاديث عنده غير صحيحة .

وكما كانت بغداد داراً للحديث وحفاظه كانت أيضاً داراً للفقه والفقهاء ، وأول مذهب فقهى نقف عنده مذهب أبى حنيفة ، ولعل أول فقيه حنفى جدير بالوقوف عنده فى هذا العصر القدورى [٦] أحمد بن محمد المتوفى سنة ٤٢٨ وله مختصر مشهور فى الفقه الحنفى لا يزال

---

(١) راجعه فى تذكرة الحفاظ ١٩٧/٤ والعبر ١١٧/٥ وابن خلكان ٣٩٢/٤ والشذرات ١٣٢/٥ .

(٢) انظره فى الدرر الكامنة ١٣٩/٢ والشذرات ١٦٣/٦ .

(٣) راجعه فى الضوء اللامع ٢٥/١٠ والعزاوى ٦٧/١

(٤) انظره فى كتاب الرجال للنجاشى ٢٨٣ ومنهج المقال للاسترابادى ٣١٧ وروضات الجنات ٥٦٣ وبروكلمان ٣٤٩/٣ .

(٥) راجعه فى الدرر الكامنة لابن حجر (طبعة دار الكتب الحديثة) ١٥٨/٢ والعزاوى ١٦٦/١ .

(٦) انظره فى تاريخ بغداد ٣٧٧/٤ وابن خلكان ٧٨/١ والعبر ١٦٤/٣ وتاج التراجم رقم ١٣ والجواهر المضية ٩٣/١ والفوائد البهية للكنوى ١٧ وبروكلمان ٢٦٩/٣ .

يدرس إلى اليوم وقد طُبع طبعات مختلفة واهتم به العلماء الأحناف بعده وصنعوا له شروحاً مطولة وموجزة . وكان يعاصره أبو زيد الدبوسى [١] عبد الله بن عمر المتوفى سنة : ٤٣٠ وله تأسيس النظر فى الخلاف ، وهو مطبوع فى القاهرة ، ويقال إنه أول من أسس علم الخلاف بين الفقهاء ومذاهبهم المتقابلة . ومنذ أبى يوسف فى عهد الرشيد وعنايته بأن يجعل على القضاء فقهاء الأحناف فى بغداد وغيرها نشط الفقه الحنفى فى العراق ، وكان مما ساعد على ذلك المدرسة التى بناها المستوفى الخوارزمى فى عهد السلطان ملكشاه السلجوقى للحنفية [٢] عند مشهد الإمام أبى حنيفة . وحين بنى المستنصر مدرسته المستنصرية - كما مر بنا - جعل لكل مذهب من المذاهب الأربعة : الحنفى والمالكى والشافعى والحنبلى إيواناً فيه المسجد وموضع التدريس . وبذلك ظل لفقهاء الحنفية نشاطهم . ومنهم مظفر [٣] الدين بن الساعاتى المدرس بالمستنصرية المتوفى ببغداد سنة ٦٩٦ وله كتاب مجمع البحرين شرحه فى مجلدين . ومنهم أبو البركات [٤] النسفى ، المتوفى سنة ٧٠١ وله مصنفات مختلفة فى الفقه الحنفى ، من أهمها الكنز وله شهرة كبيرة فى تدريس المذهب ، وعليه شروح كثيرة ونلتقى منذ هذا التاريخ بشروح ومتون مختلفة فى الفقه الحنفى .

وكان البغداديون أقل عناية بالفقه المالكى ، وأكثر من كانوا يعتنقون هذا المذهب وفدوا على بغداد ، ومع ذلك نجد من حين إلى حين فقيهاً مالكيا كبيراً بغداديا أو عراقيا مثل الباقلانى المتوفى سنة ٤٠٣ وكان شيخه ابن مجاهد محمد بن أحمد الطائى مالكيا مثله [٥] . وممن وفدوا على العراق أبو العباس المالكى أحمد [٦] بن محمد المتوفى سنة ٥٠٧ . وكانت حلقة المذهب فى المدرسة المستنصرية كما ذكرنا آنفاً سبباً فى أن يظل حيًّا بالعراق ، ويظل له شيوخه وفقهاؤه .

وكان الفقه الشافعى أكثر نشاطاً من فقه المذهبين المالكى والحنفى ، ومن أهم فقهائه أبو [٧] حامد المَرْوَرُّوذى أستاذ أبى حيان التوحيدى ، وعنه حمل المذهب فقهاء البصرة ، وقد توفى سنة ٣٦٢ ويلقانا بعده فى بغداد أبو حامد الإسفراينى [٨] المتوفى سنة ٤٠٦ وله فى

---

(١) راجع فى الدبوسى الفوائد البهية ٢٥ والجواهر المضية ٢/٢٥٢ وابن خلكان ٣/٤٨ وتاج التراجم رقم ١٠٧ وبروكلمان ٣/٢٧٣ .

(٢) ابن خلكان ٥/٤١٤ .

(٣) انظره فى تاج التراجم ص ٦ والجواهر المضية ١/ ٨٠ والفوائد البهية ١٦ . وبروكلمان ٦/٣٥٧ .

(٤) ستذكر مصادر ترجمته فى القسم الخاص بإيران

(٥) السبكى ٣/٣٦٨

(٦) المنتظم ٩/١٧٥

(٧) انظره فى السبكى ٣/١٢ وابن خلكان ١/٦٩ والعبر ٢/٣٢٦ والشذرات ٣/٤٠

(٨) راجعه فى السبكى ٤/٦١ وتاريخ بغداد ٤/٣٦٨ وابن خلكان ١/٧٢ والعبر ٣/٩٢ والشذرات ٣/١٧٨

المذهب التعليقة الكبرى ، وكان يحضر مجلسه ثلاثمائة فقيه . ومن نابهى فقهاء المذهب ببغداد المحَامِلى [١] الضَّبِّى المتوفى سنة ٤١٥ وله كتاب اللباب فى الفقه الشافعى واختصره أبو زرْعة العراقى المتوفى سنة ٨٢٦ واختصر هذا المختصر شيخ الإسلام المصرى زكريا الأنصارى المتوفى سنة ٩٢٦ . ومر بنا حديث عن الماوردى المتوفى سنة ٤٥٠ وكتابه الأحكام السلطانية ، وقد درَّس المذهب فى البصرة وبغداد ، وله فى الفقه كتابان هما الحاوى والإقناع ونشر له فى العراق كتاب أدب القاضى فى مجلدين ، وقد ذكرنا له كتاباً فى التفسير. ويزدهر المذهب الشافعى فى العراق منذ تأسيس نظام الملك لمدرسته النظامية ببغداد سنة ٤٥٨ وأسس لها أختين فى البصرة والموصل ، ووقف عليها جميعاً أوقافاً كثيرة ، وجعل التدريس فيها خاصا بفقهاء الشافعية لا فى الفقه وحده بل فى مختلف العلوم ، وقد أسند تدريس المذهب فى نظامية بغداد لأبى إسحق الشيرازى أحد أئمته المشهورين ، ويظل يتداول وظائفها كبار الفقهاء فى المذهب ، مما أحدث فيه ازدهاراً حقيقيا لا فى بغداد وحدها بل أيضاً فى البصرة والموصل ، ويُعْنَى السبكى فى طبقاته بالترجمة لأعلام الشافعية فى العراق وإحصاء مصنفاتهم ولن نستطيع أن نتابعه ، ونكتفى بأن نذكر من بين من ترجم لهم الشَّهْرزورى [٢] قاضى القضاة محمد بن محمد المدرس بنظامية الموصل المتوفى سنة ٥٨٦ وابن فَضْلان [٣] محمد بن واثق مدرس المستنصرية المتوفى سنة ٦٣١ وابن يونس [٤] الموصلى عبد الرحيم ابن محمد المتوفى سنة ٦٧١ ، وله التعجيز : مختصر الوجيز والنبيه فى اختصار التنبيه ومختصر المحصول فى أصول الفقه ، ويقول السبكى : «كان آية فى القدرة على الاختصار ، ومن أحسن مختصراته فى الفقه كتاب سماه «نهاية النفاسة» قلَّ أن رأيت مثله فى عذوبة منطقه وكثْرة المعنى وصغر الحجم ، وسأله الحنفية أن يختصر لهم مختصر القدورى» أو موجزه فاختصره اختصاراً حسناً . وعلى هذا النحو ظل الفقه الشافعى ناشطا فى العراق بفضل مدارسه وفقهائه . وكان للمدرستين النظامية والمستنصرية فى ذلك حظ موفور .

ولعل المذهب الحنبلى كان أكثر المذاهب الفقهية أشياعاً وأنصاراً فى بغداد ، منذ التف الناس حول مؤسسه أحمد بن حنبل . وقد جعله موقفه من الدولة فى إنكار الفكرة القائلة

---

(١) انظره فى السبكى ٤٨/٤ وتاريخ بغداد ٣٧٢/٤ والعبر ١١٩/٣ والمنتظم ١٧/٨ وابن خلكان ٧٤/١ والشذرات ٢٠٢/٣ .

(٢) راجعه فى السبكى ١٨٥/٦ والعبر ٢٥٩/٤ والنجوم الزاهرة ١١٢/٦

(٣) انظره فى السبكى ١٠٧/٨ والشذرات ١٤٦/٥ والعبر ١٢٦/٥

(٤) راجعه فى السبكى ١٩١/٨ والشذرات ٣٣٢/٥ ومرآة الجنان ١٧١/٤ وذيل مرآة الزمان ١٤/٣ .

بأن القرآن مخلوق زعيماً شعبيا ، وكان ذلك من أسباب ازدهار مذهبه طوال هذا العصر ، ويكفى أن نمثّل بطائفة من فقهائه ، وممن يلقانا منهم فى مطالع العصر ابن [١] بطة عبيد الله بن محمد العكبرى المتوفى سنة ٣٨٧ وله كتاب الإبانة بأصول الديانة ، وهو شرح لعقيدة ابن حنبل السنية . ومن نابهيهم فى القرن الخامس الشريف أبو [٢] جعفر المتوفى سنة ٤٧٠ كان إمام الحنابلة فى عصره ، وله رءوس المسائل وشرح المذهب ، وجزء فى أدب الفقه . ومنهم فى القرن السادس أبو الخطاب محفوظ [٣] الكلواذانى المتوفى سنة ٥١٠ أحد أئمة المذهب ومن تصانيفه الهداية فى الفقه والخلاف الكبير المسمى بالانتصار فى المسائل الكبار ، والخلاف الصغير المسمى برءوس المسائل ، وكان يعاصره يحيى [٤] بن منده المتوفى سنة ٥١٢ صنَّف مناقب الإمام أحمد بن حنبل فى مجلد كبير ، وكان يعاصرهما أبو [٥] الوفاء ابن عقيل ، المتوفى أيضاً سنة ٥١٢ ، وله فى الفقه الحنبلى كتاب الفصول ويسمى كفاية المفتى ، فى عشرة مجلدات وكتاب عمدة الأدلة ، وأكبر كتبه كتاب الفنون وهو كبير جدًّا ، يقال إنه كان فى مائتى مجلد ، وهو فى الوعظ والتفسير والفقه والنحو واللغة والشعر والتاريخ والحكايات ، وفيه مناظراته ومجالسه ، وقال الحافظ الذهبى فى تاريخه : لم يصنَّف فى الدنيا أكبر من هذا الكتاب . وكان يعاصره ابن أبى يَعْلَى الفرَّاء [٦] المتوفى سنة ٥٢٦ وله تصانيف كثيرة فى الفقه والأصول ، منها المجموع فى الفقه ، ورءوس المسائل ، والمفردات فى الفقه ، وأيضاً المفردات فى أصول الفقه . ونلتقى فى أواخر القرن السادس بعلم حنبلى كبير هو ابن الجوزى . وظل الفقه الحنبلى مزدهراً فى العراق طوال العصر ، ومن فقهائه ابن [٧] البرزالى الحنبلى المدرس بالمستنصرية المتوفى سنة ٧٣٤ وكان يعاصره صفى [٨] الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادى المتوفى سنة ٧٣٩ ودرس معه فى المستنصرية ، وممن درسوا فيها ابن العاقولى [٩] محمد بن محمد المتوفى سنة ٧٩٧ . وبجانب هذه المدرسة كان

---

(١) انظره فى تاريخ بغداد ١٠/٣٧١ وطبقات الحنابلة لابن أبى يعلى ٣٤٦ .

(٢) راجعه فى ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (طبعة المعهد الفرنسى بدمشق) ١/٢٠

(٣) انظره فى ابن رجب ١/١٤٣ والنجوم الزاهرة ٥/٢١٢

(٤) راجعه فى ابن رجب ١ / ١٥٤ وابن خلكان ٦ / ١٦٨ والشذرات ٤ / ٣٢ والعبر ٤ / ٢٥ ومرآة الجنان ٣ / ٢٠٢ .

(٥) انظره فى ابن رجب ١ / ١٧١ والنجوم الزاهرة ٥ / ٢١٩ .

(٦) راجعه فى ابن رجب ١ / ٢١٢ .

(٧) الدرر الكامنة ٥/٣ والشذرات ٦/١١١ .

(٨) ذكر ابن حجر فى الدرر الكامنة ٣/٣٢ أنه كان شيخ العراق على الإطلاق ، وعد له مصنفات كثيرة وقال : أخذ عنه عمر بن على معيد الحنابلة

(٩) انظره فى الشذرات ٦/٣٥١ والدرر الكامنة ٤/٣١٤ وراجع ابن حجر فى إنباء الغمر بأبناء العمر (طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة) ١ / ٥٠٤ حيث يقول إنه انتهت إليه رياسة المذهب الحنبلى ببغداد ، ويذكر له كتاب شرح المصابيح وأربعين حديثاً عن أربعين شخصاً .

كثير من الحنابلة يدرسون فى جامع المنصور وفى بعض مدارس بغداد المتفرقة .

وكان مذهب داود الظاهرى فى الفقه الذى تحدثنا عنه فى العصر العباسى الثانى لا يزال له أنصار فى القرنين الأولين من هذا العصر ، وهو مذهب كان ينكر القياس والرأى فى الفقه ، وتبعه كثيرون فى المائتين الرابعة والخامسة فى الأندلس ، إذ عمل هناك ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ على إذاعته ، وألف كتباً كثيرة لنصرته ، ونجد أحد تلاميذه وهو الحميدى[1] محمد بن فتوح المتوفى سنة ٤٩١ يستوطن بغداد منذ أواسط القرن الخامس وفيها أذاع كثيراً مما كان يحمله عن أستاذه ابن حزم . ولا نزال نسمع فى العراق وبغداد عن أتباع المذهب الظاهرى حتى أوائل القرن السابع الهجرى ، إذ نجد من معتنقيه أبا سليمان[2] الداودى الضرير المتوفى سنة ٦١٥ . وكان الطبرى مفسر القرآن العظيم قد اتخذ لنفسه مذهباً فقهيا يقوم على الاجتهاد ، ولكن مذهبه لم ينجح نجاح المذهب الظاهرى ، ومع ذلك نجد من أتباعه فى أواخر القرن الرابع الهجرى المعافى[3] بن زكريا النهروانى المتوفى سنة ٣٩٠ وهو من قضاة بغداد ، ويقول ابن خلكان فى ترجمته : إنه كان للطبرى أتباع وأخذ بمذهبه جماعة ، منهم المعافى المذكور . وعلى كل حال لم يعش هذا المذهب الفقهى طويلاً ، وعاش مدة أطول منه المذهب الظاهرى فى بغداد ، غير أننا لا نعود نسمع به بعد إنشاء المدرسة المستنصرية ، إذ كانت العناية فيها فقط بالمذاهب الفقهية الأربعة : مذاهب أبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل .

وكان الفقه الشيعى يقابل كل هذه المذاهب ، وكان هناك فقهان : فقه الزيدية وفقه الإمامية ، وكانت الكوفة مركز الفقه الأول فى القرن الرابع الهجرى ، وانقسم فقهاؤها إلى أربعة مذاهب على نحو ما يوضح ذلك كتاب الجامع[4] الكافى فى فقه الزيدية لأبى عبد الله محمد بن على الحسنى المتوفى سنة ٤٤٥ . ويبدو أن نشاط الفقه الزيدى هناك توقف منذ القرن الخامس ، إذَ استغرق الكوفةَ وبغداد المذهبُ الإمامى عند الشيعة ، وكأن نشاط الفقه الزيدى انسحب إلى اليمن : أما الفقه الإمامى فيأخذ فى النشاط طوال العصر ، منذ ألف الكلينى[5] الرازى محمد بن يعقوب كتابه الكافى فى علم الدين ، وقد توفى ببغداد

---

(١) انظره فى ابن خلكان ٢٨٢/٤ وتذكرة الحفاظ ١٧/٤ والمنتظم ٩٦/٩ والصلة لابن بشكوال (طبع القاهرة) ٥٣٠ والوافى ٣١٧/٤ .

(٢) راجعه فى طبقات القراء ٢٧٨/١ .

(٣) انظره فى ابن خلكان ٢٢١/٥ وما به من مراجع

(٤) انظر بروكلمان : تاريخ الأدب العربى (طبع دار المعارف) ٣٣٤/٣

(٥) راجعه فى الأنساب ٤٨٦ والرجال للنجاشى ٢٦٦ وروضات الجنات ٥٥٠ ولؤلؤة البحرين ليوسف البحرانى ٣١٤ وبروكلمان ٣٣٩/٣

سنة **٣٢٨** وكتابه أحد الكتب الأربعة الأساسية عند الشيعة الإمامية . وهو يتناول فيه عقيدة الإمامية وأسسها وبه أكثر من ستة عشر ألف حديث . وجاء بعده ابن [1] بابويه القمى نزيل بغداد الذى ذكرناه فى غير هذا الموضع وله كتاب من لا يحضره الفقيه فى تطبيق أحكام الفقه ، وهو من الكتب الأربعة الأساسية عند الشيعة الإمامية ، وهو مطبوع ، وللشيخ المفيد الرسالة المقنعة فى أسس التشريع ، وهى مطبوعة مع شرح لتلميذه الطوسى فى تبريز . وللطوسى كما مر بنا فى الحديث كتاب الاستبصار ، وهو كتاب فقهى ويعتمدون عليه اعتماداً كلياً فى استنباط الأحكام الشرعية ، وله أيضاً كتاب تهذيب الأحكام ، وهو أيضاً من المصادر الأربعة الأساسية عند الإمامية . وأحاديثه مرتبة على أبواب الفقه الأساسية . ومن كتبه فى الفقه « المبسوط » وهو مطبوع بإيران ، وكتاب النهاية فى مجرد الفقه والفتاوى ، وهو مطبوع ، وقد اتخذه الشيعة الإمامية محوراً لدراساتهم الفقهية منذ عصره ، وله فى العبادات كتاب مصباح المتهجد جعله فى عشرة أبواب ، وزاد عليه فى القرن الثامن المطهر الحلى المار ذكره بابا سماه الباب الحادى عشر ، جعله مكملاً له ، والكتاب مطبوع ومعه شرح للمقداد بن عبد الله الحلبى .

ومرَّ بنا فى العصر العباسى الثانى حديث مفصل عن الاعتزال وأئمته وانبثاق مذهب الأشعرى منه مع بيان وجوه الخلاف بينه وبين المعتزلة ووجوه الصلة بينه وبين أهل السنة ، وقد طار مذهبه فى هذا العصر كل مطار ، فكان الشافعية فى خراسان وبغداد وأكثر بلدان العالم الإسلامى يعتنقونه طوال العصر . وبالمثل اعتنقه المالكية حتى قيل إنهم أخص الفقهاء به . واعتنقه أكثر الحنفية فى بغداد ، أما فى خراسان فقد اعتنقت كثرتهم العقيدة الماتريدية لمحمد بن محمد الماتريدى السمرقندى المتوفى سنة **٣٣٣** وهو يقترب فى عقيدته اقتراباً شديداً من الأشعرى معاصره ، وكل ما يمكن أن يقال إنه أخذ بفكرة الاختيار فى خلق الناس لأفعالهم ، بينما كان الأشعرى يقول – كما مربنا فى كتاب العصر العباسى الثانى – إن أفعال الإنسان لله خلقاً وصنعاً وللإنسان كسباً وإرادة ، فهو يريدها والله يخلقها فيه . ولم يكن ذلك معارضة شديدة لمذهب الأشعرى فإن بعض الأشاعرة ممن جاءوا بعده أوشكوا أن يأخذوا برأى الماتريدى ، ومن المؤكد أن عقيدته سنية كعقيدة الأشعرى . ويروى السبكى أن فضلاء الحنابلة كانوا أشاعرة ، إلا من جنح منهم إلى تشبيه [2] أخذاً

---

(١) انظره عند النجاشى ٢٧٦ وفى لؤلؤة البحرين ٣٠٠ وروضات الجنات ٥٥٧ وبروكلمان ٣٤٣/٣ ومابه من مراجع

(٢) السبكى ٣٦٥/٣ – ٣٧٤ وما بعدها .

بظاهر القرآن . ومعنى ذلك أن مذهب الاعتزال أخذ يتضاءل خاصة بعد القرن الرابع الهجرى ، حقا نسمع من حين إلى حين ببعض المعتزلة مثل الزمخشرى ولكن كثرة الفقهاء والعلماء انضوت تحت راية الأشعرى . ومن كبار الأشعرية فى القرن الرابع أبو بكر الباقلانى [١] محمد بن الطيب البصرى المتوفى سنة ٤٠٣ يقول ابن خلكان : كان على مذهب أبى الحسن الأشعرى ومؤيدا اعتقاده وناصراً طريقته سكن بغداد وتولى بها القضاء وصنف التصانيف الكثيرة المشهورة فى علم الكلام ، انتهت إليه الرياسة فى مذهبه ، وكان كثير التطويل فى المناظرة والجدل قوى الحجة والبرهنة على آرائه [٢] . ومن مصنفاته فى عقيدته البيان والتمهيد فى الرد على الملحدين وأضرابهم ، وهو منشور ومثله كتابه الاستبصار ، وخالف الأشعرى فى مسائل ، منها ما ذهب إليه الأشعرى من أن الكافر لا تُسْبَغ عليه نعمة ، إذ كل ما يتقلب فيه استدراج ، وكان أبو حنيفة يذهب إلى أن النعمة تُسْبَغ عليه ووافقه الباقلانى [٣] . وكان الأشعرى كما مربنا آنفاً ينفى الاختيار عن أعمال الإنسان ويجعله كسباً ، بينما كان الماتريدى يجعله اختياراً ، ويفهم من كلام الباقلانى أنه يأخذ برأى الماتريدى أو يتقدم نحوه خطوة ، ويقول السبكى : «ولإمام الحرمين والغزالى فى ذلك مذهب يزيد على مذهب الباقلانى والأشعرى ويدنو كل الدنو من الاعتزال» أو بعبارة أدق من رأى الماتريدى [٤] . وعلى ضوء ما ذهب إليه أبو الحسن الأشعرى من أنه لابد من اقتران الأدلة العقلية بالأدلة السمعية من الكتاب والسنة كان الباقلانى ينكر على بعض الفقهاء الشافعية من الأشعرية قولهم بأنه : «يجب شكر المنعم عقلاً» [٥] إذ كان ينبغى أن يقولوا : يجب شكر المنعم عقلاً وشرعاً . ويكثر علماء العقيدة الأشعرية فى القرن الخامس وما بعده ، ويكفى أن نعد منهم أبا حامد الإسفراينى وإمام الحرمين الجوينى والقشيرى والغزالى ، وعدَّ منهم السبكى فى ترجمته للأشعرى خمس طبقات ، وكل طبقة تكتظ بأئمة العقيدة وأعلامها فى الوطن الإسلامى [٦] . وألف أهل السنة من الحنابلة كتباً كثيرة فى

---

(١) راجع فى ترجمة الباقلانى تاريخ بغداد ٣٧٩/٥ وابن خلكان ٢٦٩/٤ والأنساب للسمعانى ٦١ وتبيين كذب المفترى لابن عساكر ٢١٧ والمنتظم ٢٦٥/٧ والوافى ١٧٧/٣ والديباج المذهب لابن فرحون ٢٦٧ والشذرات ١٦٨/٣ وترجمة القاضى عياض له الملحقة بكتابه «التمهيد فى الرد على الملحدة المعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة» تحقيق الدكتور أبو ريدة (نشر دار الفكر العربى بالقاهرة)

(٢) مما كان يذهب إليه الباقلانى إثبات الجوهر الفرد والخلاء وأن العرض لا يقوم بالعرض (مقدمة ابن خلدون : فصل علم الكلام) وانظر فى بقية آراء الباقلانى الملل والنحل للشهرستانى : الفصل الخاص بالأشعرية .

(٣) السبكى ٣ / ٣٨٤ .

(٤) السبكى ٣٨٦/٣ وانظر الملل والنحل للشهرستانى (تحقيق محمد سيد كيلانى نشر مكتبة مصطفى الحلبى) ٩٧/١

(٥) السبكى ٢٠٢/٣

(٦) السبكى ٣٦٨/٣ ومابعدها

عقيدتهم السنية ، وهى منبثة فى تراجم فقهائهم مثل كتاب عمدة الأدلة لأبى الوفاء بن عقيل وله أيضاً كتاب الإرشاد فى أصول الدين والانتصار لأهل الحديث ونفى التشبيه ، ومرَّ بنا بين فقهاء الحنابلة ابن أبى يعلى الفراء ، وله إيضاح الأدلة فى الرد على الفرق الضالة المضلة ، وشرف الاتباع وسرف الابتداع .

وكان للشيعة مباحثهم فى العقيدة وعلم الكلام ، وكتبهم الأساسية التى يعدونها أصول عقيدتهم الإمامية هى – كما أسلفنا – كتاب الكافى فى علم الدين للكلينى وكتاب من لا يحضره الفقيه لابن بابويه القمى وكتابا الاستبصار وتهذيب الأحكام للطوسى .

٥

التاريخ

ظلت كتابة التاريخ ناشطة فى بغداد على نحو ما رأينا فى العصرين : العباسى الأول والعباسى الثانى ، وقد مضت تتناول التاريخ العام أو التاريخ الخاص أو تاريخ المدن أو تاريخ الرجال فى الحديث أو الأعيان عامة أو العلماء من كل صنف أو الشعراء أو الأدباء أو سير رجال بذاتهم . وكتب التاريخ العام منها ما هو ذيل على كتب سابقة ، ومنها ما هو مستقل ويشتهر فى أوائل العصر كتاب تجارب الأمم لابن مسكويه وهو تاريخ عام ، وسنقف عنده فى حديثنا فى الفصل الأخير من هذا القسم ويشتهر أبو[1] شجاع وزير الخليفة المقتدى المتوفى سنة ٤٨٨ بذيل له على هذا الكتاب وهو مطبوع . ويلقانا فى القرن السادس كتاب المنتظم فى تاريخ الأمم لابن[2] الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ وهو تاريخ عام يبتدئ بأول الخليقة حتى آخر أيام المستضىء بالله العباسى ، وهو مرتب على السنوات مثل الطبرى ، وعادة يذكر فى كل سنة أحداثها ثم مَنْ قضى نحبه فيها مرتبين على حروف الهجاء ، وهو يُعْنَى خاصة ببغداد وأخبارها ، مما يتيح لتصور تاريخها السياسى والاجتماعى تصوراً بيِّناً . وجاء بعده كتاب الكامل فى التاريخ لعز[3] الدين بن الأثير على

(١) انظره فى المنتظم ٩/٩٠ والخريدة قسم العراق ١/٧٧ والوافى ٣/٣ والسبكى ٤/١٣٦ وابن خلكان ٥/١٣٤ .

(٢) ترجم ابن الجوزى لنفسه فى سياق رسالة نصح فيها ابنه سماها : «لفتة الكبد إلى نصيحة الولد» وهى مطبوعة ، وانظر فيه ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب وابن خلكان ٣/١٤٠ والنجوم الزاهرة فى سنة ٥٩٧ والشذرات ٤/٣٢٩ وغير الذهبى ٤/٢٩٧ وكتابنا الترجمة الشخصية ص ٤٥ .

(٣) راجعه فى ابن خلكان ٣/٣٤٨ وغير الذهبى ٥/١٢٠ والشذرات ٥/١٣٧ والسبكى ٨/٢٩٩ والنجوم الزاهرة ٦/٢٨١ .

بن محمد المتوفى سنة ٦٣٠ وهو أنفس كتاب فى التاريخ الإسلامى حتى سنة ٦٢٨ وهو مرتب على السنوات ، وقدم له بتمهيد طويل عن تاريخ الفرس والروم وعرب الجاهلية ، وتحدث حديثاً مُسْهباً عن أيام العرب القديمة ووقائعهم قبل الإسلام . وجرَّده من السند ، ودعاه ذلك إلى أن يقرأ روايات الخبر الواحد فى تاريخ الطبرى ويقارن بينها ويستخلص الحقيقة التاريخية منها استخلاصاً رائعاً . ومضى بحسِّه التاريخى الدقيق يعرض أحداث التاريخ إلى منتهى الكتاب ، وبذلك أدَّى خدمة جليلة للتاريخ الإسلامى ، بل خدمة رائعة . وله كتاب تاريخ دولة أتابكة الموصل وهومطبوع. وخلفه سبط [1] ابن الجوزى المتوفى سنة ٦٥٤ صاحب كتاب «مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان» وهو كتاب ضخم كان يقع فى أربعين مجلداً ، واشتهر بذكره لمناكير الأخبار ، ويقول الذهبى إنه يترفض فى تاريخه وقد نشر منه بحيدر آباد قسمان من الجزء الثامن طُبعا بمطبعة دائرة المعارف العثمانية .

ومن كتب التاريخ العام تاريخ مختصر الدول لابن العبرى [2] المتوفى سنة ٦٨٥ كتبه بالسريانية ثم ترجمه إلى العربية وهو مطبوع بالمطبعة الكاثوليكية ببيروت . ومن هذه الكتب كتاب الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية لابن الطقطقى [3] المتوفى سنة ٧٠٩ وقد سماه الفخرى نسبة إلى لقبه ، جعل له مقدمة فى السياسة والسلطان ، ثم أخذ يتابع تاريخ الدولة الإسلامية حتى غزو التتار لبغداد ، ويعنى فيه عناية خاصة بوزراء كل خليفة وهو مطبوع مراراً .

وبجانب هذه الكتب التاريخية العامة نلتقى فى أواسط القرن الرابع الهجرى بكتاب التاجى فى تاريخ الدولة البويهية ، وقد بُنى على السجع ، وبذلك سنَّ مؤلفه أبو إسحق الصابئ المتوفى سنة ٣٨٤ لبعض المؤرخين سنة سيئة أن يهتموا بتنميق العبارات لا بالتحليل التاريخى كما صنع معاصره ابن مسكويه . ويصنف بعده العماد الأصبهانى كتاباً فى تاريخ السلاجقة يسميه نُصْرة الفطرة وسنترجم له فى مصر . ويعنى ابن الساعى المار ذكره المتوفى سنة ٦٧٤ بكتابة تاريخ الدولة العباسية ويؤلف فى ذلك تاريخاً جامعا ثم يجعل له ملخصاً باسم الجامع المختصر وقد نشر له الدكتور مصطفى جواد ببغداد الجزء التاسع من هذا الجامع المختصر ، ونشر له بدار المعارف بالقاهرة كتابه « نساء الخلفاء » ويمكن أن نلحق بهذه

---

(١) انظره فى ابن خلكان فى ترجمة جده ٣ / ١٤٢ والنجوم الزاهرة ٧ / ٣٩ والشذرات ٥ / ٢٦٦ والجواهر المضية ٢ / ٢٣٠ والفوائد البهية ٩٦ .

(٢) انظر فيه كتاباً مطبوعاً باسمه فى بيروت وبروكلمان ٦ / ١٤٩ .

(٣) انظر فيه العزاوى ١ / ٢٦٤ ودائرة المعارف الإسلامية وما بها مصادر.

الكتب الخاصة بالتاريخ السياسى كتاب الوزراء لهلال[1] بن المحسن الصابىء المتوفى سنة ٤٤٨ وقد طُبعت منه قطعة فى مجلد كبير خاصة بوزارة المقتدر ، وهى حافلة بالأخبار السياسية والأجتماعية والاقتصادية . وأيضاً يمكن أن نلحق بكتب التاريخ السياسى ترجمة بهاء[2] الدين ابن شداد لصلاح الدين بطل حِطِّين وقد سماها النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، وهو موصلى تعلم فى بغداد وعين معيداً بها فى المدرسة النظامية ، ثم تركها إلى نظامية الموصل ، والتحق بخدمة صلاح الدين ، وظل يتولى القضاء فى بعض مدن الشام حتى توفى سنة ٦٣٢ . وعلى غرار سيرته صنع بعض المؤرخين العراقيين سيرة للخليفة الناصر معاصر صلاح الدين .

وعُنى بعض المؤرخين بتاريخ المدن ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى السابق ذكره والمتوفى سنة ٤٦٣ تحفة نفيسة ، وقد جعل مقدمتها فى مجلد يشتمل على اسم بغداد وتاريخ بنائها وأحيائها الغربية والشرقية وقصورها ومساجدها وكل ما يتصل بها وأفرد بعد ذلك ثلاثة عشر جزءاً لكل من عاش فيها من الأعيان والعلماء والأدباء . كتاب لا نظير له بين كتب التاريخ الخاصة بالمدن . ولابن النجار[3] المؤرخ المتوفى سنة ٦٤٣ ذيل عليه فى ٣٠ مجلداً واختصره ابن الدمياطى باسم المستفاد من ذيل تاريخ بغداد وفى دار الكتب المصرية نسخة من هذا الذيل بخط مؤلفه . ويذكر ابن خلكان أن لابن[4] الدُّبَيْثى المتوفى سنة ٦٣٧ تاريخاً لمدينة واسط ، وأهم من ذلك أن له ذيلاً على تاريخ بغداد للسمعانى ترجم فيه للمتوفين ببغداد بعد سنة ٥٥٠ إلى أيامه . وللذهبى انتقاء من هذا الذيل باسم المختصر المحتاج إليه من تاريخ الحافظ ابن الدبيثى نشر منه الدكتور مصطفى جواد جزءين ببغداد . ولابن المستوفى المبارك بن أحمد المار ذكره بين شراح المتنبى تاريخ إربل .

وتلقانا كتب مختلفة للصحابة ورجال الحديث ، من أهمها أُسْد الغابة فى معرفة الصحابة لعز الدين بن الأثير الجزرى المار ذكره ، وهو معجم أبجدى لتراجمهم ، وهو مطبوع فى خمسة مجلدات . وله كتاب اللبـــاب مختصر كتاب الأنساب للسمعانى وهو مطبوع . وألف الدارقطنى كتاباً سماه «المختلف والمؤتلف» وقد جمع بينه الخطيب البغدادى

(١) راجعه فى تاريخ بغداد ١٤ / ٧٦ والمنتظم ١٧٦/٨ ومعجم الأدباء ٢٩٤/١٩ وابن خلكان ١٠١/٦ .

(٢) انظره فى ابن خلكان ٨٤/٧ وعبر الذهبى ١٣٢/٥ ومرآة الجنان ٨٢/٤ والشذرات ١٥٨/٥ والسبكى ٣٦٠/٨ .

(٣) راجعه فى تذكرة الحفاظ ٢١٢/٤ ومعجم الأدباء ٤٩/١٩ والشذرات ٢٢٦/٥ والسبكى ٩٨/٨ والفوات ٥٢٢/٢

(٤) انظره فى ابن خلكان ٣٩٤/٤ وعبر الذهبى ١٥٤/٥ والسبكى ٦١/٨ والوافى ١٠٢/٣ وطبقات القراء ١٤٥/٢ والشذرات ١٨٥/٥ ومرآة الجنان ٩٥/٤ .

وبين مشتبه النسبة لعبد الغنى بن سعيد ، وزاد عليهما وسمى كتابه «المؤتنف تكملة المختلف» . ثم جاء بعده أبو نصر بن ماكولا –كما مر بنا– وزاد على هذا الكتاب زيادات فى كتاب مستقل سماه الإكمال ، ومر بنا مديح ابن خلكان له وثناؤه عليه وأن ابن نقطة جعل له ذيلاً لم يقصِّر فيه . ولابن النجار كتب مختلفة فى الرجال ، منها : المؤتلف والمختلف ، والمتفق والمفترق فى نسبة المحدثين إلى الآباء والبلدان وكتاب جنَّة الناظرين فى معرفة التابعين . وللزين العراقى المتوفى سنة ٨٠٦ ذيل طويل على الذهبى فى الرجال .

وهناك كتب كثيرة وُضعت فى تراجم العلماء والأدباء من كل صنف . ومن الكتب الجامعة لكل فروع الحركة العلمية والأدبية والفلسفية والمأثورات المترجمة عن الهند والفرس واليونان كتاب الفهرست لابن النديم وسبق أن تحدثنا عنه فى غير هذا الموضع ، ونتحدث الآن عن كتب التراجم العلمية والأدبية ونبدأ بما وضع فى الفقهاء بعامة مثل كتاب أبى إسحق الشيرازى أول المدرسين فى نظامية بغداد المتوفى سنة ٤٧٦ وقد ضم فى كتابه إلى فقهاء المذاهب الأربعة فقهاء المذهب الظاهرى . وأول من وضع كتاباً فى طبقات الشافعية أبو حفص عمر المطوعى المتوفى سنة ٤٤٠ سماه «المُذْهب فى فقهاء المذهب» ، ووضع فيهم أبو النجيب السهروردى البغدادى المتوفى سنة ٦٣٢ مختصراً ، ثم ألف فيهم إسماعيل بن هبة الله بن سعيد بن باطيش [1] الموصلى المتوفى سنة ٦٥٥ وهو أحد مصادر السبكى فى طبقات الشافعية . واهتم الحنابلة بالكتابة فى تراجم فقهائهم ، من ذلك كتاب طبقات الحنابلة لابن أبى يعلى الفراء الذى مرَّ ذكره ، ووضع له ابن رجب [2] البغدادى ذيلاً طويلاً فى مجلدين ، وقد توفى سنة ٧٩٥ . وعُنى الشيعة بالكتابة فى رجالهم ، وكتاب الرجال للنجاشى أحمد بن على المتوفى سنة ٤٥٠ مشهور وهو مطبوع .

ووضع أحمد بن بختيار الواسطى المتوفى سنة ٥٥٢ كتاباً [3] فى القضاة . ومما وضع فى اللغويين والنحاة كتاب أخبار النحويين البصريين للسيرافى وكتاب نزهة الألباء لابن الأنبارى وهما منشوران . ومن كتب التراجم المبكرة كتاب صوان الحكمة لأبى سليمان المنطقى السجستانى المار ذكره وهو فى تاريخ الأطباء والفلاسفة وقد نُشر منتخب له فى طهران حققه الدكتور عبد الرحمن بدوى ، وهو موزع على قسمين : قسم خاص بفلاسفة اليونان وأطبائهم وقسم خاص بالمشتغلين بالفلسفة فى الإسلام ، وهو كتاب نفيس .

ووُضعت فى الشعر والشعراء كتب كثيرة منها كتاب المختلف والمؤتلف فى أسماء الشعراء

---

(١) انظره فى السبكى ١٣١/٨ والشذرات ٢٦٧/٥ والعبر ٢٢١/٥

(٢) راجعه فى الدرر لابن حجر ٤٢٨/٢

(٣) انظره فى معجم الأدباء ٢ /٢٣١ والسبكى ٦ /١٤

للآمدى المارّ ذكره ، وكتاب معجم الشعراء للمرزبانى معاصره صاحب كتاب الموشح ، وقد نشرت منه قطعة ، ووضع أبو المعالى [1] الحظيرى المتوفى سنة ٥٦٨ كتاباً فى الشعراء على غرار دمية القصر للباخرزى ويتيمة الدهر للثعالبى سماه زينة الدهر وعصرة أهل العصر فى ذكر لطائف الشعراء ، ووضع بعده العماد الأصبهانى دائرة معارف كبرى فى شعراء العالم العربى سماها خريدة القصر وجريدة العصر . ويشتهر ابن الجوزى بكتابه فى الصوفية « صفة الصفوة » وهو مطبوع فى أربع مجلدات وله كتاب فى الأذكياء وكتاب فى الظرفاء وكتاب فى أخبار المغفلين . ولياقوت الحموى البغدادى المار ذكره كتاب معجم الأدباء وهو مطبوع فى عشرين جزءاً ذكر فيه أخبار اللغويين والنحويين والقراء والمؤرخين والكتاب والمؤلفين ولابن الشعار [2] الموصلى المتوفى سنة ٦٥٤ كتاب فى شعراء القرن السابع سماه « عقود الجمان فى شعراء الزمان . ولابن الفُوَطىّ المار ذكره [3] المتوفى سنة ٧٢٣ كتاب الدرر الناصعة فى شعراء المائة السابعة ، وله معجم رتَّبه حسب الألقاب ، نشر منه مصطفى جواد الجزء الرابع الأقسام (١ — ٤) ونشر القاسمى فى لاهور الجزء الخامس . واشتهر ابن [4] خلكان الموصلى المتوفى سنة ٦٨١ بكتابه « وفيات الأعيان » وهو غاية فى الدقة والتحرى .

---

(١) راجعه فى معجم الأدباء ١١/١٩٤ وابن خلكان ٢/٣٦٦ وخريدة القصر (قسم العراق) ٤/١/٢٨ .

(٢) من كتابه مصورة بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية .

(٣) انظره فى تذكرة الحفاظ ٤ / ٢٧٤ والدرر الكامنة ٢ / ٤٧٤ .

(٤) انظر فى ابن خلكان العبر ٥ / ٣٣٤ وفوات الوفيات ١ / ١٠٠ والسبكى ٨/٣٣ والشذرات ٥/٣٧١ ومرآة الجنان ٤/١٩٣ والنجوم الزاهرة ٧/٣٥٣ والوافى بالوفيات ٧/٣٠٨ وحسن المحاضرة للسيوطى (طبعة محمد أبو الفضل إبراهيم) ١ / ٥٥٥ والدارس فى تاريخ المدارس للتميمى (طبع دمشق) ١ / ١٩١ وروضات الجنات ٨٧ وراجع ترجمته فى أول الجزء السابع من كتابه وفيات الأعيان .

الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

١

كثرة الشعراء

ظلت موجة الشعر التي مرت بنا فى العصرين العباسي الأول والثانى حادة طوال القرن الرابع الهجرى ، بل لعلها ازدادت حدة ، ويكفى للدلالة على ذلك أن يبزغ فى مستهله المتنبى وفى أواخره الشريف الرضى ومهيار ، غير شعراء كثيرين ، فتح لهم الثعالبى فى كتابة اليتيمة ثم فى تتمة اليتيمة الفصول تلو الفصول ، وقد بلغ عددهم فى العراق عنده أكثر من سبعين شاعراً مما يصور ازدهار الشعر حينئذ ، وهو ازدهار هيأت له عوامل مختلفة ، من رعاية الخلفاء وأمراء بنى بويه ولاتهم ووزرائهم للشعراء ، فقد أغدقوا عليهم المكافآت والجوائز ، وليس ذلك فحسب . فقد استقبلوهم فى مجالسهم وحولوها أو حولها بعضهم مثل عضد الدولة البويهى إلى نواد أدبية .

وربما كان الجيل الأول من البويهيين لا يحسن العربية ، فقد رُوى أن معزَّ الدولة أول حاكم منهم لبغداد حين دخلها احتاج إلى من يترجم له كلام الوزير على بن عيسى [١] ، غير أن الجيل التالى له أكبَّ على الثقافة العربية والتمرين على نظم الشعر ، حتى لنجد صاحب اليتيمة يسلك فى الشعراء ابنه بَخْتيار ، غير أمراء آخرين من بيته [٢] . وكان وزراء بنى بويه يتنافسون فى جذب الأدباء والشعراء إليهم ، حتى غدت مجالسهم نوادى شعرية حقيقية ، وأول من اشتهر بذلك من وزرائهم فى العراق المهلبى وزير معز الدولة ، وكان غيثا مدراراً للشعراء ، فأكبُّوا على مجالسه يمدحونه ، ويفيض كتاب اليتيمة بمدائحه . وكان لا يقل عنه رعاية للشعراء سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة بن عضد الدولة ، وقد عقد صاحب اليتيمة لمدَّاحه باباً مستقلا عَرَض فيه خمس عشرة مدحة لنابهيهم [٣] . وكان يرعى

---

(١) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى لآدم ميتز (طبعة القاهرة) ٢٨/١

(٢) اليتيمة ٢١٦/٢

(٣) اليتيمة ١٢٤/٣

الشعراء بجانب ذلك كثير من ذوى البيوتات ، وفى مقدمتهم الشريف الرضى ورعايته لمهيار مشهورة . ولابد أن نلاحظ أن الثعالبى فاته الوقوف عند بعض الشعراء ، فى عصر البويهيين مثل مُدْرِك بن محمد الشيبانى ، وهو بدوى قدم بغداد فى شبابه وتولى بها القضاء وتوفى سنة ٣٩٠ واشتهر بأرجوزة ماجنة نظمها فى غلام نصرانى فى نحو خمسين دوراً ذكر فيها شعائر الديانة المسيحية وطقوسها وحواريها ذكراً مفصلاً[١] ، ومثل أبى الحسن محمد بن عمر الأنبارى ، وكان صديقاً للوزير ابن بقية ، فلما صلبه عضد الدولة البويهى رثاه بمرثية رائعة . وتلقانا بعد اليتيمة وتتمتها موجه ثانية من الشعراء فى كتاب دمية القصر للباخرزى ، وقد توفى بعد الثعالبى بنحو ثلاثين عاماً سنة ٤٦٧ للهجرة ، مما جعلها يتواردان أحياناً فى الحديث عن بعض الشعراء . وفى الحق أن شعراء الدمية مخضرمون لحقوا عصر بنى بويه وامتد بهم الأجل فى عصر السلاجقة .

وبذلك كانت الدمية لا تصور تماماً الحركة الشعرية فى العصر السلجوقى ، لسبب طبيعى ، وهو أنها إنما ألمَّت بأوائله . ومرَّبنا فى الفصل الثانى ما دفع إليه وزير ألْب أرْسلان نظام الملك (٤٦٥ – ٤٨٥ هـ) من نهضة علمية وأدبية مباركة ، فقد فتح أبوابه للشعراء وأغدق عليهم نوالاً غمراً ، فجاءوه يمدحونه من كل أنحاء العراق ، وينشد الباخرزى فى مواضع كثيرة بعض مدائحه . وتلقانا بعد الباخرزى ثغرة أو فجوة نحو خمسين عاماً ، لو أن ذيل الدمية المسمى كتاب زينة الدهر وعُصْرة أهل العصر للحظيرى نُشر لسدَّ هذه الثغرة ، فإن الحظيرى توفى سنة ٥٦٧ وكان قد جمع طائفة كبيرة من شعراء أهل عصره وَمْن تقدمهم ، وذكر لكل شاعر طرفاً من أحواله وشيئاً من أشعاره . وحرى بنا أن نذكر صُرَّدُرّ (على بن الحسن) الشاعر المشهور ببغداد فى أواسط القرن الخامس ، وقد توفى سنة ٤٦٥ وله ترجمة فى ابن خلكان ، وبالمثل ابن السرَّاج البغدادى (جعفر بن أحمد) صاحب مصارع العشاق المتوفى سنة ٥٠٠ وله ترجمة فى ابن خلكان وغيره . وقد تلا الحظيرى مباشرة العماد الأصبهانى بكتابه الخريدة التى ترجم فيها لشعراء العالم العربى على طريقة الدمية واليتيمة ، غير أن ترجماته مستفيضة ، وهو ينقل فيها مراراً عن الحظيرى ، مما يدل على أنه يتلافى كثيرين ممن سقطوا فى الثغرة التى تحدثنا عنها آنفاً . والمنشور حتى الآن من قسم العراق فى الخريدة أربعة مجلدات ضخمة . وهى تتناول فى العراق ، كما فى الأقاليم الأخرى ، شعراء القرن السادس الهجرى حتى نحوسنة ٥٧٠ ، وقد تعرضت لبعض شعراء

---

(١) معجم الأدباء ١٣٥/١٩ وانظر تاريخ بغداد للخطيب ٢٧٣/١٢

القرن الخامس . والعماد فيها يجمع بين فترتين : فترة سلجوقية تبتدئ من القرن السادس حتى سنة ٥٥١ ثم فترة الخلافة العباسية إذ رُدَّ إلى الخلفاء صولجان الحكم منذ هذا التاريخ ، وانتهى بذلك عهد السلاجقة فى بغداد والعراق . والعماد يفتتح المجلد الأول من الخريدة بعرض تراجم للخلفاء العباسيين منذ القائم بأمر الله (٤٢٢ – ٤٦٧ هـ) حتى المستضىء بأمر الله (٥٦٦ – ٥٧٥ هـ) ومع كل خليفة ماله من أشعار . ثم يفتح باباً يذكر فيه محاسن الوزراء والكتاب منذ أواسط القرن الخامس حتى زمن المستضىء ، منشداً ما عرفه من أشعارهم ، وقد يذكر بعض ما قيل من مدائح ، ويُمْضى فى ذلك كله نحو مائتى صفحة من القطع الكبير من المجلد الأول ، ويترجم للشاعر المعروف باسم الحَيْص بَيْص ترجمة ضافية ، يَعْرِض فيها أشعاراً كثيرة من ديوانه مرتبة على الحروف فى نحو مائة وخمسين صحيفة ، ويُتْبِعه فى المجلد الثانى بالترجمة لستة وثلاثين شاعراً ، لعل أهمهم على بن أفلح وابن الهَبَّارية وابن جَلِّينا . ونلتقى فى المجلد الثالث بجماعة من أعمال سواد بغداد شرقاً وغرباً ، لعل أهمهم الحَظِيرى والَبنْدنيجى ، ثم يذكر جماعة من شعراء الحِلَّة والكوفة وهِيت والأنبار .

وقد عرضنا لشعراء الحلة عند العماد فى القسم الأول من هذا الكتاب فى تضاعيف حديثنا عن شعراء البدو ، وينتهى المجلد الثالث بالحديث عن شعراء واسط ، وربما كان أهمهم ابن السوادى ، وهو ماجن من طراز ابن سُكَّرة وابن حجاج . ويستمر المجلد الرابع فى عرض شعراء من واسط أهمهم ابن المعلم ، ثم يذكر طائفة من شعراء البصرة وأدبائها ، أهمهم الحريرى ويحيى بن سعيد بن مارى النصرانى ، وله ستون مقامة حاكى فيها الحريرى ولكنها دون مقاماته . ونظل بعد سنة ٥٧٠ دون مرشد هاد ، إلا ما اشتمل عليه كتابا معجم الأدباء لياقوت ووفيات الأعيان لابن خلكان من شعراء بغداد . مما يكاد يشغل المائة التالية للخريدة . ولو أن كتاب عقود الجمان فى شعراء هذا الزمان لابن الشعَّار الموصلى المتوفى سنة ٦٥٤ نُشر لسدَّ الفراغ الشاغر من شعراء النصف الأول من القرن السابع الهجرى فى العراق وغير العراق ، ولكنه لما ينشر . وفى معهد المخطوطات بالجامعة العربية مصوَّرة منه ، والأعلام فيه ليست مرتبة على الأقاليم والبلدان مثل الخريدة والدمية واليتيمة ، وإنما على حروف المعجم ، كترتيب المعاجم ، وهو كتاب نفيس . على كل حال يسدُّ ابن خلكان وياقوت وأيضاً فوات الوفيات هذه الثغرة التى تمتد حتى اكتساح التتار لبغداد سنة ٦٥٦ . ونستطيع أن نتعرَّف على بعض الشعراء النابهين فى تلك الحقبة مثل ابن التلميذ هبة الله بن صاعد المتوفى سنة ٥٦٠ وسبط ابن التعاويذى المتوفى سنة ٥٨٣ ولعل العماد الأصبهانى ترجم لهما فى المجلدين اللذين لما ينشرا من القسم العراقى بالخريدة ، ومثلهما الأبله الشاعر المتوفى سنة

٥٧٩ . وتلقانا فى النصف الأول من القرن السابع طائفة من الشعراء ، من أهمهم أبو حفص عمر السُّهْرَوَرْدِىّ البغدادى الصوفى والحاجرى المتوفيان سنة ٦٣٢ والصَّرْصَرِىّ وابن أبى الحديد المتوفيان سنة ٦٥٦ .

ويكتسح التتار بغداد والعراق ، ويجف كثير من ينابيع الفكر والحضارة والعلم والأدب ، ويظل للشعر شئ من نشاطه فى زمن المغول الإيلخانيين ، ويلقانا ابن رشيد البغدادى المتوفى سنة ٦٦٢ والشهاب التَّلَعْفرى والواعظ الكوفى البغدادى المتوفيان سنة ٦٧٥ . ونمضى إلى القرن الثامن ونلتقى بشعراء عراقيين مختلفين ترجم لهم ابن حجر فى الُدرر الكامنة ، ويظهر كوكب شعرى كبير وسط الدياجى التى أخذت تطبق على الحياة الأدبية فى العراق ونقصد صفى الدين الحِلِّىّ المتوفى سنة ٧٥٠ وهو خاتمة شعراء العراق العظام قبل العصر الحديث . وكان يعاصره محمد بن القاسم الملقب بالمليحى الواسطى المتوفى سنة ٧٤٤ وله ترجمة فى الدرر الكامنة ، ومثله على بن الثَّردة المتوفى سنة ٧٥٠ . ولا نكاد نلتقى بشاعر مهم فى زمن التركمان ، بين من ترجم لهم السخاوى فى كتابة « الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع » وبالمثل لا يلقانا شاعرٌ نابه فى زمن العثمانيين سواء فى دورة حكمهم الأولى أو فى دورة المماليك . وحقا يوجد بعض شعراء عراقيين فى كتب التراجم مثل « سلافة العصر فى محاسن الشعراء بكل مصر » لابن معصوم و « خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر » للمحبى وكتابة « نفحة الريحانة » ومثل « سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر » للمرادى . وممن لمع اسمه فى الدورتين المذكورتين شهاب الدين الموسوى المتوفى سنة ١٠٨٧ هـ / ١٦٧٦ م وديوانه مطبوع وشعره فيه متوسط . ومثله الشيخ محمد كاظم الأزرى المتوفى سنة ١٢١١ هـ / ١٧٩٦ م وقد طبع ديوانه فى بومباى . وقد يكون من الطريف أن نفرا من الشعراء كانوا يقدِّمون لدواوينهم [1] ، ولكن على كل حال كانوا جميعا نظامين أكثر منهم شعراء بالمعنى الحقيقى لكلمة شعراء .

٢

رُبَاعِيَّات وتعقيدات وموشحات

مرَّ بنا فى كتاب العصر العباسى الأول ما نهض به الشعراء من تجديد فى الأوزان وكيف أن هذا التجديد رافقه تجديد آخر فى القوافى [2] ، ولعل أول ما شاع من صوره اللونُ

(١) راجع تاريخ الأدب العربى فى العراق لعباس العزاوى (طبع بغداد) ٢/٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٣٠٣

(٢) انظر فى ألوان هذا التجديد كتاب العصر العباسى الأول (طبع دار المعارف) ص ١٩٦ ومابعدها .

المسمى بالمزدوج ، إذ استخدمه الوليد بن يزيد وأخذ استخدامه بعده يتّسع فى الشعر التعليمى منذ أبان بن عبد الحميد ، وتبعه الشعراء ينظمون فيه التاريخ والعلوم والفلسفة . وهو الذى سماه الفرس فيما بعد باسم المثنوى مختارين له وزناً معيناً وفيه تتحد القافية بين شطرى كل بيت مع تغيرها من بيت إلى بيت . وبذلك لم تعد الوحدة فيه البيت ، وإنما الشطر ، وأكبر الظن أن ذلك هو الذى ألهم الوشاحين فيما بعد أن تقوم الوحدة فى موشحاتهم على الشطر لا على البيت . وقد اتسع استخدام هذا اللون المزدوج فى هذا العصر : عصر الدول والإمارات ، إذ لم يترك العلماء علماً دون أن يودعوه فى أرجوزة مزدوجة ، وتموج المكتبات العربية بهذه المزدوجات فى كل علم وكل فن .

وقد ظهرت المسمطات منذ فواتح العصر العباسى الأول ، وهى قصائد تتألف من أدوار ، وكل دور يتألف من أربعة شطور أو أكثر ، وتتفق شطور كل دور فى قافيتها ما عدا الشطر الأخير فإنه ينفرد بقافية مغايرة يلتزمها الشاعر فى جميع الشطور الأخيرة من الأدوار . والمسمَّط مشتق من السِّمْط ، وهو قلادة تنتظم فيها عدةُ سلوك تلتقى عند جوهرة كبيرة ، وكأن كل دور فى المسمَّط الشعرى سلكٌ يلتقى مع الأدوار أو الأسلاك الشعرية الأخرى فى قافية الشطر الأخير . وقد مثّلنا فى كتاب العصر العباسى الأول بمسمَّطين لأبى نواس يتألف الدور فى أحدهما من أربعة شطور وفى الثانى من خمسة . وتظل المسمطات طوال عصر الدول والإمارات قائمة بجوار القصيدة ، وينظم الشعراء فيها من حين إلى حين إظهاراً للبراعة ، وعُنى كثير منهم أشد العناية بتصفية ألفاظه وخفتها على اللسان ورشاقتها على نحو ما نجد فى هذه الأدوار من مسمَّط (١) أنشده العماد الأصبهانى فى الخريدة لأبى المعالى بن مسلم :

يارِيمُ كم تجنِّى ؟ لِمْ قد صددتَ عنَّا صِلْ عاشقاً معنَّى
بالوَصْلِ ما تَهنَّا

السَّلْسَبِيلُ رِيقُ والشَّهْدُ والرَّحِيقُ والوَرْدُ والشَّقِيقُ
مِنْ وَجْنَتَيْهِ يُجْنَا

قد غيَّروا ولاموا من شَفَّه السَّقامُ ما ينفع الملامُ
مَنْ فى هواكَ جُنَّا

والدور فى هذا المسمط يتألف من أربعة شطور ، والرابع قطبها الذى تدور عليه ، ومثله المسمَّطات ذات الشطور الخمسة وتسمى المخمسات ، ومثلها ذات الشطور الستة

(١) انظر الخريدة (قسم العراق) ٢ / ٣٠٩

والسبعة وتيسمَّى المسدَّسات والمسبَّعات . وشاع فى الحقب المتأخرة تخميس بعض القصائد المشهورة مثل همزية البوصيرى وُبْردته

وتظهر الرُّباعيَّات مع المسمَّطات والشعر المزدوج ، وقد ذكرنا فى كتاب العصر العباسى الأول أنها بدأت مع بشار وحماد عجرد وأنها كثرت عند أبى نواس وأبى العتاهية ، وضربنا لها بعض الأمثلة ، والرباعية أربعة شطور من الشعر تؤلِّف بيتين ، ولأنها تتكوَّن من أربعة شطور سميت رُباعية ، وعادة يتحد الشطر الأول والثانى والرابع فى القافية ، أما الشطر الثالث فقد يتحد مع تلك الشطور فى قافيته وقد يختلف . وتلقانا هذه الرباعيات كثيراً فى اليتيمة والدمية والخريدة ، وفى كتب الأدب مثل معجم الأدباء ، ومرَّ بنا أنه ترجم لشاعر يسمى مدرك بن على الشيبانى ، وذكر له أرجوزة تشتمل على خمسين دوراً كل دور رباعية منفردة . وبذلك أعد نمط الرباعية من قديم لظهور الشعر الدورى فى العربية .

ولم يكن شعراء العصرين : العباسى الأول والثانى يَخُصُّون الرباعية بوزن معين ، بل كانوا ينظمونها فى جميع أوزان الشعر حتى إذا كان هذا العصر : عصر الدول والإمارات وجدنا الفرس يَشْرَكُونَ العرب فى استخدامها متخذين لها اسم « دوبيت » و « دو » عندهم اثنان . وأيضاً فإن الفرس والعرب جميعاً أخذوا يستخدمون فيها وزناً جديداً هو : « فَعْلُنْ مُتَفاعلن فَعُولُنْ فَعْلُنْ » وهو الذى ضبطه العروضيون ، وأهم منه وزن ثان هو « فَعْلُنْ فَعِلُنْ مستفعلن مستفعلن » . وتصور ذلك رسالتان[1] فريدتان فى عروض الدوبيت » نشرهما هلال ناجى ببغداد ، وهما لمالك بن المرحّل المتوفى سنة ٦٩٩ وأولاهما تُعْنَى بالوزن الأول للدوبيت ، والثانية تعنى بالوزن الثانى ، ومن أجل ذلك رجح هلال ناجى أن لا تكون الرسالة الثانية من صنع مالك . ويبدو أن الفرس فى القرن الخامس كانوا أكثر شغفاً بالرباعيات من العرب على نحو ما هو معروف عن الخيام فى رباعياته ، وتلقانا فى الخريدة رباعيات كثيرة ، ويترجم العماد فيها لشاعر من موظفى الخلافة العباسية وعمالها فى الستينيات من القرن السادس الهجرى ، يسمى أبا المحاسن[2] بن البوشَنْجى ، ويقول إنه كان لَهِجاً بنظم الرباعيات ، ويسوق له طائفة منها فى الغزليات والخمريات من مثل قوله متغزلاً :

ما أطيبَ ما زارَ بلا ميعادِ يَخْتَالُ كغُصْنِ بانةٍ ميَّادِ

---

(١) انظر الرسالتين فى العدد الرابع من المجلد الثالث من مجلة المورد ببغداد .

(٢) انظر ترجمته فى الخريدة ٢ / ٢٥٧ .

ماطَلَّ ، ولاَبَلَّ غَليلَ الصَّادِى حتى قَرُبَ البَيْنُ ونادى الحادِى

فصاحبته زارته دون موعد ، مختالة بجمالها كغصن متمايل ، ويقول إنها ماطلَّت وزارت ، ولاَبَلَّت غليله المتقد الظامئ للقاء ، حتى كان الفراق ونادى حادى الركب ، فجاءت تودعه من وقوف أو كما يقال : ما سلَّمت حتى ودَّعت . ومن رُباعياته الخمرية قوله :

رَقَّتْ وصَفَتْ واسْتَرقَتْ أَلْبَابَا راحٌ لَبِسَتْ من الصِّنا جِلْبابا

يا بَدْرُ أَدِرْ وعَدِّ عَمَّنْ يَابَى كأساً ، طُرِدَ الهمُّ بها فانْجابا

والرُّباعية فيها شيء من روح رباعيات الخيام وما فيها من دعوة إلى العكوف على شرب الخمر ، أو بعبارة أدق الفرار إليها من الهم والغم ، حتى تنتعش النفس ، كما يقول ، وتطرح عنها بؤس الحياة بما تَعُبُّ من دِنان الخمر وما تجد فى مجلسها من أنس وطرب . ويسوق صاحب رسالة الدوبيت الثانية تسع رباعيات قائلاً إنه مما أنشده أبو عبد الله محمد بن حامد الأصبهانى صاحب الخريدة ، ويستهلها بالرباعية التالية :

الوَرْدُ على خَدِّك مَنْ أَنْبَتَهُ والمسك على وَرْدك مَنْ فَتَّتَهُ

والقلب على نَأيك من ثَبَّتَهُ اجمعْ شَمْلاً هوَاكَ قد شَتَّتَهُ

وهى رباعية بديعة بما اشتملت عليه من تصوير يحمل غير قليل من المفاجأة ، حين يجعل صاحبها الخد ورداً حقيقيا ، ويعود فيجعله ناشراً لأريجٍ عطرٍ حوله ، وكأن مسكاً ذُرَّ عليه ونُثر ، ويعجب أن تنأى صاحبته وقلبه لا يزال فى صدره . وإن فؤاده ليتوزع فرقاً ، ويضرع لصاحبته أن تجمع شمله المشتت ، لعل صوابه يُرَدُّ إليه . ويسوق صاحب رسالة الدوبيت الثانية أيضاً طائفة من رباعيات أنشدها ابن الجوزى نَيَّفت على عشر ، وموضوعها غزل ولكنه غزل صوفى ، فقد كان ابن الجوزى من كبار الوعاظ وكان سنى التصوف ، ومما أنشده :

الحِبُّ يقولُ لا تُشِعْ أسرارى والدمع يسيلُ هاتكا أستارى

والشوق يزيد ،لا على المقدار وَاناريَ ! من هذا الهوى وَانارى

فحبيبه يطلب إليه أن يكتم حبه ، وهو لا يستطيع له كتماناً ، إذ دائماً يبكى طالباً الوصال ، ملحاً فى طلبه وفى بكائه ، والدموع تسيل مدراراً كسحب منهلة ، والشوق يلذعه ويكويه وهو يتوجع من نيرانه . إنه حب الذات العلية الذى يُضْنى ويسقم والمحب يتألم آلاماً لا يطيقها إلا الصابرون المولعون بوصال الذات الربانية . ومما أنشده

ابن الجوزى فى تلك الرباعيات :

ما أصنعُ ؟ هكذا جرى المقدورُ الجَبْرُ لغيرى وأنا المكسورُ
مأسورُ هوًى متيَّمٌ مهجورُ هل يمكن أن يغيَّر المسْطورُ

والرباعية تفيض بيأس محب مهجور ، يقول ما أصنع والحِجاب يقوم بيني وبين محبوبى ، هكذا جرى القلم ولا يسعه إلا أن يمتثل ويذعن ، وإنه ليأسى أسى عميقاً لنفسه ، فغيره يُجْبَرُ ويوصَلُ وهو يُحْرَمُ ويُبْعَدُ ويُكْسَرُ كزجاج مصدوع لا يُشْعَبُ ، وإنه لأسير هذا الهوى الذى يبرّح به والذى يتعثّر فى شباكه ، قدرٌ أزلى كُتب عليه ، لا مفرَّ منه ولا مهرب . وابن الجوزى توفِّى سنة ٥٩٧ وتوفى العماد فى نفس السنة ، وفى كثرة إنشادهما للرباعيات ما يدل على أنها قد شاعت فى عصرهما وانتشرت انتشاراً واسعاً . وهى تلقانا عند الحاجرى وغيره من شعراء القرن السابع . ويقول مالك بن المرحّل إنها تستعذب فى الغناء ، وأكبر الظن أنها لم تكن تستعذب فى الغناء فحسب بل كانت تستعذب أيضاً فى أناشيد المتصوفة بحلقات الذكر ، وقد جمع كامل الشيبى طائفة كبيرة منها على مر العصور ونشرها باسم ديوان الدوبيت .

وأخذ يعم منذ أوائل هذا العصر مذهب التصنع والتعقيد الذى صورناه بالتفصيل فى كتابنا « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » وقد أوضحنا كيف أن المحسنات البديعية فى مذهب التصنيع والتنميق السابق له كأنما أخذت تزايلها أو تفارقها بعض أصباغها عند العراقيين وغيرهم من شعراء العصر ، ومثلنا لذلك باستخدام المتنبى للطباق والاستعارة واستخدام غيره للجناس . وقد أولع الشعراء فى هذا العصر باللون الأخير ، وأخذوا يطلبون فيه صعوبات مختلفة ، ومن أخف صورها قول أبى الجوائز الواسطى (١) المتوفى سنة ٤٦٢ :

واحَزَنِى مِنْ قولِها خانَ عهودى ولَها
وحقِّ من صيَّرنى وَقْفاً عليها ولَها
ما خطرتْ بخاطرى إلا كسَتْنى وَلَها

ولها فى نهاية البيت الأول من اللهو ، وقد جانس بينها وبين الجار والمجرور فى نهاية البيت الثانى ثم جانس بينهما وبين كلمة « وله » أى شدة الوجد فى نهاية البيت الثالث . وقد يقبل هذا الجناس المعقد فى تلك الأبيات لخفته ، غير أننا لا نكاد نمضى بعد

(١) انظر فى أبى الجوائز ابن خلكان ١١١/٢ وتاريخ بغداد ٣٩٣/٧ والدمية ٣٤٢/١ والخريدة ٤/ ١/ ٣٤٣ والمنتظم ٢٥٨/٨ وميزان الاعتدال ٢٣٨/١ .

صاحبه حتى نلتقى بالحسن[١] بن أسد الفارق المتوفى سنة ٤٨٧ وكان يكثر من التجنيس ، كما لاحظ العماد الأصبهانى وياقوت ، وله قصيدة تجمع خمسة عشر بيتاً ، وكل بيت فيها مختوم بكلمة «عين» طلباً للجناس الكامل ، فهى تتوالى بمعنى عين الإنسان وبمعنى رقيب وبمعنى عين الماء إلى غير ذلك من معانيها . وهو تكلف شديد . ونظن ظنا أنه أحد من أشاعوا فكرة تكوُّن الجناس بين كلمة وكلمتين يؤديانها لفظاً فى مثل قوله :

تُرَاكَ يا متلفَ جسمى ويا مُكْثِرَ إعلالى وأمْرَاضِى
من بعد ما أضْنَيْتَنِى ساخطا علىَّ فى حبك أم راضى

وواضح أن كلمتى « أم راضى » فى البيت الثانى تقابلان أو تجانسان كلمة « أمراضى » فى البيت الأول . ويلاحظ أن مثل هذه الجناسات فى نهايات الأبيات لم تكن تحقق فكرة الجناس فحسب ، بل كانت تحقق أيضاً فكرة لزوم ما لا يلزم فى القوافى إذ تصبح القافية أكثر من حرف أو روى ، ولذلك يقول العماد إنه كان يلتزم مالا يلزم فى قوافيه . وفى الحق أن أبا العلاء هو الذى فتح فى لزومياته لمثل هذه الكلف فى الجناس على نحو ما يوضح ذلك كتابنا « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » وكان يطلبه أحياناً بين أول كلمة أو كلمتين فى البيت وآخر كلمة ، مما جعل الحريرى يستلهم صنيعه فى المقامة الحلبية قائلاً :

سِمْ سِمَةً تَحْسُنُ آثارُها واشكُرْ لمن أعطى ولو سِمْسِمَةْ
والمكرُ مهما اسطعْتَ لا تأتِهِ لتقتنى السُّؤْدُدَ والمكرُمَةْ

والجناس واضح بين أول البيتين وآخرهما وهو فى البيت الثانى جانس بين اللفظة الأولى وجزء من تاليها وبين اللفظة الأخيرة . وكل ذلك تصعيب وتعقيد فى التماس الجناس . ويخلف الحريرى يحيى بن سلامة الحَصْكَفِى نزيل ميَّافارِقين المتوفى سنة **٥٥٣** فنراه ينظم بعض قصائد قاصداً بها إلى التجنيس منها قصيدة بناها على التجنيس الناقص افتتحها بقوله[٢] :

أَطِعِ الهوى فالعقلُ خازٍ خازمُ والجهلُ يُغْرِى وهْو هازٍ هازمُ

وخاز : قاهر . وهاز : ساخر . ويمضى فى القصيدة مجانساً بين كلمتين متواليتين على هذه الصورة المتكلفة وكأنه لم تعد هناك حاجة وجدانية لنظم الشعر ، إذ حلت محلها

---

(١) راجع فى الحسن بن أسد الفارق الخريدة (قسم الشام) ٢/٤١٦ ومعجم الأدباء ٨/٥٤ وإنباه الرواة ١ / ٢٩٤ وشذرات الذهب ٣ / ٣٨ وفوات الوفيات ١ / ٢٢٩ .

(٢) الخريدة (قسم الشام) ٢ / ٥٠٨ .

حاجة إلى التعقيد فى الشعر وتصعيب ممراته التى يسلكها الشاعر إلى صناعته .

وإذا رجعنا إلى البديعيات منذ بديعية صفى الدين الحلى وجدنا الشعراء دائماً يعقّدون فيها ، وقد يضيفون ألواناً جديدة ولكن ينقصها الحسن والرونق والبهاء . وقد أكثروا من الاقتباس ، وحَسَنٌ أن يقتبس الشاعر بعض ألفاظ القرآن الكريم والحديث الشريف فإنها تلذ النفس ، غير أن الشعراء أكثروا من اقتباس أشعار الأسلاف يضمنونها قصائدهم ، مما يعطل الحركة الوجدانية فى أشعارهم ، وبلغ من تكلفهم فى هذا اللون أن نجد شاعراً يسمى الشيخ أحمد النجفى الحِلِّىّ المتوفى سنة ١١٨٣ هـ/١٧٦٩ م يضمن إحدى مدائحه شطوراً من ألفية ابن مالك المشهورة فى النحو ، فله شطر ولابن مالك شطر[١] .

ودفع المتنبى الشعراء منذ أوائل هذا العصر إلى التصنع للثقافات المختلفة ، وقد أوضحنا ذلك فى كتابنا « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » فصورنا تصنعه لبعض مصطلحات التصوف وسمات العبارة الصوفية وللأفكار والصيغ الفلسفية ولألفاظ اللغة الغريبة وبعض اشتقاقاتها النادرة وأساليبها النحوية الكوفية الشاذة . وتبعه أبو العلاء يكثر فى لزومياته من التصنع لألفاظ العلوم اللغوية والإسلامية . ومضى الشعراء فى العراق وغير العراق بعد الشاعرين الكبيرين يلتمسون أحياناً التجديد فى الأساليب بما يُطْوَى فيها من مصطلحات علمية . وكل ذلك كان تعقيداً وقيوداً ، حتى يصعِّب الشعراء عملهم ، وحتى يظهروا مهارتهم فى السلوك إليه من أضيق الممرات والدروب .

وأخذت تظهر سريعاً صور من التمارين الهندسية فى الشعر ، وكأن الشاعرية لم تعد تقاس بالأثر الوجدانى الذى يحدثه الكلام فى نفوس الناس ، بل غدت تقاس بما يمكن أن يستحدثه الشاعر من عُقَد ، وربما كان الحريرى أهم من فتح هذه الأبواب ، إذ نراه فى مقاماته لا يزال يغرب بأفانين لفظية كثيرة ، فمن ذلك أن تُقْرَأَ الأبيات طَرْداً وعكساً كما جاء فى المقامة المغربية من مثل قوله :

اسْلُ جنابَ غاشمٍ مشاغبٍ إن جلسا

فإن البيت يُقْرأ من آخره كما يقرأ من أوله دون أى اختلاف فى لفظ أو حرف ، ومن الغريب أن من جاءوا ابعده جعلوا ذلك لوناً من المحسنات البديعية وسموه « ما لا يستحيل بالانعكاس » . وتمرين هندسى ثان عرضه فى المقامة الشعرية ، وهى أبيات التزم فى داخلها قافية غير قافيتها الخارجية على هذه الصورة :

يا خاطبَ الدنيا الدنيَّة إنها شَرَكُ الرَّدَى وقرارةُ الأكْدار

---

(١) عباس العزاوى ٢/٢٧٣

دارٌ متى ما أضحكتْ في يومها   أبكتْ غدًا بُعْداً لها من دارِ

فإننا إذ اوقفنا عند الكلمة الدالية فى الشطر الثانى أصبح البيتان من مجزوء الكامل على هذا النحو :

يا خاطب الدنيا الَّدنِيَّـ   ـةَ إنها شَرَكُ الرَّدَى
دارٌ متى ما أضحكتْ   فى يومها أبكتْ غدا

وبجانب هذا التمرين الهندسى الذى لا يضيف معنى نجده فى مقامته التى سماها بالرَّقطاء يبتكر تمريناً أحد حروف كلماته منقوط وتاليه غير منقوط من مثل قوله :

مخلفٌ متلفٌ أغرُّ فريدٌ   نابهٌ فاضلٌ ذكىٌّ أنوفُ

ويتلو هذا التمرين بتمرين مماثل فى نفس المقامة ، وكرر ذلك فى المقامتين المرويَّة والبكرية . ونراه فى المقامة الحلبية يبتدع تمرينا شعرياً من طراز خَطِّىٍّ آخر ، هو طراز الحروف الخالية من النقط فى مثل قوله :

أعْدِدْ لحسَّادِك حَدَّ السِّلاحْ   وأوردِ الآمل وِرْدَ السَّماحْ

ولا يكتفى بهذا التمرين ، بل يضيف إليه تمريناً شعرياً خَطِّيًّا ثانياً ، كل كلماته مؤلفة من حروف معجمة أو منقوطة من مثل قوله :

فَتَنَتْنِى فجنَّنَتْنِى (تَجَنِّى)   بتَجَنٍّ يفتَنُّ غِبَّ تَجَنِّى

وكأن هذين التمرينين الهندسيين فى تلك المقامة لم يُقنعاه ، أو كأنه أحسَّ أنه من الممكن محاكاتهما فجاء بتمرين خطى ثالث ، لا يتعلق هذه المرة بالنقط وعدمه ، بل يتعلق بشكل الحروف ، إذ يظن من ينظر إلى كلماتها نظرة سريعة أنها متماثلة مثل :

زُيِّنَتْ زَيْنَبُ بِقَدٍّ يَقُدُّ   وتلاه - وَيْلاه - نَهْدٌ يَهُدُّ

وواضح أن بين كل لفظين متواليين تجنيسا خطيًّا واضحا . وكل ذلك ليس شعراً وإنما هو تمارين أو لُعَبٌ هندسية[1] ، غير أنهم كانوا يعجبون بها ، ولذلك نرى الشعراء - وخاصة المتأخرين - ينظمون منها كثيراً . ومن تتمة هذه التمارين الهندسية فى العصر كثرة الألغاز والأحاجى فى الشعر وقد خصوها بالتأليف اهتماماً بها ، من ذلك كتاب الإعجاز فى الأحاجى والألغاز للحظيرى وعنه ينقل العماد فى الخريدة[2] ، ولا يلبث أن يترجم لشاعر شُغف بها هو الحكيم[3] النيلى الطبيب ، ويذكر له طائفة من

---

(١) من هذه اللعب ماروواه العماد من قصائد أولها تاء وآخرها تاء أو أولها جيم وآخرها جيم أو أولها دال وآخرها دال انظر الخريدة (قسم العراق) ٧٤٩/٢/٤ وقسم الشام ٥٤٦/٢

(٢) الخريدة (قسم العراق) ٤٧٥/٢/٤

(٣) نفس المصدر ص ٤٩٨ ومابعدها

ألغازه الشعرية فى العقل والرمّانة وكيزان الفَخّار والنّاى وفيه يقول :

له رأسٌ يخالف منه جِسْماً   بلا رِجْلٍ فقِسْ فيما تقيسُ
يئنُّ أنينَ صَبٍّ مستهامٍ   مشوقٍ قد نأى عنه أنيسُ
وليس بذى صَبابات فيَهْوَى   ولكنَّ الهوى فيه حَبيسُ

غير ألغاز أخرى ذكرها العماد ، وألغازه طريفة ، غير أن من جاء وابعده حشدوا فيها شعراً رديئاً معقداً . وقد أكثر الشعراء فى الحقب المتأخرة من التواريخ فى الشعر ، إذ يحسبون بيتاً أو نصف بيت بحساب الجمَّل مؤرخين للسنة التى نظموا فيها قصائدهم أو لسنة العُرْس الذى هنَّأوا به أو للسنة التى وُلد فيها غلام إلى غير ذلك مما لا يفيد معنى . ومع ذلك فقد كان هناك شعراء مجيدون دائماً ، كانوا أعلاماً نابهين ، وسنفرد لهم بعض الصحف التالية .

ومن أهم ما تمتاز به أقاليمنا فى العصور الوسطى أنه كانت تسود بينها فى الأدب وفى العلم وحدة ، جعلت كل شاعر نابه فى إقليم كأنه شاعر البلاد العربية جميعها ، كما جعلت كل لون جديد يظهر فى إقليم لا يلبث أن تنظم فيه الأقاليم الأخرى ، ومن خير الأمثلة الدالة على ذلك الموشحات ، إذ نجدها تظهر فى الأندلس ويضع لها قوانينها فى القرن السادس شاعر مصرى هو ابن سناء الملك ، ونراها على ألسنة الشعراء فى الشام والعراق وغيرهما من البلدان العربية ، ومن أمثلتها فى الخريدة موشحة [1] لشاعر موصلى هو التاج البلطى المتوفى سنة ٥٩٩ . ويلقانا فى القرن السابع وشاح عراقى كبير ترجم له ابن تغرى بردى فى المنهل الصافى باسم شهاب الدين الموصلى [2] أحمد بن الحسن صاحب الموشحات ، وكان يستخدمها فى المديح وغير المديح ، وينشد ابن تغرى بردى موشحة له عارض بها موشحة للقاضى الفاضل عبد الرحيم ، تجرى على هذا النحو :

لى مَنْ حَوَى الحسنَ كُلَّه   وفاق غِيدَ الأكِلَّهْ [3]
بَــدْرُ تمامٍ مصَـــوَّر   ما فيه نَقْصُ الأهلَّهْ

فشَعرُه لليالى   وفَرْقُهُ للصباحْ
وجَفْنُهُ للنِّصالِ   وقَدُّهُ للرِّماح
وريقُه للزُّلالِ   وثَغْرُهُ للأقاحْ

---

(١) الخريدة (قسم الشام) ٣٨٩/٢

(٢) انظر ترجمته فى المنهل الصافى لابن تغرى بردى (طبع دار الكتب المصرية) ٢٥١/١

(٣) الأكلة هنا : جمع كلة وهى الستر أولعلها جمع إكليل وهى عصابة تزدان بالجواهر

وقد بدأ موشحته بالقفل وتلاه بالدور ، ثم تتابعت الأقفال والأدوار ، وكان يعرف كيف ينتخب كلماته عذبة رشيقة ، كما كان يعرف أنه لكى تتكامل رشاقة الموشح يحسن أن تكون الشطور فى الأدوار قصيرة وأن يَسْرى فيها صفاء موسيقى بديع . وأنشد له ابن تَغْرى بردى موشحة يعارض بها موشحة مظَفّر الأعمى المصرى :

كَلِّلى   يا سُحْبُ تِيجانَ الرُّبَى بالحُلى

وظن بعض الأسلاف أن هذا الموشح لابن سناء الملك ، لروعة موسيقاه ، وهو ظن مخطىء وكان مظفر يعاصره تقريباً ، فقد توفى بعده بنحو خمس عشرة سنة . وتمضى موشحة الموصلى فى هذه الصورة :

جَلِّلى   ياراحُ كأسى ولها كَلِّلى
بالحُلى   سِوارَها ثم لها خَلْخِلى
من غُرَرْ   حَبابِك المنظوم مثل الدُّرّ
بالخَمَرْ   كأنه الياقوتُ فوق الجَمْرِ
والزَّهَرْ   فى الرَّوْضِ أمثالُ النجومِ الزُّهْرِ

ومهارته واضحة فى انتخاب الألفاظ والملاءمة بينها فى الجَرْس والنغمة ، وبحق يصف ابن تَغْرى بردى موشحاته بأنها بديعة وأنها ذات نظم رائق . ويقول إن له موشحات كثيرة . وربما كان أهم الوشاحين العراقيين بعده صفى الدين الحلى ، ونلتقى فى ديوانه باثنتى عشرة موشحة منها ست فى مديح الملوك والأمراء وخمس فى الغزل وموشحة صوفية . ومع أنه أجمل صوت يلقانا بعد القرن السابع فإنه يهبط فى موشحاته درجة أو درجات عن الموصلى وربما كان أخف مطلع لموشحاته قوله فى فاتحة موشحة عارض بها أبا بكر بن بقى الأندلسى المشهور فى موشحة بديعة له :

صاحبَ السيفِ الصقيلِ المحلَّى   جَرِّدِ اللَّحْظَ وأَلْقِ السِّلاحا
لك ياربَّ العيونِ   القواتــــلْ
ما كفى عن حمل سيفٍ   وذابِـــل [1]
أعيُنٌ تبـــدو لديها   المقـــاتــــل
ما سرى فى جَفْنها الحسنُ إلا   أوثقتْ منا قلوباً جِراحا

وربما كانت المعارضة هى التى جعلته يتفوق فى هذه المرشحة ، كما جعلته يصفِّى لفظه تصفية شديدة بحيث أصبح يشبه الماء العذب السلسبيل ، وخاصة فى هذا المطلع البديع .

---

(١) الذابل : الرمح

٣

شعراء المديح*

لا نبالغ إذا قلنا إن كل من نلقاهم من عشرات الشعراء – إلا مَنْ ندر – عند أصحاب اليتيمة والدمية والخريدة ومن جاءوا بعدهم كانوا شعراء مديح ، وينبغى أن لا نقلل من أهميتهم وأهمية شعرهم ذاهبين مع مَنْ يذهبون إلى أن هذا الشعر كان فى مجموعه نفاقاً وملقاً ، وهى فكرة مخطئة ، فقد ظهر العرب على مسرح التاريخ منذ العصر الجاهلى وهم يتغنون بمديح شيوخهم وأبطالهم راسمين فيهم الأمجاد الحربية لقبائلهم ومثاليتهم الخلقية الكريمة ، مُذْكين بذلك الحماسة فى نفوس الشباب . وبذلك كان الشعر ديوان مفاخرهم أو بعبارة أدق كان المديح هو هذا الديوان ، وأيضاً كان ديوان مثلهم الخلقية من الجود وعزة النفس والكرامة . وانضمت إلى ذلك إشعاعات إسلامية منذ ظهر الدين الحنيف ، إذ مضى شعراء المديح حين يمدحون خليفة أو والياً يتحدَّثون عن العدل أو العدالة التى لا تصلح حياة الناس بدونها ، كما يتحدثون عن تقواهم وصدورهم فى الحكم عن روح الإسلام وتعاليمه . ولم يتركوا معركة بينهم وبين أعدائهم من الأجانب إلا سجَّلوا مجدنا الحربى فيها ليدفعوا الشباب إلى سَلِّ السيوف وقطع رقاب الأعداء ومحقهم محقا . وبذلك كله كان المديح طوال العصور السابقة لهذا العصر صحيفة تربية ، يجد فيها الشباب القدوة الحسنة فى العمل المجيد وفى الخلق الحميد . وظلت لها هذه الغاية طوال عصر الدول والإمارات ، فالشعراء يصوِّرون فيها رجال الأمة العربية وكل ما يتحلَّون به من خصال رفيعة وكل ما يحققونه لدولهم وإماراتهم من أعمال حربية ، وكأنهم يريدون أن يرفعوهم نُصْبَ عيون الشباب شعارات تعبِّر عن آمال الأمة التى حققوها والأخرى التى تأمل منهم أن يحققوها ، مما جعلهم أحياناً يبالغون فى تصويرهم كأنما يريدون أن يحملوهم على النهج الصحيح الذى تريده الأمة ، ولذلك يكثر أن لا يكتفوا بتصويرهم فى صورهم الحقيقية ، بل يصوروهم كما تريد لهم ومنهم الأمة أو الإمارة .

وأول موجة تلقانا من شعراء المديح فى العصر شعراء اليتيمة وتتمتها الذين عاصروا الدولة البويهية ، وفى الحق أن البويهيين ووزراءهم – كما مرَّ بنا – بعثوا فى هذا العصر نهضة شعرية قوية ، بما أسبغوا على الشعراء من عطايا وما فتحوا لهم من مجالسهم ، ولن نستطيع أن نعرضهم جميعاً ، غير أننا سنقف قليلاً عند ثلاثة من أفذاذهم ، هم أبو الحسن محمد

بن عبد الله السَّلامى وأبو الفرج عبد الواحد بن نصر المعروف باسم البَبَّغاء وأبو نصر عبد العزيز بن محمد بن نُباتة المعروف باسم ابن نباتة السعدى . والثلاثة من مداح سيف الدولة بحلب وحكام العراق جميعاً . وقد ولد السَّلامى بكَرْخ بغداد [١] وتوفى سنة **٣٩٣** وله مديح رائع فى عضد الدولة البويهى يقول فيه من قصيدة طويلة :

إليك طَوَى عَرْضَ البَسيطة جاعلٌ ... قُصَارى المطايا أن يلوح لها القَصْرُ
فكنت وعزمى فى الظلام وصارمى ... ثلاثةَ أشباهٍ كما اجتمع النَّسْرُ
وبشَّرتُ آمالى بمَلْكٍ هو الوَرى ... ودارٍ هى الدنيا ويومٍ هو الدهرُ

وأبو الفرج البَبَّغاء [٢] من نَصيبين فى الموصل ، توفى سنة **٣٩٨** وذكر له الثعالبى طائفة من أشعاره كان يُتَغَنَّى بها فى عصره ، وله مدائح مختلفة فى سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة البويهى ، ومن مدحه لسعيد الدولة بن سيف الدولة بن حمدان :

لا غَيْثُ نُعْماهُ فى الوَرَى خُلَّبُ الـ ... ـبَرْق ولا وِرْدُ جُودهِ وَشَلُ [٣]
جاد إلى أن لم يُبق نائلُهُ ... مالاً ولم يَبْقَ للوَرَى أملُ

وابنُ نباتة السَّعْدى [٤] من شعراء بغداد وأفرادهم المبدعين ، توفى سنة **٤٠٥** وهو من مدَّاح عضد الدولة ، وله فيه قصائد مختلفة يصف فى إحداها نار السَّذق ، وكان عيدا مشهورا للنار عند الفرس فى الإسلام كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع . وله فى سيف الدولة قصائد بديعة ، منها قصيدة فى وصف فرس أغر محجل أهداه إليه . وفيها يقول :

يختالُ منه على أغرَّ محجَّلٍ ... ماءُ الدياجى قَطْرَةٌ من مائهِ
فكأنما لَطَمَ الصباحُ جبينَهُ ... فاقتصَّ منه فخاضَ فى أحْشائهِ

وهو تعليل بديع لبياض الغُرَّة والساقين معاً ، وكنى عن شدة سواده كناية رائعة إذ جعل الدياجى قطرة من سواده ، وله فى سيف الدولة بيته المشهور :

لم يُبْق جودُك لى شيئاً أؤمِّلُهُ ... تركتَنى أصحبُ الدنيا بلا أمَلِ

وكان يحذو حذو المتنبى فى كثرة الفخر والحماسة والشكوى من الدهر والزمن ، وايضاً كان يحاكيه فى نثر الحكم بشعره من مثل قوله :

---

(١) انظر فى ترجمة السلامى اليتيمة ٢/٣٩٥ . ١٢٤/٣ وابن خلكان ٤/٤٠٣ وتاريخ بغداد ٢/٣٣٥ والمنتظم ٧/٢٢٥ والوافى ٣/٣١٧

(٢) راجع فى ترجمة البغاء اليتيمة ١/٢٣٦ وتاريخ بغداد ١١/١١ والمنتظم ٧/٢٤١ والشذرات ٣/١٥٢ وابن خلكان ٣/١٩٩

(٣) وشل : ضحل

(٤) انظر فى ترجمة ابن نباتة السعدى اليتيمة ٢/٣٧٩ وتاريخ بغداد ١٠/٤٦٦ وابن خلكان ٣/١٩٠ وعبر الذهبى ٣/٩١ والشذرات ٣/١٧٥ .

ومَنْ لم يمتْ بالسيفِ ماتَ بغيرِهِ   تنوَّعتِ الأسبابُ والموتُ واحِدُ

وسنعرض لشاعرين كبيرين من شعراء العصر البويهى بين شعراء التشيع هما الشريف الرضى ومهيار . ولايلقانا فى الدمية شاعر كبير ولعل من الغريب أنها لم تترجم لأكبر شعراء القرن الخامس : على [1] بن الحسن الرئيس أبى منصور المشهور بلقبه صُرَّدُرّ المتوفى سنة ٤٦٥ وديوانه مطبوع بدار الكتب المصرية ، ويقول ابن خلكان : جمع شعره بين جودة السبك وحسن المعنى ، وعليه طلاوة رائعة وبهجة فائقة . وديوانه يموج بالمدائح البديعة ، ومن قوله فى الخليفة القائم :

كأنَّ رسولَ الله أَلْقَى رداءَه   من « القائم » الهادى على جَبَلٍ راسى
زمانُ الوَرَى فى ظلِّهِ وجَنَابِهِ   كأيام تشريقٍ وليلاتِ أعراسِ
هو المصطفى التَّقْوَىَ متاعاً لنفسهِ   بجوهرها حالٍ بِسُنْدسها كاسِ
من الخلفـاء الرافعين بناءهم   بأطول أعْمارٍ وأثبتِ آساسِ

وواضح أن لغته رصينة وصوره بديعة ، وقد جعل زمان الناس فى أيام القائم أعراسا وأيام تشريق وهى أيام عيد الأضحى بعد يوم النحر ، فأيامه أعياد وأعراس وأفراح لما أشاع فيها من عدل وأمن . وله فى فخر الدولة محمد بن محمد بن جهير حين تولى الوزارة سنة ٤٥٥ قصيدة من مشاهير القصائد كما يقول ابن خلكان فى ترجمة ابن جهير ، وسننشد بعض غزلها فى حديثنا عن شعراء الغزل ، وفيها يقول له :

أعدتَ إلى جسْم الوزارة رُوحَهُ   وما كان يُرْجَى بَعْثُها ونُشُورها

وهى قصيدة بديعة ، ولايقل عنها إبداعا قصيدة ثانية للشاعر مدح بها ابن جهير حين أعاده الخليفة القائم إلى الوزارة سنة ٤٦١ بعد عزله ، وفيها يقول :

قد رجع الحقُّ إلى نِصابهِ   وأنت من كل الوَرَى أولى بهِ
ماكنتَ إلا السيفَ سَلَّتْه يَدٌ   ثم أعـــادتْه إلى قِـرَابـهِ
أكرمْ بها وزارةً ما سلَّمتْ   ما استُودِعَتْ إلا إلى أربابهِ
مشوقةً إليك مـذ فارقَتَها   شوقَ أخى الشيبِ إلى شبابه

وقراب السيف : غمده . والقصيدة كأختها رائعة . ويموج كتاب الخريدة بشعراء كثيرين ومدائحهم ، نذكر من بينهم الحَيْصَ [2] بَيْصَ أبا الفوارس سعد بن محمد التميمى

---

(١) انظر فى صرَّدُرّ المنتظم ٢٨١/٨ وابن خلكان ٣٨٥/٣ ، ١٢٩/٥ وعبر الذهبى ٢٥٩/٣ والشذرات ٣٢٢/٣ والنجوم الزاهرة ٩٤/٥ .

(٢) راجع ترجمة الحيص بيص فى الخريدة (قسم العراق) ٢٠٢/١ ومعجم الأدباء ١٩٩/١١ والمنتظم ٢٨٨/١٠ وابن خلكان ٣٦٢/٢ وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة (طبع مكتبة الحياة ببيروت) ، ص ٣٨٠ والسبكى ٩١/٧ وقد نشر ديوانه ببغداد.

المتوفى ببغداد سنة ٥٧٤ عُرف باسم الحَيْص بَيْص لأنه رأى الناس يوما فى حركة شديدة فقال : ما للناس فى حَيْص بَيْص ، فلصقت به الكلمة لقبا له ، وهو يشغل فى المجلد الأول من القسم العراقى فى الخريدة نحو مائة وستين صحيفة ، استهلها العماد بأنه من سلالة أكثم ابن صيفى الحكيم الجاهلى ، وذكر أنه قرأ عليه ديوانه واقتطف قطعة من خطبته للديوان يفضل فيها الشعر على النثر ، وقطعة أخرى يتحدث فيها عن اشتغاله فى أول شبابه بالفقه ومسائل الخلاف فيه ، ثم اتجه إلى الشعر فبرع فى نظمه . ويستعرض العماد ديوانه على ترتيب الحروف فى الافتخار والمديح ، ويذكر له ثلاثة أبيات هنأ بها الخليفة المستضىء بأمر الله حين اعتلى عرش الخلافة سنة ٥٦٦ تجرى على هذا النمط :

سألنا الله أن نُعْطَى إماما　　نَعِيش به فأعطانا نَجِيًّا
بَلَغْنا فوق ما كنا نرجِّى　　هنيًّا يا بنى الدنيا هَنِيًّا
وقد كُشف الظلامُ بمستضىءٍ　　غَدَا بالناس كلِّهم حَفِيًّا

وسُرَّ المستضىء حين سمع منه ذلك فأعطاه ثلاثمائة دينار وخلعة ودارا ، وأقطعه ضيعة كبيرة . ولعل فى ذلك مايدل على أن سوق المديح ظلت رائجة طوال أزمنة الخلافة العباسية ببغداد . وخلف المستضئ الناصر (٥٧٥ – ٦٢٢ هـ) فعمل على رواج سوق المديح بكل ماوسعه ، حتى لقد أنشأ له ديوانا خاصا وسمى الشعراء المدونة أسماؤهم فيه باسم شعراء الديوان [١] ، وأكبر الظن أنه كان يُجْرى عليهم رواتب ، وكانت لهم مواسم كثيرة يلقون فيها الشعر حين يتولىَّ خليفة وحين يُقْبل عيد أو يُولَدُ ولد أو يُخْتَنُ ، وكذلك حين يسترد الخليفة صحته من مرض ألَمَّ به . وبالمثل كان للوزراء وذوى البيوتات شعراؤهم ، وشاعر الناصر الفذ سِبْط ابن التَّعاويذى ، وسنترجم له . ويقال إن محيى الدين بن الجوزى كان ينظم فى كل أسبوع قصيدة يمدح بها الناصر [٢] ، فما بالنا بغيره من شعراء الديوان الذين كانوا يلتمسون المناسبات لنظم مدائحهم . ومنذ احتدمت الحروب بين صلاح الدين والصليبيين وأخذت انتصاراته تتوالى أخذ كثيرون من شعراء العراق ينظمون مدائحهم فيه ، من مثل العلم الشاتانى [٣] الموصلى المتوفى سنة ٥٧٩ وله فيه مدحة استهلها بقوله :

---

(١) انظر نساء الخلفاء لابن الساعى تحقيق د. مصطفى جواد (طبع دار المعارف) ص ٩ وراجع الجامع المختصر لابن الساعى (طبع بغداد) ٩/٦٩ ، ١٥٣ ، والوافى ٢/١٠١ و٤/٣٧٩ .

(٢) ذيل مرآة الزمان لليونينى (طبع حيدر آباد) ١/٣٣٧

(٣) انظر فى ترجمة الشاتانى الخريدة (قسم الشام) ٢/٣٦١ وابن خلكان ٢/١١٣ وتهذيب ابن عساكر ٤/١٧٧ والسبكى ٧/٦١

أرى النَّصْرَ معقوداً برايتك الصَّفْرا فسِرْ وافتحِ الدنيا فأنت بها أحْرَى

ونوّه صاحب النجوم الزاهرة بابن الشِّحْنة الموصلى أبى حفص عمر بن محمد لمدحة قافيةٍ له فى صلاح الدين (١) . ومن مداحه بالموصل أيضا ابن الدهان (٢) أبوالفرج عبد الله ابن أسعد المتوفى سنة ٥٨١ ، وقد نشر ديوانه ببغداد أخيرا ، وقصد مصر زمن الوزير الفاطمى طلائع بن رُزِّيك وأنشده فى مديحه قصيدة كافية بديعة ، ويقال : بل أرسلها إليه فكافأه عليها بجائزة سَنِيَّة وفى تخلصه بها من الغزل إلى المديح يقول :

لانلتُ وصلكِ إن كان الذى زعموا ولاسَقَى ظَمِئى جودُ ابنِ رُزِّيكا
القاتلُ الألف يلقاهم فَيغْلبهم والواهبُ الألف تلقاه فيُغْنيكا

ونمضى فى القرن السابع الهجرى ، فتلتقى براجح (٣) الحِلِّى المتوفى سنة ٦٢٧ وتهنئةٍ أنشدها الكامل سلطان مصر حين استخلص دمياط من الصليبيين سنة ٦١٨ وردَّهم مدحورين إلى البحر المتوسط وما وراءه ، وكان قد عاونه فى دَحْرهم أخواه المعظم عيسى والأشرف موسى ، وإلى ذلك يشير راجح فى قصيدته مستخدماً للتورية إذ يقول :

تهلَّل وَجْهُ الدهر بعد قُطوبهِ وأصبح وَجْهُ الشِّرْك بالظلم أسودَا
أعُبَّادَ عيسى إنَّ عيسى وحِزْبَه وموسى جميعا يَخْدمون محمدَا

وواضح أنه قصد إلى التورية حين جعل المعظم عيسى والأشرف موسى يقفان فى خدمة أخيهما الكامل محمد ، وهى تورية بديعة . ويتوفَّى الخليفة الناصر ، ويخلفه ابنه الظاهر لنحو سنة ، ويتوفى ، فيخلفه ابنه المستنصر (٦٢٣ – ٦٤٠ هـ) ومن أهم شعرائه ابن أبى الحديد المتوفى سنة ٦٥٦ وقد نظم فيه مجموعة من المدائح طبعت باسم المستنصريات ، وسنعرض له بين شعراء الشيعة ، ومن شعرائه أيضا مجد الدين النشابى (٤) أسعد بن إبراهيم الإربلى المتوفى سنة ٦٥٧ وكان يكثر من مديحه بمثل قوله :

وَرِثَ النبوةَ طاهراً عن طاهرٍ إرْثاً ينزَّهُ عن مقالة مُفْتَرِى
وإذا رأى الراءون نُورَ جلالهِ لم تَلْقَ غير مهلِّلٍ ومُكبِّر

---

(١) النجوم الزاهرة ٥٨/٦

(٢) راجع ترجمته فى الخريدة (قسم الشام) ٢٧٩/٢ وابن خلكان ٥٧/٣ والسبكى ١٢٠/٧ وتهذيب ابن عساكر ٢٩٢/٧ والشذرات ٢٧٠/٤

(٣) انظر ترجمة راجح وشعره فى ابن خلكان ٧/٤ والنجوم الزاهرة ٦ / ٢٤٢ ، ٢٧٣ وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبى ١ / ٣١٨ والشذرات ٥ / ١٢٣ .

(٤) راجعه فى فوات الوفيات ١ / ١٧ وقد روى له مواليا وانظره فى ذيل مرآة الزمان ١١١/١ – ١٢٣ وتلخيص مجمع الآداب لابن الفوطى (طبعة الهند) ٥ / ١٠٢ .

ويكثر مثل هذا الغلو فى المديح منذ أوائل العصر ، وأكبر الظن أنه من أصداء مدائح الشيعة لأئمتهم وما أحاطوهم به من هالة قدسية ومن مبالغات مفرطة . وطبعاً أُلْغى ديوان الشعراء بعد الغزو التتارى وركدت سوق الشعر . ونمضى فى القرن السابع فنلتقى بفخر الدين مظفر بن الطَّرَّاح المتوفى سنة ٦٩٤ وله مدائح كثيرة فى علاء الدين عطا ملك الجوينى صاحب ديوان بغداد [١] . وكان يعاصره ابن نعيم الحلى ، وله ديوان [٢] سماه « شرف المزية فى المدائح العزِّية » مدح به صدر الحِلَّة عز الدين أبا محمد حسن بن الحسين الأسدى الحلى ، ويكفى القرن الثامن فخرا ظهور صفى الدين الحلى فيه . ومر بنا فى فواتح الفصل اسم شهاب الدين الموسوى فى العصر العثمانى الأول واسم محمد كاظم الأزرى فى العهد العثمانى الأوسط أو عهد المماليك ، ولهما ديوانان يطفحان بالمديح ، ولعل من الخير أن نخص بالحديث كبار شعراء المديح فى العصر : المتنبى ، وسبط ابن التعاويذى ، وصفى الدين الحلى .

المتنبى [٣]

هو أبو الطيب أحمد بن الحسين من عشيرة جُعْفىّ المذحجية اليمنية ، ولد سنة ٣٠٣ بحى كِنْدة فى الكوفة ، ولذلك قد يقال له الكندى . أما أمه فكانت هَمْدانية ، فهو يمنى أبا وأما . وذكر بعض خصومه وهجَّائيه أن أباه كان سَقّاء ، وأضاف بعضهم أن اسمه

---

(١) العزاوى ١ / ٣١٦ .

(٢) العزاوى ١ / ٣١٧ .

(٣) انظر فى ترجمة المتنبى اليتيمة للثعالبى ١/١١٠ وتاريخ بغداد ١٠٢/٢ ونزهة الألبا لابن الأنبارى (طبعة دار نهضة مصر) تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم ص ٢٩٤ والأنساب للسمعانى ورقة ٥٠٦ ووفيات الأعيان ١٢٠/١ . وألفت قديما كتب كثيرة حول شعره ، منها الموضحة للحاتمى (نشر د . محمد يوسف نجم ببيروت) والرسالة الحاتمية فيما وافق فيه المتنبى كلام أرسطو ورسالة الكشف عن مساوئ المتنبى للصاحب ابن عباد والواضح فى مشكلات شعر المتنبى للاصفهانى (طبع تونس) والفتح الوهبى على مشكلات المتنبى لابن جنى تحقيق د . محسن غياض (طبع بغداد) والفتح على فتح أبى الفتح لابن فورجه تحقيق د . محسن غياض (طبع بغداد) والوساطة بين المتنبى وخصومه لعلى بن عبد العزيز الجرجانى (طبع دار إحياء الكتب بالقاهرة) والصبح المنبى فى الكشف عن حيثية المتنبى للبديعى (طبع دار المعارف) وذكرى أبى الطيب للدكتور عبد الوهاب عزام ومع المتنبى لطه حسن والمتنبى لمحمود محمد شاكر وكتابنا الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (الطبعة العاشرة) ص ٣٠٣ وكتابنا فصول فى الشعر ونقده : ماكتب فيه بعنوان العروبة فى شعر المتنبى وكتاب بلاشير عن أبى الطيب المتنبى . ويذكر ابن خلكان أنه وقف حتى عصره على أكثر من أربعين شرحاً لديوانه ، وأهم شروحه المطبوعة شرح ابن جنى وبينه وبين المتنبى مراجعات كثيرة وشرحه نفيس ، ومن شروحه شرح العكبرى وشرح الواحدى وهما مطبوعان . وشرحه أبو العلاء بشرح مطول سماه معجز أحمد ، يقصد ديوانه .

« عَبْدان » . ولم يُعِر ابن خلكان هذه الدعوى اهتماما ، وهى دعوى ملفقة كيدا للشاعر الفذّ وحَسَداً . وكل شىء فى سيرة الشاعر يؤكد بطلانها ، فقد ذكروا أن أباه ألحقه بكتّاب أبناء الأشراف ، ويَبْعُدُ أن ينتظم فى سلك هؤلاء الأبناء وأبوه سَقَّاء يحمل الماء لأهل الحى القاطن به . وقد تفتحت موهبته الشعرية مبكِّرة ، وهو فى نحو الثامنة من عمره ، واتفق أن قال له بعض رفاقه من الصِّبْية : ما أحسن وَفْرتك وشَعْرك ، وفوجئ الصَّبىُّ بردِّه :

لاتَحْسُنُ الوَفْرَةُ حتى تُرَى منشورةَ الضَّفْرَيْنِ يوم القِتالْ
على فتىً مُعْتَقِلٍ صَعْدَةً يُعِلُّها من كل وافى السِّبال

فالوفرة — أو الشعر المجتمع على الرأس — لايحسن منظره إلا يوم القتال حين تشعَّث ذوائبه على رأس فتى باسل يَعْتَقل صعدة أو رمحا يُعِلُّها أو يرويها من دماء الرجال ، فتى لا يبرح ميادين النضال والقتال . وفى ذلك ما يدل على أنه كان يستشعر منذ نعومة أظفاره نفسا كبيرة بين جنبيه ، نفسا ستعيش للفتوة والإقدام ، ولن يجذبها أى جمال حسى أو متاع مادى فى الحياة ، مما جعله ينصرف عن الخمر بل ينهى عن احتسائها ، أما ما قيل من حبه لُعْبة الشطرنج فلأنها تمثل مواقع الحرب والعِراك . وما يكاد الفتى يبلغ التاسعة من عمره ، حتى يغزو القرامطة الكوفة ويسفكوا الدماء ويَسْبوا النساء ، ويفرُّ الناس منها جزعا وفزعا ، و يفر به أبوه إلى بادية السماوة بين العراق والشام و يظل المتنبى نحو عامين أو ثلاثة يتردد فى القبائل ويتغذّى بلغتها ، وتتغذّى فتوته الجاثمة بين ضلوعه . ويعود إلى الكوفة فى مستهل سنته الثانية عشرة ، ولا ندرى هل كان أبوه لايزال حيا أو أنه توفِّى قبيل عودته أو بعد عودته بقليل ، ونظن ظنا أن أمه فارقت الحياة قبل أبيه ، بل لعلها فارقتها وهو لا يزال رضيعا . وإنما يحملنا على ذلك أننا لا نجد لأمه ولا لأبيه ذكرا فى ديوانه ، بينما نجده يرثى جدته وهو فى نحو الثلاثين من عمره رثاء حارا قائلاً :

ولو لم تكونى بنتَ أكرمِ والدٍ لكان أباكِ الضَّخْمَ كَوْنُكِ لى أُمَّا

وفى تسميته لها بأنها أمه ما قد يشهد بوفاة أمه فى باكورة حياته وأن جدته هى التى قامت على تربيته . وحاول بعض المعاصرين أن يُلْقِى شيئا من ظلال الشك على نسبه ، لأنه لم يذكر فى شعره أباه ولا أمه مما قد يؤكد أنه كان يشعر بشعور الضعة من ناحية أسرته وأهله الأدنين ، وجعله ذلك يبغض الناس . والنتيجة ومقدمتها غير صحيحتين ، فإن كثيرا من شعراء العرب لم يذكروا فى أشعارهم آباءهم ولا أمهاتهم ، وليس فى ذلك أى دليل على

أن أسرهم كانت وضيعة ، بل إننا نجد سيد بنى عامر وفارسهم فى الجاهلية عامر ابن الطفيل يقول :

وما سوَّدتْنى عامرٌ عن وِراثةٍ أَبَى اللهُ أن أسمو بِأُمٍّ ولا أبِ

فهو يفخر بأن سيادته لقومه ليست وراثة عن آبائه ، مع أنهم كانوا سادة بنى عامر فعلا ، ويريد أن يقول إنه ساد بنى عامر ببأسه وأعماله المجيدة ، بالضبط كما قال المتنبى :

لا بقومى شَرُفْتُ بل شَرُفوا بى وبنفسى فخرتُ لا بجدودى
وبهم فخرُ كلِّ من نطق الضَّا دَ وعَوْذُ الجانى وَغَوْثُ الطَّريدِ

على أن المتنبى يعود فيفخر بقومه ، أما عامر فيطلق فخره بنفسه إطلاقا . ولعل فى ذلك ما يدل على أن كل ما رتبه بعض المعاصرين على هذين البيتين للمتنبى وما حاولوا أن يسوقوا من شك فى نسبه غير صحيح . ومن المؤكد الذى لا يرقى إليه شك أن المتنبى كان عربيا صميما وأن العرب لم ينبت بينهم شاعر قبله ولا بعده استشعر العروبة استشعاره حتى لو أردنا أن نقيم للعروبة والعرب تمثالا لكان المتنبى هو الشاعر الخليق بأن يقام له هذا التمثال ، وقد لبس درعاً ، وشدَّ فى وسطه منطقة وسيفاً ، وفى إحدى يديه رمح مصوَّب وفى الأخرى ريشة الشاعر ، وهو يمتطى حصانا وكأنه يطلب القتال والنزال . فهو هذا التمثال الذى يرمز أروع رمز إلى العرب واستصغارهم لذوى الحكم والسلطان وصياحهم فى وجوه أعدائهم ، وإنه ليصيح بكل قوته هادرا عاصفا ، يريد أن يوقظ مَنْ حوله من العرب ويستنقذهم مما تورطوا فيه من هوان وتواكل واستسلام لحكامهم العاتين ، ومن أجل ذلك يصور نقائصهم بمثل قوله :

ودهرٌ ناسُه ناسٌ صِغارٌ وإن كانتْ لهم جُثَثٌ ضِخامُ

وليس ذلك عن بغض للناس كما قال بعض المعاصرين وإنما محاولة صارمة لتخليصهم من أخلاقهم الذميمة التى جعلتهم يخنعون لحكامهم الأعاجم الذين كانوا يرهقونهم من أمرهم عُسْرا .

وستتضح شخصية المتنبى حين نتابعه فى حياته ، وقد رأيناه يخرج إلى البادية فى سن التاسعة ويعود فى الثانية عشرة من سِنِّه ، ويُكبُّ على كل ماكان فى الكوفة من ثقافات ، فإذا هويلتهم كتب اللغة التهاما ويلتهم أيضا كتب النحو . ويتعرف على كتب الفلسفة عن طريق ممدوح كوفى له يسمى أبا الفضل وعن طريقه يتعرف على التصوف . وبكل ما قدمنا نستطيع أن نعرف العناصر التى أسهمت فى تكوين شخصيته ، فهو عربى لحما ودما ، وتستأثر

به العروبة إلى أقصى حد حتى لتجعله لسانها الناطق بها طوال حياته . وهو قد تغذى بلبان البادية ، وأفادته صقلا فى لغته ووقوفا على الغريب والشواذ اللغوية ، كما أفادته صقلا فى فتوته وإحساسه بعروبته ، ثم هو قد ثقف كل أنواع الثقافات فى عصره . واقترض منها فى شعره صيغا من النحو الكوفى الشاذ ومن الغرائب اللغويةومن الأفكار والألفاظ والعبارات الفلسفية ، ومن مصطلحات التصوف وشارات عباراته . وكل ذلك فصّلنا الحديث عنه فى كتابنا « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » .

وكان أبواه قد توفيا ، وأكثر القرامطة من غاراتهم على الكوفة فى سنوات ٣١٥ و ٣١٦ و ٣١٩ فرأى الفتى أن يبرح مسقط رأسه إلى بغداد ، ومدح بها أحد العلويين ومتصوفاً يسمى هرون بن على الأوراجىّ ، ولا نراه يمدح خليفتها ولا حاكمها الأعجمى ولا أحداً من ذوى السلطان ، وكأنما وقف حائلاً بينه وبينهم ما رآه بأم عينه من فساد الحكم وتسلط الحكام الأعاجم على العرب ، ويتألم لما أصابهم من ذل وهوان ، ويُفْعَم صدره بمشاعر العروبة ، وتثور نفسه ثورة عاصفة ويصيح من أعماقه :

إلى أى حينٍ أنت فى زى مُحْرِمٍ ... وحتى متى فى شِقْوَةٍ وإلى كَمِ ؟
وإلا تَمُتْ تحت السيوف مكـــرَّماً ... تَمُتْ وتُقاسِ الذلَّ غيرَ مكـــرَّمِ
فَثِبْ واثقاً فى الله وثبةَ ماجدٍ ... يَرَى الموتَ فى الهَيْجَا جَنَى النَّحْلِ فى الفَمِ

وهو يستحثُّ نفسه والعرب من حوله أن يخلعوا زِىَّ المحرمين بالحج ، يريد زِىَّ الاستسلام إزاء حكام بغداد الأعاجم الفاسدين ، ويلبسوا مكانه دروع الحرب لمنازلتهم منازلة لا تُبقى منهم ولا تَذَرُ . وييئس ممن حوله أن يثوروا معه ضد الفساد والظلم والطغيان ويولِّى وجهه نحو بوادى الشام وحواضرها ويمدح شيوخ البدو وبعض رعاة الأدب فى طرابلس واللاذقية ، وهو لا يكفّ عن المجاهرة بالثورة على الحكام الأعاجم الجائرين الذين لا يرعون للعرب حُرْمة ولا عهدا ولا ذمة ، ويصيح فى قومه :

وإنما الناسُ بالملوك وما ... تُفْلِحُ عُرْبٌ ملوكُها عَجَمُ
لا أدبٌ عندهم ولا حَسَبٌ ... ولا عــهودٌ لهم ولا ذِمَــمُ

وهو يقول إنه لن يكتب للعرب فلاح طالما كانوا مستذَلِّين للحكام الأعاجم راضخين لسلطانهم مع ما يسومونهم به من العَسْف والقهر . ويمضى فى دعوته وثورته فى بوادى الشام من اللاذقية إلى بعلبك ، ويحسُّ فى أهل « نخلة » بالقرب من بعلبك تواكلا وتخاذلا وأنهم لا يسارعون معه إلى الثأر لكرامتهم المهدَرة ، فيستثيرهم بقصيدة ملتهبة يقول فيها :

ما مُقامى بأرض نَخْلَةَ إلا كمُقام المسيح بين اليهودِ
عِشْ عزيزا أَوْ مُت وأنت كريمٌ بين طَعْنِ القَنا وخَفْقِ البنودِ
واطلبِ العِزَّ فى لَظىً ودَعِ الذُ لَّ ولو كان فى جنان الخلودِ
أنا تِرْبُ النَّدا وربُّ القوافى وسِهامُ العِدا وغيظُ الحسودِ
أنا فى أمةٍ تداركها اللّـ ـهُ غريبٌ كصالحٍ فى ثَمُودِ

وكان تشبيهه لنفسه فى القصيدة بالمسيح وبالنبى صالح سببا فى أن يتهمه بعض معاصريه بادعائه النبوة ، وبالغوا فزعموا أنه ادَّعى لنفسه قرآنا ذكروا بعض فِقَرٍ منه ، وكل ذلك غير صحيح ، فقد كانت ثورته سياسية قومية لا دينية ولا قرمطية كما توهم بعض الباحثين . أما لقبه المتنبى فهو الذى لقب نفسه به ، أو لعل بعض المعجبين بشعره هم الذين لقبوه به ، رمزا لعبقريته الشعرية وأنه يأتى فى أشعاره بالمعجز الذى ليس له سابقة . وهو يضع فى البيتين الثانى والثالث دستور العرب على مَرِّ التاريخ فإما العيش العزيز وإما الموت الكريم فى ساحة الشرف والنضال ، ولا حياة بدون العزة والكرامة . وإن العربى الحرَّ ليفضِّل العز فى الجحيم على الذل فى الفراديس . ويترك قرية نَخْلة إلى بادية اللاذقية ويتبعه كثيرون لأواخر سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة ، ويقود ثورة ضارية ، وكان لا يزال فى العشرين من عمره . ويقضى لؤلؤ والى حمص من قِبل الإخشيد على ثورته ويزجّ به فى غياهب السجن . ويظل به نحو سنتين ، وتُرَدُّ إليه حريته ، ويعود إلى توقيع أشعاره على قيثارته فى مديح ولاة البلدان الشامية ، وخاصة بدر بن عمار الأسدى صاحب دمشق من قبل بغداد ، ووجد فيه المتنبى أمنيته فى فارس عربى ، فمدحه ونوَّه بفروسيته فى تصويره الرائع لفتكه بأسد ، مستهلا له بقوله :

أمُعَفِّرَ اللَّيْثِ الهِزَبْرِ بِسَوْطِهِ لمنِ ادَّخَرْتَ الصَّارِمَ المَصْقولا

يقول له إنك صرعت الأسد بسوطك فلمن أبقيت سيفك ، ومضى يشيد ببأسه ومضائه . وظل لا ينسى دعوته إلى الثورة مستنهضا هِمم قومه ضد حكامهم الأعاجم بمثل قوله :

لا يُعْجِبَنَّ مَضِيماً حُسْنُ بِزَّتِهِ وهل يروقُ دفيناً جودةُ الكفَنِ

وقوله :

ذَلَّ مَنْ يَغْبِطُ الذَّليلَ بِعَيْشٍ رُبَّ عيشٍ أخفُّ منه الحِمامُ
مَنْ يَهُنْ يَسْهُلِ الهوانُ عليهِ ما لجُـرْحٍ بميِّتٍ إيلامُ

وفى أواخر هذا الاضطراب بين ولاة الشام التابعين لبغداد والآخرين التابعين لمصر جاءه

نعي جدته ، فحزن عليها حزنا شديدا ورثاها رثاء حارا بميميته التي يقول فيها مفاخرا بقومه وأهله :

وإني لمن قوم كأن نفوسهم بها أَنَفٌ أن تسكنَ اللحمَ والعَظْمَا
فلا عَبَرَتْ بي سَاعَةٌ لا تُعِزُّني ولا صَحِبتْني مهجةٌ تَقبَلُ الظُّلْمَا

وهما بيتان رائعان يصوران الأنفة والعزة إلى أبعد حد ، وهو جانب في شعر المتنبي جعله محبَّبا لكل عربي ، إذ تتوهج أشعاره بخصال العربي الكريم وما يشعر به من العزة والأنفة والإباء والشعور بالكرامة والترفع عن الدنايا إلى أقصى حد ، وكأنه ترجمان العرب عن فضائلهم العليا الوطيدة كالصخر . وبهذه النفس العاتية كان المتنبي ينظم شعره منذ سال على لسانه في الكُتَّاب معبرا عن الروح العربية التي لا تُقْهَر ، مهما نزل بها من الكوارث والخطوب . وهو نفسه قد نزلت به كارثة أو محنة إخفاق ثورته ، ومع ذلك لا يزال يَهْدِر ويزمجر ويزْأر ، ولا يجد سميعا ولا مجيبا . وتحدِّثه نفسه في سنة ست وثلاثين وثلاثمائة أن يقدِّم مدائحه لولاة سيف الدولة الحمداني ، وكان أميرا لحلب واتسع بإمارته إلى حمص وأنطاكية منتزعا لها من يد الإخشيديين ، فقَدَّم المتنبي مدائحه إلى واليه على أنطاكية أبي العشائر الحمداني ابن عمه ، فأجزل له في العطاء . ومضى في مديحه ، ويَقْدُم سيف الدولة إلى أنطاكية في جمادى الأولى من سنة سبع وثلاثين ، فيمدحه المتنبي ، ويُعْجَبُ كل منهما بصاحبه . ويطلب سيف الدولة منه أن يصطحبه إلى حَلَب وينزل عنده ، ويقول الرواة إن المتنبي اشترط عليه أن لا يقبِّل الأرض بين يديه وأن لا ينشده مدائحه إلا قاعدا ، ويجيبه سيف الدولة إلى شرطيه ، ولعل فيهما ما يشير إلى شعور المتنبي بالعزة والكرامة شأنَ العربي الأصيل . ويظل المتنبي عنده تسع سنوات ، ينظم فيها مدائح وأشعارا في أميره ، تؤلف ديوانا ، وهو ديوان من أنفس دواوين الشعر العربي ، لا من حيث كثرة قصائده فحسب ، بل أيضا من حيث روعتها ، وقد بلغت نحو أربعين قصيدة وإحدى وثلاثين مقطوعة ، واستقرَّ حينئذ في نفسه أنه لقي أمل العرب وحاميهم وفارسهم الذي يمزِّق جموع الروم شرَّ ممزَّق في الشمال ، وغداً يمزِّق جموع الحكام الأعاجم من البويهيين في بغداد ، ويردّ للعرب دولتهم المفقودة . وكان سيف الدولة بحق بطلا مغوارا وشجاعا مقداما ، حَطَم جيوش الروم مراراً واستنقذ منهم غير ثغرٍ وحصن ، وكان المتنبي يصحبه في غزواته ، حتى إذا عاد معه أنشده بحلب ما نظمه في بطولته وبطولة جنوده . وكانت أول موقعة حضرها الشاعر مع البطل موقعة الحَدَث سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة ، وكان الروم قد استولوا على هذا الحصن ، فرأى سيف الدولة أن يستردّه ويعيد بناءه . وأعدَّ جيشا جرَّاراً

زحف به من حلب ، ولقيه الروم وهُزموا هزيمة ساحقة ، قُتل منهم فيها ثلاثة آلاف من بينهم ابن القائد برداس فوكاس وصهره ، وأُسر منهم آلاف ، وُضعت فى أرجلهم الأغلال والسلاسل ، وبَنَى سيف الدولة الحصن بين تكبير المسلمين وتهليلهم ، وسجل المتنبى الموقعة فى ميمية رائعة خاطبه فيها مبتهجا بقوله :

وقفتَ وما فى الموت شَكٌّ لواقفٍ كأنك فى جَفْنِ الرَّدَى وهْو نائِمُ
تمُرُّ بك الأبطالُ كَلْمَى هزيمةً ووجْهُكَ وضَّاحٌ وثَغْرُك باسِمُ
ضممتَ جناحيهم على القلب ضَمَّةً تموتُ الخوافى تحتَها والقوادِمُ
بضربٍ أَتىَ الهاماتِ والنصرُ غائبٌ وَصَارَ إلى اللَّبَّاتِ والنصرُ قادمُ
نَثَرْتَهُمُ فوق الأُحَيْدبِ نَثْرَةً كما نُثِرَتْ فوق العروس الدراهِمُ

وهو يصور سيف الدولة فى المعركة رابط الجأش ثابت الجنان والرءوس تتطاير والأشلاء تتناثر ، والموت يحدق من كل جانب ، وكأنه فى جفنه وهو نائم عنه ، مهابة ليس وراءها مهابة . وتمر به جنود الروم جرحى مهزومة هولا ورعبا ، ولم يلبث أن لفَّ جناحى جيشهم على القلب لفَّةً سريعة وحطم رءوسهم حطما إلى اللبَّات والنحور . وولوا الأدبار مندحرين وسيف الدولة وجنوده ينثرونهم على جبل الأحيدب كما تُنْثَرُ الدراهم على العروس ابتهاجا ، وكأنه لم يكن يوم حرب ، إنما كان يوم زفاف لنصر عظيم . والمتنبى لا يبارَى فى وصفه لوقائع سيف الدولة مع الروم ، حتى لكأنما نسمع فى قصائده السيفية قعقعة السلاح ، وهى لا شك القطع الأرجوانية الرائعة فى ديوانه ، وبحق قال ابن الأثير : « اختص المتنبى بالإبداع فى مواقع القتال . . وذلك أنه إذا خاض فى وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها وأشجع من أبطالها وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها ، حتى يُظَنّ أن الفريقين قد تقابلا والسلاحين قد تواصلا » . وتوفِّيت فى نفس هذا العام عام سبعة وثلاثين أمُّ سيف الدولة فرثاها بقصيدة بديعة ، وفيها يقول بيتيه المشهورين :

رمانى الدهرُ بالأرْزاءِ حتى فؤادى فى غِشاءٍ من نِبالِ
فصرتُ إذا أصابتْنى سهامٌ تكسَّرتِ النِّصالُ على النصالِ

ونَفِس عليه كثيرون من حاشية سيف الدولة — وفى مقدمتهم أبو فراس الحمدانى الشاعر — منزلته ، فأخذوا يكيدون له عنده ، وأحسَّ المتنبى بكيدهم ، وأن سيف الدولة يُرهف سمعه إليهم ، فأنشده قصيدة ميمية يعاتبه فيها عتابا مُراًّ بمثل قوله :

يا أعدلَ الناسِ إلا فى معاملتى فِيمَ الخِصامُ وأنت الخصمُ والحكَمُ
إذا ترحَّلتَ عن قومٍ وقد قَدروا أنْ لا تفارقهم فالراحلون هُمُ

ويحاول سيف الدولة مرضاته ولكن حاشيته تظل تكيد له ، وعجيب أمر الناس فإنهم يظلون يحسدون الأديب ، حتى لوكانت ملكاته من الخصب مثل المتنبي ، بل هم يحسدونه لهذه الملكات ويحاولون أن يفسدوا بينه وبين راعيه . ومن عجب أن يسمع سيف الدولة لحساد المتنبي ، وهو لم يكن يقدم له مدائح المعجب فحسب ، بل مدائح المحب المفتون ، وإنه ليعلن ذلك فى غير قصيدة من مثل قوله :

مالى أكتِّمُ حُبًّا قد بَرَى جَسدى وتدَّعى حبَّ سيفِ الدولةِ الأممُ

ولعله أول من خلط المديح بالحب بل إنه ليخلط به وصف المعامع ، إذ يسوق فيه ألفاظ النسيب والتشبيب والغزل كقوله :

أعلَىَ الممالك ما يُبْنَى على الأَسَلِ والطّعْنُ عند مُحِبِّيهنَّ كالقُبَلِ

ويصمم على الرحيل ، ويرحل إلى دمشق ، ويلتقى فيها بأصحاب كافور وأوليائه ، فيغُرونه بلقائه فى الفسطاط وأنه لابد أن سيقيمه واليا على « صيداء » أو ما يماثلها من بلدان الشام ، وكأنما زَيَّنَتْ نفسه له حين يوليه ولاية من الولايات أن يستبد بالأمر دونه ويحقق أمانيه القديمة فى إقامة الدولة العربية المنشودة . وينزل بساحته على ضفاف النيل سنة ٣٤٦ وينثر عليه كافور أمواله ، فيصارحه بمثل قوله :

وما رغبتِى فى عَسْجَدٍ أستفيدُه ولكنها فى مَفْخرٍ أَسْتَجِدُّهُ

ويلوِّح فى غير قصيدة بوعد أصحابه له بأنه سيمنحه ولاية ، ولكن دون جدوى ، فينتقم منه شر انتقام إذ استطاع بخبرته فى الصياغة الشعرية أن يوجه له مدائح هى فى ظاهرها ثناء ولكنها فى باطنها هجاء مُرٌّ من مثل قوله :

وأظلمُ أهلِ الظلمِ مَنْ بات حاسدا لمن بات فى نَعْمائه يتقلَّبُ

والبيت يمكن أن يُحْمل على من يُسْبَغُ عليه العطاء فلا يعترف بالجميل ، وبذلك يكون من الظلم بمكان . ويمكن أن يحمل على كافور وأنه يحسد من يُسْدِى إليه العطاء ، وبذلك يصفه بدناءة لا تدانيها دناءة . ويقول بعض الباحثين إن المتنبي استذلَّ نفسه حين رضى بمدح كافور الأعجمى الحبشى ، وهو الذى طالما هجا الأعاجم ، ويستطردون فيقولون إنه تخلَّى عن مسئوليته الأدبية . وليس هناك تخل من المتنبي ولا ما يشبه التخلى ، فقد مدح كافورا فى سبيل أن يصبح صاحب ولاية وسلطان ، فلما ماطله ، سلَّ عليه لسانه ، وظل له عنده شعوره الجامح بكرامته وفتوة نفسه ، حتى كأن نفسه من طبيعة فوق طبيعة نفوس الناس ، فهى لا تضعف ولا تهرم ، مهما تقدمت بالمتنبي السن ومهما اشتعل عذاره شيبا ، بل لكأن شعرات شيبه البيضاء حراب مشرعة لنزال أعدائه ، حراب من

ورائها نفس تزمجر ، لها أنياب الأسد ومخالبه ، ويصور ذلك تصويرا رائعا فى قصيدة مدح بها كافورا سنة تسع وأربعين إذ يقول :

وفى الجسم نفسٌ لا تَشيبُ بشَيْبِهِ ولو أنَّ ما فى الوجه منه حِرَابُ
لها ظُفُرٌ إن كَلَّ ظُفْرٌ أُعِدُّهُ ونابٌ إذا لم يبق فى الفم نابُ

فاليأس المرير الذى ذاقه طوال أربع سنوات مجدبة لم يمس نفسه ، بل ظلت فتية فتوة خليقة بكل إكبار . وفى أواخر مقامه بمصر ألمَّت به حُمَّى ، فوصف نزولها به فى الظلام ومبيتها فى عظامه وأثرها فى جسمه وصفا رائعا ، ولها يقول بيته البديع :

أبِنْتَ الدَّهرِ عندى كلُّ بنتٍ فكيف وصلتِ أنتِ من الزِّحامِ

وعرَّض فى القصيدة برحيله ، فقد أحسَّ بإخفاق رحلته إلى مصر وارتحل بليل ، وهو يرمى كافورا بشُواظ من هجائه على نحو ما نرى فى داليته ، وقد مزّق فيها أديمه تمزيقا بمثل قوله :

لا تَشْتَرِ العبدَ إلا والعَصا معَهُ إن العبيدَ لأنجاسٌ مَناكيدُ

وسقط بعض شرر من هجائه على مصر ، ولكنه لم يكن يقصدها لنفسها ، إنما كان يقصد كافورا بهجائه وذمه . وقد بارحها فى أواخر سنة ثلاثمائة وخمسين ، واتجه إلى الكوفة مسقط رأسه ، واشترك مع أهلها فى الدفاع عنها حين هاجمها القرامطة ، ولعل فى ذلك ما يقطع بأنه لم يكن قرمطيا يوما . ويرسل إليه سيف الدولة بهدية ومعها كتاب بخطه ويرد عليه بلامية بديعة يستحثه على منازلة البويهيين الأعاجم ببغداد وينزلها فى سنة إحدى وخمسين ، وفيها يجتمع له كثيرون يأخذون عنه ديوانه ، ويتعرض له الحاتمى — بإيعاز من الوزير المهلبى — ينقد بعض أشعاره ، وتكون فى ذلك قطيعة بينه وبين الوزير فلا يمدحه ، ويعود إلى الكوفة بعد أشهر ، ويكاتبه ابن العميد فى سنة ثلاث وخمسين متوددا إليه آملا فى زيارته ويقدم عليه فى « أرَّجان » سنة أربع وخمسين ويمدحه بقصيدة يشيد فيها بالضاد قائلا فى وصفه :

عربىٌّ لسانُهُ فلسفىٌّ رأيُه فارسيَّةٌ أعيادُهْ

فمفخرة ابن العميد الكبرى فصاحة لسانه وعروبة بيانه ، ويستقدمه عضد الدولة إلى « شيراز » ويمرُّ ببستان يسمى « شِعْبَ بَوَّان » ويروعه جماله ، غير أنه مع روعته كدَّر نفسه أن لا يرى أثراً للعروبة فيه وفيما حوله من ديار ، مما جعله يفتتح قصيدته بقوله :

مَغانى الشِّعْبِ طِيباً فى المغانى بمنزلة الرَّبيعِ من الزمانِ
ولكنَّ الفتى العربىَّ فيها غريبُ الوجهِ واليدِ واللسانِ

وأروع مدائحه فى عضد الدولة هائيته ، وهو يستهلها بتصوير حنينه إلى منازل حبيباته العربيات فى الشام ، وتطغى عليه حرارة هذا الحنين وما يلبث أن يجسِّمه فى فتاة عربية شامية خلبت لبه ، ويصور جمالها وعفتها بمثل قوله :

كلُّ جريحٍ تُرْجَى سَلامتهُ إلا فؤاداً دهَتْه عَيْناها
فى بلدٍ تُضْرَبُ الحِجالُ بهِ على حِسانٍ وَلَسْنَ أشباها
فيهنَّ مَنْ تَقْطُرُ السيوفُ دماً إذا لسانُ المحبِّ سَمَّاهَا

إنهن عربيات دونهن الموت الزُّؤام . وعلى هذا النحو ظلت العروبة تختلط بدمائه ، حتى أنفاسه الأخيرة فقد بارح شيراز سريعا ، وفى طريقه بالقرب من بغداد خرج عليه فى أواخر شهر رمضان من سنة ٣٥٤ فاتك بن أبى جهل فى بعض الشذاذ من قطاع الطرق ، وصرعه هو وابنه وغلمانه ، وبذلك أحال أعراس الشعر مآتم على شاعر العروبة العبقرى : مآتم حداد وسواد . وقد بكاه كثير من معاصريه بكاء حاراً .

ولعل فيما قدمنا ما يصور الموضوعات الاساسية التى تغنى بها المتنبى ، وهى المديح والهجاء والفخر والرثاء ، وأروع مدائحه كما قدمنا ما نظمه فى سيف الدولة وتصوير معاركه ، وهجاؤه ينبثُّ فى مدائحه ونقصد هجاءه لأعاجم بغداد ، وفيهم يقول :

فى كل أرضٍ وَطِئْتُها أُمَمٌ تُرْعَى بعَبْدٍ كأنهم غَنَمُ
يَسْتَخْشِنُ الخَزَّ حين يَلْبَسُهُ وكان يُبْرَى بِظُفْرِه القَلَمُ

والبيت الثانى يحمل سخرية قاتلة فقد كانوا –كما يقول– عبيدا غلاظا لا يعرفون إلا الملابس الخشنة ، وقد طالت أظفارهم ، وإذا هم يعيشون فى النعيم ، يلبسون الإسْتَبْرَقَ بل يستخشنونه ، ويملئون ديار العرب بَغْياً وظلما . ومرت بنا أبيات أخرى فى هجائهم ، وأشرنا إلى هجائه لكافور وهو هجاء مرير . ويكثر الفخر فى شعر المتنبى ، وهو طبيعى لمن يتصف بالبأس والشجاعة واحتمال المكاره والطموح والثقة بالنفس ثقة تدفعه إلى مغالبة الزمن حتى ليقول :

أمثلِى تأخذُ النكباتُ منه ويجزعُ من ملاقاة الحِمامِ
ولو برز الزمانُ إلىَّ شخصا لخضَّب شَعْرَ مَفْرِقهِ حُسامى

وفى ديوانه مراث مختلفة ، ولكن أهمها مرثيته فى جدته والأخرى التى نظمها فى أم سيف الدولة ، وقد مرت الإشارة إليهما ، والمرثية الأولى تطفح بالفخر بينما تطفح الثانية بالتفكير فى الحياة والموت ، وفيها يقول :

يُدَفِّن بعضُنا بَعْضًا وتَمْشى أواخرُنا على هامِ الأَوالى

وفى رأينا أن هذا البيت هو الذى ألهم أبا العلاء قصيدته : « غير مجد فى ملتى واعتقادى » . وتَسْرِى فيه روح تشاؤم جعلته ثائرا على الزمن والدهر والناس ، وهى روح تحبِّب أشعاره إلى قارئه ، من مثل قوله :

صَحِبَ الناسُ قبلنا ذا الزمانا وعَناهُمْ من شأنهِ ما عَنانا
وتولَّوا بغُصَّةٍ كلُّهم منـ ـه وإنْ سَرَّ بعضَهم أحيانا

وتكثر فى شعره الحكم والأمثال ، حتى ليصبح جُلُّ مايدور من خواطر فى أذهان الناس أمثالاً أو حكماً ينطق بها فى شعره ، ولفت ذلك القدماء وحاولوا أن يصلوا بينه وبين أرسطو فيه ، ولكن من المؤكد أن حِكمه وليدة عقله الكبير وخبرته الواسعة بالحياة والناس ، وقد أنشدنا منها أطرافاً فيما مرَّ من الحديث . وله غزل طريف ، وهو فيه مفتون دائماً بالبدويات لجمالهن الفطرى وفى ذلك يقول :

حُسْنُ الحضارة مجلوبٌ بتَطْرِيَةٍ وفى البداوة حُسْنٌ غيرُ مجلوبِ
أَفْدِى ظِباءَ فلاةٍ ما عَرَفْنَ بها مَضْغَ الكلام ولا صَبْغَ الحواجيبِ

وأكبر الظن أن فيما قدمت ما يجلو بعض الجلاء شخصية المتنبى الفذة ويرد عنها جملة التُّهم التى نسجها بعض الباحثين المعاصرين من العرب والمستشرقين حول نسبه وصحته وحول قرمطيته وعقيدته ، وهو قد فرَّ مع أبيه من وجه القرامطة حَدَثاً ورحل بسببهم عن الكوفة فى باكورة شبابه ، وحاربهم بأخرة من عمره ، ومع ذلك يقال إنه قرمطى ، ويُلْقَى ظل من الشك على عروبته ، مع أن العروبة لم تجد من يَفْضُله لتختاره تُرْجُماناً لها أروع ما يكون الترجمان .

سِبْط [١] ابن التعاويذى

هو أبو الفتح محمد بن عبيد الله بن عبد الله ، كان أبوه مولى لبنى المظفَّر واسمه نُشْتَكِين ، فسماه ابنه عبيد الله وسمى جده عبد الله ، وقد وُلد لأبيه ببغداد سنة **٥١٩** ويبدو أنه توفى وابنه لا يزال صغيراً ، فكفله جده لأمه أبو محمد المبارك الزاهد المعروف بابن التعاويذى وكان صالحاً ، فقام على تربيته خير قيام ، إذ ألحقه بكتَّاب ، ثم بحلقات العلماء

(١) انظر فى ترجمة سبط ابن التعاويذى معجم الأدباء ١٨/٢٣٥ وابن خلكان ٤/٤٦٦ ونكت الهميان ص ٢٥٩ والوافى بالوفيات ٤/١١ وعبر الذهبى ٤/٢٥٣ والشذرات ٤/٢٨١ والنجوم الزاهرة ٦/١٠٥ وسبط ابن التعاويذى : حياته وشعره لنورى شاكر الألوسى (طبع بغداد) وديوانه طبع قديما بالقاهرة فى مطبعة المقتطف بتحقيق مرجليوث .

فى المساجد ، ولم يلبث أن استيقظت موهبته الشعرية ، ولم تشمله عناية جده فحسب ، فقد عُنى به أيضاً بنو المظفر مواليه ، إد أسبغوا عليه وعلى جده من أفضالهم الكثر ، وكان لهم شأن كبير فى الدولة ، إذ كان منهم وزراء وكتاب مختلفون ، فألحقوه بدواوين الخلافة ، واختاروا له الكتابة بديوان الإقطاع ، وجعلته وظيفته فى هذا الديوان يتصل بكبار رجال الدولة وموظفيها المختلفين من غير بنى المظفر ، وله مدائح فى الخلفاء وفى غير وزير ، وخاصة ابن هبيرة . ويظهر أنه كان من جملة من فَصلَهم وزير الديوان أبو جعفر أحمد بن محمد التميمى المعروف بابن البلدى لعهد الخليفة المستنجد (٥٥٥ – ٥٦٦ هـ) إذ نراه يهجوه هجاء مرا ، وكان هذا الوزير قد عزل أرباب الدواوين وحبسهم وحاسبهم وصادرهم وعاقبهم ونكَّل بهم ، وفيه يقول :

يا قاصدا بغداد حِدْ عن بلدةٍ ... للجور فيها زَخْرَةٌ وعُبَابُ
إن كنت طالبَ حاجةٍ فارجعْ فقد ... سُدَّتْ على الرَّاجى بها الأبوابُ
بادتْ وأهلوها معاً فبيوتُهم ... ببقاء مولانا الوزير خَرابُ
وارَتْهمُ الأجْداثُ أحياءً تُها ... لُ جنادلٌ من فوقهم وترابُ

ونراه فى قصيدة أخرى يشكو من ابن البلدى ومن ضائقته وعطلته مما يدل دلالة قاطعة على أنه كان قد فُصل مع من فصلهم . ولم يلبث أن عاد إلى وظيفته ، وأكبر الظن أن الخليفة المستنجد هو الذى أعاده ، وكان جده لأمه ابن التعاويذى قد توفى ورثاه مرثية جيدة ، استهلها بقوله :

لكلٍّ ما طال به الدهرُ أمَدْ ... لا والداً يُبْقِى الرَّدَى ولا وَلَدْ

وليس فى الديوان بعد ذلك ما يدل على أن أحداثاً خطيرة مرت به . وقد ظل فى ديوان الإقطاع حتى سنة ٥٧٩ إذ كُفَّ بصره ، ولم يعد يستطيع العمل فيه ، ويلتمس حينئذ من الخليفة الناصر (٥٧٥ – ٦٢٢ هـ) أن ينقل راتبه فى الديوان إلى أبنائه ، وكانوا كثيرين كما يبدو من إحدى قصائده . ويجيبه إلى ملتمسه ، غير أنه يعود فيطلب إليه أن يُجَدِّد له راتباً خاصًّا به مدة حياته ، ويحقق له طلبه ، ويُكْثِر حينئذ من نَدْب بصره بمثل قوله :

ألا مَنْ لمسجونٍ بغير جنايةٍ ... يُعَدُّ من الموتى وما حانَ يومُهُ
يُرَوِّعهُ عند الصباح انتباهُه ... فطُوبَى له لو طالَ وامتدَّ نَوْمه

ولم يعش طويلاً وهو مكفوف ، فقد توفى بعد نحو أربع سنوات سنة ٥٨٣ وقيل بل سنة ٥٨٤ . وكان قد جمع ديوانه بنفسه قبل كفِّ بصره ، وعمل له خطبة طريفة ، كما يقول ابن خلكان ، ورتبه فى أربعة فصول ، وكل ما نظمه بعد هذا الترتيب سماه الزيادات ،

والفصل الأول فى مدائح الخلفاء ، والفصل الثانى فى مدائح جماعة من الوزراء والأكابر كما يقول فى مقدمته ، والفصل الثالث فى مدائح بنى المظفر ، يقول : « لأننى نشأت فيهم ، وصحبتهم أنا وجدى لأمى ، وكنت منقطعاً إليهم لا أشيم (أنظر) غير سمائهم ، فنظمت فيهم جُلَّ شعرى ، وأنفقت معهم طائفة من عمرى » والفصل الرابع متنوعات من مراث وزهد وغزل وعتاب وهجاء . والزهد عنده قليل مما يدل على أن أثر جده لأمه الورع فيه كان ضعيفاً . وواضح أن جمهور الشعر فى الديوان مدائح ، ومع ذلك نرى له قصيدة ينصح فيها الشعراء أن يهجروا المديح إلى الهجاء ، ويبدو أنه قالها فى لحظة عارضة فى حياته . وقد نوَّه به وبشاعريته ابن خلكان تنويهاً عظيماً قائلاً : « كان شاعر وقته ، لم يكن فيه مثله ، جمع شعره بين جزالة الألفاظ وعذوبتها ورقة المعانى ودقتها ، وهو فى غاية الحسن والحلاوة ، وفيما أعتقده لم يكن قبله بمائتى سنة مَنْ يضاهيه » .

وأول خليفة مدحه سِبْط ابن التعاويذى الخليفة المستنجد (٥٥٥ — ٥٦٦ هـ) وليس لأبيه المقتفى ذكر فى الديوان ، وليس له فى المستنجد نفسه سوى قصيدة ، وكأنه كان بعيداً عنه لعهد وزير الديوان ابن البلدى . حتى إذا ولى المستضىء (٥٦٦ — ٥٧٥ هـ) رأيناه يكثر من مدائحه ، كما أكثر من مدائح ابنه الناصر ، وظاهرة مهمة تلاحَظ فى هذه المدائح ، هى أن الشاعر يقترض من بيئة الإمامية الشيعية وغيرها من الغلاة بعض الأوصاف التى يصفون بها أئمتهم ، ويصف بها المستضىء وابنه الناصر ، وكأنه لم يعد هناك فرق بين مدح الشيعة لأئمتهم ومدح الشعراء لخلفاء بنى العباس ، واقرأ هذا الاستهلال لمدحة لسِبْط ابن التعاويذى فى المستضىء :

لك النَّهْىُ بعد اللهِ فى الخلق والأمرُ ... وفى يدك المبسوطة النفعُ والضُّرُّ
وطاعَتُك الإيمانُ بالله والهُدَى ... وعِصيانُك الإلحادُ فى الدين والكفْر
ولولاك ما صحَّتْ عقيدةُ مؤمنٍ ... تَقِىٍّ ولم يُقْبَلْ دعاةٌ ولا نَذْرُ
مُرِ الدهرَ يفعلْ ما تشاء فإنه ... بأمرك يَجْرى فى تصرُّفه الدهر

والغلوُّ واضح فى البيتين الأخيرين ، بل فى الأبيات كلها ، حتى ليجعله يصرِّف الدهر كما يشاء . ويمضى فى القصيدة فيصفه بأنه أمين الله ووارث النبى وإمام هدى عمَّ عدله الرعية ، وقد نطقت بفضله آى الذكر الحكيم يقصد قوله تعالى : (إنما يريد الله ليذهبَ عنكم الرِّجْسَ أهلَ البيت ويطهرَكم تطهيراً) . ودائماً يردِّد فى مدائحه له أنه جارعلى سُنَن الرسول ﷺ ، وأن مديحه له سيُعَدُّ يوم القيامة من حسناته . ويخطو الشاعر فى مديحه للناصر خطوات أكثر غلوًّا على شاكلة قوله :

أنت الإمامُ المهديُّ ليس لنا إمامُ حَقٍّ سِواكَ يُنْتَظَرُ
يا صاحبَ العصرِ والزمانِ ومن في يده النَّفْعُ بعدُ والضَّرر
ومَنْ له الليلُ والنهار وما كَرَّا عليه والشمسُ والقمر
والبرُّ والبَحْرُ والشواهقُ والْـ ـغُرُّ الغَوادِي والنَّجْمُ والشَّجر

ولو لم نعرف اسم الممدوح لظنناه إماماً شيعيا فهو المهدى الذى تنتظره الشيعة لينقذ العالم من مفاسده وشروره ، وهو صاحب العصر والزمان الذى يختفى عن الأعين ومع ذلك يرعى أمور رعيته ويدِّبر شئونها ، بل إنه ليدبر الكون كله بليله ونهاره وأفلاكه وكواكبه وأرضه وسمائه وبره وبحره . وعلى نحو ما يضيف الشيعة إلى أئمتهم العلم وأنهم خزنته وذخائره كذلك يكرر الشاعر بأن العباسيين علماء الدين الحنيف وأعلام الهدى ، ولا يملُّ من تكرار نشرهم للعدل . وكان الشيعة يرددون أن أئمتهم حجج الله فى أرضه على عباده ، ويقتبس الشاعر هذه الفكرة فى مدحه للناصر قائلاً :

حُجَّةُ اللهِ أنت والسَّبَبُ المَمْـ ـدودُ ما بينه وبين الناسِ

ولعل فى ذلك كله ما يدل على أن من الخطأ أن يُسْلَكَ سِبْط ابن التعاويذى بين شعراء الشيعة كما ظن بعض المعاصرين ، فهو شاعر عباسى ، متعصب لخلفاء بنى العباس أشد التعصب ، ولذلك أمثلة كثيرة فى شعره ، وهو يقرر دائماً أنهم أصحاب الحق الشرعى فى الخلافة ، ولذلك كنت أشك فى أنه نظم مرثية الحسين .

أرقتُ لِلَمْعِ بَرْقٍ حاجِرِيٍّ تألَّقَ كاليَمانِى المَشْرَفِىِّ

ويغلب أن تكون المرثية أضيفت إلى الديوان فى زمن مبكر .

وحين كاد العماد الأصبهانى يعمل فى دواوين الخلافة ببغداد انعقدت بينه وبين الشاعر صلة مودة ، فلما بارح العماد العراق إلى الشام واتصل بصلاح الدين كان الشاعر يراسله ، ويقول ياقوت إن العماد ذكر فى ترجمته بعض ما كان بينهما من مراسلات ، وفى ابن خلكان رسالة بديعة للشاعر أرسل بها إلى العماد يطلب منه فَرْوة . ويبدو أن العماد عمل على أن يصل بينه وبين صلاح الدين من جهة ووزيره القاضى من جهة ثانية ، وفى ديوانه أربعة مدائح وجه بها إلى صلاح الدين بين سنتى ٦٧٠ و ٦٨٠ كافأه عليها مكافآت سنية ، لعل أهمها النونية ، وفيها يقول :

قادَ الجيادَ معاقلاً وإن اكتفى بمعاقلٍ من رأيهِ وحُصونِ
سَهِرتْ جفُونُ عِداه خيفةَ ماجدٍ خُلِقَتْ صَوارمُه بغيرِ جفُونِ

لو أن لِلَّيْثِ الهِزَبْرِ سُطَاه   لم يلجأ إلى غابٍ له وعَرِينِ

وغزله فى مفتتح هذه المدحة رائع ، وله فى القاضى الفاضل ثلاث مدائح أروعها رائية يشكو فيها فقد بصره شكوى مرة ، إذ يقول :

ناءٍ عن الأحْياء فى بَرْزَخٍ   منقطعٌ من بَيْنِهم ذِكْرِى
ليلُ حِجابٍ لا أرى فَجْرَهُ   يا مَنْ رأى ليلاً بلا فجر

وفى الحق أنه كان شاعراً بارعاً ، وقد وفَّاه ابن خلكان حقه من الثناء ، ونحس عنده كأن نبعاً سائغاً شرابه يتدفق عذباً عذوبة حلوة .

صفىّ (١) الدِّين الحِلِّى

هو عبد العزيز بن سَرَايا الحِلِّى الطائى ، ولد بالحِلّة القريبة من الكوفة سنة ٦٧٧ لأسرة على شيء من اليسار وسعة الحال ، فكان طبيعيا أن تُلْحقه بكتَّاب يتعلم فيه القراءة وحفظ القرآن الكريم وبعض الأشعار . وكان الغلمان من لداته يتدرَّبون على ركوب الخيل فحاكاهم فى هذا التدرب . وأحسَّ فى نفسه ميلاً شديداً إلى الشعر ، فأكبَّ على حفظ نصوصه العباسية والإسلامية والجاهلية ، مما جعله فيما بعد يُعْنى بتضمين كثير من هذه النصوص فى شعره وبعض موشحاته . ويبدو أن موهبته الشعرية استيقظت فيه مبكرة ، إذ يقول فى المقدمة التى صنعها لديوانه : « إنى كنت قبل أن أشبّ عن الطوق ، وأعلم ما دواعى الشوق ، لهجاً بالشعر نظماً وحفظاً ، متقناً علومه معنى ولفظاً » . وهو يقصد بالعلوم علوم العربية وعلوم البيان والمعانى والبديع ، ونراه فيما بعد يؤلف فى الجناس كتاباً سماه « الدر النفيس فى أجناس التجنيس » . ومرَّ بنا فى غير هذا الموضع أنه ألَّف قصيدة بديعية هى مدحة نبوية تضم أبياتها نحو مائة وخمسين محسِّناً من محسنات البديع . ومن مؤلفاته كتاب الأوزان المستحدثة مثل الدوبيت وغيره ، وأيضاً كتاب العاطل الحالى ، وهو – كما مرَّ بنا – فى فنون الأشعار العامية . ويصرح فى مقدمة ديوانه بأنه لم يفكر فى بدء حياته أن يمدح أحداً أو يهجو أحداً ، بل لقد كان يرى أن يبتعد بأشعاره عن هذين الجدولين ، وجعله ذلك لا ينظم إلا فى موضوعين هما مدح الرسول ﷺ وآله ، والفخر بآبائه . ولم يكد

---

(١) انظر فى ترجمة صفى الدين الدرر الكامنة لابن حجر ٤٧٩/٢ وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبى ٥٧٩/١ والبدر الطالع للشوكانى ٣٥٨/١ والنجوم الزاهرة ١٠ / ٢٣٨ وكتاب شعر صفى الدين الحلى للدكتور جواد احمد علوش (طبع بغداد) . وديوانه طبع فى القرن الماضى طبعتين : طبعة فى دمشق وطبعة فى بيروت وكلتاهما مليئة بالأخطاء وفى دار الكتب المصرية منه أربع مخطوطات

يتجاوز العشرين من عمره حتى تعاظمت الحزازات والثارات بين عشيرته أو أسرته وبعض الأسر أو العشائر فى الحِلَّة ، وقُتل خاله ، وبكاه فى غير قصيدة وأخذ يدعو للثأر له ، فنشبت معارك وسفكت دماء . وهاله أن يرى ذلك تحت بصره ، فلم تدخل سنة سبعمائة حتى خرج عن الحِلَّة ، ولم يكتف بالبعد عنها فى بغداد ، فقد أبعد فى ارتحاله حتى نزل عند ملوك ماردين فى الموصل من آل أُرْتُق أصحابها وأحسن لقاءه واستقباله ملكها المنصورُ نجم الدين غازى بن أُرْتُق ، وهو يشيد به وبعطاياه وعطايا ابنه الملك الصالح فى مقدمته للديوان ، وفى استقبال المنصور له يقول :

لاقَيْتَنَا مَلْقَى الكريم لضيفهِ ... وضَمَمْتنا ضَمَّ الكَمِىِّ لسيفهِ

وقد أنزله فى دار فخمة نوَّه بها فى شعره ، وظل يصحبه فى حِلِّه وترحاله ونزهاته ، وفيه نظم مدائح كثيرة فى الأعياد وفى بعض انتصاراته . ولم يكتف بذلك فقد رأى أن ينظم فيه ديواناً مستقلا سماه « دُرر النُّحور فى مدائح الملك المنصور » وهو ملحق بديوانه المطبوع فى دمشق ، ويحتوى على تسع وعشرين قصيدة اشترط فيها على نفسه أن تكون كل قصيدة منها على حرف من حروف المعجم التسعة والعشرين ، وأن يكون عدد أبيات كل منها تسعة وعشرين ، وأن يبدأ فى كل بيت منها ، ويختتمه بنفس الحرف ، وفى إحداها يقول :

رَبُّ النَّوال ومحمودُ الخصالِ ومِقْـ ... ـدامُ النِّزال وأمنُ الخائف الحذِرِ
راعى الأنام بعينٍ غير راقدةٍ ... قد وُكِّلتْ فى أمور الملك بالسَّهرِ
راضٍ مع السخط يُبْدِى عزمَ منتقمٍ ... للمذنبين ويعفو عَفْوَ مقتدرِ
راحاتُـه مُـذْ نَشَـا فى الملك قـد عاهدَتْ ... يومَ النَّدى والرَّدَى بالنفع والضَّررِ

ولا ريب فى أن هذا الصنيع ضرب من التكلف الشديد ، ولذلك حين نقرأ قصائد هذا الديوان نشعر كأننا بإزاء لون من الشعر التعليمى الذى يراد به إظهار المهارة اللغوية . ويتوفَّى الملك المنصور سنة ٧١٢ ويخلفه ابنه الملك الصالح وتظل له منزلته ، ويظل له راتبه الذى كان يأخذه فى عهد أبيه ، ويصحبه فى نزهاته وخروجه للصيد ، ويتخذه أنيساً له فى مجالس شرابه . ونراه فى أواخر العقد الثانى من هذا القرن الثامن وقد مرَّ به نحو عشرين عاماً فى ظلال الدولة الأرتقية يفكر فى زيارة الشام بحجة رغبته فى التجارة ، وكانت تجارته الدارَّة شعره ، فنزل بحماة ومدح سلطانها المؤيد وابنه الأفضل ، وفى أثناء مقامه عندهما يُرْسل بمدائحه إلى الملك الصالح . ويفكر فى قضاء فريضة الحج ، ويحج إلى بيت الله الحرام فى سنة ٧٢٣ ويزور قبر الرسول ﷺ ، ويفكر فى العودة ولا يعود إلى الموصل ولا إلى الشام ولا إلى بغداد ، إذ يتجه إلى القاهرة وينزل بساحة سلطانها الناصر محمد بن قلاوون ،

ويستقبله أدباء مصر استقبالاً حافلاً ، ويمدح الناصر بقصيدتين ، ربما كانا أروع مدائحه جميعاً ، أما أولاهما فعارض بها قصيدة المتنبي :

بأبي الشموسُ الجانحاتُ غواربا　　　اللابساتُ من الحرير جَلابِبا

واختياره لمعارضة المتنبي شاعر العربية الفذ دليل قوى على ثقته بنفسه ، وقد أظهر فى معارضته براعة فائقة ، وهو يستهل معارضته بقوله :

أَسْبَلْنَ من فوق النُّهود ذَوائبا　　　فجعلن حَبَّاتِ القلوب ذَوائبا

والجناس فى كلمتى ذوائب بديع ، فالأولى بمعنى الضفائر ، والثانية من الذوبان ، والجناس كثير فى شعره ، وكان يعرف بمقدرته الشعرية كيف يجعله سائغاً . ويمضى فى مديح الناصر قائلاً :

الناصرُ الملك الذى خضعتْ له　　　صِيدُ الملوك مشارقاً ومغاربا
لم تَخْلُ أرضٌ من ثَناه وإنْ خلتْ　　　من ذكره مُلِئَتْ قَنًا وقَواضِبا
تُرْجَى مواهبه وُيرهَبُ بَطْشُه　　　مثل الزمانِ مسالما ومحاربا
فإذا سَطا ملأَ القلوبَ مهابةً　　　وإذا سَخا ملأَ العيونَ مواهبا

ولم يفتتح القصيدة الثانية بالنسيب أو الغزل . وكأنما سِحْرُ الطبيعة المصرية وجمال رياضها وبساتينها ملأ عينيه وقلبه ، فرأى أن يعدل عن النسيب إلى وصف الجمال الهاجع على ضفاف النيل وجداوله من مثل قوله :

خَلَعَ الربيعُ على غُصون البانِ　　　حُلَلاً فواضِلُها على الكُثْبانِ
والظِّلُّ يَسْرِقُ فى الخمائل خَطْوَه　　　والغُصْنُ يَخْطِرُ خَطْرَةَ النَّشْوان
وكأنما الأغصانُ سوقُ رواقصٍ　　　قد قُيِّدتْ بسلاسل الرَّيْحانِ
والشمسُ تنظر من خلال فُروعها　　　نحو الحدائقِ نظرةَ الغَيْرانِ
والطَّلْعُ فى خَلَل الكِمامِ كأنَّه　　　حُلَلٌ تفتَّقُ عن نُحور غوانى

وصفىٌّ الدين يحيل الطبيعة المصرية نَشْوَى بما يتراءى له فيها من غناء ورقص وغوانٍ وجمال فاتن يأخذ بالألباب . ويمضى محفوفاً بهذا الجمال من كل جانب ، مادحاً للناصر محمد بن قلاوون بمثل قوله :

ملكٌ إذا اكتحلَ الملوكُ بنورِهِ　　　خَرُّوا لهيبتِهِ إلى الأَذْقانِ
شاهدتُه فشهدتُ لُقْمانَ الحِجَى　　　ونظرتُ كِسْرَى العَدْلِ فى الإيوان
وافى وقد عاد السماحُ وأهلهُ　　　مَوْتَى فكان له المسيحَ الثانى
لا عيبَ فى نُعماه إلا أنَّهــا　　　يَسْلُو الغريبُ بها عن الأوطان

ويُشيد بإنعام الناصر عليه فى مقدمة ديوانه ، وأن رئيس وزرائه أبلغه رغبته فى أن يجمع شعره فى ديوان ويبوبه ويرتبه . ولبىَّ صفى الدين رغبة الناصر ، فجمع ديوانه ، وجعله فى اثنى عشر باباً تشتمل على ثلاثين فصلاً ، والأبواب فى الفخر والحماسة والمدح والطرديات والإخوانيات والمراثى والغزل والخمريات والشكوى والهدايا والألغاز والزهد والهجاء ومعه الملح والأحماض . وكأنما أُريد لديوان صفىّ الدين أن يشيع من مصر ، على نحو ما تطبع فى عصرنا بمصر دواوين كثيرة لشعراء البلاد العربية . وفى الديوان مدائح مختلفة للرسول عليه السلام ولعلى بن أبى طالب رضوان الله عليه ، وقد درسها الدكتور جواد علوش وانتهى من درسها إلى أنه كان شيعيا إماميا ، وكل ما جاء به من أدلة على ذلك إشارته فى بعض تلك المدائح إلى أن الرسول جعله وصياً له وأنه عهد له بهذه الوصاية حين نزل بِغَدير خُمٍّ بين مكة والمدينة ، يقول فى مديح على :

إمامٌ له عَقْدُ يَوْمِ الغَدِيرِ ... بنصِّ النبىِّ وأقْوالِهِ

وذِكْرُ صفىِّ الدين لهذا العهد لايثْبِتُ أنه شيعى إمامى ، إذ لا نجد فى شعره شيئاً من عقيدة الإمامية ، ومعروف أن الزيدية مثل الإمامية يؤمنون بهذا العهد ، ونجده فى نفس باب مديحه للرسول ولعلى يبرئ نفسه من تفضيل بعض الصحابة على بعض ، يقول :

ولائى لآل المصطفى عَقْدُ مذهبى ... وقلبىَ من حُبِّ الصَّبابة مُفْعَمُ

وما أنا ممن يستَجيزُ بحبِّهم ... مَسَبَّةَ أقوامٍ عليهم تقدَّموا

ولكننى أُعْطِى الفريقين حَقَّهم ... ورَبِّى بحالِ الأفضليَّة أَعْلَمُ

والبيتان الثانى والثالث يخرجانه من العقيدة الإمامية التى تُضْفِى على علىٍّ وأبنائه من الأئمة صفات روحية قدسية لا توجد فى غيرهم من أفراد الأمة ، والبيت الثالث يخرجه من الزيدية ، هم حقا يصححون خلافة أبى بكر وعمر ولكن مع الإيمان بأن عليًّا أفضل منهما وأنه تجوز إمامة المفضول مع وجود الأفضل . وإذن فصفى الدين لا إمامى ولا زيدى ، ومن قوله :

قيل لى : تعشق الصحابةَ طُرًّا ... أم تفَرَّدْتَ منهمُ بفريقِ

فإلى من تَميلُ ؟ قلتُ إلى الأرْ ... بع لا سيَّما إلى الفاروقِ

ويكفى أن يقول إنه يميل إلى الفاروق عمر أكثر من على ، ليخرج من كل أبواب التشيع ، أما ورود عهد الغَدير فى بعض شعره فلعله قال ذلك عفواً فى حداثته ، وخاصة أنه نشأ فى الحِلَّة ، وهى بيئة قديمة من بيئات التشيع ، وهو نفسه يقول فى مقدمة الديوان إن شعره فى الرسول وآله نظمه فى باكورة حياته .

وفى الديوان ظواهر مهمة يحسن أن نشير إليها ، ففيه اثنتا عشرة موشَّحة وفيه ثلاثة مسمَّطات وسبعة مخمَّسات وبعض رُباعيات كقوله :

لا تحسبْ زورةَ الكرَى أجفانى   من بعدك من شواهدِ السُّلوانِ
ما أرسلتِ الرُّقاد إلا شَرَكاً   تصطاد بهِ شواردَ الغِزْلان

وتكثر فى شعره المحسنات البديعية ، وخاصة الجناس بجميع صوره الممكنة ، ومر بنا أن له كتاباً مستقلا فيه ، وفى شعره كل ألوانه : التام والناقص والمقلوب والملفق ، وله قصيدة بنى كل شطر من شطورها على ثلاثة جناسات مثل :

سَلْ سَلْسَلَ الريقِ لِمْ لَمْ يَرْوِ حَرَّ ظمًا   بل بَلْبَلَ القلب لما زاد آلاما

وواضح أن حرفى « سَلْ » كُرِّرا ثلاث مرات فى الشطر الأول وكَرَّر حرفا « بل » فى الشطر الثانى ثلاث مرات . وقد يلجأ إلى جناس آخر لا يقل تعقيداً إذ يجانس بين ختامى الشطرين فى قصيدة على هذه الصورة :

شديدُ البأس ذو أمرٍ مطاعٍ   مُضاربُ كلِّ قَرْمٍ أو مطاعنْ

ومضى فى القصيدة يضيف نوناً إلى الكلمة المنونة فى آخر الشطر الأول ليحدث هذا الجناس المتكلف . وأكثر من التضمين فى قصائده ، بحيث يصبح له فى القصيدة شطر ولبعض السابقين من مثل امرئ القيس والمتنبى وغيرهما شطرثان . وليس هذا فحسب فقد تبع الحريرى فى نظم قصائد مهملة غير منقوطة وأخرى معجمة منقوطة أو يستقل فيها بيت أو شطر بالإعجام وبيت أو شطر بالإهمال أو تتوالى الكلمات فيها كلمة معجمة وكلمة مهملة . وقد تتكون الأبيات من حروف مقطعة غير موصولة أو من حروف موصولة بحيث لا يكون فيها حرف مفصول ، وله قصيدة كل كلماتها مصغّرة ، إلى غير ذلك من هذه التمرينات الهندسية التى لا تحوى شعراً ، وإنما تحوى مهارات لغوية . وصفىُّ الدين بذلك وباستخدامه الواسع للتضمينات والجناسات يفتح الأبواب على مصاريعها لشعراء العراق بعده كى تخمد شاعريتهم وتجف ينابيعها ، مع أن ملكاته الشعرية كانت من الخصب بحيث لو اتجه بها نحو وصف الطبيعة وكان يجيده لأضاف إضافاتٍ رائعة إلى الشعر العربى .

٤

شعراء المراثى والهجاء والشكوى

لا نبالغ إذا قلنا إنه قلما وُجد شاعر من الشعراء ، وخاصة شعراء المديح ، إلا وقد نظم مراثى مختلفة فيمن سبق إليه الموت من كبار ممدوحيه أو من أهله أو من أصدقائه ، ونكتفى

بالإشارة إلى بعض المراثى البديعة ، فمن ذلك مرثية أبى الحسن محمد بن عمر الأنبارى الصوفى الواعظ لصديقه الوزير ابن بقية حين قتله عضد الدولة البويهى وصَلبه فى بغداد لسنة ٣٦٧ وقد استهلها بقوله (١) :

عُلوٌّ فى الحياة وفى المماتِ　　لحقٌّ أنت إحدى المعجزاتِ
كأنَّ الناسَ حولك حينَ قاموا　　وُفودُ نَداك أيامَ الصِّلاتِ
كأنك قائمٌ فيهم خَطيباً　　وكلُّهمُ قيامٌ للصَّلاةِ
مددتَ يَدَيْك نَحْوهمُ احتفاءً　　كمدِّهما إليهم بالهِباتِ

ويشبِّه صلبه بصلب زيد بن على زين العابدين فى أواخر العصر الأموى ، ويتصور الجذع المصلوب إليه كأنه يعانق المكرمات ، ويظن كأن الكوارث التى طالما رَدَّها عن الناس ثأرت لنفسها منه ، ويقول إن باطن الأرض حين ضاق عن أن يضم عُلاه جعلوا الجَّوقبره كما جعلوا أكفانَه غبارَ الرياح ، ويستنزل عليه أويستمطر شآبيب الرحمة والرضوان . ويكثر فى العصر رثاء الشعراء ، وفى مقدمتهم المتنبى ، وفى كتاب الدمية للباخرزى مراث مختلفة له ، وممن رثاه أبو القاسم المظفَّر بن على الطَّبَسى ، وفيه يقول (٢) :

لا رَعَى اللهُ سِرْبَ هذا الزمانِ　　إذ دَهانا فى مثل ذاك اللِّسانِ
ما رأى الناسُ ثانىَ المتنبِّى　　أىُّ ثانٍ يُرَى لِبكْرِ الزمانِ
كان من نفسه الكبيرةِ فى جَيْـ　　ـشٍ وفى كِبْرياءِ ذى سُلْطانِ
هو فى شعره نبىٌّ ولكنْ　　ظهرتْ مُعْجزاتُه فى المعانى

وكان الشريف الرضى يكثر من رثاء أصدقائه من الكتاب والشعراء ، وقد رثى أبا إسحق الصابئ بقصيدته الدالية مفتتحا لها بقوله :

أرأيتَ مَنْ حَملوا على الأعوادِ　　أرأيتَ كيف خَبَا ضِياءُ النَّادِى

وعاتبه الناس فى ذلك لكونه شريفاً من سلالة الرسول ورثى صابئاً ، فقال : إنما رثيتُ فضله . وتوفى الرضى فرثاه مهيار بلامية تأثر فى مطلعها بمطلع داليته آنفة الذكر إذ يقول :

حملوك لو علموا من المحمولُ　　فارتاضَ معتاصٌ وخفَّ ثقيلُ

وهذا باب يطول . ونكتفى بأن نقول إنه لم يمت خليفة ولا وزير ولا حاكم إلا وأكثر الشعراء من رثائه . وأهم من هذه المراثى لأشخاص رثاءُ بغداد حين اكتسحها التتار وخربوها ودمروها تدميراً فقد بكاها الشعراء بكاء حارًّا ، بكوا أهلها الذين سُفكت

(١) انظر النجوم الزاهرة ٤/١٣٠ وابن خلكان ١٠٧ ، ٣١٦ .
(٢) ابن خلكان ١ / ١٢٤ وانظر الدمية ١ / ١٠٥ ، ٥/١٢٠

دماؤهم وقُتِّلوا تقتيلا ، وبكوا تاريخها ومدنيتها وماكان بها من علوم وعلماء ، وقد أشرنا فى الفصل الأول إلى مرثية الشيخ تقى الدين التنوخى لها ، وقد أكثر من رثائها شمس الدين الكوفى الواعظ المتوفى سنة ٦٧٥ واحتفظ ابن شاكر فى كتابه فوات الوفيات بطائفة من مراثيه فى ترجمته للخليفة المستعصم ، وفى إحداها يقول (١) :

أين الذين عهدتُهم ولعزِّهم ذُلاً تَخِرُّ معاقدُ التِّيجان
كانوا نجوم من اقتدى فعليهمُ يبكى الهُدَى وشعائرُ الإيمانِ
لما رأيتُ الدارَ بعد فراقهم أضحتْ معطّلةً من السكّانِ
مازلتُ أبكيهم وألثِمُ وحشةً لجماهم مُسْتهدِمَ الأركانِ

وكان لهذه النكبة صداها المدوى فى جميع البلدان العربية وفى إيران ، حتى لنرى الشيخ سعدى الشيرازى وغيره من شعرائها يندبونها ندباً كله لوعة وحسرة على ما أصابها من دمار ونكال .

ولعل الهجاء كان أكثر ذيوعاً وانتشاراً من الرثاء ، ومرَّ بنا أن المتنبى هجا كثيراً الأعاجم كما هجا كافوراً الإخشيدى ، وتلقانا فى اليتيمة والدمية والخريدة أهاج كثيرة ، بل يلقانا شعراء وقفوا حياتهم أو كادوا على الهجاء مثل محمد بن محمد بن جعفر البصرى المعروف باسم ابن (٢) لَنْكك المتوفى سنة ٣٦٠ وكان قد قصَّر به جهده عن بلوغ الغاية أو المنزلة التى يأملها لنفسه ، فسلَّ لسانه على معاصريه من الشعراء حتى المتنبى فإنه هجاه ، وهو الذى زعم أنه ابن سَقَّاء بالكوفة ، كما لاحظ ياقوت فى ترجمته له . وكان يتهاجى مع شاعر معاصر له يسمى أبا رياش ، وفيه يقول :

يُعاشِرُنا بـأخلاقٍ ملاحٍ على القُبْحِ الفظيعِ أبو رياشٍ
فَنَصْفَعُه على جهةِ المزاحِ يُبيح أكفَّنا أبدا قَفاهُ

وهما من أنظف ما قال فيه ، وكأنه كان يريد أن يتشفَّى من الزمن بهجوه وهجو غيره من الشعراء لكساد شعره وهوان شأنه على الناس . ومن كبار الهجائين فى العصر ابن الهَبَّارية المتوفى سنة ٥٠٤ وسنترجم له فى غير هذا الموضع ، وقد ذكر العماد فى الخريدة أن له قصيدة (٣) فى هجو أرباب الدولة فى عهد ملكشاه السلجوقى (٤٦٥ — ٤٨٥) وساق منها قطعتين طويلتين ، وفيهم يقول :

---

(١) فوات الوفيات ١ / ٥٠٠ .
(٢) انظر فى ابن لنكك اليتيمة ٣٤٨/٢ وتاريخ بغداد ٢٩٩/٣ ومعجم الأدباء ٧٨/٧ والوافى بالوفيات ١٥٦/١ وفوات الوفيات ٥٤/١ وشعر ابن لنكك البصرى بتحقيق زهير غازى زاهد (طبع البصرة)
(٣) الخريدة (قسم العراق) ٢ / ٨١ .

لى مأتمٌ من سوء فِعْلهمِ   ولهم بحسن مدائحى عُرْسُ
ولقد غرستُ المدحَ عندهمُ   طمعا فحَنْظَلَ ذلك الغَرْسُ

ويمْضى فى ثَلْبهم واحداً واحداً أقبح ثلب وأشنعه . وعلى شاكلة هـــذه القصيدة سينية[1] للشريف أبى نزار عبدُ الله بن محمد الكوفى ذمَّ فيها سادات بنى عمه من الكوفة والحِلَّة . ومرَّ بنا تعرض سِبْط ابن التعاويذى للوزير ابن البلدى ، وفيه يقول ابن لنكك :

يبدو لراجيه على وَجْهِهِ   غِلْظةُ ليثٍ بالشَّرى مُخْدَرِ[2]
لو أنها بالأرض ما أخْصَبَتْ   أو بالسَّحاب الجَوْنِ لم يُمْطِرِ

وفى ديوان صفى الدين الحلى باب للهجاء كما أسلفنا ، وإنما نمثل فقط ببعض النصوص .

وطبيعى أن تكثر فى العصر الشــكوى من الزمــان ، ونكاد نلتقى بها بعـــد المتنبى على لسان كل شاعر ، ولا يختلف اثنان فى أن أروع قصيدة فى الشكوى من الدهر وتصاريفه قيلت فى العصر قصيدة أبى محمد[3] على بن زريق الكاتب الكوفى وهو من شعراء اليتيمة ، ويقال إنه ألمت به أيام عَسِرة ، فرأى الارتحال إلى الغرب ، وارتحل تاركاً وراءه فى بغداد زوجة كان صَبًّا بها مغرماً ، غير أن الأيام لم تسعفه ، ويبالغ بعض الرواة فيزعمون أنه ظل راحلا حتى وصل إلى الأندلس وامتدح أحد أمرائها ، فلم يعطه ماكان يتمناه ، فبكى أمله الضائع فى هذه القصيدة ، وفيها يقول مخاطباً زوجه وباكياً نفسه :

لا تَعْذليه فإن العَــذْلَ يُولِعهُ   قد قلتِ حقًّا ولـكنْ ليس يَسْمَعُهُ
فاستَعْملى الرِّفْقَ فى تأنيبهِ بدلاً   من عُنْفه فهْو مُضْنَى القلب موجَعُهُ
تأبى المطالبُ إلا أن تكلِّفَــهُ   للرِّزقِ سَعْياً ولـكنْ ليس يجمعه
والحرصُ فى المرء – والأرزاقُ قد قُسِمَتْ –   بَغْىٌ ألا إن بَغْى المرْءِ يَصْرَعُه
أعطيتُ مُلْكاً فلم أحسِنْ سياستَهُ   وكلُّ من لا يسوسُ الملكَ يَخْلَعُهُ

ويصوِّر فى القصيدة لوعة الفراق وسوء الحظ وأنه لا يزال فى حل وترحال وراء الرزق ، وهو يلمع له كسراب يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا انتهى إليه لم يجده شيئاً . والقصيدة كلها شكوى وأنين ولوعة ممضة . وسنقف قليلاً عند شاعرين من شعراء الهجاء ، أحدهما من شعراء اليتيمة والثانى من شعراء الخريدة ، وهما السرى الرفَّاء الموصلى وابن القطَّان البغدادى .

---

(١) الخريدة ٤ / ١ / ٢٦٢ .

(٢) الشَّرى : الغيل . مخدر : فى خدره أو غيله .

(٣) انظر فى ابن زريق اليتيمة ٢/٣٧٦ وابن خلكان ٥/٣٣٨ ويسميه محمدا ، وراجع بروكلمان ٢/٦٦ .

السَّرِىّ (١) الرَّفَّاء

هو أبو الحسن السرىّ بن أحمد الكندى الموصلى ، وُلد لأسرة متواضعة ، يدل على ذلك أننا نجد أباه يسلمه صبيا للرَّفَّائين ، فكان يَرْفو ويطرِّز ، ويبدو أنه تعلم القراءة والكتابة فى صباه وحفظ القرآن أو بعضاً منه واستظهر بعض الشعر ، إذ يقول مترجموه عنه إنه بينما كان يعمل رَفَّاء فى باكورة شبابه كان ينظم الشعر ويجيده . ويبدو أنه أخذ يُكِبّ على دواوين الشعراء ، وخاصة شعراء العصر العباسى المشهورين من أمثال أبى تمام والبحترى وابن المعتز وابن الرومى والمتنبى ، يدل على ذلك بوضوح الفصلُ الذى عقده الثعالبى لسرقاته . وكأنه أحسّ أنه إنما خُلق لكى يكون شاعراً لا لكى يكون رفَّاء ، ولم تكن حرفته تدرُّ عليه إلا كفافاً من العيش يسدُّ به رمقه ، وإلى ذلك يشير قائلاً :

قد كانتِ الإبرةُ فيما مضَى صائنـةً وَجْـهِى وأشعارى
فأصبح الرِّزْقُ بها ضيِّقًا كأنه من ثُقْبِها جارِى

واجتمع عزمه على أن يهجر حرفة الرَّفْو والتطريز إلى حرفة الأدب والشعر ، واشتغل بالوراقة فكان ينسخ ديوان شعر كُشاجم ، إذ كان معاصروه يقبلون عليه إقبالاً شديداً ، ويعيش بما يأخذ من أجرة نَسْخه .

وكان معه فى الموصل فتيان أخوان ينظمان الشعر ويجيدانه ، هما أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد الخالديان فحدثت بينه وبينهما منافسة ، وكانا يحسنان الشعر ، فرأى أن يكيد لهما بإضافة أجود ما ينظمانه إلى ديوان كشاجم ، ليزيد حجمه ويَنْفُق سوقه من جهة ، وليشنِّع عليهما بأنهما يسرقان شعره كما يسرقان شعر غيره من جهة ثانية ، مما أشعل نار الهجاء بينه وبينهما ، وظلت لا تخمد أبدا . ويسمع بما ينثره سيف الدولة الحمدانى فى حلب من عطايا وأموال على الشعراء ، فيشدّ رحاله إليه ، وقد أكرم وفادته عليه ، فأقام بحضرته ، فاشتهر وطلع سعده بعد الأفول ، وبَعُدَ صيته بعد الخمول ، وله فيه مدائح بديعة كقوله فى تصوير فرار الروم بين يديه ومَقْتلِته فيهم مقتلةً عظيمة :

تركتَهم بين مصبوغٍ تَرَائِبُهُ من الدماء ومخضوبٍ ذَوَائِبُهُ
فحائدٌ وشهابُ الرُّمْحِ لاحِقُهُ وهاربٌ وذُبابُ السيفِ طالِبُهُ

ذباب السيف : طرفه الحاد . ولما توفى سيف الدولة انتقل السَّرِىُّ إلى بغداد ومدح

(١) انظر فى ترجمة السرى الرفاء اليتيمة ١١٧/٢ الأدباء ١٨٢/١١ وابن خلكان ٣٥٩/٢ والنجوم الزاهرة ٦٧/٤ وتاريخ بغداد ١٩٤/٩ والأنساب للسمعانى ٢٥٥ ومعجم ٦٧/٤ وديوانه مطبوع بالقاهرة .

الوزراء وغيرهم من الرؤساء وحسنت حاله ،إذ نفق شعره وراج وسار فى الآفاق ، وتهاداه الأدباء فى خراسان وسائر البلدان . ويقول ابن خلكان إنه جمع شعره قبل وفاته فى نحو ثلاثمائة ورقة ثم زاد فيه ، ويذكر من تصانيفه كتاب الدِّيَرَة وكتاب المحب والمحبوب والمشموم والمشروب . وقد أنشد الثعالبى من شعره فى اليتيمة نحو ستين صحيفة وزعها على سرقاته وما تكرر من معانيه وأهاجيه ومديحه ولهوه ومجونه ورَبيعياته وأوصافه وغزلياته وما يتغنَّى به من أشعاره . ويسوق له الثعالبى طائفة من أهاجيه فى الخالديين مدعياً عليهما أنهما يسرقان أشعاره ، من ذلك قوله :

أفى كلِّ يومٍ للغبيَّيْن غارةٌ ... تروِّع ألفاظى المحجَّلة الغُرَّا
فمهلاً أبا عثمان مهلا فإنما ... يَغار على الأشعار مَنْ عَشِقَ الشِّعْرا
لأطفأتما تلك النجومَ بأسرها ... ودنَّستما تلك المطارفَ والأُزْرا
فوَيْحكما هَلاَّ بشطرٍ قنِعتما ... وأبقيتما لى من محاسنه شَطْرا

ويكثر من اتهام الخالديين بتلك السرقة ، ويردد ذلك فى مدائحه وأنهما يبيعان أشعاره فى العراق ، وليتهما يبيعانها لمن يستحقها ، فإنهما يبيعانها بثمن بخس لكل من لقياه ، غير مقدرَيْن لقيمتها ، ولا واعيَيْن لقدرها ، ويزعم أن غارتهما على شعره غارة عامة للمديح وغير المديح ، يقول :

ذئبان لو ظَفِرا بالشِّعْر فى حرمٍ ... لمزَّقاه بأنيابٍ وأظفارِ
باعا عرائس شعرى بالعراق فلا ... تبعدْ سباياه من عُونٍ وأبكارِ
وما رأى الناس سَبْياً مثل سَبْيِهما ... بيعتْ نَفيستهُ ظلما بدينارِ
والله ما مدَحا حَيًّا ولا رَثَيا ... مَيْتا ولا افتخرا إلا بأشعارى

ولا يزال يصف هذا السَّبْى الشعرى من عُون أو ثيبات وأبكار ، وكيف أن من هذا السبى جَرْحى لم تُضرب بحد سيف ، وأسرى لم تحمل على ظهور خيل . ويبكى تعبه فى نظم أشعاره ويشبهها بالرياض ويصور إشفاقها على أنفسها من هذين اللصين وسيوفهما التى تفتك بها فتكاً ذريعاً . ويعقد الثعالبى فصلاً لأهاجيه لابن العصب الملحى الشاعر وكان يتعصب للخالديين عليه ، وهو فى هجائه له يقذع إقذاعاً شديداً زاعماً مشاهدة أهل الرِّيَب فى منزله بين اللهو والخمر والقصف ، وكأنه لا يعيش فى منزل إنما يعيش فى حانة ، يقول فى وصف دعوة دعاه فيها ساخراً :

وطاف الشَّيْخُ بالدَّنِّ ... إلى أن نَزفَ الدَّنَّا
فأدْنى كدرَ العيشِ ... بها لا كان ما أَدْنى

مُدامٌ تجلب الهمَّ ولا تَطْرده عَنَّا
فلا النفسُ بها سُرَّتْ ولا القلبُ لها حَنَّا

وهى سخرية قاتلة من الشيخ ، ولم نسق ما أضافه إلى الخمر من التبذل والتهتك واطراح الحشمة فى صراحة ، لأن الهجاء بذلك يتحول سبًّا يؤذى النفوس . وفى رأينا أن هجاءه ينزل درجات عن بقية فنونه الشعرية ، وخاصة فى فنى المديح والغزل ، وكان يتغنَّى بشعره فى بغداد لعصره وبعد عصره بمثل قوله متغزلاً :

بنفسى مَنْ أجودُ له بنفسى وَيَبْخلُ بالتحية والسلامِ
وحَتْفِى كامنٌ فى مُقْلتَيهِ كُمونَ الموتِ فى حَدِّ الحسام

والصورة فى البيت الثانى بديعة . ولا يُعْرَفُ تاريخ مولده ، أما وفاته فكانت فى بغداد سنة ٣٦٠ وقيل سنة ٣٦٢ وقيل بل سنة ٣٦٦ إذ اتخذها دار مقام له فى أخريات حياته .

ابن القَطَّان[١] البغدادى

هو أبو القاسم هبة الله بن الفضل بن القطان ، ولد ببغداد سنة ٤٧٨ وأكب على دراسة الحديث النبوى فى نشأته ، ثم اتجه إلى دراسة الطب فأتقنها ، حتى عُدَّ من أطباء بغداد ، وكان كثيرَ النوادر ، وغلب عليه الشعر ، وكان خبيث اللسان هجاء ، كما كان غاية فى المجون والخلاعة وكثرة المزاح والدعابة ، وقد هجا جماعة من الأعيان وكبار رجال الدولة ، وكاد لا يسلم منه أحد لا خليفة ولا غيره ، وعوقب مرة على هجائه إذ هجا قاضى القضاة الزينبى بقصيدة كافية أولها :

يا أخى الشَّرْطُ أملَكُ لستُ للثَّلْبِ أتْرِكُ

وهى طويلة عدد أبياتها مائة وثمانية عشر بيتاً ، وتناقلتها الرواة واشتهرت ولاكتها الألسنة ، فبلغ ذلك القاضى الزينبى ، فأحضر ابن القطان وصفعه وحبسه مدة ، ثم ردَّ إليه حريته . وكان يعرف كيف يخز فى هجائه وَخزَ الإبر ، من مثل قوله فى الوزير أنوشروان ذامًّا له بالتواضع :

هذا تَواضعُك المشهورُ عن ضَعَةٍ فصرتَ من أجله بالكِبْرِ تُتَّهَمُ
قعدتَ عن أملِ الرَّاجى وقمتَ له فذا وثوبٌ على الطلاَّب لا لهمُ

(١) انظر فى ترجمة ابن القطان المنتظم ١٠/٢٠٧ وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة (نشر دار مكتبة الحياة ببيروت) ص ٣٨٠ وابن خلكان ٦/٥٣ ولسان الميزان ٦/١٨٩ ومرآة الجنان ٣/٣١٥ والخريدة (قسم العراق) ٢ / ٢٧٠ وفوات الوفيات ٢ / ٦١٧ .

ويكثر مثل هذا الوخز ومايحمل من سخرية فى هجوه ، مما يدل على قدرة حقيقية فى الهجاء ، إذ لم يكن يعمد إلى السب والشتم ، إنما يعمد إلى سموم تفتك بمن تسلَّط عليه كقوله فى ابن المرخّم قاضى القضاة ببغداد :

يا ابن المرخَّم صرتَ فينا قاضياً   خَرِف الزمانُ تُراه أم جُنَّ الفَلَكْ
إن كنتَ تحكمُ بالنجوم فربما   أمَّا بشَرْعِ محمدٍ من أين لَكْ

وهو بُعْدٌ فى الهجاء وهزء ما بعده هزء بقاضي القضاة فى عصره . وله قصيدة طويلة فى هجاء كتَّاب الديوان لزمنه ، وكان بينهم عباسيون ، فتعرض لأحدهم يغمزه فى نسبه إلى العباس بن عبد المطلب جَدِّه ، قائلاً :

نسبٌ إلى العباس ليس نظيرُهُ   فى الضَّعْف غَيْرَ الباقِلاَءِ الأخضرِ

وضعف عود الباقلاء الأخضر معروف . وله قصيدة طويلة يسخر فيها من واعظ ووعظه وأنه يعظ الناس بما لا ينهى عنه نفسه ، وله يقول :

وأنت تَنْهَى الناسَ عن غِيبَةٍ   فى مثلها تَأْمُرُ بالرَّدِّ
إما بتخويفٍ من النار أو   بنوعِ تشـويقٍ إلى الخُلْدِ
وبعد ذا تفعلُ بى هكذا   زِنْهارُ من سالوسك السَّرْدِ
وهذه العجمةُ مِنْ عندك اقْ   ـتبستُها ما هىَ من عِنْدى
ارجعْ إلى اللهِ ودَعْنى ولا   تَرْم بِسَهْمِ الطَّيْشِ من بُعْدِ

فهو ينهى الناس عن الغيبة ويغتابه ، مع أنه كثيراً ما يلوِّح للناس بأنها قد تدخلهم النار وأن تركهم لها قد يدخلهم الفردوس ، والشطر الثانى فى البيت الثالث عبارة فارسية يشير بها إلى أصل هذا الواعظ الأعجمى ، وكلمة زنهار كلمة استغاثة بالفارسية . والسالوس السرد : الكلام المعسول البارد . وهو يستغيث بذلك من وعظه ، ويقول له ساخراً إنما اقتبست هذه الصيغة الأعجمية من عندك فأنت أعجمى اللسان لا تكاد تفصح فى البيان ، ويناديه هازئا به ارجع إلى ربك واستغفر لذنبك . وتكثر فى القصيدة الألفاظ والعبارات الفارسية ، مما يدل على معرفته التامة لتلك اللغة . وعلى هذا النحو كان ابن القطان لا يزال يسخر سخريات لاذعة بمن حوله ، كقوله فى وزير كان يستثقل وزارته وظلَّه :

يا معشر الناسِ النفيرَ النفيرْ   قد جلس الهِرْدَبُّ فوق السَّريرْ
وصار فينا آمراً ناهيـاً   وكنت أرجو أنه لا يَصير
فكلما قلتُ قَذًى يَنْجلى   وظلمةٌ عما قليلٍ تُنِيرْ

فتحتُ عينى فإذا الدولةُ الـ ـدولةُ والشيخُ الوزيرُ الوزيرْ

والهردب : العجوز الغليظ ، يريد أنه لا يستطيع حراكاً فكيف يحرك دواليب دولة ، وإنه ليطلب إلى الناس أن تنفر للقاء هذا الأمر الخطير ، ويراها غُمَّة على صدر الأمة لا تنجلى ، ويفتح عينه فى كل يوم أو فى كل صباح فيراها جاثمة لا تريم . ولعله كان يريد القاضى الزينبى الذى زَجَّ به فى السجن كما مر بنا ، فإنه تولى الوزارة ، ويقال إنه لما وليها دخل عليه ابن القطان والمجلس غاص بأعيان الرؤساء وقد اجتمعوا لتهنئته ، فوقف بين يديه ودعا له وأظهر الفرح والسرور ، ورقَصَ . فلما رآه الزينبى يرقص أسرَّ إلى بعض خواصه : قبَّح الله هذا الشيخ ، فإنه يشير برقصه إلى ما تقول العامة فى أمثالها : « ارقص للقرد فى زمانه » . وبحق ما قاله الزينبى إذ نراه يقول فى هجائه لبعض الرؤساء :

كلُّ من صفَّقَ الزما نُ لــه قمتُ أرقصُ

وكان بينه وبين الحَيْصَ بَيْصَ الشاعر بُغْض ومهاترة ، وكانا يصطلحان وقتاً ثم يعودان إلى ما كانا فيه من التنابذ والتهاجى تماجنا وتظرفا ودعابة ، فمن ذلك أن الحَيْص بَيْص خرج ليلة من دار الوزير الزينبى ، فنبح عليه جَرْوُ كلبةٍ ، وكان متقلداً سيفاً ، فوكزه بعقب السيف ، فمات . وعلم بذلك ابن القطان ، فنظم أبياتاً ، وأضاف إليها بيتين من أبيات ديوان الحماسة لأعرابى قتل أخوه ابناً له ، فقُدِّم إليه ليثأر منه وكان بيده سيف ، فألقاه من يده وأنشد البيتين . وكتب ابن القطان الأبيات فى ورقة وعلَّقها فى عنق كلبة لها جِراء ، ورتَّب معها مَنْ طردها هى وجِراءها أو أولادها إلى باب دار الوزير كالمستغيثة ، فأُخِذت الورقةُ من عنقها ، وعُرِضت على الوزير ، فإذا فيها :

يا أهل بغدادَ إن الحَيْصَ بَيْصَ أتى بفعلةٍ أكسبتْه الخزْىَ فى البَلَدِ
هو الجبانُ الذى أبدى شجاعتَهُ على جُرَىٍّ ضعيفِ البَطش والجَلَدِ
فأنشدتْ أمُّه من بعد ما احتسبتْ : دَمُ الأُبَيْلقِ عند الواحد الصَّمدِ
« أقول للنفس تأساءً وتعزيةً إحدى يدىّ أصابتْنى ولم تُرِدِ
كلاهما خَلَفٌ من فَقْد صاحبه هذا أخى حين أدعوه وذا ولدى »

وجَلْبُ ابن القطان البيتين الأخيرين من ديوان الحماسة من أروع أمثلة التضمين ، فقد بلغ بهما كل ما أراد من سخرية بالحيص بيص ، إذ جعل الكلبة تقول بلسان حالها إن أخى الحَيْص بَيْص الذى موقعه منى موقع إحدى يدى جنَى علىَّ سهوا وخطأ لا عمداً ولا قَصْدا لسوء ، وإن كلا من الأخ القاتل سهواً والابن المفقود يعوّض عن

فقدان صاحبه ، وبذلك جعله من فصيلة الكلاب ، متسلـلاً إليه من تضمين البيتين فى مقطوعته ، فضلاً عما صوَّره به من الجبن والهلع إزاء جَرْوٍ مستضعف لا حول له ولا قوة . وكانت فى ابن القطان دعابة وميل شديد إلى النادرة ، وروى ابن خلكان طائفة من نوادره ، من ذلك أنه دخل على الوزير ابن هبيرة وعنده نقيب لـلأشراف يشتهر ببخله وكان دخوله عليه فى يوم حر شديد فى شهر رمضان ، فقال له الوزير : أين كنت ؟ فقال على البديهة : فى مطبخ سيدى النقيب أتبرد ، يريد أنه ليس فيه نار ولا طبيخ فى رمضان ، فضحك الحاضرون وخجل النقيب . ومازال يُطْرِف البغداديين بنوادره حتى توفّى عن سن عالية ببغداد فى عيد الفطر سنة ٥٥٨

٥

شعراء التشيع

مر بنا فى الفصل الأول كيف أن مذهب الشيعة الإمامية الاثنى عشرية أخذ يعم فى العراق منذ فواتح هذا العصر إذ كان البويهيون شيعة إمامية ، فأخذ المذهب ينتشر فى عصرهم ، وأخذ أتباعه يتكاثرون ، وتكاثر معهم الشعراء ، ومضوا ينظمون فى موضوعين أساسيين هما : مناقب على بن أبى طالب رضوان الله عليه ، متحدثين عن سيرته وانتصاراته على مشركى قريش وغيرهم وما فتح الله على يديه من حصون خَيْبَر ، مضيفين إلى ذلك كلَّ مايُرْوَى له من فضائل منذ اعتنق الدين الحنيف وجاهد فى سبيله إلى وفاته . أما الموضوع الثانى فهو بكاء الحسين وندبه ، واتسع ذلك حتى أصبح يوم مصرعه مأتماً عامًّا فى كَرْبَلاء وبغداد ، وهيأ لذلك أن حاكم بغداد البويهى معز الدولة ألزم الناس –كما أسلفنا– فى سنة ٣٥٢ بغلق الأسواق فى يوم عاشوراء ، يوم مقتل الحسين ، وأن ينصبوا القِباب ويرفعوا فوقها المسوح السوداء ، كما ألزمهم بأن تخرج النساء منشورات الشعور يندبن ويلطمن على الحسين . وأقيم مأتم مماثل فى كربلاء . ومنذ هذا التاريخ يتكرر هذا المأتم كل عام . وكان الإمامية لا يكتفون بهذا اليوم فكانوا يندبون الحسين فى أيام أخرى طوال العام ، وإن لم يأخذ ندبهم فيها شكل هذا المأتم الكبير. على كل حال أعدَّت هذه المآتم لأن يصبح بكاء الحسين وندبه موضوعاً أساسيا فى شعر الشيعة الإمامية ، وكثيراً ما تبارى الشعراء فيه يوم الاحتفال الكبير بذكرى مصرعه ، ولا يزال هذا شأنهم إلى اليوم . ولن نستطيع أن نتحدث بالتفصيل عن شعراء الشيعة الإمامية فى العصر ،

إنما حسبنا أن نشير إلى بعض مشاهيرهم ، ويمكن القارئ أن يعود إلى كتاب أدب الطّفّ (كَرْبلاء) لجواد شُبَّر المطبوع فى بيروت ، ويقرأ فيه الجزء الثانى الخاص بشعراء القرنين الرابع والخامس فسيرى كثيرين من شعراء الشيعة الإمامية ، وفى مقدمتهم الزاهى (١) الشاعر البغدادى المتوفى سنة ٣٦١ وقد أنشد له المؤلف مجموعة من القصائد فى بيان مناقب الإمام على بن أبى طالب ، واستهل إحدى قصائده بقوله :

تَوَلَّيْتُ خَيْرَ الخلق بَدْءًا وآخراً ... وألقيتُ رَحْلى فى حِماهم مُجاورا
أئمةُ حَقٍّ خاتَمُ الرُّسْل جَدُّهم ... ووالدهم من كان للحقِّ ناصرا

ومضى يذكر الأئمة الاثنى عشر واحداً واحداً مشيداً بهم إلى أن انتهى إلى مهديِّهم ، ويبكيهم ، ويمنى نفسه بظهور المهدى قائم الزمان ، حتى ينشر بين الناس العدل الذى لا تصلح حياتهم بدونه . ويبدو أنه كانت فى السَّرِىِّ الرفاء نزعة شيعية ، وقد أنشد له صاحب أدب الطفّ قصيدة موجودة فى ديوانه يمدح فيها آل البيت ويبكى الحسين قائلاً :

كأنَّ أحشاءنا من ذِكْرِه أبداً ... تُطْوَى على الجَمْرِ أو تُحْشَى السَّكاكينا

ومثله أبو بكر محمد الخالدى الموصلى ، ومرَّ بنا أنه كانت بينه وبين السَّرِىِّ منازعة فى الشعر ومهاجاة وأكبر الظن أنه كان شيعيا إماميا مثله ، فقد ترجم له صاحب أدب الطف ، ونرى الثعالبى فى اليتيمة ينشد له قطعة فى ندب الحسين يقول فيها (٢) :

عفَّرتمُ بالثَّرى جَبِينَ فتىً ... جبريلُ بعدَ النبىِّ ماسحُهُ
سيَّان عند الأنام كلِّهمِ ... خاذلُهُ منكمُ وذابحُهُ

وهو يُسَوِّى فى الإثم بين من خذلوه من أهل الكوفة ومن ذبحوه ، فجنايتهم واحدة فى رأيه . وكان طبيعيا أن تتكون مع هذا الندب والنواح فى بغداد والكوفة وكربلاء طائفة من النَّاحة ، ينوحون على الحسين فى يوم عاشوراء وغيره من الأيام (٣) ، واشتهر من بينهم ببغداد حوالى منتصف القرن الرابع الهجرى أحمد المزوّق ، وكان يجد أكبر

---

(١) انظر فى ترجمة الزاهى اليتيمة ٢٣٣/١ وابن خلكان ٣٧١/٣ والنجوم الزاهرة ٦٣/٤ وتاريخ بغداد ١١ / ٣٥٠ والمنتظم ٧ / ٥٩ وأدب الطف ٢ / ٥٠ .

(٢) اليتيمة ١٨٧/٢

(٣) فى نشوار المحاضرة للتنوخى (طبعة هندية) بتحقيق مرجليوث ٢١٩/١ أن رجلا يسمى ابن أصدق وامرأة تسمى خُلَّب كانا من الناحة على الحسين ، ومما كانا يتوحان به قصيدة لشاعر كوفى أولها :

أيُّها العَيْنان فيضا ... واستهلَّا لا تغيضا

مدد لنواحِه فى شعر الناشئ[١] الأصغر على بن عبد الله بن وصيف المتوفى سنة ٣٦٦ ويقول ابن خلكان : هو من الشعراء المحسنين ، وكان متكلماً بارعاً وله فى أهل البيت قصائد كثيرة ، ويقول ياقوت : «كان يعتقد الإمامية ويناظر عليها بأجود عبارة واستنفد عمره فى مديح أهل البيت حتى عُرِف بهم» وأشعاره فيهم لا تحصى كثرة . وكثير من هذه الأشعار كان يناح بها فى مساجد بغداد ، ينوح بها أحمد المزوّق وغيره ، ويُرْوى أنه ناح يوماً فى أحد هذه المساجد بقصيدة ملتاعة للناشئ الأصغر ، وفيها يقول :

بنى أحمدِ قلبى لكم يتقطَّعُ ... بمثل مصابى فيكمُ ليس يُسْمَعُ
عجبتُ لكم تَفْنَوْن قتلاً بسيفكم ... ويَسْطو عليكم مَنْ لكم كان يَخْضَعُ
كأنَّ رسولَ اللهِ أوصى بقتلكم ... فأجسامُكم فى كل أرضٍ توزَّعُ
فما بُقْعَةٌ فى الأرضِ شرقاً ومغرباً ... وليس لكم فيها قتيلٌ ومَصْرَعُ

وكان الشاعر حاضراً ، فظل يلطم وجهه ، وتبعه النائح والحاضرون يلطمون وجوههم وينوحون بأبيات القصيدة من الضحى حتى صلاة الظهر . وللناشئ قصيدة بائية يدعو فيها للأخذ بثأر الحسين كان الناس ينوحون بها فى أيامه ببغداد وفى مشهد الحسين بكربلاء ، وفيها يقول :

متى تأخذون الثأرَ ممن تألَّبوا ... عليكم وَشبُّوا الحربَ وهْىَ ضُروبُ
شهيدٌ توزَّعْنَ الصوارمُ جسمَه ... فخرَّ بأرض الطَّفِّ وهْو تَريبُ
قتيلٌ على نَهْرِ الفُراتِ على ظَمًا ... تطوف به الأعداءُ وهْو غَرِيبُ

وأرض الطف : كربلاء . وتريب : معفّر بالتراب . والناشئ الأصغر يشير إلى سفك دم الحسين بكربلاء ، ويمضى فيشيد بالأئمة الأولين : على والحسن والحسين الذين حَوَوا – فى رأيه – علم كل ما قد كان أو هو كائن أو يكون ويقول :

حَوَوْا علمَ ما قد كان أو هو كائنٌ ... وكلَّ رشادٍ يبتغيه طلوبُ
وقد حفظتْ غَيْبَ العلوم صدورُهم ... فما الغيبُ عن تلك الصدور يغيبُ

ولابد أن نلاحظ أن كثيرين من الشعراء بكوا الحسين ، ولم يكونوا شيعة مثل سبط ابن التعاويذى ، وهو أكبر مداح للخلفاء العباسيين فى القرن السادس ، حتى إنه ليخلع عليهم صفات أئمة الشيعة كما مر بنا فى غير هذا الموضع ، ومع ذلك رأينا له مرثية يائية للحسين ، إن صح أنها له كما مرَّ بنا . وكأنما أصبح رثاؤه موضوعاً عاماً يشترك فيه الشيعة وغير الشيعة ،

(١) انظر فى الناشئ الأصغر اليتيمة ١/٢٣٢ ومعجم الأدباء ١٣/٢٨٠ وابن خلكان ٣/٣٦٩ ولسان الميزان ٤/٢٣٨

لعظم المحنة فيه . ولعل فيما قدمنا ما يصور من بعض الوجوه نشاط الشعر الشيعي فى فواتح العصر ، وظل ذلك سارياً طوال حقبه ، وهو جانب يطول عرضه ، ولذلك نكتفى بالحديث عن ثلاثة ، لعل أولهم وثانيهم يعدان أنبه شعراء العراق بعد المتنبى ، وهم الشريف الرضى ومهيار وابن أبى الحديد .

الشريف الرضى (١)

هو أبو الحسن محمد بن الطاهر أبى أحمد الحسين من سلالة جعفر الصادق المعروف بالموسوى ، كان أبوه أبو أحمد عظيم المنزلة عند خلفاء بنى العباس والبويهيين ، وتولى نقابة الطالبيين مرات ، وتولى المظالم والحج بالناس دفعات ، وقد وُلد له أولا الشريف المرتضى سنة ٣٥٥ ثمُ ولد له الشريف الرضى سنة ٣٥٩ ولما شبَّا كانا ينوبان عن أبيهما فى النقابة ، منذ سنة ٣٨٠ وخُلع عليهما من دار الخلافة واختص أبوهما بالنظر فى المظالم وأمور المساجد والحج بالناس ، وكتب أبو إسحق الصابىء عهدا بذلك . وكانت تربط الشريف الرضى بالخليفة الطائع مودة وثيقة . ويُقْبض على الخليفة فى سنة ٣٨١ ويتولى الخلافة القادر ، ويعفى والد الشريف الرضى من وظائفه فى سنة ٣٨٤ وتُرد إلى الشريف الرضى تلك الوظائف جميعا سنة ٣٨٨ وأبوه حى .

وقد تتلمذ الشريف لعلماء عصره فى بغداد من رجال الشيعة وغيرهم ، مثل أبى على الفارسى وابن جنى والمرزبانى فى اللغة والنحو ، والقاضى عبد الجبار فى الاعتزال ، والشيخ المفيد فى الفقه وأصول العقيدة الإمامية . وأكبر الظن أنه لم يَتْرك مفسراً لعصره إلا اختلف إلى دروسه ، بل لقد أقبل على كتب التفسير السابقة يعبُّ منها ، يدل على ذلك كتابه فى التفسير الذى ذكرناه فى غير هذا الموضع والذى سماه حقائق التأويل فى متشابه التنزيل ، وبالمثل أقبل على كتب الحديث النبوى يَنْهَلُ منها ، على نحو ما يتضح فى كتابه المجازات النبوية . ومعروف أنه هو الذى جمع خطب الإمام على فى الكتاب المعروف باسم نهج البلاغة ، وعرضنا فى كتابنا « العصر الإسلامى » لما داخله من وضع .

---

(١) انظر فى ترجمة الشريف الرضى اليتيمة ١٣١/٣ وابن خلكان ٤١٤/٤ والدمية ٢٧٣/١ وتاريخ بغداد ٢٤٦/٢ وإنباه الرواة ١١٤/٣ والمنتظم ٢٧٩/٧ والوافى بالوفيات ٣٧٤/٢ ولسان الميزان ١٤١/٥ والشذرات ١٨٢/٣ ومرآة الجنان ١٨/٣ وروضات الجنات ص ٥٧٣ والنجوم الزاهرة ٢٤٠/٤ وميزان الاعتدال ٥٢٣/٣ وراجع فيه عبقرية الشريف الرضى لزكى مبارك والشريف الرضى لإحسان عباس . والديوان مطبوع طبعات مختلفة فى بمباى والقاهرة وبيروت .

وكان ذكيا ذكاء نادراً مع حضور البديهة ورهافة الحس ، ويُرْوَى أنه أُحضر إلى يوسف بن أبي سعيد السيرافى النحوى وهو طفل لم يبلغ عمره عشر سنوات ، فلقنه النحو ، وقعد معه يوماً فى حلقته – كما يقول مترجموه – فذاكره بشىء من الإعراب على عادة التعليم ، فقال له : إذا قلنا « ضرب زيداً عمرا » فما علامة النصب فى عمرو ؟ فقال : بغض على (يشير إلى عمرو بن العاص) . فعجب أستاذه والحاضرون من حدة خاطره . وهو زعيم شعراء العراق فى عصره غير مدفع ، وقد تفتحت موهبته الشعرية مبكرة بعد العاشرة من عمره بقليل كما يقول الثعالبى ، ويمضى مشيداً به وبشعره قائلاً : « هو اليوم أبدع أبناء الزمان وأنجب سادة العراق ، يتحلَّى مع مَحْتِده الشريف ، ومفخره المنيف ، بأدب ظاهر ، وفضل باهر ، وحظ من جميع المحاسن وافر ، ثم هو أشعر الطالبيين : من مضى منهم ومن غَبر ، ولو قلت إنه أشعر قريش لم أبعد عن الصدق ، وسيشهد بما أجريه من ذكره شاهد عدل من شعره العالى القِدْح ، الممتنع عن القَدْح ، الذى يجمع إلى السلاسة متانة ، وإلى السهولة رصانة ، ويشتمل على معان يقرب جَناها ، ويبعد مداها » . ويقول صاحب الدمية : « أنا إذا مدحته كنت كمن قال للشمس : ما أنورك . . وله شعر إذا افتخر به أدرك من المجد أقاصيه ، وعقد بالنجم نواصيه » . وقد توفى ببغداد ودفن فى الكرخ سنة ٤٠٦ وهو فى السابعة والأربعين من عمره ، ويقال إن رفاته نُقل إلى مشهد الحسين فى كربلاء .

ويدل شعر الشريف الرضى على أنه تأثر أشد التأثر بالمتنبى فقد أكبَّ عليه يقرؤه المرة والمرات ، محبًّا له متعاطفاً معه ، متمثلاً لكل ما يقول من شكوى الزمان وأنه لا يعطيه مايستحقه ، وكان المتنبى كما مرَّ بنا يريد أن يكوِّن دولة عربية ، والدهر يناهضه ، وكان الرضى يشعر فى أعماقه بأنه خليق أن يكون هو الخليفة دون أبناء عمه العباسيين ، وتدفعه الضرورة إلى مصانعتهم بمديح لا يزال يزخر – مثل مديح المتنبى – بالفخر والشكوى من الأيام التى لا تنيله مبتغاه ، حتى ليقول للقادر :

عطفاً أميرَ المؤمنين فإننا ... فى دَوْحةِ العَلْياء لا نتفرَّقُ
ما بيننا يومَ الفَخار تفاوتٌ ... أبداً كِلانا فى المعالى مُعْرِقُ
إلا الخلافةَ ميَّزتْك فإننى ... أنا عاطلٌ منها وأنت مطوَّق

وظل شعوره بأحقيته فى الخلافة لا يفارقه طوال حياته ، مما جعل أشعاره تُطْبع – كما طُبعت أشعار المتنبى – بالتذمر من الدهر ، بل بالثورة عليه دون أن يلم به شىء من يأس أو قنوط . وليس هذا ما يجمعه بالمتنبى فقط ، فإنه يجمعه به أيضاً شعور عارم بالفتوة وقوة النفس والكبرياء والكرامة والأنفة والعزة ، ولذلك كان شعرهما من خير ما يُرَبَّى به

الشباب ، إذ يدلع فى أنفسهم الشعور الطاغى بالقوة وتمثل الأخلاق الرفيعة ، على نحو ما نرى فى هذه الأبيات من قصيدة :

لغير العُلا منى القِلَى والتجنُّبُ ... ولولا العُلا ما كنت فى الحبِّ أرغبُ
وإن تَكُ سِنِّى ما تطاول باعُها ... فلى من وراء المَجْدِ قلبٌ مُدَرَّبُ
وحسبىَ أنى فى الأعادى مبغَّضٌ ... وأنى إلى غُرِّ المعالى محبَّبُ
وللحِلْم أوقاتٌ وللجهل مثلُها ... ولكنَّ أوقاتى إلى الحلم أقرب[١]
ولا أعرف الفَحْشاء إلا بوصفِها ... ولا أنطق العَوْراءَ والقلبُ مُغْضَبُ[٢]

وتموج أشعاره بمثل هذا الفخر الذى يُضْرِم جذوةَ النفس ويوقدها إيقاداً ويدفعها دفعاً إلى النهوض بجلائل الأعمال . وجامعة ثالثة تجمعه بالمتنبى هى استشعار البادية وروحها ، إحساساً منه بأنه عربى أصيل ، نفس إحساس المتنبى الذى دفعه إلى أن يجعل البدويات موضع نسيبه ، كذلك صنع صنيعه الرضىُّ ، فهو دائم التغزل بالبدويات ، دائم الافتتان بهن والتغنى بجمالهن وحسنهن الطبيعى ، وله فى ذلك أشعار بديعة من مثل قوله :

يا ظَبْيَةَ البانِ تَرْعَى فى خَمائلِه ... لِيَهْنِكِ اليومَ أنَّ القلبَ مَرْعاكِ
الماءُ عندكِ مبذولٌ لشاربِهِ ... وليس يُرْويكِ إلا مَدْمَعُ الباكى
سَهْمٌ أصاب وراميه بذى سَلَمٍ ... مَنْ بالعراق لقد أبعدتِ مَرْماكِ[٣]
حكتْ لِحاظُكِ ما فى الرِّيم مِن مُلَحٍ ... يومَ اللِّقاء فكان الفَضْلُ للحاكى
أنتِ النعيمُ لقلبى والجحيمُ له ... فما أمرَّكِ فى قلبى وأحلاكِ

وهو نسيب رقيق كنسيب العذريين ، بل ربما كان أكثر رقة ، إذ تجرى فيه نغمة من لأسى والحزن واللوعة وكأنما يبثُّ فيه يأسه من آماله فى الخلافة ، وكأنما يراها نفس هؤلاء البدويات اللائى يتعثر فى شباك هواهن ، دون أن يقطف شيئاً من أزهار حبِّه . وإنما استطردنا كل هذا الاستطراد فى الشريف الرضىِّ ليطلع القارئ على روعة أشعاره ، قبل أن نعرض لرثائه جده الحسين ، وفى الديوان مراث كثيرة لأم الرضىِّ وأبيه ولبعض أساتذته وأصدقائه مثل ابن جنى وأبى إسحق الصابئ ، وله فى جده الحسين خمس مراث ، وهو يتسع أحياناً فى بعضها فيجعلها مرثية عامة لآل البيت ، ونكتفى بأن نعرض أهمها فى رأينا ، وهى آخر مراثيه لجده ، وأعتقد أنه أراد بها النُّواح عليه وأن ينشدها النَّاحةُ فى بغداد وكَرْبلاء ، وهو يستهلها بقوله :

---

(١) الجهل هنا : الغضب
(٢) العوراء : الكلمة القبيحة
(٣) ذوسلم : موضع بالحجاز . والسلم : شجر من العضاه .

كَرْبَلا لازلتِ كَرْباً وبَلا ما لَقِي عندكِ آلُ المصطفىَ

ويصوِّر الموقعة وما سال فيها من دماء طاهرة ودموع جارية ، والنساء اللائى كن مع الحسين يمسحن الرمل عن نحْرِه الملطَّخ بالدماء ، ولم تلبث الوحوش أن طعمت من أشلاء القتلى أرجلاً طالما قامت إلى الصلاة وأيْماناً طالما رُفِعَتْ إلى السماء ووجوها طالما تبَتَّلَتْ إلى الله ، وينشد :

يا رسولَ الله لو عاينتَهم وهمُ ما بين قَتْلَى وسِبَا
لرأتْ عيناكَ منهم منظراً لِلْحَشَا شَجْواً وللعَيْن قَذَى
ليس هذا لرسول الله يا أُمَّةَ الطُّغْيانِ والبَغْيِ جزَا
غارسٌ لم يَأْلُ فى الغَرْسِ لهم فأذاقوا أهلَهُ مُرَّ الجَنَا
جَزَرُوا – جَزْرَ الأَضاحِي – نَسْلَهُ ثم ساقوا أهْلَهُ سَوْقَ الإما[1]

وهو يصوِّر رَكْب الحسين ، أما الرجال فسُفكت دماؤهم الذكية ، وأما النساء فسِيقوا سبيَّات محمولات على ظهور الإبل دون مهاد أو كساء يَسْترحن عليه ، فيا للظلم وياللقسوة ، وهن مشعَّثات الشعور مكشوفات الوجوه والأعناق يهتفن باسم رسول الله ، ولا من يُشْفق عليهن أو يرحم . ويقول الرضى : أهكذا يكون جزاء رسول الله فى سبطه وآله ؟ يَغْرس وتُفْتَحُ لدينه الحنيف الأرض ولا يذوق أهله سوى الحنظل ، بل إنهم ليُذْبَحُون ذبح الأضاحى ، يُذْبح الرجال ، وتساق النساء سَبيَّات ، ويتجه الرضى إلى جده الحسين منشداً :

يا قتيلاً قوَّض الدهرُ بِهِ عَمَدَ الدينِ وأعلامَ الهُدى
قتلوه بعد علمٍ منهمُ أنه خامسُ أصحاب الكِسا[2]
مرهقا يدعو ولاغَوْثَ له بأبٍ بَرٍّ وجَدٍّ مُصْطفى
وبأمٍّ رَفَع الله لها عَلَماً ما بين نِسْوان الوَرَى
مَيِّتٌ تبكى له فاطمةٌ وأبوها وعليٌّ ذو العُلا
لو رسولُ الله يَحْيَا بعده قَعَدَ اليومَ عليه لِلْعَزَا

والقصيدة كلها لوعات وأنات على هذا النحو ، وعُنى الرضى برصف كلماتها بحيث لا تعلو على أفهام العامة ، ولتكون صالحة لكى يردِّدها الناحة . وجعلت هذه السهولة

---

(١) الأضاحى : ذبائح عيد الأضحى . الإما : الإماء .

(٢) يشير إلى حديث ترويه الشيعة الإمامية : يقولون إن الرسول ﷺ ألقى كساء عليه وعلى السيدة فاطمة الزهراء وعليٌّ وابنيه الحسن والحسين ، وقال : هؤلاء عِتْرتى وأهل بيتى ، وبذلك سموا أصحاب الكِساء .

فى ألفاظها بعض الباحثين يظن أنها منحولة على الرضى ، وليست من الانتحال فى قليل ولا كثير ، إذ هى سهولة مقصودة لتخف على ألسنة الناحة والناس .

مِهْيار [1]

هو أبو الحسن مهيار بن مَرْزَوَيْهِ الدَّيْلمىّ الفارسى الأصل ، وُلد على ما يظهر حوالى سنة ٣٦٠ للهجرة ويغلب أن يكون ميلاده بعدها بقليل ، وليس لدينا معلومات دقيقة عن مسقط رأسه ونشأته ، فهل وُلد ببغداد وبها نشأ ، وكان بها مجوس كثيرون ، أو وُلد فى بلاد الدَّيلم ، وهاجر منها وحده أو مع أبيه ؟ . وأغلب الظن أنه وُلد ببغداد وتربَّى بها وتثقف . ولا نعرف من كانوا أساتذته وتخرَّج على أيديهم ، ويبدو أنه كان فيه ذكاء حادٌّ جعله يحسن العربية سريعاً ، ويُرْوَى أنه كان يسكن فى الكرخ مستقرّ شيعة بغداد الإمامية ، ولعل ذلك هو الذى أعطاه الفرصة لكى يدرس عقيدتهم ، حتى إذا أسلم انتظم فى سلكها .

ونظن ظنا أنه كان يحضر قبل اعتناقه الإسلام دروس رأس الإمامية فى زمانه محمد بن محمد بن النعمان المشهور بالشيخ المفيد المتوفى سنة ٤١٣ وكان يُلْقى دروسه فى الكَرْخ . ويقول بعض مترجميه إنه أسلم على يد الشريف الرضى سنة ٣٩٤ ونظن ظنا أن إسلامه يسبق هذه السنة بشهادة كثير من قصائده المؤرخة فى ديوانه ، ونراه يذكر فضل أبى العباس الضبى عليه فى إرشاده وهدايته إلى الإسلام ، إذ يقول فى إحدى مدائحه له :

هو المُنْقذى من شِرْك قومى وباعثى على الرُّشْد أن أُصْفِى هواىَ محمَّدا
وأتْرُكَ بيتَ النارِ يبكى شَرارُه علىَّ دما إذ صار بيتىَ مسجدا

والمظنون أنه زار أبا العباس الضبى حين كان وزيراً بمدينة الرَّىِّ . على كل حال من الممكن أن يكون أسلم على يد الشريف الرضى . ولكن ليس من الضرورى أن يكون تاريخ إسلامه صحيحاً . ويقال إن الرضى أعانه فى أن يصبح كاتباً بدواوين الخلافة ، ولا نعرف متى كان ذلك بالضبط ، وأغلب الظن أن ذلك يسبق إسلامه ، ودائماً يلقبه مترجموه بلقب الكاتب .

وإذا كنا ترددنا فى أن يكون إسلامه على يد الرضى فى سنة ٣٩٤ فما لا يقبل شكا أنه

---

(١) انظر فى ترجمة مهيار تاريخ بغداد ١٣ / ٢٧٦ والدمية ١ / ٢٨٤ والمنتظم ٩٤/٨ وابن خلكان ٥/٣٥٩ وعبر الذهبى ٣ / ١٦٧ والشذرات ٣ / ٢٤٢ والنجوم الزاهرة ٥ / ٢٦ والفن ومذاهبه فى الشعر العربى (الطبعة العاشرة) ص ٣٥٥ .

هو الذى رعاه أدبيا ، وخاصة أنه رأى عنده استعداداً حسناً ، فمضى معه يثقِّفه ويدرِّبه ، حتى خرَّجه شاعراً بارعاً . والرضىُّ بذلك يُعَدُّ استاذه الفنى ، فلا غرابة إذا وجدنا التلميذ ينسج على منوال أستاذه ، وهو نسيج يلاحَظُ من جهتين : جهة معارضته لكثير من قصائد الرضى ، يأخذ منه الوزن والقافية ، وينظم على غراره . وجهة ثانية لعلها أهم هى تمثُّلُ اتجاهاته الشعرية ، ونقصد اتجاهات الشكوى من الزمن والفخر والنزوع إلى التبدِّى أو النسيب والغزل بالبدويات ، أما الشكوى فإنه يشكو كثيراً سوء بخته وأن الزمن لا ينيله ما يتمنى ، بل يقف حجر عَثْرة دون أمانيه .

وكان الرضى يفخر بمحتده الشريف وعروبته العريقة ، فماذا يفخر مهيار؟ لقد اتجه بفخره فى بواكير حياته نحو قومه ، وبذلك استحال فخره شعوبيا ذميماً ، على نحو ما يلقانا فى مثل قوله :

أَعْجَبَتْ بى بين نادى قَوْمِها أُمُّ سَعْدٍ فمضتْ تسألُ بِى
قَوْمِىَ استولَوْا على الدهرِ فَتىً ومَشَوْا فوق رءوسِ الحِقَبِ
عمَّموا بالشمسِ هاماتِهِمُ وبنَوْا أبياتهم بالشُّهُبِ
قد قَبَسْتُ المجد من خَيْرِ أبٍ وقبستُ الدينَ من خيرِ نبى
وضممتُ الفخرَ من أطرافهِ سؤْدُدَ الفُرْسِ ودينَ العربِ

وقد التقينا بهذا الصوت المنكر فى كتاب العصر العباسى الأول عند بشار ، وأخذ يَخْفت غير أنه كان يظهر من حين إلى حين ، حتى إذا كان ابن قتيبة وجدناه يمزج بين الثقافة الإسلامية العربية – كما أشرنا إلى ذلك فى كتاب العصر العباسى الثانى – وبين الثقافات الأجنبية ، حتى يزيل الحواجز والفروق بين النوعين من الثقافات والحضارات ، وحتى يقطع الطريق على الشعوبيين ومايدَّعونه من تفوق الفرس والروم على العرب فى الحضارة والمدنية . ومع ذلك ظلت أصوات ضعيفة ترتفع من حين إلى حين ، كصوت أبى عبد الله أحمد بن محمد بن نصر الجَيْهانى وزير السامانيين وكان يُظْهر الإسلام ويبطن الزندقة ، فألف كتاباً حمل فيه على العرب وتبدِّيهم حملات شعواء ، صورها أبو حيان فى كتابه الإمتاع والمؤانسة ، ناقضاً لها نقضاً شديداً . وكأنما وجد الجيهانى الفارسى فى مهيار مستجيباً له ، لا فى هذه البائية وحدها ، بل أيضاً فى قصائد أخرى . ونراه مع الزمن يتخلص من هذه النزعة الشعوبية ، ويملأ شعره بالحنين إلى نجد وبدوياتها الفاتنات ، مستلهماً فى ذلك أستاذه الرضىَّ ، بمثل قوله :

يا نسيمَ الصُّبحِ من كاظِمةٍ ... شَدَّ ماهِجْتَ الجوَى والبُرَحا [1]
الصَّبَا ! إن كان لابُدَّ الصَّبا ... إنها كانتْ لقلبى أرْوَحَا
يا نداماىَ بِسَلْعٍ هل أرى ... ذلك المَغْبَقَ والمُصْطَبَحا [2]
اذكرونا مثل ذِكْرانا لكم ... رُبَّ ذِكْرى قرَّبتْ من نَزَحا
واذكروا صَبًّا إذا غنَّى بكم ... شَرِبَ الدَّمْعَ وعافَ القَدَحا
قد عرفتُ الهمَّ من بعدكمُ ... فكأنى ما عرفتُ الفَرَحا

وهذه القطعة وسابقتها من أروع شعر مهيار فى البناء اللفظى ، وهما لذلك لا توضحان خصائصه الفنية التى تحدثت عنها بالتفصيل فى كتاب «الفن ومذاهبه فى الشعر العربى» حيث أوضحت أثر نشأته الأعجمية فى شعره وأن اللفظة الحادة كانت تضلّ منه ، فكان يدور حول الفكرة دوراناً يصيب شعره أحياناً بغير قليل من الركاكة والإسفاف ، وكان مع ذلك يُطيل قصائده طولاً مسرفاً ، مما جعل رُقْعَتها تتسع أو قل رُقَعها ، فيتضح فيها التلفيق وكثرة التكرار للكلمات وما يدخل فى ذلك من الحشو والاعتراض . وحين أسلم أخذ يُكثر فى شعره من ذكر مناقب أهل البيت ورثاء الحسين ، ولم يكتف بذلك ، كما كان يصنع أستاذه ، بل أكثر أيضاً من سَبِّ الصحابة رضوان الله عليهم ، ويُرْوَى أن أبا القاسم بن برهان النحوى قال له : يا أبا الحسن ! انتقلت بإسلامك فى النار من زاوية إلى زاوية ، فقال له : وكيف ذلك ؟ قال أبو القاسم : لأنك كنت مجوسيا وصِرْتَ تسبّ أصحاب رسول الله ﷺ ، والمجوسى والرافضىّ فى النار . وله من قصيدة يمدح فيها آل البيت ، وقد بث فى مطلعها شكواه من الزمن :

لَئِنْ نامَ دهرىَ دون المُنَى ... فلى أُسْوَةٌ ببنى أَحْمَدِ
بأكرمِ حَىٍّ على الأرض قامَ ... ومَيْتٍ توسَّد فى مُلْحَدِ
أتاكم على فَتْرَةٍ فاستقام ... بكم جائرين عن المقْصِدِ
ووَلِىَّ حميداً إلى ربِّهِ ... ومَنْ سَنَّ ما سنَّه يُحْمَدِ
وقد جعل الأمرَ من بعده ... لِحَيْدَرَ بالخبر المُسْنَدِ
وسَمَّاه مَوْلىً بإقرارِ مَنْ ... لو اتَّبع الحقَّ لم يَجْحدِ

وواضح أن تعبيره عن حرمان الدهر له ما يتمناه بنومه عنه غير دقيق ، وهو تعبير فاتر إن صح هذا التعبير ، والأبيات الأربعة التالية فى مديح الرسول عليه السلام ، وهى تخلو

(١) كاظمة : موضع على الخليج العربى جنوبى العراق فى الكويت . (٢) سلع : جبل متصل بالمدينة .

من أى حرارة ، وكأنها نثر لُفِّقت ألفاظه وهو فى البيتين الأخيرين يشير إلى ماتذهب إليه الشيعة من أن الرسول عليه السلام أوصى لعلى أو كما يسميه حَيْدَراً بالخلافة يوم غديرخُمّ ، إذ آخاه قائلاً – كما يروون – : علىٌّ منى كهرون من موسى ، اللهم وال مَنْ والاه وعادِ مَنْ عاداه ، وانصر من نصره واخذل من خذله . والأبيات تخلو من العاطفة ومن اللذع والحدة ، ولذلك لا تكاد تؤثر فى قارئها أى تأثير . وله فى رثاء على والحسين قصائد أخرى من أروعها لاميته ، وفيها يقول :

وشهيدٍ بالطَّفِّ أبكَى السَّمَوَا ... ت وكادتْ له تزولُ الجبالُ
يا غليلى له وقد حُرِّم الما ... ءُ عليه وهْوَ الشراب الحلالُ
قُطِعَتْ وُصْلَةُ النبىِّ بأن تُقْـ ... ـطَعَ من آل بيتِهِ الأوصال
لم تُنَجِّ الكهولَ سنٌّ ولا الشُّـ ... ـبَّانَ زُهْدٌ ولا نجا الأطفال
لهفَ نفسى يا آل طَه عليكم ... لهفةً كلُّها جَوًى وخَبال

وهو رثاء حار يمتلئ باللوعة والحسرة والنواح على الحسين ومن قُتل معه من آل بيته . ولمهيار مراث أخرى فى الحسين وآله تَجْمد فيها العاطفة فلا نار تتقد فى الأحشاء ولا لهب يستعر فى الأفئدة . وليس معنى ذلك أن مهيار لم يكن مخلصاً لعقيدته الإمامية ، ولكن معناه ما قلته من أنه كان يعثر على ضالته من التعبير اللاذع أحياناً ، وأحياناً يضل منه هذا التعبير ، لأنه لم ينشأ فى مهد عربى يمكِّنه دائماً من تملك السليقة العربية فى التعبير والصياغة .

ابن أبى[1] الحديد

هو عز الدين عبد الحميد بن هبةالله المعروف بابن أبى الحديد ، ولد فى « المدائن » سنة ٥٨٦ لقاضيها وأحد العدول فيها ، وبها نشأ وتلقى معارفه ، ويقول ابن خلكان عنه وعن أخ له يسمى موفق الدين إنهما كانا فقيهين أديبين ، لهما أشعار مليحة » . ويبدو أنه شبَّ على الاعتزال والتشيّع جميعا ، وكان لا يزال يغدو ويروح إلى بغداد وإلى حى الكَرْخ الشيعى

(١) انظر فى ترجمة ابن ابى الحديد وفيات الأعيان ٣٩١/٥ وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبى ٥١٩/١ ومعجم الألقاب لابن الفوطى ج ٤ ق ١ ص ١٩٠ وذيل مرآة الزمان (طبع حيدر آباد) ٦٢/١ والتكملة لوفيات النقلة للمنذرى (طبع النجف) ٢٤٥/٤ وقد طبعت قصائده السبع العلويات فى إيران وطُبعت مشروحة فى صيدا بلبنان وطبعت قصائده المستنصريات ببغداد ، وله مؤلفات مختلفة ، من أشهرها شرح نهج البلاغة للإمام على والفلك الدائر على المثل السائر

خاصة ، ثم لا يلبث أن يعود إلى مسقط رأسه ، حتى إذا بلغ الخامسة والعشرين من عمره نظم قصائده السبع العلويات ، وهى فى مديح على بن أبى طالب وبيان فضائله ، وفيها لا يبدو شيعيا إماميا فى هذه الحقبة من حياته ، بل يبدو رافضيا غالياً فى الرفض ، إذ يخلع على الإمام علىٍّ صفات الله جل شأنه ، وكأنه حلَّ فيه وامتزج بذاته ، تعالى الله علواً كبيرا عما يلجّ فيه من مثل قوله فى علىٍّ أو كما يسميه حيدراً[1] :

والله لولا حَيْدَرٌ ما كانت الـ ـدُّنْيا ولا جَمَعَ البريَّةَ مَجْمَعُ
من أجله خُلِقَ الزمانُ وضوَّءتْ شُهُبٌ كَنَسْنَ وجَنَّ ليلٌ أدْرَعُ[2]
عِلْمُ الغيوبِ إليه غيرَ مدافَعٍ والصُّبْحُ أبْيَضُ مُسْفِرٌ لا يُدْفَعُ
وإليه فى يوم المعادِ حسابُناَ وهْو الملاَذُ لنا غَداً والمفْزَعُ

فعلىٌّ علة الوجود من أجله خُلقَ الكون والزمان وأضاءت الشمس والكواكب وأظلم الليل وانتشرت دُجُنَّتُه ، وهو علام الغيوب أو عالمها ، وهو – يومَ البعث – الذى سيحاسِبُ الناس على ما قدمتْ أيديهم من خير أو شر . وكل هذا تجديف فى حق الذات العلية ، فعلى ليس علة الكون والوجود ، فمثله مثل البشر جميعاً ، حقا هو صحابى جليل ، ولكن ذلك لا يرفعه على بشريته ولا يجعله سر الوجود ولا علة له ، ومعاذ الله أن يكون علام الغيوب ، وقد استأثر الله بعلم الغيب كما نصت على ذلك آيات الذكر الحكيم من مثل قوله تعالى : (قل لا يعلم مَنْ فى السموات والأرض الغيبَ إلا اللهُ) وقوله : (عالمُ الغيب فلا يُظْهر على غَيْبه أحداً) . وبالمثل زعم ابن أبى الحديد أن الناس يعرضون على الإمام على ابن أبى طالب يوم البعث فيحاسبهم على أعمالهم ، والحساب إنما هو لله وحده جَلَّ شأنه .

ويتمادى فى علوياته الرافضة ، فيتعرض بالبهتان على أول من صدَّق بالرسول ﷺ من الرجال وأوثق الصحابة صلة به ورفيقه فى الهجرة ، على الصديق أبى بكر ، ومعروف أن الرسول ﷺ ولاه أمور دين المسلمين من الحج بهم فى السنة التاسعة للهجرة والصلاة بهم فى مرضه ونرى ابن أبى الحديد يزعم افتراءً وبهتاناً أن الرسول أناب أبا بكر كى يقيم للناس الحج ثم عزله[3] ، وهو لم يُعْزَلْ إذ أقام الحج فعلاً للناس . ومعروف أنه حين اشتد المرض بالرسول ﷺ قبيل انتقاله إلى الرفيق الأعلى أمر أبا بكر أن يصلى بالناس ، فصلى بهم سبع

(١) القصائد السبع العلويات مع شرحها (طبع صيدا بلبنان) ص ١٠١ .
(٢) كنَسْنَ : سرن ، جن : دجا . أدرع : مظلم .
(٣) القصائد السبع العلويات مع شرحها ص ٤٦ .

عشرة صلاة ، وصلى الرسول عليه السلام مؤتماً به ركعة ثانية من صلاة الصبح ، ثم قضى الركعة الباقية وقال : « لم يُقْبَضْ نبيٌّ حتى يؤمَّه رجل من قومه » . ومع تواتر هذه الولاية من الرسول ﷺ لأبي بكر الصديق على أمور المسلمين في الصلاة والحج وثبوتها ثبوتاً قاطعاً يزعم ابن أبي الحديد زعماً باطلاً أن الرسول عزل أبا بكر عن الصلاة[1] . كما عزله عن الحج . وكل هذا غلو في البهتان والرفض . ويترك المدائن إلى بغداد نهائياً في تاريخ غير معروف تماماً ، ويبدو أنه تخلى عن رفضه ورجع إلى صوابه ، إذ نراه يمدح الناصر ، ثم يلزم الخليفة المستنصر العباسي ويدبج فيه مدائح عُرفت بالمستنصريات ، وقد بلغت خمس عشرة قصيدة نظمها في السنوات من ٦٢٩ إلى ٦٣١ وكان أُلحق بدواوين الدولة وأصبح من موظفيها ، وإنه لينقلب عباسيا ضد العلويين يَحْطب في حبل العباسيين ويدعو لهم ، بمثل قوله في المستنصر :

يا بنى هاشمٍ بكمْ يغفرُ اللَّـ ... ـهُ الخطايا وَيْقبل الأعمالا
أنتمُ بالنبيِّ أولى فإنْ شَـ ... ـكَّ جهولٌ فَلْيقرأ الأنفالا
وإليكم إرثُ النبيِّ تناهى ... وإليكم سرُّ الإلٰهِ تعالى

وقد يقال إن البيت الأول عام في بني هاشم جميعاً علويين وعباسيين ، غير أنه لا يلبث في البيت الثاني أن يصرح بأن العباسيين أحق بإرث الخلافة عن الرسول ﷺ لقوله تعالى في سورة الأنفال : (وأُولوا الأرحامِ بعضُهم أولى ببعضٍ في كتاب الله) مشيراً بذلك إلى حكم الإسلام في الميراث وأن العم وهو العباس يحجب ابن العم وهو علي بن أبي طالب كما يحجب أبناء بنت الرسول ، والعباسيون كما يقول في البيت الأخير الورثة الحقيقيون للخلافة . وبمثل هذه الأبيات ، بل بمستنصرياته جميعاً نقض رفضه ، بل تشيعه عامة ، حتى لنراه يقول في المستنصر :

وأنت الدَّهْرُ يخفضُ كلَّ عالٍ ... بقوَّتهِ ويُمْسِكُ كلَّ هارِى[2]
ويُبْرِمُ ما يشاءُ بلا اعتسافٍ ... وينقض ما يشاء بلا اقتسارِ

وكأنه تمثل فيه ثانية غلوَّه السالف في علي بن أبي طالب ، فجعله الدهر يخفض ويرفع ويعصم من السقوط ويبرم الأمور وينقضها نقضاً .

ولا يزال يعمل في دواوين الخلافة حتى يتوفى المستنصر ويخلفه ابنه المستعصم (٦٤٠ — ٦٥٦ هـ) . ويعزل من وظيفته سنة ٦٤٢ ويتولى أعمالاً مختلفة حتى يتوفى سنة ٦٥٦ وقيل بل سنة ٦٥٥ وكانت قد توثقت صلته بابن العلقمي وزير المستعصم وكان شيعيا فيستحثه على

(١) نفس المصدر والصفحة .

(٢) هارى : متصدع يوشك أن ينهدم .

شرح نهج البلاغة ويصدع لرأيه ، وهو فى هذا الشرح يتردد بين مذهب أهل السنة حتى ليقول إنه ليس هناك أى نص صريح على خلافة على للرسول عليه السلام [1] ومذهب الزيدية إذ يذهب مثلهم إلى صحة إمامة المفضول مع وجود الأفضل [2] ومذهب الشيعة الرافضة الذين يحاولون الغضَّ من الشيخين العظيمين أبى بكر وعمر [3] . ومعروف أن لهما عند الله الدرجة العظمى بما أدَّيا للدين الحنيف من خدمات جُلَّى ، كُتبت – ولا تزال تكتب – فيها المجلدات الضخام .

---

(١) راجع شرح نهج البلاغة(طبعة أبو الفضل إبراهيم بدار إحياء الكتب العربية بالقاهرة) ٢ /٥٩ .

(٢) شرح نهج البلاغة ١٥٦/١ .

(٣) انظر شرح نهج البلاغة ٢٢٦/١٠

الفصل الرابع

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل

لعلنا لا نغلو إذا قلنا إنه لم يَخْلُ شاعر من شعراء اليتيمة والدُّمْية والخريدة ومن تلاهم على مر الحقب من بعض قصائد أو مقطوعات تَغَنَّى فيها بالحب ، مصورا هذه العاطفة الإنسانية التى تملك على النفوس أهواءها وأحاسيسها ومشاعرها . ويمتلئ تاريخ الشعر العربى بأبطال لهذه العاطفة ، يعيشون للحب وآماله وآلامه ، يتَجرَّعون غصصه فى صبر ، مهما ألمَّ بهم اليأس ومايُطْوَى فيه من حزن . ومن أطرف الأشياء حقا أن نقرأ شعر أحد هؤلاء الأبطال وما يعانون من وَجْد لا يشبهه وجد وخطوب لا تدانيها خطوب . وهم دائما من العشاق العذريين الذين يتعمقهم الحب ويستأثر بقلوبهم ، ويفتنهم فتنة لا يستطيعون الخلاص منها ، حتى لتصبح المحبوبة كأنها معبودة ، فهم يحبونها ، بل يقدسونها ، ويقدمون لها الأشعار ، بل التراتيل التى يتغنون فيها بسحرها سِحْرًا يشغلهم عن كل شىء وعن كل مَتاع فى الحياة إلا ما يكون من الغرام العنيف وما ينسج فيه العاشق بشعره من شباك الأمل والتضرع والاستعطاف . وهذا اللون من الحب العذرى العفيف الذى يتحول فى قلب صاحبه إلى ما يشبه جذوة من النار لا تنطفئ أبدا قديم فى الشعر العربى منذ العصر الجاهلى ، وأصبح ظاهرة عامة فى بوادى نجد والحجاز طوال العصر الأموى ، وظل حَيًّا بقوة فى العصرين : العباسى الأول والعباسى الثانى ، وكانت ترافقه من قديم موجة من الغزل المادى اتسعت مع العصر العباسى الأول وما كان به من فنون اللهو والمجون على نحو ما يصور ذلك بشارو أبونواس . غير أن الشعراء التالين حاولوا أن يخففوا من حدة هذا المجون والعبث ، بما أشاعوا فى غزلهم من عفة ومن نقاء وطهارة ، على نحو ما هو معروف عن أبى تمام والبحترى وابن الرومى وأضرابهم ، ومع ذلك كانت لا تزال تظهر فى بغداد وغير بغداد جماعات من الغزلين الماجنين . ولعل ذلك هو الذى دفع المتنبى فى أوائل هذا

العصر إلى أن يهجر فى غزله المرأة المتحضرة ، وكأنه رآها أو رأى كثيرات من الجوارى ببغداد فى أوائل شبابه يتهالكن على اللهو ويُسْرفن فيه ، فصمم - كما مرَّ بنا - أن يتخذ البدويات الأعرابيات موضوعا لغزله ، حتى يردَّ إلى الغزل فى أيامه العفة والسمو والنبل والارتفاع عن الجسد والغريزة التى يشترك فيها الإنسان والحيوان ، وحتى يذيع فيه أريج الوجدان النقى الأفلاطونى البرىء ، كما يذيع فيه شَذَا الحنان الذى يكتظ به الغزل العذرى عند العرب وما يُطْوَى فيه من حرارة ولوعة . وهذا الوتر من الغزل البدوى الطاهر الملتاع الذى شدَّه المتنبى إلى قيثارته ، تبعه فيه الشريف الرضى يشده بدوره إلى قيثارة شعره مستخرجا منه ما لا يكاد يحصى من الأنغام كما أشرنا إلى ذلك فى ترجمته ، على شاكلة قوله :

خُذِى نَفَسِى يا ريحُ من جانب الحِمىَ ... ولاقِى به ليلاً نسيمَ رُبَى نَجْدِ
فإنَّ بذاك الجَوِّ حَيًّا عَهِدْتُهُ ... وبالرغم منى أن يطولَ به عَهْدِى
ولولا تداوِى القلب من ألم الجوَى ... بذكر تلاقينا قضيتُ من الوَجْد
وما شَرِب العُشَّاق إلا بَقِيَّتِى ... ولا وَرَدُوا فى الحبِّ إلا على وِرْدِى

فقد انقطعت الأسباب بينه وبين محبوبته النجدية ، ولم يبق من أمل إلا أن تلتقى نفسه من جانب الحمى بِقطْعٍ من النسيم المعطَّر بِشَذَا صاحبته ، نسيم ربى نجد الذكىّ ، وإنه ليشعر بآلام ثقال بقلبه من أثر الحب وعذابه وأوصابه ، آلام ليس لها من دواء إلا دواء ذكريات لقائها ، ولولا هذا الدواء لمات أسى والتياعا . وياله من عاشق شرب كأس الحب ، حتى لم يُبْق لغيره منها سوى الثمالة ، وكأنه أبُ العشاق أو كبيرهم ، فجميعهم إنما يَرِدُ على وِرْدِه وينهل من بقية شربه . وتبعه تلميذه مهيار يشدُّ إلى قيثارته نفس هذا الوتر ، كما مرَّبنا فى ترجمته ، صَابًّا فى أشعاره منه ألحانا كثيرة من مثل قوله .

قُلْ لجيرانِ الغَضَا آهِ على ... طِيب عَيْشٍ بالغَضَا لو كان داما
نَصِلُ العَامَ ولا ننساكُمُ ... وقُصارى الوَجْد أن نَسْلُخَ عاما
حَمِّلوا ريحَ الصَّبا نَشْرَكمُ ... قبل أن تحملَ شِيحاً وثُماما
وابعثوا أشباحكم لى فى الكَرَى ... إن أَذِنْتم لجفونى أن تناما

والغضا من أشجار نجد ، وكذلك الشيح والثمام من نباتاتها ذات الرائحة الطيبة . والقطعة تفيض بالحنين لصاحبته وأهلها من جيران الغضا أو أهل نجد ، فإنه لا ينساهم ولا يسلوهم ، ولا يزال يأمل فى أن تحمل ريح الصبا نَشْرهم العطر حتى يردَّ إليه روحه ،

ويتمنى أن يرى صاحبته ولو خيالا أو شبحا فى النوم حتى تملأ نفسه بهجة وغبطة . ولصُرَّدُرَّ أشعار نجدية أو فى نجد ومحبوباته بها بديعة ، من مثل قوله فى مطلع قصيدته الهائية التى أشرنا إليها فى حديثنا عن شعراء المديح :

وقفنا صفوفًا فى الديارِ كأنها صحائفُ ملقاةٌ ونحن سطورُها
يقول خليلى والظِّباءُ سَوَانِحٌ أهذى التى تَهْوَى ؟ فقلتُ نظيرها
ويا عجبى منها يَصُدُّ أنيسُها وَيدْنو على ذُعْرٍ إلينا نَفُورها
ووالله ما أدرى غداةَ نَظَرْنَنَا أتلك سهامٌ أم كئوسٌ تُديرها
فإنَ كُنَّ من نَبْلٍ فأين حَفيفُها وإن كنَّ من خمرٍ فأين سرورُها
أراكَ الحِمىَ قُلْ لى بأىِّ وسيلةٍ وَصلتَ إلى أن قَبَّلَتْكَ ثغورُها

وتصوير صُرّدر نفسه وصحبه وهم وقوف بأطلال الديار كأنهم سطور بديع ، ولا نكاد نمضى معه حتى نشعر بروعة التصوير ودقة المشاعر . فصواحبه والظباء جنس واحد يدنو وحشيُّه مذعورا ويصد أنيسه نفورا ، ولا يدرى ما الذى أودعته ظباء الإنس –حين نظرن اليهم– قلوبهم وأفئدتهم ، هل أودعتها نُبْلا قاتلا ، أو كئوسا من خمر تلذ الشاربين . ويظل فى حيرته ويتساءل إنها إن كانت نَبْلا فأين حَفيفها ودويُّها ؟ وإن كانت كئوسا فأين سرورها ومتاعها . ويلتفت إلى شجر الأراك وبراهنّ يتخذن منه المسواك ، فيسأله مذهولا كيف وصل إلى ثغورهنّ . وكلها حيرات تصور لوعات هذا العاشق المفتون ، ومن بديع غزلياته قوله :

نُسائل عن ثُماماتٍ بِحُزْوَى وبانُ الرَّمْل يعلم مَنْ عَنَيْنا
وقد كُشِفَ الغِطاءُ فما نُبالى أصرَّحْنَا بذكركِ أم كَنَيْنا
بنفسى راميَاتٌ ليس تَفْنَى نصُولُ سهامهنَّ إذا رَمَينا
وأمسينا كأنا ما افترَقْنا وأصبحنا كأنا ما التقَيْنا

إنه يمشى على استحياء فى ديار صواحبه بحزوى يسأل عن نبات الثمام ، وكل شيىء فى الديار حتى ما بها من أشجار البان تعلم حقيقة أمره وخبيئة سرِّه ، فقد كشف الغطاء وذاع السر المخبوء . وإنه ليفدى بروحه من رمته بسهامها ، ويقول إن سهامها لا تفنى أبدا ، فهى ما تنى ترسلها على المعجبين والمحبين . والبيت الأخير حكمة بديعة تصدق على كل شىء فى الدنيا وكل أمل ضائع أو سيضيع .

وهذا الوجد فى شعر الغزل البدوى وما يثير فى النفس من حنين ومن ظمأ لا يرتوى إلى رؤية المحبوبة استغله المتصوفة منذ ظهوره للتعبير عن حبهم للذات الإلهية بما فيه من مواجد ومن لوعات ، لوعات تلذع فى الفؤاد كأنها نيران محرقة ، فإنهم وجدوا فيه خير معبِّر عن تشوقهم لرؤية الذات الإلهية ، وأنىَّ لهم ! ، فمضوا يتغنون به فى حفلات الذكر المعروفة حين ينعقد الذاكرون لله فى صفين متقابلين ، ويقف منشد بينهما ، يرتِّل أشعار الوجد والهيام تارة مما نظمه الصوفية وتارة مما نظمه الشريف الرضى ومهيار وغيرهما ممن تلاهما واستلهم طريقتهما البدوية النجدية فى الغزل ، لما أحسوا فى هذه الطريقة من الوجد والصبابة ، بل من سعة النداء فيها . وهى سعة تلاحظ أيضا فى الغزل الصوفى ، وكأن هذين الضربين من الغزل يلتقيان ، وهو التقاء هيأ لأن يتأثر الغزل عامة بالشعر الصوفى ، وأن يتيح ذلك الفرصة لظهور ما يمكن أن نسميه الشعر الوجدانى الصافى ، على نحو ما سنرى عند الحاجرى والتَّلَعْفَرِىّ .

ولا بد أن نلاحظ أن وتر الغزل البدوى الذى شدَّه المتنبى إلى قيثارته ظل الشعراء بعده لافى العراق وحده بل فى جميع الأقاليم العربية يشدُّونه إلى قيثاراتهم حتى العصر الحديث ، إذ وجدوا فيه فسحة للتعبير عن حبهم ووَجْدهم وما يثيران فى القلوب من العواطف والأهواء . وقد تفجرت ينابيعه تفجرا فى مقدمات المدائح النبوية التى أخذت تجرى على كل لسان منذ القرن السابع الهجرى . ومرَّ بنا فى الفصل الأول من هذا القسم حديث طويل عن تغنى الجوارى والحرائر فى بغداد لزمن أبى حيان التوحيدى ، وما ذكره من أنه كان ببغداد أربعمائة وستون جارية ومائة وعشرون حرة يتغنين بأشعار غزلية تَدْلع الوجد والحنين واللوعة فى قلوب الناس من المتصوفة وغير المتصوفة ، فتتفتَّت قلوبهم وتتحدر دموعهم ويعلو نحيبهم ، ومنهم مَنْ يسقط مغشيا عليه ،ومَنْ يَلْطم وجهه ويخرِّق ثيابه أو يمزِّقها ، ومن يضرب الأرض بقدمه أو بجسده ويُرْغى ويُزبد . وكان وراء هؤلاء المغنيات مغنون يُعَدّون أو قل لا شك أنهم كانوا يُعَدُّون بالعشرات إن لم يكن بالمئات ، كانوا يزلزلون الأرض – كما يقول أبو حيان – بأصواتهم الناعمة وألحانهم الرخيمة ودماثتهم الحلوة . وكل ذلك عمل على ازدهار شعر الحب وأغانيه .

وطبيعى أن يتكاثر شعراء الغزل فى هذا العصر كما تكاثروا فى العصور السابقة ، وأن لا يقف ذلك عند شعراء القرنين الرابع والخامس وأن يتعدَّاهم إلى شعراء القرنين السادس والسابع ومَن جاء بعدهم ، ومن أهم الشعراء الذين عاشوا للغزل وشعر الصبابة فى القرن

السادس الشاعر الملقب بالأبله (١) لُقِّبَ بذلك لأنه كان فيه طَرف بلهٍ ، وقيل بل لأنه كان غاية فى الذكاء فلقِّب بذلك على طريقة الأضداد ، واسمه أبو عبد الله محمد بن بَخْتيار ابن عبد الله المولَّه أى الهائم صبابة وعشقا ، وحُرِّفت الكلمة فى بعض الكتب فقيل المولد بدلا من المولة ، وهو تحريف واضح . وذكره العماد الأصبهانى فى كتاب الخريدة ، فقال : « هو شاب ظريف يتزيَّى بزىِّ الجند ، رقيق أسلوب الشعر حلو الصناعة ، رائق البراعة ، عذب اللفظ ، أرق من النسيم . وكل ما ينظمه ، ولو أنه يسير ، يسير ، والمغنون يغنون برائقات أبياته (مؤثرين لها) عن أصوات (أغانى) القدماء ، فهم يتهافتون على نظمه المطرب ، تهافت الطير الحوَّم على عَذْب المشرب » . ثم قال أنشدنى لنفسه من قصيدة سنة ٥٥٥ ببغداد :

زارَ مَنْ أحيَا بزورتهِ والدُّجَى فى لَوْنِ طُرَّتهِ
يا لها من زورةٍ قَصُرَتْ فأماتتْ طولَ جَفْوَتهِ
آهِ من خَصْرٍ له وعلى رَشْفَةٍ من بَرْدِ رِيقَتِهِ
يالَهُ فى الحسنِ من صَنَمٍ كلُّنـــا من جاهليَّتِهِ

والكلمات محكمة ، وتكاد تطير عن الشفاه طيراناً لخفتها ، والدقة واضحة فى تشبيهاته وطباقاته ، وأيضا فى مراعاته للنظائر فى الكلمات كما فى البيتين الأخيرين . وقد جعل محبوبته صنما يريد أنها معبودة لفتنتها وسحر جمالها وكأنها أعادت الناس إلى زمن الجاهلية ، فكلهم عابد لها مسحور . والكلمات والأبيات معدَّة حقا للغناء ، إذكان أستاذا فى زمنه من أساتذة الأغانى ، ولذلك كان يتخاطف المغنون والمغنيات غزلياته . ويقول ابن خلكان : « جمع الأبله البغدادى فى شعره بين الصناعة والرقة وله ديوان شعر بأيدى الناس » وقال ابن الجوزى فى المنتظم كانت وفاته ببغداد سنة ٥٧٩ وقال غيره بل سنه ٥٨٠ ومن غزله البديع قوله فى مطالع إحدى قصائده :

يا بَرْقُ إن تجْفُ العقيقَ فطالما أغنتْه عنك سحائبُ الأجْفانِ
هيهات أن أنسى رُبــاكَ ووقفةً فيها أُغِيرُ بها على الغَيْران
ومُهَفْهفٍ ساجى اللِّحاظِ حفظتهُ فأضاعنى وأطعتُه فعصانى
يُصْمِى قلوبَ العاشقين بمقلةٍ طَرَفُ السِّنان وطَرْفُها سيَّان

(١) أنظر فى ترجمة الأبله المنتظم والنجوم الزاهرة فى سنة ٥٧٩ وابن خلكان ٤٦٣/٤ والوافى للصفدى ٢٤٤/٢ وعبر الذهبى ٢٣٨/٤ والشذرات ٢٦٦/٤ .

ما قام معتدلا يهزّ قوامَهُ إلا وبانَتْ خَجْلَةٌ فى البانِ

وفى الأبيات انسياب مع جمال التصوير ، بل مع التصوير المفاجئ ، إذ نراه يخاطب البرق المختفى مع السحاب عن ديار صاحبته بأن سحائب الأجفان ودموع العيون حرية أن ترويها ويقول إنه حفظ صاحبته فأضاعته ، وأطاعها فعصته ، ويعقد صلة بين طَرْفها وطرف السنان ، فكلاهما يصمى ويقتل ، ويذكر أن قوام صاحبته لا يشبه قوام شجر البان فى اعتداله فحسب ، بل إنه حين يبصره شجر البان يَسْرى فيه خجل وحياء شديد لحسن قوامه بالقياس إليه وجمال استوائه ومن أبياته السائرة قوله من قصيدة :

لا يعرفُ الشوقَ إلا مَنْ يُكابِدُهُ ولا الصَّبابةَ إلا مَنْ يُعانيها

ولن نستطيع أن نمضى فى عرض أشعار الغزلين لكثرتهم ونكتفى بالحديث عن ابن المعلم والحاجرى والتلعفرى ، إذ هم أهم من نظم الغزل فى العصر ، وقد استطاعوا النفوذ فيه إلى ضرب جديد من الشعر الوجدانى يكتظ بالشوق والوجد والحب المبرِّح الذى يستأثر بالقلوب والأفئدة .

ابن المعلم (١)

هو أبو الغنائم نجم الدين محمد بن على المعروف بابن المعلم ، ولد بقرية الهُرْث من أعمال واسط جنوبى العراق سنة ٥٠١ وتوفى بها سنه ٥٩٢ واستيقظت موهبته الشعرية مبكرة ، فقصد بشعره حكام بغداد وبها اصطدم بشاعرها سِبْط ابن التعاويذى بعامل التنافس . وكان كلما ألم ببغداد لا يلبث أن يفارقها إلى مسقط رأسه ، وفيه يقول العماد الأصبهانى فى الخريدة : « متقدم الهُرْث شعره الديباج الملمَّع المعلم ، طرازه المعنَّى الممنَّع المحكم ، فلفظُه السِّوارُ ومعناه المِعْصَمُ . كلامه حُلْو حالٍ ، عالٍ غالٍ ، صَفْو من الرَّنَق خالٍ . فأين مهيار من أسلوبه ! لو عاش شرب من كوبه » . ويقول ابن خلكان : « كان شاعرا رقيق الشعر لطيف حاشية الطبع يكاد شعره يذوب من رقته . . وأكثر القول فى الغزل والمدح وفنون المقاصد ، وكان سهل الألفاظ صحيح المعانى ، يغلب على شعره وصف الشوق والحب وذكر الصبابة والغرام ، فعلق بالقلوب واستشهد به الوعاظ واستحلاه السامعون » . وأتاحت له رقة شعره الوجدانى صلة وُثْقَى بينه وبين أصحاب الشيخ أحمد

(١) انظر فى ترجمة ابن المعلم وأشعاره الخريدة (قسم العراق ٤ / ٢ / ٤٣٠ وابن خلكان ٥ / ٥ والوافى بالوفيات ١٦٥/٤ وعبر الذهبى ٢٧٩/٤ والشذرات ٣١٠/٤ والنجوم الزاهرة ١٤٠/٦ وانظر ص ١٠٢ .

الرفاعى ، فكانوا يتغنون بغزلياته ، ويرونها معينا لا ينضب لاستثارة حبهم الصوفى ، ويقول ابن خلكان : «سمعت جماعة من مشايخ البطائح (يريد أصحاب الرفاعى) يقولون : ما سبب لطافة شعر ابن المعلم إلا أنه كان إذا نظم قصيدة حفظها الفقراء (المتصوفة) المنتسبون إلى الشيخ أحمد الرفاعى وغنوا بها فى سماعاتهم (يريد أذكارهم) وطابوا عليها ، فعادت عليه بركة أنفاسهم . . وبالجملة فشعره يشبه النَّوْح ، ولا يسمعه من عنده أدنى هوى إلا فتنه وهاج غرامه » . وملاحظة ابن خلكان أن شعر ابن المعلم يشبه النَّوْح ملاحظة دقيقة توضح السبب الحقيقى فى تعلق طائفة الرفاعيين به ، لما يحمل من كثرة الوجد ولوعاته وحرارته التى لا تنطفىء فى فؤاده أبدا ، فهو دائما يريد الوصال ، ولا وصال على طريقة الصوفية ، بل فراق متصل ، يشقى به المحب ويبكى وينوح ولا مغيث ولا مخلِّص ولا معين ولا أمل فى لقاء أو ما يشبه اللقاء ، يقول :

لو قَضَى من أهلِ نَجْدٍ أَرَبَهْ ... لم يَهِجْ نَشْرُ الخُزَامى طرَبَهْ
عَلِّلُوا الصَّبَّ بأنفاس الصَّبا ... إنها تَشْفِى النفوسَ الوَصِبَهْ
فَهْى إن مَرَّتْ عليه نشرَتْ ... ما انطوى عنه وجَلَّتْ كُرَبَهْ
كلفى فيكم قديمٌ عَهْدُهُ ... ما صَباباتى بكم مُكتَسَبَهْ
عن جفونى النومَ من بَعَّدَهُ ... وإلى جسمى الضَّنَا مَنْ قرَّبَهْ
فصِلُوا الطَّيْفَ إذا لم تصِلوا ... مُسْتَهاماً قد قطعتم سَبَبَهْ

فهو لم يقض أربا من صاحبته ، وذلك هو مصدر لهفته ولوعته ، وإنه ليتمنى أن تمرَّ به أنفاس الصَّبا مَحمَّلة بنشرها علَّها تشفيه من أوصابه وأوجاعه وتنقذه من كربه العظيم ، وإنه لَيكْلَفُ بها أشد الكلف ، كلَفاً كأنما فُطر عليه ، فهو يعذبه ويُشقيه ويسهده ويُضنيه ، وإنه ليتمنى أقل التمنى : أن يرى طيف المحبوبة ولكن أنَّى له ، وهو لا ينام ، بل يظل ليله — مثل نهاره — يحتمل مالا يستطيع تحمله من آلام الحب الذى أصبح محنة ، لا يستطيع قلبه أن يجد إلى التخلص منه سبيلا . وينشد له العماد قطعة من كلمة له سارت وأنجدت وغارت حتى شدا بها الشادى ، وحَدا بها الحادى ، ووجد بها أرباب الغناء الغنى والوُجْد [1] وأصحاب القلوب الهوى والوَجْد ، وهى مطلع لإحدى مدائحه وفيها يقول :

تَنَبَّهِى يا عَذَباتِ الرَّنْدِ ... كم ذا الكرَى؟ هبَّ نسيمُ نَجْدِ
مرَّ علَى الروضِ وجاء سَحراً ... يَسْحَبُ بُرْدَىْ أَرَجٍ وبَرْدِ

(١) الوجد : اليسار والسعة

حتى إذا عانقْتُ منه نَفْحَهُ ... عاد سَمُوماً والغرامُ يُعْدِى
واعجباً منىَ ! أستشفى الصَّبا ... وما تزيد النارَ غيرَ وَقْدِ
أعَلِّلُ القلبَ ببانٍ رامةٍ ... وما ينوب غُصُنٌ عن قَدِّ
وأسأل الرَّبْعَ ومَنْ لى لو وَعَى ... رَجْعَ الكلام أو سَخَا بِرَدِّ
أأقتضى النَّوْحَ حماماتِ اللِّوى ... هَيْهاتَ ما عند اللِّوى ما عِنْدى
بانوا فلا دارُ العقيق بعدهم ... دارٌ ولا عَهْدُ الحِمَى بعَهْدِ

والقطعة تكتظ بحب محروم يلذع فؤاد صاحبه لذعا بنيرانه ، وبينما هو فى آلامه وغصصه التى يتجرعها محزونا إذا نسيم نجد يهبُّ محملا بشذى عطر ، يرد الروح ، وكأنه رحيق الحياة ، غير أنه لا يكاد يعانق منه نفحةً حتى يحس كأنما فارق كل ما كان به من برد ولطف وعاد سَموما ، بل سُمًّا . ويا للهول نسيم أرج بارد يصبح ريحا سموما ساخنا ، وإنه ليزيد نار حبه وَقْدا واشتعالا . ويتلفت يسأل الربع عن محبوبته ، وليس عند الربع من جواب ، وإنه ليئنّ وينوح ويطلب من حمامات اللوى أن تنوح وتئن معه ، فهو أولى من اللِّوى بالأنين والنواح ، إنه ليس عندها ما عنده من تباريح الغرام ، فقد رحلت صاحبته ، ولم تعد دار العقيق دارها ولا عهد الحمى بعهد لها . لقد ذهب منه كل شىء ولم يعد له إلا النواح والبكاء . وله من أخرى فى فنّها وحلاوتها وحسنها كما يقول العماد الأصبهانى :

أُرَقِّىَّ وهْو المحبُّ المستهامُ ... ما يُداوَى بالتعاويذ الغـــرامُ
قَصُرَتْ عن بُرْئِهِ أيدى الأَسَا ... كيف حَسْمُ الداء والداءُ عُقامُ (١)
يا لَدِيغَ الحدَقِ النُّجْلِ متى ... تجدُ البُرْءَ وحاميهِ الحُسامُ
ودواءُ الحب فى شَوْكِ القَنا ... مُتْ لَديغاً كلُّ دِرْياقٍ سِمامُ
قل لُنوَّام الغضَا عن ساهرٍ ... مَنْ تجافاه الهوى كيف ينام
غِبْتُمُ بالشمس عن ناظرِهِ ... والضُّحىَ مثلُ الدُّجىَ كلٌّ ظلام

فحبه مرض عضال لا يداوى بالتعاويذ والرُّقَى ، وقد عجزت عن برئه وشفائه أيدى الأسا والطب والعلاج . إنه داء لا يمكن الخلاص منه ، وإنه للديغ الحدَق النُّجْل الساحرة ، وكل درياق له أو دواء إنما هو سم فلا يَدْرى المصاب به أيشرب رَحيقاً شافيا أم سُمًّا قاتلا . ويتجه إلى أهل الَغضا يشكو سهاده وجفاء محبوبه ، فقد غابوا بشمسه عن

(١) الأسا : المداواة والعلاج . عقام : لا يشفى منه .

بصره ، وأصبح ضحاه مثل دجاه ، وأظلمت الدنيا فى عينيه ، وأصبح كل شئ قِطَعاً من الظلام بعضها فوق بعض ، وعبثا يرى نور محبوبته فقد أرْخىَ الظلام من حوله سُدوله ولم يعد هناك أمل فى انفراجه ، وهو يئنُّ وينوح نواحا لا ينقطع كما يقول ابن خلكان . ولعل فى ذلك كله ما يصور كيف أن غزله الوجدانى كان خليقا أن تتداوله طائفة الرفاعية الصوفية ، لتعبر به عما يختلج فى حنايا صدورها وقلوبها من الحب الإلهى وكل مايُطْوى فيه من وجد ولهفة ولوعة وظمأ لا ينتهى إلى رؤية الذات العلية ، وكأنما مسته – كما تصوَّر شيوخهم – بركةُ أنفاسهم ، أو كما نقول كأنما مسته أنفاس وجدهم الربانى الحار ، مما جعلهم يحفظون شعره ويتناشدونه ، وينشده معهم الوعاظ فى وعظهم . ويروى ابن خلكان أن الشاعر مرَّ يوما على ابن الجوزى وهو يعظ الناس وهم مزدحمون فى مجلسه ، وكان عجبه شديداً حين سمعه يستشهد على بعض إشاراته ببيت من شعره منوها به .

الحاجرى [1]

هو أبو الفضل حسام الدين عيسى بن سِنْجر بن بَهْرام بن جِبْريل بن خُمارتِكين بن طاشتِكين الإربلى المعروف بلقبه الحاجرى نسبة إلى الحاجر بلدة كانت بالحجاز أكثر من ذكرها فى شعره ، فنُسب إليها . وهو إربلى الأصل والمولد والمنشأ . ويقول ابن خلكان إنه كان صاحبه ، ومع ذلك لا يذكر لنا شيئا عن زمن مولده ولا عن أسرته ونشأته ، وكل ما يقول إنه جندى من أولاد الأجناد الأتراك ، ويبدو أنه كان على شيء من اليسار ، إذ لا نراه فى ديوانه مشغولا بممدوحين مختلفين يُهْديهم أشعاره ، إلا ما كان من مدحة يستهل بها ديوانه مدح بها الأمير ركن الدين أحمد بن الأمير شهاب الدين قراطايا بإربل ، ولعله أراد أن يستلَّ من نفسه ضغينة عليه ، إذ جاء فى مقدمة مدحته إنه كان السبب فى مقتله ، ويقول ابن خلكان إنه خرج من إربل فى سنة ٦٢٦ بينما كان الحاجرى معتقلا فى قلعتها لأمر يطول شرحه ولعل الأمير السالف هو الذى دبَّر له هذا الاعتقال ، وله فى ذلك أشعار يشكو فيها من حبْسه مثل قوله :

قَيْدٌ أُكابِدُهُ وسِجْنٌ ضَيِّقُ ... يا ربِّ شابَ من الهمومِ المَفْرِقُ

ويذكر ابن خلكان أنه بلغه بعد ذلك خروجه من الاعتقال وأنه اتصل بخدمة الملك

(١) انظر فى ترجمة الحاجرى ابن خلكان ٥٠١/٣ والنجوم الزاهرة ٢٩٠/٦ والشذرات ١٥٦/٥ وديوانه طبع طبعة سقيمة بالقاهرة سنة ١٣٠٥ وذكر بروكلمان (١٧/٥) منه مخطوطات كثيرة ، وهو حرى بأن يحقق تحقيقاً علمياً .

المعظم مظفر الدين كوكُبوريّ والى إربل من قبل صلاح الدين منذ سنة ٥٨٦ وتقدم عنده وتَزَيَّا بزىٍّ الصوفية . وتوفى مظفر الدين سنة ٦٣٠ فغادر الحاجرى إربل ، وكأنه كان لا يزال يخشى بأس غريمه المذكور آنفاً ، غير أنه سرعان ما عاد إليها حين صارت فى مملكة الخليفة المستنصر بالله وتولاها عنه الأمير شمس الدين أبو الفضائل باتكين ، فأقام مدة قصيرة وهو لا يدرى أن وراءه من يقصده واتفق أن خرج يوماً من بيته قبل الظهيرة ، فوثب عليه شخص وضربه بسكين ضربة قاتلة توفى على إثرها فى شوال سنة ٦٣٢ ويقدِّر ابن خلِّكان عمره بخمسين سنة . ويقول : «له ديوان شعر تغلب عليه الرقة ، وفيه معان جيدة ، وهو مشتمل على الشعر والدوبيت والمواليا ، وقد أحسن فيها جميعاً مع أنه قلّ من يجيد فى مجموع هذه الثلاثة ، بل من غلب عليه واحد منها قصَّر فى الباقى ، وله أيضاً «كان وكان» واتفقت له فيه مقاصد حسان وهو شعر عامى ، سنعرض له فى غير هذا الموضع .
وأول ما نقرأ فى ديوانه مطلع مدحته لابن قراطايا ، وفيه يقول :

ما للدموعِ تسيلُ سَيْلَ الوادى ... أحَدَا بِرَكْبِ العامريَّة حادى
نعم استقلُّوا ظاعنين وخلَّفوا ... ناراً لها فى القلب قَدْحُ زِناد[1]
ما كان أطيبَ للوداع عناقَنا ... لو لم يكن منا عناقَ بِعاد
يا سائقَ الوَجْناءِ غيرَ مقصِّر ... يطوى المفاوز من رُبًى ووهاد[2]
مالى إليك سوى التحية حاجةٌ ... تلقى سُعادَ بها ودارَ سُعاد
عَرِّجْ برامةَ إنَّ رامةَ منتهى ... أملى وغايةُ بُغْيتى ومرادى[3]
يأيُّها الرَّشأ الذى بلحاظهِ ... دَعَجٌ يصول به على الآسادِ[4]
الله فى كَبِدِى التى أحرقتَها ... عَبَثاً بجمرة خَـدِّك الوقَّادِ

ويلى هذا الاستهلال غزل من هذا الطراز يكاد يستنفد الديوان جميعه بما فيه من مخمسات ودوبيتات أو رباعيات ، وواضح أنه مرحلة جديدة للغزل بالبدويات الذى قرأناه عند المتنبى والشريف الرضى ومهيار ، وكأن الحاجرى استوعب غزلهم وتمثله تمثلاً نادراً ، فإذا هو ينفذ مثل ابن المعلم إلى هذا الغزل الجديد الذى سميناه بحق شعراً وجدانياً ، شعراً ينساب من معين ثَرٍّ لا يزال يتدفق حاراً دون أى تكلف أو تصنع . وإن نار الحب لتتقد فى قلبه وتسيل دموعه أنهاراً فقد فارقته صاحبته إلى رامة ، وهو لا يملك إلا أن يرسل إليها

(١) قدح الزناد : استخراج النار منه بضرب حجرين .
(٢) الوجناء : الناقة الشديدة .
(٣) رامة : موضع بالبادية .
(٤) الدعج : اشتداد السواد والبياض فى العين .

بتحية رقيقة ، وإنه ليذكر سهام عينيها الفاتنتين ويتضرع إليها مستعطفاً لكبده التى أحرقتها بجمرة خدّها الوقاد ، ونحس دائماً كأنما يتوجع حقاً من حريق فكل شيء من صاحبته يلهب صدره وقلبه بنار لا تخمد أبداً حتى الرضاب أو الريق ، يقول :

ويلاه من بَـرْدِ رُضَابٍ لهـا أشكو إلى العُذَّال منه الحريقْ

وهو فى أثناء هذا الحريق الذى يأخذ فؤاده من كل جانب يلتاع لوعات ممضة ، كان يروِّع منها دائماً ، فيهتف منشداً أشعاره الوجدانية التى تكتظ بالحنين إلى رؤية صاحبته فى رامة وغير رامة من منازل نجد والحجاز ، مثل قوله :

إنَّ الأُلَى رحلوا غداةَ مُحَجَّرٍ ملئوا القلوبَ لواعجَ الأحزانِ
نزلوا برامةَ قاطنين فلا تَسَلْ ما حلَّ بالأغصانِ والغِزْلانِ
فلأبعثنَّ مع النسيم إليهمُ شكوى تَميل لها غُصونُ البان
يا عاذلى فيمن أحبُّ جهالةً عنى إليك فليس شأنُك شانى
لمْ لا أحِنُّ إلى الحجازِ صبابةً ويجودُ دمعُ العينِ بالهمَلان

فقد رحلت صاحبته عنه وتركته بمحاجر يشكو آلام حبه ولواعج حزنه وأوجاعه ، ونزلت رامةَ فأخجلت بقدِّها وجمال عينيها الأغصان والغزلان ، ولم يعد له إلا أن يبعث إليها بالسلام مع النسيم ، لعلها ترقُّ له وتذكره ، ويلتفت إلى عَذوله ينهاه أن يتعرض له فليس من دربه ، وليس ذلك من شأنه ، ويتساءل إن كل محب ليصبو قلبه إلى الحجاز ونازليه ، ويذرف الدمع مدراراً . لغة سهلة هى لغة الشعر الوجدانى الذى ينساب فى النفس انسياباً . وله قصيدة تفيض بحنين رائع صوَّر فيها تصويراً بديعاً حزنه لفراق صاحبته كأقوى ما عرف الناس من الحزن للفراق بين المحبين قائلاً :

أأحبابَنا بِنْتُمْ عن الخَيْف فاشتكتْ لبُعْدكمُ آصَالُها وضُحاها
كأنكمُ يومَ الرحيلِ رحلتمُ بنومى فعينى لا تُصيب كَراها (١)
رعى الله ليلاتٍ بطيب حديثكم تقضَّت وحيَّاها الحَيا وسقاها
فما قلتُ إيهٍ بعدها لمسامرٍ من الناس إلا قال قلبىَ آها
متى تنقضى أيامُ ذلِّى وأَجْتَنِى ثمارَ وصالٍ قد حُرِمْتُ جَنَاها
وأستصحبُ القومَ الذين بمهجتى لفقدهمُ نارٌ يَشِبُّ لَظاها

(١) الكرى : النوم .

فهو لا يشكو فراقهم بل تشكوه معه الطبيعة ، وإنه ليشكو من سهاده ، فالنوم لا يلمُّ ليلا بطرفه ، وهو يذكر ليلات سمره مع صاحبته ويدعو لها مذيبا فى دعائه حنينا حارا ، ويصور نفسه ، فهو مع سمره أحيانا لا يزال قلبه يتوجع ، وهو مع ابتساماته تملأ الهموم أحشاءه ، وإنه ليتمنى أن يجتمع بصاحبته ويقتطف ثمار وصاله ويطفئ النار التى تستعر بفؤاده .

وله بجانب هذه الأشعار الوجدانية البديعة مخمسات بنفس الروح ونفس المعانى والوجد والصبابة كقوله فى فاتحة مخمس :

خليليّ عُوجا بالغُوَيْر وكُثْبِهِ ... ولا تمنعا المشتاق من لَثْم تُرْبِهِ
هو الصبُّ يُصْبيه الهوى دون صَحبِهِ ... خُذَا من صَبا نَجْدٍ أماناً لقلبِهِ
فقد كاد ريَّاها يطير بلُبِّهِ

والغوير : ماء فى بادية الشام ، والديوان يطفح بأسماء المواضع والمنازل فى نجد والحجاز . وفى ديوانه رباعية يُذيب فيها وجده وحبَّه قائلا :

حيَّا وسَقَى الحِمىَ سَحابٌ هامى ... ماكان ألذَّ عامَهُ من عامِ
يا علوةُ ما ذكرتُ أيامكمُ ... إلا وتظلَّمَتْ على الأيامِ

وقد نوه القدماء طويلا بما فى شعره من انسياب موسيقى رائع ، وبلغ من إعجابهم به أن سموا ديوانه « بلبل الغرام الكاشف عن لثام الانسجام » وفى دار الكتب المصرية مخطوطة شعرية له باسم : « القصائد الحجازيات فى مدح خير البريات » وهى مجموعة من المدائح النبوية ، لم يضمنِّ ديوانه منها شيئا .

التَّلَعْفَرِىّ (١)

هو شهاب الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف المعروف بالتَّلَعْفَرِىّ نسبة إلى « تلّ أعفر » بين سِنْجار والموصل ، ويروى ابن خلكان عنه أنه ولد بالموصل سنة **٥٩٣** وبها كانت نشأته وتربيته الأدبية. وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، فرأى أن يمدح الحكّام والأمراء على عادة الشعراء فى عصره ، ولم يكتف بأمراء موطنه ، فقد اتجه بمديحه أيضا إلى أمراء الشام ،

(١) انظر فى ترجمة التلعفرى ابن خلكان ٧ / ٤٠ ، ٤٥ وشذرات الذهب لابن العماد ٥ / ٣٤٩ وديوانه طبع قديماً فى القاهرة وبيروت . وفوات الوفيات لابن شاكر ٢/٥٤٦ والنجوم الزاهرة ٧/٢٥٥ ، ٣٧٢ والفلاكة والمفلوكون ص ٢٦٥

ولزم كثيرين منهم وخاصة الملك الأشرف موسى الأيوبى الذى ظل مستولياً على صولجان الحكم فى دمشق من سنة ٦٢٦ إلى سنة ٦٣٥ وكان يسبغ عليه كثيرا من العطاء الجزل ، غير أن التلعفرى كان مغرًى بشرب الخمر والقمار ، وكان الأشرف موسى يراجعه فى ذلك كثيرا ، ولم يكن يصبر عليهما أو يستطيع شيئاً من الصبر ، وفى ذلك يقول :

أقلعتُ إلا عَنِ العُقارِ وتُبتُ إلا مِنَ القِمارِ
فالكأسُ والقَمْرُ ليس يَخلو منها يمينى ولا يسارى

ولما أعيت الحيل الأشرف موسى معه أمره بمغادرة دمشق ، فتركها إلى حلب وصاحبُها الملك الناصر الأيوبى ، فقرَّبه منه ، وجعله من جُلسائه ، وقرَّر له راتبا ، راجيا أن ينوب ويتوب ، غير أنه سرعان ما عاد إلى سيرته السيئة فى دمشق ، فكان يشرب ويقامر بكل ما يحصل عليه من مال ، حتى قيل إنه قامر بثيابه ونعليه . وعرف ذلك الملك الناصر ، فأمر أن ينادَى فى حلب من قِبَل السلطان : « مَنْ قامر مع الشهاب التَّلَعْفَرِىّ قطعنا يده » فضاقت عليه حلب وأرضها بما رحبت وعاد إلى دمشق ، وكان الملك الأشرف موسى قد توفى ، وظل بها يستجدى ويقامر حتى ساءت حاله سوءاً شديدا ، ورحل إلى مصر فى هذه الأثناء إذ يقول ابن خلكان إنه لقيه بها سنة ٦٣٨ وعاد منها لا إلى دمشق ولا إلى حلب ، بل إلى حماة وصاحبها الملك المنصور ، فاحتفى به وأضفى عليه عطاء وفيرا أتاح له بأخرة من حياته عيشا كريما . وظل بحماة حتى وفاته سنة ٦٧٥ وكان آخر ما تلفظ به من شعره قبيل موته .

إذا ما باتَ من تُرْبٍ فِراشى وبتُّ مجاورَ الربِّ الكريمِ
فَهَنُّونى أُصَيْحابِى وقولوا لك البُشْرَى قدمتَ على رَحيمِ

وليس فى الديوان مدحة من مدائحه ، إلا ما قد يشير إلى بعضها فى الأبيات التى يختتم بها ما احتفظ به من بعض مطالعها ، وبذلك يصبح الديوان كله غزلا . وهو غزل من طراز غزل الحاجرى ، أو هو بعبارة أدق شعر وجدانى يسيل رقة وعذوبة وسلاسة ، وكأنه الماء النمير حلاوة وصفاء ورشاقة ونعومة حتى ليشفع له فيما ابُتلى به من القمار ، وهو فيه يجرى على هذا النمط الوجدانى الرائع :

أىَّ دَمْعٍ من الجفون أسالَهْ إذ أتتْه مع النسيم رِسالَهْ
سَلْ عقيقَ الحِمىَ وقُلْ إذ تراه خالياً من ظِبائهِ المختالَهْ

أين تلك المراشفُ العَسَليَّا تُ وتلك المعاطفُ العسَّالَهْ (١)
ولـيـالٍ قضيتُهـا كلآلٍ بغزالٍ تغارُ منه الغَزالَهْ (٢)
بابلىّ الألحاظِ والرِّيقِ والألـ ـفاظِ كلٌّ مُدامَةٌ سَلْسَالَهْ
وسقيمِ الجفون والخَصْرِ والعهْـ ـدِ فكلٌّ تراه يشكو اعتلالَهْ
أوقعَ الوهمَ حينَ يَرْمى فلمَ نَدْ رِ يداهُ أم عَيْنُهُ النبَّالَهْ

والقصيدة كلها تموج بهذه الرقة والعذوبة مع الانسياب والتدفق ، وكأننا بإزاء جدول يسيل شعرا ووجدا وهياما ، مع جمال القافية وحسن الألفاظ وطواعيتها للشاعر ، وكأن كلا منها تجذب صاحبتها تريد أن تعانقها عناق ذوى الرحم والقرابة . وتلك الألحاظ والريق والألفاظ لصاحبته جميعا كأنها رحيق مسكر ، وما أجمل جمعه بين سقم الجفون وفتورها وهو جمال وحسن فيها ، وبين الخصر وسقمه أو نحوله وهو يستحب فيه ، وأخيرا بين هذين السقمين وسقم عهد صاحبته فهى تُدِلُّ عليه ولا تنى بوعدها ، وهكذا يشكو كلٌّ سقمه واعتلاله . ودائما يذكر الشعراء سهام العيون وكيف تصمى الأفئدة ، وهو يضم إليها سهام الأيدى الفاتنة ، فلا يدرى أحد من أين يأتى النبل أمن الأيدى أم من العيون ، ويكرر كثيرا أن حاجبى صاحبته قوسان كبيران لا يزالان يرسلان النبل والسهام ويصوِّبانهما إلى العاشقين المفتونين . وله يصور ألم الفراق .

إنى لأعجُب من محبٍّ مُشْغَفٍ عَيْشا له من بعد حَثِّ الأيْنُقِ
يأيُّها الحادى بِعَوْدِك سالماً ألا رثيتَ لشملنا المتمزِّقِ
أَرِحِ المطىَّ وها فؤادى فاقتبسْ وامْنُنْ علىّ وها دموعى فاستَقِ
ليسَ التعجبُ من رقادى – إذ مضى – فيه ولكنْ من جميعى إذ بَقِى
لدلالهِ ذُلِّى بـهِ ولحبِّهِ وهواه ما يَلْقىَ الفؤادُ وما لقِى

فهو يعجب من أن يعيش العاشق الولهان بعد فراق صاحبته ، وإنه ليهتف بالحادى أن يريح مطيه ، وإذا كان يريد نارا فليقتبسها من فؤاده ، أو ماء فليستقِ من دموعه التى تتدافع سيلا مدرارا . ويأسى لبخته أو حظه إزاء صاحبته ولا يعجب من سهاده فيها ، بل يعجب من أن يظل جميعه حيا يتنفس ، و إنه ليتذلل و يضرع أسى ووجدا . وكل ذلك شعر وجدانى وقف عليه التلعفرى – مثل أستاذه الحاجرى مواطنه – حياته وشعره ، وله موشحة وحيدة مدح بها العَزّازى الشاعر الوشاح المصرى احتفظ الديوان بها تامة وهى من

(١) العسليات : المنسوبة إلى العسل ، وأراد بالمعاطف القوام . العسالة : اللينة .
(٢) الغزالة : الشمس .

نفس المعين الذى يستمد منه شعره الوجدانى ، على نحو ما يتضح من قوله فى مطلعها :

ليس يُرْوِى ما بقلبى من ظَمَا غيرُ بَرْقٍ لائحٍ من إضَمِ [١]

إن تبدَّى لك بانُ الأجْرَعِ [٢]

وأُثَيْلاتُ النَّقَا من لَعْلَعِ [٣]

يا خليلى قِفْ على الدار معى

وتأمَّلْ كم بها من مَصْرَعِ

واحترزْ واحْذَرْ فأحداقُ الدُّمَى كم أراقتْ فى رُباها من دَمِ

وللحاجرى موشح فى ديوانه ، ولكنه لا يبلغ جمال هذا الموشح فى موسيقاه ورصف ألفاظه . وليس معنى ذلك أن التلعفرى يتفوق على الحاجرى فى روعة شعره ، فالحاجرى هو الأستاذ وهو الذى مهد الطريق وعبَّدها للتَّلعفرى ، وهما جميعا يجلِّيان فى غزلهما تجلية بديعة . ويقول ابن تَغْرى بَرْدى عن التلعفرى إنه كان يتشيع ، ولكنه لم يفسح لنحلته فى شعره .

٢

٥

شعراء اللهو والمجون

مرَّ بنا فى حديثنا عَنِ المجتمع فى الفصل الأول كيف أن الطبقة المترفة من الحكام والوزراء وعلية القوم كانت تنغمس فى الترف ، وكيف كان كثيرون منها يقبلون على اللهو واحتساء الخمر فى مجالس أنس كانت لا تزال تنعقد فى بغداد ، وذكرنا من بين هذه المجالس مجلس الوزير المهلبى ومن كان يحضره من القضاة والفقهاء وكيف كانوا يطرحون الحشمة والوقار ويقبلون على القصف والخلاعة والرقص ، وفى يد كل منهم طاس مملوء خمرا يعبُّ منه عبًّا . ولم يكن جميع الوزراء مثل المهلبى ، ولكن كثيرين منهم كانوا يقيمون هذه المجالس وإن لم يتسعوا مثله فى اللهو والعبث ، ويصور محمد بن أبى المطهر الأزدى فى كتابه «حكاية أبى القاسم البغدادى» — الذى عرضنا له فى غير هذا الموضع — بعض هذه المجالس فى القرن الخامس الهجرى وكيف كانت تعبق بالطيب على بساط الرياحين

(١) إضم : الوادى الذى فيه المدينة المنورة .

(٢) البان : شجر . والأجرع : الرملة الطيبة المنبت لعلع : ماء بالبادية .

(٣) أثيلات : شجر . النقا : القطعة من الرمل .

والورود وكيف كانت تهبّ للأنس رياح ، سحابها الأقداح ، وبَرْقها الراح ، وقد نطقت ألسنة العيدان والنايات تسند غناء الجوارى والمغنين بألحانها الشجية ، ويطيل فى وصف الخمر وأن منها ماكأنه عُصر من خَدِّ الشمس ، وما هو أصفى من الماء ، وأرق من دمعة العاشق المهجور [1] . والكتاب إنما كتب فى وصف المجون ببغداد لعصر مؤلفه ، وينبغى أن لا نظن أنه يمثل صورة الحياة العامة ، إنما هى صورة حياة طبقة خاصة هى الطبقة المترفة ، وكان وراءها الشعب يكدح ويتصبَّبُ جبينه عرقاً كى تملأ هذه الطبقة بطونها وتملأُ مجالسها بالشرب من الطاس والكاس . وحقا كانت للشعب مواسم للهو والعبث ، غير أنها قلما تعدَّت أعياد المجوس والنصارى مما عرضنا له فى غير هذا الموضع .

على كل حال ينبغى أن لا نبالغ فى تصور ماكان ببغداد من اللهو والمجون ، وأن نقصر ذلك على الفئة الأرستقراطية أما الشعب فحَسْبه منها ماكان يستمتع به من لهو فى بعض الأعياد وخاصة أعياد الربيع ، وظل ذلك طوال العصر ومن خير ما يصوره مقامة لظهير الدين الكازرونى المتوفى سنة ٦٩٧ عرض فيها لهذا الجانب من لهو البغداديين وخروجهم إلى الرياض وتنزههم فى الحدائق والأنهار قائلا : « أما زمان الربيع وأيام الوشى البديع فإنهم كانوا يصطحبون ويتجمعون وينثالون (كأنهم إلى نُصُب يُوفِضون) فينزلون الجوارى (السفن) فى رهط من الجوارى ، ويدخلون نهر عيسى ويباكرون إلى قَصْده . . ويخترقون أشجاره ويقطفون ثماره ونوَّاره ، ويفترشون رياضه وأزهاره وينزلون غِيطانه وأنهاره ، ثم تعزف القيان وتصطخب العيدان ، وتصفِّق الغُدْران ، وترقص الأغصان ، وتميد الأفنان ، وكلما دَسَع (امتلأ) الرَّاوُوقُ (دَنّ الخمر وطاسه) طاب المشوق . . وكلما طرب العود ،زمجرت الرعود ، وقد انتظموا فى سلك الراحة ، واجتمعوا للاستراحة ، كذلك أياما ، لايطعمون مناما » [2] ولم تكن حانات بغداد فى الكرخ ولاحانات المتنزهات وحدهما هما اللتان يجد فيهما عشاق المجون ما يصبون إليه من الخمور بل كانوا يجدونها أيضا فى الأديرة .

وبذلك كله ظلت الخمرية تتردد على ألسنة الشعراء ، وظلوا يصوغونها ، وكل منهم يحاول أن يأتى فيها بمقطوعة أو قصيدة بديعة ، وقد نُظمت كثير من الخمريات فى مجالس الوزير المهلبى ، ولعل جليسه القاضى أبا القاسم التنوحى كان المجلِّى بين ناظميها بمثل قوله فى

(١) حكاية أبى القاسم البغدادى ص ٤٥ وما بعدها . ص ٢٧ .

(٢) انظر مقامة ظهير الدين الكازرونى (طبع بغداد)

إحدى خمرياته (١) .

وراحٍ من الشمسِ مخلوقةٌ بَدَتْ لك فى قَدَحٍ من نهارِ
هـواءٌ ولـكـنـه جـامـدٌ وماءٌ ولكنه غيرُ جارِ

وهو تصوير بديع أن يجعل الخمر شمسا أو قطعة منها وماء غير جار والكأس نهارا وهواء جامدا . وكان كثيرون من أهل بغداد رجالا ونساء يحفظون الخمرية لجمال تصويرها ، يدل على ذلك ما حكاه ابن خلكان – فى ترجمة صاحبها – عن الحسن بن عسكر الصوفى الواسطى قال : كنت ببغداد فى سنة إحدى وعشرين وخمسمائة جالساً على دكة بباب أَبْرز للفرجة إذ جاء ثلاث نسوة فجلسن إلى جانبى ، فأنشدتُ متمثلا :

هـواءٌ ولـكـنـه جـامـدٌ وماءٌ ولكنه غيرُ جارِ

وسكتّ ، فقالت إحداهن : هل تحفظ لهذا البيت تماما ؟ فقلت : ما أحفظ سواه ، فقالت : إن أَنْشَدَكِ أحدٌ تمامه وما قبله ماذا تعطيه ؟ فقلت ليس لى شىء أعطيه ، فأنشدتنى الخمرية وزادت بعد البيت السابق :

إذا ما تأمَّلتَها وهْىَ فيهِ تأملت نورا مُحيطاً بنارِ
فهذا النهايةُ فى الابيضاضِ وهذا النهاية فى الاحمِرارِ

فحفظت البيتين منها . وإنما روينا ذلك لندل على ظرف الجوارى فى بغداد وأن سوق الخمريات كانت رائجة ، ولذلك كان الشعراء يحاولون الإبداع فيها والإتيان بالمعانى المبتكرة الطريفة كقول البَبَّغاء فى عِتْق الخمر (٢) :

وعريقة الأنسابِ والشِّيَمِ موجودةٌ والخلقُ فى العَدمِ
هى آدمُ الكَرْم المولَّد فى الـ ـدُّنيا وحَوَّا الخمرِ فى القِدم
ظهرتْ ونور الشمس فى فلكٍ من قبل خَلْق الصبح والظُّلَمِ
واشْتُقّ معنى اسمِ السُّلافِ لها من كونها فى سالف الأمم

وبون بعيد بين هذه الخمرية وخمرية التنوخى فى بعد الخيال والتصوير . ومن قديم يمزج الشعراء فى الخمرية بين الحب ونشوة الخمر . ومن طريف ما كان يطرب الناس ببغداد لعهد أبى حيان التوحيدى غناء سندس جارية ابن يوسف صاحب ديوان السواد ، وهى تتشاجى وتتدلل وتمايل وتتكسَّر متغنية بهذه الخمرية (٣) .

---

(١) انظر ترجمة القاضى التنوخى فى ابن خلكان ٣٦٦/٣ والجواهر المضية ومعجم الأدباء ١٦٢/١٤ .
(٢) اليتيمة ٢٦٢/١ .
(٣) الإمتاع والمؤانسة ٢ / ١٧٣ .

مجلسُ صَبَّين عَميــدَيْنِ ليسا من الحبِّ بِخَلْوَيْنِ
قد صيَّرا رُوحيْها واحدا واقتسماه بين جِسْـمين
تنازعا كأسا على لذَّةٍ قد مَزجاها بين دَمْعين
والكأسُ لا تحسنُ إلا إذا أَدرْتَــهـا بين مُـحِبَّـيْـنِ

ومن قديم أيضا يمزج الشعراء بين النشوة بالخمر والنشوة بالطبيعة ، إذ كانوا فعلا كما مر بنا يشربونها على أبسطة الربيع وبين آسه ووروده وزهره ، ونقلوا الأزهار إلى مجالسها ، حتى تعبق بروائحها أو قل نقلوا الربيع بكل ما فيه نقلا يأخذ بمجامع القلوب ويمتزج بالنفوس . فكان طبيعيا أن يتحدث الشعراء فى خمرياتهم عن جمال الطبيعة وجمال الورود والرياحين فى الربيع ، وقرنوا إلى ذلك سقوط الثلج فى الشتاء كقول الوزير المهلبى فى إحدى خمرياته (١) :

الوردُ بين مضمَّخٍ ومضرَّجٍ والزهرُ بين مكلَّلٍ ومتوَّجِ (٢)
والثلجُ يهبطُ كالنِّثار فقُمْ بنا نلتذَّ بابنة كَرْمةٍ لم تمزَجِ (٣)

وكان الغناء يرافق الخمر ، كما أشرنا إلى ذلك ، فعرضت خمريات كثيرة للغناء والخمر معا ، كما عرضَتْ أخرى للغزل بالسقاة من الغلمان ، وكثير منه كان يُقْصَدُ به إلى التندر والدعابة فى أثناء السكر . وكان الغزل بالغلمان لونا من ألوان التماجن فى العصر ، وهو – لاشك – وصمة معيبة فى جبين أصحابه .

ودفع التماجن إلى ظهور أشعار لا يستحى أصحابها من ذكر العورات والإسراف فى الفحش ، ونعجب الآن أن يُتَّخذ ذلك ضربا من الهزل والتسرية عن الناس ، وكأنما أعياهم أن يُسَرُّوا عن أنفسهم ، فالتمس بعض الشعراء هذه التسرية التى تؤذى النفوس الكريمة . وكان شعراء هذا الهزل الماجن يمزجونه بفكاهات ونوادر ودعابات كثيرة ، وكأنهم أحسوا أنه يجب تخفيف حدَّته ، وأنى لهم ؟ ! فقد كان يمتلئ بسخف كثير ، وسخفه ليس ناشئاً عن التورط فى الخمر فحسب وإنما أيضاً عن التورط فى وصف الفواحش والتصريح بالآثام فى غير استحياء . وكان الذى دفع إلى ذلك ابن سُكَّرة وابن الحجَّاج فى القرن الرابع ، غير أن شعراء الخمر أنفسهم من حولها ومن بعدهما كانوا يترفعون عن هذا الدَّرْك

---

(١) اليتيمة ٢ / ٢٣٧ .

(٢) مضمخ : ملطخ بالطيب ، مضرج : ملطخ بالحمرة .

(٣) النثار : ما ينثر فى حفلات العرس والسرور من نقود أو حلوى .

الأسفل من التصريح بالمآثم على نحو ما نرى فى خمريات عبد الصمد [1] بن بابك المتوفى بعدهما سنة ٤١٠ وله من خمرية :

عُقارٌ عليها من دَم الصَّبِّ نَفْضَةٌ ومن عَبراتِ المستهام فَواقِعُ
معوَّدةٌ غَصْبَ العقولِ كأنما لها عند ألباب الرجال ودائع
تحيرَّ دَمْعُ المُزْن فى كأسها كما تحيرَّ فى وَرْد الخدود المدامع

وقد أبدع فى تصوير فواقعها فى كأسها بأنها عبرات شاربها العاشق الولهان ، ويقول إنها استردَّتْ منه وديعتها ، ففارقه عقله . ويصل بين امتزاج الماء بالخمر المحمرة فى كأسها وبين الدموع وتحدرها على خدود المحبوبة الموردة ، وله من أخرى :

يا صاحبىَّ امزُجا كأسَ المُدام لنا كيما يُضىء لنا من نورها الغَسَقُ
خمراً إذا ما نديمى همَّ يَشْرَبُها أخشى عليه من اللألاء يَحْترق
لو رام يحلفُ أن الشمس ما غَرَبتْ فى فيه كذَّبه فى وجهه الشَّفَقُ

وخوفه على نديمه من الاحتراق فى لألاء الخمر غريب ، وأغرب منه دعواه أن الشمس غربت فى فمه بدليل ما تتضرج به خدوده من حمرتها ، وكأنها تركت عليها شفقها أو بصماتها الحمراء . ويظل الشعراء بعد ابن بابك ينظمون فى الخمر متفننين فى معانيها محاولين بكل جهدهم أن ينفذوا فيها إلى طرائف جديدة ، على نحو ما يلقانا عند سبط ابن التعاويذى والحاجرى والتَّلَعْفرى وصفى الدين الحِلِّى. وانحصرت موجة المجون والفحش بذلك عند ابن سكرة وابن الحجاج وتراجعت عند خالفيهم وكادت تنحصر فى شعر هزلى مضحك على نحو ما هو معروف عند صريع [2] الدِّلاء المتوفى بمصر سنة ٤١٢ من مثل قوله :

مَنْ مضَغ الأحجارَ أدمتْ فَكَّهُ فالضِّرْسُ لم تُخْلَق لتليين الحصَى
من قطَع النَّخْلَ وظلَّ راجيًا ثمارَها فذاك مقطوعُ الرَّجَا

وقد يحاول شاعر من باب الدُعابة محاكاة ابن حجاج أو ابن سكرة ، غير أنه يخفف جدا من تماجنه وتعابثه بحيث لا يستخدم شيئا من ألفاظ الفحش ، إنما يكتفى ببيان عكوفه على الخمر وأنها كل لذته فى دنياه ، حتى إنه لا يستطيع أن يهجرها فى ليالى رمضان

(١) انظر فى ترجمة عبد الصمد اليتيمة ٣٧٤/٣ وابن خلكان ١٩٦/٣ وعبر الذهبى ١٠٢/٣ والنجوم الزاهرة ٢٤٥/٤ والشذرات ١٩١/٣ . وله ديوان مخطوط . انظر بروكلمان ٢٥/٥ . --

(٢) انظر فى ترجمة صريع الدلاء تتمة اليتيمة للثعالبى ١٤/١ وابن خلكان ٣٨٣/٣ وعبر الذهبى ١١٠/٣ والشذرات ١٩٧/٣ وله ديوان مخطوط . انظر بروكلمان ٦٥/٢ .

قبل سحوره ، وفى ذلك يقول ابن السَّوادى (١) من شعراء القرن السادس متماجنا .

الصَّبوحَ الصبوحَ فى شعبانِ لا تُخِلُّوا به مع الإمكانِ
واسْقِنيها يوم الثلاثين فى الشّـ ـكِّ وبعد السُّحور قبل الأذانِ

وبعد أن تماجن طويلا فى القصيدة راجع نفسه وعاد يعلن حسن إسلامه وطاعة ربه وأنه بَراء من كل ما يصف به نفسه ، قائلا :

نِيَّتِى غَيْرُ ما سمعتَ وماكا ن لسانى عن نِيَّتِى تُرْجمانِى

ومضى يذكر أن عُدَّته فى معاده شفاعة الرسول عليه السلام وعلى وفاطمة الزهراء والحسنين ، وبذلك محا كل ما جاء به فى قصيدته من تماجن ، مصرحا بعقيدته الشيعية وما يعتقده الشيعة فى شفاعة على والسيدة فاطمة والحسن والحسين . وما دمنا بصدد التماجن فحرى بنا أن نتوقف قليلا عند علَميه فى العصر : ابن سكرة وابن الحجاج .

ابن سُكَّرة (٢)

هو أبو الحسن محمد بن عبد الله المعروف بابن سكرة البغدادى الهاشمى ، وهو من سلالة على بن المهدى بن أبى جعفر المنصور الخليفة العباسى المشهور . ويبدو أنه كان فى يسار وسعة من المال وأنه عاش للمجون والخلاعة . ولسنا نعرف شيئا عن نشأته وتربيته وحياته إلا ما يصفه به الثعالبى فى اليتيمة من قوله : « هو شاعر متسع الباع ، فى أنواع الإبداع ، فائق فى قول الملح والطُّرف ، أحد الفحول الأفراد . جارٍ فى ميدان المجون والسخف ما أراد » . ويقال إن ديوانه يربو على خمسين ألف بيت ، منها فى قينة سوداء يقال لها خمرة أكثر من عشرة آلاف بيت ، وكانت عُرْضة نوادره ومُلَحه . وحكى بعض معاصريه أنه حلف بطلاق امرأته – وهى ابنة عمه – أنه لا يخلى بياض يوم من سواد شعره فى هجاء خمرةَ ، ولما علمت امرأته بالقصة كانت كل يوم إذا انفتل زوجها من صلاة الصبح تجيئه بالدواة والقرطاس وتلزم مصلاه لزوم الغريم غير الكريم . فلا تفارقه مالم يقرض ولو بيتافى ذكرها وهجائها . وتدل الأشعار التى أنشدها له الثعالبى على شاعرية خصبة فى الغزل وغير الغزل من مثل قوله :

(١) راجع فى ترجمة ابن السوادى وشعره الخريدة (قسم العراق) ٣٦٩/١/٤ وابن خلكان ٤٨١/٣ .

(٢) انظر فى ترجمة ابن سكرة وأشعاره اليتيمة ٣/٣ وتاريخ بغداد ٤٦٥/٥ والمنتظم ١٨٦/٧ وعبر الذهبى ٣٠/٣ وابن خلكان ٤١٠/٤ والشذرات ١١٧/٣ ومرآة الجنان لليافعى ٤٢٧/٢ والوافى ٢٠٨/٣ .

حذَارِ من وَصْلِ مَنْ بليتُ بهِ فقد لقيتُ الرَّدَى بجَفْوتِهِ
دنوتُ منه كما أقبِّلَهُ فلم تَدَعْنِى نيرانُ وَجْنَتِهِ

فقد جعل النيران المشتعلة فى وجنات محبوبته وخدودها تدفعه دفعا وتردّه ردا عنيفا ، ومن هذا النمط قوله متغزلا :

منعتْنِى من مُقبَّلِهِ حين أدنو منه عَقْرَبُهُ
واستدارتْ فَهْىَ تَحْرُسُهُ من فمى بُخْلاً وتَرْقُبُهُ

وكانت النساء تلْوِى على أصداغها خُصلة من شعرها فى شكل عقرب تزينا وتجملا ، فاستغل ذلك حتّى النهاية ، إذ الخصلة مثل العقرب تستدير وترتفع فى طرفها ،وكأنها تراقب صاحبتَها وتستعد للدغ من يقترب من خدودها . ولن نستطيع أن نروى شيئا من فحشه فى الغزل ، ونكتفى بذكر بعض أبيات تصور مجونه دون أن تؤذى الذوق ، من ذلك قوله :

ويومٍ لا يقاسُ إليه يومٌ يلوحُ ضياؤه من غير نارِ
أقمنا فيه للذَّات سُوقاً نبيع العقلَ فيها بالعُقارِ

فهو يعيش للإكباب على اللذات والانهماك فى المجون والعبّ من الخمر وإنه ليقيم للمجون سوقا يبيع فيه عقله بيع وَكْسٍ بِدَنٍّ زهيد من الخمر يفقده رشده ، ومن قوله :

اشربْ فلليوم فضلٌ لو علمتَ به بادرتَ باللهو واستعجلتَ بالطَّربِ
وردُ الخدودِ وورد الروض قد جُمعا والغيم مبتسمٌ والشمسُ فى الحُجبِ
لاتَحْبسِ الكأسَ واشْرَبْها مُشعْشَعَةً حتى تموت بها موتاً بلا سبب

وقد جعل كل شىء فى الزمان والمكان يحث على اللهو والطرب ، فقد اجتمعت الخمر وورد الخدود كما يقول وورود الرياض فى يوم من أيام الشتاء الغائمة الباسمة . ويذكر أن ذلك كله يدعو لاحتساء الخمر حتى الموت موتا بلا سبب ، دعابة مقصودة ، ومن قوله :

قد بدا الصبحُ مؤذناً بسُفورِ وفَرى الفجرُ حُلَّةَ الدَّيْجُورِ[1]
فاسْقنى قهوةً تترجم بالرِّقَّـ ـةِ عن دمع عاشقٍ مهجورِ

فالخمر رقيقة رقة دمع العاشق لكثرة حباته المتساقطة من مآقيه . ولو عرف قيمة الملكة الشعرية التى رُزقها لحفظ لها حقها ولم يسقط فى شعر الفحش والمآثم ، ولا لطخ أشعاره بهذا الدنس . وله هجاء كله سخرية ووخز كوخز الإبر . وكان واسع الخيال إلى درجة الوهم على نحو ما نرى فى قوله :

(١) فرى : شقّ . الديجور : الظلمة .

قيل : ما أعددتَ للبَرْ دِ فقد جاء بشدَّه
قلت : دُرَّاعَةُ عُرْيٍ تحتها جُـبَّـةُ رِعـدَه

والدراعة : ثوب من صوف ، وبلغ من وهم خياله أن جعل للعرى دراعة وللرعدة من برد الشتاء جُبَّة . وما أظنه كان يصور شيئا من حقيقة حياته ، فقد كان على غير قليل من اليسار . وكأنه فى البيتين استعار من معاصريه هذا اللون من التفاقر وإظهار الخَصاصة ، وكان لها شعراء معروفون هم شعراء الكُدْية ، فجاراهما فى بيتيه تظرفا ودعابة . وقد توفى سنة ٣٨٥ للهجرة .

ابن الحجَّاج [١]

هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد ، نسب إلى جَدٍّ له يسمى الحجاج ، ويبدو أن أباه كان من العمال ، وعُنى بتربية ابنه ، فاختلف إلى مجالس الفقهاء والعلماء فضلا عن مجالس الأدب ، والتحق بالدواوين كاتبا ثم أصبح ضامنا لفرائض الصدقات بِسِقْى الفرات مدة ، ثم تولى حِسْبة بغداد فترة إلى أن عُزل بأبى سعيد الإصطخرى الفقيه الشافعى . وكان أكبر شعراء زمانه فى التهاجن والتعابث ، وهو يخطو فيهما خطوات بعيدة بالقياس إلى ابن سكرة ، حتى زعم الرواة والنقاد أنه «فرد زمانه فى فنِّه الذى شُهر به وأنه لم يُسْبَقْ إلى طريقته ، ولم يُلْحَق شأوه فى نمطه» وفيه يقول أبو حيان : «سخيف الطريقة بعيد من الجدّ ، قريعٌ (فَحْل) فى الهزل ، ليس للعقل من شعره منال ، ولا له فى قَرْضه مثال ، على أنه قويم اللفظ سهل الكلام ، وشمائله نائية بالوقار ، عن عادته الجارية فى الخسار ، وهو شريك ابن سكرة فى هذه الغرامة ، وإذا جَدَّ أقْعَى [٢] ، وإذا هزل حكى الأفعى» ويقول صاحب اليتيمة : «هو وإن كان فى أكثر شعره لا يستتر من العقل بِسِجْفٍ [٣] ، ولا يبنى جُلَّ قوله إلا على سُخْف ، فإنه من سَحرة الشعر ، وعجائب العصر . . وأشعاره مشوبة بلغات الخُلْديين (أصحاب الحرف) والمكْدين (أدباتية العامة) والشطار . . وكلامه يمدُّ يد المجون فيعرك بها أذن الحُرَم ، ويفتح جراب السخف فيصفع قفا العقل ، ولكنه على علاته تتفكه الفضلاء بثمار شعره ، وتستملح الكبراء بنات طبعه . . ولقد مدح الملوك والأمراء والوزراء والرؤساء . . وهو عندهم مقبول الجملة غالى مهر الكلام ، موفور

(١) انظر فى ترجمة ابن الحجاج وأشعاره اليتيمة ٣/٣٠ وتاريخ بغداد ٨/١٤ ومعجم الأدباء ٩/٢٠٦ والإمتاع والمؤانسة لأبى حيان ١/١٣٧ وابن خلكان ٢/١٦٨ والشذرات ٣/١٣٦ .

(٢) أقعى هنا : قعد ولم يتم جده .

(٣) سجف : ستر .

الحظ من الإكرام والإنعام ، مجاب إلى مقترحه من الصِّلات الجِسام . . وكان طول عمره يتحكم على وزراء الوقت ورؤساء العصر . تحكمَ الصبى على أهله ، ويعيش فى أكنافهم عيشة راضية ، ويستثمر نعمة صافية ضافية » . وإلى ذلك يشير فى شعره مرارا ، وأنه بناه على التهاجن والفحش للتفكه والدعابة طلبا للكسب به ، يقول :

لو جَدَّ شعرى رأيتَ فيهِ كواكبَ الليلِ كيف تَسْرِى
وإنما هَـــزْلُـــهُ مجونٌ يمشى بهِ فى المعاش أمرى

وقد عاش عيشة رَفَهٍ ويَسارٍ حتى توفى سنة ٣٩١ . وكان يكثر من نظم هذا الشعر الماجن حتى قالوا إن ديوانه يبلغ عشرة مجلدات ، وكان يباع فى حياته بخمسين دينارا إلى سبعين ، ولكثرة ما ملأه به من ذكر العورات والمقاذر قال فيه ابن سكرة الماجن حين سئل عن قيمته إن « قيمته بَرْبخ » أى بالوعة تحمل القاذورات وما ينضاف إليها . وإذا كان هذا حكم ابن سكرة فما بالنا بحكم الناس وراءه فى عصره وبعد عصره . وقد دعا بعض أصحاب الحِسْبة فى كتبهم إلى منع الغلمان والصبيان من حفظ أشعاره وأخذهم بالضرب إن هم حاولوا ذلك . وينبغى أن نشير إلى ما ذكره أبو حيان من أنه كان فيه وقار يخالف هذا الإغراق فى التهاجن ، وكأنه كان تماجنا مقصودا به إلى الإضحاك : إضحاك الرؤساء والكبراء ، غير أنه تجاوز فيه حده . وكان حسبه ما لديه من القدرة على الفكاهة ليضحك الناس دون التردِّى فى بالوعات الفحش وقاذوراته ، ويصور تماجنه من بعض الوجوه قوله فى مديحه لبَخْتِيار الحاكم البويهى لبغداد فى عصره :

فدَيتُ وجهَ الأميرِ من قمرٍ يجلو القَذَى نورُهُ عن البصَرِ
فَديتُ مَنْ وَجْهُهُ يُشكِّكُنِى فى أنَّه من سُلالة البَشرِ
إن زُلَيخا لو أبصرتْك لما ملَّتْ إلى الحشْرِ لذَّةَ النظرِ

ويستمر فى مثل هذا التماجن . وهو لا يطيق الصبرَ حتى مع بختيار فى تماجنه ، إذ يمضى فيلطخ المدحة فى أواخرها بشىء من قاذوراته . وكان شيعا إماميا ، وكان يشوب تشيعه أحيانا بشىء من الغلو ، وكان قريبا من نفس الشريف الرضى ، فاختار من شعره قطعة تخلو من قذره وسخفه . ورثاه حين توفى رثاء حارا ، ومن خمرياته التى تخلو من فحشه وبذاءته قوله :

يا صاحبىّ استيقظا من رقدةٍ تُزْرِى على عقل اللبيبِ الأكْيَسِ

هذى المجرَّةُ والنجومُ كأنها نهرٌ تدفَّق فى حديقةِ نَرْجِسِ
قوما اسقيانى قهوةً روميَّةً من عهد قيصرَ دَنُّها لم يُمْسَسِ
صِرْفاً تُضيف إذا تسلَّط حكمُها موتَ العقول إلى حياة الأَنْفُسِ

والصورة فى البيت الثانى جيدة إذ جعل نهر المجرة يتدفق فى حديقة نرجس ، وجعل الخمر فى البيت الأخير تميت العقول فى رأيه ، ولكنها تحيى النفوس . وله خمرية قالها فى عيد المهرجان ، وهى تخلو من مقاذره غير أن فيها تبجحا شديداً باعترافه بعصيانه لربه لشربه الخمر مع ما جاء من تحريمها فى الذكر الحكيم .

وكل ذلك كان يريد به التماجن والتعابث والإضحاك ، وقد عاد فى هذه القصيدة أو الخمرية يعلن أن رأس ماله كله خسران إلا ما كان من حبه لآل البيت وللرسول عليه السلام والإمام على وفاطمة الزهراء والحسن والحسين . وتكثر فى أشعاره الكدْية أو الشحاذة الأدبية ، فهو يكثر من بيان فقره وحاجته ، وأنه لا يجد المرق فضلا عن اللحم ، وأنه دائما يأكل الخبز بالملح دون إدام فيجرح حلقه من خشونته ، ودائما لا يجد صوفا يقيه برد الشتاء ولا خَيْشا يقيه حر الصيف . وكل ذلك دعابة وفكاهة ، فقد كانت الدنانير والدراهم تنسكب عليه من كل جانب .

٣

شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية

منذ ظهور الإسلام يُعَدّ الزهد والتقشف من صميم حياة المسلم ، زهد فى طيبات الحياة ومتاعها وإقبال على ما عند الله من ثواب الآخرة ، وهو إقبال يوازن فيه المسلم بين نسكه وتعبده لربه وبين السعى لرزقه ، فهو يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدا ويعمل لآخرته كأنه يموت غدا . وهو يضع ثقته فى الله ويتوكل عليه حق التوكل ، ولا يرى فى سعيه لكسب قوته ما يقلل من هذا التوكل أو تلك الثقة . وتلقانا فى العراق مع العصر الأموى طوائف من النساك والعباد الزهاد ، فالزهد والنسك قديمان فى هذه البيئة ، وأخذت تتسع موجة الزهد مع العصرين العباسى الأول والثانى . وظلت حادة فى هذا العصر ، ولا شك فى أنها كانت أحدَّ وأكثر اتساعا وجمهورا بل جماهير من موجة اللهو والمجون ، فقد كانت هذه

تكاد تكون خاصة بالطبقة المترفة فى الأمة ومن حَفَّ بها من المغنين والمغنيات والشعراء وأهل العبث . وكان الشعب لا يشترك فى اللهو إلا فى مواسم خاصة كأعياد المجوس والنصارى . أما موجة التقشف والنسك فكانت عامة يشترك فيها كثير من الطبقة العامة وجمهور أو جماهير الأمة ، إذ كانت تغدو صباح مساء إلى المساجد تتلو القرآن وتسبح الله وتذكره ليلا ونهارا . وكان يغذى هذه الروح فى المساجد وعاظ يزدحم الناس على مجالسهم .

ومن كبار الوعاظ ابن سمعون [١] المتوفى سنة ٣٨٧ ويقول ابن خلكان : كان وحيد دهره فى الكلام على الخواطر وحسن الوعظ وحلاوة الإشارة ولطف العبارة » ومن قوله : « سبحان من أنطق باللحم ، وبصَّر بالشحم ، وأسمع بالعظم » إشارة إلى اللسان والعين والأذن ، وإياه عَنَى الحريرى فى المقامة الرازية الحادية والعشرين بقوله فى أوائلها : « رأيت بالرَّىِّ ذات بُكرة ، زمرةً فى إثر زمرة ، وهم منتشرون انتشار الجراد ، ومستنُّون [٢] استنان الجياد ، ومتواصفون واعظا يقصدونه . ويُحلُّون ابن سمعون دونه » ولم يكن له نظير فى زمنه . وكانت تعاصره ميمونة [٣] بنت ساقولة الواعظة البغدادية المتوفاة سنة ٣٩٣ وكان لها لسان حلو فى الوعظ . وكان قبلها وبعدها كثيرات زاهدات ، وكان بعضهن يعظن وبعضهن يُحْمَل عنهن الحديث وقد ترجم ابن الجوزى فى كتابه « صفة الصفوة » لطائفة كبيرة منهن . وفى سنة ٤٩٦ توفى ببغداد واعظ كبير هو أردشير بن منصور « وبوعظه حَلَقَ أكثر الصبيان رءوسهم ولزموا المساجد وبدَّدوا الخمور وكسروا الملاهى » [٤] ومن كبار الوعاظ الزهاد أبو الوفاء بن عقيل الحنبلى المارّ ذكره ويقول ابن رجب : « من معانى كلامه يستمد أبو الفرج بن الجوزى » . وفى كل بلدان العراق نلتقى بأخبار هؤلاء الوعاظ مثل محمد بن عبد الملك الفارقى [٥] المتوفى سنة ٥٦٤ وقد ترجم له العماد ترجمة ضافية ، ذكر فيها مواعظه ومناجياته لربه ، وكان يضمنها أشعارا فى الزهد والوجد مثل قوله :

---

(١) انظر فى ترجمة ابن سمعون ابن خلكان ٤ /٣٠٤ وتاريخ بغداد ١ /٢٧٤ وطبقات الحنابلة لابن أبى يعلى ٢ /١٥٥ وصفة الصفوة ٢ /٢٦٦ والوافى ٢ /٥١ .

(٢) مستنون من استن : جرى .

(٣) النجوم الزاهرة ٤/٢٠٩ .

(٤) النجوم الزاهرة ٥/١٨٦ .

(٥) انظر ترجمة محمد بن عبد الملك فى الخريدة (قسم الشام) ٢/٤٣١ ومابعدها والمنتظم ١٠/٢٢٩ والوافى ٤/٤٤ .

مَنْ كان فى ظلماءِ ليلٍ سارياً رَصَدَ النجومَ وأوقدَ المِصْباحا
حتى إذا ما البدرُ أشرق نورُهُ ترك السِّراجَ وراقبَ الإصباحا
حتى إذا انجاب الظلامُ جميعهُ ورأى الضياء بأُفْقِهِ قد لاَحا
هجرَ المسارجَ والكواكبَ كلَّها والبدرَ وارتقبَ السَّنا الوضَّاحا

وهى قطعة صوفية رمزية إذ يشير إلى أن من أظلمت عليه الدنيا فى مطلبه الأسنى من الاتصال بربه ، يلجأ إلى نجوم فهمه ومصباح قريحته وسراجها ، حتى إذا بَدْرُ الدراية والمعرفة أشرقَ على نفسه هجر ذلك السراج وتلك النجوم وانتظر الإصباح والسَّنا الوضاح فرأى عين اليقين ونهل من معين الحب الإلهى ورحيقه المصفى . وربما كان أكبر واعظ عرفته العراق فى هذا العصر ابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ وقد وصف مجلس وعظه ابن جبير سنة ٥٨٠ وصفا مسهبا قائلا « شاهدنا صبيحة يوم السبت الثالث عشر من شهر صفر مجلس الشيخ الفقية الإمام الأوحد جمال الدين أبى الفضائل عبد الرحمن بن على الجوزى بإزاء داره على الشطِّ بالجانب الشرقى فى آخره على اتصال من قصور الخليفة . . وهو يجلس به كل يوم سبت ، فشاهدنا مجلس رجل . . آية الزمان وقرة عين الإيمان رئيس الحنبلية والمخصوص فى العلوم بالرتب العليا إمام الجماعة ، وفارس حلبة هذه الصناعة (يريد الوعظ) والمشهود له بالسبق الكريم فى البلاغة والبراعة ، مالك أزمة الكلام فى النظم والنثر ، والغائص فى بحر فكره على نفائس الدر ، فأما نظمه فرضىّ الطباع مهْيارى الانطباع ، وأما نثره فيصدع بسحر البيان ، ويعطل المثل بقُسٍّ وسَحْبان ، ومن أبهر آياته وأكبر معجزاته أنه يصعد المنبر ويبتدئ القرَّاء بالقراءة وعددهم نيف على العشرين قارئا ، فينتزع الاثنان منهم أو الثلاثة آية من القرآن يتلونها على نسق بتطريب وتشويق ، فإذا فرغوا تلت طائفة أخرى على عددهم آية ثانية ، ولا يزالون يتناوبون آيات من سور مختلفات . . فإذا فرغوا أخذ هذا الإمام الغريب الشأن فى إيراد خطبته عجلا مبتدرا ، وأفرغ فى أصداف الأسماع من ألفاظه دررا ، وانتظم أوائل الآيات المقروءات فى أثناء خطبته فِقَراً . . ثم أكمل الخطبة على قافية آخر آية منها . . وحَدِّثْ ولا حرج عن البحر ، وهيهات ليس الخبر عنه كالخُبْرْ . ثم إنه أتى بعد أن فرغ من خطبته برقائق من الوعظ وآيات بينات من الذكر طارت لها القلوب اشتياقا ، وذابت بها الأنفس احتراقا ، إلى أن علا الضجيج وتردد النشيج ، وأعلن التائبون بالصياح ، وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح ، كل يلقى ناصيته بيده فيجزّها ويمسح على رأسه داعيا له ، ومنهم من يُغْشَى عليه ، فيُرْفَعُ فى الأذرع إليه ، فشاهدنا هولا يملأ النفوس إنابة وندامة ، ويذكِّرها هول يوم القيامة ،

فلو لم نركب ثَبَجَ (وسط) البحر ، ونعتسف مفازات القفر ، إلا لمشاهدة مجلس من مجالس هذا الرجل لكانت الصفقة الرابحة، والوجهة المفلحة الناجحة . فالحمد لله على أن مَنَّ بلقاء مَنْ تشهد الجمادات بفضله ، ويضيق الوجود عن مثله(١) » .

وطبيعى أن يَنْهَى هذا الوعظ الذى كانت تتدفق جداوله فى المساجد الناسَ عن ارتكاب المعاصى وأن يدفع كثيرين دفعا إلى الزهد فى متاع الحياة وخيراتها فضلا عن قمع النفس عن الشهوات وارتكاب المآثم . وكما كان للوعاظ فضل كبير فى سريان هذه الروح كذلك كان لفقهاء الحنابلة نفس الفضل ، فقد كانوا يؤلفون جمهورا كبيرا ببغداد ، وكثيرا ما كانوا يثورون طالبين إلى الدولة قلع المواخير وتتبع المفسدين ومن يبيع النبيذ . وكثيرا ما نهضوا بأنفسهم فكبسوا الدور وأراقوا الأنبذة(٢) وكانت الدولة لا ترى بدا من النزول على إرادتهم ، وسِيَرُهُم كما يمثلها كتاب طبقات الحنابلة لابن أبى يعلى وذيله لابن رجب تفوح دائما بشذى الزهد والتقشف والإعراض عن الدنيا وملذاتها ، ويستحيل ذلك عند كثيرين منهم إلى أشعار زاهدة وأخرى تفيض بوجد ملتاع . وكان هذا الوجد يصل بين الزهاد والمتصوفة على نحو ما مرَّ بنا آنفا فى مقطوعة واعظ ميَّافارِقين وزاهدها محمد بن عبد الملك . وتمتلئ كتب طبقات المتصوفة بأشعارهم الصوفية الخالصة التى يصورون فيها عشقهم الإلهى ومكابدتهم معطِّلين لحواسهم وعقولهم بينما يتجلى الله فى كل الموجودات ، وهم سابحون فى بحار الوجد وبين أمواجه ، غارقون فى آلام حبهم وأشجانه ودموعه ، على نحو ما يصور ذلك الشيخ أحمد الرفاعى صاحب الطريقة الرفاعية المشهورة فى قوله : (٣)

إذا جَنَّ ليلى هامَ قلبى بذكركم ... أنوحُ كما ناحَ الحمامُ المطوَّقُ
وفَوْقِى سحابٌ يُمْطِر الهمَّ والأسَى ... وتحتِى بحارٌ بالأسى تتدفَّقُ

وسبق أن عرضنا لشهاب الدين السُّهْرَوَرْدِىّ البغدادى فى الفصل الأول . وهو إمام صوفية بغداد ومقدمهم فى القرن السابع الهجرى ، وَوَلِىَ عدة رُبط للصوفية ، وكان فقيها عالما واعظا ، عقد مجلس الوعظ سنين ، ويُرْوَى أنه أنشد يوما فى تضاعيف وعظه(٤) :

لا تسقِنى وحدى فما عَوَّدْتَنِى ... أنى أشِحُّ بها على جُلَاَّسِى
أنت الكريمُ ولا يليق تكرُّماً ... أنْ يَعْبُرَ النُّدَماءَ دَوْرُ الكاسِ

---

(١) انظر رحلة ابن جبير وزيارته فيها لبغداد (طبع ليدن) ص ٢٢٠ ومصادر ترجمة ابن الجوزى مذكورة فى صفحة ٣١٨ .

(٢) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ٢٤/١ .

(٣) ابن خلكان ١٧٢/١ .

(٤) ابن خلكان ٤٤٦/٣ .

فتواجد الناس بذلك ، وقُطعت شعور كثيرة وتاب جمع كبير ، وواضح أنه عبر بالخمر عن النشوة بالعشق الإلهى ، ومن غزله الصوفى :

تَصـرَّمَتْ وَحْشَـةُ الليـالى وأقبـلتْ دَوْلـةُ الوِصالِ
تقـاصرتْ عنكـمُ قلوبٌ فيالَهُ مورداً حَلاَ لى

وهو يعبر عن فرحته الهنيئة بصلته أو اتصاله بربه ، وكأنه تحقق له عالم الشهود أو عالم الفناء ، فانجاب عنه الحجاب ، وأضاءت مِشْكاة قلبه بنور ربه . وانبثقت من الشعر الصوفى منذ ابن دريد فى أوائل القرن الرابع الهجرى مدائح نبوية عطرة بالسيرة الذكية ، وما نصل إلى القرنين السادس والسابع حتى يتكاثر هذا المديح ويزدهر ، ونظن ظنا أنه كان للحروب الصليبية أثر فى ذلك ، فقد رأى المسلمون تعظيم الصليبيين لعيسى عليه السلام واهتمامهم بمولده وحربهم للدين الحنيف وصاحبه ، وعرف الشعراء أنها حرب دينية يشنُّها الغرب على الرسالة النبوية ورسولها الكريم ، فاستحثوا الناس للدفاع عن دينهم ، بل لقد مضوا يستصرخونهم للذود عن وطنهم الإسلامى محاولين – بكل ما وسعهم – أن يحيلوهم شعلا آدمية تشوى وجوه الصليبيين وتأتى عليهم كأن لم يكونوا شيئا مذكورا . وفى الوقت نفسه مضوا يمدحون النبى الكريم بعرض سيرته وشذاها العطر ورفعوها شعارات بل لواءات ، ليتجمع من حولها أبطال الإسلام والعرب ويقضوا على الصليبيين قضاء مبرما . ولم يكتف بعض الشعراء بمدحتين أو مدائح معدودة للرسول ، بل نظم فى ذلك ديوانا مثل محمد بن أبى بكر بن رشيد الواعظ البغدادى فقد نظم فى مديح الرسول عليه السلام ديوانا سماه القصائد الوترية فى مدح خير البرية وهى تسع وعشرون قصيدة مقفاة على حروف المعجم . ونختار ثلاثة من الشعراء يمثلون الزهاد والمتصوفة ومداح الرسول عليه السلام ، وهم على الترتيب ابن السرَّاج البغدادى والمرتضى الشهرزورى والصَّرْصَرىّ .

ابن السرَّاج البغدادى (١)

هو جعفر بن أحمد بن الحسين السرَّاج البغدادى المقرئ المحدث الأديب ، ولد ببغداد سنة ٤١٧ أو فى أول سنة ٤١٨ وقرأ القرآن وتلقن قراءاته وأقرأه سنين ، وعُنى بالحديث النبوى ورحل فى طلبه إلى مكة والشام ومصر ، وخرَّج له الخطيب البغدادى خمسة أجزاء تسمى

(١) انظر فى ترجمة ابن السراج وشعره كتاب الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب ١٢٣/١ والمنتظم ١١١/٩ ومعجم الأدباء ١٥٣/٧ وابن خلكان ٣٥٧/١ .

السّراجيات ، وله مصنفات مختلفة وكان شاعرا مطبوعا ، واستغلّ موهبته الشعرية فى نظم كتب الفقه مثل كتاب المبتدى وكتاب مناسك الحج وكتاب الخِرَق وكتاب التنبيه . وأهم كتبه وأشهرها كتاب مصارع العشاق ، وهو فى أخبار العبّاد والنساك ، وبه أشعار كثيرة تفيض بوجد مبرح . وكان حَنْبليا حُمل عنه الحديث كما حملت القراءات ويقول ابن الجوزى « حدثنا عنه أشياخنا ، وآخر من حدثنا عنه شهدة بنت الإِبَرىّ ، قال : وقرأت عليها كتابه المسمى بمصارع العشاق بسماعها منه » ويقول ابن خلكان عن شهدة : « بغدادية المولد والوفاة كانت من العلماء ، وسمع عليها خلق كثير ، واشتهر ذكرها وبعد صيتها(١) » . وقد جعل السراج كتابه « مصارع العشاق أجزاء ، وكتب على كل جزء أبياتا ، من ذلك قوله على الجزء الأول :

هذا كتابُ مصارعِ العشّاقِ صَرَعَتْهُمُ أيدى نَوًى وفِراقِ
تصنيفُ مَنْ لدغَ الفِراقُ فؤادَهُ وتطلّب الراقى فعزَّ الراقىَ

وكان تقيا ورعا يغلب عليه الزهد مع حسن الطريقة ومع الظرف ولطف الأخلاق . وأكثر أشعاره فى نظم كتب الفقه كما مرَّ بنا وفى الزهد ، والتخلص من درك الهوى إلى ذُرَى الهدى ، والترفع عن اللذات البدنية ،والشهوات الدنيَّة ، ومن قوله :

أفلحَ عبدٌ عصى هواهُ وفاقَ فى دينِهِ وكاسا(٢)
ولم يَرُحْ مُدْمِناً لخمرٍ يَنْهَلُ طاساً يَعَلُّ كاسا(٣)

فهو يدعو الإنسان إلى عصيان هواه وأن يكون كيِّسا فلا يقع فى الخطايا والزلات ويحفظ نفسه من الخمر أو المنكرات ، وبذلك يرتقى فى درجات الهدى بقمعه لشيطانه وأمانه من غائلته . وله شعر وجدانى من مثل قوله يصوِّر حنين ناقته لمنازلها فى نجد والحجاز :

قضتْ وطَراً من أرض نَجْدٍ وأمّتِ عقيقَ الحِمىَ مُرْخىً لها فى الأزمَّةِ(٤)
وخبرَّها الروّادُ أنّ لحاجرٍ حَياً نوّرَتْ منه الرياضُ فحنَّتِ(٥)
ولاح لها بَرْقٌ من الغَوْرِ مَوْهِناً كشعلةِ نارٍ للطوارقِ شُبَّتِ(٦)

---

(١) ابن خلكان ٤٧٧/٢ .

(٢) كاس : أصبح كيِّساً حكيماً حصيفاً .

(٣) النهل : الشرب الأول . الطاس : إناء الخمر ومثله الكاس . العلل : الشرب الثانى .

(٤) أمت : قصدت .

(٥) حاجر : من منازل الحجاز . حيا : غيثاً .

(٦) الغور : غورتهامة وهو ما انحدر منها غرباً . موهناً : بعد نصف الليل . الطوارق : الضيوف .

وغنىَّ لها الحادى فأذكَرها الحِمَى وأيامَها فيهِ وساعاتِ وَجْرةِ (١)
وقد شَرِكَتْنى فى الحنين ركائبى وزدْن علينا رنَّةً بعد رنَّةِ (٢)
ألا ليت شعرى هل تعود رواجعًا ليالى الصِّبا من بعد ما قد تولَّتِ

والحنين يجرى فى الأبيات كما يجرى الماء والخضرة فى الأغصان النضرة ، وقد جعل ناقته أو دابته نفسها تحنُّ حنينا لا ينقطع إلى منازلها ، وهو حنين يضاعفه فى نفسها ما يلوح لها من برق ليلا صادرا من جانب الغَوْر ، وكأنه شعلة نار تستدعيها وتناديها من بعيد . كما يضاعف هذا الحنينَ شدوُ الحادى وغناؤه ، فتذكر أيامها فى وجرة وغير وجرة . ويصرِّح بأن ناقته وركائبه تشركه فى الحنين ، بل تزيد عليه رنة بعد رنة ، فيأسى لها ولنفسه ، ويتمنى لو عادت ليالى الصبا وكيف تعود وقد تولت إلى غير مآب ، ولم يبق إلا الوجد والحنين الذى يتَّقد فى فؤاده بمثل قوله :

حبَّذا نجدٌ بلاداً لم نجدْ راحةً للقلب فى أرضٍ سواها
فـإذا مـا لاحَ منها بـارقٌ هاج أشواقىَ أو هبَّتْ صَباها
لستُ أنسَى إذ سُلَيْمَى جارةٌ تبذل الوُدَّ وتُصْفينا هَواها
أرسلتْ طيفَ كرًى لكنَّه زارنا والعين قد زال كَرَاها (٣)

فنَجْدٌ راحة نفسه ومسرة قلبه ، وإنه ليذكر أيامها وماكان يغمره فيها من متاع وسعادة ، حتى إذا لاح برق أو هبَّ نسيم صَباً هاجت به أشواقه ، وأعادت إليه ذكرى حبه لسليمى حين كانت تبادله الهوى والود . وقد ضاع كل هذا الحلم منه وضاع منه النوم ، فلم يعد يستطيع أن يراها أو يرى طيفها ، وهو يتجشم أهوال وجده ويحتمل آلامه ، باكيا ذارفا دموعه كما يقول :

بانَ الخليطُ فأدْمُعى وَجْداً عليهم تَسْتهلُّ (٤)
وحَدا بهم حادى الفِرا قِ عن المنازل فاستقلُّوا (٥)
قُلْ للذين تَرحَّلوا عن ناظرى والقلبَ حَلُّوا
ما ضرَّهم لو أَنْهلوا من ماء وَصْلهمُ وعَلُّوا

فأحبابه رحلوا وحبَّات دموعه لا تزال تتساقط على خدوده ، وهل يملك سوى البكاء

(١) وجرة : موضع بنجد .
(٢) الركائب : الإبل .
(٣) الكرى : النوم .
(٤) تستهل : تنصب .
(٥) استقلوا : ارتحلوا .

والدموع الغزيرة ، لقد كان فى حلم غمره وملأ عليه فؤاده ، وأفاق منه على فراق أحبابه ، وإنه ليعلن إن كانوا قد رحلوا وبعدوا عن مرأى عينه فسيظل وفيا للعهد ، وسيظلون يحلُّون فى سويداء قلبه . ويفضى إلى اليأس قائلا : ما ضرهم لو أذاقوه وصلهم وجعلوه ينعم به مرارا . ومع ذلك فسيظل يذكرهم بل سيظل حبهم فى قلبه قويا حارا . وله وراء ذلك أشعار مختلفة فى مديح إمامه أحمد بن حنبل وأصحابه . توفى ببغداد سنة ٥٠٠ للهجرة .

المرتضى الشَّهْرَ زُورِىّ (١)

هو أبو محمد عبد الله بن القاسم بن المظفَّر الشهرزورى الملقب بالمرتضى ، وُلد بالموصل سنة ٤٦٥ وتوفى بها سنة ٥١١ فى أرجح الأقوال ، أقام ببغداد مدة يشتغل بالحديث والفقه ، ورجع إلى الموصل وتولى بها القضاء بجانب ما كان ينهض به من الوعظ والتذكير . وكان صالحا تقيا ناسكا متعبدا ، ولم يلبس خرقة الصوفية ولا لزم رِباطا من رُبطهم ، ومع ذلك كان صوفيا كبيرا ، صوفيا سنيا ، يدل على ذلك أكبر الدلالة ما تبقى من أشعاره واحتفظت به الخريدة للعماد ووفيات الأعيان لابن خلكان ، وروى له الأخير قصيدة صوفية رائعة ، يقول فى تضاعيفها :

لمعتْ نارُهم وقد عَسْعَسَ اللَّيْـ ... ـلُ وملَّ الحادى وحارَ الدليلُ (٢)
فـتـأمـلـتُـهـا وقـلـتُ لصَحْبِى ... هذه النارُ نارُ ليلى فميلوا
وهْى تعلو ونحن نَدْنُو إلى أن ... حجزتْ دونها طلولٌ مُحُول (٣)
فدنونا من الطلول فحالتْ ... زفراتٌ من دونها وغَليلُ
قلت : منْ بالديار؟ قالوا جريحٌ ... وأسـيـرٌ مـكَـبَّـلٌ وقَتِيل (٤)
فحَطَطْنا إلى منازلِ قومٍ ... صرَعَتْهم قبل المذَاق الشَّمولُ (٥)
قلت : أهلَ الهوى سَلامٌ عليكم ... لى فؤادٌ عنكم بكم مشغولُ
جئتُ كى أصْطَلِى فهل لى إلى نا ... رِكمُ هـذه الغداةَ سـبيلُ

إنه لا يزال ساريا طوال الليالى يبحث عن نار الذات الإلهية ، أو قل إنه يتخذ النار رمزا للمنازل على عادة الشعراء الغزلين ، ويراها من بعيد فى الظلام الدامس وقد كلَّ الحادى

---

(١) انظر فى ترجمة المرتضى وأشعاره الخريدة (قسم الشام) ٣٠٨/٢ وابن خلكان ٤٩/٣ والشذرات ١٢٤/٤ ومرآة الزمان ١٢١/٨ والنجوم الزاهرة ٢٣١/٥ .

(٢) عسعس : أظلم .

(٣) محول : مجدبة .

(٤) مكبل : مقيد .

(٥) الشمول : الخمر .

لطول السُّرى وحار الدليل المرشد ، وإذا النار أو قَبَسٌ منها يظهر فجأة ، فينادى صحبه : رأيت نار ليلى فميلوا ، وكلما جد فى السُّرى إليها ودنا منها علت وارتفعت إلى أن امتدت بينه وبينها طلول محول ، ويحاول الدنوّ من الطلول وتحول بينه وبينها دموعه وزفراته الحارة . ولا يجد فى الديار سوى العشاق ، وهم كثيرون بين جريح ومغلول فى القيود وقتيل . وينزل بين قوم شغفهم الحب الربَّانى ، بل لقد صرعهم قبل أن ينتشوا به ويذوقوا خمره . ويسلِّم ، ويقول إنه جاء يصطلى بالنار : نار الحب المشتعل ، ويقولون له إن أحدا لا يبلغها ولا يصل إليها ، فدونها أهوال وأمواج تجرفهم إلى طلولها . إنها نار تضيىء للسارى بالليل ولا تُنال ، ومنتهى الحظ أن يتزود اللحظ منها ، وهم حيارى وقوف قد أصبحوا أشباحا ناحلة وأنفاسا متلاشية ، وكلما ذاقوا كأس يأس مريرة لمعت لهم كأس رجاء حلوة ، فيقولون : صبر جميل .

والقصيدة من أروع ما خلَّف الصوفية على مر الحقب ، وقد أنشدها بكمالها ابن خلكان ، وقال إنما أثبتُّها كاملة ، لأنها قليلة الوجود وهى مطلوبة ، ويقول العماد فى الخريدة : « وجدت من كلام القاضى المرتضى أبى محمد الشهرزورى رسالة سلك بها مسلك الحقيقة ، وسبق أهل الطريقة ، مشحونة بأبيات فى رقة السلسال والشَّمول » وكأنه لم ينظم فى التصوف فحسب ، بل كتب أيضا ، غير أن العماد لم يُعْنَ بأن يروى شيئا مما كتبه ، إنما عُنِى بما جاء فى الرسالة من رقائق الغزل الصوفى من مثل قوله :

وعاودتُ قلبى أسأل الصبرَ وقفةً عليها فلا قلبى وجدتُ ولا صَبْرى
وغابتْ شموسُ الوصل عنى وأظلمتْ مسالكهُ حتى تحيَّرْتُ فى أمرى

والبيتان طريفان ، فقد وقف بالديار فضاع منه قلبه وعزَّ صبره ، وغربت شمس الوصل وأصبحت جميع المسالك حوله مظلمة ، وهو حائر لا يهتدى ولا يجد من ينقذه . إنه محب مهجور قد حُرم وصله وخُطف منه أو أُسر قلبه ، ويقول :

يا لَيْلُ ما جئتكمْ زائراً إلا وجدتُ الأرض تُطْوى لى
ولا ثنيتُ العزم عن بابكم إلا تعثَّرتُ بأذيالى

فهو دائما على عتبات الباب لا يدخل ولا ينعم بوصل ولا لقاء ، ويملّ الوقوف والانتظار ، ولكنه لا يستطيع الإياب ، كأنما شيء يمسك بتلابيبه ، فكلما حاول الانصراف وأعياه الانتظار ورغب فى الرجوع تعثر فى أذياله فتسمَّر فى مكانه ، ومن قوله :

شكوتُ إليها ما بقلبى من الجوَى فقالتْ : وهل أبقى الفِراقُ له قَلْبا

فقلت : فهل لى فى وِصالكِ مطمعٌ ... فقالتْ : إذا ما شَمْسُنا طلعتْ غَرْبا
فقلت : فهل من زورةٍ يَجْتنى بها ... ثمارَ المنى ظمآنُ قد مُنِع الشُّرْبا
فقالت إذا ما غاب عن كلِّ مشهدٍ ... وخاضَ حِياضَ الموت واستسهلَ الصَّعْبا
وأصبحَ فينا حائرا ذا ضلالةٍ ... يُواصلنا بُعْداً ونهجُره قُرْبَا

وهى محاورة بديعة بينه وبين محبوبته رمز بها إلى حبه الربانى ، فمن يحب الذات العلية يفقد قلبه ولا يصبح له مطمع حقيقى فى وصال ولا فى زورة يقتطف فيها ثمار المنى وينهل معها من الماء ما يطفئ ظمأه إلا إن غاب عن كل مشهد فى الوجود واقتحم حياض الرَّدَى لايبالى ، وحتى إن فعل فسيصبح حيران ضالاً الطريقَ يواصل من بعيد ويُهْجَرُ من قريب . ومن قوله يشكو آلامه وعذابه فى حبه الإلهى .

بقلبى منهمُ حُرَقُ ... لها الأحشــاءُ تحترقُ
ولا وصْلٌ ولا هَجْرٌ ... ولا نومٌ ولا أَرَقُ
فليتهمُ وقد قطعوا ... ولم يُبْقوا علىَّ بَقُوا
فـأفنى فى محبَّتهم ... وريحُ محبَّتى عَبِقُ
كمثل الشَّمْعِ يُمْتِع مَنْ ... ينادمـــه ويَمَّحِـقُ

فأحشاؤه تحترق ، ولا وصل ولا هجر ، ولا يأس ولا طمع ، ولا نوم ولا أرق ، ولا صبر ولا جزع ، وإنه ليكتوى بنيران هذا الحب مؤملا – على طريقه الصوفيين – أن تنمحى حَوَاسُّه وأحاسيسه ، حتى يفنى فناء مطلقا فى الذات العلية ، فناء ينعدم فيه وجوده البشرى انعداماً تاماً ، كما ينعدم الشمع المضيىء ، وينمحق انمحاقاً خالصاً .

الصَّرْصَرِىّ (١)

هو جمال الدين أبو زكريا يحيى بن يوسف الصَّرْصرى ، نسبة إلى صَرْصَر : قرية قريبة من بغداد ، ولد سنة ٥٨٨ وحفظ القرآن واختلف إلى دروس العلماء والفقهاء والمحدثين ، وكان حنبليا ، ويصفه ابن تغرى بردى فى كتابه النجوم الزاهرة بالإمام الأديب الربانى ، ويقول كان من العلماء الفضلاء الزهاد العبَّاد ، كانت له اليد الطولى فى النظم وشعره فى غاية الجودة ، ويقول الصفدى عنه « صاحب المدائح النبوية السائرة فى الآفاق ، ولا أعلم

(١) انظر فى ترجمة الصرصرى ومدائحه النبوية ذيل مرآة الزمان للقطب اليونينى (طبع حيدر آباد) ١/٢٥٧ – ٣٣٢ ونكت الهميان للصفدى ص ٣٠٨ والنجوم الزاهرة ٧ / ٩٦ والذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب والشذرات ٥ / ٢٨٤ .

شاعرا أكثر من مدائح النبى ﷺ أشعر منه ، وشعره طبقة عليا . . يدخل شعره فى ثمان مجلدات وكله جيد» ويقول القطب اليونينى وابن تَغْرى بَرْدى : إن مدائحه فى النبى ﷺ تقارب عشرين مجلدا . ولا يزال الديوان غير منشور وفى دار الكتب المصرية مخطوطة منه . ويذكر الصفدى أن بين مدائحه النبوية قصيدة التزم فى كل حرف منها ظاءً وثانية التزم فى كل حرف منها ضادا وثالثة التزم فى كل حرف منها زايا ، وبالمثل بقية الحروف الصعبة ، وقصيدة كل بيت منها يشتمل على حروف المعجم أو بعبارة أخرى الحروف الهجائية يقول الصفدى : وهذا دليل القدرة والاطلاع والتمكن .

والصرصرى فى المدائح النبوية يعرض السيرة النبوية العطرة مع بيان معجزات الرسول عليه السلام وانتصاراته على أعدائه ويشيد بصحابته وخدماتهم للإسلام وفى مقدمتهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ، وينوِّه بزوجاته أمهات المؤمنين وفى مقدمتهم السيدة خديجة والسيدة عائشة والسيدة حفصة . وهو يتراءى فى نبوياته سُنِّياً حنبليا حتى ليعرض فى بعضها لمديح ابن حنبل وأتباعه ، ويروى له ابن تغرى بردى أبياتا من همزية نبوية يقول فيها :

ياهلالَ السرور ياقمرَ الأُنْـ ـسِ ونجمَ الهدى وشمسَ البهاءِ
ياربيعَ القلوب يا قرَّة العيْـ ـنِ وبابَ الإحسان والنَّعْماءِ

وهو يصدر فى القصيدة عن محبة للرسول عليه السلام شغَفت قلبه ، حتى ليراه كل جمال فى الوجود فهو الهلال والقمر والنجم والشمس والربيع وقرة العيون ومسرة النفوس وباب الإحسان والعطاء وكل نَعْماء ، ويروى له الصفدى قطعة طويلة من مدحة خائية يقول فى تضاعيفها :

يا خاتمَ الرُّسُلِ الكرامِ وفاتحَ الـ ـخيراتِ يا مُتواضعا شَمَّاخا
يا مَنْ رَستْ وسمتْ قواعدُ دينِهِ وبه هَوَى أُسُّ الضلال وسَاخا
يا خيرَ مَنْ شَدَّ الرِّحالَ لقصدِهِ حادى المطىِّ وفى هواه أناخا
عَطْفاً على عَبْدٍ تعلَّق حُبَّكم طفلا وفى صدقِ المحبَّة شاخا

وهو يكثر من المناجاة للرسول عليه السلام مستعطفا ومتشفعا به . ويبدو من القطعة الطويلة من أشعاره التى رواها القطب اليونينى أنه كان يصدر أحيانا عن نظرية الحقيقة المحمديه المعروفة ، إذ ذهب إلى أزلية وجود الرسول وأنه مبدأ الوجود ومركزه . وليس فى يدنا الديوان لنحكم على الصرصرى حكما دقيقا فى هذا الجانب غير أن هناك بعض إشعاعات من الفكرة نلتقى بها عند اليونينى مثل قول الصَّرْصَرى عن الرسول :

هو سابقُ الأعيانِ إذ كُتِبَ اسْمُهُ　　بالعَرْشِ ثم استُودِعَ الألواحا

فإذا كان قد أراد بسبقه الأعيان أن نوره يسبق الموجودات جميعاً من قبل أن تخلق أو تخرج إلى الوجود فإنه يكون مستمدًّا حينئذ من نظرية الحقيقة المحمدية ، وبالمثل ما نجد عنده من الحديث عن قدم نور الرسول عليه السلام ، وأنه تنقل فى صلب آدم والأنبياء من بعده ، إذ يقول :

حَلَلْتَ صُلْبَ أبينا عند مَهْبطِهِ　　وصُلْبَ نوحٍ وقد غَشَّى الوَرَى الزَّبَدُ (١)
وكنتَ فى صلبِ إبراهيمَ مستترا　　ونارُ نُمْرُودَ أشقى الخلقِ تتَّقِدُ (٢)
وحاز نوركَ إسماعيلُ يُودِعهُ　　أبناءَهُ الغُرَّ حتى حازه أُدَدُ (٣)

ويمضى الصرصرى فيذكر أن عدنان نال بهذا النور المنزلة الرفيعة ، وما زال النور يتنقل حتى انعقد به على رأس هاشم إكليل فخر لايشبهه إكليل . واتصل النور بعبد المطلب وابنه عبد الله ، ولم تلبث أضواء النور أن انبثقت فى المشارق والمغارب . .

وكانت وفاة الصرصرى سنة ٦٥٦ دخل عليه التتارفى اكتساحهم لبغداد ، وكان ضريرا ، فطعن بعكازه بطن واحد منهم فقتله ، وقُتل شهيدا .

٤

شعراء الفلسفة والشعر التعليمى .

يكثر الشعرعلى ألسنة المتفلسفة منذ الكِنْدى ، وفى الكتب الخاصة بتراجمهم من ذلك أسراب غيرقليلة ، وكثيرا ما كانوا ينظمون بعض معارفهم الفلسفية أو الطبية . وتلقانا فى كتاب عيون الأنباء فى طبقات الأطباء لابن أبى أُصَيْبعة بعض وصايا طبية طريفة (٤) ، وكثيرا ماكانوا يعرضون للنفس والجسم والعلاقة بينهما فى الحياة وبعد المات ، على شاكلة ما أنشده أبو النفيس (٥) أحد متفلسفة القرن الرابع الهجرى :

فى النفس والجسم إنْ فكرتَ معتبَرٌ　　بل دون ذلك ضلَّ الرأىُ والفِكَرُ
وحار كلُّ لَبيبٍ فى اتحادهما　　وتلك عَيْنٌ وهذا حكمُهُ الأثَرُ

---

(١) غشى الورى الزبد : يشير إلى الطوفان المشهور زمن نوح عليه السلام .

(٢) النمرود : الملك الوثنى الذى ألقى بإبراهيم الخليل فى النار فكانت عليه برداً وسلاماً .

(٣) أدد : أبو قبيلة عربية ، رمزبه إلى العرب .

(٤) ابن أبى أصيبعة ص ٣٩٠ .

(٥) صوان الحكمة لأبى سليمان المنطق السجستانى (بتحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوى – طبع طهران) ص ٣٥٩ .

يا ليتَ شعرى إذا الأبدانُ أضْمرها　　يَدُ البِلَى وحَواها التُّربُ والمدَرُ
هـل للنفوس التفـاتٌ نحو عالمـها　　كما تلفَّتَ نحوَ المركزِ الحجَرُ
ليحصل الفوزُ فى دار الخلود لها　　وتَنْتَفِى دونها الآفات والغِيَرُ
أم تضمحلُّ كما قد بان هَيْكلُها　　ولا يُحَسُّ لها وِرْدٌ ولا صَدَرُ
هذا الذى صَدِئَتْ منه خواطِرُنا　　وليس يجلو صَداَها العِلْم والخَبَرُ

والأبيات تعرض مشكلة خلود النفس بعد الموت ، فهل تفنى كما يفنى الجسد ، أو تنفصل عنه إلى عالمها : عالم الخلود ، وهى مشكلة حارت فيها من قديم العقول ، فهذا الجسم مادى محسوس يفنى بموت صاحبه ، وهذه لا تُحَسُّ ولا تُرَى إلا بأثرها وبَثٍّ الحياة فى الجسم ، حتى إذا فارقته انتقل إلى عالم العدم والفناء ، فهل يكون مصيرها نفس مصيره ، أو أنها تحيا حياة جديدة خالدة فى الملأ الأعلى . إنها مشكلة محيرة فى رأى أبى النفيس يُطبِقُ عليها ظلام غامر لا يرفعه عِلْمٌ ولا خبرة ، والأبيات تمضى فتجعل علم الحقيقة بذلك للواحد الأحد . وإذا تصفحنا كتاب عيون الأنباء فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة وجدنا به متفلسفين عراقيين كثيرين يجيدون نظم الشعر ، مثل ابن التلميذ[1] المتوفى سنة ٥٦٠ ومن شعره فى ابنه سعيد :

حُبِّى سعيداً جوهرٌ ثابتٌ　　وحبُّـه لى عَرَضٌ زائِـلُ
بِهِ جهاتى السِّتُّ مشغولةٌ　　وهْو إلى غيرى بها مائلُ

والجهات الست هى اليمين واليسار والأمام والخلف والأعلى والأسفل ، يريد أنه مشغول بابنه بكل كيانه وكل عواطفه ومشاعره ، وقد جعل حبه له جوهراً ثابتا بينما حب سعيد ابنه له عرض زائل ، ومن قوله :

كانتْ بُلَهْنِيَةُ الشَّبيبة سكرةً　　فصحوتُ واستأنفتُ سيرةَ مُجْمِلِ
وقعدتُ أرتقبُ الفناءَ كراكبٍ　　عَرَف المحلَّ فبات دون المنزلِ

والصورة فى البيتين بديعة ، فقد صحا من سكرة الشباب واستأنف سيرة معتدل فاضل ، وقعد ينتظر دوره ومماته ، وكأنما هو راكب يعرف منزله ويبيت دونه بقليل ، ولابد من الوصول . وكان ابن التلميذ يكثر من الشعر ومثله البديع الإصطرلابى وهبة الله ابن الفضل ومحمد بنَ المجلِّى المعروف بالعَنْتَرى وابن هُبَل .

---

(١) انظر فى ابن التلميذ وشعره معجم الأدباء ٦٩/٦ . وابن أبى أصيبعة ص ٣٤٩ وابن خلكان ٢٧٦/١٩

ومرَّ بنا فى كتاب العصر العباسى الأول كيف أن كثيرين من شعراء بغداد عنوا باستحداث نمط شعرى جديد هو الشعر التعليمى ، فى مقدمتهم أبان بن عبد الحميد الذى ترجم كليلة ودمنة شعرا ونظم قصائد طويلة فى الفقه والمنطق والتاريخ ومبدأ الخلق . ويستمر هذا النمط الجديد فى العصر العباسى الثانى على لسان ابن الجهم وابن المعتز وابن دُرَيْد ، حتى إذا كنا فى هذا العصر اتسعت موجته وشملت جميع أنواع المعارف والعلوم . ومرّينا فى ترجمة ابن السراج أنه نظم أربعة كتب فقهية . ويذكر ابن الجزرى فى كتابه طبقات القراء أن أبا الخطاب بن الجراح على بن عبد الرحمن المتوفى سنه ٤٩٧ نظم كتابا فى القراءات[١] ، ونظم الحريرى صاحب المقامات ملحة الإعراب فى النحو وأبوابه وقواعده وهى مطبوعة. ونظم ابن أبى الحديد فصيح ثعلب وهو مطبوع ، ونظم فخرالدين بن الفصيح مدرس العربية فى المستنصرية المتوفى سنة ٧٥٥ كتاب الكنز فى الفقه والسراجية فى الفرائض وقصيدة طويلة فى القراءات[٢] ، وهو باب يطول ويتسع إن نحن حاولنا حصر ما نُظم من العلوم والمعارف على مر الحقب لهذا العصر ، ونقف قليلاً عند شاعر متفلسف وشاعر تعليمى ، وهما على الترتيب ابن الشِّبْل البغدادى وابن الهبَّارية .

ابن الشِّبْل البغدادى [٣]

هو أبو على الحسين بن عبد الله بن يوسف بن أحمد بن الشِّبْل ، مولده ومنشؤه ببغداد وبها توفى سنة ٤٧٤ ومن المؤكد أنه اختلف إلى مجالس المتفلسفين فى زمنه ، من أمثال يحيى ابن عدى ، وأخذ عنهم كل ما كانوا يعرفونه من فلسفة وطب وفلك وتنجيم ، ويقول ياقوت : «كان متميزا بالحكمة والفلسفة خبيرا بصناعة الطب أديبا فاضلا وشاعرا مجيدا . . وهو صاحب القصيدة الرائية التى نسبتْ إلى الشيخ الرئيس ابن سينا وليست له ، وقد دلت على علو كعبه فى الحكمة والاطلاع على مكنوناتها وقد سارت بها الركبان ، وتداولتها الرواة» وهو يستهلها بقوله :

بِربِّك أيها الفلكُ المُدَارُ ... أَقَصْدٌ ذا المسيرُ أم اضطرارُ
مدارُك قُلْ لنا فى أىِّ شَىْءٍ ... فَفى أفْهامِنا منك انْبِهارُ

---

(١) غاية النهاية فى طبقات القراء ٥٤٨/١ .

(٢) النجوم الزاهرة ١٠/ ٢٧٧ والعزاوى ١ /٣٢٧

(٣) انظر فى ترجمة ابن الشبل وشعره الدمية ٣٥٢/١ ومعجم الأدباء ١٠/٢٣ وابن أبى أصيبعة ٣٣٣ . وفوات الوفيات ٣٩٣/٢ وسماه محمد بن الحسن بن عبد الله ابن الشبلى وذكر أن وفاته كانت فى سنة ٤٧٣ وراجع الواقى بالوفيات ١١/٣ .

وفيك نَرَى الفضاءَ وهل فضاءٌ ... سوى هذا الفضاء بهِ تُدَارُ
وعندك تُرْفَعُ الأرواحُ أم هل ... مع الأجساد يُدْرِكها البَوارُ
وموجٌ ذى المجرَّةُ أم فِرِنْدٌ ... على لُجَجِ الدروع له مَدارُ
وَطوْقٌ للنجوم إذا تبدَّى ... هلالُكَ أم يَدٌ فيها سِوارُ
وأفلاذٌ نجومُك أم حَبابٌ ... تؤلِّف بينه لُجَجٌ غِزَارُ
وتُنْشَرُ فى الفضَا ليلا وتُطْوَى ... نهارا مثلما يُطْوَى الإزارُ

ومعروف أن من الفلاسفة من كانوا يذهبون إلى أن العالم يديره الفلك دورة مقصودة له ، وكان هناك من يذهبون إلى أن للكواكب تأثيرا بعيدا فى حياة الناس وكل أحوال العالم . وواضح أن ابن الشبل يصور حيرة لا قرار لها حول الفلك وحركته ، فهل هى اضطرارية من قبل الذات العلية أو هى اختيارية ، ويتساءل فى أى شىء مداره وحركته . وهل تُرْفع الأرواح إلى عالمه العلوى أو تفنى مع الأجساد فى العالم السفلى ، وهذه المجرة التى تتدفق ليلا فى السماء بالنور هل هى موج من الأضواء كموج البحر أو هى أثر تموجات ضوئية تُلْمَحُ كما يلمح تموج الضوء فى صفحة الفرند أو السيف ، وهل الهلال طوق معلَّق للنجوم أو سوار يلمع فى يد على صفحة السماء ، والنجوم هل هى أفلاذ وأرواح أو هى حَباب طافٍ على سطح السماء كحباب الماء ، إنها تُنْشَرُ ليلا وتُطْوى نهارًا . فما أعظم ذلك من لغز كبير ، بل ألغاز كبيرة ، يقف الإنسان إزاءها مبهوتا يتملكه الدَّهَشُ وتتملكه الحيرة ، حيرة يضل بين لججها ولا يمكنه أن يرسو على شاطئ ، لأن أحداً لا يملك الجواب ولا يعرفه ، ويمضى ابن الشِّبْل فى عرض هذه الألغاز :

ودهرٌ ينثُرُ الأعمارَ نَثْراً ... كما للوردِ فى الروضِ انتثارُ
ودنيا كلما وضعتْ جَنِيناً ... غَذَتْهُ من نوائبها ظُؤارُ (١)
هى العَشْوَاءُ ما خَبطتْ هَشيمٌ ... هى العَجْماءُ ما جَرحتْ جُبَارُ (٢)
فمن يومٍ بلا أمسٍ ويومٍ ... بغير غدٍ إليه بنا يُسارُ

فهذا الدهر . يُسْقط الأعمار كما تَسْقُط الورود فى الروض وتذبل وتفارقها النضرة والحياة ، وهذه الدنيا كلما وضعت جنينا لم تُرْضعه ، بل تركته لظؤار أو مرضعة ترضعه النوائب والخطوب ، وما الدنيا ؟ إنها عَشواء لا تبصر ، وكل ما تَخْبطه من الأنفس يصبح هشيما ، إنها لعجماء خرساء كل ما تجرحه يُهْدَرُ ولا يُصْلَحُ أبداً . وما الحياة فى رأى ابن الشبل إلا يوم بدون أمس يسبقه ويوم بدون غد يلحقه ، إنها مأساة كبرى ، سببها ذنب آدم

(١) ظؤار : المرضعة لابن غيرها . (٢) جبار : هدر لاقصاص فيه ولا غرم .

وعصيانه ربه وأكله من الشجرة . فأُخرج من الفردوس ثم أُهْبط إلى الأرض . ويصوِّر ذلك ابن الشِّبْل قائلا :

لقد بلغَ العدوُّ بنا مُناهُ ... وحَلَّ بآدمٍ وبنا الصَّغارُ [(١)]
فيالكِ أكلةً ما زال منها ... علينا نقمةٌ وعليه عارُ
نُعاقَبُ فى الظهور وما وُلدنا ... ويُذْبَحُ فى حَشَا الأمِّ الحُوارُ [(٢)]
ونخرجُ كارهين كما دَخلْنا ... خروجَ الضَّبِّ أخرجه الوِجارُ [(٣)]
وكان وجودُنا خيراً لو انَّا ... نُخَيَّرُ قبله أو نستشارُ
أهذا الداءُ ليس له دواءٌ ... وهذا الكَسْرُ ليس له انجبارُ

وهو يقصد بالعدو إبليس وأنه بلغ فى بنى الإنسان كل مناه من الغواية والضلال فحلَّ بآدم وبهم الهوان والصغار ، فيالها أكلةَ إثمٍ وياله ذنبَ جُرْمٍ ! . ويعود ابن الشبل إلى أساه وحزنه على أبناء جنسه ، فقد يعاقبون وهم أجنة فى أحشاء أمهاتهم فيموتون ، ومَنْ يولد وتمتد به الحياة يخرج منها كرها خروج الضَّبِّ من جحره . وهكذا نجيء ونخرج دون اختيار ، وإن هذه الحياة كلها بأسرارها وألغازها لداء يعز دواؤه ، وهذا الموت إنه لكسر لا يمكن انجباره . ويمضى فيتحدث عن انقضاء الحياة الدنيا وتحطمها كما يصور ذلك القرآن الكريم إذ تتكور الشمس وتتناثر الكواكب وتنفطر السموات وتُذْهَل كل مرضعة عن ابنها وتسيَّر الجبال وتسجَّر البحار ، ويقول إن فى ذلك كله لعبرة وعظة لأولى الألباب . وله مرثية بديعة فى أخيه أحمد يقول فى تضاعيفها :

يا أخى عاد بعدك الماءُ سُمًّا ... وسَموماً ذاك النسيمُ الرُّخَاءُ
كيف أرجو شفاءَ ما بى وما بى ... دون سُكْنَاىَ فى ثَرَاك شِفاءُ
شَطْرُ نفسى دفنتُ والشَّطْرُ باقٍ ... يتمنىَّ ومن مُناه الفَنَاءُ
إن تكن قَدَّمتْه أيدى المنايا ... فإلى السابقين تَمْضِى البِطاءُ
إنما الناس قادمٌ إثْرَ ماضٍ ... بَدْءُ قومٍ للآخَرِين انتهَاءُ

والمرثية كلها بكاء وأنين ، وتفكير فى الموت ، موت الأحباب واندلاع الحزن بعدهم والبكاء ، مع مايخلِّفون من غُصَصٍ تعترض بالشجى فى الحلوق . ويقول إنما نحن بين ظفر وناب من خطوب كأنها سباع ضارية ، ويأسى للإنسان وغدر الدنيا به واستردادها فى المساء ما وهبته فى الصباح ، وكأن الإنسان يعيش فى حلم أوكأنما يعيش بدون عقل ،

(١) الصغار : الذل والهوان .
(٢) الحوار : ولد الناقة لحظة وضعه ويريد الجنين .
(٣) الوجار : جحر الضب وغيره . والضب : من جنس الزواحف ، يكثر فى صحراء الجزيرة العربية .

فليست تُعْقَل الدنيا إزاء هذا الفساد الذى يعم كل شيء فى الكون من أحياء وغير أحياء . وفى الحق أن الفلسفة عمقت تفكيره ، وقد جمع إليها شاعرية خصبة وحِسًّا دقيقا مرهفا .

ابن الهَبَّارِيَّة (١)

هو أبو يَعْلَى محمد بن محمد بن صالح بن الهَبَّارِيَّة العباسى ، نسب إلى هبَّار جده لأمه ، ولد ونشأ ببغداد ، وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، وكان خبيث اللسان ، فلم يكد يسلم من هجائه أحد ، وفيه يقول العماد الأصبهانى : « من شعراء نظام الملك (وزير أَلْب أَرْسلان وابنه ملكشاه) غلب على شعره الهجاء والهزل والسخف ، وسَبَكَ فى قالب ابن الحجاج وسلك أسلوبه وفاقه فى الخلاعة والمجون . والنظيف من شعره فى نهاية الحسن » ويقول ابن تغرى بردى : «كان فيه إقدام بالهجو على أرباب المناصب» . ومرت بنا فى حديثنا عن الهجاء فى الفصل السابق إشارة إلى قصيدة له فى هجاء أرباب الدولة فى عهد ملكشاه السلجوقى . وحتى راعيه نظام الملك لم يسلم من لسانه ، ويقال إنه حين سمع هجاءه له أمر بأن يُصرفَ رسمه أو راتبه مضاعفا ، وعُدَّتْ تلك مِنَّة من نظام الملك دالةً على مكارم أخلاقه وسعة حلمه . وأشعاره مليئة بالهجو إلى حد الإقذاع ، حتى ليهجو الإنسانية جميعا قائلا :

خُذْ جملةَ البَلْوَى وَدعْ تفصيلَها ... مافى البريَّة كلِّها إنسانْ

وجعلته صلته بنظام الملك يقيم بجواره مدة طويلة فى أصبهان عاصمة أَلْب أَرْسلان وملكشاه ، ويبدو أن مقامه لم يستمر بها طويلا بعد وفاة نظام الملك سنة ٤٨٥ . ولم يعد إلى بغداد ، بل اتجه إلى كَرْمان وأقام بها إلى أن توفى سنة ٥٠٤ .

ولسنا نريد الحديث عن ابن الهبارية وهجائه ومديحه ، وإنما نريد الحديث عن شعره التعليمى فقد نهض بعملين كبيرين فيه : أوَّلها نظمه لقصص كليلة ودمنة ، وقد سماه « نتائج الفطنة فى نظم كليلة ودمنة » وهو على غرار نظم أبان من وزن الرجز المزدوج ، فكل بيت فيه يتفق شطراهما فى قافية واحدةْ . وفى فواتحه ما يدل على أنه نظمه فى كَرْمان ، وقد نوه بنظم أبان للقصص ، وأبان يتفوق عليه فى جودة شعره وإن كان عمله سقط من يد الزمن إلا ما رواه منه الصولى فى ترجمته له بكتابه الأوراق . ونتائج الفطنة مطبوع فى بومباى من قديم .

---

(١) انظر فى ترجمة ابن الهبارية وأشعاره كتاب خريدة القصر (قسم العراق) ٢/٧٠ وابن خلكان ٤/٤٥٣ والنجوم الزاهرة ٥/٢١٠ والوافى ١/١٣٠ ولسان الميزان ٥/٣٦٧ والشذرات ٤/٢٤ .

والعمل الثانى من شعره التعليمى ديوان الصادح والباغم ، والصادح : رافع صوته بالطرب والباغم خافض الصوت فى لين . والديوان أراجيز قصصية مزدوجة ، أو قل كثرته قِصَصٌ ثم يليها وعظ خلقى وحكمٌ متعاقبة . وقد طُبع الديوان فى القاهرة وبيروت ولكنو فى الهند . وهو يستهله بالحمد لله والصلاة على رسوله ﷺ ، ويقول :

هذا كتابٌ فيه علمٌ وأدبْ يفوق أنواع القريض والخُطَبْ
عملتهُ لسيِّد الملوكِ وموئل الملهوف والصُّعْلوكِ
فجاء مثل الذهب المسبوكِ سلكتُ نَهْجا ليس بالمسلوكِ
وضعتُه مخترعاً معناهُ للملكِ ما خاب مَنْ رجاه

ويصرح باسم الملك وهو صدقة بن منصور الأسدى صاحب الحلة المتوفى سنة ٥٠١ وقد مضى يمدحه طويلا ، حتى إذا تمَّ الديوان سيَّره إليه من كَرْمان مع ولده فأجزل صلته وأسنى جائزته . ويمضى ابن الهبَّارية فى الديوان بعد تقديمه لصدقة ومديحه فيذكر مناظرة بين هندى وفارسى استمع إليها فى أحد أسفاره ، وفيها يفتخر كل منهما لوطنه ، أما الهندى فافتخر باختراع بلاده للشطرنج ووضعها لكليلة ودمنة ، وأما الفارسى فافتخر باختراع بلاده للنَّرْد . وتتوالى القصص ، وقليل منها الذى يشبه كليلة ودمنه فى جريانه على ألسنه الحيوانات والطير . ونقرأ قصة الناسك واللص الفاتك ، والبعير والجمال والتاجر ، وامرأة الراعى ، وامرأة التاجر ، والذئب والغزالة ، إلى غير ذلك من قصص تعليمية أراد بها ابن الهبارية العظة والعبرة . غير أن هذا الصوت القصصى فى الديوان لا يلبث أن ينقطع ، ويحل محله صوت آخر ، ليس فيه شيء من القصص ، إذ يتحول ابن الهبارية مربِّيا يقدم النصائح فى السياسة ومعاملة الناس وفى الزهد وعلو الهمة والنهى عن الظلم والأمر بالعدل ، وكأن ابن الهبارية نفسه فقد إيمانه بعمله القصصى الأدبى ، ولعل ذلك ما جعل الأدباء بعده ينصرفون عن مجاراته فى هذا العمل الفنى ، وكان حريا أن تأخذ القصص مجرى كبيرا فى الشعر العربى ، غير أن النموذج الذى وضعه ابن الهبارية كان من الضعف — فى رأيى — بحيث لم يمهِّد تمهيدا حسنا لهذا الاتجاه الكبير . ونراه يختم الديوان بقوله :

هذا كتابٌ حَسَنُ تحار فيه الفِطَنْ
أنفقتُ فيه مُدَّه عشرَ سنين عِدَّه
بيوتُه ألفانِ جميعها معانى

ولعل ابن الهبارية بالغ فى قصة السنوات العشر . ومع ذلك كله لابد أن نبقى له على

شيء من الإحسان ، فقد كانت ملكته الشعرية خصبة ، وساق له العماد وابن خلكان كثيرا من الأشعار البديعة . وحقا ليست من الأشعار التعليمية . ولكنها تدل على براعته الشعرية .

٥

شعراء شعبيون

قد يُظَنُّ من هذا العنوان أن من شعراء العصر من كانوا شعبيين ومن كانوا غير شعبيين ، والحق أن صفة الشعبية هذه تشمل كل فنون الشعر وكثرة الشعراء ، أما فنون الشعر فإنها جميعا كانت تصوِّر حياة الشعب ، فالمديح يصوِّر انتصاراته ويصور مطامحه فى الحاكم العادل ، ويصور الهجاء الأخلاقَ الذميمة التى يرى الشعب تنحيتها عن المجتمع وأفراده . وشعر الغزل كان يصوِّر فى كثير من جوانبه العلاقة الخالدة بين الرجل والمرأة ، بينما شعر الزهد كان يصور من بعض جوانبه حياة الشظف والحرمان ، وحتى شعر اللهو كان يصور أيضا من بعض جوانبه قَصْف الشعب فى أعياده .

فليس هناك انفصال بين فنون الشعر العربى والشعب ، وكذلك ليس هناك انفصال بين الشعراء والشعب ، فقد كان جمهورهم من طبقاته الدنيا ، وكانوا يحملون فى صدورهم أحاسيسها ومشاعرها ، ويَصْدرون عنها فى أشعارهم . ولابد أن نلاحظ أنه كانت هناك عوامل مهمة عملت على وصل الشعر العربى بشعوبه فى بغداد وغير بغداد وفى مقدمتها أن الثقافة كانت عامة ، وكانت حقا للجميع ، إذ كانت تُلْقَى فى المساجد يوميا ، يلقيها كبار العلماء ، والناسُ يتحلَّقون من حولهم ، وكلٌّ يجد ما يريد من لغة ونحو ومن فقه ومن قراءات ومن حديث نبوى ومن دروس أدبية يُرْوَى فيها الشعر ويعرض العلماء لما فيه من فنون البلاغة والنقد .

لم تكن هناك حواجز ولا أسوار تفصل بين أى فرد من أفراد الشعب وبين الغذاء بكل ما يريد من ألوان الثقافات شعرا وغير شعر . وقد أتاح ذلك لكثيرين فى مراحل متأخرة من حياتهم أن يصبحوا علماء فى هذا الفن أو ذاك . ولم يكن يُشْتَرَطُ فيمن يَحْضر حلقات العلماء والأدباء أى شرط ، ولذلك كان يحضرها كثير من الأميين ، وأتاح ذلك لنفر منهم أن يصبحوا شعراء . ومن يرجع إلى كتب التراجم يصادفه من حين إلى آخر شاعر أمى أو شاعر من أصحاب الحرف والصناعات ، نذكر منهم الخباز الموصلى ، وله ترجمة فى كتاب

اليتيمة[١] للثعالبي ، وفيه يقول : « من عجيب شأنه أنه كان أميا ، وشعره كله ملح وتحف وغرر وطرف » . وانتظامه فى اليتيمة يدل على أنه كان من شعراء القرن الرابع للهجرة ، وقد أشار إلى أميته فى بعض شعره قائلا لبعض خصومه :

بالغتَ فى شَتْمى وفى ذَمِّى ‏ ‏ ‏ ‏ وما خشيتَ الشاعرَ الأمّى
جرَّبتَ فى نفسك سُمًّا فما ‏ ‏ ‏ ‏ أحمدتَ تَجْرِيبَكَ للسُّمِّ

وكان يحفظ القرآن الكريم ، فاقتبس من آياته مرارا وتكرارا ، وكأنما جعل ذلك خاصة فنية له تميزه من نظرائه ، كقوله متغزلا :

كأنَّ يمينى حين حاولْتُ بَسْطَها ‏ ‏ ‏ ‏ لتوديع إلفى والهوى يذْرِف الدَّمْعا
يمينُ ابن عمرانٍ وقد حالتِ العَصَا ‏ ‏ ‏ ‏ وقد جُعلتْ تلك العَصَا حيَّةً تَسْعَى
وقائلةٍ هل تملكُ الصبرَ بعدهم ‏ ‏ ‏ ‏ فقلت لها : لا (والذى أخرجَ المَرْعَى)

وهو فى البيت الثانى يقتبس قوله تعالى فى سورة طه عن عصا موسى بن عمران عليه السلام حين ألقاها فحالت أو تحولت : « فإذا هى حيةُ تَسْعى) واقتبس فى البيت الثالث آية سورة الأعلى : (والذى أخرج المرعى) . ويقول الثعالبى إنه «كان يتشبع ويتمثل فى شعره بما يدل على مذهبه » وينشد طائفة من أشعاره الشيعية . ويلقانا فى الخريدة شاعر أمى ثان هو نباتَه[٢] الأعور الإِبَرى ، وكان هجاء خبيث اللسان شغوفا بهجو أحد العلويين وفيه يقول :

شريفٌ أصلُه أصلٌ حميدٌ ‏ ‏ ‏ ‏ ولكنْ فعلهُ غيرُ الحميدِ
ولم يخْلُقْه ربُّ العَرْش إلا ‏ ‏ ‏ ‏ لتنعطفَ القلوبُ على يزيد

وهو يريد يزيد بن معاوية عدو العلويين والشيعة . ويلقانا كثيرون من أصحاب الحرف يشغفون بالشعر ويصادف فيهم ملكات خصبة فيصبحون من شعرائه النابهين مثل السَّرِىِّ الرَّفاء الذى تقدمت ترجمته فى الفصل الماضى ، ومثل الزاهى أبى القاسم على بن إسحق بن خلف البغدادى وكان قطَّانا وكانت دكانه فى قطيعة الربيع ، وقد عرضنا له بين شعراء التشيع فى الفصل الماضى ، وأنشد له ابن خلكان البيتين التاليين المعروفين فى كتب البلاغة وفيهما يصف البنفسج[٣] :

ولا زَوَرْدِيَّةٍ تَزْهو بِزُرْقَتِها ‏ ‏ ‏ ‏ بين الرياض على زُرْق اليواقيتِ

---

(١) انظر ترجمة الخباز البلدى وأشعاره فى اليتيمة (قسم الشام) ٢/٣٠٦ .
٢ /٢٠٨ وقد حقق شعره ونشره ببغداد صبيح رديف .
(٢) راجع ترجمة نباتة الأعور وأشعاره فى الخريدة
(٣) ابن خلكان ٣/٣٧٢ .

كأنها فوق قاماتٍ ضَعُفْن بها أوائلُ النار فى أطراف كِبْريتِ

وقَرْنُ البنفسج الذى ترفُّ أوراقه الرطبة ويترقرق الماء فى غصنه بلهب نار فى أعواد كبريت جافة يدل على قدرة خيالية بديعة . ومما أنشده له ابن خلكان قوله :

وبيضٍ بألحاظ العيون كأنما هَزَزْنَ سيوفا واستَلَلْنَ خنَاجرا
سَفَرْنَ بدوراً وانْتَقَبْنَ أهلَّةً ومِسْنَ غصونا والتَفَتْنَ جآذِرا [1]
وأطلعْنَ فى الأجياد بالدرِّ أنجماً جُعِلنَ لحبَّات القلوب ضرائرا

والتقسيم فى البيت الثانى بديع فقد جعلهن حين سفرن عن وجوههن بدورا وحين انتقبن وظهرت جباههن أهلة ، وحين تبخترن غصونا وحين التفتن جآذر ، وبذلك ومثله عُدَّ شاعراً مبدعاً . ولا ريب فى أن مشاركة ذوى الحرف والأميين فى شعر العصر دليل قوى على صلته بالشعب ، فأبناؤه جميعاً يشاركون فيه حتى الأميون الذين لا يقرءون ولا يكتبون .

ولم تقف مشاركة العامة فى الشعر عند هذا الحد ، فقد أخذ يظهر بينهم شعراء لا ينظمون شعرا فصيحا ، وإنما ينظمون شعرا ملحونا بلغتهم العامية ، وأخذ ذلك يظهر بوضوح منذ القرن السادس الهجرى ، وخير كتاب يصور هذا الجانب كتاب العاطل الحالى والمرخَّص الغالى لصفى الدين الحلِّى ، وفيه يتحدث صفى الدين بالتفصيل عن الفنون العامية ، المواليا والزجل والقوما والكان وكان ، ويقول إن الثلاثة الأخيرة ملحونة أبدا ، أما المَوَالِيَّا فقد تكون معربة وقد تكون ملحونة ، ويقول إن أول من اخترعها أهل واسط اقتطعوها من بحر البسيط وجعلوها معربة مثله ، ومعروف أن وزنها «مستفعلن فاعلن مستفعلن فَعْلُنْ» وهى أربعة شطور بقافية واحدة ، ويقول صفى الدين إن أهل واسط تغزلوا بها ومدحوا وهجوا ، والجميع معرب ، إلى أن وصل إلى البغاددة فلطَّفوه ولحنوه وسلكوا فيه غاية لا تدرك ، ويذكر من أمثلة المواليا المعربة قول الخباز البغدادى فى مديح الصاحب بن الدِّباهى (أحد متولِّى الخراج فيما يبدو) :

بكم قُرى نَهْرِ عِيسى أصبحتْ كالمُدُنْ أىْ باذلين القِرَى أى عاقرين البُدْنْ [2]
ولو تشاءوا بأطراف الرماح اللُّدُنْ صَيَّرْتُمُ الأُسْدَ تحرثْ فى مكان الفُدُنْ [3]

---

(١) سفرن : كشفن عن وجوههن – انتقبن : لبسن النقاب . مسن : تبخترن . الجآذر جمع جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية .

(٢) أى : يا . القرى : الضيافة . البدن : النوق والبقر التى تذبح قرباناً أو للضيوف .

(٣) اللدن : اللينة : كناية عن حدة قطعها . الفدن : الثيران .

ومع أن صفى الدين يعدّ هذه المواليا من الجزل المعرب إلا أنها لم تخل من اللحن كما هو واضح فى جزم الفعلين المضارعين « تشاءوا وتحرث » . ويتحدث صفى الدين بالتفصيل عن الزجل وظهوره فى الأندلس وكبار أعلامه ويطيل فى بيان ما يدخله من اللحن عادة أو ضرورة ، ويقول لأهل بغداد خاصة أزجال رقيقة بألفاظ لطيفة على اصطلاح لغتهم وجارى ألسنتهم على قاعدة اللحن المختص بهم ، ويذكر طائفة من زجالى بغداد على رأسها على بن المراغى ، ويذكر مطلع زجل له على هذا النمط :

لما أسرتم فؤادى أطلقتُ دمعى المَصُونْ
وصرتُ فيكم أغالى جُهْدى ولى تُرْخصونْ

وواضح أن المطلع غير ملحون . والفن العامى الثالث الذى تحدث عنه صفى الدين فن الكان وكان ، وهو يتكون من أدوار كل دور أربعة شطور ، وتشترك شطور المنظومة الثانية والرابعة بكل دور فى قافية واحدة مُرْدَفَة قبل حرف الروى بأحد حروف العلة ودائماً الشطر الأول فى كل بيت أطول من الثانى . اخترعه البغداديون كما يقول صفى الدين ثم تداوله الناس فى البلاد . ويذكر أنه سُمِّى بذلك لأن البغدايين أول ما اخترعوه لم ينظموا فيه سوى الحكايات والخرافات ، فكان قائله يحكى ما كان وكان . واتسع طريق النظم فيه على يد كبار الوعاظ من أمثال ابن الجوزى فى أواخر القرن السادس وشمس الدين محمد بن أبى بكر بن رشيد صاحب القصائد الوترية وشمس الدين محمد بن أحمد الكوفى فى القرن السابع . ويقول صفى الدين إنهم نظموا فيه المواعظ والرقائق والزهديات والأمثال والحكم فتداولها الناس وصارت حتى عصره تُستَحْضَرُ فى المذاكرات ويذاكر بها فى المحاضرات ، ويُنْشِد من الكان وكان غزلية موجَّهة فى الطيور ، وفى تضاعيفها :

طَيْرى الذى كانْ إلْفى لو رِدْت مِثْلو ما حَصَلْ
وهُوْ علَىَّ معوَّدْ وانا عليه معتادْ
إذا قلعْ من عندى فما تزال عينى مَعُو
واعْرِفْ مطارو وأَقْعُد فى البُرْج بالمرصادْ

والمنظومة طويلة والشاعر يتخذ لغزله رمزا : طَيْراً نصب له شبكا فصاده وفرح واتخذه إلفاً له . ويمضى فيصور كيف أن طيره أو طائره إذا حطَّ فى بُرْج لغيره لا يزال يرقبه ، ومع أنه يعرف من ينزل عندهم كما يعرف جميع رفاقه يسامحه ، وحين يأتيه يرضى عنه وينسى خصاله ، ويقول إن الماضى : ماضى الناس جميعا لا يعود . وربما شرد منه أسبوعا بطوله ، ثم أتاه ليلة الجمعة فاستقبله خير استقبال . والمنظومة طريفة كما هو واضح .

والفن العامى الرابع القُوما ، ويقول صفى الدين إن له وزنين : وزناً مثل الرباعية يتكون من أربعة شطور ، يتحد أولها وثانيها ورابعها فى القافية ويختلف الثالث ، ومعروف أن هذا الوزن يخرج من بحر البسيط ، وأن الشطر فيه إما مستفعلن فَعْلن وإما مستفعلن فاعلن . أما الوزن الثانى فيقول صفى الدين إن الدور فيه يتكون من ثلاثة شطور أو كما يسميها ثلاثة أقفال مختلفة الوزن متفقة القافية ، والشطر الأول أقصر من الثانى ، والثانى أقصر من الثالث ، ويذكر أن البغداديين اخترعوه فى دولة العباسيين برسم السحور فى شهر رمضان واشتقاق اسمه من قول المسحِّرين فى آخر كل دور منه : « قوما للسحور » ينبهون بذلك ربَّ المنزل ويمدحونه ويدعون له ، فأطلق عليه اسم « قوما » وصار علما له . ويذكر صفى الدين إنه قيل إن أول من اخترعه ابن نقطة برسم الخليفة الناصر (٥٧٥ – ٦٢٢ هـ) ويعود فيقول : الصحيح أنه اختُرع من قبله وكان الناصر يطرب له وجعل لابن نقطة رسما فى كل سنة وحدث أن توفِّى وكان له ابن يحسن القوما ، فأخذ أتباعَ والده فى أول ليلة من ليالى رمضان وتغنَّى على مسمع من الناصر :

يـا سـيـد السـادات ْ لَكْ بالكرمْ عاداتْ

أنا بُنىّ ابْن نُقْطَهْ وابى تعيش انت ماتْ

فأعجب الخليفة منه هذا الاختصار واستحضره وخلع عليه وفرض له ضعفى ما كان لأبيه . والقوما هنا من الوزن الأول الذى ذكره صفى الدين ، وقد ذكر منه منظومات تحتوى أكثر من عشرين دورا . ومثل للنوع الثانى من القوما بقوله .

داوى عُضالَكْ[1] بَعْدنا واتْرُكْ نضالَك بالرَّغم كانْ تركَكْ لنا لا بالرِّضا لَكْ

دام العَنا لَكْ إشْ تُرَى فى العشق نالَكْ ما نال احدْ من بَعْد أحبابُو مَنالك

وينبغى أن نعرف أن هذه الفنون الأربعة العامية لم يكتب لها أن تكون الترجمان الدقيق عن مشاعر الشعوب العربية فى بغداد وغير بغداد ، فقد ظلت فى مرتبة دانية ، وظل يُنْظَرُ إليها على أنها إنما تصلح للهزل أكثر منها للجد ، وبذلك ظل الصولجان للشعر الفصيح وظل مهوى أفئدة العرب فى كل مكان ، كما ظل ترجمانا صادقا عن كل ما يأملون ويألمون وكل ما يلم بهم من ابتهاج وابتئاس ، حتى لنجد أصحاب الكُدْية والشحاذة الأدبية يؤثرونه على الشعر العامى ، لما له من تأثير بعيد فى نفوس السامعين ، ونقف قليلا عند الأحنف العكبرى كبيرهم فى بغداد .

---

(١) الداء العضال : الذى لا طب له ولا دواء .

الأحنف العكبرى (١)

هو أبو الحسن عَقيل بن محمد الملقب بالأحنف العُكْبرى ، ظريف الشعراء المكْدين ببغداد وهم شعراء كانوا ينسبون أنفسهم إلى بنى ساسان الفارسيين تظرفا ، ويعيشون على الكُدْية أو الشحاذة الأدبية ، يطوفون من بلدة إلى بلدة . وفيه يقول الصاحب بن عباد : « لو أنشدتك ما أنشد نيه الأحنف العكبرى لنفسه ، وهو فرد بنى ساسان اليوم بمدينة السلام (بغداد) لامتلأتَ عجبا من ظرفه وإعجابا بنظمه » . ومن قوله يفتخر بمهنته وما اختاره لنفسه من الكدية والشحاذة :

ألا إنى بحمد اللّـ ـه فى بيتٍ من المَجْدِ
بإخوانى بنى ساسا نَ أهل الجِدِّ والجَدِّ (٢)
لهم أرضُ خُراسانَ فقاشانَ إلى الهنـــد
إلى الروم إلى الزَّنْجِ إلى البُلْغارِ والسِّنْد
قَطَعْنا ذلك النَّهْجَ بلا سيفٍ ولا غِمْدِ
ومَنْ خاف أعاديهِ بنا فى الرَّوْع يَسْتَعْدى

وهو يفتخر بانتسابه إلى هذا البيت الكبير بيت بنى ساسان أو بيت الشحاذة الأدبية ويصوِّر تطوافه وتطواف إخوانه الساسانيين ، فقد قطعوا البلدان من خراسان وقاشان فى إيران إلى الهند ، ومن أرض الروم والبلغار إلى أرض الزنج والسند ، كل ذلك بدون أى عدة حربية ، لأن أحداً لا يعترضهم ، إذ هم شحاذون لا يملكون شيئا . وتنبه الصاحب بن عباد إلى ما يشير إليه البيت الأخير ، فقال : لهذا البيت معنى بديع : يريد أن ذوى الثروة وأهل الفضل والمروءة إذا وقع أحدهم فى أيدى قطاع الطريق وأحب التخلص قال : أنا مُكْدٍ (أى لا يملك شَرْوَى نقير) فانظرْ كيف غاص ، وأبرز هذا المعنى المعتاص . ويشكو الأحنف الفقر وتطوافه فى الأرض مراراً فى شعره بمثل قوله :

عشتُ فى ذِلَّةٍ وقلة مالِ واغترابٍ فى معشرٍ أَنْذَالِ
بالأمانى أقول لا بالمعانى فغذائى حلاوةُ الآمال

وطبيعى أن تمر عليه أوقات رخاء وتعقبها أوقات شدة حين يقلّ ماله ولا يجد حوله من يسعفه فيشعر بالغربة ونكدها ومرارتها وما يداخلها من حرمان ، ويحس كأنه يعيش ويتغذى

(١) انظر فى ترجمة الأحنف وأشعاره تاريخ بغداد واليتيمة ١١٧/٣ والنجوم الزاهرة ١٧٣/٤ .

(٢) الجَد بفتح الجيم : الحظ .

بالآمال ، وقد ضُيِّق عليه الخناق . وكثيرا ما يشكو همه وبؤسه وتعاسته حتى ليقول :

العنكبوتُ بنَتْ بيْتاً على وهنٍ   تأوى إليه ومالى مثلهُ وَطَنُ
والخنفساءُ لها من جنْسِها سكنٌ   وليس لى مثلها إلفٌ ولا سكنُ

فليس له بيْت حتى ولا بيتٌ واه كبيت العنكبوت ، بيت يجعله يشعر أن له وطنا يأوى إليه ، فهو شريد ، وحتى الخنفساء لها سكن ولها إلف ، وهو لا إلف له ولا سكن . وهذه الأبيات وما يماثلها كان يتخذها وسيلة لترقَّ له القلوب وتُمَدَّ إليه الأيدى بالعطاء . وشعره كشعر أمثاله من هذه الطائفة يخلو من التنميق والمحسنات البديعية ، إذ هو شعر الطبيعة والفطرة ولذلك لا يلقانا فيه أى حلية أو زينة . وقد توفى سنة ٣٨٥ . وفى رأيى أن شعر الكُدْية والشحاذة الأدبية هبط بعد زمنه ، إذ شغلت مكانه المقاماتُ عند بديع الزمان والحريرى .

الفصل الخامس

النثر وكتّابه

١

تنوع النثر:

رأينا فى العصرين العباسى الأول والثانى كيف تنوع النثر تنوعاً واسعاً ، فكان هناك النثر العلمى والنثر الفلسفى والنثر الأدبى ، وكانت هناك المناظرات والمواعظ والقصص وكتب الأدب التهذيبى ، وكانت هناك الرسائل الشخصية والسياسية ، وكل هذه الأنواع مضت تزدهر فى عصر الدول والإمارات بالعراق وخاصة فى القرنين الرابع والخامس للهجرة . ولا نبالغ إذا قلنا إنهما كانا أزهى القرون فى العصر بالقياس إلى النثر وفنونه ، فقد بلغ العقل العربى كل ما كان يرجى له من نضج ، إذ ظل المترجمون ينقلون إليه قبل ذلك كل ما كان عند الأمم القديمة من معارف ، وظل يتغذى بها وينمو ولم يلبث أن شارك فيها وأصبح للعرب علماؤهم ومتفلسفتهم ، وظل يقطع أشواطاً ومراحل حتى بلغ القمة فى مطالع هذا العصر.

وكانت قد بقيت للترجمة بقية ، وهى تدل بوضوح على ما نقوله ، فقد كانت انتقلت من الترجمة الحرفية إلى الترجمة بالمعنى على نحو ما صورنا ذلك فى كتاب العصر العباسى الثانى ، وإذا رجعنا إليها وإلى أصحابها فى هذا العصر لاحظنا أنهم انتقلوا بها نقلة واسعة نحو العناية بالأداء والصياغة ، حتى لكأن المترجمات توضع فى العربية ابتداء ، فلا عوج ولا أَمْت فى صيغة ، بل مع الرونق وحسن الأداء ، ونضرب مثلاً للمترجمين عيسى بن زُرْعَة البغدادى المتوفى سنة ٣٩٨ وفيه يقول أبو سليمان المنطقى السجستانى : «هو آخر من يُرْتَضَى نقله لكتب الحكيم أرسطاطاليس : البسائط والجوامع . . وكتاب جالينوس «منافع الأعضاء وغيره من الكتب» . ويذكر مثلاً لما ترجمه من كلام أرسطاطاليس على هذا النمط [1] :

---

(١) انظر فى الفقرة التالية المترجمة كتاب منتخب صوان الحكمة لأبى سليمان المنطقى السجستانى (طبع طهران) ص ٣٣٣

«الإنسانية أفق ، والإنسان متحرك إلى أفقه بالطبع ، ودائر إلى مركزه ، إلا أن يكون مؤوفاً (معلولاً) فى طبيعته ، مخلوقاً بأخلاق بهيمية . ومَنْ رفع عصاه عن نفسه ، وألقى حبْله على غاربه ، وسيَّب هواه فى مَرْعاه ، ولم يضبط نفسه عما تدعوه إليه طبيعته ، وكان ليِّن العريكة لاتباع الشهوات الرديئة ، فقد خرج عن أفقه ، وصار أرذل من البهيمة بسوء إيثاره» .

ولو أننا لم نعرف أن هذه الفقرة مترجمة عن أرسطاليس ما تنبهنا إلى ذلك لصياغتها العربية المحكمة ، وما يجرى فيها من رونق الصياغة الأدبية كما هو واضح فى مثل قوله : «ومن رفع عصاه عن نفسه ، وألقى حبله على غاربه ، وسيَّب هواه فى مرعاه» . وهى استعارات وكنايات بيانية . وأرسطاليس فى الفقرة يشير إلى ما ذهب إليه من أن الإنسان مكوّن من طبيعة هى البدن وما يتصل به من الملذات ، وهى تصلح وتفسد ، وأيضاً من النفس التى لا تبلى والتى يترقى بها الإنسان ويكمل . وابن زرعة يترجم حقا ، ولكنها ترجمة أشبه بأن تكون من إنشائه ابتداء ، ولذلك تصبح الفقرة ، وكأنها وصية أو نصيحة لواعظ — كما لاحظ أبو سليمان المنطقى السجستانى — يريد بها للإنسان أن يصلح من طبيعته الأمارة بالسوء ولا يستجيب إلى شهواتها ومآربها المادية . ولم ينقلها مترجم يعرف العربية فحسب ، بل ترجمها أديب يتذوق أساليب العربية ويفقه دقائقها وخصائصها البيانية . ويُشيد ابن أبى أصيبعة فى كتابه طبقات الأطباء ببلاغة كثيرين منهم ومن العلماء بالرياضيات والطبيعيات ، ويسوق لهم أشعاراً كثيرة .

وشملت هذه الصياغةُ المحكمة الفلسفةَ ، ويخيل إلى الإنسان أنها كانت قد أصبحت فى القرنين الرابع والخامس للهجرة قوتاً أو غذاء عاما للشعب ، بحيث لم تقتصر على الطوائف العليا والوسطى فى المثقفين ، بل اتسعت حتى احتوت الطوائف الدنيا ، وذكرنا فى الفصل الثانى دليلاً قويًّا على ذلك هو أن جماعة إخوان الصفا السرِّيَّة التى كانت تدعو فى البصرة إلى المذهب الإسماعيلى لجأت إلى الفلسفة والعلوم فى صنع رسائل اتخذتها وسيلة لنشر هذا المذهب ، ولو أنه استقر فى نفسها أن العلوم والفلسفة معاً يرتفعان عن مدارك العامة ما لجأت إلى هذه الوسيلة ولعرفت منذ أول الأمر أنها وسيلة قاصرة فكفَّتْ عنها ، أما وقد تمادى إخوان الصفا فيها ومضوا يدسُّون رسائلهم فى دكاكين الوراقين ببغداد والبصرة فإن ذلك دليل حى على تعلق العامة بمعرفة الفلسفة ، وسنرى عما قليل مناظرة بين زعيمهم المقدسى والحريرى فى دكان حمزة الوراق بشارع الوراقين فى بغداد ، تتناول الأسس

والغايات التي من أجلها كُتبت رسائل إخوان الصفا ، وقد عمل المقدسي ورفيقه زيد بن رفاعة على إذاعتها ونشرها ببغداد .

وأخرى ألممنا بها فى فصل الثقافة وهى تدل على أن الفلسفة أصبحت فى القرن الرابع الهجرى شائعة مشتركة بين الناس أو قل بين البغداديين ،وهى كثرة المنتديات التى كانت تثار فيها مسائلها ، ومثلنا لذلك بندوة أبى سليمان المنطقى السجستانى ، وذكرنا من كان يؤمها من عِلْية المتفلسفة ، وكان وراءهم آخرون دونهم فى الرتبة ، يؤمون داره كل يوم . وكان كثيراً ما يُلْقَى سؤال وتدور حوله محاورة كبيرة ، كل متفلسف يرى فيها رأياً يُدْلِى به ، ثم يكون الرأى الأخير لأبى سليمان ، وكأنه المنارة الهادية . وقد استطاع أحد تلاميذه وهو أبو حيان التوحيدى – كما مرَّ بنا – أن يجمع طائفة كبيرة من هذه المحاورات الفلسفية ، وسماها المقابسات أى المحاورات ، وكأنما ارتضى لها كلمة المقابسة لتدل على أن كل من كان يحضر الندوة ويحاور فيها كان يقتبس من فكر صاحبه . وكأنما استحال بينهم الفكر الفلسفى إلى ما يشبه ناراً كل يقبس منه حسب استطاعته . وقد بلغت المقابسات مائة وستا فى نحو أربعمائة صفحة كبيرة ، وهى أشبه بدائرة معارف فلسفية تضم مباحث عميقة فى الإلهيات والطبيعيات والنفس والعقل والأخلاق والأدب والبلاغة . ويمكن أن نُدْخِل متفلسفة القرن الرابع فى هذه الندوة وغيرها فى دائرة الفارابى وتلاميذه ، فقد مضوا جميعاً فى إثره يُعْنَوْنَ بالإلهيات وبمنطق أرسطو وبالنفس والعقل متأثرين بنظرية الفيض التى بثَّتها الأفلاطونية الحديثة ، وهى مبثوثة فى كلام أبى سليمان وتلميذه النَّوْشَجانى ، وقد عرض لها الأخير فى المقابسة السادسة والثلاثين ولا نرى أحداً يراجعه مما يدل على إيمانهم بها جميعاً . وفى مواضع كثيرة من المقابسات نرى أبا سليمان وغيره من تلاميذه يرفعون من شأن الدين ، وقد حاول هو وبعض مريديه مراراً وتكراراً أن يدفعوا الفكرة أو النظرية التى قامت عليها رسائل إخوان الصفا ، وهى الوصل بين الفلسفة والشريعة ، كما مر بنا فى فصل الثقافة ونقضوها عليهم نقضاً ، وصوَّر أبو حيان فى كتابه الإمتاع والمؤانسة ردّ أبى سليمان عليهم[1] ، وهو رد مفحم رائع أوضح فيه أن مرد الشريعة إلى الله والوحى ومرد الفلسفة إلى الرأى والعقل ، ونعرض جانباً من رده لنرى قدرته البيانية ، يقول :

«الشريعة مأخوذة عن الله عزَّ وجَلَّ بواسطة السفير بينه وبين الخلق من طريق الوحى وباب المناجاة ، وشهادة الآيات وظهور المعجزات ، على ما يوجبه العقل تارة ، ويجوِّزه

(١) الإمتاع والمؤانسة ٢ /٦ – ١٨ وانظر فى أبى سليمان ص ٢٨٥ السابقة .

تارة ، لمصالح عامة متقنة ، ومراشد تامة مبيَّنة ، وفى أثنائها مالا سبيل إلى البحث عنه والغوص فيه (كالبعث) ولابد من التسليم للداعى إليه والمنبه عليه ، وهناك يسقط لِمَ ؟ ويبطل كيف ؟ ويزول : هَلاَّ ، ويذهب لو وليت فى الريح ، لأن هذه المواد عنها محسومة واعتراضات المعترضين عليها مردودة ، وارتياب المرتابين فيها ضار ، وسكون الساكنين إليها نافع .. وأساسها على الورع والتقوى ، ومنتهاها إلى العبادة وطلب الزلفى . ليس فيها حديث المنجم فى تأثيرات الكواكب وحركات الأفلاك . . ولا حديث صاحب الطبيعة الناظر فى آثارها . . ولا فيها حديث المهندس . . ولا فيها حديث المنطق . . فعلى هذا كيف يسوغ لإخوان الصفا أن ينصبوا من تلقاء أنفسهم دعوة تجمع حقائق الفلسفة فى طريق الشريعة . . وكما لم نجد فى هذه الأمة من يفزع إلى أصحاب الفلسفة فى شىء من دينها ، كذلك أمة عيسى عليه السلام ، وهى النصارى ، وكذلك المجوس . . فأين الدين من الفلسفة ؟ وأين الشىء المأخوذ بالوحى النازل من الشىء المأخوذ بالرأى الزائل ؟ . . وبالجملة النبى فوق الفيلسوف والفيلسوف دون النبى ، وعلى الفيلسوف أن يتَّبع النبى وليس على النبى أن يتبع الفيلسوف ، لأن النبى مبعوث والفيلسوف مبعوث إليه . ولو كان العقل يُكْتَفَى به لم يكن للوحى فائدة ولا غَناء ، على أن منازل الناس متفاوته فى العقل وأنصباءهم مختلفة فيه ، فلو كنا نستغنى عن الوحى بالعقل كيف كنا نصنع ؟ وليس العقل بأسره لواحد منا وإنما هو لجميع الناس . . والنبى يقول أُمرت وعُلِّمت وقيل لى وما أقول شيئاً من تلقاء نفسى ، والفيلسوف يقول رأيت ونظرت واستحسنت واستقبحت ، والنبى يقول : معى نور خالق الخلق أمشى بضيائه ، وهذا يقول معى نور العقل أهتدى به ، والنبى يقول : قال الله تعالى وقال المَلَكُ ، وهذا يقول قال أفلاطون وسقراط . . » .

وواضح أن أسلحة أبى سليمان من المنطق والتفلسف أسلحة حادة ، فقد فصل بوضوح بين الدين أو الشريعة وبين الفلسفة ، فالدين مرجعه الوحى والفلسفة مرجعها العقل ، والدين مرجعه الله والفلسفة مرجعها آراء الفلاسفة ، وهى تتفاوت وتختلف باختلافهم ، والشريعة مستغنية عن الفلسفة بكل فروعها . والنبى فوق الفيلسوف ، والشريعة تدعو إلى التقوى والورع ولا شأن للفلسفة بذلك . ولعل وصل إخوان الصفا بين الشريعة والفلسفة هو الذى دفع أبا سليمان وغيره من أفراد مدرسته إلى مهاجمة المتكلمين ، لأنهم صدروا فى مباحثهم الكلامية كثيراً عن هذا الوصل وما يتصل به من التوفيق ، وكأن أبا سليمان أحسَّ أنهم هم المسئولون عن هذا العمل المغرض الذى يراد به الدعوة إلى المذهب الإسماعيلى الشيعى الغالى غلوًّا شديداً ، ولذلك مضى يهاجمهم مهاجمة عنيفة – كما نقل عنه أبو حيان

فى المقابسات – قائلاً إنهم يعتمدون على الجدل والمغالطة ومحاولة إسكات الخصم والإيهام مع قلة تألُّهٍ وسوء ديانة . ومن المؤكد أن وصفهم بقلة التأله وسوء الديانة فيه مبالغة ، وقد يكون اتفق له منهم من رأى فيه انحرافاً عن الدين ، وكان ينبغى أن لا يعمِّم حكمه . على كل حال إنما أردنا بما اقتبسناه من كلامه عن إخوان الصفا والوصل بين الشريعة والفلسفة أن ندل على أن لغة المتفلسفة فى العصر صُبغت بأصباغ أدبية واضحة ، إذ يعرف أبوسليمان كيف يصطفى ألفاظه ، وكيف يجرى فيها ترادفاً بديعاً يحلى لوقعها على الآذان جمالاً ، وكيف ينسق عباراته ويأتى بها قصيرة متلاحقة . ونقرأ فى المقابسات قطعاً فلسفية أدبية للكثيرين من تلاميذه ورفاقه مثل النَّوْشَجانى الذى نراه يستدل على الحياة بعد الموت على هذا النمط [1] :

« إذا كان صنف من أصناف الموجود فى حكم المعدوم لخساسته ، ونقصه وتهافته ، وفساد طبيعته ، وطموس ضيائه ، وقبح صورته ، وانمحاء بهجته ، وخمود شعاعه ، وفقد تمامه ، وتقطُّع نظامه ، واستيلاء رذيلته ، وبطلان فضيلته ، فلا تنكر أن يكون فى مقابلته وبإزائه صنف آخر من المعدوم فى حكم الموجود لصحة صورته ، ونفاسة جوهره ، وكمال فضيلته ، وظاهر عفته ، وبهاء هيئته ، وغلبة عدالته ، ونقاء سِنْخه ، وصفاء سُوسِه [2] ، وطهارة ذاته ، وظاهر زينته ، ودوام نضرته ، وتناسب جملته وتفصيله ، وسائر ما لا يحيط القول به . . فإنك متى حويت هذه المعانى . . اكتنفتك الخيرات عاجلاً ، والسعادات آجلاً . فتكون حينئذ موجوداً وإن عدمت ، وباقياً وإن فنيت ، وحاصلاً وإن فقدت ، وثابتاً وإن نُفيت ، وحيا وإن مت ، وظاهراً وإن بطنت ، وجليًّا وإن خفيت ، وواضحاً وإن أشكلت ، وشاهدا وإن غبت ، وقادراً وإن عجزت . . هنالك تصل إلى غِنًى بلاقُنْية [3] ، وتنطق بلا عبارة ، وتفعل بلا آلة ، وتصيب بلا مشورة ، وتعقل بلا مقدمة ، وتبقى بلا آفة . . وتسعد بلا شَوْب . إلهية ورثتها من البشرية ، وربوبية وصلت إليها بالعبودية » .

ويمضى النوشجانى فيقول لمنكر الحياة بعد الموت إنك إنما تنكرها حين تنظر إلى شخص فى إسار الحس وقشور البدن مع فساد العقيدة والعكوف على الشهوات المهلكة ، فتقول متى يكون لهذا رجوع وحياة بعد الموت ؟ وكان حريًّا به أن يباين هواه ويختار الحق ويؤثر الخير إذن تكون السعادة غايته ، والأبد نعته ونهايته . وصياغةُ النوشجانى رائعة بما فيها من

(١) المقابسات (طبعة بغداد) : المقابسة السادسة والأربعون وانظر فى النوشجانى المقابسات ٢٩ ، ٣٦ ، ١٠٦ .

(٢) السوس والسنخ : الأصل .

(٣) القنية : ما يكتسب من المال ويقتنى .

جمال الجرس في الأداء الناشئ عن قصر العبارات وحسن انتخاب الألفاظ وما يجرى فيها من ترادف بديع وقدرة على التناسق في الكلمات والصيغ وسيلانها ، بل تدفقها ، بالفكر الصافي الخالي من الشوائب . وهو ما نقوله إن النثر الفلسفي في هذا العصر التقى بالأدب والتمع في أثنائه وعلى حواشيه ، فغدا يروع السمع كما يروع الفكر والذهن .

وطبيعي في هذه الأثناء أن تزدهر المناظرات ، وأن تشيع في كل مجلس وبين العلماء والأدباء ، وقد اشتهر مجلس المهلبي ببعض مناظرات بين الحاتمي والمتنبي على نحو مايوضح ذلك الحاتمي في رسالته « الموضحة » واشتهر عضد الدولة البويهي بما كان يُعْقَدُ من مناظرات بين العلماء في مجالسه ، ويحدثنا القاضي عِياض في ترجمته[1] للباقِلَّاني عن مناظرته بحضرة عضد الدولة للأحدب رئيس معتزلة بغداد حول تكليف مالا يطاق ، ومناظرته بحضرته أيضاً لأبي إسحق النَّصِيبِيني رئيس معتزلة البصرة حول رؤية الذات العلية . وكانت المناظرت لاتزال ناشبة بين أصحاب الطب وغيره من علوم الأوائل حتى لنجد طبيباً بغدادياً في القرن الخامس الهجرى هو ابن بطلان يرحل إلى مصر لمناظرة ابن رضوان الطبيب المصرى والحوار معه[2] . ومالنا نذهب بعيداً ومنتدى أو ندوة أبي سليمان المنطقي السجستاني في القرن الرابع الهجرى كانت تعج بالحوار والجدال في كل فروع الفلسفة ومسائلها الدقيقة . ولم تكن المناظرات تقتصر على الندوات أو على المساجد ، بل كانت أيضاً تجرى في الأسواق وخاصة سوق الوراقين حيث يلتقي أصحاب المذاهب والآراء ، فتنشب بينهم معارك الجدل والمناظرة ، من ذلك المناظرة الطريفة التي حكاها أبو حيان بين شخص يسمى الحريرى كان يأخذ بشيء من الفلسفة والفكر الدقيق وبين المقدسي أبي سليمان محمد بن معشر البيستي الرازى مخرج رسائل إخوان الصفا كما أسلفنا في فصل الثقافة ، ولذلك نسبها إليه أبو سليمان المنطقي السجستاني كما مرَّ بنا ، وكان لا يزال يُرَى ببغداد في ندوته ، وفي شارع الوراقين . وكان الرأى العام السائد هناك يعارض نظريته في التوفيق بين الشريعة والفلسفة ، ولعلهم كانوا يعرفون مقصده الذى نبهنا إليه مراراً ، وكانوا يتعرَّضون له فلا يراهم أهلاً للجواب ، حتى كان يوم — وهو يتجوَّل في الوراقين — تعرَّضَ له فيه الحريرى غلام ابن طَرَّارة وهيَّجه بما أورد عليه من أدلة ، مما جعله يندفع قائلا[3] الشريعة طِبّ المرضى والفلسفة طب الأصحاء ، فالأنبياء يُطِبّون للمرضى حتى

---

(١) انظر هذه الترجمة في نهاية كتاب التمهيد للباقلاني (نشر دار الفكر العربي بالقاهرة) ص ٢٤٦ .

(٢) راجع القفطي ص ٢٩٨ ، ٤٤٤ وابن أبي أصيبعة ص ٣٢٥ وما بعدها .

(٣) الإمتاع والمؤانسة ٢/١١ وما بعدها .

لا يتزايد مرضهم أو حتى يزول بالعافية ولا شىء وراء العافية ، وأما الفلاسفة فيطبُّون للأصحاء وبذلك يفيدونهم كَسْبَ الفضائل التى تؤهلهم للحياة الإلهية . وإن كَسَبَ المريض بعض الفضائل فليست فضائله من جنس فضائل الصحيح ، إذ الأولى (فضائل المريض) تقليدية والثانية برهانية ، والأولى مظنونة والثانية مستيقنة ، والأولى جسمية والثانية روحانية ، والأولى دهرية والثانية زمانية . وقال إننا جمعنا بينهما لأن الشريعة لا تعترف بالفلسفة بينما الفلسفة تعترف بها لأن الشريعة عامة والفلسفة خاصة فجمعنا بينهما لأن العامة قوامها بالخاصة ، كما أن الخاصة تمامها بالعامة .

وأخذ الحريرى ينقض أفكاره فكرة فكرة مبيناً ما فيها من فساد ، فقال له إن كلامك يخالف الواقع ، إذ لا يوجد طبيبان : طبيب للمرض وطبيب للصحة ، بل ذلك شىء خارج عن العادة ، فدائماً الطبيب يُعْنَى بحفظ الصحة ودفع المرض ، وإذن سقطت تلك الفكرة المضللة . ونقَض عليه ما زعمه من أن الفضيلة الدينية تقليدية والفلسفية برهانية ، فقال له إن الدينية برهانية لأنها صادرة عن الوحى ولذلك تستقيم مع أى برهان ، أما الفضيلة الفلسفية فهى التقليدية ، لأن مدارها على رأى الشخص فيوافقه أو يخالفه آخر ، فهى لا تثبت ولا تستقر بحال . ويعجب الحريرى أشد العجب من جَعْل المقدسى الشريعةَ من باب الظن وهى بالوحى ، والفلسفةَ من باب اليقين وهى من الرأى . ويقول له : إنك غالطت وموَّهت إذ زعمت أن الفضيلة الدينية جسمية والفضيلة الفلسفية روحانية ، إذ الصحيح العكس لأن الشريعة وحى من الله والفلسفة من قبل أشخاص ذوى أجسام ، وهى تناقش الأجسام والأعراض . ويسأله إنك تقول إن الفلسفة للخاصة فلماذا تحاولون جمع العامة لها ، بينما تقولون الشريعة للعامة ، فلم تجمعون بين متفرقين ؟ إنه لجهل أى جهل . وبالمثل يقول له إنك تذكر أن الشريعة تجحد الفلسفة ، فلماذا تريدون حملها عليها قَسْراً . وبذلك أخرسه . وقد عاد يسأله أى شريعة تريدون وصلها بالفلسفة ، ولماذا تعنون بالتوفيق بينها وبين الدين الحنيف ، بينما فى المتفلسفة نصارى ومجوس ويهود . ويصارحه بأنه لا يرى من إخوان الصفا من يقوم بأركان الدين ويتقيد بالكتاب والسنة ويراعى معالم الفريضة ووظائف النافلة ، ويتساءل أين كان الصحابة والتابعون من الفلسفة ؟ ويعلن إليه أن هذه المحاولة من التوفيق بين الشريعة والفلسفة إنما هى كيد للدين القويم ، حاوله من قبلهم كثيرون فباءوا بالخذلان والخسران المبين . ويذكر له طائفة كبيرة من معجزات الرسل ، ويدعو المقدسى وصحبه إلى الإيمان بالشريعة دون تأويل ولا تدليس ولا تعليل ولا تلبيس .

والحريرى إنما هو شخص أشبه بأن يكون من العامة ، ولذلك عرضنا مناظرته مع المقدسى لندل على مدى ما حَظِيَ به العقل العربى فى القرن الرابع من قدرة على الاستنباط والتعليل وتحليل الأفكار وتشعيبها ونَقْضها من أساسها نقضاً . واستمرت هذه الحركة الفكرية الفلسفية خصبة مثمرة حتى منتصف القرن الخامس ، ثم أخذت تتراجع موجاتها إلى الوراء ، أو قل أخذت حِدَّتها تخف ، بسببين : أولاً لانتشار التصوف وتعلق العامة به ، وخاصة بعد أن وجَّهه أبو نصر السَّراج الطوسى والقُشَيْرى نحو التصوف السنى ، ويعم هذا التصوف منذ القرن السادس الهجرى بعد ظهور الشيخ عبد القادر الجيلانى والشيخ الرفاعى ، ولا يلبث الدراويش أن ينتشروا فى العراق وغير العراق . وثانياً لأنه أتيح للسنة ونصرتها على الفلسفة عالم كبير هو الغزالى الذى كان لحملاته العنيفة على الفلسفة والمتفلسفة أكبر الأثر فى انصراف الناس عنها ، وكان هو نفسه صوفيًّا سُنِّيًّا . فدعم التصوف السنى إلى أقصى حد ، وأصبحت كفته هى الراجحة طوال قرون متطاولة .

وقد مضت خطابة الوعظ تزدهر فى العصر على نحو ما مرَّ بنا فى حديثنا عن شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية ، وأخذت تكثر أدعية ومناجيات مختلفة للذات العلية ، ويكفى أن نذكر من كتبها كتاب الإشارات الإلهية لأبى حيان التوحيدى ، وهو مطبوع ، وجميعه دعاء واستغفار وتضرع إلى الله وتوبة وطلب للهداية واتباع سبيل الرشاد . وتلقانا من حين إلى آخر أدعية ومناجيات بديعة ، من ذلك دعاء[1] لمحمد بن عبد الملك الفارقى المار ذكره فى الفصل الماضى . وأخذت توضع كتب كثيرة فى التصوف وفى القصص والحكايات عن أصحابه ، من أهمها كتاب اللمع فى التصوف لأبى نصر السراج الملقب بطاووس الفقراء المذكور آنفا المتوفى سنة ٣٧٨ وهو من طوس وحين ورد على بغداد أفردت له غرفة خاصة فى جامع الشونيزية وأعطى رياسة الدراويش ، وكتاب قوت القلوب لأبى طالب[2] المكى الوافد على بغداد المتوفى بها سنة ٣٨٦ . ويلقانا من كتب القصص كتاب حكايات المشايخ الجعفر[3] الخلدى المتوفى سنة ٣٤٨ ومر بنا فى حديثنا عن ابن السراج البغدادى بين شعراء الصوفية كتابه « مصارع العشاق » وهو يزخر بأخبار وأقاصيص عن العباد والنساك .

---

(١) خريدة القصر (قسم الشام) ٢/٤٣٣ .

(٢) راجع فى أبى طالب تاريخ بغداد ٣/٨٩ وابن خلكان ٤/٣٠٣ والوافى ٤/١١٦ وميزان الاعتدال ٣/٦٥٥ والشذرات ٣/ ١٣٠ ولسان الميزان ٥/ ٣٠ ومرآة الجنان ٢ / ٤٣٠ .

(٣) انظره فى تاريخ بغداد ٧ / ٢٢٦ وبروكلمان ٤/٧٥ .

وأخذت تؤلف كتب قصص عامة ، على نحو ما نرى عند أبي على المحسِّن [1] التنوخى المتوفى سنة ٣٨٤ وله ثلاثة كتب قصصية ، هى : كتاب «المستجاد من فعلات الأجواد» وهو أقاصيص عن مجموعة كبيرة من الأجواد أو الكرماء الماضين ، وهو مطبوع ، و« نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة» وهو أقاصيص وأخبار عن معاصريه وهو أيضاً مطبوع ، ثم كتاب الفرج بعد الشدة وهو مطبوع ، وهو أقاصيص ونوادر وأخبار وأمثال ولابن مسكويه كتاب أقاصيص سماه «أنس الفريد» سقط من يد الزمن . وأخذ بعض الكتّاب يحاولون تقليد بديع الزمان الهمذانى فى مقاماته ، وفى مقدمتهم أبو القاسم عبد الله بن محمد بن ناقيا الذى ذكرناه فى فصل الثقافة بين علماء البلاغة فى القرن الخامس الهجرى ، وهو سابق للحريرى ، وقد ألف تسع مقامات بطلها واحد وهو اليشكرى ، ورواتها متعددون ، وتدور على الكدية أو الشحاذة الأدبية ، وهى مطبوعة من قديم فى إستانبول مع ثلاثين مقامة لأبى العلاء أحمد بن أبى بكر بن أحمد الرازى من أدباء القرن السادس وقد حاكى بها مقامات الحريرى وأهداها إلى أبى حامد الشهرزورى المتوفى سنة ٥٨٦ ، وكان يعاصره ابن الجوزى الذى مرَّ ذكره فى غير موضع ، وله خمسون مقامة ، غير أنه لم يجعل لها بطلاً من الأدباء الشحاذين أصحاب الكدية ، وإنما نحا بها نحو الوعظ ، على طريقة الزمخشرى فى مقاماته الوعظية . وربما كانت أهم المقامات التى ألفت فى القرن السادس بعد مقامات الحريرى مقامات يحيى بن سعيد بن مارى النصرانى البغدادى المتوفى سنة ٥٨٩ وتسمى المقامات المسيحية لنصرانيته ، وهى ستون مقامة ضاهى بها مقامات الحريرى . ونلتقى فى أواخر القرن السابع بالمقامات الزينية لمعد بن نصر الله ابن رجب الجزرى المعروف بابن الصَّيقل المتوفى سنة ٧٠١ وهى خمسون مقامة ، فرغ من تأليفها سنة ٦٧٢ . ويخلفه كثيرون يؤلفون مقامات مفردة أو بضع مقامات مجموعة . وتظل مقامات الحريرى فى الذروة ، لا يبلغ شأوه فيها أى أديب بعده ، وسنفرد له كلمة نعرض فيها لمقاماته .

وتكثر فى العصر كتب الأدب التهذيبى ، وتتخذ مَجْرَيَيْن : مجرى فلسفيًّا فكريًّا على نحو ما نرى فى كتاب تهذيب الأخلاق لمسكويه ، ومجرى عمليًّا تربويًّا مثل كتاب أدب الدنيا والدين لأبى الحسن على بن محمد الماوردى المار ذكره وهو مقسم إلى خمسة أبواب : باب فى فضل العقل وذم الهوى ، وباب فى أدب العلم ، وباب فى أدب الدين . وباب فى

(١) راجع ترجمته فى اليتيمة ٢/٣٤٥ وتاريخ بغداد ١٣/١٥٥ ومعجم الأدباء ١٧/٩٢ والمنتظم ٧/١٧٨ وابن خلكان ٤/١٥٩ والنجوم الزاهرة ٤/١٦٨ والشذرات ٣/١١٢ .

أدب الدنيا ، وباب فى أدب النفس ، وكل باب ينقسم إلى فصول ، وفى كل فصل تذكر الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأشعار التى تحث على الفضائل وتنهى عن الرذائل . وكان هذا الكتاب مقرراً للمطالعة فى المدارس الثانوية وما أجدره أن يعود إليها لتربية النشء على الأخلاق القويمة . وتكثر كتب الأدب التهذيبى بعد هذا الكتاب ولكنها لا تبلغ مبلغه فى النفع والفائدة .

وتموج اليتيمة والخريدة بالرسائل الشخصية أو الإخوانية ، وتتكاثر كثرة مفرطة ، فى الشكر والثناء والتهنئة والعتاب والاعتذار والاستعطاف والتهادى والتعزية ، وعادة تدور حول معان محدودة ، ولكن الكتاب يتفننون فى تطويلها ، وبذلك يستحيل المعنى الضئيل النحيل إلى ما يشبه خيطاً أو حبْلا تعلق عليه سجوف من السجع والجناس وفنون البديع تكدَّس فيها أكداساً ، وتكدَّس معها تعقيدات بصور كثيرة تارة بجلب بعض المصطلحات العلمية وخاصة منذ القرن الخامس وما بعده ، وتارة باتخاذ حرف واحد تُبْنَى عليه الرسالة . وللحريرى رسالتان إحداهما سينية كل كلماتها من ذوات السين ، والثانية شينية كل كلماتها من ذوات الشين ، وقد قلده الحَصْكَفى [1] يحيى بن سلامة خطيب ميَّا فارقين المتوفى سنة ٥٥١ فصنع رسالة سينية ، وحاول الإغراب أكثر فصنع رسالة من الحروف المهملة وخطبة ليس فى حروفها حرف منقوط ، وكان شغوفاً بالجناس وصُنْع المنعكس منه بحيث تشتق كل كلمة من أختها على هذه الشاكلة :

«النفس بعقود التذرُّع حالية ، ولقعود التعذر حائلة ، ومن الودائع المعجزة مالية ، وإلى الدواعى المزعجة مائلة ، وفى بحار الحمدراسية ، وفى رحاب المدح سارية» .

ويستمر بهذه الصورة ، فكل كلمة فى السجعة الأولى تعود فى السجعة الثانية مقلوبة معكوسة فى هيئتها وبنيتها وصورتها ، فعقود تتحول إلى قعود والتذرع إلى التعذر وحالية إلى حائلة . وهى مهارة تُحيل الرسالة إلى ما يشبه العمل المطبعى الذى يؤدِّيه عمال المطابع من جمع الحروف بعضها إلى بعض من أول الكلمة إلى آخرها تارة ومن آخرها إلى أولها تارة ثانية جمعاً يصور مهارة ، ولكنها مهارة لفظية أشبه باللعب . ونلتقى بمعاصر للحصكفى ، هو الحَيْص بَيْص البغدادى المارّ ذكره بين الشعراء وفيه يقول العماد الأصبهانى : «له رسائل ومكاتبات معدول بها عن الفن المعتاد والأسلوب المعروف» يقول : وهى كثيرة ، وسأورد

(١) انظر فى الحصكفى الخريدة (قسم الشام) ٢ / ٤٧١ وما بعدها والمنتظم ١٠ / ١٨٣ والسبكى ٧ / ٣٣٠ وابن خلكان ٦ / ٢٠٥ ومعجم الأدباء ٢٠ / ١٨ وكتابنا الفن ومذاهبه فى النثر العربى (الطبعة الثامنة بدار المعارف) ص ٣٠٤ وبدار الكتب المصرية نسخة مخطوطة من رسائله .

منها نبذاً يستدلّ بها على الباقيات . وتدل النُّبَذُ على أنه كان يحشد فيها أوابد اللغة وشواردها وشواذها متقعراً فيها أبعد تقعُّر ، وهو تقعر لا يفيد حسناً ولا جمالاً ، وإنما يضيف صعوبات لغوية ، وكأن الرسالة مجموعة من الألغاز ، وكلما فك القارئ فيها لغزاً لقيه لغز جديد ، لا يقل عنه تكلفاً وإغراباً . وقد استطاع أبو السَّمْح (١) سعيد بن سَمُرَة أن يؤلف على نمط الحريرى لا رسالة سينية أو شينية ، بل أن يؤلف رسائل كل رسالة منها كلماتها على حرف من حروف المعجم . ونصبح منذ القرن السادس حقا بإزاء رسائل شخصية معقدة غاية التعقيد ، وحتى المحسنات البديعية مثل الجناس استحالت بدورها عقداً ، وكأنما فارقت كل ما كانت تزدان به من حسن وجمال . وحرى بنا أن نتحول إلى الحديث عن كتّاب الرسائل الديوانية .

٢

كتّاب الرسائل الديوانية

كانت الدواوين طوال هذا العصر كثيرة ومتنوعة ، فكان هناك ديوان الخليفة وديوان الزمام الخاص بالشئون المالية وديوان الضياع والعقار وديوان الجيش وديوان النفقات وديوان الأوقاف وديوان التركات وديوان الجوالى أو الجزية الخاص بأهل الذمة وديوان السلّة الذى تحفظ فيه الكتابات الديوانية . وأهم من هذه الدواوين جميعاً ديوان الإنشاء الخاص بالرسائل الصادرة عن الخليفة وحاكم بغداد العام ، وعُنى البويهيون بهذا الديوان منذ استيلائهم على بغداد فاتخذوا له بعض النابهين من الأدباء ، وكثيراً ما كان يقوم عليه وزيرهم ، وأول من نهض بأعبائه فى عهدهم وكان له ذكر حسن أبو محمد المهلّبى (٢) الذى وَزَر لمعز الدولة البويهى منذ سنة ٣٣٩ وكان شاعراً كاتباً وأنشد الثعالبى فى يتيمته طائفة من شعره ، أما نثره فاكتفى فيه بفصول قصيرة تدل على أنه كان يسجع فى كتاباته ، والسجع فى ديوان بغداد قديم منذ عصر المقتدر كما مر بنا فى كتاب العصر العباسى الثانى ، وقد مضى كتّاب الدواوين بعد عصره جميعاً يسجعون . ويظل المهلبى ناهضاً بالوزارة والكتابة حتى وفاته سنة ٣٥٢ . وأهم كتاب البويهيين ببغداد بعده أبو القاسم عبد العزيز (٣) بن يوسف ،

(١) انظر فى ترجمته الخريدة (قسم العراق) ٩/٧ ومعجم الأدباء ١١٨/٩ والشذرات ٩/٣ وكتب التاريخ العامة فى سنة وفاته .

(٢) انظر فى المهلبى وترجمته اليتيمة ٢ / ٢٢٣ والمنتظم ٢ / ٢٦٣ .

(٣) راجعه فى اليتيمة ٣١٢/٢ .

وفيه يقول الثعالبي : «كان أحد المقدمين في الآداب والكتابة والبراعة والكفاية وجميع أدوات الرياسة ، وكان مع تقلده ديوان الرسائل لعضد الدولة طول أيامه معدوداً في وزرائه ، وتقلد الوزارة بعده دفعات لأولاده» . ويورد الثعالبي مقاطع من رسائله السلطانية يشيع فيها السجع على عادة كتاب الدواوين في عصره . وبدون ريب أكبر كاتب للرسائل الديوانية زمن البويهيين أبو إسحاق الصابئ وسنخصه بكلمة عما قليل . وعُنى السلجوقيون مثل البويهيين بديوان الإنشاء وحين دخلوا بغداد وجدوا عليه العلاء ابن الموصَلايافقد كان كاتب الديوان العزيز أو ديوان الخلافة منذ سنة ٤٣٢ ورأوا أن يظل عليه ، ومضت عشرات من السنين وهو على ديوان الإنشاء حتى قضى نحبه ، وسنخصه هو الآخر بكلمة مفردة . وأهم من تولوا الديوان بعده في العصر السلجوقي سديد الدولة أبو عبد الله محمد[1] بن عبد الكريم الأنبارى منشئ ديوان الخلافة لعصر خمسة من الخلفاء هم المستظهر والمسترشد والراشد والمقتفى والمستنجد الذين تولوا الخلافة من سنة ٥٠٣ إلى سنة ٥٥٨ وهى سنة وفاة سديد الدولة ، وبذلك ظل كاتب الإنشاء نيفاً وخمسين سنة ويقال إنه عُمِّر حتى قارب التسعين ، ولم يسجل العماد ولاصُبْحُ الأعشى للقلقشندى شيئاً من نثره . وخلفه على ديوان الإنشاء ابنه محمد[2] بن محمد بن عبد الكريم ، وظل قائماً عليه حتى توفى بدوره سنة ٥٧٥ . وربما كان أهم من ولوا هذا الديوان في عهد الخليفة الناصر لدين الله يحيى[3] بن زبادة المتوفى سنة ٥٩٤ وقد أشاد به ابن خلكان ونوّه طويلاً قائلاً : «انتهت إليه المعرفة بأمور الكتابة والإنشاء والحساب مع مشاركته في الفقه وعلم الكلام والأصول وغير ذلك . . وخدم الديوان من صباه إلى أن توفى عدة خدمات ، وكان مليح العبارة في الإنشاء جيد الفكرة حلو الترصيع لطيف الإشارة ، وكان الغالب عليه في رسائله العناية بالمعاني أكثر من طلب التسجيع ، وله رسائل بليغة» . وقد احتفظ القلقشندى برسالة [4] له كتب بها عن الخليفة الناصر إلى الطواشى طغرل صاحب إقطاع البصرة : وقد بلغ الخليفة أنه نزح عنها مفارقاً لطاعته عندما طلب من ديوانه بعض المال ، وهو في الرسالة يحاول إثناءه عن خلع الطاعة ويذكر أن الخليفة سيتلقاه بالصفح والقبول ، وفيها يقول :

---

(١) انظر الخريدة (قسم العراق) ١٤٠/١ والمنتظم ٢٠٦/١٠ والنجوم الزاهرة ٣٦٤/٥ والشذرات ١٨٤/٤ .

(٢) انظره في الخريدة (قسم العراق) ١٤١/١ وابن الأثير في وفيات سنة ٥٧٥ .

(٣) انظر ترجمة ابن زبادة في معجم الأدباء ١٦/٢٠ وابن خلكان ٢٤٤/٦ ومرآة الجنان ٢٤٤/٦ والشذرات ٣١٨/٤ .

(٤) صبح الأعشى (طبع دار الكتب المصرية) ٢٦٩/٨ .

«ولولا أن الأيام صحائفُ العجائب ، ولا يأنس بمتجدِّداتها إلا من حنَّكته التجارب ، لم أصدِّق هذه الحركة ، وإنى ما أراها إلا عثرة من جواد وعورة على كماله ، وإلا فمن أين يدخل الزلل على ذلك الرأى السديد والعقل الراجح والفكر الصائب . . والفائتُ لا كلام فيه ، غير أن العقل يقضى باستدراك الممكن وتلافيه ، بالانحراف عن الهوى إلى الرأى الصادق ، والرجوع عن تأويل النفس إلى مراجعة الفكر الناضج» .

وتمضى الرسالة على هذا النحو ، لا يدخل السجع فيها عن تكلف أو تعمل ، بل لا بأس بما يأتى منه عفواً دون تعمد الإتيان به ومحاولة جَلْبه مع كل عبارة وصيغة . وأكبر الظن أن ابن زبادة كان شذوذاً بين كتاب الإنشاء قبله وبعده ، فقد كانوا غرقى فى السجع ومحسنات البديع إلى آذانهم . ولم نعرض للعماد الأصبهانى ، وكان كاتباً بليغاً ، لأن حياته الأدبية إنما تتكامل له فى ظل نور الدين وصلاح الدين ، إذ عمل فى دواوينهما ، فحرى أن يوضع بين كتاب الرسائل الديوانية فى الشام ومصر ، مع من عاشوا فى ظل هذين البطلين العظيمين . ونمضى إلى أيام المغول ويلقانا عطا ملك الجُوَيْنى المتوفى سنة ٦٨١ وكان رئيس الديوان ببغداد ، وقد اهتم به ، فوظَّف فيه طائفة من الكتاب المجيدين ، منهم بهاء[(١)] الدين الإربلى المتوفى سنة ٦٩٢ وشرف[(٢)] الدين على بن أميران المتوفى سنة ٦٩٣ . ويلقانا فى صبح الأعشى كاتبان يكتب كل منهما رسالة باسم بوكدار بن هولاكو الذى مرَّ بنا فى الفصل الأول أنه أسلم فى سنة ٦٨١ وحَسُن إسلامه ، وتسمَّى باسم أحمد . أما الرسالة الأولى فكتبها الفخر بن عيسى الموصلى عن السلطان أحمد إلى الملك المنصور قلاوون صاحب الديار المصرية فى جمادى الأولى سنة ٦٨١ يخبره فيها بما أتمَّ الله عليه من نعمة الإسلام ، وهو يفتتحها على هذا النمط[(٣)] :

«إلى سلطان مصر ، أما بعد فإن الله سبحانه وتعالى بسابق عنايته ، ونور هدايته ، قد كان أرشدنا فى عُنْفوان الصِّبا ورَيْعان الحداثة إلى الإقرار بربوبيته ، والاعتراف بوحدانيته ، والشهادة لمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام بصدق نبوَّته ، وحسن الاعتقاد فى أوليائه الصالحين من عباده وبَرِيَّته (فمن يُرِدِ اللهُ أن يَهْدِيَه يَشْرَحْ صَدْرَه للإسلام) فلم نزل نميل إلى إعلاء كلمة الدين ، وإصلاح أمور الإسلام والمسلمين ، إلى أن أفضى إلينا بعد أبينا الجليل وأخينا الكبير نوبةُ الملك ، فأضفى علينا من جلابيب ألطافه ولطائفه ،

---

(١) انظر ترجمته فى فوات الوفيات ٢/١٣٤ وعند العزاوى ١/٢٥٩ .

(٢) راجعه فى الحوادث الجامعة (تحقيق مصطفى جواد – طبع بغداد) ص ٤٨٠ وعند العزاوى ١/٢٦٠ .

(٣) صبح الأعشى ٨/٦٥ .

ما حقَّق به آمالنا فى جزيل آلائه وعوارفه» .

وتمضى الرسالة بهذه الصورة من السجع والصياغة الجيدة . والرسالة مؤرَّخة بأواسط جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين وستمائة وكتب الرد فى رمضان سنة ٦٨١ ناصر[١] الدين شافع بن على بن عباس كاتب الإنشاء عن السلطان المنصور قلاوون . وقد ذكر السلطان أحمد بن هولاكو فى رسالته -كما هو واضح- إسلامه وأيضا أنه حرَّم على عساكره الغارات على البلاد ، وتقول الرسالة إن فى اتفاق السلاطين صلاح العالم . ومن كُتَّاب الإنشاء فى القرن الثامن يحيى[٢] بن عبد الرحمن الجَعْبَرِىّ الملقَّب بنظام الدين المتوفى سنة ٧٦٠ وكان يكتب عن السلطان بوسعيد (٧١٦ - ٧٣٦ هـ) . ويبدو أنه رحل إلى مصر ودمشق بعد وفاة السلطان ، ثم عاد إلى بغداد ، وأُعيد إلى وظيفته فى كتابة الإنشاء عن حكامها إلى وفاته . ويلقانا فى أواخر القرن التاسع الغياث[٣] البغدادى عبد الله بن فتح الله كاتب الإنشاء ببغداد ، ولا نعود نسمع عن كاتب مهم فى هذا العصر ، فسرعان ما دخلت العراق فى حكم الدولة العثمانية ، وكانت لاتهتم بديوان الإنشاء فى بغداد ، فضعف شأنه إلى أبعد حد . ولعل من الخير أن نتوقف قليلاً عند أهم كتاب الدواوين فى العصر : أبى إسحاق الصابىء والعلاء بن الموصَلايا وضياء الدين بن الأثير .

أبو إسحاق[٤] الصابىء

هو إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زَهْرون الصابئ المكنى بأبى إسحاق ، أصل آبائه من حرّان ، وُلد ببغداد سنة نيف وعشرين وثلثمائة ، وبها نشأ وتثقف وتأدب ، ولزم فيها مواطنيه الحرَّانيين وأخذ ما عندهم من الطب والرياضة والهندسة وعلم الفلك ، ويقول القفطى : له مؤلف فى المثلثات . ويبدو أنه أحسَّ فى نفسه مبكراً بنزوع شديد نحو الأدب وأن يصبح من كتاب الدواوين ، فأخذ يكبّ على النصوص الشعرية والنثرية ، وحفظ القرآن الكريم ، وكان شاعراً ففُتحت له الأبواب وتعرَّف عليه الوزير المهلبى ، وأُعْجب به ، فاصطنعه لنفسه ، وأحضره مجالس أُنْسه ، ولم يلبث أن قلَّده ديوان الرسائل سنة ٣٤٩

---

(١) صبح الأعشى ٧ / ٢٣٧ .

(٢) ترجمته فى الدرر الكامنة لابن حجر ٥/١٩٢ .

(٣) العزاوى ١ / ٢٧٧ .

(٤) انظر فى ترجمة الصابئ اليتيمة ٢/٢٤١ وما بعدها ومعجم الأدباء ٢/٢٠ وابن خلكان ١/٥٢ ، ٤٤٥ وصوان الحكمة ص ٣٤٢ وتاريخ الحكماء للقفطى ص ٧٥ والشذرات ٣/١٠٦ والإمتاع والمؤانسة ١/٦٨ والمقابسات لأبى حيان (انظر الفهرس) وصبح الأعشى ٦/٤٨٣ و١٤/٣٦٠ (راجع الفهرس) وكتابنا الفن ومذاهبه فى النثر العربى (الطبعة الثامنة) ص ٢١٧ .

حتى إذا توفِّى المهلبى سنة ٣٥٢ وصادر معز الدولة البويهى أمواله قبض على أبى إسحاق الصابئ فيمن قبض عليه من أصحابه وخلصائه . واستعطف معز الدولة بقصائد جعلته يعفو عنه ويعيده إلى عمله فى ديوان الرسائل . وظل قائماً عليه طوال عهد ابنه عز الدولة بَخْتيار ، وكان قد نشب خلاف بينه وبين ابن عمه عضد الدولة البويهى ، وكان الصابئ فى أثناء ذلك يكتب باسمه مكاتبات إلىٰ عضد الدولة تؤلمه ، وحدث أن تقرَّر الصلح بينهما ذات مرة ، فطلب بختيار إلى الصابئ أن يكتب نسخة يمين يستوفى فيه الشروط على عضد الدولة حق الاستيفاء ، ولم يجد عضد الدولة حينذاك بُدًّا من حَلِف اليمين ، وعرف أن أبا اسحاق الصابئ كاتبه ، فحقد ذلك عليه . وتطورت الظروف ، ونشبت حرب بين بَخْتِيار وعضد الدولة سنة ٣٦٧ وسقط بختيار فى ميدانها صريعاً واستولى عضد الدولة على بغداد والعراق . وسرعان ما اعتقل الصابئ وزجَّ به فى غياهب السجون . ومازال بعض كبار رجال الدولة يشفعون له ، فقال عضد الدولة : ليصنفْ كتاباً فى أخبار آل بويه ، فأخذ فى تصنيف كتاب « التاجى » وهو فى السجن ، ونُقل إلى عضد الدولة أنه سُئل عما يصنع ، فقال : أباطيل أنمِّقها وأكاذيب ألفِّقها ، فحنق عليه حنقاً شديداً ، وصمم أن يرميه تحت أرجل الفيلة لِيُقْتَلَ أشنع قتلة ، وعاد كبار رجال الدولة يتشفعون له ، فعفا عنه إلا أنه ظل مبعداً فى أيامه . حتى إذا توفى عضد الدولة سنة ٣٧٢ عاد إلى تولى ديوان الإنشاء وظل يليه إلى وفاته سنة ٣٨٤ . وقالوا إنه كان يتولى نقابة الصابئة فى بغداد وإنه كان شديد الإيمان بدينه الوثنى ، وحاول عز الدولة مراراً أن يدخله فى الدين الحنيف فكان يعتذر . وكان يصوم شهر رمضان مع المسلمين . وظل الحكام البويهيون ووزراؤهم يرتضون أن يكون على رأس الديوان أحد الصابئة عبدة الكواكب والنجوم ، وكأنهم تسامحوا معه لتفوقه فى الكتابة ، يقول الثعالبى إنه « أوحد العراق فى البلاغة ومَنْ به تُثْنَى الخناصر فى الكتابة ، وتتفق الشهادات له ببلوغ الغاية فى البراعة والصناعة » ويقول أبو حيان التوحيدى : « نظمه منثوره ، ومنثوره منظومه ، إنما هو ذهب إبريز كيفما سُبك فهو واحد . وله فنون من الكلام ما سبقه إليها أحد ، وما ماثله فيها إنسان » وقد نشر شكيب أرسلان مختارات من رسائله بلبنان فى مجلدين ، وهى مطبوعة بطوابع السجع والمحسنات البديعية ، وفيها يقتبس كثيراً من آى القرآن الكريم ، ويضمنها أحياناً بعض الأحاديث النبوية وبعض الأشعار القديمة والحديثة ، وكان يطيل فى التحميدات أول الرسائل حتى ليظن قارؤه أنه من جِلَّة المسلمين ، كقوله فى مطلع إحدى رسائله :

« الحمد لله العلىّ العظيم ، الأزلى القديم ، المتفرد بالكبرياء والملكوت ، المتوحد

بالعظمة والجبروت ، الذى لا تحدُّه الصفاتُ ، ولا تحوزه الجهات ، ولا تحصرُه قرارة مكان ، ولا يغيِّره مرور زمان ، ولا تتمثَّله العيون بنواظرها ، ولا تتخيَّله القلوب بخواطرها ، فاطر السموات وما تظلّ ، وخالق الأرض وما تُقِلّ » .

وهو يستمر فى هذا التحميد طويلاً ، ولولم نعرف أن الصابئ كاتبه لظنناه أحد الكتاب المسلمين المثقفين بثقافة الاعتزال ، المؤمنين بوحدانية الله وتنزيهه عن الشبه بالمخلوقات ، فلا يحصره مكان ولا زمان ولا تحده جهات ولا صفات ، إذ ليس بجسم ولا عرض ، فالعيون لا تتمثله والخواطر لا تتخيله ، مبدع السموات والأرض . وفى هذه السطور من التحميد ما يوضح قدرته على السجع ، وهو لا يكتفى فيه بالروى الذى يجمع بين نهايتى السجعتين ، بل يحاول أن يوازن بين ألفاظ كل سجعتين فى عدد حروفها وحركاتها وسكناتها ، وكأن الرسالة صفوف موسيقية متقابلة ، فكلمة « العلى العظيم » يليها « الأزلى القديم » وكلمة « المتفرد بالكبرياء والملكوت » يليها « المتوحد بالعظمة والجبروت » وتتوالى السجعات ، فكل سجعة تسمع فى تاليتها جرسها الموسيقى ، مع المهارة فى اصطفاء الألفاظ . واقرأ له هذه القطعة من رسالة على لسان عز الدولة . . حاول فيها أن يستعطف عضد الدولة وأن يرده إلى ما بينهما من صلة الرَّحِم :

« إن من أعظم محن هذا البيت أن تزول منابت فروعه عن منابت أصوله ، وأن تُؤْتَى مراسى أوتاده من ذوائب عروشه ، وأن تدبَّ بينهم عقارب المشاحنة ، وتسرى إليهم أراقم المناقشة ، وتنبثّ الدواهى فيهم من ذاتهم ، وقد كانت محسومة من أضدادهم وعداتهم » .

وإنما تمثلنا بهذه القطعة لنشير إلى أنه كان فى أحيان قليلة لا يلتزم السجع بين كل عبارة وتاليتها ، ومع ذلك كان يلتزم فيها الموازنة الصوتية الدقيقة بين كلمات الصيغتين المتجاورتين حتى يتلافى ما نقصها من تماثل الروى فى نهايتها . ومرَّ بنا أن أبا حيان أشار إلى أن له فنوناً من الكلام لم يسبقه إليها أحد ، ولعله يشير بذلك إلى بعض رسائل هزلية له ، وهى ليست رسائل سلطانية ولا إخوانية جادة ، إنما هى رسائل أراد بها إلى الإضحاك وإدخال شىء من السرور والسعادة على قارئه ، من ذلك رسالة رواها ابن خلكان كتبها ردًّا على رقعة وصلت إليه من شخص ، كان أهدى إليه جَمَلاً ، وذكر ذلك فى رقعته ، وفيها يقول :

« ذكرت حَمَلاً (كبشاً) جعلته جملاً ، . . فلما أن حضر رأيت كبشاً متقادم الميلاد ، من نتاج قوم عاد ، قد أفنته الدهور ، وتعاقبت عليه العصور . فبانت دمامته ، وقصرت قامته ، وعاد ناحلاً ضئيلاً ، باليا هزيلا ، بادىَ الأسقام ، عارىَ العظام . . لا تجد فوق عظامه سلباً ، ولا تلقى يدك منه إلا خشباً ، قد طال للكلإ فقده ، وبَعُدَ بالمرعى عهده ،

لم ير القتّ إلا نائماً ، ولا الشّعير إلا حالما . . وقلت أذبحه ليكون وظيفة للعيال . . فأنشدنى وقد أُضرمت النار ، وحُدَّت الشِّفار :

أُعيذها نظراتٍ منك صادقةً أن تحسب الشَّحْمَ فيمن شَحْمُهُ وَرَمُ[1]

ثم قال : وما الفائدة من ذبحى ، ولست بذى لحم فأصلح للأكل لأن الدهر قد أكل لحمى ، ولا ذى جلد يصلح للدِّباغ لأن الأيام قد مزقت أَدَمى ، ولاذى صوف يصلح للغزل لأن الحوادث قد حَصَّت (أذهبت) وَبَرى » .

وليست الفكاهة شيئاً سهلاً ، فقليلون هم الذين يحملون هذه الروح ، وهى تدل على ظرفه وأنه كان لطيف المحضر حلو الحديث ، ولذلك قرب من نفوس معاصريه . وسجعه فى هذه الرسالة التى يجدر بنا أن ندخلها فى حيز الرسائل الأدبية مكتمل الأداء الموسيقى ، وهو قصير قصراً تَسْرى فيه العذوبة والرشاقة . وقد تطول السجعة كما فى السجعات الثلاث الأخيرة ، ولكنه يحتال عليها باكتمال الملاءمة الصوتية بين كلمات كل سجعة وتاليتها وكأننا بإزاء معادلات موسيقية تامة . وللصابئ رسالة أدبية هزلية أخرى تحتل فى الجزء الرابع عشر من صبح الأعشى ست[2] صفحات كبيرة، وهى صورة عهد بالتطفل كتبه على لسان متطفل بغدادى كبير فى عصره كان يسمى عَلَيْكا إلى متطفل ناشئ ، يسمى على بن عُرْس الموصلى ، وهو يستهله بأن عليكا عهد إلى تلميذه بإحياء سُنَنه وحفظ رسومه من التطفل على أهل بغداد وما يتصل بها من أَرْباضها (ضواحيها) وأكنافها فى سوادها وأطرافها لما توسَّمه فيه من قلة الحياء ، وشدة اللقاء ، وكثرة اللَّقْم ، وجودة الهضم ، ويأخذ فى سرد وصاياه فى شكل أوامر وفرائض يجب أن يتَّبعها ابن عرس ، من ذلك أنه :

«أمره أن يعتمد موائد الكبراء والعظماء بغزاياه ، وسُمُطَ الأمراء والوزراء بسَراياه . . وأمره أن يتبع ما يعرض لموسرى التجّار ، ومجهِّزى الأمصار ، من بنيان الدار ، والعُرْس والإعذار (الختان) . . وربما صَبروا على تطفيل المتطفلين ، وأَغْضَوْا على تهجم الواغلين (الممعنين فى التطفل) ليتحدَّثوا بذلك فى محافلهم الرَّذْلة ، ويعدُّوه فى مكارم أخلاقهم النَّذْلة . . وأمره أن يصادق قَهارمة الدور ومدبِّريها ، ويرافق وكلاء المطابخ وحَمَّاليها ، فإنهم يملكون من أصحابهم أزمَّة مطاعمهم ومشاربهم ، ويضعونها بحيث يحبون من أهل مودّاتهم ومعارفهم . . وأمره أن يتعهد أسواق المسوِّقين ، ومواسم المتبايعين ، فإذا رأى

---

(١) البيت للمتنبى من قصيدته التى عاتب فيها سيف الدولة الحمدانى . والضمير فى أعيذها يعود إلى نظرات يقول له : أعيذ نظراتك البصيرة أن تخدعك فلا تفرق بين شاعرك وغيره من حاسديه الذين يتظاهرون لك بمثل مودته تمويها وخداعا .

(٢) صبح الأعشى ٣٦٠/١٤ .

وظيفةً قد زيد فيها ، وأطعمة قد احتشد مشتريها ، اتَّبعها إلى المَقْصِد بها ، وشيعها إلى المنزل الحاوى لها ، واستعلم ميقاتَ الدعوة . . وأمره أن ينصب الأرصاد على منازل المغنيات والمغنين ، فإذا أتاه خبر لجمع يضمهم ، ومأدُبةٍ تعمُّهم . . حَمل عليها حَمْلة الحوت الملتقم ، والثعبان الملتهم ، واللَّيْث الهاصر ، والعُقاب الكاسر . . وأمره أن يَرُوضَ نفسه ، ويغالط حِسَّه ، ويضرب عن كثير مما يلحقه صَفْحاً ، ويَطْوىَ دونه كَشْحاً ، فإن أتته اللَّكزَة فى حلقه ، صَبَر عليها فى الوصول إلى حقه ، وإن وقعت به الصَّفْعة فى راسه ، صَبر عليها لموقع أضراسه ، وإن لقيه لاق بالجفاء ، قابله باللطف والصفاء» .

والعهد بديع ، وهو يصور حياة المتطفلين المتسكعين ببغداد ، وكانت قد نشأت منهم طبقة كبيرة احترفت الأدب واتخذته وسيلة للشحاذة الأدبية ، وهم أهل الكُدْية ، وقد تحدثنا عنهم فى غير هذا الموضع مصورين كيف كانوا يتخذون الشعر الفكه لتصوير إفلاسهم وبؤسهم تصويراً يبعث السرور فى نفوس سامعيهم . ولا ريب فى أن أهل بغداد ظلوا يضحكون طويلاً كلما قرءوا عهد أبى إسحق الصابئ السالف أو تذكروه ، وسجعه فيه مكتمل الأداء الموسيقى ، سواء قصَّره أو طوَّله ، إذ يبغى به دائماً أن يلذَّ الآذان ، حين تنصت إليه لذة موسيقية بديعة .

العلاء [1] بن الموصَلايَا

هو أمين الدولة أبوسعد العلاء بن الحسن بن وهب بن الموصَلايا البغدادى ، ولد سنة ٤١٢ ببغداد وبها كان منشؤه ومرباه ، ونشأ نصرانيًّا ، وأقبل على دراسة الأدب وحفظ نصوصه من الشعر والنثر ، كما أقبل على حفظ القرآن الكريم حتى يعدَّ نفسه مثل أبى إسحاق الصابئ ليكون موظفاً بالدواوين ، وسرعان ما بهر الناس بأدبه ، ولم يلبث الخليفة القائم (٤٢٢-٤٦٧ هـ) أن جعله كاتب الإنشاء بدار الخلافة سنة ٤٣٢ وظلت له هذه الوظيفة فى عهد المقتدى (٤٦٧-٤٨٧) هـ) والمستظهر (٤٨٧-٥١٢هـ) حتى توفى سنة ٤٩٧ وبذلك شغلها خمسا وستين سنة . وأتم الله عليه فى أثناء ذلك نعمته ، فأسلم وحَسُنَ إسلامه ، واختلف من ترجموا له فى زمن إسلامه ، فالعماد الأصبهانى يقول إنه كان فى زمن القائم ، ويقول ابن خلكان إنه كان فى زمن المقتدى ويعين السنة بأنها كانت سنة ٤٨٤ .

(١) انظر فى ترجمته وما استشهدنا به من نصوصه الخريدة (قسم العراق) ١/١٢٣ والمنتظم ٩/١٤١ ونكت الهميان ص ٢٠١ والنجوم الزاهرة ٥/١٨٩ وابن خلكان ٣/٤٨٠ وصبح الأعشى ٦/٤٠٤، ٤١٥، ٤٥٣ ، ١٠/٣١ ، ٢٣٤ ، ٢٩٤ .

ونميل إلى الأخذ برأى العماد لأنه ظل طويلاً ببغداد . وقد كُفَّ بصر العلاء فى آخر حياته فكان ابن أخته هبة الله بن الحسن يكتب الرسائل عنه . وظل جاهه يزيد عند المقتدى كل يوم حتى ضَمَّ إلى رياسته لديوان الرسائل النيابة فى الوزارة وظل يضمها فى عهد المستظهر . ويقول العماد عنه : «كان بليغ الإنشاء ، سديد الآراء ، رسائله تعبر عن غزارة فضله ووفور علمه» ويقول الصفدى : «أحد الكتاب المعروفين الذين يُضْرَب بهم المثل» .

وقد احتفظ كتابُ صبح الأعشى للعلاء فى جزئه السادس بثلاث رسائل : رسالة بشارة بالنصر على البساسيرى فى منتصف القرن الخامس حين قضى عليه طُغْرُلْبك ، وهى موجهة من الخليفة القائم إلى صاحب غَزْنَة ، ورسالة ثانية موجهة من الخليفة القائم أيضاً إلى شخص عيَّنه وزيراً له ورسالة ثالثة موجهة منه إلى أتسز . وبالمثل احتفظ صبح الأعشى فى جزئه العاشر بثلاث رسائل أخرى ، أولاها عهد ليوسف بن تاشفين بسلطنة الأندلس وبلاد المغرب ، وهو موجه إليه من الخليفة القائم ، ومعروف أن يوسف ابن تاشفين إنما تسلطن على الأندلس فى سنة ٤٨٥ بعد وفاة القائم بنحو ثمانية عشر عاماً ، فإما أن يكون العهد خاصاً بسلطنته على بلاد المغرب ، وإما أن يكون موجهاً إلى يوسف من الخليفة المقتدى الذى تسلطن يوسف على الأندلس فى عهده أو من الخليفة المستظهر تاليه فى الخلافة منذ سنة ٤٨٧ والعهد طويل ، إذ يقع فى نحو أربع عشرة صفحة ، ويشتمل على عشرين آية قرآنية ، مما يدل بوضوح على حفظ ابن الموصلايا للقرآن وأنه كان يَقْبس من أضوائه فى رسائله مثل الصابئ . والرسالة الثانية موجهة من القائم إلى ابن جهير حين استوزره وأرَّخ القلقشندى الرسالة بسنة ٤٧٢ وكان القائم قد توفى منذ خمس سنوات ، ومعروف أن القائم استوزر ابن جهير مرتين : مرة سنة ٤٥٥ ومرة سنة ٤٦١ وظل فى الوزارة حتى توفى القائم ، وأقره الخليفة المقتدى على الوزارة سنين ، ثم عزله . وبذلك يكون التاريخ الذى أرخ به القلشندى هذه الرسالة الثانية غير دقيق . والرسالة الثالثة موجهة من القائم إلى جاثليق النصارى النسطوريين فى صورة عهد بحياطته هو وأهل ملته فى نفوسهم وأموالهم وبِيَعهم وديارهم ومقارّ صلاتهم ، على أن تؤخذ الجزية – وكانت أشبه بضريبة دفاع – من رجالهم ذوى القدرة دون النساء ومَنْ لم يبلغ الحُلم ، ولا تؤخذ إلا مرة واحدة فى السنة . والعهد يجعل الجاثليق النسطورى لا رئيساً للنساطرة المسيحيين الشرقيين فحسب ، بل أيضاً للروم واليعاقبة فى بغداد وسائر البلدان الإسلامية ، فهو بَطْرك النصارى العام . ويلفتنا فى العهد لابن تاشفين وفى الرسالة الموجهة إلى ابن جهير وكذلك فى الرسالة التى تبشر بالنصر على البساسيرى أن ابن الموصلايا يطيل

فى الحمد لله ، والصلاة على رسول الله ﷺ ، وتجرى الصلاة فى رسالة البساسيرى على هذا النمط :

« الحمد لله الذى اختص محمداً ﷺ برسالته وحَباه ، وأولاه من كرامته ما حاز له به الفضل وحَواه ، وبعثه على حين فَتْرة من الرسل ، وخَلاء من واضح السبل ، فجاهد بمن أطاعه مَنْ عصاه ، وبلغ فى الإرشاد أقصى غايته ومداه . . إلى أن دخل الناس فى الدين أفواجاً ، وسلكوا فى نُصْرته جَدَداً (طريقاً) واضحاً ومنهاجاً ، وغدتْ أنوار الشرع ضاحكة المباسم ، وآثار الشرك واهية الدعائم ، ومناهل الهدى عذبة صافية ، فصلَّى الله عليه وعلى آله الطاهرين وأصحابه المنتخَبين ، وخلفائه الأئمة الراشدين ، وسلَّم تسليماً » .

ولعلى لا أخطئ إذا قلت إنه أسلم مبكراً على الأقل فى منتصف القرن الخامس حين كُتبت هذه الصلاة فى رسالة البساسيرى لا كما ذهب ابن خلكان إلى أنه أسلم سنة ٤٨٤ . وواضح أن السجع كان يسيل على قلمه ، وكان يعنى فيه باصطفاء ألفاظه وأن تروع بجرسها الأسماع على نحو ما نرى فى الفقرة التالية من عهد يوسف بن تاشفين :

« وأمره الخليفة أن يعدل فى الرَّعايا قِبَله ، ويُحلِّهم من الأمن هِضابه وقُلَله ، ويمنحهم من الاشتمال ، ما يحمى به أمورهم من الاختلال . . ويُضفى على المسلم منهم والمعاهَد (الذمىّ) من ظل رعايته ما يساوى فيه بين القوى والضعيف ، ويُلحق التليدَ منهم بالطريف ، ليكون الكل وادعين فى كنف الصَّوْن ، راجعين إلى الله تعالى فى إمدادهم بالتوفيق وحُسْن الطاعة والعَوْن ، وأن ينظر فى مظالمهم نظراً ينصر الحق فيه ، وينشر عَلَمَ العدل فى مطاويه . . مُلِيناً لهم فى ذلك جانبه ، ومُبِيناً ما يظل به كاسبَ الأجر وجالبَه ، جامعاً لهم بين العدل والإحسان ، وجاعلا أمر الله تعالى فى ذلك متلقًّى بالطاعة الواضحةِ الدليلِ والبرهان ، قال الله تعالى : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاءِ ذى القُرْبى ويَنْهَى عن الفحشاء والمنكر والبَغْى يعظكم لعلكم تذكَّرون) .

وهو يلتزم السجع على هذا النحو فى رسائله ، محاولاً بكل ما استطاع أن يصفِّى ألفاظه من الشوائب ، ويخليها من جميع الأدران حتى تروق السامع ، وحتى يبلغ من التأثير فيه كل ما يريد ، وهو يستتم تأثيره بما يختم به فقره فى هذا العهد وفى غيره من رسائله بما يورد من آيات الذكر الحكيم التى تضىء بأشعتها الكلام وتجذب إليه القلوب والأفئدة .

ضياء[1] الدين بن الأثير

هو ضياء الدين نصر الله بن محمد الشيبانى المعروف بابن الأثير الجزرى ، ولد بجزيرة ابن عمر شمالى العراق سنة ٥٥٨ لأسرة تُعْنَى بعلوم الشريعة واللغة ، ووجهه أبوه لحفظ القرآن الكريم ، وفرّغه للدراسة كما فرّغ أخويه : المبارك وعز الدين صاحب كتاب الكامل فى التاريخ . وانتقل ضياء الدين مع أبيه إلى الموصل سنة ٥٧٩ وفيها أتمَّ دراسته للعلوم الإسلامية واللغوية والبلاغية ، وأكبَّ على حفظ الأحاديث النبوية والأشعار القديمة والحديثة وخاصة أشعار أبى تمام والبحترى والمتنبى . ولما أحسّ أنه كملت له أدواته فى الكتابة قصد صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٨٧ ووصله به القاضى الفاضل وزيره ، فعمل فى دواوينه نحو أربعة أشهر ، ثم طلبه الأفضل نور الدين من أبيه صلاح الدين ، ولبَّى طلب ابنه ، فانتقل إلى العمل معه بنفس راتبه ، واتخذه لنفسه مستشاراً ووزيراً . وتوفِّى صلاح الدين ، فصارت دمشق للأفضل ، وكلَّف ضياء الدين بتدبير شئونها ، فأساء التدبير والمعاملة مع أهلها ، حتى هَمُّوا بقتله . وتتطور الظروف ويصبح الأفضل سلطانا على مصر ، فيلحق به سرًّا فى صندوق مقفل عليه خوفاً من الدمشقيين أن يقتلوه . ويظل نور الدين فى مصر عاماً ويأخذها منه عمه العادل ويعوِّضه منها قلعة على الفرات تسمى سُمَيْسَاط . ويخرج ضياء الدين وراءه مستتراً إلى ولايته الجديدة ، ويقيم عنده مدة ، ثم يفارقه إلى غير مآب فى سنة ٦٠٧ ويرحل إلى أخيه السلطان الظاهر صاحب حلب ، ولا يطول مقامه عنده ، فيولى وجهه نحو الموصل ، ولا تستقيم حاله ، ويفارقها إلى إربل سنة ٦١١ ولا يستقر بها ، بل سرعان ما يخرج منها إلى الموصل ، وبها يلقى عصاه منذ سنة ٦١٨ إذ يصبح كاتب الإنشاء لصاحبها ناصر الدين محمود حتى نهاية حياته ، ويحدث أن يرسله فى سنة ٦٣٧ إلى بغداد فى بعض المهام ، فيدركه بها الموت .

وحَظِىَ ضياء الدين عند الأسلاف بشهرة عظيمة لروعة أسلوبه فى رسائله ويقول ابن خلكان إنها كانت تشغل مجلدات ، والمختار منها – كما يقول – مجلد واحد . وربما كان أهم منها فى سبب شهرته كتابه : «المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر» وفيه صوَّر الصناعة اللفظية وما يتصل بها من المحسنات البديعية ، والصناعةَ المعنوية وما يتصل بها من

---

(١) انظر فى ضياء الدين وترجمته ابن خلكان ٥/ ٣٨٩ والحوادث الجامعة (طبع بغداد) ١٣٦ وعبر الذهبى ٥ / ١٥٦ ومرآة الجنان ٤ / ٩٧ والنجوم الزاهرة ٦ / ٣١٨ والشذرات ٥ / ١٨٧ وانظر كتابنا : البلاغة : تطور وتاريخ (طبع دار المعارف) ص ٣٢٣ .

صور البيان ، موضحاً توضيحاً تامًّا ما يحتاج الكاتب إلى العكوف عليه واستيعابه وتمثله من العلوم اللغوية والبلاغية والأشعار وأمثال العرب وحفظ القرآن الكريم والحديث النبوى مع معرفة الأحكام السلطانية وخاصة أحكام الخلافة والولايات وما يتصل بذلك من الفقه . وبلغ من إعجاب بعض الأسلاف بالكتاب أن قالوا : «إن المثل السائر للنظم والنثر بمنزلة أصول الفقه لاستنباط أدلة الأحكام» . وله بجانبه كتب أخرى ، منها كتاب الوشى المرقوم فى حَلِّ المنظوم ، وقد أفرد فيه فصلين لبيان الاستعانة بآيات القرآن الكريم والحديث النبوى فى الرسائل .

وكتاب المثل السائر يضع تحت أعيننا طريقته وخصائصه فى رسائله الديوانية ، وهو يُعْنَى فيها قبل كل شيء بالسجع وتوشيته بالصور البيانية والمحسنات البديعية ، مع نثر ألفاظ القرآن الكريم والحديث النبوى فيها وَحلِّ أبيات الشعر . وعادة يسوق فى الكتاب أمثلة كثيرة من كتاباته يصور بها جوانب من صناعته فى رسائله ، من ذلك استيحاؤه آيات سور الرعد والذاريات والصافات ، وهى : (اللهُ الذى رفَع السَّموات بغير عَمَدٍ ترونها) (وفى السماءِ رِزْقُكم وماتوعدون) (وحفظاً من كل شيطان ماردٍ لا يَسَّمَّعون إلى الملأ الأعلى ويُقْذَفون من كل جانب) إذ يقول فى إحدى رسائله واصفاً غبار الحرب :

«وعَقَد العَجاجُ[1] شَفقاً فانعقد ، وأرانا كيف رَفْعُ السماء بغير عَمد ، غير أنها سماء بُنيت بسنابك الجياد ، وزُيِّنت بنجوم الصِّعاد[2] ، ففيها ما يُوعَدُ من المنايا لا ما يوعد من الأرزاق ، ومنها تُقْذَفَ شياطين الحرب لا شياطين الاستراق» .

ويعرض علينا أمثلة مِن اقتباسه للحديث النبوى وألفاظه فى رسائله ، فمن ذلك ما رُوى عن الرسول عليه السلام من أنه فى غزوة حُنَيْن أخذ قَبْضة من التراب وألقاها فى وجوه الكفار قائلاً : «شاهت الوجوه» . ونقل ذلك ابن الأثير إلى إحدى رسائله واصفاً الانتصار على العدو وسحق جنوده قائلاً :« أخذنا بسنة رسول الله ﷺ فى النصر الذى نرجوه ، ونبذنا فى وجه العدو كفًّا من التراب ، وقلنا : شاهت الوجوه» . ويورد ضياء الدين أمثلة كثيرة من حله للأشعار ، من ذلك بيت المتنبى الذى يصف فيه استنقاذ سيف الدولة لقلعة الحَدث من الروم وتجديد بنائها وتمزيق العدو شر ممزَّق ، إذ يقول :

وكانَ بها مثلُ الجنونِ فأصبحتْ ومِنْ جُثَثِ القَتْلَى عليها تَمائِمُ

وقد نثره ضياء الدين فى وصف معركة مماثلة قائلا : «وكأنما كان بالبلدة جنون ، فبعث لها من عزائمه عزائم ، وعلّق عليها من رءوس القتلى تمائم» . ومن ذلك بيت البحترى :

(١) العجاج : الغبار. (٢) الصعاد : الرماح.

سُلبوا وأشرقتِ الدماءُ عليهمُ محمَّرةً فكأنهم لم يُسْلَبُوا

فقد نثره فى فصل من جملة رسالة تتضمن البشرى بهزيمة الكفار ومحقهم محقاً لم يُبْق منهم ولم يَذر . والفصل يجرى على هذا النمط :

« سُلبوا وعاضتهم الدماءُ عن اللِّباس ، فهم فى صورة عارٍ وزيُّهم زِىُّ كاس ، وما أسرع ما خيط لهم لباسُها المحمّر ، غير أنه لم يُجَيَّبْ[1] عليهم ولم يُزَرّ ، وما لبسوه حتى لبس الإسلام شعار النصر ، الباقى على الدهر ، وهو شعار نسجه السِّنان الخارق ، لا الصَّنَعُ الحاذق ، ولم يَغِب عن لابسه إلا ريثما غابت البِيض[2] فى الطُّلَى والهام[3] ، وألَّف الطَّعْنُ بين ألف الخط واللام » .

والفصل يدل على مهارة ضياء الدين فى السجع ، وهى مهارة كتب بها مجلدات ، كما أسلفنا من الرسائل الديوانية . ونراه فى المثل السائر يحمل على الأسجاع الغثة التى تحيل الكلام رصفاً لألفاظ وحَشْداً لكلمات دون أن تحمل شيئاً من المعانى الطريفة المبتكرة ، بحيث لا يلذ السجع الفكر كما لا يلذ السمع .

وينوه ابن خلكان ببعض صوره واستعاراته فى أسجاعه ، ويضرب لذلك بعض الأمثلة ، منها قوله فى وصف النيل وقت زيادته وفيضانه فى رسالة من رسائله : « وعَذُبَ رُضَابُه فضاهى جَنَا النَّحْل[4] ، واحمرَّ صَفيحه فعلمتُ أنه قتَل المَحْل[5] » . ويقول ابن خلكان : « وهذا بديع غريب نهاية فى الحسن ، ولم أقف لغيره على أسلوبه » . وضياء الدين يشير به إلى طمى النيل ، وكأنه فى رأيه دماء الجدب ، وهى حقاً صورة رائعة . وجعلته عنايته بالمعانى والصور المبتكرة يؤلف كتابه « المعانى المخترعة فى صناعة الإنشاء » كما جعلته عنايته بحل الشعر والاقتباس من آيات القرآن والأحاديث النبوية يؤلف كتابه : « الوشى المرقوم » .

وفى الحق أن ضياء الدين بن الأثير كان من الكتاب المجيدين ، ولم تحظ العراق بعده بكاتب ديوانى على مثاله أو مثال أنداده السابقين . وحرى بنا أن نترك كتاب الدواوين إلى أدباء العصر النابهين : أبى حيان التوحيدى ، وابن مسكويه ، والحريرى .

---

(١) جيب الثوب : جعل له جيباً وهو فتحته العليا .

(٢) البيض : السيوف .

(٣) الطلى : الأعناق ، والهام : الرءوس .

(٤) الرضاب : الريق ورغوة العسل . جنا النحل : عسله .

(٥) المحل : الجدب .

٣

أبو حيان [1] التَّوْحِيدىّ

هو أبو حيان على بن محمد بن العباس التَّوْحِيدىّ ، وقد اختُلف فى مسقط رأسه وتاريخ مولده ووفاته ، فقيل مسقط رأسه شيراز بفارس ، وقيل نيسابور بخراسان ، وقيل واسط بجنوبى العراق ، وقيل بغداد ، وهو القول الراجح فى رأينا ، إذ ذكر كثير من مترجميه أن أباه كان يبيع نوعا من التمر ببغداد يعرف باسم التوحيدِ ، وعليه حَمل شُرّاح المتنبى قوله :

يترشَّفن من فمى رشفاتٍ هنَّ فيه أَحْلَى من التوحيدِ

وكأنه هو وأباه نُسبا إلى هذا التمر . وخطأ ما ذهب إليه ابن حجَر وغيره ممن ترجموا له من أن نسبته إلى التوحيد تعنى أنه من أهل العدل والتوحيد أى من المعتزلة ، إذ القدماء لا ينْسُبون إليهم هذه النسبة ، وإنما يقولون هذا معتزلى وذاك غير معتزلى ، وسنرى عما قليل أبا حيان من ألد خصومهم وخصوم المتكلمين عامة ، فليس بصحيح أنه منهم ولا أنه منسوب إليهم ، إنما هو ابن بائع متجول ببغداد كان يبيع تمر التوحيد . وفى هذا ما يشير بوضوح إلى أنه كان بغداديا ومن أسرة متواضعة . وتاريخ مولده بالدقة غير معروف ، إنما يعرف بالتقريب ، إذ روى ياقوت رسالة له مؤرخة بشهر رمضان سنة ٤٠٠ ذكر فيها أنه فى عشر التسعين ، وإذن فيغلب أن يكون مولده فى العقد الثانى من القرن الرابع بين سنتى ٣١٠ و ٣٢٠ . ويقال إنه فى السنة المذكورة كان قد ألقى عصاه فى شيراز وظل بها حتى توفى ، ويتأخر بعض مترجميه بوفاته إلى سنة ٤١٤ . وليس فى المصادر القديمة نص على جنسيته أو على أصله ، واختلف المعاصرون من قائل إنه فارسى ، ومن قائل إنه عربى ، ويرجح عروبته اعترافه – كما جاء فى ترجمه ياقوت له – بأنه لم يكن يعرف الفارسية ، وكرَّر ما يشير

(١) انظر فى أبى حيان وترجمته معجم الأدباء ١٥/٥ وابن خلكان ٥/١١٢ وشد الإزار لمعين الدين الشيرازى ٥٣ والمنتظم ٨/١٨٥ والسبكى ٥/٢٨٦ وتهذيب الأسماء واللغات ٢/٢٢٣ وميزان الاعتدال للذهبى ٢/٣٥٥ ، ٤/٥١٨ ولسان الميزان لابن حجر ٦/٣٦٩ وروضات الجنات ٧١٤ وكتبت عنه فى العصر الحاضر مؤلفات وبحوث كثيرة لعبد الرزاق محيى الدين وإحسان عباس وزكريا إبراهيم ومحمد كرد على فى الجزء الثامن من مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق وأحمد أمين فى تقديمه لكتاب الهوامل والشوامل وزكى مبارك فى كتابه النثر الفنى وإبراهيم الكيلانى فى مقدمتيه لثلاث رسائل ولكتاب مثالب الوزيرين ومحمد توفيق حسين فى تقديمه لكتاب المقايسات وبروكلمان ٤/٣٣٥ ودائرة المعارف الإسلامية .

إلى ذلك فى المقابسة الثانية من كتابه «المقابسات» وفى المسألة الرابعة والثلاثين من كتابه «الهوامل والشوامل» . وأيضاً فإنه يدافع عن العرب بقوة – دفاع العربى الأصيل – ضد الشعوبيين من معاصريه أمثال الجَيْهانى ، ويرفعهم مكاناً عَلِيًّا ، كما يرفع لغتهم على كل اللغات لبيانها الرائع على نحو ما يلقانا فى الليلة السادسة من ليالى كتاب الإمتاع والمؤانسة .

وليس بين أيدينا شيء واضح عن طفولة أبى حيان ومَرْباه ومنشئه ، وطبيعى أن تكون طفولته عادية وأن يختلف إلى الكتَّاب مثل لداته يحفظ القرآن الكريم والشعر ويتعلم الخط والحساب ، وأكبر الظن أن أباه لاحظ فيه مخايل ذكاء منذ نعومة أظفاره ، مما جعله يدفعه إلى حلقات العلماء فى المساجد ، وكانت مفتوحة ومهيَّأة لكل من أراد لونا من ألوان المعرفة . ويذكر أبو حيان طائفة كبيرة من أساتذته فى كتاباته ، منهم فى النحو واللغة أبو سعيد السيرافى المتوفى سنة ٣٦٨ وفى البلاغة والبيان على بن عيسى الرمانى المتوفى سنة ٣٨٦ وفى الفقه أبو حامد المرو رُّوذى المتوفى سنة ٣٦٢ وفى الحديث أبو بكر الشافعى صاحب الغيلانيات المتوفى سنة ٣٥٤ ، وفى التصوف جعفر الخُلْدى تلميذ الجنيد المتوفى سنة ٣٤٨ وفى الفلسفة وعلوم الأوائل يحيى بن عدى تلميذ الفارابى المتوفى سنة ٣٦٣ وأبو سليمان المنطقى السجتانى الذى مرَّ ذكره ، وقد تعرَّف به فى مجلس يحيى بن عدى وانعقدت بينهما صداقة وثيقة ، حتى إذا استقل أبو سليمان بندوة أو مجلس كمجلس يحيى بن عدى أصبح أبو حيان من رُوَّاده ، بل من ملازميه ومسجِّلى ما يدور بحضرته . وكان من أكبر الأسباب فى اتساع ثقافته وأنها شملت كل علم وفن احترافه الوراقة أو نَسْخ الكتب بالأجرة للناس ، فقد قرأ وكتب بيده كثيراً من الكتب فى كل فن وفى كل علم ، وانطبع كثير مما كتبه فى ذهنه وحافظته سواء أكان نثراً أو شعراً . واشتهر بشغفه بكتب الجاحظ وتوفره على تصحيحها وخاصة كتاب الحيوان ، فكان ما يكتبه منه يُعَدّ نسخاً نفيسة فى عصره ويُدِرُّ عليه مكافأة جزيلة ، كما جاء فى مقدمة كتاب الإمتاع والمؤانسة ، بل لا شك فى أن كل ما كان يكتبه كان يُجْزَى عليه الجزاء الحسن .

وتظل حياة أبى حيان مجهولة لنا حتى أوائل العقد السادس من القرن ، إلا ما نعرفه عنه من أنه كان ورَّاقا ، يعيش من نسخ الكتب ، ونراه يذهب إلى الحج فى سنة ٣٥٣ ويتعرف فى مكة على جماعة من الصوفية ، منهم ابن الجلاَّء والحرَّانى ، وفى كتاباته روايات وأخبار نسبها إليهما . وعاد إلى بغداد فى سنة ٣٥٤ والتقى فيها ببعض المتصوفة . ويبدو أنه أنس فى نفسه شيئا من القدرة الأدبية ، فرأى أن يقصد إلى ابن العميد فى الرَّىّ لعله يجد لنفسه عملا عنده ، أو لعله يوصى به أولى الأمر فى خراسان . ويظل بعيداً عن بغداد منذ سنة

٣٥٥ حتى سنة٣٥٨ إذ عاد إليها خالى الوفاض بعد أن طال وقوفه بباب ابن العميد . وكان تعرَّف فى هذه الرحلة الطويلة إلى ابن مسكويه وبعلم من أعلام الهندسة والرياضة هو أبو الوفاء المهندس . وطبيعى أن يعود أبو حيان إلى عمله فى الوراقة ونسخ الكتب .

ويحدث فى سنة ٣٦٣ أن تشتد مظالم الدولة للرعية بما ترهقها به من الضرائب وأن تثور الطبقات البائسة المحرومة ، واستفحل أمر العيَّارين وسيطروا على بغداد ونهبوا كثيرا من الدور خاصة دور الأغنياء ، وكان مما نهبوه دار التوحيدىّ ، فقد أخذوا كل ما كان بها من ذهب وثياب وأثاث وكل ما كان جمعه منذ أيام صباه كما يقول هو نفسه فى الجزء الثالث من كتابه الإمتاع . ولعل هذا ما جعله يهاجم العيَّارين لا فى هذا الكتاب وحده ، بل أيضا فى كتاب الصداقة والصديق ، بل إنه يهاجم العامة جميعا حتى يقول فى الليلة السادسة عشرة من كتاب الإمتاع : « طلب الرفعة بينهم ضَعَةٌ والتشبه بهم نقيصة » . وهو استعلاء غريب على العامة من رجل أُسْرَته منهم ونشأ بينهم . وأهم من ذلك أنه يعترف بما أكسبته الوراقة من ذهب وثياب وأثاث ، ومع ذلك نراه هاجيا لهذه المهنة أشد الهجاء ثالبا لها أشد الثلب حتى ليسميها « حرفة الشؤم » . وهو يضيف إلى ذلك شكوى مرة من البؤس ، مما جعل كل من كتبوا عنه فى هذا العصر يَرْثون لبؤسه وفقره ، معللين ذلك بأنه كان يعيش على الوراقة ، مع أنه كان يعيش منها فى عصره بعض كبار العلماء دون شعور بالبؤس ، بل كان منهم من يكتفى بالقليل مما ينسخ فى حدود حاجته على نحو ما يَرْوِى ياقوت فى ترجمته للسيرافى أستاذ أبى حيان فى النحو واللغة من أنه كان لا يخرج إلى مجلسه فى القضاء بين الناس أو فى محاضرة طلابه حتى ينسخ عشر ورقات بعشرة دراهم بقدر مئونته يوميا . وطبعا لم يكن أبو حيان وأمثاله من المحترفين للوراقة يكتفى بمثل هذه الورقات القليلة . وكان يحيى بن عدى أستاذه فى علوم الأوائل وما يتصل بها من الفلسفة يحترف الوراقة على نحو ما يروى القفطى فى ترجمته ، كما مر بنا ، وكان يكتب فى اليوم والليلة مائة ورقة . فالوراقة لم تكن مهنة بائسة كل هذا البؤس الذى تصوَّره المعاصرون من شكوى أبى حيان المستمرة من الضنك وضيق العيش . وفى رأينا أن بؤسه كان بؤسا نفسيًّا أكثر منه بؤسا ماديا ، فقد كان يرى كثيرين ارتفعوا فى الحياة وهم دونه فى الثقافة والمعرفة والأدب والكتابة ، فكان يشعر بضجر شديد وبشقاء لا حد له يملأ قلبه حسرة ولوعة ، وظل هذا الشعور يلازمه حتى الأنفاس الأخيرة من حياته .

على كل حال لم تمنحه الوراقة راحة ولا رضا ولا طمأنينة ، ولعله من أجل ذلك فكر أن يضيف إليها بعض مؤلفات يكتبها أو يهديها باسم بعض الأعيان أو بعض ذوى المناصب

الكبرى ، وأيضا فإن ذلك لم يَعُدْ عليه بشيء من طمأنينة النفس وراحة الفؤاد فظل يشعر بالتعاسة والقلق المضنى . . ومن أوائل ما ألفه كتابه « البصائر والذخائر » الذى نشره الدكتور إبراهيم كيلانى بدمشق فى ستة أجزاء . ويقول التوحيدى فى مقدمته إنه ابتدأ فيه سنة ٣٥٠ وانتهى منه فى سنة ٣٦٥ كما يقول إنه استقاه من كتابات الجاحظ وابن قتيبة والمبرد وغيرهم من أعلام الأدب فى القرن الثالث الهجرى . والكتاب على طريقة الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين ، ويحمل كثيرا من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال النساك وأشعار الشعراء وكلام حكماء الفرس واليونان والهند ، مما قرأه أبو حيان فى أثناء نسخه للكتب من كل لون وللدواوين القديمة والحديثة وفيه كثير مما سمعه من أساتذته ومعاصريه . وليس له فيه إلا جودة الاختيار وإلا مقدمته التى يدعو فيها إلى الزهد فى الحياة الدنيا الزائلة . وهى نزعة كانت تمس نفسه فى الأربعينيات على ما يظهر ، وكذلك فى الخمسينيات من عمره وبعد ذلك ، وهى التى دفعته إلى الحج ، غير أنها لم تكن تتعمقه ، ولذلك نراه يطلب الدنيا فيذهب إلى الرَّىّ وأرَّجان وافدا على أبى الفضل بن العميد ، ويرجع بخفى حنين . ويدور الزمن ويتولى الوزارة ابنه أبو الفتح ، ويزور بغداد ويتناقل الناس أخبار عطاياه للعلماء وفى مقدمتهم السيرافى وأبو سليمان المنطقى ، ويشد أبو حيان الرحال إليه فى الرىّ سنة ٣٦٦ راجيا أن يعوضه ما نهبه منه العيَّارون منذ ثلاث سنوات ، ويقدم إليه رسالة رواها ياقوت تكتظ بملق مسرف غاية الإسراف وإلحاح شديد فى السؤال وطلب النوال ، حتى لكأنه من أهل الكُدية والشحاذة الأدبية . وما كان أغناه عنها ، فإن أبا الفتح قابلها بالإعراض ، وكان أبو حيان يسرع دائما إلى الهجاء والذم ، فربما بلغه عنه شيء منها على الأقل يتصل بأبيه أبى الفضل بن العميد الذى ازورَّ عنه . وتتطور الحوادث سريعا ، ويفتك مؤيد الدولة البويهى بأبى الفتح ويخلفه الصاحب بن عباد ، فيعرض عليه أبو حيان خدماته ، ويكلفه بالوراقة له والنسخ ، ويظل ناسخا له مدة ثلاث سنوات حتى سنة ٣٧٠ . وكان يُحضره مجالسه وعلى موائده ، فيتدخَّل فيما يكون من حديث ببجاحة وزهو وتعالم مما ملأ نفس الصاحب عليه حَنَقاً وموجدة ، فبرم به الصاحب برما شديدا ، وأبو حيان لا يتراجع ، بل يزداد وقاحة . ولا يبعد أن يكون أبو حيان قد أخذ يسلُّ عليه لسانه ، وأن شيئا من ذمه نُقل إليه . على كل حال فسد ما بينهما فسادا من الصعب إصلاحه أو رَتْقه . وأخذ الصاحب يجفوه ويصدُّه عن مجالسه صداقبيحا . وليس ذلك فحسب فقد حرمه من مكافأته على ما ينسخ ، إذحبس عنه أجرته ، وكلما لقيه تجهَّم له ، مما اضطر أبا حيان أن يرحل عنه بعد عمل متواصل لمدة ثلاث سنين دون أن يأخذ منه كما قال درهما

أوما قيمته درهم . وبمجرد أن عاد أبو حيان إلى بغداد انتقم منه ومن أبي الفضل بن العميد شر انتقام بتأليفه فيهما كتابه « مثالب الوزيرين » الذى نشره بدمشق الدكتور إبراهيم الكيلانى ، وهى صحف هجاء لاذعة أشد اللذع للوزيرين الكاتبين المشهورين ، إذ تحامل عليهما تحاملا مسرفا وتجنى عليهما تجنيا قبيحا ، محاولا بكل ما استطاع أن يسلبهما ما اشتهرا به فى الناس من الفضائل . ونصيب الصاحب فى هذا الهجاء المقذع أكثر من نصيب أبى الفضل بن العميد ، لأن جرح أبى حيان منه كان أبعد غَوْراً وأشدَّ إيلاما .

ويعود أبو حيان جريحا كسيرا إلى بغداد وإلى حرفته فى الوراقة ، ويشفق عليه ابن مسكويه وصديقه أبو الوفاء المهندس ، لما تجرَّع من حرمان مرير ، ومدَّ إليه يدَ العون أبو الوفاء . أما ابن مسكويه فإنه ارتضى منه أن يؤلف معه كتابه « الهوامل والشوامل » والهوامل أسئلة لأبى حيان فى الفلسفة والطبيعة والسلوك واللغة ، والشوامل إجابات بديعة لابن مسكويه ، وقد نشره أحمد أمين والسيد صقر فى القاهرة ومعروف أن ابن مسكويه كان يلازم عضد الدولة ، فلابد أن يكون قد نزل معه بغداد حين استولى عليها من ابن عمه بختيار سنة ٣٦٧ وكان أبو حيان غائبا فى الرَّىّ ، حتى إذا عاد وجد ابن مسكويه وكان قد تعرف به قديما حين نزل الرىَّ زمن أبى الفضل بن العميد . والمظنون أن حوار الهوامل والشوامل لم ينعقد بينهما حينئذ ، وإنما انعقد فى بغداد بعد مجىء أبى حيان من لدن الصاحب كاسف البال مقروح الكبد ، يؤكد ذلك أننا نجد ابن مسكويه يحاول أن يفرِّج عنه الغم الذى ملأ قلبه وما انطوى عليه من الإحساس بالبؤس واليأس المرير من الزمان والإخوان ، إذ لاحظ مَساربَ ذلك فى حنايا نفسه وجوانب أسئلته ، فقال له فى مطلع أجوبته : « انظر حفظك الله إلى كثرة الباكين حولك وتأسَّ ، أو إلى الصابرين معك وتسلَّ ، فلعمر أبيك إنما تشكو إلى شاك وتبكى على باك ، فنى كل حلق شجىً وفى كل عين قَذًى » . فالناس كلهم شاكون باكون مثل أبى حيان ، وكلهم يعترض فى حلقه ما يكاد يغصُّ به ، وحسبه أن يكون له فى الناس قدوة وأسوة . وكأن ابن مسكويه أراد بالكتاب أن يكون فيه سلوان لأبى حيانَ ، ينسيه همومه ولو إلى حين . ومع تقديمه هذه الهدية الفكرية لأبى حيان نجده يهاجمه فى الليلة الثانية من كتابه الإمتاع ، ويبدو أن سبب تهجمه عليه ما نعته به أبو حيان من أنه كان شحيحاً شُحًّا شديدا ، وكأن أبا حيان لم يجد عنده ما كان يأمله من العون على ما كان يتجرَّعه من الصاب والعلقم .

أما أبو الوفاء المهندس فكان نعم الصديق لأبى حيان ، وكان قد تعرف عليه قديما ووعده بالسعى فى صلاح حاله ، وحين لقيه بعد عودته من لدن الصاحب أرعاه بصره كما يقول أبو

حيان وأعاره سمعه ، وبدأ فتوسط له عند القائمين على بيمارستان بغداد ، فعيّنوه راعيا لبعض شئونه . وأهم من ذلك أنه قرَّبه من ابن سَعْدان أحد كبار رجال الدولة البويهية ، فكلَّفه بنسخ كتاب الحيوان للجاحظ ، وأخبره زيد بن رفاعة فى سنة ٣٧١ أن أبا حيان يفكر فى صنع رسالة عن الصداقة والصديق ، فشجع ابن سعدان أبا حيان على إنجازها غير أنه لم ينجزها توا ، بل ظل يراجعها ويزيد فيها حتى نشرها سنة أربعمائة ، وهى أقوال وأشعار مجموعة على طريقته فى كتابه البصائر والذخائر ، ولا يكاد يكون له فيها سوى المقدمة وحديث عن ندماء ابن سعدان وحسن اختياره للمادة التى كوَّن منها الموضوع ، والرسالة طُبعت بإستانبول والقاهرة . ويبتسم الزمن فترة لابن سعدان من سنة ٣٧٢ حتى سنة ٣٧٥ إذ يصبح وزيرا لصمصام الدولة البويهى ويتخذ له مجلسا علميا فلسفيا أدبيا للحوار ليلا فى كل ما يتصل بالإلهيات والطبيعيات والأخلاق وعلم الكلام واللغة والشعر وقد ذكر أبو حيان العلماء والمتفلسفة الذين كانوا يتحاورون فى هذا المجلس بكتابه « الإمتاع والمؤانسة » وقد نشره أحمد أمين وأحمد الزين فى ثلاث مجلدات بالقاهرة . وجعل ابن سَعْدان أبا حيان واسطة عقد هذا المجلس ، فأزال من نفسه غشاوات الكآبة التى كانت قد تراكمت فيها طوال سنوات وقوفه بأبواب الوزراء : أبى الفضل بن العميد وابنه أبى الفتح والصاحب بن عباد ، وسأله صديقه أبو الوفاء أن يسجل فى كتاب أطرف المسائل التى تناولها حواره مع ابن سعدان ، فألف له كتاب الإمتاع مقتصرا فيه على مادار فى سبع وثلاثين ليلة ، وعادة يعرض الوزير سؤالا ويأخذ أبو حيان فى الإجابة ، وقد يطلب إليه فى موضوع أن يكتب فيه رسالة حتى يوفيه حقه ، وقد ينقل إليه مناظرة طويلة دارت فى سوق الوراقين أو دارت فى عهد وزير آخر مثل مناظرة السيرافى ومتى بن يونس فى النحو والمنطق بمجلس الوزير ابن الفرات سنة ست وعشرين وثلثمائة ، وقد رواها أبو حيان كاملة فى الليلة الثامنة . وعرض الحوار جوانب من حياة البغداديين كجانب الغناء واللهو . وليس فى الكتاب ما يدل على أنه ألِّف بعد فتك صمصام الدولة البويهى بابن سعدان سنة ٣٧٥ ويغلب أن يكون أبو حيان ابتدأ تأليفه فى حياة الوزير ، وأتمه بعد وفاته ، ذكرى عزيزة له ولمجلسه العلمى الفلسفى الرائع الذى لم يبلغ مبلغه مجلس أى وزير أو حاكم بويهى فى زمنه .

وعلى نحو ما سجل أبو حيان حواره مع ابن سعدان فى الإمتاع والمؤانسة سجَّل فى كتاب المقابسات أطرف ما دار من حوار فى ندوة أبى سليمان المنطقى السجستانى ، ومرَّ بنا فى غير هذا الموضع حديث طويل عن المقابسات وعن أبى سليمان ، ونرى أبا حيان يصرِّح

فى المقابسة الخامسة والثلاثين أنه يكتبها ووراءه خمسون عاما ويذكر فى المقابسة الحادية والستين أنه قرأ على أبى سليمان كتاب النفس ببغداد سنة ٣٧١ ، ويتحدث فى المقابسة الثانية والخمسين عن شخص توفى سنة ٣٨٦ وهناك مقابسة هى المقابسة الثانية والثمانون اختلفت المخطوطات فى تاريخ إملاء أبى سليمان لها على تلاميذه ، هل هى سنة إحدى وسبعين أو هى سنة إحدى وتسعين . وإن صح التاريخ الأخير كان زمن المقابسات وإلقائها يمتد طويلا من نحو سنة ٣٧٠ حتى سنة ٣٩١ وإلا فقد أمتد يقينا حتى سنة ٣٨٦ .

وليست المقابسات جميعها من إملاء أبى سليمان فكثير منها من إملاء من كانوا يحضرون ندوته من المتفلسفة ورجال الفكر . ويذكر أبو حيان فى المقابسات الثانية والرابعة والواحدة والتسعين أنه حرَّر كلام أبى سليمان وغيره من أهل الندوة فأخلاه مما كان فيه من اضطراب اللفظ وزيْغ التأليف ، ويقول إنه استنفد الطاقة فى تنقية الألفاظ من الشوائب ، حتى يسلم التعبير . وجعل ذلك بعض المعاصرين يتسع فى الظن ، فيقول إن صياغة المقابسات وغيرها من النصوص التى يحكيها أبو حيان عن المتفلسفة إنما هى من صنيعه ، وإن أبا سليمان وغيره من جُلسائه إنما لهم المعنى وحده . وقد يؤكِّد ذلك بالقياس إلى أبى سليمان خاصة ما وصفه به أبو حيان فى الليلة الثانية من كتابه « الإمتاع » بأن فى لسانه لُكْنة ناشئة عن عجمته وما ذكره عنه من أن فى عبارتـه تقطعا فى السياق ، غير أن ما نعرفه عن أبى حيان من أن أحدا لم يسلم من لسانه يجعلنا نشك فيما قاله عن أستاذه . ولعلى لا أجاوز الحق إذا قلت إن المقابسات فى جملتها من كلام أبى سليمان ورفاقه نَصًّا ولَفْظاً . ومما يؤكد ذلك أن من يرجع إلى المقابسة السابعة عشرة المنسوبة لابن سوار المشهور باسم ابن الخمّار المتفلسف يجدها بنَصِّها ولفظها فى كتاب صوان الحكمة لأبى سليمان المنطقى ص ٣٣٥ ومثلها المقابسة الثانية والأربعون المنسوبة إلى نفس المتفلسف فإنها بنفس اللفظ والنص فى صوان الحكمة ص ٣٥٣ . والمقابسة التاسعة والعشرون المنسوبة إلى النوشجانى موجودة بلفظها ونصها فى صوان الحكمة ص ٣٤١ . ونفس أبى سليمان فى كتابه صوان الحكمة وفى رسائله التى ألحقها به الدكتور بدوى يملك بوضوح زمام العربية ويصدر عن ملكة بيانية جيدة . ونحن لا ننفى عن أبى حيان جهده فى تنسيق المقابسات وتصحيحه أو إصلاحه بعض عباراتها ، ولكن هذا لا يعنى ما قيل من أن اللفظ أو الصياغة فى المقابسات له ، والمعنى لأبى سليمان وصحبه ، فصياغتها ولفظها أيضاً لهم إلا ما أدخله أبو حيان فى بعض التغييرات وبعض الحذف أو الزيادات أحياناً . وقد طُبع كتاب المقابسات طبعات مختلفة فى بومباى والقاهرة وبغداد .

ونمضى مع أبى حيان بعد وفاة ابن سعدان ، ويبدو أنه عاد بعده إلى عملين : الوراقة وتأليف بعض الكتب والرسائل وأهم كتاب أخرجه بأخرة من حياته كتاب الإشارات الإلهية المطبوع فى القاهرة وبيروت ، وأكثره مكتوب فى صورة رسائل موجهة إلى بعض الضالين عن طريق الهداية الإلهية وإلى بعض السالكين وإلى مجموعة من المتصوفة . وتتخلَّلُ ذلك مناجيات وأدعية وابتهالات تصوِّر استشرافه إلى الملأ الأعلى . وقد يهبط من هذا الملكوت إلى تصوير ما استشعره سنوات طوالا من الضياع والحرمان والشكوى من الناس شكوى مريرة حتى ليتجه إلى ربه فى رسالته رقم « يه » قائلا : « اللهم إليك أشكو ما نزل بى منك ، وإياك أسأل أن تعطف علىّ برحمتك ، فقد – وحقِّك – شددتَ الوَثاق ، وضيَّقت الخِناق ، وأقمت الحرب بينى وبينك » . ومثل هذا الإحساس بالتمرد على الخالق إنما بلغ ذروته ، حتى أصبح إحساسا بالحرب كما يقول ، فى عهود وقوفه بأبواب الوزراء : أبى الفضل بن العميد وابنه أبى الفتح والصاحب بن عباد . ولذلك نظن ظنا أن الإشارات الإلهية مثلها مثل كثرة كتبه لم تؤلف فى عام واحد ولا فى أعوام قليلة ، فبعضها يرجع إلى الستينيات من حياته إن لم يكن إلى الخمسينيات ، وبعضها متأخر فى السبعينيات من حياته وبعد السبعينيات يدل على ذلك ما يجرى فى كلامه من هجر للدنيا وترهاتها وتعلق بالله ووقوف طويل ببابه فى طلب العفو والرجاء فى نعيمه ، وعيناه تعتصرها الدموع ، وقلبه يتحرق شوقاً لاكتحال بصره بنور ربه .

وحاول الدكتور عبد الرحمن بدوى فى تقديمه للكتاب أن يربط بين مناجيات أبى حيان فى الإشارات وبين مزامير داود وبعض آيات الأناجيل وأولى من ذلك فى رأينا الربط بين مناجياته والمناجيات المبثوثة فى عيون الأخبار لابن قتيبة ، فمصادرها عنده مصادر إسلامية لا أجنبية . وهى تدل بقوة على تعمق الدين الحنيف فى فؤاده وصفاء جوهره الروحى . أما ما ردده ابن الجوزى والذهبى وغيرهما – ونقله عنهم السبكى فى طبقاته – من أنه كان زنديقا كبيرا ، فهو بهتان عليه أى بهتان ، وقد دافع عنه السبكى ، وقال إن الذهبى حَمل عليه ، كما حمل على المتصوفة جميعاً ، وهى حملة ظالمة .

والحق أنه كان سنيا شديد التمسك بالسنة ولعل هذا هو السبب المهم الذى جعله يهاجم المعتزلة والأشاعرة والمتكلمين مهاجمة عنيفة ، حتى ليقول فيهم عامة فى الليلة الثامنة من كتابه الإمتاع : «لم أر متكلماً فى مدة عمره بكى خشية أو دمعت عينه خوفاً أو أقلع عن كبيرة رغبة . . جَذَّ الله عروقهم واستأصل شأفتهم» ويفضِّل الأميين عليهم ويقول إنهم أتقى لله عز وجل وأذكر للمعاد وأيقن بالثواب والعقاب ، ويَسْلقُ الباقلانى الأشعرى العظيم

بلسان حاد . وهى طبيعةُ أبى حيان حين يهجو يُسِفُّ فى هجائه إسفافاً شديداً ، حتى لنراه يصف الباقلانى بأنه على طرائق الملحدة . وربما كان من أسباب حملته على المتكلمين – بجانب أنه سنى – ما أشرنا إليه فى غير هذا الموضع من أنهم كانوا يصلون بين الفلسفة والدين ، وكان هو وأستاذه أبو سليمان يرون الفصل بينهما ، حتى لا يتسلل الإسماعيلية وغيرهم عن طريق هذا الوصل ، كما مرَّ بنا ، إلى مذاهبهم ونحلهم الباطلة . وكان يهاجم الشيعة كما هاجم المتكلمين وكانت الدولة البويهية الحاكمة لبغداد شيعية ، فلم يجاهرهم بالهجوم ، بل اتبع طريقة أخرى : أن يكتب رسالته التى سماها رسالة السقيفة ، وينسبها إلى أبى بكر وعمر زاعما أنهما وجَّها بها إلى على بن أبى طالب لبيان أنه دون أبى بكر منزلة فى استحقاق الخلافة . وقد نشرها بدمشق إبراهيم الكيلانى مع رسالتين أخريين : أولاهما فى علم الكتابة والثانية فى بيان أنواع الحياة على نحو ما كان يتصورها المتفلسفة فى عصر أبى حيان . وله رسالة فى بيان ثمرات العلوم نشرت ملحقة بكتاب الصداقة والصديق المطبوع فى القاهرة وبها تعريفات للعلوم المختلفة .

ووراء كل ما قدمنا لأبى حيان كتب ورسائل أخرى سقطت من يد الزمن ، فلم تصلنا ، منها رسالة سماها «الحج العقلى إذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعى» وأكبر الظن أنه يقصد بها – إن صحت نسبتها إليه – النسك والعبادة لمن لا يستطيعون إلى الحج سبيلا . وذكر ياقوت رسالة له كتبها إلى أحد أصدقائه سنة أربعمائة وفيها يذكر أنه أحرق كتبه ، لما فقد من الولد النجيب والصديق والحبيب والتابع الأديب ، ونظن ظنا أنه لم يحرق جميع كتبه ، وإنما أحرق طائفة منها يريد أن ينشرها فى الناس ، ولعله لم يرتض أن تنسب إليه . وعلى كل حال كتبه المهمة كانت قد ذاعت وشاعت نُسَخُها فى الناس ، فلم يؤثر إحراقه لها – إن كان قد أحرقها – شيئاً . وكأن هذا الإحراق كان مَعْلَماً قوياً على طريق حياته التى أخذ يمضيها فى شيراز منذ هذا التاريخ متجها بكيانه وروحه إلى بارئه ، مناجياً له وداعياً ، مع اتخاذه لنفسه حلقة يروى فيها الناسُ عنه – كما ذكر السبكى – الحديثَ النبوى حتى وفاته .

وأبو حيان يُعَدُّ أكبر أدباء العراق فى هذا العصر من القرن الرابع الهجرى إلى القرن الثالث عشر ، ويمتاز أدبه بتنوع موضوعاته ، إذ تناول فيه – كما فى كتابه الإمتاع والمؤانسة – كثيرا من جوانب التفلسف والفكر العميق فى الإلهيات والطبيعيات والإنسان والأخلاق والنفس ، فأدبه ليس لفظيا ، قَعْقعة ولاطِحْن ، بل هو أدب يحمل زادا كبيرا من المعانى ، وقد أشار مراراً فى الإمتاع وغيره من كتبه إلى أن واجب الكاتب أن يعنى بالمعانى كما يُعْنَى بالألفاظ ، وهو شىء طبيعى لمن تمثل مثله ثقافة زمنه على اختلاف ألوانها ، فقد

استوعبها استيعاباً رائعاً ، وصدر عنها فى كتاباته صدوراً طبيعيًّا ، كما يصدر الضوء عن الشمس . وأداه ذلك إلى أن ينفصل عن موجة السجع التى سادت الكتابات الأدبية فى أيامه ، إذ رأى فيها طلبا للفظ أو الألفاظ واستعلاء لها على المعانى ، بل قل تحيُّفا وانتقاصا ، فازورَّ عنها . وكانت المكتبة العربية قد ألقت بكنوزها بين يديه فى أثناء وراقته ونَسْخه ، فراعه أسلوب الجاحظ وأدبه ، إذ رآه يوازن موازنة دقيقة بين الأداء الصوتى والمعانى ، مستخدما أسلوب الازدواج الذى عُرف به ، وقد يتخلله فى الحين البعيد بعد الحين السجعُ ، ولكن دون التزامه ودون الإكثار منه ، فاستقر هذا الأسلوب فى نفس أبى حيان وأصبح جزءاً لا يتجزأ من أدبه وكتاباته . ويبلغ فيه ذروة من الجمال الصوتى لعلها لا تقل جمالاً وروعة عن نظيرتها عند الجاحظ . وهو يتسع اتساعاً واضحاً فى أسلوبه بالترادف وما يتبعه من التقطيع الصوتى ، ولْنقرأ هذه الفقرة فى فاتحة الرسالة التى توسل بها إلى أبى الفتح بن العميد .

« اللهم هيِّئْ لى من أمرى رشدا ، ووفِّقنى لمرضاتك أبدا ، ولا تجعل الحِرْمان علىَّ رَصَداً ، أقول وخير القول ما انعقد بالصواب ، وخير الصواب ما تضمن الصدق ، وخير الصدق ما جلب النفع ، وخير النفع ما تعلق بالمزيد ، وخير المزيد ما بدا عن شكر ، وخير الشكر ما بدا عن إخلاص ، وخير الإخلاص ما نشأ عن اتفاق ، وخير الاتفاق ما صدر عن توفيق » .

وقد بدأ أبو حيان الرسالة بالسجع وسرعان ما انصرف عنه إلى أسلوب الازدواج ، معادلا بين كل عبارة وتاليتها معادلة صوتية دقيقة ، وليس ذلك فحسب ، فإنه يستغل قدرته الفكرية فى تفريع الجمل بعضها من بعض ، إذ بدأ بالصواب وجعله ينتهى بالتوفيق . ونحس كثيرا إزاء ازدواجات أبى حيان وتفريعاته كأنما يريد أن يكتسح بها قارئه اكتساحا ، دون أن يستطيع تخلصا أو إفلاتا . وكان عجبا له أن هذه الرسالة التى كتبها لأبى الفتح لقيت منه إعراضا ، وعرف أن السبب فى ذلك أنها لم تكتب بلغة السجع لغة معاصريه ، إنما كتبت بأسلوب الجاحظ ، فرأى أن يدافع عن هذا الأسلوب بقوة مما جعله يكتب رسالة فى تقريظ الجاحظ يشيد فيها به وبفنه . ولايروعنا عنده ظاهر هذا الأسلوب وما يتخلله من السجع أحيانا إنما يروعنا فيه أيضا ما شفعه به من تلوينات عقلية تتداخل فى جميع أوعيته الصوتية ، ونقصد الشراب السائغ الذى تحمله هذه الأوعية من المعانى الغزيرة حين يتحدث عن موضوع من الموضوعات ، فإذا هو يستقصيه من جميع أطرافه ، ولا يكاد يترك فيه فكرة ولا خاطرة . ويكفى لبيان ذلك كتابه « مثالب الوزيرين » الذى

يقع فى نحو ثلثمائه وستين صحيفة ، إذ لم يترك جانبا فيهما إلا مزقه تمزيقا ، وخاصة الصاحب بن عباد ، وإنه ليعتذر عن ثلبه وذمه بمثل قوله فى الكتاب :

« رمانى عن قوسه مُعْترقا[1] فأفرغت ما كان عندى على رأسه مغيظا ، وحرمنى فازدريته ، وحقرنى فأخزيته ، وخصَّنى بالخيبة التى نالت منى ، فخصصته بالغِيبة التى أحرقته ، والبادى أظلم ، والمنتصف أعذر ، وكنت كما قال الأول :

وإن لسانى شَهْدُهُ يُشْتَفَى بهِ أَجَلْ وعلى مَنْ صَبَّهُ اللهُ عَلْقَمُ

ولئن كان منعنى ماله الذى لم يبق له ، فما حَظر علىّ عِرْضه الذى بقى بعده ، ولئن كنت انصرفتُ عنه بِخُفَّىْ حُنَيْن ، لقد لصق به من لسانى وقلمى كل عار وشَنار[2] وشَيْن ، ولئن لم يرنى أهلاً لنائله[3] وبِرِّه ، إنى لأراه أهلاً بقول الحق فيه ، ونثٍّ[4] ما كان اشتمل عليه من مخازيه ، ولئن كان ظن أن ما يصير إلىّ من ماله ضائع ، إنى لأوقن الآن أن ما يتصل بعرضه من قولى شائع . والمنصف فى الحكم يَعْذر المظلوم ،ويلوم الظالم » .

وواضح فى الفقرة أن أبا حيان يعتمد فى أسلوبه المزدوج على المقابلات ، فهو يقابل بين صنيع الصاحب به وصنيعه بالصاحب فى كل عبارتين متواليتين . وهو يتسع فى ذلك هنا وفى كثير من جوانب كتاباته ، يرفده فى ذلك ذهن خصب حافل بالمعانى المتقابلة فلا يكاد المعنى يدوِّنه قلمه حتى يسيل معه مقابله . وشىء من ذلك كان عند الجاحظ وقد صورناه فى حديثنا عنه بكتابنا «الفن ومذاهبه فى النثر العربى» ولكن الجاحظ لا يبلغ فيه هذا المبلغ الذى نجده عند أبى حيان فقد كانت ثقافته ، وخاصة الثقافة الفلسفية ، أوسع بحكم تقدم العصر ، فغزر فكره إلى أقصى حد ، وكان لسانه يطاوعه ولا يتأبى عليه شىء من التعبير ، فاتسعت المقابلات عنده واتسع توليد المعانى بل فيضانها من نبع متدفق لا يتوقف رِفْدُه ولا مدده .

ونراه فى الإشارات يصور إحساسه فى أواخر حياته بالغربة التى طالما أمضته والتى وصفها فى مقدمة رسالته : الصداقة والصديق ، إذ لم يبق له مؤنس ولا صاحب ولا مشفق إلا الوحشة والوحدة ، وكادت شمس الحياة تغرب ، وماء الحياة ينضب . وإنه ليطيل فى الإشارات فى وصفه للغريب إذ يمتد فى ست صفحات لَبَّته فيها الألفاظ ولَبَّته المعانى بمثل قوله :

« قد قيل الغريب مَنْ جفاه الحبيب ، وأنا أقول : بل الغريب من واصله الحبيب ،

---

(١) معترقاً : أى حتى نفذ السهم من اللحم إلى العظم .

(٢) شنار : شنعة .

(٣) نائل : عطاء .

(٤) نث : نشر .

بل الغريب من تغافل عنه الرقيب ، بل الغريب من حاباه الشَّرِيب[١] ، بل الغريب من نودى من قريب ، بل الغريب من هو فى غربته غريب ، بل الغريب من ليس له نسيب ، بل الغريب من ليس له من الحق نصيب . . والغريب من غربت شمس جماله ، واغترب عن حبيبه وعذّاله . . والغريب مَنْ إن حضَر كان غائبا ، وإن غاب كان حاضرا . . والغريب من إذا ذُكر الحق هُجر ، وإذا دعا إلى الحق زُجِر ، وإذا قعد لم يُزَرْ . . الغريب مَنْ إذا قال لم يسمعوا قوله ، وإذا رأوه لم يدوروا حوله . . الغريب من إذا أقبل لم يوسَّع له ، وإذا مرض لم يُسْأَلْ عنه . . الغريب من إن زار أُغلق دونه الباب ، وإن استأذن لم يُرْفع له الحجاب . . الغريب ليله أسَف ، ونهاره لَهف ، وغَداؤه حَزَن ، وعَشاؤه شَجَن ، وسِره عَلَن ، وخوفه وطن » .

وهى كلمات من سيل الغربة الذى تدفق فى صفحات الإشارات ، وكأنما هو سيل ليس له آخر من المعانى التى صيغت فى أسلوب الازدواج . وغَلَبَ السجع فى هذه الكلمات ، وهو يَكثُر فى الإشارات كثرة لا نراها فى كتبه الأخرى ، مما يدل على أنها حقا آخر كتاباته . ونجد فيها نفس الحرارة التى لا تغيب أبدا عن كتابات أبى حيان لا فى شبابه ولا فى هرمه . وارجع إلى فكر أبى حيان الخصب فى هذه الكلمات وما يصوره من ضروب الغربة ، حتى لتشمل الغربة النفسية لمن لم يغترب ، بل لمن يواصله الحبيب وينعم بوصله . وبذلك بَثَّ فى كلامه معانى إنسانية عميقة ، وهى تجرى فى كتاباته ، وقد ختم حديثه عن الغريب بقوله :

« دع هذا كله . الغريبُ من أخبر عن الله بأنباء الغيب داعيا إليه ، بل الغريب من تهالك فى ذكر الله متوكلا عليه ، بل الغريب من توجه إلى الله قاليا لكل من سواه ، بل الغريب من وهب نفسه لله متعرِّضا لجَدْواه » . فحتى الصوفى غريب ، ولعله أولى بالشفقة والعطف من جميع الغرباء حوله . ومن أروع الأشياء حقا أَدْعيته ومناجياته لربه فى الإشارات من مثل قوله :

« اللهم رَوِّح صدورنا بنسيم وُدِّك ، واغمُرْ أرجاء قلوبنا بغوامر من رِفْدك ، وأَذِقْنا حلاوة بِرِّك ، وجُدْ علينا بك ، وخَلِّ بيننا وبينك ، وجَلِّ أبصارنا إليك . . واجعل أرواحنا مغارس معرفتك ، وألسنتنا قواطف وصفك ونعتك ، فى قدرتك وحكمتك ، وإذا عَطِشْنا فَرَوِّنا ، وإذا ضعفنا فقَوِّنا ، وإذا اعْوَجَجْنا فسوِّنا ، وإذا اعتللنا فداونا ، وإذا كَدِرنا فصَفِّنا ، وإذا دَنِسْنا فنَقِّنا . . وإذا بِنَّا منك فصِلْنا بك » .

وخصائصه التى صورناها واضحة فى هذا الدعاء ، فهو يعتمد فيه على الازدواج

(١) الشريب : المشارك فى الشرب .

ومعادلاته الموسيقية ، هووما قد يلتحم معه من السجع ، كما يعتمد على التفريعات فى المعانى والتوليدات والمقابلات والاستعارات مما يروع قارئه روعة شديدة ، بل مما يمتع سمعه وعقله وقلبه متعة هنيئة .

٤

ابن[1] مسكويه

هو أبو على أحمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه ، واضطربت المصادر القديمة فى مسكويه هل هو اسم جده أو هو اسمه ، فذكر ياقوت فى ترجمته وكذلك القفطى فى تاريخ الحكماء أن مسكويه اسمه ، وقال ابن خلكان فى ترجمة ظهير الدين الروذراورى إنه أبو على أحمد بن محمد المعروف بمسكويه . وجعلت المصادر الأخرى لترجمته مسكويه اسم جده ، وهو الذى يتبادر من اتفاق المصادر على أن اسمه أحمد بن محمد ، وكأن اسم جده غلب عليه أحياناً . ويقول ياقوت إن مسكويه كان مجوسيا وأسلم وكان عارفا بعلوم الأوائل معرفة جيدة ، وكأنه خلط بين الحفيد والجد ، فالمجوسية للجد والمعرفة بعلوم الأوائل للحفيد .

وليس بين أيدينا شىء واضح عن نشأة ابن مسكويه ومَرْباه فضلا عن مولده ومسقط رأسه ، وأكبر الظن أنه ولد حوالى سنة ٣٢٠ للهجرة لا سنة ٣٣٠ كما ظن مرجليوث فى مقدمته لكتاب تجارب الأمم ، إذ نراه يعمل مع المهلبى وزير معز الدولة البويهى منذ سنة ٣٤٥ حتى وفاته سنة ٣٥٢ والمعقول أن يلتحق بالعمل فى دواوينه وهو فى نحو العشرين على الأقل . ونسبه بعض من ترجموا له إلى الرَّىِّ ، وقد تكون مسقط رأسه وموطن آبائه . ويبدو من صلته المبكرة بالمهلبى وعمله معه ببغداد أنه إما أن يكون منشؤه ومرباه فيها بحيث أتيحت له فرصة تعرفه على المهلبى ، وإما أن يكون قد نزلها فى شبابه لاستكمال ثقافته . وتدل كتبه ومؤلفاته على أنه كان فيه نزوع للاطلاع على كتب الأدب والتاريخ وعلوم الأوائل ، ولابد أنه اختلف فى بغداد إلى كثير من أساتذة هذه العلوم . ونظن ظنا أنه

---

(١) انظر فى ابن مسكويه وترجمته تتمة اليتيمة ١/٩٦ ومعجم الأدباء ٥/٥ وابن خلكان ٥/١٣٧ وروضات الجنات للخوانسارى ٣٦ وتاريخ الحكماء للقفطى ٣٣١ وابن أبى أصيبعة ٣٣٠ ورسائل الخوارزمى وصوان الحكمة ص ٣٤٦ وما بعدها والإمتاع والمؤانسة لأبى حيان ١/٣٥ ومقدمة أحمد أمين للهوامل والشوامل وتاريخ الفلسفة فى الإسلام لدى بورص ١٥٨ ومقدمة مرجليوث لكتاب تجارب الأمم والتراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية ترجمة د. بدوى ص ٩٠ ودائرة المعارف الإسلامية فى مادة ابن مسكوية وكتاب ابن مسكويه : فلسفته الأخلاقية ومصادرها لعبد العزيز عزت (طبع القاهرة) ومقدمة د. عبد الرحمن بدوى لكتابه الحكمة الخالدة .

اختلف مع لداته إلى يحيى بن عديّ ومجالسه التى كان يحاضر فيها تلاميذه فى تلك العلوم ، كما اختلف إلى حلقات شيوخ مختلفين فى اللغة والتاريخ ، ثم التحق بالعمل مع المهلبى . ونراه فى كتابه تهذيب الأخلاق يصرح بأنه مرت عليه فترة كان يعكف فيها على اللذات الجسمانية ويستكثر من المطاعم والملابس والزينة وأنه تدرج إلى فطام نفسه بعد الكبر واستحكام العادة وأنه جاهد نفسه جهادا عظيما حتى استخلصها من مطالب النفس الشهوانية وارتقى بها إلى مطالب النفس الناطقة أو العاقلة من الفضائل . وأغلب الظن أن هذا الاسترسال فى اللذات إنما كان فى عهد المهلبى الذى مرَّ بنا انهماكه فى الغناء والقصف وشرب الخمر وأنه كان يعقد بقصره لذلك ليلتين فى كل أسبوع . ولابد أن ابن مسكويه كان يحضر هذا المجلس من حين إلى آخر ، واندفع فيما اندفع فيه المهلبى من اللهو ، حتى إذا توفى وصادر معز الدولة أمواله وقبض على بعض حواشيه ولّى ابن مسكويه وجهه نحو الرَّىِّ ووزير ركن الدولة هناك أبى الفضل بن العميد ، فأقامه خازنا على مكتبته . وربما كان فى ذلك ما يدل على أنه عُرِف بثقافة واسعة تشمل كل علم وكل فن ، ولذلك اتخذه ابن العميد مشرفاً على مكتبته ينظِّمها ويضيف إليها روائع الكتب لزمنه فى مختلف العلوم والفنون . وتعرَّف عليه أبو حيان التوحيدى حين وفوده على ابن العميد . وقال إنه رآه يهتم بعلم الكيمياء دون غيره من علوم الأوائل . وأكبر الظن أن أبا حيان بالغ فى قوله ، فقد كان ابن مسكويه يهتم بعلوم الأوائل جميعاً كما يتضح من مديحه لأبى الفضل بن العميد فى الجزء السادس من كتابه تجارب الأمم ، إذ يقول عن شغفه بهذه العلوم : « فأما علم المنطق وعلوم الفلسفة والإلهيات منها خاصة فما جسر أحد فى زمانه أن يدعيها بحضرته » وطبيعى وابن مسكويه خازن كتبه أن يكون له بها نفس اهتمامه . وكان يعهد إليه بتربية ابنه أبى الفتح وتعليمه . ولما توفى أبو الفضل سنة ٣٦٠ وتحولت مقاليد الوزارة إلى أبى الفتح ظل خازنا لكتبه وأعلى منزلته . ويُقْبَضُ على أبى الفتح سنة ٣٦٦ ويتحول ابن مسكويه إلى عضد الدولة البويهى ، مؤملا العمل عنده فيتخذه خازنا لكتبه ، ويجعله من ندمائه المقربين إليه ، حتى إذا استولى على بغداد سنة ٣٦٧ تحوَّل معه إليها . وأخذ يُعْنَى – منذ هذا التاريخ على الأقل – بمجالس المتفلسفة ومصاحبتهم ، فكان لا يكاد يفترق عن ابن الخمَّار المتفلسف الذى مرَّ ذكره ، كما كان يلم أحياناً بمجلس أبى سليمان المنطقى السجستانى ويستمع إلى ما فيه من محاورات بين متفلسفة عصره . أما زعم أبى حيان بأنه أعطاه شرحاً لإيساغوجى وقاطيغورياس لأبى القاسم غلام أبى الحسن العامرى سنة ٣٧٢ فلا يغض من شأنه كما أراد ، بل لعله يدل على رغبته فى الاطلاع على كتب الفلسفة . وظل بعد وفاة عضد الدولة

فى السنة المذكورة يعمل مع ابنه صمصام الدولة (٣٧٢ – ٣٧٦ هـ) ثم مع ابنه الثانى بهاء الدولة (٣٧٩ – ٤٠٣ هـ) ويبدو أنه تحول مع صديقه ابن الخمار إلى بلاط خوارزم شاه مأمون بن مأمون إذ يُذْكَرُ أنهما خدماه مع جملة من الأطباء منهم ابن سينا ، ويغلب أن يكون ذلك فى أوائل القرن الخامس الهجرى . وحدث بينه وبين ابن سينا شىء من الجفوة ، حتى ليذكر القفطى أن ابن سينا قال إنه حاضره فى مسألة فاستعادها كرات دون أن يفهمها ، ويصفه بأنه كان عسر الفهم . وفى رأينا أن ابن سينا تجنَّى عليه ، كما تجنَّى عليه أيضاً أبو حيان فى كلمته عنه بكتابه الإمتاع إذ قال إنه «عَيِىّ بين أَبْيناء» . وكتبه تشهد بفصاحته وذكائه . وبأخرة من حياته ترك خوارزم إلى أصفهان وعاش حتى بطلت حركته وبلغ من الكبر عِتِيًّا ، فقد توفى عن نحو مائة عام سنة ٤٢١ . وكان شيعيًّا إماميًّا يعتقد بعصمة الإمام على نحو ما ذكر ذلك فى خواتيم كتابه الفوز الأصغر .

وابن مسكويه يُعَدّ فى الصفوة من فضلاء عصره وأجلّائه ، يقول الثعالبى فى وصفه : «إنه فى الذروة العليا من الفضل والأدب والبلاغة والشعر» ويذكر له طائفة من أشعاره تدل على براعته الشعرية وإحسانه فى صنع الشعر ونظمه ، غير أنه لم يتفرغ له ولم يجعله وَكْده وهمّه . وكان ناثراً بليغاً كما يتضح من تراسله مع الخوارزمى وبديع الزمان . وفى رسائل الخوارزمى رسالة يعزيه فيها عن زواج أمه بعد وفاة أبيه ، مما يؤكد أن صداقة كانت ناشبة بينهما ، وربما رجعت إلى أيام شبابه . وفى ترجمة ياقوت له رسالتان متبادلتان بينه وبين بديع الزمان ، يتنصَّل البديع فى أولاهما من شىء بلغ ابن مسكويه عنه بعد مودة وثيقة كانت بينهما ، وردَّ عليه ابن مسكوية فاسحاً فى تنصله ومشيداً ببلاغته . ولم يجعل ابن مسكويه التراسل الأدبى صناعته ، إذ كان يهتم بالتأليف وبرسالة خلقية كبرى جرَّد نفسه لها فى معظم كتاباته وتأليفاته ، ويَذْكر له القفطى من كتبه المتصلة بالطب كتاباً فى الأدوية المفردة ، وذكر له كتاباً فى الأطعمة .

وأول ما نقف عنده من كتبه كتابه « تجارب الأمم » وهو فى التاريخ العام من الطوفان حتى سنة ٣٦٩ مع أنه عاش بعد ذلك طويلاً كما مرَّ بنا ، ويقال إنه وصل به حتى وفاة عضد الدولة صاحبه سنة ٣٧٢ . ويبدو من مقدمة الكتاب ومن نفس اسمه أنه أراد به أن يتخذه الناس وخاصة الملوك والحكام والقواد عظة وعبرة ، مما يرون فيه من أحداث التاريخ وتجاربه ، فقصده مقصد أخلاقى ، وهو المقصد الأسمى الذى ابتغاه فى تآليفه على نحو ما سنرى عما قليل . وللكتاب أهمية تاريخية بعيدة ، وقد سقط من يد الزمن أكثر أجزائه ، ونُشر منه القسم الأخير الخاص بالقرن الرابع الهجرى وهو فيه يعرض تاريخ البويهيين الذين خدم فى

دولتهم عرضا عادلا منصفا دون تحيز ، ومما يدل على ذلك موقفه من صديقه أبى الفضل ابن العميد حين كَفَّ يده عن مساعدة المتطوعين لجهاد الروم الذين أقبلوا من خراسان فى حماسة بالغة حين جاءهم النبأ المشئوم باستيلاء الروم على ثغرى المِصِّيصة وَطَرَسوس فى شمالى الشام ، إذ وفدوا على أبى الفضل بن العميد فى الرىّ سنة ٣٥٤ يطلبون المال للميرة والسلاح ، فردَّهم ردًّا منكرا ، وكأنه خشى منهم مكيدة فسلَّط عليهم جنوده ، ففرَّقوا جموعهم ، ويأسى لذلك ابن مسكويه قائلاً : « لو أن هؤلاء المتطوعين لجهاد الروم – وكانوا يبلغون نحو عشرين ألفاً – أعطاهم ابن العميد المال الذى طلبوه لانضمت إليهم فى الطريق أعداد ضخمة من الغزاة المجاهدين ولنكَّلوا بالروم نكالاً شديداً ، لكن لله أمراً هو بالغه » . فصداقته لأبى الفضل بن العميد لم تمنعه من تسجيله عليه هذه الوَصْمة فى تاريخه ، ويبدو أن ابن مسكويه فرغ من تأليفه لهذا الكتاب التاريخى الذى كان يقع فى ست مجلدات إما فى حياة عضد الدولة وإما بعد وفاته مباشرة لأنه لم يذكر فيه شيئاً عن خلفائه من أبنائه .

وهذا المقصد الأخلاقى من العبرة والعظة الذى دفعه إلى تأليف هذا الكتاب التاريخى الضخم دفعه أيضاً إلى تأليف كتابه « جاويدان خرد » أى العقل الأزلى ، وقد اختار له اسماً فارسياً ، مما يدل على أنه ألف مبكراً ، وهو لا يزال فى الرىّ بخدمة أبى الفضل بن العميد وابنه ، وربما كان أول مصنفاته ، وقد نشره الدكتور عبد الرحمن بدوى باسم الحكمة الخالدة ، وهو يصوِّر فى ابن مسكويه منزعاً إنسانياً واضحاً ، إذ يجعل العقل الإنسانى وما ينتجه من الحكم فوق كل جنس وكل أمة ، بدليل ما جمعه فى الكتاب من حكم الفرس والهند والعرب والروم الشرقيين ، مما يثبت أن العقل الإنسانى واحد مهما اختلفت الأزمنة والأمكنة بالإنسان ، ومهما اختلفت الظروف الطبيعية والاجتماعية .

وقد شغل ابن مسكويه نفسه بالأخلاق حتى عُدَّ من أئمة نظرياتها ومباحثها ، وهو يعرض لها فى ثلاثة كتب ، هى الفوز الأصغر وتهذيب الأخلاق والهوامل والشوامل . أما الفوز الأصغر فقد تناول فيه ثلاث مسائل كبرى ، وجعل كل مسألة فى عشرة فصول ، والمسألة الأولى تتصل بالإلهيات ، وهى فى إثبات الصانع وأنه واحد أزلى ليس بجسم وأنه واجب الوجود ليس بمتركب ولا متكثر ولا متحرك مما يؤكد أنه إنما يُعْرَفُ بطريق السلب دون الإيجاب ، وأيضاً فإن الله أبدع الأشياء لا من شىء . والمسألة الثانية تتصل بالنفس وأحوالها وأنها ليست بجسم ولا عرض وأنها تدرك المحسوسات والمعقولات وأنها ليست الحياة بل هى التى تعطى الحياة ، وهى لا تبطل ولا تموت ، ولها حال من الكمال تكون بها سعادة

الإنسان عن طريق الحكمة النظرية والأخرى العملية التى تحصل بها الهيئة الفاضلة التى تصدر عنها الأفعال الجميلة . وإذا عاق هذه الحكمة عائق فإنه يتدنّى فى حال من النقص يكون فيها شقاؤه . ويوضح هنا توضيحاً رائعاً كيف أن الإنسان خلق مدنيًّا بالطبع ، إذ لم يخلق خَلْقَ مَنْ يعيش وحده من الوحش والبهائم والطيور وحيوان الماء ، فكلها تتم لها حياتها خِلْقة وإلهاماً ، أما الإنسان فلا تتم له حياته إلا بالتعاون والتعاضد فى كل ما يتعلق به من المطعوم والملبوس والمشروب . ويحمل على الزهاد الذين يحرِّمون المكاسب لأنهم يعتمدون على الناس فى ضرورات أبدانهم ويطلبون معونتهم ولا يعاونونهم بشىء ، وهم بذلك — فى رأيه — جائرون ظالمون . والمسألة الثالثة فى النبوات ، وقد بدأ فصولها بالحديث عن مراتب الموجودات فى العالم التى تسرى فيها الحكمة ويظهر التدبير المتقن ، وهى النبات والحيوان والإنسان . وكل نوع فى هذه الموجودات الثلاثة لا يزال يترقى حتى يصل إلى صورة النوع الذى يليه ، فالنبات لا يزال يرقى حتى نرى أرفعه يقبل صورة الحيوان على نحو ما يُرَى فى أشجار النخيل ففيها المذكر والمؤنث وتحتاج إلى التلقيح كالسِّفاد فى الحيوان ، والحيوان لا يزال يرقى حتى يقبل صورة الإنسان فى القرود وما يماثلها فى الخلقة الإنسانية . وهى تقترب فى التمييز وقبول المعارف من الزنج وأشباههم . وبالمثل لا يزال يرقى الإنسان حتى يبلغ وجوداً أعلى من الوجود الإنسانى وهو وجود الملائكة . ومن هنا أو فى هذه الدائرة يظهر الأنبياء . وواضح أن فكرة ترقى الموجودات عند ابن مسكويه تشبه نظرية أهل النشوء والارتقاء ، مما يدل على روعة تفكيره وأصالته .

وخَصَّ ابن مسكويه نظريته الأخلاقية بكتاب مفرد هو تهذيب الأخلاق ، وهو كتاب نفيس إلى أقصى حد ونظريته فيه تقوم على المزج بين الروح الإسلامية كما يمثلها القرآن الكريم والسنة النبوية وبين آراء فلاسفة اليونان : أرسطو وجالينوس وأفلاطون وكذلك آراء الكندى والفارابى وما قرأه من حكم الفرس والهنود والعرب وما تلقفه من تجارب الحياة . وهو يستهله بتعريف النفس وأنها ليست جسماً ولا جزءاً من جسم ولا عرضاً ، ويستدل على أنها ليست جسماً بأنها تقبل صور الأشياء المتناقضة بينما الأجسام لا تقبل إلا صورة واحدة كالطول والعرض والبياض والسواد ، ثم هى تدرك المحسوسات والمعقولات وتميز المدركات الحسية والعقلية الصحيحة والخاطئة . ويلاحظ — كما لاحظ الفلاسفة قبله — أن للنفس ثلاث قوى : قوة شهوانية وقوة غضبية وقوة عقلية . ويقول إن الغرض من كتابه إصابة الخلق الشريف الذاتى لا العَرَضى عن طريق المال أو السلطان أو المكاثرة والمغالبة . ويمضى فيما وُضع الكتاب من أجله وهو بيان نظريته الخلقية عن الخير

وكيف أنه غاية الإنسان من وجوده حتى يحصل على الفضائل ، وهو لا يحصل عليها إلا إذا طَهُرَتْ نفسه من الشهوات الجسمانية والنزوات البهيمية ويفرق بين الخير والسعادة ، فالخير عام للبشر جميعاً والسعادة خاصة بكل إنسان حسب ما يحقق لنفسه من المآرب العقلية وغير العقلية . ولما كان الخير كثيراً ولم يكن فى طاقة الإنسان الواحد القيام بجميعه وجب أن تنهض به جماعة كثيرة ، حتى يتوزعوه ، ولذلك يجب على الناس أن يحب بعضهم بعضا لأن كلا منهم لا يتحقق كماله إلا بغيره . ويرى أن الأجناس الكبيرة للفضائل أربعة هى الحكمة والعفة والشجاعة والعدل ، ويأخذ فى بيان أنواع كل جنس من هذه الأجناس ملاحظاً نظرية الأوساط الأخلاقية عند أرسطو ، وهى أن الفضيلة دائماً تقع بين رذيلتين . ويأخذ برأى جالينوس القائل بأن الناس أقسام ثلاثة : أخيار بالطبع وهم قلة ، وأشرار بالطبع لا يمكن أن يتحولوا أخياراوهم كثرة ، ووسط بين الطرفين ، وهم قابلون لأن يكونوا أخياراً بالتأديب أو أشرارا أيضاً بالتعليم ، وقد ينتقلون إلى الخير بمصاحبة الأخيار وبالمثل إلى الشر بمصاحبة الأشرار . وينقل عن أرسطو أن الشرِّير قد ينتقل إلى الخير بالتأديب . ويعرض للشريعة وأنها هى التى تقوِّم الناشئة وتعوِّدهم الأفعال الخيرة ، ويقول إن كمال الإنسان فى اللذات المعنوية لا فى اللذات الحسية ، وإن من الواجب أن تُرَبَّى الناشئة على أحكام الشريعة ثم تنظر فى كتب الأخلاق حتى تتأكد تلك الأحكام والآداب فى أنفسها . ويُدْلى بفصل طويل فى تأديب الناشئة والصبيان يقتبس أكثره من بروسن و يتحدث عن طائفة من الآداب فى المطاعم وغيرها ، و يطيل فى الحديث عن الخير والسعادة وفرق ما بينهما مما أشار إليه . ويفيض فى بيان الفضائل . ثم يتحدث عن التعاون والاتحاد ، وفى رأيه أنه لا يمكن أن تقوم جماعة بدون المحبة ، وأن علم الأخلاق إنما هو علم الإنسان بما يجب عليه فى الجماعة ، وبها تفسَّر الأخلاق ، فليس هناك خلق فاضل لا يكون محوره الجماعة ، ومن هنا كانت الأفعال الدينية لا توصف بأنها خلقية وكانت العبادة تخرج عن علم الأخلاق . ومن آرائه الطريفة أن أحكام الدين الحنيف تؤلِّف مذهباً خلقيا يقوم على محبة الإنسان للإنسان ، ولذلك كانت العبادات دائماً تتطلب الجماعة على نحو ماهو معروف عن الندب لصلاة الجماعة وفرض صلاة الجمعة واشتراك الناس فى أداء فريضة الحج . وهكذاتقوم شريعتنا على الأنس والمحبة ، وفى الذروة من المحبة محبة الله وتليها محبة التلاميذ لأساتذتهم ثم محبة الأبناء لآبائهم . ويقف عند الصداقة طويلاً مبيناً آدابها ، ثم يتحدث أحاديث طريفة عن أمراض النفس وأسبابها وعلاجها وكيف أن الإنسان فى حاجة إلى أن يعرف عيوب نفسه ، ويعرض طائفة من الرذائل كالتهور والغدر والغضب .

وكان هذا الكتاب النفيس يُدْرَسُ للناشئة فى كثير من البلدان العربية فى هذا العصر وشطر من العصر الحديث ، وحرى بنا أن نعود إلى دراسته لهم فى المدارس الثانوية ، حتى تمدهم بخير زاد لتقويم سلوكهم وتربيتهم تربية خلقية سديدة . وكثيرون يظنون أن قوام نثرنا الرسائل الرسمية والشخصية !

وحسبنا هذا الكتاب لنرى منه خطأ هذه الفكرة وأن فى العربية كتباً نثرية نفيسة لا تمتد صفحاتها فى أسجاع قلما تحوى غذاء فكريًّا ، بل تمتد فى أسلوب مرسل وتشتمل على زاد من غذاء خلقى تربوى رائع .

ومر بنا أننا نظن ظناً أن ابن مسكويه ألف هذا الكتاب قبل أن يعرض عليه أبو حيان أسئلته الكثيرة التى أجاب عنها فى الهوامل والشوامل ، وظننا أن ابن مسكويه أجاب أبا حيان عن أسئلته الكثيرة بعد رجوعه بخفى حنين من لدن الصاحب ترويحاً عن نفسه الجريح ، ونقول الآن إن كتاب تهذيب الأخلاق هو الذى دفع أبا حيان إلى أن يعرض أسئلته الكثيرة على عالم الأخلاق وفيلسوفها كما اتضح فى هذا الكتاب ، وأيضاً كما اتضح فى الفوز الأصغر ، فقد ألفه ابن مسكويه هو الآخر قبل الهوامل والشوامل بدليل أنه ذكره فى بعض صحفه .

ويكمل كتاب الهوامل والشوامل نظرات ابن مسكويه الأخلاقية . والكتاب مجموعة من المسائل الهوامل التى تحتاج إلى إجابة ، جمعها أبو حيان ، وقد بلغت مائة وخمسا وسبعين مسألة ، وجَّهها إلى الفيلسوف الأخلاقى ابن مسكويه ، فأجاب عليها إجابات شوامل ، وهى موزَّعة بين مسائل خلقية ولغوية وأدبية وعلمية . وإجابات ابن مسكويه تصوره حقاً متفلسفاً ومفكراً كبيراً ، وقد أعجب الأستاذ أحمد أمين فى تقديمه للكتاب بإجابة بديعة من إجاباته رد بها على سؤال أبى حيان هل تأتى الشريعة بما يخالف العقل ويأباه كذبح الذبائح مثلاً ؟ فقد ردَّ على هذا السؤال قائلاً :

« ليس يجوز أن تَرِدَ الشريعة من قِبَل الله تعالى بما يأباه العقل ويخالفه ، ولكن الشاكَّ فى [مثل] هذه المواضع لا يعرف شرائط العقل وما يأباه ، فهو أبداً يخلطه بالعادات ، ويظن أن تأبِّى الطباع من شىء هو مخالفة للعقل . والعقل إذا أبى شيئاً فهو أبدىّ الإباء له لا يجوز أن يتغير فى وقت . . وأمر العادة قد يتغير بتغير الأحوال والأسباب والزمان . . وذبح الحيوان ليس من الأشياء التى يأباها العقل وينكرها بل هو من الأشياء التى تأباها بعض الطباع والعادة » .

ويذكر ابن مسكويه أن ما يعرض للإنسان من كراهية ذبح الحيوان إنما هو لمشاركته له

فى الحيوانية وأنه يخطر بباله أنه ربما أصابه نفس المكروه بجامع الحيوانية بينه وبين الحيوان . ولا يزال ابن مسكويه يتعمق فى الإجابة موضحاً أن الشريعة لا تخرج عن مقتضى العقل بحال . ونذكر طرفاً من إجابة ابن مسكويه عن مسألة خلقية سألها أبو حيان ، وهى إذاعة الأسرار مهما ضُرب عليها من حُجب الكتمان ، يقول :

« قد تبيَّن فى المباحث الفلسفية أن للنفس قوتين إحداهما معطية والأخرى آخذة . فهى بالقوة الآخذة تستثيب (تسترجع) المعارف وتشتاق إلى تعرف الأخبار ، وبها يوجد الصبيان أول نشوئهم محبِّين لسماع الخرافات ، فإذا اكتهلوا أحبوا معرفة الحقائق . وهذه القوة هى انفعال وشوق إلى الكمال الذى يخصُّ النفس . وهى بالقوة المعطية تُفيض على غيرها ما عندها من المعارف ، وتفيده العلوم الحاصلة لها ، وهذه القوة ليست انفعالاً بل فاعلة . وهاتان القوتان موجودتان للنفس بالذات لا بالعرض . فكل إنسان يحرص بإحدى قوتيه على الفعل ، وهو الإعلام ، وبالأخرى على الانفعال ، وهو الاستعلام . . فقد ظهر السبب الداعى إلى إخراج السر ، وهو أن النفس لما كانت واحدة واشتاقت بإحدى قوتيها إلى الاستعلام ، واشتاقت بالأخرى إلى الإعلام لم ينكتم سرٌّ بَتَّةً . وهذا تدبير إلهى عجيب ، ومن أجله نُقلت الأخبار القديمة وحُفظت قصص الأمم ، وعُنى المتقدمون بتدوين ذلك وحرص المتأخرون على نقله وقراءته » .

ويمضى ابن مسكويه فيذكر أن صاحب السر ينبغى أن لا يستودع إلا القادر على نفسه والقاهر لنزواتها ، وأن إخراجه من جملة شهوات النفس وأن حفظه لذلك يحتاج مجاهدة شديدة . وهذه الإجابة توضح كيف كان عقل ابن مسكويه خصباً وكيف كان حافلاً بالآراء الطريفة ، وهو يعرضها فى أسلوب جزل مصقول ليس فيه أى صعوبة ولا أى عوج أو التواء . وقد روى ياقوت فى ترجمته نسخة وصية له طريفة يعاهد فيه الله على العفة والشجاعة والحكمة وما يتفرع عن ذلك من شيم نبيلة رفيعة .

٥

الحريرى (١)

هو أبو محمد القاسم بن على الحريرى ، كان أبوه من أثرياء « المشَان » ، وهى قرية قريبة

(١) انظر فى الحريرى وترجمته الأنساب للسمعانى ١٦٥ ب وخريدة القصر (قسم العراق) ٢/٥٩٩ ومعجم الأدباء ١٦/٢٦١ وابن خلكان ٤/٦٣ وإنباه الرواة ٣/٢٣ وتذكرة الحفاظ والسبكى ٧/٢٦٦ وشذرات الذهب ٤/٥٠ واللباب ١/٢٩٥ ومرآة الجنان ٣/٢١٣ والعبر فى خبر من عبر ٤/٣٨ والنجوم الزاهرة ٥/٢٢٥ وروضات الجنات ٥٢٧ ونزهة الألباء لابن الأنبارى ص ٣٧٩ وشرح الشريشى على المقامات=

من البصرة ، وقد ولد له سنة ٤٤٦ وبها كان منشؤه ومَرْباه . ثم سكن البصرة فى حى بنى حَرام الفَزارِيِّين ، وأخذ يختلف إلى علماء عصره ، يأخذ عنهم الحديث والفقه والأدب ، ويسميهم ، ويعدِّدهم ، السبكى فى طبقاته . ويذكر مترجموه أنه تولى وظيفة الخبر فى ديوان الخلافة بالبصرة ، وهى وظيفة تشبه وظيفة مصلحة الاستعلامات فى عصرنا ، ولا يعرف بالضبط متى تقلَّدها ولا متى عُهد إليه بها ، وظل فى هذه الوظيفة إلى وفاته سنة ٥١٦ وظلت بعده فى أبنائه حتى آخر عهد المتقى بالله (٥٣٠ – ٥٥٥ هـ) . ولم تمنعه الوظيفة من أن يعكف على الأدب واللغة ، بل أن يفرغ لها ، فيكتب مجموعة من الرسائل ، وآيته الرائعة : المقامات ، وينظم من الشعر ما يتيح له أن يكون من أصحاب الدواوين ، ويؤلف كتابه المعروف « درَّة الغوَّاص فى أوهام الخواص » وهو مطبوع مراراً وواضح من عنوانه أنه فيه يسجل أغلاط المتأدبين مما يشيع على ألسنة العامة ، وإن كان قد بالغ فى ذلك حتى عَدَّ بعض الكلمات الفصيحة غير صحيحة . ولشهاب الدين الخفاجى شرح عليه طُبع فى إستانبول ، ومرَّ بنا فى غير هذا الموضع أن لتلميذه الجواليقى تكملة ألحقها بالكتاب وهى مطبوعة . ويؤلف الحريرى أيضاً مُلْحة الإعراب ، وهى منظومة فى النحو شرحها شرحا جيداً ، وهى مطبوعة فى القاهرة مراراً . وكان لا يزال يختلف بين عمله فى البصرة وضياعه فى المشان وبين بغداد دار الخلافة وملتقى العلماء والأدباء . ومما يدل على أنه كان يختلف إلى بغداد منذ أواخر القرن الخامس ما أنشده له العماد الأصبهانى فى مديح سعد الملك وزير السلطان محمد شاه السلجوقى الذى صلبه وقتله سنة ٥٠٠ للهجرة . ويقول السبكى إنه حدَّث فى بغداد بجزء من حديثه وبمقاماته .

وكان الحريرى لا يبارَى فى الأدب والبلاغة والفصاحة ، وتُعَدُّ مقاماته آية براعته التى ليس لها لاحقة مماثلة وكأنما أغلق الأبواب بكلتا يديه بعده ، فلم يستطع أحد أن يجاريه أو يبلغ مبلغه فى تلك المقامات ، ويشهد بذلك الزمخشرى قائلاً :

أقسم بــالله وآيــاتــهِ ومَشْعَرِ الحج وميقاتِهِ
إن الحريرىّ حرىٌّ بأن نكتب بالتِّبْر مقاماتِه

ويقول السمعانى عنه : « لم يكن له فى فنه نظير فى عصره ، ولو قلت إن مفتتح الإحسان فى شعره كما أن مختتم الإبداع فى نثره ، وأن مسير الحسن تحت لواء كلامه ، كما أن

= الحريرية ، وهو مطبوع فى مصر مراراً ، وهو شرح نفيس وتكتظ رفوف المكتبات بشروح للمقامات لا تزال مخطوطة . وراجع فيه وفى مقاماته كتابنا (المقامة) طبع دار المعارف ص ٤٤ والفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ٢٩٢ .

مخيَّم السحر عند أقلامه ، لما زَلَقْتُ من شاهق الإنصاف ، إلى حضيض الاعتساف» .
ويقول العماد الأصبهانى : «طلعت ذُكاء [١] ذكائه فى المغرب والمشرق ، وامتلأت ببضائع فوائده ، ونواصع فرائده ، حقائبُ المشْئِم والمعرق . . حريرىّ الوَشْى ، عراقىّ الوَشْم [٢] ، لؤلؤى النظم ، كلامه يتيمة البحر ، وتميمة النَّحْر ، ودُرَّة الصَّدَف ، ودُرِّى السُّدَف [٣] . قد أعجز الفصحاء بصناعته ، وأبَرَّ [٤] على البلغاء ببراعته» . ويقول الرواة إنه كان بخيلاً دميم الخلقة والهيئة ، تقتحمه العين ، وكان يعتاد نتف لحيته ، والناس على الرغم من ذلك يزدحمون عليه لسماع مقاماته وإجازتهم بروايتها . ويقال إنه أجاز لسبعمائة طالب أن يرووها عنه ، وفى ذلك ما يدل على ما كان يحظى به هو ومقاماته فى عصره من منزلة أدبية رفيعة .

والمقامات أقاصيص قصيرة تصور مواقف متنوعة لأديب متسول يحتال ببيانه وفصاحة لسانه على الناس ، فيلقون إليه بالدراهم والدنانير . وهى تزخر بحركة تمثيلية ، غير أنها لا تتسع لتصوير حياة مجتمعها ، فقد كانت غاية الحريرى منها غاية بيانية بلاغية فحسب ، واستطاع أن يحقق هذه الغاية إلى أبعد مدى . ويزعم الرواة أن سبب صَوْغه لها ما حكاه عن نفسه من أنه كان جالساً فى مسجد بنى حَرام فى البصرة فدخل شيخ رَثّ الهيئة ، كان شحاذاً أديباً فسلَّم ثم سأل ، فأعجبت الحاضرين فصاحتُه وحسن بيانه ، فسألوه عن كنيته فقال أبو زيد ، وسألوه عن موطنه ، فقال من سَروج ، وهى بلدة قرب حَرَّان شمالى العراق ، فعمل الحريرى المقامة المعروفة باسم الحرامية ، وهى المقامة الثامنة والأربعون ، ونسبها إلى أبى زيد السَّروجى المذكور ، واشتهرت فبلغ خبرها — فيما يقال — أنوشروان ابن خالد وزير الخليفة المسترشد (٥١٢–٥٢٩ هـ) . فأشار عليه أن يضم إليها غيرها ، فأتمها خمسين مقامة . ويقال بل إنه حين عاد إلى البصرة صنع أربعين مقامة ، ورجع إلى بغداد ، فأعجب بها الأدباء ، وطلبوا إليه أن يؤلف على غرارها مقامة امتحاناً له ، فظل أربعين يوماً لا يُفتَحُ عليه بشىء ، فعاد إلى البصرة ، وألف عشر مقامات ، وأصعد بها إلى بغداد فعرف الأدباء فضله . وقال بعض حساده إنها من صناعة شخص كان استضافه ، فمات عنده . وقال حساد آخرون إن البدو أخذوا جراباً لمغربى من بعض القوافل كانت به هذه المقامات ، وتصادف أن اشتراه منهم الحريرى فنسبها إلى نفسه ! .

وكل ما قدمنا قِصَصٌ غير صحيحة ، وفى مقدمتها قصة تشجيع أنوشروان بن خالد له

(١) ذكاء : شمس .
(٢) الوشم : النقش .
(٣) السدف : الظلم .
(٤) أبر : غلب .

وبعثه على تأليفها ، فإنه تولى وزارة المسترشد بعد وفاة الحريرى ، وكذَّبها ابن خلكان بطريق آخر إذ قال إنه رأى نسخة من المقامات بخط الحريرى نفسه كَتب بخطه على ظهرها إنه صنفها للوزير جلال الدين بن صدقة وزير المسترشد وقد وزر له فى أول خلافته سنة ٥١٢ وكأنه هو الذى أشار إليه فى مقدمة المقدمات بقوله : « فأشار مَنْ إشارته حكم وطاعته غنم إلى أن أنشئ مقامات أتلو فيها تلو البديع » يريد البديع الهمذانى ومقاماته . وتوقف الشريشى فى شرحه إزاء هذه العبارة ، وكأنه أراد أن يدحض كل ما قيل من أن المقامات ألفت فى عهد المسترشد بإشارة أحد وزيريه : ابن صدقة أو ابن خالد ، فقال إنها إنما ألفت بإشارة الخليفة المستظهر (٤٨٧ - ٥١٢ هـ) وبدأ الحريرى تأليفها سنة ٤٩٥ واستغرقت منه نحو عشر سنوات حتّى سنة ٥٠٤ .

واتسعت الأسطورة بأبى زيد ، أديب المقامات الشحاذ ، فقيل إنه نحوى يسمى المطهّر ابن سَلار ، ونرى كتب تراجم النحاة تترجم له ذاكرة أنه صاحب الحريرى الذى أنشأ المقامات على لسانه ، وتقول إنه روى عنه أرجوزته « ملحة الإعراب » وربما كان المطهر شخصية حقيقية ، ودخل الوهم منه على النحاة ، فظنوا أنه أبو زيد السَّروجى . ومن المؤكد أن أبا زيد فى المقامات شخصية خيالية اخترعها خيال الحريرى ليحوك من حولها حِيَلَ أديب متسول . وقد سمى راويته الحارث بن هَمَّام يعنى به نفسه أخذا من الحديث النبوى : «كلكم حارث وكلكم همام» أى كاسب كثير الاهتمام . ومن المؤكد أيضاً أنها بناء متكامل ، لم يُعَدَّمجزَّأ ولا قطعة تلو قطعة ، ويتضح ذلك من طريقة الحريرى فى عرضه المقامة الأولى ، إذ جعلها لتعريف أبى زيد براويته ، بينما جعل الأخيرة ، وهى ذات الرقم الخمسين ، لتوبة أبى زيد من حرفة الشحاذة وحيلها الكاذبة وندمه على ما تقدم من ذنوبه ، ويغيب عن راويته ، ولا يزال يبحث عنه حتّى يجده فى بلدته سَروج وقد تحول ناسكاً متصوفاً مستغرقاً فى عبادة ربه . وسمى المقامات فيما عدا ثلاثا منها باسم البلدان التى تنقل فيها أبو زيد من مشرق العالم الإسلامى إلى مغربه . ونرى الحريرى يذكر فى مقدمتها مقصده منها إذ يقول : «أنشأت خمسين مقامة تحتوى على جِدِّ القول وهزله ، ورقيق اللفظ وجزله ، وغُرر البيان ودرره ، وملح الأدب ونوادره ، إلى ماوشَّحتها به من الآيات ، ومحاسن الكنايات ورصَّعته فيها من الأمثال العربية ، واللطائف الأدبية ، والأحاجى النحوية ، والفتاوى اللغوية ، والرسائل المبتكرة ، والخطب المحبَّرة ، والمواعظ المبكية ، والأضاحيك الملهية» . ومعنى ذلك أنه لم يقصد فيها إلى القَصص لذاته ، وإنما قصد فيها إلى أفانين من النثر فضلاً عما التزمه من السجع . وكان ذوق التصنع عَمَّ فى الكتابة ، فلم يقف الكتَّاب عند السجع

والمحسنات البديعية ، بل أخذوا يضيفون إلى ذلك عُقَداً غريبة يصعِّبون بها المرور إلى السجع ، حتى يثبتوا براعتهم الأدبية ، وما نكاد نلمُّ بالمقامة السادسة ، حتى نراه يخلب ألباب الناس برسالة تتوالى كلماتها : كلمة حروفها منقوطة وكلمة حروفها غير منقوطة ، حتى إذا كانت المقامة المغربية السادسة عشرة عرض عقدة أو لُعْبة غاية فى العسر تسمى مالا يستحيل بالانعكاس كقوله . «لُمْ أخا مَلَّ» فإن العبارة تُقْرأ طرداً وعكساً فلا تتغير حروفها ، ومضى يعرض طائفة كبيرة من مثل هذه العبارة نثراً وشعراً ، مما ملأ الحاضرين به إعجاباً شديداً . وفى المقامة القهقرية التالية جاء بطائفة كبيرة من الحكم تُقْرَأ الألفاظ فيها لا الحروف طرداً وعكساً مثل «مع اللجاجة تُلْغَى الحاجة» فإنها يمكن أن تُقْرَأ «الحاجة تلغى مع اللجاجة» . ويسمى المقامة السادسة والعشرين باسم الرَّقطاء لأنها تتألف من كلمات تتوالى حروفها بالتبادل بين النقط وعدمه مثل «نائل يديه فاض ، وشُحُّ قلبه غاض» . وفى المقامة الثامنة والعشرين نرى أبا زيد يخطب خطبة كل كلماتها غير منقوطة ، ويعود إلى نفس اللعبة فى المقامة التالية . وكل هذه عقد غريبة كان يمكن أن تخنق المقامات خنقاً لولا ما امتاز به نسج الحريرى من عذوبة ورشاقة . وكانت لُعْبَة الألغاز شاعت فى العصر ، فأفرد لها مقاماته : السادسة والثلاثين والثانية والأربعين والرابعة والأربعين . وخصَّ النحو بالمقامة الرابعة والعشرين ، إذ عرض فيها اثنتى عشرة مسألة نحوية ، وأفرد للفقه مقامتين : الخامسة عشرة والثانية والثلاثين . وقلما يُعْنَى بعرض شئون عصره السياسية والاجتماعية إلا أشياء طفيفة هنا وهناك ، فقد كان مشغولاً بعرض الأمثال والكنايات وألفاظ اللغة الغريبة ، على أن تكون مقبولة لا تَصُكُّ الأسماع ولا تستثقلها الأفواه . وهو يُكثر فى مقاماته من الآيات القرآنية ومن أشعاره الجيدة ومن المحسِّنات البديعية وخاصة الجناس . وطبيعى أن تتعدد فيها المواقف ويتنوع معها وصفه ، فتارة يصف روضة أوفلاة أو بحراً أو سوقاً ، وتارة ثانية هو زاهد متعبد يكثر من وعظه بمثل قوله :

«ابْنَ آدم ما أغراك بما يغرُّك ، وأضْراك (أجرأك) بما يضرُّك ، وألهجك بما يُطْغيك ، وأبهجك بمن يُطْريك . . لا بالكفاف تقتنع ، ولا من الحرام تمتنع ، ولا للعظات تستمع ، ولا بالوعيد ترتدع . . يعجبك التكاثر بما لديك ، ولا تذكر ما بين يديك . . أتظن أن سَتُتْرَكُ سُدًى ، وأن لا تحاسَب غداً . . كلا والله لن يدفع المنون ، مالٌ ولا بَنون ، ولا ينفع أهلَ القبور ، سوى العمل المبرور ، فطُوبى لمن سمع ووَعَى ، وحقق ما ادَّعى (ونهى النَّفْسَ عن الهوى) وعلم أن الفائز من ارعَوَى (وأن ليس للإنسان إلا ما سعَى وأن سَعْيَه سوف يُرَى) » .

والمواعظ والأدعية الإلهية كثيرة فى المقامات ، ودائماً تُعْرَض فى مثل هذه الأسجاع الخفيفة التى تطير عن الأفواه فى عذوبة ورشاقة . وبينما يلقانا أبو زيد فى بعض النوادى واعظاً إذا هو يتحول من حين إلى حين ماجنا مع ندامى يَحْتسى العُقار ويخلع الوقار . ولكن من الحق أن ذلك قليل فى المقامات ، وقد أراد به الحريرى إلى الفكاهة والدعابة ، وهما واضحتان عنده فى مقامات عدَّة ، وخاصة حين يظهر أبو زيد مع ابنه أو مع زوجته مختصمين إلى أحد القضاة أو الحكّام على نحو ما نرى فى المقامة الإسكندرانية ، إذ تنكَّر فى زى شيخ هرم خبيث تجرُّه بعنف امرأة معها طفل نحيل ضئيل ، وتقدما إلى القاضى وكانا قد عرفا أنه أحضر مال الصدقات ليوزعه على الفقراء وذوى الحاجات ، ولم تلبث المرأة أن بادرت إليه قائلة :

« أيَّد الله القاضى ، وأدام به التراضى ، إنى امرأة من أكرم جُرْثومة ، وأطهر أَرومة ، ميسَمى الصَّوْن . وخلقى نعم العَوْن ، وبينى وبين جاراتى بَوْن ، وكان أبى إذا خطبنى بُناة المجد ، وأرباب الجدِّ ، سكَّتهم وبكَّتهم ، وعاف وُصْلَتهم وصِلَتهم ، واحتجَّ بأنه عاهد الله تعالى بحِلْفة ، أن لا يصاهر غير ذى حِرْفة ، فقيَّض القدر لنَصَبى ووَصَبى ، أن حضر هذا الخُدَعة نادىَ أبى ، فأقسم بين رَهْطه ، أنه وَفْق شرطه ، وادَّعى أنه طالما نظم دُرَّة إلى درَّة ، فباعها ببَدْرة (مال كثير) فاغترَّ أبى بزخرفة مِحاله (كيده) وزوَّجنيه قبل اختبار حاله ، فلما استخرجنى من كِناسى (بيتى) ورحَّلنى عن أناسى ، ونقلنى إلى كِسْره (بيته) وحصَّلنى تحت أسره ، وجدته قُعَدة جُثَمة (لا يفارق البيت) وألفيته ضُجَعة (عاجزاً) نُومة . . . ومزَّق مالى بأسره ، وأنفق مالى فى عسره . . ولى منه سُلالة ، كأنه خلالة ، وكلانا ما ينال منه شَبْعَة ، ولا ترقأ له من الطَّوى (الجوع) دَمْعة ، وقد قُدْته إليك ، وأحضرته لديك ، لتَعْجُم (لتختبر) عُودَ دعواه ، وتحكم بيننا بما أراك الله » .

وتمضى المقامة على هذا النمط الفكه ، ويردّ الشيخ بقصيدة طويلة يدعى فيها أنه لا يُشَقُّ غُباره فى العلم والشعر ، وأنه طالما اكتسب الأموال بدرر كلامه ، غير أن سوق الأدب كسدت ، لانقراض جيل الكرام ، مما اضطره إلى بَيْع كل ما يملك هو وزوجته ، حتى لقد باع – كارهاً والدموع تترقرق فى عينيه - جِهَازها وكل ما دخلت به من أثاث ورياش أو ثياب فاخرة . وتنتهى المقامة بعطف القاضى على الشيخ وزوجته وفرضه لهما فى الصدقات حِصَّة .

والمقامات يشيع فيها الجناس والمحسنات البديعية ، كما تشيع فيها العذوبة ، ويخيل إلى قارئ الحريرى فى مقاماته كأنما جمع العربية كلها فى كِنانة أو حقيبة ثم نثر ألفاظها بين

يديه ، وأخذ يختار منها وينتخب أروع ما عرفت لغتنا من أساليب مسجوعة . وكأنما كان يعزفها على قيثارة عَزْفَ ملحن مبدع ، مما جعل معاصريه ومن جاء بعدهم يتخذونها النموذج النثرى الذى لا يجارَى فى غَرْس ذوق العربية فى نفوس الناشئة وكل ما يُطوَى فى هذا الذوق من إحساس بجمال الصياغة الأدبية النثرية . ومرَّ بنا فى الفصل الثانى من هذا القسم الخاص بالعراق أن لابن الخشاب البغدادى المتوفى سنة ٥٦٧ مبحثاً لغوياً فيما زعمه من أغلاط الحريرى فى مقاماته وأن لابن برِّىّ اللغوى المصرى المتوفى سنة ٥٨٢ ردًّا عليه انتصر فيه للحريرى .

وكان للحريرى بجانب مقاماته مجموع رسائل ، لم تحتفظ به يد الزمن ، غير أن العماد فى خريدته وياقوت فى معجمه احتفظا ببعض رسائله ، وأطال العماد الأصبهانى فى قطف منتخبات كثيرة من هذه الرسائل شغلت منه فى ترجمته له نحو أربعين صحيفة ، وقد سجل منها هو وياقوت رسالتين اشتهرتا فى عصر الحريرى وبعد عصره ، اختار كلمات الأولى منها من ذوات السين ولذلك سميت السينية ، واختار كلمات الثانية من ذوات الشين ، ولذلك سميت الشينية . والتكلف فيهما واضح لالتزام كلمات بعينها ، وكأنه فيهما يحجل فى قيود ثقيلة . غير أن ما وراءهما من رسائل يشهد له بسلاسة سجعه وحسن رصفه فى رسائله شأنه فى مقاماته ، كقوله فى وصف جواب أو رسالة من أحد أصدقائه :

«وصل الجواب . وخلتُه كتاب الأمان ، من الزمان ، فتلقيته كما تتلقى يَدُ الإنسان ، صحفَ الإحسان ، وصِكاكَ العطايا الحسان . لا : بل كما تتلقى أناملُ الرَّاح (الكف) كاسات الرَّاح (الخمر) من أيدى الصِّباح (الفاتنات) فى نسمات الصَّباح ، ومازلت أتمتع بحُلِيٍّ ودُرَر ، ووَشْيٍ وحِبَر (حرير) ومُلَح وزَهَر . فلله ما جمع فيه من أنوار ونُوَّار (زهر) ونضير (جميل) ونُضَار (ذهب) وتحسين وإحسان ، ومَعين (ماء عذب) ومَعان» .

وواضح ما فى هذا السجع من خفة ورشاقة بما يحتويه من مهارة فى انتخاب ألفاظه وتقصير عباراته بحيث يمتع الألسنة كلامه حين يجرى عليها متدفقاً فى عذوبة ، كما يمتع الآذان حين تستمع إلى جرسه ونبراته ، حتى ليشعر قارؤه أن متاعاً موسيقيًّا خلاباً يصبّ فى حنايا سجعه ، متاعاً يلذ الآذان والقلوب والأفئدة .

القسم الثالث

إيران

الفصل الأول

السياسة والمجتمع

١

دول متقابلة

أخذت تنشأ فى إيران منذ القرن الثالث الهجرى دول متقابلة ، كانت أولاها دولة الطاهريين بخراسان التى أنشأها طاهر بن الحسين قائد المأمون ، وخلفه عليها أبناؤه حتى سنة ٢٥٩ للهجرة ، وكانوا تابعين للخلافة ببغداد ، فكانوا يرسلون لها بالجبايات والضرائب . وفى سنة ٢٤٧ أقام يعقوب بن الليث الصفَّار الدولة الصفَّارية فى إقليم بلوخستان شرقىّ إيران ، ومدَّ حدودها حتى شملت كَرْمان جنوبى إيران ، وأفغاستان ، واستولى على خراسان التى كانت بيد الطاهريين . وخلفه أخوه عمرو حتى سنة ٢٨٦ إذ قضى عليه السامانيون قضاء مبرماً . ويغلب الحسن بن زيد العلوى علَى طَبرِسْتان منذ سنة ٢٥٠ ويقيم بها دولة علوية يخلفها عليها أخوه محمد لسنة ٢٧٠ حتى إذا كانت سنة ٢٨٧ هاجمه السامانيون ولم يلبثوا أن أسروه على أبواب جرجان ، وبذلك أجهزوا على تلك الدولة العلوية ، كما أجهزوا من قبل على الدولة الصَّفارية . وكُتب للسامانيين أن تظل دولتهم قائمة حتى سنة ٣٨٩ وبذلك تشغل شطراً من العصر العباسى الثانى إذ بدأت فى سنة ٢٦١ وظلت فترة طويلة فى عصر الدول والإمارات ، متقابلة مع الدولة البويهية التى سيطرت منذ فواتح هذا العصر على الأقاليم الجنوبية والجنوبية الغربية من إيران ، ومدَّت ذراعها إلى بغداد فسيطرت عليها وعلى العراق . وكانت تقابلها الدولة الزيارية التى سيطرت على طبرستان بعد زوال الدولة العلوية منها ، وقد مدّت سلطانها أحياناً على جرجان وبلاد الجبل . ولا يكاد القرن الرابع ينتهى حتى يبزغ نجم الدولة الغَزْنوية . وبذلك كانت تتقابل فى أوائل عصر الدول والإمارات دول السامانيين والبويهيين والزِّياريين والغزنويين .

الدولة السامانية (١)

يرجع نسب السامانيين – فيما يذكر البيرونى وغيره – إلى بهرام جوبين الذى كان مَرْزُبَاناً لِخسْرو أَبْرَويز (٥٩٠ – ٦٢٧ م) على ولاية أَذرِبيجان الفارسية ، وقد أسلم جدهم سامان خوداه أى سيد قرية سامان الواقعة فى إقليم بَلْخ بخراسان زمن خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥ – ١٢٤ هـ .) ولم يلبث اسمه أن لمع بين أصحاب أبى مسلم الخراسانى حين نهض بالدعوة للعباسيين فى أواخر العصر الأموى ، وتوفِّى ، فحلَّ ابنه أسد مكانه فى خدمة العباسيين حتى توفِّى لعصر الرشيد . ويصطنع المأمون أبناءه ، ويأمر عبد الله بن طاهر أمير خراسان أن يوليهم على ما وراء النهر ، فيولِّى أحمد فرغانة ونوحا سمرْقند ويحيى الشّاش وأُشْروسنة ، كما يولى أخاهم إلياس هَرَاة فى أفغاستان . ويغلب أحمد على أخويه نوح ويحيى ويصبح له أمر ما وراء النهر جميعه . ويتوفَّى سنة ٢٦١ ويخلفه ابنه نصر على ما بيده ، ويفزع إليه أهل بُخارى ، فيُرسل إليهم أخاه إسماعيل ، ويصبح نائباً له عليها . وتفسد الأمور بين الأخوين ، وتكون الغلبة لإسماعيل ، فيجرد أخاه من كل سلطان . وهو يُعَدّ المؤسس الحقيقى للدولة السامانية .

وتلتقى جيوش إسماعيل فى سنة ٢٨٦ للهجرة مع جيوش عمرو بن الليث الصفار صاحب كَرْمان والرىّ وبُلوخستان ، وتدور الدوائر على عمرو ، ويصير ما بيده من البلدان إلى إسماعيل ، ويُرْسل إليه الخليفة المعتضد بخلعة السلطنة . ولا يكاد يدور عام حتى تنشب الحرب بين إسماعيل ومحمد بن زيد العلوى صاحب طبرستان ، ويؤسر محمد بعد أن أصابته ضربات قاتلة ، ويموت متأثراً بجراحه ، ويستولى إسماعيل على إمارته . وبذلك تتسع الدولة السامانية سعة كبيرة ، مما جعل السامانيين يقيمون على ولاياتها نُوّاباً عديدين ، وبينما كانوا يقيمون فى بُخارى حاضرتهم كان قائد جيشهم يقيم فى نَيْسابور حاضرة الدولة الطاهرية القديمة . وتكلّل انتصارات إسماعيل بانتصار حاسم له على الترك سنة ٢٩١ للهجرة فقد زحفوا فى جيش جرار ، فنادى إسماعيل فى خراسان وبقية إمارته

---

(١) انظر فى الدولة السامانية الآثار الباقية للبيرونى وتجارب الأمم لابن مسكويه وابن الأثير وابن تغرى بردى فى مواضع متفرقة وتاريخ ابن خلدون (طبع دار الكتاب اللبنانى) ٤ / ٧١٢ وكتاب تاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى لبراون ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشواربى وإيران ماضيها وحاضرها لدونالدولبر (الترجمة العربية– طبع القاهرة) ص ٥٢ وتاريخ الأدب العباسى لنيكلسن ترجمة صفاء خلوصى (طبع بغداد) ص ٣٥ والحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى لآدم ميتز (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٢٤ وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان (نشر دار العلم للملايين ببيروت) ص ٢٦٢ .

بالنفير ، وجاءت الجنود من كل فَجٍّ ، وهجم بهم على الترك فى السَّحَر ، فقتل منهم مقتلة عظيمة ، وفرَّ الباقون لا يَلْوون . وإسماعيل أعظم أمراء هذه الدولة ، فهو الذى نظَّم علاقتها بالخلافة العباسية فى بغداد ، فلم يكن يؤدِّى لها ضرائب مالية ، بل كان يكتفى بإرسال بعض الهدايا ، ويقال إن هديته لسنة ٢٩٢ اشتملت على ثلثمائة بعير كانت تحمل صناديق المسك والعنبر والثياب وتحفاً كثيرة . وقد منحه الخليفة حقَّ ذكر اسمه معه فى خطبة الجمعة وحق نَقْش اسمه على الدنانير . وظل ذلك تقليداً للأمراء السامانيين ، وهو رمز واضح لاستقلالهم السياسى عن الخلافة ، ومع ذلك كانوا يفتقرون دائماً إلى عهود تولية من الخلفاء العباسيين حتى يكون حكمهم شرعيًّا ، وكانوا تبعاً لذلك سنيين مما جعلهم دائماً خصوماً للشيعة .

وخلف إسماعيل ابنه أحمد (٢٩٥-٣٠١ هـ .) وكان شجاعا ، فاستولى على سِجِسْتان ، غير أن غلمانه لم يلبثوا أن قتلوه ، فولى بعده ابنه نصر (٣٠١- ٣٣٢ هـ .) ومنه اقتطع مرداويج الزِّيارى طَبرستان سنة ٣١٦ واتُّهم باعتناقه للمذهب الإسماعيلى الشيعى ، فاضطره حرسه إلى التنازل عن السلطان لابنه نوح (٣٣٢-٣٤٣ هـ .) وهو أول سلاطين الدولة فى هذا العصر : عصر الدول والإمارات ، وكانت فيه شدة وعنف ، فلما خرج عليه أخواه وعمه إبراهيم سَمَلَ عيونهم جميعا . وخلفه ابنه عبد الملك (٣٤٣- ٣٥٠ هـ .) وكان ضعيفا . وولى بعده أخوه منصور (٣٥٠- ٣٦٦ هـ .) وأرسل إليه الخليفة المطيع لله بالخلع والتقليد . وأخذ البويهيون منذ ظهورهم يقتطعون من السامانيين كثيرا من أطراف دولتهم فى إيران ، فاستولوا على كَرْمان . غير أن خراسان ظلت فى أيدى السامانيين هى وما وراء النهر ، وظل سلطانهم قويا فيها حتى عهد منصور . وكانوا يمتازون بنشر العدل والأمن فى ربوع بلادهم . ويحكى ذلك ابن حوقل قائلاً : «ليس بأرض المشرق ملك أمنع جانبا ، ولا أوفر عِدَّة ، ولا أكمل عُدَّة ، ولا أنظم أسبابا ، ولا أكثر أعطية ، ولا أدرَّ طعاما ، ولا أدْومَ حسن نيات من السامانيين ، مع قلة جباياتهم ونُزور أخرجتهم ، وقلة الأموال فى خزائنهم ، وذلك أن جباية خراسان وما وراء النهر لأبى صالح منصور بن نوح فى وقتنا هذا ، لكل خراج يُقْبَض وضمان يُحْمَل فى كل ستة أشهر ، عشرون ألف ألف درهم . وعليه أربعة أطعمة فى كل سنة دارَّة ، غير مقطوعة ولا ممنوعة ، وكل طُعْم منها فى رأس تسعين يوما ، يُخْرج منه إلى غلمانه وقواده ولسائر المتصرِّفين خمسة آلاف ألف درهم ، وتستوعب أطعمتهم نصف جباياته المذكورة ، وهى عشرون ألف ألف درهم ، عن نفس طيبة ومسرة ظاهرة ، وغبطة بقيام المعدلة فيهم تامة . . ولهذه الحال أعمالهم مشحونة

بالقضاة والجُباة والكفاة والولاة منزَّلين على أرزاق تتساوى ، وأحوال فى المراتب تتدانى ، وذلك أن رزق القاضى وصاحب البريد والعامل على جباية الأموال من البنادرة (المدن) ووالى الصلاة والمعونة ورواتبهم واحد بقدر كل ناحية وحسب كل كورة ، وليس ينقص بعضهم عن بعض » . وهى شهادة قيمة من شاهد عيان غير متحيز ، إذ كان ابن حوقل شيعيا إسماعيليا ، وكان السامانيون سنيين ، خصوماً لشيعته ، ومع ذلك يشهد لهم شهادة صدق بالعدل الذى لا تصلح حياة الرعية بدونه ، كما يشهد لهم بحسن الإدارة وتنظيم الدولة وتسويتهم بين موظفيها فى الأرزاق والرواتب ، مما جمعهم لهم على الإخلاص والتفانى فى خدمتهم .

وخلف منصورا ابنه نوح الثانى (٣٦٦ - ٣٨٧هـ .) وكان صغيرا لا يتجاوز عمره ثلاث عشرة سنة ، وكأنما كان ذلك نذيرا بتضعضع شئون الدولة ، فقد أخذ القرخانيون حكام الترك بين فَرْغانة وحدود الصين ينازلون السامانيين فيما وراء النهر ، وكانوا قد أبلوا فى حربهم قبل ذاك طويلا ، وبنوا على حدودهم معهم رُبُطا كثيرة ، حتى إذا ولى نوح وهو غلام استفحل خطر الترك وأخذوا يكثرون من الإغارة على السامانيين ، وكان عبد الملك أبوه قد ولّى ألبتكين قائد جيوشه أمر غَزْنة ، فاستعان بمملوكه سُبُكْتِكين ، ولم يلبث أن خلفه على ولايته وأدارها إدارة حسنة ، فولَّى نوح الثانى ابنه محمودا الغَزْنوى خراسان ، وتوفَّى نوح ، واضطربت الأمور بعد وفاته ، بين ابنيه منصور وعبد الملك ، وعلت كفة الأخير ، غير أن إيلك خان حاكم الترك القرخانيين أغار على بخارى وأخذ عبد الملك أسيرا ، فخلا الجو لمحمود الغزنوى ، وضم خراسان إلى ممتلكاته سنة ٣٨٩ وبذلك انتهت الدولة السامانية .

الدولة البُوَيْهِيَّة [١]

لما خرج فرسان الديلم وبعض قوادهم لامتلاك البلاد لم يخرجوا إلى جنوبى بحرقَزْوين موطنهم فقط ، بل تغلغلوا فى إيران ، وكان فى مقدمة من خرجوا على بن بُوَيْه وأخواه الحسن وأحمد ، وعملوا أولا - كما مر بنا فى قسم العراق - مع القائد الديلمى ماكان بن كاكى ، حتى إذا هزمه مَرْداويج الزِّيارى حاكم طَبَرِسْتان وجُرْجان تركوه إلى خصمه قائلين له - كما روى ابن مسكويه - « الأصلح لك مفارقتنا إياك لتخفَّ عنك مئونتا ، ويقع كَلُّنا (عبئنا) على غيرك ، فإذا تمكنتَ عاودناك » . ووقع على بن بويه من مرداويج موقعا حسنا

(١) انظر فى الدولة البويهية المصادر المذكورة فى الفصل الأول من قسم العراق

فولاه على الكَرَج إلى الجنوب الشرقى من هَمذان سنة ٣٢٠ للهجرة ، ولم يلبث أن استولى فى السنة التالية على أرَّجان وفى تاليتها على فارس . وقُتل مرداويج فى سنة ٣٢٣ فانتهز على وأخوه الحسن الفرصة واستوليا على أصفهان والرَّىّ اللتين كانتا بيده . وكان أخوهما – كما مرَّ بنا فى قسم العراق – قد استولى على كَرْمان جنوبى إيران فى سنة ٣٢٢ ومنها استولى على الأهواز سنة ٣٢٦ وتآمر معه عامل واسط على اقتحامه بغداد ، وكانت تعانى من فوضى شديدة ، فدخل أحمد –كما مر بنا فى قسم العراق – بغداد دون مقاومة سنة ٣٣٤ وخلع عليه الخليفة المستكفى ولقبه معزّ الدولة ، ولقَّب أخاه عليا صاحب فارس عماد الدولة ولقَّب أخاهما الحسن صاحب بلدان الجبل والرى ركن الدولة .

وبذلك أصبح الشطر الأكبر من إيران والعراق فى قبضة البويهيين ، وأخذوا يزعمون أنهم من سُلالة الملوك الساسانيين ، ويذكر البيرونى أنهم انتسبوا إلى الملك الساسانى بهرام جور ، بينما ينسبهم ابن الجوزى فى كتابه المنتظم إلى سابور بن أرد شير . ويُرْوى أن بُوَيْه أباهم كان صَيَّادا بائسا على بحر قزوين لا يكاد يجد ما يتبلَّغ به . ويغلب أن يكون هذا النسب الشريف صنعه لهم بعض المتملقين من المؤرخين إرضاء لهم . وبلغ الإخوة الثلاثة من السلطان مبلغا عظيما ، حتى كانت السِّكَّة تُضْرَبُ بأسمائهم ، وحتى كانت أسماؤهم تُذْكَرُ مع الخليفة فى خطبة الجمعة .

وكانوا شيعة ويذهب ابن حَسْول إلى أنهم كانوا يعتنقون المذهب الزيدى[1] ، ولعله تأثر فى هذا الحكم بأن أصلهم من الديلم وكان المذهب الزيدى قد شاع هناك منذ خروج الحسن بن زيد فى أواسط القرن الثالث بتلك الديار ، ونميَّ المذهب بعده هناك أخوه محمد ، ثم الحسن الأطروش . والحق أن البويهيين كانوا إمامية اثنى عشرية على نحو ما سنوضح ذلك فى حديثنا عن التشيع ويقال إن معز الدولة فكر فى نقل الخلافة إلى العلويين ، فخوَّفه بعض أصحابه مغبة ذلك قائلا له : «متى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته ، فلو أمرهم بقتلك لفعلوه» فانصرف عما كان عزم عليه . وظل الخلفاء العباسيون فى يده وأيدى البويهيين بعده كأنهم أسرى .

وكانت رياسة البيت البويهى للأخ الأكبر عماد الدولة . فلما توفى سنة ٣٣٨ للهجرة ولم يترك عقبا انتقلت الرياسة إلى أخيه ركن الدولة ، كما انتقلت إليه ولاية عماد الدولة على فارس ، وجعلها ركن الدولة لابنه عضد الدولة ، حتى إذا حانت وفاته سنة ٣٦٥ قسم

(١) تفضيل الأتراك على سائر الأجناد لابن حسول (طبعة إستانبول) ص ٣٢ .

ملكه بين أولاده ، فجعل -كما مرَّ بنا في قسم العراق- لعضد الدولة أقاليم فارس وكرمان وأرَّجان ولأخيه مؤيد الدولة الريّ وأصفهان ولأخيهما فخر الدولة هَمذان والدِّينَور . وجعل لعضد الدولة الرياسة على أخويه ، وصدَعا لأمره ، فكانا لا يجلسان في حضرته ويقبِّلان الأرض بين يديه على عادة الديالمة ، ويخدمانه بالريحان . ولم تلبث الأمور أن فسدت بين عضد الدولة وبين ابن عمه بَخْتيار بن معز الدولة صاحب بغداد والعراق ، ونشبت بينهما الحرب وسقط في ميادينها بختيار ، فاستولى عضد الدولة على بغداد سنة ٣٦٧ . ووضع في سنة ٣٧١ أخوه فخر الدولة يده في يد قابوس بن وشمكير صاحب طبرستان ضده ، فوجه إليهما أخاه مؤيد الدولة فاستولى على بلادهما .

ومرَّ بنا في قسم العراق أن عضد الدولة المتوفى سنة ٣٧٢ أعظم الحكام البويهيين ، فقد اتسعت دولته حتى شملت كَرْمان وإقليم فارس والأهواز وبغداد والعراق وطبرستان ، وأنه أول من خوطب بالملك شاهنشاه (ملك الملوك) في الإسلام . وبلغ من شعوره بأمجاده واعتداده بنفسه أن فكر يوما في أن يتقلد خلافة المسلمين ، فقد ذكر ابن حزم في كتابه «نقط العروس في تواريخ الخلفاء» أنه أمر لذلك الحسن بن على البصرى المعروف باسم الجُعَل أن يؤلف كتابا في تقليد الخلافة في غير قريش أملا منه في أن يتسمَّى بها ، وألَّف الجُعَل الكتاب ، وانتشر الخبر إلى خراسان ، فصاح الناس في مجالس الفقهاء : واإسلاماه ! وامحمداه ! . وبلغ ذلك عضد الدولة ، فخشى الثورة عليه ، وسَمَّ الجُعَل ، وقنع الناس بموته وسكن الأمر[1] . وكانت فيه قسوة شديدة جعلت قائده المطهر بن عبد الله يقتل نفسه حين هزمه بعض الثوار خوفا ورعبا ، وبلغ من قسوته أنه خشى على ملكه من تدلهه بفتاة ، فأمر بتغريقها في غير شفقة ولا رحمة . وكان يضبط أمور دولته ضبطا دقيقا ، فطهَّر الطرق من اللصوص -كما مرَّ بنا في قسم العراق- ورفع الجباية عن قوافل الحجاج ، واحتفر لهم الآبار في الطريق إلى الحرمين ، وبنى كثيرا من المساجد الجامعة في مملكته وعُنى بالعمران وزَرْع البساتين عناية واسعة .

ويتوفى ويخلفه -كما مر بنا في قسم العراق- ابنه صمصام الدولة ، وتتوالى الأحداث ، فيتوفى سنة ٣٧٣ مؤيد الدولة دون عقب ، فيستدعى وزيره الصاحب بن عباد أخاه فخر الدولة من نيسابور ، ويسلمه أمور الجبل وطبرستان وكل مقاليد دولة مؤيد الدولة وبلاده . ويخرج في سنة ٣٧٦ على صمصام الدولة أخوه شرف الدولة ، ويصبح له الأمر

(١) انظر نشرتنا لنقط العروس في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة الجزء الثاني من المجلد الثالث عشر ، عدد ديسمبر ١٩٥١ ص ٧٦ .

من دونه حتى يتوفى سنة ٣٧٩ فيخلفه أخوه أبو نصر الملقب ببهاء الدولة وضياء الملة (٣٧٩ - ٤٠٣ هـ.) . وكان البويهيون يستكثرون من الألقاب ، ولم يكتفوا بتلقيب أنفسهم ، فقد أكثروا من تلقيب وزرائهم بمثل كافى الكفاة وأوحد الكفاة إلى غير ذلك . ومعروف أن السامانيين لم يكونوا يعنون بتلقيب أنفسهم ، ولكنهم تفنّنوا فى تلقيب قواد جيوشهم . وبلغ من شيوع ذلك بين حكام إيران أن نجد بغراخان التركى حين يثور على الدولة فى سنة ٣٨٢ يلقب نفسه شهاب الدولة .

وكان بهاء الدولة - كما مر بنا فى قسم العراق - ظالما سفاكا للدماء ، وهو أقبح ملوك بنى بويه سيرة ، وولى بعده ابنه سلطان الدولة (٤٠٣ - ٤١٥ هـ.) وانتزع الملك منه أخوه مشرف الدولة صاحب كَرْمان إلى أن توفى سنة ٤١٦ فخلفه أخوه جلال الدولة (٤١٦ - ٤٣٥ هـ.) . ولا يلبث محمود الغزنوى أن يستولى من يد مجد الدولة بن فخر الدولة على الرىّ وأصفهان وبلاد الجبل . وتعظم الفوضى فى عهد جلال الدولة ، ويخلفه أبوكاليجار محيى الدولة (٤٣٥ - ٤٤٠ هـ.) ويعظم فى عصره شأن السلاجقة ، ويستولون على كثير من إيران ، ويتوفى أبوكاليجار غمًّا ، ويخلفه الملك الرَّحيم ، ويدخل طغرلبك بغداد سنة ٤٤٧ للهجرة ، كما مرَّ بنا فى قسم العراق ، وبذلك يتقوَّض سلطان البويهيين فى العراق وإيران نهائياً .

الدولة الزِّياريَّة[1]

زعم البيرونى فى كتابه الآثار الباقية أن هذه الدولة تُنْسبُ إلى الملك الساسانى قُباذ الذى حكم من سنة ٤٤٨ إلى سنة ٥٣١ للميلاد ، وسواء أكان هذا النسب صحيحاً أوغير صحيح ، فإنها ترجع إلى أصل إيرانى ، وكان مؤسسها مَرْداويج بن زِيار الديلمى (٣١٦ - ٣٢٣هـ) أحد قواد الجبل الذين ظهروا فى شمالى إيران لذلك العهد ، وقد انتظم فى سلك القواد الذين عملوا تحت لواء أسْفار بن شيرويه الديلمى المتغلب على قَزْوين وديارها ، ولم يلبث أن وثب على أسفار وقتله ، وملك البلاد ، مؤسسا لأسرته إمارة فى طَبَرستان وجُرْجان جنوبى بحر قزوين أوكما يسمى بحر الخَزَر ، ومَدَّ أطراف إمارته

---

(١) راجع فى الدولة الزيارية الآثار الباقية للبيرونى وتكملة تاريخ الطبرى للهمدانى (طبع بيروت) وتاريخ ابن مسكويه وابن الأثير وابن خلدون وابن تغرى بردى فى مواضع متفرقة ومروج الذهب للمسعودى (طبعة دار الأندلس ببيروت) ٤/٨٢ وما بعدها ، وإيران ماضيها وحاضرها ص ٥٣ وآدم ميتز ص ٢٦ وبراون فى مواضع متفرقة من كتابه : تاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى ترجمة الشواربى .

جنوبا وغربا ، حتى الريّ وأصفهان وهَمذان وأرمينية وأذْربيجان وخُوزستان ، واتخذ أصفهان حاضرة لإمارته ، وكان فيه عتو شديد ، وكان شعوبيا شديد الكراهية للعروبة ، فزعم – فيما زعم – أنه سيستعيد مجد دولة العجم ويبطل دولة العرب فلا تقوم لها قائمة ، ووعد شيعته بالمسير إلى بغداد والقبض على الخليفة وتوليتهم ديار الإسلام ومدنه . وسأل عن تيجان الفرس فمُثِّلت له هيئتها ، فاختار هيئة تاج كسرى أنو شروان ،وأمر بأن يصنع له على مثاله تاج من الذهب محلًّى بالجواهر ، وصُنع له عرش من الذهب مرصع بالحجارة الكريمة . وكان يبطن المجوسية ، ولعله من أجل ذلك كان يحتفل بأعيادها احتفالات عظيمة ، واشتهر احتفال له بعيد ليلة الوقود المسمى بعيد السَّذَق ، وفيها كانوا يوقدون ناراً كثيرة . وقد أمر فى تلك الليلة بأن تُجْمَع الأحطاب من أنحاء إمارته إلى حاضرته أصفهان ، ونَصبها على التلال والجبال حولها وأشعلها وأشعل معها شموعا عظيمة اتُّخذت لها تماثيل وأساطين ضخمة . وتمادى فى بغيه وعتوه تماديا شديدا ، حتى أوغر صدور بعض غلمانه ، ففتكوا به فى الحمام سنة ٣٢٣ للهجرة ، ونهبوا خزائنه وأمواله . ويقال إن الديلم حزنوا عليه حزنا شديدا ، جعلهم يمشون حفاة أربعة فراسخ وراء تابوته .

ومرَّ بنا فى حديثنا عن الدولة البويهية أن قائده على بن بُوَيْه استولى عقب وفاته على أصبهان والرى وأن بلدانا كثيرة أخذت تسقط فى يده ويد أخويه إلا ما كان من طبرستان وجُرْجان ، فإنهما ظلتا فى يد خلفاء مرداويج الزياريين ، وقد خلفه أخوه وشمكير (٣٢٣– ٣٥٦ هـ .) ويقال إنه ركب فرسا وشبَّ وهو غافل عنه ، فسقط ميتا . وخلفه ابنه قابوس (٣٥٦– ٤٠٣ هـ .) وكان كاتبا وشاعرا ، ومازال البويهيون يُغيرون عليه حتى فرَّ من إمارته عام ٣٧١ إلى السامانيين ، وعاش عندهم مكرَّما حتى عام ٣٨٨ وفيه استرد ملكه . ويقال إنه عتَا وبغى ، واشتد بغيه وعتوه ، فأجمعت حاشيته على خلعه ، واضطرت ابنه منُوجهر (٤٠٣– ٤٢٦ هـ .) أن ينزل على إرادتها ،وحُبس قابوس فى إحدى القلاع حتى مات من شدة البرد . وظل منوجهر يرسل بالأموال إلى محمود الغزنوى استرضاء له ، وطلبه سنة ٤٢٠ فأوغل فى البلاد متحصنا منه بجبال وعرة ، وتركه محمود ولم يلبث أن توفى فخلفه ابنه أنو شروان (٤٢٦– ٤٣٠ هـ .) ومن يده استولى مسعود بن محمود الغزنوى على الإمارة ، كأن لم تكن شيئا مذكورا .

الدولة الغزْنويه [1]

كانت الدولة السامانية تستعين فى جيوشها بكثير من الترك وبذلك هيأت لهم – كما هيأ العباسيون من قبل – أن يصبح كثير من الوظائف المدنية بأيديهم ، وأن يصلوا إلى رتب القيادة فى الجيش ، وأن يقوِّضوها نهائيا بحيث تصبح أثرا بعد عين . وكان من آثار ذلك قيام الدولة الغزنوية ، فإن عبد الملك بن نوح الساماني (٣٤٣– ٣٥٠هـ .) كان قد عيَّن مملوكه التركى : ألبتكين قائدا عاما ، حتى إذا توفى عبد الملك مضى إلى غَزْنة بأفغانستان ، وأعلن نفسه أميرا عليها ، وعاجلته المنية ، فخلفه ابنه إسحق ، غير أنه لم يلبث أن توفى فقام عليها مملوك أبيه سُبُكْتِكين (٣٦٦ – ٣٨٧هـ .) وهو المؤسس الأول للدولة الغزنوية ، وقد بدأ أعماله بالاستيلاء على مدينة بُسْت فى أفغانستان بمنطقة سِجِسْتان القديمة ، وغنم فيما غنم منها الكاتب الفذَّ أبا الفتح البستى ، وكان يكتب لأميرها المغلوب ، فأصبح كاتبا للدولة الجديدة . وأخذ سُبُكْتِكين يغزو الهند . وسقط كثير من قلاعها فى يده ، وجرَّد حملتين كبيرتين لحرب ملك البنْجاب المسمى جَيْبال ، وأرغمه على الطاعة والصلح على أموال طائلة ، وأن يتخلَّى له عن إقليم كابُل فى شرقى أفغانستان ، وكان يُشْرف على الطرق المؤدية إلى السهل الهندى الخصيب . واستغاث به نوح بن منصور فى سنة ٣٨٤ ضد الثائرين عليه ، فنكَّل بهم ، مما جعله يلقِّبه بناصر الدولة ، ويولى ابنه محمودا على خراسان ويلقبه بسيف الدولة .

وتوفى سُبُكْتِكين ، فخلفه ابنه إسماعيل بعهد منه ، وكان ضعيفا ، فطلب إليه أخوه محمود أن يتنازل له عن الحكم لتلك الدولة المترامية الأطراف ، وكان محمود لايزال واليا للسامانيين على خراسان ، وأبى إسماعيل ذلك إباء شديدا ، فسار محمود على رأس جيش إلى غَزْنه وهزم أخاه واضطره إلى إعلان تنازله . ومحمود الغزنوى (٣٨٧– ٤٢١ هـ .) أكبر أمراء هذه الدولة وأبعدهم صيتا لمدِّه أطْنابَها شرقا وغربا وشمالا ، ولنهضته بالعلوم والآداب فى عصره نهضة واسعة . وكان مثل أبيه وأسرته والأتراك جميعا سُنِّيًّا ، ولعل ذلك ما جعله يضطهد الشيعة ، وخاصة الغلاة منهم ، واضطهد أيضا المعتزلة لأنه كان

---

(١) انظر فى الدولة الغزنوية الآثار الباقية للبيرونى وتاريخ ابن الأثير وابن خلدون وابن تغرى بردى وكتاب تاريخ اليمينى للعتبى مع شرح المنينى (طبعة القاهرة) فى مواضع متفرقة وكذلك تاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى لبراون ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشواربى فى أماكن متعددة وإيران ماضيها وحاضرها ص ٥٤ ، وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٢٦٦ .

على مذهب أهل السنة[١] . وكان الأمير منصور بن نوح الثانى السامانى قد انتهز فرصة مبارحته لخراسان لحرب أخيه ، فولىَّ عليها أحد أتباعه ، وتطورت الأمور ، كما مرَّ بنا فى حديثنا عن السامانيين ، بسقوطهم واستيلاء محمود على ديارهم ، واعترف محمود اعترافا كاملا بالسلطة الروحية للخليفة العباسى ، مما جعله يخلع عليه لقب : « يمين الدولة وأمين الملة » . ويذهب براون إلى أنه لقب نفسه بلقب « ظل الله فى أرضه » وكان يتلقب بلقب السلطان وهو أول من تلقب بهذا اللقب فى الإسلام . واتسع سلطانه حتى شمل إمارة خُوارزم الصغيرة والكَرج (جورجيا) وما وراء النهر وايران الوسطى والشرقية غير مبق للبويهيين سوى كَرْمان وفارس .

ويشتهر محمود بكثرة حروبه وفتوحه فى الهند وتمكينه للدين الحنيف فى ديارها . وهو يُعَدّ فاتحها الحقيقى ، أما فتح محمد بن القاسم الثقفى لها فى عهد الوليد بن عبد الملك فيُعَدّ غزوا أكثر منه فتحا حقيقيا ، ومما فتحه فى الهند المُلْتان وكَشْمير والبنْجاب . وكان يبتغى بفتوحه هناك نشر الإسلام وإعلاء كلمة الله لا طلب المغانم ، كما يزعم بعض المستشرقين . واستغل أموال هذه الفتوح الطائلة فى عمارة غزنة ومدن سلطنته وبناء المساجد الفخمة وفى إحداث نهضة كبيرة علمية وأدبية ، وفيه يقول الفردوسى مصورا استئثاره بقلوب شعبه وعظمة شأنه وملكه : «عند ما يُفْطم الصبى ويتوقف جريان لبن أمه على شفتيه يكون أول ما ينطق به ويجرى على الشفتين لفظ محمود . إنه كالفيل بجسده ومثل جبريل بروحه ، أما كفه فمزن هاطل ، وأما قلبه فنهر النيل بخيراته . إنه السلطان والملك الكبير الشان ، الذى جعل الشاة تَنْهَل مع الذئب من حوض واحد فى أمان» .

وعهد محمود من بعده لابنه محمد . وكان ابنه الأكبر مسعود غائبا بأصفهان ، فأحفظه هذا العهد بعد وفاة أبيه ، واشتبك مع أخيه فى حروب كُتب له فيها النصر ، وأصبح هو صاحب الدولة (٤٢١ – ٤٣٢ هـ .) وفتح – كما مر بنا – جُرْجان وَطَبرستان ، وقضى على الدولة الزيارية . وكانت أمواج السلاجقة بدأت فى مَدِّها ، ولم يستطع وَقْفها ، فقد هُزم أمامها فى عام ٤٣١ مما جعل رجال الدولة يعزلونه ويولون أخاه محمدا مكانه ثانية ، وسرعان ما قتلوه وولوا مسعودا مكانه ، وقتلوه بدوره ، وولوا مكانه ابنه مودوداً . ولم تمض سوى ثلاث سنوات حتى هزمه فى إثرها السلاجقة بخراسان هزيمة ساحقة فتركها لهم ولقائدهم «طُغْرُلْبك» . وأخذ نجم هذه الدولة فى الأفول ، فانسحب سلاطينها من إيران مكتفين بغزنة وبما وراءها من ديار الهند ، ومن أهمهم إبراهيم المتوفى سنة ٤٩٣ وكان حازما

(١) فى المنتظم ٨/٤٠ أنه أمر بحرق كتب المعتزلة والفلاسفة والروافض .

عادلا بعيد الهمة ، وخلفه ابنه مسعود الثالث (٤٩٣ – ٥٠٨ هـ .) وتولى بعده ثلاثة من أولاده متعاقبين هم شيرزاد المتوفى سنة ٥٠٩ وأرسلان المتوفى سنة ٥١٢ وبهرامشاه (٥١٢–٥٤٧ هـ .) واضطره السلطان السلجوقى سنجر سنة ٥٣٠ إلى الدخول فى طاعته ، ودفع إتاوة له صاغرا . وفى سنة ٥٤٢ رأى بهرامشاه بسوء تدبيره أن يقتل صهره الأمير الغورى قطب الدين محمد ، وكان ذلك نذير شؤم باندلاع الحروب بين الغوريين والدولة الغزنوية ، ومازالوا يعصفون بهم حتى اضطروهم فى سنة ٥٥٧ إلى الانسحاب نهائيا إلى عاصمتهم فى الهند «لاهور» وتعقبوهم هناك حتى قضوا عليهم بتلك الديار سنة ٥٨٢ للهجرة .

٢

دول متعاقبة

انتهى حوالى منتصف القرن الخامس للهجرة عصر الدول المتقابلة فى إيران التى كانت تتوزعها فيما بينها والتى كثيرا ما تحاربت وعاشت فى خصام ، وقد أخذت تحل محلها دول متعاقبة ، كانت كل منها تجمع شمل إيران وتنشر على بلدانها لواءً واحداً ، وكان لكل دولة من هذه الدول عصرها التاريخى ، وجدير بنا أن نلم بها فى إيجاز .

دولة السلاجقة[1]

السلاجقة طائفة من قبائل الترك المعروفين باسم الأوغوز ، ويسميهم مؤرخو العرب الغزّ تخفيفا ، ونرى اسمهم يتردد بين هؤلاء المؤرخين منذ أواخر القرن الرابع الهجرى ، وهم ينسبون إلى رئيسهم سَلْجوق وقد نزل بهم قريبا من بحر الخزر (بحر قزوين) فى الهضاب المتصلة بنهرى سَيْحون وجَيْحون متخذا مدينة «جَنْد» حاضرة له . وأخذت بعض جموعه تنزل فيما وراء النهر وتمتد إلى القرب من بخارى فى خراسان . وكانوا يعتنقون المذهب السنى ، وكانوا بَدْوًا فاعتمدوا على الوزراء فى حكمهم ، وأخذ شأنهم يعظم ، مما جعل محمودا الغزنوى يتنبه لهم ، خوفا من استيلائهم على بعض دياره فى خراسان . وكان سلجوق قد توفى وخلفه ابنه إسرائيل ، فكاتبه محمود وزين له أن يقدم عليه ، وما كاد يلقاه حتى قبض عليه وزجَّ به فى غياهب السجون ، وظل سجينا بإحدى قلاع الهند حتى

(١) انظر فى السلاجقة المصادر المذكورة فى الفصل الأول من قسم العراق .

توفى سنة ٤٢٢ . وكان محمود قد توفى قبله ، وصمم السلاجقة بقيادة طُغْرُلْبَك على الانتقام ، فاشتبكوا مع مسعود الغزنوى فى سلسلة حروب انتهت باستيلائهم على خراسان فى سنة ٤٢٩ وحاول مسعود أن يسترجعها ، ولكنه هُزم هزائم متوالية فى السنتين التاليتين ، وأعلن طغرلبك نفسه ملكا على البلاد ، كما مرَّ فى قسم العراق . ومضى يستولى على ما كان بيد الغزنويين من إيران الوسطى والجنوبية . واستولى على طبرستان وجرجان وبلاد الجبل . واعترف الخليفة «القائم بأمر الله» بتلك الدولة السنية الناشئة وأمر بأن يذكر اسم طُغْرلبك فى الخطبة وأن يُضْرَب اسمه على النقود . وقضى طغرلبك على البويهيين نهائيا –كما مر بنا فى قسم العراق– ودخل بغداد فى سنة ٤٤٧ فى موكب رسمى ، وأجلسه الخليفة معه على العرش –كما مر بنا– وخلع عليه الخلع السنية وكان يقوم بالترجمة بينهما وزير طغرلبك محمد بن منصور الكُنْدُرِىّ . واتخذ طغرلبك مدينة الرىِّ حاضرَة له ، وولى على البلدان إخوته وأبناءهم ، ودانت له العراق كما دانت له إيران ، وكان وزيره الكندرى هو الذى يصرِّف الأمور فى دولته الواسعة وكان أديبا شاعرا ، وكان يظهر التسنن غير أنه كان فى حقيقته مُعْتزلياً .

وتوفى طُغْرُلْبَك سنة ٤٥٥ وخلفه –كما مر بنا فى قسم العراق– ابن أخيه «أَلْب أَرْسلان» وكان له أخ يسمى سليمان ، حاول الوزير الكندرى أن ينصبه على العرش من دونه ، فلما استولى ألب أرسلان على صولجان السلطنة قبض على الكندرى ، وأرسل به إلى مَرْو ، واستبقاه بها سنة ثم أمر بقتله . وكان أَلْب أَرْسلان (٤٥٥– ٤٦٥ هـ .) بطلا مغوار قضى على كل من ثاروا عليه ، سواء فى هَراة أو فيما وراء النهر أو فى فارس وكَرْمان . وخَضَد شوكة الفاطميين مستوليا منهم على حلب ودمشق ومكة والمدينة . وأعد الروم له جيشا كثيفا قوامه مائتا ألف رجل يتقدمهم الإمبراطور البيزنطى «ديوجينس رومانوس» فأسرع إليهم فى خمسة عشر ألفا من صفوة جنوده ، والتقى بهم بالقرب من مدينة خلاط فى أرمينية ، وعصفت جنوده –كما مرَّ بنا فى قسم العراق– بهذا الجيش الضخم مُنْزلة به هزيمة ساحقة ، استسلم على إثرها الإمبراطور خاسئا ذليلا ، ونزل على الشروط التى طلبها أَلْب أَرْسلان ومنها أداء مليون دينار فدية لنفسه وعَقْد معاهدة لمدة خمسين عاما يتعهد فيها الإمبراطور أن تكون جيوشه على استعداد دائم لمعونة أَلْب أَرْسلان وأن يحرِّر جميع أسرى المسلمين . وبينما كان يحارب الترك عند نهرجيحون منزلا بهم هزائم متوالية وافاه القدر . وكان يدبِّر له هذه السلطنة المترامية الأطراف وزيره نظام الملك ، وكان من أعظم رجال الإدارة والسياسة ، وكان عدوا للرافضة والإسماعيلية سنى العقيدة ، واشتهر –كما مرَّ

بنا فى قسم العراق – بتأسيسه للمدرسة النظامية ببغداد التى أحدثت بها نهضة علمية واسعة ، وأسس على غرارها مدارس اشتهرت باسمها فى أصفهان ومَرْو ونيسابور وبَلْخ وهَراة وَطَبرستان ، وعمل على تشجيع الشعراء والأدباء وألغى كثيرا من الضرائب التى كانت ترهق الشعب ، وكان أشعريا شافعيا ، فازدهر المذهبان الشافعى والأشعرى لعهده .

وخلف ألب أرسلان – كما مرَّ فى قسم العراق – ابنه مَلِكْشاه (٤٦٥ – ٤٨٥ هـ) وكان فى الثامنة عشرة من عمره فأدار له دولته الوزير نظام الملك إدارة حسنة ، وكان ملكشاه يُعْجب بأصفهان ويقيم فيها أكثر أيامه ، وخرج عليه بعضِ أقربائه ، ولكنه انتصر عليهم جميعا . وأمر فى سنة ٤٦٧ ببناء المرصد العظيم الذى وضع فيه عمر الخيام وجماعة من العلماء التقويم الجلالى ويرجع تاريخه إلى عيد النَّيْروز فى سنة ٤٧٢ . وكانت جيوشه ماتنى غادية رائحة ، واستولت على كثير من مدن ما وراء النهر وفى مقدمتها سَمَرْقند ، وبلغ من خوف إمبراطور بيزنطة منه أن أرسل إليه وهو فى مدينة «كاشغر» النائية الجزية المفروضة على بلاده . ومما يدل على ما وصلت إليه إمبراطوريته الواسعة من علو الشأن أن أصحاب السفن الصغيرة الذين عبروا به وبجيشه إلى الضفة المقابلة لهم من نهر جَيْجون أخذوا أجرتهم صُكوكا تدفع لهم فى أنطاكية بديار الشام حتى يروا مَدَى اتساع السلطنة . ويقال إنه ركب جواده على شاطئ اللاذقية ، وخاض به البحر شاكراً ربَّه على ما أنعم به عليه من هذا الملك الواسع الذى امتدّ من بلاد التتار والصِّين إلى ديار الشام على البحر المتوسط ، وعُنى بحفر الآبار فى طريق الحجاج وتخفيف الضرائب عنهم . ودسَّ خصوم نظام الملك له عنده ، فأعفاه من الوزارة ، ولم تلبث أن امتدت إليه يد أحد الإسماعيليين أعدائه فى الظلام ، فطعنته طعنة نجلاء كانت سببا فى وفاته سنة ٤٨٥ ولم يلبث ملكشاه أن توفى بعده بشهر واحد . وبذلك ينتهى – كما مرَّ بنا فى قسم العراق – عهد السلاحقة العظام .

وقام بالسلطنة بعد ملكشاه ابنه بَرْكياروق أكبر أولاده (٤٨٥ – ٤٩٨ هـ .) ولُقِّب بركن الدولة ، وخالفه عمه تُتُش صاحب دمشق وأخوه محمد صاحب أذْربيجان ، وله معهما وقائع كُتب له فيها النصر ، وكان يتعقب الباطنية الإسماعيلية – كما أسلفنا فى قسم العراق – وقتل منهم فى بعض السنوات مئات ، وخلفه أخوه محمد (٤٩٨ – ٥١١ هـ .) ومضى مثله يتعقب الإسماعيلية ويستولى على حصونهم ، وتولى السلطنة بعده ابنه محمود (٥١١ – ٥٢٥ هـ .) وكان شديد الحمق ، فحارب عمه سِنْجَر أمير خراسان المغوار ودارت عليه الدوائر ، غير أن عمه عفا عنه وولاه العراق . وامتد حكم سنجر أربعين سنة (٥١٣ – ٥٥١ هـ .) واستقل عنه فى سنة ٥٣٥ ملك خوارزم أَتْسِز ، وحاربه الترك فى سنة

٥٣٦ واستولوا منه على مرو ونيسابور وَسَرَخْس ، وحاربه الغُزّ فى سنة ٥٤٨ وأسروه ، وظل فى أيديهم إلى أن هرب سنة ٥٥١ ولم يلبث أن قَضى نَحْبه . واشتهر فى هذه الدولة أربعة من سلاجقة كَرْمان هم تُورانشاه المتوفى سنة ٤٩١ وابنه إيرانشاه المتوفى سنة ٤٩٥ وأرسلانشاه المتوفى سنة ٥٣٧ وابنه مغيث الدين محمد المتوفى سنة ٥٥١ وقد تجزأت الإمبراطورية السلجوقية فى سرعة شديدة ، حتى فقد الأمراء سلطانهم ، وحتى استبدَّ بهم فى كل بلد نوابهم المسمون باسم الأتابكة .

الدولة الخوارزمية [1]

مؤسس هذه الدولة أحد مماليك السلطان ملكشاه ، وهو أنوشتكين ، حين جعله هذا السلطان واليا على خوارزم سنة ٤٧٠ فأسس بها دولة ملوك خوارزم أو خوارزمشاه ، واستطاع خلفاؤه أن يتخلصوا من كل صلة تربطهم بالسلاجقة ، ومن أهم ملوكهم أَتْسِز (٥٢١ – ٥٥١ هـ .) وله وقائع مع سِنْجر السلجوقى ، وتمكن أحيانا من الاستيلاء على مَرْو ونيسابور ، ويقترن باسمه كاتبه المشهور رشيد الدين الوَطْواط . وقد تمكن من جاءوا بعده من القضاء على سلطان السلاجقة فى إيران وفرض سيطرتهم عليها ، وخاصة الأجزاء الشمالية ، وكان آخرهم جلال الدين مَنْكُبِرتى الذى صمد صمودا باهرا للغزو التتارى من سنة ٦١٧ إلى سنة ٦٢٩ حين استسلم ولكن بعد نضال عظيم .

الدولة المغولية

المغول قبائل رحل كانت تنزل فى قلب آسيا على حدود الصين فى الإقليم المسمى منغوليا ، وكانت تعيش على الرعى والصيد ، واستطاع جنِكزخان أن يجمع شمل هذه القبائل ويفتح بها بلاد الصين – كما مر فى القسم الخاص بالعراق – ثم يغير بها على مملكة خوارزم ويقوِّض هذه المملكة ، كما أغار بها على خراسان ، وامتدت سيولها تجرف كل ما أمامها حتى الرَّىِّ وهمذان ، منزلة فظائع وحشية ، وبحقٍّ يقول ابن الأثير فى حوادث سنة ٦١٧ إن فتوح التتار فى بلاد الإسلام أعظم مصيبة حلَّت بالعالم . وامتدت أيام جنكِزْخان فى إيران

(١) انظر فى الدولة الخوارزمية ابن الأثير وابن خلدون والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى وزبدة النصرة للبندارى (مختصر تاريخ دولة آل سلجوق للعماد الأصبهانى) وذيل الروضتين لأبى شامة فى مواضع متفرقة وسيرة السلطان جلال الدين منكبرتى للنسوى . وراجع تاريخ العراق فى العصر العباسى الأخير للدكتور بدرى محمد فهد (طبع بغداد) والشرق الإسلامى قبيل الغزو المغولى لحافظ حمدى (طبع القاهرة) وتاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى لبراون .

من سنة ٦١٦ إلى سنة ٦٢٥ وهى السنة التى قضى نحبه فيها بالصين بعد أن حكم المغول اثنين وعشرين عاما . واجتمع أمراء المغول بعد وفاته من البلاد الشاسعة التى افتتحوها فى الصين وما وراء النهر وخراسان وإيران وخوارزم ، واتفقوا جميعا على أن يتولى بعده ابنه أوكدى (أوكتاى) (٦٢٥ — ٦٣٩ هـ) . واتخذ عاصمة له قراقورم وأخضع لحكمه — كما مرَّ بنا فى قسم العراق — أوربا الشرقية : روسيا وبولندا ، ونكلت جيوشه بالناس فيهما تنكيلا شديداً على نحو ما نكلت جيوش أبيه بالإيرانيين والصينيين ، ويقال إن آذان ضحاياه فى بولنده بلغت مائتين وسبعين ألفا . وحين توفى خلفه ابنه كيوك وظل يدير هذه الدولة المترامية الأطراف حتى وفاته سنة ٦٤٦ وخلفه ابن عمه منكو سنة ٦٤٩ فأرسل أخاه هولاكو إلى إيران فعمل على الاستقلال بها مع تبعيته لأخيه هو وأبنائه ، وأخذ يوطد حكمه بها منذ سنة ٦٥٤ بادئا باستنزال الإسماعيلية الملقَّبين بالحشاشين من معاقلهم فى «ألموت» وغيرها والقضاء عليهم قضاء نهائيا . ولم يلبث أن أرسل إنذارا إلى الخليفة «المستعصم بالله» أن يسلم نفسه إليه ويعطيه مفاتيح مدينة بغداد . وتقدم إليها فى سنة ٦٥٦ فاكتسحها كما مر بنا فى الحديث عن العراق ، بعد حصار دام نحو شهر وقَتَلَ فيه هو وجنوده — كما يقول المؤرخون — نحو مليون من سكانها ، وقتلوا الخليفة وأكثر أهله — كما مر بنا فى قسم العراق — وحرقوا قصوره ، ونُهبت البلدة وما كان بها من الكتب ، وكان ذلك إيذانا بدمار الحركة العلمية فيها وأفول نَجْمها .

الدلة المغولية[1] الإيلخانية

اتخذ هولاكو لقب إيل خان (تابع الخان) وهو اللقب الذى ورثه عنه خلفاؤه من بيته على إيران والعراق مما جعل دولتهم فيهما — تسمى دولة الإيلخانيين ، وأرسل فى سنة ٦٥٨ جيشا كثيفا للاستيلاء على سوريا ومصر — كما مر بنا فى قسم العراق — واستولى على أكثر البلاد السورية ، غير أن جيش مصر الباسل بقيادة قُطُز والظاهر بيبَرْس تصدى للمغول فى عين جالوت بفلسطين وهزمهم هزيمة ساحقة ، وتعقبهم فى سوريا حتى ردهم عنها إلى العراق وما وراءه . وتوفى هولاكو فى عام ٦٦٤ للهجرة ، فخلفه ابنه أَبْغا (٦٦٦ — ٦٨٠ هـ.) وقد وجه إلى سوريا حملات باءت كلها بالإخفاق الذريع أمام الجيوش المصرية ، إذ كانت دائما تنزل بها ضربات قاصمة . وأخذت من حينئذ تنفصم الصلات التى كانت تربط الإيلخانيين فى إيران بأباطرة المغول فى (قراقورم) . وبموت أَبغا ينتهى العهد الوثنى للمغول

(١) راجع فى الدولة المغولية الإيلخانية المصادر المذكورة فى الفصل الأول من قسم العراق .

وحكامهم فإن خلفه بوكدار أخاه اعتنق الدين الحنيف ، ولم يُمْض فى الحكم سوى عام واحد ، إذ قتلته يد آثمة . وولى بعده أخوه أرغون (٦٨١ - ٦٩٢) وفى عهده حظى المسيحيون النسطوريون بعطف واسع ، وخلفه أخوه كَيْخَتّو لمدة سنتين ، ثم بَيْدو وقُتل سريعا . وولى بعده - كما مرَّ فى قسم العراق - غازان (٦٩٣ - ٧٠٣) الذى أتاح لدولة الإيلخانيين فى إيران والعراق عهدا ذهبيا عظيما ، إذ اعتنق الإسلام وعمل على نشره بين المغول نشرا واسعا ، وعُنى بأن تصبح تبريز عاصمته من أجمل المدن الإسلامية ، وقد بنى فيها رباطا وبيمارستانا ومدارس دينية ومرصدا كبيرا ومكتبة فخمة ، وأقام لأصحاب العلوم والفنون ضاحية مؤلفة من ثلاثين ألف بيت لعلماء الدين والفقهاء والمحدثين والقراء والأساتذة والطلاب . وخلفه أخوه خُدابَنْدا سنة ٧٠٣ واهتم مثله بنهضة العلوم والفنون ، واتخذ عاصمة له مدينة بناها بالقرب من قزوين سماها السلطانية ، واحتفل فى بنائها والاهتمام بها احتفالاً واسعاً . وتوفى سنة ٧١٦ وتولى بعده ابنه بوسعيد حتى سنة ٧٣٦ للهجرة ، وكان فى الثانية عشرة من عمره ، فلم يستطع ضبط البلاد ، وأخذ أبناء عمومته يتناحرون على الولايات والبلدان ، وكونوا دويلات صغيرة ، كان من أقواها الدولة المظفرية فى كَرْمان التى استطاعت أن تبسط نفوذها على فارس والجزء الجنوبى من إيران . وتظل البلاد فى فوضى نحو نصف قرن من الزمان ، إلى أن يغزو تيمورلنك إيران والبلاد العربية .

الدولة المغولية التيمورية[1] وما تلاها من الدول

مؤسس هذه الدولة تيمورلنك المولود - كما مر فى قسم العراق - فى كَش من أعمال ما وراء النهر بالقرب من سَمَرْقند سنة ٧٣٦ للهجرة ، وهو من سلالة جنكزخان ، كان أبوه واليا لكش ونواحيها ، واستطاع تيمورلنك بذكائه وشجاعته أن يستميل حكام ما وراء النهر ، فيقربوه منهم ويستوزروه فى بعض الأحيان . ومازال يعمل على أن يجمع زمام السلطة فى يده - كما مر فى قسم العراق - حتى غدا الحاكم الوحيد لإقليم ماوراء النهر جميعه سنة ٧٧١ للهجرة ، ومدَّ سلطانه إلى خراسان فى سنة ٧٨٢ واستولى على مازندران وسِجِسْتان وجُرْجان فى سنة ٧٨٤ ولم يلبث فى سنة ٧٨٨ - كما مر فى قسم العراق - أن استولى على فارس وأذربيجان . وبدأ منذ سنة ٧٩٥ ما يعرف بحرب السنوات الخمس ، فأغار على

(١) انظر فى الدولة المغولية التيمورية المصادر المذكورة فى الفصل الأول من قسم العراق . وانظر فى الدول التالية تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٤٢٠ وفيليب حتى ٢/ ٨٢٥ وإيران ماضيها وحاضرها لدونالد ولبر ص ٧٦ وما بعدها .

أقاليم الخزر وآسية الصغرى واستولى على الرُّها وَتَكْريت وآمد وحاصر بغداد – كما مر فى قسم العراق – سنة ٧٩٥ ، وسار فى سنة ٨٠١ إلى الهند وعبر نهر السند واستولى على دِلْهى . ثم اتجه شرقا فى سنة ٨٠٣ فاستولى على سيواس ومَلَطْية فى آسية الصغرى ، ودخل ديار الشام ، واستولى على حَلب وحَماة وحِمْص وبعلبك ودمشق . ولم يفكر فى متابعة حملاته إلى الجنوب حتى مصر ، وكأن ذكرى هزيمة أسلافه التتار فى عين جالوت أمام المصريين كانت لاتزال ماثلة نصب عينيه ، ويستولى على بغداد . ويتجه إلى آسية الصغرى فى سنة ٨٠٤ وتدور رحى حرب طاحنة بينه وبين العثمانيين بقيادة بايزيد ويُهْزَمُون هزيمة ساحقة . ويعود تيمورلنك إلى عاصمته سمرقند سنة ٨٠٧ ويعدّ حملة كبيرة على الصين ، وتسير الحملة فى وجهتها ، غير أن أجله يوافيه ، فيتوفَّى عن واحد وسبعين عاما بعد أن حكم هذه الإمبراطورية الضخمة ستا وثلاثين سنة . وقد ملأ سمرقند بالعمائر الفخمة ، وضريحه فيها آية من آيات العمارة الرائعة . وكانت فتوحاته أقل بقاء وأقصر عمرا من فتوحات جنكِزخان وخلفائه ، فبمجرد أن مات رجعت سوريا وآسية الصغرى إلى حكامها الأصليين .

وتوزع ابناه : شاه رخ وميران شاه إمبراطوريته – كما مر فى قسم العراق – فكان شطرها الشرقى الشامل لإيران من نصيب شاه رخ ، بينما كانت العراق وأذربيجان والقوقاز من نصيب ميران شاه . وتوفى سنة ٨١٠ فضم نصيبه شاه رخ إلى سلطانه ، وكان يتخذ هراة بأفغانستان عاصمة له إلى أن توفى سنة ٨٥١ للهجرة . وخلفه ابنه أُلُغ بك (٨٥١ – ٨٥٣هـ) وكان راعيا كبيرا للفن والأدب الفارسيين . وولى بعده بو سعيد (٨٥٤ – ٨٧٤ هـ) وكان سلطانه وطيدا فى دياره إلى حدود الهند . وأعقبه حسين بايقرا (٨٧٤ – ٩٠٢ هـ) وفى عهده أصبحت سمرقند مركزا مهما من مراكز الثقافة الإسلامية . ولم تلبث هذه النهضة أن توقفت فإن قبيلة أوزبك التركمانية بقيادة زعيمها شيبانى قضت على التيموريين فى الشرق ، وفرّ آخر حكامهم سنة ٩٠٦ إلى الهند وأسس هناك دولة المغول العظام .

وكانت قبيلة قرايوسف التركمانية قد استولت على غربى إيران ، واتخذت تبريز عاصمة لها . ولم يلبث قرايوسف أن استولى على العراق سنة ٨١٣ وظل التركمان يحكمونه هو وغربى إيران كما مر بنا فى قسم العراق حتى ظهر إسماعيل الصفوى (٩٠٧ – ٩٣٠هـ) واستولى على إيران جميعها وأسس بها دولة جديدة هى الدولة الصفوية . وفى قسم العراق حديث عنه وعن دولته أكثر تفصيلاً ، وكانت تمتد شرقاً إلى هَرَاة وغربا حتى شملت العراق جميعه . وجعل دولته دولة إيرانية قومية ، متخذا العقيدة الإمامية الشيعية عقيدتها الرسمية ، مما دفعه هو وخلفاؤه إلى الاشتباك فى حروب متوالية مع الترك العثمانيين السنيين . وظل حكم الدولة

الصفوية فى إيران نحو مائة وأربعين عاما ، وخلفهم عليها الأفغانيون ، وجاء فى إثرهم الأفشاريون ثم الزنديون ، وخلفهم القاجاريون فى أواخر القرن الثانى عشر وظلوا نحو مائة وثلاثين عاما وفى كل هذه الحقب وخاصة منذ حكم الصفويين خمد النشاط الأدبى العربى فى إيران خموداً تاماً .

٣

المجتمع

كان يتكون المجتمع الإيرانى فى هذا العصر من ثلاث طبقات : طبقة عليا ، تتضمن الأمراء الحكَّام والوزراء والقادة والولاة على البلدان وكبار رجال الدولة والإقطاعيين ، وطبقة وسطى تتضمن موظفى الدواوين وأوساط التجار والصناع ورجال الحسبة والقضاء ، وطبقة دنيا تتضمن العامة من أصحاب الحرف ومن الزراع والخدم والرقيق ، ويدخل أهل الذمة فى الطبقتين الأخيرتين بحسب أعمالهم .

وكانت الطبقة الأولى منعمة مترفة ترفا واسعاً ، وكان فى أعلى درجاتها الأمراء الحكام الذين دانت لهم رقاب العباد ، وصُبَّت الأموال التى تُعَدّ بالملايين فى خزائنهم ، وكانت مصادرها متعددة ، إذ كانوا يجمعون الضرائب من الناس ، ضرائب الأرض ، وكان لها نظام خاص هو نظام الزكاة الإسلامى ، وكان لها فى كل مدينة ديوان هو ديوان الخراج ، وهو بمثابة خزانة مالية للدولة أو الإمارة ، وكانت أعْطيات الجند ونفقات البلدة تؤخذ منه ، ويُحْمَلُ ما يتبقَّى إلى ديوان الخراج أو بيت المال فى حاضرة الدولة ، وهناك ينفقه الأمير على الجيش وحاجات الإمارة . وما بقى منه يصبح رهن حياته المترفة فى القصر دون رقيب . وبجانب ضرائب الأرض كانت هناك ضرائب كثيرة على الصادرات وعلى بعض الواردات من الرقيق ومن عروض التجارة . ولابد أن نلاحظ كثرة الحروب فى العصر وأن إمارات بحالها كانت تكتسح أحياناً وتدخل فى سلطان هذا الحاكم البويهى مثلاً أو الحاكم الغزنوى أو السامانى أو السلجوقى ، وحينئذ تكتظ خزائن هذا المحارب المنتصر بالأموال الطائلة . وظل ذلك طوال العصر بل تفاقم فى عهـــــد التتار ومن تلاهم . وكان يتبع الإمارة عادة كثير من الضِّياع وكانت ثمارها جميعها تعود إلى الأمير وخزائنه . وكثرت فى تلك العصور مصادرة أموال الوزراء حين يُعْزَلون أو يموتون ، وكذلك الكتاب والعمال ، فكانت أموالهم وإقطاعاتهم وضياعهم تصبح ملكاً للدولة .

ولعل فى ذلك ما يوضح كيف أن الأموال فى خزائن الأمراء أو على الأقل فى خزائن

بعضهم كانت تُكال كيلاً ، وأيضاً ما يوضح النصوص التى نقرؤها فى كتب التاريخ عن تركات بعض هؤلاء الأمراء وما أنفقوه أحياناً فى أعراسهم أو أعراس أبنائهم وفى بناء قصورهم ، فمن ذلك ما يُرْوَى عن فخر الدولة البُوَيْهى صاحب همذان والجبل والدِّينور وجُرْجان من أنه خلَّف حين مات مليونى دينار وثمانمائة وخمسة وسبعين ألفاً ومائتين وأربعة وثمانين ، كما خلف من الجواهر واليواقيت واللآلئ ما قيمته ثلاثة ملايين دينار ، ومن الفضة ما وزنه ثلاثة ملايين ، ومن الثياب ثلاثة آلاف حمل [١] . أما أخوه مؤيد الدولة فيروى أنه أنفق فى عرس زواجه من ابنة عمه معز الدولة السيدة زبيدة سبعمائة ألف دينار [٢] . أموال كانت تسيل إلى خزائنه من إمارته الإيرانية فى الرَّىِّ وأصفهان لا يعرف لها قيمة ، ولذلك يبذِّرها ويتلفها حسب هواه . وعظم شأن أخيهما عضد الدولة ، فخضعت لسلطانه البلاد الممتدة من بحر قزوين إلى جنوبى إيران وحتى العراق وعُمان مما جَعله يتلقب بشاهنشاه (ملك الملوك) لأول مرة فى الإسلام ، وكان دخله — فيما يُرْوَى — ثلثمائة وخمسة وعشرين مليونا من الدراهم ، وقيل بل كان اثنين وثلاثين مليوناً من الدنانير ومائة ألف درهم [٣] . وكان عضد الدولة بدوره ينفق الملايين على بَذخه ، وخير ما يصور ذلك قصره الذى بناه بشيراز ، فقد رآه المقدسى بعد موته بفترة قليلة ، وبُهت حين رآه ، وفى ذلك يقول : «بنى عضد الدولة بشيراز داراً لم أر فى شرق ولا غرب مثلها ، ما دخلها عامى إلا افتتن بها ، ولا عارف إلا استدل بها على نعمة الجنة وطيبها . شقَّ فيها الأنهار ونصَب عليها القباب ، وأحاطها بالبساتين والأشجار ، وحفر فيها الحياض ، وجمع فيها المرافق والعُدد . وسمعت رئيس الفراشين يقول : فيها ثلثمائة وستون حجرة ، كان مجلسه كل يوم فى واحدة إلى الحول . . وطُفْتُ فيها ورأيت الأنهار تطَّرد فى البيوت والأروقة . وأظنه بناها على ما سمع من أخبار الجنة ، وبان بَوْنًا بعيداً وضَلَّ ضلالاً مبيناً» [٤] .

وهذا القصر صورة من صور الترف المفرط ، فالأمير لا يريد أن يجلس ببيته فى حجرة مهيَّأة لجلوسه كل يوم ، بل يريد أن تتغير ، بحيث لا يعود إليها إلا فى عام تال ، وكأن الحُجَر فى القصر أصبحت كأزيائه ، فهو يبدِّلها كل يوم ، وطبعاً لا يهمه الشعب الكادح وراء هذا القصر ولا تهمه مصالحه ، وإن كان عضد الدولة قد اشتهر بضبطه الأمن والنظام فى ربوع إمارته الواسعة ، كما اشتهر بعنايته بالثقافة والعلم والعلماء ، ولكن لاشك أنه كان

(١) النجوم الزاهرة ١٩٧/٤ والمنتظم ١٩٨/٧ .

(٢) المنتظم ١٢٢/٧ .

(٣) المنتظم ١١٦/٧ .

(٤) أحسن التقاسيم للمقدسى (طبع ليدن) ص ٤٤٩ وانظر فى قصر بناه فخر الدولة بجرجان اليتيمة ٢٧١/٣ .

يُغْرق نفسه فى الترف والنعيم .

وعلى شاكلة هؤلاء الأمراء البويهيين كان الأمراء السامانيون والزياريون ، فقد كان الأمير دائما يَعُدُّ الإمارة ضَيْعَةً له ، ولعل أميرا لم يَحُزْ من الأموال ما حازه محمود الغزنوى من غنائمه فى الهند ، فقد ظل ينازل الهنود مدة أربع وعشرين سنة ، وهو يمدّ حدود إمارته حتى شملت كشمير والشمال الغربى من الهند ، وفى أثناء ذلك غنم غنائم لا تحصى . ويكفى أن نذكر من غنائمه ما أخذه من معبد سومنات الذى كان يحج إليه الهنود الوثنيون ، وسومنات اسم الصنم الكبير فيه وكان مرصعاً بالجواهر والحجارة الكريمة ، وكان إلى جواره ست وخمسون سارية صفائحها من الذهب المرصع بالجواهر النفيسة ، وكان يحيط بهيكله ألوف من التماثيل الذهبية والفضية . ويُحْصى العُتْبى فى كتابه اليمينى هذه الذخائر وما يماثلها مما يخرج عن طوق الخيال [١] . وقد أتاحت لمحمود أن يشيد جامعه العظيم بغزنة وأن يحدث نهضة علمية وأدبية فى إمارته النائية ، كما أتاحت له ولأبنائه وأحفاده ثروة هائلة توارثتها الأجيال ، غير ماكان يُجْبَى لهم سنويا من تلك الديار .

وبالمثل كان السلاجقة يمتلكون فى خزائنهم الأموال الطائلة ، وقد اتسعت مملكتهم اتساعاً كبيراً ، حتى لقد كانت تمتد فى عهد أَلْب أَرْسلان من أقصى حدود ما وراء النهر إلى أقصى حدود الشام ، وكانت له حروب وفتوحات كثيرة غنم منها مغانم شتى ، من أهمها حروبه مع البيزنطيين فى آسيا الصغرى وقد وقع بإحدى المعارك فى أسره إمبراطورهم « ديوجينس رومانوس » وافتدى نفسه بمليون دينار – كما مر بنا – ودفع له الجزية صاغراً . ويذكر ابن الأثير أنه زوَّج ابنته من الخليفة المتقى وهو لا يزال ولى عهد وأنه نثر على الناس ليلة زفافها جواهر كريمة كانوا يلتقطونها فى دهشة وعجب كبير [٢] ، ويقال إن خراج خَلَفه ملكشاه بلغ عشرين مليون دينار [٣] . ويُرْوى أنه حين غلب سنجر السلجوقى صاحب خراسان على غزنة عام ٥٠٨ وقعت فى أيديه وأيدى أصحابه أموال لا تعد ولا تحصى وكان فى جملة ما استولى عليه خمسة تيجان قيمة الواحد منها تزيد على مليونين من الدنانير ، واستولى أيضاً على ألف وثلثمائة قطعة مصاغ مرصَّعة وسبعة عشر سريراً من الذهب والفضة [٤] . وكان السلطان محمود السلجوقى مبذراً متلفاً ، وأتلف فيما أتلفه ما ورثه من

---

(١) اليمينى للعتبى ٢/٩٩ وانظر فى غنائمه من البويهيين المنتظم ٨/٤٠ .

(٢) ابن الأثير (تحقيق إحسان عباس طبع دار صادر ببيروت) ١٠/٧٠ – ٧١ وكان صداق الأميرات البويهيات مائة ألف دينار (ابن الأثير ٩/١٠٥ ، ١٠/٤٧١) .

(٣) المنتظم ٩/٧ .

(٤) ابن الأثير ١٠/٥٠٧ .

أموال كانت محفوظة بخزائن الدولة ، وكانت ثمانية عشر مليوناً من الدنانير[١] . واحترقت له دار فى سنة ٥١٥ واحترق فيها لزوجته «مالا حد له من الجواهر والحلى والفرش والثياب ، وأقيم الغسالون يخلِّصون الذهب ما أمكن تخليصه ، وهلك الجوهر جميعه إلا الياقوت الأحمر[٢] » .

وهذه أخبار متناثرة فى كتب التاريخ تدل بوضوح على معيشة الأمراء الذين كانوا يحكمون إيران وكيف أنهم كانوا يغرقون إلى آذانهم فى الترف والنعيم ، غير حاسبين للشعب حساباً . ومثلهم كان الوزراء وقد تعلقوا فى هذا العصر بالألقاب وتعددها منذ أوائله حتى لنجد أبا بكر الخوارزمى المتوفى سنة ٣٨٣ يشكو من ذلك شكوى مرة [٣] . وكان الوزير يتولى الإشراف على مالية الإمارة ووجوه جَمْعها وإنفاقها ، وكان يقود الجيوش بنفسه ، على نحو ما كان وزيرا بنى بويه : ابن العميد والصاحب بن عباد ووزير السلاجقة نظام الملك ، واتخذ عضد الدولة البويهى وزيرين أحدهما كان نصرانيا هو نصر بن هرون وكان له النظر فى شئون فارس . وكان الوزير يتقاضى مرتباً ضخماً ، جعله يحيط نفسه بمظاهر الفخامة التامة ، متخذاً لنفسه حرساً كبيراً كان يُعَدُّ بالعشرات وأحياناً بالآلاف[٤] ، فكان إذا سار برز للناس فى موكب باهر من الحراس . وكان أمراؤهم لا يكتفون بما يعطونهم من مرتبات جزيلة فقد كانوا يضيفون إليها كثيراً من الضياع والإقطاعات ، بحيث يعظم دخل الوزير ويعيش فى ترف بالغ . وهيأهم ذلك ليبنوا القصور الباذخة ، على نحو ما يحدثنا الثعالبى فى كتابه اليتيمة عن قصر بناه ابن العميد[٥] ، وقصر آخر بناه الصاحب بن عباد فى أصبهان تبارى شعراؤه فى وصفه بالقصائد الطوال[٦] ، وكانت داره لا تخلو فى كل ليلة من ليالى رمضان من ألف نفس تُفْطر فيها ، وكانت صلاته وصدقاته وقُرُباته فى هذا الشهر تبلغ مبلغ ما يُطْلَقُ منها فى جميع شهور السنة[٧] . وكان الوزراء يتأنقون فى ملابسهم ، ولم يقف تأنقهم عند أنفسهم . فقد كانوا يطلبونه فى خدمهم وحواشيهم وكل ما يتصل بهم من ملابس ومطاعم ، ومن طريف ما يُرْوَى من ذلك ما ذكره الثعالبى عن الصاحب بن عباد من أنه كان يعجبه الخزّ (الحرير) ويأمر بالاستكثار منه فى داره ، وألمَّ به

(١) زبدة النصرة للبندارى مختصر تاريخ دولة آل سلجوق للعماد الأصبهانى (طبع ليدن) ص ١٤١ .
(٢) ابن الأثير ١٠/٥٩٤ .
(٣) اليتيمة للثعالبى (طبعة محمد محيى الدين عبد الحميد) ٤/٢٣٠ .
(٤) ابن الأثير ١٠/١٣١ .
(٥) اليتيمة ٣/١٥٨ .
(٦) اليتيمة ٣/٢٠٣ وانظر وصفهم لقصر آخر له فى جرجان اليتيمة ٤/٣٦ .
(٧) اليتيمة ٣/١٩٣ .

أبو القاسم الزعفرانى الشاعر يوماً ، فرأى جميع من حوله من الخدم والحاشية يلبسون الخزوز الفاخرة الملونة ، فأنشده على البديهة[(١)] .

كسوتَ المقيمين والزائرين كُسًى لم يُخَلْ مثلُها ممكنا
وحاشيةُ الدار يمشون فى ضروبٍ من الخزِّ إلا أنا

وكان الصاحب يكثر من إهداء الخلع إلى زواره ، كما يشير أبو القاسم فما إن سمع بقوله ، حتى أمر له من الخزّ بجبَّة وقميص ودُرَّاعة وسراويل وعمامة ومنديل ومُطْرَف (ثوب) ورداء وجورب . وكان الولاة مثل الوزراء يحيطون أنفسهم بهذا الجو المترف ، فكانوا يبنون القصور ذات الأواوين الضخمة ، ويروى أن أبا جعفر والى سجستان تأنق فى قصر بناه لنفسه كان مكتوباً فى صدر إيوانه[(٢)] :

من سرَّه أن يرى الفردوس عاجلةً فلينْظُرِ اليوم فى بُنْيان إيوانى
أو سرَّه أن يرى رِضْوان عن كَثَبٍ بملء عينيه فلينظرْ إلى البانى

وبالمثل كان كبار الموظفين فى الدواوين وغير الدواوين يعيشون معيشة مترفة كلها زينة وأناقة ، سواء أكانوا متصلين بأعمال الخراج وأموال الدولة أو غير متصلين . ويبدو أن الكتاب كانوا من أكثر هؤلاء الموظفين عناية بأناقتهم ، ويلاحظ ذلك على كتَّاب السامانيين العبدونىُّ الشاعر فينشد[(٣)] :

أكتَّابَ ديوانِ الرسائلِ ما لكم تجمَّلتمُ بل مُتُّمُ بالتجمُّلِ

وكان كبار القضاة يدخلون فى هذه الطبقة لما يتقاضون من رواتب عالية ومثلهم أصحاب المظالم . وكان للقواد مكانة كبيرة ، وكأنما كانوا يشركون الأمراء فى إماراتهم فأوسعوا عليهم فى الرواتب والأرزاق . ونستطيع أن نقول بصفة عامة إن كل المتصرفين فى أعمال الدولة كانوا يعيشون معيشة بذخ على حساب الشعب الكادح ، فلهم القصور ولديهم الأموال والخلع التى يهبونها للشعراء والناس ، وكان كثير منهم يشعر باستعلاء على أبناء الأمة ناسياً أنه يعيش من عرق جبينهم ، ويشكو شاعر من هذا الاستعلاء البغيض قائلاً[(٤)] :

أكُلُّ مَنْ كان له نعمةٌ أوسعُ من نعمة إخْوانهِ
أم كلُّ من كان له جَوْسَقٌ مشرّفٌ شيد بأركانهِ[(٥)]

(١) يتيمة ٣/١٩١ .
(٢) يتيمة ٤/٣٣٨ .
(٣) يتيمة ٤/٧٧ .
(٤) يتيمة ٤/٩١ .
(٥) الجوسق : القصر .

أم كلٌّ من كان له كسوةٌ ... يبذلها فى بعض أحيانهِ
يُرَى بها مستكبراً تائهاً ... على أدانيه وخلاَّنهِ

ويلحق بهذه الطبقة بل يأتى فى مقدمتها الإقطاعيون أصحاب الإقطاعات الواسعة التى كان يُغدقها الأمراء على الحواشى من الوزراء والقواد والقضاة والولاة وغيرهم من أفراد الأمة . وكان النظام الإقطاعى معروفاً فى إيران قبل الإسلام ، ومما ساعد عليه اختلاف أصقاعها وبقاعها بين قلاع صخرية وصحار وسهول . وأخذ هذا النظام يعود منذ عصر الرشيد ، حتى إذا كنا فى هذا العصر تفاقم أمره ، حتى ليقول المقدسى فى القرن الرابع إن أكثر الضياع بفارس مقتطعة [1] ، وظل ذلك بعد عصر بنى بويه ، بل لقد اتسع فى عصر السلاجقة وأيام نظام الملك وزيرهم ، فإنه لما اتسعت مملكة السلاجقة رأى أن يسلِّم القرى إلى مجموعة من الإقطاعيين : قرية أو أكثر أو أقل ، كل على قدر إقطاعه [2] . وعُرف بجانب الإقطاع فى هذا العصر نظام الضمان ، وأعدَّ بدوره لظهور طبقة أخرى من الرأسماليين ، إذ كان يضمن خراج الضياع وأحياناً القُرى ، بل أحياناً الولايات ، شخصٌ يفرض على نفسه مالاً يؤديه عنها ، ويأخذ لنفسه أضعافه . وكثيراً ماكان هؤلاء الضامنون أصحاب الخراج أنفسهم ، إذ تحولوا بدورهم إلى إقطاعيين وأصحاب ضياع واسعة . وكل ذلك معناه أنه كانت هناك طبقة كبيرة تملك الإقطاعات والضياع الكثيرة معتصرة دماء الشعب ، وكان حَسْبُ الشخص ضيعة واحدة ليكون ثريا ، وصور ذلك المعافَى بن هُزَيْم شاعر أَبِيَوَرْد قائلاً [3] :

كفتْنى ضَيْعَتى مَدْحَ العبادِ ... وظَعْناً فى البلاد بغير زادِ
غدتْ سَكَنِى وخَادمتى وظِئْرى ... وفيها أسرتى وبها تِلادى
صديقُ المرء ضَيْعتهُ وكَم من ... صديقٍ فى الصداقة مستزادِ
يخونك فى المودَّة مَنْ تؤاخى ... ومالُكَ لا يخونك فى الودادِ

وكان الأبناء يتوارثون عن آبائهم هذه الضياع والإقطاعات ، مما أعدَّ لنشوء طبقة أرستقراطية واسعة ، كانت تنفق عن سعة ، وكان كثير منها جواداً ممدَّحاً ، ويلقانا ذلك

---

(١) أحسن التقاسيم للمقدسى ص ٤٢١ .

(٢) طبقات الشافعية للسبكى (طبعة محمود الطناحى وعبد الفتاح الحلو نشر مكتبة عيسى البابى الحلبى) ٣١٧/٤ وبلغ من ثراء بعض الإقطاعيين فى العصر السلجوقى أن نرى فى همذان زيداً الحسنى العلوى يدفع إلى السلطان محمد السلجوقى سبعمائة ألف دينار دون أن يبيع من أجلها ملكاً أو يستدين ديناراً (ابن الأثير ٤٧٤/١٠) .

(٣) يتيمة ١٣٢/٤ والظئر : المرضعة .

بوضوح فى كتب تراجم الشعراء مثل اليتيمة ودمية القصر والخريدة ، إذ نجد عشرات الأسماء المجهولة تُمْدَحُ أمداحاً كثيرة ، وحقا قال بشار :

يسقط الطيرُ حيث يَنْتثِر الحـ ـبُّ وتُغْشَى منازلُ الكرماء

وكان ذلك سبباً فى أن نلتقى بكثيرين من رعاة الشعر والشعراء فى كل بلدة .

وكانت الطبقة الوسطى تتألف من عناصر كثيرة ، فى مقدمتها القضاة والفقهاء وعلماء العربية وكان لكثيرين منهم رواتب يُقدِّرها الأمراء أو وزراؤهم . ويدخل فى هذه الطبقة عمال الحِسْبة والبريد ودواوين الجيش والشهود الذين كان القضاة يقيمونهم للشهادة ، فقد أصبح مثلهم مثل العمال الثابتين ، وكانوا دائماً موضعاً للشكوى وفيهم يقول أبو عبد الله الخوزى [1] :

وَيْلٌ لمن عَدَّله القاضى والله عنه ليس بالراضى
تَمْضى القضايا بشهاداتهِ وهْو إلى النار غَداً ماضى

وينتظم فى هذه الطبقة الصناع وأوساط التجار أما كبارهم فكانوا ذوى رءوس أموالٍ ضخمة ، وعدادهم لذلك فى الطبقة السابقة . ومن العناصر المهمة فى هذه الطبقة الشعراء الذين كان يُغْدق عليهم أفراد الطبقة الرفيعة الأموال والعطايا ، ومثلهم المغنون والمغنيات ، ودائماً نلقاهم فى كل بلاط وفى كل قصر ، فقد كان الشعب من كبيره إلى صغيره مولعاً بالغناء .

وتأتى بعد ذلك الطبقة العامة من الرعية ، وهى التى كانت تعمل فى الصناعات والتجارات الصغيرة وفى خدمة أرباب القصور ، وكانت أشبه بالعبيد وخاصة من كان منها يعمل فى فلاحة الأرض إذ لا يكاد يجد ما يسدُّبه رمقه ، وليست هناك مهنة إلا عملت فيها هذه الطبقة حتى أحقر المهن . وكانت حياتها كلها عرقاً وعنتاً ومشقة لكى تملأ الطبقة العليا فى الإمارات بطونها وتكتظ قصورها بأدوات الترف واللهو والطرب .

وكان وراء تلك الطبقات أهل الذمة من المجوس والنصارى واليهود ، وكان المجوس فى أوائل هذا العصر كثيرين فى إيران وخاصة فى قلاعها البعيدة ، ويروى أنه وقعت فى شيراز لسنة ٣٦٩ للهجرة فتنة بينهم وبين المسلمين [2] ، ولم تكن الحكومات تتدخل فى شعائرهم ولا فى شعائر النصارى واليهود ، وكان لهم محاكمهم الخاصة التى تفصل بينهم فى خصوماتهم ، وكانوا يدفعون نظير مايتمتعون به من تسامح واسع ، الجزية ، وكانت أشبه بضريبة للدفاع الوطنى إذ لم يكن يدفعها إلا القادر على حمل السلاح ، ولم تكن تؤديها

(١) يتيمة ٣/٤٢١ . (٢) ابن الأثير فى سنة ٣٦٩ .

النساء ولا الرهبان ولا ذوو العاهات ولا من لم يبلغ الحلم ولا العجوز ولا الفقير البائس. وكانت لا تتجاوز الدينار لعامتهم وديناران لمتوسطى الثراء وثلاثة دنانير لأصحاب الثراء الطائل، وكانت تبلغ قيمة الدينار نحو اثنى عشر درهماً. وكانت أبواب العمل لهم مفتوحة، وكان أكثر الأطباء وكثير من الكتبة نصارى. وكان على بن بويه ركن الدولة يستخدم كاتباً نصرانيا[١]، بل لقد اتخذ عضد الدولة كما قدمنا وزيراً نصرانيا، وكان اليهود يعملون فى أحقر المهن، فكان منهم الصباغون والأساكفة والخرّازون.

وكانت تتفنن الطبقتان العليا والوسطى فى الملبس والمطعم، فكانوا يلبسون الدّراريع وهى ثياب مشقوقة من الصدر كما كانوا يلبسون الأقبية والسّراويل والحلل المطرزة. وكانوا يلبسون الخزّ صيفاً والفِراء والصوف شتاء كما كانوا يلبسون الجوارب القطنية والصوفية والحريرية. وكانت النساء حرائر وجوارى أكثر تفنناً فى أناقتهن، فكن يلبسن الإستبرق والسُّنْدس والوَشْىَ، وكن يتحلين بالجواهر النفيسة من كل صنف، وكن يتعطرن بأنواع الطيب والمسك والغالية.

ومضوا يتفننون فى المطاعم، فكانوا يصنعون منها ألواناً كثيرة وخاصة فى بيوت الأمراء والوزراء، مما جعل كثيرين يُعْنَون بالتأليف فى كتب الأطعمة، مثل ابن مسكويه، الذى أحكم كتابه فيها غاية الإحكام وأتى منه بكل غريب حسن[٢]، ومثل ابن خلاد القاضى الذى أهدى إلى ابن العميد كتاباً فى الأطعمة، فأجابه بقصيدة طويلة عدَّد فيها كثيراً من أنواعها التى ذكرها فى كتابه[٣]. وعرفوا حينئذ توالى ألوان الطعام على المائدة بين وضع ورفع. وكانت تقدم أحياناً قبل الطعام وأحياناً بعده الفاكهة والحلوى من كل صنف.

وكانوا يمكثون بعد الطعام للسمر والشراب وسماع الغناء، وكانوا يستطيبون ذكر الفكاهات والنوادر والحكايات الدالة على اللباقة فى أثناء سمرهم ومنادمتهم على الشراب. ومن قديم تقترن الخمر بالغناء فى إيران، حتى ليروى صاحب الشهنامه فى تربية قورش الملك الإيرانى القديم صورة مجلس شراب وغناء كان قورش يشترك فيه بنفسه ساقيا، وكأنما كانت الخمر والغناء إحدى شعائر الفرس منذ أقدم العصور[٤]، وطبيعى أن يظل ذلك ديدنهم حتى هذا العصر، بحيث يشترك فى المتاع بهما الأمراء من مثل فخر الدولة[٥]

---

(١) ابن مسكويه ٥/٤٦٤.

(٢) أخبار الحكماء للقفطى ص ٣٣٢.

(٣) يتيمة ٣/١٦٨.

(٤) انظر الشاهنامه نشر د. عزام ١/٣١٣ وتراث فارس (الترجمة العربية) ص ٢٦٣.

(٥) ابن مسكويه ٦/٣٨٦ وانظر فى عضد الدولة ومجالس شرابه اليتيمة ١/٢١٨ وابن الأثير (طبعة دار صادر - بيروت) ٩/٢٠.

والوزراء من مثل أبى الفتح بن العميد[١] والقضاة من مثل القاضى أبى أحمد منصور الهروى[٢] . وكانوا ينثرون الورود فى قاعات الشراب[٣] . وكان يحيِّى بعضهم بعضاً بالورود والرياحين والفواكه فى أثناء الشرب ، يقول عَبْدان الأصبهانى[٤] :

سُقيتُ وفى كفِّ الحبيبة وردةٌ وأُتْرُجَّةٌ تُغْرِى النفوسَ بِصَوْنها
مُداماً فلما قابلتْنى بوجهها شربتُ فحيَّتْنى بلونى ولونها

وبلغ من تفشى الغناء والرقص فى فارس أن نجد عضد الدولة يفرض ضريبة فيها على المغنيات والراقصات[٥] . وأكبر الظن أن إيران جميعها كان يشيع فيها ذلك بصور مختلفة ، وكانت أكبر فرصة تتاح للناس كى يقصفوا ويمجنوا ما شاء لهم المجون والقصف هى الاحتفالات بالأعياد[٦] المسيحية من مثل عيد الميلاد وعيد الزيتونة وعيد الشَّعانين ، وفى العيد الأخير يقول أحمد بن المؤمل مشيراً إلى ماكان فيه من لهو وموسيقى وغناء[٧] :

سَقْياً لدهرٍ مضى إذ نحن فى شُغُلٍ بالعَزْفِ والقَصْفِ عن شُغْلِ السَّلاطينِ
إذ يومُنا يومُ عيدٍ طول مُدَّتنا ولَيْلُنا كلُّه لَيْلُ الشَّعانينِ

وكانوا يُطْلقون لأنفسهم العنان فى الأعياد المجوسية من مثل عيد السَّذق ، وهو عيد لاشتعال النيران ، وكان يقع فى شهر يناير من كل عام ، ويصوِّر البيهقى فى تاريخه الاحتفال به فى سنة ٤٢٦ ، فيقول : «اقترب عيد السَّذَق ، فأخذوا يجمعون له الطَّرْفاء وعيدان الحطب ، حتى تراكمت وأصبحت كالقلعة ، وأقاموا عرائس من الخشب صارت كالجبل ارتفاعاً ، وأتوا بكثير من المعدّات والطيور ومايلزم هذا العيد من الحاجيات ، وحَلَّ العيد وجلس السلطان فى مخيَّم له ، وجاء الندماء والمطربون وأشعلوا النيران ، وكانت تُرَى على بعد عشرة فراسخ ، وأطلقوا الطيور المبللة بالنفط وكذلك الوحوش ، فكانت تجرى وقد علقت بها النيران»[٨] . وكان أهم من هذا العيد عيد النَّيْروز فى أول الربيع ، وكان موسماً كبيراً للمجون والشراب . ومثله عيد المهرجان فى السادس والعشرين من أكتوبر كل عام . ويقول البيهقى : «كان السلطان يجلس له صباحاً للمعايدة . ويجتمع أعيان الدولة

---

(١) ابن الأثير ٦٧٦/٨ .
(٢) دمية القصر (طبعة دار الفكر العربى بالقاهرة) ١٦٧/٢ .
(٣) يتيمة ٢٤٤/٣ .
(٤) يتيمة ٣٠٠/٣ .
(٥) المقدسى ص ٤٤١ وتحقيق ماللهند من مقولة للبيرونى ص ٢٧٩ .
(٦) انظر فى احتفالهم بالأعياد كتاب الآثار الباقية للبيرونى ص ٢١٥ .
(٧) اليتيمة ١٤٩/٤ .
(٨) تاريخ البيهقى (الترجمة العربية – نشر مكتبة الأنجلو) ص ٤٧٠ – ٤٧١ .

والأمراء ومجلس الندماء ، ويبادرون إلى اللهو ، وتدور أقداح الشراب ، وتعزف آلات الطرب ، ويأخذ المغنون فى الغناء»[١] .

وكانوا يخرجون مواكب وفرادى للصيد والطرد ، وكان فخر الدولة البويهى مولعاً بالصيد[٢] . ومثله ملكشاه السلجوقى ، ويقال إن صيده بلغ فى بعض الأيام سبعين غزالاً[٣] . وكان من أحب هواياتهم إليهم اللعب بالنَّرْد والشّطرنج ، وكانوا يُشْغَفون بلعب الصولجان والكرة وبسماع الغناء . ومما يدل على انتشار كل هذه الملاهى فى خراسان وإيران عامة أن نجد كيكاوس فى القرن الخامس الهجرى يفرد فى كتابه : «قابوسنامه[٤]» فصولاً مختلفة لكل هذه الألعاب والملاهى ، وظل ذلك ديدنهم طوال العصور التالية .

٤

التشيع [٥]

يقوم التشيع – كما مر بنا فى قسم العراق – على أساس نظرية يؤمن أصحابها بالوراثة الشرعية لولاية الحكم على المسلمين أو بعبارة أخرى للخلافة ، فهى ليست مفوَّضة للأمة ، بل هى خاصة بمن اختارهم الله من آل البيت ، من الأئمة ، ويسمى كل منهم إماماً تفرقة بينه وبين اسم الخليفة للدلالة على مكانته الدينية . وتتفق الشيعة على أن الرسول ﷺ أوصى لعلى بن أبى طالب بالخلافة بالقرب من غدير خُمّ بين مكة والمدينة ، وهم فرق كثيرة ، أهمها ثلاثة : الزيدية والإمامية الاثنا عشرية والإسماعيلية .

والزيدية – كما مر بنا فى قسم العراق – أقربهم إلى أهل السنة ، وهم ينتسبون إلى إمامهم زيد بن على زين العابدين بن الحسين ، وكانوا يُقِرُّون ولاية الخلفاء من غير العلويين أخذاً بمبدئهم القائل بأنه تجوز ولاية المفضول على المسلمين مع وجود العلوى الأفضل ، وبذلك لم يطعنوا فى الصحابيين الجليلين : أبى بكر وعمر ولا فى ولايتهما أمور الأمة . وكانوا لا يأخذون بنظرية الإمام المختفى مثل الإمامية الاثنى عشرية ، ولا بنظرية

---

(١) البيهقى فى سنة ٤٢٧ ص ٥٣٩ .

(٢) ابن مسكويه ٦/٣٨٦ .

(٣) براون (ترجمة الشواربى) ص ٢٢٨ .

(٤) ترجم هذا الكتاب إلى العربية ونشرته مكتبة الأنجلو المصرية .

(٥) بجانب مصادر التشيع المذكورة فى الفصل الأول من قسم العراق انظر مقالات الإسلاميين للأشعرى والفرق بين الفرق للبغدادى والتبصير فى الدين للإسفرايينى وفرق الشيعة للنوبختى ومقدمة ابن خلدون وفضائح الباطنية (الإسماعيلية) للغزالى واعتقادات فرق المسلمين والمشركين للفخر الرازى وبراون (ترجمة الشواربى) فى مواضع متفرقة .

الإمام المستور مثل الإسماعيلية . وهم لا يأخذون بفكرة العصمة فى الإمام ولا بفكرة العلم الباطن ولا بفكرة أن الإمامة مقصورة على فرع الحسين وحده من العلويين دون فرع الحسن . وبذلك كانت الزيدية فرقة شيعية معتدلة .

ومرَّ بنا فى قسم العراق حديث مفصَّل عن فرقة الإمامية الاثنى عشرية وأنها تجعل الإمامة مقصورة على أبناء الحسين ، وترى أنها تتابعت بعد على فى الحسن ثم الحسين وذريته بادئة بابنه على زين العابدين ، فابنه محمد الباقر ، فابنه جعفر الصادق ، وتفترق بعد هذا الإمام السادس فرقة الإمامية عن فرقة الإسماعيلية كما مرَّ بنا فى العراق ، إذ ترى أن الإمامة بعد جعفر الصادق انتقلت إلى ابنه موسى الكاظم ، وتوالت بعده فى أبنائه وأحفاده : على الرضا ، فمحمد الجواد ، فعلى الهادى ، فالحسن العسكرى ، فمحمد المهدى الذى اختفى ، وهو الإمام الثانى عشر ولذلك يسمون الاثنى عشرية ، ويؤمن الإمامية حتى اليوم بأنه سيعود ويملأ الأرض عدلاً وعلماً ، وهو بذلك الإمام المنتظر صاحب الزمان .

وعنصر أساسى ثان فى عقيدة الإمامية عرضنا له فى قسم العراق وهو ما يعتقدونه من أن الإمام معصوم ، وهى عصمة ترفعه درجات عن الطبيعة البشرية فى اعتقادهم إذ تجعله نقيا من الذنوب بريئاً من العيوب ، لا يعتريه خطأ . وعنصر أساسى ثالث هو علمه لا العلم الظاهر فحسب ، كما يؤمن الزيدية ، بل العلم الباطنى الإلهى الذى يتوارثه الأئمة عن النبى والذى ينتقل فيهم من إمام إلى إمام ، بحيث يصبحون هم وحدهم العالمين بالمعانى الحقيقية للقرآن الكريم ، وهو ما فسح عند الإمامية والإسماعيلية أيضاً للتأويل الواسع فى آيات الذكر الحكيم .

والإسماعيلية تختتم سلسلة أئمتها الظاهرين بالإمام السابع إسماعيل بن جعفر الصادق ، وكان قد توفى قبل أبيه فعدلت عنه الإمامية الاثنا عشرية إلى أخيه موسى الكاظم ، أما الإسماعيلية فتمسكت به لأنه الابن الأكبر لجعفر الصادق وعندهم أن النص على الإمام لا يتغير ، بل يرثه عنه ابنه الأكبر ، حتى لو توفى فى حياة أبيه كما توفى إسماعيل ، وتبعه خلفاؤه فى سلسلة متصلة ، وهم مستترون مختفون ، حتى آتت الدعوة السرية ثمرتها ، فظهر الإمام فى شخص عبيد الله المهدى مؤسس الدولة الفاطمية فى شمالى إفريقيا .

وتسمى هذه الفرقة باسم السبعية تمييزاً لها من الإمامية الاثنى عشرية ، لأنها تجعل أئمتها يتوالون فى حلقات أو أدوار سبعية ، والسابع أعلاهم درجة إذ هو الإمام الناطق المبعوث برسالة تفوق كل رسالة سبقتها ، حتى رسالة الرسول ﷺ ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم . وعندهم أن الإمام هو التجلِّى الأعظم للعقل الكلى ، وفى ذلك ما يؤكد نفوذ

الفلسفة الأفلاطونية إليهم وما يتصل بها من نظريتها المعروفة فى الفيض ، وهى النظرية التى بنى عليها إخوان الصفا البصريون فلسفتهم الدينية فى موسوعتهم المشهورة . ومن تتمة نظريتهم أن العقل الكلى الذى يتجلى فى أئمتهم تجلى منذ آدم فى الأنبياء ، وهو الذى يسيِّر الكون ويدبره ، وهو ما جعل الحاكم الخليفة الفاطمى الإسماعيلى يعتقد أن التجسد الإلهى تمثَّل فيه وأنه خليق بعبادته . ومات مقتولاً . فادَّعى بعض الإسماعيلية حين ذاك أنه يعيش متخفياً ، وأنه سيرجع . وكأن نظرية الرجعة عند الإمامية الاثنى عشرية وجدت طريقها إلى الفرقة الإسماعيلية فى شخص الحاكم . وكان القرامطة إحدى شعب الإسماعيلية ظنوا من قبل أن محمد بن الإمام السابع إسماعيل سيرجع بعد موته ، وأنه الإمام الغائب المنتظر .وواضح أن الإسماعيلية غلت فى تشيعها غلوًّا بعيداً إذ رفعت الأئمة إلى مراتب الآلهة ، حتى لنجد كثيرين من علماء الإسلام ومفكريه يسمونهم دهرية زنادقة ، وقد حمل عليهم الغزالى حملات عنيفة فى كتابه « فضائح الباطنية » الذى سجل عليهم فيه ضلالهم وخروجهم عن جادَّة الإسلام ، ولابد أن نشير إلى أن تابعى هذه الفرقة كانوا يصعدون فى سبع مراتب : مرتبة للعامة ، ثم تعلوها مراتب حتى المرتبة السابعة ، وصاحبها خليق عندهم بأن يكون من الدعاة . ومن حق الإسماعيلى والإمامى جميعاً أن يُخْفيا عقيدتهما فى البلد الذى يسود فيه خصومهما وهو المذهب المعروف عندهما باسم التقية ، وقد طبع دعوتهما فى حقب وأماكن كثيرة بطابع السرية .

وهذه الفرق الشيعية المختلفة كانت على صلة وطيدة منذ أول الأمر بالاعتزال والمعتزلة ، فقد كان زيد بن على مؤسس فرقة الزيدية تلميذاً لواصل بن عطاء مؤسس مذهب الاعتزال . وتعانق منذ العصر العباسى الأول مذهب الإمامية مع الاعتزال فى أثناء الجدال الذى كان دائراً بين أعلامهما حتى لنجد النظَّام المعتزلى المشهور يؤمن بنظرية الإمامية الخاصة بعصمة الإمام ، وكان يعاصرهُ ثمامة بن أَشْرس الذى لعب دوراً كبيراً لعهد المأمون فى حمله على أن يكتب إلى الآفاق بتفضيل على بن أبى طالب على أبى بكر وعمر وجميع الصحابة . ومن يرجع إلى مصنفات الشيعة فى عقيدتهم يجدهم يفردون فصولاً طوالاً للحديث عن التوحيد والعدالة ، على غرار ما يصنع المعتزلة . وفى رأينا أن هذه الصلة الوثيقة بين الاعتزال والشيعة هى التى جعلت أهل السنة فى العصر ينفرون منه ، ويعتنقون المذهب الأشعرى .

وكانت إيران فى هذا العصر تُعَدّ أكبر مركز للتشيع ، وقد مرَّت بنا فى كتاب العصر العباسى الثانى حركة زيدية قوية غلبت على طَبَرِسْتان وبلاد الديلم ، وعلى الرغم من إجهاز

الدولة السامانية عليها كما مر بنا فى أوائل هذا الفصل ظلت لها هناك بقية ، وظل هناك أئمة يقودونها مثل الإمام المؤيد بالله أحمد بن الحسين الهارونى المتوفى سنة ٤١١ للهجرة . وكان تقلّدُ البويهيين الإماميين لإماراتهم المختلفة فى إيران إيذانا بأن يأخذ المذهب الإمامى طريقة إلى الانتشار ، واشتهرت مدينة «قُم» باعتناقة وقد ظل منتشرا بها واعتنقه كثيرون فى الحقب التالية ، وقُيِّضَ له كثير من العلماء يعملون على نشره مثل ابن بابويه القمى المتوفى سنة ٣٨١ وقد كان أبوه شيخ الشيعة فى مدينة « قم » وخلفه فى مشيخته ، وألَّف كتبا كثيرة فى المذهب ، محتجاله ، داعيا إليه ، ومن كتبه المطبوعة فى طهران كتب العلل والأحكام وكتاب عقائد الشيعة الإمامية .

وقد نشطت الفرقة الإسماعيلية فى إيران منذ أوائل هذا العصر ، ويقال إنهم استطاعوا أن يدخلوا فى عقيدتهم نصر بن أحمد السامانى أمير خراسان (٣٠١ - ٣٣٢ هـ .) مما جعل حرسه يضطره إلى التنازل عن السلطان لابنه نوح ، ويقال أيضا إن أبا على بن سيمجور أحد رجالات الدولة فى خراسان لأواخر أيامها كان إسماعيليا ، مما جعل السلطان محموداً الغزنوى يفتك به . ويبدو أن الإسماعيليين جَدّوا حينئذ فى نشر دعوتهم بإيران ، حتى لنجد محموداً الغزنوى حين يستولى على الرىِّ من البويهيين سنة ٤٢٠ يكتب إلى الخليفة العباسى ببغداد خطاباً طويلاً ، يقول فيه[١] :

«قد أزال الله عن هذه البُقْعَة أيدى الظلمة ، وطهَّرها من دعوة الباطنية الكفرة ، والمبتدعة الفجرة . وقد تناهت إلى الحضرة المقدسة حقيقة الحال فيما قصَر العبد عليه سعيه واجتهاده من غزو أهل الكفر والضلال وقَمْع من نَبَغ ببلاد خراسان من الفئة الباطنية الفجار . . وطلعت الرايات بسواد الرَّىِّ . . وخرج الديالمة معترفين بذنوبهم ، شاهدين بالكفر والرفض على نفوسهم ، فرجعنا إلى الفقهاء فى تعرُّف أحوالهم ، فاتفقوا على أنهم خارجون عن الطاعة وداخلون فى أهل الفساد ، فيجب عليهم القتل والقطع والنفى على مراتب جناياتهم . واعتقادهم فى مذاهبهم لا يعدو ثلاثة أوجة تسودّ بها الوجوه يوم القيامة : التشيع والرفض والباطن . وذكر هؤلاء الفقهاء أن أكثر القوم لا يقيمون الصلاة ولا يؤتون الزكاة ولا يعرفون شرائط الإسلام ، ولا يميزون بين الحلال والحرام ، بل يجاهرون بالقذف وشتم الصحابة ، ويعتقدون ذلك ديانة . . . ويعدون جميع الملل مخاريق الحكماء ، ويعتقدون مذهب الإباحة فى الأموال والفروج والدماء» .

والخطاب طويل ، وهو يصور مدى ما داخل العقيدة الإسماعيلية فى إيران من فساد ،

(١) المنتظم ٨/ ٣٨ .

حتى كان أصحابها لا يؤدُّون شعائر الإسلام ، بل كانوا ينكرونه هو وجميع الديانات السماوية جملة . وليس ذلك فحسب ، فقد اختلطت بعقيدتهم العقيدة المزدكية الفارسية القديمة التي أحلَّ صاحبها «مَزْدك» النساء وأباح الأموال وجعلها شركة للناس ، ودعا إلى العكوف على اللذات والشهوات[1] . ونمضي بعد عهد محمود الغزنوى ، فنجد الدعوة الإسماعيلية تنشط فى إيران طوال القرنين الخامس والسادس للهجرة ، إذ تعهدها هناك دعاة مختلفون ، كان يؤيدهم تأييداً قويا الخليفة الفاطمى المستنصر (٤٢٧ – ٤٨٧ هـ) وقد ظل الرئيس الأعلى للإسماعيليين طوال ستين عاماً ، واستطاع أن يبسط سلطانه على واسط وبغداد حاضرة الخلافة العباسية فى منتصف القرن الخامس . وقد حاربت الدولة السلجوقية العقيدة الإسماعيلية دون هوادة ، ولكن دعاتها ظلوا منبثِّين فى أنحاء إيران ، مثل ناصر خسْرو الأديب الرحالة ، الذى لقبه أتباعه بلقب «حجة خراسان» وقد زار القاهرة سنة ٤٣٧ وأقام بها سبع سنوات ، وعاد إلى وطنه خراسان ، وأخذ يدعو للفاطميين الإسماعيليين بمصر ، غير أن خصومه اضطروه إلى الفرار إلى مرتفعات «سِمِنْجان» . وكان أخطر منه فى الدعوة للإسماعيليين الفاطميين أحمد بن عبد الملك بن العطاش الذى نهض بالدعوة فى أذْربيجان وأصْفهان ، وقد استولى بجانب المدينة الأخيرة على حصن منيع يسمى «شاه دز» جعله وكراً لأتباعه ودعوته . وكان أشد منه خطراً الحسن بن الصبَّاح ، وكان عالماً بالهندسة والحساب والنجوم والسحر ، وتلقن الدعوة عن بعض دعاتها الفاطميين والإيرانيين الذين صحبهم فى مدينة الريّ ، ويقال إنه لقى بها فى رمضان سنة ٤٦٤ ابن العطاش وإنه نصحه بالمسير إلى القاهرة حاضرة الخلفاء الفاطميين ليتلقن الدعوة من أربابها وشيوخها المقدَّمين . ووصل القاهرة سنة ٤٧١ وأسبغ المستنصر عليه جوائزه . ويقال إنه سأله مَن الخليفة بعده ؟ فأجابه ابنى نزار الأكبر ، ورجع إلى إيران سنة ٤٧٣ يدعو إلى نزار ، وولَّى المصريون بعد المستنصر ابنه المستعلى ، مما كان سبباً فى انقسام الإسماعيلية إلى شعبتين : شعبة غربية تدعو إلى المستعلى وتشمل مصر والشام وشعبة شرقية تشمل إيران وتدعو إلى نزار .

واتسعت دعوة الحسن بن الصبَّاح ، حتى ضمت بين جناحيها كرْمان وَطبَرستان والدَّامغان وقَزْوين ، واستطاع الاستيلاء على حصن فى غاية المناعة ، هو قلعة «ألموت» سنة ٤٨٣ ومعنى اسمها بلسان الديلم تعليم العُقاب ، كأنها ، لعلوها الشاهق ، وَكْرٌ له . وجعله استيلاؤه على هذه القلعة يضع لأتباعه خطة محكمة أن يستولوا على مثيلها فى إيران ،

(١) انظر كتابنا العصر العباسى الأول ص ٨٠ .

فاستولوا على «خالنجان» بالقرب من أصفهان بالإضافة إلى ما كانوا استولوا عليه بجوارها من «شاه دز» واستولوا على «طَبَس» و«قاين» و«تون» و«رَوْزن» و«خور» و(خوسَف» فى قُهُسْتان وعلى «شَمْكوه» بجوار أبهر، وعلى «أَسْتوناوَنْد» فى مازَنْدران، وعلى «أَرْدَهْن» و«كُردكوه» وقلعة الناظر فى خوزستان، وعلى «قلعة الطنبور» بجوار أرَّجان، وعلى قلعة «خلاَّدخان» فى فارس. وكان تملك الحسن بن الصبَّاح وأتباعه لهذه القلاع الحصينة سبباً فى أن يشعروا بأن لهم سلطاناً سياسيا، حتى إذا توفى المستنصر ظلوا يدينون لنزار منفصلين عن الدعوة الفاطمية بمصر، وكان يطلق عليهم اسم الإسماعيليين الباطنيين والحشاشين. وفى الاسم الأخير ما قد يدل على أن كبارهم – على الأقل – كانوا يعرفون المخدر المعروف باسم الحشيش. ومضوا يدعون سرًّا لعقيدتهم، وتحولوا إلى جماعات إرهابية تقتل كل من يقف فى سبيل دعوتها، وكان من أهم من قتلوه نظام الملك الوزير السلجوقى المصلح حين تصدى لهم وحاربهم وحاصر قلعتهم «ألموت» على نحو ما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع. ونرى ابن الأثير يذكرهم ويذكر ما كانوا يسفكونه من دماء ويثيرونه من رعب على مر السنين، من مثل قتلهم لفخر الملك بن نظام الملك ولعبد الرحمن السميرامى الوزير السلجوقى وللفقيه عبد الواحد الرويانى فى طبرستان والقاضى سعد الهروى فى همذان. وكان السلاجقة يردون على هذه الاغتيالات بقتل بعض زعمائهم وأتباعهم، على نحو ما هو معروف عن قتل ابن عطاش وبعض أتباعه بأصبهان سنة ٤٩٩ وللسلطان سنجر مقتلة عظيمة فيهم سنة ٥٢١ ردا على قتلهم لوزيره معين الملك. وكان الحسن بن الصباح حيا فى أيام هذا السلطان، غير أنه لم يكن يبارح قلعة «ألموت» وبها توفى سنة ٥١٨ للهجرة. وخلفه فى رياسة الطائفة كيابزرك حميد ثم ابنه محمد، وتبعها دورُ ظهور الأئمة من أحفاد نزار، إذ ظلت فى أيديهم مقاليد السلطان والدعوة. وظل نشاط هؤلاء الحشاشين أو الإسماعيليين الشرقيين، حتى استطاع المغول فى منتصف القرن السابع الهجرى دكَّ حصونهم وقتل آخر أئمتهم ركن الدين خورشاه (٦٥٣ – ٦٥٥ هـ.) وبقتله وتحطيم حصون أتباعه ينتهى عهد الإسماعيلية بإيران، ولا تبقى منهم إلا بقية لا وزن لها، ويعود هذا الفرع الإسماعيلى الشرقى إلى الظهور فى الهند، ويتخذ أصحابه «آغاخان» رئيساً روحيا لهم، وعادة يكون من أحفاد ركن الدين خورشاه الذى كان آخر أمراء قلعة «ألموت».

ومنذ قضاء المغول على إسماعيلية إيران تتحول تدريجا إلى قبضة الفرقة الإمامية الاثنى عشرية، ومع ذلك فقد ظل كثيرون يتبعون المذهب السنى؛ وينعكس ذلك على العلماء

والفقهاء والصوفية لا بين من كانوا يتخذون العربية لسانهم فحسب ، بل أيضاً بين من كانوا يتخذون الفارسية لساناً لهم ، مثل الشيخ سعدى الصوفى المشهور المتوفى سنة ٦٩١ وله شعر عربى قليل . ولا نصل إلى عصر إسماعيل الصفوى مؤسس الدولة الصفوية (٩٠٧ - ٩٣٠ هـ) حتى يصبح المذهب الإمامى الاثنى عشرى عاما فى إيران إذ أعلنه مذهباً رسميا للدولة . وبذلك غلب على مذهب أهل السنة هناك حتى اليوم .

ويحتفل الشيعة وفى مقدمتهم الإمامية من قديم -كما مرَّ فى العراق- بعيدين : عيد الغدير ، يريدون غدير خُمٍّ ، وموعده الثامن عشر من ذى الحجة ، وهو الغدير الذى يروون أن الرسول ﷺ أوصى عنده لعلى بالخلافة من بعده قائلاً له . أنت منى بمنزلة هرون من موسى ، وهو عندهم عيد سرور يظهرون فيه الفرح والزينة ، وكان أول احتفال لهم به فى عهد البويهيين ، وظل ذلك ثابتاً عندهم على مر السنين . أما العيد الثانى فكان مأتماً كبيراً ، يقيمونه يوم عاشوراء (العاشر من شهر المحرم) من كل عام حداداً على قتل الحسين وآله فيه بكربلاء ، تائبين إلى الله ومستغفرين من آثام هذه الكارثة المروعة . وهذا العيد الحزين أقدم من عيد الغدير بكثير ، حتى ليرجعه البيرونى إلى زمن بنى أمية ، قائلاً إن الناس كانوا يظهرون فيه السرور والفرح ، بينما كانت العامة (يقصد الشيعة) تكره فيه تجديد الأوانى والثياب[1] . وقد استحال منذ عهد البويهيين إلى يوم حداد كبير ، يتراءى فيه الشيعة بأجسام ضاوية وشفاه ظامئة وعيون ساهمة باكية ، ومن حولهم الشعراء يرثون الحسين رثاء حارًّا مصوِّرين بؤس العلويين وما احتملوا من آلام التقتيل والاضطهاد فى أيام الأمويين والعباسيين وما عانوا من صنوف البؤس والعذاب والشقاء ، وكيف كانت حياتهم كلها محناً وبلاء . وصبغ ذلك الحزن العميق فى تلك الذكرى الرهيبة شعر الشيعة بسواد لا آخر له ، فكله شكوى ممضة وعبرات وزفرات وأنّات .

وكان من آثار إجلال الإمامية الاثنى عشرية لأئمتهم أن أصبح حجهم إلى قبورهم فى العراق سُنَّةً متبعة ، وأصبح للأماكن والأضرحة التى دفنوا فيها قدسية خاصة عندهم ، مما جعل البويهيين يهتمون بها ، ولعل فى هذا الاهتمام منهم ما يدل على أنهم كانو إمامية دلالة قاطعة ، وكان أول من اهتم بذلك عضد الدولة فإنه شيد ضريحاً كبيراً لقبر على بن أبى طالب بالنجف ، ونُقل إليه جثمانه بعد وفاته فدُفن به ، كما دفن به أيضاً ابناه شرف الدولة وبهاء الدولة[2] . واهتم عضد الدولة أيضاً بضريح الحسين ، وبنى حوله حضرة

(١) الآثار الباقية للبيرونى (طبعة أوربا) ص ٣٢٩ . بيروت) ٩/ ١٨ ، ٦١ ، ٢٤١ .

(٢) انظر المنتظم ٧/ ١٢٠ وابن الأثير (طبعة دار صادر

جليلة [١]. ولا يزال عيد عاشوراء حتى اليوم مأتماً كبيراً يقام فى كل عام ، يقيمه إمامية إيران والعراق .

٥

الزهد والتصوف [٢]

ظلت نزعة الزهد التى تحدثنا عنها فى كتابى العصر العباسى الأول والثانى متغلغلة فى نفوس كثيرين من أهل إيران وفقهائهم ومحدِّثيهم ، وكانت المساجد بيوتاً مفتوحة للعبادة والنسك ، وكان الوعاظ لا يزالون يعظون فيها داعين الناسَ إلى الزهد فى متاع الحياة الفانية وطلب ما عند الله من ثواب الآخرة . وأقبل كثيرون على حياة التقشف والنسك ، واقرأْ فى كتاب للمحدِّثين مثل تذكرة الحفاظ للذهبى أو فى كتاب للفقهاء مثل طبقات الشافعية للسُّبْكى فستجد صوراً قوية للزهد ، وسترى مَنْ ظل صائماً طول حياته ، ومن بلغ من نسكه أن لا يرفع رأسه إلى السماء داعياً ، ومن يدقق فى أحكام الشريعة مبالغاً تحرجاً وخوفاً من الله مثل أبى محمد عبد الله بن يوسف الجوينى المتوفى سنة ٤٣٨ فقد حكى السُّبْكى فى ترجمته أنه بلغ من ورعه وتحرجه أنه لم يكن يستند فى داره إلى الجدار المشترك بينه وبين جيرانه ولا يدقّ فيه وتداً وأن جارية أرضعت ابنه إمام الحرمين الفقيه المشهور لبنا وهو فى المهد ، فقلبه ، ليرده ، حتى لم يدع فى باطنه شيئاً ، قائلاً : هذه الجارية ليست لنا وليس من حقنا أن نتصرف فى شىء من لبنها . ولا ريب فى أن كثرة الوعاظ هى التى أعدت – من بعض الوجوه – لسريان هذه الروح المتحرجة الورعة ، ويتوقف السبكى مراراً فى طبقاته ليصور لنا وعظ الوعاظ فى نيسابور وغيرها ومدى تأثيره فى نفوس السامعين كقوله عن أحدهم : «صار مجلسه روضةَ الحقائق والدقائق ، وكلماته محرقة الأكباد والقلوب ، ومواجيده مقطِّرةَ الدماء من الجفون مكان الدموع ، ومفَطِّرةَ الصدور

---

(١) المنتظم ٧/١٤٩ .

(٢) راجع فى الزهد والتصوف المنتظم وابن الأثير وطبقات الشافعية للسبكى فى مواضع متفرقة وكتاب طبقات الصوفية للسلمى وحلية الأولياء لأبى نعيم والفصل فى الملل والنحل لابن حزم ورسالة القشيرى وإحياء علوم الدين للغزالى وصفة الصفوة لابن الجوزى وقوت القلوب للمكى ومصارع العشاق للسراج وبستان العارفين وتنبيه الغافلين للسمرقندى وطبقات الشعرانى ، وانظر جولد تسيهر فى كتابه «العقيدة والشريعة فى الإسلام» ونيكلسون فى كتابه «فى التصوف الإسلامى وتاريخه» ترجمة أبو العلا عفيفى والملامتية والصوفية وأهل الفتوة لعفيفى وآدم ميتز فى كتابه الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى .

بالتخويف والتفزيع »[١] .

وأخذت موجة التصوف فى العصر تزداد حدة وقوة ، وكان من مظاهر ذلك كثرة الرُّبط المنظمة منذ القرن الرابع الهجرى ، وأصل معنى الرباط مكان مرابطة الخيل للجهاد والحرب ، وكأن زوايا المتصوفة كانت تُبْنَى لهم فى هذا التاريخ على حافة قواعد الحرب الأمامية لجهاد أعداء الإسلام . واتسع مدلول الكلمة فيما بعد فأخذت تطلق على زوايا المتصوفة عامة ، وكأنما أصبحت مكاناً لتجمع المجاهدين أينما وجدت . ويقول المقدسى فى أواخر القرن الرابع الهجرى إنه كان فى إسْبِيجاب فيما وراء النهر على حافة الحرب مع الترك ألف وسبعمائة رباط ، بينما كان فى بيكند ألف رباط[٢] ، وهى ثغر جليل بين بخارى ونهر جَيْحون . وإذا كان هذا العدد الضخم من الرباطات فى ثغرين من ثغور الحرب فيما وراء النهر فما بالنا بما كان ببقية الثغور . ويذكر الحجويرى الأفغانى أنه لقى ثلثمائة من مشايخ الصوفية بخراسان ولكل منهم طريقته[٣] .

ويشير المقدسى إلى كثرة الخانقاهات بإيران وما وراء النهر ، وهى بيوت للعبادة كان يتخذها المتصوفة للنسك والإقامة ، وهيأت هذه البيوت بسرعة لفكرة الشيخ ومريده ، إذ كان يلزم شيوخ التصوف تلاميذ يأخذون عنهم طريقتهم وينشرونها ، وكانوا يمنحون مريديهم خِرَقاً حين يتم قبولهم رمزاً إلى اعتزالهم متاع الحياة ، بل كل الحياة وزخارفها ، وكان ذلك يتم عن طريق مجاهدات كثيرة يقوم بها المريد قبل قبوله ، وفى مقدمتها التجرد الكامل عن ضرورات الحياة ورفض مباهجها ونَبْذ مُتَعها وتحمل آلام الفقر والجوع وكل ما يتعلق بالجسد ، حتى الزواج فكان كثير منهم لا يتزوجون ، بل قل إن كثرتهم الغالبة كانت لا تتزوج ، ويحثُّ أبو الليث السمرقندى المتوفى سنة ٣٧٣ كل من يستطيع الاستغناء عن الزواج أن يظل أعزب[٤] حتى يتجرد لعبادة الله ويتفرغ تفرغاً كاملاً . وحتى المرض ينبغى أن لا يهتم به الصوفى فيعرض نفسه على الأطباء للتداوى ، فالطبيب هو الله ، وهو جانب من عقيدتهم فى التوكل على الله حق التوكل ، حتى ليهمل الصوفى كل تصرف شخصى ، ويترك نفسه لعناية الله وقضائه ، فلا يفكر فى رزقه ولا فى قوته ولا فى غده ثقة فى الله . ودائماً يرددون ذكر الله ، واتسع ذلك عندهم حتى كانوا يعقدون له اجتماعات تقف بها طائفة منهم فى صفين متقابلين ، وهى تذكر الله ، متحركة بجسدها دون أقدامها يميناً

---

(١) طبقات الشافعية للسبكى ٥ /٦٩ .

(٢) أحسن التقاسيم للمقدسى ٢٧٣ ، ٢٨٢ .

(٣) انظر كشف المحجوب للهجويرى — الترجمة العربية — للدكتورة إسعاد عبد الهادى (نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة) ١ /٣٩١ .

(٤) انظر كتابه بستان العارفين ص ١٩٧ — ١٩٨

ويسارا، ومنشد ينشد فى أعلى الصفين، وفى أثناء ذلك يهيم نفر منهم وينتشى، حتى ليحس كأنه غاب عن عالم حسه ، وهو ما يسمونه بالسكر وكأنما يَرْوَى رِيًّا مسكراً بجمال الذات الإلهية ، إذ تمتلىء بنور الله نفسه ويسلبها حواسها الجسدية ، فتشعر كأنما تتجرد ، عن كل إرادة ، لمحبوبها الربانى ، وهو ما يسمونه بالمحبة الإلهية ، وكأنما الذكر رحيقها المسكر الذى يذيب الصوفىَّ فى الجمال الربانى ويجعله يفنى فيه فى وجد لا يماثله وجد .

ومنذ الحلاج الذى تحدثنا عنه فى العصر العباسى الثانى أخذ بعض المتصوفة يؤمنون مثله بفكرة الاتحاد بالله ، معتقدين أنه يتجلَّى فيهم كما يتجلَّى فى خلقه ، وكأنهم يشاهدونه فى أنفسهم ، أوكأنما يحلُّ فيهم ، مما هيأ لظهور فكرة الحلول عند بعض الغلاة من المتصوفة ، وكانت هذه الأفكار سبباً فى أن يحدث شىء من الانفصام بين أهل السنة والمتصوفة ووسَّع الهوة بين الطرفين أمثال أبى سعيد بن أبى الخير (٣٥٧ - ٤٤١ هـ) . أكبر الصوفيين الإيرانيين المتفلسفين فى عصره ، وكان يُعلى عمل الصوفى بقلبه على أداء فرائض الإسلام وأحكامه ، وفى ذلك يقول ابن حزم : «إن من الصوفية من يقول إن من عرف الله سقطت عنه الشرائع . . وبلغنا أن بنيسابور اليوم فى عصرنا هذا رجلاً يكنى أبا سعيد بن أبى الخير من الصوفية مرة يلبس الصوف ، ومرة يلبس الحرير المحرم على الرجال ، ومرة يصلى فى اليوم ألف ركعة ، ومرة لا يصلى فريضة ولا نافلة ، وهذا كفر محض ، ونعوذ بالله من الضلال»[1] . وليس هذا كل ما أحدث الهوة بين المتصوفة وأهل السنة ، فقد أوغل بعضهم فى آراء ضالة ، حتى ليعتنق بعض آراء المزدكية فى العكوف على الخمر واستحلال المحرَّم ، وغلا بعضهم فى تقدير شيوخ الصوفية حتى قدَّمهم على الرسل والأنبياء ، يقول ابن حزم : وطائفة من الصوفية زعمت أن فى أولياء الله تعالى من هو أفضل من جميع الأنبياء والرسل ، وقالوا : من بلغ الغاية القصوى من الولاية سقطت عنه الشرائع كلها من الصلاة والصيام والزكاة وغير ذلك ، وحلَّت له المحرمات كلها . . وقالوا إننا نرى الله ونكلمه ، وكل ما قُذف فى نفوسنا فهو حق»[2] .

ولم تقف المسألة عند أفراد ، فقد أخذت بعض طوائف الصوفية فى إيران يضعف عندها الوازع الدينى ويشيع عنها اهمال فرائض الإسلام ، وسرعان ما تحولوا إلى طوائف من المتسولين ، نذكر منهم جماعة الكِرَامية بخراسان وماوراء النهر ، وكانوا ، أوقل تحولوا ، دراويش يطوفون فى البلدان لابسين أردية من الصوف ، ومدلِّين فوطا على رءوسهم تحيط

(١) الفصل لابن حزم ٤/١٨٨ . (٢) الفصل ٤/٢٢٦ .

بها قلانس طويلة ، ويقول المقدسى إنهم لا يخلون من أربع خصال : التقى والعصبية والذل والكُدْية أى التسول [١] . ومثلهم الملامتية ، وكان مبدؤهم الأساسى الملامة ، فالصوفى الكامل فى رأيهم من يرتكب أشياء يلومه عليها الناس . ومن أجل ذلك كانوا يقومون بأعمال ينكرها الشرع ، وقد ينتهكون فيها حرمته ، حتى يتم لهم مبدؤهم ، وأعدوا مثل الكرامية لظهور فكرة الدراويش الرحَّل الذين يعيشون على التسول ، ويتخذونه ذريعة للبطالة ، وكأنما أصبح الصوفى هو المتسول ، ولا بأس من أن يُسْقط عنه الفروض الدينية أحياناً .

ولم يكن التسول يغضب أهل السنة بمقدار ما كان يغضبهم إنكار فرائض الإسلام وسننه ، مما جعلهم يحملون على المتصوفة حملات شعواء ، متهمين لهم بالزندقة والكفر ، وزاد هذه الحملات اشتعالاً ما وجدوه يتردد على ألسنة المتصوفة وفى كتبهم من كلام عن السكر والفناء واتحاد الصوفى بالذات الإلهية . ومن الحق أنه كان هناك كثيرون من الصوفية لا يلوكون كلمات الاتحاد بالله ، ويرون أن الصوفى لا يبلغ مرتبة الكمال إلا إذا أدى الفرائض والسنن ، مخلصاً صادقاً . غير أن هؤلاء لم يكونوا موضع الخصومة مع أهل السنة إنما كان موضعها دراويش الملامتية والكرامية وأمثال أبى سعيد بن أبى الخير ، ممن أسقطوا فرائض الإسلام وشعائره .

وأخذ هذا الصدع بين الصوفية وأهل السنة يتفاقم ، وكان لابد أن يُرْأب ، حتى لا تنشق الأمة على نفسها انشقاقاً قد يؤول إلى عواقب وخيمة ، فقيَّض الله لها صوفيين عظاما ، تداركوا هذه الطامة الكبرى كان أولهم أبو نصر السرَّاج [٢] عبد الله بن على الطوسى الزاهد صاحب كتاب اللُّمع المتوفى سنة ٣٧٨ وفيه قال أبو عبد الرحمن السُّلَمىّ تلميذه فى كتابه «طبقات الصوفية» : «كان المنظور إليه فى ناحيته فى الفتوة ولسان القوم مع الاستظهار بعلوم الشريعة» . فتصوفه لم يكن تصوفاً فلسفيا يتغلغل فى الحلول وما إليه ، بل كان تصوفاً سنيا يرتبط بأداء الفرائض الدينية . وكان رحالة تجوَّل فى العالم الإسلامى من نيسابور إلى القاهرة ، ووفد على بغداد فأُفردت له غرفة خاصة فى جامع الشونيزية وأُعطى رياسة الدراويش . ولا نغلو إذا ذهبنا إلى أنه يُعَدّ مؤسس مدرسة التصوف السنى فى عصره ، وهو تصوف يستمد من الكتاب والسنة ، وليس فيه حلول ولا شطحات .

---

(١) احسن التقاسيم ص ٤١ .

(٢) انظر فى أبى نصر السراج الطوسى طبقات الصوفية للسلمى وكشف المحجوب للهجويرى وشذرات الذهب ٣/٩١ وكتابه اللمع (نشره نيكلسون فى سلسلة جب التذكارية) .

ويوضح مذهبه الصوفى كتابه اللمع الذى أشرنا إليه ، وفيه يفيض فى الحديث عن حقيقة التصوف ومذهب الصوفية ومقاماتهم وأحوالهم . وتلقن عنه المذهب فى نيسابور تلميذه أبو عبد الرحمن السلمى ، ولقَّنه بدوره عبد الكريم[١] القُشَيْرى النَّيْسابورى ، وتتلمذ عبد الكريم أيضاً على أبى على الدقَّاق ، وكان متصوفاً سنيا ، فوصل تلميذه بهذا التصوف ، بل ملأ قلبه به حماسةً كما ملأه نفوراً من التصوف الفلسفى وما دخل عليه من أفكار بوذية هندية كفكرة التسول والمسكنة ، وكذلك ما دخل عليه من أفكار الاتحاد بالذات العلية والحلول . وما تُوَافى سنة ٤٣٧ للهجرة حتى يؤلف رسالته المشهورة التى طوَّفت الآفاق غرباً وشرقاً وقد وجهها إلى جماعات الصوفية فى البلدان الإسلامية ، ليصحح لهم أفكارهم عن التصوف بما رسمه فيها من مبادئ التصوف السنى الحقيقى وما سجله من سِيَر أعلام التصوف وأقوالهم ، مما يصل التصوف وصلاً وثيقاً بالشريعة ، وهو يستهلها بقوله :

« اندرست الطريقة بالحقيقة ، ومضى الشيوخ الذين كان بهم الاهتداء ، وقلَّ الشباب الذين كان لهم بسيرتهم وسننهم اقتداء ، وزال الورع وطُوى بساطه ، واشتد الطمع وقوى رِباطه ، وارتحلت عن القلوب حرمة الشريعة ، فعَدّوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة ، ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام ، ودانوا بترك الاحترام ، وطرح الاحتشام ، واستخفوا بأداء العبادات ، واستهانوا بالصوم والصلاة ، وركضوا فى ميدان الغفلات ، وركنوا إلى اتباع الشهوات ، وقلة المبالاة بتعاطى المحظورات. ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال ، حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال ، وادَّعوا أنهم تحرَّروا من رقِّ الأغلال ، وتحققوا بحقائق الوصال ، وأنهم قائمون بالحق تجرى عليهم أحكامه ، وهم مَحْوٌ ، وليس لله عليهم فيما يؤثرونه عَتْب ولا لوم ، وأنهم كوشفوا بأسرار الأحدية ، واختُطفوا عنهم بالكلية ، وزالت عنهم أحكام البشرية » .

وبهذه الرسالة العظيمة التى شرقت وغربت وطارت كل مطار رفع القشيرى الحواجز التى كانت قد استحكمت بين أهل السنة والمتصوفة بل لقد أثبت أنها أقواس وهمية ، فالتصوف ليس خصماً للشريعة ، بل هى قوامه وصِراطه الموصِّل إليه وأساسه وعماده . ولم يلبث متصوف كبير أن أحكم هذه الصلة إحكاماً وثيقاً ، وهو أيضاً نَيْسابورى ، أصله طوسى حقا ولكنه تلقن التصوف السنى فى نيسابور حيث مدرسته الكبرى : مدرسة أبى نصر السراج والقشيرى ، ونقصد أبا حامد[٢] الغزالى المتوفَّى سنة ٥٠٥ وقد لزم فقهاء

(١) انظر مصادر ترجمة القشيرى فى الفصل الرابع من هذا القسم .

(٢) انظر فى الغزالى المنتظم ٩/ ١٦٨ واللباب ٢/ ١٧٠ والوافى بالوافيات ١/ ٢٧٤ وابن خلكان (طبعة دار =

نيسابور وأخذ عنهم كل ما عندهم ، وسرعان ما أصبح شيخاً يُشار إليه بالبنان ، وأكبَّ الطلاب على دروسه . وأخذت شهرته تطبِّق الآفاق . وقدم على نظام الملك وزير ملكشاه السلجوقى ، فعيَّنه أستاذاً للفقه الشافعى فى مدرسته النظامية ببغداد سنة ٤٨٤ ولم يلبث أن اعترته أزمة نفسية سنة ٤٨٨ فبارح بغداد إلى أداء فريضة الحج ، وولَّى وجهه نحو الصوامع النائية فى مساجد بيت المقدس ودمشق معتزلاً للناس مستغرقاً فى تأمل الفرق الإسلامية ، واستقر فى نفسه أنه ينبغى تخليص الأمة من الدقائق التى يخوض فيها المتكلمون ومن خلافات الفقهاء وما يتجادلون فيه من فروع دون طائل ، وأخذ يحمل على الفقهاء والمتكلمين جميعاً حملات عنيفة ، مبيناً أن ما هم فيه من جدال ليس من الدين فى شىء ، وأن من شأنه أن يزعزع العقيدة العامة ويحدث بلبلة فى العقول . وبالمثل حمل على الفَلسفة وأعلن عليها حرباً شعواء فى كتابه «تهافت الفلاسفة» وخاصة على فلسفة ابن سينا المشائية ، ووجَّه حملاته بقوة إلى الإسماعيلية فى كتابه «فضائح الباطنية» . وهدته تأملاته فى عزلته إلى أنه لابد من الوصل بين التصوف والسنة كى ينمو الشعور الدينى ويصبح تجربة نفسية قلبية بحيث يتعانق عمل القلب وعمل الجوارح فى أداء الشعائر والفروض والنوافل حتّى ينهض بها المسلم مصحوبة بالإخلاص وبصدق الشعور الباطنى ، وحتّى تكون محبة الله الدافع الأساسى لكل ما يصدر عنه من قول وفعل . وألَّف على هذا الهدى كتابه «إحياء علوم الدين» محللاً فيه الحياة الدينية والأخلاقية للمسلم على مبادئ تستمد من التصوف وروحه ، ونقصد التصوف السنى الذى أقام هو والقُشَيْرِىّ والسَّرَّاج بنيانه ، والذى يرفض أفكار الصوفية الغالية مثل الاتحاد بالله والحلول . وقد جعل القلب أساس السعى إلى الله حتى يقرب منه المسلم وينال محبته ومبتغاه ، وحقا لابد أن تؤدَّى الفرائض والسنن ، ولكن لابد معها من عمق الإخلاص وعمق الشعور الدينى وصدقه ، إذ هو جوهر الحياة الدينية . وبذلك وصل الغزالى وصلاً وثيقاً بين أهل السنة والمتصوفة دون لجاج فى اتحاد المتصوف بالذات الإلهية ودون تعثر فى شباك الحلول ، ومع الإيمان بأن أحكام الشريعة أساس الحياة الدينية الصادقة المفعمة بالإخلاص . ومن أهم ما نفذ إليه الغزالى فى

= صادر) ٤ /٢١٦ وطبقات الشافعية للسبكى (٦ /١٩١) ومقدمة بويج لنشرته لكتابه التهافت طبع بيروت ومؤلفات الغزالى لعبد الرحمن بدوى ومحاضرات مهرجانه فى دمشق سنة ١٩٦١ وتاريخ الفلسفة فى الإسلام لدى بورضى ١٩٦ وبراون ص ٣٦٨ والعقيدة والشريعة فى الإسلام لجولدتسيهر القسم الرابع وفى التصوف الإسلامى لنيكلسون ترجمة عفيفى ص ١٣٩ وسيرة الغزالى لعبد الكريم العثمان (طبع دمشق) والحقيقة فى نظر الغزالى لسليمان دنيا (طبع دار المعارف بمصر) .

أثناء كتاباته فكرة الحقيقة المحمدية ، وهى تبدو واضحة – كما يقول نيكلسون[1] – فى كتابه «مشكاة الأنوار» وكأن الرسول صورة للأمر الإلهى أو الكلمة الإلهية . وكان لهذه الفكرة تأثير بعيد فى متصوفة الأجيال التالية ، ونقصد فكرة الإنسان الكامل الذى يتمثل فى الرسول ﷺ . وقد تكاملت للغزالى هذه النزعة الصوفية فى أثناء عزلته وخلوته بصوامع مساجد الشام مدة عشر سنوات ، عاد بعدها إلى بغداد ، ولكنه لم يعقد بها مجالس للفقه أو علم الكلام ، وإنما عقد بها مجالس للوعظ حدّث فيها بكتابه « الإحياء » . وراجع إلى موطنه خراسان وألم بالمدرسة النظامية فى نيسابور مدة يسيرة وتركها إلى طوس مسقط رأسه . وهناك أقام بجانب داره مدرسة للفقهاء «وخانقاه» للمتصوفة ، واشتغل بالنسك والعبادة حتى لبّى نداء ربه بعد أن زاوج بين التصوف والشريعة مزاوجة بقيت على مر العصور التالية ، وبعد أن هاجم الفلسفة هجوما عنيفا جعلها تسقط أمام التصوف وصولجانه .

وقد ازدهر التصوف السنى فى إيران وغير إيران من العالم الإسلامى ، بفضل أعلامه الثلاثة السابقين وخاصة الغزالى ، وليس معنى ذلك أن التصوف الفلسفى انتهى ، فقد ظلت منه أسراب ولكنها أسراب فردية على نحو ما يلقانا عند يحيى السُّهْرَوَرْدِىّ[2] الإيرانى المولود بسهرورد سنة ٥٤٥ للهجرة فى الإقليم الإيرانى المعروف باسم إقليم الجبال وقد أكبّ على كتب التصوف والفلسفة . واستوت له فلسفة صوفية إشراقية وسنعود إلى الحديث عنه فى الفصل الرابع . ومن أصحاب التصوف الفلسفى بعد السهروردى صدر الدين الشيرازى المتوفى سنة ١٠٥٠ للهجرة وهو أهم من كتب بعده فى التصوف الإشراقى على نحو ما يتضح فى كتابه « الأسفار الأربعة » .

ومنذ الغزالى بل قبله منذ السراج والقشيرى ينشط نشاطاً واسعاً التصوف السنى فى إيران ؛ وقد أخذت تظهر فيه مع مر الزمن طرق يتبعها كثيرون ، من أهمها طريقة النقشبندية ، وكان تيمورلنك يرعى أهلها ، كما مر بنا فى القسم الخاص بالعراق ، وعاصرتها طريقة البكطاشية ، وقد غمست فى التشيع وفى شىء من التصوف الفلسفى . وبدون شك أنتجت إيران فى هذا العصر وخاصة منذ القرن السابع طائفة كبيرة من شعراء التصوف فى الفارسية فى مقدمتهم جلال الدين الرومى (٦٠٤ – ٦٧٢ هـ .) والشيخ سعدى الشيرازى المتوفى سنة ٦٩١ وله بعض قصائد عربية ، وخلفه الصوفى الكبير حافظ الشيرازى المتوفى سنة ٧٩١ وفى الحق أن التصوف ظل مزدهراً فى إيران قروناً متطاولة .

---

(١) فى التصوف الإسلامى وتاريخه ص ١٤٦ ومابعدها .

(٢) انظر مصادر ترجمة يحيى السهروردى فى ترجمته فى الفصل الرابع من هذا القسم .

الفصل الثانى

الثقافة

١

الحركة العلمية

نشطت الحركة العلمية فى العصرين : العباسى الأول والعباسى الثانى نشاطا عظيما ، فمن تعليم للناشئة فى الكتاتيب إلى تعليم للشباب فى المساجد ، ومضت على هذا النحو فى أوائل عصر الدول والإمارات فى إيران وغير إيران ، وكانت الناشئة تتعلم الخط والكتابة والقراءة وشيئا من الحساب وبعض آيات القرآن الكريم وسوره وبعض الأشعار . أما المساجد فتحولت بجانب ماكان يقام فيها من صلوات إلى جامعات كبرى ، يتعلم فيها الشباب جميع فروع العلم . وكان الأستاذ عادة يستند إلى أسطوانة فى المسجد ، ويتحلّق الطلاب حوله ، وهو يملى عليهم محاضراته . وكانوا يتكاثرون فى بعض الحلقات ، فلا تسمع الصفوف الأخيرة كلام الأستاذ ، فينهض مُسْتَمْلٍ بترديده ، حتى تسمعه تلك الصفوف . وكانت أكثر الحلقات طلابا حلقات الفقهاء والمحدِّثين . ولم تكن هناك رسوم أو أجور تؤخذ من هؤلاء الطلاب فقد كانت الدولة تتكفل بأجور العلماء ، وكان منهم من يأبى أن يأخذ أجرا على دروسه ، اكتفاء بما يكسبه من تجارة له أو عمل .

ولا نبالغ إذا قلنا إن القرنين الرابع والخامس للهجرة بإيران يُعَدَّان أزهى قرون هذا العصر من حيث النهضة العلمية وبلوغها الأوج المنتظر ، ولعل مرجع ذلك إلى التنافس الذى نشأ بين أصحاب الإمارات حينئذ ، فقد مضى كل منهم يجهد جهدا بالغا فى أن يضم حوله علماء العصر ليزدان بهم بلاطه وتزدان بهم دولته وكى يبعثوا فى شباب الدولة الطموح إلى تحقيق مالم يحققه العلماء قبلهم . ولعل عضد الدولة خير من يمثل ذلك بين البويهيين ، فقد كان يقدر العلم والعلماء ويُجْرى الرواتب والأرْزاق على الفقهاء والأدباء والقرَّاء ، فرغب الناس فى العلم ، وكان هو نفسه يتشاغل بالعلم ، ووُجد فى تذكرة له : إذا فرغنا من حل أقليدس كله تصدقت بعشرين ألف درهم ، وإذا فرغنا من كتاب أبى

على الفارسى النحوى تصدقت بخمسين ألف درهم [1] . ويقول ابن الأثير : «كان يجلس مع العلماء يعارضهم فى المسائل ، فقصده العلماء من كل بلد ، وصنفوا له الكتب ، منها الإيضاح فى النحو والحجة فى القراءات لأبى على الفارسى ، والكناش الملكى فى الطب لعلى ابن العباس المجوسى ، وكتاب التاجى فى التاريخ لأبى إسحق الصابئ إلى غير ذلك » . وكان خلفاؤه من البويهيين يُعْنَون بالعلم وأهله . وكذلك كان السامانيون ، حتى قالوا إن خراسان جنَّة العلماء ، وكانت بها نيسابور أكبر مركز للعلم بإيران فى العصر ، وسيتردد اسمها كثيرا فيما يلى من كلام . وبالمثل كانت الدولة الزِّيارية تُعْنَى فى طبرستان بالعلم والعلماء . ولم تكن تقلّ عنها عناية الدولة الخُوَارَزْمية بأمرائها الثلاثة فى مدينة خيوه المعروف كل منهم باسم « مأمون خوارزم » ويكفى أن نعرف أنه كان يعيش فى رعاية ثالثهم الذى استولى محمود الغزنوى على إمارته سنة ٤٠٨ للهجرة صفوة من رجال الفلسفة والعلم فى مقدمتهم البيرونى وابن سينا وأبو سهل المسيحى والطبيب ابن الخمَّار والرياضى أبو نصر بن العرَّاق ، وكان محمود الغزنوى قد طلبهم من مأمون خوارزم قبل استيلائه على إمارته ، فاستدعاهم وعرض عليهم رغبته ، ولبَّاها ابن العرَّاق وابن الخمار والبيرونى ، ورفضها أبو سهل وابن سينا ، وولىَّ الأخير وجهه نحو قابوس بن وشمكير الزِّيارى صاحب طَبَرِسْتان [2] . وفى هذا ما يدل على مبلغ اهتمام محمود الغزنوى [3] بجمع الفلاسفة والعلماء فى عاصمته « غَزْنة » التى جعلها مركزا من أهم مراكز العلوم والآداب فى الشرق الإسلامى وعمت النهضة فى دولته مدنا أخرى مثل هَراة . وكثر حينئذ إهداء المؤلفين كتبهم للأمراء ، وكانوا أحيانا لا يخصُّون بها أميرا واحدا ، بل ينتجعون بها أمراء الدول والإمارات المختلفة ، على نحو ما كان يصنع الثعالبى ، فقد أهدى كتابيه : « المبهج » و « التمثل والمحاضرة » إلى قابوس بن وشمكير أمير طبرستان وجرجان وكتبه : « النهاية فى الكناية » و « نثر النظم » و « اللطائف والظرائف » لمأمون بن مأمون أمير خوارزم ، وكتابه « لطائف المعارف » للصاحب بن عباد وزير البويهيين ، وكتابيه « سحر البلاغة » و « فقه اللغة » للأمير أبى الفضل الميكالى راعى العلم والأدب فى نيسابور .

وكان مما عمل على ازدهار النهضة العلمية فى العصر منذ أوائله تأسيس المدارس فيه ، وكانت نيسابور أول مدينة إيرانية سبقت إليها ، إذ تأسست بها فى منتصف القرن الرابع الهجرى مدرسة أبى حفص الفقيه ، وكان يدرس بها للطلاب ابن شاهويه المتوفى سنة ٣٦١

(١) انظر المنتظم ٧/١١٥ وابن الأثير ٧/٢١ .
(٢) انظر براون (ترجمة إبراهيم أمين الشواربى) ص ١١١ .
(٣) انظر فى ثقافته ابن تغرى بردى ٤/٢٧٣ .

للهجرة[1] ، وفى أواخر القرن الرابع بُنيت بها مدرسة للمحدِّث الكبير ابن فُورَك[2] المتوفى سنة ٤٠٦ ومدرسة ثانية سُميت دار السنة[3] . وكثر بها بناء المدارس فى النصف الأول من القرن الخامس ، إذ بنيت بها مدرسة[4] لأبى عثمان الصابونى شيخ الإسلام المتوفى سنة ٤٤٩ ثم أربع مدارس[5] : هى المدرسة البيهقية ، ومدرسة الإستراباذى المتوفى سنة ٤٤٠ بناها لأصحاب الشافعى ، والمدرسة السَّعدية بناها الأمير نصر بن سُبُكْتِكين ، والرابعة مدرسة بُنيت لأبى إسحق الإسفراينى .

ولما أصبحت إيران تابعة للدولة السلجوقية واتخذوا الريَّ حاضرة لهم أخذوا يعنون بالحركة العلمية ، ولم يلبث أن وزر لهم فى عهد سلطانهم أَلْب أَرْسلان وزيرهم المشهور نظام الملك المولود بطوس سنة ٤٠٨ وقد التحق بخدمتهم منذ انتصارهم على الغزنويين فى سنة ٤٣١ حتى إذا اعتلى أَلْب أرسلان العرش جعله كبير وزرائه ، وكان سياسيا بارعا وله فى السياسة كتاب باللغة الفارسية سَمَّاه «سياست نامه» . وكان شافعى المذهب أشعريا عدوا للإسماعيلية الباطنية ، فرأى أن يؤسس مجموعة من المدارس ، عُرفت كل واحدة منها باسم النظامية ، لمحاربة النحلة الإسماعيلية نحلة الحشاشين ، ولنشر المذهب الشافعى والنحلة الأشعرية . فبنى ببلخ مدرسة وكذلك بنيسابور وهراة ومَرْو وأصفهان وآمل فى طبرستان وبالموصل وبغداد . وجميعها تأسست حوالى سنة ٤٥٧ للهجرة ، وكان يُدْرَسُ فيها بجانب الفقه وعلم الكلام على مذهب الأشعرى علومُ التفسير والحديث واللغة والفرائض والأدب والرياضيات وكان يختار لكل منها أستاذا كبيرا . وجعل لأساتذتها مساكن ورواتب منتظمة ، ورصد لطلابها نفقات مقدَّرة ، ووقف عليها جميعا أوقافا كثيرة . وألحق بكل مدرسة مكتبة كبيرة تَغَصُّ بالكتب فى كل علم وفن ، ما عدا كتب الباطنية الحشاشين .

والاهتمام بالمكتبات عند العصور السابقة سبق أن عرضنا له وبيَّنَّا اهتمام الدولة والأفراد به ، لأنها أداة الثقافة ومنهلها العذب ، وظل الاهتمام بها فى هذا العصر ، بل تزايد مع ازدهار الحركة العلمية ، فكانت هناك مكتبات الورَّاقين التى تُعْرَض فيها الكتب للبيع ، وكانت تتكاثر فى المدن الكبيرة حتى تصبح سوقا مستقلا . وكانت هناك مكتبات عامة للدولة كمكتبات نظام الملك التى ألحقها بمدارسه المسماة بالنظامية . وكانت فى كل جامع كبير مكتبة تضم ما يَقفه العلماء على طلاب العلم فى الجوامع . وكان هناك رعاة للعلم ينون

---

(١) طبقات الشيرازى (طبع بغداد) ١٢١ .
(٢) السبكى ٤/١٢٨ .
(٣) السبكى ٤/١٥٩ .
(٤) السبكى ٤/٢٩٠ .
(٥) السبكى ٤/٣١٤ .

المكتبات لطلابه ، مثل ابن حِبَّان البستى صاحب كتاب الجرح والتعديل المتوفى سنة ٣٥٤ فقد بنى بنيسابور خزانة كتب ومساكن لطلاب العلم الغرباء وأجرى لهم الرواتب . ويُرْوَى أن أبا على بن سِوار الكاتب فى دواوين عضد الدولة المتوفى سنة ٣٧٢ أنشأ دار كتب فى مدينة رامَهُرْمُز على شاطئ خليج العرب وجعل فيها نفقة لمن قصدها(١) .

وكان طبيعيا منذ أوائل هذا العصر أن يُشْغَف البويهيون بالكتب وجمعها واتخاذ مكتبات خاصة لأنفسهم ، وكان لديهم من ذلك ثلاث مكتبات كبيرة ، أولاها مكتبة عضد الدولة ، وقد رآها المقدسى ووصفها بقوله : «حجرة على حدة ، عليها وكيل وخازن ومشرف من عدول البلد . ولم يبق كتاب صُنِّف إلى وقت عضد الدولة من أنواع العلوم إلا وحصّله فيها ، وهى أَزَج (بناء) طويل فى صُفَّة كبيرة ، فيه خزائن من كل وجه ، وقد أُلصق إلى جميع حيطان الأزج والخزائن بيوت طولها قامة فى عرض ثلاثة أذرع من الخشب المزوَّق ، عليها أبواب تنحدر من فوق ، والدفاتر منضَّدة على الرفوف ، لكل نوع بيوتٌ وفهرستات فيها أسامى الكتب ، ولا يدخلها إلا كل وجيه(٢) » . والمكتبة الثانية مكتبة وزيره ابن العميد ، وكانت أكبر من السابقة ، ويقال إنها لو حُملت ما استطاع أن يحملها إلا مائة بعير(٣) ، واتخذ خازنالها ابن مسكويه الفيلسوف المعروف لعصره ويقال بل اتخذه عضد الدولة ، ويبدو أنه اتخذه خازنا -كما مرَّ فى ترجمته- بعد وفاة ابن العميد وابنه أبى الفتح . والمكتبة الثالثة مكتبة الصاحب بن عباد وزير مؤيد الدولة بالرَّىِّ ، ويقال إنها كانت أضعاف مكتبة ابن العميد ، إذ كان بها من كتب العلم ما يُحْمَلُ على أربعمائة بعير أو أكثر . ويقال : كان فهرست خزانة الكتب بمدينة الرَّىِّ عشرة مجلدات(٤) .

ولعل فى ذلك ما يصور مدى اهتمام أصحاب الإمارات الفارسية ووزرائهم بالثقافة العربية ومصنفاتها الكثيرة ولم يقف ذلك عند البويهيين والسامانيين والزِّياريين والخوارزميين ، بل امتد أيضا كما قدمنا إلى عصر الدولة السلجوقية ووزيرها نظام الملك الذى كانت مجالسه تزدان بالعلماء ، وكان يحضر سماطه القُشَيْرى وإمام الحرمين وأبو إسحق الشِّيرازى ، وكثر تصنيف الكتب باسمه من مثل كتاب التبصير فى الدين وتمييز الفرقة الناجية من فرق الهالكين لأبى المظفر طاهر بن محمد الإسفراينى المتوفى سنة ٤٧١ . وقدَّم له إمام الحرمين أبو المعالى عبد الملك الجُوينى كثيرا من كتبه ، وله بنى المدرسة النظامية بنيسابور وظل يدرِّس فيها عشرين عاما إلى أن توفى سنة ٤٧٨ وكان يحضر دروسه أربعمائة طالب

(١) المقدسى ص ٤١٣ .
(٢) المقدسى ص ٤٤٩ .
(٣) ابن مسكويه ٦/٢٨٦ وما بعدها .
(٤) معجم الأدباء لياقوت ٦/٢٥٩ .

وأستاذ [١] . وكان الطلاب دائما كثيرين فى حلقات العلماء ، فيُرْوى أنه كان يحضر دروس أبى الطيب الصعلوكي مفتى نيسابور أكثر من خمسمائة طالب [٢] . وفى هذا ما يدل على إقبال الشباب فى نيسابور على دروس الفقه والدين إقبالا منقطع النظير ، ولم يكن ذلك فى نيسابور وحدها ، فقد كان عاما فى مدن إيران وما وراء النهر من أرض الشاش وفَرْغانة ، إذ كان حضور حلقات العلماء مباحا للجميع ، فكان الناس من كل الأوساط يقبلون عليها ، لا أوساط المثقفين فحسب ، بل أيضا أوساط العامة ، يدل على ذلك من بعض الوجوه ما رواه السبكى فى طبقاته من أن فقهاء الشاش «كتبوا إلى ابن سُرَيْج إمام الشافعية ببغداد يُعْلمونه أن الناس فى ناحيتهم : أرض الشاش وفَرْغانة يختلفون فى فقهاء الأمصار ممن لهم الكتب المصنفة والفُتْيا ، ويسألونه أن يكتب لهم رسالة يذكر فيها أصول الشافعى ومالك وسفيان الثورى وأبى حنيفة وصاحبيه (محمد وأبى يوسف) وداود بن على الأصفهانى (صاحب مذهب الظاهرية) ويسألونه أن يكون ذلك بكلام واضح يفهمه العامىّ ، فكتب القاضى لهم الرسالة» [٣] .

فالثقافة الفقهية لم تكن وقفا على الفقهاء وتلاميذهم . بل كانت العامة تشارك فيها وفى دقائقها وتفريعاتها الكثيرة لا التى اختلف فيها أصحاب المذاهب الفقهية الكبرى : الشافعى ومالك وأبو حنيفة فحسب ، بل أيضا تلك التى اختلف فيها معهم سفيان الثورى وداود بن على الأصفهانى . ونفس ما حدث بين أصحاب مذهب كبير كالمذهب الحنفى من خلاف مثل ما حدث بين أبى يوسف ومحمد بن الحسن الشيبانى وقفت عليه العامة فيما وراء النهر. وظاهرة ثانية تدل على شيوع الثقافة الدينية فى إيران وأنها كانت عامة بين الناس ، ولا تخص الرجال بل تعم النساء ، وهى تتصل بالحديث النبوى وروايته ، إذ نجد طائفة من النساء الإيرانيات يؤخذ عنهن الحديث كما يؤخذ عن علمائه الأثبات ، ويُذْكَرْنَ فى تراجم بعض المحدثين ويُنَصُّ على أنهم حملوا الحديث عنهن ، منهن كريمة المروزية ، وعليها قرأ بمكة الخطيب البغدادى المحدِّث المشهور صحيح البخارى ، وسمع منها أيضا بمكة سعد الأسد آباذى [٤] ، فهى لم تحدث فى موطنها فحسب ، بل حدثت أيضا فى مجمع العلماء بالحرم المكى ، وبأى كتاب ؟ بأعظم كتب الحديث إسنادا : صحيح البخارى . ومن هؤلاء المحدثات المشهورات عائشة [٥] بنت عبد الله البوشنجية ، وهى من محدِّثات القرن

(١) طبقات السبكى ٥/١٨٤ .
(٢) التهذيب للنووى (طبعة وستنفلد) ص ٣٠٧ .
(٣) السبكى ٣/٤٥٧ .
(٤) السبكى ٤/٣٠ ، ٣٨٣ .
(٥) السبكى ٥/١١٨ .

الخامس الهجرى ، ومثلها فاطمة بنت أبى على الدقاق شيخ القشيرى فى التصوف ، وعنها أخذ الحديث بنيسابور كثيرون [١] . ومن محدِّثات القرن الخامس أيضا كريمة [٢] بنت محمد ، وُشْهدة [٣] بنت أحمد . وهن جميعا أدلة على ازدهار الحركة العلمية بإيران . ومن تتمة هذه الأدلة أن نجد العلماء منذ أوائل هذا العصر يحاولون فهرسة كتب المكتبة العربية ، موزعين الكتب على علومها المختلفة ، على نحو ما هو معروف عن فهرست ابن النديم ، وربما كان أهم من ذلك أن نجد معاصره الخوارزمى أبا عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف يؤلف كتابا موسوعيا هو «مفاتيح العلوم» ويهديه إلى أبى الحسن العتبى وزير الأمير نوح السامانى الثانى (٣٦٦ – ٣٨٧ هـ .) وكان يعيش فى رعايته بنيسابور . والكتاب يشتمل على المصطلحات الفنية للعلوم وتفسيرها وتوضيح دلالاتها ، وهو مقالتان : المقالة الأولى فى علوم الشريعة وما يتصل بها ، والمقالة الثانية فى الفلسفة وعلوم الأوائل .

٢

علوم الأوائل : تفلسف ومشاركة

تحدثنا فى كتابى العصر العباسى : الأول والثانى عن ترجمة علوم الهند والفرس واليونان ، وكيف أنها شملت ما لدى الفرس والهند من مصنفات فى الفلك والرياضيات وما لدى اليونان من مؤلفات فى الرياضيات والطبيعيات . وسرعان ما شارك العرب فى كل ما ترجموه ، سواء فى النظريات الفلكية أو فى العلوم الطبيعية ، وقد سارعوا فى نقل كتاب المجسطى لبطليموس الإسكندرى وهو فى الفلك والجغرافية ونَقْل كتاب الأصول لأقليدس فى الهندسة وكتب أرسطو فى علمى الحيوان والطبيعة وفى المنطق وكتب جالينوس وبقراط فى الطب ، وترجموا أيضا لأفلاطون وغير أفلاطون كتبا مختلفة . وقد ذكرنا فى كتابى العصر العباسى أسماء المترجمين والنقلة من اللغات المختلفة وأشهر ما نقلوه وترجموه ، وعرضنا ذلك كله عرضا مستفيضا . وأوضحنا مساهمة العرب مساهمة حية خصبة فى جميع الميادين العلمية ، بحيث ظهر من بينهم أفذاذ فى الرياضيات دوَّت شهرتهم فيما بعد فى عالم الغرب مثل محمد بن موسى الخوارزمى الذى يفتتح سلسلة الرياضيين العظام بين العرب ، ومثل جابر بن حيان الكيميائى المشهور ، ومثل محمد بن زكريا الرازى ذائع الصيت فى عالم

(١) السبكى ٥/١١ .
(٢) السبكى ٥/٩٥ .
(٣) السبكى ٦/٧١ ، ٧٣ .

الطب الذى اكتشف فى وضوح فرق ما بين مرضى الجُدَرِىّ والحَصْبة ووضع أُسُساً واضحة للطب النفسى . وكان طبيعيا بعد أن تعمق العرب علوم الأوائل وفلسفاتهم أن يصبح لهم بدورهم فلاسفة نابهون . ويلمع اسم الكندى فيلسوف العرب الأول لعصر المأمون ، ويلمع بأخرة من العصر العباسى الثانى اسم فيلسوف كبير هو الفارابى الذى مزج فى فلسفته بين روحانية الإسلام وأفكار فلاسفة اليونان مزجا رائعا ، مصطفيا لأمته نظريات فلسفية جديدة .

وبانتهاء العصر العباسى الثانى ينتهى عصر المترجمين العظام ، وندخل فى عصر جديد هو عصر الفلسفة الإسلامية الخالصة والمشاركة العلمية الخصبة ، أما الفلسفة فنبغ فيها اثنان من الفلاسفة الإيرانيين البارعين هما ابن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ والبيرونى المتوفى سنة ٤٤٠ للهجرة .

وابن[١] سينا أكبر فلاسفة الإسلام ، ويلقب بالشيخ الرئيس ، وقد احتفظ ابن أبى أصيبعة بترجمة شخصية له كتبها بقلمه ، وهو يصور فيها حياته حتى بلغ سن الثانية والثلاثين ، وفيها يذكر أن أباه من أهل بلخ وأنه انتقل منها إلى بخارى فى أيام الأمير السامانى نوح بن منصور وتولَّى التصرف للسامانيين بقرية خرميثن ، وفيها ولد له ابنه سنة ٣٧٠ وانتقل الأب مع أسرته إلى بخارى وعُنى بتربيته فأحضر له معلما للقرآن ومعلما للأدب ، وما بلغ العاشرة حتى كان قد حفظ القرآن ، وأقبل على دراسة الفقه . ويذكر أن أباه كان إسماعيليا ولم يلبث أن أقبل على دراسة المنطق والهندسة والفلك على شخص متفلسف يسمى الناتلى ، وكان يقرأ معه إيساغوجى وكتاب أقليدس والمجسطى ، ويراه لا يفهمهما حق الفهم فكان يشرحها لأستاذه . وأكبَّ على علوم الأوائل والطب ، وسرعان ما اشتهر وهو لا يزال غلاما فى السابعة عشرة من عمره . واستغلقت عليه الإلهيات حتى قرأ بالصدفة فيها كتابا للفارابى ، حَلَّ له مستغلقاتها . وحدث أن مرض الأمير نوح بن منصور فاستدعوه لمعالجته بعد أن عجز الأطباء عن مداواته ، ويكون شفاؤه على يديه ، فيوظفه عنده ويغدق عليه

---

(١) راجع فى ابن سينا وترجمته صوان الحكمة للبيهقى ص ٥٢ والقفطى ص ٤١٣ وابن أبى أصيبعة ص ٤٣٧ وابن خلكان ٢/١٥٧ وروضات الجنات ص ٢٤١ ولسان الميزان ٢/٢٩١ وكتاب لكارادى فوعنه (طبع باريس) ومقالته عنه فى دائرة المعارف الدينية والأخلاقية نشر هيستنجر (أدنبرة ١٩٠٩) ٢/٢٧٢ وبراون (ترجمة د. إبراهيم أمين الشواربى) ص ١١١ ، ١٢١ وتاريخ الفلسفة فى الإسلام لدى بور ص ١٦٤ ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع والعلم عند العرب لألدوميلى ص ١٩٧ وكتاب مؤلفات ابن سينا لفؤاد سيد ولقنواتى . وانظر ترجمته بقلمه وتعليقنا عليها فى كتابنا «الترجمة الشخصية» طبع دار المعارف ومقالاً لنا عن لغة ابن سينا فى العدد رقم ٦٩١ من مجلة الثقافة ، وهو عدد خاص بعيده الألفى .

من أمواله . ويستأذنه ابن سينا فى دخول مكتبة القصر ويأذن له فيجد فيها ما لا يحصى من الكنوز فى علوم الأوائل . ولم تلبث الدولة السامانية أن انهارت فترك بخارى إلى خوارزم ، ونزل بعاصمتها «خِيوة» عند أميرها مأمون مع من كانوا يلوذون برعايته مثل البيرونى . وسمع محمود الغزنوى بهذه الصفوة من العلماء والمتفلسفة والأطباء فى بلاط أمير خوارزم ، فأرسل إليه فى طلبهم ، كما مر بنا ، وأبىَ ابن سينا أن يذهب إليه ، وأخذ يتنقل فى بلدان إيران حتى وصل إلى جرجان وأميرها قابوس بن وشمكير ، فأكرمه وأنزله منزلة عليا ، حتى إذا قُتل سنة ٤٠٣ ولى وجهه نحو أصفهان وأميرها البويهى علاء الدين بن كاكويه . وظل هناك إلى أن أدركته الوفاة بهمذان سنة ٤٢٨ هـ/ ١٠٣٦م وقبره معروف بها إلى اليوم .

وعند ابن سينا تمتزج الفلسفة اليونانية بالحكمة الشرقية والروح الإسلامية ، ويلقَّب بالمعلم الثالث بعد أرسطو والفارابى ، وأكثر مؤلفاته بالعربية ، وله مؤلفات بالفارسية ، وأيضا له قصائد فلسفية بجانب نثره الفلسفى ، وله قصص فلسفية كقصة سَلامان وأُبْسال وقصة حىّ بن يقظان ورسالة الطير . ومصنفاته تُعَدّ بالمئات ، وأشهرها كتاب القانون فى الطب وكتاب الشفاء فى الإلهيات وعلوم الطبيعة والرياضيات . وكان الكتاب الأول عماد الغربيين فى دراساتهم الطبية بجامعاتهم حتى القرون القريبة ، وقد ترجموه إلى اللاتينية ، ويقال إنه طبع بها ست عشرة مرة فى القرن الخامس عشر الميلادى وعشرين مرة فى القرن السادس عشر . وكتاب الشفاء دائرة معارف كبرى تتناول كل فروع الفلسفة .

وابن سينا يتأثر بأرسطاطاليس ، وحاول جاهدا أن يوفق بين آرائه وآراء أفلاطون والأفلاطونية الحديثة والإسلام . ونَحَا فى كثير من أفكاره نحو الفارابى ، وهو يتفق معه فى تفاريع المنطق وفى الإلهيات وما ذهب إليه من أن المادة لا تصدر عن الله ، لأنه منزَّه عن كل مادة وكل جسم ، والله واحد من كل وجه ، فلا يصدر عنه كثير لا بالعدد ولا بالانقسام إلى مادة وصورة ، وإلا اختلفت الجهات فى ذاته . وهو – لذلك – لا يصدر عنه إلا واحد هو العقل الأول . وعن هذا العقل يصدر عقل يدبِّر الفلك (الملائكة) ومنه تصدر نفس كما تصدر مادة هى جرم الفلك ، وأخيرا العقل الفعَّال الذى تصدر عنه مادة الكائنات فى الأرض وصورها الجنسية كما تصدر النفوس الإنسانية . وطبيعى أن لا يرتضى أهل السنة والمعتزلة منه هذه الآراء . وإذا نحَّيناها عن فلسفة ابن سينا وجدناه بعدها يحاول التوفيق بين فلسفته وبين القائلين بسلطان القضاء ، فيقول إن كل ما فى الوجود خيرا كان أم شرا بقضاء الله وقدره على نحو ما توضح ذلك رسالته فى القدر . وكان يرى أن من الموجودات ما هو خير محض كالأمور العقلية والسماوية ، ومنها ما يغلب عليه الخير كالوجود

الأرضى والشر فيه من طبيعته لأنه عالم كون وفساد .

وكان يذهب إلى أن العقل أعلى قوى النفس ، وعنده أن النفوس تنقسم إلى مراتب أعلاها النفوس الكاملة التى تتمسَّك بالمثل العليا وبالخير المحض الخالص وكان يعدّ الموت بطلانا للجسم ، أما النفس فتبقى خالدة وعلى اتصال بالعقل الكلى ، وسعادتها وشقوتها حينئذ ترجعان إلى اتحادها به قوة وضعفا . وفى ذلك يكون الثواب والعقاب .

ويخطو ابن سينا بفلسفته خطوة ، فيمزجها بالتصوف الذى تفيض على المتصوف فيه اللذات الروحية فلا يرى فى الكون سوى مبدعه وجماله على نحو ما تصور ذلك قصتاه « حى ابن يقظان » و« سَلامان وأَبْسال » وسنلمّ بهما فى الفصل الأخير . وفى الأولى يعود حى بن يقظان الفيلسوف إلى مورد المعرفة الصوفية الإلهية ، بينما يتخلص أبسال فى الثانية من أغلال اللذات الحسية موغلا فى اللذات العقلية وما يُطْوَى فيها من لذات الصوفية الروحية . ويوضح ذلك فى كتابه الإشارات ، فيقول عن الصوفى ويسميه العارف إنه المتصرف بفكره إلى قدس الله مستديما لإشراق نور الحق على نفسه ، وهو يعبد الله لأنه مستحق للعبادة لارهبة من عقابه ولا رغبة فى ثوابه .

والبَيْرونى [1] هو محمد بن أحمد المولود سنة ٣٦٢ بضاحية من ضواحى خيوه عاصمة خوارزم تسمى بَيْرون ، ولا نعرف شيئا واضحا عن نشأته ، ويبدو أنه تلقن معارفه الأولى بخيوه ، ولم يلبث أن اتجه إلى الرياضيات والفلك فحذقهما حذقا رائعا ، وشُغف فى أثناء ذلك بمعرفة أحوال البلدان والأمم ، ولم يكد يتدرج فى العقد الثالث من عمره حتى بارح موطنه إلى طَبَرِسْتان حيث عاش فى رعاية أميرها قابوس ، وإليه قدَّم أول كتبه : « الآثار الباقية عن القرون الخالية » الذى فرغ من تأليفه حوالى سنة ٣٩٠ وقد صوَّر فيه المناهج التاريخية والتقاويم الحسابية لكثير من الأمم المتحضرة وهو أول كتبه العظيمة ، وقد طبعه سخاو فى ليبزج سنة ١٨٧٨ وقدم له بمقدمة نفيسة عن البيرونى وأعماله ومكانته . وكان قابوس متقلبا ، فخشى البيرونى على نفسه منه ، وتركه إلى موطنه وأميره فيه « مأمون خوارزم » . وسمع به وبعلمه محمود الغزنوى ، فطلبه من أميره ، وأبدى البيرونى – فيما

---

(١) انظر فى البيرونى تتمة صوان الحكمة للبيهقى ومعجم الأدباء ١٧ / ١٨٠ وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ص ٤٥٩ ومقدمتى سخاو للآثار الباقية وتحقيق ما للهند من مقولة وبراون ١١١ ، ١٢١ وكاجورى فى تاريخ الرياضيات ومادة بيرونى فى دائرة المعارف البريطانية وكتاب العلم عند العرب لأندوميلى ص ١٨٨ وما بعدها ومقالتى بروكلمان وفيدمان عن البيرونى فى دائرة المعارف الإسلامية وتاريخ الأدب الجغرافى لكراتشكوفسكى (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١ / ٢٤٥ ومابعدها .

يُرْوَى – رغبته فى الذهاب إليه ، ويقال : بل ظل مع مأمون خوارزم حتى استولى محمود الغزنوى على دياره فصحبه فيمن أخذهم معه من علماء خوارزم لسنة ٤٠٨ للهجرة . وكان البيرونى شيعيا ومحمود سنيا يضطهد الشيعة ، فتحول البيرونى إلى مذهبه ، وربما تحول إلى هذا المذهب قبل صحبته لمحمود . وكان محمود ماينى يغزو الهند على نحو ما مر بنا فى الفصل السابق ، فكان يسير معه ، ويظهر أنه أقام بها سنوات متصلة مكنته من دراستها دراسة علمية خصبة ، تعلم فى أثنائها اللغة السنسكريتية وقرأ ماكتبه فيها علماؤها ، ودرس فى عمق فلسفاتها ورياضياتها وعقائدها وتقاليدها وجملة معارفها فى التنجيم والتاريخ والفلك ، وكل ذلك أودعه كتابه الرائع : «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة» وقد أتمه سنة ٤٢٣ بعد وفاة محمود الغزنوى بعامين . وفى الكتاب قطع بنصها لمؤلفين هنود ، وفيه وصف جغرافى مفصل للهند وآرائهم الدينية والفلسفية ومعارفهم وتاريخهم وتقاليدهم وعاداتهم وأعيادهم وأنظارهم فى الفلك والتنجيم . ويقارن مقارنات خصبة بين علومهم وعلوم العرب واليونان والفرس . ويعترف بتفوق المعرفة اليونانية لما تمتاز به من كمال المنهج ومن الدقة والعمق . ويقارن بين أديان الهند وأديان الكتب السماوية مقارنات دالة على تأمل دقيق فى الديانات وفلسفاتها ، ويوسع تأمله ليشمل المانوية وغيرها من ديانات الفرس . وفى كل ذلك ينثر آراءه الأصيلة التى تدل على عقل متفلسف دقيق منتهى الدقة . ونراه يبين فى قوة وجوه التوافق بين الفلسفة الفيثاغورية الأفلاطونية والحكمة الهندية .

ومن مصنفات البيرونى كتابه القانون المسعودى فى الهيئة والتنجيم ألفه سنة ٤٢١ للسلطان مسعود بن محمود الغزنوى عقب وفاة أبيه وهو دائرة معارف فى الفلك والهندسة والتنجيم ، وقد وصفه ياقوت بأنه يعفِّى أثر كل كتاب ، صُنِّف فى تنجيم أو حساب ، ويقول البيهقى إنه غرة فى وجوه تصانيفه . وفى مقدمته يشيد بالسلطان مسعود الذى قدم إليه الكتاب وقد نشر فى حيدر آباد سنة ١٩٥٣ . وللبيرونى كتب أخرى ، منها كتاب فى المعادن سماه الجماهر فى معرفة الجواهر ، أهداه إلى السلطان مودود الغزنوى ، ومنها كتب فى الطب وكتاب فى الصيدلة نشره ماكس مايرهوف فى برلين وكتب أخرى فى الطبيعيات . وفى الحق أنه شخصية فريدة فى تاريخ إيران العربية .

ويلحق بهذين الفيلسوفين العظيمين الشهر[1] ستانى أبو الفتح محمد بن أبى القاسم

---

(١) انظر فى الشهرستانى وترجمته ابن خلكان ٤/٢٧٣ بالوفيات ٣/٢٧٨ وشذرات الذهب ٤/١٤٩ ومرآة الجنان ٣/٢٨٩ ولسان الميزان ٥/٢٦٣ وعبر الذهبى = وتذكرة الحفاظ ٤/١٣١٣ والسبكى ٦/١٢٨ والوافى

المتوفى سنة ٥٤٨ وهو من شهرستان فى شمالى خوارزم ، واشتهر بكتابه الفريد «الملل والنحل» الذى ألفه فى سنة ٥٢١ وهو فى علم مقارنة الملل والأديان . وكان تسامح المسلمين مع أهل الكتاب من قديم سببا فى نشأة هذا العلم نشأة مبكرة لدى العرب ، فمنذ القرن الثالث الهجرى وهم يؤلفون فيه إلى أن ظهر البيرونى وألف كتابه «تحقيق ما للهند من مقولة» الذى تحدثنا عنه آنفا ، وقلنا إنه يبحث فيه مباحث دقيقة فى الديانات ، وجاء بعده ابن حَزْم الأندلسى المتوفى سنة ٤٥٦ وألف كتابه «الفِصَل فى الملل والأهواء والنحل» وخلفه الشهرستانى ، فألف كتابه سالف الذكر عارضا فيه جميع الفرق الإسلامية وديانات أهل الكتاب وديانات غيرهم من أهل الشرك فى اعتدال وإنصاف وبصر نافذ ، وهو لا يبارَى فى دقته وذكائه وتمييزه بين المعتقدات والملل سواء تحدث عن عالمه الإسلامى أو عن عالم الفرس القديم ودياناته أو عن عالم الهند أو عالم اليونان .

وظلت طوال العصر دراسات علوم الأوائل ناشطة وفى مقدمتها الرياضيات والفلك ، وقد تقدم العرب بهما فى مطالع هذا العصر خطوات على نحو ما يصوِّر ذلك ألدوميبلى فى كتابه العلم [١] عند العرب ، ومن نابهيهم فى القرن الرابع الهجرى ممن تحدَّث عنهم أبو الفتح محمود بن محمد الأصفهانى الذى نقح كتاب المخروطيات لأبولونيوس ، وأبو جعفر الخازن الخراسانى ، وله كتاب فى الفلك وصف فيه عددا من آلات الرصد الفلكية ، وأبو الحسين الصوفى مؤلف كتاب الكواكب الثابتة ، وهو محلًّى بالرسوم ، ويقول ألدوميبلى إنه صحَّح فيه كثيرا من أخطاء بطليموس ، وانتفع بتصحيحاته علماء الفلك المحدثون . واطرد هذا النشاط العلمى فى القرن الخامس إذ نجد أبا الحسن على بن أحمد النسوى يؤلف بالفارسية كتابا فى اللوغارتمات ويترجمه إلى العربية بعنوان المقنع فى الحساب الهندى . ويشمل نظام الملك فى الدولة السلجوقية برعايته الكثير من العلماء الرياضيين ، وفى مقدمتهم [٢] عمر الخيام صاحب الرباعيات المشهورة ، وله كتاب فذ فى علم الجبر رتب فيه – كما يقول ألدوميبلى – الصور المختلفة للمعادلات ذات الدرجة الثانية والثالثة ترتيبا منظما ، وقد عهد إليه نظام الملك بإصلاح التقويم ، وبنى له مرصدا سنة ٤٧١ ويظن أنه إما كان فى مرو وإما فى أصفهان وإما فى نيسابور ، وعيَّن له ثمانية من علماء الفلك يساعدونه فأصلح التقويم

= ١٣٢/٤ وروضات الجنات ١٨٦ وبراون ص ٤٥٩ ودائرة المعارف الإسلامية .

(١) انظر العلم عند العرب ص ٢١٢ وما بعدها .

(٢) راجع فى عمر الخيام وترجمته القفطى ص ٢٤٣ وآثار البلاد للقزوينى (طبعة وستنفلد) ص ٣١٨ وبراون ص ٣٠٤ وألدوميبلى ص ٢١٤ ، ٢٢١ ودائرة المعارف الإسلامية .

وألف فيه كتابه « التاريخ الجلالى » نسبة إلى السلطان جلال الدين ملكشاه السنجوقى . ومن أشهر الرياضيين بعده نصير [١] الدين الطوسى المولود بطوس سنة ٥٩٧ وقد تلقَّفه الإسماعيليون لما رأوا من ذكائه ، فأرسلوه إلى عاصمتهم « ألموت » وهناك وجد مكتبة نفيسة أكبَّ على ما فيها من كتب الفلسفة والرياضيات ، حتى إذا استولى هولاكو على تلك القلعة انتقل نصير الدين إلى خدمته ، وكرَّمه لما سمع من معرفته بالفلك والتنجيم ، وصحبه فى هجومه على بغداد ، وانتهز الفرصة فاستولى على كثير من كتبها النفيسة ، وكوَّن منها مكتبة ضمّت أكثر من أربعمائة ألف مجلد ، كما يقول ابن شاكر فى كتابه فوات الوفيات . وساعده هولاكو فى بناء مرصد مدينة المراغة المشهور سنة ٦٥٧ وعيَّن معه فيه جماعة من صفوة العلماء الرياضيين ، وظل نصير الدين قائما على هذا المرصد حتى وفاته سنة ٦٧٣ وقد ألف زيجا أو قل تقويما أصلح به تقويم الخيام ، وألف كتبا كثيرة فى التنجيم والفلسفة والرياضيات والطبيعيات . ومن أشهر تلاميذه قطب [٢] الدين محمود بن مسعود الشيرازى المتوفى سنة ٧١٠ وكان رياضيا فلكيا ، ومن كتبه : « نهاية الإدراك فى دراية الأفلاك » . ومنهم نجم [٣] الدين على بن عمر الكاتبى المشهور باسم دبيران المتوفى سنة ٦٧٥ وكان موظفا فى مرصد المراغة بأذربيجان واشتهر بكتاب فى المنطق سماه « الرسالة الشمسية فى القواعد المنطقية » وهى مشروحة مرارا . وظل مرصد المراغة مجهزا بأكمل الآلات حتى القرن الثامن الهجرى ، وكانت العربية لا تزال فى إيران اللغة الأولى للعلوم ، وإن أخذت تزاحمها الفارسية حتى ظفرت بها فى الحقب المتأخرة .

وعلى نحو ما نهضت العلوم الرياضية والفلكية نهضت العلوم الطبيعية والطبية ، وكانت البيمارستانات تُعَدّ مدارس كبرى لتعليم الطب والنهوض به ، ومن أهم الأطباء فى القرن الرابع الهجرى على [٤] بن العباس المجوسى صاحب الكناش الملكى فى الطب ، وقد أهداه إلى عضد الدولة البويهى ، وكان يعاصره أبو [٥] سهل المسيحى الذى ألف ما يشبه دائرة

---

(١) انظر فى نصير الدين الطوسى وترجمته فوات الوفيات لابن شاكر (نشر مكتبة النهضة المصرية) ٢/٣٠٧ وروضات الجنات ص ٥٠٦ وشذرات الذهب ٥/٣٣٩ وبراون ص ٦١٥ وألدوميلى ص ٢٨٩ ، ٢٩٦ ودائرة المعارف الإسلامية ، وقد نشرت له دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد سنة ١٣٥٨ هـ مجلدين من رسائله ومقالاته .

(٢) راجع فى قطب الدين وترجمته الدرر الكامنة لابن حجر ٤/ ٣٣٩ والنجوم الزاهرة ٩/ ٢١٣ وألدوميلى ص ٢٩٨ .

(٣) انظره فى فوات الوفيات ٢/ ١٣٤ و ألدوميلى ص ٢٧١ .

(٤) راجع ألدوميلى ص ٢٣٨ وما بعدها حيث يعرض مجموعة من الأطباء بينها على بن العباس وانظر القفطى ص ٢٣٢ وبروكلمان ٤/ ٢٩١

(٥) انظر فيه القفطى ص ٤٠٨ وبروكلمان ٤/ ٢٩٤ .

معارف طبية فى مائة مقالة . ولزين [1] الدين الجرجانى الطبيب المتوفى سنة **٥٣١** موسوعة طبية كتبها بالفارسية سماها «ذخيرة خوارزم شاه» وقد أهداها إلى الشاه الخوارزمى قطب الدين محمد . ويظل الاهتمام بالطب على توالى الحقب ، وكذلك ظل الاهتمام بالصيدلة وعلم العقاقير ، ويشتهر فى هذا العلم موفق [2]بن على الهروى فى القرن الرابع الهجرى ، كما يشتهر فى الكيمياء الطغرائى الشاعر المشهور وزير السلطان السلجوقى مسعود ، وله كتب كثيرة فى الكيمياء [3] ، منها الجوهر النضير فى صناعة الإكسير . وللقزوينى [4] زكريا بن محمد المتوفى سنة ٦٨٢ للهجرة كتاب طريف فى التاريخ الطبيعى سمَّاه «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات»

ومرَّ بنا فى كتاب العصر العباسى الثانى أن كتاب بطليموس الجغرافى وجَّه العرب منذ الخوارزمى الرياضى محمد بن موسى إلى التأليف فى علم الجغرافيا أو تقويم البلدان ، ونشط فيه التأليف نشاطا واسعا واتبع الجغرافيون العرب حينئذ منهجا طريفا فى وصف البلدان أن يُعْنَوْا بالحديث عن عادات الشعوب ، ويَقُصُّوا بعض ماسمعوه من الأعاجيب ، مما جعل كتبهم الجغرافية تعتمد على المشاهدة وحكاية ماسمعه الجغرافى بأذنه ورآه تحت بصره ، وبذلك أصبحت تشبه كتب الرحلات . ويلقانا فى القرن الرابع رحالة مشهور هو أبو دلف الخزرجى مِسْعَر بن مهلهل شاعر الكُدْية الذى سنترجم له بين الشعراء الشعبيين ، وعِداده فى شعراء أصفهان ، وأصله كما يبدو من لقبه من أهل المدينة ، وله رحلة إلى بلاد آسيا الوسطى والشرقية قام بها سنة **٣٣٣** للهجرة وقد نشرت منها وزارة التربية والتعليم المصرية قطعة ، حققها المستشرق مينورسكى ، وعُنى الدكتور محمد منير مرسى بإعادة نشر هذه القطعة كما سيأتى فى الحديث عنه بين الشعراء وفيها يصف أبو دلف بعض مدن الشمال الغربى لإيران . وجاء بعده فى القرن الخامس الهجرى رحالة إسماعيلى ، هو ناصر خسرو ، وقد كتب رحلته بالفارسية فى كتابه المسمى «سفرنامه» واستغرقت منه الرحلة سبع سنوات (**٤٣٧ - ٤٤٤** هـ.) طاف فيها ببلدان موطنه إيران والعراق والجزيرة العربية والشام ومصر ، وهى تخرج عن حديثنا لأنها ليست باللسان العربى . وللإيرانيين بجانب هذه الرحلات البرية رحلات بحرية إذ كان ملاحوهم يتعمقون فى المحيطين الهندى والهادى ،

---

(١) راجع فيه ألدوميلى ص ٣٢٠ .

(٢) ألدوميلى ص ٢٣٩ .

(٣) انظر فى نشاط الطغرائى الكيميائى ألدوميلى ص ٢٣٩ .

(٤) راجع فى القزوينى براون (ترجمة الدكتور الشوار بى) ص ٦١٢ وألدوميلى ص ٢٩٦ ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع وتاريخ الأدب الجغرافى لكراتشكوفسكى ١ /٣٦٠ .

ووصفوا رحلاتهم فيهما وفى المحيطين وجزرهما وشواطئهما فى آسيا وإفريقيا وكل ما رأوه من شعوب وحيوانات برية وبحرية وطيور. ومن أهم ماكتبوا من هذه الرحلات كتاب «عجائب[1] الهند بَرِّه وبحره وجزره وشطآنه» لبزرك بن شهريار الناخُداه أى الربان. ويدل اسمه على أنه إيرانى، وتدل حكاياته على أنه كان يعيش فى القرن الرابع الهجرى، وهو يقص فى كتابه قَصَصا بديعا ما سمعه من حكايات عن الملاحين الذين اقتحموا المحيطين الهندى والهادى ووصفوا ما أبصروه من أسماك وطيور وحيوانات وما ألم بسفنهم من عواصف هوجاء، وما شاهدوه من الشعوب وصناعاتها وعاداتها ودياناتها. وهو كتاب جغرافى وأدبى وقصصى نفيس.

وربما كان القزوينى زكريا بن محمد المذكور آنفا أكبر جغرافى أنتجته الحقب التالية فى العصر، واسم كتابه الجغرافى: «آثار البلاد وأخبار العباد» وهو فيه يصف الأقاليم السبعة للأرض، ويذكر مافيها من البلدان والجزر والأنهار، ويهتم بأحوال السكان ويجمع غرائب عن شعوب هذه الأقاليم فى آسيا وإفريقيا وأوربا وخاصة شعوب الهند والصين، ويقص حكايات عن شعراء الفرس والزهاد فى البلدان الإسلامية، ويعرض عجائب البنيان والآثار ويحكى كثيراً من الأساطير والخرافات مما يجعل كتابه فى بعض جوانبه شبيها بكتب الأدب الخيالية المسلية.

ولعل فى كل ما سبق ما يصور ازدهار علوم الأوائل فى إيران حتى القرن الثامن الهجرى، وقد يدل على ذلك من بعض الوجوه إحساس العلماء بكثرة المصطلحات العلمية وأنهم فى حاجة إلى كتاب يجمعها ويعرف بها تعريفا دقيقا، وهو ما جعل السيد الشريف الجرجانى المتوفى سنة ٨١٦ يتجرد لوضع كتاب يفى بهذه الحاجة، على نحو ما يلقانا عنده فى كتابه التعريفات الذى أوضح فيه الاصطلاحات العلمية مرتِّبا لها على حروف المعجم ترتيبا دقيقا.

٣

علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد

نشط البحث فى اللغة نشاطا واسعا لهذا العصر، إذ كثر العلماء الإيرانيون الذين تصدَّوا للمباحث اللغوية، وكان أكبر ما نهضوا به وضع المعاجم، واهتمامهم به قديم، ولذلك

(١) انظر فى هذا الكتاب كراتشكوفسكى ١ / ١٤٣ وكتابنا «الرحلات» طبع دار المعارف ص ٣٣.

لا يكون عجباً أن أول نسخة تنشر من معجم العين للخيل بن أحمد ، وهو أول معجم وضع فى العربية ، إنما تنشر –كما ذكر صاحب الفهرست– من خراسان . ومعروف أن المعجم الثانى فى العربية الذى ألف على منهج معجم العين هو الجمهرة لابن دُرَيْد المتوفى سنة ٣٢١ هـ وهو أيضاً نُشر لأول مرة فى إيران ، إذ استدعى عبد الله بن محمد بن ميكال والى الأهواز وفارس ابنَ دُرَيْدٍ من البصرة لتأديب ابنه أبى العباس إسماعيل ، وهناك وضع الجمهرة ، وكان ترتيب الكلمات فى هذا المعجم –كترتيبها فى معجم العين– على مخارج الحروف ومواقعها من الجهاز الصوتى أى من الحلق واللسان والفم والشفتين . وأول معجم عام وضع فى عصر الدول والإمارات الذى نحن بصدده معجم تهذيب اللغة الذى وضعه أبو منصور محمد[١] بن أحمد الأزهرى الهروى المتوفى سنة ٣٧٠ هـ وسنجد كثيرين غيره من هراة بأفغانستان الحالية يشتركون فى خدمة اللغة وغير اللغة ، وكانت هراة تعد جزءاً من إيران .

ورتَّب الأزهرى معجمه على ترتيب معجم العين أى حسب مخارج الحروف ، وعرض فى مقدمته لرواة اللغة وترجم لهم موضحاً مدى الثقة والتّهمة فى أعمالهم . وكان يعاصر الأزهرىَّ عالم فاراب إسحق بن إبراهيم الفارابى المتوفى سنة ٣٥٠ للهجرة وقد وضع فى اللغة معجمه ديوان الأدب الذى نشره مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، واتبع فيه طريقة جديدة هى ترتيبه حسب الحروف الهجائية باعتبار أواخر الألفاظ وفقاً للأبنية المختلفة ، ووضع الصاحب بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ هـ معجماً كبيراً سماه المحيط لم تبق منه إلا بعض أجزاء لا تزال مخطوطة . وخلفها أبو الحسين أحمد[٢] بن فارس القزوينى معلم العربية بهَمذان المتوفى سنة ٣٩٥ هـ وله معجمان : المجمل ومقاييس اللغة ، أما المجمل فمعجم عام رتبه حسب الأبجدية المعروفة لنا اليوم ، غير أنه قسم المواد فى كل حرف إلى ثنائى ويشمل المضاعف والمطابق ، ثم ثلاثى ، ثم ما جاء على أكثر من ثلاثة حروف أصلية ، والتزم أن يفتح حديثه فى كل حرف به مع ما يليه . ومعجمه مقاييس اللغة على غرار المجمل ، عُنى فيه بأن يجعل لألفاظ كل مادة لغوية أصلا تُرَدّ إليه أو أصلين . وهو فيه أكثر منه فى المجمل

---

(١) انظر فى الأزهرى ابن خلكان (طبعة دار صادر ببيروت) ٤/ ٣٣٤ ومعجم الأدباء ١٧/ ١٦٤ وشذرات الذهب ٣/ ٧٢ والسبكى فى طبقاته ٣/ ٦٣ .

(٢) انظر فى أحمد بن فارس اليتيمة ٣/ ٤٠٠ ودمية القصر وابن خلكان ١/ ١١٨ ومعجم الأدباء ٤/ ٨٠ وإنباه الرواة ١/ ٩٢ وما به من مراجع والنجوم الزاهرة ٤/ ٢١٢ .

عناية بالشواهد والأمثال والعبارات المجازية ، بينما هو فى الجمل أكثر منه فى المقاييس عناية بذكر الأعلام .

ولأبى نصر إسماعيل بن حماد الجوهرى (١) معاصره المتوفى سنة **٣٩٥** معجمه المشهور : تاج اللغة وصحاح العربية ويشتهر باسم الصحاح ، وأصل موطن الجوهرى فاراب شرق خراسان ، رحل فى طلب اللغة إلى بلاد ربيعة ومضر ، ورجع إلى خراسان فنزل فى الدامَغان ثم ألقى عصاه فى نَيْسابور ، وظل بها يدرس ويصنِّف إلى وفاته ، ومعجمه مرتب على الحروف الهجائية ولكن لا بحسب أوائل الكلمات وإنما بحسب أواخرها بنفس المنهج الذى اتبعه خاله الفارابى فى معجمه ديوان الأدب ،وأوتى المعجم من الشهرة والذيوع ما جعل مؤلفات كثيرة تعنى به عند العلماء فى موطنه وفى غيره . ووضع محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى من أهل القرن الثامن الهجرى مختصرا له سماه « مختار الصحاح » ورتبه حديثاً محمود خاطر بحسب أوائل الكلمات لا بحسب أواخرها ، وهو مطبوع فى عصرنا مراراً وتكراراً . وللزمخشرى (٢) محمود بن عمر المتوفى سنة **٥٣٨** معجم عام سماه « أساس البلاغة » وهو مرتب بحسب أوائل الكلمات ويورد من الأمثلة والشواهد ما يوضح استخدامها ، ويعنى ببيان ما جاء فى كل كلمة ومادتها من مجازات مختلفة . ونمضى إلى القرن الثامن فنلتقى بالفيروز ابادى مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازى المتوفى سنة ٨١٧ وسبق أن تحدثنا عنه فى الفصل الثانى من القسم الأول الخاص بالجزيرة العربية .

وبجانب هذه المعاجم اللغوية صنع علماء إيران اللغويون فى الحقب الماضية معاجم خاصة للقرآن الكريم والحديث الشريف . منها معجم أبى عبيد الهروى المتوفى سنة ٤٠١ وهو تلميذ الأزهرى ، ولم يُعْنَ مثل أستاذه بمعجم عام إنما عُنى بمعجم خاص لغريب القرآن والحديث سماه كتاب الغريبين ، وقد يذكر عند بعض أصحاب التراجم باسم كتاب الغريبين فى لغة كلام الله وأحاديث رسوله أو باسم غريب القرآن والسنة وتفسيرهما . ووضع الزَّوْزَنى (٣) الحسين بن على بن أحمد المتوفى سنة ٤٨٦ بعده معجماً بالعربية والفارسية سماه

---

(١) راجع فى الجوهرى إنباه الرواة ١/١٩٤ ومعجم الأدباء ٦/١٥١ وشذرات الذهب ٣/١٤٢ واليتيمة للثعالبى ٤/٤٠٦ ودمية القصر للباخرزى وكتب تراجم النحاة والنجوم الزاهرة ٤/٢٠٧ .

(٢) انظر فى الزمخشرى ابن خلكان ٥/١٦٨ والأنساب للسمعانى الورقة ٢٧٧ وروضات الجنات ص ٦٨١ وإنباه الرواة ٣/٢٦٥ واللباب ٢/٥٠٦ ومعجم الأدباء ١٩/١٢٦وطبقات المفسرين للسيوطى ٤١ وشذرات الذهب ٤/١١٨ والنجوم الزاهرة ٥/٢٧٤ وأزهار الرياض ٣/٢٨٢ ونزهة الألباء ص ٣٩١ والجواهر المضية ٢/١٦٠ وكتب التاريخ فى سنة وفاته وبراون فى تاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى ص ٤٥٨ .

(٣) راجع فى الزوزنى إنباه الرواة ١/٣٢٠ وبراون ص ٤٤٩ وبروكلمان ٥/٢٠٧ .

ترجمان القرآن . وجاء بعده الراغب [١] الأصبهانى الحسين بن محمد المتوفى سنة ٥٠٢ ووضع كتابه أو معجمه مفردات ألفاظ القرآن أو مفردات غريب القرآن ، وهو معجم لا نظير له فى بيان دلالات ألفاظ القرآن ، ولا يستغنى عنه ناظر فى آيات الذكر الحكيم ولا مفسر للقرآن الكريم . ووضع الزمخشرى المذكور آنفاً معجما لألفاظ الحديث النبوى سماه الفائق فى غريب الحديث .

وبجانب هذا النشاط اللغوى نشط علماء اللغة فى إيران فى دراسة الأمثال وعمل معاجم لها تتضمن شرحها ، ويمكن أن ندخلها فى المعاجم الخاصة ، ولعل أول من يصادفنا فى هذا الباب حمزة [٢] الأصفهانى المتوفى سنة ٣٥٠ وكان يتّهم بشعوبيته لافتخاره بنسبه إلى الفرس ، ولأنه فيما يقال وضع كتابا لعضد الدولة البويهى فى الموازنة بين العرب والفرس ، وينفى عنه بروكلمان هذه التّهمة ، ويقول إنه لم يعاد العرب بل أنصفهم وأعلى ذكرهم ! . وله فى الأمثال معجم بما صيغ منها على وزن أفعل التفضيل مثل قولهم « أحلم من الأحنف » وسماه الدرة الفاخرة ، وصنع الصاحب المذكور آنفا أمثال المتنبى ، استخرج من شعره الأبيات التى تجرى مجرى المثل .

وكان يعاصره أبو هلال [٣] العسكرى المتوفى سنة ٣٩٥ وقد ولد بعسكر مُكْرَم فى إقليم خوزستان وإليها ينسب ، وتعلم بها ، واحترف التجارة ، ولم تشغله عن التنصيف والتأليف ، وله فى الأمثال معجم سماه جمهرة الأمثال رتبه على حروف المعجم ، ذكر فيه منها نحو ألفى مثل . وشرحها شرحا وافياً مبيناً مضاربها ومواردها ، وأعقب كل باب بما ذكر حمزة الأصفهانى فيه من الأمثال المصاغة على وزن أفعل . وجاء بعده الميدانى [٤] أحمد ابن محمد المتوفى سنة ٥١٨ فألف أهم معجم بين كتب الأمثال سماه مجمع الأمثال . حاول فيه أن يستقصى الأمثال العربية ، وهو استقصاء لم يُسْبَقْ إليه ، مع شرحها شرحا مستفيضاً . وخلفه الزمخشرى الذى ذكرناه آنفا فألف معجمه « المستقصى فى الأمثال » ، وهو مرتب على الحروف الهجائية مثل معجم الميدانى . ولكنه لا يبلغ مبلغه من السعة

(١) انظر فى الراغب بغية الوعاة وطبقات المفسرين وتتمة البيهق ١٠٤ وروضات الجنات ٢٤٩ وبروكلمان ٥ / ٢٠٩ ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع .

(٢) راجع فى حمزة الفهرست لابن النديم ص ٢٠٥ والأنساب ورقة ٤٤١ وبروكلمان ٣ / ٦٠ ودائرة المعارف الإسلامية .

(٣) انظر فى أبى هلال معجم الأدباء ٨ / ٢٥٨ - ٢٦٧ ومعجم البلدان فى عسكر مكرم وإنباه الرواة للقفطى باب الكنى وبغية الوعاة للسيوطى ص ٢٢١ وخزانة الأدب ١ / ١١٢ .

(٤) راجع فى الميدانى كتاب الأنساب الورقة ٥٤٨ ومعجم الأدباء ٥ / ٤٥ والإنباه ١ / ١٢١ وابن خلكان ١ / ١٤٨ ونزهة الألباء ٣٩٠ وروضات الجنات ص ٨٠ .

والدقة . ويُدْخل فى هذا النشاط المعجمى بعضُ اللغويين وضعَ معاجم لألفاظ الفقهاء مثل المغرب فى ترتيب المعرب لناصر[١] المطرِّزى الخوارزمى المتوفى سنة ٦١٠ خليفة الزمخشرى فى وطنه خوارزم . ومعجمه يتناول الألفاظ الغريبة التى يستخدمها الفقهاء .

وحاول اللغويون فى إيران أن يضعوا كتبا تجذب القارئ بمنهجها مثل ديوان الأدب المارِّ ذكره وهو يتناول أبواباً صرفية ، وأهم منه كتاب الصاحبى فى فقه اللغة ألفه أحمد بن فارس المذكور آنفاً باسم الصاحب بن عباد ، وهو أول كتاب منهجى فى موضوع أصل اللغة العربية وخصائصها . واهتم اللغويون بما يعرض للكلمات من أخطاء ، وتجرَّد لذلك أبو أحمد[٢] العسكرى خال أبى هلال ، فصنف كتاب التصحيف والتحريف وتوالت بعض الكتب فى هذا الموضوع .

ولم يقتصر نشاط اللغويون فى إيران على كل ما قدمنا . فقد بذلوا جهودا خصبة فى شروح الشعر ومن أهمها شرح الواحدى لديوان المتنبى وشرح الزوزنى المار ذكره على المعلقات السبع وقد طبع مرارا ويتداوله الطلاب فى الجامعات العربية . واشتهر التبريزى أبو زكريا يحيى بن على المتوفى سنة ٥٠٢ بكثرة ما صنف من شروح ، تناول فى بعضها الشعر القديم وفى بعضها الشعر المولد ، وقد تحدثنا عن نشاطه فى هذا الاتجاه بين اللغويين فى العراق ، وشرح الزمخشرى بعده لامية العرب للشنفرى ، وشرح المطرزى خليفته مقامات الحريرى .

ونهض اللغويون بمحاولة أخرى هى جمع الأشعار والكلم البليغة ، وألفوا فى ذلك مصنفات مختلفة ، منها ديوان المعانى لأبى هلال العسكرى ، وكتاب نثر الدرر لأبى سعيد منصور بن الحسن الآبى[٣] من أدباء القرن الخامس وكتاب محاضرات الأدباء للراغب الأصبهانى المذكور آنفا وألف بأخرة من العصر بهاء الدين العاملى المتوفى سنة ١٠٣٠ للهجرة كتابيه الكشكول والمخلاة ، وهما كتابان نفيسان بما جمعا من طرائف النثر والشعر .

ولم يكن اهتمام النحاة بالنحو أقل من اهتمام اللغويين باللغة ، وكثير منهم لهم كتب

---

(١) انظر فى المطرزى معجم الأدباء ١٩/ ٢١٢ وإنباه الرواة ٣/ ٣٣٩ وروضات الجنات ص ٢٢٣ والجواهر المضية فى طبقات الحنفية ٢/ ١٩٠ وابن خلكان ٧/ ٣٦٩ وابن قطلوبغا ص ٧٩ .

(٢) انظر فى أبى أحمد العسكرى ابن خلكان ٢/ ٨٣ ومعجم الأدباء ٨/ ٢٣٣ وإنباه الرواة ١/ ٣١٠ والمنتظم ٧/ ١٩١ .

(٣) راجع فى أبى الحسن الآبى دمية القصر ١/ ٤٦٧ وتتمة اليتيمة ١/ ١٠٠ ومعجم البلدان فى آبه من قرى أصبهان .

نحوية متنوعة غير أننا سنكتفى بذكر الأمهات وأصحابها ، وأول من نقف عنده ابن درستويه الفارسى المتوفى سنة ٣٤٧ وقد مرَّ ذكره بين اللغويين فى العراق ، وأهم منه إمام النحاة عامة فى القرن الرابع الهجرى أبو على الفارسى [١] المولود بالقرب من شيراز سنة ٢٨٨ وكان رُحَلة فى تدريسه ، فأيام فى شيراز وأيام فى عسكر مُكْرَم بخوزستان وأيام فى كَرْمان ، وأيام أخرى فى بغداد أو فى حلب أو فى الكوفة أو فى دمشق ، وله كتب يسميها المسائل كل منها منسوب إلى بلدة من هذه البلدان فهناك المسائل الشيرازية والعسكرية والحلبية ، وهكذا . وبجانب ذلك له كتب مستقلة عُنى القدماء بشرحها مثل الإيضاح والتكملة وقد صنفها باسم عضد الدولة . وهو أستاذ ابن جنى ، وفى كل مكان من كتبه ينقل عنه وخاصة فى الخصائص وما وضعه فيه من القواعد الكلية ، حتى ليخيَّل إلى الإنسان كأن أكثر الأصول والآراء التى سجلَّها ابن جنى فى كتبه إنما استمدها من إملاءات أبى على الفارسى . وهو فى آرائه النحوية ينتصر مرة للخليل وسيبويه وغيرهما من البصريين ، ومرة ثانية ينتصر للكوفيين ، ومرة ثالثة يستنبط آراء مبتكرة لم يُسْبَقْ إليها ، نافذا بذلك إلى المذهب [٢] البغدادى الجديد فى النحو الذى كان يقوم على الانتخاب من آراء مدرستى الكوفة والبصرة مع الخلوص إلى آراء وأحكام نحوية جديدة .

وكان يعاصره أحمد بن فارس الذى مر بنا ذكره ، وله كتب نحوية كان يذهب فيها مذهب الكوفيين ، واقترح للنحو مقدمة على شاكلة إيساغوجى فى المنطق ، سماها مقدمة فى النحو . ومن نحاة إيران فى القرن الخامس عبد القاهر الجرجانى وسنفصل الحديث فيه بين البلاغيين ، غير أننا نشير إلى أن له كتابا فى النحو سماه العوامل المائة ، عُنى به الشراح طويلاً .

ويأتى بعده الزمخشرى ، وله كتب نحوية مختلفة ، أشهرها المفصَّل ، وقد جعله فى أربعة أقسام : قسم للأسماء تحدث فيه عن المرفوعات والمنصوبات والمجرورات والنسب والتصغير والمشتقات ، وقسم للأفعال وأنواعها المختلفة وقسم للحروف وأصنافها الكثيرة ، وقسم للمشترك أراد به الإمالة والزيادة والوقف والإبدال والإعلال والإدغام ، وقد شُرح هذا الكتاب مرارا ، وأهم شروحه شرح ابن يعيش فى عشر مجلدات . وهو فى الكتاب

---

(١) انظر فى ترجمة أبى على الفهرست ص ١٠١ وإنباه الرواة ١/٢٧٣ وطبقات القراء لابن الجزرى ١/٢٠٦ وتاريخ بغداد ٧/٢٧٥ ومعجم الأدباء ٧/٢٣٢ ولسان الميزان ٢/١٩٥ وشذرات الذهب ٣/٨٨ وابن خلكان ٢/٨٠ ونزهة الألباء ص ٣١٥ وكتاب د . عبد الفتاح شلبى : أبو على الفارسى .

(٢) راجع فى ذلك كتابنا المدارس النحوية (طبع دار المعارف) ص ٢٤٥ وما بعدها .

بغدادى ينتصر تارة للبصريين وتارة للكوفيين وتارة لمن تلاهم من البغداديين وينفذ إلى بعض الآراء الجديدة ، فهو ينتخب آراءه من المدارس السابقة عليه ، وينفرد بآراء جديدة[١] . وتلك هى أصول المذهب البغدادى فى النحو الذى استحدثه ابن كيسان والزجاجى وثبَّته بعدهما أبو على الفارسى وتلميذه ابن جنى . ويؤلف المطرِّزى كتابا فى النحو يسميه المصباح ويشرحه كثيرون . وإمام النحاة بعد ذلك فى إيران الرضى[٢] الإستَرا باذى نجم الدين محمد بن الحسن المتوفى حوالى سنة ٦٨٦ ومولده ومرباه فى إستَراباذ من أعمال طبرستان ، وقد عُنى بعملين لابن الحاجب المصرى ، هما الكافية فى النحو والشافية فى الصرف ، فشرحهما شرحاً واسعا ساق فيه آراء النحاة منذ سيبويه حتى عصره ، وفى ذلك ما يدل من بعض الوجوه على عمق الثقافة النحوية فى إيران حتّى أواخر القرن السابع الهجرى وهو فى شرحه للكتابين بغدادى المذهب ، فهو ينتخب من المدارس النحوية السابقة آراءه مفصِّلا القول فى اختلاف النحاة ، ومن حين إلى آخر ينفرد بآراء مبتكرة .

وازدهرت مباحث البلاغة بجانب مباحث النحو واللغة ، بل لعل هذه المباحث لم تنشط فيها بيئة كما نشطت إيران ، وأول من نقف عنده فيها أبو أحمد العسكرى الذى عرضنا له آنفا ، فقد ألف فيها كتابا فى صناعة الشعر وهو يعرض فيه لصور البديع بالمعنى العام بحيث يشمل فنونه وفنون البيان ، والرسالة مفقودة غير أن ابن أخته أبا هلال العسكرى احتفظ منها بكثير من بحوثها فى كتابه الصناعتين ، وبالمثل نقل عنها كثيراً الباقلانى فى كتابه إعجاز[٣] القرآن . وكتاب الصناعتين لأبى هلال مطبوع مرارا ، وهو يريد بالصناعتين صناعتى الكتابة والشعر ، وقد جعل الكتاب فى عشرة[٤] أبواب : باب لموضوع البلاغة وحدودها ، وباب ثان لتمييز جيد الكلام من رديئه ، وباب ثالث لمعرفة صنعة الكلام ، وباب رابع لحسن النظم ، وباب خامس لشرح الإيجاز والإطناب ، وباب سادس للسرقات الشعرية ، وباب سابع للتشبيه ، وباب ثامن للسجع والازدواج ، وباب تاسع لفنون البديع وهو أطول الأبواب ، وباب عاشر لحسن المبادئ والمقاطع وجودة القوافى ودقة الخروج من النسيب إلى المديح .

وخلف أبا هلال القاضى عبد الجبار[٥] قاضى قضاة البويهيين بإيران المتوفى سنة ٤١٥

---

(١) انظر فى ذلك كتابنا المدارس النحوية ص ٢٨٣ .

(٢) راجع فى الرضا كتابنا المذكور ص ٢٨١ .

(٣) انظر كتابنا البلاغة : تطور وتاريخ (طبع دار المعارف) ص ١١١ وما بعدها وص ٤١٣ وما بعدها .

(٤) راجع فى تحليل هذا الكتاب : البلاغة تطور وتاريخ ص ١٤٠ وما بعدها .

(٥) انظر فى عبد الجبار تاريخ بغداد ١١/١١٣ ولسان الميزان ٣ /٣٨٦ والشذرات ٣ /٢٠٢ ومرآة الجنان ٣ /٢٩ =

وقد عرض فى موسوعته الكلامية «المغنى فى أبواب التوحيد والعدل» لإعجاز القرآن فى الجزء السادس عشر منها . وأدَّاه الحديث فى الإعجاز إلى عرض كلام أبى هاشم الجُبَّائى فى أن المدار فى الإعجاز ليس على نظم القرآن وإنما على فصاحته . ويأخذ عبد الجبار فى توضيح معنى الفصاحة ، فيقول — كما قال عبد القاهر الجرجانى من بعده — إن الفصاحة لا تظهر فى أفراد الكلام ، فالكلمة فى نفسها لا تُعَدّ فصيحة ، بل لابد من ملاحظة أبدالها ونظائرها وحركاتها فى الإعراب ومواقعها فى التقديم والتأخير . وبذلك يقترب بوضوح من عبد القاهر فى تفسيره للنظم فى كتابه دلائل الإعجاز ، إذ يشير فى صراحة إلى الخصائص النحوية وما ترسم من فروق فى الكلام ، أو بعبارة أدق يريد — كما أراد عبد القاهر — النظام النحوى للكلام . ويمنع عبد الجبار — كما منع عبد القاهر فيما بعد — أن يكون للفظة صفة أدبية فى الكلام من حيث هى لفظة مفردة ، فالمدار على موقع الكلمة وكيفية إيرادها وطريقة أدائها . ويقول عبد الجبار إن حسن النغم وجمال اللفظ لا وزن له فى الفصاحة ، مع أنهما يضيفان إلى الكلام رونقاً وبهاء .

وهذه النظرية [١] الجديدة للفصاحة تناولها عبد القاهر الجرجانى [٢] المتوفى سنة ٤٧١ كما قدمنا ، فبسطها أعظم بسط وفسَّرها أروع تفسير بحيث أصبحت منسوبة إليه عند القدماء والمحدثين إذ وضع على أساسها علم المعانى المعروف بين علوم البلاغة العربية ، فالأصل من لَدُن عبد الجبار والعلم بشعبه وتفاريعه التى يصورها كتاب دلائل [٣] الإعجاز من لدن عبد القاهر . وكما وضع علم المعانى وضع علم البيان وضعا نهائيا فى كتابه [٤] أسرار البلاغة ، وضعه بتشبيهاته وتفريعاتها الكثيرة وباستعاراته التصريحية والمكنية والتمثيلية وبمجازاته اللغوية والعقلية ، مع روعة العرض وطرافته ، ومع الاهتمام الطريف بالجوانب النفسية . ويخلفه الزمخشرى فيطبق فى تفسيره الكشاف مباحثه فى علمى المعانى والبيان تطبيقا حيا خصبا مضيفاً إليها من حين إلى حين إضافات [٥] بارعة ، سواء فى

= وطبقات المفسرين ١٦ والمعتزلة لابن المرتضى ٦٦ وميزان الاعتدال ٢/٥٣٣ والسبكى ٥/٩٧ وكتابنا البلاغة : تطور وتاريخ ص ١١٤ .

(١) راجع فى تحليل هذه النظرية عند عبد الجبار كتابنا البلاغة تطور وتاريخ ص ١١٥ وما بعدها .

(٢) انظر فى عبد القاهر إنباه الرواة ٢/١٨٨ ودمية القصر ٢/١٧ والسبكى ٥/١٤٩ وروضات الجنات ١٤٣ وشذرات الذهب ٣/ ٣٤٠ ومرآة الجنان ٣/ ١٠١ وفوات الوفيات ١/٦١٢.

(٣) انظر فى عرض مواد هذا الكتاب كتابنا البلاغة تطور وتاريخ ص ١٦٠ – ١٨٩ .

(٤) انظر فى تحليل هذا الكتاب كتابنا البلاغة تطور وتاريخ ١٩٠ – ٢١٨ .

(٥) راجع فى هذه الإضافات الكتاب السالف ص ٢١٩ – ٢٧٠ .

المعانى الإضافية التى يصورها علم المعانى عند عبد القاهر أو فى فنون البيان التى يصورها أيضاً عبد القاهر . وعُنى ببعض ألوان البديع مثل الطباق والمشاكلة واللف والنشر والالتفات وتأكيد المدح بما يشبه الذم ومراعاة النظير والتقسيم والاستطراد والتجريد .

وتتحول البلاغة بعد الزمخشرى وعبد القاهر إلى قواعد جامدة جافة ، وأهم من دفَعها نحو هذا الاتجاه عاجلا الفخر[1] الرازى المتوفى سنة ٦٠٦ وقد أوغل فى دراسة الفلسفة والعلوم الدينية ، وطاف بكثير من البلدان الإيرانية واستقر بمدينة هَراة حتى وافاه أجله وهو يمتاز فى تآليفه الكثيرة بالقدرة على تشعيب الأفكار وتقسيمها وتفريعها ، يمده فى ذلك عقل متفلسف ، إذ كان قد درس الفلسفة دراسة عميقة ، وله كتب مختلفة فى التفسير والفقه والطب والكيمياء وعلم الكلام . ويهمنا كتابه فى البلاغة الذى سماه : «كتاب نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز» وهو يعلن فى مقدمته[2] أنه سينظِّم ما كتبه عبد القاهر فى مصنفيه : دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة ، وينوه بصنيعه قائلاً . « ولما وفقنى الله لمطالعة هذين الكتابين التقطت منهما معاقد فوائدهما ومقاصد فرائدهما وراعيت الترتيب مع التهذيب ، والتحرير فى التقرير ، وضَبطتُ أوابد الإجمالات فى كل باب بالتقسيمات اليقينية ، وجمعتُ متفرقات الكلم فى الضوابط العقلية ، مع الاجتناب من الإطناب الممل والاحتراز عن الاختصار المخل» . وكأنه يعرِّفنا بلسانه ما صارت إليه المباحث البلاغية الرائعة عند عبد القاهر من تقسيمات وتفريعات وضوابط وقواعد أحالتها هيكلا لا حياة فيه فقد ألقتْ فيها السموم الفلسفية المنطقية ما أحالها شاحبة باهتة . ولم تنفعه إضافات الزمخشرى فقد بثَّ فيها نفس السموم . وبالمثل ما نقله عن مواطنه رشيد الدين الوطواط المتوفى سنة ٥٧٣ إذ نقل عن كتابه الذى وضعه بالفارسية وسماه «حدائق السحر فى دقائق الشعر» . ما ذكره فيه من ألوان البديع ، وأسعفه فى هذا النقل أن الوطواط ساق أمثلة النثر والشعر فى كتابه من الأدبين الفارسى والعربى . ولم تسلم هذه الألوان بدورها عند الرازى من الجفاف الشديد .

ويخلفه السكاكى[3] سراج الدين يوسف بن محمد بن على المولود فى خوارزم سنة

---

(١) انظر فى الفخر الرازى ابن خلكان ٤/٢٤٨ وطبقات السبكى (طبعة عيسى الحلبى) ٨/٨١ وطبقات المفسرين ٣٩ والوافى للصفدى ٤/٢٤٨ وتاريخ الحكماء للقفطى (طبعة ليبزج) ص ٢١٩ وابن أبى أصيبعة ص ٤٦٢ وشذرات الذهب ٥/٢١ .

(٢) راجع فى تحليل الكتاب ومواده كتابنا البلاغة : تطور وتاريخ ص ٢٧٥ .

(٣) انظر فى السكاكى معجم الأدباء ٢٠/٥٩ والجواهر المضية ٢/٢٢٥ والفوائد البهية فى تراجم الحنفية للكنوى ص ٣٠١ وتاج التراجم لابن قطلوبغا ص ٨١ وشذرات الذهب ٥/١٢٢

٥٥٥ وقد مضى يعبُّ فى موطنه من جداول الفلسفة والمنطق ، وأكبَّ على العلوم الإسلامية وعلوم العربية ينهل منها ، وذاعت شهرته ، فقصده الطلاب ، وظل يعلِّم ويلقى محاضراته إلى أن توفى سنة ٦٢٧ . ويشتهر السكاكى بتأليفه فى البلاغة كتابه «المفتاح» وقد جعله فى ثلاثة أقسام [١] : قسم لعلم الصرف ، وقسم ثان لعلم النحو ، أما القسم الثالث فقصره على علمى المعانى والبيان ، وألحق بهما ذيلا تناول فيه مبحثا عن الفصاحة والبلاغة ومبحثاً ثانياً لألوان البديع اللفظية والمعنوية . وقدَّم لعلوم البلاغة بمبحث واسع فى علم المنطق ، وتلاه بمبحث فى علمى العروض والقوافى ، وبذلك تضمَّن المفتاح علوم الصرف والنحو والمنطق والمعانى والبيان والبديع والعروض والقوافى . وشهرة الكتاب إنما ترجع إلى ما كُتب فيه عن علوم البلاغة ملخَّصاً ، إذ الكتاب أشبه بمتن فى كل ما خاض فيه من مباحث ، وهو متن استضاء فيه بالفخر الرازى قبله ، مع تفوقه عليه فى الدقة وضبط الأقسام ، غير أنه يخلو خلوًّا تاماً من تحليلات عبد القاهر والزمخشرى ، ويصبح الكتاب متنا لعلوم البلاغة يُحْصى قوانينها وقواعدها ، مع خلوه من كل ما يؤنس النفس ، إذ وُضعت تلك القواعد والقوانين فى قوالب منطقية شديدة الجفاف ، وهى قوالب يداخلها غير قليل من الالتواء بسبب كثْرة التقسيمات ، مما جعل الكتاب أو قل المتن فى حاجة إلى الشرح والتوضيح ، وتوالت الشروح ، فشرحه قطب الدين محمود بن مسعود الشيرازى وقد تقدَّم ذكره بين علماء الرياضيات والنجوم ، وشرحه كثيرون من مواطنيه ، من أشهرهم سعد [٢] الدين مسعود بن عمر التفتازانى المولود فى تفتازان شرقى إيران سنة ٧٢٢ وأبعده تيمورلنك إلى سمرقند ، وبها توفى سنة ٧٩١ وله كتب كثيرة فى المنطق والنحو . وممن شرح «المفتاح» السيد الشريف [٣] الجرجانى المتوفى سنة ٨١٦ صاحب كتاب التعريفات الذى مر بنا ذكره ، وله أيضاً تأليفات كثيرة فى المنطق وقواعد البحث . وصنع الخطيب القزوينى خطيب جامع دمشق فى سنة ٧٣٩ تلخيصاً لهذا المتن موجزاً أشد الإيجاز . فتصدَّى له سعد الدين مسعود التفتازانى بالشرح ، وشرح شرحه تلميذه السيد الشريف الجرجانى بعمل حاشية عليه . ويتوقف عمل علماء البلاغة فى إيران عند صنع الشروح والمتون الموجزة التى يعودون إليها بالشرح وشرح الشرح أو وضع الحواشى عليه .

---

(١) انظر فى تحليل المفتاح كتاب البلاغة : تطور وتاريخ ص ٢٨٧ .

(٢) راجع فى ترجمة السعد التفتازانى روضات الجنات ص ٣٠٩ والبدر الطالع للشوكانى ٢ / ٣٠٣ والفوائد البهية ص ١٢٨ وحبيب السير لخواندمير ٣/٢٣ ، ٨٧ .

(٣) انظر فى ترجمة السيد الشريف حبيب السير لخواندمير ٣/٣ ، ٨٧ والبدر الطالع ١/٤٨٨ وبغية الوعاة ودائرة المعارف الإسلامية .

وعلى نحو ما نشطت المباحث البلاغية فى إيران نشطت المباحث النقدية فى هذا العصر، وأول ما يلقانا منها رسالة الصاحب بن عباد فى الكشف عن مساوى المتنبى، وهو فيها ساخط عليه سخطا شديدا، وقد يُرَدّ سخطه إلى عامل شخصى هو أن المتنبى أبى أن يمدحه، وأهم مساوى المتنبى فى رأيه الغموض فى أشعاره على طريقة الصوفيين فى عباراتهم الموهمة، وأنه استخدم الألفاظ الممعنة فى الغرابة، ورداءة المطالع كما يقول، والمبالغة المسرفة والاستعارة الذميمة، والنظم على القوافى الصعبة. ويلقانا فى خراسان لعصر نوح بن منصور السامانى (٣٦٦ - ٣٨٧ هـ.) راوية للمتنبى يسمى المتيم [١] وله فيه وفى شعره كتاب الانتصار المنبى عن فضل المتنبى وهو من الكتب المفقودة. وكان المتنبى قد شغل الناس فى إيران وغير إيران وأكثروا من التخاصم والجدل فى شعره، فألف على [٢] بن عبد العزيز الجرجانى المتوفى سنة ٣٩٢ كتابه الوساطة بين المتنبى وخصومه، وكان من قضاة الدولة البويهية فى إيران، فرأى أن يعرض شعر المتنبى على موازين القضاء العادل، وهدته هذه الموازين منذ الصفحات الأولى إلى أنه ينبغى أن لا يُحْكَم على الشاعر بما أساء فيه، فلكل شاعر إساءاته وسقطاته، وإنما يحكم عليه بإحسانه وما جوَّد فيه، ولذلك سارع إلى الحديث عن أغلاط الشعراء القدماء والمحدثين فى معانيهم وألفاظهم، ليبين أن شاعرا ممتازا من السابقين لم يَخْلُ شعره من هذه الأغلاط، وعرض لبعض ألوان البديع وصوره، ويفيض فى بيان الحسن والقبيح عند الشعراء وخاصة عند أبى نواس وأبى تمام. ويلمُّ بطائفة من أبيات المتنبى التى أُخذت عليه لبعد فى الاستعارة أو غرابة فى اللفظ أو تعقيد فى الكلام. ويوضح كيف أن ذلك عند المتنبى قليل. ويشيد بمطالعه الجيدة وحسن تخلصه ومعانيه الدقيقة، ويتحدث عن سرقاته حديثا مستفيضا مبينا أن السرقات شركة بين الشعراء جميعا. ولعلى بن عبد العزيز فى ثنايا كتابه نظرات نقدية تحليلية رائعة، منها ما يتصل بالغلو والمبالغة فى الشعر، ومنها ما يتصل بأثر البيئة فى الشعر والشعراء، ومنها ما يتصل بدقائق التشبيهات والاستعارات [٢]. ويأتى بعده الثعالبى [٣] المتوفى سنة ٤٢٩ ويعقد فى كتابه اليتيمة فصلا طويلا عن المتنبى فيما له وما عليه، استغرق من الكتاب نحو مائة صفحة، وقد استهله بقوله عنه: «نادرة الفلك، وواسطة عقد الدهر فى صناعة

---

(١) انظر فى المتيم اليتيمة ٤/١٥٧ ومعجم الأدباء ٤/٢٤٤ وفوات الوفيات ١/١٣٣.

(٢) انظر فى تحليل الوساطة كتابنا البلاغة: تطور وتاريخ ص ١٣٢ وسنترجم للمؤلف بين الشعراء.

(٣) راجع فى الثعالبى دمية القصر وابن خلكان ٣/١٧٨ وعبر الذهبى ٣/١٧٢ وشذرات الذهب ٣/٢٤٦ ونزهة الألباء ص ٣٦٥ وروضات الجنات ٤٦٢ ومرآة الجنان ٣/٥٣ ومعاهد التنصيص ٣/٢٦٦.

الشعر» ويبدأ بنبذ عن ابتداء أمر المتنبى ، ويورد بعض أخباره ، ثم يعرض طائفة من معانيه التى استظهرها عِلْية الكتاب فى عصره برسائلهم من أمثال الصاحب بن عباد وأبى إسحق الصابئ وأبى العباس الضَّبِّى والخُوارزمى ، كما يعرض طائفة من المعانى التى سرقها الشعراء منه من أمثال أبى الفرج البَبَّغاء والمهلبى الوزير والصاحب بن عباد والسَّرِىّ الرفَّاء ويقول عنه إنه كثير الأخذ من المتنبى ، ويذكر معه أيضاً أبا بكر الخوارزمى وأبا الفتح البستى وأبا الحسن السلامى وأبا القاسم الزعفرانى . ويعرض لبعض سرقات المتنبى من غيره وما تكرر من معانيه ، ثم يسترسل فى بيان مساوى شعره مستضيئا فى ذلك بما كتبه الصاحب بن عباد فى رسالته آنفة الذكر ، ثم يفيض فى بيان محاسن شعره ، مشيدا بنسيبه بالأعرابيات، ومخاطبة الممدوح بمثل مخاطبة المحبوب والصديق ،واستعمال ألفاظ الغزل والنسيب فى أوصاف الحرب وما اشتهر به من الأمثال والحكم وطرائف المعانى . وكان يعاصر الثعالبى ناقد يسمى أبا القاسم [1] عبد الله بن عبد الرحمن الأصفهانى عاش فى النصف الأخير من القرن الرابع والربع الأول من القرن الخامس ، وقد ألف كتابا نُشر أخيرا فى تونس سماه الواضح فى مشكلات شعر المتنبى ، ذكر فى مقدمته نبذة عن المتنبى عرض فيها لنشأته فى الكوفة ولبعض أخباره عن معاصريه من البغداديين والشاميين والشيرازيين ، ورماه فى هذه المقدمة بخبث الاعتقاد ، وقال إنه وقع فى صغره إلى شخص يسمى أبا الفضل من الكوفة كان من المتفلسفة فهوَّسه وأضلَّه . ثم مضى يستدل بأبيات من شعره على أخذه بمذهب السوفسطائية وعقيدة التناسخ ورأى الفضائية والإسماعيلية ، وعرض لوصف شعره وأن نعت الخيل والحرب من خصائصه ، وأن له النادر البِدْع ،وفى بعض ألفاظه تعقيد وتعويص . ثم أخذ يناقش ابن جِنّى فى كثير من تفسير شعره مرتبا الأبيات التى ناقشها على الحروف الهجائية ، وهو يدل فى نقاشه على قدرة فى فهم الشعر وتحليل معانيه . وقد بدأ تحليلاته بقول المتنبى :

أأحبُّه وأحبُّ فيه ملامةً   إن الملامةَ فيه من أعدائهِ

وذكر أن ابن جنى زعم أنه ناقض بذلك أبا الشِّيص فى قوله :

أجدُ الملامةَ فى هواكِ لذيذةً   حبًّا لذكركِ فَلْيَلُمْنِى اللُّوَّمُ

ويعلق على ذلك بقوله : معنى المتنبى بخلاف قول أبى الشيص ، وإنما يريد المتنبى : إنى أحب حبيبى واللوَّام ينهون عنه فكيف نأتلف ، وأبو الشيص يريد بقوله : أحب اللوم لا لنهىٍ عن هواك بل لتكرر ذكرك فى تضاعيف الكلام وأثناء الملام . ومضى الأصفهانى على هذا النحو يرد على ابن جنى بعض تفسيراته لشعر المتنبى حتى نهاية الكتاب . وعُنى بالرد

(١) انظره فى خزانة الأدب ١ / ٣٨٢

على تفسيرات ابن جنى إيرانىٌّ ثان هو أبو على بن فُورَّجَة [١] البُروجِرْدِىّ المتوفى سنة ٤٣٧ وقد كتب فى ذلك كتابين : كتاب الفتح على فتح أبى الفتح لابن جنى يقصد كتابه الفتح الوهبى على مشكلات المتنبى وقد نشره الدكتور محسن غياض ببغداد نشرة علمية محققة. ولابن فورجه كتاب ثان فى الرد على ابن جنى سمّاه كتاب التجنى على ابن جنى ، والأبيات فى كتاب الفتح مرتبة على الحروف الهجائية ، وعماده الرد على ابن جنى ، وفيه أيضاً ردود على القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى فى وساطته وأبى على الحاتمى فى رسالته الحاتمية والصاحب بن عباد فى كشفه عن مساوئ المتنبى ، وهو يغلظ –كما لاحظ الدكتور غياض– فى ردوده على الصاحب إذ يراه متحاملاً عليه متجنياً ! وفيه يقول : «ما شهدت أحداً من الفضلاء وذوى العقول يذم المتنبى غير هذا الظالم» . ويبدو من ملاحظات ابن فورجة فى الكتاب وسَوْقه لكلامه أنه من أنصار المتنبى وأنه درس شعره دراسة نقدية جيدة جعلته يطَّلع على كثير من خصائصه ، من ذلك ملاحظته على البيت :

وإنى لمن قومٍ كأنَّ نفوسَنا ... بها أَنَفٌ أن تسكنَ اللَّحْمَ والعَظْمَا

فقد لاحظ أن المتنبى فى فخره قال كأن نفوسنا ولم يقل كأن نفوسهم بإعادة ضمير الغيبة على القوم ، وهو ضرب من الالتفات ، إذ يلتفتون من ضمير الغيبة إلى ضمير المتكلم كما فى البيت أو ضمير المخاطب . ثم قال إن ابن جنى سأله عن ذلك فقال إنه إذا أعاد الذكر على لفظ الخطاب كان أبلغ وأمدح من أن يرده على لفظ الغيبة ، ويعقب على ذلك ابن فورجة بقوله : «وقد استقريت شعره كله فوجدته لا ينزل عن هذا المذهب فى كل ما مدح به ، فإذا أورد ضميرا فى ذمٍّ ردَّه إلى الكلام الأول تفاديا أن يخاطب به مواجها أو يرده إلى نفسه مخبرا (أى أنه يرد الضمير إلى الغيبة) . ومع أنه يبدو دائما مدافعا عن المتنبى وخاصة أمام الصاحب كما قدمنا فإنه ينصُّ على بعض سيئاته ، فيقول فى قصيدته «مُلِثَّ القطر أعطشْها رُبوعا» هذه القصيدة كلها من الشعر الرَّذْل الذى لا يُنْتفع به ولا بتفسيره . وحرى بنا أن نذكر تتمة لهذا النشاط النقدى الذى عقده النقاد الإيرانيون حول شعر المتنبى شرح على بن أحمد الواحدى الذى مرّ ذكره [٢] لديوان المتنبى ، وقد أُلِّفت شروح كثيرة للديوان ولكن نخص هذا الشرح بالذكر هنا ، لا لأنه أفاد من كل الشروح السابقة له ، بل لأنه رتب أشعار الديوان ترتيباً تاريخيا على حياة المتنبى وأيامه ، وهو ما لم يتح لديوان

(١) انظر فى ابن فورجة تتمة اليتيمة ١ / ١٢٣ ومعجم الأدباء ١٨ / ١٨٨ وفوات الوفيات ٢ / ٢٤٧ وإنباه الرواة ١ / ٣٣٤ وما به من مراجع .

(٢) راجع فى الواحدى دمية القصر ومعجم الأدباء ١٢ / ٢٥٧ وإنباه الرواة ٢ / ٢٢٣ والسبكى ٥ / ٢٤٠ وشذرات الذهب ٣ / ٣٣٠ وابن خلكان ٣ / ٣٠٣

آخر من دواوين شعراء العرب قاطبة ، بحيث أصبح الديوان مُعَدًّا لكى يستغله الباحثون فى كتابة ترجمة حياة المتنبى على نحو ما صنع بلاشير وطه حسين . وفى الشرح نظرات نقدية كثيرة ، وخاصة فى الأبيات الغامضة التى يختلف فيها الشراح ، فإن الواحدى يقارن بين أقوالهم وينفذ إلى الفكرة الصائبة دائماً ، مما يدل على قدرة نقدية حقيقية وذوق أدبى جيد .

٤

علوم التفسير والحديث والفقه والكلام

نشط العلماء لهذا العصر بإيران فى تفسير القرآن الكريم ، واتضحت فيه اتجاهات ثلاثة : اتجاه التفسير بالرأى ، واتجاه شيعى ، واتجاه صوفى ، وأهم ما نصادفه من الاتجاه الأول تفسير الزمخشرى ، وهو يذيع فيه أفكار مذهبه الاعتزالى فالآيات الكريمة توجَّه مع فكرة الحرية والاختيار فى أفعال العباد ومع فكرة تنزيه الذات العلية عن كل تشبيه ومع إكبار العقل ورفض كل اعتقاد فى السحر والكهانة[1] . ويقف الفخر الرازى المار ذكره آنفاً بعده فى الصف المقابل فيدفع فى تفسيره العظيم للقرآن « مفاتيح الغيب » آراء المعتزلة بطريقة فلسفية ، إذ كان عقله متفلسفا إلى أبعد حد ، وهى فلسفة تظهر فى تفسيره بصور كثيرة ، حين يخوض فى المباحث العقلية ، وحين نرى المسألة عنده تتشعب شعبا كثيرة . وكان عقله من الخصب بحيث تغدو الفكرة كأنها شجرة كبيرة ، تتفرع منها فروع ، وتتفرع من الفروع غصون إلى غير نهاية . وكان أشعرى العقيدة ، فأشاع مذهب الأشاعرة فى تفسيره ، وتعقب المعتزلة كما قلنا مُعْليا عليهم وعلى أفكارهم مذهبه الأشعرى السُّنِّى . ومن تفاسير هذا الاتجاه بعد الرازى تفسير البيضاوى[2] عبد الله بن عمر المتوفى بتبريز سنة ٦٩١ وقد سماه « أنوار التنزيل وأسرار التأويل » وهو يعتمد فيه على الزمخشرى وتفسيره ، كما يعتمد على الرازى وغيره من المفسرين ، وهو لا يُنْحى فى تفسيره باللائمة – كما يصنع الزمخشرى – على أهل السنة ، وجاء بعده فى هذا الاتجاه أبو البركات النسفى[3] المذكور بين فقهاء الأحناف فى قسم العراق وقد سمى تفسيره « مدارك التنزيل وحقائق التأويل » .

---

(١) انظر فى تأثر الزمخشرى بالاعتزال فى تفسيره كتاب المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن لجولد تسيهر ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار .

(٢) راجع فى البيضاوى السبكى ١٥٧/٨ وبغية الوعاة وروضات الجنات ٤٥٤ وشذرات الذهب ٣٩٢/٥ ومرآة الجنان ٢٢٠/٤ .

(٣) انظر فى النسفىّ الدرر الكامنة ٣٥٢/٢ وتاج التراجم رقم ٨٦ واللكنوى ١٠١ ودائرة المعارف الإسلامية .

وهذا الاتجاه فى التفسير كان يرافقه اتجاه شيعى فى بيئات الشيعة المختلفة بإيران ، وكانوا ينسبون من قديم إلى أئمتهم من مثل جعفر الصادق والحسن بن على العسكرى المتوفى سنة ٢٦٠ تفاسير بأسمائهم ، ومن مفسريهم فى أواخر القرن الثالث محمد بن مسعود السُّلمى رأس الإمامية بخراسان ، ومن أشهر تفاسيرهم فى هذا العصر تفسير الطوسى أبى جعفر محمد بن الحسن المتوفى سنة ٤٦٠ وكان قد نشأ فى طوس ، ثم رحل إلى العراق فى الثالثة والعشرين من عمره ، وظل ببغداد إلى أن أصبح شيخ الطائفة ومرجع فتياها ومن أجل ذلك وضعناه فى القسم الخاص بالعراق . ونلتقى بتفسير الطبرسى [1] أبى على الفضل بن الحسن المتوفى بطوس سنة ٥٥٢ ولقبه الطبرسى نسبة إلى طبرستان ، وقد سمى تفسيره مجمع البيان . وهو فى ثلاثين مجلدا .

أما الاتجاه الصوفى فمن التفاسير فيه تفسير أبى عبد الرحمن السلمى المتوفى سنة ٤١٢ وسماه « حقائق التفسير » وأهم منه تفسير القشيرى الذى مر ذكره فى حديثنا عن التصوف ، وهو فى تفسيره كعقيدته صوفى سنى ، بعيد عن متاهات الاتحاد بالذات العلية ووحدة الوجود مما يلجُّ فيه بعض متفلسفة الصوفية ، وتغلب عليه روح الوعظ ، ومثله فى هذا الاتجاه الغزالى فى بعض ما يعرض له من آى الذكر الحكيم ، ولأخيه أبى الفتح أحمد بن محمد الغزَّالى الواعظ المذكور بين المفسرين فى العراق ، تفسير ينحو فيه نحو الوعظ والتصوف ، لا يزال مخطوطاً .

ومن التفاسير العامة تفسير أبى الليث نصر بن محمد السمرقندى المتوفى سنة ٣٧٣ وسماه « بحر العلوم » وتفسير الثعلبى [2] النيسابورى المتوفى سنة ٤٢٧ وتغلب عليه النزعة القصصية والنقل عن الإسرائيليات ولتلميذه الواحدى المذكور آنفاً شارح ديوان المتنبى ثلاثة تفاسير : البسيط والوسيط والوجيز وله كتاب « أسباب النزول » واختصر الفرَّاء البغوى الحسين بن مسعود المتوفى سنة ٥١٠ تفسير الثعلبى وسَمّى مختصره « معالم التنزيل » . ولنظام [3] الدين بن الحسن النيسابورى المتوفى فى أواسط القرن التاسع الهجرى تفسير سماه « غرائب القرآن ورغائب الفرقان » ويعد مختصراً لتفسير الفخر الرازى ويهتم فيه بذكر القراءات .

وظل علم الحديث ناهضا فى إيران لهذا العصر ، ومرَّ بنا فى كتاب العصر العباسى الثانى ما يصور مدى نهضته فى هذا الإقليم ، فقد كان من إنتاجه صحيح البخارى وصحيح مسلم

---

(١) انظر فى الطبرسى روضات الجنات ص٥١٢ومقدمة تفسيره بقلم محسن الأمين وما بها من مراجع .

(٢) راجع فى الثعلبى معجم الادباء ٥ /٣٦ وطبقات المفسرين ص ٥ وطبقات القراء ١ / ١٠٠ وابن خلكان ١ /٧٩ وإنباه الرواة ١ / ١١٩ وروضات الجنات ٦٨ والسبكى ٤ /٥٨ والنجوم الزاهرة ٤ / ٢٨٣

(٣) انظره فى روضات الجنات ص ٢٢٥.

وسنن النسائى وابن ماجه القزوينى وجامع الترمذى ، ويمكن أن نلحق بتلك الكتب سنن أبى داود السجستانى ، وبذلك تكون كتب الصحيح الستة من الحديث النبوى من صُنْع إيرانيين . ومضى هذا النشاط يؤتى ثمارا جديدة فى القرون التالية . وأول من نلقاه من كبار المحدثين فى العصر محمد[1] بن أحمد بن حِبّان البُسْتى السجستانى قاضى سمرقند ومحدثها المتوفى بها سنة ٣٥٤ ويشتهر بكتابه «الجرح والتعديل» فى نقد حملة الحديث ورواته ، وكان يُملى مصنفاته فى الحديث وتُقْرأ عليه أو تؤخذ عنه . وكان يعاصره ابن القطان[2] الجرجانى المتوفى سنة ٣٦٠ وله كتاب الكامل فى الجرح والتعديل أو كتاب الكامل فى معرفة ضعفاء المحدثين . وخلفها ابن مَنْده[3] الأصبهانى محمد بن إسحق المتوفى سنة ٣٩٥ وقد رحل طويلا فى طلب الحديث وله مسند أبى حنيفة وكتب فى الحديث مختلفة . وكان يعاصره أبو سليمان حمد[4] بن محمد الخطّابى البُسْتى المتوفى سنة ٣٨٦ وألف فى نقد الحديث كتبا منها إصلاح غلط المحدثين ، وله شرح على صحيح البخارى ، وهو أول من رتب أقسام الحديث الثلاثة الكبرى وهى : الصحيح والحسن والضعيف . وعاصره الحاكم النيسابورى[5] المعروف باسم ابن البيِّع المتوفى سنة ٤٠٤ وهو الذى جعل أصول الحديث النبوى علما مستقلا ، وكان بنو سامان أصحاب بخارى يوفدونه فى سفاراتهم إلى بنى بويه ، وله كتاب المستدرك على الصحيحين : صحيح البخارى وصحيح مسلم ، جمع فيه كثيرا من الأحاديث التى لم يُدْخلاها فى صحيحيهما مستدلا ببراهين قوية على أنها مستكملة لشروطها ، والكتاب مطبوع فى حيدرآباد ، مع تعليقات فى الرد على مؤلفه للذهبى . وكان يعاصره ابن فُوَرك[6] محمد بن الحسن الأصبهانى محدث نيسابور ونزيل غَزْنه المتوفى بها

---

(١) انظر فى ابن حبان الأنساب ٨١ والوافى بالوفيات ٢/٣١٧ وتذكرة الحفاظ ٣/١٢٥ والسبكى ٣/١٣١ وميزان الاعتدال ٣/٥٠٧ وشذرات الذهب ٣/١٦ ولسان الميزان ٥/١١٢

(٢) راجع فى ابن القطان تذكرة الحفاظ ٣/١٤٣ وميزان الاعتدال ١/٢ ولسان الميزان لابن حجر ١/٦ وشذرات الذهب ٣/٥١ .

(٣) راجع فى ابن منده أخبار أصبهان لأبى نعيم ٢/٣٠٦ وتذكرة الحفاظ ٣/٣٣٨ ولسان الميزان ٥/٧٠ .

(٤) انظر فى الخطابى السبكى ٣/٢٨٢ وإنباه الرواة ١/١٢٥ والأنساب ٨٠ ب ٢٠٢ ب ومعجم الأدباء ١٠/٢٦٨ وابن خلكان ٢/٢١٤ وتذكرة الحفاظ ويتيمة الدهر ٤/٣٣٤ .

(٥) راجع فى الحاكم النيسابورى الأنساب ٩٩ ب والسبكى ٤/١٥٥ وتذكرة الحفاظ ٣/٢٢٧ وطبقات القراء ٢/١٨٤ ولسان الميزان ٥/٢٣٢ والمنتظم ٧/٢٧٤ وتاريخ بغداد ٥/٤٧٣ واللباب ٢/٩٥ وابن خلكان ٤/٢٨٠

(٦) انظر فى ابن فورك السبكى ٤/١٢٧ والوافى ٢/٣٤٤ وابن خلكان ٤/٢٧٢ والشذرات ٣/١٨١ والنجوم الزاهرة ٤/٢٤٠ .

سنة ٤٠٦ وكان شديد الرد على الكِرامية وله كتب كثيرة فى الحديث والفقه الحنفى ، منها بيان مشكل الحديث ، ورد على الملحدة والمعطلة والمبتدعة من الجهمية والمعتزلة ، وكتَب مصنفات أخرى فى نفس الموضوع ردا على المشبهة والمجسِّمة . ومن كبار المحدثين التالين أبو إسحق الإسفرايينى المتوفى سنة ٤١٨ وأبو نعيم الأصفهانى المتوفى سنة ٤٣٠ ويشتهر بكتابة « حلية الأولياء » والبيْهقى [١] أبو بكر احمد بن الحسين المتوفى سنة ٤٥٨ بنيسابور ، وبها كان يملى كتبه وتصانيفه ومن أهمها كتاب السنن الكبير ، وكتاب معرفة الآثار . وازدهرت دراسات الحديث فى عصر السلاجقة ازدهارا عظيما ، كان من ثمارها ظهور الفرَّاء البَغَوى [٢] المار ذكره بين المفسرين وله مصنفات كثيرة فى الحديث والفقه الشافعى وتفسير القرآن الكريم ، وأهمها كتابه المصابيح جمعه من كتب الصحاح الستة وبوَّبه وقسم الأحاديث فى كل باب إلى صحيحة وتشمل كل ما أخذه من صحيحى البخارى ومسلم وإلى حسنة ، وما رأى فيها من ضعف أشار إليه . وجاء بعده فى القرن الثامن الهجرى محمد بن عبد الله الخطيب التبريزى فرتبه ترتيبا جديدا وأتمه سنة ٧٣٧ وسماه مشكاة المصابيح ، وألف بجانب المشكاة كتابا فى رجالها سماه أسماء المشكاة ، وهو تراجم للرواة المذكورين فى المشكاة أتمه سنة ٧٤٠ . وظلت دراسات الحديث وروايته ناشطة بإيران فى القرون التالية .

ولم يكن النشاط فى علم الفقه أقل منه فى علم الحديث ، بل ربما كان أوسع وأعظم ، وقد استقرت منذ أوائل العصر المذاهب الفقهية الكبرى : مذهب أبى حنيفة ومذهب مالك ومذهب الشافعى ومذهب ابن حنبل ، ولم يكن المذهب الحنبلى شائعا فى إيران ولا فى أى إقليم من أقاليمها ، ومع ذلك لا نعدم أن نجد فيها بعض الحنابلة فى هراة وهمذان [٣] من مثل أبى إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصارى صاحب كتاب ذم (علم) الكلام ، وكان محدثا يتظاهر بالتجسيم والتشبيه ، وينال من الأشاعرة [٤] وربما كان المذهب المالكى أقل أتباعا حتى ليروى أن أحمد بن فارس اللغوى الذى ذكرناه فى غير هذا الموضع وكان شافعيا كان ينزل الرَّىّ ، فصار مالكيا ، كما يقول ياقوت فى ترجمته بمعجم الأدباء ، فسئل فى

---

(١) راجع فى البيهقى تذكرة الحفاظ ٣ /٣٠٩ واللباب ١ /١٦٥ والأنساب ١٠١ وابن خلكان ١ /٧٥ والسبكى ٤ / ٨

(٢) انظر فى البغوى السبكى ٧ / ٧٥ وابن خلكان ٢ /١٣٦ وتهذيب ابن عساكر ٤ /٣٤٥ وتذكرة الحفاظ ٤ /١٢٥٧ وشذرات الذهب ٤ /٤٨ والنجوم الزاهرة ٥ /٢٢٣

(٣) أحسن التقاسيم للمقدسى ١٧٩ ، ٣٩٥ ، ٤٣٩ ، ٤٨١ .

(٤) السبكى ٤ /٢٧٢

ذلك ، فقال : دخلتنى الحمية لهذه البلدة ، يقصد مدينة الرى ، كيف لا يكون فيها رجل على مذهب مالك الرجل المقبول القول على جميع الألسنة . وكان مذهب داود الظاهرى أكثر اتباعا فى إيران أثناء القرن الرابع ، ولكن لم يلبث أن تراجع وخفت صوته أمام المذهبين الكبيرين . مذهب الشافعى ومذهب أبى حنيفة .

وكان لمذهب الشافعى الغلبة وخاصة فى شرقى إيران وما وراء النهر ، ويقال إن الفقيه أبا بكر [١] القفال المعروف بالشاشى والمتوفى سنة ٣٦٥ هو الذى نشر مذهب الشافعى فى تلك الأصقاع ، ويذكر المقدسى أنه كان غالبا أيضا فى كَرْمان [٢] ، وعملت مؤثرات سياسية فى نشره بل فى ازدهاره لعهد السلاجقة ، فإن وزيرهم المشهور نظام الملك كان شافعياً أشعرياً عَدُوًّا للحشاشين الإسماعيلية ، فأسس ،كما مر بنا ، مدارس فى جميع المدن الإيرانية الكبيرة سنة ٤٥٧ ، ورَصَد لها مبالغ طائلة ، لإلحاق مكتبات بها ولمساكن الأساتذة ورواتبهم ، واختار لكل مدرسة صفوة من أئمة الشافعية والأشاعرة فى عصره ، وظل ذلك من بعده . فكان طبيعيا أن يزدهر المذهب الشافعى فى إيران ازدهارا عظيما وأن يتألق فى دراساته الفقهية فقهاء كثيرون ، يُعدون فى الذروة من الإمامة والقدرة على الفُتْيا ، ولولا أن الاجتهاد بالمعنى الواسع كان قد أغلقت أبوابه ، ولم يبق لهم إلا الاجتهاد فى الفروع ، لتطوروا بالفقه الشافعى تطورا عظيما . ومن أهم من نلقاه منهم لعصر السلاجقة أبو [٣] إسحق الشيرازى المتوفى سنة ٤٧٦ وقد عينه نظام الملك لتدريس فقه الشافعى بنظامية بغداد كما مرَّ فى قسم العراق ، وكان يقابله فى نظامية نيسابور إمام الحرمين الجُوَيْنِىّ [٤] عبد الملك أبو المعالى إمام الأئمة لعصره على الإطلاق المتوفى سنة ٤٧٨ . وقلنا فى غير هذا الموضع إنه كان يحضر دروسه أربعمائة تلميذ ، ورُزق من التوسع فى العبارة وعلوها مالم يُعْهَد من غيره ، ولهُ بنيت المدرسة النظامية بنيسابور ، وظل فيها ثلاثين سنة يلقى محاضراته ، وسُلِّم له المحراب والمنبر والخطابة ومجلس الوعظ يوم الجمعة وله تصانيف كثيرة منها النهاية فى الفقه الشافعى والشامل ؛ والبرهان فى أصول الفقه . ومن تلاميذه الغزالى وأجل تلاميذه بعده إلْكِيا الهَرَّاسى [٥]

(١) انظر فى ترجمة القفال الأنساب ٤٦٠ وابن خلكان ٤٦/٣ وعبر الذهبى ٣٣٨/٢ والوافى ١١٢/٤ وشذرات الذهب ٢٠٧/٣ والسبكى ٢٠٠/٣

(٢) المقدسى ص ٤٦٨

(٣) انظر فى ترجمة أبى إسحق الشيرازى السبكى ٢١٥/٤ والمنتظم ٧/٩ واللباب ٢٣٢/٢ والأنساب ٤٣٥ب وشذرات الذهب ٣٤٩/٣ وابن خلكان ٢٩/١

(٤) راجع فى الجوينى الأنساب الورقة ١٤٤ والمنتظم ١٨/٩ وابن خلكان ١٦٧/٣ والسبكى ١٦٥/٥ والعقد الثمين ٥٠٧/٥ وشذرات الذهب ٣٥٨/٣ .

(٥) مرَّت مصادر ترجمته بين المفسرين فى العراق .

على بن محمد المتوفى سنة ٥٠٤ بدأ حياته العلمية معيداً لإمام الحرمين ، ثم خرج من نيسابور إلى بيهق ودرس بها مدة ، ثم تولى تدريس المدرسة النظامية ببغداد إلى وفاته . وكان يعاصره أبو المحاسن الرويانى [1] عبد الواحد بن إسماعيل المتوفى سنة ٥٠٢ بآمل شهيدا على أيدى الباطنية الملاحدة ، وكان مدرس نظامية طبرستان وكان الوزير نظام الملك كثير التعظيم له لكمال فضله وله كتاب البحر فى الفقه وهو من أطول كتب الشافعيين وكتاب الكافى ، وصنف فى الأصول والخلاف . ومن كبار فقهاء الشافعية فى القرن السادس فخر الدين الرازى محمد بن عمر الطبرستانى الأصل الرازى المولد المتوفى سنة ٦٠٦ فريد عصره ، ومر بنا الحديث عن تفسيره وعن كتاب له فى البلاغة ، وله كتب كثيرة فى علم الكلام وفى الحكمة وفى الطب ، يقول ابن خلكان : « انتشرت تصانيفه فى البلاد ورزق فيها سعادة عظيمة ، فإن الناس اشتغلوا بها ورفضوا كتب المتقدمين ، وله فى الفقه وأصوله كتب مختلفة ، وكان يعظ مواطنيه باللسانين العربى والفارسى ، ونزل بأخرة من عمره فى هراة . وبها توفى ، وله مواعظ طريفة . وكان قريبا من عصره الرافعى [2] المتوفى سنة ٦٢٣ وكان إماماً كبيراً فى التفسير والحديث والأصول ، أما الفقه فكان فيه — كما يقول السبكى — عمدة المحققين وأستاذ المصنفين ، وهو قزوينى ، وكان له مجلس للتفسير ولسماع الحديث والفقه ، وله الشرح الصغير والمحرر وشرح مسند الشافعى والشرح الكبير المسمى بالعزيز فى شرح كتاب الوجيز للغزالى ، واسمه يتردد فى كتب الفقه الشافعى وحواشيه التى أُلِّفت بعده فى مصر وغير مصر.

وكان مركز المذهب الحنفى مدينة بخارى لعهد السامانيين وبعدهم ، وكثيرون علماء هذا المذهب الذين ترجمت لهم كتب طبقات الحنفية مثل الفوائد البهية للكنوى والجواهر المضية لابن أبى الوفاء وتاج التراجم فى طبقات الحنفية لابن قطلوبغا ، ومن مشاهيرهم فى القرن الرابع أبو بكر أحمد بن على الجصَّاص الرازى الذى سبق ذكره فى قسم العراق ومثله مرَّ هناك أبو زيد الدَّبُوسى البخارى المتوفى سنة ٤٣٠ وهو أول من أسس علم الخلاف بين المذاهب الفقهية ، وله تقويم الأدلة فى أصول الفقه . ومنهم البَزْدَوِىّ [3] على بن محمد بن عبد الكريم السَّمَرْقَنْدِىّ المتوفى سنة ٤٨٢ وله المبسوط فى الفقه وكتب مختلفة فى علم

---

(١) انظر فى الرويانى كتاب الأنساب ٢٦٣ أ والمنتظم ٩ /١٦٠ وابن خلكان ٣ /١٩٨ والسبكى ٧/١٩٣ والنجوم الزاهرة ٥ /١٩٧

(٢) انظر فى الرافعى تهذيب الأسماء واللغات ٢ /٢٦٤ وشذرات الذهب ٥ / ١٠٨ وفوات الوفيات ٢ / ٧ والسبكى ٨ / ٢٨١ ومرآة الجنان ٤ / ٥٦ .

(٣) انظر البزدوى فى الفوائد البهية (طبعة القاهرة) ص ١٢٤ والجواهر المضية وابن قطلو بغا ص ٤١ والأنساب ٧٨

الأصول والتفسير . ومنهم السرخْسى [١] محمد بن أحمد المتوفى سنة ٤٩٠ وكان إماما علامة متكلما مناظرا أصوليا مجتهدا وله كتاب المبسوط فى أحد عشر مجلدا ، وهو أشبه بدائرة معارف فى الفقه الحنفى ، ومنهم برهان [٢] الدين أبو الحسن الفَرْغَانىّ المتوفى سنة ٥٩٣ وله كتاب الهداية شرح البداية فى مجلدين وهو من أمهات كتب الفقه الحنفى ، وعليه حواشٍ عدة . ومنهم العميدى [٣] السَّمَرْقندى أبو حامد محمد المتوفى سنة ٦١٥ كان إماما فى فن الخلاف ، ويقول ابن خلكان له فيه طريقة مشهورة بأيدى الفقهاء ، ومن مصنفاته الإرشاد ، واعتنى بشرحه كثير من أرباب هذا الشأن . ومنهم حافظ الدين النسفى المذكور بين المفسرين والذى مر ذكره بين فقهاء الأحناف فى قسم العراق وقد ذكرنا هناك كتابه المشهور الذى يتداوله علماء المذهب الحنفى والذى سماه كنز الدقائق ، وله طبعات كثيرة فى الهند ومصر ، وعنى به كثيرون فشرحوه ، ويكثر الشُّرَّاح للكتب فى القرون التالية . ولابد أن نلاحظ أن كثيرين ممن مروا بنا فى علوم الأوائل وعلوم النحو والتفسير والبلاغة كانوا أحنافا ولهم مشاركة فى تأليف مصنفات الفقه الحنفى مثل الزمخشرى وناصر المطرزى ونصير الدين الطوسى .

وكان للشيعة بإيران فقهاؤهم ، ونذكر للزيدية منهم الإمام الهارونى [٤] أحمد بن الحسين البطحانى المتوفى سنة ٤١١ وكان إماما للزيدية بجيلانَ وبلاد الديلم . وقد أخذ المذهب الزيدى فى التضاؤل أمام المذهب الإمامى الاثنى عشرى حتى انحسر عن إيران ، وتبعه المذهب الإسماعيلى ، وخاصة بعد القضاء على فرقة الحشاشين الإسماعيلية فى منتصف القرن السابع الهجرى قضاء نهائيا ، على أننا نلاحظ أن فقهاء المذهب الإسماعيلى كانوا يتركون – فى عهد الدولة الفاطمية – موطنهم فى إيران وينزلون القاهرة وتذيع منها مؤلفاتهم فهم أولى بأن يُنْسَبُوا إلى موطنهم الجديد ، على نحو ماصنع حميد الدين الكرمانى المتوفى سنة ٤٠٨ والمؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى المتوفى حوالى سنة ٤٧٠ . أما المذهب الإمامى فهو الذى كتب له أن يذيع وينتشر فى إيران ، حتى إذا كانت الدولة الصفوية جعلته المذهب الرسمى للدولة ، ومن فقهائه المبكرين الذين عملوا على تأسيسه فى إيران أبو جعفر القمى المتوفى سنة ٢٩٠ والكلينى الرازى المتوفى سنة ٣٢٨ قبل هذا العصر بقليل ولكتابه الكافى

(١) راجع فى السرخسى الجواهر المضية والفوائد البهية ص ١٥٨ وابن قطلو بغا رقم ١٥٧

(٢) انظر فى الفرغانى الفوائد البهية ص ٤١ والجواهر المضية ٣٨٣/١ وابن قطلو بغا ص ٤٢ وبروكلمان ٣٠٩/٦

(٣) راجع ترجمة العميدى فى الفوائد البهية والجواهر المضية ١٢٨/٢ وتاج التراجم ٥٨ وابن خلكان ٢٥٧/٤ والوافى ٢٨٠/١ والشذرات ٦٤/٥

(٤) انظره فى بروكلمان (ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار) ٣٣٣/٣ .

أهمية كبيرة ، ويعد –كما مرَّبنا فى قسم العراقْ– رابع أربعة من الكتب الكبرى للإمامية ، وهو فيه يتناول العقيدة الإمامية بجميع فروعها ويشتمل على أكثر من ستة عشر ألف حديث ، وشرحه كثيرون من علماء إيران الإمامية بعده . وأشهر فقهاء الإمامية فى أوائل هذا العصر : عصر الدول والإمارات ابن بابـويه القمى نزيل بغداد المذكور فى قسم العراق والمتوفى بالرى سنة ٣٨١ وكان أبوه كما مر بنا رئيس الشيعة فى مدينة قُم مركز المذهب الإمامى ، وبابن بابوَيْه استعان ركن الدولة بن بُوَيْه فى استخدام تعاليم الإمامية فى تدبير سياسته ، وفى ذلك دليل يُضَمّ إلى ماقدمناه من أدلة فى غير هذا الموضوع على أن البويهيين كانوا إمامية . ومن أهم مصنفات ابن بابويه الأمالى واعتقادات الإمامية وكتاب من لا يحضره الفقيه ، وهو أحد الكتب الأساسية عند الشيعة ، وأكبر فقهاء الشيعة بعد ابن بابويه أبو جعفر محمدبن الحسن الطوسى وقد تحدثنا عنه فى القسم الثانى الخاص بالعراق .

ونشط علم الكلام بجانب العلوم الإسلامية السابقة ، وظل للمعتزلة طوال القرنين الرابع والخامس نشاطهم ، ومن أهم رجالهم القاضى عبد الجبار قاضى قضاة البويهيين فى الرىّ المار ذكره فى المباحث البلاغية ، وله كتاب المغنى فى أبواب التوحيد والعدل ، وهو دائرة معارف واسعة فى الاعتزال وأصوله . وقد نشرت وزارة الثقافة بمصر أجزاء كثيرة منه . ومن أهم رجال الاعتزال بعده الزمخشرى ومر بنا أنه أخذ نفسه فى تفسيره بتوجيه آى الذكر الحكيم توجيها اعتزاليا ، أساسه تأويل كل الآيات التى قد يفيد ظاهرها تشبيها ، وكذلك توجيه الأخرى التى قد تدل على فكرة القدر والجبر نحو فكرة الإرادة الحرة فى أفعال العباد . وقد عُنى الشيعة دائما بالاعتزال وعَدُّوه مؤيدا لهم فى دعواتهم الشيعية ، ولعل ذلك ماساعد على بقائه بعد القرن الخامس الهجرى ، ولكن على كل حال ضعف شأنه . ومنذ أحمد ابن حنبل وفتنة القول بخلق القرآن وأهلُ السنة الحنابلة يحملون على المعتزلة حملات شديدة ، حتى لَيصِمونهم بالإلحاد أحيانا . ولانصل إلى أوائل القرن الرابع الهجرى حتى ينفصل –كما مر بنا فى العصر العباسى الثانى – أبو الحسن الأشعرى عن المعتزلة ، وكان قد تتلمذ لهم ، ويكوِّن لنفسه مذهبا جديدا يسمى المذهب الأشعرى ، وهو مذهب يقوم على التوسط بين آراء المعتزلة وآراء أهل السنة ، وكان المعتزلة يقدِّمون العقل فيجعل معه بل قبله الكتاب والحديث النبوى . وبذلك أصبحت كل مسألة تُقرنُ فيها الأدلة العقلية بالأدلة السمعية من القرآن الكريم والسنة ، ونضرب لذلك مثلا تنزيه الله عن التشبيه الذى كان يقول به المعتزلة كما أسلفنا أخذ به ، كما أخذ يقول أهل السنة فى أن الله يُرى بالأبصار يوم القيامة ، واستدل على ذلك بأدلة سمعية فى كتابه الإبانة وبأدلة عقلية فى كتابه اللمع . وكان

المعتزلة يحتكمون دائما فى الإلهيات إلى العقل فاحتكم معه إلى الشرع والأدلة السمعية من القرآن والسنة . وتوسط بين المحدثين والمعتزلة فى فكرة خلق الإنسان لأفعاله ، فقال إن هذه الأفعال لله صنعا وللإنسان كَسْبا وإرادة ، فالإنسان يريدها والله يخلقها . وقال ، فى مسألة خلق القرآن التى أحدثت فتنة بين المحدِّثين والمعتزلة فى زمن المأمون والمعتصم والواثق ، إن الألفاظ المنزلة بالوحى دلالات على الكلام الأزلى والدلالة مخلوقة محدثة ، وقال إن صفات الله ليست هى عين الذات الإلهية كما قال المعتزلة ولا هى أحوال كما قال أبو هاشم الجُبَّائى المعتزلى وإنما هى زائدة على الذات قائمة بها .

وإنما أطلنا فى الحديث عن مذهب الأشعرى لأنه المذهب الذى ساد طوال هذا العصر فى أغلب البيئات الإسلامية وخاصة بين الشافعية والمالكية ، وكان المذهب الشافعى – كما مر بنا – منتشرا فى شرقى إيران ، وكان أصحابه جميعا أشاعرة ، ولم يلبث نظام الملك الوزير السلجوقى المشهور أن أسس لهذا المذهب الكلامى وبالمثل لقرينه المذهب الشافعى كراسى فى جميع المدارس التى أنشأها –كما مر بنا – فى إيران والعراق ، فازدهر المذهب ازدهارا عظيما ، وانتصر فعلا على المعتزلة والسلفيين من أهل السنة جميعا ، إذ أصبح المذهب الرسمى آنذاك وكان من أهم رجاله إمام الحرمين الجوينى الذى ذكرناه بين الفقهاء ، وكان أعلم أهل زمانه بعلمى الكلام والفقه الشافعى وبُنيت له المدرسة النظامية بنيسابور كما أسلفنا ، ونرى الشهرستانى يشرح على لسانه رأيه المتوسط فى أفعال العباد وأنها لله خلقاً وللناس كسباً يقول : إن نفى هذه القدرة والاستطاعة (عن الإنسان) مما يأباه العقل والحس ، وأيضاً إثباتُ قدرةٍ لا أثر لها بوجه كَنَفْى القدرة أصلا . . فلابد إذن من نسبة فعل العبد إلى قدرته حقيقة لا على وجه الإحداث والخلق ، فإن الخلق يشعر باستقلال إيجاده من العدم ، والإنسان كما يحس من نفسه الاقتدار يحس من نفسه أيضاً عدم الاستقلال فالفعل يستند وجوده إلى القدرة ، والقدرة يستند وجودها إلى سبب آخر تكون نسبة القدرة إلى ذلك السبب كنسبة الفعل إلى القدرة ، وكذلك يستند سبب إلى سبب آخر حتى ينتهى إلى مسبب الأسباب ، فهو الخالق للأسباب ومسبباتها المستغنى على الإطلاق ، فإن كل سبب مهما استغنى من وجه محتاج من وجه ، والبارئ تعالى هو الغنى المطلق الذى لا حاجة له [1] . وخلف الجوينى تلميذه الغزالى ، فقاد هذا المذهب إلى النصر الحاسم ، وظل أعظم المذاهب الكلامية طوال العصر .

وكان يعتنقه الشافعية كما أسلفنا فى إيران وغير إيران ، أما الحنفية فكانوا يؤثرون على

(١) انظر الملل والنحل للشهرستانى (طبعة مصطفى البابى الحلبى وتحقيق الكيلانى) ١ /٩٨

مذهب الأشعرى مذهباً متوسطاً مثل مذهب الأشاعرة لعَلَم من أعلامهم ، وهو مذهب الماتريدى[1] محمد بن محمد بن محمود المتوفى بسمرقند سنة ٣٣٣ وكان التنافس شديداً بين الماتريدية والأشعرية ، وكانوا أقرب من الأشعرية إلى المعتزلة ، ويمكن معرفة موقفهم هم والأشاعرة والمعتزلة جميعاً من مسألة الإيمان بالله فالمعتزلة يقولون بأن الوسيلة إلى ذلك التى توجبه هى العقل ، ويقول الأشاعرة بل الوسيلة الموجبة هى الشرع الذى يحتم علينا الإيمان بالله ، ويتوسط الماتريدية بين الطرفين فيقولون إن أساس الإيمان بالله الشرع كما يقول الأشاعرة ، ولكن هذا الإيمان يدركه العقل فالعقل وسيلة فيه . ومثلاً فى مسألة الصفات الإلهية كان المعتزلة يقولون بأنها عين الذات الإلهية ، وقال الأشعرى إنها زائدة على الذات قائمة بها ، وتوسط الماتريدية فقالوا إن الله عالم وله علم أزلى . وبينما كان المذهب الأشعرى يسود فى نيسابور كان المذهب الماتريدى يسود فى بخارى وسمرقند وآسيا الوسطى حيث يسود المذهب الحنفى فى الفقه . وكان الكرامية من الصوفية خاصة يحملون على المذهب الأشعرى ، ومعروف أنهم كانوا يَغْلُون فى التشبيه . وعلى كل حال أخذت كفة المذهب الأشعرى تعلو حتى فى بيئات الماتريدية منذ اتخاذه عقيدة رسمية للسلاجقة فى عهد وزيرهم نظام الملك . وظل المعتزلة ينازعونهم طوال هذا العصر ، حتى فى نيسابور نفسها وحتى منذ عهد نظام الملك أو قل قبله بقليل فإن الوزير السابق له أبا نصر منصور بن محمد الكندرى حسَّن لسلطانه طُغْرُلْبَك السلجوقى أن يمنع الأشاعرة من الوعظ والتدريس وأن يعزلهم عن الخطابة ، ونشبت بذلك فتنة[2] فى نيسابور بين الأشاعرة والمعتزلة ، ولم يلبث الوزير أن قُتل وخلفه نظام الملك فازدهر المذهب الأشعرى منذ هذا الحين كما ذكرنا .

وكان أهل السنة الحنابلة يخالفون الأشعرية فى الأخذ بفكرة التأويل المجازى للآيات والأحاديث التى قد تدل على التشبيه والتجسيد للذات الإلهية ، دون إثباتها ، ومعروف أن الأشعرى كان يقول إزاء مثل هذه الآيات كما فى قوله تعالى (بل يداه مبسوطتان) إن ذلك يُفْهَمُ ولكن بلا كيف ، حتى لا يأخذ بفكرة التشبيه ، وكان أهل السنة الحنابلة يأخذون مثله بظاهر الآيات مع الإيمان بتنزيه الله عن التشبيه والتمثيل وكانوا يرون أن كلام الله قديم وأن القرآن لذلك غير مخلوق ، بينما توسط الأشعرية ، وقالوا إن كلام الله قديم ولكن

---

(١) انظر فى ترجمة الماتريدى الأنساب للسمعانى ٤٩٨ والفوائد البهية ص ٩٥ والجواهر المضية لابن أبى الوفا ٢/١٣٠ وابن قطلوبغا ص ٥٩ وشرح الإحياء للزبيدى ٢/١٥ ونشر له الدكتور فتح الله خليف كتاب التوحيد الذى يصور مذهبه الكلامى ، وهو كتاب نفيس .

(٢) راجع فى هذه الفتنة طبقات الشافعية للسبكى ٣/٣٨٩ وترجمات عبد الكريم القشيرى والجوينى وأبى سهل بن الموفق .

ألفاظ القرآن الدالة عليه مخلوقة ، فهى ليست كلام الله ولكنها تبليغ له . وأيضا توسط الأشاعرة كما أسلفنا بين أهل السنة الحنابلة وإيمانهم بالقدر وبين المعتزلة وإيمانهم بحرية الإرادة للإنسان . وكان ذلك كله مثار جدل عنيف طوال هذا العصر بين أهل السنة الحنابلة والأشاعرة ، وبالمثل بين الأشاعرة والماتريدية ، وكاد يختفى فى القرون المتأخرة أنصار الاعتزال ، وأُلِّفت فى ذلك كلّه كتب كثيرة ، تنتصر تارة لهذا المذهب أو ذاك ، وتارة تحكى جميع المذاهب والآراء ولا نقصد كتاب الملل والنحل للشهرستانى المؤلف فى القرن السادس فحسب بل نقصد أيضاً كتاب المواقف لعضد الدين[1] الإيجى المتوفى سنة ٧٥٦ وله شروح نفيسة للسعد التفتازانى والسيد الشريف الجرجانى وغيرهما ، وهو بشروحه موسوعة كبيرة لعلم الكلام ومذاهبه وأصحابه

٥

التاريخ

تنوعت الكتابة التاريخية فى إيران كما تنوعت فى كل بلد عربى ، فكان هناك المؤرخون العامون للأمم والدول ، وهناك المؤرخون للمدن ، وهناك أصحاب التراجم العامة والخاصة . ومر بنا فى كتاب العصر العباسى الثانى أن أكبر مؤرخى الأمم والدول فى الإسلام كان مؤرخا إيرانيا هو الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ . وأول من يلقانا فى هذا العصر من هؤلاء المؤرخين المطهر[2] بن طاهر المقدسى المتوفى سنة ٣٥٥ وهو ليس إيرانيا كما يشهد اسمه ، ولكنه كتب كتابه بدء الخلق والتاريخ فى مدينة بُست شرقى إيران ، وأهداه لبعض الوزراء السامانيين ، وهو جمع لمعارف كثيرة عن الأديان . وبه كثير من الأخبار التاريخية . وكان يعاصره مؤرخ إيرانى هو حمزة الأصفهانى المتوفى سنة ٣٦٠ ومربنا حديث عنه فى عرضنا لكتب الأمثال بين المصنفات اللغوية ، وله تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء ، وقد طُبعت منه ونُشرت بعض أقسام . ويلقانا بعده ابن مسكويه وكتابه « تجارب الأمم » وقد ترجمنا له فى القسم الثانى الخاص بالعراق .

وكان فى عصره المرعشى المتوفى سنة ٤٢٠ وقد صنف باسم السلطان محمود الغزنوى كتاب الغرر فى سير الملوك وأخبارهم ، عُنى فيه بسِيَر ملوك الفرس ، ومضى فيه حتى عصره .

---

(١) انظر فى عضد الدين السبكى ١٠/٤٦ والدرر لابن حجر ٢/٤٢٩ والبدر الطالع ١/٣٢٦ والشذرات ٦/١٧٤ والنجوم الزاهرة ١٠/٢٨٨ ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع .

(٢) انظره فى بروكلمان ٣/٦٢

ومن هذه الكتب التاريخية العامة كتاب «الآثار الباقية من القرون الخالية» للبيرونى كمامر بنا ويحمل تقاويم وجداول للشهور عند الأمم القديمة مع عرضه لأعيادها ولكثير من المشاكل الفلسفية والنزعات الدينية ، وكان حرَّ الفكر ومع أنه كانت فيه نزعة إلى الاعتداد بقوميته الفارسية فإنه لم يتحيَّف العرب فى أحكامه ، بل إنه نادى بأن العربية أكثر ملاءمة للغة العلم من الفارسية . وهو يدعو فى هذا الكتاب إلى نقد الأخبار التاريخية المغرقة فى القدم لما يشوبها من أساطير . ويفوق هذا الكتابَ فى التاريخ العام أهمية كتابُه تحقيق ما للهند من مقولة الذى سبق أن تحدثنا عنه والذى يضم تاريخ هذه الأمة وجغرافية بلادها وما يتصل بذلك من دراسة لأديانها وكل ما يتصل بحياة شعبها . وكان يعاصره العُتْبى[1] محمد بن عبد الجبار المتوفى سنة ٤٢٧ واشتهر بكتابه الذى ألفه فى الدولة الغزنوية لعهد مؤسسها السلطان محمود الغزنوى وقد فصَّل القول فيه عن هذا السلطان وعن أبيه سُبُكْتِكين وحروبهما ، وخاصة حروب محمود فى الهند ، وسماه اليمينى نسبة إلى لقبه : يمين الدولة الذى منحه له الخليفة تكريما ، وألفه فى لغة مسجوعة منمقة ، حتى عدَّه الفرس من روائع آثارهم الأدبية ، ولذلك اعتنى به وبشرحه كثيرون منهم ، ومن شروحه شرح مطبوع معه بمصر باسم « الفتح الوهبى على تاريخ أبى النصر العتبى » . وعُنى محمد بن حسين البيهقى المتوفى سنة ٤٧٠ بكتابه تاريخ السلاطين الغزنويين ، غير أن الكتاب فُقد ولم يبق منه إلا جزء خاص بحوادث السلطان مسعود بن محمود الغزنوى ، ولهذا يطلق عليه اسم تاريخ مسعودى ، وهو باللغة الفارسية وترجم حديثا إلى العربية وطبع فى مصر باسم تاريخ البيهقى . وألف بعد ذلك الوزير أنوشروان بن خالد المتوفى سنة ٥٣٢ كتابا فى تاريخ الدولة السلجوقية ، وعليه اعتمد العماد[2] الأصبهانى المتوفى سنة ٥٩٧ فى كتابه عن السلاجقة الذى سماه «نُصْرة الفِطْرة وعصرة القَطْرة» . ويدخل فى هذه الكتب التاريخية الخاصة بالدول والسلاطين كتاب ابن عَرَبْشاه[3] المتوفى سنة ٨٥٤ : « عجائب المقدور فى نوائب تيمور » وهو تاريخ مفصل لتيمور لنك طبع مرارا بمصر وفى أوربا ، وحقا ابن عربشاه ولد فى دمشق ، غير أنه رحل عنها إلى بلاد الروم ثم إلى سمرقند وبلاد المغول فى التركستان ، وتلقى العلم على الشيوخ هناك ، فرباه بإيران ، وتولى ديوان الإنشاء هناك ، وكانت تصدر

---

(١) انظر مصادر ترجمة العتبى فى الفصل الأخير من هذا القسم .

(٢) راجع فى العماد معجم الأدباء ١٨ /١١ والشذرات ٤ /٣٣٢ وابن خلكان ٥ /١٤٧ وذيل الروضتين لأبى شامة ص ٢٧ والوافى ١ /١٣٣ والسبكى ٦ /١٧٨ .

(٣) انظر فى ابن عربشاه الضوء اللامع ٢ /١٢٦ والشذرات ٧ /٢٨٠ والبدر الطالع ١ /١٠٩

عنه الرسائل بالعربية والفارسية والتركية .

وللمؤرخين فى إيران كتب كثيرة خَصُّوا بها البلدان عارضين علماءها عرضا واسعا ، فهى من جهة تاريخ علمى لبلدان إيران ومن جهة ثانية تاريخ علمى لعلمائها النابهين ، ومن السابقين إلى صنع ذلك فى العصر العباسى الثانى ابن منده محمد[1] بن يحيى المتوفى سنة ٣٠١ ، فله تاريخ أصبهان ، ومن أوائل ما يلقانا فى هذا الاتجاه لأوائل هذا العصر عصر الدول والإمارات كتاب تاريخ بخارى حتى سنة ٣٣١ لأبى بكر محمد بن جعفر النرشخى المتوفى سنة ٣٤٨ كتبه لنوح بن نصر السامانى ، واختصره بعده محمد بن زفر بن عمر سنة ٥٧٤ وأكمله مؤلف مجهول إلى عهد المغول ، ونشره شيفر فى باريس . وجاء بعد النرشخى الحاكم النيسابورى الذى مر بنا ذكره بين المحدِّثين ، فألف كتابه تاريخ نيسابور أو تاريخ علماء نيسابور ، ويقول السبكى فى طبقاته إنه أكمل من تاريخ بغداد . ويؤلف الحسن[2] بن محمد القمى المتوفى سنة ٤٠٦ تاريخ قم : مدينة الشيعة ، باسم الصاحب بن عباد ، وهو مطبوع فى طهران . ويؤلف أبو نعيم[3] المتوفى سنة ٤٣٠ تاريخ أصبهان ويقول ابن خلكان فى ترجمته إنه نقل عن هذا الكتاب اسم أبيه ونسبه . ومن كتب القرن الخامس تاريخ الرىّ لأبى سعد الآبى صاحب نثر الدرر الذى عرضنا له فى غير هذا الموضع . ونلتقى فى القرن السادس بتاريخ مرو للسمعانى [4] المتوفى سنة ٥٦٢ وتاريخ نسا وأَبِيوَرْد للأبيوردى الشاعر المتوفى سنة ٥٧٥ .

وعُنيت طائفة كبيرة من المؤرخين الإيرانيين بصنع كتب التراجم ، ومنها العامة ، ومنها الخاصة بطائفة معينة كالصوفية والفلاسفة أو الأطباء والشعراء والمغنين ، ونذكر فى مقدمة تراجم الصوفية كتاب طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن [5] السُّلَمى النيسابورى المذكور بين المفسرين المتوفى سنة ٤١٢ للهجرة وعادة يقدِّم معلومات دقيقة فى عبارات موجزة عن الصوفى الذى يترجم له ويذكر بعض عباراته وبعض ما كان يردده من أشعار . وأوسع منه

---

(١) ابن خلكان ٤ /٢٨٩ وتذكرة الحفاظ ١٠٣١ والشذرات ٢/٢٣٤

(٢) انظر فى القمى بروكلمان (الترجمة العربية) ٣ /٢٩

(٣) انظر فى أبى نعيم السبكى ٤ /١٨ وتذكرة الحفاظ ٣/٢٧٥ وشذرات الذهب ٣ /٢٤٥ والمنتظم ٨ /١٠٠ وميزان الاعتدال ١/١١١وطبقات القراء ١ /٧١ وابن خلكان ١ /٩١ والعبر ٣ /١٧٠ .

(٤) راجع فى السمعانى المنتظم ١٠ /٢٢٤ وابن خلكان ٣/٢٠٩ وشذرات الذهب ٤ /٢٠٥ ومرآة الجنان ٤ /٣٧١ والسبكى ٧ /١٨٠ وتذكرة الحفاظ للذهبى ٤/١٣١٦

(٥) انظر فى السلمى السبكى ٤ /١٤٣ وتاريخ بغداد ٢ /٢٤٨ واللباب ١ /٥٥٤ والمنتظم ٨ /٦ وتذكرة الحفاظ وشذرات الذهب ٣ /١٩٦ وميزان الاعتدال ٣ /٥٢٣

فى طبقات الصوفية كتاب حلية الأولياء لأبى نُعَيْم صاحب تاريخ أصبهان الذى ذكرناه آنفا ، وترجماته أوسع وأخصب . ومن كتب تراجم الأطباء والفلاسفة كتاب تاريخ حكماء الإسلام لظهير الدين البيهقى[1] المتوفى سنة ٥٦٥ وقد يسمّى تتمة صوان الحكمة ، ونشر فى مصر بالاسم الأول وفى لاهور بالاسم الثانى .

واهم كتب التراجم التى عنيت بالشعراء كتاب الأغانى لأبى الفرج[2] الأصبهانى المتوفى سنة ٣٥٦ ويقع فى نحو ٢٥ مجلداً ، ترجم فيه أبو الفرج للنابهين من شعراء الجاهلية والقرون الثلاثة الأولى للإسلام ، ولم يترجم لأنبه الشعراء فحسب ، بل ترجم أيضا لأنبه المغنين والمغنيات حتى نهاية القرن الثالث الهجرى . وعادة يذكر صوتا أو كما نقول الآن أغنية ، ولذلك سماه الأغانى ، ويتلو الأغنية دائما برقيمها الموسيقى قائلا مثلا إنها من الثقيل الأول ونحو ذلك ، ويذكر اسم شاعرها ومن تغنى بها ، ويترجم إما للشاعر وإما للمغنى أو المغنية ترجمة مفصلة ، قد تمتد أحيانا إلى مائة صفحة ، وقد تزيد كثيرا ، وبذلك يطلعنا على كل ما يتصل بالشاعر من نشأة ومن علاقات اجتماعية ومن آراء لمعاصريه أو للنقاد فيه ، موردا ذلك كله بأسلوب ناصع شفاف ، يعرف كيف يروى وكيف يقصُّ وكيف يسوق الأخبار سَوْقا مشوِّقا ، وفى أثناء ذلك يعرض عليك صور الحياة العربية والحضارة العباسية كما يعرض بعض الخلفاء ، ويخيل إليك أحيانا أنك تراهم فى قصورهم وفى مجالسهم ومع حواشيهم يلهون ويطربون ، رؤية مجسمة ، تجعل الماضى أمامك حاضرا بحذافيره .

ويُعْنَى الثعالبى بعده بعمل موسوعته الشعرية التى أشرنا إليها والتى سماها اليتيمة أو «يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر» وهى تراجم لجميع الأقاليم العربية ومن نبغ فيها من شعراء العروبة من الأندلس حتى أقصى الشرق من أقاليم إيران ولها النصيب الأوفر من الاهتمام فقد شغلت من الكتاب نحو نصفه ، وبدأ الحديث فيها بذكر ابن العميد وبعض الوزراء الكتاب الأفذاذ ثم تحدث عن شعراء أصبهان فشعراء الجبل فشعراء فارس والأهواز فشعراء جرجان وطبرستان فشعراء خراسان وما وراء النهر ، فبعض الشعراء النابهين المقيمين ببخارى وبغيرها من مدن أقصى الشرق فشعراء نيسابور . وجميعهم من شعراء القرن الرابع وأوائل الخامس ، ويقول فى مقدمته إنه أورد فيه لُبَّ اللب ، وحبَّة القلب ،

(١) راجع فى البيهقى معجم الأدباء ١٣ /٢١٩

(٢) انظر فى أبى الفرج تاريخ بغداد ١١ /٣٩٨ وتاريخ أصبهان لأبى نعيم ٢ /١١ والمنتظم ٧ /٤٠ ومعجم الأدباء ١٣ /٩٤ وإنباه الرواة ٢ /٢٥١ وابن خلكان ٣ /٣٠٧ وعبر الذهبى ٢ /٣٠٥ وميزان الاعتدال ٣ /١٢٣ ولسان الميزان ٤ /٢٢١ ومرآة الجنان ٢ /٣٥٩ والشذرات ٣ /١٩ والنجوم الزاهرة ٤ /١٥ وروضات الجنات ٤٨٧ .

وناظر العين ، ونكتة الكلمة ، وواسطة العقد ، ونَقش الفَصّ ، مع كلام فى الإشارة إلى النظائر والأحاسن والسرقات ، غير أنه عُنى بأشعار الشعراء ، والاختيار منها ، ولم يُعن ، مثل أبى الفرج فى كتابه الأغانى ، عناية واسعة بأخبار الشعراء إلا قليلاً جداً لا يكاد يشفى غُلّة . وأتبع الثعالبى اليتيمة بذيل لها سماه «تتمة اليتيمة» وزع فيه الشعراء على نفس الأقسام التى ذكرها فى اليتيمة ، وبينما تقع اليتيمة فى أربع مجلدات كبار تقع التتمة فى جزءين ، وهى مطبوعة فى طهران . والتتمة واليتيمة تؤرخان لشعراء الدولتين البويهية والسامانية وكذلك لشعراء الزياريين فى طبرستان والغزنويين فى غزنة . ويليهما كتاب «دُمْيَة القصر وعُصْرة أهل العصر» للباخرزى على بن الحسن المتوفى سنة ٤٦٧ وهو يؤرخ لشعراء زمنه ، ويجرى على نفس نظام اليتيمة ، فيؤرخ لشعراء العالم العربى ، ويُعْنَى خاصة بشعراء إيران وأقاليمها كما عُنى الثعالبى . وقد سار على غراره فى العناية بشعر الشعراء أكثر من أخبارهم ، وكأن الثعالبى هو المسئول عن هذا الاتجاه فى الترجمة للشعراء ، إذ عمّ وشاع لا فى إيران وحدها بل فى أقطار العالم العربى جميعها . ويأتى بعد الباخرزى فى الأهمية كتاب خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصبهانى الذى سبق أن ذكرناه بين المؤرخين وهو أيضاً يترجم لشعراء الأقطار العربية لعصره أى فى القرن السادس الهجرى حتى نحو سنة ٥٧٠ للهجرة ، وتراجمه أوسع ، غير أنها تصطبغ بصبغة اليتيمة ، وخصّ إيران بقسم كبير من كتابه لم ينشر حتى الآن ، ونشرت منه الأجزاء الخاصة بمصر والشام والعراق والمغرب والأندلس .

ولعل أهم كتاب فى التراجم العامة هو كتاب الأنساب للسمعانى عبد الكريم بن محمد الذى ذكرناه بين المؤرخين للمدن وهو مطبوع فى مجلد ضخم بالزنكوغراف ، وهو ليس فى الأنساب بمعنى نسب الشخص فى آبائه ، بل هو أعم من ذلك ، إذ يعنى بأنساب العلماء والأدباء إلى بلدانهم أو قبائلهم أو أسرهم أو صناعاتهم أو تجاراتهم . ويعرِّف أولا بما ينسب إليه الشخص ، وإذا كان بلدة ذكر مكانها ، وكذلك الأنساب الأخرى ثم يترجم ترجمة دقيقة لصاحب النسبة ، وقد يشترك فى النسب أو اللقب الواحد عدة أشخاص ، فيتحدث عن كل منهم ، أو قل يترجم لكل منهم ذاكرا مولده ووفاته . واختصر الكتاب عز الدين ابن الأثير فى مصنفه اللباب فى مختصر الأنساب ، وإلى الكتابين نرجع فى كثير من التراجم ، كما هو واضح فى الهوامش .

الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

١

الشعر العربى على كل لسان

رأينا فى حديثنا عن الحياة السياسية لإيران أنها أخذت تستشعر منذ القرن الثالث الهجرى نزعة قومية قوية كان من آثارها فى أوائل هذا العصر أن تقابلت دويلات وإمارات فارسية كثيرة على رقعة إيران الفسيحة ، فكان البويهيون فى الوسط والجنوب ومدوا أجنحتهم حتى شملت بغداد والعراق . وكان الزياريون فى الشمال بطبرستان وجرجان ، وكان السامانيون فى خراسان ، وبذلك كانت إمارتهم أبعد الإمارات عن حاضرة اللغة العربية والخلافة الإسلامية : بغداد ، وتليها إمارة الزياريين فى البعد . وهيأ ذلك للإمارتين جميعاً أن تعملا على إحياء اللغة الفارسية الأدبية . وكان السامانيون أسبق إلى ذلك ، لأن إمارتهم أسبق فى التاريخ ، ولأنهم ورثوا إمارة الطاهريين التى سبقتهم منذ عصر المأمون ، إذ منح طاهر بن الحسين قائده المشهور خراسان طُعْمة له ولبنيه ، فاستقلوا بها مبكرين ، وكانت أول الإمارات الفارسية فى الظهور والنشأة ، فساعد ذلك أهلها على أن يكونوا السابقين فى استشعار القومية الفارسية والعمل على استظهار شعر فارسى لهم ينافسون به الشعر العربى . وكذلك الشأن فى إمارة الصفّاريين التى عاصرتها ، ويذكر مؤرخو الشعر الإيرانى عادة بعض أسماء الشعراء الذين عرفهم القرن الثالث الهجرى ، واتخذوا الفارسية لساناً لهم ، يعبرون بها عن مشاعرهم ، وغير قليل منهم يلفّه ضباب الأساطير ، وأول شاعر معروف حقا هو الرودكى السمرقندى جعفر بن محمد المتوفى سنة ٣٢٩ للهجرة وكان يتغنى بمديح السامانيين ووزيرهم البَلْعمى مترجم تاريخ الطبرى إلى الفارسية ، ويقال إن هذا الشاعر ترجم من العربية كليلة ودمنة شعراً فارسيا ، غير أن ترجمته سقطت من يد الزمن . وخلفه الدقيقى الطوسى المتوفى سنة ٣٦٧ وهو بدوره من شعراء الدولة السامانية ، واشتهر بأنه اعتزم نظم الشاهنامَهْ فى تاريخ ملوك الفرس وأبطالهم وأساطيرهم القديمة وأنه نظم منها

ألف بيت ، ثم حال الموت بينه وبين إكمالها ، فأكملها من بعده الفردوسى فى عهد محمود الغزنوى .

ولم يهتم البويهيون أى اهتمام بهذا الاتجاه القومى فى إحياء الآداب الفارسية ، فقد آثروا الانضواء تحت لواء الثقافة العربية الخالصة ، وكثير منهم أتقنوا العربية ، حتى اتخذوها لسانهم للتعبير عن عواطفهم وأهوائهم ، مما جعل الثعالبى يترجم لطائفة كبيرة منهم بين شعراء العربية فى إيران . وكان وزراؤهم من كبار الأدباء وفى مقدمتهم ابن العميد والصاحب بن عباد المشهوران بأشعارهما وكتاباتهما فى العربية . ومع أنه يقال إنه وفد على الصاحب شاعران قدَّما له مدائحهما بالفارسية ، وهما منصور بن على الرازى الملقب بالمنطقى ومحمد بن على السَّرَخْسى الملقب بالكِسْروى ، غير أن ذلك يُعَدُّ شذوذاً فى بيئة البويهيين ، فقد كانت بيئة عربية خالصة ، وكان مثل هذين الشاعرين يُعَدّان طارئين عليها . وبالعكس عُنيت الدولة الغزنوية ، وخاصة فى عهد محمود الغزنوى (٣٨٨ - ٤٢١ هـ) بالعمل على إحياء الآداب الفارسية ، مع أن هذه الدولة ترجع إلى أصول تركية . وفى عهد محمود أنجز الفردوسى نَظْم الشاهنامَهْ فى نحو ستين ألف بيت من الشعر الفارسى [1] ، وكان الفرُّخى والعنصرى والعَسْجدى ومنوجهرى يتبارون فى تمجيد فتوحه ومديح أبنائه . وخلَفتْ كل هذه الإمارات السالفة فى إيران الدولة السلجوقية ، وفى عهدها أخذ الشعراء الإيرانيون من أمثال أبى سعيد بن أبى الخير وسنائى وفريد الدين العطار وعمر الخيام والأنورى يتجهون نحو التصوف . وتعم هذه الموجة شعراء إيران فى القرون التالية من أمثال الشيخ سعدى الشيرازى وجلال الدين الرومى وحافظ الشيرازى وعبد الرحمن الجامى .

وينبغى أن نعرف أن نشاط هذا الشعر الفارسى وأصحابه لم يكن يُقاس فى شىء إلى نشاط الشعر العربى فى إيران وأصحابه طوال القرون الهجرية : الرابع والخامس والسادس . وأكبر دليل على ذلك أنه بينما أُلِّفت المجلدات الضخام عن الشعر العربى فى تلك القرون على نحو ما تُصوِّر ذلك مجلدات اليتيمة ودُمْية القصر والخريدة لم يؤلف عن الشعر الفارسى كتاب يضم بين دِفَّتيه شعراؤه ، وأول كتاب عُنِى بهم هو كتاب لباب الألباب لعوفى المؤلف فى أوائل القرن السابع الهجرى . ومعنى ذلك أنهم كانوا حتى هذا التاريخ قلة قليلة بالقياس إلى شعراء العربية ، ولو أن الفتح المغولى لم يحدث فى هذا القرن لظل الشعر العربى هو المسيطر على روح الجماعة الإيرانية ، ومع ذلك فقد ظل أشواطاً من التاريخ والزمن ، على الرغم

---

(١) ترجمت الشاهنامة بمصر فى العصر الأيوبى ، ترجمها أبو الفتح البندارى ، ونشر ترجمته فى القاهرة الدكتور عبد الوهاب عزام .

من الخراب الذى رافق المغول والذى عَمَّ إيران ، فقد حرقوا ودمَّروا كل ما صادفهم من حضارة ، وكانت الحضارة العربية هى التى تسود فى كل تلك الديار ، وكان يسود معها الشعر والعلم العربيان ، فتراجعت تلك الحضارة أمام السيول المغولية وأمام ما أنزل بها جنكيزخان وهولاكو من تدمير ، حتى لقد كانا يحرقان المكتبات . أما المدن فقد أنزلا بها خرابا لا مثيل له فى التاريخ ؛

وما أنزل هولاكو ببغداد من دمار معروف مشهور . وكان ذلك كله ضربة قاصمة للحضارة العربية فى إيران وبالتالى للشعر والعلم العربيين ، ومع ذلك فقد ظل العلم العربى حيا وبالمثل الشعر ، وإن فقدا كثيراً من نشاطها الهائل القديم . ولابد أن نعرف أن لغة العلم فى إيران ظلت حتى القرن العاشر الهجرى هى العربية ، فبها كان يكتب علماؤهم وفلاسفتهم من أمثال ابن سينا والبيرونى فى القرن الخامس والزمخشرى والفخر الرازى فى القرن السادس ونصير الدين الطوسى والكاتبى القزوينى المعروف بدبيران فى القرن السابع . وسعد الدين التفتازانى وعضد الدين الإيجى فى القرن الثامن والسيد الشريف الجرجانى فى القرن التاسع . ففى كل هذه القرون – وخاصة حتى القرن السابع – لم تستطع الفارسية أن تستولى تماماً على ألسنة العلماء الإيرانيين ، حقا قد يكتب العالم بها رسالة أو يترجم بها عملاً من أعماله ، كما حدث أحياناً عند ابن سينا والبَيْرونى ، ولكن تظل العربية لغته الأساسية التى يذيع بها كتبه ومعارفه ، ومرجع ذلك إلى أن العربية كانت تفوق الفارسية فى القدرة على التعبير العلمى بفضل ما تتسم به من مرونة فى الاشتقاقات ، وأيضاً لأنها كانت قد أصبحت فعلاً لغة علمية ، تزخر بمصطلحات العلم ، فكان من الصعب أن تحل الفارسية محلها ، ويصوِّر ذلك البيرونى قائلاً : « إلى لسان العرب نُقلت العلوم فى أقطار العالم ، فازدانت وَحلَتْ إلى الأفئدة ، وسَرَتْ محاسن اللغة منها فى الشرايين والأوردة . . والهجو بالعربية أحب إلىّ من المدح بالفارسية . ويعرف مصداق قولى من تأمل كتاب علم قد نُقل إلى الفارسية .[فسيرى أنه] قد ذهب رونقه ، وكسف باله ، واسودّ وجهه ، وزال الانتفاع به إذ لا تصلح هذه اللغة [الفارسية] إلا للأخبار الكسروية والأسحار الليلية [1] » .

وظل هذا الشعور ماثلاً فى نفوس كثيرين من العلماء الإيرانيين حتى القرن العاشر الهجرى ، فكانوا يشبّون فى مهاد العربية وينهلون من ينابيعها الأدبية ، بل إننا نجد ذلك نفسه عاما بين الشعراء الذين اتخذوا الفارسية لسانا لهم منذ الرودكى ، ولذلك مظهر عام

---

(١) انظر كتاب الأدب الفارسى فى العصر الغزنوى للدكتور على الشابى (طبع تونس) ص ٣٣٨ نقلاً عن كتاب الصيدلة للبيرونى .

عنده وعند غيره ممن جاءوا بعده من شعراء الفارسية ، فإن الألفاظ العربية تكثر فى أشعارهم ، بل لذلك مظهر أبعد عمقاً وغَوْراً ، فإن ضروب النظم التى صاغوا فيها أشعارهم ضروب عربية ، بل قل كل عروض الأشعار عندهم من نفس عروض الشعر العربى ومادة تفاعيله وأوزانه .

وقد اشتهرت عندهم طائفة من ضروب النظم العربى وأنماطه أولها المَثْنَوِىّ ، وهو نفس الضرب المعروف فى العربية باسم المزدوج الذى أخذ يشيع – كما مر بنا فى كتاب العصر العباسى الأول – منذ بشار ، وأشاعه بعده أبان بن عبد الحميد فى ترجمة كليلة ودمنة وما نظم من الشعر التعليمى[1] ، وفيه تختلف القافية من بيت إلى بيت فى حين تتحد فى الشطرين المتقابلين ، وقد اختاره الفردوسى لشاهنامته والتزم فيه وزن المتقارب .

والضرب الثانى القصيدة ، وموضوعها ونسقها لا يختلف فى شىء عن موضوع القصيدة العربية ، فقد يكون مديحاً أو هجاء أو دينا أو فلسفة .

والضرب الثالث الغزل ، وموضوعه غزلى أو صوفى وأبياته لا تزيد عن اثنى عشر بيتاً إلا فى النادر ، وهو بذلك المعروف فى العربية باسم المقطعات الغزلية .

والضرب الرابع الرباعيات ، وهى تتألف من أربعة شطور ، يتفق أولها وثانيها ورابعها فى قافية واحدة ، أما الشطر الثالث فقد يُختم بنفس القافية وقد لا يُختم وهو بدوره نمط عربى ظهر عند بشار وأبى نواس وأبى العتاهية[2] ، وكل ما للفرس أنهم مع الزمن التزموا فيه وزنين خاصين سبق أن تحدثنا عنهما فى قسم العراق .

والضرب الخامس المسمَّط ، وهو يتألف من أدوار وكل دور يتكوَّن من أربعة شطور أو أكثر ، وتتفق شطور كل دور فى قافية واحدة ، ما عدا الشطر الأخير فإنه يستقل بقافية يتحد فيها مع الشطور الأخيرة فى الأدوار المختلفة . وقد أخذ هذا الضرب يشيع فى العربية منذ أبى نواس قبل نشأة الشعر الفارسى الحديث .

ومعنى ذلك أن الشعر الفارسى الذى أخذ ينظمه شعراء الفرس بإيران منذ القرن الثالث الهجرى فَصَلَ عن الشعر العربى كما يَفْصل الرضيع عن أمه ، بل لقد ظل الشعر العربى يغذِّيه طوال القرون التالية ، ولذلك مظاهر مختلفة فيه ، فإن موضوعاته من مديح وغير مديح هى نفس موضوعات الشعر العربى ، وإذا أخذنا موضوعاً مثل المديح وجدناه يُنْظَمُ بنفس الصورة العربية ، فللمدحة مقدمة من النسيب ومن وصف الطبيعة ، وكأننا نقرأ مدحة

---

(١) العصر العباسى الأول (طبع دار المعارف) ص ١٩٦ وما بعدها .

(٢) العصر العباسى الأول ص ١٩٧ .

عربية مترجمة على نحو مايتضح عند شعراء الدولة الغزنوية : منوجهرى والعسجدى والعنصرى والفرُّخى . ونما عندهم - على نحو ماهو معروف - شعر التصوف ، ولكنه يتغذى فى نشوئه ونموه جميعاً بشعر التصوف العربى عند الحلاج وأضرابه من القدماء وعند ابن العربى وابن الفارض والسُّهْرَوَرْدِيَّين . ولايوجد شاعر صوفى من فريد الدين العطار إلى عبد الرحمن الجامى إلا وهو يحسن العربية ويتّربى ثقافيا فى مهادها ، ولذلك دائماً نجد لشعرائهم الصوفيين شعراً عربيا ، وهو يقل عند بعضهم حقا ، ولكنه على كل حال يرمز فى قوة إلى هذا التواصل الوثيق [1] بين شعراء الفارسية وشعراء العربية . وشاعت بينهم طريقة هى أن يقتبسوا فى بعض منظوماتهم شطوراً أو أبياتاً عربية ، ويسمون ذلك الملمَّع ، فالشطر أوالبيت العربى يلمع فى المنظومة كما تلمع المنارة وتتألق . ويكثر عندهم وراء هذه الشطور والأبيات أن يضمنوا كثيراً من أبيات منظوماتهم معانى أبيات عربية ، فضلاً عما يضمنونها من الآيات القرآنية والأحادث النبوية . وللدكتور حسين محفوظ بحث طريف بعنوان «متنبِّى وسَعْدى» طبعه فى طهران ، وفيه يذكر آيات الذكر الحكيم فى شعر سَعْدى الشِّيرازى ، وتشغل من البحث نحو عشرين صحيفة ، ويتلوها ما استظهره سعدى من الأحاديث النبوية فى نحو ثلاثين صحيفة ، ويعرض تضمينه لمعانى أبيات الشعر العربى فى أشعاره فى نحو خمسين صحيفة ، وهى أبيات تمتد من العصر الجاهلى إلى العصر العباسى مصوِّرة بقوة ثقافة سعدى الشِّيرازى بالشعر العربى على مر العصور ، ويلى ذلك تضمين سعدى أشعارَه معانى أبيات المتنبى فى نحو خمسين صحيفة . وبجانب ذلك يذكر أشعار سعدى العربية الخالصة . وسَعْدى أوالشيخ سعدى هو أحد ثلاثة يُعَدّون أنبه شعراء الفرس فى تلك الحقب ، والاثنان الآخران جلال الدين الرومى وحافظ الشيرازى ، بل ربما كان هو أكثر الثلاثة شعبية ومحبة بين أبناء قومه . فإذا قلنا إن الشعر الفارسى كان دائم الاتجاه إلى الشعر العربى ، وكان هذا الشعر دائماً يقع منه موقع البوصلة أو موقع الإبرة المغناطيسية يجذبه إليه فى قوة لم نكن مغالين .

وليس هذا كل ما يلاحظ من ولاء الشعر الفارسى للشعر العربى فى تلك القرون ، فإننا نجد أصحابه يُعْنَوْنَ منذ نشأته بمصطلحات البديع التى أخذت تتزايد وتتراكم بين شعراء العربية فى إيران وغير إيران ، وأكبر مثل يوضح ذلك «كتاب حدائق السحر فى دقائق الشعر» لرشيد الدين الوطواط المتوفى سنة **٥٧٣** للهجرة ، وقد أورد فيه ستة وخمسين فنًّا

---

(١) من يرجع إلى كتابات الثعالبى والباخرزى يعرف أن هذا التواصل قديم فقد كان كثير من الشعراء يحسن اللسانين وينظم بهما . انظر اليتيمة ٤/ ٨٨ ودمية القصر ٢/ ٢٦٠ ، ٢٨٠ ، ٣٤٤ ، ٣٦٢ .

من فنون البديع ، ونراه فى كل فن يذكر أمثلة من الشعر العربى وأمثلة أخرى من الشعر الفارسى تحاكيها جرت على ألسنة الرودكى والعنصرى والفرُّخى والعَسْجدى ومنوجهرى والمنطقى وأضرابهم ، وكأن شعراء الفرس لم يتركوا لشعراء العربية فنا إلا حاكوه فيه ، مهما يكن معقداً أو شديد التكلف ، فمن ذلك تقليدهم « لزوم ما لا يلزم » فى القافية بحيث يلتزم فيها الشاعر حرفا قبل حرف الروى ، وتقليدهم الأبيات التى يمكن بحذف أجزاء أخيرة منها أن تقرأ على وزنين ، ومن ذلك المقطّع وهو أن يورد الشاعر بيتاً لا تتصل حروف كلماته فى الكتابة ، والموصَّل وهو أن يقول الشاعر بيتاً لا تقبل كلماته التقطيع فى الكتابة ، والأرقط وهو البيت الذى يتوالى فيه حرف منقوط وحرف غير منقوط بالتعاقب ، والأخيف وهو الذى تتوالى الكلمات فيه كلمة منقوطة وكلمة غير منقوطة . وقد أنشدنا أمثلة من هذه الصور المتكلفة فى قسم العراق ومن ذلك استخدامهم كثيرا اللغز ، والتضمين ، والتقسيم ، وحسن التعليل ، والمثل .

ولعل فى هذا ما يوضح كيف أن الشعر الفارسى كان يتبع خطوات الشعر العربى الماضى والمعاصر له خطوة خطوة ، يتبعه فى الصياغة والسمات ويحاكيه محاكاة دقيقة . وكان الشعر العربى هو الأكثر شيوعا ، وهو الذى يدور على كل لسان ، أما فى القرون الرابع والخامس والسادس فليس فى ذلك شك ، حتى لنرى كثيرين ممن كانوا ينظمون بالعربية والفارسية من الشعراء إنما يشتهرون بشعرهم العربى ، مثل بديع الزمان الهمذانى إذ تُرْوَى له بعض أبيات فارسية بينما له ديوان بالعربية ، وبالمثل أبو الفتح البستى ، إذ يقول الرواة إنه كان ينظم بالفارسية . ولكن هذا النظم ضاع ، وبقى له ديوانه العربى ، ومثلهما الباخرزى ضاع شعره الفارسى إلا ما احتفظ به محمد عوفى فى كتابه اللباب ، وظل ديوانه العربى تتناقله الأجيال حينا من الدهر . ومنذ حروب المغول وتخريبهم لإيران انعكست الحال ، فكثر من ينظمون بالفارسية ، وأصبح المعوَّل فى شهرة الشاعر على ما ينظمه بتلك اللغة ، كما هو الشأن فى سعدى الشيرازى الذى مرَّ بنا حديث عنه ، أما قبل ذلك فكان الشعر العربى هو الأكثر ذيوعاً ، وكأنه العملة الشعبية المتداولة فى بيئات المثقفين جميعاً ، فالفلاسفة والعلماء ينظمونه كما ينظمه الكتاب ، غير من كان ينظمه من الشعراء ، ويعُدُّون بالمئات .

٢

كثرة الشعراء

راجت سوق الشعر العربى بإيران فى القرن الرابع الهجرى رواجاً عظيماً ، وكان من العوامل التى أدت إلى هذا الرواج اهتمام ملوك البويهيين ووزرائهم بالشعر وأصحابه ، وفى مقدمتهم عضد الدولة ، وكان ينظم شعراً حسناً ، كما كان يؤثر مجالسة الأدباء على منادمة الأمراء ، كما يقول صاحب اليتيمة ، وقد أنشد له أبياتاً طريفة فى الشراب والطرب من مثل قوله (١) :

ليس شُرْبُ الكأسِ إلا فى المطَرْ　　وغِناءٍ من جَوارٍ فى السَّحَرْ

وكان الشعراء يفدون عليه ويُجْزِل لهم فى صِلاتهم ومكافآتهم ، غير من كان يفرض لهم الرواتب الحسنة . وقد استحال مجلس وزيره ابن العميد إلى ما يشبه ندوة أدبية كبيرة ، فكان الشعراء يروحون ويغدون على مجلسه ، وكثيراً ما كان يطلب إليهم أن يعارضوا بيتاً يُلْقيه ، أو يصفوا شيئاً عرض لهم ، ونضرب لذلك مثالاً : أن بعض الوافدين حَيَّاه بأُتْرُجَّةٍ حسنة ، فطلب إلى من حضره من الشعراء أن يتجاذبوا وصفها (٢) ، وابتدأ بقوله : « وأترجَّةٍ فيها طبائعُ أربعُ » فقال أبو محمد بن هندو : « وفيها فنونُ اللهو للشَّرْب أجمعُ » فقال أبو القاسم : « يشبِّهها الرائى سَبيكةَ عسْجدٍ » فقال أبو الحسين بن فارس : « على أنها من فأْرة المسك أَضْوَعُ » فقال أبو عبد الله الطبرى : « وما اصفرَّ منها اللونُ للعشق والهوى » فقال أبو الحسن البديهى : « ولكنْ أراها للمحبين تجمَعُ » . وبذلك تكوَّنت ستة شطور أو بعبارة أدق ثلاثة أبيات على البديهة ارتجالاً . وكانت تكثر هذه المقارضات فى مجالس الوزراء وغيرهم من المتأدِّبين ، ولعل مجلساً لم يبلغ منها ما بلغه مجلس الصاحب بن عباد إذ يقول الثعالبى فى كتابه اليتيمة : « احْتفَّ به من نجوم الأرض وأفراد العصر ، وأبناء الفضل وفرسان الشعر ، مَنْ يُرْبِى عددهم على شعراء الرشيد ولا يقصِّرون عنهم فى الأخذ برقاب القوافى ومِلْك رِقِّ المعانى ، فإنه لم يجتمع بباب أحد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد من فحولة الشعراء المذكورين كأبى نواس وأبى العتاهية والعتَّابى والنَّمرى ومسلم بن الوليد وأبى الشِّيص ومروان بن أبى حفصة ومحمد بن

(١) اليتيمة ٢/٢١٨ .　　(٢) اليتيمة ٣/١٧٦ وما بعدها .

مناذر ، وجمعتْ حضرة الصاحب بأصبهان وبالريّ وجُرْجان مثل أبي الحسين السَّلاميّ وأبي بكر الخُوَارَزْميّ وأبي طالب المأموني وأبي الحسن البديهيّ وأبي سعيد الرُّسْتُميّ وأبي القاسم الزَّعْفرانيّ وأبي العباس الضَّبِّيّ وأبي الحسن بن عبد العزيز الجرجاني وأبي القاسم بن أبي العلاء وأبي محمد الخازن وأبي هاشم العلوي وأبي الحسن الجوهري وبني المنجم وابن بابَك وابن القاشاني وأبي الفضل الهمذاني وإسماعيل الشاشي وأبي العلاء الأسدي وأبي الحسن الغُوَيْريّ وأبي دُلَف الخزرجي وأبي حفص الشّهرزوزيّ وأبي معمر الإسماعيلي وأبي الفياض الطبري وغيرهم ممن لم يبلغني ذكرهم أو ذهب عني اسمه . ولذكر كل من هؤلاء مكان من هذا الكتاب إما متقدم أو متأخر». ولكل منهم ولكثيرين وراءهم فيه مدائح لا تكاد تُحْصَى ، ومع كل مدحة كان يأمر بصلة . وكان يتبادل مع من يحضرون مجلسه مقارضات الشعر ومطارحاته وإجازاته . وكثيراً ما كان يعرض موضوعٌ ، فيتنافس فيه الشعراء ، وكل يحاول أن يظهر براعته وتفوقه ، من ذلك أنه بني قصراً بأصبهان ، فتبارى نحو عشرين شاعراً في وصفه[1] » ، منهم أبو سعيد الرُّسْتمي ، وفيه يقول[2] :

وسامية الأعلام تلحظ دونها ... سَنا النجم في آفاقها مُتضائلا
نسختَ بها إيوانَ كسرى بن هُرْمُزٍ ... فأصبحَ في أرض المدائن عاطلا
متى ترها خلتَ السماء سُراداقاً ... عليها وأعلامَ النجوم مواثلا
وماءٍ على الرَّضْراض يجرى كأنه ... صفائحُ تِبْرٍ قد سُبِكْنَ جداولا[3]

ولما حصل الصاحب ، وهو بِجُرْجان ، على فيل ضخم كان في عسكر السامانيين أمر من بحضرته من الشعراء أن يصفوه في تشبيب قصيدة على وزن قافية قول عمرو ابن معد يكرب الزُّبَيْدي :

أعددتُ للحَدَثان سا ... بغةً وعَدَّاءً عَلَنْدَى[4]

وأنشد أبو الحسن الجوهري في هذه المباراة قصيدة استهلَّها بمديح الصاحب ، ثم أخذ في وصف الفيل وصفاً مَرِحاً بمثل قوله[5] :

يُزْهَى بخرطومٍ كمثـ ... ـل الصَّوْلجان يردّ رَدَّا
أو كُمّ راقصـةٍ تشـ ... ـيرُ به إلى النُّدْمان وَجْدَا

---

(١) اليتيمة ٣ / ٢٠٣ .

(٢) اليتيمة ٣ / ٢٠٦ .

(٣) الرضراض : الحصى الصغار في مجاري المياه .

(٤) اليتيمة ٣ /٢٢٩ والسابغة الدرع . والعلندى : الغليظ ، وأراد به الفرس .

(٥) اليتيمة ٣ / ٢٣٩ .

وكأنه بوقٌ تُحَـ ـرِّكه لتنفخ فيه جدّا
أذناه مِرْوَحَتان أُسْـ ـندتا إلى الفَوْدين عقْدا

ونفق بِرْذَوْن (بَغْل) أبى عيسى بن المنجم ، بعد أن طالت صحبته له ، فأوعز الصاحب إلى من حوله من الشعراء الندماء أن يُعَزّوا أبا عيسى فيه ويبكوه له ، ونظم منهم عشرةٌ قصائدَ فكاهية سُمِّيت بالبِرْذَونيات منها برذونية أبى القاسم ابن أبى العلاء وفيها يقول [1] :

لقد أنصفتْه الخيلُ ماذُقْن بَعْدَهُ شَعيراً ولا تِبْناً ومُتْنَ غَليلا
وفى كل إصْطَبْلٍ أنينٌ وزفرةٌ تردَّدُ فيه بُكْرَةً وأَصيلا
ولو وفَّت الجُرْدُ الجِياد حقوقَهُ لما رجَّعتْ حتى المماتِ صَهيلا

وفى هذا كله ما يصور من بعض الوجوه حياة الشعر العربى فى أَصْبهان والرَّى لعهد بنى بويه ، وبالمثل كان الزِّياريون وفى مقدمتهم قابوس بن وَشْمكير يشجعون الشعراء ويجزلون لهم فى العطاء ، ويذكر الباخَرْزى فى دُمْيته أبا بكر الخُسْرُوىّ الذى كان ينظم باللسانين العربى والفارسى ، ويقول : « كانت له وظائف كل سنة من الأمير شمس المعالى قابوس بن وشمكير والصاحب أبى القاسم بن عباد تُدَرّ عليه ، وتتسابق إليه [2] » . وكانت لكثيرين غيره هذه الوظائف أو الرواتب من الدولتين ، وكذلك من الدولة السامانية ، وفى عاصمتها بخارى يقول الثعالبى : « كانت بخارى فى الدولة السامانية مثابة المجد وكعبة الملك ومجمع أفراد الزمان ومطلع نجوم أدباء الأرض ومَوْسم فضلاء الدهر [3] » ويذكر مجلساً من مجالسها ضَمَّ أبا الحسن اللَّحَّام وأبا محمد بن مطران وأبا جعفر بن العباس بن الحسن وأبا محمد بن أبى الثياب وأبا النصر الهَرْثَمى وأبا نصر الطريفى ورجاء بن الوليد الأصبهانى وعلى بن هرون الشيبانى وأبا إسحق الفارسى وأبا القاسم الدينورى وأبا على الزَّوْزَنى إلى غيرهم ممن ينتظم فى سلكهم من الشعراء . وليست الحواضر وحدها هى التى اختصت بالنشاط الشعرى ، فكثير من المدن شاركها هذا النشاط مثل بلاد الجبل وجُرْجان وَطَبرستان وخُوَارزم وفارس والأهواز ونَيْسابور وهَراة . وقد بلغ عدد الشعراء الذين ترجم لهم الثعالبى فى يتيمته من الإيرانيين خاصة أكثر من مائة وثمانين شاعراً ، وزادوا عن المائتين فى الدمية إلى من ترجم لهم العماد الأصفهانى فى الخريدة وترجمات ضافية ،

(١) اليتيمة ٣/٢١٨ .
(٢) دمية القصر (طبعة دار الفكر العربى) ٢/٢٥٩ .
(٣) اليتيمة ٤/١٠١ .

وكان بجانب أمراء الدويلات الإيرانية كثير من حماة الأدب والشعر فى كل بلدة كبيرة ، منهم آل ميكال فى نيسابور ، وفيهم يقول الثعالبى : « القول فى آل ميكال وقِدم بيتهم وشرف أصلهم وتقدم أقْرامهم (سادتهم) وكرم أسلافهم وأطرافهم وَجْمعهم بين أول المجد وآخره وقديم الفضل وحديثه وتليد الأدب وطريفه يستغرق الكتب ويملأ الأدراج ويُحْفِى الأقلام ، وما ظنك بقوم مدَحهم البحترى وخدمهم ابن دريد وألّف لهم معجم الجمهرة وسيَّر فيهم المقصورة التى لا يُبْلِيها الجديدان ، وانخرط فى سلكهم أبو بكر الخوارزمى وغيره من أعيان الفضل وأفراد الدهر [1] » . ويدل أكبر الدلالة على ما كان ببلدان إيران من نشاط أدبى وشعرى أن نجد هذه البلدان لا تكتظ بأدبائها وشعرائها وحدهم ، بل يفد عليها كثيرون غيرهم من بلاد قريبة وبعيدة فى العراق وغير العراق ، على نحو ما يلقانا فى نيسابور ، فقد ترجم الثعالبى لطائفة من الشعراء الطارئين عليها من بلدان شتى ، وبلغ عددهم ستة عشر شاعراً اختاروها مقاماً لهم .

ونَيْسابور من بلدان الدولة السامانية ، وهى صالحة لأن تكتب فى شعرائها دراسة قيمة عن نشاط الشعر بها لا فى عهد السامانيين وحدهم بل أيضاً فى الحقب التالية ، وبالمثل بلدان إيران الكبيرة المختلفة مثل أصبهان والرىّ والجُرْجانية عاصمة الزياريين وخُوَارزم وهَراة عاصمة خلف بن أحمد ممدوح بديع الزمان الهمذانى وغَزْنة عاصمة الغزنويين ، فكل هذه البلدان وما يماثلها ، وحتى بلاد الشاش فيما وراء النهر يمكن أن تفرد لها دراسة تضم شعراءها فى اليتيمة والدمية وغيرهما من كتب التراجم مثل طبقات الشافعية للسبكى ومعجم الأدباء لياقوت ووفيات الأعيان لابن خلكان .

ومن يرجع إلى هذه الكتب يخيَّل إليه أن الشعر بإيران إلى ما وراء النهر كان على كل لسان ، وكان الأمراء ورُعاته فى كل بلدة يقيمون له مواسم كالأعياد ، وكان الوزراء والأمراء لا يزالون يهبون الشعراء آلاف الدراهم والدنانير ، وكانوا يعيِّنون لهم مرتبات ، كما مر بنا ويُغْدقون عليهم إغداقاً كثيراً ، حتى ليقال إنه حصل للأبِيوَرْدِىّ الشاعر السلجوقى من الملوك والأمراء ما لم يحصل للمتنبى فى عصره ولابن هانئ فى مصره . فلا عجب أن يتكاثر الشعراء ، فقد كان الشعر وسيلة لحياة رَغْدة ، ولذلك قلما ترى شاعراً من المئات التى ترجم لها الثعالبى فى اليتيمة والباخرزى فى الدُّمْية والعماد الأصبهانى فى الخريدة إلا وهو يتكسب بأشعار لعلها تفتح له أبواب النعيم .

(١) اليتيمة ٤ / ٣٥٤ .

وليس هذا وحده كل مادعا الشعر إلى النشاط فى إيران ، فقد كان يُعَدّ جزءًا لا يتجزَّأ من الثقافة العربية التى كان الناس يعكفون عليها فى شغف ، وهذا هو السر فى أنك قلما تجد فقيها أو فيلسوفاً فى تلك البيئة إلا وهو ينظم الشعر ، ويتخذه أداته فى التعبير عن مشاعره ، تجد ذلك عند البيرونى فى ترجمته بمعجم الأدباء كما تجده عند ابن سينا ، ويتسع ذلك عند الفقهاء ، وكأنهم كانوا يَعُدُّون الشعر من آلات عملهم ، وارجعْ إلى السُّبكى فى طبقاته فإنك تجده من وقت إلى آخر حين يترجم لفقيه يذكر له أشعاراً مختلفة فى الغزل وغير الغزل ، من ذلك أن نراه يترجم لمحمد بن عبد العزيز النِّيلى أحد أئمة خراسان المتوفى سنة ٤٣٦ فيذكر له أشعاراً منها هذه الأبيات الغزلية البديعة (١) :

ما حالُ مَنْ أَسَرَ الهوى ألبابَهُ ما حالُ من كسَرَ التصابِىَ بابَهُ
نادى الهوى أسماعَه فأجابه حتى إذا ما جازَ أغلق بابَه
أهْوَى لتمزيق الفؤاد فلم يجد فى صدرِهِ قلباً فشقَّ ثيابَهُ

ومن كبار أئمة الشافعية فى العصْر القفّال الشاشى ناشر مذهب الشافعى فيما وراء النهر ، وكان أكبر من صاح فى قومه لغزو الروم عام النَّفير . وذلك أن نِقْفور إمبراطور الروم أرسل إلى الخليفة المطيع قصيدة يتوعده فيها ويتوعد المسلمين بمثل قوله (٢) :

ثغورُكمُ لم يبقَ فيها لوَهْنكم وضعفكمُ إلا رُســـومُ المعالِمِ

ومضى يفاخر بانتصاراته وانتصارات أسلافه فى كريت (إقريطش) وسَروج وعلى أبواب سُمَيْساط والحدَث ومَرْعش والمصِّيصة وَطَرسوس . وردَّ عليه فخره ونقَضه نقضاً الشيخ القفَّال بقصيدة طنانة يذكر له فيها انتصارات المسلمين عليهم قروناً متطاولة وما قتلوا من مئات الألوف من رجالهم وماسَبَوْا من آلاف الجوارى الروميات ، بل ما قتلوا وسبوا من آلاف الآلاف على مر السنين ، وإن صواعق الموت لتوشك أن تنزل به وبجنوده ، ترسلها عليهم زحوف الخراسانيين جنود الملك السامانى منصور بن نوح (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) التى تزحف بقَضِّها وقضيضها ورُعودها وبُروقها المميتة ، يقول :

أتَتْك خُراسانٌ تجُرُّ خيولَها مُسوَّمةً مثلَ الجرادِ السَّوائمِ

(١) السبكى ١٧٩/٤

(٢) السبكى ٢٠٥/٣ وما بعدها

كهولٌ وشبانٌ حماةٌ أحامِسٌ ميامنُ فى الهَيْجاء غيرُ مَشائِمِ[1]
ونرجو بفضلِ الله فتحاً معجَّلاً ننالُ بِقُسْطَنْطِين ذاتِ المحارمِ
هناك نرى نِقْفورَ واللهُ قادرٌ ينادَى عليهِ قائماً فى المقَاسِمِ
ويجرى لنا فى الرومِ طرًّا وأهلِها وأموالِها جَمْعاً سِهامُ المغانمِ
فيضحك منا سنُّ جذْلانَ باسمٍ ويُقْرَعُ منه سِنُّ خَزْيانَ نادمِ

ووراء القفال أئمة فى الفقه الشافعى كثيرون أنشد لهم السُّبْكى أشعاراً فى الزهـد ، وسنترجم منهم للقُشَيْرى بين شعراء الزهـد والتصوف . وأنشد السبكى أيضاً أشعاراً لقاضيين هما على بن عبد العزيز الجرجانى والأَرَّجانى وسنترجم لهما بين شعراء المديح ، كما أنشد أشعاراً مختلفة للفقيه الأَبِيوَرْدِىّ وسنترجم له بين شعراء الفخر ، وله ديوان كبير مثل الأَرَّجانى ، وكان لعلى بن عبدالعزيز ديوان سقط من يد الزمن . وعلى نحو ما كان الفقهاء ينظمون الشعر كان المحدِّثون ينظمونه أيضاً ، مثل حمد بن محمد الخطابى البُسْتِى الذى مَرَّ حديثنا عنه بين المحدِّثين ، وقد ترجم له صاحب اليتيمة فى جزئها الرابع وأنشد له طائفة من شعره ، وكان ينظمه أيضاً المفسرون للقرآن الكريم من مثل الزمخشرى ، وله ديوان شعر لما ينشر ، وهو زاخر بالأدعية والابتهالات . وتَرْوِى كتب التراجم للفخر الرازى أشعارا مختلفة ، وكان كثيرون من اللغويين والنحويين ينظمون الشعر ، منهم الجوهرى إسماعيل بن حماد صاحب معجم الصحاح ، وله ترجمة فى الجزء الرابع من اليتيمة أنشد فيها الثعالبى طائفة من أشعاره ، ومنهم أبو الحسين أحمد بن فارس صاحب معجمى المجمل ومقاييس اللغة ، وقد ترجم له الثعالبى فى الجزء الثالث من اليتيمة وأنشد طائفة من شعره من مثل قوله[2] :

مَرَّتْ بنا هَيْفاءُ مَقْدودةٌ تـركـيَّـةٌ تُـنْـمَـى لِتُرْكِىِّ
ترنو بطَرْفٍ فاتنٍ فاترٍ أضعفَ من حُجَّة نَحْوِىِّ

ومنهم ابن فورَّجة البُرُوجِرْدِىّ ، وله ترجمة فى الجزء الأول من تتمة اليتيمة وكذلك فى الجزء الأول من دمية القصر ، وله أشعار بديعة من مثل قوله الذى أنشده الثعالبى[3]

ألم تطربْ لهذا اليوم صاحِ إلى نغمٍ وأوتارٍ فِصاحِ

---

(١) أحامس : أشداء
(٢) اليتيمة ٣/٤٠٢
(٣) تتمة اليتيمة ١/١٢٤ .

كأنَّ الأيْكَ يوسعنا نِثاراً من الوَرقِ المكسَّر والصِّحاحِ
تَميدُ كأنها عُلَّتْ براحٍ وما شربتْ سوى الماء القَراحِ
كأن غُصُونها شَرْبٌ نَشَاوَى تصفِّق كلُّها راحاً براحِ

ومرَّ بنا أنه كان ناقداً بصيراً ، كما كان شاعراً فَذًّا ، وذكر له الثعالبى معنى نقله عن شاعر فارسى معاصر له يسمَّى المعروفى على هذا النمط .

يظنون ما تَذْرِى جفونى أدْمُعاً بل الدم منها يستحيلُ فيقطرُ
تُعيد بياضاً حمرةَ الدمِ لَوْعتى كما ابيضَّ ماءُ الورد والوردُ أحمرُ

ومن أصحاب المباحث البلاغية والنقدية الذين اشتهروا بنظم الشعر أبو هلال العسكرى صاحب كتاب الصناعتين ، وقد ضمَّنه كما ضمَّن كتابه ديوان المعانى طائفة من أشعاره ، وأنشد من ترجموا له بعض أشعاره . ومثله الثعالبى صاحب اليتيمة ومرَّ بنا حديث عن بعض نظرات نقدية له ، وله أشعار مختلفة أنشد أطرافاً منها فى كتاب لطائف المعارف وفى كتبه الأخرى . ومثلهما عبد القاهر الجرجانى صاحب دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة ، وفى ترجمته بدمية القصر طائفة من أشعاره . وهو باب يطول إذا أخذنا نحصى شعراء العلماء من كل صنف ، إنما هى أمثلة فحسب ، أردنا بها أن نُصوِّر تفتح ينابيع الشعر العربى على ألسنة المثقفين من كل لون . وكان من أقربهم إلى هذه الينابيع كُتَّاب الدواوين ، ولا تكاد تجد كاتباً كبيراً يترجم له الثعالبى فى اليتيمة والباخرزى فى الدمية والعماد فى الخريدة إلا وشعره يكاد يغلب نثره . بل إن كثيرين منهم تقتصر ترجمتهم على مالهم من أشعار ، حتى إنه يكاد يكون من العسير أن نتعقب دواوين الرسائل وكتَّابها وآثارهم النثرية عند السامانيين والخوارزميين والغزنويين والسلاجقة إلا ما يأتى عفواً . وكثير من كتَّاب هذه الدول والإمارات كانت لهم دواوين شعرية مثل أبى بكر الخوارزمى الكاتب المشهور ومثل بديع الزمان وأبى الفتح البُسْتى والباخَرْزىّ وقد أشرنا فيما أسلفنا إلى دواوينهم ، ومثلهم الصاحب بن عباد والعماد الأصبهانى ، وكأنهم وأضرابهم كانوا يرون أن الشعر هو العملة العربية المتداولة التى تَحوز لصاحبها الشهرة الأدبية .

٣

شعراء المديح

يكثر شعر المديح فى هذا العصر كثرة مفرطة ، إذ كان يطلبه الملوك والأمراء والوزراء والولاة والقضاة . ومن يقرأ اليتيمة وتتمتها والدمية والخريدة يرى الشعراء جميعاً يمدحون معاصريهم ، وكأن عمل الشاعر الأساسى أن ينظم فى المديح ، وهو شىء طبيعى إذ كان أداة للكسب ورفاهةالعيش ، ومرَّت بنا كثرة الأعطيات التى كان يأخذها الشعراء وأنهم كانوا – أو كان كثير منهم – يأخذ رواتب من الوزراء والحكام . وكان لكل إمارة شعراؤها الذين يقدِّمون لأصحابها المدائح والتهانى فى المناسبات والأعياد المختلفة الإسلامية وغير الإسلامية ، بل كان لكل أمير ولكل وزير شعراؤه الذين يَرُوحون عليه ويَغْدون بالمدائح الرائعة ، ونقف قليلاً عند الدولة البويهية فإن ما نُظم فى عضد الدولة يكاد يؤلف ديواناً مستقلا ، إذ لم يكد ينبغ شاعر فى إيران إلا قصَده ، وقدَّم له مدائحه ، وقصده المتنبى بشيراز فى سنة ٣٥٤ ومدحه بعدة قصائد بديعة ، كما قصده شعراء العراق وفى مقدمتهم السَّلامىُّ الشاعر ، وفيه يقول مواطنه أبو بكر الخُوارَزْمى (١) :

غريبٌ على الأيام وِجْدانُ مثلِهِ ... وأغربُ منه بعد رؤْيته الفقرُ
عجبتُ له لم يلبس الكبرَ حُلَّةً ... وفينا لأنْ جُزْنا على بابِهِ كِبْرُ

وكانوا كثيراً ما يشيرون إلى النوال فى مدائحهم على نحو ما صنع الخوارزمى فى البيت الأول . ونُظمت فى مؤيد الدولة وفخر الدولة مدائح كثيرة ، ولأبى سعيد الرُّستمى مدائح بديعة فى أولها من مثل قوله (٢) :

بقيتَ مدى الدنيا ومُلْكك راسخٌ ... وظلُّك ممدودٌ وبابُك عامرُ
يَرُدُّ سَناك البدرُ والبدرُ زاهرٌ ... ويقفو نَداكَ البحرُ والبحرُ زاخر

وبالمثل كان وزراء بنى بويه ممدَّحين ، وخاصة ابن العميد والصاحب بن عباد ، أما ابن العميد فلم يقصده فقط شعراء إيران ، بل قصده أيضاً جماعة من مشاهير الشعراء من البلاد البعيدة مثل المتنبى الذى وفد عليه بمدينة أَرَّجان ومدحه بقصائد

(١) اليتيمة ٤ /٢٢٢ .
(٢) اليتيمة ٣/٣٠٣ .

رائعة ، ومثل ابنُ نباتة السَّعْدى الشاعر العراق ، وله فيه مدائح جيدة ، وكذلك للصاحب بن عباد من مثل قوله فى قدومه إلى أصبهان [١] :

قَدِمَ الرئيسُ مقدَّماً فى سَبْقهِ فكأنما الدنيا جَرَتْ فى طُرْقِهِ
وكأنما الأفلاكُ طوعُ يَمينهِ كالعبد منقاداً لمالكِ رِقِّهِ
قد قاسمتْه نجومُها فنحوسُها لعدوِّه وسعودُها فى أفْقِهِ

ولعل وزيراً بُوَيْهيًّا لم ينل من المدائح ما ناله الصاحب بن عباد ، ومرت بنا أسماء طائفة من الشعراء الذين كانوا يلزمون بابه . وكان وراءهم كثيرون يفدون عليه من شتى البلدان الإيرانية والعراقية ، وعقد لهم الثعالبى فى يتيمته الباب السادس من جزئها الثالث ، وذكر لكل منهم بعض مدائحه فيه ، وكان من مادحيه أبو سعيد الرستمى ، وله فيه مدائح كثيرة من مثل قوله [٢] :

وَرِثَ الوزارةَ كابراً عن كابرٍ موصولةَ الإسنادِ بالإسنادِ
يَرْوِى عن العباس عبادٌ وزا رتَه وإسماعيلُ عن عَبَّادِ

وهو يمدحه بأنه نشأ من الوزارة فى حجرها ودرج إلى الناس من وَكْرها إذ ورثها عن آبائه ، وكان أبو سعيد يبالغ مبالغة مفرطة فى مديحه أحياناً على عادة الشعراء فى العصر ، من مثل قوله فيه [٣] :

لو كان غيرُ الله يُعْبَدُ ما انثنتْ إلا إليـــك أعنَّةُ العُبَّادِ

وهى مبالغة تمجُّها الآذان . ونراه فى نفس القصيدة يذكر للصاحب أنه قمع أهل الجَبْر ومن يقولون بأن كل شيء قدر مقدور مُلْغين حرية الإرادة فى الإنسان ، يقول :

ونصبتَ للإسلام أكرمَ رايةٍ وقصَمْتَ أهل الجَبْر والإلحادِ

وكان الصاحب إماميا معتزليا ، والصلة بين مذهب الإمامية والمعتزلة بل بين المعتزلة والشيعة عامة معروفة من قديم ، وهو ما جعل الصاحب يتعقب أهل الجبر بالنكال إن صحّ ما يقول أبو سعيد الرستمى . ويقول له أبو بكر الخوارزمى من قصيدة فيه [٤] :

ومَنْ نصرَ التوحيدَ والعدلَ فعلهُ وأيقظ نُوَّامَ المعالى شمائلُهْ

وإنما ذكرنا ذلك لندل على أن المدائح لم تكن ثناء فحسب ، بل كانت أيضاً تسجيلاً لأعمال الأمراء والوزراء ، وهى لذلك ذات قيمة تاريخية مهمة ، وهى قيمة

---

(١) اليتيمة ٣/١٥٨ .
(٢) يتيمة ٣/١٩٠ ، ٣٠٧ .
(٣) يتيمة ٣/٣٠٧ .
(٤) يتيمة ٤/٢١٤ .

تغيب عن أذهان كثيرين فيظنون أن المديح كان فى العصور السابقة ملقا ونفاقاً ، متناسين أنه كان أيضاً تسجيلاً لأعمال الدولة واتجاهاتها المذهبية وما خاضت من حروب وكسبت من انتصارات . وعلى نحو ما نجد فى كتاب اليتيمة وتتمتها من مدائح بنى بويه ووزرائهم نجد أيضاً مدائح السامانيين ووزرائهم من مثل البَلْعمى مترجم تاريخ الطبرى إلى الفارسية كما أسلفنا ، وفيه يقول أبو محمد المطرانى الشاشىّ [١] :

بلوناك حين يرجَّى الولـ ـىُّ عُرْفا ويَخْشى العدوُّ النكيرا
فلم تك إلا اختيارا نَفوعا ولم تك إلا اضطراراً ضَرورا

وكان أبو الحسن بن سيمجور قائد السامانيين ممدَّحاً ، وللمأمونى الشاعر فيه مدائح مختلفة . وبنفس الصورة يلقانا أمراء الدولة الزيارية وفى مقدمتهم قابوس بن وشمكير الذى لقبه الخليفة بلقبه : شمس المعالى ، فقد مدحه كثير من الشعراء ، وكان غيثاً مدرارا ، فأكثروا من مديحه .

ولابد أن نشير إلى أن هذه المدائح التى عرضنا لها سريعاً عند الزياريين والسامانيين والبويهيين تضمنت وصف ما بنَى القوم من قصور مشيدة ، وأشرنا فيما مضى إلى ما نظمه الشعراء فى دار بناها الصاحب بن عباد بأصفهان . وأيضاً لابد أن نشير إلى أن الشعراء ضمنوا مقدمات مدائحهم النسيب القديم ووصف الأطلال من حين إلى حين . وأكثروا أيضاً من تضمينها وصف الربيع وكانوا يقفون عنده طويلاً فى مقدمات المدائح بعيد النَّيْرُوز . واطَّرد ذلك فى مدائح سلاطين الدولة الغزنوية ووزرائها . وقصائد كثيرة نظمت باللغتين العربية والفارسية فى مديح محمود الغزنوى الملقب بيمين الدولة وأمين الملة والإشادة بفتوحه فى إيران وما وراء النهر وفى الهند ، ومن رائع ما مُدح به قصيدة لبديع الزمان الهمذانى يقول فيها [٢] :

تعالى اللهُ ما شاءَ وزادَ اللهُ إيمانى
أأفْرِيدونُ فى التاجِ أم الإسكندرُ الثانى
أم الرجعةُ قد عادتْ إلينا بسليمانِ
أطلَّت شمسُ محمودٍ على أنْجمِ سامانِ
وأمسى آلُ بَهْرَامٍ عَبيداً لابن خاقان
إذا ما ركبَ الفيلَ لحربٍ أو لميدانِ
رأتْ عيناك سلطاناً على مَنْكِبِ شيطانِ

(١) يتيمة ٤/١١٦ وضروراً : مضرا .
(٢) اليتيمة ٤/٢٩٦ .

فمن واسطةِ الهندِ إلى ساحةِ جُرْجانِ
ومن قاصيةِ السِّندِ إلى أقصى خُرّاسانِ

وأفريدون من ملوك الفرس الأسطوريين ، وآل بهرام هم السامانيون الذى قضى عليهم محمود وامتلك ديارهم ، ويسميه ابن خاقان لأنه تركى ، وقد ضم إيران جميعها إلى ملكه ماعدا إقليمى فارس وكَرْمان ،كما مر بنا فى غير هذا الموضع . ويكثر بعده مديح السلاجقة ووزرائهم ، وخاصة نظام الملك ، ومُدَّاحه يتعاقبون فى كتاب دُمْية القصر بالعشرات ، مع أن مؤلفها الباخَرْزِىّ توفى قبله بنحو سبعة عشر عاماً ، وممن ذكرهم بين مُدَّاحه الفَيَّاض الهَرَوِىّ ، وله فيه وفى فتوح سلطانه ألْب أرْسلان فى آسية الصغرى وأسْره لإمبراطور بيزنطة قصيدة بديعة ، يذكر فيها جيش رومانوس الجرَّار ومُناه فى احتلال ديار السلطان السلجوقى ، وكيف رَدَّ الله كيده فى نحْره ، فسُحق جيشه سحقاً ، وقُتل منه ما لا يُحْصَى ، وأُسِرالإمبراطور ووقف بين يدى ألب أرسلان ذليلاً خانعاً ، وأهوى على الأرض يلثم التراب بين يديه . ويصوِّر ذلك كله الفياض الهروى مشيداً بنظام الملك وقيادته مع ألْب أرسلان لجيش المسلمين قائلاً (١) :

إذا ما ملوكُ الأرض عُدُّوا فإنما لكم كاهلُ المجد الأشمِّ وغاربُهْ
أحاسدَه مَهْلاً فهذِى سُيوفُه وهاتيك يومَ المكْرُمات مواهبُهْ

ويتوالى سلاطين الدولة السلجوقية ووزراؤهم ويتوالى مديحهم عند الطُّغْرائى والأرَّجانى وغيرهما من معاصريهما . وكان وراء أمراء العصر ووزرائه كثيرون من علية القوم يخصُّهم الشعراء بمدائحهم ، وقد دُبِّجت فيهم قصائد كثيرة . وكانوا يهنِّئون كثيراً لا بالأعياد فحسب ، بل أيضاً بالمواليد ، وفى اليتيمة والدُّمْية من ذلك قصائد ومقطوعات مختلفة . وكثر فى العصر مديح الفقهاء والعلماء يمدحهم تلاميذهم ومريدوهم والمعجبون بهم ، من ذلك ما أنشده الباخرزى لأبى المطهَّر الأصفهانى فى أستاذه الإمام الموفق محمد بن هبة الله وكان من أئمة الشافعية فى نيسابور ، وله يقول تلميذه من قصيدة طويلة (٢) :

يا أيها المولى الأجلُّ ومَنْ به أصبحتُ آمنَ مَنْ تحصَّن فى الذُّرَى
أنْبَتَّنِى ورعيتَنِى وسمـــوتَ بى غُصْناً بأبكار البيان منوَّرا

ولابن عُنَيْن قصيدة رائعة سيَّرها من نيسابور إلى الفخر الرازى بهراة ، وفيها يشيد بقضائه على البِدَع فى عصره ، ويرفعه فوق ابن سينا وأرسطو وبطليموس درجات

(١) الدمية ٢/٢٨٦ وما بعدها . (٢) الدمية ١/٤٣٤ .

فى الفلسفة والطب ، غير أن ابن عنين دمشقى . وعلى كل حال هو تكملة لهذه الظاهرة التى رآها فى إيران ، ظاهرة مدائح التلاميذ والمريدين لشيوخهم وأساتذتهم من العلماء والفقهاء . وجدير بنا أن نقف عند ثلاثة من شعراء المديح فى تلك البيئة لتتضح لنا صورته ، وهم على بن عبد العزيز الجرجانى والطُّغْرائى والأَرَّجَانىّ .

على[1] بن عبد العزيز الجُرْجانى

من جُرْجان ، وفد على نَيْسابور فى صِباه ، وسمع على شيوخها ، وتخرَّج بهم فقيهاً شافعيا نابهاً ، وولى قضاء موطنه جُرْجان ثم ولاَّه الصاحب بن عباد وزير مؤيد الدولة وأخيه فخر الدولة قضاء الرَّىِّ ، ثم جعله قاضى القضاة بها ، وظل فى هذه الوظيفة إلى أن توفى سنة ٣٩٢ وحُمل تابوته إلى جُرْجان فدُفن بها ، وترجم له الثَّعالبى فى يتيمته فقال : « هو فَرْد الزمان ، ونادرة الفلك ، وإنسان حَدَقة العلم ، ودُرَّة تاج الأدب ، وفارس عسكر الشعر ، يجمع خط ابن مُقْلة إلى نثر الجاحظ ونظم البحترى » . ومرَّ بنا حديث عن كتابه « الوساطة بين المتنبى وخصومه » وكيف أنه فيه يصدر عن ناقدٍ ممتازٍ ، بل لعله أهم ناقد ظهر فى عصره . وهو فى الكتاب يصور ثقافة واسعة بالشعر العربى قديمه وحديثه ، كما يصور ذوقاً شعريا مصفى . وبهذا الذوق كان ينظم أشعاره فى المديح وغير المديح ، وقد روى له الثعالبى طائفة من مدائحه فى قوَّاد عصره وولاة جرجان وفى شمس المعالى قابوس بن وَشْمَكير صاحب طَبَرِسْتان ، وللصاحب بن عباد القِدْح المعلى من مدائحه من مثل قوله :

يا أيها القَرْمُ الذى بعلوِّهِ ... نال العَلاءُ من الزمانِ السُّولا
قسمتْ يَداك على الوَرَى أرزاقها ... فكنَوْك قاسمَ رزقها المسئولاً

وهى مبالغة أن يجعل الصاحب يقسم على الناس أرزاقهم ، ولكنها كانت تُسْتَحبّ فى عصره ، وكان كل شاعر يحاول أن يأتى منها بمعنى طريف . وكان الصاحب بحراً فياضاً أغدق الصلات على زوَّاره وقاصديه ، وله يصف بلاغته التى عُرِف بها فى النثر والشعر جميعاً :

سَبَقْتَ بأفراد المعانى وألَّفتْ ... خواطرُك الألفاظَ بعد شِرادِها

---

(١) انظر فى ترجمة على بن عبد العزيز وشعره معجم الأدباء ١٤/١٤ واليتيمة ٣/٤ وما بعدها وابن خلكان ٢٧٨/٣ والسبكى ٤٥٩/٣ والمنتظم ٢٢١/٧ وشذرات الذهب ٥٦/٣ ومرآة الجنان ٣٨٦/٢ والنجوم الزاهرة ٢٠٥/٤ .

فإن نحن حاولنا اختراعَ بديعةٍ حَصَلْنا على مسروقها ومُعادها

وهو معنى طريف ، وكانت له ملكة خصبة لا تزال تمده بالمعانى الغريبة النادرة ، وكان يعرف كيف يقتنصها وكيف يوردها فى مدائحه من مثل قوله للصاحب :

لا وجفونٍ يغضُّها العَذَلُ عن وجَناتٍ تذيبها القُبَلُ
ما عاش من غاب عن ذَراك وإن أخَّر ميقاتَ يومِه الأجَلُ (١)

وله فى عياداته حين يمرض قصائد بديعة ، وأخرى فى تهنئته حين يُبِلّ من مرض ألمَّ به أو حُمَّى نزلت بجسده ، وكان يتخيلها من تلهب ذهنه وتوقد ذكائه ، ومن قوله فى تهنئة له بالشفاء :

بك الدهرُ يَنْدَى ظلُّه ويَطيبُ ويُقْلع عمَّا ساءنا ويتوبُ

وأنشد له الثعالبى قصيدة طويلة فى وصف دار الصاحب التى بناها بأصبهان وتبارى الشعراء فى وصفها على نحو ما مر فى حديثنا ، كما أنشد له أيضاً قصيدة فكهة فى رثاء بِرْذَون أبى عيسى بن المنجم ، استهلها بقوله :

جَلَّ واللهِ مادَهاك وعَزَّا فعزاءً إن الكريمَ مُعَزَّى
هىَ ما قد علمتَ أحداثُ دهرٍ لم تدع عُدَّةً تُصان وكَنْزاً

وكان يمزج بين الطبيعة والمديح مزجاً بديعاً لا يكتفى فيه بأن يجعل الطبيعة مقدِّمة للمديح كما كان يصنع الشعراء كثيراً من حوله ، بل يجعلها جزءاً من الممدوح ومن عمله وشيمه وفكره ، وكأنها صورة منه ، أوكأنها مرآة له ، يقول فى وصف بعض الرياض الجميلة الساحرة مادحاً لأبى مضر محمد بن منصور والى جرجان :

أباتتْ يَدُ الأستاذ بين رياضها تدفَّقُ أم أهدتْ إليها سَحائبا
أألبسَها أخلاقَه الغُرَّ فاغتدتْ كواكبُها تَجْلو علينا كواكبا
أوشَّتْ حواشيها خَواطِرُ فكرِه فأبدتْ من الزَّهْر الأنيق غرائبا
أخالتْه يَصْبُو نحوها فتزَيَّنَتْ تؤمِّل أن يختار منها ملاعبا

ولعل فى ذلك ما يدل على قدرة الشاعر التصويرية ، وهى قدرة تلقانا فى غزله كما تلقانا فى مديحه ، على نحو ما نقرأ فى قوله يصف بعض ليالى أنسه مع مُنَى قلبه :

ولَيـالٍ كـأنهن أمـانٌ من زمانٍ كأنه أحلامُ
وكأن الأوقات فيها كئوسٌ دائراتٌ وأنْسُهنَّ مُدَام

---

(١) الذَّرا : الكنف والظل .

زمنٌ مُسْعِدٌ وإلْفٌ وَصولٌ ومُنًى تَسْتَلِذُّها الأوهام

وواضح ما فى الأبيات من خيال دقيق ، فكأنه كان يعيش فى حلم ، يتعاطى خمر الأنس المسكرة ، ومن قوله فى الغزل :

قد بَرَّح الشوق بمشتاقِكْ فأولِهِ أحسنَ أخلاقكْ
لا تَجفُه وارْعَ له حَقَّهُ فإنه آخر عُشَّاقِكْ

والبيتان يحملان شعوراً مرهفاً رقيقاً ، وكان إلى ذلك كله شغوفاً بالعلم ، يراه متعة لا تعدلها متعة ، ولذلك كان يألف دائماً الخلوة للقراءة فى منزله ، وفى ذلك يقول :

ما تطعمتُ لذَّة العيش حتى صرتُ للبيتِ والكتابِ جَليسا
ليس شىءٌ أعزَّ عندى من العِلْـ ـم فما أبتغى سواه أَنيسا

فلذة القراءة لا تعدلها عنده لذة . وكانت نفسه أبيَّة شديدة الإباء ، لا يُهينها ولا يُذلها فدون الذل والهوان الموت ، وفيم يذل الإنسان ويهون أفى سبيل المال والغنى ؟ بؤساً لها وله إن هو اقترف فى نفسه هذه الجناية الكبرى ، وفى ذلك يقول :

كأنى ألاقى كلَّ يومٍ يَنُوبنى بذنبٍ وما ذَنْبى سوى أننى حُرُّ
وقالوا تَوَصَّلْ بالخضوع إلى الغِنَى وما علموا أن الخضوعَ هو الفَقْرُ
وبينى وبين المال شَيْئانِ حَرَّما علىَّ الغِنَى : نَفْسِى الأَبِيَّةُ والدَّهْرُ

إن مثل هذا الغنى الذى يكْسبه صاحبه بالخضوع هو الفقر الحقيق الذى يدمِّر حياة الإنسان ، فتَعْساً لمن يطلبه عن هذه الطريق وتَبًّا له . وله أبيات رائعة فى عزة النفس ، وخاصة عزة نفس العلماء ، اشتهرت فى عصره وبعد عصره ، وهو يمضى فيها على هذا النمط :

يقولون لى : فيك انقباضٌ وإنما رأوا رجلا عن موقفِ الذلِّ أحْجَما
إذا قيل : هذا مَنْهَلٌ قلتُ : قد أرى ولكنَّ نفسَ الحرِّ تحتمل الظَّمَا
ولم أقْضِ حقَّ العلم إن كان كلما بدا طمعٌ صَيَّرْته لىَ سُلَّما
ولم أبتذلْ فى خدمة العلم مُهْجتى لأَخْدُمَ من لاقيتُ لكنْ لأُخْدَمَا
أأشْقَى به غَرْسًا وأَجْنِيه ذِلَّةً إذنْ فاتِّباعُ الجهل قد كان أَحْزَمَا
ولو أن أهلَ العلمِ صانوه صانَهم ولو عظَّموه فى النفوس لعُظِّمَا
ولكنْ أهانوهُ فهانَ ودنَّسُوا محيَّاه بالأطماعِ حتى تجهَّمَا

وهو يصور فى الأبيات نفس العالم الحر الذى يأبى الهوان مستشعراً كرامته إلى أقصى حد ، وإنه ليأبى فى شمم ما بعده شمم أن يَرْوَى من منهل قد يصيبه منه ما يؤذى نفسه ،

وإنه ليزدرى الطمع فى الدنيا الذى يتحول بالعالم إلى ما يشبه دوّارة الريح فهو يدور مع نفعه المهين ، ناسياً أن من شأن علمه أن يجعله مخدوماً لا خادماً وسيداً لا عبداً ذليلاً ، وإلا كان الجهل خيراً منه وأكثر عائدة على صاحبه . ويحمل حملة شعواء على من يراهم حوله من العلماء صغار النفوس الذين لم يصونوا حرمة العلم بل دنّسوه ولطخوه بهوان أليم .

الطُّغْرائى (١)

هو أبو إسماعيل مؤيد الدين الحسين بن على بن محمد ، الكاتب الشاعر الذى غلب عليه لقب الطُّغْرائى لعمله فى دواوين الطُّغْراء ، وهى الطُّرَّة التى يكتبها عادة رئيس ديوان الإنشاء فى أعلى الكتب فوق البسملة بالخط الغليظ متضمنة نعوت السلطان أو الحاكم الذى يصدر الكتاب باسمه . وقد وُلد بأصفهان سنة **٤٥٣** لأسرة عربية تنتسب إلى أبى الأسود الدؤلى ، ولا نعرف شيئاً واضحاً عن نشأته ولكن ثقافته الأدبية والعلمية العميقة تدل على أنه اختلف إلى دور العلم وحلقات العلماء منذ نعومة أظفاره وأنه تثقف على أيدى جهابذة موطنه من اللغويين والفقهاء والأدباء وأصحاب الصنعة (الكيمياء) وله فيها مصنفات مختلفة (٢) . ويبدو أن ملكته الشعرية استيقظت فى نفسه مبكرة ، فسال الشعر على لسانه ، ووفد به على الرؤساء ، وكان من أوائل من وفد عليهم فضل الله بن محمد صاحب ديوان الإنشاء لألْب أَرْسلان ، وأعجب به وبشعره ، فعينه كاتباً فى الديوان وأوصله إلى الوزير نظام الملك فاستمع إلى مدائحه فيه ، ورحَّب به . وحدث أن اشترك الفضل فى مؤامرة كبرى على نظام الملك وانكشفت المؤامرة ، وألقى به فى غياهب السجون ، وظل الطغرائى يحفظ له صنيعه معه ويواسيه فى محنته ببعض أشعار يدبِّجها فى مديحه . وكان نظام الملك حَصيفاً ، فلم يأخذ على الشاعر شيئاً من وفائه لصاحبه ، وظل الطغرائى يعمل فى دواويته ، كما ظل على صلته به يمدحه فى المناسبات ومن مدائحه البديعة فيه بائيتان ، يشيد فيهما به وبانتصارات جيوش الدولة فى الشرق وفى الغرب على شاكلة قوله :

---

(١) انظر فى ترجمة الطغرائى وشعره معجم الأدباء ٥٦/١٠ وابن خلكان ١٨٥/٢ والأنساب للسمعانى ٣٤٣ والشذرات ٤١/٤ ومقدمة الصفدى لشرحه على قصيدة الطغرائى : لامية العجم المسمى بالغيث المسجم وكتاب الطغرائى للدكتور على جواد الطاهر (طبع بغداد) وكتابه الشعر العربى فى العراق وبلاد العجم فى العصر السلجوقى . وديوان الطغرائى مطبوع قديماً بإستانبول وطبعت لاميته مع شروح لها وأهم شروحها شرح الصفدى (طبع القاهرة) .

(٢) العلم عند العرب لألدوميلى ص ٣٠٧ - ٣١٠ وكتاب الشعر العربى السالف للدكتور على جواد الطاهر ١٥٥/٢ .

خَمِيسٌ أقاصي الشرق تَرْزِمُ تحته وترتجُّ منه أُخْرياتُ المغاربِ(١)
يلفُّهمُ بالرُّعب قبل طِرادهِمْ ويهزمهم بالكُتْب قبلَ الكتائبِ

وفى هذه الأثناء يتزوج ، وما تلبث زوجته أن تتوفى وتترك له رضيعاً لا يزال يجد فى نفسه منه شجى عميقاً عليها ، ومراثيه فيها تفيض بالحزن المرير على شاكلة قوله :

بنفسيَ من غاليتُ فيها بمهجتى وجاهى وما حازتْ يداىَ من الوَفْرِ
وفُزْتُ بها من بين يأسٍ وخيبةٍ كما استخرج الغَوَّاصُ لؤلؤةَ البَحْرِ
فجاءتْ كما جاء المُنى واشتهى الهوى كمالاً ونُبلاً فى عفافٍ وفى سِتْرِ
فيا موتُ ألحقْنى بها غيرَ غادرٍ فإن بقائى بعدها غايةُ الغَدْرِ

وهى مرثية بديعة ، فقد أظلمت الدنيا فى عينى الطغرائى بعد زوجته الشابة الجميلة . ولم يعد له منها سوى الأنين والدموع والزفرات ، وإنه ليشيح بوجهه عن الصبر وأجره وثوابه مفضياً إلى لوعات قلبه وحسرات نفسه ، إذ تركت بين جوانحه ناراً لا تنطفئ ، ويتوجه إليها بالخطاب نادباً لحظه العاثر ، منشداً :

لآنسْتِنا حتى إذا ما بَهَرْتِنا سَنًا وسناءً غِبْتِ غيبوبة البَدْرِ
وقد كان رَبْعى آهلا بكِ مُدَّةً أحِنُّ إليه حَنَّةَ الطَّيْر للوَكْرِ
وآوى إليه وهْوَ روضةُ جَنَّةٍ بدائعُها يَخْتَلْنَ فى حُلَلٍ حُمْرِ
فمذ بِنْتِ عنه صار أو حَشَ من لَظًى وأضيق من قَبْرٍ وأجْدَبَ من قَفْرِ

لقد غاب عنه بدره وانقضَّ وكره ودُمِّرت جنته وعاد يتقلب بعد أعطاف النعيم فى لَظى الجحيم ، وحتى مسكنه أصبح قبراً مظلماً وقفراً مجدباً . ويظل يبكيها وتمر به الأيام ، فيسلو عنها ويتزوج وُيُرْزَقُ الولد ، وهو فى أثناء ذلك يعمل فى دواوين السلاجقة ، ويتوفَّى نظام الملك ، وتضطرب به الحياة ، فيتعرض لبعض الوزراء بالهجاء ولبعضهم بالمدح والثناء ، وتتوثق صلته بالسلطان محمد بن ملكشاه (٤٩٩ – ٥١٢ هـ) ويصبح فى عهده نائباً فى ديوان الطُّغْراء أو بعبارة أخرى وزيراً للقلم والإنشاء . ونراه فى مدحة له يتحدث عن جيوشه ووقائعها مع الروم وما تُلْقِى فى قلوبهم من فزع بمثل قوله :

خيلٌ بأرض الرَّقَّتين وراءَها نَقْعٌ كمُرْتَكِم الغَمام مُثَارُ
رِيعَ العدوُّ وقد أحسَّ بِقُرْبها فالجنبُ نابٍ والرقادُ غِرارُ(٢)
وعلى خليج الرُّوم منك مهابةٌ من خوفها يتطامنُ التيَّار
ولقد دَرَى الروميُّ أنّ وراءه خطراً تقاصَرُ دونه الأخطارُ

---

(١) ترزم : تسقط إعياء .
(٢) غرار : قليل

ويتحدث فى نفس القصيدة عن مقاومة السلطان محمد للباطنية الحشاشين وقضائه المبرم على ابن عطاش فى حصن « شاه دز » بقرب أصفهان واستيلائه على قلعته ، على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع . ويتولى السميرمى الوزارة ويتوفى السلطان محمد ويخلفه ابنه محمود وتفسد العلاقة بين الطغرائى والوزير ، ويرحل إلى بغداد وينبو به المقام فيذم فى بائية مقامه فى العراق مستهلا ذمه بقوله :

مللتُ ثَوائى بالعراق وملَّنى رفاقى وكانوا بالعراقِ طِرابا

وينظم حينئذ لاميته التى اشتهرت خطأ باسم لامية العجم ، وقائلها عربى كما مر بنا فى نسبه ، وليس فيها أى تعصب للعجم ضد العرب ، ولعلها سُمِّيت بذلك لأن قائلها كان يعيش فى بلاد العجم وجعلها على روىٍّ لامية العرب للشنفرى وقد نالت شهرة واسعة منذ عصره وشرحها الأسلاف مراراً وأهم شروحها شرح الصفدى ، وموضوعها الشكوى من الزمان وأهله ، شكوى لا تنكسر فيها نفسه ، بل يظل له طموحه وتظل له صلابته ، وتظل له فضائله التى يفخر بها ، وهو يَسْتَهِلُّها بقوله :

أَصَالَةُ الرأىِ صانتْنى عن الخَطَلِ وحِلْيَةُ الفَضْلِ زانَتْنى لدى العَطَلِ

وربما أشار بالعطل إلى تعطله من وظيفته الديوانية حينئذ ، أو ربما يشير إلى ما حدث له أحياناً من هذا العطل ويهتف :

فِيمَ الإقامةُ بالزَّوْراء لا سَكَنِى بها ولا ناقتى فيها ولا جَمَلِى

ويشكو طويلاً الغربة بالزوراء (بغداد) وأن لا صديق له فيها ولا أنيس سوى الوحشة وبعد الوطن والدار ، مع بوار الأمانى وانعكاس الآمال . ويرحل مع صديق ، ويقتربان من حَىٍّ إِضَم بالقرب من المدينة ، حى الحبيبة التى ضرب إليها أكباد الإبل ، ولكن دونها الحُماة بالسهام والبيض والسُّمْر ، أو السيوف والرماح ، والأُسْد رابضة حول الكِناس . ويتمنى إلمامة بالحى تُبْرئه من علله ، بل ليتمنى الموت فى سبيل نظرة ، وكل هذا رمز عن مطامحه التى لا يستطيع تحقيقها ، وإنه ليصرح بأن طالب المجد لابد له أن يغامر وأن يركب الأخطار ، فإن لم يتحقق له فى بلدة طلبه فى أخرى ، ويصيح :

إن العُلا حَدَّثَتْنى وهْى صادقةٌ فيما تحدِّث أن العِزَّ فى النُّقَلِ

ويقول إنه لا يزال يعلل نفسه بالآمال فى أن تقبل عليه الأيام ثانية . ويشكو من الدهر ومن الناس ، مع شعور غير قليل بالكرامة ، ومع التحذير الشديد من الأصدقاء الأدعياء قبل الأعداء . ويختم القصيدة بالدعوة إلى القناعة ورفض المناصب فكل ما على الدنيا ظل

زائل ، وسننشد قطعة من هذه اللامية فى حديثنا عن شعراء الحكمة والفلسفة . ولا ندرى كيف رغب ثانية فى العمل لدى السلاجقة ، إذ نراه يقصد إمارة السلطان مسعود بالموصل سنة ٥١٣ ويعيِّنه وزيراً له ، وتنشب الحرب بين مسعود وأخيه السلطان محمود وتدور الدوائر فى سنة ٥١٥ على مسعود وجيشه ويؤسر الطُّغْرائى ويقتل بتهمة الزندقة . ويبدو أن خصومه استغلوا عكوفه على الكيمياء ، فاتهموه بالسحر والإلحاد ، واستمع السلطان محمود إلى اتهامهم له وأمر بقتله . والشكوى كثيرة فى أشعار الطُّغْرائى وتكفى منها لاميته السالفة . وفى ديوانه مقطوعات غزلية كثيرة يستوحى فيها حجازيات الشريف الرضى ومهيار ، ومن طرائف غزله :

يا قلبُ مالكَ والهوى من بعدما ... طابَ السلوُّ وأَقْصَرَ العُشَّاقُ
أوَ ما بدا لك فى الإفاقة والأُلَى ... نازعْتَهَم كأسَ الغرامِ أفاقوا
يا حبَّذا نَجْدٌ وأعراقُ الثَّرى ... لُدْنٌ وأنفاسُ النعيمِ رِقاقُ

وكان يدعو إلى مجلس الشراب أحياناً وسماع المثالث والمثانى والانتشاء بالخمر فى مباهج الربيع . وطبيعى أن يتردَّد الفخر فى أشعاره ، على نحو ما ترددت منه رنات فى لاميته ، وله يفتخر بثقافته الواسعة وإلمامه بشتى العلوم :

أما العلومُ فقد ظَفِرْتُ بِبُغْيَتى ... منها فما أحتاجُ أَنْ أتعلَّما
وعرفتُ أسرارَ الخليقةِ كلَّهـــا ... عِلْمًا أنار لىَ البَهِيمَ المظلما

واشتهر كما قدمنا بمعرفته العميقة بالصنعة أو كما نقول الآن علم الكيمياء ، وله فيها أشعار يضمها مخطوط تحتفظ به مكتبة جامعة القاهرة بعنوان مفتاح الرحمة ومصابيح الحكمة ، ونقل منها الدكتور على جواد الطاهر طائفة [1] تصور هذا الضرب من شعره العلمى أو التعليمى . ويكثر عند الطغرائى ومعاصريه جميعاً معارضته الشريف الرضى ومهيار فى بعض قصائدهما ، بل أيضاً معارضته من سبقهما من الشعراء ، وربما كانت لاميته السالفة أروع قصائده من حيث السبك والصياغة ، ومع ذلك حاول الصفدى فى شرحه لها جاهداً أن يرد معانى أبياتها بيتاً بيتاً إلى سابقيه . وكان الطغرائى كشعراء عصره يتصنع لفنون البديع ولكل ما أتوا به من فنون التكلف ، وفى الحق أنه كان شاعراً بارعاً ، وبلغ من إعجاب السابقين به وبلاميته أن عارضها منهم كثيرون ، كان آخرهم البارودى فى لامية له مشهورة .

(١) انظر الشعر العربى فى العراق وبلاد العجم فى العصر السلجوقى ٢/١٥٥ .

الأرَّجاني [١]

هو ناصح الدين أبو بكر أحمد بن محمد الأرَّجاني نسبة إلى أرَّجان من كور الأهواز من بلاد إقليم خُوزسْتان ، وُلد سنة ٤٦٠ ويقول العماد الأصفهاني فيه : « منبت شجرته أرَّجان ، وموطن أسرته تُسْتَر وعسكر مُكْرَم من خوزستان ، وهو وإن كان في العجم مولده فمن العرب محتده ، سلفه القديم من الأنصار » فهو عربي النجار، فارسي الموطن . وقد أرسل به أهله إلى المدرسة النظامية بأصفهان حين شَبَّ عن الطوق ، فظل بها ، حتى تخرج فيها فقيهاً شافعيا ، يُحْسن الحكم بين الخصوم والفُتْيا . وتفجر الشعر على لسانه ، فقصد به الوزير السلجوقي المشهور نظام الملك . منذ سنة نيف وثمانين وأربعمائة ، وظل ينظمه إلى وفاته بُتستَرسنة ٥٤٤ وكأنه مات عن سن عالية ، وكان يفتخر بأنه فقيه ويحسن الشعر وفى ذلك يقول :

أنا أشعرُ الفقهاء غيرَ مُدافَعٍ في العصر ، بل أنا أفقهُ الشعراءِ

وأعدَّته معرفته العميقة بالفقه لكي يشتغل بالقضاء في موطنه ببلاد خوزستان ، تارة بتستَر ، وتارة بعسكر مُكْرم عن قاضيها ناصر الدين أبي محمد ومن بعده عن عماد الدين أبي العلاء ، وفى ذلك يقول :

ومن النوائبِ أنني في مثل هذا الشغل نائبْ
ومن العجائبِ أنَّ لي صبرا على هذِي العجائبْ

وكان يُحْسن الفارسية وترجم منها عدداً من الرُّباعيات ، وأكثر شعره في المديح ، ونراه كما مر بنا يمدح نظام الملك حتى إذا خلفه الوزير تاج الملك مدحه بلامية يقول فيها :

كم موقفٍ دون العلاءِ وقفتَه والخيلُ بالأسَل الطِّوال تصُولُ

ونراه يمدح وزراء بَرْكياروق حين استولى على صولجان الحكم بعد أبيه ملكشاه ، وفى مقدمتهم الوزير الدهقاني وفيه يقول :

فأتى به العصرُ الأخيرُ وقصَّرتْ عن شأْوِهِ وزراءُ كلِّ الأعْصُرِ

ويظلُّ على صلة وطيدة بسلاطين السلاجقة ، يروح إليهم ويغدو بالمدائح ، وله في السلطان محمود مدائح مختلفة ، من مثل قوله :

---

(١) راجع في ترجمة الأرجاني ابن خلكان ١/١٥١ والنجوم الزاهرة ٥/٢٨٥ والأنساب ٢٤ ومعجم البلدان في أرجان ، وديوانه مطبوع قديماً ببيروت . والسبكي ٦/٥٢ وشذرات الذهب ٤/١٣٧ ومرآة الزمان ٣/٢٨١ وتذكرة الحفاظ ٤/١٣٠٦ والمنتظم ١٠/١٣٩ .

أعلى السلاطينِ فى يَوْمَىْ نَدًى ووغًى   رَأْيًا وأفضلُهم سرًّا لإعلانِ

ويمدح وزيره السميرمى الذى يقول فيه ابن الأثير كان ظالماً كثير المصادرة للناس سيىء السيرة ، ولعله اضطُرَّ إلى مديحه خوفاً من بطشه به كما بطش بالطُّغْرائى ، وله يقول فى بعض مديحه .

وأنقذتَ دينَ الله من شرِّ مارقٍ   وكان كِشلْوٍ بين نابيْه ناشبِ

وخصَّ معين الدين أحمد بن الفضل وزير السلطان سنجر بمدائح كثيرة ، وصلته به قديمة منذ كان على ديوان الإنشاء للسلطان محمد ، وله يقول :

أحلَّك سلطانُ السلاطين رتبةً   يَضيق بها ذَرْعُ الحسود المساجلِ

وكان يزور بغداد كثيراً ويمدح خلفاءها ووزراءها ، وله فى الخليفة المستظهر (٤٨٥ - ٥١٢ هـ) غير مدحة ، ونراه يلجج فيما لجج فيه قديماً مروان بن أبى حفصة وغيره من شعراء العصر العباسى الأول حين كانوا يتحدثون عن شرْعية الخلافة وأن العباسيين أولى بها من العلويين لأن العم يرث ابن أخيه ولا يرثه ابن العم ، ويزعم الأرَّجانى أن الرسول عليه السلام بشَّر بها عمه وأنها تكوْن فى أبنائه ، يقول :

بكم قديماً رسولُ الله بشَّرنا   كما به بشَّرتْنا سالفُ النُّذُرِ
وقال مِنْ بَعْدُ للعباس فى ملإٍ   افخَرْ فأنت أبو الأملاك فى مُضَرِ

وولى المسترشد (٥١٢ - ٥٢٩) فظل يقدم إليه مدائحه ، واصفاً له بالبأس والشجاعة والإقدام محذِّراً أعداءه من جيوشه وما تدمِّر وتحطم وتَسْحق كل من يقف فى طريقها سَحْقاً . وبالمثل يمدح وزراء بغداد وفى مقدمتهم بنو جهير ، وفيهم يقول :

لله دَرّ بنى جهيرٍ إنهم   جَهَرُوا بدين المجد حتى أُعْلنا

ونوَّه طويلاً بجلال الدين بن صدقة وبأنوشروان بن خالد ، وله فيه نحو عشرين مدحة يتحدث فيها عن كرمه وشجاعته وعلمه وعدله ومواكبه . كما نوه أيضاً طويلاً بالوزير سديد الدولة محمد بن عبد الكريم ، وله يقول فى بعض مدائحه :

أمينَ أميرِ المؤمنين الذى اصْطَفَى   وسَهْمَ أمير المؤمنين المسدَّدا

وله غزليات رقيقة ، وهى مطبوعة مثل غزليات الطغرائى بطوابع الشريف الرضى ومهيار ، ونقصد الطوابع البدوية ومن طريف غزلياته :

أأحبَّتى الشاكين طولَ تغيُّبى   والذاهبين على الهوى فى مَذْهبى
ما جُبْتُ آفاق البلاد مطوِّفا   إلا وأنتم فى الورَى مُتَطلَّبى
سَعْيى إليكم فى الحقيقة ، والذى   تجدون منى فهْو سَعْىُ الدَّهْر بى

أنْحوكمْ ويردّ وجهي القَهْقَرَى سَيْرى ، فسيرى مثلُ سَيْرِ الكوكبِ
فالقصدُ نَحْوَ المشرق الأقصى له والسير رأيَ العينِ نحو المغربِ
تالله ما صدق الوشاةُ بما حكَوْا أنى نسيتُ العهد عند تغُّربى

والأبيات تحمل معانى وصوراً دقيقة تصور شاعرية الأرجانى وأنه كان يعرف كيف يُطْرِف بصوره ومعانيه ، مما جعل القدماء يشيدون به ، ومن معانيه الغريبة :

رَثَى لى وقد ساويتُه فى نُحوله خياليَ لمَّا لم يكن لىَ راحمُ
فدلَّس بى حتى طَرقتُ مكانه وأوهمتُ إلْفِى أنه بىَ حالمُ
وبِتْنا ولم يشعر بنا الناسُ ليلةً أنا ساهرٌ فى جَفْنِهِ وهْو نائم

وهو بعد فى الخيال والتصوير إلى درجة مفرطة من الوهم ، وكان مثل الطغرائى يشكو من الزمن ومن الناس ، وقلما نجد شاعراً فى هذا العصر لا يشكو ، ومن شكواه قوله :

ولما بلوتُ الناسَ أطلبُ عندهم أخا ثقةٍ عند اعتّراض الشدائدِ
تطلعتُ فى حالَىْ رخاءٍ وشدَّةٍ وناديتُ فى الأحْيـاء هل من مساعدِ
فلم أر فيما ساءنى غيرَ شامتٍ ولم أر فيما سرَّنى غيرَ حاسدِ
تمتعتما يا ناظرىَّ بنظرةٍ وأوردتما قلبى أمرَّ المواردِ
أعينىَّ كُفَّا عن فؤادى فإنه من البَغْى سَعْىُ اثنين فى قَتْل واحدِ

فحتى عيناه لا ترحمانه بما تدلعان فى قلبه من جحيم الفتنة بالجمال . وله رباعيات كثيرة غير أنه فيها شديد التكلف ، وقد نظم فى مديح أنوشراون قصيدة تشتمل على ثمانين رباعية . ومن باب هذا التكلف أو التصنع عنده إظهار قدرته فى نظم بيت يُقْرأ طرداً وعكْساً مثل قوله :

أحبٌّ المرءَ ظاهرُهُ جميلٌ لصاحبه وباطنهُ سليمُ
مودَّته تدومُ لكلِّ هولٍ وهل كلٌّ مودَّته تدومُ

فالبيت الثانى يقرأ عكساً من آخره إلى أوله كما يقرأ من أوله إلى آخره ، ونجد عند الأرجانى أرجوزة يمكن أن تقرأ لا على قافيتين فحسب ، بل على أربع قواف ، وهى تدل على مقدرة لغوية أكثر منها على مقدرة فنية خالصة . ولعل فى كل ما أسلفنا ما يوضح شخصية الأرجانى الشعرية .

٤

شعراء المراثى

نشط الرثاء طوال هذا العصر ، فلم يمت سلطان ولا أمير ولا وزير ولا قائد إلا رثاه الشعراء ، وخاصة إذا كان شخصاً خطيراً له تاريخ مجيد أو أعمال مجيدة ، وانضم إلى ذلك كرم فياض ، على نحو ما هو معروف مثلاً عن الصاحب بن عباد الذى كان غيثاً مدراراً للشعر والشعراء ، فأتوه من كل فجٍّ ، حتى قيل إن من مدحوه بلغوا المئات ، ونرى الثعالبى فى يتيمته يتوقف مراراً ليذكر لنا بعض الأشعار التى قيلت فى مديحه ، وبالمثل الأخرى التى قيلت فى رثائه ، من ذلك قول أبى سعيد الرستمى [١] .

أبعدَ ابن عبَّادٍ يهشُّ إلى السُّرَى أخو أملٍ أو يُستماحُ جوادُ
أبى اللهُ إلا أن يموتا بموتهِ فما لهما حتى المعادِ مَعَادُ

وحُمل تابوته من الرَّىِّ إلى أصفهان ، ودُفن فى محلة تُعْرَف بباب دُزيه ، وتبارى الشعراء على قبره يرثونه ، وتقدَّم أبو منصور أحمد بن محمد اللُّجَيْمِىّ يُنْشد معبراً عنه بلقبه : «كافى الكفاة [٢] » :

ثَوَى الجود والكافى معاً فى حُفَيْرةٍ ليأنس كلٌّ منهما بأخيهِ
هما اصطحبا حَيَّيْن ثم تعانقا ضجيعين فى قبرٍ بباب دُزيهِ

ومرَّ بنا الحديث عن محمود الغزنوى وفتوحه فى إيران والهند وملازمته للجهاد ونشر الإسلام ، وكان مثقفاً وطلب — كما مر بنا — إلى بلاطه العلماء والأدباء ، وأقبلوا عليه يصنِّفون له كثيراً من الكتب فى فنون العلوم ، وقصده الشعراء من جميع البلدان فى إيران ، فكان يسبغ عليهم كثيراً من عطاياه ، فلما توفى بكاه غير شاعر ، وفى مقدمتهم أبو على الحسن بن محمد الدَّامَغانى ، وفيه يقول [٣] :

مضَى الأُفْعوان الصِّلُّ والأَسَدُ الوَرْدُ وتاجُ ملوكِ الأرض والفارسُ النَّجْدُ
ولم أدْرِ أن الشمسَ يَسْترها ثَرًى ولا الفَلَكُ الأعلى يُغَيِّبه لَحْدُ

وأحسَّ الشعراء هذا الإحساس بالخسارة الكبيرة إزاء نظام الملك الوزير السلجوقى المشهور ، الذى عَمَّ العلماء والشعراء ببرِّه ، وأُلِّفت باسمه مصنفات كثيرة ، وكان مجلسه

(١) اليتيمة ٢٨٠/٣
(٢) اليتيمة ٤٠٩/٤
(٣) تتمة اليتيمة ١٥٣/١ والأفعوان الصل : الذى لا تفيد معه الرقية ، والورد : الفاتك

يَغَصُّ دائماً بالفقهاء والقرّاء والأدباء ، فلما توفى أكثر الشعراء من رثائه ، ومن جيِّد ما قيل فيه قول ختنه شِبْل الدولة مقاتل بن عطية (١) :

كان الوزيرُ نظامُ الملك لؤلؤةً ... يتيمةً صاغها الرحمنُ من شرفِ
عَزَّتْ فلم تَعْرف الأيامُ قيمتَها ... فردَّها ، غَيْرةً منه ، إلى الصَّدَفِ

وظاهرة جديدة فى الرثاء لهذا العصر ، قد تكون لها مقدمات فى العصر العباسى ، ولكنها شاعت إلى أقصى حد حينئذ ، ونقصد رثاء الفقهاء والعلماء فى كل فن ، فلم يتوفَّ عالم كبير إلا تبارى تلاميذه وغير تلاميذه فى رثائه ، فمن ذلك رثاء أبى الحسن عبد الرحمن البُوشَنْجِىّ لأبى عثمان الصابونى شيخ الإسلام بخراسان ، وفيه يقول (٢) :

أَوْدَى الإمامُ الحَبْرُ إسماعيلُ ... لَهْفِى عليه فليس منْه بديلُ
بكتِ السما والأرضُ يومَ وفاتِهِ ... وبكى عليه الوَحْىُ والتَّنْزِيلُ
والشمسُ والقمرُ المنيرُ تناوَحا ... حَزَناً عليه وللنُّجوم عَوِيلُ

ومن يرجع إلى طبقات الشافعية للسبكى سيجد من هذا الرثاء للفقهاء والمحدِّثين وأئمة الإسلام كثيراً ، وبالمثل من يرجع إلى كتب الشعراء مثل اليتيمة ودُمْية القصر وكتب التراجم مثل وفيات الأعيان لابن خلِّكان ومعجم الأدباء لياقوت ، من ذلك قول أبى الفرج حَمْد بن محمد الهمذانى فى رثاء الشيخ الإمام أبى محمد الجُوَيْنىّ (٣) :

علومٌ علتْ أعلامَها غَبَراتُها ... وأعينُ أعيانٍ طغتْ عَبراتُها
وأفلاذُ أكْبادٍ من الفضل فُتِّتَتْ ... فدلَّتْ على تَفْتيتِها زَفراتُها
تداعتْ مبانى الدين وانهدَّ رُكْنُهُ ... وهُدِّمَ من أطْواده صَخَراتُها

وبلغ ابنه إمام الحرمين أبو المعالى عبد الملك الجوينى من الشهرة العلمية ما لعل أباه لم يبلغه غزارة مَادةٍ وتفننا فى العلوم من الأصول والفروع . ولما توفى أُغلقت الأسواق فى نيسابور إجلالاً له وتكرمة ، وكُسر مِنْبَره فى الجامع وقعد الناس لعزائه ، كما يقول ابن خلكان ، وأكثروا فيه من المراثى ، كقول بعض تلاميذه (٤) :

قلوبُ العالمين على المَقالى ... وأيامُ الوَرَى شِبْهُ الليالى
أَيُثْمِرُ غُصْنُ أَهْلِ العلم يوماً ... وقد مات الإمامُ أبو المعالى

ونجد بين أساتذة الزمخشرى أستاذاً مغموراً درس عليه النحو ، يسمى أبا مضر

(١) ابن الأثير ٢٠٦/١٠
(٢) السبكى ٢٨٣/٤
(٣) الدمية ٥٥٧/١
(٤) ابن خلكان ١٧٠/٣

منصوراً ، ومع ذلك نراه – حين يلبيّ نداء ربه – يتأثر عليه تلميذه تأثراً عميقاً ، فيرثيه بقوله [١] :

وقائلةٍ : ما هذه الدُّررُ التى تساقَطُ من عينيكَ سِمْطَيْن سِمْطَيْنِ
فقلتُ هو الدرُّ الذى كان قد حَشا أبو مُضَرٍ أُذْنى تساقَطَ من عينى

وهى صورة بديعة ، فدرر دموعه ثمرة سماعه على أستاذه ، أودعها الزمخشرى فى سمْعِهِ فجرت من مَدْمعه .

وعلى نحو ما تفجعوا على العلماء وبكوهم بدموع غزار تفجعوا على أبنائهم وأمهاتهم وآبائهم وللباخرزى رثاء لأبويه ، ولأبى الحسن الحسينى البلخى رثاء جيد لأمه [٢] ، ومرَّ بنا عند الطغرائى رثاؤه لزوجته التى ماتت فى ريعان الشباب ، وفى ديوانه مرثية لها قافيَّة ، يصور فيها الموت وهو يقبض كفها ويرسلها وعيناها ساهمتان مُطْرقتان ، وقد أخذ الحزن منه كل مأخذ ، يقول :

ولم أنسها والموتُ يقبض كفَّها ويبسُطها والعينُ تَرْنو وتُطْرِقُ
هلالٌ ثَوَى من قبل أن تمَّ نورُه وغُصْنٌ ذَوَى فَيْنانُه وهْو مُورِقُ

ويصف زيارته لقبرها وعناقه لأحجاره وترابه والأرض تدور به ، وهو لا يكاد يصدِّق أنها ماتت أو أن بينه وبينها حجاباً صفيقاً ، والدموع تنهلُّ على خديه ، وكلُّه حسرات ولوعات .

ومرَّ بنا فى كتابَى العصر العباسى الأول والثانى بكاء الشعراء للمدن ، حين تنزل بها صواعق النهب والحريق ، فقد بكوا بغداد لعهد الأمين والمأمون ، وبكوا البصرة حين هجم عليها الزنج فى أواسط القرن الثالث ودمَّروا مساكنها وفتكوا بأهلها . وكانت كارثة هذا العصر أعظم وأطمَّ ، ونقصد تدمير المغول لبغداد فى سنة ٦٥٦ إذ قتلوا من أهلها نحو مليون أو يزيدون ، وأشعلوا بها الحرائق وأعملوا النهب حتى فى الكتب والمكتبات ، وكان ذلك دماراً فظيعاً لما كان بها من حضارة عربية وحركة علمية ، أو قل كان ذلك أفولاً لنجمها الذى طالما تألق فى سماء البلاد العربية جميعاً . وطبيعى أن نجد من شعراء إيران من يبكون المدينة العظيمة ، وفى مقدمة من بكاها منهم الشيخ سعدى الشيرازى المتصوف الفارسى المشهور المتوفى سنة ٦٩١ عن نحو مائة سنة ، وهو يشتهر بكتاباته الصوفية الفارسية التى يمثلها كتاباه : جُلُسْتان وبوستان ، غير أشعار فارسية وعربية

(١) ابن خلكان ٥/١٧٢
(٢) الدمية ٢ / ٢٠٨ .

كثيرة ، وقصيدته [١] فى دمار بغداد أكثر من تسعين بيتاً استهلَّها بقوله :

حبستُ بجفنىَّ المدامعَ لا تَجْرِى   فلما طغى الماءُ استطال على السَّكْرِ [٢]

ويتمنى لو مر به نسيم صبا بغداد فأحيا نفسه ، ويصور حزن مدرسة المستنصرية على علمائها الراسخين فى العلم وكيف تبكى المحابر أئمتها وجهابذتها ، وهو يندب ويبكى ويذرف الدموع ، ولا يطيق صبراً ولا سلواناً قائلا :

أيا ناصحى بالصَّبْرِ دَعْنِى وزَفْرَتِى   أموضعُ صَبْرٍ والكبودُ على الجَمْرِ

ويقول تحولت دجلة دماً قانياً ، ويرثى الخليفة الشهيد : المستعصم والشهداء الأبرار ويهنئهم بالفردوس ، ويتحدث عن سبايا المسلمين ، والمغول يسوقونهن فى الصحراء . والقصيدة كلها تفجع وتحسر على مصير بغداد ذات التاريخ العربى المجيد وكيف وقعت فريسة لذئاب المغول الكاسرة .

ولم نتحدث حتى الآن عن مراثى الشيعة للإمام على بن أبى طالب والحسين ، ولا ريب فى أنها كانت كثيرة ، إذ انتشر التشيع فى إيران منذ عصر بنى بويه ، واعتاد الشيعة أن يعقدوا سنويا مأتماً كبيراً فى يوم عاشوراء حداداً على الحسين وذكرى حزينة لاستشهاده ، وكان الشعراء يرثون الحسين فى تلك الذكرى القاتمة مراثى كلها أنين وزفرات . ونشر الشيخ محمد آل ياسين للصاحب ديواناً وفيه غير قصيدة فى رثاء الحسين ، ونراه يألم ألماً شديداً لهذه الجريمة البشعة ، التى مُثِّل فيها بحفيد رسول الله ﷺ ، وهو يكرر فى مراثيه الأنين والبكاء والدمع المدرار . وله شعر كثير فى فضائل على بن أبى طالب يدخل فى الشعر الشيعى بعامة ، وفيه يتحدث عن نظرية الوصية بالإمامة لعلى بن أبى طالب المعروفة عند الشيعة الإمامية وعن سابقته فى الإسلام وحروبه المظفرة وحقوقه فى الخلافة . ويكثر الحديث عند الشيعة عن الإمام محمد المهدى المختفى ورجعته ليرد حق أسرته الضائع ويعيد سنن الشريعة . والأشعار المتصلة به تغرق لا فى الرثاء ، بل فى المديح ، مثل الأشعار المتصلة بالإمام على ، ويسمونه صاحب الزمان أو قائم الزمان ، وخير قصيدة تصوره قصيدة بهاء الدين العاملى المتوفى سنة ١٠٣٠ للهجرة ، وهو فيها يسميه حجة الله وخليفته وظله [٣] . ونتوقف قليلاً عند شاعر شيعى من شعراء الرثاء .

---

(١) متنبى وسعدى للدكتور حسين محفوظ (طبع طهران) ص ٧٣

(٢) السكر : ما سُدَّ به النهر .

(٣) انظر الكشكول للعاملى (طبعة الحلبى) ١/١٧٦ .

أبو الحسن[1] على بن أحمد الجوهَرىّ الجُرْجانىّ

نشأ بِجُرْجان ، واجتذبه الصاحب بن عباد إلى حضرته فيمن اجتذبهم من أدباء عصره وشعرائه ، ونراه يقرِّبه منه ويرفع مكانته عنده . ويتخذه فى ندمائه . وتستهل ترجمته فى اليتيمة برسالة كتبها إلى أبى العباس الضبى نائب الصاحب فى أصبهان يُشيد فيها به ، ويقول إنه يحسن الشعر فى اللسانين العربى والفارسى كما يحسن النثر. ويترك أصبهان إلى جرجان فلا تطول به الأيام ، كما يقول الثعالبى ، حتى يلبِّى نداء ربه ، ويقول من ترجموا له إنه توفى سنة ٣٨٠ . ولا يذكر له الثعالبى شيئاً من شعره الشيعى ولا من رثائه للحسين ، ومما يُرْوَى له فى بكاء الحسن قوله :

أهلَ الكِساءِ صلاةُ الله نازلةٌ عليكمُ الدهرَ من مَثْنىً ووُحْدانِ
أنتم نجومُ بنى حوَّاءَ ما طلعتْ شمسُ النهار وما لاح السِّماكانِ

ويشير الجوهرى بفكرة الكساء إلى ما يُرْوَى عند الشيعة من أن الرسول ألقى عليه وعلى السيدة فاطمة والإمام على والحسن والحسين كساء ، وقال : نحن أهل البيت . . ويشير الجوهرى فى القصيدة إلى مقتل الحسين وسِباء كل من كانوا معه من أهله ، وله مرثية أخرى للحسين يبدؤها بالحديث عن يوم عاشوراء يوم مقتله باكياً نادباً قائلاً :

يا أهل عاشورَ يالهفى على الدينِ خذوا حدادكمُ يا آل ياسينِ
اليوم قام بأعلى الطَّفِّ نادبهُم يقول مَنْ ليتيمٍ أو لمسْكينِ
يا عينُ لا تَدَعِى شيئاً لغاديةٍ تَهْمِى ولا تَدَعى دَمْعًا لمحزونِ
يا آل أحمدَ إنَّ الجوهرىّ لكم سيفٌ يقطِّع عنكم كلَّ مَوْضون[2]

والأبيات تصور المأساة تصويراً محزناً ملتاعا . والطف هو الموضع الذى استشهد فيه الحسين ، والجوهرى لا يرقأ دمعه ، بل هو يتمنى أن تسيل من عينيه دموع لا تكفُّ ولا تجفّ ، لما نزل بآل أحمد أو آل ياسين أهل البيت النبوى الطاهر .

وينشد الثعالبى للجوهرى أشعاراً كثيرة تتصل بمدحه للصاحب ولسلطانه فخر الدولة ولنائبه أبى العباس الضبى ولبعض الوجهاء ، كما تتصل بالغزل وبتصوير بعض الأطعمة وبهجاء بعض الأشخاص ، وله خمريات طريفة يمزجها بالحديث عن الطبيعة ، كقوله فى

(١) انظر فى الجوهرى اليتيمة ٢٧/٤ وأعيان الشيعة ج ٤١ ص ٤١ وأدب الطف أو شعر الحسين لجواد شبر (طبع بيروت) ٢/ ١٣٠ وما بعدها

(٢) الموضون : الدرع المنسوج .

دعوة بعض أصدقائه إلى الصَّبوح :

شجرٌ مُدْنَفٌ وجوٌّ عليلٌ ... وصباحٌ يميل كالنَّشْوانِ
صاحِ إن الزمان أقصرُ عمراً ... أن يُراع المُنى بصَرْفِ الزمانِ
رَقَّ عني ملاحفُ الليل فانْهَضْ ... برقيقٍ من صَوْب تلك الدِّنانِ
كعصير الخدود فى يَقَقِ الأو ... جه أو كالدموع فى الأجفان(١)

ويبدو من هذه الخمرية ميله إلى الدقة فى التصوير ، وأنه كان يحاول الإطراف بأخيلته ، وأن يأتى بصور مبتكرة ، على شاكلة قوله :

صَكَّ النسيمُ فِراخَ الغَيْث فانزعجتْ ... يَنْفُضْنَ أجنحةً من عَنْبَرِ الزَّغَبِ

ويقول الثعالبى : لو لم يقل إلا هذا البيت لكان أشعر الناس ، وهو فيه يصور زغب الثلوج المتساقط كشُعَيْرات الريش المتطايرة .

٥

شعراء الهجاء والفخر والشكوى

ظل الشعراء يَريشون سهام الهجاء فى هذا العصر كما كانوا يَريشونها فى العصور السابقة ، تارة يسدِّدها بعضهم إلى صدور بعض ، وتارة يسددونها إلى السلاطين والوزراء وعلية القوم . وقد تُسَدَّد إلى أكثر هؤلاء جوداً وكرماً ، لمجرد أنه تأخر فى جائزة شاعر ، أو لأنه أعطى شاعراً جائزة دون جائزة شاعر آخر ، أو لأنه أسخطه لأى سبب من الأسباب . ومرَّ بنا أن الصاحب بن عباد وزير بنى بويه كان ينهال عليه المديح انهيالاً لكثرة ما كان يُغْدقه على الشعراء ، حتى يقال إنه وفد عليه منهم مئات ، ومع ذلك كان لا يسلم من ألسنة بعضهم مثل أبى العلاء الأسدى ، وكان كما يقول الثعالبى قديم الصحبة له ، شديد الاختصاص به ، ممتد الغُرَّة والتحجيل فى شعرائه وصنائعه وندمائه . وكان يودّه ويأنس به ويكاتبه نثراً ونظماً . وإليه كتب : « أبا العلاء شيخى أين ذلك الميعاد ؟ وأين تلك العهود سقتها العِهاد (الأمطار) . . وأين كتبك التى هى ألذ من انتهاء النفس إلى رجائها ، وابتداء العين فى إغفائها » . ويبدو أن أبا العلاء لم يرتض من الصاحب أمراً أو شيئاً يوماً ، فأسرع يهجوه بقوله(٢) :

---

(١) اليقق : شدة البياض .

(٢) اليتيمة ٢٧٧/٣

إذا رأيتَ مُسَجًّى فى مرقَّعةٍ ... يأوى المساجدَ حرًّا ضُرُّه بادى
فاعلمْ بأن الفتى المسكين قد قذفتْ ... به الخطوبُ إلى لؤم ابن عبَّادِ

وهو يصفه باللؤم ، ويصغِّر من جوده الذى شاع عنه فى سخرية مرة . وانتقم للصاحب من أبى العلاء الأسدى زميل له من الشعراء يسمَّى عبدان الأصبهانى جعله عُرْضة وهدفاً لأهاجيه ، ومن قوله فيه (١) :

أبا العلاء اسكتْ ولا تُؤْذنا ... بشَيْنِ هذا النسبِ الباردِ
وتدَّعى فى أسَدٍ نِسْبَةً ... لا تثبتُ الدعوى بلا شاهدِ
أقِمْ لنا والدةً أوَّلاً ... وأنت فى حِلٍّ من الوالدِ

وهى سخرية لاذعة . ومن كبار الهجائين فى أوائل العصر الشاعر المسمى أبا الحسن اللَّحام ، وفيه يقول الثعالبى : لم يسلم أحد من الكبراء والوزراء والرؤساء من هجائه إياه ، وكان لا يهجو إلا الصدور ، وفى مقدمتهم البَلْعمى وزير السامانيين وفيه يقول (٢) :

وزارةُ البلعمىِّ منقلبهْ ... وهْو كقُفْلٍ غدا على خرِبَهْ
لم يَرْعَ للأولياء حُرْمَتهم ... فيها ولا للوجوه والكَتَبَهْ
فهْو أحقُّ الورى بداهيةٍ ... تضْحى لها رأسُه على خَشَبه

وهو يريد له أن يصلب ويصبح مُثْلةً للناظرين ، وكان عبدان آنف الذكر يستثيره كثيراً فما زال يفكر فى أن يورد عليه هجاء شديد الإيلام ، وهداه طول تفكيره إلى قوله فيه (٣) :

عبدانُ هامتُه للصَّفْع معتاده ... لاسيَّما من أكفِّ السادةِ القاده
كأنَّ أيدى النّدامَى فى تناولها ... أيدى صِيامٍ إلى كيزانِ برَّاده

والبَرَّادة : إناء يبرِّد الماء . وكان السخط على السلاطين والملوك يبلغ أحياناً عند بعض الشعراء حدًّا يجعلهم يعمّونهم به غير مفرقين بين مصلح وفاسد ، فإذا هم يهجونهم جميعاً على شاكلة يوسف بن محمد الجلودى الرازى فى قوله (٤) :

لا يصحبنَّ ملوكَنا إلا امرؤ ... لِصٌّ مغنٍّ مُفْلِسٌ قَوَّادُ
فلهُ لديهمْ زُلْفَةٌ ومنالةٌ ... ولمن تحرَّج واستعفَّ كسادُ

والبيتان يمسخان الملوك حينئذ مسخاً . وكانوا كثيراً ما يهجون البلدان وأهلها ، ويخيل إلى الإنسان أنهم لم يتركوا بلدة إلا سلَّطوا عليها سهام هجائهم ، وقد يتعرضون لصفة فى

(١) اليتيمة ٣/٢٩٨
(٢) اليتيمة ٤/١٠٨
(٣) اليتيمة ٤/١١٢
(٤) تتمة اليتيمة ١ / ١٢٣ .

الشخص ذميمة ، فيهجونه بها ، كصفة الحمق ، ولابن حَسْول يهجو المتكبرين عليه (١) :

دخلتُ على الشيخ فيمن دَخَلْ ... فغربَل عُصْعُصَهُ وانتحَلْ (٢)
وأظهر من نخوة الكبريا ... ء مالم أقدِّر ومالم أخَلْ
فقلتُ له مؤثراً نُصْحَهُ ... وقد يُقْبَلُ النُّصْح ممن نَخَلْ
إذا كنتَ سيدنا سُدْتَنا ... وإن كنت للخال فاذهبْ فَخَلّ
أخلَّ بحقِّ دُهاةِ الرِّجالِ ... فمازال يُصْفَعُ حتى أَخَلّ

وهو يصور هذا الشيخ المتكبر المتعجرف ، وقد دخل عليه فلم يقم له ؛ وكأنما همّ أن يرفع نفسه وعصعصه أو مؤخرته ، ثم تخلّى عن ذلك وتمكَّن من مجلسه ، فعرف أنه متكبر متعاظم ، وهو مالا يكاد يظنه ، فحاول أن ينصحه نصيحة من نَخَل القول وعرف صوابه وخطأه ؛ وتعرض له قائلاً إن كنت سيدنا حقا سدتنا دون حاجة إلى كبرياء وإلا فخلِّ عنك ، غير أنه لم يستمع نصحه فمازال يُصْفَعُ ، حتى أصابه الخلل .

وكان الفخر فى هذا العصر يرافق الهجاء كما رافقه فى العصور السابقة ، وقلما يحسن الشعرَ أمير أو وزير أو قائد إلا وهو يفتخر بنفسه ، وفى كتاب اليتيمة فصل خاص بسلاطين بنى بويه ؛ ونجد أشعارهم موزعة بين الفخر والغزل والخمر . ويلقانا فخر كثير للشعراء ، وكثيراً ما يسوقون فخراً لهم بأشعارهم وجودتها وبلاغتها ، من مثل قول على بن عبد العزيز الجرجانى الذى ترجمنا له بين شعراء المديح (٣) :

ألا إننى أَرْمِى بكلِّ بديعةٍ ... يَبِتْنَ بألباب الرِّجالِ لواعبا
تسيرُ ولم ترحَلْ ، وتدنو وقد نأتْ ... وتُكْسب حُفَّاظَ الرجالِ المراتبا
ترى الناس إما مُسْتَهاما بذكرها ... وَلُوعًا وإما مُسْتعيرا وغاصبا

فأشعاره كلها – فى رأيه – بدائع وطرائف ، تنتشر فى الناس حتى أقاصى الأرض ، لكثرة رواتها والمعجبين بها ، ويتداولها الشعراء ويغيرون على معانيها المبتكرة . وكثر الفخر فى العصر عند العلماء بسعة المعرفة وغزارة المحصول والتعمق فى الأفكار والنفوذ إلى أغوارها البعيدة .

وشاعت مع الفخر الشكوى من الدهر ومن الناس ، وهى شكوى قديمة ، غير أنها اتسعت فى هذا العصر سعة شديدة ، لما شاع فيه من كثرة البؤس والضنك فى حياة

---

(١) دمية القصر ١/٤١٥ .

(٢) العصعص : نهاية العمود الفقارى ، وغربلة العصعص : تمكنه فى الجلوس . انتحل : ادعى لنفسه ما ليس له .

(٣) اليتيمة ٤/٢٠

الشعب ، فضلاً عن الشعراء . ودائماً يتضاعف إحساس الشاعر ببؤسه حين لا تصله الجوائز الكبيرة ، وحين يجد من بعض الناس إعراضاً عن شعره ، فتظلم الدنيا فى عينيه ، ويراها سواداً فى سواد وظلاماً وحرماناً لا آخر له . ومثله العالم الفاضل الذى يرى علمه كاسداً ، وأنه لن يروج إلا إذا لثم التراب وقبَّل الأبواب ، فبؤساً للعلم يكون هذا جزاءه ، وبؤساً للشعر يكون هذا ثوابه . ويصور ذلك من بعض الوجوه عبد القاهر الجرجانى صاحب كتابى دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة ، وهما أروع ما صُنِّف فى البيان العربى ، وكان مقصد الطلاب فى عصره من كل فجٍّ ، ومع ذلك يرى عشرات من دونه يعلونه فى نعيم الحياة مخلِّفين له البؤس والشظف ، مما جعله يهتف بمثل قوله (١) :

هذا زمانٌ ليس فيـ ـهِ سوى النَّذالةِ والجهالَهْ
لم يَرْقَ فيهِ صاعِدٌ إلا وسُلَّمُه النَّذالهْ

واقرأ فى اليتيمة ودُمْية القصر والخريدة فستجد سيول هذه الشكوى تتدافع من كل جانب . وكثيراً ما كان يحدث لأمير أن يُسْلَب سلطانه كما كان يحدث ذلك للوزراء ، فكان منهم من ينظم الشعر يُودِعه شجونه ، ومرت بنا مأساة قابوس بن وَشْمكير صاحب طبرستان إذ عزلته عن سلطانه حاشيته وألقت به فى غياهب السجون بإحدى القلاع حتى مات لَوْعَة من شدة البرد وأسفاً على ضياع سلطانه ، وكان شاعراً كما كان كاتباً ، فمضى يشكو شكوى مرة من الناس دون أن تنكسر نفسه ، بل مع غير قليل من الصلابة ، على شاكلة قوله (٢) :

قُلْ للذى بِصُروف الدَّهْرِ عَيَّرنا هل حاربَ الدهرُ إلا مَن له خَطَرٌ
أما ترى البحرَ تعلو فوقه جِيَفٌ وتَستقرّ بأقصى قَعْرِهِ الدُّرَرُ
فإن تكن عبثتْ أيدى الزمان بنا ومسَّنا من تمادى بؤسه ضَرَرُ
ففى السماء نجومٌ مالها عَدَدٌ وليس يُكْسَفُ إلا الشمسُ والقَمَرُ

وقد تتحول الشكوى من الزمان وأهله إلى ضرب من التشاؤم الشديد ، فالزمان كله بؤس وتعاسة ، والناس ليس فيهم فاضل ولا كريم ، بل كلهم أخسّاء أنذال ، حتى ليقول الفضل بن إسماعيل التميمى الجرجانى (٣) :

ما فى زمانك ماجدٌ لو قد تأمَّلتَ الشواهدْ
فاشْهَدْ بصِدْقِ مقالتى أولا فكذِّبنى بواحدْ

(١) الدمية ٢/١٨
(٢) اليتيمة ٤/٦١ وابن خلكان ٤/٨٠
(٣) الدمية ٢/٢٨

فهو لا يرى فى الدنيا ما جدا واحدا ، وكأنما الناس كلهم أشرار ، ليس فيهم من تجد عنده شيئاً من العون يملأ القلب رضا وطمأنينة ، بل جميعهم يملأون القلب حسرة ولوعة . ونقف عند شاعرين من شعراء العصر هما الخوارزمى والأبيوَرْدى .

أبو بكر[١] الخُوارِزْمىّ

أصله من طَبَرِسْتان ومولده ومنشؤه خُوَارِزْم ، وهو ابن أخت محمد بن جرير الطبرى صاحب التاريخ المعروف ، وقد فارق موطنه فى ريعان شبابه ، وأقام بالشام مدة . وهو أحد الشعراء والكتاب المجيدين فى عصره ، وأيضاً أحد أساتذة الأدب ورواته ، رحل إلى الشام والعراق وبخارى ونيسابور وسجستان ، ثم قصد الصاحب بن عباد ، فأكرمه وأعلى منزلته ، وغمره بما كان سبباً لثرائه وارتياشه ، فعاد إلى نيسابور واستوطنها واقتنى فيها عَقَارا وضِياعا ، وكان لايزال يأتيه رسم أو راتب من قبل الصاحب منذ انصرافه عن حضرته . وكان ذلك سبباً فى أن يتعصب تعصباً شديداً للبويهيين ضد السامانيين أصحاب نيسابور وبخارى ، وناله من ذلك بعض السوء ، لولا توسط الصاحب بن عباد له عند بعض وزرائهم . وكان شيعيًّا وكانت نيسابور سنية ، فاستوحش منه كثيرون وانتهزوا فرصة وفود بديع الزمان الهمَذانى على بلدتهم ، فعقدوا مناظرة بينهما انتصروا فيها للبديع ، وتصادف أن توفِّى الخُوارزمى عقبها سنة ٣٨٣ فصفا الجو لمنافسه . وقد خلَّف الخوارزمى ديوان رسائل كبير وهو مطبوع ، وخلف أيضاً ديوان شعر سقط من يد الزمن ، غير أن فى كتاب اليتيمة طائفة كبيرة من أشعاره فى النسيب والغزل والمديح والمراثى وفى فنون مختلفة فى مقدمتها الهجاء ، وكان طبيعيا أن يصبَّه سياطاً على ظهور السامانيين حين استخرجوا منه ، أو صادروا ، بعض ماله وَزجّوا به فى سجونهم ، وأفرجوا عنه ، غير أنه مضى ينتقم منهم بمثل قوله :

جَزَى اللهُ عنى أهلَ سامانَ ما أَتَوْا ... وفى الله للثأر المضيَّع طالبُ
همُ زوّجونى الهمَّ بعد طَلاقهِ ... وذلك عُرْسٌ للمآتم جالبُ
وأنْحَوْا لزرعى بالحصاد وأَنْضَبُوا ... مياهاً لها أيدى سِواهمْ مَذانبُ
أتحصُد أيديكم وَيَزْرع غَيرُكم ... فأنتم جَرادٌ والملوكُ سحائبُ

فهم يحصدون ما زرعه آل بويه ووزراؤهم ، ويأكلونه ناراً ، وكأنهم جراد منتشر

---

(١) انظر فى الخوارزمى وشعره اليتيمة ١٩٤/٤ وابن خلكان ٤٠٠/٤ والوافى بالوفيات ١٩١/٣ والشذرات ١٠٥/٣ وكتابنا الفن ومذاهبه فى النثر العربى (طبع دارالمعارف) ص ٢٣٠ وما بعدها

يصيب البلاد بالخراب والوبال بينما البويهيون سحائب غيث منهلة ، تروى من يعيشون فى بقاعهم القريبة وفى بقاع السامانيين البعيدة وغير السامانيين . وبحكم تشيعه كان غاضباً على الخلفاء العباسيين السنيين ، غير أنه اكتفى فى هجائهم بالإشارة إلى صنيعهم السيئ فى توزيع الألقاب على السلاطين والوزراء والقواد ومن يستحق ومن لا يستحق ، يقول :

مالى رأيتُ بنى العبَّاسِ قد فتحوا　　من الكُنَى ومن الألقاب أبوابا

قَلَّ الدراهمُ فى كَفَّىْ خَلِيفتِنا　　هذا فأنفقَ فى الأقوام ألقابا

ولا شك فى أنها تدل على ما أصاب المجتمع فى إيران وغير إيران من تدهور ، وكان يغيظ الخوارزمى الشيعى المتعصب لتشيعه الغالى فى تعصبه أن يرى أحياناً فقيها يلقن ابنه مبادئ أهل السنة الذين يسميهم المتشيعة ناصبية فيدَّعى عليه أنه من القائلين بالجبر ويهتف :

مُجْبِرٌ صيَّر ابنه ناصِبيًّا　　مجبراً مثله وتلك عجيبَهْ

والمجبر الذى يقول بالجبر وأن الإنسان لا حرية له فى فعله ولا اختيار وأنه مسير كريشة فى يد القدر يوجهه كيف شاء . وأسخطه طاهر بن شار الطبرستانى ، فتولاه بهجاء مقذع من مثل قوله :

لله فى كل ما قضــاهُ　　لطائفٌ تحتهـــا بدائعْ

سُبْحانَ من يُطْعِم ابن شارٍ　　ويترك الكَلْب وَهْوَ جائع

وهو إقذاع مرير ، فقد جعله دون الكلب وأقلَّ منه ، وحتى يد الصاحب بن عباد الذى طالما أسبغ عليه من نواله ، بل لقد جعل له راتباً معلوماً ، كما قدمنا ، يصله فى نيسابور ، نجده يخدشها بل يعضّها ويسيل الدم منها بأظفار هجائه ، ويبدو أنه لم يرض منه يوماً لقاء له ، فإذا هو يذمه ذمًّا قبيحاً قائلاً :

لا تحمدنَّ ابنَ عبادٍ وإن هَطَلتْ　　يَداه بالجود حتى أَخْجَلَ الدِيَما

فإنها خطراتٌ من وَسَاوِسِهِ　　يُعْطى ويمنع لا بُخْلا ولا كَرما

فعطاياه التى طبَّقت الشعراء فى إيران وغير إيران إنما هى وساوس وهواجس تُلمُّ به أحياناً . وهو كفران شديد للمعروف ، وكأنها طبيعة للخوارزمى أن لا يستطيع احتمال الصبر وأن يلجأ سريعاً إلى قلمه وشعره ، ويحيله سوط عذاب ينزل به حتى على ولىّ نعمته . ونراه يتابع سخطه على من يريد هجاءهم حتى بعد وفاتهم كقوله فى رثاء صديق ، حدث بينهما ما يوجب شيئاً من العتاب ، فإذا هو يضخم عتابه ويحيله هجاء قائلاً :

بكيتُ عليك بالعين التى لم　　تزلْ من سوء فعلك بى تجودُ

فها أنا ذا المهنَّا والمعزَّى وها أنا ذا الشقىُّ بك السعيدُ
وما أصبحتَ إلا مثل ضِرْسٍ تآكلَ فهْو موجودٌ فَقيدُ
فنى تركى له داءٌ دَوِىٌّ وفى قَلْعى له ألمٌ شديدُ

وطبيعى لمثل الخوارزمى الذى كان ينشب أظفاره فى الحكام والأصدقاء والناس أن يتبرم بهم جميعاً وبدنياه وبالدهر ، حتى ليقول :

لا تشكرِ الدهرَ لخيرٍ سبَّبَهْ فإنه لم يتعمَّدْ فى الهبَهْ
وإنما أخطأ فيك مَذهَبَهْ كالسَّيْل إذ يَسْقِى مكانا خَرَّبَهْ

وله وراء ذلك كله مدائح فى البويهيين والصاحب وغيرهم وله غزليات وخمريات ووصف للطبيعة وورودها ورياحينها . وفتح الثعالبى له فصلاً طويلاً لبيان تضميناته أشعارَ غيره فى شعره ، وهم يمتدّون على الحقب من العصر الجاهلى حتى عصره .

الأبيوَرْدِىّ (١)

هو أبو المظفر محمد بن أحمد ، من أبناء معاوية بن محمد حفيد عَنْبسة بن أبى سفيان بن صَخْر بن حرب الأموى ، مولده ومنشؤه بأبِيوَرْد فى خراسان ، وقد تفقه على إمام الحرمين الجُوَيْنى بنَيْسابور ، وله فيه مدائح بديعة . وسمع عبد القاهر الجرجانى ، ولعل له أثراً فى رهافة ذوقه الأدبى . وأكبَّ على المعارف يحصِّلها ، ولعل ذلك ما جعله فيما بعد يصنف كتباً مختلفة فى الأنساب وغيرها . وفتح له الشعر والأدب العمل فى دواوين السلاجقة فى بغداد وأصفهان وغيرهما من بلدانهم . ويبدو أنه ظل فى بغداد طويلاً ، إذ يُرْوَى عنه أنه قال : كنت ببغداد عشرين سنة حتى أمرِّن طبعى على العربية ، وبعدُ أنا أرتضخ لُكْنَةً أعجمية . وفى بغداد التحق بخدمة مؤيد الدولة بن نظام الملك ، فلما عادى هذا الوزير عميد الدولة بن منوجهر هجاه الأبيوردى ، فدسَّ عليه عند الخليفة أنه هجاه ومدح صاحب مصر الفاطمى . وخشى الأبيوردى على نفسه فترك بغداد إلى همذان حتى سكن جأشه وهدأ روعه . وتدل على الحقبة التى أمضاها ببغداد قصائده فى الخليفة المقتدى (٤٦٧ — ٤٨٧ هـ) وله فيه إحدى عشرة قصيدة . ويقول بعض الرواة إنه إنما هجر بغداد

(١) انظر فى الأبيوردى وشعره معجم الأدباء ١٧ / ٢٣٤ وابن خلكان ٤ / ٤٤٤ والوافى بالوفيات ٢ / ٩١ والسبكى ٦ / ٨١ والمنتظم ٩ / ١٧٦ والنجوم الزاهرة ٥ / ١٥١ ، ٢٠٦ وابن الأثير ١٠ / ٢٨٤ ومرآة الجنان ٣ / ١٩٦ والأنساب ٤٩٠ وتذكرة الحفاظ ٤ / ١٢٤١ وروضات الجنات ١٨٥ وشذرات الذهب ٤ / ١٨ وإنباه الرواة ٣ / ٤٩ وديوانه مطبوع بالمطبعة العثمانية بلبنان .

لأنه كان يَرْشَحُ من كلامه نوع تشبيب بالخلافة التى كانت لأسلافه الأمويين مدعياً استحقاقه الإمامة . فاضطُرَّ إلى مفارقته بغداد إلى همذان ، وبقى فيها مدة يدرس ويفيد ويصنِّف . وقال العماد فى الخريدة : تولى فى آخر عمره أشراف مملكة السلطان محمد بن ملكشاه (٤٩٨ – ٥١١ هـ) ، وسقوه السم وهو واقف عند سريره لسنة ٥٠٧ فخانته قدماه وتوفى على الأثر ، فحُمل إلى منزله بأصفهان . ويقال : بل لم يُسْقَ السم ، وكل ما فى الأمر أنه حين مثل أمام السلطان أصابه الفزع فارتعد وسقط ميتاً .

ويُعَدُّ الأبيوردى من أشهر شعراء هذا العصر ، وديوانه كبير ، وقد وزعه على أقسام ، من أهمها العراقيات والنجديات والوجديات . وله شعر كثير فى الفخر بنسبه الأموى وبيان فضله وحقه فى الخلافة ، ويقولون إنه كان إذا صلى قال : اللهم ملِّكنى مشارق الأرض ومغاربها ، ولعل لهذا الهوس فيه هو سبب حتفه على يد السلطان محمد ، ومن شعره المعبر عن طموحه وقوة نفسه قوله :

يا مَنْ يُساجِلُنى وليس بمدركٍ   شأْوِى وأينَ له جلالةُ مَنْصِبى
لا تتعبنَّ فدونَ ما أمَّلْتَه   خَرْطُ القَتادة وامْتِطاءُ الكوكبِ (١)
والمجدُ يعلم أيُّنا خيرٌ أبًا   فاسأَلْه تعلمْ أىَّ ذى حسَبٍ أبِى
جَدِّى معاويةُ الأغرُّ سمَتْ به   جُرْثُومةٌ من طِينِها خُلِقَ النَّبى
وورثْتُه شرفاً رفعتُ منارَهُ   فبنو أميَّة يفخرون بهِ وَبِى

وهى صورة جامحة من الاعتداد بالآباء ، وأين بنو أمية فى القرن الأول الهجرى منه فى القرن الخامس ؟ وهل جده معاوية أقرب رحماً إلى الرسول ﷺ من بنى هاشم ؟ إن هذا ومثله لغو وما يشبه اللغو . وهو لا يتوقف عند هذا الحد فى فخره العريض ، إذ يسوقه فى شكل أحلام لا يمكن تحقيقها إذ يقول :

الناس من خَوَلِى والدهرُ من خَدَمِى   وقِمَّةُ المجد عندى مَوْطِئُ القَدَمِ
والنَّسْرُ يَتْبع سَيْفِى حين يَلْحظهُ   والدهرُ يُنْشد ما يَهْمِى به قلمى
لو صيغتِ الأرضُ لى دون الوَرَى ذهباً   لم تَرْضَها لِمُرَجِّى نائلى هِمَمِى
وعن قليلٍ أُرَى فى مأزِقٍ حرجٍ   به تُشام السُّرَيْجيَّاتِ فى القِمَمِ (٢)
والبِيضُ مُرْدَفَةٌ تبدو خلاخِلُها   فى مسلكٍ وَحِلٍ من عَبْرةٍ ودم

---

(١) القتادة : نبات له شوك كالإبر ، وفى المثل : «من دونه خرط القتاد» يضرب للشىء لا ينال إلا بمشقة شديدة. (٢) تشام : ترى . السريجيات : ضرب من السيوف

فالمجدُ في صهَوات الخيل مطلَبُه والعِزُّ في ظُبَةِ الصَّمْصامة الخَذِمِ (١)

وهو يحلم حلماً غريباً بأنه سيقود معركة مظفرة تُسْبَى فيها النساء النادبات لأزواجهن وأبنائهن وأهلهن ، وتجول وتصول فيها الخيل مردية للأقران ، ونسور الفلا تتبعه لتأكل من أشلاء قتْلاه ، والدهر ينشد مجده الحربي شعراً حماسيا ملتهباً . وطبيعي أن يقترن هذا الفخر العاصف عنده بالشكوى من الزمن الذي لا ينيله مطامحه ، وهي شكوى تمتزج بغير قليل من القوة والجلد وتحمل الشدائد على شاكلة قوله :

تنكَّر لي دهري ولم يَدْرِ أنني أَعِزُّ وأحداثُ الزمانِ تهونُ
فبات يُرِيني الخطبَ كيف اعتداؤه وَبِتُّ أُريه الصَّبْرَ كيف يكون

وهذا الجانب في الأبيوردي واعتزازه بنفسه وقومه جعله يستشعر غضباً لا حد له على الصليبيين حين أغاروا لأول مرة سنة ٤٨٨ للهجرة على بيت المقدس ، وهو استشعار يُحْمَدُ له ، فإنه أحسَّ الكارثة التي نزلت بالإسلام وأهله ، حين دنَّس الصليبيون بأقدامهم الحرمَ القدسيَّ ، فصاح بأعلى صوته يُهيب بالمسلمين أن يذودوا عن حِماهم المستباح في قصيدة طويلة يقول فيها :

مزجنا دماءً بالدموع السَّواجمِ فلم يبق منا عُرْضَةٌ للمَراجم (٢)
وكيف تنام العينُ ملءَ جفونها على هفواتٍ أيقظتْ كلَّ نائمِ
وإخوانكم بالشام يُضْحِي مَقيلهُم ظهورَ المذاكي أو بطون القَشاعم (٣)
وكم من دماءٍ قد أُبيحتْ ومن دُمًى تُوَارِي حياءً حُسْنَها بالمعاصمِ
أترضى صناديدُ الأعاريب بالأذى ويُغْضِي على ذلٍّ كُماةُ الأعاجمِ
فليتهمُ إذ لم يذودوا حَمِيَّةً عن الدين ضَنُّوا غَيْرَةً بالمحارمِ

والقصيدة استنفار قوى للمسلمين من العرب والأعاجم كي يقفوا سدًّا منيعاً دون حماهم وحمى الإسلام يذودون عنه بسلاحهم وأرواحهم حتى يُذيقوا الصليبيين وبال حربهم ويردوا كَيْدهم إلى نحورهم ، وهي أولى القصائد التي أخذت طوال قرن تصوِّب أبياتها ، بل سهامها ، إلى صدور أعداء الإسلام ، حتى استطاع صلاح الدين أن يستنقذ منهم بيت المقدس وغيره من ديار الشام ، ويسفك دماء ملوكهم وقادتهم ، وكان حقًّا على الله نَصْرُ المؤمنين .

وللأبيوردي وراء ذلك مدائح كثيرة في الخلفاء وسلاطين السلاجقة ووزرائها ،

(١) الصمصامة : السيف . الخذم : القاطع (٣) المذاكي : الخيل . القشاعم : النسور .
(٢) المراجم : القبيح من الكلام .

وله غزليات سنعرض لبعض أمثلة منها فى مطالع الفصل التالى ، وكانت له مرثية بديعة للحسين تحدث عنها ياقوت ، غير أن ديوانه خلا منها ، كما خلا من مرثيته للغزالى ، التى أشار إليها ابن خلكان فى كتابه وفيات الأعيان . وله بيتان طريفان فى هجاء أبى النجيب عبد الرحمن بن عبد الجبار المراغى ، وكان شاعراً ، ويستعمل فى شعره لزوم ما لا يلزم الذى اشتهر به أبو العلاء فى لزومياته ، فقال فيه :

شعر المراغىِّ – وحُوشِيتمُ – كعَقْلِهِ أَسْلَمُهُ أسْقَمُهْ
يَلْزَمُ ما ليس له لازماً لكنَّه يترك ما يَلْزمه

والسخرية واضحة ، إذ يشير إلى أن شعره مغسول مما يلزم الشعر من المشاعر والأخيلة وفنون البديع ، بينما يغرقه فيما لا يلزم من تعقيد الروى وعدم الاكتفاء فى الشعر بروىٍّ واحد ، مما يصور تكلفاً شديداً إن لم يكن الشاعر بارعاً فى صنع الشعر ونظمه .

الفصل الرابع

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل

ظل تيار الغزل حارًّا متدفقا طوال هذا العصر، حتى ليخيل إلى الإنسان أنه لم يَشِذّ شاعر بشعر إلا وجرى الغزل على لسانه، لا يشذّ عن ذلك سلطان ولا وزير ولا كاتب ولا قائد. وظل للغزل لوناه المتقابلان على مر العصور: الغزل المادى والغزل العُذْرى العفيف، وكان طبيعيا أن تظل للغزل سوقه الكبيرة لكثرة الإماء والجوارى وكان كثيرات منهن يحسنَّ الغناء، فملأن قلوب الرجال شغفا وهياما. واقرأْ فى تراجم الشعراء لهذا العصر فستجد دائما مقطوعات الغزل لتختار منها ما يطيب لك جمالَ معنى وجمالَ صورة وجمال صوت، على شاكلة قول ابن العميد [١].

ظَلَّتْ تُظَلِّلنى من الشَّمْسِ نَفْسٌ أعزُّ علىّ من نَفْسى
فأقول واعجبـاً ومن عجبٍ شمسٌ تُظَلِّلُنى من الشَّمْسِ

وهى صورة بديعة لما فيها من لفت قوى إلى جمال صاحبته، وكان خليفته فى وزارته الصاحب بن عباد أشعر منه، وله غزل كثير أنشد منه الثعالبى طائفه من المقطوعات، من ذلك قوله [٢]:

قــال لى إنَّ رَقـيبى سَـــيِّئُ الخُلْق فَــدَارِهْ
قلتُ دَعْنى وَجْهُك الجنَّـ ـةُ حُفَّتْ بــالمكــاره

وواضح أنه عمد فى البيت الثانى إلى الاقتباس من الحديث النبوى: «حُفَّت الجنة بالمكاره» وهو اقتباس طريف لإحكام صلته بما قبله. وكثرة الاقتباس من الحديث والقرآن الكريم ظاهرة من ظواهر العصر الأدبية.

وكانوا يتورَّطون أحيانا فى الغزل بالغلمان، وهو وصمة فى جبين العصر، تضاف إلى

(١) اليتيمة ٣/١٧٨ (٢) اليتيمة ٣/٢٥٤

مثيلتها فى العصر العباسى ، وربما كانوا ينظمونه تندراً ودعابة ، أو تقليداً لأسلافهم ، وهو تقليد بغيض . ومن الحق أن كثيراً من الشعراء نَحَّوْ هذا النوع المقيت عن غزلهم ، مؤثرين أن يَطْبعوا أشعارهم بطوابع الغزل العفيف الطاهر الذى لا يعرف المتاع المادى للحب ولا اجتناء ثمراته من العناق وغير العناق ، إنما يعرف نيرانه المحرقة كما يعرف الحب الظامئ الذى لا يَرْوَى صاحبه أبدا ، فدائماً فراق ودائماً حنين واشتياق ، ودعاء كما قال أبو العلاء الأسدى (١) :

شتَّتوا بالفراق شَمْلِى ولكنْ جَمَعَ الله شَمْلهم أين كانوا

وكثيرٌ من هذا الغزل العُذْرىّ كان يصوغه العلماء والفقهاء صورةً لطهارة نفوسهم ونقائها وما يتجشَّمون فى الحب من آلام دون أن يشوب تفكيرهم شيىء من الغريزة النوعية ، فقد تساموا عن الحسِّ وكل ما يتصل بالحس . ويكثر فى هذا الغزل الحنين المستمد من حنين العذريين ، الحنين إلى نجد وديار نجد مع الحسرات من الفراق والشوق إلى اللقاء . وربما لم يُكثر من ذلك شاعر كما أكثر الأبِيوَرْدى ، فقد جعل للنجديات أو الغزل النجدى العذرى قسما مستقلا من أقسام ديوانه الكبير ، ومن نجدياته :

نزلنا بنَعْمان الأراكِ ، وللنَّدَى سَقيطٌ به ابتلَّت علينا المَطَارفُ(٢)
فبتُّ أُعَانى الوَجْدَ والركبُ نُوَّمٌ وقد أخذتْ منى السُّرَى والتَّنائفُ(٣)
وأذكر خَوْداً إن دعانى على النَّوى هواها أجابتْه الدموعُ الذوارفُ
لها فى مغانى ذلك الشِّعْبِ منزلٌ لئن أنكرتْه العينُ فالقلبُ عارفُ
وقفتُ به والدمعُ أكثره دمٌ كأنىَ من جَفْنى بنَعْمانَ راعفُ(٤)

وعلى نحو ما يجعلون محبوبتهم نجدية يجعلونها ممنَّعة ، فحولها أُسْدٌ يحمونها ، بحيث لا يستطيع المحب الولهان أن يلقاها أو يقرب من حِماها ، فدونها الموت الزُّؤام ، وفى ذلك يقول الطُّغْرائى فى لاميته(٥) :

إنى أريد طُروقَ الحىِّ من إضَمٍ وقد حَماهُ رُماةُ الحىِّ من ثُعَلِ
يحمون بالبيض والسُّمْر اللِّدانِ به سودَ الغدائر حُمْرَ الحَلْى والحُلَلِ
فالحبُّ حيث العِدا والأُسْدُ رابضةٌ حول الكِناسِ لها غابٌ من الأَسَلِ

فهو يريد الإلمام بحى معشوقته فى إضم ، فيرى دون ذلك أهوالا ، فقد حماه رماة من

(١) اليتيمة ٣/٣٣٦ .

(٢) نَعْمان : واد بين عرفات والطائف . الأراك : من أشجار البادية ، المطارف : الثياب.

(٣) التنائف : المفازات . السرى : السير ليلا .

(٤) راعف : من الرعاف وهو الدم السائل من الأنف .

(٥) ديوان الطغرائى ص ٥٤ .

عشيرة ثُعل المشهورون منذ امرىء القيس بحذقهم فى رمى السهام ، وهم مسلحون بالسيوف والرماح ، يحمون نساءهم الفاتنات ، الرابضات فى الخدور وكأنهن ظباء فى كِناس تحوطه غابة ضخمة من الرماح ، والأسد جُثُومٌ ، والموت الأحمر ينتظر كل من يدنو أو يقترب . ونقف عند شاعرين من شعراء الغزل فى العصر .

أبو الفرج (١) بن هندو

هو على بن الحسين بن هندو ، وسقطت كلمة على من اليتيمة وصحح الاسم الثعالبى فى تتمتها . وكان من النابهين فى الطب والفلسفة والأدب والشعر ، وله من الكتب مفتاح الطب والمقالة المشوقة فى المدخل إلى علم الفلسفة وكتاب الكلم الروحانية من الحكم اليونانية وهو مطبوع ومنشور بالقاهرة . وقد تتلمذ فى الفلسفة والطب على يد أبى الخير بن الخمَّار وكان من أجل تلاميذه ، ووفد على الصاحب بن عباد ، فقرَّبه إليه ، وكان أحد كتاب الإنشاء فى ديوان عضد الدولة البويهى ، وعاش بعده طويلاً إلى أن وافته المنية بجرجان سنة ٤٢٠ . وكان له ديوان شعر لم يصل إلينا ، ويقول الثعالبى : « هو مع ضربه فى الآداب والعلوم بالسهام الفائزة ، وملكه رِقَّ البلاغة والبراعة ، فَرْدُ الدهر فى الشعر وأوحد أهل الفضل فى صيد المعانى الشوارد ، ونظم القلائد والفرائد ، مع تهذيب الألفاظ البليغة وتقريب الأغراض البعيدة وتذكير الذين يسمعون ويروون بقوله تعالى : (أفسِحْرٌ هذا أم أنتم لا تبصرون) » . ويُنْشد له كثيراً من غزلياته وخاصة فى التتمة ، من ذلك قوله :

تقول : لو كان عاشقاً دَنِفاً ... إذنْ بدتْ صُفْرَةٌ بِخَدَّيْهِ
لاتُنْكريهِ فإن صُفْرَته ... غطَّتْ عليها دماءُ عَيْنَيْهِ

وهو برهان بديع ، وطبيعى لمن درس الفلسفه أن يحسن التعليل ، فصفرته متوارية فى خَدَّيه ، تُواريها دماء عينيه . وتكثر هذه العلل الطريفة فى غزله على شاكله قوله :

عارضَ وَرْدُ الغصون وَجْنَتَهُ ... فاتفَّقا فى الجمال واختَلفا
يزداد بالقَطْف وَرْدُ وَجْنَتِهِ ... وينقصُ الورد كلما قُطِفا

فوجنة صاحبته وردها غريب ، ورد يزيده القطف ، إذ يزداد خدها به خجلا واحمرارا ، فيزداد الورد ويكثر ولا ينقص أبدا ولا تغيض حمرته ، بل لا يزال يولِّد فيه

---

(١) انظر فى ترجمة أبى الفرج بن هندو اليتيمة ٣/٣٩٤ وتتمة اليتيمة ١ / ١٣٤ والدمية ٢ / ٥٧ ومعجم الأدباء ١٣ / ١٣٦ وعيون الأنباء فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة (طبعة مكتبة الحياة - بيروت) ص ٤٢٩ وفوات الوفيات ٢ /٩٥ وتاريخ حكماء الإسلام للبيهقى ٩٣ - ٩٥ .

القطف وردا لا ينتهى ، ويتلطَّف لصاحبة له قائلا :

أيا بدرا بلا كَلَفٍ به دونَ الوَرَى كلفى
أينْ لى دُرَّ ثَغْرِك ما بهاءُ الدُّرّ فى الصَّدَفِ

وواضح أنه يطلب إليها فى رقة أن تبتسم له ، حتى تنفتح له أبواب النعيم على مصاريعها ، وعلى مثال هذا التلطف قوله :

قُولا لهذا القَمر البادى مالِكَ إصلاحى وإفسادى
زَوِّدْ فؤادا راحلاً قُبْلَةً لابُدَّ للرَّاحل من زادِ

فكل مسافر لابد له من زاد ، وهو يريد أن يأخذ زاداً لروحه : قبلة من محبوبته ، تظلُّ تغذِّى مشاعره ، حتى يعود إليها من رحلته الطويلة . ويحاول فى غزله دائما أن يأتى بصور مبتكرة ، فيجلب كثيرا من الصور الغريبة كقوله :

ليس لى من أذَى الفراق اكتئابٌ قد كفتنى عَيْنِى جميعَ اكتئابى
كلما شئتُ أسبلتْ دمَ قلبى فأرى فيه صورةَ الأحباب (١)

فهو لا يكتئب للفراق كغيره من العشاق الذين طالما شكوا منه واكتئبوا ، إذ تردُّ عينه عنه اكتئابه بدموعها التى تنزف فيها دماء قلبه ، تلك التى يرى من خلالها صورة الأحباب ، فصورتهم لا تغادر دموعه . وإذا كان المحبون طالما شكوا من طول الليل وظلامه الداجى فإنه يناقضهم قائلا :

ليت أن الليل دامتْ ظُلَمُهْ فلقد جَلَّتْ لدينا نِعَمُهْ
مَثَّلَتْ صُدْغَيْكِ لى ظُلْمَتُهُ وأرتْ خَدَّيْكِ عينى أَنْجُمُهْ

فهو يتمثل فى الليل محبوبته ، إذ يرى فى ظلمته خُصَلَ شعرها المنسدلة على خديها ، ويرى خديها فى نجومه المتألقة ، وهو بُعْدٌ فى الوهم والتخيل ، وله :

قالوا اشتغلْ عنهمُ يوماً بغيرهمُ وخادعِ النفسَ إن النفس تنخدعُ
قد صِيغَ قلبى على مقدار حُبِّهم فما لحبٍّ سِواهم فيه متَّسَعُ

وهو رَدٌّ طريف على من يطلبون إليه السَّلْوى عن بعض أحبابه بحبٍّ سواهم ، فقلبه مشغول دائما بهم وليس فيه مكان لغيرهم . وله معان طريفة كثيرة فى موضوعات الشعر المختلفة ، من ذلك قوله فى بخيل :

لو ماتَ لم يأكل الطعامَ إذا ما كان ذاك الطعامُ من كِيسهِ
ان لم نشاهد دُخانَ مَطْبَخهِ فقد شَهِدْنا دخانَ تَعْبيسهِ

(١) أسبلت : أسالت .

فهو لا يأكل من كيسه ، بل يخزن المال ولا يرى سروراً إلا فى خزنه ، ولم يشاهد أحد له دخانا يعلو مطبخه ، فدخانه دائما يعلو وجهه ، تعبيس ما بعده تعبيس . ويقول فى النهى عن اتخاذ الأولاد والاقتناع بالوحدة :

ما لِلْمُعِيل وللمعالى إنما يسعى إليهنَّ الوحيدُ الفاردُ
فالشمسُ تجتابُ السماءَ وحيدةً وأبو بنات النَّعْش فيها راكدُ

وبنات النعش نجوم معروفة فى السماء لا تكاد تريم ، تشاهد بالقرب من القطب الشمالى ويدعوه أباها . وله فى الشكوى أشعار مختلفة منها قوله يشكو من مقامه بمدينة الرَّىِّ دون طائل :

ضِعْتُ بأرض الرَّىِّ فى أهلها ضياعَ حَرْف الراء فى اللُّثْغَه
صِرْتُ بها بعد بلوغِ المُنَى يعجبنى أن أبلغَ البُلْغَهْ (١)

ولعل فى كل ما قدمنا ما يصور شاعرية أبى الفرج بن هندو وبراعته فى نظم الشعر والإتيان فيه ، وخاصة فى الغزل ، بالصور والمعانى الطريفة المبتكرة .

أبو الفضل (٢) الميكالى

هو عبيد الله بن أحمد من آل ميكال وُجَهاء نيسابور ، وطالما عملوا مع السامانيين فى دواوينهم وولاةً لهم على بعض البلدان ، ومرَّ بنا تنويه الثعالبى بهم ، وفى أبى الفضل يقول : «الأمير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد يزيد على الأسلاف والأخلاف من آل ميكال زيادة الشمس على البدر ، ومكانه منهم مكان الواسطة من العقد وما على ظهرها اليوم أحسن منه كتابة وأتم بلاغة . ثم يورد الثعالبى قول بعض الشعراء فى وصف بلاغته وحسن بيانه على هذا النمط :

لك فى المحاسن معجزاتٌ جَمَّةٌ أبداً لغيرك فى الوَرَى لم تُجْمَعِ
بحران : بحرٌ فى البلاغة زَانَهُ شِعْرُ الوليد وحُسْن حِفْظ الأصمعى (٣)
وإذا تَفتَّق نَوْرُ شِعرك ناضرا فالحسنُ بين مرصَّعٍ ومصرَّعِ
أَرْجَلْتَ فُرْسان القَرِيض ورُضْتَ أَفْـ ـرلسَ البديع وأنت أمجدُ مبدعِ (٤)

وليست عندنا معلومات واضحة عن حياة أبى الفضل ، ويذكر ابن خلكان أنه دخل

---

(١) البلغة : ما يكفى لسدِّ الحاجة .
(٢) انظر فى أبى الفضل اليتيمة ٣٥٤/٤ وفوات الوفيات ٥٢/٢ وابن خلكان ٢٠٢/٣ ، ١٠٩/٥
(٣) الوليد : البحترى
(٤) أفراس : ج فرس ، فرسان : ج فارس .

بغداد بعد صدوره من الحج سنة ٣٩٠ وأن له مصنفا يسمى المنتخل جمع فيه مختارات شعرية . ويروى الثعالبى له شعرا قاله فى نكبة ، ويبدو أنه حُبس فى عهد الغزنويين حين استولوا على إمارة السامانيين . وقد أنشد الثعالبى طائفة كبيرة من أشعاره منها نُبَذ فى الغزل من مثل قوله :

لقد راعنى بَدْرُ الدُّجى بصدودهِ ووكَّل أجفانى بِرَعْىِ كواكِبِهْ
فياجَزَعى مَهْلاً عساه يعود لى ويا كبدى صَبْراً على ما كواكِ به

وواضح أنه قصد إلى الجناس قصدا فى قافيتى البيتين ، فكلمه «كواكبه» فى البيت الأول لا تنقص عنها شيئاً كلمه «كواك به» . وهذا هو البديع الذى يشير إليه مادحه . إذ شُغف الإيرانيون أو قل كثير منهم بصنعة الجناس ، حتى ليروى الثعالبى فى يتيمته أن شاعرا يسمى أبا حفص عمر بن على المطوّعى ألف فى أجناس التجنيس كتابا ، ويقول الميكالى :

أنكرتِ من أدمعى تَتْرَى سوَاكبُها
سَلِى جُفونىَ هل أبْكِى سواكِ بها

والبيتان خفيفان فى موسيقاهما ، ولكنه أثقلها بهذا الجناس المتعمد فى القافيتين : « سواكبها » و « سواك بها» . وقد يجعل الجناس بين كلمتين فى البيت الواحد كقوله :

وأصْداغهُ يَلْسَعْنَنى كالعَقاربِ وألحاظُه يَفْعَلْنَ فعلَ العُقَارِ بى

وقوله :

ألا ليت الجوابَ يكون خَيْراً فَيْشفِى ما أحاط من الجَوَى بِى

والعقارب الأولى فى البيت الأول : جمع عقرب ، والعقار فى نهاية البيت : الخمر ، والجوى فى نهاية البيت الثانى : حُرقة الوجد ولوعته ، وقد أضاف إليها كلمة « بى » ليتم له الجناس بين آخر البيت وكلمة الجواب فى أوائله ، ويقول :

ظَبْىٌ يَحارُ البَرْقُ فى بَرِيقهِ غَنيتُ عن إبريقهِ بريقهِ
فلم أزل أَرْشُفُ من رَحِيقهِ حتى شفيتُ القلب من حَرِيقهِ

وقد أدخل على كلمة « ريقه » وهو رُضاب الفم الباء ليتم له الجناس بين نهايتى الشطرين المتقابلين ، والجناس فى البيت الثانى أكثر قبولا إذ جانس بين « رَحِيقه » و « حريقه » لتداخل الصورة معه ولأن الجناس ليس تاما ، فالتكلف فيه يبدو أقل قليلا ، ويقول :

شافَهَ كَفِّى رَشأٌ بقبلةٍ ما شَفَتِ
فقلتُ إذ قَبَّلها يا ليت كفىَّ شَفَتى

والجناس مقبول فى البيت الثانى ، وربما الذى جعله مقبولا أن كلمة «كفىٍّ» هَيَّأت له واستدعته ، فخفَّ التكلف فيه ، ولم تمجّه النفس ، ومثله قوله :

ماذا عليه لو أباحَ رِيقَهُ   لقلبِ صَبٍّ يَشْتَكى حَرِيقَهُ

والجناس هنا بين «ريقه» و«حريقه» مقبول لأنه ليس جناسا تاما يبدو فيه القصد والتكلف ، وكأنه جناس طبيعى استدعاه الكلام ، وقارنْ ذلك بقوله :

صَدَفَ الحبيبُ بوَصْلهِ   فجفَا رُقادى إذ صَدَفْ
ونثرتُ لُؤْلُؤَ أدمعٍ   أَضْحَى لها جَفْنى صَدَفْ

فقد جانس بين قافيتى البيتين باستخدامه كلمة «صدف» الأولى بمعنى أعرض ، والثانية بمعنى غشاء اللؤلؤة ، والتكلف شديد الوضوح . وكثيرون غيره من معاصريه كانوا يذهبون مذهبه فى هذا الجناس الثقيل الذى كثيرا ما تقابل فيه كلمتان كلمة واحدة ، ويقرب منه فى هذا التصنع بل ربما زاد عليه وأربى أبو الحسن أحمد(١) بن المؤمل ، وقد روى له منه الثعالبى أبياتا كثيره فى الغزل وغير الغزل . وللميكالى وراء غزله أشعار فى وصف الطبيعة وفى الإخوان ، وله مداعبات ، ولا يخليها أيضا من تصنعه ، كقوله :

فَتىً سَخِطَ النَّصْبَ فى قِدْرِه   كما رَضِيَ الخَفْضَ فى قَدْرِهِ

وقد تصنع لذكر النصب والخفض المعروفين فى النحو ، وأراد أنه لا ينصب قدره ولا يدع فيها شيئا يطبخ ، كما رضى بالدون فى قدره فلا كرم له ولا همة . ومن طريف ما روى له الثعالبى قوله :

كم والدٍ يَحْرِمُ أولادَهُ   وخَيْرُهُ يَحْظَى به الأَبْعَدُ
كالعَيْنِ لا تبصِرُ ما حولها   ولَحْظُها يُدْرِك ما يَبْعُدُ

ولعل فيما قدمنا ما يدل على شاعرية أبى الفضل الميكالى ، ولو لم يثقلها بكلف الجناسات لبدا خِصْبُها واضحا ، إذ كان غزير المعانى والصور . وليس من ريب فى أن إعجاب الشعراء والأدباء من حوله بجناساته هو الذى جعله يبالغ فى ذلك ويغلو فيه .

٢

شعراء اللهو والمجون

كان شعر اللهو والمجون منتشرا فى إيران طوال العصر ، إذ كان هناك من ينغمسون فى الملاهى والخمور إما لتحلل الأخلاق وإما هروبا من مآسى الحياة وما فيها من اضطراب

(١) انظر ترجمته فى اليتيمة ٤/١٤٨ .

القيم ، وكان يتورط فيها كثيرون من رجال الدولة : سلاطينها ووزرائها . ومرت بنا أبيات لعضد الدولة فى غير هذا الموضع يقول فيها إن متاع الحياة إنما هو الشرب فى المطر وغناء الجوارى فى السحر . وكان وزراؤه على شاكلته يعكفون على الخمر ويتغنون بها فى أشعارهم من مثل قول الصاحب بن عباد فى وصف كأس مملوءة بالخمر (١) .

رَقَّ الزجاجُ وراقَتِ الخمرُ ... وتشابها ، فتشاكلَ الأَمْرُ
فكأنما خمرٌ ولا قَدَحٌ ... وكأنما قدحٌ ولا خَمْرُ

وكان كثيرا ما يحاكى الصَّنَوْبرى فى ثلجياته أو بعبارة أخرى فى ذكره الخمر مع الثلج ونزوله فى الشتاء القارس وفى ذلك يقول (٢) :

أقبلَ الثلجُ فانْبَسِطْ للسرورِ ... ولشُرْب الكبير بعد الصغيرِ
أقبل الجوُّ فى غَلائلِ نُورِ ... وتهادى بلؤلؤٍ منثورِ
فكأنَّ السماء صاهرتِ الأرْ ... ضَ فصار النِّثارُ من كافور

وكأنما يتصور الدنيا تجلو عروسا . وتتكاثر هذه الثلجيات عند غيره من شعراء العصر ، فقد أكثروا من وصف شرب الخمر واحتسائها فى أيام الثلج وزَمْهريره ، ومعروف أن العكوف على الخمر قديم فى إيران منذ أعتق عصورها ، وظل ذلك طوال الحقب ، ويقول أبو عبد الله الروزبارى (٣) :

ما لابْنِ هَمٍّ سوى شُرْبِ ابنةِ العِنَبِ ... فهاتها قهوةً فَرَّاجةَ الكُرَبِ
أَدْهِقْ كئوسَك منها واسْقِنِى طرباً ... على الغيوم فقد جاءتْك بالطَّربِ (٤)
نِثارُ غَيْثٍ حكى لونَ الجُمان لنا ... فاشربْ على منظرٍ مستحسنٍ عَجَبِ
جاد الغَمامُ بدمعٍ كاللُّجَيْنِ جَرَى ... فجُدْ لنا بالتى فى اللون كالذهب

فهى فرحتهم ومسرتهم فى دنياهم ، وهم يعبُّون منها أرطالا تلو إرطال حين يكفهر الجو بالسحب ، لما تبعث فى النفوس من طرب فى أيام الشتاء المفضَّضة ، التى تتناثر فيها الأمطار ، وكأنها نِثار عرس مفرح ، نثار فضىّ مبهج ، ويقول أبو المظفر ناصر بن منصور البُسْتى المعروف بالغزّال (٥) :

وإذا الهمومُ تطاولتْ فاطلبْ لها ... عَيْشاً هنيئاً بانتزاعِ مُدَامِ
صَهْباء تَسْطَعُ فى الكئوس كأنها ... نارٌ تجيشُ بوقدةٍ وضِرام
من كفِّ سَاقٍ لو سقاك بكفّه ... سَماً لكان شِفاً لكل سَقَامِ

(١) النجوم الزاهرة ٤/١٧١ .
(٢) اليتيمة ٣/٢٦١ .
(٣) اليتيمة ٣/٤١٦ .
(٤) أدهق : املأ .
(٥) الدمية ٢/٣٥٨ .

وكأنها معصورةُ من خَدِّهِ ... إذ ظَلْتَ تَرْمقهُ بِلَحْظٍ سامِ

وأبو المظفر يريد أن يعيش حياته لتناول الكئوس التى تلهب فؤاده ، من كف ساق يقدم له بها ما يشفى سقامه ، ويتخيلها كأنما عصرت من خدود جميلة ، وهو يكبّ عليها غير محتشم ولا مفكر فى رشاد ، فحسبه الخمر وحسبه احتساؤها ، وليكن من الإثم ما يكون ! ودائما تلقانا هذه الخمريات فى تراجم الشعراء ، إذ كان يتورَّط فيها كثيرون من مثل عمر الهرندى القائل [1] :

لا أحبُّ المُدامَ إلا العَتِيقا ... ويكونُ المزاجُ من فيكِ رِيقا

إنَّ بين الضلوع منىَ ناراً ... تتلظَّى فكيف لى أن أُطيقا

بحياتى عليك يا مَنْ سقانى ... أرحيقاً سقيتنى أم حريقا

فبين ضلوعه نار متقدة لا يشفيها إلا الخمر وهو يعكف عليها ، ولا يدرى أحريق هى أم رحيق لأنها تدفعه دائما إلى المزيد ، بحيث لا يستطيع أن ينصرف عنها ، إذ تأخذ عليه طريقه . وإنها لتظل تملؤه حُبًّا لها وشوقا لارتشافها ، وهو يرتشف ولا يدرى أيرتشف رحيقا أو نارا أو قل أيرتشف شرابا هنيئا أو سُمًّا زعافا ، وهو ممعن فى الشرب متعلق به ، لا يستطيع فكاكا منه ولا خلاصا . وكانت للخمر مواسم عندهم هى الأعياد الفارسية والمسيحية ، ففى عيد الشَّعانين وفى أعياد النَّيروز والمهرجان والسَّذَق أو النار المجوسية يشربون منها ويعبُّون فى احتفالات صاخبة . وكانوا يشربونها كثيرا وسط الرياض ، ولذلك يكثر عندهم معها وصف الطبيعة والربيع البهيج . وتلقانا فى أثناء ذلك أبيات طريفة من مثل قول أبى منصور قَسيم بن إبراهيم ، وكان ينظم باللسانين العربى والفارسى [2] :

وحُجِّبَ فى الثلج الربيعُ وحُسْنُهُ ... كما اكتنَّ فى بَيْضٍ فِراخُ الطَّواوسِ

وكانوا يخرجون أحيانا للصيد والطَّرَدِ ، ولأحمد بن عضد الدولة طردية بديعة [3] . ونعجب لألفاظ الفحش والمقاذر التى نجدها عند بعض الشعراء ، وهو جانب أشاعه فى العصر ابن الحجاج الشاعر البغدادى المتوفى سنة ٣٩١ ومواطنه ابن سكرة . ويلاحظ ذلك صاحب الدمية حين يترجم للمشطَّب الهمَذانى ، فيقول : « له أشعار سخيفة نسج فيها على منوال ابن الحجاج [4] » ويذكر منها قصيدة مليئة بالفحش ، وحتى الصاحب بن عباد الوزير الوقور تجرى أمثلة من هذا الفحش على لسانه فى أشعاره [5] . وهى وصمة لا

(١) اليتيمة ٣ / ٤١١ .
(٢) تتمة اليتيمة ٢ / ٤٥ .
(٣) اليتيمة ٢ / ٢٢١ .
(٤) الدمية ١ / ٥٧٢
(٥) اليتيمة ٣ / ٢٧٢ - ٢٧٥

شك فيها . وحسبنا الآن أن نعرض شاعرين من شعراء الخمر والمجون فى العصر هما أبو بكر القهُستانىْ وأبو الحسن الباخرزىّ .

أبو بكر[١] القُهُسْتانىّ

هو على بن الحسن القُهُسْتانى من قرية رُخَّج من قرى كابُل ، بزغ نجمه فى دولة السلطان محمود الغزنوى ، إذ سلكه بين ندمائه ووظفه فى دواوينه ، واتصل بابنه محمد ، وأصبح رئيسا لديوانه فى أثناء ولايته لأبيه على خوزستان ، وكان ممدَّحا ، مدحه كثيرون منهم الباخرزى والفَرُّخى السجستانى الشاعر الفارسى المشهور ، وكان يمدح بدوره الأمير محمد الغزنوى ، بمثل قوله :

محمدُ بنُ محمودٍ أبو أحـ ـمَدٍ مَوْلَى أميرِ المؤمنينا
جلالُ الدولةِ العَلْياء دُنْيا جمالُ المِلَّة الغَلْباء دينا
ولىُّ العهدِ عهدِ المُلْك طُوبىَ لنا إذ ظَلَّ ظِلُّ الله فينا

وهو يشير إلى تولية السلطان محمود لابنه محمد ولاية العهد من بعده دون أخيه مسعود . وتُعَدُّ الفترة التى قضاها معه أزهى فترات حياته ، فقد كان يحس بإقبال الدنيا عليه ، وخاصه حين كان يتولى قيادة جيوشه . وقد تحول بمجلسه فى ديوانه إلى ندوة أدبية كبيرة كان ما ينى يمزح فيها وفى مجالس أميره بإنشاد بعض الألغاز المعَمَّاة وامتحان الأدباء والندماء فيها من مثل قوله :

دقيقةُ الساقِ لا عروقَ لها تَدوسُ رزقَ الوَرَى بهامَتِها

وهو لغز أراد به مغرفة الباقلاَّنى يغرفُ بها الماء ويهشم برأسها الخبز والثريد وهو رزق الورى . وتكثر هذه الألغاز منذ فاتحة العصر ، ونراها مبثوثة فى كتاب اليتيمة فى أشعار ابن العميد وغيره ، وكأنها دعابات كانت تطفو فى مجالس الأدباء والوزراء . ويتولى محمد مقاليد الحكم بعد أبيه سنة ٤٢١ غير أن أخاه مسعودا يسلبه منه كما مَرَّ بنا فى غير هذا الموضع . ونرى القهستانى يترك بلاط الغزنويين ودواوينهم إلى بغداد ، فيمدح الخليفه القادر بالله (٣٨٢ - ٤٢٤ هـ) قائلا :

ولم يرنى ذو مِنَّةٍ غَيْرُ خالقى وغيرُ أميرِ المؤمنين ببابهِ

ويمدح وزيره وكاتبه أبا طالب بن أيوب ، كما يمدح المرتضى نقيب الشيعة ويبدو أنه

(١) انظر فى القهستانى تتمة اليتيمة ٧٣/٢ ودمية القصر ٢١١/٢ ومعجم الأدباء ٢١/١٣ وحدائق السحر فى دقائق الشعر (نشر الدكتور إبراهيم أمين) ص ١٠٠ .

ظل ببغداد إلى نهاية العقد الثالث من القرن الرابع ، حتى إذا استولى السلاجقة من السلطان مسعود الغزنوى على خراسان سنة ٤٣١ وضع يده فى أيديهم إلى أن توفى . ولا تُعْرَفُ بالضبط سنة وفاته . وكان مثقفا ثقافة واسعة ، إذ يقول القدماء إنه عُنِى بتحصيل علوم الأوائل حتى اتهمَّه بعض معاصريه بالمروق من الدين . ويقول ياقوت إنه كان كثير المُزاح ، راغبا فى اللهو والمِراح ، وله فى ذلك خاطرٌ وَقَّاد وحكايات متداولة . وله خمريات بديعة ، كان يتغنى فيها المغنون بحضرة الأمير محمد الغزنوى من مثل قوله :

قُمْ يا خليلى فاسْقِنِى كشُعاع خَدِّك من شرابِ
فلقد يَمُرُّ العيش مُنْ قَرِضاً ولا مَرَّ السَّحاب
فانعَمْ بعيشك ما استطعْ تَ ولا تُضِعْ شَرْخَ الشبابِ
فلكم أضعتَ من الشبا ب وما استفدتَ سوى اكتئابِ

وهو يدعو صديقه دعوة حارة إلى الشراب ، قبل أن يفنى عمره الذى يمر مُسْرِعاً مرَّ السحاب ، وقبل أن تذيل زهرة شبابه ، وكم أضاع من أيام الشباب ، ولم يفد – كما يقول – سوى الاكتئاب والغم والحسرات ، ويهتف به ثانية :

تمتَّعْ من الدنيا فأوقاتُها خُلَسْ وعُمْرُ الفتى - مُلِّيتَ - أطولُه نَفَسْ
وسارعْ إلى سَهْمٍ من العيش فائز فما ارْتَدَّ سَهْمٌ قَطُّ يوما ولا احْتَبَسْ
ولا تتقاضَ اليوم هَمَّ غَدٍ ودَعْ حديثَ غَدٍ فالاشتغالُ به هَوَسْ
هىَ الرُّوحُ كالمصباح والرَّاحُ زَيْتُها فدونك عَنِّىَ إنما الرَّأىُ يُقْتَبَسْ

وهى دعوة ملتهبة لانتهاز فرصة الشراب ، فليس فى الدنيا وراءه – فى رأيه – نعيم ولا متاع ، ودَعْك من الهموم كما يقول ، ودع التفكير فى الغد . وهى نفس النغمة التى نجدها فى رباعيات الخيام الفارسية ، فالحياة فانية ، وهى سريعة الفناء ، وعلى الإنسان أن يتدارك يومه ، بل اللحظة التى هو فيها ، ليشرب وينعم بالشراب ، إذ هو زيت الروح ، بدونه تنطفئ وتظلم ، وبه تضيىء ضوء الفرح والبهجة والمرح . ودائما تلقانا هذه الخمريات البهيجة عند القهستانى وأنداده من شعراء إيران ، وإنه ليعلن دائما أنه سيظل ما عاش يشرب الخمر صفوا . وله وراءها غزليات وأهاج فى الوزير الميمندى كاتب السلطان محمود الغزنوى وبعض معاصريه ، وله بعض مقطوعات كان يتصنع فيها للجناس ما وسعه التصنع كمقطوعته :

تمتَّعْ بيومٍ مُسْعِدِ النُّجْح مُسْعِفِ ودَعْ قولَ لاحٍ مُعْنتِ النُّصْح مُعْنِفِ

وهى مليئة من بدايتها إلى نهايتها بمثل هذه الجناسات ، وأيضا كان يقتبس كثيرا بعض

الآيات القرآنية كقوله فى بعض مديحه :

سما بكَ من فوق السمواتِ رُتْبَةً أبٌ لكَ يدعو اللهَ فى السِّرِّ والجَهْرِ
كما قد دعَا موسى لهرون ربَّهُ أن (اشْدُدْ به أَزْرِى وأَشْرِكْهُ فى أمرِى)

ولا ريب فى أنه كان شاعرا بارعا ، كما كان كاتبا نابها دُوِّنت رسائله كما دُوِّنت أشعاره ، ويقول ياقوت : « له أشعار فائقة ، ورسائل رائقة » .

أبو الحسن [1] الباخَرْزِىّ

له كنيتان أبو الحسن وأبو القاسم ، واسمه على بن الحسن بن على بن أبى الطيب ، من باخَرْز ، من نواحى نَيْسابور ، ونراه يُعْنَى فى شبابه بالاختلاف إلى حلقات العلماء بنيسابور . ويُكِبُّ على الاشتغال بالفقه على مذهب الإمام الشافعى ، ويختص بملازمة دروس الفقيه المشهور لعصره أبى محمد الجُوَيْنى والد إمام الحرمين . ويتجه إلى فن الكتابة . ويوظَّف فى ديوان الرسائل لدى الغَزنويين ، وحين يرتفع نجم السلاجقة نراه يرحل إليهم ويشتغل فى دواوينهم ، إذ يصبح كاتبا للسلطان « طُغْرُل » وله فيه مدائح بديعة من مثل قوله :

سِرْنا ومرآة الزمانِ بحالها فالآن قد مُحقتْ وصارتْ مِنْجَلاَ
تَخِدُ الرِّكابُ فلا تعوجُ بنا على طَلَل الحبيب ولا تُحَيِّى المنزلا [2]
وتحرِّك الأعطافَ تَشْميرا بنا تتيمَّم الملكُ المظفَّر طُغْرُلا

وقرَّبه منه الوزير الكُنْدرى ، وكانا يتعارفان فى شبابهما ، ويبدو أنه هو الذى وصله بطغرل ، وكان يلازمه فى حله وترحاله ، فلما ورد بغداد صحبه معه ، وفيها مدح الخليفه القائم بأمر الله سنة ٤٥٥ بقصيدته التى صدَّر بها ديوانه مفتتحاً لها بقولــه :

عِشْنا إلى أن رأينا فى الهوى عجباً كلَّ الشهور وفى الأمثال عِشْ رَجَبا
أليس من عجبٍ أنى ضُحَى ارتحلوا أو قدتُ من ماءِ دمعى فى الحشَا لهَبا
وأنَّ أجْفان عينى أمطرتْ وَرِقاً وأن ساحة خَدِّى أنبتتْ ذَهَبا
وإنْ تَلَهَّبَ بَرْقٌ من جوانبهم توقَّد الشوق فى جَنْبَىَّ والتَهبا

ولما سمع البغداديون شعره استهجنوه وقالوا فيه برودة العجم ، لما لاحظوا فيه من تكلف

---

(١) انظر فى الباخرزى كتاب الأنساب ٥٧ ب ومعجم الأدباء ٣٣/١٣ وابن خلكان ٣٨٧/٣ والنجوم الزاهرة ٩٩/٥ والسبكى ٢٥٦/٥ واللباب ٨٣/١ ومرآة الجنان ٩٥/٣ وشذرات الذهب ٣٢٧/٣ وبراون (ترجمة الشواربى) ص ٤٥١ .

(٢) تخد : تسرع . تعوج : تميل

وتصنع ، على نحو ما نرى فى البيت الأول إذ حاول أن يستغل المثل : «عِشْ رَجَبا تَرَ عَجَباً» فقال إن شهور الممدوح كلها عجيبة ، ومضى فى تصنعه ، فماء دموعه يوقد جحيما فى حشاه وأجفان عينه تمطر ورقا أو دموعا كالفضة الصافية ، بينما تنبت ساحة خده حين الوداع ذهبا . وحين رأى البغداديين يستبردون أشعاره انتقل إلى الكَرْخ وسكنها وخالط فضلاءها وسُوقتها مدة ، واقتبس من لغتهم وظَرْفهم ، ثم أنشأ قصيدة استهلها بقوله :

هَبَّتْ علىَّ صَباً تكاد تقولُ ... إنى إليك من الحبيب رسولُ
سَكْرَى تجشَّمتِ الرُّبَى لتزورنى ... من عِلَّتى وهُبُوبُها تعليلُ

فاستحسنها البغداديون ، وقالوا تغير شعره ورقَّ طبعه . وظلَّ ملازما الكندرى فى مدينة الرَّىِّ عاصمة طغرل عاملا فى دواوين الدولة ، ومقدما له مدائح كثيرة ، إلى أن قبض السلطان ألْب أرسلان على الكندرى وأمر بقتله ، وله مرثية فيه غير أنه يشيد فيها بقاتله ، مما جعل القدماء يأخذون عليه عدم الوفاء . ويبدو أنه أخذ يُعْنَى منذ ذلك بتأليف كتابه دمية القصر الذى نرجع إليه كثيرا ، مذيِّلا به على يتيمة الدهر للثعالبى ، كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع . واستقال من عمله فى دواوين السلاجقة وأخذ يعيش عيشة لاهية ماجنة انتهت بمقتله فى إحدى ليالى أنسه سنة ٤٦٨ للهجرة . وكان ينظم ، باللسانين العربى والفارسى ، وله فى الفارسية قصيدة طويلة جعل عنوانها «طرب نامه» أو رسالة الطرب ، وهى مؤلفة من رباعيات فارسية تتوالى بحسب الترتيب الهجائى للحروف . وكان ما يزال يحاول النفوذ إلى معان وصور غريبة نادرة ، من ذلك قوله يصف شدة البرد وزمهريره .

كم مؤمنٍ قَرَصَتْهُ أظفارُ الشِّتا ... فغدا لسُكَّان الجحيم حَسُودا
وترى طيورَ الماء فى وُكناتها ... تختار حَرَّ النار والسَّفُّودا
وإذا رميتَ بفضل كأسك فى الهوى ... عادتْ عليك من العقيق عُقودا
ياصاحبَ العودين لا تُهمِلْهما ... حَرِّق لنا عودا وحَرِّك عودا

والصور فى الأبيات تقوم على المبالغة الشديدة ، فالمؤمن يحسد سكان الجحيم والطيور تؤثر لو تُشْوَى على السفود . ولو رميتَ فى الهوى بفضل الكأس لتجمدت حبات الخمر وأصبحت عقودا . وينادى على المغنى أن يحرك عود طرب للغناء ويحرق عود حطب للصِّلاء . وله غزليات رقيقة من مثل قوله :

قالتْ وقد ساءلتُ عنها كلَّ مَنْ ... لاقيتهُ من حاضرٍ أو بادِى
أنا فى فؤادك فارْمِ طَرْفك نحوه ... تَرَنِى فقلتُ لها وأين فؤادى

ففؤاده ليس عنده ، بل هو عندها ، إذْ ضاع منه ، وهى التى تعرف مكانه ، وماذا

عليها لو ردته إليه ، وله من جملة أبيات :

بصورة الوَثَن استعبَدَتْنِى وبها فَتَنَتْنِى وقديما هِجْت لى شَجَنا
لا غَرْوَ أن أحرقتْ نارُ الهَوى كبدِى فالنارُ حَقٌّ على من يَعْبُدُ الوَثَنَا

والصورة طريقة غير أنه يداخلها شيىء من التكلف ، إذ حاول أن يعلل لحرق نار الهوى لكبده بأن صاحبته استعبدته بصورة الوثن ، وكأنه عَبَد وَثَناً وحقَّت عليه النار ، ولم يكن فى حاجة إلى إيراد هذه العلة وتكلفها على هذا النحو ، فنار الهوى تحرق أكباد الشعراء من قديم ، ولعل الصورة التالية أكثر تكلفا إذ يقول فى غزله :

زكاةُ رءوسِ الناس فى عيدِ فِطْرهم يقول رسولِ الله –صاعٌ من البُرِّ
ورأسُكِ أغلى قيمةً فتصَدَّقى بفيك علينا فهْو صاعٌ من الدُّرِّ

فقد وضع صورة الزكاة فى عيد الفطر ومايجب على كل مسلم من تصدقه بصاع من البُرّ أو القمح فى هذا العيد ، ليصل إلى أن صاحبته ينبغى أن تتصدق عن نفسها لا بصاع من البر وإنما بصاع من الدُّرِّ ، يريد ثغرها وما فيه من دُرِّالأ سنان . والصورة فى غاية التكلف . وتكثر مثل هذه الصور منذ مطالع هذا العصر ، وكأنما أخذ يُعْيِى الشعراء أن يأتوا بصور طبيعية أوكأنما أحسُّوا أن أسلافهم استنفدوها ، فأخذوا يحاولون الإتيان بهذه الصور الغريبة المبعدة فى الغرابة من مثل قول الباخرزى أيضا لبعض صواحبه :

وأبكى لدُرِّ الثَّغْر منكِ ولى أبٌ فكيف يُديم الضِّحكَ وهْو يتيمُ

فهو يبكى لأنها لا تنيله شيئا ، ويعجب أن يبكى وله أب ، بينما ثغرها يضحك ، وهو يتيم . والتورية واضحة ، فالمعنى المتبادر أنه لا أب لهذا الثغر ، وهو يريد أنه منقطع النظير حسنا . والتكلف فى البيت أو قل فى الصورة شديد الوضوح .

٣

شعراء الزهد والتصوف

لا شك فى أن موجة المجون وما اتصل بها من لهو وخمر كانت موجة محدودة ، حتى لتكاد تكون قاصرة على البيئات المترفة ، أما بيئات الشعب العامة فلم تكن تعرف الترف ولا ما يستتبعه من الخمر والمجون ، إنما كانت تعرف قسوة الحياة وشظفها مستعينة عليها بتقوى الله والاستماع إلى الوعاظ فى المساجد بِنَيْسابور وغير نيسابور وما يدعون إليه من الزهد فى الحياة ومتاعها الزائل وانتظار ما عند الله من ثواب ونعيم فى الدار الآخرة . وكان هؤلاء الوعاظ كثيرين كثرة مفرطة ، وكانوا يسمُّون مجالس وعظهم مجالس التذكير ، يذكِّرون

الناس بالمحشر وما فيه من أهوال وبعذاب النار ونعيم الجنان ، موردين عليهم من قصص الأنبياء والأمم السالفة ما يملأ قلوبهم إيمانا وتقوى وورعا . وكانت العامة تُشْغَفُ بهم ، وتستدير حول مجالسهم منيبة إلى الله مغذِّيةً مشاعرها وعواطفها بما تسمعه من مواعظهم . وكان نفر من كبارهم مثل أبى عثمان الصابونى شيخ الإسلام بنيسابور المتوفى سنة ٤٤٩ ، وكان يعظ الناس بالعربية والفارسية لمدة ستين سنة متوالية [١] ، وطبيعى أن يشعر مع هذا الوعظ شعر الزهد على ألسنة الوعاظ والفقهاء والنسَّاك ، فهو الشعر الذى تهوى إليه أفئدة الشعب ، ولذلك مضى ينظمه غير شاعر حتى يستولى على ألباب سامعيه ، وتلقانا فى العصر مواعظ كثيرة ، من مثل موعظة أبى الفرج الساوى حين توفى السلطان فخر الدولة البويهى ، فقد نفذ من موته إلى صنع موعظة طريفة استهلها بقوله [٢] :

هىَ الدنُّيْا تقولُ بملءِ فيها ... حَذارِ حذارِ من بَطْشِى وفَتْكى
فلا يغرركمُ حُسْنُ ابتسامى ... فقولى مضحكٌ والفعلُ مُبْكى
بِفَخْر الدولة اعْتَبِروا فإنى ... أخذتُ المُلْكَ منه بسيفِ هُلْك
وقد كان استطالَ على البَرَايا ... ونظَّم جمعهم فى سِلْك مُلْكِ
فلو شمسُ الضُّحَى جاءتْه يوماً ... لقال لها عُتُوًّا : أُفٍّ منكِ
ولوزُهْرُ النُّجومِ أبتْ رِضاه ... تأبَّى أن يقول : رضيتُ عنكِ
فأَمْسَى بعد ما قَرعَ البرايَا ... أسيرَ القَبْر فى ضِيقٍ وضَنْكِ
وظنىٍّ أنه لو عاد يَوْماً ... إلى الدُّنْيا تَسَرْبَلَ ثَوْبَ نُسْكِ

ومضى يتخذ من موت هذا السلطان الباغى عبرة وعظة ، فلو أنه عاد إلى الدنيا لطأطأ من كبريائه وعتوِّه وظلمه بل لرفض الدنيا زاهدا فيها مؤثرا أن يعيش عيشة النُّسَّاكِ . وفى كِتاب اليتيمة شاعر يسمى أبا محمد إسماعيل بن محمد الدهان ، كان يشغل نفسه حقبة بمديح الأعيان والوجهاء ، ثم آثر الزهد والإعراض عن الدنيا ، ويُورد الثعالبى أطرافا من شعره الزاهد [٣] من مثل قوله :

عَبْدٌ عَصَى ربَّه ولكنْ ... ليس سوى واحدٍ يقولُ
إن لم يكن فِعْلُهُ جميلا ... فإنما ظَنُّه جَميلُ

(١) انظر ترجمته فى الأنساب ٣٤٦ وطبقات المفسرين للسيوطى وتتمه اليتيمة ٢/١١٥ والسبكى ٤/٢٧١ .
(٢) اليتيمة ٣/٣٩٣ .
(٣) اليتيمة ٤/٤٣٢ .

وهو يصوِّر فناء الإنسان السريع وخوفه من ربه ورجاءه فى لطفه ، ويذكر الثعالبى أنه لما أزمع الحج وزيارة قبر الرسول ﷺ ظل ينشد :

أتيتك راجلا ووَدِدْتُ أنى ملكتُ سوادَ عَيْنى أَمْتطيهِ
ومالى لا أسيرُ على المآقى إلى قبرٍ رسولُ اللهِ فيه

ومن شعراء كِتاب اليتيمة الذين شاركوا فى هذا الشعر الزاهد الذى يفوح بالتقوى أبو جعفر البحَّاث الزَّوْزَنى أحد القضاة بخراسان ، وله موعظة طويلة يتحدث فيها عن الشباب ورحيله والمشيب ونزوله ، ويقف بإزاء الزمان وما يدير على الناس من كئوس شراب هنئ وشراب بغيض مرير ، ويفيض فى الحديث عن الحياة والموت وكيف أتى على الملوك والحشم والجيوش وربات الخدور والحسان ، ويسخر من الأغنياء حين يموتون فإن ورثتهم يستبشرون بموتهم ، وكل منهم يصبح فى شغل بميراثه ، يقول[1] :

سباعٌ حَواليه زُرْقُ العيونِ كلابٌ وأُسْدٌ وذئبٌ أَزَلُّ[2]
فهذا يجاذب ما قد حواهُ وهذا يُخالسهُ ما فضَلْ
إذا وضعوه على نَعْشِهِ أشاعوا البُكا وأسرُّوا الجَذَلْ[3]
وإن دفنوه نَسوهُ مَعاً وكلٌّ بميراثهِ مُشتَغِلْ

ويبكى أبو جعفر بدموع غزار على شبابه وما صار إليه من وهن العظم واشتعال الشيب فى رأسه ، ويتوب إلى ربه منيبا مستغفرًا . ويلقانا هذا الشعر الزاهد على ألسنة كثير من الشعراء فى كتاب دمية القصر ، وخاصة منهم القُصَّاص الوعاظ ، وكان طبيعيا أن يفسح هؤلاء الشعراء لمديح الرسول عليه السلام ، وعم هذا الشعر الزاهد بين شعراء المحدِّثين والفقهاء. وللزمخشرى ديوان لا يزال محفوظا بدار الكتب المصرية وهو ملىء بالأدعية والابتهالات وطلب الشفاعة من الرسول عليه السلام . وللغزالى بدوره أشعار زهدية كثيرة وقد ينزع بها منزع المتصوفة السنيين على شاكلة قوله[4] :

سَقمى فى الحبِّ عافيتى ووجودى فى الهَوى عَدَمى
وعذابٌ يَرْتضون بهِ فى فَمى أحلَى من النَّعَم
ما الضُرُّ فى محبتكم عندنا واللهِ مِنْ أَلَمِ

(١) اليتيمة ٤ /٤٤٥ .
(٢) ذئب أزل : ذئب يتولد بين الضبع والذئب .
(٣) الجذل : الفرح .
(٤) انظر ترجمة الغزالى فى السبكى ٦ /٢٢٢ .

وللفخر الرازى المار ذكره أشعار زهدية طريفة ، وكان علامة فى علم الكلام والتفسير والحديث والشرعيات وعلوم الأوائل ، وله فى جميعها مؤلفات كثيرة . وكان فى الوعظ آية ، وكان يحضر مجالسه أرباب المذاهب والمقالات فى هراة ، وكان يعظ باللسانين العربى والعجمى وكان يلحقه الوجد فى الوعظ ويكثر من البكاء ، ويشتهر له قوله[1] :

نهايةُ إقدامِ العقولِ عِقالُ ... وأكثرُ سَعْيِ العالمين ضَلالُ
وأرواحُنا فى وَحْشةٍ من جُسومنا ... وحاصلُ دُنْيانا أَذًى ووَبالُ
ولم نَسْتَفِد من بَحْثنا طولَ عُمْرنا ... سوى أنْ جَمَعْنا فيه قِيلَ وقالوا
وكم قد رأينا من رجالٍ ودولةٍ ... فبادوا جميعاً مسرعين وزالوا
وكم من جِبالٍ قد علتْ شُرُفاتِها ... رجالٌ فزالوا والجِبالُ جِبالُ

فكل ما فى الحياة حتى العلوم عبثٌ وضلال ، وما الدنيا ؟ إننا لا نجنى منها سوى الأذى والوبال ، وسوى العدم والفناء الذى يحيط بالناس جميعاً وبالدول مهما عظم سلطانها ، فمآلها إلى زوال . ومن كبار الشعراء الفقهاء الزهاد الإمام الرافعى القَزْوينى الفقيه الشافعى المشهور المار ذكره المتوفى سنة **٦٢٣** وكان له مجلس فى قزوين لسماع الفقة والتفسير والحديث النبوى ، ومن قوله فى الدعوة إلى الرضا بالحظ المقسوم وحمد الله فى اليسر والعسر دائما أبدا [2] :

إنْ كنتَ فى اليُسْرِ فاحْمَدْ مَنْ حَباك بهِ ... فليس حَقًّا قضَى لكنَّه الجودُ
أو كنْتَ فى العُسْرِ فاحمَدْه كذلك إذ ... ما فَوقَ ذلك مصروفٌ ومَرْدود
وكيفما دارتِ الأيامُ مقبلةً ... وغيرَ مقبلةٍ فالحمدُ محمودُ

وكان يقول : «اعلم أن الناس فى الرضا ثلاثة أقسام : قوم يحسُّون البلاء ويكرهونه ولكن يصبرون على حكمه ويتركون تدبيرهم ونظرهم حبالله تعالى ، لأن تدبير العقل لا ينطبق على رسوم المحبة والهوى ، وقوم يضمون إلى سكون الظاهر سكون القلب بالاجتهاد والرياضة ، وإن أتى البلاء على أنفسهم :

يَسْتعذبون بَلاياهمْ كأنهمُ ... لا يَيْأَسون من الدنيا إذا قُتِلوا

تسُّرهم البلية كما تسرهم النعمة ، وقوم يتركون الاختيار ، ويوافقون الأقدار ، فلا يبقى لهم تلذذ ولا استعذاب ولا راحة ولا عذاب» . وفى ذكر الرافعى لكلمة المحبة ما يدل على أنه كان ينزع بزهده نزعة صوفية . والتصوف كثير فى العصر ولم يكن النظم فيه يقتصر على

(١) ابن خلكان ٤/٢٥٠ والسبكى ٨/٩٦ .
(٢) انظر فى الأبيات وكلام الرافعى التالى السبكى ٨/٢٨٦ وما بعدها

شعراء اللسان العربي ، بل كان يشمل المتصوفة الذين ينظمون باللسان الفارسي ، على شاكلة الشيخ سعدى الشيرازى ، وله أشعار صوفية عربية من مثل قوله[1] .

يا نديمى قم بليلٍ　　واسقِنِى واسْقِ النَّدامَى
خَلِّنى أَسْهَرُ ليلى　　ودَعِ الناسَ نيامَا
فى أوانٍ كشفَ الوَرْ　　دُ عَنَ الوجه اللِّثامَا
قُلْ لمن عَيَّر أهل الـ　　ـحبِّ بالحبِّ ولا ما
لا عرفتَ الحبَّ هيها　　تَ ولا ذُقْتَ الغَرَامَا

وهى خمرية صوفية طريفة . ومرَّ بنا فى الفصل الأول أن المتصوفة فى إيران كانوا يمثلون اتجاهين : اتجاهاً سنيًّا واتجاهاً فلسفياً ، ولعل من الخير أن نقف قليلاً عند شاعرين يمثلان النزعتين ، هما عبد الكريم القشيرى ويحيى السُّهْرَوَرْدِىّ .

عبد الكريم [2] القُشَيْرِىّ

ولد فى قرية أُسْتُوَا بخراسان سنة ٣٧٦ وفيها بدأ تعليمه ، ثم انتقل إلى نَيْسابور حاضرة خراسان العلمية لعصره ، واتفق أن حضر مجلس الصوفى الكبير أبى على الدقَّاق ، فأعجب به وسَلكه بين مريديه ، وأشار عليه بالاشتغال بالعلم والفقه ، فأقبل على دروس أبى بكر الطُّوسى الفقيه الشافعى ، ثم اختلف إلى دروس ابن فُورك حتى أتقن علم الأصول ، كما اختلف إلى دروس أبى إسحق الإسفراينى الفقيه الشافعى المتكلم الأصولى ، ونظر فى كتب القاضى الأشعرى أبى بكر بن الطيب الباقلانى . وسرعان ما أصبح علامة فى الفقه الشافعى وفى التفسير والحديث والأصول والأدب والشعر والكتابة وعلم التصوف وعلم الكلام على مذهب الأشعرى . وزوَّجه الدقاق ابنته حبًّا له ، حتى إذا توفى خلفه فى مجالسه سالكاً مسالك المجاهدة والتجريد ، وأخذ فى التصنيف ، فصنف التفسير الكبير قبل سنة عشر وأربعمائة وسماه «التيسير فى علم التفسير» وهو – كما يقول ابن خلكان – من أجود التفاسير . وخرج إلى الحج فى رفقة ، فيها الشيخ أبو محمد الجُوَيْنى والد إمام الحرمين وأحمد

---

(١) الكشكول لبهاء الدين العاملى (طبعة الحلبى) ٢٦٣/١

(٢) انظر فى ترجمة القشيرى كتاب الأنساب للسمعانى ٤٥٣ ب وتاريخ بغداد ٨٣/١١ وابن خلكان ٢٠٥/٣ ودمية القصر والسبكى ١٥٣/٥ والمنتظم لابن الجوزى ٢٨٠/٨ وإنباه الرواة للقفطى ١٩٣/٢ وشذرات الذهب للعماد ٣١٩/٣ واللباب ٢١٤/٢ والنجوم الزاهرة ٩١/٥ وتبيين كذب المفترى لابن عساكر ٢٧١ وعبر الذهبى ٢٥٩/٣ .

ابن الحسين البَيْهقى وجماعة من المشاهير ، فسمع معهم الحديث ببغداد والحجاز . وعقد لنفسه فى نَيْسابور مجلس الإملاء فى الحديث ومجالس الوعظ منذ سنة ٤٣٧ وقصده الطلاب من كل صَوْب . وذكره الخطيب البغدادى ، فقال : «قدم علينا بغداد فى سنة ٤٤٨ وحدَّث ببغداد وكتبنا عنه ، وكان ثقة ، وكان يقصّ ، وكان حسن الوعظ مليح الإشارة» ويقول الباخرزى واصفاً وعظه : «لو قَرع الصَّخْرَ بصوت تحذيره لذاب ، ولو رُبط إبليس فى مجلسه لتاب» .

وكان يعتنق مذهب الشافعى فى الفقه والفروع ومذهب الأشعرى فى علم الكلام والأصول . وكان يجمع بين الشريعة والحقيقة ، وهو - كما مر بنا فى الفصل الأول - من أوائل من رأبوا الصدع الذى كان قد تفاقم بين المتصوفة وأهل السنة ، وذلك فى رسالته المشهورة التى نقلنا عنها فقرة طويلة فى الفصل المذكور ، والتى وجَّهها إلى الصوفية وأهل السنة ، وخلفه فى هذا الصنيع الغزالى السنى . ولا ريب فى أن له فضلاً كبيراً فى الجمع بين الطرفين المتعارضين وإزالة ما بينهما من خلاف ، بحيث أصبح أداء الفروض الدينية جزء لا يتجزأ من التصوف ، كما أصبح التصوف نتيجة طبيعية للتمسك بتلك الفروض تمسكاً ينتهى إلى النسك والمحبة الإلهية ، دون مغالاة من شأنها أن تدفع بالمتصوف إلى منازع فلسفية تتصل بالحلول وما إلى الحلول من اتحاد بالذات الإلهية . وتلك هى صورة التصوف السنى الذى رفع عماده القشيرى ، وكان شاعراً وله أشعار كثيرة ، تصور تصوفه وزهده من مثل قوله :

وإذا سُقيتُ من المحبّة جُرْعةً ... أَلْقَيْتُ من فَرْطِ الخُمار خِمارى
كم تبتُ قصداً ثم لاحَ عِذَارُهُ ... فَخَلَعْتُ - من ذاك العِذار - عِذارى

والخُمار بضم الخاء بقية السكر والخِمار بكسر الخاء الحجاب . يقول إنه يسكر بنشوة الحب الإلهى ، وإنه إذا أخذ يتناول جرعات تلك الخمر الإلهية رفعت الحجاب بينه وبين محبوبه . وإنه ليتوب ثم تتراءى له شواهده . فيعود ثانية إلى سكره والنشوة بحبه ، أو كما يقول يخلع عذاره كناية عن أنه يتهمك فيه ويقول :

ومَنْ كان فى طول الهوى ذاق سَلْوةً ... فإنِّىَ من لَيْلَى لها غيرُ ذائقُ
وأكثرُ شىءٍ نلتُه من وِصالها ... أمانىُّ لم تَصْدُقْ كَخَطْفةِ بارقِ

فهو لا يسلو هواه ولا يكفُّ عنه ، لأنه هوى يتعمق شغاف قلبه فلا يستطع انفكاكاً عنه ولا خلاصاً منه ، هوى لا يزال يتعثر فى شباكه ، ومع ذلك لا ينال من وصال المحبوب شيئاً إلا أمانى تبدو له كما يبدو البرق الخاطف فى السحاب . ويقول :

سَقَى اللهُ وقتا كنت أَخْلُو بوجْهكم وثَغْرُ الهَوَى فى رَوْضة الأُنْس ضاحكُ
أَقَمْنا زماناً والعيونُ قريرةٌ وأصبحتُ يوماً والجفونُ سوافكُ

وهو يتحدث عن الوصال الذى يذكره المتصوفة هذا الحديث الرمزى ، فقد كان ينعم به زماناً أو قل كان يخيَّل إليه أنه ينعم به ، وكانت تمتلئ نفسه بهجة وفرحة ، غير أنه أصبح يوماً ، فإذا الوصال كان حلماً ، وإنه ليطلبه باكياً بكاء لا ينقطع ، بكاء كله جزع ، وكله لوعة وحسرة . وله وراء ذلك تبتلات طريفة من مثل قوله :

يا مَنْ تقاصَر شُكْرى عن أياديهِ وكَلَّ كُلُّ لِسانٍ عن معاليهِ
وجودُه لم يزل فَرْداً بلا شَبَهٍ عَلاَ عن الوقت ماضيهِ وآتيهِ
لا دَهْرَ يُخْلِقُه لا قَهْرَ يَلْحَقُهُ لا كَشْفَ يُظْهره لا سِتْرَ يُخْفيه
لاعَدَّ يجْمَعُه لاضِدَّ يَمْنعه لاحَدَّ يَقْطعه لا قُطْرَ يَحْويهِ
لاكَوْنَ يَحْصُره لاعَوْنَ يَنْصُره وليس فى الوهم معلومٌ يُضاهيه
جلالُـه أزلىٌّ لازوالَ لـه ومُلْكه دائمٌ لا شىءَ يُفْنِيه

والتبتُّل يقوم على التنزيه الشديد للذات العلية ، وأنه فرد لا شبيه له ، سما عن كل زمن ماض وحاضر ، فلا زمن يحصره ولا دهر ينال منه ، وهو القاهر فوق عباده ، موجود فى كل زمان ومكان ، دون انكشاف ودون حجاب ، ودون حَصْر ، ودون حَدٍّ يطيف به أو مكان يحتويه ، ليس كمثله شىء ، أزلى لازوال لجلاله ولا فناء لملكه . وهو تجريد قوىّ للذات العلية ينفصل به القُشَيْرى وأصحاب التصوف السنى عن أصحاب التصوف الفلسفى وما آمنوا به من الحلول والاتحاد بالذات الإلهية . ويقول :

جَنِّبانى المجونَ يا صاحِبيَّا واتْلُوا سُورَةَ الصَّلاحِ عَلَيَّا
قد أجَبْنا لزاجِرِ العقلِ طَوْعاً وتركنا حديثَ سَلْمَى ومَيَّا
ومَنَحْنا لموجِب الشَّرْع نَشْراً وشَرَعْنا لموجب اللَّهْوِ طَيَّا
ووجدنا إلى القناعة باباً فوضَعْنا على المطامع كَيَّا
كنتُ فى حَرِّ وَحْشَتِى لاختيارى فتعوَّضْتُ بالرِّضا منه فَيَّا[1]
والذين ارْتَوَوْا بكأسِ مُناهم فعلى الصَّدِّ سوف يَلْقَون غَيَّا

وهو يعلن فى الابيات سلوكه فى الطريق ، وكأن الانحراف عن هذا السلوك مجوناً أو يشبه المجون ، وقد لبى عقله ودواعيه وترك اللهو وبواعثه ، فهو يعيش للشريعة المحمدية قانعاً ، زاجراً مطامعه فى متاع الحياة . ويتصور كأنه كان يقضى أيامه قبل تصوفه فى فيافى

(١) فيا : ظلا

وحْشَةٍ شديدة الحرارة ، حتى أفاء عليه التصوف بظلاله الوارفة ، ظلال نهل فيها كئوس المنى ، ومن ينهل منها لا يستطيع أن يفارق مواردها وينابيعها الثرّة أو يصدّ عنها ، لأنها ينابيع الصلاح والرشاد . ومازال القشيرى غارقاً فى هذه المشاعر الصوفية ناعماً بها حتى توفى سنة ٤٦٥ بنيسابور ودفن بجوار شيخه أبى على الدقّاق .

يحيى[1] السُّهْرَوَرْدِىّ

وُلد يحيى بن حَبَش حوالى سنة ٥٤٥ للهجرة بِسُهْرَوَرْد فى الإقليم الإيرانى المعروف باسم إقليم الجبال ، وبموطنه تلقى ثقافته الأولى ، وتركه مبكراً إلى مدينة المراغة ، ثم إلى أَصْفهان حيث درس الفقه وأكبّ فى أثناء ذلك على كتب التصوف والفلسفة . وأعجب بالصوفية فصحبهم وأخذ نفسه بطرقهم فى الرياضة والمجاهدة . وأكثر من الرحيل للقاء العلماء والمتفلسفة والمتصوفة . ومدّ تجواله وترحاله إلى ديار الشام . وكان قد أصبح شيخاً من شيوخ التصوف الفلسفى ، فكان يجادل الفقهاء . واستوت له فلسفة تصوفية إشراقية تعتمد — كما يقول دارسوه — على غنوصية آسيوية ، وخير ما يصور ذلك من كتبه الكثيرة التى بلغت أكثر من أربعين كتاباً مصنَّفه : « حكمة الإشراق » وهو قسمان : قسم خصّ به المنطق الذى يضبط الفكر ضبطاً دقيقاً ، وقسم ثان قصره على الأنوار الإلهية ، عرض فيه لنور الأنوار وحقيقته وما يصدر عنه ، كما عرض فيه للمعاد والنبوات والمنامات . وهو ينقد المنطق والفلسفة نقداً واسعاً ، غير أنه يراهما ضروريين للمتصوف ، حتى يتعانق فى داخله العقل والقلب أو الذوق . ولجّ السهروردى فى نظرية النور وما يقابلها من الظلمة ، وكأنه يتأثر النحل الفارسية من زرادشتية وغيرها فى ثنائية النور والظلمة وتقسيم العالم إلى عالم ظلمة وعالم نور . وفى رأيه أن الموجودات انبثقت عن نور الأنوار بطريق الفيض إلى ما لا نهاية ، ومن ثَمَّ كان يقول بوحدة الوجود وبالحلول الإلهى فى الكون والكائنات . وذهب إلى النبوات لا تنقطع وأن الحكيم الصوفى المتوغل فى تصوفه أفضل وأسمى من الأنبياء . وكان طبيعياً أن يكفِّره الفقهاء فى « حلب » وأن يحملوا الملك الظاهر ابن صلاح الدين على قتله سنة ٥٨٧ للهجرة . ولما تحقق القَتْلَ كان يُنْشد :

(١) انظر فى ترجمة يحيى السهر وردى معجم الادباء لياقوت ١٩/٣١٤ وابن خلكان ٦/٢٦٨ وعيون الأنباء فى طبقات الأطباء ص ٦٤١ وقد خلط ابن أصيبعة بينه وبين الشهاب عمر السهروردى المتصوف البغدادى السنى ، وانظر مرآة الجنان ٣/٤٣٤ ولسان الميزان ٣/١٥٦ والنجوم الزاهرة ٦/١١٤ ودائرة المعارف الإسلامية وتعليق الدكتور محمد مصطفى حلمى على ترجمته فيها وفتاوى ابن تيمية ٥/٩٣ والفلسفة الصوفية فى الإسلام لعبد القادر محمود (طبع دار الفكر العربى) ص ٤٤٠ وما بعدها .

أرى قَدمى أراقَ دَمى وهانَ دَمى فها نَدمى

ولكنه ندم ولات حين مندم . ومن كلامه : حرام على الأجساد المظلمة أن تلج ملكوت السموات ، فوحِّد الله وأنت بتعظيمه ملآن ، واذكره وأنت من ملابس الأكوان عُرْيان ، ولو كان فى الوجود شمسان لانطمست الأركان ، فأبى النظام أن يكون غير ما كان :

وخفيتُ حتى قلتُ لستُ بظاهرٍ وظهرتُ من سَعتى على الأَكْوانِ

والبيت يشير بقوة إلى فكرتى الحلول والاتحاد فى الذات العلية وكان يكثر من ترداد قوله :

لو علمنا أننا ما نلتقى ما قضينا من سُلَيْمَى وَطَرَا

والسُّهْروردى يشير فى وضوح إلى فكرة الشهود المعروفة عند المتصوفة وله شعر صوفى كثير من مثل قوله :

أقول لجارتى والدمعُ جارٍ ولى عَزْمُ الرحيل عن الديارِ
ذَرينى أن أسيرَ ولا تَنُوحى فإن الشُّهْبَ أشْرَفُها السَّوارى
وإنى فى الظلامِ رأيت ضوءاً كأن الليل بُدِّل بالنهارِ
ويبدو لى من الزَّوْراء بَرْقٌ يذكّرنى بها قُرْبَ المزارِ
إذا أبصرتُ ذاك النور أَفْنَى فما أدرى يَمينى من يسارى

وهو يذكر فى الأبيات فكرة نور الأنوار إزاء عالم الظلمة الكثيف ، كما يذكر فكرة الفناء الصوفية وكيف أنه يفنى عن كل ما حوله فلا يعود يشعر إلا بنور الأنوار أو بإلهه وما أنعم عليه – كما يتصور – بنعمة الوصال ، بل بنعمة الاتحاد والاندماج بنوره . وله حائية رائعة يستهلها بقوله :

أبداً تحنُّ إليكمُ الأرواحُ ووِصالُكم رَيْحانُـها والرَّاحُ
وقلوبُ أهلِ ودادكم تشتاقكم وإلى لذيذ لقائكم ترتاحُ
وارَحْمتا للعاشقين تكلَّفوا سَتْرَ المحبة والهوَى فضَّاح

وهو يخاطب الذات الإلهية قائلا إن كل الأرواح معلقة بها هائمة تتمنى وصالها لتجد فيه ريحانها وراحها ونشوتها التى لا تماثلها نشوة ، وإن القلوب لتحن إليها دائما مشتاقة مولعة شاعرة بنعيم ما بعده نعيم . ويأسى لعاشقى الذات الإلهية ، فهم لا يستطيعون إخفاء عشقهم ولا كتمانه ، لدموعهم التى تقطر دائما على خدودهم سَحاً وتسكابا ، ويتضرَّع إلى المحبوب قائلا :

عودوا بنور الوَصْل من غَسق الجَفَا فالهَجْرُ لَيْلٌ والوصالُ صَباحَ
صافاهمُ فصفَوْا له فقلوبُهم فى نورها المِشْكاةُ والمِصْباح
وتمتَّعوا فالوقتُ طاب بقربكم راقَ الشرابُ ودارتِ الأقداحُ

وهو يعود إلى فكرة النور ويصلها بفكرة الظلمة فالوصل نور مشرق والهجر ظلام داجٍ ، وهو يشير بالمشكاة والمصباح إلى الآية الكريمة : (الله نورُ السموات والأرض مثلُ نوره كمشْكاةٍ فيها مصباحٌ المصباحُ فى زجاجةٍ الزجاجةُ كأنها كوكبٌ دُرِّىٌّ يوقد من شجرة مباركة زَيْتونة لا شرْقية ولا غربية يكاد زَيْتُها يضيئ ولو لم تَمْسَسْهُ نارنورٌ على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب اللهُ الأمثالَ للناس والله بكل شيءٍ عليم) وكأن فى قلوب الصوفية نور الله ، وهو يريد بذلك الاتحاد بالذات الإلهية النورانية ، وهو اتحاد يَعْنى السكر والنعيم بنشوة هذه الخمر الربانية التى راقت وأخذت كئوسها وأقداحها تدور على المحبين كما يقول ، أقداح من شرابٍ روحىٍّ مصفىً ، ويقول مصورا لهم فى حال سكرهم :

لا يَطْربون بغير ذِكْرِ حَبِيبهم أبداً فكلٌّ زمانهم أفراحُ
حَضَرُوا وقد غابتْ شواهد ذاتهم فتهتَّكوا لمَّا رأوه وصَاحوا
أفناهمُ عنهم وقد كُشِفَتْ لهم حجبُ البَقا فتلاشَتِ الأرواحُ

فهم سكارى فرحون بذكر حبيبهم ، وهم حاضرون غائبون ، وكأنما يفنون عن ذواتهم وأجسادهم بل هم فانون فعلا ، لا يدركون حِساً منهم ولا ما يشبه الحس ، إذ أصبحوا فى الحضرة الإلهية ، وأصبحوا لا يحسُّون ولا يبصرون سواها ، وإنهم ليصيحون ويعلو صياحهم فرحا وابتهاجا بما صاروا إليه من الفناء والاتحاد بالله ، وبما كشف عنهم من الحجب والأستار . وواضح ما يداخل هذه الأبيات من أفكار صوفية فلسفية كان ينكرها – كما قدمنا – أصحاب التصوف السنى ، فهم لا يعرفون فناء ولا اتحادا ، ولا يدَّعون غيبة وهم حضور ، كما لا يدعون رؤية الله بأبصارهم فإنه كما قال القشيرى آنفاً لا يحده زمان ولا مكان ولا تبصره العيون ولا ينكشف لأحد ، ليس كمثله شىء ، ولا كم له ولا كيف (لا تُدْركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) وليحيى السهروردى قصيدة فى النفس حاكى فيها قصيدة ابن سينا العينية المشهورة التى صور فيها النفس سابقة للجسد ، وهى تحل فيه ودائما متشوقة إلى عالمها المثالى الأول ، وفى ذلك يقول السُّهْرَوَرْدىّ :

خَلَعَتْ هياكلَها بِجَرْعاءِ الحِمىَ وصَبَتْ لَمغْناها القديم تَشَوُّقا

فهى تشتاق عالمها القديم ، ولذلك تفارق الجسد الذى حلت فيه راضية مرضية ، ولعل فى هذه القصيدة ما يؤكد صلة السهروردى بابن سينا وفلسفته الإشراقية فضلا عن صلته بالفلسفة عامة .

٤

شعراء الحكمة والفلسفة

الحكمة قديمة فى الشعر العربى منذ العصر الجاهلى ، ونجدها متراصّة فى مطوّلة زهير وكانت تجرى على ألسنة كثيرين يقطّرون خبْراتهم شعرا ، لينتفع بها أبناء قبائلهم ومن حولهم ، وتظل مبثوثة فى الشعر العربى طوال العصر الإسلامى ، وتكثر فى العصر العباسى وتتعدد روافدها الأجنبية بتعدد الثقافات التى عرفها العرب والتى نُقلت عنها لهم الحكم والأمثال . ومرّ بنا فى كتاب العصر العباسى الأول أن أبان بن عبد الحميد نقل من الفارسية إلى العربية كتاب كليلة ودمنة وما فيه من أمثال وحكم فى نحو أربعة عشر ألف بيت ، وأن أبا العتاهية نظم مزدوجة طويلة سماها ذات الأمثال ، وكلها حكم ، ويقال إنها كانت تبلغ أربعة آلاف بيت ، وروى أبو الفرج فى ترجمته بكتابه الأغانى منها قطعة طويلة ، وأكبر الظن أن كثيرا من هذه الحكم نقلها أبو العتاهية عن الفارسية ولعله أخذها من بعض كتب الأدب الفارسى التى ترجمها ابن المقفع وغيره ، وفى شعر أبى نواس بعض أمثال فارسية نَصَّ عليها القدماء . وقد مضى شعراء العصرين العباسى الأول والعباسى الثانى يسلكون فى أشعارهم بعض الأمثال الفارسية والعربية ، حتى إذا كنا فى هذا العصر بإيران وجدنا الشعراء الإيرانيين ينقلون كثيرا من الأمثال المعروفة فى لغتهم إلى أشعارهم العربية ، بل لقد تصّدى نفر منهم إلى صنع قصائد حكمية ، هى ترجمات لبعض الأمثال الفارسية على نحو ما نجد عند أبى عبد الله الضرير الأَبِيوَرْدِىّ ، فقد ذكر له الثعالبى قصيدة ترجم فيها أمثال الفرس ، أنشد منها بعض الأبيات من مثل قوله (١) :

صِيامى إذا أفطرتُ بالسُّحْتِ ضَلَّةٌ ... وعلْمِى إذا لم يُجْدِ ضربٌ من الجَهْلِ (٢)
وتزكيتى مالاً جمعتُ من الرِّبا ... رِياءٌ وبعض الجود أخْزَى من البُخْلِ
كسَارِقةِ الرُّمَّان من كَرْم جارها ... تعود به المَرْضَىَ وتطمع فى الفَضْلِ
ألا رُبَّ ذِئْبٍ مَرَّ بالقوم خاوياً ... فقالوا علاه البُهْرُ من كثرة الأكلِ (٣)

(١) اليتيمة ٩٠/٤
(٢) السحت : الكسب الحرام .
(٣) البهر : تتابع النفس

وكان الشعراء يضمِّنون قصائدهم وأشعارهم كثيرا من الحكم ، ومن خير من يمثل ذلك الطُّغْرائى فى لاميته المسماة لامية العجم ، وهى تَغص بالحكم والأمثال منذ مطالعها ، ونكتفى بسرد طائفة من طرائفها على هذا النمط :

حبُّ السلامة يَثْنِى هَمَّ صاحبِهِ ... عن المعالى ويُغْرِى المرءَ بالكسلِ
أعلِّلُ النفسَ بالآمال أرْقُبها ... ما أضيقَ العَيْشَ لولا فُسْحَةُ الأملِ
تقدَّمَتْنِى أناسٌ كان شَوْطُهمُ ... وراء خَطْوِىَ إذ أمشى على مَهَلِ
وإن عَلانِىَ مَنْ دونى فلا عجبٌ ... لى أسوةٌ بانحطاط الشمس عن زُحَلِ
أعْدَى عدوِّك أَدْنَى مَنْ وثِقْتَ بِهِ ... فحاذرِ الناسَ واصحبْهم على دَخَلِ (١)
وإنما رجلُ الدنيا وواحِدُها ... مَنْ لايعوِّل فى الدنيا على رَجُلِ

وأكبر الظن أن الطغرائى لم ينقل شيئا من هذه الحكم عن الفرس إنما هى ثمرة تجاربه وخبرته بالدنيا وبالناس من حوله .

ونمت الفلسفة فى هذا العصر نمواً واسعا ، ونمت معها علوم الأوائل على نحو ما مرَّ بنا فى الفصل الثانى ، وظهر كثير من المتفلسفة أمثال ابن سينا وله أشعار تتَّشح بشىء من تفلسفه قليلا أو كثيرا وأُثرت له رباعيات فارسية وأشعار عربية فى الزهد والحكمة وبعض مسائل طبية وفلسفية . وأهم تلك الأشعار وأشهرها قصيدته العينية عن النفس ، وهى تصوِّرها فى عالمها العلوى الذى كانت تَحْيَى فيه قبل اتصالها بالبدن حين يتَخلَّق فى الرحم ، وفى عالمها السّفْلى حين تمَّ هذا الاتصال بالجسد . وهو اتصال تُقْدم عليه وهى كارهة ، وتظل فى أثنائه متشوقة إلى عالمها العلوى ، مع ما حدث لها فيه من ألفة ، ولذلك تنفصل عنه كارهة كما اتصلت به كارهة ، يقول (٢) :

هبطتْ إليك من المحلِّ الأَرْفعِ ... وَرْقاءُ ذاتُ تعزُّزٍ وتمنُّعِ
محجوبةٌ عن كلِّ مُقْلَةِ ناظرٍ ... وهىَ التى سَفَرَتْ فلم تَتَبَرْقَعِ
وصلتْ على كُرْهٍ إليكَ وربما ... كرهتْ فراقَكِ وهْىَ ذات تفجُّعِ
أنفتْ وما ألفتْ فلما واصلتْ ... ألفتْ مجاورةَ الخرابِ البَلْقَعِ
وأظنُّها نسيتْ عهوداً بالحِمَى ... ومنازلاً بفِراقها لم تقْنعِ
حتى إذا اتصلتْ بهاء هُبوطها ... من ميم مَرْكزِها بذاتِ الأَجْرعِ
علقتْ بها ثاءُ الثَّقيلِ فأصبحتْ ... بين المعالم والطُّلول الخُضَّعِ

---

(١) دخل : خبث ومكر

(٢) انظر العينية فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة (نشر دار مكتبة الحياة - بيروت) ص ٤٤٦ وقارن بابن خلكان ٢/١٦٠

والورقاء : الحمامة كنى بها عن النفس . وهو يصوِّرها تهبط من عالمها الرفيع أو الأرفع ، عالم العقول المجردة أو العقول الكلية ، الذى تجد فيه سعادتها وكمالها ، ولذلك هى تهبط منه شاعرة بغير قليل من العزة والشرف ، محجوبة عن كل حسٍّ ، ومع ذلك تسفر للعقول فتدركها دون أن تبصرها ، وتنزل فى البدن كارهة لأنه ليس من جنسها ، غير أنها تأنس له مع الأيام ، حتى إذا فارقته توجعت له وتفجعت عليه ، مع أنه بدونها خراب بلقع مقفر . وكأنما نسيت عهودها بعالمها العلوى لأنسها لهذا الجسد الفانى الذى هبطت إليه من مركزها الرفيع وعشقته ، عشقت مشخصَّاته الأرضية التى عبر عنها بالثقل وبذات الأجرع ، وغدتْ تحنُّ إلى دياره ومعالمه وطلوله حنين الشعراء لمعشوقاتهم ، ويمضى قائلا :

تبكى وقد نسيتْ عهوداً بالحِمىَ ... بمدامعٍ تَهْمِى ولما تُقْلعِ
وتظل ساجعةً على الدِّمَنِ التى ... دَرَسَتْ بتكرار الرياحِ الأَرْبعِ
حتى إذا قَرُبَ المسيرُ إلى الحِمىَ ... ودَنا الرحيلُ إلى الفضاء الأوسع
وغدتْ مفارقةً لكلِّ مخلَّفٍ ... عنها حَلِيفِ التُّرْب غيرِ مشيَّع
هجعتْ وقد كُشف الغطاء وأبصرتْ ... ما ليس يُدْرَكُ بالعيون الهُجَّعِ
وغدتْ تغرِّد فوق ذِرْوةِ شاهقٍ ... والعلمُ يرفع كلَّ مَنْ لم يُرْفَعِ

فهى تحنُّ الى عهودها القديمة وتبكى بدموع غزارٍ الدِّمَنَ أو أجزاء البدن التى توشك على الفساد والانحلال ، حتى إذا أوشكت أن تفارق جسدها إلى عالمها الأعلى ، بل حتى فارقته فعلا ، فارقت البدن الفانى ، عادت إليها سكينتها واستراحت ، إذ كُشف لها الغطاء وأبصرت ما لا تدركه العيون التى ألمَّ بها النوم ، وغدت تَغرِّد فرحة ، فقد عادت إلى عالمها وعاد لها علمها بالأشياء ، العلم الكلى الشامل الذى كانت قد نسيته فى سُكناها البدن ، ويستمر سائلا متحيرا :

فلأىِّ شَىءٍ أُهْبِطَتْ من شاهقٍ ... سامٍ إلى قَعْرِ الحضيض الأَوْضَعِ
إن كان أهبطها الإلهُ لحكمةٍ ... طُويتْ عن الفَطِنِ اللبيب الَّلوْذَعى
إذ عاقها الشَّرَكُ الكثيفُ فصدَّها ... قَفَصٌ عن الأَوْجِ الفسيح الأَرْبُعِ
فهبوطها -لاشكَّ- ضربةُ لازبٍ ... لتكون سامعةً لما لم تسمع
وتعود عالمةً بكل خفيَّةٍ ... فى العالمين فَخَرْقُها لم يُرْقَعِ
وهى التى قَطَعَ الزمانُ طَرِيقها ... حتى لقد غَربتْ بغيرِ المطلعِ
فكأنها بَرْقٌ تألَّقَ بالحِمىَ ... ثم انْطَوَى فكأنه لم يَلْمَعِ

وهو يعجب من هبوط النفس من العالم العلوى إلى العالم السُّفلى ثم رجوعها إلى العالم الأول ويسأل فيم هبطت وفيم عادت ؟ ويجيب إن كان فى ذلك حكمة لله جَلَّ شأنه تغيب عن العقول الذكية فأكبر الظن أنها هبطت لتسمع ما لم تكن تسمع ولتعلم ما لم تكن تعلم من العالم الأرضى وتقف على أسراره ، بجانب ما كانت تعالم من العالم العلوى ، وكأنها لم تبلغ من ذلك كل ما أرادت ، فعادت وقد انقطع بها الزمان الدنيوى . عادت وقد تَمَّتْ رحلتها فى الدنيا من شروق وما تلا الشروق من العلم بخفايا الأرض وعالمها وما انتهى إليه هذا الشروق من غروب . وكأنها فى هذه الرحلة القصيرة برق لمع ، ثم طَوْته السحب طيا . وواضح ما تحمل القصيدة من فكرة وجود النفس قبل البدن وخلودها ، متصلة فى الحالين بالعقل الكلى إلا ما كان من رحلتها القصيرة فى الأرض وخلال البدن ، ومع ذلك فهى فى هذه الرحلة تحاول أن تعلم من أسرار عالمنا ماتضيفه إلى علمها بأسرار العالم العلوى . وسرعان ما تنفك عن البدن ويصيبه الانحلال والفساد . ولعل من الخير أن نقف عند شاعرين من شعراء الحكم والأمثال ، كان أحدهما يعنى بنقلها عن الفارسية وكان الثانى يعنى بوضعها ونظمها فى أشعاره ، وهما أبو الفضل السكرى المروزى وأبو الفتح البُسْتى .

أبو الفضل[1] السكرى المَرْوَزىّ

هو أحمد بن محمد بن زيد ، يقول فيه الثعالبى : « شاعر مَرْو وظريفها ، وله شعر مليح خفيف الروح كثير المُلَح والأمثال » ويورد بعض أشعاره ، ثم يذكر أن له مزدوجة ترجم فيها أمثالا للفرس ، وكأنه اختار أن ينظمها من وزن الرجز الذى خَصَّ به العباسيون منذ عصرهم الأول الشعر التعليمى لوفرة ألحانه وأنغامه ، حتى يتلافوا ما فى هذا الشعر من نقص الأحاسيس والمشاعر ، وظل ذلك ثابتا طوال العصور التالية إلا ما ندر . فقد تعارف الشعراء على اختيار الرجز لنظم المعلومات والمعارف والحكم والخبرات ، واتبعوا ما أحدث العباسيون الأول فى الرجز من تغيير القافية فيه من بيت إلى بيت ، مع الاحتفاظ بها فى كل شطرين متقابلين بحيث يصبح الشطر فى واقع الأمر وحدة الأرجوزة المزدوجة ، فهى تتألف من شطرين شطرين ، وكل شطرين يتحدان فى قافيتهما . ويقف الثعالبى عند مزدوجة لأبى الفضل ترجم فيها طائفة كبيرة من أمثال الفرس ، ويورد منها ثلاثة عشر بيتا من مثل قوله :

---

(١) انظر فى ترجمة أبى الفضل السكرى اليتيمة ٨٧/٤ وما بعدها

من مُثل الفُرْس ذوى الأبصارِ الثوبُ رَهْنٌ فى يَدِ القَصَّارِ [١]
نال الحمارُ بالسقوط فى الوَحَلْ ما كان يَهْوَى ونجا من العمَلْ
والعَنْزُ لايَسْمَنُ إلا بالعَلَفْ لايَسْمَنُ العَنْزُ بقولٍ ذى لَطَفْ [٢]
البحر غَمْرٌ الماء فى العيانِ والكلبُ يَرْوَى منه باللسانِ [٣]
من لم يكن فى بيته طعامُ فمالــه فى مَحْفِلٍ مـقـامُ
كان يقال : من أتى خوَانا من غير أن يُدْعَى إليه هانا [٤]

ويعلّق الثعالبى بعد ذكره لبعض أمثال المزدوجة بقوله : « وكان أبو الفضل السكرى مولعا بنقل الأمثال الفارسية إلى العربية » وينشد طائفة كبيرة من الأبيات اختارها من نقله وترجماته الأخرى غير مزدوجة ، من ذلك قوله :

إذا لم تُطِق أن تَرْتَقِى ذِرْوَةَ الجبَلْ لعجزٍ فقِفْ فى سَفْحه هكذا المَثَلْ

وقوله :

فى كلِّ مستحسنٍ عَيْبٌ بلارَيْبِ مايَسْلَمُ الذهب الإبريزُ من عَيْبِ

وقوله :

ادَّعَى الثَّعلبُ شيئا وَطَلَبْ قِيلَ هَلْ من شاهدٍ؟ قال : الذَّنَبْ

وقوله :

تَبَخْتَرَ إخفاءً لما فيه من عَرَجْ وليس له فيما تكلّفه فَرَجْ

وأبو الفضل إنما هو رمز لتعلق الناس بالأمثال ، وهو تعلق مرجعه إلى أنها تحمل خبرات الإنسان فى عصور طويلة ، ولذلك كان لكل أمة أمثالها التى تحفظها الأجيال من جيل إلى جيل ، وهى لذلك تدخل فى باب الآداب الشعبية ، لأنها تُتَداول على ألسنة الشعب ، وكأنها عُمْلات لغوية عامة ، كلٌّ يستخدمها ، وكل يلفظ بها عند مناسبتها . وكأنما يُلْقِى بها الكلمة التى لا تُرَد ، ولذلك سميت حكمة ، فهى حكمة الشعوب وخبرتها مركزة فى قطرات أوكلمات .

---

(١) القصار : صابغ الثياب
(٢) لطف : رفق .
(٣) الماء الغمر : الكثير العميق .
(٤) الخوان : مائدة الطعام .

أبو الفتح[1] البُسْتىّ

هو على بن محمد ، ويُعَدّ من كبار الأدباء الإيرانيين فى زمنه ، وكان يُحْسن الكتابة والشعر باللسانين العربى والفارسى وعرف له أمير بُسْت مكانته ، فاتخذه كاتبا له ، حتى إذا فتح بلدته الأمير سُبُكْتِكين قرَّبه منه وقلَّده الكتابة فى ديوانه ، وحَلَّ عنده محل الثقة الأمين فى مهمات شئونه . ونعم بجواره ، واشتهر بما صوَّر فى كتبه وأشعاره من فتوحه ، وظلت له نفس المكانة عند ابنه الأمير محمود الغزنوى ، إلى أن غضب عليه ونفاه إلى بخارى وسرعان ما وافته المنية بها سنة ٤٠٠ للهجرة وقيل بل سنة ٤٠١ وكان شافعى المذهب معتزلىَّ العقيدة .

ويعرِّف به الثعالبى فيقول : «صاحب الطريقة الأنيقة فى التجنيس الأنيس ، البديع التأسيس ، وكان يسميه المتشابه ويأتى فيه بكل طريفة لطيفة» . ولم يكن يستخدم الجناس استخداما واسعا فى أشعاره فحسب ، بل كان أيضا يستخدمه فى كتاباته ونثره . ويورد الثعالبى طائفة من جناساته وسجعاته فى رسائله ، يدل بها على قدرته فى التجنيس البديع الصيغة ، فمن ذلك قوله :

«مَنْ أصلح فاسده ، أرغم حاسده . مَنْ أطاع غضبه ، أضاع أدبه . عادات السادات ، سادات العادات . مِنْ سعادة جَدِّك ، وقوفُك عند حَدِّك . الخيبة ، تهتك الهيبة . الدَّعة ، رائدة الضَّعة . أجهلُ الناس مَنْ كان للإخوان مُذِلا ، وعلى السلطان مُدِلاّ . إذا بقِى ما قاتك ، فلا تأس على ما فاتك . المنيَّة ، تضحك من الأُمْنيَّة . حَدُّ العَفاف ، الرضا بالكَفاف . ظِلُّ الجفاء ، يكْسِف شمس الصفاء» .

ويأخذ الثعالبى فى عرض أغراض شعره بادئا بملحه فى الغزل والخمر ، وهى ملح لا تقوم على الاهتمام بالمعانى بقدر ما تقوم على الاهتمام بالجناس ، وكأنما أصبح الجناس وما قد يجلبه من تشبيه أو استعارة أو طباق غايته أو هدفه من صنع أشعاره ، على نحو ما نجد فى قوله متغزلا :

وغزالٍ كلُّ مَنْ شبَّهَهُ ... بهلالٍ أو ببدْرٍ ظَلَمَهْ
قال إذ قبَّلتُ بالوهم فَمَهْ ... قد تعدَّيْتَ وأسرفتَ فمَهْ

(١) انظر فى ترجمة أبى الفتح البستى وشعره اليتيمة ٣٠٢/٤ وما بعدها والمنتظم ٧٢/٧ وتاريخ الحكماء للبيهقى : ٤٩ وطبقات الشافعية للسبكى ٢٩٣/٥ وابن خلكان ٣٧٦/٣ وشذرات الذهب ١٥٩/٣ وعبر الذهبى ٧٥/٣ والأنساب ٨٠ ب وروضات الجنات ٤٨٢ والنجوم الزاهرة ١٠٦/٤ وديوانه مطبوع

ومَه فى آخر البيت الثانى اسم فعل أمر بمعنى اكففْ . وواضح أنه جلبها ليصنع منها جناسا تاما بينها ومعها الفاء وبين كلمة « فه » فى آخر الشطر الأول . وعلى نفس الشاكلة قوله فى الخمر لصاحبه :

أوانٍ أنت فى هذا الأوانِ عن الرَّاحِ المروَّق فى الأوانى

فقد جانس بين « وان » فى أول البيت بعد إدخاله عليها همزة الاستفهام ليتم له جناس كامل بينها وبين كلمة « الأوان » فى آخر الشطر الأول بمعنى الزمان ، ثم بينهما وبين كلمة « الأوانى » فى آخر البيت جمعا لإناء . وبالمثل معاتباته وأهاجيه ومدائحه كقوله فى مديح كاتب وكتابته :

لم تَرَ عينى مثلَه كاتباً لكل شىءٍ شاءَ وشَّاءَ
يُبْدع فى الكُتْب وفى غيرها بدائعا إن شاءَ إنشاءَ

والجناس الناقص واضح بين « شىء » و « شاء » و « وشّاء » أو منمق ، وأتى بجناس تام فى البيت الثانى بين كلمتى « إن شاء » و « إنشاء » . ويعترف بأنه سمع وهو صبى شاعرا من موطنه « بُسْت » يستخدم الجناس فاستحسنه وأخذ نفسه بسلوك طريقته[1] . وكان هو نفسه عاملا مهما فى إشاعة هذه الطريقة بين الشعراء الإيرانيين فى زمنه[2] وبعد زمنه . وعُنى غير أديب بإفراد كتب خاصة بها مثل المطوعى الذى مرَّ بنا ذكره . وكان أبو الفتح يتصنع كثيرا فى شعره لاستخدام المصطلحات الفقهية والطبية والفلسفية والفلكية والنحوية كقوله مستظهرا مصطلح اللازم والمتعدى :

قال لى لما رآنى طالبا مالاً ورِفْدَا
إن مالى يا حبيبى لازمٌ لا يتعدَّى

وكان هذا التصنع وما يماثله قد أخذ يشيع فى زمنه ، ومما لا شك فيه أن البُسْتى كان من عوامل إذاعته وانتشاره فى الأوساط الأدبية الإيرانية . على أنه ينبغى أن لا نَحْمل على تصنع أبى الفتح لهذه المصطلحات ولأنواع الجناس بصوره التامة والناقصة ، فقد كان ينفذ فى أحيان كثيرة إلى استخدام رشيق للمصطلحات والجناسات كقوله يهجو بعض خصومه ، وكان يدَّعى سَعة الفكر والمنطق العميق :

يَبْنى على الفكرة أعمالَهُ وذاك فى التحقيق أَعْمَى لَهُ
فقيَّض الرَّحمَنُ أَفْعَى لَهُ تُريهِ فى الخَلْوة أفعالَهُ

---

(١) اليتيمة ٣٣٧/٤ واسم الشاعر شعبة بن عبد الملك (٢) اليتيمة ١٥١/٤ .

وواضح جناسه التام بين « أعماله » و « أعمى له » فى البيت الأول ، وبين « أفعى له » و« أفعاله » فى البيت الثانى . ولم نتحدث حتى الآن عن الحكم والأمثال فى أشعاره ، وكان يعرف كيف يصوغها صياغة محكمة ، ومن أروع ماله فى هذا الجانب نونيته ، وهى طويلة ، وفيها يقول :

زيادةُ المرءِ فى دنياه نُقْصانُ ... وربْحُهُ غيرَ مَحْضِ الخيرِ خُسْرانُ
ياعامراً لخراب الدَّارِ مجتهداً ... بالله هل لخراب العُمْرِ عُمْرَانُ
وياحريصاً على الأموالِ يَجْمَعُها ... أَقْصِرْ فإنّ سرور المال أحزانُ
أَحْسِنْ إلى الناس تستعبدْ قلوبهمُ ... فطالما استَعْبَدَ الإنسانَ إحسانُ
وكُنْ على الدهر مِعْواناً لذى أَمَلٍ ... يرجو نَداك فإن الحُرَّ معْوانُ
واشْدُدْ يَدَيْك بحَبْلِ اللهِ معتصماً ... فإنه الرُّكْنُ إن خانتْك أركانُ
مَنْ جاد بالمال مالَ الناسُ قاطبةً ... إليـه والمالُ للإنسـان فَتَّانُ
والناسُ أعوانُ مَنْ واتَتْه دولتُه ... وهم عليه إذا عادتْه أعوانُ

واشتهرت له هذه القصيدة الحكمية منذ حياته وانتشرت فى العالم العربى ، وأخذت الاجيال العربية تردِّدها فى كل بلد ، حتى لتصبح قصيدة شعبية ، ينشدها الناس فى كل مكان ، وإلى زمن قريب كان المنشدون ينشدونها فى مقاهى القاهرة . ولعل فى هذا ما يدل – من بعض الوجوه – على ما يمتاز به الشعر العربى الفصيح من شعبيته ، فقصيدة تنظم فى أقصى بيئاته فى الشرق فى « بُسْت » بأفغانستان الحالية تُنْشَدُ فى قلب العالم العربى بالقاهرة ، ويحفظها الشباب ويستظهرونها فى المغرب كما يستظهرونها فى المشرق . ويعقد الثعالبى فصلا طويلا لحكم الُبسْتى ، ووراءها حكم وأمثال كثيرة فى ديوانه ، ومن طرائفه الحكمية قوله :

لا تَحقِرِ الْمَرءِ إنْ رأيت بهِ ... دمامةً أو رثاثةَ الحُلَلِ
فالنَّحْل شىءٌ على ضؤولتهِ ... يَشْتارُ منه الفتى جَنَا العَسَلِ (١)

وقوله :

لا يَسْتخفَّنَّ الفَتى بعدوِّهِ ... أبدا وإن كان العدوُّ ضَئِيلا
إن القَذَى يُؤْذى العيونَ قليلُه ... ولربما جَرح البعوضُ الفِيلا

وقوله :

ألم تَرَ أنَّ المرءَ طولَ حياتهِ ... مُعَنًّى بأمرٍ لا يزالُ يُعالجُهْ

(١) يشتار : يجتنى

يدور كدودِ القَزِّ يَنْسِجُ دائما ويهلك غَمًّا وَسْطَ ما هو ناسِجُهْ

وعلى هذا النحو لانزال نقرأ عند أبى الفتح البُسْتى حكما طريفة . مما يدل على بعد نظره واتساع خبرته . وكان يخليها من الجناس عادة ، حتى تخفَّ على ألسنة الناس وتدور فى أفواههم ، ومن الحق أنه كان شاعرا خصب القريحة ، مما جعل شعره يحفل بمعان وصيغ بديعة .

٥

شعراء شعبيون

لا يستطيع أحد أن يزعم أن الشعر العربى انفصل فى عصر من عصوره عن شعوبه ، إذ كان دائما ترجمانا عن عواطفها ومشاعرها ، حتى فى المديح ، فإن الشعراء كانوا يمدحون الحكام بالمثل العليا التى تتطلبها شعوبهم فيهم ، ولم يتركوا لهم عملا قدَّموه لشعوبهم دون أن يحمدوه لهم حمدا كثيرا ، سواء أكان فى الداخل مما يتصل بنشر الأمن والعدل أم فى الخارج مما يتصل بانتصاراتهم على أعداء شعوبهم وخصومها . وكثرةُ الشعراء كانت من عامة الشعوب العربية ، فكان طبيعيا أن تتضح فى أشعارهم روحها ومشاعرها وكل ما يجرى فى خواطرها . وقد تحدثنا عن أغراض تتضح صلتها القوية بالشعوب مثل الزهد الذى يلتحم مباشرة بالجماعة الكبيرة فيها . وكانت تعيش كادحة كدحا مريرا ، لكى تثرى وتنعم بثمار عملها جماعة محدودة من الحكام وكبار التجار والإقطاعيين . ولم يكن أمام هذه الجماعة الكبيرة إلا الانصراف عن متاع الحياة وطيِّباتها ، وهى لذلك تُقبل على شعر الزهد ، ويصبح هذا الشعر غذاءها . ولا شك فى أن شعبية هذا الشعر هى التى جعلته يَسْهُلُ فى لغته سهولة شديدة ، لأن العامة لا تحب الإغراب اللغوى ، بل تحب الأساليب السهلة المبسَّطة الخفيفة التى تفهمها بمجرد أن تقرع أسماعها . وبذلك كان الزهد طوال هذا العصر شعبيا فى لغته الشعرية ، وكان مما أكد شعبيته ذيوعه على ألسنة الزهاد والعباد والمتصوفة والقُصَّاص والفقهاء وأصحاب الحديث ، فكان الناس يسمعونه فى كل مكان بالإضافة إلى ما كانوا يسمعون منه على ألسنة الشعراء ، وحتى شعر المجون مع أنه خاص بطبقة معينة من الشعب ونقصد أصحاب الثراء واللهو نجد فيه أو بعبارة أدق فى بعض منه آثارَ الشعبيةِ ، غير أنها هذه المرة لا تأتى من سهولة الألفاظ وإنما تأتى مما كان يقترن به أحيانا من دعابة ، مما يجعله أقرب إلى النوادر المضحكة ، وتأتى أيضا من استظهار طائفة من أصحابه للكلمات الفارسية التى تشيع على ألسنة العامة ، ويلقانا منهم كثيرون فى اليتيمة وتتمتها وفى دمية القصر

والخريدة . وطبيعي أن يشيع شعر شيعي كثير على ألسنة الشيعية ، يرويه خالف لهم عن سالف وخاصة ما يتصل بمراثي الحسين ، وبالمثل كان يشيع لأهل السنة كثير من الأشعار المصورة لعقيدتهم السنية ، مما تزخر به كتب الطبقات .

ونجد في اليتيمة شاعرا من الأهواز يسمى محمد [١] بن عبد العزيز السوسي ، يقول فيه الثعالبي إنه كان أحد شياطين الإنس ، ويذكر أن له قصيدة كانت تُرْبِي على أربعمائة بيت في وصف حاله وتنقله في الأديان والمذاهب والصناعات ، أولها :

الحمدُ لله ليس لي بَخْتُ ولاثيابٌ يضمُّها تَخْتُ [٢]
سِيَّان بَيتى لمن تأمَّلَهُ والمَهْمَهُ الصَّحْصَحَان والمَرْتُ [٣]
أمنتُ في بيتىَ اللصوصَ فما للصِّ فيهِ فوقٌ ولاتَحْتُ

فهو عديم الحظ وليس له ثياب يضمها صِوان ،فكل ما يملكه فوق جلده ، وبيته فارغ من الأثاث ومن أي شيء يكون في البيوت عادة ، وكأنه فلاة مقفرة ، وطبيعي أن يأمن اللصوص ، فليس في بيته ما يسرقونه ، وكأنه سجن ولاحرس له . ويمضي فيما رواه الثعالبي من القصيدة ، فيذكر أنه اضطُرَّ إلى أن يتخذ مظهرَ مُتَسَوِّلةِ الصوفية فقصَّرَ ثيابه ، وأَحْفى شاربه مستقصياً ، وحَمَلَ سَجَّادة ، وذهب إلى الحج دون أن ينويه ، ودخل المسجد الحرام وصلَّى في مقام الخليل ليوهم الناس أنه صوفيٌ حقا ، حتى يعطفوا عليه ويحسنوا إليه . والقصيدة كانت كلها هزلا على هذا النمط .

واشتهرت منذ أوائل العصر جماعة من الشعراء الرحالة المتسولين المعروفين باسم شعراء الكُدْيَة أو التسول الأدبي ، ويعرفون أيضا باسم الساسانيين نسبة إلى أمير فارسي يسمى ساسان حرمه أبوه من الملك ، فهام على وجهه محترفا للكُدْيَة ، وتُشْبه هذه الجماعة طائفة الأدباتية التي كانت معروفة بمصر في أواخر القرن الماضي والتي كانت تظهر في موالد الأولياء متخذة من أشعارها وسيلة لاكتساب المال وابتزازه . ونجد مقدمات هذه الجماعة الساسانية في أوائل كتاب البخلاء للجاحظ إذ يعرض طائفة من حِيَلها وخُدَعها ، ويتلوه البيهقي فيصور في كتابه المحاسن والمساوي ألوانا من هذه الخدع والحيل . وحرى بنا أن نقف عند أهم شعرائها في العصر : أبي دلف الخزرجي .

---

(١) اليتيمة ٣/٤٢٦ .
(٢) التخت : الصوان .
(٣) المهمه : الفلاة . الصحصحان : المستوى الواسع . المرت : القفرلانبات فيه .

أبو دُلَف الخزرجي : مِسْعر بن مُهَلْهِل [١]

شيخ هذه الجماعة بإيران فى العصر ومقدَّمها وزعيمها من شعراء القرن الرابع الهجرى وقد عاش فى بلاط نصر بن أحمد السامانى (٣٠١ - ٣٣١ هـ) ورافق بناء على أمره مجموعة صينية فى عودتها إلى الصين ، وفى عودته طاف بالهند . وعاش حتى اتصل بالصاحب بن عباد الوزير البويهى كما يوضح ذلك الثعالبى ونراه يعقد له ترجمة طويلة فى اليتيمة ، ويعرِّف به على هذا النحو : « شاعر كثير المُلَحِ والطرف ، مشحوذ الْـمُدية فى الكُدْية ، خَنق التسعين فى الإطراب والاغتراب وركوب الأسفار الصعاب ، وضَرْب صفحة المحراب بالجراب ، فى خدمة العلوم والآداب . وكان ينتاب حضرة الصاحب [بن عباد] ويكثر المقام عنده ، ويكثر سوادغاشيته وحاشيته ، ويرتفق بخدمته ، ويرتزق فى جملته ،ويتزود كتبه (رسائله إلى الولاة برعايته) فى أسفاره فتجرى مجرى السَّفاتج (الحوالات المالية) فى قضاء أوطاره . وكان الصاحب يحفظ مناكاة (كلام ومصطلحات) بنى ساسان حفظا عجيبا ، ويُعْجبه من أبى دلف وفور حظه منها ، وكانا يتجاذبان أهدابها ، ومن قول أبى دُلف :

وَيْحَكَ هذا الزمانُ زورُ فلا يـغـرَّنَّك الـغَـرورُ [٢]
زَوِّقْ ومَخْرِقْ وكُلْ وأَطْبِق واسْرِقْ وَطلْبِقْ لمن يزور
لاتـلـتـزمْ حـالـةً ولـكـنْ دُرْ بـالـليالى كما تدورُ

والأبيات تصور حياة أبى دلف وأنها تقوم على المخرقة والتحامق والخطف والسلب والنهب . وله قصيدة طويلة سماها القصيدة الساسانية ، أو هكذا أسماها الثعالبى ، وهى فى ذكر المُكْدين وبيان فنون حرفهم وأنواع رسومهم ، استهلها بالتعريف ببنى ساسان الأدباتية وكيف يعيشون على الغربة والترحال واليسر تارة والعُسْر وربط البطون على الجوع والمسغبة تارات ، ثم يقول :

فنحن الناسُ كلُّ النا س فى البَرِّ وفى البَحْرِ
أخــذنــا جِزْيَةَ الخلقِ مـن الصِّين إلى مِصْــرِ

---

(١) انظر أبا دلف فى اليتيمة ٣٥٢/٣ وتاريخ الأدب الجغرافى لكراتشكوفسكى ١٨٨/١ وفى دائرة المعارف الإسلامية وانظر الرسالة الثانية لأبى دلف نشر مينورسكى بالقاهرة وكذلك النشرة الثانية للرسالة لمستشرقين روسيين ترجمة وتعليق الدكتور محمد منير مرسى (نشر عالم الكتب بالقاهرة) .

(٢) الغرور : كل ماغرّ الإنسان من شيطان أوجاه أومال أومتاع .

إلى طَنْجَةَ بل فى كـ ـلِّ أرضٍ خَيْلُنا تَسْرِى
إذا ضـاق بـنـا قُطْرٌ نَـزُلْنا عـنـه إلى قُطْر
لـنـا الـدنـيـا بما فيها من الإسلام والـكُـفْـر
فَـنصْـطـافُ على الثَّـلْـجِ ونَشْـتُـو بـلـدَ الـتَّـمْـر

وطريف أن يَعُدّ أبودلف مايأخذه الساسانيون من الناس بتفاصحهم وخُدَعهم وحِيَلهم الأدبية جزية . ويصوِّر الأرض كلها من مشارقها إلى مغاربها دارا لهم من الصين على المحيط الهادى إلى طنجة والمحيط الأطلسى ، وكأن الدنيا كلها ملكهم ولا حواجز تحجزهم من نهر أو جبل أو بلد مسلم أو بلد كافر ، فالدنيا كلها مسرح لأقدامهم ، يصطافون فى أقاليمها الباردة ، ويشتون فى أقاليمها الحارة الدافئة . ثم يأخذ أبودلف فى وصف حِيَلهم وصفا مسهبا ، وكيف أنهم كانوا يحتالون على النساء بما يكتبون لهم من تعاويذ وأحْراز ، وكيف أن القاصَّ منهم كان يتفق مع صاحب له ، ليفد على مجلس قَصصه ، فيأمر السامعين بإعطائه مايجودون به ، ثم إذا تفرَّقوا عنه تقاسما ما أعطوه . ويصورهم يتباكون فى البرد القارس خداعا للناس ، حتى تلين لهم قلوبهم ويعطوهم دراهمهم وكيف أنهم حين يلمُّون بحوانيت الباعة يخطفون جوزة من هنا وتمرة أوتينة من هناك ، وكيف يدهنون وجوههم بماء البَيْض الأصفر ، لتبدو شديدة الصفرة ، وكيف يَعْصبون جباههم ليوهموا الناس أنهم مَرْضَى ، وكيف يعْقرون أو يجرحون أنفسهم بالأمواس ، وكيف يَطْلون أجسادهم بالزيت حتى تسودَّ جلودهم ، وكيف يدارون ألسنتهم موهمين الناس أن الروم قطعوها فى جهادهم ، محاولين أن يبتزُّوا منهم الثياب والسلاح للغزو ، وكيف يحملون البخور وأدواته للسؤال به ، وكيف يحتالون على مرضى الأسنان بوضع دود الجُبْن بين أسنانهم ثم استخراجه ، وكيف يروون للناس كذبا الحديث عن الأنبياء والحكايات القصار ، وكيف يلبسون ثياب المتصوفة والرهبان احتيالا ، وكيف يوهمون الناس أنهم يجمعون الأموال لأقربائهم الأسرى فى ديار الروم فداء لهم ، وكيف يخفون إحدى أيديهم إيهاما بأنها مقطوعة ، وكيف يخيِّلون للناس أنهم كانوا يهوداً أو نصارى وأسلموا ، وكيف يوهمونهم بأنهم عُمْىٌ لايبصرون ، وكيف يدورون بين العِشائين منادين : رحم الله من عَشّىٌ الغريب الجائع ، آخذين من كل دار كِسْرة ، وكيف يحتالون على الناس بمعرفة طوالعهم ونجومهم ، وكيف يحتالون على الشيعة خاضبين لحاهم بالحِنَّاء مع حملهم الألواح والسُّبَح من الطين زاعمين أنها من قبر الحسين ، مع نواحهم عليه ورواية الأشعار فى فضائله ومقتله ، وكيف أنهم يحتالون لذرف الدموع بغمس قطنة فى الزيت وإمرارها على عيونهم ، وكيف يستأجرون

الصبيان والنساء ويُكْدون أو يشحذون عليهم ، وكيف يطرحون على أبواب الحوانيت السُّبحات وأقراص الحلوى ، وكيف يَرْقون المجانين وأصحاب العاهات ، وكيف يموِّهون بأنهم صائمون وأنهم سيحجُّون عن الناس ، وكيف يعبِّرون للناس رُؤاهم ، وكيف يستأجرون الصبيان ، وكيف يحملون السِّلال فيها الحيَّات وقد قلعوا أنيابها ، وكيف يدَّعون الطبَّ ومداواة المرضى ، وكيف يشحذون أو يُكْدون على الدِّببة والسباع والقردة ، وكيف يُرْعَدون رَعَدات شديدة تهتز لها مفاصلهم وتصطكّ أسنانهم ، وكيف أنهم يشدُّون أيديهم مجموعة الأصابع حتى يُظَنّ أنها مقطوعة ، وكيف يأوون إلى المساجد عليهم المرقَّعات حتى يُظن أنهم من الصوفية . وما يزال أبودلف فى وصف خُدَع القوم وحِيلهم ، حتى يُوفى على نهاية القصيدة قائلا :

ألا إنى حَلبتُ الدّهـ ـرَ من شَطْرٍ إلى شَطْرِ
وجُبْتُ الأرضَ حتى صر تُ فى التَّطْواف كالخضْرِ
فإنْ أظفَرْ بآمالى تَشَفَّتْ غُلَّةُ الصَّدْرِ
وألممت بأوطـــــانى قَوِىَّ النَّهْى والأمر
وقد تَخفق فوقى عـ ـزَّةً ألويةُ النَّصْرِ
وإما تكن الأخرى وعِزٌّ جائزُ الكسر
فلا أُبْتُ مع السَّفْر غَداً فى أوبةِ السَّفْرِ
ولا عُدْتُ متى عُدْتُ بلا عِزٍّ ولا وَفْرِ

ويقول إن له أسوة فى غربته بالسادة الطُّهر آل البيت كما تشهد قبورهم فى الكوفة وكربلاء وبغداد وسامرًّا وطوس وباخمرا بالقرب من الكوفة . وفى ذلك مايدل على أنه كان شيعيا ، وأكبر الظن أنه كان إماميا مثل الصاحب بن عباد . وقد صوَّر فى قصيدته كل أفانين المكدين وحيلهم مستخدما مصطلحاتهم فى هذه الحيل ، مما جعله يُعْنَى بشرح القصيدة بيتا بيتا ، وعنه نقل الثعالبى الشرح ، ولخصناه فى إيجاز . والمصطلحات كلها شعبية ، ومن المؤكد أن جماعة الكدية كلها كانت جماعة شعبية ، ولاشك فى أن أبادلف يُعَدَّ خير شاعر فى عصره عبرَّ عن نفسه وعن هذه الجماعة .

ولأبى دلف رحلات إلى الصين وأواسط آسيا دوَّن اقتباسات كثيرة منها ياقوت فى « معجم البلدان » والقزوينى فى كتابه « آثار البلاد » وُوجدت له رسالتان حلل أولاهما المستشرق الألمانى رور صوير موضحا أنه يتحدث فيها عن رحلته إلى الصين . ونشر الرسالة الثانية المستشرق مينورسكى (طبع وزارة التربية والتعليم بالقاهرة) كما نشرها مستشرقان

روسيان وعنى الدكتور محمد منير مرسى بترجمة ما بذلاه فى نشرتها والتعليق على الرسالة تعليقات علمية نافعة ، تذلل صعوباتها وتجعلها ميسرة للقارىء . وفيها يصف أبو دلف رحلته فى أواسط آسيا من جنوبى أذربيجان إلى مدينة باكو فتفليس فأردبيل فهمذان فالرىّ فطبرستان فقومس فطوس فنيسابور ، فهراة ، فأصفهان ، فمدن خوزستان . ويعنى بوصف المدن والقلاع التى شاهدها وصفا دقيقا ذاكراً معادنها وثمارها وأسواقها وأسوارها وسكانها من الشيعة وغيرهم وآثارها القديمة .

الفصل الخامس

النثر وكتّابه

١

تنوع الكتابة

رأينا فى العصرين : العباسى الأول والعباسى الثانى كيف تطور النثر العربى حتى وَعَى الثقافات الأجنبية العلمية والفلسفية ، وكيف تحول العرب من دور النقل والترجمة إلى دور التصنيف والمشاركة العقلية الخصبة المثمرة فى ميادين العلم والفلسفة . ونحن لا نصل إلى هذا العصر : عصر الدول والإمارات ، حتى يصبح فى أغلب الأمر عصر تصنيف ومشاركة حية فى الفلسفة وعلوم الأوائل ، على نحو ما صوّرنا ذلك فى غير هذا الموضع . وقد أصبح للعرب نوعان متكاملان من النثر : نوع علمى ونوع فلسفى ، ونفذوا خلال ذلك إلى وضع كتب فى مصطلحات العلوم ، كما أسلفنا ، وكل ذلك أحدثوه بدون ضجة . ولم يتركوا علما دون أن يتعمقوا فيه ودون أن يكتبوا فيه المجلدات الضخام ، ويحدثنا المطهر المقدسى المتوفى سنة ٣٥٥ عن سلوك معاصريه العلمى ومايبذلون من عناء ليس وراءه عناء قائلا[(١)] :

« يأبى العلم أن يضع كَنَفه أو يخفض جناحه أو يسفر عن وجهه إلا لمتجَرِّد له بكلِّيته ، ومتوفِّر عليه بأنِّيَّته ، مُعانٍ له بالقريحة الثاقبة ، والرَّوِيَّة الصافية ، مقترن به التأييد والتسديد ، قد شمَّر ذَيْله ، وأسهر ليله ، حليف النَّصب ، ضجيع التعب ، يأخذ مأخذه متدرِّجا ، ويتلقَّاه متطرِّقا ، لا يظلم العلم بالتعسف والاقتحام ، ولا يخبط فيه خَبْطَ العَشْواء فى الظلام ، ومع هجران عادة الشر ، والنزوع عن نزاع الطبع ، ومجانبة الإلف ، ونَبْذ المماحكة واللَّجاجة ، وإجالة الرأى عند غموض الحق ، والتأتى بلطيف المأتى ، وتوفية النظر حقه من التمييز بين المشتبه والمتضح ، والتفريق بين التمويه والتحقيق ، والوقوف عند مبلغ العقول ، فعند ذلك إصابة المراد ، ومصادفة المرتاد » .

وبهذا العناء البالغ والجهد الشاق تمثل المثقفون العلوم والفلسفة تمثلا رائعا ، وكان

(١) كتاب بدء الخلق والتاريخ للمقدسى ١/٤ .

لذلك آثار كثيرة فى تنوع فنون الكتابة والنثر ، مما نراه واضحا لا فى الكتابات العلمية والفلسفية فحسب ، بل أيضا فى الكتابات الأدبية ، ولنأخذ جانبا واحدا هو جانب القَصص ، فقد أخذ يوجد بجانب القصص الأدبى الخالص قصص صوفى وقصص فلسفى . ومعروف أن المترجمين عُنوا فى القرنين الثانى والثالث للهجرة بنقل كثير من القصص الفارسى والهندى وكان بين ما نقلوه كتاب ألف ليلة وليلة . ومحاكاةً له ألَّف محمد بن عبدوس الجهشيارى المتوفى سنة ٣٣١ للهجرة كتابا قصصيا مماثلا يشتمل على ألف حكاية من حكايات العرب وغيرهم . ومنذ هذا الحين يكثر تأليف كتب السمر حتى ليذكر حمزة الأصفهانى المتوفى قبل سنة ٣٦٠ أن كتب السمر المتداولة فى أيامه بلغت سبعين كتابا[١] ، وكانت العامة تتلهف منها على ما يدور حول الحب وحكاياته أوحول الجن. وطبيعى أن تكثر كتب النوادر ، وخاصة ما اتصل منها بالحمقى أو بالمغفلين ، وتكثر أيضا كتب الندماء وأخبارهم .

ومرَّ بنا فى كتاب العصر العباسى الثانى أنه أخذت تتكوَّن منذ القرن الثالث حول المتصوفة حكايات كثيرة ، تصوِّر جهادهم فى نسكهم جهادا مضنيا ، وحكايات أخرى بجانبها تصور كراماتهم . وكانت العامة تقبل على هذه الحكايات الصوفية ، مما جعلها تطبع بطوابع الأدب الشعبى وألفاظه ولغته[٢] . وكلما مضينا فى عصر الدول والإمارات كثرت الحكايات والأقاصيص عن المتصوفة ، لما كانت تلقى من رواج عند العامة ، ويكفى أن نعرض أطرافا من هذه الحكايات عند القشيرى مؤسس التصوف السنى ، فقد فتح فى رسالته بابا لكرامات الأولياء ، وقصَّ حكايات منها تنسب إلى الصحابة والتابعين وكبار المتصوفة فى إيران والعراق ومصر والخضر عليه السلام . ومما حكاه أنه كان فى قصر سهل التسترى المتصوف بيت يسمى بيت السباع ، يقول : فسألنا عن ذلك ؟ فقالوا كانت السباع تجىء إلى سهل ، وكان يُدْخلهم هذا البيت ويُضيفهم ويُطْعمهم اللحم ثم يخليهم ! وحكى عمن يسمى ابن سالم أنه لما مات إسحق بن أحمد دخل سهل التسترى صومعته ، فوجد فيها سَفَطًا (وعاءً) فيه قارورتان ، فى واحدة منهما شىء أحمر ، وفى الأخرى شئ أبيض ، ووجد شوشقة (قطعة) ذهب وشوشقة فضة ، فرمى بالشوشقتين فى دجلة ، وخلط ما فى القارورتين بالتراب ! وكان على إسحق دين ، قال ابن سالم : قلت لسهل إيش كان فى القارورتين ؟ قال : إحداهما لو طُرح منها وزن درهم على مثاقيل من النحاس

(١) تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء لحمزة الأصفهانى (نشر دار مكتبة الحياة ببيروت) ص ٤٠ .

(٢) انظر العصر العباسى الثانى (طبع دار المعارف) ص ٢٥٩ .

صارت ذهبا ، والأخرى لو طُرح منها مثقال على مثاقيل من الرصاص صارت فضة . فقال سامع لابن سالم : وإيش عليه لو قضى منه دين إسحق؟ فقال له : إى دوست (يا صاحبى) خاف على إيمانه . وحَكى عن الخَوَّاص أنه قال : كنت فى البادية مرة ، فسرت فى وسط النهار ، فوصلت إلى شجرة وبالقرب منها ماء ، فنزلت ، فإذا أنا بسبع عظيم أقبل ، فاستسلمت ، فلما قرب منى ، إذا هو يعرج ، فحَمْحم وبرك بين يدى ، ووضع يده فى حجرى ، فنظرت ، فإذا يد ه منتفخة ، فيها قيح ودم ، فأخذت خشبة وشققت الموضع الذى فيه القيح ، وشددت على يده خرقة ، ومضى ، وإذا أنا به بعد ساعة ومعه شبلان يبصبصان لى وحملا إلىّ رغيفا ! . وحكى عن ذى النون فى رواية أبى بكر بن عبد الرحمن قال : كنا مع ذى النون المصرى فى البادية ، فنزلنا تحت شجرة أم غيلان ، فقلنا : ما أطيب هذاالموضع لو كان فيه رُطَب ، فتبسم ذو النون ، وقال : أتشتهون الرطب ، وحرَّك الشجرة ، وقال : أقسمت عليك بالذى ابتدأك وخلقك شجرةً إلا نثرت علينا رُطَباً جَنِيًّا ، ثم حرَّكها ، فنثرت رطبا جَنِيًّا ، فأكلنا وشبعنا . ثم نمنا ، وانتبهنا وحركنا الشجرة ، فنثرت علينا شوكا !. ومما حكاه عن الخضر فى رواية أبى عمران الواسطى قال : انكسرت السفينة ، وبقيت أنا وامرأتى على لوح وقد ولدت فى تلك الحالة صبية ، فصاحت بى ، وقالت لى : يقتلنى العطش ، فقلت : هو ذا يرى حالنا ، ورفعت رأسى ، فإذا رجل فى الهواء ومعه كوز ، فأخذت الكوز وشربنا منه ، وإذا هو أطيب من المسك وأبرد من الثلج وأحلى من العسل ، فقلت : من أنت ؟ رحمك الله ، فقال : عبد لمولاك ، فقلت : بم وصلت إلى هذا ؟ فقال : تركت عَوارى الدنيا لمرضاته ، فأجلسنى فى الهواء ، ثم غاب عنى ولم أره :

وتكثر أمثال هذه الحكايات فى كتب المتصوفة ، وواضح ما فيها من إبطال قانون السببية ، وإنما رويناها لندل على ذيوع حكايات وأقاصيص صوفية شعبية بين العامة ، وكانت تُرْوَى بلغة وسطى بين الفصحى والعامية أو قل بلغة فصحى قريبة من أفهام العامة ، وبذلك كانوا يتداولونها وكانت تشيع فى أوساطهم وتنتشر ، عاملة – إلى حد – فى الإبقاء على الفصحى ، لغةً متداولة على ألسنة الإيرانيين فى ذلك العصر ، خاصة أنهم كانوا يُشْغَفُون بالتصوف وكل ما يتصل به من أقاصيص ، لا تتناول الكرامات فحسب ، بل أيضا تتناول جوانب أخرى كرؤيا الرسول ﷺ فى الحلم ورؤيا الصحابة والصوفية ورؤيا الحور العِين . وفى رسالة القشيرى من ذلك حكايات مختلفة ، وبالمثل فى كتب المتصوفة ككتاب قرة العيون ومفرح القلب المحزون لأبى الليث السمرقندى المطبوع على هامش

الروض الفائق فى المواعظ والرقائق .

ويلقانا بجانب القصص الصوفى قصص فلسفى رمزى عند ابن سينا ويحيى السُّهْرَوَرْدِىّ ، أما ابن سينا فله ثلاث أقاصيص ، هى حَىّ بن يَقْظان وسَلامان وأُبْسال ، ورسالة الطير . وتستهل أقصوصة حَىّ بن يقظان بأن رفقاء (هى شهوات الإنسان وغرائزه) خرجوا يتنزهون ، فبينما هم يطوفون إذ رأوا شيخا بهيًّا هو حى بن يقظان وقد رمز به ابن سينا إلى العقل الفعال . ويدور حوار بين حى بن يقظان والرفقاء نعرف منه خطورة علم المنطق ويسميه علم الفراسة ، كما نعرف أن الرفقاء رفقاء سوء وأن هناك شاهد زور هو قوة التخيل التى توقع الإنسان فى الشر ، وأن الإنسان تحفّه من يمين القوة الغضبية ومن يسار القوة الشهوانية القذرة ولا نجاة منها إلا بالموت ، مثلها فى ذلك مثل الرفقاء السوء من الغرائز ، وأن على الإنسان أن يقمعها بالمجاهدة . ويقول حى بن يقظان إن حدود الأرض ثلاثة ، حد يحوزه الخافقان ، ويقصد به المركبات المحسوسة ، وحد المغرب ويقصد به الهيولى ، وحد المشرق ويقصد به الصورة . وبين هذين الحدين وبين عالم البشر سور مضروب لن يتجاوزه إلا الخواص المغتسلون فى عين فوّارة لعلها علم المنطق تطهرهم وتزكيهم ، إذ تضيئ لهم الحقائق . ويشير إلى المملكة المعدنية والنباتية والحيوانية ويقول إن إقليم الإنسان تقابله أقاليم المملكة السماوية وما بها من الأفلاك التسعة أو العقول التسعة التى تتسلط على الأرض والكون ، ثم العلة الأولى أو علة العلل وهى الذات الإلهية . ويتحدث عن عالم الأرض ويقول إنه رُتِّب على سكك خمس كسكك البريد ، ويريد بها الحواس الخمس ، ويقول إن فى الأرض أمة برَرَة رامزا بها إلى القوى العاقلة . وبذلك تنتهى الأقصوصة .

وأقصوصة سَلامان وأُبْسال لها أصول يونانية ، وهما أخوان كان أُبْسال أصغرهما سِناًّ وتربىَّ فى كَنَف أخيه ، ونشأ جميلا عفيفا ، شجاعا عالما أديبا . وسلامان فى الأقصوصة هو النفس الناطقة ، وأبسال هو العقل أو درجة العرفان . وكانت لسلامان زوجة رمزت بها الأقصوصة إلى القوة البدنية الأمارة بالشهوة ، عشقت أبسال ، فقالت لزوجها أخلطْه بأسرتك . ولما خلت به أظهرت له عشقها ، فأبى الانصياع لها أو قل أبى العقل الانصياع إلى القوة البدنية . ومكرتْ به فزوجته بأختها ، وقالت لها إننى لم أزوجك بأبسال ليكون لك وحدك ، وإنما ليكون لنا معا . وفى ليلة الزفاف جاءته بدلا من أختها وأخذت تعانقه وتضمه إلى صدرها ، فلاح برق فى السماء أبصر على ضوئه وجه زوجة أخيه فتخلص منها . ويرمز البرق إلى جذبة من جذبات الحق ، وينكشف الشَّرَكُ لعين أُبْسال ، ويتخلص

من عالم الشهوات الحسية إلى عالم العقل المحض . وينتظم جنديا فى الجيش ويفتح كثيرا من البلاد رمزا إلى الاطلاع على الملكوت الأعلى . وتتفق زوجة سلامان مع الطابخ والطاعم فيدسّان لأبسال السم ويموت . ويثأر الأخ لأخيه ، فيقتل الزوجة والطاعم (رمزى القوة الشهوانية) والطابخ (رمز القوة الغضبية) . وسلامان نفسه فى قتله الثلاثة رمز لغلبة العقل على القوى البدنية .

وأقصوصة الطير يتخذ ابن سينا الطير فيها رمزا للحرية ، ويستهلُّها بدعوة إخوانه الفلاسفة الى الصفاء والإخلاص والسمو إلى الكمال ، ويتصور نفسه طائرا مع طائفة من الطير تنبه لها الصيادون ، فنصبوا لها الشِّباك ، وسرعان ما وقع فيها الطير وتشبثت بأجنحته وأرجله ، فاستسلم للهلاك ، وشُغل كل طائر عن أخيه بأمره وكرْبه ناسيا حريته الضائعة كما نسيت الأرواحُ الإنسانية عالمها الذى هبطت منه ، وأصبحت سجينة البدن . وتخلَّص بعض الطيور رءوسها وأجنحتها من الشباك ، ولكن تظل أرجلها متعثرة فيها . ويجمع الطير قوته والشباك عالقة به ، وييمِّم جبل الملك رجاء أن يفكها عنه ، ويرى من دونه سبعة جبال مايزال يقطع وديانها حتى يصل إلى الجبل الثامن ويعرف أن الملك فى مدينة وراءه فينفذ إليه ويبهره جماله . ويتضرع إليه أن يفك عنه الشباك . ويقول له لا يستطيع فكها إلا عاقدوها ، ويرسل إليهم رسولا معه ليفكوها عنه . وانصرف الطير مسرورا . وواضح أن كل هذا الجهاد من جبل إلى جبل إنما كان فى سبيل تخلص الأرواح من أجسادها ، وترمز الجبال إلى مقامات السلوك إلى محبة الله المعروفة فى بيئات المتصوفة ، بينما يرمز الرسول الذى يفكّ الشباك عن الطير إلى ملك الموت .

ويُعيد يحيى بن حَبَش السهروردى كتابة أقصوصة حى بن يقظان متخذا لها اسما جديدا هو الغربة الغربية ، وحى بن يقظان فيها لا يرمز إلى العقل الفعال أو العقل الإنسانى كما رأينا عند ابن سينا ، وإنما يرمز إلى المتصوف وجهاده ومقاماته حتى يتصل بربه محبوبه . ويستهل الأقصوصة السهروردى بأنه سافر مع أخيه عاصم من ديار ماوراء النهر إلى مدينة القيروان حيث أُسِرا وقُيِّدا فى السلاسل وألقى بهم فى بئر عميقة . ويبدو أنه يرمز بالمغرب والبئر إلى الشهوات التى تحول بين الإنسان وبين حياة الإشراق . ورأى هو وأخوه (رمز العقل كما يتضح من اسمه عاصم) هدهدا فى ليلة قمراء فى منقاره كتاب صدر من شاطئ الوادى الأيمن من البقعة المباركة . وهو كتاب حُمل إليهما من الذات العلية يدعوهما إلى السفر (رمز الجهاد الصوفى) بغية الوصول ، ويأمرهما بركوب سفينة تجرى بهما فى موج كالجبال صاعدة بهما إلى طور سيناء ، ليريا صومعة (الله) . ولعله رمز بالموج إلى

الشهوات . ورأيا فى الطريق جماجم عاد وثمود (رمز الضالين) وصعدا الجبل ورأيا أباهما شيخا كبيرا تكاد السموات والأرض تنشق لجماله وجلاله . وكأنه يرمز بذلك إلى وصوله . ويطلب إلى ربه أن يخلِّصه من سجن القيروان غير أنه يأمره بالعودة إليه قائلا إنه يمكنه المجئ إليه كلما شاء . وهو بالعودة إلى سجن القيروان يرمز إلى أن الصوفى لا يستطيع التخلص نهائيا من علائق الأرض . ويقول الله إنك ستتخلص يوما (يوم الموت) من سجن القيروان ولا تعود إليه . ويلقاه فى الرحلة أسد هو رمز القوة الغضبية وحيتان ربما كانت رمزا للشهوات .وكانت الرحلة شاقة . واتخذ السهروردى من مشاقها رمزاً للعناء الصوفى فى الوصول إلى المعرفة الإلهية والمحبة الربانية ، وقد ختمها بقوله « نجَّانا الله من قيد الهيولَى والطبيعة » .

وإذا كان القصص نما فى العصر هذا النمو على أيدى الفلاسفة والمتصوفة فإن ضروب النثر الأخرى نمت بدورها ، وفى مقدمتها المناظرات وخطابة الوعظ . أما المناظرات فكثرت كثرة مفرطة بين أصحاب المذاهب الفقهية ، وكذلك بين أصحاب المذاهب الكلامية ، وهى أكثر وأوسع من أن نقف عندها ، وخاصة أنها كانت علمية الطابع . وأما خطابة الوعظ فتجرد لها كثيرون من الفقهاء والمحدثين والمتصوفة والزهاد وكانوا يعظون الناس فى المساجد بعد صلاة الجمعة وطوال شهر رمضان . ويصور السمرقندى المتوفى سنة ٣٧٣ ماينبغى أن يكون عليه الواعظ والمستمعون إليه ، فيقول[١] : إن أول مايحتاج إليه الواعظ أن يكون صالحا فى نفسه ورعا متواضعا ، وأن لا يكون متكبرا ولافظا غليظا ، وأن يكون عالما بتفسير القرآن والأحاديث وأقاويل الفقهاء ، وأن لا يحدِّث الناس إلا بماصحَّ عنده من الأحاديث النبوية والأخبار ، وأن لايسأل إنسانا هدية ، أما إذا أهدى إليه إنسان من غير مسألة فلابأس من أن يقبل هديته ، وينبغى أن يمزج فى مجلسه بين الخوف والرجاء ، فلا يجعله كله خوفا ولا كله رجاء ، وإن كان الواعظ محتاجا إلى تطويل مجلسه تخلله بكلام يستظرفه السامعون حتى يزيدهم نشاطا وإقبالا على سماعه . ومن آداب المستمعين أن يصلُّوا على الرسول ﷺ عند سماع اسمه وأن لا يناموا فى أثناء الوعظ ، بل يظلوا ناشطين متنبهين

ونلمُّ على سبيل المثال بطائفة من كبار الوعاظ ، فمنهم أبو عثمان الصابونى شيخ الإسلام بخراسان ويقال إنه ظل –كما مرَّ بنا يعظ الناس فى مجالس تذكيره ستين سنة ، وإنه كان

---

(١) بستان العارفين على هامش تنبيه الغافلين للسمرقندى ص ٢٥ وما بعدها .

يعظهم بالعربية والفارسية[١] ، ومنهم إمام الحرمين الجويني المتوفى سنة ٤٧٨ ومن أجله بنيت المدرسة النظامية بنيسابور – كما أسلفنا – وكان يجلس للوعظ والمناظرة ورُزق من التوسع فى العبارة ما لم يعهد من غيره ، وكان لا يتلعثم فى كلمة[٢] . ومنهم القشيرى الإمام الصوفى الكبير المتوفى بنيسابور سنة ٤٦٥ ومرَّ بنا ما قيل فى وعظه من أنه « لو قرع الصخر بصوت تحذيره لذاب ، ولو رُبط إبليس فى مجلسه لتاب » . ومنهم الغزالى الإمام المشهور وأخوه أحمد الذى قيل فيه : «كان واعظا تنفلق الصخور الصمّ عند سماع تحذيره ، وتُرْعَدُ فرائص الحاضرين فى مجالس تذكيره[٣] » . ومنهم فخر الدين الرازى المتوفى سنة ٦٠٦ وكان واعظا كبيرا وكان يعظ باللسانين العربى والعجمى وكان يلحقه الوجد فى حال الوعظ ويكثر البكاء . وحضر مجلس وعظه ذات يوم السلطان أبو المظفر الغزنوى ، فصاح به وهو على المنبر ، ياسلطان العالم ! لا سلطانُك يبقى ، ولا تلبيسُ الرازى يبقى ، وإن مردَّنا إلى الله[٤] .

وكانت كثرة الدول والإمارات الفارسية فى العصر عاملا مهما فى كثرة الرسائل الديوانية ، فقد كان لكل دولة ولكل إمارة ديوان رسائل تصدَّره كتَّاب اشتهروا بحسن البيان ، وليس ذلك فحسب فإنهم مضوا يتأنقون فى كتاباتهم صورا من التأنق حتى يُرْضوا أمراءهم . وكانت كتبهم لاتخلو من حِلية السجع ، فهى حلية مشتركة فى الرسائل جميعها وتضاف لها حِلًى مختلفة من الجناس والطباق والأخيلة ، حتى لتغدو بعض الرسائل طائفة من الحِلْيات والتنميقات . وكان الشبان يغدون على هذه الدواوين ابتغاء العمل فيُخْتَبَرُونَ ، ومن تتضح عنده الملكة الأدبية يوظف فيها ، وحينئذ يَلْزَمُ كاتبا من كتابها ، يعمل بين يديه ، حتى يخرِّجه كاتبا ماهرا . وكان بعضهم يظل فى حضرة الدولة أوعاصمتها ، وبعضهم يُرسل إلى الولايات للعمل بين أيدى الولاة . وكل ذلك كان يدفع شباب الكتاب إلى التنافس بينهم ، تنافسا أداهم إلى التثقف الواسع بألوان الثقافات المختلفة من لغوية وغير لغوية . وكان من يُظهر منهم نبوغا يرتقى سريعا وقد يصبح رئيسا للديوان ، وقد يصبح وزيرا يدبر أمور الدولة كلها . وربما أصبح واليا لمدينة كبيرة . وكل ذلك دفع إلى النهوض بالكتابة الديوانية ، وخاصة فى القرون الرابع والخامس والسادس للهجرة ، حين كانت العربية لاتزال غالبة ولايزال سلطانها نافذا فى الأعمال الرسمية . وبالمثل ظلت فى

(١) السبكى ٢٧١/٤

(٢) ابن خلكان ١٦٨/٣

(٣) السبكى ١٩١/٦

(٤) السبكى ٨٩/٨ وما بعدها وابن خلكان ٢٤٩/٤ .

تلك القرون الكتابة الإخوانية مزدهرة ، فالادباء يصوِّرون فى رسائلهم الشخصية عواطفهم فى التهادى والاستمناح والثناء والذم والتهانى والعتاب والاستعطاف والتعزية ، مظهرين فى هذا المجال براعة فى طرافة التفكير وجمال التعبير ، وسنُعْنَى فى الصحف التالية بالحديث عن كتاب الرسائل الديوانية والشخصية ، ونقف قليلا عند قابوس بن وَشْمكير ومحمد بن عبدالجبار العُتْبى ورشيد الدين الوطواط من كتَّاب الدول والإمارات ثم نلمُّ بابن العميد واضع طريقة كتابة الرسائل فى العصر وتلميذه الصاحب بن عباد وبديع الزمان وما أنشأ من مقاماته الرائعة .

٢

كتَّاب الرسائل

من أهم ما يلاحَظ فى مطالع هذا العصر بإيران ازدهار الحياة الأدبية ، فإن أصحاب الدول والإمارات الإيرانية تنافسوا فى جَمْع الأدباء من حولهم ، واتخذوا لذلك كل ما استطاعوا من تشجيع مادى مما جعل حواضرهم تتحول إلى مراكز أدبية كبيرة ، ولعلنا لم نَنْسَ مامرَّ بنا من كثرة الإمارات الفارسية فى القرن الرابع الهجرى ، فقد كان السامانيون فى بُخَارى بخراسان والبويهيون بالرَّىِّ والزياريون فى طَبَرِسْتان وجُرْجان ، ولم يلبث الغزنويون أن ظهروا فى هراة بأفغانستان . وكان كل حاكم يسعى إلى أن تحفل عاصمته بكبار الكتاب والشعراء ، وكانوا دائما يختارون كاتبا كبيرا ليتولى شئون دواوينهم ، وكان بدوره يختار طائفة من الكتاب البلغاء لمعاونته ، فلا نعجب إذا نشطت الكتابة حينئذ وكثر الكتاب بإيران كثرة مفرطة . ولم يكن أصحاب الإمارة الكبيرة أو الدولة فقط هم الذين يجذبون الكتاب البلغاء إلى دواوينهم ، بل كان أيضا يصنع صنيعهم حكام البلدان والإمارات الصغيرة ، ولذلك تعددت مراكز الأدب فى الإمارة الواحدة على نحو ما يرى القارئ للثعالبى فى كتابه اليتيمة ، فإنه عرض فى حديثه عن الدولة السامانية وحاضرتها بخارى بخراسان لنيسابور وما كان بها من نشاط أدبى واسع ، وبالمثل عرض فى حديثه عن الدولة البويهية وحاضرتها الكبرى فى الرَّىِّ لأصبهان والجبل وفارس والأهواز .

ولن نستطيع أن نتعقب جميع كتاب الدول والإمارات الإيرانية فى القرن الرابع فضلا عما وراءه من قرون ، ولذلك سنكتفى ببعض المشهورين متخذين منهم أمثلة لازدهار كتابة الرسائل الديوانية والإخوانية قبل الغزو المغولى أو التتارى فى القرن السابع الهجرى . وأول من نقف عندهم كتاب الدولة السامانية ومن كبار كتابها العميد والد أبى الفضل بن العميد

كبير كتاب القرن الرابع وعلى بن محمد[1] الإسكافى النيسابورى وأسرة بنى ميكال من أهل نيسابور وفى مقدمتهم أبو الفضل الميكالى الذى ترجمنا له بين شعراء الغزل ، ويقتطف الثعالبى فصولا طريفة من رسائله . وأكثر المجلد الرابع من اليتيمة إنما هو فى الترجمة لأدباء بخارى ونيسابور ومن طرأ عليهما من كبار الأدباء مثل بديع الزمان ، وسنفرد له حديثا ، ومثل أبى بكر الخوارزمى ، وقد ترجمنا له فى شعراء الهجاء ، وهو أكبر كتاب الرسائل الشخصية أو الإخوانية فى العصر ورسائله مطبوعة ، وقد تحدثنا عن فنه الكتابى وبراعته الأدبية فى كتابنا « الفن ومذاهبه فى النثر العربى » .

ويُفيض المجلد الثالث من كتاب اليتيمة فى ذكر كُتَّاب الدولة البويهية فى الرىِّ وأَصْبهان والجبل وفارس والأهواز وفى مقدمتهم ابن العميد والصاحب بن عباد ، وسنخص كلا منهما بحديث ، ويشيد الثعالبى بأبى العباس[2] الضبى المتوفى سنة ٣٩٩ ويقول إنه خليفة الصاحب وجذوة من ناره ، ويجرى فى طريقه ، ترسما وترسلا . وكان لجرجان وطبرستان حظهما من الكتاب والشعراء ، ولعل كاتبا فيهما لم ينبغ نبوغ قابوس بن وَشْمكير فى الترسل والكتابة ، وسنلم به وبكتابته عما قليل . ونلتقى فى الدولة الغزنوية بكثيرين من الكتاب وفى مقدمتهم أبو الفتح البُسْتى ، وقد ترجمنا له بين شعراء الحكمة والفلسفة ، وكان يعاونه فى الكتابة أبو النصر محمد بن عبد الجبار العُتْبى ، وسنقف عنده بعد قليل . ومن كُتَّاب الدولة الغزنوية أبو بكر القُهُسْتانى الذى ترجمنا له بين شعراء اللهو والمجون وكان على رأس كُتَّاب الأمير محمد بن محمود الغزنوى . ويذكر الثعالبى فى تتمة اليتيمة بعض أسجاعه فى رسائله . ومن كتاب هذه الدولة أيضا القاضى أبو أحمد منصور[3] بن محمد الأزدى الهروى المتوفى سنة ٤٤٠ وأشاد بكتاباته وأشعاره كل من ترجموا له من القدماء .

ونمضى إلى الدولة السلجوقية فى القرن الخامس الهجرى ونجد على رأس كُتَّابها أول وزير لها عميد الملك منصور بن محمد الكُنْدُرِىّ المارّ ذكره المتوفى سنة ٤٥٦ للهجرة وفيه يقول صاحب الدمية : « لعميد الملك الكُنْدُرِىّ طريقة فى الترسل محمودة ، وموافقة فى البلاغة مشهودة »[4] ويذكر نموذجا من كتاباته . ومن كُتَّاب هذه الدولة أبو الحسن[5] الحسينى

---

(١) انظر فى الإسكافى اليتيمة ٤/٩٥ ومعجم الأدباء ١٤/١٥٧ .

(٢) راجع فى الضبى اليتيمة ٣/٢٨٧ ومعجم الأدباء ٢/١٠٥ .

(٣) انظر القاضى منصور الهروى فى تتمة اليتيمة ٢/٤٦ والدمية ٢/١٥٣ والسبكى ٥/٣٤٦ ومعجم الأدباء ١٩/١٩١ وبروكلمان ٢/١٢٢ .

(٤) راجع الكندرى فى الدمية ٢/٢٣٠ وابن خلكان ٥/١٣٨ والشذرات ٣/٣٠١ وابن الأثير فى مواضع متفرقة .

(٥) انظره فى الدمية ٢/١٧٧ .

البلخى ، وكان ألْب أرسلان يرسله فى مهامّه إلى بغداد ، ويسوق الباخرزى فى الدمية نموذجا من سلطانياته . ومن كتاب هذه الدولة أيضا الباخرزى صاحب الدمية ، ومرت ترجمته بين شعراء اللهو والمجون ، والطغرائى ومرت ترجمته بين شعراء المديح ، والأبيوردى وعمل فى دواوين السلاجقة ببغداد وأصفهان وغيرهما من البلدان ، ومرت ترجمته بين شعراء الفخر والهجاء والشكوى .

وكانت الدولة الخوارزمية تقود بدورها نشاطا أدبيا وعلميا عظيما استمر حتى قضاء التتار عليها سنة ٦٢٩ للهجرة ، ويكفى أن هذا النشاط أنتج العالم المعتزلى الكبير الزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨ كما أنتج كاتبا كبيرا يُعَدّ آخر كتاب الدواوين النابهين فى إيران ، وهو رشيد الدين الوطواط ، وسنخصه بكلمة ، بعد إلمامنا بقابوس بن وَشْمكير وأبى النصر العُتبىّ .

قابوس[1] بن وَشْمكير

هو أحد أمراء الدولة الزِّيارية فى طَبَرِسْتان وجُرْجان وبلاد الجبل ، ويرجع نسبه هو وأسرته إلى « آل قارن » إحدى الأسر السبع الرفيعة – فيما يُقَال – لعهد الساسانيين . وينسبه البيرونى هو وأسرته إلى « قُباذ » الملك الساسانى . ولى الحكم فى إمارته بعد أبيه وَشْمكير ابن زِيار سنة ٣٦٧ ولقبه الخليفة العباسى بلقب « شمس المعالى » واشتبك مع البويهيين فى سلسلة حروب انتهت بفراره من إمارته إلى السامانيين سنة ٣٧١ وظل عندهم مكرَّما ، حتى استردَّ ملكه سنة ٣٨٨ . وكان أميراً جليل القدر بعيد الهمة ، غير انه كان –كما يقول ابن خلكان – على ما خُصَّ به من المناقب ، والرأى البصير بالعواقب ، مُرَّ السياسة لا يساغ كأسه ، ولا تُؤْمَنُ بحال سطوته وبأسه ، يقابل زلّة القدم ، بإراقة الدم ، لا يذكر العفو عند الغضب ، فما زال على هذا الخلق ، حتى استوحشت النفوس منه وانقلبت القلوب عليه ، فأجمع أعيان دولته وعسكره على خلعه ونزع أيديهم من طاعته ، وحاصروه بإحدى القلاع فى جرجان . وكان ابنه منوجهر بَطَبرِسْتان فاستحثُّوه على السير إليهم لعقد البيعة له ، فأسرع فى الحضور وبايعوه على أن يخلع أباه ، ونزل على إرادتهم ، وألزم أباه المكث بإحدى القلاع ، ولم يزل فى سجنه حتى توفى سنة ٤٠٣ على نحو ما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع .

---

(١) راجع ترجمة قابوس فى اليتيمة ٤/٥٩ واليمينى للعتبى مع شرح المنينى (طبع القاهرة سنة ١٢٨٦ هـ) . ٢/١٤ – ١٧ ، ٢/١٧٢ – ١٧٨ ومعجم الأدباء ١٦/٢١٩ وابن خلكان ٤/٧٩ والمنتظم ٧/٢٦٤ والنجوم الزاهرة ٤/٢٣٣ وابن الأثير فى مواضع متفرقة وديوان المعانى للعسكرى ١/٨٦ والفن ومذاهبه فى النثر العربى (الطبعة الثامنة) ص ٢٥٥ .

وكان قابوس مكرما للعلماء والشعراء يجزل الصلات لهم ، وقدَّم له البيرونى كتابه « الآثار الباقية » وقدم له الثعالبى كتابيه : « المبهج » و «التمثل والمحاضرة » . وكان مثقفا ثقافة واسعة شملت علوم الأوائل ، ويقال إنه كتب فى الإسطرلاب كتابا كان يعجب به الصاحب . وكان أديبا بارعا ، وهو يُعَد من كبار الكتاب فى عصره ، وفيه يقول الثعالبى : « جمع الله سبحانه له إلى عزة العلم بسطة القلم ، وإلى فصل الحكمة نفاذ الحُكْم ، وإنى أتوِّج هذا الكتاب (اليتيمة) بِلُمَع من ثمار بلاغته . . وأكتب فصولا من عالى نثره » . ويقول العتبى فى كتابه اليمينى : « إن رسائله موجودة فى البلاد عند الأفراد ، لكنى أكتفى منها بلمعة من بوارق بيانه ، وزهرة من حدائق إحسانه » . ويعلق أبو هلال العسكرى على رسالة له اقتبسها فى كتابه « ديوان المعانى » بأنها لانظير لها فى الافتخار والعتاب . وقد جمع رسائله فى عصر قريب منه عبدالرحمن بن على اليزدادى باسم «كمال البلاغة » ونُشرت فى القاهرة ، ونراه يحلل فى مقدمته لها بلاغته ، وقد ردَّها إلى أربعة عشر نوعا فى طريقة التسجيع واستخدام قابوس اللوازم المتصلة به ، مما يصور بوضوح تعقد السجع عند قابوس تعقدا شديدا ، وهو تعقد مرجعه فيما يظهر سعة وقته ، وكأنه اتخذ منه أداة للهوه وتسليته على نحو ما يتضح فى المطلع التالى لإحدى رسائله :

« الإنسان خُلق ألوفا ، وطُبع عطوفا ، فما لسيدى لايُحْنَى عُوده ، ولايُرْجَى عَوْده ، ولايُخال لفيئه مَخيلة ، ولايُحال تنكره بحيلة ، أمِنْ صَخْر تَدْمُرَ قلبه ، فليس يُلينه العتاب ، أم من الحديد جانبه فليس يميله الإعتاب » .

وواضح تصنعه المعقد للجناس فى سجعاته إذ يجانس بين « عُوده » و « عَوْده » ملتمسا جناسه فى اختلاف حركة العين فى الكلمتين ، وقد يلتمس الجناس عن طريق الاشتقاق كما فى « يخال » و « مخيلة » وفى « يحال » و « بحيلة » . وقد يلتمسه فى تغاير بعض الحروف فى الكلمة كما فى « مخيلة » و « بحيلة » . وكل ذلك ليظهر مهارته فى تضييق ممراته إلى أسجاعه . وفى كتابنا « الفن ومذاهبه فى النثر العربى » بيان واف لهذا الجانب عنده .

أبو النصر[1] العُتْبى

هو محمد بن عبد الجبار العُتبى ، مولده ومرباه فى الرَّىِّ ، وقد فارقها فى شبابه ، وقدم خراسان على خاله أبى نصر العتبى وكان من وجوه العمال بها ، فلم يزل يرعاه كالولد العزيز

(١) انظر فى ترجمة العتبى اليتيمة ٣٩٧/٤ والسبكى فى ترجمة محمود بن سبكتكين الغزنوى ٣١٩/٤ وبروكلمان (الترجمة العربية) ١/٦ .

عند الوالد الحانى إلى أن وافاه القدر . وتتقلب بمحمد أحوال وأسفار وأعمال فى الدواوين إلى أن استقر أمره فى العمل مع أبى الفتح البستى فى ديوان أبى منصور سُبُكْتِكين مؤسس الدولة الغزنوية ، وظل يعمل بعد وفاة سُبُكْتكين مع ابنه محمود حين استولى على صولجان الحكم ، وكان محمود يعترف - كما مر بنا - بالسلطة الروحية للخليفة العباسى ، فخلع عليه لقب يمين الدولة وأمين الملة . واتسع ملكه - كما أسلفنا - حتى شمل خوارزم وما وراء النهر وإيران الوسطى والشرقية وكشمير والبنجاب فى الهند . وعُنى أبو النصر العتبى بكتابة تاريخ هذا الفاتح العظيم وسمى كتابه اليمينى نسبة إلى لقب محمود الذى خلعه عليه الخليفة : « يمين الدولة » وقد انتهى به عند سنة ٤٠٩ مع أنه عاش حتى سنة ٤٢٧ . وربما كان فى ذلك ما يدل على أنه صنفه فى وقت متأخر ، وأنه لم تتح له الفرصة لتكملته . ويقول السبكى : « وأهل خُوارزم وما والاها يعتنون بهذا الكتاب ، ويضبطون ألفاظه أشد من اعتناء أهل بلادنا بمقامات الحريرى » وهو مطبوع فى القاهرة مع شرح المنينى له فى القرن الماضى ، ونسوق القطعة التالية منه مع ما سجله من ألقاب محمود الغزنوى ، يقول :

« الأمير السيد ، الملك المؤيد ، يمين الدولة وأمين الملة أبو القاسم محمود بن ناصر الدين أبى منصور سُبُكتكين ، مَلك الشَّرْق بِجَنْبيه ، والصدر من العالم ويديه ، لانتظام الإقليم الرابع بما يليه من الثالث والخامس فى حوزة ملكه ، وحصول ممالكها الفسيحة وولاياتها العريضة فى قبضته ، ومصير أمرائها وذوى الألقاب الملوكية من عظمائها تحت حمايته ، وجبايته ، واستدرائهم « دفعهم » من آفات الزمان بظل ولايته ، ورعايته ، وإذعان ملوك الأرض لعزته ، وارتياعهم بفائض هيبته ، واحتراسهم - على تقاذف الديار ، وتحاجز الأنجاد والأغوار - من فاجئ رَكْضته » .

والعتبى بكتابته تاريخ محمود الغزنوى بهذه اللغة المسجوعة يحاكى الصابئ فى كتابه « التاجى فى ملوك بنى بويه » الذى كتبه قبله بنفس اللغة ، وقد سقط « التاجى » من يد الزمن بحيث لا نستطيع المقارنة بين العملين . ويبدو أن كتاب العتبى كان أخف ، فتعلقت به القلوب والأفئدة ، حتى قالوا إن من جاءوا بعده كانوا يتحفظونه ويتدارسونه ويتخذونه قدوة لهم فى البلاغة . وعلى شاكلته فى خفة السجع وعذوبته رسائلُه ، فإن الفصول التى حكاها الثعالبى منها تتخذ نفس الأسلوب فلا تكلف ولا تصنع ولا تعمل من مثل قوله فى رقعة كتبها فى الإنكار على من يذم الدهر :

« عَتْبُكَ على الدهر داعٍ إلى العَتْب عليك ، واستبطاؤك إياه صارفٌ عِنانَ اللَّوْم إليك ، فالدَّهْرُ سَهْمٌ من سهام الله منزعه عن مقابض أحكامه ، ومطلعه من جانب

ما حرَّرتْه مجارى أقلامه ، والوقيعة فيه ، تمرد بحكم خالقه وباريه ، ومجارى الأشياء على قدر طباعها ، وبحسب ما فى قُواها وأوضاعها ، ومَنْ ذا الذى يلوم الأراقم على النَّهْشِ بالأنْياب ، والعقارب على اللسْع بالأذناب ، وأنىَّ لها أن تُذَمّ ، وقد أُشْرِبَتْ خِلْقتها السم وحكم الله فى كل حال مطاع ، وبأمره رِضاً واقتناع » .

ولغة العتبى سهلة ليس فيها ألفاظ غريبة ، وسجعه ينزلق عن الألسنة فى يسر ، وليس فى الكلام ما يعوق جريانه من عقد الجناس وما يتصل بالجناس ، مما يتعثَّر فى الأفواه .

رشيد الدين[1] الوَطْواط

هو محمد بن محمد بن عبد الجليل العُمَرى الملقب برشيد الدين المعروف بالوطواط لضآلة جسمه . من سلالة عمر بن الخطاب ، وُلد ببَلْخ وبها نشأ وتربى فى المدرسة النظامية ، وكان شاعرا كما كان كاتبا ، وله مصنفات عدة ، منها : «غرر الخصائص الواضحة» وهو من كتب الأدب التهذيبى ، ومنها : «حدائق السحر فى دقائق الشعر» وهو فى علم البديع والصناعة الشعرية ، وضعه بالفارسية ، وأمثلته فيه موزعة . بين الفارسية والعربية ، وقد نقله إلى العربية الدكتور إبراهيم أمين . ونرى رشيد الدين يغادر موطنه ويلتحق فى سنة ٥٢٢ للهجرة بدواوين الدولة الخوارزمية فى عهد أميرها الطموح الباسل أتْسِز (٥٢١ - ٥٥١ هـ) ويظل بعد وفاته يعمل فى دواوين الدولة ، إلى أن يبلغ من الكبر عتيًّا ويَهِن عظمه ، يدل على ذلك أن سلطان شاه محمود حفيد أتسز حين تولى مقاليد الأمور فى خوارزم سنة ٥٦٨ أراد أن يرى هذا الشاعر الهرم المريض فحملوه إليه فى محفَّة ، فلما مثل بين يديه نظم رُباعية فى مديحه ومديح أبيه وجده باللغة الفارسية . وعاش الوطواط بعد ذلك سنوات ، واختلف مؤرخوه ، فقيل توفى سنة ٥٧٣ وقيل بل سنة ٥٧٨ .

ويشيد ياقوت بأدبه وبلاغته قائلا : «كان من نوادر الزمان وعجائبه ، وأفراد الدهر وغرائبه ، أفضل زمانه فى النظم والنثر ، وأعلم الناس بدقائق كلام العرب ، وأسرار النحو والأدب ، طار فى الآفاق صيته ، وسار فى الأقاليم ذكره ، وكان ينشىء فى حالة واحدة بيتا بالعربية من بحر وبيتا بالفارسية من بحر آخر ويمليهما معا » ويقول ياقوت : من مؤلفاته

---

(١) راجع فى الوطواط وترجمته معجم الأدباء ٢٩/١٩ وروضات الجنات ٧٧ وبغية الوعاة للسيوطى ومقدمة الدكتور إبراهيم أمين لتعريبه لكتاب حدائق السحر فى دقائق الشعر ، وقد ضمنها ترجمة واسعة له مع ذكر مراجعه فى الفارسية . وانظر بروكلمان ١٤٢/٥ ورشيد الدين الوطواط (مقالة مستلة من مجلة الجامعة المستنصرية) العدد الأول سنة ١٩٧٠ .

تحفة الصديق من كلام أبى بكر الصِّدِّيق ، وفصل الخطاب من كلام عمر بن الخطاب ، وأُنْس اللَّهفان من كلام عثمان بن عفان ، ومطلوب كل طالب من كلام على بن أبى طالب . ويقول أيضا : له ديوان شعر وديوان رسائل بالعربية وديوان رسائل بالفارسية ، وشعره دون نثره جودة . ورسائله العربية مطبوعة بمصر فى جزءين ، وهى موزَّعة بين رسائل شخصية أو إخوانية ورسائل سلطانية أو ديوانية . ونسوق له قطعة من تقليد حسبة صدر عن ديوان خُوارزم ، وفيه يقول :

«أن أولى الأمور بأن تُصْرَفَ أَعِنَّةُ العناية إلى ترتيب نظامه ، وتُقْصَر الهمم على مهمَّة إتمامه ، أمرٌ يتعلَّق به ثباتُ الدين ، ويتوقف عليه صلاح المسلمين ، وهو أمر الاحتساب فإنَّ فيه تثبيت الزائغين عن الحق ، وتأديب المنهمكين فى الفسق ، وتقوية أعضاد أرباب الشرع وسواعدها ، وإجراء معاملات الدين على قوانينها وقواعدها . وينبغى أنّ يكون متقلد هذا الأمر موصوفاً بالديانة ، معروفاً بالصيانة ، معرضاً عن مراصد (أماكن) الرِّيْب (التهمة) بعيداً عن مواقف التّهم والعيب ، لابساً مَدارع السَّداد ، سالكاً مناهج الرشاد . والشيخ الإمام – أدام الله فضله – متحلٍّ بهذه الخصائص المذكورة ، والفضائل المشهورة ، ومستظهر فى دولتنا للحقوق الفَرْضِيَّة ، ومستشعر للصفات المَرْضِيَّة ، فقلَّدناه هذا الأمر . وأمرناه أولاً أن يجعل التقوى شعاره ، والزُّهد دثاره ، والعلم مَعْلمه والدين مناره . ثم يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويقيم حدود الشرع على وفق النصوص والأخبار ، ومقتضى السنن والآثار . وأمرناه أن يبالغ فى تعديل المكاييل والموازين ، على وَفْق أحكام الشَّرْع والدين ، فإن وجد تفاوتاً فى شىء منها سوَّاه وعدَّله ، وغيَّره وبدَّله ، وأدَّب صاحبه على رءوس الأشهاد ، لينزجر عن مثله أهل الخيانة والفساد» .

والتقليد مهم لأنه يطلعنا على وظيفة الحسبة ، وأن الحاسب لم يكن فقط يراقب الأسواق كما يراقبها الشُّرْطى ، بل كان أيضاً ينظر فى كل ما يقع بها من الجنايات والخصومات كما ينظر القاضى ، وكأنه كان يقوم بوظيفة الشرطى والقاضى فى وقت معاً ، فهو ينظر فى الجرائم وما يقع من خصومات وفق ما جاءت به الشريعة من الحدود والأحكام . وهو لذلك كان يُخْتار من الفقهاء أو من الشيوخ كما جاء فى التقليد ، إذ لابد أن يكون عالماً بالكتاب والسنة وما جاء عن الأئمة فى الحدود وغيرها من أحكام . وهو مع ذلك يقوم بأعمال الشرطى ، فيراقب المكاييل والموازين ، فإن وجد فى مكيال أو ميزان تفاوتاً أو نقصاً بدَّله على رءوس الأشهاد ، حتى يفتضح الخائنون فلا يعودوا إلى خيانة أبداً ، وحتى ينزجر غيرهم فلا تحدثهم نفوسهم بخيانة فى ميزان أو مكيال أو ما يشبه الخيانة .

والتقليد جميعه مسجوع ، وليس فيه ألفاظ غريبة ، فالوطواط ينطلق فى سجعه ، وكأنه ينسأب من معين زاخر دون أى عائق أو حائل . ويمثل هذه الصورة من السجع رسائله الإخوانية أو الشخصية فهى تجرى سائغة سهلة خفيفة على الأسماع والأفواه كقوله من رسالة وجه بها إلى الزمخشرى يستأذنه فى حضور دروسه ومجالسه :

«أنا منذ لفظتْنى الأقدار من أوطانى ، ومعاهد أهلى وجيرانى ، إلى هذه الخِطَّة (خوارزم) التى هى اليوم بمكان جار الله – أدام الله دولته – جَنَّةً للكرام ، وجُنَّةً (سِتْرا) من نكبات الأيام ، كانت قُصْوَى مُنْيتى ، وقُصارى بُغْيتى ، أن أكون أحد الملازمين لسُدَّته الشريفة التى هى مخيمُّ السيادة ، ومقبَّل أفواه السادة ، مَنْ ألقى فيها عصاه ، حاز فى الدارين مُنَاه ، ونال فى المحلّين مبتغاه ، ولكن سوء التقصير ، أو مانع التقدير ، حرمنى تلك الخدمة ، وحرَّم علىّ هذه النعمة . والآن أظن – وظَنُّ المؤمن لا يخطئ – أن آفل جَدِّى (حظى) همَّ بالإشراق ، وذابلَ إقبالى أقبل على الإبراق ، فقد أجد فى نفسى نوراً مجدَّداً يَهْدينى إلى جنَّته ، ومن شوقى داعياً موفَّقاً يدعونى إلى حضرته» .

وتمضى الرسالة على هذا النمط من السجع الطبيعى . وكان يفسح فى شعره لكل صور البديع المتكلفة ولكل ضروب المحسنات من ترصيع وغير ترصيع . ونتركه للحديث عن ثلاثة هم فى الذروة من أدباء العصر فى مختلف حقبه الماضية : ابن العميد والصاحب بن عباد وبديع الزمان .

٣

ابن العميد (١)

هو أبو الفضل محمد بن الحسين ، فارسى الأصل ، من مدينة قُم الشيعية الإمامية ، فيها منشؤه ومرباه ، مما أعدَّه ليكون شيعياً إماميًّا مثل أمرائه البويهيين . وكان أبوه كاتباً فَذًّا ، كتب لماكان بن كاكى ثم للسامانيين ، وهم الذين لقبوه بلقبه العميد كعادتهم فيمن يتقلد لهم ديوان الرسائل . ولم يُلحق ابنه معه بديوانهم ، بل ألحقه بدواوين البويهيين . وخدم ركنَ الدولة الحسن بن بويه صاحب الرَّىّ ، ولم يزل يترقى عنده ، حتى أصبح وزيره منذ سنة ٣٢٨ حتى وفاته سنة ٣٦٠ .

(١) انظر فى ابن العميد وترجمته اليتيمة ٣/١٥٤ وما بعدها وتجارب الأمم لابن مسكويه فى مواضع متفرقة وابن الأثير ٨/٥١١ ، ٥١٦ ، ٦٠٦ وابن خلكان ٥/١٠٣ والشذرات ٣/٣١ والإمتاع والمؤانسة لأبى حيان ١/٦٦ وكتابه «مثالب الوزيرين» وفيه تحامل شديد عليه وانظر الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ٢٠٥ .

وكان ابن العميد مثقفاً ثقافة واسعة بجميع علوم عصره حتى ليقول ابن مسكويه مؤرخ البويهيين المشهور : «كان أجمع أهل عصره لآلات الكتابة ، حفظاً للغة والغريب ، وتوسعاً فى النحو والعروض ، واهتداء إلى الاشتقاق والاستعارات ، وحفظاً للدواوين من شعراء الجاهلية والإسلام . فأما القرآن وحفظ مشكله ومتشابهه والمعرفة باختلاف فقهاء الأمصار ، فكان منه فى أرفع درجة وأعلى رتبة . . أما المنطق وعلوم الفلسفة والإلهيات منها خاصة فما جسر أحد فى زمانه أن يدَّعيها بحضرته إلا أن يكون مستفيداً أو قاصداً قصد التعلم» . ويقول ابن الأثير : «كان عالماً فى عدة فنون ، منها الأدب ، فإنه كان من العلماء به ، ومنها حفظ أشعار العرب فإنه حفظ منها ما لم يحفظ غيره مثله ، ومنها علوم الأوائل فإنه كان ماهراً فيها ، مع سلامة اعتقاد إلى غير ذلك من الفضائل ، ومع حسن خلق ولين عشرة مع أصحابه وجلسائه ، وشجاعة تامة ، ومعرفة بأمور الحرب والمحاصرات ، وبه تخرَّج عضد الدولة ، ومنه تعلم سياسة الملك ومحبة العلم والعلماء» . ويقول ابن خلكان : «كان متوسعاً فى علوم الفلسفة والنجوم» .

وكان – كما لاحظ ابن الأثير – يحسن قيادة الجيوش ، وحقق للدولة انتصارات عظيمة ، من ذلك انتصاره على محمد بن ماكان قائد الجيش الخراسانى سنة ٣٤٤ بعد أخذه لأصبهان واستيلائه على خزائنها ، فقد اعترضه فى طريقه إلى الرى وهزمه هزيمة ساحقة . ومن ذلك انتصاره على ابن بلكا بشيراز سنة ٣٤٥ . وخرج فى سنة ٣٦٠ لقتال حسنويه الكردى ، ولكن المنية أدركته دون غايته ، وكان عمره يزيد قليلاً على ستين عاماً . وظل وزيراً ثلاثا وثلاثين سنة . وكان مقصد الشعراء والأدباء يجزل لهم الصلات ، وقصده أبو الطيب المتنبى بأرَّجان ، فاستقبله استقبالاً حافلاً ، وفيه يقول :

عربىٌّ لسانُه فلسفىٌّ رأيُه فارسيَّةٌ أعيادُهْ

ويشيد كل مَنْ ترجموا له ببلاغته ، وفى ذلك يقول الثعالبى : «أوحد العصر فى الكتابة وجميع أدوات الرياسة وآلات الوزارة ، والضارب فى الآداب بالسهام الفائزة ، والآخذ من العلوم بالأطراف القوية ، يُدْعَى الجاحظ الأخير والأستاذ والرئيس ، يُضْرب به المثل فى البلاغة ، ويُنْتَهى إليه فى الإشارة بالفصاحة والبراعة ، مع حسن الترسل وجزالة الألفاظ وسلاستِها إلى براعة المعانى ونفاستها . وكان يقال : بُدِئت الكتابة بعبد الحميد ، وخُتمت بابن العميد» . ومَنْ يقرأ ما اقتبسه الثعالبى من كتاباته يؤمن بأنه هو الذى أعطى الكتابة فى عصر الدول والإمارات صيغتها التى ظلت الأجيال المتوالية تستخدمها ، وهى صيغة قامت على أساسين كبيرين : أولها السجع ، وكان السجع معروفاً من قبله فى

الدواوين العباسية منذ أول القرن الرابع الهجرى ، على نحو ما مرَّ بنا ذلك فى كتاب العصر العباسى الثانى ، وسنراه يُدخل عليه ضروباً من الموازنة فى السجعتين المتواليتين ، بحيث تصبح هذه الضروب ضرورة أو لازمة فيه . والأساس الثانى لم يكن متبعاً قبله ، وهو استخدام المحسنات البديعية مع السجع ، فالسجع وحده لا يكفى ، بل لابد أن تُضاف إليه الاستعارة أو الجناس أو الطباق وما إلى ذلك من محسنات البديع وتلاوينه . ونسوق مثالاً لذلك من كتاب كتب به عن ركن الدولة بن بويه إلى ابن بلكا عند عصيانه عليه ، مفتتحاً كتابه بقوله :

«كتابى إليك ، وأنا مُتَأَرْجح بين طمع فيك ، ويأس منك ، وإقبال عليك ، وإعراض عنك ، فإنك تُدِلُّ بسابق حُرْمه ، وتَمُتُّ بسالف خدمة ، أيسرهما يوجب حَقًّا ورعاية ، ويقتضى محافظة وعناية ، ثم تشفعهما بحادث غلُولٍ[1] وخيانة ، وتتبعهما بآنِفِ[2] خلاف ومعصية ، وأدنى ذلك يُحْبط أعمالك ، ويُسْقِطُ كلَّ ما يُرْعَى لك » .

وهذه النغمات الأولى فى الكتاب ترينا بوضوح أساس المنهج الذى التزمه ابن العميد فى كتابته ، فهو يلتزم السجع ، وليس ذلك فحسب ، بل هو يوازن بين السجعات ، فيجعلها قصيرة تتكون من كلمتين ، وإن طالت السجعة الأولى قليلاً أطال السجعة الثانية وجعلها موازنة لها أدق موازنة ، فسجعة «تدلّ بسابق حُرْمة» توازنها فى دقةٍ السجعة التالية لَها : «تمتّ بسالف خِدْمة» . ومثلها السجعتان : «ثم تشفعهما بحادث غلول وخيانة ، وتتبعهما بآنِف خلاف ومعصية» . وهو لا يلتزم السجع فحسب ، بل يكثر من الطباق مثل «طمع ويأس» و «إقبال وإعراض» كما يكثر من الجناس مثل سابق وسالف ، والكتاب زاخر به وبالطباق وبتصاوير كثيرة كقوله فيه معاتباً صاحبه :

«ألم تكن فى ظلٍّ ظليل ، ونسيم عليل ، وريح بَليل ، وهواء عَذِىّ[3] وماء رَوِىّ ، ومهادٍ وَطِىّ (لين) وكِنٍّ[4] كَنين[5] ، ومكان مكين ، وحِصْن حصين » .

وكل هذه كنايات واستعارات لما كان فيه هذا العاصى لركن الدولة حين كان يضع يده فى يده ، فقد كان فى سعادة ما وراءها سعادة ، فإذا كل نعيم كان فيه يتحول بؤساً وشقاء .

وله فصل من رسالة كتب بها إلى عضد الدولة يشيد فيها برعايته للعلم والعلماء قائلاً :

«قد يعدّ أهل التحصيل فى أسباب انقراض العلوم وانقباض مُدَدها ، وانتقاض مِرَرها

(١) غلول : خيانة
(٢) آنف : أشد
(٣) عذى : خالص
(٤) الكن : ما يردّ الحر والبرد من الأبنية .
(٥) كنين : مستور

(قُواها) . . الطوفان بالنار والماء ، والمَوتان العارض من عموم الأوباء ، وتسلط المخالفين في المذاهب والآراء . . وليس عندي الخَطْبُ في جميع ذلك يقارب ما يولِّده تسلط ملك جاهل تطول مدته ، وتتسع قدرته . وبحسب عظم المحنة بمن هذه صفته ، والبلوى بمن هذه صورته ، تعظم النعمة في تملك سلطان عالم عادل كالأمير الجليل الذي أحلَّه الله من الفضائل بملتقى طرقها ، ومجتمع فرقها ، وهي نُورٌ[1] نوافر ممن لاقت حتى تصير إليه ، وشُرَّد نوازع حيث حلَّت حتى تقع عليه ، تتلفَّت إليه تلفُّت الوامق ، وتتشوَّف نحوه تشوُّف الصبِّ العاشق » .

والفصل طريف في دلالته على عناية عضد الدولة بالعلم وأهله ، وكان دائماً يعقد لهم المناظرات بين يديه . والفصل صورة أُخرى لعناية ابن العميد بالسجع وتقصيره ، وإحداث الموازنات بين السجعات حين تطول . وفي أثناء كل ما قدمنا له تتضح عنايته بمحسنات البديع وسلاسة اللفظ وجمال السبك ووضوح المعنى . وهي كلها جوانب أساسية في بلاغته وبيانه .

٤

الصاحب[2] بن عباد

هو كافي الكفاة إسماعيل بن عباد ، من أهل الطَّالَقان : ولاية بين قزوين وأَبْهر ، وُلد عام ٣٢٦ لأبيه عباد بن العباس الطالقاني ، وكان يعمل مع ابن العميد في ديوان ركن الدولة بالري ، وعُني به ، فوصله منذ نعومة أظفاره بأحمد بن فارس اللغوي ، حتى إذا اتضحت فيه مخايل الأدب ألحقه بابن العميد ، فكان يصحبه دائماً ، مما جعل الناس يطلقون عليه لقب صاحب ابن العميد ، وظل هذا اللقب علماً عليه ، وقيل بل صحب مؤيد الدولة بن ركن الدولة منذ الصبا وسماه الصاحب ، فاستمر عليه اللقب واشتهر به .

---

(١) نور : جمع نَوار : شاردة

(٢) انظر في الصاحب وترجمته وأشعاره ورسائله اليتيمة ١٨٨/٣ والمنتظم ١٧٩/٧ ومعجم الأدباء ١٦٨/٦ وابن خلكان ٢٢٨/١ وإنباه الرواة ٢٠١/١ وروضات الجنات ١٠٤ ونزهة الألباء ٣٢٥ ومرآة الجنان ٤٢١/٢ والشذرات ١١٣/٤ ولسان الميزان ٤١٣/١ وابن الأثير في مواضع متفرقة وفي سنة ٣٨٥ وكذلك النجوم الزاهرة ١٦٩/٤ ، ومثالب الوزيرين لأبي حيان ، يزيد ابن العميد والصاحب وقد بالغ في الغض منهما كما أشرنا إلى ذلك . ورسائل الصاحب منشورة في دار الفكر العربي بالقاهرة بتحقيق وتحقيق الدكتور عبد الوهاب عزام . وجمع أشعاره محمد آل ياسين ونشرها في النجف باسم ديوان الصاحب وله عنه كتاب ، وكذلك للدكتور بدوى طبانة (طبع القاهرة) . وانظر المدخل بين يدى الرسائل وكتابنا الفن ومذاهبه في النثر العربي ص ٢١٢ وما بعدها .

ومنذ فتك مؤيد الدولة بأبي الفتح على بن أبي الفضل بن العميد سنة ٣٦٦ ولاه وزارته وظل وزيراً له حتى إذا توفى سنة ٣٧٣ وخلفه أخوه فخر الدولة أقرَّه على وزارته ، وكان مبجلاً عندهما ومعظماً نافذ الأمر . وكان حسن السياسة مدبراً للملك كما كان قائداً شجاعاً مما رفع منزلته عندهما إلى أقصى حد ، حتى قيل : كان « مَنْ يُؤْذَنُ له فى الدخول عليه يظن أنه قد بلغ الآمال ، ونال الفوز بالدنيا والآخرة ، فرحاً ومسرة ، وشرفاً وتعظيماً ، فإذا حصل فى الدار وأذنَ له فى الدخول إلى مجلسه قبَّل الأرض عند وقوع بصره عليه . . ولم يكن يقوم لأحد من الناس ، ولا يشير إلى القيام ، ولا يطمع أحد منه فى ذلك » . ومازال وزيراً لفخر الدولة حتى توفى سنة ٣٨٥ ويقال أنه لما توفى أغلقت له مدينة الرىّ ، واجتمع الناس على باب قصره ينتظرون خروج جنازته ، وحضر فخر الدولة وسائر القواد وقد غيَّروا لباسهم . ومشى فخر الدولة أمام الجنازة مع الناس ، وقعد للعزاء أياماً . وفيه يقول الثعالبى : « ليست تحضرنى عبارة أرضاها للإفصاح عن علو محله فى العلم والأدب وجلالة شأنه فى الجود والكرم ، وتفرّده بغايات المحاسن ، وجمعه أشتات المفاخر ، لأن همة قولى تنخفض عن بلوغ أدنى فضائله ومعاليه ؛ وجهد وصفى يقصر عن أيسر فواضله ومساعيه ولكنى أقول : هو صدر المشرق ، وتاريخ المجد ، وغرة الزمان ، وينبوع العدل والإحسان . . وكانت أيامه للعلوية والعلماء . والأدباء والشعراء ، وحضرته محطُّ رحالهم ، وموسم فضلائهم ، ومترع آمالهم ، وأمواله مصروفة إليهم ، وصنائعه مقصورة عليهم ، وهمته فى مجد يشيده ، وإنعام يجدده ، وفاضل يصطنعه ، وكلام حسن يصنعه أو يسمعه . . وكانت حضرته مشرعاً لروائع الكلام ، وبدائع الأفهام ، وثمار الخواطر ، ومجلسه مجمعاً لصوب العقول وذوب العلوم ودرر القرائح . . واحتفَّ به من نجوم الأرض وأفراد العصر ، وأبناء الفضل ، وفرسان الشعر ، مَنْ يُرْبِى عددهم على شعراء الرشيد ؛ ولا يقصِّرون عنهم فى الأخذ برقاب القوافى ، ومِلْك رِقِّ المعانى » . ويذكر ياقوت أن عطاياه للأدباء والشعراء والعلماء والأشراف كانت تزيد على مائة ألف دينار فى العام الواحد . وكان يقول : مُدحت بمائة ألف قصيدة عربية وفارسية ، وفى هذا ما يدل على أنه كان يعرف الفارسية ، بل ربما كان يتقنها إذ رُوى أنه اختبر قدرة بديع الزمان الهمذانى ، حين مرَّ ببابه ، فى الترجمة من الفارسية إلى العربية .

وكان شاعراً مجيداً ، كما كان كاتباً مجيداً ، وقد أنشد الثعالبى طائفة كبيرة من أشعاره أخلاها من شعره العقيدى الشيعى والمعتزلى ، فقد كان شيعيا إماميا كما مر بنا فى حديثنا عن شعراء المديح وكان يدين بمذهب المعتزلة ومبادئهم المعروفة ، وقد نشر محمد حسن آل ياسين

ديوانه كما مرَّ بنا ، وهو يموج بأشعاره الشيعية وبتصويره لمبادئه الاعتزالية من مثل قوله :

قالت : فما اخترتَ من دينٍ تفوز به فقلت إنىَ شيعىٌّ ومُعْتزلى

وقوله :

ومن كان بالتَّشْبيه والَجبْر دائناً فإنىَ فى التوحيد والعَدْل أوحدُ

وهو يحمل على المشبِّهة والمجبرة حملات شعواء ، كما يحمل نفس الحملات على من يقولون بأن القرآن قديم وغير مخلوق يقول :

وإن قال أقوامٌ قديمٌ لأنه كلامٌ له فانظرْ إلى أين صعَّدُوا

وله وراء شيعياته واعتزالياته أشعار طريفة أنشدنا منها – فيما مرَّ – أطرافاً . وصنَّف فى اللغة معجماً سماه المحيط كما صنف كتباً ورسائل مختلفة فى الإمامة وفى فضائل على ابن أبى طالب وفى أسماء الله وصفاته وله رسالة فى الكشف عن مساوى المتنبى وكتاب فى المقصور والممدود . وكانت له مكتبة ضخمة ويقال إن فهرست كتبها كان يقع فى عشر مجلدات ، وأنها كانت حِمْل أربعمائة بعير .

ورسائله منشورة ، وهى فى عشرين بابا وكل باب يشتمل على عشر رسائل ما عدا البابين السابع عشر والثامن عشر ، وأولها فى الآداب والمواعظ وبه أربع رسائل ، والثانى فصول قصيرة وتوقيعات موجزة . وقد ذُكرت فى مدخل الرسائل القيمة التاريخية لها . وجميعها ديوانية ، أو الكثرة الكثيرة منها ، ولذلك كانت تُعَدُّ وثائق قيمة عن الدولة البويهية ، وخاصة أن الصاحب يعرض فيها حروبهم وأسماء قوادهم وقُضاتهم كما يعرض معاهداتهم وإدارتهم لشئون الرعية مما يجعل لها قيمة سياسية واجتماعية بعيدة . والباب الأول منها خاص بفتوح عضد الدولة وحروبه مع أخيه فخر الدولة وقابوس بن وَشْمكير ومع الروم ومع ابن حمدان ومع وَهْسوذان . وفى كل ذلك تفاصيل جديدة تضيفها الرسائل إلى ابن الأثير وغيره من المؤرخين . وبالمثل تضيف جديداً إلى ما تذكره كتب التاريخ عن معاهدات البويهيين على نحو ما جاء فى معاهدة لهم مع السامانيين من أنه «لا يُقْبَلُ فى جهة من الجهتين أُبَّاق العساكر ، ولا يمهَّد فى جنبة من الجنبتين للخالع والنافر ، ولا يُحَامَى على مَنْ عصا فشَرد ، وشق العصا وانفرد» . ومن الطريف أن نتعقب ما جاء فى الباب الثانى من العهود للقضاة والولاة والمحتسبين ، وخاصة عهود القضاة ، لنرى هل كانوا يرجعون إلى مصادر الفقه المعروفة العامة ، وهى الكتاب والسنة والإجماع والقياس ، وكأن لا فرق بين الشيعة وأهل السنة حينئذ فى القضاء ومصادره ؟ . وفعلاً يؤكد ذلك ما جاء فى الرسالة الأولى من الباب الثانى الخاصة بعهد القاضى عبد الجبار .

وفيها أيضا أن التركة لا تُرَدُّ إلى بيت المال بل يأخذها الأباعد من ذوى الأرحام ، وهو ما أشار إليه المقدسى فى كتابه أحسن التقاسيم من أن البويهيين لم يكونوا يتعرضون للتركات . ويلقانا عهد فى الحِسْبة نطلع منه على صفات المحتسب وواجباته ومسئولياته . وتلقانا عهود فى معاملة الرعية وفى قسمة الماء فى بعض الأودية ، كما يلقانا باب عن الحجيج والمصالح والثغور . وفى الباب السادس رسالتان هما الخامسة والسادسة كُتبتا بمناسبة نشوب ثورة فى قزوين بين الشيعة والسنة ، ونرى الصاحب يدعو فيهما إلى أن تحل الألفة والوئام بين الطائفتين دون نصرة إحداهما على الأخرى . وفى ذلك ما يدل على أن البويهيين لم يتحيَّزوا إلى مذهبهم الشيعى فى أنحاء دولتهم حفظاً للأمن وصيانة له . وطبيعى أن نحسَّ فى بعض الرسائل بأن كاتبها من المعتزلة ، فقد كان الصاحب كما قدمنا معتزليّاً ، وفى الباب السابع عشر رسالتان صريحتان فى أن الصاحب كان يبعث دعاة له أحياناً يدعون الناس إلى الدخول فى نحلة الاعتزال . ومن قوله فى إحداهما : «كان هذا البلد من البلاد المستغلقة على أهل عدل الله وتوحيده ، والتصديق بوعده ووعيده ، هذا وفى فقهائه وفور ، وفى الفضل به ظهور ، وقد أعان الله على بثِّ كلمة الحق ، وسمعَ الأكثرُ على لين ورفق » . وربما رأى أن الاعتزال باب للتشيع ، وكانا متآخيين حينئذ ، فعمل على نشره لينتشر من ورائه التشيع مبتغاه . وفى الرسائل – من حين إلى آخر – ما يدل على نزعته الشيعية وخاصة حين يكتب برسائله إلى بعض الأشراف العلويين . وتلقانا فى الباب التاسع عشر رسالة هى عهد لعلوى ولىَ النقابة بين الذرية الطيبة ، وفيها ما يدل على أن النقيب هو الذى كان يحكم بين العلويين ، وأنه كان لهم قضاء مستقل فى الدولة ، وأنه كان ينتسب إليهم دخلاء ينتحلون النسبة ، ويأمر النقيب بتعقبهم وإشهار أمرهم ، وفى الرسالة أيضاً ما يدل على كثرة الأموال التى كان يقدمها البويهيون للعلويين .

وعلى هذا النحو لرسائل الصاحب المنشورة قيمة تاريخية كبيرة ، وأيضاً لها قيمة أدبية كبيرة ، لأنها المجموعة الوحيدة التى وصلتنا عن كتَّاب البويهيين فى القرن الرابع الهجرى ، وهى دائماً تبتدىء بالتحميد والتمجيد للنبى ﷺ أو بالدعاء . ويُعْقب الصاحب هذا البدء بذكر أميره الذى يكتب عنه مكتفياً بلقبه المشهور الذى خلعه عليه الخليفة ، وقد يذكر كلمة الحضرة السامية أو الحضرة الشريفة . وإذا كانت الرسالة فى فتح عظيم أطال فى الدعاء تنويها بالفتح . والرسائل كلها مكتوبة بأسلوب ابن العميد الذى يقوم على السجع والبديع ، ويروى معاصروه طُرَفاً كثيرة عن ميله للسجع وإيثاره ، حتى زعموا أن ابن العميد قال : خرج ابن عباد من عندنا من الرىِّ متوجهاً إلى أصفهان وطريقه رامين :

فجاوزها إلى قرية غامرة وماء ملح لا لشيء إلا ليكتب إلينا : «كتابى هذا من النّوبهار ، يوم السبت فى نصف النهار» . وقالوا إن سجعة اضطرته إلى عزْل قاضى مدينة قُمْ ، فقد كان فى حضرته ، فقال له : أيها القاضى بقم ، وأراد أن يكمل السجعة ، فأعياه إكمالها ، فقال : قد عزلناك فَقُمْ . ولعل هاتين النادرتين جميعاً من وضع خصمه أبى حيان ، وفى تكلفه للسجع يقول : «كان كلفه بالسجع فى الكلام والقول عند الجد والهزل يزيد على كلف كل من رأيناه فى هذه البلاد . قلت لابن المسيّبى : أين يبلغ ابن عباد فى عشقه للسجع ؟ قال : يبلغ به ذلك لو أنه رأى سجعة تنحلّ بموقعها عُروة الملك ، ويضطرب بها حَبْل الدولة ، ويُحْتاج من أجلها إلى غُرْمٍ ثقيل ، وكلفةٍ صعبة ، وتجشُّم أمور ، وركوب أهوال ، لما كان يخفّ عليه أن يُفْرج عنها ويُخليها ، بل يأتى بها ويستعملها ، ولا يعبأ بجميع ما وصفت من عاقبتها» . وكل هذه مبالغات فإن من يرجع إلى الرسائل المنشورة يجد الصاحب يترك نفسه على سجيتها ، فإن واتاه السجع مضى فيه ، وإن لم يواته استخدم أسلوب الازدواج ، وإن كان ذلك لا يأتى إلا نادراً ، فالصورة العامة لرسائله هى السجع والبديع والتفنن فى استخدامها تفننا يدل على مهارة واسعة ، حتى غدا ذلك كأنه طبع من طباعه وسجية من سجاياه . وأول ما يلقانا فى رسائله رسالته التى وصف فيها انتصار جيوش مؤيد الدولة على جيوش أخيه فخر الدولة وحليفه قابوس بن وشمكير ، ومقطعها الأول يجرى على هذا النمط :

«أحسنُ نعم الله تعالى غُرراً وأَوْضاحاً ، وأَبْيَنُها فَلَقاً وصباحاً ، وأَولاها إذا تُصُفِّحَتِ المواهب أخذا بحظ السابق ، وأَوْلاها إذا اتُّبِّعت المنائح فوزاً بالعز الشاهق ، وأحراها بأن تُثْنى عليها ألسنة الأيام والليالى ، وتُثْنَى إليها أعناق المحامد والمعالى ، نعمةٌ صادفتْ حمداً وشكراً . وجمعت فتحاً ونَصراً ، ونظمت نُجْحاً وقهراً ، واستذلَّت ممتطياً للجحود لاهياً عن غَوْره ، مُسْتَشْرِياً فى الغموط عادياً لطَوْره . وتلك النعمة عند مولانا الملك السيد إذ عَضَد الدولة ، وتوَّج الملَّة ، وحرس الأمّة ، وزحزح الغُمَّة ، ورَفَدَ الخلافة ، وبَسَط العدل والرَّأفة ، وطهَّر البلاد ، وعمر الحج والجهاد ، وساس الجمهور ، وسدَّ الثغور ، فشهدتْ فتوحه بأنه مؤيَّد من عند الله ، ومحوطُ الملك بيد الله ، لا ينازع رأيَه منازعٌ إلا تُلَّ لجبينه[1] ، وعوجل بقطع وَتينه[2] . ولا يمانع رايتَه ممانع إلا غُلَّتْ يده دون مطلبه ، واقتُطع أمده عن مَهْربه ، ولم يَعِزَّ بالتحصن عليه مارق ، والتمنُّع دونه مشاقٌّ مفارق ،

(١) تل لجبينه : صرع على وجهه

(٢) الوتين : الشريان الرئيسى للقلب

إلا استولى عفواً على غايات احتياله وأقاصيه ، ومكَّن منه القضاء سَمْحاً فاستُنْزِل عن معاقله وصَياصيه [١] » .

وواضح أنه تمثَّل طريقة أستاذه ابن العميد ، فهو يُعْنَى أشد العناية بانتخاب ألفاظه ، حتى يكون بناء رسالته فى هذا الفتح قوياً سامقاً . ويُعْنَى بأسجاعه ، فهى تتقابل وتتوازن مهما طالت ، كقوله : « وأُولاها إذا تُصُفِّحت المواهب أخذاً بحظ السابق ، وأَوْلاها إذا تُتبِّعت المنائح فوزاً بالعز الشاهق » وكل كلمة فى العبارة الثانية تكاد تتشابك بالأيدى مع قرينتها فى العبارة الأولى . ومثلها السجعة التالية : « وأحراها بأن تُثْنِى عليها ألسنة الأيام والليالى ، وتُثْنَى إليها أعناق المحامد والمعالى » وكأن الكلمات فى العبارتين تتعانق . واستمر فى قراءة الأسجاع الطويلة فى هذا الفصل وفى رسائل الصاحب ، فستجد دائماً هذا التعانق والتشابك بين كلمات السجعات ، وحقًّا ابن العميد بدأ ذلك ولكن الصاحب اتسع فيه سعة شديدة . ولابد أن القارئ لاحظ كثرة استخدامه للتصوير منذ فاتحة المطلع ، فالنعم ذات غُرَر وأوضاح كخَيْلِ الحرب الظافرة ، بل هى كالصباح الجميل البهيج ، وتتوالى الأخيلة والصور فى المقطع . ويكثر فيه الجناس مثل غَوْره وطوره ، والأُمَّة والغُمَّة ، وينازع ومنازع ، ويمانع وممانع . ويحاول أن يأتى بغرائب فى الجناس تخلب ألباب السامعين ، فيعمد إلى المغايرة بين كلمتين لا فى بعض الحروف ولكن فى بعض الحركات كما فى « أُولاها ، وأَوْلاها » و « تُثْنِى وتُثْنَى » . وجعلته قدرته على حشد السجعات يُكْثِر من الجمل الاعتراضية فى رسائله على نحو ما يتضح فى مطلع هذا المقطع ، فقد بدأه بمبتدأ هو « أحسن نعم الله » وفصل بينه وبين خبره ، وهو « نعمة صادفت حمداً وشكرا » بنحو ثلاثة أسطر ، ونقده أبو حيان ، وقال إن هذا يُحْدث تعاظلاً فى أساليبه [٢] . وفى رأينا أنه مقبول ما لم يطل الاعتراض طولاً شديداً ، وهو نادر عنده . على أن هذا الجانب فى أساليبه شاع فيما بعد بين كتَّاب العصور التالية وخاصة عند العماد الأصفهانى والقاضى الفاضل . وليس معنى ذلك أن الصاحب وضع مبدأ طول عبارات السجع ، بل هى تطول أحياناً ، وأحياناً تقصر كما فى هذا المقطع نفسه إذ يقول : « نعمة صادفت حمداً وشكراً ، وجمعت فتحاً ونصراً ، ونظمت نُجْحًا وقهراً » . وتكثر هذه السجعات القصيرة فى رسائله الإخوانية ، كقوله فى عزاء ابن عن أبيه ، وكان عالماً نحريراً : « للفجائع اختلاف مواقع ، وللمصائب تباين مراتب ، ومن أشدها لذعاً ، وأعظمها

---

(١) الصياصى : الحصون

(٢) الإمتاع والمؤانسة ٦٤/١

وقعاً ، فجيعة أحرجت صدور قومٍ مؤمنين ، ومصيبة خصَّت العلم والدين ، لفقد الشيخ المنقطع القرين ، أبي عثمان – رحمه الله ، وأكرم مأواه ، ومثواه فقد كان للإسلام جَمالاً ممتداً ، وللدين ركناً مشتداً ، وللعلم شهاباً لا يَخْبو ، وللأدب سَهْماً لا يَنْبو ، يذبُّ عن حق الله القائم ، ولا تأخذه في الله لومةُ لائم ، عاشَ عظيم الخطر ، ومات جميل الأثر ، التقوى شعاره ، واليقين دِثاره ، وحجج الله مَفْزعه ، وآياتُ الله مرجعه ، فياله مصاباً ما أعظمه على الموحِّدين ، وأسرَّه إلى الملحدين ، أذكرنا فقد الأئمة الأبرار ، وأعلام الأمة الأخيار » .

ويمضي فى مثل هذا السجع القصير موشِّياً له بالجناس ، أهم لون من ألوان البديع كان يستخدمه ، كما نرى فى مثل «مأواه ومثواه» ، و «ممتداً ومشتداً» و «لا يخبو ولا ينبو» و «لومة لائم» . وكان يستخدم معه الطباق من حين إلى حين كما نرى فى مثل «الموحدين والملحدين» . وله تهنئة طريفة ببنت ولدت لبعض أصحابه تمضي على هذه الشاكلة :

«أهلاً وسهلاً بعقيلة النساء ، وأمِّ الأبناء ، وجالبة الأصْهار ، والأولاد الأطْهار ، والمبشِّرة بإخوة يتناسقون ، نَجباء يتلاحقون :

فلو كان النساءُ كمثل هَذِى لفُضِّلت النساءُ على الرجالِ
وما التأنيثُ لاسم الشمس عَيْبٌ ولا التذكيرُ فخرٌ للهلالِ[1]

فادَّرِعْ يا سيدى اغتباطاً ، واستأنف نشاطاً ، فالدنيا مؤنثة والرجال يخدمونها ، والذكور يعبدونها . والأرض مؤنثة ومنها خُلقت البريَّة ، وفيها كثرت الذرية . والسماء مؤنثة وقد زُيِّنت بالكواكب ، وحُلِّيت بالنجم الثاقب . والنفس مؤنثة وبها قوام الأبدان ، وملاك الحيوان . والحياة مؤنثة ولولاها لم تتصرف الأجسام ، ولا عُرِف الأنام . والجنة مؤنثة وبها وُعد المتقون ، ولها بُعث المرسلون . فهنيئاً هنيئاً ما أُوليت ، وأوزعك الله شكر ما أُعطيت ، وأطال بقاءك ما عُرِف النسل والولد ، وما بقى الأمد ، وكما عُمِّر لُبَد »[2] .

والرسالة مؤلفة من السجع القصير ، ويحلِّيها الصاحب بالجناس من مثل «الأصهار والأطهار» وهو قليل فيها ، وكأنه لم يكن يتأنق فى الرسائل الإخوانية تأنقه فى الرسائل الديوانية الطويلة . وفى الرسالة ظاهرة ينبغى الالتفات إليها ، ونقصد ظاهرة الاحتجاج ، فقد احتج للتهنئة بالبنت – وكان الأسلاف يفضلون الابن عليها – بست

(١) البيتان للمتنبي .

(٢) لبد : نسر ، وفى الأساطير العربية أنه عمر أربعمائة عام

حجج أو ستة أدلة ، وكل دليل لا يقل قوة عن سابقه ، فالدنيا مؤنثة والناس يخدمونها والذكور يعبدونها ، والأرض مؤنثة ومنها خلقت البرية كما جاء فى القرآن « ومنها خلقْناكم » والسماء مؤنثة وروعتها فى كواكبها ونجومها فوق التصوير ، والنفس مؤنثة وهى قوام الإنسان ، والحياة مؤنثة وبدونها يموت الإنسان وتبطل حركته ، والجنة مؤنثة ولها بُعث المرسلون وبها وُعد المتقون . أدلة لاتُنقْض . وكأننا بإزاء مناظرة كلامية فى تفضيل البنت الأنثى على الابن الذكر . يستعين فيها على رأيه بكل ما يستطيع من أدلة وبراهين ، ولا شك أن ذلك جاءه من اعتزاله وعكوفه على كتب المعتزلة يقرأ فى أدلتهم وحوارهم وكيف ينفذون إلى البراهين الساطعة ، مما جعل كتابته تتشح بطرائقهم وجدالهم وتفننهم فى التعليل والتدليل . وهى تتضح فى جدال المنحرفين عن الدولة وفى تعليله العام لأفكاره وتدليله عليها بالأدلة البينة . ومن قوله فى إهداء أُتْرجَّة :

« ما زلت يا سيدى أفكر فى تحفة تجمع أوصاف معشوق وعاشق ، وَتَنْظم نعوت مشوق وشائق ، حتى ظفرت بأترجَّة كأن لونها لونى وقد مُنيت ببعدك ، وبُليت بصدِّك ، وكأن عَرْفها [1] مستعار من عَرْفك ، وظَرْفها مشتق من ظرفك ، فكأنها بعض من لا أسمِّيه ، وأنا أفديه ، فأنفذتها وقلت :

مولاىَ قد جاءتْك أُتْرُجَّةٌ ‏ ‏ من بعض أخلاقِكَ مخلوقَهْ
ألبسَها صانعُها حُلَّةً ‏ ‏ من سَرَقٍ أصفرَ مسروقه [2]

والرسالة تصور أناقته فى اختيار سجعاته وتوشيتها بالجناس والطباق مجتمعين فى قوله : « معشوق وعاشق » و « مشوق وشائق » .وهى تصور ظرفه ورقة مشاعره . ولم نتوقف عند تصاويره وهى كثيرة فى رسائله الإخوانية والديوانية كقوله فى وصف الورود السوداء فى احمرار ، المعروفة باسم الشقائق ، ووصف الأشجار الخضراء والنارنجات الصفراء :

« قابلتنى شَقَائق كالزنوج تجارحت فسالت دماؤها ، وضعفت فبقى ذَماؤها [3] ، وسامتنى أشجار كأن الحور أعارتها أثوابها ، وكستها أبرادها ، وحضرتنى نارنجات ككُرات دهَّبت أو ثُدِيّ أبكار خُلِّقَت [4] » .

وله رسالة لم يُعْنَ فيها بالسجع ، وإنما عُنى بالتصوير وحده ، وهى فى استدعاء صديق لبعض مجالس أنسه ، وتطَّرد على هذا النمط :

« نحن يا سيدى فى مجلس غَنِىٍّ إلا عنك ، شاكرٍ إلا منك ، قد تفتحت فيه عيون

(١) العرف : الرائحة الطيبة .
(٢) السرق : شقق الحرير .
(٣) الذماء : بقية الروح .
(٤) خلقت : طُيِّبتْ .

النرجس ، وتوردت فيه خدود البنفسج ، وفاحت مجامر الأترجّ ، وفُتقت فأرات[(١)] النارنج ، وأُنطقت ألسنة العيدان ، وقام خطباء الأوتار ، وهبّت رياح الأقداح ، ونَفقت[(٢)] سوق الأنس ، وقام منادى الطرب ، وطلعت كواكب الندماء ، وامتدت سماء النَّدِّ[(٣)] فبحياتى لما حضرت لنحصل بك فى جنة الخُلْد ، وتتصل الواسطة بالعقد» .

والرسالة مغموسة غَمْساً فى صور وأخيلة متعاقبة ، وكأنما ترك الصاحب نفسه على سجيتها ، فلم يعمد فيها إلى سجع . ولعل فى ذلك ما يرد على من اتهموه بتكلفه للسجع وغرامه به ، حتى لو كلفه ذلك خَلَلاً فى الملك والدولة أو لو كلفه أهوالاً ثقالاً ما بعدها أهوال ، فقد كان يلجأ إلى الازدواج أحياناً ، بل ربما تخفف من الازدواج والسجع جميعاً كما فى هذه الرسالة . وله رسائل ملؤها المزاح والدعابة . وكانت بديهته حاضرة ، مما جعله يمتاز بحسن الأجوبة وسرعتها فمن ذلك أن ضَرَّابين للنقود من دار الضَّرْب رفعوا إليه رقعة فى مظلمة ووقعوا عليها باسمهم : الضَّرَّابين ، فوقَّع تحتها «فى حديد بارد» . واستمع إلى ابن سمعون الواعظ ببغداد فى أثناء درس له فسأله متخابثا عن قَدْ سَكونيات العلم إذا وقعت قبل التوهم ، يظن أنه بذلك يقطعه عن الكلام ، ولم ينقطع فلما سكت قال له الصاحب : «هذا الذى تقوله بعد التوهم ، وإنما سألتك قبله» ! .

٥

بديع[(٤)] الزمان ومقاماته

هو أحمد بن الحسين وُلد سنة ٣٥٨ بهمَذان ، ولذلك يقال له الهمذانى ، ولقَّبه معاصروه باسم بديع الزمان إعجاباً بأدبه . وهو من أسرة عربية ، نزلت مسقط رأسه ، وهى أسرة تغلبية مضرية ، ومن قوله فى بعض رسائله : «همذان المولد ، وتَغْلب المورد ، ومُضَر المحتد» فهو ليس فارسى الأصل ، بل هو عربى مضرى تغلبى . وعُنى به أبوه ، فأخذه بالعلم والتعلم منذ نعومة أظفاره ، وألحقه بحلقات العلماء ، وخاصة حلقة أبى الحسين أحمد بن فارس اللغوى المشهور صاحب كتاب المجمل ، وله يقول فى بعض رسائله متلطفاً :

(١) فأرة المسك : وعاؤه .

(٢) نفقت : راجت .

(٣) الند : الطيب .

(٤) انظر فى بديع الزمان وترجمته وأخباره اليتيمة ٢٥٦/٤ ومعجم الأدباء ١٦١/٢ ودمية القصر ٣٤٦/٢ وابن خلكان ١٢٧/١ ورسائله مطبوعة قديما ببيروت ومقاماته طبعت مرارا ، وديوانه مطبوع بمصر قديماً وانظر فيه كتابنا «الفن ومذاهبه فى النثر العربى» ص ٢٣٨ وأيضا كتابنا (المقامة) طبع دار المعارف ص ١٣ وما بعدها

لا تَلُمْنِى على ركاكة عَقْلى　　أنْ تيقَّنتَ أننى همَذانى

وكان محبًّا للرحلة ، فلم يكد يبلغ الثانية والعشرين من عمره ، حتى فارق موطنه إلى حضرة الصاحب بن عباد ، وكان – كما مرَّ بنا فى ترجمته – راعياً كبيراً من رُعاة الأدب فى عصره ، بل كان أكبر رعاته ، فانتجعه الشاب بديع الزمان سنة ٣٨٠ ومدحه ببعض أشعاره ، وأعجب به الصاحب لبراعته الأدبية ، وأحضره مجالسه ، ويقال إنه كان يُلْقى عليه بعض الأبيات الفارسية ويطلب إليه نقلها إلى العربية ، فينقلها فى سرعة عجيبة .

ويرحل عن حضرة الصاحب مولّياً وجهه شَطْر جُرْجان ، وينزل بأسرة معروفة بالثراء وتشجيع العلماء والأدباء ، وهى أسرة الإسماعيلية ، ويرعاه منها خاصة أبو سعيد ابن منصور الإسماعيلى ، وظن بعض المعاصرين أنها كانت تعتنق المذهب الإسماعيلى الشيعى ، وهو اتفاق فى الاسم جَرَّ إلى هذا الخطأ(١) . ويؤكد ذلك أن ياقوت فى ترجمته له يقول : «إنه كان شديد التعصب لأهل الحديث والسنة» فلم يكن إسماعيليًّا ، ولا كان أيضاً إماميًّا شيعيًّا ، بل كان سُنِّياً أَشْعَرِياً .

ولا يمكث فى جُرجان طويلاً ، بل يتركها إلى نَيْسابور موطن أهل السنة عام ٣٨٢ وهناك يصطدم بأبى بكر الخُوارزمى ، وهو اصطدام طبيعى ، فقد كان الخوارزمى شيعيًّا إماميًّا ، وكان يدعو لبنى بويه الشيعة الإماميين فى نيسابور معقل الدولة السامانية السنية ، فانتهز الأدباء فيها فرصة نزول بديع الزمان ببلدتهم ، وعقدوا مناظرة بينه وبين الخوارزمى انتصروا فيها للبديع ، فعَلا صيته ، وتألق نجمه ، إذ كان الخوارزمى يُعَدّ فى الذروة من الكتاب والشعراء لعصره . وتصادف أن توفى سريعاً ، فخلا الجو للبديع ، وطارت شهرته ، ورعاه حينئذ بنو ميكال أعيان نيسابور وأدباؤها النابهون . وسرعان ما فارقها سنة ٣٨٣ راحلاً من بلد إلى بلد فى خراسان بينما الجوائز والمكافآت تُغْدَقُ عليه ، حتى إذا بدأت المعارك بين الغزنويين والسامانيين ولّى وجهه نحو سِجِسْتان وأميرها خلف بن أحمد (٣٤٤ – ٣٩٩ هـ .) وكان أديباً فأعجب ببديع الزمان ، ويقول الباخرزى إنه وصله بألف دينار . وذكر ذلك فى إحدى رسائله . وله فيه خمس مقامات أنشأها فى مديحه وقصائد ورسائل مختلفة .

ويترك سِجستان إلى هَراة بأفغانستان ، ممنِّياً نفسه أن يصبح من حاشية محمود الغزنوى ويلقاه ، وقد أنشدنا له قصيدة فى مديحه على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع ،

(١) راجع كتاب بديع الزمان الهمذانى لمارون عبود (طبع دار المعارف) ص ١٦ وهو يشك فى اسمه واسم إبيه وعروبته دون دليل .

ويُصْهر إلى سَرِىٍّ من سَراة هَراة يسمَّى الخُشنامى ، وينجب أولاداً ، ويقتنى عَقاراً وضِياعاً . ويكتب إلى أبيه رسالة يستدعيه فيها هو وإخوته وعمه مما يدل على ما صار إليه من ثراء . ويبدو أنه غدت له مكانة كبيرة ، فكان الكبراء يقصدونه لطلب شفاعته عند أولى الأمر ، يقول فى بعض رسائله : «وهؤلاء الصدور ، يرون أن الشمس من قِبَلِى تدور» غير أنه لم يلبث أن توفى وهو لا يزال فى الأربعين من عمره سنة ٣٩٨ للهجرة .

وللبديع رسائل كثيرة ، وهى رسائل إخوانية تتناول المديح والاستعطاف والشكر والاعتذار والعزاء والاستمناح وطلب الشراب والهجاء والتقريع ، ومنها ما هو موجَّه إلى الأمراء أو الوزراء أوكبار الموظفين أو شيوخه أو إلى نظرائه من الأدباء أو إلى أهله أو إلى ذوى الوجاهة واليسار . وله من كتاب إلى الأمير أبى نصر الميكالى النيسابورى :

«كتابى – أطال الله بقاء الأمير – وبودِّى أن أكونه ، فأَسْعَد به دونه ، ولكن الحريص محروم لو بلغ الرزق فاه . لولاَّه قفاه ، وبعد فإنى فى مفاتحته بين ثقة تَعِد ، ويد ترتعد ، ولِمَ لا يكون ذلك والبحر وإن لم أره ، فقد سمعت خبره ؟ ومن رأى من السيف أثره ؛ فقد رأى أكثره ،وإذ لم أَلْقه ، فلم أجهل إلا خَلْقه ، وما وراء ذلك من تالِد أصلٍ ونَشَبٍ ، وطارف فضل وأدبٍ ، فمعلومٌ تشيد به الدَّفاتر ، والخبر المتواتر ، وتنطق به الأشعار ، كما تختلف عليه الآثار ، والعين أقل الحواسِّ إدْراكاً ، والآذان أكثرها استمساكاً» .

وفى هذه الرسالة القصيرة ما يوضح بعض خصائص سجعه ، وأنه يُعْنَى فيه بتقصير العبارات ، تواتيه فى ذلك ملكة فياضة ، فلا يكاد يمسك بالقلم ويكتب ، حتى تنثال عليه العبارات ، وحتى يخيل إلى الإنسان كأن سيلاً متصلاً من الكلام يجرى ولا ينقطع إلا أن يتوقَّف البديع عامداً لينهى الكلام . وتأمَّلْ فى سجع هذه الرسالة فستجده موشى بالجناس الناقص فى مثل : «تَعِد وترتعد» و «أره وخبره» و «أثره وأكثره» و «أَلْقه وخَلْقه» . وهو دائماً يَغْمس رسائله فى الجناس غَمْساً ، تارة يأتى به كاملاً ، وتارة يأتى به ناقصاً ، وهو الأغلب الأكثر ، كقوله فى الأمير خلف بن أحمد فى إحدى رسائله : «لو أن البحر عُدده ، والسحاب يده ، والجبال ذهبه ، لقصرت عما يهبه . بينما المرْءُ فى سِنَة من نومه ، وقصاراه قوتُ يومه ، إذ يُقْرَعُ الباب عليه قَرْعاً حَفِيًّا ، ويُسْأل به سؤالاً خَفِيًّا ، ويُعْطَى ألفاً خلفيًّا» . والجناس الناقص واضح فى هذه العبارات المتعاقبة ، وهو يشفعه بكثير من التشبيهات والاستعارات ، ضامًّا دائماً النظير فى الألفاظ إلى نظيره ، وهو ما يسميه البلاغيون بمراعاة النظير كقوله من فصل فى إحدى رسائله :

«أرانى أذكر الشيخ كلما طلعت الشمس أوهبت الريح أو نجم النجم أولمع البرق

أو عرض الغيث أو ضحك الروض . إن للشمس محيَّاه ، وللريح ريَّاه ، وللنجم حِلاه وعُلاه ، وللبرق سناؤه وسناه ، وللغيث يداه ونَداه ، وللروض سجاياه » .

وواضح أنه لما ذكر عنصراً من الطبيعة وهو الشمس أردفه بالريح والنجم والبرق والغيث والروض . والجناسات كثيرة فى القطعة . وبجانب ذلك نراه يكثر من الاقتباس من القرآن ، كما يكثر من نسج الأبيات والشطور فى تضاعيف رسائله . ونراه يجنح كثيراً إلى سَرْد بعض القصص والحكايات القصيرة ضرباً للأمثال كقوله من رسالة :

« فيما يقول الناس من حكاياتهم أن أعرابياً نام ليلاً عن جمله ففقده ، فلما طلع القمر وجده ، فرفع إلى الله يده ، فقال : أشهد لقد أعليته ، وجعلت السماء بيته . ثم نظر إلى القمر فقال : إن الله صوَّرك ونوَّرك ، وعلى البروج دوَّرك ، . . ولئن أهديت إلى قلبى سروراً ، لقد أهدى إليك نوراً . والشيخ ذلك القمر المنير لقد أعلى الله قدره ، وأنفذ بين الجلود واللحوم أمره ، ونظر إليه وإلى الذين يحسدونه ، فجعله فوقهم وجعلهم دونه » .

ويضرب مثلاً لمن يذهب فى البحث بعيداً عن أمنيته ، وهى مَدُّ يده ، بالبخارى الذى ضاع حماره فذهب يبحث عنه فى البلاد النائية ، بينما هو فى مَرْبِضِه ، يقول :

« لم يكن مَثلى معه إلا مثل البخارى الذى ضاع حماره وخرج فى طلبه ، حتى عبر نهر جَيْحون بسببه ، يطلبه فى كل مَنْهلة ، وينشده فى كل مرحلة ، وهو لا يجده حتى جاوز خُراسان ، وانتهى إلى طبرستان ، وأتى العراق ، وطاف الأسواق ، فلما لم يجده وأَيِس عاد وقد طالت أسفاره ، ولم يحصِّل حماره ، حتى إذا وصل إلى بلده ، بين أهله وولده ، أحب الله أن يلطف به لطفاً ليعتبر به ، فنظر ذات يوم إلى إصطبله ، فإذا الحمار بسرجه ولجامه ، وحزامه ، قائماً على المَعْلف ينشّ » .

ورسائل البديع خفيفة ورشيقة ، بل لعلها أخف وأرشق رسائل وصلتنا عن عصره وبعد عصره . وجعلته موهبته القصصية التى رأيناها فى رسائله يبتدع فنًّا جديداً ، هو فن المقامة ، وهى حكاية قصيرة تقوم على الحوار بين بطل مقاماته : أبى الفتح الإسكندرى وراوية حكاياته وأقاصيصه عيسى بن هشام . والمعروف أنه أملى أربعين مقامة فى أثناء مقامه بنيسابور ، وأضاف إليها خمساً ، كما أسلفنا ، عند نزوله بخلف بن أحمد أمير سجستان ، ثم أضاف إليها ستا أخرى . والمظنون أنه عرض بنيسابور على طلابه أولاً أحاديث ابن دُرَيْد الأربعين التى احتفظ بها كتاب الأمالى لأبى على القالى ، وهى حكايات قصيرة مليئة بالسجع والغريب ، وبعد أن أنهاها رأى أن يعرض على طلابه ثانياً أربعين مقامة له . ومعنى كلمة مقامة حديث . ولم يجعل مقاماته حكايات متنوعة

الموضوعات ، بل جعلها تدور على موضوع واحد ، هو الكُدْية أو الشحاذة الأدبية ، وكأنه استلهم فيها حديث الجاحظ عن المُكْدين فى أوائل كتابه «البخلاء» وكذلك حديث البيهق عنهم فى كتابه «المحاسن والمساوى» ويعرض الجاحظ والبيهق لأساليبهم وحِيلهم فى استخلاص الطعام والدراهم والدنانير من الناس . وكان هؤلاء الأدباء الشحاذون قد لمعت أسماؤهم فى عصر بديع الزمان ، ومرَّ بنا حديث مفصل عنهم وعن شعرائهم فى هذا القسم الخاص بإيران وأيضاً فى القسم الخاص بالعراق . وكل ذلك ألهم بديع الزمان صنع مقاماته ، ونراه فى أولاها يتمثل بأبيات كبير المكْدين أبى دلف الخزرجى ، وقد أنشدناها فى حديثنا السابق عنه ، إذ يقول :

وَيْحَكَ هذا الزمانُ زورُ فلا يغرنَّكَ الغَرورُ

ويسمى إحدى مقاماته المقامة الساسانية نسبة إلى هذه الطائفة من المكدين أو الأدباء الشحاذين ، إذ كانوا يسمون بالساسانيين نسبة إلى ساسان ، وهو — كما أسلفنا — أمير فارسى هجر إمارته وهام على وجهه محترفاً للكُدْية .

وتنقَّل بديع الزمان بأبى الفتح الإسكندرى بطل مقاماته فى بلدان مختلفة مما دفعه إلى أن يسمى أكثر المقامات بأسماء البلدان التى ألمّ بها وأكثرها بلدان فارسية . وفى أحوال قليلة تسمى باسم الحيوان الذى وصفه فيها مثل المقامة الأسدية نسبة إلى الأسد ، أو باسم الأكلة التى طعمها أبو الفتح مثل المقامة المَضِيرية نسبة إلى طعام المَضيرة ، وهى لحم يطبخ باللبن المضير أى الحامض . وقد تسمى باسم موضوعها مثل الوعظية نسبة إلى الوعظ والإبليسية نسبة إلى إبليس والقريضية نسبة إلى ما فيها من أحكام أدبية على الشعر والشعراء . وسمى مقامة باسم المقامة الجاحظية نسبة إلى الجاحظ ، وهو يقول عنه إنه قليل الاستعارات وينفر من الغريب والكلام المصنوع ، ولعله يقصد الكلام المسجوع الملئ بالجناس وما إليه من المحسنات البديعية . وتخلو المقامات الخمس المتصلة بخلف بن أحمد من الكُدْية ، إذ هى مديح خالص له . أما بقية المقامات فكما قدمنا تدور على الكدية أو الشحاذة الأدبية عن طريق التفاصح البيانى وما ينصبه أبو الفتح من حِيل وشباك لسلب أموال الناس . وفى تضاعيف ذلك يعرض البديع مجتمعه بكل ما فيه من مساجد وحمامات ومارستانات وحوانيت ومطاعم وحانات وموائد وما يتصل بها من الأوانى فى بيوت الأغنياء والفقراء . ويعرض فى المقامة النيسابورية صورة لفساد القضاة والقضاء فى بعض البلدان . وقد حمل فى المقامة المارستانية حملة عنيفة على المعتزلة ، لأنه كما قدمنا كان أشعريًّا ، وكانت

الخصومة مستعرة فى زمنه بين الأشعرية والمعتزلة . ونحن نسوق له إحدى مقاماته ، ولتكن المقامة البصرية نسبة إلى البصرة فى العراق ، وهى تجرى على هذا النمط :

«حدَّثنا عيسى بن هشام قال : دخلت البصرة وأنا من سِنِّى فى فَتاء (شباب) ومن الزِّى فى حِبَر ووِشاء (ثوب مطرز) ومن الغِنى فى بَقَر وشاء (غنم) فأتيت المِرْبَد (سوق البصرة) فى رفقة تأخذهم العيون ومشينا غير بعيد إلى بعض تلك المتنزَّهات ، فى تلك المتوجَّهَات ، وملكتنا أرضٌ فحلَلْناها ، وعَمَدْنا لِقداح اللَّهو فأجَلْناها ، مطَّرحين للحشمة إذ لم يكن فينا ، إلا مِنَّا ، فما كان بأسرع من ارتداد الطَّرْف ، حتَى عنَّ (ظهر) لنا سواد (رجل) تَخْفضه وِهاد ، وترفعه نِجاد (مرتفعات) وعلمنا أنه يهمُّ بنا ، فأَتْلَعْنا (مددنا أعناقنا) له حتى أدَّاه إلينا سيره ولَقِينا بتحية الإسلام ، ورددنا عليه مقتضى السلام ، ثم أجال طَرْفه فينا وقال : يا قوم ما منكم إلا مَنْ يلحظنى شَزْراً (بمؤخر عينه) ويوسعنى حَزْراً (تخمينا) وما ينبئكم عنى ، أصدق منى . أنا رجل من أهل الإسكندرية ، من الثغور الأموية ، قد وطّأَ (مهد) لى الفضل كَنفه ، ورحَّب بى عَيْش ، ونمانى بيت ثم جعجع بى (أهاننى) الدهر ، وأتلانى (أتبعنى) زغاليل حُمْر الحواصل . . . ونشَرَتْ علينا البِيض (الدراهم) وشَمَسَتْ (نفرت) منا الصُّفْر (الدنانير) وأكلتنا السود (الليالى) وحطَّمتنا الحُمْر (السنوات المجدبة) . . وهذه البصرة ماؤها هَضُوم (مهضم) وفقيرها مهضوم : فكيف بمن :

يطوِّف ما يطوِّف ثم يأوى ... إلى زُغْبٍ محدَّدة العيونِ[1]
كَسَاهنَّ البِلى شُعْثاً فتُمْسى ... جياعَ النَّابِ ضامِرَة البطون[2]

ولقد أصبحن اليوم وسَرَّحن (أجَلْنَ) الطَّرْف فى حَيٍّ كَميْت (يقصد نفسه) وبيت كلا بيت ، وقَلَّبْن الأكفَّ على ليت ، ففَضَضْنَ عُقَد الضلوع ، وأفَضْن ماء الدموع ، وتداعَيْن باسم الجوع :

والفَقْرُ فى زمن اللئا ... مِ لكل ذى كرمٍ علامَهْ
رَغِبَ الكرامُ إلى اللِّئا ... مِ وتلك أشْراطُ القيامه[3]

ولقد اخترتكم يا سادة ، ودلَّتنى عليكم السعادة ، وقلت : قَسَماً ، إن فيهم لدسَماً ، فهل من فتى يُعَشِّيهن ، أو يُغَشِّيهن (يكسوهن) وهل من حُرٍّ يُغَدِّيهن أو يُرَدِّيهن (يلبسهن

---

(١) زغب : من الزغب : صغار الريش والشعر (٢) شعثا : مغبرّة ، كناية عن أن أحدا لا يرعاهم . والكناية واضحة . (٣) أشراط : علامات

ثياباً) . قال عيسى بن هشام : فوالله ما استأذن على حجاب سمعى كلامٌ رائع أبرع ، وأرفع ، وأبدع ، مما سمعت منه . لا جرم أنا استمحنا الأوساط (يريد الأحزمة وما فيها من نقد) ونفضنا الأكمام ، ونحّينا الجيوب ونُلْته (أعطيته) أنا مُطْرفى (ثوبى) وأخذت الجماعة إخْذى ، وقلنا له : الحقْ بأطفالك ، فأعرض عنا بعد شكر وفاه ، ونَشْر (ثناء) ملأبه فاه » .

وواضح ما يمتاز به البديع فى مقاماته من خفة روح وميل إلى الدعابة ، حتى يدخل السرور على سامعيه وترتسم البسمات على شفاههم . ويكثر من إنشاد الشعر فى المقامات ، ومن حَلٍّ بعض الأبيات المشهورة ، على نحو ما صنع بقوله : «وأتلانى زغاليل حمر الحواصل» يريد أولاده وأنهم مثل زغاليل قريبة عهد بالولادة ، فحواصلها لا تزال حمراء خالية من الريش ، والصورة استعارها من الحطيئة حين حبسه عمر بن الخطاب ، فتوجه إليه يستعطفه لأولاده قائلاً :

ماذا تقولُ لأفراخٍ بذى مَرَخٍ زُغْبِ الحَواصل لا ماءٌ ولا شجرُ[1]

وكانت للبديع موهبة قصصية رائعة ، غير أنه لم يستغلها فى مقاماته بالمقدار الذى كان يُظَنّ ، إذ لم يضع فى ذهنه صنع قصص وحكايات ، إنما الذى وضعه وجعله نصب عينيه أن يتخذ من حوار المقامة القصير بين عيسى بن هشام وأبى الفتح وسيلة لحشد عبارات مسجوعة طريفة تتحفظها الناشئة . وجاراه الحريرى وغيره فى صنع هذه الأقاصيص القصيرة البلاغية ، وعدُّوها أروع صور النثر وأبلغه ، غير حافلين بعمل قصص طويلة أو حتى قصص قصيرة متنوعة . وبدأ البديع فوضع هذه الأقاصيص القصيرة أو هذه المقامات فى إطار السجع ، وتبعه خالفوه . وهو يضيف إلى السجع -كما رأينا فى رسائله- ألوان البديع من الأخيلة والتصاوير ومن الجناس ومراعاة النظير ، وألهاه الحوار القصصى عن المبالغة فى ذلك . ولا ريب فى أن سجعه فى مقاماته -كرسائله- سجع رشيق ، لما يمتاز به من قِصَر ومن حسن انتخاب لألفاظه . وقد يتخلل بعض مقاماته بالشعر ، كما قد يحشد فيها ببعض ألفاظ غريبة ، على نحو مانقرأ فى المقامات : الحمدانية والموصلية والقردية . وربما دفعه إلى ذلك مقصد تعليمى ، وهو مقصد تأثر فيه بأحاديث ابن دريد المفرطة فى الغرابة . غير أن ذلك إنما يأتى فى المقامات التى سميناها وفى الحين البعيد بعد الحين ، بحيث لا تُعَدُّ عيباً فى أساليبه التى تطبعها -كما قلنا- الرشاقة ، وأيضاً الخفة والعذوبة وروح الفكاهة المرحة المحببة لكل إنسان .

(١) ذو مرخ : موضع بنجد

وحرى بنا أن نشير إلى ما ذكرناه في كتابنا المقامة من أن المقامة الإبليسية لبديع الزمان هي التي أوحت لابن شهيد الأندلسي وأبي العلاء المعري رحلتهما فيما وراء الطبيعة ، فإن بديع الزمان تصور في مقامته عيسى بن هشام يلتقي بإبليس في واد من وديان الجن ، إذ ضلَّت منه إبل فخرج يطلبها ، حتى نزل في واد حافل بالأشجار والأنهار ، وبينما هو ينظر من حواليه إذ رأى شيخاً جالساً فسلَّم عليه وردَّ السلام ، وسأله ابن هشام هل تروى من أشعار العرب شيئاً ؟ قال نعم وأنشده بعض أشعارهم ، وعرض عليه أن ينشده من شعره وهشَّ له ابن هشام ، فأنشده قصيدة لجرير ، وعجب ابن هشام من انتحاله لها ، ويدور بينهما حوار يقول له فيه إبليس «ما أَحَدٌ من الشعراء إلا ومعهُ معين منا ، وأنا أمليت على جرير هذه القصيدة ، وأنا الشيخ أبومُرَّة». ويغيب عنه ، ويجد عيسى بن هشام نفسه وحيداً . وقد استوحى ابن شهيد هذه المقامة في رسالته «التوابع والزوابع» أي الجن والشياطين ، وهو فيها يَلْقَى شياطين الشعراء في وادي الجن ، وكلما لقي شيطاناً لشاعر أنشده من شعر صاحبه ، ثم أنشده من شعره ، فيبدى إعجابه به ويجيزه اعترافاً بروعة شعره . ولقي شياطين الكتاب كما لقي شياطين الشعراء ، وعرض عليهم بعض رسائله . ولقي شيطان بديع الزمان الذي سمَّاه «زبدة الحقب» ، ويحاول أن يعرض عليه بعض عباراته النثرية التي يحاكيه فيها ، ويعترف له زبدة الحقب بحسن بلاغته ، ويجيزه على إبداعه . والصلة قوية بين هذا العمل لابن شهيد وبين المقامة الإبليسية ، فهما جميعاً يتخذان لقاء شياطين الشعراء في وادي الجن موضوعاً لها ، ويَلْقَى ابن شهيد شيطان بديع الزمان مما يؤكد صلته بآثاره ، وأنه يعارض مقامته الإبليسية بتوابعه وزوابعه . وتجادل الباحثون طويلاً هل ابن شهيد هو الذي ألهم أبا العلاء رسالة الغفران وما صَوَّر فيها من رحلة وراء الطبيعة يوم البعث وعلى الصراط وفي الجنة ، أو أن أبا العلاء هو الذي ألهم ابن شهيد رحلته وراء الطبيعة في وادي الجن ؟ . ولعل فيما ذكرناه ما يبطل هذا النزاع والجدال ، فإن بديع الزمان هو الذي استغلَّ لأول مرة الحديث عن وديان الجن وشياطين الشعراء في مقامته الإبليسية ، ثم جاء بعده ابن شهيد وأبو العلاء المعري في القرن الخامس الهجري ، فألف كل منهما رحلة فيما وراء الطبيعة ، ويتضح أثر البديع بقوة في ابن شهيد لأنه التقى مباشرة مع البديع في وادي الجن ، أما أبو العلاء فاستقل برحلته عن هذا الوادي ، واتخذ لها مضموناً أشمل وأبعد وأوسع .

خـاتـمة

١

تحدثنا عن الجزيرة العربية فى القسم الأول من هذا الجزء الخاص بتاريخ الأدب العربى فيها وفى العراق وإيران فى عصر الدول والإمارات الممتد من سنة ٣٣٤ للهجرة إلى العصر الحديث ، وبدأنا حديثنا عن الجزيرة العربية بعرض التاريخ السياسى لأقاليمها حينئذ ، وهى الحجاز ونَجْد واليمن وحَضْرَمَوت وظَفار وعُمان والبَحْرين ، وفصلنا القول فى إمارتى مكة والمدينة وما كان من دخول الحجاز فى حكم الدولة العثمانية . وصورنا تحركات القبائل فى نجد وتكوينها لإمارات متعددة فى شرقى الجزيرة وظهور آل فضل وآل مِرا فى بوادى الشام ثم ظهور آل سعود فى نجد . وعرضنا دول اليمن المتعاصرة فى زَبيد وصَنْعاء وصَعدة وعَدن ودخولها فى حكم الأيوبيين ثم الرسوليين فالطاهريين ، فغلبة الدولة الزيدية عليها . وتتداول الدول اليمنية حَضرمَوْت ، وكذلك ظفار إلى أنَ تبعت عُمان نهائيا . وكان الخوارج فى عمان يتخذون « نَزْوَى » فى الداخل حاضرة لهم بينما استقلت عنهم عمان والثغور على الخليج العربى قرونا متطاولة حتى غلبوا عليها فى القرن العاشر الهجرى . وسيطر القرامطة على البحرين فى أوائل العصر ، وخلفتهم عليها دول متعاقبة أهمها الدولتان العُيونية ودولة بنى عصفور ، واستقلت عن البحرين قطر وجزيرة أوال (البحرين الحالية) وضمت الدولة السعودية إليها الأحساء والقَطيف منذ أكثر من قرن .

وكان مجتمع الجزيرة طوال العصر يتألف من بدو وحَضر ، وظلت نجد بدوية إلا قليلا فى بعض القرى وبعض العواصم التى اتخذتها إماراتهم . وكان ينزل اليمن أحباش كثيرون ، بينما نزل فى مدن الخليج وثغوره كثير من أهل إيران والهند وسواحل إفريقيا . وعرفت اليمن وعمان والبحرين الزراعة واعتمدت عليها مما أهَّل لشئ بها من الحضارة ، واشتهرت اليمن بكثرة الجوارى والغناء . وعرفت الجزيرة بجانب المذاهب السنية الأربعة المشهورة : مذهب أبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل مذاهب الشيعة : الزيدية والإسماعيلية والإمامية والكيسانية وكانت « نَزْوى » بعمان مركزا للخوارج الإباضية من قديم ومنها شاع مذهبهم فى حضرموت . وما ينتصف القرن الثانى عشر الهجرى حتى يعتنق محمد بن سعود أمير الدِّرْعية

الدعوة الوهابية السلفية ويضع يده فى يد محمد ابن عبد الوهاب لنشرها فى الجزيرة ، وهى نداء يدعو إلى اتباع الحنابلة من أهل السنة . ويلقانا كثير من كبار المتصوفة فى مكة واليمن وحضرموت ، وكان النساك متشردين فى كل مكان .

وكان يجرى فى كل بلاد الجزيرة جدول كبير من جداول الثقافة العربية بجميع علومها وفنونها ، حتى فى قرى نجد وقد تحولت - منذ ظهور محمد بن عبد الوهاب - إلى دار كبيرة لدراسة كتبه وكتب إماميه : أحمد بن حنبل وابن تيمية . وكانت مكة والمدينة أشبه بجامعتين كبيرتين ، بما كان فيهما من العلماء والأدباء ، وبما كان يفد عليهما سنويا من أدباء العالم العربى وعلمائه ، وخاصة من كان يقيم بهما منهم مجاوراً سنوات طوالا . وكانت الحركة العلمية والأدبية ناشطة طوال العصر فى اليمن وحضرموت وعمان والبحرين ، ونشط معها البحث فى علوم الأوائل وعلم الملاحة البحرية خاصة على نحو ما هو معروف عن ابن ماجد العمانى . وفى كل أقاليم الجزيرة ومدنها نشطت علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد ، وكثر تأليف المعاجم والكتب والدراسات البلاغية والنقدية ، وبالمثل نشطت علوم الفقه والحديث والتفسير والقراءات وعلم الكلام وكثر العلماء فى كل الأقاليم ، وكثر ما أنتجوه من الكتب والمصنفات .

وكان الشعر يجرى على كل لسان فى أقاليم الجزيرة ، وأخذت العامية تزاحم الفصحى فى نجد واليمن وحضرموت وعمان والبحرين منذ القرن السادس الهجرى ، ومع مرور الزمن شاع معها شعر حُمَيْنى فى اليمن وحضرموت وشعر نبطى فى بقية الأقاليم ، غير أن سيل الشعر الفصيح ظل قويا فيها جميعا . وقد ترجم الباخرزى لمجموعة كبيرة من شعراء نجد والحجاز واليمن فى القرن الخامس الهجرى وترجم العماد الأصبهانى لطائفة من شعراء بنى عُقَيل فى الموصل وشعراء بنى مَزْيد فى الحِلَّة وأيضا لطائفة من شعراء الحجاز واليمن فى القرن السادس . وتلقانا بعده فى كتب مختلفة تراجم لشعر الجزيرة فى حقب العصر التالية ، غير ما طُبع ونشر من دواوين النابهين من الشعراء . ويكثر شعراء المديح وفى مقدمتهم القاسم بن هُتَيْمل اليمنى وأحمد بن سعيد الخُروصى السِّتالى العُمانى وعلى بن مقرّب العُيونى البَحْرانى وعبد الصمد بن عبد الله باكثير الحَضْرمى ، كما يكثر شعراء المراثى من أمثال التهامى المكى وجعفر الخطى البَحْرانى ، وشعراء الفخر والهجاء من أمثال نشوان بن سعيد الحميرى اليمنى وسليمان النبهانى العُمانى .

وتتكاثر فى الجزيرة طوائف الشعراء ، ونلتقى منهم بشعراء الدعوة الإسماعيلية وفى طليعتهم ابن القمّ والسلطان الخطّاب وعُمارة اليمنى ، وبشعراء الدعوة الزيدية من أمثال يحيى

ابن يوسف النشو بمكة وموسى بن يحيى بَهْران وعلى بن محمد العنسى فى اليمن ، وبشعراء الخوارج من أمثال أبى إسحق الحضرمى الإباضى وابن الهَبِّنى اليمنى . ونلتقى بشعراء الدعوة الوهابية السلفية ، وفى مقدمتهم محمد بن إسماعيل الحسنى الصَّنعانى اليمنى وابن مشرف الأحسائى ، وبشعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية من أمثال عبد الرحيم البُرَعى اليمنى وعبد الرحمن العَيْدَرُوس الحضرمى . وجميعهم رُسمت شخصياتهم واتجاهاتهم الشعرية .

ولم تكن نجد تعنى بالكتابة قبل ظهور محمد بن عبدالوهاب ، أما بعد ظهوره فقد أخذت الكتابة تنمو مع الدعوة نموا واسعا . وكان فى مكة والمدينة كتَّاب إنشاء من قديم ، وكثرت بهما الإجازات العلمية وتقاريظ الكتب . وكانت الكتابة مزدهرة فى اليمن طوال العصر ، وظلت ناشطة فى حضرموت وعمان والبحرين . وتحتفظ الكتب برسائل متبادلة بين أمراء مكة وسلاطين مصر المماليك . وكانت الرسائل الديوانية ناشطة فى اليمن منذ زمن الدولة الصليحية فى القرن الخامس . وتحتفظ الكتب التاريخية ببعض رسائل متبادلة بين الدولة الرسولية وسلاطين المماليك فى مصر ، وكذلك برسائل متبادلة بين الأئمة الزيديين المتأخرين وبين أئمة الخوارج فى عمان ، و بالمثل بين الأئمة الأخيرين وعمالهم . وتكثر الرسائل الشخصية ويتحول بعضها إلى رسائل أدبية جيدة . ويكثر الوعظ . وتلقانا محاورات ورسائل فكاهية ومقامات أدبية متنوعة .

٢

وفى القسم الثانى من هذا الجزء تحدثنا عن العراق ، وبدأنا حديثنا عنه بتاريخه السياسى وبيان الدول التى تعاقبت على حكمه ، وهى الدولة البويهية ، ويليها الدولة السلجوقية ، ويسترد الخلفاء منها فى منتصف القرن السادس الهجرى صولجان الحكم ، ويقضى التتار بقيادة هولاكو على حكمهم وخلافتهم فى منتصف القرن السابع . وتتعاقب على العراق وبغداد دولتان تتاريتان : دولة الإيلخانيين ودولة التيموريين ثم دولة التركمان ، ويظل العراق فى قبضتها إلى أن استولت عليه الدولة الصفوية الإيرانية ، وسرعان ما استخلصته منها الدولة العثمانية . وكان المجتمع فى بغداد يتألف من ثلاث طبقات : طبقة أرستقراطية مترفة . وطبقة وسطى تحظى بشىء من سعة العيش ، وطبقة دنيا هى طبقة العامة ، وكانت تتجرَّع الضنك والبؤس ، فتحوَّل كثيرون منها إلى عيَّارين ولصوص ينهبون بغداد من سنة إلى أخرى مستشعرين – فيما يبدو – فكرة العدالة الاجتماعية . وشاع فى العراق المذهب الشيعى الإمامى الاثنا عشرى ، وكان بجواره مذهب شيعى مارق هو مذهب النُّصَيْرية ،

ومذهب شيعى معتدل هو مذهب الزيدية . وكانت موجة الزهد والتصوف حادَّة طوال العصر ، وتزخر كتب التراجم بأسماء الزهاد والمتصوفة وطرقهم وخاصة طريقتى الجيلانى والرفاعى وما شاع بعدهما من طريقتى النقشبندية والبكطاشية .

وظلت الحركة العلمية فى بغداد ناشطة وكذلك الشأن فى العراق عامة إذ عُنى بها البويهيون والسلاجقة ، وخاصة وزيرهم نظام الملك مؤسس جامعة النظامية ببغداد ، وتتكاثر المدارس ، ويؤسس الخليفة المستنصر ببغداد جامعته المستنصرية . وكانت المساجد مدارس كبرى يستمع فيها الناس للعلماء فى كل فن بحيث تصبح الثقافة غذاء شعبيا عاما ، مما أحدث رواجا هائلا فى الوراقة ونشر الكتب على نحو ما يصور ذلك ابن النديم فى كتابه « الفهرست » . وتظل هناك بقية لحركة الترجمة ، وتنشط الحركتان الفلسفية والعلمية حتى لتصبح الفلسفة وما يتصل بها من علوم الأوائل من مدارك العامة ، كما تدل على ذلك رسائل إخوان الصفا . وتتكاثر الندوات الفكرية فى بغداد ويتكاثر المتفلسفة ، وخاصة قبل الغزو التتارى ، وتظل منهم بقية فى الحقب التالية . وتنشط فى العصر الكتابات الفلسفية والطبية والعلمية والجغرافية ، كما تنشط البحوث اللغوية وشروح الشعر ، وتنفذ بغداد فى النحو إلى مدرسة جديدة هى المدرسة البغدادية . ويتسع النشاط فى الدراسات البلاغية وما يتصل بها من البديعيات ، وبالمثل فى الدراسات النقدية وخاصة حول المتنبى وشعره . ويُعْنَى صفى الدين الحِلِّى بدراسة الموشحات والأشكال الشعرية المستحدثة والشعر العامى . وتنشط بغداد والعراق فى دراسات القراءات والتفسير والحديث النبوى والفقه وعلم الكلام ، كما تنشط الكتابة فى التاريخ العام والخاص وفى تراجم العلماء من كل صنف .

ويتكاثر الشعراء فى العراق وتتوالى موجاتهم على نحو ما يلقانا فى اليتيمة وتتمتها والدمية والخريدة وما تلاها من كتب التراجم ، وينظمون فى الرباعيات والموشحات ، ويفسحون فى أشعارهم لصور كثيرة من التعقيدات حتى فى المحسنات البديعية . ويلقانا مع كل دولة بل فى كل مكان شعراء المديح ومن أعلامهم الأفذاذ المتنبى أكبر شعراء العصر ، وسبط ابن التعاويذى ، وصفى الدين الحِلِّى . ونلتقى بكثيرين من شعراء المراثى والهجاء والشكوى من أمثال السَّرِىّ الَّرفاءً ، وابن القطان . ويكثر شعراء الشيعة ، وفى مقدمتهم الشريف الرضى ، ومهيار ، وابن أبى الحديد .

ونلتقى بطوائف كثيرة من الشعراء ، وأول من نلتقى بهم شعراء الغزل ، وقد أذاعوا فيه حنينا وشوقا وظمأ للقاء محبوباتهم لا ينتهى ، مما أعدَّ لظهور ضرب من الشعر الوجدانى عند ابن المعلم والحاجرى والتَّلعْفَرِىّ . ويتغنَّى للطبقة المترفة شعراء اللهو والمجون من أمثال

ابن سُكَّرة ، وابن الحجاج ، بينما يتغنى للشعب ومشاعره الدينية شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية من أمثال ابن السراج البغدادى ، والمرتضى الشَّهْرَزُورِىّ ، والصَّرْصَرِىّ . ويلقانا أصحاب الشعر الفلسفى والتعليمى من أمثال ابن الشِّبل البغدادى وابن الهبَّارية ، كما يلقانا شعر شعبى عامى كثير وقفنا عند فنونه ، وأيضا شعراء شعبيون من أمثال أبى الأحنف العُكْبرى .

ويتنوع النثر فى العصر ، فكان هناك النثر الفلسفى والنثر العلمى والمناظرات وخطابة الوعظ والقصص وكتب الأدب التهذيبى والرسائل الشخصية . وتكثر الكتابات الديوانية ونلتقى بأبى إسحق الصابىء والعلاء بن الموصلايا وضياء الدين بن الأثير . ويلقانا من أعلام النثر أبو حيان التوحيدى بأسلوبه المتموج بطرائف الفكر ، وابن مسكويه بنظرياته الأخلاقية الملتحم فيها الفكر الأجنبى بالفكر الإسلامى العربى مع حسن الأداء ، والحريرى بمقاماته الرائعة التى خلبت ألباب معاصريه وخالفيه حتى العصر الحديث .

٣

وفى القسم الثالث من هذا الجزء تحدثنا عن إيران ، وبدأنا حديثنا ببيان الدول المتقابلة بها ، وهى الدولة السامانية ، والدولة البويهية ، والدولة الزيارية ، والدولة الغزنوية ، ثم تحدثنا عن الدول التى تعاقبت عليها منذ أواسط القرن الخامس الهجرى ، وهى دولة السلاجقة ، والدولة الخوارزمية ، والدولة التتارية الإيلخانية ، والدولة التيمورية ، والدولة الصفوية ، وما تلاها من الدول . وكان مجتمع إيران يتكون من ثلاث طبقات : طبقة أرستقراطية مترفة ، وطبقة متوسطة تعيش فى غير قليل من اليسار ، وطبقة دنيا هى طبقة العامة . ونشط الشيعة فى نشر عقيدتهم، وفى مقدمتهم الزيدية الذين أقاموا لهم فى القرن الثالث دولة فى طبرستان غير أنها لم تمكث طويلا . ومنذ قبض البويهيون على زمام الأمور بإيران نشط الإماميون فى نشر عقيدتهم ، ومازالوا ناشطين حتى تولى الصفويون مقاليد الحكم فى أواخر القرن التاسع الهجرى فجعلوا المذهب الإمامى المذهب الرسمى لإيران . وكان نشاط الإسماعيليين كبيرا طوال القرنين الخامس والسادس الهجريين إلى أن قضى عليهم التتار نهائيا فى منتصف القرن السابع الهجرى . وكانت تعم فى إيران موجة زهد وتصوف ، وحدث انفصام بين الصوفية والفقهاء ، وسرعان ما رأب الصدع أبو نصر السراج ، والقشيرى ، والغزالى .

وظلت الحركة العلمية طوال العصر ناشطة ، وخاصة فى القرون الأولى ، بفضل رعاية الحكام والأمراء لها ، فكانوا يبنون المدارس ويرصدون الرواتب للعلماء والطلاب ، وعُنوا بالمكتبات . وأقبل جميع أفراد الشعب على العلوم ، حتّى النساء ، وأخذوا يفردون كتبا لشرح المصطلحات فى العلوم والفنون . ونشطت نشاطا عظيما دراسة الفلسفة وعلوم الأوائل ، ويكفى مثلا لهذا النشاط جهود ابن سينا والبيرونى ، مما أهل لنهضة العلوم الرياضية والفلكية والطبيعية والجغرافية . وتكاثر وضع المعاجم ، وازدهرت المباحث اللغوية والنحوية والبلاغية والنقدية . ونشط التأليف فى التفسير كما نشط التأليف فى الحديث النبوى ، وفى الفقه ، وفى علم الكلام وخاصة فى المذهبين : الأشعرى والماتريدى . وتنوعت الكتابة التاريخية بين كتب تتناول التاريخ العام أو تاريخ بعض البلدان وكتب تتناول التراجم : تراجم الشعراء والعلماء فى كل فن .

ويزدهر الشعر العربى بإيران فى القرون الرابع والخامس والسادس للهجرة ، بدليل المجلدات الضخمة التى شغلها فى اليتيمة وتتمتها وفى الدمية والخريدة . ومعروف أن أول كتاب صنف عن الشعر الفارسى وشعرائه كتاب عوفى فى القرن السابع الهجرى . ونفس الشعر الإيرانى صيغ صياغة على أنماط الشعر العربى ، وتناولَ نفس موضوعاته ، وشاع فيه مثله زخرف البديع ومحسناته . وقد ظل الشعر العربى حيًّا فى إيران حتى القرن التاسع على الأقل . ويتكاثر شعراء المديح وفى مقدمتهم على بن عبد العزيز الجرجانى والطغرائى والأَرَّجانى ، وبالمثل شعراء المراثى من أمثال أبى الحسن على بن أحمد الجوهرى الجرجانى ، وشعراء الفخر والهجاء والشكوى من أمثال أبى بكر الخوارزمى ، والأَبِيوَرْدىّ .

وتلقانا بإيران طوائف كثيرة من الشعراء ، وأول من نلقاهم شعراء الغزل وفى مقدمتهم أبو الفرج بن هندو ، وأبو الفضل الميكالى . ويليهم شعراء اللهو والمجون من أمثال أبى بكر القُهُسْتانى ، وأبى الحسن الباخرزى . وشعراء الزهد والتصوف من أمثال القُشَيرى ، ويحيى السُّهْرَوَرْدِىّ ، وشعراء الفلسفة والحكمة والأمثال وفى مقدمتهم أبو الفضل السكرى المَرْوَزِىّ ، وأبو الفتح البُسْتى ، وشعراء شعبيون مختلفون من أمثال أبى دُلَف الخزرجى .

وينشط النثر ، ويظهر فيه قصص صوفى كثير وقصص فلسفى بديع ، ويتكاثر كتاب الرسائل إذ تكثر الدول والإمارات ويصبح لكل إمارة ولكل دولة ديوان ، ويشتهر فى كل دولة كاتب مجيد من أمثال قابوس بن وَشْمكير والعُتْبِىّ ورشيد الدين الوطواط ، ومن أنبه كتاب إيران فى العصر على توالى حقبه ابن العميد الذى أرسى قواعد الكتابة على ركنين

أساسيين من السجع والمحسنات البديعية ، وأوفى الصاحب بن عباد بالكتابة بعده على الغاية التى كانت تنتظرها من التجويد والتنميق . وينشئ بديع الزمان الهمذانى لأول مرة فى تاريخ الأدب العربى مقاماته المشهورة . وهو بحق يُعَدُّ أَبْرَعَ كتَّاب إيران الذين ظهروا فى عصر الدول والإمارات غير منازَع ولا مدافَعٍ .

فهرس الموضوعات

صفحة

صفحة

صفحة

تاريخ
الأدب
العربي
٦

دكتور شوقي ضيف

عصر
الدول والإمارات
الشام

دار المعارف

تاريخ

الأدب العربى

٦

عصر الدول والإمارات

الشام

تأليف

الدكتور شوقى ضيف

الطبعة الثانية

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تحدَّثت فى هذا الجزء عن تاريخ الأدب العربى بالشام فى عصر الدول والإمارات الممتد من سنة ٣٣٤ للهجرة إلى العصر الحديث، ورأيت أن أرجع بالحديث عن الشام إلى تاريخها منذ الفتح العربى، وبالمثل عن مجتمعها والحركة العلمية والأدبية فيها، وكنت ترجمت فى الجزء الخاص بالعصر الإسلامى لشعرائها المبكرين: عدىّ بن الرِّقاع العاملىّ والطِّرمَّاح الطائى والوليد بن يزيد، وترجمت فى الجزء الخاص بالعصر العباسى الأول لشعرائها الأفذاذ: منصور النَّمِرىّ والعَتَّابى وأبى تمام، كما ترجمت فى الجزء الخاص بالعصر العباسى الثانى لشاعريها البارعين: البُحْترى والصَّنَوْبَرِىّ. ومنعًا للتكرار لم أر العودة إلى تراجمهم جميعًا فى هذا الجزء وقَصْرَه فى تراجم الشعراء على حملة لواء الشعر بالشام بعد العصر العباسى الثانى.

وقد بدأت الجزء ببيان مجمل لتاريخ الشام القديم، وتحدثت عن الفتح العربى لها وقيام الخلافة الأموية بدمشق، وكان سلطانها يُظلُّ العالم الإسلامى من أواسط آسيا إلى المحيط الأطلسى، ثم ما كان من تحوُّل الشام زمن الخلافة العباسية إلى ولاية تابعة لبغداد، وتبعيَّتها للدولتين: الطولونية والإخشيدية حين تأسَّستا بمصر، واستيلاء الدولة الفاطمية بالقاهرة على الشطر الأكبر منها، وتأسيس إمارة الحمدانيين فى شماليها بحلب ثم إمارة بنى مِرْداس، وما حدث من نزول حملة الصليب بها فى أواخر القرن الخامس الهجرى، وجهاد عماد الدين زنكى فى القرن السادس وابنه نور الدين أمير حلب - لهم - جهادا عظيما، وضربات صلاح الدين الأيوبى لجموعهم ضربات قاصمة وسَحْقه لهم فى حِطِّين وغير حطين. وتدين الشام لخلفائه الأيوبيين، ثم تدين للمماليك، ويمزقون المغول فى عين جالوت شرَّ ممزَّق، ويطردونهم من الشام كما يطردون منها بقايا حملة الصليب نهائيا. ويدور الزمن دورات، فتنزلها - مع مصر - جحافل العثمانيين وتظل ولاية عثمانية إلى أن تُشْرق عليها أضواء العصر الحديث.

وكان المجتمع الشامى - حين الفتح العربى - يضمُّ أخلاطًا من أمم شتى آسيوية وأوربية، وأخذ الإسلام يمزج بين هذه الأخلاط مكوِّنا منها أمة شامية عربية واحدة. وصبَّت

فيها – زمن الدولة الأموية – كنوز العالم الإسلامى، مما أتاح لها فى تلك الدولة رخاء غير قليل، وظلت – بعدها – تَنْعَمُ بعيش رَغْدٍ لما فيها من أنهار وعيون وزروع وفاكهة متنوعة ونُقْل من فستق وغير فستق. وكان أهلها يتقنون – من قديم – صناعات الخزف والأثاث والمعادن والزجاج الملوّن والنسيج. وظلت التجارة منتعشة بها إلى نهاية أيام المماليك، إذ كانت بوّابة كبرى لتجارات آسيا وأوربا. وعَرَفَت – مثل شقيقاتها العربيات – كثيرًا من فنون اللهو والغناء. وشاع التشيع فى جوانب من ديارها وتعدّدت بها فرقه المتطرفة من إسماعيلية ونُصَيْرِيَّة ودُروز وفِداويَّة، وشاع فيها الزهد والتصوف وطرقه وما يتصل به من الخانقاهات.

وكانت الحركة العلمية فى الشام نشيطة، وألممت بما كان بها – قديمًا – من تراث يونانى علمى وفلسفى، وتحدّثت عن رعاية حكامها – منذ الفتح العربى – لحركتها العلمية، ثم ما كان من تأسيسهم للمدارس فيها منذ القرن الخامس الهجرى وكثرتها كثرة مفرطة فى القرون التالية. وألممت بحركة الترجمة فى القرون الأولى للهجرة بها وكبار مترجميها وازدهار علوم الأوائل فيها من طب وفلسفة وفلك وهندسة ورياضيات وجغرافيا. وأوضحت ازدهار علوم اللغة والنحو والنقد والبلاغة مع عرض أعلامها جميعًا عرضًا تاريخيًّا دقيقًا، وبالمثل أوضحت ازدهار علوم القراءات والتفسير والحديث النبوى والفقه ومذاهبه وعلم الكلام مع التتبع الدقيق لأعلام كل منها تاريخيًّا، وعرضت الكتابات التاريخية ومؤلفيها النابهين فى السيرة وتاريخ المدن والتاريخ العام وتاريخ الدول وكتب التراجم، وبذلك كله اتضحت الحركة العلمية فى الشام على مر الزمن، واتضح معها التاريخ الدقيق لجميع العلوم وأعلامها المجلّين.

وتحدثت عن اللغات فى الشام قبل الفتح العربى وكيف أنها كانت قد أخذت فى التعرب قبله بقرون، وتمّ لها هذا التعرب سريعًا بحيث أصبحت العربية لسان سكانها جميعًا. ولم يكن لها فى الشعر العربى نشاط يذكر قبل الإسلام، حتى إذا دخلت فى الدين الحنيف وهاجرت إليها جموع من القبائل القيسية النجدية المشهورة بنظم الشعر أخذ الشعر يكثر فى ألسنة أهلها من البدو والحضر، وأخذ يظهر فيها شعراء نابهون. وطوال أيام الأمويين كان شعراء الحجاز ونجد والعراق يفدون على دمشق لمديح الخلفاء، ونبغ فى البيت الأموى وبين خلفائه غير شاعر.

وتشارك الشام بقوة فى ازدهار الشعر العربى فى العصرين العباسيين: الأول والثانى،

ويتكاثر شعراء الشام فى القرن الرابع الهجرى وتموج بهم حلب فى عهد سيف الدولة الحمدانى، ويترجم الثعالبى فى كتابه «اليتيمة» لكثيرين منهم، كما يترجم الباخرزى فى كتابه «دُمية القصر» لطائفة من مشهوريهم فى القرن الخامس الهجرى، ويترجم العماد الأصبهانى وزير صلاح الدين الأيوبى فى القرن السادس لنحو مائة وثلاثين من شعراء الشام، وتحفل كتب التاريخ والتراجم - بعده - بالشعراء الشاميين فى أزمنة الأيوبيين والمماليك والعثمانيين. وتشارك الشام - منذ القرن السادس - مشاركة خصبة فى الأشكال الجديدة من الشعر الدورى فتكثر بها المسمَّطات والرباعيات والموشحات، ويشتهر فيها غيرُ وشّاح. ومنذ أبى تمام يُكْثر شعراؤها من البديعيات، ويدخل الشعراء عليها صورًا مختلفة من التعقيدات.

وأخذتُ أحلل شخصيات شعراء الشام فى عصر الدول والإمارات منذ القرن الرابع الهجرى، فللمديح أعلامه يتقدمهم ابن الخياط بملكته الشعرية الخصبة، وللفلسفة والحكمة أعلامها يتقدمهم أبو العلاء المعرى مفخرة الشام الذى لا يماثله أديب سابق ولا لاحق فى الأدب العربى شعرًا ونثرًا، وللتشيع أعلامه يتقدمهم كُشاجِم بلوعاته وأنَّاته لفاجعة الحسين، وللغزل أعلامه يتقدمهم عبدالمحسن الصورى الذى نوَّه به ابن خفاجة دُرَّة الأندلس طويلاً فى ديوانه، وللفخر أعلامه يتقدمهم أبو فراس الحمدانى برومياته التى جسَّد فيها الفروسية العربية بكل ما لها من فتوة وصلابة عاتية. ويتوالى أعلام فى شعر الطبيعة والزهد والتصوف والمدائح النبوية. ومع كل علم من الشعراء جميعًا ما يتميز به من الخصائص وروائع الأشعار. وبلغ عدد من ترجمت لهم من أعلام الشعراء فى الشام خمسة وثلاثين شاعرًا فذًّا. وذكرت بينهم فى كل غرض من أغراض الشعر شاعرا مجيدا من الشعراء فى أيام العثمانيين، ولم أترجم لعشرات من شعرائها ترجمتْ لهم كتبُ الطبقات لأنه لم يكن لأحدهم دور واضح فى تطور الشعر بالشام، وأنا لا أكتب دائرة معارف لشعرائها، وإنما أكتب تاريخ شعرها ومَنْ تطوروا به وتركوا فيه بَصمات واضحة جعلتْ لهم حظا كثيرًا أو قليلاً من الشهرة والمجد الأدبى. وفسحتُ لدراسة الشعر الشعبى وترجمت لأهم أعلام الزجالين بالشام: أبى العلاء بن مقاتل مع عرض أروع أزجاله.

وترّقى الرسائل الديوانية بالشام فى عهد الدولة الأموية وتوضع رسومها وتقاليدها، حتى إذا انتهى عهدهم ولم يعد لديوان الإنشاء عمل بعدهم تراجعت هذه الرسائل وما طُوِى فيها من رقىّ إلى أن أخذت الدول منذ القرن السادس تتعاقب فى الشام وأخذت تعنى بهذا

الديوان وتختار له كتَّابًا بلغاء، حينئذ ازدهرت كتابة الرسائل الديوانية فى زمن الدولتين الأيوبية والمملوكية. ومنذ العتَّابى فى أوائل القرن الثالث تنشط كتابة الرسائل الشخصية، وللببَّغاء كاتب سيف الدولة فيها رسائل بديعة، وما يلبث أبو العلاء أن يهدى إلى قراء العربية رسائله الشخصية الفذة، وتكثر تلك الرسائل بعده - طوال العصر - شاكرةً أو مهنئة أو معاتبة أو معزِّية، وهى - مثل الرسائل الديوانية تعتمد دائمًا على السجع والمحسنات البديعية. ويُكْثر الكتاب من صنع المقامات غير أنها لا تعتمد على أديب متسول وحيله الكثيرة وما يطوى فيها من حركة درامية كما كان الشأن عند الحريرى فى مقاماته، وإنما تعتمد غالبًا على الوصف أو المناظرة بين أشخاص أو بين أزهار أو ثمار، وهى بذلك أشبه برسائل مطولة. وتتكاثر كتب المواعظ، ومن أروعها كتاب الفصول والغايات لأبى العلاء، وجميعُه تسبيحٌ وتحميد وتمجيد فى الله العلىِّ العظيم، ويُجْرى ابن غانم على لسان الطيور والأزهار حِكَمًا بديعة.

ولأدباء الشام أعمال نثرية رائعة، فى مقدمتها رسالة الغفران لأبى العلاء، وقسمها الأول يصور أهوال المحشر والصراط ونعيم الجنة وعذاب النار، وقد ألهم هذا القسم - بشهادة المستشرقين - دانتى الشاعر الإيطالى كتابه «الكوميديا الإلهية». ومن الأعمال النثرية القيمة رسالة النسر والبلبل لابن حسان الدمشقى وفيها يسأل النسر البلبل عن السر فى جمال صوته وسحره، ويدور بينهما حوار بديع. ومن تلك الأعمال كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ وهو أشبه بترجمة شخصية يصف فيها زيارته لمصر أيام الفاطميين وتنقلاته بين حملة الصليب لزمنه، ومنها كتاب نسيم الصَّبا لابن حبيب فى وصف الطبيعية والأخلاق الاجتماعية، وكتاب فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء لابن عَرَبْشاه، وفيه يتناول كثيرًا من شئون الحياة والسياسة والتربية.

وواضح أننى عرضت فى صحف هذا الجزء تاريخ الأدب العربى فى الشام طوال عصر الدول والإمارات مع بيان تاريخها منذ الفتح العربى وبالمثل صورة مجتمعها والنشاط الثقافى والعلمى بها مسترشدا بمصادر ومراجع كثيرة، ولا أزعم أننى صوَّرت ذلك كله تصويرًا تامًّا، وإنما حاولت بقدر ما استطعت. والله ولىُّ الهدى والتوفيق.

القاهرة فى ٢٠ من مارس سنة ١٩٩٠م

شوقى ضيف

الفصل الأول

السياسة والمجتمع

١

فتح العرب للشام والحقب [1] الأولى

(ا) فتح العرب للشام

تقع الشام فى قلب الشرق الأوسط وَسَطَ العالم القديم على أبواب آسيا الغربية وشواطئ البحر المتوسط ، وهى سهل ساحلى يمتد من خليج إسكندرونة فى تركيا شمالا إلى طورسيناء جنوبا ، ومن البحر المتوسط غربا إلى بادية الشام شرقا ، والشام بذلك تشمل سوريا الحالية ولبنان وفلسطين وشرقى الأردن . وتجرى فيها أنهار صغيرة أهمها العاصى المتجه إلى الشمال فى سوريا ، والليطانى المتجه إلى الجنوب ، وبَرَدى المتجه إلى الشرق مكونا بساتين دمشق المسماة بالغوطة ، ونهر الأردن الذى يصب فى البحر الميت ، وفى أطراف الأردن الشمالية بحيرة طَبَرِيَّة . وبجنوبى دمشق هضبة حوران . وفى شمالى الهضبة الشرقى منطقة اللجأ وفى جنوبيها الشرقى جبل الدروز . وتنساب الشام شرقى حوران والأردن فى بادية الشام المتممة لصحراء العرب . ومن قديمٍ يُزْرَعُ بها القمح والزيتون والتين والفواكه ، وبها فى الشمال أشجار النُّقْل المختلفة وهيأ ذلك أهلها لكى يعرفوا الاستقرار من أعتق الأزمنة ، كما هيأ البلاد لاندفاع بدو الجزيرة العربية إليها ، إذ تفيض عسلا ولبنا . وقد اندفعوا إليها فى شكل هجرات كبيرة ، لعل أقدمها هجرة الأموريين إلى شماليها حوالى منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد ، وتلتها — وربما صحبتها — هجرة الكنعانيين أو الفينيقيين إلى السهل الساحلى . وقد استولى تحوتمس فرعون مصر حوالى سنة ١٤٤٠ ق . م على جزء كبير من الشام ، وظل الأموريون والفينيقيون خاضعين لمصر نحو قرن إلى أن شُغلت عن ممتلكاتها فى الشام لعهد

---

(١) انظر فى تاريخ الشام القديم وزمن الدولة الأموية والولاة العباسيين كتاب تاريخ سورية ولبنان وفلسطين لفيليب حتى (الترجمة العربية نشر دار الثقافة ببيروت) وراجع فى فتوحها وتاريخها الإسلامى تاريخ الطبرى وابن الأثير ، ومروج الذهب للمسعودى والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى والمغرب (قسم الفسطاط) لابن سعيد وتاريخ ابن خلدون وتاريخ الدولة العربية وسقوطها لڤلهوزن وتاريخ العرب — مطول لفيليب حتى (الترجمة العربية) وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان (نشر دار العلم للملايين) .

إخناتون بسبب ثورته الدينية المعروفة . وتفد على الشام هجرة كبيرة من الجزيرة العربية هي هجرة الآراميين إلى الشام الأوسط ومنطقة دمشق وهجرة العبرانيين إلى فلسطين .

ولم يكوِّن الفينيقيون لأنفسهم دولة فى السهل الساحلى بل ظلوا جماعات صغيرة لكل جماعة أميرها فى طرابلس وجبيل وبيروت وصيداء وصور وعسقلان وغزة ، وكانوا شعبا بحريا تجاريا ، وازدهرت تجارتهم بين القرنين العاشر والثامن قبل الميلاد ، وكوَّنوا لهم مستعمرات فى إسبانيا ومراكز تجارية فى كورسيكا وسردينيا وصقلية وكريت وساموس فى اليونان . وقضى على النشاط التجارى لهذا الشعب الفتح الأشورى فى القرن الثامن قبل الميلاد . وكون العبرانيون لأنفسهم مملكة أورشليم فى القرن العاشر ق . م . وفيه بلغت ذروتها لعهد داود وسليمان ، ثم أخذت فى الضعف حتى قضى عليها الأشوريون فى القرن الثامن ق . م . ودمر بختنصر أورشليم فى القرن السادس ق . م . وجلاهم عنها إلى بابل ، حتى إذا سقطت دولة بابل سنة ٥٣٩ ق م . أذن كورش لمن يريد منهم العودة إلى أورشليم أن يعود . وظل الشام منذ هذا التاريخ تابعا للدولة الفارسية إلى أن فتحه الإسكندر المقدونى سنة ٣٣٤ ق . م . وتولَّت بعده شئونه دولة السلوقيين اليونانية حتى انتزعه منها الرومان فى القرن الأول ق . م . ولما انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى غربية وشرقية كان الشام من نصيب الامبراطورية الشرقية وظل تابعا لبيزنطة حتى استخلصه العرب منها .

وقد استطاع العرب الشماليون أن يقيموا مملكتين أو إمارتين لهم فى أطراف الشام : إمارة النبط فى شرقى الأردن أقاموها منذ القرن الثالث ق . م وكان لها عاصمتان : بَطْرًا فى الجنوب بشرقى الأَرْدُنّ وبُصْرَى فى الشمال بالقرب من دمشق ، وكانت تتكلم العربية فى أحاديثها اليومية بينما كانت تكتب نقوشها بالخط الآرامى ، وقضى الرومان على استقلالها سنة ١٠٦ للميلاد وضموها إلى دولتهم الرومانية . والمملكة الثانية مملكة تَدْمُر شمالى بادية الشام ، وبلغت أوجها فى القرنين الثانى والثالث للميلاد وخاصة فى عهد أميرها أُذَيْنة ، وقد نصبه الرومان ملكا على سوريا جميعها وعادوا فى عهد زوجته الزباء ، فقضوا عليها وعلى الإمارة فى سنة ٢٧٣ للميلاد . ولم تلبث قبيلة عربية أن شقَّت طريقها إلى منطقة حوران جنوبى دمشق ، وهى قبيلة الغساسنة واستطاعت أن تقيم لها إمارة ، ولم تكن لها عاصمة مستقرة ، فقد كانت تنتقل من مكان إلى آخر ، فمرة تتخذ عاصمتها فى الجولان ومرة فى جِلِّق أو الجابية ، وكانت موالية لبيزنطة وتحارب فى صفوفها ضد إيران وعرب الحيرة . ومن أهم أمرائها الحارث بن جبلة وهزيمته للمنذر صاحب الحيرة يوم حَليمة بالقرب من قِنَّسْرين سنة ٥٥٤ مشهورة وفيها خرَّ المنذر صريعا . وما نصل إلى أواخر القرن السادس الميلادى

حتى تتمزق وحدة هذه الإمارة ، ويتوزع أجزاءها غير أمير . ونستطيع أن نميز بينهم النعمان بن الحارث ممدوح النابغة وأخاه عمرو ممدوح حسان ، ولحق منهم الفتوح الإسلامية جبلة بن الأيهم وأسلم ، ثم تنصر ولحق ببيزنطه .

وحين دخلت الجزيرة العربية جميعها فى دين الله الحنيف وانضوت تحت لوائه أحست دولة بيزنطة فى الشام ودولة الفرس فى العراق بأنها قوة ينبغى أن يُدْرَأ خطرها . وهو ماجعل أبا بكر الصديق يبادر بتجهيز الجيوش لتجاهد فى سبيل الله ونشر دعوة الإسلام الدولتين الكبيرتين قبل أن تتآزرا على حرب الإسلام والمسلمين فى الجزيرة شرقا وشمالا . وكان الفساد قد استشرى فى حكم الدولتين واستشرى معه ظلم الرعية والبغى الأثيم . واستولى المسلمون من الفرس سريعا على جنوبى العراق ، وتوالت انتصاراتهم عليهم ، وبادر الصديق فسيَّر فى سنة اثنتى عشرة للهجرة جيشين لحرب البيزنطيين أو الروم فى الشام : جيشا بقيادة يزيد بن أبى سفيان إلى البلقاء فى شرقى الأردن ، وجيشا بقيادة عمرو بن العاص إلى الجنوب الشرقى من فلسطين ، وكتب إلى خالد بن الوليد فى العراق أن يلحق بجيشى الشام ، فلحق بهما وتولى قيادتهما ، وفتح بُصْرى شمالى البلقاء . ونازل الروم فى أجنادين بفلسطين بين بلدتى الرملة وبيت جبرين الحاليتين ، وهى أول معركة كبرى بين العرب والروم ، وفيها سحقهم سحقا ذريعا ، وتقدم إلى الشمال حتى دمشق وظل محاصرا لها حتى استسلمت . وجمع الروم صفوفهم فى اليرموك أحد روافد نهر الأردن فدمرهم خالد وجنوده ولم تقم لهم بعد ذلك فى الشام قائمة وفتحت بلدانها جميعا أبوابها للعرب المنتصرين . وبذلك استولى العرب على الشام فى نحو سنتين .

وخرج عمر بن الخطاب فى سنة ١٦ إلى الجابية – جنوبى دمشق على مسيرة يوم منها – وهى إحدى عواصم الغساسنة كما مر آنفا ، وبها عقد مؤتمرًا ضَمَّ ولاة الشام وقوادها لتنظيم الإدارة فى ديارها ، وفتحتْ له القدس أبوابها ، وأمَّن عمر النصارى بها ورهبانها على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وحريتهم الدينية ، والتمسوا منه أن يُخْلى القدس من اليهود وأجاب ملتمسهم ولم يبق بها يهودى . وقسم الشام إلى أربعة أجناد : جند الأردن وجند فلسطين وجند دمشق وجند حمص ، وزيد فيما بعد لعهد الأمويين جند قِنسّْرين والعواصم والثغور . واشتهرت سنة ١٨ للهجرة باسم سنة طاعون عمواس ، وكانت بلدة بين نابلس والرَّملة الحاليتين ، وفيه توفى أبوعبيدة بن الجراح ومعاذ ابن جبل ويزيد بن أبى سفيان والى دمشق ، وولاها عمر بن الخطاب بعده أخاه معاوية . وامتد لواء ولايته لها فى عهد عثمان حتى شمل الشام ، وعمل على الاستعانة ببدو الشام فى

شئون الإدارة مما جعلهم يلتفُّون حوله ، وظهر ذلك سريعا حين تولى الخلافة على بن أبى طالب ، وعزله ،. فإنه سرعان ماطالب بدم عثمان وناصره بدو الشام .

وتطورت الظروف سريعا إلى أن نشبت حرب صِفِّين بين معاوية وبين على بن أبى طالب كما هو معروف ، حتى إذا أيقن معاوية بالهزيمة أمر جنده – استجابة لمشورة عمرو بن العاص – أن يرفعوا المصاحف على أسنة رماحهم داعين إلى الاحتكام إلى كتاب الله . ورضى على وأُقيم حكمان للفصل بين الطرفين : أما جند على العراقيون ، فاختاروا أبا موسى الأشعرى ، واختار معاوية وجند الشام عمرو بن العاص ، ويروى الجاحظ أن معاوية قال له : « ياعمرو إن أهل العراق قد أكرهوا عليا على أبى موسى ، وأنا وأهل الشام راضون بك ، وقد ضُمَّ إليك رجل طويل اللسان قصير الرأى فأجدِ الحزَّ وطبِّق المَفْصِل ، ولاتلقه برأيك كله » . وصدق حَدْس معاوية فقد استطاع عمرو أن يقنع أبا موسى بعزل على عن الخلافة لوقف الحرب وحقن دماء المسلمين . وأُعلن الحكم ، وانقسم جيش على : فرقة معه وفرقة سَمَّت أنفسها الخوارج ، وهو أول ظهورهم فى التاريخ الإسلامى وحاربهم ونكَّل بهم ، ولم يلبث أن اغتاله خارجى أثيم . وبذلك خلا الجو لمعاوية وخاصة حين أعلن الحسن بن على تنازله عن الخلافة له . وقد بايعه جنده وأمراؤه بالخلافة فى بيت المقدس واتخذ دمشق حاضرة لخلافته .

(ب) زمن الدولة الأموية

أسس معاوية فى الشام الدولة الأموية وتوزعها فرعان : فرع سفيانى نسبة إلى أبى سفيان ، معاويةُ على رأسه وابنه يزيد ، وفرع مروانى من البيت الأموى نسبة إلى مروان بن الحكم ومن خَلَفه من أبنائه وأحفاده . وكان معاوية بعيد النظر سيوسا حازما ، وكان له بصر بالشخصيات من حوله ، فاستعان بطائفة من صفوة الحكام فى مقدمتهم عمرو بن العاص فى مصر ، والمغيرة بن شعبة الذى ولاه الكوفة ، وزياد بن أبيه الذى اختاره للبصرة وإيران حتى إذا توفى المغيرة ضم إليه الكوفة وقد استطاع زياد أن يقضى على معارضة على فى شرقىّ الدولة وأن ينشر فى ربوعه الأمن . ووجه معاوية حملات مختلفة إلى بيزنطة واستطاع حصار القسطنطينية مرتين ووجه حملة بحرية إلى قبرس ، وكانت دمشق قاعدة الخلافة فى زمنه وكان يستعين بأهل الشام فى شئون الحكم وعمها الرخاء . وشمل المسيحيين بتسامح واسع واتخذ لنفسه مستشارا ماليا منهم هو سرجيوس ، إذ وكل إليه فيما يقال الشئون المالية . ويبدو أنه كان حاكما لدمشق قبل فتحها . على كل حال استعان به

معاوية فى الشئون المالية لدمشق ، وظلت أسرته بعده فى خدمة الأمويين فكان ابنه يشرف على الخراج لعهد عبد الملك ، وبالمثل استعان الأمويون بحفيده ، وفى عهده توغل عقبة بن نافع — ابن خالة عمرو بن العاص — فى البلاد المغربية ، وأسس فى وسطها القيروان بتونس ، وواصل فتوحه فى عهد معاوية وابنه يزيد حتى أشرف على المحيط الأطلسى .

ولما خلف معاوية ابنه يزيد أبى البيعة له عبد الله بن الزبير ولاذ بالحرم المكى ، كما أباها الحسين ابن على واتجه إلى العراق ، فلقيته طلائع جيش لعبيد الله بن زياد والى العراق قبيل دخوله الكوفة فى «كَرْبلاء» غربى الفرات ولما أبى الاستسلام نازلوه واستشهد الحسين ومن كان معه من أهله وأنصاره مما كان له أكبر الأثر فى التطور السريع للشيعة ، ولايخلو ضريحه طوال العام من حُجَّاجهم إليه حتى اليوم . وكانت المدينة قد انضمت إلى ابن الزبير فأرسل يزيد إليها جيشا بقيادة مسلم بن عقبة فنكل بها وفى طريقه إلى مكة لحرب ابن الزبير توفى وخلفه حصين بن نمير السَّكونى ، فمضى حتى حاصر ابن الزبير بمكة وجاءه نعى يزيد بن معاوية ، ففكَّ عنها الحصار وعاد بجنده إلى الشام . وخلف يزيد ابنه معاوية وتوفى بعد أربعين يوما من خلافته . واضطربت العراق ، واضطر واليها عبيد الله بن زياد إلى مبارحتها ، وانتهز الفرصة مروان بن الحكم واعتلى عرش الخلافة يؤيده بدو الشام من اليمنية وأبى بَدْوُها من القيسية مبايعته وهزمهم فى موقعة مَرْج راهط ، وتبعته مصر ، أما العراق فظل الاضطراب سائدًا فيها ، وبايع قسم منها ابن الزبير وقسم تحرك للطلب بدم الحسين وكان عبيد الله بن زياد فكر فى العودة إلى العراق على رأس جيش فقضى عليه هذا القسم ، وحاول المختار الثقفى والى الكوفة أن يجمعه تحت لوائه وقضى عليه مصعب بن الزبير والى أخيه عبد الله على البصرة .

وكان مروان بن الحكم قد توفى وخلفه ابنه عبد الملك وسر سرورا عظيما لما حاق بالمختار الثقفى وجنوده على يد مصعب ، وأخذ يتحين الفرص للقضاء عليه فى العراق وعلى أخيه عبد الله بن الزبير فى مكة والحجاز ، أما مصعب فذهب إليه عبد الملك فى سنة ٧١ للهجرة على رأس جيش ضخم ، وقضى عليه ، وبايعه العراقيون . وأما عبد الله بن الزبير فأرسل إليه الحجاج فى جيش كثيف ، ومازال به حتى تفرق عنه أصحابه ، وظل يستبسل فى قتال القوم حتى خرَّ صريعا . وقد عُنى ببناء المسجد الأقصى وتعريب إدارة الدولة واستطاع أخوه عبد العزيز واليه على مصر أن يقضى نهائيا على المعارضة فى المغرب .

ويُعَدّ زمن الوليد بن عبد الملك أزهى أيام المروانيين لفتوحاته العظيمة شرقا وغربا ، أما فى

الشرق فاستطاع محمد بن القاسم فتح السند واستطاع قتيبة بن مسلم أن يمتد بانتصاراته إلى الإقليم المسمى الآن باسم أوزبكستان وعاصمته حينذاك سمرقند . وأما فى الغرب فقد استطاع موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد أن يقضيا على الدولة القوطية فى إسبانيا ، وأن يبلغا بفتوحهما هناك أصى الشما . وهذه الفتوح كانت تعود على الدولة بأموال عظيمة مم هيأ لرخاء واسع فى ديار الشام ، كما هيأ للوليد نفسه أن يهتم فى دمشق بالعمران وأن يقيم بها الجامع الأموى العظيم ويقال إنه عمل به من البيزنطيين وحدهم ألف ومائتا عامل سوى من عمل به من الفرس وأهل الشام وقد زُيِّنت جدرانه وسقوفه بالرخام المطعم والفُسَيْفساء التى كانت تمثل مدنا وأشجارا من كل نوع سوى ما كان فيه من أعمدة وتزاويق عجيبة .

وخلف الوليد أخوه سليمان واتخذ بلدة الرملة بفلسطين حاضرة له . وكان من سوء تدبيره أن نكَّل بقواد الوليد العظام ، فقُتل قتيبة ولم يعرف مصير موسى بن نصير ولا محمد بن القاسم ، وحَسنته الوحيدة انه استخلف بعده ابن عمه الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز ، وقد ألغى سبَّ على بن أبى طالب على المنابر وعمل على استمالة الشيعة والخوارج والنصارى وخفَّف من ضرائب الجزية المفروضة على الأخيرين فى قبرس وأيلة (العقبة) ونجران ومصر ، وسوَّى بين العرب والموالى فى الضرائب وأعفى منها المشتركين منهم فى حرب خراسان مع فرض أعطيات لهم ، غير أن حكمه كان قصيرا من سنة ٩٩ إلى ١٠١ . ولم يأخذ خلفاؤه بإصلاحاته ، وعجَّل ذلك باضمحلال الدولة . وأولهم بعده يزيد بن عبد الملك الذى لم يأخذ بسيرته وإصلاحاته وانغمس فى الملاهى ، وتلاه بعد نحو أربع سنوات أخوه هشام الذى اتخذ مقره فى الرُّصافة على الفرات ، وفى عهده ثار زيد بن على بن الحسين فى الكوفة سنة ١٢١ وقُتل وصُلب ، واستغلَّ ذلك دعاة العباسيين مما مهد السبيل لقيام خلافتهم بعد نحو عشر سنوات . ومُنى عرب الأندلس بهزيمتهم جنوبى فرنسا سنة ١١٤ للهجرة أمام شارل مارتل .

وتوفِّى هشام سنة ١٢٤ وخلفه عهد تضعضعت فيه الدولة الأموية وآذنت شمسها بالمغيب ، فقد خلفه ابن أخيه الوليد بن يزيد وكان شاعرا ماجنا فلقى مصرعه سريعا ، وجاء بعده يزيد بن الوليد وسرعان ماتوفى بعد خلافته بنحو خمسة أشهر وتلاه أخوه إبراهيم ولم يرضه الناس ولا الأسرة الأموية ، وتحولت مقاليد الخلافة إلى مروان بن محمد بن مروان بن الحكم ، وكأنه لم يعد فى أسرة عبد الملك من يصلح لها . وكان محاربا عالى الهمة ، وأخطأ بنقله عاصمة الخلافة إلى حرَّان ، فانفضَّ عنه بدو الشام ، ونشبت فتن كثيرة أضعفت قواه ، بعضها فى الشام وبعضها فى

العراق حيث الخوارج والشيعة . ولم تكد هذه الفتن تهدأ حتى تحرك العباسيون براياتهم السود من خراسان ، وأخذت المدن الإيرانية تسقط فى أيديهم ودخلوا العراق واستولوا على الكوفة ومضوا إلى شمالى العراق وهزموا مروان عند الزاب الأكبر ، فأخلى الجزيرة واتجه إلى الشام وتخلى عنه أهلها ، فالتجأ إلى مصر ، ولقى مصرعه بها فى بوصير . وكان السفاح قد أعلن الخلافة العباسية فى الكوفة وطورد الأمويون فى كل مكان وأبيدوا بوحشية ، ونُبِشَتْ قبور خلفائهم — عدا معاوية وعمر بن عبدالعزيز — وُأذْرِيت عظامهم ورفاتهم فى الهواء ، ونجا من هذا البطش والنكال عبدالرحمن الداخل أحد حفدة هشام بن عبدالملك ، إذ فرَّ إلى الأندلس وأسس بها دولة أموية جديدة ظلت نحو ثلاثة قرون .

(جـ) زمن الولاة العباسيين

فقدت الشام — بسقوط الدولة الأموية — السيادة المطلقة فى الإسلام وفقدها العرب معهم تدريجا . إذ أخذ الاعاجم يشغلون المناصب العليا فى الدولة العباسية ، وكان العباسيون يعرفون أن دولتهم إنما قامت على أسنة رماحهم ، فقربوهم منهم وفسحوا لهم فى الوزارة وغير الوزارة . وكان لذلك صداه السيىء فى نفوس أهل الشام ، مما هيَّأ بعد نحو عشرين عاما لثورة القيسية فى قِنَّسْرِين بزعامة أموى هو أبو محمد السفيانى ، وسرعان ماقضى عليها العباسيون وفرَّ السفيانى إلى الحجاز ولقى حتفه هناك ، ولم يصدق أتباعه وفاته فظلوا يترقبون عودته ليجدد للشام مجده الغابر .

ونمضى إلى سنة ١٩٥ فى عهد الخليفة الأمين فيظهر فى دمشق سفيانى جديد هو على بن عبدالله بن خالد بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان ، ويطرد عامل الأمين عن دمشق ، ويبايعه الدمشقيون بالخلافة . وشُغل عنه الأمين بحرب أخيه المأمون مدة . ولم يلبث أن قضى على ثورته أعوان الأمين واختفى بالمِزَّة بالقرب من دمشق وأقام بها أياما ومات . وفى سنة ٢٢٧ لعهد المعتصم ثار بفلسطين المُبَرْقَع أبو حرب اليمانى وزعم أنه السفيانى المنتظر ودعا أولا إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلى أن قويت شوكته فادَّعى النبوة ، وتبعه قوم من فلاحى القُرَى وقوى أمره وسار إليه أحد قواد المعتصم فى ألف فارس وأسره وحبسه ومات فى حبسه .

وكان أول من تولى الشام للسفاح عمه عبدالله بن على بعد قضائه على مروان بن محمد فى موقعة الزاب حتى إذا فرَّ مروان إلى الشام مضى يتبعه إلى دمشق ففتحها وهدم سورها وقتل من الأمويين ثمانين رجلا فى مذبحة مشهورة ببلدة الرَّمْلة . وولاه السفاح دمشق ، ولما ولى الخلافة بعده

أبوجعفر المنصور ، خرج عليه عبدالله ودعا لنفسه فهزمه أبومسلم الخراسانى ، وحبسه المنصور ومات فى حبسه . وتولى أمر الشام ودمشق بعد عبد الله كثير من الولاة وكان بعضهم من الأعاجم مؤيدى الدولة . واتبع العباسيون سياسة غير حكيمة أن لا يبقوا واليًا لهم فى بلد إلا مدة قصيرة . وكان هذا سببا فى أن لا يُعْنَى الولاة بالنهوض ببلدانهم من جهة ، كما كان سببا فى أن يحاولوا الإثراء سريعا قبل أن يُعْزَلوا من مناصبهم ، مما كان يدفعهم فى كثير من الأحيان إلى الزيادة فى الضرائب ، كما كان يدفع الناس إلى الثورة عليهم ، وسرعان ما كان يقضى على ثوراتهم كما حدث فى حلب سنة ١٦٢ وفى حمص سنة ١٩٤ .

ويبدو أن القبائل القيسية واليمنية لم تتعظ بما أصابها من فقدان موطنها لاستقلاله الذاتى ، فقد اندلعت بينهما نار العصبية القديمة وأخذوا يمدونها بحطب جَزْل طوال العقد الثامن من القرن الثانى ، واغتنمت السوقةبدمشق الفرصة فنهبت ما استطاعت أيديها نهبه ، وتطاحن الفريقان وسُفكت دماء المئات منهما . وأخيرًا أرسل اليهما هرون الرشيد وزيره جعفرًا البرمكى ، فأطفأ نار العصبية المحتدمة بين الطرفين بتجريدهما من السلاح وعاد إلى دمشق الهدوء والسلام . وفى سنة ٢٢٧ يولى المعتصم موسى بن إبراهيم الرافقى دمشق فتثور عليه القيسية ويقتل منها خمسة عشر نفسا ، فتشتد ثورتها وتحاصر دمشق ، ويتوفى المعتصم فيرسل الواثق خلفا له أحد قواده فيهزم القيسية ويقتل منها ألفا وخمسمائة ، وتهدأ الثورة ، ويعود الأمن إلى دمشق .

وكان الخلفاء العباسيون يرحلون إلى الشام أحيانا ، لزيارة بيت المقدس أو للحج منه ، وأكثر رحلاتهم إنما كانت لحرب البيزنطيين ، والسقوط عليهم من ثغوره . ومما يذكر لهم أنهم أقاموا فى حدوده الشمالية كثيرا من الثغور للاندفاع منها إلى آسيا الصغرى . وكانت جيوشهم ماتنى ذاهبة إلى شمالى الشام آيبة منه ، مما عاد عليه بكثير من الرخاء وانتعاش التجارة . واشتهر المهدى والرشيد بنضالهما لبيزنطة وما كان من فتح هرقلة وضرب البيزنطيين ضربات قاصمة . وأخذ المأمون منذ سنة ٢١٥ يقود حملات عنيفة لمدة ثلاث سنوات متوالية استولى فى أثنائها على لؤلؤة أقوى وأمنع الحصون البيزنطية بالقرب من طَرسوس ، مما اضطر تيوفيل إمبراطور بيزنطة إلى التماس الصلح . وفى سنة ٢٢٣ دق المعتصم وقواده أعناق البيزنطيين دَقًّا وأوطئوهم ذُلاًّ وصَغارا إذ هدموا أنقرة وحرقوا عَمُّورية أمنع بلادهم فى آسيا الصغرى . وظل قواده من أمثال محمد بن يوسف الثغرى وابنه يوسف يَكيلون لهم ضربات ساحقة . ويظل غزو البيزنطيين صيفا فى أيام الخليفة المتوكل ، ويغيرون على بعض الثغور فى شمالى الشام . وينكل بهم على بن يحيى الأرمنى والفارس المغوار عمر

ابن عبدالله الأقطع ، ويتم فتح صقلّية ، ويدمر أسطول المتوكل بقيادة أحمد بن دينار أسطول البيزنطيين . وزار المتوكل الشام فى آخر سنة ٢٤٣ ودخل دمشق وأعجبته ، وبنى له قصرًا بالغوطة وعزم على المقام بها ونقل دواوين الخلافة إليها . ويفطن قواده من الترك إلى مأربه ، وأنه يريد التخلص منهم ، فطالبوا برواتبهم حتى يضطروه إلى العودة إلى سامَّراء عاصمته فى العراق . ونزل على إرادتهم ، وبارح دمشق سريعا . وربما كان من أهم ماخلفه عصر الولاة العباسيين بالشام كثرة العناصر الفارسية التى دخلته بين ولاة وقضاة وعلماء وفقهاء مختلفين .

(د) الطولونيون – القرامطة

١- الطولونيون[١]

كان أحمد بن طولون تركى الأصل خدم العباسيين وولى مصر فأنشأ بها الدولة الطولونية محققا لها نوعا من الاستقلال الذاتى ، وكان قد ولى إمرة الثغور وجاهد فى سبيل الله . ويقول مؤرخوه إنه نشأ يُعنَى بالفقه مع كثرة الدرس وطلب العلم ، وكان يقول : ينبغى للرئيس أن يجعل اقتصاده على نفسه وسماحته على من يقصده ويشتمل عليه ، فإنه يملكهم ملكا لايزول به عن قلوبهم ، وقد عم الرخاء مصر منذ وليها فى سنة ٢٥٤ ويقال إنه كان يتصدق فى كل يوم بمائة دينار غير ما كان يرسله إلى الشام والعراق والحجاز . ومنذ توليه مصر وضع نصب عينيه الاستيلاء على الشام ، ولم يكن ذلك غائبا عن فكر الموفق القائم على تدبير دولة أخيه المعتمد ، غير أنه كان مشغولا بثورة الزنج والقضاء عليها ، وانتهز ابن طولون الفرصة بعد موت والى دمشق سنة ٢٦٤ وأناب عنه بها مولاه لؤلؤا ولم يلبث فى سنة ٢٦٨ أن أظهر الخلاف عليه وضرب نقودا باسمه وكاتب الموفق ليرسل إليه جيشًا يفتح به مصر . وخشى ابن طولون أن يهم الموفق بتلبيته ، فأرسل إلى الخليفة المعتمد وكان كالمحجور عليه يرغبه فى الرحيل إليه بمصر ، وتوجه إلى سوريا كى يكون فى استقباله . وعزم المعتمد على اللحاق به وتنبه الموفق ، فحال بينه وبين الرحيل عن العراق . ومضى ابن طولون يغاضب الموفق فقطع اسمه من الخطبة يوم الجمعة بمصر والشام إذ كان يُذْكر فيها وليا

---

(١) راجع فى هذه الدولة كتب التاريخ السالفة فى أول الفصل وسيرة أحمد بن طولون للبلوى ودائرة المعارف الإسلامية وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٢٢٠.

للعهد ، ولم يردّ على ذلك الموفق إذ كان يميل معه إلى السلام . ولذلك لم يرسل إلى لؤلؤ جيشًا لغزو مصر . وعادت الشام إلى ابن طولون سريعا .

وكان عهد ابن طولون فى الشام عهد رخاء وأمن ، ويقال إنه أول دخول له فى دمشق وقع بها حريق ، فأمر بأن يعطى لكل من احترق له شىء من المال مايعوِّضه ، ثم أمر بمال عظيم ففُرِّق فى فقراء دمشق والغُوطة . وتوفى سنة ٢٧٠ فخلفه ابنه خُمارويه ، وثار عليه واليه على دمشق وولاة آخرون هناك . وأيدهم الموفق بجيش ، فمنى خمارويه بالهزيمة ، وتتابعت هزيمته فى سنتى ٢٧١ و٢٧٢ . وأخذ نجمه فى الصعود لسنة ٢٧٣ إذ كتب إلى الموفق فى الصلح فأجابه ، وكتب له بولايته على مصر والشام والثغور لمدة ثلاثين سنة . وسُرّ خمارويه سرورا عظيما ، وأمر بإعادة الدعاء للموفق فى خطبة الجمعة ، وكان يتردد على الشام بجيشه الضخم كثيرا ، مما كان يعود على أهلها برواج واسع فى التجارة . وبدمشق قتله خادم له فى قصره سنة ٢٨٢ ويقال إن هذا الخادم كان أولع بجارية له فتهددها خمارويه بالقتل فاتفقت مع الخادم على قتله . وسرعان ما أخذت شمس الدولة الطولونية فى الغروب ، وولى بعده ابنه « أبو العساكر جيش » وعكف على الشرب واللهو فنفر القواد — ونفرت الناس — منه . وخلعه أخوه هرون بعد ولايته بتسعة أشهر ، وكان لايزال صبيا ضعيفا ، فأخذت الدولة فى التضعضع ، وعاث القرامطة فسادًا فى الشام ، ولم يستطع قواده وجنوده أن يردوهم عن دمشق وغيرها فاستغاث أهل الشام بجيوش الخليفة المكتفى وأغاثتهم . ووضح أنه لم يعد يوجد أى مسوغ للإبقاء على الأمير الطولونى المستضعف ، وخلفه عمه شيبان وكان لايقل عنه ضعفا ، ومنه تسلم مصر محمد بن سليمان سنة ٢٩٢ .

٢ — القرامطة (١)

كان أول ظهور القرامطة فى العراق سنة ٢٧٧ ، وهى حركة سياسية دينية خطيرة تحدثنا عنها بالتفصيل فى كتابنا العصر العباسى الثانى ، وأوضحنا كيف أنها بدأت بإيحاء من عبد الله بن ميمون

---

(١) انظر فى القرامطة كتب التاريخ وخاصة الطبرى ، وكتب الملل والنحل وخاصة الفرق بين الفرق للبغدادى ، ودراسات فى العصور العباسية المتأخرة لعبدالعزيز الدورى ص ١٢٦ وما بعدها وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٢٢٩ وكتابنا العصر العباسى الثانى ص ٣٣ ومابعدها .

القدّاح منظم الدعوة الإسماعيلية الشيعية من مركزه فى « سَلَمْية » بالقرب من اللاذقية . وكيف أنه أرسل دعاته إلى العراق وخاصة الكوفة وسوادها وعلى رأسهم الحسين الأهوازى ، وقد التقى فى لسواد بنبطى يلقب بَقْرمط ووجد فيه أمنيته من التحمس الشديد للدعوة . ولما دنا أجله عهد إليه بها فنظمها . وتبعه كثيرون مكونين فرقة القرامطة نسبة إليه ، وسرعان ما تحولت الفرقة إلى فرقة مارقة تُحلُّ أتباعها من الفرائض الدينية وتفرض عليهم نظاما اشتراكيا فى الأموال . وانضم إلى قَرْمط قليل من الطبقة الكادحة لا فى السواد والريف فقط بل أيضا فى المدن ، ومن أهم أتباعه الحسين بن بهرام الجنابى الفارسى الذى نشر الدعوة فى البحرين والأحساء . ويخلفه فى سنة ٢٨٩ زكرويه القرمطى وكان أكثر نشاطا من قرمط ، فرأى أن يعنى بنشر الدعوة بين البدو فى جنوبى العراق ولم يتبعه إلا القليل ، حينئذ أرسل أولاده يحيى والحسين ومحمدا إلى عشائر قبيلة كلب فى بادية الشام وزعموا لها أنهم من سلالة محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، وتبعهم كثيرون وخاصة بنى العُلَيْص . وكانوا قد جعلوا زعامتهم لأخيهم يحيى فبايعه البدو وكانت له عضد ناقصة فكشفها لهم وقال إن هذه آيته . وآية له ثانية هى ناقته ، وزعم أنهم إذا تبعوها فى لقاء عدو كُتب لهم النصر المبين . وساق جموعه فى الشام يعيثون ويفسدون ، وحاصر بهم دمشق فقُتل على أبوابها ، فبايع أتباعه أخاه الحسين ونادوا به خليفة له ، وأظهر لهم شامة فى وجهه الملثم وقال إنها آيته ، ولذلك لُقِّب صاحب الشامة . وخافه أهل دمشق فصالحوه على خراج يؤدونه إليه ، وتغلب على حمص وخُطب على منابرها بأنه المهدى المنتظر ، وهاجمت جموعه بعلبك وحماة والمعرة تقتل وتنهب . وكانت الشام حينئذ تتبع الدولة الطولونية كما مر بنا ، وكانت تعانى ضعفا شديدا ، فلم تستطع أن تنقذ الشام من القرامطة وما أحدثوه بها من الفوضى والدمار ، مما جعل أهل الشام يستغيثون منهم بالخليفة المكتفى ، ولبى استغاثتهم فأرسل إليهم محمد بن سليمان على رأس جيش كثيف ، فواقع القرامطة بالقرب من حماة فى المحرم سنة ٢٩١ وأنزل بهم هزيمة ساحقة ، وفرَّ كثيرون منهم إلى البوادى . أما الحسين بن زكرويه فاتجه إلى الفرات ، وأُسر هناك وصُلب ببغداد مع عشرات من القرامطة . وكان أخوه محمد لايزال حيا بين بدو الشام ، فأخذ فى جمعهم حوله ، حتى إذا كانت سنة ٢٩٣ أغاربهم على دمشق وحارب أهلها ودخلها وأعمل فيها القتل والنهب ، ثم صار إلى طَبَريَّة فانتصر على أهلها ودخلها وفتك بكثير من رجالها ونسائها وعاد إلى البادية . وفى نفس السنة أرسل زكرويه داعية له يسمى أبا غانم إلى بادية الشام ، وتبعه كثيرون ونهب بهم بُصْرى وأذرعات ، وتعقَّبته جنود الخلافة ولم يلبث أحد أتباعه أن قتله . وبذلك تنتهى حركة

زكرويه وأولاده ودعاته فى الشام ، وكانت قد أصبحت منذ انتصار محمد بن سليمان على صاحب الشامة تابعة لبغداد ، ترسل إليها ولاة مختلفين .

(هـ) الإخشيديون – الحمدانيون (سيف الدولة)

١ – الإخشيديون[1]

الإخشيد هو محمد بن طُغْج ولى مصر فأسس بها الدولة الإخشيدية سنة ٣٢٣ وما تُقبل سنة ٣٢٨ للهجرة حتى تحدِّث محمد بن رائق صاحب دمشق نفسه بالاستيلاء على مصر ، ويلتقى به الإخشيد فى الفَرَمَا ، ويتم بينهما الصلح . وسرعان ماينقضه ابن رائق ويتهيأ الإخشيد لقتاله ، ويلتقيان ثانية فى العريش وتحدث بينهما وقعة عظيمة . ويصطلحان على أن تكون للإخشيد الرملة وجنوبيها فى فلسطين ، أما شماليها من بلاد الشام جميعا فتكون لابن رائق . وحدث فى سنة ٣٣٠ أن قتل الحمدانيون محمد بن رائق وانتهز الفرصة الإخشيد وجهز الجيوش إلى الشام واستولى عليها ، ودخل دمشق وأصلح أمورها وأقام بها مدة ، ثم عاد منها إلى الفسطاط فى السنة التالية . ووقعت بينه وبين سيف الدولة الحمدانى أمير حلب وحشة امتدت من سنة ثلاث وثلاثين إلى أول سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة ، واصطلحا على أن تكون لسيف الدولة حلب وحمص وأنطاكية وتظل بقية بلاد الشام للإخشيد . وسرعان ما توفى بدمشق سنة ٣٣٤ مستخلفا بعده على مصر والشام ابنه أنوجور وعاهدا إلى مولاه كافور الإخشيدى بتدبير أمور مملكته . وفى أوائل إمارة أنوجور لسنة ٣٣٥ استولى سيف الدولة الحمدانى على دمشق ، فحشد له أنوجور عسكرًا ضخما ولقيه فى مدينة الرملة ، ونشبت بينهما وقعة طاحنة انكسر فيها جند سيف الدولة وسار المصريون وراءهم إلى حلب . واستقر الأمر على الصلح وأن يظل لسيف الدولة مابيده من حلب وحمص وأنطاكية ، أما دمشق وبقية الشام فتظل لأنوجور . وينزل المتنبى مصر فى أيامه سنة ٣٤٦ ويتوفى أنوجور سنة ٣٤٩ قبل مبارحة المتنبى لها ويخلفه أخوه على ويظل كافور قائما بتدبير الدولة وتصريف شئونها . وفى سنة ٣٥٢ قدم قرامطة البحرين إلى الشام وعاثوا فيها فسادا ولم يستطع جند مصر دَفعهم عنها لاضطراب أعمال الديار المصرية بسبب عظم الغلاء وكثرة الفتن ، وفسد فى أثناء ذلك مابين على

---

(١) انظر فى الإخشيديين كتب التاريخ المذكورة فى أول الفصل وخاصة النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لابن تغرى بردى، وانظر ترجمة الإخشيد وكافور فى ابن خلكان وخطط المقريزى ٦١٧/١ ومصر فى عصر الإخشيديين للدكتورة سيدة كاشف.

ابن الإخشيد وكافور ولم يلبث على أن توفى سنة ٣٥٥ وتولى أمر الدولة فى مصر والشام بعده كافور الحبشى باتفاق من أعيان مصر وجندها . وكان الإخشيد اشتراه من بعض رؤساء مصر وأعتقه ورقَّاه حتى جعله من كبار قواده لما رأى فيه من الحزم وحسن التدبير ، وكان شجاعا مقداما . وظلت ولايته على مصر والشام إلى وفاته فى جمادى الأولى سنة ٣٥٧ وتولَّى بعده على بن أحمد بن الإخشيد، وكان صبيا، واضطربت أحوال الشام فى عهده اضطرابًا شديدًا بسبب غارات القرامطة المتكررة وما كان يصحبها من الفوضى والنهب والسلب. وسرعان ما سقطت مصر فى يد الفاطميين لسنة ٣٥٨ وبذلك انقرضت دولة الإخشيديين.

٢ - الحمدانيون[١] (سيف الدولة)

منذ أواخر القرن الثالث الهجرى أخذ يتألق اسم أسرة تغلبية عربية هى الأسرة الحمدانية ، وقد استطاع مؤسسها حمدان فى سنة ٢٧٧ أن يستولى على قلعة ماردين فى الموصل ، وأخذت أسماء أبنائه وأحفاده تلمع فى أحداث الخلافة المضطربة ، ولمع من بنيه مبكرًا اسم أبى الهيجاء لاستيلائه على مدينة الموصل سنة ٢٩٣ وظلت فى يده ويد ابنه ناصر الدولة وحفيده أبى تغلب المتوفى سنة ٣٦٩ . وقد استطاع ابنه على الملقب بسيف الدولة أن يستولى من الدولة الإخشيدية على حلب وحمص واللاذقية وأنطاكية وأسس فيها جميعا إمارة مستقلة منذ سنة ٣٣٣ للهجرة متخذًا حلب عاصمة له . وحاول الاستيلاء على دمشق من الإخشيد - كما مربنا - غير أن المصريين ردوه على أعقابه فاكتفى بإمارته . وندب نفسه لمهمة عظمى طالما هيأ نفسه لها منذ شبابه ، وهى النهوض بعبء الحرب ضد الروم البيزنطيين . وكان أول لقاء له معهم فى سنة ٣٣٦ إذ أغاروا على أطراف الشام ونهبوا وسبوا فلحق بهم وأذاقهم نكالا شديدًا ، وردَّ منهم كل ماسلبوه من أهل الشام . ويُكْتَبُ له منذ السنة التالية مجد حربى عظيم ضد الروم ، ويسجله له لوحات شعرية ناطقة المتنبى الذى نزل بلاطه حينئذ ، ولزمه حتى سنة ٣٤٦ يسجل ويصور ملاحمه الحربية الساحقة للروم سحقًا ذريعا .

---

(١) انظر فى الأسرة الحمدانية وسيف الدولة كتب التاريخ السالفة والجزء الأول من زبدة الحلب فى تاريخ حلب لابن العديم (طبع المعهد الفرنسى بدمشق - تحقيق الدكتور محمد سامى الدهان) وراجع اليتيمة للثعالبى ١٥/١ ومابعدها ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع فى الحمدانيين وسيف الدولة

ومضى البطل الحمدانى يدير مع الروم معارك باسلة كان ينصبُّ عليهم فيها سنويا كإعصار محرق مدمر ، وشاعره المتنبي من ورائه يتغنى بانتصاراته وبخوارقه البطولية حين تلم به كارثة ، إذ يتخلص منها فى شجاعة نادرة . ومن أعظم بطولاته أنه كان يبنى الحصون فى أثناء نزاله للروم على نحو ماصنع بحصن مَرْعش فى سنة ٣٤١ وهو يكيل لهم ضربات قاصمة . وقد أنزل بهم صواعق الموت التى لاتبقى ولاتذر فى سنة ٣٤٢ وأسر قسطنطين بن الدمستق وساقه بين يديه فى دخوله حلب مظفرًا منصورًا . وفى سنة ٣٤٣ جمع الروم له حشودا هائلة من الترك والروس والبلغار والخزر بقيادة الدمستق ، وسرعان ما أخذ يدق أعناقهم دقا ، وهرب الدمستق على وجهه لايلوى ، وأُسر صهره بينما كان البطارقة يقتلون ويؤسرون ، وأخذ سيف الدولة عسكرهم بكل مافيه . وسيف الدولة فى أثناء هذه المعركة ووطيسها المستعر يبنى حصن الحدث شمالى مرعش والمسلمون يكبِّرون ويهلِّلون . وفى سنة ٣٤٥ أنزل بهم ضربات مدمرة . وكان ماينى يمد يد المساعدة لأخيه ناصر الدولة فى نزاله للروم شمالى الموصل وكثيرا مانازلهم هناك وفى شمالى الجزيرة . وما تقبل سنة ٣٤٦ حتى يكفهرّ الجو بين المتنبى وبين البطل العربى . ويرحل عنه وكأنما رحل معه مجده الحربى فقد واقع الروم فى السنوات ٣٤٧ ، ٣٤٩ ، ٣٥١ ولم يُنْزِل بهم ماتعوَّد من التنكيل الشديد .

ولم يلبث البطل العظيم أن أصابه فى سنة ٣٥٢ فالج فى يده ورجله ورغم هذا الفالج النصفى نهض البطل من فراشه وصدَّ بقوة هجوما للروم على حصن من حصون حلب . وفى سنة ٣٥٦ لبَّى البطل نداء ربه ، وكان قد أوصى بأن يوضع خده فى لحده على لَبِنَةٍ بقدر الكف جمعها مما علق بثيابه ودروعه وسلاحه من غبار غزواته للروم . ونُفِّذت وصيته . وكان يرعى العلوم والآداب أعظم رعاية . ولمع فى بلاطه أكبر تلامذة أرسطو حتى زمنه : الفارابى المعلم الثانى . ولمع كثير من الشعراء والكتاب يتقدمهم المتنبى ، وعقد لهم الثعالبى فى كتابه « يتيمة الدهر » فصولا طويلة فى الجزء الأول منه ، وفيه وفى أسرته يقول : « كان بنو حمدان ملوكا وأمراء أَوْجُهُهم للصباحة ، وألسنتهم للفصاحة ، وأيديهم للسماحة ، وعقولهم للرَّجاحة ، وسيف الدولة مشهور بسيادتهم ، وواسط قلادتهم ، وحضرته مقصد الوفود ، ومطلع الجود ، وقِبْلة الآمال ، ومحط الرِّحال ، وموسم الأدباء ، وحلْبة الشعراء » . وخلفه ابنه سعد الدولة ، وكان ابن عمه أبوفراس الشاعر المشهور عامل أبيه على حمص قد ظلم وأكثر من الظلم وكثرت الشكوى منه ، فقاتله وخرَّ أبوفراس فى ميدان الحرب صريعا . وفى نفس السنة علم باستعداد الروم لحربه ، فأسل إليهم قَرْغُويه الحاجب وأُسر وأفلت منهم وهزم أصحابه وخرَّب نقفور كثيرًا من بلدان الشام وأعمل النهب

والسلب . وعصى قرغويه سعد الدولة واستولى على حلب فى أول سنة ٣٥٨ ولم يلبث نقفور أن استولى على انطاكية ، وظلت فى أيدى الروم إلى أن فتحها السلاجقة سنة ٤٧٧ وأمضى معه قرغويه صلحا ذليلا ، واصطلح مع سعد الدولة الذى ظل أميرًا لحلب حتى توفى سنة ٣٨١ فخلفه ابنه سعيد الدولة ، وقد عقد مثل أبيه حلفا بينه وبين الروم ضد الفاطميين الخطر المشترك للطرفين ، وتوفِّى سنة ٣٩٢ . وخلفه ولدان له ، ولعب بهما لؤلؤ مولى جدهما واستولى على الأمور إلى أن توفى وقام مكانه ابنه منصور . وحاول ابن لسعد الدولة يسمى أبا الهيجاء أن يسترد إمارة آبائه ولم يلبث ان فَرَّ الى بلاد الروم فى مطالع القرن الخامس الهجرى ، وبذلك انتهت إمارة الحمدانيين بحلب وشمالى الشام ، ولم تكن إمارة لهم حقا إلا فى عهد سيف الدولة المجيد

٢

الفاطميون – بنو مرداس – السلاجقة – الصليبيون – آل زنكى (نور الدين)

(١) الفاطميون[١]

دولة شيعية إسماعيلية تأسست فى تونس وتحوَّلت إلى مصر بعد فتح قائدها جوهر لها سنة ٣٥٨ ، ولم يلبث أن أرسل إلى الشام جعفر بن فلاح على رأس جيش للاستيلاء عليها . ولم يلق مقاومة تذكر ، ودخل دمشق وخطب بها للمعز الخليفة الفاطمى فى المحرم سنة ٣٥٩ ، وفى السنة التالية أعلن المؤذنون فى الشام – بأمره – « حىَّ على خير العمل » شارة الأذان الشيعى . وأخذ القرامطة يغيرون على دمشق ومدن الشام وكان يردهم جعفر بن فلاح ، ولم يلبث كبيرهم فى البحرين الحسين بن أحمد – كما مر بنا فى الحديث عن الجزيرة العربية بعصر الدول والإمارات – أن قطع علاقته بالفاطميين فى مصر وأعلن خضوعه للخلافة العباسية ، وسأل الخليفة المطيع بالله العباسى على لسان عز الدولة البويهى أن يوليه مصر والشام ويعطيه مالا وسلاحا لحرب المعز لدين الله ، وأمده عز الدولة بالسلاح والمال فى سنة ٣٦٠ وقيل بل فى سنة ٣٦٢ فسار إلى الشام وملكها ولعن المعز الفاطمى وأباه على منبر دمشق ، وأقام الدعوة للعباسيين ، وسار إلى القاهرة بعساكره وحصلت – بالقرب منها – بينه وبين المعز مناوشات ، وتقهقر المعز ، وأغرى قواده بالمال فخرجوا

---

(١) انظر فى الفاطميين بالشام كتب التاريخ العامة : ابن الأثير وابن خلدون وابن تغرى بردى وابن خلكان فى تراجم الخلفاء وجوهر الصقلى والمغرب لابن سعيد (قسم القاهرة) وتاريخ مصر لابن ميسر والإشارة إلى من نال الوزارة لابن الصيرفى وذيل تاريخ دمشق لابن القلانسى (طبع ليدن) فى السنوات ٣٦٣-٥٥٥ واتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا للمقريزى وكتابه الخطط ٢/٢١ والفاطميون فى مصر للدكتور حسن إبراهيم حسن.

عليه وانضموا إلى المعز ، فعاد إلى الرملة بالشام ومنها إلى البحرين . وكان ذلك أول اضطراب شديد حدث فى الشام لعهد الفاطميين وانتشرت فى أثنائه وبعده الفوضى فى دمشق واشتعلت النار فى كثير من أحيائها .

وظل الفاطميون مسيطرين على الشام نحو قرن ، قلما وجدت فيه أمنا وسلاما بسبب كثرة الولاة الذين كانوا يولونهم عليها ، فكان هم الوالى أن يُثْرى بسرعة على حساب أهلها ومايفرض عليهم من الضرائب ، وقد وليها لهم نحو خمسين واليًا ، وكثيرًا ما كان يتولاها اثنان أو أكثر فى العام الواحد . وبسبب ظلم الولاة وكثرة الضرائب كانت تنشأ أحيانا ثورات محدودة لبعض العيَّارين بها كثورة قسَّام الحارثى سنة ٣٧٧ لعهد العزيز الفاطمى . وخلف العزيز ابنه الحاكم بهوسه وشذوذه النفسى ودعواه الألوهية مما صورناه فى قسم مصر ، وكان من أهم من أغراه بدعوى الألوهية رجل يعرف بالدرزى أمره الحاكم أن يخرج إلى الشام وينشر تلك الدعوة فى الجبال ، فنزل هناك وتبعه كثيرون من جبل حوران فى سوريا المعروف باسم جبل الدروز ، وانتشرت الدعوة بين سكان الإقليم الجبلى بلبنان ، ولاتزال فى المنطقتين إلى اليوم ، وسقطت منها أسراب إلى جبال فلسطين وإلى الجبال فى أعالى الشام على نهر العاصى وقرب أنطاكية . ومن المؤكد أن العقيدة الفاطمية الإسماعيلية هى التى دفعت الحاكم ودعاته إلى ربوبيته إذكانت تردِّد – كما مر بنا فى قسم مصر – أن الخلفاء تجسدٌ للذات العلية . وكان طبيعيا فى عهد هذا الخليفة الشاذ المخبول أن تضطرب شئون الحكم فى الشام . وكان أبوه وجده يستعينون ببدو الجزيرة العربية الشماليين من طيئ ورؤسائهم بنى الجراح ، ونرى حينئذ حسان بن المفرِّج بن دغفل لايكتفى بإقطاع الفاطميين لأبيه مدينة الرملة ، بل يستولى على أكثر الشام ، ويحاول أن يخلع الحاكم ، ويولى مكانه أبا الفتوح أمير مكة الحسنى ، ويَقْدُم عليه أبوالفتوح ، غير أن الحاكم يغرى ابن المفرج بالأموال فينفض يده من أبى الفتوح ويعود إلى إمارته .

(ب) بنو [1] مرداس

كانت حلب قد دخلت فى حكم الفاطميين منذ سنة ٤٠٦ ولاتمضى طويلا فى سنة ٤١٥ حتى يستقل بها صالح بن مرداس الكلابى ويضع فى سنة ٤٢٠ يده فى يد حسان بن المفرِّج الطائى ويجمعان الجموع ويستوليان على الأعمال فى الشام وينتهيان إلى غزة ، ويلتقى بهما جيش فاطمى ،

(١) انظر فى بنى مرداس كتب التاريخ العام وزبدة الحلب من تاريخ حلب : الجزءين : الأول والثانى .

فينهزم حسان ويقتل فى المعركة صالح وابنه الأصغر ، ويخلفه ابنه شبل الدولة نصر . وطمع صاحب أنطاكية فى حلب ، وجمع لها الجموع وأحاط بها وقاتل أهلها ، ولم يلبث نصر أن خرج إليه وفتك بمعظم جنوده وفر على وجهه وغنم منه نصر عسكره وأموالا عظيمة . وتوفى نصر سنة ٤٢٩ وخلفه أخوه ثمال وخضع للفاطميين وتوفى سنة ٤٥٤ . ونشب خلاف بعده على حكم البلدة بين أخيه عطية وبين محمود بن نصر واصطلحا . وتخلص حلب لمحمود منذ سنة ٤٥٧ ، ويواقع الروم ويهزمهم ويراسل ألْب أرْسلان السجلوقى ويستقر بينهما الأمر على إعادة الدعوة العباسية والخضوع للسلاجقة . وفى أيامه قاد ألب أرسلان حملة مظفرة ضد دولة الروم الشرقية وأسر إمبراطورها « روما نوس ديوجين » سنة ٤٦٢ وفدى الإمبراطور نفسه بمليون دينار ، على نحو ما مرَّ بنا فى حديثنا عن السياسة بالعراق فى الجزء السابق من عصر الدول والإمارات . وظل محمود أميرًا لحلب حتى سنة ٤٦٧ وأعاد بها ذكرى الحركة الأدبية التى أحدثها بها سيف الدولة ، فالتف حوله كثير من الأدباء والشعراء ، وخلفه ابنه نصر وكان محبوبا من الحلبيين غير أن الموت اختطفه سريعًا بعد نحو عام من ولايته ، وجاء فى إثره أخوه سابق حتى نهاية سنة ٤٧٢ إذ سلم البلدة لمسلم بن قريش العقيلى صاحب الجزيرة فبقيت معه نحو خمسة أعوام وتسلمها منه السلاجقة .

(جـ) السلاجقة [1]

مر بنا فى حديثنا عن العراق بالجزء الخامس من تاريخ الأدب العربى حديث مفصل عن السلاجقة واستيلائهم على دِفَّة الحكم فى خراسان وإيران والعراق ، وقد أنزل ألْب أرْسلان بإمبراطور بيزنطة هزيمة ساحقة كانت إرهاصا قويا لزوال الحكم البيزنطى من آسيا الصغرى كما حدث فعلا . وكان طبيعيًّا أن يفكر ألب أرسلان وابنه ملكشاه فى الاستيلاء على الشام ، وسرعان ماظهر فى سنة ٤٦٣ أتْسز بن أوق الخوارزمى فى فلسطين واستولى على الرملة وبيت المقدس ، وفى سنة ٤٦٨ استولى على دمشق ، وبذلك أصبح أكثر الشام تابعا للسلاجقة . حتى إذا كانت سنة ٤٧٢ تسلم تُتُش بن ألب أرسلان من أتسز دمشق وأصبح نائبا فيها لأخيه ملكشاه ، وافتتح فى سنة ٤٧٤ أنْطَرْطوس على ساحل البحر المتوسط ، وهى أول أعمال حمص ، ولم يلبث أن استولى على

---

(١) راجع فى سلاجقة الشام كتب التاريخ العام وذيل تاريخ دمشق لابن القلانسى وانظر فى أتسز تاريخ دمشق لابن عساكر ٣٣١/٢ وفى تتش ابن عساكر ٣٤٠/٣ وفيه وفيمن وليها بعده حتى استيلاء نور الدين عليها ابن خلكان ٢٩٥/١

حمص نفسها . وظل ساحل الشام جنوبي صور تابعا لمصر . واستقل جلال الملك بن عمار قاضى طرابلس بها سنة ٤٧٠ وكان قد أقرَّه عليها ملكشاه السلجوقى وظلت معه حتى أخذها الصليبيون سنة ٥٠٢ . وفى هذه الأثناء استولى على بن منقذ من الروم على حصن شَيْزَر شمالى الشام سنة ٤٧٤ وظلت فى يده ويد أبنائه إلى أن هدمتها زلزلة شديدة سنة ٥٥٢ . وكان سليمان بن قُتُلْمش استولى على أنطاكية سنة ٤٧٧ فحاربه تُتُش وخرَّ صريعا فى الحروب سنة ٤٧٩ . وبذلك صارت إلى تُتُش واستولى على حلب سنة ٤٨٧ ، وقُتل بالرى فى حرب مع ابن أخيه بَرْكياروق سنة ٤٨٨ . وخلفه على حلب ابنه رضوان ، ومن نوابه أخذ الصليبيون أنطاكية سنة ٤٩٢ وخلفه على دمشق ابنه دُقاق .

وتوفى دقاق سنة ٤٩٧ فخلفة عليها أتابكه « طُغْتِكين » وأسس بها دولة البوريين وله فى جهاد الصليبيين يد بيضاء وكان شجاعا عادلا فى الرعية توفى سنة ٥٢٢ فخلفه ابنه بورى حتى وفاته سنة ٥٢٦ وكان قد قتل جماعة كثيرة من الإسماعيلية فسلَّطوا عليه رجلين ضرباه بالسكاكين وظلت جراحه تنتقض وتندمل إلى وفاته . وخلفه ابنه إسماعيل ، وكان ظالما سيئ السيرة محبا لسفك الدماء توفى سنة ٥٢٩ وكان أسوأ منه أخوه محمود الذى ولى بعده فقتله أمراؤه سنة ٥٣٣ وخلفه عاما واحدًا أخوه محمد ، وتوفى فخلفه ابنه مجير الدين آبق . وكان باغيا ظالما ، وكان يضع يده فى يد الصليبيين ضد نور الدين صاحب حلب غير مراعٍ إلاًّ ولا عهدا . واستجار منه أهل دمشق مرارًا بنور الدين حتى إذا كانت سنة ٥٤٩ اضطر إلى تسليمها إليه وخرج منها ذليلا صاغرا . وكان تُتُش ولَّى تركمانيا يسمى أرتق بيت المقدس فاستقلَّ به مؤسسا دولة الملوك الأرتقية ، وتوفى سنة ٤٨٤ فخلفه عليها ولداه سُكْمان وإيلغازى ، ومنهما أخذها الأفضل بن بدر الجمالى سنة ٤٩١ وتوجها إلى بلاد الجزيرة وملكا – كما يقول ابن خلكان – ديار بكر .

(د) الصليبيون[1]

كانت الدولة الفاطمية قد أخذت فى التدهور منذ عهد الحاكم بسبب ما غرق الخلفاء الفاطميون فيه من ترف وما أصاب الحياة الاقتصادية من سوء حتى لقد عظمت المجاعة فى عهد المستنصر (٤٢٧ – ٤٨٧ هـ)، وحاول بدر الجمالى أن يتلافى الأمور، فعمل على

(١) انظر فى الصليبيين كتب التاريخ العام لابن الأثير وابن تغرى بردى وابن خلدون وماكتب عنهم حديثا فى العربية واللغات الأجنبية وراجع تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٣٤٥

إصلاحها ، ولكن الشام كانت قد أفلتت منه إلا ساحلها الجنوبى . وكان المظنون أن يرث السلاجقة تلك الدولة المنهارة ، غير أنهم اتبعوا فى حكمهم نظاما سرعان ماضعضع دولتهم إذ اتخذوا فيها نظام الأتابكة ، وهو أن يكون مع كل حاكم لبلد أتابك أو بعبارة أخرى قائد يدير أمرها ، ولم يلبث نفوذ هؤلاء الأتابكة أن ازداد وأصبحوا هم الحكام الحقيقيين . وبذلك تفككت سريعا أوصال دولتهم الضخمة وتحولت إلى دويلات على نحو ما مر بنا آنفا من دولة البوريين فى دمشق والدولة الأرتقية فى بيت المقدس ، حتى إذا قدم الصليبيون فى العقد الأخير من القرن الخامس الهجرى لم يجدوا أمامهم قوة تدفعهم دفعا إلى البحر المتوسط وماوراءه فلا السلجوقيون محتفظون بقوتهم القديمة التى أزالوا بها بيزنطة ودفعوها من آسيا إلى أوربا ولا الفاطميون محتفظون بشىء من القوة يستطيعون أن يدفعوا به عن بلدانهم الساحلية فى الشام هذا الوباء الصليبى الجارف .

ويظهر الجيش الصليبى أمام أسوار أنطاكية سنة ٤٩١ للهجرة ويظل محاصرا لها حتى يستولى عليها سنة ٤٩٢ مؤسسا بها إمارة ، بينما يتسلل بلدوين إلى الرُّها فى سنة ٤٩١ ويستولى عليها دون مقاومة تذكر ويؤسس بها إمارة هى الأخرى . واجتاز الصليبيون جبال النُّصَيْرية محاذين الساحل واستولوا سنة ٤٩٢ على بيت المقدس متخذين منه إمارة ثالثة جعلوا جودفرى رئيسا لها ، ولم يلبث أن رقى عرشها بعده بلدوين الأول وعهدوا إلى الكونت ريمونددى تولوز حصار طرابلس والاستيلاء عليها وظلت تقاومه سنين عددا حتى سقطت سنة ٥٠٢ واتخذوا منها إمارة رابعة لهم . وأخذ بلدوين فى نفس السنة ينشط فى غزو مدن الساحل : عكا وقيسارية وصيداء وبيروت وقاومته مقاومة صلبة . وخلفه أخوه بلدوين الثانى الذى استولى على صور سنة ٥١٨ ولم يفلح فى الاستيلاء على دمشق وظلت أيدى الصليبيين أقصر من أن تصل إلى بلدان الشام الداخلية مثل بعلبك ودمشق وحمص وحماة وحلب .

(هـ) آل[1] زنكى (نور الدين)

لم يلبث أن نبه أتابك عظيم من أتابكة السلجوقيين هو زنكى عماد الدين التركمانى أمير حلب

(١) انظر فى آل زنكى ونور الدين التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية لابن الأثير وكذلك كتابه الكامل والجزء الخامس لابن خلدون والخامس والسادس من النجوم الزاهرة والعاشر من المنتظم والمختصر فى أخبار البشر لأبى الفدا والكواكب الدرية فى السيرة النورية لابن قاضى شهبة (طبع بيروت) وابن خلكان ٣٢٧/٢ ، ١٨٤/٥ .

إلى أن الداء إنما يكمن فى تفرق البلدان الإسلامية المجاورة لحملة الصليب شيعا ودولا ، فصمم أن يجمع قوتها وكلمتها تحت لوائه ، وكان قد ركز لواءه على الموصل أولا ، فضم إليه حلب ومدن شمالى الشام مثل حماة وحمص وبعلبك . ومضى ينازل الصليبيين واستولى منهم على معرَّة النعمان وكفر طاب . ولم يلبث أن ضربهم ضربة قاصمة باستيلائه على مدينة الرُّها سنة ٥٣٩ للهجرة . وبذلك محا عار هذه الإمارة التى أقامها الصليبيون فى بلب الدولة السلجوقية . ولم تكد تمضى سنتان على ماحقق من هذا المجد البطولى حتى عمتدت إلى جثمانه الطاهر أيد آثمة فى الظلام سفكت دمه الزكى .

وكان قد أوصى عماد الدين زنكى لابنه غازى بالموصل ولابنه نور الدين محمود بحلب ، واقتفى البطل الشاب نور الدين جهاد أبيه للصليبيين ، ونازلهم توًّا سنة ٥٤٢ وأخذ منهم حصن أرتاح من أعمال حلب ، وأبطل فى إمارته أذان الدولة الفاطمية بحىَّ على خير العمل . وفى سنة ٥٤٤ هزم حَملة الصليب هزيمة ساحقة إذ قتل منهم ألفًا وخمسمائة وفتح حصن فاميَة ، واستولى على دمشق سنة ٥٤٩ كما مر بنا . وفى سنة ٥٥٢ ملك حصن شَيْزر بعد أن نقضه زلزال شديد . وفى سنة ٥٦٠ فتح بانياس عنوة . وكان بعيد النظر بعدا جعله يرى أن المفتاح الحقيقى للنصر على حَملة الصليب هو مصر بإمكاناتها فى المال والرجال ولكن ماذا يصنع وبها دولة منهارة ، وأحسَّ أن حملة الصليب يشعرون أنها لقمة سائغة وخاف عليها منهم خوفا شديدا . ولم تلبث أن واتته فرصة عظيمة فإن وزيريها ضرغاما وشاوَر تحاربا ، ولجأ إليه شاور مستغيثا ، فأنجده بأميرين أيوبيين : شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، ويحدثهما بما فى نفسه من تخليص مصر من دولتها المريضة . وتتطور الظروف وتصبح مصر خالصة لصلاح الدين ويؤسس بها الدولة الأيوبية ومؤسسها الحقيقى ومنشئها إنما هو نور الدين. وكان مابنى ينازل حملة الصليب، وفتح حصون «مرعش وإعزاز وحارم» وغير ذلك مما تزيد عدته على خمسين حصنا. وكان ملكا عادلا عابدا زاهدا ورعًا، بنى كثيرا من المدارس فى بلدان الشام الكبار وكثيرا من الجوامع وبيمارستان دمشق وبها توفى سنة ٥٦٩ وخلفه ابنه وكان صبيا وبقى على حلب حتى توفى سنة ٥٧٧ ودخلت فى حوزة صلاح الدين وحكمه.

٣

الأيوبيون (صلاح الدين) – المماليك – العثمانيون

(١) الأيوبيون[1] (صلاح الدين)

استقرت أمور الحكم وشئون الدولة فى مصر بيد صلاح الدين سنة ٥٦٧ للهجرة ، فعاد بمصر إلى الخلافة العباسية ، وسار فى نفس السنة لحرب حملة الصليب فحاصر الشوبك ورفع الحصار عنها ، وعاد إليها فى السنة التالية ثم تركها إلى مصر . وتوفى نور الدين كما ذكرنا وأخذ يفكر جادا فى جمع كلمة البلدان المجاورة للصليبيين حتى يقضى عليهم قضاء مبرما . وخرج من مصر فى سنة ٥٧٠ فاستولى على حمص وحماة والمعرة وكفرطاب ، ويولّى على حماة أخاه تقى الدين وعلى بعلبك ابن أخيه فَرُّخشاه ويستولى على منبج وإعزاز ويواقع الصيلبيين فى السنوات : ٥٧٣ و٥٧٤ و٥٧٥ وينصره الله عليهم نصرا عظيما . ويستولى على الموصل ، وتبلغه وفاة إسماعيل بن نور الدين . ويخرج إلى الشام سنة ٥٧٨ فى جيش جرار لجهاد حملة الصليب ، وهى آخر مرة يفارق فيها مصر لحربهم ويظل ينازلهم عشر سنوات طوالا ، وتتبعه حلب ويولى عليها ابنه الملك الظاهر . وفى سنة ٥٨٢ يقسم البلاد بين أبنائه وأهله فيعطى مصر ابنه العزيز عثمان وكان قد أعطى الظاهر حلب ، ويعطى للأفضل ابنه دمشق ويعطى حماة والمعرة ومنبج لابن أخيه تقى الدين عمر ، وسيتوالى هذا التوزيع . وهو من أكبر أغلاط صلاح الدين فإن بساطا قد يتسع لنوم عشرة من الرجال ولكن مملكة ضخمة لاتتسع لسلطان حاكمين ، ولذلك لم تكد تمضى سنة على وفاته حتى دب الخلاف بين أبنائه ثم بين أمراء أسرته . ويَغْفِر له ذلك بلاؤه العظيم فى حرب حملة الصليب المعتدين .

ويقود صلاح الدين فى سنة ٥٨٣ جحافل جرّارة ويتجه بها نحو طبرية ، وتتجمع له حشود الصليبيين بقيادة جاى لوزيجنان ملك بيت المقدس وتلتقى سريَّة له فى حيفا بجماعة من الداوّية والإسْبِتارية الذين نذروا أنفسهم لحرب المسلمين فلا تبقى منهم باقية ، ويلتقى الجمعان فى سهل حطّين إلى الغرب من بحيرة طبرية ، وتُدَقُّ أعناق حَملة الصليب دقا شديدا ويفرّ على وجهه ريموند

---

(١) انظر فى الأيوبيين وصلاح الدين كتب التاريخ العام: ابن الأثير وابن خلدون وخطط المقريزى ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزى، ومفرج الكروب لابن واصل والروضتين وذيل الروضتين لأبى شامة والفيح القسى فى الفتح القدسى والبرق الشامى للعماد الأصبهانى وسيرة صلاح الدين لابن شداد، وابن خلكان فى تراجم صلاح الدين وسلاطين الدولة الأيوبية. وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٣٥٠ عدا ماكتب عن صلاح الدين فى العربية حديثا وفى اللغات الأجنبية.

صاحب طرابلس ويستولى المسلمون على الصليب الأعظم صليب الصلبوت ، ويؤسر ملك بيت المقدس وغيره من زعمائهم أمثال مقدم الداوية وريجنالد صاحب الكرَك وكان قد أعدَّ أسطولا وحاول غزو مكة والمدينة فقتله صلاح الدين بنفسه وعفا عن الباقين. وبلغ من كثرة القتلى والأسرى أن قال أبو شامة: «من شاهد القتلى قال: ما هناك أسير، ومن شاهد الأسرى قال: ما هناك قتيل» ومما يدل على كثرة أسراهم أن الأسير منهم كان يباع بثلاثة دنانير.

وحاصر صلاح الدين بيت المقدس بعد نحو ثلاثة أشهر ، واستسلم له من فيه من حملة الصليب وأُزيلت كل آثارهم من القدس ، وفتحت البلدان والقلاع فى فلسطين وجنوبى لبنان أبوابها للبطل العظيم ، فاستولى على نابلس وحيفا وعكا وبيروت وصيداء والرملة وبيت جبريل (بئر سبع) وعسقلان وغزة وصَفد والكرَك والشوبك واللاذقية . وأحيا سقوط القدس فى يد صلاح الدين فكرة الحرب الصليبية من جديد ، فحمل الصليبَ فردريك الأول إمبراطور ألمانيا وفيليب ملك فرنسا وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا وحاصر الأخيران عكا وسقطت فى أيديهما وعاد فيليب إلى فرنسا وظل ريتشارد يقود الجيوش الصليبية حتى سنة ٥٨٨ وعقد صلحا مع صلاح الدين لمدة ثلاث سنوات وثلاثة أشهر على أن تظل لحملة الصليب المدن الساحلية من صور إلى يافا . وبعد نحو ستة أشهر توفِّى صلاح الدين بدمشق وبكاه المسلمون بدموع غزار فى كل مكان . وكان صلاح الدين عادلا ورعا عالما تقيا ، حطَّ عن ظهور أهل الشام ما كان يبهظهم من الضرائب وملأها بالمدارس والخانقاهات والبيمارستانات وكانت سماحته ونبله فى معاملة حَملة الصليب مضرب الأمثال ، وكان إلى ذلك بطلا مغوارا وغيثًا مدرارا .

وذكرنا آنفا أنه قسم البلاد بين أبنائه وأهل بيته ، فكانت دمشق للأفضل ومصر للعزيز وحلب للظاهر ، والديار الفراتية لأخيه العادل وبعلبك لبهرام شاه وحمص لشيركوه الثانى . وكان ذلك نذير شؤم فإن العادل أخذ يحرِّض أبناء صلاح الدين بعضهم على بعض واستطاع التخلص منهم ، وخلصت له البلاد من مصر إلى الفرات منذ سنة ٥٩٦ ماعدا حلب فإنها ظلت مع الظاهر وأبنائه حتى الغزو المغولى . وصنع صنيع أخيه فجعل مصر للسلطان الكامل ودمشق للسلطان المعظم والجزيرة الفراتية لثلاثة من أولاده على التعاقب هم الأوحد والفائز والأشرف موسى . ويغزو حملة الصليب مصر فى سنتى ٦٠٩ و٦١٥ وينكل بهم السلطان الكامل على نحو ماصورنا ذلك فى قسم مصر . وتمضى إلى سنة ٦٢٦ وإذا فردريك الثانى ملك صقلية يأتى على رأس حملة إلى فلسطين

وتصادف أن كان الكامل مشغولا بصراع مع داود ابن أخيه المعظم عيسى صاحب دمشق فارتضى أن يتنازل لفردريك عن القدس فى مقابل عونه له ضد ابن أخيه وكان قد استعان بأخيه الملك الأشرف موسى ضده أيضا وحاصراه وتسلما منه دمشق وأعطاها الكامل لأخيه وعوض داود الشوبك بدلا منها .

وبمجرد أن تسلم فردريك القدس قامت قيامة الناس فلم يقم بها سوى ليلتين وعاد إلى يافا مذموما مدحورا . وتوفى الأشرف موسى صاحب دمشق سنة ٦٣٥ ولم يلبث أخوه الكامل أن توفى على أثره فى نفس السنة بدمشق ، وكان ابنه الأكبر الملك الصالح نجم الدين أيوب نائبا له على الشرق وإقليم ديار بكر ، وكان ابنه العادل الصغير نائبا له على مصر فرأى أمراؤه أن يضيفوا إليه ملك الشام ، ولم يُرْضِ ذلك الملك الصالح فنحّى أخاه فى سنة ٦٣٧ عن ملك مصر وانتهز عمه إسماعيل صاحب بعلبك الفرصة واستولى فى نفس السنة على دمشق ونشب صراع بينه وبين الملك الصالح واستعان ضده بحملة الصليب وعقد بينه وبينهم تحالفا أثار سخط العالم الإسلامى ، وهزم الملك الصالح الحليفين فى غزة سنة ٦٤٣ ودخلت دمشق فى حوزته .

وبذلك أعاد الملك الصالح توحيد مملكة صلاح الدين من النيل إلى الفرات ، ولم ينعم بذلك طويلا إذ نزل به مرض شديد سنة ٦٤٧ وكان بدمشق وسمع بنزول لويس التاسع بدمياط ، فأسرع لمنازلته وهو مريض محمول على محفَّة لشدة مرضه ، واتجه توًّا للقاء العدو بالمنصورة شمالى الدلتا فى الطريق إلى دمياط ، وهناك لبّى نداء ربه مجاهدا مدافعا عن الإسلام والمسلمين . وكتمت زوجته شجرة الدر موته حتى قدم ابنه المعظم توران شاه من الجزيرة وأدار المعركة ضد لويس – كما مر بنا فى قسم مصر – وسحق جيشه سحقا ذريعا ، وكبله بالسلاسل والأغلال ، إلى أن فدا نفسه وخرج من مصر . وسوَّلت له شياطينه أن يذهب إلى حملة الصليب فى الساحل الشامى لعله يسترد كرامته التى أُهدرت بمصر وبقى بين حملة الصليب نحو أربع سنوات لم تسفر عن شىء ، فعاد إلى فرنسا كاسفا مقهورًا . أما توران شاه فجزاه مماليك أبيه جزاء سنمار إذ سفكوا دمه الطاهر . ورقيت إلى العرش شجرة الدر ثم تنازلت عنه للمعز أيبك مملوك أبيه فأسس دولة المماليك . أما دمشق فاستولى عليها الناصر يوسف الأيوبى صاحب حلب . وكان آخر من حكمها من الأيوبيين .

(ب) المماليك[1]

تأسست فى مصر بعد مقتل توران شاه سنة ٦٤٨ دولة المماليك ، وعدّهم الحكام الأيوبيون فى الشام مغتصبين للحكم من أصحابه الشرعيين ، وأعدوا بزعامة الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب جيشا لحربهم ، ولقيه المعز أيبك التركمانى فى غزة سنة ٦٤٨ وهزمه . وظلت العلاقات سيئة بين الطرفين حتى أصلح الخليفة العباسى بينهما لسنة ٦٥١ على أن يكون للمماليك نهر الأردن ونابلس والقدس وغزة والساحل ، وللأيوبيين بقية الشام ، وقد دفعهما إلى هذا الصلح اشتداد خطر التتار . وحاول الناصر يوسف أن يسترضى قائد هذا الوباء هولاكو سنة ٦٥٥ فأرسل إليه بهدية ، ولم يلبث هولاكو أن اندفع بسيول التتار إلى بغداد سنة ٦٥٦ فأجرى الدماء فيها أنهارا وخرّبها وأحالها أنقاضا ، ودخل هولاكو فى السنة التالية ديار بكر ومَلَك حرّان وبلاد الجزيرة ، وتحقق الناصر أنه سيقصد حلب فتركها إلى شمالى دمشق ، وفى شهر صفر سنة ٦٥٨ استولى التتار على حلب معملين فيها النهب والسلب ، وتقدموا فى ربيع الأول إلى دمشق واستولوا عليها ، وفرّ الناصر يوسف وأسره التتار ، وبقى معهم فى ذلّ وهوان مابعده هوان .

ومضى التتار يتقدمون فى ديار الشام حتى عين جالوت بين نابلس وبيسان ، وإذا الموت والتشريد ينتظرهم على يد المصريين والبطلين العظيمين المملوكين : قطز سلطان مصر والظاهر بيبرس قائده ، وقد أحدقوا بهم ونازلوهم حتى أفنوهم قتلا . وتبع بيبرس فلولهم إلى حلب وأطراف الشام . وأصبحت جميع الديار الشامية فى قبضة المماليك ماعدا حماة فإن أميرها الأيوبى الملك المنصور ناصر الدين محمد سليل عمر بن شاهنشاه كان قد وضع يده فى يد قطز وبيبرس فى حربهما للتتار وظل على حماة حتى سنة ٦٨٣ وولاها قلاوون ابنه تقى الدين واستولى عليها الناصر بن قلاوون سنة ٦٩٨ ثم ردها إلى الملك الصالح المؤيد أبى الفدا إسماعيل سنة ٧١٠ وظلت معه حتى سنة ٧٣٢ ووليها بعده ابنه الأفضل ثم أصبحت للمماليك يولون عليها من يشاءون مثلها مثل بقية بلدان الشام .

وعُنى الظاهر بيبرس حين أصبحت مقاليد الأمور بيده منذ سنة ٦٥٩ بالإعداد لحرب من تبقى من حملة الصليب فى ساحل الشام وأخذ يغير عليهم وينازلهم ، حتى إذا دخلت سنة ٦٦٤ خرج

---

(١) انظر فى المماليك النجوم الزاهرة وغيره من كتب التاريخ العام والسلوك للمقريزى والمختصر فى أخبار البشر لأبى الفدا والبداية والنهاية وبدائع الزهور لابن إياس وتاريخ الدول والملوك لابن الفرات وسيرة الملك المنصور (قلاوون) طبع القاهرة والتبر المسبوك فى ذيل السلوك للسخاوى وآخرة المماليك لابن زنبل وبروكلمان ص ٣٦٥.

إليهم على رأس جيش جرار واستولى على قَيْسارية ويافا وأرسوف وكان بها حامية من الإسْبتارية الذين نذروا أنفسهم لحرب المسلمين . وفى العام التالى استولى على صَفد وتِبْنين والرملة فى فلسطين . وتوالى هجومه عليهم واستولى على الشّقيف وطبريَّة وبَغْراس والقُصَيْر وحصن الأكراد والقرين من حصون صفد وكان به حامية من الفرسان التيوتون . وأعظم أمجاده الحربية ضد حملة الصليب أخْذُه أنطاكية سنة ٦٦٧ ويقال إن أسراها بلغوا مائة ألف وأن الغلام من أهلها كان يباع باثنى عشر درهما والجارية بخمسة . والمهم أنه محا هذه الولاية التى أقامها حملة الصليب فى أول دخولهم للشام . وبدا فى الأفق من حينئذ أن خروج حملة الصليب نهائيا من الشام أصبح قاب قوسين أو أدنى ، وقد استولى منهم قلاوون فى سنة ٦٨٦ على اللاذقية ولم يلبث ان استولى على طرابلس فى سنة ٦٨٨ وبذلك أزال آخر إمارة أو ولاية لحملة الصليب ، وسرعان ماسلمت بيروت وجبلة . حتى إذا تولّى بعده ابنه السلطان خليل جهز جيشا ضخما للاستيلاء على عكا واستولى عليها سنة ٦٩٠ وتبعتها صورو صيداء وحيفا وأَنْطَرْطوس ، وخرج من بقى من الصليبيين إلى البحر المتوسط وما وراءه يحملون الذل والضعة والهوان والصغار .

وقد قسم المماليك الشام إلى ست نيابات كبرى هى : دمشق وحلب وحماة فى سوريا وطرابلس فى لبنان وصفد فى فلسطين والكرك فى شرقىّ الأردن . وكانت دمشق أهم هذه النيابات ، وكان حاكمها يعد نائب السلطان المملوكى فى الشام مما أتاح له مكانة خاصة . وجعل نفرا منهم غير قليل يطمح إلى أن يكون هو السلطان التالى للسلطان القائم بمصر ، ولعل ذلك ماجعل سلاطين مصر يكثرون من عزلهم ، حتى ليتولى دمشق فى زمنهم الذى امتد نحو مائتين وخمسة وسبعين عاما أربعة وسبعون نائبا . وقد درسهم (ڤييت) وتبين له كما ذكر فى كتابه مساجد القاهرة ص ٥٦ : أن اثنين منهم هما لاجين (٦٩٦-٦٩٨) والمؤيد شيخ (٨١٥-٨٢٤هـ) رقيا إلى السلطنة ، وسبعة وعشرين منهم ثاروا على السلطان فرّ منهم خارج الحدود اثنان وسجن خمسة وأعدم خمسة وعُفى عن خمسة . وكان لنائب دمشق من الدواوين مثل مالسلطان مصر وكثيرا ما كان ينقل رئيس ديوان فى القاهرة إلى دمشق وبالعكس ، وكثر ذلك فى كتّاب السر والإنشاء . وبذلك كله كانت دمشق تعد المدينة الثانية فى دولة المماليك مما عاد عليها بغير قليل من الازدهار . وأمر الظاهر بيبرس فى سنة ٦٦٣ أن يتولى القضاء أربعة يمثلون مذاهب أبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل وعمَّ ذلك فى دمشق والمدن الكبرى بمملكته فى مصر والشام . وظل هذا النظام قائما طوال زمن المماليك .

وظل التتار يئنُّون من عار الهزيمة الفاضحة فى عَيْن جالوت ، وظلوا يحاولون غسل هذا ا
بغارات فاشلة على أطراف الشام ، وكَسَرتْهم جيوش الظاهر بيبرس مرارا ، من ذلك كَسْرتهم
حمص سنة ٦٥٩ ، وأغاروا على إلبيرة سنة ٦٦٤ وعلموا بتحرك بيبرس فولوا مدبرين . وفى
٦٦٨ أغاروا على نهير الساجور بمنبج ، وسرعان ما انهزموا ، وعاودوا الهجوم على عِيْنتاب وحـ
سنة ٦٧٠ وساعدهم حملة الصليب فحاقت بهم الهزيمة جميعا . وظلوا يعاودون المناوشة وهاجـ
إلبيرة فى سنة ٦٧١ وأشرفوا على أخذها فعبر إليهم الظاهر الفرات وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وتـ
الشعراء طويلاً بهذا النصر المبين ، ونكل بهم فى سنة ٦٧٥ تنكيلا شديدا . وظل التتار يعاود
هذه الغارات والمناوشات فى عهد قلاوون ويبوءون منها بالهزيمة ، وقد استولى منهم ابنه السلـ
خليل على قلعة الروم غربى الفرات سنة ٦٩٢ . وتولى شئون التتار غازان وكان قد دخل فى الإسـ
مع جنوده . ومع ذلك أعد فى سنة ٦٩٩ حملة لغزو الشام ولقيه محمد الناصر بن قلاوون
حمص وحماة ودارت الدوائر على الناصر ، واستولى جيش غازان على دمشق وغيرها من مـ
الشام وعاثوا فيها فسادا . وعاد الناصر إلى مصر وجهز جيشا جرارا التقى به مع التتار قرب دمـ
سنة ٧٠٢ وسحقهم سحقا ذريعا ، بحيث لم يعودوا يفكرون فى غزو الشام وإن هم فكروا ارتـ
إلى صوابهم سريعا .

ونمضى إلى سنة ٨٠٣ فيقدم تيمورلنك بجموعه غازيًا الشام ، ويلقاه جيش المماليك ، فيهـ
ويقتحم حلب ويُعْمِلُ فيها السيف والسلب والنهب ، ويتقدم إلى دمشق وينزل بالسلطان فرج
طريقه إليها هزيمة نكراء . وترضى دمشق بالتسليم وينهبها جنوده التتار ويشعلون فيها النيران وتأ
على جامعها الأموى وعلى كثير من آثارها ، ويقتلون مالا يكاد يحصى منْ أهلها نساء ورجـ
وأطفالا : كارثة لم يُصب دمشق مثيلٌ لها لا من قبل ولا من بعد . وضاعفها أن تيمور جمع رجـ
الفن والهندسة والمعمار وصناع الزجاج والصلب وأخذهم معه إلى عاصمته سمرقند .

وتتحدث كتب التاريخ عن ثورات وفتن حدثت فى الشام لعهد المماليك ، غير أن أكثرها إنْ
تكن كلها ، إنما كانت صراعا على السلطة بين السلاطين ونوابهم فى الشام . ومن هذا الصر
ماحدث من تحول الملك من المماليك البحرية إلى المماليك البرجية الجراكسة على يد بَرْقوق سـ
٧٨٤ . وقد عانت الشام – كما عانت مصر – منْ النزاع المستمر بين أمراء المماليك ، حتى كا
يقتتلون كل مع أنصاره فى شوارع دمشق والقاهرة . وكثر ذلك فى القرن الأخير من حكـ

المماليك ، وأخذت دولتهم فى الضعف تدريجا حتى لفظت أنفاسها الأخيرة فى معاركها مع السلطان سليم العثمانى على أبواب الشام فى مَرْج دابق .

(جـ) العثمانيون[1]

قضى سليم الأول العثمانى على دولة المماليك فى الشام ومصر بعد هزيمته لقانصوه الغورى فى موقعة مرج دابق سنة ٩٢٢ للهجرة. وبعد أربعة أيام من الموقعة دخل حلب ولقيه أهلها بترحاب شديد وأوقدوا له الشموع وتعالت أصواتهم له بالدعاء، وخطبوا له على منابرها. وفتحت له مدن الشام أبوابها، فاستولى على دمشق وقصده فيها أمراء لبنان وخاصة من بنى مَعْن الدروز النازلين بجبالها مما جعل سليما ومن خلفوه من سلاطين آل عثمان يعترفون لهم بالإمارة فى لبنان. ومضى سليم يستولى على بقية مدن الشام. وفتح مصر وظل بها ثمانية أشهر وعاد منها إلى دمشق، ورأى بوضوح تدهور الأوضاع الاقتصادية فى تلك الديار بسبب اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح والنفوذ منه إلى الهند ونقل توابلها وتجاراتها منه مما أضر إضرارا شديدا بطريق البضاعة الهندية القديم خلال حلب والشام. وكانت حروب الصليبيين والتتار التى حوَّلت الشام إلى ساحة حرب كبيرة لمدة قرنين من الزمان قد أحالت أجزاء كثيرة من مدنها إلى خرائب وخاصة مدن الساحل. وكأنما توسَّم أهل الشام أن العثمانيين سيعيدون إلى طريق التجارة الهندية ازدهاره الماضى، ولذلك رحبوا بسليم والعثمانيين، وتلاشى هذا الحلم مع الأيام. وكان قد فرَّ إلى سليم من المماليك مملوك خائن هو الغزالى الذين زين له فتح الشام ومصر فكافأه بتوليته على الشام ما عدا حلب إذ جعلها لبعض الباشوات العثمانيين. وبمجرد أن توفى سليم الأول سنة ٩٢٦ أعلن الغزالى استقلاله بالشام ولقب نفسه بالملك الأشرف، وسرعان ما هزمته الجيوش العثمانية وخرَّ صريعا عند أبواب دمشق. ورأى العثمانيون أن تتوزع الشام ثلاث نيابات على رأس كل نيابة باشا: أولاها نيابة حلب وتشمل سوريا الشمالية، وثانيتها نيابة طرابلس وتشمل أربعة سناجق أو ألوية هى: حمص وحماة وسلمية وجبلة، وثالثتها نيابة دمشق وتشمل عشرة سناجق أهمها بيروت وصيداء ونابلس وبيت المقدس وغزة. وفى سنة ١٠٧٣ خصوا صيداء بنيابة مستقلة تشمل ساحل الشام ماعدا نيابة طرابلس فى لبنان.

(١) انظر فى العثمانيين بالشام بدائع الزهور لابن إياس، وآخرة المماليك لابن زنبل وتاريخ الجبرتى والخطط التوفيقية لعلى مبارك والبلاد العربية والدولة العثمانية لساطع الحصرى، ومقدمة تاريخ العرب الحديث لعبدالكريم غرايبة وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص٤٤٨، وتاريخ العرب (مطول) لفيليب حتى.

وكان يساعد الوالى فى الإدارة ديوانان : ديوان كبير مؤلف من السردار أو رئيس العسكر والدفتردار أو مدير الخزانه والروزنامجى أو حافظ السجلات وقاضى القضاة وأمير الحج ورؤساء المذاهب الفقهية الأربعة . ويجانب هذا الديوان ديوان صغير خاص بنائب الوالى ومعه دفتردار وروزنامجى .. ومُنح أصحاب السناجق أو الألوية لقب بك . وكثير من الولاة كانوا يختارون من الإنكشارية وهم شبّان أوربيون من أجناس مختلفة كانوا يُرَبَّوْنَ تربية إسلامية عسكرية ، وكان هم الوالى منهم أن يجمع لنفسه فى مدة ولايته القليلة مايستطيع من الأموال مما جعلهم يرهقون أهل المدن بالضرائب ، وقلما كان حكم الوالى يتجاوز المدينة وضواحيها . أما داخل البلاد فقد تُرك للإقطاعيين من سكان الشام ومَنْ وراءهم من بدو الجزيرة ، وكان عددهم قد تزايد زيادة كبيرة منذ زمن المماليك ، وكان أكثرهم من الدروز مثل آل معن وآل أرسلان والشهابيين ومن التركمانيين مثل آل عساف ومن البدو مثل آل فضل . وفى كل مكان نجد هؤلاء الإقطاعيين مثل آل حرفوش ببعلبك وآل فريح فى البقاع وآل جبار فى سلمية ، ولم يكونوا يؤدون للعثمانيين أو الباب العالى إلا ضرائب محدودة ، وخاصة أن الموارد كانت قد تضاءلت إذ تدهورت التجارة وتدهورت أيضا الزراعة . ويدل على فساد الحكم العثمانى واضطرابه فى الشام كثرة من كانوا يولّون ويعزلون من الولاة ، حتى ليولّى على دمشق فى مائة وثمانين عاما مائة وثلاثة وثلاثون باشا أو واليا ، مما جعل فخر الدين من آل معن الدروز (٩٩٠-١٠٢٣هـ) يسيطر على أكثر أرجاء الشام من أنطاكية إلى صفد لنحو نصف قرن ، وأذن لفلورنسا بإقامة قنصلية لها فى بلاده ولم ير بأسا من الإذن لفرنسا بفتح فندق فى صيداء وأذن للمبشرين المسيحيين بالتبشير بين المسلمين والدّروز . وتنبهت له أخيرا الدولة العثمانية فأرسلت إليه جيشا لتأديبه ففر من البلاد راكبا البحر إلى صديقه فرديناند أمير توسكانيا . ونمضى إلى سنة ١١٦٤ هـ/١٧٥٠ م فيبسط ضاهر العمر صاحب صَفد سلطانه على عكا ويعلن استقلاله وعصيانه للباب العالى بفضل معونة على بك الكبير المملوك المشهور أيضا بعصيانه للعثمانيين ومحاولته الاستقلال عنهم بمصر . ويحاصر العثمانيون ضاهر العمر وتدركه المنية سنة ١١٨٩هـ/١٧٧٥م . ويليها بعده أحمد الجزار ويلعب دورا شبيها بدور ضاهر العمر ويحصّن عكا . وعبثا يستطيع نابليون فتحها ويضطر إلى رفع حصاره عنها بعد ثلاثة أشهر ، إذ باء حصاره لها بالإخفاق الذريع سنة ١٢١٣ هـ/١٧٩٩ م . وكانت الأحوال الاقتصادية فى الشام تتردّى من سيئ إلى أسوأ طوال الحكم العثمانى ، وظل كابوسه جاثما على صدر البلاد طوال القرن التاسع عشر الميلادى بل طوال شطر كبير من العصر الحديث .

المجتمع [1]

حين دخل العرب الشام وجدوا فيها أخلاطًا من أجناس شتى لموقعها على أبواب آسيا الغربية وفى قلب الشرق القديم ولكثرة من نزلوها من الكنعانيين الفينيقيين ومن الفلسطينيين الأوربيين القدماء وكثرة المهاجرين إليها من البابليين والكلدانيين والحيثيين والآشوريين والآراميين والعبرانيين واليونانيين والرومانيين ومن العرب أنفسهم : الغساسنة وغير الغساسنة . وهذا الخليط من الاجناس فى الشام ربما هو الذى هيأها من قديم لأن تكثر فيها الدويلات والمدن المستقلة بعضها عن بعض .

وأخذ الإسلام سريعا يضم هذا الشتات الجنسى فى وحدة سياسية ، بل سرعان ما أصبح لواء الشام يضم العالم الإسلامى جميعه فى وحدة عربية منذ رقى إلى عرش الخلافة معاوية مؤسس الدولة الأموية ، إذ اتخذ دمشق حاضرة لهذا العالم ، واتخذ من أهلها عونه فى الحكم وإدارة دَفَّة الأمور فى هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف . وبذلك كانت كنوز هذه الإمبراطورية تتدفق إلى دمشق والشام وعاش أهلها طوال العصر الأموى فى رخاء لم يبلغه هذا الاقليم فى أى عصر من عصوره .

ومر بنا وصف سريع لجغرافيتها وأنها كثيرة الأنهار والوديان والعيون والزروع ، ومن قديم تنتج العنب والفواكه وصنوف النُّقْل من فستق وغير فستق إلى ماتنتج من قمح وغير قمح . ومن قديم أيضا عُنى أهلها بالصناعات : صناعات الخزف الملون والخشب المحفور أثاثا وغير أثاث والمعادن والأسلحة سيوفا وغير سيوف والزجاج الملون والقاشانى ونقش الفولاذ بالذهب والفضة ونسج الأقمشة والعمارة .

وحياة الشام بذلك كانت تقوم على إتقان كثير من الصناعات والزروع ، وأيضا على المهارة فى التجارة ، وكانت نافذة كبرى لتبادل تجارات آسيا وأوربا من قديم ، وظلت تجاراتها تكوِّن مصدرا أساسيًّا لثروتها فى عهد الفينيقيين وبعدهم حتى احتلال العثمانيين لديارها ، فقد كانت من أعتق

(١) انظر فى مجتمع الشام كتب التاريخ العام وفتوح البلدان للبلاذرى وأدب الكتاب للصولى وذيل تاريخ دمشق لابن القلانسى وثمرات الأوراق لابن حجة الحموى والجباية فى الشام لمحمد كرد على فى الجزء الأول من محاضرات المجمع العلمى العربى بدمشق .

الأزمنة إلى نهاية زمن المماليك الباب الكبير لمرور توابل الهند وعُروض آسيا إلى الغرب . ومهر أ
فى التجارة ومعرفة أسرارها والقدرة على إغراء الأسواق التجارية ومعرفة متطلباتها من لُبان جـ
الجزيرة العربية ونباتات العطور والعقاقير ، مما أتاح لكثير من تجارها على مر الأزمنة الثراء الطا

وتحفُّ الشامَ فى الشرق بوادى الجزيرة العربية ، وكان لذلك أثره البعيد فى تكوين سـ
فأكثرهم نزحوا إليها قديما من الجزيرة على نحو ماهو معروف عن الكنعانيين والآراميين والعبرانيـ
وقد ظلت أبوابها الشرقية مفتوحة على مصاريعها لبدو الجزيرة ، مما جعل الغساسنة يقيمون
الحدود بينها وبين الجزيرة دولتهم الغسانية . ولايقفون هم ومن كانوا وراءهم من البدو عند الـ
بل يتغلغلون إلى داخل الشام ، حتى ليمكن أن يقال إنه قد أخذ فى التعرب قبل الإسلام . ـ
بدو الجزيرة طوال الأزمنة الإسلامية يكوِّنون شطرا مهما فى سكان الشام ، وكان الشطر الثا
وهو الأكبر ، متحضرًا ويقيم فى المدن . وبذلك كان سكان الشام يتقسمون طوال الـ
الإسلامية إلى بدو وحضر . وكان البدو يعتمدون على الأغنام والأنعام ، بينما كان الحضر يعتمـ
على الزراعة والصناعة والتجارة . وكان حكام مصر والشام يقرِّبون زعماء البدو ، ولكى يـد
عن الشام شرهم كانوا أحيانا يُقْطعونهم بعض مدن فلسطين على نحو ما هو معروف من إ
الفاطميين للمفرِّج بن دغفل مدينة الرَّمْلة .

على كل حال كان اعتماد الشام فى حياتها الاقتصادية طوال الحقب الإسلامية على ـ
الحضر ومايؤدونه للدولة من الخراج والعشور والجوالى أو الجزية ، وكانت ضريبة محدودة
زادت عن دينارين ، وكانت تؤخذ من أهل الكتاب : النصارى واليهود نظير عدم انتظامهـ
الجيش العربى . وهى بذلك كانت ضريبة دفاع ولم تكن تؤخذ إلا من القادرين ، أما ا
والأطفال والشيوخ والقساوسة والرهبان فلا تؤخذ منهم البتَّة .

وحين عقد عمر بن الخطاب مؤتمر الجابية سنة ١٦ للهجرة أوصى عماله أن يرفقوا بالرعيـ
تؤدى من ضرائب للدولة ، وبلغ خراج الشام على عهده — كما يقول الصولى — خمسمائة
دينار . وبمجرد أن أصبحت الخلافة خالصة لمعاوية جعل خراج كل من دمشق وقنسرين أر
وخمسين ألف دينار ، وخراج كل من فلسطين والأردن مائة وثمانين ألفا . وأخذ يهب ـ
أصفيائه إقطاعات واسعة ، وتارة يكون الإقطاع إقطاع تمليك ، وتارة يكون إقطاع استـ
وكان عثمان بن عفان أول من سنَّ هذه السنة فى الإسلام .

وجاءت معاوية كنوز الأرض فكان يكثر من توزيعها على الشخصيات المهمة فى قو

والأنصار وعلى زعماء القبائل فى الجزيرة العربية والعراق ، وعُنى عناية واسعة بأبهته ونفقاته . وبنى لنفسه دارًا كبيرة فى دمشق سماها « الخضراء » ودورا أخرى فى مكة ، وسنَّ للخلفاء الأمويين من بعده البذخ . ويُرْوَى أنه كان يستقبل من عماله هدايا العيدين الفارسيين : عيد النَّيْروز وعيد المهرجان ، ولابد أن كانت تقدم له الهدايا فى أعياد النصارى لما انعقد بينه وبينهم من علاقة وثيقة ، ولما منحهم من الإشراف على الشئون الما للدولة ، وخاصة سرجيوس وأسرته ، وأيضا لابد أن كانت تقدم ل الهدايا فى الأعياد الإسلامية .

ويبدو أن الدولة ظلت تنعم برخاء واسع بعد معاوية ، مما دفع الوليد بن عبدالملك إلى تشييد الجامع الأموى بصورة هندسية بالغة الفخامة فى زخرفته وتصويره ، وقد استقدم —كما مرَّ بنا— لصنع الفُسَيْفساء فى جُدره وفصوصه اثنى عشر ألف عامل من بيزنطة ، غير من استقدمهم فى تشييده ونقشه من مصر وفارس ، وقد مُثِّلت فيه أشجار وفرِّعت أغصان منظومة بالفصوص المذهبة ، ويقال إنه أنفق فيه خراج الشام سنتين وكان خراجها على عهده مليون دينار ومائتى ألف ، وفى رواية أنه أنفق عليه أحد عشر مليونا من الدنانير ومائتى ألف . وعُدَّ الجامع عجيبة من عجائب الدنيا ، وبه حظيت دمشق بمجد وشهرة عظيمين . ويبدو أن الوليد زاد ، بسبب هذه النفقة الباهظة على جامعه ، الضرائب على أهل الشام ، أو لعل أخاه سليمان الذى خلفه هو الذى صنع ذلك . ويخلفه عمر بن عبدالعزيز فيأمر عماله أن يأخذوا أهل الكتاب من النصارى واليهود بالرفق وأن تُمْنَعَ السخرة منعا باتا كما يمنع أخذ الضرائب على الجسور والمعابر وأن يكتفى فى المعادن بالصدقة ولايؤخذ منها العشر . وأمر أمرا صارما أن تُرْفعَ الجزية عمن أسلموا من الموالى بحيث يسوِّى بينهم وبين المسلمين فى الخراج والعشور . ويتوفَّى عمر فيعود العمال إلى الضرائب الاستثنائية ظلما وعدوانا . ولابد أن نذكر للأمويين أن الشام كانت تحظى برخاء غير قليل فى أيامهم ، ويشهد بذلك ماشادوه فى دمشق والبوادى من قصور ، وقد أصبحت دمشق بفضلهم عاصمة ومدينة عربية كبرى .

وكان المجتمع الشامى فى دمشق وغير دمشق يتألف من ثلاث طبقات : عليا ووسطى ودنيا ، والطبقة الأولى تشمل الحكام وكبار الموظفين فى الدواوين وأصحاب الثراء الطائل من التجار والإقطاعيين . وتشمل الطبقة الوسطى العلماء وأوساط الزراع والتجار والصناع ، أما الطبقة الدنيا فهى طبقة العامة من صغار الفلاحين والعمال. وكان يتبع هذه الطبقة الرقيق الذى يؤسر فى الحروب أو يبيعه النخاسون ، وكان أخلاطا من البيزنطيين والأوربيين والإفريقيين . وظلت هذه

الصورة لطبقات المجتمع الشامى متصلة طوال الحقب التالية ، مع ماحدث للشام من تحول الخلافة منها إلى بغداد ، ومن مشرفة على الدولة الإسلامية الكبرى إلى ولاية منذ أن استولى العباسيون على أداة الحكم . وكان من أهم أعمالهم فيها إنشاء المراكز العسكرية على حدودها مع الروم المعروفة باسم العواصم والثغور ، وكانت جيوشهم ماتنى تخرج منها لحرب الروم . محدثة فيها غير قليل من الرواج التجارى .

وكان العباسيون فى القرن الأول من خلافتهم يأخذونها بغير قليل من الرفق واللين . ويروى أن بعض ولاة الخراج بها لعهد هرون الرشيد شدَّد فى استخراج الأموال من أهلها فسخط عليه الرشيد سخطا شديدا وأنزل به عقابا صارما ، قائلا له : وليت الشام وهى جنات وعيون وجعلتها أجردَ من الصخر وأوحش من القفر . وحين ضمها ابن طولون إلى دولته فى مصر أخذت تنتعش وخاصة فى عهد خمارويه لكثرة ما كان يُجْرى على الناس فى رعيته بمصر والشام من الأموال ولما كان ينفقه على جيشه بها من الارزاق ، وقد بنى لنفسه بالقرب من دمشق قصرًا فخما . وعُنى الإخشيد بالشام ، كما عنى بها كافور . وكانا يكثران من الخلع والهبات على أهلها ، وكانت حلب والثغور بيد الحمدانيين وفرضوا فيها ضرائب ثقيلة[١] .

وتتبع بقية الشام مصر أيام الفاطميين حقبا متصلة . وعلى الرغم من أن المقدسى يقول إن ضرائب العروض والسلع التجارية فيها هينة لزمنه فى أواخر القرن الرابع الهجرى فإن من المؤكد أن الضرائب زادت واضطربت تبعا لكثرة الولاة الفاطميين وعملِ كل منهم على جمع كل مايستطيع من الأموال لنفسه ، فكانت تدخل على الضرائب والجبايات زيادات ترهق الشعب الشامى إرهاقا شديدا . وبلغ هذا الارهاق غايته فى ولاية المعلى بن حيدرة الكتامى لها سنة ٤٦١ ، حتى هجر الفلاحون مزارعهم فى الغوطة بدمشق وغير الغوطة ، وعظم شغب العامة سخطًا على هذا الظلم الصارخ وشبت النار حينئذ فى الجامع الأموى العظيم ، وكادت أن تذهب ببهائه ورونقه لولا أن تداركه الناس . ولعل أحدًا لم يصور ما كان يقع على أهل الشام من ظلم فادح فى جمع الضرائب دون أن تُستَخدَمَ فى مصالح الرعية كما صوَّر ذلك أبو العلاء ساخطا بمثل قوله :

وأرى ملوكا لاتَحوطُ رعيَّةً فعلامَ تُؤْخَذُ جزيةٌ ومكوسُ

ومانصل إلى سنة ٤٦٨ حتى تتحول دمشق إلى السلاجقة ، وينحسر الحكم الفاطمى إلى

(١) اضطرت الحمدانيين إلى ذلك حروبهم مع بيزنطة، ويقول المقدسى إن الضرائب كانت ثقيلة حينئذ على العواصم والثغور وإنها كانت ثلاثمائة وستين ألف دينار .

الجنوب . ومانكاد نشرف على نهاية القرن الخامس حتى تأتى جحافل الصليبيين وتستولى على ساحل الشام منذ سنة ٤٩٢ . ويتدارك طُغْتِكين أتابك الدولة البورية نسخة من النسخ القرآنية التى وزعها عثمان فى الأمصار كانت بطبريَّة فينقلها إلى دمشق ، وكان ذلك عملا جليلا زاد دمشق مجدا وجلالا ، وخلص له الأمر بها . ومن أهم ماقام به بناء مارَستان وخانقاه وأول مدرسة أنشئت بها . وتصبح الشام ساحة حرب كبرى أيام الصليبيين ، ولايقرُّ لأهلها قرار .

وأخذ حكام الشام من الأرتقيين أصحاب دمشق وغيرهم يضيفون بعض ضرائب استثنائية لجهاد الصليبيين والإنفاق عليه . وكان طغتكين عادلا ، ولكن أبناءه أخذوا يرهقون الدمشقيين بالضرائب الاستثنائية وصنع صنيعهم حكام المدن الأخرى ، حتى إذا نهض عماد الدين زنكى واستولى على شمالى الشام ، وكان قد أصبح خرابًا من ظلم الولاة ومن حرب الصليبيين ، نشر فيه العدل وفتح الرُّها وامتلأت كل هذه البقاع أهلا وسكانا .

وخلف عماد الدين زنكى ابنه نور الدين محمودوحين خضعت له دمشق وحماة وبعلبك وغيرها من المدن الشمالية أبطل كل ماكان بها من الضرائب الاستثنائية على الأسواق ومايباع فيها من الفواكه والبقول والحلوى والغنم والجبن واللبن . وسار نفس هذه السيرة بعده صلاح الدين فألغى جميع المكوس والمغارم من ديار الشام وسامح الناس فى أموال عظيمة . ووزع فى عماله منشورا جاء فيه : إن أشقى الأمراء من سمَّن كيسه ، وأهزلُ الخلق وأبعدهم من الله من أخذ الباطل من الناس وسماه الحق . وعمَّ الرخاء فى عهده وعهد نور الدين ديار الشام لكثرة ماصبَّا فى حجور الناس من القناطير المقنطرة من أموال حملة الصليب المدحورين . وسار بعد صلاح الدين سيرته فى حط المغارم عن كواهل الناس أخوه السلطان العادل ويقال إن مجموع ماخص دمشق من ذلك لعهده بلغ مائة ألف دينار . وقد عاد بعض هذه المغارم والمكوس فى بعض بلدان الشام بأخرة من أيام الأيوبيين وخاصة فى بعلبك ودمشق حين أظلها حكم الصالح إسماعيل .

وقد يكون من المفارقات أن نعرف أنه على الرغم من الحروب التى كانت متصلة بين أهل الشام وحملة الصليب نشطت التجارة بينهما نشاطا واسعا ، فتجار المسلمين ينزلون بلادهم وحصونهم وبالمثل ينزل حملة الصليب بلاد المسلمين حاملين لسلعهم ومشترين سلعا جديدة . وكأن الحرب شىء والتجارة شىء آخر ، ويعرض علينا أسامة بن منقذ فى كتابه « الاعتبار » صورًا لافتة من تواصل الحياة بين العرب المدنيين والصليبيين . ورأى ذلك ابن جبير رأى العيان ووصفه فى رحلته المشهورة متعجبا قائلا : من أعجب مايحدَّث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين : مسلمين

ونصارى ، وقد يلتقى الجمعان ويتقاتلون وتجارهم تختلف بينهم دون اعتراض ، وهكذا دائما أهل الحرب من الفئتين مشتغلون بحربهم ، والناس من ورائهم – كما يقول ابن جبير – فى عافية : يتعايشون ويتبادلون السلع وعُروض التجارة ، وكان حملة الصليب يرسلون ببعض هذه العروض فى سفن لهم كانت تجوب البحر المتوسط والمحيط الأطلسى حتى السويد . وورثت الشام عنهم ذلك حين جلوا عنها فكانت تجاراتها تتغلغل فى البلاد الأوربية .

ولم نعرض حتى الآن لما كان فى المجتمع الشامى طوال هذه الحقب من فنون اللهو . وكان طبيعيًّا والشام دائما حاملة للسيف أن يشيع فيها مبكرا سباق الخيل واللعب بالصوالجة والتنافس فى إحسان الرماية . وكان أهلها يحارشون أحيانا بين الكباش والكلاب ، وكانوا يخرجون للصيد . وكانت أسواقهم تموج بالأقمشة الحريرية وبالطيب والعطور . وعُنى خلفاؤها الأمويون مبكرين بالغناء وبدأ ذلك منذ عبد الملك بن مروان الذى استقبل ابن مِسْجح مغنى مكة وغنَّاه الغناء المتقن على نحو ما أشرنا إلى ذلك فى كتابنا الشعر والغناء فى المدينة ومكة واستقبل أيضا بُدَيْحًا واستمع إلى غنائه ، واستقبل ابنه الوليد بعده ابن سُرَيج مغنى مكة . وتحول يزيد بن عبد الملك بقصره إلى مسرح لمغنى الحجاز من أمثال معبد وابن عائشة ، واشترى جاريتين من جوارى المدينة المغنيات ، وهما حَبابة وسَلَّامة القَسّ ، ووصفه أبو حمزة الخارجى ، فقال إنه يشرب الخمر ويلبس الحُلَّة قُوِّمتْ بألف دينار .. حَبابة عن يمينه وسلامة عن يساره » . ونشأ ابنه الوليد فى هذا الجو المشبع بالترف والخمر والغناء ، وكان شاعرا بارعا ، وله خمريات تكتظ بها ترجمته فى كتاب الأغانى ، وحين استولى على مقاليد الخلافة بعد عمه هشام تحول بقصره إلى مقصف للخمر والعزف والغناء ، وندماؤه من حوله يشاركونه قصفة ولهوه وطربه ، وكاد أن لايترك مغنيا مشهورا فى المدينة أو مكة إلا استقدمه وعقد له فى قصره مجالس للطرب والسماع ، ويقول أبوالفرج فى ترجمته إنه «كان يضرب بالعود ويوقِّع بالطبل ويمشى بالدُّفِّ على مذهب أهل الحجاز » .

ولا ريب فى أن شيئا من ذلك كان ينعكس على أهل الشام فى دمشق وغير دمشق . إذ يوجد فى كل زمن منحرفون ينغمسون فى اللهو والخمر وشرب الدِّنان ، وكان يهيئ لهم ذلك فى الشام كثرة مايزرع فيها من كروم وكثرة ما كان بها من أديرة . وكانوا يشربون فى الطبيعة بين الأزهار وغناء الطير وفى قاعات الأديرة والبيوت ، وكانوا يفرشون القاعات بالورود والنرجس والأقحوان والأزهار المختلفة . وكان يكثر فى تلك المجالس سماع المغنين والمغنيات وهم يعزفون على آلات الطرب المختلفة . ويسوق ابنُ حِجَّة الحموى فى كتابه ثمرات الأوراق خبرا طويلا عن جماعة من

كتاب القرن الرابع الهجرى كانوا قاصدين مصر . فنزلوا بدمشق فى طريقهم ، والتقوا فيها بشاب أضافهم . فقبلوا الضيافة وأمضوا فى منزله ليلة ماجنة أحضر لهم فيها نبيذًا على عَشائهم ، فشربوا ، وسرعان ماخرجت عليهم طائفة من الجوارى مابين عوَّادة وطنبورية وزامرة وصنَّاجة ورقَّاصة ودفَّافة وهن يلبسن فاخر الثياب والحلىّ وسألهم فى الصباح أتحبون الذهاب إلى بعض البساتين للتفرج أو الجلوس فى المنزل واللعب بالشطرنج والنَّرْد أو القراءة فى الكتب . والخبر تداخله مبالغات تجعله أشبه بأسطورة ، لكنه على كل حال يدل على ماكان بدمشق من فنون لهو .

ولا ريب فى أن حرب أهل الشام بعد ذلك مع حملة الصليب أتاح لهم كثرة من الجوارى الأوربيات المسترَقَّات . ويبدو أنهن كن من عوامل شيوع البِغاء ، إذ نقرأ فى تراجم نور الدين وصلاح الدين والعادل أنهم طهَّروا البلاد من الفواحش والخمور والقمار . وكانت هناك دور النخاسين تحمل الجوارى من كل جنس وكل بلد . ويدل على كثرة الجوارى فى الشام من بعض الوجوه أن نجد فقيها دمشقيا توفى سنة ٦٣٢ هو عبد السلام بن المطهر بن أبى عصرون يروى عنه أنه كان ببيته نيف وعشرون جارية فما بالنا بأهل الثراء وبالحكام وكبار الموظفين ذوى الرواتب الضخمة .ولم يقف المنحرفون بالمجتمع فى لهوهم حينئذ عند شرب الخمر . فقد أخذ يشيع بينهم شرب الحشيش ، ولذلك أمر الظاهر بيبرس فى سنة ٦٦٥ بهدم دور الحشيش والخمر جميعا وإقامة الحدود بشدة على من يتعاطونها . ومن حين إلى آخر نسمع عند بعض السلاطين بمثل هذا الأمر ، ولكن المجَّان كانوا يعودون إلى تعاطيها ولا يزدجرون . وظل الغناء مزدهرًا طوال زمن المماليك ، ونجد مغنيا بدمشق يلزم واليها تنكز نائب الناصر محمد بن قلاوون ويختص به ويعلم جواريه الغناء ، وكان يعاصره شمس الدين الدمشقى محمد بن على وكان يجيد العزف واللعب بالقانون وينظم الشعر ويلِّحنه ويأخذه عنه الملحنون وأهل الملاهى .

وظلت الشام تعيش فى رخاء إلى نهاية القرن الثامن الهجرى إلا فترات كانت تدب فيها وخاصة فى دمشق الفوضى بسبب ما كان يحدث فيها من نزاع بين الأمراء على السلطة كما حدث فى السنوات ٧٥٣و٧٦٢ و٧٩٠ و٧٩٦ و٨٠١ ولعل هذا كان أحد العوامل فى انتصار تيمور لنك السريع على المدافعين عن حلب وما وراءها من البلدان إلى دمشق ، وقد عاث جنوده فيها — كما مرَّ بنا — نهبا وسفكا للدماء . وعلى الرغم من أن دمشق استسلمت له بميثاق أو عهد أخذه على نفسه أن لا يمس أهلها بأذى لم يكد يدخلها مع جنده حتى نكث عهده وميثاقه فسبى جنوده النساء وشدوا الرجال والأولاد فى حبال وأشعلوا النار فى المنازل والدور والمساجد ثلاثة أيام فاحترَقَت المدينة ، وسقطت

سقوف الجامع الأموى وصارت دمشق أطلالا عافية أو بالية ، بعد أن كانت فردوسا من فراديس الجنان ، وهى طامة كبرى ظلت دمشق تعانى منها طويلا . وزاد تيمور لتك الطين بلّة بتجريد دمشق – كما مرّبنا من صفوة صناعها ومهندسيها ، إذ أخذهم معه الى عاصمته سمرقند . وحاول سلاطين المماليك بعد خروجه من دمشق لحرب السلاجقة فى آسيا الصغرى أن يعيدوا لدمشق والشام شيئا من الرخاء بإلغاء المغارم والمكوس وكل ما كان يبهظهم من الضرائب الاستثنائية .

واستعادت دمشق مبانيها وعمارتها بعد تيمور ، ولابد أنها ظلت تعانى من خسائر الحريق وأنقاض عمائرها الباذخة فترة طويلة . وسرعان ما نسمع أنه أصبح بها مائة حمام . وشاد حكامها فيها قصورا فخمة على مر السنين ، واتسع ذلك فى بلدان الشام جميعا : من حلب شمالا إلى غزة جنوبا ، وبدأ ذلك منذ أوائل عهدها بالاسلام لزمن الأمويين ، فإن خلفاءهم وأمراءهم وبعض نسائهم شادوا فى دمشق لأنفسهم قصورا باذخة ، وامتد ذلك إلى حلب وغير حلب من مدن الشام وإلى البوادى . وظلت هذه العناية بتشييد القصور لحكام الشام على مر السنين ، ومر بنا أن خمارويه بنى لنفسه بجوار دمشق قصرًا ، وتتابع بناء حكام دمشق وبلدان الشام للقصور ، سوى ما كانوا يبنون من المساجد والخانقاهات والمارستانات والمدارس . وتحدث المؤرخون طويلا عن قصر أنيق بدمشق بناه الظاهر بيبرس . وعُنى الصليبيون ببناء الحصون كما عنى الأيوبيون والمماليك ببناء المساجد والمدارس والرباطات والمارستانات والقلاع والجسور وكان لكل ذلك أثر واسع فى نشاط الحياة بالشام ورواج الصناعة والتجارة .

وترزح الشام – كما رزحت مصر – تحت حكم العثمانيين ، ويظلون بها أربعة قرون ، ويتقوض كل أمل لأهل الشام فى تدارك الأمور ، وبدأ ذلك الغزالى نائب سليم بما أخذ يفرض على أهل الشام من ضرائب ثقيلة ، وزال حكمه ، كما مر بنا ، وظلت المكوس تزداد وظلت البلاد تتردى من سيىء إلى أسوأ إذ دأب العثمانيون على التغيير السريع لحكامهم فى البلاد ، ودأب الحكام على اعتصار خيراتها حتى آخر قطرة . وكانت الدولة العثمانية تدفع إلى استنزاف كل ما فى ديار الشام من أموال وظلموا الناس أشد ظلم ، بل نهبوهم أعسف نهب وابتزوا أموالهم أسوأ ابتزاز . وهيأ ذلك لمظالم لاتطاق فى المدن بين الصناع والتجار وفى القرى بين الزراع ، مما جعل بعض الفلاحين يفرون من قراهم إلى الجبال أو ينزلون عن ممتلكاتهم فيها إلى بعض ذوى الجاه مفضلين أن يعيشوا فقراء على معيشة الحرية التعسة المنتهكة . وانتكست بذلك الزراعة ، ولم تعد هناك عناية بإنتاج القطن

والحرير ، فانتكست أيضا الصناعة والتجارة . وزاد فى انتكاس التجارة اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح واستعمارهم للهند وحملهم عُروضها وتوابلها عن هذا الطريق مستغنين بذلك عن طريق الشام ومصر القديم . وبذلك فقدت الشام فى أيام العثمانيين موردا ماليا ضخما كان على رأس مواردها التى أتاحت لحكامها بناء منشآتهم المعمارية الكثيرة من الأسوار والقلاع والحصون والقصور والمساجد والمدارس . وعم الكساد الشام طوال الحقب العثمانية . بل عم البؤس والظلم والخراب ، كما عمت الفوضى الإدارية ، وكلما تقدمنا دورة زمنية مع الحكم العثمانى ازدادت الشام انتكاسا وفسادًا وظل ذلك سائدًا طوال زمن العثمانيين حتى القرن التاسع عشر بل حتى نهاية حكمهم .

٥

التشيع : الإسماعلية والإمامية – النصيرية – الدروز – الإسماعيلية النزارية أو الفداوية أو الحشاشين .

(ا) الإسماعلية والإمامية

مرَّ بنا – فى كتاب العصر العباسى الثانى – أن عبدالله بن ميمون القداح اتخذ سَلَمْية قرب حماة بالشام حوالى منتصف القرن الثالث الهجرى مركزا للدعوة الإسماعيلية التى كانت تجعل الإمامة بعد جعفر الصادق فى ابنه إسماعيل لا فى ابنه موسى الكاظم مخالفين بذلك فرقة الإمامية الاثنى عشرية الشيعية . وانتقلت بعد إسماعيل فى أئمة مستورين ، إلى أن فرَّ المهدى بالله من سلمية إلى تونس وأسس هناك الدولة الفاطمية وصار إليها حكم مصر والشام منذ أواسط القرن الرابع الهجرى . ونشط دعاتهم فى الديار الشامية يدعون إلى عقيدتهم التى تَقْصر إمامة المسلمين على أبناء علىّ بن أبى طالب من السيدة فاطمة الزهراء ، زاعمة لهم العصمة وحق تأويل الذكر الحكيم ومعرفة أسراره ، ولذلك سموا باسم الباطنية ، وزعموا أن الأئمة يتوالون فى أدوار كل دور يتألف من سبعة منهم ، والسابع هو الإمام الناطق الممثل للعقل الكلى وإليه تنتقل قدرة الله وعنه تصدر النفوس الكلية للأئمة الستة قبله ، وأطلقوا اسم الذات العلية وكل صفات الله على أئمتهم .

وعرفت الشام بجانب العقيدة الإسماعيلية العقيدة الإمامية أو الاثنا عشرية التى يتوالى فى الإمامة بها عندهم اثنا عشر إماما يختمون بالإمام أبى القاسم محمد الذى اختفى وهو فى الثامنة من

عمره حوالى سنة ٢٦٠ ويؤمنون بأنه لايزال حيا باقيا وأنه لابد من عودته يوما أو رجعته ليهدى الناس إلى طريق الرشاد ويعيد سنن الرسول ﷺ ويرد حق أسرته المسلوب ويملأ الدنيا حقا وعدلا ، ويسمونه فى أثناء غيبته الجسدية قائم الزمان وإمام الوقت . وهو بذلك كله المهدى المنتظر الذى ينقذ العالم من مفاسده وشروره . وعند الإمامية أن أئمتهم وحدهم يتميزون بمعرفة المعانى الباطنة أو المستترة وراء ظاهر النصوص القرآنية ، ولذلك يعد التأويل من أسس العقيدة الإمامية ، ويرون أئمتهم فوق الطبيعة البشرية ، ولذلك يعتقدون فيهم العصمة وأنهم مطهرون لايستهويهم أى ضرب من ضروب المعاصى والآثام .

وإذا كان مركز العقيدة الإسماعيلية منذ أوائل هذا العصر فى القرن الرابع مصر فإن مركز العقيدة الإمامية كان العراق وإيران . وكان قرب معتنقيها من الشام سببا فى أن يدخلها كثيرون منه منذ وقت مبكر وكانوا ينبثُّون فى حلب وأيضا بين بعلبك وصفد ، ويسمون باسم المتوالية الإمامية ومنهم أمراء حرفوش . ونقف لنتحدث عن فرق شيعية غالية هى فرق النصيرية والدروز والإسماعيلية النزارية المسمون بالفداوية والحشاشين .

(ب) النُّصَيْرِيَّة[1]

فرقة شيعية غالية غلوًّا مفرطًا ، ولم تكن تتبع الفرقة الإسماعيلية ، بل كانت تتبع الفرقة الإمامية الاثنى عشرية ، أو قل إنها تفرعت منها ، وكانت تسكن فى قرى بسفوح الجبال الممتدة من طرابلس إلى أنطاكية أنشأها فيها داعية يسمى محمد بن نصير النميرى زعم لهم أنه مبعوث الإمام الحادى عشر حسن العسكرى وأخذ ينشر فيهم عقيدته منفصلا بها عن العقيدة الإمامية إذ جعل مبدأها أو محورها الأساسى ألوهية على بن أبى طالب وأنه خالد فى طبيعته الإلهية ومسكنه السحاب ، والرعد إنما هو صوته الهائل ، والبرق إنما هو ضحكه العالى ، ولايلعنون ابن ملجم قاتله ، بل يقولون إنه خلَّص اللاهوت أو الجزء الإلهى من الناسوت أو الجسم المادى ، ويعظمون الخمر ويرونها من النور الإلهى ، ويحتفلون بالأعياد المسيحية ويزعمون أن سلمان الفارسى إنما كان رسولا لعلى بن أبى طالب ، ويحلفون بعلى قائلين : وحق على العلىّ الأعلى ، كما يحلفون بالنور

---

(١) انظر فى النصيرية فرق الشيعة للنوبختى والملل والنحل للشهرستانى وصبح الأعشى ٣٥/١٣ ، ٢٤٩ والتعريف لابن فضل الله العمرى ورحلة ابن بطوطة وحديثه فيها حين زار ديارهم بالشام عن عقيدتهم وكتاب العقيدة والشريعة فى الإسلام لجولدتسهير ص ٢٢٠ ومابعدها وتاريخ النصيرية وديانتهم لدوسو طبع باريس .

قائلين وحق النور وما نشأ منه . وواضح أنه تختلط بعقيدتهم عناصر فارسية كعنصر النور وعناصر مسيحية كعنصر قداس الخمر والطعام وهو شبيه بالعشاء الربانى ، ويروون عن الرسول ﷺ أنه قال لعلى : « لولا أن يقول الناس فيك ماقالوا فى عيسى لقلت فيك مقالا » وهو حديث موضوع .

ويقول النوبختى فى فرق الشيعة وابن فضل الله فى التعريف إنهم يحلُّون المحارم ، ولهم كتاب مقدس يخفونه عن الناس كما يخفون عقيدتهم ولا يبيحون لأحد منهم أن يذيع شيئا من مبادئها وأسرارها المصونة عندهم . ويقول الشهرستانى إنهم يقولون بأن عليا كان موجودا قبل خلق السموات والأرض ، وأن الإله ظهر بصورته وخلق بيديه وأمر بلسانه . ولكل ماسبق قال جولد تسيهر : « تغلب على تلك الفرقة أفكار وعقائد وثنية » ويقول « إن إسلامها إسلام اسمى فحسب » . ونظن ظنا أن استيلاء الفاطميين على الشام ونشر دعاتهم لنحلتهم الغالية المفرطة فى الغلو هناك . ثم ما كان من انشغال الأيوبيين بحربهم لحملة الصليب ، كل ذلك كان سببا فى اتساع حركتهم حتى إذا كان عهد الناصر بن قلاوون رأيناه يكتب فى سنة ٧١٧ للهجرة إلى ولاته فى الشام أن يأخذوا على أيديهم، ويأمروهم أن يعمروا فى كل قرية من قراهم مسجدا وأن يمحوا منها الخمور وكل ما يتصل بالآثام، وصدعت قراهم لأمره.

(جـ) الدروز [1]

الدروز فرقة شيعية تفرعت عن الفرقة الإسماعيلية الكبرى ، آمنت بأن التجسُّد الإلهى حلَّ فى الحاكم بأمر الله (٣٨٦ - ٤١١هـ) أسسها أو أنشأها بالشام داع إسماعيلى أعجمى من دعاة الحاكم يسمى محمد بن إسماعيل الدرزى ، وكان من غلاة الدعاة الباطنية يؤمن بالتناسخ ، فأغوى الحاكم على ادعاء هذا التجسد ، وصَنَّف له كتابا ذكر فيه أن روح الله مازالت تنتقل من رسول إلى رسول ، وبعد النبى ﷺ انتقلت إلى على بن أبى طالب وتناسخت فى الأئمة من أبنائه حتى انتهت إلى الحاكم ، فهو ليس بشرا ، إنما هو لاهوت تجسد فى الناسوت . وعلمت الرعية فى مصر بما يوسوس له الدرزى فصممت على قتله ، وأنقذه منها الحاكم وقال له اخرج إلى الشام وانشر دعوتك فى الجبال فإن أهلها سريعو الانقياد ، فخرج إلى الشام ونزل فى قبيلة تنوخ بوادى التيم من

---

(١) راجع فى الدروز صبح الأعشى ٢٤٨/١٣ وكتاب طائفة الدروز : تاريخها وعقائدها للدكتور محمد كامل حسين وجولد تسيهر ص ٢١٦

وديان قرية بانياس غربي دمشق ، وأخذ ينشر دعوته فى منازل تلك القبيلة بجبل حوران وأيضا فى القسم الجبلى من لبنان . وتوفى فقام بالدعوة بعده حمزة بن أحمد الهادى وكثر أتباعها وعُرفوا بالدروز نسبة إلى مؤسس الدعوة . وانتشارُها على هذا النحو فى جبل لبنان وحوران بسوريا جعلها تذيع بين قبائل وعشائر عربية ، وسقطت إلى الجنوب حتى جبل كَرْمَل بالقرب من صَفَد فى فلسطين ، وصعدت إلى الشمال حتى الجبل الأعلى بين حلب وأنطاكية . وأتاح لها ذلك أن تشيع بين عرب ذوى بأس وأهل شجاعة ، ومنذ وطئت أقدام الصليبيين الشام وضعوا أيديهم فى أيدى الدولة البوريّة صاحبة دمشق ثم فى أيدى عماد الدين زنكى ونور الدين وصلاح الدين ضد حملة الصليب . وظلوا يجاهدونهم فى زمن الأيوبين والمماليك متعاونين أوثق تعاون مع سلاطين الدولتين فى طردهم من الشام . وأبلوا بلاء حسنا فى حرب التتار . ولعل ذلك هو الذي دفع الدولتين إلى مسالمتهم والإبقاء عليهم مع إقرارهم على إقطاعاتهم ، حتى يظلوا غُصَّة فى حلوق أعداء الإسلام والعروبة .

ولديهم رسائل مقدسة لمؤسس دعوتهم محمد بن إسماعيل الدرزى وخليفته حمزة بن أحمد وتلميذه بهاء الدين . ويردد حمزة أن للحاكم بأمر الله حقيقة لاهوتية لاتدركها الحواس ولا الأوهام ، ويقول إنه ليس له مكان وإن حل فى كل مكان . وحاول هو وأستاذه الدرزى وتلميذه بهاء الدين أن يقنعوا الناس من حولهم بأن الحاكم تجسُّدٌ إلهى وأنه يتشكل فى صورة بشرية هى الصورة الإنسية التى عاش بها مع الناس كأنه فرد مثلهم . وليس الحاكم أول صورة بشرية تشكل فيها الله بل هو آخر صورة تجسد فيها ، فقد تجسد قبله فى الأنبياء والأئمة مما يفسح عند الدروز لفكرة التناسخ . ويصور القلقشندى عقيدتهم قائلا : « إنهم يقولون بأن الألوهية انتهت إلى الحاكم وتديرت (سكنت) ناسوته كما يقولون برجعته وإنه يغيب ويظهر بهيئته ويقتل أعداءه قتل إبادة لامعاد بعده إذ ينكرون المعاد » . فلا معاد عندهم ولابعث ولاقيامة ، إذ القيامة فى رأيهم يوم رجعة الحاكم وظهوره فى صورته الناسوتية ، وحينئذ يوقع العذاب والثواب على الناس ، أما الثواب فارتفاع بالدرجة فى العلوم الدينية ، وأما العذاب فهبط بالدرجة إذ يستمر الشخص ينتقل من جسد إلى جسد أو قل تستمر روحه تنتقل فى أجساد تهبط به فى الدين درجة بعد درجة .

وتُسْقط شريعة الدروز الفروض الدينية وتوجب صيام الأيام التسعة الأولى من شهر ذى

الحجة ، ويقول القلقشندى إنهم يذهبون مذهب الطبائعية فى قولهم إن الطبائع هى المولِّدة ، والموتَ بفناء الحرارة الغريزية كانطفاء السراج بفناء الزيت ، ويقول : إنهم زادوا فى البسملة أيام الحاكم : باسم الحاكم الله الرحمن الرحيم ، ثم جعلوها باسم الله الحاكم الرحمن الرحيم . ولهم أدعية خاصة يتجهون بها إلى ربهم ، من ذلك مانقله الدكتور محمد كامل حسين من رسالة البلاغ والنهاية فى التوحيد لحمزة بن أحمد من مثل : « سبحان مولانا جلَّ ذكره عن إحاطة الأشياء به وعز سلطانه عن حكومة الألسن والأوهام عليه لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » .

على أنه ينبغى أن نعود فنذكر أن عقيدة الدروز أصابها بعض التعديل فى فروعها بمايتلاءم والإسلام ومن أهم من عملوا على ذلك عبدالله التنوخى الملقب بالسيد المتوفى سنة ٨٨٤ وقد حاول العودة بهم إلى مذهب الجماعة .

(د) الإسماعيلية[1] النزارية أو الفداوية أو الحشاشون

مرَّ بنا فى الحديث عن التشيع بإيران فى الجزء الخامس من تاريخ الأدب العربى أن داعية من دعاة الحركة الإسماعيلية الفاطمية بإيران هو الحسن بن الصَّباح زار مصر لعهد المستنصر (٤٢٧ — ٤٨٧هـ) وسأله من الخليفة بعدك؟ فقال له : ابنى نزار ، فعاد إلى إيران يدعو للمستنصر وابنه نزار ، واستطاع مع طائفة من أتباعه أن يستولى على قلعة « ألموت » الجبلية الشاهقة ، واتسعت دعوته حتى ضم إليه قلاعا وحصونًا كثيرة بإيران وبعض بلدانها فى قزوين وطبرستان . وكانت الأمور تتطور بالقاهرة فتوفى المستنصر ورأى الأفضل بن بدر الجمالى أن لا يولى نزارا بعده وإنما يولى أخاه المستعلى . وبذلك انقسمت الإسماعيلية الفاطمية قسمين : قسما عربيا فى مصر والشام بيده مقاليد الحكم يدعو للمستعلى وقسما شرقيا فى إيران يمثله الحسن بن الصباح يدعو لنزار .

واستطاع الحسن بن الصَّباح أن يحول فرقته أو طائفة كبيرة منها إلى فرقة إرهابية مهمتها اغتيال خصوم الدعوة من حكام الأقاليم والدول ووزرائهم ومن العلماء والفقهاء المناوئين لها ، وكان ممن اغتالوه الوزير السلجوقى العظيم نظام الملك سنة ٤٨٤ . ومن أجل ذلك أطلق على اسم هذه الفرقة

---

(١) انظر فى هذه الفرقة وقلاعها بالشام ونشأتها صبح الأعشى ١٢١/١ و١٤٦/٤ و١٧٩ ورحلتى ابن جبير وابن بطوطة وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٢٨٢ ، ٣٥٥ ، ٣٦٦ وكتاب طائفة الإسماعيلية : تاريخها . نظمها . عقائدها للدكتور محمد كامل حسين .

اسم الفدائيين أو الفداوية كما غلب اسم الحشاشين لأنهم – فيما يظهر – كانوا يتعاطون الحشيش المخدر . وعمل الحَسَن بن الصبَّاح على نشر الدعوة الإسماعيلية لا فى أقاليم إيران فحسب ، بل أيضا فى إقليم الشام ، فأرسل إليها دعاته ، وبادر بإرساله الحكيم المنجم أسعد إلى حلب فى أيام حاكمها رضوان بن تُتش السلجوق (٤٨٨ – ٥٠٧ هـ) فنشر بها الدعوة وكثر أتباعه وأوعز إلى بعض الحشاشين معه باغتيال جناح الدولة صاحب حمص ، واغتيل سنة ٤٩٦ . ووفد على حلب داعية ثان للحسن بن الصباح هو أبوطاهر واستولى مع شيعته على حصن فامِيَة من الصليبيين ثم استردوه منه . وأخذ الفدائيون من فرقة ابن الصباح يفدون على الموصل والشام واغتالوا فى سنة ٥٢٠ صاحب الموصل آق سنقر . وفى نفس السنة وفد على دمشق نزارى من ألموت ، وتقرب من طُغْتِكين صاحبها ، وتنازل له عن قلعة بانْياس فأخذ يدير دعوته منها ، وكثر أتباعه ، وأدخل المردغانى وزير بورى (٥٢٢ – ٥٢٦) فى دعوته فعيَّن أحد رجاله ، وهو أبوالوفا قاضيا لقضاة دمشق . وبعث أبوالوفاء سرا لبلدوين الثانى صاحب بيت المقدس أنه على استعداد لتمكينه من الاستيلاء على دمشق فى نظير تنازله له عن صور ، وقدم حَمَلةُ الصليب إلى دمشق سنة ٥٢٤ لتنفيذ المؤامرة وفطن بورى فقتل أبا الوفاء ووزيره المردغانى ، ورد الله حَملة الصليب عن دمشق مدحورين .

وأخذ الإسماعيليون النزاريون فى بانياس يمكنون لأنفسهم بالاستيلاء على طائفة من القلاع فى السفوح الشرقية لجبال النصيرية بالقرب من طرابلس إلى الشمال بينها وبين حماة ، حتى إذا خلص الأمر لرشيد الدين سنان منذ سنة ٥٥٨ أخذ ينظم هذه الجماعة الإرهابية الخطيرة جاعلا من قلاعها وهى مصياف والرصافة وقُدْموس والخوابى والكهف والمَيْنَقة والعُلَّيْقة ، مركزًا للدعوة . ويُعدّ دوره فى الدعوة بالشام كدور الحسن بن الصبَّاح فى إيران ، فقد ضاعف تحصينات قلاعها وزودها بالسلاح والعتاد ، وكان سنان مباينا لنور الدين ولم يحاول أن يساعده فى حربه لحملة الصليب ، وفكر نور الدين فى منازلته ولكنه توفى قبل تحقيق فكرته . وبالمثل كانت بين سنان وصلاح الدين مباينة ، وأرسل إليه بعض فدائييه أو حَشَّاشيه مرتين ليغتالوه ونجَّى الله صلاح الدين من خناجرهم ، وجرَّد لهم فى سنة ٥٧٢ جيشا جرارا حاصر به قلاعهم وضيق عليهم ، فسألوه الصفح عنهم ، فأجابهم إلى ذلك ليتفرغ سريعا لحرب حملة الصليب مؤملا أن يمدوا له يد العون فى تلك الحرب ، وكانوا قد وعدوه أن يقفوا معه ضدهم ، فلم يتعرض صلاح الدين بعد ذلك لقلاعهم .

ونمضى معهم إلى أيام هجوم التتار على الشام فنجد داعيتهم أبا المعالى رضى الدين يرضخ لهم ويسلمهم بعض القلاع سنة ٦٥٨ بينما ظل الدروز يقاومون التتار – كما مرَّبنا – ولعل ذلك ماجعل الظاهر بيبرس بعد قضائه على التتار يفكر فى الاستيلاء على قلاعهم منذ سنة ٦٦٤ وسرعان ما أعلنوا له الطاعة وأنهم جزء من رعيته . وفى سنة ٦٦٩ عزل داعيتهم نجم الدين وولى مكانه داعية ثانيا يسمى صارم الدين ، غير أنه أعلن الثورة عليه ، وسرعان ما أخفقت ثورته . وأخذ الظاهر بيبرس يستولى على قلاعهم حتى سلمت له وخضعت جميعا ، ولم يعمد إلى إجلائهم عن قلاعهم كما صنع هولاكو حين استولى على قلعة ألموت وغيرها من قلاعهم بإيران ، بل أبقى عليهم ليفيد من سفاكيهم فى القضاء على خصومه . وظل سلاطين المماليك بعده يستخدمونهم لنفس الغاية .

ويسجل ذلك ابن بطوطة حين زار حصونهم لعهد الناصر بن قلاوون سنة ٧٢٧ إذ يقول : « وهذه الحصون لطائفة يقال لها الإسماعيلية ، ويقال لهم الفداوية ، ولايدخل عليهم أحد من غيرهم ، وهم سهام الملك الناصر بهم يصيب من يعدو عليه من أعدائه ، ولهم المرتبات ، وإذا أراد السلطان أن يبعث أحدهم إلى اغتيال عدو له أعطاه ديته ، فإن سلم بعد تأدية مايراد منه فهى له ، وإن أصيب فهى لولده » . ويقول القلقشندى نقلا عن ابن فضل الله العمرى المتوفى سنة ٧٤٩ للهجرة : « ولصاحب مصر بمشايعة الفداوية مزية يخافه بها عدوه ، لأنه يرسل منهم من يقتله ولايبالى أن يُقْتل بعده ، ومن بعثه السلطان إلى عدو له فجبن عن قَتْله قَتَله أهله إذا عاد إليهم ، وإن هرب تبعوه وقتلوه » . وبالقاهرة جامع منسوب إلى هذه الجماعة الإرهابية يسمى جامع الفداوية ، ويقال إن الفداوى الإرهابى الخطير الذى كان يعتمد عليه بيبرس هو « شيحة » المدفون بدمياط .

٦

الزهد [1] والتصوف

الشام – من قديم – بلد دين سماوى ، بل دينين سماويين هما اليهودية والمسيحية ، مما جعل لها تأثيرًا بعيدًا فى تاريخ العالم الروحى ، إذ عملت بقوة على نقله من دور الوثنية إلى دور الديانات السماوية ، وبدأ ذلك منذ أعتق الأزمنة ونقصد زمن إبراهيم الخليل عليه السلام الذى آمن بوحدانية الله ، وحاول أن يحمل عليها قومه ، وتتابعت بعده الرسل تؤكد دعوته وتدعو إلى عبادة الله وإعلاء القيم الروحية ، حتى إذا كانت المسيحية وأدخلت فيها مصر نظام الرهبنة والمعيشة الخالصة لتعبد الله والنسك فى الأديرة والصوامع عَمَّت هذه الروح فى الشام واعتزل كثيرون منه – فى أيام الرومان الظالمة – الحياة اليومية العاملة إلى الرهبنة . وتعتنق كثرة السكان فى الشام الدين الحنيف ويقبلون على تعاليمه وعبادة الله الواحد الأحد حق عبادته وعلى ماتدفع إليه من النسك والتقوى ، مقتدين بمن نزل بينهم من جلّة الصحابة وبخاصة من أهل الصُّفَّة الذين كانوا يلازمون المسجد النبوى مقبلين على عبادة الله زاهدين فى الدنيا ومتاعها الزائل من أمثال بلال بن رباح مؤذن الرسول ﷺ وأبى عبيدة فاتح الشام مع خالد بن الوليد ، وكان على غرارهما زهدا فى الدنيا معاذ بن جبل المتوفى مع أبى عبيدة فى سنة ١٨ للهجرة بطاعون عمواس ، ويؤثر عنه أنه كان يقول حين نزل به القضاء : « مرحبا بالموت ، مرحبا بزائر حبيب جاء على فاقة ، اللهم إنك تعلم أنى كنت أخافك ، وأنا اليوم أرجوك ، وإنى لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكَرْى الأنهار ولا لغرس الأشجار ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالرُّكب عند حلقات الذكر » .

---

(١) انظر فى الزهد والتصوف بالشام كتب تراجم الصحابة ، وبخاصة من سميناهم ، وراجع فى معاذ تهذيب النووى وفى أبى الدرداء البيان والتبين للجاحظ : الجزء الثالث (انظر الفهرس) وانظر فى الأسماء التالية طبقات الصوفية لأبى عبدالرحمن السلمى والطبقات الكبرى للشعرانى والرسالة القشيرية (طبعة عبدالحليم محمود) وكشف المحجوب للهجويرى (الترجمة العربية) وتهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر وأحسن التقاسيم للمقدسى والسلوك للمقريزى والدرر لابن حجر والأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة ، الجزء الخاص بمدينة دمشق (تحقيق د. سامى الدهان) ووفيات الأعيان وفوات الوفيات فى تراجم بعض المتصوفة والزهاد وابن تغرى بردى والبدر الطالع للشوكانى وروض الرياحين لليافعى وخلاصة الأثر للمحبى وسلك الدرر للمرادى وتاريخ الجبرتى وجولد تسيهر ودائرة المعارف الإسلامية والجزء الرابع من تاريخ الأدب العربى لبروكلمان

وعلى شاكلة معاذ فى الورع والتقوى من صحابة رسول الله ﷺ الذين هاجروا إلى الشام أبو الدرداء الأنصارى ، وهو أحد حفظة القرآن الكريم لعهد الرسول وأول من تقلد القضاء بدمشق إلى أن توفى سنة اثنتين وثلاثين للهجرة ، وهو من أهل الصُّفَّة الأتقياء ، ويروى الجاحظ عنه أنه كان يقول « نعم صومعة المؤمن منزل يكفُّ فيه نفسه وبصره ، وإياكم والجلوس فى الأسواق فإنها تلهى وتحمل على اللغو فى الكلام » ويروى عنه أيضا قوله : « أضحكنى ثلاث وأبكانى ثلاث : أضحكنى مؤمل الدنيا والموت يطلبه ، وغافل لايُغْفَلُ عنه ، وضاحك ملء فيه ولايدرى ساخطٌ ربه أم راض ، وأبكانى هول المطَّلع [١] ، وانقطاع العمل ، وموقفى بين يدى الله لايُدْرَى أيُؤْمر بى إلى الجنة أم إلى النار » . وأخذ يتكاثر بعد جيل الصحابة فى الشام العباد والأتقياء ونلتقى بهم فى كل طائفة : فى القضاة والفقهاء والمحدِّثين وقرَّاء الذكر الحكيم .

واتسع ذلك حتى شمل بعض الحكام على نحو ماهو معروف عن الخليفة عمر بن عبدالعزيز وهو يمثل نموذج الحاكم المتقشف الزاهد الذى يخشى الله فى كل مايصدر عنه من قول أو فعل ، ومرَّ بنا أنه رفع المكوس وضرائب السدود والمعابر عن الناس وأنه سوَّى بين المسلمين الجدد من الموالى والمسلمين من العرب فحطَّ عنهم – مثلهم الجزية – واكتفى بالزكاة . وكتب إليه أحد عماله : إن أهل الذمة قد أقبلوا على الإسلام حتى يتخلصوا من الجزية ، فأجابه : إن الله بعث محمدا داعيا ولم يبعثه جابيا . ويفيض ابن سعد فى ترجمته له بطبقاته فى بيان زهده ورفضه لمتاع الحياة من رقيق يملكه ومن عطر يتطيب به . وعمل بكل جهده على نشر العدل فى دولته ورفع المظالم عن الناس . وكان يجهد نفسه فى النسك والتعبد حتى اصفرَّ لونه ونحل جسمه ، وأنكر منه بعض الزهاد ممن كانوا يلمون به ذلك فقال له : كيف بك لو رأيتنى فى قبرى وقد سالت الحدقتان – بعد ثلاث ليال – على وجنتى وتقلَّصت الشفتان لكنت إذن أشد نكرا . وطبيعى أن يكون عمر من أسباب اتساع موجة الزهد فى الشام . ونكتفى بذكر بعض من تموج بهم كتب القراء والفقهاء والتاريخ من هؤلاء الزهاد العباد . من ذلك مايقولونه عن شيبان الراعى المتوفى سنة ١٥٨ وكان من كبار الفقهاء الزهاد وكان من أكابر أهل دمشق وعكف على النسك ، وبلغ به ذلك أن ترك الدنيا واتخذ له صومعة فى جبل لبنان فانقطع بها يتعبد الله .

ونسمع كثيرا عن عباد انقطعوا بهذا الجبل مؤثرين الإقامة به للتعبد [٢] ، ومنهم من كان يتعبد الله فى جبال أنطاكية والمصِّيصة ، ومنهم من يتخذ الصوامع ، وظل ذلك متبعا حتى زمن ابن

(١) الاستشراف للآخرة

(٢) راجع مقدمة أحسن التقاسيم للمقدسى .

جبير[1] . وكان منهم من لايبعد عن دمشق إلى الجبال النائية مثل فهر بن جابر الطائى المتوفى عام ٢٢٠ فإنه لما بلغ الخمسين من عمره اعتزل الناس بجوار دمشق ، وأخلص نفسه للتقوى والنسك ، وله فى الزهد كتاب سماه : « العروج فى دَرَج الكمال والخروج من درَك الضلال » . ونلتقى بمعاصره أبى سليمان الدارانى عبدالرحمن بن أحمد بن عطية المتوفى سنة ٢١٥ وفيه يقول ابن تغرى بردى : « كان من واسط وتحول إلى الشام ونزل قرية دَارَيَّا غربى دمشق ، وكان إماما حافظا كبير الشأن فى علوم الحقائق والورع أثنى عليه الأئمة ، وكان له الرياضات والسياحات ، ويقول الهجويرى : « كان ريحانة القلوب ، اختص بالرياضات الشديدة والمجاهدات الشاقة » . وتسلكه كتب الصوفية ، فى تراجمهم . ولم يكن التصوف حتى زمنه استقل عن الزهد بأحواله ومقاماته ، فهو إلى أن يكون زاهدًا أقرب منه إلى أن يكون متصوفا . وحمل عنه نزعته النسكية تلميذان أو مريدان ، هما أحمد ابن عاصم الأنطاكى وابن أبى الحوارى الدمشقى ، أما ابن عاصم فتوفى بعد أستاذه بخمس سنوات ، ويسلكه المتصوفة بين أوائلهم ويقولون إنه كان يجمع بين الأصول والفروع فى الشريعة ، وكان يقول : « أنفع الفقر ماكنت به متجملا وعنه راضيا » ويذكر بروكلمان له كتابا فى الزهد سماه « دواء القلوب ومعرفة هم النفس وآدابها » ويقول إن الغزالى ينقل عن هذا الكتاب كثيرا . وتلميذ الدارانى الثانى أو مريده ابن أبى الحَوَارِىّ أحمد توفى سنة ٢٣٠ وكان من بيت زهد ، فأبوه من الورعين وكذلك ابنه عبدالله ، وذُكر عند الجنيد متصوف بغداد فقال : « ريحانة الشام » . وكان يعاصره الشيخ أبو عبيد وان عابدا تقيا صالحا توفى سنة ٢٣٨ وقد وهب نفسه للغزو وجهاد أعداء الله .

ونلتقى فى طَرَسُوس دار حرب الروم بالشيخ أبى الحارث الفيض بن الخضر الأولاسى المتوفى سنة ٢٩٧ وكان أحد الزهاد العباد وله إشارات ولسان حلو وأقوال عالية ، وهو منسوب إلى أولاس فى نواحى طرسوس ، وكان بها حصن يسمى حصن الزهاد ، وكأنما اتخذوه رباطا لحرب أعداء الإسلام . وهو شاهد على ماقلناه مرارا فى كتاباتنا من أن زهادنا ومتصوفتنا كانوا دائما يرون من تمام تصوفهم وزهدهم أن يجاهدوا العدو ويرابطوا له فى الثغور ، حتى إذا كان نفير الحرب تقدموا الصفوف يقتلون أعداء الدين الحنيف ويستشهدون . وكان يعاصر الأولاسى أحمد بن يحيى

---

(١) يقول ابن جبير فى كلامه عن دمشق سنة ٥٧٨ كان الخير ينثال على الغرباء من الخطباء والمطلمين لا فى دمشق وحدها بل أيضا فى القرى والضياع ، ومن سئم المقام فيها متى سئم المقام يصعد إلى جبل لبنان أو إلى جبل الجودى (شمالى الموصل) فيلقى بهما المريدين المنقطعين إلى الله عز وجل فيقيم معهم ما شاء وينصرف إلى حيث شاء .

المعروف باسم ابن الجلّاء المتوفى سنة ٣٠٦ تلميذ ذى النون المصرى مؤسس التصوف الإسلامى كما سنذكر ذلك فى حديثنا بجزء مصر، وتلمذته لذى النون تجعله أول متصوف شامى بالمعنى الحقيقى. وكان ذو النون يجمع بين الشريعة وفروضها وبين الحقيقة الصوفية الروحية ، فلا تعارض بين الشرع والتصوف ، بل هما متلاحمان ، وعنه أخذ ذلك ابن الجلاّء كما أخذ بقية مبادئه الصوفية من التوكل والحب الإلهى . ويقول ابن تغرى بردى إنه أحد مشايخ الصوفية الكبار ، ويقول مريده وتلميذه الرَّقِّى محمد بن داود : « لقيت نيفا وثلاثمائة من المشايخ المشهورين ، فما لقيت أحدا بين يدى الله وهو يعلم أنه بين يديه أهيب من ابن الجلاء » . وعاش الرق بعده فى الشام إذ توفى بعد سنة ٣٥٠ . ومن مريديه وتلامذته فى الشام أبوعمرو الدمشقى المتوفى سنة ٣٢٠ وكان يقول : « التصوف رؤية الكون بعين النقص بل غض الطرف عن كل ناقص ليشاهَد مَنْ هو منزه عن كل نقص » يريد تعلق التصوف بالرؤية الإلهية التى يغض فيها المتصوف بصره عن كل مايشاهده فى الكون أملا فى أن يفنى فى الذات الربانية ، وذكر مترجموه أن له كتابا فى الرد على القائلين بقدم الأرواح .

ومن كبار المشايخ فى الشام أحمد بن عطاء الروذْبارى المتوفى سنة ٣٦٩ وهو ابن أخت أبى على الروذْبارىّ شيخ الصوفية فى الفسطاط ، أما هو فكان شيخ الشام فى وقته ، وكان ممن جمع بين الحقيقة وعلم الشريعة . ودخل الشام محمد بن خَفِيف الشيرازى شيخ المشايخ المتوفى سنة ٣٧١ ويحكى أنه : « دخل مدينة صُور وهو جائع عطشان وفى وسطه خرقة المتصوفة ، يقول : فدخلت المسجد ، فإذا شابَّان مستقبلا القبلة فسلمت عليهما فما أجابانى ، فقلت : ناشدتكما الله إلا رددتما علىَّ السلام ، فرفع أحدهما رأسه من مرقَّعته الصوفية فنظر إلىَّ وردَّ السلام وقال لى : يابن خفيف الدنيا قليل ومابقى من القليل إلا قليل ، فخُذْ من القليل الكثير ، فذهب جوعى وعطشى ونَصبى (تعبى) فلما كان وقت العصر قلت له : عِظْنى ، فقال : يابن خفيف : نحن أصحاب المصائب ليس لنا عظة . وربما كان أهم تلامذة أحمد بن عطاء الروذبارى ومريديه محمد بن إبراهيم السوسى شيخ الصوفية بدمشق المتوفى سنة ٣٨٦ وكان زاهدا عابدا ماعقد على درهم ولادينار . وظل كثيرون من العباد والنساك يؤثرون جبال الشام ويقيمون بين ربوعها ويذكر المقدسى الجغرافى المتوفى حوالى سنة ٣٧٥ أنه لقى فى جبل الجَوْلان شرقى الشام أبا إسحق البلوطى فى أربعين رجلا يقتاتون البلوط ، يفلقونه ويطحنونه ويخلطونه بشعير بَرِّىٍّ ويلبسون الصوف . وينبغى أن نذكر أن المتصوفة كانوا غالبا لايستقرون فى أوطانهم ، بل يرحلون سائحين للقاء مشايخ

الصوفية ، ومعنى ذلك أن الشام كانت تستقبل كثيرين منهم . وكان يحدث كثيرا أن يتخذوها دار مقام كما صنع الدارانى الواسطى وأحمد بن عطاء الروذبارى ، وغيرهما كثيرون مثل الختلى نزيل الشام المتوفى سنة ٤٥٣ وهو أستاذ الهجويرى الغزنوى الأفغانى ، وكانت أكثر إقامته بالديار الشامية . ومعنى ذلك أن الشام كانت دائما ساحة كبرى للنسك والتقوى والعبادة .

ومانصل إلى سنة ٤٨٨ حتى ينزل الإمام الغزالى الطوسى الصوامع النائية فى مساجد بيت المقدس ، وكانت قد انتابته أزمة روحية من الخلافات العنيفة بين الفرق والملل وحتى بين الفقهاء فى فروع الشريعة . وقد أوضحنا ذلك فى حديثنا عن الزهد والتصوف بإيران فى الجزء الخامس من تاريخ الأدب العربى وكيف أخذ يحمل على الفقهاء والمتكلمين والفلاسفة ، وحمل على فرقة الإسماعيلية الشيعية حملة عنيفة فى كتابه « فضائح الباطنية » . وكان قد رأى فى موطنه ضعف الوازع الدينى عند طوائف الصوفية ، وأن جماعات منهم كانت تُسْقط عن نفسها الفرائض الدينية ، بينما كان منهم من يؤمن بالحلول والاتحاد بالله والفناء فيه . وكل ذلك أشعل بينهم وبين الفقهاء حربا شعواء ، وأخذ الغزالى يفكر فى كل ذلك على هدى ما كتبه أبو نصر السراج والقشيرى فى رسالته ، ورأى أنه لابد من الوصل بين التصوف والشرع ، فلا تصوف بدون الفرائض والنوافل ولا صلاة بدون عمل القلب والإخلاص وصدق السريرة ، وأخذ يؤلف موسوعته الرائعة « إحياء علوم الدين » بقصد تنمية الجوانب الروحية فى الفرائض الشرعية وبيان الوسائل إلى ذلك بحيث تصل النفس إلى مبتغاها من محبة الله . وأتمَّ الكتاب فى دمشق . واستقبلته استقبالا عظيما لأن متصوفتها لم يكونوا قد انحرفوا بتصوفهم إلى مزالقه التى وصفناها فى إيران ، بل كانوا دائما يجمعون بين التصوف والشريعة ، إلا من دفعته السياحة إلى ديارهم من متصوفة إيران .

على كل حال كانت إقامة الغزالى بدمشق وبيت المقدس فاتحة التئام وثيق بين الفقهاء والمتصوفة ، وزاد هذا الالتئام توثقا نزول حملة الصليب بديار الشام ، ولعل ذلك ماجعل حكامها التابعين للدولة السلجوقية يأخذون فى العناية ببناء الخانقاهات للمتصوفة ، من ذلك بناء دقاق بن تتش لخانقاه الطواويس بدمشق . ودعم هذا التصوف السنى عناية نور الدين ثم صلاح الدين وسلاطين الحكم الأيوبى ونساؤهم وأمراؤهم ببناء الخانقاهات والرُّبُط فى ديار الشام ووَقْف الرواتب والأموال التى تنفق على متصوفتها عن سعة . وقد عدَّ ابن شداد فى الجزء المنشور من كتابه الأعلاق الخطيرة الخاص بدمشق خانقاهاتها وحدها فبلغت تسع عشرة وبالمثل عد رباطاتها فبلغت أيضا تسعة عشر رباطا . وكان لايزال يخرج منها صفوف وجنود لجهاد حملة الصليب . وفى هذه

الأثناء ظهرت ببغداد طريقة صوفية سنية هى الطريقة القادرية لمؤسسها الشيخ عبدالقادر الجيلانى المتوفى سنة ٥٦١ واعتنقها كثيرون لا فى العراق وحدها بل أيضا فى الشام والبلدان العربية . وتبعها ظهور طريقة صوفية سنية ثانية هي الطريقة الرفاعية لمؤسسها الشيخ أحمد الرفاعى المتوفى سنة ٥٧٨ وانتظم فيها كثيرون فى العراق والشام وشاعت سريعا فى العالم العربى .

ومعنى ذلك أن التصوف السنى الجامع بين علم الحقيقة أو علم التصوف وبين علم الشريعة أو علم الفقه وما يتصل به من السنة تداخلت عوامل كثيرة فى أن يكون هو التصوف الشائع فى الديار الشامية . وحاول التصوف الفلسفى القائم على أفكار الحلول والاتحاد بالله أن يتسرب إلى الشام عن طريق يحيى السهروردى الإيرانى ، وكانت له فلسفة صوفية إشراقية ألممنا بها فى حديثنا عنه فى الفصل الرابع من قسم إيران ، وذكرنا هناك بأنه كان يؤمن بأن النبوات لا تنقطع وأن الحكيم الصوفى من أمثاله أفضل من الأنبياء ، وكفرَّه فقهاء حلب وحملوا الملك الظاهر بن صلاح الدين على قتله ، فقتله سنة ٥٨٧ للهجرة .

وكان من أثر دخول الشعوذة على التصوف ، وخاصة فى إيران ، ظهور فرقة بدمشق سنة ٦١٩ تسمى القلندرية وهم أتباع قلندر يوسف ، لا يتقشفون ولا يتنسَّكون ولا يصلون سوى الفرائض ، ويحلقون لحاهم وحواجبهم . وتسرَّب ثانية إلى الشام جدول صوفى فلسفى زاخر على لسان محيى الدين بن عربى المولود بمرسية فى الأندلس سنة ٥٦٠ وقد تلقى تعاليمه فى إشبيلية وفارقها فى الثلاثين من عمره إلى المشرق لحج بيت الله الحرام . وظل فى مكة فترة ثم بارحها مطوِّفا فى البلاد العربية ودخل الأناضول « وألقى عصاه بدمشق وبها توفى سنة ٦٣٨ » . وكان إماما فى التصوف الفلسفى القائل بوحدة الوجود وصنَّف كثيرا من الكتب أهمها الفتوحات المكية والفصوص ، وله غير ديوان ، ومن أهم دواوينه ترجمان الأشواق ، وكان شاعرا مبدعا كما كان كاتبا بارعا . وعلى الرغم من اتجاهه الفلسفى فى التصوف استطاع أن ينجو من العامة والفقهاء ، فلم يحكموا عليه بالكفر أو الإلحاد كما حكموا على السهروردى ، بل لقد وجد بينهم مريدين كثيرين مما هيأ فيما بعد لكى يظل التصوف الفلسفى — على قلة — حيًّا بجانب التصوف السنى ، وكانت عباراته فى كتاباته تحتمل ظاهرا وباطنا ، ظاهرا مع السنة وباطنا مع التصوف الفلسفى ، وجعل ظاهرها كثيرين يبرئونه من تهمة الإلحاد على نحو ما مر بنا فى مصر عند الشعرانى .

وتُعْنَى دولة المماليك بالخانقاهات والرُّبُط وزوايا المتصوفة ، وترصد لها أموالا كثيرة ، مما كان سببا فى ازدهار التصوف وازدياد طرقه بجانب طريقتى القادرية والرفاعية السالفتين ، فشاعت فيه

كما مر بنا آنفا الطريقة القلندرية . ودخلته الطريقة المولوية ، ومؤسسها جلال الدين الرومي المتوفى سنة ٦٧٣ وتبع هذه الطريقة كثيرون . ونزل الشام عفيف الدين التلمساني المتوفى سنة ٦٩٠ وكان صوفيا فلسفيا يؤمن بمذهب وحدة الوجود واحتمله فقهاء الشام فيما يبدو لحسن عشرته .

ولعل فقيها لم يحمل على الصوفية كما حمل ابن تيمية الحنبلي المتوفى سنة ٧٢٨ . وكان يحمل على أصحاب التصوف الفلسفي . وهذا طبيعي . وحمل أيضا على أصحاب التصوف السني من أتباع الشيخ أحمد الرفاعي لما كانوا يأتون من أعمال شاذة كنفوذهم من النار المضطرمة ، وأكلهم الحيات وهي حية ، ولبسهم أطواق الحديد الثقيلة في أيديهم ، ولفهم شعورهم وتلبيدها . وثار عليهم ثورة عنيفة بدمشق واجتمع الناس إليه ، فذهب بهم إلى نائب السلطان وعرَّفه ماتصنعه هذه الطائفة من بدع عجيبة ، فأمرهم بالكف عنها . أما أصحاب التصوف الفلسفي وما يتصل به من القول بالحلول ووحدة الوجود فقد أشعل ابن تيمية ضدهم نارا حامية ظل يُذْكيها بوقود جزل يزيدها لهبا واضطراما ، واصطلى النار الباجريقي محمد بن عبدالرحمن ، وكان قد تزهد وتصوف فصحبه جماعة من الأراذل ، فهوَّن لهم أمر الشرائع وأراهم بوارق شيطانية ، وكان يقول لهم : إن الرسل طوَّلتْ على الأمم الطريق إلى الله تعالى » وزعم أنه وصل في سلوكه إلى السماء الرابعة ، وحُكم عليه بإراقة دمه فاختفى إلى أن مات سنة ٧٢٤ . ودعا إلى مقالاته بعده متصوف من متصوفة خانقاه السميساطية بدمشق يسمى عثمان بن عبد الله الدَّوْكالي ، وشاع أمره فقُبض عليه ، وكان ممن شهد عليه فقيهان كبيران هما المزِّيّ والذهبي ، فحُكم عليه بالقتل سنة ٧٤١ .

وشاعت في الشام لأواخر القرن الثامن وأوائل التاسع الهجري الطريقة النقشبندية ، ومؤسسها محمد النقشبندي المتوفى سنة ٧٩١ . وأخذت تشيع معها لأواخر زمن المماليك الطريقة البكتاشية التي تدين بالنظريات الحلولية ولاتقيم وزنا للسنن والفرائض الدينية وتقدس عليا والأئمة من بعده . ومنذ القرن الثامن الهجري نحس بوضوح أن العامة تخضع لمشايخ الطرق الصوفية بأكثر مما تخضع للفقهاء وعلماء الدين ربما بسبب خضوعهم للحكام بخلاف مشايخ الطرق الصوفية فإنه لم يكن لهم أي تعلق بالدنيا وكانوا يكتفون بما يجري على خانقاهاتهم من أموال ولم يكن الشيخ يمدُّ يده للحاكم يأخذ منه مالا . وكانوا كثيرا مايحملون على الحكام إذا رأوهم انحرفوا عن الطريق السَّويّ . وتحول كثير من أتباعهم إلى دراويش يطوفون في العالم الإسلامي ، وكان لهم أثر غير قليل في حفاظ العامة على الروح الإسلامية .

ونمضي إلى زمن العثمانيين فتنشط الطرق الصوفية لاهتمامهم بها ورعايتهم لها ، وتشيع معها

الطريقة الخلوتية ، ويعظم أمر الدراويش ويكثرون فى العالم الإسلامى . ومما لا شك فيه أنه كانت تكثر الطرق الصوفية المخلصة التى تعنى بالنسك والعبادة ، وإن كان من الحق أنه أساء إلى هذه الطرق الدراويش المتسولون الذين كانوا يتكففون الناس . وهم دراويش رُحّل كانوا يعيشون معيشة مطلقة ، وقد يتحللون فيها من الفرائض الشرعية . وبدون ريب كان بينهم من يتخذ الدروشة خداعا للناس ووسيلة إلى البطالة . ومع ذلك لانعدم أن نجد من حين إلى حين صوفيا حقيقيا يحاول النفوذ إلى معرفة أسرار الكون وخفاياه والتخلص من عالم الحس المادى للفناء فى عالم الحقيقة والحب الإلهى ، على نحو مانجد عند عبدالغنى النابلسى المتوفى سنة ١١٤٣ للهجرة وقد تقلب بين الطرق الصوفية وعكف على دراسة أئمة التصوف الفلسفى وغير الفلسفى ، ولقى كثيرا من شيوخ الصوفية فى لبنان وفلسطين ومدن الشام والحجاز ومصر ، وكان شاعرا كما كان ناثرا .

الفصل الثانى

الثقافة

١

الحركة العلمية

ظهرت الشام على مسرح الحضارة العالمية منذ أواخر الألف الرابعة قبل الميلاد ، وهيأها لذلك موقعها بين حضارتى وادى النيل ووادى دجلة والفرات ، مما جعلها تنتقل سريعا من عالم البداوة والرعى إلى عالم الزراعة والاستقرار ، وكان مما أسرع بها إلى هذه الغاية وقوعها فى مفترق طريق العالم على الحافة الشرقية للبحر المتوسط ، مما أتاح لها أن تكون دولة بحرية على الأقل فى شواطئها فتشارك فى الملاحة والتجارة على نحو ماهو معروف عن الفينيقيين وإتقانهم لفنى التجارة والملاحة ، وقد استطاعوا أن يشتقوا من حلل الحروف الهيروغليفية المصرية أبجدية لهم ، هى أم الأبجديتين اليونانية والرومانية اللاتينية . وقد أخذت الشام تعيش عصرا هيلينيا منذ دخلها الإسكندر المقدونى ، ومضت تتعمق الثقافة الهيلينية فى زمن خلفائه السلوقيين اليونانيين وزمن الرومان ، واستطاع كثيرون من أهلها أن يتقنوا اليونانية وأن يسهموا فى تراث اليونان الفكرى والأدبى ، وبخاصة سكان الثغور من غزة جنوبا إلى أنطاكية شمالا . ولمعت أسماء كثيرين من أبناء هذه الثغور فى مجال المشاركة الفلسفية وبخاصة فى صور وصيداء ، سماهم وتحدث عن نشاطهم الفكرى فيليب حتى وخاصة فى مجال الفلسفة الرواقية والأفلاطونية الحديثة ، إذ ذكر أنه كان فى بيروت مدرسة تعنى بدراسة القانون الرومانى منذ أوائل القرن الثالث الميلادى ، ويستظهر أن تكون اللاتينية لغة التعليم بتلك المدرسة ، وإن كانت قد عادت مع أوائل القرن الخامس وسيطرة القسطنطينية عليها إلى اللغة اليونانية . وبالمثل شارك أبناء الثغور الشامية فى الأدب اليونانى ولمع فى صيداء اسم غير شاعر كان ينظم باليونانية .

وكل ذلك كان يصل الشام فكريا وفلسفيا وأدبيا ولغويا بالثقافة اليونانية ، وإذا كانت قد اشتقت أبجديتها من الأبجدية الفرعونية ، فإن مصر أثرت فيها تأثيرا بعيدا فى عصرها المسيحى ، إذ

أخذت عنها الرهبنة التى أسسها أحد قساوستها فى أواسط القرن الرابع للميلاد ، وكانت أول بلدة شامية استجابت إليها غَزَّة لقربها من مصر ، ومنها انتقلت إلى كل بلدان الشام حتى أنطاكية ، وكانت طوال العصر الهيليني تُعدّ ثالثة المدن فى الإمبراطورية البيزنطية بعد القسطنطينية والإسكندرية .

ومما يدل بوضوح على مدى تأثير الهيلينية فى الشام أن نراها تتعمق باديتها أيام الرومان إلى دولة تدمر النبطية حين بلغت الذروَة الطامحة إليها فى عهد أُذَيْنَة . وحين خلفته فى الحكم أرملته زنوبيا اتخذت لونجينوس الذى علمها اليونانية مستشارًا لها ، ويظن أنه كان حمصى الموطن ، وقد أعدمه الرومان بعد قضائهم على زنوبيا سنة ٢٧٣ م . وهو يوضع فى سلسلة النقاد المتأخرين من اليونان لما خلف من أفكار نقدية وبلاغية كثيرة .

وكل ذلك معناه أن الشام حين فتحها المسلمون كان بها تراث يونانى ومسيحى[١] يعدها للمشاركة سريعا فى نشاطها العلمى والأدبى بمجرد دخول الإسلام فى ربوعها الذى كان يدفع أتباعه دفعا إلى التزود بالعلم والمعرفة . وقد دخل أهل الشام فى دين الله أفواجا ، وكان من حولهم الصحابة الفاتحون لديارهم ، وُعنى كثيرون منهم بإقراء من أسلموا القرآن وعَرْض أحاديث الرسول عليهم ، حتى يفقهوا فقها حسنا تعاليم دينهم الحنيف . وكانوا مايزالون يفتونهم فى المسائل حتى يتبينوا الحلال فيتبعوه والحرام فينبذوه . وكان من حسن حظ أهل دمشق خاصة أن نزل بين ظهرانيهم أبو الدرداء أحد حفظة القرآن لعهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، كما مر بنا ، وكان أول من تقلد القضاء بدمشق حتى توفى ، وحبس وقت فراغه على إقراء الناس القرآن ، وقد بلغ مَنْ أقرأهم ألفا وستمائة ونيفا ، وكان يجعلهم عشرة عشرة وعلى كل عشرة عريف مقرئ ، وكان يقف فى محراب الجامع يراقبهم ويرمقهم ببصره . وإذا غلط واحد من أى عشرة رجع إلى عريفه ، وإذا شك العريف فى شيء رجع إلى أبى الدرداء ، وأيضا يرجع إليه كل قارئ من العشرة إذا أحكم قراءة القرآن واستظهره جيدا[٢] . وهذا العدد الضخم من حفظة القرآن فى دمشق لأول عهدها بالإسلام يوضح مدى إقبال أهلها على العلم بالإسلام ، وكان هناك كثيرون يفسرون لهم آيات منه كما كان هناك كثيرون يفتونهم ، ونهض بذلك من نزل ديارهم من الصحابة واتخذوها موطنا ، ثم

---

(١) انظر فى هذا التراث وكل ماذكرت آنفا كتاب « تاريخ سورية ولبنان وفلسطين » لفيليب حتى — الجزء الأول — الترجمة العربية .

(٢) انظر ترجمته فى كتاب « غاية النهاية فى طبقات القراء » لابن الجزرى (نشرة برجستراسر) ٦٠٦/١ .

من حملوا عنهم علمهم من التابعين . وأصبحت دمشق سريعا حاضرة الخلافة الإسلامية منذ وليها معاوية ، وطبيعى أن يعنى الأمويون بمن يفقِّه الناس فى شئون دينهم ، ومن يَرْوِى لهم حديث الرسول صلى الله عليه وسلم من كبار الحفاظ ، ومن يفسر لهم بعض آى الذكر الحكيم ، ومَنْ يعظهم ويبلغ تأثير وعظه شغاف قلوبهم . وكان هناك القضاة الذين يحكمون بين الناس بالحق ، ويفتونهم فيما يجدُّ من شئونهم .

ومعروف أمْرُ عمر بن عبد العزيز لواليه على المدينة أبى بكر محمد بن عمرو بن حزم : أن انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أوسنته أو نحو هذا فاكتبه لى ، فإنى خفت دروس العلم وذهاب العلماء ، وكتب بمثل ذلك إلى الآفاق ، وتوفى سريعا قبل تمامه . وكان أول من صدر عن هذه الرغبة العظيمة ابن شهاب الزهرى المتوفى سنة ١٢٤ للهجرة . وتدوينه للحديث أول تدوين عام له ، وأخذ تدوينه بعده يتسع فى الشام وغير الشام .

وسجلت الشام مبكرة سبقا فى قراءة القرآن وإتقانها ، فإن عريفا ممن كانوا يقومون على عشرة من حفظة القرآن بين يدى أبى الدرداء هو عبد الله بن عامر المتوفى سنة ١١٨ للهجرة استطاع أن يبلغ من إحكام قراءة الذكر الحكيم أن يكون له قراءة مستقلة ، وأن يكون أحد القراء السبعة المشهورين فى الأمصار الإسلامية لزمنه وبعد زمنه . ومالبث بأخرة من العصر الأموى وأوائل زمن الولاة فى العصر أن نلتقى بفقيه مجتهد ، وبلغ من اجتهاده أن أصبح إماما فى الفقه وصاحب مذهب مستقل هو الأوزاعى أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو المتوفى سنة ١٥٧ ببيروت مسقط رأسه . ومعنى ذلك أن الحركة العلمية التى بعثها الأمويون فى الشام وقاموا عليها بما كانوا ينفقون على علماء الدين فى كل بلد شامى من أموال آتت ثمارها ، فإذا الشام يصبح لها إمام فقيه يتدارس الفقهاء فقهه وكتبه فى الأجيال التالية ، وكذلك يصبح لها قارئ من القراء السبعة يقرأ أهل الشام بقراءته حقبا متعاقبة .

ونشطت الدولة الأموية لترجمة علوم الأوائل اليونانية وبعض الرسائل الأدبية الفارسية ، وسنلمُّ بذلك فى غير هذا الموضع ، إنما نهتم الآن بمتابعة الحركة العلمية الدينية واللغوية ، ودائما توجد مع العناية بالقراءات عناية واسعة باللغة والنحو ويقوم عليهما مؤدبون ، يعلمون الناس العربية فى المساجد حتى لايخطئوا فى تلاوة الذكر الحكيم . ولم يقصِّر الخلفاء وأمراء البيت الأموى فى تأديب أبنائهم وإحضار المعلمين لهم ، وفى كتب الأدب لهم وصايا لمؤدبى أبنائهم وكيف يهذبونهم ويقوِّمون ألسنتهم . وكانوا ابتغاء دربتهم على العربية والنطق الفصيح يرسلون أحيانا بهم

إلى البادية ، حتى يتزودوا باللغة من ينابيعها الأصلية ، وكان الوليد بن عبد الملك يلحن أحيانا ، ولاحظ ذلك أبوه فقال : « أضرَّ بالوليد حبُّنا له فلم نوجِّهه إلى البادية »[1] .

وظل هذا النشاط فى تعلم اللغة بجانب النشاط فى تعلم الدراسات الدينية ، وأخذت تتوالى طبقات فى زمن الولاة العباسيين تجعل همها التعليم فى المدن وأيضا فى القرى ، والدولة لاتقصِّر ، بل دائما تُجْرى عليهم الرواتب ، مما دفع إلى ظهور علماء فى كل فرع من فروع الدراسات الدينية واللغوية .

ويُظِلُّ الشامَ عهدُ الطولونيين ثم عهد الإخشيديين وتزيد إدْرارات الرواتب على العلماء ويطَّرد النشاط العلمى فى الشام . واهتم معاوية أول خليفة أموى بأخبار الأمم القديمة ، واستقدم لذلك من اليمن عُبَيْد بن شَرِيَّة الجرهمى ، وجعلها عبيد موضوعا لسمره وأحاديث معه ، وجمَع كثيرًا من هذه الأحاديث فى كتاب له سماه «كتاب الملوك وأخبار الماضين» ، طُبِع له فى حيدر آباد مع كتاب التيجان فى ملوك حمير ويلقانا منذ القرن الرابع للهجرة مؤرخون مختلفون فى الشام ، على نحو ماسيتضح ذلك فى نهاية الفصل ..

وجدير بنا أن نقف قليلا عند حركة علمية وأدبية باهرة دفع إليها سيف الدولة الحمدانى (٣٣٣ - ٣٥٦ هـ) حين أظلَّ لواءه حلب وإقليمها ومادان لحكمه من أنطاكية وحماة وغيرهما من بلاد الشام ، ومر بنا حديث عن بطولته الخارقة وكيف كان يقف درعا ، بل سَدًّا منيعا للبلاد العربية أمام البيزنطيين وكيف نكَّل بهم وبجموعهم مرارا وتكرارا . وبجانب هذه البطولة الخارقة كان راعيا عظيما للعلوم والآداب والفنون فى زمنه ، مما جعل حلب عاصمته تصبح كعبة للقصاد من الفلاسفة أمثال الفارابى المعلم الثانى أكبر فلاسفة المسلمين حتى أيامه ، ومن اللغويين والنحاة أمثال أبى على الفارسى وابن جنى وابن خالويه . وسنراه عما قليل يرعى علماء الطب وأفذاذه ، كما يرعى بعض المنجمين . أما الشعراء فلم يجتمع بباب أحد من الأمراء - بعد الخلفاء - ما اجتمع ببابه كما يقول الثعالبى ، وقد أفرد له ولشعرائه فصولا طويلة فى الجزء الأول من كتابه اليتيمة أمثال النامى والببغاء والوَأْواء الدمشقى والخالديين والسَّرِىّ الرَّفاء وكُشاجم وابن نباتة السعدى . ويخيل إلى الإنسان أنه لم يبق شاعر فى الشام والعراق وإيران إلا قدم إليه مدائحه ، ويكفى أنه نزل عنده لمدة

---

(١) البيان والتبيين ٢/٢٠٥ .

تسع سنوات أعظم كوكب فى سماء الشعر العربى لزمنه : المتنبى الذى ملأ الدنيا بوصفه لبطولته وملاحمه مع الروم .

وتحكم الدولة الفاطمية الشام نحو قرن ، وفى أثنائه يتقلص حكمها عن حلب إذ لم تكد تستقر فى يدها لأوائل القرن الخامس الهجرى حتى استولى عليها بنومرداس كما مر بنا فى الفصل الماضى ، ولايبقى معها فى العقد السابع من هذا القرن سوى صور وجنوبيها على شاطئ البحر المتوسط حتى غزة . ومن يرجع إلى كتب التراجم فى تلك الفترة يجد هناك كثيرا من طبقات العلماء من محدثين وفقهاء وقراء ومفسرين ونحاة . وليس بين أيدينا نصوص توضح مدى الرواتب والأموال التى كان يبذلها الفاطميون ونوابهم وولاتهم لعلماء الشام . ولكن يكفى أن تكون الشام أنتجت فى هذه الحقب أبا العلاء أكبر مفكر متفلسف إسلامى . وأكبر من تحمل مؤلفاته وأشعاره كل فروع الثقافة لزمنه ، يكفى ذلك للدلالة على ماكانت تحظى به الحركة العلمية والفلسفية والشعرية من خصب وازدهار رائع . وقد استقل بنو مرداس بحلب ، ويصور ابن العديم فى كتابه زبدة الحلب من تاريخ حلب رعايتهم للشعر والشعراء ، وكان الشعر فيها لايزال حيًّا ناشطا منذ سيف الدولة ، على الأقل من حيث استقبال الشعراء وبذل العطاء لهم . وكان جلال الملك ابن عمار قاضى طرابلس استقل بها لسنة ٤٧٠ وحاول أن يحدث بها حركة علمية شبيهة بما أحدث الفاطميون من دار العلم لعهد خليفتهم الحاكم ، فأنشأ بها دارًا سماها بنفس الاسم ، وجعلها على غرارها فى تنوع الدراسات بها وفى جَلْب الكتب الكثيرة إليها[1] ، وكان من الممكن أن تحدث هذه الدار نشاطا علميا واسعا فى الشام ، غير أن حملة الصليب سرعان ماقدموا واستولوا على طرابلس سنة ٥٠٢ وأقاموا فيها إحدى إمارتهم ، وبذلك وُئِدَتْ حركتها العلمية وهى لاتزال ناشئة فى المهد .

ويدخل أكثر الشام فى حكم السلاجقة كما مر بنا فى غير هذا الموضع ، وكان وزيرهم نظام الملك المتوفى سنة ٤٨٥ رأى أن ينشئ مجموعة من المدارس فى المدن الكبيرة لدولتهم فى إيران والعراق لمحاربة النحلة الإسماعيلية ونشر المذهب الشافعى والعقيدة الأشعرية الكلامية ، وعُرفت كل مدرسة من هذه المدارس باسم المدرسة النظامية . وكان السلاجقة كلما دان لهم بلد لم يلبثوا أن أسسوا فيه مدرسة ، وظلت المساجد بجانب مدارسهم ساحات كبيرة للعلم والمعرفة ، وهو ماجعل العلم العربى بجميع فروعه شعبيًّا ، فكل فرد من أفراد الشعب يحق له أن يجلس إلى أى حلقة من

(١) خطط الشام لمحمد كرد على ٦٧/٦ وما بعدها

حلقات الشيوخ ، أما إذا انتظم فى مدرسة فإنه كان يأخذ راتبا معينًا يكفل له الحياة . وكان السلاجقة يفسحون فى بناء المدارس لقوادهم ولذوى الثراء . وأول مدرسة بنيت فى دمشق المدرسة الصادرية [1] بناها شجاع الدولة صادر بن عبد الله لدراسة الفقه الحنفى سنة ٤٩١ . وفى سنة ٥١٤ بنى أتابك العساكر الملقب بأمين الدولة أول مدرسة [2] للشافعية ، ثم بُنيت للأحناف المدرسة الطرخانية سنة ٥٢٥ وبعدها بقليل بنيت لهم المدرسة البلخية . وبنيت فى هذه الأثناء أول مدرسة بحلب سنة ٥١٦ وهى المدرسة الزجاجية بناها حاكمها الأرتقى بدر الدولة أبو الربيع سليمان

ويُظلّ الشامَ لواء الزنكيّين عماد الدين ونور الدين محمود وخليفته صلاح الدين ثم الأيوبيين ، وتتنفس الصعداء ، فبالرغم من أن هؤلاء الحكام كانوا فى شغل مستمر بحروب حَملة الصليب وهدم قلاعهم وحصونهم كانوا يبنون ويؤسسون المدارس لفقهاء المذاهب الأربعة ، ومضى على منوالهم المماليك بحيث تزدهر فى الشام نهضة علمية رائعة . وكان يوقف على كل مدرسة أوقاف دارّة تكفل للمدرسين والمعيدين رواتب مجزية . وكان يلحق بالمدرسة مبان للطلاب ، يقدّم لهم فيها الغذاء ، ويقيمون فيها للراحة والنوم . وكانت تلحق أيضًا بالمدرسة خزانة كتب يختلف إليها الطلاب للقراءة والبحث ، وكان يقدّم إليهم الورق وأدوات الكتابة . ويذكر ابن جبير فى رحلته لسنة ٥٧٨ أنه رأى بدمشق عشرين مدرسة وبحلب خمس مدارس يقول : « ومن أحسن مدارس الدنيا منظرا مدرسة نور الدين ، وبها قبره نوّره الله ، وهى قصر من القصور الأنيقة » بناها سنة ٥٦٣ لأصحاب الفقة الحنفى . وقد أخذت المدارس تتكاثر كثرة مفرطة فى دمشق وحلب وغيرهما من بلدان الشام . ولم يقف تشييدها عند السلاطين الأيوبيين ، فقد اشترك معهم فيها نساؤهم وقوادهم والأمراء من بينهم خاصة حكام البلدان الشامية ، كما اشترك بعض ذوى اليسار . وقد عدّ ابن الشحنة منها فى كتابه الدر المنتخب فى مدارس حلب نحو خمسين مدرسة فى بلدة شامية واحدة أسست بين سنتى ٥١٦ و ٥٦٥ وجاء بعده ابن شداد ، فعد لدمشق فى سنة ٦٨٠ وهى سنة تأليفه للأعلاق الخطيرة أربعة وثلاثين مدرسة حنفية وأربعين مدرسة شافعية وثلاثة مالكية وعشرة حنبلية . ويعكس هذا العدد حقيقة كبرى هى مدى شيوع هذه المذاهب فى الشام فأكثرها انتشارًا

---

(١) الأعلاق الخطيرة لابن شداد : تاريخ مدينة دمشق ص ١٩٩ والدارس فى تاريخ المدارس للنعيمى ٤٢٩/١ .

(٢) سميت الأمينية نسبة إلى مؤسسها ، ويقال إنه بنيت قبلها مدرسة سميت الجاروخية وانظر فى حديثنا عن المدارس المصادرين السالفين .

فيه المذهب الشافعي ثم المذهب الحنفي ثم المذهب الحنبلي ثم المذهب المالكي . ولم يُبْنَ للمذهبين الأخيرين مدارس إلا في عهد الأيوبيين منذ صلاح الدين . وكان بيت المقدس يكتظ هو الآخر بمدارس المذاهب الأربعة ، وعلى شاكلته كثير من مدن الشام الكبرى ، وفي ذلك يقول ابن خلكان عن نور الدين محمود إنه « بنى المدارس بجميع بلاد الشام الكبار مثل دمشق وحلب وحماة وحمص وبعلبك ومنبج »[١] . وبجانب مدارس المذاهب الفقهية عنوا بتأسيس مدارس الحديث النبوي ، من ذلك دار الحديث النورية التي أسسها نور الدين محمود بدمشق ، وولّى مشيختها الحافظ المؤرخ الكبير ابن عساكر . وبنى الأشرف موسى الأيوبي صاحب دمشق دار حديث بها ثانية سنة ٦٣٠ وألحق بها خزانة كتب ومسكنًا لشيخها ، ووقف عليها أوقافًا كافية ، وأسند مشيختها إلى ابن الصلاح الحافظ المحدث المشهور ، وفيما بعد أسندت إلى الإمام الشافعي : النووي .

وبدون ريب بعثت هذه المدارس الكثيرة كثرة مفرطة بالشام نهضة علمية باهرة ، فكثر العلماء في كل علم حتى ليروي العماد الكاتب في كتابه « الفتح القدسي » أنه وُزِّع في إحدى المناسبات على علماء دمشق ستمائة دينار فخصَّ كل عالم دينار واحد[٢] ، أي أنه كان بها حينئذ ستمائة عالم غير من لم يشملهم التوزيع ومن لم يحضروه . ومابالنا إذن بما كان ينفقه نور الدين بل صلاح الدين بعده على العلماء والمدارس ، لابد أنه كان يبلغ مئات الألوف من الدنانير . وساعد على هذه النهضة نور الدين وصلاح الدين وسلاطين أسرته ، ويروي ابن خلكان في ترجمة نور الدين إنه كان لايزال يحتاج إلى الأموال الكثيرة في حربه لحملة الصليب فقال له بعض أصحابه إن في بلادك إدْرارات وصدقات وصلات كثيرة على قراء الذكر الحكيم والفقهاء والصوفية ، ولو استعنت بها لكانت أصلح ، فغضب من ذلك غضبا شديدًا وزجر صاحبه زجرًا عنيفا . وكان صلاح الدين على شاكلته في العناية بالفقهاء والقراء والصوفية ، وكان يختلس من أوقاته مايعطيه الفرصة لحضور مجالس العلماء مهما بعدت الشقة كما حدث في ذهابه إلى الإسكندرية للاختلاف إلى حلقة السِّلَفي الحافظ المشهور[٣] واشتهر المعظم عيسى صاحب دمشق بتعمقه في الفقه وأنه ألف فيه كتابا وأيضا

(١) ابن خلكان في ترجمة نور الدين محمود ١٨٥/٥ .

(٢) الفتح القدسي ص ٤٨١ .

(٣) سمع ابنه العزيز صاحب مصر بعده الحديث على السلفي أيضا : انظر النجوم الزاهرة ١٢٧/٦ .

فإنه كان يتعمق فى دراسة النحو[١] . فسلاطين بنى أيوب كانوا مثقفين[٢] ، ولذلك حاولوا أن يدفعوا الحركة العلمية إلى الذروة .

ويَعُدُّ صاحب الأعلاق الخطيرة لدمشق نحو ثلاثمائة مسجد غير الزوايا والخانقاهات ، وكثير منها كانت تُلقَى فيه المحاضرات والدروس . وظل هذا الحشد الهائل من الخانقاهات والمساجد والمدارس فى زمن المماليك وأخذوا يضيفون كثيرًا من الخانقاهات ومدارس الفقهاء وغيرهم من علماء الدين والعربية . وحقا كانت كثرة المماليك غير مثقفين ، وهم من هذه الناحية يختلفون عن سلاطين بنى أيوب ، ومع ذلك عنوا عناية واسعة بالثقافة وبناء المدارس والمساجد والخانقاهات والإنفاق عليها عن سعة ، على أنه عُرِف بعض متأخريهم بمدارسة العلم ورعاية العلماء والأدباء مثل السلاطين : برقوق والمؤيد شيخ وقايتباى والغورى .

ومعنى ذلك أن الحركة العلمية ظلت مزدهرة طوال أيام المماليك ، غير أنه يلاحظ أن نفوذ الفقهاء ازداد فى هذا العصر وازداد معه نفوذ المتصوفة وشاع معه الاعتقاد فى كراماتهم والمبالغة فى ذلك ، وبدون ريب كان بينهم كثيرون أجلاء على معرفة وفقه بصير بالشرع ، ولكن كان بينهم دخلاء مشعوذون جعلوا العامة يتعلقون بالأولياء ، ومنحوهم علم الغيب والقدرة على إنفاذ مايريده المتوسلون بهم . ويقف المستشرقون عندما نزل بابن[٣] تيميةَ من محن ، ويحاولون أن يتخذوا من ذلك دليلاً على جمود الفكر الدينى حينئذ غير ملاحظين أن ابن تيمية نفسه كان إماما حنبليا يدين بمذهب ابن حنبل وهو أكثر المذاهب سلفية . ومع ذلك كان من أكثر فقهاء عصره تحررًا فكريًّا ، وقد حارب الصوفيةَ فى منازعهم الفلسفية وكل ماقالوا به فى الحلول ووحدة الوجود ، وحارب الشيعة الإسماعيلية ومايزعمون لأئمتهم من العصمة وتمثيل العقل الكلى ومايتصل به من تجسد الإله

(١) مختصر مرآة الزمان ٤٢٦ ومابعدها

(٢) مما يذكر عن هؤلاء السلاطين أنه كان لهم بعض مؤلفات ، فكما كان للمعظم عيسى كتاب فى الفقه الحنفى كان للمنصور محمد الأيوبى صاحب حماة كتاب فى تاريخها ومن زارها أو اتخذها مسكنا من الأعلام (مختصر مرآة الزمان ٤٢١) وكان الامجد الأيوبى صاحب بعلبك يحضر دروس الحافظ اليونينى ، وكانوا يعدون حضور مجلس العلماء شرفا ما بعده شرف .

(٣) انظر فى ترجمة ابن تيمية فوات الوفيات ٦٢/١ والنجوم الزاهرة ٢٧١/٩ والمنهل الصافى ٣٣٦/١ وتذكرة الحفاظ للذهبى ٢٢٨/٤ وتاريخ ابن الوردى ٢٨٤/٢ والدرر الكامنة ١٥٤/١ والقول الجلىّ فى ترجمة الشيخ تقى الدين بن تيمية الحنبلى لصفى الدين الحنفى والكواكب الدرية فى مناقب ابن تيمية لمرعى الكرمى وابن تيمية للشيخ محمد أبوزهرة وابن تيمية للدكتور محمد يوسف موسى وأسبوع الفقه الإسلامى ومهرجان ابن تيمية طبع المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب بالقاهرة ودائرة المعارف الإسلامية ومابها من مراجع .

فى الخليفة ، وخصهم بكتابه عن الباطنية . وجعله تحرره الفكرى يفتح باب الاجتهاد على مصاريعه ويفتى فتاوى حرة فى كثير من مسائل الشرع . وجلب عليه ذلك سخط فئات كثيرة وخاصة من الفقهاء وعلماء الكلام الأشعرية ، إذ شملتهم هجماته . وهى هجمات صريحة جريئة ألّبت عليه كثيرين من الخصوم فى بيئات مختلفة ، وبدأ ذلك بوضوح منذ سنة ٦٩٨ إذ جاءه سؤال من حماة عما فى القرآن الكريم من آيات قد تفيد التشبيه على الذات العلية إذا فُهمت على ظاهرها مثل : (الرَّحْمن على العرش استوى) و (يَدُ الله فوق أيديهم) ومذهب المعتزلة والأشعرية تأويل مثل هذه الآيات ، وأن المراد فى الآية الاستيلاء على العرش ، ومعنى كلمة يد فى الآية الثانية القدرة . ومذهب الحنابلة ، وهو ماأجاب به ابن تيمية فى رسالة مستقلة ، أن واجبًا أن نؤمن بما جاء فى القرآن من هذه الصفات دون كيفية ودون تشبيه بالمخلوقات وأيضًا دون تأويلها فوق طاقة الإنسان . وسرعان مااتهمه الفقهاء الأشاعرة بأنه يرى فى الذات العلية رأى المجسمة أو المشبهة ، ورفعوا أمره إلى قاضى القضاة بدمشق فبرّأه من التهمة . ونجاه الله من هذه المحنة .

ثم كانت التهمة الثانية لابن تيمية فى سنة ٧٠٥ بسبب حملته على الطريقة الصوفية الرفاعية ومايموّه به أصحابها على الناس من النفوذ من النار وغير ذلك من كرامات يدّعونها ، وشكوْه إلى نائب السلطنة بدمشق ، فأمرهم النائب أن يكفوا عن حيلهم وخداعهم للناس كما مر بنا . وفى نفس السنة طُلب إلى القاهرة لمناظرة علمائها واجتمعوا له — وخاصة فقهاء الشافعية الأشاعرة — وأخذوا يناقشونه فى إثبات الصفات على الله حسب ظاهرها القرآنى ، فالله استوى — كما يقول — حقيقة على العرش ونحو ذلك . وجادلهم ابن تيمية طويلا موضحًا رأيه فى الإيمان بهذه الصفات دون كيفية ودون إثبات تجسيد على الله ، غير أنهم حكموا عليه بالسجن وظل فيه عاما وبضعة أشهر . ولبث فى القاهرة يعلّم ويعظ ، وسرعان ماأوقع به خصومه بدعوى حَمْلته على أصحاب المنزع الفلسفى فى التصوف القائلين بالحلول ووحدة الوجود . وسُجن بالإسكندرية ، حتى إذا رقى عرش مصر الناصر بن قلاوون سنة ٧٠٩ ردَّ إليه حريته وأكرمه إكراما عظيما . وفى سنة ٧١٢ عاد إلى دمشق وتفرغ للتأليف والإفتاء ، حتى إذا كانت سنة ٧١٨ وأفتى أن الحلف بالطلاق كالحلف بالله يكفَّر عنه وأن الطلاق بالثلاث يُعَدُّ طلقة واحدة . حينئذ ثارت ثائرة الفقهاء ، حتى أجبروا السلطان على منعه من الفتوى بذلك ، وصدع السلطان لمشيئتهم . غير أنه عاد إلى الإفتاء بما ذكرنا فى سنة ٧٢٠ وعُقد بدمشق مجلس لمحاكمته ، وسُجن ولبث فى السجن خمسة أشهر وأياما ثم رُدَّت إليه حريته . حتى إذا كانت سنة ٧٢٦ أفتى بأن الرحلة إلى قبور الأنبياء والأولياء والصالحين

معصية من أشد المعاصى ، فاعتُقل بسبب هذه الفتوى وجُعل فى قاعة حسنة بقلعة دمشق وأقام بها مشغولا بالتصنيف والتأليف ، وبأخرة من أيام سجنه مُنع من الأوراق والدواة والقلم ، ولم يلبث أن توفى سنة ٧٢٨ .

وواضح أن محنة ابن تيمية وسجنه لم يكونا بسبب اجتهاده فى مسائل الشرع وإنما بسبب تعرضه لمسألة عقيدية تتصل بصفات الله وأخرى تتصل بزيارة قبور الأنبياء والأولياء . وكان فى الصفات يأخذ برأى السلف ويترك رأى الأشاعرة والمعتزلة أى أنه لم يكن اجتهادا منه ، أما مسألة الاجتهاد فى الشرع فقد تركها العلماء له . ولسنا بصدد إحصاء آرائه الفقهية الجديدة . إنما حسبنا أن نشير إليها وأن نتخذ منها دليلا — كما مر بنا آنفا — على أن باب الاجتهاد ظل مفتوحا على مصاريعه طوال زمن المماليك حتى بين الحنابلة . واشتهر فى كل مذهب فقهى مجتهدون جدد مثل النووى فى المذهب الشافعى . ونفس آراء ابن تيمية ظلت حية عاملة بعده إلى أن استمدت منها الحركة الوهابية بواعثها بعد أربعمائة من السنين . وإذا كان قد تورط بعض فقهاء الشافعية فى محاكمته بدمشق والقاهرة فإن ابن تغرى بردى يذكر أن كبيرهم فى دمشق ابن الزَّمْلكانى ونظيره فى مصر ابن دقيق العيد أثنيا عليه ثناء عطرا وينقل عن ابن الزملكانى قوله عنه : « العلامة الأوحد الحافظ المجتهد الزاهد العابد القدوة إمام الأئمة ، وقدوة الأمة ، علامة العلماء ، وارث الأنبياء ، آخر المجتهدين ، أوحد علماء الدين .. محيى السنَّة ومن عظمت به لله علينا المِنَّة » .

وعلى هذا النحو كانت الحياة العلمية نشطة مزدهرة فى زمن المماليك ، وكانوا يشجعون العلماء والأدباء ، وطالما اقترحوا على بعض المؤلفين تأليف هذا الكتاب أو ذاك ، وكانت البلادُ دارَّة وقضاتها على المذاهب الأربعة يحكمون بين الناس بالعدل . فلما أظل لواء العثمانيين الشام أصابها ما أصاب مصر من انتكاس الحركتين العلمية والأدبية ، ومع ذلك ظلت جذوة منها متقدة فى بعض المدارس والجوامع وبخاصة فى الجامع الأموى بدمشق ، إذ ظلت فيه حلقات التدريس . ومرَّ بنا أن الحكم العثمانى بالشام أخذ يسوء سوءًا شديدًا ، وأخذت المظالم فيه تزداد والضرائب تتضاعف ، وكان لذلك أثره فى تدهور الحركتين العلمية والأدبية . وألغى العثمانيون نظام قضاة المذاهب الأربعة الذى وضعه الظاهر بيبرس وظل قائما طوال أيام المماليك ، حتى إذا حكموا البلاد استعاضوا عن هؤلاء القضاة بقاضٍ عام واحد هو قاضى العسكر ، وألغوا استخدام العربية فى دواوين الولاية ، واستخدموا مكانها التركية ، وكان لذلك تأثيره على الكتابة والكتاب ، فلم تعد تكتب رسائل ديوانية ولا مناشير وتقاليد بالعربية ، غير أن العربية كانت لغةَ الدين الحنيف ، فظلت

حية فى ديار الشام هى والعلوم الدينية ، وأيضا العلوم اللغوية ، حتى ليلقانا من حين إلى حين نابغون فى الدراسات الدينية وفى الشعر والنقد والتصوف والتاريخ .

٢

علوم الأوائل – علم الجغرافيا

(١) علوم الأوائل

مرَّ بنا – فى فاتحة الفصل – أن الشام شاركت فى التراث اليونانى منذ انتشرت فيها الثقافة الهيلينية وبخاصة فى ثغورها : صور وصيداء وبيروت وأنطاكية . وظلت هذه المشاركة مستمرة حين اعتنقت المسيحية . فكان كثيرون من سكان الأديرة ورهبانها يعرفون ما لليونان من تراث فى الفكر الفلسفى والعلمى ، ومنهم من كان يحذق اليونانية ، وبذلك كانت الأديرة مراكز للثقافة الهيلينية قبل الفتح الإسلامى وبعده . وبالمثل ظلت أنطاكية وبعض الثغور الشامية تعنى بتلك الثقافة .

ويلقانا فى عهد معاوية طبيبان من الأطباء المتميزين فى دمشق حينئذ هما ابن أثال ، ويقول ابن أبى أصيبعة إنه كان خبيرا بالأدوية المفردة والمركبة [١] ، وأبو الحكم وكان عالما بأنواع العلاج والأدوية [٢] . وهما يرمزان إلى مانقوله من أن التراث العلمى اليونانى ، وبخاصة علم الطب ، ظل حيا فى ديار الشام ، مما أتاح لخالد بن يزيد بن معاوية أن يتعلق به ، وقال مترجموه إنه كان يشغف بكتب الكيمياء والطب والنجوم ، كما قالوا إنه أحضر من الإسكندرية بعض الفلاسفة الحاذقين لليونانية والعربية وأمرهم أن يترجموا له كتبا فى الكيمياء ، ويبدو أنه تعمقها حتى استطاع أن يؤلف فيها كتبا ورسائل ، يقول صاحب الفهرست : « رأيت من كتبه كتاب الحرارات وكتاب الصحيفة الكبير وكتاب الصحيفة الصغير وكتاب وصيته فى الصنعة (الكيمياء) » [٣] . ونمضى بعد خالد فنلتقى بالخليفة عمر بن عبد العزيز ، ويقول ابن أبى أصيبعة إنه نقل تدريس علوم الأوائل من الإسكندرية إلى أنطاكية وحرَّان [٤] وناقش ماكس مايرهوف هذا القول وأثبت بطلانه [٥] ، إذ كانت أنطاكية وحران جميعا من المراكز التى عنيت قديما بدراسة التراث اليونانى . وربما دفع ابن أبى أصيبعة إلى هذا القول أنه رأى عمر يستقدم طبيبا من الإسكندرية هو عبد الملك بن

(١) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة (نشر دار مكتبة الحياة ببيروت) ص ١٧١ .

(٢) ابن أبى أصيبعة ص ١٧٥

(٣) الفهرست ص ٣٣٨ (٤) ابن أبى اصيبعة ١٧١

(٥) انظر مقالة ماكس مايرهوف : من الاسكندرية إلى بغداد فى كتاب التراث اليونانى للدكتور عبدالرحمن بدوى

أبجر ، ويتخذه طبيبا [١] له ، ويبدو أنه كان قد تعرف عليه فى أثناء ولاية أبيه على مصر ، فلما ولى الخلافة استقدمه وأسلم على يديه ، وظل يعتمد عليه فى صناعة الطب . وربما دفع ابن أبى أصيبعة إلى هذا القول أيضا أنه أمر بنقل كتاب القس أهرون الإسكندرى فى الطب إلى العربية ، ويبدو أنه كان قد نال شهرة فى علم الطب لزمنه ، ومع ذلك لم يترجمه أحد علماء أنطاكية لعمر ، وإنما ترجمه ماسرجويه [٢] البصرى . ولو أنه فكر حقا فى نقل التعليم – وخاصة تعليم الطب – إلى بلد بالشام لنقله إلى عاصمته دمشق كما صنع خالد بن يزيد بن معاوية .

على كل حال كان التراث اليونانى الفلسفى والعلمى معروفا – طوال زمن بنى أمية – فى أنطاكية وبعض مدن الشام وفى الأديرة ، وأخذت تؤلف بعض الكتب على ضوئه كما صنع خالد ابن يزيد بن معاوية ، كما أخذت تنقل منه إلى العربية بعض الرسائل والكتب . ويُرْوَى أن سالما رئيس ديوان الإنشاء لهشام بن عبد الملك ترجم بعض رسائل أرسططاليس إلى العربية [٣] ، ويذكر بروكلمان أنه تُرْجِمَ – أيام الأمويين سنة ١٢٥ – كتاب مفتاح أسرار النجوم [٤] . وكل ذلك يؤكد أن جو الشام كان مشبعا بالتراث اليونانى العلمى والفلسفى . وظل المعنيون بعلوم الأوائل يتنفسون فى هذا الجو طوال زمن الولاة العباسيين . ويبدو أن دمشق ظلت تعنى بها وبخاصة الطب ، ومن أطبائها فى القرن الثانى الحكم [٥] بن أبى الحكم ، وكان أبوه طبيب معاوية وقد عُمِّر طويلا حتى لحق القرن الثالث ، وكان طبيبا مسيحيا عالما بأنواع العلاج والأدوية . وكان ابنه عيسى [٦] – على غراره – طبيبا ، واستقدمته أم ولد للرشيد لعلاجها ، وله فى الطب كناش كبير . ويبدو أنه أُسِّس فى دمشق مرصد كبير ، إذ نرى المأمون يطلب مراجعة جداول بطليموس الفلكية على أرصاد تمت فى بغداد ودمشق ، وقد طلب أن تقاس إحدى درجات خط الزوال [٧] ويعلق على ذلك بروكلمان بأن المسلمين استطاعوا ببحوثهم المستقلة أن يسبقوا معلميهم من الهنود والإغريق فى وقت قصير .

وظلت الشام تشارك فى حركة الترجمة للتراث اليونانى ، ومن كبار مترجميها عبد المسيح [٨]

(١) ابن أبى أصيبعة ص ١٧١

(٢) إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطى ص ٨٠ ، ٣٢٤

(٣) الفهرست ص ١٧١

(٤) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان (طبع دار المعارف) ٩٠/٤

(٥) ابن أبى اصيبعة ص ١٧٦

(٦) ابن أبى أصيبعة ص ١٧٧

(٧) بروكلمان ١٩٦/٤ ويذكر القفطى ص ٢٨١ منجما خبيرا بالكواكب تولى الرصد للمأمون على جبل قاسيون بدمشق ، انظر القفطى ص ٣٥٧

(٨) انظر فى عبد المسيح بروكلمان ٩٥/٤ ودى بور ص ٢٢ وعلوم اليونان لأوليرى ص ٢٢٧

ابن عبد الله بن ناعمة الحمصي المتوفى لعهد المعتصم (٢١٨ — ٢٢٧ هـ) اشتهر بترجمته لكتاب الأغاليط لأرسطو وشرح يحيى النحوى على كتابه : السماع الطبيعى ، وترجم أيضا عن اليونانية كتابًا منسوبًا إلى أرسطو خطأً وهو المسمى أثولوجيا أو ربوبية ، وهو تلخيص مقتبس من تاسوعات أفلوطين الإسكندرى ، ولذلك تشيع فيه نزعة أفلاطونية محدثة .

ونمضى إلى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ، ويلمع اسم قُسْطا[1] بن لوقا المولود ببعلبك فى أوائل القرن ، وقد ترجم للخليفة المستعين (٢٤٨ — ٢٥١ هـ) كتابين : كتاب لثيودوسيوس وكتاب الحيل لهيرون . وذكر له ألدوميلى ترجمات أخرى ، وترك مؤلفات كثيرة منها رسالة فى العمل بالكرة الفلكية ، والجامع فى الدخول إلى علم الطب ، ومقدمة إلى علم الرياضيات ، والمدخل إلى الهندسة ، والمدخل إلى علم المنطق ، إلى مؤلفات أخرى كثيرة تتناول فروع العلم والفلسفة ، توفى سنة ٣٠٠ للهجرة . وكان يعاصره مترجم كبير هو حُبَيْش[2] بن الحسن الأعسم الدمشقى وهو ابن أخت حنين بن إسحق وتلميذه ، وكان يترجم عن اليونانية والسريانية ، وساعد خاله فى كثير من تراجمه ، ومما ترجمه عهد بقراط وكتاب الحشائش لديسقوريدس ، وكل كتب جالينوس ، وله كتاب فى الأدوية المفردة وآخر فى الأغذية . ومن كبار أطباء دمشق سعيد[3] ابن يعقوب الدمشقى وقد ولاه على بن عيسى وزير الخليفة المقتدر أمر مارَستان بغداد سنة ٣٠٢ وله ترجمات كثيرة ، ترجم إيساغوجى (لفوفوريوس) والمقالات السبع الأولى من كتاب الجدل لأرسطو ، وعُنى بترجمة الكتب الرياضية اليونانية وفى مقدمتها الجزء العاشر من أصول إقليدس وشرحه لبابوس ، ولا يوجد من هذا الشرح سوى ترجمته العربية ، وترجم أيضا كتبا لجالينوس .

وهذه الأسماء التى ذكرناها إنما هى رمز لما ظل بديار الشام من نشاط لعلوم الأوائل والمتعلقين بها طوال القرون الثلاثة الأولى وحقبا من القرن الرابع ، وفيه يقود سيف الدولة — كما مر بنا — حركة أدبية وفلسفية علمية ناشطة فى عاصمته حلب ، مما جعل كثيرين من أعلام الفكر والعلم والأدب فى زمنه يلمّون بحضرته ، وكثيرا ما كانوا يختارون الإقامة عنده ، وكان ممن اختار المقام ببلاطه فى حلب أكبر فيلسوف عربى فى زمنه الفارابى[4] ، وقد ظل عنده حتى لبىَّ نداء ربه سنة

---

(١) انظر فى ترجمة قسطا القفطى ٢٦٢ وابن أبى أصيبعة ٣٢٩ وبروكلمان ٩٧/٤ وألدوميلى ص ١٦٥ ومابعدها

(٢) راجع فى حبيش القفطى ١٧٧ وابن أبى أصيبعة ٢٧٦ وبروكلمان ١١٧/٤ وألدوميلى ص ١٤٣

(٣) انظر فى سعيد ابن أبى أصيبعة ٢٨٢ وبروكلمان ١١٨/٤ وألدوميلى ص ٢١١

(٤) راجع فى الفارابى وفلسفته ومراجعه كتابنا العصر العباسى الثانى ص ١٤٠ وما بعدها

٣٣٩ . وأحدث نزول الفارابي بحلب نشاطا فلسفيًّا وفكريًّا ظل سنوات مقامه بها وامتد بعد وفاته ، ومعروف أنه عُنى بمزج فلسفة أرسطو بالمذهب الأفلاطونى الجديد . ولعل مما يدل على اتساع النشاط الطبي والعلمى والفلسفى بالشام لتلك الأيام ماذكره القفطى عن سيف الدولة من أنه كان إذا أكل الطعام وقف على مائدته أربعة وعشرون طبيبا ثم يقول : كان فيهم من يأخذ راتبين لأجل تعاطيه علمين ومن يأخذ ثلاثة رواتب لتعاطيه ثلاثة علوم ، ويذكر أن طبيبه المسمى عيسى النفيسى كان يأخذ ثلاثة رواتب : راتبين بسبب إحسانه لعلمين وراتبا ثالثا جزاء ترجمته من السريانية إلى العربية [١] . وذكر القفطى بينهم فى موضع آخر من كتابه ابن كشكرايا [٢] وكان طبيبا مشهورا عيَّنه فيما بعد عضد الدولة البويهى بالبيمارستان المنسوب إليه ببغداد ، كما ذكر أيضا بين من كانوا يحضرون مجالس سيف الدولة أبا القاسم [٣] الرقى ، وكان من أصحاب التنجيم وعلم الهيئة والطب .

وهذا نشاط لعلماء الأوائل فى بيئة واحدة من بيئات الشام أثناء القرن الرابع ، ويبدو أنه بقيت بقايا من هذا النشاط زمن الفاطميين بدمشق وشاطئ الشام وعند المرداسيين بحلب والسلاجقة فى حلب ودمشق ، يدل على ذلك مايلقانا من أطباء مختلفين فى تلك الديار مثل البيرودى [٤] فى القرن الخامس وظافر [٥] بن جابر السكرى ومبشر [٦] بن فاتك فى نفس القرن ومثل ابن الصلاح [٧] وابن البذوخ [٨] فى القرن السادس . ومن المؤكد أن نزول حملة الصليب بديار الشام أصاب هذه الحركة بغير قليل من العطل ، ومع ذلك فقد تحولوا تلامذة لأطباء العرب يتعلمون على أيديهم فنونًا من الجراحة والطب ، ورأى بعض أطباء العرب – كما روى أسامة بن منقذ – أحد أطبائهم يعالج بعض مرضاه علاجا يدل على جهله بالطب ، فسخر منه سخرية شديدة ، وسجل على الصيلبيين عامة انحطاط الطب عندهم انحطاطا مزريا ، على نحو ماصور ذلك فى كتابه « الاعتبار » .

وندخل فى زمن الزنكيين ونور الدين محمود وصلاح الدين والأيوبيين ، ويعظم الاهتمام بالمرضى وبمن يعالجهم من الأطباء ، وتنشأ لهم بيمارَستانات ، ينزلونها وتقدم لهم فيها الأدوية

---

(١) القفطى ص ٢٥٠
(٢) القفطى ص ٤٠٣
(٣) القفطى ص ٤٢٩
(٤) ابن أبى أصيبعة ص ٦١٠
(٥) ابن أبى أصيبعة ص ٦١٤
(٦) القفطى ص ٢٦٩
(٧) القفطى ص ٤٢٨ وابن أبى أصيبعة ص ٦٣٨
(٨) ابن أبى أصيبعة ص ٦٢٨

والأغذية حتى يتم شفاؤهم . ويذكر ابن جبير فى رحلته بمارستانين رآهما بدمشق سنة ٥٧٨ : أحدهما قديم والثانى حديث ، ويقول إن الجديث أحفلهما وأكبرهما وجرايته (نفقته) فى اليوم نحو خمسة عشر دينارًا ، وله قومة (موظفون) بأيديهم الأوراق المحتوية على أسماء المرضى وعلى النفقات التى يحتاجون إليها فى الأدوية والأغذية وغير ذلك . والأطباء يبكِّرون إليه كل يوم ، ويتفقدون المرضى ، ويأمرون بإعداد مايصلحهم من الأدوية والأغذية حسبما يليق لكل إنسان منهم . ويقول إن المارستان القديم على هذا الرسم ولكن الاحتفال فى الجديد أكثر ، ويذكر أن للمجانين المعتقلين ضربا من العلاج وهم فى سلاسل موثقون . ثم يقول : وهذان المارستانان مفخرة عظيمة من مفاخر الإسلام . ولم تكن المارستانات دور علاج فحسب ، بل أيضا كانت مدارس يمرِّن فيها شباب الأطباء ويتلقون فيها عن شيوخ الطب محاضرات متنوعة . وأخذت البيمارستانات تُبْنَى فى ديار الشام حتى لنلتقى بمارستانات فى صَرْخد بفلسطين . وجعل ذلك الطب يعود إلى نشاطه ، فيتكاثر الأطباء ويتكاثر المهتمون بعلوم الأوائل حتى ليعدون فى كتاب ابن أبى أصيبعة بالعشرات . ولن نستطيع أن نقف عندهم جميعا إنما نقف عند مشهوريهم ، ونبدأ بشمس[١] الدين اللبودى المتوفى بدمشق سنة ٦٢١ وكان يَطُبُّ فى البيمارستان النورى الكبير بدمشق ، وكان له مجلس للاشتغال عليه بصناعة الطب وغيرها . وكان يعاصره الدَّخْوار[٢] مهذب الدين عبد الرحيم بن على الدمشقى مولدا ودارا رئيس بيمارستان دمشق الذى أسسه نور الدين محمود ، توفى سنة ٦٢٨ وأفرد ابن أبى أصيبعة له فى طبقاته فصلا طويلا تحدث فيه عن حياته ، وله مؤلفات كثيرة ، وكان يتخذ داره مدرسة لتعليم الطب ، وقفها على هذه الغاية فى حياته وبعد مماته . وكان أثره فى تعليم الطب بدمشق واسعا ، وتفقهت على يديه جماعة كبيرة .

وكان مما ساعد على ازدهار الدراسة لعلوم الأوائل ماذكرناه فى الفصل الماضى من أن أمراء البيت الأيوبى توزعوا بلدان الشام فيما بينهم ، وتحول كل أمير منهم فى بلد إلى راع للعلوم والآداب بها ، ودفع ذلك إلى تنافس بينهم ، مما أكثر من العلماء فى كل فروع العلم ، ونلتقى بمنصور بن فضل المشهور باسم رشيد[٣] الدين الصورى المتوفى سنة ٦٣٩ وُلد بصور ، ولذلك نسب إليها واشتغل بالطب على أساتذته ، وأقام بالقدس سنتين يعالج الناس فى بيمارستانها ، ثم انتقل إلى

(١) ابن أبى أصيبعة ص ٦٦٢

(٢) انظر فى الدخوار ابن أبى أصيبعة ص ٧٢٨ وفوات الوفيات ١/٥٦٣ وألدومييلى ص ٣٢٠

(٣) راجع فى رشيد الدين ابن أبى أصيبعة ص ٦٩٩ وألدومييلى ص ٣٢٠

دمشق وفُوِّضتْ إليه رياسة الطب والأطباء بها ، وكان بارعا فى معرفة الأدوية المفردة وماهياتها واختلاف أسمائها وصفاتها وتحقيق خواصها وتأثيراتها كما يقول ابن أبى أصيبعة ، وبذلك كان صيدليا كما كان طبيبا . وينوه ابن أبى أصيبعة بكتابه فى الأدوية المفردة وكيف كان يتعقبها ويسجلها إذ كان يصطحب معه مصورا ومعه الأصباغ والليَقُ (جمع ليقة) على اختلافها وتنوعها وكان يتوجه إلى مواضع النبات فى الشام مثل جبل لبنان وغيره مما به نبات يختص به ، ويشاهد النبات ويحققه ، ويُريه للمصوِّر فيعتبر لونه ومقدار ورقه وأغصانه وأصوله ، ويصوِّره . وسلك فى تصوير النبات مسلكا فريدا ، ذلك أنه كان يريه للمصوِّر فى إبان بزوغه فيصوره ، ثم يريه له فى وقت اكتمال نموه وظهور بزره فيصوره تلو ذلك ، ثم يريه له فى وقت يبسه وذبوله فيصوره . وبذلك ينظر قارئ كتابه إلى النبات فى أطوار نموه ، حتى تتحقق له معرفته بدقة . ولسوء الحظ سقط هذا الكتاب الرائع من يد الزمن .

ويتوفى نجم[1] الدين اللبودى سنة ٦٦٦ وكان يتعمق بحوث الفلسفة والفلك وعلم الطب وروى له ابن أبى أصيبعة مؤلفات كثيرة لم يبق منها إلا شرح له على كتاب القانون فى الطب لابن سينا ورسالة فى مسائل فسيولوجية . ورعاه فى الشطر الأول من حياته الملك المنصور إبراهيم بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص . وتقلب فى البلاد ثم استقر بدمشق ، وأسس بها مدرسة طبية وأخرى هندسية ، إذ كان رياضيا بارعا كما كان طبيبا ، وكانت له كتب فى الحساب والجبر والمقابلة . وكان يعاصره ابن أبى أصيبعة[2] الطبيب صاحب طبقات الأطباء الذى يتكرر ذكره فى الهوامش ، توفى سنة ٦٦٨ وقد ولد بدمشق وفى شبابه نزل القاهرة ، وشُغف بالطب وتلقاه على كبار الأطباء المصريين ، حتى برع فيه ، واشتغل فى البيمارستان الناصرى مدة ، ثم جذبه إليه أمير صَرْخد بفلسطين فى الزمن الذى ذكرناه . زمن رعاة العلوم والآداب المتعددين من الأيوبيين ، وأقام بها حتى وفاته ، وكتابه الطبقات يحمل معارف واسعة عن المشتغلين بعلوم الأوائل : طب وغير طب حتى زمنه .

ونمضى إلى زمن المماليك ، ويظل الاهتمام بعلوم الأوائل مطردا ويلقانا أبو الفرج يعقوب بن إسحق المشهور باسم ابن القف[3] المتوفى بدمشق سنة ٦٨٥ وكان مسيحيا وهو تلميذ ابن

---

(١) انظر فى اللبودى ابن أبى أصيبعة ص٦٦٣ وخطط الشام لكرد على ٤٦/٤ ، ١٠٣/٦ وألدوميلى ص٣٢١

(٢) راجع فى ابن أبى أصيبعة النجوم الزاهرة ٢٢٩/٧ وابن كثير ٢٥٧/١٣ والشذرات ٣٢٧/٥ وألدوميلى ص٣٣٠

(٣) انظر ابن أبى أصيبعة ص٧٦٧ وألدوميلى ص٣٢٢ ، ٣٢٦

أبي أصيبعة ، وكان طبيبا حاذقا ، واشتهر له كتابان : جامع الغرض في حفظ الصحة ودفع المرض ، والعمدة في صناعة الجراحة . وكان يعاصره ابن [1] السويدي إبراهيم بن طرخان شيخ الأطباء والصيادلة بدمشق المتوفى سنة ٦٩٠ وهو تلميذ الدخوار ، أخذ الطب عنه وله في الطب « التذكرة الهادية » وفي الصيدلة « الباهر في الجواهر » ذكر فيه كثيرين من العلماء الموثوق بهم في هذا الموضوع كالبيروني والرازي وأبي حنيفة الدينوري . ولابد أن نلاحظ أن كل هؤلاء الأطباء الذين ذكرناهم كان وراءهم عشرات في بلدان الشام المختلفة ، ويفيض ابن أبي أصيبعة في الحديث عنهم ، وأيضا لابد أن نلاحظ أن كل هؤلاء الأطباء كانوا دارسين للفلسفة اليونانية وفروع العلم المختلفة من رياضيات وفلك وتنجيم ، يصور ذلك أوضح تصوير مايذكره لهم ابن أبي أصيبعة من مؤلفات تتناول علوم الكيمياء والفيزيقا والرياضة والهيئة أو الفلك . وقد مضت الأجيال في زمن المماليك تنهل من موارد هذه العلوم واضعة نصب عيونها ممارسة الطب في البيمارستانات المنتشرة في بلدان الشام .

وممن نبغوا في الهندسة وعلم الفلك والرياضيات علاء الدين [2] بن الشاطر الموقِّت في الجامع الأموي بدمشق وله كتاب في الزيج توفي سنة ٧٧٧ ومثله ابن [3] الهائم الفرضي شهاب الدين المدرس بالقدس في المدرسة الصلاحية ، وله كتب مختلفة في الحساب والجبر ، توفي سنة ٨١٥ . وعُني كثيرون بالتأليف في علم المنطق . وألفت كتب كثيرة في ميادين الحرب والحركات العسكرية نكتفي بأن نذكر منها كتاب بغية القاصدين في العمل بالميادين لمحمد بن لاجين الطرابلسي الرماح المتوفى سنة ٧٨٠ ألفه لصاحب حلب .

ومع ماأصاب الحركة العلمية في الشام من تدهور في أيام العثمانيين ظل دائما بصيص من نورها يتراءى من حين إلى حين في الاهتمام بعلوم الأوائل وخاصة بالطب بلسم المرضى الشافي وأيضا بالفلك وفروعه ، واشتهرت حينئذ تذكرة [4] داود الأنطاكي المتوفى سنة ١٠٠٨ للهجرة ، وهي مهمة في وصف الأدوية والعقاقير والأمراض مع أن مؤلفها كان ضريرا ، وله كتاب يسمى الكامل في الطب طبع مرارا .

---

(١) انظر في ابن السويدي فوات الوفيات ٥٤/١ والمنهل الصافي ١٢٤/١ والدوميلي ص ٣١٩

(٢) راجع في علاء الدين الشذرات ٢٥٢/٦ والدوميلي ص ٥٥٣

(٣) انظر الضوء اللامع للسخاوي ج ٢ رقم ٤٤٩ والشذرات ١٠٩/٧ والدوميلي ص ٥٠٦ ، ٥١٣

(٤) راجع في داود الأنطاكي البدر الطالع للشوكاني ٢٤٦/١ وخلاصة الأثر ٦٤٠/٢ والدوميلي ص ٤١٧ ، ٥١٣

(ب) علم الجغرافيا

من أقدم المرويات الجغرافية عن أهل الشام رحلات تنسب إلى بعض الصحابة من أهلها أو من ولاتها ، من ذلك رحلة تنسب إلى تميم الدارى الفلسطينى الأصل المتوفى حوالى سنة ٤٠ للهجرة ، وهى رحلة بحرية قذفت به فيها عاصفة إلى جزيرة مهجورة فى البحر المتوسط . ومن ذلك أيضا رحلة تنسب إلى عبادة بن الصامت والى حمص المتوفى سنة ٣٤ للهجرة ، وهى رحلة برية إلى القسطنطينية . وذهب كراتشكوفسكى إلى أنهما قصتان ملفقتان بل منحولتان[١] . وتلقانا مرويات أخرى مشابهة ، وجميعها لاتدخل فى الجغرافيا بمعناها العلمى ، إذ يتأخر هذا المعنى إلى عصر الترجمة والاطلاع على مالدى الأمم الأجنبية من مصنفات جغرافية ، ونفس الكلمة التى سُمِّى بها العلم كلمة يونانية ، وأعجبهم من التراث اليونانى إلى أقصى حد كتاب المِجَسْطى لبطليموس ، وأخذت تنشأ على هديه مدرسة جغرافية عربية منذ أواخر القرن الثالث الهجرى .

وإذا مضينا إلى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى وجدنا القدس ينجب أهم جغرافى حتى زمنه ، ونقصد المقدسى[٢] محمد بن أحمد بن أبى بكر البناء البشارى ، وجدُّه أبو بكر البناء هو الذى بنى سور عكا وأبوابها لأحمد بن طولون . وقد طاف بأرجاء العالم الإسلامى فيما عدا الهند وسجستان والأندلس ، ودوَّن معلوماته فى كتابه « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » سنة ٣٧٥ وأعاد كتابته فى سنة ٣٧٨ وعلى النسخة الأخيرة اعتمد ياقوت فى معجمه الجغرافى . ويذكر فى مقدمة كتابه أنه اعتمد على ثلاثة مصادر : المشاهدة أو المعاينة بنفسه ، وماسمعه من الثقات ، وما وجده فى الكتب المصنفة ، واتبع فى وصفه لكل قطر منهجا ثابتا ذا ثلاث شعب : الشعبة الأولى تتناول أقسام القطر ومدنه ومواضعه العامرة ، والشعبة الثانية تتناول المناخ والزرع والطوائف والفرق واللغة والتجارة والأو . . النقود والعادات والمياه والمعادن والأماكن المقدسة وأخلاق السكان والتبعية السياسية للقطر والخراج ، والشعبة الثالثة تتناول ذكر المسافات وطرق المواصلات . وهو يقدم معلومات مهمة عن العادات والمعتقدات والتجارة . ويبدأ القسم الأول

---

(١) تاريخ الأدب الجغرافى العربى لكراتشكوفسكى (الترجمة العربية) ص ٥٣ ومابعدها

(٢) انظر فى المقدسى دائرة المعارف الإسلامية وبروكلمان ٢٥٣/٤ وما بهما من مراجع ومقدمة كتابه حتى ص ٤٤ وتاريخ الفلسفة فى الإسلام لدى بورص ٨٢ والحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى لميتز ٤/٢ وألدوميلى ص ٢٢٧ وكراتشكوفسكى ٢٠٨/١ – ٢١٥

فى الكتاب بجزيرة العرب فالعراق فالجزيرة شماليَّه فالشام فمصر فالمغرب فبادية الشام . والقسم الثانى ، جعله للمشرق ، يبدأ ببلاد الهياطلة فخراسان فالديلم فأرمينيا ومعها أذربيجان فالجبال فخوزستان ففارس فكرمان فالسند فمفازة فارس . وأضاف إلى كتابه خريطة مثَّل فيها الأقاليم وحدودها وخططها . ولم تصل إلينا خريطته ، ويقول إنه أوضح فيها الطرق المعروفة بالحمرة والرمال الذهبية بالصفرة والبحار المالحة بالخضرة ، والأنهار العذبة بالزرقة ، والجبال المشهورة بالغبرة . وكان يتحرى الثقات ويسألهم عن بلدانهم كما صنع بالأندلس ومثل سؤاله بساحل عدن لشيخ كان أعلم الناس بالبحر الصينى . والكتاب يعرض البلدان الإسلامية التى زارها بكل مشاهدها حتى لكأنما يبصرها قارؤه بكل سكانها ومعتقداتها وعاداتها ، وهو لا يبارَى فى عرضه لهذه المشاهد . ويتضح السجع أو النثر المقفى فى مقدمته الطويلة وفى مواضع مختلفة من الكتاب مما يدل على أنه كان يحاول أن يختار لكتابه لغة أدبية مصقولة . وكان يعاصره المطهر [1] بن طاهر المقدسى ، وهو مثله لاتعرف سنة وفاته ، وله كتاب بدء الخلق والتاريخ كتبه سنة ٣٥٥ للهجرة وهو جمع غير منسق لمعارف كثيرة تتصل بالأديان والعقائد والتاريخ المتصل بالأنبياء والملوك والخلفاء حتى زمنه ، وبه فصل جغرافى كتبه عن صفة الأرض ومبلغ عمرانها وعدد أقاليمها وصفة البحار والأنهار وعجائب الأرض والخلق ، ويعرض للمساجد المشهورة . ونلتقى فى النصف الأول من القرن الخامس بأبى الحسن على[2] بن محمد بن شجاع الربعى المالكى المتوفى سنة ٤٣٥ وله «كتاب الإعلام فى فضائل الشام ودمشق وذكر مافيها من الآثار والبقاع الشريفة» .

ويصبح موضوع فضائل بلدان الشام أساسيًّا منذ أواخر القرن الخامس الهجرى ، حين استولى حَملة الصليب على أنطاكية وطرابلس وبيت المقدس ، إذهبَّ الشاميون — والعرب معهم فى كل مكان — يصرخون فى وجوه حَملة الصليب أن غادروا ترابنا الطاهر وأماكننا المقدسة . وأخذ الشعراء والعلماء يلوِّحون فى وجوههم ، الشعراء بما يستطيعون أن يصوبوه من سهام الشعر ، والعلماء بما يكتبون عن فريضة الجهاد لأعداء الإسلام . وانتظم الجغرافيون معهم يكتبون عن فضائل بيت المقدس والشام ، وأول من تصدَّى لذلك من الجغرافيين المشرَّف [3] بن المرجَّى المقدسى الذى صنف بأخرة من القرن الخامس بعد استيلاء حملة الصليب على بيت المقدس سنة

(١) انظر فى المطهر بروكلمان ٦٢/٣ وكراتشكوفسكى ٢٢٤/١ .

(٢) راجع فى الربعى بروكلمان ٦٨/٦ وكراتشكوفسكى ٥٠٨/١ .

(٣) انظر فى المشرف بروكلمان ٧٣/٦ وكراتشكوفسكى ٥٠٨/١ وما بعدها .

٤٩٢ كتابه : « فضائل البيت المقدّس والشام » ليستثير حماسة الناس من حوله حتى يضربوا حملة الصليب الضربة القاضية ويطهروا أرض الشام الزكية من رِجْسهم . وفى نفس هذه اللحظة التاريخية ألف أبو بكر[1] بن محمد بن أحمد الواسطى سنة ٥٠٠ للهجرة كتابا عن « فضائل بيت المقدس » . وأخذ يتوالى هذا النوع من الكتب حافزًا لسحق الصليبيين . وألف أبو القاسم على بن الحسن الشافعى المعروف بابن عساكر[2] المتوفى سنة ٦٧١ تاريخ مدينة دمشق عرض فيه أسماء الأنبياء والعلماء والصالحين فى ثمانين مجلداً ، وممن ذكرهم من الأنبياء سليمان وشعيب . كل ذلك ليحيط مدينته بهالة قدسية كى يدافع عنها أبناؤها والعرب ضد حملة الصليب حتى الدماء الأخير . ويستولى صلاح الدين على بيت المقدس — كما مر بنا — سنة ٥٨٣ بعد أن حطم حَملة الصليب ودمرهم فى حِطِّين تدميرا لم يكد يبقى منهم ولايذر . وتكون لذلك فرحة مابعدها فرحة فى نفوس المسلمين . ولايكاد يمضى على ذلك ثلاثة عشر عاما حتى نجد ابن هذا الحافظ المؤرخ الكبير المسمى باسم القاسم[3] ، وكان يشتغل بالوعظ فى دمشق ، يذهب بنفسه إلى بيت المقدس سنة ٥٩٦ ليقرأ على الناس هناك كتابه : « الجامع المستقصَى فى فضائل المسجد الأقصى » .

ويلقانا على[4] الهروى السائح المتوفى بحلب سنة ٦١١ وكان قد أكثر من التجوال والترحال لزيارة أضرحة الأولياء فى الشام وغير الشام ، وكان قد ألقى عصا تسياره بحلب وألف كتابه « الإشارات إلى معرفة الزيارات » وأصبح له نفوذ كبير عند الملك الظاهر بن صلاح الدين صاحب حلب ، فشيد له مدرسة بظاهر حلب ، وهى صورة من صور رعاية أمراء البيت الأيوبى فى الشام لاالعلماء بلدهم فحسب ، بل أيضا بمن ينزل بها من جِلّة العلماء ، حتى ليبنون لهم المدارس ليحاضروا فيها الطلاب . ونلتقى بعثمان[5] النابلسى المتوفى حوالى سنة ٦٤٥ وله كتاب « لمع القوانين المضية فى دواوين الديار المصرية » وهو فيه يستمد من كتاب « قوانين الدواوين » لابن مماتى وُعيِّن حاكما لمحافظة الفيوم فكتب عنها كتابا تاريخيا جغرافيا سماه « إظهار صنعة الحى القيوم فى

---

(١) راجع كراتشكوفسكى ٦٩/١

(٢) انظر فى الجغرافى المؤرخ الحافظ ابن عساكر معجم الأدباء ٧٣/١٣ وخريدة القصر (قسم شعراء الشام) ٢٧٤/١ والمنتظم ٢٦١/١٠ ومرآة الزمان ٣٣٦/٨ وتذكرة الحفاظ ١٣٢٨/٤ وعبر الذهبى ٢١٢/٤ ومرآة الجنان ٣٩٣/٣ وطبقات الشافعية للسبكى ٢١٥/٧ وابن خلكان ٣٠٩/٣ وشذرات الذهب ٢٣٩/٤ والنجوم الزاهرة ٧٧/٦ والبداية والنهاية ٢٩٤/١٢

(٣) انظر فى القاسم بن عساكر طبقات الشافعية ٣٥٢/٨ والنجوم الزاهرة ١٨٦/٦ وتذكرة الحفاظ ١٣٦٧/٤ والعبر ٣١٤ وشذرات الذهب ٣٤٧/٤ وكراتشكوفسكى ٥٠٩/٢

(٤) راجع فى الهروى ابن خلكان ٣٤٦/٣ والشذرات ٤٩/٥ وكراتشكوفسكى ٣٢٠/١

(٥) انظر عثمان النابلسى فى كراتشكوفسكى ٣٤٩/١

ترتيب بلاد الفيوم » ويؤلف [1] ابن شداد المتوفى سنة ٦٨٤ – هو غير بهاء الدين بن شداد صاحب سيرة صلاح الدين – كتابا بديعا سماه الأعلاق الخطيرة فى أمراء الشام والجزيرة نُشر منه جزآن عن دمشق وحلب ، وهو يعطى بيانات دقيقة عما فى البلدين من المساجد والخانقاهات والمزارات والحمامات ، وقد رجعنا إليه مرارا فى حديثنا عن الحركة العلمية .

وتأخذ الكتب الجغرافية المليئة بالعجائب والغرائب فى الظهور . ونقرأ منها كتاب نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر لشمس [2] الدين محمد بن أبى طالب الدمشقى المتوفى سنة ٧٢٧ وكان إماما لمسجد الربوة بدمشق ، والكتاب يفيض بمعلومات كثيرة تدخل فى التاريخ الطبيعى ومايتصل به من نباتات البلدان شرقا وغربا وحيواناتها ومعادنها ، وللشام أو بعبارة أدق لسوريا وفلسطين نصيب جغرافى كبير ، وأُلحق به بعض الخرائط وفُقدت منه .

وكان حملة الصليب قد خرجوا نهائيا من الشام ، فكان من الطبيعى أن يعنى إبراهيم [3] بن الفركاح المتوفى سنة ٧٢٧ بتأليف كتابيه : « الإعلام بفضائل الشام » و« باعث النفوس إلى زيارة القدس المحروس » . ويلقانا أبو الفدا الملك المؤيد[4] إسماعيل الأيوبى صاحب حماة المتوفى سنة ٧٣٢ ويشتهر بكتابين فى التاريخ والجغرافيا ، ويهمنا الثانى وعنوانه « تقويم البلدان » وهو كتاب جغرافى للعالم فى زمنه ، وقد ظل أهم كتاب جغرافى عربى حتى العصر الحديث ، ودائما يذكر مصادره كأحدث الكتابات الجغرافية . ويؤلف شهاب[5] الدين القدسى المتوفى سنة ٧٦٥ كتابه « مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام » ، ويلقانا عمر[6] بن الوردى المتوفى سنة ٨٥٠ – وهو غير زين الدين بن الوردى المتوفى قبله بقرن – وله كتاب خريدة العجائب وفريدة الغرائب ، وهو مع وصفه الجغرافى للبلاد والأرض والبحار يعنى بالقصص الغريبة ، وقد جلبنا منه قصصا طريفة فى كتابنا « عجائب وأساطير » . ويؤلف عبد[7] الرحمن العليمى المتوفى لأوائل زمن العثمانيين سنة

---

(١) انظر فى عز الدين بن شداد تاريخ ابن الفرات (طبع بيروت) ٣٣/٨ والبداية والنهاية ٣٠٥/١٣ وشذرات الذهب ٣٨٨/٥ وكراتشكوفسكى ٣٦٩/١ .

(٢) راجع شمس الدين الدمشقى فى كراتشكوفسكى ٣٨٦/١ .

(٣) انظر ابن الفركاح فى الدرر ٣٥/١ والشذرات ٨٨/٦ وكراتشكوفسكى ٥١٠/٢

(٤) راجع الملك المؤيد فى فوات الوفيات ٢٨/١ والدرر ٣٩٦/١ وطبقات الشافعية ٤٠٣/٩ والبداية والنهاية ١٥٨/١٤ وتاريخ ابن الوردى ٢٩٧/٢ والنجوم الزاهرة ٢٩٢/٩ وكراتشكوفسكى ٣٨٩/١

(٥) انظر فى شهاب الدين الدرر ٢٥٧/١ . وكراتشكوفسكى ٥١١/٢

(٦) راجع فى عمر بن الوردى ابن إياس ٦٠/٢ وكراتشكوفسكى ٥٠٠/٢ ودائرة المعارف الإسلامية .

(٧) انظر العليمى فى كراتشكوفسكى ٥١٥/٢

٩٢٨ كتابه « الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل » . وتكثر أيام العثمانيين كتب الرحلات والفضائل وتقل قلة شديدة الكتب الجغرافية بمعناها الدقيق . وربما كان أكثر أهل الشام حينئذ نشاطا فى الكتابة عن دمشق ومساجدها ومدارسها ومواضع أحيائها وضواحيها ومزاراتها ابن [1] طولون الصالحى المتوفى سنة ٩٥٣ وله فى ذلك رسائل متعددة ، وله أيضا وصف للطريق من الشام إلى مكة باسم « منازل الحج الشامى » . ويكثر وصف الرحلات إلى القسطنطينية ، وبدأها بدر[2] الدين محمد الغزى المتوفى سنة ٩٨٤ بكتابه « المطالع البدرية فى المنازل الرومية » وتلاه محمد [3] بن أحمد سكيكر المتوفى سنة ٩٨٧ للهجرة بوصف رحلته من حماة إلى القسطنطينية فى كتابه « زبدة الآثار فيما وقع لجامعه من الأسفار » . ونلتقى برحلات متعددة إلى مصر ، مثل « حاوى الأظعان النجدية إلى الديار المصرية » لأحمد[4] بن داود الحموى المتوفى سنة ١٠١٦ ووصَفَ محمد[5] بن أحمد بن حافظ الدين القدسى المتوفى سنة ١٠٥٥ زياراته لدمشق والقدس والقاهرة فى كتابة « إسفار الأسفار فى أبكار الأفكار » كتبه بلغة مسجوعة بها غير قليل من التكلف . ولعبد الغنى النابلسى الصوفى الذى سنترجم له فيما بعد المتوفى سنة ١١٤٣ أربع رحلات إلى طرابلس وبعلبك والقدس ومصر . وربما كان أهم من جاءوا بعد ذلك فى زمن العثمانيين أحمد[6] المنينى الطرابلسى المتوفى سنة ١١٧٢ ، وكان مدرسا بالجامع الأموى ، وله كتاب « الإنعام (أو الإعلام) بفضائل الشام وهو شارح السيرة المشهورة التى ألفها العتبى للسلطان محمود الغزنوى .

٣

علوم اللغة والنحو والنقد والبلاغة

أخذت الشام تُعْنَى بتعلم العربية منذ وضع فيها العرب أقدامهم حتى تحسن النطق بالذكر الحكيم ، وبمجرد أن تحولت مقاليد الخلافة إلى معاوية وأصبحت دمشق عاصمة الدولة الإسلامية

(١) انظر فى ابن طولون ترجمة شخصية له طبعت بدمشق بعنوان : الفلك المشحون فى أحوال محمد بن طولون وراجع الكواكب السائرة ٢/٥٢ وشذرات الذهب ٨/٢٩٨ وكراتشكوفسكى ٢/٦٨١ ومابعدها

(٢) انظر كراتشكوفسكى ٢/٦٨٥

(٣) راجع كراتشكوفسكى ٢/٦٨٧

(٤) انظر كراتشكوفسكى ٢/٦٩٠

(٥) راجع كراتشكوفسكى ٢/٦٩٢

(٦) انظر فى المنينى سلك الدرر للمرادى ١/١٣٣ وكراتشكوفسكى ٢/٧٥٧

ازدادت الرغبة حتى عند المسيحيين فى معرفة العربية لغة الحاكم وإدارته الجديدة ، وحقا كانت الشام قد أخذت فى التعرب قبل الإسلام ، ولكن كان لايزال بها كثيرون لايعرفون العربية ، بل قل إن الكثرة كانت لاتعرفها ، وكان الذين اعتنقوا الإسلام شغوفين بالتزود منها ، ويمكن أن نتخذ مما ينسب إلى عبيد بن شَرِيَّة جليس معاوية ومحدثه بأخبار الأمم السالفة من أنه وضع للناس كتابا فى الأمثال [١] رمزا لتلبية هذا الشغف عند أهل الشام ، ويليه أيضا فى أيام يزيد بن معاوية أخبارى يسمى علاقة بن كريم الكلابى ، فوضع للناس كتابا ثانيا فى الأمثال[٢] والحكم . وأخذ ينشأ حينئذ معلمون يعلمون الناس العربية ، كانوا يسمون باسم المؤدبين ، ولم تهتم الكتب بإعطاء بيانات عمن كانوا يعلمون العامة منهم ، ولاشك أن كثرتهم كانت من قُرَّاء الذكر الحكيم ، حتى يحسن القارئ تلاوته ، أما من كانوا يعلمون الخاصة من أبناء الخلفاء وأمراء البيت الأموى فزوَّدتنا المصادر ببعض أسمائهم ، ومنهم عبد الصمد بن عبد الأعلى مؤدب[٣] أولاد عتبة بن أبى سفيان ، وهو أيضا مؤدب[٤] الوليد بن يزيد ، ويقال إنه هو الذى دفعه إلى المجون ، إذ كان زنديقًا ماجنا . وكان معبد الجهنى مؤدبا[٥] لسعيد بن عبد الملك ، واتخذ هشام بن عبد الملك فى خلافته الزهرى المحدِّث مؤدبا[٦] لأبنائه .

ومضت الشام طوال القرنين الثانى والثالث تُعْنَى بتعلم العربية وإتقان الناشئة لها وقيام أمثال من سميناهم على تعليمها من المؤدبين والمعلمين . ويبدو أنهم كانوا يعدون تلاميذهم إعدادا واسعا ، يدل على ذلك أن شاعرين ممن خرَّجوهما — تخرج أولهما وهو أبو تمام فى الربع الأخير من القرن الثانى وتخرج الثانى فى أوائل القرن الثالث وهو البحترى — وضعا أقيم مجموعتين من اختيارات الشعر حتى زمنهما ، وسمَّى كل منهما مجموعته باسم الحماسة على نحو ماهو معروف . وكانت بغداد — مركز الخلافة — تجذب إليها بعض هؤلاء المؤدبين ، وكان الخلفاء يتخذون منهم أحيانا مؤدبى أبنائهم ، مثل أحمد بن سعيد الدمشقى وكان مؤدبا لأبناء الخليفة المعتز واختص بتخريج عبد الله بن المعتز الشاعر المشهور . ويبدو أن علماء اللغة فى الشام لم يستقلوا عن علماء النحو إلى حقب متطاولة ،

---

(١) الفهرست ص ١٣٢

(٢) الفهرست ص ١٣٢ ونسب ابن النديم كتابا فى الأمثال لصحار العبدى معاصر معاوية .

(٣) البيان والتبيين ١/٢٥٢

(٤) أغانى (طبع دار الكتب) ٣/٧ ولسان الميزان لابن حجر ٤/٧١

(٥) البيان والتبيين ١/٢٥١

(٦) بروكلمان (الطبعة العربية بدار المعارف) ١/٢٥٤ .

بمعنى أن عالم اللغة والنحو كان واحدا ، وكان يؤلف فى الميدانين معا ، وقد يكون شاميا أصيلا وقد يكون من نزلاء الشام .

وأول نحوى ولغوى كبير نلتقى به فى الشام الزجَّاجى [1] عبد الرحمن بن إسحق ، كان قد لزم الزجَّاج العالم النحوى ببغداد ، فنُسب إليه ، ونزل الشام فأقام بحلب مدة ثم انتقل إلى دمشق وأقام بها يعلِّم كتابه الجُمَل ، وهو كتاب بارع فى تعليم الناشئة ، وظل يُدَرَّسُ بعده فى مصر والمغرب والحجاز واليمن فضلا عن الشام مددًا متطاولة لوضوح عبارته ودقة تبويبه . وله أمال تزخر بالمعارف اللغوية وهى منشورة ، وله فى علل النحو كتاب نفيس سماه الإيضاح وهو أقدم كتاب تناول هذا الموضوع تناولا مفصلا دقيقا ، نشره الدكتور مازن مبارك مع مقدمة لى تحليلية . وقد ترجمت للزجاجى فى كتابى « المدارس النحوية » وأوضحت أنه من مؤسسى المدرسة البغدادية التى تعتمد على الآراء النحوية البصرية وتضم إليها بعض الآراء النحوية الكوفية مع النفوذ إلى آراء جديدة . وخرج فى سنة ٣٤٠ مع عامل الضياع الإخشيدية — إذ كانت الشام حينئذ تتبع الإخشيد — إلى طَبرِيَّة فتوفى بها .

وكانت حلب قد أخذت تنافس بغداد فى النهضة الفكرية ، إذ بعث فيها سيف الدولة — كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع — حياة أدبية وعلمية باهرة بما جمع فى بلاطه من الفلاسفة مثل الفارابى والمترجمين مثل عيسى النفيسى والأطباء مثل أبى القاسم الرقى . وكان للغة والنحو حظ وافر من العلماء ، إذ كان بحلب حينئذ أبو الطيب [2] عبد الواحد اللغوى ، وله كتاب مراتب النحويين وكتاب فى الأضداد ، غير كتب لغوية أخرى . ونزل حلب ابن خالويه [3] اللغوى النحوى واتخذه سيف الدولة مؤدبًا لأبنائه ، وله فى اللغة كتاب الاشتقاق وكتاب المقصور والممدود وكتاب المذكر والمؤنث وله فى النحو كتاب إعراب ثلاثين سورة من القرآن العزيز وطبعته دار الكتب المصرية ، وله كتاب فى القراءات منشور ، وعنى بدراسة لغة العامة لأيامه ، ومن أجل ذلك ألَّف كتابه « ليس » فى كلام العرب ، وعقب عليه الحافظ المصرى مغلطاى فى مواضع وسمى كتابه « الميْس على ليس » ويريد بالميس الاختيال . وكان ينزع فى آرائه منزع الكوفة وتوفى بحلب سنة ٣٧٠ .

---

(١) انظر فى الزجاجى إنباه الرواة ٢/١٦٠ وابن خلكان ٣/١٧٦ وكتابنا المدارس النحوية (طبع دار المعارف) ص ٢٥٢ وبروكلمان ٢/١٧٣

(٢) راجع فى أبى الطيب مقدمة الناشر لكتابه مراتب النحويين وبغية الوعاة وبروكلمان ٢/٢٤٢

(٣) انظر فى ابن خالويه إنباه الرواة ١/٣٢٤ وابن خلكان ٢/١٧٨ ومعجم الأدباء ٩/٢٠٠ ويتيمة الدهر ١/٨٨ وطبقات الشافعية للسبكى ٣/٢٦٩

وبجانب ابن خالويه وأبى الطيب اللغوى كانت هناك طائفة من نحاة أقل شهرة مثل أحمد بن البازيار وأحمد السميساطى وعلى بن محمد العدوى وعبد[1] الله بن عمرو الفياضى ، وكان معهم النامى الشاعر ، وكان سيف الدولة يعجب بشعره ، وبدأ حياته نحويا فى بلدته المِصِّيصة ، ثم تحول شاعرا ، وكانت له إملاءات لغوية ونحوية بحلب والتف حوله كثيرون من التلاميذ .

وكان كُشاجم على شاكلة النامى لغويا وشاعرًا وله كتاب المصايد والمطارد وهو منشور ، وكان له كتاب فى البيزرة وكتاب ثان فى أدب النديم . ومثله كان الخالديان : عثمان وأخوه أبو بكر محمد ، ولهما تصانيف فى الشعر والشعراء مثل كتاب الحماسة وأخبار أبى تمام وأخبار ابن الرومى . ولمع حينئذ فى سماء حلب كوكبان نحويان لغويان كبيران هما أبوعلى القارسى وتلميذه ابن جنى . وقد تحدثنا عن نشاطهما اللغوى والنحوى فى كتابنا « المدارس النحوية » ويهمنا هنا أن نذكر أن ابن جنى لزم المتنىَ فى بلاط سيف الدولة وبعد ذلك فى بغداد وإيران وروى عنه ديوانه وشرحه شرحين ، صغير مختصر وكبير مطول وعلى أساسهما بُنيت شروحه فيما بعد . وأهم مَنْ شَرحه بعده من أهل الشام أبو العلاء المعرى ، وله عليه شرحان : كبير ومتوسط وهما معجز أحمد واللامع العزيزى سماه بهذا الاسم لأنه قدمه إلى عزيز الدولة ثابت[2] بن ثُمال بن صالح بن مرداس سنة ٤٣٤ وربما كان يتولى المعرة حينذاك . وفى ذلك مايشير إلى ماقلناه مرارا من أن حكام الإمارات والمدن كانوا رعاة للعلم والأدب ، ولعل فيه مايشير أيضا إلى أن بنى مرداس الذين خلفوا الحمدانيين وظلوا حكاما على إمارة حلب من سنة ٤١٥ إلى سنة ٤٦٧ أعادوا لها ذكرى الحركة الفكرية التى بعثها فيها سيف الدولة الحمدانى وأسرته .

ولعل بلدًا عربيا لم يظفر بما ظفرت به الشام فى أبى العلاء الشاعر اللغوى العبقرى المولود سنة ٣٦٣ والمتوفى سنة ٤٤٩ للهجرة وقد استوعب كل تراث زمنه من العلوم اللغوية والشرعية وعلوم الأوائل واستظهر ذلك كله فى أشعاره وفى رسائله وكتاباته النثرية ، وكان للغة وغرائبها الحظ الأكبر ، وكأن ليس هناك شاذة ولا شاردة لغوية إلا سلكها فى أشعاره ورسائله . ولذلك كان يفرد دائما شروحا لغوية لأعماله ، وقد أفرد لديوانه سقط الزند شرحًا سماه ضوء السقط وهو منشور ، وأفرد للزوميات شرحا سقط من يد الزمن ، ويقال إنه كان فى مائة كراسة ، وأفرد للفصول والغايات وهى فى الزهد والعظات شرحًا ، أنشأه فى غريبها وسماه « السادن » كان فى

---

(١) ... مر كتاب (أبو الطيب المتنبى) لبلاشير (ترجمة الدكتور الكيلانى) ص ٢٢٨

(٢) راجع إنباه الرواة ١/٦٥ وانظر معجم الأدباء ٣/١٦٢

عشرين كراسة . ولعل فى ذلك مايشير إلى أنه كان ينبغى فى نشر هذا الكتاب إفراد الشرح عن متنه ، وكان قد وضع فى غاياته شرحا سماه إقليد الغايات مقداره عشر كراريس كان ينبغى أيضا أن يُفْرَدَ عنه شرح غاية أو قافية كل فصل من فصوله . وهذا نفسه يلاحظ فى رسالته البديعة : رسالة الغفران ، فقد نشرت مع شرح يتخللها وينتظم فى تضاعيفها ، وكان ينبغى أن ينحَّى عنها ويوضع فى هوامشها بحيث يكون لها هوامش من إملاء أبى العلاء وهوامش أخرى خاصة بالتحقيق . ومثلها رسالة الصاهل والشاحج التى كتبها على لسان فرس وبغل : فقد أتبعها بشرح سماه «لسان الصاهل والشاحج» . وقد نشرتها هى ورسالة الغفران الدكتورة بنت الشاطئ ، ويقال إنه قدم رسالة الصاهل والشاحج لعزيز الدولة فاتك الذى كان واليًا للفاطميين على حلب[1] من سنة ٤٠٧ إلى سنة ٤١٣ وقدم رسالته السَّندية إلى والى حلب الذى خلف فاتكا : سند[2] الدولة بن عثمان الكُتامى . ولعل فى الرسالتين ما يشير إلى أن ولاة الفاطميين فى المدة القصيرة التى تبعت فيها حلب القاهرة من سنة ٤٠٧ إلى سنة ٤١٥ كانوا يرعون الأدباء والعلماء بها ، وبالمثل فى البلدان الشامية الأخرى التى كانت تتبع القاهرة قبل استيلاء السلاجقة عليها وقبل استيلاء حملة الصليب . وعملُ أبى العلاء اللغوى لم يقتصر على ما أنتج من شعر ونثر فقد مرَّ بنا أنه شرح ديوان المتنبى وبالمثل شرح ديوان أبى تمام حبيب بن أوس وسماه ذكرى حبيب وشرح ديوان البحترى وسماه عبث الوليد . وشرح من كتب اللغة فصيح ثعلب . وكان طلابه وتلاميذه الذين يتحلقون حوله يقرءون عليه كتبا لغوية مختلفة ويثبتون على نسخهم تعليقاته ، من ذلك كتاب إصلاح المنطق لابن السكيت وكتاب غريب الحديث لأبى عبيد . ويروى أنه ألف فى النحو كتابا سماه النافع وكان فى خمسة كراريس ولعله صنفه للناشئة . وفى الحق أنه كان إماما كبيرا فى اللغة ، ويقول عنه تلميذه التبريزى : «ما أعرف أن العرب نطقت بكلمة ولم يعرفها المعرى»[3] ويعدد الصفدى من رُزقوا السعادة فى أشياء لم يأت بعدهم من نالها ويذكر منهم أبا العلاء فى الاطلاع على اللغة . ويقول الذهبى : كان أبو العلاء عجبا فى الاطلاع الباهر على اللغة وشواهدها»[4] ويقول ابن فضل الله العمرى : «كان أبو العلاء مطلعا على العلوم لايخلو فى علم من الأخذ بطرف ، متبحرًا فى اللغة ، متسع النطاق فى العربية[5] » . وإذا عرفنا أن هذا الإمام اللغوى الكبير

---

(١) تعريف القدماء بأبى العلاء ص ٥٣١
(٢) تعريف القدماء بأبى العلاء ص ٥٣٤
(٣) أبو العلاء وما إليه للراجكوتى ص ٥٣
(٤) تعريف القدماء ص ١٩٠
(٥) تعريف القدماء ص ٢٦٨

لم ينشأ فى مدن الشام الثلاث الكبرى : حلب أو دمشق أو بيت المقدس ، وإنما نشأ فى بلدة المعرَّة الصغيرة القريبة من حلب ، وأخذ العربية واللغة عن علماء منها كبنى كوثر[١] ومن يجرى مجراهم من تلامذة ابن خالويه وطبقته ، إذا عرفنا ذلك اتضح لنا النشاط اللغوى والنحوى الكبير الذى كان مبثوثا لافى مدن الشام الكبرى فحسب ، بل أيضا فى مدنها وبلدانها الصغرى .

وفى كتب التراجم نحاة مختلفون كانوا يدرسون اللغة والنحو ويعلمونهما للناشئة ومن تجاوزوا سن الناشئة نذكر منهم فى زمن أبى العلاء ، أحمد[٢] بن عبد الرحمن الطرابلسى ويذكر مترجموه أنه كان لايزال حيا يعلم ويدرس سنة ٤١٣ لطلابه بطرابلس إلى أن وافاه بها القدر . وكان يعاصره عالى [٣] بن أبى الفتح بن جنى المتوفى سنة ٤٥٢ وكان يعلم العربية ى صور وصيداء ونلتقى من شراح المتنبى بالوأواء[٤] الحلبى اللغوى المتوفى سنة ٥٥١ وهو غير الوأواء الدمشقى شاعر سيف الدولة ، كما نلتقى فى شَيْزر بمرهف بن أسامة بن منقذ المتوفى سنة ٦١٣ وله شرح[٥] على ديوان المتنبى ، وتوفى معه فى نفس السنة أبو اليمن التاج الكندى زيد [٦] بن الحسن نحوىُّ دمشق المشهور . وتزدهر الدراسات اللغوية والنحوية فى الشام أثناء القرن السابع الهجرى ، ويلقانا أعلام ثلاثة كان لكل منهم شطر فى هذا الازدهار ، أولهم يعيش [٧] بن على بن يعيش الحلبى الدار والمولد ، ولد بحلب سنة ٥٥٦ للهجرة وأكب فى نشأته على تعلم العربية وأخذها عن نحاة موطنه ، ولم يكتف بذلك فقد رحل إلى بغداد ثم دمشق يأخذ عن شيوخها ، وعاد إلى حلب يعلم العربية حتى وفاته سنة ٦٤٣ وكان يقرأ على طلابه بعض كتب ابن جنى ويشرحها مثل اللمع والتصريف ، وأهم من شرحيه عليهما شرحه على كتاب المفصل للزمخشرى وهو منشور فى عشر مجلدات استقصى فيه آراء النحاة من بصريين وكوفيين وبغداديين ، ويكثر من انتصاره للبصريين ، وقلما يستحسن آراء الكوفيين ، وكثيرًا ما يؤثر آراء البغداديين من أمثال أبى على الفارسى ، وهو بذلك يُسْلَكُ فى المدرسة البغدادية التى كانت تجمع فى مصنفاتها بين آراء النحاة البصريين والكوفيين وتنفذ إلى آراء جديدة فى هذه المسألة أو تلك ، وفى كتابنا « المدارس النحوية » توضيح كاف لمنهج ابن يعيش فى النحو واختياره لآراء النحاة فيه من بصريين وكوفيين وبغداديين . .

---

(١) إنباه الرواة ٤٩/١

(٢) راجع ترجمة الطرابلسى فى إنباه الرواة ٨٦/١

(٣) انظر إنباه الرواة ٣٨٥/٢

(٤) انظر فى الوأواء الحلبى إنباه الرواة ١٨٦/٢

(٥) بروكلمان ٩٠/٢

(٦) ستذكر مصادر ترجمته بين القراء .

(٧) راجع فى ترجمة ابن يعيش ابن خلكان ٤٦/٧ وابن الوردى ١٧٦/٢ والشذرات ٢٢٨/٥ وبغية الوعاة ص ٤١٩

والعلم الثانى لم يكن شاميا بل كان مصريًّا ، ومنذ العصر الأيوبى كان علماء الشام ومصر يتبادلون التدريس والتعليم فى البلدتين ، وكثيرًا مادرَّس وعلَّم جِلَّة العلماء الحلبيين والدمشقيين والمقدسيين فى مدارس القاهرة ومساجدها مثل يحيى بن معطى المتوفى بمصر سنة ٦٢٨ وقد وضعناه بين نحاتها المصريين . وكثيرا مانزل ببيت المقدس ودمشق وحلب مصريون واستوطنوها وأمضوا حياتهم هناك يعلمون ويدرسون ويفيدون ، لا علماء النحو فحسب بل جميع العلماء من كل فرع من فروع العلم . وكان العلم المصرى النحوى الذى نزل الشام ابن الحاجب[1] عثمان بن عمر المتوفى سنة ٦٤٦ وهو مذكور بين النحاة فى القسم المصرى . ويهمنا هنا أن نعرف أنه حين أحسَّ نضجه العلمى رحل إلى دمشق وكان مالكيا ، فنزل بزاوية المالكية فى جامعها الأموى ، وأخذ يدرس لطلابه هناك كتابيه الرائعين فى النحو والتصريف : الكافية والشافية ، وأملى شرحين لها . وتوالت بعده لنفاستهما الشروح عليهما بين عربية وفارسية حتى بلغت على الكافية — كما استقصاها بروكلمان — سبعة وستين شرحا ، وعلى الشافية — ستة وعشرين . وظل ابن الحاجب طويلا فى دمشق وطلاب العربية مكبُّون عليه حتى دخلت سنة ٦٣٩ وتحالف الملك الصالح إسماعيل مع حملة الصليب ضد ابن أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب وتنازل لهم عن صفد وقلعة شَقيف ، وجاء ابن الحاجب نبأ الكارثة ، وكان يخطب الجمعة فى المسجد الأموى ، وكان إسماعيل قد ملك دمشق برهة ، وغلا الدم فى عروقه فقطع اسم الملك إسماعيل من الخطبة معلنا بذلك احتجاجه على عمله المزرى ، وردَّ عليه إسماعيل بإبعاده إلى موطنه ، فعاد إلى القاهرة وتركها إلى الإسكندرية وبها توفى سنة ٦٤٣ .

والعَلَمُ الثالث لم يكن مصريا ولاشاميا ، بل كان أندلسيا ، وهو ابن[2] مالك محمد بن عبد الله ، ولد ونشأ وعكف على دراسة اللغة والنحو فى بلدته جَيَّان ، حتى إذا شعر باكتمال تكوينه العلمى رحل سنة ٦٣٠ وهو فى الثلاثين من عمره إلى دمشق ، وظل مدة فى حلب يأخذ عن ابن يعيش . ثم عاد إلى دمشق واستوطنها متوليا بها مشيخة المدرسة العادلية ، ولم يلبث أن طار صيته فى آفاق الشام ، فقصده الطلاب من كل فَجٍّ ، وكان يحسن إلى أبعد حد نظم الشعر العلمى فنظم فى النحو ألفيته المشهورة ، وتوالت بعده شروحها حتى بلغت تسعة وأربعين شرحا ، غير ماعلى بعض شروحها من حواشٍ . وألف فى النحو بجانبها كتابه التسهيل وله عشرة شروح ، وله فى

(١) انظر فى ابن الحاجب ابن خلكان ٢٤٨/٣ وابن فرحون ص٣٧٢ وبروكلمان ٣٠٨/٥ والمدارس النحوية ص ٣٤٣.

(٢) انظر فى ابن مالك ومصادره كتابنا المدارس النحوية ص ٣٠٩ وبروكلمان ٢٧٥/٥ – ٢٩٦.

الصرف لامية الأفعال ولها أيضا عشرة شروح ، وتحفة المودود فى المقصور والممدود ، وإيجاد التعريف فى علم التصريف . وبلغت مصنفاته نحو ثلاثين مصنفا بين منظوم ومنثور ، وأوضحت فى كتاب المدارس النحوية منهجه فى النحو وأنه كان منهجا بغداديا مع ميله لاستخدام بعض الرخص الكوفية ، وسنعود إلى الترجمة له ترجمة أكثر تفصيلا فى السِّفْر الخاص بالأندلس والمغرب إذ عداده حقا إنما هو فى الأندلسيين .

وتظل دراسات اللغة والنحو فى الشام بعد هؤلاء الأعلام الثلاثة مزدهرة ، ويظل التبادل فيها موصولا بين علماء الشام ومصر طوال أيام المماليك ونذكر من نحاة الشام ولغوييها الذين تكوّنوا فى موطنهم ثم نزلوا القاهرة ودرّسوا النحو واللغة فيها للطلاب بهاء[1] الدين بن النحاس الحلبى المولود سنة ٦٢٧ سمع مواطنه ابن يعيش وتلقى عنه العلم ثم بارح حلب إلى القاهرة والتفّ الطلاب حوله وصار شيخ العربية بالديار المصرية حتى توفى سنة ٦٩٨ ويُنْسَبُ له شرح على ديوان امرئ القيس نشره الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم مع مجموع شروح الديوان بدار المعارف. ومن هؤلاء اللغويين والنحاة المستوطنين لمصر ابن الصائغ [2] محمد بن الحسن المولود بدمشق سنة ٦٤٥ نزل القاهرة وأقام بها يقرئ الناس العربية وكان شاعرا كما كان لغويا ، وله شرح على مقصورة ابن دريد وشرح على ملحة الحريرى ومختصر لصحاح الجوهرى جرّده فيه من الشواهد ، توفى بالقاهرة سنة ٧٢٢ . ومن أهم هؤلاء النحاة المهاجرين من الشام إلى مصر وأشهرهم بهاء[3] الدين بن عقيل عبد الله بن عبد الرحمن الحلبى الأصل والمولد ، وقد لزم شيوخ الفقه الشافعى والحديث والعربية بمصر يأخذ عنهم ، وخاصة النحوى الكبير أبا حيان ، وألف شرحه المشهور على الألفية ويمتاز بالوضوح ونصاعة العبارة ، ولذلك عُنى به الشراح فشرحوه مرارا وله شرح على كتاب التسهيل لابن مالك ، وظل يشتغل بالتدريس فى مدارس متعددة حتى توفى سنة ٧٦٩ . وإنما أردنا بذكر اللغويين والنحويين الشاميين النازلين بالقاهرة إلى أن ندل من جهة على أن التبادل العلمى بين القاهرة والشام فى النحو ظل طوال زمن المماليك نشيطا ، وظلت دراساته حية قوية إلى أبعد حد ، وتتوالى أمامنا تراجم كثيرة طوال القرن التاسع الهجرى نقرأ فيها أن هذا الشيخ أو ذاك كان بارعا فى القراءات أو فى الفقه وأصوله وأيضا فى العربية ، ولم تكن توجد بلدة لا فى الشام فحسب بل أيضا

---

(١) راجع ابن النحاس فوات الوفيات ٢/٣٥٠ وبغية الوعاة ص ٦ والشذرات ٥/٤٤٢

(٢) انظر فى ابن الصائغ فوات الوفيات ٢/٣٨٠ والبداية والنهاية ١٤/٩٨ والنجوم الزاهرة ٩/٢٤٨

(٣) راجع فى ترجمة ابن عقيل الدرر الكامنة ٢/٣٧٢ والبغية ص٢٨٤ وكتابنا المدارس النحوية ص٣٥٥

فى كل العالم العربى الاوهى تعنى بدراسة اللغة والنحو. وظل كثيرون من شيوخ العربية يضعون الشروح لطلابهم على كثير من متون النحو ومختصراته.

ونمضى إلى زمن العثمانيين وتظل دراسات العربية بالشام نشيطة، إذ لايستقيم لسان الناس وتلاوتهم للذكر الحكيم بدونها، بل لقد ظلت جميع الدراسات العلمية وانبرى لها علماء فى كل الفروع يدرسونها للطلاب دراسة مرتبة مفصلة، وأخذ النحو نصيبه من ذلك فظهر فيه علماء نابهون فى مقدمتهم الشيخ ياسين[1] بن زين الدين العليمى المتوفى سنة ١٠٦١ للهجرة، وله حاشية على شرح التصريح للشيخ خالد الأزهرى المصرى، وهو شرح على التوضيح أو أوضح المسالك لابن هشام. والحاشية تدل بوضوح على أن الشيخ ياسين لم يكد يترك كتابا من كتب النحو الكبرى التى تجمع آراء النحاة من بصريين وكوفيين وبغداديين وأندلسيين ومصريين حتى زمنه من مثل همع الهوامع للسيوطى والمغنى لابن هشام وارتشاف الضَّرَب (عسل النحو) لأبى حيان. بل لقد أمعن فى قراءة النحو عند ابن يعيش، وتجاوزه إلى من سبقوه من أئمة المذاهب النحوية، بحيث تحول بحاشيته إلى مايشبه موسوعة نحوية كبرى، فإذا قلنا إن الدراسات النحوية واللغوية بالشام فى زمن العثمانيين كانت لاتزال نشيطة تَخْفِقُ بغير قليل من الحيوية لم نكن مبالغين.

وإذا تركنا النحو واللغة إلى مباحث البلاغة والنقد وجدنا شعراء الشام متصلين اتصالا وثيقا بالتطور الذى حدث فى الشعر لأول أيام بنى العباس وما اصطنعه فيه الشعراء من المحسنات المعنوية واللفظية مما سمى فيما بعد باسم البديع، ويلاحظ ذلك الجاحظ على العتَّابى الشاعرَ الشامى لزمن الرشيد فيقول إنه كان يحتذى حذو بشار[2] زعيم المجددين فى العصر العباسى الأول. ومايزال الشعراء العباسيون يعنون بتلك المحسنات حتى استطاع مسلم بن الوليد أن ينميها حتى ليتخذها كالمذهب له، ومايلبث أبو تمام الشاعر الشامى أن يتناولها منه ويبلغ بها الغاية المنتظرة من تكوين هذا المذهبَ الجديد الذى كان يسميه مسلم باسم البديع وفيه يقول أبو الفرج الأصبهانى. (هو فيما زعموا أولُ من قال الشعر المعروف بالبديع وهو لقَّب هذا الجنس البديع واللطيف وتبعه فيه جماعة أشهرهم أبو تمام الطائى)[3]. وآثرنا فى كتابنا «الفن ومذاهبه فى الشعر العربى» أن نسميه مذهب

---

(١) انظر فى الشيخ ياسين خلاصة الأثر للمحبى ٤/٤٩١ وحاشيته طبعت بمصر مرارًا

(٢) البيان والتبيين ١/٥١

(٣) أنظر ترجمة مسلم بن الوليد الملحقة بديوانه نشر الدكتور سامى الدهان.

التصنيع أى التنميق حتى يشمل البديع وألوانه الحسية المعروفة كما يشمل الزخرف المعنوى على نحو ماصورنا ذلك عند أبى تمام[١] . على كل حال شاعر الشام أبو تمام المتوفى حوالى سنة ٢٣٠ للهجرة هو الذى تلق بسرعة البرق هذا المذهب الجديد عن مسلم بن الوليد قبل اكتماله وأعطاه صورته النهائية[٢] . ومن ذلك نخلص إلى أن الشام إن كانت قد تأخرت فى صنع كتب البلاغة والنقد من الوجهة النظرية فإنها سبقت إلى الرقى ببلاغة الكلام نثرا وشعرا كما عند العتابى الكاتب والشاعر البليغ وأبى تمام حامل لواء الشعر فى زمنه غير منازَع .

ومانتقدم طويلا فى القرن الرابع الهجرى حتى نلتقى بأكبر حلقة نقدية أدبية طالما طمحت إليها أنظار الشعراء الشاميين ، ونقصد حلقة حلب التى تكونت حول سيف الدولة بطل القوى العربية المصارعة للبيزنطيين . وكان سيدا بالمعنى العربى الكامل شجاعا كريما نبيلا مثقفا شاعرا ، وهب نفسه لحرب البيزنطيين وسَحْقهم ، كما وهبها هى وماله لإحداث حركة أدبية تُنافس بها حلب بغداد إن لم تتفوق عليها ، وطارت شهرته فى إكرام العلماء والشعراء كل مطار ، وسرعان ماالتفّ حوله وعاش فى كنفه من تحدثنا عنهم آنفا من الفلاسفة والأطباء وعلماء التنجيم واللغويين والنحاة وكثرة من الشعراء وكأنما لم يبق شاعر نابه فى إيران والعراق والموصل والشام إلا أقبل إلى هذه الندوة الفكرية التى عاش فيها المتنبى تسع سنوات طوالا ، وحوله من العلماء أمثال ابن جنى اللغوى والشعراء أمثال النامى والكتاب أمثال أبى بكر الخوارزمى ، وهم يدوِّنون شعره ويتدارسونه ويتناقشون معه حوله . ولزمه ابن جنى – كما مر بنا – وشرح ديوانه شرحين : كبيرا وصغيرًا ، وكان أبو على الفارسى يراه حجة فى اللغة لانظير له . وكان إذا سُئل عن لفظة فى شعره أو تعبيره ساق عليه الشواهد الكثيرة من أشعار العرب ، وتصادف أن أنشد سيف الدولة أولى قصائده[٣] :

وفاؤُكما كالرَّبْعِ أَشْجاهُ طاسِمُهْ   بأن تُسْعِدَا والدمعُ أشفاه ساجِمُهْ

وكان ابن خالويه حاضرًا فقال له : ياأبا الطيب ، إنما يقال شجاه ، توهمه فعلا ماضيا وهو صيغة تفضيل فقال له أبو الطيب : اسكتْ فما وصل الأمر إليك[٤] . وكان ذلك سببا فى أن فسد

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (الطبعة العاشرة – نشر دار المعارف) ص ٢٣٩

(٢) الفن ومذاهبه ص ٢٤٧

(٣) يخاطب المتنبى بالبيت صاحبين له على عادة العرب . أشجاه : أحزنه . طاسمه : دارسه . بأن تسعدا : بالمساعدة فى البكاء . يقول لصاحبيه : اسكبا معى الدمع فإنه أشفى للغليل كما أن الربع أكثر شجا للمحب إذا درس .

(٤) نزهة الألباء بتحقيق الأستاذ محمد أبوالفضل إبراهيم (طبع ونشر دار نهضة مصر) ص ٢٩٨ .

مابينهما طوال مقام المتنبى عند سيف الدولة . وظل ابن خالويه يكنُّ له الضغينة ، واستطاع أن يؤلِّب عليه أبا فراس وبعض من كانوا حول سيف الدولة ، مما جعل المتنبى يغادر حلب إلى غير مآب . والمهم أنه كان ينعقد من حين لآخر غبار من النقد اللغوى حول شعر المتنبى فى حلقة سيف الدولة ، وصورٌ من هذا النقد كانت تنعقد بين شعراء الحلقة ، وكثيرا ماكانوا يتحاورون فى سرقاتهم ممن سبقوهم من الشعراء ، وهم أثناء ذلك يتناشدون أشعارهم أو أشعار سابقيهم مستحسنين تارة ومستهجنين أخرى . وجميعها صور من النقد الذى يصقل الملكة الأدبية ، وصوَّر ذلك أبو بكر الخوارزمى الكاتب المشهور وأحد من تزود بما كان فى الحلقة من نقد خصب ، فقال : « مافتق قلبى وشحذ فهمى وصقل ذهنى وأرهف حَدَّ لسانى وبلغ هذا المبلغ بى إلا تلك الطرائف الشامية واللطائف الحلبية التى علقت بحفظى وامتزجت بأجزاء نفسى ، وغصنُ الشباب رَطيب ورداء الحداثة قَشيب »(١) .

ونلتقى بعد هذه الحلقة بأبى العلاء ، وقد تعددت وجوه نقده اللغوى ، فهو يضمنها شروحه لدواوين أبى تمام وسمَّاه ديوان حبيب وديوان المتنبى وسماه معجز أحمد – كما مر بنا – وراجع البحترى مرارًا ناقدًا له ولذلك سمى شرحه لديوانه – كما أسلفنا – عبث الوليد وهو اسمه والبحترى لقبه ، واختار الاسم للكتاب لما فيه من تورية واضحة . وهو يتكلم فى شروحه للشعراء الثلاثة عما فى أشعارهم من غريب ومآخذهم من غيرهم وماأُخذ عليهم ، وأحيانا ينتصر لهم وأحيانا ينتقدهم مع التوجيه – ما استطاع – لما يُظَنُّ أن أبا تمام والمتنبى أخطآ فيه . ولأبى العلاء فى رسالة الغفران نقد كثير أجراه فى القسم الأول على لسان صديقه ابن القارح حين أدخله الجنة وجعله يلقى الشعراء والرجاز ويعرض أثناء ذلك نقدا متنوعا لرواية الأشعار ولألفاظها العويصة وتراكيبها النحوية وبعض العيوب فى أوزانها وقوافيها . وسوَّى من هذا النقد فى الرسالة الدكتور أمجد الطرابلسى كتابا بعنوان : « النقد واللغة فى رسالة الغفران » ويظل النقد نشيطًا فى الشام حتى أيام العثمانيين إذ نجد يوسف البديعى (٢) المتوفى سنة ١٠٧٣ يؤلف كتابين نفيسين فى النقد والتاريخ الأدبى ، هما « هبة الأيام فيما يتعلق بأبى تمام » و« الصبح المنبى فى الكشف عن حيثية المتنبى » وهو يعرض فى الكتابين سيرة الشاعرين عرضًا تفصيليا كما يعرض آراء النقاد السابقين فيهما ، ولايكاد يترك خبرًا مهما يتصل

---

(١) اليتيمة للثعالبى (بتحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد) ١٤/١

(٢) انظر فى البديعى خلاصة الأثر ٥١٠/٤ .

بنشيرتهما ولا رأيا نقديا يتصل بأشعارهما مما يحيل الكتابين إلى مبحثين تاريخيين نقديين بارعين للشاعرين .

واهتمت الشام بالدراسات البلاغية اهتمامًا واسعا ، وكان أول كتاب صدر لها فى هذه الدراسات كتاب [١] سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى عبد الله بن محمد المتوفى سنة ٤٦٦ وسنترجم له بين الشعراء . والكتاب – كما يتضح من عنوانه – يناقش قضية الفصاحة ويقدِّم لها بحديث عن أحكام الأصوات ومخارجها ، ثم يصور الفرق بينها وبين البلاغة ، فيجعلها خاصة بالألفاظ ويجعل البلاغة عامة تشمل الألفاظ والمعانى . ويتناول صفات الفصاحة فى الكلمة المفردة ثم فى الكلام ، ويخوض فى تحليلات دقيقة تتصل بفنون الفصاحة ومايرتبط بها من البلاغة والبديع ومحسناته . ونلتقى بأسامة بن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤ وسنترجم له بين الشعراء ، وله كتاب سماه البديع فى نقد الشعر ، وهو فيه يعنى بالمحسنات البديعية ، وقد عرض منها فى الكتاب خمسة وتسعين محسنا . ويصنف الزَّمْلَكانى « الدمشقى عبد [٢] الواحد بن عبد الكريم المتوفى سنة ٦٥١ كتابا بعنوان « التبيان فى علم البيان » استضاء فيه كما قال فى مقدمته بكتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر ، وقد عرض فيه مباحث كثيرة تتصل بعلوم المعانى والبيان والبديع مع إقحام بعض المباحث النحوية والمنطقية . ونلتقى سريعا ببدر [٣] الدين بن محمد بن مالك الأندلسى العالم النحوى الذى تحدثنا عنه آنفا بين النحاة ، وله مثل أبيه مباحث نحوية ، وعُنى بتلخيص كتاب المفتاح للسكاكى فى كتابه « المصباح فى علوم المعانى والبيان والبديع » وقد أخلى ملخصه أو مختصره من تعقيدات كتاب المفتاح المنطقية والكلامية والفلسفية ، ولم يجعل البديع – مثل السكاكى – ذيلا لعلمى المعانى والبيان ، بل جعله علما مستقلا كما يتضح من عنوان كتابه . وقد أحصى من محسناته أربعة وخمسين محسنا .

ولم يلبث الخطيب [٤] القزوينى الدمشقى المتوفى سنة ٧٣٩ أن ألف تلخيصا دقيقا واضحا

---

(١) انظر فى تحليل هذا الكتاب كتابنا « البلاغة تطور وتاريخ (طبع دار المعارف) ص ١٥٢ .

(٢) انظر فى ترجمة الزملكانى السلوك للمقريزى ٣٨٩/١ والسبكى ٣١٦/٨ والشذرات ٢٥٤/٥ وبغية الوعاة ص ٣١٦ وراجع فى تحليل كتابه « البلاغة تطور وتاريخ » ص ٣١٤ .

(٣) راجع فى ترجمة بدر الدين السلوك ٧٣٨/١ والسبكى ٩٨/٨ والنجوم الزاهرة ٢٧٣/٧ والشذرات ٣٩٨/٥ والبغية ص ٩٠٦ وانظر فى تحليل كتابه « البلاغة : تطور وتاريخ » ص ٣١٥ .

(٤) انظر الخطيب فى الدرر الكامنة لابن حجر ١٢٠/٤ والنجوم الزاهرة ٣١٨/٩ والشذرات ١٢٣/٦ وراجع فى تحليل كتابيه « البلاغة : تطور وتاريخ » ص ٣٣٥ ومابعدها .

لكتاب المفتاح كُتب له أن يذيع بين علماء البلاغة وأن يكتبوا له كثيرا من الشروح بحيث أصبح محور الدراسة للبلاغة وفنونها شرقا وغربا منذ زمنه إلى اليوم . وعُنى ببسط قضايا علوم البلاغة : المعانى والبيان والبديع فى كتاب ثان له سماه الإيضاح ، وله نفس الشهرة التى حظى بها تلخيصه . ويصنِّف ابن قيم [١] الجوزية الدمشقى المتوفى سنة ٧٥١ كتابه « الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلوم البيان » وفيه يتحدث عن الفصاحة والبلاغة وفنون البيان والمعانى والبديع . وتنقص الكتاب دقة الترتيب والتبويب . وكان يعاصره الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ وسنترجم له بين المؤرخين ، وعُنى بثلاثة فنون من فنون البديع : الجناس وله فيه كتاب جِنان الجناس وهو مطبوع ، والتورية والاستخدام وله فيهما كتاب فض الختام فى التورية والاستخدام وبدار الكتب المصرية مخطوطة منه . ونصبح فى زمن تأليف البديعيات وشروحها وهى قصائد فى مديح الرسول صلى الله عليه وسلم يتضمن كل بيت فيها محسنا من محسنات البديع . وينظم ابن حجة الحموى المتوفى بسنة ٨٣٧ بديعية فى مائة واثنين وأربعين بيتا أحصى فيها محسنات البديع ، وقد بلغت عنده نحو مائة وأربعين محسنا وشرحها شرحا مفصلا سماه بحق خزانة الأدب ، إذ يشتمل على نظرات تحليلية نقدية وبلاغية كثيرة تتصل بالشعر والشعراء وخاصة فى زمن الأيوبيين والمماليك ، بحيث يصبح مصدرا مهما لمن يكتبون عن الأدبين المصرى والشامى فى تلك الحقب ، مع منتخبات بديعة للشعراء والكتَّاب تدل على ذوق أدبى مرهف ، وسنترجم له بين الكتَّاب . وظل نشاط البديعيات متصلا أيام العثمانيين ، ولعبد الغنى النابلسى الذى سنترجم له فى غير هذا الموضع بديعيتان [٢] ومع كل بديعية شرح خاص بها .

٤

علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

أخذت الشام تُعنَى بقراءة الذكر الحكيم منذ دخلها الإسلام مع الأفواج الأولى من الصحابة ، ومن أهم قرائها فى الصدر الأول أبو الدرداء قاضى دمشق المتوفى سنة ٣٢ للهجرة وكان إذا صلَّى الغداة فى جامع دمشق اجتمع الناس للقراءة عليه . ومرَّ بنا ذكر ذلك وأنه كان

(١) راجع فى ابن القيم الدرر الكامنة لابن حجر ٤/٢١ والبدر الطالع ٢/١٤٣ والنجوم الزاهرة ١٠/٢٤٩ وطبقات الحنابلة للشطى ص ٦/١ وكتابنا « البلاغة : تطور وتاريخ » ص ٣١٩

(٢) انظر الحديث عنها فى كتابنا البلاغة : تطور وتاريخ ٣٦٤ وما بعدها

يجعل الناس عشرة عشرة ويجعل على كل عشرة عريفا ، وعدَّ يوما من يقرءون عنده فوجدهم ألفا وستمائة ونيفا ، ولعل في ذلك مايوضح إقبال الناس في الشام سريعا على قراءة الذكر الحكيم ، وظلوا يدوّون به في مساجدها . وخَلَفَ أبا الدرداء في إقراء الناس بدمشق عبد[1] الله بن عامر اليحصبي العربي المتوفى سنة ١١٨ للهجرة وكان عريفا على عشرة عنده ممن يقرأون . ولم يكتف بأخذ القرآن وسماعه منه وعرضه عليه فقد أضاف إليه المغيرة بن أبي شهاب ، فقرأ عليه القرآن ، وكان المغيرة قرأه على عثمان بن عفان . واستطاع أن يبلغ من إحكام قراءته ماجعل ابن مجاهد بعدُ يختاره بين القراء السبعة المقدَّمين ، إذ كان بحق إمام أهل الشام في القراءة ، ويقول ابن مجاهد في أوائل القرن الرابع : على قراءته أهل الشام والجزيرة ثم يعود ، فيقول : « والغالب على أهل الشام قراءة ابن عامر » ويقول ابن الجزري في ترجمته : « لازال أهل الشام قاطبة على قراءة ابن عامر تلاوة وصلاة وتلقينا إلى قريب من سنة خمسمائة » .

وخلف ابن عامر على قراءته بدمشق يحيى[2] بن الحارث الذّمارى الدمشقي إمام الجامع الأموي المتوفى سنة ١٤٥ وخلفه بالقيام على قراءة ابن عامر تلميذان بدمشق : أيوب[3] بن تميم الدمشقي المتوفى سنة ١٩٨ وعنه أخذها عبد[4] الله بن ذكوان إمام جامع دمشق وشيخ الاقراء بالشام المتوفى سنة ٢٤٢ والتلميذ الثاني عراك[5] بن خالد شيخ أهل دمشق في زمنه المتوفى قبل المائتين ، وعنه وعن أيوب بن تميم أخذها هشام[6] بن عمار إمام أهل دمشق وخطيبهم ومقرئهم ومحدثهم ومفتيهم المتوفى سنة ٢٤٥ . وبذلك أصبح لقراءة ابن عامر في الشام طريقان : طريق ابن ذكوان وطريق هشام بن عمار ، وهما تتقابلان في كتاب السبعة لابن مجاهد : الأولى أخذها عن أحمد بن يوسف التغلبي ، والثانية أخذها عن أحمد بن محمد بن بكر . ولابد أن نلاحظ أنه كان بالشام من اختار لنفسه قراءة غير قراءة ابن عامر حتى منذ القرن الثاني فقد نزل المدينة عتبة بن حماد الدمشقي ، فقرأ الموطأ على الإمام مالك وأخذ عن نافع أحد القراء المشهورين قراءته[7] ، وبالمثل أخذها عنه أبو مسهر[8] الغساني عبد الأعلى بن مسهر المتوفى سنة ٢١٨ . ويغلب أن يكون هناك آخرون قرءوا بقراءة ابن كثير قارئ مكة أو غيره من القراء السبعة .

(١) راجع في ابن عامر وقراءته وأسانيده كتاب السبعة لابن مجاهد بتحقيق نشر دار المعارف ص ٨٥ ، ١٠١ وكتاب طبقات القراء لابن الجزري ١/٤٢٣

(٢) ابن الجزري ٢/٣٦٧

(٣) ابن الجزري ١/١٧٢

(٤) ابن الجزري ١/٤٠٤

(٥) ابن الجزري ١/٥١١

(٦) ابن الجزري ٢/٣٥٤

(٧) ابن الجزري ١/٤٩٩

(٨) ابن الجزري ١/٣٥٥

ومرَّ بنا ذكر ابن خالويه فى بلاط سيف الدولة وكان قد تصدّر فى حلب لإفادة الطلاب عشرات السنين ، ونظن أنه عرض عليهم — فيما عرض القراءات السبع ، إذ كان قد حملها عن ابن مجاهد كما ذكر ابن الجزرى ، وأيضا فإن له فى توجيه تلك القراءات كتابا معروفا . ويشهد لما نقول أننا نجد بين تلاميذه الحلبيين قارئا كبيرا هو أبو الطيب عبد (١) المنعم بن غلبون الحلبى المتوفى سنة ٣٨٩ وله كتاب الإرشاد فى القراءات السبع ، ومن أهم تلاميذه ابنه طاهر (٢) المتوفى سنة ٣٩٩ مؤلف التذكرة فى القراءات الثمان وهو أستاذ أبى عمرو الدانى صاحب كتاب التيسير المشهور فى القراءات . وذكرنا فى مقدمة الطبعة الأولى لكتاب السبعة أنه كان من بين مااعتمدنا عليه فى تحقيقه مخطوطة لكتاب الحجة فى علل القراءات السبع لأبى على الفارسى تلميذ ابن مجاهد تحتفظ بها مكتبة جامعة القاهرة ومجلداتها الأولى بخط طاهر بن عبد المنعم بن غلبون . وربما كان أبوه حمل هذا الكتاب عن أبى على الفارسى مباشرة حين مقامه بحلب ، كما مر بنا . ويصنف عبد (٣) الجبار الطرسوسى المتوفى سنة ٤٢٠ كتاب المجتبى فى القراءات . ونلتقى بالحسن (٤) بن على الأهوازى شيخ القراء بدمشق منذ سنة أربعمائة حتى وفاته سنة ٤٤٦ وكان قد استوطنها منذ سنة ٣٩١ وكان يكثر من الحملة على الأشعرى والأشعرية ، ومن أجله صنف ابن عساكر — فيما بعد — كتابه : تبيين كذب المفترى فيما نُسب إلى أبى الحسن الأشعرى ، وكانت له مؤلفات كثيرة فى القراءات والقرآن وعلومه .

ومايزال التأليف فى القراءات والقرآن وعلومه مستمرا فى الشام حتى نلتقى بابن (٥) الطحان عبد العزيز بن سلمة نزيل حلب المتوفى حول سنة ٥٦٠ وله تصانيف مفيدة فى علوم القرآن منها كتاب الوقف والابتداء ، وكان على علم واسع بالقراءات . ونلتقى فى أيام الأيوبيين بأبى اليمن (٦) الكندى زيد بن الحسن نزيل دمشق المتوفى سنة ٦١٣ وهو من المعمَّرين ويقال إنه قرأ القراءات العشر وهو

---

(١) انظر فى عبدالمنعم بن غلبون طبقات القراء ٤٧٠/١ وطبقات الشافعية للسبكى ٣٣٨/٣

(٢) راجع فى «طاهر» ابن الجزرى ٣٣٩/١

(٣) انظر فى عبدالجبار ابن الجزرى ٣٥٧/١

(٤) راجع فى الأهوازى ابن الجزرى ٢٢٠/١ والنجوم الزاهرة ٥٦/٥

(٥) انظر فى ابن الطحان ابن الجزرى ٣٩٥/١

(٦) راجع فى أبى اليمن ابن الجزرى ٢٩٧/١ ومعجم الأدباء ١٧١/١١ وخطط الشام ٤٧/٢ والبداية والنهاية ٧١/١٣ وإنباه الرواة ١٠/٢ وابن خلكان ٣٣٩/٢

ابن عشر سنين وظل يقرأ القراءات ثلاثا وثمانين سنة . ومن تلاميذه علم [١] الدين السخاوى على بن محمد شيخ مشايخ الإقراء بدمشق وقد ظل يقرئ الناس نيفا وأربعين سنة حتى توفى سنة ٦٤٣ وله مصنفات كثيرة فى القراءات والتفسير منها شرح الشاطبية وهو أجل شروحها ، ومنها جمال القراء وكمال الاقراء . ومن تلاميذه الذين تصدَّروا القراءة فى دمشق أبو الفتح [٢] محمد بن على ولىَ مشيخة القراءة بتربة أم الصالح ، وأبو شامة المتوفى سنة ٦٦٥ تولّى مشيخة الحديث الكبرى بالأشرفية ، وسنذكر مصادر ترجمته بين المؤرخين ، والقاضى عبد السلام الزواوى المتوفى سنة ٦٨١ وسنذكر مصادر ترجمته بين فقهاء المالكية ، تولى مشيخة الإقراء الكبرى بالتربة الصالحية بعد وفاة شيخها أبى الفتح وإليه انتهت رياسة الإقراء بالشام . ومن كبار القراء بالشام فى القرن الثامن ابن [٣] جبارة المقدسى ، درس القراءات بمصر وطاف بدمشق وحلب ثم استقر فى بيت المقدس موطنه مدرسا للقراءات وعلوم العربية حتى توفى سنة ٧٢٨ . وكان يعاصره برهان [٤] الدين الجعبرى استوطن بلدة الخليل بجوار بيت المقدس حتى توفى سنة ٧٣٢ وكان يقرئ الناس بها وصَنَّف فى القراءات كتاب نزهة البررة فى القراءات العشرة . ونلتقى بابن البارزى قاضى حماة ومفتى الشام المتوفى سنة ٧٣٨ وله شرح على الشاطبية وكتاب الشرعة فى قراءات السبعة . ومانزال نقرأ عن مؤلفات شامية فى القراءات حتى نصل إلى ابن [٥] الجزرى محمد بن محمد المتوفى سنة ٨٣٣ وله كتاب النشر فى القراءات العشر وهو منشور وكتاب غاية النهاية فى طبقات القراء وهو مصدرنا الأساسى فى الحديث عنهم . ومن كبار القراء والحفاظ بعده شمس الدين الرملى الدمشقى أحمد بن أحمد بن محمد ، ولد بالرملة ورحل إلى دمشق للقاء علمائها وفيها أكب على القراءات والحديث والفقه ، وتولّى مشيخة الإقراء بالجامع الأموى حتى توفى سنة ٩٢٣ . وظلت القراءات بالشام نشيطة أيام العثمانيين حتى العصر الحديث ، يتجرَّد لها العلماء تارة ، وتارة ثانية يجمعون بينها وبين بعض العلوم كالتفسير أو الفقه أو علوم العربية .

وعلى نحو ماعُنيت الشام بالقراءات عنيت بتفسير القرآن الكريم ، حتى إذا أخرج الطبرى

---

(١) انظر فى علم الدين السخاوى معجم الأدباء ١٥/٦٥ وابن خلكان ٣/٣٤٠ وإنباه الرواة ٢/٣١١ وطبقات القراء ١/٥٦٨ والسبكى ٨/٢٩٧

(٢) راجع ابن الجزرى ٢/٢١١

(٣) انظر فى ابن جباره ابن الجزرى ١/١٢٢ والدرر رقم ٦٦٧ والشذرات ٦/٨٧

(٤) راجع فى الجعبرى ابن الجزرى ١/٢١ والدرر رقم ١٣٠ والشذرات ٦/٩٧

(٥) ترجم ابن الجزرى لنفسه فى كتابه طبقات القراء ٢/٢٤٧ وألحقت بالترجمة زيادة عن سنة وفاته لبعض تلاميذه وانظر الفوائد البهية للكنوى ١٤٠ ودائرة المعارف الإسلامية

تفسيره أكبت عليه تدرسه ، ويلقانا لها مفسر مهم هو عبد [١] الله بن عطية الدمشقي المفسر المتوفى سنة ٣٨٣ كان يحفظ الآلاف من أبيات الشعر العربي واستخدمها في تفسيره لمعاني الألفاظ القرآنية . ونلتقي بعده بسليم بن أيوب المتوفى سنة ٥٤٧ وله تفسير [٢] للقرآن الكريم . ويلقانا في أيام نور الدين محمد بن ظفر المكي الذي عرضنا له في الحديث عن شعراء الزهد في الجزيرة العربية المتوفى سنة ٥٦٥ استوطن حماة بأخرة من حياته وألف فيها تفسيره المسمى « ينبوع الحياة » [٣] . واستوطن حلب تلميذ من تلامذة الزمخشري هو عالي [٤] بن إبراهيم الغزنوي وأقام بها يدرس ويصنف حتى وفاته سنة ٥٨٢ وفيها ألف تفسيرا كبيرا في مجلدين سماه تفسير التفسير . واستوطن دمشق الصوفي الكبير ابن عربي المتوفى سنة ٦٣٨ وله تفسير صوفي لم يتمه وهو مطبوع . وللعز بن عبد السلام الفقيه الشافعي الدمشقي نزيل مصر الذي عرضنا له فيها بين فقهاء الشافعية تفسير بلاغي ، وفي دار الكتب المصرية مخطوطة منه .

ونلتقي في أوائل القرن الثامن بمفسرين كبيرين هما هبة الله بن البارزي وابن تيمية ، أما هبة [٥] الله فكان قاضيا لحماة وإليه انتهت مشيخة المذهب الشافعي بالشام وله شرح على الشاطبية في القراءات ، وله روضات الجنان في تفسير القرآن في عشر مجلدات توفي سنة ٧٣٨ . أما ابن تيمية فقد مر بنا حديث مفصل عنه في الحركة العلمية ، ونعرض هنا منهجه في التفسير القرآني وقد صوره في رسالة عنوانها أصول التفسير ، ومن خلالها أجملناه في مقدمة كتابنا : « سورة الرحمن وسور قصار : عرض ودراسة » موضحين أنه حمل على الإسرائيليات المدسوسة في التفاسير وعلى المعتزلة والشيعة الباطنية الذين يؤولون ألفاظ القرآن وعباراته كما حمل على المتصوفة في تفاسيرهم من مثل تفسير ابن عربي ، ورأى أن خير طرق التفسير تفسير القرآن بالقرآن فإن لم يف القرآن أحيانا رجع المفسر إلى الحديث النبوي وأقوال الصحابة والتابعين الذين عايشوهم وعرفوا منهم معاني القرآن الكريم . وبعد استيفاء ذلك كله ومايتصل به من إتقان العربية وتعمق علوم الشريعة والوقوف بدقة على دلالات القرآن وحسن تذوقه لخصائصه البلاغية يستطيع المفسر أن يجتهد في التفسير ويستنبط استنباطات سديدة . وطبّق منهجه على سورة النور وسورتي المعوذتين القصيرتين

---

(١) انظر في ابن عطية الدمشقي طبقات المفسرين للسيوطي رقم ٤٣ والنجوم الزاهرة ١٦٥/٤ وبروكلمان ١٥/٤

(٢) خطط الشام لكرد علي ٤١/٤

(٣) تتمة المختصر لابن الوردي ٨٧/٢

(٤) راجعه في تاج التراجم لابن قطلوبغا ص ٤٩ والبداية والنهاية ١١٤/١٣

(٥) انظر في ابن البارزي الدرر جـ٣ رقم ١١٠٣ وطبقات القراء ٣٥١/٢ والشذرات ١١٩/٦

وخصَّ سورة الإخلاص أو التوحيد بكتاب . ويتحول تفسيره للآية الكريمة إلى بحث فى مضمونها من خلال القرآن جميعه .

ونهج نهج ابن تيمية فى تفسير الذكر الحكيم تلميذه ابن قيم الجوزية على نحو مايتضح فى كتابه « التبيان فى أقسام القرآن » وفى تفسيره للمعوَّذتين . وكان يعاصره السمين[1] الحلبى أحمد بن يوسف وكان نحويا مقرئا ونزل مصر وبها توفى سنة ٧٥٦ وله تفسير ضخم فى عشرين مجلدا ، وكتاب فى إعراب القرآن فى ثلاثة مجلدات باسم الدر المصون ، وكتاب فى أحكام القرآن ، وله شَرْح على الشاطبية فى القراءات ، وشرح ثان على التسهيل لابن مالك فى النحو . ونلتقى بابن[2] كثير أكبر المفسرين الشاميين وأهمهم المتوفى بدمشق سنة ٧٧٤ نشرتْ تفسيره مطبعةُ المنار فى تسعة أجزاء ، وعداده فى التفسير بالمأثور من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين والمفسرين السابقين ، وفيه يقول ابن حجر ناقدا : « لم يكن ابن كثير على طريق المحدثين فى تحصيل العوالى وتمييز العالى من النازل ونحو ذلك من فنونهم وإنما هو من محدثى الفقهاء » ويقول الشوكانى مُثْنيا على تفسيره : « جمع فيه فأوعى ونقل المذاهب والأخبار والآثار وتكلم بأحسن كلام وأنفسه ، وهو من أحسن التفاسير إن لم يكن أحسنها » ويصنف العليمى عبد الرحمن بن محمد الحنبلى المتوفى سنة ٩٢٧ للهجرة تفسيرًا للذكر الحكيم ، وتؤلف كتب تفسير أخرى ، ويظل تفسير ابن كثير التفسير المتداول بين علماء الشام إلى العصر الحديث .

وشُغلت الشام منذ دخلت فى الدين الحنيف بتلاوة الذكر الحكيم وتفسيره كما شغلت بالحديث النبوى مكمِّل الدين القيم ومبينه وموضح تعاليمه ، وكان أول المحدثين بها صحابة رسول الله ﷺ ، ثم حمله عنهم التابعون يحدثون به الناس من أمثال مكحول[3] مفتى الشام ومحدثها المتوفى سنة ١١٨ . وكان يعاصره محمد[4] بن شهاب الزهرى أول من دوَّن الحديث تدوينا عاما ، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الآفاق : عليكم بابن شهاب ، فإنكم لاتجدون أحدا أعلم بالسنة الماضية منه ، وعاش بعد عمر ثلاثة وعشرين عاما إذ توفى سنة ١٢٤ ويقال إنه روى عن عشرة من

---

(١) راجع فى السمين الحلبى طبقات القراء ١/١٥٢ والدرر الجزء الأول رقم ٨٤٦ والشذرات ٦/١٧٩

(٢) انظر فى ترجمة ابن كثير الدرر جـ١ رقم ٩٤٨ والشذرات ٦/٢٣١ والبدر الطالع ١/١٥٣

(٣) راجع فى مكحول حلية الأولياء ٥/١٧٧ وابن خلكان ٥/٢٨٠ وميزان الاعتدال ٤/١٧٧ وتهذيب التهذيب ١٠/٢٨٩ والشذرات ١/١٤٦

(٤) انظر فى الزهرى صفة الصفوة ٢/٧٧ وابن خلكان ٤/١٧٧ وميزان الاعتدال ٤/٤٠ وتهذيب التهذيب ٩/٤٤٥ وطبقات القراء ٢/٢٦٢

الصحابة لحقهم ، وقد أتاح للشام أن تكون أول جامعة وناشرة للحديث النبوى وكان موظفا لدى الأمويين وعمل قاضيا ليزيد بن عبد الملك ، وعنه حمل الحديث الأوزاعى فقيه الشام المتوفى سنة ١٥٧ وعداده فى الفقهاء ، كما حمله الإمام مالك فقيه المدينة والليث بن سعد فقيه مصر وسفيان ابن عُيَيْنة وسفيان الثورى فقيها العراق . وعن تلاميذ الزهرى والأوزاعى فى الشام حمل الحديث هشام ابن عمار مقرئ دمشق ومفتيها الذى مرَّ بنا ذكره بين القراء . وممن حمل عنه الحديث القاضى عبد [1] الصمد بن عبد الله قاضى دمشق ، وعنه روى الحديث أبو زرعة الدمشقى شيخ الشام فى الحديث. ونلتقى بخيثمة[2] بن سليمان الطرابلسى أحد الحفَّاظ الثقات المشهورين المتوفى سنة ٣٤٣. ولا تلبث بلدة طبريَّة بالشام أن تقدِّم سليمان[3] بن أحمد الطبرانى المولود سنة ٢٦٠ والمتوفى سنة ٣٦٠ صاحب المعاجم الثلاثة: الكبير والأوسط والصغير، وقد جمع فى الكبير أحاديث جميع الصحابة ما عدا أباهُرَيْرة إذ أفرد له كتابا خاصا. وكان يعاصره الحسين[4] بن محمد الماسَرْجِسِيّ الحافظ المتوفى سنة ٣٦٥ أخذ بدمشق عن أصحاب هشام بن عمار، صنَّف المسند الكبير مهذَّبا معلَّلا فى ألف وثلاثمائة جزء ولم يصنِّف فى الإسلام أكبر من مُسْنده وجمع حديث ابن شهاب الزهرى جمعا لم يسبقه إليه أحد وكان يحفظه مثل الماء. ونلتقى بحافظ من صَيْداء هو أبو الحسين[5] محمد بن أحمد الغسانى المولود سنة ٣٠٥ والمتوفى سنة ٤٠٢ وله مسند على ترتيب أوائل أسماء الرواة. ويلقانا حافظ من صور هو محمد[6] بن على الصورى المتوفى سنة ٤٤٦ قدم بغداد وأخذ عنه حفاظها الثقات. ويلقانا حافظ بيت المقدس محمد[7] بن طاهر المقدسى المعروف باسم ابن القيسرانى المتوفى سنة ٥٠٧ وله مصنفات فى الحديث النبوى متعددة، منها: «أطراف الكتب الستة» وهى صحيح البخارى ومسلم وأبى داود والترمذى والنسائى وابن ماجة.

---

(١) راجعه فى النجوم الزاهرة ١٩٣/٣ وانظر فى أبى زرعة النجوم ٨٧/٣

(٢) انظر فى خيثمة تذكرة الحفاظ للذهبى (طبع حيدر آباد) ٧٥/٣ والشذرات ٣٣٤/٢

(٣) راجع فى الطبرانى تهذيب تاريخ ابن عساكر ٢٤٠/٦ وابن خلكان ٢٠٧/٢ والنجوم الزاهرة ٥٩/٤ وعبر الذهبى ٣١٥/٢

(٤) انظر فى الماسرجسى النجوم الزاهرة ١١١/٤

(٥) راجع الغسانى فى النجوم ٢٣١/٤ وبروكلمان ٢١٤/٣

(٦) انظر فى الصورى تاريخ بغداد ١٠٣/٣ وتذكرة الحفاظ للذهبى ٣١١/٣ وبروكلمان ٢٣١/٣

(٧) راجع فى ابن القيسرانى المنتظم ١٧٧/٩ وابن خلكان ٢٨٧/٤ والوافى للصفدى ١٦٦/٣ وميزان الأعتدال ٥٨٧/٣ وعبر الذهبى ١٤/٤ والشذرات ١٨/٤

وينشط المحدثون أيام نور الدين والأيوبيين فى مقدمتهم أبو القاسم[١] بن عساكر المتوفى سنة ٦٧١ وبنى له نور الدين دار الحديث النورية بدمشق ، وله فى الحديث مصنفات كثيرة مفيدة ، منها « الأطراف » جمع فيه مااتفق عليه الأئمة الثقات فى الحديث ، وله وراء ذلك أمالٍ كثيرة . وجاء بعده عبد[٢] الغنى الجمَّاعيلى المتوفى سنة ٦٠٠ وله كتاب فى أحاديث الأحكام الشرعية سماه « عمدة الأحكام فى معالم الحلال والحرام عن خير الأنام » وكتبت له الأجيال التالية شروحا كثيرة ، وهو صاحب كتاب الكمال فى معرفة أسماء الرجال . وكتب له جمال الدين يوسف المزِّى الآتى ذكره تكملة بعنوان « تهذيب الكمال » وله مختصرات كثيرة . وأكمل التهذيب مُغَلْطاى بعنوان إكمال تهذيب الكمال ، ونلتقى بابن[٣] الصلاح عثمان بن صلاح الدين المتوفى سنة ٦٤٣ وهو حافظ كبير تولى مشيخة دار الحديث الأشرفية بدمشق وله كتاب أقصى الأمل والشوق فى علوم حديث الرسول ، طُبع مرارا بعنوان مقدمة ابن الصلاح فى علوم الحديث وله مختصرات كثيرة . ويلقانا محيى الدين النووى الفقيه الكبير المتوفى سنة ٦٧٦ وعداده بين فقهاء الشافعية ، وكان حافظا متقنا ، وله شرح على صحيح مسلم هو أهم شروحه ، وله رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين وكتاب الأذكار المنتخب من كلام سيد الأبرار وله الأربعون النووية وكتاب التقريب فى مصطلح الحديث وكتاب تهذيب الأسماء واللغات ، ودرَّس بدار الحديث الأشرفية فى دمشق وغيرها .

وكان يعاصر النووى اليونينى على[٤] بن محمد بن أحمد شرف الدين المتوفى سنة ٧٠١ وله خدمة عظيمة أداها لصحيح البخارى ، اذ حاول أن يخرج من مخطوطاته نسخة فى أدق صورة ممكنة لمنفعة المسلمين فى العالم الإسلامى ، واختار أصلا لهذا الإخراج نسخة وثيقة كانت موقوفة بمدرسة أقبغا آص بالقاهرة وقابلها فى واحد وسبعين مجلسا على أصل مسموع للحافظ أبى ذر الهروى وأصل ثان مسموع للحافظ أبى محمد الأصيلى وأصل ثالث مسموع لأبى القاسم بن عساكر المذكور آنفا وأصل رابع مسموع على الشيخ أبى الوقت بقراءة السمعانى . وكان بجواره فى تلك المجالس الإمام النحوى ابن مالك للمراجعة والتصحيح مما جعله فيما بعد يملى كتابا مستقلا

---

(١) مرت مصادر ترجمته فى ص ٥٦٣ .

(٢) راجع فى الجماعيلى تذكرة الحفاظ ١٦٠/٤ وطبقات الحفاظ للسيوطى ١٨ وكتابه حسن المحاضرة ٣٥٤/١ والعبر ٣١٣/٤

(٣) انظر فى ابن الصلاح ابن خلكان ٢٤٣/٣ وتذكرة الحفاظ ١٤٣٠/٤ والسبكى ٣٢٦/٨ والبداية والنهاية ١٦٨/١٣ والشذرات ٢٢١/٥

(٤) راجع اليونينى فى الدرر لابن حجر ١٧١/٣ والسلوك ٥٢٤/١ والنجوم الزاهرة ١٩٨/٨ والشذرات ٣/٦

بعنوان « شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح » وكان أمام اليونيني فى مجالسه المذكورة جمع من طلاب الحديث وعلمائه وفى أيديهم نسخ من صحيح البخارى للمقابلة . واتخذ اليونيني رموزا لرواة تلك النسخ ولرواة آخرين بحيث بلغت رموزه خمسة عشر رمزا . وقد طبعت مطبعة بولاق الكتاب من نسخة فرعية لتلك النسخة اليونينية ، وهى نسخة ابن مالك وعليها شهادة من اليونيني بسماعه النسخة عليه ، وشهادة من ابن مالك بسماعها منه . وهى ذروة فى التحقيق لم يبلغها أحد بعد اليونيني ، كما أشرنا إلى ذلك فى كتابنا « البحث[1] الأدبى » .

ومن كبار المحدثين فى القرن الثامن الهجرى المِزِّى [2] يوسف بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٧٤٢ وإليه انتهت رياسة المحدثين بالشام ، ومن تصانيفه تحفة الإشراف بمعرفة الأطراف » طبع فى الهند ، وله « تهذيب الكمال » المجمع على أنه لم يصنف مثله . وكان يعاصره الذهبى محمد بن أحمد المتوفى سنة ٧٤٨ حافظ الشام وهو مع المزى من مفاخر دمشق فى زمنهما وله فى الحديث تصانيف كثيرة مثل مختصر سنن البيهقى ومختصر الأطراف للمزى والمعجم الكبير والصغير ، وسنعود للحديث عنه بين المؤرخين . ومن محدثى القرن التاسع بدر [3] الدين العينى المتوفى سنة ٨٥٥ صاحب كتاب « عمدة القارى فى شرح صحيح البخارى » والخيضرى[4] الدمشقى محمد بن محمد بن عبد الله المتوفى سنة ٨٩٤ وله تعليقات على شرح ابن حجر للبخارى المسمى بالفتح البارى . وظل هذا التراث الضخم بأعين المحدثين أيام العثمانيين ، وكان أكثر اهتمامهم بكتب الصحاح الستة وخاصة بشروح ابن حجر والقسطلانى على صحيح البخارى وشرح النووى على صحيح مسلم .

وطبيعى أن يكون الفقه نشيطا فى الشام مع الدراسات الدينية السابقة لحاجة أهل الشام إلى الفتوى فى القضايا الشرعية ومايعرض لهم منها فى حياتهم اليومية ، وفعلا تكوَّن للشام إمام أنشأ مذهبا فقهيا ظل فيها طويلا بجوار المذاهب الأربعة المشهورة : مذهب أبى حنيفة ومالك والشافعى

---

(١) البحث الأدبى (طبع دار المعارف) ص ١٨٦ وما بعدها

(٢) انظر المزى فى الدرر ٢٣٣/٥ والنجوم الزاهرة ٧٦/١٠ وشذرات الذهب ١٣٦/٦ والبداية والنهاية ١٩١/١٤ والسبكى ٣٩٥/١٠ وتاريخ ابن الوردى ٣٣٢/٢ وطبقات الحفاظ للسيوطى ٥١٧ والدارس فى أخبار المدارس ٣٥/١ وتذكرة الحفاظ ١٤٩٨/٤ والبدر الطالع ٣٥٣/٢

(٣) انظر فى العينى حسن المحاضرة ٤٧٣/١ والفوائد البهية ٢٠٧ والضوء اللامع جـ١٠ رقم ٥٤٥ والشذرات ٢٨٦/٧ والبدر الطالع ٣٩٤/٢

(٤) راجع فى الخيضرى الضوء اللامع ج ٩ رقم ٣٠٥

وابن حنبل ونقصد الإمام الأوزاعى [١] صاحب المذهب المنسوب إليه أصحابه من الأوزاعية ، وقد توفى سنة ١٥٧ للهجرة ، ومولده ببعلبك ومنشؤه ببيروت ، واتخذها موطنه إلى وفاته ، ويقول السبكى إنه : « لم يكن يلى القضاء بدمشق والخطابة والإمامة – قبل ظهور مذهب الشافعى فيها لأواخر القرن الثالث كما سيتضح عما قليل – إلا أوزاعىّ على مذهب الإمام الأوزاعى [٢] . ويذكر المؤرخون أنه ولى القضاء بدمشق يحيى بن حمزة منذ سنة ١٥٤ إلى سنة ١٨٣ ثم وليه بعده ابنه محمد[٣] إلى سنة ٢٣١ . وأكبر الظن أن كلام السبكى يشملهما وأنهما كانا يقضيان بين الناس بمذهب الأوزاعى . ويبدو أنه ظل بعدهما من كان يقضى بهذا المذهب ، إذ يذكر ابن تغرى بردى أنه توفى لسنة ٣٤٧ قاضى دمشق أحمد[٤] بن سليمان بن حَذْلم الأوزاعى المذهب ، ويقول إنه كان له حلقة بالجامع الأموى وأكبر الظن أنه كان يدرس للناس فيها المذهب . ومعنى ذلك أن مذهب الأوزاعى كان لايزال حيًّا فى دمشق والشام إلى أواسط القرن الرابع الهجرى . ومعروف أن الأمويين فى أول تأسيس حكمهم بالأندلس كانوا على مذهب الأوزاعى مثل أهل الشام وظلوا عليه إلى أن انتقلوا عنه إلى مذهب مالك فى أواخر القرن الثانى للهجرة[٥] ، وكأنهم كانوا أسبق من أهل الشام انفصالا عن مذهب الأوزاعى .

وتذكر كتب التراجم والتاريخ أن أبا يوسف تلميذ أبى حنيفة حين ولى قضاء القضاة لعهد الخليفة الرشيد وأصبح هو المسيطر على تولية القضاة فى الدولة الإسلامية كان لايولى قضاء البلاد من أقصى المشرق إلى أقصى أعمال أفريقية إلا أصحابه والمنتمين إلى مذهبه الحنفى ، ونظن ظنا أنه كان يوجد فى دمشق أحيانا قاض حنفى بجانب القاضى الأوزاعى ، وربما كانا يتداولان الحكم . وممن تذكرهم كتب التاريخ من قضاة الأحناف قاضى دمشق على[٦] بن محمد بن كاس المتوفى سنة ٣٢٥ للهجرة ، ونظن ظنا أن حلب كانت أسرع من دمشق فى الانصياع لمذهب أبى حنيفة

---

(١) انظر فى الأوزاعى الجزء السابع من طبقات ابن سعد والأنساب للسمعانى ٥٣ وابن خلكان ١٢٦/٣ وتاريخ بغداد ١٩٩/١٠ وتذكرة الحفاظ ٥٨/١ وشذرات الذهب ١٤١/١ والنجوم الزاهرة ٣٠/٢ ومحاسن المساعى فى مناقب الأوزاعى (طبع القاهرة) صنفه مؤلف مجهول سنة ٨٥٠ وضحى الإسلام ٩٨/٢

(٢) طبقات الشافعية للسبكى ٣٢٦/١

(٣) انظر فيه وفى أبيه النجوم الزاهرة ٢٢/٢ ، ١١٣ ، ٢٦٠

(٤) راجع فى ابن حذلم النجوم الزاهرة ٣٢٠/٣ وفى السبكى ١٩٦/٣ : ابن خديم

(٥) تاريخ الفكر الأندلسى لبالنثيا ترجمة الدكتور حسين مؤنس ص ٤١٣ ، ٤١٧

(٦) النجوم الزاهرة ٢٦٠/٣

بحكم قربها أكثر من العراق ، ومثلها فى ذلك أنطاكية ، ويلقانا فيها ابن أبى الفهم[١] التنوخى الأنطاكى المتوفى سنة ٣٤٢ وكان فقيها حنفيًّا بارعا . ونلتقى فى حلب بأحمد[٢] بن يحيى بن زهير الحلبى المتوفى سنة ٤٢٤ وله كتاب ذكر فيه الخلاف بين أبى حنيفة وأصحابه من مثل أبى يوسف ومحمد بن الحسن الشيبانى تلميذيه ، وأخذ عن ابن زهير المذهب بحلب جد بنى أبى جرادة هبة الله بن أحمد ، وتولى القضاء بمدينته ، وكانت أسرته على ثراء غير قليل فأكبت على المذهب تدرسه وتتعمقه منذ هبة الله إلى حفيده عمر بن العديم فى القرن السابع كما سنذكر عما قليل .

ونخلص من ذلك إلى أنه كان من الأسباب المهمة فى دخول مذهب أبى حنيفة إلى الشام أن كثيرين من القضاة منذ أواخر القرن الثانى كانوا أحنافا ، فأخذ المذهب يشيع ، وتكاثر طلاب العلم الذين يبغون اعتناقه ، وأخذ يدرسه لهم غير عالم حنفى . ويلقانا المفضل[٣] بن محمد المعرى الحنفى المتوفى سنة ٤٤٤ تلميذ الإمام القدورى الحنفى البغدادى وَلِىَ القضاء ببعلبك وناب فى القضاء بدمشق ، ومن تصانيفه كتاب فى الرد على الإمام الشافعى . ويلقانا البلاساغونى[٤] محمد بن موسى المتوفى سنة ٥٠٦ مصنف « أصول الفقه » على مذهب أبى حنيفة ، ولِىَ قضاء بيت المقدس ودمشق مدة . وكان القضاة قبله فى الشام شافعية وكذلك كان أئمة الجامع الأموى ، فحاول أن يقيم فيه إماما حنفيًّا ، فأغلق أهل دمشق الجامع ولم يمكّنوه وعُزِل وعاد القضاء فى دمشق إلى الشافعية .

وكانت قد أخذت المدارس تنشأ بالشام وكانت قد أُسِّست فى دمشق — كما مر بنا — المدرسة الصادرية سنة ٤٩١ ويعدُّ ابن شداد من فقهائها حتى سنة ٦٥٨ أحد عشر فقيها حنفيًّا ، وذكر النعيمى بعده فقهاءها إلى نهاية أيام المماليك . وقد ذكر ابن شداد بجوارها فى دمشق وضواحيها حتى سنة ٦٧٠ أربعا وثلاثين مدرسة للأحناف ويذكر أسماء فقهائها حتى سنة ٦٧٠ ويتابع ذلك النعيمى . ويصنع ابن شداد نفس الصنيع بحلب وماأُنشئ فيها من مدارس حنفية منذ أسست فيها المدرسة الزجاجية سنة ٥١٦ وكانت حلب قد أقبلت أكثر من دمشق — على المذهب الحنفى من قديم كما مرَّ بنا . واشتهرت فيها أسر بتوارث هذا المذهب مثل أسرة بنى العديم ، وعنى نور الدين

---

(١) النجوم الزاهرة ٣١٠/٣ وتاج التراجم رقم ١٣٥

(٢) انظر ابن زهير فى تاج التراجم رقم ٤١ وقابل بمعجم الأدباء ٥/١٦ ومابعدها .

(٣) راجع المفضل فى النجوم الزاهرة ٥٢/٥ وتاج التراجم رقم ٢٢٤

(٤) انظر فى البلاساغونى النجوم الزاهرة ٢٠٤/٥ والسبكى ٣٢٦/١

بالمذهب وكان حنفيا وأسس له مدرستين : مدرسة بحلب وأخرى بدمشق سميت كل منهما بالمدرسة النورية . ومضى الأيوبيون بعده يعنون بالمذهب ومدارسه ، وكانوا شافعية ، وانفرد من بينهم المعظم عيسى صاحب دمشق (٦١٥ — ٦٢٤ هـ) باعتناقه المذهب الحنفى وتعمقه فيه ، على هدى من أستاذه جمال الدين الحصيرى [١] الذى انتهت إليه رياسة المذهب بدمشق والمتوفى سنة ٦٣٦ وله شرحان على الجامع الكبير لمحمد بن الحسن الشيبانى : شرح مفصل فى ثمان مجلدات سماه التحرير ، وشرح مختصر فى مجلدين سماه الوجيز ، ومع إيجازه زاد فيه ١٦٣٠ مسألة مع الإيضاح بالنظائر والشواهد . وشرح أيضا للشيبانى كتاب السير الكبير وهو فى الأحكام الفقهية المتعلقة بالغزوات والحرب ، وله كتاب فى الخلاف بين الشافعية والحنفية ، ودفع المعظم للتعمق فى المذهب حتى ألف فيه كتابا [٢] . وليس ذلك فحسب ، فقد كلّف الحصيرى وفقهاء المذهب بتأليف كتاب جامع فيه ، فألفوا كتابا فى عشر مجلدات سموه كتاب التذكرة .

وتُظلُّ الشامَ أيامُ المماليك ويقرر الظاهر بيبرس أن لا يُقتَصَر فى مصر على قاض شافعى كما كان الشأن منذ عهد صلاح الدين ، بل يشترك معه فى القضاء قاض حنفى وقاض مالكى وقاض حنبلى وعمم ذلك فى دولته بدمشق وحلب وغيرهما من مدن الشام ، واطرد العمل بذلك إلى أيام العثمانيين ، فكان من الأسباب المهمة فى ازدهار المذهب الحنفى بديار الشام بجوار ما كان له من مدارس ، مما دفع إلى حركة علمية نشيطة فيه ، وكان أول من تولى القضاء بدمشق من فقهاء الأحناف حسب قرار بيبرس عبد [٣] الله بن محمد بن عطا الأذرعى المتوفى سنة ٦٧٣ ، وتوالى القضاة الأحناف فيها بعده ، منهم شمس الدين الأذرعى المتوفى سنة ٧٢٢ ولى قضاء دمشق عشرين سنة ودرّس طويلا بمدارسها الحنفية . وتتكاثر أسماء القضاة والفقهاء الأحناف فى كتب التاريخ والتراجم ، وحسبنا أن نعرف أن نشاطًا وافرًا أداه فقهاء الأحناف فى ديار الشام بالحقب التالية . وظل هذا النشاط أيام العثمانيين ، ولبرهان [٤] الدين الحلبى المتوفى سنة ٩٥٦ كتاب ملتقى

---

(١) راجع فى الحصيرى الفوائد البهية فى طبقات الحنفية ٨٤ والجواهر المضية لابن أبى الوفا ٢/١٥٥ وتاج التراجم رقم ٢٠٨ والبداية والنهاية ١٣/١٥٢ والنجوم الزاهرة ٦/٢١٣

(٢) انظر فى المعظم عيسى ونشاطه فى الفقه الحنفى مختصر مرآة الزمان ٤٢٦

(٣) انظر فى الأذرعى النجوم الزاهرة ٧/٢٤٦ والسلوك للمقريزى ١/٦١٩

(٤) راجع فى برهان الدين دائرة المعارف الإسلامية وبروكلمان (الطبعة الألمانية) ٢/٤٣٣

الأبحر فى فروع الفقه الحنفى ، وقد ترجم قديما إلى التركية والفرنسية . وصنف شمس الدين التمرتاشى الغزى المتوفى سنة ١٠٠٤ للهجرة كتاب تنوير الأبصار وجامع البحار فى الفقه الحنفى ومنه ومن شروحه مخطوطات بدار الكتب المصرية .

وكان أقل المذاهب الفقهية الأربعة الكبرى انتشارا وأتباعا فى الشام المذهب المالكى ، ويأخذ فى النشاط هناك متأخرا زمن الدولة الأيوبية ، منذ بنى صلاح الدين بدمشق للمالكية مدرسته الصلاحية بالقرب من البيمارستان النورى ، ويذكر ابن شداد من أساتذتها المهمين ابن الحاجب المتوفى سنة ٦٤٦ وقد مرَّ بنا ذكره بين النحاة وله مختصران نفيسان فى الفقه المالكى وعلم الأصول ، ودرَّس الفقه المالكى أيضا فى زاوية المالكية الملاصقة لغربى الجامع الأموى ، بناها أيضا للمالكية صلاح الدين . وخلفه فى المدرسة الصلاحية عبد[1] السلام الزواوى المتوفى سنة ٦٨١ وإليه انتهت رياسة المالكية بالشام ومشيخة القرَّاء ، وكان معمرا ، توفى عن ٩٢ عاما . ولا يذكر ابن شداد للمالكية وراء المدرسة الصلاحية سوى مدرسة واحدة هى مدرسة الشرابيشى فى حين ذكر للحنفية كما أسلفنا أربعة وثلاثين مدرسة . وكان قد انتعش المذهب المالكى كغيره من المذاهب حين قرر الظاهر بيبرس سنة ٦٦٣ إسناد الحكم فى بلدان الشام الكبرى : دمشق وغيرها إلى أربعة قضاة بينهم قاض مالكى ، وكان أول من تولى القضاء المالكى بدمشق حينئذ عبد السلام الزواوى المذكور آنفا ، وتعاقب بعده القضاة ، كما تعاقب فقهاء المالكية يدرسون للناس المذهب ، ومن أهمهم عيسى[2] بن مسعود مدرس الفقه المالكى بالجامع الأموى المتوفى سنة ٧٤٣ وله شرح جيد على مختصر ابن الحاجب ، وشرح المدونة للفقه المالكى لمصنفها سحنون ناشر المذهب فى الديار المغربية ، وله شرح موسع على صحيح مسلم وكتاب فى مناقب مالك ، وإليه انتهت رياسة المالكية فى الشام . ويلقانا فى كتب التراجم كثيرون يتنقلون بين القاهرة ودمشق متولين لمنصب القضاء المالكى . ويأخذ نشاط المالكية أيام العثمانيين فى التضاؤل والشحوب .

وكان أولَ من أدخل مذهب الشافعى — فيما يبدو — إلى الشام أبو زرعة[3] بن عثمان الدمشقى ولى القضاء بالقاهرة ثمانى سنوات ، ثم ولىَ القضاء بدمشق سنة ٢٩٢ حتى توفى سنة ٣٠٢ ويقول

---

(١) راجع فى عبد السلام الزواوى النجوم الزاهرة ٣٥٦/٧ وطبقات القراء ٣٨٦/١ والبداية والنهاية ٣٠٠/١٣ والسلوك ٥٤٢/١

(٢) انظر فى ابن مسعود الدرر الكامنة لابن حجر ٢٩٠/٣

(٣) راجع أبا زرعة فى قضاة دمشق لابن طولون (طبع دمشق) ٢٢ والبداية والنهاية ١٢٢/١١ والشذرات ٢٣٩/٢، والسبكى ١٩٦/٣ وقابل على ٣٢٦/١

السبكي فى كتابه طبقات الشافعية : لم يل القضاء بعده فى الشام إلا شافعي المذهب غير ابن حَذْلم قاضي الشام فإنه كان أوزاعي المذهب كما مرَّ بنا . ومرَّ بنا أيضا أنه ولى قضاء الشام حتى توفى سنة ٣٢٥ . ويغلب أن يكون هذا شذوذا وأن تكون عبارة السبكي صحيحة ، كما يتضح ذلك لمن يرجع إلى كتاب قضاة دمشق لابن طولون . ومنهم عبد [1] الله بن محمد القزويني قاضي الرملة المتوفى سنة ٣١٥ والحسين [2] بن أبي زرعة محمد بن عثمان المتوفى سنة ٣٢٧ وكان قاضيا لدمشق فى زمن الإخشيد ، وأبو[3] يحيى البلخي زكريا بن أحمد المتوفى سنة ٣٣٠ وكان مثل سابقه قاضيا لدمشق . ومنهم أيضا أيام الفاطميين أبو بكر المَيانَجِيّ قاضي دمشق المتوفى سنة ٣٧٥ . ويبدو أنه تجرد فى القرن الرابع فقهاء شافعية لعرض المذهب الشافعي ودراسته فى مدن الشام الكبرى ، إذ نجد عبد المنعم بن غلبون الحلبي المتوفى سنة ٣٨٩ مقرئ حلب يسلكه السبكي بين فقهاء الشافعية ، ويقول إنه تلقن المذهب على الحصائرى[4] الحسن بن حبيب الدمشقي إمام مسجد باب الجابية بدمشق المتوفى سنة ٣٣٨ ، ويلقانا فى القرن الخامس فقيه شافعي هو أبو[5] الخير المروزي يستوطن المعرَّة سنة ٤١٨ ويدرس بها للطلاب حتى وفاته سنة ٤٤٧ وله كتاب فى فقه الشافعي يسمى الذخيرة حمله عنه طلابه . ونلتقي من قضاة دمشق بأبي المظفر عبد[6] الجليل بن عبد الجبار المتوفى سنة ٤٧٩ وكان يعاصره نصر[7] بن إبراهيم المقدسي المتوفى سنة ٤٩٠ تفقه على الفقيه سليم بصور ودرس فيها عشر سنوات ثم انتقل إلى دمشق يدرس ويفتي ويحدِّث . وكان قد نزل بصوامع بيت المقدس ودمشق الإمام الغزالي منذ سنة ٤٨٨ وله ثلاثة كتب فى الفقه الشافعي : البسيط والوسيط والوجيز ، وشُغف بها الشافعية منذ زمنه فى الشام وغير الشام .

ويدخل مذهب الشافعي فى مرحلة كبرى جديدة ينتشر فيها بالشام أوسع انتشار ، ونقصد مرحلة تأسيس مدارس الشافعية منذ تأسيس المدرسة الأمينية فى سنة ٥١٤ ويعدُّ ابن شداد فى

---

(١) انظر قضاة دمشق ٢٦ والبداية والنهاية ١٥٧/١١ والعبر ١٦٢/٢ والسبكي ٣٢٠/٣

(٢) راجع الحسين فى السبكي ٣ /٢٨١ وقضاة دمشق ٢٧

(٣) انظر البلخي فى قضاة دمشق ٢٨ والسبكي ٢٩٨/٣ والشذرات ٣٢٦/٢ والعبر ٢٢٢/٢

(٤) راجع فى الحصائرى السبكي ٢٥٥/٣ وقارن مع ابن غلبون فى السبكي ٣٣٨/٣

(٥) انظر أبا الخير فى السبكي ٢٩٩/٤

(٦) راجع فى أبي المظفر قضاة دمشق ٤٢ والسبكي ١٠٠/٥

(٧) انظر نصر بن إبراهيم فى تهذيب الأسماء واللغات ١٢٥/٢ والسبكي ٣٥١/٥ والعبر ٣٢٩/٣ ومرآة الجنان ١٥٢/٣ والنجوم الزاهرة ١٦٠/٥ والشذرات ٣٩٥/٣

كتابه « الأعلاق الخطيرة » من مدرسى هذه المدرسة حتى زمن تأليفه لكتابه حوالى سنة ٦٧٠ عشرةً من كبار فقهاء الشافعية ، ولاتتجاوز مدارس الشافعية بدمشق حتى عهد نور الدين عد أصابع اليد الواحدة ، حتى إذا خلص الأمر لصلاح الدين والأيوبيين – وكانوا شافعية إلا ماكان من اعتناق المعظم عيسى للمذهب الحنفى – ازدهر المذهب الشافعى منذ هذا التاريخ ، وقد جعل صلاح الدين قاضى القضاة بدمشق شافعيا ، وبلغت مدارس الشافعية – كما أحصاها ابن شداد – أربعين مدرسة حتى أيامه . وإذا تصورنا أن المدرسين النابهين لكل مدرسة من هذه المدارس بلغوا حتى زمنه فى المتوسط أربعة من المدرسين يكون معنى ذلك أن المذهب الشافعى حظى حتى أواخر القرن السابع الهجرى فى دمشق وحدها بما لايقل عن مائة وستين فقيها نابها ، واطرد العمل بذلك فى هذه المدارس بدمشق وفيما أحصاه بعدها النعيمى فى كتابه « الدارس » وأيضا فيما قابلها من مدارس للشافعية فى حلب وغيرها من بلدان الشام الكبرى .

ومن المؤكد أن قرار الظاهر بيبرس بأن يكون للمذاهب الكبرى بجانب مذهب الشافعى قاض لم يحدث أثرا عكسيا فى المذهب كما كان يُظنّ ، إذ كان زمام القضاء فى أيام الأيوبيين بيد الشافعية وحدهم ، بل ظل للمذهب ازدهاره ، وظل له الجمهور الأكبر من الناس والفقهاء فى الشام ، ونكتفى بالوقوف عند بعض مشهوريهم ، فمنهم ابن [1] أبى عصرون قاضى القضاة بدمشق لعهد صلاح الدين المتوفى سنة ٥٨٥ وبنى له قبل ذلك نور الدين المدارس بحلب وحماة وحمص وبعلبك ، وبنى هو لنفسه مدرستين بحلب ودمشق ، ويقول السبكى عنه : ملأ البلاد تصانيف وتلامذة ، ويذكر من تصانيفه « صفوة المذهب » فى سبع مجلدات وكتاب الانتصار فى أربع مجلدات وكتاب المرشد فى مجلدين وكتاب الذريعة فى معرفة الشريعة ، إلى غير ذلك من مصنفات كثيرة . ومن كبار فقهاء الشام بعده العز بن عبد السلام ، ذكرناه بين فقهاء الشافعية بمصر ، إذ استوطنها حتى وفاته .

وفى رأينا أن أعظم فقيه شافعى أنجبته الشام هو محيى الدين النووى [2] المتوفى سنة ٦٧٦ عن

(١) انظر فى ابن أبى عصرون خريدة القصر (قسم شعراء الشام) ٣٥١/٢ وابن خلكان ٥٣/٣ والسبكى ١٣٢/٥ ونكت الهميان ١٨٦ وطبقات القراء ٤٥٥/١ والعبر ٢٥٦/٤ والنجوم الزاهرة ١٠٩/٦ وتذكرة الحفاظ ١٣٥٧/٤ والبداية والنهاية ٣٣٣/١٢ والشذرات ٢٨٣/٤

(٢) راجع فى النووى السبكى ٣٩٥/٨ والبداية والنهاية ٢٧٨/١٣ وتذكرة الحفاظ ١٤٧٠/٤ والنجوم الزاهرة ٢٧٨/٧ والعبر ٣١٢/٥ وشذرات الذهب ٣٥٤/٥ والسلوك ٦٤٨/١ والدارس فى أخبار المدارس ٢٤/١

خمسة وأربعين عاما ، ومر بنا ذكره بين المحدثين ، وكان إماما مجتهدا واسمه يتردد فى كتب الفقه الشافعى بعده وكذلك آراؤه ، ومن أهم مصنفاته فى فقه الشافعية منهاج الطالبين لخص به كتاب المحرَّر للرافعى القزوينى ، واختصر المنهاج فيما بعد الشيخ زكريا الأنصارى ، وسمى مختصره المنهج ، وصنف النووى فى فتاويه الفقهية كتابين : كبير وصغير . ومن فقهاء الشافعية الكبار فى زمنه وبعد زمنه علاء[1] الدين الباجى المتوفى سنة ٧١٤ وكمال الدين محمد الزَّملكانى حفيد عبد الواحد الذى ذكرناه بين البلاغيين توفى سنة ٧٢٧ . وتفيض كتب التراجم والتاريخ بأسماء جلَّة من هؤلاء الفقهاء ، ولابد أن نلاحظ أن كثيرين من فقهاء الشافعية الكبار بمصر كانوا ينزلون فى الشام مثل تقى الدين السبكى قاضى قضاة الشام وابنه تاج الدين عبد الوهاب خطيب الجامع الأموى مؤلف طبقات الشافعية ، ويظل المذهب الشافعى مزدهرا بالشام أيام المماليك والعثمانيين .

وكان المذهب الحنبلى فى الشام أقل أشياعا وأنصارًا من المذهب الشافعى والحنفى ، ومن أوائل من أدخلوه إلى دمشق والشام علم من أعلام المذهب الحنبلى هو أبو القاسم الخِرَقىّ عمر[2] بن الحسين المتوفى بدمشق سنة ٣٣٤ وكان قد استوطنها بأخرة من عمره ودرس المذهب فيها ، وله كتاب دوَّت شهرته هو « المختصر » فى الفقه الحنبلى ، ظل طلاب المذهب يعتمدون عليه طويلا ، ويقال إن عدد مسائله بلغ ٢٣٠٠ مسألة . وظل المذهب لاينتعش فى ديار الشام حتى قُيِّض له فى القرن الخامس أبو الفرج[3] الشيرازى المقدسى الدمشقى المتوفى سنة ٤٨٦ وكان قد تفقه فى بغداد على أبى يَعْلَى صاحب طبقات الحنابلة ، وقدم الشام فسكن بيت المقدس ونشر مذهب الإمام أحمد بن حنبل فيما حوله من بلدان فلسطين ، ثم انتقل إلى دمشق وأقام بها وأخذ ينشر المذهب حتى أصبح له أتباع وتلامذة كثيرون لا فى دمشق فحسب بل أيضا فى بيت المقدس وغيرهما من بلدان الشام ، وله تصانيف عدة فى الفقه الحنبلى والأصول ، منها : المبهج والإيضاح ، ومختصر فى الحدود وفى أصول الفقه ، والتبصرة فى أصول الدين ، وله كتاب الجواهر فى التفسير ثلاثون

---

(١) انظر فى علاء الدين الباجى الدرر الكامنة ١٧٦/٣ وطبقات الشافعية للسبكى ٣٣٩/١٠ وفوات الوفيات ١٥٠/٢ وحسن المحاضرة ٥٤٤/١ والشذرات ٣٤/٦

(٢) انظر فى الخرقى تاريخ بغداد ٢٣٤/١١ وطبقات الحنابلة لابن أبى يعلى ٣٣١ والأنساب للسمعانى ١٩٥ وابن خلكان ٤٤١/٣ والنجوم الزاهرة ٢٨٩/٣

(٣) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (طبعة دمشق) ٨٥/١ وما بعدها

مجلدا . وكان يعاصره الفقيه الحنبلي عبد [١] الوهاب بن طالب التميمي نزيل دمشق وإمام مسجد الريحان .

وخلف أبا الفرج الشيرازى على المذهب ابنه عبد الوهاب المتوفى سنة ٥٣٦ وتخرج من بيته فقهاء حنابلة كثيرون ، ويعرفون فى دمشق والشام ببيت ابن الحنبلى ، ولعبد الوهاب مثل أبيه تصانيف فى الفقه الحنبلي والأصول ، منها المنتخب فى الفقه الحنبلى فى مجلدين والبرهان فى أصول الدين . ولعبد الوهاب على المذهب فى الشام يد سابغة ، فقد بنى له بدمشق مدرسة تعرف بالمدرسة الحنبلية ، ويذكر ابن شداد أساتذتها من الحنابلة الفقهاء حتى أيام تأليف كتابه « الأعلاق الخطيرة » بعد سنة ٦٧٠ . ويذكر بدمشق معها تسعة مدارس أخرى للحنابلة بُنيت بعدها حتى زمن ابن شداد . ونشط بناء المدارس الحنبلية فى بيت المقدس وظل بعد ابن شداد على نحو مايصوره ذلك النعيمى فى كتابه « الدارس فى تاريخ المدارس » . وكان مما ضاعف نشاط هذا المذهب قرار الظاهر بيبرس أن يكون للحنابلة فى ديار الشام – كما فى ديار مصر – قاض فى كل بلد كبير بجانب قضاة الحنفية والمالكية والشافعية . ويتضح هذا النشاط وتتضح معه كثرة الفقهاء من الحنابلة منذ أيام الأيوبيين ، ومن كبارهم حينئذ موفق [٢] الدين بن قدامة الجمّاعيلى المقدسى عبد الله بن أحمد المتوفى بدمشق سنة ٦٢٠ وهو من أئمة المذهب ، وله كتب كثيرة فى الفقه الحنبلى وأصوله وأصول الدين ، منها المغنى شرح به مختصر الخرقى المار ذكره فى عشر مجلدات ، وهو مطبوع ، والكافى فى أربع مجلدات ، وله فى أصول الفقه كتاب روضة الناظر ، وفى أصول الدين كتاب الاعتقاد . ويلقانا بعده فقهاء كثيرون من بيته يتردد ذكرهم طوال القرنين السابع والثامن .

ومانكاد نبلغ نهاية القرن السابع أيام المماليك حتى يتألق فى المذهب اسم الإمام ابن [٣] تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ وقد صورنا جانبا من تحرره الفكرى واجتهاده فى غير هذا الموضع ، ومرَّ بنا حديثنا عن منهجه فى التفسير القرآنى ، وله عشرات الرسائل والكتب فى المسائل التشريعية والعقيدية ، ويقول الذهبى فى تذكرة الحفاظ إن مصنفاته التى سارت بها الركبان نحو ثلاثمائة مجلد ، ومن أهم كتبه الفقهية فتاويه وهى مطبوعة قديما فى خمسة مجلدات كبار . ومن أعلام الفقهاء الحنابلة بعده تلميذه ابن قيم الجوزية المذكور بين البلاغيين وهو حامل فقهه وعلمه وناشرهما فى الناس وأضاف

---

(١) ابن رجب ٩٦/١

(٢) راجع فى ابن قدامة ابن رجب ١٧٠/٢ والبداية والنهاية ٩٩/١٣ والشذرات ٨٨/٥ والنجوم الزاهرة ٢٥٦/٦

(٣) مرت مصادر ابن تيمية فى الحركة العلمية ص ٥٥١ .

إليهما كثيرا من روائع الكتب ، مع نزعة صوفية قوية فيه . وتصدى فى دمشق بعد أستاذه للإقراء والإفتاء وصنَّف كثيرا فى الفقه والتفسير والحديث والأصول والفروع ، ومن تصانيفه إعلام الموقعين وشرح منازل السائرين ، والصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ، وطرق السعادتين ، ويقول ابن حجر فى الدرر : هو طويل النفس فى كتاباته يحاول الإيضاح جهده فيسهب جدا ، ويقول الشوكانى فى البدر الطالع : « له من حسن التصرف مع العذوبة الزائدة وحسن السياق مالا يقدر عليه غالب المصنفين بحيث تعشق الأفهام كلامه وتميل إليه الأذهان وتحبه القلوب » . ويزخر كتاب النجوم الزاهرة بأسماء فقهاء الحنابلة وقضاتهم بدمشق وغيرها حتى نهاية زمن تأليفه سنة ٨٧٢ . ويلقانا بأخره من أيام المماليك مجير الدين العليمى عبد الرحمن بن محمد قاضى بيت المقدس المتوفى سنة ٩٢٧ وله كتاب فى طبقات الحنابلة سماه « المنهج الأحمد فى تراجم أصحاب الإمام أحمد » . ويظل للفقهاء الحنابلة نشاطهم أيام العثمانيين مثلهم فى ذلك مثل بقية أصحاب المذاهب الثلاثة الأخرى .

ومنذ ظهرت المذاهب الفقهية والكلامية والجدل يحتدم بين أصحابها ، مما أتاح مبكرًا لنشأة علم الجدل وما تبعه من نشأة علم آداب البحث والمناظرة ، ويكثر التأليف فيهما لهذا العصر كما يكثر التأليف فى علم الأصول الذى وضعه الإمام الشافعى وفاق الأولين والآخرين فيه الآمدى الذى سنلم به فى حديثنا عن علم الكلام بجزء مصر ، وكان قد نزل مصر ثم استوطن حماة حتى وفاته سنة ٦٣١ ، وكتابه «الإحكام فى أصول الأحكام» ربما كان أروع كتاب فى علم الأصول على مدى الأزمنة الماضية . والشام – مثل مصر – انصرفت عن الاعتزال وعن الفرق الكلامية الكثيرة التى نشأت فى بغداد ، حتى إذا ظهر الأشعرى المتوفى سنة ٣٢٤ وانضم تحت لوائه شافعية خراسان انضم مثلهم شافعية الشام ومصر بحيث تعانق المذهبان . الشافعى والأشعرى فى كل مكان . ولم يلبث أن خاصمها الحنابلة الآخذون بظاهر الكتاب والسنة ، واستمر هذا الخصام على مدار السنين فى أزمنة الأيوبيين والمماليك . ومن حين إلى آخر يتوقف السبكى فى طبقاته ليصور تعصب بعض الحنابلة ضد الأشاعرة وخاصة أستاذه الذهبى ، فقد كان يتعصب تعصبا شديدا ضدهم على نحو ما سنعرض ذلك فى غير هذا الموضع . وفى الوقت نفسه يشيد بفقهاء الشافعية الذين يردّون على خصوم الأشعرية ، على نحو ما أشاد بفخر الدين بن عساكر فى رده المفحم على الحسن بن على الأهوازى المار بين القراء فى كتابه « تبيين كذب المفترى فيما نسب إلى أبى الحسن الأشعرى » . ويشيد السبكى

بصفى [1] الدين بن الهندى المتوفى بدمشق سنة ٧١٥ لقيامه بنصرة المذهب الأشعرى ، ويقول : إنه كان من أعلم الناس بمذهبه وأدراهم بأسراره ، ويذكر من تصانيفه فى نصرة المذهب كتابه « زبدة الكلام » ويذكر له بجواره كتابا فى الأصول هو « نهاية الوصول فى دراية الأصول » .. وظلت نصرة الشافعية لمذهب الأشعرى على مدار السنين فى أيام المماليك والعثمانيين .

٥

التاريخ

نشطت دمشق والشام فى كتابة التاريخ بجميع صوره من السير المفردة وتاريخ المدن وتاريخ الدول أو دولة معينة والتراجم أوكتب الطبقات . ونبدأ حديثنا بالسير المفردة ، وأولها سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم الزكية ، وأول شامى ندب نفسه للكتابة فيها أبو [2] زُرْعة عبد الرحمن بن عمرو شيخ الشام المتوفى سنة ٢٨٢ وله بجانبها كتاب عن تاريخ الخلفاء الراشدين ، سقط مثل السيرة النبوية من يد الزمن . وعنى بعض الشاميين بالكتابة فيها ولم تصلنا كتاباتهم ، مثل السيرة النبوية لابن أبى طى المتوفى سنة ٦٣٠ . ونلتقى فى أيام العثمانيين بشمس الدين الدمشقى محمد [3] بن يوسف المتوفى سنة ٩٤٢ وله سيرة نبوية تسمى السيرة الشامية جمعها من نحو ٣٠٠ كتاب ، وتعنى مصر بإخراجها الآن . وصنّف نور الدين الحلبى المولود بمصر السيرة الحلبية ، ومر ذكرها فى حديثنا عن التاريخ بقسم مصر ، وهى مطبوعة . ونلتقى بثلاث سير أو تراجم شخصية صور أصحابها فيها حياتهم ، وأول مايلقانا منها كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤ وهو يصور فيها حياة الشاميين وحملة الصليب لزمنه ، نشرها فيليب حتى وكان قد نشرها قبله ديرنبورج . ولأبى شامة المقدسى المتوفى سنة ٦٦٥ ترجمة شخصية بقلمه أودعها كتابه « ذيل الروضتين » وبالمثل لابن طولون الصالحى المذكور بين الجغرافيين المتوفى سنة ٩٥٣ ترجمة شخصية بعنوان « الفلك المشحون فى أحوال محمد بن طولون » وهى مطبوعة بدمشق .

---

(١) راجع فى صفى الدين طبقات السبكى ١٦٢/٩ والوافى بالوفيات ٢٣٩/٣ والدرر لابن حجر ١٣٢/٤ ومرآة الجنان ٢٧٢/٤ والشذرات ٣٧/٦ والبدر الطالع ١٨٧/٢

(٢) انظر فى أبى زرعة النجوم الزاهرة ٨٧/٣ وقارن بالجزء ١٢٨/١ وتاريخ ابن عساكر ٢٧٤/٧ وابن حجر فى التهذيب ٥٥/٢ . وراجع بروكلمان ٢١/٣

(٣) انظر فى شمس الدين الشذرات ٢٤٩/٨

وشغل صلاح الدين بسيرته المؤرخين ، وأولهم العماد الأصبهانى وفيه ألف كتابه « البرق الشامى » ذكر فيه أخبار صلاح الدين وفتوحاته وأحداث الشام فى عهده ، وهو فى سبع مجلدات . ويتصل بهذه السيرة كتابه « الفيح القُسىّ فى الفتح القدسى » صوَّر فيه فتح صلاح الدين للقدس تصويرا أدبيا بديعا . وصنَّف بهاء[١] الدين بن شداد المتوفى سنة ٦٣٢ سيرة لصلاح الدين بعنوان : « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » اعتمد فيها على السيرة الصلاحية لأبن أبى طى . ولابن عنين الشاعر المتوفى سنة ٦٣٠ سيرة[٢] للملك العزيز سماها التاريخ العزيزى . وكتب أحد أولاد الناصر داود بن عيسى بن الملك العادل سيرة له باسم « الفوائد[٣] الجلية فى الفرائد الناصرية » . وللنووى المذكور بين الفقهاء كتاب فى سيرة الإمام الشافعى ، ولابن عربشاه[٤] الدمشقى المتوفى سنة ٨٥٤ سيرة مفصلة لتيمورلنك تعقب فيها مولده ونشأته وملكه ودولته ومن خلفوه حتى سنة ٨٤٠ وسمى هذه السيرة « عجائب المقدور فى نوائب تيمور » مصورًا إفساده فى الأرض وإهلاكه الحرث والنسل وماارتكب من الفظائع ، غير أنه كتبها بأسلوب مسجوع شديد التكلف ، ونزل مصر بأخرة من عمره فى عهد السلطان جَقْمق وكتب سيرته بعنوان « التأليف الطاهر فى شيم الملك الظاهر » . ولبدر الدين العينى المار ذكره كتاب السيف المهند فى سيرة السلطان المؤيد ، ولبدر الدين محمد[٥] بن أبى بكر الدمشقى المتوفى سنة ٨٧٤ سيرتان : سيرة لنور الدين ، والسيرة الثانية للسلطان قايتباى . وله سير كثيرة فى العصر . ولابن طولون الذى ذكرناه آنفا بين الجغرافيين سيرة لابن العربى المتصوف . وصنف شمس الدين الدمشقى المار ذكره سيرة لأبى حنيفة ، ومنها مخطوطة فى دار الكتب المصرية . ولمحمد بن يحيى الحنبلى سيرة صنفها عن عبد القادر الجيلانى المتصوف ، وهى مطبوعة ، ولمرعى[٦] بن يوسف الكرمى المتوفى سنة ١٠٣٣ سيرة صنفها فى مناقب ابن تيمية .

هذا بعض ماصادفنا من كتب السير المفردة ، أما كتب تاريخ المدن فقد عرضنا طائفة منها فى

---

(١) راجع بهاء الدين فى ابن خلكان ٨٤/٧ والسبكى ٣٦٠/٨ وتاريخ ابن الوردى ١٦٠/٢ وتذكرة الحفاظ ١٤٥٩/٤ وطبقات القراء ٣٩٥/٢ والبداية والنهاية ١٤٣/١٣ والمختصر لأبى الفدا ١٥٦/٣ والنجوم الزاهرة ٢٩٢/٦ والشذرات ١٥٨/٥

(٢) انظر كشف الظنون لحاجى خليفة (الطبعة الثانية) ٢٩٨

(٣) بروكلمان (الطبعة العربية) ١٨/٦

(٤) انظر مصادر ترجمة ابن عربشاه فى ص ٨٢٩

(٥) راجع ترجمته فى الضوء اللامع ١٥٦/٧

(٦) انظر فى مرعى الكرمى خلاصة الأثر ٣٥٨/٤

حديثنا عن علم الجغرافيا وخاصة ماتصل منها بفضائل دمشق والشام وبيت المقدس ، ونبسط الكلام فى كتابين ذكرناهما هناك ، أما أولها فتاريخ مدينة دمشق للإمام الحافظ ابن عساكر على بن الحسن المتوفى سنة ٥٧١ ويقال إنه فى ثمانين مجلدا بدأه بالحديث عن فضائل الشام وفتوحها وخططها ومساجدها وكنائسها ودورها ثم ترجم لكل من دخل دمشق والشام منذ الجاهلية إلى زمنه من الأنبياء والخلفاء والولاة والفقهاء والقضاة والعلماء من كل صنف والشعراء والكتاب . وهذَّبه بحذف الأسانيد عبد القادر بن أحمد بن بدران ، ونشر من تهذيبه سبعة « مجلدات » حتى ترجمة عبد الله بن سيار ، وقلما يذكر فى المراجع باسم تهذيب تاريخ ابن عساكر ، بل يقال مباشرة تاريخ ابن عساكر . والكتاب الثانى الذى سبق أن عرضنا له ونرى الوقوف عنده كتاب تاريخ مدينة دمشق لابن شداد ، وهو يذكر خططها ثم يسهب فى ذكر الجامع الأموى وذكر مساجدها حتى زمنه ، ويتحدث عن مزاراتها فى باطنها وظاهرها وخوانقها ورُبُطها ومدارسها الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية وكنائسها ودياراتها وحماماتها ومامُدحت به نثرا وشعرًا ، وهو بذلك تاريخ اجتماعى ثقافى حضارى . وقد عُنى ابن شداد بحلب كما عنى بدمشق . ولعل أهم كتاب عُنى بها قبله كتاب « بغية الطلب فى تاريخ حلب » لابن العديم [1] عمر بن أحمد المتوفى سنة ٦٦٠ صنفه فى عشر مجلدات أرَّخ فيها لعلمائها وأدبائها على الترتيب الأبجدى وجعل له تاريخا لحلب على السنين فى كتابه : « زبدة الحلب من تاريخ حلب » وصل به إلى نهاية أيام نور الدين محمود سنة ٥٦٩ حققه ونشره الدكتور سامى الدهان بدمشق . ولابن خطيب [2] الناصرية على بن محمد المتوفى سنة ٨٤٣ تتمة لبغية الطلب فى مجلدات سماها « الدر المنتخب فى تكملة تاريخ حلب » وأكمله محمد بن محمد بن الشحنة المتوفى سنة ٨٩٠ وسمى تكملته « نزهة النواظر » . وعنى بكل ذلك أيام العثمانيين ابن [3] الحنبلى محمد بن إبراهيم الحلبى المتوفى سنة ٩٧١ وصنف كتابه « الزبد والضَّرَب (عسل النحل) فى تاريخ حلب » مع تكملته إلى سنة ٩٥١ . ولمجير الدين العليمى المتوفى سنة ٩٢٧ كتاب الأنْيس الجليل فى تاريخ القدس والخليل مطبوع . ومن يرجع إلى كتاب « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » سيجد بلدان الشام مع من كتبوا تاريخها تتعاقب ، تُذْكَر أولا حلب ثم حمص فالخليل فداريًّا ضاحية لدمشق فدمشق فصفد فصور فطرابلس فعسقلان ، ولا نبالغ إذا قلنا إنه لم تبق بلدة

---

(١) انظر فى ابن العديم معجم الأدباء ١٦/٥ وفوات الوفيات ٢٠٠/٢ والشذرات ٣٠٣/٥ وتاج التراجم ص ٤٨ ومقدمة الدكتور سامى الدهان لكتابه : زبدة الحلب

(٢) راجع ابن خطيب الناصرية فى الضوء اللامع جـ ٥ رقم ١٠١٦ والشذرات ٢٤٧/٧

(٣) انظر ابن الحنبلى فى الشذرات ٦٦٥/٨

فى الشام إلا تجرد عالم لكتابة تاريخها ومنها ماوصلنا ومنها مالم يصلنا وضاع مع الأيام .

ونترك تاريخ البلدان إلى التاريخ العام ، وأول مايلقانا فيه ابن القلانسى حمزة[١] بن أسد المتوفى سنة ٥٥٥ وله تاريخ للحوادث على السنين سماه تاريخ دمشق ذيَّل به على كتاب التاريخ لهلال الصابى ابتدأ به كما يقول ياقوت من سنة ٤٤١ إلى حين وفاته سنة ٥٥٥ . وكان يعاصره العظيمى[٢] الحلبى المتوفى بعد سنة ٥٥٦ ، ومحمد بن عمر بن شاهنشاه كتاب عن حماة وتاريخها وله أيضا تاريخ على السنين. وجاء بعدهما ابن أبى الدم[٣] الحموى قاضى حماة المتوفى سنة ٦٤٢ وله التاريخ المظفرى وهو تاريخ عام فى ستة مجلدات حتى سنة ٦٢٧ ، وسبط ابن الجوزى الحنفى المولود ببغداد والمستوطن لدمشق منذ مطلع القرن السابع حتى وفاته سنة ٦٥٤ وله كتاب مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان بدأ به من أول الخليقة ورتبه منذ الهجرة النبوية على السنين حتى سنة وفاته ، وفيه يذكر الحوادث ثم الوفيات فى كل سنة ، وكان فى أربعين مجلدا ، ونُشر منه فى حيدر آباد قسمان من الجزء الثامن على نحو ماأوضحنا ذلك فى حديثنا عن المؤرخين بالعراق فى الجزء السالف . ولموسى[٤] بن محمد اليونينى البعلبكى المتوفى سنة ٧٢٦ مختصر للمرآة فى نحو النصف مع ذيل فى أربعة مجلدات يتناول أولها مصر وسوريا من سنة ٦٥٨ إلى سنة ٦٧٤ . ويلقانا مؤرخ كبير هو أبو الفدا صاحب حماة المتوفى سنة ٧٣٢ وقد ذكرناه بين الجغرافيين وله كتاب المختصر فى أخبار البشر ، وزعه على قسمين : قسم عن الجاهلية والديانات والأنبياء وقسم عن الإسلام حتى سنة ٧٢٩ وهو تاريخ نفيس ترجمه المستشرقون قديما إلى اللاتينية . وصنف عمر بن المظفر بن الوردى المتوفى سنة ٧٤٩ تكملة له حتى أيامه سماها «تتمة المختصر» طبعت مثل أصلها مرارا .

ونلتقى بالذهبى[٥] محمد بن أحمد المتوفى سنة ٧٤٨ وله تاريخ الإسلام وطبقات مشاهير الأعلام فى ١٢ مجلدا رتبه على السنين جامعا فيه بين الأحداث والوفيات . ونقد السبكى تلميذه فى

---

(١) راجع فى ابن القلانسى تاريخ دمشق لابن عساكر ٤٣٩/٤ ومعجم الأدباء ٢٧٨/١٠ والنجوم الزاهرة ٣٣٢/٥ والشذرات ١٧٤/٤

(٢) انظر فى العظيمى بروكلمان (الترجمة العربية) ١٣١/٦

(٣) راجع فى ابن أبى الدم : السبكى ١١٥/٨ وتاريخ ابن الوردى ١٧٥/٢ والشذرات ٢١٣/٥ والمختصر لأبى الفدا ١٨٢/٣

(٤) راجع موسى فى الدرر ١٥٣/٥ والشذرات ٧٣/٦ والبداية والنهاية ١٢٦/١٤

(٥) انظر فى الذهبى الدرر ٤٢٦/٣ ونكت الهميان ٢٤١ ، وفوات الوفيات ٣٧٠/٢ والبداية والنهاية ٢٢٥/١٤ وتاريخ ابن الوردى ٣٤٩/٢ وطبقات القُرّاء ٧١/٢ ومرآة الجنان ٣٣١/٤ والسبكى ١٠٠/٩ والوافى بالوفيات ١٦٣/٢ والنجوم الزاهرة ١٨٢/١٠ والشذرات ١٥٣/٦ والبدر الطالع ١١٠/٢

طبقاته موقفه من الأشعرية ، وأنه لم يقف على الحياد فى عرضه لهم وللصوفية أيضا . وكان الحنابلة يخاصمون الطائفتين ولذلك يصبّ عليهم جميعا جامَ غضبه ، إذ كان حنبليا متعصبا لأصحاب مذهبه ، حتى ليقول السبكى أنه كان إذا ترجم واحدا من الحنابلة يطنب فى وصفه بجميع ماقيل فيه من المحاسن ، ويتغافل عن غلطاته ويتأول له ماأمكن ، وإذا ترجم أحدا من الأشعرية كإمام الحرمين الجوينى والغزالى وأمثالها لايبالغ فى وصفه ويكثر من قول مَنْ طعنَ فيه ، ويعيد ذلك ويبديه(١) . وكان ينبغى أن يكون منصفا فى تاريخه وتراجمه فيه بريئا من العصبية فى المذهب ، ويقول السبكى : « هذا وهو الحافظ المِدْره والإمام المبجَّل فما بالك بعوامّ المؤرخين » . وللذهبى تاريخ عام فى مجلدين ، وهو مختصر لتاريخه الكبير ، رتبه على السنوات وذكر فيه الأحداث والوفيات ، سماه « العبر فى خبر من غبر » وذكره يتردد فى الهوامش .

وكان يعاصر الذهبى أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدوادار صاحب صَرْخَد ، وله كنز الدرر وجامع الغُرر ، ألفه للناصر بن قلاوون وهو فى تسعة أجزاء أولها فى بدء الخلق وثانيها فى الأمم القديمة وثالثها فى السيرة النبوية والخلفاء الراشدين ، والرابع فى الدولة الأموية ، والخامس فى الدولة العباسية ، والسادس فى الدولة الفاطمية ، والسابع فى الدولة الأيوبية ، والثامن فى دولة المماليك البحرية ، والتاسع فى دولة الناصر بن قلاوون ، منه نسخة بدار الكتب المصرية وهو كتاب نفيس جدير بالنشر. ونلتقى بابن كثير الذى مر ذكره بين المفسرين المتوفى سنة ٧٧٤ وله البداية والنهاية ، وهو فى التاريخ العام ، عُنى فيه بالسيرة النبوية مميزا بين الوثيق والمتهم فى الأخبار ، ومضى فيه يجمع بين الأحداث والوفيات على مر السنين حتى سنة ٧٦٧ للهجرة . وجاء بعده زين الدين بن الشحنة (٢) الحلبى المتوفى سنة ٨١٥ وله فى التاريخ العام « روض المناظر فى علم الأوائل والأواخر » انتهى فيه إلى سنة ٨٠٧ وهو مجلد واحد طُبع قديما على هامش الكامل لابن الأثير . ونلتقى بعده ببدر الدين العينى الذى مر ذكره بين المحدثين المتوفى سنة ٨٥٥ نشأ بحلب وتفقه على أبيه وكان قاضيا حنفيا وعلى غيره من فقهاء حلب الأحناف ، واختلف إلى شيوخ دمشق وبيت المقدس والقاهرة ، وتقلد مناصب مختلفة فى القاهرة ودمشق منها الحسبة وقضاء الحنفية ، وله عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، وهو تاريخ عام من بدء الخليقة حتى سنة ٨٥٠ .

---

(١) انظر السبكى ١٣/٢ ومابعدها والشذرات ١١٣/٧ والبدر الطالع ٢٦٩.

(٢) راجع فى ابن الشحنة الضوء اللامع ٣/١٠

وممن نلتقى بهم فى أيام العثمانيين الجنابى مصطفى [١] بن حسن المتوفى سنة ٩٩٩ وله فى أحوال الأوائل والأواخر تاريخ حافل يعرف بتاريخ الجنابى يؤرخ فيه لثلاث وعشرين دولة إسلامية فى مجلدين حتى سنة ٩٩٧ قال صاحب كشف الظنون لم أر كتابا جامعا لدول العالم مثله. وكان يعاصره القرمانى [٢] أحمد بن سنان الدمشقى المتوفى سنة ١٠١٩ وله أيضا تاريخ عام للدول الإسلامية سماه: «أخبار الدول وآثار الأول» طبع قديما ببغداد فى ٥٠٠ صفحة.

وبجانب هذه الكتب التاريخية الكثيرة فى التاريخ العام صنف مؤرخو الشام كتبًا فرعية خاصة ببعض الدول، من ذلك: «نُصْرة الفِطْرة وعُصْرة القَطْرة» للعماد الأصبهانى، وهو تاريخ للسلاجقة وأتابكتهم ووزرائهم، اختصره الفتح البندارى سنة ٦٢٣ بكتابه «زبدة النصرة ونخبة العصرة» طبع فى القاهرة باسم تاريخ دولة آل سلجوق. ونلتقى بأبى شامة[٣] الحافظ المقرئ المؤرخ المقدسى الشافعى عبد الرحمن بن إسماعيل المتوفى سنة ٦٦٥ وله كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين: دولة نور الدين ودولة صلاح الدين فى وصف معاركها وانتصاراتها الكثيرة على حَملة الصليب، وعادة يسرد المعركة، ثم يعرض لوحاتها الشعرية البديعة التى تصور مجد العرب الحربى تصويرا رائعا، وكيف كان هذا البطلان: نور الدين وصلاح الدين يسحقان الصليبيين سحقا ذريعا لايكاد يبقى منهم ولايذر. وكتب للروضتين ذيلا من سنة ٥٩٠ إلى سنة ٦٦٥. وكتب البرزالى [٤] القاسم بن محمد المتوفى سنة ٧٣٩ صلة لتاريخ أبى شامة باسم «المقتفى لتاريخ أبى شامة انتهى به إلى سنة ٧٣٨ وذيَّله تلميذه الحافظ مدرس النورية تقى الدين محمد [٥] بن رافع المتوفى سنة ٧٧٤ فى كتاب سماه الوفيات حتى سنة ٧٧٤ ومنه مخطوطه بدار الكتب المصرية. ونلتقى بابن [٦] واصل محمد بن سالم المتوفى سنة ٦٩٧ وله «مفرج الكروب فى أخباربنى أيوب» نشره

---

(١) انظر فى الجنابى دائرة المعارف الإسلامية. وفى معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية مصورتان من كتابه

(٢) راجع فى القرمانى خلاصة الأثر ٢٠٩/١

(٣) انظر فى أبى شامة ترجمة شخصية بقلمه فى ذيل الروضتين ص ٣٧ والسبكى ١٦٥/٨ وتذكرة الحفاظ ١٤٦٠/٤ وفوات الوفيات ٥٧٧/١ والبداية والنهاية ٢٥٠/١٣ وذيل مرآة الزمان ٣٦٧/٢ وطبقات القراء ٣٦٦/١ والشذرات ٣١٨/٥

(٤) راجع فى البرزالى السبكى ٣٨١/١٠ وتذكرة الحفاظ ١٥٠١/٤ والدرر ٣٢١/٣ وفوات الوفيات ٢٦٢/٢ والشذرات ١٢٢/٦ والنجوم الزاهرة ٣١٩/٩ والبدر الطالع ٥١/٢.

(٥) انظر فى ابن رافع الدرر ٥٩/٤ والشذرات ٢٣٤/٦

(٦) راجع فى ابن واصل نكت الهميان للصفدى ص ٢٥٠ والشذرات ٤٣٨/٥ ومقدمة كتابه مفرج الكروب وخطط الشام لكرد على ٤٤/٤ وله تجريد الأغانى لأبى الفرج جرده من أسانيده، ونُشر فى القاهرة

الدكتور جمال الدين الشيال فى ثلاثة أجزاء . وصنف ابن حبيب الحلبي بدر الدين الحسن بن عمر المتوفى سنة ٧٧٩ فى تاريخ المماليك حتى أيامه كتابه « درة الأسلاك فى دولة الأتراك » ابتدأ به من سنة ٦٤٨ حتى سنة ٧٧٧ وأتمه ابنه طاهر إلى سنة ٨٠٢ . ولابن حبيب كتاب فى تاريخ أسرة قلاوون وأبنائه سلاطين مصر . ولمرعى الكرمى السابق ذكره أيام العثمانيين نزهة الناظرين فى تاريخ من ولى مصر من الخلفاء والسلاطين .

ونلتقى بكثيرين من كتّاب التراجم والطبقات ، ومنهم كتاب عامّون لم يخصوا قطرا عربيا بعينه ولا طائفة من الطوائف بعينها ، نذكر منهم الذهبى فى كتابه سير أعلام النبلاء ويقع فى نحو خمسة عشر مجلدا ، نشر معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بعض أجزائه . ومنهم ابن[1] شاكر الكتبى الحلبي المتوفى سنة ٧٦٤ وله كتاب فوات الوفيات يقصد كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان ، وكأنه تكملة لما فاته ، وبه أكثر من ثمانمائة ترجمة لعلماء من كل صنف ولكتّاب وشعراء وصوفية وحكّام . وكان يعاصره الصفدى خليل بن أيبك المتوفى أيضا سنة ٧٦٤ وسنلم به فى حديثنا عن النثر ، وهو أهم من أنجبتهم الشام فى كتابة التراجم ، وله فيها كتابه الضخم الوافى بالوفيات ويدخل فى نحو ثلاثين مجلدا نشرت منها طائفة. وله بجانبه «نَكْت الهِمْيان فى نُكَتِ العميان» فى تراجم من فقدوا بصرهم من مشاهير الأكفّاء فى العالم العربى على توالى الحقب ، وأيضا « أعيان العصر وأعوان النصر » فى مشاهير معاصريه فى نحو تسعة مجلدات ، وهو حرى بالنشر . ويعنى نجم[2] الدين الغزى المتوفى سنة ١٠١٦ بتراجم القرن العاشر ويؤلف فيها كتابه الكواكب السائرة ، وعُنيت جامعة بيروت الأمريكية بنشره ، ويصنف المحبى[3] محمد أمين المتوفى سنة ١١١١ للهجرة كتابه : « خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر » كما يصنف المرادى[4] محمد خليل المتوفى سنة ١٢٠٦ كتابه : « سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر » .

ويؤلف العماد الاصبهانى كتابه « خريدة القصر وجريدة العصر » وهو كتاب تراجم لشعراء العالم العربى فى القرن السادس الهجرى حتى نحو سنة ٥٧٠ وهم موزعون على أقطارهم من إيران إلى الأندلس ، نشرت منه أقسام مصر والشام والأندلس والمغرب ونشرت أجزاء العراق . وصُنّفت بعد العماد فى الشام كتب عن الشعراء مثل طبقات الشعراء لمحمد[5] بن عمر بن شاهنشاه

---

(١) انظر فى ابن شاكر البداية والنهاية ٣٠٣/١٤ والدرر ٧١/٤ والشذرات ٢٠٣/٦

(٢) راجع فى الغزى خلاصة الأثر ١٣٥/١ ومقدمة الجزء الأول من الكواكب السائرة

(٣) انظر فى المحبى سلك الدرر ٨٦/٤

(٤) راجع فى المرادى تاريخ الجبرتى ٢٣٣/٢

(٥) انظر مختصر المرآة لسبط ابن الجوزى : ٤٠١

صاحب حماة المتوفى سنة ٦١٧ وكان فى عشر مجلدات ، سقط هو وغيره مما يماثله من أيدى الزمن . ومما وصلنا نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة للمحبى المذكور فى بيان محاسن الشعراء بدمشق وحلب والعراق واليمن والحجاز ومصر والمغرب وبلاد الروم ، طُبع فى مجلدين كبيرين .

واهتم الأطباء بصنع كتب تحمل تراجمهم ، وشاركت الشام فى هذا العمل عن طريق ابن أبى أصيبعة الذى مر ذكره بين الأطباء فألف كتابه « طبقات الأطباء » استقصاهم حتى زمن وفاته ، وهو أوسع كتب الأطباء تفصيلا لحياتهم وأعمالهم . وتُعنَى الشام بكتب الرجال من رواة الحديث ، ويصنف عبد الغنى الجمَّاعيلى – كما مر بنا – كتاب « الكمال فى معرفة أسماء الرجال » عن رواة الحديث النبوى فى كتب الصحاح الستة . وأضاف إليه المزى المار ذكره بين المحدثين تكملات وتصحيحات بعنوان تهذيب الكمال فى اثنى عشر مجلدا ، وللنووى كتاب فى رجال صحيحى البخارى ومسلم باسم رياض الصالحين فى ذكر رجال الصحيحين . وعُنى الذهبى باختصار هذا التهذيب وإحسان ترتيبه وإضافة زيادات إليه ، وسمى كتابه « تذهيب تهذيب الكمال » فى خمسة مجلدات . وللذهبى كتاب المشتبه فى الأسماء والأنساب خصه بتراجم الأسماء المتشابهة فى رواة الحديث وغيره . وللذهبى أيضا ميزان الاعتدال فى نقد الرجال أى رواة الحديث النبوى رتبه على حروف المعجم وهو مطبوع فى ثلاثة مجلدات ، .

وللذهبى كتابان فى حفاظ الحديث النبوى وعلمائه : كبير هو تذكرة الحفاظ فى أربعة مجلدات ومختصر منها هو طبقات الحفاظ . واختصر السيوطى الأخير مع تكملات وأبقى لصنيعه الاسم ، والكتب الثلاثة مطبوعة . وللذهبى كتاب فى طبقات القراء لم يكتب له الذيوع إنما كتب لغاية النهاية فى طبقات القراء لابن الجزرى المذكور بين القراء المتوفى سنة ٨٣٣ ، وكتابه يتردد فى الهوامش باسم طبقات القراء . ووضعت للقضاة كتب مختلفة من أهمها قضاة دمشق لابن طولون المذكور بين الجغرافيين المتوفى سنة ٩٥٣ وهو مطبوع . وللفقهاء كتب كثيرة فى رجالهم وطبقاتهم ، وقد صُنِّف كثير من الكتب عنهم على اختلاف مذاهبهم ، فللأحناف كتبهم وكذلك للشافعية والحنابلة ، أما المالكية فلم يصادفنى كتاب شامى عن فقهائهم ، ولعل فى هذا مايدل على أنهم ظلوا فى الشام قليلين . وكثر التأليف فى الحنفية بأخرة من العصر ، فلابن طولون السابق ذكره كتاب الغرف العلية فى متأخرى الحنفية » .

وللحنفية كتب فى طبقاتهم كانت متداولة ومشهورة مثل الجواهر المضيَّة فى طبقات الحنفية لعبد القادر بن أبى الوفا وتاج التراجم لابن قطلوبغا . وكان التأليف كثيرا فى طبقات الشافعية ،

ولابن الصلاح المار ذكره بين المحدثين كتاب كبير فيها اختصره النووى ورتبه على حروف المعجم ، وممن اشتهر كتابه فى تلك الطبقات السبكى وكتابه مذكور مرارا وتكرارا فى الهوامش. وكتاب ابن [١] قاضى شهبة الدمشقى المتوفى سنة ٨٥١ ترجم فيه لأعلام الشافعية حتى سنة ٨٤٠ وهو مطبوع . ونشط الحنابلة فى كتابة تراجم فقهائهم ولابن رجب [٢] الدمشقى الحنبلى المتوفى سنة ٧٩٥ كتاب الذيل على طبقات الحنابلة لابن أبى يعلى المتوفى سنة ٥٢٦ وهو مطبوع فى مجلدين . ولمحمد [٣] بن عبد القادر النابلسى المتوفى سنة ٧٩٧ مختصر للطبقات مطبوع ، ونختم كلامنا فى هذا الفصل بالاشارة إلى كتاب الدارس فى تاريخ المدارس للنعيمى [٤] المتوفى سنة ٩٢٧ وهو يصور الحركة بل النهضة العلمية التى ظلت أضواؤها تشع فى الشام ، حتى مع ماغشيها من سحب العثمانيين .

---

(١) راجع فى ابن قاضى شهبة الضوء اللامع جـ ١١ رقم ٦١ والشذرات ٢٦٩/٧ والبدر الطالع ١٦٤/١

(٢) انظر فى ابن رجب ذيل طبقات الحفاظ ص ٣٦٧ والدرر لابن حجر ٤٢٨/٢ وشذرات الذهب ٣٣٩/٦ ومقدمة الدكتور سامى الدهان لطبعة الذيل بدمشق

(٣) راجع محمد بن عبدالقادر فى الدرر لابن حجر ١٣٨/٤. وبروكلمان (الترجمة العربية) ٣٩/٦

(٤) انظر النعيمى عبدالقادر بن محمد فى الكواكب السائرة ٢٥٠/١ والشذرات ١٥٣/٨

الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

١

تعرب الشام

كان بالشام قبل الفتح الإسلامي العربي لغات متعددة وعناصر جنسية مختلفة ، فقد كان بها ساميون هم سلالة الشعوب التي نزلتها قديما من أموريين وكنعانيين وفينيقيين وعبرانيين وآراميين ، وكان بها عناصر من شعوب البحر المتوسط في مقدمتهم الإغريق نزلاؤها منذ فتحها الإسكندر المقدوني سنة ٣٣٣ قبل الميلاد وخلفته بها الدولة السلوقية الإغريقية لنحو قرنين ونصف . وكان بها سلالات رومية منذ احتلَّ الرومان الشرط الأكبر منها في أواسط القرن الأول قبل الميلاد ، وظلت اليونانية لعهدهم لغة الثقافة ، ودعم ذلك انقسام الإمبراطورية الرومانية إلى غربية عاصمتها روما وشرقية عاصمتها بيزنطة أو القسطنطينية وتبعتها الشام ، وتألق فيها كما مر بنا غير شاعر ومتفلسف اتخذوا الإغريقية لسانهم وأداتهم في التعبير الوجداني والفكري .

وهيأ كل ذلك لأن تتعدد اللغات في الشام قبل الفتح العربي الإسلامي ، وكان من أكثرها شيوعا اللغتان اليونانية والآرامية ، ولم نذكر حتى الآن اللغة العربية . مع أن عوامل كثيرة جعلتها تتغلغل في الشام من قديم ، لا لجواره للجزيرة العربية وموقعه شمالي الحجاز وغربي بادية السماوة فحسب ، بل لقيام ثلاث دول عربية على حدوده وحِفافه الشرقية والجنوبية طوال ثمانية قرون أو تزيد قبل الإسلام ، وهي دول الأنباط وتدمر والغساسنة . وسبق أن ألممنا بها في فاتحة الفصل الأول ، ونبسط الحديث عنها الآن بعض البسط[1] . أما دولة الأنباط فقد ظهرت على صفحات

---

(١) انظر في هذه الدول تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي في مواضع مختلفة من أجزائه وتاريخ العرب مطول لفيليب حتي (الترجمة العربية) وكذلك كتابه : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ١/٤١٦ ومابعدها ، وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان (الترجمة العربية) ص ١٣ وما بعدها وتاريخ العرب لصالح أحمد العلي الجزء الأول وكتابنا العصر الجاهلي ص ٣٣ وما بعدها .

التاريخ منذ القرن الثالث قبل الميلاد ، متخذة بطرا عاصمة لها جنوبية . واستطاعت فى مطالع القرن الأول قبل الميلاد أن توسع حدودها شمالا حتى منطقة حوران وجبل الدروز ، متخذة بُصْرَى بالقرب من دمشق عاصمة لها شمالية . ويذكر المؤرخون أنه فى سنة ٨٥ قبل الميلاد احتل الملك الحارث الثانى النبطى دمشق وغوطتها الخصبة ، وبذلك بلغت هذه الدولة ذروة مجدها السياسى ، إذ كانت تضم شمالى الجزيرة العربية وشرقى الأردن وجنوبى فلسطين وسوريا الجنوبية ، ولم يلبث الرومان أن قضوا عليها فى مطالع القرن الثانى للميلاد . والأنباط عرب كانوا يتكلمون العربية فى حياتهم اليومية ، فهم عرب أصلاء ، ولاريب فى أن أنحاء من الشام وخاصة تلك التى سيطروا عليها أخذت تتعرب وتنطق بالعربية لعهدهم . وقد أخذوا عن الآراميين أبجديتهم وكتبوا بها نقوشهم وكلماتها العربية ، ومضى خطهم يتطور فى بيئتهم وشمالى الحجاز حتى بعد زوال دولتهم ، إلى أن نشأ عنه الخط العربى الذى كُتب به القرآن الكريم والذى يتداوله العرب إلى اليوم .

والدولة العربية الثانية تَدْمُر أقامتها القبائل العربية الشمالية بعد سقوط دولة الأنباط داخل بادية السماوة شمالى الجزيرة العربية بين الشام والعراق ، متخذين منها مركزًا كبيرا للتجارة مع بلدان البحر المتوسط وبلدان فارس والهند والصين . وبلغت هذه الإمارة أوج مجدها فى منتصف القرن الثالث الميلادى لعهد أذينة الذى بسط سلطانه على الشام ، مما أتاح للقبائل العربية فى دولته التغلغل فى ديارها ، وكان عاملا فى تعرب بعض سكانها حينئذ ، غير أن الرومان لم يلبثوا أن قضوا على تلك الدولة فى عهد الزباء زوجة أذينة . وبذلك انكمش ثانية التأثير اللغوى العربى فى ديار الشام .

على أنه سرعان ما استعاد هذا التأثير فاعليته فى عهد الدولة العربية الثالثة : دولة الغَساسنة ، وقد أخذت فى الظهور مع سقوط تدمر ، ويرجع النسابون بالغساسنة إلى اليمن وأن قبيلتهم فارقته بعد خراب سَدِّ مَأْرب ، واستقرت فى شرقى الأردن . وشقت — فيما بعد — طريقها شمالا إلى حوران ، واصطدمت فى تلك الأنحاء بقبيلة عربية تسمى الضجاعم تمت لها الغلبة عليها ، وكانت تتجول فى هذه المنطقة الواسعة مع إعلان ولائها للدولة البيزنطية . ويقول النسابون إن جدها الأعلى كان يسمى جَفْنة بن عمرو مُزَيْقياء ، ولذلك يسمى النسابون الغساسنة أحيانًا باسم آل جفنة . وقد اعتنقوا المسيحية منذ القرن الرابع للميلاد ، مما يدل على عمق صلتهم وامتزاجهم بأهل الشام المسيحيين . وتاريخ ملوكهم غامض ، وأهمهم الحارث بن جبلة (٥٢٨ — ٥٦٩ م .) وقد منحته الدولة البيزنطية لقب فيلارك أى شيخ القبائل وأميرها ، كما منحته لقب البطريق وهو أعظم

الألقاب فى الدولة البيزنطية بعد لقب الإمبراطور . وأهم من ذلك أنه زار بيزنطة واستطاع أن يقنع إمبراطورها وحواشيه بتعيين يعقوب البرادعى أسقفا على الكنيسة المونوفيستية السورية ، وكانت تخالف العقيدة الرسمية للكنيسة البيزنطية . ويقال إن يعقوب رسم مائة ألف كاهن ونَصَّب تسعة وثمانين أسقفا فى البلاد . ومعنى ذلك أن الحارث بن جبلة كان يعد أقوى سيد فى سوريا والشام ، ولذلك دلالته البعيدة فى نفوذ القبيلة بالشام وفى مدى ماحدث حينئذ من تعرب بعض الشاميين وخاصة من رجال الكنيسة اليعقوبية . وكان الغساسنة كثيرى الحركة والتنقل من بقعة إلى أخرى ، وتتردد على ألسنة مادحى ملوكهم من الشعراء ذكر جِلّق وكانت منازل بالقرب من دمشق على نهر بَرَدى المشتهر ببساتينه ، وأشهر من جِلّق الجابية وكانت على مسافة يوم من دمشق إلى الجنوب الشرق .

وإنما أطلنا فى بيان ذلك كله لندل على أن الشام كانت قد أخذت تستعرب منذ قرون عدة قبل الإسلام ، ولاريب فى أن الفتح الإسلامى العربى زاد هذا الاستعراب حدة وقوة ، وخاصة أن قبائل الغساسنة وقضاعة وغيرهما ممن كانوا اعتنقوا النصرانية نبذوا سريعا الدين المسيحى ودخلوا فى الدين الحنيف ، ودخله معهم كثيرون من أهل الشام لما رأوا فى شريعته السمحة من الإنصاف والمساواة بين الناس ومن العدل الذى لاتصلح حياة أمة بدونه : وكان حكامهم البيزنطيون قد أساءوا معاملتهم إلى أبعد حد وساموهم ضروبا من العذاب والخسف وأرهقوهم بالضرائب الفادحة إرهاقا لايطاق ، بينما رأوا حكامهم المسلمين الجدد يرفعون عنهم كل ظلم وكل ثقل فى الضرائب مسوِّين بين كل من يسلم منهم وبين الجند الفاتح فى جميع الحقوق ، غير مستأثرين لأنفسهم بشىء ، مهما يكن قليلا أو تافها . فلاعجب أن يدخلوا فى الدين الحنيف أفواجا .

وقد استوطن الشام كثيرٌ من الجند الفاتحين له ، وكانوا من قبائل مختلفة شمالية وجنوبية ، وظلت الجزيرة العربية ترفدهم بسيول طوال الحقب الأولى للحكم الأموى ، واستقرت منها عشائر وبطون فى بلدان الشام حتى بلدانه الداخلية مثل حمص وطرابلس وبيروت وقيسارية وغيرها من مدن سوريا ولبنان وفلسطين . وبذلك حدث مزج قوى بين العرب المهاجرين وبين أهل الشام لاعن طريق الإقامة والاستيطان فحسب بل أيضا عن طريق المصاهرة والاختلاط اليومى بين الأسر والناس ، مما دفع بقوة إلى استعراب الشام سريعا . وظل من أهم دوافعه دخول الأسر الشامية أو بعض أفرادها فى الإسلام ، إذ جزءٌ لايتجزأ منه تلاوة القرآن ، ولن يستطيع أحد أن يتلوه تلاوة سديدة دون تعلم لغته ، أو بعبارة أخرى دون استعرابه . وربما كان مما يؤكد كثرة من

اعتنقوا الإسلام بعد الفتح مباشرة الخبر الذى مربنا فى الفصل الماضى عن أبى الدرداء قاضى دمشق المتوفى سنة ٣٢ للهجرة أن عدد من كان يشرف عليهم يوميا فى تلاوة القرآن بمسجد دمشق ألف وستمائة ونيف ، وكان وراءهم آلاف مستعربون لايحتاجون إلى من يعلمهم تلاوة القرآن الكريم .

ونظن ظنا أن الاستعراب فى الشام أصبح أمنية أهلها جميعا : من أسلم منهم ومن ظل على دينه المسيحى لسببين مهمين : أولا لتفوق العربية على الآرامية التى كانت شائعة على الألسنة ، إذ لم يكن لها تراث أدبى كالعربية ، ولا كان لها جمالها فى الجرس وحسن الإيقاع ، وثانيا لأن الدولة الأموية اتخذت دمشق عاصمة لها واستعانت بكثير من أهلها المسيحيين فى الإدارة وشئون الخراج والمال ، فأكبَّ كثير من المسيحيين على العربية يحاولون أن يتعلموها وأن يتقنوا الأداء بها حديثا وكتابة . وينبغى أن لاننسى ماكان قد حدث من استعراب هذه العناصر المسيحية قبل الإسلام وخاصة بين التجار ورجال الكنيسة اليعقوبية .

وربما كان من أكبر الأدلة على ماكان قد حدث من استعراب كثيرين من أهل الشام الأصليين قبل الإسلام أننا نجد أسرة مسيحية مستعربة تعمل مع معاوية وخلفائه الأمويين فى إدارة الشئون المالية ، ونقصد أسرة سرجيوس (وفى بعض المصادر سرجون) ويُظن أنه كان حاكما لدمشق قبل الفتح العربى الإسلامى واتخذه معاوية مستشارا له فى الشئون المالية مع بقائه معتنقا لدينه المسيحى ، وكان حفيده يوحنا الدمشقى يشرف على الشئون المالية بدوره لعهد عبد الملك بن مروان ، ومازالت هذه الأسرة المسيحية تعاون الخلفاء فى شئون المال والخراج حتى أمر الوليد بن عبد الملك بتعريب الدواوين كما هو معروف .

ومن أكبر الأدلة أيضا على استعراب العناصر المسيحية أننا نجد نفرا منهم يعنى بترجمته ترجمة مبكرة لبعض العلوم اليونانية ، على نحو ماذكر صاحب الفهرست عن خالد بن يزيد بن معاوية من أنه تُرجمت له كتب الطب والنجوم والكيمياء [١] . ولاشك فى أن هؤلاء المترجمين كانوا مستعربين ، بل كانوا يحذقون العربية حتى استطاعوا أن ينقلوا منها لخالد بن يزيد مانقلوه من المعارف المتصلة بتلك العلوم . ويسمى ابن خلكان فى ترجمته لخالد أحد أولئك المترجمين وهو مريانوس الراهب الرومى الذى أخذ عنه خالد علم الكيمياء أوكما كانوا يسمونه علم الصنعة . ويقول ابن خلكان إن لخالد فيها ثلاث رسائل تضمنت إحداهن ماجرى له مع مريانوس الراهب المذكور وصورة تعلمه منه والرموز التى أشار إليها [٢] .

(١) الفهرست لابن النديم (طبعة القاهرة) ص ٣٣٨ (٢) انظر ترجمة خالد فى ابن خلكان ٢/٢٢٤

ولم نتحدث عن اليونانية التى كانت معروفة فى الشام قبل الإسلام ، وأكبر الظن أنها انحازت إلى الأديرة ، وقد رأينا آنفا أن خالد بن يزيد بن معاوية استعان فى علم الصنعة وماترجم إليه منه براهب رومى ، وأكبر الظن أن الرهبان فى دمشق ومدن الشام من أنطاكية إلى غزة كانوا قد أخذوا فى التعرب ليستطيعوا الحديث إلى مسيحيى الشام المستعربين ، ولعل فى كل ما تقدم ما يوضح العوامل الكثيرة التى دفعت إلى تعرب الكتلة الكبرى من أهل الشام مسلمين ومسيحيين .

٢

كثرة الشعراء

يلاحظ أن عرب الشام قبل الإسلام لم يكن لهم نشاط يذكر فى تاريخ الشعر العربى لاعند الغساسنة ولاعند غيرهم من القبائل الشامية ، حتى إذا كانت الفتوح وهاجر كثيرون من القبائل القيسية مثل عامر وسليم إلى فلسطين وسوريا أخذ الشعر ينشط فى الشام وأخذ الشعراء يتكاثرون وخاصة مع الأحداث الكبرى على نحو مايلقانا فى المعارك التى نشبت بعد وفاة يزيد بن معاوية وتولِّى مروان بن الحكم للخلافة بين القبائل اليمنية وفى مقدمتها قبيلة كلب والقبائل القيسية منذ موقعة مرج راهط وغيرها من المواقع . ونلتقى عقب هذه المواقع بشاعرين كبيرين للشام هما عدى بن الرِّقاع العاملى اليمنى والطرماح الطائى اليمنى ، أما عدى بن الرقاع فشاعر عبد الملك بن مروان والخلفاء من بعده ، وله ترجمة فى كتابنا العصر الإسلامى بين شعراء بنى أمية ، وأما الطرماح فنشأ فى الشام ونزل الكوفة مع بعض جيوشها واستقر بها ، واعتنق فيها مذهب الصفرية من الخوارج ، وله ترجمة فى كتابنا المذكور بين شعراء الخوارج .

وكانت الشام طوال عصر بنى أمية تَغَصّ بشعراء الحجاز ونجد والعراق الوافدين على الخلفاء لمديحهم وأخذ نوالهم وعطائهم . ومانبغ شاعر واشتهر فى هذه البيئات إلا رحل إلى دمشق يمدح هذا الخليفة أوذاك ، والخلفاء يُغْدِقون على الشعراء جوائزهم وصلاتهم على نحو ماهو معروف عن شعراء العراق : الفرزدق والأخطل وجرير وعبدالله بن الزَّبِير وذى الرُّمَّة والعَجَّاج وابنه رُؤْبة . ومثلهم من شعراء الحجاز كثيِّر والأحوص وابن قيس الرقيات . ومدحهم من شعراء نجد كثيرون فى مقدمتهم الراعى النُّمَيْرى . وكان الأمويون يعدُّونهم ألسنتهم ودعاتهم فى بيئاتهم ، فأجزلوا لهم فى العطاء ، وكانوا مايزالون غادين عليهم رائحين بقصائد طنانة يرويها الرواة فى كل مكان بالشام وغير الشام .

وليس ماقدمناه كل ما كان بالشام من نشاط الشعر والشعراء لعهد بنى أمية ، فقد شارك غير خليفة فى هذا النشاط ، إذ كان بينهم شعراء بارعون هم يزيد بن معاوية ويزيد بن عبد الملك وابنه الوليد ، واشتهر الوليد بأنه يعيش للهو والقصف وجلب المغنين والمغنيات من الحجاز وإقامة الحفلات لهم فى قصره ، وشعره يستغرقه الغزل والتغنى بالخمر حتى بعد خلافته ، مما أعدَّ بسرعة لسقوط الدولة الأموية ، وله ترجمة فى كتابنا العصر الإسلامى .

وتنتقل الخلافة فى العصر العباسى إلى بغداد ، ويظل للشام نشاطها فى الشعر ، وهو نشاط لايقف عند مجرد نظمه على طريقة الإسلاميين والجاهليين ، إذ نرى شعراءها يصدرون فى شعرهم عن النزعات التجديدية التى نُظم الشعر العربى على أضوائها فى صدر الدولة العباسية . ومن كبار شعرائها الذين لمعت أسماؤهم فى القرن الثانى الهجرى عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثى معاصر الرشيد ، وكان من الفَلَجة « من أرض دمشق » ، وترجم له ابنُ المعتز فى كتابه « طبقات الشعراء » وأشاد بشعره إشادة رائعة . وممن كان يعاصره من الشعراء الشاميين العتَّابى وكان يحتذى — كما يقول الجاحظ — حَذْوَبشار بن برد فى البديع وله ترجمة فى كتابنا العصر العباسى الأول . وعلى غِراره تلميذه منصور النمرى الشامى ، وله أيضا ترجمة فى كتابنا العصر العباسى الأول . وبالمثل فى هذا الكتاب ترجمة لشاعر شامى مهم عاش فى القرنين الثانى والثالث هو ديك الجن. فالشام لم تنشط فى الشعر طوال العصر العباسى الأول فحسب ، بل قدمت إليه أعلام من الشعراء النابهين شاركوا فى نهضته وازدهاره ـ بل أكثر من ذلك لقد تطورت بصور البديع الحسية التحديدية وأضافت إليها صورا جديدة من بديع وزخرف معنويين رائعين ، وبذلك استحدثت للشعر العربى مذهبا جديدا هو مذهب التصنيع أو التنميق الحسى والفكرى ، على نحو ماهو معروف عن أبى تمام أستاذ هذا المذهب الذى أعطاه صيغته النهائية ، وقد أوضحنا ذلك إيضاحا تاما فى كتابنا « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » . وتلاه تلميذه البحترى ، ولم يكن له ثقافته وتعمقه فى النفوذ إلى دقائق الأفكار ، ومع ذلك تمسك بالمذهب وبخاصة جوانب البديع الحسى مع تمسك شديد بمقومات الشعر العربى وتقاليده فى الصياغة ، وكان لايبارَى فى الضرب على قيثارة الشعر العربى واستخراج أروع النغم منها وأحلاه . وأكبَّت الأجيال التالية فى العالم العربى على دراسته ودراسة أستاذه متخذة منه نموذجا للتمسك بعمود الشعر العربى وصياغته ، كما اتخذت من أستاذه نموذجا للبديع الحسى والمعنوى الذى يرضى المتفلسفة والمتعمقين فى المعانى . وانقسم النقاد مع الشاعرين وفنهما إلى صفين متقابلين ، وكل ذلك حاولنا تصويره فى كتابنا « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » ولأبى تمام ترجمة

فى كتابنا « العصر العباسى الأول » وللبحترى ترجمة فى كتابنا « العصر العباسى الثانى » . ونشرف بعد البحترى على نهاية القرن الثالث ، ولاتزال للعصر العباسى الثانى بقية زمنية ، وفيها يسطع نجم شاعر الطبيعة الحلبى الصَّنَوْبرى وله ترجمة فى كتاب هذا العصر.

ونمضى فى عصر الدول والإمارات ، وقد عُنِى بالحديث عن شعراء القرن الرابع الهجرى ومطالع القرن الخامس الثعالبى فى يتيمته ، متحدثا عن الشعراء النابهين فى أقاليمه من أواسط آسيا إلى الأندلس . ويلاحظ فى فواتح كتابه أن كِفَّة الشعر العراقى التى كانت تجعله يرجح على جميع الأقاليم العربية شاما وغير شام قد خفَّت وخلفتها كفة الشام ، إذ يستهل يتيمته بقوله : « الباب الأول من القسم الأول فى فضل شعراء الشام على شعراء سائر البلدان وذكر السبب فى ذلك ثم يقول : « لم يزل شعراء عرب الشام ومايقاربها أشعر من شعراء عرب العراق ومايجاورها فى الجاهلية والإسلام .. والسبب فى تبريز القوم قديما وحديثا على من سواهم فى الشعر قربهم من خطط العرب ولاسيما أهل الحجاز ، وبعدهم عن بلاد العجم ، وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق لمجاورتهم للفرس ونبط (فلاحى) العراق ومداخلتهم إياهم .. ورُزقوا ملوكا وأمراء من آل حمدان . . وهم بقية العرب ، والمشغوفون بالأدب والمشهورون بالمجد والكرم ، والجمع بين أدوات السيف والقلم ، وما منهم إلا أديب جواد يحب الشعر وينتقده ، ويثيب على الجيد منه فيُجذل ويفضل » . ولسنا نريد أن نناقش الثعالبى فى هذا الحكم ، فإنه — على مافيه من مبالغة — يدل على ماحدث بالشام مع مطالع عصر الدول والإمارات من نهضة شعرية حقيقية تنبىء عنها الأبواب التالية فى اليتيمة ، فقد جعل الثعالبى الباب الثانى لسيف الدولة الحمدانى أمير حلب وشمالىّ الشام وملح شعره وغزواته الحربية المظفرة على لسان شعرائه . وقصر الباب الثالث على أبى فراس الحمدانى الشاعر والفارس المشهور . وخص الباب الرابع بملح أشعار آل حمدان أمراء الشام وقضاتهم وكتابهم . وأفرد الباب الخامس للمتنبى شاعر سيف الدولة المبدع . وجعل الأبواب : السادس والسابع والثامن لبعض المادحين لسيف الدولة من شعراء الشام والعراق .

ومرَّ بنا كيف أن حلب فى زمن سيف الدولة (٣٣٣ — ٣٥٦ هـ) استحالت أكبر مركز علمى وفلسفى ولغوى ، إذ نزلها كثير من العلماء والمتفلسفة واللغويين من أمثال الفارابى وأبى على الفارسى وابن جنى غير من كان بها من الأطباء وعلماء الفلك . ولايهمنا الآن بيان ذلك إنما يهمنا أنها أصبحت مركز الشعر والشعراء فى تلك الحقب ، إذ لم يبق شاعر كبير فى الشام أو فى العراق أو فى إيران إلاأمَّها وأسبغ عليه سيف الدولة من نواله ، حتى ليقول الثعالبى إنه لم يجتمع قط بباب أحد

من الملوك – بعد الخلفاء – مااجتمع بباب سيف الدولة من شيوخ الشعر ، ونجوم الدهر » منهم كُشاجم – ويقال إنه كان طبَّاخة – والخالديان – وكانا خازنى مكتبته – والسّلامى والسَّرى الرفَّاء والوأواء الدمشقى والنامى المصيصى وابن نباتة السعدى والببَّغاء ، وكل هؤلاء كانو شعراء ، وترجم لهم الثعالبى ، ووراءهم كثيرون كانوا يفدون على سيف الدولة مادحين ثم يعودون بالعطاء إلى أوطانهم شاكرين مثنين .

ومضت الشام فى نهضتها الشعرية وظهر فيها أمثال عبد المحسن الصورى وأبى الرقعمق والواسانى وجميعهم ترجم لهم الثعالبى ، ويعنى الباخرزى فى دمية القصر بذكر طائفة من شعراء الشام خاصة من مدح منهم الوزير السلجوقى نظام الملك ، وترجم لأبى العلاء المعرى وابن سنان الخفاجى تلميذه ترجمة قصيرة . وبعض من ترجم له ألم به العماد الأصبهانى فى الخريدة . ولمْ يُعن أحد من أصحاب التراجم الشعرية بشعراء النصف الثانى من القرن الخامس ومطالع القرن السادس ، ومن أعلام الشعراء الشاميين فى تلك الحقبة ابن حَيُّوس وله ديوان ضخم فى مجلدين .

ويعرض العماد الأصبهانى فى خريدة القصر تراجم مستفيضة لنحو مائة وثلاثين شاعرا جمهورهم من شعراء القرن السادس حتى زمن كتابته أو تأليفه للخريدة فى أوائل العقد الثامن من القرن ، وهم يشغلون ثلاثة أجزاء ، أولها خاص بشعراء دمشق والشعراء الأمراء من بنى أيوب ، وتراه فى مطلع هذا الجزء يشيد بشعر الشاميين ويرفعه درجات على شعر أهل العراق ، بالضبط كما صنع الثعالبى ، يقول : « شعر الشاميين أصح وزنًا ، وأسحُّ مُزنًا ، وأمتن صيغة ، وأحسن صبغة ، وأحكم صنعة ، وأسلم رقعة ، وأرفع نسجا ، وأنفع مزجا ، وأقوم معنى ، وأحكم مبنى » ويُشيد بطائفة من قدمائهم مثل البحترى وأبى تمام وطائفة من محدثيهم بعدهما مثل عبد المحسن الصورى وابن سنان الخفاجى وابن حيوس ، وكأنى به نسى أبا العلاء عامدا لشهرته الواسعة . ويترجم فى هذا الجزء لابن الخياط الدمشقى تلميذ ابن حيوس وديوانه مطبوع . وتلا العماد ذلك بجزء اشتمل على خمسة وأربعين شاعرا بينهم أهم من أنجبتهم الشام فى القرن السادس الهجرى من الشعراء أمثال الغزى وابن منير الطرابلسى والقيسرانى وعرقلة وديوانه مطبوع وفتيانِ الشاغورى وديوانه مثله مطبوع وابن قُسيم الحموى وأسامة بن منقذ وديوانه مطبوع . ويتبع ذلك جزء به نحو ثمانين شاعرا عرض فيه العماد بيوتا وشعراءها كبيت آل المعرى وبيت بنى الدويدة وبيت بنى الحُصَين ، ويذكر طائفة من شعراء حلب ربما كان أهمها حماد الخرَّاط . وكأن العماد لم يترك فى الشام لزمنه شاعرا كبيرا ولاصغيرا إلا ترجم له .

واهتمت كتب التاريخ والتراجم بشعراء الشام بعد زمن العماد فى أيام الأيوبيين والمماليك والعثمانيين ، وفى مقدمتها وفيات الأعيان لابن خلكان وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبى والوافى بالوفيات للصفدى ومطالع البدور للغزولى والدرر الكامنة لابن حجر والضوء اللامع للسخاوى وريحانة الألبا للخفاجى ونفحة الريحانة للمحبى وسلك الدرر للمرادى . فكل هذه الكتب تحمل عشرات من شعراء الشام فى حقب وأزمنة مختلفة ، وكثير من نابهيهم فى تلك الأزمنة والحقب أيام الأيوبيين ومن بعدهم لهم دواوين مطبوعة مثل ديوان ابن الساعاتى والصاحب شرف الدين الأنصارى وأيدمر المحيوى والشاب الظريف وأبيه عفيف الدين التلمسانى وابن الوردى وابن النقيب الدمشقى ، وتموج رفوف المكتبات فى العالمين العربى والغربى بدواوين كثيرة لشاميين لاتزال مخطوطة .

٣

شعر دورى – رباعيات – موشحات – بديعيات – تعقيدات

(١) الشعر الدورى

منذ ابتدع الشعراء فى العصر العباسى الأول الشعر المزدوج الذى يتكون من شطرين متقابلين ، وتتوالى فيه الشطور المتقابلة ، والشعراء يكثرون منه فى جميع الأقاليم الإسلامية ، وهيأ ذلك لظهور أنماط مختلفة من الشعر الدورى الذى تتكون فيه القصيدة من أدوار متعاقبة ، ويغلب أن يكون كل دور بيتين ، وتقل الأدوار وتكثر حسب رغبة الشاعر . وتفرَّع عن هذا النمط من قديم عند أبى نواس وأضرابه نمط المسمطات وعادة يتكون الدور فيه من أربعة شطور يليها شطر خامس تتحد قافيته فى كل الأدوار ، بينما تتنوع القوافى فى الشطور الأربعة السابقة له من دور إلى دور ، وكأن الشطر الخامس بقافيته المكررة ياقوتة فى عقد تلتقى عندها أسلاكه المختلفة ، وتسمى هذه القافية المكررة عمود القصيدة . وكلما تقدمنا فى العصر كثرت هذه المسمطات ، وهى قد تكون رباعية بمعنى أن قافية الشطر الرابع هى المكررة ، وقد تكون خماسية كما ذكرنا ، وقد تكون سباعية أو تساعية ، وممن عنى بالنظم فيها أسامة بن منقذ ففى ديوانه منها أربعة مسمطات خماسية ، ومن قوله فى أحدها [١] :

---

(١) ديوان أسامة بن منقذ (طبع المطبعة الأميرية بالقاهرة) تحقيق الدكتور أحمد بدوى والدكتور حامد عبد المجيد ص ٤٠ .

كم رُضْتُ نفسيَ بالسلوان فامتنعتْ ... وكم أضاعوا مواثيقَ الهَوَى ورَعَتْ
ومانقمتُ عليهم غدرةً فصغتْ[1] ... ولا أضعتُ لهم عهدا ولا اطَّلعتْ
على ودائعهم فى صدرىَ التُّهَمُ

وقافية الشطر الأخير مكررة فى الشطر الخامس من كل دور ، وواضح أن المسمط خماسى الشطور ، وتلقانا أمثلة للمسمطات فى دواوين ابن الساعاتى والصاحب شرف الدين الأنصارى وأيدمر المحيوى زمن الأيوبيين ، ومضى الشعراء فى الحقب التالية يكثرون منها وخاصة صلاح الدين الصفدى ، ونظل نلتقى بها فى الحقب المتأخرة .

(ب) الرباعيات

معروف أن الرباعية أربعة شطور تؤلِّف بيتين ، وتتحد الشطور : الأول والثانى والرابع فى القافية وقد يتحد مع تلك الشطور الشطر الثالث فى القافية وقد يختلف . وللرباعية وزنان هما : « فَعْلن فعلن مستفعلن مستفعلن » و « فعلن متفاعلن فعولن فعلن » وقد أخذت تشيع على ألسنة الشعراء فى هذا العصر وخاصة منذ القرن السادس ، نجدها عند ابن قُسَيم الحموى المتوفَّى سنة ٥٤١ للهجرة وعند عرقلة المتوفى سنة ٥٦٧ وفى خاتمة ديوانه منها اثنتا عشرة رباعية ، منها قوله :

ويلاه على المهفهف المَيَّاسِ ... ما أحسنه ولو بقلبٍ قاسِ
يهتزُّ كأنه قضيبُ الآسِ ... سكرانَ ولم يَذُقْ حميَّا الكاسِ

وذكر ابن خلكان أنه كان للعماد الأصبهانى ديوان صغير جميعه دُوبَيْتات أو رباعيات ، وطائفة فيها كانت بلسان نور الدين فى الحث على جهاد حملة الصليب وتمزيق جموعهم ، من مثل قوله[2] :

لا راحةَ لى فى العيش إلا أغزو ... سيفى طربًا إلى الطُّلَى يهتزّ[3]
فى ذلّ ذوى الكفر يكون العزُّ ... والقدرةُ فى غير جهادٍ عَجْزُ

---

(١) صغت : مالت .

(٢) الروضتين فى أخبار الدولتين لأبى شامة (طبع مطبعة وادى النيل) ١/٢٠٧ .

(٣) الطلى : جمع طلاة أو طلية : العنق أو صفحته .

وكان لفتيان الشاغورى المتوفى سنة ٦١٥ ديوان جميع مافيه دوبيتات ، رآه ابن خلكان وأنشد منه فى ترجمته قوله :

الوردُ بِوَجْنتيك زاهٍ زاهرْ والسِّحْرُ بمقلتيك وافٍ وافرْ
والعاشقُ فى هواك ساهٍ ساهرْ يرجو ويخاف فَهْوَ شاكٍ شاكرْ

ونظل نلتقى بالرباعيات فى دواوين الشعراء أيام المماليك بل أيضا أيام العثمانيين عند حسن البوريني وبهاء الدين العاملى وعبد الغنى النابلسى وغيرهم من الشعراء[1] وحين شاعت التورية بها الشعراء فى رباعياتهم كقول على بن المظفر الوداعى الحلبى المتوفى سنة ٧١٦ متغزلا[2] :

لما حُجب الكَرَى عن الآماقِ وانقاد مع العِدَا على العُشّاقِ
ناديتُ وقد تزايدتْ أشواق ياغُصْنُ رضيتُ منك بالأوراق

والتورية واضحة فى كلمة الأوراق ، إذ لها معنيان قريب وهو أوراق الغصن وبعيد وهو أوراق الرسائل المتبادلة بينه وبين صاحبته ، وهو المراد .

(جـ) الموشحات

الشائع المعروف أن الموشحات من اختراع الأندلسيين وأنهم سبقوا إليها المشارقة ، ومعروف أنها تتألف من شطور تسمى قفلا وشطور تليها تسمى أدوارا أو أغصانا ، ومن خَرْجةٍ يسمَّى بها القفل الأخير فى الموشحة . ومن ينعم النظر فيها يؤمن بأنها تطورت من أشكال المسمطات ، واستقلت بهذه الصورة ، ويبالغ المستشرقون الإسبان – خاصة – قائلين إنها فن أندلسى خالص تطور عن أغان رومانسية كانت معروفة فى القرنين الرابع والخامس للهجرة ، ولم يقدموا أغنية واحدة تشهد لذلك ، بينما يوجد لدينا شكل من أشكال المسمط نظمه ديك الجن الحمصى المتوفى سنة ٢٣٥ للهجرة نظن ظنا أنه الأب الحقيقى للموشحات الأندلسية إذ يجرى على هذا النمط[3] :

قولى لِطَيْفِك يَنْثَنِى عن مضجعى عند المنامْ

(١) انظر مثلا ريحانة الألبا للخفاجى ٢١/١ ، ١٠٤/١

(٢) خزانة الأدب للحموى (طبع مطبعة بولاق) ص ٣٤٤

(٣) خزانة الأدب للحموى ص ٩٧

عند الرُّقادْ عند المجوعْ عند المجودْ عند الوَسَنْ
فعسى أنامُ فتنطفى نارٌ تأجَّجُ فى العظامْ
فى الفؤادْ فى الضلوعْ فى الكبودْ فى البَدَنْ

ويستمر المسمط الموشح على هذه الصورة، وواضح أنه نشأ من فكرة بسيطة هى تكرار قافية البيت برويٍّ جديد . وكأنما وقع هذا المسمط الغريب أوقل هذا الموشح الفريد لمقدم بن معافى شاعر الأمير الأندلسى عبد الله بن محمد المروانى (٢٧٥ – ٣٠٠ هـ) فنظم على صورته بعض منظوماته وكُتب لهذه الصورة عنده أن تشيع بعده فى الأندلس باسم الموشحات على نحو ماأوضحنا ذلك مرارا فى كتاباتنا . وحملها إلى المشرق الأندلسيون المهاجرون إلى مصر والشام ووضع لها ابن سناء الملك قوانينها الموسيقية فى كتابه « دار الطراز » وبذلك فتح أبواب تلك الموشحات على مصاريعها للمشارقة كى ينظموا على غرارها منذ زمنه فى أواخر القرن السادس . وأيضا فإنه كان قد نزل الشام بعض الأندلسيين من ناظميها ، فكانوا من أسباب إشاعتها مثل عبد المنعم الجلياني الأندلسى الطبيب نزيل دمشق فى زمن صلاح الدين وظل بها إلى وفاته ، وله فيه مدحة سميت التحفة الجوهرية ، ويقول ابن أبى أصيبعة : له « ديوان غزل وتشبيب وموشحات ودُوبَيْتات » أو رباعيات . ونظل فى زمن الأيوبيين والمماليك نلتقى بوشاحين مختلفين . وللصلاح الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ كتاب فى الموشحات سماه : توشيع [١] التوشيح ذكر فيه إحدى وستين موشحة من عيون الموشحات الأندلسية والمصرية والعراقية والشامية ، وذكر موشحا طريفا لشمس الدين محمد بن على الدهان المتوفى سنة ٧٢١، ويقول ابن شاكر إنه كان يحترف صناعة الدهان وينظم الشعر الرقيق وكان على علم بالموسيقى والألحان، فكان ينظم الشعر ويلحنه ويغنى فيه المغنون[٢]، ويسوق نفس الموشح الذى ذكره الصفدى، ويستهله بقوله:

بأبى غُصْنُ بانةٍ حملا بَدْرَ دُجًى بالكمال قد كملا أهْيَفْ
فريد حُسْنٍ ما ماس أو سفرا
إلا أغار القضيبَ والقمرا
يُبْدى لنا بابتسامه دررا

(١) حقق هذا الكتاب ألبير مطلق ونشره بدار الثقافة ببيروت.

(٢) راجع ترجمته فى فوات الوفيات ٤٩٢/٢ والوافى ٢٠٩/٤ وانظر عقود اللآل للنواجى ص ٧٧.

والموشح وافر الموسيقى واللحن والنغم. وذكر الصفدى بجانب هذا الموشح موشحا لجمال الدين يوسف الصوفى المتوفى سنة ٧٥٠، وهو يفيض بالعذوبة وجمال اللفظ والصور كقوله:

ساحرٌ بالدلالْ ساخرٌ بالصَّبْ فائقٌ فى الكمالْ لائقٌ بالحبْ

بِشَذَا المسك فاحْ ثغرُ هذا الغزالْ
باسمٌ عن أقاحْ كفريدِ اللآلْ
ردَّ نورَ الصباحْ كظلام الليالْ

وأنشد الصفدى لنفسه فى كتابه سبعًا وثلاثين موشحة، وكثير منها معارضات لموشحات مشهورة لأندلسيين وغير أندلسيين، وقلما يحلِّق إلى أفق الموشحات التى يعارضها، ويغلب التكلف على موشحاته، وفى أحيان قليلة يَسْلس فى بعض الموشحات وبعض المقاطع كقوله فى معارضة موشحة لابن اللبَّانة الأندلسى:

بات بَدْرى وهْو معتنق أحتسى فاهُ وأرتشفُ
وبه أمسيت متَّحدا
بعد ماقد كنت منفردا
وغدا بدر السما كَمِدَا

وقد أنشد النواجى فى كتابه عقود اللآل تسع موشحات لابن حبيب الحلبى وموشحتين لابن حجة الحموى[1].

ويلقانا وشاحون مختلفون فى زمن العثمانيين على نحو مايذكر المحبى عن أبى بكر العمرى وأبى بكر العصفورى [2]. ولابن النقيب المتوفى سنة ١٠٨١ موشح استلهم فيه موشحا مشهورًا للسان الدين ابن الخطيب استهله بقوله[3]:

ياليالى السَّفْح من عهد الصِّبا ياسقَى مغناكِ صوبُ الدِّيَمِ
كم تسرَّقتُ بها بين الرُّبَى خُلَسًا مرَّتْ كطيفِ الحُلُمِ

(١) انظر فهرس عقود اللآل للنواجى
(٢) نفحة الريحانة للمحبى ٢٢/١، ٢٥٤
(٣) ديوان ابن النقيب نشر المجمع العلمى العربى بدمشق ص ٢٦٣

وتكثر الموشحات الصوفية عند عبد الغنى النابلسى كثرة مفرطة . ونقف قليلا عند وشّاحَيْن مهمين هما أيدمر المحيوى والمحّار الحلبى .

أيدمر المحْيَوىّ(١)

لانعرف شيئًا عن نشأة هذا الشاعر ومرباه ، وكل مابأيدينا عنه أنه عتيق محيى الدين محمد بن محمد بن سعيد بن ندى وزير الجزيرة لسلاطينها من الأيوبيين ، وقد طبعت له دار الكتب المصرية مختارات من ديوانه ، وهو فيها يمدح الملك الكامل سلطان مصر مشيدًا بانتصاره على حملة الصليب فى موقعة دمياط سنة ٦١٨ . وكان يسكن دمشق ويزور مصر كثيرا وله مدائح فى الصالح نجم الدين أيوب حين كان يلى شئونها منذ سنة ٦٣٦ إلى سنة ٦٤٧ ويبدو أنه لم يعش بعد هذا التاريخ طويلا ، وله غزليات وأشعار طريفة فى الطبيعة ، وله – بجانب ذلك – موشحان فى المديح يستهلها بغزل بديع ، وقد عارض فى موشحه الأول ابن زهر فى موشح له مشهور ، ومن قوله فيه على نسَقه .

هزَّ عِطْفَ الغصن من قامتِهِ
مُطْلِعا للشمس من طلعتِهِ
ثم نادى البدرَ فى ليلتِه
أيها البدرُ تغيَّبْ وَيْحَكا ماحتياجُ الناس للبدر معى

وعذوبة موسيقاه واضحة فى هذا الموشح ، وكان يضيف إليه فى أحيان كثيرة محسنات البديع من طباق وجناس وتورية ، ولاتفارقه هذه العذوبة حتى حين يجنح إلى التكلف على نحو مانلقاه فى موشحه الثانى وفيه يقول :

بات وسُمَّاره النجوم ساهرْ فمن تُرَى علَّمكِ السُّهْدَ ياجفون
صبا إلى مذهب التصابى صابى لايعدل
فجنْبه خافق الجنابِ نابى مُبَلْبل
والطَّرْف من دائم انسكاب كابى مخبَّل .

(١) انظر فى أيدمر فوات الوفيات ١/١٤٠ والانتصار لواسطة عقد الأمصار لابن دقاق (طبع مطبعة بولاق) ٤/١٠٩ وخطط المقريزى (طبعة دار التحرير) ٢/٧ وديوانه طبعته دار الكتب المصرية .

وواضح أنه بدأ موشحه بالدور أو الغصن لا بالقفل ، وتلا القفل بالدور فى ثلاثة أبيات ، وكل بيت مكوّن من ثلاثة أجزاء ، الجزء الثانى مستخرج من آخر الجزء الأول ، فصابى مستخرج من التصابى وبالمثل نابى مستخرج من الجناب ، وكابى مستخرج من انسكاب . وهو تكلف واضح ولكنهم كانوا يعدونه فى الموشحات والأشعار آية براعة فائقة .

المحّار [1] الحلبى

هو سراج الدين عمر بن مسعود الحلبى الملقب بالمحار لأنه نشأ يَمْحر الكتان أى يغسله ويبيضه ثم اشتغل بالأدب والشعر ومهر فيهما ، ففارق موطنه حلب إلى حماة ورعاه صاحبها الملك المنصور (٥٨٧ - ٦١٧ هـ) إلى أن توفى بدمشق سنة ٧١١ . وربما كان أروع وشاح أنجبته الشام على مر الأزمنة والحقب ، ومن موشحاته المشهورة موشحة عارض بها أيدمر المحيوى فى موشحته المذكورة آنفا ويستهلها على هذا النمط :

مانا حت الوُرْقُ فى الغصونِ   إلاَّ هاجتْ   على   تَغْريدها   لوعةَ   الحزين

هل مامضى لى مع الحبايبْ   آيبْ   بعد الصدودْ
أوهل لأيامنا الذواهب   واهبْ   بأنْ تعودْ
بكل مصقولة الترائبْ   كاعبْ   هَيْفاء رُودْ

والموشح يموج على هذه الشاكلة بعذوبة الجرس وجمال الإيقاع والنغم رغم محاولة المحار فيه أن يستخرج الجزء الثانى فى الدور من آخر كلمة فى جزئه الأول ، فقد كان من القدرة على حسن التلحين لكلماته بحيث لا يقف دونه أى عائق ، بل إن العائق نفسه يصبح إكمالا بديعا للتلحين والتنغيم على نحو ما يتضح فى كلمات « آيب - واهب - كاعب » . . ولا يقل عن هذه الموشحة عذوبة ورشاقة وحلاوة فى النغم موشحته التى عارض بها موشحة أحمد بن الحسن الموصلى المار ذكره فى العراق ، افتتحها بقوله :

مذشِمْتُ سَنا البروق من نعمانِ   باتت حَدقى

(١) انظر فى المحار فوات الوفيات ٢١٩/٢ ، ٥٠٦ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ والنجوم الزاهرة ٢٢١/٩ والوافى ٢٨٠/٤ وانظر توشيع التوشيح للصفدى إذ توارد مع صاحب الفوات على أربعة من الموشحات وانظر عقود اللآل رقم ٥٢ ، ٧٦

تُذْكى بمسيل دمعها الهتَّانِ نارَ الحُرَق(١)
ما أومض بارقُ الحِمَى أو خَفَقَا
إلا وأجَدَّ لى الأسى والحُرَقا
هذا سببٌ لمحنتى قد خُلِقا

وتصويره لمسيل الدموع المتدفق بأنه يضرم نار الحرق تصوير بديع . وموشحات المحّار على هذا النمط تمتع الأذن والقلب والخيال بصفاء موسيقاها ورقتها ومايُطْوَى فيها من جمال التصاوير .

(د) البديعيات

مرَّ بنا أن الشام – منذ أواخر القرن الثانى الهجرى – تطورت بصور البديع الحسية التجديدية من جناس وطباق وتصاوير إلى إشراك صور جديدة معها من زخرف الفكر ووشيه على نحو ماهو معروف عن أبى تمام ، نافذة بذلك إلى إرساء مذهب جديد فى فن الشعر سميته فى كتاب « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » باسم مذهب التصنيع أى التنميق الناشئ عن استخدام محسنات البديع المعروفة وأيضا عن استخدام طرائف فكرية لاتكاد تُحصَى . وتبع البحترى – كما ذكرنا – أستاذه أبا تمام فى المذهب ولم تكن له ثقافته الفلسفية ولا بعد غوره فى الأفكار . وكان أبو تمام يكثر من الجناس فلم يتابعه البحترى فى هذا الإكثار وإن ظل يستخدمه كما يستخدم الطباق والتصاوير من تشبيهات واستعارات . ونجد الجناس بعده على كل لسان فكل شاعر شامى يحاول أن ينفذ فيه إلى أبيات بديعة كقول أبى فراس الحمدانى(٢) :

وما السلافُ دهتْنى بل سَوَالِفُهُ ولا الشُّمول دهتْنى بل شمائلهُ

ولعل شاعرًا شاميًّا لم يكثر من استخدام الجناس كما أكثر أبو العلاء ، وسنراه يدخل عليه ألوانًا من التعقيد سنعرض لها عما قليل ، وكان يعاصره ابن حَيُّوس المتوفى سنة ٤٧٣ وكان يتابع أبا تمام فى الإكثار من المحسنات البديعية جناسا وغير جناس . ونرى العماد الأصبهانى فى الخريدة يتوقف مرارًا ليثبت على هذا الشاعر أو ذاك كثرة استخدامه للجناس ، وسجَّل ذلك مرارًا على الشعراء

---

(١) تذكى : تضرم .

(٢) الديوان تحقيق . د . سامى الدهان (طبع المعهد الفرنسى بدمشق) ٢/٣٠٢

الثلاثة الذين افتتح بهم الجزء الأول من شعراء الشام وهم الغزى وابن منير والقيسرانى وفيه يقول : « صاحب التطبيق والتجنيس ، وناظم الدر النفيس » (١) . وعلى شاكلتهم شعراء الخريدة لافى استخدام الجناس وحده بل فى استخدام المحسنات البديعية جميعا ، وكذلك من تلاهم من الشعراء الشاميين .

وكانت قد تكونت بمصر منذ أواخر أيام الفاطميين مدرسة حملت لواء المحسنات البديعية وأشاعتها فى شعرها ونثرها مضيفة إليها لونا جديدا هو لون التورية الذى يصور مزاج المصريين وميلهم من قديم إلى النكتة ، وكان من السابقين إلى حمل هذا اللواء بأخرة من الدولة الفاطمية ابن قادوس وابن قلاقس ، وحمله بعدهما القاضى الفاضل وابن سناء الملك وغيرهما . وكانت ديار الشام جميعها توحدت مع مصر لعهد صلاح الدين ، وسرعان ماوجدنا ذوق هذه المدرسة المصرية يعم بلدان الشام ، كما لاحظ ذلك الصفدى ونقله عنه ابن حِجَّة الحموى فى خزانته إذ ذكر السابقين فى المدرسة من شعراء مصر ثم قال : « وجاء من شعراء الشام جماعة تأخر عصرهم وتآزَرَ نصرهم » وعدَّ منهم سيف الدين المشد المتوفى سنة ٦٥٦ والشيخ شرف الدين عبد العزيز الأنصارى شيخ شيوخ حماة المتوفى سنة ٦٦٢ وبدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبى المتوفى سنة ٦٨٠ ومجير الدين بن تميم المتوفى سنة ٦٨٤ والشاب الظريف شمس الدين محمد بن العفيف المتوفى سنة ٦٨٨ ومحيى الدين بن قُرْناص الحموى المتوفى سنة ٧١٢ وتمثل ابن حجة فى خزانته بأشعارهم فى محسنات البديع المختلفة وفتح لكل منهم فصلا طريفا فى باب التورية ، واستطاعوا فى أحوال كثيرة أن يجعلوا لتورياتهم نفس خفة الروح التى تلقانا فى توريات المصريين مثل قول ابن لؤلؤ(٢) :

يمرُّ بى كلَّ حينٍ وكـــلما مــرَّ يحلو

وهو لايريد « مر » من المرور وهو المعنى المتبادر لكلمة يمر فى أول البيت ، وإنما يريد مُرَّ من المرارة عكس الحلاوة ، وهو المعنى البعيد ، ومثل قول مجير الدين بن تميم(٣) :

أياحُسْنَها من روضةٍ ضاعَ نَشْرُها فنادتْ عليه فى الرياضِ طيورُ

ولضاع معنيان : أولها من ضاع الزهر يضوع إذا فاحت رائحته ، وثانيهما من ضاع الشىء

(١) الخريدة (قسم الشام) ٩٦/١

(٢) خزانة الأدب للحموى ص ٣٢٨

(٣) فوات الوفيات ٥٤٢/٢

يضيع إذا فُقد والأول المراد . ومثل قول الشاب الظريف وقد احتجب بعض أصحابه عنه [١] :

ولقد أتيتُ إلى جَنابك قاضيا باللَّثم للعتَبات بعضَ الواجبِ
وأتيت أقصد زورةً أحْظَى بها فُرِدِدْتُ – ياعيني – هناك بحاجبِ

وواضح أنه ليس المراد حاجب العين ، وإنما البوّاب المشرف على الزيارة . وتظل التورية شائعة على ألسنة الشاميين ، ويشيد الحموى فى خزانته باستخدام الوداعى على بن المظفر المتوفى سنة ٧١٦ لها وإكثاره منها كقوله [٢] :

قال لى العاذلُ المفنِّدُ فيها يومَ وافتْ فسلَّمتْ مُخْتالَهْ
قم بنا ندَّعى النبوَّةَ فى العشـ ـق فقد سلَّمتْ علينا الغزاله

وللغزالة معنيان : معنى قريب وهو الشمس ومعنى بعيد وهو صاحبته الجميلة التى تشبه الغزالة وهو المراد .

ويتتبع ابن حجة ماأخذه ابن نباتة من موائد التورية عند الوداعى ، وبالمثل يتتبع ماأخذه الصفدى من ابن نباتة من تورياته البديعة ، وكان الصفدى يعنى عناية شديدة باصطناع المحسنات البديعية وخاصة التورية والجناس ، وله فيهما كتابان .

ومضى شعراء الشام – بعد الصفدى – كشعراء مصر يعنون بتلك المحسنات بقية زمن المماليك ، يشترك فى ذلك فتح الدين بن الشهيد المتوفى سنة ٧٩٣ وعلى بن أيبك الدمشقى المتوفى سنة ٨٠١ وابن الأدمى المتوفى سنة ٨١٦ وابن حِجَّة الحموى صاحب الخزانة المتوفى سنة ٨٣٧ . ويطرد اصطناع المحسنات البديعية فى أيام العثمانيين ، ومن أهم ألوانها الاقتباس من القرآن الكريم وتضمين شطور أو أبيات فى قصيدة الشاعر لشعراء سابقين ، وقد اقتبس الصاحب شرف الدين عبد العزيز الأنصارى فواصل « سورة الشمس » فى قطعة غزلية له مستهلا لها بقوله [٣] .

قسمًا بِشَمْس جَبينهِ وضُحاها ونهارِ مَبْسِمِهِ (إذا جَلاَّها)

---

(١) خزانة الأدب للحموى ص ٣٣٤
(٢) الخزانة ص ٣٤٣
(٣) ديوان الصاحب شرف الدين الأنصارى (نشر مجمع اللغة العربية بدمشق – تحقيق د . عمر موسى) ص ٥١٥

وتوالت قوافيه : (يَغْشَاها – زَكَّاها – تَقْوَاها – أَشْقاها).ومن طريف الاقتباس فى الغزل قول فتح الدين بن الشهيد (١) :

فى صدرها رُمَّانُ نَهْدٍ زانَهُ حَلْىٌ (يُوَسْوِسُ فى صدور الناسِ)

ويريد بوسوسة الحلى صوته الخفى ، واقتبس – كما هو واضح – آية سورة الناس ومافيها من الاستعاذة من الشيطان الوسواس بما لانفع فيه الذى (يوسوس فى صدور الناس) . وأكثر الشعراء من التضمين لأبيات المتنبى وغير المتنبى من كبار الشعراء ، كقول مجير الدين بن تميم مضمنا لبيت من أبيات المتنبى فى وصفه لزهر اللَّوز إذ يقول (٢) :

أزهرَ اللَّوْزِ أنت لكلِّ زهرٍ من الأزهار يأتينا إمامُ
« لقدْ حسنتْ بك الأيام حتى كأنك فى فَمِ الدهرِ ابتسامُ »

وعُنِى كثيرون باقتباس الشطور الثوانى من معلقة امرئ القيس وتضمينها فى قصائدهم . وسنلتقى بأمثلة كثيرة من ألوان هذه البديعيات فى ترجماتنا للشعراء .

(هـ) التعقيدات

إذا كانت الشام نفذت – على لسان أبى تمام – إلى ابتكار مذهب التصنيع والتنميق فى الشعر العربى ، فإنها هى أيضا التى نفذت إلى ابتكار مذهب التصنع والتعقيد فى الشعر أو قل هى التى أعطته صيغته النهائية ، فقد أخذ الشعراء – منذ أوائل هذا العصر – يتكلفون فى صورهم البيانية ومحسناتهم البديعية ألوانا شتى من التكلف عرضناها فى كتابنا « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » ومانصل إلى أبى العلاء المعرى حتى يبلغ هذا التصنع أقصاه فى ديوانه : « لزوم مالا يلزم » وهو فى مجلدين ضخمين . والقصائد فيه تنتظم حروف المعجم حرفًاحرفا ، وفى كل حرف يأتى بالروى ساكنا ومتحركا بالحركات الثلاث : الضمة والفتحة والكسرة ، والتزم مع كل روى حرفا معينا يسبقه كالباء والتاء وغيرهما . وبذلك أصبح لقصائد هذا الديوان الضخم رويّان يلزمانها فى حتمية شديدة . وليس هذا كل مافى الديوان من تعقيد ، فقد يكون ذلك أخف مافيه من ألوانه ، إذ نراه يعنى فيه بعرض كلمات غريبة لاتكاد تحصى ، وشغف بالجناس وعقّده بدوره إذ طلبه بين القافية

(١) الخزانة ص ٤٠٤ (٢) الخزانة ص ٤٧٣

وما يسبقها من كلمات البيت ، بل لعله ظن ذلك لايزال شيئا سهلا فطلب أن يكون بين أول كلمة فى البيت وبين القافية كقوله [١] .

أَشْرَاكَ ذَنْبُكَ والمهيمنُ غافرٌ ماكان من خطإٍ سوى الإشراكِ

ومعنى أشراك : أغراك وأوقعك فى الإثم . ويكثر هذا الجناس المعقد فى لزوم مالايلزم أو فى اللزوميات ، ولايكتفى أبو العلاء بِعُقَد الجناس واللفظ الغريب والروى المتعدد بل يطلب عُقَدًا أخرى من ألفاظ الثقافات ومايتصل بها من اصطلاحات الفلسفة والعلوم الإسلامية وعلوم الأوائل من فلك وغير فلك وعلوم العربية من عروض وغير عروض مثل [٢] .

بقاى الطويلُ وغَيِىَّ البسيطُ وأصبحتُ مضطربا كالرَّجَزْ

والطويل والبسيط والرجز من بحور الشعر وأوزانه كما هو معروف ، والرجز أكثرها اضطرابا لكثرة مايجرى فيه من زحافات وعلل .

ولعل فى ذلك مايوضح كيف أرسى أبو العلاء فى الشام مذهب التصنع والتعقيد الشديد وكيف رفعه على دعائم متينة لافى قصيدة واحدة أو فى قصيدتين ، بل فى ديوان كبير . وتبعه شعراء الشام لاينظمون دواوين مثله يلتزمون فيها مالا يلزم من اللوازم التى التزمها جميعا ، ولكنهم يستخدمونها فى الحين بعد الحين كقول ابن حَيّوس متغزلا [٣] :

أوصابُ جسمى من جِناية بُعْدكم والصبرُ صَبْرٌ بعدكم أو صابُ

فقد جانس بين أول كلمة فى البيت وبين القافية المكونة من حرف العطف « أو » وكلمة صاب مثل كلمة صبر أى مُرّ . وعلى هذه الشاكلة قول ابن عُنَيْن [٤] :

خبّروها بأنه ماتَصَدَّى لسلوٍّ عنها ولو ماتَ صَدَّا

والجناس واضح بين آخر الشطر الأول والقافية ، وهو فيها مكون من كلمتين . ويكثر ذلك عند شعراء العصر حتى نهايته زمن العثمانيين . ويقول الحموى فى خزانته : «كان الشيخ صلاح

---

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (طبع دار المعارف الطبعة العاشرة) ص ٤٠١

(٢) نفس المصدر ص ٤٠٣

(٣) الديوان ١/٥٨

(٤) الديوان (تحقيق خليل مردم طبع دار صادر) ص ٤٩

الدين الصفدى يستسمن ورمه ويظنه شحما فيشبع أفكاره منه ويملأ بطون دفاتره (شعرا ونثرا) ويأتى فيه بتراكيب تخفُّ عندها جلاميد الصخور» . ويسوق من هذه الجلاميد أمثلة لعل أخفها قول الصفدى[1] .

وكم شِمْتُ لما قِسْتُ مقدار وُدِّكم   بوارقَ بأْسٍ فى بَوارِ قياسِ

والجناس فى الشطر الثانى ، وهو مركب من كلمتين يختلفان معنى وبناء كما هو واضح ، وفيه غير قليل من الثقل فما بالنا بما وراءه من أمثلة ساقها الحموى للصفدى . ولانعدم أن نجد بين الشعراء مَنْ يزرى على هذا التصنع الشديد لجناسات كأنها قطع الصخر كما يقول الحموى مما يجعلها تصك الآذان صكا عنيفا ، ولعله لذلك حمل زين الدين بن الوردى معاصر الصفدى المتوفى سنة ٧٤٩ على من يجعل الجناس له مذهبا فى نظمه ، يقول ناصحا شعراء عصره[2] .

إذا أحْبيتَ نظمَ الشعرِ فاخترْ   لنظمك كلَّ سهلٍ ذى امتناعِ
ولاتَقْصِدْ مجانسةً ومكِّنْ   قوافيَه وكِلْهُ إلى الطِّباعِ

وقليلون هم الذين استمعوا إلى نصحه إذ أصبح التصنع منذ زمن أبى العلاء فى القرنين الرابع والخامس ظاهرة عامة تشمل جمهور الشعراء إلا من ندر ، ولهم فى ذلك كثير من الأفانين وينشد العماد الأصبهانى فى خريدته صورا كثيرة من هذه الأفانين ، وخاصة عند ابن قُسَيم الحموى المتوفى سنة ٥٤١ وهو شاعر نور الدين وأبيه عماد الدين ، وبدأ العماد بصورة معقدة من تصنعه فى القوافى إذ نظم أبياتا على خمس قواف ، يقول فيها مادحا[3] :

قل للأمير أخى النَّدى	والنائلِ المِطْالِ	للشعراء	والقُصَّادِ
لازلتَ تنتهكُ العِدا	بالذابلِ الغُهالِ	فى الاحشاء	والأكبادِ
ووُقيت من صَرْف الرَّدَى	والنازلِ المغتالِ	للأعداء	والحسَّادِ

وواضح أنه يمكن أن تُفْصَل الشطور الأولى من كل بيت وحدها وأن يضاف لكل منها الكلمة التالية أو الكلمتان أو الأربعة ، ومع كل صورة يتكون بيت مستقل ، وهى مهارة تصور قدرة على

(١) الخزانة ص ٢٦

(٢) الخزانة ص ٢٧

(٣) الخريدة (قسم الشام) ٢/٤٤٤

التصنع والتعقيد . وينشد العماد لا بن قُسَيِّم مقطوعة طويلة تتوالى الكلمات فيها بحيث لا تخلو أولاها من صاد وثانيتها من سين أو العكس [١] . ومما أنشده العماد فى خريدته من هذه الصور المتكلفة قصيدة لشاعر من شعراء المعرة التزم فى كل كلمة من كلماتها أن لا تخلو من حرف النون [٢] ، وأنشد لشاعر آخر من شعراء المعرة قطعة تُقرَأ على سبعة أوزان [٣] . ولابن عنين حين ألم فى رحلته الكبيرة إلى المشرق بالفخر الرازى فى « هراة » قصيدتان [٤] فى مديحه تشتمل كل كلمة فى أولاهما على حرف السين كقوله فيها .

حَسُنَتْ سريرتُه وقُدِّس سِنْخُهُ وسما بأسلافٍ سراةٍ شُوسِ [٥]

بينما تشتمل كل كلمة فى ثانيتهما على حرف الحاء . وتعلق كثير من الشعراء فى العصر بصنع الألغاز والإجابة عنها ، وأفرد كثيرون لها أبوابا فى دواوينهم على نحو مايلقانا فى ديوان ابن عنين وأيضا فى ديوان مامية الرومى الدمشقى فى زمن العثمانيين . وظل غير شاعر يتصنع لمالايلزم فى بعض مقطوعاته وقصائده وكان للصاحب عبد العزيز الأنصارى مجلد كبير فيه [٦] .

٤

شعراء المديح

يكثر شعراء المديح فى الشام منذ القرن الثانى الهجرى ، وذكرنا أسماء نفر منهم فى غير هذا الموضع ، وقد أهدت الشام فى القرن الثالث إلى الشعر العربى أكبر شاعرين مدَّاحين فيه ، وهما أبو تمام والبحترى . ويتكاثر شعراء المديح كثرة مفرطة فى أول هذا العصر : عصر الدول والإمارات بحلب زمن بطلها سيف الدولة الحمدانى الذى تحول بها إلى أكبر مركز علمى وفلسفى وأدبى ، على نحو مامَّر بنا ، وغدت مقصد الأدباء وحلبة الشعراء ، وجاءوها من كل بلد فى العراق وإيران فضلا عن الشام ، وفى مقدمتهم المتنبى . وظل سيف الدولة نحو عشرين عاما يمزق جموع البيزنطيين ويستولى على كثير من الحصون والبلدان ، والشعراء من حوله ينثرون عليه قصائدهم

---

(١) الخريدة (قسم الشام) ١/٤٤٧

(٢) الخريدة ٢/٤٥

(٣) الخريدة ٢/١٠٨

(٤) الديوان ص ٩٦ ، ٩٨

(٥) السنخ : الأصل ، شوس جمع أشوس : الشجاع المقدام

(٦) فوات الوفيات ١/٥٩٨

ومدائحهم بالعشرات – إن لم يكن بالمئات – مسجلين للبطل العربى مجده الحربى العظيم ، وقد صورنا فى قسم العراق من هذا التاريخ للأدب العربى مدائح المتنبى فيه ، ولن نستطيع أن نعرض هنا مدائح غيره من شعراء العراق مثل ابن نباتة وأبى الفرج الببغاء ، فكتاب اليتيمة للثعالبى يحمل من مدائحهما ومدائح غيرهما لسيف الدولة روائع بديعة . ويكفى أن نشير إلى من حفّوا به من شعراء الشام أمثال كشاجم والوأواء الدمشقى وأبى العباس أحمد بن محمد المِصّيصىّ المشهور باسم النامى ، وكان عند سيف الدولة يتلو أبا الطيب فى المنزلة والرتبة ، وكان شاعرا بارعا ، ومن قوله فيه بإحدى مدائحه[1] :

أميرَ العُلا إن العَوالى كواسبٌ ... علاءك فى الدُّنيا وفى جَنَّة الخُلْدِ

يمرّ عليك الحَوْلُ ، سيفُك فى الطُّلاَ ... وطَرْفُك مابين الشَّكيمة واللِّبْد[2]

ويمضى عليك الدَّهْرُ، فعلُك للعلا ... وقولك للتَّقْوَى وكفُّك للرِّفْدِ

فسيف الدولة دائما محارب يدق أعناق البيزنطيين بسيفه المسلول ، ودائما ساهر شاكى السلاح وبصره مصوَّب إلى فرسه الذى يعلك باستمرار شكيمته استعدادًا للنزال . وما الإنسان إلا فعل وقول وفعل سيف الدولة دائما للعلا ومنازله الرفيعة وقوله للتقوى ومخافة الله ، أما كفه فللعطاء والنوال السابغ .

وكان سيف الدولة – ومثله الحمدانيون عامة – من الشيعة الإمامية ، مما جعل كثيرين من أهل حلب يعتنقون هذه النحلة ، ومر بنا أن تفرعت عنها فرقة النُّصَيْرية الشديدة الغلو لما تزعمه – كما مرّ بنا – من ألوهية على بن أبى طالب . ومكّن لانتشار التشيع فى الشام استيلاء الدولة الفاطمية على فلسطين ودمشق وكثير من بلدان سوريا منذ سنة ٣٥٩ ونرى نفرا من شعراء الشام ينزلون القاهرة معتنقين – على مايبدو – لتلك النحلة ويتغنون بمديح الخليفة الفاطمى العزيز (٣٦٥ – ٣٨٦ هـ) ووزيره يعقوب بن كلّس وفى مقدمتهم أبو الرَّقعمق أحمد بن محمد الأنطاكى ، وله فى الخليفة ووزيره غير قصيدة ، ومن قوله فى ابن كلّس بإحدى قصائده[3] :

لم يَدَعْ للعزيز فى سائر الأرْ ... ض عدوًّا إلا وأَخْمَدَ نارَهْ

(١) اليتيمة ١/٢٢٥

(٢) الطلا : جمع طلية أو طُلاة كما مر. وهى العنق أو صفحته. الشكيمة : الحديدة المعترضة فى فم الفرس من اللجام

(٣) اليتيمة ١/٣١٠

كلَّ يوم له على نُوَبِ الدَّهـ ـرِ وكَرِّ الخطوب بالبَذْل غارَهْ

ولأبى العلاء المعرى ديوان معروف يسمى « سَقْط الزَّند » أكثره مدائح نظمها على سبيل التمرين لاقصدًا لمديح شخص بعينه إلا نادر ، فهو لم ينظم كثرتها طلبا للكسب ونيل العطاء ، وإنما على سبيل التدريب اتباعا لشعراء المديح المنتشرين بزمنه فى كل مكان ، ومن قوله على طريقتهم فى المديح بأولى قصائد سقط الزند :

مُكلِّفُ خَيْلِهِ قَنَصَ الأعادى وجاعلُ غابهِ الأسَلَ الطِّوالا
تكاد قِسِيُّه من غير رامٍ تُمكِّن من قلوبهم النِّبالا

فالخيل لكثرة ما جعلها الممدوح تمارس القتال تقتنص بنفسها الرجال . وإنه لأسد حقا غير أن عرينه ليس غابًا بل رماحًا طوالا تخطف الأرواح خطفا ، وإن قِسِيَّه لتصيب أعداءه فى الصميم دون رام ينزع عنها النبل والسهام ، وهى مبالغة مألوفة عند أصحاب المديح لأيامه .

ومرَّ بنا أن بنى مرداس خلفوا الحمدانيين فى حلب ، وعُنى منهم خاصة محمود بن نصر بجمع الشعراء حوله فاجتمع فى حاشيته كثيرون منهم عبد الواحد الحلبى الربعى وابن حَيّوس الدمشقى وابن النحاس الحلبى وابن سنان الخفاجى . وحدث أن قطبان أنطاكية أو بطريقها استولى فى شعبان سنة ٤٦١ على حصن « أسفونا » ونكّل تنكيلا شديدا بأهله ، فحاصره محمود بن نصر وفتك بجميع رجاله ، وكانوا نحو ألفين ، وردَّ محمود الحصن على أهله ، وهنّأه ابن سنان الخفاجى بهذا النصر المبين قائلا فى إحدى قصائده [1] .

إنْ أظهرتْ لعُلاك أنطاكيَّةٌ حُزْنًا فقد ضحكتْ على قُطْبانها
لما أطلَّ له لواؤك خافقًا عُرِفتْ وجوهُ الذُّلِّ فى صُلْبانها

وحين زار حلب نظام الملك وزير ألْب أرْسلان السلجوق قدَّم له كثيرون من شعرائها مدائحهم ، وكان وافر العقل بصيرا بتدبير الملك سَيُوسًا بعيد النظر ، فساس الدولة السلجوقية خير سياسة ، وهو مؤسس المدارس أو الجامعات النظامية فى العراق وإيران ، وله يقول محمد بن أحمد الشطرنجى الحلبى من مدحة طويلة على أبواب حلب [2] .

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب لابن العديم ٢/١٤ وما بعدها والديوان طبعة بيروت ص ١١٣ .

(٢) دمية القصر ١/١٩٩

يا خيرَ من خفقتْ عليهِ رايةٌ وأجلَّ معقودٍ عليه لواءُ
لك كلَّ يوم مِنَّةٌ سيَّارةٌ في الخافقين وغارةٌ شعواءُ

وذكرنا – فيما أسلفنا – أن بنى عمار استطاعوا أن يكوِّنوا لهم فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى إمارة بطرابلس ، وكانوا يُقرِّبون منهم الشعراء ويجزلون لهم فى العطاء ، وذكر العماد الأصبهانى فى الخريدة نفرا من شعرائهم فى مقدمتهم ابن العَلاَّنى المعرى ، وله من مدحة فى عمار بن محمد بن عمار : آخر أمرائهم[1] :

يحتاطك التوفيقُ لايألوك فى تسهيلهِ لك كلَّ صعبٍ أوْعَرِ
دامتْ لك النعماء موصولٌ بها توفيقُ منصورِ اللواء مظفَّرِ

وسقطت من يده طرابلس فى حجر الصليبيين ، وكانت لذلك مناحة كبيرة بين المسلمين . وكان ابن العلانى – فيما يبدو – شيعيا ، ولعله لذلك رحل إلى القاهرة وقدَّم مدائحه إلى الوزير الأفضل بن بدر الجمالى ، وله يقول فى إحدى مدائحه[2] :

ليَزْدَدْ عُلُوًّا ملكُ مصرَ فإنها بهِ حرمُ اللهِ العزيزِ المحرَّمُ
فمكةُ مصرُ ، والحجيجُ وفودُه ويمناه ركنُ البيت ، والنِّيل زمزمُ

ومن كبار الشعراء الذين نشأوا فى حجر بنى عمار واستظلوا بما أحدثوا فى طرابلس من حركة أدبية الشاعر الدمشقى ابن الخياط وسنخصه بترجمة مستقلة .

وأمراء حصن شيزر : بنو مقلَّد بن مُنقذ على شاكلة بنى عمار فى طرابلس يتردد مديحهم على ألسنة الشعراء منذ استخلص على بن مقلد بن منقذ « شَيْزَر » من أيدى الروم سنة ٤٧٤ وظلت أسرته تحكمها حتى أتى عليها زلزال شديد سنة ٥٥٢ هدمها من قواعدها وأهلك سكانها . وتغنى الشعراء طويلا باسم محررها فى القرن الخامس على بن منقذ وبخلفائه فى حكمها ، كما نجد عند ابن منير والقيسرانى .

ويلقانا فى أواخر القرن الخامس والربع الأول من القرن السادس شاعر فلسطينى هو الغَزِّى إبراهيم بن يحيى المتوفى سنة ٥٢٤ وقد ترك غزة مسقط رأسه مبكرا إلى دمشق يختلف الى شيوخها ، ثم رحل إلى بغداد وظل بالمدرسة النظامية فترة طويلة مدح فيها ورثى كثيرين من علمائها ، ثم تركها

(١) الخريدة (قسم الشام) ٧٨/٢ (٢) الخريدة ٨٢/٢

إلى كَرْمان وشيراز فى فارس وهراة فى أفغانستان وكلما ألم ببلد مدح أمراءها ووزراءها حتى وفاته فهو شاعر جَوَّال ، وله أشعار كثيرة رائعة فى المديح وغير المديح ، وله فى ابن مكرم وزير كَرْمان مدائح بديعة من مثل قوله[١] :

مادعوناه من بنى الدَّهر إلا أهَّلَ الدَّهْرُ نفسه للتَّهانى
جُمِع الأُسْدُ والكواكب والأبـ ـحُرُ والناسُ منه فى إنسانِ
واستجابتْ له مناقبُ شتَّى لم تَجُلْ فى خواطر الإمكانِ

ويتنبه البطل المغوار أتابك الموصل عماد الدين زنكى منذ أوائل العقد الثالث من القرن السادس الهجرى إلى أن تخاذل المسلمين أمام حَملة الصليب مرجعة إلى تفرق البلدان الإسلامية المجاورة لهم وأنه لابد من جمع كلمتها تحت لواء واحد . ويستولى على حلب وبعض بلدان سوريا الشمالية ، وماتوافى سنة ٥٣٤ للهجرة حتى يسوق إلى الصليبيين جيشا جرارا بقيادته ، وينازلهم بالقرب من حماة ويعصف بجموعهم ، ويستولى على حِصْن بارين بين حماة وحلب . وكأنما استيقظ الشعر حينئذ من سُباته الطويل . ويتبارى الشعراء فى مديحه والإشادة بانتصاره ، وفى مقدمتهم ابن منير والقيسرانى . ولم يلبث فى سنة ٥٣٩ أن فتح مدينة الرُّها مزيلا منها جوسلين ودولته الصليبية إلى غير رجعة ، وهلل الشعراء فى كل مكان لهذا الفتح المبين ، وفيه يقول ابن منير[٢] :

فتحٌ أعادَ على الإسلام بهجتَهُ فافترَّ مَبْسِمُه واهتزَّ عِطْفاهُ
أين الخلائفُ عن فتحٍ أُتيح له مظلِّلٌ أُفُقَ الدنيا جَناحاه

ومضى ابن منير فى القصيدة يُعلى – بحق – هذا الفتح على فتح المعتصم لعمّورية أكبر مدن آسيا الصغرى فى زمنه ، فقد قضى زنكى على المملكة الرابعة لحملة الصليب ، وكانوا قد أسسوها شمالى العراق . وبدا حينئذ – فى الأفق – أمل كبير فى أن ممالكهم التى أسسوها فى أنطاكية وطرابلس وبيت المقدس لابد أن تسقط فى أيدى المسلمين مهما طال الزمن .

وامتدتْ إلى عماد الدين سنة ٥٤١ يَدٌ آثمة فى الظلام ففتكت بالبطل الباسل ، وحمل الراية بعده ابنه نور الدين ومضى يجاهد الصليبيين ، وغرَّت الأمانى جوسلين فعاد إلى الرُّها ، واستردها

(١) الخريدة (قسم الشام) ١/٥١

(٢) الروضتين لأبى شامة ١/٣٩ وانظر مفرج الكروب لابن واصل تحقيق الدكتور الشيال ١/٩٣

سريعا نور الدين وفرَّ جوسلين ، وهنَّأه الشعراء بهذا الفتح المبين ، وفى مقدمتهم ابن قُسَيّم الحموى بمثل قوله[١] :

تبدو الشجاعةُ من طلاقةِ وجهه كالرمح دلَّ على القساوة لِينُهُ
والدينُ يشهد إنه لمعزُّهُ والشِّرْكُ يعلم إنه لمهينُهُ
فتح الرُّها بالأمس فانفتحتْ له أبوابُ ملكٍ لايُذَالُ مَصُونُه[٢]

وولَّى نور الدين وجهه نحو سوريا فاستولى من حملة الصليب على حصن أرتاح سنة ٥٤٤ . ونازل صاحب أنطاكية وجموعَه ، وخرَّ صريعا بيد أسد الدين شيركوه وفرَّتْ جموع الصليبيين مهزومة مدحورة . وعاد نور الدين إلى حلب ، والشعراء يهللون بمثل قول ابن منير فى مطلع قصيدة له[٣] .

أَقْوَى الضلالُ وأقفرتْ عَرَصاتُه وعلا الهُدَى وتبلَّجتْ قَسَماتُهُ

وظلت أيام نور الدين محمود أعيادَ نصر على حَملة الصليب ، وظل الشعراء يدبجون فيه مدائح رائعة ، وقد استولى من الصليبيين على أفامية سنة ٥٤٥ واستولى من بيت طغْتِكين على مدينة دمشق سنة ٥٤٩ ويهنئه عالمها وحافظها ابن عساكر قائلا[٤] .

لقد بلغتَ بحمد الله منزلةً عَلِيَّةً فاقصُدِ العالى من القُرَبِ
وطَهِّر المسجدَ الأقصى وحَوْزَتَهُ من النَّجاساتِ والإشراك والصُّلُبِ

وفى نفس السنة يهزم الصليبيين بدُلوك من ثغور حلب ، ويتنازل له حملة الصليب فى أنطاكية عن نصف أعمال حارم . واستولى على شَيْزر وبَعْلبك وصَرْخد ، وشُغل بإرسال نور الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين إلى مصر سنة ٥٥٨ وتطورت الظروف وتملك صلاح الدين مصر . ونور الدين محمود يُعَدُّ بحق منشئَ الدولة الأيوبية . ولم يلبث فى سنة ٥٥٩ أن استولى على مدينة حارم ، وأخذت حصون كثيرة تتساقط فى يده ، ويتغنى بانتصاراته الرائعة العماد الأصبهانى قائلا فى مطالع إحدى قصائده[٥] .

---

(١) الخريدة (قسم الشام) ٤٧٤/١ وما بعدها
(٢) يذال : يهان .
(٣) الروضتين ٥٨/١ ومفرج الكروب ١٢٢/١ أقوى : أقفر . عرصاته : ساحاته . تبلجت : أضاءت .
(٤) الخريدة (قسم الشام) ٢٧٧/١
(٥) الخريدة (بداية قسم الشام) ص ٥٤

ياواحدا فى النَّصْرِ غيرَ مشارَكٍ   أقسمتُ مالكَ فى البسيطة ثانِ
كم وقعةٍ لك فى الفرَنْج حديثُها   قد سار فى الآفاق والبُلْدانِ
وجعلتَ فى أعناقهم أغلالهم   وسَحَبْتهم هُونًا على الأذقانِ

ويحمل الراية بعد نور الدين فى منازلة حملة الصليب البطل المظفر صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية، وفتوحه العظيمة مصوّرة فى الجزء الخاص بمصر، وما وافت سنة ٥٨٣ حتى تمت له هذه الفتوح بعد وقعة حطين المباركة التى استولى بعدها على بيت المقدس أهم مملكة كانت لحملة الصليب كما استولى على كثير من الحصون على الساحل الشامى، ولم يبق فى الشام ولا فى الموصل والعراق شاعر إلا وتغنى بفتوح هذا البطل الباسل، تغنى بها سبط بن التعاويذى البغدادى وموفق الدين الإربلىّ والشاتانى الموصلى وابن الساعاتى الدمشقى وله مدائح كثيرة متناثرة فى كتاب الخريدة، وللعماد فى هذه الفتوح قصيدة رائعة أنشدنا منها قطعة فى الجزء الخاص بمصر، ولابن الشحنة الموصلى فيه مدحة طارت شهرتها لقوله فيها هذين البيتين السائرين(١):

وإنى امرؤ أحْبَبْتكم لمكارمٍ   سمعتُ بها والأُذْنُ كالعين تَعْشَقُ
وقالتْ لِىَ الآمالُ إن كنت لاحقًا   بأبناء أيوبٍ فأنت الموفَّقُ

ودار الزمن ودانت مصر والشام – بعد صلاح الدين – لأخيه العادل ، ولابن عُنَين الدمشقى فيه وفى ولديه المعظم عيسى والأشرف موسى مدائح مختلفة . وبينها رائية بديعة فى العادل يستعطفه بها فى العودة إلى دمشق وكان صلاح الدين نفاه منها لكثرة أهاجيه فى أهلها ، وأذن له العادل فى العودة ، وفيها يقول (٢) :

العادلُ الملك الذى أسماؤه   فى كل ناحيةٍ تشرِّف مِنْبرا
نسختْ خلائقه الكريمةُ ماأتى   فى الكُتْب عن كسرى الملوك وَقيْصرا
مَلِكٌ إذا خفَّتْ حلومُ ذوى النُّهَى   فى الرَّوع زاد رزانةً وتوقُّرا

ومعروف أن آل أيوب توزعوا فيما بينهم بلدان الشام ، وكان لكل منهم شاعره الذى يتغنى بمناقبه وأعماله ، ونذكر من بينهم نور الدين مودود شِحْنة دمشق ابن أخى صلاح الدين لأمه ،

---

(١) النجوم الزاهرة ٦/٥٨
(٢) ديوان ابن عنين (تحقيق خليل مردم – طبع دار صادر) ص ٦

وهو ممدوح فتيان الشاغورى دبّج فيه مدائح كثيرة . وجرى بنا أن نذكر ملوك حماة الأيوبيين ، وكانوا ممدَّحين . وممن أسبغ عليهم مدائحه الصاحب شرف الدين عبد العزيز الأنصارى ، وله فى صاحبها المظفر محمود (٦٢٦ — ٦٤٢ هـ) وابنه المنصور سيف الدين محمد (٦٤٢ — ٦٨٣ هـ) مدائح كثيرة ، وكان للثانى موقف محمود حين أحس بأن التتار سيغزون الشام إذ التجأ بأسرته إلى مصر حتى إذا التحم القتال بين المصريين والتتار فى عين جالوت كان فى مقدمة المحاربين البسلاء ، ونوّه الصاحب الأنصارى بهذا الموقف الشجاع طويلا بمثل قوله[1] :

بَعيْن جالوتَ خُضْتَ بَحْرَ وَغىً ... يُخال فُلْكا بالأسْد مَشْحونا
وكنت للجيش غُرَّةً شَدَخَتْ ... أنوفَهم فانثنوا مُوَلِّينا

وطوال أيام المماليك كان يرتفع صوت الشعر للتنويه بأعمالهم . وكان لانتصاراتهم على التتار أو المغول بعد موقعة عين جالوت حظ كبير من الشعر ، ومرَّ بنا فى قسم مصر أن الظاهر بيبرس كان دائما يتعقبهم فى الموصل وعلى شواطئ الفرات وسمع بحشود لهم على شاطئه الشرقى فخاض إليها لُججَه وخاضها جيشه معه ومزقهم شر مُمَزَّق ، وفى هذه الغزوة يقول الموفق عبد الله الأنصارى الدمشقى[2] .

المَلكُ الظاهر سلطانُنا ... نَفْديه بالأموال والأهلِ
اقتحمَ الماء ليُطفى به ... حرارةَ القلب من المُغْل

ولم يستول الظاهر بيبرس ولا قلاوون ولا الأشرف خليل على حصن أو بلد من حملة الصليب إلا وجلجل الشعر ، حتى إذا أنهى الأشرف خليل الحروب الصليبية باستيلائه على عكا آخرِ حصونهم أخذ شعر المديح فى الشام يتحوَّل إلى شعر مناسبات لمديح الحكام حين يستولون على أزمة الأمور أو حين تمر بهم بعض الأعياد أو بعض الأحداث .

ويظل الشعراء أيام العثمانيين يقدمون مدائحهم للحكام ، وكان شعراء الشام حينئذ قريبين من إستامبول وكانوا لايزالون غادين عليها رائحين ، مما جعلهم يكثرون من مديح سلاطينهم ، على نحو

---

(١) الديوان (بتحقيق عمر موسى — نشر مجمع اللغة العربية بدمشق) ص ٤٧٥ .

(٢) النجوم الزاهرة ١٦٠/٧

مايلقانا فى ديوان مامية الرومى المتوفى سنة ٩٨٧ ومديحه فيه للسلاطين سليمان وسليم الثانى ومراد الثانى . ويكثر حينئذ مدح العلماء وأعيان البلدان فضلا عن حكامها ، وأخذ الشعراء يكثرون مثل المصريين من التاريخ بالشعر يؤرخون قدوم حاكم أو مناسبة من المناسبات يجعلون ذلك فى آخر شطر بالمدحة إذ تحسب حروف الكلمات فيه بحساب الجُمَّل ، فيكون المجموع سنة الولاية للحاكم أو سنة المناسبة . وجدير بنا أن نعرض نفرًا من شعراء المديح النابهين .

ابن الخياط (١)

هو أبو عبد الله أحمد بن محمد التغلبى نسبة إلى قبيلة تغلب المولود بدمشق سنة ٤٥٠ لخياط اشتهر بنسبته إليه ، فهو من أبناء عامة الشعب الدمشقى . ودائما يلقانا فى كل البلدان العربية شعراء من أولاد العامة ، لأن الثقافة العربية الإسلامية كانت مناهلها مفتوحة الأبواب دائما ، إذ كان الشيوخ فى المساجد يعرضونها على الناس جميعا شبانا وشيبا ، وكانت المساجد أو الجوامع الكبرى تشتمل على مكتبات غاصة بالكتب فى كل علم وكل فن وكذلك بدواوين الشعراء ، مما أتاح للشباب فى كل بلد عربى أن يتزود بماشاء من الثقافة علمية وأدبية وأن ينبغ بينهم علماء وأدباء وشعراء لاحصر لهم .

وشهد ابن الخياط فى صباه دمشق ثائرة على حكم بدر الجمالى ، حتى لقد أشعل أهلها النار فى قصره سنة ٤٦٠ وسرت النار إلى الجامع فسقطت سقوفه وتناثرت فصوصه المذهبة ، ونُهبت الدور والدكاكين ، وظل هذا الاضطراب سائدا فى دمشق وأخذ السلاجقة يحاصرونها ابتغاء الاستيلاء عليها حتى تمّ لهم ذلك سنة ٤٦٨ وتملكها تُتُش أخو السلطان أَلْب أَرْسلان .

ومعنى ذلك أن الحياة كانت سيئة سوءًا شديدًا بدمشق منذ سنة ٤٦٠ حتى نزلها تتش مما جعل كثير من أهلها يهاجرون منها إلى بلدان الشام الأخرى . وكان ممن هاجر منها فى هذه الأثناء ابن الخياط وكان لايزال فى بواكير شبابه ، وولّى وجهه نحو حَماة ، ووفد على أمير بها يسمى محمد بن مالك فقربه منه واتخذه كاتبا له ، فعُرف باسم ابن الخياط الكاتب ، وفيه يقول :

حَبانى جودُهُ عَيْشًا كأنّى ظفرتُ به من الدَّهْر استراقا

(١) انظر فى ترجمة ابن الخياط وشعره تهذيب تاريخ ابن عساكر ٦٧/٢ وذيل تاريخ دمشق لابن القلانسى ٢٣٤ والخريدة (بداية قسم الشام) ص ١٤٢ والعبر ٣٩/٤ وابن خلكان ١٤٥/١ والشذرات ٥٤/٤ ومقدمة ديوانه بتحقيق خليل مردم (طبع المجمع العلمى العربى بدمشق)

وكان شاعرُ بلدته ابنُ حَيُّوس حين اضطربت الأحوال فى دمشق سنة ٤٦٤ تركها إلى حلب وعاش بها فى كنف بنى مرداس ، فرأى أن يتبعه هناك ، ولقيه ابن حيوس لقاء حسنا ومنحه ثيابا ودنانير مع تنويهه بشعره . وأوصاه أن يفد على بنى عمار أصحاب طرابلس لرعايتهم الشعر والشعراء ، إذ سيجد عندهم مبتغاه . غير أنه عاد إلى حماة ، وكان كلما ألم بها أمير من أمراء بلدان الشام مدحه على نحو مايلاحظ من مدحه للأمير الحلبى وثاب بن محمود بن صالح وله يقول :

لقد لبستْ بك الدُّنيا جمالاً فلو كانت يَدًا كنت السِّوارا

ويبدو أنه مرَّ بحماة على بن مقلَّد بن منقذ بعد استيلائه على حصن شَيْزر ، فاتصل به الشاعر ومدحه ومدح معه أسرته وما اشتهروا به من بسالة وما أتاحوا لحصنهم الأشم من مناعة ، وفى ذلك يقول :

هُمُ غادروا بالعزِّ حَصْباءَ أرضهم أعزَّ منالا من نجومِ الغَياهبِ

ونرى ابن الخياط فى سنة ٤٧٦ يأخذ بنصيحة مواطنه الشاعر الكبير ابن حَيُّوس ، فينزل طرابلس قاصدا بنى عمار ويستقبلونه استقبالا حافلا ، وكان يحكمها حينئذ منهم جلال الملك أبو الحسن على بن محمد بن عمار (٤٦٤ — ٤٩٤ هـ) وله فيه مدائح رائعة ، وربما كانت أولاها داليته ، وفيها نحسّ فرحته بلقائه من مثل قوله :

كفى بِنَدَى جلال الملك غَيْثًا إذا نزحتْ قَرارةُ كلِّ وادِ
فمن ذا مُبْلغ الأملاكِ عنا وسُوَّاسِ الحواضر والبوادى
بأنَّا قد سكنَّا ظلَّ مَلْكٍ مَخُوفِ البأسِ مرجوِّ الأيادى
فما نخشى محاربة الليالى ولانرجو مسالمةَ الأعادى

وهنئ بمقامه فى ظل بنى عمار بطرابلس ، وصحب فيها طائفة من الأدباء كانوا يخرجون للمتنزهات وينعمون بمشاهدها الطبيعية البديعة . ومن حين إلى آخر كان يمدح جلال الملك فى المناسبات كمرور الأعياد . وله فى أخيه فخر الملك قصائد لاتقل روعة عن قصائده فيه ، ومن قوله فى إحداها :

أأرتجى غيرَ عمَّارٍ لنائبةٍ إذنْ فلاَ آمَنَتْنِى كفُّهُ النُّوَبا

المانعُ الجارَ لو شاء الزمانُ له مَنْعا لضاق به ذَرْعًا وإنْ رَحُبا
الباذلُ المالَ مسئولاً ومبتدئًا والصَّائنُ المجدَ موروثًا ومكتسبا

وظل فى طرابلس حتى سنة ٤٨٦ وفيها احترقت داره واحترق كل ما كان بها من أثاث ، فحزن حزنًا شديدًا.

وعَبث بابن الخياط الحنينُ إلى دمشق مسقط رأسه وموطن خلاَّنه بها أيام الشباب ، فعاد إليها وكان ملكها حينئذ تتش السلجوق وقربه منه وزيره هبة الله بن بديع الأصبهانى ، واصطحبه معه إلى « الريّ » بفارس وهناك أنشده مدحة فيه ، ورحل إلى خراسان ، ولم يلبث أن عاد إلى دمشق سنة ٤٨٧ وامتدح أمير قبيلة بنى كلب حسان بن مسمار بقصيدتين ، وفتح له أمير الجيش عضب الدولة آبق أبوابه فمدحه بقصيدة بائية ربما كانت أروع قصائده ، وتوالت مدائحه فيه حتى توفى سنة ٥٠٢ ومن قوله فى البائية :

وماآبقٌ إلا حَيًا مُتَهلِّلٌ إذا جادَ لم تُقْلع مواطرُ سُحْبِهِ
أغرُّ غياثٌ للأنام وعصمةٌ يُعاش بنُعْماه ويُحمَى بِذَبِّهِ
ولم يُرَ يوما راجيًا غيرَ سَيْفِهِ ولم يُرَ يوما خائفًا غيرَ ربِّه
حُبيتَ حياةً فى سماحٍ كأنه ربيعٌ يَزين النَّوْرُ ناضرَ عُشْبه

والقصيدة رائعة حقا ، نوه بها القدماء طويلا كما نوهوا بغزلها وسننشد منه قطعة فى حديثنا عن شعراء الغزل .

وكان الصليبيون قد استولوا على بيت المقدس سنة ٤٩٢ وأخذوا بعد ذلك عدة بلدان على الساحل الشامى فى السنوات التالية وكثرت الشكايات منهم ، وواقعهم طُغْتِكين صاحب دمشق على سواد طبريَّة سنة ٤٩٩ وفى السنة التالية حاصر بلدوين صاحب القدس صَيْداء ، وفى ديوان ابن الخياط قصيدة يحض فيها عضب الدولة أمير الجيش فى دمشق على منازلة الصليبيين ، وفيها يقول مستنفرًا الدمشقيين للجهاد :

لقد جاشَ من أرْض إفرنْجَةٍ جيوشٌ كمثل جبالٍ تَرَدَّى
أنومًا على مثل هَدِّ الصَّفَاةِ وهزلا وقد أصبح الأمر جِدًّا
وكم من فتاةٍ بهم أصبحتْ تَدُقُّ من الخوف نَحْرًا وخَدًّا

فحاموا على دِينكم والحَريمِ محاماةَ مَنْ لايرى الموتَ فقدا
فقد أيْنَعتْ أرْؤُسُ المشركين فلا تُغْفلوها قِطافًا وحَصْدا

وله وراء هذه القصيدة مرثية لبطل استشهد فى حرب حملة الصليب سننشد منها قطعة فى الحديث عن شعراء الرثاء والشكوى أنشدها كالقصيدة السالفة عضب الدولة المتوفى – كما مرَّ بنا – سنة ٥٠٢ . ولانجد له وراء هاتين القصيدتين شعرا حماسيًّا ضد حملة الصليب مع أنه عاش حتى سنة ٥١٧ مما يجعلنا نظن ظنا أن شعراء الشام فى الربع الأول من القرن السادس على الأقل قَصَّرُوا فى استثارة الأمة ضد حملة الصليب حينئذ . وله فى هذه الفترة التى عاشها بعد عضب الدولة مدائح فى بعض الرؤساء والوزراء ورجال الشرطة الدمشقيين وغيرهم من الأعيان والقواد ، وآخر قصيدة له نظمها فى مرضه الأخير يسترفد ابن القلانسى المؤرخ ، وفيها يثنى على أدبه وكتابته بمثل قوله .

له فِقَرٌ لو تجسَّدْنَ لم يُفَضَّلْن إلا بهنّ العُقودُ
فَيُظْلَمْنَ إن قيل نَوْرٌ نَضِيرٌ ويُبْخَسْنَ إن قيل دُرٌّ نَضِيدُ

ويبدو من شعره أنه كانت له مجالس مع بعض الأدباء يتنادمون فيها على الشراب ويسترسلون فى اللهو والطرب بسماع بعض المغنين ، كما كانت له نُزَهٌ كثيرة فى الغوطة وبساتينها ، ويبدو أنه كان يولع بلعب النَّرد مع بعض رفاقه ، وله فيه قصيدة بديعة بديوانه ، رواها العماد الأصبهانى فى خريدته . وواضح أن شاعرية ابن الخياط كانت شاعرية خصبة كما يتضح من طول قصائده ومن لغتها الجزلة الناصعة دون تكلف للغرابة أو مايشبه الغرابة ، ومع جمال الموسيقى والجرس الصوتى وأنغامه ، ومع تصاويره المبتكرة القذة .

ابن (١) القَيْسَرانى

هو أبو عبد الله محمد بن نصر ، من سلالة خالد بن الوليد البطل العظيم ، ولد بعكا سنة ٤٧٨

(١) انظر فى ترجمة ابن القيسرانى وشعره الخريدة (قسم الشام) ٩٦/١ وابن القلانسى : ٣٢٢ ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزى (طبع حيدر آباد) ٢١٣/٨ ومعجم الأدباء ٦٤/١٩ وعبر الذهبى ١٣٣/٥ وابن خلكان ٤٥٨/٤ والنجوم الزاهرة ٢١٣/٥ والروضتين ٥١/١ فى حروب عماد الدين زنكى وابنه نور الدين محمود والشذرات ١٥٠/٤ وصدى الغزو الصيلبى فى شعر ابن القيسرانى للدكتور محمود إبراهيم وتوجد مخطوطة من ديوانه – وهى مختارات منه – بدار الكتب المصرية .

وانتقل به أبوه وهو فى صباه إلى قَيْسارِيَة[1] ، فنسب إليها وقيل ابن القيسرانى إذ نشأ بها ، ويبدو أنه هاجر منها مبكرا بعد استيلاء حَملة الصليب عليها سنة ٤٩٤ وأبعد فى هجرته إلى الشمال إذ نزل حلب ، وأقام فيها طويلا ربما نحو عقدين من السنين ، ثم نزل دمشق . والقدماء مختلفون منهم من يقول إنه نزل حلب أولا ثم نزل دمشق ، ومنهم من يقول بل نزل دمشق ثم نزل حلب ، ودفعنا إلى ترجيح الرأى الأول أننا سنجده عما قليل أهم شاعر شامى عُنى بتصوير البطولة العربية فى الفتك بحملة الصليب منذ سنة ٥٢٣ للهجرة وقد تجاوز الأربعين من عمره . وكانت دمشق كثيرا ماتشتبك مع الصليبيين فى حروب وتردهم على أعقابهم خاسرين كما حدث فى عهد حاكمها طغتكين سنة ٥٠٢ ويعود طُغْتِكين مع مودود صاحب الموصل إلى كسرهم على طبريَّة سنة ٥٠٧ واستطاع أن يهزمهم فى البقاع سنة ٥١٠ وهزم صاحب أنطاكية سنة ٥١٣ .

وكل هذه الأحداث والانتصارات العظيمة لطغتكين لانجد لها أى ذكر أو صدى فى شعر ابن القيسرانى مما يدل على أنه كان غائبا عن دمشق طوال هذه المدة . على كل حال يدل غياب هذه الأحداث السالفة على أنه لم يكن بدمشق فى أثنائها وأنه نزل حلب أولا وأقام بها حتى نهاية العقد الثانى من القرن السادس ثم نزل دمشق بعد ذلك . ويدل دلالة قاطعة على أنه كان بها فى عهد بورى بن طغتكين (٥٢٢ — ٥٢٦ هـ) أننا نجده ينشده أولى قصائده فى الحروب الصليبية حين هزم حَملة الصليب على أبواب مدينته فى أواخر سنة ٥٢٣ وفيها يقول :

وافوا دمشقَ فظنتوا أنها جِدَةٌ ... ففارقوها وفى أيديهم العدمُ
وغادروا أكثر القُرْبان وانجفلوا ... وخلَّفوا أكبر الصُّلْبان وانهزموا[2]

وكان — كما قال مترجموه — يتولى فى أثناء مقامه بدمشق إدارة الساعات بها إلى أن تولى شمس الملوك بن بورى (٥٢٦ — ٥٢٩ هـ) حُكْمها ، فاصطدم به ابن القيسرانى ، مما جعله يهجوه ، وعلم بهجائه فضاقتْ عليه الأرض بما رحُبت ، وفر منه بعيدًا إلى العراق . وترك العراق سريعا إلى حلب حين سمع بانتصارات عماد الدين زنكى على حملة الصليب واستيلائه منهم على المعرة وبعّرين ، وتتأكد صلته به منذ سنة ٥٣٤ إذ نجده يشيد بانتصاره على جموع الصليبيين واستيلائه منهم على حصن بارين غربى حلب فى الطريق إلى حماة ، ويشعر فى عمق ببطولة العرب وعماد الدين قائلا :

---

(١) كانت ثغرا كبيرا من ثغور فلسطين.

(٢) انجفلوا : تشردوا

حَذارِ منا وأنّى ينفع الحذَرُ ... وَهْيَ الصوارم لاتُبْقى ولاتَذَرُ
وأين ينجو ملوكُ الشِّرْك من ملكٍ ... مِنْ خَيْله النصرُ بل من جُنْده القدَرُ

ثم يكون نصر عماد الدين العظيم باستيلائه على الرُّها من يدجوسلين ومحو عار هذه المملكة أو الدولة التى أقامها الصليبيون شمالى العراق آملين فى الانحدار منها إلى الجنوب ، وإذا عماد الدين يستولى عليها بجيوشه وبطولته الخارقة سنة ٥٣٩ وتكون لذلك رنة فرح عظيم فى نفس ابن القيسرانى ونفوس المسلمين وينشد :

سمتْ قِبْلة الإسلام فخرا بِطَوْله(١) ... ولم يَكُ يسمو الدين لولا عمادُهُ
مصيبُ سهامِ الرأى لو أن عَزْمه ... رمى سدَّ ذى القَرْنين أَصْمَى(٢) سِدادَهُ
فقُلْ لملوك الكفر تُسلِمْ بعدها ... ممالـكَـهـا إن الـبلاد بلاده

ونرى ابن القيسرانى – بعد هذا الفتح المبين – بنحو عام يزور أنطاكية ، ويقول العماد زارها لحاجة عرضت له ، ولاندرى هل كانت حاجة سياسية لأمير أوكانت حاجة شخصية ويغلب على ظننا أنها كانت حاجة سياسية ، والمهم أنه شبّب بإفرنجيات وبراهبات وتمادى فى التشبيب ، وسنذكر طرفا منه فى حديثنا عن شعراء الغزل . وعاد من رحلته إلى عماد الدين و جمال الدين بن أبى منصور ، وله فيه مدائح بديعة .

وتطورت الأمور سريعا فقُتل عماد الدين بيد آثمة ، كما أسلفنا وحمل لواء الجهاد بعده الملك العادل نور الدين ، وتغرُّجوسلين الأمانى ووقوف الأرمن معه ، فيعود إلى الرها ، ويخرجها منه الدين منكِّلا بالأرمن ، ويهنئ ابن القيسرانى الوزير ابن أبى منصور بهذا الانتصار قائلا

لِيَهْنك ماأفرجَ النصرُ عنه ... ومـا نـالـه الملكُ الـعـادلُ
وإنْ يك فَتْحُ الرُّهَا لُجَّةً ... فساحلُها القُدْسُ والساحل

وحقا عظم الأمل فى نور الدين أن يسترد للمسلمين القدس والمسجد الأقصى بل الساحل الشامى جميعه . ويحشد حملة الصليب فى سنة ٥٤٣ جيشا كثيفا لهم فى بقعة تسمى (يَعْرَف) ويسحق نور الدين محمود الجيش سحقا ذريعا ، وينشد ابن القيسرانى :

---

(١) بطوله : بفضله ... (٢) أصمى : أصاب

مظفَّرٌ في دِرْعه ضَيْغَمٌ عليه تاج الملك معقودُ
وصارمُ الإسلام لاَيَنْثَنِي إلا وشِلْوُ الكفرِ مَقْدودُ(١)

ويدور العام ويحشد صاحب أنطاكية وحملة الصليب حشودهم عند حصن « إنَّب » ولقيهم نور الدين فحقهم محقا . وقُتل في المعركة صاحب أنطاكية البرنس العاتي ، ولم يفلت من القتل إلا من خبَّر أهل أنطاكية من قومه بالاندحار والدمار . وجلجل ابن القيسراني بصوته منشدا نور الدين على جسر الحديد الفاصل بين عمل حلب وعمل أنطاكية قصيدة رائعة استهلها بقوله :

هذي العزائم لا ما تدَّعي القضُبُ وذي المكارمُ لا ماقالت الكتبُ(٢)
أغرتْ سيوفك بالإفرنج راجفةً فؤادُ روميَّة الكبرى لها يَجِبُ(٣)
غضبتَ للدين حتى لم يَفُتْك رضًا وكان دين الهدى مرضاتهُ الغَضَبُ
من كان يغزو بلادَ الشِّرْك مكتسبا من الملوك فنورُ الدين مُحْتَسِبُ(٤)
فانْهَضْ إلى المسجد الأقصى بذي لَجَبٍ يوليك أقصى المنى فالقدسُ مرتَقبُ(٥)

ولابن القيسراني مدائح أخرى لنور الدين يردد فيها مجده وانتصاره الحربيين ضد حملة الصليب ومايأمله على يديه من رد بيت المقدس والساحل الشامي على أصحابها المسلمين . ودائما يحوطه بهالة إسلامية هو جدير بها ، فقد كان يحارب في سبيل الله لايبتغي مغنما ، إنما يبتغي ماعند الله من الأجر والثواب ، حتى ليقول له ابن القيسراني في نفس هذه القصيدة السالفة .

إلا تكنْ أحدَ الأبدال في فَلَكِ الـ ـتَّقوى فلا تَمَارى أنك القُطُبُ

وكأنه يعده قطب تقوى وإنقاذ للشام وأهل الشام . ولم يعش ابن القيسراني حتى يمجد بقية انتصاراته المجيدة على الصليبيين ، إذ توفى قبله بنحو عشرين عاما سنة ٥٤٨ . وله مدائح في بني منقذ وفي مجير الدين آبق صاحب دمشق . ويقول العماد إنه كان له معرفة بالمنطق وعلوم الأوائل وإنه كان يتصنع للجناس أحيانا غير أن ذلك قليل في شعره ، فقد كان يطلب فيه النصاعة والسلاسة على غرار أستاذه ابن الخياط فهو تلميذه وخريجه وراوي ديوانه .

---

(١) الشلو : العضو وبقية الشيء . مقدود : مشقوق
(٢) القضب جمع قضيب : السيف القاطع
(٣) راجفة : نفخة مميتة : يجب : يخفق
(٤) محتسب : يحتسب أجره على الله
(٥) ذولجب : الجيش . اللجب : الصياح والجلبة .

ابن[1] الساعاتى

هو بهاء الدين على بن محمد بن رستم الدمشقى خراسانى الأصل ، ولد لأبيه بدمشق سنة ٥٥٣ وكان ماهرا فى صنع الساعات الفلكية ، وأنعم عليه نور الدين محمود إنعاما وافرا حين صنع الساعات التى وُضعت على باب الجامع الأموى ، وأتاح له ذلك ثراء ، نعم به ابنه على إذ شُغف بالفروسية وببعض ضروب اللهو مثل النرد والشطرنج . ومثل لداته حفظ القرآن صبيًّا واختلف إلى دروس العلماء والمؤدبين فى الجامع الأموى ، ويبدو أن ابن سعيد خلط بينه وبين أخيه فخر الدين إذ قال إنه حين شبَّ أرسل به أبوه إلى البديع الأسْطُرْلابى بآمد ليتقن صناعة الآلات الفلكية ، وكأنه لم يلاحظ أن البديع توفى قبل ميلاده بنحو عشرين عاما . وربما أرسله إلى أحد أولاده . ونراه بعد فتح صلاح الدين لآمد يمثل بين يديه مادحا له بقصيدة لامية سنة ٥٧٩ يقول له فيها :

لولا مساعى صلاح الدين ماصلحتْ شمُّ الممالك بعد الزَّيْغ والميَلِ
فليعلمِ القدسُ أن الفتحَ منتظرٌ حلولَه وعلى الآفاق فَلْيَطُلِ [2]

وتحققت سريعًا نبوءته بفتح القدس ، ونراه بين من حفُّوا بصلاح الدين فى موقعته الماحقة : موقعة حِطِّين على حافة طبريَّة ، وله يهنئه بهذا النصر العظيم وماأنزل بحملة الصليب من ضربة قاصمة لم يفيقوا بعدها أبدًا ، إذ كُبَّت الكثرة منهم على وجوهها ، ووقع ملوكهم وصناديدهم فى أسر البطل العربى ، وله يقول :

جَلَتْ عزماتُك الفتْحَ المبينا وقد قَرَّتْ عيونُ المؤمنينا
قضيتَ فريضةَ الإسلام منه وصدَّقْتَ الأمانى والظنونا
فألمْ بالسواحل فَهْى صورٌ إليك وألحق الهامَ المتُونا [3]
وقلبُ القُدْس مسرورٌ ولولا سُطاك لكان مكتئبًا حزينا
أدرتَ على الفِرنْج وقد تلاقتْ جموعهُمُ عليك رَحًى طَحُونا

---

(١) انظر فى ابن الساعاتى وشعره وفيات الأعيان لابن خلكان ٣/٣٩٥ وعبر الذهبى ٥/١١ ومرآة الزمان : ٣٧٥ والغصون اليانعة لابن سعيد ص ١١٨ وشذرات الذهب ٥/١٣ وابن أبى أصيبعة ص ٦٦١ ومقدمة ديوانه بتحقيق أنيس المقدسى (طبع المطبعة الأمريكانية – بيروت)

(٢) يطول : يفخر تيها

(٣) صور : مائلة أوناظرة. الهام : الرءوس

ويذكر انتصارات صلاح الدين المتلاحقة على حَملة الصليب فى بَيْسان وغير بَيْسان ، وتتراءى له مدن الساحل الشامى ، وهى تنتظر مخلصها ومنقذها من الظلمة الأشرار ، وإن القدس ليكاد يطير فرحا فقد أصبح وشيك الخلاص ، وفعلا لم تمض شهور حتى فُتحت أبوابه لصلاح الدين وعاد ، وعاد معه المسجد الأقصى إلى الإسلام والمسلمين ، وإنه ليصيح مبتهجا فرحا :

لقد ساغ فَتْحُ القدسِ فى كلِّ منطقٍ وشاع إلى أن أسمع الأَسَلُ الصُّمَّا[1]
فليت فتى الخطَّاب شاهدَ فَتْحَها فيشهد أن السهمَ من يوسفٍ أَصْمَى
حَبَا مكةَ الحُسْنَى وثَنَّى بيثربٍ وأطرب ذَيَّاك الضريحَ وماضَمَّا
وأصبح ثَغْرُ الدينِ جذلانَ باسمًا وألسنةُ الأغماد تُوسعه لَثْمَا

لقد فُتح القدس عنوة ، وإن قعقعة السلاح لتكاد تسمع الصُّمَّ ، وقد عاد المسجد وعادت فيه الصلاة وتكبيرات المصلين وأذان المؤذنين . ويقرن فتح صلاح الدين للقدس فتحًا حربيًّا بفتح عمر بن الخطاب لها من قبل سلما . ويصور ابتهاج مواطن الوحى فى مكة ويثرب وابتهاج الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الفتح المبين ، وكيف عمت البهجة والفرحة القدس ثغر الدين ، وكأنما ألسنة الأغماد تعانقه وتقبله : تقبل كل ركن فيه . وله وراء هذه القصائد فى صلاح الدين ست عشرة قصيدة . ونراه بعد وفاته يلزم ابنه نور الدين صاحب دمشق فيمدحه بقصائد مختلفة ، غير أنه أخذ يتبرم بالشام وبمن حول نور الدين كما يتضح من قوله فى مدحة له :

أبكتْنىَ الأيامُ مذ ضحكتْ لى عن نيوب نوائبٍ عُصْلِ[2]
أفسدن خلانى فمالىَ فى الـ سَّرَّاء والضَّراء من خِلِّ

وكان هذا الشعور بأنه لم يعدله صديق وفىّ فى موطنه سببا فى أن يشدَّ رحاله إلى القاهرة فينزل بها ويتخذها دار مقام له حتى وفاته سنة ٦٠٤ وشعر فيها بأنه حياته أصبحت رغدة ناعمة وذكر ذلك مرارا فى شعره ، وكان قد وطد علاقاته بكثيرين من كبار رجال الدولة ، وفى مقدمتهم القاضى الفاضل وله فيه اثنتا عشرة قصيدة . وبمجرد أن وضع قدمه فى القاهرة أصبح من ندماء العزيز عثمان بن صلاح الدين حتى وفاته سنة ٥٩٥ وله فيه أكثر من ثلاثين مدحة . وربما كانت أيام العزيز أسعد أيامه بمصر . وهو يصور فى مديحه منادمته له ومجالس أنسه . وله مدائح فى السلطان

---

(١) الأسل : الرماح والسيوف .
(٢) عصل : معوجة كأنياب الأسد

العادل أخي صلاح الدين ، ولكن تنقصها الحرارة . وقد عاش بمصر يتملى بمشاهد الطبيعة وصوّر ذلك فى كثير من شعره ، وفى دار الكتب المصرية ديوان له خاص بمقطعات النيل يبدو أنه اختيارات من ديوانه ، وسنذكر بعضا من قصائده فى طبيعة دمشق وطبيعة مصر وأيضا بعضا من خمرياته .

الشهاب[1] محمود

هو محمود بن سليمان بن فهد الدمشقى الحنبلى ، ولد بدمشق سنة ٦٤٤ وعنى بتربيته أبوه وكان فقيها حنبليا ، فحفظ القرآن صبيا . وأخذ يختلف إلى حلقات الفقهاء الحنابلة والعلماء المختلفين مثل ابن مالك فى النحو وابن الظهير الإربلى فى الأدب وعليه تدرب فيه ، وكان يجلّه ويوده مودة مخلصة ، حتى إذا توفى سنة ٦٧٧ بكاه بقصيدة يقول فيها :

بكتْه معاليه ولم يُرَ قبلَهُ كريمٌ مضى والمكْرماتُ نَوادبُهْ

وبرع محمود فى الأدب حتى فاق أقرانه مما جعل القائمين على ديوان الإنشاء فى دمشق يعيّنونه فيه وهو فى نحو الثلاثين من عمره ، وظل فيه حتى سنة ٦٩٢ إذ نقل إلى ديوان الإنشاء بالقاهرة بعد وفاة محيى الدين بن عبد الظاهر ، ورأس هذا الديوان فى عهد السلطان بيبرس البند قدارى سنة ٧٠٨ حتى إذا توفى عبد الوهاب بن فضل الله العمرى صاحب ديوان الإنشاء بدمشق نُقل إلى وظيفته هناك وظل قائما عليها حتى توفى سنة ٧٢٥ . ومعنى ذلك أنه كان أديبا كاتبا محسنا وظل يعمل بديوان الإنشاء فى دمشق والقاهرة نحو خمسين عاما . وله فى الكتابة الديوانية كتاب جيد يسمى « حسن التوسل » غير أننا رأينا أن نسلكه بين الشعراء لأنه كان شاعرا متفوقا كما كان كاتبا بارعا ، بل أهم من ذلك أنه الشاعر الشامى الوحيد الذى صور حروب الظاهر مع التتار وحروبه وحروب قلاوون وابنه السلطان الأشرف خليل مع حملة الصليب تصويرا بديعا مما جعل ابن تغرى بردى يقتصر فى أغلب الأمر على وصفه لمعارك هؤلاء السلاطين .

وأول سلطان أشاد الشهاب محمود بانتصاراته الظاهر بيبرس وكان قد علم بحشود للتتار شرق

---

(١) انظر فى الشهاب محمود وشعره فوات الوفيات لابن شاكر فى ترجمته ٥٦٤/٢ وترجمة الظاهر بيبرس ١٦٤/١ وترجمة الأشرف خليل ٣٠٥/١ والجزء السابع والثامن والتاسع من النجوم الزاهرة . انظر فهرس تلك الأجزاء والبداية والنهاية لابن كثير ١٢٠/١٤ والدرر الكامنة لابن حجر ٩٢/٥ والدارس فى تاريخ المدارس للنعيمى ٢٣٦/٢

الفرات فزحف إليهم من الشام بجيش جرار وخاض إليهم الفرات وفتك بجموعهم وكاد أن لا يبقى باقية منهم . وعاد الملك الظاهر إلى دمشق مؤزرا منصورا ، وأنشده الشهاب قصيدة طنانة يقول فيها :

سِرْ حيث شئتَ لك المهيمنُ جارُ ... واحكُمْ فطَوْعُ مرادِك الأقدارُ
خُضْت الفُراتَ بسابحٍ أقصى مُنَى ... هوجُ الصَّبا من نَعْله آثارُ
حملتْك أمواج الفُرات ومن رأى ... بحرًا سواك تُقِلُّه الأنهارُ (١)
رَشَّت دماؤهمُ الصعيدَ فلم يَطِرْ ... منهم على الجيش السعيد غبارُ

ولم يلبث التتار أن حشدوا جموعا لهم سنة ٦٧٥ وأيدتهم جموع من عسكر الروم ، وتعاقدوا على منازلة بيبرس ، وعلم بتلك الجموع فباغتها محيطا بها من كل جانب ، وقاتلت قتال الموت ولم يغن ذلك عنها شيئا ، إذ كان يقتحم مع جنوده البواسل الأهوال كالأسد الضارية إلى أن انكسر التتار والروم وفروا معتصمين بجبال وراءهم ، وأحاطت بهم العساكر المصرية وقتلت منهم مقتلة عظيمة وفى ذلك يقول الشهاب محمود :

كذا فلتكنْ فى الله تمضى العزائمُ ... وإلا فلا تجفو الجفونَ الصوارمُ (٢)
بجيشٍ تظل الأرضُ منه كأنها ... على سعة الأرجاء فى الضيق خاتمُ
يحيط بمنصورِ اللواء مظفَّرٍ ... له النصر والتأييد عبدٌ وخادم
مليكٌ به للدين فى كل ساعةٍ ... بشائر للكفار منها مآتمُ
مليكٌ لأبكار الأقاليم نحوه ... حنينٌ كذا تَهْوَى الكرامَ المكارمُ

وسنذكر فى جزء مصر أن الظاهر بيبرس استولى على كثير من بلدان حملة الصليب وحصونهم مثل قَيْسارية وصَفد والرملة ويافا وأنطاكية مزيلا منها مملكتهم ، ولم يدوِّن ابن تغرى بردى شيئا من شعر الشهاب محمود فى هذه الفتوح الضخمة . ويسير السلطان قلاوون سيرة الظاهر فى منازلة المصليبيين ، ويستولى على طرابلس مملكتهم الثالثة التى أسسوها بعد مملكة بيت المقدس ، وبذلك تكون جميع ممالكهم التى شادوها سقطت من قواعدها ولم يبق فى أيديهم إلا عكا وصور وصيداء

(١) تقله : تحمله

(٢) جفن السيف : غمده . الصوارم جمع صارم

وبيروت وبعض حصون قليلة ، ولم يلبث قلاوون أن استولى منهم على حصن المرقب ، ومجَّد فتوحه الشهاب محمود قائلا .

اللهُ أكبرُ هذا النَّصرُ والظَّفَرْ هذا هو الفتح لاماتزعم السِّيَرْ
هذا الذى كانت الآمال إن طمحتْ إلى الكواكب ترجوه وتنتظر
فانْهَضْ وسِرْ واملك الدنيا فقد تَحلَّتْ شوقا منابرُها وارتاحتِ السُّرر[1]
إن لم يُوفِّ الوَرى بالشكر مافتحتْ يداك فاللهُ والأملاك قد شكروا

وخلف قلاوون ابنه « السلطان الأشرف خليل » ، وكان بطلا شجاعا مقداما وكان مخوف السطوة قوى البطش ، وبمجرد أن استهلت سنة ٦٩٠ بعد جلوسه على عرش السلطنة بقليل تأهب لحصار عكا ، فجمع الصناع لعمل آلات الحصار وخرج بعساكره من الديار المصرية حتى أحاط بعكا فى شهر ربيع الآخر ، وكان المتطوعون أكثر من الجند ونصب عليها المجانيق ، ولم يلبث أن زحف عليها بجيشه الجرار ودخلها بعد قتال عنيف . وطلب حملة الصليب البحر المتوسط فتبعتهم الجنود الإسلامية تقتل وتأسر فلم ينج منهم إلا القليل . وعَصَى الداويَّة والإسْبتاريَّة فى أول الأمر معتصمين بأبراج عالية ، غير أنهم اضطروا إلى التسليم ، ومن غريب الصدف أنَّ فتحها تم فى السابع عشر من جمادى الأولى سنة ٦٩٠ بالساعة الثالثة من النهار فى نفس الموعد الذى كانت قد سقطت فيه بيد حملة الصليب سنة ٥٨٩ . وفى هذا الفتح المبين ينشد الشهاب محمود قصيدة بديعة مهنئا « الأشرف خليل » مفتتحها لها بقوله :

الحمد لله ذَلَّتْ دولةُ الصُّلُبِ وعزَّ بالترك دينُ المصطفى العربى
هذا الذى كانت الآمالُ لو طلبتْ رُؤياه فى النوم لاستحيتْ من الطلب
مابعد عَكَّا وقد هُدَّت قواعدُها فى البحر للشرك عند البرِّ من أَربِ[2]
لم يَبْقَ من بعدها للكفر مذ خَرِبَتْ فى البحر والبر مايُنْجى سوى الهرب
يايومَ عكا لقد أنسيتَ ماسبقتْ به الفتوحُ وما قد خُطَّ فى الكتب
بُشْراك يا ملكَ الدنيا لقد شرفتْ بك المالكُ واستعلتْ على الرُّتب

وتفتح أبوابها مدينة صور لجند السلطان ويسلمها إليهم حملة الصليب وتليها مدينة صيداء

(١) السرر : جمع سرير : العرش

(٢) أرب : مطلب وأمنية

وقلعة جُبَيْل وعثليث وأنْطرطوس وبيروت . ويدور العام ويستولى الأشرف على بقية حصونهم ويمد فتوحه إلى الشرق ويستولى على قلعة الروم غربى الفرات ، ويهنئه الشهاب محمود بهذا النصر المتوالى قائلا من مدحة طويلة .

وفتحٌ بَدَا فى إثْر فتحٍ كأنما ... سماءٌ بدتْ تَتْرى كواكبُها الزُّهْرُ

وعلى هذا النحو سجَّل الشهاب محمود فتوحات السلاطين الثلاثة : الظاهر بيبرس وقلاوون وخليل تسجيلا رائعا . وله وراء هذه المدائح الحماسية مدائح نبوية جمعها فى ديوان سماه : « أهنا المنائح فى أسنى المدائح » وهو مفقود ، وسننشد له قطعا فى حديثنا عن شعراء التصوف والمديح النبوى .

منجك[1] بن محمد بن منجك

شركسى دمشقى نشأ فى بيت نعمة ، فكان أميرا ابن أمير . ولد سنة سبع بعد الألف للهجرة وتوفى سنة ١٠٨٠ ونشأ مثل لداته الدمشقيين يعنىَ بالعلم والتعليم ، فحفظ صغيرا القرآن الكريم ، حتى إذا شبَّ عن الطوق أخذ يختلف إلى علماء دمشق ، آخذا القراءات على الشيخ عبد الرحمن العمادى والحديث النبوى عن الشيخ الشهاب أحمد الوفائى ، وأبى العباس المقرى . أما الأدب الذى شُغف به منذ نشأته فقد أخذه عن أحمد بن شاهين . وكان كريما مسرفا مبالغا فى إسرافه ، فأنفق ماخلَّفه له أبوه ، حتى إذا تَرِبَتْ يداه وضاقت به دنياه ولَّى وجهه نحو إستانبول ، ولكنه لم يحقق فيها ماكان يأمله فعاد إلى دمشق ، ولم يلبث أن خالط أصدقاءه القدماء . وله ديوان شعر جمعه فضل الله المحبى والد صاحب خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر بأمر من مفتى الدولة العثمانية : حسام زاده ، وله فيه مدائح كثيرة . وديوانه يحمل كثيرا من المدائح والغزليات والخمريات ، وأكثر مدائحه فى الفقها والعلماء من شيوخه وغير شيوخه ، وفى مقدمة من مدحهم شيخه فى القراءات عبد الرحمن مفتى دمشق وفيه يقول :

تَنْدَى أناملُه ويُشرقُ وَجهُهُ ... فيجودُ بالآلاء واللألاء
يقظٌ لأعقاب الأمور كأنما ... جُلِيَتْ عليه حقائقُ الأشياء

(١) انظر فى منجك ريحانة الألبا طبعة عيسى الحلبى ٢٣٢/١ وخلاصة الأثر ٤٠٩/٤ ونفحة الريحانة ، وقد طبعت المطبعة الحنفية بدمشق مختارات من ديوانه باسم ديوان منجك .

ومهابةٌ سادَ الولاةَ ولاؤها محفوفـــةٌ بجلالـــةٍ وبهاء
وشمائلٌ رقَّتْ كما خطرتْ على زَهْرِ الربيع بواكرُ الأنداء

والصياغة رصينة جزلة ، والألفاظ مختارة منتخبة . والمعانى مكررة فى المديح التقليدى ، غير أن الشاعر يحاول أن يخرجها إخراجا طريفًا على نحو مايتضح فى البيت الأول الذى جمع فيه بين الكرم والبشر المترقرق فى وجه الممدوح ، وبذلك جعله يجود بالآلاء والنعم كما يجود بلألاء الوجه وإشراقه ومايجرى فيه من بشر بهيج . والجناس بين الآلاء واللألاء جناس بديع . وواضح كيف لاءم فى البيت الثانى بين معناه وبين الممدوح وكان مفتيا لدمشق ، فوصفه بالفطنة ودقة الحدس ، وبالمثل البيت الثالث وماجمع فيه بين المهابة والجلالة والبهاء مع حسن الصياغة . وقل ذلك نفسه فى البيت الرابع فشمائل المفتى رقيقة عطرة كزهر الربيع باكرته النسائم والأنداء .

ولىَ القضاء فى دمشق والشام حسام زاده قبل توليه منصب الإفتاء فى الدولة العثمانية وعم فضله وبرُّه أدباءها ، وله ألف البديعى كتابيه : « هبة الأيام فيما يتعلق بأبى تمام » و « الصبح المنبى فى الكشف عن حيثية المتنبى » ويقول منجك فى تهنئة له بالعيد :

آلى الزمانُ عليه أن يُوَاليكا يُثْنِى عليك ولا يأْتى بثانيكا
إذا سَطا فبأحكامٍ تنفِّذها وإن سَخَا فبِفَضْلٍ من مساعيكا
من ذا يُضاهيك فيما حُزْتَ من شرفٍ ومَنْ يُدانيك فى حِلْمٍ ويَحْكيكا
أعيادُنا كلُّها يومٌ نراك به وليلةُ القَدْرِ وَقْتٌ من لياليكا

والملاءمة بين معانى الأبيات ومنصب المفتى – وكان حينئذ قاضيا بدمشق – واضحة ، والمبالغة واضحة فى البيت الأول ، ولكن الشاعر خففها بالجناس بين « يثنى وثانيكا » وعاد إليها بقوة فى البيت الأخير ، وكان يكفيه أن تكون أيام لقائه للقاضى أعيادا ، ولكنه أبى إلا المبالغة المسرفة إذ جعل ليلة القدر وقبول الدعاء بها ممن يحظون برؤيتها وقتٌ من ليالى الشيخ . ولاريب فى أن صياغته ناصعة ، وأنه يغلب على شعره السلاسة ، مع مايوشيه به من جناس وطباق كما فى البيت الثانى . ودائما محسنات البديع عنده مقبولة ، وقلما يمازجها الثقل والتكلف . وله مدحة فى أستاذه المقرى – وهو صاحب نفح الطيب – ويذكر أنه قرأ عليه كتاب « الشفا » وهو فى مدح المصطفى سيد المرسلين ، وتموج المدحة بإجلاله لعلمه وتقواه ، يقول :

يقضى النهارَ بآراءٍ مسدَّدةٍ ويَقْطع الليلَ تسبيحًا وقرآنا

وتلقانا وراء مدائحه فى الديوان وعند من ترجموا له ألغاز ، ومعروف أن الشعراء كانوا قد أخذوا يتلاعبون بها منذ القرن الخامس الهجرى ، وكثرت زمن المماليك والعثمانيين . وله غزليات وخمريات بديعة ، سنذكر منها بعض أبيات فى غير هذا الموضع .

٥

شعراء الفلسفة والحكمة

تشيع الحكمة فى الشعر العربى منذ العصر الجاهلى على نحو مانجد عند زهير ، فقد ضمن معلقته طائفة كبيرة من الحكم ، وكأنهم أرادوا أن يصوروا لمعاصريهم خبرتهم بالحياة وإدراكهم لتجاربها حتى ينتفعوا بذلك أكبر نفع فى فهم شئون الدنيا وشئون الناس وأحوالهم فى سلوكهم . ومضى الشعراء بعد العصر الجاهلى يحاكون الجاهليين فى تغذية أشعارهم بتلك الحكم ، حتى إذا كان العصر العباسى أخذ الشعراء يضيفون إلى تراثهم من الحكم عتادا جديدا من حكمة الفرس والهنود واليونان ، وأخذ النابهون منهم يعتمدون على عقولهم الخصبة فى استخلاص الحكم من خبراتهم بأحوال الدنيا والناس ، حتى ليبلغ بعضهم من ذلك أن تُحْصَى حكمه بالعشرات ، بل أحيانا بالمئات على نحو ماعرف عن أبى تمام الشاعر الدمشقى ، فقد أحصى بعض البلاغيين حكمه فوجدها ثلاثمائة وأربعة وخمسين بيتا سوى تسعين شطرا . وعاش المتنبى أكثر سنوات عمره فى الشام وبواديها وقد بلغ الذروة فى تضمين مدائحه حكما رائعة ، وأحصاها البلاغيون ، فوجدوها أربعمائة ، سوى مائة وثلاثة وسبعين شطرا . ولكثرة مايتناثر فى شعره من حكم أفردها بعض الأسلاف بالتأليف ، وحاول بعض النقاد الوصل بينها وبين حكم أرسطو ، وهى مبالغة مفرطة فى التصور إذ أكثر حكمه من ثمار خبراته بالحياة خبرة فذة . وظل شعراء الشام يستظهرون – بعد المتنبى وأبى تمام – الحكم فى جوانب من أشعارهم ، ولم تلبث الشام أن أهدت إلى الشعر العربى حكيما وفيلسوفا كبيرا ، هو أبو العلاء المتوفى سنة ٤٤٩ وسنترجم له عما قليل .

وكان الطُّغْرائى قد لمع اسمه بنظمه لامية العجم ، وقد صاغها جميعا حكما وأمثالا على طريقة مزدوجة أبى العتاهية التى سماها ذات الأمثال ، والتى ضمنها أربعة آلاف مَثَل . ولامية الطغرائى لاتبلغ مبلغها فى حشد آلاف من الأمثال ، وليست من بحر الرجز وإنما هى من البسيط على شاكلة نونية البُسْتى المشهورة . وقد أصبح تقليدا عند كثير من شعراء الشام وغيرهم أن يخصوا بعض

قصائدهم برصَفْ طائفة من الأمثال والحكم ، ولابن منير الطرابلسى قصيدة من هذا الطراز يقول فيها[١] :

وإذا الكريمُ رأى الخمولَ نزيلَهُ ... فى منزلٍ فالحزمُ أن يترحلا
كالبدر لما أن تضاءلَ جَدَّ فى ... طلب الكمال فحازه متنقِّلا
سَفَهًا لحلمك أنْ رضيتَ بمَشْرَبٍ ... رَنْقٍ ورزقُ الله قد ملأ المَلا
فارقْ تُرَقْ كالسيف سُلَّ فبان فى ... مَتْنَيْه ماأخفى القِرابُ وأخملا
للقَفْر لا للفقر هَبْها إنما ... مَغْناك ماأغناك أن تتوسَّلا

وهى أمثال وحكم يراد بها النصح لسلوك الشخص الكريم على نفسه فى الحياة . فلا يرضى بمنزل هون ، بل يرحل ويتنقل ، فكمال البدر وعز الشخص فى تنقله . ويزجر من يرضى المشرب الكدر ورزق الله قد طبق الملأ والأرض وملأها بالطيبات ، وهل يقطع السيف إلا بعد أن يُسَلَّ من قرابه أوغمده ، وعار مابعده عار أن يتضرع الشخص ويتذلل لإنسان مثله ، ولأن يركب القفرَ المجدب الخرابَ خيرٌ من أن يقف بباب .

ودائما تلقانا هذه الحكم فى تضاعيف قصائد الشعراء ومقطوعاتهم ، وفى كتاب طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة منها طائفة جرت على ألسنة أطباء الشام ، ويلقانا منها أيضا منثورات فى كتب التاريخ كقول الشيخ شمس الدين الحمصى[٢] :

الدهرُ كالطيف بُؤْساه وأنْعمُهُ ... عن غير قَصْدٍ فلا تَحْمد ولاتَلُمِ
لاتسألِ الدهرَ فى البأساء يَكْشفها ... فلو سألتَ دوامَ البؤس لم يدم

فكل شىء حائل وزائل ولادوام لضر أو نفع ولالبؤس أونعيم ، ولادخل لدهر فى شىء من ذلك ، ولايأس مع رحمة الله فلا بؤس يدوم ولاضر يدوم . وربما كانت أروع قصيدة من قصائد هذه الامثال والحكم فى العصر المملوكى قصيدة عمر بن الوردى المتوفى سنة ٧٤٩ للهجرة وهى فى أكثر من سبعين بيتا . وفيها يقول[٣] :

(١) ابن خلكان ١٥٦/١

(٢) النجوم الزاهرة ٣٤٥/٧

(٣) الكشكول لبهاء الدين العاملى (طبعة عيسى البابى الحلبى) ٣٠٦/١

اعتزلْ ذكرَ الأغانى والغزلْ ... وقُلِ الفَصْلَ وجانبْ مَنْ هزَلْ
واتَّقِ اللهَ فتَقْوى الله ما ... مازجتْ قلبَ امرئْ إلا وَصَلْ
قاطعِ الدنيا فمن عاداتها ... تخفض العالى وتُعلى مَنْ سَفَلْ
لاتَقُلْ أصلى وفَصْلى أبدا ... إنما أصلُ الفتى ماقد حَصَلْ
مِلْ عن النمَّام واهْجُرْهُ فما ... بلَّغ المكروه إلا مَن نَقَلْ

والقصيدة جميعها على هذه الشاكلة حكم وأمثال ونصائح غالية وكأنها أعلام تهدى الإنسان فى سلوكه الطريق القويم . ويظل الشعراء بعد ابن الوردى ينظمون مثل هذه الحكم أيام المماليك وأيضا أيام العثمانيين ، إذ نقرأ لبعض الشعراء حكما وأمثالا منثورة فى أشعارهم وتراجمهم ، كقول حسين بن أحمد الجزرى الحلبى المتوفى سنة ١٠٣٤ للهجرة(١) :

حاذِرْ عِداك الأقربين من الوَرَى ... فأضرُّها القُرَباءُ والقُرَناءُ
وتوقَّ من كيْد الحقود ولينِ ما ... يُبْدى فقد يُصدى الحسامَ الماءُ

ويذكر ابن معصوم لشاعر يسمى نجيب الدين على بن محمد العاملى رحلة أودعها أشعارا على طريقة ديوان الصادح والباغم لابن الهَّبارية ومافيه من حكم ومعان خلقية تهذيبية ، ويسوق ابن معصوم طائفة من حكمه كقوله(٢) :

المرء لايسلم من حاسدٍ ... أوشامتٍ فى اليُسْر والعُسْرِ

وتكثر الحكم أيضا فى كتاب نفحة الريحانة للمحبى ، وهى من قديم كثيرة فى الشعر العربى كما أسلفنا . وحرى بنا أن نقف قليلا عند أبى العلاء أكبر شعراء الحكمة والفلسفة لافى الشام وحدها بل فى العالم العربى جميعه . ونتلوه بكلمة عن منصور بن مسلم .

---

(١) ريحانة الألبا ١٢٢/١

(٢) سلافة العصر لابن معصوم ص ٣١٠

أبو العلاء[1] المعرّى

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان التّنوخى ، ولد فى ربيع الأول سنة ٣٦٣ للهجرة فى بلدة تسمى « مَعرَّة النعمان » من أعمال حمص بين حلبَ وحماة ، وإليها ينسب ، واشتهر بكنيته « أبى العلاء » وفى ذلك يقول :

دُعيتُ أبا العلاء وذاك مَيْنٌ ولكنَّ الصحيحَ أبو النُّزولِ

وأسرته تنحدر من قبيلة تَنوخ إحدى القبائل العربية الجنوبية ، وما إن بلغ الرابعة من عمره حتى اعتلَّ علة الجدرى وذهب فيها بصره ، وكان يقول : « لاأعرف من الألوان إلا اللون الأحمر لأنى أُلبستُ فى الجُدَرىّ ثوبا مصبوغا بالعُصْفُر ، لاأعقل غير ذلك » . وكان بيته بيت قضاء وعلم وشعر ، إذ ظل قضاء المعرة طويلا فيهم ، وألم بهم ياقوت فى ترجمته له بمعجم الأدباء وذكر لهم طرائف من أشعارهم . وطبيعى أن يقتدى بهم فيُكبَّ بعد حفظه القرآن على كتب الدين الحنيف واللغة . وأيضا فإن فقده لبصره مبكرا جعله يُعْنَى بطلب العلم . وتتلمذ على أبيه أولا ومَنْ فى بلدته من تلامذة ابن خالويه ، ولم يلبث حين أخذ ماعندهم جميعا أن رحل إلى حلب وحضر على علمائها وعاد منها وهو فى نحو العشرين من عمره سنة ٣٨٤ . وحين بلغ الثلاثين من عمره سأل ربه إنعاما ، ورزقه صوم الدهر ، فلم يفطر فى السنة والشهر إلا فى العيدين .

ورحل إلى بغداد فى أواخر سنة ٣٩٨ وبقى بها نحو سنة وسبعة أشهر ، وكان من أسباب عودته منها سريعا نشوب خصومة بينه وبين المرتضى العلوى أخى الشريف الرضى بسبب تعصبه للمتنبى ، وأيضا كان قد وصله خبر بمرض أمه ، فعاد عجلا ، ووجدها قد لَبَّت نداء ربها . وأخذ نفسه منذ

(١) انظر فى ترجمة أبى العلاء وشعره معجم الادباء ٣/١٠٨ وتعريف القدماء بأبى العلاء (طبع دار الكتب المصرية) وفيه كل ما كتب عنه تقريبا فى المراجع القديمة ومن أهمه رسالة الإنصاف والتحرى فى دفع الظلم والتجرى عن أبى العلاء المعرى لابن العديم الحلبى وهى دفاع قوى عنه ونفى لما قيل من إلحاده . وانظر فيه كتاب تجديد ذكرى أبى العلاء لطه حسين (طبع دار المعارف) وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان (طبع دار المعارف ٥/٣٥ وكتبنا : كتاب الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (الطبعة العاشرة) ص ٣٧٦ والفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ٢٦٥ وفصول فى الشعر ونقده ص ١٠٧ وترجمته فى دائرة المعارف الإسلامية ومطالعات لعباس محمود العقاد ص ٧٠ وأبو العلاء المعرى للدكتورة عائشة عبدالرحمن ومقلمتها لتحقيقها لرسالة الغفران . وطبع له سقط الزند بشروح مختلفة واللزوميات ورسالة الغفران والصاهل والشاحج ورسائله بتحقيق الدكتور عبد الكريم خليفة وكذلك بتحقيق الدكتور إحسان عباس . وانظر الحضارة الإسلامية لميتز ٢/١١٠ .

هذا التاريخ فى سنة ٤٠٠ بحياة زاهدة خشنة ملازما داره وبلدته لايبرحها ، وإلى ذلك يشير بقوله :

أرانى فى الثلاثة من سجونى   فلا تسألْ عنِ الخبرِ النَّبيثِ (١)
لفقدى ناظرى ولزومِ بَيْتى   وكَوْنِ النفسِ فى الجسمِ الخبيثِ

ثلاثة سجون أحاطت قضبانها به : سجن روحه فى جسده وسجن داره وسجن فقده لبصره ، وظل يفرغ نحو خمسين عاما لنظم زومياته ولتأليف كتبه الكبرى ، ومر بنا أن حلب تبعت مصر منذ سنة ٤٠٧ إلى سنة ٤١٥ وكان أول ولاتها للحاكم بأمر الله الفاطمى عزيز الدولة فاتك الوحيدى وله ألف أبو العلاء كتاب الصاهل والشاحج متحدثا فيه على لسان فرس وبغل ، وقد حققته الدكتورة عائشة عبد الرحمن ونشرته دار المعارف ، ويقول ابن العديم إنه ألفه لفاتك بسبب حق على بعض أقربائه . وله أيضا صنع كتابه « القائف » وهو أمثال على طريقة كليلة ودمنة ، ولم يكد يتم الجزء الرابع منه حتى توفى فاتك سنة ٤١٣ فعدل عن إتمامه . وولى حلب بعد فاتك سَنَد الدولة الكُتامى سنة ٤١٤ وقدَّم له أبو العلاء الرسالة السَّنَدية فى مجلد واحد .

واعتقل صالح بن مرداس أمير حلب فى سنة ٤١٨ سبعين رجلا من المعرَّة هم مشايخها وأماثلها ، واجتاز صالح بالمعرة ، فخرج إليه أبو العلاء شافعا فيهم فقال له صالح : « قد وهبتهم لك أيها الشيخ » . وعاد إلى داره وهو ينشد :

بُعثتُ شفيعا إلى صالحٍ   وذاك من القوم رأىٌ فَسَدْ
فيسمع منِّىَ سَجْعَ الحمامِ   وأسمع منه زئيرَ الأسَد

ومنذ حبس نفسه فى داره أصبح ملاذًا لطلاب العلم فى العالم العربى ، فهم يغدون عليه ويروحون يأخذون عنه كتبه وشروحها ، وبالمثل دواوينه وشروحها ، وكثيرا من كتب اللغة وفى مقدمتها كتاب غريب الحديث لأبى عبيد القاسم بن سلام غير كتب لغوية أخرى كثيرة . ويقول ابن فضل الله العمرى : « أخذ عن أبى العلاء خلق لايعلمهم إلا الله عز وجل ، كلهم قضاة وأئمة وخطباء وأهل تبحُّر وديانات .. وكان له أربعة من الكتَّاب المجوِّدين يكتبون عنه مايكتبه إلى الناس ومايمليه من النظم والنثر والتصانيف والإجازات والسماع لمن يسمع منه ويستجيزه » . وعقد ابن العديم فى كتابه عنه المسمى « الإنصاف والتحرى » فصلا ذكر فيه مشاهير تلاميذه .

(١) النبيث : الخفى .

وكان أبو العلاء آية خارقة فى الذكاء وقوة الحافظة حتى قالوا إنه كان يلعب النرد والشطرنج ، وإذا سمع حديثا بلغة غير العربية حفظه بحذافيره ، وقد تحول يعبُّ وينهل من ثقافات عصره حتى استوعبها جميعا سواء المترجم عن اليونانية من فلسفة وغير فلسفة ، أو المترجم عن الفارسية والهندية فكل ذلك مضافا إلى الثقافتين : الإسلامية والعربية تمثّله أبو العلاء تمثلا حيًّا خصبا ، يرفعه إلى أعلى منزلة ، يتمثّل صاحبها التراث الإنسانى جميعه .

ومنذ سنّ الثلاثين اختار لنفسه صوم الدهر ماعدا أيام الأعياد كما أسلفنا ، واختار لنفسه معه حياة زاهدة ، وذكر ذلك فى شعره إذ قال إن طعامه العدس والتين أو كما يسميهما البلسن والبلس رافضًا ماوراءهما من طيبات الطعام ولذائذه ، إذ يقول :

يقنعنى بُلْسُنُ يُمارَسُ لى   فإن أتتنى حلاوةٌ فبَلَسْ

ويقول ناصر خسرو فى رحلته المسماة « سفرنامه » إنه زاره سنة ٤٣٨ فوجده فى سعة من العيش مما جعل بروكلمان يشك فى أنه عاش معيشة زاهدة . وهو قول مدفوع بإجماع من ترجموا له من القدماء : أنه كان يعيش معيشة زهد وتقشف ، حتى لنرى القفطى – وهو أحد من تحاملوا عليه ورموه بالإلحاد – يقول : لم يكن أبو العلاء من ذوى الأموال ، وإنما خلّف له وقف يشاركه فيه غيره من قومه ، وكانت له نفس تشرف عن تحمل المِنَن ، فمشى حاله على قدر الموجود ، فاقتضى ذاك خشِن الملبوس والمأكل والزهدَ فى ملاذ الدنيا ، وكان الذى يحصل له فى السنة مقدار ثلاثين دينارا قدَّر منها لمن يخدمه النِّصف ، وأبقى النصف الآخر لمئونته ، فكان أكله العدس – إذا أكل – مطبوخا وحلاوته التين ، ولباسه خشن الثياب من القطن وفرشه من لباد (صوف) فى الشتاء وحصيرة من البَرْدِىّ فى الصيف ، وتَركَ ما سوى ذلك » . وربما كان هذا الدخل القليل من أسباب تركه لأكل اللحم ومستخرجاته من البيض واللبن ، لا أخذًا بمذاهب الحكماء ولااتباعا لمذهب البراهمة الهندى ، كما قيل ، بل لضيق ذات يده وإشفاقا على الحيوان ، ولعله صنع ذلك مبالغة فى الزهد ورفض طيبات الحياة .

وكان أبو العلاء يحسّ بعمق آلام الإنسان فى دُنْياه ، ولعل ذلك ماجعله يعزف عن الزواج حتى لايرزق بولد يكابد من دنياه ماكابده وصرَّح بذلك قائلا :

هذا جناهُ أبى علـــــىّ وما جنيتُ على أحَدْ

ويقال إنه أوصى بكتابة هذا البيت على قبره حين أوشك على مفارقة الدنيا فى سنة ٤٤٩ . وله

رسائل كثيرة جمع منها أخيرا الدكتور عبد الكريم خليفة رئيس مجمع اللغة العربية الأردنى نحو أربعين رسالة ، ونشرها فى ثلاث مجموعات ، بدأها بالرسالة المنيحية التى أرسل بها إلى الوزير البغدادى أبى القاسم المغربى وتلاها بالرسالة الإغريضية المرسلة إلى الوزير نفسه . ويبدو أنه أرسل بالرسالتين إليه بعد فراره لعهد الحاكم بأمر الله من مصر ، وسنعرض لهذه الرسائل فى غير هذا الموضع . ولأبى العلاء أيضا رسالة الملائكة وهى فى مسائل التصريف ، طُبعت قديما بالقاهرة . ورسالة الغفران له مشهورة ، وسنلم بها وبكتابه الفصول والغايات فى حديثنا عن النثر . وله « ملقى السبيل » فى الوعظ والزهد ، وهو فيه يصوغ المعنى نثرا ثم يصوغه شعرا . وله ديوان صغير سماه الدِّرعيات وهو أشعار فى وصف الدروع ، وقد طُبع ملحقا بديوانه الكبير سَقْط الزَّنْد .

ونقف قليلا لنتحدث عن السقط ثم عن ديوانه الكبير الثانى اللزوميات ، والسَّقط أول مايخرج من نار الزند وشَرَره ، سمى أبو العلاء ديوانه الأول بهذا الاسم إشارة إلى أنه أول مانظم وسمح به خاطره فشبهه بالسقْط . وهو يجمع شعر الصبا ومنه قصيدة نظمها فى رثاء أبيه وهو فى الرابعة عشرة من عمره وشعر الشباب وبعض شعر له فى الكهولة ومنه قصيدة نظمها فى رثاء أمه وأخرى أرسل بها شاكرا مثنيًا إلى خازن دار العلم ببغداد . وشرح أبو العلاء هذا الديوان وسمىّ شرحه « ضوء السقط » وقد طُبع فى مصر قديما . وطَبعتْ دار الكتب المصرية الديوان ومعه ثلاثة شروح : شرح لتلميذه التبريزى وشرح لأبى محمد البطليوسى الأندلسى وشرح لأبى الفضل قاسم الخوارزمى ، وهو فى خمس مجلدات كبيرة . والديوان يكتظ بالمديح والرثاء والفخر والنسيب والوصف وأكثره فى المديح ، وجمهوره فى مديح أشخاص خياليين ، وذكر ذلك فى مقدمته قائلا « لم أطرق مسامع الرؤساء بالنشيد ولامدحت طلبا للثواب وإنما كان ذلك على معنى الرياضة وامتحان السُّوس (الطبع) فالحمد لله الذى ستربغُفَّة (بُلْغَةٍ) من قوام العيش » . ونفس ممدوحيه القليلين لم يوجِّه إليهم مديحه – كما قال – طلبا للثواب أو النوال وإنما هم بعض أصدقائه كتبوا إليه فرأى أن يحييهم شعرا ، وربما مدحهم شاكرا صنيعا لهم على نحو ماذكرنا من ثنائه على خازن دار العلم ببغداد واصفا عونه الحميد له فى أثناء تردده على تلك الدار ومكتبتها الكبرى المشهورة . وطبيعى أن يخلو هذا الديوان من الهجاء والخمريات ووصف الصيد . وهو فى الديوان – بعامة – يحاكى المتنبى ، وكان يرفعه فوق جميع الشعراء ، وشرَح ديوانه وسمَّاه معجز أحمد بينما سَمَّى شرحه لديوان أبى تمام : « ذكرى حبيب » وشرحه لديوان البحترى « عبث الوليد » ويفجؤنا فى الديوان فخر عنيف على نحو مانقرأ فى قصيدته :

ألا فى سبيل المجد ماأنا فاعل عفافٌ وإقدامٌ وحزمٌ ونائلُ
وإنى وإن كنت الأخيرَ زمانُه لآتٍ بما لم تستطعه الأوائلُ

وهذا الصوت القوى المفاخر المباهى بالمجد والعبقرية يكاد يختفى بعد ذلك من الديوان ، إذ يعود أبو العلاء إلى صوته الحقيق : صوت اليأس من الناس والحياة والمعرفة بالدهر وتصاريف أيامه ولياليه . وهو يذكر الليل وظلمته كثيرا ، ولعل ذلك بسبب فقده لبصره ، وأيضا بسبب تشاؤمه وماحمل من أثقال الدنيا دون أن يجد معينا . وقد شكا كثيرا من أنه لايجد فى الدنيا صديقا ولاأخا يُصْفيه الوداد ، مع كثرة بغضه للانفراد ، حتى ليقول :

ولو أنّى حُبيتُ الخُلْدَ فَرْدًا لما أحببتُ بالخُلْد انفرادا
فلا هطلتْ عَلىَّ ولا بأرضى سحائبُ ليس تنتظمُ البلادا

ويبالغ أبو العلاء فى سوء ظنه بالناس فى نفس هذه القصيدة الدالية ، فيقول إن الجوزاء منزل عُطارد المنسوب إليه السِّلْم لو خبرت الناسَ خبرته وبلاءه وجرَّبتْ من كيدهم ماجرَّب وعرفت من خُبْث سرائرهم ما عرف لما طلعت عليهم ليلا ولاتراءت لهم مخافة أن يصل إليها كيد من كيدهم ، يقول :

فظُنَّ بسائرِ الإخوان شرًّا ولا تأمنْ على سِرٍّ فُؤادا
فلو خبرتْهم الجَوْزاءُ خُبْرى لما طلعتْ مخافةَ أن تُكادا

ومضى يخفف حدة التشاؤم الأسود المعتم ببروق كثيرة من الفخر ، فكانه فى السؤدد فوق السموات السبع رفعة وعلاء ، وإنه ليفلُّ نوائب الأيام وكوارثها وحده بقوته ومَضائه .

وفى رأينا أن أروع قصائد أبى العلاء فى سقط الزند مراثيه لأنها تَفْصل من ذات نفسه ومن أهمها مرثيته لصديقه الفقيه .

غير مُجْدٍ فى مِلَّتى واعتقادى نوحُ باكٍ ولاترنُّمُ شادى
وشبيهٌ صوتُ النَّعىِّ إذا قيـ ـسَ بصوت البَشيرِ فى كل نادى

وواضح أنه يقول فى مطلعها إن البكاء الحزين كالغناء الفرح دلالتهما واحدة ، إذ سرعان ماتتحول البشارة بالمولود – مهما طالت حياته – صراخا عليه ، حتى لكأن الصوتين متشابهان أو مختلطان اختلاط شجو الحمامة فلا يدرى السامع أتبكى محزونة أم تغنى مبتهجة . ويمضى

أبو العلاء فى مثل هذه الأفكار العميقة طالبا من قارئه أن يخفف من وَطْء أقدامه على الأرض ، لأن ترابها من أديم آبائه وأجداده ، وكأن الأرض مقبرة كبرى ، وكم من لحدٍ فيها يضحك من تزاحم الأضداد فيه بين صالح وطالح . ولايلبث أن يقول إن الحياة كلها تعب وعناء وشقاء لاضفاف له ، وإن الحزن على الميت والفجيعة فيه لأضعاف السرور ساعة ميلاده . ولأبى العلاء مرثية ثانية يرثى بها صديقا من أبناء عمومته ، وهى تكتظ بالحكم من مثل قوله :

لو عرفَ الإنسانُ مقدارَهُ ... لم يَفْخَرِ المولى على عَبْدِهِ
أضْحَى الذى أُجِّلَ فى سِنِّهِ ... مثلَ الذى عُوجِل فى مَهْدِهِ
ولا يبالى المَيْتُ فى قبرِهِ ... بِـذمِّـه شُيِّع أم حَـمْـدِهِ
والواحدُ المُفْرَدُ فى حَتْفِهِ ... كالحاشد المكثرِ فى حَشْدِهِ
ورُبَّ ظـمـآنَ إلى مَـوْرِدٍ ... والموتُ لو يعلم فى وِرْدِهِ

وديوانه الثانى اللزوميات أو لزوم مالايلزم هو الأهم لأنه يحمل فلسفته أو تفكيره الفلسفى بجميع أسسه وشعبه ، وقد تكلف فيه – كما يقول فى مقدمته – ثلاث كلف : الأولى أنه ينتظم حروف المعجم جميعها ، والثانية أن رويَّه يجىء بالحركات الثلاث ثم بالسكون ، والثالثة أنه التزم مع كل روى فيه شيئا لايلزم من باء أوتاء أو غير ذلك من حروف . وقد أوضحنا فى كتابنا « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى أنه أضاف إلى هذه الكلف الثلاث كلفاً كان يشغل بها الفراغ الطويل الذى نظم فيه اللزوميات إذ امتد الى نحو خمسين عاما . ومن هذه الكلف الدائمةُ ومنها العارضةُ أما الدائمةُ فاستخدامه للفظ الغريب وللجناس وقد التمس فيه ضروبا من التعقيد ، كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع ، إذ يجانس تارة بين القافية وكلمة فى البيت وتارة ثانية بينها وبين أول كلمة فيه وقد يضيف إليها حرفا أو أكثر من الكلمة التالية ليستتم نسق الجناس . وبجانب هاتين الكلفتين الدائمتين فى اللزوميات نجد كلفا عارضة من تصنعه الواسع لألفاظ الثقافات المختلفة ، بحيث يُعَدُّ أول من وسَّع استعارة الشعراء لاصطلاحات العلوم والفنون فى أشعارهم .

ومع كل هذه الكلف والصعوبات التى ضيَّق بها الممرات إلى قوافى الديوان استطاع أن ينظم مجلدين ضخمين من الشعر ، ضمنهما فلسفته أو تفكيره الفلسفى المتشائم وهو تفكير شُغِل فيه بإنسان عصره والإنسان عامة وبالقضية التى طالما شغلت كبار المفكرين قضية الشر الذى يُصَب على الإنسان والحياة الإنسانية صَبًّا دون أن يعرف أسبابه ودون أن يستطيع له دفعا أو ردًّا . ويتسع به

التفكير فى شرور الحياة الإنسانية وآلامها ويستولى عليه تشاؤم لا أول له ولا آخر ، كما يستولى عليه يأس يثقل عليه ثقلا طويلا ويملأ نفسه شقاء وعناء . وإذا كانت الحياة على هذا النحو من الشر ففيم إذن تلقى الأبناء لها من آبائهم وفيم الزواج وهى شر متصل ، شر يؤذن دائما بالكوارث والخطوب وتلاحق الفواجع والنكبات ، ولا منقذ ولا مخلص :

وهل يأبقُ الإنسانُ من مُلْك رَبِّهِ ويخرجُ من أرضٍ له وسماء

إنه أسير شرور الحياة وهو لا يستطيع منها فكاكا ولا خلاصا ، وحريٌّ به أن لا يتخذ ولدا حتى لا يَرْمى به فى أتون هذه الشرور المهلكة . ولا تشغل أبا العلاء فى لزومياته الشرور الكبرى التى تقع دائما على عاتق الإنسان بل تشغله أيضا الشرور الصغرى التى تحيط بإنسان عصره ، وأى شرور ؟ شرور الحكم الفاسد لمصر والشام : حكم الفاطميين الذين أحاطهم دعاتهم بهالة قدسية ، حتى زعموا أن قدرة الله انتقلت إليهم ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، ولجوا فى نعتهم بصفات الله حتى آمنت طائفة فى زمن أبى العلاء بتجسد الألوهية فى الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمى .

وهذا البهتان فى العقيدة كان يروِّج له دعاتهم وخطباؤهم فى المساجد ، وفى رأينا أنهم المقصودون بحملة أبى العلاء على علماء الدين فى أيامه بمثل قوله :

نادتْ على الدين فى الآفاق طائفةٌ ياقومُ من يشترى دينًا بدينارِ
جَنَوْا كبائرَ آثامٍ وقد زعموا أنَّ الصغائرَ تجْنى الخُلْدَ فى النار

وهو يتهمهم بأنهم باعوا باتباعهم المذهب الفاطمى دينهم بثمن بخس دراهم معدودة . وكما حمل على علماء الدين المروِّجين للعقيدة الفاطمية حمل على الصوفية لقولهم بالحلول ، وسخِر كثيرا من ذكرهم وتواجدهم فيه ، وسماه رقصا ومن قوله فيهم :

تزيَّوْا بالتصوف عن خداعٍ فهل رُزْتِ الرجالَ أو اعتميتِ[١]
وقاموا فى تواجدهم فداروا كأنهمُ ثمالٌ من كُمَيْتِ[٢]

وهاجم الحكّام عامة الذين يرهقون الشعب بضرائب فادحة ، دون أن يؤدوا بها أى نفع له أو أى مصلحة ، وفى ذلك يقول :

---

(١) راز : اختبر ، اعتمى : اختار
(٢) الكميت : الخمر ، ثمال : سكارى .

وأرى ملوكًا لاتحوطُ رعيَّةً فعلامَ تُؤخَذُ جزيَةٌ ومكوسُ

ويقول فيهم :

ظلموا الرعيَّةَ واستجازوا كَيْدَها فعَدَوْا مصالحهَا وهمْ أُجَرَاؤُها

فهم أجراء عند الشعب يأخذون رواتبهم من كدّه ويعتصرونها من عرقه ، ومع ذلك يظلمونه ويبغون عليه ويكيدون له ويأتمرون به . ويتسع بحملته ، فيشمل بها الناس من حوله فلا أخ كما مر بنا ولا صديق ، وقد شاع الطمع والحقد والمكر والخديعة والخلق الزرىّ المشين . ولم ينس المرأة فى إعلان هذا السخط ، فقد وصفها بأنها لاتنصف فى الود ولاتفى للعهد ، ولم ينصح بتعلمها ، فحسبها فى رأيه – الغزل والنسيج والرَّدْن أو الحياكة :

علِّموهنَّ النَّسْجَ والغزل والرَّدْ نَ وخلّوا كتابةً وقراءه

وإنما دفعه إلى ذلك –فى رأينا – فساد المجتمع فى بعض جوانبه . وقد دفعه شعوره بالرحمة على الفقراء لزمنه والرأفة بهم أن دعا إلى المساواة بين الناس فى السرَّاء والضرَّاء ، يقول :

كيف لايَشْرَكُ المُضِيقين فى النعـ ـمة قومٌ عليهمُ النَّعْماءُ

وكل هذه جوانب تمس إنسان عصره وما كان يريد له من حياة كريمة ، وليس هذا هو الشطر الأكبر فى اللزوميات ، فقد أودعها كما مرَّ بنا آنفا كل ما شعر به من آلام الإنسان وأصابه وأوجاعه فى دنياه إزاء مايُصَبُّ عليه من شرورها وهمومها وأفاعيها التى تلدغه صباح مساء .

ويُشيع أبو العلاء فى أشعاره حيرة تتراءى ظلالها فى اللزوميات مما جعل بعض القدماء والمعاصرين يقولون إنه كان يشك فى كل شىء ويتخذ الشك عقيدة له – كما اتخذه السوفسطائيون – ويسلطه على ما حوله حتى على الديانات ، واستدلوا على ذلك بمثل قوله :

هفَتِ الحنيفةُ والنصارى مااهتدتْ ويهودُ حارتْ والمجوسُ مُضَلَّلَهْ
اثنانِ أهلُ الأرض ذو عقلٍ بلا دينٍ وآخرُ دَيِّنٌ لاعَقْلَ لَهْ

والبيتان فى هجاء أصحاب هذه الديانات لزمنه لا الديانات نفسها ، إذ توزعوا أيامه فرقا كثيرة ، وكل فرقة تكفِّر أختها فى داخل الدين الواحد ، وكان المذهب الإسماعيلى الفاطمى قائما فى مصر ويدعو له الحكام وعلماء الدين فى الشام . وطبيعى أن يعجب ممن يدعو لهذا المذهب المسرف

فى الغلو غلوًّا شديدًا ، بل المسرف فى الانحراف عن الإسلام انحرافا مفرطا . وقد استعرضنا فى مقالنا عن التفكير الفلسفى فى شعر أبى العلاء بكتابنا « فصول فى الشعر ونقده » الأشعار التى قالوا إنه هاجم بها الديانات ووصموه من أجلها بالإلحاد وأثبتنا أن بينها منحولا كثيرا انتحله عليه خصومه . ويبدو أن أيادى شريرة امتدت إلى اللزوميات قديما وأدخلت عليها فسادا غير قليل ، يدل على ذلك دلالة قاطعة أننا نقرأ فيها :

قد ترامتْ إلى الفساد البَرَايا ... واستوتْ فى الضلالةِ الأديانُ

والبيت على هذا النحو يلصق تهمة الالحاد بأبى العلاء ، إذ ينسب الضلالة إلى جميع الأديان ، غير أننا إذا رجعنا إلى كتاب شرح المختار من لزوميات أبى العلاء لابن السيد البطليوسى المتوفى سنة ٥٢١ هـ بعد أبى العلاء بسبعين عاما وجدناه ينشده على هذا النمط .

قد ترامتْ إلى الفساد البرَايا ... ونهتْنا – لو نَنْتَهى – الأديانُ

ورواية البطليوسى للبيت أوثق من رواية اللزوميات المطبوعة لأنها أقدم من مخطوطاتها التى اعتمدت عليها وأيضا من النسخ الخطية المحفوظة فى دار الكتب المصرية ، مما يدل بوضوح على أن تحريفات [١] مقصودة لبعض ذوى الأهواء الملحدين أدخلت على اللزميات من قديم . ومن المؤكد أنه أضيفت إليه بعض أشعار الزنادقة [٢] مثل ابن الراوندى. وقرأ بعض المعاصرين عنده أبياتا ظنوا منها أنه يؤمن بقدم المادة والزمان والكواكب وخلودها مخالفا بذلك رأى المتكلمين المسلمين فى حدوثها جميعا وأنها ليست قديمة فلا قديم سوى الله ، وهى فى واقع الأمر أبيات شُبِّهت عليهم من مثل قوله :

أرى زَمَنًا تقادم غَيْرَ فانٍ ... فسبحانَ المهيمنِ ذى الكمالِ

وقوله :

ياشُهْبُ إنك فى السماء قديمةٌ ... وأشرتِ للحكماء كلَّ مُشارِ

---

(١) أشار د . حامد عبد المجيد محقق شرح البطليوسى فى مقدمته إلى أن المحتارفيه من اللزوميات يصحح بعض ماحُرِّف من شعر أبى العلاء ووُضع عليه واستشهد على ذلك بالبيت المذكور .

(٢) انظر «أبو العلاء المعرى» للدكتورة عائشة عبد الرحمن ص ٢٣٤ وراجع معاهد التنصيص (طبعة بولاق) ص ٧١ وقارن بإنباه الرواة للقفطى ٧٥/١ .

وهو فى البيت الأول جعل الله مسيطرا على الزمان مشيرًا بذلك إلى أنه محدث من صنعه ، وكل ماهنالك أنه قال إن الزمان تقادم أى تعمق فى القدم ، وجعل الشهب فى البيت الثانى قديمة وهو لايقصد بالقدم فى البيتين ما يناقض الحدوث إنما يقصد مايناقض الحداثة بشهادة قوله :

وليس اعتقادى خلودَ النجومِ ولا مذهبى قِدَمَ العالمِ

فهو لا يقول بخلود الأفلاك والكواكب والمادة ولابقدمها كما كان يقول فلاسفة اليونان . وإنما دخل الخطأ على بعض الباحثين من فهمهم القدم فى مثل البيتين السالفين – كما قلنا – بأنه يعنى نقيض الحدوث وهو إنما يعنى نقيض الحداثة ، وقد بسطنا ذلك فى مقالنا عن أبى العلاء بكتابنا المذكور آنفا ، وأوضحنا أنه فى أشعاره مؤمن إيمانا عميقا بالديانات السماوية والدين الحنيف ورسالته السامية ، كما أوضحنا أن هذا الايمان أصل أساسى من أصول تفكيره الفلسفى العلائى ، وأنشدنا له طائفة من الأشعار التى تصور بوضوح إيمانه بالتكاليف الشرعية وبالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وكل مايتصل به من بعث ونشور من مثل قوله :

أقيم خَمْسى وصومَ الدهر آلفُهُ وأُدْمن الذكرَ أبكارًا بآصالِ

فهو صائم الدهر ، فَرَض على نفسه الصوم حين بلغ الثلاثين من عمره كما مر بنا ، وهو دائما يتجه إلى ربه مصليا الصلوات الخمس دون أى انقطاع واصلا صلاته بالصيام والدعاء والذكر والتبتل والاستغفار . ويعترف مرارا بالبعث والحساب وأن ملكين يكتبان عن يمينه وشماله حسناته وسيئاته ، يقول :

قد راعنى للحساب ذكرٌ وغـرَّنى أنـه بَـعـيـدُ
وعن يمينى وعن شمالى بصـحـبتى حافظٌ قَعِيدُ

وهو يستلهم فى البيتين قوله تعالى : (إذ يتلقَّى المتلقِّيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رَقيبٌ عتيد) . ويعترف بحساب القبر وسؤال الملكين منكر ونكير فيه للناس ، يقول مخاطبًا الليالى :

خلِّصينى من ضَنْكِ ما أنا فيهِ واطْرَحِينى لمُنْكَرٍ ونَكيرِ

ويشعر فى عمق بأنه مقصِّر مهما قدم لربه من عبادة ، ويأمل دائما فى عفوه ومغفرته يوم النشور ، يقول ضارعًا :

ومغفرةُ اللهِ مرجوَّةٌ إذا أصبحتْ أعظمى فى الرِّمَمْ
ويا ليتنى هامِدٌ لا أقومُ إذا نهضوا يَنْفُضون اللِّمَمْ
ونادَى المنادى على غَفْلةٍ فلم يَبْقَ فى أذُنٍ من صَمَمْ
وجاءتْ صحائفُ قد ضُمِّنَتْ كبائرَ آثامِهم واللَّمَمْ (١)
وليتَ العقوبةَ تَحْرِيقةٌ فصاروا رمادا بها أو حُمَمْ (٢)

فهو آمل فى غفران الله . ومع حياته الزاهدة الناسكة يخاف لقاء ربه حتى ليتمنى أن لايبعث يوم القيامة (يوم يُنادِ المُنادِ من مكان قريب) كما جاء فى سورة قٓ ، فيهبُّ الناس من رقادهم . ويقول أبو العلاء إنهم يسمعون النداء أو الصيحة بآذانهم ، ويستلهم مثل قوله تعالى : (وكلَّ إنسانٍ ألزمناه طائرَه فى عُنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا) . ومايلبث أن يقول ليت العقاب يوم القيامة كان تحريقا يصبح العصاة به رمادًا أو حمما فيستريحون ، ولكنه عذاب خالد ، وقد تكرر ذلك فى القرآن كثيرا مثل : (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) .

ولعل فى ذلك مايسقط كل ما قاله عنه بروكلمان فى ترجمته له من أنه كان لايعترف برسالة الإسلام وأيضا ماقاله بعض المعاصرين عنه من أنه كان منكرا للنبوات جاحدًا بالرسالة المحمدية ، وكيف يقال عنه إنه كان يجحدها ، وله قصيدة رائعة فى مديح الرسول صلى الله عليه وسلم ختمها بقوله بعد إشادة رائعة به وبرسالته النبوية :

فصلَّى عليه اللهُ ماذرَّ شارقٌ وما فَتَّ مسكًا ذِكْرُه فى المحافلِ

واقترن ذلك عنده – كما مر بنا – بالزهد والتقشف وهو فيهما يصدر عن الإسلام وروحه ، وحقا كان متشائما تشاؤما عميقا يملأ حنايا نفسه ، ولكن كان لايزال يومض له بريق الأمل فى رحمة ربه وعفوه ، يقول :

وما أنا يائسٌ من عَفْوِ ربِّى على ماكان من عَمْدٍ وسَهْوِ

وذهب بعض المعاصرين إلى أنه اتخذ العقل إماما له ، لايثق ولايستسلم ولايلقى مقاليده إلا إليه ، لمثل قوله :

كذَبَ الظنُّ لاإمامَ سوى العَقْـ ـلِ مشيرًا فى صُبْحِهِ والمساءِ

(١) اللمم : الذنوب الصغيرة (٢) الحمم : ما أحرق من خشب وغيره

وظنوا أن فى ذلك مايتصل من بعض الوجوه لإنكاره – فى رأيهم للنبوات ، وفاتهم أنه متابع فى تمجيده للعقل واعتزازه به للمعتزلة وقد مرت بنا فى كتاب العصر العباسى الأول أبيات بشر بن المعتمر المعتزلى الرائعة فى تمجيد العقل ، ومازال المعتزلة يشيدون به حتى نفذ الجُبَّائى وابنه أبو هاشم إلى إثبات شريعة عقلية بجانب شريعة الوحى السماوى وهى لا تخالفها بل تشهد لها وتسندها . وأبو العلاء يتابع الجبائى وابنه ، وكان يخالفهما الأشعرى ، ولذلك حمل عليه أبو العلاء فى رسالة الغفران . وكان – مثل المعتزلة – يفسح للظن ، إذ الظن أساس المعرفة وأساس مايصل إليه الإنسان من اليقين وفى ذلك يقول :

أما اليقينُ فلا يقينَ وإنما　　أقصى اجتهادى أن أظنَّ وأحْدِسا

فمبلغ علمه الوصول إلى الظن ، وهو بذلك يتفق مع المعتزلة القائلين بأن كثيرا من التكاليف العقلية والشرعية مرجعه فى الاجتهاد إلى الظن .

ويذهب بعض دارسى أبى العلاء إلى أنه كان يؤمن بالجبر مكرِّرا أن الإنسان يدخل الدنيا كارها ويخرج منها كارها ، يقول :

خرجتُ إلى ذى الدار كَرْهًا ورحلتى　　إلى غَيْرِها بالرَّغْم واللّهُ شاهدُ

وأبو العلاء إنما كان يؤمن بالجبر فى حياته وموته ووجوده فكلّ ذلك يحدث بإرادة الله ولا دخل لإرادة الإنسان فيه ، إذ لا نخرج إلى الدنيا اختيارا ولانرحل عنها اختيارا ، وهو مالاينكره عليه أحد من القائلين بحرية الإرادة للإنسان إذ يريد بها المعتزلة – وهو معتزلى مثلهم – إرادة الأعمال والأفعال ، ويقدِّم على ذلك دليلا قاطعا حاسما قائلا :

إن كان مَنْ فعل الكبائر مُجْبَرًا　　فعقابُه ظلمٌ على مايفعلُ

وهو بذلك ينكر الجبر صراحة فيما يقترف الإنسان من كبائر ، ويرتب أبو العلاء عليه – عند القائلين به – نسبة الظلم إلى الله ، تعالى عن ذلك علوا كبيرا . وهو بذلك يصدر عن فكرة المعتزلة القائلة بوجوب العدل على الله كما يصدر عن فكرتهم أن الإنسان حر تام الحرية فى أفعاله وتصرفاته أما ما وراء ذلك من الأعمال الكونية فخاص بالله وارادته العليا ولذلك يقول :

لا تَعِشْ مُجبَرًا ولاقَدَرِيًّا　　واجتهدْ فى توسُّطٍ بَيْنَ بَيْنَا

فمذهبه فى حرية الإرادة مذهب المعتزلة ومذهبه فيما يخرج عن إرادة الإنسان من نظام الكون والوجود مذهب الجبر ولايخالفه معتزلى فى ذلك ، لأن أحدا لايستطيع أن يقول إنه يولد باختياره أو يموت باختياره ، وإنما الجدل بين الجبرية والقدرية فى إرادة الإنسان إزاء تصرفاته وهل هو حر مختار يتصرف فى أفعاله وأعماله بمشيئته أو هو كريشة فى مهب رياح القضاء والقدر تسيّره كما تريد . واختار القدرية والمعتزلة الرأى الأول ، وهو مااختاره أبو العلاء بين ما اختاره من الأفكار الاعتزالية وقد صرّح مرارا بما قاله المعتزلة من تنزيه الله عن التجسيد والشبه بالمخلوقات :

ولعل ماأسلفنا من الحديث يوضح فى إجمال كيف كان أبو العلاء فيلسوفا إسلاميا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، وكيف أن فلسفته كانت تقوم على تشاؤم حاد يُرَدُّ إلى فقده لبصره صبيا وإلى ما أطبق على المجتمع لزمنه من شرور ومن حكم فاسد ، كما تُردّ إلى إحساسه العميق بآلام الإنسانية التى ملأت قلبه لوعة ، مما جعله مفكرا إنسانيا عظيما . هذا جانب فى فلسفته ، وجانب ثان استمدّه من الدين الحنيف ومافيه من دعوة إلى الزهد والتقشف والإيمان الصادق بالله وملائكته وكتبه وتكاليفه الشرعية واليوم الآخر ومافيه من ثواب وعقاب ، مع الاعتقاد بحدوث الكون وكلّ مافيه من مادة وزمان وأفلاك وكواكب ، فالله خالق الكون ومبدعه قال له : كن فكان . وجانب ثالث فى فلسفته استمده من الاعتزال ومافيه من تمجيد العقل وتقديسه ، ومن وجوب العدل على الله وتنزيهه عن التجسيد ، ومن الإيمان بحرية الإرادة للإنسان وأنه حر كامل الحرية فى أفعاله الشريرة الآثمة والخيِّرة الطيبة .

منصور[١] بن المسلم

هو منصور بن المسلم التميمى الحلبى المعروف بالدُّمَيْك وبابن أبى الخُرْجَين ، ولد بحلب سنة ٤٥٧ وبها نشأ وحفظ القرآن كعادة لداته واختلف إلى شوخها ، وشُغف خاصة بالعربية وأساتذتها ، فتزود منها خير زاد ، وأنس من نفسه رغبة فى تعليمها وانتقل عن حلب وسكن دمشق ، وتحول بها مؤدبا يعلم الصبيان فى مسجد الرماحين وغيره ، وظل فى هذا العمل يشغل به حياته حتى توفى سنة نيف وعشرين وخمسمائة . وكان يتقن العربية ، مما جعله يصنف كتابا فى الرد على ابن جنى فى كتابه « إعراب الحماسة » ويقول مترجموه إنه دلّ فيه على تعمق فى العربية وجودة

(١) انظر فى منصور بن المسلم الخريدة (قسم الشام) للقفطى ٣/٣٢٦ ١٦٩/٢ ومعجم الأدباء لياقوت ١٩٤/١٩ وإنباه الرواة

غَوْص . ويقول ياقوت كان له ديوان شعر وقفت عليه بخطه الرائق فوجدته مشحونا بالفوائد النحوية ، وقد شرح ألفاظه اللغوية واعتنى بإعرابه فدلَّ على تبحره فى علم العربية » . وروى العماد الأصبهانى فى الخريدة طائفة من شعره ، بينها غزل كثير يدل على رهافة حسه ودقة شعوره من مثل قوله :

أأحبابنا إن خَلَّف البَيْنُ بعدكم ... قلوبًا ففيها للتفرُّقِ نيرانُ
رحلتم على أن القلوبَ ديارُكم ... وأنكمُ فيها على النَّأْيِ سُكَّانُ

ونمضى معه فى هذا الغزل الملتاع وإذا هو يذكر غربته فى دمشق ، وينتقل من الغزل إلى سرد بعض خبرات له فى الحياة ، مما تعمق نفسَه فى غربته الطويلة عن ملاعب صباه وشبابه وعن مجالس إخوانه وخلاَّنه ، يقول :

وماباختيارِ المرء تَشْعَبُ نِيَّةٌ ... فتَبْرَحُ أوطارٌ وتَنْزح أوطانُ (١)
عسى موردٌ من ماء جَوْشَنَ نَاقعٌ ... فإنى إلى تلك الموارد ظمآنُ
وما كلُّ إنسان ينال مُرَادَه ... ويُسعدُهُ فيما يحاول إمكانُ
وعيشُ الفتى طعمان حُلْوٌ وعَلْقَمٌ ... كما حالُه قِسْمان : رزقٌ وحِرْمانُ

وهو يألم لغربته ونزوحه عن وطنه ، ويتمنى جَرْعة من ماء الآبار فى جبل جوشن المشرف على حلب ينقع بها لهيب ظمئه إلى موطنه ودياره . ويسوق ذلك فى عبارات عامة تحيل البيتين الأول والثانى حكمتين بديعتين ، وكأنه يريد أن يعزى نفسه فينظم الحكمتين التاليتين ، فليس كل إنسان تتحقق مناه ويعيش سعيدا ، بل كان إنسان يذوق الحلو والمر فى حياته كما يذوق الرضا والحرمان . ويستهل قصيدة أخرى بالغزل أيضا ومايلبث أن يفضى إلى الحكم قائلا :

رأيتُ الفتى يأتيه ما لا ينالهُ ... بِسَعْيٍ ولو أَنْضَى الرَّكائب والرَّكْبا (٢)
ومَنْ رام إدراكَ المُنَى بفضيلةٍ ... فقد رام أمرًا ليس يدركه صعبا
ويذهب بالودِّ المِراءُ ويَمْتَرِى ... حَفائظَ لاتبقى على صاحب صَحْبا (٣)
توقَّ قليلَ الشرِّ خوفَ كثيرهِ ... ولاتحقرنَّ النَّزْرَ رُبَّتَما أَرْبَى
فإن صغيرَ الشىء يكبرُ أمرهُ ... وكم لفظةٍ جَرَّتْ إلى أهلها حَرْبَا

(١) تشعب : تبعد
(٢) أنضى : أتعب . الركائب : الابل
(٣) يمترى : يستثير : حفائظ جمع حفيظة وهى الغضب والحمية .

وهو يتكلم فى أول الأبيات عن الحظ ومايغدقه على الإنسان ، دون سعى ، من منى لو أضنى فيها الركائب والركب مانالها أبدا ، ومهما تذرع لها من فضيلة وخصال طيبة مادنت قطوفها منه بحال ، وينصح الأصدقاء أن لاينشب بينهم مراء ولاجدال مقيت لأنه يثير حفائظهم ومكامن الغيظ منهم ويقطع مابينهم من صلات . ويوصى الإنسان أن يتجنَّب قليل الشر حتى لايقع فى وهاده الكثيرة السيئة ، وأن لا يظنه – مهما صغر وتضاءل – شيئا لا يؤبه به ، فقد ينمو كما تنمو النار من بعض الشرر ، وكم من شر قليل حقير نما واستفحل واستعصى علاجه ، وكم من لفظة حمقاء أوقدت نار حرب مستطيرة . وينثر فى قصيدة ثالثة طائفة من الحكم كقوله :

وقد يُحْبِبُ الإنسانُ مافيه نَقْصُهُ ويُبْغض مايَنْمِى به ويزيدُ
نريد من الأيام تَصْفو من الأذى وتَضْفو ولايَقْضى بذاك وجودُ (١)
وكيف نروم العيش خِلْوًا من القَذى وللماء من بعد الصَّفاء ركود
إذا كان يُعْطَى المرءُ مايستحقُّه تساوى شقىٌّ فى القَضَا وسعيد
ومن جَرَّب الدنيا على سوء فِعْلها يعيبُ ذميمَ العيش وهْو حميد

وقد ألهمه البيت الأول قوله تعالى : (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خيرٌ لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شرٌّ لكم) ويقول إننا نريد من الأيام صفاء من الشوائب وأن تكون ضافية سابغة رغدة ولاتقضى بذلك سنة الوجود ، حتى فى الطبيعة ، فالماء يركد بعد صفـء وحركة دائبة . ولو أن كل شخص نال ماتمنى لخالف ذلك سنة الحياة وأن الناس منهم شقى وسعيد ، وجدير بمن خَبِر الدنيا أن يرضى بميسور عيشه وأن يصبح فى رأيه حميدا لا كريها مذموما . ومن طريف شعره .

النَّاسُ كالأرض ومنها هُمُ من خَشِنِ اللَّمْسِ ومن لَيِّنِ
مَرْوٌ توقَّى الرِّجْلُ منه الأذى وإثمِدٌ يُجْعل فى العين (٢)

وهو تقسيم بديع للناس فهم كأمهم الأرض معادن مختلفة ، منهم الصَّلد الذى لايأتى بخير بل قد يؤذى ، ومنهم الكحل النافع الذى يبرئ العين ويزيدها حسنا وبهاءً وجمالاً . وللمنصور وراء ذلك أشعار يدعو فيها إلى الزهد فى الدنيا والتقوى والعمل الصالح .

---

(١) تضفو : تصبح رغدة هانئة

(٢) المرو : الحجر الصلد . الإثمد : الكحل

حسين[1] الجزرى

هوحسين بن أحمد الجزرى الحلبى ، ولد بحلب وبها نشأ لزمن العثمانيين فحفظ القرآن الكريم ثم اختلف إلى حلقات الشيوخ والأدباء وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، وقصد به الرؤساء والحكام فى دمشق والعراق ودخل القسطنطينية واصطفاه بنو سيفا أمراء طرابلس لأنفسهم ، فنظم فيهم كثيرا من مدائحه ، وفيه يقول ابن معصوم : « أحد صاغة القريض . العالم بشِعار الأشعار والمقتنى لأبكار الأفكار .. راقت بدائع آدابه ورقَّت ، وملكت روائعه حرَّ الكلام واسترقَّت » ويقول الشهاب الخفاجى : « أديب له أوصاف حُسْنى ، ومناقب هن الوشى بهجة وحسنا » توفى سنة ١٠٣٤ للهجرة . وله ديوان شعر نشر فى بيروت أولا ثم نشره الطباخ مع ديوانى مصطفى البابى والفتح بن النحاس فى مجموعته : العقود الدرية . وأشعاره موزعة بين المديح والغزل والفخر والشكوى ، وكان يشغف بالحكمة ينثرها فى الشعر قائلا :

الشعرُ ما شاقتْك منهُ حكمةٌ   لامايشوِّقك الكثيبَ الأوْعَسا[2]

فليس الشعر فى رأيه مايصور نزعة الحب الإنسانية وإنما الشعر مايفيد تجربة وخبرة وبصرًا بالحياة . وهو لذلك لايعد الشعر المشوق لديار الحبيبة ومعاهدها من كثبان وَعْساء وغير وعساء شعرا رفيع المنزلة فأرفع منه مايزيدك إدراكا بالحياة من حولك ، ويعرِّفك كنهها وحقيقتها ، يقول فى تضاعيف غزل له :

إن المحبَّـةَ محنةٌ لامنـحةٌ   ومن الغرام بَرَى المحبَّ المغرما
وإذا مُنِعْتَ الماء أول مرَّةٍ   ووردْتَهُ أخرى تذكَّرتَ الظَّما
فى كل يومٍ روعةٌ أو لوعةٌ   والفذّ تُقْعده الحوادث توأما
ولقد ملئتُ تجارُبا وتجاربًا   لن تلقنى إلا إناءً مُفْعَما

وهى أفكار يعطيها صفة التعميم مما يجعلها حكما وأمثالا ، فالحب محنة لامنحة يضنى صاحبه ، ومَنْ تصدّه صاحبته أول مرة كمن يُصَدّ عن الماء وهو شديد الظمأ إذ لايزال يذكر ذلك حتى لو

(١) انظر فى ابن الجزرى وشعره سلافة العصر ص ٣٩٣ وريحانة الألبا ١١٣/١ وخلاصة الأثر ٨١/٢ وانظر ديوانه فى مجموعة العقود الدرية

(٢) الكثيب : تل الرمل . الأوعس : الذى تغيب فيه الأرجل للينه

أتيح له الورود ، فظمؤه ولهفته القديمان لايبرحان ذاكرته ، وهل فى الحب إلا صَدٌّ وامتناع وعذاب ، والمحب يصلى الروعة بعد الروعة واللوعة بعد اللوعة ، ويقول إنه مُفْعَم بالتجارب كما يُفْعَمُ الإناء بالماء ، وينشد :

أرى اليأسَ عِزًّا والرَّجا ذِلَّةَ الفتى   وطولَ المنى عجزا وحبَّ الغنى فَقْرا
فلا تَضْجَرَنْ من حالةٍ مستحيلةٍ   كما نِلْتَها عُسْرًا ستتركها يُسْرا
وإن الفتى كالغُصْن مادام نابتا   فآونةً يُكْسَى وآونَةً يَعْرَى

وهو يرى اليأس من الناس وتحقيق الآمال لاإحدى الراحتين فحسب ، بل عزًّا مابعده عز ، كما يرى الرجاء وخاصة فى الناس ذلا مابعده ذل ، واتساعَ الأمانى عجزا لايشبهه عجز ، والتطلعَ إلى الغنى فقرًا لا يماثله فقر . فخير للانسان أن يقنع وأن يرضى من دنياه بالكفاف . ويوصيه أن لا يضجر من شدة تنزل به لانها لابد أن تستحيل وتتحول ، فكل عسر معه يسر ، وماأشبه الإنسان بغصن شجرة يَعْرَى من الأوراق ويُكسى بها كل عام . ويقول :

إن خَصَّنى بالبؤس دهرى دائما   دون الوَرَى فأنا بذلك أفضلُ
هذى عقاقيرُ العِطارةِ كلُّها   لم يحترق منهن إلا المَنْدَلُ

فهو يتقبل البؤس راضيا ويتعلل لبؤسه بأنه أشبه مايكون بالمندل أو العود الطِيب الرائحة فإنه يحرق وحده دون ماعند العطار من صنوف عطارة كثيرة . ويتردد فى أشعاره ذكر الحرمان وأن الكريم لاتضره قلة المال بينما اللئيم لايُجْديه ولاينفعه الثراء ، ويحاول أن يجد له ولأمثاله من الأدباء والفضلاء تعلُّلات للتضييق على نفر منهم فى الرزق بمثل قوله :

لاتحسب الأرزاق تُقْسمُ باطلا   كلا لقد ساوى المهيمنُ بَيْنَها
فإذا رُزقتَ الجهلَ أدركتَ المُنَى   وإذا حُرِمتَ الجَدَّ أُعْطِيتَ النُّهَى

وكأن أهل الأرض فى رأيه اثنان:جاهل ثرى له كل مايأمل ويتمنى وكأن الدنيا طوع أمره ، وعاقل (أديب أو عالم) فقير حُرِم الجَدَّ أو الحظ وحرم معه إكسير الحياة من المال والثراء والنعيم . ويقول :

غَيْرُ بِدْعٍ إذا ظُلمتَ بدهرٍ   رُزِق الغَمْرُ فيه حَظًّا عظيما
فالهواءُ الصحيح يُدْعَى عليلاً   واللَّديغُ المصَابُ يُدعَى سَليما

وهو يواسى من يحسُّون بأنهم مظلومون فى دنياهم لم ينالوا حظهم الطبيعى من الرزق والعيش الكريم ، بينما المغمورون يعيشون فى بحبوحة من الثراء والنعيم . ويقول إن النسيم المنعش الصحيح يدعى عليلا واللديغ يدعى سليما من تسمية الأضداد ، ولعل فى ذلك بعض المواساة للمظلومين المحرومين . ويقول :

رُوَيْدَكَ إن بعد الضِّيق مخرجْ   وصَبْرك عنده أبهى وأبهجْ
وكم من كُرْبةٍ عَظُمت وجَلَّتْ   وعند حلولها الرحمنُ فَرَّجْ

وهو يدعو إلى الصبر عند الشدة والضيق إذ لابد من رباطة الجأش دون أى تبرم ودون أى خور وضعف ودون أى يأس ، مع الاعتصام بالله والأمل الدائم فى رحمته ، وأنه لابد كاشف الكرب والأهوال مهما اشتدت وإن فرجه لقريب ، وإنه لدائما مع الصابرين الذين لاييأسون أبدا من عونه . ولابن الجزرى وراء هذه الحكم وماعاثلها فى أشعاره — كما قدمنا — مدائح كثيرة ، وله فيها أبيات بديعة من مثل قوله :

يُلَبِّيك من قبل السؤالِ نَوالُه   ويأتيك دون الإنتظار نُصارُه

وله أبيات مختلفة فى الشكوى من الناس والأصدقاء ، وفى غزله أبيات كثيرة جيدة ، وقد كان شاعرا محسنا مجوِّدًا .

٦

شعراء التشيع

مرَّ بنا فى حديثنا عن التشيع أنه عُرف فى سَلَمْية بالشام مع حركة عبد الله بن ميمون القدَّاح حوالى منتصف القرن الثالث الهجرى الداعى لمذهب الإسماعيلية المعروف ، وهذا إنما يصدق على تلك الحركة الشيعية . ويبدو أن أفرادًا من الشام كانوا يتشيعون قبل هذا التاريخ ، لا التشيع الغالى المفرط ولكن التشيع المعتدل المقتصد ، ويسلك فيهم بعض الباحثين أبا تمام لمثل قوله عن قصيدة له مخاطبا المأمون [1] :

ووسيلتى منها إليك طريفةٌ   شامٍ يدين بحبِّ آلِ محمدِ

(١) الديوان (طبع دار المعارف) ٢/٥٥

وقد ذهبنا فى كتابنا العصر العباسى الأول إلى أن أبا تمام لم يكن يصدر فى مثل ذلك للمأمون عن تشيع إنما كان يريد أن يتقرب للخليفة بذكره لآل البيت . ومعروف أن المأمون كتب إلى الآفاق بتفضيل علىّ على أبى بكر وعمر ، مما جعل الشاعر يشيد بعلى ومواقفه فى عهد الرسالة . ويلقانا بعده ديك الجن الحمصى المتوفى سنة ٢٣٥ للهجرة وتشيعه أوضح من تشيع أبى تمام إذ نجد عنده أشعارا فى أهل البيت ومراثى تندب الحسين وتبكى مصرعه من مثل قوله فى افتتاح إحدى مراثيه [١] :

ياعيْنُ لاللغَضَا ولا الكُتُبِ ... بُكا الرَّزايا سوى بُكا الطَّرَبِ [٢]
ياعَيْنُ فى كَرْبلا مقابرُ قد ... تركْنَ قلبى مقابرَ الكُرَبِ
من البَهاليلِ آلِ فاطمةٍ ... أهلِ المعالى والسادة النُّجُبِ
كم شَرِقتْ منهم السيوف وكم ... رُوِّيتِ الأرضُ من دمٍ سَرِبِ [٣]

ويقول أبو الفرج عن هذه المرثية إنها مشهورة عند الخاص والعام ويناح بها ، كما يقول إنه كان يتشيع تشيعا حسنا [٤] ، فتشيعه كان تشيعًا معتدلا .

ولم تعرف الشام التشيع المفرط الغالى إلا منذ القدَّاح ودعوته الإسماعيلية التى اتخذ لها سَلَمْية بالقرب من حمص وحماة مركزا ، وأخذ القرامطةُ يشيعون هذه الدعوة بين بدو الشام ، غير أن دمشق ظلت بعيدة عن التشيع على الأقل حتى أوائل القرن الرابع إذ نجد النسائى صاحب كتاب السنن يلم بها سنة ٣٠٣ وكان يتشيع ، فسألوه عن معاوية وما رُوى من فضائله فأبى أن يفضله ، فمازالوا يدفعونه من المسجد ، ويقال : داسوه بالأقدام . وخرج من دمشق خائفا يترقب إلى الرملة فمات بها . ويبدو أن الدعوة الشيعية — لقيت لها آذانًا صاغية بحلب منذ مطالع القرن الرابع ، ويلقانا هناك الصنوبرى المتوفى سنة ٣٣٤ وكان يتشيع — فيما يبدو — تشيعا معتدلا . ونراه يذكر — مايؤمن به الشيعة من وصية الرسول عليه السلام لعلى بالإمامة بعده ، وله مراث فى الحسين تبكيه بكاء حارا من مثل قوله [٥] :

---

(١) الديوان (فى طبعاته المختلفة) وأدب الطف أو شعراء الحسين لجواد شبر ٢٨٤/١

(٢) شجر الغضا . من أشجار البادية . يقصد بذكره وذكر الكثبان شعر النسيب

(٣) شرقت : غصت . سرب : سائل .

(٤) أغانى (طبع دار الكتب) ٥١/١٤

(٥) أعيان الشيعة ٣٥٦/٩ وانظر أدب الطف أو شعراء الحسين ١٩/٢

يومَ الحسين هَــرَقْتَ دَمْـ ـعَ الأرض بل دمعَ السماء
مَـنْ ذا لمعـــقور الجوا دِ مُمَالِ أعواد الـخِـبـاء
مَـنْ للطريح الشِّلْو عُرْ يـانـا مخلًّى بالعَـراء
من للمحنَّط بالـثُّرَا ب وللمغسَّلِ بالدماء

ومن أهم شعراء الشيعة الإماميين بعده أبو فراس الحمدانى المتوفى سنة ٣٥٧ ، ومعروف أن الحمدانيين كانوا شيعة إمامية ، ويشتهر أبو فراس بقصيدة ميمية تصور عقيدته الشيعية وفيها هاجم العباسيين هجوما عنيفا ودافع عن العلويين دفاعا حارا ، وتسمى الشافية افتتحها بقوله[١] :

الدينُ مُخْتَرَمٌ والحقُّ مُهْتَضَمُ وفَيْءُ آلِ رسولِ الله مُقْتَسَمُ

والفيئ : غنيمة الحرب ، وهو يشير إلى فَدك وكانت فيئا لرسول الله فى غزوته لخيبر والقرى حولها . وكانت السيدة فاطمة الزهراء فكرت فى إرثها عن أبيها الرسول صلى الله عليه وسلم ، فذكّرها أبو بكر الصديق بقوله : « نحن معاشرَ الأنبياء لانورث ماتركناه صدقة » فاستجابت تَوًّا الرأيه وكان ينبغى أن يستجيب له أيضا أبو فراس . والقصيدة فى واحد وستين بيتا . ويعلن فى ديوانه مرارا أنه شيعى إمامى ، ويذكر أئمتهم الاثنى عشر فى مثل قوله[٢] :

شافِعِى أحمدُ النَّبِيُّ ومولا يَ علىٌّ والبنتُ والسِّبطانِ
وعلىٌّ وباقرُ العلم والصا دقُ ثم الأمينُ ذو التِّبيانِ
وعلىٌّ والمتَّقِى ابنُ علىٍّ وعلىٌّ والعسكرىُّ الدانى
والإمامُ المهدىُّ فى يوم لاينْـ ـفَعُ إلا غُفْرانُ ذى الغُفْرانِ

والأئمة الاثنا عشر فى الأبيات مرتبون ، وهم على بن أبى طالب وابناه سبطا الرسول ، الحسن والحسين وعلى زين العابدين بن الحسين وابنه محمد الباقر وابن الباقر جعفر الصادق وابنه الأمين موسى الكاظم ونجل الكاظم على الرضا وابنه محمد الملقب بالمتقى والجواد ثم ابنه على الهادى ونجله حسن العسكرى ثم ابنه محمد المهدى ويسميه القائم فى مقطوعة ثانية ذكر فيها الأئمة الاثنى عشر حتى انتهى إلى العسكرى بن الهادى قائلا[٣] :

---

(١) ديوان أبى فراس الحمدانى (نشر وتحقيق د . سامى الدهان) ٣٤٨/٣

(٢) الديوان ٣٩٧/٣

(٣) راجع ٤٢٩/٣ وما بعدها .

وابنهُ العسكريّ والقائمُ المظـ ـهرُ حَقّيَ محمدُ بن عليّ

ويعتقد الإمامية وخاصة الغلاة أن محمدا المهدى لم يمت وأنه غاب وسيعود ويسمونه قائم الزمان . وسنعرض هذه الفكرة عرضا أكثر تفصيلا فى حديثنا عن بهاء الدين العاملى . ويلقانا فى القرن الخامس الهجرى ابن سنان الخفاجي المتوفى سنة ٤٦٦ وهو شيعى إمامى ، ومن آثار تشيعه فى شعره قوله[١] :

وقالوا قد تغيّرتِ الليالى وضُيِّعَتِ المنازلُ والحقوقُ
وأقسمُ ما استجدَّ الدهرُ خُلْقًا ولاعـدوانُـه إلا عَـتيقُ
أليس يُرَدُّ عن فدكٍ علىٌّ ويملك أكثر الدنيا عَتيق

وهو يأسى لعلى وزوجته فاطمة الزهراء أنها رُدَّتْ عن ميراث فدك وقد كانت فكرت كما ذكرنا ذلك آنفا فى أن ترثها ، وذكَّرها أبو بكر بحديث أبيها ﷺ واستجابتْ له راضية . وكبُرت كلمةُ تخرج من فم ابن سنان أن يقول عن الصدِّيق الزاهد الذ أنفق أمواله فى دعوة الإسلام : إنه ملك أكثر الدنيا ، وهو لم يملك شيئا ، إن يقول إلا بهتانا وزورا .

وكان يعاصره كشاجم وكان أصغر منه سنا ، وكان يتشيع لمذهب الإمامية ، وسنخصُّه بترجمة عما قليل . وربما كان أهم شعراء الشيعة بالشام فى القرن الخامس الهجرى ابن حَيّوس الشاعر الدمشقى ، وسنفرد له الآخر ترجمة . ويلقانا بعده عند العماد الأصبهانى فى كتابه الخريدة شعراء شاميون شيعيون متعددون عاشوا فى القرن السادس الهجرى ، غير أنه لا يُعْنَى بشعرهم الشيعى إلا بعض مقطوعات قلما توضح لهم مذهبا أو نحلة ، منهم ابن قُسَيْم الحموى المتوفى سنة ٥٤١ وقد أنشد له العماد فى حب آل البيت قوله[٢] :

ويَدِ بآل محمَّدٍ عَلِقَتْ منّى فلستُ بغيرهم أرْضَى
جعل الإلهُ علىَّ حُبَّهمُ وعلى جميع عبادِه فَرْضَا
فأثارَ ذلك من زنادقةٍ حَسَدًا فسمُّوا حبَّهم رَفْضا
وعجبتُ هل يرجو الشفاعةَ مَنْ يَنْوِى لآلِ محمدٍ بُغْضا

(١) ديوان ابن سنان (طبع المطبعة الأنسية ببيروت) ص
(٢) الخريدة (قسم الشام) ٤٥٣/١

وهو يعلن حبه لآل البيت حبا لايماثله حب ، وهو حب يراه فرضا مكتوبا على كل مسلم مخلص لدينه . ويبدو أنه كان يغلو فى هذا الحب غلو الرافضة ، إذ يسمى أعداءهم زنادقة ، ويعجب أن يفكر فى شفاعتهم يوم القيامة مبغض لهم تأكل نار بغضهم قلبه . وكان يعاصره ابن منير المتوفى سنة ٥٤٨ ويقول عنه العماد : كان غاليًا متشيعا[١] ولم يرو شيئًا من شعره الشيعى الغالى . وكان طلائع بن رُزِّيك وزير الخليفتين الفاطميين : الفائز والعاضد شيعيا إماميا ، وكان من مقربيه ثقة الملك الحسن من بنى أبى جرادة الحلبيين المتوفى سنة ٥٥٥ ، وله فيه مدائح بها إشارات لبعض عقائد الشيعة[٢] ، ويبدو أن أسرته كانت تعتنق مذهب الشيعة الإمامية مثلها فى ذلك مثل أهل حلب موطنها . ومن شعراء الشام الشيعة فى الخريدة عرقلة الدمشقى حسان بن نُمَير المتوفى سنة ٥٦٧ وينشد العماد مقطوعة طويلة يذكر فيها تشيعه قائلا[٣] :

أنا من شيعة الإمام حُسَيْنٍ لستُ من سُنَّةِ الإمام يزيدِ

وهو يريد يزيد بن معاوية الذى قتل الحسين أيام خلافته ، وسماه الإمام تهكما وسخرية . ونظل فى زمن الأيوبيين والمماليك نستمع إلى أشعار تبكى الحسين أو تمدح آل البيت على نحو مانجد عند فتيان الشاغورى الدمشقى المتوفى سنة ٦١٥ للهجرة ، ويلقانا فى مطالع ديوانه باكيا الحسين ذارفًا عليه الدمع مدرارًا منشدا[٤] :

لِمَ لا أسُحُّ بيوم عاشوراءَ من مقلتىَّ دَمًا يمازج ماءَ

يومًا بهِ قُتِلَ الحسينُ بكَرْبَلا قَتْلا حَوَى كَرْبًا به وبلاءَ

ويوم عاشوراء هو اليوم العاشر من شهر المحرم ، وفيه استشهد الحسين على نحو ماهو معروف . ولفتيان قصيدة طويلة فى حب آل البيت يقول إنه نظمها مؤملا عفو الله ورضاه ، وفيها يشيد بالرسول ورسالته المحمدية الكبرى ، ويسترسل فى التنويه بعلى بن أبى طالب وانتصاراته المجيدة على أعداء الإسلام وينوه بعلمه وزهده وتقشفه ، ثم يفيض فى الحديث عن مصرع الحسين المفجع بمثل قوله[٥] :

أَلَهْفِى لِلْحُسَيْنِ غداةَ أَضْحَى هناك « بِكَرْبلا » شِلْوًا قَتِيلا

(١) الخريدة ٧٦/١

(٢) الخريدة ١٩٩/٢

(٣) الخريدة ٢٠١/١

(٤) ديوان فتيان الشاغورى (طبع مجمع اللغة العربية بدمشق) ص٦

(٥) الديوان ص٥٨٠ والشلو : العضو من الإنسان والجمع أشلاء ، كناية عن الموت

يمزِّق جِسْمَهُ دَوْسُ المَذاكي وقد أعلتْ وَلاياهُ العَويلا[1]
شَكَا ظمأً فما عطفوا عليهِ ولا ألْوَوْا ولاأرْوَوْا غَـلـيلا
رسولُ اللهِ سمَّاه «حُسَيْنًا» وقَبَّل ثَغْرَهُ زمنًا طويلا

ويقسم فتيان مرارا وتكرارا بعلى والحسين وأصحاب العَباء أو الكساء إشارة إلى حديث ترويه الشيعة عن أم سلمة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : «دخل على وفاطمة ومعها الحسن والحسين فوضعها الرسول فى حجره فقبَّلها واعتنق عليا بإحدى يديه وفاطمة بالأخرى ، وجعل عليهم جميعا كساء أسود وقال : اللهم إليك لا إلى النار» . ولم يكن فتيان غاليًا فى تشيعه بل كان معتدلا ، يشهد لذلك قوله فى على والحسين وآلها[2] :

لم أهْوَهُمْ أبدا بِبُغْضى غيرَهم كلاَّ وَمنْ فَرَضَ الصلاةَ ووقَّتا

فهو يقسم بربه فاض الصلاة أنه لم يحب آل البيت مبغضا لأبى بكر وعمر مثل غلاة الشيعة ، بل هو يحب الجميع وإن كان حبه لهم أزيد وأكثر ، كما تشهد بذلك قصيدته السالفة .

ونلتق فى زمن المماليك بالوداعى المتوفى سنة ٧١٦ ويقول صاحب الفوات : كان شيعيا ، ومما يدل على ذلك قوله[3] :

سمعتُ بأن الكحلَ للعين قوةٌ فكحَّلتُ فى عاشورَ مُقْلةَ ناظرى
لتقوى على سحِّ الدموعِ على الذى أذاقوه دونَ الماء حرَّ البَواتِر

فهو قد تكحل فى يوم عاشوراء يوم ذكرى مصرع الحسين ليسح الدموع ويذرفها على الحسين الذى قتلوه دون جرعة ماء يحتسيها بالسيوف القواطع ، وكان بعض معاصريه يتهمه بالرفض والغلو فى التشيع فكان ينكر ذلك منحيا على من يتهمه بالسبِّ واللعن ، وفى ذلك يقول[4] :

قُـلْ للـذى بالـرفض أتـ ـهمنى أضلَّ اللهُ قَصْدَهْ
أنـا رافضىٌّ ألـعَن الـ ـشَّـيْـخَـيْن أبَّـاهُ وجَـدَّه[5]

وواضح أنه يقول إنه رافضى تهكما على خصومه . ونظل نلتق بشعر شيعى على هذه الشاكلة

(١) المذاكى : الخيل ، ولاياه : نساء أسرته .
(٢) الديوان ص ٦٨
(٣) فوات الوفيات لابن شاكر ١٧٦/٢
(٤) الفوات ١٧٥/٢
(٥) أبَّاهُ مشددة الباء لصحة الوزن

لاف أيام المماليك فحسب ، بل أيضا فى أيام العثمانيين ، وممن يُظَنُّ تشيعه حينئذ درويش[١] الطالوى المتوفى سنة ١٠١٤ وحسين[٢] بن عبد الصمد العاملى وهو أبو بهاء الدين العاملى أكبر شعراء الإمامية حينئذ ، وسنترجم له عما قليل .

كُشاجم[٣]

هو أبو الفتح محمود بن محمد بن الحسين بن السندى بن شاهك اشتهر بلقبه كشاجم ، وضبطه صاحب القاموس بضم الكاف ، وفى تاج العروس شرح القاموس وشرح درة الغواص للشهاب الخفاجى أنه بفتحها ، وقيل إن هذا اللقب مركب من أوائل كلمات تدل على صناعاته ، فالكاف من كاتب والشين من شاعر والألف من أديب والجيم من جميل والميم من منجم أو من مغن ، وفى ذيل زهر الآداب : « أنه كان مغنيا وله فى الغناء كتاب مليح » .

وكان جده السِّندى من حرس الرشيد ويقول ابن خلكان فى ترجمته لموسى الكاظم الإمام عند الشيعة الإمامية : « وكان الموكَّل به فى مدة حبسه السندى بن شاهك » وربما تلقَّن عنه حينئذ عقيدة الإمامية ، وبقيت العقيدة منذ هذا التاريخ فى بيته . وأصبح السندى بعد وفاة الرشيد من كبار حاشية الأمين ، ويقال إنه ولاه الشام ، وربما توفى بها ، وبقيت أسرته بعده فيها إذ يُسْلَك حفيده كُشاجم فى شعراء الشام ، وكان يسكن فى شبيبته بلدة الرَّمْلة بفلسطين . ونظن ظنا أنه وُلد لأبيه حوالى سنة ٢٩٠ للهجرة . ويبارح الرملة والشام جميعا فى سن مبكرة إلى الموصل حيث التحق بخدمة أبى الهيجاء عبد الله بن حمدان والد سيف الدولة ، وكان قد ولى الموصل مرارا بين عامى ٢٩٣ و ٣١٧ وبها انعقدت بين الشاعر وبين الشعراء هناك صلات مودة وخاصة بينه وبين الخالديين . وينزل عند سيف الدولة الحمدانى أمير حلب ، ويقال إنه كان يُشرف على إعداد طعامه أو على مكتبته . ويبدو أنه لم يمكث عنده طويلا . ونزل مصر وأقام بها فترة ، وأرسل حينئذ إلى جعفر بن على أمير الزاب قصيدة فى مديحه أثابه عليها بألف دينار كما يقول ابن شرف

(١) ريحانة الألبا ٦٣/١ وما بعدها

(٢) أعيان الشيعة ٢٢٦/٢٦ وروضات الجنات ٢٥/٢

(٣) انظر فى كشاجم وشعره شذرات الذهب لابن العماد ٣٧/٣ وحسن المحاضرة للسيوطى ٥٦٠/١ والمنتحل للثعالبى ص ٣٥٢ وأعلام الكلام لابن شرف القيروانى وذيل زهر الآداب ص ١٠٧ وذكر له الشريشى فى شرحه لمقامات الحريرى طائفة كبيرة من شعره ، وديوانه مطبوع ببيروت ، وراجع فى السندى جده ترجمة موسى الكاظم فى ابن خلكان والحيوان للجاحظ ٣٩٣/٥ والتنبيه والإشراف للمسعودى (طبعة الصاوى) ص ٣٠٢ وطبعة أوربا ص ٣٤٩

القيروانى ، وترك مصر إلى الشام ثم عاد إليها وهو ينشد .

قد كان شوق إلى مصرٍ يؤرِّقنى فالآن عدتُ وعادتْ مِصْرُ لى دارا

وتُرْوَى روايات مختلفة عن تاريخ وفاته ، فقيل توفى سنة ٣٥٠ وقيل بل سنة ٣٦٠ ولعل التاريخ الأخير هو الصحيح .

وهو يتناول فى شعره الأغراض المختلفة المعروفة من مديح ورثاء وشكوى وهجاء وخمريات ووصف للطبيعة والأطعمة وأدوات الحضارة . وله أشعار مختلفة فى الصيد والطرد وله كتاب فيهما سماه المصايد والمطارد ، وأيضا له كتاب فى أدب النديم وهما منشوران . وكان شيعيا إماميا إما — كما قلنا — مثل أهل بيته وإما استقلالا منه ودراسة للنحلة دفعته إلى اعتناقها ، ويشهد لذلك مارواه ابن شهر آشوب « إن صحَّ مارواه — من قوله :

نبيِّى شفيعى والبَتُولُ وحَيْدرٌ وسِبْطاهُ والسجَّاد والباقرُ المجدِ

بجعْفَرَ بموسى بالرِّضا بمحمدٍ بنجْلِ الرِّضا والعسكريين والمهدِى

والبتول : السيدة فاطمة الزهراء ، وحيدر : الإمام على ، ويتوالى بعده أئمة الإمامية أو الاثنى عشرية وهم اثنا عشر إماما : على ، والحسن والحسين ابناه سبطا رسول الله ، والسجاد : على زين العابدين بن الحسين والباقر ابنه محمد ، ورخَّم جعفر فى قسَمه ، والترخيم فى غير المنادى شاذ ، وموسى هو موسى الكاظم الإمام السابع ، والرضا هو على الرضا ابنه ، ومحمد هو محمد الجواد نجل الرضا ، ويليه على الهادى فالحسن العسكرى ، وقد سماهما العسكريين والمهدى هو محمد المهدى المنتظر الذى مات صبيا حوالى سنة ٢٦٠ للهجرة . وسماهم جميعا كشاجم — كما رأينا — فى بيتيه واتخذهم شفعاء له عند ربه ، مما يقطع — إن صَحَّ أنه ناظم البيتين — بتشيعه وإماميته أو اعتناقه نحلة الإمامية .

وفى ديوان كشاجم ثلاث قصائد طويلة ، يبكى فى أولاها الحسين ومن قُتلوا معه من آله فى كربلاء قائلا فى مطالعها :

يابُؤْس للدَّهرِ حينَ آلُ رسو لِ الله تَجْتاحُهم جَوَائِحهُ

أظلمَ فى كربلاءَ يومُهمُ ثم تَجلَّى وهم ذَبائحُه

لابَرِحَ الغيثُ كلَّ شارقةٍ تَهْمِى غواديه أو روائحُهُ[1]

(١) الشارقة هنا اليوم وأصله الشمس . والغوادى والروائح : السحب الممطرة صباحا ومساء . تهمى : تصب وتسيل .

على ثَرّى حلَّه ابنُ بنت رسو لِ الله مجروحةٌ جَوارِحُهُ
وسيق نِسْوانه طلائحَ أحـ ـزانٍ تهادى بهم طلائحُه

والقصيدة تفيض – على هذا النحو – أسًى ولوعة لمقتل الحسين وبعض آله معه ، ويسمى ذلك ذبحا ، فيبلغ كل مايريد من التأثر لسبط رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويدعو له الغيث أن يظل يهمى كل شارقة أوكل يوم على الثرى الذى ضم هذا الجسد الطاهر الجريح . ويصور بشاعة العدوان الأثيم حين ساق مرتكبوه نساء آل البيت منهَكات مُعْيِيات ، حتى لقد أصاب الإبل التى حملتهن ماأصابهن من الإعياء والإجهاد والكلال . ويمضى فى القصيدة فيتحدث عن على بن أبى طالب وشجاعته وبأسه وخدماته للإسلام ورسالته ، كما يتحدث عن علومه الزاخرة . ويستهل كشاجم القصيدة الثانية ، وهى همزية بإعلان حبه لأهل الكساء الخمسة الذين تحدثنا عنهم : الرسول والسيدة فاطمة وعلى بن أبى طالب وابناه : الحسن والحسين . ويذكر مايعتقده الشيعة من أن الرسول أوصى بالإمامة لعلى فى غديرخُمٍّ ، ويذكر أن له معجزات جمة وأنه بحر علوم سماوية ، ثم يأخذ فى بكاء الحسين وأن الأمويين ثأروا فيه لقتلاهم فى غزوة بدر يقول :

لئن وَتَر القومَ فى بَدْرِهم لقد ثأَرَ القومُ فى كَرْبَلاء
بها هُتِكَتْ حُرَمُ المصطفى وحَلَّ بهنَّ عظيمُ البلاء
وساقوا رجالهمُ كالعبيدِ وحازوا نساءهمُ كالإماء
ولو كان جَدُّهمُ شاهدًا لشيَّع أظْعام بالبكاء

والأبيات بالغة التأثير فى وصفها لهول يوم كربلاء وماكان فيه من هتك لحرمة نساء آل البيت ورجالهم ، أما الرجال فساقوهم سوق العبيد ، وساقوا النساء سوق الإماء ، فيا للفظاعة ، ولو شاهد الرسول هذه المأساة مااكتفى بالدموع كما يقول كشاجم ، بل لأعاد غزوة بدر ثانية ، دفاعا عن سبطه وآله .

ويُلِمُّ كشاجم فى القصيدة الثالثة بالحسين وآل البيت وماأصابهم فى كربلاء إلماما سريعا ، وكأنما أراد أن يفردها لعلى سيد الأوصياء كما يقول ، الجواد البطل ، ويسترسل فى فضائله قائلا :

وكم شبهةٍ بهُداهُ جَلا وكم خُطَّةٍ بحِجاهُ فَصَلْ
وكم أطفأ اللّهُ نارَ الضَّلالِ به وهْىَ تَرْمى الهُدَى بالشُّعَلْ

وكم ردَّ خالقُنا شَمْسَهُ عليه وقد جَنحتْ للطَّفَلْ
وكم ضربَ الناسَ بالمُرْهفاتِ على الدِّين ضَرْبَ غِرابِ الإبلْ

وحقا كان عليٌّ ملهما فى معرفة الحكم الفاصل فى أى مشكلة تعرض له أو لغيره ، حتى قال فيه عمر : قضية ولا أبا حسن لها ، وكم أعز الله به الإسلام ، وكم ضرب بالسيوف المرهفة أعداء الإسلام ضرب العرب لغرائب الإبل . أما أن الشمس كانت تُرَدّ عليه حين تجنح للغروب فتلك مبالغةٌ ، عليٌّ فى غنى عنها ، بل هى بهتان ، ومثلها بهتانا مازعمه فى القصيدة من تفضيل عليٍّ درجات فوق أبى بكر الصديق وأنه كان أجدر بالخلافة منه لأن الرسول أوصى أن يكون خليفة بعده . وتمادى فى بهتانه على الصديق ، فقال إن الرسول نحّاه عن الصلاة بالناس حين اشتد به المرض ، وقد صلى بالناس سبع عشرة صلاة ، وصلى به الرسول مؤتما ركعة ثانية من صلاة الصبح ثم صلى الركعة الباقية وقال : « لم يُقبَضْ نبيّ حتى يؤمَّه رجل من قومه » . وكلٌّ ذلك متواتر معروف غير أن غلاة الشيعة ينكرونه . ولايلبث أن ينحى باللائمة ، بل أن يهجو — غير خجل ولامستح — أبا بكر وعمر ، لأنهما منعا السيدة فاطمة حقها فى ميراث الرسول ومآل إليه فى غزوة خيبر ، وهما إنما صدعا فى ذلك عملا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نحن معاشر الأنبياء لانورَث وماتركناه صدقه » ولعل فى ذلك كله مايدل على تشيع كشاجم وغلوه فى تشيعه .

ابن حَيُّوس [1]

هو محمد بن سلطان بن محمد بن حيوس الدمشقى ، كان جده حيوس على شىء غير قليل من الثراء مما جعله يشيِّد بدمشق دارًا فخمة توارثها بنوه من بعده إلى زمن الشاعر . وكانت أمه بنت قاضى غوطة دمشق ، فهو قد ورث الثراء عن آبائه ، والعلم عن جده لأمه وأخواله . ولد لأبيه بدمشق سنة ٣٩٤ وحفظ مثل لداته القرآن وأخذ يختلف إلى العلماء وفى مقدمتهم خاله ابن الجندى الغسانى ، وكانت دمشق حينئذ تابعة لمصر ، ويبدو أن أباه كان موظفا فى دواوينهم هناك إذ نجد أحد قواد الحاكم بأمر الله الفاطمى المسمى أنوشْتكين الدِّزْبِريّ ينزل ضيفا على أبيه لسنة ٤٠٦ . ويعود فيما بعد حاكما لدمشق سنة ٤٢٠ حتى سنة ٤٣٣ . وكانت موهبة الشاعر تفتحت ،

(١) انظر فى ابن حيوس وشعره ابن خلكان ٤٣٨/٤ وزبدة الحلب (نشر د. سامى الدهان) ٤٠/٢ والوافى ١١٨/٣ وعبر الذهبى ٢٧٩/٣ وشذرات الذهب ٣٤٣/٣ ومقدمة ديوانه لخليل مردم وقد حققه ونشره فى مجلدين (طبع المجمع العلمى العربى بدمشق)

فانعقدت صلة وثيقة بينهما وأخذ كل منهما يهدى صاحبه هدايا عظيمة ، الشاعر يهديه روائع من مديحه بلغت أربعين قصيدة ، والدُّ زبرى يهديه أموالا جزيلة . ويتولى دمشق بعده ناصر الدولة الحسن بن الحسين الحمدانى حتى سنة ٤٤٠ وله فيه عشر مدائح ويخلفه على دمشق حيدرة بن الحسين بن مفلح ، ويتولى مرارا متقطعة حتى سنة ٤٥٥ وله فيه قصيدة واحدة . ويبدو أنه اتجه فى ولايته على مدينته إلى القاهرة ، فلزم الحسن بن على اليازورى وزير الخليفة الفاطمى المستنصر من سنة ٤٤٢ إلى سنة ٤٥٠ وقدم إليه إحدى عشرة قصيدة ، بعضها قدمها إليه فى القاهرة وبعضها أرسلها إليه من دمشق . وولى الوزارة بعده أبو الفرج محمد بن جعفر المغربى فمدحه بقصيدتين وعُزل سريعا فمدح الوزير بعده بمدحة واحدة .

وفى هذه السنوات التى تبلغ أكثر من ستين عددا كان ابن حيوس شاعر ولاة الدولة الفاطمية الإسماعيلية ووزرائها وكان يصدر عن عقيدتها فى مدائحهم ، وتضطرب الأمور فى القاهرة ودمشق ، ويصمت الشاعر إزاءها حتى إذا ازداد الاضطراب فى دمشق وخشى الشاعر على نفسه من استيلاء السلاجقة السنيين أعداء الفاطميين الإسماعيليين عليها رأيناه يهاجر منها لسنة ٤٦٤ إلى طرابلس وبنى عمار ولاتها ، ويتصادف لقاؤه فيها بعلى بن منقذ صاحب حصن شَيْزر فينصحه أن يصحبه إلى محمود بن نصر المرداسى صاحب حلب فإنه سيجد عنده الظل الظليل ، وكان يغلب على الناس هناك مذهب الشيعة الإمامية . فلم يجد الشاعر بأسًا من تلبيته النصيحة ، وقدم على الأمير محمود بن نصر ، فمدحه بقصيدة بديعة وأعطاه ألف دينار ، ومازال الشاعر يوالى مدائحه فيه إلى وفاته لسنة ٤٦٧ حتى بلغت عشرا وهو يوالى عطاياه عليه . وخلفه ابنه نصر ، فمضى يجزل للشاعر فى العطاء حتى بلغت مدائحه فيه مدة إمارته ، وكانت عاما ، عشر قصائد ، وولى بعده أخوه سابق وظل يوالى عطاءه له حتى قضى مسلم بن قريش العقيلى لسنة ٤٧٣ على آل مرداس مستوليا منهم على حلب ، ومدحه ابن حَيّوس بقصيدة طنانة يقول له فيها :

أنت الذى نفَق الثّناءُ بِسُوقِهِ وجَرَى النَّدَى بعروقِهِ قبل الدَّمِ

وأجازه بألفى دينار ، وفى نفس السنة توفى ابن حيوس عن نحو ثمانين عاما . ولاريب فى أن ابن حيوس انصرف عن عقيدته الإسماعيلية حين ولّى وجهه نحو بنى مرداس ، ونراه يجاهر بذلك قائلا :

وكلُّ نَوْءٍ بمصرٍ جادَنى زمنًا فِداءُ نَوْءٍ سقانى الرِّىَّ فى حَلَبِ

وشاء له القدر أن يهدر مسئوليته لآل مرداس فى الأيام الأخيرة من حياته بعد أن أثروه — كما يقول ابن خلكان — وأسبغوا عليه نعما ضخمة ، مما جعله يبنى دارا فخمة له بحلب ، وكان قد كتب على بابها :

دارٌ بَنَيْناها وعِشْنا بها فى نعمةٍ من آل مِرْداسِ
قُلْ لبنى الدنيا ألا هكذا فليصنَعِ الناسُ معَ الناس

ولم ينفعهم ماصنعوه فبمجرد أن أزال مسلم بن قريش العُقَيْلى دولتهم استأذنه فى إنشاد مديحه . ومن المؤكد أنه ظل إلى سن الستين يستلهم العقيدة الإسماعيلية الفاطمية فى مدائحه لولاة الفاطميين بدمشق ووزرائهم بالقاهرة إما عن اقتناع بهاوإما رياء لذوى السلطان وقد تحدثنا عن هذه النحلة فى كتابينا « العصر العباسى الثانى » و « عصر الدول والامارات » وأوضحنا مبادئها وكيف أن داعيتها القداح اتخذ سَلَمْية بالقرب من حَماة مركزًا لها ، وكانوا يزعمون أن تاريخ العالم ينقسم إلى حلقات وكل حلقة يمثلها سبعة من الأئمة وسابعهم الإمام الناطق الذى ينسخ بشريعته الشرائع . وقالوا إن جسم الإمام ليس جسما ماديا ، بل هو شبح يكن فيه اللاهوت النورانى ويبالغ بعض شعرائهم فيزعم أن الإمام صفو شفاف لاتشوبه الأكدار ، فهو نورانى خالص . وأضفوا أسماء الله الحسنى فى القرآن الكريم على أئمتهم وجعلوهم علة الوجود ومدبّرى الكون إلى غير ذلك من مبادئ تصور غلوهم المفرط . ومن هذه المبادئ قَبَس ابن حَيُّوس فى مدحه للدِّزْبرى سنة ٤٢٧ قوله فى مديح المستنصر حين ولى الخلافة بعد أبيه الظاهر لدين الله :

أمَّتْ خلافتَه ريحُ النَّدَى يَسَرَا وظل نَشْرُ الدُّنا من نَشْرِها عَطِرا (١)
وخُصَّ بالشَّرف المحْضِ الذى ارتفعتْ له النواظرُ والنورِ الذى بَهَرَا
هُمُ الأُلى أخذ اللّهُ العهودَ لهم والناسُ ذَرٌّ على من بَرَّ أو فجرَا (٢)
لأجلهم خلقَ الدُّنْيا وأسْكَنَها وذَنْبُ آدمَ لولاهمْ لما غُفِرَا
وإن آلاءهُ مالا يحيط بها وَصْفٌ على أنها تَسْتنطق الحجَرا
مناقبٌ عددَ الأنفاسِ ما تركتْ لفاخرٍ من جميع الناس مفتخَرا

---

(١) أمت : قصدت ، يسرا : سهلا ، النشر : الريح الطيبة والطيب ، الدنا : جمع دنيا .

(٢) الذر : مايرى فى شعاع الشمس الداخل من النافذة .

وواضح أنه فى البيت الثانى يشير إلى اللاهوت النورى المتنقل فى الأئمة – بزعم الإسماعيليين – حتى انتهى إلى المستنصر . ويزعم أن الله اتخذ على الناس عهدا بطاعتهم قبل خلق العالم وأنهم علة الوجود ، ولولاهم لم يغفر ذنب أبيهم آدم . ويقول إن آلاء المستنصر ونعمه لا يحيط بها وصف وكأنها آلاء الله العلىّ . ويكثر ابن حَيّوس من ذكر إمام العصر وغياث المسلمين وتنقل النور فى الأئمة وأن طاعتهم فرض ، يقول للدزبرى فى إحدى قصائده :

ياسَيْفَ مَنْ عِصْيانُه ووِلاؤُهُ جَعلا شقيًّا فى الوَرَى وسعيدا

فالسعيد من أطاع الإمام الفاطمى والشقى حطبُ النار مَنْ عصاه . ونراه فى مديح الوزير اليازورى يحرضه مرارا على العراق وقد جعل موضوعا لقصيدة دالية له تدبير اليازورى المعروف لفتنة البساسيرى فى سنتى ٤٤٧ و٤٤٨ واستيلائه على بغداد والموصل ودعوته فيهما للخليفة الفاطمى ، وفيها يقول للخليفة العباسى القائم بأمر الله :

عجبتُ لمدَّعى الآفاق مُلْكًا وغايتُه ببغدادَ الرُّكُودُ
ومِنْ مُسْتَخْلَفٍ بالهون راضٍ يُذادُ عن الحِياض ولايذود

وهو يريد أن ملكه لايتجاوز بغداد ، وأنه يرضى بالخزى والذل والصغار إذ ليس فى يده من الحكم والسلطان شىء مع الملك السلجوقى طُغْرُلْبك . ومايزال يدور فى الفلك الإسماعيلى الفاطمى حتى سن الستين إذ ينزل حلب عند محمود بن نصر المرداسى وكان قطع الخطبة للخليفة الفاطمى المستنصر وخطب للقائم بأمر الله فأنشده مدحة يقول فيها :

ولك الأدلّةُ أوضحَتْ حتى رأى إثباتَ فَضْلك مَنْ رأى التعطيلا
غُرُّوا بأنْ شرَّقتَ عنهم مذهبًا فى الرَّأى ماعرفوا له تأويلا

وهو فى البيتين يعرِّض بالفاطميين وأنهم يدعون إلى تعطيل إرادة الله وإنفاذ إرادة الأئمة ، كما يدعون دعوة واسعة إلى التأويل فى القرآن الكريم حسب عقيدتهم ولأهوائهم ، وكأنه يريد أن يعلن تبرُّؤه منهم وأنهم ضالون مضلون . وأشعار ابن حَيُّوس تمتاز بالقوة والصلابة والجزالة والنصاعة ، ويستخدم فيها أحيانا المحسنات البديعية دون إسراف أو إفراط .

بهاء الدين[١] العاملى

هو محمد بن حسين بن عبد الصمد العاملى ، كان أبوه من فقهاء المذهب الإمامى الشيعى يتنقل فى بلدان الشام ولبنان ، ثم رحل إلى إيران فتنقل بين بلدانها وأوغل فيها حتى هراة فى أفغانستان . واستقر به المقام فى « البحرين » حيث توفى بها سنة ٩٨٤ وقد ولد له ابنه بهاء الدين فى بعلبك سنة ٩٥٣ وصحبه معه إلى إيران ، وحُبّبت إليه الرحلة مثل أبيه ، فجاب البلاد الإيرانية والعربية . وزار مصر وبها ألف كتابه « الكشكول » المنشور فى مجلدين كبيرين ، وهو موسوعة أدبية عرض فيها بهاء الدين معارفه أو قل بعض معارفه فى الحديث النبوى والدراسات الدينية واللغوية والصوفية والاعتزالية والفلسفية والهندسية والفلكية سوى مافيه من أشعار كثيرة تدل على ذوق جيد . وعلى غراره كتابه « المخلاة » . وبعد ثلاثين سنة من رحلاته فى البلاد الايرانية والعربية ألقى عصا تسياره فى أصفهان ، وقرّبه سلطانها شاه عباس وأكثر من إغداقه عليه ، وولاه مشيخة العلماء الإمامية فى أصفهان حتى وفاته سنة ١٠٣١ للهجرة . وفى أثناء إقامته بمصر انعقدت صداقة بينه وبين محمد بن الحسن البكرى وبالمثل انعقدت صداقة بينه وبين الحسن البورينى فى دمشق . وقد هيأته إمامية أبيه ونشأته فى إيران مركز المذهب الإمامى إلى أن يصبح فقيها إماميا كبيرا ، وإلى أن يؤلف كتبًا فى الحجاج للمذهب بالعربية والفارسية ، وله مؤلفات كثيرة فى التفسير وفى الأصول وفى الفقه وفى العربية وفى الفلك ، وكان شاعرا مبدعا .

ويقول الشهاب الخفاجى : « شعره باللسانين العربى والفارسى مهذب محرر ، وبالفارسية أحسن وأكثر » وأنشد له الخفاجى فى الريحانة وابن معصوم فى سلافة العصر والمحبى فى نفحة الريحانة وخلاصة الأثر أشعارا كثيرة تتناول أغراضا مختلفة : غزلا وخمرا ومديحا ورثاء ، وأنشد له مترجموه رباعيات متعددة . وهو فى شعره ليس إماميا فحسب ، بل هو إمامى غال . وكان الامامية يعتقدون أن إمامهم الثانى عشر محمدًا المهدى المنتظر لم يمت حوالى سنة ٢٦٨ وإنما اختفى وسيعود ، ويسمونه إمام[٢] الوقت وقائم الزمان ، ويؤمّنون أن بعض الصفوة من علمائهم على

---

(١) انظر فى بهاء الدين العاملى وشعره سلافة العصر لابن معصوم ص ٢٨٩ وريحانة لألبا للخفاجى ٢٠٧/١ ونفحة الريحانة ٢٩١/٢ وكتابه الكشكول (طبعة الحلبى) ١٧٦/١ ، ١٩٧ وفى مواضع متفرقة وخلاصة الأثر ٤٤٠/٣ وروضات الجنات ٥٣٢ والذريعة ٢٩/٢ ، ٢٤٠/٦

(٢) راجع فى إمام الوقت عند الإمامية الاثنى عشرية العقيدة والشريعة فى الإسلام لجولد تسيهر (طبع القاهرة) ص ١٩٧ ، ٣٤٤ وما بعدها

اتصال شخصى به وأنهم يستوضحونه بعض المسائل الشرعية ، ويفصح لهم عن رغباته وأوامره ، بل إنهم يجعلونه خليفة الله المصرف لشئون الكون والعباد ، ولبهاء الدين قصيدة عن هذا الإمام صاحب الزمان أو قائمه يغلو فيها هذا الغلو المفرط أنشدها فى كتابه الكشكول وفيها يقول :

خليفةُ ربٍّ العالمين وظِلُّهُ على ساكن الغَبْراء من كل دَيَّارِ[1]
هو العروةُ الوُثْقَى الذى مَنْ بذيلِهِ تمسَّك لايخشى عظائمَ أوزارِ
علومُ الوَرَى فى جَنْبِ أَبْحر علمِهِ كغَرْفَةِ كفٍّ أوكغمسة مِنْقارِ
به العالمُ السفلىّ يسمو ويعتلى على العالم العلوىِّ من غير إنكارِ
همامٌ لو السبعُ الطِّباقُ تطابقتْ على نَقْض مايَقْضيه من حُكْمه الجارى
لَنُكِّسَ من أبراجها كلُّ شامخٍ وسُكِّن من أفلاكها كلُّ دوَّارِ
أياحُجَّةَ اللهِ الذى ليس جاريًا بغير الذى يرضاه سابقُ أقدارِ
ويامَنْ مقاليدُ الزمانِ بكفِّهِ وناهيك من مجدٍ به خَصَّه البارى

وبهاء الدين يجعل محمدًا المهدى الغائب فى رأى الإمامية خليفة الله فى تنفيذ أحكامه على الناس وظله الذى يستظل به كل مظلوم ، ويجعله العروة الوثقى أخذا من الآية الكريمة : ﴿ ومَنْ يُسْلِم وَجْهَه إلى الله وهو محسنٌ فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ ويجعل من يتمسك به تغفر له ذنوبه ، ويبالغ فى سعة علمه اللدنِّى بالقياس إلى علم الناس الذى لايُعَدّ شيئا مذكورا بجانب بحار علومه . ويزعم أن العالم السفلى وهو الأرض شَرُف به وفضُل على العالم السماوى ، ويزعم أن السموات السبع لو اتفقت على نقض مايبرمه لانقلبت أبراجها وخرجت من قواعدها وسكن منها كل دائر متحرك من أبراجها . ويصفه بأنه حجة الله على الخلق وأن الأقدار الإلهية طوع أمره لا تعصاه أبداو أن مفاتيح الزمان وخزائنه بيده . والقصيدة تمتلئ بهذا الغلو المفرط الذى يجعل هذا الإمام لايزال حيا يصرِّف أمور الكون ، ويدبر شئون العباد ، ويعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء ، ومقاليد الدنيا بكفه ، وكل شىء يجرى فيها بإرادته ، وكأن قائم الزمان فوق جميع الأنبياء والمرسلين . وهو غلو ما يماثله غلو .

وطبيعى وقد بلغ بهاء الدين من الغلو فى عقيدته كل هذا المبلغ أن يدعو إلى سَبٍّ من وقفوا -

---

(١) ديار : ساكن دار . الغبراء : الأرض .

فى رأى الشيعة – ضد على وحقه فى الخلافة وفى مقدمتهم أبو بكر الصديق وعمر الفاروق على نحو مانلقاه فى مثل قوله :

يا أيها المدَّعى حبَّ الوصىِّ ولم ... يَسْمَح بسبٍّ أبى بكرٍ ولاعُمَرا
كذبتَ والله فى دعوى محبَّتِهِ ... تَبَّتْ يداكَ ستَصْلى فى غدٍ سَقَرَا
فإن تكن صادقا فيما نطقتَ بهِ ... فابْرأْ إلى الله ممن خان أوغدرا
وأنكرَ النصَّ فى خُمٍّ وَبيْعتهِ ... وقال إن رسول الله قد هجرا
أتيتَ تبغى قيامَ العذرِ فى فَدَكٍ ... أتحسب الأمرَ بالتمويهِ مستترا

وبهاء الدين يجعل سب أبى بكر وعمر فريضة مَنْ لم يؤدها صَلِىَ نار الجحيم وعذابها الأليم ، ويدعو صاحبه أن يبرأ من الشيخين الجليلين – كبرت كلمات خبيثة تخرج من فمه – ويعلل لما قاله بأنهما أنكرا نصَّ غدير خم ووصية الرسول صلى الله عليه وسلم فيه لعلى بالإمامة والخلافة ، وهو نص لم يثبت ، بل الثابت أن الرسول استخلف أبا بكر عنه فى الحج حتى إذا مرض استخلفه فى الصلاة كما هو معروف . وكل ذلك يؤذن بأن الرسول استخلف أبا بكر الصديق بعده واستخلف أبو بكر عمر ، وبهما انتشر الإسلام وفتح العالم القديمُ له أبوابه . ويتعلل بهاء الدين بأنهما منعا السيدة فاطمة الزهراء رضوان الله عليها من إرث فَدَك فَيْئ رسول الله ، وإنما منعاها بوصية الرسول – كما ذكرنا مرارا – إذ قال : « نحن معاشر الأنبياء لانورث ماتركناه صدقة » . ومامن ريب فى أن للشيخين الجليلين قدسية عظيمة فى نفوس المسلمين . ولعل فى كل ماقدمنا مايصور كيف أن بهاء الدين العاملى كان رافضيا غاليا فى الرفض ، سواء فى مهاجمته أبا بكر وعمر أو فى خلعه على الإمام القائم صفات الله وكأنه يشركه فى تدبير الكون وتسخير المقادير ، تعالى الله علوا كبيرا عن كل مالجَّ فيه من رفع إمامه الخفى عن المستوى البشرى حتى للأنبياء المصطفين الأخيار .

الفصل الرابع

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل

يكثر شعر الحب فى الأدب العربى منذ الجاهلية إلى اليوم كثرة مفرطة ، وحتى فى إغراض الشعر الأخرى مديحا وغير مديح يقدم الشعراء لقصائدهم فيها أبيات من الغزل أو النسيب جذبا للأسماع ، ولذلك لا نغلو إذا قلنا إن النسيب والغزل والحب يكاد يكون الغرض الأساسى للشعر العربى ، وهو أمر طبيعى لأنه يتناول عاطفة الحب الإنسانى الخالدة بجميع أحاسيسها ومشاعرها وانفعالاتها وانعكاساتها على حياة الشاعر المحب أو العاشق منذ تستهويه امرأة ، فيقع فريسة لحبها ، وتملأ قلبه وجدًا وشوقا إلى رؤيتها ، وقد تعرف منه هذا الحب فتلقاه أو تنظر إليه نظرة أو تومئ إليه إيماءة فيزداد ولعابها وغراما ، وقد تتدلل عليه وتمتنع وقد تنأى عنه وتهجره فتضطرم بين جوانحه نار شوق لا تخمد ، وعبثا يتذلل لها ويستعطف ويتضرَّع ، ومع ذلك لا يذوى الأمل فى نفسه بلقائها أبدا ، فهو دائما مؤمل فى اللقاء بعد الهجران وعلى الأقل فى الرؤية بعد الحرمان . وبلغ الحب ببعض الشعراء قديما حد الجنون ، واسم قيس مجنون ليلى يشيع على كل لسان ، فقد ظل يغنى باسمها وعيناه مصوَّبتان إلى خيالها ، فهو لا يرى فى ليله ولا فى نهاره سواها ، إذ تشغل من حوله كل وقت وكل مكان وهو يسبح فى البوادى معاشرًا آرامها ، إذ هجر حيَّها ، بل هجر عالم الإنسان ، إنه لا يعرف سوى عالمها ، فهو العالم الفسيح الذى لا يزال بصره فيه شاخصا إليها . أما عالم قومه أو بعبارة أخرى عالم الإنسان فما أضيق ساحاته ، وإنه ليفر منه منطويا على نفسه حالما بليلى وعالمها الساحر خالعا الوهم على الحقيقة ذاهلا عن كل ما حوله ذهول المجانين ، ولذلك سماه القدماء مجنون ليلى . وقلة فقط هم الذين بلغ بهم الحب هذا المبلغ المغرق فى الخيال ، ومع ذلك فكل محب يشعر كأن صاحبته فوق مستوى كل من حولها من الفتيات والنساء ، وكأنما تحيط بها

هالة سحرية ، وبذلك تستحيل فى خيال الشاعر المحب لها أو العاشق إلى كائن شعرى ساحر . وقد يفيق المحب من حبه وسحره ، وقد يظل رهينا به لا ينفك عنه أبدا ولا يفيق بتاتا .

ونستطيع أن نلاحظ ذلك على شاعر شامى من شعراء العصر العباسى الأول هو ديك الجن الحمصى ، فقد ظل يتغنى بمحبوبته « ورد » طوال حياته حتى بعد أن وسوس له شيطان الغيرة الحمقاء أن يحرقها ظلما وبهتانا ، فقد ظل يبكيها بكاء قلب مزقه الندم والألم . وظل البحترى مثله يتغزل بصاحبته « عَلْوة الحلبية » حتى شيخوخته على نحو ما صورنا ذلك فى كتابنا « العصر العباسى الثانى » . ومن المؤكد أن شعراء الغزل العربى — على مر الأزمنة — أتاحوا بحبهم وأشعارهم لغير امرأة أن تنال حظا من الشهرة قليلا أو كثيرا . ولولا ديك الجن ما اشتهرت « ورد » ولا عرفها أحد ولولا البحترى ما اشتهرت علوة ولا حفل بها أحد ، وقد ظلت دارها قائمة معروفة بحلب حتى زمن ياقوت صاحب معجم البلدان فى القرن السابع الهجرى . على أن بين الشعراء من لم يقتصر فى غزله على واحدة بعينها فتغزل بكثيرات وقليل منهم من نشعر عنده بلوعة حقيقية . ومنذ الجاهلية يتنوع الغزل ، ففيه العفيف النقى الذى أضاف إليه الإسلام بمثاليته عفة على عفة وطهرا على طهر ، والشاعر المحب يصور فيه وجده وهيامه وكلفه بصاحبته كلفا شديدا وعذابه فى هذا الكلف عذابا متصلا . وفى الغزل بجانب ذلك الغزل الحسى الذى يصور جمال المرأة ومفاتنها تصويرا ماديا تطغى فيه الغرائز وتجمح العواطف . وظل هذان النوعان : الملائكى الطاهر والمادى الصريح يتقابلان فى الغزل العربى طوال الحقب الماضية . والحديث عن الغزل وشعر الحب عند شعرائنا يطول فلندع ذلك إلى أمثلة مختلفة من غزل هذا العصر بديار الشام ، وأول ما نسوق من ذلك قول كُشاجم فى صاحبة له[1] :

السِّحْرُ فى ألحاظها الفاتكه ... والرُّوحُ من إعراضها هالكهْ
والقهوةُ الصَّهْباء من رِيقها ... والمسكُ من أصداغها الحالكه
مَنْ لم يرَ الدرَّ وتأليفَهُ ... فى سِلْكه فليرها ضاحكه
قد كتب الحسنُ على خَدِّها ... طُلَّ دمٌ أنتِ له سافكه

والأبيات تخلو من العاطفة المشبوبة ، إذ ليس فيها حرارة ، إنما فيها تشبيهات واستعارات

(١) ديوان كشاجم (طبع المطبعة الأنسية بيروت) ص ١٣٩ .

محفوظة ، فريق صاحبته خمر والشعر على أصداغها مسك وأسنانها درّ ، وربما كانت الصورة في البيت الأخير بديعة ، إذ تخيل كأن حمرة خديها الساطعة دم سفكته ، وهي مبالغة في الخيال والتصور . ولأبي فراس الحمداني أبيات فيها غير قليل من نشوة الحب وحرارته ، إذ يقول[١] :

سكرتُ من لَحْظِهِ لا من مُدامتهِ ومال بالنَّوم عن عيني تمايُلُهُ
وما السلافُ دهتْني بل سوالفُه ولا الشَّمول ازدهتْني بل شمائلُهُ
ألْوَى بِلُبِّيَ أصداغٌ لُوِين لَهُ وغال قلبيَ ما تحوي غلائلُه

وهو يقول إنه انتشى من لحظ صاحبته وعينيها الفاتنتين لا من الخمر الحقيقية ، ويقول ليست السلافة أو الخمر هي التي دهته بل صفحتا جيدها البديع ، وكذلك ليست الخمرُ أو الشَّمول هي التي استخفَّته بل خصالها الحلوة وما أروع أصداغ شعرها المنسدلة على خديها فقد ألوت وذهبت بلبه ، وما أجمل كل ما تشتمل عليه غلائلُها وثيابها مما سرق منه قلبه . وله مقطوعة وصف فيها ليلة من ليالي حبه على طريقة عمر بن أبي ربيعة[٢] ، إذ يقول إنهما ظلا يقتطفان زهرات الحب إلى أن بدا ضوء الصباح فتفرَّقا . ولابن زمرك موشحات وأشعار على هذا الغرار ، يحاكي فيها أبا فراس وابن أبي ربيعة ، وظن بعض المستشرقين أنها من تجديداته ، وهي قديمة في الشعر العربي . ولابن سنان الخفاجي[٣] :

أتُرَى طيفكمُ لما سَرَى أخذ النومَ وأعطى السَّهَرا
أم ذُهِلْنا وتمادى ليلُنا فتوهمنا العِشاءَ السَّحَرا
يا عيونًا بالحمى راقدةً حرَّم الله عليكنَّ الكرَى
سَلْ فروعَ البان عن قلبي فقد وَهِمَ البارقُ فيما ذكرا

وليس في الأبيات لهفة ولا لوعة ، ودعاؤُه على صاحبته أو صواحبه – في البيت الثالث – أن لا يذقن النوم دعاء ناب على ذوق المحبين . ولم يكن من أصحاب الحب . وإنما هي أبيات في الغزل أو النسيب كان يقدم بها لقصائده حكاية واقتداء بالشعراء قبله . ولابن الخياط أشعار غزلية

---

(١) ديوان أبي فراس الحمداني ٣٠٢/٢
(٢) ديوان أبي فراس ٣٩/٢ .
(٣) ديوان ابن سنان الخفاجي (طبع المطبعة الأنسية) ص٣٩

كثيرة يقدم بها لمدائحه نحس فيها لوعة المحب وحرقة فؤاده من مثل قوله[١] :

خُذَا من صَبَا نَجْدٍ أماناً لقلبهِ فقد كاد رَيَّاها يطيرُ
تذكُّرَ والذكرى تشوقُ وذو الهوى يتوقُ ومَنْ يَعْلَقْ به الحبُّ
غرامٌ على يأسِ الهوى ورجائهِ وشوقٌ على بُعْد المزار
إذا خطرتْ من جانب الرَّمْل نفحةٌ تضمَّن منها داءه دون
أغارُ إذا آنستُ فى الحيِّ أنَّةً حذارًا وخوفاً أن تكون

فحب صاحبته النجدية استأثر بقلبه حتى ليطلب له الأمان من صبا نجد مخافة عليه أن شَعاعا ، وإنه ليذكرها ليل نهار وتُصْبيه ، وييأس لهجرانها ولأسنة أهلها وسيوفهم كما يقو القصيدة . ويظل يرجو لقاءها وإنه ليتنسَّم فى الصَّبا المقبلة من ديارها نفحة من عطرها تحم نفس الداء ، داء الحب وعذابه . ويبالغ فى وصف غيرته عليها ، حتى ليخشى أن تكون ك يسمعها فى الحي من محب لها محموم بحبها ودائه العضال . ولمعاصره الغزِّى المتوفى سنة للهجرة[٢] :

إشارةٌ منكِ تغنينى وأحسنُ ما رُدَّ السلام غَدَاةَ البَيْن بالعَنَـ
حتى إذا طاح عنها المِرْطُ من دَهَشٍ وانحلَّ بالضَّمِّ سلكُ العقد فى الظُّلَـ
تبسَّمتْ فأضاء الليلُ فالتقطتْ حبَّاتِ مُنْتَثِرٍ فى ضوء مُنْتَـ

وهو تكفيه الإيماءة من بعيد والإشارة بالبنان الجميل الأحمر حمرة زهر العنم ، ويقول سقط عنها المرط أو الإزار وانحل سلك العقد الملتف حول جيدها ، وتبسمت فأضاء ظلام وأخذت تلتقط حبات العقد المتناثرة فى ضوء اللؤلؤ المنتظم فى ثغرها البرَّاق الفاتن .

ودخل القيسرانى مدينة أنطاكية فى أثناء حكم الصليبيين لها سنة ٥٤٠ لحاجة عرضت وكان فى الثانية والستين من عمره ، فنظم مقطَّعات يشبِّب فيها بإفرنجيات ، أشهرهن مغنية تد ماريَّا ، خلبت لبه ، وله فيها غزليات كثيرة ، ومن بديع غزله قوله[٥] :

---

(١) ديوان ابن الخياط ص ١٧٠
(٢) ابن خلكان ١/٥٩
(٣) العنم : نبات أزهاره قرمزية
(٤) المرط : كساء من حرير أو صوف تتلفع بـه
(٥) الخريدة (قسم الشام) ١/١٢٤

عفائفُ إلا عن مُعَاقرة الهَوَى ضعائفُ إلا فى مغالبة الصَّبِّ
ولما دنا التوديع قلتُ لصاحبى حنانيك سِرْ بى عن ملاحظة السِّرْبِ
تقضَّى زمانى بَيْنَ بَيْنٍ وهِجْرةٍ فحتامَ لا يصحو فؤادىَ من حُبِّ
وأهوى الذى يَهْوِى له البدرُ ساجدًا ألستَ ترى فى وجهه أثَرَ التُّرْبِ

والصورة فى البيت الأخير رائعة فقد جعل كلفة البدر من أثر الترب العالق بجبهته لتوالى سجوده لصاحبته ولجمالها الساحر . ويقول إن زمانه تقضَّى فى حرمان متلاحق من البعاد والهجرة المتصلة . وللعماد الخراط المتوفى سنة ٥٦٥ قوله[1] :

ألا هل لماضى العيشِ عندكِ مرجعُ وهل فيه بعد اليأس للصَّبِّ مَطْمَعُ
لقد أُولعتْ بالصَّدِّ عنى وإننى لفُرْقتها ، ما عشتُ ، بالوجد مولَعُ
أضاحكُ حُسَّادى فيغلبُنى البُكا وأكتمُ عُوَّادى وإنى لموجَعُ
إذا خطرتْ من ذكرها لىَ خطرةٌ تكاد لها أنياطُ قلبى تقطَّع

وهو يائس من اللقاء ومع ذلك لايزال حبل الرجاء ممدودا ، مع ولوعها بالصد عنه والإعراض ومع تعلقه بها ووجْده وجدا ملتاعا . ويضاحك حساده تمويها ويغلبه البكاء ويكاتم زواره وهو موجع القلب والحشا ، حتى إذا ذكر اسمها عفوا أحسَّ كأن نياط فؤاده وعلائقه تتقطع تحسرا ولوعة . وقد أنشد له العماد غزلا كثيرا . ويشكو ابن النقار كاتب الإنشاء الدمشقى المتوفى سنة ٥٩٢ شكوى مرة من صاحبته قائلا[2] :

مَنْ منصفى من ظالمٍ متعنِّتٍ يـزداد ظلما كلما حكَّمتُهُ
ملَّكته روحى ليحفظ مُلكَهُ فـأضاعنى وأضاع ما ملَّكته

وهى تظلمه ولا ترحمه ولا تعطف عليه أى ضعف ، وويل له لقد ملَّكها روحه لتحفظها وتصونها وتقوم بحقوقها فإذا هى تضيعها وتضيع صاحبها إذ أصبح خَواء بلا روح ، فما أشقاه . ويقول فتيان الشاغورى متغزلا[3] .

ومهفهفٍ بلغَ المنى بصفاتهِ حركاتُ غُصْنِ البان من حركاتِهِ

(١) الخريدة ١٣٧/٢
(٢) الخريدة ٣١٥/١
(٣) الديوان ص ٦٤

والشمسُ تخجَلُ من ضياء جَبينِهِ والجُلّنارُ يَغارُ من وَجناتهِ
أضحى الجمالُ بأسره فى أسره فكأن يوسف حاز بعضَ صفاتِهِ
لا تَطْمَعَنْ يا عاذلى فى سَلْوتى عنه فما أسلوه ، لا وحياته

وهو يصور صاحبته مهفهفة أو بعبارة أخرى ضامرة دقيقة الخصر بلغت كل ما تتمناه المرأة من حسن وجمال ، ويقول إن غصن البان الذى يميد ملاحة حركته مشتقة من حركاتها ، ويجعل الشمس تصفرّ خجلا من ضياء جبينها ، بينما يغار الجلنار أو بعبارة أخرى ورد الرمان وزهره الأحمر من وجناتها المشربة بالحمرة القانية ، ويجعلها تحوز الجمال بأسره ، حتى لكأن يوسف عليه السلام إنما حاز منه أطرافا ! ويتوجه إلى عاذله باللوم ، فلن يكفّ عن حبه ولن يسلو صاحبته أبدا .

ويقول بدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبى المتوفى سنة ٦٨٠ للهجرة(١) :

وتنبَّهتْ ذاتُ الجناح بسحرةٍ بالواديين فنبَّهتْ أشواقى
وَرْقاءُ قد أخذتْ فنون الحزن عن يعقوبَ والألحانَ عن إسْحَاق(٢)
أنّى تُباريني جَوًى وصبابةً وكآبةً وأسًى وفيضَ مآقى
وأنا الذى أملى الجوى من خاطرى وهى التى تُملى من الأوراقِ

وهو يقارن بين جواه وحبه وأساه ودموعه وبين جوى الحمامة الورقاء وصبابتها لأليفها وحزنها الدفين ، ويقول إنه يملى من خاطره حُرقته ولوعته ، بينما هى تملى من أوراق الشجر وتروى عنه ذلك الوجد . ويقول المحّار الحلبى المتوفى سنة ٧١١ للهجرة(٣)

ما بثَّ شكواه لولا مسَّه الألمُ ولا تأوَّه لولا شفَّه السَّقَمُ
ولا توهَّم أن الدمعَ مُهْجته أذابها الشوقُ حتى سال وهْو دَمُ
يُبْدِى التجلُّدَ والأجفانُ تفضحهُ كالبرق تبكى الغَوادى وهْو يبتسم
يمسى ويصبح لا صَبْرٌ ولا جَلَدٌ ولا قرارٌ ولا طَيْفٌ ولا حُلُمُ

والمحار يقول إنه لم يَشْكُ إلا بعد أن برح به الألم ولا أنَّ إلا بعد أن شفه السقم وما كان ليتوهم

---

(١) الخزانة ص ٣٢٦

(٢) يعقوب هو النبى يعقوب وبكاؤه على ابنه يوسف حتى ابيضت عيناه من الحزن معروف.. وإسحاق هو إسحاق الموصلى أشهرَ المغنين الملحنين فى العصر العباسى .

(٣) فوات الوفيات ٢٢١/٢

أن نار الهوى أذبت مهجته حتى سال الدمع دمًا قانيا . ويمسى ويصبح وقد عزه الصبر والتجلد وتملكه قلق لا حدَّ له ، وضاع منه كل شيء حتى الطيف فى المنام ، وحتى الأحلام إذ لا يزال مسهَّدًا لاينام .

ونمضى إلى زمن العثمانيين ونجد الغزل وشعر الحب على كل لسان من مثل قول فتح الله بن النحاس المتوفى سنة ١٠٥٢ للهجرة[1] :

طرقتْ طروقَ الطيفِ وَهْنًا ... مَيَّالةُ الأعطافِ حُسْنا
مَصْقُولةُ الخَدَّين مثـ ... ـل السَّيف ألحاظاً ومَتْنا
فى حُلَّةٍ من جِنْسِ ما ... يكسو الربيعُ الغُصْنَ دَكْنا
الدَّلُّ يَسْنُبت من مسا ... حبِ ذَيْلها والحُسْنُ يُجْنَى
لو خاطبتْ وَثَناً لحـ ... ـنَّ مع الجمود لها وأَنَّا

وليس فى القطعة لوعة ، بل هو يصف جمال صاحبته ودلَّها وحسنها ، ويقول : لو خاطبتْ وثنا من الأحجار لحنَّ لها وأنَّ أنينا لا ينقطع . ولم يكن فتح الله بن النحاس من شعراء الحب والوجد مثل محمد الحشرى المتوفى سنة ١٠٩٢ للهجرة القائل[2] :

مَنْ عَذيرى فى حبِّ طفْلٍ لعوبٍ ... عوَّدوه سَفْكَ الدِّما فحَلاَ لَهْ
كلما صَدَّ عن سوايَ دَلالاً ... صَدَّ عنى تبرُّمًا وملالَهْ
لست أنسى يوم الفراق وقد أدْ ... رك من شملنا النَّوى آمالَهْ
غَصَب البَيْنُ من يدى كلَّ قَدٍّ ... سرقَ الغُصْنُ لينَه واعتدالَهْ
مَرَّ نَشْوانَ من جَوًى يتثنَّى ... ثَقَّل الوردُ غُصْنَه فأمالَهْ

والقطعة تزخر بتصاوير بديعة ، تصور خصب الخيال عند الحشرى ، فقد عوَّدوا صاحبته الطِّفلة الناعمة الرقيقة سفك الدماء فحلالها أن تديم هذا السفك . ويزعم أن الغصن سرق لينه واعتداله من قد صاحبته وقوامها اللين الممشوق وينفذ إلى صورة طريفة ، فصاحبته تتثنى لثقل الورد المتوهج على خدودها الفائقة . وحرى بنا أن نترجم فى إجمال لبعض شعراء العصر الغزلين .

---

(١) نفحة الريحانة (طبعة الحلبى) ٢/٥٢٧ .

عبد[1] المحسن الصورى

هو عبد المحسن بن محمد الصورى ، أحد الشعراء المجيدين المبدعين ، وفيه يقول الثعالبى : « أحد المحسنين الفضلاء المجيدين الأدباء ، وشعره بديع الألفاظ حسن المعانى رائق الكلام ، مليح النظام ، من محاسن أهل الشام » ويقول ابن خلكان : « له ديوان شعر أحسن فيه كل الإحسان . توفى سنة ٤١٩ وعمره ثمانون سنة أو أكثر » ، وكان ابن حَيُّوس الذى ترجمنا له بين شعراء الشيعة مُغْرَى بشعره ، وكان يفضله على أبى تمام والبحترى والمتنبى . ويُرْوَى أنه مرَّ فى طريقه إلى حلب بشاعر المعرَّة بل الشام بل العالم العربى لزمنه : أبى العلاء ، وجرى بينهما حديث فى الشعر والشعراء وعاب أبو العلاء عبد المحسن الصورى بقصر أشعاره وأنه لا ينظم فى الغالب إلا مقطَّعات فقال له ابن حيوس : هو أشعر من طويلك يقصد المتنبى ، فمدَّ إليه أبو العلاء يده وقبض على أعلى ثوبه قائلا : الأمراء لا يناظرون ، يعنى أنه لا يقارَن بالمتنبى . وكان أبو العلاء معجبا بالمتنبى إعجابًا شديدا حتى سمى شرحه لديوانه باسم معجز أحمد . على أن قصر أشعار عبد المحسن الصورى لا يدفع أنه مجيد فى قصاره إجادة رائعة . وهو فيها يقترب فى فنه من أبى تمام فى دقائق تصاويره وأخيلته .

ولعل ذلك ما جعل ابن خفاجة الأندلسى يعجب بأشعاره حتى ليقرنه فى مقدمة ديوانه بالشريف الرضى ومهيار قائلا : إنه تملَّكته فى شبابه محاسن أشعارهم الرائعة الرائقة ، وألفاظهم الشفافة الشائقة . ويتوقف مرارا فى ديوانه ليدلنا على أن عبد المحسن الصورى ألهمه هذه المقطوعة أو القصيدة أو تلك ، وهو فيها جميعا يتغزل غزلا رقيقا ممتزجا بالطبيعة وجمالها الهاجع فى الكون ، وكأنه يضع أيدينا على خصائص عبد المحسن فى غزله ، فهو فيه يمزج بين المحبوب وعناصر الطبيعة مزجا فيه كثير من الطرافة فى التصوير كقوله :

بالذى ألهم تَعْذيـ ـبى ثناياكِ العِذابَا
والذى ألْبس خَدَّيْـ ـكِ من الورد نِقابا
والذى صيَّر حظِّى منكِ هَجْرا واجتنابا
يا غزالاً صاد باللَّحْـ ـظِ فؤادى فأصابا
ما الذى قالته عينا كِ لقلبى فأجابا

(١) انظر فى ترجمة عبد المحسن الصورى وأشعاره اليتيمة ٢٩٦/١ وتتمة اليتيمة ص ٣٥ وابن خلكان ٢٣٢/٣ وعبر الذهبى ١٣١/٣ والنجوم الزاهرة ٢٦٩/٤ ومرآة الجنان ٣٤/٣ والشذرات ٢١١/٣ وديوانه مفقود .

فهو يصل بين رُضاب الثنايا فى ثغر صاحبته وبين المياه العذبة الحلوة ، ويجعل الحمرة على وجنتيها وردا تنتقب به . وهو بعد فى التصوير . ويجعلها غزالا من نوع غريب ، فهى غزال لا يُصاد ، بل يصيد بشباك لحظه ، وإنه ليخلب القلوب فتلبيه طائعة مستجيبة .

وقد استلهم ابن خفاجة هذا الجانب فى غزل عبد المحسن الصورى واستضاء به ، كما استضاء واستلهم فى أشعار أخرى له جانبا ثانيا فى غزل عبد المحسن ، ونقصد جانب الرقة والدماثة والنعومة على نحو ما نجد فى قوله :

أَتُرَى بثأرٍ أم بِدَيْنِ ... علقتْ محاسنُها بِعَيْنِى
فى لحْظِها وقَوامِها ... ما فى المهنَّد والرُّدَيْنِى
وبِوَجْهِها ماءُ الشبا ... بِ خليطُ نار الوَجْنَتين
بكرتْ علىَّ وقالتِ اخْـ ... ـتَرْ خَصْلَةً من خَصْلتين
إما الصدودُ أو الفرا ... قُ فليس عندى غيرُ ذَيْنِ
فأجبتُها ومدامعى ... منهلَّةٌ كالمِرْزَمَيْنِ(١)
لا تفعلى إن حان صَـ ... ـدُّكِ أوفراقُك حان حَيْنِى
وكأنما قلتُ اذهبى ... فمَضَتْ مسارعةً لِبَيْنِى

والأبيات تسيل رقة وعذوبة ، مما يجعلها تطير من الفم بخفة طيرانا لرشاقتها ونعومتها ، والألفاظ مختارة اختيارا دقيقا ، وبالمثل موسيقاها الخفيفة المقتطفة من وزن الكامل المجزوء . وكان يعرف كيف يختار موسيقاه ولحونها وأنغامها ، وكيف يختار لها الألفاظ التى تمكن لها بحلاوتها وعذوبتها فى الآذان ، بل فى القلوب والأفئدة . ويقول فى صُدْغ شعر مرسل بين أذن صاحبته ووجنتيها وقد توقف مائلا منحنيا :

جَنَى ما جَنَى وانْصَرَفْ ... وأنكرَ ثم اعترفْ
سلوا صُدْغه لِمْ جَرَى ... ولما جَرَى لِمْ وَقَفْ
وكان على أنَّه ... يجوز المَدَى فانْعَطَفْ

وهو تصوير بديع لهذا الصدغ وانعطافه ذات اليمين أو ذات اليسار دون استرساله ، وكأنه لجماله وحسنه كان ينتظر أن لا ينعطف ، وقد بث فيه حركة طريفة فهو يجرى ثم يقف ، وهو يسترسل ثم

(١) المرزمان : نوءان شديدا المطر

ينعطف . وكان الشعراء يغارون على صواحبهم ، ويذكرون ذلك فى أشعارهم ، أما عبد المحسن فيقول :

تعلَّقتُه سكرانَ من خمرة الصِّبا ... به غفلةٌ عن لوعتى ولهيبى
وشاركنى فى حبِّه كلُّ أغيدٍ ... يشاركنى فى مهجتى بنصيب
فلا تُلزمونى غيرةً ما عرفتها ... فإن حَبيبى مَنْ أحبُّ حبيبى

وهو فى ذلك رقيق منتهى الرقة ، فهو لا يغار ممن يحب حبيبه ولا يكرهه أو يمقته ، بل أعجب العجب أنه يحبه ، وهى مبالغة مفرطة فى الرقة ورهافة الشعور .

ابن (١) منير

هو أحمد بن منير الطرابُلسيّ ، ولد فى طرابلس سنة ٤٧٣ لأب كان ينشد الأشعار ويغنى فى أسواقها ، وأخذ ابنه فى نشأته بالتعليم فحفظ مثل لداته القرآن الكريم ، وتعلم اللغة والأدب وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، وقدم دمشق وسكنها . ويقول العماد الأصبهانى كان شيعيا غاليا ، ويقول ابن خلكان : «كان رافضيا» . وكان هجاء خبيث اللسان ، وكثر هجاؤه فسجنه بورى بن طُغْتكين صاحب دمشق (٥٢٢ — ٥٢٥ هـ) وعزم على قطع لسانه ، وشفع فيه الحاجب يوسف بن فيروز ، فأطلقه بورى على أن يغادر دمشق ، ورجع إليها بعد وفاته . غير أن حكامها بعد بورى ظلوا ينفونه مرارا ، مما جعله ينزل فى بلدان شامية متعددة وخاصة حماة وشَيْزر ومدح كثيرين من حكام البلدان الشامية وخاصة أمراء شيزر ، وكان فى أثناء مقامه بتلك المدينة يتردد على حلب. وتغنى طويلا بانتصارات عماد الدين زنكى على الصليبيين فى بادين وغيرها من ساحات الحرب فى الشام . وجلجل بصوته حين فتح مدينة الرُّها وأزال منها إلى غير رجعة إحدى الممالك التى أسَّسها حملة الصليب . وأقام ابن منير حينئذ بحلب ، ونشأت بينه وبين ابن القيسرانى — بسبب المنافسة — معركة هجاء حامية الوطيس . وتوثقت العلاقة بينه وبين نور الدين بعد وفاة أبيه زنكى ، وأشاد ببطولته وانتصاراته على حملة الصليب ، وكان يصحبه فى غزواته ، واتخذه نور الدين سفيرا إلى حاكم دمشق فى بعض المهام ، ولم يلبث أن توفى بحلب سنة ٥٤٨ .

---

(١) انظر فى ابن منير وشعره الخريدة (قسم الشام) ٧٦/١ وابن خلكان ١٥٦/١ وابن القلانسى ٣٢٢ والنجوم الزاهرة ٢٩٩/٥ وشذرات الذهب ١٤٦/٤ .

وتناول ابن منير فى شعره أغراضا مختلفة فى مقدمتها المديح ، ومرَّ بنا – فى غير هذا الموضع – حديث عن مديحه لعماد الدين زنكى وابنه نور الدين فى انتصاراتهما الرائعة على حَملة الصليب ، ويُشيد العماد الأصبهانى بشعره وروعته . وكان يكنى أبا الحسن ويلقَّب المهذب وقال فى وصف شعره أحد معاصريه : شعره ككنيته حسنٌ ونظمه كلقبه مهذبٌ ، أرقُّ من الماء الزُّلال ، وأدق من السحر الحلال ، وأطيب من نَيْل الأمنية ، وأعذب من الأمان من المنية . وله هجاء كثير . وكان يجيد الغزل وشعر الحب إلى أبعد حد ، وفى رأينا أن مرجع ذلك إلى حزن تنطوى عليه نفوس الشيعة جميعا منذ مقتل الحسين ، وهو حزن صفَّى مشاعره ورقق أحاسيسه وملأه بوجد متقد لا تخمد ناره ، ومن رائع غزله قوله :

مَنْ ركَّبَ البَدْرَ فى صَدْرِ الرُّدَيْنِىِّ ومَوَّه السحرَ فى حَدِّ اليمانىِّ
وأنزل النَّيِّرَ الأعلى إلى فَلَكٍ مَدارهُ فى الكِساء الخُسْرُوانىِّ
طَرْفٌ رَنَا أم قِرابٌ سُلَّ صارِمُهُ وأغيدٌ ماسَ أم أعطافُ خَطِّىِّ
أذلَّنى بعد عزٍّ والهوى أبدًا يستعبد اللَّيْثَ للظَّبْىِ الكِناسىِّ[1]
أما وذائبِ مسكٍ من ذوائبهِ على أعالى القضيبِ الخَيْزُرانىِّ
وما يُجنُّ عقيقىُّ الشِّفاه من الـ ـرِّيق الرَّحيقىِّ والثَّغر الجُمانىِّ
أربَى علىَّ بشتّى من محاسنه تألَّفتْ بين مسموعٍ ومَرْئىِّ

والصور فى الأبيات طريفة غاية الطرافة ، فهو يتعجب من بدر يراه فى صدر رمح ردينى مهيَّىء لإصابة المحب فى الصميم ، وإنه ليعجب أن يكون سحر العينين مموَّهًا فى حد السيف اليمانى وأن يرى القمر أمام عينيه يدور على الأرض فى كساء فارسى حريرى . ويعجب هل العين طرف يديم النظر أو غمد سُلَّ سيفه القاطع ، وهل هو بإزاء قَدٍّ شائق ناعم يتثنى أو بإزاء أعطاف رمح خَطِّىٍّ قاتل ، ويقول إن الهوى يستعبد الليث الفاتك للظبى الوادع الذى يعيش فى كناسه أو مأواه الآمن ، ويرى ذوائب الشعر على أعالى هذا الغصن الخيزرانى الأملس الناعم تقطر ذوب المسك ، أما الشفاه فوراءها الثغر الفضى من الأسنان والريق الرحيق السائغ . وهى صور تدل على خصب الخيال عند ابن منير وقدرته على عرض الصور الشعرية عرضا طريفا . ويقول :

أتُرَى يثْنيه عن قسوتهِ خَدُّه الذائب من رِقَّتهِ

(١) الكِناس : مأوى للظبى فى الشجر يستتر به

أفأستنجده وهو الذى لوّن اللمعَ على صِبْغَتِهِ
ولهذا قَوْسُــــه مُوتَــرةٌ تستمدُّ النَّبْلَ من مُقْلتِهِ
قمرٌ لا فخرَ للبَدْرِ سوى أنه صِيغَ على صورته
صُدْغُه كرمةُ خمرٍ قُسِّمتْ بين خَدَّيْه إلى نكهتِهِ
أتظنُّ الخالَ يعلو خدَّه نَقْطَ مسْكٍ ذاب من طُرَّته
ذاك قلبى سُلِبَتْ حَبَّته واستوتْ خالا على وَجْنَتِهِ

والقطعة تموج بالصور ، فخدُّ صاحبته يذوب رقة ، وقد لون دموعه بلونه الأحمر القانى ، وإن قوس حاجبها لمشدود والنبل فى مقلتها يستمده . وقد بلغت من الجمال وسحره مبلغا عظيما حتى ليفخر البدر بأنه صيغ على صورتها ، وكأن صدغيها أو خصلتى الشعر المرسلتين على خديها كَرْمَةُ خمرٍ قسمت بينهما واستحالت رضابا فى ثغرها يرشفه المحب . ويقول : لا تظن الخال على خدِّها نقطة مسك سقطت من طُرَّة شعرها ، بل هو حَبَّة فؤاده سلبتها من قلبه وأتاحتها لوجنتها الفاتنة . وتكثر مثل هذه الصور البديعة فى شعره وغزله ، من ذلك قوله :

وتوقَّدتْ فى الرَّوْضِ من وجَناتهِ نارُ الحياء يشُبُّها ماءُ الصِّبا[1]

وقوله :

وكم له فى كبدى لَسْعَةٌ بُرودها الدِّرْياقُ من فيهِ[2]

وقوله :

سلَّمتُ فازورَّ يَزْوِى قوسَ حاجبِهِ كأننى كأسُ خمرٍ وهو مخمورُ

وقوله :

قمرٌ ما طلعتْ طَلْعَتُهُ قطُّ إلا سجدَ البدرُ لها

وغزلياته تتردد بين الجزالة والنصاعة فى الألفاظ وبين الرشاقة والعذوبة ، وله قصيدة رائية من مجزوء الكامل فى مملوكه « تتر » أنشدها الحموى فى خزانته تدل على خفة روحه وميله إلى الدعابة ، وبحق كان شاعرا بارعا من شعراء زمنه .

---

(١) يشبها : يوقدها .
(٢) برودها : شرابها . الدرياق : الترياق الشافى

الشاب[1] الظريف

هو شمس الدين محمد بن عفيف الدين سليمان التلمسانى ، نشأ أبوه فى دمشق ، وخدم الدولة فى عدة جهات ، وعمل كاتبا وشيخا للصوفية وانتظم فى سلكهم ، ووفد على القاهرة ونزل بها فى خانقاه الصوفية الكبيرة المعروفة باسم «سعيد السعداء» وولد له حينئذ ابنه شمس الدين سنة ٦٦١ . وعنى بتربيته وبدأ بحفظ القرآن الكريم ، حتى إذا أتمه أخذ يختلف إلى حلقات الشيوخ ، وتفتحت ملكته الشعرية مبكرة ، وأخذ ينظم مدائح وغير مدائح ، غير أن أباه رأى أن يعود إلى دمشق وعاد معه وظل يذكر صباه بمصر فى مثل قوله :

يا ساكنى مصرَ شَمْلُ الشوقِ مجتمعٌ بعد الفراق وشملُ الشكر أجزاءُ

والتحق أبوه بالدواوين فى دمشق ، وولى هو عمالة الخزانة بها ، وعاش مكفوف الرزق ، وأفضى مع أنداده من شباب دمشق إلى حياة فيها غير قليل من اللهو يجتمعون فى دورهم أو فى المتنزهات ، غير أنه لم يعش طويلا ، إذ عاجلته المنية فى الثامنة والعشرين من عمره سنة ٦٨٨ .

وقد تناول الشاب الظريف فى شعره أغراضا مختلفة من المديح وغير المديح ، وأهم غرض أبدع فيه واشتهر به بين معاصريه ومن جاءوا بعدهم الغزل ، لسبب طبيعى وهو أنه طالما تردد على سمعه شعر أبيه الصوفى وغيره من أشعار ابن الفارض وابن عربى ، وكأنما تمثل ما فى أشعارهم جميعا من وجد قوى حار ، وبثَّ منه الكثير فى غزله ، مصورا ما يثير الحب فى القلوب من المشاعر والعواطف والأهواء ، عارضا ذلك فى لغة عذبة سهلة تلذ الألسنة والآذان والأفئدة . وفيه وفى شعره ورقته ينقل ابن شاكر عن ابن فضل الله العمرى صاحب مسالك الأبصار قوله عنه وعن شعره :

«نسيم سَرى ، ونعيم جرى ، وطيف لايل أخف موقعا منه فى الكَرَى ، لم يأت إلا بما خف على القلوب ، وبرئ من العيوب ، رقَّ شعره فكاد أن يُشْرَب ، ودقَّ فلا غرو للقُضُب (الأغصان) أن ترقص والحمام أن يطرب ، ولزم طريقة دخل فيها بلا استئذان ، وولج القلوب ولم يقرع باب الآذان .. وأكثر شعره بل كله رشيق الألفاظ ، سهل على الحفَّاظ ، لم يخلو من الألفاظ العذبة ، وما تحلو به المذاهب الكلامية ، فلهذا علق بكل خاطر ، وولع به كل ذاكر»

---

(١) انظر فى الشاب الظريف وأشعاره فوات الوفيات لابن شاكر ٤٢٢/٢ والنجوم الزاهرة ٣٨١/٧ وتاريخ ابن الفرات ٨٥/٨ والخزانة لابن حجة الحموى ص ٢٥١ وما بعدها وديوانه مطبوع بالمطبعة الأهلية ببيروت .

وهى شهادة قيمة لابن فضل الله فى الشاب الظريف وشعره غزلا وغير غزل ، إذ يموج شعره بالرقة وحسن الجرس وجمال التناسق ، مع خفة الروح ، وكأنما حمل فى صباه منها غير قليل من أهل القاهرة الذين عاشرهم فى نشأته ومطالع حياته ، ومن طريف غزله قوله :

لا تُخْفِ ما فعلتْ بك الأشواقُ　　واشْرَحْ هَواك فكلُّنا عُشّاقُ
فعسى يُعينك من شكوتَ له الهَوَى　　فى حَمْله فالعاشقون رفاقُ
لا تجزعَنَّ فلستَ أولَ مُغْرَمٍ　　فتكتْ به الوجناتُ والأحْداق
واصبرْ على هجرِ الحبيب فربما　　عاد الوصالُ وللهوى أخلاق
يا ربَّ قد بَعُدَ الذين أحبُّهم　　عنى وقد ألفَ الفراقَ فراقُ

والأبيات تسيل رقة وعذوبة ، وهى تلتصق بالنفس لا لما قاله ابن فضل الله العمرى من أن الشاب الظريف كان يستخدم الكلمات العامية ، فليس فيها من العامية شيء ، وربما كان أدق من ذلك أن نقول إنه كان يستخدم أساليب وألفاظا أشبه بألفاظ وأساليب اللغة اليومية المتداولة على ألسنة العامة مع أنها عربية فصيحة ، مما يُشيع الاستواء فى عباراته وانسجامها انسجام الماء العذب فى تحدره ورقته وانطلاقه دون أى عائق لفظى ، بل مع العذوبة والحلاوة والرشاقة ، على شاكلة قوله :

أعـزَّ الله أنصـار الـعيـونِ　　وخلَّدَ ملكَ هاتيك الجُفونِ
وضاعفَ بالفتور لها اقتدارًا　　وإن تلك أضعفتْ عقلى ودينى
وأبقى دولةَ الأعطاف فينا　　وإن جَارتْ على قلبى الطَّعين
وأسبغَ ظلَّ ذاك الشَّعْرِ منه　　على قَدٍّ به هَيَفُ الغصون

وهو دعاء لصاحبته ملىء بالظرف والرِّقَّة والدماثة ، فهو يدعو لأمثاله من العشاق المفتونين بسحر العيون أن يعزهم الله وأن يخلد للعيون أو الجفون هذا الملك العريض من عالم الجمال والسحر ، ويدعو للعيون أن تزداد فتورا حتى يزداد سحرها وشروه تأثيرا فى القلوب . ويدعو لمثل قوامها وأعطافه أو جوانبه البديعة بالحياة السعيدة وإن أصابته فى الصميم : فى قلبه . ويستمر فى دعائه : أن يسبغ الله ظل ذاك الشعر على قدها الأهيف الضامر ضمور الغصون اللدنة المليئة بالنضرة ، ويقول :

لى من هواك بَعيدُه وقريبُهُ ولك الجمالُ بديعُه وغريبُهُ
يا من أعيذُ جماله بجلالِهِ حذرًا عليه من العيون تُصيبُهُ
إن لم تكن عينى فإنك نورُها أو لم تكن قلبى فأنت حَبيبُهُ
هل حرمةٌ أو رحمةٌ لمتيَّمٍ قد قَلَّ منك نصيرُه ونصيبُه
لم يبق لى سرٌّ أقول تذيعُه عنى ولا قلبٌ أقول تُذيبهُ
والنَّجْمُ أقْربُ من لِقاك مَنالُه عندى وأبعدُ من رضاك مَغيبُه

والأبيات تسيل رقة ونعومة وهو فيها يحوط صاحبته بكل ما يستطيع من شباك التضرع والاستعطاف ، فهو عاشق واله ، وهى ليست جميلة فحسب بل هى أيضا جليلة ، وهو يعيذ جمالها بجلالها حذرا من عيون الحاسدين . وهى نور عينه وَحبَّة قلبه ، وهو يسألها متوسلا بالرحمة أوحرمة الحب لعلها تنيله شيئا من الود ، ويعترف بأن آلامه فى حبها ذاعت وشاعت ، وقلبه يصلى نار حبها حتى ذاب التياعا لطول يأسه من لقائها حتى ليظن أن النجم أقرب من لقائها منالا وأبعد من رضاها مغيبا . وهو فى غزله دائما ينصب شباك هذا التضرع الطريف كقوله :

بِتَثَنِّى قوامك الممشوقِ وبأنوار وجهك المعشوقِ
جُدْ بوصلٍ أوزورةٍ أو بوعدٍ أوكلامٍ أو وقفةٍ فى الطريقِ
أو بإرسالك السلامَ مع الرِّ يح وإلا فبالخيالِ الطَّروقِ

وتدل تمنياته فى وضوح على خفة ظله ، وأنه رقيق رقة مفرطة مع الدماثة والظرف والتدله فى الحب واتقاد جذوته فى فؤاده . ولكل ذلك سماه معاصروه بحق « الشاب الظريف » . وله وراء ما ذكرنا من شعره موشحات ورباعيات بنفس الروح ونفس اللغة .

حسن[1] البورِينىّ

هو حسن بن محمد البورينىّ ، ولد بالأردن فى قرية صَفُّورية لسنة ٩٦٣ للهجرة ، ونزل مع أبيه دمشق وهو غلام ، واختلف فيها إلى حلقات العلماء ، ولم يلبث أبوه أن بارحها إلى بيت

---

(١) انظر فى حسن البورينى وشعره ريحانة الألبا ٤٢/١ وخلاصة الأثر ٥١/٢

المقدس ، وفيه أتم تعلمه . وعاد إلى دمشق فاشتغل فيها بالتدريس فى مدارسها والوعظ فى مساجدها . وتولى منصب القضاء فى الحج الشامى سنة ١٠٢٠ . وكان عالما ثبتا حُفَظَةً فصيح العبارة . وله شرح على ديوان ابن الفارض الصوفى بحسب المعنى الظاهر ، دون أى محاولة لإقحامه بين المتصوفة المتفلسفين أصحاب أفكار الحلول ووحدة الوجود . وكان سُنّيًّا شافعيا . وله كتاب فى تراجم الأعيان لا يزال مخطوطًا بدار الكتب المصرية ، وأفاد منه المحبى فى كتابه خلاصة الأثر .

وكان البورينى شاعرًا مجيدًا ، وجمع ديوان شعره ، ومنه مخطوطة فى مكتبة كوبريلى بالآستانة ، ويقول فيه الشهاب الخفاجى : « ديباجة الدنيا ومكرمة الدهر ، ونكتة عطارد التى يفتخر بها الفخر » وروى له طائفة من غزله ، وهو فيه يستقى من نفس المعين الذى استقى منه الشاب الظريف ، ونقصد معين الشعر الصوفى وما فيه من وجد ملتاع ، ويكفى أنه قرأ ديوان ابن الفارض بل لقد شرحه ووقف عند كل معنى من معانيه وكل لفظ من ألفاظه ، فطبيعى أن يتأثر بحبه الإلهى الظامئ أبدا وما فيه من خوالج وخواطر لا تكاد تحصى ، تصور الحب الملتاع الذى يصحبه دائما الفراق والحرمان ، فما يكاد يهنأ بالحب لحظة حتى ينعَق له غراب البين ، ويظل فى نعيقه وهو يتلهف أشد التلهف على رؤية صاحبته بمثل قوله :

يقولون فى الصبح الدعاءُ مؤثِّرٌ فقلت نعم لوكان ليلى له صُبْحُ
وياعجبًا منِّى أرومُ لقاءهُ وفى جَفْنه سَيْفٌ ومن قَدِّه رُمْحُ
وإنسانُ عينى كيف ينجو وقد غدا يطول له فى لُجِّ مَدْمعه سَبْحُ
وليس عجيبا أنَّ دمعىَ أحمرٌ وفى مهجتى قَرْحٌ وفى مقلتى رَشْحُ

فهو يعيش بدون صاحبته فى ليل لا آخر له ، ويعجب كيف يريد لقاءها وهى مُسلحة بجفنها الساحر وقوامها الممشوق ، إنه لم يعد له منها سوى الدموع التى يغرق فيها إنسان عينيه ، ومازالت عيناه تدمع حتى استحال دمعها دما ، ويشعر كأن فى مهجته جرحا لا يبرأ وفى مقلته رشحًا لا يرقأ . ويقول :

وكنّا كغُصْنَىْ بانةٍ قد تألّفا على دَوْحَةٍ حتى استطالا وأَيْنَعا
يغنِّيها صَدْحُ الحمامِ مُرَجِّعًا ويسقيها كأسُ السحائب مُتْرَعا
سليمين من خَطْب الزمان إذا سَطَا خَلِيَّيْنِ من قول الحسودِ إذا سَعَى

ففارقنى من غير ذنبٍ جَنَيْتُهُ وأبقى بقلبى حُرْقةً وتوجُّعا
عفا الله عنه ما جَناه فإننى حفظتُ له العهدَ القديمَ وضَيَّعَا

وهى قطعة طريفة ، إذ يتصور البوريني أنه هو وصاحبته كانا مثل غصنين لشجرة ضخمة من شجر البان وُلدا معا وعاشا معا صيفا وشتاء وتغذيا معًا وتناولا الحياة تناولا واحدا ، ينعمان بشدو الحمام وينهلان من كئوس السحاب منتشين هانئين ، لا عذول ولا حسود . وفجأة تهجره صاحبته من غير ذنب جناه . ويصطلى قلبه بنار الحب المحرقة وأوجاع الهجران المؤلمة ، ومع ذلك يدعو الله أن يغفر لصاحبته جنايتها ، إذ ضيعت العهد والميثاق القديم ، أما هو فلا يزال ذاكراً له بل حافظا أمينا . ويقول :

منازلُ هذا القلبِ كنَّ أواهلاً وها هى من بعد الفراق طُلولُ
ويا ظَبْىُ هل بعد النِّفار تأنُّسٌ ويا بدرُ هل بعد الأفول قفولُ
ويامنزلَ الأحباب أين ترحَّلوا وهم فى فؤادى – ما حييتُ – نزولُ
يميلون عنى للوشاة وإننى إليهم وإن طال الصدود أميل
علىَّ لهم حفظُ الوداد وإنْ جَنَوْا وليس إلى نَقْض العهود سبيلُ

وقد فارقته صاحبته وأصبحت منازل قلبه طلولا دارسة ، وإنه ليتساءل متحسرا هل بعد النفور تألف وهل بعد أفول البدر قفول ورجوع ، ويسأل منزل الحبيبة وقومها أين ترحلوا ، ويقول إنهم نزول فى قلبه لا يفارقونه أبدا ، وحتى إن هم سمعوا للوشاة وأطالوا له الصدود والهجران فسيظل متعلقا بهم حافظا لودادهم لا ينقض العهود ولا ينكثها ، بل سيزداد تعلقه وحبه واستمساكه . وما يلبث أن يخاطب فى نفس القصيدة قمريا أوكما يسميه ابن ورقاء أى حمامة رمادية اللون قائلا :

وماهاجنى إلا ابنُ ورقاءَ سُحْرَةً له فوقَ أفنان الرياضِ هَديلُ
يُرَدِّدُ فى صُحْف الرياض قصائدا من الشوق يُمْليها لنا ويَميلُ
يخيِّلُ أن البَيْنَ آذَى فؤادَهُ وكيف ولما يَنْأَ عنه خليلُ
ولم تحتكم فيه الليالى ولم يَبِنْ عليه لبَيْنٍ رِقَّةٌ ونحولُ
أما والهوى لو ذقتَ ما ذقتُ فى الهَوَى لما ازدان بالأطواق منك تَليلُ

ألا إنه مافارقَ الإلْفَ دَهْرَهُ ومالى إلى وَصْلِ الحبيب وصولُ

وهو يوازن بينه وبين قرى يتغنى سحرا بأشواق ماينى يرددها فى صحف الرياض ويمليها مخيِّلا كأنه يشكو من آلام بينٍ مبرِّح ولا بين ولا فراق ، فحبيبته بجانبه لم تفارقه ليلة ، ولا أصابه لفراقها ضَنًى ونحول . ويقسم له بالهوى لو ذاق أو جاعه وتباريحه مالزدان تليله أوعنقه بطوق ، ويقول له إنه لم يفارق أليفتَه يوما بينما هو يتلظى بنار الفراق والهجران . وكان يعرف الفارسية وقد ترجم عنها قوله :

ورقُ الغصونِ دفاترٌ مشحونةٌ مملوءةٌ بـأدلَّة التـوحيـدِ

ولعل فيما قدمنا ما يدل على روعة غزلياته ، وهو فيها دائما مشوق يتمنى الوصل وأن تذوب حُجب الهجران . ومازال يردد هذا المعنى وما يتصل به ، حتى لبى نداء ربه بدمشق لسنة ١٠٢٤ للهجرة .

٢

شعراء الفخر والهجاء

موضوعا الفخر والهجاء من موضوعات الشعر القديمة منذ الجاهلية ، ومعروف أن شعر الفخر والحماسة الحربية غلب عليها قديما ، حتى سمى أبو تمام مختاراته الشعرية الكبرى باسم الحماسة تغليبا لهذا الموضوع على موضوعات الشعر الأخرى عند العرب فى جاهليتهم وإسلامهم ، وكان يزحمه من قديم شعر الهجاء ، إذ كانوا يفخرون بانتصاراتهم الحربية ويهجون خصومهم بهزائمهم ، يستثيرون بذلك قبائلهم لتخوض معارك جديدة أشد فتكا فى الأعداء . وكانت معارك العرب – على مر السنين – بينهم وبين الأمم وقودًا مستمرًّا للفخر والهجاء ، فلم تخمد لها نار ، بل لقد اشتد أوارها كلما تقدمنا مع الزمن ، وكان شعراء الشام يشاركون فى تلك المعارك بسهام شعرهم النارية . ونكتفى بذكر شاعرين كبيرين قريبين من هذا العصر هما أبو تمام والبحترى ، وكانا أشبه بمكاتبين حربيين ، فهما يحضران المعارك مع ثوار إيران ومع الروم فى آسيا الصغرى ، ويصوران كيف احتدمت الحرب وبلاء الجيوش العباسية وقوادها فيها وما أنزلوا بالأعداء من مَحْق لا يكاد يبقى منهم باقية . وبجانب هذا الفخر والهجاء الحربى كان هناك الفخر والهجاء السلميان اللذان ينظمهما الشعراء لبيان ما يشتملون عليه هم وأقوامهم ، أو هم أنفسهم ، من مثالية خلقية رفيعة وما يتصف به أعداؤهم

أو بعض خصومهم من أخلاق شائنة يزدريها المجتمع . وهذا الفخر والهجاء الجماعيان والفرديان نجدهما عند أبي تمام والبحتري وغيرهما من الشعراء ، وكثيرا ما كان يحدث ذلك بين الشعراء أنفسهم ، فنجد – بعامل المنافسة – شاعرا يفاخر زميلا له ويهاجيه .

وكل ذلك نراه شائعا فى هذا العصر : عصر الدول والإمارات ، وكانت الحرب محتدمة فى أوائله بين سيف الدولة الحمدانى أمير حلب وبين الروم ، وكان يَكيل لهم ضربات قاصمة ، مما جعل كثيرين من الشعراء يمدحون بطولته وبطولة جيوشه العربية مفاخرين الروم وهاجين منذرين جموعهم بمعارك تدق أعناقهم دقا ولا تبقى ولا تذر . وبجانب ذلك نجد الفخر والهجاء الفرديين محتدمين بين بعض شعراء حاشيته على نحو ما حدث بين الخالديين والسَّرِىِّ الرَّفاء . وشاعر الفخر الشامى الذى لا يبارى فى القرن الرابع الهجرى أبو فراس الحمدانى ، وسنخصه بترجمة مفردة . وربما كانت أروع قصيدة فخر نظمها شعراء الشام فى القرن الخامس الهجرى قصيدة أبى العلاء المعرى التى أشرنا إليها فى ترجمته وفيها يقول[1] :

ألا فى سبيلِ المجدِ ما أنا فاعلُ ... عفافٌ وإقدامٌ وحزمٌ ونائلُ
تُعَدُّ ذنوبى عند قومٍ كثيرةً ... ولا ذنبَ لى إلا العُلا والفضائلُ
وقد سار ذكرى فى البلاد فمَنْ لهم ... بإخفاء شمسٍ ضوءُها متكاملُ
وإنى وإن كنتُ الأخيرَ زمانُهُ ... لآتٍ بما لم تستطعه الأوائلُ
ولى منطقٌ لم يرضَ لى كُنْهَ منزلى ... على أننى بين السِّماكين نازلُ
ولما رأيتُ الجهلَ فى الناس فاشياً ... تجاهلتُ حتى ظُنَّ أنِّىَ جاهلُ
فواعجبًا كم يَدَّعى الفضلَ ناقصٌ ... ووا أسفًا كم يُظْهر النَّقْصَ فاضلُ
ينافسُ يومى فىَّ أمسِى تشرُّفا ... وتحسُد أسحارى علىَّ الأصائلُ

والقصيدة تناقض شخصية أبى العلاء المتشائمة الزاهدة فى الحياة وكل ما فيها من مجد ، وإما نظمها تقليدا ومحاكاة لسابقيه فى فن الفخر ، وإما نظمها فى ساعة غضب ردا على بعض شانئيه وخصومه . ومع ذلك فهى تصور مكانته فى الأدب العربى ، وأنه فيه – بحق – السابق المجلِّى ، وهو يقول : من أين يلحقنى الذم وأنا أنهض بكل ما يكسبنى المجد والشرف من العفاف الطاهر

(١) ديوان سقط الزند (طبع دار الكتب المصرية) ٥١٩/٢ .

والإقدام الجرىء والحزم النافذ والنائل أو الجود السابغ ، ويقول إنه ليس فيه ذنوب ولا عيوب إلا إذا عُدَّت العلا والفضائل ذنوبا وعيوبا ، ولن تعد المحاسن كذلك أبدا . وإن ذكره ليعم البلاد كما يعمها ضوء الشمس الغامر الذى لا يستطيع أحد إخفاءه ، وإن كان زمانه قد تأخر فإنه أتى بما لم يستطعه الأوائل ، ومع أنه بين السماكين فى السموات العلا لا يزال منطقه أو عقله يطلب منزلة أعلى شأنا . ولما رأى الجهل فاشيا تجاهل حتى ظن الأغبياء أنه جاهل ، وتعجب من ادعاء الناقص الفضل وتحسَّر على تظاهر الفاضل بالنقص . ويقول إن كل وقت يتمنى أن يكون فيه دون غيره من الأوقات ، فأمسه يحسد عليه يومه وأصيل اليوم يحسد عليه سحره . ويمضى أبو العلاء فى القصيدة بهذا الصوت الضخم المجلجل كالرعد القاصف .

وكان يعاصر أبا العلاء ابن سنان الخفاجى المتوفى سنة ٤٦٦ للهجرة ، وله يفتخر بقومه وبلائهم فى حرب الثغور ضد الروم[1] :

أهلُ الثغور إذا تلمّ مُلِمَّةٌ ... بَسَطوا رِماحًا دونها وسَواعدا
وأولو التُّقَى فإذا مررت عليهمُ ... لم تلق إلا مكْرِما ومجاهدا
إن حاربوا ملئوا البلاد مَصارعًا ... أو سالموا عَمَرُوا الديار مساجدا
بيتٌ له النسبُ الجلىّ وغيره ... دعوى تريد أَدِلَّةً وشواهدا

وهو يفخر ببأس قومه وتقواهم وأنهم فى الحرب يملئون ساحات المعارك بينهم وبين الروم صرعى مقتولين . وإذا أفضوا إلى السلم ملئوا الديار مساجد ، ويقول إن بيتهم عريق فى العرب لا يطاوله أى بيت . ومن شعراء الفخر فى زمن الفاطميين والأيوبيين أسامة بن منقذ وسنفرد له ترجمة — ولابن الساعاتى المار ذكره[2] :

وإنى لآبى الضَّيْمَ من كل صاحبٍ ... وأُكره قلبى أن يكون له خدْنا
وإن بلدٌ لم أَغْدُ فيه مكرَّمًا ... نهضتُ فأعملتُ الجُدَيْلِيَّةَ البُدْنا[3]
وما شان فَضْلى بين أهلى خمولُه ... وقد بلغتْ غاياتُه الإنْسَ والجنَّا
فإنى كعود الهنْد هِينَ بِدَوْحِهِ ... وقد عَبَّقت أنفاسُه السَّهْلَ والحَزْنَا

---

(١) ديوان ابن سنان الخفاجى ص ٢٣
(٢) ديوان ابن الساعاتى ٢١٤/٢
(٣) الجديلية البدن : النوق الضخمة

فهو يأبى الضيم شاعرا بالكرامة شعورا عميقا ، حتى لو أحسَّ أن بلدا ينبو به رحَل عنه إلى غير إياب ، ويبالغ فى بيان فضله قائلا إنه شاع بين الإنس والجن ، وإن اعتراه خمول بين أهله فمثله مثل عود الهند لا يُعْرَفُ فضله فى دَوْحته ، بينما رائحته العطرة تملأ السهل والحزن من الأرض .

ونظل نستمع إلى هذا الصوت الأجش المعتز بنفسه وكرامته طوال أيام المماليك وبالمثل أيام العثمانيين كقول ابن الجزرى المار ذكره[1] :

يقدِّمنى عَزْمى وحَظِّى مؤخِّرِى ... ويوصلنى حَزْمى ودهرى يقطَعُ
وهمِّى من الدنيا المعالى ونَيْلُها ... وما همٌّ قلبى الرَّقْمتان ولَعْلَعُ[2]
ولا رَشأٌ أَحْوَى ولا صَوْتُ قَيْنَةٍ ... ولا قدَحٌ فيه الرَّحيق المُشَعْشَعُ[3]
ولكنما لَدْنٌ وأَجْرَدُ سابحٌ ... ومسرودةٌ زَغْفًا وأبيضُ يَسْطَعُ[4]

وهو صاحب عزم وحزم ونفاذ فى الأمور وإن لم يسعفه الحظ والدهر . وهمه طلب المعالى والظفر بها لا بمن يسكن روضتى الرقمتين وجبل لعلع من سمر الشفاه ، ولا بمن يتغنين غناء جميلا ، ولا بالأقداح من رحيق الخمر وشرابه . إنما همه رمح لين قاتل وفرس مسرع ودرع واسعة محكمة وسيف ساطع يضىء فى غبار الحرب حين يسله على رقاب الأعداء . إنه من أهل العزم والحزم والمعالى لا يشغف بحب ولا بغناء ولا بخمر ، إنما يشغف بالبأس فى الحرب وتقتيل الرجال وسفك دمائهم .

وبجانب هذا الفخر كان يدور هجاء كثير ، وخاصة لمن لا يجزون الشعراء الجزاء الوفر وكثيرا ما كانت تحتدم بينهم المنافسات ، فيفزعون إلى سهام الهجاء يصوبها الخصم منهم إلى خصمه صباح مساء . وقد يصبح الهجاء سهاما سامة قاتلة ، وقد يصبح سخرية جارحة ، وقد يصبح دعابة وإن لم تخل من مرارة ، كقول عبد المحسن الصورى وقد نزل ضيفا على أخ له[5] :

وأخٍ مسَّه نزولى بِقَرْحٍ ... مثل ما مسَّنى من الجوع قَرْحُ
بِتُّ ضَيْفًا له كما حكم الدهـ ... ـرُ وفى حكمه على الحرِّ قُبْحُ

---

(١) ريحانة الالبا ١/١١٨

(٢) الرقمتان : قريتان فى شرق نجد أو روضتان ويذكرهما شعراء الغزل . لعلع : جبل فى نجد

(٣) الرشأ : ولد الظبية وتشبه به الفتيات ، والحوة : سمرة فى الشفة ، الرحيق المشعشع : العسل الممزوج

(٤) اللدن : الرمح . أجرد . فرس . مسرودة : درع . زغفا : سابغة . أبيض : سيف

(٥) اليتيمة ١/٣٠٠

قَال لى إذ نزلتُ وهْو من السَّكـ ـرة وَالهمُّ طافحٌ ليس يصحو
لم تغرَّبْتَ قلت قال رسول الـ ـلَّهِ والقولُ منه نُصْحٌ ونُجْحُ
سافروا تَغْنَمُوا فقال وقد قا ل تمامُ الحديث صوموا تَصِحُّوا

وهى دعابة تلسع لَسْعَ الإبر ، فقد صور نزوله على مضيفه بقرح وهو ما يصيب الإنسان من عَضٍّ السلاح ونحوه ، كأنما نزوله عليه كان كارثة ، وقال إنه مسَّه من الجوع قَرْحٌ لا يزال يَنِزُّ ألما ، وكأنما يستلهم آية سورة آل عمران : (إن يَمْسَسْكم قَرْحٌ فقد مَسَّ القومَ قرحٌ مثله) أى إن نالوا منكم يوم أحد فقد نلتم منهم يوم بدر . ويقول إن الدهر هو الذى حكم عليه هذا الحكم القبيح ، ولقد أصابته سكرة من الشح والهم ، فسأله سؤالا مزريا : لم تغربت ونزلت عندى ، فأجابه لقول رسول الله ﷺ : سافروا تغنموا ، فبادر إليه يقول : تمام الحديث : صوموا تصحّوا ، وكأنه يطلب إليه أن يظل جائعا بل أن يصوم ويظل صائما ما ظل عنده . ويقول الغزى المتوفى سنة ٥٢٤ فى هجاء حاكم من حكام إيران يسمى شروانشاه[(١)] :

رأيتُ لؤما مصوَّرا جسَدًا شيمتُه الاحتيالُ والكذبُ
على سرير كالنَّعْش لا رَهَبٌ يعلوه من هيبةٍ ولا رَغَبُ
يَجْبَهُ بالهُجْر مَنْ يخاطبهُ بين السَّعالى وبينه نَسَبُ[(٢)]
يَفْرَقُه الناسُ للسَّفاهة والـ ـعَقْربُ يُخْشَى وخَدُّه تَرِبُ
للجَمْع والمنعِ قائمٌ أبدًا كالفيل لا تَنْثَنِى له رُكَبُ

وهو هجاء لاذع كوى به جلد هذا الحاكم ، بل لقد تحولت الأبيات فى يد الغزى إلى ما يشبه سياطا بل شُواظا من نار يصبه فوق رأسه صبا ، فهو تمثال للؤم والكذب ، يجلس لا على سرير بل على نعش لا يظله رهب منه ولا رغب فى ماله ، لما عُرِف عنه من شحٍّ بغيض ، وأنه يصكُّ مخاطبه بكلام قبيح ، وكأنما هو ليس من البشر ، بل إن بينه وبين الغيلان نسبا ذميما . والناس يخشونه لسفاهته كما يخشون العقرب وخدها ملطخ بالتراب ، وكأنما خلق كالفيل قائما أبدا إذ لا ينام فعيناه مشدودتان دائما لجمع المال ومنعه عن مستحقيه شُحًّا بغيضا لا يدانيه شح . وكان العرقلة الكلبى المتوفى سنة ٥٦٧ كثير الهجاء حتى هجا نفسه ، وله من أبيات وقد أعطاه بعض من مدحهم لا مالا ، بل شعيرا فقال[(٣)] :

---

(١) الخريدة (قسم الشام) ١/١٩
(٢) السعالى : الغيلان
(٣) الخريدة (قسم الشام) ١/١٨٢

يقولون لمْ أرخصتَ شِعْرك فى الوَرَى فقلت لهم إذ ماتَ أهل المكارمِ
أُجازَى على الشعر الشعيرَ وإنَّه كثيرٌ إذا استخلصتهُ من بهائمِ

ومنذ زمن الغُزِّى يشكو الشعراء كثيرا من أنهم لا ينالون ما يستحقونه على أشعارهم من ممدوحيهم ، بل إن منهم من يعطيهم رُقَعًا مسطرة دون أن يفى بما فيها ، وكأنها كلام كاذب بكلام . ومن كبار الهجائين فى أيام الأيوبيين بدر الدين عبد الرحمن بن المسجَّف المتوفى سنة ٦٣٥ للهجرة ، وله يهجو جماعة من إخوانه أو عصابته كما يقول(١) :

يا ربِّ كيف بلوتنى بعصابةٍ ما فيهمُ فَضْلٌ ولا إفضالُ
متنافرى الأوصافِ يصدقُ فيهمُ الـ ـهاجى وتكذبُ فيهمُ الآمالُ
جُبْنَا إذا استنجدتهم للملمَّةٍ لُؤْمًا إذا استرفدتهم بُخَّالُ
هم فى الرَّخاء إذا ظفرتَ بنعمةٍ آلٌ وهمْ عند الشدائد آلُ

وهو يخلى عصابته من كل فضل ويراها جديرة بكل مذمَّة فى مهجوٍّ إذ تكذب فيها دائما الآمال . ويصف أفرادها بأنهم جبناء عند الشدائد ، لؤماء بخلاء ، وهم فى الرخاء أهل أو آل كما يقول ، وفى الضراء سراب أو آل يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا . وولَّى السلطان الظاهر بيبرس فى سنة ٦٦٤ قضاة أربعة يمثلون المذاهب الفقهية : المذهب المالكى والحنفى والشافعى والحنبلى ولقَّب ممثلى هذه المذاهب ما عدا المذهب المالكى بلقب شمس الدين ، فاتخذ الشعراء ذلك موضوعا للهجاء الفكه الساخر من مثل قول بعضهم(٢) :

أهـلُ الشـآم استرابوا من كـثرة الحكَّـامِ
إذ هم جميعـًا شموسٌ وحـالُـهـم فى ظـلامِ

وكان شرب الحشيش المخدِّر عُرِف بين أراذل الناس يدخنونه ويمضغونه وقد يبلعونه ، وشدَّد الظاهر بيبرس النكير على من يتعاطونه ، ونظم كثير من الشعراء فى ذمه كقول الشاب الظريف(٣) :

---

(١) فوات الوفيات ٥٣٩/١

(٢) النجوم الزاهرة ١٣٧/٧ وانظر ذيل الروضتين لأبى شامة (الطبعة الأولى) ص ٢٣٦ .

(٣) النجوم الزاهرة ٣٨١/٧

ما للحشيشةِ فضلٌ عند آكلها لكنه غيرُ مصروفٍ إلى رَشَدِهْ
صفراءُ فى وجهه خضراءُ فى فمهِ حمراءُ فى عينهِ سوداءُ فى كَبِدهْ

وهو يقبّحها غاية التقبيح بآثارها فى ماضغها من صفرة تعترى وجهه وحمرة تشوب عينه وسواد لا يزول فى كبده . ويقول مجير الدين بن تميم المتوفى سنة ٦٨٤ للهجرة فى هجاء كحّال[1] :

دَعُوا الشيخ من كحل العيون فكفُّه يسوقُ إلى الطَّرْفِ الصحيحِ الدواهيا
فكم ذهبتْ من ناظرٍ بسوادهِ وألقتْ بياضًا خلفها ومآقيا

فكحله يعمى الأبصار ويقضى قضاء مبرما على سوادها ونظرها ولا يبقى بها بَصيصا ولا غير بصيص . ولبعض شعراء دمشق فى هجاء القاضى شهاب الدين أحمد الباعونى الشافعى المتوفى سنة ٨١٦ للهجرة[2] :

قضاءُ الشام أنشدنى بديني لا تبيعونى
صُفِعتُ بكلِّ مِصْفَعةٍ وبعدَ الكلِّ باعونى

وكأنه أدخله فيما نزل بهذا القضاء من صفعات متوالية . وفى كلمة « باعونى » تورية واضحة فهو لا يقصد « باعونى » من البيع وإنما يقصد القاضى الباعونى .

ويظل الهجاء على ألسنة الشعراء يرمون بسهامه مَنْ لا يروقهم من الحكام ومن لا يسبغ عليهم نواله حتى أيام العثمانيين ، على شاكلة قول يوسف بن عمران الحلبى المتوفى سنة ١٠٧٤ للهجرة فى بخيل[3] :

بخيلٌ لو بيومٍ منه جادتْ أنامِلُه لخالتْهُ النَّدامَهْ
ولو فى النار أُلقِيَ ألفَ عامٍ لما عُرِفتْ له يوما سلامَهْ
ولو صارتْ بِسفْرته رغيفا ذُكاءُ لما بدتْ حتى القيامه

فهو شحيح لو فاته شحُّه يوما لظل نادما أبدا . وما تُرْجى له سلامة من النار بل سيظل خالدا فيها ، وإن مائدته لتخلو دائما من كل طعام حتى من الخبز ورغفان العيش المستديرة كالشمس

---

(١) فوات الوفيات ١/٥٤٠
(٢) النجوم الزاهرة ١٤/١٢٤
(٣) ريحانة الألبا ١/١٠٨

ولو أنه ألقى رغيفا عليها ناسيا لا ستترت الشمس حتى القيامة كسوفا وخجلا أن يرى شبيهها على سفرته أو مائدته . وحرىٌّ بنا أن نترجم لنفر من شعراء الفخر والهجاء .

أبو فراس [1] الحمدانى

هو الحارث بن سعيد بن حَمْدان الحمدانى التغلبى ، كان أبوه واليا على الموصل للخليفة الراضى ، وكان مشهورا مثل إخوته وأبناء أسرته بالفروسية والشجاعة ، واقترن برومية أنجب منها ابنه الحارث سنة ٣٢٠ ولقبه أبا فراس وهى كنية الأسد رمزا لفروسيته المستقبلة وهو رمز حققته الأيام . ولم يلبث سعيد أن قُتل غدرا وابنه يخطو فى سنته الثالثة ، وعنيت به أمه ، وأحضرت له المعلمين فى صباه . ولم يلبث ابن عمه وزوج أخته سيف الدولة الحمدانى أن اشترك مع الأم فى العناية والرعاية ، حتى إذا اقتطع لنفسه حلب وبعض ثغور الشام انتقل إليها ومعه أسرته سنة ٣٣٣ ومعه أبو فراس الذى كفله وقام على تربيته فارسًا وأديبا خير قيام ، إذ أعطاه لبعض المدربين يدرِّبونه على الفروسية ، ولبعض المعلمين والمؤدبين من مثل ابن خالويه . وسرعان ما ظهرت فروسيته ونجابته ، فمنحه ضيعة بمنبج بلدة بقرب حلب ، ولم يلبث أن ولاه عليها وهو شاب فى السادسة عشرة من عمره ، وكان يلزم ابن عمه فى حروبه للروم وقد يسوق إليهم فيالق يقودها بنفسه ويعود إلى منبج ، مفضيا أحيانا إلى الصيد وبعض اللهو ، وفى ديوانه مزدوجة طردية . غير أن من الحق أنه لم يكن مشغوفا بصيد الحيوان إنما كان مشغوفا بصيد أعداء العروبة والإسلام من الروم . ومرَّ بنا فى حديثنا عن شعراء التشيع أنه كان شيعى الهوى ، وقد عرضنا لميميته الملقبة بالشافية التى دافع فيها عن العلويين ضد العباسيين دفاعا حارًّا ، وتشيُّع الحمدانيين عامة مشهور وكانوا شيعة إمامية .

وظل يركب فى مقدمة الصفوف مع ابن عمه وصهره لدقِّ أعناق الروم ، وحاول أن يستخلفه عنه بحلب فى إحدى غزواته ، فاستعطفه راجيا أن يصحبه فى حربه . وكان دائما يبلى بلاء حسنا فى تقتيلهم وتمزيقهم شر ممزق ، وفى يوم من أيام شوال سنة ٣٥١ كان عائدا إلى منبج من الصيد مع

---

(١) انظر فى أبى فراس وشعره اليتيمة ١/٣٥ وما بعدها وتهذيب ابن عساكر ٣/٤٣٩ وزبدة الحلب ١/١٥٧ وابن خلكان ٢/٥٨ والشذرات ٣/٢٤ وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢/٩٢ ومقدمة د . سامى الدهان لتحقيقه لديوانه وقد قابله على ٤٠ مخطوطة محفوظة فى مكتبات العالمين العربى والغربى ووضع حواشيه ورتب فهارسه .

غلمانه وإذا بكتيبة من الروم بقيادة « تيودور » تباغته فيدافع إلى أن تثخنه الجراح ويصيبه سهم فى فخذه ويبقى نصله فيه ، ويؤسر البطل المغوار ، ويَقْدُم به تيودور إلى خَرْشنة ويظل بها فترة . ثم ينقل إلى القسطنطينية ، ويذوق ذل الإسار وألم الجراح ، غير أن نفسه تظل صلبة عاتية لا تنكسر أبدا ، بل تزداد مع الأيام عتوًّا وصلابة . ويُكْبِر الروم فى أبى فراس فروسيته وبطولته فينزلونه فى قصر على البحر ويخصصون له خادما يقوم بأمره ، ويأبى أن يخلع دروعه وسلاحه ، فيظل بهما فى أسره .

ويطول الأسر أربع سنوات ، فتكثر أشعار أبى فراس إلى أهله وسيف الدولة وإخوانه مؤملا فى الإسراع بفدائه ، وكان مما أخره أن سيف الدولة يريده فداء عاما له ولكل من معه من المسلمين ممن وقعوا قهرا فى شِراك الروم . وفى سنة ٣٥٥ يتفق الروم وسيف الدولة على اللقاء لفداء أسرى الطرفين ، وفى شهر رجب ينزل أبوفراس مع ثلاثة آلاف أسير عربى بِخَرْشَنَةَ ، ويقْدُمُ سيف الدولة بأسرى الروم يفتدى بهم أبا فراس ومن معه من أسرى العرب . ويتم الفداء ويعود أبو فراس إلى حلب . ونأثر تأثرا شديدا لمرض سيف الدولة وما أصابَ جنوده من انكسارات وانهزامات متلاحقة . ويتوفّى سيف الدولة فى السنة التالية ، ويدور العام ، ويحاول أبو فراس الاستيلاء على حمص من يد ابن سيف الدولة أبى المعالى ويلقاه مولاه قَرْغُوَيْه فى جمادى الأولى سنة ٣٥٧ ويكون فى ذلك حَتْفُه ، ويقال إنه سقط جريحا فى ساحة الحرب وشعر بدنو أجله فأنشد أبياتا يخاطب بها ابنته معزيًا قائلا فى ختام أبياته بلسان حالها :

زَيْنُ الشباب أبو فِرا س لم يُمَتَّع بالشباب

وطبيعى أن لا يكون المديح الموضوع الذى يستنفد شعر هذا الأمير الفارس ، إذ لم يكن فى حاجة إلى التكسب بشعره ، وأن يكون الفخر هو الموضوع الذى يستغرق شعره : فخره بقبيلته تغلب وأمجادها منذ الجاهلية ، وبأسرته الحمدانية ومناقبها وما قدمته للعباسيين من انتصارات على الخوارج والقرامطة ، وعلى الروم البيزنطيين ، وفخر بمثاليته الخلقية الكريمة وبطولته . وتُعَدُّ رومياته أو أشعاره فى أسر الروم القطعَ الأرجوانية فى ديوانه ، وفيها غزل ورثاء واستعطاف كثير لابن عمه سيف الدولة كى يرد إليه حريته ليعود معه لمنازلة الروم وقراعهم قراعا لا يبقى منهم ولا يذر ، وبين قصائدها بائية يرد بها ردا عنيفا على الدمستق حين طعن فى العرب وبسالتهم الحربية ، وفيها أخذ يذكره باندحاراتهم أمام سيف الدولة ومقتل أخيه فى مَرْعش وجرح أبيه بها فى

وجهه وأسر ابن أخته فى اللّقان وما كان من فراره على وجهه لا يلوى . وهو فى رومياته يحن إلى ملاعب صباه وشبابه ويشتاق إلى زوجه وأبنائه ويرثى لأمه العليلة وهى تسأل عنه الركبان حين أسر قائلا على لسانها :

يامَنْ رأى لى بحصن خَرْشَنَةٍ أُسْدَ شَرًى فى القيود أرْجُلُها

ويرد عليها مسرعًا

يا أمّتا هذه مواردُنا نَعُلُّها تارة ونَنْهَلُها[1]

فمواردهم الحرب ، يقتلون الأعداء وتقتلهم ويأسرون الأعداء وتأسرهم ولا تنال القيود الثقيلة من أقدامهم . ويقول فى قصيدة ثانية : لولا أمى العجوز ما خفت أسباب المنية ولا طلبت الفداء من ابن عمى أبدا . ويقول لها :

يا أُمّتا لا تَيْأَسى لله ألطافٌ خَفِيَّهْ
أوصيكِ بالصبر الجميـ ـل فإنه خَيْرُ الوصيَّهْ

فهو واثق فى الله ثقة تامة ، وهو لا ييأس أبدا من فضله ورعايته ، مع عزة نفس لا تماثلها عزة بل مع صلابة روح لا تشبهها صلابة ، وتبدو هذه الصلابة منذ أيامه الأولى فى الأسر ونزولهم به فى خَرْشنة ، إذ سرعان ما أنشد :

إن زرتُ خَرْشنةً أسيرا فلقد حللتُ بها مُغيرا
ولئن لقيتُ الحزنَ فيـ ـكِ فقد لقيتُ بك السرورا

ويقول إنهم طالما فتكوا بأهلها وسبوا نساءهم الحور الفاتنات ، وكم أشعلوا بها نيرانا التهمت المنازل والقصور وأتت عليها كأن لم تكن شيئا مذكورا . ونشعر كأنما تجسدت فى روح أبى فراس كل معانى القوة العاتية التى تميز بها العرب وفتحوا بها العالم القديم من أواسط آسيا إلى شمالىّ إسبانيا ، على الرغم من أسره وما كان يعانيه من ألم وحزن ، وكأنما يحمل بين جنبيه روحا لا يمكن أن تقهر مهما نزل بها من كوارث وخطوب .

وربما كان أروع قصائد أبى فراس حينئذ قصيدته الرائية التى نظمها حين قال الروم إن

---

(١) نعلُّها : نشربها تباعا . ننهلها : نشربها ابتداء

أبا فراس وحده من بين الأسرى هو الذى لم نسلب منه سلاحه ، وقد بدأها بحوار بينه وبين إحدى صواحبه .

أراكَ عَصِيَّ الدمعِ شيمتُكَ الصَّبْرُ أما للهوى نَهْيٌ عليكَ ولا أَمْرُ
بلى ! أنا مشتاقٌ وعندىَ لوعةٌ ولكنَّ مثلى لا يُذاعُ له سِرُّ
معلِّلتى بالوصلِ والموتُ دونه إذا متُّ ظمآناً فلا نزلَ القَطْرُ
تسائلُنى مَنْ أنت ؟ وهْىَ عليمةٌ وهل بفتًى مثلى على حاله نُكْـرُ
فقلتُ كما شاءتْ وشاء لها الهوى قتيلُكِ قالت أَيُّهم فهمُ كُثْرُ
وقالتْ لقد أَزْرَى بك الدهرُ بعدنا فقلتُ معاذَ الله بل أنتِ والدَّهْرُ

وهو حوار وغزل فيهما فتوة وقوة ، فهو لا يبكى ، بل هو صابر صبر الرجال الأشداء ، مع ما يستعر فى قلبه من لوعة إزاء معللته بوصل لا يناله ، وكأنما تغيّر كل ما فيه فلم تعرفه وتسأله من أنت ؟ تجاهل العارف ، فيقول لها قتيلك ، فتسأله أيهم فهم كثيرون . وتقول له : لقد نال منك الدهر ، يكنى بذلك عن أسره ، فيقول لها معاذ الله : بل أنت والدهر . ويمضى فى حوارها قائلا لها : لا تنكرينى يا ابنة العم فإنى غير منكر فى معمعان المعارك وقيادة الكتائب المعوَّدة النصر واقتحام المخاوف والمخاطر المهلكة إلى الروم أسفك دماءهم وأسبى نساءهم دون أن أهتك لهم سترا أو أكشف لهم ثوبا ، وما يلبث أن يصيح بكل فتوته :

أُسِرْتُ وما صَحْبِى بعُزْلٍ لدى الوَغَى ولا فرسى مُهْـرٌ ولا ربُّه غُمْرٌ(١)
ولكنْ إذا حُمَّ القضاءُ على امرىءٍ فليس له بَرٌّ يَقيه ولا بَحْرٌ
يمنّونَ أنْ خَلَّوْا ثيابى وإنما علىّ ثيابٌ من دمائهمِ حُمْرٌ
سيذكرنى قومى إذا جَدَّ جِدُّهم وفى الليلة الظَّلْماءِ يُفْتَقَدُ البَدْرُ
ونحن أُناسٌ لا توسطَ بيننا لنا الصَّدْرُ دون العالمين أو القَبْرُ
تهونُ علينا فى المعالى نفوسُنا ومن خطبِ الحسناءَ لم يُغْلِه المَهْرُ
أعزُّ بنى الدنيا وأعلى ذوى العلا وأكرمُ مَنْ فوقَ الترابِ ولا فَخْرُ

يقول : أسرت وورائى صحبى يشهرون السيوف فى الحرب ولا يغمدونها أبدا ، إنهم فرسان

(١) غمر : قليل التجربة . عزل : لا يحملون سلاحا

أبطال ، وما أُسرتُ جبنا ولا كان فرسى مهرا صغيرا بل كان مدربا على القتال ، وكان صاحبه فارسا شجاعا يحسن النزال والفتك بالأعداء ، وإنما هو القضاء الذى لا مَعْدَى عنه ولا مفر منه فى بر أو بحر . ويتجه إلى الروم غاضبا لقولهم إنهم مَنُّوا عليه بتركه لابسا لأمته وعدته الحربية ، وهو استشعار للفتوة والقوة ما بعده استشعار . ويقول إن دروعه ملطخة بدمائهم ، إذ طالما دقَّ نصال سيوفه فى أعناقهم وصدورهم . ويلتفت إلى قومه فيقول إنهم سيذكرونه حين تدق أجراس الحرب ، سيذكرون فروسيته وبطولته وبلاءه فى الأعداء . وكأنما يضع قوانين الشباب العربى والأمة العربية ، إنها ترمى بنفسها فى أتون الحرب فإما الصدر دون العالمين أو القبر ، وإن رجالها وأبطالها ليبذلون أرواحهم فى نيل المعالى ، ومن خطب الحسناء لم يغله المهر ولم يعده باهظا ، بل إنه يقدمه راضيا حتى لو كان روحه وقلبه . ويقول مَنْ مثلنا : نحن أعز الناس وأعلاهم وأكرمهم بذلا . والقصيدة تعويذة رائعة لفتوة العرب وصلابتهم ، وهى جديرة بأن يضمَّها كل شاب عربى إلى صدره وذاكرته يحفظها ويترنم بأبياتها البديعة . وحانت منه التفاته — وهو فى سجنه — إلى شجرة عالية فرأى على أحد غصونها حمامة وسمعها تنوح ، فأنشد :

أقولُ وقد ناحتْ بقربى حمامةٌ   أيا جارَتا هل تَشْعُرين بحالى
معاذَ الهوى ما ذُقْتِ طارقةَ النَّوى   ولا خَطَرتْ منك الهمومُ ببالِ[1]
أتحملُ محزونَ الفؤاد قوادمٌ   على غُصُنٍ نائى المسافة عالى[2]
أياجارتا ما أنصفَ الدهرُ بيننا   تعالَىْ أقاسمْكِ الهمومَ تعالى
أيضحك مأسورٌ وتبكى طليقةٌ   ويسكت محزونٌ ويندبُ سالى
لقد كنتُ أولى منك بالدمع مُقْلَةً   ولكنَّ دمعى فى الحوادث غالى

وقد أثار نواح هذه الحمامة بمرأى منه ومسمع الشجونَ فى نفسه ، ويُعيذها من نوى وفراق كفراقه وغربة كغربته وهموم كهمومه . ويتساءل هل تحمل قوادم هذه الحمامة فؤادا محزونا ؟ ويقول إن الدهر لم ينصف بينهما ويتساءل كيف يضحك أسير فقد حريته وتبكى حرة طليقة ؟ بل كيف يسكت محزون ويخرس لسانه وتندب سالية ندبا متصلا ؟ ولا يلبث أن يقول لها : لقد كنت أولى منك بالبكاء بكاء لا تنقطع دموعه بل تظل منهمرة ، غير أن دمعى فى الحوادث والنكبات غال لا يسيل أبدا ، وإنه ليتجشَّم أثقالها ويتحملها فى قوة . وشعر أبى فراس وراء رومياته يكتظ بالفخر

(١) النوى : الفراق

(٢) القوادم : ريشات أربع كبار فى مقدم الجناح

والحماسة ، وله قصيدة رائية فى ٢٢٥ بيتا فخر فيها فخرا مضطرما بمناقب أسلافه الحمدانيين وأيامهم فى الإسلام وما شادوه من إماراتهم فى الموصل وحلب . وشعره – بحق – يُضْرِم الحميَّة فى النفس العربية .

عَرْقلة (١)

هو حسان بن نمير الكلبى الدمشقى ، ولد سنة ٤٨٦ وحفظ القرآن صغيرا ثم اختلف إلى حلقات العلماء ، ولم تلبث ملكته الشعرية أن تفتحت ، فغدا بشعره على أبواب حكام دمشق يمدحهم وينال جوائزهم . وكان لأسرة طُغْتِكين نصيب كبير من مديحه ، وخاصة آبق آخر حكامهم للمشق قبل استيلاء نور الدين أمير حلب عليها . ويبدو أن الرحلة كانت محببة إليه ، إذ نراه يرحل إلى حلب ويفقد إحدى عينيه فى تلك الرحلة ، ولذلك لقبه معاصروه بعرقلة الأعور ، ورحل إلى الموصل وبغداد ونزل فى قلعة جعبر ومدينتى آمد وماردين . وزار مصر وبقى بها مدة وتوثقت الصلة فيها بينه وبين الوزير طلائع بن رزيك وكان شيعيا أماميا ، وله فيه طائفة من المدائح ، ويذكر له فى إحدى مدائحه أنه شيعى قائلا :

أنا من شيعة الإمام حُسَيْنٍ لستُ من سنّة الإمام يَزِيدِ

فهو ليس سنيًّا ممن ارتضوا يزيد بن معاوية قاتل الحسين إماما لهم ، بل هو شيعى من أنصار الحسين . وعاد إلى دمشق وكانت تابعة لنور الدين ، وكان أيوب بن شاذى وأخوه أسد الدين شيركوه وابنه صلاح الدين فى مقدمة حاشية نور الدين ورجاله ، وتولى بعضهم شئون دمشق وكان صلاح الدين على شرطتها فاتصل بهم يمدحهم وأسبغوا عليه عطاياهم ، وكان خفيف الروح فقربوه منهم واتخذوه نديما لهم فى مجالس لهوهم وسمرهم . وكان صلاح الدين من بينهم يوده ويصادقه ويُحْضِره مجالس أنسه . ووصفه العماد الأصبهانى حينئذ فقال : « لقيته بدمشق شيخا خليعا رَبْعَةً مائلا إلى القصر أعور مطبوعا حلو المنادمة لطيف النادرة معاشرا للأمراء ، شاعرا مستطرَف الهجاء ، لم يزل خِصِّيصًا بالأمراء السادة بنى أيوب ينادمهم ويداعبهم ويطايبهم قبل أن يملكوا مصر ، والملك الناصر صلاح الدين يوسف أشغفهم بنكته ، وأكلفهم بسماع نتفه ، وله فيه

---

(١) انظر فى عرقلة الدمشقى وشعره الخريدة (قسم الشام) ١/١٧٨ وفوات الوفيات والنجوم الزاهرة ٦/٦٤ والشذرات ٤/٢٢٠ وقد طبع مجمع اللغة العربية بدمشق ديوانه .

مدائح ، ولديه منه منائح » . وكان صلاح الدين وعده أنه متى ملك مصر يعطيه ألف دينار ، وَوفَى له بوعده غير أنه لم يلبث أن وافاه القدر سنة ٥٦٧ .

ويبدو أن عرقلة كان فى أوائل حياته يقصد أوساط الناس ، ومدح شخصا مرة فأعطاه شعيرا . فغضب ، وأنشد ما مرَّ ذكره من قوله :

يقولون : لِمْ أرخصتَ شعرك فى الورَى ... فقلتُ لهم إذ ماتَ أهلُ المكارمِ
أُجازَى على الشِّعْر الشَّعيرَ وإنَّهُ ... كثيرٌ إذا استخلصتَه من بهائمِ

واشتهر فى زمنه بأنه هجاء كبير ويقول العماد — كما أسلفنا — إنه كان مستطرف الهجاء ، إذ كان يحاول فيه التندير إضحاكا لسامعه وجلبا لسروره ، كقوله فى مغن ضارب على العود لم يعجبه صوته ولا ضَرْبه وتلحينه :

علىٌّ صَوْتُه سَوْطٌ ... علينا لا على الفَرسِ
وجملةُ ضربه ضربٌ ... لمدَّرعٍ ومُتَّرسِ
يقول السامعون له ... رماه الله بالخَرسِ
وخُذْ يا ربٌّ مهجتَه ... إذا غنَّى : (خُذِى نَفَسى)

فهو لا يجعل صوته يصكُّ الأسماع فحسب ، بل يجعله يكويها كى السياط للخيل ، أما ضربه فكأنه ضرب حقيقى يضرب به دروعا وتروسا لا ألحانًا تُشْجى السامعين وتطربهم ، مما يجعلهم يدعون عليه بالخرس بل بالموت حين يغنى ، وكان بالصدفة يغنى مقطوعة أولها : « خُذِى نفسى » . ويقول لبعض مهجويه :

لك وجهٌ كأنَّهُ الـ ... ـبَدْرُ لكنْ إذا كُسِفْ
وقوامٌ كأنَّهُ الـ ... ـغُصْن لكنْ إذا انقصَفْ
وبنانٌ كأنه الـ ... ـبحر لكنْ إذا نَشِف
وأبٌ أكذبُ الأنا ... مِ ولكنْ إذا حَلَفْ

وهو فى الأبيات الثلاثة الأولى يبدأ بالمدح لكن لا يلبث أن يمحوه بل أن يرده عليه هجاء وإقذاعا شديدا ، فهو صاحب وجه كاسف وقوام قصير منقصف وبنان شحيح لا يقطر بأى خير ،

أما أبوه فكذاب أشر . وكان بدمشق فى زمنه طبيب يسمى أبا الحكم تصادف أن وقع ليلا فانشتر جَفْنُ إحدى عينيه ، وكان هذا الطبيب كثيرا ما يرثى من يموت فقال عرقلة متندرًا عليه :

لنا طبيبٌ شاعرٌ أَشْتَرٌ أراحنا من شخصه اللّهُ
ما عادَ فى صُبْحَةِ يومٍ فَتًى إلا وفى باقيه رثاه

فهو يدعو عليه بالموت حتى يريح العباد منه ، إذ لا يعود ولا يزور أحدا صباحا حتى يكتب له قصيدة رثاء مساء . فهل وراء ذلك شؤم يتمنى الناس الخلاص منه . وكان يُقْذِع أحيانا فى هجائه ، حتى فى الموت . ويقول فى رثاء بعض خصومه :

لقد حَسُنَتْ به اليومَ المراثى كما حَسُنَتْ به أمس الأهاجى
ولكنْ لجَّ فى شَتْمِ البرايا وكان القتلُ عاقبةَ اللَّجاجِ

وهى شماتة تدل على أنه كان عدوانى المزاج ، وله رثاء لاذع لبعض المجان ، يقول فيه إن دنان الخمر وكئوسها وقيانها المغنيات يبكينه بكاء مرا .

أسامة[1] بن منقذ

هو أسامة بن مرشد بن على بن مقلد بن نصر بن منقذ الكلبى ، من أعلام بنى منقذ أصحاب قلعة شَيْزَر إلى الشمال من حَمَاة ومن علمائهم وفرسانهم . ولد لأبيه سنة ٤٨٨ وقد عنى بتعليمه وتدريبه على الفروسية وأتقنها سريعا ، ولقى – وهو شاب – فى صيده أسدا فصرعه . ويقال إن أباه كان رجلا صالحا فترك إمارة القلعة لأخيه سلطان ولم يكن له ولد ، فتبنَّى أسامة وأخذ يعدُّه للإمارة بعده . وكان اسم عماد الدين زنكى قد أخذ فى التألق منذ استيلائه على حلب سنة ٥٢٤ فالتحق به أسامة وأبلى بلاء حسنا فى حروبه ضد حملة الصليب ، حتى إذا أغاروا على شَيْزَر سنة ٥٣٢ عاد إليها مسرعا ودافع عنها دفاعًا مستميتا حتى ارتدوا على أعقابهم خاسئين . وبمقدار فرحه

(١) انظر فى أسامة وشعره تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٤٠٠/٢ ومعجم الأدباء ١٨٨/٥ والخريدة (قسم الشام) ٤٩٩/١ والنجوم الزاهرة : الجزءين الخامس والسادس فى مواضع متفرقة (انظر الفهرس) والبداية والنهاية لابن كثير ٣٣١/١٢ والسلوك للمقريزى ١٢٥/١ والمختصر فى أخبار البشر لأبى الفداء (الطبعة الأولى بالقاهرة) ٢٧/٣ ومرآة الجنان ٤٢٨/٦ وشذرات الذهب ٢٧٩/٤ وديوانه طبع بالقاهرة . وراجع كتابه الاعتبار (نشر جامعة برنستون) وفيه معلومات كثيرة عن سيرته وحياته . وطبع له فى القاهرة لباب الآداب وكتاب المنازل والديار .

بالنصر كان حزنه على أبيه إذ علم أنه توفى فى العام السابق لتلك المعركة . وصمم على المكث فى مسقط رأسه لحمايته غير أن عمَّه لم يتركه طويلا ، فقد أمره هو وإخوته بالرحيل عن القلعة ، فتفرقوا فى البلاد . ومضى أسامة إلى دمشق ولقيه حاكمها معين الدين أُنُر مدير دولة أولاد طُغْتِكين لقاء حسنا ، وظل الجو بينهما صافيا حتى سنة ٥٣٩ إذ اكفهرَّ الجو ولم يجد أسامة بُدًّا من مفارقة دمشق . فرحل إلى القاهرة ومعه أمه وزوجه وأبناؤه وأخوه محمد ، وكان الخليفة الفاطمى حينئذ الحافظ (٥٣٤ – ٥٤٤ هـ) فأكرمه وأمر له بإقطاع سنيٍّ عاش به حياة رَغْدة .

وخلف الحافظ ابنه الظافر (٥٤٤ – ٥٤٩ هـ) واتصل إكرامه وإكرام وزيره العادل بن سلاَّر لأسامة ، ويقول المؤرخون إنه لم يف للعادل ، فقد أوغر صدر عباس الصنهاجى ابن زوجته عليه فقتله وخلفه على الوزارة . ولم يلبث أن أوغر صدر عباس وابنه نصر على الخليفة الجديد الظافر فقتلاه . وتطورت الأمور فتولَّى الفائز بن الظافر الخلافة وهو صبى يحبو فى الخامسة من عمره ، وكاتَب أهل القصر طلائع بن رُزِّيك الوالى بالصعيد ، فقدم فى جيش إلى القاهرة ، وهرب عباس وابنه نصر وأسامة ، وولوا وجوههم إلى الشام . وأسرعت أخت الظافر ، فكتبت إلى حَملة الصليب بعسقلان – وكانوا قد استولوا عليها حديثا – تعدهم بأموال طائلة إن هم ردوا إلى القاهرة الوزير وابنه نصرا ، والتقوا بهم وواقعوهم ، فقُتل عباس ، ورُدَّ نصر إلى القاهرة ، وفرَّ أسامة فى نفر معه إلى دمشق . وحاول أسامة أن يوثق صلته بحاكمها الجديد نور الدين الذى استولى عليها فى سنة قدومه سنة ٥٤٩ ، ويبدو أنه كسب حينئذ رضاه ، وكاتب طلائع بن رزيك الوزير بمصر ليرسل إليه أسرته ، فأرسلها بحرا غير أن سفينتها أصابها عطب فى مياه عكا وكانت مع الصليبيين ، فنهبوا كل ما كان مع الأسرة من مال ومتاع ، وتجشمت الأسرة كثيرا من الصعاب حتى وصلت دمشق وكان لذلك أثر أليم فى نفس أسامة .

ونزلت بأسامة فى سنة ٥٥٢ فاجعة أشد هولا ، إذ دمرت الزلازل قلعة شيْزَر وأتت عليها ونزح عنها أهله وتشتتوا فى البلاد ، وتملكها نور الدين خشية عليها من حَملة الصليب ، ويبدو أن أسامة كان يأمل أن يرد نور الدين الحصن عليه وعلى أسرته ، ولعل ذلك ما جعله يقول فيه :

سلطانُنا زاهدٌ والناس قد زَهِدوا ... له فكلٌّ على الخيرات منكمشُ
أيامُه مثلُ شهر الصومِ طاهرةٌ ... من المعاصى وفيها الجوعُ والعطشُ

أما أن أيام نور الدين البطل المغوار مدوِّخ الصليبيين طاهرة فهذا صحيح إلى أقصى حد ، وأما

أن فيها الجوع والعطش فغير صحيح إذ فيها غنائم لا تحصى أُخذت قهرًا من حملة الصليب ، وفيها غير بلد عربي رُدَّ منهم إلى أهله . وقد شارك هو نفسه نور الدين فى بعض انتصاراته عليهم ، وحضر معه حصاره لحصن حارم سنة ٥٥٩ للهجرة . وأدّته موجدته – فى رأينا – من نور الدين إلى أن يبرح دمشق إلى حصن كَيْفَا بالموصل ويتخذها دار مقام له ، وفيها يعكف على جمع ديوانه وتأليف كتبه ، حتى إذا استولى صلاح الدين على دمشق سنة ٥٧٠ استدعاه . ولبَّاه مبتهجا ، فأعطاه دارا بدمشق وإقطاعا لمعاشه وفسح له فى مجالسه ، حتى إذا كانت سنة ٥٨٤ للهجرة لَبّى نداء ربه عن ستة وتسعين عاما .

ورتب أسامة ديوانه على الموضوعات ، فباب للغزل وباب للمديح وباب للشكوى وباب للفخر وباب للوصف إلى غير ذلك من أبواب ، ولم يفرد للجهاد بابا وكأنه ترفع عنه إباء واحتشاما وحياء . وأهم أبواب شعره باب الفخر ، إذ كان فارسا شجاعا ، وشارك فى حرب حَملة الصليب منذ شبابه دفاعا عن مسقط رأسه ، وجَلَّى فى معارك عماد الدين زنكى ضدهم ، وكأنه ظل طوال حياته شاهرا سيفه فى وجوههم حتى بلغ السبعين ، يقول :

لخمسَ عشرةَ نازلتُ الكُماة إلى أن شِبْتُ فيها وخيرُ الخيل ما قَرَحا [١]
أخوضها كشهاب القذْفِ مبتسما طَلْقَ المحيَّا ووَجْهُ الموت قد كَلَحا [٢]
بصارمٍ من رآه فى قَتامٍ وَغًى أفرى به الهامَ ظن البرقَ قد لمحا [٣]
فسَلْ كُماة الوَغَى عنى لتعلم كم كربٍ كشفتُ وكم ضيقٍ بِىَ انْفَسحا

فهو قد نازل كماة الحرب أو شجعانها منذ سنته الخامسة عشرة ، وظل ينازلهم حتى اشتعل رأسه شيبا لا يهن ولا يضعف بل تشتد قواه كما تشتد قوى الخيل حين يعلو سنها وتصبح قارحة مستتمة سنوات فحولتها . وإنه ليخوض أهوال الحرب كشهاب ساطع باسمَ الثغر متهلل الوجه وقد كشر الموت عن أنيابه . وإن سَيْفَهُ ليلمع فى غبار الحرب – وهو يحطم به الرءوس حطما – كبرق يسطع ، وما من شجاع إلا وهو يعلم كثرة ما كشف من كرب وهموم فى الحرب وكثرة ما انفسح له فيها من مضايق ومآزق . ومن قوله فى تنكيله بحملة الصليب فى غير موقعة :

---

(١) الكماة : الشجعان . قرح الفرس : بلغ الخامسة من عمره

(٢) طلق المحيا : مستبشر الوجه . كلح : عبس

(٣) قتام وغًى : غبار حرب . أفرى الهام : أشق الرءوس

كم قد أبدتُ بسيفى كلَّ مفتخرٍ حامى الحقيقة يومَ الجَحْفل اللَّجِبِ(١)
وكم تركتُ بنى الإفرنج فى رُعُبٍ فصرتُ أُدْعى لديهم جالبَ الرُّعُب
وكم جررت إليهم جَحْفلا لجِبًا بالسَّابِريَّة والماذِىِّ واليَلَبِ(٢)

وهو يقول إنه كثيرا ما قضى قضاء مبرما على كل شجاع يفخر بشجاعته حاميا حمى أهله يوم النزال الطاحن . ويقول إنه كثيرا ما أنزل الرعب فى قلوب حملة الصليب حتى سموه — جزعا — جالب الرعب ، وكم قاد إليهم جيوشا غفيرة شاكية السلاح تقتلهم وتسفك دماءهم . ويقول :

سَلْ بى كماةَ الوَغَى فى كلِّ معتَركٍ يضيقُ بالنفس فيه صَدْرُ ذى الباسِ
يُنَبِّئوك بأنى فى مضايقها ثبتٌ إذا الخوف هزَّ الشاهقَ الرَّاسى

فهو يجلّى فى المعارك حامية الوطيس التى تبلغ فيها الروح الحُلْقوم ويرى الكماة فيها الموت نصب أعينهم ، فإنه حينئذ يشق الجماجم ويدق الأعناق رابط الجأش ثابت الجنان حتى حين يهز الخوف والفزع الجبال الرواسى من الكماة العُتاة .

ولأسامة قصيده نظمها على لسان نور الدين مفاخرا معددا لانتصارات البطل على حملة الصليب وتمزيقه لصفوفهم وقد بلغت أكثر من تسعين بيتا وفيها يقول :

أبَى اللهُ إلا أن يكونَ لنا الأمرُ لتحيا بنا الدنيا ويفتخرَ العَصْرُ
جعلنا الجهادَ همَّنا واشتغالنا ولم يُلْهِنا عنه السماعُ ولا الخَمْرُ
بنا أيَّدَ الإسلامُ وازداد عِزَّةً وذلَّ لنا من بعد عِزَّته الكُفْرُ
بنا استرجع اللّهُ البلادَ وأمَّن الـ ـعبادَ فلا خوفٌ عليهم ولا قَهْرُ

وحقا كان نور الدين مفخرة للعصر فى دكِّ قلاع الصليبيين وحصونهم ، وبه استُرْجع كثير من بلاد الشام وأَمِنَ فيها الناس ، ووُضع المكس أو الضرائب عن التجار وانتعشت الحياة وازداد الإسلام عزة . ونور الدين — بدون ريب — هو الذى هيأ لصلاح الدين حكم مصر وانتصاراته المدوية على الصليبيين واسترجاعه القدس الطاهر وتقليمه لأظافرهم . ويقول أسامة حين أقعدته سنواته السبعون عن الاشتراك فى نزال الصليبيين ووهنت منه رجلاه وقواه ، فلم يعد يستطيع

(١) حامى الحقيقة . حامى الحمى . الجحفل اللجب : الجيش الكثيف كثير الضجيج

(٢) السابرية : الدرع المحكمة النسج . الماذى : السلاح . اليلب . الترس .

ركوب الخيل ليكون له شرف النضال عن حمى وطنه :

رجلايَ والسبعون قد أوهنتْ قُوايَ عن سعيي إلى الحَرْبِ
وكنت إن ثُوبَ داعي الوَغَى لبَّيْتُه بالطَّعْن والضَّربِ[1]
أشقُّ بالسيف دُجَى نَقْعها شَقَّ الدياجي مُرْسَلُ الشُّهْبِ[2]
أنازلُ الأقْران يُرْدِيهِمُ من قبل ضربي هامَهم رُعْبِي[3]

فقد وهن عظمه وضعفت مُنَّته ، ولكن لاتزال روحه قوية ، وإنه ليذكر ماضى فروسيته المشرف وكيف أنه كان حين يدعو الداعى للحرب يبادر إليها يطعن ويضرب يمينا وشمالا يشق الرءوس فى مثار النقع وغبار الحرب شق الشهب لحجب الظلام فاتكا بالأقران ، بل إن رعبهم منه ليفتك بهم قبل سيفه فتكا ذريعا .

ابن[4] عُنَيْن

هو محمد بن نصر بن الحسين المشهور باسم ابن عُنَيْن ، يرجع بنسبه إلى الأنصار ، نزل أجداده الأولون الكوفة ، وتركتها أسرته إلى زَرْع فى حوران بالشام . وهاجر منها أحد أجداده الأقربين واستقر فى دمشق ، وفيها ولد لأبيه سنة ٥٤٩ للهجرة ، وكان منزله جنوبى الجامع الأموى ، فبعد أن حفظ القرآن أخذ يختلف إلى شيوخه وفى مقدمتهم الحافظ أبوالقاسم بن عساكر . وكان فطنا ذكيا وسرعان ما جرى الشعر على لسانه وهو فى السادسة عشرة من عمره . ولا نعرف الأسباب التى جعلته يتجه بشعره فى بواكير حياته إلى الهجاء ، ربما كان عدوانيا بطبعه ، وربما رجع ذلك إلى أنه نشأ فى أسرة متواضعة ، وأن أباه لم ينشّئه على حب الخير والشعور بالمروءة والكرامة والرغبة فى التسامى وطلب المعالى ، وقد صرَّح بذلك فى بعض شعره قائلا فيه :

وجنَّبنى أن أفعلَ الخيرَ والدٌ ضئيلٌ إذا ما عُدَّ أهلُ المناسِبِ

(١) ثوب : دعا

(٢) النقع : غبار الحرب

(٣) يرديهم : يهلكهم

(٤) انظر فى ابن عنين وشعره ابن خلكان ١٤/٥ ومعجم الأدباء ٨١/١٩ والبداية والنهاية لابن كثير ١٣٨/١٣ والنجوم الزاهرة ٢٩٣/٦ ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزى ٣٦٤/٨ ، ٣٩٨ ، ٤٦١ ومفرج الكروب لابن واصل ٢٨٦/٤ والشذرات ١٤٠/٥ ومقدمة ديوانه لمحققه لخليل مردم (نشر دار صادر ببيروت) .

بعيدٌ عن الحسنى قريبٌ من الخَنا   وضيعُ مساعى الخير جَمُّ المعايبِ
إذا رمتُ أن أسمو صعودًا إلى العلا   غدا عِرْقُه نحو الدَّنِيَّة جاذبى

ويبدو أنه أراد بهجائه للناس الانتقامَ لضعة أسرته وأبيه ، ومن العجب أن صلاح الدين الأيوبى البطل المغوار الذى أذلَّ حملة الصليب ودفع جموعهم إلى البحر المتوسط وما وراءه واستولى على بيت المقدس المعظم منهم وغيره . هذا البطل الذى احتل السويداء من أفئدة المسلمين حين استولى على دمشق وابن عنين فى العشرين من عمره لم يبادر إلى مدحه ، بل على العكس عمد إلى هجائه هجاء مقذعا هو ووزيره القاضى الفاضل وكاتبه عماد الدين الأصبهانى وغيرهما من كبار حاشيته ورجاله وفيه يقول :

سلطانُنا أعرجٌ وكاتبُهُ   ذو عَمَشٍ والوزير مُنْحَدِبُ

وكان القاضى الفاضل أحدب وكان من خيرة الرجال وصفوة الكتاب الشعراء كما كان سيوسا حاذقا بتدبير الدول . وذاعت لابن عُنين فى دمشق قصيدة طويلة يقال إنها بلغت خمسمائة بيت سماها مقراض الأعراض ، وضجَّ الناس من لسانه وبهتانه ، ورفعوا شكواهم منه إلى صلاح الدين ، فأمر بنفيه عن دمشق ، فمضى على وجهه يجوب البلاد من الشام إلى العراق والجزيرة وأذربيجان وخوارزم وخراسان وما وراء النهر وغزنة ودخل الهند . ثم رحل إلى اليمن وحاكمها من قبل صلاح الدين أخوه طُغْتِكين (٥٧٧ — ٥٩٣ هـ .) فوفد عليه ، وقدم إليه مدائحه فلقيه لقاء كريما وخفَّ على قلبه فاتخذه نديما ، وأخذ يكثر من مديحه وطغتكين يكثر من عطائه ، حتى أثرى ، وكثر فى يده المال ، فرأى أن يستثمره ، وتحول تاجرا يتردد بعروضه بين اليمن ومصر فى العقد التاسع من القرن السادس .

وكان العزيز عثمان بن صلاح الدين ينوب عن أبيه بمصر حتى إذا توفِّى صلاح الدين سنة ٥٨٩ أصبح العزيز عثمان سلطانها ، ونرى ابن عنين يشكو منه لمطالبته بدفع ضريبة عن عروض التجارة التى يحملها إلى مصر ، ولا نعرف هل هذه الشكوى كانت فى أيام نيابته عن أبيه أو فى أيام سلطنته ، وهو فيها يهجوه بالشحِّ بينما يمدح عمَّه العزيز طغتكين بالكرم ، يقول :

ما كلُّ مَنْ يتسمَّى بالعزيز لَهُ   فَضْلٌ ولا كلُّ بَرْقٍ سُحْبُهُ غَدِقَهْ(١)
بين العزيزين بَوْنٌ فى فعالها   هذاك يُعطى وهذا يأخذ الصَّدَقَهْ

(١) غدقة : غزيره المطر .

وهو هجاء لاذع للعزيز عثمان إذ يجعله – لشدة شحه – شحاذا يأخذ الصدقة . ويبدو أنه ظل بمصر بعد وفاة العزيز طغتكين سنة ٥٩٣ ومكث بها مدة انعقدت فيها صداقة بينه وبين شعرائها ، يقول ابن خلكان : « اتفق فى عصره بمصر جماعة من الشعراء المجيدين وكان لهم مجالس يجرى بينهم فيها مفاكهات ومحاورات يروق سماعها ، ودخل فى ذلك الوقت شرف الدين بن عنين فاحتفلوا به وعملوا له دعوات، وكانوا يجتمعون على أرغد عيش». وتوفى العزيز عثمان سنة ٥٩٥ وتولى بعده أخوه الأفضل وتطورت الظروف وتحول ملك صلاح الدين فى مصر والشام إلى أخيه الملك العادل ، فولَّى على مصر ابنه الكامل وعلى دمشق ابنه المعظم عيسى . وحنَّ ابن عنين إلى العودة إلى دمشق فأخذ يستعطف العادل أن يعود إليها وأذن له فى العودة ولزم ابنه المعظم عيسى (٥٩٧ – ٦٢٤ هـ) يمدحه ، وقرَّبه منه واتخذه بأخرة من أيامه وزيرًا له ، حتى إذا توفى رثاه رثاء حارا . وأبقى له منزلته ابنُه داود (٦٢٤ – ٦٢٦) وخلفه الأشرف موسى فلزم بيته واصطلحت عليه الأمراض ، وتوفى سنة ٦٣٠ عن ٨١ عاما .

والديوان موزع على أبواب المديح والرثاء والحنين إلى دمشق والوقائع والمحاضرات مما يتصل بظروفه والأحداث اليومية ، ثم الدعابة والتهكم والسخرية والألغاز والهجاء . وألحق محقق الديوان بتلك الأبواب مستدركا بما عثر عليه من شعر ابن عنين فى كتب التاريخ والأدب . وهو فى مقدمة شعراء دمشق بزمنه إن لم يكن سابقهم المجليَّ ، إذ كانت ملكته الشعرية خصبة ، غير أنه استغلها أكبر استغلال فى الهجاء مما جعل صلاح الدين ينفيه – كما مر بنا – عن دمشق ، وحتى من أكرموه كان يهجوهم غير مراع فيهم إلاًّ ولا ذمة ، إذ كان ما يلبث أن يعضَّ أيديهم التى امتدت لإكرامه ، من ذلك هجاؤه للسلطان العادل الذى فتح له أبواب دمشق ، إذ ما لبث أن قال فيه بعد دخولها :

إن سُلْطاننا الذى نرتجيهِ واسعُ المال ضيِّقُ الإنفاقِ
هو سيفٌ كما يقالُ ولكنْ قــاطــعٌ لــلــرسوم والأرزاقِ

وكان العادل يلقب سيف الدين ، وأنقذه من تشتته وضياعه فى البلاد وردَّه إلى دمشق حبيبة قلبه ومهوى فؤاده التى طالما تغنى بالحنين إليها ، ومع ذلك جزاه بالهجاء . وحقًّا له فيه مدائح رائعه ، ولكن كان ينبغى أن يرد شيطان هجائه عن الإلمام بساحته . وأكرمه المعظم عيسى بن العادل صاحب دمشق إكراما إلى أقصى حد حتى جعله نديمه ومؤنسه ووزيره ومستشاره ، ومع

ذلك لم ينج من هجائه إذ يقول حين ولاه مع البها بن أبي اليسر التنوخي أمر الرعية :

أرى ابن عُنَيْنٍ والبَها مذ تولَّيا على الناس ولَّى الخَيْرُ عن كل مُسْلِمِ
فوالله ياعيسى بمن شِئْتَ منهما لُعِنْتَ ولوكنت المسيحَ بن مَرْيَمِ

وحقًّا هجا نفسه معه ، ولكن هذا لا يعفيه من قَسمه له بأنه لُعن لتوليته هو وصاحبه . وهجا نفسه فى ديوانه غير مرة ، وكأنه يعيد لنا الحطيئة شاعر الهجاء القديم وهجاءه لنفسه ، وأيضا فإنه استعار منه – كما مرَّ بنا – هجاءه لأبيه . وأهداه طبيب عيون – أو كما كانوا يقولون كحال – خروفاً هزيلا جدا فكتب إليه أهجية طويلة يقول فيها :

أتانى خروفٌ ما شككتُ بأنَّه حليفُ هوًى قد شَفَّه الهَجْرُ والعَذْلُ
إذا قام فى شمسِ الظهيرةِ خلتَهُ خيالا سرى فى ظلمةٍ ماله ظِلُّ
فناشدتُه ما تشتهى قال قَتَّةٌ وقاسمتُه ما شفَّه قال لى الأَكْلُ
وظلَّ يراعيها بِعَيْنٍ ضعيفةٍ وُينشدها والدمع فى الخدِّ منهلُّ
أتتْ وحياضُ الموت بينى وبينها وجادتْ بوصلٍ حين لا ينفع الوصل

والبيت الأخير لأعرابى وضعه بدقة فى موضعه من القطعة ، وقد جعل الخروف الهزيل نِضْوَ عشقٍ شفه الهجر واللوم ، ويقول كأنه خيال فى ظلام ليس له ظل ، وهى صورة بديعة ويستحلفه ما يشتهى فيقول قتة أو عشب يابس وأحضرها له ، فظل يراعيها بعين ذابلة توشك أن تودع الحياة ودموعه منهلة على خدوده ، فقد أتته وهو يكاد يلفظ أنفاسه . وجادت عليه بوصل لم يعد ينفعه فروحه فى الحلقوم .

ويصور ابن عنين بخيلا شحيح النفس كان يدعو أصدقاءه مرة كل عام ضجرا متبرما ، متمنيا أن لا تتكرر هذه الدعوة أبدا ، ومُدَّت المائدة وأخذ الأصدقاء يتناولون الطعام ، ويصفه ابن عنين حينئذ قائلا :

عهدى به واليَدُ اليمنى يَكُفُّ بها غَرْبَ المدامعِ والأخرى على الكبدِ
يقول للخبز : لا يبعد مَداك ولا أَخْنَى عليك الذى أخنى على لُبَدِ

ولبد آخر نسور لقمان فى قصة مشهورة ، وهذا الشحيح يستر غرب دمعه بيد ويضع الأخرى

على كبده خشية تفتته داعيا لخبزه أن لا يأتى الدهر عليه كما أتى على لبد . وكان يهاجى رشيد الدين عبد الرحمن النابلسى ويزعم أنه صُفع وأنه معتاد الصفع دائما يقول :

تعجَّب قومٌ لصَفْعِ الرشيدِ وذلك مازال من دابِهِ
رحمتُ انكسارَ قلوبِ النِّعالِ وقد دنَّسوها بأثوابهِ
فوالله ما صَفعوه بها ولكنهم صفعوها بهِ

وله أهاج كثيرة فى القاضى الفاضل وكبار رجال الدولة بدمشق وجهابذة قضاتها وشيوخها ، وهو فيها أو على الأقل فى بعضها يفحش إفحاشا شديدا ، مما دفعنا إلى إخلاء هذا الكتاب منها ، لا لفحشها فحسب : بل لأن ما يخلو منها من الفحش أيضا إنما هو افتراء وبهتان .

ابن[1] النحاس

هو فتح الله بن النحاس الحلبى المعروف باسم ابن النحاس اشتهر بطوافه فى البلدان الشامية والمصرية والحجازية ، كان جميل الصورة فى صباه ومطالع شبابه ، ثم أصيب بمرض بدَّل محاسنه وزهده فى الحياة . ونراه فى شعره يرثى تلك الأيام أسفا محزونًا ، ويقال إنه تزيَّى بزى الزهاد ورحل عن بلده ، ودخل دمشق فاستقبله أدباؤها وشعراؤها استقبالا كريما . وكان لهم مجالس يتطارحون فيها الشعر ، وكانوا يجتمعون فى نزه دمشق ، ويتحاورون ويتحدثون ويذكرون كثيرا من الدعابات والفكاهات . وانعقدت صلة متينة بينه وبين ابن منجك الذى تحدثنا عنه بين شعراء المديح ، وله فيه مدائح كثيرة . ورحل عن دمشق إلى القاهرة فوجد من أدبائها أهلا ومكانا طيبا ، وهاجر منها إلى مكة ، وألقى عصا تسياره بالمدينة ، إلى أن توفى سنة ١٠٥٢ للهجرة . ويقول فيه المحبى فى كتابه : نفحة الريحانة : « أنا لا أجد عبارة تفى فى حقه بالمدح ، فأرسلت اليراع وما يأتى به على الفتح ، وناهيك بشاعر لم يطنّ مثل شعره فى آذان الزمان ، وساحرٍ إذا أُشْرِبتْ كلماته العقول استغنت عن الكئوس والندمان » .

وابن النحاس شاعر مجيد ، بالقياس إلى زمنه أيام العثمانيين ، وشعره استنفده فى المديح ، ويكثر فى مقدماته من الغزل ، وقد يفزع إلى الفخر بمثل قوله :

(١) انظر فى ابن النحاس وشعره سلافة العصر ص ٢٧٦ وخلاصة الأثر ٢٥٧/٣ ونفحة الريحانة ٥٠٧/٢ وديوان ابن النحاس مطبوع قديما فى بيروت بالمطبعة الأنسية .

ألا إن لى نفسَ الوَقورِ وعفَّةَ الـ ـقدير وقلبى فى المهمـات قُلَّبُ
وما كلُّ مَعْسول اللَّمَى يستفزُّنى ولا كلُّ مطلوبٍ لدىَّ محبَّبُ[1]
وأحـتـمـلُ المكروه ممن يملُّنى ولم ألوِ جيدَ الودِّ عمن ينكِّب
إذا أنا لم أدفع عن النفس ضَيْمَها فلا انجاب عنها من دُجَا الضَّيْم غَيْهَبُ
ولا وَطِئَتْ خَدَّ الفيافى ركائبى ولا سالَ حَزْنٌ بالمطىِّ وسَبْسَبُ

وهو يقول عن نفسه إنه وقور عفيف قُلَّب يحتال فى قوة للأمور ، ولا يستثيره جمال المرأة ولا يطلب ما يطلبه الناس ، بل يطلب الأمانى الكبار ، ويحتمل الأذى ممن ينصرف عنه ، ولا ينصرف عمن يُعْرض عنه من الأودَّاء الأصدقاء ، ويدعو على نفسه إن لم يدفع الضيم الساقط عليه أن لا ينجاب عنه دجاه المظلم ، وأن تهن قواه فلا تطأ الفيافى ركائبه ولا يسيل بها حَزْن من الأرض ولا مفازة . ويقول من قصيدة ثانية :

يـادهـرُ مـثلى لا يُقَلْـ ـقَلُ عن سَنام المجد جَنْبُهْ
أنا لا أبالى إن رُميـ ـتُ وسبَّ عِرْضى مَنْ أسبُّهْ
الـعـينُ يدميها الـذُّبا بُ ويُعْجز الآسادَ ذَبُّه
والـتِّـبْـرُ يـعـلـوه التُّرا بُ وفضلُه باقٍ ولُبُّه
تكفى فَتَى العِرْفان خـِ ـلاَّنا فضـائـلُـه وكُـتْـبُـهْ
وارقبْ خُفُوقى إن سكنـ ـتُ فعاصفى يُرْجَى مَهَبُّه
والبدرُ يشرق فى المطا لع بعد ما أخفاه غَرْبُهْ
والروضُ يَذْبل ثم تُكْـ ـسَى النَّوْرَ والأوراقَ قُضْبُهْ

وهو يقول للدهر إن شيئا لا يستطيع أن يزعزعه عن مكانه من سنام المجد ، وإنه ليرمى ، ولا يهمه ما قد يلقى عليه من أذى السب والشتم ، مثله فى ذلك مثل العين يدميها الذباب وحتى الأسد لا تستطيع ذبه ولا دفعه ومثل التبر يعلوه التراب وتظل له قيمته ونفاسته . ويفتخر بفضائله ومعارفه ، ويقول لخصمه : ترقَّب حركتى ، فإنى كعاصف ساكن لا يلبث أن يثور ويندفع ، وما مثلى إلا كمثل البدر يخفيه مغربه ولا يلبث أن تعم أضواؤه الآفاق ، أوكمثل الروض تذبل

---

(١) اللمى : سمرة حسنة فى الشفة

أشجاره ، حتى إذا كان الربيع كسى غصونه الأوراق والأزهار الأرجة . ويقول :

لا أقبلُ الضيمَ كيف أقبلهُ ؟ والمجدُ يأباه فيَّ والحسَبُ
والشمسُ صَوْنًا لضوءِ طلعتها قبل لِحَاقِ الظلام تحتجبُ

يقول إنه لا يقبل الضيم وكيف يقبله ومجد آبائه وعشيرته يستدير من حوله هالةً منيرة تحول بينه وبين الرضا بالهوان . وإنه ليصون نفسه وخصالها الكريمة كما تصون الشمس ضوءها ، بل إنها لتحتجب قبل أن يلحقها الظلام ويرخى الليل سدوله على الآفاق .

٣

شعراء المراثى والشكوى

المراثى قديمة فى الشام منذ عصر بنى أمية فقلما كان يموت خليفة أموى إلا ويرثيه الشعراء من الشام والعراق والحجاز ، ويدخل عصر الولاة ومنذ أواخر القرن الثانى تشارك الشام بقوة فى الشعر العربى ، ولا يلبث أبو تمام الدمشقى أن يحمل راية الشعر وزعامته لا فى الشام وحدها بل أيضا فى العالم العربى جميعه ، وتحتل المراثى بابا كبيرا فى ديوانه ، ويخلفه تلميذه البحترى المنبجى الحلبى المتوفى سنة ٢٨٤ للهجرة وتشغل المراثى حيزا كبيرا فى شعره . ونلتقى فى أوائل هذا العصر : عصر الدول والإمارات بكشاجم . وله رثاء فى أبيه وأمه ، وأروع من رثائه فيهما رثاء أبى فراس لأمه حين جاءه نعيها فى أسر الروم ، فأحس فى عمق بفجيعته فيها وهو غائب عنها لا يملك إلا أن يذرف الدموع الحارة . وله مرثية بديعة فى أخت له يقول فيها[1] :

أتزعم أنك خِدْنُ الوفاءِ وقد حَجبَ التُّرْبُ من قد حجبْ
فإن كنت تصدقُ فيما تقولُ فمُتْ قبل موتك مَعْ من تُحِبْ
وكنتُ أقيكِ إلىٰ أنْ رمتْكِ يَدُ الدَّهر من حيث لا أحتسبْ
فلا سلمت مقلةٌ لم تَسُحَّ ولا بقيتْ لِمَّةٌ لم تَشِبْ
ولو رُدَّ بالرُّزْءِ ما تستحقُّ لما كان لى فى حياتى أربْ

---

(١) الديوان ٢/٤١

وهو يتمنى لو غُيِّب التراب مع شقيقته وصِنْو روحه حبا لها ووفاء ، ويأسى لنفسه أنه لم يستطع أن يرد عنها سهام المنية التي أصابتها في الصميم تحت بصره ، ولم يعد يملك لها إلا دموعا منهمرة ويتمنى أن لا يتوقف انهمارها ، لعلها تشفي غُلَّة نفسه وحُرْقة فؤاده ويقول لو أن الرزء فيها يرد إلى أخته الحياة لما كان له في حياته أرب ولقدّم روحه فداء لها .

ولأبي العلاء مرثية رائعة لأمه ، وكان قد بلغه نعيها وهو في طريقه إليها من العراق ، ويقول في مطلعها إنه سمع بداهية أصمّت أذنه وصكّت سمعه ، ويأسى أن تتقدمه إلى الموت ، ويُعْظم أن يرثيها بلفظ يمر بلسانه ويسلك مسالك الطعام ، ويقول إن ألفاظ رثائه تحطم نواجذ أضراسه فضلا عن مقادم أسنانه ، وينشد[1] :

ومَنْ لي أن أصوغ الشُّهْبَ شِعْرًا ... فألْبِسَ قَبْرَها سِمْطَيْ نظام
مضتْ وقد اكتهلتُ وخلتُ أنّي ... رضيعٌ ما بلغتُ مدى الفِطام
فياركبَ المَنُون أما رسولٌ ... يبلِّغ روحَها أرَجَ السَّلام
ذكيًّا يُصْحَبُ الكافورُ مِنْه ... بمثل المِسْك مفضوضَ الختام

وهو يكبرها عن أن يرثيها بألفاظ ، إذ هي جديرة بأن يصوغ لها النجوم الساطعة عقود رثاء تزين جَدَثها الطاهر ، ويحس في عمق — وهو في سن الكهولة — كأن السنوات الطويلة التي فصلته عن صدر أمه من القِصَر ليست إلا أياماقصيرة إذ لايزال يشعر كأنه رضيع فقد أمه ، وهو في حاجة شديدة إليها ، رضيع ضاع أي ضياع . ويتوسل إلى قوافل المنون التي تسرى في ليل الأبدية أن تحمل منه إلى أمه سلاما ذكيا عطرا ينتشر أريجه من حولها ويسطع سطوعا . ويقول الماهر الدمشقي المتوفى سنة ٤٥٢ في مرثية له[2] :

برغمي أن أعنّف فيك دَهْرًا ... قليلا فكرُه بمعنِّفيهِ
وأن أرْعى النجومَ ولستَ فيها ... وأن أطأ الترابَ وأنت فيهِ

ويقول الباخرزي تعليقا على البيتين : « هذا أرقُّ ما يكون في المراثي ، إذ يكاد يفجِّر عيون الأحجار ، فتسيل بمدود الأنهار ، بل بأمواج البحار » .

وتنشب الحروب الصليبية ، وفي بعض حملات آبق أمير دمشق على حملة الصليب سنة ٥٠١

---

(١) سقط الزند ١٢٥٩/٤ (٢) دمية القصر ١٥٨/١

يخون الحظ قائدا من قواده يسمى قُول بن عثمان ، فيقتله الصليبيون ، ويبكيه ابن الخياط شاعر دمشق بمثل قوله(١) :

يالَلرِّجالِ لنازلٍ لم يُحْتَسَبْ ... ولحادثٍ ما كان بالمتوقَّعِ
تالله ما جارَ الزمان ولا اعتدى ... بأشدَّ من هذا المصابِ وأوجعِ
باقُولُ قَوْلَةَ مُكْمَدٍ مُسْتَنْزِرٍ ... ماءَ الشئون له ونارَ الأضْلُعِ
أشكو إلى الأيام فيك رَزِيَّتِى ... لو تسمع الأيامُ شكوى موجَعِ
صُلْ بَعْدَها يادهرُ أو فاكْفُفْ وخُذْ ... مَنْ شئتَ ياصَرْفَ المنية أودَعِ

وهى مرثية رائعة تمتلىء بأبيات تصور لوعات الدمشقيين فى هذا البطل وكارثتهم وفجيعتهم التى لا تماثلها فجيعة . وإن الشاعر ليستقلُّ الدموع الغزار فيه وما وراءها من نار موقدة فى الصدور كمدًا عليه ، وليُنْزِل الدهر بالدمشقيين بعدها فواجع أو فليكفّ ، فلن يصيبهم مثلها فاجعة أو كارثة .

وتوفى نور الدين محمود سنة ٥٧٠ فاهتزت الشام لفقده هزة شدة ، وفى رثائه يقول العماد الأصبهانى فى إحدى مراثيه(٢) :

يامَلِكًا أيامُه لم تَزَلْ ... لفضلِهِ فاضلةٌ فاخرَه
غاصتْ بحارُ الجود مذ غُيِّبَتْ ... أنْمُلُكَ الفائضةُ الزاخره
مَلَكتَ دنياك وخلَّفْتَها ... وسرتَ حتى تملك الآخرهْ

وتوفى بعده صلاح الدين بدمشق ، وكانت لوفاته أوائل سنة ٥٨٩ رنة حزن عميقة فى جميع القلوب والديار لكثرة فتوحاته ، وقد أزاح الصليبيين عن صدر الشام وافتتح بيت المقدس ولم يبق معهم إلا عكا وأنطاكية وبعض حصون وبلدان قليلة ، وبكاه الشعراء وفى مقدمتهم عماد الدين الأصبهانى ، وله فيه مرثية بديعة ختم بها كتابه البرق الشامى ، وفيها يقول(٣) :

أين الذى شَرُفَ الزمانُ بفضلِهِ ... وسَمتْ على الفضلاء تشريفاتُهُ

---

(١) ديوان ابن الخياط ص ٢١٣ والخريدة بداية شعراء الشام ص ٢٠٩ .

(٢) الروضتين لأبى شامة (طبع مطبعة وادى النيل بالقاهرة) ٢٢٨/١ .

(٣) انظر نهاية كتاب البرق الشامى للعماد والروضتين ٢١٥/٢ والنجوم الزاهرة ٦٠/٦

لا تحسبوهُ ماتَ شخصا واحدا ... قد عمَّ كلَّ العالمين مماتُه
لو كان فى عصر النبىِّ لأُنزلتْ ... فى ذِكْرِه من ذكره آياتُهُ
ياراعياً للدين حين تمكنتْ ... منه الذئابُ وأسلمتْه رُعاتُه
فعلى صلاح الدين يوسفَ دائمًا ... رِضْوانُ رَبٍّ العرشِ بل صلواتُهُ

وحقا حامى صلاح الدين عن الإسلام حماية هائلة ، عرضنا لها فى حديثنا عن السياسة بالشام ومصر ، حماية جعلته فى الذروة من أبطال العرب الفاتحين ، مع ما عمَّره من المدارس والمساجد فى كل بلد بمصر والشام ، ومع كثرة ما وقفه عليهما من أموال ، ومع دولته الواسعة لم يخلِّف ملكا ولا دارا ولا بستانا ولا مزرعة ، إنما خلف بطولةً أحْنَى لها حَملةُ الصليب رءوسهم .

ولا يكاد يتوفَّى حاكم طوال هذا العصر ولا وزير ولا عالم ولا قاض إلا ويرثيه الشعراء ، من ذلك قول الشهاب محمود فى ابن صَصْرَى قاضى دمشق لأكثر من عشرين عاما المتوفى سنة ٧٢٣ للهجرة [١] :

قاضى القضاة ومَنْ حَوَى رُتَبًا سَمَتْ ... عن أن تُسَام سَنًا وَبَزَّتْ مَنْ سَعَى
شيخُ الشيوخ العارفين ومَنْ رَقَى ... رُتَبَ السلوكِ تعبُّدا وتورُّعا
حاوى العلومِ بما تفرَّق فى الوَرَى ... إلا الذى منها إليه تجمَّعا

وطبيعى أن يصفه بالتقوى والورع والعلوم الشرعية والفقه بها فقها دقيقا . ويقولون إنه كان يجمع بين الحسنيين : المعرفة بالمنقول والبراعة فى المعقول أو ما يحتاج إلى عقل وفهم وقياس وبصيرة . ويلقانا رثاء كثير أيام العثمانيين ، من ذلك قول أحمد بن محمد الحسنى الحلبى المتوفى سنة ١٠٥٦ فى رثاء أخيه [٢] :

رُزْءٌ ألسمَّ وحسرةٌ تَتوالى ... ومصيبةٌ قد جَذَّتِ الآمالا
وفراقُ إلفٍ إن أردتُ تَصَبُّرًا ... عنه أردتُ من الزمان محالا
كنا كغُصْنَىْ دَوْحَةٍ قطع الرَّدَى ... منها الأغضَّ الأرْطَبَ الميَّالا
أو كاليدين لذاتِ شَخْصٍ واحدٍ ... كان اليمينَ لها وكنتُ شمالا

وكان وتر الشكوى من الدهر والممدوحين والناس مشدودا فى أحوال كثيرة إلى قيثارات الشعراء

(١) طبقات الشافعية للسبكى ٢٢/٩

(٢) نفحة الريحانة للمحبى ٥٣٩/٢

يلحّون عليه نوائب الدهر وتغافل المحدوحين وبؤس حظوظهم في دنياهم وما يتجرّعون من صاب الدنيا وعلقمها المرير ، وما يلون في الناس من الطمع والحقد والأنانية مما يوهى العلاقات حتى بين الأقرباء ، ويملأ النفوس شقاء وعناء والقلوب حسرات ولوعات ، من ذلك قول أبي فراس [١] :

أرانى وقومى فرّقتنا مذاهبُ ... وإن جمعتنا فى الأصول المناسبُ
فأقصاهمُ أقصاهمُ من مساءتى ... وأقربُهم مما كرهتُ الأقاربُ
غريبٌ وأهلى حيثما كرّ ناظرى ... وحيدٌ وحولى من رجالى عصائبُ
وأعظمُ أعداء الرجالِ ثِقاتُها ... وأهونُ من عاديته مَنْ تحاربُ

وهو يصور المحنة فى الناس حوله ، فهم جميعا قومه يرجعون إلى أصل واحد ونسب واحد ، وأقربهم منه لا يحبون له الخير ، ويحبه له البعداء ، مما يجعله يشعر فى عمق بالغربة بين أهله وذويه وعصاباته ، ويهوله ذلك ويقلقه ويفزعه . وإنه ليوغل فى فهم الناس فيشعر بغير قليل من قلق النفس وضيق الصدر ، فإن من يصادقك إنما يصادقك على الخداع ، وهو لذلك ليس صديقا ، بل هو أعظم أعدائك لأنك تأمنه وتجعله محل ثقتك ، وهو لا يريد لك خيرا بل يريد لك الشر والأذى ، وهو لذلك أعْدى أعدائك ، أما العدو الحقيقى فأنت تعالنه العداوة وتجاهره بالحرب والخصومة ، فلن يصيبك منه أذى لأنك محترس منه دائما متق شره وخيانته وغدره . ويخاطب أبو العلاء الدهر بقوله [٢] :

يا دَهْرُ يا منجزَ إيعادِهِ ... ومخلفَ المأمولِ من وَعْدِهِ
أىُّ جديدٍ لك لم تُبْلِهِ ... وأىُّ أقرانك لم تُرْدِهِ
تستأثر العِقْبان فى جوّها ... وتُنْزِل الأعصمَ من قِنّتِهِ [٣]
إن زمانى برزاياه لى ... صيّرنى أمرحُ فى قِدّه [٤]
أفضلُ ما فى النفس يَغْتالها ... فنستعيذ الله من جُنْدِهِ
وربَّ ظمآنَ إلى موردٍ ... والموتُ لو يعلم فى وِرْدِه

وهو يشكو من الدهر وأنه ينجز دائما الإيعاد والإنذار بالشرور والخطوب ، ويُخلف دائما

---

(١) ديوان أبى فراس ٢/٢٠

(٢) سقط الزند ٢/١٠١٢

(٣) الأعصم : الوعل . القنة : قمة الجبل

(٤) القد : مايُقدّ من الجلد ويُشَدّ به الأسير

الوعد بالخيرات والطيبات ، وإنه ليأتى دائما على كل جديد وكل قِرْن يدَّعى أنه يماثله فى القوة أو الشجاعة ، فالكل أسْراه : العِقْبان فى أجوائها العليا والعُصْم أو الوعول فى أعالى الجبال ، فلا أحد ينجو من صولته . ويقول إنه ألف رزاياه ونكباته حتى صارت قِدًّا أو قيدًا له ولحياته ، وصار من طول ألفته لها يستحبها ويمرح فيها . ويعجب أن يكون أفضل ما فى النفس من حواس البصر والسمع وغيرهما يغتاله أو يهلكه ما سُلِّط عليه من آفات الهوى ، ويجعلها كأنها جنود لله إذ تنتقم له من الإنسان بسوء سلوكه وأعماله . وهو لذلك يستعيذ من شرها ، ويقول رب ظامئ إلى مورد يريد أن ينهل منه ، فيكون فيه هلاكه . ويقول أسامة بن منقذ[1] :

حذَّرَتْنى تجاربى صُحْبَةَ العا ... لَمِ حتى كرهتُ صحبةَ ظِلِّى
ليس فيهم خِلٌّ إذا ناب خَطْبٌ ... قلتُ مالى لدفعه غيرُ خِلِّى
كلُّهم يبذلُ الودادَ لدى اليُسْـ ... ـرِ ولكنهم عِدًى للمقلِّ
فاعْتَزِلْهُمْ فَفِى انفرادِكَ منهم ... راحةُ اليأسِ من جِذارٍ وذُلٍّ

وقد بلغ أسامة من ابتلائه للناس واختبارهم أن أصبح يمقتهم ويمقت كل ما فى العالم حتى ظله يكره أن يصحبه خوفا أن يكون فيه ما فى الناس من عدم الوفاء وخيانة الصحبة . ويقول إنه ليس فى الناس خل صادق العهد فى النعماء والبأساء ، بل إذا نابت ضراء لم يسعفك ولم يساعدك ، إنما يعرفك فى اليُسْر ، أما فى العسر فلا يودّك ولا يعرف لك طَوْلا ولا فضلا ولا يسدُّ لك ثلمة ولا يقدم لك عونا ، فاعتزل الناس وايْأَسْ من أن يردّوا لك معروفا أو جميلا تَعِشْ آمنا عزيزًا .

ويقول ابن عُنَين فى التّشوق إلى دمشق بعد أن ظل منفيا عنها طويلا شاكيا محزونا لغربته وما لقى فيها من ضنك العيش بعد أن طوَّف فى العراق وإيران وخراسان والهند واليمن[2] :

فسَقَى دمشقَ ووَادِيَيْها والحِمَى ... متواصلُ الإرعادِ مُنْفصمُ العُرَى
فارقتُها لا عن رِضًى وهجرتُها ... لا عن قِلًى ورحلتُ لا متخيِّرا
أسْعَى لرزقٍ فى البلاد مشتَّتٍ ... ومن العجائب أن يكون مقتَّرا
لا عيشتى تَصْفُو ولا رَسْمُ الهوى ... يَعْفُو ولا جَفْنِى يصافحُه الكرَى

فهو يدعو لدمشق — وكان يكثر من الحنين إليها — أن يسقيها سحاب متواصل الإرعاد

(١) الخريدة (قسم الشام) ١/٥٢٥ — (٢) ديوان ابن عنين ص ٤

أو الإمطار ، منفصم العُرَى واهيه يهطل مدرارا . ويقول إنه برغمه فارقها قسرا ، وهو إنما فارقها لهجوه أهلها وإفحاشه فى هجوه . ويقول إنه جاب البلاد يسعى لرزقه فكان لا يصيب منه إلا الكفاف وإلا ما يسدُّ رمقه ، فرزقه دائما مقتَّر أو قليل ، وعيشته دائما نكدة ، وهواه معلق دائما بدمشق ودائما مسهَّد لا يلم بجفونه الكرى أو النوم لما ملكتْ عليه من شغاف قلبه .

وكان شعراء الشام وأدباؤه كثيرا ما ينزلون القاهرة فى عهد الأيوبيين والمماليك ويحنّون إلى الشام وبلدانه ورياضها الفيحاء شاكين من الغربة وأن عيونهم لا تكتحل بمناظر وطنهم ومشاهده الجميلة ، فضلا عن رؤية الأهل والأصدقاء . ونزل القاهرة ابن حِجَّة الحموى صاحب خزانة الأدب المتوفى سنة ٨٣٧ وكان أحد ندماء السلطان المؤيد وولى عدة وظائف لعهده ، ويقول متشوقا إلى بلدته حَماة شاكيا غربته وطول فراقه لأهله[١] :

ياساكنى مَغْنَى حَمَاةَ وحَقِّكم من بعدكم ماذقتُ عيشًا طيِّبا
أرضٌ رَضعتُ بها ثُدِىَّ شبيبتى ومزجت لذَّاتى بكاسات الصِّبا
وقد التفتُّ إليك يادهرى بطو ل تعتبى ويحقّ لى أن أعْتبا
قرَّرْتَ لى طولَ الشتات وظيفةً وجعلتَ دمعى فى الخدود مرتَّبا

وهو يشكو من غربته عن ملاعب صباه وشبابه وديار أحبائه فى حماة مسقط رأسه ، ويعاتب الدهر الذى قضى عليه بفراقها وطول تشتته بعيدا عن قرة عينه ، وإنه ليبكيها بدموع غزار . ولذلك عاد إلى حماة بمجرد أن توفى السلطان المؤيد سنة ٨٢٣ للهجرة .

وتظل الشكوى من الزمان والناس طوال العصر ، ومرت بنا ترجمة لحسين بن الجزرى أيام العثمانيين ، وله يشكو شكوى مرة من الناس منشدا[٢] :

قد صرتُ أحْترز الأنامَ وغَدْرَهم إن الطبيبَ يخاف مسَّ الدَّاء
وقطعتُ باليأس الرجاء لديهمُ واليأْسُ يَجْدَعُ أنْفَ كلِّ رجاء
ولطالما أصفيت قبلك خُلَّتى من لا أراه موافقا لإخائى
وبلوت منه ودَّه فرأيْتُه متلوِّنًا كتلوُّن الحِرْباء

لقد جرب الناس طويلا فرآهم غادرين ماكرين لا يصونون عهدا ولا يحفظون ودا ، فيئس

(١) خزانة الأدب ص ٤٠

(٢) ريحانة الألبا ١٢٤/١

منهم يأسا لا يداخله أى رجاء ، يأسا لا أمل معه فى وفاء ولا ما يشبه الوفاء ، فقد طالت تجربته وطال اختباره ورجع دائما خائبا بل رجع شاعرا بمرارة ، لرؤيته الصديق وقد تلوّن ألوانا كألوان الحِرْباء ، إذ تتلون فى ساعات النهار ألوانا مختلفة . فاتخذ منها مثلا لتلونه . ونقف قليلا بإزاء نفر من شعراء الشكوى والرثاء .

ابن سنان [1] الخفاجى

هو أبو محمد عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجى الحلبى تلميذ أبى العلاء المعرى ، وكان يتشيع وأنشدنا له فى حديثنا عن شعراء التشيع شعرا شيعيا ، ولانعرف تاريخ ميلاده . ويبدو أنه أحب خوض معمعان السياسة إذ نراه فى حاشية محمودِ بن نصر بن صالح حين صار إليه أمر حلب سنة ٤٥٢ وقد بعث به رسولا إلى صاحب القسطنطينية ملك الروم يستنجد به على عمه عطية بن صالح ، وظل عندهم مدة وكتب إلى أهل حلب قصيدته المعروفة :

هذا كتابى عن كمال سلامةٍ ... عندى وحالٍ شَرْحُها فى الجملةِ
همٌّ وإقتارٌ وعمرٌ ذاهبٌ ... وفراقُ أوطانٍ وبُعْدُ أحبَّةِ

وعاد إلى حلب فى عهد أميرها ثمال بن صالح سنة ٤٥٣ ولم يلبث أن توفى وخلفه أخوه عطية واستولى عليها منه ابن أخيه محمود بن نصر سنة ٤٥٤ ورأى أن يولى فى كل قلعة من قلاع إمارته حلبيا بحيث تكون ذريته وأبناؤه تحت يده . وطلب من وزيره ابن أبى الثريا أن يختار له من يوليه « عَزاز » فقال : لا أجد لذلك إلا أبا محمد بن سنان الخفاجى وكان أبو نصر بن النحاس حاضرا فصوَّب الرأى فيه ، فأحضره محمود ، وولاه قلعةَ عزاز بعد أن امتنع ، وأخيرا أجاب . وبعد سنوات خشيه ابن سنان على نفسه واستوحش منه ، فاستدعاه محمود مرارا إلى حلب وابن سنان يتعلل عليه ولايحضر ، وكان أبو نصر بن النحاس صديقه فكان يكتب إليه يحذره . ومع ذلك اضطر – بأمر محمود – أن يحمل إليه طعاما مسموما وكان ذلك سبب موت ابن سنان سنة ٤٦٦ ويقال إنه لما أحسَّ بالموت أنشد .

خَفْ مَنْ أمنتَ ولاتركنْ إلى أحدٍ ... فما نصحتُك إلا بعدَ تجريبِ

---

(١) انظر فى ابن سنان الخفاجى وشعره زبدة الحلب من تاريخ حلب لابن العديم ، الجزءين الأول والثانى (انظر الفهرس) وفوات الوفيات ٤٨٩/١ والنجوم الزاهرة ٩٦/٥ وكتابنا البلاغة : تطور وتاريخ (طبع دار المعارف) ص ١٥٢ . وديوانه مطبوع بالمطبعة الأنسية ببيروت .

وكان مثقفا ثقافة أدبية وبلاغية علمية كما يتبين من وضعه لكتاب سر الفصاحة ، وهو كتاب نفيس . وديوانه مطبوع قديما ، ويكثر الرثاء فيه وهو يفتتحه بمرثية فى الكاتب على بن محمد بن عيسى العمرى ، وكان عطية بن صالح يضطغن عليه لوقوفه مع محمود بن نصر فى حصاره لحلب فقتله وصلبه ، وفى رثاء ابن سنان له يقول :

ومعذَّلٍ جارٍ على غُلَوائهِ ... يُرْوَى حديثُ نَداه عن أعدائهِ
عَجِلَتْ عليه يَدُ الحِمام وعودُه ... رَيَّانُ من خَمْرِ الشباب ومائه
عجبًا لحدِّ السيف كيف أصابه ... ومَضاؤه فى الرَّوْع دون مَضائه
ولمصعبٍ ملأ الزمانَ هديرُه ... قادوه بعد شِماسه وإبائهِ
إن يرفعوه فقد غنَوْا بعَلائه ... أو يَشْهَرُوه فقد كُفُوا بثنائهِ

وابن سنان يؤبِّن صديقه تأبينا حزينا قائلا : إنه كان بحرا فياضا فى الجود وطالما كان الناس يلومونه ويروون أحاديث كرمه الذى شهد به أعداؤه . ويقول إن الموت اختطفه شابا غضا نضرا ، ويعجب كيف أصابه السيف وعزمه فى الحرب وسفك الدماء أقوى من عزمه . وقد كان صعب القياد يهدر هدير الفحول ويزأر زئير الأسود . ويقول إن كانوا قد رفعوه فى الصلب ، فقد أغناهم علاؤه فى السماكين ، وإن كانوا قد شهَّروا به فقد امتلأت الدنيا بالثناء عليه .

وقال يرثى جماعة من أهله وأصدقائه :

أيُّها الظاعنون لازال للغيْـ ... ـثِ رواحٌ عليكمُ وبكورُ
لستُ أرضى بالدمع فيكم فهل يَمْـ ... ـلك رِىَّ البحور إلا البحورُ
قد رأينا دياركم وعليها ... أثرٌ من عُفاتكم مهجورُ
عَرَصاتٌ كأنهن ليالٍ ... فارقتْها عند الكمال البدورُ
بانَ ذُلُّ الأسى عليها فلِلْغَيْـ ... ـثِ بكاءٌ وللنسيم زَفيرُ
يانجومَ العُلا غَرَبْتُم وما فى اللَّـ ... ـيل من بعدكم نجومٌ تَغُورُ

وهو يدعو لأجداثهم أن تظل تمطرها السحب فى البكور والرواح بل حرىٌّ أن تُروِى البحور مَنْ فيها من بحور الكرم . ويقول إنه مرَّ بالديار فرأى آثار العفاة أو طلاب النوال قد هُجرت منذ مات أصحابها ، وقد أظلمت عرصاتها وساحاتها بمغيب بدورها ، وبدا ذل الأسى والحزن عليها

والسحب تبكى بدمع مدرار ، وللرياح زفير وشهيق . ويقول لقد غربت نجومكم وما أظن بعدها فى الليل نجوم تغور فى سماء المجد والعلاء . وقال يرثى والدته حين توفيت بعد قدومها من حَجِّ بيت الله :

أبكيكِ لو نهضتْ بحقِّك أدمعُ ... وأقول لو أن النوائبَ تسمعُ
لا يُغْبطَنَّ على البقاء مرزَّأٌ ... إن المودِّع إِلْـفَـه لمودَّعُ
قُبْحًا ليومكِ فالنوائبُ بعده ... جَلَلٌ وكلُّ رزيَّةٍ لاتَفْجَعُ[1]
لو كان ينفعنى السلوُّ نبذتُه ... أسفًا عليكِ فكيف إذ لاينفع
عجبًا لمن يُبْقى ذخائرَ مالهِ ... ويظلُّ يحفظهن وهْو مضيَّع
ولغافلٍ ويرى بكلِّ ثَنيَّةٍ ... مُلْقًى له بَطْنَ الصفائحِ مضجعُ[2]
ياقبرُ فيك الصالحاتُ دفينةً ... أفما تضيقُ بهنَّ أو تتصدَّع

وهو يقول إن أى دموع له لاتنى بحقوق أمه عليه وأى أنين له لاتسمعه النوائب ، ويقول إن أحدا لايُغْبَطُ على بقائه ، فما تلبث رحى الموت أن تطحن الباقين المودعين . وما أقبح اليوم الذى سمع فيه رزء أمه . فالنوائب بعده صغيرة والرزايا لا تفجعه ، ولو ينفعه السلو لسلا ، ولكنه لاينفع أى نفع . ويعجب لمن يجمع المال وعما قليل يضيع ، وللغافل عن الموت وفى كل عطفة بطريق من طرقه مضجع معدٌّ له : حفرة وصفائحها من الحجارة . ويلتفت إلى قبر أمه ويعجب أنه لايتصدع وفيه هذه الأم الكريمة . وفى ديوان ابن سنان وراء ذلك مدائح وغزليات وفيه عظات بديعة .

الغَزِّىّ[3]

هو إبراهيم بن يحيى بن عثمان الكلبى الغزىّ ، ولد بغزَّة فى فلسطين سنة ٤٤١ للهجرة وبها نشأ وتعلم ، وسال الشعر على لسانه ، حتى إذا بلغ من عمره أربعين عاما دخل دمشق وسمع من شيوخها ، ثم رحل إلى بغداد وأقام بها فى المدرسة النظامية سنين كثيرة ، ومدح ورثى غير مدرس ، ثم مضى إلى إيران وخراسان وامتدح بهما جماعة من الحكام والرؤساء . ويقول العماد الأصبهانى فى الخريدة : جاب البلاد وتغرَّب ، وأكثر التنقل والحركة وتغلغل فى أقطار كرمان بفارس وأقطار

---

(١) جلل : يأتى بمعنى عظيم وبمعنى صغير حقير فاللفظة من ألفاظ الأضداد .

(٢) الثنية : الطريق والعطفة فيه . الصفائح جمع صفيحة وهى العريض من الحجارة والألواح .

(٣) انظر فى الغزى وشعره الخريدة (قسم الشام) ٣/١ وما بعدها وابن خلكان ٥٧/١ والنجوم الزاهرة ٢٣٥/٥

خراسان . ومن مداحه ناصر الدين مُكْرَم بن العلاء وزير كَرْمان ، وعماد الدين طاهر قاضى القضاة بشيراز . ثم أوغل شرقا متنقلا بين الحكام والقضاة والوزراء إلى أن توفى سنة ٥٢٤ بين مرو وبلخ بخراسان ، ونقل جثمانه إلى بلخ ودُفن بها عن ثلاثة وثمانين عاما .

وكان شاعرا بارعا وأكثر شعره فى المديح . وله غزل بديع أنشدنا منه قطعة فى حديثنا عن شعراء الغزل ، ويبثُّ فى أشعاره شكوى كثيرة ، إذ كان يحس دائما بغربته وأنه لا يأخذ من الدنيا ما يأمله . شاعرا بأن سوق الآداب كسدت وأن الاجواد المؤمَّلين قلوا فى البلاد ، وفى ذلك يقول :

قالوا هجرتَ الشعرَ؟ قلت ضرورةً ... بابُ الدواعى والبواعثِ مُغْلَقُ
خَلَتِ الديارُ فلا كريمٌ يُرْتَجَى ... منه النَّوالُ ولا مليحٌ يُعشَقُ
ومن العجائب أنه لايُشْتَرَى ... ويُخانُ فيه – مع الكساد – ويُسْرَقُ

وهو لايشكو من كساد الشعر فحسب . بل يشكو أيضا من أنه يسرق ، وباب السرقات الشعرية فى النقد العربى باب واسع . ويقول العماد تعليقا على هذه الأبيات : « الغزى حسن المغزى ومايعزُّ من المعانى الغُرِّ معنى إلا إليه يُعْزَى ، يُعْنَى بالمعنى ويحكم منه المبنى ، ويودعه اللفظ إيداع الدرِّ الصدفَ ، والبدر السُّدَف » ويورد طائفة من روائع أبياته منها قوله :

إنى لأشكو خطوبًا لا أعيِّنها ... ليبرأَ الناسُ من لومى ومن عَذَلى
كالشَّمع يبكى ولايُدْرَى أَعَبْرَتُهُ ... من صحبة النار أم من فُرْقة العسَلِ

فخطو به كثيرة بحيث لا يستطيع أن يعين منها خطبا دون خطب ولا أن يعلل لخطب دون خطب ، فمثله كالشمع لايُعْرَف هل يبكى من فرقة الرَّحيق أو من صحبة الحريق . ويقول شاكيا ضجرا من الأيام :

حملنا من الأيام مالا نُطيقُهُ ... كما حمل العظمُ الكسيرُ العصائبا
وليلٍ رجونا أن يَدِبَّ عِذارُه ... فما اختطَّ حتى صار بالفجر شائبا
فلا تحمدِ الأيامَ فيما تُفيدُهُ ... فما كان منها كاسيًا كان سالبا

والصور فى الأبيات بديعة ، فقد حمل من الأيام خطوبًا جعلته أشبه مايكون بعظم كسير شُدَّت عليه العصائب وهو يتضوَّر ألما ، ويصور قصر الليل فما اختطَّ عِذاره الأسود حتى أسرع إليه الشيب . ويقول لاتحمد الأيام فيما تحمله إليك من نفع فإنها تنفث فيه سموما ، وكل ماتظنه منها

كاسيا يسلبك الكساء المظنون ، فإذا بك تَعْرَى حرمانا وابتئاسا . ويقول :

الحظُّ من جَوْهَرِ الأشياء سَلْهُ ولا تسألْ من الله قَدًّا زَانَه الهَيَفُ
فالقَوْسُ فى قَبْضة الرامى لعزَّتِها والسهمُ من هُونه يُرْمَى به الهدفُ
لم يُبْقِ لى زمنى شيئا أُسَرُّ بِهِ فالحمدُ لله لافوزٌ ولا أسَفُ
عرَّى أكابَره من ثوب مَحْمدةٍ فالقومُ فى السابغاتِ اللُّبَّسُ الكُشفُ
لم يقنعوا بحجاب البُخْل فاحتجبوا كما غلا بعد سوء الكيلةِ الحشَفُ
وإن جَرَى غلطٌ منهم بمكرمةٍ فَبيْضَةُ العُقْر لا يُرْجَى لها خَلَفُ
أعجبْ بهم قطُّ فى الآراء ما اتفقوا على صوابٍ وفى التقصير ما اختلفوا

فهو يشكو حظَّه التعس وأن الإنسان حرى أن يطلبه من ربه لا أن يسأل حبا وما يشبه الحب ، فالحظ مدار الحياة وقطبها ، يرفع الأدنى ويخفض الأعلى ، وماأشبه الغزِّى بقوس عزيز فى قبضة الرامى تصوَّب منه السهام الهينة فتصيب الهدف ، ألا ما أتعس الحياة ! . ويقول إن الزمن قضى على كل مايدخل على نفسه السرور ، فلم يعد هناك شىء ينتظر أن يظفر به أو يأسف على ضياعه . ويقول إن الزمن عرَّى أكابره من ثياب المحامد ، وهم إن بدوا كاسين فحقيقتهم عارون مجردون من كل محمدة ، وكأنما لم يكفهم حجاب البخل فاحتجبوا عن الناس جامعين بين سوءتين ، كما يجمع بائع التمر بين حَشفه أو أردئه وسوء كيله أو ميزانه . وإن غلط أحدهم وجاء بشىء كان ذلك بيضة العُقْر التى لاتبيض الدجاجة بعدها . ومن عجب أنهم لايتفقون فى الرأى على شىء سوى ما كان من بخلهم وشح نفوسهم . يقول :

وجفَّ الناسُ حتى لو بكينا تعذَّر ما تُبَلُّ به الجُفونُ
فما يَنْدَى لممدوحٍ بنانٌ ولايَنْدَى لمهجوٍّ جَبِينُ

فالناس قد جفوا بعد خصب وإيناع وورد وريحان حتى لو بكى الباكون ما وجدوا دموعا تبلّ جفونهم ، إذ لم يعد هناك ممدوح يندى بَنانه ، ويغدق على الناس نواله ، وأيضا لم يعد مهجو بخيل يندى جبينه خجلا وكسوفا . ويقول :

حبلُ المنى مثلُ حبلِ الشمس متصلا يُرَى وإن كان عند اللَّمْسِ مَبْتوتا

فلا تَقُلْ ليت صَرْفَ الدهر ساعدنى   فإنَّ فى ليت أَوْمًا يقطع اللِّيتا[1]

والصورة فى البيت الأول بديعة ، فحبل المنى كحبل الشمس مبتوت غير موصول ، فلا تقل أحداث الدهر ساعدتنى فإن فى ليت أوما أو عطشا شديدا دون ريه انبتات الليت أو صفحة العنق . فدع المنى والتمنى فإنهما يتعبان ولا يثمران شيئا . ووراء هذه الشكوى من الزمن والناس فى شعر الغزى مدائح وغزليات — كما قلنا — رائعة ، وهو ديوان كبير جمعه بنفسه فى نحو خمسة آلاف بيت ، ومنه نسخ كثيرة فى مكتبات العالم .

فتيان[2] الشاغورى

هو فتيان بن على الأسدى الشاغورى وُلد فى أوائل العقد الرابع من القرن السادس الهجرى ببانياس على ساحل حمص ، وانتقل به أبوه صبيا إلى دمشق ، وسكن الشاغور إحدى ضواحيها حينئذ وهي الآن من أحيائها ، وألحقه بكتاب حفظ فيه القرآن ، حتى إذا أتم حفظه أكبَّ — مثل لِداته — على دروس الشيوخ اللغوية والشرعية فى الجامع الأموى ، وحين أتقن العربية وعلومها فكر فى أن يصبح معلما لها ، يعلمها الناشئة ويدربهم عليها . واختار قرية الزَّبدانى بالقرب من دمشق مقاما له لجمال الطبيعة فيها ، فسكنها واتخذ لنفسه كتَّابا يعلم فيه الناشئة ، وله فى هذه القرية أشعار بديعة تصور مفاتن الطبيعة فيها . ومنذ أخذ صلاح الدين فى أواسط العقد الثامن من القرن يواقع الصليبيين ويسحقهم بجيشه المظفر نراه مثل غيره من شعراء الشام يشيد به وبانتصاراته فى مدائح كثيرة . وكان صلاح الدين قد أعطى ابنه الأفضل نور الدين دمشق منذ سنة ٥٨٢ وظل بها بعد وفاة أبيه حتى سنة ٥٩٢ ، واتخذ الأفضلُ مودودَ بن المبارك — وهو أخو عز الدين فرُّخشاه ابن عم الأفضل لأمه — شحنة دمشق أو بعبارة أخرى ضابطا لشئونها ومصرفًا لها . ويلتحق فتيان بخدمة مودود . ويقول مترجموه إنه اتخذ له حلقة لتعليم العربية بالجامع الأموى ، ونظن ظنا أنه ابتدأها فى أثناء تلك الخدمة أى منذ العقد التاسع من القرن السادس ، إن لم يكن بعد هذا التاريخ .

---

(١) أوما : عطشا شديدا . اللِّيت : صفحة العنق .

(٢) انظر فى فتيان الشاغورى وشعره الخريدة (قسم الشام) ٢٤٧/١ وابن خلكان ٢٤/٤ والنجوم الزاهرة ٢٧٤/٦ ومطالع البدور للغزولى ٢٨/١ والشذرات ٦٣/٣ . وديوانه طبعه مجمع اللغة العربية بدمشق بتحقيق أحمد الجندى وتقديمه .

وكان قتيان يمدح بجانب صلاح الدين بعض قواده وكاتبه عماد الدين الأصبهانى والأفضل نور الدين وأخاه غازى صاحب حلب منذ أعطاها له أبوه سنة ٥٨٢ حتى وفاته سنة ٦١٣ . أما مودود بن المبارك فله فيه أكثر من عشرين قصيدة ، ويقول مترجموه إنه عهد إليه — فيما عهد — بتعليم أولاده الخط والعربية . ونراه حين أصبح العادل مالك زمام الدولة الأيوبية بعد أخيه صلاح الدين يخصه ببعض مدائحه ويكثر من مديح وزيره المصرى صفى الدين بن شكر ، ويبدو أنه كان يرسل إليه بمدائحه ، لأنه لم يغادر الشام طوال حياته . وكان العادل قد جعل دمشق لابنه المعظم عيسى ، وله فيه عشر مدائح ، كما أعطى العادل ابنه الأشرف موسى الرها والجزيرة وله فيه نحو خمس عشرة مدحة . ومدح كثيرين من البيت الأيوبى فى مقدمتهم صاحب حَمَاة تقى الدين عمر (٥٧٤ — ٥٨٧هـ) أعطاها له عمه صلاح الدين ، ومدح صاحب بعلبك فَرُّوخشاه (٥٧٥ — ٥٧٨ هـ) وابنه بهرام شاه (٥٧٨ — ٦٢٧ هـ) . وعلى هذا النحو ظل يقدم مدائحه للأيوبيين حتى وفاته بدمشق سنة ٦١٥ . وقد أنشدنا له فى حديثنا عن شعراء التشيع أشعارا تدل بوضوح على تشيعه . وطبيعى — وهو شاعر مدح كبير — أن تكون له مراثٍ لمن لبى نداء ربه من ممدوحيه ، وخاصة من كان وثيق الصلة بهم ، وكذلك لكبار رجال زمنه وشيوخه وعلمائه الأعلام . ومن أروع مراثيه مرثيته لشيخه الحافظ المؤرخ ابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١ ، ويقول العماد الأصبهانى إنها مشتملة على حقيقة الشيخ وطريقته ووفاته ، وفيها يقول :

أىُّ ركنٍ وَهَى من العلماء ... أىُّ نجمٍ هَوَى من العلياء
إنَّ رُزْءَ الإسلام بالحافظ العا ... لمِ أمْسَى من أعظم الأرزاء
أقفرتْ بعده ربوعُ الأحادي ... ثِ وأقوتْ معالمُ الأنباء
كان من أعلم الأنام بأسما ... ء رجال الحديث والعلماء
كان علاَّمةً ونسَّابةً لم ... يَخْفَ عنه شىءٌ من الأشياء
أنت أعلى من أن تُحَدَّ بوصفٍ ... بلغتهْ بلاغةُ البلغاء

وقتيان فى المرثية يحزن الحزن القوّاد مكبر لفجيعة دمشق فى محدِّثها الذى لا يبارَى ومؤرخها الذى لا يجارَى . وهو فى البيت الثانى يصور فى ألم إقفار المدرسة النورية من محدثها الأكبر وإقواء أو إقفار دمشق من مؤرخها العظيم صاحب تاريخها الذى يقال إنه كان يقع فى ثمانين مجلدا . وحقا كان من أعلم علماء عصره — إن لم يكن أعلمهم — بالحديث النبوى ورجاله وبتاريخ دمشق وأعلامها من

مختلف الأجيال ، مع الحلم ومع التقوى والورع ، ومع ما ألقى عليه من محبة أهل زمنه وإجلالهم .

ويتوفى بعده فى السنة التالية القاضى ابوالفضل كمال الدين محمد بن الشَّهْرزورى وكان قد ولى القضاء لعماد الدين زنكى فى الموصل ، وتوفِّى فالتحق بابنه نور الدين فولاَّه القضاء فى دمشق وارتقى عنده إلى درجة الوزارة ، وأقرَّه صلاح الدين بعد وفاة نور الدين على عمله ومنصبه ، ولم يلبث أن توفى . وفيه يقول فتيان من مرثية طويلة :

عدمَ الإسلامُ معدومَ المثالِ ... وهوتْ من أوْجِها شمسُ المعالى
ولسانُ الشَّرْع قد أُلبسَ عِيًّا ... بعد أن كان جريئًا فى المقال
وسماءُ الدين قد ران عَلَى ... بدرِها النُّقْصانُ من بعد الكمال
والقضايا قاضياتٌ نَحْبَها ... إثْرَهُ حُزْنا على تلك الخلالِ
ماتَ من كان لأهل العلم كَهْفًا ... وثِمالاً مُحْسِنًا أىَّ ثمالِ[1]

وهو يبكى الإسلام والقضاء وعلوم الشريعة فيه ، إذ كان له القضاء والفتوى كما كان له الفقه والشريعة . وكانت له فضائل كثيرة بجانب علمه وفقهه ، إذ كان جوادا وغيثا مدرارا ، كما كان مرجعا للعلماء - كما يقول فتيان - وثمالا وسندا لهم وموئلا . ويتوفَّى تقى الدين عمر صاحب حَماة فيؤبنه بمرثية يقول فيها :

أباحَ ثغورَ الكفرِ بالسيف عَنْوةً ... وسدَّ ثغور السِّلم بالطَّعْن فى الثَّغَرْ
وكيف يُلام المسلمون على الأسى ... وقد عدم الإسلامُ ناصرَه عُمَرْ
لقد كانَ يلقَى المُرْهفاتِ بوجههِ ... وسُمْرَ القنا بالصَّدْر فى الوِرْد والصَّدَرْ[2]
وكان يردُّ الجَحْفَل المَجْرَ وحده ... يَمسُّون بالأيدى الظهورَ من الخَوَرْ[3]

وهو يشيد ببسالته فى حرب حَملة الصليب ويصور حزن المسلمين عليه ، إذ خسروا فيه بطلا من أبطالهم طالما دوَّخ الصليبيين ، وطالما نازلهم راميا بنفسه فى أتون الحرب مقبلا دائما معرِّضا وجهه للسيوف وصدره للرماح ، وكم ردّ من جحافلهم الكثيرة وولوا أدبارهم فزعين مروَّعين . ويتوفَّى الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين صاحب حلب ، فيؤبنه بمثل قوله :

لئن كان خَلْقُ الخلقِ من طينِ آدمٍ ... فمن نورِ خَلْقِ الله خَلْقُك ياغازى

---

(١) الثمال : الملجأ والغياث
(٢) المرهفات : السيوف . القنا : الرماح
(٣) المجر : الكثيف

فمنْ لليتامى والأراملِ بعده يقومُ بإكرامٍ عليهم وإعزازِ
مَضَى مُلْكُهُ المحروسُ من عيب عائبٍ ومن عَبَثِ الزَّارى ومن عنَت الرَّازى

وكان الغازى مهيبا حازما راعيا لشعبه يكسو العارى ويطعم الجائع عالى الهمة حسن التدبير والسياسة ، محبا للعلماء ، مجزلا العطاء للشعراء ، فحمى ملكه - كما يقول فتيان - من عيب العائب وزراية المزرى وعنت الرازى أو الممتحن المختبر .

ولفتيان بجانب مراثيه شكوى مريرة من الدهر والناس والحظ المقسوم كقوله :

علام تحرُّكي والحظُّ ساكنْ ومانهنهتُ فى طلبٍ ولكنْ
أرى نَذْلاً تقدِّمُه المساوى على حُرٌّ تـؤخِّـرهُ المحاسِنْ

وهى شكوى قديمة عند الشعراء حين يقعد بهم الحظ ولا ينالون مايتمنون أو مايرون أنهم جديرون به . ويبلغ بهم ذلك أن يقولوا مايقوله فتيان من أن لافائدة فى الحركة وأن المساوى تقدم أصحابها بينما تتأخر المحاسن بأهلها وهو بعدٌ فى الشكوى وإغراق فى التشاؤم .

مصطفى[١] البابىّ

هو مصطفى بن عبد الملك -وقيل عثمان- البابى ، ولد بالباب إحدى قرى حلب فى القرن الحادى عشر الهجرى أيام العثمانيين ، ونشأ بحلب وتتلمذ على شيوخها وأدبائها ، وتركها إلى دمشق سنة ١٠٥١ للهجرة وأقام بها مدة يأخذ عن أدبائها وشيوخها ، ورحل إلى إستانبول وأفاد من علمائها وعيِّن قاضيا لطرابلس وتنقل قاضيا فى بلدان الدولة العثمانية بالعراق والحجاز فى المدينة المنورة ، وتوفى بمكة فى أثناء حجه سنة ١٠٩١ .

وكان البابى شاعرا مجيدا ، ويشغل المديح أكثر ديوانه على عادة الشعراء فى تلك الحقب ، ويتخلل المديحَ أسراب من الشكوى . وقد يفرد للشكوى بعض القصائد ، من ذلك قوله من قصيدة استهلها محزونا لتحول عهد مية ، ويقول إنه مازال يبكى الأطلال حتى بكته بدمعها إشفاقا عليه ، ويلتفت إلى الدهر شاكيا .

---

(١) انظر فى مصطفى البابى وشعره نفحة الريحانة ٤٣٣/٢ وخلاصة الأثر ٣٧٧/٤ . طبع ديوانه فى بيروت سنة ١٨٧٢ وطبع مع ديوان ابن الجزرى وفتح الله بن النحاس باسم العقود الدرية بتحقيق الطباخ .

أىُّ ذنبٍ نعاتب الدهرَ فيهِ وعتابُ الأيام داءٌ عُضالُ
أنا مابين فرقةٍ تجمع السُّقْـ ـمَ وثُقْلٍ تدنو به الآجالُ
وخطوبٍ ألفتُها يستعيذُ الـ ـخوفُ منها وتُذْعَر الأهوالُ
وأمانٍ تجاذب الدهرَ ذَيْلَ الـ ـحظِّ والدهرُ جاذبٌ جدَّالُ
هِمَّةٌ أرّقَتْ جفونَ الأمانى بوعودٍ للدهر فيها مِطالُ
أتمنّى من الزمان وفاءً ووفاءُ الزمان أمرٌ مُحالُ

يقول إن ذنوب الدهر عنده كثيرة فلا يدرى لكثرتها ، أى ذنب يعاتبها فيه هل يعاتبها فى فرقة الأحباب أو فيما ينزله به من خطوب يستعيذ الخوف من شرها وتفزع الأهوال . وتلك أمانيه ماتزال تجاذب الدهر ذيل الحظ تريد أن تجذبه إليها والدهر أشد جذبا ، بل إنه جدال يصرع من ينازعه ، وفى صدره همة تورق جفون الأمانى بما تعرضه عليها من وعود مايزال الدهر لايفى بها ، وكأن وفاءه أمر محال . ويقول من قصيدة يشكو فيها من الزمان :

صاحبىَّ ابْغيا لنا خارجَ العا لَمِ داراً فبئسَ دارُ الزِّحامِ
واصْدُقانى ألستُما بين ليلٍ ونهارٍ مالى حليفُ ظلامِ
واستعيرا لمقلتِى هجعةً عـ ـلَّ مَنامِى يعود لو فى منامِ
من أمورٍ تَقْذِى العيونَ وأخرى تَصْدعُ السمعَ مثل وَخْزِ السِّهامِ
مشربٌ كلُّه قَذًى سوَّغَتْه إلفُ هذى النفوسِ للأجسامِ
من أرادَ العيشَ الهنىَّ فلا يُعْـ ـمِلُ فكراً فالعَيْشُ عَيْشُ السَّوامِ

وقد بلغ به ذم العالم وكل ما فيه من أناسى وغير أناسى أنه يود لو خرج من هذا العالم جميعه ، ويتساءل أليس يوجد مع الليل نهار بل إنهما يتعاقبان فلماذا هو يعيش فى ليل مسهدا لا ينام ولا تغفل عينه ، فهل يجد هجعة أو لحظة من نوم حتى ولو فى الخيال والمنام ، وهيهات فإن الدنيا مليئة بما يقذى العيون ويصك الأسماع من آلام ، حتى لكأنها مورد من غسلين أو زقوم ، وكل ذلك بسبب الأجسام وما تطلب من متاع مادى . ويقول من أراد أن يعيش هنيئا فلا يفكر ، فالعيش عيش الجهال ومن يشبهون السوام الراعية من الإبل . وكل ذلك تشاؤم شديد ، والغريب أنه كانت فيه مع ذلك كله نزعة صوفية جعلته يمدح القطب الربانى عبد القادر الجيلانى صاحب الطريقة الجيلانية فضلا عما فى ديوانه من مدائح نبوية وتوسلات ربانية .

٤

شعراء الطبيعة ومجالس اللهو

لشعراء الشام من قديم عناية بوصف طبيعة بيئتهم ومشاهدها الخلابة ، ومرت فى كتاب العصر العباسى الأول عناية أبى تمام بوصف الطبيعة فى مقدمات مديحه أو مستقلةً فى بعض أشعاره ، من ذلك وصفه للربيع ، وكذلك وصفة للطير وأحاسيسه ، على نحو ماعرضنا هناك من تصويره لُقْمرِىٍّ وقمريَّةٍ يتساقيان رحيق الهوى ، بينما هو محزون شديد الحزن . ووقفنا فى كتابنا العصر العباسى الثانى عند براعة البحترى فى وصفه للطبيعة وكان يحسن تصوير مناظرها الساحرة . ونلتقى فى أوائل عصر الدول والإمارات بكشاجم وله كتاب فى الصيد سماه المصايد والمطارد وهو منشور ، وله قصائد مختلفة فى وصف كلاب الصيد وجوارح الطير وقصائد كثيرةٌ فى وصف الرياض والسحب والأمطار من مثل قوله :

غيثٌ أتانا مؤذنٌ بخَفْضِ ... متصلُ الوَبْلِ حَثيثُ الرَّكْضِ
يضحك فى بَرْقٍ خفىِّ الوَمْضِ ... كالكفِّ فى انبساطها والقَبْض
والأرضُ تُجْلَى بالنبات الغَضِّ ... فى حَلْيِها المحمرِّ والمبيضِّ
وأُقْحُوانٍ كاللُّجَيْن مَحْــضِ ... ونرجسٍ ذاكى النسيم بَضِّ
مثل العيون رَنَّقتْ للغُمْضِ ... ترنو ويغشاها الكرَى فتُغْضى

وهو مطر متصل الوبل يؤذن – كما يقول – بخفض العيش واتساعه ويسره والبرق يلمع بين السحب ويتوارى كالكف تنبسط وسرعان ماتنقبض ، والأرض كأنها فى حفل عرس تجلى بأزهارها وورودها والأقحوان يتلألأ كالفضة الخالصة والنرجس العطر النضر مثل العيون تتكسر جفونها للنوم ، وهى تارة ترنو وتارة تستسلم للنوم فتغفى أو بعبارة أخرى تطبق جفونها الناعسة ، وتنسب إلى سيف‌الدولة الحمدانى الأبيات التالية فى قوس قزح[١] :

لقد نشرتْ أيدى الجَنوبِ مطارفًا ... على الجوِّ دُكْنًا والحواشى على الأرضِ
يطرِّزها قوسُ الغمام بأصفرٍ ... على أحمرٍ فى أخضرٍ تحت مُبْيَضِّ

(١) اليتيمة ٣١/١

كأذيال خَوْدٍ أَقْبَلَتْ فى غلائلٍ مصبَّغةٍ والبعضُ أقصرُ من بَعْضِ

يقول : رياح الجنوب نشرت على الجو ثيابا دكناء مغبرَّة ملأت الآفاق بالطول والعرض وحواشيها على الأرض ، وقوس قزح يطرِّزها بألوانه البهيجة الكهرمانية والياقوتية والزمردية ، وكأنما شابة جميلة أقبلت فى غِلالات أو ثياب رقيقة صُبِغَتْ بألوان مختلفة بالطول والعرض وبعضها أقصر من بعض . وهى صورة بديعة . ويقول العرقلة من شعراء الخريدة[1] :

الشام شامةُ وَجْنَةِ الدنيا كما إنسانُ مقلتها الغَضيضةِ جِلَّقُ
من آسِها لك جَنَّةٌ لاتنقضى ومن الشقيق جهنَّمٌ لا تَحْرِق
فعلام تصحو والحمامُ كأنها سَكْرَى تغنِّى تارة وتصفِّق
وتلوم فى حب الديار جهالةً هيهات يسلوها فؤادٌ شَيِّقُ

وهو يجعل الشام خالا فى وجنة الدنيا ويجعل «جِلَّقَ» اسم دمشق القديم إنسان مقلتها الغضيضة التى ترمقها باستحياء ، لجمال أزهارها من آس وغير آس ، وكأنما تخدِّر بجمالها أحاسيس مُشاهدها ، فلا يصحو ، والحمام من حوله فرح بهيج يغنى ويصفق طربا . وإن الشام لخليقة بحب أهلها وفتنتهم بها لجمال مناظرها الطبيعية .

ويقول فتيان الشاغورى فى وصف قرية الزبدانى بشهر كانون شتاءً والثلوج تتراكم على أشجارها ونباتاتها فى شهر كانون زمن الشتاء مهيئة لازدهار أزهارها فى زمن الربيع[2] :

قد أجمدَ الخمرَ كانونٌ بكل قَدحْ وأخمد الجمرَ فى الكانون حين قَدحْ
ياجَنَّةَ الزَّبَدانى أنت مسفـرةٌ عن وَجْه حُسنٍ إذا وَجْهُ الزمان كَلَحْ
فالثلج قُطْنٌ عليكِ السُّحْبُ تَنْدِفُه والجو يَحْلجه والقَوْسُ قوسُ قُزَحْ

وقد صور فتيان كل ما يحمل ماء فى الزبدانى بأقداح تحمل خمرا ، وقد جمَّدها القرّ الشديد وأخمد الجمر فى الكانون أو الموقد حين اتَّقد . ويتصور قرية الزبدانى جنة من جنان الدنيا ، ومايلبث أن يصوِّر الثلج وهو يتساقط كالريش من السحب مثل قطن ، والسحب تندفه بقوس قزح . والجو يحلجه . صورة بديعة .

(١) الخريدة (قسم الشام) ٢١٧/١

(٢) الديوان ص ٩٤ وابن خلكان ٢٥/٤

ويقول الوداعى على بن المظفر فى مناظر رأس العين ببعلبك [١] :

ياحادىَ الأظعان إن شارفتْ مِنْ بَعْلَبكٌ سَفْحَ لُبْنانهِ
فاقْرَأْ تحياتى على نازلٍ فى مَحْجرِ العين كإنسانه
والروضُ يُهْدى مَعْ نسيم الصَّبا نَشْر خُزَاماهُ وريحْانهِ
وراسلَ القُمْرِىُّ ورقاءهُ شَدْوًا على أوتار عيدانهِ

وقد أشار الوداعى إشارة واضحة بمحجر العين إلى رأس العين منزل صاحبته ، وأبدع فى البيت الأخير إذ جعل القمرى المترنم على عيدان الأشجار يراسل صاحبته شدوا وغناء على أوتار تلك العيدان . وتكثر مثل هذه الطرائف التصويرية عند معاصريه فى زمن المماليك ، وبعدهم فى زمن العثمانيين كقول فتح الله بن النحاس فى وصف الربيع [٢] :

نثر الربيعُ ذخائرَ النُّ وَّار من جَيْبِ الغَوَادى
والوَرْدُ مخْضُوبُ البنا نِ مضرَّجُ الوَجَنات نادى
حَرَسَتْهُ شوكةُ حُسْنهِ من أن تُمَدَّ له الأيادى
والعندليبُ أمامه بفصيح نَغْمتهِ ينادى
من رام يَعْبَثُ بالخدو د فدونها خَرْطُ القَتادِ [٣]

والصور فى الأبيات جيدة فالربيع ينثر الأزهار من حبيب السحب الغوادى والورد أحمر البنان والوجنات تلمع عليه لألئ الندى ، والشوك يحرسه من قطف الأيادى والعندليب ينادى : دون هذه الوجنات خرط القتاد ، وهو مثل يضرب للشيء لاينال إلا بمشقة شديدة ، والقتاد : نبات صلب له شوك الإبر وخرطه : انتزاع إبره .

وبجانب وصف الطبيعة كان للهو مجالسه فى متنزهات الغوطة بدمشق وغير الغوطة بالشام ، إذ تمتلئ بالبساتين ، وكان له مجالس أخرى فى الأديرة ، مما أتاح لنظم خمريات كثيرة تارة تكون مستقلة وتارة تمتزج بوصف الطبيعة أو بالغزل ، وتمادى بعض الشعراء فى مجونه وأسرف فى هزله على نحو ما نقرأ من أشعار لأبى الرقعمق [٤] الأنطاكى شاعر المعز الفاطمى وأبنائه ووزرائهم ، وكان

---

(١) خزانة الأدب للحموى ص ٣٤٢
(٢) الديوان ص ٢٣ ونفحة الريحانه ٥١٢/٢
(٣) دونه خرط القتاد: مثل يضرب للشيء لاينال إلا بمشقة شديدة.
(٤) انظر فى أبى الرقعمق اليتيمة ٣٢٦/١ وابن خلكان ١٣١/١ والعبر ٧٠/٣ والشذرات ١٥٥/٣.

لايستحى من التصريح بالفحش والمآثم على شاكلة أبى الحجاج ماجن العراق الذى تحدثنا عن مجونه وهزله فى الجزء الخامس من هذه السلسلة ، ومن نظيف مجونه قوله[١] :

توهّمتُ أُمرا فلم أنبسِ بحرفٍ وناديتُ بالأكؤس
حُمَيَّا كأن سَنَا نورها سنا بارقٍ لاح فى الحِنْدس[٢]
يُعاطيكها رَشأٌ طرْفُهُ سريعٌ إلى تلفِ الأنْفُسِ
بِخَدٌّ يروقك توريدُه وعينٍ تنوبُ عن النَّرجسِ

وهو يقول إن بعض الأوهام ساورته فلم ينبس ببنت شفة أوكلمة وانصرف إلى الخمر معشوقته التى تلعب حُمَيَّاها بخياله ، فيظن كأن ضوءها ضوء برق لمع فى دجى الليل ، وإن ساقية ساحرة الطَّرف لتقدمها إليك فتصيبك فى الصميم بخد مورَّدٍ وعين فاتنة .

ويقول الغزى الذى مرت ترجمته[٣] :

قُمْ نَفْتَرِعْها كأنها الذهبُ بِكْرًا ، أبوها وأمُّها العِنَبُ
أرقّ مِنْ عَبْرة اليتيم ومن عبارةِ الصَّبِّ قلبه وَصِبُ
مدامةٌ تصقلُ القلوبَ إذا رانتْ عليها الهمومُ والرِّيَبُ
كئوسُها أنجمٌ نَضِلُّ بها لايهتدى من تُضِلُّه الشُّهُبُ
لافَدْمَ فينا ولا فِدامَ لها عروسُ دَنٍّ عقودُها الحَبَبُ

وهو يقول لصاحبه قم نفترعها أو نفتضها ونشربها ، إنها فى رأيه -كعروس بكر- أبوها وأمها العنب ، رقيقة رقة عبرة اليتيم وعبارة الصب أو المحب الوصب الموجع قلبه . ويقول إنها تجلو القلوب وتكشف عنها الهموم والريب أو الشكوك ، ويعجب من كئوسها أن تكون أنجما ولاتهدى ، بل تضل صاحبها وأى ضلال بينما عادة النجوم أن تهدى ، ومن تضله لا يهتدى أبدا ، لأنه فقد هداه . ويذكر أن ليس فى رفاقه فدم أو أحمق وأنه لافدام لها أو مصفاة إذْهى شديدة الصفاء ، ويقول إنها عروس دَنٍّ عقود جِيدها لآلئ الحَبَبِ التى تعلوكئوسها حين يمتزج بها الماء . ويدعو فتيان الشاغورى صديقا إلى نزهة قائلا[٤] :

(١) اليتيمة ٣١٢/١

(٢) حميا الخمر : سورتها وشدتها . سنا : ضوء .
الحندس . دجى الليل الشديد السواد .

(٣) الخريدة (قسم الشام) ١٨/١

(٤) الديوان ص ٢٦٨

بادرْ إلينا فإن الراحَ ممكنةٌ والكأسُ دائرةٌ والشَّمْلُ مجتمعُ
ويومُنا طيِّبٌ صافى الأديم وما فيه هواءٌ ولا فى رأسه قَزَعُ
والطير ترقصُ فى الأغصان من طربٍ تكاد منه على هاماتِنا تقعُ

وفتيان يصور لصاحبه مافيه من أنس مع رفاقه ، فالكأس دائرة بينهم واليوم من أيام الربيع لا فيه عواصف ولا فى سمائه قزع أو قطع من السحاب المنتشر المنذر بالمطر ، والطير ترقص على الأغصان طربا وفرحا بالربيع حتى تكاد لشدة فرحها وطربها تقع على هاماتهم أو رءوسهم .

وتكثر مقطعات الشعر فى مجالس اللهو سواء فى الخمر أو فى الطبيعة ويشتهر بنظمها أربعة يفرد لهم الحموى فى خزانته فصولا طويلة هم مجير الدين بن تميم ، وسنخصه بترجمة ، وبدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبى المتوفى سنة ٦٨٠ والقاضى محيي الدين بن قرناص الحموى معاصره وعلى بن المظفر الوداعى المتوفى سنة ٧١٦ ، ومن طريف ما أنشده الحموى لابن لؤلؤ الذهبى قوله (١) :

باكِرْ إلى الروضة نَسْتجلها فثغرُها فى الصبح بَسَّامُ
والنرجسُ الغَضُّ اعتراه الحَيَا فغضَّ طرفا فيه سقام
وبلبلُ الدَّوْحِ فصيحٌ على الأ يْكة والشحرورُ تمتام
فعاطنى الصَّهباء مشمولةً عذراء فالواشون نُوَّام
واكتمْ أحاديث الهوى بيننا ففى خلال الروض نَمَّام

وهو خفيف الروح مثل زملائه المذكورين وكانوا جميعا يعنون بالتورية التى أشاعتها مصر منذ العصر الفاطمى عناية واسعة ، وقد ورَّى فى البيت الثانى بكلمة الحيا وهو الخجل عن الحيا بمعنى المطر . وجعل للبلبل لجمال غنائه وشدوه الفصاحة وللشحرور وهو نوع من العصافير التمتمة . ضرب من المقابلة . وجعل الصهباء مشمولة أو باردة طيبة واستتم الصورة بأنها بكر او عذراء والواشون نوام . وعاد إلى التورية فى البيت الأخير بكلمة نمَّام – وهو ضرب من السَّعتر مزهر – عن النَّمام الحقيق من الأشخاص . ويقول محيي الدين بن قرناص (٢) :

روضةٌ من قَرْقَفٍ أنهارُها وغناءُ الوُرْق فيها بارتفاعْ
لا تَلُمْ أغصانها إن رقصتْ فَهْيَ ما بين شرابٍ وسماع

(١) خزانة الأدب للحموى ص ٣٢٦
(٢) نفس المصدر ص ٣٣٠

وقد ورّى محيي الدين بكلمة قرقف وهو الماء البارد الصافى عن الخمر وهو اسم من أسمائها ، واستتم الصورة إذ جعل أنهار الروضة خمرا مسكرة بأن الحمام فيها أخذه السكر ، بل إن الأغصان نفسها التى رويت من تلك الأنهار سكرت فرقصت ، فلاعجب أن يشدو الحمام شدوا عاليا . وأنشد الحموى فى خزانته لابن قرناص مقطعات بديعة كثيرة فى الرياض ومثله الوداعى ، وهو يكثر من التورية كثرة مفرطة .

ويظل الغرضان : وصف الخمر ووصف الطبيعة حيَّين طوال أيام المماليك وبالمثل أيام العثمانيين من مثل قول على بن محمد الحشرى الشامى المتوفى سنة ١٠٩٠ للهجرة [١] :

قُمْ هاتِها وضميرُ الليلِ منشرحٌ — والبدرُ فى لُجَّة الظلماء مُسْتَبِحُ
عجِّلْ بها وحجابُ الليل منسدلٌ — من قبل يبدو لنا فى وَكْرِه الصُّبُحُ
واستضحكِ الدهرَ قد طال العُبوس به — لايضحك الدهرُ حتى يضحك القدَحُ
ولا يطيب الهوى يوما لمغتبقٍ — حتى يكون له فى اليوم مُصْطَبَحُ

وهو يخاطب ساقيا أن يناوله كأس الخمر والليلُ من حوله ، مبتهج وأضواء البدر تلمع فى جوانبه ويطلب إليه أن يسرع بها وحجاب الليل منسدل عليه قبل أن يرفرف الصبح بجناحيه فيملأ الدنيا أنوارا . ويقول إن الدهر لايقبل عليه ويضحك إلا إذا ضحك الكأس فى يده ، ويزعم أن الهوى لايطيب لمن يشرب الخمر غَبوقًا وهو شربها بالعشى حتى يكون له منها صَبوح وهو شربها فى الصباح . ونقف عند نفر من شعراء الطبيعة واللهو .

الوأواء [٢] الدمشقى

هو محمد بن أحمد الغسانى المشهور بالوأواء الدمشقى ، من أهل دمشق ، وُلد بها ونشأ ، وكان ابنا لشخص من عامة الشعب . يدل على ذلك مارواه الثعالبى فى اليتيمة من أنه لُقِّبَ بالوأواء لأنه كان مناديا بسوق الفاكهة ، أو كما كانوا يسمونها دار البطيخ ، ينادى على الفواكه جلبا للمشترين . وقد ذكرنا مرارا فى حديثنا عن الشعراء أنهم – فى أغلب الأمر – كانوا من عامة الشعب وكانت لهم ملكات هيأتهم لنظمه بل للتفوق فيه . يلقانا ذلك فى بغداد وفى القاهرة وفى

(١) نفحة الريحانة ٢/٣٥١

(٢) انظر فى الوأواء وشعره اليتيمة ١/٢٧٢ والمحمدون من الشعراء للقفطى وفوات الوفيات ٢/٣٠١ وديوانه طبعه المجمع العلمى العربى بدمشق بتحقيق د. سامى الدهان وراجع مقدمته له .

جميع بلدان العالم العربى . ومكَّن لهم ذلك أن التعليم كان يعقد بالمساجد ، وكانت دائما هى وحلقات الشيوخ مفتوحة للناشئة ينهلون منها كما يريدون ، فكان من له استعداد حسن للتعلم من أبناء العامة مايزال يتردد عليها حتى يحسن مايريد من الفقه مثلا أو من رواية الشعر . ودائما كان يتخرج فى هذه الحلقات كثيرون شعراء وغير شعراء على نحوما تخرج الوأواء المنادى على الفاكهة فى حلقات الشيوخ بمساجد دمشق .

وليس بين أيدينا ولا فى ديوان الوأواء مايوضح متى وُلد . وأيضا ليس فى الديوان أخبار وأحداث تاريخية تصور حياته ، وكل مافيه أنه لزم شريفا من سادة دمشق ووجهائها بمدحه ، وأنه أعطاه فى أول مدحة له عشرين دينارا ، فأخذ يشتهر اسمه بين الشعراء . ومدحه بثلاث قصائد أخرى ، دل فيها على شاعرية جيدة ، ويذكرون أن اسم هذا الشريف العقيقى أحمد بن الحسين العلوى ، فهو من أشراف العلويين وربما كان نقيبهم بدمشق . ويقول صاحب النجوم الزاهرة إنه كان جوادا ممدَّحًا ، وكان على صلة بسيف الدولة فى أول إمارته لحلب فى العقد الرابع من القرن الرابع الهجرى . وربما كان هو الذى قدَّم الوأواء إليه حين زار دمشق بين سنتى ٣٣٣ و٣٣٤ . وفى ديوانه ثلاث قصائد فى مديحه ، ولذلك عدَّ من شعرائه . ومن عطايا سيف الدولة والعقيقى أخذ الوأواء يعيش للشعر متكسبا به ، وكانت فيه نزعة قوية للمتاع بالحياة ، مما جعل أكثر شعره يدور حول محاور ثلاثة : الغزل والخمر ووصف الطبيعة ، وكثيرا مايمزج بينها جميعا مثل قوله فى القصيدة الأولى من ديوانه :

حاز الجمالَ بأسْرِهِ فكأنما ... قُسِمتْ عليه محاسنُ الأشياءِ
متبسِّمٌ عن لؤلؤٍ رَطْبٍ حكى ... بَرَدًا تساقطَ من عقود سماءِ
تُغْنى عن التفاح حمرةُ خَدِّه ... وتنوب رِيقَتُهُ عن الصَّهْباءِ
فامزُجْ بمائك نارَ كأسِك واسقنى ... فلقد مزَجتُ مدامعى بدمائى
واشربْ على زَهر الرياض مُدامةً ... تنفى الهموم بعاجل السَّراءِ
لطفتْ فصارتْ من لطيف محلِّها ... تجرى مجارى الروح فى الأعضاءِ

والوأواء معروف بكثرة تصاويره فى أشعاره ، فساقيته الخمر تبتسم عن أسنان لؤلؤية كأنها حبات برد تساقطت من عقود فى السماء ، وحمرة خدها نضرة كحمرة التفاح ، وريقها كأنه الصهباء أو الخمر . ويطلب إليها أن تمزج الخمر الحمراء بالماء كما امتزجت مدامعه بالدماء . ويقول لصاحبه اشربْ على زهر الرياض الذكى الرائحة تلك الخمر التى تجلب السرور كما يقول ، ويزعم

أنها تجرى فى جسمه مجرى الروح فى الأعضاء . ومن قوله فى وصف الراح :

وبنتِ كَرْمٍ كأنها لَهَبُ تكاد منها الأكفُّ تَلْتهبُ
تلعب فى كأسها إذا مُزجَتْ كأنما يستفزُّها طربُ
فى عَرْصَة الكأسِ حين تمزجها سماءُ تِبْرٍ نجومُها ذهبُ

وهو يتحدث عن الخمر باسم بنت الكَرْم ، ويقول إنها حارَّة كأنها لسان لهب ، وإن الأكف فى زعمه تكاد تلتهب لشدة حرارتها . ويزعم أنها تلعب فى كأسها حين يمازجها الماء فيطفو حَبابها وتضطرب بعض الاضطراب ويجعل للكأس عَرْصة أو ساحة ويقول إنها تشبه فيه – بزعمه سماء فضية من فتات التبر ، نجومها – أى حبابها – ذهب . ويقول من قصيدة :

اسقيانى ذبيحةَ الماء فى الكأ س وكُفَّا عن شُرْب ماتسقيانى
إننى قد أمنتُ بالأمس إذ مـ ـتُّ بها أن أموت موتا ثانى
اسْقِنِى القهوةَ التى تنبتُ الوَرْ دَ – إذا شئتَ – فى خدود الغوانى
فى رياضٍ تريك فى الليل منها سُرُجًا من شقائق النُّعمانِ
كتبتْها أيدى السحاب بأقلا مٍ دموعٍ على طُروس المَغانى

وهو يتصور مزج الماء بالخمر إعدادًا لشربها ذبحا ، ويطلب إلى صاحبيه أن لايسقياه الماء وإنما يسقيانه دم الخمر المسفوح . ويزعم أنه لاخوف عليه فقد أماته بالأمس ولن يموت ثانيا ، ومثله من مدمنى الخمر يموتون مرارا . ويقول إن القهوة أى الخمر تضرِّج خدود الغوانى بالحمرة فتصبح كالورد ، ويقول إنه يحتسيها فى رياض تنير بها ليلا الورود المعروفة باسم شقائق النعمان . ويزعم أن أيدى السحاب كتبت تلك الشقائق بأقلام تستمد من محابر غريبة هى دموع العشاق التى استحالت دما قانيا وقد دُوِّنت على طروس ، هى صحف المغانى أو الرياض . ودائما يعنى الوأواء فى شعره بالتصاوير والأخيلة ، ومن أكبر الأدلة على ذلك بيته المشهور :

فأمطرتْ لؤلؤًا من نَرْجِسٍ وسَقَتْ وَرْدًا وعَضَّتْ على العُنَّابِ بالبَرَدِ

فقد استعار اللؤلؤ للدمع والنرجس للعين والورد للخد والعُنَّاب للأصابع والبَرَد للإنسان ، وهى صور لا تحمل شعورًا ، فضلا عن وجد ، غير أن معاصريه كانوا يعجبون بها عنده ، وقد بنى الحريرى على هذا البيت نفسه مقامته الثانية . وذكر صاحب فوات الوفيات أنه بارح الدنيا فى عشر التسعين وثلاثمائة ، وأكد أن كلمة التسعين مصحفة عن كلمة السبعين .

ابن(١) قُسَيّم الحَمَوِيّ

هو مسلم بن الخَضِر بن قُسَيْم التَّنوخي الحموى ، ولد ونشأ بحماة ، ويقول العماد : «كان ثالث القيسرانى وابن منير بلغ إلى درجتهما .. وفاق شعرّهما شعرُه ، لكنه خانه عمره ، وفلَّ شَبا (حدَّ) شبابه ، وحل شَعوب (الموت) بشِعابه ، وذلك فى سنة نيف وأربعين وخمسمائة» . والعماد يقول إنه توفى شابا ويبدو أن ميلاده لايعدو العقد الأول من القرن السادس الهجرى كما يبدو أن موهبته الشعرية نضجت مبكرة ، وسرعان ماعمد إلى التكسب بشعره فدح صاحب حماة ، وتطلع إلى الشهرة بين الشعراء وأحس من واجبه أن يسهم بشعره ضد حملة الصليب ، وكان عماد الدين زنكى قد أخذ فى منازلتهم . وحدث أن خرج ملك الروم من القسطنطينية ومعه جيش كثيف سنة ٥٣٢ لغزو الشام واستولى على بُزاعة وحاصر حصن شَيْزر بالقرب من حماة فاستغاث صاحبه سلطان ابن منقذ بزنكى فأسرع إليه فى عساكره ، واضطر ملك الروم إلى الانسحاب ، فغنم زنكى وعساكره من جيشه غنائم كثيرة سوى مجانيقه وآلات حصاره للحصن ، ومدحه الشعراء وفى مقدمتهم ابن قسيم بقصيدة رائعة استهلها بقوله :

بعزمك أيها الملكُ العظيمُ تذلُّ لك الصِّعابُ وتستقيمُ

وكان ابن قسيم حينئذ فى ريعان شبابه ، وطارت قصيدته كل مطار ، وفى عام ٥٣٤ حاصر زنكى دمشق ، وأعلن له أُنُرْ مدبر دولة أبناء طغتكين وقائد جيشهم دخول دمشق فى طاعته . وفى هذه الأثناء يفد ابن قسيم على دمشق ويمدح عماد الدين زنكى ويبدو أنه ظل بها مدة فإننا نراه يطارح شاعرها ابن منير مرارا ، وأيضا فانه يمدح أُنُرْ مدبر دولة آبق بن محمد بن بورى ، وكان زنكى قد ارتضى أن تظل بها أسرة طغتكين والقائم على دولتهم أنر . فاتصل به ابن قسيم ومدحه ، وأسبغ عليه الجوائز كما أسبغها عليه من قبله زنكى ، وله فيه مدحة أرخها العماد الأصبهانى بسنة ٥٤٢ . ولانرتاب فى أنه ظل متصلا بزنكى يمدحه وخاصة حين استولى على الرُّها سنة ٥٣٩ وبمجرد أن توفى زنكى سنة ٥٤١ رجع جوسلين صاحب الرُّها إليها بالاتفاق مع من بها من الأرمن ، وأسرع إليه نور الدين فى عسكره ، فهرب جوسلين . وافتتح نور الدين الرُّها ثانية ،

---

(١) انظر فى ابن قسيم وشعره الخريدة (قسم الشام) ٤٣٣/١ ومفرج الكروب لابن واصل ٨٢/١ والروضتين لأبى شامة ٣٢/١

وهنأه ابن قسيم بهذا الفتح المبين بقصيدة رائعة . وتوفيِّ الشاعر سريعا فى نفس السنة ويقول العماد الأصبهانى : إنه مات شابا .

وقد استعرض العماد فى خريدته ديوان شعره واقتطف منه مختارات كثيرة ، وهى تدور حول الغزل ووصف الطبيعة والخمر ، ويبدو أنه كان يغرق فى اللهو والمجون ، وإنه ليدعو بعض صحبه لمشاركته فيما يقترف منها بمثل قوله :

خَيْرُ ما أصبحتَ مخلوعَ العِذارِ   فانْفِ عنك الهمَّ بالكأس المُدارِ
قم بنا نَنْتهبِ اللذةَ فى   ظلِّ أيام الشباب المستعارِ
إنما العـارُ الذى تحذره   أن ترانى من لباس العار عارى
وسعيدٌ من تقضّى عمُره   بين كاسات رُضابٍ وعُقارِ (١)
فى اصطباحٍ واغتباقٍ واقترا   بٍ واغترابٍ وانهتاكٍ واستتارِ

وهو يصرِّح – ولايخفى – بأنه يشرب الخمر المحرمة ، غير آبه لما يجرُّه عليه ذلك من عار بين أصحابه ، إذ يجد فيها هناءته وسعادته ، وهو لذلك يعكف عليها صباحا ومساء أو اصطباحا واغتباقا كما يقول ، ويعكف عليها قارًّا فى بلدته حماة ومغتربا فى دمشق وغير دمشق ، وهو يشربها متواريا ومجاهرا بعصيان ربه منتهكا لحرماته . ومن قوله فى خمرية ثانية .

باكرا شمسَ القنانى   تُـدْركا كـلَّ الأمانى
وخذا فى لذّةِ العيْـ   ـشِ على رَغْمِ الزمان
قـهوةً ألبسـها المـز   جُ قميصا من جُمان (٢)
كخدود الورد من تحـ   ـتِ ثُغور الأقحوان
إنما البُغْية أن أصـ   ـبحَ مخلوعَ العنانِ

وهو يدعو إلى المتاع بالخمر ، ويصورها بصور جميلة ، إذا مزجت بالماء وكأنما لبست قميصا لؤلؤيًّا . ويصورها فى حمرتها والماء آخذ بتلابيبها بثغور من الأقحوان الأبيض تعلوها خدود وردية . ولايلبث أن يعلن فى أبيات تالية عصيانه لربه ، فكل مايبغيه أن يظل سادرا فى خلع عنانه – أوكما قال فى المقطوعة السابقة – فى خلع عِذاره منتهكا ساجدا فى قبلة الكأس لتسبيح مثانى العود

(١) الرضاب : الريق . العقار : الخمر .   (٢) الجمان : اللؤلؤ

وأوتاره . وكأنه يعيد لنا صورة أو صورا من خمريات أبى نواس المتهتكة الخليعة المارقة .

ولابن قسيم بجانب مجونه وغزلياته أشعار فى وصف الطبيعة وأشجارها وأزهارها وثمارها من ذلك قوله يصف رُمَّانة :

وممرَّةٍ من بنات الغُصو نِ يمنعها ثِقلُها أن تميدا
منكّسةُ التاج فى دَسْتِها تفوق الخدودَ وتحكى النُّهودا
تُفَضّ فتفترُّ عن مَبْسمٍ كأن به من عقيقٍ عقودا
كأن المقابلَ من حَبِّها ثغورٌ تقبِّلُ فيها خُدودا

وتصويره للرمانة بأنها منكَّسة التاج فى دستها أو صدرها تصوير بديع لأنها تتهدل وتتدلى فى غصنها وعلى صدرها بقية نُوّارها . ويتصور حباتها عقودا من عقيق ، وكأنها تحمل بتلك الحبات وما يحيط بها من خيوط بيضاء ثغورا تقبل خدودا . وكان ابن قسيم شاعرًا مجيدًا ، ومرَّ بنا أنه كان يتشيع وأنشدنا له أبياتا من شعره الشيعى .

مجير(١) الدين بن تميم

هو مجير الدين محمد بن يعقوب المعروف بابن تميم ، ولد بدمشق ونشأبها ، وسال الشعر على لسانه وانتقل الى مدينة حماة وعمل فى جيش صاحبها الملك المنصور سيف الدين محمد (٦٤٢–٦٨٣هـ) جنديا ، إحساسا منه بفتوته وشجاعته ، ويصور إقدامه وبسالته فى شعره قائلا :

دَعْنى أخاطِر فى الحروب بمُهجتى إما أموت بها وإما أُرْزَقُ
فسوادُ عيشى لا أراهُ أبيضًا إلا إذا احمرَّ السِّنانُ الأزرقُ

وقرَّبه منه الملك المنصور وأصبح له اختصاص به . ويقول صاحب فوات الوفيات : « هو فى التضمين الذى عاناه فضلاء المتأخرين (من الشعراء) آية ، وفى صحة المعانى والذوق اللطيف غاية ، لأنه يأخذ المعنى الأول ويحلّ تركيبه وينقله بألفاظه إلى معنى ثان ، حتى كأن الناظم

(١) انظر فى مجير الدين بن تميم وشعره فوات الوفيات ٥٣٨/٢ وخزانة الأدب للحموى ص ٣١٩ – ٣٢٥ والنجوم الزاهرة ٣٦٧/٨ وفى مكتبة جامعة القاهرة مصورة لمختارات من ديوانه بخط الصفدى فى ٤٧ ورقة

الأول ، إنما اراد به المعنى الثانى وقد أكثر من ذلك حتى قال :

أطـالع كـل ديوانٍ أراهُ ولم أزجرْ عن التضمين طَيْرى
أضمِّنُ كلَّ بيت فيه مَعْنىً فشِعْرى نصِفُه من شِعْرِ غَيْرى

ويقول أيضا صاحب الفوات فيه «كان جنديا محتشما شجاعا مطبوعا كريم الأخلاق بديع النظم رقيقه لطيف التخيل» ويقول صاحب النجوم الزاهرة : «كان من الشعراء المعدودين» . ولانعرف تاريخ مولده ، أما وفاته فكانت سنة ٦٨٤ للهجرة .

ومجير الدين بن تميم من أصحاب المقطَّعات الطريفة فى الغزل والطبيعة والخمر ، ولايبارَى فى ابتكار الصور والأخيلة وحشد التوريات فى مقطعاته ، مع الظرف وخفة الروح والتعليلات الحسنة ، ونقتطف بعض أمثلة من أشعاره ، من ذلك قوله فى الساقية والطبيعة من حولها :

تأمَّلْ إلى الدولاب والنهرِ إذ جَرَى ودمعُها بين الرياض غزيُر
كأن نسيمَ الروضِ قد ضاع منهما فأصبح ذا يبكى وذاك يدورُ

ولكلمة « ضاع » معنيان : معنى سطوع الرائحة الطيبة التى يحملها النسيم عن الأزهار ، ومعنى الفقد والهلاك ، وبذلك تمت لابن تميم التورية التى يريدها من استخدامه للكلمة ، وقد أراد المعنى الثانى . ويقول مفاخرا بين الأرض والسماء :

ياجاعلَ الأفْق مثلَ الأرض حُجَّتُهُ بالشمس إذ بزغتْ والبدرِ حين وَضَحْ
كم من شموسٍ وأقمارٍ إذا سَرَحتْ فى الأرض طرتَ إليها خفَّةً وفَرح
ولا تَقُلْ : قُزَحٌ فى الجوِّ زَيَّنَهُ فى كل غُصْنٍ ترى فى الأرض قَوْسَ قُزَحْ

فهو يعارض من يعلى السماء على الأرض بحجة بزوغ الشمس والقمر فيها قائلا إن فى الأرض شموسا وأقمارا من النساء والفتيات أجمل وأكثر حسنا . ويقول لصاحب السماء : لا تحتج بجمال قوس قزح ، فأغصان الرياض فى الطبيعة تحمل مالا يحصى من أقواس قزح نضرةً أرِجَة . ويقول :

سبقتْ إليك من الحديقة وردةٌ وافتْك قبلَ أوانها تَطْفيلا
طمعتْ بلَثْمك إذ رأتْك فجمَّعتْ فَمَها إليك كطالبٍ تقبيلا

وهى وردة فى بدء تفتحها وهى لاتزال فى كمِّها ، مما جعله يعلل تجمعها قبل أن تتفتح هذا التعليل البديع الدالّ على لطف تخيله كما قال صاحب فوات الوفيات . ويقول فى وصف ناعورة أو ساقية :

ناعورةٌ مذ ضاع منها قَلْبُها ناحتْ عليه بأنَّةٍ وبكاءِ
وتعلَّلتْ بلقائه فلأجل ذا جعلتْ تُدير عيونَها فى الماءِ

فقواديسها لا تهوى فارغة طلبا للماء والصعود به ، وإنما تهوى بحثا عن قلبها الذى ضاع منها ، وجعل لحونها الحزينة أنينا وبكاء عليه . ويقول :

لمْ لا أميلُ إلى الرِّياض وزهْرِها وأقيم منها تحت ظلٍّ ضافِ
والغُصْنُ يلقانى بثغرٍ باسمٍ والماءُ يلقانى بقلبٍ صافِ

والثغر الباسم هو الأقحوان المتفتح والشعراء يشبهونه بالثغر كثيرا ، وفى البيتين رقة ودقة حس وخفة روح . وقد يخلط الطبيعة بالغزل كما فى قوله :

كيف السبيلُ لأن أقبِّل خدَّ مَنْ أهْوَى وقد نامتْ عيونُ الحُرَّسِ
وأصابعُ المنثور تُومِى نحونا حسدًا وتَغْمِزُها عيونُ النَّرْجِسِ

والمنثور زهر ذكى يزهو فى أعلى سيقانه ، شبهه ابن تميم بالأصابع ، وتشبيه الشعراء للنرجس بالعيون قديم . وقد استغلها جميعا فى هذا التعليل ، إذ لا يستطيع الاقتراب من صاحبته . ويقول فى الخمر مداعبا :

روحى الفداءُ لمن أدار بلحظهِ صَهْباء فى عقلى لها تأثيرُ
فاعجبْ له أنّى يصونُ بلحظهِ مشمولةً وإناؤها مكسور

وكلمة « مكسور » إما من كسر الإناء بمعنى تهشمه وتحطمه ، وإما كسر مافيه من الخمر بالماء وهو كسر حميَّاها وثورته ، وهو المعنى المراد فى البيت . ويقول أيضا فى الخمر :

وليلةٍ بتُّ أُسقَى فى غَياهبها راحًا تسُلُّ شبابى من يَد الهرَمِ
مازلت أشربها حتى نظرتُ إلى غَزَالةِ الصبح ترعى نَرْجِسَ الظُّلَمِ

ويريد بالغزالة الشمس وبنرجس الظلم النجوم . ولم يكن ماجنًا مثل ابن قسيم ، ولاندرى هل كان يشرب الخمر حقا أو كان ينظم فيها محاكاة لمدمنيها تظرفا . ومن طرائفه فى الرياض قوله

بعثَ النسيمُ رسالةً بقدومِهِ للروض فَهْوَ بقربه فَرْحانُ
ولطيبِ ما قرأ الهزّارُ بشَذْوِهِ مضمونَها مالتْ له الأغصانُ

والهزار : طائر حسن الصوت يشتهر بلحونه الكثيرة . وواضح مافى ميل الأغصان لسماع شدو الهزار من عنصر المفاجأة ، وكل مقطوعات تميم تقوم على هذا العنصر ومايحدث فى النفس من هزة الارتياح والسرور لسماع مثل هذه المفاجآت الكثيرة عنده ، وقد أنشد منها صاحبا الفوات والخزانه بدائع كثيرة .

ابن [1] النقيب

هو عبدالرحمن بن محمد الحسينى الملقب بابن النقيب ، ولد فى دمشق سنة ١٠٤٨ للهجرة لأبيه النقيب الشريف ، وعُنى بتربيته ، فحفظ القرآن الكريم ، واختلف إلى شيوخ أيامه بالإضافة إلى أبيه وماكان يلقنه من اللغة والحديث . وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، واتجه بها إلى وصف الطبيعة ومجالس الأنس والغزل مع الإلمام بالمديح ، ولم يكن فى حاجة إلى تكسب به ، ولذلك يمكن أن تعد مدائحه فى باب الإخوانيات ، وهى ليست الجوهر فى ديوانه المنشور ، إنما الجوهر فتنته بالطبيعة الدمشقية ومتنزهاتها وبجمال الدمشقيات ووصف الراح من خلال الطبيعة الفاتنة . ويقول المحبى « ما أذكره له تشبيه زُهْر (حسان) أوزَهر ، أو وصف روض مطلٍّ على نهر ، وهو ممن أُغرىَ بهذين النوعين ، وذلك أما لميل غريزى فى فطرته ، أو لأن دمشق مترِّوح فكرته » . ولم يطل به الدهر بين هذه المفاتن التى كانت تخلب لبه . فقد توفى فى الثالثة والثلاثين من عمره سنة ١٠٨١ للهجرة . ومن قوله فى نهر وروض على حافتيه :

النَّهْرُ يَصْدَا بهاتيك الظلالِ كما يَصْدا من الغِمْدِ حَدُّ الصارم الذَّكَرِ
والزَّهْرُ يَفْرِشُ فى شَطَّيه مارقمتْ فيها السحائبُ من رَيْطٍ ومن حِبَرِ
رَبيعةُ الوَشْىِ لاينفكُّ زِبْرِجُها يجلو لنا من حِلاها أحسنَ الصُّوَرِ [2]

(١) انظر فى ابن النقيب وشعره خلاصة الأثر ٣٩٠/٢ ونفحة الريحانة ٣٤/٢ وديوانه (طبع المجمع العلمى العربى فى دمشق) وانظر مقدمتى أحمد الجندى وخليل مردم للديوان .

(٢) الزبرج : الحلية من الوشى أو الجوهر .

ويشبه الشعراء الأنهار الضيقة والجداول بالسيوف لشدة لمعانها . وقد جعل ابن النقيب النهر يصدأ كما تصدأ السيوف ، أما هى فتصدأ بأغمادها ، وهو يصدأ بظلال الأشجار من حوله ، والزهر يفرش فى شطيه مارقمت أو نقشت فيها السحائب من رَيْط وحِبَر أو ملاءات مخططة وحريرية ذات وشى ربيعى لايزال زبرجه ونقشه يجلو من حِلَى الطبيعة وجواهرها أجمل الصور .. ويذكر مجلسا من مجالس أنسه فى بعض متنزهات دمشق قائلا :

وبمجلسٍ حفَّتِ الغصونُ بنا فيه ووجْهُ الرياض مبتهجُ
كأن أوراقها يرفُّ بها فوق النَّدامى نَسيمُها الأرِجُ
خُضْرٌ من الأُزْرِ لاتزال بها مناكبُ الراقصات تختلج

وهى صورة بديعة ، إذ يجعل أوراق الاغصان – حين يرفّ نسيمها فوق الندامى – كأنها أزر أو شيلان تُظِلُّ مناكب الراقصات المختلجة المتحركة فى أثناء رقصها ودورانها فيها . ويقول فى بدر يلوح ويحتجب من خلال أغصان :

كأنما الأغصانُ يَثْنيها الصَّبا والبدرُ من خَلَلٍ يلوح ويُحْجَبُ
حسناءُ قد عامتْ وأرْخَتْ شَعْرَها فى لُجَّةٍ والموجُ فيها يلعبُ

والصورة أيضا بديعة ، فالبدر وهو يظهر ويغيب من خلال الأشجار كحسناء فى لُجَّة مرخية ذوائبَ شعرها وموج أضوائها من حولها يلعب فى فضاء الطبيعة الساحرة . وكان مغرى بوصف زهرة القرنفل ، يصفها بيضاء وحمراء وبيضاء مشربة بحمرة كقوله :

وزهْرِ قَرَنْفُلٍ فى الروض يَحْكِى عَقيقَ دمٍ على صفحاتِ ماء
رأى وَجناتِ من أهوَى فأغْضَى فبان بوجهه أثَرُ الحياء

فاحمرار القرنفل إنما هو حياء وخفر منه حين رأى وجنات صاحبته ، فأغضى عينيه وقارب بين جفونه استحياء . وله وراء شعر الطبيعة واللهو والمجون موشحات مختلفة منها ماعارض به لسان الدين بن الخطيب فى موشحته : « جادك الغيث إذا الغيث همى » . وله أيضا شعر دورى تتألف المنظومة منه بيتين بيتين . وبدون ريب كان شاعرا بارعا ، وحقا مايقوله المحبى من أنه كان يتخيل التخيلات البعيدة البديعة فى التشابيه العجيبة » .

شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية

الشام من قديم دار عبادة ونسك وتقشف ، وبها كان مهبط ديانتين : الديانة اليهودية والمسيحية ، ومر بنا فى الفصل الأول استعراض لنسّاكها الأولين ورفضهم للمتاع الدنيوى وإقبالهم على ما عند الله من ثواب الآخرة . وحين قام نظام الرهبنة فى المسيحية شاعت فيها الأديرة وشاع فيها النسك . وتعمها أضواء الإسلام ، وتشيع فيها تعاليمه الزاهدة وينزلها كثيرون من زهاد الصحابة وأتقيائهم النساك وتشيع فيها التقوى ، وتصبح ساحة كبرى من ساحات العبادة ، كما تصبح مباءة لكثيرين من صلحاء الأمة ، وتتطاير على ألسنتهم كلمات زاهدة تقية كثيرة ، عرضنا لأطراف منها فى غير هذا الموضع ، وطبيعى أن يجد ذلك صداه فى الشعر والشعراء الشاميين . ويلقانا فى ديوان أبى تمام باب للزهد ، ويظل الشعراء بعده ينظمون فيه كقول أبى فراس [١] :

أما يَرْدَعُ الموتُ أَهْلَ النُّهَى ... ويمنع عن غَيِّهِ مَنْ غَوَى
فيا لاهيًا آمنًا والحِمامُ ... إليه سريعٌ قريبُ المدى
إذا مامررتَ بأهلِ القُبورِ ... تيقَّنْت أنك منهم غَدا
فلا أملٌ غيرُ عَفْوِ الإلهِ ... ولا عملٌ غيرُ ما قد مضى

وأبو فراس يقول : الموت خير واعظ للإنسان وإنه لجدير أن يردع الغَوِىَّ عن غيِّه ويرده إلى رشده ، ويعجب من لاهٍ آمنٍ على نفسه ولا يفكر فى هول ماينتظره من موت يوشك أن ينزل به ، وغدا يطير إلى رمسه ، ولا أمل له سوى عفو ربه فحرىٌّ به أن يكفّ عن كل موبقة ويأخذ من يوم حياته ليوم مماته ، وإنه لقريب . ويتعمق أبو العلاء التفكير فى الحياة والموت نهاية كل حى وينشد [٢] :

هىِ النَّفْسُ تَهْوَى الرُّحْبَ فى كل موطنٍ ... فكيفَ بها إن ضاقَ فى الأرض قبرُها
وهل يَرْتَجِى خُضْرَ الملابس ظاعنٌ ... وقد مُزِّقَتْ فى باطن التُّرْبِ غُبْرُها
نوائبُ ألقتْ فى النفوس جرائحًا ... عَصَى كلَّ آسٍ فى البريَّة سَبْرُها
لىَ القوتُ فَلْيَغْمُرْ سَرَنْديبَ حظُّها ... من الدُّرِّ أو يكثُرْ بغانةَ تِبْرُها

(١) الديوان ٦/٢

(٢) اللزوميات (طبع مطبعة المحروسة) ٣١٢/١

وأبو العلاء يضع أمام الإنسان مصيره وأنه لابد مفارق للدنيا الرحبة الواسعة إلى القبر الضيق المظلم . وربما كان يَكْنى عن كل متاع الحياة بخضر الثياب يلبسها ظاعن راحل عن دنياه إلى قبر موحش تغبرُّ فيه هذه الثياب وتمزَّق تمزيقًا . ويقول تلك نوائب تصيب النفوس فى الصميم وتحدث فيها جراحا عميقة يستعصى سَبْرها ومعرفة غورها على كل طبيب ، ويذكر أنه لايفكر فى طيبات الحياة ولاتمر بخاطره ، إذ هو قانع بقوته وما يسدُّ رمقه ، ولتمتلئ سرنديب - أوكما تسمى الآن سيلان - بمغاوص لآلئها من الدرر وليكثر بغانة فى غربىّ إفريقيا التبر كما يقولون ، فحسبى قوتى . ومرَّ بنا أنه كان زاهدا فى الدنيا ونعيمها ، مكتفيا بالعدس والتين . ومر بنا أيضا أن ديوانه اللزوميات فى مجلدين ، وقد بناه على تمجيد الله والتحذير من الدنيا ومتاعها الزائل كما قال فى مقدمته . ويقول ابن سنان الخفاجى (١) :

استغفرِ اللّهَ القديمَ وعُذْ بهِ   من شرِّ غاوٍ فى الحُطام منافسِ
وافعَلْ جميلا لايضيعُ صَنيعهُ   واسْمَحْ بقوتك للضعيف البائسِ
واقنَعْ ففى عيش القناعة نعمةٌ   لاتتقى كفَّ الزمان الخالس
لاتفخرنَّ وإن فعلتَ فبالتُّقَى   ناضلْ وفى بَذْل المكارم نافسِ

وهو يستغفر الله من شر كل غاوٍ منافس فى حطام الدنيا ومتاعها الزائل ، ويوصى بفعل الجميل ومدِّ اليد بالقوت للبائس الفقير . ويوصى أيضا بالقناعة ويقول إنها نعمة لأن الإنسان معها لايخاف على شىء يختلسه منه الزمن ، ويوصيه أن لا يفتخر إلا بالتقى ولاينافس إلا فى المكارم والمحامد . ويقول الحسن بن طارق الحلبى من شعراء الخريدة (٢) :

عمرتَ دارَ فناءٍ لابقاءَ لها   ظنًّا بأنك عنها غيرُ منتقلِ
أتعبتَ نفسك لا الدنيا ظفرتَ بها   وأنت لاشكَّ فى الأخرى على وجَلِ
دارُ الإقامة أولى بالعِمارة من   دارٍ نعيمُك فيها غيرُ متصلِ
فاعمَلْ لنفسك ماترجو النجاةَ به   فليس يُنْجيك إلا صالحُ العمل

وهو يزهِّد فى الدنيا والعمل على تحقيق المآرب فيها مع نسيان الآخرة دار الإقامة الحقيقية التى ينبغى أن يعمل لها الإنسان ، وهى حقا الأجدر بأن يقدم لها كل مايستطيع من تقوى وعمل صالح حتى يفوز برضوان ربه .

---

(١) الديوان ص ٥٧

(٢) الخريدة (قسم الشام) ٢/١٥٨

ويقول الإمام النووى الفقيه الشافعى المتوفى سنة ٦٧٦ للهجرة[١] .

وجدتُ القناعةَ أصلَ الغِنَى فصرتُ بأذيالها مُمتَسِكْ
فلا ذا يرانى على بابهِ ولا ذا يرانى به منهمكْ
وعشتُ غنيًّا بلا درهمٍ أمرُّ على الناس شبْهَ المَلِكْ

وكان محيى الدين النووى إماما ورعا زاهدا مثابرًا على التقوى والقناعة ، فلا أحد من الحكام – كما يقول – يراه على بابه طالبا حاجة ، ولا أحد يراه مشغولا به منهمكا ، فانهماكه إنما هو فى العبادة والتهجد والنسك وفتوى الناس فى أمور دينهم وتدريس الفقه والحديث النبوى آخذا نفسه فى حياته بالتقشف الشديد . ويقول مصطفى البابى الذى مرت ترجمته : إن الأرض مقبرة كبرى تطؤها أقدامنا غير واعين ، بل إنه يبعد فى خياله قائلا .

قد غَنينا عن الدروس بما تُمْـ ـلى علينا صحائفُ الأيامِ
من عظَاتٍ تُتْلَى بغير لسانٍ وسطورٍ خُطَّتْ بلا أقلامِ
ولو أنَّ العيونَ زال غَشاها لرأتْ كلَّ أخْمَصٍ فوق هام[٢]
بل وفى كل وردةٍ ألفُ خَدٍّ وقضيبٍ يميسُ ألفُ قوامِ

فالحياة قصيرة والمصير للجميع الموت ، وحرى بالإنسان أن يفكر فى هذا المصير المقدم عليه ، وكم ملايين بل مئات الملايين ماتوا وواراهم أهلهم التراب ، حتى لكأن أى مكان لايخلو منهم ، وحتى لكأننا نطؤهم بأقدامنا ، فهم منبثون فى كل بقعة وفى كل مكان . ويقول البابى لوزالت الغشاوة عن أعيننا لرأينا – وياهول مانرى – أقداما تطأ رءوسا ، ولهالنا أن الورد النابت من الأرض يستمد حمرته من ألف خد ، وبالمثل قضيب الأغصان الأهيف المائس المختال يستمد اختياله من ألف قدّ . ويلاحظ المحبى أن المشهور فى هذا المعنى قول أبى العلاء .

خَفِّفِ الوَطْءَ ما أظنُّ أديم الْـ أَرْضِ إلا من هذه الأجْسادِ

---

(١) الكشكول (طبعة عيسى الحلبى) ٣٠١/١

(٢) الأخمص : باطن القدم : الهام : الرأس .

وقول مهيار :

رُوَيْدًا بأخْفافِ المطىِّ فإنما تُداسُ جباهٌ فى الثَّرَى وخدودُ

وكأن البابى نظر إلى معنى البيتين جميعا ، ويضيف المحبى أن منزع هذا كله قول المتنبى :

ويَدْفِنُ بَعْضُنا بَعْضًا ويمشى أواخرُنا على هامِ الأوالى

والأوالى : الأوائل . ولايكتفى المحبى بذلك ، بل يقول أن معنى بيتى البابى دقيق ، وفى رُباعيات عمر الخيام بالفارسية من نوعه أشياء كثيرة ، ويذكر أنه ترجم له رباعية تحمل هذا المعنى على هذه الصورة :

فى الاعتبار بمن مضى من قبلنا عِبَرٌ وتلك هدايةُ المسترشدِ
فلكم طوتْ ترباؤنا أمما وهل مَيْتٌ بغير تَرابُها لم يُلْحَد
حتى كأن شَقيقَها دمُ أسرةٍ سفكتْ دماءَهمُ عيونُ الخُرَّدِ
وبَنَفْسجُ الروضِ الندىِّ كأنه خِيلانُ وَجَناتِ الخدودِ الوُرَّد

فالشقيق الأحمر القانى يستمد مما سفكته عيون الجميلات من دماء العشاق ، والبنفسج الأحمر القاتم يستمد من خيلان وجناتهن . وكل ذلك بعد فى التصور والخيال .

وكان يرافق الزهد منذ القرن الثالث الهجرى نساك — كما مر بنا فى الفصل الأول — أقرب إلى المتصوفة منهم إلى الزهاد فى مقدمتهم ابن الجلاّء ، وكانت الشام ساحة كبرى للنساك يؤمونها . طوال هذا القرن والقرون التالية من العراق وإيران ومصر . واشتهرت جبال لبنان وأنطاكية بكثرة من كانوا يقيمون بها للنسك والعبادة ، وامتد ذلك إلى دمشق وجبالها وغيرها من بلاد الشام . وذكرنا فى الفصل الأول نزول الغزالى بها سنة ٤٨٨ وأنه أخذ يستضىء بقوة بما كتبه أبونصر السراج والقشيرى فى الوصل بين أهل الشريعة من الفقهاء وأهل الحقيقة من المتصوفة ، فلا شريعة بدون عمل القلب وصدق السريرة ولا تصوف بدون أداء الفرائض والنوافل . وبذلك سدَّ الثلمة التى كانت تفصل بين الجماعتين وأحكم الروابط الدينية بينهما . وزادها دعمًا نزول حملة الصليب بديار الشام مما جعل حكام دمشق التابعين للدولة السلجوقية يكثرون من بناء الخانقاهات والرباطات للمتصوفة . وتبعهم فى ذلك نور الدين حين أصبحت الشام فى قبضته ، بل لقد اتسع فى العناية بهم ورَصْد النفقات عليهم . وظلت هذه العناية متصلة فى عهد صلاح الدين وخلفائه

الأيوبيين والمماليك مما أتاح للتصوف ازدهارا عظيما .

وكان قد أخذ يظهر فى التصوف تياران كبيران : تيار سنى كانت تتبعه جماهير الشعب ، وفيه تأسست طرق صوفية متعددة ، من أهمها الطريقتان القادرية والرفاعية على نحو ماصورنا ذلك فى غير هذا الموضع . وكان بجانب هذا التيار تيار فلسفى يقوم على أفكار الحلول والاتحاد بالله ، ولم تكن له شعبية التيار الأول ، وقد مثّله فى القرن السادس الهجرى يحيى السهروردى الذى ترجمنا له فى إيران وأنشدنا بعض أشعاره . ومثّل هذا التيار فى القرن السابع محيى الدين بن عربى الذى نشأ فى الأندلس ، ثم رحل إلى البلاد العربية والأناضول وألقى عصاه فى دمشق ، وله كتب كثيرة من أهمها الفتوحات المكية . وله أيضا دواوين بديعة ، لأبياتها ظاهر وباطن ، ظاهر يتفق مع السنة وباطن يتفق مع تصوفه الفلسفى . وشُغف كثيرون من أهل الشام بأدبه وشعره منهم من يقف به عند ظاهره ومنهم من يتغلغل فى أعماقه . وأخذت أشعاره وتعاليمه الصوفية الفلسفية ، وبالمثل أشعار السهروردى وأيضا أشعار ابن الحلاج الصوفى المتفلسف القديم تؤثر هى وأشعار التيار الصوفى السنى فى كثيرين بحيث أصبح للشام تراث صوفى شعرى . وبدون ريب أكد هذه النزعة الصوفية فى الناس ظهور الطريقة القلندرية التى ظهرت فى القرن السابع الهجرى مع ماداخلها من انحرافات ذكرناها فى الفصل الأول ، وأيضا ظهور الطريقتين النقشبندية والبكتاشية لأواخر زمن المماليك . وسنترجم فيما بعد لثلاثة من شعراء الصوفية الذين تمثلوا التيار الصوفى الفلسفى ، وهم ابن سوار وعفيف الدين التلمسانى وعبدالغنى النابلسى ، أما ابن عربى فعداده فى الأندلسيين ، وقد نزل دمشق بأخرة من عمره .

وكان يقترن بنزعتى التصوف والزهد مديح نبوى كثير ، وهو قديم منذ عهد الرسول ﷺ ومديح حسان بن ثابت وكعب بن زهير وغيرهما من الشعراء له تنويها بخلقه الكريم ورسالته العظمى وجهاده فى سبيل الله وفتوحه . وحين نشطت الحركات الشيعية نشط معها مديحه ، إذ انبثّ كثير منه فى مدائحهم لأئمتهم العلويين وفى مراثيهم للحسين على نحو مانجد عند الصنوبرى الذى ترجمنا له فى كتاب العصر العباسى الثانى .. ولأبى العلاء فى اللزوميات قصيدة فى مديحه ، وفيها يشيد به وبرسالته النبوية الخالدة قائلا :

دعاكم إلى خير الأمور محمدٌ … وليس العوالى فى القَنا كالسوافلِ
حداكم على تعظيم من خلَق الضُّحى … وشُهْبَ الدُّجَى من طالعاتٍ وآفلِ
فصلَّى عليه اللهُ ماذرَّ شارقٌ … ومافَتَّ مِسْكا ذِكْرُه فى المحافلِ

وعوالى القنا أو الرماح هى الماضية القاطعة ، ويذكر أنه دعا إلى توحيد الله الذى خلق الشمس وماتغمر به الكون من الضياء وخلق النجوم التى تبزغ تارة وتأفل تارة ثانية ، فهو مدبر الكون وملكوته . ويدعو الله أن يحفّه ببركاته ماطلعت شمس وماعطر ذكره المحافل بمسك لايضاهيه مسك .

ويحتدم المديح النبوى مع الحروب الصليبية وحروب التتار ، إذ أحسَّ الشعراء - بحق - أنها حروب موجهة للإسلام ورسوله الكريم ، فأخذوا يشيدون به وينوهون بمعجزاته وسيرته الذكية من مثل قول ابن الساعاتى شاعر صلاح الدين فى مدحة نبوية (١) :

هو البشيرُ النذيرُ العدلُ شاهدُهُ ... وللشـــهادة تجريحٌ وتعديلُ
لولاه لم تك لاشمسٌ ولا قمرٌ ... ولا الفُراتُ وجاراه ولا النِّيلُ
مرتِّلُ الوَحْى يتلوهُ ويدرسه ... ولم يكن لكلام الله تَرْتيلُ
وسيِّد الرُّسْلِ حقا لاخفاء به ... وشافعٌ فى جميع الناس مقبولُ
بَثَّتْ نبوَّتَه الأخبارُ إذ نطقتْ ... فحدَّثَتْ عنه توراةٌ وإنجيلُ

ويقول ابن الساعاتى هو البشير النذير الذى أشاع العدل فى أمته ، ويستلهم القائلين بالحقيقة المحمدية وأن الرسول عليه السلام علة الكون ووجوده ، فلولاه لم تك شمس ولا قمر ولاحياة فى الأرض ولا أنهار ، ويقول إنه أول رسول رتَّل الكلام ، وإنه لسيد الخلق وشافع أمته يوم القيامة ، وبه تحدثت الأخبار فى التوراة والإنجيل مبشرة برسالته العظمى . ويقول فتيان الشاغورى من مدحة نبوية مؤملا شفاعته فى يوم الحشر متمنيا زيارته(٢) :

أُؤَمِّلُ من خير الأنامِ شفاعةً ... بها فى نعيمٍ بالجنان أخلَّدُ
وَدِدْتُ بأنى زرتُ قَبْرك راجلا ... وقبَّلتُ تُرْبًا أنت فيها موسَّدُ
ومرَّغْتُ خَدِّى عند قبرك ضارعا ... بأرضٍ حَصاها لؤلؤٌ وزَبَرْجَدُ
وذاك ضريحٌ يَحْسُدُ المِسْكُ تُرْبَهُ ... وكلٌّ شريفِ القدر لاشك يُحْسَدُ

وهو يؤمِّل فى شفاعة الرسول بالغفران ودخول الجنان ، يوم يطول وقوف الناس ف المحشر ، ويقول لو استطاع لزار القبر راجلا وقبَّله وعفَّر خدَّه بما حوله من التراب ضارعا متوسلا بأرض

(١) ديوان ابن الساعاتى ٤٨/١

(٢) ديوان فتيان ص ١٠٩

حصاها لؤلؤ وزبرجد وإن المسك ليحسد ترابه على مايحمل من طيب لا يماثله طيب . وللسخاوى على بن محمد شيخ القراء بدمشق المتوفى سنة ٦٤٣ قصائد سبع فى المديح النبوى . وفى مدحة نبوية يقول الشاب الظريف منوها بالبقعة مثوى الرسول الكريم(١) :

أرضَ الأحبَّة من سَفْحٍ ومن كُثُبِ سَقاكِ منهمرُ الأنواء من كَثَبِ(٢)
ياساكنى طيبةَ الفَيْحاءِ هل زمنٌ يُدْنى المحبَّ لنَيْل الحبِّ والأربِ
أرضٌ مع الله عَيْنُ الشمس تحرسُها فإن تغِبْ حَرَسَتْها أعينُ الشُّهب

وهو يدعو لأرض الحبيب المصطفى أن تهطل عليها الأمطار سفوحا وكثبانا من كثب أو قرب لتظل تزهر بالشذى العطر ، ويتمنى زمنا يحقق أربه وأمنيته من زيارة الجدث الطاهر . ويقول إن عين الشمس تحرسه نهارا وتحرسه أعين النجوم الساطعة ليلا حراسة يرعاها الله جَلَّ علاه .

وللشهاب محمود ديوان فى مديح الرسول ﷺ سقط من يد الزمن واحتفظ كتاب المدائح النبهانية النبوية لإسماعيل النبهانى بطائفة من مدائحه ، وفى إحداها يصور الشهاب محمود ساعة وصول ركبه إلى المدينة المنورة حين بدا لهم العقيق فى غربيها ولم يلبثو أن زاروا القبر الزَّكِيَّ ، يقول (٢) :

وإذا شارفوا العَقيقَ تراءتْ من رُباه سَنا القِباب الزُّهْرِ
وتلقَّاهُمُ بَشيرُ التلاقى بِقَبولٍ تَسْرى قُبَيْلَ الفَجْرِ
وشَذا الروضةِ التى بين أزكى منبرٍ فى الدُّنا وأشرفِ قَبْرِ
حبذا ذاك من مقامٍ كريمٍ يُشْتَرَى يومهُ بكلِّ العُمْرِ

وهو يصور فرحة ركبه أو قافلته بقرب لقاء الرسول حين أشرفوا على العقيق ورأوا قباب مسجده قبيل الفجر . والقبول أو ريح الصبا العليل تبشرهم بالتلاقى وعطر الروضة النبوية يفوح ، وهو يشير إلى الحديث النبوى : « مابين قبرى والمنبر روضة من رياض الجنة » ويقول إن فرحة المثول أمام القبرالطاهر يُشْتَرَى يومها بالعمر كله . ولكمال الدين محمد بن على الزَّمْلكانى المتوفى سنة ٧٢٧ للهجرة مدحة نبوية رائعة يقول فيها(٣) :

---

(١) ديوان الشاب الظريف ص ٤
(٢) المجموعة النبهانية ١٧٣/٢
(٣) فوات الوفيات ٤٩٧/٢

محمدٌ خيرُ خلقِ الله كلِّهِم ... وفاتحُ الخيرِ ماحى كلِّ إشراكِ
قد نال مرتبةً ما نالها أحدٌ ... من أنبياءِ ذوى فَضْلٍ وأملاكِ
ياصاحبَ الجاه عند اللهِ خالقهِ ... ماردَّ جاهَك إلا كلُّ أفَّاكِ
ها قد قَصَدْتُك أشكوُ بعض ما صنعتْ ... بِىَ الذنوبُ وهذا ملجأ الشاكى
عليك من ربِّك اللهِ الصلاةُ كما ... منا عليك السلامُ الطيّبُ الزّاكى

والزملكانى يقرر حقيقة كبرى ، فمحمد عليه السلام خير خلق الله وماحى الكفر والإشراك وقد نال مرتبة لم ينلها الأنبياء ولا الأملاك أو الملائكة . ويتوسل إليه أن يستغفر له ربه وأن يحط عنه أوزاره كما يتبين من أبيات تالية ، وقد زاره وحط رحاله فى حماه لنوال هذا الأمل المنشود . وتكثر مثل هذه الاستغاثة فى المدائح النبوية كما يكثر معها طلب الشفاعة . ويقول مصطفى البابى من مدحة نبوية بديعة[1] :

إليك رسولَ الله قد جاء ضارعًا ... أخو عَثْرةٍ يرجو الإقالةَ مذنبُ
فبابُك بابُ الله ما عنه مهربٌ ... وطالبُه من غير بابك يُحْجَبُ
أغثْنِى تداركْنى أجِرْنى فإننى ... لَقَىً، إن تراخى عنه لُطفُكُ يَعْطَبُ
وأبعدُ شىءٍ أن تضيق بِرُحْبِها ... شفاعتُك العظمى بنا فَهْىَ أرحبُ

وهو يضرع إلى الرسول الكريم أن يستغفر له ربه ليقيله ويخلصه من ذنوبه ، ويستغيث به لائذاً أن يكون شفيعه يوم القيامة ، يوم يطول وقوف الناس فى المحشر ، والجميع يضرعون إلى الله أن يخلصهم وينجيهم من النار ، وسعيد من يشفع له الرسول فى هذا اليوم ، فيفوز برضوان ربه . وللبابى يتوسل[2] :

يـاحىُّ يـاقيُّوم قـد ... بهرَ العقولَ سَنَا بهائِكْ
إنى سـألتك بـالـذى ... جمعَ القلوبَ على ولائكْ
نورِ الوجود خلاصةِ الـ ... ـكونين صفوةِ أنبيائكْ
إلا نـظـرتَ لمستـغيـ ... ـثٍ عائذٍ بك من بلائكْ
فالطُفْ به فيما جَرى ... فى طَىِّ عِلْمك من قضَائكْ

(١) الديوان ص ٤ ونفحة الريحانة ٢/٤٣٧

(٢) الديوان ص ٥ ونفحة الريحانه ٢/٤٣٤

والبابى يجأر إلى ربه ضارعا متوسلا برسوله الذى جمع أمته على الولاء له ، ويقول إنه نور الوجود ، فنوره يشاهد فى كل نور : فى نور الشمس والقمر والكواكب والنجوم وهو خلاصة الكونين وصفوة الأنبياء والمرسلين ، ويتخذه وسيلة إلى ربه وشفيعه ، حتى يلطف به فى قضائه وماجرى فى طى علمه . وحرى أن نترجم لنفر من المتصوفة وأحد شعراء الزهد والمديح النبوى وهو أول من نقف عنده .

عبد (١) العزيز الأنصارى

هو شرف الدين الصاحب عبدالعزيز بن محمد بن يونس الأوسى الأنصارى ، كان أبوه من فقهاء دمشق ، وحين عهد بقضائها فى عهد صلاح الدين إلى ضياء الدين الشهرزورى سنة ٥٧٢ جعله من نوابه . ودار العام فاستعفى ضياء الدين من القيام على القضاء ، ولانعرف هل ترك والد الشاعر القضاء أو أنه ظل يعلى فيه مع ابن أبى عصرون خليفة ضياء الدين . وأكبر الظن أنه بقى فى منصبه مدة ، أو لعله عمل فى منصب آخر . ويقولون إنه كان يشتغل بالتجارة فى سوق الخوّاصين ولاندرى هل كان يجمع بين عمله فى القضاء وبين التجارة أوكان يزاولها حين يعفى منه . وولد له ابنه عبدالعزيز سنة ٥٨٦ وطبيعى أن يُعْنَى القاضى بتربية ابنه ، فأخذ يرعاه حتى حفظ القرآن الكريم ورأى أن يتزود من حلقات الشيوخ بدمشق فدفعه إليها وأكبَّ عبدالعزيز على تلك الحلقات ينهل منها ، حتى إذا أحس أبوه أنه استوعب مافيها نزل به بغداد فاستمع بها إلى شيخ المدرسة النظامية ، وكان لايزال فى نحو العشرين من عمره . وسكن الأب حماة وتولى قضاءها لعهد صاحبها السلطان المنصور الأول (٥٨٧-٦١٧هـ) وسكنها معه ابنه عبدالعزيز ، ويقربه منه المنصور وينظم فيه بعض مدائحه وكذلك فى زوجته عصمة الدين ، ويتوفى المنصور ويغتصب إمارة حماة بعده السلطان قلج أرسلان (٦١٧-٦٢٦هـ) ويظل بها عبدالعزيز . وتولى الإمارة السلطان المظفر بن المنصور الأول (٦٢٦-٦٤٢) فابتسمت الدنيا له إذ اتخذه المظفر وزيره ومستشاره وشاعره ، ويتوفى ويخلفه ابنه السلطان المنصور (٦٤٢-٦٨٣هـ) وكان صبيا فى العاشرة

---

(١) انظر فى عبدالعزيز الأنصارى وشعره فوات الوفيات ١/٥٩٨ وذيل مرآة الزمان ٢/٢٣٩ والعبر ٥/٢٦٨ وتذكرة الحفاظ ٤/١٤٤٣ وطبقات الشافعية ٨/٢٥٨ والنجوم الزاهرة ٧/٢١٤ والخزانة للحموى ص ٢٤٩ ، ٣١٤ وديوانه (طبع مجمع اللغة العربية بدمشق) بتحقيق د. عمر موسى

من عمره وربما يكون سكن الشاعر لبعلبك ودمشق الذى ذكره مترجموه فى هذا التاريخ . وكان يلمُّ بحلب ، ونجده سنة ٦٤٧ فى صحبة أميرها الناصر يوسف فى زيارته لمصر . ويعود إلى حماة وتنعقد صلة وثيقة بينه وبين سلطانها المنصور إلى توفى سنة ٦٦٢ للهجرة .

وكانت تُعْقَدُ فى هذه البلدان جميعا لعبد العزيز الأنصارى الحلقات لسماع الحديث عنه ، وممن سمعه منه الحافظ الدمياطى محدث مصر واليونينى محدث دمشق ، ويقول ابن تَغْرى بَرْى عنه : «برع فى الفقه والحديث والأدب وأفتى ودرس وتقدم عند الملوك وترسَّل عَنهم غير مرة ، وكان شاعرا بارعا» وينقل صاحب الفوات عن الصفدى فى وصف شعره وشاعريته قوله : «لا أعرف فى شعراء الشام بعد سنة خمسمائة وقبلها من نظم أحسن منه ولا أجزل ولا أفصح ولا أصنع ولا أسْرَى ولا أكثر ، وإن له فى لزوم مالا يلزم ديوانا كبيرا ، وما رأيت له شعرا إلا وعلقته ، لما فيه من النكت والتوريات الفائقة والقوافى المتمكنة والتركيب العذب واللفظ الفصيح والمعنى البليغ» وهو يمتاز بجمال موسيقاه وعذوبة ألفاظه وحسن جرسها حسنا بديعا .

وطبيعى والأنصارى شيخ الشيوخ الفقيه المحدث أن يعنى فى شعره بالمديح النبوى والزهد والوعظ ، ومن قوله فى أول مدحة نظمها للرسول الكريم وقد أنشدها تجاه حجرته الشريفة :

يا خاتمَ الرُّسْل الكرام وفارجَ الـ   ـكُرَب العِظام بفعلِهِ والمقْولِ
ها قد ورَدْنا من ضَريحك موردًا   نُشْفَى به من كل داءٍ مُعْضِلِ
أدعوك للجُلَّى وتلك شفاعةٌ   لم تَرْضَ لى أنى أخاف وأنت لى
ولقد أتيتك مادحا لتجيزنى   فى الحشر كاساتِ الرَّحيقِ السَّلْسَلِ

وهو يستغيث بالرسول الكريم ﷺ خاتم الرسل ومفرِّج الكرب الذى ورد على جدثه الطاهر ومعينه العاطر الذى يشفى من كل داء عضال أن يكون شفيعا له يوم الحشر وأن يتيح له فيه — حين يشتد بالناس أوار العطش ولهيبه — كاسات من الرحيق الصافى . ويقول فى مدحة نبوية ثانية :

ويلاىَ من نومىَ المشرَّدْ   وآهِ من شَمْلِىَ المبدَّدْ
غُصْنُ نَقًا حَلَّ عَقْد صَبْرى   بلينِ خَصْرٍ يكاد يُعْقَدْ
فمن رأى ذلك الوشاحَ الـ   ـصَّائمَ صلَّى على محمَّدْ

أشرفُ مَنْ فى النهار ناجَى وخيرُ مَنْ فى الدُّجى تَهجَّدْ
وغيـرُ بِـدْعٍ لمستجيرٍ به إذا نال كلَّ مَقْصِدْ

وموسيقى الأبيات بديعة . وقد تخلص تخلصًا رائعا من الغزل إلى مديح المصطفى بذكر وشاح صاحبته الصائم كناية عن نحول خصرها مع لينه ، فمن رآها – كما يقول – صلَّى على الرسول إعجابا بها واستحسانا لها ، ومضى يذكر مناجاة الرسول نهارا وتهجده ليلا وأن من يستجير به ينال كل مأمول ومطلب . وله مدحة عارض بها مدحة كعب بن زهير للرسول مقتبسا منها الشطور الثانية لقصيدته ، فإن لم يقتبس شطرا اقتبس قافية .

وزهديات الأنصارى كثيرة ، وكان يصدر فيها عن زهد حقيقى فى متاع الحياة الدنيا . وفى إحداها يقول :

مُلْكُ القناعةِ عزٌّ يُذْهِبُ الذِّلَّهْ فمن حَوَى كَنْزه لم يُؤتَ من قِلَّهْ
تبًّا لذى طمعٍ مستعبِدٍ ومُنًى لاتستقرُّ على رِىٍّ بلا غُلَّهْ
يسومُ إبلاعَهُ من رِيقهِ بَلَلاً وليس يَرْوَى ولو أَبْلعتُهُ دِجْلَهْ
فانْقَعْ غَليلَك من نَهْلٍ بلا عَلَلٍ واقنع إذا أكلةٌ أغنتْك عن أكْلَهْ

فالقناعة – فى رأيه – عز مابعده عز ، ومن حوى كنزها الذى لايفنى لم يَشْكُ من قلة ، ويقول تبًّا لصاحب طمع يستعبده ومنى لاتروى أبدا فدائما صاحبها يعانى من غُلَّة العطش وحرارته ، ودائما يريد أن يبلَّ ريقه ، إذ لا يَرْوى أبدا ولو أبلعته نهر دجلة ، فاكتف بأن تنقع حرارة ظمئك من النهل أو الشَّربة الأولى من الماء ولاتطلب العلل أو الشربة الثانية منه . واقنع بكفاف العيش ، وطوبى لمن زهد وقنع وأعرض عن متاع الدنيا الزائل . يقول :

وابْغِ أخرى دائمٌ فيـ ـها نعيـمٌ وشـقاءُ
وتَنصَّلْ من خَطيئـا تٍ لها النارُ جزاءُ
وإذا صحّ لك القو تُ على الدنيا العَفاءُ
كلُّ ما فى هذه الدُّنْـ ـيا قُصاراهُ الفـناءُ
ولأهْلُ الخُلْدِ فى الخُلْـ ـدِ ولله البــقـاءُ

وهو ينصح الإنسان أن يسلو الدنيا ويطلب الأخرى دار النعيم للأتقياء والشقاء للعصاة ، وأن

يتوب إلى ربه مستغفرا من خطيئاته وذنوبه . ويقول له يكفيك من دنياك القوت الكفاف ، وإذا حصلت عليه لا تتعلق من الدنيا بشيء فكل مافيها هالك وفان ، والسعادة إنما هي لأهل الجنة ولله البقاء والدوام .

وفى الديوان أشعار كثيرة على طريقة لزوم مالايلزم . ومر بنا أن الصفدى قال إن له فيها ديوانا كبيرا . وقد عرض له الحموى فى خزانته طائفة من تورياته وطائفة أخرى من أشعاره وافرة النغم حسنة الجرس والاداء .

محمد [(١)] بن سوَّار

هو محمد بن سوَّار بن إسراعيل بن الخَضِر الشيبانى الدمشقى المولد والدار والوفاة ، ولد سنة ٦٠٣ للهجرة . وتوفى سنة ٦٧٧ وبدأ بحفظ القرآن الكريم مثل لداته من الناشئة ، واختلف إلى حلقات الشيوخ ، ويبدو أنه شُغف بالتصوف منذ أوائل حياته ، ونظن ظنا أنه لزم ابن عربى المتوفى بدمشق سنة ٦٣٨ غير أن مترجميه يقولون إنه لزم على بن الحسين الحريرى المتصوف المتوفى سنة ٦٤٥ ومما يشهد لقولهم مرثيته له ، وهو فيها يبكيه بكاء حارا بمثل قوله :

خَطْبٌ كما شاء الإلهُ جليلُ ذُهِلتْ لديه بصائرٌ وعقولُ

ويعمّ بالخطب كل قطر ويزعم أن الحقائق الصوفية أصبح عليها ذلة وخمول وأن السالكين إلى التصوف غَوِيَ نهجهم وضلوا السبيل وسُدِل الحجاب الإلهى دون أبصار المتصوفة وخُتمت دنان خمر الحب الربانى . وإذا رجعنا إلى الحريرى عند من ترجموا له وجدنا فقهاء دمشق يفتون بقتله — كما أفتى فقهاء حلب بقتل السهروردى — لما اشتهر عنه من الإباحة وقذف الأنبياء والفسق وترك الصلاة ، مما يجعلنا نظن ظنا أنه يتأثر السهروردى المقتول . ويبدو أن ملازمة ابن سوار للحريرى لم تؤد به إلى انحرافات ، والسبب فى ذلك أنه كان متصوفا حقا ، إذ يقولون إنه تجرَّد ولبس المرقعات الصوفية ورحل فى البلاد على قدم الفقر والتصوف . ولقى — فيمن لقى — شهاب الدين السهروردى الصوفى السنى البغدادى وسمع عليه وأجلسه فى ثلاث خلوات . ولقى أيضا ابن الفارض متصوف

(١) انظر فى محمد بن سوار وشعره وأخباره فوات الوفيات ٤٣١/٢ والنجوم الزاهرة ٢٨٢/٧ وشذرات الذهب ٣٥٩/٥ والوافى ١٤٣/٣ وراجع ترجمة على بن الحسين الحريرى فى الفوات ٨٨/٢ وكذلك ترجمة محمد بن عبدالمنعم الخيمى فى الفوات ٤٥٨/٢ .

مصر المشهور ، ويذكر الرواه لذلك قصة هي أن ابن سوار حجّ ، فرأى ورقة ملقاة فيها قصيدة – وكانت لابن الخيمي المتصوف المصرى تلميذ ابن الفارض – فادعاها لنفسه ، فراجعه ابن الخيمي وعبثا حاول أن يقنعه ، فتحاكما إلى ابن الفارض فطلب إلى كل منهما أن ينظم قصيدة على نفس الوزن والروى ، وكانت القصيدة بائية ، فنظم كل منهما على غرارها قصيدة ، فحكم ابن الفارض بأن القصيدة لابن الخيمي .

ولم نصل بين ابن سوّار والسهروردى البغدادى لأنه كان سنى التصوف وتصوف ابن سوار فلسفى ويتصل مباشرة بتصوف ابن عربى ومافيه من فكرة وحدة الوجود ، ولذلك وصلناه به ، كما يشهد بذلك شعره من مثل قوله :

إن أمَّ صحبى سَمُرًا أو أراكْ ... فإنما مقصدهم أن أراكْ
وإن ترنَّمْتُ بذكر الحِمَى ... فإنما عَقْدُ ضميرى حِماكْ
وإن بكى صَبٌّ حبيبًا فما ... أحسب إلا أنه قد بكَاك
ملأتَ كلَّ الكون عشقا فما ... أعرف قلبا خاليا من هَوَاكْ

فصَحْبه إن أمُّوا به شجر السَّمُر والأراك فمقصدهم أن يرى ربه محبوبه الذى يحل فى كل مكان ، وهو حين يذكر فى غزله الحمى إنما يريد حماه ، بل إن كل من بكى حبيبًا إنما يبكيه لأنه يحلُّ فى جميع الأشخاص والأشياء ، فما يعشق الناس شخصا أو شيئا إلا ويعشقونه ، وكأن كل شيء مرآة له ، إذ يتراءى فى كل الوجود . ويقول من قصيدة ثانية :

يامَنْ يشير إليهم المتكلّمُ ... وإليهمُ يتوجَّهُ المتظلِّمُ
وعليهمُ يحلو التأسُّفُ والأسى ... ويلذُّ لوعاتِ الغرام المُغْرَمُ
هذا الوجودُ وإن تعدَّد ظاهرا ... وحياتِكم مافيه إلا أنتمُ
وإذا نطقتُ ففى صفات جمالكم ... وإذا سألتُ الكائناتِ فعنكمُ
وإذا سَكِرْتُ فمن مُدامةِ حبِّكم ... وبذكركم فى سَكْرتى أترنَّم
وإذا نظمتُ تغزلا فى صورةٍ ... فلأجل حُسْنِكمُ المحجَّبِ أنظمُ
أنتم حقيقةُ كلِّ موجودٍ بَدَا ... ووجودُ هذى الكائنات توهُّمُ

والأبيات صريحة فى أنه مؤمن بوحدة الوجود . فالله يحل فى الوجود جميعه ، وكل مافيه من

أشخاص وأشياء مظاهر له ، وهو لذلك إن تحدث عن جميل أوسأل كائنا من الكائنات إنما يسأل الله ويتحدث عن جماله المشاهد فى كل جميل . وهو إذا سكر فسكره من خمر الحب الإلهى الذى يترنَّم به ويشدو آناء الليل وأطراف النهار . وهو إذا تغزل فى صورة واستشعر وجدا إنما يستشعر الوجد الربانى . وإنه لينبثُّ فى كل موجود وحدة متصلة بين الله ومخلوقاته . وهى نفس الأفكار التى تلقانا عند ابن عربى ، ولذلك تكلم فيه أهل السنة ، ورموه بأنه يؤمن بالاتحاد بين الله والموجودات . وعلى هذه الشاكلة قوله :

خَلا منه طَرْفى وامْتلا منه خاطرى   فطَرْفى له شاكٍ وقلبىَ شاكرُ
ولو أننى أنصفتُ لم تَشْكُ مُقْلتى   بِعادا ودارات الوجود مظاهرُ

فالله يمتزج بروحه ولايراه ، لذلك طرفه يشكو وقلبه يشكر ، ويقول إنه كان جديرا بمقلته أن لا تشكو بعاد الحبيب لأن دارات الوجود جميعا من حوله مظاهره ، فكيف لاتبصره وهو متحد بكل الكائنات مشاهَدٌ فى كل الأشياء . وكان للمتصوفة لأيامه ليال يحيونها بالدفوف والذكر وإنشاد الشعر عليه إلى السَّحَر ، ويُرْوَى أنه حضر مع نجم الدين بن الحكم الحموى ليلة من تلك الليالى فغنى المغنى من شعره :

وما أنت غيرُ الكَوْنِ بل أنت عينهُ   ويفهمُ هذا السرَّ مَنْ هو ذائقُ

فقال ابن الحكم : كفر ، فقال ابن سوار : لا ، ماكفر ، لكن أنت ماتفهم ، وتشوَّش المجلس . وفى البيت وفى بقية الشعر مايدل على ابن سوار يريد أن يقول — على أساس مايزعمه من فكرة وحدة الوجود — إن الله هو الكون أو الوجود بجميع مافيه ، والفكرة بأساسها — كما يرفضها ابن الحكم — يرفضها — كما ذكرنا ذلك أيضا — أهل السنة وأصحاب التصوف السنى .

عفيف [1] الدين التلمسانى

هو سليمان بن على بن عبدالله الكوفى التلمسانى ، وتدل نسبته إلى تلمسان فى الجزائر على أنه مغربى الأصل ، كما تدل نسبته إلى الكوفة على أن بعض آبائه نزل الكوفة واستوطنها فيما يبدو ،

(١) انظر فى عفيف الدين وأشعاره وأخباره فوات الوفيات ١/٣٦٣ وراجع فيه ترجمة ابن الخيمى ٢/٤٦٣ وانظر البداية والنهاية لابن كثير ١٣/٣٢٦ والنجوم الزاهرة ٨/٢٩ والشذرات ٥/٤١٢ وديوان الحقائق ومجموع الرقائق لعبد الغنى النابلسى ص ٢٨٩ ، ٣٢٦ . وديوان عفيف الدين طبع قديما بالقاهرة وبيروت .

ولا نعرف شيئا عن نشأته ، ويبدو أنه نشأ بدمشق وأنه اختلف إلى حلقات علمائها يأخذ كل ماعندهم ، ولعل ذلك ماجعله يؤلف فى كل علم كما يقول صاحب الوفيات . وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، وعُرف فضله وأدبه ، ويقول مترجموه إنه خدم بعدة جهات يقصدون عدة مناصب ، وأغلب الظن أنها جميعا كانت فى دمشق وفى دواوينها وخاصة فى بيت المال . وأخذ مبكرا يتصل بالمتصوفة ولزم صدر الدين القونوى أحد أتباع ابن عربى ، ويبدو أنه اعتنق مذهبه فى وحدة الوجود على يده . ونزل معه فى العقد السادس من القرن السابع خانقاه سعيد السعداء بالقاهرة ، ومكثا بها مدة ، رُزق فى أثنائها بابنه الشاب الظريف سنة ٦٦٦ وقد مرت ترجمته بين شعراء الغزل . ولقى فى القاهرة مع أستاذه صدر الدين القونوى ابن سبعين الأندلسى ، وكان على شاكلة القونوى وابن عربى يؤمن بوحدة الوجود ، فأكَّدها فى نفس عفيف الدين . وعاد إلى دمشق ، وتارة كان يعمل بها فى الدواوين ، وتارة ثانية كان يفرغ للتصوف داعيا إلى طريقة ابن عربى ، ومذهبه فى وحدة الوجود . وترك دمشق مدة إلى الأناضول ، أو كما كانت تسمى حينئذ بلاد الروم ، وعمل فيها أربعين خلوة صوفية ، يخرج من واحدة ويدخل فى أخرى . ويقول مترجموه إنه كان حسن العشرة كريم الأخلاق له حرمة ووجاهة ، ولعله لذلك لم يتعقبه الفقهاء ، وظل موزعا بين عمله فى دواوين دمشق وعمله فى ميدان التصوف حتى توفى سنة ٦٩٠ للهجرة .

وكان تصوف عفيف الدين — كما ذكرنا آنفا — تصوفا فلسفيا على طريقة ابن عربى ، مما جعله يُعْنَى بشرح أعقد كتبه فى التصوف ونقصد كتابه : « فصوص الحكم » وفى مكتبة ولى الدين بإستانبول مخطوطة منه . وأشعاره الصوفية أشعار غزلية حسية على طريقة ابن عربى فى ديوانه « ترجمان الأشواق » من مثل قوله فى قصيدته التى نظمها على غرار قصيدة ابن الخيمى المذكورة آنفا فى ترجمة ابن سوار :

لولا الحِمَى وظباءٌ بالحِمَى عُرُبُ ... ماكان فى البارق النَّجْدِىّ لى أَرَبُ
وفى رياض بيوت الحىِّ من إِضَمٍ ... وَرْدٌ جَنِىٌّ ومن أكمامه النُّقَبُ
لاتقدر الحُجْبُ أن تُخْفِى محاسنَه ... وإنما فى سَناه الحجْبُ تَنْحَجِبُ
ياسالما فى الهوى مما أكابدُه ... رفقًا بأحشاء صَبٍّ شَفَّه الوَصَبُ
هل السلامةُ إلا أن أموتَ بهم ... وَجْدًا وإلا فبُقْياىَ هىَ العطَبُ

وعفيف الدين يستشعر وجد المحبين إزاء محبوبه الربانى ، ويتحدث عنه حديثا رمزيا ، فلولا

حياه ما كان له أمل وراء البارق النجدى ، ولا كان له ولوع بورد الخدود فى رياض بيوت الحى من إضم . ويتصور كأن الأقنعة أو الحجب التى تُسْدَلُ على تلك الخدود هى أكمام الورود ، ويقول إن الحجب لا تستطيع أن تخفى محاسنه إذ تذوب فى سناه وضيائه المشرق . ويذكر أن أحشاءه تستشعر أوجاع حبه وأن سلامته إنما هى فى أن يموت فى حب ربه وجدا وهيامًا ، وإلا فبقاؤه هلاكه ، ويقول إن السكارى يفيقون من سكرهم ، وهو لا يفيق مما شرب من دَنّ هذا الحب الإلهى :

لاتحسبوا أننى عن حُبّكم سالى ... وحقّكم لم يزل حالى بكم حالى
يا ساكنين فؤادى وهْو منزلكم ... لاعشتُ يوما أراه منكمُ خالى
أنتم بقلبىَ أدْنَى من جَوَانِحه ... حقًّا على رغم حُسّادى وعُذّالى
أوضحتمُ لمحبّيكم طريقَكمُ ... حاشاكمُ تهجرونى بعد إيصالى

وفى البيت الأول تورية واضحة فى كلمة « حالى الثانية » إذ ليس المراد معناها الظاهر كما فى « حالى السابقة » وإنما المراد أن حاله لايزال بحبه لربه حاليا أومزدانا بحلى بديعة . ويقول إن محبوبه الإلهى حال بفؤاده وأنه أدنى لقلبه من جوانحه ومايحيط بها من صدره ، وكأنما يشير إشارة إلى فكرة الاتحاد بالذات الإلهية التى كان يؤمن بها ابن عربى . ويتضرع إلى محبوبه الربانى أن لايهجره بعد وصله . ويقول :

يا أُصَيْحابى بذى سَلَمٍ ... مَنْ أُصيْحابى وما السَّلَمُ
أنا عنى اليوم فى شُغُلٍ ... فاذكرونى إن نسيتكمُ
وأشيموا فى الحِمَى خَبَرى ... وأذيعوا السرَّ واكْتَتِمُوا
لايرانى السحبُ مُنْثَنيا ... بعد مالاحتْ لىَ الخيَمُ
كنتُ قبل اليوم فى حُلُمٍ ... ونقضّى ذلك الحُلُمُ
فزمانى كلُّه طَرَبٌ ... دونه الأوتار والنَّغَمُ

إنه على وشك أن يتحقق أمله فى الوصول إلى محبوبه الإلهى . وهو لذلك يخاطب أصحابه بذى سلم أحد المواضع النجدية التى يذكرها أصحاب الغزل العذرى . ويرجع إلى نفسه وقد لاحت له اخيام محبوبه ، كما يقول ، فيعلن أنه فى شغل عن أصحابه وعن السلم ، وأنه لن ينثنى عن طريقه إلى محبوبه الذى طالما حلم بوصله ولقائه ، وقد انقضى عهد الحلم . وهو لذلك فرح

مبتهج ، وزمانه من حوله كله طرب طربا يفوق طرب الأوتار والأنغام واللحون . ولنا فى هذه القطعة وسابقتها من وجد صوفى مندلع خَمَّسها عبدالغنى النابلسى مع أبيات متصلة بهما لم ننشدها ، وهو وجد كان لايزال يملأ قلب عفيف الدين غبطة وابتهاجا .

عبدالغنى [(١)] النابلسى

هو عبدالغنى بن إسماعيل النابلسى الدمشقى الحنفى ، كان أبوه من فقهاء دمشق الأحناف ، وكانت له حلقة بجامعها الأموى . ودرس فيها بالمدرسة القيمرية وبجامع السلطان سليم ، ورحل إلى حلب والقسطنطينية والقاهرة واستقر بدمشق . وولد له فيها ابنه عبدالغنى سنة ١٠٥٠ للهجرة ، وعُنى بتعليمه بعد حفظه للقرآن الكريم ، فلقنه المذهب الحنفى ، ودفعه إلى حلقات العلماء فى دمشق يأخذ عنهم العربية والفقه والحديث النبوى والتفسير ، وأكبَّ على كتب الصوفية يقرؤها . وسرعان مانضج علميا وهو لايزال فى العشرين من عمره فأخذ يقرأ الدروس ويلقيها على طلابه ، مما جعله يكثر من التأليف والتصنيف حتى لتبلغ مصنفاته ٢٢٣ مصنفا ، وقد استغرقت فى كتاب سلك الدرر للمرادى سبع صفحات . واستيقظت ملكته الشعرية مبكرة ، وأخذ يعنى بالتصوف ، فانتظم فى الطريقة القادرية ثم فى الطريقة النقشبندية ، وله فيها مخطوطة بدار الكتب المصرية عنوانها : مفتاح المعية فى الطريقة النقشبندية ، ثم جذبه إليه مذهب ابن عربى الصوفى الفلسفى ، وكأنما عاش به وفيه وله ، إذ يصدر عنه بوضوح فى ديوانه الصوفى . ديوان الحقائق ومجموعة الرقائق ، وهو فيه يجاهر بأنه يؤمن بوحدة الوجود التى آمن بها من قبله إمامه ابن عربى ، ويردِّد دائما : ليس فى الكون سواه ، فلا موجود إلا به ، وما الكائنات إلا صورة له ، يتجلّى فيها بأسمائه وصفاته ، يقول :

إنه اللهُ وجودٌ واحدٌ … حكمةٌ فينا حرامٌ وحلالْ
وهْوَ حقٌّ وسواهُ باطلٌ … قال فى القرآن والسبع الطِّوالْ
أينما أنتم تولُّوا ثَمَّ وَجْـ … ـهُ الإلهِ الحقِّ محمودِ الفعالْ

(١) انظر فى عبدالغنى النابلسى وأشعاره وأخباره كتاب سلك الدرر ٣/٥٣٠ ومفحة الريحانة ٢/١٣٧ وتاريخ الجبرتى ١/١٥٤ وله ديوان الحقائق ومجموع الرقائق فى صريح المواجيد الإلهية والتجليات الربانية والفتوحات الأقدسية ـ طبع قديما بمصر بالمطبعة الأشرفية فى ٤٧١ صفحة من القطع المتوسط .

وهو يستدل على صحة القول بنظرية وحدة الوجود بقوله تعالى فى سورة البقرة : (ولله المشرقُ والمغربُ فأينما تُوَلُّوا فَثَم وجه الله) والآية إنما تشير إلى ان أى مكان من المشرق والمغرب يأمرهم الله باتخاذه قبلة تكون هناك جهته التى أمرهم بالاتجاه إليها لا أنه موجود فيها حالٌ بها ومتحد معها كما يذهب النابلسى وابن عربى زاعمين أن ذاته هى ذات جميع الكائنات ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . ويقول النابلسى متحدثا بلسان الذات العلية :

ألا إن ذاتى ذاتُ كلِّ الخلائقِ وسَلْ عنه ذا علمٍ كريمِ الخلائقِ
ولا صفةٌ إلا ومِنِّى تعيَّنتْ لموصوفها إذ كنتُ أصلَ الدقائق
أنا الجوهرُ السَّارِى بغير سِرايةٍ ألوحُ وأخفى فى جميع الحقائق
أنا النورُ نورُ العَيْن منى تكوَّنَتْ عيونُ البَرايا من مَشُوقٍ وشائق

فالله جوهر الوجود ، يلوح ويخفى ولاسواه ، إذ كل مافى الكون مظاهر له ، يصبغها بوجوده . ويحاول النابلسى جاهدا أن يفرِّق بين القول بالحلول وأن الله يحلُّ فى جميع الموجودات وبين مايزعمه هو وابن عربى من وحدة الوجود ، وإنها لتبلغ به أن يقول فى مخاطبة ربه ، « ها أنت أنا وليس فى الحضرة ثانى » أو كما يقول :

اثنان نحن وفى الحقيقة واحدٌ لكنْ أنا الأدنى وأنت الأكبُرُ

فهو والله واحد بل جميع الكائنات والله –جل جلاله– واحد . وهى نفسها فكرة وحدةالوجود التى يحاول جاهدا الخلاص منها ولاخلاص فهو غارق فيها . وهو بذلك من أصحاب التصوف الفلسفى على طريقة ابن عربى . وله شرح على ديوان ابن الفارض حاول أن يحيله رموزا خالصة على نحو مانجد فى شرحه لأول بيت فى القصيدة اليائية بالديوان :

سائقَ الأظعانِ يَطْوى البِيدَ طَىْ مُنْعِمًا عَرِّجْ على كُثْبان طَىْ

يقول : « سائق الأظعان هو الله تعالى ، والأظعان : الناس وكثبان طىّ كناية عن المقامات المحمدية التى عددها كرمال الكثيب ، فكأنه يلتمس من الله تعالى أن يوصِّله –كما يوصِّل جميع المؤمنين– إليها » . وابن الفارض لم يقصد إلى شىء من هذا كله ، إنما خاطب سائق الأظعان المتجه إلى منازل طى على حافتى نجد والحجاز ليتمهَّل قليلا حتى يحيِّى من يمر بهم فى طريقه إلى الحجاز معبرا بذلك عن حنينه إليه . وطبيعى وهو قد قرأ ابن الفارض وابن عربى وتمثل كثيرا من

أشعار المتصوفة مخمسا لها ومشطرا كما يتضح فى ديوانه الصوفى أن نراه تارة يتغزل فى بثينة وعلوة وسلمى وزينب وسعاد ، وهى كلها رموز للذات الربانية ، وتارة ثانية يصف الخمر وساقيها وكأسها وشرابها وحَبابها وما تحدث فى روحه من نشوة وفى عقله من شطح . ونراه يهاجم علم الكلام والمتكلمين إذ يدعون إلى ضرورة العلم بالله عن طريق النظر العقلى الفلسفى لا كما يؤمن المتصوفة بأن هذا العلم إنما يستمد من القلب ، وشتان بين علم العقل والفلسفة وعلم المحبة القلبية . وله قصيدة بديعة فى الاستغفار من ذنوبه وخطاياه امتدت إلى ٩٢ بيتا تلاها بالصلاة على الرسول الكريم وآله وأصحابه والتابعين وقصيدة ثانية توسل فيها بأسماء الله الحسنى أن يدفع عنه كل شر ويسبغ عليه كل خير ، وختمها أيضا بالصلاة على رسول الله وآله وأصحابه ، وله فى الرسول غير قصيدة نبوية وغير موشح وقد افتتح موشحا له بقوله :

نورُ طهَ المصطفى منه جميعُ الكائناتِ   وبه كان الترقى فى جميع الدَّرجاتِ

ونحسُّ فى الموشح إيمانه بفكرة الحقيقة المحمدية السارية فى الكون بأسره التى تحفظ عليه كيانه وتصون وجوده ، فكل وجود مستعار من وجوده وكل نور مستمد من نوره . وفى الديوان موشحات ودوبيتات أو رباعيات كثيرة ، وتكثر مثلها المواليا العامية ، وفى الديوان أيضا منظومة صوفية من وزن «كان وكان» العامى .

٦

شعراء شعبيون

لا نقصد بشعبية الشعراء فى الشام أنهم نشأوا فى بيئاتها الشعبية من سلالة عامتها ، فدائما جمهور الشعراء فى كل بلد عربى انحدروا من أسر شعبية ولم ينحدروا من أسر أرستقراطية ، وإذا استثنينا أبا فراس وبعض أفراد أسرته الحمدانية ممن أنشد أشعارهم الثعالبى وأيضا بهرام شاه الأيوبى صاحب بعلبك المتوفى سنة ٦٢٨ للهجرة ونفرًا من أفراد أسرته ممن ترجم لهم العماد فى خريدته بقسم الشام ومن جاء بعدهم مثل الملك الأشرف صاحب «حصن كيفا» حفيد الملك العادل أخى صلاح الدين المتوفى سنة ٦٣٦ إذا استثنينا هؤلاء الأمراء وهم قلة بجانب الكثرة الغامرة من الشعراء وجدنا مَنْ عداهم من أبناء الشعب . وكان بينهم غير شاعر يحترف عملا يكفل له عيشه ، مثل يحيى الخباز الحموى الذى أنشد له صاحب الخزانة طرائفَ كثيرة من تورياته ، وبالمثل صنع مع

شمس الدين محمد بن إبراهيم المتوفى سنة ٨١١ واشتهر باسم صنعته . شمس الدين المزين : لانريد إذن بشعبية الشعراء التالين نشأتهم فى أوساط شعبية ، وإنما نريد أنهم اتخذوا لغة الشعب العامية لسانا لهم فى أشعارهم .

وكانت قد أخذت تشيع فى الشعر لهذا العصر فنون شعرية عامية هى : الزجل والمواليا ؛ والقوما والكان وكان ، ومعروف أن الزجل نشأ فى الأندلس أولا عند ابن قزمان وصحبه فى القرن الخامس ثم شاع فى البلاد العربية . أما المواليا والقوما والكان وكان فنشأت أولا بالعراق ثم أخذت تشيع فى البلاد العربية منذ القرن السابع . وربما كان الزجل أكثرها شيوعا فى الشام يدلّ على ذلك أكبر الدلالة أننا نجد صفى الدين الحلى المتوفى سنة ٧٥٠ للهجرة فى كتابه : « العاطل الحالى » ينوّه بشيوع الزجل لزمنة هناك ، ويقول إنه لقى من أعلامه بدمشق شهاب الدين أحمد الأمشاطى إمام هذا الفن الشعبى بها كما لقى بحلب راوية ثقة من أكبر رواته هو ابن الضرير الشيخ الصالح إمام الفردوس ، وكان قد جلب لنفسه نسخة وثيقة مقابلة على الأصل من ديوانى الزجالين الأندلسيين الكبيرين : ابن قزمان ومدغلّيس حُملت إليه من المدرسة الأشرفية بدمشق . ويذكر صفى الدين أنه كان قد حصل على الديوانين فى زيارته لمصر (٧٢٣ – ٧٢٦ هـ) غير أنهما كانا بخط مغربى تعسر قراءة بعضه ، فصحح الديوانين بمقابلة نسخة ابن الضرير ومراجعته ، وأجاز له بخطه مانقله عن نسخته ، وعرّفه بمشايخ الزجل فى حلب . ومن أعلامه البارعين حينئذ بحماة علاء الدين بن مقاتل ، وسنترجم له عما قليل . ولعلنا لانعجب بعد أن رأينا إقبال أهل الشام على قراءة ابن قزمان ورواية أزجاله أن تكون هى القطر الوحيد الذى احتفظ إلى عصرنا بمخطوطة أزجال ابن قزمان الوحيدة التى عثر عليها جنزبرج سنة ١٨٩٦ ونشرها بطريقة الزنكغراف . ولعل من الطريف أن نعرف أن . . فقيها محدثا كبيرا هو شمس الدين بن الصائغ المتوفى سنة ٧٧٦ للهجرة ألّف شرحا على بردة البوصيرى باسم رقم البردة ، استشهد فيه بشعر أهل زمنه فيما عرض له من أنواع البديع وأيضا استشهد بطائفة من محاسن أزجالهم [1] ، وفى دار الكتب المصرية مخطوطة من هذا الشرح . وهو اعتراف قوى بالزجل وصلاحيته ليكون مادة لتعليم البلاغة والتطبيق على محسناتها المختلفة .

وكانت المواليا شائعة أيضا ، وإن لم يقصر بعض الشعراء نفسه على النظم فيها ، وكأنما كان الشعراء يضيفونها إلى شعرهم الفصيح استطرافا . وقلما تُصَاغ صياغة فصيحة ، إذ تَطَّرد فيها

---

(١) انظر خزانة الأدب للحموى ص ٦ ، ١٧٦

العامية ، ومما يلقانا من طرائفها قول جوبان بن مسعود الدمشقي المتوفى فى حدود سنة ٦٨٠ للهجرة[١] :

أفارقُه وأول إنى قد اتْسلّيتْ وريحْت قلبى وزال الهم واتخَلّيتْ
واذكر مساويه فى حتى إذا وليّتْ وإذا رجعْ نِسيتِ الكلّ واتخَلّيت

والتورية واضحة فى كلمة « واتخلّيت » المكررة قافيةً للبيتين ، والأولى من التخلّى بمعنى أنه أصبح خاليا من الهم والغم ، والثانية كلمة عامية من الخلل ، تقول العامة أصابه خلل واختل عقله . ويريد أنه إذا لقى صاحبته أصابه ذهول ، فنسى كل ما كان فيه من فكر فيها وسلوى عنها وبُعْد عن الهم .

ونلتقى بمعاصره عز الدين بن السويدى المتوفى سنة ٦٩٠ وهو من سلالة سعد بن معاذ الأوسى سيد قومه الصحابى الجليل . وكان شيخ الأطباء بدمشق ، وكان – كما يقول بعض من ترجموا له – من أسرع الناس بديهة فى قول الشعر وأحسنهم إنشادا ، وله مواليا[٢] :

البدر والسَّعد ذا شِبْهك وذا نَجْمك والقدّ واللَّحْظ ذا رمحك وذا سَهْمك
والبغض والحب ذا قِسمى وذا قِسْمك والمسك والحسن ذا خالكْ وذا عَمك

فصاحبته تشبه البدر ونجمها أو حظها السعد ، وقدها مستو ممشوق مثل الرمح ولحظها فاتك قاتل مثل السهم ، والبغض قسمها ونصيبها والحب قسمه ونصيبه ، والمسك خال الحسن على وجنتيها والحسن يعم كل أعضائها وفى كلمة « عمّكَ » تورية واضحة . وله مواليا أخرى فكهة :

ذى قايله لاختها والقصد تُسمعنا ما النحو؟ قالت لها : نِحْنا بأجمعنا
الرفع والنصب نا وانتى ومن معنا للجر ، والزوج حرف جاء للمعنى

والدعابة للنحو والنحاة واضحة ، وكلمة نحنا هى نحن بالفصحى . ونظَم أصحاب المواليا فى جميع أغراض الشعر من غزل ومديح وهجاء وخمر وطبيعة ، واستغلَّها المتصوفة فنظموا مواليات كثيرة . ونلتقى فى ديوان عبد الغنى النابلسى بنحو ثمانين مواليا نكتفى منها بقوله[٣] :

---

(١) فوات الوفيات ١/٢١٨

(٢) راجع فى هذه المواليا وتاليتها المنهل الصافى لابن تغرى بردى ١/١٢٧

(٢) ديوان الحقائق للنابلسى ص ٢٦٨ .

الباطن السابق الظاهر هو المسبوق والكل واحد فكن أعلى من العيُّوق
واخرج عن الكل أنت الكل يامعتوق أما الجميع هو الخالق أو المخلوق

فليس فى الكون إلا وجود واحد هو وجود الله المتمثل فى جميع مخلوقاته ، أو بعبارة أخرى هى وحدة وجود تغمر الكون كله .

ومعروف أن القوما اخترعها المغنون والمنشدون ببغداد لإيقاظ الناس كى يتناولوا سحورهم استعدادا للصوم ، وكانوا يختتمون كل بيتين منها أو دور بكلمة « قوما للسحور » ومن هنا أخذت اسمها وشاعت فى البلدان العربية . أما الكان وكان فقد اخترع البغداديون وزنه لنظم الحكايات والخرافات وأحداث التاريخ ، ثم اتسعوا به فنظموا فيه المواعظ والزهديات والحكم كما مر بنا فى قسم مصر . ولابن الوردى المتوفى سنة ٧٤٩ منظومة [١] منه صور فيها أحداث وباء الطاعون الذى امتُحنت به الشام ومصر سنة وفاته . وفى ديوان عبدالغنى النابلسى منظومة صوفية منه فى عشرين [٢] بيتا تصور عقيدته فى وحدة الوجود . وحرى بنا أن نتحدث بكلمة مجملة عن أبى العلاء بن مقاتل الزجال .

أبو [٣] العلاء بن مقاتل

هو على بن مقاتل الحموى ولد سنة ٦٧٤ بحماة ، ويقول ابن حجر إنه « تعانى الأدب فتعلم الشعر قليلا ، وغلب عليه نظم الأزجال فاشتهر بها ، وأزجاله فى ديوان مفرد فى مجلدين.. وكان هذا الفن قد انتهى إليه فى زمنه .. وكانت وفاته فى أوائل سنة ٧٦١ » ويذكر ابن حجر أن له زجلا مشهورا فى الملك المؤيد صاحب حماة (٧١٠ – ٧٣٢) أنشده إياه وعنده ابن نباتة والصفى الحلى . وكان الصفى قد نزل حماة ومدح المؤيد وابنه الأفضل فى أواخر العقد الثانى وأوائل الثالث من القرن الثامن . ويشيد به ابن حجة الحموى فى خزانته قائلا : « وكان الشيخ علاء الدين بن مقاتل إذا ذكر الزجل كان ابن بَجْدته وأبا عُذْرته ، وممن سُلِّمت إليه مقاليد هذا الفن. وأورد الشيخ صلاح الدين الصفدى نبذة من غررَ أزجاله فى تذكرته وتاريخه تغنى عن الإكثار فى ترجمته » . وينشد الحموى زجله المشهور آنف الذكر وهو يستهله على هذا النمط :

---

(١) تتمة المختصر فى أخبار البشر لابن الوردى ٣٠٢/٢ .

(٢) ديوان الحقائق للنابلسى ص ٣٥٦ .

(٣) انظر فى أبى العلاء بن مقاتل وأزجاله خزانة الأدب للحموى ص ٤٧ ، ٥٠ ، ١٧٦ والدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر ٢٠٨/٣ وأنشد النواجى له فى كتابة عقود اللآل ستة أزجال (انظر الفهرس)

قلبى يحب تيَّاه ليس يعشق إلا إياه فازمن وقف وحيَّاه يرصد على مُحيَّاه
بَدْر السَّما لو يطبع من رام وصالُو يعْطُبْ
صغيّر يحيّر فى أمرو غزال قهر بسُمْرُو ليث الهوى ونمرو فاعجبْ لصغرعمرو
ريم ابن عشرٍ وأربع أرْدَى الأُسود وأرْعب
أذكر نهار تبعتو وروحى كنت بعتو وخَيَّب مافيه طمعتو فقال وقد سمعتو
ارجع ولالى تتبع أخشى عليك لتتعب
كم قدامو وخلفو مشيت مطيع لحلفو ورُمْت لَثْم كَفُّو قال دَعْ مُناك وكُفُّو
فإنّ لثم إصْبَعْ من الثريَّا أصعب

وبمجرد أن نسمع هذا الصوت نعرف أن صاحبه زجال مبدع لقدرته على اختيار الألفاظ بحيث يعانق بعضها بعضا منذ الدور الأول « فتيَّاه » تجذب إياه و « حيّاه » تجذب محياه ، وبالمثل « يطبع » فى القفل تجذب يعطب . وكأننا فى مرقص للألفاظ وبذلك يتسق النغم فى الزجل إتساقا بديعا ، وكأنه عطر للآذان تستروحه مع روعة التصاوير وخفتها ورشاقتها ، فصاحبته بدر فى السماء لاتصل إليه الأيدى ، وهى غزال تقهر بعينيها الكحيلتين أو السمراوين .. مع صغرها الليوثَ والنمور . وتهلكها وترعبها رعبا . ونصحتْه أن لا يتبعها ، فأمله فيها سراب كاذب . ويحاول لثم كفها أو أنملا من أناملها فتقول له الثرياوأخواتها من نجوم السماء أقرب لك . وهى صنعة زجلية رائعة منتهى الروعة . وقد تلاعب بالجناس المقلوب فى الأفعال تلاعبا يدل على مبلغ مهارته ، فيطبع تقابلها يعطب ، وأربع تقابلها أرعب ، وتتبع تقابلها تتعب وإصبع تقابلها أصعب . وبذلك كله يتحول الزجل باللغة اليومية العادية التى لاتحتوى فنا إلى لغة زجلية شجية النغم كأنها تغريد عندليب مع مايحمِّل العندليب أنغامه من تلاوين الصور والأخيلة ، وبحق يقول صاحب الخزانة عن هذا الزجل : « سارت به الركبان » . وأنشد له صاحب الخزانة زجلين آخرين بديعين .

الفصل الخامس

النثر وكتابه

١

الرسائل الديوانية

عرفت الشام الرسائل الديوانية منذ عهد معاوية أول خلفاء بنى أمية ، لما كان من اتخاذه لديوان الرسائل ، واتخذ معه ديوانا للخراج وديوانا ثانيا للخاتم [(١)] أو ختم الرسائل التى تصدر عنه إلى الولاة ، ويهمنا خاصة الديوان الأول : ديوان الرسائل ، إذ مضى معاوية ومن تلاه من الخلفاء الأمويين على اختيار من يقومون عليه ، بحيث يكونون فى الذروة من البيان والبلاغة لزمنهم ، وقد ظلوا طوال القرن الأول يختارونهم من العرب ، ويذكر الجهشيارى أثباتا طويلة بأسمائهم . أما ديوان الخراج فكان يقوم عليه كتاب من الموالى فأصبح كتابه من العرب ، وسرعان ماعُنى الكتاب الأجانب بتعلم العربية وأخذوا يشاركون فى ديوان الرسائل [(٢)] .

ومانصل إلى زمن الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك (١٠٤ – ١٢٤ هـ) حتى يصبح زمام ديوان الرسائل فى دمشق بيد مولى لهشام هو سالم [(٣)] ، وكان يتقن اليونانية ونقل عنها بعض رسائل لأرسطاليس [(٤)] ، ومعنى ذلك أنه كان مثقفا ثقافة عريضة بالعربية والإسلام واليونانية ، وعدَّه صاحب الفهرست أحد البلغاء العشرة الأول فى تاريخ العرب وأدبهم ويقول إن له رسائل تبلغ نحو مائة ورقة [(٥)] واحتفظ الطبرى برسالة له كتبها عن هشام إلى خالد القسرى ، وهى تحمل عناية واضحة بالأسلوب ومايوفره له من الازدواج والترادف الصوتى . وتبعه فى النهوض بالرسائل

---

(١) الوزراء والكتاب للجهشيارى (طبعة الحلبى) ص ٢٤ .

(٢) انظر فى ذلك الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ١٠٣ .

(٣) الجهشيارى ص ٦٢ .

(٤) الفهرست ص ١٧١ .

(٥) انظر الفهرست ص ١٧١ ، ١٨٢ .

السياسية تلميذان: أحدهما من بيته هو ابنه عبدالله، وثانيهما من غير بيته هو عبد الحميد الكاتب الذى انتهت إليه رياسة ديوان الرسائل فى أيام مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية، وهو أبلغ كتاب الدواوين وأشهرهم حتى زمنه، لبلاغته وقد ضُربت بها الأمثال، فقيل: «بُدئت الكتابة بعبد الحميد وخُتمت بابن العميد»[١] ويقول ابن النديم: «عنه أخذ المترسلون، ولطريقته لزموا، وهو الذى سهَّل سبيل البلاغة فى الترسل[٢]» ويقول المسعودى إنه «أول من استخدم التحميدات فى الكتب[٣]» واشتهر برسالة وجَّه بها إلى الكتاب، وهى تدل على نمو طائفتهم وأنهم أخذوا يشكِّلون فئة بارزة فى حياة الدولة والمجتمع، وفيها ينصحهم أن يلموا بالثقافة الإسلامية والعربية والأجنبية[٤]. وكان يعرف الفارسية، ويقول صاحب الصناعتين إنه استخرج أمثلة الكتابة التى رسمها لمن بعده من اللسان الفارسى فحوَّلها إلى اللسان العربى[٥]» وذكر الجاحظ أنه ترجم بعض كتب من الفارسية. وتحتفظ الكتب الأدبية ببعض رسائله السياسية، ومنها رسالة[٦] طويلة كتب بها عن لسان مروان بن محمد إلى ابنه وولى عهده عبد الله حين وجَّهه لمحاربة بعض الخوارج، وهى أشبه بكتيِّب يشتمل على دستور محكم لقواد الدولة يضع لهم نظاما دقيقا لجيوشهم وتدبير شئونها من الوجهتين المادية والحربية. وبمجرد أن تحولت الخلافة من الأمويين إلى العباسيين وحلت بغداد محل دمشق أصبحت هى والشام جميعه ولاية تابعة للعباسيين، ولم يعد لديوان الإنشاء كبير أمر فى عصر الولاة والطولونيين والإخشيديين، بل لقد تعطل تماما، ولم نعد نسمع لدمشق أو للشام بكاتب كبير، إذ تحولت الكتابة الديوانية وتحول معها ديوان الإنشاء إلى بغداد، وأصبحنا طوال القرون: الثانى والثالث والرابع مشدودين إلى ديوان بغداد وكتَّابه العظام، وأخذت الدولة الطولونية تعنى فى الفسطاط بهذا الديوان وظهر فيه ابن عبدكان وأضرابه، واستمر هذا النشاط زمن الإخشيديين ولكن شيئا منه لم يسقط إلى الشام، إذ كانت حينئذ ولاية تابعة للطولونيين والإخشيديين جميعا، وظل كثير من بلدانها تابعا لمصر فى زمن الدولة الفاطمية، ولم ينشأ حينئذ فى دمشق أو غيرها ديوان إنشاء ينهض الكتاب فيه بالكتابة الديوانية، حتى إذا أظلَّ دمشق حكم دولة الأتابكة البوريين (٤٩٧ – ٥٤٩ هـ) رأيناها تعنى

---

(١) اليتيمة للثعالبى (تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد) ١٥٤/٣ .

(٢) الفهرست ص ١٧٠ .

(٣) مروج الذهب للمسعودى (طبعة دار الرجاء) ١٧٨/٣

(٤) الجهشيارى ص ٧٣ وما بعدها

(٥) الصناعتين (طبعة الحلبى) ص ٦٩

(٦) صبح الأعشى للقلقشندى ١٩٥/١٠ وما بعدها .

بهذا الديوان ، ويشتهر ببلاغه الكتابة فيه كتاب مختلفون ، لعل أهمهم سنى الدولة[١] ابن أخى الشاعر ابن الخياط الذى ترجمنا له بين شعراء المديح ، ويذكر له العماد قطعا مختلفة من منشوراته وتقاليده ، من ذلك قوله فى منشور بالوزارة :

« لما كان محله عندنا خطيرا ، ومكانه لدنيا مكينًا أثيرا ، لاقرين يجاريه ، ولانظير يماثله ويُباريه ، ولا متطاول يطمع فى إدراك معاليه ، شددنا بركنه أركانها ، وسددنا به مكانها ، وعوَّلنا عليه فيها ، واستنهضناه لتوليها ، ورأيناه كُفأها وكافيها » .

وكتاباته على هذا النحو دائما مسجوعة سجعا فيه غير قليل من الرشاقة والعذوبة . وكتب بعده لسلاطين دمشق البوريين عبدالله بن أحمد الحميدى المعروف باسم ابن النقاد[٢] الكاتب الدمشقى ، وظل يكتب لهم إلى أن تملكها منهم نور الدين محمود ، وكتب له مدة يسيرة ، وتوفى سنة ثمان أوتسع وستين وخمسمائة ، ولم يذكر العماد شيئا من كتاباته .

ويُظِلُّ حلب ودمشق . وبلدان الشام الشمالية عهد نور الدين (٥٤١ - ٥٦٩ هـ) وكان وزيره ومستوفى دواوينه وكتابة الإنشاء فيها خالد بن محمد بن القيسرانى ، وهو ابن الشاعر المترجم له بين شعراء المديح ، ويقول العماد فيه : « كان نور الدين رفعه واصطنعه ، وبلغ منه مبلغا من الأمر كأنه أشركه فى الملك معه »[٣] ويذكر له ابن واصل توقيعا كتبه باسم نور الدين لرفع المكوس والضرائب الباهظة عن كاهل رعيته فى البلدان التى أظلها حكمه جاء فيه[٤] .

« وقد علمتم - معاشر الرعايا وفقكم الله ورعاكم - ما كان مرتبا من المظالم المجحفة بأحوالكم والمكوس المستولية على شطر أموالكم ، والرسوم المضيِّقة عليكم فى أرزاقكم ، والمؤن التى تساهمكم فى منافع أملاككم ، واستمرار ذلك عليكم إلى أن فوَّض الله - عزَّ وجَلَّ - لنا - تدبير أموالكم ، واسترعانا على كبيركم وصغيركم ، فأمرنا بإزالة ذلك عنكم أولا فأولا ، ولم نبتغ فى إقراره على وجوهه شُبْهة ولاتأولا » .

ويلى ذلك بيان بما أسقط نور الدين عن كل بلد من المكوس والضرائب . وكان من كتابه أبو اليسر[٥] شاكر بن عبد الله المعرى كاتب الإنشاء بدمشق ، واستعفاه من الخدمة سنة ٥٦٣

---

(١) انظر فى سنى الدولة الخريدة (بداية الشام) ص ٢٢٧ .

(٢) الخريدة (قسم الشام) ٣١٤/١ وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٢٧٧/٧ والنجوم الزاهرة ٦٥/٦ .

(٣) الخريدة ١٢٥/١ .

(٤) انظر مفرج الكروب لابن واصل ٢٧٠/١ وما بعدها .

(٥) الخريدة (قسم الشام) ٣٥/٢ وراجع فى أبى اليسر تعريف القدماء بأبى العلاء ص ٥٠٤ .

فأقام العماد الأصبهانى مقامه ، وأضاف إليه - كما هو معروف - التدريس فى مدرسته المعروفة باسم المدرسة النورية الشافعية . ووصله القاضى الفاضل بصلاح الدين فرسم باستكتابه فى ديوانه بالشام ، وسنفرد له ترجمة مجملة ، وهو أكبر كتاب الدولة الأيوبية فى دمشق والشام غيرَ منازَع . وتتحول الشام إلى إقطاعات بعد زمن صلاح الدين ، حتى ليوشك أن يكون لكل بلد أمير أيوبى ، ويتخذ كل أمير لنفسه كاتب رسائل نابه ، وكان بينهم غير مصرى مثل ابن النبيه كاتب الأشرف موسى ، وهو مشهور بين شعراء الغزل فى مصر ، ومثل عبد الرحيم بن على بن شيث المتوفى سنة ٦٢٥ صاحب ديوان الإنشاء للمعظم عيسى الأيوبى صاحب دمشق ، وله كتاب فى عمل الدواوين وتقاليد الكتابة الديوانية لزمن الدولة الأيوبية سماه « معالم الكتابة ومغانم الإصابة » وهو مطبوع قديما ببيروت ، وهو أحد مصادر كتاب صبح الأعشى للقلقشندى . ويكثر منذ هذه الدولة ودولة المماليك أن يعهد برياسة ديوان الإنشاء بمصر إلى من يظهرون تفوقا فى إسناد هذا الديوان إليهم بدمشق ، ونذكر منهم تاج الدين أحمد بن الأثير الحلبى المنشئ المتوفى سنة ٦٩١ للهجرة ، عمل فى ديوان الإنشاء بدمشق ، ثم انتقل منه إلى ديوان الإنشاء بالقاهرة فى عهد الظاهر بيبرس وقلاوون ، وظل يترقى إلى أن ولى كتابة السر ، ويقول ابن تغرى بردى : « لكلامه رونق وطلاوة » ويذكر من إنشائه كتابا عن قلاوون إلى صاحب اليمن بفتحه لطرابلس واستيلائه عليها من أيدى الصليبيين نوَّه فيه باستعلاء قلاوون على غيره من الحكام القاعدين عن منازلة حملة الصليب الغارقين فى اللهو ، يقول[1] :

« وكانت الخلفاء والملوك مافيهم إلا مَنْ هو مشغول بنفسه ، مكبٌّ على مجلس أنسه ، يرى السلامة غنيمة ، وإذا عَنَّ له وَصْف الحرب لم يسأل منها إلا عن طرق الهزيمة ، قد بلغ أمله من الرتبة وقنع من ملكه بالسِّكَّة والخطبة ، وأموال تُنْهب ، وممالك تذهب » .

ويريد بالسكة ضرب النقود ونقش أسمائهم عليها كما يريد بالخطبة دعاء خطباء المساجد لهم فى ختام خطابتهم يوم الجمعة . وتولى بعده كتابة السر فى القاهرة ابنه عماد الدين حتى توفى سنة ٦٩٩ وشغل مكانه أخوه علاء الدين على فى عهد محمد الناصر بن قلاوون .

وأكبر كتاب الشام الذين رأسوا ديوان الإنشاء بدمشق والقاهرة الشهاب محمود المتوفى سنة ٧٢٥ ، وقد مرت ترجمته بين شعراء المديح واحتفظ القلقشندى فى صبحه بنماذج كثيرة من رسائله

(١) النجوم الزاهرة ٣٢٣/٧ وراجع فى ترجمته ٣٤/٨

وتوقيعاته الديوانية ، وذكر هو نفسه منها طائفة فى كتابه « حسن التوسل إلى صناعة الترسل » وذكر ابن حجر عن الصفدى أن رسائله تدخل فى ثلاثين مجلدًا وأن بعض الفضلاء اختار منها مجلدين ، ومن قوله فى التهنئة بتقليد سيف[1] :

« وقلده مِنّنا : سيفا تلمع مخايل النصر من غِمْده ، وتشرق جواهر الفتح فى فِرِنْده ، وإذا سابق الأجل إلى النفوس عرف الأجل قدره فوقف عند حَدِّه ، ومتى جرده على ملك من ملوك العدا وهتْ عزائمه ، وعجز جناح جيشه أن تنهض به قوادمه ، وعُلم أنه سيفنا الذى على عاتق الملك الأعز نِجاده وفى يد جبار السموات قائمه » .

ومن كبار كتاب الشام الذين عملوا فيها وفى مصر فى دواوين الإنشاء صلاح الدين الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ وسنخصه بكلمة ، ومنهم ناصر الدين محمد بن محمد الحموى المعروف بابن البارزى المتوفى سنة ٨٢٣ تولى قضاء حماه ثم كتابة سرها وصحب السلطان المؤيد شيخ أيام نيابته بدمشق ، وقدم معه إلى مصر حين تسلطن عليها سنة ٨١٥ وعينه كاتب السر بها إلى أن توفى ، وقد احتفظ القلقشندى له بعهد عن الإمام المستعين (الخليفة العباسى المقيم بمصر حينئذ) للسلطان المؤيد شيخ ، وفيه يقول[2] :

« الحمد لله الذى جعل الدين بنصره مؤيدا ، وانتضاه لمصالح الملك والدين فأصبح ومن مرهفات عزمه بادئة بائدة العِدا ، وفتح على فقر الزمان بشيخ ملك زُويتْ له عوارف العدل ومعارف الفضل ، فاستغنى ولله الحمد — بسعيد السعدا ، وأصلح فساد الأحوال بأحكام رأيه وإحكام حكمه ، فأصبحت مأمونة الرِّداء ، آمنة من الرَّدى ، وامتنَّ على أولياء الدولة الشريفة بمن لم يزل سَهْمُ تدبيره الشريف فيهم مسدَّدا » .

وقدرة ابن البارزى الإنشائية تتضح فى هذه السطور ، إذ يطيل سجعاته وقد جعل الدال قوافيها جميعا ، وهو إنما يطيل سجعاته ليضيف إليها الجناس كما فى « بادئة وبائدة » و « أحكام وإحكام » و « الرِّداء : الثوب (كناية عن الأحوال) والرَّدى : الهلاك . ويفسح أيضا للسجع الداخلى فى السجعة مثل : « عوارف العدل ومعارف الفضل » .

---

(١) حسن التوسل إلى صناعة الترسل طبع المطبعة الوهبية ص ١٠٠ . والفرند السيف : لمعان صفحته . والقوادم : ريشات الطائر الكبار فى جناحه . ونجاد السيف : حمائله .

(٢) صبح الأعشى ١٢١/١٠ وانظر فى ترجمته النجوم الزاهرة ١٦١/١٤ .

وعيّن ابن البارزى فى ديوان الإنشاء أديبا مواطنا له هو ابن حجّة الحموى المتوفى سنة ٨٣٧ وسنفرد له كلمة قصيرة ، وخلف ابن البارزى فى كتابة السر ابنه كمال الدين ، وكان تارة يُعْزَل وتارة يعود إلى كتابة السر حتى وفاته سنة ٨٥٦ .

ووراء هؤلاء الكتاب الديوانيين الذين بلغ من نبوغهم فى الكتابة الديوانية أن نقلتهم الدولة إلى القاهرة فى ديوانها الكبير كتّاب كثيرون كانوا يكتبون لحكام البلدان الشامية ، وأهمهم كتّاب ديوان دمشق إذكان بها نائب السلطان ، وكان ديوانها لذلك أهم الدواوين الشامية ، ونذكر من كتّابها علاء الدين على بن محمد بن سلمان المعروف بابن غانم المتوفى سنة ٧٣٧ ومن نثره فى وصف قلعة [1] :

« لاترى العيونُ لبعد مرماها إلا شَزْرا ، ولاينظر سكانُها العدد الكثير إلا نَزْرا ، ولا يظن ناظرها إلا أنها طالعة بين النجوم بمالها من الأبراج ، ولها من الفرات خندق يحفّها كالبحر إلا أن هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج » .

ونذكر من أهم كتّاب السر فى دمشق أو بعبارة أخرى رؤساء ديوان الإنشاء بها حفيد تاج الدين بن الأثير المذكور آنفا ، وهو كمال الدين محمد بن إسماعيل ثم ابنه عبد الله ، تولّى كتابة السر بدمشق فترة وعُزل سنة ٧٦٤ وتولاها فتح [2] الدين بن الشهيد حتى توفى سنة ٧٩٣ وكان بارعا فى الشعر وكتابة الرسائل ، ونظم السيرة لابن هشام فى رجز بلغت عدته خمسين ألف بيت . ومنهم صدر الدين على بن محمد المعروف بابن الأدمى المتوفى سنة ٨١٦ ولى نظر جيش دمشق ، ثم كتابة سرها ثم قاضى قضاتها ، ونقله معه المؤيد شيخ حين أصبح سلطانا لمصر سنة ٨١٥ وجمع له بين القضاء والحسبة وفيه يقول صاحب النجوم الزاهرة : «كان إماما بارعا أديبا فصيحا ذكيا [3] » .

ومازالت الكتابة الديوانية مزدهرة بدمشق إلى أن استولى عليها العثمانيون سنة ٩٢٢ وأصبحت اللغة التركية اللغة الرسمية للدواوين فيها وفى غيرها من بلدان الشام . ونقف قليلا عند ثلاثة من كتابها النابهين .

---

(١) فوات الوفيات ١٥٩/٢ . النظر الشزر : المستهين ، فرات : حلو . أجاج : شديد الملوحة .

(٢) النجوم الزاهرة ١٢٥/١٢

(٣) النجوم الزاهرة ١٢٢/١٤

العماد[1] الأصبهانى

هو عماد الدين محمد بن محمد بن حامد ، ولد بأصبهان سنة ٥١٩ وقدم به أبوه إلى بغداد واستقرَّبها . وانتظم هو فى سلك المدرسة النظامية مع لداته من الناشئة ، وتفقه بها ، وثقف علوم العربية ، وعاد مع أبيه إلى أصبهان سنة ٥٥٢ ، ولم يلبث أن رجع إلى بغداد ، واتصل بوزيرها عون الدين بن هبيرة فولاه نظر البصرة ثم نظر واسط . وتوفى ابن هبيرة سنة ٥٦٠ وسُجن العماد فيمن سُجن من أتباعه ، ورُدَّت إليه حريته سريعا ، غير أنه لم يستطع أن يستردَّ مكانته ، ورأى أن يفارقها ، وولَّى وجهه نحو دمشق ، ونزلها سنة ٥٦٢ وكانت قد أصبحت تابعة لنور الدين محمود ، وقدَّمه قاضى دمشق كمال الدين بن الشهرزورى إلى أمير مهم من أمراء نور الدين هو نجم الدين أيوب ، فاكتسب حظوته وحظوة ابنه صلاح الدين ، ثم قدمه القاضى إلى نور الدين فأعجب به واتخذه صاحب سره ، وبعث به رسولا إلى الخليفة المستنجد ببغداد ، ونجح فى مهمته . وعاد ففوض إليه نور الدين سنة ٥٦٧ التدريس فى مدرسته النورية التى أنشأها بدمشق لدراسة الفقة الشافعى ، وقد سماها من أجله تكريما له المدرسة العمادية . ولم يلبث أن أضاف إليه رياسة ديوان الإنشاء . ولما توفى نور الدين سنة ٥٦٩ عزلت حاشية ابنه اسماعيل العماد من وظائفه ، فترك دمشق قاصدا بغداد ، ومرض فى طريقه إليها بالموصل ، وعلم أن صلاح الدين قدم من القاهرة إلى دمشق للاستيلاء عليها ، فعاد توًّا ، والتقى بصلاح الدين فى حمص ، وقدمه إليه وزيره القاضى الفاضل ، ورغَّبه فى إلحاقه معه بخدمته ، فاستكتبه صلاح الدين وظل يلزمه فى الشام ورحل معه ذات مرة إلى الديار المصرية . ولما توفى صلاح الدين سنة ٥٨٩ كتب من بعده لابنه نور الدين حاكم دمشق ، حتى إذا استوزر ضياء الدين بن الأثير استعفاه من عمله . وزار مصر حينئذ ، ثم عاد إلى دمشق ، فلزم داره يصنف ويؤلف حتى توفى سنة ٥٩٧ .

والعماد الأصبهانى أديب كبير : كاتب وشاعر ، وكان له ديوان كبير فى أربعة مجلدات وديوان صغير كله رباعيات ، وقد أنشدنا بعض شعره فى حديثنا عن شعراء المديح والرثاء ، وكان يجيد الفارسية

---

(١) انظر فى ترجمة العماد : معجم الأدباء ١١/١٨ وابن خلكان ١٤٧/٥ والروضتين فى مواضع مختلفة والجزء الثانى من مفرج الكروب لابن واصل وعبر الذهبى ٢٩٩/٤ والوافى بالوفيات ١٣٣/١ وطبقات الشافعية للسبكى ١٧٨/٦ والبداية والنهاية ٣٠/١٣ ومرآة الجنان ٤٩٢/٣ والشذرات ٣٣٢/٤ والجزء السادس من النجوم الزاهرة (انظر فهرسه) . وفى كتابيه : البرق الشامى والخريدة أخبار وأشعار كثيرة له .

لغة موطنه ، ومنها نقل كتاب كيمياء السعادة للإمام الغزالى . ومرَّ بنا فى حديثنا عن التاريخ وكتبه ذكر مؤلفاته التاريخية : كتاب البرق الشامى الذى وصف فيه أحداث حياته منذ انتقاله من العراق إلى دمشق وأثناء خدمته لنور الدين وصلاح الدين وفتوحاتهما وهو فى سبعة مجلدات ، وكتاب الفيح القسى فى الفتح القدسى فى وصف فتح صلاح الدين لبيت المقدس ، وكتاب نصرة الفطرة وعُصْرة القَطْرة فى تاريخ السلاجقة ووزرائهم . وذكرنا – فى غير هذا الموضع – أن الفتح البندارى اختصره باسم « زبدة النصرة ونخبة العصرة » وأنه طبع فى القاهرة باسم تاريخ دولة آل سلجوق . والكتاب الرابع كتاب خريدة القصر وجريدة العصر ، وهو فى شعراء القرن السادس من الأندلس إلى أواسط آسيا حتى تاريخ كتابته فى أوائل العقد الثامن من القرن السالف . وله وراء ذلك كتب تاريخية لم تصلنا منها كتاب العُتْبى والعُقْبى فى بيان الأحداث التى تلت وفاة صلاح الدين حتى سنة ٥٩٢ وكتاب نحلة الرحلة وصف فيه رحلته إلى مصر بعد وفاة صلاح الدين ، وكتاب خطفة البارق وعطفة الشارق فى ذكر أحداث من سنة ٥٩٣ حتى سنة وفاته . وقد عمم العماد فى كتاباته التاريخية السجع وبعض المحسنات البديعية وخاصة الجناس ، مما يدل – رغم مافيها من تكلف – على مهارة أدبية رائعة .

وكانت له رسائل ديوانية كثيرة تشغل المجلدات الضخام ، وكان كلما فتح صلاح الدين فتحا دَحَر فيه حَملة الصليب ومزَّقهم تمزيقا كتب بذلك إلى الخليفة ببغداد وإلى القائمين على البلدان من الحكام ، يبشر بالنصر المبين فى سبيل الدين . ونقتطف قطعة من كتاب عن صلاح الدين إلى الخليفة يخبره فيه بضم الموصل – بعد موت صاحبها غازى بن مودود – إلى دولته ومملكته ، يقول فيه العماد :

« لاخفاء أن مصر إقليم عظيم وبلد كريم ، أنقذها الله من عَبيد بنى عُبَيْد الفاطميين وأطلقها بمطلقات أعنَّتنا إليها من عناء كل قيد ، وفيها شيعة القوم ، وهم غير مأمونى السر إلى اليوم . وطوائف أقاليم الروم والفرنج بها مطيفة فمن حقها أن يتوافر عسكرها ، فلو حصل – والعياذ بالله – بها فتق لأعضل رَتْقه ، واتسع على الراقع خرقه ، واحتجنا لحفظ بلاد الشام وثغور الاسلام إلى استصحاب العسكر المصرى إليها ، وله خمس سنين فى بَيْكارها (حربها) منتقلا من كفارها متحملا لمشاقِّها على غلاء أسعارها » .

وقد جانس العماد فى أول القطعة بين « عَبيد وعُبَيْد » وبين « أطلقها ومطلقات » . وتدل القطعة دلالة واضحة على أن جيش صلاح الدين المدمر لحملة الصليب كان مصريا على الأقل فى

جمهوره الأكبر . ويذكر صاحب الروضتين كثرة ما كان يكتبه العماد من البشارات فى كل انتصار لصلاح الدين على حملة الصليب ، وما كان أكثر انتصاراته ، ويذكر أنه حين فتح بيت المقدس كتب العماد سبعين بشارة ، وكانت البشارات رسائل طويلة يصف العماد فيها المواقع وصفا تفصيليا . ويسوق المؤرخون بشارته بهذا الفتح العظيم التى كتب بها إلى الخليفة ببغداد ، وفيها يقول ، بعد إطنابه فى تحميدها وشكر الله على سابغ نعمائه على الإسلام والمسلمين .

« هذا الفتحُ العظيم ، والنُّجْحُ الكريم ، قد انقرضت الملوك الماضية ، والقرون الخالية ، على حَسْرةِ تمنّيه ، وحيرة ترجّيه ، ووحشة اليأس من تسنّيه (انفكاك عقدته) وتقاصرت عنه طوال الهمم ، وتخاذلت عن الانتصار له أملاك الأمم ، فالحمد لله الذى أعاد القدس (الشريعة) إلى المقدس ، وأعاذه من الرِّجْس ، وحقق من فتحة ما كان فى النفس ، وبدَّل وحشة الكفر فيه من الإسلام بالأنس ، وجعل عزَّ يومه ماحيًا ذُلَّ أمس ، وأسكنه الفقهاء والعلماء بعد الجهاد والضلال من البطرك والقَسِّ ، وعبدة الصليب ومستقبلى الشمس .. وأخرج من بيته المقدس يوم الجمعة أهل الأحد (يريد يوم الأحد) وقمع من كان يقول : إن الله ثالث ثلاثة بمن يقول هو الله أحد ، وأعان الله بإنزال الملائكة والروح ، وأتى بهذا النصر الممنوح ، الذى هو فتح الفتوح » .

والطباق كثير فى القطعة ، والجناس يُنْثر فيها من حين لآخر . وقد يُكثر منه فى بعض رسائله كثرة مفرطة ، بل هو أهم محسن بديعى أكثر من استخدامه ، وعابه الصفدى بهذا الإكثار ، متمثلا بقوله فى جواب مكاتبة :

« وقف الخادم على الكتاب وأفاض فى شكر فضل فَيْضه المستفيض ، وتبلَّج (إشراق) وجه وجاهته وتأرُّج (انتشار) نبأ نباهته ماعرَّفه من عَوارفه (فواضله) البيض » .

يقول الصفدى معقبا على هذه السجعة الطويلة وجناساتها الكثيرة : « انظر إلى قلق هذا التركيب وتعسُّفه فى هذا الترتيب » . ويقول السبكى معلقا على كلام الصفدى : « الأمر كما وصف ، ولقد مجّ سمعى فواتحُ أبواب كتاب خريدة القصر ، لما يكثر فيها من الجناس وردّ العجز على الصدر » . على أن الصفدى نفسه يلاحظ أنه « حين يخلو كلام العماد المسجوع فى رسائله وكتبه من الجناس الكثير يعذب فى السمع وقعه ، ويتسع فى الإحسان صُقْعه (جانبه) ويرشف اللُّبُّ مُدامه ، ويكون عند مَن له ذوقٌ أطيبَ من تغريد حمامه » .

الصَّفدى[1]

هو صلاح الدين خليل بن أيبك الصَّفدى ، ولد بصَفد فى فلسطين سنة ٦٩٦ وعُنى فى أول حياته بصناعة الرسم ، ثم اتجه إلى علوم الشريعة والعربية ، وتنقل بين دمشق والقاهرة يأخذهما عن كبار العلماء ، وأولع بالأدب . وكان أول ماولى من الأعمال كتابة الدَّرج بموطنه صَفد ، يكتب مايوقِّع به كبار الكتاب فى دواوينها لجودة خطه ، ثم انتقل إلى القاهرة وشغل نفس العمل بدواوينها . ومضى يختلف إلى حلقات العلماء والأدباء بها ، وتركها إلى دمشق ، وكان رئيس الديوان بها حينئذ الشهاب محمود إذ نُقل إليها من القاهرة منذ سنة ٧١٧ وأعجب بالشاب الصفدى . وعيَّنه فى كتابة الدَّسْت ، حتى يعاونه فى عمله ومايتصل به من إنشاء بعض الرسائل ، وانعقدت صلة وثيقة بينه وبين ابن نباتة ، وتخرج على يديه شاعرا ، كما تخرج على يدى الشهاب محمود كاتبا مجيدا . وتوفى الشهاب محمود سنة ٧٢٥ على نحو مامرَّ بنا فى ترجمته ، وظل الصفدى يعمل فى دواوين الشام ، وعُيِّن رئيسا لديوان الإنشاء بحلب وقتا ، وعاد إلى دمشق وإلى وظيفته بها فى كتابة الدَّسْت مساعدًا لرئيس ديوان الإنشاء بها وخاصة فى كتابة التواقيع والمراسيم الخاصة بتعيين القضاة وكبار الموظفين . وأضيفت إليه حينئذ وكالة بيت المال ، واستمر فى الوظيفتين إلى أن توفى بدمشق سنة ٧٦٤ وكان قد تصدى قبيل وفاته فى الجامع الأموى للتدريس ، وكان يحضر حلقة دروسه أحيانا بعض شيوخه مثل الذهبى وابن كثير .

ويقول صاحب النجوم الزاهرة : كان إماما بارعا كاتبا ناظما ناثرا شاعرا ، وديوان شعره مشهور بأيدى الناس وهو من المكثرين . ويقف الحموى فى خزانته مرارا ليذكر أن ابن نباتة لاحظ كثرة سرقاته لمعانى شعره وأنه ألف كتابا فى سرقاته منه سماه « خبز الشعير » يشير بذلك إلى أن عمله مذموم نفس مذمة خبز الشعير وأكله . وشعره فى جملته متوسط وهو يكثر فيه من التورية ، ومن طريف ماله قوله :

بسَـهْـم ألحاظِـهِ رمـانى   فذُبْتُ من هَجْره وبَيْنِهْ

---

(١) انظر فى الصفدى وترجمته النجوم الزاهرة ١٩/١١ والدرر الكامنة لابن حجر ١٧٦/٢ والبداية والنهاية لابن كثير ٣٠٣/١٤ وطبقات الشافعية للسبكى ٥/١٠ وما بعدها وشذرات الذهب لابن العماد ٢٠٠/٦ والبدر الطالع ٢٤٣/١ وخزانة الأدب ص ١٧ وفى مواضع متفرقة من صبح الأعشى وخاصة ٨٦/١٢ ، ٣٥١ .

إن متُّ مالى سواه خَصْمٌ فإنه قاتلى بعينِهْ

ويعد من أكبر المصنفين فى التراجم والأدب والبديع والنقد ، وعلى رأس مصنفاته فى التراجم كتاب الوافى بالوفيات ، وهو فى نحو ثلاثين مجلدا ، ونشرت طائفة من أجزائه . واستخلص منه مع إضافات جديدة كتابه « أعوان النصر وأعيان العصر » من الأدباء والشعراء وهو فى ستة مجلدات ، وفى دار الكتب المصرية منه مجلدات متفرقة . وألف فى مشاهير المكفوفين كتابه : نكْت الهِميْان فى نكت العميان ، وهو منشور . وله التذكرة الصفدية وهى مختارات أدبية وكتاب تشنيف السمع فى انسكاب الدمع : دمع المحبين والعشاق ، وله فى المحسنات البديعية كتاب فض الختام عن التورية والاستخدام وكتاب جنان الجناس ، وله فى النقد نصرة الثائر (وهو ابن أبى الحديد) على المثل السائر لابن الأثير ، والغيث المسجم فى شرح لامية العجم ، وهو شرح ملىء بالملاحظات النقدية ، وبه دفاع بديع عن ابن سناء الملك إزاء مااتهمه به خصومه من استخدام بعض الألفاظ العامية ، وشَرَحَ رسالة ابن زيدون الجدية بشرح سماه « تمام المتون » . وله وراء ذلك كتب أخرى سقطت من يد الزمن ، كما أن له بعض مقامات ، ويقال إنه كتب وصنَّف مئين من المجلدات وخلَّف كثيرا من الرسائل بينها مجموع باسم ألحان السواجع فى مجلدين سجل فيه الرسائل المتبادلة بينه وبين أدباء عصره .

وكانت رسائل الصفدى الديوانية تشغل مجلدات كثيرة ، ولم يحتفظ منها القلقشندى إلا برسائل قليلة ، من ذلك توقيع لأمين الملك ومدبر شئون دمشق من أمن وضرائب وأوقاف وغير أوقاف ، وله يقول باسم صاحب الأمر :

« لما كانت دمشق فى الدنيا أنموذج الجنَّة التى وُعد بها المتقون ، ومثال النعيم للذين عند ربهم يُرْزَقون ، وهى زهرة ملكنا ودُرَّة سلكنا .. تعيَّن أن ننتدب لها من جرَّبناه بعدًا وقربا ، وهززناه مثقَّفًا[١] وسَلَلْناه عَضْبا [٢] وخبَأناه فى خزائن فكرنا فكان أشرف مايُدَّخر ، وأعزَّ مايُخبَأ ، كم نهى فى الأيام وأمر ، وكم شد أزرًا لما وزر ، وكم غنيتْ به أيامنا عن الشمس ولياليها عن القمر ، وكم علا ذُرَى رُتَب تعزّ على الكواكب الثابتة فضلا عمن يتنقّل فى المباشرات [٣] من البشر ، وكم كانت الأموال جُمادى [٤] فأعادها ربيعا غرَّد به طائر الإقبال وصفر . فليتلقَّ هذه الولاية بالعزم الذى نعهده ، والحزم الذى شاهدناه ونشهده ، والتدبير الذى يعترف الصواب له

---

(١) مثقفا : سيفا مصقولا
(٢) عضبا : قاطعا .
(٣) المباشرات : الأعمال
(٤) جمادى : بريد قليلة

ولا يجحده ، حتى يثمِّر الأموال فى أوراق الحُسَّاب ، وتزيد نموا وسموا فتفوق الأمواج فى البحار وتفوت القطر من السحاب » .

وواضح مافى السجعة الأولى من اقتباس لبعض ألفاظ القرآن الكريم ، ويلتمس الصفدى بعض صور الطباق والجناس ولكن دون إسراف ، كما يلتمس بعض الاستعارات ، ويبدو فيها غير قليل من التكلف ، كما يبدو التكلف أحيانا فى اجتلاب السجعات . ومن توقيعاته توقيع كتب به لكاتب السر بدمشق : ناصر الدين محمد بن يعقوب بالتدريس فى المدرسة الناصرية الجوانية جاء فيه :

« إن مدارس العلم الشريف لها الذكر الخالد والشرف الطارف والتالد [١] بها تتبين فوارس الجلاد فى مضايق الجدال ، وتتجلى بدور الكلام فى مطالع الكمال ، وتبدو شموس الجمال فما لها من فسيح المجال . والمدرسة الناصرية – أثاب الله تعالى واقفها – هى الواسطة فى عقودها . والدرة الثمينة بلاكُفْء لها بين قَيِّمٍ نقودها ، قد تدبَّج فيها البناء وتأرَّج عليها [٢] الثناء ، وتخرَّج عنها الحسن فإن له بها مزيد اعتناء .. فلذلك رُسم بالأمر العالى أن يعاد إلى تدريسها لأن العود أمدح وأحمد ، والرجوع الى الحق أسعف وأسعد » .

وواقع مافى التوقيع على هذا النحو من التصنع للجناس المقلوب فى مثل « جلاد وجدال » و « كلام وكمال » و « جمال ومجال » و « أمدح وأحمد » و « أسعف وأسعد » كل ذلك ليقع من نفس رئيس ديوان الإنشاء موقعا حسنا . ولم يكن الصفدى يتكلف دائما مثل هذه الكلف فى جناساته ، بل هى تأتى عنده نادرة إذ كان حسبه أن يأتى بالجناسات الطبيعية دون هذه المشقة فى التكلف . وكثير من جوانب توقيعاته سلس سائغ . وكان محببا إلى أهل زمنه حسن المعاشرة جميل المودة .

---

(١) الطارف والتالد : الحادث والقديم .

(٢) تأرَّج عليها : عطَّرها .

ابن حِجّة[1] الحموى

هو تقى الدين أبو بكر بن على بن عبد الله المعروف بابن حِجّة الحموى ، ولد بحماة سنة ٧٦٧ ونشأ بها ، ودرس على شيوخها وأساتذتها ، وأخذ عنهم فنونا من العلم والأدب ، وارتحل إلى دمشق والقاهرة يتزود من حلقات علمائها وأدبائها . وانعقدت صلات كثيرة بينه وبين بعض أدباء مصر من مثل ابن مكانس الذى مرت ترجمته ، وعاد إلى دمشق وأخذ يتردد بينها وبين القاهرة ، ويبدو أنه عمل فى دواوين حماة ثم دمشق حين كان يتولى ابن البارزى مواطنه كتابة السر بهما ، وكانت قد توثقت علاقة ابن البارزى بالمؤيد شيخ حين أصبح نائبا لسلطان مصر بدمشق ، فلما استدعى إلى مصر لتولى السلطنة اصطحبه معه واتخذه كاتب سره كما مر بنا ، واصطحب ابن البارزى معه ابن حجة وولاه كتابة الإنشاء بالقاهرة سنة ٨١٥ فبلغ ذروة مجده الأدبى ، وظل قائما على هذا العمل طوال حياة ابن البارزى وحكم المؤيد شيخ (٨١٥ - ٨٢٤ هـ) وظل كاتبا للإنشاء بعده عاما وأشهرا وشهد حينذاك تحول السلطة من الملك المظفر ابن المؤيد إلى الملك الظاهر ططر فابنه الملك الصالح وتولى السلطان برسباى سنة ٨٢٥ وتوقف أمره ، فعاد سريعا إلى موطنه حماة ، وظل بها مكبًّا على التصنيف والتأليف حتى توفى سنة ٨٣٧ هـ .

واشتهر بقصيدته : البديعية فى المديح النبوى وما حمَّل أبياتها من محسنات البديع لزمنه ، وهى فى مائة واثنين وأربعين بيتا وكل بيت يحمل محسنا من تلك المحسنات . وشرحها شرحا مطولا ، متوسعا فى سرد الشواهد الشعرية والنثرية الكتابية مع مالا يكاد يحصى من ملاحظات على استخدام الشعراء للمحسنات البديعية ، بحيث أصبح الشرح - كما سماه - خزانة أدب . وتعد مرجعا أساسيا للشعر والشعراء فى زمن الأيوبيين والمماليك حتى أيامه . وله فى البديع كتاب كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام . وله كتاب أدب طريف سماه « ثمرات الأوراق » طبع مرارا يعرض فيه مختارات نثرية وشعرية وكثيرا من المحاضرات والمساجلات ، مع الإلمام ببعض القواعد المهمة التى ينبغى ان تراعى فى الكتابة الديوانية ، ومع الإلمام أيضا ببعض رسائل القاضى الفاضل وابن نباته وأيضا ببعض رسائله . والكتاب فى مجموعة أشبه بكتب المحاضرات والنوادر . واختصر بعض

---

(١) انظر فى ابن حجة وترجمته وشعره ونثره كتابه خزانة الأدب فى مواضع كثيرة ، والبدر الطالع للشوكانى ١٦٤/١ والضوء اللامع للسخاوى ٢٧٧/٦ والروض العاطر للنعانى ٢٨٩/٢ وشذرات الذهب لابن العماد ٢١٩/٧ والنجوم الزاهرة ١٨٩/١٥ .

الأعمال ، من ذلك اختصاره للصادح والباغم لابن الهبارية بإشارة من ابن البارزى سنة ٨١٣ كما ذكر فى الخزانة بباب إرسال المثل ، وسمى مختصره تغريد الصادح وصدّره من نظمه بأبيات تقوم مقام الديباجة . وله كتب متعددة مذكورة فى كتاب البدر الطالع سقطت من يد الزمن . وله مقامة سنعرض لها فى غير هذا الموضع ، وكان شاعرا ، كما كان كاتبا ، وأنشد فى الخزانة كثيرا من شعره ، ويقول الشوكانى : « قد يأتى فى نظمه بما هو حسن وبما هو فى غاية الركة والتكلف .. ونثره أحسن من نظمه » . وفى الخزانة رسائل كثيرة له ، وخاصة فى أبواب براعة الاستهلال والسجع وحسن الختام . وفى « ثمرات الأوراق » كما أسلفنا - بعض رسائله ، وجمع ما أنشأه أولا بالشام ثم ماأنشأه فى عهد المؤيد ثم فى عهد الملوك المظفر والظاهر ططر والصالح فى كتاب سماه « قهوة الإنشاء » فى مجلدين ، ومنه مخطوطة فى دار الكتب المصرية ، وفى الدار أيضا كتاب له محفوظ باسم تأهيل الغريب يشتمل على كثير من رسائله ومكاتباته مع الأدباء ، ونقتطف قطعة من بشارة له بوفاء النيل كتبها سنة ٨١٩ عن الملك المؤيد شيخ :

« ونُبدى لعلمه الكريم ظهور آية النيل الذى عاملنا الله فيه بالحُسنى وزيادة ، وأجراه لنا فى طرق الوفاء على أجمل عادة .. دقَّ قفا السودان فالرايةُ البيضاء من كل قِلْع [١] عليه ، وقبّل ثغور الإسلام وأرشفها ريقَه الحلو فمالت غصونها إليه .. وحَضَنَ مشتهى الروضة فى صدره وحنَا عليها حنُو المرضعات على الفطيم :

وأرشفنا على ظمإٍ زُلالاً ألذَّ من المدامةِ للنديمِ

وراق مَديد بحره لما انتظمت عليه تلك الأبيات ، وسقى الأرض سلافته الخمرية فخدمته بحلو النبات ، وأدخله إلى جنات النخيل والأعناب فالق النَّوى والحبّ ، فأرضع فى أحشاء الأرض جنين النبت وأحيا له أمهات العصف والأبّ .. ونسى الزهر بحلاوة لقائه مرارة النَّوى ، وهامت به مخدَّرات [٢] الأشجار فأرختْ ضفائر فروعها عليه من شدة الهوى .. ودارت دوائره على وجنات الدهر عاطفة ، وثَقلت أرداف أمواجه على خصور الجوارى واضطربت كالخائفة » .

والسجع فيه عذوبة ودلالة واضحة على طواعيه قوافيه لابن حجة ، وأنه كان كاتبا مجيدا إن لم يكن بارعا ، وأطال السجعات ليحمِّلها مايريد من التوريات ، وهى كثيرة فى القطعة ، ومانمضى فيها حتى يذكر مديد النيل أو امتداده والمديد من بحور الشعر ، يستغل ذلك فى التورية بكلمة

(١) يريد قلع السفن وشراعها

(٢) المخدَّرات : النساء يلزمن بيوتهن احتجابا عن الرجال . والاستعارة واضحة

الأبيات فلايريد أبيات الشعر إنما يريد الدور والمساكن . واختار أمهات العصف ، وهو ورق الشجر والزرع مما تأكله الأنعام ليجلب كلمة الأب مورِّيا بها فهو لا يريد الأبَّ الحقيقى كما يظن من ذكر الأمهات ، وإنما يريد الأب بمعنى العشب أخذا من قوله تعالى : (وفاكهةً وأبًّا متاعا لكم ولأنعامكم) واختار مع حلاوة اللقاء مرارة النوى ، وهو لايريد نوى التمر الحقيقى وإنما يريد النوى بمعنى البعد لأن وفاء النيل وفيضانه يكون من عام إلى عام ، وبالمثل يمكن أن يكون فى كلمة الهوى تورية لأن لها معنيين : العشق والريح ، وأيضا فى كلمة الجوارى تورية إذ لايريد الجوارى الحقيقيات مع مايوشح لها من ذكر الخصور وإنما يريد السفن الجارية . وكان تعيين كبار موظفى الدولة من وزراء وقضاة وغير قضاة يصحبه تقليد بتعيينهم فى شكل رسالة مطولة يكتبها منشئ الديوان ، ولابن حجة تقليد طويل كتبه لجلال الدين البلقينى الشافعى بقضاء القضاة وفيه يقول مصورا علمه :

« هو أبو العلماء الذى ولِّد من الأم أفراحهم ، وأبو المهات الذى شَهَر من العُدَّة الكاملة فى ميدان الفرسان سلاحهم ، وإليه انتهت الغاية فإنه مابرح يأتينا فى وجيز تقريبه بالعجاب ، ويغنينا عن موضح القشيرى فإنه يغذينا فى إبانته باللباب .. وقد وقع التمويه فى الفروق بينه وبين الغير عند أهل التبصرة والهداية ، وهو نهاية المطلب وعيون المسائل وتاج رءوسها والمذهب الذى تهذيبه فى أدب القاضى كفاية ، وهو البحر الذى مادخلنا بسيطه المبسوط إلا قالت التورية إنه فى البسيط كامل ، ولانظرنا إلى حليته الجلالية إلا غنينا عن المصباح بنوره الشامل » .

والقطعة مليئة بتوريات عن أمهات الفقه الشافعى ، وقد بدأها فى السجعة الأولى بذكر كتاب الأم للإمام الشافعى ، وتلاه بالإشارة إلى كتاب الغاية فى اختصار النهاية للعز بن عبد السلام ، والنهاية هى نهاية المطلب فى دراسة المذهب لإمام الحرمين الجوينى ، وأشار معه فى نفس السجعة إلى وجيز الإمام الغزالى وتقريب القفَّال الشاشى ، ثم ذكر اللُّباب وهو لباب الألباب للآمدى فى علم الأصول ، وأضاف إليه الإبانة مشيرا إلى كتاب الإبانة فى فقه الشافعية للفورانى ، ولم يلبث أن أشار إلى التبصرة لأبى إسحاق الشيرازى ونهاية المطلب المذكورة آنفا والمذهب لأبى شامة المقدسى والتهذيب للبغوى وأدب القاضى للماوردى والبسيط للغزالى والشامل لإمام الحرمين الجوينى . وقد بلغ ابن حجة من دقة الصنعة أن من يقرأ الإشارة إلى هذه الكتب وغيرها مما جاء فى التقليد لايتنبه إليها إلا بعد رويَّة وتأمل فيما ابتغاه عنها من توريات .

٢

الرسائل الشخصية

مرَّ بنا أن الشام هى التى وضعت التقاليد الأولى للكتابة الديوانية بحكم أتخاذ الأمويين دمشق حاضرة للدولة الاسلامية الضخمة الممتدة من أواسط آسيا إلى مشارف البرانس ، وتهيأ لها حينئذ من كبار الكتاب من لاتزال أسماؤهم تتردد على الألسنة مثل سالم مولى هشام ، وعبد الحميد الكاتب وله رسائل شخصية بديعة(١) تتداولها كتب الأدب تتميز بأسلوبها الجزل الناصع مع السلاسة والعذوبة ومع ماعُرف به من إحكام الترادف حتى يروع الآذان كما يروع الأذهان . ومن البلغاء الذين اشتهروا بروعة كتاباتهم فى القرن الثانى الهجرى وأوائل الثالث العَتّابى كلثوم بن عمرو ، وله بدوره – رسائل شخصية(٢) تموج بالتصاوير ودقائق الأفكار مع حسن التعبير وجمال الصياغة . وكان السجع منذ القرن الرابع أخذ يشيع فى الرسائل الديوانية ، فشاع فى الرسائل الشخصية لسبب طبيعى هو أن أكثر كتابها كانوا من كتاب الدواوين ، وقد أصبح السجع ديدنهم ولغتهم فى كتاباتهم فعمَّموه فى رسائلهم الشخصية . ولعل كاتبا فى بلاط سيف الدولة الحمدانى لم يشتهر بالكتابة كما اشتهر أبو الفرج عبد (٣) الواحد بن نصر المعروف بلقبه « البَبَّغاء » المتوفى سنة ٣٩٨ للهجرة وكان شاعرا مبدعا وكاتبا بارعا ، وفى كتاباته يقول الثعالبى « نثره مستوف أقسام العذوبة وشروط الحلاوة والسهولة » ويتضح ذلك فيما روى الثعالبى من رسائله كقوله مثنيًا ، مطريا .

« شهابُ ذكاء ، وطَوْد وفاء ، وكعبة فضل ، وغمامة بذل ، وحُسام حق ، ولسان صدق ، فالليالى بأفعاله مشرقة ، والأقدار لخوفه مطرقة ، تحمده أولياؤه ، وتشهد له بالفضل أعداؤه » .
وقوله : « من كان جميل رأى سيدنا عُدَّتَه ، أمن من الدهر شدته ، ومن فَزِعَ إلى إحسانه ، استظهر على زمانه ، ومن توجه برغبته إليه ، لم تقدم الأيام عليه » .

---

(١) انظر جمهرة رسائل العرب لأحمد زكى صفوت (طبع ونشر مكتبة مصطفى البابى الحلبى) ٤٣٤/٢ وفى مواضع متفرقة .

(٢) جمهرة رسائل العرب ٤٧٤/٣ وما بعدها .

(٣) انظر ترجمته ورسائله فى اليتيمة ٢٣٦/١ وما بعدها ، وراجع ترجمته فى تاريخ بغداد ١١/١١ والمنتظم ٢٤١/٧ وعبر الذهبى ٦٨/٣ وابن خلكان ١٩٩/٣ .

(١) رسائل أبي العلاء

لأبي العلاء رسائل أدبية مشهورة مثل رسالة الغفران ورسالة الملائكة ، وله بجانب ذلك رسائل شخصية كثيرة ، عُنيت بطبعها المطبعة الأدبية ببيروت لأواخر القرن الماضي سنة ١٨٩٤ وطبعها مرجليوث فى أكسفورد بعد ذلك بأربع سنوات ، وحققها الدكتور عبد الكريم خليفة ونشرها بعمان فى الأردن سنة ١٩٧٦ وقد بلغت عنده ٤٢ رسالة . وأولاها رسالة المَنِيح وهو القِدْح الثامن من قِداح الميسر التى ليس لها نصيب فى القمار ، وكأنه كنى به عن نفسه فى تلك الرسالة التى وجَّه بها إلى أبى القاسم الحسين بن على المغربى ردًّا على رسالة أرسل بها أبو القاسم إليه . ونراه يستهل رسالته بقوله :

« إن كان للآداب – أطال الله بقاء سيدنا – نسيم يتضوَّع [١] ، وللذكاء نار تشرق وتلمع ، فقد فَغَمنا [٢] على بُعْد الدار أَرَجُ [٣] أدبه ، ومحا الليل عنا ذكاؤه بتلهُّبه ، وخوَّل [٤] الأسماع شُنوفا [٥] غير ذاهبة ، وأطلع فى سويداوات القلوب كواكب ليست بغاربة ، وذلك أنا – معشر أهل هذه البلدة – وُهب لنا شرف عَظيم ، وأُلقى إلينا كتاب كريم ، صدر عن حضرة السيد الحَبْر [٦] ، ومالك أعنة النظم والنثر ، قراءته نُسْك ، وختامه بل سائره مِسْك ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون . جَلَّ [٧] عن التقبيل فظلاله المقبَّلة ، ونُزِّه أن يبتذل فنسخة المبتذلة ، وإنه عندنا لكتاب عزيز . ولولا الإلاحة [٨] ، على ماضمن من الملاحة ، والخشيةُ على دُجَى مداده من التوزُّع ، ونهار معانيه من التشتت والتقطع ، لعكفت عليه الأفواه باللَّثم ، والمَوارن [٩] بالانتشاء [١٠] والشَّمّ ، حتى تصير سطوره لمَّى [١١] فى الشفاه ، وخيلانا على مواضع السجود من الجباه ، ولولا ماحظره الدين من القمار لضربنا عليه بالسبعة الفائزة ، والثلاثة التى ليست لحظٍّ

---

(١) يتضوع : يفوح .

(٢) فغمنا : ملأ أنوفنا .

(٣) أرج : شذى

(٤) خول : أعطى .

(٥) شنوفا : أقراطا

(٦) الحبر : العالم

(٧) جل : تنزه

(٨) الالاحة : الاشفاق

(٩) الموارن : الأنوف .

(١٠) الانتشاء : شم الطيب ونحوه .

(١١) اللمى : سمرة حسنة فى الشفة .

بالجائزة .. فيا شرفه من صَكٌّ بالفخر ، يَبْجَحُ به على النُّظَراء جِيرِيَّ[١] الدهر ، موشّحًا بكل شَذْرة أعذب من سُلاف العنقود ، وأحسن من الدينار المنقود ، فجاء كلوائح البروق ، أو يوحَ[٢] عند الشروق » .

وإذا مضينا بعد ذلك فى قراءة رسالة المنيح – وهى طويلة – أخذت أمواج الألفاظ الغريبة تتوالى ، حتى ليصعب على أى عالم لغوى أن يمضى فيها دون أن يعود إلى المعاجم يستبين منها مايقرأ لا من حين إلى آخر ، بل مع كل سجعة ، بل مع غير لفظ فى كل سجعة ، وكأنما كان يطلبه طلبا فى سجعاته ، أوكأنما كان يعده زينة ينبغى أن لاتخلو منه سجعة . وهو لذلك يملأ الرسالة بالألفاظ الغريبة المبعدة فى الإغراب مما قرأه فى الشعر القديم وفى كتب اللغة ، ولا يهمه أن تكون الكلمة مما دُوِّنَ فى المعاجم ، بل لعله كان يطلب ذلك استكمالا لغرابتها ، ومن هنا تصبح قراءته صعبة إلى أقصى حدود الصعوبة . ولم يكن يكتفى بذلك فى بعض رسائله ، فقد كان يضيف صعوبة ثانية هى حشد ألفاظ المصطلحات العلمية وخاصة مصطلحات العلوم اللغوية على نحو مانقرأ فى رسالته المعروفة برسالة الإغريض وهو ماينشق عنه الطلع من الحبيبات ، والرسالة موجهة أيضا إلى أبى القاسم المغربى وفيها يقول :

« حرس الله سيدنا حتى تُدْغم الطاء فى الهاء ، فتلك حراسة بغير انتهاء .. وهما فى الجهر والهمس ، بمنزلة غَدٍ وأمس ، وجعل الله رتبته التى هى كالفاعل والمبتدأ ، نظير الفعل فى أنها لاتنخفض أبدا ، فقد جعلنى إن حضرت عُرِف شانى ، وإن غبت لم يُجْهَل مكانى ، كيا فى النداء ، والمحذوف من الابتداء ، إذا قلت زيدُ أقبلْ ، والإبلُ الإبل ، بعد ماكنت كهاء الوقف ، إن أُلقيتْ فبواجب ، وإن ذُكرت فغير لازب[٣] ، إنى وإن غدوتُ فى زمن كثير الدَّدِ[٤] كهاء العدد ، لزمت المذكر فأتتْ بالمنكر ، مع إلْفٍ يرانى فى الأصل كألف الوصل ، وتكون تارة حرف لين ، وتارة مثل الصامت[٥] الرصين ، فهى لاتثبت على طريقة ، ولاتُدْرَكُ لها صورة فى الحقيقة »

وهو يدعو لأبى القاسم أن تظل تحرسه عناية الله إلى أبد الآبدين أوكما يقول إلى أن تدغم الطاء

---

(١) يبجح : يفخر . جيرى الدهر : أبد الدهر .
(٢) يوح : اسم الشمس .
(٣) لازب : لازم .
(٤) الدد : اللهو واللعب .
(٥) الحروف المحققة مما سوى حروف اللين والمد .

فى الهاء وهى لاتدغم فيها أبدا ، إذ الطاء حرف مجهور الصوت - كما يقول - والهاء حرف مهموس لايكد صوته يبين ، فهما من طبيعتين مختلفتين ولذلك لايدَّغمان أبدا ولايتحدان كالأمس والغد . ويدعو أبو العلاء له أن تصبح رتبته أرفع الرتب فى الدولة ، كرتبة الفاعل والمبتدأ فى النحو ، إذهما بسبب رفعهما فى أعلى الرتب . ويدعو له أن لايلحقه خفض فى رتبته كالفعل لايلحقه خفض ولاجرٌّ أبدا . ويقول إن أبا القاسم جعله معروفا رفيع الشأن حضر أو غاب مثل ياء النداء فكانها محفوظ ذكرت مع المنادى أولم تذكر ، ومثلها المبتدأ ذكر أو حذف فكانه محفوظ ، فتقول : محمد أى يا محمد ، وتقول كتاب الأدب أى هذا كتاب الأدب . ويقول إنه كان قبل أن يضعه أبو القاسم فى منزلته الرفيعة كالهاء التى تلحق ببعض الكلمات فى الوقف ، مثل : لِمَ تقول فيها لمه ، فهى تطرح وتذكر دون أن يكون لها شأن فى الكلمة . ويقول إنه كان يشعر بنبو مكانه على نحو مايلاحظ فى هاء العدد أوتاته من ثلاثة إلى عشرة ، فإنها تلحق عددها مع المذكر وتطرح مع المؤنث ، وكان القياس فى العربية العكس . ولايكتفى بذلك فيقول إنه كان كألف الوصل مع أصحابه ، تذكر حين الابتداء بالساكن وتسقط فى درج الكلام . ويقول إن حاله كانت مثل الهمزة تبدل أحيانا عينا فى لغة تميم ، فيقولون فى أن عَنْ ، وقد تنطق بين الهمزة المحققة وأختها المسهلة أوكما يقول « بين بين » وقد تسهَّل تماما فتصبح حرف لين مثل سال فى سأل ، وقد تحقق وخاصة فى أول الكلمات فلا تسهَّل مثل أمر ، فهى كما يقول أبو العلاء لاتثبت فى العربية على طريقة .

وأبو العلاء بذلك يصعِّب نثره على قارئه ، بحيث لايستطيع قراءته وفهمه إلا العالم اللغوى لكثرة الألفاظ الغريبة فيه ، وليس ذلك فحسب ، فإن هذه القطعة فى الرسالة لايستطيع أن يفهمها إلا من عرف مصطلحات علمى النحو والصرف ، وقد مضى فى الرسالة يستظهر مصطلحات علم التجويد والقراءات وعلم العروض وتلاحين الموسيقى ومصطلحات علم الفلك مع معارف كثيرة عن الخيل والحيوان . وله مناظرة طويلة بين الصاهل والشاحج أو بين الفرس والبغل ، وهو كتاب نفيس نشرته بنت الشاطئ بدار المعارف . وتتكاثر فى الرسالة المعارف عن المرأة وحليها ولابأس من إيداعها شيئا من التاريخ . وكل ذلك يصعِّبها : سجع وأوابد لفظية وأوابد أو مصطلحات علمية ومعارف شتى . وكأنما استأثرت بالشطر الأكبر من هذا كله الرسالة الإغريضية . وتقل المصطلحات العلمية فى بقية رسائله غير أنه لايزال يستظهرها فيها من حين إلى حين ، ومرجع ذلك إلى أنه كان يكتب برسائله إلى علماء فى عصره ، فكان يسوق إليهم هذه

المصطلحات تصويرًا لمهارته البيانية. وتحفل الرسائل بنقد خلقى واجتماعى وسياسى وأدبى ، وأكثرها فى الثناء على من يكتب إليهم ، وبينها رسائل شفاعة وتهنئة وتعزية وشوق ، وتكتظ بسجعات بديعة كقوله فى فواتح رسالة كتب بها من بغداد إلى خاله أبى طاهر المشرَّف بن سُبَيْكة الحلبى :

« شوقى إلى سيدى الشيخ شوقُ البلاد المُمْحلة ، إلى السحابة المُسْحلة [١] ، وانتفاعى بقربه انتفاع الأرض الأريضة ، بالأمواه الغريضة [٢] ، وتشوُّفى لأخباره تشوُّفَ راعى أنعام [٣] أجدب فى عام بعد عام ، لبارق [٤] يمان ، هَوْلُه مرتقب مُهان [٥] . وأسفى لفقده أسف وَحْشِيَّة [٦] ، رادت [٧] بالعشيَّة ، فخالفها السِّرحانُ إلى طَلاً [٨] راد فحار [٩] فهى تطوف حول أميل [١٠] ، وترى صبرها ليس بجميل . وتذكرى لأوقاته تذكر الفطيم ثدْى الوالدة ، والمقسم بالملح لبنى خالدة وانتظارى لقدومه انتظار تاجر مكة وَفدَ [١١] الأعاجم ، وربُّ الماشية ظهورَ النَّبْت الناجم [١٢] » .

وبدون ريب تُعَدُّ رسائل أبى العلاء الشخصية فى الذروة من البلاغة ، وهو دائما يُعْنى فيها بالسجع إلا قليلا ، وقد يلتزم فيه مالا يلزم كما فى هذه القطعة ، فإن السجعتين فيها تتفقان لافى الحرف الأخير فحسب المقابل للروى فى الشعر ، بل فى حرفين أو ثلاثة حروف ، ودائما نلتقى فى رسائله بالألفاظ الآبدة الممعنة فى الغرابة وإن لم تمعن فيها بهذه القطعة . وهو يستغل فى سجعاته معارفه الكثيرة التاريخية وغير التاريخية على نحو مايلقانا فى هذه القطعة من إشارته إلى أن العرب كانوا يتعاقدون ويتعاهدون على الملح ، وذكر عهدًا لهم أقسموا فيه بالملح لبنى خالدة وهى خالدة بنت أرقم أم كردم وكريدم ابنى شعبة الفزاريين . والجناس الناقص مثل : « الممحلة والمسحلة » واضح فى القطعة ، وكان يوشى سجعاته به وبغيره من محسنات البديع وخاصة الطباق والتصاوير .

---

(١) المسحلة : الممطرة

(٢) الأريضة : الطيبة . الغريضة : المبكرة

(٣) الأنعام : الابل .

(٤) البارق : السحاب يلمع فيه البرق ، وجعله يمنيا حتى لايخلف مطره

(٥) مهان : متطاول

(٦) يريد بقرة وحشيه

(٧) رادت : ذهبت تطلب الكلأ

(٨) الطلا : ولد البقر . السرحان : الذئب

(٩) حارهنا : تحير

(١٠) أميل : كثيب عال

(١١) يريد : قدوم وفود الحجيج الأجانب

(١٢) الناجم : الذى لاساق له

(ب) رسائل متنوعة

طبيعى أن تكثر الكتابات الشخصية على ألسنة الأدباء ، شاكرين صنيعا أو مهنئين على منصب كبير أو معاتبين أو مثنين مادحين أو معتذرين أو مستعطفين أو معزين عن خطب ألمَّ بأصدقائهم أو فى فقيد عزيز ، وتارة يؤبّنون وتارة يبكون وقد خنقتهم العبرات . وكثيرا ما كانوا يتراسلون ، من ذلك مراسلات الطّغرائى الشاعر الكاتب والغَزّى إبراهيم بن عثمان الذى مرت ترجمته بين الشعراء ، ويقول العماد الأصبهانى : «كانت بينهما مكاتبات مفيدة وبينهما لنسب الفضل المودَّة الوكيدة» ويسوق العماد للغزى رسالة اعتذار كتب بها إلى صاحبه جاء فيها [(١)] :

لسان الحسود – أدام الله أيام المجلس السامى دام ساميا ، ولبَيْضة المجد حاميا – إذا علق بعِرْض الكرام كان كالنار فى المندلىّ[(٢)] ، يبوح بسرِّ طيِّه الخفىّ .. فإن وقع من السفهاء إفك فداعيته ما ظَهر لهم من انمائه ، وانتساب مُزْنته إلى سمائه» .

وانتخاب الغزى لألفاظه واضح ، فهو يجيد الكتابة كما يجيد الشعر ، وهو يعنى فيها بالتصاوير ، وكان خصب الخيال ، ومرت بنا فى ترجمته روائع طريفة من أشعاره . وكان ابن منير الطرابلسى الذى ترجمنا له بين الشعراء نزح عن دمشق إلى قلعة شَيْزر فى الشمال خوفا من ابن الصوف وزير حاكمها آبق ، وحاول صديق له هو زين الدين بن حليم أن يسترجعه إلى دمشق فكتب إليه يستدعيه ، وأجابه ابن منير برسالة طويلة معتذرا يقول فيها [(٣)] :

«إن جراحى إلى الآن لم تذق حلاوةَ الاندمال ، وقُروحها تزداد قَرْحا مع الحلِّ والتَّرحال ، وبين جوانحى من الأين[(٤)] ، لما لقيتُ بدمشق من الغَبْن ، مالا يحلُّه إلا عَقْدُ الكفن ، ولا يرفع حَدثه إلا التيممُ بصعيد[(٥)] المدفن . ويلقاك فلان وفلان من كل ذى خَلْق دَميم[(٦)] ، وخلق ذميم ، وأصل لئيم ، وفرع زَنيم[(٧)] ، ووجه لَطيم ، وقفًا كليم[(٨)] ، وهلم جرّا من عذاب أليم ، وصِراط فى الود غير مستقيم» .

ولغة ابن منير لغة أدبية بديعة ، وكما كان شاعرا بارعا كان كاتبا بارعا ، تواتيه الكلمة وتنزل فى

---

(١) الخريدة (قسم الشام) ٢٧/١

(٢) المندلىّ : عود الطيب

(٣) الخريدة (قسم الشام) ٩٢/١

(٤) الأين : العناء .

(٥) الصعيد : التراب

(٦) دميم : قبيح . ذميم : مذموم

(٧) زنيم : دعىّ

(٨) كليم : جريح

مواقعها ومستقرها من السجع الرائع الذى لاتطول عباراته ، فإذا الكلمات وكأنها تتلاقى وتتعانق لجمالها فى الجرس وحسن الأداء . ويورد العماد فى الخريدة مراسلة بين القاضى الفاضل وزير صلاح الدين وكاتبه وبين أسامة بن منقذ ، ويذكر أولا كتاب القاضى الفاضل ثم يذكر جواب أسامة ، وله يقول من رسالة طويلة مادحا مثنيا على بلاغته ، متحدثا عنه بضمير الغيبة(١) :

« ماعسى أن يقول مطريه ومادحُه والفضل نُغْبة من بحره الزاخر ، وقطرةٌ من سحابه الماطر ، تفرَّد به فما له فيه من نظير ، وسبق من تقدَّمه فى زمانه الأخير ، فتق عن البلاغة أكمامًا تزينت الدنيا منها بالأعاجيب ، وأتى بآياتِ فصاحةٍ كادت أن تُتْلى فى المحاريب ، إذا استُنْطقتْ ازدحمتْ عليها العقول والأسماع ، ووقع على الإقرار بإعجازها الاتفاق والإجماع . . هو سحر لكنه حلال ، ودُرٌّ إلا أن بحره حُلْوٌ سلسال » .

ونمضى إلى أيام المماليك ويلقانا الشهاب محمود رئيس ديوان إنشائهم فى دمشق والقاهرة وقد ترجمنا له بين شعراء المديح ، وله — كما أسلفنا — كتاب فى رسوم الكتابة الديوانية ، وبه كثير من رسائله الرسمية ، وبعض رسائله الشخصية أو الإخوانية ، سماه « حسن التوسل إلى صناعة الترسل » وله بجانبه كتاب ثان سقط من يد الزمن سماه « زهر الربيع فى الترسل البديع » وعنه ينقل كثيرا القلقشندى فى الجزء التاسع من صبحه ، ومما نقله عنه رسالة فى التهنئة بعيد الأضحى جاء فيها(٢) :

« جعله الله أبركَ الأعياد وأسعدها وأيمنَ الأيام وأمجدَها ، وأجملَ الأوقات وألذَّها وأرْغَدها ولابرح مسرورا مستبشرا ، منصورًا على الأعداء مقتدرا ، مسعودا محمودا ، معانا بملائكة السماء معضودًا ، مهنًّأ بالسعود الجديدة والجدود السعيدة ، والقوة والناصر ، والعمر الطويل الوافر . . ألبسه الله من السعادة أجمل حُلَّة ، ومنحه من المكارم أحسن خَلَّة » .

وكان الشهاب محمود يعنى بتزيين سجعاته بمحسنات البديع وألوانه الزاهية من جناس وغير جناس ، وكان يشغف شغفا شديدا بصور الجناس المعكوس كما نرى فى قوله : « مهنًّأ بالسعود الجديدة والجدود السعيدة » .

ونلتقى بعمر بن الوردى وكان شاعرا وأديبا كاتبا ، وله تعزية بوفاة الفقيه الشافعى شرف الدين البارزى المتوفى سنة ٧٣٨ ، وفيها يقول (٣) :

(١) الخريدة (قسم الشام) ٥٤١/١
(٢) صبح الأعشى ٤٦/٩
(٣) انظر ديوان عمر بن الوردى ، طبع الجوائب فى مجموعة سنة ١٣٠٠هـ ص ١٦٣

« بلغني انهدادُ الطود الشامخ ، وزوالُ الجبل الراسخ ، الذي بكته السماء والأرض ، وقابلت فيه المكروهَ بالندب وذلك فرض ، فشَرِقَتْ[١] أجفان المملوك بالدموع ، وأُحْرِق قلبه بين الضلوع ، فالعلوم تبكيه ، والمحاسن تعزَّى فيه ، والأقلام تمشى على الرءوس لفقده ، والمصنفات تلبس حداد المداد من بعده . . ولاخاصَّ إلا حزن قلبه ، ولعامّ إلا طار لُبُّه » .

وكان يجنح فى نثره وشعره إلى استخدام المصطلحات العلمية ، وقد تصنع فى هذه القطعة القصيرة لحشد المصطلحات الفقهية : المكروه والندب والفرض ، وأيضا فإنه كان يعنى بجلب صور مختلفة من التوريات ، وواضح أنه ورَّى هنا بالمصطلح الفقهى : الندب عن معناه الحقيق وهو بكاء المتوفى وتعداد محاسنه . وجعل الأقلام تمشى على رءوسها حزنا وهى فعلا تمشى على رءوسها أو بعبارة أخرى تكتب برءوسها ، فاستغل ذلك فى تعزيته .

ولابن حجة الحموى رسالة يصف فيها سِكِّينا أهداها إليه بعض أصدقائه جاء فيها قوله[٢] :

« المملوك يُنْهى وصول السكِّين التى قطع بها أوصال الجَفا ، وأضافها إلى الأدوية فحصل بها البُرْءُ والشفا ، وتالله ماغابت إلا وصلت الأقلام من تقشيرها إلى الحَفا . . ماشاهدها موسى إلا سجد فى محراب النِّصاب[٣] ، وذلَّ بعد أن خضعت له الرءوس والرِّقاب . . أَنْمُلة صبح تقمَّعت بسواد الدجى ، فعوَّذتُها بِـ (الضحى والليل إذا سَجَا) . . تَطْرِف بأشعتها الباهرة عين الشمس ، وبإقامتها الحدَّ حافظت الأقلام على مواظبة الخمس » .

والتكلف واضح فى القطعة ، فقد ذكر الجفا أى البعد ، وفكر فى سجعة معه فجاء بالشفا والحفا وأصله رقة الخف ويريد المبالغة فى تشذيب الأقلام ، وكل ذلك تكلف ، ولم يلبث أن جنح إلى التورية بموسى الرسول لما ذكر معه من السجود والمحراب عن موسى الحلاَّق . وكان نصاب السكين أسود فحاول أن يستغل ذلك ليقتبس فاتحة سورة الضحى ، وعاد إلى التورية بإقامة الحد على الجناة وهو يريد إقامة حد السكين ، وورى أيضا بمواظبة الخمس إذ لايريد المعنى المتبادر من مواظبة الصلوات الخمس ، إنما يريد مواظبة الأصابع الخمس على الكتابة بتلك الأقلام .

ونمضى إلى أيام العثمانيين ونظل نقرأ رسائل شخصية متعددة فى تراجم الأدباء ، من ذلك قول مرعى الكرمى المتوفى سنة ١٠٣٣ للهجرة فى معاتبة[٤] :

---

(١) شرقت : غصَّت .

(٢) خزانة الأدب للحموى ص ٢٥ ، ٥٢٧

(٣) نصاب السكين : مقبضها

(٤) نفحة الريحانة للمحبى ٢٤٧/١

« الصديقُ لفظ على الألسنة موجود ، ومعناه فى الحقيقة مفقود ، فهو كالكبريت الأحمر ، يُذكَر ولا يُبْصَر ، أوكالعنقاء والغول ، لفظ يوجد بلا مدلول . وهذه شيم غالب أبناء الزمان ، من الأخلاء والإخوان ، فثلهم . . كلمع السراب ، المستحيل فيه الشراب ، أوكالخيال الذى يبدو فى المنام ، وهو فى الحقيقة أضغاث أحلام » .

ويسوق المحبى فى نفحة الريحانة رسائل مختلفة لأبيه وجدِّه ، منها رسالة هزلية لأبيه كتب بها على لسان فرس إلى مفت بالقسطنطينية . وانعقدت صداقة وثيقة بين المحبى وبين عبد الغنى النابلسى الصوفى ، وله يقول متوددًا مثنيًا مشيدًا بنسكه وتصوفه وسلوكه الروحى [1] :

« مولاى الذى سار فى بروج الفضل مسير الشمس ، وقامت فضائله فى جسم العالم مقام الحواسِّ الخمس ، لازال فى السكون والحركة ، مرافق اليمن والبركة ، يفرح به كل قطر بنازله ، كأنه البدر والدنيا مَنازله ، ومن شايعه مسعودٌ يومه وغده ، وله من العيش أهناه وأرغده . أنا شعبة من دَوْحتك [2] ، وغصن من سَرْحتك [3] ، بل نَبْتٌ سقته أياديك ، وزهر تفتح بما أفاضته غواديك » [4] .

ويطبع نثر الرسائل الشخصية حينئذ بنفس الطوابع التى رأيناها فى أيام المماليك ، فهو يعتمد دائما على السجع ، ويوشى بالبديع ومحسناته .

٣

المقامات

كان لبديع الزمان الهمذانى فضل السبق الى استحداث فن المقامات فى العربية ، وقد بناه على أقاصيص تصور حياة أديب متسول لايزال يحتال على سامعيه بعباراته المسجوعة الرشيقة كى يسبغوا عليه شيئا من عطائهم يعينه على سدِّ حاجاته فى الحياة . وجعل له راوية يتابعه ويقص حكاياته وأخباره من بلدة إلى أخرى . وتبعه الحريرى فأوفى بهذا الفن على الغاية ، سواء من حيث جمال القَصِّ فيه أو من حيث جمال الحوار بين الراوى والأديب المتسول أو بين الأديب وبين من يعرض عليهم أفانين بلاغته . وطبيعى أن لاتعرف الشام — مثل بقية البلدان العربية — المقامات قبل بديع

---

(١) نفحة الريحانة ٢/١٣٩

(٢) الدوحة : الشجرة الكبيرة المتشعبة

(٣) السرحة : الشجرة الطويلة العظيمة

(٤) الغوادى : السحب

الزمان ، بل أيضا قبل الحريرى المتوفى سنة ٥١٦ للهجرة ، ويبدو أنها ظلت طويلا لاتعرفها أو على الأقل لاتحاول محاكاة الحريرى وبديع الزمان فيها ، وكأنما اشتغالها بالحروب الصليبية ثم المغولية حتى منتصف القرن السابع الهجرى ألهاها عن هذا الفن ، حتى إذا أخذت الأحوال السياسية تستقر فيها لأيام المماليك وجدناها تعنى به ، وتلقانا نماذج متنوعة من هذه العناية منذ النصف الثانى من القرن السابع ، وهى نماذج تختلف عن صورة المقامات عند بديع الزمان والحريرى ، إذ لاتعتمد مثلها على أديب متسول وقصّ احتيالاته الأدبية قَصًّا حواريا ، إنما تعتمد على الوصف أو المناظرة بين بعض الأشخاص أو بين بعض الأزهار أو بعض الثمار ، وقد تعنى بالوعظ أو بعرض بعض المسائل فى العلوم المختلفة ، من ذلك مقامة فى المفاخرة بين التوت والمشمش لتاج الدين بن عبيد الصرخدى المدرس بالمدرسة النورية بدمشق المتوفى بعد سنة ٦٧٠ ومن ذلك أيضا مقامة فى مصر والنيل والروضة لمحمد بن عبد الرحمن بن قُرْناص الحموى المتوفى حوالى سنة ٦٧٢ . وتلقانا مقامة للشاب الظريف محمد بن عفيف الدين التلمسانى الذى ترجمنا له بين شعراء الغزل سماها مقامة أو مقامات العشاق ، وفيها يصور شغفه باللهو والتنزه فى الرياض ولقاءه فيها ذات مرة لعاشقين وكيف حاورهما حوارًا طريفًا ، وهو يفتتحها على هذا النمط[1] :

« لم أزل مذ بلغت سن التمييز ، أتولَّع بنظم الأراجيز ، ومذ شبَّ عمرى عن الطَّوْق ، مُغْرى بالغرام والتَّوْق ، وأهيم بالشَّمول[2] والشمائل ، وأشرب فى زجاجة صفراء كالأصائل ، وأقدم على رشف ثغور البيض .. وأتنزه فى كل ناد وواد .. فخرجت بعض الأيام إلى الغياض[3] ، ووَلجت[4] بين حياض ورياض » .

ويذكر صاحب فوات الوفيات للشهاب محمود الذى مرت ترجمته بين الشعراء مقامة تسمى مقامة[5] العشاق ، ولعله حاكى بها مقامة الشاب الظريف . ولعمر بن الوردى المتوفى سنة ٧٤٩ أكثر من مقامة . وسنخصه بترجمة قصيرة ، وللصفدى معاصره الذى مرت ترجمته مقامة سماها « رَشْف الرَّحيق فى وصف الحريق » وصف فيها حريق دمشق الذى أتى على كثير من أحيائها وأسواقها وعمائرها لسنة ٧٤٠ ومن قوله فى تلك المقامة الملتاعة[6] :

---

(١) انظر المقامة ملحقة بديوان التلعفرى (طبع المطبعة الأدبية ببيروت) .

(٢) الشمول : الخمر .

(٣) الغياض : أماكن الشجر الملتف

(٤) ولج : دخل

(٥) فوات الوفيات لابن شاكر ٥٦٥/٢

(٦) الجزء الأول من مسالك الأبصار (طبع دار الكتب المصرية) ٢٠١/١

« سألت عن الخبر ، ممن غبر ، فقال إن الحريق وقع قريبا من الجامع ، وأنظر إلى شبح الجو كيف انتشرت فيه عَقائقُ[١] اللهب اللامع ، فبادرت إلى صَحْنه والناس فيه قطعة لحم ، والقلوب ذائبة بتلك النار كما يذوب الشحم ، ورأيت النار وقد نشرتْ فى حداد الظلام مُعَصْفرات[٢] ذوائبها ، وصعدت إلى السماء عَذَباتُ ذوائبها . وعلت فى الجو كأنها أعلام ملائكة النصر ، وكان الواقف فى الميدان يراها وهى (ترمى بشررٍ كالقصر) ، فكم زمر أضحت لذلك الدخان جاثية ، وكم نفس كانت فى النازعات وهى تتلو (هل أتاك حديث الغاشية) ولم تزل النار تأكل مايليها وتفنى مايَسْفلها ويعتليها » .

وواضح فى سجعاته طلبه للجناس . فهو يجانس بين الخبر وغبر ، والجامع واللامع ، واللحم والشحم ، ويمضى فى مثل هذه الجناسات الناقصة ، واشتهر لزمنه بالتصنع الشديد للجناس . وجعلته عنايته بالجناس يستخدم كلمة ذوائبها مرة من الذوبان جمعًا لذائب ومرة بمعنى مقدم الشعر فى الرأس جمع ذؤابة وجعله هذا المعنى يتصنع لذكر العذبات وهى أطراف العمائم التى تطرح عليها ، وتكلف أشد التكلف حين ذكر ملائكة النصر مع هذا الحريق الذى ابتُليت به دمشق وأهلها بلاء عظيما . وإنما أغراه به محاولته اقتباس الآية القرآنية (ترمى بشرر كالقصر) وهى فى وصف جهنم ومايتصاعد من شررها ووقودها كالقصر فى ارتفاع بنائه وعلوه الشاهق . وقد مضى يتصنع لذكر طائفة من أسماء السو ، فذكر (الزمر) أى الجماعات و (الدخان) و (الجاثية) من الجثو وهو الجلوس على الركب من شدة الهول ، كما ذكر (النازعات) والآية الأولى فى سورة (الغاشية) والغاشية القيامة .

وواضح أن المقامة أشبه برسالة اتخذت موضوعا لها وصف حريق دمشق ، وأكثر المقامات حينئذ كانت على هذه الشاكلة ينقصها القَصّ والحوار ، وكأنها تختص بموضوع أدبى تعالجه . وغلب عليها ذلك أيضا فى أيام العثمانيين ونلتقى فى نفحة الريحانة للمحبى بمقامة سميت بالمقامة الربيعية لعبد الرحمن بن محمد الدمشقى من بنى النقيب ، وفيها تتوالى تشبيهات الزهور والطيور على هذا النحو [٣] .

« نَرْجِسٌ نَعْته الفتور ، وورد كأنما انتزع من أوجه الحُور .

---

(١) عقائق : جمع عقيق وهو حجر كريم أحمر شبه به الصفدى اللهب

(٢) معصفرات : مصبوغة بالعصفر ، وهو صبغ أصفر

(٣) نفحة الريحانة ٣٥/٢

وشَقيقٌ كأنه أقداح العقيق[١] ، قد رسب بقرارتها مِسْكٌ فَتيق
وآذَرْيون [٢] كأنه مداهن عَسْجدٍ ، على سواعد زبرجد
وسوسن كبياض السوالف ، أو جياد [٣] الوصائف
وقَرَنْفلٌ كأنما توقَّد بالجَمْر ، وانعقد من الخمر »

ويظل طويلا فى وصف الأزهار ، ويخرج منها إلى وصف الأطيار ، بمثل هذه الأسجاع المليئة بالتشبيهات والاستعارات .

وروى المحبى لعبد الغنى النابلسى الصوفى الذى مرت ترجمته مقامة وصف فيها نزهة مع صديق عثرا فيها على قصر عالى البنيان فدخلاه ، يقول[٤] :

« فصعدنا إلى قصر مَشيد[٥] ، مزخرف الجوانب بألوان الأطلية وأنواع الشِّيد[٦] ، فيه الغرف الرفيعة ذات التزيين ، والمقاصير المصنوعة لقاصرات[٧] الطَّرْف عِين . قد طلَّت شبابيكه على تلك الأرجاء الموفقة ، والجداول المتدفقة ، وأرضه مفروشة بأفخر الوشى والديباج ، وقد أُطلقت فيه مَباخرُ الطيب فزاد فى الابتهاج .. فجلست أنا وصاحبى على تلك الأرائك الممنوعة[٨] ، والفرش المرفوعة ، نتناشد الأشعار ، ونتشبَّث بأذيال الأفكار » .

ويلقاه هو وصاحبه رفيق ، فيسأله أين كنت ؟ ومن أين توجهت ؟ ومايلبث أن يقول له : « ما ذلك القصر الموصوف سوى جُبّتى هذه وثوبى هذا الصوف ، والشبابيك جيوبه وأطواقه ، ولا عجب أن نَفَحْت فيه مباخر الطيب فإنها قراطيسه وأوراقه » . وكأن كل مافى المقامة رموز صوفية جلاها عبد الغنى النابلسى فى تصاوير الرياض والقصر وتهاويله . وحرى بنا أن نقف قليلا عند ابن الوردىّ أهم كتَّاب المقامة الشاميين .

---

(١) العقيق : حجر كريم أحمر . فتيق : فائح .
(٢) الآذريون : زهر شديد الصفرة . والعسجد : الذهب
(٣) جياد هنا : جمع جيد أى عنق .
(٤) نفحة الريحانة ١٥٢/٢ وما بعدها
(٥) مشيد : عال مرتفع .
(٦) الشيد : كلّ ماطُلى به البناء من جصٍّ وغيره
(٧) قاصرات الطرف : خجلات حييات . عين : جميلات واسعات الأعين .
(٨) الأرائك : مقاعد منجدة.الممنوعة : أى عن الناس

ابن[1] الوردى

هو زين الدين عمر بن المظفر المعروف بابن الوردى ، ولد فى المعرة بلدة ابى العلاء سنة ٦٨٩ وبها نشأ ودرس على شيوخها ، ويقول ابن حجر فى الدرر : بل نشأ بحلب وهى حاضرة إقليم المعرة ، وخاصة على قاضيها وفقيهها ومفتيها الشافعى شرف الدين البارزى . وتنقل فى بلاد الشام يأخذ عن شيوخها ، وعُرف فضله فى الفقه والفتوى ، فولاه ابن الزَّمْلكانى قاضى قضاة الشام قضاء حلب ، وكان شاعرا . وله فى ابن الزملكانى مدائح كثيرة ، اعترافا منه بصنيعه . ورأى ابن الزملكانى فيما بعد عزله عن حلب وتوليته قضاء منبج ، فامتعض ابن الوردى لنفسه أن يعزل عن حلب ويولَّى قضاء بلدة صغيرة من بلدان إقليمها ، وعبثا حاول أن يسترضيه وأن يرده إلى حلب ، فاعتزل القضاء وعاش للتأليف ونظم الشعر وصوغ النثر حتى توفى سنة ٧٤٩ . وله مؤلفات علمية مختلفة شعرا ونثرا ، فقد نظم كتاب الحاوى فى الفقه الشافعى فى منظومة بلغت أكثر من خمسة آلاف بيت ، وله مصنفات لغوية ونحوية ، منها شرح على ألفية ابن مالك وآخر على ألفية ابن معطى . وهو معدود فى شعراء القرن الثامن النابهين ، ويقول ابن شاكر : « أجاد فى المنثور والمنظوم ، فنظمه جيد إلى الغاية وفضله بلغ النهاية » . وديوانه كبير وهو مطبوع فى الآستانة من قديم ، وله بعض رباعيات وبعض موشحات ، أنشد منها السبكى فى ترجمته ، وله خمس مقامات ، ورسائل كثيرة منشورة مع ديوانه ، وفى رأينا أن نثره أروع من شعره ، ولذلك اخترنا أن نتحدث عن أبدع ماله من كتابات أدبية ، ونقصد مقاماته .

وأولى المقامات فى الديوان المقامة الصوفية ، ومنها يُجْرى ابن الوردى حوارا بين مواطن له من المعرة سافر إلى بيت المقدس وبين عشرة من الصوفية فى مقدمتهم شيخ كبير ، وكانوا يتبادلون فيما بينهم أحاديث وكلمات صوفية رمزية ، وأشركوا معهم فى الحديث هذا الوافد المعرى ، وأخذ يسألهم عن أحوالهم ورموزهم وإشاراتهم وتقصير ثيابهم وعاداتهم والشيخ يجيب . وأحيانا ينتقد صوفية زمنه وأنهم لايتبعون المنهج السديد لأسلافهم حتى ليقول : « إن المتصوفة اليوم أصحاب

(١) انظر فى ابن الوردى وترجمته طبقات الشافعية للسبكى ٣٧٣/١٠ والدرر الكامنة لابن حجر ٢٧٢/٣ وفوات الوفيات ٢٢٩/٢ والنجوم الزاهرة ٢٤٠/١٠ والبدر الطالع ٥١٤/١ والشذرات ١٦١/٦ وديوانه ومعه مقاماته ورسائله مطبوع فى الآستانة سنة ١٣٠٠ للهجرة .

أكل وشرب ونوم ، يروون الأقوال ولايتبعون الأفعال ، وافقوا أسلافهم ملبسًا ، وخالفوهم أنفسا » . والمقامة طريفة فى عرضها لأحوال الصوفية فى تلك الأيام ، وحرى بنا أن نذكر فاتحتها لنقف على أسلوب ابن الوردى فى مقاماته ، يقول(١) :

« حكى إنسان ، من معرَّة النعمان ، قال : سافرت إلى القدس الشريف ، سفر منكر بعد التعريف ، فاجتزت فى الطريق بواد وقانا لفحة الرَّمضاء(٢) ، وقال : حكمتَ على الوادى الذى تروع حصاه حالية العَذارى فقلنا دائم الحكم والإمضاء ، وإذا عين كعين الخنساء تجرى على صخر ، ويقول ماؤها أنا سيد مياه هذا الوادى ولافخر ، فروَّيت كبدَ صادٍ(٣) من تلك العين ، ولكن نُغِّص منظرها الحسن بذكر ظمأ الحسين » .

وقد تصنع ابن الوردى فى أول مقامته لمصطلح التعريف والتنكير فى النحو ، ولم يلبث أن اقتبس فى وصف الوادى ألفاظ بيتين مشهورين من الشعر فى وصف واد للمَنازى معاصر أبى العلاء إذ يقول

وقانا لفحةَ الرَّمضاءِ وادٍ سقاه مضاعَفُ الغيثِ العَميمِ
تروع حَصاه حاليةَ العَذارى فتلمسُ جانب العقد النظيمِ

واشتهرت الخنساء بكثرة بكائها على أخيها صخر فاستغلَّ ابن الوردى ذلك فى التورية عن هذه العين الحقيقية التى تجرى مياهها على الصخر ، ويقول إن منظرها الحسن ذكره بحادثة الحسين ومقتله فى كربلاء وطلبه الماء من أعدائه ومنعه عنه وروحه تصعد إلى بارئها . ولم نمض فى قراءة المقامة لنراه وهو يقتبس آى الذكر الحكيم ويتمثل بالأشعار والحكم والأمثال ، مما جعل الكتابة حينئذ تنوء بكلف كثيرة .

وسمى ابن الوردى مقامته الثانية المقامة الأنطاكية ، واتخذ فيها أيضا شخصا من المعرة يزورها ويصف محاسنها ومحاسن الطبيعة من حَوله ، ويحمد الله على أن ردها من حملة الصليب إلى العرب ، ويأسى لما فيها من تباغض بين العرب والروم .

والمقامة الثالثة سماها المقامة المنبجية ، ومنبج إحدى القرى الكبيرة فى حلب ، وفيها يحكى أيضا شخص من المعرة أنه دخلها فرثى لما أصاب مساجدها وأبنيتها من دثور . وكان حملة الصليب قد استولوا عليها قديما وعاثوا فيها . ويلم ابن الوردى بمدرستها النورية ، فإذا مدرسها

(١) الديوان (فى مجموعة طبعة الجوائب) ص ١٣٣

(٢) الرمضاء : شدة الحر

(٣) صاد : عطشان شديد العطش

القاضى حدث السن ، فظن أنه ليس بشىء ، فلما سأله عن حاجته قال : « نحن عشرة ذوو نسب وأولو علم وأدب ، وقد أنشد كل منا بيتى شعر ، سامها[1] فضل سعر ، وأقام وزنها ، وقال إنها وإنها ، وأنا رسول أصحابى إليك لتنصف بيننا وقد دُللت عليك » فقال له : قل ماأردت أن تقول ، فأخذ يعرض عليه أبياتا فى الغزل وغير الغزل ، والقاضى يعلق تعليقات نقدية بديعة . وحينئذ رجع المعرى إلى نفسه يلومها لسوء ظنها بالمدرس ، وأطال شكره .

وسمى المقامة الرابعة المشهدية وفيها يلق شخصٌ معرِّىٌّ أميرا يحدثه عن الاحتفالات والمواسم حول بعض الأضرحة ومايجرى فيها من اللهو واختلاط النساء بالرجال كأعياد النصارى والمجوس ، وينهاه الأمير عن الاشتراك فى هذه البدع المحرمة ، وينوه بقاضى القضاة ابن الزَّمْلكانى الذى أمر بإبطالها وشدد فى النكير عليها ، ويدعو له قائلا :

« لازال نَداه[2] مثل حرف النداء، كفيلا بضم الأقربين والبعداء، من وُصل به نال عُرْفا [3] ، واكتسب تابعه على اللفظ والمحل عطفا ، حتى يكون علمه علما منصوبا ، وعواطفه للمعارف خبرا مبتدأ به منسوبا ، ولابرح مرفوعا بفعل الحسنى ، وسيوف بحوثه ماضية فهى على الفتح تُبْنى » .

وواضح مدى ماتكلفه ابن الوردى من حشد مصطلحات النحو فى عبارات الثناء على ابن الزملكانى وسجعاته ، فلازال ابن الزملكانى مثل حرف النداء فى النحو ينادى به القريب والبعيد ، والتابع مفرد التوابع ، وهى العطف والنعت والتوكيد والبدل ، ولذلك ذكر مع التابع العطف ، وجلب من النحو كلمة « منصوبًا » واراد بها ان العلم مرفوع ، وذكر المعارف والخبر والمبتدأ والنسب والرفع والمضى والبناء على الفتح . كل ذلك حشده فى هذه السجعات القليلة ، ولم يكن يصنع ذلك دائما ولكن من حين إلى حين تلقانا فى نثره هذه الرقع التى تدل على التكلف الشديد .

ومقامته الخامسة فى وصف حريق دمشق الذى وصفه معاصره الصفدى . ومرت بنا قطعة من وصفه ، وسمى ابن الوردى هذه المقامة باسم « صفو الرحيق فى وصف الحريق » ورواها عن شخص يسمى غيث بن سحاب عن ندى بن بحر ، والصلة بينها وبين رسالة الصفدى فى الموضوع نفسه قوية ، ويبدو أن الصفدى اقتبس كثيرا منه حتى عنوان مقامته وهو « رشف الرحيق فى

(١) سامها فضل سعر . غالى بها فى السعر
(٢) نداه : كرمه
(٣) العرف : المعروف

وصف الحريق » . وله رسالة بديعة فى وصف وباء الطاعون الذى فتك بآسيا وامتد من الصين والهند إلى الشام ومصر لسنة ٧٤٩ ويسميها ابن حجر مقامة ، وتسميتها – كما جاء فى الديوان – باسم رسالة أولى لغياب الرواية والحوار فيها ، ومثلها رسالته التى كتب فيها مفاخرة بين السيف والقلم ، وهى رسالة طريفة .

٤

المواعظ والابتهالات

فرض الإسلام الوعظ فى خطب المساجد كل يوم جمعة وفى العيدين : عيد الفطر وعيد الأضحى ، ومعنى ذلك أن جميع البلدان الإسلامية طوال الأزمنة المختلفة كانت تموج بخطب الوعظ وإن لم تعن كتب الأدب بتسجيلها ، لأنها كانت أكثر من أن يحيط بها حصر أو استقصاء ، غير أنها بقيت منها شظايا ، وأول مايلقانا من ذلك فى الشام خطب الخلفاء منذ معاوية ، ولعمر بن عبد العزيز من ذلك الحظ الأوفر . وكان القُصَّاص منذ معاوية يعظون الناس ، وقد أمر معاوية أن يكون ذلك مرتين : مرة بعد صلاة الصبح ومرة بعد صلاة المغرب وعيَّن للقصاص مرتبات [1] خاصة . ويشتهر فى زمن عمر بن عبد العزيز غير واعظ مثل رجاء بن حَيْوة المتوفى سنة ١١٢ ومثل غيلان الدمشقى وكانت له رسائل مليئة بالوعظ . وظلت الشام تمتلئ بالوعاظ طوال القرن الثانى وفى مقدمتهم الأوزاعى صاحب المذهب المشهور . وبالمثل ظل الوعظ حيًّا مزدهرا فى القرنين الثالث والرابع ، ويلقانا فى حلب لزمن سيف الدولة واعظ كبير هو عبد الرحيم بن محمد المعروف باسم ابن نباتة ، وسنقف قليلا عند خطبه ، ولانلبث أن نلتقى بأبى العلاء ، والعظات وتمجيد الله والزهد فى متاع الدنيا يكثر فى أشعاره وكتبه ، ومانفتح الصفحة الأولى من اللزوميات حتى نجده يقول : « إن من هذه الأوراق ماهو تمجيد لله الذى شرف عن التمجيد .. وبعضها تذكير للناسين ، وتنبيه للرقدة الغافلين ، وتحذير من الدنيا » . وله بجانب اللزوميات ديوان ثان فى العظة والزهد والاستغفار سماه : « استغفر واستغفرى » سقط من يد الزمن ، وكان يشتمل كما يقول مترجموه على نحو عشرة آلاف بيت . وكان له فى النثر دعاء

---

(١) انظر فى ذلك كتابنا الفن ومذاهبه فى النثر العربى (طبع دار المعارف – الطبعة التاسعة) ص ٧٥

يعرف بدعاء ساعة ودعاء يعرف بدعاء الأيام السبعة ، وكتاب يعرف بالسجعات العشر فى الوعظ ، وكتاب يعرف بسيف الخطب ، وفيه خطب الجمع والعيدين والخسوف والكسوف والاستسقاء وعقد الزواج ، وقد بنى سجعها على الحروف السهلة مثل الهمزة والباء والتاء والدال واللام والميم والنون ، لأن الكلام المقول فى الجماعات ينبغى أن يكون لينا سهلا . وله كتاب تاج الحرة ، وهو فى عظات النساء خاصة . وكل هذه الكتب سقطت قديما من يد الزمن ، وبقى من عظاته قسم كبير من كتابه الفصول والغايات ، وسنخصه بحديث عما قليل .

ويحتدم الوعظ منذ نزول الصليبيين الشام لبث الحمية الدينية فى نفوس الناس ، حتى يجاهدوا فى سبيل الله ، ويضربوا حملة الصليب الضربات القاضية . واشتهر كثيرون حينئذ بروعة وعظهم ، منهم بنو العديم فى حلب لعهد نور الدين ، ومنهم ابن نجا خطيب دمشق المولود بها سنة ٥٠٨ والمتوفى بالقاهرة سنة ٥٩٩ ، ومنهم محيى الدين محمد بن الزكى قاضى دمشق وخطيبها ، وهو الذى خطب أول جمعة صُلِّيت بالقدس بعد فتحه ، وسلم بخطْبته .

ومن الوعاظ المشهورين حينئذ المهذب الدمشقى الذى لقيه العماد الأصبهانى – كما يقول بخريدته – بدمشق سنة ٥٧١ وسلم برسالة أدبية له ذكرها العماد ويُعَدُّ سبط ابن الجوزى يوسف بن قزوغلى أكبر واعظ شهدته دمشق طوال النصف الأول من القرن السابع الهجرى حتى وفاته سنة ٦٥٤ وقد نزلها سنة ٦٠٠ واتخذها مسكنا ودار إقامة . وكان قد نشأ فى حجر جده ابن الجوزى واستمع إلى مواعظه الرائعة التى نوهنا بها فى حديثنا عن العراق ، وطارت شهرته فى الوعظ كما طارت شهرة جده ، وكان يحضر مجلسه القضاة والأشراف والأعيان « ونالته السعادة والوجاهة عند الملوك ، لاسيما الملك المعظم عيسى صاحب دمشق فإنه كان عنده بالمنزلة العظمى ، وكان له لسان حلو فى الوعظ والتذكار ولكلامه موقع فى القلوب [1] » ويصف أبو شامة مجلس وعظه فى كتابه « ذيل الروضتين » فيقول : « كانت مجالس وعظه من محاسن الدنيا ولذاتها . وكان يزدحم فى مجلسه مالا يحصى من الخلق رجالا ونساء ، والنساء بمعزل عن الرجال فى جامع دمشق ، وجامع الجبل ، حضرتُ مجالسه صغرى وكبرى فى الموضعين مرارا ، وكان لايفارق أحد مجلسه إذا انفضّ إلا وشوقه مستمر إلى عودته فى الأسبوع الآخر . وكان يجلس [للوعظ] كل سبت وتُبْسَطُ السجادات والحُصْر والبسط فى كل المواضع القريبة من المنبر مابينه وبين القبة فى يوم الجمعة ،

---

(١) النجوم الزاهرة ٣٩/٧

ويبيت الناس ليلة كل سبت حَلَقا ، يقرءون القرآن بالشموع ، كل ذلك فرحا بمجلسه ومسابقة إلى الأماكن » [١] .

ومن كبار الوعاظ فى أوائل أيام المماليك ابن غانم المقدسى ، وله حوار طريف مع إبليس سماه « القول النفيس فى تفليس إبليس » وهى رسالة صغيرة ، أراد بها أن يُعْلِم شياطين الإنس من أتباعه ضلالهم ومدى مايتخبطون فيه من الغى . وأطرف من هذه الرسالة رسالة له سماها « كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار » وسنتحدث عنها بين الرسائل الأدبية . ومن خطباء دمشق ناصر الدين ابن البارزى المتوفى سنة ٨٢٣ ولى خطابة الجامع الأموى فترة ، ويقول ابن حجة : « لما فوضت إليه خطابة الجامع الأموى لم يبق أحد من أعيان دمشق إلا حضر فى تلك الجمعة لأجل سماع خطبته ، وكانت براعتها (فاتحتها) : الحمد لله الذى أيد محمدا بهجرته ، ونقله من أحبِّ البقاع إليه لما اختاره من تأييده ورفعته [٢] » . ولا ريب أن الخطابة الدينية اطرد لها ازدهارها أيام العثمانيين ، وأن كانت كتب التراجم لم تصور ذلك تصويرا واضحا . ونقف عند طائفة من خطب المواعظ ورسائلها وكتبها البديعة .

(ا) خطب ابن [٣] نباتة الفارقى

ابن نباته الفارقى هو الخطيب عبد الرحيم بن محمد ، وفيه يقول ابن خلكان : « صاحب الخطب المشهورة . وقع الإجماع على أنه ماعُمل مثلها وفيها دلالة على غزارة علمه وجودة قريحته ، وكان خطيب حلب أيام سيف الدولة الحمدانى وكان كثير الغزوات ، ولهذا أكثر ابن نباتة من خطب الجهاد ليحض الناس عليه ، ويحثهم على نصرة سيف الدولة . ولد سنة ٣٣٥ وتوفى سنة ٣٧٤ . وخلفه فى الخطابة ابنه أبو طاهر محمد المتوفى سنة ٣٩٠ ثم حفيده أبو الفرج طاهر المتوفى عام ٤٢٠ . وطُبعت خطبهم جميعا مرارا ، وطبعت خطب عبد الرحيم مفردة وقد جعلها على عدد جُمَع السنة ابتداء من شهر المحرم إلى نهاية شهر ذى الحجة ، ومن قوله فى الخطبة الثالثة لشهر صفر ، بعد حمد الله والصلاة على رسوله الكريم :

« أيها الناس ! تنزهوا عن حب الدنيا فإن متاعها قليل ، وتزودوا بتقواكم فإن السفر طويل ، ولا تطمعوا فى هذه الدنيا فإن البقاء فيها مستحيل ، كيف لا والمنادى ينادى كل يوم ياعباد الله

---

(١) ذيل الروضتين (طبعة سنة ١٩٤٧) ص ٤٩

(٢) خزانة الأدب ص ٢٠

(٣) انظر فى ابن نباتة الفارقى ابن خلكان ١٥٦/٣ وعبر الذهبى ٣٦٧/٢ والشذرات ٨٣/٣

الرحيل الرحيل ، هو الموت الذى مافيه فوتٌ ولاتعجيل ، ولايقبل الله فيه الفداء ولايرضاه من بديل ، كم ألحق عليلا بصحيح وصحيحا بعليل ، وكم أخذ قريبا من قريب وخليلا من خليل ، فكيف تطمعون فى الدنيا بالإقامة فيها وقابض الأرواح عزرائيل ، فإلى متى هذه الغفلة والقساوة ولم يبق من العمر إلا القليل ، ثم ترجعون إلى ربكم المتعالى فى كماله عن الشبيه والمثيل » .

ولغة ابن نباتة فى خطابته عذبة سائغة ، وقد بناها على السجع شأنه فى ذلك شأن الخطباء والكتاب فى العصر ، فقد عم السجع حتى فى الكتابات التاريخية كما مربنا عند العماد الأصبهانى ، وسجعه يلذ الآذان حين تصغى إليه ، لسهولته وخفته وبراعته فى صوغه حتى لتتوالى الخطبة مسجوعة على روى واحد ، ويقول فى الخطبة الثانية من خطب شهر رمضان :

« عباد الله إن شهركم هذا شهر البركات والسرور ، شهر ضاعف الله أجره وهو بالخيرات مغمور ، والتجارة فيه لن تبور .. عباد الله ! أوصيكم بالإكثار من كل عمل مبرور ، وأنهاكم أن تُحْبِطوا صيامكم بالغَيْبة والنميمة وقول الزور .. يامفطرا بالحرام لأى شىء يكون الإفطار والسحور ، ياغافلا عن طاعة الله ماهذه الغفلة والفتور ، ياهائما فى تيه الهوى أما تخشى ظلمات القبور .. يامائلا إلى زهرة الدنيا ، وماالحياة الدنيا إلا متاع الغرور ، ياعادلا عن طريق الهدى متى تهتدى ليوم النُّشور » .

وبهذه اللغة الصافية الحلوة كان ابن نباتة يعظ الناس فى أيام الجمع ، فيبلغ الأعماق من قلوبهم وأفئدتهم ونحس بصلة قوية بين خطبه وخطب على بن أبى طالب فى نهج البلاغة ، وبدون ريب كان يتأثر فى خطابته ببيانه الرائع .

(ب) الفصول[1] والغايات

هذا كتاب جميعه وعظ لأبى العلاء المعرى قصد به إلى تمجيد الله العلىّ الأعلى ، بدأ تأليفه قبل ذهابه إلى بغداد وأتمه بعد رجوعه ، وقد أثار ضجة حوله منذ ظهوره ، إذ زعم بعض خصومه منذ زمنه إلى أنه وضعه معارضة[2] للقرآن الكريم ، ونجد تلميذه ابن سنان الخفاجى الذى مرت ترجمته ينفى عنه بشدة هذه التهمة[3] ، ولعل من أسبابها أنه سمى الكتاب :

---

(١) انظر الفصول والغايات (طبعة محمود زناتى) وقد نشر القسم الأول منها وينتهى فى الغايات إلى حرف الخاء .

(٢) راجع سفر نامه لناصر خسرو (الترجمة العربية طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١١ ودمية القصر ١/١٣٠ وتعريف القدماء بأبى العلاء ص ٢١

(٣) تعريف القدماء بأبى العلاء ص ٤٢٦

« الفصول والغايات فى محاذاة السور والآيات » وهو لايريد محاذاة القرآن فى أسلوبه وإنما يريد محاذاته فى تمجيد الله وتحميده والثناء عليه ، وهو نفسه يقول فى كتابه : « علم ربنا ماعلم ، أنى ألفت الكلم ، آمل رضاه المسلَّم ، وأتقى سخطه المؤلم ، فهَبْ لى ماأبلغ به رضاك من الكلم والمعانى الغراب » . والكتاب جميعه وعظ وزهد وخوف من الله وتقوى وورع وعبادة ونسك ، مع الشعور الدائم بالتقصير إزاء ربه وعبادته المثلى حتى ليقول[١] :

« لو نقلتُ مياه اللُّجَج على منكبى فى قُداف[٢] ، وأفرغته على مناكب الجبال ، وجررت كُثْبان الأرض وصَرائمها[٣] فى جَرٍّ أو مِشْآةٍ[٤] ، فألقيتها فى الخُضَر[٥] الدائمات ، حَفْدًا[٦] لله كنتُ أحدَ العجزة المقصِّرين ، ولو أُذن لى وأُيِّدْتُ فابتنيتُ مَراهص[٧] من الثَّرى الأسفل إلى الثُّريَّا ، ومن الوَتِد ، المتَّخَذَ من عود إلى وَتِد السُّعود[٨] ، لم أؤدِّ مايوجبه جلال الله ، فكيف وأنا أقصِّر الصلاة ، وأُدانى بين الركعات » .

وهو يقول : مهما تنسك ومهما أدى من العبادات والأعمال فإنه لن يبرحه شعوره بعجزه وقصوره إزاء جلال الله وهيبته العظمى ، حتى لو نقل مياه اللجج الزاخرة على منكبه فى جرار تلو جرار مفرغا لها على مناكب الجبال ، وحتى لو جر كثبان الأرض كثيبا وراء كثيب فى زنابيل وألقاها فى لجج البحار تقربا إلى ربه ، وحتى لو ابتنى من الثرى طبقات بعضها فوق بعض وبلغ بها عنان السماء إلى الثريا أو لو اتخذ من أوتاد العيدان أو تادا يتراكم بعضها فوق بعض ، حتى يصل إلى وتد السعود ، لظل شاعرا بوهنه وقصوره أمام ماتوجبه تجلة الله وعظمته . وإنه ليصيح مبتهلا إلى ربه فى جزع لايدانيه جزع : « إن كان الدمع يطفئُ غضبك فهَبْ لى عينين كأنهما غمامتا شَتِىٍّ[٩] تَبِلان[١٠] الصباح والمساء[١١] » إنه سيظل ماعاش باكيا ذارفا الدموع سائلا من ربه رضاه ورضوانه . ولهذه الصيحة أخوات كثيرة فى الكتاب ، فأبو العلاء فيه دائما يناجى ربه ضارعا بل وجلا خائفا .

---

(١) الفصول والغايات ٥٩/١
(٢) قداف : جرة
(٣) صرائم : جمع صريمة وهى القطعة من الرمل
(٤) جر ، مشآة : زبيل
(٥) الخضر : اللجج
(٦) حفدا : خدمة
(٧) مراهص : طبقات
(٨) وتد السعود : سعد الأخبية : نجوم معروفة
(٩) شتى : من الشتاء ويريد سحابا دائم المطر
(١٠) تبلان : تهطلان ، من الوبل وهو المطر الغزير
(١١) الفصول والغايات ٢٥٩/١

والكتاب منقسم إلى ثمانية وعشرين فصلاً بعدد حروف المعجم ، وكل فصل لحرف ينقسم إلى فقر ، وكل فقرة تنتهى بالحرف الذى اختاره للفصل ويسمى غاية ، ويلتزم أبو العلاء قبل غاياته الألف دائما . وليس هذا كل ماصعَّبه على نفسه فى الكتاب ، فقد التزم فى كثير من الفقر أن تشترك سجعاتها فى حرفين أو أكثر على طريقة مانعرف فى لزومياته . والتزم بجانب ذلك أن يجلب إلى سجعات الكتاب كثيرا من الألفاظ الغريبة ، وإنها لتغلب على سجعاته غلبة شديدة ، حتى يمكن أن نقول إنها إحدى خصائصه أو أحد التزاماته . وعلى عادته فى أشعاره كثيرا مايضيف بعض ألوان البديع وخاصة الجناس . وكما رأينا فى اللزوميات يكثر فى الفصول والغايات من ذكر المصطلحات العلمية يجلبها من جميع العلوم ، وكأنما يراها وشيا خليقا أن يضاف إلى فصوله وغاياته وفقره فيه ، من ذلك قوله مستظهرًا لبعض مصطلحات علم الصرف[1] .

« لاتجعلنى ربِّ معتلاًّ كواو يقوم ، ولامبدلا كواو موقن من الياء ، ولاأحب أن أكون زائدا مع الاستغناء ، كواو جدول وعجوز ، فأما واوعمرو فأعوذ بك ربِّ الأشياء ، إنما هى صورة لاجرس لها ولاغناء ، مشبهها لايحسب من النَّسمات » .

وعلماء الصرف يقولون إن واويقوم أصلها يقوم فاستثقلت الضمة على الواو فنقلت إلى ماقبلها واعتلت ، وأن كلمة « موقن » أصلها مُيْقن ، فقلبت الياء واوًا لسكونها وانضمام ماقبلها ، وأن الواو فى جدول وعجوز زائدة لأنهما مشتقتان من الجدل والعجز . ومعروف أن واو عمرو تكتب ولاتنطق تمييزًا للكلمة من كلمة عمر . وكل ذلك يحشده أبو العلاء فى بعض وعظه بل إنه ليحشد كثيرا من دقائق المصطلحات العلمية لم نر حاجة إلى ذكرها . وحسبنا ماقدمناه لنأخذ صورة عن كتاب الفصول والغايات ، وفى كتابنا « الفن ومذاهبه فى النثر العربى » كلمة عنه أكثر بسطا وتفصيلا وتحليلا .

(١) الفصول والغايات ١٤٢/١

(جـ) خطبة القدس بعد فتحه لمحيي الدين بن الزكي

أما الخطيب فهو محيي[١] الدين محمد بن الزكي على من سلالة عثمان بن عفان رضي الله عنه ، كانوا قضاة فى دمشق ، وكانت ولادته سنة ٥٥٠ ، وكانت له عند صلاح الدين منزلة عالية ، فلما صارت له حلب ولاه قضاءها ، حتى إذا فُتحت القدس ، وكان محيي الدين حاضرا فَتْحها تطاولت الأعناق إلى الخطابة بها فى أول يوم جمعة ، وأعدَّ من كانوا فى حضرته خطبا بليغة يخطبون بها فى هذا اليوم واختار صلاح محيي الدين ، فألقى خطبة ضافية ابتدأها بفاتحة الكتاب ثم تلاها بالتحميدات فى أول سور الأنعام والإسراء والكهف والنمل وسبأ وفاطر ، ثم شرع فى الخطبة . وقال[٢] فيها .

« الحمد لله معزُّ الإسلام بنصره ، ومذلُّ الشرك بقهره ، ومصرِّف الأمور بأمره ، ومديم النعم بشكره ، ومستدرج الكفار بمكره ، الذى قدَّر الأيام دولا بعدله ، وجعل العاقبة للمتقين بفضله ، وأفاء على عباده من ظلِّه ، وأظهر دينه على الدين كله .. أحمده على إظفاره وإظهاره وإعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره ، وتطهيره بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره ..

أيها الناس أبشروا برضوان الله الذى هو الغاية القصوى ، والدرجة العليا ، لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالةّ[٣] ، من الأمة الضالة ، وردِّها إلى مقرها من الإسلام ، بعد ابتذالها فى أيدى المشركين قريبا من مائة عام ، وتطهير هذا البيت الذى أذن الله أن يرفع ويذكر فيه اسمه ، وإماطة[٤] الشِّرك عن طرقه بعد أن امتد عليها رواقه واستقر فيها رسمه .. ولولا أنكم ممن اختاره الله من عباده ، واصطفاه من سكان بلاده ، لما خصَّكم بهذه الفضيلة التى لا يجاريكم فيها مجار ، ولا يباريكم فى شرفها مُبار . وهذا هو الفتح الذى فُتحت له أبواب السماء ، وتبلَّجت[٥] بأنواره وجوه الظلماء ، وابتهج به الملائكة المقربون ، وقرَّ به عَيْنا الانبياء المرسلون .. فاحفظوا — رحمكم الله — هذه الموهبة فيكم ، واحرسوا هذه النعمة عندكم بتقوى الله التى مَنْ تمسك بها سلم ، ومن اعتصم بعُرْوتها نجا وعُصم ، واحذروا من اتباع الهوى ومواقعة الرَّدَى ،

(١) انظر ترجمة محيي الدين فى طبقات السبكى ١١٠/٢ ١٥٧/٦ وابن خلكان ٢٢٩/٤ وعبر الذهبى ٢٠١/٤ والبداية والنهاية ٣٢/١٣ والنجوم الزاهرة ١٨١/٦ والشذرات ٣٣٧/٤

(٢) انظر الخطبة كاملة فى ابن خلكان والروضتين

(٣) الضالة هنا : كل ماضل وضاع ، وفى المثل : الحكمة ضالة المؤمن

(٤) إماطة : تنحية وإبعاد

(٥) تبلجت : أشرقت

ورجوع القهقرى .. الله أكبر ، فتح الله ونصر ، غلب الله وقهر ، وأذل الله من كفر » .

والخطبة طويلة ، وقد اكتفينا منها بهذه الشظايا الرائعة التى تصور فرحة السلمين بهذا الفتح المبين والنصر العظيم ، وكأنما عادت المعجزة النبوية وأيام بَدْر وفتوح الشام ومصر والقادسية وهجمات خالد والصحابة الأولين ، وما النصر إلا من عند الله .

(د) كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار

مؤلف هذا الكتاب الطريف ابن [1] غانم عبد السلام بن أحمد المقدسى الواعظ المشهور لزمنه المتوفى سنة ٦٧٨ ، والكتاب فى ٣٠ صفحة ، ذكر فى مقدمته مايفصح عن موضوعه قائلا : « قد وضعت كتابى هذا مترجما عما استفدته من الحيوان برمزه ، والجماد بغمزه ، وماخاطبتنى به الأزاهير بلسان حالها ، والشحارير عن مقار ارتحالها . وسميته كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار ، وجعلته موعظة لأهل الاعتبار ، وتذكرة لذوى الأبصار والاستبصار » . ويقول إنه خرج يوما ليتأمل فى الطبيعة وأسرارها ، وانتهى إلى روضة رقَّ نسيمها وغنَّى عندليبها ، وكان وحيدا وأخذ كل ماحوله يخاطبه بلسان الحال دالا على القدرة الإلهية وحكمة الله فى خلقه وعظيم صنعته ، وسجل من ذلك عظات بليغة على ألسنة الأزهار ثم ألسنة الطير ثم ألسنة الحيوان . وبدأ بالنسيم رسول كل محب إلى حبيبه ، وحامل شكوى كل عليل إلى طبيبه ، ثم تركه إلى الأشجار وأحد عشر نوعا من الأزهار استهلها بالورد قائلا على لسانه « أنا الضيف ، فاغتنموا وقتى فالوقت سيف ، أُعطيت نفسَ العاشق وكُسيت ملاحة المعشوق ، وأنا الزائر وأنا المزور ، ومن طمع فى بقائى فإن ذلك زور ، ثم من علامة الدهر المكدور ، والعيش المحرور ، أنى حيثما نبتُّ رأيت الأشواك تزاحمنى وتجاورنى ، فأنا بين الأدغال مطروح ، وبنبال شوكى مجروح . وهذا دمى على عَنْدمى يلوح ، وهذا حالى وأنا ألطف الأوراد ، وأشرف الورَّاد ، فمن صبر على نكد الدنيا بلغ المراد » .

و ختم ابن غانم الكلمة بالعظة التى يريدها ، وجعل الورد ضيفًا على الطبيعة ، لأن مدة بقائه فيها قصيرة ، واستغل ماينبت حوله من شوك ليدل على أن الدنيا مهما أذاقت الناس فيها من حلاوة العيش لابد أن تجمع إليهم شيئا من مرارته فليست الدنيا وردا خالصا ولا حياة لإنسان فيها دائما

(١) انظر فى ابن غانم وترجمته البداية والنهاية لابن كثير ٢٨٩/١٣ ومرآة الجنان لليافعى ١٩٠/٤ والشذرات لابن العماد ٣٦٢/٥ .

مشرقة زاهية بل لابد من ظلمة تغشاها ، بل هى مزيج من خير وشر وأمل ويأس وسرور وحزن ، وحرىٌّ بالإنسان فيها أن يصبر ويصابر حتى يبلغ مأموله . ويقول على لسان شجر البان الذى طالما ذكر المحبون فى لينه وتمايل أغصانه محبوباتهم .

« انظر إلى الورد وقد ورد ، وإلى البرد وقد شرد ، وإلى الزهر وقد اتَّقد ، وإلى الحَبِّ وقد انعقد ، وإلى الغصن اليابس قد اكتسى بعدما انجرد ، وإلى اختلاف المطاعم ومشربُها قد اتحد ، واعلم أن خالقها أحد ، وصانعها صَمَد ، وموجدها بالقدرة قد انفرد ، لايشاركه فى ملكه أحد ، ولايفتقر هو إلى أحد (لم يَلد ولم يولد ولم يكن له كُفُوًا أحد) » .

وهى عظة بليغة على لسان البان ، فالربيع أقبل ، وأقبل الورد معه ، وشرد الشتاء والبرد : وأضاء الزهر بألوانه واتقد ، وحب الثمار قد انعقد ، واكتست الغصون بعد العرى وسقوط الأوراق عنها ، ودبت فيها نضرة الحياة ، وماأعظم قدرة الله فالنباتات والأشجار تسقى بماء واحد وتختلف ثمارها وطعومها بين حلو وحامض ، وكل ذلك شاهد على قدرة الله التى لايشركه فيها أحد ، إنه واحد صمد ليس كمثله شىء وهو على كل شىء قدير .

وينتقل ابن غانم من الحكاية على لسان الأزهار إلى الحكاية على لسان الأطيار ، ويستهل كلامها بكلام الهزار وهو طائر حسن الصوت متعدد الألحان وعلى لسانه يقول :

« أنا العاشق الولْهان ، أنا الهائم اللَّهفان ، إذا رأيت فصل الربيع قد حان ، تجدنى فى الرياض فرحان ، وفى الغياض (١) أردد الألحان . وأرقص على الأغصان كأن الزهر والنهر لى عيدان (٢) ، وانت تحسبنى فى ذلك عاتبا ، لا والله العظيم ولست فى يمينى حانثا ، أنا أنوح حزنا لاطربا ، وأبوح ترحا لافرحا ، لاأجد روضة إلا نُحْتُ على اضمحلالها ، ولاخضرة إلا تبلبلت على زوالها ، لأنى مارأيت قط صفوة إلا تكدرت ، ولاعيشة حلوة إلا تمررت ، فقرأت فى تمثال العرفان ، كلٌّ من عليها فان » .

والهزار فى أول العظة فرح بمقدم الربيع ، وسرعان مايفكر فى انتهائه ، فيندب وينوح ، إذ لا يجد روضة إلا وتضمحل بعد ازدهارها . ويتسع تفكيره حتى يشمل الحياة ، فإذا كل مافيها من صفاء لايلبث أن تغشاه كدرة قاتمة ، وكل مافيها من عيش حلو لايلبث أن ينقلب عيشا مرا ، بل إن كل مافيها هالك فان . وسَعِد من كُتبت له السعادة ، وشقى من كتب له الشقاء . وينتقل إلى

(١) الغياض : جمع غيضة وهى الشجر الملتف المعروفة

(٢) عيدان هنا : جمع عود ، وهو الآلة الموسيقية

الحيوانات ويختم حديثه عنها بكلام على لسان النملة إذ تقول :

« إذا رماك الدهر بمرمى فقم له ، وإذا رأيت من تهيأ للسير فَسِرْ قبله ، ولاتكن فى تدبير عيشك أبله ، تعَّلمْ منى قوة الاستعداد وتحصيل الزاد للمعاد .. كُلِّفت جمع المئونة بتيسير المعونة ، وأُعْطيت قوة الشم من الأماكن البعيدة فأدركت بالشم من بُعد الفراسخ ، مالم يدركه ذو العلم الراسخ ، ثم أعْطيت بالتقدير ، حسن التدبير ، فأدبِّر ماأدَّخره من الحب لقوتى ، فى بيوتى » .

والكتاب بذلك كتاب تعليم ووعظ ودفع للإنسان يسير فى الطريق السديد ، واعيًا لحكمة الله فى خلقه ، متعظا بما تورده عليه الحيوانات والأطيار والأزهار من مواعظ وحكم وأمثال وأضواء تنير له دنياه ، وتعده إعدادا حسنا لأخراه . ولغة الكتاب سهلة بسيطة قريبة من لغة الحياة اليومية لأنه أريد به إلى الوعظ والإرشاد ، وهو حقا مسجوع ، ولكن ليس فيه ألفاظ آبدة غريبة ، وتتخلله أبيات شعرية سائغة ، تدل على حسن ذوق المؤلف ودقة اختياره . وبجانب الأبيات المختارة أبيات من نظمه تدل على أن ابن غانم كان يحسن الشعر والنثر جميعا .

٥

أعمال أدبية : رسائل وغير رسائل :

خلَّفت الشام فى هذا العصر أعمالا أدبية كثيرة ، ويلقانا فى مفتتحه كشاجم ، وله كتاب المصايد والمطارد عرض فيه الصيد وآلاته وماقيل فيه من الأشعار عرضا طريفا ، وله بجانبه كتاب فى البيزرة أو بعبارة أخرى فى جوارح الصيد ، وكتاب فى أدب النديم . ولأبى العلاء المعرى أعمال أدبية نثرية كثيرة ، لعل أهمها رسالة الغفران ، وسنلم بها عما قليل ، وفى خريدة القصر قسم الشام رسالة أدبية بديعة هى رسالة النسر والبلبل ، وسنفرد لها كلمة موجزة ، وفى الخريدة أيضا رسالة [1] طريفة ليعمر بن عيسى المتوفى شابا سنة ثمان أو تسع وستين وخمسمائة ، وموضوعها معاشرة الإخوان واغتنام الفرصة قبل أن تصبح غُصَّة فى دنيالا يدوم نعيمها ولا تندمل كلومها ، وعنده أن الفرصة هى الإقبال على اللهو والقصف والصيد والقنص . ويفيض فى وصف الصيد وماركبوا فيه من خيل وماحملوا فيه معهم من فهود وكلاب وبُزاة وشواهين ، ويطيل فى بيان صيد

(١) انظر الرسالة فى الخريدة (قسم الشام) ٣٥٤/١ - ٣٨٩

له مع بعض رفاقه إلى نحو عشرين صحيفة ، وهى رسالة أدبية بارعة كتبها أديب حاذق فى فنه وسجعاته وجرسها الموسيقى وفى تصاويره وتلاوينه .

وربما كان أهم من عنى فى القرن السادس الهجرى بكتابة أعمال نثرية أدبية أسامة بن منقذ الذى مرت ترجمته بين الشعراء ، وله كتاب العصا جمع فيه مانظم من شعر ، وهو منشور ، وله كتاب لباب الآداب ، وهو زاخر بالأشعار والحكم والنوادر والآداب الفردية والاجتماعية ، جعله فى سبعة كتب : فى الوصايا والسياسة والكرم والشجاعة والآداب والبلاغة والحكمة ، واشتمل منها كتاب الآداب على خمسة عشر فصلا : فى الأدب وكتمان السر والأمانة والتواضع وحسن الجوار وحفظ اللسان والقناعة والصبر والحياء وترك الرياء والإصلاح بين الناس والتعفف عن السؤال والتحذير من الظلم والإحسان والحض على فعل الخير . وعادة يورد فى كل كتاب مايتصل به من القرآن والأحاديث النبوية والأشعار وماروى عن العرب والعجم من أقوال . ولأسامة كتاب ثالث هو المنازل والديار ألفه بعد حدوث زلزال شديد سنة ٦٥٢ أتى على حصن شَيْزر موطنه وأحاله أنكاثا وأنقاضا ، ويقول فى مقدمته : « دعانى إلى جمع هذا الكتاب مانال بلادى وأوطانى من الخراب ، فإن الزمان جَرّ عليها ذيله ، وصرف إلى تعفيتها[1] حَوْله وحَيْله[2] ، فأصبحتْ (كأن لم تَغْنَ بالأمس) موحشة العَرصات بعد الأنس ، قد دَثَر عمرانها ، وهلك سكانها ، فعادت مغانيها[3] رسوما ، والمسرات بها حسرات وهموما » وهو كتاب ضخم فى نحو ٥٠٠ صفحة ، اختار فيه أطرف ماله ولسابقيه من أشعار بديعة ، وقد جعله فى ستة عشر فصلا : فى المنازل والديار والمغانى والأطلال والربع والدِّمن[4] والرسم والآثار والمساكن والأرض والأوطان والمدن والبلاد والديار والبيت وبكاء الأهل والإخوان . وأطرف أعماله الأدبية جميعا كتابه الاعتبار وهو سيرة شخصية وسنخصه بكلمة . ونمضى إلى زمن المماليك ويلقانا بدر الدين بن حبيب وكتابه نسيم الصبا ، وهو أشبه بمقالات أدبية فى الطبيعة والطير والحيوان والأخلاق وسنلمّ به عما قليل .

ونلتقى فى زمن المماليك بابن حجة الحموى وكتابه « ثمرات الأوراق » وقد طبع مرارا وهو أشبه بكتب المحاضرات ، فيه نثر ورسائل وشعر ونوادر وعظات وأخبار وقصص عن الأجواد والبخلاء والعلماء والحمقى والأطباء ، مع بعض الأحداث فى زمن المؤلف وبعض الحكايات والفكاهات .

---

(١) تعفيتها : دثورها وطمسها

(٢) الحيل : الحول والقوة

(٣) مغانيها : منازلها

(٤) الدمن : آثار الديار

وبأخرة من عصر المماليك نلتقى بابن عرب شاه وكتابه « فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء » وسنفرد له كلمة .

ونتقدم إلى أيام العثمانيين ، ونلتقى ببهاء الدين العاملى الذى ترجمنا له بين شعراء الشيعة ، وله المخلاة ، وهى كتاب شعر ونثر وحكم وأمثال ومواعظ وأخبار ونوادر ، وأهم منها كتابه الكشكول ، وهو فى مجلدين ، وبه شذرات من مختلف العلوم الإسلامية والرياضية والطبية ، ومن بحوث التاريخ والفلسفة والتصوف ، ويفيض بمختارات بديعة من الشعر لمتصوفة ومتفلسفة ولشعراء الغزل والحماسة والحكمة ، وحرى بنا أن نلم بما وعدنا بالحديث عنه من أعمال أدبية .

(ا) رسالة [1] الغفران

رسالة طويلة فى نحو مائتى صفحة من القطع الكبير أملاها أبو العلاء ردا على رسالة لعلى بن منصور الحلبى المعروف بابن القارح ، وهى تنقسم قسمين : قسما يتحدث فيه عن نهوض ابن القارح من قبره يوم البعث ويتصور له نزهة فى الجنة يلتقى بها طائفة من شعراء الجاهلية وصدر الإسلام ويسألهم : بِمَ غُفِر لهم ، ويتردد السؤال فيما بعد مما جعل الرسالة تسمى رسالة الغفران ويرد أبو العلاء بن القارح إلى يوم المحشر ليصور أهواله وأهوال الصراط مع الناس انتظارًا لمصيره وقد ظل فى المحشر واقفا حتى تعب من شدة الحر والظمأ ، وكان معه صك التوبة ففكر فى دخول الجنة عن طريق خداعه لسدنتها ونَظَم القصائد الطوال فى مدح رضوان ولم يفهم عنه شيئا ، وتركه إلى سادن آخر ، فنبهه إلى أن يتشفع بالرسول ﷺ وحاول الوصول إليه . ولقى حمزة بن عبد المطلب فتوسل به إلى الإمام على بن أبى طالب ، ورأى أبا على الفارسى يحاوره نفر من شعراء البادية فى تأويله لبعض كلامهم ، وطلب على بن أبى طالب منه شاهدًا على توبته فاستشهد بقاض من حلب ، وسقاه على من الحوض ، وقال له : لاسبيل إلى دخول الجنة قبل الحساب ، ورأى استخدام الحيلة فتعلق بركاب إبراهيم بن الرسول ﷺ : ويسأله رضوان هل معك من جواز ؟ ويجذبه إبراهيم معه ، فيدخلها ويلتقى ثانية بالشعراء ويحاورهم . ويقيم ابن القارح مأدبة يدعو إليها كل من فى الجنة من شعراء وعلماء وأدباء ، ثم يركب بعض دواب الجنة ويسير فيصل إلى مدائن غريبة ، ويطلع فيرى طائفة من الجن ، ممن آمنوا بالرسول ﷺ ، ويسأل شيخهم عن

(١) انظر فى رسالة الغفران (طبعة أمين هندية) و(طبعة د. بنت الشاطئ) وهى طبعة محققة (نشر دار المعارف)

أشعارهم التى جمع منها المرزبانى قطعة صالحة فيقول الشيخ : إنما ذلك هذيان لامعتمد عليه ، ثم يُرْخى من عنان دابته حتى يصل إلى أقصى الجنة حيث يلتقى بالحطيئة والخنساء وهى تنظر إلى أخيها صخر فى الجحيم ، وينظر مثل الخنساء ، فيجد إبليس وبشارا وامرأ القيس وعنترة واثنى عشر شاعرا معهم من شعراء الجاهلية والأخطل التغلبى ويحاورهم جميعا . ويعود فيلتقى بآدم عليه السلام وببعض الحيّات التى ظلمت فى الدنيا ، وكوفئت فى الآخرة بدخول الفردوس ونزولها فى روضة الحيات . ويمر بجنة الرُّجّاز ، ويحاورهم فى أرجازهم حوارا طريفا . وتنتهى رحلة ابن القارح على الصراط وماشاهد من عذاب فى الجحيم ومن نعيم لا يماثله نعيم فى الجنة ، ويفضى ابن القارح إلى المتاع بهذا النعيم .

وهذا هو القسم الأول فى الرسالة ، وقد كان له تأثير عميق فى الآداب العالمية ، إذ كتب دانتى الشاعر الإيطالى المتوفى سنة ١٣٢١ م على غراره الكوميديا الإلهية ، وشُغل بالبحث فى ذلك كثير من الباحثين الغربيين ولايزالون مشغولين .

والقسم الثانى من الرسالة خاص بسؤال ابن القارح لأبى العلاء عن الزندقة والزنادقة ، وقد استهلها أبو العلاء بالثناء على ابن القارح لوفائه فى زمن يعز فيه الوفاء : وتحدث عن حرفة الأدب وهمومها ، ودفع عن المتنبى مايقال من زندقته أو إلحاده إذ كان متألها كما تشهد بذلك أشعاره ، وشك فى عقيدة دعبل . وذكر بعض الشعراء الزنادقة وفى مقدمتهم بشار وصالح بن عبد القدوس والوليد بن يزيد ، وتعرض لكثير من النحل المارقة فى زمنه ، وفى مقدمتها القرامطة وغلاة الشيعة كعبد الله بن سبأ وعبد الله بن ميمون القداح رأس العقيدة الاسماعيلية والقائلين بالتناسخ كالهنود وبالحلول من الصوفية كالحلاج ، وأَصْلَى ابنَ الراوِنْدِىّ الزنديق[1] هو وكتبه : التاج والدامغ والقضيب والفريد والمرجان التى طعن فيها على الدين الحنيف نارًا حامية من الذم والتقريع ، ومن قوله فى التاج وهو أهم كتب ابن الراوندى الكافرة : لايصلح أن يكون نعلا ، وأُفٌّ وتُفٌّ ، وجورب وخُفّ وهما واديان بجهنم . ويعود إلى حديث ابن القارح ، ويعرض لتوبته وتمثيله جالسا للوعظ فى مسجد بحلب ، ويلم بأول سماعه عنه وبشيوخه وببعض علماء حلب وبتلبيات العرب فى الجاهلية وببعض مسائل فرعية .

---

(١) راجع فى ابن الراوندى وإلحاده والرد عليه كتاب «من تاريخ الإلحاد فى الإسلام» لعبدالرحمن بدوى

والرسالة نفيسة إلى أبعد حد لالأن أبا العلاء صوَّر فيها المحشر والجحيم والنعيم فحسب ، بل أيضا لأنه ساق فى حواره مع الشعراء نقدا لغويا وعروضيا ونحويا ، مع تعرضه لقضية الانتحال على القدماء ، ومع جودة استحسانه لما ساقه من أبيات الشعراء وماذكر من قصائدهم . وقد عرض فى القسم الثانى للنحل الكثيرة فى زمنه ومافيها من خروج على الدين وإلحاد ومروق ، وقد أنحى بذم عنيف على كل المارقين الملحدين ، ومع ذلك يقال إنه حمَّل الرسالة سخرية من الدين الحنيف ، والرسالة من ذلك بريئة كل البراءة .

ولم نعرض لأسلوبه فيها ، وهو نفس أسلوبه العام الذى ألفناه ، أسلوب يقوم على استخدام الألفاظ المبعدة فى الغرابة ، تعبيرا عن ثقافته وعلمه الواسع بالعربية ، عليا لعل أحدا من أدباء العرب على مر أزمنتهم وعصورهم لم يحظَ به ، وهو لايكتفى بالإغراب فى ألفاظ سجعه ، بل يضيف إليها كما قلنا فى غير هذا الموضع وشيا من المحسنات البديعية وخاصة الجناس . وقد ذكر فيها أبو العلاء شبل الدولة بن صالح بن مرداس أمير حلب (٤٢٠ ــ ٤٢٩ هـ) مما يؤكد أنه أملى رسالته لعهده فى العقد الثالث من القرن الرابع .

(ب) رسالة[١] النَّسر والبلبل

هى رسالة بديعة للمهذب أبى طالب محمد بن حسان الدمشقى ، ترجم له العماد الأصبهانى فى خريدته ، وقال إنه زاره فى مدرسته العمادية التى كان يدرس بها لطلابه فى ربيع الأول سنة ٥٧١ وأنشد بعض أشعاره ، ثم قال : ونقلت له من رسالة وسمها « بالنَّسْر والبلبل » فاختصرتها وأولها .. » ثم ذكر – فيما يبدو فاتحتها ، وهى تصور نسرا شاهد روضا فاتنا خلب لبه ، ولم يلبث أن استمع إلى بلبل ملأه غبطة وفتنة ، فسأله من أين لك هذا الصوت الساحر وأنا مع أنى ملك الطيور ليس لى شىء من سحره وجماله؟ وأجابه إن الصانع الحكيم لايهب الأصوات حسب الأجسام . والرسالة تبدأ بوصف النسر على هذا النمط :

طار طائر عن بعض الشجر ، وقد هبَّ نسيم السحر ، وانفلق عمود الفَلَق[٢] وانخرق قميص الغَسَق[٣] مشهور بالقَسْر[٤] ، موسوم بالنَّسر ، والليل قد شابت ذُؤَابته[٥] ، وابيضَّت قته . .

---

(١) انظر الرسالة فى الخريدة (قسم الشام) ١ / ٣٤٠ وانظر معها ترجمة صاحبها محمد بن حسان وانظره فى كتاب المحمدون من الشعراء والوافى بالوفيات ٢/٣٣٠

(٢) الفلق : الصبح

(٣) الغسق : الليل .

(٤) القسر : القهر

(٥) الذؤابة : شعر مقدم الرأس . والاستعارة واضحة

كأنما أجنحته رُكِّبت من العواصف ، واستُلبت من البروق الخواطف . كأنه سهم رُشِق (١) عن قوس القضاء ، أو نجم أشرق فى أفق السماء .. يقبض أجنحته ويبسط ، ويصعد إلى السماء ويهبط يجرح بأسنة قوادمه (٢) أعطاف القَبول (٣) وأطراف الصَّبا ، وَيُقدُّ الشمال بخوالفَ (٤) كأنها غروب (٥) الظُّبا ، ويفتق بخوافيه (٦) جُيوبَ الجنوب (٧) ، ويخرق بصدره صدر الرياح فى الهبوب .. حتى أشرف .. على روض أريض (٨) . وظلٌّ عريض ، وأنهارٍ متدفِّقة ، وأشجار مونقة ، وطلٌّ منثور ، ووَرْد ومنثور (٩) ، ومكانٍ بَهج ، وزهر أَرِج .. فمن وردٍ فضيٍّ الأوراق ، ذهبى الأحداق ، كافورى الصِّبغة ، مسْكى الصِّيغة ، مائىّ الجسم ، هوائى الرسم ، حاكت (١٠) الصَّبا إهابه ، وخاطت الشمال أثوابه ، وفتَّحت الجَنوب أكمامه ، وحسرت (١١) الدَّبور عن وجه جماله لثامه ، فظهر فى أفق الشجر ، كأنه شهب السَّحَر ، أو خدود الحُور فى القصور ، ظهرت فى غلائل من الكافور ، ومن غصون تجتمع وتفترق ، وتترنَّح وتعتنق ، والنسائم تحلُّ عَقْد أزرار الزَّهَر ... والشمس تُسفر وتنتقب ، وحاجب الغزالة (١٢) يبدو ويحتجب .. فوقف [النسر] فى الهواء حين رآها وقال : هذه غاية النفس ومناها .. أين المذهب ، وقد حصل المطلب ، وأين الرواح وقد أسفر الصباح .. وبينا هو صافُّ الأجنحة عليها ينظر من الأفق بعين التعجب إليها ، إذ سمع صوتا من بلبل سحرىٍّ على وَكْر شجرىٍّ ، يناغى النسائم بنغمة مزماره ، ورنَّة أوتاره .. وألحان أعذب من نقرات المزاهر ، ينثر درًّا من عقود ألحانه ولؤلؤا من صَدَف افتنانه بين أفنانه (١٣) ، ويرجِّع قراءة مكتوب غرامه ، ويتلو آيات حزنه من مصحف آلامه .. كأنها ماقيل عن مزامير آل داود وتسابيحهم فى الركوع والسجود .. أو أصوات رهبان الصوامع ، أو تلاوة من تتجافى (١٤) جُنوبهم عن المضاجع .. ثم هوى إلى القرار ، لينظر من النافخ فى المزمار ، فرأى البلبل يرجِّع سجع ألحانه فى ربع أحزانه » .

---

(١) رشق : رمى
(٢) القوادم : الريش الطويل فى مقدم الجناح
(٣) القبول : ريح الصبا الشرقية
(٤) خوالف : جمع خالفة هى الريش فى مؤخر النسر
(٥) غروب : جمع غرب وهو طرف الحد – والظبا : جمع ظبة وهى الحد للرمح ونحوه
(٦) الخوافى : الريش القصير فى الجناح
(٧) الجنوب : ريح جنوبية
(٨) أريض : كثير النباتات حسن المنظر
(٩) المنثور : زهر له رائحة ذكية
(١٠) حاكت : نسجت
(١١) حسرت : كشفت . والدبور ريح تهب من الغرب
(١٢) الغزالة : الشمس .
(١٣) أفنانه : أغصانه .
(١٤) هم المسلمون الأتقياء تتجافى جنوبهم عن المضاجع ليلا للعبادة والصلاة .

وإذا كان العماد قد اختصر الرسالة ، واكتفى بمطالعها أو فواتحها ، فإننا زدناها اختصارا ، وأكبر الظن ، أنه قد اتضح جمال الأسلوب فى هذه الرسالة البديعة ، فسجعها يطير عن الأفواه بخفته لرشاقة ألفاظه وبدع تصاويره. ويَفْتِن النسرَ صوتُ البلبل وجمال تلاحينه ، فيتجه إليه مسلما عليه ، ويظهر العجب لأنه صغير حقير فى منظره ، وله هذا اللحن المطرب ، والصوت المعجب ، ويصارحه بما فى نفسه ، وأنه مع ضخامة جسمه ليست له حلاوة نغماته ، فيقول له : « أما علمت أن الأرواح لطائف وهى أشرف من الأجسام ، والأجسام كثائف والمعتبر فيها جودة الأفهام ، وإنسان العين صغير ويدرك الأكوان والألوان ، والإنسان عظيم والمعتبر منه الأصغران : القلب واللسان ، مايكون الدر بقدر الصدف ، وشتان مابينهما فى القيمة والشرف ، ولا الآدمى كالفيل ، وبينهما بَوْنٌ فى التفصيل .. وأما النغمة التى قرع سمعَك سوط لذّتها .. فإننى رصّعت شَذْرها[1] فى عقد ألحانى على نغم بعض الأغانى » .

ويذكر البلبل للنسر أنه كوّن ألحانه من احتفال يعقد فى الروضة كل ليلة للملك يأتيها مع ندمائه ، إذا ولّى النهار وصَبَغ الليل ثوب الكون بظلمته وتُشْعَلُ له الشموع وتصطفّ القيان وصفوف الحور والولدان وترجَّع الأنغام والألحان ، وينقضى ليلهم فى لهو وسماع وطرب ، ومنهم أخذ ألحانه وأنغامه . وعليه إذا أراد أن يكون له صوت حسن أن يحذو حذوه فى الاستماع إلى رنات الغناء فى هذا الحفل العجيب . ويدعو النسر إلى المبيت فى الروض غير أنه ينام ، ويضيع منه مراده ، ويعاتبه البلبل عتابا مرا قائلا : إن من استلذ المقام ، عدم المرام ، ووُجِّه إليه الملام . وأكثر البلبل على النسر العتاب ، فودَّعه وطار ، وقد عدم الأوطار . ويطيل المهذب فى العظة من هذه القصة وأن بلوغ المراد إنما يكون مع الاجتهاد ، وبصدق الطلب يُدْرَك الأرب . ويقول العماد إن المهذب أتم الرسالة بفصل وعظى ليس من شرط كتابه ذكره ، وواضح أن وعظها دار حول الجد فى طلب المنى دون مهلة أو مايشبه المهلة فضلا عن الغفلة ومايشبه الغفلة .

(جـ) كتاب الاعتبار[2]

مذكرات طريفة لأسامة بن منقذ أحد أبطالنا فى الحروب الصليبية ، وقد مرت ترجمته بين الشعراء ، والمذكرات أشبه بترجمة شخصية لأسامة ، إذ صور فيها ذكرياته عن تربيته الأولى فى

(١) الشذر : قطع الذهب وصغار اللؤلؤ

(٢) نشر فيليب حتى هذا الكتاب فى برستون سنة ١٩٣١ وراجع ماكتبناه عنه فى كتابينا : الترجمة الشخصية والرحلات (طبع دار المعارف)

شَيْزر حصن آبائه وماوقع له فيها من أحداث ، وقد عاش طويلا نحو مائة عام من سنة ٤٨٨ إلى سنة ٥٨٤ وتنقل – كما مر فى ترجمته – بين دمشق والقاهرة والموصل .. ووصف ماشاهده واشترك فيه من المعارك الحربية بين المسلمين وحَملة الصليب ، وشارك – كما مر بنا – فى أحداث مصر قبيل نهاية الدولة الفاطمية ، وروى ما كان فيها من مؤامرات وخصومات بين الوزراء . ووصف وصفا حيا حربه تحت لواء نور الدين وأبيه للصليبيين ، كما وصف وصفاحيا معيشة حَملة الصليب بديار الشام إذ كانت تتصل بينهم وبين المسلمين – حين تضع الحرب أوزارها – علاقات من حسن الجوار ، مما جعله ينزل بينهم فى بعض الأوقات . وقد وصفهم بأنهم « بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لاغير » ويصورهم متأخرين حضاريا عن المسلمين . ويذكر فى صراحة أن المودة انعقدت بينه وبين بعض فرسانهم ، ويقول إنه لاتوجد عندهم غيرة على نسائهم ، ويصورهم متخلفين فى الطب تخلفا شديدا ، ويقص هذه النادرة :

« من عجيب طبِّهم أن صاحب المنيطرة (فى أعالى الشام) كتب إلى عمى أمير شَيْزر يطلب منه إنفاذ طبيب يداوى مرضى من أصحابه ، فأرسل إليهم طبيبا نصرانيا يقال له ثابت فما غاب عشرة أيام حتى عاد ، فقلنا له : ماأسرع ماداويت المرضى ! قال : أحضروا عندى فارسا قد طلعت فى رجله دُمَّلة وامرأة قد لحقها نشاف فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدملة وصلحت . وحميت المرأة ورطبت مزاجها . فجاءهم طبيب إفرنجى فقال لهم : هذا مايعرف شيء (فكيف) يداويهما ؟ . وقال للفارس : أيما أحب إليك ؟ تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين؟ قال : أعيش برجل واحدة ، فقال : أحضروا إلى فارسا قويا وفأسا قاطعا ، فحضر الناس والفأس وأنا حاضر فحط ساقه على قرمة (قطعة) خشب ، وقال للفارس : اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة ، اقطعها ، فضربه وأنا أراه ضربة واحدة فما انقطعت وضربه ضربة ثانية ، فسال مخ الساق ، ومات من ساعته . وأبصر المرأة ، فقال : هذه المرأة فى رأسها شيطان قد عشقها ، احلقوا شعرها ، فحلقوه . وعادت تأكل من مأكلهم : الثوم والخردل ، فزاد بها النشاف ، فقال ، الشيطان قد دخل فى رأسها ، فأخذ الموسى ، وشقَّ رأسها صليبا ، وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس فحكَّه بالملح ، فقلت لهم : أبقى لكم إلىَّ حاجة ؟ قالوا : لا فجئت وقد تعلمت من طبهم مالم أعرفه » .

وثابت الطبيب إنما قال الجملة الأخيرة سخرية من طبهم . ويتحدث أسامة طويلا عن

عاداتهم ومأأخذوه من العادات الإسلامية الشرقية فى المطعم والملبس ، مما يؤكد أنهم إذا كانوا قد غزوا ديارنا فقد غزتهم بمدنيتها وحضارتها .

وليس فى هذه الترجمة الشخصية لأسامة أى ترتيب زمنى ولاأى نسق تأليفى ، بل الأخبار أو قل الذكريات يأخذ بعضها برقاب بعض ، ذكرى من الكهولة وذكرى من الشباب وذكرى من الشيخوخة ، أو قل إنها ذكريات مبعثرة ، غير أنها كتبت بأسلوب قصصى ممتع لاتصنع فيه ولاتكلف ، فلا سجع يداخله ولامحسن من محسنات البديع ، بل يترك أسامة نفسه على سجيتها يصف ماشاهد وصفا نابضًا بالحياة فى لغة سهلة ، حتى لتقترب أحيانا من العامية . وتشهد بذلك القطعة المارة آنفا ، ففيها بعض الخطأ فى الإعراب وفى نسق الأسلوب ، غير أن ذلك لايتصل فى الذكريات اتصالا من شأنه أن يخرجها من المجال الأدبى الفصيح ، وجعل هذا المنحى أسامة يستخدم أحيانا كلمات إفرنجية وأخرى فارسية أو تركية ، وكأنما يريد أداء الواقع بكل مايتصل به من لغة الناس لزمنه . وفى الحق أن هذه الذكريات نفيسة إلى أبعد حد لما تحمل من أحداث حربية وسياسية وأحوال اجتماعية وخاصة لحملة الصليب ، سجَّلها مشاهد لها رآها تحت بصره .

(د) نسيم[1] الصَّبا

مؤلف هذا الكتاب الذى يُعَدّ طرفة أدبية نفيسة بدر الدين الحسن بن عمر الدمشقى المعروف باسم ابن حبيب أحد أجداده ، ولد لأبيه بدمشق سنة ٧١٠ ولم يلبث الأب أن عُيِّن محتسبًا بحلب ، فنشأ بها بدر الدين ، ورحل فى طلب العلم والأدب إلى دمشق وأخذ عن ابن نباتة ثم إلى القاهرة والفسطاط سنة ٧٣٦ وأقام فى الاسكندرية مدة ، ثم تركها إلى القدس والخليل ومكة . وعاد إلى حلب فطرابلس سنة ٧٥٨ وناب عن الحكم بدمشق فى عهد الأمير سيف الدين منجك ، وولى كتابة الإنشاء فترة وعاد إلى حلب وبها توفى سنة ٧٧٩ . وله تاريخ فى سلاطين المماليك سماه درة الأسلاك فى دولة الأتراك وهو مسجوع ، وله تذكرة النبيه فى أيام المنصور (قلاوون) وبنيه ، وله فى السيرة النبوية كتابان : النجم الثاقب فى أشرف المناقب ، والمقتفى فى ذكر فضائل المصطفى .

---

(١) انظر فى نسيم الصبا ومؤلفه بدر الدين بن حبيب الدرر الكامنة لابن حجر ١١٢/٢ والنجوم الزاهرة ١٨٩/١١ والشذرات ٢٦٧/٦ وتقاريظ الصفدى لنسيم الصبا بين يدى طبعه سنة ١٢٩٠ هـ .

وأهم أعمال ابن حبيب الأدبية « نسيم الصَّبا » وهو ثلاثون فصلا أو مقالة بتعبيرنا الحديث ، اتخذ موضوعها الطبيعة أحيانا ، إذ له فيها ثمانية فصول فى وصف السماء ، والشمس والقمر ، والمطر ، والليل والنهار وفصول العام والبحر والنهر ، والأشجار والثمار والروض والأزهار ، وأحيانا اتخذ موضوعها الحيوان والطير ، إذ له فيه أربعة فصول فى الخيل والإبل والوحش ، والطيور ، ورمى البندق أو الصيد . وأحيانا أخرى اتخذ موضوعها الأخلاق الاجتماعية كالكرم والشجاعة والعدل والإحسان . وقد يتخذ موضوعها الإنسان كوصف غلام أو وصف جارية ، أو بعض علاقاته الإخوانية كالاستعطاف والشكر والثناء والتهنئة والرثاء ، أو بعض شئونه المدنية كالكتابة ، أو بعض شئونه الحربية كالسلاح والمعارك الحاطمة للاعداء ، أو بعض علاقاته بالمرأة وما قد يحدث بينهما من الفراق أو يضنيه من العشق ، وقد أدار الفصل الخاص به على مدحه وذمه ، يذكر فيه محاسنه ومساويه . وبعض الفصول – كما يتضح من موضوعها – مفاخرات أو مناظرات ، على نحو مايلقانا عن فصول السنة فى الفصل الخامس . ونشعر دائما بالقدرة على التعبير المسجوع والتصوير الرائع كقوله فى الفصل السادس يصف البحر وسفينة شق بها عُبابه :

« هزَّتْنى رياح الأمل البسيط ، إلى امتطاء ثَبَج [1] البحر المحيط ، فأتيت سفينة يطيب للسَّفْر مَثْواها ، وركبتُ فيها (بِسْمِ اللهِ مَجْراها ومُرْساها) .. يالها سفينةً ، على الأموال أمينة ، ذات دُسُرٍ [2] وألواح ، تجرى مع الرياح ، وتطير بغير جَناح ، وتعتاض عن الحادى [3] بالملاَّح ، تخوض وتلعب ، وتَرِد [4] ولاتشرب ، لها قِلاع كالقلاع [5] ، وشراع يحجب الشُّعاع ، وسكينةٌ وسُكَّان [6] ومكانةٌ وإمكان ، وجُؤْجُؤٌ وفَقار [7] ، وأضلاع محكمة بالقار [8] .. بعيدة مابين السَّحْر والنَّحْر [9] ، من أحسن الجوارى [10] المنشآت فى البحر ، معقودٌ بِنواصيها [11] الخير كالخَيْل ، لا تملُّ من سير النهار ولا من سُرَى الليل :

---

(١) ثبج : وسط .

(٢) دسر : حبال :

(٣) الحادى : سائق الإبل بالحداء وهو الغناء للإبل

(٤) ترد : من ورود الماء وبلوغه

(٥) قلاع الأولى : شراع السفينة جمع قلع . وقلاع الثانية : جمع قلعة وهى الحصن

(٦) سكينة : وقار . وسكان السفينة : دفتها

(٧) الجؤجؤ : صدر السفينة . الفقار : جمع فقارة وهى الواحدة من عظام سلسلة الظهر

(٨) القار : القطران

(٩) السحر : الرئة ، النحر . أعلى الصدر

(١٠) الجوارى : السفن

(١١) نواصيها : مقدماتها . وفى الخيل : الشعر فى مقدمة الرأس

ما رأى الناسُ من قصورٍ على الما ء سواها تَسيرُ سَيْرَ القِداحِ [١]

كأنها وَعِلٌ [٢] ينحطُّ من شاهق ، أو عِرْباضٌ [٣] سابق يحثُّه سائق ، أو عقرب شائله [٤] ، أو عُقاب صائلة [٥] .. حاكمها [٦] عادل فى حكه ، عارف بنقض أمرها وبَرْمه [٧] ، يهتدى بالنجوم ، ويبتدئ باسم الحى القيُّوم .. وبينما نحن من البحر فى قاموسه [٨] ، كتب الجوُّ حروف الغيم فى طروسه ، وثارت ريح عاصف ، يتبعها رعد قاصف ، فمالت بنا الفُلْك [٩] واضطربت ، ودنت شفتها من رَشْف الماء واقتربت ، واستمرت تعلو على الأوتاد [١٠] ، وتهيم فى كل واد . وتضرم فى الكبود نار ناجرٍ [١١] ، إلى أن (بلغت القلوب الحناجر [١٢]) .. ثم نظر إلينا من لاَ تخفى عليه السرائر ، وأمر الجارية [١٣] بحَمْل عبيده إلى بعض الجزائر » .

ونزلوا الجزيرة وتنزهوا فى رياضها ورأوا فيها نهرا أرضه ذهب وحصباؤه درر . ويمضى ابن حبيب فى الوصف بهذه اللغة النقية الصافية وذلك السجع القصير الذى يمتع الآذان والأذهان بجرسه وما بين الألفاظ من ملاءمات تجعل السجع يلذ الألسنة حين تنطق به ، ويسر القلوب حين تستمع إليه . وبحق يقول ناصر الدين بن البارزى فى الكتاب مقرظًا له : « لقد أشبه الدر فى انتظامه ، والثغر فى ابتسامه ، وقَطْرَ الندى فى انسجامه ، وزهر الروض فى البُكَر إذا غنتْ على غصونه مطرباتُ حمامه .. فهو فى اللطافة كالماء فى إروائه ، وكالهواء المعتدل فى ملاءمة الأرواح بجوهر صفائه ، وكالسلك إذا انتُقى جوهره وأُجيد فى انتقائه » . وقد ختمه ابن حبيب بفصلين بديعين فى الحكم والمواعظ ، ودائما يوشِّى أسجاعه بمحسنات البديع من الجناس وغيره .

---

(١) القداح : السهام

(٢) الوعل : ماعز الجبل الوحشى

(٣) العرباض : البعير الضخم

(٤) شائلة : رافعة ذنبها

(٥) صائلة : واثبة جائلة

(٦) حاكمها : ربانها

(٧) برم الحبل ضد نقضه والاستعارة واضحة

(٨) القاموس : البحر ويريد هنا لجه العظيم

(٩) الفلك : السفينة

(١٠) الأوتاد : الجبال

(١١) ناجر : أشد أشهر الصيف حرارة

(١٢) أى نبت عن أماكنها فى الصدور فبلغت الحلاقم ، والآية كناية عن شدة ما أصاب القلوب من الفزع

(١٣) الجارية : السفينة

(هـ) فاكهة[1] الخلفاء ومفاكهة الظرفاء

مؤلف هذا الكتاب ابن عربشاه أحمد بن محمد الدمشقي الحنفي ، ولد بدمشق سنة ٧٩١ ونشأ بها وطلب العلم فيا ، حتى كانت طامَّة تيمور ومحاصرته لدمشق ونهب جنوده التتار لها وإشعالهم النيران فيها ، مما جعل أسرة ابن عرب شاه ترحل إلى الأناضول ، ومنها رحلتْ إلى إيران وأوغلت إلى سمرقند عاصمة تيمور ، واستوطنها ابن عربشاه مدة . وحُبِّبت الرحلة ولقاء الشيوخ إليه ، فطاف بكثير من البلدان وأخذ عن علمائها وأدبائها ، واستقر في الأناضول أو آسيا الصغرى عند السلطان العثماني محمد الأول (٨٠٥–٨٢٤هـ) وولاه ديوان الإنشاء فكان يكتب عنه إلى أمراء الأطراف باللغات الثلاث التي كان يحسنها : العربية والفارسية والتركية ، وترجم له عن الفارسية كتاب جوامع الحكايات لمحمد عوفى الذى أتم تأليفه سنة ٦٣٣ للهجرة ، ويقال إن عدد حكاياته كان يزيد على ألفي حكاية . وعاد بعد وفاة هذا السلطان العثماني إلى الشام وأقام بحلب ، وخلص حينئذ للدرس والتصنيف . وهاجر إلى القاهرة في عهد السلطان الظاهر جقمق (٨٤٢–٨٥٧هـ) ومر بنا في الفصل الثاني أنه كتب له سيرة ، وتحتفظ دار الكتب المصرية منها بمخطوطة . ومر أيضا أنه كتب سيرة لتيمور سماها عجائب المقدور في نوائب تيمور ، وهي مسجوعة ، وطبعت مرارا . وكان يحسن النظم والنثر ويجيد الكتابة –كما أسلفنا– في العربية والفارسية والتركية ، وصنف في الفارسية كتابا على غرار كتاب محمد عوفى سماه « مرزبان نامه » طُبع قديما ، وعنه نقل كتابه « فاكهة الخلفاء » نثرا مسجوعا . وتوفى بالقاهرة عام ٨٥٤ للهجرة .

وكتابه « فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء » يشتمل على حكايات كثيرة ، وهي موزعة على عشرة أبواب مروية عن الشيخ أبي المحاسن حسان يرويها عن الحكيم « حبيب » ، وهو الابن الصغير للملك ، ترك خمسة إخوة تملك أحدهم وأطاعه إخوته ، ثم دب الحسد في نفوسهم ، فرأى أخوهم الصغير « حبيب » اعتزالهم ، فاستأذن أخاه الملك في العزلة وذكر له أنه يعتزم تأليف كتاب يشتمل على فنون من الحكمة ، فاستصوب رأيه غير أن وزيرا له شككه في مقصد أخيه وأن ذلك منه مكر وخديعة ، وأشار عليه أن يجمع بينه وبين حبيب ليظهر زوره ومينه أوكذبه . فجمع الملك

---

(١) طبع هذا الكتاب في مصر مرارا وانظر في ابن عربشاه النجوم الزاهرة ٥٤٩/١٥ والضوء اللامع للسخاوى ١٢٦/٢ وكذلك كتابه التبر المسبوك ص ٣٢٥ وشذرات الذهب ٢٨٠/٧ والبدر الطالع ١٠٩/١ ومقدمة كتابه : « فاكهة الخلفاء »

أعيان الدولة وعلماءها وفضلاءها وأخذ حبيب يسوق حكمه ووعظه فى أسلوب قصصى مسجوع بديع ، وكان من ذلك هذا الكتاب بأبوابه العشرة الطريفة . والباب الأول فى ذكر ملك العرب ، ومعه أربع قصص : قصة الضحاك الملك الفارسى الأسطورى القديم ، وقصة قابوس بن وشمكير أحد أمراء الأسرة الزيارية التى حكمت طبرستان وجرجان فى القرن الرابع الهجرى وقَتْل أعوانه له ، وقصة بهرام جور الملك الساسانى الذى كان مشهورا بالفروسية وكثرة الصيد مع الفتاة التى رآها وسرعان ماصادته - كما يقول ابن عرب شاه - بلحظها المكسور فأمسى قلبه وهو فى يدها مأسور وما كان من اقترانه بها ، وقصة ابن آوى مع الحمار وكان قد حاول أن يقدمه مأدبة لذئب فقدم الحمار مأدبة للكلاب . والباب الثانى فى وصايا ملك العجم وفيه قصص طريفة منها قصة تحكى ماجرى لابن سلطان بابل مع عمه الظالم الخاتل . والباب الثالث فى قصة خاقان الأتراك مع ختنه أو صهره الزاهد شيخ النساك . والباب الرابع قصص عن الإنسان وعالم الجن والعفاريت . وقصص هذه الأبواب جميعا تدور حول السيرة الحميدة للحكام وماينبغى أن يأخذوا به الرعية من العدل مع بيان الأخلاق الذميمة ومع استعمال الحكمة وحسن التدبير حتى ينال الإنسان مايأمل ، ويأمن مايحذر .

والأبواب الخمسة التالية قصص عن الحيوان والطير على طريقة كليلة ودمنة ، وقد أشار إلى ذلك المؤلف فى مقدمة كتابه قائلا إن الحكمة إذا قيلت على ألسنة الوحوش وماهو غير مألوف الطباع من البهائم والسباع وأصناف الأطيار وسائر الهوام مالت إليها الأسماع ورغبت فى مطالعتها الطباع ، لأن المألوف منها اقتراف الشرور والافتراس ونقص المعرفة والفطنة فإذا أُسندت إليها مكارم الأخلاق من الوفاء وغير الوفاء أصغت الآذان إلى استماع أخبارها ، وتلقتها الصدور بالانشراح ، ونفوس الناس بالارتياح . وتتخلل هذه الأبواب جميعا قصص بديعة ، وكثير منها فارسى الأصل كما يدل عنوانها مثل قصة كسرى القديم مع وزيره بزرجمهر الحكيم وسقوط خاتمه الثمين منه فى الماء والتقام بطة له وحزنه عليه ورجوعه إليه . وذكر فى الباب العاشر قصة كسرى أنوشروان مع الشيخ الهرم الذى رآه يغرس فى بعض البساتين مع انحناء قامته وبياض هامته ومع شدة عنائه وتعبه فى زرع غرسه ونَصَبه . وختم الكتاب ابن عرب شاه بقصة جنكز خان الذى طمَّ العالم بالفساد ، وأهلك العباد والبلاد .

والكتاب زاخر بدقائق الحكمة والفطنة التى تهذب النفوس والتى تعود على الناس بالتهذيب فى معاملتهم والعدل فى حُكمهم والكسب فى معاشهم والعمل الصالح لمعادهم . ويلحُّ الكتاب على

أن المال الذى فى خزائن الحاكم إنما هو مال الرعية فينبغى أن يُنْفَق فى مصالحها وحوائجها ، وهو فى يد الحاكم أمانة ، وصرفه فى غير وجهه خيانة . ويرسم الكتاب دائما لقارئه الأخلاق الحميدة والشمائل الكريمة مع نفسه ومع أبناء جنسه مع رفق ولين للمساكين ، ومع صلابة فى الدين . وفى كل قصة وكل جانب منها تلقانا النصائح والحكم المعينة على الرشاد فى الحياة ، مع الاستضاءة من حين إلى حين بالآيات القرآنية . والكتاب مسجوع ، غير أن لغته واضحة وقلما يكون فيها لفظ غريب . وقصصه رائعة ، وحرى أن تعرض على الناشئة مع إخلائها مما جاء فى بعضها من ألفاظ مفحشة أونابية . ولانشك فى أن ابن عرب شاه جلب فيها من الأقاصيص خير ماقرأه فى الفارسية والعربية من قصص الملوك والحكام وعِلْيَةِ الناس وصعاليكهم . ولابد أنه أضاف إلى ذلك بعض القصص من خياله ، وقد رأى أن يحاكى كليلة ودمنة بقصص كثيرة ، كما أسلفنا . والقصص جميعا تكتظ بالحكم على شاكلة ماقرأه فى كتاب سلوان المطاع فى عدوان الأتباع الذى ألممنا به فى حديثنا عن الجزيرة العربية ، وقد ذكر ذلك صراحة فى مقدمته للكتاب ، وحِكَمه كحكم هذا الكتاب تتردد بين الشعر والنثر .

وفى الحق أنه كتاب بالغ الروعة بما يعلِّم من شئون السياسة والحكم وبما يهدى إليه من البصر بالحياة ومافيها من فضائل تكتسب ، ورذائل تجتنب ، وما أروع الحكمه التى أجراها على لسان بعض الملوك فى قوله لأبنائه ناصحا : « يابنىَّ اكتسبوا العلم والفضل وادَّخروا الحلم والعدل ، فإن احتجتم إلى ذلك كان مالا ، وإن استغنيتم عنه كان جمالا » .

خـاتـمة

تحدَّثنا فى هذا الجزء عن الشام وتاريخها الأدبى فى عصر الدول والإمارات وبـدأنا حـديثنا عنها بالكلام عن فتح العرب لها مع إلمامة موجزة بتاريخها القديم وبيان حياتها السياسية زمن الدولة الأموية وأيام الولاة العباسيين ، وفى عهد الدولتين الطولونية والإخشيدية وأيام الحمدانيين ومن تداولها أو تداول أجزاء منها زمن الدولة الفاطمية ، وقد ظلت معها فلسطين ، وظلت دمشق أيضا معها حقبة من الزمن . واستولى بنو مرداس على حلب واستولى السلاجقة منهم عليها كما استولوا على دمشق . ونزل الصليبيون الشام وأسسوا بها ممالكهم واستخلص منهم عماد الدين زنكى الرُّها وخلفه ابنه نور الدين على حلب وأنزل بالصليبيين ضربات قاصمة وضم إليه دمشق . ولم تلبث الشام جميعها أن انضوت بعده تحت لواء صلاح الدين ، وحطم حَملة الصليب فى حطين وغير حطين واستنقذ منهم بيت المقدس وأكثر بلدان الشام . وظل يدفعهم إلى البحر المتوسط وما وراءه خلفاؤه الأيوبيون،ثم المماليك وسَحْقهُم للمغـول فى عَين جـالوت مشهـور. وكانت مصـر والشام فى أيـام المماليك دولة واحدة إلى أن نزلتها جحافل العثمانيين وأصبحت ولاية عثمانية . وقد عرضنا المجتمع فى الشام وحياته الاقتصادية والاجتماعية وما كان ينعم به من الرخاء إلى أن حكمه العثمانيون حكما ظالما غاشما فانتكست فيه الزراعة والصناعة والتجارة . ومن قديم أخذت تتكاثر فى الشام فرق الشيعة من نصيرية ودروز وإمامية وإسماعيلية نزارية وهى المسماة بالفداوية وبالحشاشين. وقد مضت الشام تُعْنَى بالزهد والتصوف وكثرت فيها - مثل مصر - الزوايا والخانقاهات والطرق الصوفية والدراويش.

وكان بالشام قبل الإسلام تراث يونانى علمى وفلسفى ، وقد نفذت بمجرد دخولها فى الإسلام إلى حركة علمية خصبة ، وتكثر فى بلدانها المدارس منذ أيام السلاجقة كثرة مفرطة ، وكان طبيعيا أن تشارك فى حركة الترجمة للتراث اليونانى وفى العناية بعلوم الأوائل من رياضيات وطبيعيات وطب وجغرافيا بالإضافة إلى ماعُنيت به من علوم اللغة والنحو والبلاغة النقد . ومنذ القرن الرابع الهجرى يتألق اسم كثيرين من نحاتها أمثال الزجاجى وابن خالويه وابن يعيش ونزيلها ابن مالك الأندلسى ، ولعل لغويا عربيا لم يبلغ من الشهرة مابلغه أبو العلاء المعرى ، ونلتقى بحلقة نقدية بحلب زمن سيف الدولة ، وتوالى فيها النقاد من أبى العلاء إلى يوسف البديعى أيام العثمانيين ،

وتنشط بها الدارسات البلاغية منذ ابن سنان الخفاجي إلى عبدالغني النابلسي في بديعيتيه المشهورتين . وتُعنى الشام بالقراءات ويشتهر بها في القرن الثاني الهجري أحد القراء السبعة ، ويتصل فيها هذا النشاط من أيامه إلى أيام ابن الجزري في القرن التاسع الهجري . وينشط بها التفسير وتؤلف فيه كتب نفيسة ، كما تنشط دراسة الحديث النبوي ويتكاثر حفاظه النابهون ، وبالمثل تنشط دراسة المذاهب الفقهية الكبرى ، ويشتهر فيها غير إمام مثل النووي الشافعي وابن تيمية الحنبلي ، وتكون الغلبة بين الكلاميين للمذهب الأشعري . وتنشط الكتابة التاريخية بجميع صورها من سيرة مفردة إلى تاريخ الدول أو دولة معينة وتاريخ المدن وخاصة دمشق وحلب والتراجم أو كتب الرجال والطبقات في مختلف العلوم والمذاهب والأدب والأدباء .

وكانت الشام قد أخذت في التعرب قبل الإسلام لا على الحدود بينها وبين الجزيرة العربية حيث كان يقيم النبط والغساسنة بعدهم فحسب ، بل أيضا في داخل البلاد الشامية ، وفيها وعلى الحدود كان العرب يحيون حياة الروم البيزنطيين ، وكانوا يدينون بدينهم المسيحي . وكان ذلك سببا قويا في أن يتم تعرب الشام سريعا بعد الفتح الإسلامي ، وأن تصبح العربية لسان سكانها جميعا مسلمين ومسيحيين . ولم يكن للشام نشاط يذكر قبل الإسلام في الشعر ، حتى إذا هاجرت إليها القبائل القيسية النجدية المشتهرة بالشعر أخذ يكثر على ألسنة أهلها ، وطوال عصر بني أمية كان يفد عليها شعراء الحجاز ونجد والعراق وشارك غير خليفة في نظم الشعر مثل يزيد بن معاوية والوليد بن يزيد بن عبد الملك ، ويظل للشام نشاطها في الشعر طوال عصر الولاة والدولتين الطولونية والإخشيدية إذ يلقانا للشام غير شاعر نابه مثل أبي تمام والبحتري . وينشط الشعر في القرن الرابع وخاصة في حلب وبلاط سيف الدولة ، على نحو مايصور ذلك الثعالبي في اليتيمة .

ويظل نشاط الشعر مطردا ويخص العماد الأصبهاني شعراء الشام في القرن السادس بثلاثة أجزاء من كتابه الخريدة . وتزخر كتب التاريخ والتراجم بشعراء الشام في القرن السابع الهجري ومابعده . ويكثر الشعر الدوري والرباعيات كما تكثر الموشحات ويشتهر بالنظم فيها أَيْدُمر المحيوي والمحَّار الحلبي ، وبالمثل البديعيات والتعقيدات ، ويروج سوق المديح رواجا كبيرا على نحو ما نجد عند ابن الخياط وابن القيسراني وابن الساعاتي والشهاب محمود ومنجك . وتدبَّج صفحات زاهية لشعراء الحكمة والفلسفة من مثل أبي العلاء المعري ومنصور بن مسلم وابن الجزري . ويكثر شعراء التشيع من مثل كشاجم وابن حيُّوس وبهاء الدين العاملي .

ونلتقي بطوائف كثيرة من الشعراء ، وأول طائفة تلقانا منهم شعراء الغزل وما يثير في النفوس من

العواطف والخواطر والمشاعر على نحو مانقرأ عند عبدالمحسن الصورى وابن منير والشاب الظريف وحسن البوريني . وكان شعراء كثيرون يحاولون أن يملئوا الدنيا ضجيجا بمفاخرهم وبسالتهم فى سحق الأعداء وبفضائلهم أو بهجائهم ومايرسمون لبعض الشخصيات من صور ذميمة ، على نحو مانقرأ عند أبى فراس الحمدانى وأسامة بن منقذ وابن النحاس من جهة وعند عرقلة وابن عنين من جهة ثانية . ونلتقى بكثيرين من شعراء المراثى والشكوى مثل ابن سنان الخفاجى والغزى وفتيان الشاغورى ومصطفى البابى . وكثيرون من الشعراء كانوا يتغنون بجمال الطبيعة ويشغفون بمجالس اللهو فى المتنزهات والأديرة على نحو مانقرأ عند الوأواء الدمشقى وابن قُسَيْم الحموىّ ومجير الدين بن تميم وابن النقيب . وشعراء كثيرون كانوا يتغنون بمشاعر الشعب الدينية ومايتصل بها من الزهد والتصوف والمدائح النبوية مثل عبدالعزيز الأنصارى ومحمد بن سوَّار وعفيف الدين التلمسانى وعبدالغنى النابلسى . وبجانب ذلك كان هناك شعراء شعبيون قصروا شعرهم على الأزجال ولغتها اليومية مثل أبى العلاء بن مقاتل .

وتُعْنَى الشام بالرسائل الديوانية وخاصة فى عهد الدولتين : الأيوبية والمملوكية على نحو مانجد عند العماد الأصبهانى الناثر الشاعر والصفدىّ وابن حجة الحموى وكانا أيضا ناثرين شاعرين ، وتكثر الرسائل الشخصية ، واشتهر أبو العلاء بكثرة ماأملى من رسائله . وتلقانا بعده رسائل شخصية كثيرة كان يكتبها الأدباء للشكر وللتهنئة أو للعتاب أو للاستعطاف أو للعزاء وكثيرا ماكانوا يتراسلون ، من ذلك مراسلات الطغرائى والغَزِّى ، ودائما تلقانا هذه الرسائل الشخصية حتى نهاية العصر وربما قصدوا بها إلى المهارة الأدبية أو إلى الهزل . وتكثر المقامات . ولاتعتمد على أديب متسول كما كانت عند الحريرى ، إذ تُعْنَى بالوصف أو بالوعظ أو المفاخرة بين بعض الأزهار ، وكأنما أصبحت تخوص فى موضوعات متنوعة على نحو ما نجد عند ابن الوردى . وتكثر المواعظ وفى مقدمتها خطب ابن نباته وكتاب الفصول والغايات لأبى العلاء وخطبة القدس بعد فتحه لمحيى الدين بن الزكى وكشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار لابن غانم المقدسى . وتتكاثر فى العصر الأعمال الأدبية من رسائل وغير رسائل مثل رسالة الغفران ورسالة النسر والبلبل وكتاب الاعتبار وكتاب نسيم الصَّبا وفاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء .

الفهـــرس

صفحة

كتب للمؤلف مطبوعة بالدار

فى الدراسات القرآنية

- سورة الرحمن وسور قصار
  عرض ودراسة
  الطبعة الثالثة ٤٠٤ صفحات

فى تاريخ الأدب العربى

- العصر الجاهلى
  الطبعة الثانية عشرة ٤٣٦ صفحة
- العصر الإسلامى
  الطبعة الحادية عشرة ٤٦١ صفحة
- العصر العباسى الأول
  الطبعة التاسعة ٥٧٦ صفحة
- العصر العباسى الثانى
  الطبعة السادسة ٦٥٧ صفحة
- عصر الدول والإمارات
  الجزيرة العربية-العراق-إيران
  الطبعة الثالثة ٦٨٨ صفحة
- عصر الدول والإمارات
  الشام
  الطبعة الثانية ٣٥٦ صفحة
- عصر الدول والإمارات
  مصر
  الطبعة الثانية ٥٠٠ صفحة
- عصر الدول والإمارات
  الأندلس
  الطبعة الأولى ٥٥٢ صفحة

فى مكتبة الدراسات الأدبية

- الفن ومذاهبه فى الشعر العربى
  الطبعة الحادية عشرة ٥٢٤ صفحة
- الفن ومذاهبه فى النثر العربى
  الطبعة الحادية عشرة ٤٠٠ صفحة
- التطور والتجديد فى الشعر الأموى
  الطبعة الثامنة ٣٤٠ صفحة
- دراسات فى الشعر العربى المعاصر
  الطبعة الثامنة ٢٩٢ صفحة
- شوقى شاعر العصر الحديث
  الطبعة الثانية عشرة ٢٨٦ صفحة
- الأدب العربى المعاصر فى مصر
  الطبعة التاسعة ٣٠٨ صفحات
- البارودى رائد الشعر الحديث
  الطبعة الخامسة ٢٣٢ صفحة
- الشعر والغناء فى المدينة ومكة لعصر بنى أمية
  الطبعة الرابعة ٣٣٦ صفحة
- البحث الأدبى:
  طبيعته- مناهجه-أصوله-مصادره
  الطبعة السادسة ٢٧٨ صفحة
- الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور
  الطبعة الثانية ٢٥٦ صفحة
- فى التراث والشعر واللغة
  الطبعة الأولى ٢٧٦ صفحة

فى الدراسات النقدية

- فى النقد الأدبى
  الطبعة السابعة ٢٥٠ صفحة
- فصول فى الشعر ونقده
  الطبعة الثالثة ٣٦٨ صفحة

فى الدراسات البلاغية واللغوية

- البلاغة: تطور وتاريخ
  الطبعة الثامنة ٣٨٠ صفحة
- المدارس النحوية
  الطبعة السادسة ٣٧٦ صفحة

● تجديد النحو
الطبعة الثالثة ٢٨٢ صفحة

● تيسير النحو التعليمى قديمًا وحديثًا مع نهج تجديده
الطبعة الأولى ٢٠٨ صفحات

فى مجموعة نوابغ الفكر العربى

● ابن زيدون
الطبعة الحادية عشرة ١٢٤ صفحة

فى مجموعة فنون الأدب العربى

● الرثاء
الطبعة الرابعة ١١٢ صفحة

● المقامة
الطبعة الخامسة ١٠٨ صفحات

● النقد
الطبعة الخامسة ١١٢ صفحة

● الترجمة الشخصية
الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة

● الرحلات
الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة

فى التراث المحقق

● المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد
الجزء الأول - الطبعة الثالثة ٤٦٨ صفحة
الجزء الثانى - الطبعة الثالثة ٥٧٢ صفحة

● كتاب السبعة فى القراءات لابن مجاهد
الطبعة الثالثة ٧٨٨ صفحة

● كتاب الرد على النحاة
الطبعة الثالثة ١٥٢ صفحة

● الدرر فى اختصار المغازى والسير لابن عبد البر
الطبعة الثانية ٣٥٦

فى سلسلة «اقرأ»

● العقاد — الطبعة الخامسة
● البطولة فى الشعر العربى — الطبعة الثانية
● معى (١) — الطبعة الثانية
● معى (٢) — الطبعة الأولى
● الفكاهة فى مصر — الطبعة الثانية

رقم الإيداع	١٩٩٠ / ٣٤٦٠
الترقيم الدولى	977-02-2936-9 ISBN

١/٩٠/٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

تاريخ
الأدب العربى
٧

عصر
الدول والإمارات
مصر

تأليف
الدكتور شوقى ضيف

الطبعة الثانية

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

عصر

الدوَل والإمَارات

مصْـر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا الجزء من تاريخ الأدب العربي خاص بمصر فى عصر الدول والإمارات الممتد من سنة ٣٣٤ للهجرة إلى العصر الحديث، وكان المؤرخون للأدب العربي - كما ذكرنا فى مقدمة الجزء الخامس من هذه السلسلة - يُدْخلون منه أكثر من ثلاثة قرون فى العصر العباسي الثانى تنتهى سنة ٦٥٦ حين أغارت قطعان المغول على بغداد، وقوَّضتْ ما كان بها من مدنية وحضارة، وهو خطأ محض لأن سلطان الخلافة العباسية كان قد تداعتْ أركانه منذ دخول البويهيين بغداد سنة ٣٣٤ إذ لم يعد لها سلطان حقيقى إلا على بغداد وأعمالها، بل إن سلطانها فى بغداد كان سلطانا منقوصا، إذ كان السلطان الحقيقى فيها بيد البويهيين ومن خلفوهم من السلاجقة. وصحب ذلك توزع العالم العربي إلى دول وإمارات حتى العصر الحديث. وأيضًا كان هؤلاء المؤرخون للأدب العربي يسمّون القرون الثلاثة التالية لغزو المغول بغداد باسم العصر المغولى، بينما كان سلطان المغول لايتجاوز العراق وإيران، ومن الخطأ الواضح أن نقول إن ديار مصر كانت تعيش فى العصر المغولى، بينما لم يكن لسلطان المغول فى تلك الديار أى ظل، والصحيح أن عصر الدول والإمارات كان يظلها، وامتدَّ جناحاه زمنيا حتى شمل ما سماه المؤرخون باسم العصر العثمانى.

وينبغى أن نعرف أن الطول الزمنى لعصر الدول والإمارات لايعنى أن تاريخ الأدب العربي ظل فى كل دولة من دوله أو إمارة من إماراته متسما بسمات أدبية واحدة فى أزمنته المتغايرة عبر قرونه المتطاولة، مهما مرَّ بالدولة أو الإمارة من أحداث ومهما ألمَّ بها من خطوب فإن ذلك يخالف طبائع الشعوب المتطورة دائما من زمن إلى زمن. وهو ماجعلنى أقسِّم تاريخ الأدب فى كل بلد تقسيما زمنيا يحيط بأطواره الأدبية المتعاقبة وصورة مجتمعه وحياته العلمية. ودعانى ذلك إلى أن أرجع فى كل قطر إلى الحقب السالفة لعصر الدول والإمارات منذ الفتح العربي لها لا سياسيًّا فحسب، بل أيضا اجتماعيا وأدبيا وعلميا، حتى تتضح شخصية القطر بكل ما يتميز به فى حياته السياسية والاجتماعية والعلمية والأدبية منذ فجر تاريخه العربي إلى العصر الحديث.

وقد يُظَنّ أن طول هذا العصر دفع إلى شيء من التقاطع الأدبى أو العلمى بين دوله وإماراته، وهو ظن مخطئ، فقد كان بين شعوبها جميعا تواصل لا ينقطع أشبه بتواصل ذوى الأرحام: تواصل فى العادات والتقاليد والمعيشة والدين والأدب والعلم، واستشعر ذلك أسلافنا إلى أقصى حد، فكانوا إذا ألفوا كتابا عن الشعراء مثلا ساقوا فيه شعراء العالم العربى جميعا كما فى اليتيمة للثعالبى والخريدة للعماد الأصبهانى، وبالمثل إذا ألفوا كتاباً عن القرّاء أو المفسرين أو المحدثين أو عن صنف من الفقهاء كالشافعية أو عن النحاة. ودأبوا منذ القرن الثامن الهجرى يجمعون فى القرن علماء العالم العربى وأدباءه جميعًا فى كتب مرتَّبين فيها ترتيبها أبجديا بحيث نستطيع أن نؤرخ فى كل قرن للحركتين الأدبية والعلمية فى أى قطر عربى، ومعنى ذلك أنه ظلت تربط بين الأقطار العربية طوال عصر الدول والإمارات والأزمنة قبله وحدة أدبية وجدانية، وعلمية عقلية.

وقد بدأتُ فى هذا الجزء بعرض تاريخ مصر السياسى، وأقدمُ الأزمنة التى خطَّها التاريخ بها زمنُ الخلفاء الراشدين وماتلاه سريعًا من زمن الأمويين، وفيهما أخذ الدين الحنيف ينتشر فى مصر ويعتنقه كثيرون من سكانها القبط. ويحكمها ولاة من قبل العباسيين ويدخلها مع جنودهم كثير من العناصر الفارسية. وتستشعر مصر استقلالها السياسى منذ أواسط القرن الثالث الهجرى فى عهد الطولونيين، وبالمثل فى عهد الإخشيديين. وتستولى عليها الدولة الفاطمية وتنشئ فيها خلافة شيعية مستقلة عن خلافة العباسيين ببغداد، وتبوء جميع محاولاتها بنشر عقيدتها الإسماعيلية الشيعية بين المصريين بإخفاق ذريع. ويمتد حكمها أكثر من مائتى عام، وتأخذ فى الضعف بعد نحو قرن وينزل حملة الصليب الشام فى أواخر القرن الخامس الهجرى ويستولون على بيت المقدس. ويَغِطّ خلفاؤها فى نوم عميق إلى أن قيَّض الله لمصر صلاح الدين الأيوبى، فأسَّس بها الدولة الأيوبية، وأخذ يسحق ضلوع حملة الصليب فى حِطِّين وغير حِطِّين، وتبعه خلفاؤه الأيوبيون ينزلون بهم ضربات قاصمة. ويخلفهم المماليك، وينازلون المغول فى عين جالوت ويمزقون جموعهم، وتفرُّ فلولهم على وجوهها إلى الشمال، ويطهِّرون الشام من تلك الفلول ومن بقايا حملة الصليب ورِجْسهم. ويدور الزمن دورات، وينزل العثمانيون مصر، وتتحول من دولة ذات سلطان عظيم إلى ولاية عثمانية.

ويُحيل النِّيلُ مصر من قديم إلى جنات وزروع وغروس شتى، وأهَّلها ذلك لرخاء

واسع – على مرِّ الزمن – لمن يسعون فى مناكبها. ودائمًا كان بها – فى العهود الإسلامية – ثلاث طبقات: عليا، ووسطى، ودنيا. وفى الطبقة العليا الوالى وصاحب الخراج، والقاضى، وقواد الجند، وكبار الإقطاعيين، وكبار التجار ومعهم الأشراف من البيتين العباسى والعلوى. وفى الطبقة الوسطى العلماء والجند وأوساط الزراع والصناع والتجار. وفى الطبقة الدنيا أهل الريف وعامة الصناع والتجار والرقيق من أواسط إفريقيا ومن أرمينية وشعوب البحر المتوسط. وترك الحكامُ للكنيسة وكبار الإقطاعيين من القبط ما لهم من الأرض وحقوقها نظير الخراج، وأدَّى المقتدرون من القبط الجزية، وهى فى حقيقتها ضريبة دفاع، إذ لم يكونوا يشتركون فى الحرب وحماية وطنهم. وكانت الزراعة تدرّ كثيرًا من طيبات الرزق، وكانت الصناعة رائجة: صناعة الورق والنسيج واستخراج بعض المعادن كالنطرون. وتلّقى مصر بكنوزها فى حجر أحمد بن طولون فيبنى قصره العظيم، وجامعه الكبير وبيمارستانًا ضخمًا، ويغرق ابنه خمارويه فى ترف بالغ. وتَنعَمُ الدولة الإخشيدية بثراء مصر، ويتضخم فى عهد الفاطميين، ويكثرون من القصور والبذخ والترف وأدواته، ويتسعون فى الاحتفال بالأعياد الإسلامية، وأعياد القبط والفرس. وأصبحت مصر فى عهد صلاح الدين وخلفائه الأيوبيين ثكنة حربية تُعِدُّ لضرب حملة الصليب الضربات القاضية، ومع ذلك اتسعت مصر فى العمران وبناء المدارس الكثيرة والخانقاهات. ويخلفهم المماليك، وتعيش مصر طوال زمنهم فى رغد من العيش، وتزدهر بها الحياة والعمران ازدهارًا واسعًا وكانت قد أصبحت ملاذًا لعلماء العالم العربى النازحين من وجه النورمان والإسبان غربًا ومن وجه المغول شرقًا. وتدور بها الدوائر فيحتلُّها العثمانيون، ويزايلها غير قليل من الرخاء ومن منزلتها الكبرى فى العالم العربى.

وتحدثت عقب ذلك عن الدعوة الفاطمية الإسماعيلية الشيعية المتطرفة ومبادئها وتمسُّك المصريين بعقيدتهم السنية وكأنما كانت تلك الدعوة بمصر صيحات ذهبت أدراج الرياح وبالمثل تحدثت عن الزهد وكيف أن مصر عرفت الضربين من التصوف الفلسفى والتصوف السنى مع بيان أهم طرقه وأعلامه وخانقاهاته.

ومعروف ما لمصر من دور عظيم فى نشأة الحضارة الإنسانية ونشأة العلم بمعناه العالمى وظلت ترعاه طويلًا. وكانت قد خمدت جذوته قبيل نزول الإسلام بها، وعاد إليها الاتقاد تدريجًا بحيث لا نصل إلى أواسط القرن الثانى الهجرى حتى يصبح لعلمائها حظ واضح من المساهمة فى الدراسات الدينية ونشرها فى العالم العربى، فهى

تنشر قراءة وَرْش، ومذهب مالك فى بلاد المغرب والأندلس، وتنشر مذهب الشافعى فى الشام وبغداد وخراسان. وسرعان ما تكتب تاريخَ الفتوح لإفريقيا والأندلس لأول مرة، وتكتب روايةً للسيرة النبوية الزكية، تصبح إمامًا لكتب السيرة الشريفة، ويضع أحد أبنائها وهو ذو النون أسس التصوف الإسلامى. وتزداد حركتها العلمية نشاطًا فى عهد الفاطميين ويؤسِّسون بها جامعة سموها دار العلم، ألحقوا بها مكتبة ضخمة. وتأخذ الحركة العلمية بمصر فى ازدهار واسع لعهد الأيوبيين وما أسسوا بها من عشرات المدارس، ويزداد عددها فى عهد المماليك ازديادًا مفرطًا حتى ليقول ابن بطوطة حين زار مصر لأيامهم إن أحدا لا يستطيع أن يحيط بها لكثرتها. ولم تكن المدارس وحدها دور العلم فقد كانت تشاركها فى ذلك المساجد والجوامع مثل الجامع الأزهر. ومع خمود تلك الحركة العلمية فى عهد العثمانيين ظلت مصر حامية للتراث العربى، وموئلاً لعلماء المغرب والمشرق، وظلت تضيىء فى جامعة الأزهر مصابيحُ العلم والعرفان.

وعرضتُ نهضة العلوم المختلفة بمصر عرضا تفصيليا تاريخيا على مر الأزمنة، وبدأت بعلوم الأوائل، وألممت بما كان لمصر فيها من نشاط قبل الفتح العربى سواء فى الهندسة أو الرياضة أو الفلك أو الطب أو الكيمياء أو الفلسفة. وانتفعتْ مصر الإسلامية بما كان فيها من هذا التراث، وضمَّت إليه ما نُقل ببغداد من الفلسفة وعلوم الأوائل عن اليونانية وغير اليونانية. وقد تحدثت عن النشاط العلمى والفلسفى لمصر منذ أيام الفاطميين وأعلامه على مر الحقب، وتحدثت عن جُغْرافييها منذ ابن سليم مكتشف المجرى الأعلى للنيل فى أواسط القرن الرابع الهجرى. وبالمثل تحدثت عن النشاط فى علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد وأعلام مِصر فيها جميعًا على مر التاريخ ومع كل عَلَمٍ مصنفاته القيمة. وأيضًا عرضت علوم القراءات والتفسير والحديث النبوى والمذاهب الفقهية وعلم الكلام والتاريخ وعلماءها جميعًا على تعاقب الحقب، وما لهم من مصنفات بالغة القيمة، وذكرت فى كل عِلْمٍ من العلوم الدينية واللغوية وعلوم الأوائل من نبغوا فيه أيام العثمانيين. وبذلك أصبح التاريخ العلمى لمصر وعلمائها الأفذاذ فى كل علم وفن مرسومًا رسمًا بَيِّنا دقيقا منذ القرن الثانى الهجرى حتى العصر الحديث.

وقد أخذت مصر – بعد الفتح العربى – تتعرَّب سريعًا لاعتناق كثير من سكانها القبطِ الإسلامَ لما استقرَّ فى نفوسهم من أن مَنْ يسلم منهم يصبح له جميع حقوق

العربى الفاتح، ويدلُّ بوضوح على كثرة من أسلم منهم أن الجزية التى كانت تؤخذ من القبط فى عهد عمر بن الخطاب هبطت إلى أقل من النصف فى عهد معاوية. وعملت على السرعة فى تعرب مصر هجرات كثير من القبائل إليها حين سمعوا بزروعها وثمارها وطيبات الرزق فيها، وامتزجوا بسكانها عن طريق المعيشة والمصاهرة، مما أعدَّ لتعرب من لم يدخل من القبط فى الدين الحنيف، حتى إذا كنا فى القرن الثالث الهجرى تمَّ تعرب القبط برهبانهم وبطاركتهم وإن ظلت القبطية حية فى بعض الأديرة.

وكان نشاط الشعر العربى بمصر محدودًا زمن الأمويين لأن كثرة الجيش العربى الفاتح كانت من اليمنية، والشعر إنما يكثر على لسان القبائل المضرية والقيسية، وربما نظمت بها أشعار لم يسجِّلها الرواة، حتى إذا كنا فى زمن ولاتها العباسيين رأينا الشعر يأخذ فى النشاط بها، ونزلها أبو نواس وأبو تمام، وازداد نشاطه فيها لعهد الدولتين الطولونية والإخشيدية ونزلها المتنبى وأحدث نزوله بها حركة أدبية خصبة.

وتتحول مقاليد الحكم فيها إلى الدولة الفاطمية. ويترجم الثعالبى فى كتابه «اليتيمة» لكثيرين من شعراء مصر، ويفرد لها العماد الأصبهانى مجلدين فى كتابه «الخريدة» ترجم فيهما لمائة وأربعين شاعرًا، ويطَّرد هذا الازدهار للشعر فى مصر طوال زمن الأيوبيين والمماليك، وتظل منه بقية أيام العثمانيين.

ويكثر فى مصر الشعر الدورى منذ ابن وكيع التنيسى فى القرن الرابع الهجرى، وتكثر الرُّباعِيَّات حتى إذا ازدهرت الموشحات فى الأندلس درسها ابن سناء الملك شاعر صلاح الدين الأيوبى ووضع لها عروضها ورسومها كما وضع الخليل بن أحمد فى القرن الثانى الهجرى عروض الشعر العربى ورسومه. ولابن سناء الملك فيها موشحات تشيع فيها حلاوة الجرس والسلاسة والعذوبة، وبذلك كتب لها الذيوع الواسع بعده فى مصر على ألسنة الشعراء مثل العَزازى، وأكثرَ المتصوفةُ فى زمن المماليك من النظم فيها وتلحينها فى أذكارهم. ويستظهر الشعراء - منذ القاضى الفاضل - ألوان البديع ومحسناته، ويصبح التفنن فيها مقياس إبداعهم.

وأخذتُ - بعد ذلك - أترجم لأعلام الشعر فى مصر طوال عصر الدول والإمارات محللًا لشخصياتهم الأدبية وموزعًا لهم على أغراض الشعر وموضوعاته الأساسية، فللمديح أعلام مبدعون من مثل ابن سناء الملك واضع عروض الموشحات، وللرثاء والشكوى أعلامها النابهون مثل على بن النضر بملكته الشعرية

الخصبة، وللدعوة الإسماعيلية أعلام مختلفون مثل ابن هانئ الشاعر الفاطمى، وللغزل أعلام وجدانيون مرهفون مثل البهاء زهير، وللفخر والهجاء أعلام مبرزون مثل تميم بن المعز وابن الذِّروى المقذع فى هجائه، وللطبيعة ومجالس اللهو أعلامها مثل الشريف العقيلى وله فى الطبيعة المصرية ديوان كبير بديع، وللزهد والتصوف والمدائح النبوية أعلام يتغنون بالحب الإلهى مثل ابن الفارض وبالحب النبوى مثل البوصيرى، وللفكاهة أعلام تموج أشعارهم بالتندير والدعابات والتوريات والهزل مثل ابن دانيال وله مسرحيات هزلية بديعة. وعرضت شعراء الشعر الشعبى العامى وطرائف مما نظم أعلامه من فنونه فى الأزجال والتوريات والفكاهات المستملحة. وبلغ عدد من ترجمت لهم من شعراء مصر الأفذاذ فى عصر الدول والإمارات اثنين وأربعين شاعرًا، ومع كل شاعر تصوير شخصيته الأدبية وخصائصه الفنية وروائع شعره. وقد ذكرت مع كل غرض من أغراض الشعر شاعرا نابها من الشعراء أيام العثمانيين. ولم أترجم لعشرات من شعراء مصر تكتظ بهم كتب الطبقات والتراجم لأنه لم يكن لأحدهم دور بارز فى تطور الشعر بمصر، وأنا لا أكتب دائرة معارف لشعرائها على مرّ الأزمنة، وإنما أكتب تاريخها الأدبى فى الشعر، ومن كان لهم دور فى التطور به أتاح لهم مجدًا أدبيًّا كثيرًا أو قليلاً.

ومضيت أعرض النثر وكتّابه بمصر بادئًا بالرسائل الديوانية منذ أنشأ أحمد بن طولون ديوان الإنشاء واتخذ له كتّابًا مجيدين. ويُعْنَى الفاطميون بهذا الديوان ويشتهر فيه غير كاتب بحسن بيانه، وخاصة فى الحقبة الأخيرة من أيامهم. وتبلغ الرسائل الديوانية الذروة الأدبية على يد القاضى الفاضل وزير صلاح الدين، ويتألق نجمه وتصبح له مدرسة كبيرة، ويتكاثر تلاميذها فى بقية أيام الدولة الأيوبية ودولة المماليك، وترجمت لأربعة من أعلام الكتابة الديوانية. وأخذت الرسائل الشخصية تزدهر بدورها منذ زمن الفاطميين، واتسع ازدهارها بعدهم، وترجمت لثلاثة من أعلامها النابهين. ويُعْنَى بعضُ الكتّاب - منذ أيام الفاطميين - بكتابة المقامات، وقلّما تقوم على الشحاذة الأدبيّة مثل مقامات الحريرى، إنما تقوم على بعض مسائل علمية، أو على وصف الطبيعة، أو على قَصَصٍ فكه، أو على وعظ، أو على مفاخرات بين الأزهار، أو بين السيف والقلم، وما إلى ذلك من موضوعات أدبية، وترجمت لأربعة من كتابها البارعين. وتكثر المواعظ والابتهالات والمناجيات الربانية على نحو ما صوّرت ذلك عند ثلاثة من أعلامها المهمين. وعرضت - بعد ذلك - أربعة من كتب النوادر

هي: كتاب المكافأة لأحمد بن يوسف، وهو حكايات قصيرة لطيفة تحض على عمل الخير، وكتاب أخبار سيبويه في نقد الحكام والناس ممزوجًا بالتَّبالُه، وكتاب الفاشوش في حكم قراقوش وكان صلاح الدين ينيبه عنه أحيانًا في حكم القاهرة، وصوَّره ابن مماتي في طائفة من الأحكام الطائشة تحكي غفلته وحمقه وبلهه، وكتاب هز القحوف ويكتظ بنوادر لاذعة على لسان أهل الريف المصرى تصوِّر بؤسهم أيام العثمانيين. وتلا ذلك أربعُ سِيَر شعبية: سيرة عنترة، والسيرة الهلالية، وسيرة الظاهر بيبرس، وسيرة سيف بن ذى يزن، وجميعها تصور البطولة العربية وفضائلها الرفيعة. وعرضت أخيرًا كتاب ألف ليلة وليلة وتاريخ نقله إلى العربية وما أضيف إلى قصصه الهندية من قصص بغدادية وقصص مصرية مع بيان ما يتميز به كل نوع من أنواع هذه القصص. وقد صاغت مصر الكتاب بلغتها العامية وانتشر بها في العالم العربي منذ عصر المماليك. وبنفس العامية انتشر في البلاد العربية من قديم ما أَلَّفَتْه مصر من كتب السير الشعبية المذكورة آنفًا: سيرة عنترة وأخواتها. وكان لذلك أثره الكبير في تعرف تلك البلاد على العامية المصرية قبل العصر الحديث بمئات السنين.

وهذه الدراسة المتشعبة لتاريخ الأدب العربي في مصر أثناء حقب طويلة تمتد من فجر تاريخها العربي إلى العصر الحديث جعلتنى أرجع إلى كل ما استطعت من المصادر والمراجع المتصلة بتاريخ مصر ودولها المتعاقبة، وبمجتمعها وطبقاته وشئونه المعيشية والعقيدية، وبالحركة العلمية فيها ونموها وازدهارها، مع العرض التاريخي لعلمائها الأفذاذ في علوم الأوائل والعلوم اللغوية والدينية والكتابة التاريخية. ورجعت أيضًا إلى كل ما استطعت الاطلاع عليه من الشعر ودواوينه، وما اتصل به من الرباعيات والموشحات، كما رجعت إلى الكتابات النثرية المتنوعة من مثل الرسائل والمقامات والمواعظ والسير والقصص الشعبية، مع رسم الشخصيات الأدبية للشعراء والكتاب النابهين وعرض خصائصهم الفنية عرضا نقديا تحليليا. ولا أزعم أني صورت تاريخ الأدب العربي في مصر قبل العصر الحديث تصويرًا كاملًا، إنما حاولت، وأرجو ألّا أكون قصرت. والله أسأل أن يلهمنى السداد في الفكر، والإخلاص في القول والعمل. وهو حسبى ونعم الوكيل.

القاهرة في ٢٠ من مارس سنة ١٩٩٠م.

شوقي ضيف

الفصل الأول

السياسة والمجتمع

١

فتح العرب لمصر والحقب الأولى[1]

(ا) فتح العرب لمصر

معروف أن مصر نهضت بأقدم دور فى تاريخ الحضارة الإنسانية ، فعنها تلقت الأمم القديمة هندسة البناء كما تشهد بذلك أهراماتها الشامخة . كما تلقت عنها فكرة الكتابة ونقش الحروف ، وبذلك كان لها فضل كبير فى بث المعرفة ، وأعدَّها النِّيل لتكون أستاذة الأمم فى العناية بالزراعة وتنظيم الترع والجسور . وهى أول من حاول تأليف أمم الشرق الأوسط فى وحدة امتدت من الفرات إلى النيل ومن آسيا الصغرى إلى بلاد البُنْت والنُّوبة . ودار بها الزمن دورات ، فدخلها الرُّعاة الهكسوس والأشوريون ، وسرعان مازايلوها ، وغزاها الفرس فى عهد قمبيز عام ٥٢٥ ق . م ونزلها الإسكندر المقدونى عام ٣٣٣ ق . م وأسس بها مدينة الإسكندرية ، وأقام بها قائده بطليموس هو وأبناؤه دولة البطالمة الإغريقية متخذين الإسكندرية عاصمة لهم . وفى عام ٣١ للميلاد استولى عليها الرومان ، وثارت عليهم مصر مرارًا ، ودخلها الفرس وقاومتهم مصر والرومان ، ففارقوها سريعا ، وتسوء أحوالها سوءًا شديدًا ، فإن هرقل إمبراطور بيزنطة كان يضطهد مَنْ لايعتنقون مذهبه الملكانى المسيحى ، وكان المصريون يعاقبة ، يقولون بأن الله والمسيح

---

(١) انظر فى فتح مصر فتوح مصر لابن عبد الحكم وفتوح البلدان للبلاذرى وتاريخ الطبرى وابن الأثير والمغرب لابن سعيد قسم الفسطاط (طبع جامعة القاهرة) وخطط المقريزى (طبعة دار التحرير) ١ /٥٥١ والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى : فواتح الجزء الأول ومروج الذهب للمسعودى وحسن المحاضرة السيوطى (طبعة عيسى البابى الحلبى) ١/ ١٠٦ وفتح العرب لمصر لبتلر (الترجمة العربية) طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان (الترجمة العربية) طبع بيروت ١/ ٩٩ .

اتحدا فى طبيعة واحدة بينما كان الملكانية يرون أن للمسيح طبيعتين طبيعة لاهوتية روحية وطبيعة ناسوتية جسدية ، وعارض المصريون المذهب الملكانى البيزنطى معارضة شديدة ، ويعين هرقل قيرس (المقوقس) بطريقا للإسكندرية جامعا إلى سلطته الدينية السلطة الزمنية ، ويأخذ فى حمل المصريين على مذهبه الملكانى فيقاومونه مقاومة حادة ، ويعنف بهم وبرهبانهم ويثقل عليهم فى الضرائب . وبذلك يضيف إلى الغُلّ الدينى غلاًّ اقتصاديا .

وتقاوم مصر بكل ما استطاعت ، إذ كانت تعدُّ الدين مظهر استقلالها وحريتها وشخصيتها ولذلك اشتد سخطها على بيزنطة ، وبينا هى فى هذا السخط الحاد إذا العرب بقيادة عمرو بن العاص يقبلون من الشرق عام ١٩هـ / ٦٤٠ م ويستمرون فى زحفهم حتى حصن بابليون (بالقرب من ممفيس القديمة) ويطول حصارهم له ، فيغزو عمرو إقليم الفيوم ويشدد الحصار على حصن بابليون ، ويضطر قيرس (المقوقس) إلى التسليم . ويتجه عمرو إلى الشمال الغربى ويستولى على الإسكندرية . ولم يكن يقاومه فى حصن بابليون والإسكندرية جميعا سوى الروم . وكأن المصريين وجدوا فيه وفى العرب مخلصا لهم ، إذ سرعان ماعرفوا أن الإسلام يكفل لهم حريتهم الدينية ولا يمس كنائسهم ومعابدهم ، ولذلك لم يقاوموا هؤلاء الفاتحين إذ وجدوهم يردون لهم استقلالهم الدينى .

ودائما الدين فى مصر يوضع فوق السياسة والحكم وفوق كل شىء . وما كان ليعقل أن يحمل المصريون السلاح ويدافعوا عن الروم الذين يعتدون على مذهبهم الدينى وحريتهم الدينية ، حتى لقد فرَّ البطريق القبطى بنيامين وظل مختبئا حتى دخل العرب مصر وكفلوا للقبط معتقداتهم الدينية ، ورفعوا عن كواهلهم ما أبهظها من ضرائب الروم الفادحة . فكان طبيعيا أن يتعاون قبط مصر مع العرب وأن ينفضوا أيديهم من الروم ، ولذلك حين عاد أسطولهم إلى الإسكندرية واستولوا عليها لم يلقوا تأييدًا منهم ، وهزمهم العرب بقيادة عمرو بن العاص هزيمة ساحقة عام ٦٤٦ م /٢٥ هـ ومن بقى منهم ولىَّ فى البحر المتوسط إلى غير مآب . وبدأت من حينئذ مصر دورتها العربية الجديدة .

(ب) زمن الولاة[1]

أصبحت مصر ولاية تتبع الخلافة ، وكان أول ولاتها عمرو بن العاص الفاتح لها ، ولايزال باقيا من آثاره فى القاهرة مسجده الذى يحمل اسمه والذى بناه فى الفسطاط : موضع معسكره فى حصاره لحصن بابليون وتسمى منطقته الآن باسم مصر القديمة . وحين تم له طرد الروم من الإسكندرية بنى بها مسجد الرحمة . وكان ذلك إيذانا باستيلاء الإسلام عليها كما استولى على مصر من جميع أطرافها . وولى مصر فى عهد عثمان عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، وكان عمرو بن العاص قد تغلغل فى إفريقيا الشمالية فتبعه يتغلغل فيها ، وفى سنة ٣٤ حاول الروم غزو الإسكندرية ، فغزاهم فى البحر ودمر سفنهم ، وتسمى الغزوة « ذات الصوارى » لكثرة مااجتمع فيها من السفن . ثم كانت الفتنة أيام عثمان رضوان الله عليه . واختلف عليها ولاة لعلى رضى الله عنه ، ووليها عمرو بن العاص لمعاوية حتى توفى سنة ٤٣ وفى أيامه أرسل عقبة بن نافع فتغلغل فى إفريقية ، وكانت له فيها أيام ولاية عمرو بن العاص الأولى جولات بعيدة ، وستصبح له فيما بعد حين يولِّيه معاوية قيادة الفتوح فى المغرب جولات أكثر عمقا ، يختط فيها مدينة القيروان بالقرب من تونس الحالية .

وتولّى مصر بعد عمرو بن العاص ابنه عبد الله أشهرا ، ثم عزله معاوية وولى عليها عقبة بن عامر الجهنى ، وأخذ الولاة فى أيام بنى أمية يتعاقبون عليها حتى بلغوا فى نحو تسعين عاما ثمانية وعشرين واليا ، إذ اتّبع الأمويون فى ولاية مصر سنة تغيير الولاة ، وهى سنة سيئة ، إذ كان الوالى يَقْدم وهو يعلم أنه معزول عما قليل ، فكانت لاتهمه شئون مصر بمقدار ماتهمه شئون نفسه والعمل على اكتناز الثروة الضخمة قبل أن يتسلم كتاب العزل . وربما كان خير وال أموى تولى مصر حينئذ عبد العزيز بن مروان ، وقد امتدت ولايته من سنة ٦٥ حتى سنة ٨٦ واشتهر بما بَنَى فى حلوان من قصور وغرس من جنات وزروع وكان جوادا ممدَّحا ، وإليه شَدَّ الشعراء الرحال من الحجاز ونجد والعراق ، ويقال إنه كان له ألف جَفْنة (قِدْر) تُنْصَبُ كل يوم حول داره لإطعام

---

(١) انظر فى ولاة مصر زمن الأمويين والعباسيين كتاب الولاة والقضاة للكندى (طبعة جيست) والجزء الأول والثانى من النجوم الزاهرة وتاريخ الطبرى وابن الأثير وابن خلدون وخطط المقريزى ١ /٥٦١ ومابعدها وحسن المحاضرة ١ / ٥٧٨ ما بعدها .

الناس ، وكان له بجانبها مائة جفنة يطاف بها على القبائل . ولاريب فى أن هذا الجود الفياض إنما كان على حساب الشعب ، ومايؤدى من ضرائب باهظة . وكان للولاة الأمويين فى فرض الضرائب الاستثنائية أفانين كثيرة ، وكانت الرعية تضجّ منها فى كل أقاليم الدولة .

ويظل هذا الظلم يزداد عسفا إلى أن يتولى عمر بن عبد العزيز الخلافة سنة ٩٩ فيأمر برفع الظلم عن رعيته وإلغاء كل لون من ألوان الضرائب الاستثنائية . وقد وجد الولاة يلزمون كل من أسلم من القبط وغيرهم من الموالى بالجزية ، كأنهم لايزالون على دينهم القديم ولم يدخلوا فى الإسلام ، معطلين بذلك أحكام الدين الحنيف ، فوقف كلَّ هذا الظلم ومايجرُّ إليه من فساد ومن تعطيل أوامر الدين ، من ذلك ماكتب به إلى حَيَّان بن شُرَيْح صاحب ديوان الجند والخراج فى مصر : « ضَعِ الجزية عمن أسلم من أهل الذمة فإن الله تبارك وتعالى يقول : (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتَوُا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم) ويقول (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولاباليوم الآخر ولايحرِّمون ماحرَّم الله ورسوله ولايدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يُعْطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون) . ويبدو أن حيان بن شريح تلكأ فى تنفيذ أمر عمر بن عبد العزيز ، فكتب إليه غاضبا : « قد أمرت رسولى بضربك على رأسك عشرين سوطا ، فضع الجزية عمن أسلم ، قَبَّح الله رأيك ، فإن الله إنما بعث محمدا ﷺ هاديا ولم يبعثه جابيا »[1] .

واضطر حيان بن شريح أن يصدع لأمر عمر ، غير أن مدة خلافته كانت قصيرة ، إذ سرعان ماتوفى لأول سنة فى المائة الثانية ، فعاد ولاة بنى أمية إلى سيرتهم الأولى فى مصر وغير مصر ، ومضوا يعصرون القبط ، سواء منهم من أسلم ومن ظل على دينه . وبذلك نفهم انتقاض القبط على الوالى سنة ١٠٧ وكذلك بأخرة من أيام الأمويين ، فإن الولاة لم يكونوا يرعون فيهم مافرضه الإسلام من العدل وحرَّمه من الظلم والعسف . وظلت الفسطاط حاضرة الوالى الأموى منذ اختط عمرو بن العاص للناس منازلهم فيها ، ولاتزال آثارها باقية إلى اليوم . ويقول المؤرخون إن الدور فيها كانت تتألف أحيانا من ست طبقات أوسبع . ولما قدم مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين إلى مصر منهزما وتبعه الجيش العباسى إلى الصحراء أمام مدينة الفسطاط أذن القواد للعسكر بالبناء حيث نزلوا ، فقامت ضاحية أو مدينة العسكر بجوار الفسطاط ، وكان ينزلها ولاة بنى العباس ، وتلقانا بعض انتقاضات للقبط حتى سنة ١٥٠ ثم لانعود نسمع عنها ، إنما تلقانا انتقاضات

---

(١) انظر فى هذه الرسالة وسابقتها خطط المقريزى ١/ ١٤٢ وما بعدها .

للعرب . وفى رأينا أن فى ذلك إشارة واضحة إلى ماتم فعلا من امتزاج بين الأقباط والعرب ، فإن كثيرين من القبط دخلوا فى الإسلام وكثيرين من العرب سكنوا القرى وزرعوا الأرض وامتزجوا بالقبط وأصبحوا يؤلفون أمة واحدة . وأول انتقاض يلقانا – للعرب – انتقاض دِحْية حفيد عبد العزيز بن مروان بالصعيد لسنة ١٦٥ وكان قد تولى موسى بن مصعب الموصلى فشدد فى استخراج أموال الخراج وضاعف مايُطْلَبُ من كل فدان وجعل خراجا على الأسواق والدواب وارتشى فى الأحكام فثارت عليه قيس واليمانية ، وانتهى أمره بقتله . وقُضى سريعا على ثورة دحية سنة ١٦٩ . ونظل نسمع عن انتقاضات فى الحوف الشرقى ، ويستغل الفرصة الجَرَوى فى تَنِّيس وبنو السَّرِىّ الذين استولوا حينا على مقاليد الأمور ، مما اضطر المأمون أن يسند إليهم الولاية على مصر من حين إلى حين . وتحدث فى هذه الأثناء ثورة الفقهاء فى قرطبة على الحكم الربضى الأمير الأموى ويأمرهم بمغادرة البلاد ، فينزلون الإسكندرية ويستولون عليها . ويرسل المأمون قائده عبد الله بن طاهر ، فيعيد الأمن إلى مصر لسنة ٢١٠ ويُخْرِج منها الأندلسيين إلى جزيرة كريت ويستولون عليها . ويعود ابن طاهر فى سنة ٢١٢ وينتقض أهل الحوف مرارًا ، ويثور القبط ، ويضطر المأمون إلى القدوم بعسكره إلى مصر سنة ٢١٧ فيقضى على مابها من فتن . ويأمر واليه على مصر فى سنة ٢١٨ أن يأخذ الناس بمحنة خلق القرآن المشهورة . ويتولى بعد المأمون أخوه المعتصم فى نفس السنة المذكورة ويأمر بإسقاط العرب من الدواوين بمصر وغير مصر ، ومنذ هذا التاريخ يندمجون نهائيا فى أهل مصر من القبط ومن أسلم منهم . ويغزو الروم دمياط سنة ٢٣٨ وسرعان مايرحلون عنها إلى غير رجعة .

وربما كان أهم ماخلفه زمنُ الولاة أيام الدولة العباسية كثرة العناصر الفارسية التى دخلت مصر ، فقد كان الجيش الذى تعقب مروان بن محمد ، وبُنِى له « العسكر » ، أكثره إن لم يكن كله من الفرس ، وظلت الجنود التى ترسل مع بعض الولاة أو للقضاء على بعض الانتقاضات والفتن فارسية فى جملتها ، وكان كثير ممن يسند إليهم الولاية بمصر فُرْسًا ، وبالمثل من كان يُسْنَدُ إليهم القضاء . وكل ذلك معناه أن العناصر الفارسية تكاثرت بمصر فى زمن العباسيين ، وكان لهم أسلاف قدماء جاءوا مع اليمنيين فى فتح مصر ، إذ كانت اليمن فى الجاهلية تابعة حينا للفرس فكان بها عناصر فارسية ، وقد دخلت فى الإسلام وشاركت اليمنيين فى رحلاتهم للفتوح . وبذلك كله نستطيع أن نفسر وجود نفر غير قليل يرجعون إلى أصول فارسية بين علماء مصر وفقهائها مثل الليث ابن سعد الفقيه المشهور وكذلك بين كتابها فى الدواوين .

(جـ) الطولونيون[1]

هم أول أسرة حكمت مصر حكما مستقلا ، وحقًّا كانت تتبع الخلافة العباسية ، غير أن تبعيتها لها كانتْ اسمية ، وزعيم هذه الأسرة ومؤسس دولتها أحمد بن طولون ، وهو تركى الأصل ، كان أبوه طولون من موالى المأمون والمقربين منه ، ورزق بابنه أحمد سنة ٢٢٠ فعنى بتربيته ، وبدأ بحفظ القرآن الكريم حتى أتقنه ، وأكب على حلقات العلماء وخاصة فقهاء الأحناف يتزود منها . ومازال أبوه يخدم الخلفاء حتى توفى فى عهد المتوكل ، ففوَّض لأحمد ما كان لأبيه من الأعمال ، وولى بعض الثغور ، وكان شديد الإزراء على الترك فى معاملتهم السيئة للخلفاء ، ونال الْحُظوة عند الخليفة المستعين ، وحاول الأتراك أن يدفعوه إلى المشاركة معهم فى مقتله فأبى ذلك . ولم تلبث مصر أن أُقْطعت لزوج أمه بايكباك ، فأنابه عنه فى حكمها سنة ٢٥٤ وسرعان ماأخذ يعمل على الاستقلال بها . وبدأ ذلك بأن جمع فى يده شئونها المالية بجانب شئونها الإدارية ، واتخذ جيشا ضخما بلغ عداده مائة ألف ، وفى أثناء ذلك ضُمَّتْ إلى حكمه الإسكندرية وبرقة ، ولانصل إلى سنة ٢٦٤ حتى تضم إليه الشام . وبلغ خراج مصر فى زمنه أربعة ملايين وثلاثمائة ألف دينار ، مما جعله يتسع فى إقامة المبانى والمؤسسات . وكان قد سكن العسكر فى أول أمره شأن الولاة من قبله ، ثم أخذ فى بناء مدينته القطائع ، بادئا بقصره الكبير ثم بقطائع لجنده من الترك والنوبة والروم ولحواشيه من القواد وكبار الموظفين . وعُنى ببناء مسجده الكبير ، وبُنيت مساجد كثيرة وطواحين وحمامات وأفران وحوانيت . وجعل أمام قصره ميدانا كبيرًا يُلْعَبُ فيه بالكرة ، ولما عظم أمره كان يطعم الفقراء والمساكين كل يوم ، ويقال إن صدقاته كانت تبلغ فى السنة أكثر من مليونى دينار ، وبنى مارستانا ضخما ، واتخذ لنفسه ديوانا كبيرًا على شاكلة دواوين الخلافة . وحدثت خصومة بينه وبين الموفق ولى عهد الخليفة المعتمد وقائده ، مما أدى إلى اشتباك جيوشهما . وعُنى فى دولته بأن ينقل إليها الأنظمة الفارسية التى كانت متبعة فى بغداد وسامراء . وأخذ البيعة من بعده لابنه خمارويه . ولم يلبث ابن طولون أن توفى سنة ٢٧٠ .

---

(١) انظر فى الطولونيين تاريخ الطبرى واليعقوبى وابن الأثير وابن خلدون والجزء الثالث من النجوم الزاهرة والمغرب لابن سعيد (طبع جامعة القاهرة) ص ٧٣ ومابعدها والولاة للكندى (طبعة صادر) ص ٢٣٩ ومابعدها وخطط المقريزى ١ / ٥٨٩ وسيرة أحمد بن طولون للبلوى (طبعة محمد كرد على) وراجع أحمد بن طولون وخمارويه والطولونيين فى دائرة المعارف الإسلامية وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٢٢٠ .

وتبلغ دولة الطولونيين فى عهد خمارويه كل ما كان يؤمَّل لها من ازدهار . وتحدث فى أوائل حكمه مناوشات بين جيشه وعسكر الموفق ، وسرعان ماينعقد بينهما صلح وثيق . ويقال إن رواتب الجيش المصرى بلغت فى أيامه تسعمائة ألف دينار ، مما يدل على ضخم الجيش ومدى عنايته به . وفرغ بعد صلحه مع الموفق للعناية بشئون دولته ، وزاد فى قصر أبيه وحوَّل الميدان الذى كان أمامه بجوار مسجد أبيه إلى بستان رائع حمل إليه كل صنف من الشجر وأنواع الورود والرياحين والزعفران ، غير مااتخذ فيه من الفساقى والنافورات ، وسنعرض لذلك فى غير هذا الموضع ، ووسع إصطبلاته لكثرة دوابه وحيواناته الأليفة والوحشية . ويقول المؤرخون : كان من عجائب الدنيا فى زمنه عرض الخيل بمصر . وبلغ من مجده وعظم شأنه أن طلب الخليفة المعتضد منه فى سنة ٢٧٩ أن يزوِّجه ابنته قطر الندى ، وينوه المؤرخون بجهازها وما كان فيه من تحف وهدايا نفيسة ، ويقولون إن خمارويه بنى لها على رأس كل منزلة بين القطائع وبغداد قصرًا فُرش أروع فَرْش . ومع كل ما انتهى إليه من ملك مصر والشام ومع ما اشتهر به من الشجاعة والبأس قُدِّر له أن يقتل بأيدى غلمانه فى دمشق سنة ٢٨٢ . وأقام قواده بعده ابنين صغيرين له بادئين بأكبرهما « أبى الجيش » ولايدور العام حتى يخلعوه ، ويولوا أخاه هرون وكان ضعيفًا ، فلم يستطع لاهو ولا جيشه الصمود أمام القرامطة وشَغَبِ جيوشهم فى الشام ، مما جعل الدمشقيين يلتمسون من الخليفة المكتفى أن يغيثهم بجنده ويلبِّى استغاثتهم . ويُغْتال هرون سنة ٢٩٢ ويتولى بعده عمه شيبان الحكم اثنى عشر يوما إذ سرعان ما يَقْدمُ إلى مصر جيش الخلافة بقيادة محمد بن سليمان ، فيزيل حكم الطولونيين ، ويبكيهم الشعراء طويلا . وتعود مصر ثانية ولاية عباسية ، ويتعاقب عليها ولاة مختلفون من بغداد ، وتكثر فى عهدهم غارات الفاطميين من عاصمتهم المهدية بجوار القيروان على حدود مصر السفلى والعليا ، ويُدْحَرون مرارًا ، ويحجزهم إلى حين الإخشيدُ وأبناؤه .

(د) الإخشيديون[١]

الإخشيد هو محمد بن طُغْج بن جُفّ الفَرْغانى التركى خدم أبوه وجده الخلفاء العباسيين ، كما خدمهم بدوره ، ويقال إنه وُلد سنة ٢٦٨ ومازال يعمل فى خدمة الخلفاء وقوادهم حتى ولَّوه

(١) انظر فى الإخشيديين تاريخ ابن الأثير وابن خلدون والولاة للكندى ص ٣٠٤ ومابعدها والجزءين الثالث والرابع من النجوم الزاهرة والمغرب (قسم الفسطاط) ص١٤٨ ومابعدها وابن خلكان (طبعة دار صادر) فى تراجم الإخشيد وكافور وخطط المقريزى ١/ ٦١٧ ومروج الذهب للمسعودى ومصر فى عصر الإخشيديين للدكتورة سيدة كاشف ، وراجع مادة إخشيد فى دائرة المعارف الإسلامية .

الثغور ، ويلمع اسمه حين تولى مدينة الرملة بفلسطين سنة ٣١٦ ولم يلبث أن تولى دمشق سنة ٣١٨ وجاءته الكتب فى سنة ٣٢١ بولاية مصر غير أنه لم يدخلها ، وظل على دمشق حتى ولاه الخليفة الراضى مصر سنة ٣٢٣ وضم إليه البلاد الشامية والجزرية والحرمين . وفى سنة ٣٢٧ خلع عليه الراضى لقب الإخشيد ، وهو لقب ملوك فرغانة موطن أجداده ، وغلب اللقب على اسمه . وولى ابن رائق أمر دمشق ، فجمع جنده لحرب الإخشيد ، وتنشب الحرب ، وينعقد بينهما الصلح على أن يترك ابنُ رائق مدينة الرملة للإخشيد وتظل معه بقية الشام ، وسرعان مايتوفى وتعود ديار الشام جميعها إلى الاخشيد . وتقع وحشة بينه وبين سيف الدولة الحمدانى صاحب حلب ويصطلحان على أن تكون لسيف الدولة حلب وأنطاكية وحمص ، أما باقى بلاد الشام فتكون للإخشيد . ويأخذ البيعة من بعده لابنه أنوجور ويتوفى لآخر سنة ٣٣٤ . وكان حازما يقظا فى حروبه وتدبير شئون دولته مكرما لجنوده . ويقال إن جيشه كان يبلغ أربعمائة ألف ، وكان له ثمانية آلاف مملوك وكان يحرسه منهم فى كل ليلة ألفان . وكان أنوجور ابنه فى الرابعة عشرة من عمره حين ولى مصر وكانت ولايته اسمية ، أما الولاية الحقيقية فكانت لكافور كبير حاشية أبيه الذى اختاره وصيا عليه ، وكان عبدًا أسود خصيًّا ، واختلف — فيما يبدو — إلى حلقات العلماء ، واشتراه الإخشيد وأُعجب به فأعتقه ومازال يرقى به فى المناصب حتى أصبح من قواده . ولما توفى سيده نهض بشئون ابنه أنوجور على خير وجه ، وساس مملكته خير سياسة ، وكان الحاكم الحقيقى صاحب الأمر والنهى فى إقليمى الدولة الكبيرين : مصر والشام . وكان يدنى الشعراء ويكثر من عطائهم ، وزار مصر حينئذ المتنبى ، وله فيه مدائح وأهاج مشهورة .

ومازال كافور يدبر أمور الدولة لأنوجور حتى توفى سنة ٣٤٩ وأخذ البيعة من بعده لأخيه على وقام على دولته خير قيام حتى توفى سنة ٣٥٥ فاستقل بالأمر من هذا التاريخ واتخذ جعفر بن الفضل ابن الفرات وزيرًا له . وكان يُدْعَى له على المنابر فى مصر والشام ومكة والحجاز . وكانت تُقْرأ عنده ليلا السِّيَرُ وأخبار الدولتين الأموية والعباسية ، وكان سيوسا ماهرًا ، من ذلك أنه كان يذعن بالطاعة للعباسيين وفى الوقت نفسه يهادى المعز الفاطمى صاحب المهدية والمغرب ويظهر ميله إليه خداعا . وكان على علم بالعربية ، وكان كريما معطاء . وكانت أيامه أيام هناءة ورخاء ، ولم يلبث أن توفى سنة ٣٥٧ فعقد أولياء الدولة الولاية لأحمد بن على بن الإخشيد ، وكان صبيا فى الحادية عشرة من عمره ، واضطربت الأحوال فى الشام اضطرابا شديدًا لغارات القرامطة هناك ، وعَيْثهم

فى الأرض فسادًا ، ولم تلبث جيوش المعز الفاطمى أن زحفت من الغرب بقيادة جوهر الصقلى سنة ٣٥٨ واستولت على البلاد وانقرضت الدولة الإخشيدية .

٢

الفاطميون – الأيوبيون

(١) الفاطميون [1]

تنتسب هذه الأسرة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق وقد تكونت حوله فرقة الإسماعيلية بينما تكونت حول أخيه موسى الكاظم الفرقة الاثنا عشرية ، وكانت الفرقتان تعيشان على التقية والدعوة سرًّا لأئمتهما العلويين من سلالة موسى وإسماعيل . وأتيح للإسماعيلية داع خطير هو عبد الله بن ميمون القداح ، وهو فارسى من الأهواز ، وكان ملما بالفلسفة والملل والأديان ، فنظَّم الدعوة الإسماعيلية ووضع مبادئها الشيعية الغالية . وبارح موطنه إلى البصرة ثم إلى سَلَمْيَة بالقرب من اللاذقية فى الشام ، ومن هناك اتخذ دعاة للنحلة الإسماعيلية فى العراق وغير العراق ، مما هيأ لظهور القرامطة فى البحرين وجنوبى العراق ، كما هيأ لظهور داع إسماعيلى من جنوبى الجزيرة يسمى أبا عبد الله ، وتصادف أن التقى فى أثناء الحج بنفر من قبيلة كتامة المغربية ، فارتضوا دعوته الإسماعيلية وأمَّروه عليهم وسار معهم إلى موطنهم ، فجمع حوله منهم جيشا قضى به على الأغالبة حكام تونس سنة ٢٩٦ ويمضى إليه من سَلَمْيَة عبيد الله الفاطمى ويسلمه مقاليد الأمر ، وتدين له البلاد ، فيتلقب بالمهدى ويعلن نفسه خليفة شرعيا ، ويبنى عاصمة جديدة له بجوار القيروان يسميها المهدية نسبة إليه .

وكان القداح قد جعل أئمة الدعوة الإسماعيلية قسمين : أئمة حقيقيين مستورين أو مستقرِّين ، وأئمة بجانبهم مستودَعين هم رءوس الدعاة المسمون بالحجج ، وبذلك كان هو نفسه إماما

---

(١) انظر فى الفاطميين المنتظم لابن الجوزى وتاريخ مصر لابن ميسر وتاريخ ابن الأثير وابن خلدون والمغرب لابن سعيد (قسم القاهرة) طبع دارالكتب واتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا للمقريزى وكتابه الخطط ٢ /٢١ ومابعدها وكتاب حسن المحاضرة والأجزاء الثالث والرابع والخامس من النجوم الزاهرة لابن تَغْرى بَرْدى وابن خلكان فى تراجم الخلفاء وجوهر الصقلى والإشارة إلى من نال الوزارة لابن الصيرفى والنكت العصرية لعمارة اليمنى وصبح الأعشى فى مواضع متفرقة والفاطميون فى مصر للدكتور حسن إبراهيم حسن والحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى لآدم ميتز .

مستودَعا ، ومن هنا جاء الشك فى نسب عبيد الله وأبنائه الفاطميين إلى السيدة فاطمة الزهراء ، فقيل إنه فاطمى حقيقة وأنه ابن أئمة مستورين هم على الترتيب التقى والوفى والرضى بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق وإنما استتروا خوفا على أنفسهم من العباسيين ، وأسماء الأولين على الترتيب الحسين وأحمد وعبيد الله ، وقيل بل هو غير فاطمى من أبناء القداح الإمام المستودَع أو أحفاده . ومما شكَّك فى هذا النسب المحضر الذى كتبه الخليفة القادر العباسى سنة ٤٠٢ بشهادة القضاة والأشراف العلويين بالطعن فى نسب الفاطميين . وقد رفض ابن خلدون فى تاريخه هذا الطعن ومايطوى فيه من شك فى نسب عبيد الله وأسرته الفاطمية وجزم بصحة نسبه إلى على رضوان الله عليه والسيدة فاطمة الزهراء .

ويتسع سلطان عبيد الله فى المغرب ، ويضم إلى سلطانه ليبيا والجزائر ، وتَشُنُّ عساكره غارات على مصر ، ويتوفَّى سنة ٣٢٢ فيخلفه ابنه القائم وتستولى جنوده على المغرب ، ويثور عليه الخوارج فى جبل أوراس ثورة عنيفة ، ويتوفى سنة ٣٣٤ ويخلفه ابنه المنصور فيقضى نهائيا على ثورة الخوارج ، ويتوفى سنة ٣٤١ فيعتلى ابنه المعز عرش الخلافة الفاطمية ، وتدين له المغرب بالولاء ماعدا سجِلْماسة وفاس ويفتتحهما قائده جوهر الصقلى ويمهد له البلدان المغربية حتى المحيط الأطلسى ماعدا مدينة سَبْتة ، فإنها ظلت لبنى أمية أصحاب الأندلس .

وكانت عين المعز على مصر ، فلما وصله الخبر بموت كافور وشعر كأنما انهار السد الذى كان يحول بينه وبين الاستيلاء عليها أمر قائده جوهرا بالاستعداد لفتحها ، وجهَّزه بأكثر من مائة ألف فارس وبكل مايلزمه من المال والسلاح . ولم يكد يشرف على الإسكندرية حتى لقيته جماعة من المصريين برسالة من الوزير جعفر بن الفرات بطلب الصلح والأمان . وتقدم جوهر حتى وصل بعسكره إلى الجيزة ودخل الفسطاط والبر الشرقى بجيشه دون مقاومة تذكر من الإخشيدية والكافورية . ونزل بالقرب من الجامع الأزهر ، وأخذ تَوًّا يختط مدينة القاهرة . وكتب جوهر إلى المعز يبشره بالفتح ، وقطع الخطبة لبنى العباس ولُبْس السواد شعارهم ، وأمر أن يلْبس الخطباء البياض وأن يقال فى الخطبة : « اللهم صَلِّ على محمد المصطفى وعلى علىٍّ المرتضى وعلى فاطمةَ البَتُول وعلى الحسن والحسين سِبْطى الرسول الذين أذْهب الله عنهم الرِّجْسَ وطهَّرهم تطهيرا وصَلِّ على الأئمة الطاهرين آباء أمير المؤمنين المعز لدين الله » . وأخذ جوهر فى بناء الجامع الأزهر واستغرق ذلك ثلاث سنين . واختط قصر الخلافة ، وحفر أساسه فى أول ليلة نزل فيها بالقاهرة ، واختطَّت

كل قبيلة — خِطة عُرِفت بها وبنيت حاراتها من يومئذ ، من مثل حارة الروم والحسينية والخرشنف . ولم يلبث أن ضم الشام إلى مصر سنة ٣٥٩ وخطب للمعز فيها وفى الحرمين . وفى نفس السنة = ٣٥٩ أُمر المؤذنون أن يؤذنوا بحَىَّ على خير العمل . وظل جوهر مستقلا بتدبير مصر والشام أربع سنين وعشرين يوما إلى أن وصل المعز سنة ٣٦٢ وكان عاقلا حازما أديبا ، وتروى له بعض أشعار ، وهو يُعدّ المؤسس الحقيقى للدولة الفاطمية ، ولم تبق بلد من الشام إلى فاس والمحيط الأطلسى إلا أُقيمت فيه دعوته وخُطب له فى جمعته وجماعته إلا « سَبْتة » فإنها كانت مع الأمويين أصحاب قرطبة كما ذكرنا . ولما استقرت له الأمور بمصر استخلف على إفريقية يوسف بُلُكِّين بن زيرى الصِّنهاجى . واستمر جوهر فى علو منزلته إلى سنة ٣٦٤ إذ رأى المعز أن يعزله عن دواوين مصر وجباية أموالها ، ورد إليه العزيز مكانته حتى وفاته سنة ٣٨١ .

وتوفِّى المعز سنة ٣٦٥ بعد أن وطَّد الملك العظيم لأبنائه وأحفاده يتوارثونه نحو مائتى عام ، وخلفه ابنه العزيز نزار ، وكان كريما شجاعا ، يعفو عند المقدرة محبا للصيد وخاصة صيد السباع ، وكان ينظم الشعر لكن لايبلغ فيه مبلغ أخيه تميم . واتسعت مملكته بالقياس إلى مملكة أبيه ففتحت له بقية بلاد الشام : حمص وحماة وشَيْزر وحلب ، وخُطب له بالموصل وباليمن . وعهد إلى غير وزير بتدبير مملكته ، منهم يعقوب بن كِلِّس وكان يهوديا وأسلم . وبنى قصر البحر ، ولم يكن له مثيل شرقا ولاغربا ، وقصر الذهب . وقال ابن الجوزى إنه ولَّى عيسى بن نسطوروس النصرانى ومنشا اليهودى فكتبت إليه سيدة مصرية بالذى أعزَّ اليهود بمنشا والنصارى بابن نسطوروس وأذلَّ المسلمين بك إلا نظرت فى أمرى ، فقبض عليهما وأخذ من ابن نسطوروس ثلاثمائة ألف دينار . ويُرْوَى أنه كان يقول : « أحب أن أرى النعم عند الناس ظاهرة وأرى عليهم الذهب والفضة والجوهر ولهم الخيل واللباس والضياع والعقار وأن يكون ذلك كله من عندى » .

ومازال العزيز رفيقا برعيته حتى توفى سنة ٣٨٦ وخلفه ابنه الحاكم ، وكان فى الحادية عشرة من عمره ولم يكن سَوِىَّ العقل ولاالنفس ، فاضطرب سلوكه واضطرب حكمه بين جبن وشجاعة وبخل وسخاء ، وتارة يجلس فى الشمع ليلا ونهارا ، وتارة يجلس فى الظلام الدامس ، وحينا يحبّ العلماء والصلحاء ، وحينا يفتك بهم فى غير رحمة ، وقتل كثيرين من قادة دولته وأصحاب مناصبها الرفيعة . وتارة يأمر بأن يُكْتَب على المساجد والجوامع سبُّ أبى بكر وعمر وعثمان وعائشة وطلحة والزبير ومعاوية وعمرو بن العاص وتارة ينهى عن ذلك . وتارة يمنع من صلاة التراويح

وتارة يبيحها ، وكان ينهى عن بعض المأكولات مثل الملوخيا والترمس والجرجير والسمك لا قشر له والزبيب . وحرَّم الخمر وشدَّد فى تحريمها ، ورأى لذلك منع بيع العنب وقطع كرومها ، وأراق فى النيل خمسة آلاف جرَّة عسل خشية أن تصير نبيذا . وفى سنة ٤٠٤ منع النساء من الخروج إلى الطرقات ليلا ونهارا ، ومنع لذلك الأساكفة من صنع الأحذية والخفاف لهن وظل ذلك حتى نهاية حكمه . وحرَّم – فيما حرَّم – الغناء ولعب الشطرنج والنزهة على ضفاف النيل ، إلى غير ذلك مما يصور خبله وشذوذه وفساد عقله . وكان دعاة عقيدته الإسماعيلية لا يزالون يُشيعون – مستضيئين بنظرية الفيض الأفلاطونية – أن للإمام الفاطمى نسبتين نسبة إلى عالم القدس ونسبة إلى عالم الطبيعة ، مما أدى بالحاكم إلى أن يظن أنه تجسد للذات الإلهية وأغراه بذلك دعاته ، وفى مقدمتهم داع دُرْزى من جبال لبنان ، ويقال بل هو أعجمى دَعَا فى تلك الجبال بربوبيته وتبعه الناس هناك . وانسابت من هذه العقيدة عقيدة التجسد للذات الإلهية شعبة إلى النُّصَيْرية فى سوريا ، إذ يؤمنون بربوبية على بن أبى طالب . ولما لم يعد فى قوس الصبر منزع حيكت مؤامرة لقتله وتخليص البلاد من شره وخَبله ، فقتل فى شوال من سنة ٤١١ ويقال إن أخته ست الملك هى التى دبَّرت قتله .

وولى الخلافة الفاطمية بعد الحاكم ابنه الظاهر ، وله ست عشرة سنة ، وقامت عمته ست الملك بتدبير دولته أحسن قيام وبذلت الأموال الكثيرة فى الجند وساست الناس سياسة حسنة ، واستقام الأمر للظاهر ، وعدل فى الرعية ، وأعلن البراءة من عقيدة النُّصَيْرية والدُّرْزِيَّة جميعا . وحوالى سنة ٤٢٠ خرج عليه صالح بن مرداس الكلابى واستولى على حلب ، كما خرج حسان بن المفرج البدوى والى مدينة الرَّمْلة وتغلب على أكثر الشام ، وجمع هو وصالح بن مرداس الجموع لحرب الظاهر ولقيتهما جيوشه عند غزة ، فانهزم حسان وقتل صالح ، وعادت الشام إلى الطاعة . وبنى الظاهر قصر اللؤلؤة وكان جوادًا سمحا حليما محبًّا للرعية .

وتوفى الظاهر سنة ٤٢٧ وخلفه ابنه المستنصر وهو فى السابعة من عمره ، وظل فى الخلافة ستين سنة وأربعة أشهر ، واستوزر كثيرين كان من بينهم صدقة بن يوسف الفلاحى استوزره سنة ٤٣٦ ، وكان يدبِّر له الدولة أبو سعد التسترى اليهودى ، وقُتلا فى سنة ٤٣٩ . ويؤسس محمد بن على الصليحى دولته الصليحية فى اليمن ويعلن ولاءه للمستنصر ، ويدعو له على المنابر هناك ، ونتقدم حتى سنة ٤٤٣ وإذا المعز بن باديس يعلن العصيان فى المغرب ، ويقطع الخطبة للمستنصر ويخطب لبنى العباس ، وبذلك تخرج المغرب من طاعة الفاطميين . وما توافى سنة ٤٥٠ حتى يعظم شأن

أرسلان البساسيرى فى بغداد فيقطع خطبة الخليفة العباسى فى عاصمته ويخطب للمستنصر ويدعو له على المنابر نحو عام إلى أن قَضَى عليه وعلى فتنته أو دعوته السلطان طُغْرُلْبَك السلجوقى . ويحدث فى أيام المستنصر غلاء عظيم تظل مصر تعانيه سبع سنوات كسنى يوسف المهلكة ، بدأت فى سنة ٤٥٧ وظلت حتى سنة ٤٦٤ وفيها اشتد القحط بالبلاد واستولى عليها الخراب والوباء وكان الناس إذا مشوا تساقطوا فى الطرقات من الجوع ، ويقال إن الرغيف بيع بخمسين دينارا وإن البيضة بيعت بدينار وتوجهت أم المستنصر وبناتها فى سنة ٤٦٢ إلى بغداد من فرط الجوع . وزاد طين هذا الغلاء بِلّةً نشوب حرب فى الجيش بين الترك والسودان ، وكادت لاتبقى فى قصر الخليفة تحفة نفيسة إلا بيعت بأرخص الأثمان . وبدا من الصعب إنقاذ مصر من كل هذا البلاء لولا أن استنجد المستنصر فى سنة ٤٦٨ ببدر الجمالى ، وكان قد تولى الشام والسواحل للمستنصر ، فاستدعاه وفوَّض الأمور إليه ، فاستقامت بحسن تدبيره وهدأت الفتن وأصبح الحكم والأمر كله له وليس للمستنصر إلا الاسم ومات قبله بأشهر ، فعهد إلى ابنه الأفضل بالقيام مكانه ، ويتلقب شاهنشاه أو ملك الملوك ولايلبث المستنصر أن يتوفى سنة ٤٨٧.ويقال إنه قد عهد من بعده إلى ابنه الأكبر نزار ، غير أن الأفضل الجمالى كان يكرهه ، فلما اجتمع الأمراء والخواص بعد وفاة المستنصر حبَّبهم فى أن يخلفه ابنه أحمد ، فبايعوه بالخلافة وجعلوا أو جعل الأفضل لقبه المستعلى . وأحدث ذلك انقساما بين إسماعيلية مصر وإسماعيلية إيران فبينما كان الأولون يعترفون بإمامة المستعلى كان الأخيرون لايعترفون بإمامته إنما يعترفون بإمامة نزار ويرون أن سلالته هم الأئمة الحقيقيون . وحاول نزار أن يسترد الخلافة فثار بالإسكندرية وقضى الأفضل على ثورته . ولايزال هذا الخلاف قائما بين الإسماعيلية فى الهند إلى اليوم ، فالبُهْرة مستعلية وشيعة أغاخان نزارية . ولم يكن للمستعلى مع الأفضل حكم ، كما كان حال أبيه المستنصر مع بدر الجمالى ، وظل ذلك حال الخلفاء مع الوزراء إلى نهاية دولتهم الفاطمية ، فقد أصبح الخلفاء الفاطميون وراء الحجاب ولا أمر لهم ولانهى إلا أن يخرجوا فى مواكب أول العام الهجرى ولصلاة الجمعة فى رمضان وصلاة العيدين .

ولعل الحكم الوراثى لم يتضح شره ولاعواقبه الوخيمة كما اتضح فى عهد الفاطميين بمصر ، فقد كان الخليفة الثالث وهو الحاكم – مجنونًا أو مخبولا ، وتولى المستنصر وهو فى السابعة من عمره كما مرَّ بنا ، وكأنما جىء بالخلافة أرجوحة للصبى ، وتوفى المستعلى سريعا سنة ٤٩٥ فأقام الأفضل ابنه الآمر مقامه وهو فى الخامسة من عمره ، والبلاد فى أشد الحاجة إلى حاكم حازم ، فالسلاجقة

يستولون على كثير من مدن الشام وماتلبث طامَّة الصليبيين أن تجثم على ديار الشام والموصل ، وتتعاقب الكوارث والخطوب منذ سنة ٤٩٠ إذ تقدم جموعهم من آسيا الصغرى ، ويتسلل بلدوين إلى الرُّها بالموصل ويستولى عليها ويكون بها أولى إماراتهم واستولت جموع أخرى على أنطاكية وكوَّنوا بها إمارتهم الصليبية الثانية . ويأخذون المعرَّة فى سنة ٤٩٢ ويستولى جودفرى فى نفس السنة على بيت المقدس وتكون بها إمارتهم الصليبية الثالثة ويستولى ريموند على طرابلس سنة ٥٠٢ وتكون بها إمارتهم الصليبية الرابعة . ويستولون على مدن لبنان وكثير من مدن فلسطين مثل الرملة وعكا ، ولايبقى لمصر فى الشام سوى عسقلان . وكل ذلك يحدث والأفضل سادر فى غفلته والجيش المصرى غائب عن حِماه إلا بعض تجريدات برية وبحرية لاتغنى شيئا . ويُقْتَلُ الأفضل سنة ٥١٥ ويُقْتَل الخليفة الآمر سنة ٥٢٤ ويتولى عرش الخلافة الحافظ ، ويستوزر أحمد بن الأفضل الجمالى وكان هو وأبوه وجده سنيين ، فيأمر خطباء المساجد أن لا يدعوا فى خطبهم للحافظ كما يأمر المؤذنين أن يسقطوا من أذانهم « حَيَّ على خير العمل » أحد شعارات الفاطميين ، وكأنه أراد أن يزيل الخلافة الفاطمية من مصر ، غير أن أنصارها من حواشيها وشيعتها أسرعوا فقتلوه . ويتولى الخلافة بعد الحافظ ابنه الظافر سنة ٥٤٤ ولايلبث أن يتوفَّى فيخلفه ابنه الفائز وهو فى الخامسة من عمره سنة ٥٤٩ ويتوفى سنة ٥٥٥ فيخلفه العاضد آخر خلفائهم وهو فى الحادية عشرة من عمره . وكأن الخلافة أصبحت أرجوحة حقيقية للصبية والغلمان ، ونظل نرى مع كل خليفة وزراء ، وغالبا يسقطون مقتولين . ولم يكن لكل منهم من شاغل سوى أن يجمع أكثر مايمكن من الأموال لنفسه ، مُثْقِلا فى أثناء ذلك على المصريين بالضرائب الفادحة ، بينما يعيش هو ومن وراءه من الخلفاء للهو والقصف .

وتَفْسد فى أثناء ذلك التدهور والانحلال أداة الحكم فى مصر فسادا شديدا . ومع ذلك لاتزال ترسل إلى الشام بعض تجريدات ذرًّا للرماد فى العيون ، وحتى عسقلان يحتلها الصليبيون ويطمحون إلى احتلال وادى النيل . وبأخرة من أيام هذه الدولة يَقتتل ضرغام وشاوَر على الوزارة ويفزع شاور إلى البطل المغوار نور الدين صاحب حلب مستنجدًا به ويهجم حينئذ أملريك الصليبى صاحب بيت المقدس على مصر ويتقدم حتى بلبيس ، ويقطع المصريون عليه الجسور والسدود فيضطر إلى العودة . ويقدم سنة ٥٥٩ شاور ومعه عساكر نور الدين بقيادة شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، ويمكِّنان لشاور فى الوزارة ، وسرعان مايقلب ظهر المجن لشيركوه وجنوده ،

ويدفعه شيطانه إلى الاستعانة ضده بأملريك والصليبيين ، ويحاصرون شيركوه فى بلبيس يضطرون إلى رفع الحصار عائدين إلى بيت المقدس . ويخرج شيركوه من مصر ، فيعظم بغى شاور وطغيانه ، فيستنجد العاضد بنور الدين سنة ٥٦٢ ، ويرسل ثانية شيركوه وصلاح الدين ، فيستنجد شاور بأملريك ، ويلبِّيه ، وتدور عليه الدوائر ، ويخرج على وجهه هو وجنوده من القاهرة ، ويخرج أيضا شيركوه وصلاح الدين إلى الشام . ولا يلبث الصليبيون أن يعودوا لامتلاك مصر ويقدم أسطول صليبي إلى تنِّيس ويعظم الخطب . ويستصرخ العاضد وشاور نور الدين ، فيرسل إليهما عسكرًا بقيادة شيركوه وصلاح الدين سنة ٥٦٤ ويستنقذان مصر من الصليبيين وشاور جميعا . ويتولى شيركوه الوزارة للعاضد شهورا ، ويتوفى فيخلفه صلاح الدين ، ويكتب إليه نور الدين مرارًا يأمره بتحويل الخلافة فى مصر من الفاطميين إلى العباسيين . وتصادف أن مرض العاضد مرض الوفاة ، وفى أثناء ذلك صدع صلاح الدين بمشيئة نور الدين ، فأقام الخطبة لبنى العباس فى أول المحرم سنة ٥٦٧ ولم تمض إلا أيام حتى توفى العاضد فى يوم عاشوراء . وبذلك انتهى أمر الفاطميين وحكمهم للديار المصرية .

(ب) الأيوبيون[1] (صلاح الدين)

اتفق المؤرخون على أن الأيوبيين أسرة كردية أصلها من بلدة دُوِين فى آخر إقليم أذربيجان وبها ولد شاذى جد صلاح الدين وأبوه أيوب وعمه شيركوه ، وقد هاجروا منها إلى بغداد ، ولم يلبث أيوب أن أصبح حافظا لقلعة تكريت ، والتحق شيركوه بعماد الدين زنكى ، وتحول أيوب إلى العمل مع حاكم دمشق ، بينما ظل شيركوه عند زنكى ولما توفى عمل مع ابنه نور الدين وحدث أن حاصر عسكر نور الدين دمشق بقيادة شيركوه بينما كان أخوه أيوب على رأس حاميتها ، واتفق الأخوان على تسليمها لنور الدين ، فعين أيوب حاكما عليها ، وأقطع شيركوه حمصا ، وقربه منه . فلما استنجد شاور والعاضد بنور الدين أرسل إليهما عسكرًا بقيادة شيركوه

---

(١) انظر فى الأيوبيين وصلاح الدين تاريخ ابن الأثير وابن خلدون ومفرج الكروب لابن واصل والروضتين وذيل الروضتين لأبى شامة وخطط المقريزى والسلوك الجزء الأول ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزى والجزءين السادس والسابع من النجوم الزاهرة وبدائع الزهور لابن إياس وسيرة صلاح الدين لابن شداد والفيح القسى فى الفتح القدسى والبرق الشامى للعماد الأصبهانى وابن خلكان فى تراجم صلاح الدين وسلاطين الدولة وتاريخ الشعوب الاسلامية لبروكلمان ص ٣٥٠ عدا ماكتب عن صلاح الدين والحروب الصليبية حديثا فى العربية واللغات الأجنبية .

وابن أخيه صلاح الدين بن أيوب . وتطورت الظروف كما مرَّ بنا . فقضى صلاح الدين نهائيا على الدولة الفاطمية ، وردَّ مصر إلى الخلافة العباسية ، واستولى على قصر الفاطميين وما كان به من أموال وكنوز . وجَدَّ فى إصلاح أحوال مصر ، فحطَّ عن كواهل المصريين أثقال الضرائب الباهظة التى كان يتنافس وزراء الفاطميين فى فرضها ، وبذَل الأموال ، وملك قلوب الرجال ، وطمحت نفسه إلى أن يصبح واليًا للخلافة العباسية بمصر ، إذ نراه يلمِّح فى الرسالة التى كتب بها إلى وزير بغداد ، ينبئه فيها بإزالة الدعوة الفاطمية وإقامة الدعوة العباسية ، إلى ما يدور بخلده قائلا عن نفسه : « إنه مفتقر إلى أن . . يقلَّد ما فتح ، ويبلغ ما اقترح ، ويقدَّم حقه ولا يُطَّرَح ، ويقرب مكانه وإن نزح ، وتأتيه التشريفات الشريفة » . ويأخذ فى إعداد جيش قوى للقاء الصليبيين وينحِّى منه العناصر الزنجية والأرمنية التى كانت تعمل فى جيش الفاطميين .

ويطمح إلى الاستيلاء على فلسطين باب مصر الشرقى ، ويحاصر الشوبك فى سنة ٥٦٧ ويرفع الحصار عنها حين علم أن نور الدين يجهِّز الجيوش لحرب الصليبيين وكأنه خشى لقاءه ، ومع ذلك كان يَعُدُّ نفسه تابعا له ، وكان الخطباء فى مصر يدعون فى آخر خطبهم لنور الدين . وعاد صلاح الدين فى السنة التالية إلى حصار الشوبك والكَرَك ، ثم رفع الحصار ، وإن كان قد استولى على أيلة (العقبة) . وفى سنة ٥٦٩ يستأذن نور الدين فى إنفاذ أخيه توران شاه على رأس جيش إلى اليمن للقضاء على خارجى هناك استفحل شأنه وكذلك على بقية الدعاة للفاطميين ، ويذهب إليها ويستولى عليها . وفى هذه السنة قبض على جماعة من شيعة الفاطميين كانوا يدبرون مؤامرة لقتله وكان من بينهم داعى دعاة الفاطميين وعمارة اليمنى الشاعر ، وقُتل داعى الدعاة وصُلب عمارة .

وفى هذه السنة توفى نور الدين ، وخلفه ابنه الملك الصالح إسماعيل ، وكان فى الحادية عشرة من عمره ، وبدا فى وضوح أنه لا يصلح للنهوض بأعباء الحكم وجهاد الصليبيين . واعترف صلاح الدين بسلطانه ، وأمر بالدعاء له فى خطبة الجمعة وسكِّ النقود باسمه . ولم يبادر بالتجهيز إلى الشام لانشغاله بأسطول لنورمانديى صقلية هاجم الإسكندرية وحاقت بالأسطول الهزيمة ، وأيضا لانشغاله بثورة فى جنوبى بلاد الصعيد أشعلها مُوالٍ للفاطميين يسمى الكنز ودارت عليه الدوائر . ومرَّ بنا آنفًا أنه أرسل أخاه توران شاه للاستيلاء على اليمن ومفاتيح البحر الأحمر ، ونراه يسيِّر عسكرًا بعد عسكر إلى بلاد المغرب الأفريقى ودانت له بالطاعة برقة وقسطيلية وقفصة وتوزر مما يدل على أنه فكر مبكرًا فى وحدة البلاد العربية التى أرادها نور الدين . وها هو مبكرًا قد أصبح

يضم سلطانه جزءًا من الشمال الإفريقي المغربي والحجاز واليمن . وجاءته الأخبار بأن نواب الملك الصالح إسماعيل يستقلون بالحكم ويتنازعون تنازعا مريرًا مستعينين بالصليبيين ، فاستقر فى نفسه أنه لابد أن يفرض سلطانه على ديار الشام والموصل قبل أن يسدد للصليبيين ضرباته . وخرج من مصر فى سنة ٥٧٠ بجيش كثيف ، وقصد دمشق واستولى عليها ، كما استولى على كثير من المدن الشامية . وتقاومه جنود الملك الصالح إسماعيل وابن عمه سيف الدين غازى صاحب الموصل ويُكتَبُ له النصر ، ويعقد صلحا مع الملك الصالح يُبْقى له فيها حلب وحدها ، بينما تدخل الديار الشامية جميعها فى سلطانه . ويعود إلى مصر سنة ٥٧٢ ويأمر قراقوش ببناء سور ضخم حول القاهرة والفسطاط حماية لها ، ويُبْطل المكوس التى كانت تؤخذ من الحجاج بجدَّة ويعوِّض صاحب مكة عنها آلاف الأرادب قمحا تفرَّق فى أهل الحرمين ، ويأخذ فى إنشاء المدارس والرباطات بالقاهرة منذ هذا التاريخ . ويعود إلى الشام فى سنة ٥٧٣ ويواقع الصليبيين فى غير معركة وترجح كفته رجحانا واضحا ، ويمضى إلى الشمال وديار الموصل ويستولى على كثير منها : ويعود إلى مصر ويضبط الأمور فيها ويأمر ببناء قلعة الجبل . ويأتيه الخبر بموت الملك الصالح إسماعيل ، فيخرج فى أول سنة ٥٧٨ ويتم له الاستيلاء على حلب وبعض بلدان الجزيرة والموصل . وتسوِّل لرايجنالد نفسه أن يهاجم مكة والمدينة من حصنه الكَرَك واستولى على أيلة وشحن سفنا بالرجال وآلات الحرب ، وعاثوا فى البحر الأحمر وموانيه الحجازية والمصرية ، وتعقَّبه العادل نائب أخيه صلاح الدين فى مصر بأسطول مصرى فتك بسفنه ورجاله .

ونصل إلى سنة ٥٨٣ فيُعِدّ صلاح الدين جيشا ضخما لمنازلة الصليبيين الجنوبيين وينفخ فى نفير الحرب فيأتيه المجاهدون من كل حَدَب ، ويتجه نحو طبرية ، وتلتقى إحدى سراياه فى شرق حيفا بجماعة من الداوية والإسْبتارية الطائفتين اللتين نذرتا أنفسهما لحرب المسلمين ، وتسحقهما السرية ويُقْتَلُ قائد الطائفة الثانية . ويتجمع الصليبيون من كل مكان بقيادة جاى لوزيجنان صاحب بيت المقدس ، وتنشب بينهم وبين صلاح الدين موقعة حِطِّين المشهورة فى غربى طبرية ، ويُمْحَقُ جيشهم محقا ، ويولى هاربًا ريموند صاحب طرابلس وريتالد صاحب صيداء ، ويأخذ المسلمون الصليب الأعظم صليب الصلبوت ، ويقع فى الأسر قادتهم وزعماؤهم جاى لوزيجنان صاحب بيت المقدس وهيو صاحب جبيل شمالى بيروت وهمفرى صاحب تِبْنين إلى الجنوب الشرقى من صور وجيرار مقدم الداوية ورايجنالد صاحب الكَرَك ، وبلغ من كثرة القَتلى والأسرى أن قال

أبو شامة فى كتابه الروضتين : « من شاهد القتلى قال ما هناك أسير ، ومن عاين الأسرى قال ما هناك قتيل » . واستعرض صلاح الدين كبار الأسرى ، ولم يكن همه إلا رابجنالد صاحب الكرك لما مر من محاولته غزو مكة والمدينة ، ولما مثل بين يديه قال له : ها أنا أنتصر منك لمحمد ﷺ ، وعرض عليه الإسلام ، فلم يسلم ، فسلَّ خنجره وضربه ضربة قاتلة ورُميت جثته على باب الخيمة . وطمأن بقية زعمائهم ، غير أنه أمر بقتل من أسروا من الداويَّة والإسْبتاريَّة لحبسهم أنفسهم على قتال المسلمين . وغصَّت حينئذ أسواق دمشق بأسرى الصليبيين المسترقين ، وبلغ من كثرتهم أن كان يباع الأسير منهم بثلاثة دنانير .

وعلى أثر هذه الموقعة العظيمة فتحت القلاع والمدن فى فلسطين وجنوبى لبنان أبوابها لصلاح الدين الأيوبى ، فاستولى على عكا وحيفا ونابلس وبيت جبريل (بئر سبع) وغزة والرملة وبيروت وصيداء . ولم يبق فى الجنوب سوى الكرَك والشوبك ، وبقيت صور التى لجأت إليها فلول الصليبيين . وعزم صلاح الدين على فتح بيت المقدس ، فحاصرها وضايقها بالزحف والقتال والمنجنيقات ، حتى أسلمها من كان بها من الصليبيين راغمين خاسئين فى السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣ ونُكِّس الصليب الضخم الذى كانوا قد أقاموه على قبة الصخرة ، وأُزيلت كل آثار الصليبيين من المسجد الأقصى وأقيمت به صلاة الجمعة بين التهليل والتكبير والضجيج بالدعاء ، وأمر صلاح الدين أن يزيَّن المسجد بالفُسَيْفِساء والرخام ، ونقل إليه منبرا فخما من حلب لا يزال به إلى اليوم . وظن أنه لم يعد فى حاجة إلى جيوش ضخمة بعد انزواء الصليبيين فى صور وطرابلس وأنطاكية ، فتخفف من جيوشه وعاد كثير من عساكره إلى بلادهم ، وظلت البلاد المتبقية من فلسطين تدخل فى حوزته ، مثل صَفد والكرَك والشُّوبك وحصن كوكب . واستولت عساكره على بعض الحصون فى لبنان وشمالى أنطاكية ، كما استولت على اللاذقية .

وأشعل سقوط القدس الحرب الصليبية من جديد ، إذ أخذ البابا يصرخ فى الملوك ، وحمل الصليبَ لحرب المسلمين فى فلسطين سنة ٥٨٧ فردريك الأول إمبراطور ألمانيا وفيليب ملك فرنسا وريتشارد « قلب الأسد » ملك إنجلترا ، ومُنيت حملة فردريك فى أثناء اجتيازها آسيا الصغرى بخسائر لا تكاد تحصى فى الأرواح ، ولم يبق منها إلا فلول ، أما حملتا فيليب وريتشارد فقدمتا من البحر ، وحاصرتا عكا وسقطت فى أيدى الصليبيين بعد دفاع مستميت من حاميتها ، وعاد فيليب إلى فرنسا ، وظل ريتشارد حتى سنة ٥٨٨ يقود الجيوش الصليبية وينازل صلاح الدين . واستولى على

بعض البلاد الساحلية ، واضطرَّ إلى الصلح مع صلاح الدين على أن تظل للصليبيين المدن الساحلية من صور إلى يافا ، وسمح صلاح الدين للنصارى أن يزوروا القدس حُجَّاجا عُزَّلا من السلاح . وسار صلاح الدين إلى دمشق ولم يلبث أن لبّى بها نداء ربه فى صفر سنة ٥٨٩ فبكاه الناس وذرفوا عليه الدموع الغزار . وسنقف فى غير هذا الموضع عند عنايته بالعمارة والبيمارستانات والمدارس ، وقد أشاع الرخاء فى مصر بما أسقط عن كواهل الناس من المكوس والضرائب الباهظة . وكان محبا للعدل ، وكانت سماحته فى معاملة الصليبيين مضرب الأمثال بينهم ، ولايزال مؤلفو الغرب ينوِّهون بها إلى اليوم ، وكان رفيقا برعيته عطوفا على أهل العبادة والصلاح.

وكان قد قسم فى سنة ٥٨٢ البلاد بين أبنائه وأهله ، فأعطى ابنه العزيز عثمان مصر وجعل أخاه العادل أتابكًا له (مدبِّرًا لدولته) وأعطى ابنه الأفضل دمشق وأعطى ابنه الظاهر حلب ، وأعطى ابن أخيه تقى الدين عمر بلدانا فى شمالى الشام وميافارقين بديار بكر ، وعاد صلاح الدين قبل وفاته فجعل للعادل الموصل وديار بكر والكرَك والشوبك . وتوفى فخلفه على مصر العزيز عثمان سنة ٥٨٩ وكان بارًّا بالرعية عادلا منصفا ، بينما كان أخوه الأفضل فى دمشق يسير فى الناس هو ووزيره ضياء الدين بن الأثير سيرة سيئة ، فرأى أن يأخذها منه ، وجهز لذلك جيشا سار به إلى دمشق ، غير أن أخاه الأفضل استنجد بعمه العادل فأصلح بين الأخوين . وانصرف العزيز عثمان إلى مصر ، وظل الأفضل ووزيره سادرين فى غيِّهما ، مما جعل العادل يكتب إلى العزيز بوجوب أخذ دمشق ، والتقيا بها سنة ٥٩٢ وأرغما الأفضل على تركها إلى صَرْخد سنة ٥٩٤ واستخلف العزيز عثمان على دمشق المعظم عيسى ابن عمه العادل . وعاد إلى مصر يحكمها حكما رشيدًا حتى توفى سنة ٥٩٥ . وخلفه ابنه المنصور وكان صبيًّا فى العاشرة من عمره ، فاستقدم الجند الأفضل ليدبر له الحكم ، وما إن وضع قدمه فى مصر حتى كاتب أخاه الظاهر فى حلب ، مزينا له الهجوم معه على دمشق وأخذها من ابن عمهما المعظم عيسى ، والتقى جيشاهما هناك ، ولكن العادل عرف كيف يوقع بينهما ، وعاد الأفضل بجنوده إلى مصر ، فتبعه عمه العادل ، وعرض عليه أن يترك القاهرة ويأخذ ميافارقين وديار بكر ، ولم يجد بدًّا من القبول ، وسرعان ما أخذ العادل فتوى من الفقهاء بأنه لا تجوز ولاية الصغير على الكبير ، وعند ذلك قطع فى سنة ٥٩٦ الدعاء فى خطبة الجمعة للمنصور ، وأمر بالدعاء له ولابنه الكامل من بعده .

وأصبح العادل منذ هذا التاريخ حتى سنة ٦١٥ سلطانا لمصر ، مع ما كان بيده من فلسطين ودمشق والجزيرة وديار بكر والموصل . ولما استقامت له الأمور فى كل تلك الدولة قسمها بين

أولاده ، فأعطى ابنه الكامل محمدًا الديار المصرية . وأعطى ابنه موسى البلاد الشرقية وراء الشام وشركه فيها إلى وفاته أخوه الأوحد . وأعطى ابنه المعظم عيسى دمشق . وسيَّر السلطان الكامل من مصر ابنه المسعود إلى اليمن سنة ٦١٢ فلكها . وبذلك دخلت فى حوزة العادل الحجاز واليمن وكل البلاد التى أظلها لواء صلاح الدين ، وكان محنكا محسنا لتدبير الحكم وسياسة الملك ، وكان فارسا مجاهدًا أبلى بلاء حسنا مع أخيه صلاح الدين فى الحروب الصليبية ، وكان تقيا وقد طهَّر ولاياته من الخمور وكل ما يجر إلى الفسق والإثم . وسار سيرة أخيه فى رفع المكوس والمظالم ، وله صنف فخر الدين الرازى كتابه « تأسيس التقديس » وسيَّره إليه من خراسان . وتضاءلت فى أيامه الحروب الصليبية ، وفى سنة ٦٠٩ يغزو الصليبيون دمياط وُيرَدُّون على أعقابهم . ويعيدون الكرَّة فى سنة ٦١٥ ويتفق أن يتوفى العادل ويخلفه الكامل فى مصر نهائيا ويشغل من بعض الوجوه بتدبير الحكم ، ويظل الصليبيون بدمياط نحو ثلاث سنوات يعيثون فسادًا ، وتسوِّل لهم شياطينهم أن يتقدموا فى البلاد مع فرع دمياط نحو المنصورة ، وكان النيل فى قمة فيضانه ، فسلَّط المصريون مياهه عليهم ، وأيقنوا الهلاك فراسلوا السلطان الكامل طالبين منه الأمان حتى يرحلوا عن دمياط مدحورين ، وتسلم منهم دمياط فى رجب سنة ٦١٨ وكان يوما مشهودًا ، تغنَّى به الشعراء طويلا . ودانت للكامل دمشق سنة ٦٢٦ وكذلك البلاد الشامية والشرقية وكان ابنه المسعود قد استولى على الحجاز واليمن . ويروى بعض من حضروا الحج بمكة سنة ٦٢٠ أن الخطيب هناك دعا للملك الكامل ، فقال : « صاحب مكة وعبيدها واليمن وزَبيدها ومصر وصعيدها والجزيرة ووليدها » . ومازال نجمه متألقا حتى توفى سنة ٦٣٥ .

وكان الكامل قد جعل ابنه الأكبر نجم الدين أيوب على الشرق وإقليم ديار بكر ، وجعل ابنه الأصغر العادل على مصر والديار الشامية ، وكان فى الثامنة عشرة من عمره ، فلم ير الأمراء بدًّا من توليته حسب رغبة أبيه ، وعظم ذلك على نجم الدين أيوب ، فزحف بجيشه إلى دمشق واستولى عليها ، ثم سار متجها إلى الديار المصرية ، وحفلت رحلته بأحداث كثيرة ، حتى إذا وصل إلى مصر قبض على أخيه العادل وأعلن نفسه سلطانا على مصر سنة ٦٣٧ .وكان قد أكثر من شراء المماليك . وبنى لهم قلعة الروضة فى سنة ٦٣٨ وأنشأ فيها دورًا وقصورًا كثيرة وعمل لها ستين برجا وبنى بها مسجدًا واتخذها دار ملكه وسكنها بأهله وأسكن معه فيها مماليكه البحرية . وكان أبناء عمومته وإخوته قد خرجوا عليه فى الشام واستولى عمه الصالح إسماعيل على دمشق واستعان بالصليبيين وسلم إليهم القدس وطبريَّة وعسقلان . فزحف السلطان نجم الدين أيوب بجيش كثيف

إلى الشام فى سنة ٦٤٢ واستولى على بيت المقدس من الصليبيين وأفناهم قتلاً وأسرًا ، واسترد دمشق ، وعادت له مملكة جده العادل بكاملها حتى حلب والموصل والجزيرة . وبينما كان فى دمشق سنة ٦٤٧ مرض فى أولها ، وبينا هو مريض علم بغزو الصليبيين لدمياط بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا الملقب بالقديس ، وأنهم أحاطوا بدمياط من جميع جوانبها وسقطت فى أيديهم وأنهم خرجوا منها فى اتجاه مدينة المنصورة ، فصمم على لقائهم والمرض يثقل عليه وحُمل إلى مصر فى محفَّة ، وزحف بجيشه مسرعا إلى تلك المدينة ولم يمهله المرض بها ، فمات ميتة الشهداء مجاهدًا فى سبيل الله . وأخفت زوجته شجرة الدر وفاته حتى يحضر ابنه الملك المعظم توران شاه من الجزيرة شرقى الشام ، وأخذت له البيعة بالسلطنة وهو غائب ، وقدم إلى المنصورة وأدار بمجرد قدومه فى أول المحرم لسنة ٦٤٨ معركة حاسمة مع الصليبيين مزَّقهم فيها شر ممزق ، وكانوا بوسط الطريق بين دمياط والمنصورة ، فقتل منهم بضعة آلاف وأسر أكثر من عشرين ألفا بينهم لويس التاسع ، وحملته إلى المنصورة مركب فى النيل تضرب فيها الصنوج والطبول بينما الأسرى يُجرُّون بالحبال على ضفتى النهر والمصريون يهللون ويكبرون من حولهم . ويسجن لويس فى المنصورة بدار ابن لقمان كاتب الإنشاء . ومن عجب أن يكافأ توران شاه على هذه الموقعة الباسلة التى قضى فيها قضاء مبرما على أكبر حملة صليبية وُجِّهت إلى مصر باغتيال مماليك أبيه له ، وكان لويس لايزال فى الاعتقال فافتدى نفسه وفلول حملته بأموال وفيرة ، وعاد إلى بلاده خاسئا ذليلا .

واجتمع رأى المماليك على تولية شجرة الدر المُلْكَ بعد توران شاه ، وكانت جارية تركية اشتراها السلطان نجم الدين أيوب وأعتقها وتزوجها ، وكانت راجحة العقل حسنة السيرة جيدة التدبير ، فاتفق المماليك على أن تلى شئون السلطنة ، وتم أمرها ، غير أن الأيوبيين فى الشام سرعان ماخرجوا عليها ، فانتقضت الوحدة التى انعقدت بين الشام ومصر منذ انقرض الحكم الفاطمى ولم يمض على سلطنتها نحو ثمانين يوما ، وأحسَّت بحرج الموقف ، فرأت التزوج من عز الدين أيبك أتابك العسكر وأن تتحول مقاليد السلطنة إليه . وحاول - خداعا للأيوبيين فى الشام - أن يشرك معه فى الحكم صبيًّا أيوبيًّا هو الملك الأشرف موسى ، وكان فى السادسة من عمره ، ولكنه عاد فتخلص منه . وعلى هذا النحو تحول ملك الديار المصرية فى سنة ٦٤٨ من الأيوبيين إلى المماليك وقائدهم أيبك ، ولا ريب فى أن عهد الأيوبيين كان من أعظم العهود بمصر ، فقد نهضوا بها نهضة عظيمة واستطاعوا بجنودها أن يقهروا الصليبيين ويزحزحوهم عن صدر الشام ، ويردوهم عن ثَرَاها وحِماها إلى البحر المتوسط وما وراءه .

٣

المماليك – العثمانيون

(١) المماليك[1]

أخذ خلفاء صلاح الدين يستكثرون من شراء المماليك الترك وجلبهم من أواسط آسيا وتكوين فرق عسكرية منهم فى جيوشهم ، وأكثر منهم خاصة السلطان نجم الدين أيوب ، وكأن الأيوبيين لم يتعظوا بما كان من هؤلاء الترك فى العصر العباسى الثانى واستيلائهم على مقاليد الحكم فى بعض الولايات الكبرى كما حدث فى مصر نفسها لعهد أحمد بن طولون والإخشيد التركيين . وما إن توفى السلطان نجم الدين أيوب وخلفه ابنه توران شاه حتى استولى المماليك على صولجان السلطان باسم شجرة الدر التركية ، وسرعان ما أسلمت الحكم والسلطان – كما مرَّ بنا آنفا – إلى عز الدين أيبك قائدهم . وظل المماليك من هذا التاريخ وهو سنة ٦٤٨ يحكمون مصر إلى الفتح العثمانى سنة ٩٢٢ فى مجموعتين كبيرتين تسمى أولاهما المماليك البحرية نسبة إلى نهر النيل الذى كان يحيط بجزيرة الروضة مسكنهم الذى أنزلهم فيه السلطان نجم الدين أيوب . وكانوا يستكثرون من شراء المماليك وينزلونهم فى أبراج القلعة حيث يربّون تربية عسكرية جيدة ، ويسمون نسبة إلى مسكنهم المماليك البرجية ، وهم المجموعة الثانية التى خلفت المماليك البحرية فى حكم مصر منذ سنة ٧٨٤ .

تولى عز الدين أيبك شئون مصر سنة ٦٤٨ ورأى كما أسلفنا أن يشرك معه فى الحكم الملك الأشرف موسى محاولة لكسب رضا الأيوبيين فى الشام ولكنهم ظلوا مغاضبين له ، وأخذوا فى حربه ، حينئذ رأى أن يتخلص من الأشرف موسى. وحدثت حروب ومناوشات بينه وبين الأيوبيين ، وارتضوا أخيرًا أن تكون له مصر وفلسطين حتى نهر الأردن ، غير أن شجرة الدر زوجته

---

(١) انظر فى المماليك السلوك والخطط للمقريزى والمختصر فى أخبار البشر لأبى الفدا والبداية والنهاية لابن كثير وتاريخ ابن خلدون والنجوم الزاهرة الجزء السابع ومابعده من أجزاء وبدائع الزهور لابن إياس والتبر المسبوك فى ذيل السلوك للسخاوى ومجالس السلطان الغورى وآخرة المماليك لابن زنبل وتشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور (طبع القاهرة) وتاريخ الدول والملوك لابن الفرات (طبع بيروت) وغزوات قبرص ورودس للسيوطى (طبع فينا) والدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر والضوء اللامع للسخاوى ودولة الظاهر ودولة بنى قلاوون لجمال الدين سرور والعصر المماليكى لسعيد عبد الفتاح عاشور وبروكلمان ص ٣٦٥ ومابعدها .

شكَّت فى إخلاصه لها ، فدبرت مؤامرة ضده سنة ٦٥٥ فمات مقتولا ولم تلبث أن لقيت نفس المصير ، وتولى زمام الحكم السلطان المنصور على بن أيبك حتى سنة ٦٥٧ وكان قُطز أتابكًا لهَ فقبض عليه واستولى على مقاليد الحكم . وكان التتار قد استولوا فى العام السابق على بغداد ونكلوا بها تنكيلا فظيعا ومضت زحوفهم بل سيولهم تتقدم إلى الشام وأخذت تهبط إلى الجنوب فعَهِدَ قُطز إلى مملوك عَظيم من مماليك السلطان نجم الدين أيوب هو بيبرس فى قيادة طليعة الجيش حتى إذا انتهى إلى عين جالوت بين بَيْسان ونابلس سنة ٦٥٨ أصدر أمره إلى بيبرس أن يتابع سيره تجاه التتار وأخفى بقية الجيش بين الأحراش والأشجار المحيطة بعين جالوت . والتحم بيبرس بالتتار وأظهر بسالة نادرة فى حربهم ، وتبعه الجيش يستبسل بقيادة قُطز ، منزلا بالتتار ضربات قاصمة حتى اضطروا إلى الفرار مولِّين وجوههم إلى الشمال لا يلوون ، تاركين وراءهم ما لا يكاد يحصى من الغنائم والأسرى . وتُعَدُّ هذه المعركة من المعارك الفاصلة فى التاريخ ، إذ صَدَّت التتار نهائيا عن مصر والشام ، وقد ثَبَّتت أقدام المماليك لا فى حكم مصر وحدها ، بل لقد انضوت الشام جميعها تحت لوائهم ، ويقتسم شرفها بحقٍّ قُطُز وبيبرس . ولبيبرس فيها الشرف الأكبر ، إذ كان على طليعة الجيش ، واستطاع أن يقتحم بطليعته صفوف التتار ، ويزلزل أقدامهم ويحدث الفوضى فى عساكرهم . حتى إذا تم هذا النصر المبين ظن أن قطز سيكافئه عليه مكافأة كبيرة ولم يلبث أن طلب منه نيابة حلب ، ولكن قطز لقصر نظره بخل عليه بها ، فكان طبيعيا أن يدبر مؤامرة ضده فى أثناء قفوله إلى مصر ، وواتته الفرصة فقتله ، وانتخبه أمراء المماليك وقوادهم سلطانا على الديار المصرية والشامية ، وتلقب باسم الملك الظاهر .

وكان بيبرس سلطانا حازما عالى الهمة شديد البأس بعيد النظر يحسن تدبير الملك وسياسته ، فرأى أن انتصار عين جالوت وحده لا يكفى فى تثبيت سلطانه ، وانتهز ظهور أمير عباسى بدمشق فرَّ من التتار فاستدعاه إلى القاهرة ، حتى إذا تأكد نسبه إلى بنى العباس بايعه هو والناس بالخلافة فى حفاوة بالغة ، ولم يلبث هذا الخليفة العباسى أن قلَّده سلطنة مصر والبلاد الشامية وغيرها مما يظلُّه سلطانه . وبذلك ثَبَّت عرشه ووطَّد سلطانه ضد أى محاولة قد يحاولها أحد الأيوبيين لاستعادة ملك آبائه . وظلت الخلافة العباسية قائمة بمصر طوال حكم المماليك إلى أن أخذ السلطان سليم الأول العثمانى آخرَ خلفائها معه إلى القسطنطينية ، وأخذ سلاطين آل عثمان يتقلدون الخلافة على المسلمين إلى أن أزالها مصطفى كمال أتاتورك كما هو معروف . وأتاح وجود هذه الخلافة العباسية الاسمية بالقاهرة للظاهر بيبرس ومن خلفه من المماليك أن يعدُّوا أنفسهم حماة الخلافة والإسلام ، وأفادوا

من ذلك سيطرتهم على الحجاز والحرمين ، ووضع بيبرس تقليدًا أن يسافر محملٌ إلى مكة سنويا يحمل الكسوة الشريفة ، وهو تقليد لايزال قائماً إلى اليوم . وعُنى بوضع نظام دقيق للإدارة فى مصر والشام كما عنى بالبريد ، فكان الخبر يصل من دمشق إلى القاهرة فى ثلاثة أيام .

وظل طوال حكمه يُعِدُّ جيوشه ويزحف بها لحرب الصليبيين والتتار وغزو أرمينية والسلاجقة بآسيا الصغرى وغزو النوبة فى الجنوب . أما الصليبيون فاستولى على كثير من قلاعهم وحصونهم ومدنهم مثل قيسارية وأرسوف وصَفد وتِبْنِين والرملة ويافا وحصن الأكراد والقرين القريبة من عكا وصافيتا وصفا والشقيف . ولم يلبث أن استولى على أنطاكية سنة ٦٦٧ فانهارت المملكة الشمالية التى كان قد أقامها الصليبيون ، ومعروف أن زنكى استولى من قديم على مملكتهم القديمة الرُّها واستولى بعده صلاح الدين على مملكتهم فى بيت المقدس . ومازال الظاهر بيبرس ذاهبا آيبا من الفرات لحرب التتار وسحقهم ، وغزا السلاجقة فى آسية الصغرى ، وفتح أرمينية الصغرى مرتين واستقصى فتح حصون الإسماعيلية بالقرب من اللاذقية ، وفتح دنقلة كرسى بلاد النوبة ، ودانت له بالطاعة . ومن أهم أعماله أنه أقام فى سنة ٦٦٣ لكل مذهب من المذاهب السنية الأربعة : المذهب الحنفى والمالكى والشافعى والحنبلى قاضيا ، وظل العمل بذلك جاريا فى عصر المماليك ، وفى أيامه سنة ٦٧٥ طافوا بالمحمل وبكسوة الكعبة المشرفة بالقاهرة ، وكان يوما مشهودًا ، وهو أول من فعل ذلك بالديار المصرية . وشيد مسجدًا كبيرًا بالقاهرة لاتزال أطلاله قائمة إلى اليوم . وهو يُعَدّ من أبطال مصر والعرب العظام أمثال صلاح الدين ، ويعد عصره من العصور الإسلامية الذهبية ، وظلت بطولته فى حروب التتار والصليبيين عالقة بالأذهان أزمنة طويلة ، وأُلفت حولها قصة مشهورة ، ومازالت الأجيال تزيد فيها إيمانا بفروسيته الخارقة . وقد توفى سنة ٦٧٦ بدمشق ودُفن بها ، وتولى بعده ابنه الملك السعيد ، ولم يكد يدور به فى الحكم عامان حتى ثار عليه أمراء المماليك وخلعوه وولوا أخاه بدر الدين سلامش وكانت سنه لا تتجاوز السابعة . وجعلوا قلاوون أتابكًا له .

وسرعان ما استغل قلاوون الفرصة ، فاستخلص الملك لنفسه ، وتلقب باسم السلطان المنصور، وهو من أعظم سلاطين المماليك حزما وعزما وتدبيرًا وبأسا ، وقد اتبع سياسة الظاهر بيبرس فى الإيقاع بالتتار والصليبيين أما التتار فنازلهم مرارًا وأنزل بهم خسائر فادحة حتى رضخوا وطلبوا منه الصلح مدحورين ، وأما الصليبيون فقد صمم على إزالة مملكتهم الرابعة والأخيرة فى طرابلس ، ونازلها سنة ٦٨٨ وفتحها قهرًا بالسيف ، وملك ما جاورها من القلاع والبلدان مثل

جبيل وبيروت . وكان قد حدث شغب فى بلاد النوبة ، فذهب إليها بعض قواده ورمَّ ما بها من شغب . وتوفى سنة ٦٨٩ وظل الملك فى أبنائه وأحفاده نحو مائة عام ، وخلفه ابنه الأشرف خليل ، وكان شجاعا وبطلا مغوارًا ، فصمم على طرد الصليبيين من الشام ، فجمع عساكره وتوجه إلى عكا فوصلها فى يوم واحد ويسَّر الله له فتحها فى يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الأولى سنة ٦٩٠ وكان الصليبيون استولوا عليها بأخرة من أيام صلاح الدين فى يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الآخرة سنة ٥٨٧ وقتلوا المسلمين بها ، فثأر لهم السلطان خليل وقتل من كان بها من الصليبيين حين فتحها . وانحلت عزائم الفرنج بعد عكا وأخذ السلطان خليل صور وصيداء وحيفا واستسلمت قلاع الصليبيين الأخرى ، وتطهرت البلاد من رجسهم وإثمهم ، فلم تبق لهم فى الشام بلد ولا قلعة ولا قرية ولا جزيرة .

والعجب أن يكافئ المماليك السلطان خليلا على هذا العمل الباسل العظيم جزاء السلطان المعظم توران شاه بعد واقعة المنصورة ، فيتآمروا على قتله ، وتنجح مؤامرتهم سنة ٦٩٣ ويخلفه أخوه الناصر محمد ، وهو لا يجاوز التاسعة من عمره ، ويعيَّن كَتْبغا نائبا له ، وما يكاد يدور العام حتى يستولى على السلطنة ، ويغتصبها منه بعد عامين لاجين ، وتعود بعد عامين آخرين إلى الناصر محمد بن قلاوون سنة ٦٩٨ . وتنشب حروب بينه وبين تتار العراق ، وترجح كفتهم ويستولون على دمشق وغيرها من مدن الشام ويعيثون فيها فسادًا . ولا يلبث الناصر محمد أن يجمع لهم جيشا كثيفا سنة ٧٠١ وينازلهم فى مرج الصُّفَّر بالقرب من دمشق ويسحق جموعهم سحقا ، وتولَّى فلولهم الأدبار نحو العراق وبغداد لا تلوى على شيء . ويأخذ كبار المماليك فى التنافس حول السلطة ويخشى الناصر محمد أن يفتكوا به فيذهب إلى الحج ويعتزلهم فى الكرَك جنوبى الأردن ، ويرسل إليهم بكتاب يعلن فيه تنازله عن الحكم ، ويتفق المماليك على تولية ركن الدين بيبرس سنة ٧٠٨ ولا يدور العام حتى يعود الناصر محمد إلى سلطنته ويتولى الحكم فى مصر والشام للمرة الثالثة سنة ٧٠٩ . وكان المصريون يحبونه حبًّا شديدًا ، وكان عهده عهد رخاء عظيم ويتضح فى كثرة المنشآت التى أسسها من مدارس ومساجد وخانقاهات . وبلغت الدولة فى عهده أوج مجدها ، فقد قضى أبوه وأخوه ، كما قلمنا ، على الصليبيين نهائيا ، ولم تبق منهم باقية ، وانتصر هو على التتار فى ولايته الثانية على مصر انتصارًا حاسما . وعقدوا معه صلحا سنة ٧١٩ ولم يعودوا يفكرون فى الغارة على الشام .

ويظل الناصر فى الحكم حتى سنة ٧٤١ ويخلفه أبناؤه وأحفاده حتى سنة ٧٨٤ وتعود مصر

أو يعود الحكم فى مصر ثانية إلى ما حدث فى الدولة الفاطمية من عواقب وخيمة لأن يصبح الحكم وراثيا . ويكفى أن نعرف أن ثمانية من أبناء الناصر تولوا الحكم إحدى وعشرين سنة مما يعنى عدم الاستقرار ، وكان منهم من يعيش للهو وسماع المغنيات مثل السلطان الصالح إسماعيل والسلطان شعبان ، ومثل السلطان زين الدين ، وكان فى الحادية عشرة من عمره ، وفى نفس السن تولى أخوه السلطان حسن وفى عهده انتشر وباء الطاعون بالقاهرة . وتخلفه فترة يحكم فيها أحفاد الناصر لمدة عشرين عاما ، وكثير منهم كان صبيًّا ، كما ذكرنا ، فكان طبيعيًّا أن يفسد الحكم فى عهدهم فسادًا شديدًا . وفى سنة ٧٦٦ سوّلت لحاكم قبرص بطرس لوزيجنان شياطينه أن يغير على الإسكندرية ، فأغار عليها لمدة ثلاثة أيام ، ثم ولّى بمن معه هاربًا حين علم باقتراب الجيش المملوكى .

وطبيعى وقد فسد حكم آل قلاوون فسادًا لاصلاح له بعده ، أن يحاول المماليك التخلص من هذا الحكم ، وكانت مجموعة المماليك البرجية قد أخذت تظهر على مسرح الحوادث ، وأخذوا يسيطرون على أداة الحكم منذ وفاة الناصر محمد بن قلاوون ، وأخذ نجم برقوق من بينهم يعلو فى سماء مصر ، ومازال يدبر للأمر هو وأعوانه حتى أطاحوا بأحفاد قلاوون وتسلم مقاليد الحكم سنة ٧٨٤ وظل فى أيدى المماليك البرجية إلى نهاية الدولة المملوكية ، وكان أديبًا يهتم بمجالس الأدب والعلم ، وخلفته طائفة من المماليك البرجية مثل شيخ وبرسباى وجقمق وقايتباى والغورى . وظل برقوق على رأس الدولة حتى توفى سنة ٨٠١ إلا ما كان من سنة واحدة أبعد فيها عن الحكم وهى سنة ٧٩١ وسرعان ما عاد إليه . ويكثر فى زمن هذه الدولة البرجية المنافسات بين الأمراء ، كما يكثر فرض الضرائب على الشعب . ويهبُّ بأخرة من حكم برقوق إعصار تتارى جديد ، يقوده تيمورلنك ، وينزل الإعصار بالعراق والموصل ويستصرخ الحكام هناك برقوق ، ويشغل تيمورلنك بغزو الهند حينًا ، فيعلن أحمد بن أويس حاكم بغداد تبعيته لبرقوق رجاء أن يحميه من الطاغية المغولى ، ويكتب له برقوق تقليدًا أومرسوما بنيابته عنه فى بغداد ويزوده بالمال والعتاد والرجال ، ويعود تيمور سريعا ويستولى على بغداد . وفى هذه الأثناء يتوفى برقوق بينما يتجه تيمور بجيشه إلى الشمال يريد الاستيلاء على الشام ، ويستولى على حماة وحمص وبعلبك ، وكان مماليك برقوق قد ولوا عليهم ابنه فرجا ، فخرج على رأس جيش للقائه ولكنه هزم بالقرب من دمشق سنة ٨٠٢ ودخل تيمور دمشق وظل جنوده فيها مدة ينهبون ويسلبون ويأتون من الفظائع ما صوره ابن عربشاه فى كتابه عجائب المقدور فى نوائب تيمور ، مما اضطر السلطان فرجا إلى قبول الصلح

معه ، وبارح تيمور الشام سريعًا إلى آسيا الصغرى وأنزل بالسلطان بايزيد العثمانى ضربة قاصمة ، وعاد إلى بلاده . وسرعان ماتوفى وتمزقت دولته بين ورثته ، وكفى الله المماليك وديار مصر والشام شره وخطره .

ويحتدم التنافس بين أمراء المماليك البرجية ويستخلص الحكم لنفسه المؤيد شيخ سنة ٨١٥ وله عمائر كثيرة أشهرها جامعه المؤيدىّ ، ويقال إنه لم يُبْنَ فى الإسلام أكثر زخرفة منه بعد الجامع الأموى بدمشق ، وتوفى سنة ٨٢٤ . وبويع ابنه المظفر أحمد وله سنة واحدة وثمانية أشهر ، فكان طبيعيا أن يستولى على الحكم بعض الأمراء ، ويتولى سلطانان ، ويخلفهما السلطان بَرْسباى سنة ٨٢٥ ومرَّ بنا غزو حاكم قبرص بطرس لوزيجنان للإسكندرية سنة ٧٦٦ وكان القبارصة كثيرًا ما يتعرضون فى البحر المتوسط للسفن المصرية والشامية ، فصمم برسباى على أخذ قبرص وأرسل لها ثلاث حملات ، استطاعت ثالثتها أن تستولى عليها من جميع أنحائها ، وعادت الحملة بغنائم وأسرى كثيرين وبحاكم قبرص مقيدًا فى الأغلال ، وقبَّل الأرض بين يدى بَرْسباى ، وتعهَّد أن تظل جزيرته موالية لمصر وأن يكون نائبا فيها للسلطان ، وعاد إلى جزيرته عقب ذلك سنة ٨٣٠ بعد أن دفع دية كبيرة وبعد أن التزم بأن يؤدى لمصر سنويا عشرين ألف دينار جزية . وخلف برسباى ابنه العزيز سنة ٨٤١ لمدة عام ، ولم يلبث الأمير جقمق أن عزله ، وتولى الحكم سنة ٨٤١ وحاول أن يكتسب مجدًا حربيًّا كمجد برسباى ، فوجه ثلاث حملات إلى جزيرة رودس ، ولكنها لم توفق جميعًا إلى الاستيلاء عليها ، ويتوفى سنة ٨٥٧ .وتكثر المنافسات والمنازعات بين أمراء المماليك البرجية . ويستخلص الحكم لنفسه قايتباى سنة ٨٧٢ وكان سديد الرأى شجاعا ساهرًا على دولته المترامية الأطراف ، متنقلا فيها من القاهرة إلى مدن الفرات إلى مكة والمدينة ، ويبدو أنه كان يعنف فى جمع الأموال والضرائب ، وكان يهتم ببناء المدارس والمساجد وترميم المنشآت . وظل حاكما للدولة تسعة وعشرين عاما إذ توفى سنة ٩٠١ . وخلفه أربعة سلاطين حكموا مددًا قصيرة ، واختار أمراء المماليك بعدهم قانصوه الغورى سنة ٩٠٦ ، وهو من خيرة سلاطين المماليك البرجية ، وكان شاعرًا واشتهر بمجالسه الأدبية . وكان طاعنا فى السن ، بينما كان يتراءى فى الأفق شبح عدوين كبيرين يهددان مصر والمماليك بالخطر الجسيم ، أولهما خطر البرتغال واكتشاف فاسكودى جاما طريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند منذ سنة ٩٠٣ مما آذن بتحول زمام تجارة توابل الهند من أيدى المصريين إلى أيدى البرتغاليين ، وضياع ماكانت تأخذه مصر من ضرائب ورسوم على هذه التجارة فى طريقها إلى أوربا وثغور البحر المتوسط . وأخذ البرتغاليون يناوشون

العرب فى جنوبى الجزيرة العربية ، أو قل إن العرب هم الذين بدءوا بهذه المناوشات ، ووقف الغورى معهم وانتصروا فى موقعة بحرية عليهم . غير أن البرتغاليين مضوا يعيدون الكرة ، وهاجموا مدينة عدن ونزلوا فى بعض الجزر الواقعة بالقرب من باب المندب وأصبحوا يهددون مدينة عدن واليمن جميعها ، فأرسل إليهم سريعا قانصوه الغورى نجدة طردت البرتغاليين من هذه الأنحاء ، واستدارت تحتل اليمن حتى تظل مصر حارسة لها .

وتهدَّد مصر خطرٌ أكثر جسامة ، فإن العثمانيين كانوا قد استولوا على القسطنطينية وأخذ نجمهم فى الصعود ، وسمعوا بما أنزله إسماعيل الصفوى بأهل السنة فى بغداد من سفك لدمائهم وقسوة متناهية فأعلنه سليم الأول بالحرب وانتصر عليه فى سنة ٩١٤ واستولى منه على الجزيرة والموصل وديار بكر وأعاد سليم الكرة فهزم إسماعيل الصفوى سنة ٩٢٠ . وعرف أن قانصوه الغورى كان قد عقد معه حلفا ، فصمم على منازلته ولم يكن ذلك غائبًا عن قانصوه فجند جيشا كثيفا ومضى به إلى شمالى سوريا لرد العدوان ، إن حدث ، فى حينه ، وأرسل إلى سليم يطلب إليه عقد معاهدة صلح بينهما فرد رسله ردا سيئا ، ولم تلبث أن نشبت بينهما معركة مرج دابق شمالى حلب سنة ٩٢٢ ودارت الدوائر على قانصوه وجيشه ، وقُتل وهو يلوذ بالفرار . ولم تكن تنقص جيش المماليك الشجاعة ، إنما كان ينقصه سلاح مهم استخدمه العثمانيون فى المعركة هو سلاح المدفعية ، فكان طبيعيًّا أن تكون لهم الغلبة ، وفتحت مدن الشام أبوابها لسليم ، ودخل دمشق . ويبدو أنه كان يريد أن يدع للمماليك مصر ويكتفى بممتلكاتهم فى آسيا ، فكاتب خليفة قانصوه فى مصر طومان باى يعرض عليه أن يترك مصر له وللمماليك على أن يعترفوا له بالسيادة ، فيخطب له ، وتضرب السكة باسمه . ولكن طومان باى أبى ذلك وأخذ يستعد لحربه ، وأحسَّ بتخاذل المماليك من حوله ، بينما كان سليم يتقدم نحو مصر ودخل حدودها واتجه إلى القاهرة ، والتقى بجيش طومان باى بالقرب من العباسية على أبواب القاهرة وأنزلت مدفعيته به هزيمة ساحقة ، وفرَّ طومان باى . ودخل سليم القاهرة فى اليوم التالى وكان أول يوم جمعة فى شهر المحرم لسنة ٩٢٣ فدُعى له فى الخطبة ، وسَلَّم قصر طومان باى بعد قتال عنيف أما هو ففرَّ إلى الصعيد ثم إلى الدلتا واشتبك مع العثمانيين فى بعض مناوشات خاسرة ، ولم يلبث أن سُلِّم غدرا إليهم ، فأمر السلطان بشنقه على باب زويلة . بذلك انتهى حكم المماليك لمصر وتقوضت دولتهم .

(ب) العثمانيون [1]

مكث السلطان سليم فى مصر بعد فتحه لها نحو ثمانية أشهر ، ذاق فيها المصريون ألوانا كثيرة من الظلم والمحن ومصادرة الأموال وأيضًا مصادرة العلماء ورجال المهن والفنون والصناعات ونقلهم فى السفن إلى القسطنطينية ، وقد نُقل كثير من التحف والآثار الرائعة من المساجد ومن قصور المماليك حتى الرخام كانوا ينزعونه . وكأنما وضع سليم خطة أن يَحْرِم مصر من كل ما كان بها من تراث فنى غير ما حمله من كتب لاتزال تزخر بها مكتبات القسطنطينية إلى اليوم . وهكذا جُرِّدت مصر من علمائها وفنّانيها وتراثها الفكرى والفنى ، وعاشت حقبًا سوداء امتدت إلى نحو مائتين وتسعين عاما ، وحتى الخلافة الإسلامية التى كانت تتيح لها زعامة أو شيئا من الزعامة فى العالم الإسلامى سلبها منها سليم ، إذ دفع المتوكل على الله آخر خلفاء بنى العباس فى مصر إلى أن يتنازل له عن الخلافة ، ويقال إنه تقلدها فى مصر ، ويقال بل بعد ذهابه معه إلى القسطنطينية .

وجعل سليم على مصر نائبا له أو واليا ، كان يلقب بالباشا ، ويتخذ القلعة مقرًّا له طوال حكم العثمانيين لمصر ، ولم ينفرد بالحكم ، فقد أشرك معه سليم – وظل ذلك ساريا بعده – قادة الجند العثمانيين الذين تركهم بعده فى مصر ، وأيضًا أشرك معه حكام مديريات القطر أو أقاليمه . وقد اختارهم سليم جميعًا من المماليك ، وكأنه رأى أن يشركهم فى الحكم ، للإشراف على شئون الأقاليم . ولم يلبث أن توفى سليم ، وخلفه أخوه سليمان سنة ٩٢٦ وفى أيامه استقر نظام حكم العثمانيين السياسى لمصر بحيث كان بها وال له الإشراف العام على شئونها المختلفة ، ومعه ديوانان : ديوان كبير مؤلف من السردار ورئيس الفرق العسكرية والدفتردار (مدير الخزانة) والروزنامجى (حافظ السجلات) وأمير الحج وقاضى القضاة أو رئيسهم ونقيب الأشراف ورؤساء المذاهب الأربعة وبعض رؤساء المماليك أوكبيرهم . وبجانب هذا الديوان ديوان صغير كان يتألف من الكتخدا (نائب الوالى) والدفتردار والروزنامجى ومندوب عن كل فرقة من الفرق العسكرية .

---

(١) انظر فى العثمانيين آخرة المماليك لابن زنبل وبدائع الزهور لابن إياس وأخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من الدول للإسحاقى وتاريخ الجبرتى والبلاد العربية والدولة العثمانية لساطع الحصرى والحملة الفرنسية وظهور محمد على لمحمد فؤاد شكرى والجزء الأول من تاريخ الحركة القومية فى مصر وظهور محمد على لعبد الرحمن الرافعى ومقدمة تاريخ العرب الحديث لعبد الكريم غرايبة والخطط التوفيقية لعلى مبارك (طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب) ١٤٦/١ وما بعدها وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٤٤٨.

وكان الديوان الصغير ينعقد كل يوم ويبلغ قراراته إلى الوالى ، وبالمثل كانت قرارات الديوان الكبير تبلَّغ إلى الوالى ويعمل على تنفيذها جميعًا .

وظل المماليك – منذ سليم – يمثلون فى البلاد سلطة ثالثة بجانب سلطتى الجند والوالى ، إذ جُعلوا حكاما للأقاليم ، وكان كل منهم يسمى سنجقا : اسما تركيا . كان فى الأصل يعنى البيرق ، إذ كان السنجق عادة يتسلم بيرقا فسمِّى باسمه وسميت مديريته باسم السنجقية ، وأُعْطوا أيضا لقب بك ، فكان هناك الوالى الباشا والسناجقة المماليك البكوات ، وكانوا يشرفون على مديرياتهم من الناحيتين الإدارية والمالية ، وكان لهم نواب يسمون الكُشَّاف جمع كاشف . وكان يتبع الكشافَ الملتزمون وهم من التزموا بدفع ضرائب معينة عن قرية أو قرى ، وكانت للملتزمين سلطة واسعة على الفلاحين فهم يعتصرونهم اعتصارًا دون شفقة أو رحمة ، والفلاحون يتصبَّبون عرقا لكى ينعم الملتزم والكاشف والسنجق ، وما يزالون يثقلون عليهم بالضرائب والإتاوات ويرهقونهم من أمرهم عسرا ، حتى أصبحوا يعانون ما لا يطاق من البؤس والفاقة . وبذلك كسدت الزراعة ، كما كسدت التجارة منذ استولى العثمانيونِ على مصر وكشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح وتحولت تجارة أوربا والهند إليه . وزاد الأمور سوءا أن العثمانيين اتبعوا سياسة مستمرة أن لا يظل الوالى فى مصر إلا مدة قليلة قد تكون عاما وقد تكون أقل من عام ، فلم يشعر الولاة بشىء من الاستقرار ، وكأنهم كانوا يجيئون ليدخروا لأنفسهم شيئا من مال،وكانوا يذهبون دون أن يفكروا فى أى إصلاح ، ويكفى أن نعرف أنه حكم مصر حتى مجىء نابليون مائة وخمسون واليا عثمانيا .

وكانت الدولة العثمانية قد أخذت تضعف منذ القرن الثانى عشر الهجرى أو السابع عشر الميلادى ضعفًا شديدًا فأخذ سلطان السناجق المماليك يَقْوَى ، وخاصة أنه كانت بيدهم أزمَّة الشئون الإدارية والمالية فى البلاد ، وأيضًا فإن العثمانيين كانوا يتخذون منهم فى القاهرة زعيما لهم يسمونه شيخ البلد ، فأخذت مشيخته أو سلطته تَقْوَى ، حتى غدا مناظرًا أو مماثلا للوالى العثمانى .

وبلغ من سلطان شيخ البلد ومماليكه أن كانوا أحيانا يعزلون الولاة ، وربما جاءهم وال لا يرضونه ، فكانوا يمتنعون عن تهنئته ، ولا يحضرون قراءة المرسوم بتوليته ، حينئذ لا يجد بدًّا من حمل حقائبه والعودة إلى القسطنطينية فكان طبيعيًّا أن يفكر بعض شيوخ البلد من زعماء المماليك فى الاستقلال بمصر ، وتولى على بك الكبير مشيخة البلد ، وصمم على الاستقلال ، ولم يلبث أن خلع الوالى التركى سنة ١١٨٣ هـ/١٧٦٩ م وأعلن استقلال مصر عن الدولة العثمانية وضرب السكة

باسمه ، وفتحت جيوشه معظم جزيرة العرب ونادى به شريف مكة : سلطان مصر وخاقان البحرين . وأرسل قائدًا من قواده وهو محمد بك أبو الذهب لفتح سوريا ، وفتحتْ له دمشق وغيرها من مدن الشام أبوابها . غير أن الباب العالى العثمانى لم يلبث أن استغواه بما وعده به من الولاية على مصر فانقلب على سلطانه على بك الكبير ، ونشبت بينهما الحرب وسقط فى ميدانها على بك سنة ١١٨٧ هـ/١٧٧٣ م . وبذلك أضاع محمد بك أبو الذهب على مصر فرصة ذهبية : أن يُرَدَّ لها استقلالها وحريتها ، وظل شيخا للبلد ، يولِّى عليها من العثمانيين من يختاره إلى أن توفى بعد سنتين فى عام ١١٨٩هـ. وخلفه على مشيخة البلد إبراهيم بك ومراد بك شريكين فيها ، وخرجت المشيخة من أيديهما فترة إلى إسماعيل بك ، وتوفى فعادت إليهما ولإبراهيم الرياسة ، وأصبح شيخا للبلد إلى أن جاءت الحملة الفرنسية سنة ١٢١٣ هـ/١٧٩٨ م . وتنزل الحملة مصر وتظل تجاهدها جهادًا عنيفًا مريرًا ثلاث سنوات ، ولم ينفع نابليون قائدها ما أنشأه من مجالس شورى ألفها من بعض شيوخ الأزهر ومن كبار التجار والأعيان ، وجعل لها النظر فى الضرائب وشئون الحكم .

لم يَغُرّ هذا الخداع المصريين فقد عرفوا أنها مجالس صورية لتنفيذ مطامعه الاستعمارية ، ومازالوا يقاومون الحملة مقاومة باسلة ، حتى اضطروها إلى مبارحة البلاد سريعا . وأولى أن تدرس هذه الحملة وآثارها بمصر مع عصرها الحديث ، إذ أذكت فى المصريين الشعور القومى . فلما خرجت إلى البحر المتوسط وما وراءه وعاد المصريون إلى الحكم العثمانى رأوا أن من واجبهم التخلص من نيره الظالم البغيض وأن يختاروا حاكمهم واختاروا محمد على سنة ١٢١٩ هـ/١٨٠٥م وبدءوا بقوة نهضتهم الحديثة .

٤

المجتمع [١]

مصر – كما وصفها الذكر الحكيم – جنات وعيون وزروع ومقام كريم. وفى جنات هذه الزروع وجنباتها عاش سكانها من القبط ومن نزل بها من العرب ، ومع الزمن يزداد اختلاط العرب بسكانها وخاصة منذ أسقطهم الخليفة العباسى المعتصم من دواوين الجيش فى نهاية الربع الأول من القرن الثالث الهجرى ، فقد مضوا يخالطون سكانها لا فى مدنهم فحسب ، بل أيضا فى قراهم وزروعهم مؤلفين جميعا شعبها المصرى . وكانت تتوزعه - كغيره من الشعوب العربية – ثلاث طبقات عليا ووسطى ودنيا . وتشمل الطبقة الأولى الوالى وصاحب الخراج والقاضى وكبار أصحاب المناصب وقواد الجند ومعهم الأشراف من بيتى العباسيين والعلويين وكبار التجار والإقطاعيين من المماليك . والطبقة الوسطى تشمل العلماء والجند وأوساط الزراع أصحاب الملكيات الصغيرة والقائمين على الصناعات . أما الطبقة الدنيا فتشمل الفلاحين والصناع وصغار التجار . وبجوار هذه الطبقات كان هناك رقيق يجلب من أواسط إفريقيا ومن بيزنطة وأرمينية وثغور البحر المتوسط ، وكان كثير منه يحرَّر ويصل إلى أرفع المناصب على نحو ما هو معروف عن فاتك الرومى وكافور الحبشىّ القائدين فى زمن الإخشيد . وكان هناك أهل الذمة من الأقباط .

ويمد النيل مصر من قديم برخاء لا مقطوع ولا ممنوع ، ومعروف أن أرضها قبيل الفتح العربى كانت موزعة بين الدولة والكنيسة وكبار الإقطاعيين ، وقد ترك العرب الفاتحون للكنيسة وللإقطاعيين مالهم من الأراضى على أن يؤدوا عنها الخراج أوكما نقول الآن الضرائب ، وبالمثل كان يؤدِّيها أصحاب الملكيات الصغيرة من الأرض وكل فالح لها أو زارع . وتُرك للقبط الإشراف

---

(١) انظر فى المجتمع الولاة والقضاة للكندى والمغرب لابن سعيد بقسميه عن الفسطاط والقاهرة ومروج الذهب للمسعودى ومصر عند المقدسى وابن حوقل وناصر خسرو والإشارة إلى من نال الوزارة لابن ميسر وترجمة يعقوب ابن كلس والأفضل بن بدر الجمالى فى ابن خلكان والخطط للمقريزى والجزءين الثالث والرابع من صبح الأعشى والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى وبدائع الزهور لابن إياس وكتاب قوانين الدواوين لابن مماتى وسيرة صلاح الدين لابن شداد ورحلة ابن جبير ومعيد النعم ومبيد النقم للسبكى والمدخل لابن الحاج ونظم الحكم بمصر فى عصر الفاطميين لعطية مصطفى مشرفة والمجتمع المصرى فى عصر السلاطين المماليك لسعيد عبد الفتاح عاشور والحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى لآدم ميتز وقصة القاهرة وتاريخ مصر فى العصور الوسطى لستانلى لين بول وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان .

المالى على شئون الخراج أو ضرائب الأرض ، وظل لهم ذلك وحدهم طوال الأزمنة الإسلامية حتى الثلاثينيات من القرن الحاضر. وكان أهل الذمة من القبط وغيرهم يؤدون الجزية ، وهى تتراوح بين دينار ودينارين سنويا ، يؤديها القادر بمقدار قدرته ، ولم يكن يؤديها راهب ولا شيخ ولا امرأة ولا صبى ، وهى فى واقعها ضريبة دفاع لأنهم لم يكونوا يشتركون فى الحرب .

وكانت تؤخذ بجانب ذلك مكوس على الصناعات ، ومن أهمها صناعة القراطيس من ورق البردى ، وكانت هذه الصناعة رائجة جدًّا حتى أواخر القرن الثانى الهجرى حين نقلت فى عهد الرشيد من الصين صناعة الورق وأنشئ لها مصنع ببغداد . وأهم من هذه الصناعة صناعة النسيج والثياب ، وقد ظلت مزدهرة طوال الحقب ، وكان النساء والغلمان فى الوجه البحرى يشتركون فيها ، واشتهرت بها المدن الشمالية : دمياط وشطا وتنيس ودبيق والإسكندرية ، وكان من نسيج الأخيرة ما يباع بما يعادل وزنه من الدراهم ، وكان ثمن الثوب الدبيقى مائة دينار وقد يبلغ مائتين ، واشتهرت تنيس بثوب كانت تصنعه للخليفة منسوجا بالذهب وليس فيه من الغزل سوى أوقيتين ، وكان يقدر بألف دينار . وكانت السجاجيد والأبسطة والستور تصنع بالفيوم والصعيد ، وكانت تصنع الحصر فى أمكنة كثيرة ، كما كانت تصنع بعض أنواع الجلود . وعلى كل هذه الصناعات كانت تؤخذ المكوس كما كانت تؤخذ على استخراج بعض المعادن وخاصة الشبّ والنطرون ، وأيضًا على بناء السفن . وكانت التجارة رائجة ، وكان يتجر فيها كثير من الفرس والروم واليهود .

ومما يدل بوضوح على رخاء مصر فى عصر الولاة ومدى ما كان يتمتع به القبط من حسن المعاملة خبر رواه المقريزى وقع فى أثناء زيارة المأمون لمصر سنة ٢١٧ إذ مر بقرية يقال لها « طاء النمل » وكانت إقطاعية لقبطية عجوز تسمى مارية ، فتعرضت له تسأله أن ينزل فى ضيافتها مع حاشيته ومن يرافقه من جنده ، وعجب لكثرة ما قدمت من أطعمة ، فلما أصبح جاءته ومعها عشر وصائف ، مع كل وصيفة طبق ، فظن أنها ستقدم له بعض هدايا الريف المصرى ، فلما وضعت الوصائف الأطباق بين يديه إذا فى كل طبق كيس من ذهب ، فشكرها وأمرها برده ، فأبت إباء شديدا ، وتأمّل الذهب أو الدنانير فإذا بها من ضرب عام واحد ، مما يدل على أنه ربحها من عام ، فقال : هذا والله أعجب . وتوسلت إليه أن يقبلها ، فتمنع وقال لها : رُدِّى مالك بارك الله لك فيه ، فأخذت قطعة من الأرض وقالت : يا أمير المؤمنين هذا الذهب من هذه الطينة التى تناولتها من الأرض ثم من عدلك يا أمير المؤمنين ، وعندى من هذا الذهب شىء كثير . فأخذه المأمون لبيت المال وأقطعها عدة ضياع وأعطاها من قريتها مائتى فدان بغير خراج . ومارية إنما هى

إقطاعية واحدة وكان وراءها إقطاعيون كثيرون من القبط والعرب ، فإن الدولة كانت قد دأبت على أن تمنح بعض الموظفين الكبار بمصر وبعض الشخصيات العربية إقطاعيات مختلفة فى القرى المصرية . ومما يدل على الرخاء حينئذ ارتفاع رواتب الولاة وأصحاب الخراج وكبار الموظفين وحتى القاضي موضع الزهد والتقشف إذ يذكر الكندى فى كتابه «الولاة والقضاة» أن عبد الله بن طاهر والى مصر للمأمون فى سنة ٢١١ رسم لقاضى الفسطاط سبعة دنانير كل يوم . وحقًّا كان يحدث أحيانا قحط أو أوبئة أو تذمُّرات من كثرة الضرائب الاستثنائية التى يفرضها بعض عمال الخراج ، حتى ليأخذ ذلك فى الحين الطويل بعد الحين شكل ثورة ، ولكن هذا كله سرعان ما يزول ، كأنه سحابة صيف سرعان ما تَنقشع ، ويعود إلى مصر الأمن والرخاء ، فبينا مصر – كما يقول عمرو بن العاص فى رسالته المشهورة إلى عمر بن الخطاب – لؤلؤة بيضاء إذا هى عنبرة سوداء ، فإذا هى زمردة خضراء ، فإذا هى ديباجة رقشاء .

وكانت أسواق الفسطاط تعكس صور الرخاء فى مصر ، فهى تموج بالأطعمة والحلوى والفواكه وبالطيب والمسك والعنبر وماء الورد ومختلف الأفاويه . ويبدو أن المساكن بها والغرف والحوانيت كانت تؤجَّر ، ويؤجَّر معها الأثاث . وعرفت مصر حينئذ ضروب الملاهى من الصيد وأدواته ومن سباق الحمام وسباق الخيل ، ويروى الكندى أن الوالى عليها يزيد بن عبد الله منع من حلبات السباق سنة ٢٤٢ وسرعان ما عادت سنة ٢٤٩ . وكان الناس يحارشون أحيانًا بين الكِباش والكلاب . ويبدو أنه كانت هناك بعض دور للخمر ، ولابد أنها كانت قليلة ، ويذكر ابن سعيد – إن صحَّ ما يذكره – أن محمد بن أبى الليث الخوارزمى قاضى المعتصم بمصر كان يشرب النبيذ وله عليه ندماء . وكان الناس يهتمون بالغناء وما يصحبه من آلات الموسيقى والطرب ، ويذكر ابن سعيد أيضًا أنه لم يكن بمصر مغنية إلا ركب إليها القاضى لعهد الرشيد المسمى بالعمرى كى يسمع غناءها ، وربما قوَّم لها ما انكسر من غنائها وما دخل عليه من تحريف فى لحنه . وكان الناس يخرجون للتنزهة فى جزيرة الروضة أمام الفسطاط وعلى شاطئ النيل . وكانوا يحتفلون احتفالات كبيرة بفتح الخليج (وفاء النيل) وبالأعياد الإسلامية وأيضا بالأعياد القبطية وبعيد النيروز الفارسى لأول الربيع .

ويتولى مصر – كما مر بنا – أحمد بن طولون مكوِّنا بها الدولة الطولونية ، وتُلْقى مصر فى حجره وحجر ابنه خمارويه بكنوزها ، وكان حازما بعيد النظر رءوفا بالرعية ، فألقى عن كواهلها كثيرا من الضرائب التى كان قد فرضها عليها ابن المدبر عامل الخراج ، وكان قد زاد عليها الضرائب ،

وفرض ضريبة على النطرون وعلى المراعى وعلى المصايد فأسقط ابن طولون ذلك كله . واستقلَّ بمصر ، وفتحت له كنوزها ، وأغدقت عليه من طيباتها ، فكوّن جيشه الضخم ، وأخذ فى بناء قصره خارج الفسطاط وقطائع لعساكره من الترك والسودان والروم وغيرهم وأيضا لقواده ، وعمرت مدينته القطائع وتفرقت فيها الحارات والشوارع والأزقة والحوانيت والسِّكك وبُنيت المساجد والطواحين والحمامات والأفران . وبنى جامعه الكبير وأنفق عليه مائة وعشرين ألفا من الدنانير ، وبنى بيمارستانا وأنفق عليه ستين ألف دينار ، وجعل أمام قصره ميدانا كبيرًا للعب كرة الصولجان ، أنفق عليه خمسين ألف دينار . وكان ينفق على مطبخه فى كل يوم ألف دينار ، وكان يُعْمَلُ سماط عظيم ، وينادَى : من أحب أن يحضر سماط الأمير فليحضر ، وكان الناس يأكلون ويحملون ما يشاءون . وكان ما يدخل إلى خزائنه فى كل سنة بعد نفقاته مليون دينار ، وخلَّف فى خزائنه من الذهب حين موته عشرة ملايين من الدنانير .

واستقر السلطان بعده لابنه خمارويه وعظم دخل الدولة ، وأخذ خمارويه يغرق إلى أذنيه فى النعيم ، فزاد فى عمارة قصر أبيه ، وجعل الميدان الذى أمامه بستانا وزرع فيه أنواع الرياحين والورود وأصناف الشجر وكسا النخل نحاسا تخرج من عيونه المياه وتنحدر إلى فساقىّ يفيض الماء منها إلى مجار تَسْقى سائر البستان ، وسرَّح فيه طيورا حسنة الصوت وطواويس مختلفة . وجعل لنفسه مجلسا سماه دار الذهب طَلَا حيطانه بالذهب واللازورد وجعل فيه تماثيل أو صورًا بارزة لحظاياه ومغنياته وعلى رءوسهن الأكاليل من الذهب والجواهر المرصعة . وجُعلت فى هذا البستان بين يدى القصر فسقية من الزئبق طولها خمسون ذراعا وكذلك عرضها ، كان يُرى لها فى الليالى المقمرة منظر عجيب حين يتألف نور القمر بنور الزئبق . واتخذ خمارويه بيوتا للسباع وغيرها من الوحوش سوى الإصطبلات الواسعة للخيل . وكانت حلبات السباق فى أيامه تقوم مقام الأعياد ، ويقال إن عرض الخيل حينئذ كان من عجائب دار الإسلام . ومما يدل على ما وصلت إليه الدولة من ثراء جهاز ابنته قَطْر النَّدَى حين زوَّجها الخليفة العباسى المعتضد ، وكان من جملته دكة تتألف من أربع قطع من الذهب عليها قبة من الذهب مشبكة بها أقراط فى كل قرط حبة من جواهر لا يعرف لها قيمة ، وكان فى الجهاز مائة هاون من الذهب ، وبنى خمارويه – كما مرَّ بنا – قصر فى كل منزل تنزل به ابنته من مصر إلى بغداد .

ومما يدل على ثراء مصر لعهد الطولونيين ثراء واسعا أن أبا بكر محمد بن الماذرائى عامل الخراج ووزير خُمارويه تملك من الضياع ما بلغ دخله أربعمائة ألف دينار فى كل سنة سوى ما كان يؤدِّيه من

الضرائب ، ويقال إنه حج إحدى وعشرين حجة وكان ينفق فى كل حجة مائة ألف دينار . وكانت مصر تحتفل بالأعياد احتفالآت كبيرة : الإسلامية منها والقبطية ، بل لكأنما كانت أيامها كلها فى عهد الطولونيين أعيادا . ولذلك بكتْ دولتهم بدموع غزار . وتخلفهم فترة تعود فيها مصر إلى عهد الولاة ، وسرعان ما يتولاها الإخشيد ، فيعيد إليها بهجتها ورخاءها ، وبفضل ثرائها استطاع أن يعدَّ لنفسه جيشا ضخما مكونا من ٤٠٠ ألف مقاتل سوى ثمانية آلاف من مماليكه الأرقاء ، ومازال سعده بحكم مصر يعلو إلى أن صار له حكم الشام والثغور وخُطب له بالحجاز واليمن . وأصبحت مصر بعده لأبنائه ووصيِّهم كافور الإخشيدى . وكانت مصر تنعم بثرائها ، ويبدو أنه تكونت فيها طبقة من كبار الإقطاعيين من العمال والصناع والتجار والزراع لفتت بقوة الإخشيد ، فإذا هو يكثر من مصادرة عماله وكتابه ، ويقول ابن سعيد فى قسم الفسطاط من كتاب المغرب إنه « كان إذا توفى قائد من قواده أو كاتب تعرَّض لورثته وأخذ منهم وصادرهم وكذلك كان يفعل مع التجار المياسير » ويقول ابن سعيد أيضا إنه لما توفى التاجر عفان بن سليمان أخذ من ميراثه مائة ألف دينار . وكان سباق الخيل فى أيامه - كما كان فى أيام خمارويه - يقوم مقام الأعياد . وكانت لوزيره ومدبر الدولة زمن أولاده جعفر بن الفضل بن الفرات المعروف بابن حِنْزابة دار للأفاعى والحيات والعقارب لها قيِّم وحاوٍ من الحواة ومعه مستخدمون .

وظلت مصر طوال زمن الإخشيديين تعنى ببعض اللهو والغناء ، وفى ترجمة الإخشيد بكتاب المغرب أن أبا بكر الماذرائى دعاه إلى طعام وجمع له المغنين من الرجال والنساء . وكان يحاكى ابنَ طولون فى احتفاله بعرض الجيش ليلة عيد الفطر وفيما كان يتخذ عقب العرض من نَصْب السماط للناس . وكان المصريون يحتفلون بعيد الفطر وغيره من الأعياد الإسلامية احتفالات كبيرة ، وبالمثل كانوا يحتفلون بالأعياد القبطية . وشهد المسعودى لعهد الإخشيد سنة ٣٣٠ أحد هذه الأعياد وهو عيد الغطاس المسيحى ، ويكون عادة ليلا ، ويقول إن الإخشيد كان بقصره فى جزيرة الروضة ، وأمر فأُسرج من شاطئ الفسطاط وشاطئ الجزيرة ألف مشعل غير ما أسرجه أهل مصر من المشاعل والشمع . ومئاتُ الآلاف من الناس على الشواطئ وفى الزوارق وقد أحضروا المآكل والمشارب وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهى والعزف والقصف . ونجد بعض الشعراء يذكرون الأديرة وما فيها من خمر ، كما نجدهم يذكرون الطرد والصيد ويقول ابن سعيد إنه كانت بالفسطاط بعض دور للقمار .

وتُلْقِى مصر بكنوزها للفاطميين ، ويؤسِّسون بها أو يقيمون الدولة الفاطمية ويمتد سلطانها من

شواطئ إفريقيا الشمالية إلى بلاد الموصل ، وتدخل فى حوزتهم اليمن والحجاز فى أغلب أيامهم . وينعم الفاطميون بالخراج الذى أخذ يتزايد من نحو مليون ومائتى ألف دينار حين نزل جوهر الصقلى القاهرة إلى خمسة ملايين ونصف من الدنانير لعهد الخليفة المستعلى . وكانت المكوس تُفرَضُ على كل شيء حتى قال المقريزى إنه لم يسلم منها حينئذ إلا الهواء . ويذكر المقدسى أنه كان يُجْبَى من تنيس يوميا ألف دينار على ما تنسج من الثياب ، ويقول المقريزى إنه بلغ المتأخر على تنيس فى ثلاث سنوات مليونُ دينار ومليونى درهم ، وبالمثل كانت تجبى مكوس كثيرة على ما ينسج من الثياب فى شطا ودمياط ودبيق والإسكندرية ، ويقال إنه جُبِى من تنيس ودمياط والأشمونين فى يوم واحد ٢٢٠ ألف دينار . ومما كانت تجبى عليه المكوس الشَّبُّ والنَّطْرون . وكانت تُفرَضُ مكوس على الحمامات ، وكانت تُعَدُّ بالمئات فى الفسطاط والقاهرة ، وعلى الحوانيت ، ويذكر ناصر خسرو أنها كانت تبلغ فيهما نحو عشرين ألفا ، وكان إيجار الحانوت يتراوح بين دينارين وعشرة دنانير شهريا . وبجانب هذه المكوس كانت هناك الجوالى التى يدفعها أهل الذمة . وكانت – كما يقول ابن مماتى فى كتابه قوانين الدواوين – تُفْرَضُ مكوس على المتاجر الصادرة والواردة تبلغ نحو عشرين فى المائة من العُروض أو البضائع . وكانت هناك حبوس كثيرة أو بعبارة أخرى أوقاف محبوسة على وجوه البر ، أخذت تتزايد منذ نهض الليث بن سعد فقيه الفسطاط فى القرن الثانى – لأول مرة – بهذا الصنيع . وكل ذلك كان يصبُّ فى خزائن الدولة الفاطمية ، حتى لتصبح مصر وكأنها فردوس العالم العربى ، وفيها يقول المقدسى : « هى الإقليم الذى افتخر به فرعون على الورى .. أحد جناحى الدنيا ، ومفاخره لا تحصى ، مصره (يريد الفسطاط) قبة الإسلام ونهره أجل الأنهار ، وبخيراته تُعْمَرُ الحجاز ، وبأهله يبهج موسم الحاجّ ، وبِرّه يعمّ الشرق والغرب . قد وضعه الله بين البحرين (الأحمر والمتوسط) وأعلى ذكره فى الخافقين ، حسبك أن الشام – على جلالتها – رُسْتاقه (قُراه) والحجاز – مع أهلها – عياله » .

وطبيعى أن تتضخم مع هذا الثراء الهائل فى مصر – الطبقة العليا : طبقة الأسرة الفاطمية ووزرائها وقوادها وكبار موظفيها وأشراف العلويين وكبار إقطاعييها وتجارها . وقد أكثر الفاطميون من الإقطاع للوزراء والقواد ، وكان عندهم نظامان للإقطاع : إقطاع تمليك يورَث وإقطاع استغلال يَمْنح حق الانتفاع لشخص بعينه ولا يورث . ويُرْوَى أن يعقوب بن كِلِّس أول وزرائهم بمصر كان راتبه فى العام مائة ألف دينار ، وقالوا إنه لما توفى ترك من الجواهر ما قيمته أربعمائة ألف دينار ومن المصوغات ما قيمته نصف مليون دينار . وذكر ابن خلكان أن وزيرهم فى أوائل القرن

السادس الهجرى الأفضل بن بدر الجمالى ترك ستمائة مليون دينار ومائتين وخمسين إردبا دراهم وخمسة وسبعين ألف ثوب ديباج وثلاثين راحلة حقاق ذهب . ودواة ذهب محلاة بجوهر قيمته اثنا عشر ألف دينار ومائة مسمار من ذهب وزن كل مسمار مائة مثقال فى عشرة محابس فى كل محبس عشرة مسامير على كل مسمار منديل مشدود مذهب بِلَوْنٍ من الألوان وخمسمائة صندوق كسوة لخاصته من نسج تنيس ودمياط ، وخلَّف من الرقيق والخيل والبغال والجواميس والبقر ما لا يعلم قدره إلا الله . وكأنما حوَّل كل أموال مصر فى عهده إلى خزائنه ، وأى خزائن إن أكبر مليونير أمريكى فى عصرنا لا يبلغ من الثراء مبلغه . وحتما كانت تحدث بمصر أحيانا مجاعات بسبب نقص النِّيل والقحط ، كما مر بنا فى عهد المستنصر . وقد تحدث أوبئة ، ولكن مصر كانت تنفض عنها ذلك دائما وتعود سريعا إلى رخائها الذى أتاح للوزيرين السالفين كل هذا الثراء

وإذا كان هذا حال وزيرين فما بالنا بأحوال الخلفاء وما كانوا يغرقون فيه من ثراء وترف ، ويكفى لبيان ذلك أن نعرف أنه بعد أنْ تَقَوَّضت الدولة واستولى صلاح الدين على مقاليد الحكم كُشف حاصل الخزائن الخاصة بالقصر الفاطمى ، فإذا به من الكنوز ما لا يكاد يخطر ببال ، حتى ليقول المقريزى : « خرج من القصر ما بين دينار ودرهم ومصاغ وجوهر ونحاس وملبوس وأثاث وقماش وسلاح ما لا يفى به ملك الأكاسرة ولا تتصوره الخواطر الحاضرة ولا يشتمل على مثله الممالك العامرة ولا يقدر على حسابه إلا من يقدر على حسابات الخلق فى الآخرة » .

ولعل فى كل ذلك ما يدل على الثراء والترف والبذخ فى أيام الدولة الفاطمية ، ويزخر حديث المقريزى وغيره بملابس الخلفاء وعمائمهم المرصعة بالجواهر وما كانوا يتخذون من زينة فى أثاثهم وأوانى طعامهم وفى قصورهم وبساتينها وأروقتها وأفنيتها وأعمدتها وأرضها المفروشة بالرخام المتعدد الألوان ، مما بهر ناصر خسرو فى القرن الخامس ، كما بهر غليوم رئيس أساقفة صور فى نهاية أيام الفاطميين سنة ٥٦٢ على نحو ما يلقانا فى كتاب كنوز الفاطميين. ويقول ناصر خسرو إن أهل القاهرة كانوا يعنون بزراعة الأزهار فى سطوح منازلهم حتى لتُرى كأنها حدائق ، ومما يدل على سعة الرخاء لعهده ما ذكره عن سيدة بمصر كانت تملك خمسة آلاف قِدْرٍ ، تؤجِّر كل قدر منها بدرهم . ولعل فيما ذكرنا من هذا الرخاء والترف ما يدل على أن الصناعة كانت مزدهرة بمصر ، وكان العائد منها على الصناع عظيما وبالمثل كانت التجارة وأيضًا الزراعة . وكل شىء يؤكد أن الفلاحين كانوا يتعاملون مع الملاك بنظام المزارعة الموجود حتى الآن ، فللمالك نصف المحصول وللزارع أو الفلاح النصف الآخر ، وتلقانا فى النصوص كلمات الخولى والسائس والحرَّاث والجنايني

والأجير والأعوان وعاصر النبيذ .

ويبدو أن مصر أخذت تعنى عناية واسعة بالغناء منذ هذا العصر ، حتى لنجد ابن الطحان يؤلف فى الغناء والمغنين كتابا . وشاع النبيذ والشراب بأكثر مما كانا يشيعان فى الأزمنة السابقة لكثرة الوافدين على مصر من الشرق للدعوة الفاطمية ، وكأنما حملوا إلى مصر شغف بيئاتهم - وخاصة إيران - به .

واتسع الفاطميون بالأعياد الإسلامية ، وهي - كما يقول المقريزى - موسم رأس السنة ، ويوم عاشوراء ، ومولد الرسول ﷺ ، ومولد على ، ومولد الحسن ، ومولد الحسين ، ومولد فاطمة الزهراء ، ومولد الخليفة الحاضر ، وليلة أول رجب وليلة نصفه ، وليلة أول شعبان ، وليلة نصفه ، وموسم ليلة رمضان أو غُرَّة رمضان ، وسماط رمضان من اليوم الرابع حتى اليوم السادس والعشرين ، وليلة الختم ، وموسم عيد الفطر ، وموسم عيد الأضحى ، وعيد الغدير (الذى يؤمن الشيعة بأن الرسول عهد فيه بالخلافة إلى على بن أبى طالب) وكسوة الشتاء ، وكسوة الصيف ، وموسم فتح الخليج (وفاء النيل) وعيد النيروز (أول الربيع) وهو عيد فارسى كان الناس يوقدون فيه النار ويرشون الماء . ومن أعياد النصارى عيد الغِطاس وعيد ميلاد المسيح وخميس العدس قبل عيد الفصح بثلاثة أيام وفيه يأكل القبط العدس ، وعيد الزيتونة وهو يوم أحد الشعانين ، وكانت الكنائس تزيَّن فيه بأغصان الزيتون وقلوب النخْل . وبعض هذه الأعياد كانت تتحول كرنفالات كبيرة ، إذ يقول المقريزى : «كان الناس بمصر يخرجون فى بعض الأعياد ويطوفون الشوارع بالخيال والتماثيل والسماجات » والخيال هو لعبة خيال الظل المضحكة التى تحولت مع الزمن إلى لعبة الأراجوز المعروفة ، ولعل التماثيل هى نفس أشباح الأراجوز ، أما السماجات فأشخاص يتراءون فى صور منكرة مضحكة ، وقد يحاكى نفر منهم شعوبا أجنبية وكأن ظاهرة ضحك المصريين من أصحاب الرطانات فى العربية وغيرها قديمة . وكانوا يتسلَّون بنطاح الكِباش ومهارشة الكلاب والديكة . وبينما كان الفاطميون وأهل القاهرة مقبلين على هذه الملاهى كان الصليبيون - كما مر بنا - قد نزلوا بالشام واحتلوا بيت المقدس وأنطاكية وأكثر ثغورها ، وكان لابد من منقذ ينقذ مصر والبلاد الشامية مما أصابهما من فساد شديد فى أداة الحكم .

وانتقل الحكم والسلطان إلى صلاح الدين وأسرته الأيوبية ، وفى عهده وعهد الأسرة جميعا تحولت مصر إلى ثُكْنة عسكرية ضخمة ، وسرعان ما أخذت تباشير النصر على الصليبيين تلوح ، بل سرعان ما تهاوت قلاعهم تحت أقدام المصريين ، وتهاوى معها بيت المقدس ، ورُدَّت الديار

إلى أصحابها إلا قليلا . وكان المفروض أن يثقل صلاح الدين كواهل المصريين بالضرائب الباهظة من أجل السلاح والإنفاق على جيوشه ، غير أن الذى حدث كان عكس ذلك تماما ، فقد خفَّف الضرائب عن المصريين ورفع عنهم أكثر المكوس إن لم يكن كلها ، حتى ليقول المقريزى إنه أسقط منها ما يزيد عن مليونى دينار ومليونى أردب وبالمثل أسقط عن أهل الذمة ضرائب كثيرة حتى قالوا إن كل ما كانوا يدفعونه للدولة لم يكن يزيد عن مائة وثلاثين ألف دينار . ولعل مما يدل أكبر الدلالة على أنه لم يكن يمتص شيئا من أموال الناس وأن كل ما كان يؤول إليه من الجوالى والضرائب يُنفَقُ فى الحرب دون أن يختزن منه أى شىء لنفسه ما ذكره ابن تَغْرِى بَرْدى وغيره من المؤرخين مثل ابن شداد فى سيرته من أنه حين لَبَّى نداء ربه لم يوجد فى خزائنه من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعون درهما ناصريا ودينارًا واحدا ذهبا صُوريًّا ، ولم يخلِّف مِلْكا ولا دارا ولا عقارًا ولا بستانا ولا ضَيْعة ولا مزرعة . ويروى ابن تغرى بردى أن ابنه العزيز كان يسير سيرته فى الرعية ، ويقول إنه وهب لصياد دينارين ، وتعذَّر عليه أن يدفع له هذا المبلغ اليسير . وبالمثل كانت سيرة خلفائه سيرة عادلة ، وكانوا دائما كأنهم مرابطون لحرب الصليبيين ، وقد مات السلطان نجم الدين أيوب وهو يجاهد لويس التاسع وخلفه ابنه توران شاه — كما مر بنا فى غير هذا الموضع — فأنزل به هزيمة ساحقة ، وهو آخر سلاطين هذه الدولة بمصر الذين ظلوا يجاهدون الصليبيين حتى الأنفاس الأخيرة من حياتهم .

وعُنِى صلاح الدين ببناء القلعة وبناء كثير من المدارس والرِّباطات ، وظل خلفاؤه يُعْنَوْنَ بالعمران ، مما أنْعَشَ الصناعات فى القاهرة ، وكانت صناعة الثياب مزدهرة بتِنِّيس وغيرها . وقد عُنِى الأيوبيون بالتجارة ، وعقدوا — كما يقول بروكلمان — سلسلة من الاتفاقات التجارية مع الدول الأوربية مما عاد بفوائد كثيرة على التجار المصريين ، وكانوا يعنون بالزراعة ونظم الرى عناية فائقة . ويصف ابن جبير فى رحلته لعهد صلاح الدين ريف مصر وقراه التى لا تحصى كثرة ، ويقول إن العمارة فيها متصلة ، وفيها الأسواق وجميع المرافق . ولحقته صلاة الجمعة بإحدى هذه القرى فصلَّى بها الإمام فى مجمع حفيل وخطب خطبة بليغة جامعة . ويشيد بالمارستان الذى بناه صلاح الدين بالقاهرة وما فيه من عناية بالمرضى ، ويذكر موضعا فيه مقتطعا للنساء ومقاصيرَ عليها نوافذ من حديد اتُّخذت محابس للمجانين ، كما يذكر مارستانا آخر بالفسطاط على ذلك الرسم بعينه . ويذكر جزيرة الروضة ومبانيها المشرفة الحسان ويقول إنها مجتمع اللهو والزينة ؛ فأهل الفسطاط والقاهرة لم ينسوا حتى فى عهد صلاح الدين وحروبه وجهاده لهوهم ومرحهم ، وحقا لم يُعْنَ

الأيوبيون بالأعياد الكثيرة التى كان يعنى بها الفاطميون والتى بلغت فى تقدير المقريزى نحو ثلاثين عيدًا ، ولكن على كل حال بقيت منها بقية إسلامية كانت تُمَدّ فيها الأسمطة للشعب وكذلك بقيت بقية من الأعياد النصرانية . وطبيعى أن يُشْغَلَ الأيوبيون عن الأعياد المصرية بحروبهم مع الصليبيين وما كانت تَسْتَنْفِدُ منهم من أموال ضخمة . ويبدو أن فنون اللهو وما يتبعها من القمار والخمر مما عُرِف فى عهد الفاطميين ظلت فى أيام الأيوبيين وإن خفت حدتها ، ويقول ابن تغرى بردى عن السلطان العادل الأيوبى إنه طهَّر جميع ولاياته – فى مصر وغير مصر – من الخمور والخواطئ والقمار . وطبيعى أن لا تفارق البسمة شفاه المصريين فى أيام انتصارات سلاطينهم الأيوبيين على الصليبيين وأن لا يفارق المرح نفوسهم ، ومن خير ما يصور ذلك كتاب الفاشوش فى حكم قراقوش لابن مماتى صاحب ديوان الجيش والمال لعهد صلاح الدين ، وكان قد عيَّن قراقوش محافظا للقاهرة وأمره ببناء القلعة ، والكتاب مجموعة من النوادر المضحكة على قراقوش وأحكامه الحمقاء . وسرعان ما أصبح قراقوش شخصية خيالية لكل حاكم مخبول فيه بله وغفلة وحمق ، وسُمِّى فى تركيا قراقوز ، وعاد إلينا باسم أراجوز وبعروضه المضحكة .

ويتحول صَوْلجان الحكم وأزِمَّته إلى أيدى سلاطين المماليك ، ويكسبون لمصر مجد الانتصار على التتار ، وتنحسر موجتهم إلى العراق وماوراءه ، ويَطْردون نهائيا الصليبيين من ديار الشام. ويعود التتار مع تيمورلنك إلى الشام وتنسحب جموعه إلى آسيا الصغرى ، ويتوفى فتتمزق دولته . وتُعَدّ أيام المماليك من أزهى أيام مصر الإسلامية إن لم تكن أزهاها ، فقد ورثت عن بغداد الخلافة العباسية ، كما مر بنا ، وتوافد عليها العلماء والأدباء من العراق وما وراءه فارِّين من وجوه التتار ، وكانت الأندلس تمر بأيامها الأخيرة فوفد عليها أدباؤها وعلماؤها ، كما وفد من قبلُ علماء صقلية وأدباؤها حين احتلها النورمان . وبذلك كله كانت مصر منذ عصر الأيوبيين موئلَ العروبة والإسلام . وظلت بها ثلاث طبقات متقابلة طوال زمن المماليك : طبقة الحكام ، وطبقة وسطى من كبار التجار ، وطبقة دنيا من الفلاحين والعامة . وكانت الطبقة العليا الأولى تعيش منفصلة عن الشعب : فى جزيرة الروضة أولا ثم فى الجبل ، على نحو ما هو معروف عن المماليك البحرية والبُرْجية ، وقد ظلوا محافظين على طبقتهم فهم لا يختلطون بالشعب ، ودائما كانوا يعملون على تنمية أنفسهم بعناصر جديدة منهم ، كان يستوردها لهم النخّاسون من أحداث الرقيق المجلوب غالبا من القوقاز وجنوبى روسيا وبيزنطة ، وكانوا يدرِّبونهم فى القلعة على الفروسية ، ويُعِدُّون لهم أساتذة يعلمونهم الكتابة والحساب وشيئا من القرآن الكريم والحديث النبوى ، حتى إذا شبُّوا

توزعهم أمراء المماليك ، مكوِّنين منهم فرقا عسكرية . وما يلبث جنود هذه الفرق أن يقتنوا الإقطاعات ، وكانت أحيانا إقطاعات تمليك كما مر بنا فى العصر الفاطمى فهى تورث ، وأحيانا كانت إقطاعات استغلال . وبمرور الزمن تكاثرت هذه الإقطاعات فى أيام المماليك تكاثرا شديدا ، حتى اضطر بعض السلاطين إلى فكها ولكن سرعان ما كانت تعود .

وبذلك كان من أهم ما يميز عصر المماليك أنه عصر إقطاع ، وكان الفلاح لا يزايل إقطاعه وكأنه – حياته – قِنٌّ كما يقول المقريزى . ويعجب السبكى فى كتابه معيد النعم من هذا الرق للفلاح ، ويقول : من حق الفلاح أن يكون حرا لايد لآدمى عليه . وكأنما حُرِم أصحاب الأرض الحقيقيون من تملك الأرض ، وتملَّكها المماليك الأرقاء ، وكانوا كثيرا ما يفرضون عليهم – كما يقول ابن إياس – ضرائب استثنائية غير الضرائب العادية . ومع ذلك ففى النصوص أن نظام المزارعة المعروف كان – كما أسلفنا – مستمرا فى هذه الحقب ، وهو النظام الذى يجعل للفلاح نصف المحصول وللمالك نصفه الآخر ، ويبدو أن أصحاب الإقطاعيات كثيرا ما كانوا يظلمون الفلاحين . على أن تسلط المماليك على الأرض والزراعة جعلهم يعنون بالجسور وبنظام الرى وبالثروة الزراعية عامة وكذلك بالثروة الحيوانية . وكانت الدولة تشترى كثيرا من المحاصيل وتُعيد توزيعها على تجار التجزئة ، حتى تمنع المضاربات التجارية .

وكانت الصناعة مزدهرة ، فقد كانت أيام المماليك أيام ترف فى بناء القصور الباذخة وفى كل شئون الزينة ، وكانت للدولة مصانع خاصة للخِلع السنية التى يخلعها السلاطين على الأمراء وكبار رجال الدولة . وكانت تزدهر صناعة الملابس والفرش والأثاث والجلود والحلى والمعادن والزجاج الملون . وكانت الدولة تهتم بصناعة الأسلحة وسفن الأساطيل . وكل ذلك عمل على ازدهار الصناعات ، ومما يدل على هذا الازدهار بوضوح أن نجد لكل فئة من الصناع نقابة خاصة تنظر فى شئونهم فيما بينهم وبين أنفسهم كذلك فيما بينهم وبين الشعب من جهة والحكومة من جهة ثانية . وكانت التجارة بالمثل مزدهرة ، بل كانت أكثر ازدهارا ونشاطا ، فإن مصر حينئذ كانت تمسك بالشطر الأكبر من أزمة التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، وبعبارة أخرى بين الهند وشرق آسيا وبين أوربا ، مما جعلها تعقد شبكة من المعاهدات بينها وبين جمهوريات إيطاليا التجارية مثل جنوا والبندقية فضلا عن بقية ثغور البحر المتوسط وجزره . وكانت الدولة تحصل على دخل ضخم من مكوس التجارة ، حتى إذا سقطت أهمية طريق مصر إلى الشرق باكتشاف فاسكودى جاما طريق رأس الرجاء الصالح سنة ٩٠٣ كان ذلك إيذانا بانتهاء دولة المماليك فى مصر واستيلاء العثمانيين عليها .

ولعل فى هذا كله ما يدل على مبلغ الثراء ، الذى كانت تحياه هذه الدولة ، عن طرق مختلفة من التجارة والصناعة وخراج الأرض والجوالى ، وأيضا فإن الحبوس أو أراضى الأوقاف التى أشرنا إليها فى غير هذا الموضع مضت تتزايد زيادات كبيرة ، بحيث كانت مصدرا أساسيا من مصادر دخل الدولة ، وكانت تُضَمُّ إليها ضميمة أخرى من مصادرة أموال التجار أحيانا وفاء بما قد تتطلبه الحروب ، وكانت مصادرة الإقطاعات مستمرة بمجرد أن يموت أصحابها . وكل هذا معناه أن دولة المماليك كانت ثرية ثراء طائلا ، وهو ثراء أعدها لتنهض نهضة كبيرة بالحركة العلمية وبفن العمارة ، وتكتظ القاهرة بمساجد سلاطينها وقبابها الشامخة الرائعة .

وعادت إلى مصر فى أيام هذه الدولة أعيادها الكثيرة فى العصر الفاطمى : الإسلامية والقبطية عدا الأعياد الشيعية . وأضاف المماليك عيد محمل الحج . وعادت الكرنفالات والاحتفالات الكبيرة فى هذه الأعياد ومن يتنكرون بها من أصحاب المساخر والسماجات . واتسعت فنون اللهو والتسلية ، وكان الناس يخرجون للنزهة فى أمكنة كثيرة على شاطئ النيل مثل الأزبكية وكان يمر بها قديما ، ومثل بولاق وجزيرة الروضة . وكانوا يستأجرون القوارب والسفن الشراعية للتنزه بها فى النيل ومعهم بعض المغنين والمغنيات ، واشتهر بينهم كثيرون ، ويذكر ابن حجر منهم فى كتابه « الدرر الكامنة » عبد العزيز الحفنى أعجوبة زمانه فى فن الغناء و« خوبى » أعجوبة أيامها فى الضرب على العود ومحمد بن على الدهان وكان يتقن الغناء على القانون . ويذكر السخاوى منهم فى كتابه « الضوء اللامع » خديجة الرحابية . وكان هناك من يتعاطون الخمر أحيانا وكذلك الحشيش ، وقد يكثر من يتورطون فى تعاطيهما فيضطر السلطان إلى الأمر بإحراق الحشيش وإراقة دنان الخمر فى كل مكان كما صنع الظاهر بيبرس . ومن ملاهيهم حينئذ النرد والشطرنج وتطيير الحمام وتهارش الديكة والصيد ورمى الطير بالبندق . وارتقى حينذاك خيال الظل وأصبح مسرحا شعبيا تاما ، ويؤلف له ابن دانيال ثلاث مسرحيات ألفها فى عهد الظاهر بيبرس ، وجميعها تصور مواقف ومشاهد فكاهية تثير الضحك فى المتفرجين . ويقول السخاوى إنه كان من ملاهيهم سماع سيرة عنترة وذات الهمة وأبى زيد الهلالى والظاهر بيبرس . وكأنما كُتب على الشعب المصرى أن يؤدى ثمنًا باهظا لمرحه ولهوه فى زمن المماليك ، فإذا العثمانيون يجتاحون دياره . وتُغتم سماء مصر فقد كستها سحبهم المظلمة نحو ثلاثة قرون إلا قليلا ، إذ تحولت من إمبراطورية ذات سلطان وصولجان إلى ولاية عثمانية ، وليس ذلك فحسب ، فقد جرَّدها فاتحها سليم من علمائها ورجال الفنون بها ومهرة صناعها . وتراثها الفنى وكل ما كان بها من تحف نفيسة ، ويقال إنه أبطل بمصر خمسين

صناعة . وبذلك كان فتح العثمانيين لمصر كارثة من كل وجه ، لم تكن كارثة سياسية فحسب ، بل كانت أيضا كارثة علمية وفنية وصناعية ، وحتى مسرح خيال الظل شاهده سليم فأنعم على صاحبه بطائفة من الدنانير ، كما يقول ابن إياس ، وخلع عليه قفطانا مذهبا ، واصطحبه معه إلى القسطنطينية . وعلى هذا النحو انتكست مصر انتكاسة لم تستطع أن تفيق منها إلا بعد فترة طويلة . وقد ضاعت منها حينئذ مواردها التجارية وما كان لها من مكانة فى التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، وضاعت مواردها الصناعية ، فقد غادرها مهرة الصناع إلى القسطنطينية ، ولم يبق لها إلا الزراعة ، والعثمانيون والمماليك يعتصرون خيراتها وطيباتها من المرزق ، حتى لا يبقى للفلاح سوى البؤس والضنك وشظف الحياة . وربما كان خير ما يصور تعاسة الفلاحين المصريين فى هذه الفترة كتاب « هز القحوف فى شرح قصيدة أبي شادوف » ليوسف الشربينى وهى قصيدة عامية هزلية ومثلها شرحها ، وهما يحملان سخرية لاذعة بالحكم العثمانى للمصريين وما أرهق به العثمانيون والمماليك الفلاح المصرى من عسف وظلم لا يدانيه ظلم ، ظلم جرَّ أفظع ما يمكن من الجهل والبؤس ، حتى ليصبح أفخر طعام الفلاح خبز الشعير والجبن القَريش (الخالى من الدهن) والبصل والعدس والبيسار ومن ورائه سياط السخرة . وهو يسوق ذلك فى أسلوب فكه يحمل كثيرا من السموم .

٥

التشيع : الدعوة[1] الفاطمية الإسماعيلية

مرَّ بنا — فى غير هذا الموضع — أن مصر دخلت فى بيعة على بن أبى طالب بالخلافة وأنه اختلف عليها ولاة من قبله ، غير أن ذلك لا يعنى أنها اتخذت التشيع عقيدة ، وحقا كان يحدث فيها أحيانا تحركات لبعض العلويين وبعض شيعتهم وأنصارهم ، غير أنها لم تكن تحركات مذهبية ، إذ لم تكن تعدو أن تكون نصرة لعلوى بعينه . وتمضى مصر معتنقة لمذهب أهل السنة بعيدة عن العقيدة الشيعية، وينزلها دعاة الدولة الفاطمية حين تأسست بالمغرب، ولم يفلح أحد منهم

---

(١) انظر فى هذه الدعوة رسالة افتتاح الدعوة للقاضى النعمان بن محمد (طبع بيروت) وكذلك دعائم الإسلام له (طبع دار المعارف) وراحة العقل للكرمانى (طبع القاهرة) والمجالس المستنصرية (طبع دار الفكر العربى) وكذلك الهمة فى آداب اتباع الأئمة . وانظر كتاب العقيدة والشريعة فى الإسلام لجولدتسيهر (الطبعة العربية) ص ٢١١ وما به من مراجع وكتاب أصول الإسماعيلية لبرنارد لويس (من منشورات مكتبة المثنى) وكتاب فى أدب مصر الفاطمية للدكتور محمد كامل حسين وما به من مراجع وبخاصة للمستشرق إيفانوف .

فى حملها على الثورة ضد العباسيين، وكأن دعوتهم لم تكن تلبث أن ترتد معهم إلى المغرب.

وما نصل إلى سنة ٣٥٨ حتى يفتحها جوهر الصقلى وينشئ بها القاهرة ويتخذها الفاطميون حاضرة لهم، ويقيمون بها دولة شيعية إسماعيلية وتظل مصر متمسّكة بعقيدتها السنية. ومرّ بنا أن فرقة الشيعة الإمامية انقسمت فى زمن مبكر إلى اثنى عشرية يؤمنون بأن الإمامة انتقلت من جعفر الصادق سادس الأئمة إلى ابنه موسى الكاظم وتوالت بعده فى خمسة من الأئمة آخرهم محمد المهدى المنتظر المختفى منذ سنة ٢٦٠ للهجرة. وإلى إسماعيلية يؤمنون بأن الإمامة انتقلت من جعفر الصادق إلى ابنه إسماعيل المتوفى فى حياته لأن الإمامة عندهم تنتقل إلى الابن الأكبر حتى لو مات فى عهد أبيه. ومرّ بنا كيف أن عبدالله بن ميمون القدّاح نظم الدعوة الإسماعيلية، وأن أحد دعاتها هيأ لعبيدالله الفاطمى حكم تونس لنزلها وأعلن دعوته سنة ٢٩٧، وخلفه القائم فالمنصور فالمعز الذى اتسع بالدولة ومدّ حدودها شرقا إلى الشام.

ويؤمن شيعة الفاطميين الإسماعيلية بمجموعة من المبادئ أولها فكرة أن إمامة المسلمين الشرعية إنما هى لعلى وأبنائه من أئمتهم المنحدرين من السيدة فاطمة الزهراء، وكل إمام منهم وصىٌّ لسلفه طبقا للترتيب الإلهى فى خلافته أو ولايته الربانية على أمور الأمة. وقد بدأ الرسول ﷺ — فى اعتقادهم — فأوصى بخلافة على وإمامته من بعده، ورووا فى ذلك أحاديث حمّلوها هذا المعنى مثل: «على منى بمنزلة هرون من موسى» كما رووا أحاديث خاصة بهم تشير إلى تتابع الإمامة فى آل البيت، ووجهوا بعض الآيات القرآنية نفس الوجهة مثل قوله تعالى: (ثم أورثنا الكتابَ الذين اصطفينا من عبادنا).

ومبدأ ثان قرروه هو طاعة الإمام سواء دعا لنفسه سرًّا أو علانية وجهرًا، فطاعته جزء لا يتجزأ من إيمان الإسماعيلية، فهم كما يؤمنون بالله ورسوله يؤمنون بإمام العصر ويفوضون أمورهم إليه ويبذلون أنفسهم من دونه. فريضة مقدسة، ينضوون تحت لوائه ويبرءون من أعدائه ويوالونه أصدق الولاء.

ومبدأ ثالث هو عصمة أئمتهم، إذ يرفعونهم فوق المستوى الإنسانى بفضائل فطرية فيهم تجعلهم مبرّئين من الذنوب مطهّرين من الآثام، لا يتورطون فى معصية، ولا يقعون فى أى خطيئة مهما كانت صغيرة، لما ينتقل فى أصلابهم — حسب اعتقادهم — من نور إلهى ينقّى أرواحهم

ويُخليها من دواعى الشر وآثامه ، وهو نور ظل ينحدر من آدم وأبنائه الطاهرين حتى انتهى إلى عبد المطلب وحفيده الرسول عليه السلام ، وكأنما أصاب عليا حفيده الآخر منه شعاع مايزال ينتقل فى الأئمة جيلا بعد جيل .

ومبدأ رابع هو الاتساع بالتأويل فى القرآن الكريم وآياته ، مستدلين بمثل قوله تعالى : (وكذلك يَجْتبيك ربك ويعلِّمك من تأويل الأحاديث) زاعمين أن للقرآن ظاهرا ووراء ظاهره باطنا لا يعلمه إلا أئمتهم ، خُصُّوا به دون غيرهم من البشر . واشتق الدكتور محمد كامل حسين من هذا المبدأ عندهم نظرية المثل والممثول ، فظاهر القرآن مثل وباطنه فى رأيهم ممثول ، وجسم الإنسان مثل ونفسه ممثول . وعلى الإسماعيلى أن ينحى عن بصره الظاهر المتبادر الذى يحول بينه وبين رؤية الشريعة على حقيقتها وفى باطنها . وهم بذلك يقتربون من نظرية الأفلاطونية الحديثة التى تدعو إلى نبذ الأستار والحجب المادية حتى يفضى الإنسان إلى وطنه السماوى . وقد أوغلوا فى التأويلات الباطنة ، لآى الذكر الحكيم ناسبين ذلك إلى أئمتهم ، مما لا يحتمله ظاهر القرآن أى احتمال ، ولذلك يسميهم أهل السنة الباطنية .

ونصل إلى المبدأ الخامس الذى يفصل العقيدة الإسماعيلية عن النظرية العامة لأهل السنة والشريعة الإسلامية فصلا تاما . وهو مبدأ تتداخل فيه نظرية الفيض الأفلاطونية ، إذ يزعمون أن الأئمة منذ آدم يتوالون فى أدوار كل دور يتكون من سبعة ، والسابع هو الإمام الناطق الممثل للعقل الكلى الفعال الذى انتقلت إليه قدرة الله ، وعنه تصدر النفوس الكلية التى يمثلها الأئمة الستة فى الدور كما تصدر جميع المخلوقات . ويأخذ تاريخ البشرية منذ آدم هذا النظام الدورى السبعى الكونى ، وكل دور يَدْعَمُ عمل الناطق السابق له ويمهد لناطق الدور الجديد . ويتجلى النور الإلهى فى كل دور من هذه الأدوار ويبلغ كماله فى الإمام الناطق الحامل لرسالة نورانية باهرة . وهم يزعمون أن الرسول كان عقلا فعالا وأن عليا وصيَّه – فى اعتقادهم – كان نفسا كلية ، فلما رفع الرسول إلى الرفيق الأعلى أصبح علىٌّ عقلا فعالا . ومما زعموه أن نفوس الأئمة الستة قبل العقل الناطق تعود بعد الوفاة إلى عالم العقول وتصبح مِثْلَه عقولاً كلية مدبرة للكون .

ومبدأ سادس هو إطلاقهم كل صفات الذات العلية على أئمتهم ، وهم يبدءون فيقولون ان لكل إمام نسبتين : نسبة إلى عالم الطبيعة ونسبة إلى عالم القدس ، بالضبط كما يعتقد النصارى فى المسيح . وزعموا أن الله – جَلَّ جلاله – ينبغى أن ينزَّه عن كل الصفات والأسماء ، وقالوا – بزعمهم – إن أسماءه الحسنى إنما هى أسماء العقل الأول الفعال أو العقل الكلى وأن الله أعلى من أن

يسمّى باسم أو يوصف بصفة . ومضوا فأضفوا صفاته وأسماءه على أئمتهم ، وبذلك رفعوهم إلى مرتبة التأليه ، بل لقد حسبوهم تجسدًا للذات العلية ، حتى ليقول الداعى شهاب الدين أبو فراس فى كتابه « مطالع الشموس فى معرفة النفوس » : « اعلم أن الإمام الموجود للأنام لا يخلو منه زمان ولا يحوزه مكان ، لأنه إلهى الذات ، سرمدى الحياة ، ولو لم يتأنّس إلى معرفته بالحدود والصفات لما كان للخلق إلى معرفته وصول ». وكأن أبا فراس لا يصف الإمام الفاطمى وإنما يصف الله سرمدى الوجود الذى لا يحدُّه الزمان ولا يحصره المكان والذى لا يُعْرَفُ إلا بأسمائه وصفاته . ولا ريب فى أن الدعاة من أمثاله هم الذين سوّلوا للحاكم بأمر الله أن يظن أو يتوهم أنه التجسد الإلهى للذات العلية ، فدعا له بعض دعاته إلى عبادته . ولما طفح الكيل قُتل فى ضواحى القاهرة ، وأشاع أنصاره أنه اختفى وسيرجع يوما إلى الدنيا وعالمها المحسوس .

ومبدأ سابع وهو مبدأ سلبى ، إذ كانوا يُلْغون الاجتهاد والأخذ بالقياس فى الشريعة على نحو ما هو معروف عند أهل السنة ، إذ جعلوا المرجع إلى الإمام ، وهو معصوم من الخطأ ، والحكمُ إذن حكمُهُ والفتوى فتواه دون منازع . وبذلك ألغوا حرية الفكر والرأى وما يتبعها من الاجتهاد العقلى فى أمور الأمة والجماعة . وثبت عندهم ذلك واستقرت بسببه طاعتهم للإمام ووجوب الخضوع لأحكامه ، إذ هو الوارث لعلوم أهل البيت .

وهذه هى أهم المبادئ فى العقيدة الفاطمية الإسماعيلية ، ولهم فى الفقه بعض آراء خالفوا فيها الجماعة مثل المناداة فى الأذان بحيَّ على خير العمل ومثل ميراث البنت لكل مال أبيها إذا لم يكن لها أخ ، ومثل مَسْح القدمين فى الوضوء بالماء لا غسلها . ولعل دولة عربية لم تُعْنَ بالدعاية كما عُنى الفاطميون ، فقد كان لهم فى كل بلد دعاة ، وكانوا يقسمون العالم العربى والإسلامى إلى أقسام سموها جزائر وعينوا لكل جزيرة دعاتها ، وللدعاة جميعا رئيس أعلى يسمى داعى الدعاة وباب الأبواب ، ويليه الحجة وهو كبير الدعاة فى الإقليم ، وصاحب التأويل الذى يعقد مجالس الحكمة ويتلو على الناس علوم أهل البيت ويأتى وراء ذلك الدعاة والنقباء من كل صنف .

ومن يحاول التعرف على دعاة هذه الدولة سيلاحظ توا أنهم كانوا غير مصريين وأنه كان بينهم المغربى والشامى والإيرانى، وكأن مصر لم تُقْبل على الدعوة الفاطمية، بل ظلت سُنّيَّة ومبتعدة عنها، وكأنها دخلتها من باب وخرجت من باب آخر، كريح مرت ولم تترك وراءها أثرا . ومعنى ذلك أن مصر لم تعتنق المذهب الإسماعيلى الفاطمى، ربما اعتنقه بعض أفراد. أما مصر الأمة والشعب فقد ظلت منصرفة عنه فى إصرار لسبب طبيعى وهو أن مصر بلد معتدل

المزاج لايتطرف يمينا ولا يسارًا، بل إن التطرف يخالف طبيعته ويباينها أشد المباينة. وحاول بعض الباحثين أن يجد شيئًا من أثر التشيع الفاطمى، فعثر على أسماء أفراد كانوا يتشيعون أو ينسب لهم التشيع هنا وهناك، ونجزم بأنهم لم يكونوا إسماعيليين يؤمنون بالمبادئ السابقة، إنما كانوا سُنيِّين محبين لأهل البيت، وكانت مصر قبل الفاطميين وإلى اليوم تحبهم، ولكن دون أن تعتنق مذهبا من مذاهب الشيعة، فضلا عن المذهب الإسماعيلى وما فى مبادئه من غلو مفرط.

٦

الزهد[1] والتصوف

مصر – من قديم – بلد دين ، تعيش به وتعيش له ؛ وما أهراماتها إلا رموز ضخمة لدينها الوثنى فى عصر الفراعنة ، حتى إذا اعتنقت المسيحية توغلت فيها وفيما تحمله من زهد فى حطام الدنيا ومتاعها الفانى ، نافذة خلال ذلك إلى الرهبنة التى أشاعتها فى هذا الدين ، حتى غدت من خصائصه ، فإذا أناس من معتنقيه يعتزلون العالم وكل ما فيه من شهوات ومآرب إلى الأديرة ينفقون فيها حياتهم ناسكين متعبدين . وتدخل مصر فى الإسلام وسرعان ما تقبل على تعاليمه الزاهدة التى تحض على التقوى والنسك ، ترفدها فى ذلك نوازعها الدينية الموروثة ، وهى نوازع ظلت تنبض بقوة فى المجتمع المصرى الإسلامى . وحقا قد نجد أحيانا أفرادا من الشعب أو من الأمراء الحكام يمجنون ، وقد نجد أسرابًا من المجون فى بعض الأزمنة المتأخرة ، ولكن ذلك لم يكن يعدو زَبَدًا أو قشورا تبدو أحيانا فوق السطح ، أما الأعماق فترفض المتاع الدنيوى المادى وتتعلق بما عند الله من المتاع الأخروى الروحى .

---

(١) انظر فى الزهد والتصوف الولاة والقضاة للكندى ، والمغرب ، وحسن المحاضرة للسيوطى ، وطبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى ، والطبقات الكبرى للشعرانى . وكذلك كتاب لواقح الأنوار ، والخطط للمقريزى فى الخانقاهات والرباطات والزوايا ، والرسالة القشيرية ، وكشف المحجوب للهجويرى ترجمة الدكتورة إسعاد عبد الهادى قنديل وأخبار الحكماء للقفطى وتهذيب ابن عساكر وابن خلكان وابن شاكر فى تراجم بعض المتصوفة والزهاد وابن تغرى بردى وبدائع الزهور لابن إياس وتاريخ الجبرتى وكتاب فى التصوف الإسلامى لنيكلسون والحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى للدكتور عبد اللطيف حمزة، وإبراهيم الدسوقى وأحمد البدوى فى دائرة المعارف الإسلامية، والتصوف فى مصر إبان العصر العثمانى والشعرانى للدكتور توفيق الطويل .

ومنذ الفتح الإسلامى تنشأ فى مصر وتنمو جماعات من النساك العباد تتجرد عن متاع الدنيا وتنبذ طيباتها ، واقرأ فى تراجم القصاص الوعاظ والفقهاء والمحدثين والقراء والقضاة ، فستجد عشرات من هذه الفئات يزهدون فى متاع الدنيا ، بل يفرطون فى الزهد متحملين فى ذلك مشقات عنيفة من الجوع وغير الجوع . نذكر منهم سليمان التجيبى ، وهو أول من قَصَّ ووعظ الناس بمصر فى زمن معاوية فإن السيوطى يذكر عنه فى كتابه حسن المحاضرة أنه كان يسمى الناسك لشدة عبادته ، وكان يختم القرآن فى كل ليلة زلفى وتعبدًا لربه . ومنهم المُزَنى صاحب الشافعى وأكثر تلاميذه تصنيفا فى مذهبه ، وفيه يقول ابن خلكان فى ترجمته : «كان فى غاية الورع ، وبلغ من احتياطه أنه كان يشرب فى جميع فصول السنة من كوز نحاس ، فقيل له فى ذلك ؟ فقال : بلغنى أنهم يستعملون السِّرْجين (روث البهائم) فى الكيزان والنار لا تطهرها . وذكر أنه كان إذا فاتته الصلاة فى جماعة صلى منفردا خمسا وعشرين مرة أو صلاة استدراكا لفضيلة الجماعة ، مستندا فى ذلك إلى قوله ﷺ : «صلاة الجماعة أفضل من صلاة أحدكم وحده بخمس وعشرين درجة» . وكان من الزهد على طريقة صعبة شديدة» . ومنهم بكار بن قتيبة القاضى فى عصر ابن طولون ، وفيه يقول ابن سعيد فى كتابه المغرب : قسم الفسطاط : «كان أحد البكَّائين والتالين لكتاب الله ، وكان إذا فرغ من الحكم خلا بنفسه وعرض عليها قضايا جميع من تقدموا إليه وما حكم به وبكى خشية خطئه ،وكان يكثر الوعظ للخصوم» . ويورد السيوطى ثَبَتاً طويلا بمن كان بمصر من الصلحاء والزهاد والصوفية فى كتابه حسن المحاضرة ، ويذكر بينهم سيدات عابدات ناسكات فى مقدمتهن السيدة نفيسة حفيدة الحسن بن على بن أبى طالب المتوفاة سنة ٢٠٨ ، وكانت مقيمة فى موضع مسجدها اليوم بالقاهرة ، وكان الناس يجتمعون إليها لسماع الحديث ، ولما دخل الإمام الشافعى القاهرة حضر إليها وسمع الحديث عنها . ومن هؤلاء المتعبدات الناسكات فاطمة بنت عبد الرحمن بن أبى صالح المتوفاة سنة ٣١٢ وقد عاشت طويلا ، ويقال إنها ظلت ستين سنة لا تنام إلا وهى فى مُصلَّاها بغير فراش .

وطبيعى ومصر دار كبيرة من دور الزهد والعبادة والنسك أن ينشأ فيها سريعا التصوف ، ويذكر الكندى أنه ظهرت فى ولاية السَّرِىّ بن الحكم سنة ٢٠٠ للهجرة بالإسكندرية طائفة يسمون الصوفية يأمرون بالمعروف ويعارضون السلطان فى امره ترأس عليهم رجل منهم يقال له أبو عبد الرحمن الصوفى . ويمكن أن نتخذ هذه السنة تاريخا تقريبيا لظهور التصوف فى مصر . ويروى الكندى أنه كان فى القاهرة جماعة مماثلة لعهد المامون كانت تحيط بقاضيه عيسى بن المنكدر

تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وكأن التصوف عُرف فى مصر بقوة منذ أوائل القرن الثالث الهجرى . وقد أورد القشيرى فى رسالته آراء مختلفة فى اشتقاق كلمة صوفى ، وهل هى من الصفاء أو من الصوف لأن الصوفية كانوا يلبسونه ويتخذونه شعارًا لتقشفهم ، أو هى من الصُّفَّة وأهلها الذين كانوا ينقطعون للعبادة فى المسجد زمن الرسول ﷺ ، ولا يرجح القشيرى رأيا على آخر ، وذهب البيرونى إلى أن كلمة التصوف مشتقة أو مأخوذة من كلمة صوفيا بمعنى الحكمة عند اليونان ، ونظن ظنًّا أنها مشتقة من الصوف لأن لبسه شاع مبكرًا بين المتصوفة .

وما نمضى طويلا فى القرن الثالث الهجرى حتى نسمع بأبى حاتم العطار المصرى أستاذ أبى تراب النخشبى المتوفى سنة ٢٤٥ وأهم منه ذو النون المصرى المتوفى مع أبى تراب فى نفس السنة ، واسمه ثوبان بن إبراهيم ، وقيل الفيض بن أحمد الإخميمى . كان أوحد وقته زهدًا وورعا وعبادة ونسكا ، طلب الفقه فى أول حياته فتتلمذ لليث بن سعد فقيه الفسطاط ، ثم رحل إلى الإمام مالك فى المدينة المتوفى سنة ١٧٩ فروى عنه الموطأ ، ثم نزع إلى التصوف والنسك فتتلمذ لشُقْران العابد . ويذهب نيكلسون إلى أنه المؤسس الحقيقى للتصوف الإسلامى مستندًا فى ذلك إلى قول ابن تغرى بردى « إنه أول من تكلم ببلده فى ترتيب الأحوال والمقامات » وبذلك يجعله نيكلسون أستاذ المتصوفة جميعا – غير منازَع – فى العالم الإسلامى . وينقل عن تذكرة الأولياء للجامى أنه أول من وضع تعريفات للوجد والسماع ، وأنه ذكر كأس المحبة الذى يسقى به الله المحبين وأنه كان يقسم المعرفة ثلاثة أقسام : قسما عاما للمسلمين جميعا وقسما خاصا بالفلاسفة والعلماء وقسما خاصا بالصوفية الذين يرون الله بقلوبهم . وبذلك ميَّز المعرفة الصوفية من المعرفة العلمية والفلسفية ، فالأولى قلبية تعتمد على البصيرة والحدس ، والثانية عقلية تعتمد على التفكر والمنطق ، ومعنى ذلك أن التصوف ليس فلسفة ولا علما ولا فكرا وإنما هو أحوال ومقامات وهو – بذلك – إن صح أن يسمى علما ، علم باطن مقصور على الخواص . ودائما كان يفرِّق بين الخواص وهم المتصوفة وبين العوام أو عامة المسلمين بمثل قوله : « توبة العوام تكون من الذنوب وتوبة الخواص تكون من الغفلة » وكان يقول : « ليس من احتجب عن الخلق بالخلوة كمن احتجب عن الله بالغفلة » . وكان يقول أيضا : « الصوفى من إذا نطق أبان نطقه عن الحقائق وإن سكت نطقت عنه الجوارح بقطع العلائق » . وكان يكثر من الحديث عن مبدأ التوكل الصوفى على الله قائلا : علامة التوكل انقطاع المطامع . وكان يقول : « من علامات المحب لله متابعة حبيب الله (أى رسوله) فى أخلاقه وأفعاله وأوامره وسننه » . وفى هذا القول ما يدل

بوضوح على أن التصوف عنده لم يحدث بينه وبين الشريعة أيُّ انفصام وأن ما ذكره الهجويرى فى كشف المحجوب من أنه كان من الملامتية الذين يتظاهرون بالاستخفاف بأمور الشريعة عار عن الصحة ، فالتصوف عنده لا يقوم بدون الشريعة ، والحياة الصوفية لا تتحقق بدون الفرائض والسنن الشرعية . واستحضره الخليفة المتوكل من مصر ، فلما دخل عليه وعظه ، فبكى المتوكل وردَّه مكَّرما ، وكان المتوكل إذا ذُكر أهل الورع يبكى ويقول : حَىَّ هَلا بذى النون . ويقال إنه كان على معرفة بعلم الكيمياء .

ويذكر القشيرى فى رسالته والهجويرى فى كتابه كشف المحجوب وغيرهما طائفة من تلاميذه الصوفية من أعلام القرن الثالث ، منهم ابن الجلاَّء شيخ مشايخ الشام ويوسف بن الحسين الرازى شيخ مشايخ إيران والجنيد شيخ مشايخ بغداد وزميله الخرَّاز وهو أول صوفى تكلم فى الفناء وسهل بن عبد الله التُّسْترى شيخ الحلاج الصوفى المشهور . وفى ذلك ما يشهد بأن أثر ذى النون ومصر فى التصوف وتاريخه كان أثرًا بعيدًا وعميقًا إلى أقصى حد . ويشتهر بعده غير صوفى بمصر ، ويفد عليهم كثيرون من متصوفة البلدان الأخرى طوال القرن الثالث ، ونذكر من متصوفتها حينئذ أبا بكر الدقاق المتوفى سنة ٢٩٠ واشتهر أحد صوفيَّتها وهو بنان الحمّال المتوفى سنة ٣١٦ بكثرة كراماته ، ومن صوفيَّتها أبو على الروذبارى المتوفى سنة ٣٢٢ . ويقول ابن سعيد فى المغرب قسم الفسطاط : كان الإخشيد يحب الصالحين ويركب إليهم ويطلب دعاءهم ، وأنه ركب إلى رجل صالح بالقرافة يسمى ابن المسيِّب وسأله الدعاء ، وأنه كثيرا ماكان يلم بأبى سهل بن يونس ويطلب منه الدعاء فى خشوع متبرِّكًا به .

وتدخل مصر فى أيام الفاطميين ، ويبدو أنهم لم يكونوا يهتمون بالصوفية لسبب مهم وهو أن كلا منهم كان يزعم لنفسه علم الباطن ، وكان الصوفية يقولون بحق إن علمهم ينبع من القلب ومن التأمل الباطنى ، وزعم الفاطميون لأئمتهم أنهم أصحاب علم لا يشركهم أحد فيه ، فأدى ذلك إلى شىء من التعارض بين الطرفين ، وبذلك انصرف الفاطميون عن الاهتمام بالتصوف وأهله . وفى هذه الأثناء حدث صَدْع كبير بين الفقهاء والمتصوفة وخاصة فى المشرق : فى العراق وإيران إذ رفع المتصوفة أنفسهم فوق الفقهاء درجات ، وقالوا إن الأهم فى الحياة الدينية عمل القلب لا عمل الجوارح والنهوض بالفرائض الدينية ، بل إن منهم من أهمل هذه الفرائض ، مما جعل الفقهاء يحملون عليهم حملات عنيفة . وتنبه القشيرى والغزالى إلى خطورة هذا الصَّدْع فى بنيان الحياة الدينية وحياة الأمة ، فعملا بقوة على رأبه ، بحيث لا يكون المتصوف متصوفا حقا إلا إذا

أدَّى الفرائض والسنن الدينية ، ولابد للفقيه فى هذه السنن والفرائض من الإخلاص وصفاء القلب وصدق الشعور الباطنى .

وبذلك عادت إلى صفوف المتصوفة والفقهاء - بل إلى صفوف الأمة - الوحدة ، ودعمها ووثقها حدث خطير هو اجتياح حملة الصليب لديار الإسلام فى الشام والموصل منذ أواخر القرن الخامس الهجرى ، فوقفت الأمة جميعها بنيانا مرصوصا ضد أعداء الإسلام ، حتى يذيقوهم وبال عدوانهم ويسحقوا جموعهم سحقا . وحمل المتصوفة والفقهاء السلاح وتقدموا صفوف المجاهدين . وبذلك نفهم عناية صلاح الدين بهم جميعا ، فقد أخذ يقيم المدارس للفقهاء ، كما أخذ يُعْنَى بإقامة الزوايا للمتصوفة ، واتخذ لهم فى القاهرة دارا كبيرة من دور الفاطميين كانت تسمى دار سعيد السعداء ، جعلها لهم «خانقاه» ومعناها بالفارسية دار عبادة ، يعبدون فيها الله وينسكون. وفتح أبوابها للصوفية الواردين على القاهرة من العالم الإسلامى منذ أنشأها فى سنة ٥٦٩ وهى أول خانقاه أقيمت للصوفية بمصر ، ووقف عليها بستانا وعقارات تكفل نفقاتها عن سعة ، وجعل لها شيخا سُمِّى شيخ الشيوخ ، ورتَّبَ للصوفية فيها كل يوم طعاما ولحما وخبزا ، وبنى لهم حماما وأجرى عليهم الجرايات ، ورسم لهم رسما : أن من ترك منهم عشرين دينارا فما دونها كانت لمتصوفتها وأن من أراد منهم السفر يُعْطَى ما يكفل له سفره . وكانوا يخرجون منها كل يوم جمعة للصلاة فى الجامع الحاكمى فى مشهد مهيب ، فشيخهم يتقدمهم وبين يديه خدام المصحف الشريف ، وقد حُمل المصحف على رأس أكبرهم والصوفية وراءه ماشون بسكون وخفر ، حتى إذا صلوا الجمعة عادوا إلى الخانقاه بنفس المشهد الرائع .

وأخذ التصوف من حينئذ يزدهر فى مصر ، واتضح فيه اتجاهان : اتجاه فردى فلسفى ، واتجاه جماعى سُنِّى ، ويمثل الاتجاه الأول ابن الفارض سلطان العاشقين للذات الإلهية ، وهو يصور فى شعره وَجْده وهيامه بربِّه وأحواله فيه ومقاماته ومدى مانعم به فى شهوده ، مع مدحه للرسول الكريم ، وقدرفعَ حقيقته المحمدية لواء يتجمع حوله المسلمون ليسددوا للصليبيين الضربة القاضية . وكان يقابل هذا المنزع الصوفى الفلسفى الفردى المنزع الصوفى الجمعى ، وقد هيأت له خانقاه صلاح الدين السالفة الذكر ، وكان كثيرون منهم قد أقبلوا من العراق والشرق يحملون مبادئ طريقتين من طرق التصوف السنى ، هما الطريقة القادرية للشيخ عبد القادر الجيلانى البغدادى المتوفى سنة ٥٦١ والطريقة الرفاعية لمواطنه ومعاصره الشيخ أحمد الرفاعى المتوفى سنة ٥٧٨ ، وأخذت الطريقتان تشيعان بين المتصوفة المصريين ، وما تمضى فى القرن السابع طويلا حتى ينزل

بالإسكندرية من شاذلة فى الجزائر الشيخ أبو الحسن الشاذلى المتوفى سنة ٦٥٦ ويؤسس بها الطريقة الشاذلية ، ويتبعه خلق كثير فى الإسكندرية والقاهرة ، ونراه هو وأتباعه ومريديه فى مقدمة الصفوف التى دَمَّرتْ فى موقعة المنصورة سنة ٦٤٧ حملة لويس التاسع ، بفضل ما أذكوه فى المجاهدين لأعداء الله من حماسة ملتهبة .

وتدول دولة الأيوبيين بمصر وتخلفهم دولة المماليك ، وتعظم رعايتها للمتصوفة ، فتبنى لهم كثيرًا من الخوانق والرباطات والزوايا ، ويَعُدُّ المقريزى من الخوانق اثنتين وعشرين كان من أهمها الخانقاه البيبرسية ، ويقول المقريزى : بناها ركن الدين بيبرس سنة ٧٠٧ وهى أجمل خانقاه بالقاهرة بنيانا ، وكان بها أربعمائة صوفى ، وكانت فيها دروس منظمة للحديث النبوى وقراءة الذكر الحكيم . ثم خانقاه سرياقوس بناها الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٣ وكان بها مائة خلوة لمائة صوفى وبنى لها مسجدا وحماما ومطبخا ، وأيضا كان ملحقًا بها حمام للنساء مما يدل على أنه كان لبعض المتصوفات فيها خلوات خاصة . وخانقاه شيخون بناها سنة ٧٥٧ ورتب فيها دروسا لفقهاء المذاهب الأربعة ودرسا للقراءات ودرسا للحديث ومشيخة لسماع صحيح البخارى وصحيح مسلم . وبجانب الخانقاهات بنى أمراء المماليك للمتصوفة اثنى عشر رباطا ، وكانت ترتِّب لها الجرايات ومجالس الوعظ . وأصل الرباط الثغر فى دار الحرب ، ولعل فى إطلاقه على زوايا المتصوفة حينئذ ما يدل على صلتهم المستمرة بالجهاد . ومن الطريف أن أحد الرباطات كان مخصصًا للمتصوفات والأرامل ممن لا يجدن مَنْ يعولهن ، وكانت شيختهن صوفية وعادة تكون واعظة . وبنى المماليك ستا وعشرين زاوية للعبَّاد والنساك وكانت تُرتَّب لكل هذه الزوايا والرباطات والخانقاهات الأطعمة والحلوى والكسوة والزيت والصابون ، ومن أجل ذلك حُبست عليها أوقاف كثيرة .

وكان طبيعيًّا أن تكثر الطرق الصوفية فى زمن هذه الدولة التى اتسعت فى رعاية المتصوفة ونلتقى فى أوائلها بأبى الحسن الشاذلى مؤسس الطريقة الشاذلية – كما قدمنا – وقد تعددت فروعها حتى بلغت أحد عشر فرعا أهمها الطريقتان : الوفائية والخلوتية . وقد تفرعت الأخيرة بدورها إلى أربعة فروع . ونلتقى بإبراهيم الدسوقى المتوفى سنة ٦٧٢ مؤسس الطريقة البرهامية ، وبأحمد البدوى المتوفى بطنطا سنة ٦٩٥ مؤسس الطريقة الأحمدية وقد تعددت فروعها حتى بلغت ستة عشر فرعا .

ودخلت مصر فى أوائل أيام الأيوبيين – كما قدمنا – الطريقتان القادرية الجيلانية والرفاعية ،

ودخلتها فروع من المولوية أتباع جلال الدين الرومى المتوفى سنة ٦٧٣ ، ومن القَلَنْدِرِيَّة وهم أتباع قلندر يوسف ، وكانوا يحلقون لحاهم وحواجبهم،وقلَّت أعمالهم من الصوم والصلاة إلا الفرائض وكانوا لا يتقشفون ولا يتنسكون ، وكان لهم زاوية خارج باب النصر بالقاهرة بالقرب من القرافة ، ويقول المقريزى إن أول ظهورهم كان بدمشق سنه ٦١٩ للهجرة . وعُرفت بمصر بأخرة من أيام المماليك الطريقة النقشبندية أتباع محمد النقشبندى المتوفى سنة ٧٩١ وكذلك الطريقة البكتاشية . وشاعت أيام العثمانيين الطريقة الخلوتية المتفرعة – كما أسلفنا – من الطريقة الشاذلية ، وفى مقدمة أعلامها بمصر مصطفى كمال الدين البكرى المتوفى سنة ١١٦٢ للهجرة ، والشيخ الحفنى ، وعنه أخذ الطريقة الشيخ أحمد الدردير ، وسنعرض له فى غير هذا الموضع .

وتتميز هذه الطرق بعضها عن بعض بالأوراد ، فلكل منها ورد خاص وهو مجموعة من المناجيات لله والأدعية والابتهالات ، وتتميز أيضا بالأزياء ، فعمائم الدسوقية وبيارقهم وأعلامهم خضراء ، وعمائم القادرية بيضاء ، وهى عند الأحمدية حمراء ، وعند الرفاعية سوداء . وكانت لهذه الطرق تنظيمات دقيقة منتهى الدقة ، فتابع الشيخ يلزمه مدة تقصر أو تطول حتى يتلقن عنه طريقته ، وحتى يُثْبت إخلاصه الشديد له ، فيلحقه بمريديه أو تلاميذه ويلبسه خرقة التصوف : شعار الطريقة ، ويصبح ظلاًّ له ، إذ تتلاشى إرادته فى شيخه تلاشيا تاما وفى ذلك يقول الشعرانى فى كتابه : « لواقح الأنوار » نقلا عن الشيخ إبراهيم الدسوقى : « المريد مع شيخه على صورة الميت ، لا حركة ولا كلام ، ولا يقدر أن يتحدث بين يديه إلا بإذنه ، ولا يعمل شيئا إلا بإذنه من زواج أو سفر أو خروج أو دخول أو عزلة أو مخالطة أو اشتغال بعلم أو قرآن أو ذكر أو خدمة الزاوية أو غير ذلك » . وتمضى الأيام ويصبح المريد شيخا ، وكانوا يرسلون بالمريدين إلى البلدان والقرى ، وبذلك يصبح للشيخ صاحب الطريقة أتباع كثيرون فى وطنه وفى الوطن الإسلامى الكبير ، وإذا هو صاحب طريقة كبرى ، ولكل طريقة شيوخها الكبار .

وكان مما أتاح لهذه الطرق مكانة كبيرة فى نفوس العامة أنهم كانوا يعتمدون على أوقاف محبوسة على زواياهم ورباطاتهم وخانقاهاتهم ، فلم يكونوا يأخذون من الدولة رواتب مثل الفقهاء المدرسين والقضاة والمحدثين والقراء ، ممن كانوا يعتمدون فى معاشاتهم على الهيئات الحاكمة ، أما هم فلم يكونوا يعتمدون عليها . وبذلك كان لهم استقلال روحى واضح ، جعلهم يقفون أحيانا فى وجوه الحكام ، ويقاومونهم حين يتطلب الشعب هذه المقاومة بسبب ظلم أو طغيان أو زيادة فى الضرائب أو غير ذلك . وهو ما جعل العامة فى كافة البلاد الإسلامية تتعلق بهم تعلقا

شديدًا ، كما جعل الحكام من المماليك وغيرهم يخشونهم ويحسبون حسابهم . ولعلنا لم ننس ما مر بنا فى نشأة جماعة من المتصوفة بالإسكندرية والفسطاط وأنهم كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويعارضون الحكام أحيانا . ونرى المتصوفة يستظهرون هذا كله فى أيام المماليك ، فإذا ثارت العامة لفساد أو طغيان أو انحلال فى الأخلاق كان المتصوفة من وراء ثورتها ، وكان سلاطين المماليك يرهبونهم وينفِّذون لهم ما يريدون . ومما يدل على مكانتهم لزمانهم أن نجد طومان باى بأخرة من سلاطين المماليك لا يقبل السلطنة إلا بعد أن يأخذ له الشيخ أبو السعود الجارحى العهد على الأمراء جميعا ، فقد لجأ إلى صوفى ولم يلجأ إلى شيخ الإسلام والفقهاء والقضاة فى عصره .

وقد أفضنا فى الحديث عن التصوف السنى وطرقه فى أيام المماليك ، ولم نعرض للتصوف الفلسفى إلا عند ابن الفارض ، وكأن مصر انصرفت عنه إلا ما قد يفد عليها مع بعض أصحابه مثل الششترى الأندلسى ، وعفيف الدين التلمسانى نزيل دمشق وساكنها المتوفى سنة ٦٩٠ . وربما كان المصرى الوحيد الذى اعتنق التصوف الفلسفى ومذهب ابن عربى فيه عبد العزيز بن عبد الغنى الحسنى من الأسرة الحسنية بينبع ، نزل أبوه مصر ، وسكن هو الصعيد وشغف بالتصوف . وينقل ابن حجر فى ترجمة له بكتابه الدرر الكامنة أنه من أتباع ابن عربى ، وربما لقيه حين زار مصر ، أو لعله رحل إليه فى دمشق ، إذ عاش نحو مائة سنة وتوفى سنة ٧٠٣ وكأن مذهب ابن عربى فى الحلول والاتحاد بالذات الإلهية وجد له عن طريقه مَسْرَبًا إلى مصر .

على أنه ينبغى أن نذكر أن التصوف بأخرة من أيام المماليك وفى أيام العثمانيين أخذ ينحرف عن طريقه السوى القديم ، بسبب تحول خانقاهاته ورباطاته وزواياه الى تكايا وَسِعَتْ كثيرين من الدجالين والمشعوذين ومن سمُّوا بالمجاذيب والدراويش . وكان منهم من يحلق رأسه ولحيته وشعر حاجبيه ورموش عينيه ، ومن يدعى الكرامات وأنه من أولياء الله ، والله براء منه ، لانحرافه عن جادَّة الدين . على أنه ينبغى ان لا يبالغ الباحثون فى الحملة على المتصوفة فى الأزمنة المتأخرة ، إذ مما لا شك فيه أنهم هم وأسلافهم السابقين استطاعوا دراويش وغير دراويش أن يحافظوا للإسلام طوال الأزمنة الماضية على وحدته السنية حتى فى زمن العثمانيين : أكثر الأزمنة تدهورا وتأخرا . ولعل أكبر صوفى مصرى ظهر فى زمنهم هو الشعرانى المتوفى سنة ٩٧٣ وكان واسع المعرفة عميقها بالعلوم الإسلامية وكذلك بالتصوف واتجاهيه الفلسفى والسنى ، إذ قرأ ابن العربى وابن الفارض كما قرأ الغزالى والقشيرى وغيرهما من أصحاب الطرق الصوفية ، وآثر التصوف السنى وانتظم فى سلك الطريقة الشاذلية ، وحاول أن يكوِّن لنفسه طريقة متفرعة منها سماها الطريقة

الشعرانية . وله مصنفات كثيرة تُعَدُّ بالعشرات ، أكثرها فى التصوف ، أشاع فيها إيمانه بالكرامات والخوارق لا لغيره من المتصوفة فحسب ، بل أيضا لنفسه وما حدث له مع الجن والملائكة . وكان مثل كبار المتصوفة قبل زمنه يعتز بكرامته إزاء الحكام إلى أقصى حد ، فهو لا يقبل منهم مالاً ولا هدية . وسأله أحد الحكام العثمانيين وهو راحل إلى الآستانة ألك حاجة عند السلطان ، فأجابه توًّا : ألك أنت حاجة عند الله ؟ فوجم الحاكم ولم ينبس ببنت شفة . ويقول الجبرتى فى الجزء الأول من تاريخه : « كان الإمام العلامة الحفنى قطب رحى الديار المصرية ولا يتم أمر من أمور الدولة إلا باطلاعه وبإذنه » . ومعنى ذلك أن الصوفية ظلوا فى أيام العثمانيين الحالكة – كما كانوا فى الأيام السالفة – يستشعرون استقلالهم الروحى والمادى إزاء الحكام ، كما ظلوا يستشعرون إرادة الشعب وماله من قوة وسلطان .

الفصل الثانى

الثقافة

١

الحركة العلمية

تميزت مصر بتأثيرها الواسع فى الحضارة الإنسانية من قديم ، وهو تأثير لا يتوقف عند الرقى بفن الزراعة وشقّ التُّرع وتدبير القنوات ، إذ يمتد إلى فن المعمار وبناء الأهرامات وفن الملاحة وبناء السفن وصناعات المعادن والخزف والنسيج وورق البَرْدى . وليس هذا فحسب فإنها نسجت لأول مرة حلل الحروف الهيروغليفية التى اشْتُقَّت منها الحروف الفينيقية ، وأيضا ليس هذا فحسب ، فإنها أسهمت بقوة فى نشأة العلم بمعناه العالمى ، سواء العلم الهندسى أو الرياضى أو الطبى . وعلى الرغم من اقتحام الجيوش المغيرة لأسوارها وحصونها فى الحين بعد الحين ظلت فيها الروح العلمية كالجذوة المتقدة لا تخمد مهما تراكم عليها من التراب . ونستطيع أن نتبين شررا كثيرا من هذه الجذوة فى عهد البطالمة الذين اتخذوا الإسكندرية عاصمة لهم ، فقد بنوا فيها متحفا ضخما ضم بين جناحيه جامعة كبرى كان بها مدرسة للطب ، وثانية للرياضيات والفلك ، وثالثة للقانون والفلسفة ، وضم أيضا مكتبة كبيرة يقال إنه كان بها أربعمائة ألف كتاب أو أكثر . وطبيعى أن تكون اليونانية لغة الدولة هى نفسها لغة العلم فى تلك الدورة من تاريخ مصر ، ويغزو الإسكندرية يوليوس قيصر وتُحْرَقُ المكتبة فى أثناء غزوه . وتتطور الظروف سريعا وتصبح مصر ولاية رومانية ، وينشئ المصريون مكتبة صغرى بمعبد السرابيوم على قلعة الأكروبوليس . ولا نصل إلى سنة ٣٩١ للميلاد حتى يثور القبط بالإسكندرية على ورثة الوثنية الإغريقية ومعبدهم السرابيوم ويهدموه ويُدَمِّروا معه المكتبة . ولا يُعْنَى الرومان بالحركة العلمية فى مصر أى عناية ، فقد عَدُّوها مَخْزَناً يمدهم بالقمح ، ومع ذلك ظلت فيها بقايا كثيرة من حركتها العلمية لعهد البطالمة . وظلت الإغريقية سائدة فى لغة

العلم ، وشاركتها القبطية وخاصة فى الطقوس الدينية والكتابات التاريخية ، وأخذت تشاركها قبيل الفتح العربى اللغة السريانية التى كانت منتشرة فى الأديرة وخاصة فى مجال الطب ، وفى ذلك يقول بتلر : « قد كان ثمة اتصال خاص بين لغة السريان ودراسة الطب وأنه لا يبعد أن أعظم كتب الطب فى القرنين السادس والسابع (للميلاد) كانت باللغة السريانية ، ولا شك أن تلك اللغة كانت ذائعة بين الناس وأن آدابها كانت دائما تدرس فى الإسكندرية »[١] .

ومر بنا فى الفصل الماضى أن الحكم الرومانى فى مصر قبيل الفتح العربى كان لا يطاق لاضطهاد القبط دينيا ولإرهاقهم بالضرائب الباهظة ، ولذلك عدَّ القبط العرب مخلِّصين لهم من نير هذا الحكم الجائر الظالم . وكل شىء يؤكد أن مصر استبقت حينئذ كل ما كانت قد حصلت عليه من علوم ومعارف ، ولا سيما فى الطب . وليس بصحيح ما قيل من أن عمرو بن العاص أحرق مكتبة الإسكندرية حين افتتحها ، فقد دحضَ هذا القول بَتْلر وأثبت بالدليل القاطع بطلانه لما مر من أن مكتبة الإسكندرية الكبرى إنما أُحْرِقت تاريخيا فى عهد يوليوس قيصر قبل دخول العرب مصر بنحو ستة قرون ، بينما أُحْرِقت مكتبتها الصغرى قبل أن تخفق رايات العرب فى ربوع مصر بنحو قرنين ونصف[٢] ، وإذن فالقول بأن عمرو بن العاص أحرق مكتبة الإسكندرية افتراء ليس له أى أساس تاريخى .

ومعروف أن الإسلام دفع أمته فى كل مكان إلى العلم والتعلم ، وليس بين أيدينا ما يكشف كشفا تاما الحركة العلمية بمصر فى عصر الولاة ولكن هناك دلائل كثيرة تدل على أنه انبعثت فيها حركة علمية إسلامية عربية قوية ، فبمجرد أن فُتحت مصر أخذ بعض الصحابة يتجرَّدون لإقراء المسلمين القرآن وَعَرْض بعض الأحاديث النبوية عليهم ليقفوا على تعاليم دينهم ، وكانوا يفتونهم فى بعض المسائل حتى يميزوا الحلال من الحرام ، ويعظونهم مذكرين لهم باليوم الآخر وما عند الله من الثواب الآجل . ونهض بهذا الجهد العلمى طبقات من الصحابة الفاتحين لمصر ومن التابعين ومَنْ جاءوا فى إثرهم . وفى كتاب حسن المحاضرة للسيوطى أثبات طويلة بأسماء القراء والمحدِّثين والفقهاء

---

(١) انظر فى هذا النص وما تقدمه من حديث كتاب فتح العرب لمصر تأليف بتلر (الترجمة العربية) ص ٨٣ وما بعدها وراجع مقال ماكس مايرهوف عن مدرسة الإسكندرية وانتقالها إلى بغداد فى كتاب التراث اليونانى لعبد الرحمن بدوى ، وقد فصل القول فى نشاط هذه المدرسة العلمى حتى الفتح العربى .

(٢) بتلر ص ٣٤٨ وما بعدها وقارن بصفحة ٨٣ وما كتبه فى الفصل الثامن وبمقال ماكس مايرهوف فى التراث اليونانى .

والوعاظ ممن اضطلعوا فى الحقب الإسلامية الأولى بمختلف الدراسات الدينية .

وكانت هذه الحركة العلمية تحظى – منذ أول الأمر – برعاية الدولة وولاتها ، فقد كانت ترسل إلى مصر من يفقِّه الناس فى أمور دينهم ، وبدأ ذلك منذ زمن عمر[1] بن الخطاب . وكان هناك دائما القضاة للحكم بين الناس فى خصوماتهم وللفتوى فيما يجدّ لهم من الشئون ، وكانوا عادة من الفقهاء وكثيرون منهم كانوا محدِّثين ، وكان يُسْنَدُ إليهم الوعظ . ودائما تلقانا نصوص هنا وهناك تدل على أن الدولة كانت تعنى بإرسال بعض المحدثين والفقهاء إلى مصر لتعليم الناس ، من ذلك أن الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩–١٠١) أرسل إلى مصر نافعا[2] مولى ابن عمر يعلم الناس السنن ، كما أرسل ثلاثة من الفقهاء للفُتيا كان من بينهم يزيد[3] بن أبى حبيب وقد أقام بها حتى توفى وكوَّن بها مدرسة فقهية كان لها أثرها البعيد بعده . ولم تكن مصر تكتفى بمن يرسلهم إليها الخلفاء الأمويون ، فقد أخذت تتكون فيها أجيال من القراء والفقهاء المحدِّثين نجد أسماءهم مرتبة حسب وفياتهم فى حسن المحاضرة . وكلما خطونا خطوة فى العصر العباسى الأول أحسسنا بازدياد هذا النشاط ، ومن المؤكد أنه كان مما يُذْكيه الأعطيات والرواتب التى كانت تفرضها الدولة وولاتها للعلماء ، كما كان الشأن فى بغداد والبصرة والكوفة .

وظاهرة مهمة تلاحظ على القضاة والعلماء فى مصر ، فإن منهم من كان ذا سعة فى الثراء ويبدو أن القضاة كانوا يتقاضون أعلى الرواتب ، فقد كان عبد العزيز بن مروان والى أخيه عبد الملك على مصر يفرض لعبد الرحمن بن حجيرة الخَوْلانى القاضى ألف[4] دينار كل عام ، ومرَّ بنا فى الفصل الماضى أن عبد الله بن طاهر حين ولى مصر لعهد المأمون فرض لقاضى الفسطاط سبعة دنانير كل يوم . وكان الليث بن سعد الفقيه ثريا ثراء طائلا ، ويقال إن هرون الرشيد أقطعه إقطاعات كثيرة كانت تدرّ عليه آلاف الدنانير ، وكان يرسل إلى مالك إمام أهل المدينة سنويا مائة دينار . وكان ينثر أمواله نثرا على تلاميذه ومن يهاجر إلى مصر من المحدِّثين والفقهاء[5] . وكان عبد الله بن عبد الحكم الفقيه المالكى المتوفى سنة ٢١٤ من ذوى الأموال والرباع ويقال إنه أهدى إلى الشافعى حين نزل مصر ألف دينار وأخذ له من ابن عسامة التاجر ألفا ثانية ومن رجلين آخرين ألفا ثالثة[6] . وفى ذلك مايدل على أن كبار التجار والأثرياء فى مصر كانوا يرفدون العلماء

---

(١) حسن المحاضرة ١/ ١٩٠

(٢) حسن المحاضرة ١/ ٢٩٧

(٣) حسن المحاضرة ١/٢٩٩

(٤) حسن المحاضرة ١/ ١٣٧ .

(٥) ابن خلكان ٤/ ١٣٠

(٦) ابن خلكان ٣/ ٣٤

بأموالهم . ويقال إنه كان ليونس بن عبد الأعلى أحباس[1] (أوقاف) . وكأن طيبات مصر وخيراتها صبَّت فى حجور العلماء . فكان منهم كثيرون فى يسار ونعمة ، وكانوا يصلون زملاءهم وتصلهم الدولة وكبار التجار والموسرين ، مما هيأ للعلماء أن يخلصوا للعلم وينبغوا فيه .

وظاهرة ثانية تلاحظ بجانب الظاهرة السابقة وهى أننا لا نكاد نتقدم إلى أواسط القرن الثانى للهجرة حتى يصبح لعلماء مصر حظ واضح من المساهمة فى الفكر الإسلامى العربى ، وقد ظلت أكثر من قرن تتلق آثار هذا الفكر وتحاول أن ترعاها وأن تضيف إليها من شخصيتها ما ينميها ، وغلب عليها حينئذ التلق والتلمذة ، فهى تتلق قراءات الذكر الحكيم والحديث النبوى والفقه واللغة والأخبار والتاريخ العربى الإسلامى ، وتُسيغ ذلك كله وتتمثله حتى إذا توسطت القرن الثانى للهجرة أخذت تسهم بحظ قوى فيما تتلقاه . ولعل من الطريف حقا أنها أخذت تتزعم بقوة المغرب والأندلس جميعا ، فإذا هى تعدّهما لقراءة وَرْش ولاستقبال مذهب مالك إمام المدينة والحجاز . وليس ذلك فحسب ، فإنها هى التى كتبت لأول مرة تاريخ الفتوح لإفريقيا والأندلس ، وأذاعت رواية للسيرة النبوية ، ستتحدث عنها فيما بعد ، كانت إماما لكتب السيرة العطرة ، ونفذ أحد أبنائها وهو ذو النون المصرى إلى وضع أسس التصوف ، كما مرَّ بنا فى الفصل الماضى . ومعروف أنها استقبلت على رأس المائتين الإمام الشافعى وحملت عنه مذهبه ونشرته فى بلدان العالم الإسلامى ، بحيث غدا أكثر المذاهب الفقهية الأربعة ذيوعا وانتشارا .

وعلى هذا النحو أصبحت مصر فى زمن الولاة مركزا مهما من مراكز العلم وقصدها الطلاب من أطراف المغرب والأندلس لحمل العلم عن علمائها المختلفين . ونمضى إلى زمن الدولة الطولونية فنرى الحركة العلمية نامية ناشطة على نحو ما تصور ذلك أسماء العلماء المصريين والوافدين المدَّونة حسب تاريخ الوفيات والتخصصات العلمية فى كتاب حسن المحاضرة . ويبنى أحمد بن طولون جامعه المشهور ويرتِّب لإملاء الحديث النبوى فيه الربيع بن سليمان المرادى ويحمل إليه صناديق المصاحف وينقل إليه القرَّاء والفقهاء[2] . وليس بين أيدينا نصوص توضح أعطياته للعلماء ، ويبدو أنها كانت كثيرة إذ يُرْوَى أنه كان يعطى القاضى بكَّار بن قتيبة كل سنة ألف دينار خارجا عن المقرر له وأنه ظل على ذلك أعواما كثيرة[3] . ولابد أن عطايا مقاربة كانت تُعْطَى للقراء والفقهاء والمحدِّثين والقائمين على دراسة التاريخ واللغة والأدب .وأخذت مصر منذ زمن ابن طولون (٢٥٤ —

---

(١) ابن خلكان ٣/ ٢٥٠

(٢) خطط المقريزى ٣/ ١٤٦ وما بعدها

(٣) ابن خلكان ١/ ٢٧٩

٢٧٠ هـ) بل قبل زمنه بعشرات السنين تصبح مقصدا للعلماء وطلاب العلم لا من المغرب والأندلس فحسب ، بل أيضا من الشام والعراق وإيران وخراسان . وقد نزلها خمسة من أصحاب الصحاح يكتبون الحديث النبوى عن علمائها ، وهم البخارى وأبوداود ومسلم وابن ماجة والنسائى[١] وأقام فيها الأخير واتخذها مسكنا ودارًا له ، وكان ينزل فى زقاق القناديل ، وأملى بها سُنَنه ، وأخذها عنه الناس من المصريين وغيرهم .

وكان ابن طولون وغيره من ولاة مصر وحكّامها يَبَرّون من ينزل بها من العلماء وطلاب العلم ، يدلُّ على ذلك من بعض الوجوه ما يُرْوَى من أن ابن جرير الطبرى المؤرخ والمفسر المشهور المتوفى سنة ٣١٠ نزلها وهو فى نحو الثلاثين من عمره سنة ٢٥٣ وتركها قليلا إلى الشام ثم عاد إليها سنة ٢٥٦ ليتزود مما لدى علمائها من الحديث والفقه . وكان شافعيا ، وجمعت الرحلة بينه وبين أبى بكر محمد بن إسحق بن خزيمة النيسابورى المتوفى سنة ٣١١ حامل قراءة ورش عن يونس بن عبد الأعلى وفقه الشافعى عن تلميذيه : المزنى والربيع بن سليمان المرادى إلى موطنه : نيسابور بخراسان ، وأيضا محمد بن نصر المروزى المتوفى سنة ٢٩٤ حامل فقه الشافعى إلى سمرقند عن المزنى وغيره من تلاميذه ، وكذلك محمد بن هرون الرويانى المحدِّث وله مسند . جاءوا جميعا إلى الفسطاط يدرسون على شيوخه ، ويقال إنهم اجتمعوا يوما ولم يبق عندهم ما يمونهم ، وكان والى مصر قد علم بأمرهم — وأكبر الظن أنه ابن طولون — فأرسل إلى كل منهم مائة دينار ، ويقال إنه أرسل إليهم ألف دينار[٢] . وإذا كان طلاب العلم تُغْدَقُ عليهم الأموال بمصر فما بالنا بما كان يُغْدَق على علمائها .

وما نصل إلى أواخر القرن الثالث حتى تكون مصر قد نشرت مذهب الشافعى فى خراسان عن طريق أبى بكر بن إسحق النيسابورى ومحمد بن نصر وأيضًا عن طريق عبدان المروزى الذى تفقه على المزنى والربيع بن سليمان ، ويقول السيوطى إنه هو الذى أظهر مذهب الشافعى فى خراسان[٣] ، وظلت مصر منذ هذا التاريخ من أهم بيئاته . ومن أهم تلاميذ أصحاب الشافعى المصريين أبو القاسم الأنماطى عثمان بن سعيد المتوفى سنة ٢٨٨ وفيه يقول السبكى : هو الذى اشتهرت به كتب الشافعى ببغداد ، وعليه تفقَّه شيخ المذهب هناك وحامل لوائه فى بغداد والعراق

---

(١) حسن المحاضرة ١/ ٣٠٦ ، ٣٠٩ وطبقات الشافعية للسبكى (طبعة عيسى البابى الحلبى بالقاهرة) ٢/ ٧ ، ١٧١ ، ٣/١٥ .

(٢) معجم الأدباء ١٨ / ٤٦ وحسن المحاضرة ١ / ٣١٠ .

(٣) حسن المحاضرة ١ / ٣٤٩ .

أبو العباس بن سُرَيج[١] . أما الشام فحمل إليها المذهب عن تلاميذ الشافعى أبو زرعة محمد بن عثمان المتوفى سنة ٣٠٢ إذ أدخله إلى دمشق وولى قضاءها ، ولم يتوله بعده لا فى الشام ولا مصر إلا شافعى المذهب حتى عصر الظاهر بيبرس[٢] . وأما الحجاز فيقول السبكى عنها إنها لم تبرح منذ ظهور مذهب الشافعى وإلى يومنا هذا فى أيدى الشافعية : القضاء والخطابة والإمامة بمكة والمدينة[٣] . ويمضى السبكى قائلا إن أهل اليمن شافعية إلا أن يكونوا زيديين ، ويذكر أن مذهب الشافعى شاع فى فارس ، وأما أذربيجان فلا تعرف سواه . وكل ذلك بفضل تلاميذ الشافعى المصريين الذين قاموا على مذهبه خير قيام واستطاعوا نشره فى القرن الثالث عن طريق تلاميذهم حتى أقصى المشرق .

وتمضى مصر فى العناية بالدراسات الدينية لعهد الإخشيديين فى القرن الرابع ويصور ذلك من بعض الوجوه ما رواه ابن سعيد من أنه كان فى جامع عمرو للمالكيين خمس عشرة حلقة وللشافعيين مثلها ولأصحاب أبى حنيفة ثلاث حلقات[٤] . ومعروف أن مصر كانت مالكية حتى قدوم الشافعى ، فاقتسم مصرَ مذهبُه والمذهب المالكى ، ولم يكن للمذهب الحنفى أتباع إلا بعض من كان يتولى القضاء بها لعهد بنى العباس ، ولا يتجاوزون عدد أصابع اليد الواحدة . أما جمهور القضاة فكان من المالكية ، حتى إذا كنا فى أواخر القرن الثالث الهجرى انتقل القضاء من أيديهم نهائيا إلى الشافعية كما مر بنا آنفا فى حديث السبكى . وأتيح للمذهب الحنفى إمام مصرى كبير من أئمته هو أبو جعفر الطحاوى المتوفى سنة ٣٢١ فهيأ له بمصر حياة لم تكن له من قبل ، وهى التى أتاحت لقيام الحلقات الثلاث التى يُدْرَس فيها الفقه الحنفى كما ذكر ابن سعيد . وتأخذ الدراسات اللغوية والنحوية فى النمو بمصر منذ عهد الدولة الطولونية ويؤمها الأخفش الصغير تلميذ المبرد ، ويظل هذا النمو مطردا فى زمن الدولة الإخشيدية ، ويقصدها الطلاب المغاربة والأندلسيون ويحملون عنها المعاجم وكتاب سيبويه وغير ذلك من كتب اللغة والنحو .

وعملت الدولة الإخشيدية على إنماء الحركة العلمية وساعدها على ذلك أنه كان يضطلع بالوزارة لها مدة متطاولة جعفر بن الفضل بن الفرات المعروف باسم ابن حِنْزابة وكان يُغْدق على العلماء ويجزل صلاتهم ، فقصده الأفاضل – كما يقول ابن خلكان – من البلدان الشاسعة ، وكان من حفاظ الحديث النبوى وكان له مجلس فى المسجد يملى فيه على الناس ، وعُنى بتأليف مسند

---

(١) السبكى ٢ / ٣٠١ وانظر ٣ / ٢١ .

(٢) السبكى ٣ / ١٩٧ وحسن المحاضرة ١ / ٣٩٩ .

(٣) السبكى ١ / ٣٢٧ .

(٤) المغرب لابن سعيد (قسم الفسطاط) ص ١٧٣ .

خاص به ، وإليه رحل الدَّارَقُطْنِيّ على بن عمر أكبر محدثى العراق فى عصره ، وأعانه فى تأليف مسنده مع من كان يُعينه فيه من المصريين وأقام لديه مدة ، وبالغ ابن حنزابة فى إكرامه ، وأنفق عليه نفقة واسعة وأعطاه شيئا كثيرا وحصل له بسببه مال وفير[١] .

وظل ابن حِنْزابة يقود الحركة العلمية بمصر طوال وزارته وقد امتدت نحو عشرين عاما من أيام كافور إلى قرب انتهاء الدولة الإخشيدية ، وطبيعى ومثله يقوم على ذلك أن تمضى فى النمو والنشاط . وممن نزل مصر حينئذ المسعودى على بن الحسين المؤرخ المشهور . ومنها ذاعت كتبه التاريخية وفى مقدمتها كتابه مروج الذهب ، وظل مقيما بها حتى لَبَّى نداء ربه سنة ٣٤٥ وقيل بل سنة ٣٤٦ .

وتزداد الحركة العلمية نموا ونشاطا فى زمن الدولة الفاطمية ، إذ عمل الخلفاء الفاطميون ووزراؤهم على دَفْع هذه الحركة دفعا قويا ، وما تكاد تمضى سنوات فى عهد هذه الدولة حتى نجد الخليفة العزيز (٣٦٦ – ٣٨٦ هـ) يرسم راتبا لسبعة وثلاثين من الفقهاء ويبنى لهم دارا بجوار الجامع الأزهر[٢] الذى كانوا يتخذونه مقرًّا لدعوتهم الإسماعيلية . ولا نعرف هل كان الفقهاء جميعا إسماعيلية أوكان بينهم نفر من أهل السنة ، على أننا نجد ابنه الحاكم يسند إلى فقيهين مالكيين التدريس فى هذا الجامع[٣] ، مما يدل على أنه تحول سريعا إلى جامعة كبرى للدراسات الدينية واللغوية . وفى أخبار وزير العزيز ابن كِلِّس أنه كان يُجْرِى بأمره ألف دينار شهريا على جماعة من أهل العلم والورَّاقين والمجلِّدين[٤] ، مما يدل على أنه نشأت حينئذ حركة علمية كبرى لا للدراسات العلمية فحسب ، بل أيضا لنسخ المخطوطات فى مختلف العلوم والآداب . وأكثر دلالة على ذلك ما يُرْوَى من أن العزيز عُنِى بإنشاء مكتبة فى القصر ، كان بها ما يزيد على مائة ألف مجلد ، وفى رواية على مائتى ألف[٥] ، وكان أمينه القائم عليها الشابشتى[٦] على بن محمد صاحب كتاب الديارات ، ويقال إنه كان بها أكثر من ثلاثين نسخة من معجم العين المنسوب إلى الخليل بن أحمد ، وأكثر من عشرين نسخة من تاريخ الطبرى ، ومائة نسخة من معجم الجمهرة لابن دريد . ومازال العزيز يُعْنَى بهذه المكتبة هو ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين ، حتى قيل

---

(١) ابن خلكان ١ / ٣٤٧ ، ٣ / ٢٩٨ .

(٢) صبح الأعشى ٣ / ٣٦٣ والخطط ٣ / ١٥٧ ، ٢٧٥ .

(٣) النجوم الزاهرة ٤ / ١٧٨ .

(٤) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى لآدم ميتز ١ / ٢٥٠ نقلا عن يحيى بن سعيد الأنطاكى .

(٥) النجوم الزاهرة ٤ / ١٠١ والخطط ٢ / ١٢٨ .

(٦) ابن خلكان ٣ / ٣١٩ .

إنها أصبحت أربعين خزانة مَلأى بنفائس المجلدات فى الحديث النبوى والفقه على سائر المذاهب والنحو واللغة والتاريخ وعلوم الأوائل ، ويقال إنه لم يكن فى العالم دار كتب تماثلها وأنها كانت من عجائب الدنيا . وعلى الرغم من بيع بعض مصاحفها وكتبها فى أيام المجاعة الهائلة لزمن المستنصر فإنها ظلت زاخرة بالكتب ، حتى يقال إن صلاح الدين أهدى وزيره القاضى الفاضل منها مائة ألف مجلد أودعها مدرسته الفاضلية ، وظل ابن صورة دلأل الكتب يبيع منها للناس مدة من السنين[١] . وكانت هذه المكتبة الضخمة تعد أما لمكتبات القاهرة والفسطاط جميعا ، فقد كانت تُلْحَقُ بكل جامع خزانة للكتب ، وكان الفاطميون يمدونها من حين إلى حين بما يلزمها من المصنفات ، يدل على ذلك – من بعض الوجوه – ما يروى عن الحاكم من أنه أنزل من القصر إلى الجامع العتيق : جامع عمرو بن العاص بالفسطاط ١٢٩٨ مصحفا وإلى جامع ابن طولون ٨٠٠ مصحف كان منها ما هو مكتوب بالذهب[٢] . وإنما نَصُّوا على إنزال المصاحف لجلالها ، ولابد أنهم أنزلوا معها كثيرا من الكتب . ونفس مكتبة القصر كان يختلف إلى خزائنها الخارجية العلماء والطلاب للقراءة والنسخ منها والاطلاع .

وتُؤَسَّس فى سنة ٣٩٥ جامعة كبرى تسمى دار العلم ، حُمل إليها من خزائن القصر كتب كثيرة تحتوى على سائر العلوم الإسلامية والآداب والفلسفات وعلوم الأوائل ، يقول المقريزى « حضرها الناس على اختلاف طبقاتهم ، فنهم من يحضر لقراءة الكتب ، ومنهم من يحضر للنسخ ، ومنهم من يحضر للتعلم ، وجُعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر والورق والأقلام والمحابر » . وكانت بها دروس للمحدِّثين والقرّاء والفقهاء وأصحاب النحو واللغة والمنجمين والأطباء والمتفلسفة ، وكل هؤلاء كانت تجرى عليهم وعلى الطلاب الرواتب . وما تدخل سنة ٤٠٠ حتى يكتب الحاكم وَقْفِيَّة كبيرة للإنفاق منها على دار العلم وعلى الجوامع الكبرى ، وخصَّ الفراشين والحُصْر والحبر والورق والأقلام فى دار العلم بمائتين وسبعين دينارا سنويا . ومن المؤكد أن الحاكم كان يبتغى بهذه الجامعة أن تكون مركزًا للدعوة للعقيدة الإسماعيلية بدليل أنه جعل رئيسا لها أحد دعاتها من بيت النعمان وهو عبد العزيز بن محمد بن النعمان ، ويبدو أنه وجد فى ذلك ما يهدد بثورة أهل السنة المصريين ، فأضاف إلى علمائها الإسماعيليين من أصحاب نحلته طائفة من فقهاء أهل السنة ومحدثيها وعلى رأسهم عبد الغنى بن سعيد الفقيه الشافعى المشهور وأكبر حُفَّاظ

(١) انظر فى هذه المكتبة وكل ما ذكرت عنها الخطط ٢ / ١٢٧ وما بعدها .

(٢) الخطط ٣ / ١٤٦ ، ١٦٣ .

الحديث المصريين فى زمنه . ومازالت هذه الجامعة ناهضة بالحركة العلمية فى القاهرة حتى عهد الأفضل بن بدر الجمالى إذ رأى إغلاقها ، لنشوب جدل عنيف بها فيما صنع من جَعْل المستعلى بالله الخليفة الفاطمى بعد أبيه المستنصر دون أخيه نزار الذى كان يكبره ، وخشى من ذلك حدوث ثورة ، غير أن النزارية لم يلبثوا أن قتلوه ، وقيل بل قتله الآمر بن المستعلى . غير أن الجامعة أو دار العلم لم تلبث أن أعيدت سنة ٥١٧ بعد نقلها إلى دار جديدة ظلت فيها حتى نهاية الدولة الفاطمية [١] .

وإذا كان فقهاء الدعوة الاسماعيلية استغلّوا الجامع الأزهر ودار العلم فى أول تأسيسها لنشر الدعوة الإسماعيلية فإن الجامع العتيق جامع عمرو بن العاص فى الفسطاط ظل مركزًا لدراسات أهل السنة . ولابد أن نلاحظ أن القاهرة حين أُسِّست إنما كانت مسكنا للخلفاء الفاطميين وحواشيهما من رجال الدولة وجنود الجيش القادم معها من المغرب ، بينما كانت الفسطاط حينئذ مسكن المصريين ، كما كان شأنها قبل دخول الفاطميين ، وكان مسجدها جامعة كبرى للدراسات السنية . ويذكر المقدسى الذى زارها سنة ٣٧٥ أنه رأى فى جامع عمرو بها بين العشاءين مائة مجلس وعشرة [٢] للقراء والدراسات السنية . ومع ذلك كان فقهاء الدعوة الإسماعيلية يتراءون فيه ويفتون الناس أحيانا [٣] ، كما أخذ أهل السنة بدورهم يحاولون الإملاء وإلقاء المحاضرات فى الجامع الأزهر ، ولم يجد الحاكم بُدًّا –كما مر بنا– من أن يعين فى الأزهر وفى دار العلم بعض أهل السنة من المحدثين والفقهاء .

ولعل فى ذلك ما يخفف حدة القول بأن الفاطميين كانوا يضطهدون فقهاء أهل السنة ويحاربونهم ، ويذكرون فى هذا الصدد الاعتداء فى سنة ٣٨١ أى لعهد العزيز على رجل وُجد عنده موطّأ الإمام مالك [٤] ، وقد يكون السبب أن الرجل تعرض للدعوة الإسماعيلية بالسب والثلب . ويذكرون أن الحاكم أراق دماء نفر من فقهاء أهل السنة ، وكان فيه سفه وخبل ، فلم يرق دماءهم وحدهم ، بل أراق أيضا دماء كثيرين من الدعاة الإسماعيليين ورجال الدولة . وكان بيت النعمان أهم البيوت المغربية فى نصرتهم والتأليف فى عقيدتهم الفاسدة ، ومع ذلك قتل الحسين بن على بن النعمان كبير قضاته ، وولّى بعده ابن عمه عبد العزيز الذى أقامه رئيسا لدار العلم ،

---

(١) انظر فى دار العلم القديمة والجديدة الخطط ٢ / ١٩٤ ، ٢١٨ .

(٢) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم (طبع ليدن) ص ٢٠٥

(٣) ابن خلكان ٧ / ٣٠ وانظر الخطط ٣ / ٣١ .

(٤) الخطط ٣ / ٢٧٥ .

كما مر بنا ، ولم يلبث أن قتله سنة ٤٠١ وولّى بعده مالك بن سعيد الفارق ، ولم يلبث أن سفك دمه[١] . وإذن فقتل الحاكم لجماعة من أهل السنة ليس دليلا كافيا على اضطهاد الفاطميين لهم إذ كان لا يُبْقى ولا يذر من كبار دعاته وقضاته ورجال دولته الإسماعيليين .

ومما يذكر من اضطهاد الفاطميين لفقهاء أهل السنة أن الخليفة الظاهر (٤١١-٤٢٧ هـ) أمر بطرد[٢] الفقهاء المالكية من مصر أى الفسطاط سنة ٤١٦ . وينقض هذا الخبر كتاب رواه عنه صاحب النجوم الزاهرة حمل فيه حملة شعواء على من يؤلّهون عليا وأباه الحاكم ، وفيه يقول : «قالوا فى آبائنا وأجدادنا منكرا من القول وزورا ، ونسبونا بغلوهم الأشنع ، وجهلهم المستفظع إلى مالا يليق بنا ذكره ، وإنا لنبرأ إلى الله تعالى من هؤلاء الجهلة الكفرة الضُّلَّال»[٣] . ومثله لا يضطهد المالكية ولا ينفيهم من البلاد . وكان لا يزال بمصر فى عهده عبد الوهاب بن على البغدادى المالكى أحد الأئمة المالكية المجتهدين فى المذهب ، نزل مصر لضيق حاله ببغداد وتوفى بها سنة ٤٢٢ يقول السيوطى : «أُكرم بمصر وتموَّل وسَعِد جدًّا ، ومرض فكان يقول فى مرضه : لا إله إلا الله عندما عشنا متنا[٤]» . فمصر فى عهد الخليفة الظاهر وقبله وبعده كانت لاتزال مركزا كبيرا للإشعاع العلمى والدراسات الدينية ، ينزلها العلماء ليشاركوا فى نهضتها العلمية ، وينزلها طلاب العلم ليتزودوا منها خير زاد . ونضرب مثلا بمكى بن أبى طالب القيسى القيروانى المتبحر فى القراءات المتوفى سنة ٤٣٧ والمولود سنة ٣٥٤ فقد جاءها يطلب العلم فيها سنة ٣٦٧ ثم عاد إليها سنة ٣٧٤ ورجع إلى بلده ثم عاد سنة ٣٧٧ لأخذ القراءات عن شيوخها ورجع إلى القيروان سنة ٣٨٠ ثم عاد سنة ٣٨٢ لاستكمال القراءات ، ومضى بعد سنوات إلى جامع قرطبة بالأندلس يقرئ فيه الناس[٥] . ومثله أبو عمرو الدانى الأندلسى نزل مصر سنة ٣٩٧ وحمل القراءات عن أساتذتها وهو فى الخامسة والعشرين من عمره[٦] . فهذان عالمان سُنِّيان جليلان نزلا مصر لعهد العزيز والحاكم على الترتيب ووجدا فيها ما يكفل لهما الإقامة بها والعيش فيها .

وممن نزل مصر من كبار المحدثين النقاش الحافظ المتوفى سنة ٣٦٩ وأبو سعيد المالينى المتوفى سنة ٤١٢ وأبو نصر السجزى المتوفى سنة ٤٤٤ ونزلها فى العقد الثانى من القرن السادس أكبر حفاظ

---

(١) المغرب لابن سعيد (قسم القاهرة) ص ٣٦٦ .

(٢) الخطط ٢ / ٣١ .

(٣) النجوم الزاهرة ٤ / ٢٤٩ .

(٤) حسن المحاضرة ١ / ٣١٤ .

(٥) ابن خلكان ٥ / ٢٧٤ .

(٦) معجم الأدباء ١٢ / ١٢٦ وكان أستاذ الدانى فى القراءات هو نفسه أستاذ مكى : عبد المنعم بن غلبون الحلبى نزيل مصر .

الحديث فى عصره.الإمام السِّلَفى . ونزلها من كبار فقهاء الشافعية أبو العباس الدَّيبلى المتوفى سنة ٣٧٣ وأبو الحسن الحلبى المتوفى سنة ٣٩٦ وأبو الفضل البغدادى المتوفى سنة ٤٤١ وأبو القاسم العراقى المتوفى سنة ٤٧٧ وأبو الفتح المقدسى المتوفى سنة ٥١٨ ، ونزلها من فقهاء المالكية الأبهرى الصغير وعبد الله بن الوليد الأندلسى المتوفى سنة ٤٤٨ وعبد الجليل بن مخلوف الصقلى المتوفى سنة ٤٥٩ وأبو بكر الطرطوشى الأندلسى المتوفى سنة ٥٢٥ وأبو العباس الفاسى[١] المتوفى سنة ٥٦٠ .

وإذا كان هؤلاء العلماء والطلاب الوافدون وجدوا فى مصر مستقرا لهم ومقاما فأولى أن يجد ذلك أبناؤها ، وأيضاً فإن وراءهم كثيرين من محدثى مصر وفقهائها الشافعيين والمالكيين والقراء يُعَدُّون بالعشرات على طول السنوات فى عهد الدولة الفاطمية ، مما يؤكد أن الفاطميين لم يعلنوا معارضة هذه الدراسات ، بل لعلهم كانوا يشجعون كثيرين من أهلها ومن الوافدين عليهم ، حتى ليقول نزيلها الإمام عبد الوهاب المالكى قولته السالفة : « عندما عشنا متنا » . ولعلنا لسنا فى حاجة إلى كل هذه الأدلة لنبرهن على أن الفاطميين لم يقفوا حجر عثرة ضد نشاط أهل السنة ومذهبى الفقه الشائعين حينئذ فى مصر : المذهب الشافعى والمذهب المالكى فإن القلقشندى يشهد لهم بذلك شهادة بيِّنة إذ يقول عنهم: «كانوا يتألفون أهل السنة والجماعة ويمكنونهم من إظهار شعائرهم على اختلاف مذاهبهم ، ولا يمنعون من إقامة صلاة التراويح فى الجوامع والمساجد على خلاف معتقدهم .. ومذاهب مالك والشافعى وأحمد (بن حنبل) ظاهرة الشِّعار فى مملكتهم بخلاف مذهب أبى حنيفة ، ويراعون مذهب مالك ومن سألهم الحكم به أجابوه[٢]» . وهو محق فى مذهب أبى حنيفة إذ لم يكن له نشاط بمصر فى عهد الفاطميين ، أما مذهب ابن حنبل فغير محق فى إثبات نشاط له حينئذ إذ كان نشاطه مثل نشاط مذهب أبى حنيفة يكاد يكون معدوما .

على كل حال هذه شهادة صريحة للفاطميين بأنهم كانوا يترضَّوْن أهل السنة ، وحقا حين دخلوا مصر أسندوا وظيفة قاضى القضاة إلى النعمان فقيههم وتوارثها بعده بعض أبنائه وأحفاده ، ثم ولوها بعض شيعتهم . ويبدو أنهم أخذوا فى عصر المستنصر (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ) يتركون هذه السياسة ، إذ عيَّنوا على رأس القضاة فقيها شافعيا هو أبو عبد الله محمد[٣] بن سلامة القضاعى أحد أئمة زمنه المتوفى سنة ٤٥٤ . و يبدو أن كثيرين من القضاة الفرعيين فى الإسكندرية وغيرها كانوا

---

(١) راجع فى هؤلاء الفقهاء والمحدثين حسن المحاضرة للسيوطى وما به من أثبات خاصة بهم فى جزئه الأول .

(٢) صبح الأعشى للقلقشندى ٣ / ٥٢٠ .

(٣) المغرب (قسم القاهرة) ص ٣٦٧ وانظر حديث السيوطى فى كتابه حسن المحاضرة عن فقهاء الشافعية فى زمن الفاطميين ١ / ٤٠٤ وما بعدها .

شافعيين أو مالكيين . ويتولى الوزارة بدر الجمالى (٤٦٨ - ٤٨٧ هـ) ثم ابنه الأفضل (٤٨٧ - ٥١٥) ويصبحان ولِيي الأمر ويحجران على الخلفاء وكانا لا يعارضان أهل[1] السنة ولا يتعصبان ضدهم . وحين يتولى أحمد الأفضل حفيد بدر الوزارة يعين أربعة قضاة : شيعيا إسماعيليا وشيعيا إماميا ومالكيا وشافعيا[2] . ويظهر أن هذا أصبح تقليدا منذ صنع أحمد الأفضل هذا الصنيع سنة ٥٢٥ .

وينزل فى الإسكندرية السِّلَفى أكبر حفاظ الحديث فى العصر ويأخذ فى إملائه ، ويتوافد عليه الطلاب من مصر وغير مصر ، ويتولى الإسكندرية العادل بن السلار فى عهد الحافظ (٥٢٤ - ٥٤٣ هـ) وكان شافعى المذهب مثل السلفى فاحتفل به وزاد فى إكرامه وبنى له مدرسة فوّض تدريسها إليه ، يقول ابن خلكان : وهى معروفة باسمه إلى الآن أى فى زمنه[3] . وفى صبح الأعشى سجلٌّ بإسناد هذه المدرسة إلى الفقيه السلفى والقيام على نفقة من فيها من القراء والفقهاء والمرابطين والصلحاء وطلبة العلم من أهل الإسكندرية ومن الواردين إليها والطارئين عليها سواء كانت النفقة نقدا أو غلة ، مع بيان أنه أُعدّ لهم جميعا فيها المثوى والمسكن . وبذلك يكون ما ذكره المقريزى وغيره من أن المدارس لم تعرف فى مصر إلا فى عهد صلاح الدين غير صحيح[4] ، فقد كانت بها مدرسة السلفى المذكورة ، وكانت مدرسة سنية شافعية . ونفس دار العلم يمكن أن نعدها مدرسة بالمعنى الكبير الذى كان لنظامية بغداد ، إذ كانت مؤسسة علمية كبرى .

وكانت الدولة الفاطمية قد انتهت إلى انحلال وفساد شديد وأخذ الظلام يعم ديارها فى مصر والشام . وفى غفلة من الزمن يستولى حملة الصليب على بيت المقدس وساحل الشام على نحو ما مر بنا فى الفصل الماضى ، ويستغيث الفاطميون بنور الدين صاحب حلب ، ويرسل إليهم بجنود على رأسها أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، وتتطور الظروف سريعا ، وينهى صلاح الدين حكم الفاطميين ويقبض على صولجان الحكم ، ويكاد يقضى على الصليبيين فى الشام إلا قليلا ويستولى على بيت المقدس وتتكاثر فتوحاته ، ويحقق للعرب والمصريين الزعيم المنتظر لتخليص البلاد من حملة الصليب . وعلى نحو ما قاد هذه الفتوح قاد نهضة علمية رائعة ، إذ كان محبا للدراسات الإسلامية شغوفا بها وخاصة بالحديث النبوى مما جعله ينزل الإسكندرية ليتلقاه على

---

(١) المغرب ص ٢١٦ .

(٢) أخبار مصر لابن ميسر ص ٧٥ .

(٣) ابن خلكان ١ / ١٠٥ .

(٤) الخطط ٣ / ٣١٥ وانظر حسن المحاضرة ٢ / ٢٥٦ .

السلفى أكبر حفاظه فى عصره . وكان يستمع إلى الفقهاء ويُرْوَى أنه تلقى على بعض الشيوخ موطأ مالك برواية فقيه الإسكندرية الطرطوشى المالكى[١] ، بينما كان السلفى شافعيا ، وكان صلاح الدين نفسه شافعى المذهب . ولعل فى ذلك ما يفسر اهتمامه بفقهاء المذهبين ، بل لقد ضم إليهم أيضا فقهاء المذهب الحنفى ، فإذا هو ينشئ خمس مدارس بالقاهرة والفسطاط ، أنشأ اثنتين منها فى أثناء وزارته للعاضد آخر الخلفاء الفاطميين سنة ٥٦٦ : مدرسة لفقهاء الشافعية بجوار جامع عمرو سميت مدرسة ابن زين التجار باسم الشيخ الذى فَوّض إليه تدريس الفقه الشافعى بها ثم عُرفت باسم المدرسة الشريفية ، ومدرسة لفقهاء المالكية بالقرب منها سميت المدرسة القمحية للقمح الذى كان يأتيها من ضيعة بالفيوم وقفها عليها صلاح الدين ، حتى إذا استولى على مقاليد الحكم بمصر أنشأ ثلاث مدارس اثنتين للشافعية إحداهما بجوار مسجد الشافعى والثانية بجوار مشهد الحسين ، أما الثالثة فجعلها للحنفية وسميت السيوفية[٢] . والمهم أنه رتّب لكل هذه المدارس الأساتذة والمدرسين والمعيدين ، فقد كان نظام الاعادة معروفًا حينئذ ، ورتّب لها أيضا الأئمة والمؤذنين والقَوَمَة والطلاب ، وجعل لكل مدرسة أوقافها الخاصة للإنفاق المستمر عليها فى حياته وبعد وفاته ، وألحق بكل مدرسة مساكن للمعلمين والطلبة . وكأن كل مدرسة كانت تشبه كلية من كليات الجامعات فى عصرنا ، فمع كل مدرسة مساكنها وميزانيتها للإنفاق اليومى والشهرى عليها .

وبذلك تبدأ مصر دورة علمية كبيرة فى عهد الدولة الأيوبية لا فى عهد صلاح الدين وحده ، بل أيضا فى عهد من خلفوه من الأيوبيين ، إذ كانوا فى جملتهم علماء ، وكذلك كان وزراؤهم وأمراؤهم منذ عهد صلاح الدين نفسه ، ولكثيرين منهم مدارس أنشأوها فى الفسطاط والقاهرة عدَّدها المقريزى — والطريف أنه اشترك معهم فى إنشائها بعض التجار — وقد بلغ بها خمسا وعشرين مدرسة[٣] . ويبدو أن إحصائيته غير كاملة ، فإنه لم يقف عند مشهد الحسين وقفةً توضح أنه كان مدرسة كبقية المدارس . ونستطيع أن نميز بين هذه المدارس ثلاث مدارس للفقه الشافعى وراء المدارس التى أنشأها صلاح الدين ، إحداها أنشأها ابن أخيه تقى الدين عمر بن شاهنشاه وسميت مدرسة منازل العز وهو اسم المنازل التى أقيمت فيها ، وكان مما وقفه عليها

(١) انظر فى ذلك ابن واصل فى كتاب مفرج الكروب فى تاريخ بنى أيوب ١ / ١٩٥ وما بعدها وكان يرحل بولديه : العزيز والأفضل سلطانى مصر ودمشق بعده للسماع من السلفى وفقهاء الإسكندرية . انظر حسن المحاضرة ٢ / ١٩ .

(٢) ابن خلكان ٧ / ٢٠٦ وقارن بحديث المقريزى عن المدارس فى الجزء الثالث من الخطط .

(٣) انظر حديث المقريزى فى ذلك بالخطط ٣ / ٣١٣ وما بعدها .

جزيرة الروضة المعروفة الآن بالقاهرة والثانية المدرسة الشريفية بناها أحد أمراء الدولة الأيوبية سنة ٦١٢ . والثالثة المدرسة الفائزية بناها الوزير الفائزى سنة ٦٣٦ . وبالمثل نستطيع أن نميز للفقه المالكى بجانب المدرسة القمحية التى أنشأها له صلاح الدين المدرسة الصاحبية التى بناها له الصاحب ابن شكر وزير السلطان العادل . وأيضا نستطيع أن نميز للفقه الحنفى بجانب المدرسة السيوفية التى أنشأها صلاح الدين مدرستين إحداهما سميت الأزكشية بناها أحد الأمراء ، والثانية سميت العاشورية أنشأتها إحدى كريمات الأمراء . وهناك مدارس بنيت لأصحاب الفقه الشافعى والمالكى مثل مدرسة القاضى الفاضل ، وأخرى بنيت للفقه الشافعى والحنفى مثل المدرسة القطبية التى أنشأتها السيدة مؤنسة ابنة السلطان العادل . ويبنى السلطان نجم الدين أيوب بأخرة من زمن هذه الدولة سنة ٦٤١ مدرسة كبرى للمذاهب الأربعة : مذهب أبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل ، وهى أول مرة أو أول مدرسة تُعْنَى فيها مصر بدراسة الفقه الحنبلى . وينشئ السلطان الكامل سنة ٦٢٢ أول مدرسة تُعْنَى بالحديث النبوى تسمىً دار الحديث الكاملية نسبة إليه . ويلاحظ ابن خلكان ومن بعده ابن تغرى بردى أن جميع المدارس التى أنشأها صلاح الدين لم تُسَمَّ منها مدرسة باسمه ، مع ما رتِّب لها من الأوقاف العظيمة ، ومع ما كان له من الفتوحات الكبيرة[1] .

وهذه المدارس جميعا كانت تُعْنَى بالدراسات الإسلامية من الحديث والتفسير والقراءات ، وبالدراسات اللغوية من النحو وغير النحو وكذلك الدراسات البلاغية ، لأن الفقيه فى أى مذهب لا يتم تكونه إلا مع إتقانه هذه الدراسات . وأهمل صلاح الدين وخلفاؤه الجامع الأزهر لأنه كان مركز الدعوة الإسماعيلية ، غير أن الجوامع الأخرى والمساجد الكبرى ظل بها بعض النشاط العلمى ، وكان صلاح الدين ينفق عليها وعلى علمائها وطلابها كما كان ينفق على مدارسه السالفة ، وفى ذلك يقول ابن جبير الذى زار القاهرة والفسطاط لعهده سنة ٥٧٨ : « ما من جامع من الجوامع ولا مسجد من المساجد ولا محرس من المحارس ولا مدرسة من المدارس إلا وفضل السلطان (صلاح الدين) يعمُّ جميع من يأوى إليها ويلزم السُّكنى فيها ، تهون عليه فى ذلك نفقات بيوت الأموال[2] » .

وكانت الإسكندرية فى عهد الفاطميين مثل الفسطاط مركزًا لدراسات أهل السنة ، وقد بنى فيها ابن السلار – كما أسلفنا – مدرسة فوض الإشراف عليها للحافظ السِّلَفى الشافعى ، ويبدو أن

---

(١) ابن خلكان ٧ / ٢٠٧ والنجوم الزاهرة ٦ / ٥٥ . (٢) رحلة ابن جبير (طبع ليدن) ص ٥٢ .

صلاح الدين انشأ فى الإسكندرية مدارس جديدة كما يفهم من كلام ابن جبير إذ يقول : « ومن مناقب هذا البلد (الإسكندرية) ومفاخرة العائدة فى الحقيقة إلى سلطانه (صلاح الدين) المدارس والمحارس الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبد ، يفدون من الأقطار النائية ، فيلقى كل واحد منهم مسكنا يأوى إليه ومدرِّسا يعلمه الفن الذى يريد تعلمه وإجراء يقوم به فى جميع أحواله[1] . وأخذت المدارس تعمُّ مدن مصر الكبرى يبنيها ولاة صلاح الدين عليها ومن جاءوا بعده ، وأيضا أمراء بيته ، من ذلك أن تقى الدين عمر بن شاهنشاه ابن أخيه بنى فى الفيوم مدرستين إحداهما للشافعية والثانية للمالكية[2] ، وتأسست بأسوان مدرسة مبكرة[3] ، وأنشأ ابن هبة الله حاكم قوص سنة ٦٠٧ المدرسة النجيبية[4] بها . ويبدو أنه لم تكد تخلو بلدة كبيرة فى مصر لعهد الأيوبيين من مدرسة . وكانت بها جميعا الجوامع والمساجد ، واشتهرت الإسكندرية منذ العصر الفاطمى بجامع العطارين الذى بناه بدر الجمالى ، وظل به نشاط علمى وافر زمن الأيوبيين ، وبالمثل كانت الجوامع الكبرى فى دمياط والمحلة وطنطا والمنيا وأسيوط وقوص وإسنا ، إذ نقرأ فى كتب التراجم من حين لآخر عن علماء كانوا يعنون فى هذه البلدان بدراسات الفقه والحديث والقراءات .

وتنشأ – بجانب المدارس السالفة – مدارس كثيرة فى عهد المماليك ، ويعدِّدها المقريزى ويذكر تاريخ إنشائها والأوقاف التى رُصدت لها ، وتبلغ عنده نحو خمس وأربعين مدرسة ، بناها سلاطين المماليك وأمراؤهم وأحيانا بعض نسائهم وأمهاتهم ، وقد عدَّ للشافعية منها أربعة : المدرسة[5] الطيبرسية والحسامية والسابقية والمجدية الخليلية ، وللحنفية ثلاثا : الغزنوية والجمالية والمهمندارية . ومدارس مختلفة بنيت لمذهبين مثل المدرسة الأقبغاوية والجاى ومدرسة أم السلطان وكذلك المدرسة الظاهرية وجميعها للشافعية والحنفية ومثل المدرسة الحجازية والمسلمية وهما للشافعية والمالكية ، ومثل المنكوتمرية للمالكية والحنفية . وبنيت للمذاهب الأربعة مدارس مختلفة مثل المدرسة المنصورية للمنصور قلاوون والناصرية لابنه محمد الناصر .

ويقول ابن بطوطة الذى زار القاهرة والفسطاط سنة ٧٢٦ لعهد محمد الناصر بن قلاوون :

---

(١) ابن جبير ص ٤١ وما بعدها .

(٢) ابن خلكان ٣ / ٤٥٦ .

(٣) الطالع السعيد للادفوى (طبع مطبعة الجمالية) ص ٨٥ .

(٤) الطالع السعيد ص ٢٢٠ .

(٥) انظر فيما يلى من حديث عن هذه المدارس خطط المقريزى ٣ / ٣٤٠ وما بعدها .

« أما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها » . وظلت المدارس تتكاثر بعد زيارته لمدة نحو قرنين من الزمان طوال عصر المماليك . ولن نستطيع الوقوف عند جميع هذه المدارس لمعرفة نشاطها العلمى ونكتفى منها بثلاث هى المدرسة الظاهرية للظاهر بيبرس والمنصورية للمنصور قلاوون والناصرية لابنه الناصر . أما الظاهرية[١] فتم إنشاؤها لأوائل عهد المماليك سنة ٦٦٢ وقد جعلها الظاهر لتدريس الفقه الشافعى والحنفى وتدريس القراءات والحديث النبوى ، وأجرى الرواتب على أساتذتها وطلابها وألحق بها مساكن لهم كما ألحق بها مكتبة تشتمل على أمهات الكتب فى سائر العلوم وبنى بجانبها مكتبا لتحفيظ أيتام المسلمين كتابَ الله وأجرى لمن به من الأطفال الجِرايات والكُسْوة ، وأوقف عليها الرَّبْع أو الحى المعروف اليوم باسم تحت الربع ، وكان ربعا كبيرا مملوءا بالدور والحوانيت . أما المدرسة المنصورية[٢] فأنشأها السلطان المنصور قلاوون لأصحاب المذاهب الفقهية الأربعة سنة ٦٨٤ وجعل لكل مذهب مدرِّسا وثلاثة من المعيدين ومقرئا للذكر الحكيم وخمسين طالبا ، وأجرى عليهم جميعا وعلى قَوَمتها وفراشيها الرواتب ، وبنى بجوارها مكتبا لتحفيظ ستين من أيتام المسلمين القرآن الكريم ، وأسند لفقيهين القيام على ذلك مع إجراء الجرايات على الأيتام والكسوة فى الشتاء والصيف . وبنى تجاه المدرسة قبة عظيمة جعل فيها خمسين مقرئا ودرسا للحديث ودرسا للتفسير ومع المدرسين الطلاب وكذلك مع المقرئين . وجعل فيها مكتبة كبيرة تشتمل على شتى أنواع العلوم والآداب ، وجعل لها أمينًا ومساعدين له وفراشين وبوابين . وحاكى الناصر أباه قلاوون فبنى مدرسة للمذاهب[٣] الأربعة سنة ٧٠٣ وجعل بها مكتبة جليلة ورصد لها أوقافا كثيرة . وبالمثل كان كل من يبنى مدرسة يقف عليها ما يحفظ لعلمائها وطلابها نفقاتهم وكثيرا ما كانوا يلحقون بها مساكن لهم

ولم تكن المدارس وحدها ساحات العلم لعهد المماليك ، فقد كان يَشْرَكها الجوامع والمساجد . وفى مقدمتها الجامع الأزهر ، وكانت قد تعطلت فيه الدراسة طوال عهد الأيوبيين كما تعطلت فيه أحيانا صلاة الجمعة إلى أن أعادهما عز الدين الحلى نائب الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥ فصلى فيه الجمعة ورتب فيه مدرسا للفقه الشافعى ومحدِّثا لإملاء الحديث النبوى وسبعة لقراءة الذكر الحكيم ورصد لذلك أوقافا وافرة[٤] . وسرعان ما أخذ الأزهر دوره التاريخى العظيم ، فغدا أكبر جامعة

---

(١) انظر فى هذه المدرسة الخطط ٣ / ٣٤٠ .

(٢) انظر فى هذه المدرسة الخطط ٣ / ٣٤٢ والسلوك للمقريزى (طبعة القاهرة) ١ / ٧١٦ وما بعدها و ١٠٠٠ وما بعدها .

(٣) الخطط ٣ / ٣٤٦ .

(٤) الخطط ٣ / ١٦٠ والسلوك ١ / ٥٥٦ وما بعدها

للدراسات الإسلامية واللغوية . ويشيد المقريزى المتوفى سنة ٨٤٥ بالدراسات فى هذا الجامع أو الجامعة قائلا : « لايزال جامع الأزهر عامرا بتلاوة القرآن ودراسته وتلقينه والاشتغال بأنواع العلوم : الفقه (على المذاهب الأربعة) والحديث والتفسير والنحو ومجالس الوعظ وحَلَق الذكر ، فيجد الإنسان إذا دخل هذا الجامع من الأنس بالله والارتياح وترويح النفس ما لا يجد فى غيره[1] » . واهتم به السلاطين والأمراء وأرباب الأموال ، فرُصدت له أوقاف كثيرة على مر السنين . وزخر جامع ابن طولون بنشاط علمى جم منذ عهد السلطان المنصور لاجين[2] سنة ٦٩٤ فقد رتب فيه دروسا لإلقاء الفقه على المذاهب الأربعة ودرسا للتفسير ودرسا للحديث النبوى ، وألحق به مكتبًا لتحفيظ القرآن الكريم . وبالمثل عُنى بيبرس الجاشنكير بعمارة جامع الحاكم سنة ٧٠٣ ورتب[3] فيه دروسا لإقراء الفقه على المذاهب الأربعة والحديث النبوى والقراءات ، وألحق به خزانة كتب نفيسة .

وهذا النشاط العلمى فى مساجد القاهرة والفسطاط ومدارسها كان يلتقى به نشاط مماثل فى الإسكندرية ومدن مصر الكبرى . وهو نشاط كان يَشرُك علماء مصر فيه كثير من علماء البلاد العربية الأخرى التى أخذت تفسح لهم فى مدارسها ، بل أخذت تضمهم إلى صدرها ، إذ شعرت بقوة أنها حاملة لواء العلم والفكر العربيين وأنه ينبغى أن تعمل بقوة لتحميهما إزاء غارات أعداء الإسلام على صقلية والأندلس وغارات حملة الصليب على الشام وأخيرا غارات التتار على إيران والعراق وديار الشام ، بحيث أصبحت مصر منذ عهد صلاح الدين ملاذ الحضارة العربية وموئل علومها وفكرها وآدابها ، وكأنما انتدبت نفسها لهذه المهمة الخطيرة ، فهى تعنى عناية واسعة بإنشاء المدارس ، وهى تستقبل علماء الأقطار العربية المذكورة وتسند إليهم كثيرا من المناصب العلمية ، وأحيانا المناصب الوزارية ، فقد كان على سبيل المثال لصلاح الدين وزيران : القاضى الفاضل والعماد الأصبهانى ، والأول شامى والثانى عراقى الثقافة أصبهانى المولد . وأيضا فقد نزلها كثيرون من علماء المغرب بسبب اختلال الحكم وضعف الحكومات . ومن يرجع إلى كتاب مثل حسن المحاضرة للسيوطى وما يذكر فيه – على الترتيب الزمنى – من أسماء الأئمة المجتهدين وحفاظ الحديث النبوى وفقهاء الشافعية والمالكية والحنفية والحنابلة وأئمة القراء وعلماء النحو واللغة والتاريخ والصوفية والوعاظ وأصحاب علوم الأوائل من الطب وغيره يخيَّل إليه أنه لم تبق بلدة فى العالم

---

(١) الخطط ٣ / ١٦٣ .

(٢) الخطط ٣ / ١٤٨ وحسن المحاضرة ٢ / ٢٤٩ .

(٣) الخطط ٣ / ١٦٥ ويقول المقريزى إنه رصد له أوقافا كثيرة فى الجيزة والصعيد والإسكندرية .

الإسلامى العربى إلا بعث إلى القاهرة والإسكندرية بشيوخها وبطلاب العلم فى هذه الحقب التى امتدت من الدولة الأيوبية سنة ٥٦٧ إلى نهاية عصر المماليك سنة ٩٢٢ ، بل ظلت من ذلك بقية فى أيام العثمانيين .

ونهضت مصر بدور مهم فى حماية العلوم ، فقد رأت من واجبها أن تعنى بتدوين كل ما خلّفه السلف خوفا من ضياعه ، وخاصة أمهات التراث العربى وأصوله ، وانتهجت لذلك نهجا سديدا فى توثيق روايتها وأخذها عمن حرَّروا صياغتها وضبطوها أدق ضبط ، فهى لا تؤخذ من الصحف المكتوبة مباشرة بل تؤخذ سماعا عن الشيوخ الثقات ويرويها جيل عن جيل بمنتهى الدقة ولا يرويها إلا من شهد له شيخ بأنه جديرٌ بروايتها ، على نحو ما هو معروف فى نظام الإجازات . ووضعتْ مصر لطلاب كل علم متونا ، ووضعت عليها شروحا ، وشرحت الشروح أحيانا ، ونحن لا نقرؤها الآن حتى يروعنا أن علماءها كانوا فى هذه الشروح لا يتركون لعالم سالف منذ القرن الثانى للهجرة حتى زمنهم رأيا إلا دوَّنوه ، وبذلك تستحيل بعض الشروح وحواشيها إلى ما يشبه دوائر معارف فى العلم الذى تتناوله ، إذ تُعْرَض فيها آراء العلماء على اختلاف الأزمنة واختلاف البلدان العربية . وامتازت الحركة العلمية لعهد المماليك بكتابة دوائر معارف كبرى تجمع مواد فنون كثيرة ، من ذلك كتاب نهاية الأرب للنويرى المتوفى سنة ٧٣٣ وهو يتناول علوم الفلك والجغرافية والتاريخ الطبيعى والحيوانات والزواحف والطيور والصيد والنباتات والثمار والأزهار والإنسان وعاداته وطرق الحكم ووظائف الدولة وشئون السياسة وتاريخ الدولة العربية من أقدم الأزمنة حتى زمن النويرى . ويُشبه هذه الدائرة كتاب مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى المتوفى سنة ٧٤٩ وهو فى جغرافية العالم العربى والعلوم الطبيعية والحيوانية والنباتية وتاريخ الدولة العربية وأعلامها فى الشعر والنثر على مر السنين . ومن كتب دوائر المعارف الأدبية كتاب « المستطرف فى كل فن مستظرف » لمحمد بن أحمد الأبشيهى [١] المتوفى سنة ٨٩٨ والكتاب موزع على ٤٨ بابا فى القرآن وفضله والعقل والعلم والأدب والحكم والأمثال والبيان والبلاغة وسياسة الملك والعدل والشرف والجود والبخل والشجاعة والعمل والكسب والحيوانات والحشرات والبحار والأنهار والجبال وعجائب المخلوقات وغير ذلك .

ولعل فى ذلك ما يصور خطأ الأحكام الجائرة التى صُبَّت على مصر وخاصة أيام المماليك . إذ نعت المؤرخون للأدب العربى هذه الحقب المتطاولة بأنها كانت زمن انحطاط وركود فى جميع

(١) انظر فى الأبشيهى الضوء اللامع ٧ / ١٠٩ .

جوانب الحياة العقلية ، وهو ما تنقضه الحقائق السابقة نقضا ، وسيتضح هذا النقض بصورة أدق حين نعرض فى الفصول التالية لوجوه النشاط العلمى ، فسنرى أن مصر لم تشهد حقبا علمية مزدهرة بمقدار ما شهدت فى زمن المماليك . وكان كثير منهم مثقفين مثل الأيوبيين ، وعملوا على إذكاء النهضة العلمية بما أنشأوا من المدارس وما ألحقوا بها وبالمساجد من المكتبات وما رصدوا لها من أوقاف كثيرة تكفل للعلماء والطلاب حياة علمية خصبة .

ويكتب لهذه الحركة العلمية العظيمة أن تتوقف ويصيبها غير قليل من الخمود إذ احتلت جحافل العثمانيين مصر ، وجرَّدها السلطان العثمانى الفاتح سليم من كثير من علمائها وقضاتها وحَشَدهم فى السفن إلى عاصمته إستانبول . وجرد بعض المدارس من أعمدتها ورخامها الملون وكتبها النفيسة ، وما توافى سنة ٩٢٨ حتى تلغى وظائف قضاة المذاهب الأربعة التى كانت قائمة بالقاهرة منذ عهد الظاهر بيبرس ويحل محلهم قاضى العسكر . وكل ذلك عمل على انتكاس الحركة العلمية بمصر ، ومع ذلك ظلت جذوات منها تتقد فى الجامع الأزهر وفى بعض المدارس ، إذ نسمع فى ترجمة هذا العالم أو ذاك أنه كان يدرس فى المدرسة السيوفية الحنفية التى أنشأها صلاح الدين أو فى المدرسة الصالحية التى أنشأها السلطان الصالح نجم الدين أيوب أو فى المدرسة الأقبغاوية التى أنشئت فى عهد الناصر محمد بن قلاوون ، ويذكر الجبرتى مدارس لم يذكرها المقريزى فى خططه مثل المدرسة الغورية التى أنشأها السلطان الغورى ، ومثل المدرسة السنانية[١] ، ويردد ذكر القطبانية والجنبلاطية والأشرفية[٢] ، وأكبر الظن أنها كانت مدارس ناشطة هى الأخرى .

ومع ما أصاب مصر وحركتها العلمية من الفتح العثمانى الذى جثم على صدر البلاد وكان عاملا مهما فى خمود الدراسات العلمية بها ، فإن مصر ظلت ملاذًا للعلماء من جميع الأقطار العربية من الخليج إلى المحيط ، وظلت القاهرة موئلهم جميعا يفدون عليها للتعلم فى الجامع الأزهر والاختلاف أحيانا إلى بعض المدارس ، حتى إذا نضج أحدهم علميا أصبح شيخا يتحلق حوله التلاميذ فى الجامع الأزهر أو فى أحد جوامع القاهرة ومدارسها ، وقد يرجع إلى بلده يعلم فيها ما تلقن على شيوخه فى الأزهر ، وكان قد أصبح منذ عصر المماليك أكبر جامعة إسلامية . ونذكر من مشهوريهم ابن طولون الدمشقى المؤرخ وعبد القادر البغدادى صاحب الموسوعة الأدبية المعروفة

---

(١) تاريخ الجبرتى (طبعة بولاق) ١ / ١٦٢ و ٢٢٠ .

(٢) الجبرتى ١ / ٧٥ ، ٨٦ ، ٢٢٠ .

باسم خزانة الأدب والمقرى التلمسانى أكبر مؤرخى الأندلس ، وبهاء الدين العاملى صاحب الكشكول . وعَرَبتْ مصر بعض الولاة العثمانيين وأحالته مؤلفا أديبًا مثل راغب باشا واليها سنة ١١٦٠ وموسوعة « سفينة الراغب » مشهورة . وقد ألف بالقاهرة الزبيدى اليمنى تاج العروس : شرحه على القاموس المحيط للفيروزابادى . وبذلك ظلت مصر فى العهد العثمانى المظلم حامية للتراث العربى المتبقى بها وراعية لعلماء العالم العربى ، بفضل مصابيح العلم التى كانت تضىء بها خاصة فى الجامع الأزهر . ومازالت شهرته تدوى فى العالم الإسلامى إلى اليوم ، وجعل العثمانيون له رئيسا من كبار علمائه كانوا يسمونه شيخ الأزهر ، ويعدِّد الجبرتى شيوخه منذ سنة ١١٠٠ للهجرة إلى أن ينتهى إلى الشيخ عبد الله الشرقاوى معاصر الحملة الفرنسية .

٢

علوم الأوائل – علم الجغرافيا

(١) علوم الأوائل

مر بنا فى أول هذا الفصل أن مصر أسهمت فى نشأة العلم بمعناه العالمى سواء العلم الهندسى أو الرياضى أو الطبى ، وتشهد لها الأهرامات بما كان فيها من علم هندسى ، وتشهد لعلمها الرياضى[١] برديات رياضية فرعونية مختلفة ، وبالمثل تشهد للعلم الطبى برديات فرعونية تدل على أن الطب والتشريح بمعناهما العلمى العالمى نشآ فى ديارها ورقيا رقيا بعيدا[٢] .

وكان من الممكن أن تستمر مصر فى حركتها العلمية لولا ما دهمها من الغزو الأجنبى ، واستطاعت أن تمصر البطالمة وأن تستعيد – كما أسلفنا – حركتها العلمية وإن اتخذت اليونانية لسانًا لها ، فنهضت بالإسكندرية عاصمتها حينئذ دراسات الهندسة والرياضة والفلك والطب ، أما الهندسة فشاد صرحها إقليدس فى القرن الثالث قبل الميلاد ، مكونا بالإسكندرية مدرسة هندسية كان لها شأن عظيم ، وقد ظلت تُدْرَسُ كتبه فى العربية وفى أوربا حتى القرن الماضى[٣] ، وأما الطب فشهدت الإسكندرية فيه نهضة كبيرة على يد هيروفيلوس وأضرابه ، وقد اشتهر بتشريحه

---

(١) انظر العلم عند العرب لألدوميلى (ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار – نشر الجامعة العربية – دار القلم) ص ٣٣ وما بعدها .

(٢) الدوميلى ص ٣٤ وما بعدها .

(٣) ألدوميلى ص ٤٣ وقصة الحضارة لول ديورانت (نشر جامعة الدول العربية) ٨ / ١٣٧ .

العين ووصفه للشبكية وأعصاب النظر وتشريح المخ وتحديد وظيفة الشرايين وغير ذلك من مباحث طبية[1] . وغزا مصر الرومان ، كما أسلفنا ، وظلت حركتها العلمية والفلسفية فى النمو ، كما ظلت الإسكندرية زعيمة العالم الهيلينى فى العلوم . ومن أكبر علمائها حينئذ بطليموس المولود بالصعيد ، غير أنه بارح مسقط رأسه مبكرًا إلى الإسكندرية ، حيث ظل يرصد الأجرام السماوية حتى منتصف القرن الثانى الميلادى ، ولم يلبث أن سجل معلوماته الفلكية والرياضية والجغرافية فى كتابه « النظام الرياضى للنجوم » وقد سماه العرب « المجَسْطى » أى الأعظم بنفس اللقب الذى وضعه له اليونان . وله كتب أخرى منها موجز جغرافى ، وكان لبحوث المجسطى وغيره تأثير عظيم فى علم الهيئة والفلك والرياضيات عند العرب[2] . ويلقانا هيرون ، وهو أرشميدس صغير كما يقال ، وله رسائل فى الرياضة والطبيعة والميكانيكا ترجمت إلى العربية ، وتاريخه غير معروف فمن العلماء المعاصرين من يرجع به إلى القرن الثانى قبل الميلاد ، ومنهم من يجعله فى القرن الثالث بعد الميلاد[3] . ونفذت مصر فى هذا القرن عند أفلوطين المتوفى سنة ٢٧٠ للميلاد إلى مذهب فلسفى كان تجديدًا لفلسفة أفلاطون ، ولذلك يسمى الأفلاطونية الجديدة . وظل نشاط مصر فى الطب عظيما ، وقد نزلها جالينوس (١٣١ – ٢٠١ م) ولم يكتف بمقامه فيها بالإسكندرية . فقد جاس خلال ديارها حتى وصل جنوبيها والنوبة وبواديها[4] . ومما لاريب فيه أنه انتفع أكبر انتفاع بنهضة علم الطب والتشريح فى مصر . وترك فى الإسكندرية بعده مدرسة عنيت بدراسة كتبه وتلخيصها ، وقد عقد ابن أبى أصيبعة لأعلامها فصلا مستقلا[5] . وظلت الإسكندرية كما كانت طوال عهد البطالمة نحو ستة قرون يُهْرَعُ إليها جميع طلاب الطب من ولايات الإمبراطورية الرومانية ، وكان حَسْبُ الطبيب للدلالة على براعته أن يقال إنه تعلم الطب فى الإسكندرية[6] ومن تعلم الطب بها فى القرن السادس سرجيوس من « رأس عين » بالموصل وإيتيوس من آمد بالموصل أيضا ، ومن أطبائها فى أوائل القرن السابع أهرن القس السريانى الذى أمر

---

(١) قصة الحضارة ٨ / ١٥٦ وماكس مايرهوف فى كتاب التراث اليونانى للدكتور عبد الرحمن بدوى ص ٤٥

(٢) قصة الحضارة ١١ / ١٠٦ وألدوميلى ص ٤٥ وما بعدها .

(٣) ألدوميلى ص ٤٥ ، ٤٧ وقصة الحضارة ١١ / ١٠٨ .

(٤) تاريخ الحكماء (مختصر الزوزنى) للقفطى (طبع ليدن) ص ١٣٢ .

(٥) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة (نشر دار مكتبة الحياة ببيروت) ص ١٥١ و القفطى ص ٧١ .

(٦) ماكس مايرهوف ص ٤٥ وما بعدها وقصة الحضارة ١١ / ١١٠ .

عمر بن عبدالعزيز بنقل كتابه من السريانية إلى العربية . وظل بالإسكندرية نشاط فلسفى بعد أفلوطين يمثله فى القرن السادس للميلاد يحيى النحوى شارح أرسطو والفيلسوف المسيحى يوحنا الأبامى [١] . ومما لا شك فيه أن القبطية شَرِكت اليونانية لزمن الرومان فى الدراسات العلمية والفلسفية ، وانفردت بمباحث فقهية فى الدراسات الدينية . ومرَّ بنا أن السريانية – وكانت منتشرة قبل الفتح العربى بأديرة مصر – دخلتها مع بعض القساوسة والرهبان فى القرنين السادس والسابع للميلاد .

ويُظِلُّ مصر وكل ما كان بها من تراث علمى وفلسفى لواء الإسلام ، ومعروف أن الإسلام لم يحارب فى أى بلد فتحه ما به من علم وفلسفة ، ومرَّ بنا كذب الأسطورة القائلة بأن عمرو بن العاص أحرق مكتبة الإسكندرية ، فقد أحرقها الرومان قبل نزوله مصر بنحو ستة قرون ، وإنما أطلنا فى بيان هذا التراث لندل على أنه ظل طويلا ، أما ما يقال من أن عمر بن عبد العزيز (٩٩ – ١٠١ هـ) نقل نشاط علماء الإسكندرية إلى أنطاكية وحران [٢] فلعله من باب المبالغة ، وكل ما يمكن أن نتصوره أنه ربما انتقل بعض أطبائها وعلمائها من الإسكندرية إلى أنطاكية ليقتربوا من بيزنطة كما يقول ما يرهوف . أما ما ذكره ابن أبى أصيبعة من انتقال التراث اليونانى ومعلميه إلى أنطاكية وحران فيعتوره الشك لسبب بسيط وهو أن المفروض أن ينقل عمر بن عبد العزيز أصحاب التراث اليونانى من الإسكندرية إلى عاصمته دمشق لا إلى أنطاكية . ولعل ابن أبى أصيبعة بالغ فى هذا الرأى . ويشهد لما نقوله ما يذكره ابن النديم من أن خالد بن يزيد بن معاوية المتوفى سنة ٩٢ هـ اهتم بعلم الكيمياء ، أوكما يسميه الصنعة فأحضر إلى دمشق جماعة من فلاسفة اليونان ممن كانوا ينزلون بمصر وتفصحوا بالعربية وأمرهم بنقل الكتب فى الصنعة (الكيمياء) من اللسان اليونانى والقبطى إلى اللسان العربى [٣] . فكان الطبيعى أن يصنع عمر بن عبد العزيز صنيعه فينقل علماء الإسكندرية إلى عاصمته لا إلى أنطاكية وخاصة أنه اهتم فعلا بنقل كتاب أهرون القس الإسكندرى فى الطب وكلف بذلك ما سرجويه البصرى كما هو معروف ، ولو أنه نقل حقا علماء الإسكندرية إلى أنطاكية كما يقول ابن أبى أصيبعة لكلف أحدهم بنقله . وربما كان أكثر من هذا التصور منطقا أن يقال إن كثيرين من علماء

---

(١) انظر مقالة مايرهوف فى كتاب التراث اليونانى ص ٣٧ وما بعدها .

(٢) راجع مقالة مايرهوف السالفة وابن أبى أصيبعة ص ١٧١ .

(٣) الفهرست ص ٣٥٢ .

الإسكندرية اليونانيين بارحوها مع اقتحام عمرو بن العاص لها ، ويغلب أن يكونوا قد حملوا معهم كتبا كثيرة من التراث اليونانى خاصة . ومع ذلك فقد بقى منه ومن علمائه ما أتاح للحركة الإسكندرية العلمية أن تظل مستمرة ، وإن فقدت كثيرا من نشاطها . يدل على ذلك العلماء الإسكندريون المستعربون المذكورون آنفا والذين استدعاهم خالد بن يزيد بن معاوية لترجمة كتب الصنعة ، كما يدل على ذلك ابن أبجر طبيب عمر بن عبد العزيز الذى كان يتولى التدريس بالإسكندرية واستدعاه ولزمه فى خلافته ، ويبدو أنه تعرف عليه حين كان أبوه واليا على مصر (٦٥ – ٨٦ هـ) ويقال إنه أسلم على يده[١] .

ومن المؤكد أن أديرة مصر ظلت منذ العهد الرومانى تحتفظ بكثير من التراث اليونانى وخاصة فى الطب والكيمياء ، كما ظلت الإسكندرية تحتفظ بشهرتها بالطب أجيالا .. يدل على ذلك أن نجد هرون الرشيد (١٧٠ – ١٩٣ هـ) يستدعى منها طبيبا مشهورا لعلاج إحدى جواريه هو بليطيان[٢] بطريرك الإسكندرية . وبالمثل ظلت مصر تحتفظ بشهرتها فى علم الكيمياء ، ويذكر ألدوميلى كتابين فى الكيمياء ألفهما بمصر فى أوائل القرن الثالث الهجرى عالم أو علماء – كما يقول – من القبط[٣] . وممن اشتهر بمعرفة الكيمياء من المصريين ذو النون المتوفى سنة ٢٤٥ واضع أسس التصوف كما مر بنا فى الفصل الماضى .

وتبدأ مصر فى زمن الخليفة المتوكل (١٣٢ – ١٤٧ هـ) باتخاذ المارَسْتانات[٤] ، ومعروف أنها كانت مستشفيات من جهة ومدارس لتعليم الطب من جهة ثانية . وسرعان ما يتولى مصر أحمد بن طولون ، وينشئ مارستانا جديدا أنفق عليه ستين ألف دينار ، وكان به قسم للمجانين وحمامان : حمام للرجال وحمام للنساء ، وكان يركب لزيارته فى كل يوم جمعة وتفقُّد أطبائه وخزائن الدواء فيه[٥] . ويذكر ابن أبى أصيبعة من الأطباء لزمنه إبراهيم بن عيسى والحسن بن زيرك وسعيد بن توفيل النصرانى وطبيب العيون خلف[٦] الطولونى ، وله كتاب النهاية والكفاية فى تركيب العينين وخلقتهما وعلاجهما وأدويتهما ظل يؤلفه فى نحو أربعين عاما من سنة

---

(١) ابن أبى أصيبعة ص ١٧١ وقد خلط بين ابن أبجر الإسكندرى وابن أبجر آخر . انظر مقالة مايرهوف ص ٦٤ وما بعدها .

(٢) ابن أبى أصيبعة ص ٥٤٠ .

(٣) ألدوميلى ص ٢٦٩ .

(٤) خطط المقريزى : مارستان المنافر ٣ / ٣٨٦ .

(٥) الخطط ٣ / ٣٨٦ .

(٦) انظر فى خلف ومن قبله ابن أبى أصيبعة ص ٥٤١ وما بعدها .

٢٦٤ إلى سنة ٣٠٢ . وتظل مصر تعنى بالطب بعد الطولونيين ، وترعاه الدولة الإخشيدية ويلمع اسم الطبيب سعيد بن البطريق بطريرك الإسكندرية المتوفى سنة ٣٢٨ وله فيه مؤلفات[1] مختلفة . ومن الأطباء لعهد الإخشيد نسطاس[2] بن جريج ، وينشئ كافور الإخشيدى مارستانا يرعاه غير طبيب ، ومن الأطباء لعهده عيسى بن البطريق أخو سعيد ، والبالسى وكان طبيبا متميزا فى معرفة الأدوية المفردة ، وله فيها كتاب ألفه لكافور[3]

وفى ذلك كله ما يدل على أن دراسة الطب ظلت ناشطة فى مصر ، وبالمثل ظلت الكيمياء كما أسلفنا ، وأيضا ظلت الرياضيات ، ولعل خير من يصور ذلك أبو كامل شجاع بن أسلم الحاسب المصرى ، عالم زمنه الرياضى ، والمظنون أنه كان يعيش فى أواخر القرن الثالث الهجرى وأوائل الرابع ، واشتهر بأنه نقّح علم الجبر الذى اكتشفه الخوارزمى ويذكر ألدوميلى أن له رسالة فى المضلع ذوى الزوايا الخمس ترجمت إلى الإيطالية والألمانية وكتاب الطرائف فى الحساب وقد ترجم بدوره إلى الألمانية ، ويذكر أيضا أن لكاربينسكى كتابا عن علم الجبر باسم الجبر عند أبى كامل[4] ويقول القفطى إنه صاحب مدرسة وإن له تلاميذ تخرجوا فى علمه ، لعل منهم على بن أحمد العمرانى الموصلى العالم بالحساب والهندسة الذى توفى سنة ٣٤٤ إذ يقول القفطى عنه إنه شرح كتاب الجبر والمقابلة لأبى كامل شجاع بن أسلم الحاسب المصرى ، وله عدة كتب فى التنجيم . على كل حال تدل تصانيف أبى كامل شجاع أنه كان عالما حاذقا فى الرياضيات والهندسة . وكأن مصر ظلت طوال القرون الثلاثة الأولى للهجرة تهتم بهذا الجانب من تراثها العلمى حتى أنتجت فيه أبا كامل شجاعا .

وحقا نهضت بغداد كما مر بنا فى كتابى العصر العباسى الأول والثانى بترجمة التراث اليونانى فى العلوم والفلسفة وأضافت إليه التراث الفارسى والهندى فنقلتهما إلى العربية ، وكل ذلك تحوّل سريعا إلى تراث عربى عام للأمة فى بغداد والقاهرة وغيرهما من بلدان العالم العربى الكبيرة ، وقد بلغ من تمثل بغداد للرياضيات أن ابتكر الخوارزمى علم الجبر ، وبلغ من تمثل القاهرة لما كان بها من مصنفات تتصل بالرياضيات أن تجرد أبو كامل شجاع بن أسلم الرياضى المصرى لتنقيح جبر الخوارزمى . واهتمت البيئات العربية بتنقيحه ، فإذا على بن أحمد العمرانى الموصلى يعنى بشرحه

---

(١) ابن أبى أصيبعة ص ٥٤٥ .

(٢) ابن أبى أصيبعة ص ٥٤٤ .

(٣) ابن أبى أصيبعة ص ٥٤٥ .

(٤) انظر فى شجاع بن أسلم ألدوميلى ٢١١ ، ٢١٦ وبروكلمان ٤ / ١٩٣ والقفطى ٢١١ ، ٢٣٣ .

وتفسيره لهذا التنقيح فى كتاب مستقل نوّه به وبأصله القدماء.

وظل النشاط محتدما فى الرياضيات وعلوم الفلك والتنجيم طوال زمن الفاطميين، ومن المنجمين لعهد المعز وابنه العزيز محمد[1] بن عبد الله العتقى وأبى[2] عبد الله بن القلانسى، ومن أعظم الفلكيين بمصر وعند العرب قاطبة أبو الحسن على بن عبد الرحمن بن أحمد بن يونس الصدفى المصرى، وقد بدأ بعمل زيج كبير أو بعبارة أخرى بعمل لوحات فلكية مفصلة لعهد العزيز وأخذ فى تنقيح زيجه لعهد الحاكم ابنه وقد أقام له مرصداً ضخما كان قسما من دار العلم ويقال إنه أتم زيجه سنة ٣٩٧ وإنه كان يشغل أربع مجلدات ضخام، ويقول ابن خلكان إنه لم ير فى الأزياج على كثرتها أطول[3] منه، وقد سماه الزيج الحاكمى الكبير ولم يلبث أن توفى سنة ٣٩٩.

ونزل مصر لعهد الحاكم أكبر علماء الرياضة والطبيعة العراقيين لزمنه أبو على الحسن بن الهيثم البصرى[4]، وفرح الحاكم بقدومه وخرج للقائه على باب القاهرة. ولما وقف على خبل الحاكم سكن قبّة على باب الجامع الأزهر، ويقال إنه كان يكتب المجسطى فى الفلك والهيئة لبطليموس ومصنفات إقليدس فى الهندسة ويبيعها جميعا بمائة وخمسين دينارا ويبدو أن نبوغه الفلسفى والرياضى والفيزيقى إنما تحقق فى مصر التى اتخذها سكنا له ومقاما لأكثر من ثلاثين عاما، وبها ألف كتابه «المناظر» فى العدسات وانعكاسات الضوء، وقد تُرجم قديما إلى اللاتينية، وله تأثير علمى عالمى بعيد. وعليه تتلمذ كثير من المصريين وأخذوا منه كل ما عنده فى الطبيعيات والرياضيات والفلك والطب والفلسفة. والمظنون أن دار العلم كانت تعنى فيما تعنى بدروس الرياضيات والطبيعيات والفلك والفلسفة، إذ كان الخلفاء الفاطميون يعنون بالعلماء فى كل هذه الجوانب. وظلت هذه العناية متصلة فى عهد الظاهر بن الحاكم وعهد ابنه المستنصر. ومما يدل على النشاط فى الدراسات الفلكية والهندسية والفلسفية مايرويه ابن السَّنْبَدِى من أنه رأى[5] فى خزانة القصر الفاطمى سنة ٤٣٥ لعهد المستنصر من كتب النجوم والهندسة والفلسفة خاصة ستة

---

(١) القفطى ص ٢٨٥.

(٢) القفطى ص ٤١٠.

(٣) انظر فى على بن عبد الرحمن الصدفى ألدوميلى ٢١٣، ٢١٩ وبروكلمان ٤ / ٢٢٤ وابن خلكان ٣ / ٤٢٩ والقفطى ٢٣٠ وتاريخ الفلك عند العرب لنلينو ١٨٦، ٢٨١.

(٤) تقدمت مصادر ابن الهيثم فى الجزء الخامس من تاريخ الأدب العربى، وراجع ابن أبى أصيبعة ص ٥٥٠ وألدوميلى ص ٢٠٦ وما بعدها.

(٥) القفطى ص ٤٤٠.

آلاف وخمسمائة جزء وكرة نحاس من عمل بطليموس الجغرافي وكرة أخرى من فضة من عمل أبي الحسين الصوفي لعضد الدولة البويهي .

ويشتهر من تلاميذ ابن الهيثم رياضي متفلسف هو مبشر[١] بن فاتك ، ويقول القفطي قرأ عليه فضلاء زمانه . ويتكاثر الفلكيون والمنجمون والرياضيون بأخرة من القرن الخامس الهجري لعهد الوزير الأفضل بن بدر الجمالي (٤٨٧ – ٥١٥ هـ) يقول المقريزي : « وكان منجمو الحضرة سنة ٥٠٠ سهلون وابن الحلبي وابن الهيثمي وغيرهم يُطْلَقُ لهم الجاري في كل شهر والرسوم والكسوة لعمل التقويم في كل سنة[٢] » ثم يذكر أنه فكر في عمل مرصد ضخم فنشط في إقامته ، ويذكر المقريزي أنه كان يعمل به من المهندسين أبو جعفر بن حسداي والقاضي ابن أبي العيش والخطيب أبو الحسن علي بن سليمان بن أيوب والشيخ أبو النجا بن سند الساعاتي الإسكندراني المهندس وأبو محمد عبد الكريم الصقلي المهندس إلى غيرهم من الحسّاب الرياضيين والمنجمين. ويعدّد من ذكرناهم أولا ويضيف إليهم ابن دياب والقلعي وأبا نصر تلميذ سهلون . وينزل مصر لعهد الأفضل أمية بن أبي الصلت المتفلسف والأديب الأندلسي ، ويكتب عن مصر وأدبائها وعلمائها رسالة مشهورة باسم الرسالة المصرية ، وممن يذكرهم من الفلكيين المصريين رزق الله النحاس المصري وعلي بن النضر ، وقد ترجم لهما القفطي[٣] ، وذكر من المهندسين المصريين أبا علي المهندس ، وله أيضا ترجمة في القفطي[٤] .

وتموج القاهرة بالأطباء منذ عصر المعز أولَ الخلفاء الفاطميين بمصر ، ومن أطبائه موسى[٥] بن العازار الجراح اليهودي ، ومن أطبائه وأطباء ابنه العزيز أبو عبد الله التميمي المقدسي[٦] وأحمد[٧] بن محمد البلدي وأبو سهل كيسان[٨] بن عثمان وأعين[٩] بن أعين ومنصور[١٠] بن مقشّر . ويخلف العزيز ابنه الحاكم ويتكاثر الأطباء في عهده من مثل إسحق[١١] بن إبراهيم بن نسطاس وماسويه[١٢] وكان طبيبا وصيدلانيا وطبيب العيون أبي القاسم

---

(١) القفطي ص ٢٦٩ وابن أبي أصيبعة ص ٥٦٠ .

(٢) خطط المقريزي في ذكر الرصد ١ / ٢٣٣ وما بعدها .

(٣) القفطي ص ١٨٦ و ٢٣٧ على الترتيب .

(٤) القفطي ص ٤١٠ .

(٥) ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٥ .

(٦) ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٦ والقفطي ص ١٠٥ وبروكلمان ٤ / ٢٩٠ .

(٧) ابن أبي أصيبعة ص ٣٣٢ وبروكلمان ٤ / ٢٩١ .

(٨) القفطي ص ٢٦٧ وانظر ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٨ .

(٩) ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٦ .

(١٠) ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٩ .

(١١) ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٤

(١٢) ألدوميلي ص ٢٤٠ .

عمار[١] بن على وله المنتخب فى علاج أمراض العين . ومن أهم الأطباء حينئذ ابن[٢] رضوان المتوفى سنة ٤٥٣ هـ ، وجعله الحاكم رئيسا على جميع الأطباء ، وظل فى هذه الوظيفة نحو خمسين عاما ، ودوّت شهرته فى العالم العربى مما جعل علماءه يكاتبونه ويرحل بعضهم إليه لمناظرته فى مسائل الطب ، وممن رحل إليه من بغداد طبيبها ابن بُطْلان كما مر بنا فى حديثنا عنه فى الجزء الخامس من هذه السلسلة ، ويقول ابن أبى أصيبعه موازنا بينهما : «كان ابن بطلان أعذب لفظا وأكثر ظرفا وأميز فى الأدب وما يتعلق به ، وكان ابن رضوان أطبَّ وأعلم بالعلوم الحكمية وما يتعلق بها» . وقد تُرْجم شرحه لكتاب جالينوس فى الطب إلى اللاتينية ، ونشر مرارا شرحُه للمقالات الأربع لبطليموس فى علم الهيئة والفلك .

وتنشط صناعة الطب فى مصر بفضل ابن رضوان وتلاميذه ، وأيضا بفضل دار العلم ، فقد كان الطب يدرس فيها ، إذْ يذكر المقريزى فى حديثه عنها أن الحاكم أحضر منها فى سنة ٤٠٣ جماعة من الأطباء وكذلك من أهل المنطق للمناظرة بين يديه[٣] . وقد يكون فى ذلك ما يدل على أن المنطق كان يدرس بها هو وما يتصل به من الفلسفة . ومن الأطباء الذين عاصروا ابن رضوان على[٤] بن سليمان ، وكان فى أيام العزيز والحاكم والظاهر ، وكان متقنا للطب والفلسفة والعلوم الرياضية ، وله فى الفلسفة والطب كتب مختلفة . وممن خلفوا ابن رضوان تلميذه إفرائيم[٥] بن الحسن اليهودى ، وقد حصل من المستنصر وأبنائه على أموال كثيرة ، وكان شغوفا بالكتب الطبية والفلسفية وغيرها ، وكانت لديه منها خزانة كبيرة ، واشتهر بأنه كان عنده دائما نُسَّاخ يكتبون له ما يريد من الكتب ، ويذكر ابن أبى أصيبعة أن تاجرا عراقيا من تجار الكتب اشترى منه عشرة آلاف مجلد ، وهمَّ بحملها إلى العراق ، وبلغ ذلك الأفضل بن بدر الجمالى فى أيام وزارته ، فبعث إليه بالمال الذى اتفق مع العراقى عليه حتى لا تخرج هذه الكتب من مصر . ويقولون إنه حوَّلها إلى مكتبته الخاصة وكانت تشتمل على خمسمائة ألف مجلد . ومن تلاميذ إفرائيم سلامة[٦] بن رحمون الطبيب ، ويقول ابن أبى أصيبعة إنه نصب نفسه لتدريس كتب المنطق والفلسفة الطبيعية والهيئة . ونظل نسمع عن أطباء فى العهد الفاطمى لا فى القاهرة

(١) ابن أبى أصيبعة ص ٥٤٩ وأللدوميلى ص ٥٤٨ وبروكلمان ٤ / ٣٠٣ .

(٢) القفطى ٤٤٣ وابن أبى أصيبعة ٥٦١ وأللدوميلى ص ٢٤١ و ٢٥١ وما بعدها .

(٣) خطط المقريزى ٢ / ٢١٨ .

(٤) ابن أبى أصيبعة ص ٥٥٠ .

(٥) ابن أبى أصيبعة ص ٥٦٧ .

(٦) ابن أبى أصيبعة ص ٥٦٨ والقفطى ص ٢٠٩ .

فحسب ، بل أيضا فى المدن مثل الحسين[1] بن منصور طبيب إسنا بالصعيد المتوفى فى أوائل المائة السادسة . ومن أهم الأطباء بالقاهرة ابن[2] العين زربى وله كتاب الكافى فى الطب بدأ فى تأليفه سنة ٥١٠ وانتهى منه سنة ٥٤٧ قبل وفاته بعام واحد ، ويقول ابن أبى أصيبعة : «كان له تلاميذ عدة يشتغلون عليه» وترجم منهم لطبيب يسمى بلمظفر[3] بن المعرَّف . ولحقت طائفة من تلاميذه العصر الأيوبى .

ولعل فيما قدمنا ما يوضح نشاط الأطباء وأصحاب الرياضيات والطبيعيات والفلك بمصر طوال زمن الفاطميين ، ولم نحاول أن نحيل فى بيان صلة المصريين حينئذ بالفلسفة على الدعوة الإسماعيلية ، كما يصنع بعض الباحثين المعاصرين ، لأن المصريين لم يعتنقوا هذه الدعوة ، وكان دعاتها يلقّنون تلاميذهم الفلسفة فى مراحل الدعوة حتى إذا وصلوا بهم إلى المرحلة التاسعة أحالوهم – كما يقول المقريزى – على ما يقرِّر فى كتب الفلاسفة من علم الطبيعيات وما بعد الطبيعة والعلم الإلهى وغير ذلك من أقسام العلوم الفلسفية . ومن المؤكد أن المصريين لم يقبلوا على هذه الدعوة بدليل أن دعاتها كانوا دائما من المغرب أو من الشام أو من أيران . ويبدو أنه كان للمصريين نشاطهم المستقل فى دراستهم للفلسفة عن طريق دراساتهم للطب وللرياضيات والطبيعيات ، ومن يرجع إلى تراجم من عرضنا لهم فى ابن أبى أصيبعة والقفطى سيجد لهم مصنفات فلسفية متنوعة كثيرة .

وإذا تقدمنا إلى العصر الأيوبى وجدنا مصر تحمل بقوة مسئوليتها فى طرد الصليبيين من ديار الشام ، ومع ذلك تظل الحركة العلمية نامية بها بفضل ما أنشأ فيها صلاح الدين وخلفاؤه الأيوبيون من المدارس . وتظل العناية متصلة بعلوم الأوائل ، يدل على ذلك أنه يلقانا بعض البارعين فى الدراسات الفلسفية مثل السيف الآمدى المتوفى سنة ٦٣١ وأفضل[4] الدين الخونجى المتفلسف المتوفى سنة ٦٤٢ وكان يتقن العلوم الفلسفية والدراسات الإسلامية وله تصانيف فى المنطق والطبيعيات ، ويقول ابن أبى أصيبعة إنه قرأ عليه بعض الكليات من كتاب القانون فى الطب لابن سينا ، وقد ولاه السلطان الصالح نجم الدين أيوب قضاء مصر سنة ٦٣٨ بعد عزل شيخ الإسلام وإمام الأئمة شرقا وغربا – كما يقول السيوطى – عز الدين بن عبد السلام . ولعل

---

(١) حسن المحاضرة ١ / ٥٤٠ والطالع السعيد للادفوى ١٢٠ .

(٢) ابن أبى أصيبعة ص ٥٧٠ .

(٣) ابن أبى أصيبعة ص ٥٧١ .

(٤) ابن أبى أصيبعة ص ٥٨٦ وحسن المحاضرة ١ / ٥٤١ وطبقات الشافعية للسبكى ٨ / ١٠٥ .

فى ذلك ما ينقض كل ما قيل عن الأيوبيين من أنهم وقفوا الدراسات فى علوم الأوائل ولم يشجعوا عليها . فقد قدم السلطان الصالح نجم الدين أيوب أحد علمائها المتعمقين فى مباحثها على جميع فقهاء زمنه الشافعية . ويبرع فى عهد الأيوبيين مهندس رياضى كبير هو قيصر[١] بن أبى القاسم المتوفى سنة ٦٤٩ وهو من أصفون بالصعيد ، كان فقيها حنفيًّا عالما بالقراءات وتعلق بالرياضيات والموسيقى وأنواع الحكمة ، وهو الذى أقام لأمير حماة نواعير نهر العاصى البديعة التى لاتزال تنحدر المياه فيها من علو شاهق إلى اليوم ، مؤلفة بذلك منظرًا بالغ الروعة . وكان فلكيا مبدعا . فأنشأ كرة سماوية عظيمة لاتزال محفوظة إلى الآن فى المتحف الوطنى لمدينة نابولى بإيطاليا .

وكان الأيوبيون يهتمون بالطب والأطباء منذ صلاح الدين ، وقد بدأ هذا الاهتمام باتخاذه مارَسْتانا ضخما فى القاهرة وفيه يقول ابن جبير : « مما شاهدناه بالقاهرة من مفاخر السلطان صلاح الدين المارَسْتان وهو قصر من القصور الرائعة حسنا واتساعا[٢] » ويذكر أنه عين له قَيِّماً وضع لديه خزائن العقاقير . ويقول إنه وُضعت فى مقاصر ذلك القصر أسرَّة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسوة ، وبين يدى القيم خدَمة يتكفَّلون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشيا ويقدمون لهم ما يلزمهم من الأغذية والأدوية ، ويذكر أن بالمارستان قسما خاصا بالمرضى من النساء ومعهنّ من الخدم من يتكفل بحاجاتهن ، وقسما خاصا بالمجانين على مقاصيره شبابيك الحديد . ويقول ابن جبير إن بالفسطاط مارَسْتانا آخر على مثال ذلك الرسم بعينه . وطبيعى أن يحتاج المارستانان إلى كثير من الأطباء . ولابد أن نلاحظ أن المارستان فى القاهرة وبغداد جميعا كان دائما مدرسة للطب كما كان مستشفى . بالضبط شأن القصر العينى بالقاهرة حديثا كما أسلفنا . وأول من يلقانا منهم الشيخ السديد[٣] أبو المنصور عبد الله الذى خدم الخلفاء الفاطميين ثم صلاح الدين وطالت حياته حتى سنة ٥٩٢ وكان رئيسا على سائر المتطببين بمصر حتى وفاته . وعاصرته طائفة من الأطباء اليهود مثل ابن[٤] جميع وكان له مجلس لمن يشتغلون عليه بصناعة الطب ، ومثل الموفق بن شوعة المتوفى سنة ٥٧٩ وأبى البيان بن المدور المتوفى سنة ٥٨٠ وأبى الناقد الكحّال طبيب العيون المتوفى سنة ٥٨٤ وموسى بن ميمون المتوفى سنة ٦٠١ . وتكاثر الأطباء المصريون فى عهد صلاح الدين وبعده

---

(١) انظر فى قيصر حسن المحاضرة ١ / ٥٤٢ والطالع السعيد ص ٢٥٩ وألدوميلى ص ٣٠٥ .

(٢) رحلة ابن جبير ص ٥١ .

(٣) ابن أبى أصيبعة ص ٥٧٢ وحسن المحاضرة ١ / ٥٤٠ .

(٤) انظر فى ابن جميع ومن تلاه من أطباء اليهود ابن أبى أصيبعة ص ٥٧٦ وما بعدها وألدوميلى ص ٣٢٠ ومابعدها وص ٥٦٦ .

مثل أبي[1] البركات بن القضاعي المتوفى سنة ٥٩٨ وجمال[2] الدين ابن أبي الحوافر القيسي وقد ولاه السلطان عثمان بن صلاح الدين رياسة الأطباء بعد الشيخ السديد وظل في هذه الوظيفة حتى عهد الكامل . وكان ابنه فتح[3] الدين أحمد ماهرا في الرمد وطب العيون . ويقول ألدوميلي إنه ألف كتابا يحتوي على ١٥ فصلا في علم الرمد . وتكلم في أحد الفصول عن عملية الكتاراكت . وعاش إلى عصر السلطان الصالح نجم الدين أيوب ، وولي أحيانا رياسة الأطباء . ومن رؤساء الأطباء لعهد الكامل نفيس[4] الدين بن الزبير المتوفى سنة ٦٣٦ ويقول ابن أبي أصيبعة إن أولاده مقيمون في القاهرة ومشهورون بصناعة الكحل ومتميزون في علمها وعملها .

ويستمر ابن أبي أصيبعة في ذكر الأطباء المصريين لعهد الأيوبيين . ويختم تراجمهم بترجمة لابن[5] البيطار المالقي الأندلسي المولد المتوفى سنة ٦٤٦ وقد بارح موطنه في العشرين من عمره وجاب بلاد المغرب دارسا لما فيها من نباتات . وألقى عصاه بمصر فجعله السلطان الكامل رئيسا على جميع العشّابين ، وهو بحق إمام النباتيين لزمنه ، وقد سافر إلى بلاد الروم والإغريق والشام دارسا لأنواع النبات ، وقرأ ماكتبه ديسقوريدس وغيره من النباتيين . وهو بحق يعد أعظم الصيدلانيين قاطبة قبل العصر الحديث . وله كتابان : كتاب الجامع في الأدوية المفردة وبه أكثر من ١٤٠٠ دواء منها ثلاثمائة لم يتناولها صيدلي قبله ، وله في نفس الموضوع كتاب ثان هو المغني في الأدوية المفردة ، وقد قدم الكتابين للسلطان الصالح نجم الدين أيوب . وإذا كانت مصر أتاحت لابن البيطار المالقي الأندلسي بجوِّها العلمي الخصب أن يؤلف فيها كتابيه السالفين في الأدوية فإنها أتاحت لأحمد بن يوسف التيفاشي المغربي المتوفى سنة ٦٥١ أن ينزل بها في أواخر القرن السادس الهجري ، وهو لايزال يافعا صغير السن ويتكوّن فيها علميا . ويعود إلى بلده ، ولا يلبث أن يعود إلى مصر ويتولى بها القضاء ، وقد بدأ مبكرًا بدراسة التاريخ الطبيعي واختار علم المعادن مع عنايته بالصيدلة والطب ، ويؤلف كتابه « أزهار الأفكار في جواهر الأحجار » وفيه يتناول خمسة وعشرين حجرا في خمسة وعشرين فصلا[6] ، ويسوق في كل حجر كالماس والياقوت

---

(١) ابن أبي أصيبعة ص ٥٨٢ .

(٢) نفس المصدر ص ٥٨٤ .

(٣) ابن أبي أصيبعة ص ٥٨٥ وألدوميلي ص ٣٢٢ ، ٣٢٦ .

(٤) ابن أبي أصيبعة ص ٥٨٦ .

(٥) انظر فيه ابن أبي أصيبعة ص ٦٠١ وحسن المحاضرة ١ / ٥٤٢ وألدوميلي ص ٤١٤ وما بعدها

(٦) نشر كتابه « أزهار الأفكار » في القاهرة الدكتوران محمد يوسف ومحمود بسيوني خفاجي بالهيئة المصرية العامة للكتاب ، وراجع فيه مقدمتهما وما بها من مراجع .

مثلا ما ذكره جالينوس أو غيره من فلاسفة الإغريق ، ويتحدث عن معدنه وتكونه وخواصه ومنافعه ، مما قد يدخل فى المعارف الطبية ، ويتصل بهذه المعارف كتابه « المنقذ من التهلكة فى دفع مضار السمائم المهلكة » . ويلقانا فى عهد السلطان الكامل المنصور[1] بن بعرة الذهبى الكاملى وكتابه « كشف الأسرار العملية لضرب النقود المصرية » وفيه يتحدث عن إعداد المعادن وتصفيتها وطرق استعمالها فى سك النقود ، ويتناول دار سَكّ النقود وواجبات مَنْ بها من الموظفين .

وتظل لمصر قيادتها العلمية فى زمن المماليك ، ويظل ينزلها العلماء من الشرق والغرب ، وتظل تعنى بالفلسفة[2] ، ويذكر السيوطى حشدا[3] من متفلسفتها وعلماء المعقولات بها مثل شمس الدين محمد بن حمود الأصبهانى المتوفى سنة ٦٨٨ وتلميذه تاج الدين البارنبارى المتوفى سنة ٧١١ وشمس الدين أبى الثناء محمود بن عبد الرحمن الأصبهانى المتوفى سنة ٧٤٩ وعلاء الدين على بن أحمد المدرس بمدرسة برقوق المتوفى سنة ٧٩٠ وابن جماعة عز الدين محمد بن شرف المتوفى سنة ٨١٩ والكافِيَجِى محيى الدين محمد بن سليمان المتوفى سنة ٨٧٩ .

وظل كثير من المصريين يشتغلون بالطبيعيات والرياضيات ، وممن اهتم بالتاريخ الطبيعى بيلك القبجقى الذى صنف حوالى سنة ٦٨٠ كتابه « كنز التجار فى معرفة الأحجار » ويقول ألدوميلى : « لهذا الكتاب أهمية خاصة إذ نجد فيه توضيحا لاستعمال البوصلة عند الملاحين وطرق استعمالها[4] » . ويظن أن معرفة المصريين والعرب بها ترجع إلى تاريخ أقدم من ذلك ، ربما إلى القرن السادس الهجرى المقابل للثانى عشر الميلادى ، بل ربما إلى النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى المقابل للقرن الخامس الهجرى . والمهم أن مصر هى التى سجلت اكتشافها عند عالمها بيلك . وأكبر الظن أنها هى التى أعدَّت لصنعها ، وصَنَعْتها بفضل اشتغالها بالملاحة فى البحرين المتوسط والأحمر من قديم . وكان ملاحوها فى عصر المماليك يغدون ويروحون فى البحرين للتجارة والغزو أحيانا على نحو ما هو معروف عن تجارتهم مع موانى إيطاليا وغزوهم لقبرص وطردهم للبرتغاليين من شواطئ اليمن بأخرة من أيام المماليك . على كل حال يرمز اكتشاف

---

(١) انظر فيه ألدوميلى ص ٣٠٨ ، ٣١٠ .

(٢) راجع البحر المحيط لأبى حيان ٥ / ١٤٨ - ١٥٠ فى تفسير سورة يونس آية ٢٧ .

(٣) انظر حسن المحاضرة للسيوطى ١ / ٥٣٩ ومابعدها .

(٤) الدوميلى ص ٣١٤ ومابعدها .

مصر للبوصلة إلى نشاط المعارف العلمية فيها طبيعية ورياضية . ويلقانا بها محمد[1] بن موسى الدميرى المتوفى سنة ٨٠٨ وموسوعته فى علم الحيوان التى سماها « حياة الحيوان الكبرى » معجم للحيوان مرتب أبجديا حسب أسمائه وأنواعه ، ومع كل حيوان خصائصه العلمية والطبية وطُرَفٌ من الحديث النبوى والأمثال والأشعار وتراجم لبعض العلماء والفلاسفة والأدباء والشعراء ، وهو مطبوع فى مجلدين ومترجم إلى الإنجليزية .

وارتقى حينئذ فنُّ المعمار وما يتبعه من الهندسة رقيا بعيدا ، لكثرة الأبنية التى شادها سلاطين المماليك منذ الظاهر بيبرس ، وفى مبانيه يقول ابن تَغْرى بردى : « بُنِى فى أيامه بالديار المصرية ما لم يُبْنَ فى أيام الخلفاء المصريين (الفاطميين) ولا ملوك بنى أيوب من الأبنية والرِّباع والخانات والقواسير والدور والمساجد والحمامات[2] » . وتوالى السلاطين بعده وخاصة قلاوون يكثرون من الأبنية الرائعة ، وكل ذلك كان يقوم عليه مهندسون مصريون بارعون مما لانزال نرى آثاره فى مساجدهم الباقية . وينوِّه السخاوى بمهندس مصرى بارع لعهد السلطان برقوق (٧٨٤ - ٨٠١ هـ) هو شمس الدين الطولونى ، ويقول : « كان المعوَّل عليه وعلى أبيه فى العمائر السلطانية »[3] . وظل العلماء المصريون يعنون بالرياضيات والفلك ، ويشتهر منهم رياضى كبير هو شهاب الدين أحمد بن محمد بن الهائم[4] الفرضى من علماء القرن التاسع الهجرى . وله كتب كثيرة فى الحساب والجبر ذكر مخطوطاتها بروكلمان ، منها فى الحساب مرشد الطالب إلى أسنى المطالب ، كان واسع الانتشار . وفى دار الكتب المصرية بعض شروح له وبعض مخطوطات مختلفة من كتب ابن الهائم الرياضية .

وظل لمصر نشاطها زمن المماليك فى دراسة الطب والتأليف فيه ، وكان مارستان القاهرة الذى أنشأه صلاح الدين يُعَدّ أكبر معهد لتدريس الطب ، وقد تَخرَّج فيه كثيرون مثل ابن أبى أصيبعة[5] المتوفى سنة ٦٦٨ صاحب كتاب طبقات الأطباء ، وهو كتاب نفيس إذ يشتمل

---

(١) راجع فى الدميرى حسن المحاضرة ١ / ٤٣٩ والضوء اللامع .. رقم ٢٠٤ وشذرات الذهب ٧ / ٧٩ والبدر الطالع ٢ / ٢٧٢ وألدوميلى ص ٥٠٧ ودائرة المعارف الإسلامية .

(٢) النجوم الزاهرة ٧ / ١٩٦ .

(٣) الضوء اللامع ١ / ٢٢١ .

(٤) انظر ابن الهائم فى الشذرات ٧ / ١٠٩ والضوء اللامع ٢ رقم ٤٤٩ وألدوميلى ٥٠٦ ، ٥١٣ وبروكلمان (الطبعة الألمانية) ٢ / ١٢٥ .

(٥) راجع ابن أبى أصيبعة فى النجوم الزاهرة ٧ / ٢٢٩ والشذرات ٥ / ٣٢٧ وأيضا ألدوميلى (انظر الفهرس) ودائرة المعارف الإسلامية .

على ترجمة نحو أربعمائة طبيب عربى ، ويمكن أن نضم إليه الأطباء الذين كانوا مُلْتَفِّين بالظاهر بيبرس مثل شهاب[١] الدين بن فتح الدين القيسى ورشيد[٢] الدين أبى حليقة النصرانى .
وما يلبث أن يلى السلطنة بعد بيبرس المنصور قلاوون (٦٧٨ - ٦٨٩ هـ) فينشئ بيمارستانا ضخما يقول فيه ابن تغرى بردى : « وهذا البيمارستان وأوقافه وما شرطه قلاوون فيه لم يسبقه إلى ذلك أحد قديما ولا حديثا شرقا ولا غربا[٣] » وقد جعله أقساما كبيرة : قسما للمرضى بالحميات ، وقسما للرمد ومرضاه ، وقسما للجرحى ، وقسما لمن به إسهال ، وجعل فيه قسما للنساء ، وأمكنة للأدوية وتركيبها ، وأمكنة لإعداد الطعام وأخرى للمحاصيل ، وجعل فيه فراشين لخدمة الرجال وفراشات لخدمة النساء ونصب فيه الأسرَّة للمرضى وأمدَّها بكل ما تحتاج إليه من فُرش . وأهم من ذلك كله أنه جعل فيه قاعة لرئيس أطبائه ، كى يلقى فيها دروسه على طلاب الطب[٤] . وبذلك كان المارستان مستشفى وكلية طب معا ، وقد شاهده ابن بطوطة بعد وفاة قلاوون بنحو أربعين عاما سنة ٧٢٧ للهجرة فقال : « أما المارستان عند قبر قلاوون فيعجز الواصف عن محاسنه ، وقد أُعِدَّ فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر » . ويُذْكَرُ أن مَجْباه (نفقاته) كان ألف دينار كل يوم[٥] » .

وتلقانا فى عهد قلاوون بجانب كلية الطب التى كانت ملحقة بمارستانه كما ذكرنا مدرسة للطب سميت المدرسة[٦] المهذَّبية نسبة إلى منشئها الطبيب مهذب الدين محمد بن أبى حليقة المار ذكره فى عهد بيبرس ، وكان قد خدمه مع أبيه وأسلم فى أيامه وسمى محمدا ، ويقول ابن أبى أصيبعة : مولده سنة ٦٢٠ وإنه قرأ على أبيه الصناعة الطبية وصور أقسامها الكلية والجزئية وحصل معانيها العلمية والعملية[٧] » .. وبلغ من ازدهار دراسة الطب حينئذ أنه كان يدرس فى المساجد الجامعة ، إذ نجد السلطان لاجين (٦٩٦ - ٦٩٧ هـ) يعمر جامع ابن طولون ، ويرتب فيه دروسا - كما مر بنا - للفقه على المذاهب الأربعة ودرسا للحديث النبوى ، وبجانب ذلك يرتِّب فيه درسا للطب[٨] ، وممن درَّسوا فيه بعد زمنه فى القرن الثامن الطبيب شمس[٩] الدين محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن المصرى المتوفى سنة ٧٧٦ .

---

(١) ابن أبى أصيبعة ص ٥٨٥ .
(٢) ابن أبى أصيبعة ص ٥٩٠ .
(٣) النجوم الزاهرة ٧ / ٣٢٧ .
(٤) راجع فى هذا المارستان خطط المقريزى ٣ / ٣٨٦ وما بعدها .
(٥) رحلة ابن بطوطة (طبع المطبعة الأزهرية) ١ / ٢٠ .
(٦) خطط المقريزى ٣ / ٣٧١ .
(٧) ابن أبى أصيبعة ص ٥٩٨ .
(٨) خطط المقريزى ٣ /١٤٨ .
(٩) حسن المحاضرة ١ /٥٤٦ .

ويكفى لبيان ازدهار دراسة الطب حينئذ أن تنتج مصر شيخ الأطباء لزمنه علاء الدين على بن أبى الحزم المعروف باسم ابن النفيس[١] العلامة فى فنه الذى لم يكن فى زمنه من يضاهيه فى الطب والعلاج والعلم ، كما يقول ابن تغرى بردى ، ويكفيه فخرًا ما ذكره ألدوميلى وغيره من الغربيين من أنه اكتشف لأول مرة الدورة الدموية الثانية ، مسجلا بذلك كشفا طبيا خطيرا لم يستطع الأطباء منذ جالينوس إلى زمنه اكتشافه . ومن كتبه « الشامل فى الطب » و« المهذب فى الكحل » وشرح القانون فى الطب لابن سينا . وقد توفى سنة ٦٨٧ بعد أن أوقف داره وأملاكه وجميع ما يتعلق به على مارستان قلاوون الذى كان يعمل به رئيسا لأطبائه . وولى رياسة الأطباء بعده مهذب الدين بن أبى حليقة المار ذكره ، ويسرد السيوطى فى حسن[٢] المحاضرة أسماء طائفة من الأطباء فى القرن الثامن الهجرى . ومن الأطباء الذين لم يذكرهم محمد[٣] بن الأكفانى المتوفى سنة ٧٤٨ ويبدو أن تخصصه الأكبر كان فى طب العيون ، ومن مصنفاته فى الرمد «كشف الغين فى أحوال العين » وله كتاب فى الطب المنزلى سماه « غنية اللبيب » وكتاب فى الفصد سماه « نهاية القصد » وكتاب فى الأحجار النفيسة سماه « نخب الذخائر » ومن كتبه : « إرشاد القاصد إلى أقصى المقاصد » وهو مختصر جامع لفنون شتى تبلغ ستين فنا نشره شبرنجر فى المكتبة الهندية . واشتهر بعده فى طب العيون صدقة[٤] بن إبراهيم الشاذلى ، ويغلب أن يكون تلميذه إذ هو من أطباء النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى المقابل للقرن الرابع عشر الميلادى . ومما يدل على شهرة مصر لأيام المماليك فى الطب والأطباء ما يذكره ابن إياس فى كتابه بدائع الزهور من أن السلطان بايزيد العثمانى أرسل فى سنة ٧٩٥ رسولا إلى السلطان برقوق يسأله أن يبعث إليه بطبيب مختص بأمراض المفاصل فأرسل إليه رئيس الأطباء ابن صغير ومعه أدوية كثيرة لعلاجه[٥] . ويظل هذا النشاط الطبى فى مصر حتى نهاية زمن المماليك إذ نلتقى فى زمن قانصوه الغورى (٩٠٦ – ٩٢١ هـ) بالطبيب محمد القوصى ، وإليه قدَّم كتابه «كمال الفرحة فى دفع السموم وحفظ الصحة » ومنه مخطوطة بدار الكتب المصرية .

---

(١) انظر فى ابن النفيس النجوم الزاهرة ٧ / ٣٧٧ والسبكى ٨ / ٣٠٥ وحسن المحاضرة ١ /٥٤٢ والشذرات ٥ / ٤٠١ وتاريخ ابن الوردى ٢ / ٢٣٤ وروضات الجنات ٤٩٤ والدارس فى أخبار المدارس ٢ /١٣١ وألدوميلى ص ٣٢٣ ، ٣٢٦ وكتاب بول غليونجى عنه .

(٢) حسن المحاضرة ١ /٥٤٣ وما بعدها .

(٣) البدر الطالع للشوكانى ٢ / ٧٩ .وانظر ألدوميلى ص ٥٠٥ ، ٥١٠ .

(٤) ألدوميلى ص ٥١٠ .

(٥) راجع بدائع الزهور فى السنة المذكورة .

ومعروف أن عناية العرب بالبيطرة ومداواة الخيل قديمة ، وكان طبيعيا والطب ينشط فى مصر النشاط السالف فى أيام المماليك أن يُعْنَى بعض أطبائها بالطب البيطرى ، ومن خير ما أُلِّف فيه كتاب لطبيب بيطرى كان المشرف على خَيْل السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، هو أبو بكر[1] بن المنذر بن بدر المتوفى سنة ٧٤١ واسم الكتاب «كامل الصناعتين : الزردقة والبيطرة» والزردقة دراسة الخيل والبيطرة : علم أمراض الخيل وأدويتها وقد ترجم الكتاب إلى الفرنسية الدكتور بيرّون ، وترجمه إلى الألمانية حديثًا فرونر . ولأيدمر[2] الجلدكى المتوفى سنة ٧٤٣ (وقيل بل سنة ٧٦٣) كتبٌ فى المعادن منها ، المصباح فى علم المفتاح وهو مطبوع فى بومباى ، وكتاب نتائج الفِكَر فى أحوال الحجر وهو مطبوع فى القاهرة .

وتكاد تتوقف هذه الحركة العلمية الدائبة فى زمن العثمانيين . ولكن تظل منها بقايا غير قليلة فى الجامع الأزهر وفى بعض المدارس . وتظل مصر ترعى العلوم الإسلامية واللغوية وبعض ما تبقى فيها من علوم الأوائل ، ومَنْ يرجع إلى كتاب الكواكب السائرة فى علماء المائة العاشرة لنجم الدين الغزى المتوفى سنة ١٠١٦ وكتاب خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر للمحبى المتوفى سنة ١١١١ سيجد فيهما كثيرين يعنون بالرياضيات والفلك مثل عبد القادر المتوفى الفلكى بالمدرسة الغورية المتوفى سنة ٩٨٠ ومصطفى بن شمس الدين الدمياطى المتوفى سنة ١٠٣٨ وعبد الله المقدسى الأزهرى المتوفى سنة ١٠٧٠ . ويسوق الجبرتى فى تاريخه تفاصيل كثيرة عن الرياضيين والفلكيين فى القرن الثانى عشر الهجرى ويذكر فى طليعتهم رضوان[3] الفلكى المتوفى سنة ١١٢٢ صاحب الزيج الرضوانى ، ويقول الجبرتى إنه حرره على أصول الرصد السمرقندى وزيجه المشهور الذى صنعه أوليغ بك سنة ٨٤٠هـ/١٤٣٧م . وينوّه الجبرتى بأن أباه كان يملك نسخة من هذا الزيج النفيس ، وكذلك كان يملك نسخة منه حسن[4] أفندى قطة . فكان بالقاهرة منه نسختان غير النسخة التى كان يملكها – فيما نظن – رضوان الفلكى . ويشيد الجبرتى بأبيه فى الرياضيات والفلك ، وبتلميذ من تلاميذ رضوان هو جمال الدين يوسف[5] الكلارجى المتوفى سنة ١١٥٣ ويقول إنه اخترع ما لم يسبق به ، ويذكر أنه ألف كتابا فى الظلال ورسم المنحرفات والبسائط والمزاول والأسطحة ، وأن له فى منازل القمر كتابا أسماه «كنز الدرر فى أحوال منازل القمر» .

---

(١) ألدوميلى ص ٥٠٥ .

(٢) ألدوميلى ص ٥٠٦ ، ٥١٣ .

(٣) تاريخ الجبرتى (طبعة بولاق) ٧٤/١ .

(٤) الجبرتى ٧٠/٢ .

(٥) الجبرتى ١٦٤/١ .

وينوه طويلا بحسين[١] المحلى المتوفى سنة ١١٧٠ هـ ومعارفه فى الجبر والمقابلة والحساب ومصنفاته ، كما ينوه بتلميذه محمد[٢] بن موسى الجناجى المتوفى سنة ١٢٠٠ هـ/١٧٨٦م ومؤلفاته فى الرياضيات . ويذكر الجبرتى فى القرن المذكور أسماء رياضيين آخرين مما يدل على أن مصر ظلت تعنى بالرياضيات والهيئة والفلك طوال أيام العثمانيين . ويبدو أن الجبرتى وغيره ممن ترجموا لعلماء القرنين السابقين لتاريخه العاشر والحادى عشر لم يعنوا بالترجمة للأطباء . إلا ما قد يذكرونه عفوا مثل شهاب الدين بن سلامة[٣] القليوبى المتوفى سنة ١٠٥٩ هـ وله عدة كتب طبية كانت رائجة فى زمنه ، وأهم من هذه الكتب وكان أكثر منها رواجا كتاب التذكرة الطبية للأنطاكى[٤] داود بن عمر المتوفى سنة ١٠٠٨. ومن يقرأ الجبرتى وتراجمه فى القرن الثانى عشر الهجرى يراه يذكر طبيبا يسمى قاسم[٥] بن محمد المتوفى سنة ١١٩٣ وكأن عناية مصر بالطب ظلت إلى أواخر العهد العثمانى ، وليس ذلك فحسب ، فإن الجبرتى يذكر أنه عُهد إليه تدريس الطب بالمارستان المنصورى ، ومعنى ذلك أن مارستان المنصور قلاوون الذى مر بنا ذكره وإشادة ابن بطوطة وغيره به ظل قائما طوال أيام العثمانيين ، وظل قائما معه تدريس الطب لطلابه فيه ، بالضبط كما كان الشأن أيام المنصور قلاوون ومن تلاه من المماليك .

(ب) علم الجغرافيا

ولم نتحدث حتى الآن عن علم الجغرافيا ونشاط مصر فيه والمصريين . ولعل أول ما يلقانا من ذلك ما نقرؤه فى القسم الثالث من كتاب فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ للهجرة وفيه يتحدث عن خطط الفسطاط والجيزة والإسكندرية . ولمعاصره محمد بن يوسف الكندى المتوفى سنة ٢٥٠ كتاب بعنوان الخطط[٦] سقط من يد الزمن . ونزل مصر واستقرّ بها فى سنة ٣٣٤ المسعودى على بن الحسين المتوفى سنة ٣٤٥ ويشتهر بكتاباته التاريخية وحشده فيها كثيرا من المعارف الجغرافية عن الأرض وجبالها وأغوارها وبحارها وأنهارها وسكانها وأحوالهم

---

(١) الجبرتى ١ / ٢١٩ .
(٢) الجبرتى ٢ / ١٢٥ .
(٣) خلاصة الأثر ١ / ١٧٥ .
(٤) انظر مصادر ترجمة داود الأنطاكى فى قسم الشام ص ٥٦٠
(٥) الجبرتى ٢ / ٥٤ .
(٦) تاريخ الأدب الجغرافى لكراتشكوفسكى ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم (نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١ / ١٦٨ .

الاجتماعية . وفى مصر أو بعبارة أدق فى الفسطاط نقّح كتابه « مروج الذهب » سنة ٣٣٦ وهو فى التاريخ العام للأمم والدول وبه معلومات جغرافية كثيرة . وفى الفسطاط ألف كتابه « التنبيه والإشراف » وهو مليء بالمعارف الجغرافية الفلكية والطبيعية والوصفية ، وبه معلومات قيمة عن مصر وما بها من محصولات وتجارات وصناعات . وتدخل مصر فى العهد الفاطمى وسرعان ما ترسل الدولة الفاطمية بابن سليم[١] الأسوانى فى سنة ٣٦٥ إلى النوبة فى مهمة دبلوماسية ويتغلغل فى السودان ويؤلف كتابه « أخبار النوبة والمُقُرَّة وعَلْوة والبَجَّة والنيل » يصف فيه تلك البلاد وسكانها ، وينقل عنه المقريزى وابن إياس مرارا . وهو أول كتاب يصور المجرى الأعلى للنيل . ويكتب عن السودان بعده بفترة قليلة رحالة مصرى هو الحسن المهلبى فى كتابه « المسالك والممالك » الذى أهداه إلى العزيز الفاطمى سنة ٣٧٥ ولذلك قد يسمى بالعزيزى وهو — كما يقول آدم ميتز — يصف بلاد السودان وصفا دقيقا . وهو أكبر مصدر اعتمد عليه ياقوت فى كلامه عن السودان[٢] .

وتعود مصر فى القرن التالى إلى الكتابة عن الخطط أو تخطيط المدن ويؤلف القضاعى[٣] كتابه خطط مصر . ويخلفه فى القرن السادس الهجرى جغرافى مصرى كبير هو أبو الفتح نصر[٤] بن عبد الرحمن الإسكندرانى المتوفى سنة ٥٦١ ويشيد ياقوت فى مقدمته لمعجم البلدان بكتاب جغرافىّ له سماه « ما ائتلف واختلف من أسماء البقاع » وله كتاب ثان أهم منه ألفه توضيحا له سماه « كتاب الأمكنة والمياه والجبال والآثار المذكورة فى الأخبار والأشعار » ومنه نسخة محفوظة فى مكتبة المتحف البريطانى تضم ٢٩٣٨ اسما ولاحظ وستنفلد ناشر معجم البلدان أن ياقوت ضمن معجمه مادة هذا الكتاب[٥] . وينزل مصر فى أواخر القرن السادس الهجرى عبد[٦] اللطيف البغدادى ويُعْنى بتأليف كتيِّب عنها يسميه : « الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » . والكتيب موزع على مقالتين تحدث مؤلفه فى أولاهما عن طبيعة مصر وسكانها ونباتها وحيوانها وآثارها وعمرانها ، وفى الثانية تحدث عن النيل وعما أصاب مصر فى مقامه بها من قحط ووباء مروِّعين .

---

(١) كراتشكوفسكى ١ / ١٩٢ وبروكلمان ٤ / ٢٥٣ .

(٢) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى لآدم ميتز ترجمة د. أبى ريدة ٢ / ٧ - ٨ .

(٣) كراتشكوفسكى ١ / ١٦٩ وابن خلكان ٤ / ٢١٢ .

(٤) انظر مقدمة كتاب معجم البلدان وخريدة القصر للعماد الأصبهانى (قسم مصر) ٢ / ٢٢٥ وبغية الوعاة للسيوطى ص ٤٠٣ وكراتشكوفسكى ١ / ٣٢٢ .

(٥) انظر كراتشكوفسكى ١ / ٣٢٣ ومقدمة وستنفلد للجزء الخامس من معجم البلدان .

(٦) ابن أبى أصيبعة ٦٨٣ وكراتشكوفسكى ١/ ٣٤٥

ولا يلقانا بمصر جغرافيون مهمون فى القرن السابع الهجرى ويتكاثرون فى القرن الثامن ، وفيه نلتقى بابن[1] المتوج محمد بن عبد الوهاب الزبيرى المتوفى سنة ٧٣٠ وكتاب له عن خطط مصر إلى أعوام بضع وعشرين وسبعمائة . وكان فى زمنه النويرى[2] شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب المتوفى سنة ٧٣٣ صاحب الموسوعة الكبرى : « نهاية الأرب » التى مرَّ ذكرها فى الحركة العلمية والتى أهداها إلى السلطان محمد الناصر بن قلاوون ، وهى مقسمة إلى خمسة فنون ، والفن الأول عن السماء والأرض ، وهو مكتظ بالمعلومات الجغرافية عن الأرض وتكوينها الطبيعى وبلدانها وسكانها . وكان يعاصره ابن فضل[3] الله العمرى المتوفى سنة ٧٤٩ رئيس ديوان الإنشاء للسلطان الناصر وله أيضا موسوعة كبرى مر ذكرها فى الحركة العلمية سماها « مسالك الأبصار » وفيها عرض جغرافى عام للبلدان والأمم الإسلامية والأجنبية فى الغرب والشرق . وتهتم الدولة فى هذا القرن الثامن بعمل روكات أو بعبارة أخرى بعمل سجلات لمسح الأراضى المصرية ، ومن أهمها الروك[4] الناصرى سنة ٧١٥ فى عهد السلطان الناصر بن قلاوون . ويظل النشاط الجغرافى بمصر فى القرن التاسع الهجرى ، ونلتقى فى أوائله بابن دقماق[5] والى دمياط وبعض بلدان الشام المتوفى سنة ٨٠٩ وهو يعنى بخطط مصر فى كتابه « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » وتحتفظ دار الكتب المصرية منه بالجزءين الرابع والخامس وفيهما يصور خطط القاهرة والإسكندرية . ويعنى معاصره القلقشندى[6] شهاب الدين أبو العباس أحمد بن على الكاتب بديوان الإنشاء المتوفى عام ٨٢١ بوصف جغرافى متفرق لمصر والبلاد العربية وبلاد التتار والهند والسودان والحبشة وبعض البلدان الأوربية الغربية والشرقية .

ولا نلبث أن نلتقى بالمقريزى[7] تقى الدين بن علاء الدين المتوفى سنة ٨٤٥ وكتابه « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » المشهور باسم الخطط موسوعة كبرى لمصر وجغرافيتها وخططها

---

(١) الدرر الكامنة لابن حجر (نشر دار الكتب الحديثة) ٤ / ١٥٥ وحسن المحاضرة للسيوطى ١ / ٥٥٥ وكراتشكوفسكى ١ / ٣٨٥ .

(٢) ابن حجر ١ / ٢٠٩ والسيوطى ١ / ٥٥٦ والخطط الجديدة لعلى مبارك ١٧ / ١٥ وكراتشكوفسكى ١ / ٤٠٨ .

(٣) انظر مراجع ابن فضل الله فى ترجمته بالفصل الخامس .

(٤) كراتشكوفسكى ١ / ٣٨٥ .

(٥) الشذرات ٧ / ٨٠ وكراتشكوفسكى ٢ / ٤٧١ ودائرة المعارف الإسلامية .

(٦) انظر مراجع القلقشندى فى ترجمته بالفصل الخامس .

(٧) الضوء اللامع للسخاوى جـ ٢ رقم ٦٦ والمنهل الصافى لابن تغرى بردى (طبع دار الكتب المصرية) ١ / ٣٩٤ والسيوطى ١ / ٥٥٧ والشوكانى ١ / ٧٩ والمؤرخون فى مصر لزيادة ص ٣ .

وتاريخها وحضارتها وآثارها ومساجدها وكنائسها وأديرتها ومنشآتها وأعيادها وأحوالها الاجتماعية . ويعنى خليل[1] بن شاهين الظاهرى المتوفَّى سنة ٨٧٢ فى كتابه « زبدة الممالك فى كشف الطرق والمسالك » برسم الجغرافية الإدارية لأراضى دولة المماليك فى مصر والشام . ويختم القرن التاسع الهجرى بابن الجيعان[2] المتوفى سنة ٩٠٢ وله « التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية » ووصف لرحلة السلطان قايتباى فى سنة ٨٨٣ إلى بلاد الشام سماه « القول المستطرف فى سفر مولانا الأشرف » . وينتهى الجغرافيون فى العهد المملوكى بابن[3] إياس محمد بن أحمد المتوفى سنة ٩٣٠ وله كتاب « نشق الأزهار فى عجائب الأقطار » ولايزال غير مطبوع ، وفيه يتحدث عن الجغرافية الفلكية والطبيعية لمصر والعالم ، ومن أهم ما يشتمل عليه ثبت بمقاييس النيل وفيضانه على مر السنين .

ويكاد يتوقف هذا النشاط الجغرافى بمصر فى عهد العثمانيين ، إذ تحولت ولاية تابعة لهم ، ولم يعد أبناؤها يشعرون بمكانتهم التى كانت لهم زمن المماليك ، إذكان يدين جزء كبير لهم من البلاد العربية بالطاعة وفى مقدمته الشام والحجاز . ومع ذلك لا ينعدم هذا النشاط ، بل تظل منه بقايا إذ نجد ابن[4] زنبل المتوفى سنة ٩٦٠ يصنف فى الجغرافيا كتابا أسماه « تحفة الملوك والرغائب لما فى البر والبحر من العجائب » ولا يزال مخطوطا لم ينشر . ونلتقى فى القرن الحادى عشر بالسنهورى[5] محمد بن أحمد وله كتاب فى منازل البريد بين القاهرة ومكة . وكان يعاصره شهاب الدين القليوبى المار ذكره بين أطباء الحقبة العثمانية وله كتاب جغرافى فى مناسك الحج ومنازله ورسالة فى معرفة أسماء البلاد : أطوالها وانحرافاتها ، وتبدو الرسالة كأنها زيج صغير ، وهى بذلك تدخل فى الجغرافية الفلكية ، كما يدخل النشاط فى الفلك والهيئة الذى عرضنا له مع الرياضيات عند الفلكى والرياضى الكبير رضوان وأمثاله من الفلكيين . وبذلك ظلت الجغرافية الفلكية ناشطة وخاصة فيما يتصل بالزيجات ، ونشطت معها كتب الرحلات ، ومن أهمها رحلة لمصطفى[6] أسعد اللقيمى الدمياطى المتوفى سنة ١١٧٣ جعل عنوانها : « موانح الأنس برحلتى لوادى القدس » وقد استغرقت الرحلة

(١) الضوء اللامع جـ٣ رقم ٧٤٨ وزيادة ص ٢٣ . وكراتشكوفسكى ٢ / ٤٧٢ .

(٢) الكواكب السائرة ١ / ١٢٠ وكراتشكوفسكى ٢ / ٤٧٥ .

(٣) زيادة ص ٤٦ وكراتشكوفسكى ٢ / ٤٩٠ ودائرة المعارف الإسلامية .

(٤) زيادة ص ٧٥ وتاريخ الأدب الجغرافى العربى لكراتشكوفسكى ٢ / ٦٨٣ .

(٥) كراتشكوفسكى ٢ / ٦٩٢ .

(٦) انظر فيه تاريخ الجبرتى ١ / ٢٢١ - ٢٤٢ وراجع كراتشكوفسكى ٢ / ٧٥٥ .

ستة أشهر فى سنة ١١٤٩ بدأها من موطنه دمياط إلى القدس ، وعُنى باختصار كتاب الأنس الجليل فى زيارة بيت المقدس والخليل لأبى اليمن مجير الدين الحنبلى ، وسمى مختصره « لطائف أنس الخليل فى تحايف القدس والخليل » . وواضح أن الجغرافيين المصريين أخذوا يعنون فى العصر العثمانى بجغرافية الأراضى المقدسة فى فلسطين والحجاز .

٣

علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد

أخذت مصر تُعنَى بدراسات اللغة والنحو مع عناية مدرستى البصرة والكوفة بهما . مما دفع فيها إلى نشوء طبقة من المؤدبين ، وأخذت هذه الطبقة تتكاثر منذ القرن الثانى للهجرة ، فكانت تلقن الشباب فى الفسطاط والإسكندرية مبادئ العربية ، وانضم إليهم فى هذا التلقين بعض العلماء الذين هاجروا إلى الديار المصرية مثل عبد[1] الرحمن بن هُرْمز الأعرج تلميذ أبى الأسود الدؤلى . نزيل الإسكندرية المتوفى بها سنة ١١٧ للهجرة . وطبيعى أن يظل نشاط هؤلاء المؤدبين مطردًا طوال القرن الثانى للهجرة ، لسبب واضح هو عناية المصريين بقراءات القرآن الكريم وضبط ألفاظه لغويا ونحويا . ولمدارستهم لتفسير القرآن الكريم وللفقه ، وسنرى فيما بعد نشاطهم الجم فى هذه الميادين . ولم تُعْنَ كتب التراجم بأسماء هؤلاء المؤدبين وإحصائهم ، ولكن لا شك فى أنهم كانوا كثيرين . وقد ترجم السيوطى فى كتابه البغية لواحد منهم هو سرج الغول الذى لحق زمن الإمام الشافعى حين نزل الفسطاط سنة ١٩٩ وكان عالما باللغة ولم يكن أحد بالفسطاط يظهر شعره إلا بعد عرضه عليه ورضاه عنه ، ويقال إنه كان يذاكر الشافعى فى اللغة والشعر ، وإنه كان يعجب بمعارفه ، وروى أنه كان يقول عنه حين يقوم من مجلسه : نحتاج إلى أن نستأنف طلب العلم ، وحسبه تلك الشهادة الرفيعة من الإمام الشافعى . وممن كان يجتمع به الشافعى فى الفسطاط من اللغويين عبد الملك بن هشام صاحب السيرة النبوية المشهورة ، ويقول السيوطى عنه إنه كان إماما فى اللغة والنحو والعربية ويذكر أنه كان يتناشد هو والشافعى كثيرا من أشعار العرب[2]

---

(١) راجع ابن هرمز فى أخبار النحويين البصريين للسيرافى ص ٢١ وتذكرة الحفاظ ٩١/١ وطبقات القراء لابن الجزرى ٣٨١/٤ وإنباه الرواة ٢ / ١٧٢ وما به من مراجع .

(٢) له كتاب سماه « ما وقع فى أشعار السير من الغريب » وانظر مصادر ترجمته فى ص ١٥١ .

ويزور محمد بن يحيى اليزيدى مصر فى العقد الثانى من القرن الثالث فى صحبة المعتصم سنة ٢١٤ ويتخذها دار مقام له حتى وفاته(١) ويُحدث بها ضربًا من الثراء فى حياتها اللغوية إذ كان لغويا كبيرا مثل أبيه وأخيه إبراهيم ، وله كتاب المقصور والممدود ، وأغلب الظن أنه روى للمصريين كتاب أبيه : « النوادر فى اللغة » وأيضا كتاب أخيه إبراهيم فى اللغة الذى سماه « ما اتفق لفظه وافترق معناه » جمع فيه كل الألفاظ المشتركة فى الاسم –كما يقول ابن خلكان– المفترقة أو المختلفة فى المعنى ، وهو من الكتب اللغوية الجيدة . ويزور مصر ابن جرير الطبرى فى العقد السادس من القرن الثالث ، وكان يحفظ ديوان الطرماح فطلب إليه المصريون أن يأخذوه عنه ، فرواه لهم مفسرًا غريبه(٢) .

ونلتقى فى الفسطاط لأواسط القرن الثالث بعالم مصرى لغوى ونحوى كبير هو ولاد(٣) التميمى المتوفى سنة ٢٦٣ لعهد الدولة الطولونية ، وكان قد رحل إلى العراق وسمع بها العلماء وأخذ ما عندهم ، ويقال إنه لم يكن بمصر شىء كبير من كتب اللغة والنحو قبله ، ويذكر حفيده أحمد أنه توارث هو وأبوه عنه ديوان رؤبة ـ مما يدل على عنايته برواية دواوين الشعر القديم ، وخاصة الدواوين التى تكتظ بالغريب مثل ديوان رُؤبة . ونلتقى بعده بلغوى مصرى معجمى أو من أصحاب المعاجم هو أبو الحسن على(٤) بن الحسن الهُنائى الأزدى المعروف باسم كُراع النمل لقصره ودمامته ، وهو وإن كان دميا قصيرا فقد كان عالما لغويا لا يُشَقُّ غباره ، ألف أربعة معاجم ، ويقول القفطى فى ترجمته بإنباه الرواة إنه يملكها جميعا ، وهى المنضَّد فى اللغة ، وهو معجم كبير رتبه على الحروف الهجائية ، ومعجم مختصر له سماه المجرَّد ، جرده من الشواهد ، ومعجم ثالث لأمثلة الغريب على أوزان الأفعال سماه الأوزان . والمعاجم الثلاثة مفقودة ـ أما المعجم الرابع فسماه المنجَّد،قصره على ما اتفق لفظه واختلف معناه أو بعبارة أخرى على المشترك اللفظى ، وهو معجم نفيس ، وقد نشر فى القاهرة . والألفاظ المشتركة فيه مرتبة حسب الحروف الهجائية لا حسب مخارج الحروف كما فى معجم العين للخليل . ولم تُرَدّ فى ترتيبها إلى أصولها الثلاثية والرباعية كما هو معروف فى المعاجم العربية ، بل ترتب حسب صورها اللفظية . وكأنه أراد بذلك اليسر والسهولة ، وتابعه أصحاب المعاجم – باستثناء الأزهرى فى معجمه تهذيب اللغة – فى

---

(١) انظر إنباه الرواة ٣ / ٢٣٦ وتاريخ بغداد ٣ / ٤١٢ .

(٢) معجم الأدباء لياقوت ١٨ / ٥٣ .

(٣) انظر ترجمة ولاد فى إنباه الرواة ٣ / ٣٥٤ .

(٤) راجع ترجمة الهُنائى فى إنباه الرواة ٢ / ٢٤٠ ومعجم الأدباء ١٣ / ١٢ .

ترتيب الألفاظ حسب الحروف الهجائية مثل الجوهرى فى الصحاح والزمخشرى فى أساس البلاغة ، غير أن الجوهرى رأى أن يكون الترتيب الهجائى للألفاظ بحسب أواخرها ورأى الزمخشرى أن يكون الترتيب بحسب أوائلها مثل كُراع النمل .

وتلتحم مباحث اللغة بمباحث النحو أو بعبارة أدق تظل ملتحمة فى القرن الرابع على نحو ما يتضح عند أبى العباس أحمد[١] بن محمد بن ولاد المتوفى سنة ٣٣٢ وأبى جعفر أحمد[٢] بن محمد النحاس المتوفى سنة ٣٣٨ . أما ابن ولاد فقد خرَّجه أبوه محمد نحويا ولغويا ماهرا ، ولم يكتف بما أخذه عن أبيه وبعض العراقيين النازلين بمصر فرحل إلى بغداد ودرس على كبار اللغويين والنحاة بها ، وتسامع به وبزميله أبى جعفر النحاس أهل المغرب والأندلس فرحلوا إليهما يأخذون عنهما ويدرسون . وكان ابن ولاد يضيف إلى دراسته لكتاب سيبويه عرضه دواوين الشعراء القدماء وكان يقول لطلابه : ديوان رؤبة رواية لى عن أبى عن جدى . ونشر مجمع اللغة العربية بدمشق ديوان ذى الرمة ، وسنرى عما قليل أن ابن ولاد كان الطريق إلى إحدى روايتيه ، وبذلك كان يدرس لطلابه فى الفسطاط أصعب ديوانين عربيين لغويا ، واشتهر فى زمنه بروايته لمعجم العين المنسوب إلى الخليل ، وعنه حمله منذر بن سعيد قاضى الجماعة بالأندلس المشهور . ومن مصنفاته اللغوية كتاب المقصور والممدود ، وهو معجم لهما مرتب على الحروف الهجائيه مثل كتاب المنجَّد لكُراع النمل ، وكأنه تابعه فى ترتيب معجمه تيسيرًا للانتفاع به . أما أبو جعفر النحاس فكان واسع العلم فى اللغة والنحو والدراسات القرآنية ، وقد رحل إلى العراق مثل ابن ولاد وحمل عن علمائها علما كثيرا ، وكان يعنى فى دروسه بشرح الشعر القديم . إذ فسَّر عشرة دواوين منه كان يمليها على طلابه . ومن أهم مصنفاته اللغوية « شرح القصائد التسع المشهورات وتشتمل على المعلقات السبع ، وهى منشورة ببغداد ، ونُشر له كتاب « شرح أبيات سيبويه » وهى أبيات كتابه المشهور .

وعلى هذا النحو أخذت مصر تنشط فى الدراسات اللغوية ، ونشعر بهذا النشاط واضحا حين نزلها المتنبى ، فقد انعقدت له حلقة كبيرة لسماع شعره ، وسرعان ما تكوَّنت له بطانة من علماء مصر اللغويين وأدبائها تروى شعره . مثل عبيد الله بن محمد بن أبى الجوع وفيه يقول الثعالبى : « أحد رواة المتنبى الأدباء وأصحابه العلماء وممن تمهر فى لغات العرب[٣] » ومثل صالح بن

---

(١) انظر فى ترجمة ابن ولاد معجم الأدباء ٤ / ٢٠١ وإنباه الرواة ١ / ٩٩ وما به من مراجع .

(٢) راجع فى ترجمة أبى جعفر النحاس إنباه الرواة ١ / ١٠١ ومعجم الأدباء ٤ / ٢٢٤ وابن خلكان ١ / ٩٩ .

(٣) اليتيمة ١ / ٣٩٥ .

رُشدين ، وفيه يقول الثعالبى أيضا : « أحد أئمة الكتاب المهرة فى سائر الآداب ، صحب المتنبى وروى شعره[1] » . وكانت تدور المناقشات أحيانا بين المتنبى وبعض اللغويين ، ولعل ذلك ما جعله يعقد حلقة علمية لقراءة كتاب المقصور والممدود لابن ولاد سنة ٣٤٧ وقد مضى يعلِّق عليه موضحا ما فيه من الغلط ، وكتب ذلك عنه أبو الحسين على[2] بن أحمد المهلبى اللغوى المتوفى سنة ٣٨٥ وأضاف إلى ذلك زيادات ونَسب الجميع إليه ، على نحو ما يصور ذلك على بن حمزة البصرى فى كتابه « الرد على ما فى المقصور والممدود لابن ولاد »

ويقول ياقوت فى ترجمة المهلبى إنه كان إماما فى النحو واللغة ورواية الأخبار وتفسير الأشعار كما يقول إنه تلميذ إبراهيم النَّجيرَمى كاتب كافور المتوفى سنة ٣٥٥ وكان راوية كبيرا للدواوين والأشعار ، وحملها عنه أبو الحسن المهلبى المذكور آنفًا ، وتلميذ ثان له يسمى جُنادة[3] اللغوى ، وسنرى عما قليل أنه كان الطريق إلى إحدى روايات ديوان ذى الرمة ، ولعل فى ذلك ما يدل على أنه شارك بقوة فى رواية الدواوين القديمة ، وبالمثل تلميذه أبو الحسين المهلبى ، وفى المهلبى يقول القفطى : أحد علماء الأدب واللغة والشعر ، روى عنه المصريون وأكثروا .. والروايَة عنه إلى زماننا هذا (أى فى القرن السابع الهجرى) ووصل للمصريين روايةَ كتب كثيرة من كتب الأدب . وحوالى منتصف القرن الخامس الهجرى نزل بمصر التبريزى[4] تلميذ أبى العلاء وأقام بها مدة ولعله روى فيها أشعار المعرى كما روى كثيرا من معارفه اللغوية وشروحه على الدواوين والأشعار ، مثل شرحه على المعلقات والمفضليات وديوان الحماسة وديوان أبى تمام ، وقد مرّ بنا فى الجزء الخامس من هذه السلسلة نشاطه اللغوى الجمّ . ومن نزلاء القاهرة المغاربة اللغويين القزاز القيروانى المتوفى سنة ٤١٢ خدم المعز الفاطمى وابنه العزيز وصنف لهما كتبا ، وعاد بعد خلافتهما إلى بلده ، ومن تصانيفه كتاب الجامع فى اللغة رتبه على حروف المعجم وهو – كما يقول ياقوت – كان يقارب معجم التهذيب للأزهرى ، وله كتاب الضاد والظاء وكتاب معان فى شعر المتنبى وكتاب فى المآخذ عليه .

---

(١) اليتيمة ١ / ٣٩٩ وأخبار مصر فى سنتى ٤١٤ ، ٤١٥ للمسبحى (نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب) ص ٩٦ .

(٢) انظر فى أبى الحسين المهلبى معجم الأدباء ١٢ / ٢٢٤ وإنباه الرواة ٢ / ٢٣٢ .

(٣) انظر ترجمة جُنادة فى معجم الأدباء ٧ / ٢٠٩ وكان تلميذا للأزهرى صاحب معجم التهذيب وروى عن أبى أحمد العسكرى كتبه ، ونزل مصر وأقام بها حتى توفى سنة ٣٩٩ .

(٤) انظر فى نزول التبريزى مصر ابن خلكان ٦ / ١٩٣ .

وأكبر لغوى بالقاهرة فى أواخر القرن الرابع الهجرى وأوائل القرن الخامس يوسف[١] النجيرمى المتوفى سنة ٤٢٣ وهو تلميذ أبى الحسين المهلبى وقد حمل عنه كل ما كان يرويه من كتب الأدب واللغة ودواوين الشعر ، وروى عنه المصريون عامة ما كان يرويه محتفين به لما كان يمتاز به من الدقة فى الضبط اللغوى غاية الضبط إلى أقصى حد ممكن ، وفى ذلك يقول ابن خلكان : « أكثر ما تُرْوَى الكتب القديمة فى اللغة والأشعار العربيةَ وأيام العرب فى الديار المصرية من طريقه » . وكان مايزال يراجع الروايات المختلفة للكتاب أو للديوان ويقابل بينها حتى يخرجه فى أوثق صورة ممكنة . ومن خير ما يصور هذا العمل المعقد الشاق ديوان ذى الرمة الذى نشره الدكتور عبدالقدوس أبو صالح فى مجمع اللغة العربية بدمشق نشرة علمية محققة اعتمد فيها على صنعته فيه ، إذ أخرجه فى صورة محكمة على أساس روايتين علميتين ، ولكل رواية طريقان . اما الرواية الأولى فعن ثعلب عالم الكوفة المشهور وطريقها الأول أبو الحسين على بن أحمد المهلبى أستاذه عن ابن ولاد ، وطريقها الثانى جعفر[٢] بن شاذان اللغوى البصرى نزيل القاهرة عن أبى عمر الزاهد غلام ثعلب . والرواية الثانية عن إبراهيم بن المنذر المتوفى سنة ٢٣٦ عن أسود بن ضَبْعان عن ذى الرمة ، وطريقها الأول أبو الحسين على بن أحمد المهلبى عن إبراهيم النجيرمى . وطريقها الثانى أبو عمران بن رباح أستاذ أبى يعقوب النجيرمى عن إبراهيم النجيرمى . ولعل فى ذلك مايوضح مدى عناية أبى يعقوب يوسف النجيرمى بإخراج الدواوين للمصريين وإحكام صنعتها إحكاما لايكاد يفوقه إحكام ، وكان يعمم هذا الإحكام فى كل مارواه من الدواوين وكتب اللغة .

ويحمل أصحاب يوسف النجيرمى عنه كتب اللغة ودواوين الشعراء . ويخلفهم عليها تلاميذهم فى القرن الخامس ومن تعهدوهم من علماء القرن السادس ، ويطرد هذا النشاط اللغوى بمصر . ويزورها غير عالم لغوى من البلاد العربية ويستقرون بها ، وفى مقدمتهم على[٣] بن جعفر السعدى الصقلى المعروف باسم ابن القطاع ، نشأ بصقلية وقرأ الأدب واللغة على علمائها وخاصة ابنَ البِرِّ اللغوى ، ورحل عن صقلية لما أشرف النورمان على تملكها فى حدود سنة ٥٠٠ ونزل القاهرة

(١) راجع فى ترجمة يوسف النجيرمى ابن خلكان ٧ / ٧٥ وبغية الوعاة والأنساب للسمعانى فى النجيرم والشذرات ٣ / ٧٥ وعبر الذهبى ٢ / ٣٥٨ .

(٢) انظر فى ترجمة جعفر بن شاذان إنباه الرواة ١ / ٢٦٥ .

(٣) انظر فى ابن القطاع معجم الأدباء ١٢ / ٢٧٩ وابن خلكان ٣/ ٣٢٢ وإنباه الرواة ٢ / ٢٣٦ وما به من مراجع .

واتخذها دار مقام له وتصدَّر فيها للإفادة حتى توفى سنة ٥١٥ وأكرمه المصريون غاية الإكرام واتخذه الأفضل بن بدر الجمالى وزير الخليفة الآمر الفاطمى معلما لولده ، ومن طريقه اشتهرت فى الآفاق رواية معجم الصحاح للجوهرى ، كان قد أُخذها عن أستاذه ابن البرّ فى صقلية ، وله عدة تصانيف لغوية ، منها كتاب الأسماء فى اللغة ، وكتاب الأفعال عُنى بنشره مجمع اللغة العربية فى القاهرة .

ويتكاثر اللغويون بمصر من علمائها والعلماء النازلين بها بعد ابن القطاع ، وأشهرهم غير مدافَع ابن بَرِّى[1] عبد الله المصرى المولد والمنشأ المولود سنة ٤٩٩ وفيه يقول ابن خلكان : « الإمام المشهور فى علم النحو واللغة والرواية والدراية كان علامة عصره وحافظ وقته ونادرة دهره » . ويذكر ابن خلكان أنه رأى له « حواشى على درة الغواص فى أوهام الخواص » للحريرى ، وأن له كتابا لطيفا فى أغاليط الفقهاء . وقد كتب ردًّا على أبى محمد بن الخشاب ، ردَّ فيه على كتابه الذى عدَّد فيه غلط الحريرى فى المقامات ، وطُبع هذا الرد ملحقا بمقامات الحريرى مع نقد ابن الخشابَ بالمطبعة الحسينية بالقاهرة . ومن أهم مصنفاته حواشٍ على معجم الصحاح للجوهرى سماها « التنبيه والإفصاح عما وقع فى كتاب الصحاح » يقول ابن خلكان : « وهى حواشٍ فائقة أتى فيها بالغرائب ، واستدرك عليه فيها مواضع كثيرة ، وهى دالة على سعة علمه وغزارة مادته وعظم اطلاعه » وهى من الكتب الخمسة التى ذكر ابن منظور فى مقدمة لسان العرب أنه اعتمد عليها فى تأليف معجمه اللسان . وتوجد منه مخطوطات تعين على نشره حتى مادة وقش ، وقد نُشر هذا القسم منه فى جزءين بمجمع اللغة العربية بالقاهرة ويمكن استخراج بقيته من لسان العرب . ولابن برى أيضا حواشٍ على كتاب المعرب من الكلام الأعجمى للجواليقى ، ومن آرائه الطريفة أنه ينبغى المحافظة على نطق الكلمات الأعجمية حين تعريبها وإدخالها فى العربية بجميع حروفها وحركاتها الخاصة . وقد عاش حقبة طويلة فى زمن الدولة الأيوبية إذ توفى سنة ٥٨٢ . ومن أهم تلاميذه اللغويين سليمان[2] بن بنين الدقيقى المتوفى سنة ٦١٤ وله مصنفات لغوية مختلفة ، منها كتاب الوضاح فى شرح أبيات الإيضاح لأبى على الفارسى وكتاب إغراب العمل فى شرح أبيات كتابِ الجمل للزجاجى ، وأهم من هذين الكتابين كتابه : « اتفاق المبانى وافتراق المعانى فى اللغة »

---

(١) راجع فى ابن برى معجم الأدباء ١٢/٥٦ وابن خلكان ٣/١٠٨ وإنباه الرواة ٢/١١٠ وشذرات الذهب ٤/٢٧٣ وبغية الوعاة ص ٢٧٨ .

(٢) انظر ابن بنين فى معجم الأدباء ١١/٢٤٤ وفى بغية الوعاة ٢٦١ .

ومنه مخطوطتان بدار الكتب المصرية . وله كتب عدة فى العروض ، منها كتاب الروض الأريض فى أوزان القريض ، والكتاب الوافى فى علم القوافى .

وظل هذا النشاط اللغوى ينمو بمصر ويتسع نموه طوال القرن السابع الهجرى وزمن الأيوبيين والمماليك إلى أن تُوِّج بكتاب لسان العرب لابن[١] منظور المتوفى سنة ٧١١ وهو مطبوع فى عشرين مجلدا . وهو أكبر معجم لغوى عربى ظهر فى الأزمنة الماضية ، وقد أتم مؤلفه تصنيفه سنة ٦٨٩ للهجرة ، وذكر فى مقدمته أنه جمع فيه بين معجم التهذيب للأزهرى ومعجم الصحاح للجوهرى والمعجم المعروف باسم المحكم لابن سيده وحواشى الصحاح لابن برى والنهاية فى غريب الحديث النبوى لابن الأثير ، وهو معجم تنوء به الجماعة أولو القوة ، ولابن منظور بجانبه مصنفات كثيرة من أهمها مختصر الأغانى .

ويظل لمصر نشاط لغوى غزير بعد ابن منظور ، وتظل لها مشاركة فى وضع المعاجم لا المعاجم اللغوية فقد كفاها ابن منظور المئونة فى ذلك فحسبها معجمه ، بل فى وضع المعاجم المتخصصة مثل المصباح المنير فى غريب الشرح الفقهى الكبير للرافعى صنفه أحمد[٢] بن محمد الفيومى المتوفى سنة ٧٧٠ وهو ليس فى ألفاظ الإمام الرافعى الشافعى فحسب ، بل هو يتضمنها ويتضمن بصفة مختصرة ألفاظ العربية فى عرض حسن ، وألحق به خاتمة كثيرة الفوائد اللغوية .

ومايزال النشاط اللغوى الخالص فى مصر يزداد حتى يبلغ ذروة رفيعة عند جلال الدين عبد الرحمن[٣] السيوطى المتوفى سنة ٩١١ للهجرة وهو أغزر العلماء المصريين زمن المماليك بعامة تأليفا وتصنيفا فى جميع الميادين الإسلامية واللغوية ، ومن خير مصنفاته اللغوية بل من خير المصنفات اللغوية فى جميع الحقب بمصر وغير مصر كتابه « المزهر فى علوم اللغة وأنواعها » وهو مطبوع مرارًا بالقاهرة ، وفيه يعرض كل ما اتصل باللغة من علوم وضعت لمعرفة الصحيح وغير الصحيح والمعرب والمولد والاشتقاق والمشترك والأضداد والمترادف والقلب والنحت والإتباع والإبدال وغير ذلك من علوم اللغة ومسائلها الدقيقة . وأهم من ذلك كله أنه حاول محاولة خصبة

---

(١) راجع ابن منظور فى نكت الهميان ص ٢٧٥ والدرر الكامنة ٥ / ٣١ وحسن المحاضرة ١ / ٥٣٤ والبغية ص ١٠٦ وفوات الوفيات ٢/٥٢٤ والوافى ٥/٥٤ والشذرات ٦/٢٦ .

(٢) انظر الفيومى فى الدرر الكامنة لابن حجر (نشر دار الكتب الحديثة) ١ / ٣٣٤ .

(٣) انظر مصادر ترجمة السيوطى مع الحديث عنه ص ٤٥٥ .

أن يطبق علم مصطلح الحديث وما وضع فيه لروايته من أصول على اللغة وروايتها ، ويفيض فى ذلك إفاضة واسعة ، فى ألفاظ اللغة – كالحديث النبوى – متواتر وآحاد ومرسل ومنقطع وضعيف ومنكر ومتروك ومطرد وشاذ . ويتحدث عمن تُقْبل روايته ومن تُرَدُّ ، وعن معرفة طرق أخذ اللغة وتحملها وعن المنتحل المصنوع فى اللغة وأشهر من نحل الشعر وأفسده . والكتاب فريد فى بابه ومباحثه . ونمضى بعد السيوطى فى زمن العثمانيين ، ويظل لعلماء اللغة فى مصر نشاطهم ، ومن خير من يمثلهم شهاب[1] الدين الخفاجى المتوفى سنة ١٠٦٩ ومن مؤلفاته الرائعة كتابه « شفاء الغليل بما فى كلام العرب من الدخيل » وقد صدره بمقدمة تحدث فيها عن التعريب وشروطه ، وله شرح على درة الغواص فى أوهام الخواص للحريرى . وتظل مصر مع ما أصابها زمن الاحتلال العثمانى حاملة مشاعل الثقافة العربية فى اللغة وغير اللغة ، وينزلها كثيرون من علماء الديار العربية ، وممن نزلها – كما مر بنا فى الجزء الخامس من هذه السلسلة – السيد مرتضى الزبيدى اليمنى المتوفى سنة ١٢٠٥ هـ/١٧٩٠م إذ اتخذها دار مقام له سنة ١١٦٧ حتى لبى نداء ربه ، وأكرمه المصريون وعلماؤها ، وعكف منذ نزوله على شرح القاموس المحيط للفيروزابادى . ومازال عاكفا على عمله حتى أتمه سنة ١١٨١ وهو مطبوع فى عشر مجلدات ، وقد سماه باسم « تاج العروس » . وهو يتلو لسان العرب فى كبر حجمه ، وفى الجبرتى تقاريظ كثيرة للمصريين فيه . وكأنه أتيح لمصر أن تضع أكبر معجمين للعربية : اللسان فى زمن المماليك وتاج العروس فى زمن العثمانيين ، كما أتيح لها أن تضع أكبر دائرة معارف فى المباحث اللغوية ونقصد كتاب المزهر للسيوطى .

ومرَّ بنا فى صدر هذا الحديث أنه كانت بمصر طبقة من المؤدبين أخذت تتكاثر فى القرنين الثانى والثالث ، وكانت تعلم الناشئة اللغة والنحو ، ومنذ أواسط القرن الثالث يصبح لمصر نحاتها من أبنائها ونزلائها فى مقدمتهم ولاد التميمى الذى مرَّ ذكره فى اللغويين ، وكان نحويا كبيرا كما كان لغويا كبيرا ، وكان يعاصره أحمد[2] بن جعفر الدينورى نزيل الفسطاط المتوفى سنة ٢٨٩ وقد درس على المازنى بالبصرة كتاب سيبويه ولما استوطن مصر واستقرَّ بها صنف لطلابه كتابا فى النحو سماه المهذب ، وعنه حمله المصريون . ويلقانا فى زمنه محمد[3] بن ولاد آنف الذكر المتوفى سنة ٢٩٨

---

(١) انظر مصادر ترجمة الخفاجى ص ٤٥٩ .

(٢) انظر الدينورى فى معجم الأدباء ٢ / ٢٣٩ وإنباه الرواة ١ / ٣٣ وما به من مراجع .

(٣) راجع محمد بن ولاد فى تاريخ بغداد ٣ / ٣٣٢ ومعجم الأدباء ١٩ / ١٠٥ وإنباه الرواة ٣ / ٢٢٤ وما به من مراجع .

وقد أخذ كل ما عند أبيه وعند أبي جعفر الدينوري ، ورحل إلى بغداد وقرأ على المبرد كتاب سيبويه وعاد إلى الفسطاط يدرس النحو ، وصنف لطلابه كتابا سماه المنمق . ونزل الفسطاط فى سنة ٢٨٧ الأخفش[1] الصغير على بن سليمان ، وظل بها حتى سنة ٣٠٠ للهجرة ، يعلم الطلاب النحو واللغة ، وله شرح على كتاب سيبويه ، لعله أملاه بمصر . ونمضى فى القرن الرابع الهجرى فيلقانا أبو العباس أحمد بن محمد بن ولاد المار ذكره ، وكان نحويا كبيرا كما كان لغويا كبيرا وإليه صارت نسخة أبيه من كتاب سيبويه التى قرأها على المبرد ، وله كتاب « الانتصار لسيبويه من المبرد » وفيه يرد على المبرد ما نقد به سيبويه فى كتابه الذى سماه « مسائل الغلط » . وله آراء[2] نحوية طريفة . وكان يعاصره كما مر بنا أبو جعفر النحاس اللغوى والنحوى الكبير . وكان يمزج فى كتبه النحوية بين آراء البصريين والكوفيين وأحيانا ينفذ إلى آراء اجتهادية جديدة مما يجعله بحق طليعة[3] المدرسة البغدادية فى مصر كما يتضح من كتابه الصغير « التفاحة فى النحو » وكتابه الكبير الرائع النفيس : « إعراب القرآن » . ويبدو أن اسمه واسم معاصره ابن ولاد طار إلى المغرب والأندلس فرحل إليهما كثيرون من الطلاب يأخذون عنهما ، ومر بنا أن منذر بن سعيد قاضى الجماعة بالأندلس حمل عن ابن ولاد كتاب العين للخليل بن أحمد . فمصر هى التى أذاعته فى الأندلس والمغرب . وحمل محمد بن يحيى الرَّباحى عن أبى جعفر النحاس كتاب سيبويه رواية ودراية ودرَّسه[4] لطلابه بقرطبة ، وشاعت رواية هذه النسخة بحيث أصبحت أم الدراسات النحوية فى الأندلس وما رافقها هناك من نهضة فى النحو ومباحثه .

وأول نحوى كبير يلقانا فى زمن الفاطميين الحوْفى[5] على بن إبراهيم المتوفى سنة ٤٣٠ تصدَّر لإقراء النحو وصنف فيه كتابا كبيرا استوفى فيه – كما قال من ترجموا له – العلل والأصول . وله مصنفات أصغر منه فى النحو اشتغل بها المصريون ، وله فى إعراب القرآن كتاب فى عشرة مجلدات ، ويبدو مما نقله عنه ابن هشام من آراء نحوية أنه كان بغدادى[6] النزعة يختار بعض آراء البصريين والكوفيين ويحاول النفوذ إلى بعض آراء جديدة . وكان يعاصره المناكر[7] النحوى

---

(١) انظر الأخفش الصغير فى تاريخ بغداد ١٢/٤٣٣ وابن خلكان ٣ / ٣٠١ ومعجم الأدباء ١٣ / ٢٤٦ وإنباه الرواة ٢ / ٢٧٦ .

(٢) انظر كتابنا المدارس النحوية ص ٣٣٠

(٣) المدارس النحوية ص ٣٣٢.

(٤) إنباه الرواة ٣/٢٣٠.

(٥) انظر الحوفى فى الأنساب للسمعانى الورقة ١٨١ ومعجم الأدباء ١٢ / ٢٢١ وابن خلكان ٣ / ٣٠٠ وإنباه الرواة ٢ / ٢١٩ والشذرات ٣ / ٢٤٧ .

(٦) المدارس النحوية ص ٣٣٤.

(٧) إنباه الرواة ٢ / ٨.

المصرى تلميذ ابن جنى المتوفى سنة ٤٤٠ وكان يتصدَّر لإقراء العربية ، وأغلب الظن أنه حمل إلى المصريين كتب أستاذه ابن جنى فأخذوا يدرسونها مبكرين . وأنجبت مصر حينئذ نحويا كبيرا هو ابن بابشاذ[1] طاهر بن أحمد المتوفى سنة ٤٦٩ وكان قد رحل إلى بغداد وأخذ عن علمائها ونحاتها وعاد فتصدر للإقراء بجامع عمرو بن العاص فى الفسطاط .وكان يُسْند إليه الإشراف على تحرير الكتب الصادرة عن ديوان الإنشاء الفاطمى إلى الأطراف ، وله فى النحو كتب سارت – كما يقول القفطى – مسيرَ الشمس ، منها المقدمة فى النحو وشرحها ، وهو منشور بالكويت نشرة جيدة . ومن مصنفات ابن بابشاذ شرح كتاب الجمل للزجاجى أحد أئمة النحو البغدادى ، وله كتاب سماه المحتسب فى النحو وشرح على كتاب الأصول لابن السراج ، وكانت له تعليقة كبيرة فى النحو فى خمسة عشر مجلدا . وكان ينزع منزع البغداديين[2] فى الانتخاب من آراء الكوفيين والبصريين ومحاولة الإدلاء بآراء جديدة . وخلفه على التصدُّر لإقراء النحو تلميذه محمد[3] بن بركات المتوفى سنة ٥٢٠ وكانت له فى النحو تصانيف مختلفة كما كان إليه التصفح فى ديوان الإنشاء الفاطمى

وأكبر نحاة مصر فى أواخر زمن الفاطميين وأوائل زمن الأيوبيين ابن بَرِّىّ الذى أسلفنا الحديث عنه بين اللغويين ، وكان يتصدر لإقراء النحو واللغة بجامع عمرو ، وطارت شهرته فى الآفاق ، فقصده الطلاب من كل بلد وفى مقدمتهم عيسى الجزولى نحوىّ المغرب والأندلس ، وقد دوَّن عنه فى أثناء شرحه لكتاب الجمل للزجاجى مقدمته المعروفة بالجزولية ، وكان يقول إنها من نتائج خواطر ابن برى وتلاميذه ، واهتم بها النحاة وشرحوها مرارا ، وهو بغدادى[4] النزعة فى النحو مثل أستاذه ابن برى وغيره من نحاة المصريين لزمنه . وخلف ابن برى فى إقراء النحو تلميذه سليمان بن بنين ، ومرَّ بنا بين اللغويين ، وله فى النحو شرح على سيبويه سماه « لباب الألباب فى شرح الكتاب » . ونزل مصر يحيى[5] بن مُعْطى المغربى الدمشقى المتوفى سنة ٦٢٨ واستقر بها وتصدر بجامع عمرو لإقراء الطلاب النحو ، وله مصنفات مختلفة فى النحو منها ألفية كألفية ابن مالك وكتاب العقود والقوانين فى النحو ، وكتاب الفصول ، وحواش على أصول ابن السراج ، وشرح

---

(١) انظر ابن بابشاذ فى معجم الأدباء ١٢ / ١٧ وإنباه الرواة ٢ / ٩٥ وابن خلكان ٢ / ٥١٥ والشذرات ٣ / ٣٣٣ ومرآة الجنان ٣ / ٩٨ والبغية ص ٢٤ .

(٢) المدارس النحوية ص ٣٣٦ .

(٣) راجع محمد بن بركات فى معجم الأدباء ١٨ / ٣٩ وإنباه الرواة ٣ / ٧٨ والشذرات ٤ / ٦٢ ومرآة الجنان ٣ / ٢٢٥ والبغية ص ٢٤ .

(٤) المدارس النحوية ص ٣٠١ ، ٣٣٨ .

(٥) انظر ابن معطى فى معجم الأدباء ٢٠/٣٥ والبغية ٤١٦ والشذرات ٥/١٢٩ وتاج التراجم ٨٣ .

على الجمل . وكان يعاصره ابن الرماح على[1] بن عبد الصمد المتوفى سنة ٦٣٣ تصدَّر لإقراء النحو وله فيه مجموع يتردد ذكره فى كتاب الأشباه والنظائر للسيوطى . ونلتقى بعلى[2] بن محمد السخاوى المتوفى سنة ٦٤٣ وله شرحان على كتاب المفصل للزمخشرى ، واسمه يتكرر فى كتاب الأشباه والنظائر . وأهم النحاة المصريين حينئذ بلا منازع ابن الحاجب[3] عثمان بن عمر المتوفى سنة ٦٤٦ كان أبوه حاجبا لبعض الأمراء فغلبت عليه النسبة إلى وظيفته . وله كتب كثيرة فى الفقه المالكى والأصول والعروض ، وله فى النحو كتاب الأمالى ، وكتاباه الكافية فى النحو والشافية فى الصرف طارت شهرتهما فى العالم الإسلامى ، وتعلق العلماء بدرسهما للطلاب فى كل مكان . وكثرت عليهما الحواشى والشروح كثرة مفرطة ، ومن أهم شروحهما شرح الرضى الإستراباذى . وينزع ابن الحاجب فى كتاباته النحوية منزع المدرسة البغدادية[4] ، فهو ينتخب من آراء المدرستين البصرية والكوفية ويضيف إليهما آراء اجتهادية تدل على حسن بصره وبالغ دقته وحدة ذكائه .

وتزدهر الدراسات النحوية فى زمن المماليك ، ونلتقى فى أوائله بأمين الدين المحلى[5] محمد بن على المتوفى سنة ٦٧٣ تصدر لإقراء النحو وانتفع به الناس ، وله تصانيف مختلفة فى النحو والعروض . وكان يعاصره بهاء الدين[6] بن النحاس الحلبى الأصل المتوفى سنة ٦٩٨ ، نزل مصر وأخذ عن شيوخها ولم يلبث أن تصدر لإقراء العربية ، وعليه تتلمذ أبو حيان الأندلسى المتوفى سنة ٧٤٥ حين نزوله مصر سنة ٦٧٩ وله مصنفات مختلفة ، من أهمها شرح على المقرب لابن عصفور . وأبو حيان[7] هو أهم تلاميذه ، فقد لزمه وأخذ عنه كتبه ، وتصدر لتدريس النحو فى جامع الحاكم بالقاهرة وله شروح كثيرة على أمهات الكتب النحوية مثل الكتاب لسيبويه والمقرب والممتع لابن عصفور والتسهيل لابن مالك وأيضا له شرح على ألفيته ، وبجانب ذلك له مصنفات نحوية مستقلة أهمها ارتشاف الضَّرَب أى عسل النحو ، ويغلب عليه متابعة البصريين[8] ويتصدى

---

(١) راجع ابن الرماح فى البغية ص ٣٤١ .

(٢) انظر العلم السخاوى فى معجم الأدباء ١٥/٦٥ وابن خلكان ٣/٣٤٠ وإنباه الرواة ٢/٣١١ والبغية ص ٣٤٩ وطبقات القراء ١/٥٦٨ والسبكى ٨/٢٩٧ وحسن المحاضرة ١/٤١٢ .

(٣) راجع ترجمة ابن الحاجب فى ابن خلكان ٣/٢٤٨ وطبقات القراء ١/٥٠٨ وطبقات الذهبى ٢/٢٠١ والديباج لابن فرحون ص ٣٧٢ والشذرات ٥/٢٣٤ والبغية ص ٣٢٣ وبر وكلمان ٥/٣٠٨ .

(٤) المدارس النحوية ص ٣٤٣ ومابعدها .

(٥) حسن المحاضرة ١/٥٣٣ .

(٦) بغية الوعاة ص ٦ .

(٧) انظر أباحيان فى الدرر الكامنة لابن حجر ٤/٣٠٢ والبغية ص ١٢٦ ونكت الهميان ص ٢٨٠ وطبقات الشافعية للسبكى ٩/٢٧٦ وطبقات القراء ٢/٢٨٥ وفوات الوفيات ٢/٥٥٥ والشذرات ٦/١٤٥ ونفح الطيب (طبعة دوزى) ١/٨٢٣ .

(٨) المدارس النحوية ص ٣٢١ وما بعدها .

كثيرا فى مؤلفاته لابن مالك وآرائه ، وقد تخرج به جيل من النحاة المصريين لزمنه . ومن أهم تلاميذه ابن أم قاسم[١] الحسن بن قاسم المتوفى سنة ٧٤٩ وأم قاسم جدته لأبيه نُسب إليها . وله شروح على مفصل الزمخشرى وتسهيل ابن مالك وألفيته . وخرجت مصر حينئذ أكبر نحاتها ابن هشام[٢] جمال الدين عبد الله بن يوسف المتوفى سنة ٧٦١ وقد طارت شهرته فى العربية وقصده الطلاب من كل فَجّ ، وبلغ من إعجاب معاصريه به أن قالوا إنه أنحى من سيبويه ، وله مصنفات نحوية كثيرة من أهمها « مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب » وهو فى جزءين : جزء خاص بالحروف والأدوات وجزء خاص بالجمل ، بثَّ فيه كثيرا من القواعد الكلية والملاحظات الدقيقة . وله كتاب « أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك » وكتاب « شذور الذهب » وكتاب « قطر النَّدَى » وكل هذه الكتب مطبوعة مرارًا وتكرارًا . وهو ينهج فى النحو منهج المدرسة البغدادية . وكان يعاصره ابن[٣] عقيل عبد الله بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٧٦٩ ومن أهم مصنفاته شرحه على الألفية . وهو مشهور . ونلتقى فى القرن التاسع الهجرى بالدمامينى[٤] الإسكندرى المتوفى بالهند سنة ٨٣٧ تصدَّر لإقراء النحو بالإسكندرية ثم بالجامع الأزهر ، وله حاشية على المغنى لابن هشام . وفيها يتحامل عليه تحاملا شديدا مما جعل الشُّمُنِّى الإسكندرى المتوفى سنة ٨٧٢ يتعقبه فى حاشية له على المغنى ، والحاشيتان مطبوعتان معا . ونلتقى بعدهما[٥] بالكافِيَجيِّ محمد بن سليمان الرومى المتوفى سنة ٨٧٩ وله مختصرات نحوية مختلفة . ومن أهم النحاة حينئذ الشيخ خالد[٦] الأزهرى المتوفى سنة ٩٠٥ تصدر لإقراء الطلاب فى الأزهر فنُسب إليه ، وله مصنفات نحوية مختلفة منها « المقدمة الأزهرية فى علم العربية » وشرح عليها ، وهما مطبوعان ، وله شروح على مصنفات نحوية متعددة أهمها شرحه : « التصريح على التوضيح » لابن هشام. وكان يعاصره السيوطى وكان نحويا كبيرا كما كان لغويا كبيرا ، وله فى كليات النحو كتاب « الأشباه والنظائر » فى أربعة مجلدات . وفيه طبق

---

(١) البغية ص ٢٢٦ .

(٢) انظر ابن هشام فى الدرر الكامنة ٣٠٨/٢ والشذرات ١٩١/٦ والبغية ص ٢٩٣ والبدر الطالع ٤٠١/١ وكتابنا « المدارس النحوية » ص ٣٤٦ .

(٣) راجع ابن عقيل فى الدرر الكامنة ٣٧٢/٢ والبغية ص ٢٨٤ والشذرات ٢٠٤/٦ والبدر الطالع ٣٨٦/١ وكتابنا « المدارس النحوية » ص ٣٥٥ .

(٤) انظر الدمامينى فى الضوء اللامع جـ٧ رقم ٤٤٥ والشذرات ١٨١/٧ والبغية ص ٢٧ والبدر الطالع ١٥٠/٢ .

(٥) انظر الكافيجى فى الضوء اللامع جـ٧ رقم ٦٥٥ والبغية ص ٤٨ وشذرات الذهب ٣٢٦/٧ .

(٦) راجع الشيخ خالد فى الضوء اللامع جـ٢ رقم ٦٦١ وشذرات الذهب ٨ / ٢٦ والكواكب السائرة ١ / ١٨٨ والخطط الجديدة لعلى مبارك ١٠ / ٥٣ .

على قواعد النحو الكلية منهج الفقهاء فى كتاباتهم عن الأشباه والنظائر فى الفقه ، وهو كتاب نفيس ، وقد طبع بحيدر آباد . وله كتاب الاقتراح وهو مختصر لطيف فى أصول النحو ألفه على هدى كتاب الخصائص لابن جنى كما يقول فى مقدمته . وله فى النحو والتصريف كتاب همع الهوامع فى مجلدين ضخمين ضَمَّ فيه خلافات النحاة وآراءهم . وهو دائرة معارف نحوية وصرفية بديعة .

ويلقانا فى أوائل زمن العثمانيين الأشمونى[1] على بن محمد المتوفى سنة ٩٢٩ للهجرة ومن أهم مصنفاته النحوية شرحه على ألفية ابن مالك . وهو يعرض فيه بدقة آراء النحاة المختلفين ، وهو مثل شرح ابن عقيل على الألفية من أشهر كتب النحو المتداولة . ويستمر نشاط علماء النحو طوال أيام العثمانيين . ومن أشهرهم فى القرن الحادى عشر الشنوانى المتوفى سنة ١٠١٩ والدنوشرى المتوفى سنة ١٠٢٥ ، وينزل القاهرة عبدالقادر[2] البغدادى المتوفى سنة ١٠٩٣ ومن مؤلفاته : « خزانة الأدب » وهى شرح لشواهد شرح الكافية فى أربعة مجلدات ، وعادة يذكر مع الشواهد شعراءها ويترجم لهم ، وبذلك أحال خزانته إلى دائرة معارف لشعراء العربية فى الجاهلية وصدر الإسلام ، ونمضى إلى القرن الثانى عشر فيلقانا الحفنى المتوفى سنة ١١٨١ ومحمد الأمير المتوفى سنة ١١٨٨ وله حاشية على المغنى . وهى مطبوعة . ولا نلبث أن نلتقى بالشيخ حسن الكفراوى[3] المتوفى سنة ١٢٠٢ صاحب شرح الأجرومية المشهور . ونلتقى بالصبان[4] محمد بن على المتوفى سنة ١٢٠٦هـ/١٧٩١م صاحب حاشيته المشهورة على شرح الأشمونى ، وهى أشبه بدائرة معارف نحوية ، وترمز بقوة إلى استمرار النشاط النحوى بمصر حتى نهاية أيام العثمانيين .

وإذا تركنا علمى النحو واللغة إلى علوم البلاغة والنقد . رأينا مصر تتأخر فى إفراد العلوم البلاغية بمصنفات خاصة بها . وأول كتاب نجده يعنى بمباحث البلاغة كتاب لابن وكيع التنيسى المتوفى سنة ٣٩٣ سماه المنصف[5] فى بيان سرقات المتنبى . وهو بذلك أدخل فى مباحث النقد .

---

(١) انظر الأشمونى فى الضوء اللامع ٦/٥ وشذرات الذهب ٨ / ١٦٥ والبدر الطالع ١ / ٤٩١ وفيه أنه توفى سنة ٩١٨ .

(٢) انظر فى عبدالقادر البغدادى خلاصة الأثر ٢ / ٤٥١ ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع .

(٣) تاريخ الجبرتى ٢ / ١٦٥ .

(٤) تاريخ الجبرتى ٢ / ٢٢٧ والخطط التوفيقية ٣٠/٣ .

(٥) انظر فى هذا الكتاب تاريخ النقد الأدبى عند العرب لإحسان عباس ص ٢٩٤ . وقد نشره بدمشق الدكتور محمد رضوان الداية .

غير أنه جعل بين يديه مبحثين : مبحثا فى السرقات الشعرية عامة ، ومبحثا فى فنون البديع ، وهو فيه يذكر أولا مصطلحاته التى دونها ابن المعتز فى كتاب البديع ثم يذكر ما أضافه قدامة فى نقد الشعر ، ويستمد من كتاب ثالث لا يسمى صاحبه ، وربما كان كتاب حلية المحاضرة للحاتمى . والكتب الثلاثة فعلا أهم كتب ألفت فى البديع قبله . وكأن مصر إن كانت قد تأخرت فى وضع المباحث البلاغية فإنها لم تقصر فى الاطلاع على ما وضعت العراق منها حتى زمن ابن وكيع ، وظلت تُعْنَى بعده بالاطلاع على مباحث العراقيين وغير العراقيين حتى نهاية زمن الفاطميين ، تدل على ذلك كتابات على بن منجب الصيرفى المتوفى سنة ٥٤٢ وإذ نراه فى كتابه : قانون ديوان الرسائل يتحدث عن البلاغة حديثا سريعًا وعرض فى بعض رسائله لفنى الجناس والتورية من فنون البديع .

ولعل أول كتاب بلاغى أُلّف فى مصر بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة كتاب غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات لعلى[1] بن ظافر الأزدى المصرى المتوفى سنة ٦٢٣ . وسبقتْه فى نفس الموضوع كتب أخرى من أهمها كتاب التشبيهات لا بن أبى عون وقد عرضنا له فى الجزء السابق من هذه السلسلة ، وقد توفى سنة ٣٢٣ . ويذكر ابن ظافر فى مقدمة كتابه أنه قدمه للملك الأفضل على بن صلاح الدين سنة ٥٨٧ فى حياة أبيه ، وهو منشور بالقاهرة . وجعله ابن ظافر فى ستة أبواب : أولها فى تشبيه الأجرام العلوية والثانى فى تشبيه المياه والأنهار والثالث فى تشبيه الأنوار والأثمار والنبات والرابع فى التشبيه الواقع فى الخمريات والخامس فى التشبيه الواقع فى الغزل والسادس فى تشبيهات مختلفة . والكتاب يجمع طرف التشبيه فى هذه الموضوعات المتنوعة ، وخاصة تلك التى دارت على ألسنة المحدثين من شعراء مصر والشام والعراق والمغرب والأندلس . واستعان فى ذلك بكتب الأدب العامة مثل اليتيمة للثعالبى والخريدة للعماد الأصبهانى . ونعجب إذ نرى شعراء العالم العربى معروضين فى الكتاب مع فرائدهم فى التشبيه ، غير أن العجب يزول إذا عرفنا ما أكَّدناه مرارا من أن العالم العربى كانت تسوده وحدة جعلت آثاره الأدبية والعلمية وكأنها آثار كل بلد من بلدانه ، مما جعل دواوين الشعراء تُتداول فى أوسع نطاق ، بحيث لم يكن يظهر شاعر فى بلدة وينال شيئا من الشهرة حتى تتناقل ديوانه وأشعاره البلدانُ العربية المختلفة . ويلقانا

(١) انظر على بن ظافر فى معجم الأدباء ١٣ / ٢٦٤ وفوات الوفيات ٢ / ١٠٦ .

بعد ابن ظافر عبد الرحيم[1] بن شيث المتوفى سنة ٦٢٥ ونراه فى كتابه « معالم الكتابة ومغانم الإصابة » يعقد فصلا للبلاغة يعرض فيه للإيجاز والمساواة واختيار الألفاظ والسجع وبعض فنون البديع . ويتلوه العز بن عبد السلام الإمام الشافعى المشهور نزيل القاهرة سنة ٦٤٠ وقد ظل فيها علما كبيرًا فى الفقه الشافعى وغيره ، وله كتاب منشور سماه الإشارة إلى الايجاز فى بعض أنواع المجاز ، وهو بذلك كتاب فى علم البيان ، وقد قصره على إحصاء دقيق لأمثلة المجاز فى الذكر الحكيم ، عُنى فيه بالأمثلة أكثر مما عنى بالقواعد وتفاريعها الكثيرة المعروفة فى علم البيان .

وأهم من العز بن عبد السلام فى ميدان التأليف بمصر فى البلاغة وفنون البديع معاصران له هما أحمد بن يوسف التيفاشى المغربى الجزائرى نزيل مصر المتوفى سنة ٦٥١ وابن أبى الإصبع المصرى المتوفى سنة ٦٥٤ . أما التيفاشى فذكرنا عنه فى غير هذا الموضع أنه نزل مصر فى باكورة شبابه وأنها تعهدته حتى أصبح عالمًا لا يُشَقُّ غباره فى التاريخ الطبيعى والجيولوجيا وكان أديبا وعُنى بالتأليف فى البديع وألف فيه كتابا أحصى فيه سبعين محسنا من المحسنات البديعية ، وسقط الكتاب من أيدى الزمن . أما ابن أبى الإصبع فيُعَدّ أكبر بلاغى ظفرت به مصر فى القرن السابع الهجرى ، وله كتابان : تحرير التحبير فى صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ، وكتاب بديع القرآن . والكتابان جميعا فى دراسة البديع وألوانه فى الشعر والنثر وآى القرآن الكريم ، وواضح من عنوان ثانيهما أنه خاص ببديع الذكر الحكيم ، والكتابان منشوران بالقاهرة . ويذكر ابن أبى الإصبع فى تقديمه للكتابين مصادره ومنها نتبيّن أنه لم يكد يترك كتابا ألف فى البلاغة وفنون البديع وإعجاز القرآن الكريم إلا رجع إليه ، من ذلك نظم القرآن للجاحظ وبديع ابن المعتز ونقد الشعر لقدامة وحلية المحاضرة للحاتمى والمنصف لابن وكيع المصرى والصناعتين لأبى هلال العسكرى والنكت فى إعجاز القرآن للرمانى وإعجاز القرآن للباقلانى والمجاز للشريف الرضى والموازنة للآمدى والوساطة لعلى بن عبد العزيز الجرجانى والعمدة لابن رشيق وسرُّ الفصاحة لابن سنان الخفاجى ودلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجانى والكشاف للزمخشرى ونهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز للفخر الرازى والمثل السائر لابن الأثير وبديع شرف الدين التيفاشى إلى غير ذلك من مصنفات كثيرة . وإنما ذكرنا الأمهات لندل على أن كتب البلاغة والبديع كانت تدرس فى مصر ، وكان المصريون يعكفون على قراءتها فهما وفقها ودراسة واستنباطا . ويعرض ابن أبى الإصبع فى كتابه

---

(١) انظر ترجمة ابن شيث فى فوات الوفيات ١ / ٥٦٠ وشذرات الذهب ٥ / ١١٧ والطالع السعيد للادفوى ١٦٠ وكتابه : « معالم الكتابة » طبع ببيروت سنة ١٩١٣ .

تحرير التحبير الألوان البديعية التي اختص بها ابن المعتز ، ثم يعرض الألوان العشرة التي انفرد بها قدامة وقد بلغت جميعا ثلاثين لونا ، ويسمي هذه الألوان الأصول ، حتى إذا انتهى من عرضها أتبعها بالفروع التي ذكرها المؤلفون حتى زمنه وقد بلغت ستين محسنا ، ويتلوها بثلاثة محسنات نقلها عن بديع الإجدابي ، وبذلك تبلغ الألوان البديعية ثلاثة وتسعين لونا ، ويتلوها بثلاثين لونا من عمله واكتشافه ، سلَّم له البلاغيون منها نحو عشرين محسنا ، وقالوا إن الباقي إما مسبوق إليه أو مدخول عليه[1] . وصنف بعد هذا الكتاب كتابه الثاني « بديع القرآن » ذكر فيه أولا – كما قلنا آنفا – أصول المحسنات البديعية عند ابن المعتز وقدامة ، ثم مضى في ذكر المحسنات الفرعية حتى بلغ بها مائة محسن وتسعة . ويلاحظ أنه أدخل في تلك المحسنات الصور البيانية وطائفة من أبواب علم المعاني كالتكرار والتفصيل والإيضاح والبسط أو الإطناب والإيجاز وبذلك وسع مدلول المحسنات البديعية وظل ذلك عند أصحاب البديع من بعده .

وتُشْغَلُ مصر طويلا بكتابي ابن أبي الإصبع ، حتى إذا كنا في منتصف القرن الثامن الهجري وجدناها تُسهم في العناية بمباحث المشارقة في البلاغة وعلومها الثلاثة : المعاني والبيان والبديع . وكان الخطيب القزويني قد لخص القسم الثالث من مفتاح العلوم للسكاكي . وهو القسم الخاص بعلوم البلاغة ، وأحسن في هذا التلخيص إلى حد بعيد . مما جعل الشراح يعنون بتفسيره والتعليق عليه ، ويُعْنَى بذلك شارح مصري هو أحمد[2] بن علي بن عبد الكافي السبكي المتوفى سنة ٧٧٣ ويسمي شرحه « عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح » ونراه في فواتحه يشيد بالمصريين وما طُبعوا عليه من الذوق السليم الذي أغناهم عن التعمق في مباحث السكاكي البلاغية وشراحه الإيرانيين لاهتمامهم جميعا بالعلوم العقلية والفلسفية ، ويصور عمله في شرحه قائلا : « اعلم أني مزجت قواعد هذا العلم (علم البلاغة) بقواعد الأصول والعربية .. وضمنته شيئا من القواعد المنطقية والمعاقد الكلامية والحكمة الرياضية أو الطبيعية » . وكأنما أعْدَتْهُ في شرحه طريقة المشرقيين أو المشارقة ، فعاد يصل في شرحه بين البلاغة وعلوم المنطق والكلام والفلسفة الطبيعية والرياضية ، مما أصاب البلاغة ومباحثها بالجفاف في مصر كغيرها من بلدان المشرق . وكانت قد أخذت تظهر بديعيات مختلفة وهي مدائح نبوية تشتمل المدحة منها على محسنات البديع ، بحيث

(١) نفحات الأزهار على نسمات الأسحار (طبع دمشق) ص ٣ .

(٢) انظر في ترجمة السبكي ترجمة أبيه في طبقات الشافعية ١٠ / ١٣٩ وراجعه في الدرر الكامنة ١ / ٢١٠ وشذرات الذهب ٦ / ٢٢٦ والنجوم الزاهرة ١١ / ١٢١ وإنباء الغمر بأبناء العمر لابن حجر ١ / ٢١ .

يضم كل بيت محسنا من تلك المحسنات . وصُنعت لتلك البديعيات شروح تفسرها وتعرض أمثلتها . ولم تسارع مصر إلى المشاركة فى هذه البديعيات التى أخذت تظهر منذ القرن السابع الهجرى ، حتى إذا كنا بأخرة من زمن المماليك وجدنا السيوطى ينظم بديعية يسميها « نظم البديع فى مدح خير شفيع » وله عليها شرح . وتليها بديعية لعائشة الباعونية المتوفاة سنة ٩٣٠ . وتعتنى مصر زمن العثمانيين بتلخيص الخطيب القزوينى وشروحه وخاصة شرح السبكى والسعد التفتازانى .

وإذا كانت المباحث البلاغية تأخرت فى مصر لهذا العصر فإن المباحث النقدية شاركتها فى هذا التأخر ، ويلقانا فى أوائل العصر – كما مرَّبنا آنفا – كتاب المنصف لابن وكيع فى بيان سرقات المتنبى ومشكل شعره ، وقد ذكرنا أنه احتوى على مقدمة فى فنون البديع ، وذهب بلاشير إلى أنه ألفه انتصارًا لابن حنزابة وزير كافور إذ ترفع المتنبى عن مدحه فأغرى ابن وكيع بنقده[1] . وهو يذكر فى تقديمه لكتابه أن جماعة بالغوا فى مديح المتنبى حتى فضلوه على جميع الشعراء بنتائج فكره وبدائع معانيه ، فأراد أن يكشف عن مدى تقليده ومحاكاته لمن تقدموه ، ويقدم لكلامه بمبحث عن السرقات يصنفها فيه عشرين صنفا . وتحدث حديثا مجملا – عرضنا له – عن فنون البديع ، ثم أخذ يفيض فى سرقات المتنبى متعقبا لها فى قصائده مع ترتيبها ترتيبا تاريخيا . وهو بحث قيم بالقياس إلى غيره من بحوث معاصريه ومن جاء بعدهم ممن عنوا ببيان سرقات المتنبى ، إذ يدل على كثرة محفوظه وفطنته ودقته فى الفهم . وقديما قلنا إن نقادنا القدماء كان ينبغى ألَّا يتوسعوا فى بحث سرقات الشعر هذا التوسع كما كان ينبغى أن ينحوّا عنه كلمة السرقة ويسموه التحوير الفنى ، ويحاولوا أن يتبينوا مدى قدرة الشاعر على هذا التحوير . ونعجب أن يحاول ابن وكيع بيان الإسفاف عند المتنبى وضعفه اللغوى لبيت وقع عليه عفوا هنا أو هناك ، والشاعر لا يقاس ببعض عثرات له نَدَّتْ عنه ، وإنما يقاس بروائع أبياته وفرائدها البديعة . وهذا وأشباهه عند ابن وكيع جعل ابن جنى يؤلف كتابا فى النقض على ابن وكيع فى شعر المتنبى وتخطئته[2] كما جعل ابن رشيق يقول عنه : « ما أبعد الإنصاف منه »[3] . وربما جرَّ ابن وكيع إلى ذلك كله أنه كان شاعرا من ذوق غير ذوق المتنبى فأسرف فى التحامل عليه . ولم يؤدِّ كتاب المنصف غايته من الهبوط فى مصر بمنزلة المتنبى فقد مضى كثيرون يبالغون فى تشيعهم له ، مما جعل العميدى[4] محمد بن أحمد كاتب

(١) انظر أبو الطيب المتنبى لبلاشير ترجمة الدكتور إبراهيم الكيلانى (طبع دمشق) ص ٤٨٧ .

(٢) معجم الأدباء ١٢ / ١٠٣

(٣) العمدة لابن رشيق ٢/٢١٦ .

(٤) انظر العميدى فى معجم الأدباء ١٧ / ٢١٢ وإنباه الرواة ٣ / ٢٤٦ وبغية الوعاة للسيوطى ١٩ .

الإنشاء فى دواوين الفاطميين المتوفى سنة ٤٣٣ يكتب بحثا ثانيا فى سرقاته باسم « الإبانة عن سرقات المتنبى » وهو يطيل فى عرض هذه السرقات – كما تتراءى له – مع كثير من الغمز واللمز والتجريح للشاعر الكبير ، ويعرض – كما عرض ابن وكيع – لبعض عيوبه اللغوية .

ومازالت مصر معنية بالبحث فى السرقات ويقف عندها مرارا ابن منجب الصيرفى فى رسائله ، ومازالت معنية بالمتنبى ، بل إنها لتمد عنايتها إلى جميع شعراء العالم العربى . ونرى أضواء من ذلك كثيرة فى كتاب فصوص الفصول[1] لابن سناء الملك شاعر صلاح الدين ، إذ نراه يجمع فيه بعض الرسائل المتبادلة بينه وبين القاضى الفاضل ، وفيها يعرضان كثيرا لشعراء العالم العربى . ومن طريف ما ذكره ابن سناء الملك فيها أنه سأل القاضى الفاضل لماذا يدور شعر المتنبى على كل لسان ، فقال لأنه يشتمل على ما يدور بخواطر الناس من أفكار ، يقصد حكمه البديعة . وسأله القاضى الفاضل أن ينتخب مختارات من شعر ابن الرومى فاعتذر عن ذلك بأنه « ليس من أهل اختياره ، ولا من الغواصين الذين يستخرجون الدر من بحاره ، لأن بحاره زخّارة ، وأسوده زآرة ، ومعدن تِبْره مردوم بالحجارة ، وعلى كل عقيلة ألف نقاب بل ألف ستارة ، يطمع ويؤنس ، ويوحش ويؤنس ، وينير ويظلم ، ويصبح ويعتم ، شذرة وبدرة ، ودرة وآجرّه ، وقبلة بجانبها لسعة » ، وابن سناء الملك بذلك عبر فى وضوح عن مدى التفاوت بين أشعار ابن الرومى ، وهو نقد دقيق ، وسأله القاضى الفاضل مرة أخرى صُنْع منتخب لشعر ابن رشيق ، فصنعه ، وذكر له فى إحدى رسائله ذلك كما ذكر له أن شعره مسروق من شعر ابن المعتز والمتنبى ، يقول : « ولو لم يخلق الله ابن المعتز والمتنبى لما كان ابن رشيق يعرف الشعر فضلا عن أن ينظمه أو يعلمه ، وهو ينهب أشعار هذين الرجلين نهبا قبيحا ولا سيما ابن المعتز » . وينوِّه ابن سناء الملك مرارا فى الرسائل بابن المعتز والبحترى . وقد حملت فيما حملت نظرات نقدية للقاضى الفاضل أحيانا فى بعض أبيات لابن سناء الملك ، وأورد القلقشندى فى صبحه نموذجا[2] من هذه الرسائل المتبادلة بين الأديبين الكبيرين ، إذ أورد رسالة نقد فيها القاضى الفاضل بيت ابن سناء الملك :

صِلِيني وهذا الحسنُ باقٍ فربما ... يُعزَّل بَيتُ الحسن منه ويُكْنَسُ

لذكره فيه كلمة « يكنس » المبتذلة ، وردَّ عليه ابن سناء الملك بأنه إنما تابع فى ذلك ابن المعتز فى قوله :

(١) منه مخطوطة بدار الكتب المصرية .

(٢) انظر صبح الأعشى ٢ / ٢٤٩ – ٢٥٢ .

وقَوامى مثلُ القَناة من الخَـــــطِّ وخَدِّى من لِحْيَتِى مكنوسُ

وكأنه يريد أن يقول للفاضل إن الكلمة استعملها ابن المعتز من قبله وأصبحت بذلك كلمة شعرية ولا بأس على شاعر من استعمالها .

وابن سناء الملك أكبر رمز مصرى فى العصر لاتصال شعراء مصر ونقادها بالأدب الأندلسى ، فقد درس موشحات الأندلسيين ، ولم يكونوا قد وضعوا عروضها فوضعه لها ، وكأنه يحلّ من عروض الموشحات الأندلسية محل الخليل بن أحمد من عروض الشعر العربى ، وستحدث بشىء من التفصيل عن ذلك فى الفصل التالى .

وقد شغل ابن سناء الملك النقاد فى زمنه وبعد زمنه . لا بما وضعه من عروض الموشحات فحسب ، بل أيضا بشعره ، فقد كان أنبه شاعر أنجبته مصر حتى أيامه ، فشغل النقاد طويلا بأشعاره ، وفيه وضع ابن جُبارة[1] على بن إسماعيل مواطنه المتوفى سنة ٦٣٢ كتابه « نظم الدر فى نقد الشعر » وهو فى نقد أشعار ابن سناء الملك ، والكتاب مفقود ، غير أن الصفدى فى كتابه « الغيث المسجَّم » الذى وضعه فى شرح لامية العجم نقل عنه أطرافا من نقده لبعض أبيات ابن سناء الملك ، ونراه فيها متحاملا عليه تحاملا شديدا أوكما قال الصفدى فى نكت الهميان « متعنتا تعنتا زائدا » . من ذلك قول ابن سناء الملك :

بِشَوْكِ القَنا يَحْمُون شَهْدَ رُضابِها ولابُدَّ دون الشَّهْد من إِبَرِ النَّحْلِ

يصف فى البيت منعة صاحبته وأن أحدًا لايستطيع أن يقترب من حماها لبأس قومها وخشيةً من رماحهم أن تسفك دمه . وتوقَّف ابن جبارة بإزاء البيت[2] وقال إنه أراد أن يمدح قوم صاحبته فهجاهم بالمثل المضمن آخر بيته الذى جعله كفن مُيته لأنه جعل طعن رماحهم كإبر النحل ، يقول ابن جبارة : وإبرة النحل لا أثر لها ولا ألم يحصل منها . ويرد عليه الصفدى قائلا : أما كونه يدعى أنه لا ألم فى إبر النحل ولا ضرر فى الزنابير فهذا مما لم يسمع ، وهو تحامل أليس فى إبر النحل والزنابير سُمٌّ يمنع القرب منه والدنو إليه ، وغالب الناس يهاب ذلك ولا يقدم عليه ، وربما لسع الزنبور بعض الناس فتورَّم منه ومات . ورد عليه أيضا ما قاله من أنه شبَّه طعن رماح القوم بإبر النحل فهو لم يعقد فى البيت تشبيها ، وإنما جاء بمثل ليدل على أن حلاوة ريق صاحبته

---

(١) انظر فى ابن جبارة نكت الهميان ص ٢٠٨ وبغية الوعاة ص ٣٢٩ .

(٢) الغيث المسجم شرح لامية العجم (طبع مطبعة بولاق) ١ / ٢٢٤ .

لا تُنال إلا بعد مشقة . وأنكر ابن جبارة فى البيت أيضا كلمة « بشوك القنا » وقال الصفدى ردا عليه إنها استعارة حسنة ، وأنشد بيتين للأرجانى وابن خفاجة شبها فيهما القنا بالشوك . وتوقف ابن جبارة بإزاء[١] بيتٍ نظم ابن سناء الملك قصيدته فى مديح القاضى الفاضل ، إذ يقول :

يَقِرى الضيوفَ شعاعَ تِبْرٍ أحمرٍ   فشعاعُ ذاك التِّبْر نيرانُ القِرَى

وحاول فى أول نقده أن يثبت سرقة ابن سناء الملك للبيت من بيت لابن عمار وآخر للمتنبى . وقال الصفدى : إن هذا تعنت زائد إذ ليس للبيت علاقة بما قاله الشاعران . ويسترسل ابن جبارة فى نقده للبيت فيقول : قوله : « يقرى الضيوف شعاع تبر أحمر » . التبر لا يكون إلا كذاك (أى أحمر) وإنما قصد المبالغة وشبه ذلك بشعاع النار التى توقد على اليفاع ليهتدى بها الحيران . وتهتدى إلى مواضعها الضيفان ، وقد جعله يدفع إلى الضيوف صلة الإنعام ويمنعهم من الطعام . يقول الصفدى : وهذا تعنت لأن التبر منه ما يكون أصفر أو أخضر ومنه ما يكون أحمر وهو المضروب وإنما سماه ابن سناء الملك تبرا مجازا ، ولولا ان هذا لازم لما قيل فى بعض المواطن الذهب الأحمر كما يقال الثلج الأبيض . وعلى هذا النحو لايزال الصفدى يرد على ابن جبارة بعض تعنته وتحامله على ابن سناء الملك . ويفهم من كلام الصفدى أن ابن جبارة كان يستعرض بعض قصائد الشاعر . ومايزال يعلق على طائفة من أبياتها بتحامل شديد .

ولا شك فى أن النقد الأدبى المصرى فى هذا العصر خسر كثيرا بسقوط هذا الكتاب النقدى من يد الزمن . ومن المؤكد أننا لا نستطيع الحكم عليه بدقة من خلال ما نقله عنه الصفدى . وهو فعلا لم يتوسع فى نقله . ولعلنا لانبعد إذا قلنا إن أهم كتاب ظهر بعد كتاب ابن جبارة هو كتاب خبز الشعير لابن نباتة المتوفى سنة ٧٦٨ وهو أهم شعراء مصر فى زمن المماليك ، وكانت قد حدثت جفوة بينه وبين تلميذه الصفدى بسبب بحث كتبه عن سرقاته من الشعراء السابقين فألف هذا الكتاب موضحا فيه سرقات الصفدى لأشعاره ومعارضته لبعض قصائده .وفى مقدمته[٢] يقول : إنه ليس للصفدى من جيد الأشعار لمعة إلا ومن لفظه مِشْكاتها. ومضى يذكر الأصل[٣] من أبياته أو الأصول ، ثم الفرع أو الفروع من أبيات الصفدى . وفى صبح الأعشى دراسة[٤] نقدية

(١) الغيث المسجم ١ / ٢٦٤ وانظر ١ / ١٢٨ ، ٢٤٣ .

(٢) الكتاب مفقود غير أن ابن حجة الحموى احتفظ فى خزانته (طبعة المطبعة الخيرية بالقاهرة) بمقدمة الكتاب ص ١٥ .

(٣) فى الخزانة جملة كبيرة من هذا الكتاب انظر الصفحات ٢٨٥ – ٢٨٩ .

(٤) انظر صبح الأعشى ٢ / ١٩٢ – ٣٣٨ .

طريقة للمعانى والألفاظ وقبحها وما يداخلها من الغرابة والابتذال والإيجاز والإطناب ، وقد امتدت عنده إلى نحو مائة وأربعين صحيفة . ونلتقى فى أيام العثمانيين بشهاب الدين الخفاجى وكتابه « ريحانة الألبا » الذى ترجم فيه لشعراء زمنه فى الشام والمغرب والحجاز واليمن ومصر ، وقد بثَّ فيه ملاحظات نقدية كثيرة .

٤

علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

أخذ المصريون يعنون بقراءات الذكر الحكيم منذ أخذ الصحابة الذين نزلوها يعلمونه لهم . وأسهم معهم فى هذا الصنيع التابعون من مثل عبد[١] الرحمن بن هرمز تلميذ أبى الأسود الدؤلى نزيل الإسكندرية المتوفى سنة ١١٧ للهجرة . ورحل كثير من المصريين إلى المدينة فى القرن الثانى لحمل قراءة إمامها نافع الذى طبقت شهرته فى القراءات العالم الإسلامى حتى وفاته سنة ١٦٩ . وأشهر تلاميذه بمصر من حملة قراءته ورش[٢] عثمان بن سعيد المتوفى سنة ١٩٧ وكان ماهرا فى العربية . وإليه انتهت رياسة الإقراء بالديار المصرية ، وحمل عنه قراءته أهل المغرب كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع ، ولايزالون يقرءون بها إلى اليوم . ومن أهم تلاميذه المصريين عبد[٣] الصمد بن عبد الرحمن بن القاسم أبو الأزهر المتوفى سنة ٢٣١ ويقول السيوطى : وعنه انتشرت قراءة ورش فى الأندلس فقد حملها إليه تلاميذه . ويبدو أن مصر مضت طوال القرن الثالث الهجرى تعنى بالقراءات وحَمْلها عن كبار القراء ، كما تعنى بما يؤلَّف فيها من مصنفات ، يدل على ذلك أقوى الدلالة أنه بمجرد أن صنف أبو بكر بن مجاهد المتوفى سنة ٣٢٤ كتابه السبعة فى القراءات الذى جمع فيه قراءات نافع إمام أهل المدينة وابن كثير إمام أهل مكة وأبى عمرو بن العلاء إمام أهل البصرة وعاصم وحمزة والكسائى أئمة أهل الكوفة وابن عامر إمام أهل الشام نجد عالما مصريا معاصرا له من علماء القراءات هو أبو غانم المتوفى سنة ٣٣٣ يؤلف كتابا فى اختلاف السبعة[٤]

---

(١) سبقت مصادر ترجمته ص ١٠٨ .

(٢) انظر فى ورش حسن المحاضرة ١ / ٤٨٥ وطبقات القراء ١ / ٥٠٢ .

(٣) انظر فى عبد الصمد حسن المحاضرة ١ / ٤٨٦ وطبقات القراء ١ / ٣٨٩ .

(٤) حسن المحاضرة ١ / ٤٨٨ وانظر طبقات القراء ٣٠١/٢ حيث يذكر تلمذته لأحد تلاميذ ابن مجاهد .

المذكورين ، وقد أحصى السيوطى ١٣٥ قارئا ممن تصدروا للقراءات بمصر حتى زمنه . ولا ريب فى أنه كان وراءهم كثيرون لم يبلغوا مبلغهم فى الشهرة ، ولن نستطيع أن نقف عندهم جميعا إنما نكتفى منهم بمن تركوا فى القراءات مصنفات طارت شهرتها فى العالم الإسلامى . وأول من نقف عنده عبد[1] المنعم بن غلبون المتوفى سنة ٣٨٩ صاحب كتاب الإرشاد ثم ابنه طاهر[2] المتوفى سنة ٣٩٩ صاحب كتاب التذكرة فى القراءات الثمان ، وعليه تخرج أبو عمرو الدانى أكبر قراء الأندلس فى زمنه صاحب كتاب التيسير وغيره كما تخرج عليه وعلى أبيه مكى بن أبى طالب القيروانى نزيل قرطبة صاحب كتاب التبصرة وغيره . ونمضى فى القرن الخامس فنلتقى بعبد[3] الجبار الطرسوسى المتوفى سنة ٤٢٠ صاحب كتاب المجتبى ، كما نلتقى بالحسن[4] بن محمد البغدادى المالكى نزيل مصر المتوفى سنة ٤٣٨ صاحب كتاب الروضة ، ونلتقى بإسماعيل[5] بن خلف المتوفى سنة ٤٥٥ وكتابه « العنوان » . ونلتقى بعده بموسى بن الحسين المعروف باسم المعدل المصرى وكتابه الروضة فى اختلاف الأئمة القراء الخمسة عشر[6] ، ونلتقى فى القرن السادس بابن الفحام[7] شيخ الإسكندرية المتوفى سنة ٥١٠ وكتابه التجريد ، كما نلتقى بابن[8] بليمة القيروانى نزيل الإسكندرية المتوفى سنة ٥١٤ وكتابه تلخيص العبارات .

ويلقانا أيام الأيوبيين علم كبير من أعلام القراءات هو الإمام الشاطبى[9] الضرير المتوفى بالإسكندرية سنة ٥٩٠ وقصيدته « حِرْز الأمانى » المعروفة باسم الشاطبية نسبة إليه ، وقد عنى بشرحها كثيرون من أئمة القراء وفى مقدمتهم تلميذه العلم[10] السخاوى المتوفى — كما مر بنا — سنة

---

(١) راجع فى عبد المنعم بن غلبون حسن المحاضرة ١ / ٤٩٠ وطبقات القراء ١ / ٤٧٠ والنشر فى القراءات العشر ١ / ٧٩ .

(٢) انظر فى طاهر حسن المحاضرة ١ / ٤٩١ وطبقات القراء ١ / ٣٥٦ والنشر فى القراءات العشر ١ / ٧٣ .

(٣) انظر فى الطرسوسى حسن المحاضرة ١ / ٤٩٢ وطبقات القراء ١ / ٣٥٧ والنشر ١ / ٧١ .

(٤) راجع فى الحسن بن محمد حسن المحاضرة ١ / ٤٩٣ وطبقات القراء ١ / ١٣٠ والنشر ١ / ٧٤ .

(٥) انظر فى ابن خلف حسن المحاضرة ١ / ٤٩٤ وطبقات القراء ١ / ١٦٤ والنشر ١ / ٦٤ .

(٦) انظر فى المعدل المصرى طبقات القراء ٢ / ٣١٨ والنشر فى القراءات العشر ١/٦٦ .

(٧) راجع فى ابن الفحام حسن المحاضرة ١ / ٤٩٥ وطبقات القراء ١ / ٣٧٤ والنشر ١ / ٧٥ .

(٨) انظر فى ابن بليمة حسن المحاضرة ١ / ٤٩٤ وطبقات القراء ١ / ٢١١ والنشر ١/٧٢ .

(٩) راجع فى الشاطبى حسن المحاضرة ١ /٤٩٦ وطبقات القراء ٢ /٢٠ وطبقات الشافعية ٧ / ٢٧٠ ونكت الهميان ص ٢٢٨ ومعجم الأدباء ٢٩٤/١٦ والنشر ٦١/١ .

(١٠) راجع مصادر ترجمته فى ص ١١٨

٦٤٣ وله فى القراءات كتاب جمال القراء وكمال الإقراء . وكان يعاصره عبد الرحمن [١] بن إسماعيل الصفراوى الإسكندرى المتوفى سنة ٦٣٦ صاحب كتاب الإعلان . ويتوالى التأليف فى القراءات ونلتقى بابن الجندى المتوفى سنة ٧٦٠ وكتابه البستان ، وبشرح للسيوطى على الشاطبية . ويختم الإمام شهاب [٢] الدين القسطلانى المتوفى سنة ٩٢٣ زمن المماليك بكتابه الرائع : « لطائف الإشارات لفنون القراءات » وفيه يجمع طرق القراءات الأربع عشرة ، بإضافة قراءات أبى جعفر يزيد بن القعقاع المدنى ويعقوب بن إسحق البصرى وخلف بن هشام الكوفى المكملين للعشرة ، وإضافة قراءات ابن محيصن المكى واليزيدى البصرى والحسن البصرى والأعمش الكوفى إلى ما ذكرناه آنفا من قراءات السبعة الذين صنف فيهم ابن مجاهد كتابه . ويظل التأليف فى القراءات لزمن العثمانيين ناشطا ومن أهم ما ألف فى زمنهم كتاب إتحاف البشر وهو يُعْنى بعرض ألقراءات الأربع عشرة ألفه البناء أحمد بن محمد الدمياطى المتوفى سنة ١١١٧ .

ومعروف أنه تكوَّنت علوم كثيرة حول القرآن الكريم ، ونجد مصر تشاطر فيها مشاطرة واضحة منذ القرن الثالث الهجرى ، ولا يلبث أبو جعفر النحاس الذى مر ذكره أن يؤلف فى جوانب منها . فقد ألف كتابا فى الناسخ والمنسوخ وكتابا فى الوقف والابتداء وألف كتابا – كما مر بنا – فى إعراب القرآن وهو أحد الأصول المهمة فى هذا الموضوع . وظلت مصر تُعْنَى بعلوم القرآن من بعده وتصنِّف فيها مصنفات مختلفة تتصل بتجويده وبناسخه ومنسوخه ولغاته وغريبه وأسباب نزوله وما فيه من الوقف والابتداء والصور البلاغية إلى غير ذلك من علومه المتنوعة . ويطول الحديث لو أنا تتبعنا ما كتبته مصر بهذا العصر من تلك العلوم ، ولكن نكتفى بالإشارة إلى كتابين هما البرهان فى علوم القرآن لبدر [٣] الدين الزركشى المتوفى سنة ٧٩٤ والإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ، وهما يعرضان مادة هذه العلوم وما أُلّف فيها حتى نهاية القرن التاسع إذ توفى السيوطى كما مر بنا سنة ٩١١ .

ومن أهم هذه العلوم علم التفسير . وطبيعى أن تُعْنَى به مصر منذ دخلت فى الإسلام حتى تفهم

---

(١) انظر فى الصفراوى حسن المحاضرة ١ / ٤٥٦ وشذرات الذهب ٥ / ١٨ .

(٢) راجع فى القسطلانى الضوء اللامع جـ ٢ رقم ٣١٣ والشذرات ٨ / ١٢١ والبدر الطالع ١ /١٠٢ . .

(٣) انظر فى الزركشى الدرر الكامنة ٤ / ١٧ وشذرات الذهب ٦ / ٣٣٥ وحسن المحاضرة ١ / ٤٣٧ وإنباء الغمر بأبناء العمر ١ / ٤٤٦ .

آى الذكر الحكيم ، وكان حُفَّاظها يروون خلفاً عن سلف ما قيل فى معانى آى الذكر الحكيم ، واشتهر بها فى القرن الثانى طريق وثيق عن ابن عباس المشهور بتفسير القرآن الكريم ، هو طريق على بن أبى طلحة الهاشمى وفيه يقول أحمد بن حنبل : « إن بمصر صحيفة فى التفسير رواها على بن أبى طلحة الهاشمى لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصدا ما كان كثيرا » . ويذكر السيوطى أن البخارى اعتمد على هذه الرواية كثيرا فى صحيحه فيما يعلقه عن ابن عباس[١] . وكأنها بعض ما حمله البخارى عن مصر فى رحلته إليها لتدوين الحديث عن جلَّة رواته فيها . وتظل مصر معنيَّةً بالقرآن وتفسيره وأحكامه ، ويؤلف أبو جعفر الطحاوى الفقيه الحنفى المتوفى سنة ٣٢١ كتابا فى أحكام القرآن . ويعنى أبو جعفر النحاس بعلوم القرآن ، ولا يلبث أحد تلاميذه ، وهو أبو بكر الإدفوى[٢] محمد بن على المصرى المقرئ المتوفى سنة ٣٨٨ أن يؤلف فى التفسير كتابا ضخما يقول المترجمون له إنه كان فى مائة وعشرين مجلدا ، وسماه كتاب الاستغناء فى علوم القرآن ، وأهم تلاميذه الحوفى المار ذكره بين النحاة ، وله كتاب البرهان فى تفسير القرآن فى ثلاثين مجلدا ويقول القفطى : صنَّف كتابا كبيرا فى إعراب القرآن فى عشرة مجلدات . وهو وأستاذه أهم المفسرين فى زمن الفاطميين ، وممن نلتقى به فى زمن الأيوبيين المرسى[٣] السلمى محمد بن عبد الله نزل مصر واستقر بها سنة ٦٢٤ وتوفى سنة ٦٥٥ وله تفسير كبير فى أكثر من عشرين جزءا سماه « رى الظمآن فى تفسير القران » . وكان يعاصره العز بن عبد السلام الفقيه الشافعى المشهور وله تفسير ، منه مخطوطة بدار الكتب المصرية ، بناه على الوجوه البيانية والبلاغية فى آى الذكر الحكيم .

ونمضى فى زمن المماليك ونلتقى بالقرطبى[٤] محمد بن أحمد نزيل مصر والمستقر بمدينة المنيا (منية الخصيب فى الصعيد) المتوفى سنة ٦٧١ وله التفسير المشهور المسمى « جامع أحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة وآى القرآن » . ويلقانا بعده ابن[٥] المنير أحمد بن محمد الإسكندرى المتوفى سنة ٦٨٣ وله تفسير سماه « البحر الكبير فى نُخَب التفسير » وكتاب ثان تتبع فيه

(١) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ٢ / ٢٢٣ .

(٢) انظر الإدفوى فى طبقات المفسرين للسيوطى وحسن المحاضرة ١ / ٤٩٠ وطبقات القراء ٢ / ١٩٨ .

(٣) راجع فى المرسى السلمى طبقات المفسرين ص ٣٥ ومعجم الأدباء ١٨ / ٢٠٩ وشذرات الذهب ٥ / ٢٦٩ .

(٤) انظر القرطبى فى الديباج المذهب لابن فرحون (طبع فاس) ص ٢٧٩ وطبقات المفسرين للسيوطى ص ٢٨ وشذرات الذهب ٥ / ٣٣٥ .

(٥) راجع ابن المنير فى الديباج المذهب ص ٧٨ وشذرات الذهب ٥ / ٣٨١ والنجوم الزاهرة ٧ / ٣٦١ وفوات الوفيات ١ / ١٣٢ .

آراء الزمخشرى الاعتزالية التى بثَّها فى تفسيره وحاول نقضها بما يتفق وآراء أهل السنة ، سماه الانتصاف من الكشاف وهو مطبوع على هوامشه . ويتلوه ابن[١] النقيب محمد بن سليمان المتوفى سنة ٦٩٨ وله تفسير كبير الحجم سماه « التحرير والتحبير لأقوال أئمة التفسير » وجعل له مقدمة كبيرة تحدث فيها عن الوجوه البلاغية فيه . وقد سقط الكتاب من يد الزمن ، ربما لضخامة حجمه . وكان يعاصره عبد[٢] العزيز الديرينىّ المتصوف المتوفى سنة ٦٩٤ وله المصباح المنير فى علم التفسير ، وأيضا كان يعاصره العلم[٣] العراقى المصرى المتوفى سنة ٧٠٤ وسمى العراقى نسبة إلى جده لأمه ، وكان هذا الجد مصريا غير أنه دخل العراق فلقب بهذا الاسم الذى انتقل إلى حفيده ، وله كتاب فى الانتصار للزمخشرى من ابن المنير وله مختصر فى التفسير .

وأكبر المفسرين فى القرن الثامن أبو حيان الأندلسى وتفسيره البحر المحيط مشهور ، وكان قد اتخذ القاهرة دار مقام له غير أن عداده فى الأندلسيين . وأهم المفسرين بعده جلال الدين السيوطى وله تفسير كبير يسمى « الدر المنثور فى التفسير بالمأثور » مطبوع فى ستة مجلدات . وكان جلال الدين المحلى محمد بن أحمد المتوفى سنة ٨٦٤ فسَّر نحو نصف القرآن من أول سورة الكهف إلى آخره فأكمل تفسيره جلال الدين السيوطى من أول سورة البقرة إلى آخر سورة الإسراء ، وتفسيرهما مطبوع فى جزءين باسم تفسير الجلالين . ويدخل زمن العثمانيين . وأهم المفسرين فيه شمس الدين الخطيب[٤] الشربينى المتوفى سنة ٩٧٧ وله تفسير مطبوع يسمى السراج المنير .

وتموج مصر بحفاظ الحديث النبوى منذ نزلها الصحابة وفى مقدمتهم أبو ذر الذى سكنها مدة وعقبة بن عامر الجُهَنى وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وظل ينزلها كثير من حفاظ التابعين وفى مقدمتهم نافع مولى عبد الله بن عمر بن الخطاب والأعرج عبد الرحمن بن هرمز صاحب أبى هريرة ويزيد بن أبى حبيب . وكثر حفاظ الحديث ورواته فى القرن الثانى الهجرى ، ومن أهمهم أبو زرعة

---

(١) انظر ابن النقيب فى طبقات المفسرين ص ٣٢ وشذرات الذهب ٥/٤٤٢ وفوات الوفيات ٢/٤٣٠ .

(٢) راجع الديرينى فى حسن المحاضرة ١/٤٢١

(٣) انظر فى العلم العراقى حسن المحاضرة ١ / ٤٢١ ونكت الهميان ص ١٩٥ والدرر الكامنة ٣ / ١٣ .

(٤) راجع فى الخطيب الشربينى شذرات الذهب ٨ / ٣٨٤ .

المتوفى سنة ١٥٨ وابن لهيعة المتوفى سنة ١٧٤ والليث بن سعد الفقيه المشهور ، وعبد الله[1] بن وهب وعبد الرحمن بن القاسم تلميذا مالك والإمام الشافعي وتلاميذه : البُوَيطيّ وحَرْملة والمُزَنيّ والربيع . ومن كبار الحفاظ حينئذ أسد السنة المتوفى سنة ٢١٢ وأحمد بن صالح المتوفى سنة ٢٤٨ والحارث بن مسكين المتوفى سنة ٢٥٠ ويونس بن عبد الأعلى المتوفى سنة ٢٦٤ ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٦٨ . ولاشتهار مصر بحفاظ الحديث نزلها فى طلبه من أصحاب الصحاح الستة البخارى ومسلم وأبو داود وابن ماجه والنسائى وقد اتخذها دار مقام له حتى توفى سنة ٣٠٣ ومن مصنفاته : السنن الكبرى والصغرى وهى إحدى الصحاح الستة ، وله مسند على ومسند مالك . ويلقانا الطحاوى الفقيه الحنفى وله فى الحديث كتاب السنن ومعانى الآثار ومشكل الآثار ، وابن حِنْزابة وزير كافور المتوفى سنة ٣٩١ وكان له مجلس لإملاء الحديث فى وزارته ، وسمع الدارقطنى حافظ العراق فى زمنه وصاحب كتاب السنن الكبرى وغيره المتوفى سنة ٣٨٥ أنه يؤلف مسندا فجاء مصر ليعينه ، تموَّل ، وكان فيها يروى الحديث ويمليه ، ويأخذه عن حفَّاظه المصريين ويأخذه المصريون عنه . ومن أهم تلاميذه بمصر عبد[2] الغنى بن سعيد الحافظ المتقن المتوفى سنة ٤٠٩ وله فى الحديث المختلف والمؤتلف فى أسماء الرجال وكتاب مشتبه النسبة . وأشهر المحدثين بمصر فى القرن الخامس تلميذه الحبال[3] الإمام الحافظ المتوفى سنة ٤٨٢ وله مصنفات مختلفة ، وجمع عوالى سفيان بن عُيَيْنة .

ويتزل الإسكندرية سنة ٥٢١ السِّلَفى[4] أكبر الحفاظ فى القرن السادس الهجرى ، وقد قصده طلاب الحديث النبوى من كل فج ، على نحو ما يصور ذلك معجمه ، وهو مطبوع ، وبنى له العادل بن السلار وزير الظافر الفاطمى مدرسة سنة ٥٤٦ ، كما مرّبنا ، وفوَّض أمرها إليه ، وسمع عليه الحديث صلاح الدين الأيوبى حين صارت مصر إليه وبعض أبنائه وأهل بيته ، وظلت إليه

---

(١) هو من أوائل من جمعوا الحديث بمصر ، وقد عثر على كتابه أخيرًا فى ورق بردى بمدينة إدفو فى جنوبى مصر واسمه الجامع فى الحديث ، وهو مكتوب فى القرن الثالث الهجرى ، وقد نشر هذا الكتاب فى المعهد الفرنسى بالقاهرة . وانظر فى ابن وهب حسن المحاضرة ١ / ٣٠٢ ، ٣٤٦ والديباج المذهب ١٨٧ وتهذيب التهذيب ١٠ / ٣٧٢ وميزان الاعتدال للذهبى ٢ / ٨٦ وبروكلمان ٣ / ١٥٥ .

(٢) انظر فى عبد الغنى المنتظم ٧ / ٢٩٠ وابن خلكان ٣ / ٢٢٣ وتذكرة الحفاظ ٣ / ٢٥٠ وشذرات الذهب ٣ / ١٨٨ .

(٣) راجع فى الحبال حسن المحاضرة ١ / ٣٥٣ .

(٤) انظر فى السلفى طبقات المفسرين للسيوطى ص ٥٦ وطبقات الحفاظ له ٢ / ٣٩ وابن خلكان ١ / ١٠٥ وتذكرة الحفاظ وأزهار الرياض ٣ / ١٦٧ - ٢٨٣ وتهذيب ابن عساكر ١ / ٤٤٩ والسبكى ٦ / ٣٢ والأنساب ٣٠٢ وشذرات الذهب ٤ / ٢٥٥ وطبقات القراء ١ / ١٠٢ وميزان الاعتدال ١ / ١٥٥ .

الرحلة فى الحديث حتى توفى سنة ٥٧٦ . ومن أهم تلاميذه أبو الحسن على[1] بن المفضل المالكى المقدسى ثم السكندرى المتوفى سنة ٦١١ تولى القضاء بالإسكندرية ودرَّس بمدرسة ابن شكر فى القاهرة ، وله كتاب الأربعين ، وهو أربعون حديثا عن أربعين شيخا .

ونزل مصر الحافظ ابن دِحْية الأندلسى واستوطنها وتولى بها دار الحديث[2] الكاملية حتى توفى فى سنة ٦٣٣ . وولى مشيخة هذه الدار بعده زكى الدين المنذرى الحافظ الكبير الإمام شيخ الإسلام عبد[3] العظيم بن عبد القوى المصرى الشافعى المتوفى سنة ٦٥٦ .يقول السيوطى إنه انقطع لمشيخة المدرسة الكاملية عشرين سنة ، وكان عديم النظير فى معرفة علم الحديث على اختلاف فنونه متبحرا فى معرفة أحكامه ومعانيه ومشكله قيِّما بمعرفة غريبه ، إماما حجة بارعا فى الفقه والعربية والقراءات . وله كتاب الترغيب والترهيب وهو أحاديث مرتبة حسب الموضوعات للترغيب فى الخير والحق والترهيب من الشر والباطل ، طُبع مرارا . وله فى الفقه شرح على كتاب التنبيه . وأهم تلاميذه الدمياطى[4] شرف الدين عبد المؤمن بن خلف المتوفى سنة ٧٠٥ لازم الحافظ المنذرى واتخذه معيدا له ، وقد ولى مشيخة الظاهرية ودرَّس الحديث فى المدرسة المنصورية : مدرسة المنصور قلاوون ، وتحتفظ دار الكتب المصرية بكثير من مصنفاته فى الحديث .

ومن كبار المحدثين فى القرن الثامن عزالدين بن[5] جماعة الشافعى المتوفى سنة ٧٦٧ ولى القضاء ، واشتهر بإكثاره من سماع الحديث ودرس فى المدرسة الخشابية ، صنَّف تخريج أحاديث الإمام الرافعى الشافعى وغير ذلك . ويعنى بشرح البخارى غير حافظ فى هذا القرن ويكثر التأليف فى الحديث ومصطلحه على نحو ما يلقانا عند مُغْلطاى[6] المتوفى سنة ٧٦٢ يقول السيوطى له أكثر

---

(١) راجع فى ابن المفضل حسن المحاضرة ١ / ٣٥٤ وشذرات الذهب ٥ / ٤٧ .

(٢) ذكر السيوطى فى حسن المحاضرة ٢ / ٢٦٢ ثبتا بمن تولوا هذه الدار من كبار المحدثين .

(٣) انظر فى عبد العظيم طبقات الحفاظ للسيوطى ٢ / ٥٩ والسبكى ٨ / ٣٥٩ وحسن المحاضرة ١ / ٣٥٥ وشذرات الذهب ٥ / ٢٧٧ وتذكرة الحفاظ للذهبى ٤ / ٢٢٨ وفوات الوفيات ١ / ٦١٠ .

(٤) راجع فى الحافظ الدمياطى حسن المحاضرة ١ / ٣٥٧ وطبقات الحفاظ ٢ / ٦٥ والسبكى ١٠ / ١٠٢ وطبقات القراء ١ / ٤٧٢ وتذكرة الحفاظ ٤ / ٢٦٨ والدرر الكامنة ٣٠/٣ وفوات الوفيات ٣٧/٢ والبداية والنهاية ١٤ / ٤٠ والبدر الطالع ١ / ٤٠٣ .

(٥) انظر فى ابن جماعة حسن المحاضرة ١ / ٣٥٩ وشذرات الذهب ٢٠٨/٦ والسبكى ٧٩/١٠ والدرر الكامنة ٤٨٩/٢ .

(٦) راجع فى مغلطاى حسن المحاضرة ١ / ٣٥٩ والدرر الكامنة ٥ / ١٢٢ .

من مائة تصنيف كشرح البخارى وشرح ابن ماجة ، وولى مشيخة الظاهرية للمحدِّثين . ويلقانا بعده الحافظ [١] العراقى المولود بالقاهرة والمتوفى بها سنة ٨٠٦ وله فى الحديث مصنفات مختلفة ، منها منظومة فى ألف بيت اشتهرت مع شرحها فى الآفاق ، ومنها تخريج أحاديث كتاب الإحياء للغزالى . وأهم تلاميذه ابن حجر المتوفى سنة ٨٥٢ يقول السيوطى عنه : « انتهت إليه الرحلة والرياسة فى الحديث فى الدنيا بأسرها . فلم يكن فى عصره حافظ سواه ، وألَّف كتبا كثيرة » مثل فتح البارى فى شرح صحيح البخارى » وهو مطبوع ، وله غير كتاب فى تراجم المحدثين . وأهم الحفاظ بعده السيوطى ، وله شروح على الموطأ لمالك وصحيح البخارى وصحيح مسلم وسنن أبى داود وابن ماجة إلى شروح أخرى كثيرة وإلى كتب فى الحديث ومصطلحه وتخريجاته تعد بالعشرات [٢] . من أهمها جمع الجوامع وهو دائرة معارف كبرى فى الحديث مع رواياته وأسانيده . ومر بنا فى القراء ذكر معاصره شهاب الدين القسطلانى وله إرشاد السارى إلى صحيح البخارى ، وهو مطبوع . ونلتقى فى أيام العثمانيين بعبد الرءوف المناوى المتوفى سنة ١٠٣١ وله « كنوز الحقائق فى حديث خير الخلائق » وهو معجم يشتمل على عشرة آلاف حديث اختارها من أربعة وأربعين كتابا ، وهو مطبوع مراراً . ويموج كتاب تاريخ الجبرتى بأسماء حفاظ الحديث وتلاميذهم وما كانوا يحملون من كتبه ، ونكتفى بذكر أحد أعلامهم ، وهو الحفنى محمد بن سالم المتوفى سنة ١١٨١ فقد ذكر الجبرتى أنه كان من جلة شيوخه الشيخ محمد البديرى الدمياطى ، يقول : « أخذ عنه التفسير والحديث والمسندات والمسلسلات والإحياء للإمام الغزالى وصحيح البخارى وصحيح مسلم وسنن أبى داود وسنن النسائى وسنن ابن ماجة وكتاب الموطأ لمالك ومسند الشافعى والمعجم الكبير للطبرانى والمعجم الأوسط والصغير له أيضا وصحيح ابن حبان والمستدرك للنيسابورى وحلية الأولياء للحافظ أبى نعيم وغير ذلك [٣] » . ولعل فى هذا ما يدل بوضوح على نشاط مصر فى دراسة الحديث النبوى وروايته حتى نهاية هذا العصر ، فقد ظلَّ حفاظه النابهون يُعَدّون بالعشرات .

وكان لمصر نشاط خصب فى الفقه ، ومعروف أن أقدم المذاهب فى النشأة المذهب الحنفى ، وتبعه المذهب المالكى فالمذهب الشافعى فالمذهب الحنبلى ، وتأخرت مصر فى التعرف على مذهب

---

(١) انظر فى العراقى الضوء اللامع للسخاوى ٤ رقم ٤٥٢ وحسن المحاضرة ١ / ٣٦٠ والشذرات ٧ / ٥٥ .

(٢) انظر فى مؤلفات السيوطى فى الحديث كتابه حسن المحاضرة ١ / ٣٤٠ .

(٣) تاريخ الجبرتى ١ / ٢٨٩ .

أبى حنيفة ، إلى أن نزلها بعض قضاة بغداد الأحناف عملا بقرار أبى يوسف تلميذ أبى حنيفة ، وكان مقرَّبًا لهارون الرشيد : أن يكون القضاة فى الدولة العباسية أحنافا . وأهم هؤلاء القضاة الأحناف بكار[١] بن قتيبة الذى تولى قضاء مصر لعهد المتوكل سنة ٢٤٦ وظل بها حتى وفاته سنة ٢٧٠ وله تصانيف فقهية مختلفة . ولم تلبث مصر أن أنجبت إماما حنفيا كبيرا هو الطحاوى[٢] أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة المتوفى سنة ٣٢١ وإليه انتهت رياسة الحنفية بمصر ، وكتبه تُعَدّ مراجع أساسية فى المذهب الحنفى ، ومن أهمها الجامع الكبير فى الشروط وكتاب اختلاف الفقهاء والمختصر فى الفقه وله شروح كثيرة ورسالة فى أصول الدين أو عقيدة أهل السنة والجماعة . وذكرنا آنفا أن له فى الحديث كتاب السنن ومعانى الآثار ومشكل الآثار . ومن أهم تلاميذه إسحق[٣] بن إبراهيم الشاشى السمرقندى المتوفى سنة ٣٢٥ وقد استوطن مصر ، وتولى القضاء بها . ويذكر السيوطى من فقهاء المذهب زمن الفاطميين عبد المعطى[٤] بن مسافر الذى فقه المذهب بموطنه فى الإسكندرية على يد أبى بكر محمد بن إبراهيم الرازى ، وكان ابن مسافر من حملة الحديث النبوى ، ومنه سمع السلفى حين نزل الإسكندرية .

ويأخذ المذهب فى النشاط بمصر منذ أنشأ فيها صلاح الدين المدرسة السيوفية لتدريسه . وقد عين بها عبد[٥] الله الجريرى وظل بها حتى توفى سنة ٥٨٤ . وخلفه فيها - على ما يبدو - عبد[٦] الوهاب بن النحاس الحنفى المعروف بالبدر بن المجن ، وقد ظل يدرس بالسيوفية حتى توفى سنة ٥٩٩ . وممن درسوا المذهب الحنفى بها أبو الحسن[٧] الغزنوى المتوفى سنة ٦٣٢ . ومن كبار فقهاء الأحناف فى العهد الأيوبى يحيى بن معطى المغربى المتوفى سنة ٦٢٨ وأبو[٨] القاسم القوصى المتوفى سنة ٦٤٣ . وينشط المذهب الحنفى بمصر منذ زمن المماليك إذ جعل الظاهر بيبرس القضاء شركة بين أصحاب المذاهب الأربعة : الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية ، فكان لكل مذهب

---

(١) انظر فى بكار حسن المحاضرة ١ / ٤٦٣ وابن خلكان ١ / ٢٧٩ والجواهر المضيَّة فى طبقات الحنفية ١ / ١٦٨ وتاج التراجم فى طبقات الحنفية لابن قطلوبغا ص ١٩ .

(٢) راجع فى الطحاوى تهذيب ابن عساكر ٢ / ٥٤ والمنتظم ٦ / ٢٥٠ وحسن المحاضرة ١ / ٣٥٠ وابن خلكان ١ / ٧١ وطبقات القراء ١ / ١١٦ والجواهر المضيئة ١ / ١٠٢ وتاج التراجم ص ٨ والشذرات ٢ / ٢٨٨ .

(٣) انظر فى إسحق الجواهر المضيَّة ١ / ١٣٦ والفوائد البهية ٢٢ .

(٤) راجع فى ابن مسافر حسن المحاضرة ١ / ٤٦٤ والجواهر المضيَّة ١ / ٣٣٠ .

(٥) انظر فى الجريرى حسن المحاضرة ١ / ٤٦٤ .

(٦) راجع فى ابن النحاس حسن المحاضرة ١ / ٤٦٤ وشذرات الذهب ٤ / ٣٤١ .

(٧) انظر فى الغزنوى حسن المحاضرة ١ / ٤٦٥ والجواهر المضيَّة ١ / ٣٥٢ .

(٨) انظر القوصى فى حسن المحاضرة ١ / ٤٦٥ والجواهر المضيَّة ١ / ٣٠٤ .

قاضيه ، وأيضا فإنه جعل للحنفية نصيبا فى مدرسته الظاهرية وأول حنفى درَّس المذهب بها لأيامه عبد الرحمن بن عمر بن العديم المتوفى سنة ٦٧٧ . وممن درس المذهب بالسيوفية لؤلؤ[١] بن أحمد وأبو بكر[٢] بن محمد الإسنوى . ومن قضاتهم النعمان[٣] بن الحسن المتوفى سنة ٦٩٢ وعلى بن نصر المتوفى سنة ٦٩٥ وله كتاب زوائد الهداية على القدورى . ويُخْتَمُ القرن السابع بابن النقيب الذى مر ذكره بين المفسرين . ومن فقهاء القرن الثامن النابهين احمد[٤] بن إبراهيم السروجى المدرس بالسيوفية المتوفى سنة ٧١٠ وقد ولى القضاء . وله شرح فى كتاب الهداية للمرغينانى . وابن[٥] بلبان المتوفى سنة ٧٣١ وله شرح على الجامع الكبير لمحمد بن الحسن الشيبانى ورتب صحيح ابن حبان على الأبواب وكذلك معجم الطبرانى . وكان يعاصره ابن[٦] التركمانى المتوفى سنة ٧٣١ وكان يدرس المذهب بمدرسة المنصور قلاوون ، وألقى بها شرحا له على الجامع الكبير أملاه دروسا على الطلاب . وأنجب فقيهين : أحمد[٧] المتوفى سنة ٧٤٤ ومن تصانيفه شرح الهداية وشرح الجامع الكبير . وعلى[٨] المتوفى سنة ٧٤٥ وله مختصر الهداية ومختصر علوم الحديث لابن الصلاح ، وتولى قضاء الديار المصرية . وكان يعاصرهما فخر الدين الزيلعى[٩] المتوفى سنة ٧٤٣ وله شرح على كتاب كنز الدقائق فى الفروع للحافظ النسفى سماه تبيين الحقائق على كنز الدقائق طبع بمصر فى ستة أجزاء . ويلقانا السراج[١٠] الهندى قاضى القضاة بالديار المصرية المتوفى سنة ٧٧٣ وله شرح الهداية والشامل فى الفروع وشرح البديع ، وكان يعاصره ابن[١١] أبى الوفا عبد القادر بن محمد المتوفى سنة ٧٧٥ وهو صاحب كتاب الجواهر المضيَّة فى طبقات الحنفية

---

(١) انظر فى لؤلؤ حسن المحاضرة ١ / ٤٦٦ والجواهر المضيَّة ١ / ٤١٦ .

(٢) انظر فى أبى بكر حسن المحاضرة ١ /٤٦٧ .

(٣) راجع فى النعمان حسن المحاضرة ١ / ٤٦٧ والجواهر المضيَّة ٢ / ٢٠١ .

(٤) انظر فى السروجى حسن المحاضرة ١ / ٤٦٨ والجواهر المضيَّة ١ / ٥٣ وتاج التراجم ص ١١ .

(٥) راجع فى ابن بلبان حسن المحاضرة ١ / ٤٦٨ والجواهر المضيَّة ١ / ٣٥٤ وتاج التراجم ص ٤٣ ،

(٦) انظر فى ابن التركمانى حسن المحاضرة ١ / ٤٦٩ والجواهر المضيَّة ١ / ٣٤٥ وتاج التراجم ص ٤٠ والدرر الكامنة ٣ / ٤٩ .

(٧) راجع أحمد فى حسن المحاضرة ١ / ٤٦٩ والجواهر المضيَّة ١ / ٧٧ .

(٨) انظر فى على حسن المحاضرة ١ /٤٦٩ والجواهر المضيَّة ١ /٣٦٦ .

(٩) راجع فى الزيلعى حسن المحاضرة ١ / ٤٧٠ والجواهر المضيَّة ١ / ٣٤٥ والدرر الكامنة ٣ / ٦١ .

(١٠) انظر فى السراج حسن المحاضرة ١ / ٤٧٠ والدرر الكامنة لابن حجر ٣ / ٢٣٠ والفوائد البهية ١٤٩ وإنباء الغمر ١ / ٢٧ .

(١١) راجع فى ابن أبى الوفا حسن المحاضرة ١ / ٤٧١ والدرر الكامنة ٣ / ٦ والفوائد البهية ٩٩ وإنباء الغمر ١ /٦٦ .

المثبوت فى الهوامش . ونلتقى بأكمل[١] الدين البابرتى المتوفى سنة ٧٨٦ وله شروح كثيرة على أمهات كتب الفقه الحنفى منها شرح الهداية وشرح البزدوى .

وما يزال السيوطى فى حسن المحاضرة يعدد فقهاء الحنفية وقضاتهم بالديار المصرية ، حتى نصل ، إلى[٢] ابن الهمام كمال الدين محمد بن عبد الواحد المتوفى سنة ٨٦١ وله مصنفات مختلفة فى مذهبه أهمها فتح القدير ، وهو شرح على كتاب الهداية للمرغينانى ، طبع بمصر فى ثمانية أجزاء . ونلتقى بالقاسم[٣] بن قطلوبغا المتوفى سنة ٨٧٩ وهو صاحب كتاب تاج التراجم فى طبقات الحنفية المذكور فى الهوامش وله مصنفات فقهية مختلفة . ونمضى إلى زمن العثمانيين . وينشط منذ هذا التاريخ بمصر الفقه الحنفى وأصحابه ، إذ كان القضاء فى الدولة العثمانية للأحناف وحدهم . ومن كبار فقهاء الأحناف فى أيامهم زين العابدين[٤] بن نجيم المصرى المتوفى سنة ٩٧٠ وله كتاب الأشباه والنظائر فى الفقه الحنفى ، وهو مطبوع ، وكتاب البحر الرائق على كنز الدقائق وهو مطبوع أيضا فى عدة أجزاء . ومنهم شمس الدين التمرتاشى الغزى المتوفى بالقاهرة سنة ١٠٠٤ وله فى الفقه الحنفى تنوير الأبصار وجامع البحار . ومنهم أبو الإخلاص الشرنبلاوى المتوفى سنة ١٠٦٩ وهو من علماء الأزهر ، وله مصنفات مختلفة فى فقه الأحناف لاتزال مخطوطة ومحفوظة بدار الكتب المصرية . ومنهم السيد أحمد الحموى وله تصانيف عدة ، منها شرح الكنز وحاشية الدرر والغرر ، توفى سنة ١١٤٢ . ويحصى الجبرتى فى تاريخه أسماء كثيرين منهم إلى نهاية الأيام العثمانية .

وكان انتشار المذهب المالكى فى مصر مبكرًا ، وكان بعاصر مالكا فقيه مصرى كبير هو الليث[٥] بن سعد المتوفى سنة ١٧٥ وفيه يقول الشافعى : « الليث بن سعد أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به » يريد أن أصحابه وتلاميذه المصريين لم يحملوا عنه مذهبه . ولو أنهم حملوه

---

(١) انظر فى البابرتى حسن المحاضرة ١ / ٤٧١ والفوائد البهية ١٩٥ وإنباء الغمر ١ / ٢٩٨ .

(٢) انظر فى ابن الهمام الضوء اللامع ٨ رقم ٣٠١ والشذرات ٧ / ٢٩٨ والبدر الطالع ٢ / ٢٠١ وحسن المحاضرة ١ / ٤٧٤ .

(٣) راجع فى ابن قطلوبغا الضوء اللامع ٦ / ٦٣٥ والشذرات ٨ / ٣٢٦ والبدر الطالع ٢ / ٤٥ .

(٤) انظر فى ابن نجيم خلاصة الأثر للمحبى ودائرة المعارف الإسلامية .

(٥) راجع فى الليث تاريخ بغداد ١٣ / ٣ وابن خلكان ٤ / ١٢٧ والنجوم الزاهرة ٢ / ٨٢ وصفة الصفوة ٤ / ٢٨١ وتذكرة الحفاظ ٢٢٥ وميزان الاعتدال ٣ / ٤٢٣ وتهذيب التهذيب ٨ / ٤٥٩ وعبر الذهبى ١ / ٢٦٦ .

لأصبح مذهبا مستقلاً بجانب المذاهب الأربعة ، غير أنهم آثروا عليه مذهب مالك إمام المدينة (دار الهجرة) . وكان من أهم تلاميذ مالك الذين حملوا مذهبه عنه عبد الله بن وهب ، جامع أول كتاب بمصر فى الحديث كما مر بنا آنفا ، وعبد[١] الرحمن بن القاسم المتوفى سنة ١٩١ وقد فرَّع على أصول مذهبه فروعا كثيرة سجلها فى مؤلفه المشهور باسم المدونة ، وعنه حملها سحنون القيروانى إلى تونس موطنه ، ونشر المذهب المالكى هناك ولا يزال غالبا على بلاد المغرب إلى اليوم . وممن تتلمذ عليه وعلى عبد الله بن وهب يحيى بن يحيى الليثى ناشر مذهب مالك فى الأندلس ، وكان قد حضر دروس مالك فى كتابه الموطأ وتفقّه بهذين المصريين[٢] ثم عاد إلى موطنه ينشر المذهب حتى غلب على أهل الأندلس كما غلب على أهل المغرب . ومن كبار تلاميذ مالك المصريين أيضا عبد[٣] الله بن عبد الحكم المتوفى سنة ٢١٤ وإليه أفضت رياسة المالكية فى مصر بعد ابن القاسم وابن وهب ، وخلفه على رياسته ابنه محمد[٤] المتوفى سنة ٢٦٨ . وكان يعاصره الحارث[٥] بن مسكين ، وقد حمله المأمون إلى بغداد فى أيام محنة خلق القرآن ، وسجنه لأنه لم يجب إلى القول بخلقه ، ورد إليه حريته المتوكل وولاه قضاء مصر سنة سبع وثلاثين ومائتين ، وظل يتولى قضاءها ثمانى سنوات ، وتوفى سنة ٢٥٠ . ويعدّ السيوطى فى حسن المحاضرة من تلامذة ابن وهب وابن القاسم وعبد الله بن عبد الحكم خمسة عشر فقيها مالكيا اشتهروا بمصر . وممن نلتقى به فى أوائل القرن الرابع أحمد[٦] بن الحارث بن مسكين ، جلس مجلس أبيه بعده بجامع عمرو يدرس للناس الفقه المالكى حتى توفى سنة ٣١١ . وكثير من الفقهاء حينئذ يُنْسَبُون إلى الإسكندرية والصعيد ، إذ كان المذهب منتشرًا بهما . ومن فقهاء الإسكندرية أبو الحسن[٧] المعافرى قاضيها

---

(١) انظر فى ابن القاسم الديباج المذهب ١٤٦ وابن خلكان ٣ / ١٢٩ وتذكرة الحفاظ ٣٥٦ والتهذيب لابن حجر ٦ / ٢٥٢ والشذرات ١ / ٣٢٩ وحسن المحاضرة ١ / ٣٠٣ .

(٢) المغرب لابن سعيد (نشر دار المعارف) ١ / ١٦٣ .

(٣) انظر فى عبد الله بن عبد الحكم حسن المحاضرة ١ / ٣٠٥ والديباج المذهب ٩٨ وعبر الذهبى ١ / ٣٦٦ وابن خلكان ٣ / ٣٤ وتهذيب التهذيب ٥ / ٢٨٩ والشذرات ٢ / ٣٤ .

(٤) راجع فى محمد حسن المحاضرة ١ / ٣٠٩ والديباج المذهب ٢٣١ والسبكى ٢ / ٦٧ والوافى بالوفيات ٣ / ٣٣٨ والشذرات ٢ / ١٥٤ وميزان الاعتدال ٣ / ٦١١ .

(٥) انظر فى الحارث رفع الإصر عن قضاة مصر ١ / ١٦٧ والسبكى ٢ / ١١٣ وتذكرة الحفاظ ٥١٤ وتاريخ بغداد ٨ / ٢١٦ وابن خلكان ٢ / ٥٦ .

(٦) راجع أحمد فى حسن المحاضرة ١ / ٤٤٩ والديباج المذهب ٣٧ .

(٧) انظر فى المعافرى حسن المحاضرة ١ / ٤٤٩ والعبر ٢ / ٢٥٠ .

المتوفى سنة ٣٣٩ وكان يعاصره أبو الذكر[١] الأسوانى قاضى مصر المتوفى سنة ٣٤٠ . ونمضى إلى زمن الفاطميين ، وقد عدَّ السيوطى من الفقهاء المالكيين لعهدهم ستة عشر فقيها ، منهم أبو[٢] بكر النعالى إمام المالكية بمصر فى وقته . وإليه كانت الرحلة والإمامة بمصر ، وكانت حلقته فى الجامع تدور على سبعة عشر عمودًا لكثرة من يحضرها . توفى سنة ٣٨٠ . ومنهم أبو القاسم[٣] الجوهرى المتوفى سنة ٣٨١ مصنف مسند الموطأ لإمام المذهب مالك . ونزل بالقاهرة القاضى عبد[٤] الوهاب فقيه بغداد المالكى وكان شاعرًا بارعًا ، ويقال إنه يوم فَصل عن بلده شيَّعه من أكابرها وأصحاب محابرها جملة وافرة وأنه قال لهم : لو وجدت بين ظهرانيكم رغيفين كل غداة وعشية ما عدلت ببلدكم بلوغ أمنية ، واجتاز بمعرَّة النعمان بلدة أبى العلاء فأضافه ، وله فى الإشادة بفقهه وبشعره :

إذا تفقَّه أحيا مالكا جدلا ... ويَنْشُر الملك الضِّلِّيل إن شعرا

والملك الضليل : امرؤ القيس . وتوجه إلى مصر فحمل لواء المالكية بها وانثالت فى يديه الرغائب . ولم يلبث أن ألم به مرض الموت سنة ٤٢٢ فكان يقول -كما مر بنا- لا إله إلا الله عندما عشنا متنا . ومن كبار فقهاء المالكية حينئذ أبو[٥] بكر الطرطوشى نزيل الإسكندرية المتوفى سنة ٥٢٥ واشتهر بكتابين له فى السياسة ألفها أو ألف أحدهما لوزير الفاطميين المأمون البطائحى هما سراج الملوك وسراج الهدى . ومن تلاميذه سند[٦] بن عنان الأزدى المتوفى سنة ٥٤١ خلفه فى حلقته وانتفع به الناس وله شرح المدونة . وكان يعاصره أبو القاسم[٧] بن مخلوف الإسكندرى أحد الأئمة الكبار من المالكية ، تفقه به أهل الثغر زمانا .

ونمضى إلى زمن الدولة الأيوبية ، ويلقانا صدر الإسلام أبو الطاهر[٨] إسماعيل بن مكى تلميذ الطرطوشى المتوفى سنة ٥٨١ وقد طارت شهرته فى المذهب ، وقصده صلاح الدين الأيوبى وسمع

(١) راجع فى أبى الذكر حسن المحاضرة ١ / ٤٤٩ والطالع السعيد للإدفوى ٣٦٤ .

(٢) انظر فى النعالى حسن المحاضرة ١ / ٤٥٠ والديباج المذهب ٢٥٨ .

(٣) راجع فى الجوهرى حسن المحاضرة ١ / ٤٥١ والعبر ٣ / ١٧ .

(٤) انظر فى عبد الوهاب حسن المحاضرة ١ / ٣١٤ والعبر ٣ / ١٤٩ وابن خلكان ٣ / ٢١٩ والديباج المذهب وفوات الوفيات ٢ / ٤٤ والشذرات ٣ / ٢٢٣ .

(٥) راجع فى الطرطوشى حسن المحاضرة ١ / ٤٥٢ والصلة لابن بشكوال : ٥٤٥ والمغرب ٢ / ٢٤٢ وابن خلكان ٤ / ٢٦٢ والعبر ٤ / ٤٨ وأزهار الرياض ٣ / ١٦٢ .

(٦) انظر فى سند حسن المحاضرة ١ / ٤٥٢ والديباج المذهب ١٢٦ .

(٧) راجع فى ابن مخلوف حسن المحاضرة ١ / ٤٥٣ .

(٨) انظر فى أبى الطاهر حسن المحاضرة ١ / ٤٥٢ والديباج المذهب ٩٥ .

منه الموطأ ، وله مصنفات ، قال فيه ابن فرحون : كان إمام عصره فى المذهب وعليه مدار الفتوى .ومرَّ بنا أن صلاح الدين أنشأ مدرسة للمالكية هى المدرسة القمحية ، وتبعه ابن شكر وزير أخيه العادل ، فأنشأ لهم مدرسة ثانية هى المدرسة الصاحبية ، وأنشأ لهم وللشافعية القاضى الفاضل مدرسة مشتركة هى المدرسة الفاضلية ، وجعل الصالح أيوب مدرسته للمذاهب الأربعة . وأتاح ذلك كله للفقه المالكى بمصر نشاطا واسعا منذ زمن الأيوبيين ، ومن كبار فقهائه حينئذ ابن شاس[١] عبد الله بن محمد شيخ المالكية وصاحب كتاب الجواهر الثمينة فى المذهب ، درس بالمدرسة القمحية ، استشهد مجاهدًا الفرنج بدمياط حين حاصروها سنة ٦١٦ — ٦١٨ . ومن مدرسى هذه المدرسة الحسين[٢] بن عتيق ابن رشيق شيخ المالكية وصاحب الفُتْيا فى وقته ، توفى سنة ٦٣٢ . واشتهر بالإسكندرية من فقهاء المالكية ابن الصفراوى الذى مر ذكره بين القراء . ومن كبار فقهاء المذهب ابن الحاجب الذى مر ذكره بين النحاة ، وله مختصر الفروع فى الفقه المالكى اعتمد فيه على جواهر الفقيه ابن شاس وأضاف إليه زيادات من كتب مختلفة ، وله شروح لا تزال مخطوطة ومحفوظة بدور الكتب . وكان يعاصره رفيقه عبد الكريم[٣] بن عطاء الله الإسكندرانى ، كان إماما فى الفقه والأصول والعربية ، ومن تصانيفه شرح التهذيب ومختصر التهذيب ومختصر المفصل . ومن تصانيفه شرح التهذيب ومختصر التهذيب ومختصر المفصل .

ونمضى فى زمن المماليك ، ونلتقى بأبى حفص عمر[٤] بن عبد الله السبكى المتوفى سنة ٦٦٩ وهو أول من ولى قضاء المالكية حين جعل الظاهر بيبرس من كل مذهب قاضيا . وولى قضاء المالكية بعده نفيس[٥] الدين محمد بن هبة الله بن شكر المتوفى سنة ٦٨٠ . وكان يعاصره القرافى[٦] شهاب الدين أحمد بن إدريس المتوفى سنة ٦٨٢ ولى التدريس فى مدرسة الصالح نجم الدين أيوب المعروفة بالصالحية وقد صنف فى الفقه المالكى وفى الأصول الكتب المفيدة مثل الذخيرة فى مذهب مالك وكتاب الفروق فى الفقه المالكى وهو مطبوع . وكان يعاصره هو ونفيس الدين ابن

---

(١) انظر فى ابن شاس البداية والنهاية ١٣ / ٨٦ وحسن المحاضرة ١ / ٤٥٤ .

(٢) راجع فى ابن عتيق حسن المحاضرة ١ / ٤٥٥ والديباج المذهب ١٠٥ .

(٣) انظر فى عبد الكريم حسن المحاضرة ١ / ٤٥٦والديباج المذهب ١٦٧ .

(٤) راجع فى عمر السبكى حسن المحاضرة ١ / ٤٥٧ والديباج المذهب ١٥٩ .

(٥) انظر فى نفيس الدين حسن المحاضرة ١ / ٤٥٨ .

(٦) راجع فى القرافى حسن المحاضرة ١ / ٣١٦ والديباج المذهب ٦٢ والمنهل الصافى لابن تغرى بردى (طبع دار الكتب) ١ / ٢١٥ .

المنير أحمد بن محمد قاضي الإسكندرية الذى مر ذكره بين المفسرين ؛ وكان إمامًا فاضلا متبحرًا ، وله فى الفقه مختصر التهذيب .

ويلقانا فى القرن الثامن تاج[١] الدين بن عطاء الله الإسكندرى المتصوف المشهور المتوفى سنة ٧٠٩ وله فى الفقه تهذيب المدونة غيركتب كثيرة فى التصوف . وكان يعاصره قاضى القضاة على[٢] بن مخلوف النويرى المتوفى سنة ٧١٣ ولى قضاء الديار المصرية ثلاثا وثلاثين سنة . ومن كبار فقهاء المالكية ابن[٣] الحاج محمد بن محمد العبدرى المتوفى سنة ٧٣٧ وله كتاب المدخل وهو كتاب نفيس فى أربعة أجزاء يصف فيه أحوال البلاد الخلقية والاجتماعية وما يتصل بذلك من العادات عند العامة وغيرها ، مع نقد نزيه ومع بيان للعلاج الشرعى الملائم . وكان يعاصره الزواوى[٤] عيسى بن مسعود المتوفى سنة ٧٤٣ وإليه انتهت رياسة المالكية ، وله مصنفات مختلفة ، منها شرح صحيح مسلم وشرح مختصر ابن الحاجب فى الفقه وشرح المدونة ، وتاريخ ومناقب مالك . وأكثر فقهاء المالكية فى القرن الثامن شهرة خليل[٥] بن إسحق المتوفى سنة ٧٦٧ وله كتاب المختصر فى الفقه المالكى ، ويعنى بتدريسه المالكية منذ ظهوره وخاصة فى المغرب ويعرف هناك باسم مختصر سيدى خليل . وأهم تلاميذه[٦] بهرام بن عبد الله المتوفى سنة ٨٠٥ وله الشامل فى الفقه وشرح مختصر أستاذه خليل . ونزل مصر فى زمنه عبد الرحمن بن خلدون وعداده فى فقهاء المغرب . ونلتقى بالبساطى[٧] محمد بن أحمد شيخ الإسلام المتوفى سنة ٨٤٢ ولى القضاء ، وكانت إليه الفتيا .

ويظل لفقهاء المالكية نشاطهم فى بقية زمن المماليك وفى أيام العثمانيين . ومن أعلامهم فى القرن الحادى عشر أبو الإمداد برهان الدين اللقانى المتوفى سنة ١٠٤١ وله مصنفات فى علمى الكلام والفقه ، وكان يعاصره نور الدين الأجهورى ، وهو من شيوخ الأزهر المالكية

---

(١) انظر فى ابن عطاء الله حسن المحاضرة ١ / ٤٢٤ وطبقات الشعرانى ٢ / ١٩ والسبكى ٩ / ٢٣ والخطط الجديدة لعلى مبارك ٧ / ٧٠ والبدر الطالع ١ / ١٠٧ والديباج المذهب ٧٠ وشذرات الذهب ٦ / ١٩ والدرر الكامنة .

(٢) راجع فى ابن مخلوف النويرى حسن المحاضرة ١ / ٤٥٨ والدرر الكامنة .

(٣) انظر فى ابن الحاج حسن المحاضرة ١ / ٤٥٩ والديباج المذهب ٣٢٧ والدرر الكامنة ٤/٣٥٥ .

(٤) راجع فى الزواوى حسن المحاضرة ١ / ٤٥٩ والدرر الكامنة .

(٥) انظر فى خليل حسن المحاضرة ١ / ٤٦٠ والديباج المذهب ١١٧ ونيل الابتهاج ص ٩٥ والدرر الكامنة ٢ / ١٧٥ ونفح الطيب (طبع بولاق) ٢ / ١٢٠ .

(٦) راجع فى بهرام حسن المحاضرة ١ /٤٦١ والضوء اللامع ٣ /٢٠ .

(٧) انظر فى البساطى حسن المحاضرة ١ / ٤٦٢ والضوء اللامع ٧ / ٥ .

وله مصنفات مخطوطة محفوظة بدار الكتب المصرية . ونلتقي بكثيرين من فقهاء المالكية في تاريخ الجبرتي ومن أهمهم الزرقاني [١] أبو عبد الله محمد بن عبد الباقي المتوفى سنة ١١٢٢ خاتمة المحدثين . وشرحه على موطأ مالك مشهور ، وأيضا من أهمهم علي [٢] بن أحمد بن مكرم العدوى الصعيدي إمام المحققين وعمدة المدققين المتوفى سنة ١١٨٩ يقول الجبرتي عنه : « قبل ظهوره لم تكن المالكية تعرف الحواشي على شروح كتبهم الفقهية ، فهو أول من خدم تلك الكتب بها » ويعدِّد حواشيه ومن أهمها حاشية له على شرح الزرقاني على موطأ مالك .

وعلى شاكلة ازدهار مذهب مالك الفقهي بمصر كذلك كان مذهب الشافعي [٣] مزدهرًا ، بل ربما كان أكثر ازدهارًا ، إذ نزل الإمام الشافعي المتوفى سنة ٢٠٤ مصر ، واكتمل له فيها مذهبه الفقهي . وحمله عنه تلاميذه من أبنائها ونشروه في العالم الإسلامي ، كما مر بنا في غير هذا الموضع ، بحيث غدا أكثر المذاهب الفقهية الأربعة أتباعا . ويتميز مذهبه بإحكامه التوفيق بين المذهب الحنفي مذهب أهل الرأي ، والمذهب المالكي مذهب أهل الحديث ، وهو الذي أسس علم أصول الفقه ببحثه الرائع الذي سماه الرسالة وفيها يبحث أدلة الأحكام الدينية وما يتصل بها من طرق الاستنباط والاجتهاد . وله في الفقه مصنفه المشهور : الأم ، وهو مطبوع في القاهرة مثل الرسالة ، وعُنى به فقهاء الشافعية طوال هذا العصر فاختصروه وشرحوه مرارا ، ومثلها كتاب السنن المأثورة والمسند . وطبع له على هامش الأم كتاب اختلاف الحديث . وأهم تلاميذه بمصر البُوَيْطي والمُزَني ، أما البويطي فهو يوسف [٤] بن يحيى القرشي الإمام الجليل المتوفى سنة ٢٣١ يقول السيوطي عنه : أحد أئمة الإسلام وأركانه ، كان خليفة الشافعي في حلقته بعده ، وله في الفقه المختصر المشهور الذي اختصره من كلام الشافعي ، وحُمل إلى بغداد في محنة القول بخلق القرآن ، فأصرَّ على رأيه هناك وظل سجينا حتى توفي . والمزني [٥] هو إسماعيل بن يحيى المتوفَّى سنة ٢٦٤ وقد

---

(١) راجع الزرقاني في تاريخ الجبرتي ١ / ٦٩ .

(٢) انظر ابن مكرم في تاريخ الجبرتي ١ / ٤١٤ .

(٣) انظر الإمام الشافعي في الجزء الأول من طبقات الشافعية للسبكي وتاريخ بغداد ٢ / ٥٦ ومعجم الأدباء ١٧ / ٢٨١ وابن خلكان ٤ / ١٦٣ وتذكرة الحفاظ ٣٦١ تهذيب التهذيب ٩ / ٢٥ وصفة الصفوة ٢ / ١٤٠ وحلية الأولياء ٩ / ٦٣ وألف كثيرون في سيرته ومذهبه قديما وحديثا .

(٤) راجع في البويطي السبكي ٢ / ١٦٢ وتاريخ بغداد ١٤ / ٢٩٩ وعبر الذهبي ١ / ٤١١ وتهذيب التهذيب ١١ / ٤٢٣ وابن خلكان ٧ / ٦١ وحسن المحاضرة للسيوطي ١ / ٣٠٦ .

(٥) انظر في المزني السبكي ٢ / ٩٣ والعبر ٢ / ٢٨ واللباب ٣ / ١٣٣ وابن خلكان ١ / ٢١٧ والنجوم الزاهرة ٣ / ٣٩ والسيوطي ١ / ٣٠٧ وشذرات الذهب ٢ / ١٤٨ .

أخذ عنه خلائق من علماء خراسان والعراق والشام ، ومضوا فنشروا المذهب فى بلدانهم ، وله فى الفقه الشافعى : الجامع الكبير والجامع الصغير والمختصر والمنثور والمسائل المعتبرة وكتاب الوثائق وكتاب العقارب ، سمى بذلك لصعوبته وفى كتاب طبقات الشافعية للسبكى غرائب منه . ومن كبار فقهاء الشافعية بمصر فى القرن الثالث أبو زرعة[١] محمد بن عثمان المتوفى سنة ٣٠٢ ولى قضاء مصر سنة ٢٨٤ ثمانى سنين ، ثم ولى قضاء دمشق ، فأدخل فيها مذهب الشافعى وحكم به القضاة هناك ، ولم يزل القضاء بعده للشافعية بمصر والشام إلى أن ضم الظاهر بيبرس سنة ٦٦٣ القضاة الثلاثة من مذاهب أبى حنيفة ومالك وابن حنبل إلى الشافعية . وكان يعاصره النسائى وقد مر ذكره بين أهل الحديث ومنصور[٢] بن إسماعيل الفقيه المتوفى سنة ٣٠٦ وله مصنفات عدة فى المذهب من أهمها كتاب الهداية والواجب والمستعمل والمسافر.

ويلقانا فى القرن الرابع أبو إسحق[٣] المروزى إبراهيم بن أحمد المتوفى سنة ٣٤٠ نزيل الفسطاط وكانت قد انتهت إليه رياسة المذهب فى بغداد وانتشر عنه فى البلاد ، وشرح مختصر المزنى ، وانتقل إلى الفسطاط وجلس فى مجلس الشافعى واجتمع الناس عليه وضربوا إليه أكباد الإبل . وكان يعاصره أبو بكر[٤] بن الحداد محمد بن أحمد المتوفى سنة ٣٤٤ قاضى الفسطاط ، وله كتاب الباهر فى الفقه يقال إنه كان فى مائة جزء ، وله أيضا كتاب جامع الفقه وكتاب الفروع المولدات الذى شرحه كثيرون . ونمضى إلى زمن الفاطميين ، وقد أحصى السيوطى عشرة من الفقهاء فى المائة سنة الأولى من أيامهم ، أهمهم القضاعى[٥] أبو عبد الله محمد بن سلامة المتوفى سنة ٤٥٤ مصنف كتاب الشهاب ، ولى قضاء الديار المصرية وأرسل به الخليفة المستنصر إلى الروم رسولا . وأحصى السيوطى فى المائة الثانية من أيام الفاطميين تسعة من فقهاء الشافعية أهمهم الخلعى[٦] على بن الحسين المتوفى سنة ٤٩٢ وله فى الفقه كتاب المغنى بين البسط والاختصار.

---

(١) راجع فى أبى زرعة السبكى ٣ / ١٩٦ والسيوطى ١ / ٣٩٩ والعبر ٢ / ١٢٣ والشذرات ٢ / ٢٣٩.

(٢) انظر فى منصور السبكى ٣ / ٤٧٨ والسيوطى ١ / ٤٠٠ والمغرب فى حلى المغرب (قسم الفسطاط) ص ٢٦٢ وابن خلكان ٥ / ٢٨٩ ونكت الهميان ٢٩٧ ومعجم الأدباء ١٩ / ١٨٥ والمنتظم ٦ / ١٥٢.

(٣) راجع فى المروزى تاريخ بغداد ٦/١١ وابن خلكان ١/٢٦ والسيوطى ١ / ٣١٢.

(٤) انظر فى ابن الحداد السبكى ٣ / ٧٩ والسيوطى ١ / ٣١٣ وتذكرة الحفاظ ٣ / ١٠٨ والعبر ٢ / ٢٦٤ وابن خلكان ٤ / ١٩٧ والوافى ٢ / ٦٩ والشذرات ٢ / ٣١٧.

(٥) راجع فى القضاعى السبكى ٤ / ١٥٠ وابن خلكان ٤ / ٢١٢ والوافى ٣ / ١١٦ والسيوطى ١/٤٠٣ والشذرات ٣ / ٢٩٣.

(٦) انظر فى الخلعى السبكى ٥ / ٢٥٣ والعبر ٣ / ٣٣٤ والسيوطى ١ / ٤٠٤ والشذرات ٣ / ٣٩٨ وابن خلكان ٣ / ٣١٧.

وربما كان أهم منه مجلى[١] بن جميع قاضى القضاة المتوفى سنة ٥٥٠ كان من أئمة الفقهاء وكبارهم وله فى الفقه مصنفات أهمها كتابه الذخائر . وكان يعاصره الفقيه الشافعى ابن رفاعة المتوفى سنة ٥٦١ . وبمجرد أن يظل مصر لواء صلاح الدين الأيوبى يؤسس مدرسة للشافعية وثانية للمالكية وثالثة للحنفية كما أسلفنا . وفوَّض القضاء بمصر للشافعية ، فاتسع نشاطهم ؛ وقد أسند صلاح الدين مدرستهم للخُبُوشانى[٢] محمد بن الموفق المتوفى سنة ٥٨٧ وله فى الفقه كتاب تحقيق المحيط .

ومن كبار فقهاء الشافعية فى عهد الأيوبيين إبراهيم بن منصور العراقى المصرى المتوفى سنة ٥٩٦ رحل إلى العراق وأقام به مدة ثم عاد إلى موطنه فعرف باسم العراقى ، وله شرح على كتاب المهذب لأبى إسحق الشيرازى أول مدرس للمدرسة النظامية ببغداد وكان شرحا كبيرا فى عشرة مجلدات . وكان يعاصره عبد[٣] الملك بن عيسى بن درباس المتوفى سنة ٦٠٥ قاضى قضاة الشافعية فى عهد صلاح الدين ، وأناب عنه أخاه عثمان[٤] فى قضاء القاهرة وله شرح على المهذب سماه الاستقصاء ، وشرح ثان على كتاب اللمع لأبى إسحق الشيرازى ، توفى سنة ٦٢٢ . ويلقانا محمد[٥] بن عين الدولة المتوفى سنة ٦٣٩ قاضى القضاة بالقاهرة والوجه البحرى ، واشتهر لزمنه بأنه رد شهادة السلطان الكامل ، وقال له : أنت تحكم ولا تشهد . وأهم الفقهاء بعده فى زمن الأيوبيين العز[٦] بن عبد السلام وقد مرَّ لنا فى الفصل السابق حديث عنه مع المماليك ، ولى خطابة جامع عمرو بن العاص بالفسطاط والقضاء بها وبالوجه القبلى . ولما بنى السلطان الصالح نجم الدين أيوب مدرسته الصالحية فوَّض تدريس الشافعية بها إليه ، وطالت أيامه إلى زمن المماليك إذ توفى سنة ٦٦٠ وله فى الفقه كتاب القواعد الكبرى ومصنفات مختلفة ومر بنا أن له تفسيرا وكتابا فى مجاز القرآن .

وقد أحصى السيوطى من فقهاء الشافعية زمن المماليك أكثر من مائة فقيه ، لأكثرهم مصنفات

---

(١) راجع فى مجلى السبكى ٧/٢٧٧ والسيوطى ١ / ٤٠٥ والعبر ٤ / ١٤١ والشذرات ٤ / ١٥٧ وابن خلكان ٤ / ١٥٤ .

(٢) انظر فى الخبوشانى السبكى ٧ / ١٤ والسيوطى ١ / ٤٠٦ وابن خلكان ٤ / ٢٣٩ والعبر ٤ / ٢٦٢ والشذرات ٤ / ٢٨٨ والنجوم الزاهرة ٦ / ١١٥ .

(٣) راجع فى ابن درباس السيوطى ١ / ٤٠٨ ورفع الإصر : ٣٦٧ .

(٤) انظر فى عثمان السبكى ٨ / ٣٣٧ والسيوطى ١ / ٤٠٨ والشذرات ٥ / ٧ وابن خلكان ٢ / ٢٤٢ .

(٥) راجع فى ابن عين الدولة السبكى ٨ / ٦٣ والسيوطى ١ / ٤١٢ والعبر ٥ / ١٦٢ والشذرات ٥ / ٢٠٥ .

(٦) انظر فى العز السبكى ٨ / ٢٠٩ والسيوطى ١ / ٣١٤ والشذرات ٥ / ٣٠١ والعبر ٥ / ٢٦٠ ومرآة الجنان ٤ / ١٥٣ وفوات الوفيات ١ / ٥٩٤ والنجوم الزاهرة ٧ / ٢٠٨ .

وشروح على أمهات كتب الفقه الشافعي ، ومن أهمهم ابن[١] دقيق العيد المتوفَّى سنة ٧٠٢ وهو تلميذ العزبن عبد السلام وله مصنفات كثيرة فى الفقه والحديث ومصطلحه . وكان يعاصره ابن الرفعة أحمد[٢] بن محمد المتوفى سنة ٧١٠ وهو ثالث الشيخين : الرافعى القزوينى والنووى الدمشقى فى الاعتماد عليه فى ترجيح الآراء الفقهية فى مذهب الشافعي ، درَّس بالمدرسة المعزية وتولى الحسبة ، وصنف تصنيفين عظيمين هما الكفاية فى عشرين مجلدا والمطلب فى ستين مجلدا ومن كبار الفقهاء الشافعية القَمُولى[٣] أحمد بن محمد المتوفى سنة ٧٢٧ صاحب البحر المحيط فى شرح الوسيط للغزالى وكتاب جوامع البحر جمع فيه فأوعى . وكان يعاصره بدر[٤] الدين بن جماعة قاضى القضاة بالديار المصرية المتوفى سنة ٧٣٣ وله تصنيفات فى فنون كثيرة . ونلتقى بالزنكلونى[٥] أبى بكر بن إسماعيل المتوفى سنة ٧٤٠ وله شرح على التنبيه لأبى إسحق الشيرازى عم النفع به وشرح ثان على المنهاج للنووى . وكان يعاصره سليمان[٦] بن جعفر الإسنوى المتوفى سنة ٧٥٦ صنف طبقات الشافعية وهو مطبوع ونلتقى بتقى[٧] الدين السبكى على بن عبد الكافى المتوفى فى نفس السنة المذكورة تلميذ ابن الرفعة وله مصنفات كثيرة فى الفقه وشروح كتبه الكبرى . ومن تلاميذه ابنه بهاء الدين السبكى الذى مرَّ ذكره بين البلاغيين ، وله فى الفقه شرح على كتاب الحاوى للشيخ نجم الدين القزوينى المتوفى سنة ٦٦٥ . وكان يعاصره عبد[٨] الرحيم بن الحسن الإسنوى المتوفى سنة ٧٧٧ صاحب التصانيف السائرة ، منها المهمات والجواهر وشرح المنهاج والفروع وإليه انتهت رياسة الشافعية فى زمانه .

---

(١) راجع فى ابن دقيق العيد السبكى ٩ / ٢٠٧ والسيوطى ١ / ٣١٧ والشذرات ٦ / ٥ والبدر الطالع ٢٢٩/٢ ومرآة الجنان ٢٣٦/٤ والوافى ١٩٣/٤ والطالع السعيد للادفوى ٣١٧ وفوات الوفيات ٤٨٤/٢ والدرر الكامنة ٣١٠/٤ وتذكرة الحفاظ ١٤٨١ .

(٢) انظر فى ابن الرفعة السبكى ٩ / ٢٤ والسيوطى ١ / ٣٢٠ والشذرات ٦ / ٢٢ ومرآة الجنان ٤ / ٢٤٩ والبدر الطالع ١ / ١١٥ والدرر الكامنة ١ / ٣٠٣ .

(٣) راجع فى القمولى السبكى ٩ / ٣٠ والسيوطى ١ / ٤٢٤ والدرر الكامنة ١ / ٣٢٤ والشذرات ٦ / ٧٥ والطالع السعيد ١٢٥ والنجوم الزاهرة ٨ / ٢٧٩ .

(٤) راجع فى ابن جماعة السبكى ٩ / ١٣٩ والسيوطى ١ / ٤٢٥ والدرر الكامنة ٣ / ٣٦٧ وفوات الوفيات ٢ / ٣٥٣ ونكت الهميان ٢٣٥ ومرآة الجنان ٤ / ٢٨٧ والنجوم الزاهرة ٩ / ٢٩٨ .

(٥) انظر فى الزنكلونى السيوطى ١ / ٤٢٦ والشذرات ٦ / ١٢٥ .

(٦) راجع فى سليمان السيوطى ١ / ٤٢٩ .

(٧) السبكى ترجم له ابنه بهاء الدين فى طبقات الشافعية ١٠ / ١٣٩ وانظر فى ترجمته السيوطى ١ / ٣٢١ والدرر الكامنة ٣ / ١٣٤ .

(٨) انظر فى الإسنوى السيوطى ١ / ٤٢٩ والدرر الكامنة ٢ / ٤٦٣ .

ويلقانا ابن[١] الملقن المتوفى سنة ٨٠٤ وهو أكثر أهل زمنه تصنيفا ، ومن تصانيفه شرح التنبيه وشرح الحاوى وشرح المنهاج وشرح كتاب العمدة وما به من أحاديث موزعة على أبواب الفقه . وتوفى بعده بعام شيخ الإسلام البلقينى[٢] عمر بن رسلان وله فى الفقه والحديث والتفسير تصانيف مختلفة ، وحمل عنه فقهه وعلمه ابنه علم الدين صالح المتوفى سنة ٨٦٨ وهو شيخ السيوطى . وكان يعاصره فقيهان هما المحلى والمناوى وبهما ختم السيوطى حديثه عن فقهاء الشافعية . ويعد السيوطى نفسه خاتَمهم الحقيقى إذ توفى سنة ٩١١ كما مر بنا فى الحديث عن اللغويين وله فى الفقه مصنفات كثيرة منها مختصر الروضة للنووى وحاشية عليها ومختصر لكتاب التنبيه وشرح عليه وكتاب الأشباه والنظائر ، واللوامع والبوارق فى الجوامع والفوارق ، غير رسائل كثيرة أحصاها فى ترجمته لنفسه بحسن المحاضرة . ونلتقى بالشيخ زكريا[٣] الأنصارى المتوفى سنة ٩٢٦ وله فى الفقه مختصر مشهور هو المنهج وله شروح مختلفة .

ونمضى إلى زمن العثمانيين ويظل التصنيف فى الفقه الشافعى ناشطا . ومن كبار الفقهاء فى القرن العاشر ابن حجر[٤] الهيثمى المتوفى سنة ٩٧٣ وله الفتاوى الهيثمية طبعت بمصر فى أربعة مجلدات . وكان يعاصره شمس الدين الشربينى الخطيب الذى مرّ ذكره بين المفسرين ، وله فى الفقه شرح منهاج النووى ، وهو مطبوع ، وله شرح على متن أبى شجاع ، ولسليمان البجيرمى حاشية عليه . ويكتظ كتاب تاريخ الجبرتى بأسماء فقهاء الشافعية وأشهر أئمتهم حينئذ الرملى[٥] المتوفى سنة ٩٥٧ وفتاويه تكتظ بها كتب الفقه الشافعى بعده .

وظلت مصر لا تعرف المذهب الحنبلى طويلا ، ويعلل السيوطى ذلك بأن المذهب لم يبرز خارج العراق إلا فى القرن الرابع ، وكان الفاطميون بمصر وكانوا لا يهتمون بغير عقيدتهم الشيعية الغالية ، ويقال إنهم اضطهدوا فى أول أمرهم المذاهب الثلاثة التى كانت قائمة بمصر ، وهى مذاهب الشافعية والملكية والحنفية ، فتأخر ظهور المذهب الحنبلى ، وأول إمام لهم نزل مصر الحافظ عبد الغنى[٦] الجمَّاعيلى المقدسى المتوفى سنة ٦٠٠ صاحب كتاب عمدة الأحكام فى معالم

---

(١) راجع فى ابن الملقن السيوطى ١ / ٤٣٨ والضوء اللامع ٦ / ١٠٠ وشذرات الذهب ٧ / ٤٤ .

(٢) انظر فى البلقينى السيوطى ١ / ٣٢٩ والضوء اللامع ٦ رقم ٢٨٦ والشذرات ٧ / ٥١ .

(٣) انظر فى الشيخ زكريا الضوء اللامع جـ ٣ رقم ٨٩٢ والكواكب السائرة ١ / ١٩٦ والبدر الطالع ١ / ٢٥٢ والنور السافر ص ١٢٥ .

(٤) راجع فى ابن حجر الهيثمى مقدمة فتاويه والشذرات ٨ / ٣٧٠ والنور السافر ص ٢٨٧ والبدر الطالع ١ / ١٠٩ .

(٥) انظر فى الرملى الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة للغزى ٢/١١٩ والخطط التوفيقية (طبعة بولاق) ٤/١١٩ .

(٦) انظر مصادر ترجمة عبد الغنى المقدسى فى قسم الشام ص ٥٨٤ .

الحلال والحرام عن خير الأنام ، وله شروح كثيرة . ولمؤلف العمدة كتاب الكمال فى معرفة أسماء الرجال ، وصنع له تهذيبا المزى جمال الدين يوسف بن الزكى وأكمل التهذيب مُغْلطاى الذى مرَّ ذكره . وأخذ المذهب الحنبلى يشيع فى مصر منذ أنشأ السلطان الصالح نجم الدين أيوب مدرسته الصالحية سنة ٦٤١ إذ جعل للمذهب الحنبلى ودراسته فيها إيوانا بجانب أواوين المذاهب الثلاثة السابقة ، ودعم ذلك الظاهر بيبرس بضم قضاة للحنابلة والمالكية والحنفية بجانب قاضى الشافعية . وتوالى اهتمام المماليك ، فى تأسيس مدارسهم ، بالفقه الحنبلى وفقهائه بجانب فقهاء المذاهب الثلاثة الأخرى على نحو ما مر بنا فى صدر هذا الفصل . ويترجم السيوطى فى حسن المحاضرة لعشرين من فقهاء المذهب وقضاته فى مصر مثل نجم[1] الدين أحمد بن حمدان الحرانى المتوفى سنة ٦٩٥ مؤلف الرعاية الكبيرة وعمر[2] بن عبد الله المقدسى قاضى الديار المصرية المتوفى سنة ٦٩٦ وموفق[3] الدين عبد الله بن عبد الملك المقدسى قاضى الديار المصرية لنحو ثلاثين سنة توفى سنة ٧٦٩ ، وناصر[4] الدين نصر الله بن أحمد الكنانى المتوفى سنة ٧٩٥ ناب عن موفق الدين فى قضاء الحنابلة ثم استقل به ستًّا وعشرين سنة ، وعماد[5] الدين الحنبلى أبو بكر بن أبى المجد المتوفى سنة ٨٥٤ صنَّف تجريد الأوامر والنواهى من كتب الصحاح الستة ، واختصر تهذيب الكمال للمزِّى .

ويختم السيوطى فقهاء الحنابلة زمن المماليك بأستاذه أحمد[6] بن إبراهيم الكنانى العسقلانى الأصل المصرى المولد ، وفيه يقول : ولى قضاء الحنابلة بالديار المصرية ، ودرَّس للحنابلة بغالب مدارس القاهرة ، وله تعاليق وتصانيف ومسودات كثيرة فى الفقه وأصوله والحديث والعربية ، ومنها مختصر كتاب المحرر للرافعى توفى سنة ٨٧٦ . ويظل الفقه الحنبلى ناشطا بمصر زمن العثمانيين ، وفى كتاب تاريخ الجبرتى أسماء كثيرين من فقهاء الحنابلة ومن أكبر أئمتهم مرعى[7] بن يوسف المتوفى سنة ١٠٣٣ وله مؤلفات كثيرة فى المذهب ، منها غاية المنتهى . ويبدو أن المذهب الظاهرى ظل معروفا بمصر وظل علماء يعنون به ويتدارسونه ، ونلتقى فى كتب التراجم من حين إلى آخر

---

(١) انظر فى نجم الدين السيوطى ١ / ٤٨٠ والشذرات ٥ / ٤٢٨ والمنهل الصافى ١ / ٢٧٢ .

(٢) انظر فى عمر المقدسى السيوطى ١ / ٤٨٠ والشذرات ٥ / ٤٣٦ والنجوم الزاهرة ٨ / ١١١ .

(٣) راجع فى موفق الدين السيوطى ١ / ٤٨١ والشذرات ٦ / ٢١٥ .

(٤) انظر فى ناصر الدين السيوطى ١ / ٤٨١ والشذرات ٦ / ٣٤٣ والدرر الكامنة ٥ / ١٦٣ وإنباء الغمر ١ / ٤٦٦ .

(٥) راجع فى عماد الدين السيوطى ١ / ٤٨٢ والضوء اللامع ١١ / ٦٦ والشذرات ٧ / ٤٢ .

(٦) انظر فى الكنانى السيوطى ١/٤٨٤ والضوء اللامع ١/٢٠٥ والشذرات ٧/٣٢١ .

(٧) خلاصة الأثر ٤/٣٥٨ .

بأسماء من كانوا يعتقنون هذا المذهب مثل بدر الدين محمد بن إبراهيم المعروف بالبَشْتكى المتوفى سنة ٨٣١ .

ومعروف أنه حين حكم الفاطميون مصر كانوا يولون على القضاء فقهاء من عقيدتهم ، ومرَّ بنا فى الفصل الأول بيان لمبادئ عقيدتهم الأساسية وإشارة إلى بعض آرائهم الفقهية التى خالفوا فيها الجماعة ، وأول قضاتهم بمصر النعمان[١] بن منصور التميمى الملقب بأبى حنيفة الشيعة ، كان فى أول أمره مالكيا ، ثم تحول إلى مذهب الإمامية الشيعى ، ثم انتقل إلى عقيدة الإسماعيلية فى خدمة المعز لدين الله بإفريقية ، وقدم معه إلى مصر فأسند إليه القضاء ، ولم يلبث أن توفى سنة ٣٦٣ . وله مصنفات فقهية شيعية مختلفة أهمها كتابه « دعائم الإسلام فى الحلال والحرام والقضايا والأحكام عن أهل بيت رسول الله » وهو المصدر الأساسى فى الفقه وعلم الكلام عند الشيعة الإسماعيلية . ونشر له المرحوم الدكتور محمد كامل حسين كتاب الهمة فى آداب اتباع الأئمة ، وذكر فى مقدمته له كثيرا من الكتب الفقهية الإسماعيلية .

وظل القضاء الفاطمى بعده فى بيته إلى نهاية القرن الرابع الهجرى . وينزل مصر سنة ٤٠٧ كبير دعاة الفاطميين وفقهائهم فى الشرق حميد[٢] الدين الكرمانى ولا يلبث أن يتوفى سنة ٤٠٨ ومن أهم مصنفاته كتاب « راحة العقل » الذى حققه ونشره المرحومان : الدكتور محمد مصطفى حلمى والدكتور محمد كامل حسين ، وهو يزخر بمسائل فلسفية وعقيدية متشابكة . وينزل مصر بعده المؤيد[٣] فى الدين هبة الله الشيرازى أكبر دعاة الفاطميين وفقهائهم فى القرن الخامس ، وقد ظل بها نحو ٣٠ عاما حتى توفى سنة ٤٧٠ وأهم مصنفاته المجالس المؤيدية ، وهى ثمانمائة مجلس فى العقيدة الفاطمية وتشتمل على كثير من المسائل العقيدية والفقهية ، ونشر الدكتور محمد عبد القادر عبد الناصر فى القاهرة ملخصا لهذه المجالس من صنعة حاتم بن إبراهيم . ونعيد هنا ما قلناه فى الفصل الأول من أن هذه العقيدة وكل ما اتصل بها من فقه وغير فقه ، ظلت غريبة فى مصر ، وظل المصريون مبتعدين عنها حتى انتهت تلك الدولة الشيعية المتطرفة .

---

(١) راجع فى النعمان ابن خلكان ٥ / ٤١٥ ولسان الميزان ٦ / ١٦٧ والشذرات ٣ / ٤٧ ومرآة الجنان ٢ / ٣٧٩ والنجوم الزاهرة ٤ / ١٠٦ ومقدمة كتاب الهمة فى آداب اتباع الأئمة وكتاب دعائم الإسلام .

(٢) انظر فى حميد الدين بروكلمان ٣ / ٣٥٥ ومقدمة كتابه راحة العقل .

(٣) راجع فى المؤيد فى الدين السيرة المؤيدية بتحقيق د . محمد كامل حسين وكتابه فى آداب مصر الفاطمية ص ٥٩ ، ١١٦ .

ومرَّ بنا أن الشافعى هو الذى أسس علم أصول الفقه ورفع أركانه وشاد بنيانه ، فكان طبيعيا أن تظل مصر بعده عاكفة على هذا العلم وأن يلقانا كثيرون من فقهاء الشافعية منكبِّين عليه ، وسرى ذلك منهم إلى فقهاء الحنفية ، بل أيضا إلى فقهاء المالكية والحنابلة . ولن نستطيع أن نلم بما كتب فى هذا الميدان لكثرته ، ولذلك سنكتفى بذكر بعض كتبه المهمة ، من ذلك كتاب الإحكام فى أصول الأحكام لسيف[1] الدين الآمدى نزيل مصر سنة ٥٩٢ المتوفى سنة ٦٣١ وهو من أجمع وأروع ما وضع فى هذا العلم . ولابن الحاجب الذى مر ذكره بين النحاة مختصر له شُرح مرارا وتكرارا ، ولشمس[2] الدين الأصفهانى بعده المتوفى سة ٦٨٨ شرح كبير لكتاب المحصول فى علم الأصول لفخر الدين الرازى . ولبهاء الدين السبكى المذكور فى فقهاء الشافعية كتاب بديع فى الأصول سماه جمع الجوامع .

ولم ينشأ فى مصر مذهب مستقل فى علم الكلام ، فقد كانت تعتمد دائما على ما يأتيها من الخارج ، غير أنه يلاحظ أنه منذ عهد صلاح الدين غلب مذهب الأشعرى الذى يقف بين المعتزلة وأهل السنة ، يقول المقريزى فى الحديث عن مذاهب أهل مصر : « وأما العقائد فإن السلطان صلاح الدين حمل الكافة على عقيدة الشيخ أبى الحسن على بن إسماعيل الأشعرى .. وشرط ذلك فى أوقافه التى بديار مصر كالمدرسة الناصرية بجوار قبر الإمام الشافعى من القرافة والمدرسة التى عُرفت بالشريفية بجوار جامع عمرو بن العاص والمدرسة المعروفة بالقمحية وخانقاه سعيد السعداء بالقاهرة ، فاستمر الحال على عقيدة الأشعرى بديار مصر وبلاد الشام وأرض الحجاز واليمن وبلاد المغرب أيضا لإدخال ابن تومرتْ رأى الأشعرى إليها »[3]. ولعل أكبر كتاب أشعرى ألف فى مصر كتاب أبكار الأفكار لسيف الدين الآمدى المذكور آنفا وفيه مباحث كبرى عن العلم والنظر وأقسام المعلوم والنبوات والمعاد . ويظل التأليف فى علم الكلام على مذهب الأشعرى ناشطًا حتى نهاية زمن العثمانيين .

---

(١) أنظر فى الآمدى ابن خلكان ٣ / ٢٩٣ والسبكى ٨ / ٣٠٦ والسيوطى ١ / ٥٤١ والعبر ٥ / ١٢٤ والشذرات ٥ / ١٤٤ ولسان الميزان ٣ / ١٣٤ وميزان الاعتدال ٢ / ٢٥٩ والنجوم الزاهرة ٦ / ٢٨٥ .

(٢) راجع فى شمس الدين الأصفهانى السبكى ٨ / ١٠٠ والسيوطى ١ / ٥٤٢ والعبر ٥ / ٣٥٩ والشذرات ٥ / ٤٠٦ وفوات الوفيات ٢ / ٥٢٣ ومرآة الجنان ٤ / ٢٠٨ .

(٣) خطط المقريزى ٣ / ٢٧٩ .

٥

التاريخ

نشطت مصر فى كتابة التاريخ منذ مطالع القرن الثالث للهجرة ، وقد كتبتْ فى جميع ألوانه : فى التاريخ العام أو تاريخ الدول العربية ، وفى التاريخ الخاص تاريخ دولها وحكامها المختلفين . وفى تاريخ المدن وخاصة القاهرة والإسكندرية ، وتاريخ الرجال وتاريخ العلماء من كل صنف وتاريخ الشعراء والأدباء . وبجانب ذلك عُنيت بكتابة السيرة . ولها فى كل ذلك نشاط واسع ، ولعل من الخير أن نتعقبه على مر القرون .

وأول ما يلقانا من ذلك فى القرن الثالث للهجرة ، السيرة النبوية لعبد[1] الملك بن هشام المتوفى سنة ٢١٨ وقد طبّقت شهرتها العالم الإسلامى ، ولمصر فضل إهدائها إلى هذا العالم وتداولها فيه إلى اليوم ، وإنها لتعد أوثق مصدر يرجع إليه مؤرخو السيرة المحمدية . ويلقانا بعدها كتاب فتوح مصر والمغرب لعبد[2] الرحمن بن عبدالله بن عبدالحكم المتوفى سنة ٢٥٧ . ويكتب محمد بن عبدالله بن الحكم المتوفى سنة ٢٦٨ سيرة لعمر بن عبدالعزيز ، وهى مطبوعة بالقاهرة .

ويلقانا من المؤرخين المصريين فى القرن الرابع الهجرى مؤرخ قبطى هو سعيد[3] بن البطريق الذى تقلد منصب بطريرك الإسكندرية سنة ٣٢١ وظل يشغله حتى توفى سنة ٣٢٨ وله تاريخ سماه نظم الجوهر ، ويقول ابن أبى أصيبعة إنه ثلاث مقالات أو ثلاثة أبواب : باب عن النصارى وصومهم وإفطارهم وتاريخهم وأعيادهم ، وباب أو مقالة عن تواريخ الخلفاء والملوك المتقدمين ، ومقالة أو باب عن تاريخ البطاركة وأحوالهم وما جرى فى ولاياتهم . وكتاب سعيد

---

(١) انظر عبد الملك بن هشام فى ابن خلكان ٣ / ١٧٧ وشرح سيرته للسهيلى المسمى الروض الأنف : مقدمته ، وعبر الذهبى ١ / ٣٧٤ والسيوطى ١ / ٥٣١ وإنباه الرواة ٢ / ٢١١ .

(٢) راجع عبدالرحمن فى ابن خلكان ٣ / ٣٥ والسيوطى ١ / ٤٤٦ ، ٥٥٤ والديباج لابن فرحون والميزان للذهبى ٣ / ٨٦ .

(٣) انظر ابن البطريق فى ابن أبى أصيبعة ص ٥٤٥ ودائرة المعارف الإسلامية وبروكلمان (الطبعة العربية) ٣ / ٧٧ وما بهما من مراجع وقد طبع كتاب ابن البطريق فى أكسفورد ونشره اليسوعيون فى بيروت ونشر ذيله روزن فى لينجراد فى القرن الماضى .

إشارة قوية إلى تعرب القبط حينئذ واستيعابهم العربية . وذيَّل على هذا الكتاب يحيى بن سعيد الأنطاكى بتكملة أرخ فيها من سنة ٣٢٦ حتى سنة ٤٢٥ وكان قد نزل أنطاكية سنة ٤٠٣ ووجد بها من الوثائق عن الدولة البيزنطية وبطاركة أنطاكية والقسطنطينية فى تلك الحقبة ما ضمه إلى أخبار بطاركة الإسكندرية وأخبار الدولتين العباسية والفاطمية . وكان يعاصر سعيد بن البطريق أحمد[١] بن يوسف بن الداية المتوفى سنة ٣٤٠ وله كتاب سيرة أحمد بن طولون ، وضمن ابن سعيد فى كتابه المغرب – القسم الخاص بالفسطاط – أكثر هذه السيرة ، وعليه اعتمد البلوى فيما كتبه عن ابن طولون وآله . ولابن الداية أيضا كتاب فى أخبار الأطباء مفقود ، وكتاب فى السياسة نشر فى بيروت ، وسنعرض فى حديثنا عن النثر لكتابه « المكافأة » . وكان يعاصره عبد الرحمن[٢] بن أحمد بن يونس الصدفى المتوفى سنة ٣٤٧ وقد وضع فى التراجم كتابين : كتابا عن علماء مصر وكتابًا عن الغرباء الواردين على مصر ، وهما مفقودان مثل كتاب ثالث له ذكره صاحب كشف الظنون ، وهو فى تاريخ الصعيد . ونلتقى بمحمد[٣] بن يوسف الكندى المتوفى سنة ٣٥٠ وله كتابان : ولاة مصر أو أمراؤها حتى سنة ٣٣٥ وكذلك قضاتها ، نشرهما جيست ، وهما كتابان نفيسان . ونلتقى فى أوائل زمن الفاطميين بابن[٤] زولاق الحسن بن إبراهيم المتوفى سنة ٣٨٧ وله كتاب سيرة محمد بن طغج الإخشيد ، احتفظ بأكثره ابن سعيد فى كتاب المغرب : قسم الفسطاط ، وكانت له أيضا – وفُقدت – سيرة جوهر وسيرة المعز وسيرة العزيز وتاريخ السنين ، وتكملة لكتاب الولاة وكتاب القضاة للكندى وطبع له كتاب أخبار سيبويه المصرى . ويلقانا بعده الطحان أبو القاسم يحيى[٥] بن على الحضرمى المتوفى سنة ٤١٦ وله ذيل على تاريخ ابن يونس الصدفى ، كما يلقانا الروذبارى أحمد[٦] بن الحسين معاصره وله كتاب فى تاريخ خلفاء مصر حتى زمن الحاكم سماه « بلشكر الأدباء » وينقل ابن سعيد عنه فى قسم القاهرة من كتابه المغرب مرارا ،

---

(١) انظر مصادر ابن الداية فى كتابه المكافأة فى الفصل الخامس من هذا الكتاب .

(٢) راجع ابن يونس فى السيوطى ١ / ٣٥١ ، ٥٥٣ وابن خلكان ٣ / ١٣٧ وفوات الوفيات ١ / ٥٢٦ والشذرات ٢ / ٣٧٥ وعبر الذهبى ٢ / ٢٧٦ .

(٣) انظر فى الكندى السيوطى ١ / ٥٥٣ ودائرة المعارف الإسلامية . وبروكلمان ٣ / ٨٢ .

(٤) انظر ابن زولاق فى السيوطى ١ / ٥٥٣ وابن خلكان ٢ / ٩١ ولسان الميزان ٢ / ١٩١ .

(٥) انظر الطحان فى ابن خلكان ٣ / ٢٢٣ وانظر بروكلمان ٦ / ٨٤ .

(٦) راجع الروذبارى فى المغرب لابن سعيد (قسم القاهرة) ص ٣٦٣ .

وعليه اعتمد فيما ذكره من أخبار الحاكم . وكان يعاصره هو والطحان المسبحى[١] الأمير المختارعز الملك محمد بن عبيد الله المتوفى سنة ٤٢٠ ، وقد ترجم له ابن سعيد فى المغرب ترجمة ضافية ذكر فيها مصنفاته الكثيرة . وأهمها تاريخه الكبير عن مصر وولاتها وخلفائها الفاطميين ، سماه «كتاب أخبار مصر وفضائلها وعجائبها وطرائفها وغرائبها وما بها من البقاع والآثار وسير من حلَّها من الولاة والأمراء والأئمة الخلفاء آباء أمير المؤمنين» وقد نشرت منه هيئة الكتاب قطعة صغيرة تؤرخ سنتى ٤١٤ و٤١٥ للهجرة . وتلقانا سيرتان إبام الفاطميين : سيرة جوذر الصقلى أحد رجال الدولة الفاطمية قبل استيلائها على مصر ، وهى منشورة ، وأهم منها السيرة المؤيدية للمؤيد الشيرازى داعى دعاة الفاطميين المار ذكره ، وفيها يتحدث عن حياته من سنة ٤٢٩ حتى سنة ٤٥٠ ويذكر بعض رسائله ومناظراته العلمية .

ومن أهم المؤرخين فى زمن الفاطميين على[٢] بن منجب الصيرفى المتوفى سنة ٥٥٠ وله كتاب فى وزراء الفاطميين سماه الإشارة إلى من نال الوزارة ألفه للوزير الفاطمى البطائحى . وللرشيد[٣] بن الزبير أحمد بن على المتوفى سنة ٥٦٣ كتاب فى شعراء مصر سماه «جِنان الجَنان ورياض الأذهان» ألفه سنة ٥٥٨ وهو أهم كتاب ألف عن الشعر الفاطمى وعليه اعتمد ابن سعيد فى جزأى الفسطاط والقاهرة من مصنفه «المغرب» فى كثير من تراجمه . وبجانب ذلك نجد فى أواخر زمن الفاطميين مصنفات فرعية مثل «الرسالة المصرية» لأمية بن عبد العزيز الأندلسى المعروف باسم أبى الصلت ، وعداده فى الأندلسيين . ومن ذلك مصنَّف للقاضى الجليس فى شعراء طلائع ابن رزيك ، ورسالة لابن جبر يحيى بن حسن ألفها فى مدائح بنى أسامة سنة ٥٢٥ . ونلتقى بالقرطى محمد[٤] بن سعد الذى ألف لشاوَر وزير الخليفة العاضد (٥٥٥ – ٥٦٧ هـ) كتابا فى تاريخ مصر ، وتاريخ وفاته غير معروف . وعنه نقل ابن سعيد مقتطفات كثيرة فى قسمى الفسطاط والقاهرة من كتابه المغرب . وكان يعاصره على بن أبى السرور الرَّوْحى وله تحفة الظرفاء فى أخبار الأنبياء والخلفاء إلى الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمى المتوفى سنة ٤٢٧ ويُظَنُّ أنه ألفه بالإسكندرية

---

(١) انظر فى المسبحى المغرب (قسم الفسطاط) ص ٢٦٤ وابن خلكان ٤ / ٣٧٧ والسيوطى ١ / ٥٤٤ والوافى للصفدى ٤ / ٧ والعبر ٣ / ١٣٩ والشذرات ٣ /٢١٥ والنجوم الزاهرة ٤ /٢٧١ .

(٢) راجع مصادر ترجمة ابن منجب فى ص ٤٠٥ .

(٣) انظر فى الرشيد ابن خلكان ١ / ١٦٠ ومعجم الأدباء ٤ / ٥١ والطالع السعيد ٥٢ والخريدة قسم مصر ١ / ٢٠٠ والشذرات ٤ / ١٩٧ والسيوطى ١ / ٥٤٠ .

(٤) انظر فى القرطى المغرب قسم الفسطاط ص ٢٦٧ .

سنة ٥٦٧ وطُبع فى القاهرة مع تكملة إلى العاضد آخر الخلفاء الفاطميين وتكملة ثانية إلى المستعصم سنة ٦٤٠ .

وفى أواخر زمن الفاطميين وأوائل عهد الأيوبيين نلتقى بأبى صالح الأرمنى . وله كتاب عن الكنائس والأديرة بمصر وما يجاورهما من البلاد ابتدأ تأليفه سنة ٥٦٤ نُشر الجزء الأول منه فى أكسفورد سنة ١٨٩٥ . ويلقانا فى زمن الأيوبيين أبو طاهر السِّلَفى المار ذكره وله معجم السفر لشيوخه ومن لقيهم . وتتكاثر هذه المعاجم فيما بعد ، إذْ تكثر ترجمة العلماء لشيوخهم ، مما يُلقى أضواء كثيرة على الحركة الثقافية لعهودهم . وكان يعاصره الشريف النسابة محمد[1] بن أسعد الجَوَّانىّ الحسينى ، المتوفى سنة ٥٨٨ وله كتاب طبقات الطالبيين وتاج الأنساب .

وكتب إبراهيم بن وصيف شاه قبل سنة ٦٠٦ كتاب جواهر البحور ووقائع الأمور وعجائب الدهور وأخبار الديار المصرية . ولعلى بن ظافر الأزدى المتوفى سنة ٦٢٣ كتاب الدول المنقطعة فى أربعة مجلدات وفيه يذكر تاريخ الطولونيين والإخشيديين والفاطميين والعباسيين حتى سنة ٦٢٢ . ومرَّ بنا ذكر الحافظ عبد الغنى بين الحنابلة وأن له كتاب الإكمال فى معرفة أسماء الرجال . وأكبر مؤرخ للرجال زمن الأيوبيين القفطى[2] على بن يوسف المتوفى سنة ٦٤٦ وله كتاب إنباه الرواة على أنباه النحاة وكتاب المحمدين من الشعراء . وهما مطبوعان وله أيضا كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء . اختصره الزوزنى محمد بن على المعاصر له وسمى مختصره « تاريخ الحكماء » طبع فى ليبزج والقاهرة ، وهو مبثوث فى هوامش هذا الجزء .

ونمضى إلى زمن المماليك وفى عهدهم تزدهر كتابة التاريخ العام والخاص وتاريخ التراجم والسير، ويلقانا المكين[3] بن العميد، وهو جرجيس (أوعبدالله) بن أبى اليسربن أبى المكارم المولود بالقاهرة سنة ٦٠٢ والمتوفى بدمشق سنة ٦٧٢ وله كتاب المجموع المبارك وهو تاريخ عام للعالم فى قسمين : القسم الأول من بداية الخلق إلى الرسول ﷺ والقسم الثانى من الرسول إلى سنة ٦٥٨ وقد نُقل إلى اللاتينية وطبع مع الأصل العربى فى ليدن سنة ١٦٢٥ للميلاد وتُرجم إلى الأنجليزية وطبع فى لندن ثم إلى الفرنسية وطُبع فى باريس . وكان يعاصره ابن ميسر[4] تاج الدين محمد بن على بن يوسف المتوفى سنة ٦٧٧ مصنف تاريخ مصر وهو ذيل أو تكملة لكتاب المسبِّحى

(١) انظر فى الجوانى الخريدة (قسم مصر) ١ / ١١٧ ولسان الميزان ٥ / ٧٤ .

(٢) انظر القفطى فى معجم الأدباء ١٥ / ١٧٥ والطالع السعيد ص ٢٣٧ والشذرات ٥ / ٢٣٧ وفوات الوفيات ٢ / ١٩١ والسيوطى ١ / ٥٥٤ .

(٣) انظر المكين فى بروكلمان ٦ / ١٤٤ ودائرة المعارف الإسلامية .

(٤) انظر ابن ميسر فى بروكلمان ٦ / ٩٠ .

آنف الذكر . وللشاعر المعروف باسم الجزار المتوفى سنة ٦٧٩ قصيدة تاريخية سماها العقود الدرية فى الأمراء المصرية حتى الملك الظاهر بيبرس احتفظ بها السيوطى فى كتابه حسن المحاضرة . ولابن[١] الراهب القبطى أبى شكر بطرس المتوفى سنة ٦٨١ كتاب فى التاريخ العام يشتمل على تاريخ ملوك الروم والبطاركة والخلفاء والأمراء إلى سنة ٦٥٧ تُرجم إلى اللاتينية سنة ١٦٥١ وعُنى به اليسوعيون ببيروت ونشروه سنة ١٩٠٣ . وحرى بنا أن نذكر هنا ابن[٢] خلكان أكبر كتاب التراجم وأوثقهم المتوفى سنة ٦٨١ وحقا نشأ بالموصل ، ولكنه أقام فترات طويلة بالقاهرة وفيها بدأ تأليف كتابه النفيس : وفيات الأعيان سنة ٦٥٤ وأتمّه بها سنة ٦٧٢ . ويلقانا محيى[٣] الدين بن عبد الظاهر المتوفى سنة ٦٩٢ وله سيرة نفيسة فى السلطان قلاوون » باسم : تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور قلاوون وهى منشورة ، وله أيضا سيرة فى السلطان الظاهر بيبرس وسيرة ثالثة فى الأشرف خليل بن قلاوون ، وأيضا له خطط القاهرة .

ونلتقى فى القرن الثامن بالدوادار[٤] ركن الدين بيبرس المنصورى المتوفى سنة ٧٢٥ وله زبدة الفكرة من تاريخ الهجرة ، وهو تاريخ عام للدولة الإسلامية حتى سنة ٧٢٤ مرتب على السنين فى أحد عشر مجلدا . وفى مكتبة جامعة القاهرة مصورات لبعض أجزائه . وكان يعاصره النويرى الذى تحدثنا عنه بين الجغرافيين مشيرين إلى موسوعته الكبرى نهاية الأرب . وبها سيرة نبوية مطولة وتاريخ عام للدولة الإسلامية . وأشرنا هناك أيضا إلى ابن فضل الله العمرى وموسوعته مسالك الأبصار . وبها مجلدات ضخمة لتراجم الأطباء والفقهاء والعلماء من كل صنف والشعراء والكتاب لا فى مصر وحدها بل فى العالم العربى جميعه . ونلتقى بالحافظ ابن[٥] سيد الناس المتوفى سنة ٧٣٤ وسيرته النبوية : « عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير » . وبها إضافة مهمة إذ لا تكتفى بما فى كتب السيرة كسيرة ابن هشام ، بل تضيف إلى ذلك المراجعة على كتب الحديث مثل صحيح البخارى . ويلقانا الإدفوى[٦] جعفر بن ثعلب المتوفى سنة ٧٤٨ مصنف الطالع

---

(١) انظر ابن الراهب فى بروكلمان ٦ / ١٤٦ .

(٢) انظر مصادر ترجمة ابن خلكان وأخباره فى الجزء الخامس من هذه السلسلة بقسم العراق .

(٣) راجع مصادر ترجمة محيى الدين بن عبد الظاهر فى ص ٤١٥ .

(٤) انظر فى الدوادار الدرر الكامنة ٢ / ٤٣ والشذرات ٦ / ٦٦ ودائرة المعارف الإسلامية .

(٥) راجع فى ابن سيد الناس السيوطى ١ / ٣٥٨ ، ٤٢٥ والبدر الطالع ٢ / ٢٤٩ والنجوم ٧ / ٣٥٦ وطبقات القراء ١ / ٣٨٦ والدرر الكامنة ٤ / ٣٣٠ والسبكى ٩ / ٢٦٨ .

(٦) راجع فى الإدفوى السيوطى ١ / ٥٥٦ والشذرات ٦ / ١٥٣ والدرر الكامنة ٢ / ٧٢ والبدر الطالع ١ / ١٨٢

السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد . وكان يعاصره المفضل بن أبي الفضائل القبطي وله ذيل على تاريخ المكين بن العميد باسم « النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد » ويشمل تاريخ سلاطين المماليك من الظاهر بيبرس إلى الناصر بن قلاوون وتاريخ بطاركة الإسكندرية والمسلمين فى اليمن والهند وتاريخ التتار ، نُشر منه القسم الخاص بسلاطين[1] المماليك . ونلتقى بالحافظ مُغْلطاى المار ذكره بين المحدثين ، وله سيرة نبوية باسم « الزهر الباسم فى سيرة أبى القاسم » ومنها مخطوطة فى دار الكتب المصرية .

ويلقانا بهاء الدين السبكى الذى ذكرناه بين فقهاء الشافعية ، وله كتابه النفيس « طبقات الشافعية » . ونراه يصل التاريخ بالمجتمع فى كتابه «معيد النعم» وهو يلتقى بكتاب الجمهورية لأفلاطون وكتاب آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابى ، والكتابان إنما يعرضان للحياة السياسية والاجتماعية فى المدينة عرضا مثاليا ، والسبكى يتجه فى « معيد النعم » نفس الوجهة فى المجتمع المصرى ، فيصور المثالية ، ولا يكتفى بذلك ، بل يعمد إلى تصوير الواقع مقابلا بينه وبين المثال ، ولكى يصل إلى ذلك استعرض عناصر المجتمع ، وهى تبلغ عنده مائة واثنى عشر عنصرا : من السلطان ونوابه وموظفى الدولة وقواد الجيش والقائمين على الضرائب والأسواق والقضاة والعلماء والوعاظ والصوفية وخزنة الكتب ومعلمى الكتاتيب والوراقين وأصحاب الصيد والزراعة والصناعة والتجارة وأصحاب الحرف المختلفة ، وحتى البوابين والقائمين على إصطبلات الخيول والشحاذين . كل هؤلاء يستعرض حياتهم بواقعها وما ينبغى أن تكون عليه من صورة مثالية . وبذلك رسم المجتمع المصرى بكل معايبه وما ينبغى أن يكون عليه من هيئة فاضلة .

ويلقانا فى مطالع القرن التاسع ابن[2] الفرات ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم المتوفى سنة ٨٠٧ وله كتاب « تاريخ الدول والملوك » بلغ فيه نهاية سنة ٨٠٣ وكان فى عشرين مجلدا . وكان يعاصره ابن دقماق[3] صارم الدين إبراهيم بن محمد المذكور بين الجغرافيين والمتوفى سنة ٨٠٩ وله كتاب الانتصار لواسطات عقد الأمصار ، خص كل جزء منه بمدينة . وقد نشر فولرز منه الجزءين الخاصين بالقاهرة والإسكندرية ، وله كتاب فى تراجم الصوفية ، وله فى تاريخ مصر كتاب نزهة الأنام فى اثنى عشر مجلدا وتاريخ لحكام مصر حتى سنة ٨٠٥ صنفه للسلطان برقوق وله فيه سيرة

---

(١) بروكلمان ٦ / ١٤٦ .

(٢) انظر ابن الفرات فى السيوطى ١ / ٥٥٦ والضوء اللامع ٨ / ٥١ .

(٣) انظر ابن دقماق فى السيوطى ١ / ٥٥٦ والشذرات ٧ / ٨٠ والضوء اللامع ١ / ١٤٥ .

سماها « عقد الجواهر فى سيرة الملك الظاهر برقوق » وتكثر فى هذا العصر كتابة سير السلاطين . وقد ذكرنا بين الجغرافيين القلقشندى المتوفى سنة ٨٢١ وكتابه صبح الأعشى ، وهو سجل تاريخى حافل بمعلومات نفيسة عن مكاتبات الحكام فى العالم العربى على مر العصور بجانب أنه معلمة جغرافية رائعة . وله مصنفات مختلفة .

ونلتقى بالمقريزى المتوفى سنة ٨٤٥ وقد مر ذكره بين الجغرافيين مع الإشارة إلى كتابه « الخطط » وفيه يتحدث عن البيئة الطبيعية – كما أسلفنا – لمصر ، ويفيض فى الحديث عن القاهرة وآثارها وأحيائها ومساجدها ومدارسها وحماماتها ومارستاناتها ومصانعها وخزائن كتبها وما كان بها من حركة علمية . ويتحدث عن الدول التى أظلتها ، وبذلك يلتقى فى الكتاب تاريخ مصر الفكرى بتاريخها السياسى والاجتماعى والروحى والحضارى ، إذ حوَّل المقريزى التاريخ إلى دراسة اجتماعية وعقلية وسياسية مع تصوير عادات السكان وتقاليدهم ومستوى معيشتهم ونزعتهم الصوفية وكل ما اختلف على أهل مصر والقاهرة من صور الحياة . وله سيرة نبوية فى ستة مجلدات باسم « إمتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء والأموال والحفدة والمتاع » وله اتعاظ الحنفا بأخبار الفاطميين الخلفا فى تاريخ الدولة الفاطمية وهو مطبوع وكتاب المقفى فى تراجم أمراء مصر وأعيانها رتبه على الحروف الأبجدية ، وكتاب السلوك لمعرفة دول الملوك فى تاريخ مصر من سنة ٥٧٧ – ٨٤٤ وكتاب درر العصور الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة ، وكتاب البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب إلى غير ذلك من كتب تاريخية نفيسة . وكان يعاصره ابن حجر[1] الذى مر ذكره بين المحدثين ، وعنى بالتأليف فى التراجم . وله كتاب الإصابة فى تراجم الصحابة وكتاب رفع الإصر عن قضاة مصر وكتاب تهذيب التهذيب فى اثنى عشر مجلدا وكتاب لسان الميزان وكتاب الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة . وكل هذه الكتب مطبوعة . وله أنباء الغمر بأبناء العمر ، وعنى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بطبعه .

ويلقانا أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تَغْرى[2] بَرْدِى المتوفى سنة ٨٧٤ ، وله كتابه النفيس « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » يؤرخ فيه لمصر منذ دخلها عمرو بن العاص وأضاءت فيها

(١) انظر ابن حجر فى السيوطى ١ / ٣٦٣ والشذرات ٧ / ٢٧٠ والضوء اللامع جـ ٢ رقم ١٠٤ والفوائد البهية للكنوى ص ١٠٠ والبدر الطالع ١ / ٨٧ والمؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى لمحمد مصطفى زيادة ص ١٧ .

(٢) انظر ابن تغرى بردى فى الضوء اللامع جـ ١٠ رقم ١٧٨ والشذرات ٧ / ٣١٧ والبدر الطالع ٢ / ٣٥١ ومقدمة كتابه النجوم الزاهرة طبع دار الكتب المصرية ودائرة المعارف الإسلامية فى أبى المحاسن ، وزيادة ص ٢٦ .

أنوار الدين الحنيف حتى سنة ٨٧٢ وهو تاريخ على السنوات . وعادة يقدم لسنوات كل وال أو خليفة أو حاكم أو سلطان بكلمة عامة عن حكمه وما وقع فيه من أحداث مهمة وما يداخل زمنه من بعض الشئون الاجتماعية مع الاهتمام بالنواحى العلمية . وهو فيه لا يؤرخ لمصر وحدها ، بل يذكر مع سنواتها دائما تاريخ الدول العربية ، ومع كل سنة وفيات الأمراء والعلماء والأدباء فى العالم العربى ، وأيضا مع تصوير الحياة العربية فى جميع مناحيها . وكانت له عقلية فذة استطاع بها أن يبرز الأحداث السياسية فى وطنه والأوطان العربية مع سَوْق كثير من الطرائف الأدبية والاجتماعية . والكتاب مطبوع فى ستة عشر مجلدا . وله مصنفات تاريخية مختلفة بجانبه أهمها كتابه المنهل الصافى وهو معجم نفيس لمشاهير الرجال الذين توفوا من سنة ٦٤٨ حتى أيامه ، ويشمل نحو ثلاثة آلاف ترجمة لمن عاشوا فى مصر والشام فى تلك المدة ومن عاصروهم من أهل العراق والحجاز واليمن والتتار وبلاد المغرب والأندلس من الملوك والسلاطين والأمراء والوزراء والقواد والعلماء والكتاب والشعراء والمؤرخين والأطباء والمهندسين والتجار وأرباب المهن وغيرهم ، وصنع له مختصرا باسم الدليل الشافى على المنهل الصافى وهو منشور فى مجلدين .

وكان يعاصره ابن قطلوبغا الذى مرّ ذكره بين الأحناف ، وقد أشرنا هناك إلى أن له كتابا فى تراجم الحنفية سماه « تاج التراجم » وهو مبثوث فى هوامش هذا الجزء . ونلتقى بشمس[1] الدين السخاوى محمد بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٩٠٢ وله كتاب الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع وهو معجم بديع لتراجم هذا القرن ، وقد عدنا إليه مرارا فيما أسلفنا من حديث ، وله ذيل على كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك لأستاذه المقريزى ، وذيل آخر لكتاب أستاذه الثانى ابن حجر : رفع الإصر عن قضاة مصر ، وقد خصه بترجمة لحياته .

ويتوج السخاوى هذا النشاط التاريخى العظيم بكتابه : « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » وهو محاولة رائعة لوضع علم التاريخ الإسلامى العربى . واسم الكتاب يوحى بأنه دفاع عن التاريخ ، وقد بدأ ببيان معنى كلمة التاريخ لغة واصطلاحا وبيان موضوعه وأنه الزمان والإنسان ، وأخذ يصور فوائده فى التربية الدينية والخلقية والشئون الاقتصادية وأيضا الشئون السياسية بما يدفع إليه الحكام من العدل فى الرعية والقواد من تدبير شئون الجيش ، وبالمثل الشئون الاجتماعية وما يتصل بها من الكمالات والنواقص فى المجتمعات . ويعرض بالتفصيل لما ينبغى أن يتوفر فى

(١) انظر فى السخاوى مقدمة كتابه الضوء اللامع وكذلك جـ ٨ رقم ١ والكواكب السائرة للغزى ١ / ٥٣ والشذرات ٨ / ١٥ والبدر الطالع ٢ / ١٨٤ والنور السافر للعيدروسى ص ١٦ والمؤرخون فى مصر لزيادة ص ٣٩ .

المؤرخ من شروط العدالة والتحرى والتدقيق فى الأخبار مما ينبغى معه رفض الإسرائيليات والأساطير . ويطيل فى بيان أنه ينبغى على المؤرخ أن لا يستشعر عداوة من يعاديهم لأسباب عقيدية أو مذهبية أو شخصية ، ويصور الاختلاف العنيف بين المتصوفة وأهل السنة وكذلك بين الشيعة وخصومهم . وُيْنحى باللائمة على الذهبى فى تراجمه لاستطالته على المتصوفة وكثيرين من أئمة الشافعية والحنفية والأشاعرة لمخالفتهم له فى العقيدة الحنبلية . وينقل عن السبكى أنه ينبغى أن لا يؤخذ بكلامه فى ذم أشعرى والثناء على حنبلى . ويفيض فى بيان التحرى فى الروايات والرواة ويبسط الحديث فى نقد المؤرخين وكتاباتهم التاريخية . والكتاب بالغ الروعة والنفاسة .

وكان يعاصره السيوطى الذى مر ذكره بين اللغويين والنحاة والمحدثين وفقهاء الشافعية ، وله طبقات الحفاظ وهو مختصر من طبقات الحفاظ للذهبى ، وطبقات المفسرين وبغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة ، وحسن المحاضرة وهو مبثوث فى الهوامش ، وتاريخ الخلفاء والسلاطين من عهد أبى بكر الصديق إلى زمن السلطان قايتباى ، ومسالك الحنفا فى والدى المصطفى ، ولب اللباب هذب فيه اللباب لابن الأثير ويشتمل على نحو تسعة آلاف اسم وكل هذه الكتب منشورة . وله وراءها مصنفات أخرى منها سيرة للإمام مالك وسيرة للنووى . ويُختَمُ زمن المماليك بابن إياس محمد بن أحمد الذى عرضنا له بين الجغرافيين ، وله تاريخ مفصل عن مصر سماه « بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، وهو يتناول فيه باختصار تاريخ مصر ، حتى إذا وصل إلى زمن قايتباى (٨٧٤ – ٩٠٣ هـ) أفاض فى التاريخ إفاضة واسعة ، حتى ليذكر وفيات كل شهر ، ومن أهم ما كتبه وصفه لاحتلال العثمانيين مصر مبينا ما ألحقوه بها من دمار ونهب لكنوزها وصناعاتها وعلمائها وصناعها المهرة ، حتى ليقول إنهم أبطلوا من مصر خمسين صنعة .

وتظل للتاريخ بقية من النشاط فى زمن العثمانيين ، وأول مؤرخ نلتقى به فى عهدهم ابن زنبل الرمال أحمد بن على المتوفى سنة ٩٦٠ وقد مر ذكره بين الجغرافيين وكان موظفا فى ديوان الجيش العثمانى ، وله كتاب فتح مصر أو أخذها من الجراكسة على يد السلطان سليم . ويصف معاركه مع الجراكسة فى شمالى الشام وفى القاهرة وعودته إلى عاصمته إستانبول . ويلقانا عبد الوهاب الشعرانى المتوفى سنة ٩٧٣ وقد ألممنا به فى حديثنا عن المتصوفة فى الفصل الماضى ، وله طبقاته الكبرى فى تراجم الصوفية على مر السنين حتى زمنه . وهى مطبوعة مرارا . ويلقانا فى القرن الحادى عشر الهجرى زين الدين بن أبى السرور البكرى محمد الصديقى وابنه شمس الدين محمد ولهما كتب

مختلفة فى العثمانيين ، وأهم منها عبد [1] الرءوف المناوى المتوفى سنة ١٠٣١ وله الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية ، وصنف كتابا فى الأحكام السلطانية وكتابا فى معجم الحديث سماه كنوز الحقائق. وكان يعاصره الإسحاقى محمد بن عبد المعطى المتوفى سنة ١٠٣٢ وله لطائف أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول » وهو مطبوع . ونلتقى بنور[2] الدين الحلبى على بن إبراهيم المولود بمصر المتوفى سنة ١٠٤٤ وله السيرة النبوية الحلبية المشهورة ، وهى مطبوعة مراراً . ويلقانا شهاب [3] الدين الخفاجى أحمد بن محمد المتوفى سنة ١٠٦٩ وله ريحانة الألبا تَرْجَم فيها لشعراء الشام والمغرب والحجاز ومصر أيام العثمانيين وهو مطبوع مرارا . وألفت كتب كثيرة فى السيرة النبوية ، منها سيرة خير البرية للصبان المذكور بين النحاة والمتوفى بأخرة من زمن العثمانيين سنة ١٢٠٦ . وظلت مصر موئلا للعلماء – مؤرخين وغير مؤرخين – فى زمنهم كما كانت فى الأزمنة السابقة . ومن كبار المؤرخين الذين نزلوها حينئذ المقرى المتوفى سنة ١٠٤١ مؤلف كتابى نفح الطيب وأزهار الرياض الموسوعتين الأندلسيتين المشهورتين .

---

(١) راجع المناوى فى خلاصة الأثر ٢ / ٤١٢ والبدر الطالع ١ / ٣٥٧ .

(٢) راجع نور الدين الحلبى فى خلاصة الأثر ٣ / ١٢٢ .

(٣) انظر مصادر ترجمة الخفاجى فى ص ٤٥٩

الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

١

تعرب مصر

كان بمصر قبل الفتح العربى الإسلامى لغات وعناصر جنسية مختلفة . فقد كان بها إغريق منذ عهد البطالمة ، وكانت اللغة الإغريقية - منذ زمانهم وفى عهد الرومان — اللغة الرسمية للدولة . وكان بها بعض السريان فى الإسكندرية وبعض الأديرة ، وكانوا يهتمون بالطب ، ونُقل من لغتهم السريانية فيما بعد لعمر بن عبد العزيز كتاب فى الطب لأهرون القس . وكان بها رومان . وكثرتهم كانت من جنود الاحتلال الرومانى . وطبيعى أن يتكلموا لغتهم اللاتينية . وكان بها بعض اليهود وخاصة فى الإسكندرية وكانوا يتكلمون العبرية . وأهم من تلك العناصر جميعا جماهير مصر من القبط ، وهم عامة الشعب وسواده ، وكانوا يتكلمون القبطية ، وكانت لها لهجات تتفاوت تفاوت الأقاليم والبلدان المصرية البحرية والقبلية .

وبمجرد أن نزل العرب مصر لم يعد للاتينية أى شأن ، فقد طُردت بقايا الرومان مع الجيش البيزنطى الذى غادر البلاد مدحورا مهزوما . وانحازت السريانية إلى الأديرة وأخذت فى الزوال . واضمحلت العبرية . أما اللغة الإغريقية فظلت حية فى الدواوين على ألسنة الموظفين بها وفى كتاباتهم حتى سنة ٨٧ للهجرة إذ أمر الوليد بن عبد الملك أخاه عبد الله والى مصر بنقل الدواوين من اليونانية إلى العربية[١] . وسرعان ماهُجرت ونُبذت إلا كلمات قليلة سقطت فى العربية إما من الإغريقية مباشرة وإما منها عن طريق القبطية .

أما اللغة القبطية فظلت بعد اللغة الإغريقية منتشرة على كل لسان فى البلاد ، إذ كانت لغة

---

(١) خطط المقريزى ١ / ١٨١ وفيه أن نقل الدواوين بمصر كان من القبطية إلى العربية وهو خطأ فقد كان من الإغريقية إلى العربية ، كما تشهد بذلك أوراق البردى التى نشرها جروهمان فى مواضع متفرقة وهى صادرة عن الوالى باللغتين اليونانية والعربية ، وانظر أدب مصر الإسلامية (عصر الولاة — نشر دار الفكر العربى) للدكتور محمد كامل حسين ص ٣٠ .

التخاطب اليومى ، غير أنها كانت متخلفة ، إذ لم تحتفظ لنفسها بشيء من التراث الأدبى الفرعونى عند أمثال حوتب الكاتب وبنْتاءور الشاعر . واستحالت لغة فقيرة مجدبة فى معجمها اللغوى وفى أساليبها البيانية ، وكل ماكانت تحمله حين الفتح كتابات دينية جافة[١] ، ليس فيها شيء من روعة البيان ، كُتبت فى العهد الرومانى أو قبيل الفتح وبعده . وحتى من كان لديه حينئذ ملكة شعرية خصبة من القبط آثر أن ينظم شعره باليونانية محاكيًا لهوميروس أو لغيره من شعراء اليونان[٢] . ومعنى ذلك أنه لم يكن للقبطية تراث أدبى تستطيع أن تثبت به أمام العربية وتراثها الأدبى البديع . فأخذت تكتسحها وتظفر بألسنة القبط عاما بعد عام .

وعاملان قويان أخذا يعملان بسرعة على تعرب مصر . أما أولهما فدخول كثيرين من القبط فى الإسلام لما رأوا من تعاليمه السامية ، ولما استقر فى نفوسهم من أن من يسلم منهم يصبح له جميع حقوق العربى الفاتح فله ماللمسلمين وعليه ماعليهم . يقول بتلر : «كان فى ذلك باعث قوى لكثير منهم على الدخول فى الإسلام لاسيما وقد طحن المقوقس الحاكم الرومانى أو البيزنطى عقيدتهم (الأرثوذكسية) طحنا »[٣] . ومعروف أن الرومان أوقل البيزنطيين ساموا القبط خسفا لايطاق ، وكانوا ينهبون طيبات مصر نهبا ، ويعتصرون خيراتها اعتصارا ، فكان الإسلام للقبط ملاذا وملجئا . وعَدُّوا العرب مخلصين لهم من ظلم لايطاق ، وأخذوا يدخلون فى دين الله الحنيف ، ويمضى بتلر قائلا : « وكذلك دخل فى الإسلام كثير من الروم بعضهم من الجنود وبعضهم ممن حَلَّ منهم فى مصر » . وكلما قطعنا شوطا زمنيا بعد الفتح تزايد عدد الداخلين من القبط فى الإسلام ، يدل على ذلك تناقص ضريبة الدفاع المسماة بالجزية التى كانت تؤخذ من القبط ، وكانت لاتؤخذ إلا من القادرين على حمل السلاح ، فلا تؤخذ من شيخ ولاصبى ولاامرأة ولاراهب ، وقلما كانت تزيد على دينار ، وربما أصبحت نصف دينار ، وكان مقدارها زمن عمر بن الخطاب اثنى عشر ألف ألف دينار ، فنقصت فى عهد معاوية إلى خمسة آلاف ألف[٤] ، مما يدل بوضوح على دخول كثيرين من القبط فى الإسلام فى الفترة الأولى من الفتح العربى ، بحيث لو قلنا إنه دخل نحو نصف السكان فى الإسلام لم نكن مغالين . وظل عدد مَنْ

---

(١) انظر فتح العرب لمصر لبتلر ترجمة محمد فريد أبى حديد ص ٨٥ وموجز تاريخ القبط الملحق برسالة مارمينا الرابعة (مراجعة مراد كامل) ص ١٥٥ وأدب مصر الإسلامية ص ٦ .

(٢) راجع أدب مصر الإسلامية ص ٤

(٣) بتلر ص ٢٤٣ .

(٤) بتلر ص ٤٠٣ وانظر البلدان لليعقوبى ص ٣٣٩ .

يسلمون فى ازدياد مع السنين حتى إذا ولى حيَّان بن شريح لعمر بن عبد العزيز بعد نحو ثمانين عاما من الفتح رأيناه يكتب إلى عمر : إن الإسلام قد أضرَّ بالجزية ، حتى اضطررت إلى اقتراض عشرين ألف دينار أتممتُ بها عطاء أهل الديوان ، وكأنه كان يريد أن يبقى الجزية على من يسلمون من القبط ، فكتب إليه عمر كتابا شديد اللهجة قائلا : « أما بعد فقد بلغنى كتابك ، وقد ولَّيتك جند مصر وأنا عارف بضعفك وقد أمرت رسولى بضربك عشرين سوطا على رأسك . فضع الجزية عمن أسلم قبَّح الله رأيك ، فإن الله إنما بعث محمدًا صلى الله عليه وسلم هاديا ولم يبعثه جابيا يجمع الأموال[١] ». وكان كل هؤلاء المسلمين من القبط منذ عهد عمر بن الخطاب يُقْبلون على حفظ بعض آيات القرآن الكريم واستظهار بعض الحديث النبوى وتعلم العربية مما عمل بوضوح على تعرب مصر.

وعامل ثان لايقل عن هذا العامل خطرا فى تعريب مصر ، هو هجرات القبائل العربية إليها بعد الفتح حين سمعت بخصبها وزروعها وثمارها . وعادة يقف المؤرخون عند هجرات كبيرة لتلك القبائل مثل هجرة القبائل القيسية فى عهد هشام بن عبد الملك ومثل هجرة بنى سليم والقبائل الهلالية فى عهد الدولة الفاطمية . غير أنه كان وراء هذه الهجرات سيل متدفق من هجرة القبائل وعشائرها إلى مصر . وكان كل وال فى العهد الأموى يصحبه كثير من الجند . وكانت مصر قريبة من الجزيرة العربية فنزلها كثيرون من قبائل الشمال وقبائل الجنوب والغرب والشرق . وتُعْنى كتبُ ببيان هذه القبائل المهاجرة ومنازلها بمصر مثل كتاب البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب للمقريزى . وطبيعى أن تختلط هذه القبائل بسكان مصر لافى مدنهم فحسب . بل أيضا فى ريفهم . فقد سنَّ لهم عمرو بن العاص أو قل سن لجنده أن يرتبعوا أو يقضوا الربيع فى ريف مصر ثم يعودوا إلى الفسطاط . ونشأ عن هذا الاختلاط سريعا ضروب من المصاهرة بين بعض العرب والقبط عقب الفتح إذ يسمى ابن عبد الحكم طائفة من أبناء السلطيسيات القبطيات[٢] . من بينهم عون بن خارجة القرشى وعبد الرحمن بن معاوية بن حُدَيج . وخارجة ومعاوية جميعا ممن حضروا الفتح . ولابد أن اتسع ذلك فيما بعد . مع كثرة هجرة العرب . ومع اختلاطهم بالقبط . مما جعلهم يتعلمون لسانهم لكى يحسنوا التفاهم معهم . وكانت حاجتهم من وجهات كثيرة تدعو إلى ذلك ، فقد كان منهم من يقوم على جمع خراج الأرض للعرب وجمع الجزية . وكانت

(١) خطط المقريزى ١ / ١٤٣ .

(٢) فتوح مصر لابن عبد الحكم (طبعة ماسيه) ص ٧٦ .

تصلهم رسائل من الدواوين ويُضْطرون للرد عليها ، فاضطروا لتعلم العربية ، واضطرهم إلى ذلك أيضا النظام القضائى ، فكان القبطى المدعى فى قضية أو المتهم فى حاجة إلى معرفة شىء من العربية . وكل ذلك عمل على ذبول القبطية ، ولكن غير صحيح أنها أخذت فى الزوال من لسان القبط بعد نحو قرن من الفتح العربى كما زعم رونودوبعض الباحثين فقد ظلت حية ، يدل على ذلك أكبر الدلالة مارواه المؤرخون من أن المأمون حين زار مصر لسنة ٢١٧ بعد الفتح بنحو قرنين كان ينزل فى قرى مصر وضياعها ويستمع إلى القبط وماقد يكون لديهم من شكوى ، والتراجمة بين يديه يترجمون له مايقولونه بالقبطية[1] . ويدور العام ويتولى الخلافة أخوه المعتصم ، فيأمر كَيْدر واليه على مصر أن يقطع عطاء العرب من الديوان[2] . وكان ذلك بدءًا حقيقيًّا لتعرب مصر ، فإن كل من كان بها من العرب حتى جند الدولة اضطروا إلى أن يزاولوا مع القبط حياتهم ابتغاء الكسب ، فأخذوا يشاركونهم فى الزراعة ، وهى مشاركة أقدم من ذلك منذ هجرة القبائل العربية الكبيرة إلى الحوف الشرقى فى أواخر العصر الأموى ، غير أنهم جميعا الآن لم يعد لهم بُدٌّ من هذه المشاركة لا فى الزراعة وحدها بل أيضا فى التجارة والصناعة . وبذلك أصبح العرب فى مصر جميعا مصريين ، يشاركون القبط فى حياتهم المصرية وألوان الكسب فيها مشاركة تامة ، وكان ذلك إيذانا بأن يتم تعرب مصر نهائيا ، وأن تأخذ القبطية فى الزوال والامِّحاء من ألسنة القبط فى الريف والقُرَى وتحل محلها العربية فى جميع الألسنة .

والحق أن موجة التعرب كانت حادة وقوية منذ زمن الفتح بسبب كثرة من اعتنقوا الإسلام من القبط حتى ليقول بتلر : « إن التاريخ لم يذكر فى حوادثه أمر أعجب من أن القبط انقسموا قسمين : قسم منهم امتزج كل الامتزاج بالإسلام ، والقسم الآخر بقى على دينه »[3] وهو يريد بامتزاج القسم الأول بالإسلام اعتناقه له ويتعجب من ذلك ، ولا عجب ، لأنه يعرف السبب ، كما مرَّ بنا ، وهو سماحة الإسلام والمساواة فى الحقوق بين من يسلم وبين الفاتحين وما يفرضه الدين الحنيف بين الطرفين من أخوة وثيقة . والمهم أن هذه الآلاف ممن أسلموا بل ربما الملايين ، كما يدل على ذلك نقص ضريبة الجزية مما أشرنا إليه ، أقبلوا على تعلم العربية ، حتى يحسنوا أداء شعائر الإسلام . ولم يلبث أن نبغ منهم كثيرون تُتَرْجِمُ لهم كتبُ التاريخ فى الفقه والشريعة من مثل

(١) خطط المقريزى ١ / ١٤١ . والمقريزى ١ / ١٧٣ .

(٢) الولاة والقضاة للكندى (طبعة جيست) ص ١٩٣ (٣) بتلر ص ٤٢٥ .

يزيد بن أبى حبيب الذى أقامه عمر بن عبد العزيز بأخرة من القرن الأول الهجرى للفُتيا بين الناس ، وقد ذكرناه فى الفصل الماضى ، كما ذكرنا من كبار القراء بمصر وَرْشا . وهو أيضا من سلالة القبط ، وتقرأ البلاد المغربية إلى اليوم بقراءته . ولا نلبث أن نلتقى بعد ورش بذى النون المصرى الإخميمى وله فضل تأسيس التصوف فى العالم الإسلامى . وهذه الأسماء المنحدرة من سلالة من أسلم من القبط إنما هى رموز فقط . ووراءهم من لا يكاد يحصى من أفذاذ العلماء فى كل فن .

وهذه الموجة الحادة من التعرب لم تقف عند من دخلوا فى الإسلام من القبط . فقد أخذت العربية تشيع على ألسنة كثيرين من القبط أنفسهم . ويبدو أن كثيرين من الرهبان عنوا بتعلمها إذ نجد شماسا يسمى بنيامين كان يلزم الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان فى أثناء ولاية أبيه على مصر يترجم له فصولا من الإنجيل ويشرحها[١] . وحتى علماء الإسكندرية نراهم يقبلون على تعلم العربية ، حتى ليرسل خالد بن يزيد بن معاوية - كما مر بنا فى الفصل الماضى - بطلب جماعة منهم لينقلوا له بعض كتب الكيمياء والطب ، وذكرنا هناك أن عمر بن عبد العزيز استقدم من الإسكندرية الطبيب ابن أبجر ، وأسلم على يده ، وربما ألف أو نقل له بعض رسائل طبية . ومر بنا أيضا أن الدوميلى ذكر كتابين فى الكيمياء ألفهما عالم مصرى أو علماء لأوائل القرن الثالث الهجرى ، وكان سعيد بن توفيل طبيب أحمد بن طولون يتقن العربية ، كما تدل على ذلك ترجمته[٢] فى طبقات ابن أبى أصيبعة . ونلتقى بعده بسعيد بن البطريق بطريرك الإسكندرية (٣٢١ - ٣٢٨هـ) وقد ذكرنا فى الفصل الماضى له كتابا بالعربية فى تاريخ البطاركة والخلفاء . وذكر له ابن أبى أصيبعة كتابا فى الطب بالعربية . وكل تلك شواهد تؤكد أن مصر بقبطها ورهبانها وبطاركتها تعربت أو كادت فى القرن الثالث الهجرى ، يدل على ذلك أننا نجد ساويرس ابن المقفع أسقف الأشمونين المتوفى فى أواخر القرن الرابع الهجرى يشكو شكوى مرة من ندرة اللسانين القبطى واليونانى فى مصر . وليس معنى ذلك أن القبطية طُردت نهائيا من مصر ومن كنائسها وأنه لم يعد بين القبط ورهبانهم من يعرفها . بل معناه أنها أخذت فى الزوال وحلت محلها فى ألسنة القبط العربية وخاصة فى لغة التخاطب اليومى ، أما هى فانحازت إلى الأديرة والصوامع البعيدة فى الصحراء والصعيد . من ذلك ما يذكره المقريزى المتوفى سنة ٨٤٥ للهجرة عن نصارى

---

(١) انظر سير الآباء البطاركة لأسقف الأشمونين ساويرس ابن المقفع (بعض أجزاء منه طبع باريس) ص ٢٤ .

(٢) راجع عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ص ٥٤١ .

أديرة درنكة[١] بالقرب من أسيوط من أنهم لا يكادون يتكلمون إلا بالقبطية ، وأن لهم معرفة تامة بالرومية يريد اليونانية . على كل حال هذه أسراب قليلة حافظ عليها نصارى بعض الأديرة النائية . أما الكتلة القبطية فإنها تعربت - كما قدمنا - مبكرة منذ القرن الثالث الهجرى .

٢

كثرة الشعراء

كان نشاط الشعر بمصر محدودا زمن الأمويين . وقد يرجع ذلك إلى أن أكثر الفاتحين لمصر كانوا يمنية ، والشعر لا ينشط على ألسنة اليمنيين نشاطه على ألسنة المضريين والقيسيين . على أن القبائل القيسية والمضرية أخذت جموعها تنزل فى مصر طوال الحقب الأموية . ولذلك ربما كان أولى من هذا التعليل لضعف الشعر بمصر حينئذ أن مانُظم منه لم يسجله الرواة ولا اهتم أصحابه بتسجيله ، ولولا ما سجله منه الكندى فى كتاب الولاة والقضاة وابن عبد الحكم فى كتابه فتوح مصر والمقريزى فى الخطط لظل مجهولا لنا تماما . على أن ما سجلوه قليل ، وأكثره يتصل ببعض الأحداث التاريخية . وهو شعر فى جملته متوسط ، وربما كان خير شعرائه أيام الأمويين ابن أبى زمزمة ، والشعر المنسوب إليه قليل ولا يوضح شخصيته . وحقا نشط الشعر بمصر زمن ولاية عبد العزيز بن مروان عليها (٦٥ - ٨٦ هـ) فقد كان جوادا ممدَّحا فانتجعه وقدم إليه مدائحه شعراء كثيرون حجازيون ونجديون وعراقيون ، منهم جميل صاحب بثينة وكثيِّر صاحب عزَّة وعبد الله بن الحجاج التغلبى وأيمن بن خُرَيم . ومن جذبه جوده ابن قيس الرقيات وله فيه مدائح بديعة[٢] ويصف فى إحدى مدائحه لعبد العزيز رحلة نيلية من الفسطاط إلى حلوان وأهم شاعر حجازى امتدحه ولزمه نُصَيْب وكان مُسْتَرَقًّا لكنانى ، وحين وفد عليه واستمع إلى مديحه أُعجب به إعجابا شديدا ، وردَّ إليه حريته مما أثر فى نفسه آثارا عميقة ، وأخذ يوالى نائله الغَمْر عليه ، وهو يوالى مديحه مديحا رائعا ، وله ترجمة فى كتابنا العصر[٣] الإسلامى . وفى كتاب الأغانى تفاصيل كثيرة بتراجم هؤلاء الشعراء الوافدين على عبد العزيز ، وما أضفى عليهم من النوال وأضفوا عليه من المديح .

---

(١) الخطط ٣ / ٥٦١ .

(٢) انظر ترجمته فى كتابنا الشعر والغناء فى المدينة ومكة لعصر بنى أمية (طبع دار المعارف) ص ٢٧٥ وكذلك فى كتابنا العصر الإسلامى (الطبعة التاسعة) ص ٢٩٩ .

(٣) العصر الإسلامى ص ٢٢٣ .

ونمضى إلى زمن العباسيين وولاتهم وقضاتهم المتعاقبين على مصر . وتلقانا فى كتاب الولاة والقضاة أشعار كثيرة تتصل بالأحداث أو بهجاء بعض القضاة أو بمدحهم ، ويصور ذلك إسحاق بن معاذ فى مديحه للمفضل بن فضالة الذى ولى قضاء مصر سنة ١٦٨ للهجرة ، وعاد فهجاه[١] كما يصوره يحيى الخولانى فى هجائه لعبد الرحمن العمرى الذى ولى قضاء مصر فى أيام هرون الرشيد سنة ١٨٥ لكثرة ما اتخذ من الشهود ورضاه بانتساب بعض المصريين من سلالة الأقباط فى العرب ، وهجاه أيضا بشغفه بالغناء وقبوله – فيما زعم – للرشوة[٢] . وفى هذه الأثناء نزل مصر أبو نواس الشاعر البغدادى المعروف قاصدًا الخصيب بن عبد الحميد متولى الخراج[٣] بها حوالى سنة ١٨٠ وأخذ ينثر عليه مدائح رائعة ، ومدحته الرائية له : (أجارة بيتنا أبوك غَيُور) مشهورة . وأهم شعراء مصر حين زارها أبو نواس سعيد بن عُفَير والمعلَّى الطائى ، ولسعيد أشعار فى الولاة والقضاء للكندى تتصل بالأحداث والأشخاص بين سنتى ١٦٨ر٢٠٩ . والمعلى الطائى – بدون ريب – أشعر منه ، وأشعاره عند الكندى تتردد بين سنتى ١٩٠ و ٢١٤ وروى له ابن سعيد فى قسم الفسطاط من كتاب المغرب أبياتا فى هجاء القاضى العمرى يصفه فيها بالظلم وأنه يتردد إلى المغنيات لسماع الغناء ، وله مرثية رائعة لجارية له اختطفها منه القدر كانت تسمى « وَصْفًا » وفيها يقول[٤] :

ياموت كيف سلبتنى وَصْفا ... قدَّمتَها وتركتنى خَلْفا

وأخذت شِقَّ النفس من بدنى ... فقَبَرْتَهُ وتركت لى النِّصْفا

ونراه يتصل بالولاة ويمدحهم واحدا تلو الآخر ، وممن اتصل بهم ومدحهم عبد الله بن طاهر حين ولى مصر سنة ٢١١ وله يقول من مدحة طويلة[٥]

يا أعظم الناس عفوًا عند مقدرةٍ ... وأظلمَ الناس عند الجود للمالِ

لو أصبح النيلُ يجرى ماؤه ذهبا ... لما أشرتَ إلى خَزْنٍ بمثالِ

ونزل مصر أبو تمام فى بواكير حياته ، ويبدو أنه نزلها مرتين : مرة قاصدا عباس بن لهيعة الحضرمى القائم على الشرطة والخراج لواليها المطلب الخزاعى بأخرة من القرن الثانى ، ومرة ثانية

---

(١) الولاة والقضاة للكندى ص ٣٧٩ ، ٣٨٦ .

(٢) الكندى ص ٣٩٦ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ – ٤٠٣ ، ٤١٣ ، ٤١٤ .

(٣) خطط المقريزى ١ / ٣٨٥ وانظر ترجمته فى كتابنا العصر العباسى الأول (الطبعة الثامنة) ص ٢٢٤ ، ٢٢٨

(٤) العقد الفريد (طبعة لجنة التأليف) ٢٧٩/٣ .

(٥) الأغانى (طبع دار الكتب) ١٠٢/١٢ .

حين وليها عبد الله بن طاهر قاصدًا له بالمدح ، وظل بها حتى سنة ٢١٤ كما تدل على ذلك أشعاره التى أنشدها الكندى فى مديح عبد الله بن طاهر وكذلك أشعاره فى رثاء عمير بن الوليد الوالى بعده . ويبدو أن صداقة انعقدت بينه وبين المعلى الطائى وابنه حِطَّان . إذ نجده ينشد فى ديوان الحماسة قطعة بديعة لحِطَّان يصور فيها عاطفة الأبوة الرحيمة الشفيقة إزاء البنات والأولاد بمثل قوله [1] :

وإنما أولادُنا بيننا أكبادُنا تمشى على الأرْضِ

وهو جانب من التعاطف الحميم فى الأسرة المصرية سنلتقى به مرارا عند الشعراء المصريين . وأهم شاعرين مصريين فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى ذو النون المصرى الإخميمى مؤسس التصوف الإسلامى المتوفى سنة ٢٤٥ وهو ينحدر من سلالة مصرية خالصة . والشاعر الثانى الجمل الأكبر الحسين بن عبد السلام المتوفى سنة ٢٥٨ للهجرة ، وفيه يقول ياقوت : «كان شاعرًا مفلقًا مدح الخلفاء والأمراء» ولحق أحمد بن طولون ولكن القدر لم يمهله .

ومرَّ بنا أن أحمد بن طولون ولى إمارة مصر سنة ٢٥٤ وأسس بها الدولة الطولونية . وقد أخذ ينهض بعمرانها فأنشأ قصرا ضخما . كما مر بنا فى غير هذا الموضع . وألحق به ميدانا فسيحا للعب الكرة . وأنشأ خمارويه ابنه بعده بستانا كان من عجائب الدنيا لما فيه من الزهر من كل لون وشكل . ومرَّ بنا حديث مفصل عن كل هذه المنشآت . وعُنى أحمد بن طولون ومثله ابنه خمارويه بالشعر والشعراء فأسْبَغا عليهم العطايا وأسبغ عليهما الشعراء مدائح كثيرة . ولعل ذلك ما جعل كثيرين من الشعراء يندبون دولتهم حين أزالها العباسيون سنة ٢٩٢ للهجرة ، ويذكر ابن تغرى بردى منهم إسماعيل بن أبى هاشم وسعيد القاضى الملقب بقاضى البقر ومحمد بن طَشُويْه وأحمد بن إسحق [2] ، ويقول المقريزى : رأيت كتابا قدر اثنتى عشرة كراسة مضمنة فهرستًا بأسماء الشعراء الذين بكوا الدولة الطولونية » ويعلق على ذلك بقوله : « فإذا كانت أسماء الشعراء فى اثنتى عشرة كراسة فكم يكون شعرهم ؟ مع أنه لا يوجد من ذلك الآن ديوان واحد » [3] . وفى هذا ما يدل بوضوح على كثرة الشعراء بمصر حينئذ ، ومما يدل على ذلك أيضًا أن نرى الصولى المتوفى سنة ٣٣٥ يؤلف كتابا فى أخبار شعراء مصر [4] . فالشعراء تكاثروا بمصر منذ زمن الدولة الطولونية ، ومنذ

(١) الحماسة لأبى تمام بشرح المرزوقى (طبع لجنة التأليف) ٢٨٥/١ .

(٢) النجوم الزاهرة ١٤٠/٣ ومابعدها

(٣) الخطط ٦١٢/١

(٤) معجم الأدباء ٤١٥/٢

أخذ تعريب مصر يتكامل كما أسلفنا . ومن أهم شعراء هذه الدولة القاسم بن يحيى المَرْيمى شاعر خمارويه ، وله مدائح فيه وأشعار فى وصف السفن والخيل والصيد . وللبحترى مدائح مختلفة فى خمارويه وأبيه أحمد بن طولون ، ويذكر ابن تغرى بردى أنه زار مصر لمديح خمارويه [١] وأغلب الظن أن مديحه له ولأبيه إنما كان حين لقيهما فى الشام ، فقد كانت تتبعهما ، وكانا ينزلان بها كثيرا ، ومر بنا فى الفصل الماضى أن خمارويه قُتل بدمشق على يد غلمانه . ونزل مصر لعهد تلك الدولة الناشئ الأكبر أبو العباس المعروف بابن شرشير المتوفى بها سنة ٢٩٣ وكان من الشعراء المجيدين ، ويقول ابن خلكان إنه يُعَدُّ فى طبقة ابن الرومى والبحترى ونظرائهما [٢] ، وقد ترجمنا له فى كتابنا العصر العباسى الثانى ، وأنشدنا له بعض أشعاره فى جوارح الصيد وآلاته ، وله فيها أشعار بديعة كثيرة ، وأنشدنا أيضًا أشعارًا له رائعة فى الغزل تملأ النفس إعجابا . وكانت له قصيدة من الشعر التعليمى تتناول فنونا من العلم فى نحو أربعة آلاف بيت ، وقصيدة تاريخية فى نسب الرسول صلى الله عليه وسلم تبلغ نحو ألف بيت وكان له كتاب نقدى فى الشعر وفضله . وبدون شك التفَّ حوله كثير من المصريين وأفادوا من شعره وعلمه ونقده بدليل أنه آثر المقام بينهم إلى مماته . ونزل مصر مثله منصور [٣] بن إسماعيل الفقية المشهور بمقطعاته فى الزهد . ويدور بنا الزمن دورة وتُظِلّ مصر الدولة الإخشيدية (٣٢٣ - ٣٥٨ هـ) ويَظَلُّ الشعر ناشطا فى أيامها ، ويترجم الثعالبى فى كتابه اليتيمة لطائفة كبيرة من شعرائها مثل صالح بن مؤنس ومحمد بن هرون الأكتمى وعبيد الله بن أبى الجوع والحسن بن محمد الشهواجى وصالح بن رشدين وابن أبى العصام وابن طباطبا الحسنى الرَّسِّى [٤] . ونزل مصر فى عهد كافور للمتنبى ، كما مرّ بنا فى الفصل الماضى ، فأحدث نزوله حركة أدبية واسعة ، وكان ابن رشدين وابن أبى الجوع من كبار المعجبين به فعُنيا برواية شعره ، وظلا يدرسانه للطلاب بعد مبارحته مصر . وممن نزلها زمن كافور كشاجم شاعر الشام المتوفى سنة ٣٦٠ وله فى أديرتها شعر كثير . ونزلها أيضا فى زمنه الناشئ الأصغر وامتدحه وامتدح وزيره ابن حِنْزابة [٥] .

ويؤسس الفاطميون دولتهم بمصر وتظل نحو قرنين من الزمان ، تتحول فيهما مصر إلى ما يشبه إمبراطورية ضخمة ، إذ يمتد سلطانها من شواطئ إفريقيا الشمالية إلى الفرات شرقا واليمن جنوبا ،

---

(١) النجوم الزاهرة ٣/٩٧

(٢) انظر فيه ابن خلكان ٣/٩١ وراجع ترجمته فى العصر العباسى الثانى (الطبعة الرابعة) ص ٤٩٣

(٣) انظر منصور الفقيه فى المغرب (قسم الفسطاط) ص ٢٦٢

(٤) اليتيمة ١ / ٣٨٧ وما بعدها

(٥) معجم الأدباء ١ / ٣٢٢

وقد جاءها المعز أول خلفائها الفاطميين وبرفقته شاعره المؤمن بعقيدته الإسماعيلية ابن هانئ الأندلسي ، ومعه ابنه تميم الشاعر الشاب الفذ ، وكان المعز نفسه شاعرًا ، روى ابن تغرى بردى بعض شعره[١] ، وكان ابنه العزيز نزار الذى ولى الخلافة الفاطمية بعده أيضًا شاعرًا[٢] وكذلك كان الحاكم[٣] والمستنصر[٤] ، فطبيعى أن يبعثوا نهضة شعرية فى البلاد ، خاصة أنهم كانوا يعنون بالدعاية لعقيدتهم الإسماعيلية ، وقصَدهم الشعراء فأغدقوا عليهم الأموال والعطايا . وكان يصنع صنيعهم وزير المعز والعزيز : يعقوب بن كلِّس . وكان يهوديا وأسلم . ودبَّر دولتهما تدبيرًا جيدًا ومهد لها قواعد الدولة ، وكان الشعراء يترددون عليه ينشدونه المدائح . ولعل مما يدل على كثرتهم حينئذ أننا نجد الذهبى وغيره من المؤرخين يقولون إنه لما توفى سنة ٣٨٠ رثاه مائة شاعر[٥] ولابد أن من رثوا المعز وابنه العزيز كانوا أيضًا كثيرين . فضلا عمن كانوا ينثرون عليهما أشعار المديح . غير أنه ينبغى أن نعود فنقيد هذا الكلام بعض التقييد لأن أهل مصر لم يكونوا راضين عن الفاطميين لعقيدتهم الإسماعيلية المفرطة فى التشيع المنحرف ، كما مر بنا فى غير هذا الموضع . فلا يصح أن نتخذ من مديح الخلفاء الفاطميين مقياسا لمدى نشاط الشعر فى مصر ، فقد كان أوسع من ذلك وأكبر .

وإذا مضينا بعد المستنصر إلى عهد الخليفة الفاطمى الآمر (٤٩٥ – ٥٢٤ هـ) وجدنا خبرا مهما يسوقه المقريزى عنه إذ يذكر أنه بنى ببركة الحبش منظرة بها طاقات صوَّر فيها جميع الشعراء ، كل شاعر واسمه وبلده ، وعلى جانب كل طاقة قطعة قماش كُتب عليها عند رأس كل شاعر قطعة من مدحه ، وبجانب صورة كل شاعر رفّ مذهب . فلما دخل المنظرة وقرأ الأشعار أمر أن يوضع على كل رفٍّ صُرَّة مختومة فيها خمسون دينارا ، وأن يدخل كل شاعر ويأخذ صُرَّته بيده[٦] وكان وزيره الأفضل بن بدر الجمالى شاعرًا ، وروى ابن ميسَّر فى أخبار مصر بعض شعره ، وكان يجزل العطاء للشعراء . فمدحه كثيرون منهم . ويعرض أمية بن أبى الصلت فى رسالته المصرية أسماء طائفة من مدَّاحه وبعض مدائحهم ويلم ببعض من هجوه وهجائهم . ويسمى العماد الأصبهانى فى القسم المصرى من كتابه الخريدة أسماء طائفة من شعرائه . وكان الوزير طلائع بن رُزِّيك بأخرة من العصر الفاطمى شاعرًا ، والتف حوله كثير من الشعراء ، وخصّهم شاعره الجليس بن الحَبَاب بمصنف

---

(١) النجوم الزاهرة ٤ / ٧٩
(٢) النجوم الزاهرة ٤ / ١١٣
(٣) النجوم الزاهرة ٤ / ١٩٦
(٤) المصدر نفسه ٥ / ٨١
(٥) النجوم الزاهرة ٤ / ١٥٨
(٦) الخطط ٢ / ٢٦٨

نقل منه العماد الأصبهانى تراجم طائفة منهم ، ومن أهم شعرائه الرشيد بن الزبير وله كتاب فى شعراء مصر فى العهد الفاطمى سماه « جنَان الجَنان ورياض الأذهان » وهو مفقود ، غير أن العماد الأصبهانى انتفع بتراجمه ، وبالمثل ابن سعيد فى كتاب المغرب . ووفد على مصر زمان الفاطميين كثيرون من الشعراء النابهين فى البلاد العربية أمثال أبى الرقعمق الأنطاكى وصريع الدلاء البغدادى والتهامى المكى وابن حَيّوس الدمشقى وأمية بن أبى الصلت الأندلسى المار ذكره آنفا .

ويظل نشاط الشعر المصرى فى زمن الأيوبيين بل يزداد نشاطا على نحو ما يصور ذلك كتاب بدائع البدائه لعلى بن ظافر الأزدى ، وهو يسجِّل الأشعار التى كان ينظمها الشعراء فى مجالسهم على البديهة . ونَلْقى هذه المجالس فى كل مكان إذ يجتمع الشعراء ويتخذون موضوعا طريفا لنظم أشعار على البديهة دون بُطْء ودون أناة كأن ينظموا فى بعض الأزهار إذا كان مجلسهم فى حديقة أو ينظموا فى فانوس السحور برمضان إذا كان مجلسهم فى ليلة من لياليه ، ونحس فى هذا الكتاب كأن الشعر كان على لسان . ومن الأدلة على ازدهار الشعر فى أوائل زمن الأيوبيين وأواخر زمن الفاطميين أننا نجد العماد فى خريدته يخصُّ مصر بمجلدين ترجم فيهما لمائة وأربعين شاعرًا . وكان القاضى الفاضل فى الدولة الأيوبية مثل طلائع بن رُزِّيك والأفضل بن بدر الجمالى فى الدولة الفاطمية ممدَّحا ، والتف حوله عشرات من الشعراء ، وكان بدوره شاعرًا كبيرًا . وأطلقت فتوح صلاح الدين وانتصاراته المدوية على الصليبيين ألسنة الشعراء فى مصر وجميع البلدان العربية حتى لم يكد يبقى شاعر نابه إلا قصده مادحا كما يقول ابن خلكان[1] . ونرى فاضل بن راجى الله العطار المصرى يقدم لابنه سلطان مصر بعده العزيز (٥٨٩ — ٥٩٥ هـ) كتابا فى شعراء مصر لزمنه سماه «الشعراء العصرية بالديار المصرية»[2] . ويفد على مصر بأخرة من زمن الأيوبيين على بن سعيد الأندلسى كما يفد عليها ابن العديم علم حلب لزمنه ويصحبه معه إلى بلدته ، وفيها يكتب له بين سنة ٦٤٤ و ٦٤٧ نسخة من كتابه المغرب ، وفيه قسم كبير خاص بمصر وبلدانها فى الوجهين البحرى والقبلى ، وقد اشتركتُ فى نشر القسم الخاص منه بالفسطاط وبه طائفة كبيرة من شعرائها ، ونُشر القسم الخاص بالقاهرة وبه أيضا شعراء أيوبيون كثيرون .

وتُعنى كتب التاريخ والتراجم بشعراء مصر زمن الأيوبيين والمماليك ، وفى مقدمتها وفيات الأعيان لابن خلكان وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبى والوافى بالوفيات للصفدى وكتاب الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر وكتاب الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع

(١) ابن خلكان (نشر دار الثقافة ببيروت) ٢١١/٧ (٢) المغرب : قسم القاهرة (طبع دار الكتب) ص ٣٢٤

للسخاوى وكتاب النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى وكتابى السلوك والخطط للمقريزى وكتاب بدائع الزهور لابن إياس . ولا يكاد يوجد شاعر نابه زمن الأيوبيين والمماليك إلا وله ديوان مطبوع فقد طبعت دواوين القاضى الفاضل وابن سناء الملك وابن النبيه والبهاء زهير وابن مطروح وابن الفارض والبوصيرى والقيراطى وابن نباتة وغيرهم ، بل طبعت دواوين لبعض الشعراء الفاطميين مثل تميم بن المعز وابن وكيع والشريف العقيلى والمؤيد الشيرازى وظافر الحداد وطلائع بن رزيك وابن قلاقس .

وبظل لمصر نشاطها الشعرى زمن العثمانيين . ويؤلف شهاب الدين الخفاجى المتوفى سنة ١٠٦٩ كتابا فى شعراء زمنه سماه «ريحانة الألبّا» ، خص مصر بالقسم الثالث منه ويذيّل على الريحانة المحبى المتوفى سنة ١١١١ بكتاب سماه « نفحة الريحانة » جعل لشعراء مصر قسما كبيرًا منه ، وبالمثل يذيل على نفحة الريحانة ابن معصوم المدنى المتوفى سنة ١١١٧ بكتاب سماه « سلافة العصر » ترجم فيه لطائفة من شعراء مصر لزمنه . وتلقانا تراجم مختلفة للشعراء المصريين فى شذرات الذهب للعماد وهو لا يتجاوز بتراجمه القرن العاشر . ونلتقى بطائفة منهم عند المحبى فى كتابه خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر وكذلك عند المرادى المتوفى سنة ١٢٠٦ فى كتابه « سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر » وأهم منه ومن العماد تاريخ الجبرتى . وهو يعنى فى الجزءين الأولين بتراجم شعراء مصر حتى نهاية القرن الثانى عشر أى حتى نهاية أيام العثمانيين .

٣

شعر دورى ورباعيات وموشحات وبديعيات

(ا) الشعر الدورى

ذكرنا فى كتاب العصر العباسى الأول ما نفذ إليه الشعراء العباسيون من تجديد فى الأوزان ، وأهم من ذلك ما نفذوا إليه من تجديد فى القوافى أتاح لهم أن يستحدثوا اللون الشعرى المعروف باسم المزدوج . وقد خصّوا به منظومات الشعر التعليمى ، وفيه تتحد القافية فى كل شطرين متقابلين وتتغير من بيت إلى بيت ، وكأن الوحدة فيه لم تعد البيت ، وإنما أصبحت الشطر . ويكثر بمصر كما يكثر بغيرها من الأقاليم العربية نظم المزدوجات التعليمية ، وكادوا لا يتركون عِلْمًا دون أن ينظموا فيه الأراجيز المزدوجة ، وأكثروا من ذلك فى النحو واللغة والقراءات ، حتى الطب تلقانا فيه مزدوجات كثيرة . ومن أوائل ما يلقانا بمصر مزدوجة لابن وكيع التنيسى المتوفى سنة ٣٩٣

للهجرة فى وصف فصول السنة ، وأهم من ذلك أن له مزدوجة مربعة بناها من أدوار ، كل دور بيتان تتحد شطورهما فى القافية افتتحها بهذا الدور[١] :

رسالةٌ من كَلِفٍ عميدِ حيانُهُ فى قبضة الصدودِ
بلَّغه الشوقُ مدى المجهودِ ما فوقَ ما يلقاه من مزيدِ

وتلاه بأربعة وأربعين دورًا . وقد كثر هذا النظام الدورى المكون من بيتين بيتين ، وشاع خاصة فى العصر الحديث إلى اليوم .

ونظام دورى ثان هو المسمَّطات شاع مبكرًا وعرضنا له فى كتاب العصر العباسى الأول واستشهدنا له بمسَّمطين لأبى نواس ، أحدهما من أربعة شطور والثانى من خمسة . والمسمَّط مشتق من السِّمْط وهو قلادة تلتقى فيها عدة سلوك عند جوهرة كبيرة ، وكل دور فى المسمط كأنه سلك يلتقى مع الأدوار أو الأسلاك الأخرى فى قافية الشطر الأخير من الدور ، وكأنها الجوهرة التى تتجمَّع عندها الأسلاك . وتتحد الشطور السابقة للشطر الأخير فى قافيتها وتتغير من دور إلى دور . وممن كان يشغف من المصريين بصنع المسمطات تميم ابن الخليفة المعز الفاطمى وكان شاعرًا مجيدًا . ومن مسمطاته مخمَّس مدح به أخاه العزيز استهلَّه على هذا النمط[٢] :

دَمُ العُشَّاقِ مطلولُ ودَيْنُ الصَّبِّ ممطولُ[٣]
وسَيْفُ اللحظ مسلولُ ومُبْدِى الحبِّ معذولُ
وإن لم يُصْغِ للائمْ

ويتوالى بعد هذا الدور ثلاثون دورًا على هذه الشاكلة ، فالشطور الأربعة الأولى تتَّحد قافيتها ، وقافية الشطر الخامس دائمًا ميمية ، وهى عمود المسمط وقطبه الذى يدور عليه . وقد تدور المسمطات على شطر رابع أو على شطر سادس أو سابع ، وتسمى مربعات وسداسيات وسباعيات . وأنشد العماد الأصبهانى مسمطا سباعيًّا[٤] لشاعر إسكندرى يسمى موسى بن على . وأخذ الشعراء المصريون فى العصور المتأخرة يكثرون من هذه المسمطات وأولعوا بتسميط بعض القصائد المشهورة مثل بردة البوصيرى وهمزيته فى مديح الرسول صلى الله عليه وسلم . ويحصى بروكلمان من تخميسات البردة وتسبيعاتها وتسبيعاتها عشرات أكثرها لمصريين[٥]

---

(١) اليتيمة ٣٥٦/١

(٢) ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمى (طبع ونشر دار الكتب المصرية) ص ٣٦٨

(٣) مطلول : مهدر ولادية له .

(٤) الخريدة (قسم شعراء مصر) ١١٣/٢

(٥) بروكلمان (طبع دار المعارف) ٩١/٥

وتظل المسمطات وخاصة المخمسات تلقانا أيام العثمانيين فى كتب التراجم من مثل ريحانة الألبا ونفحة الريحانة وتاريخ الجبرتى . ولأبى السعود الشعرانى المتوفى سنة ١٠٨٨ من مخمَّس نبوى[١] :

ياحادىَ العيس إن حَفَّتْ بك الكُرَبُ الْحَقْ – هُدِيتَ – بركبٍ ساقه الطَّرَبُ
وقُلْ لصبُّ غدا بالشوق يَنْتَحِبُ. لمهبطِ الوَحْىِ حَقًّا تَرْحَلُ النُّجُبُ
وعند هذا المرجَّى ينتهى الطلبُ

وتستمر فى المخمس قافية الشطر الخامس فى الشطور الخامسة من الأدوار التالية بائية على نحو ما قدمنا فى قاعدة نظمه .

(ب) الرباعيات

مرَّ بنا فى كتاب العصر العباسى الأول كثرة الرباعيات عند أبى نواس وأبى العتاهية . والرباعية أربعة شطور من الشعر تؤلف بيتين ، تتحد شطورهما الأولى والثانية والرابعة فى القافية ، أما الشطر الثالث فقد يتحد مع تلك الشطور فى قافيته وقد لا يتحد . ولم يكن شعراء العصرين : العباسى الأول والثانى يقصرون الرباعية على وزن معين . حتى إذا مضينا فى هذا العصر : عصر الدول والإمارات وجدنا الفرس يكثرون من استخدامها مع تسميتها باسم « دوبيت » أى بيتين . ويشركهم شعراء العرب فى ذلك ، واستحدثوا جميعا لها وزنين هما : « فَعْلن فعلن مُسْتَفْعلن مستفعلن » و « فَعْلُن مُتَفاعلن فَعُولُنْ فَعْلُنْ » على نحو ما صورنا ذلك فى حديثنا عن الرباعيات فى قسم العراق بالجزء الخامس من هذه السلسلة ، وما نمضى فى زمن الدولة الأيوبية حتى نجد الشعراء يكثرون من الرباعيات ، من مثل قول ابن مَمَّاتى[٢] :

ياغُصْنُ أراك حاملا عود أراكْ حاشاك إلى السِّواك يحتاج سِوَاكْ
قُلْ لى أنهاك عنْ مجيئك نُهاك لو تمَّ وَفاك بُسْتُ خَدَّيك وفاكْ

وممن نظموا فيها ابن النبيه وابن مطروح وابن قَزَل وغيرهم ، ويقول ابن سعيد الأندلسى الذى زار القاهرة بأخرة من تلك الدولة كما مر بنا : « كثير من أهل القاهرة من يقول الدُّوبيت »

(١) نفحة الريحانة للمحبى (طبعة الحلبى – تحقيق عبدالفتاح الحلو) ٥٣٨/٤

(٢) معجم الأدباء ١٢٤/٦ والأراك شجر يتخذ منه السواك ، وفاك أى فمك ، وسمى صاحبته غصنا لاستواء قامتها . والنهى : العقل .

أو الرباعيات . . ولم أسمع بها من شعرائها أحسن مما أنشدنيه لنفسه ابن أبي الإصبع :

قبّلت ثنايا كُجمان العقْدِ منهُ وعدلتُ عن نُضار الخدِّ
نادى ماذا ؟ فقلتُ : طَبعٌ عربى يشتاق أقاحَ الروض دون الوَرْد »[1]

ويُسْهم فى نظم الرباعيات أصحاب الشعر الصوفى وفى مقدمتهم ابن الفارض ، وله رباعيات تفوح بوجد مبرِّح من مثل قوله :

روحى لك يازائرُ فى الليل فِدَا يامُؤنسَ وَحْشَتِى إذا الليل هَدَا
إن كان فراقُنا معَ الصبح بَدَا لا أسْفَرَ بعد ذاك صُبْحٌ أبدا

فهو يبذل روحه لمحبوبه الربَّانى مخلصًا صادقًا ، ويتمنى أن يظل نوره يضيء دُجاه وأن لا يسفر عليه صباح ولا تتفلت أضواؤه من الأفق إن كانت لحظات التجلى تنقطع مع النهار وأنواره .

وتظل الرُّباعيات حية فى أيام العثمانيين ، وكانت تستخدم أحيانا فى المديح النبوى كقول الشهاب الخفاجى صاحب ريحانة الألبّا[2] :

ما جَرَّ لظلٍّ أحمدٍ أذيالُ فى الأرض كرامةً كما قد قالوا
هذا عجبٌ ويا لَهُ من عجبٍ والناس بظلِّه جميعا قالوا

وهو يشير فى الرباعية إلى ما قيل من أنه عليه الصلاة والسلام كان لا يقع ظله على الأرض لأنه نور روحانى ، والنور لا ظل له . وفى البيتين تورية واضحة فى كلمة قالوا ، فالأولى فى البيتين من القول والثانية من القيلولة بمعنى استظلوا ونعموا .

(جـ) الموشحات

فى أثناء ظهور الرباعيات والمسمطات أخذ يظهر شكل جديد من أشكال المنظومات الشعرية الدورية هو الموشحات ، ويذهب بعض الباحثين وخاصة من المستشرقين الإسبان إلى أنها فن أندلسى خالص نشأ من أغانٍ إسبانية أعجمية . ويذهب باحثون آخرون من المستشرقين غير

---

(١) المغرب لابن سعيد (قسم القاهرة) ص ٣٧١ وفيه : نادانى .

(٢) ريحانة الألبا (نشر مكتبة الحلبى - تحقيق عبد الفتاح الحلو) ١/٥١

الإسبان إلى أنها فن تطور عن الشعر العربي المشرقي [1] وفي رأيي أنها فعلا تطورت عن شعرنا المشرقي وبالذات عن المسمطات والمخمسات ، أليست تتكون من أدوار مثلها وغاية ما في الأمر أن الشطرالأخير في دور المسمط يتعدد مع اتحاده في جميع الأدوار ، فقد يصبح شطرين متقابلين أو عدة شطور ، ويسمى قفلا . ويشهد لذلك نفوذ ديك الجن المتوفى سنة ٢٣٥ إلى صنع منظومة موشحة [2] ، وكأنما اطلع عليها بعده بعض شعراء الأندلس ، وأخذوا في محاكاتها واتسعوا في هذه المحاكاة ، بحيث أخذت الموشحة عندهم صورا كثيرة ، حتى لقد ينظمونها من أوزان مهملة ، بل حتى أصبحت كأنها محتكرة لهم ، وكأنهم هم الذين صاغوها وأهدوها إلى الشعر العربي وشعرائه في أقاليمه المختلفة . ومعروف أن الموشحة تتكون من أدوار أو أغصان كما أشرنا إلى ذلك ، ومن شطور تسمى قُفْلاً ، ومن خَرْجة وتطلق على القفل الأخير . وتتحد شطور الأقفال دائما في قوافيها المتقابلة في الموشح كله ، بينما تختلف قوافي الشطور في الأغصان من غصن إلى غصن مثلها في ذلك مثل أدوار المسمطات .

وقد أخذ شعراء المشرق العربي في محاكاة نماذجها الأندلسية منذ القرن السادس الهجري على الأقل ، ومن أقدم صور هذه المحاكاة بمصر موشحة تقف بين النمط الأندلسي وبين المسمط المشرقي المشرقي ، وهي لعلي بن عيّاد الإسكندري المتوفى سنة ٥٢٦ ، فقد روى له العماد موشحة على هذا النمط [3] .

يا مَنْ ألوذ بظِلِّهِ في كل خَطْبٍ معضلِ
لازلتُ من أصحابِهِ متمسِّكا بيد السلامه
آمنا من كل باسٍ في الحوادث والصّروفِ

وتتردد قافية الشطرين الأخيرين مع كل شطرين يعقبان الأدوار التالية ، وبذلك اتخذ منها ابن عياد قفلا لموشحة على شاكلة الأندلسيين إذ يوحِّدون قوافي الشطور في الأقفال ، بينما ينوعون في قوافي الأدوار كما ينوع أصحاب المسمَّطات . وعادة يبتدئ الوشَّاح الأندلسي بالقفل ويتلوه بالدور ، وقد يبتدئ بالدور ويتلوه بالقفل كما في هذه الموشحة . ولظافر الحداد مواطن ابن عياد

---

(١) فن التوشيح للدكتور مصطفى عوض الكريم (طبع ونشر دار الثقافة – بيروت) ص ١٠٨ وما بعدها .

(٢) انظر في هذه الموشحة المبكرة كتابنا العصر العباسي الأول ص ١٩٩ وقسم الشام من هذا الكتاب ص ٦١٤ .

(٣) الخريدة للعماد (قسم شعراء مصر – طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٤٤/٢

المتوفى سنة ٥٢٩ موشحة طريفة يحتفظ بها ديوانه[١] .

وكان طبيعيًّا أن يتعرف المشارقة على الموشحات الأندلسية لكثرة الوافدين عليهم فى الإسكندرية والقاهرة من الأندلس ، إما للحج وإما لطلب العلم فكانوا ينشدونهم موشحات مختلفة ، وممن لا نشك فى أنه كان يكثر من إنشادها للمصريين : إسكندريين وقاهريين أبو الصلت أمية بن عبد العزيز ، وفيه يقول ابن سعيد : «كان منشئا للمنثور والمنظوم» وأقام بمصر عشرين سنة ، وصنَّف فى الألحان وعنه أخذها أهل إفريقية[٢] ، ولابد أنها كانت مصحوبة بموشحات أنشدها لهم ، وقد توفى سنة ٥٢٩ . ونزل مصر اليسع بن عيسى بن اليسع بعده فى عهد صلاح الدين وألف باسمه كتابه المغرب فى أخبار محاسن المغرب[٣] ، ولابد أن يكون قد ضمنه بعض الموشحات . ونزلها أيضا حكيم الزمان عبد المنعم الجلياني الأندلسى[٤] ، ومدح صلاح الدين الأيوبى مدائح كثيرة ، وكان له عشرة دواوين ثامنها يشتمل على موشحاته . ومرَّ بنا ذكر معجم السلفى محدث الإسكندرية وقد سجَّل فيه لبعض من تتلمذوا عليه من الأندلسيين بعض ما أنشدوه من الموشحات الأندلسية .

وهذه كلها إنما هى إشارات قاصرة إلى ما حدث فى القرن السادس الهجرى بمصر من انتشار الموشحات بها انتشارا هيأ لظهور وشاح كبير فيها هو ابن سناء الملك المولود سنة ٥٥٠ ويحدثنا العماد الأصبهانى عن لقائه به سنة ٥٧١ ويشيد بشاعريته وينشد موشحة مبكرة له[٥] . وكأنما اختارت المقادير ابن سناء الملك لا ليكون وشاحا مصريا ممتازا ، بل لما هو أبعد من ذلك : ليضع عروض الموشحات ونظامها كما وضع الخليل بن أحمد عروض الشعر العربى ونظامه ، على نحو ما يوضح ذلك كتابه النفيس : «دار الطراز» الذى ألفه فى عهد السلطان الأفضل[٦] بن صلاح الدين (٥٩٥-٥٩٦هـ) وقد استهله ببحث واسع فى الموشحات وأقفالها وعدد شطورها وأنها تتردد فى الموشح ست مرات فى التام وخمس مرات فى الأقرع[٧] وقد تصل الأقفال إلى أحد عشر جزءا[٨] .

ويقول عن الخرجة، وهى القفل الأخير فى الموشحة، هى «أبراز الموشح وملحه وسكَّره

(١) ديوان ظافر الحداد ابن الإسكندرية (طبع مكتبة مصر) ص ٣٣٧.

(٢) المغرب (القسم الأندلسى - طبع دار المعارف) ٢٦١/١ وما بعدها.

(٣) نفس المصدر ٨٨/٢.

(٤) فوات الوفيات ٣٥/٢ وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ص ٦٣٠.

(٥) الخريدة (قسم شعراء مصر) ٦٧/١ وما بعدها.

(٦) راجع مجلة الثقافة العدد ٦٢٨ سنة ١٩٥١.

(٧) دار الطراز فى عمل الموشحات لابن سناء الملك تحقيق الدكتور جودة الركابى (طبع دمشق) ص ٢٦.

(٨) انظر دار الطراز ص ٩٧.

ومسكه وعنبره» ويقول إنه ينبغى أن يسبق إليها خاطر الوشاح قبل أن يتقيد بوزن وقافية معينة[١]، ويقول أيضًا إن اللحن يستحسن فيها كما يستحسن أن تكون ماجنة. ويلاحظ أن الموشحات من حيث الوزن قسمان: قسم يجرى على أوزان العرب وأشعارهم، وقسم لاوزن له[٢]، إنما يزنه الإيقاع. والقسم الأول هو الأكثر وهو الذى دار على ألسنة العلماء والشعراء. واختار ابن سناء الملك فى كتابه للأندلسيين أربعًا وثلاثين موشحة، واختار لنفسه خمسًا وثلاثين، وله وراءها موشحات كثيرة إذ أنشد له أحمد السخاوى فى كتابه: «سجع الوُرْق المنتحِبة فى جمع الموشحات المنتخبة» أربعا وثمانين موشحة سوى ما أنشده النواجى فى كتابه: «عقود اللآل فى الموشحات والأزجال».

ومعروف مدى ما وفره الوشاحون الأندلسيون لموشحاتهم من جمال الجرس والإيقاع متخذين لذلك وسيلتين مهمتين هما صفاء الألفاظ وعذوبتها ورشاقتها، وقصر الشطور، حتى تصبح نغما خالصا يلذّ الأسماع والقلوب، وعرف ابن سناء الملك كيف يمتلك هاتين الوسيلتين، فإذا موشحاته لاتقل روعة موسيقية عن موشحات الأندلسيين من مثل قوله فى مطلع موشحة رواها ابن سعيد[٣]:

البَدْرُ يَحْكِيكْ   لولا تَثَنِّيكْ
وأنت جُنَّة[٤] الصديقْ   لولا تَجنِّيكْ
لم يلق نُعْمَى ونعيمْ   مَنْ لَم يلاقِكْ
حمَّلتنى كلَّ عظيمْ   يوم فراقِكْ
وإن لى ذنبا قديمْ   على عِناقِكْ
بالضَّمِّ أجنيكْ   للصَّدْر أُدْنيكْ
لأن لى قلبًا رقيقْ[٥]   عساه يُعْديكْ

والكلمات تطير بخفة عن الفم لحلاوة جرسها وعذوبتها فى النطق والسمع وجمال وقعها فى النفوس والأفئدة، وموشحاته فى دار الطراز أنغام حلوة وصور بديعة، على نمط هذا الدور أو الغصن فى إحدى موشحاته:

وَجْهُك يا أحسن البَرِيَّة   قد جمع المِلْحَ والملاحَةْ

---

(١) دار الطراز ص ٣٢
(٢) دار الطراز ص ٣٣
(٣) المغرب (قسم القاهرة) ص ٣٦٩
(٤) جُنَّة: وقاية
(٥) فى الأصل رقيقا

نرجسةٌ فيه مستحيَّه ووردةٌ تحتها أقاحَه
والخالُ فى الوَجْنَةِ المُضِيَّه فى الماء لا يُحْسن السِّباحه

وقد جمع فى الدور أروع صورة للملاحة ، فالعين ملأى بالخفر والحياء ، والوجنة ورد ناضر ، تحتها أقحوان الثغر المتلألئ والخال فى الوجنة غارق فى ماء النضارة والحسن لا يريم . وبذلك أعدَّ ابن سناء الملك المصريين بعده لكى يبرعوا براعة فائقة فى نظم الموشحات ، ويتوفى سنة ٦٠٨ وكان يعاصره مظفر [١] الأعمى العَيْلانى المتوفى سنة ٦٢٣ صاحب الموشحة المشهورة :

كَلِّلى يا سُحْبُ تيجان الرُّبَى بالحُلِى
واجْعَلِى سِوَارَها مُنْعَطَفَ الجَدْوَلِ

والموشحة تفيض بكئوس الفرحة بالخمر والحديث عن ليلة الوصل والبهجة بالمحبوب، بهجة ما بعدها بهجة. وكان يعاصره ابن النبيه المتوفى سنة ٦١٩ وفى ديوانه موشحة بديعة يقول فيها[٢] :

قل لمن يلومُ فى مُهَفْهَفٍ أَسْمَرْ
ثغره النَّظِيمُ مُسْكِرٌ وسُكَّرْ
آهِ لو سقانى اطفأتْ نيرانى دُرَّةٌ ثمينَهْ فى الياقوت مكنونة

وواضح تعبيره عن رضاب الثغر بأنه يطفئ نيران قلبه وأن ياقوت الشفتين يحمل درة بل دررًا ثمينة وهى كناية بديعة. ونمضى إلى زمن المماليك فنلتقى بكثير من الوشاحين، وفى مقدمتهم العَزازى وابن الوكيل. وظلت الموشحات مزدهرة فى أيام المماليك على لسان ابن نباتة وغيره[٣] وشاع استخدامها على لسان المتصوفة فى أذكارهم، ولعلى بن محمد بن وفا شيخ الطريقة الوفائية فى زمنه المتوفى سنة ٨٠٧ ديوان موشحات صوفية لايزال مخطوطا، وأنشد منه السخاوى فى سجع الورق المذكور آنفا خمسا وخمسين موشحة ونخص كلًّا من العزازى وابن الوكيل بكلمة.

العَزازِىّ[٤]

هو شهاب الدين العَزَازِى أحمد بن عبد الملك وكان تاجرا بقيسارية جهاركس فى القاهرة

(١) انظر فى مظفر وموشحه المغرب (قسم القاهرة) ص ٣٤٨ ، ٣٧٠ وراجع فيه معجم الادباء١٩/١٤٨ وفوات الوفيات ٢/١١١ ونكت الهميان ٢٩٠ والشذرات ٥/١١٠

(٢) ديوان ابن النبيه (طبعة عبدالله فكرى) ص ٥٤ .

(٣) انظر فهرس كتاب عقود اللآل فى الموشحات والأزجال للنواجى بتحقيق عبداللطيف الشهابى ولابن نباتة فيه تسع موشحات ولمجد الدين بن مكانس أربع موشحات.

(٤) انظر فى العزازى المنهل الصافى ١/٣٤٠ وما بعدها والنجوم الزاهرة ٩/٢١٤ وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبى ١/٨٨ والوافى ٧/١٥٢ والدرر لابن حجر ١/٢٠٥ .

قرب حى الغوريَّة الحالى ويقول ابن تغرى بردى : كان أديبًا مطبوعًا ظريفًا له النظم الرائق الفائق ولا سيما نظمه للموشحات فإنه غاية فى ذلك . ويقول ابن حجر : له فى الموشحات يد طولى توفى سنة ٧١٠ وله ثلاث وثمانون سنة . وفى دار الكتب المصرية نسختان من ديوانه غير تامتين ، والديوان فى خمسة أقسام : فى مدائح الرسول وأهل بيته وفى مدائح الأمراء والوزراء والكتاب والقضاة ، وفى النكت والملح والألغاز والأحاجى ، وفى الغزل والتهانى والتعازى ، وفيما وقع بين أدباء عصره وشعراء زمانه ، وفى غرائب الأوزان من المخمسات والموشحات . وفى مكتبة جامعة القاهرة مصوَّرة منتخبة من ديوانه بخط الصفدى . ويذكر ابن تغرى بردى بعض موشحاته ، وبالمثل يذكر طائفة منها ابن شاكر فى فوات الوفيات والنواجى فى عقود اللآل فى الموشحات والأزجال ، ومن أطرفها موشحة موزعة بين النشوة بالخمر وبالحب وبجمال الطبيعة استهلَّها بقوله :

يالَيلةَ الوصلِ وكأسَ العُقارْ دون استتارْ علَّمتمانى كيف خَلْعُ العِذارْ[(١)]

اغْتنم اللذاتِ قبلَ الذهابْ

وجُرَّ أَذْيالَ الصِّبا والشبابْ

واشربْ فقد طابت كئوسُ الشَّرابْ

واختتمها بقوله :

ياليلةً أنعمَ فيها وزارْ شمسُ النَّهارْ حُيِّيتِ من بين الليالى القِصارْ

وله فى مطلع موشحة بديعة :

ما سلَّتِ الأعينُ الفواترْ من غِمْد أجْفانها الصِّفاحْ[(٢)]

إلا أسالتْ دِما المحاجرْ من غير حربٍ ولا كِفاحْ[(٣)]

ومن طريف موشحاته موشحة بناها من رباعيات ، كما يقول ابن شاكر ، وهى فى الحقيقة مخمس رباعى ، وهو يدل كما تدل موشحاته على غزارة ينبوع الشعر عنده ، وأنه كان يتدفق على لسانه تدفقًا ، مع الحلاوة وحسن الألفاظ وجمال النغم والإيقاع .

---

(١) خلع العذار : كناية عن الانهماك فى المجون

(٢) الصفاح : السيوف

(٣) المحاجر : ما استدار حول العيون وأراد بها العيون نفسها .

ابن الوكيل[1]

هو محمد بن عمر بن المرحل المعروف بابن الوكيل الدمياطى ، ولد بدمياط سنة ٦٦٥ وانتقل مع أبيه إلى دمشق ، ونشأ بها ، وتولى التدريس فى غير مدرسة هناك ، ثم انتقل إلى القاهرة ، وأسند إليه التدريس بها فى زاوية الشافعى والمشهد الحسينى والمدرسة الناصرية إلى أن توفى سنة ٧١٦ . ويقول السبكى : كان إماما كبيرا بارعا فى مشهد الشافعى يضرب به المثل فى البحث نظارًا مفرط الذكاء عجيب الحافظة . وبجانب ما كان يحفظ من كتب الفقه والحديث النبوى كان يحفظ مقامات الحريرى وديوان المتنبى ، ويشيد مترجموه بما كان له من شعر ورباعيات وموشحات . وكانت له مشاركة فى الشعر الشعبى : الزجل والبلاليق التى تدور فى الهزل . ومن قوله فى إحدى موشحاته :

ما أخجلَ قَدُّه غصونَ البانِ　　　بين الورقِ
إلا وسَبَا المهَا مع الغِزْلانِ　　　حُسْنُ الحَدقِ
الصحة والسقام فى مقلتهِ
والجنَّة والجحيمُ فى وَجْنتِه
ما أبدع معنىً لاحَ فى صورته
كالورد حواه ناعم الرَّيْحانِ　　　بالطَّلِّ سُقِى
والقدُّ يميل رِميلةَ الأغصانِ　　　لـلـمعتـنـقِ
أحيا وأموت فى هواه كمدَا
من مات جَوًى فى حبِّه قد سَعِدا
ياعاذلُ لا أترك وَجْدى أبدا

وقد استخدم ابن الوكيل فى هذه الموشحة وزن الرباعيات ، ليدل على قدرته فى ضبط النغم واللحن ، وأنه لا يقل عن المحّار الحلبى معاصره الذى حاكاه فيها وفى وزنها إبداعًا وافتنانًا .

---

(١) راجع ترجمة ابن الوكيل فى الفوات ٢/٥٠٠ والوافى بالوفيات ٢٦٤/٤ والنجوم الزاهرة ٢٣٣/٩ وشذرات الذهب ٤٠/٦ والدرر الكامنة لابن حجر ٢٣٤/٤ وحسن المحاضرة ٤١٩/١ والبداية والنهاية ٨٠/١٤ وطبقات الشافعية للسبكى ٢٥٣/٩ والبدر الطالع ٢٣٣/٢ وعقود اللآل فى الموشحات والأزجال للنواجى (انظر الفهرس) .

وله موشحة جعل الشطور الثانية من نونية ابن زيدون المشهورة مضمنة فى مطلعها وأقفالها كقوله فى المطلع :

غدا مُنَادينا محكَّمًا فينا يَقْضى علينا الأسى لولا تأسِّينا

ويسرى التكلف إلى الموشحات بعد ابن الوكيل والعزازى ، غير أنها تظل حية وناشطة حتى أيام العثمانيين على نحو ما يلاحظ فى كتب التراجم عند الشهاب الخفاجى وغيره ، وتلقانا عند المحبى موشحة بديعة لزين العابدين البكرى المتوفى سنة ١١٠٧ للهجرة عارض بها موشحة لابن سناء الملك ، ومن قوله فيها[١] :

اعجبوا من حُسْن تلوين العيونِ تلكمُ حانَهْ وهاتيكم كِنانه

بأبِى مُرٌّ الجفَا بالدَّرِّ حالى

قَدْرُهُ قد حطَّ من قدرِ العَوالى

مطلِى من ثَغْرِه كنزُ اللآلى

والموشح يسيل عذوبة ، وأنشد الجبرتى لقاسم بن عطاء الله المتوفى سنة ١٢٠٤ موشحًا[٢] عارض به موشحًا مشهورًا للسان الدين بن الخطيب .

البديعيات

إذا تركنا الموشحات إلى البديعيات وجدناها قديمة فى الشعر المصرى ، على الأقل منذ زار مصر أبو نواس وأبو تمام ، واستمع شعراؤها إلى ما فى أشعارهما من طرائف البديع ومحسناته ، ولم يكن الشعراء المصريون يكثرون من استخدام تلك المحسنات والطرائف ، إذ كانوا يستخدمونها من حين إلى حين دون إفراط ، وظل ذلك دأبهم فى الحقب الأولى من زمن الدولة الفاطمية على نحو ما يلاحظ فى شعر ابن وكيع التنيسى المتوفى سنة ٣٩٢ . وإذا مضينا إلى القرن الخامس لقينا أهم شعرائه الشريف العَقِيلى شاعر الخمر والطبيعة ، وشعره زاخر بالتشبيهات والاستعارات والجناس والطباق والمشاكلة ، ويتصنع فى قلة لاستظهار بعض المصطلحات العلمية ، ولكن

(١) نفحة الريحانة ٥١٩/٤ والكنانة : جعبة السهام أشار بها إلى سهام العيون . والعوالى : الرماح وتشبه بها قدود النساء فى الاستواء والاعتدال .

(٢) تاريخ الجبرتى ١٩٨/١

ذلك كله لا يثقل عنده ولا نحس فيه بتكلف ، ونجد عنده التورية التى اشتهر بها المصريون فى مثل قوله[١] :

وشاعرٍ شعره فنونُ نكل بيتٍ له طَنينُ
تُسْخن عينَ العدوِّ منه قصائدٌ كلُّها عيونُ

فقد ورَّى فى كلمة عيون المقابلة لعين العدو وهو إنما يقصد بها أبيات الشاعر النفيسة .

وللتورية أمثلة أخرى فى شعره ذكرناها فى كتابنا « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » ، ونجدها كثيرة عند الشعراء بعده ، مما يدل على أن ظهورها بمصر لم يتأخر حتى زمن القاضى الفاضل وأيام الدولة الأيوبية كما ظن ذلك صاحب الخزانة[٢] . ومَنْ يرجع إلى القسم المصرى من كتاب الخريدة للعماد الأصبهانى وما ترجم فيه من شعراء مصر فى القرن السادس الهجرى يلاحظ شيوع محسنات البديع على ألسنة شعراء القاهرة والإسكندرية ، كقول ابن قلاقس فى وصف مغن[٣] :

لا أشربُ الرَّاحَ إلا ما بين شادٍ وشادنْ
قُمْ يانديمى فأنصتْ والليلَ داجٍ لداجنْ
طاوِعْ على القصْفِ والعزْ فِ كلَّ حاسٍ مُحَاسِنْ

والقطعة جميعها على هذا النمط من الجناس بين القافية والكلمة السابقة لها ، فشادٍ أى مغن تسبق كلمة شادن أى غزال ، وكلمة داج أى مظلم تسبق كلمة داجن أى مغن ، وكلمة حاسٍ أى للشراب تسبق كلمة محاسن . وهو بذلك يصعب المرور إلى جناسه . وكانوا يكثرون فى أشعارهم من الطباق ولهم فيه صور كثيرة طريفة كقول ابن هانئ الصغير فى وصف سيف[٤] :

ومهنَّدٍ سَبَح الفرِنْدُ بِصَفْحِه وطَفا فَيَحْسَبُ مُغْمَدًا مَسْلولا

والفرند ما يرى فى صفحة السيف مما يشبه دَبيب النمل أو الغبار . ومن حين إلى حين نرى عندهم الاقتباس من الذكر الحكيم وتضمين بعض الشطور للجاهليين والإسلاميين والعباسيين كما

---

(١) المغرب (قسم الفسطاط) ص ٢٤٤ ١/١٦١
(٢) الخزانة للحموى (طبعة بولاق) ص ٣٣٧ ومابعدها
(٣) الخريدة للعماد الأصبهانى (قسم شعراء مصر)
(٤) الخريدة ١/٢٧٨

نرى التورية معانقة لجناس تام فى قول ابن قادوس[1] :

لام العواذلُ مغرمًا فى حبِّ مُلْهِيَةٍ وقَيْنَهْ
ولو آنهنَّ رأينَ تا ثيرَ الغرام به وَقَيْنَهْ

والتورية والجناس واضحان فى كلمة « وقينه » المكررة فى نهاية البيتين ، والواو فى الأولى عاطفة وفى الثانية من أصل الفعل : « وقى » وهى موضع التورية . وبجانب ذلك نجد عند الشعراء لعهد الفاطميين عناية بمراعاة النظير فى الصور والكلمات . واستخدموا فى قلة شديدة مصطلحات العلوم وتسمَّى باسم التوجيه ، وحتى الألغاز نجدها مبثوثة فى أشعارهم . ويذكر العماد شاعرا من بينهم تسمى ابن مجبر كان يعنى بصنع الألغاز فيما يبدو عناية شديدة[2] .

ويحمل لواء هذه البديعيات فى زمن الدولة الأيوبية القاضى الفاضل وزير صلاح الدين الذى نشأ وتربَّى فى الدواوين الفاطمية على أمثال ابن قادوس وغيره من الشعراء والكتاب الفاطميين . ويجعله ابن حِجَّة الحموى والصفدى إمام الشعراء فى زمنه وبعد زمنه[3] فى استخدام المحسنات البديعية من تورية وغير تورية ، ويقولان إنه سار فى دربه على منواله ونهجه ابن سناء الملك ومن خلفوه من شعراء الدولتين الايوبية والمملوكية أمثال الجزار المتوفى سنة ٦٧٢ وناصر الدين ابن النقيب المتوفى سنة ٦٨٧ ومحيى الدين بن عبد الظاهر المتوفى سنة ٦٩٢ والوراق المتوفى سنة ٦٩٥ وابن دانيال المتوفى سنة ٧١٠ ونصير الدين الحمامى المتوفى سنة ٧١٢ . ونستطيع أن نضم إلى من سميناهم من شعراء القرن السابع من جاءوا بعدهم طوال هذا العصر من أمثال ابن نباتة المتوفى سنة ٧٦٨ والقيراطى المتوفى سنة ٧٨١ وابن مكانس المتوفى سنة ٧٩٤ . وحتى شعراء الصوفية من أمثال ابن الفارض نجدهم يستخدمون هذه المحسنات بكثرة . وجعلها النقاد القطبَ الذى تدور عليه كتاباتهم فى فن الشعر ، يتقدمهم فى ذلك ابن أبى الإصبع المصرى المتوفى سنة ٦٥٤ على نحو ما هو معروف عنه فى كتابه « تحرير التحبير » .

وتصبح البديعيات المقياس أو المقاييس الدقيقة لإبداع الشعراء . وتتضمنها قصائد فى مديح الرسول ﷺ تسمى البديعيات وتشرح شروحا مطولة ، ومن أهم هذه القصائد قصيدة للسيوطى أو بديعية سماها « نظم البديع فى مدح خير شفيع » وله عليها شرح ، وكانت تعاصره عائشة

---

(١) الخريدة ٢٣١/١
(٢) الخريدة ٢٣٠/٢
(٣) انظر خزانة الأدب للحموى (طبع مطبعة بولاق) ص ٦٧ و٢٩٨

الباعونية المتوفاة سنة ٩٢٢ وقد جعلت بديعيتها فى مائة وثلاثين بيتا . ويلاحظ أن استخدام الشعراء المصريين طوال هذا العصر للمحسنات لم يسمج ولم يثقل ولم يتحول إلى صور من التكلف المقيت حتى أيام العثمانيين ، وكأنما حالت العذوبة التى تنطوى عليها نفوسهم وأمزجتهم والتى تجرى بها مياه النيل فى أرضهم ، بين كل ذلك وبين ما استخدموه من محسنات البديع وتلاوينه . وقديما لاحظ ذلك ابن سعيد صاحب كتاب المغرب حين نزل الفسطاط والقاهرة واختلط بشعرائهما ، إذ لم يلبث أن أنشد[1] :

أيا ساكنى مصرٍ غَدَا النِّيلُ جارَكم فأكسبكم تلك الحلاوةَ فى الشِّعْرِ
وكان بتلك الأرض سحرٌ وما بقى سوى أثرٍ يبدو على النظم والنَّثْرِ

وسنذكر نفثات من آثار هذا السحر وما طوى فيه من حلاوة وعذوبة فى تراجم الشعراء لتلك الأزمنة

٤

شعراء المديح

يكتظ الشعر العربى فى مصر بالمديح منذ زمن الولاة المبكر أيام الدولة الأموية ، وخاصة فى ولاية عبد العزيز بن مروان إذ كان جوادا ممدَّحا ، فانتجعه شعراء الحجاز ونجد والعراق ، ويظل شعر المديح يجرى على ألسنة الشعراء أيام الدولة العباسية ، ويزور أبو نواس مصر لمدح والى الخراج بها : الخصيب ، ويضفى عليه مدائح رائعة ، ولا يلبث أن يزورها أبو تمام ، ويمدح عياش بن لهيعة الحضرمى القائم على الشرطة والخراج كما مربنا ، كما يمدح واليها عبد الله بن طاهر . ومن أهم شعراء مصر حينئذ المعلَّى الطائى ، وأنشدنا فى غير هذا الموضع بعض مديحه فى عبد الله بن طاهر والى مصر للمأمون . ويُظلّها عهد الدولة الطولونية ويتبارى شعراؤها فى مديح أحمد بن طولون . وأهمهم فى بواكير حكمه لمصر الحسن[2] بن عبد السلام المشهور بلقبه الجمل الأكبر المتوفى سنة ٢٥٨ ، وله من قصيدة فى مديحه :

---

(١) فوات الوفيات ١/٢٣٦

(٢) انظر فى ترجمة الجمل الأكبر معجم الأدباء لياقوت ١٠/١٢١ والمغرب لابن سعيد (قسم الفسطاط) ص ٢٧٠ والنجوم الزاهرة ٣/٣٠ وله فى كتاب الولاة والقضاة للكندى أشعار متفرقة .

له يَدٌ كم خَلَّدَتْ من يَدٍ سحابةٌ عَمَّتْ بأنْوائها
انظرْ إلى مصرٍ بسلطانهِ تَرَ الهُدَى فاضَ بأرجائها

ومن شعراء الطولونيين المريمى [1] القاسم بن يحيى المنسوب إلى جده أبى مريم السلولى أحد أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو شاعر أبى الجيش خمارويه اختصَّ به وأسبغ عليه كثيرًا من نواله ، وفيه يقول :

يقولون لى ما بالُ رَحْلِك دائما بمصرٍ وإنِّى لستُ عن غيرها أرْضَى
وكيف رحيلى عن بلادٍ غدا بها أبو الجَيْشِ والنِّيلُ الذى ملأ الأرضا

وتوفى المريمى سنة ٣١٦ .

وكان الشعراء قد أخذوا يتكاثرون بالفسطاط منذ الدولة الطولونية كما مرَّ بنا . واطَّرد تكاثرهم فى عهد الدولة الإخشيدية ، وفى أيامها بدأ عصر الدول والإمارات الذى نؤرخ له فى هذا الجزء وكان الإخشيد قد ملك مصر والشام وثغور الروم وخُطب له بالحجاز واليمن . ولذلك يقول شاعره سعيد[2] بن فاخر من قصيدة يمدحه بها :

ياملكَ الشامِ ومصرَ إلى أقصى ثغور الروم والشامِ
واليمنِ الأبعد لازال [مُلْـ ـكُكُمْ] رفيعًا قادرًا حامى

ويتوفى الإخشيد سنة ٣٣٤ بعد أن أوصى لمولاه أبى المسك كافور الحبشى بتدبير الدولة لابنيه : أو نوجور وعلى ، ويتوفى أولهما سنة ٣٤٩ ويخلفه أخوه على ويتوفى سنة ٣٥٤ وقيل سنة ٣٥٥ . ويستقلّ كافور بالملك حتى وفاته سنة ٣٥٧ وكان ساعده الأيمن فى حكمه وزيره جعفر بن الفرات المعروف باسم ابن حِنْزابة . وكان كافور ممدَّحا ، فقصده الشعراء من كل فجٍّ وفى مقدمتهم كُشاجم شاعر الشام ، والمتنبى إمام الشعراء لزمنه وبعد زمنه وكان أول ما أنشده بائيته ، وفيها يقول :

---

(١) راجع فى المريمى المغرب (قسم الفسطاط) ص ١٣٦، ٢٧١ وانظر أشعارًا متفرقة له فى الولاة والقضاة للكندى فى أخبار خمارويه وفى مقالات عنه بمجلة المجلة : العدد ١٤٢ ومجلة الكتاب العراقية سنة ١٩٧٤ فى عددى آب وتشرين الثانى

(٢) انظر سعيدا (قاضى البقر) فى المغرب (قسم الفسطاط) ص ١٩٧ و٢٧٢ ولعله هو نفسه سعيد القاص المذكور فى النجوم الزاهرة ٣ / ١٤١ بين من رثوا الدولة الطولونية

قواصدُ كافورٍ توارِكُ غيره ومَنْ قصَد البحرَ استقلَّ السَّواقيا
وغَيْرُ كثيرٍ أنْ يزورَك راجلٌ فيرجعَ مَلْكا للعِراقين واليا

وظل المتنبى نحو أربع سنوات ينتظر أن يولّيه كافور على بعض بلدان الشام التابعة لمصر . حتى إذا نفد صبره ارتحل إلى العراق بليلٍ وهجاه هجاء مرا .

وتستقبل مصر سريعا عهد الدولة الفاطمية ، إذ ينزلها جوهر الصقلى ويؤسس بها القاهرة ومسجدها العظيم الأزهر ويتبعه المعز الخليفة الفاطمى ،وتصبح القاهرة حاضرة لدولته الضخمة ودولة أبنائه وأحفاده من بعده ولا يلبث المعز أن يتوفى سنة ٣٦٥ ويخلفه ابنه العزيز (٣٦٥ — ٣٨٦ هـ) ويتخذ يعقوب بن كلِّس وزيرا له ، وكانا يجزلان العطاء للشعراء . مما جعل ألسنتهم تلهج بمديحها ، على شاكلة قول عبيد الله بن أبى الجوع فى إحدى مدائحه[(١)] :

لولا العزيزُ وآراءُ الوزير معا تخيَّفتْنا خطوبٌ تَشْعَبُ الأمما

ولتميم بن المعز فى أبيه وأخيه العزيز مدائح طنانة ، ونزل القاهرة فى عهد المعز أبو الرَّقعمق الأنطاكى : أحمد بن محمد ، وأقام بها زمانا طويلا حتى توفى سنة ٣٩٩ ويقول ابن خلكان : « معظم شعره فى ملوك مصر ورؤسائها : مدح بها المعز وولده العزيز والحاكم بن العزيز والقائد جوهرا والوزير يعقوب بن كلِّس وغيرهم من أعيانها »[(٢)] وينشد له قصيدة فى مديح ابن كلس . وكان محمد بن القاسم بن عاصم الملقب بصنَّاجة الدوح شاعر الحاكم ، وأنشده فى زلزلة حدثت بمصر من قصيدة فى مديحه[(٣)] :

بالحاكم العدلِ أضحى الدينُ معتليًا نَجْل العُلا وسليل السادةِ الصُّلَحا
ماُزلزلتْ مصرُ من كيدٍ يُراد بها لكنها رقصتْ من عَدْله فَرَحا

ويلى الحاكم ابنه الظاهر ، وينزل مصر فى أول عهده صريع[(٤)] الدلاء البغدادى ، ويمدحه

---

(١) راجع خطط المقريزى ٢٩٦/٢ وانظر فى ابن أبى الجوع اليتيمة ٣٩٥/١ ومر بنا حديث عنه . تشعب : تفرّق وتفسد .

(٢) ابن خلكان ١٣١/١ وما بعدها وانظر فى أبى الرقعمق اليتيمة ٣٢٦/١ والعبر ٧٠/٣ والشذرات ١٥٥/٣ .

(٣) المغرب (قسم القاهرة) ص ٣٢٨ وانظر فى صناجة الدوح حسن المحاضرة ٥٦٢/١

(٤) انظر صريع الدلاء فى تتمة اليتيمة ١٤/١ وفى ابن خلكان ٣٨٣/٣ والعبر ١١٠/٣ والشذرات ١٩٧/٣

ويخلفه المستنصر (٤٢٧ – ٤٨٧) ويعتلى الوزارة بدر الجمالى سنة ٤٦٨ ويصبح الأمر والسلطان منذ هذا التاريخ بيد الوزراء . ويخلفه على الوزارة ابنه الأفضل (٤٨٧ – ٥١٥ هـ) . وكان شاعرا كما كان ممدحا ، فبعث نهضة قوية فى الشعر ، وصفها – كما مر بنا – أمية بن أبى الصلت فى رسالته المصرية ، معددا فيها أسماء الشعراء فى زمنه ممن مدحوه وهجوه جميعا . ومن كبار مُدَّاحه ظافر الحداد وسنترجم له بين شعراء التشيع ، وحسن بن زيد الأنصارى وسنترجم له بين الكتاب ، وله فيه مدائح رائعة من مثل قوله[1] .

أيامُكَ الغُرُّ مصقولٌ عوارضُها ... كأن آصالها من رِقَّةٍ بُكَرُ
أخملتَ ذكرَ ملوكٍ كنت خاتمهم ... وأنجمُ الليل فى الإصباح تَسْتَتِرُ
بعضُ الوَرَى أنتَ لكن فُقْتَهم شرفًا ... إن الحجارة منها الدرُّ والمدَرُ
تخال راحتَـه والمشرفىُّ بها ... سحابةً ظلَّ فيها البَرْقُ يستعرُ

ولفظه جزل متين وصوره بديعة ، مما يدل على شاعرية خصبة . ويلقانا بأخرة من الدولة الفاطمية الوزير طلائع بن رُزِّيك ، وكان مثل الأفضل الجمالى راعيا لكثير من الشعراء مثل ابن قادوس والقاضى الجليس والمهذب بن الزبير وأخيه الرشيد . وتزخر الخريدة وكتب الأدب بمدائحهم لطلائع . .

وكانت هناك مواسم كثيرة فى زمن الدولة الفاطمية يقدم فيها الشعراء مدائحهم للخلفاء . فى مقدمتها الأعياد وموالد الرسول صلى الله عليه وسلم والإمام على بن أبى طالب والسيدة فاطمة الزهراء وابنيها الحسن والحسين والخليفة الذى بيده صولجان الحكم وعيد الغدير ويوم عاشوراء وليالى رمضان وأول رجب وأول شعبان وأول السنة وأعياد النصارى وليلة الغطاس وليلة النَّيْروز ووفاء النيل وما يقترن به من فتح الخليج . وفى كل هذه الأعياد وما يماثلها كانت تقام احتفالات ضخمة ، وكان الشعراء يهنئون بها الخلفاء ، وكل يحاول أن يكون له قصب السبق على أقرانه ويصور لنا ذلك المقريزى من بعض الوجوه فى احتفال بوفاء النيل سنة ٥١٧ لعهد الآمر (٤٩٥ – ٥٢٤ هـ) . إذ يذكر بعض الأشعار التى أنشِدَتْ وما كان يصحبها من نقد يبديه بعض المستمعين ، من ذلك[2] أن ابن جبر أنشد فى هذا الاحتفال مدحة استهلها بقوله :

---

(١) الخريدة للعماد الأصبهانى (قسم شعراء مصر) ٧١/٢ .
(٢) خطط المقريزى ٢٥٣/٢ .

فُتِحَ الخليجُ فسالَ منه الماءُ وعلتْ عليه الرايةُ البيضاءُ
فَصَفَتْ مَوارِدُه لنا فكأنه كفُّ الإمامِ فَعرْفُها الإعطاءُ

فانتقد عليه الناس قوله : « فسال منه الماء » قالوا أى شىء يخرج من النهر غير الماء . وبذلك ضيَّعوا عليه ما قاله بعد هذا المطلع . وأنشد شاعر مدحة افتتحها بقوله :

لمن اجتماع الخلقِ فى ذا المَشْهَدِ للنِّيلِ أم لك يابنَ بنتِ محمَّدِ

فهلَّل الناس لمطلعه ، فأمر له الخليفة الآمر على الفور بخمسين دينارا وخُلع عليه وزِيدَ فى جاريه . ومرَّ بنا حديث المنظرة التى بناها الآمر للشعراء ببركة الحبش ورفوفها وما كان عليها من صُرَرٍ للشعراء وفى كل صُرَّة خمسون دينارا جزاء وفاقا لمديحهم ، وكأن ذلك كان مكافأة معلومة لهم . ويخلفه الحافظ (٥٢٤ - ٥٤٤ هـ) ويبدو أن الشعراء كانوا يتمادون أيامه فى تطويل مدائحهم ، فأمرهم أن يختصروها مما جعل أبا العباس أحمد بن مفرِّج ينشده فى إحدى مدائحه [١] :

أمرتنا أن نصوغَ المدحَ مختصرًا لِمْ لا أمرتَ نَدَى كَفَّيْك يُخْتَصَرُ
والله لابُدَّ أن نُجْرِى سوابِقَنا حتى يبينَ لها فى مَدْحِك الأثَرُ

فأمر الآمر بالعود إلى ما كانوا عليه .

وكان الصليبيون قد استولوا على بيت المقدس منذ أواخر القرن الخامس ، وأسسوا به مملكة وأضافوا إليها مملكة فى طرابلس وثالثة فى أنطاكية ورابعة فى الرُّها ، وبلغت مصر حينئذ من الضعف مبلغا بعيدًا لم تستطع خلاله أن تقاومهم إلا بعض تجريدات عسكرية وخاصة فى عهد وزيرها طلائع بن رزِّيك ، تجريدات لم تُغْن عنها شيئا . وبينما اليأس يخيم على الناس إذا بعماد الدين زنكى يخلِّص الرُّها من أيديهم ، ويقضى على مملكتهم فيها قضاء مبرما ، ويتابع جهاده ابنُه نور الدين ، ويستغيث به شاور فى مصر ضد ضرغام فيرسل إليه أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، وتتطور الظروف سريعا ، فيُنهى صلاح الدين حكم الفاطميين لمصر ، ويقبض على صولجان الحكم . ويتوفَّى نور الدين ، فيضم الشام تحت لوائه ، ويأخذ فى الانقضاض على الصليبيين ، وكلما التقى بهم دمَّر جموعهم تدميرا ، حتى كانت الموقعة الفاصلة : موقعة حِطِّين التى

---

(١) الخريدة (قسم شعراء مصر) ٢/٦٤ .

استولى فيها المسلمون على الصليب الأعظم : صليب الصَّلبوت ، وأسروا قواد الصليبيين وزعماءهم ومزقوا جموعهم شر ممزق . ويقول المؤرخون إنهم أكثروا منهم فى القتل والأسر حتى كان من يشاهد القتلى يظن أنه ليس وراءهم أسرى وكان من يشاهد الأسرى يظن أنه ليس وراءهم قتلى ، ويقولون إنه بلغ من كثرة الأسرى أن كان الأسير منهم يباع فى أسواق الرقيق بثلاثة دنانير ، وفى هذا النصر العظيم أنشد العماد الأصبهانى صلاح الدين مدحة رائعة يقول فيها[1] :

حططتَ على حِطّينَ قدرَ ملوكهم ولم تُبْقِ من أجناسِ كفرهمُ جِنْسًا
بطونُ ذئاب الأرضِ صارتْ قبورَهم ولم تَرْضَ أرضٌ أن تكون لهم رَمْسا[2]
سبايا بلادُ الله مملوءةٌ بها وقد شُرِيَتْ بَخْسًا وقد عُرِضتْ نَخْسًا[3]
يُطَافُ بها الأسواقُ لا راغبٌ لها لكثرتها كم كثرةٍ توجب الوَكْسا[4]

وفُتحت لصلاح الدين بعد هذه المعركة أبواب مدن كثيرة فى فلسطين ولبنان مثل نابلس وبيت جبريل (بير سبع) وقيسارية وحيفا وصَيْداء وبيروت . وتغنى الشعراء فى مصر والشام والعراق بهذا النصر المبين . وسرعان ما تلاه صلاح الدين بفتح بيت المقدس ، وعمَّ الفرح بهذا الفتح جميع البقاع الإسلامية ، وتغنَّى به الشعراء طويلا من مثل قول محمد بن أسعد نقيب الأشراف بمصر[5] :

أَتُرَى منامًا ما بِعَيْنِى أُبْصِرُ القُدْسُ يُفْتَحُ والفرَنْجَةُ تُكْسَرُ
قد جاء نصرُ الله والفَتْحُ ألذى وعدَ الرسولَ فسبِّحوا واستغفروا
فُتح الشَّآمُ وطُهِّر القُدْسُ الذى هو فى القيامة للأنام المحشَرُ

وكان هذا تحولا واسعا فى قصيدة المديح المصرية ، فإنها لم تعد - كما كانت أيام الفاطميين - قصيدة تُنْشَدُ فى الأعياد والاحتفالات الرسمية : قصيدة مناسبات ، بل أصبحت قصيدة أمجاد حربية مظفرة . وتنبَّه لذلك أبو شامة فى الروضتين فأتبع المواقع الحربية بما نُظم فيها من مدائح تصور البطولة العربية تصويرًا يملأ نفس كل عربى بالفتوة والقوة والمَضَاء ويدفعه دفعًا إلى أن يَكيل لأعداء العروبة والإسلام ضربات قاصمة .

(١) الروضتين لأبى شامة ٨٣/٢ .
(٢) رمسا : قبرا .
(٣) نخسا : من النخاسة وهى بيع الرقيق .
(٤) الوكس : البيع بالخسارة .
(٥) الروضتين ١٠٥/٢ .

ولا يكثر المديح الحماسي لصلاح الدين فحسب ، بل يكثر أيضا لقواده من إخوته ، وخاصة أخاه العادل ، وفيه يقول القاضي الفاضل من قصيدة بديعة[1] :

أهَذى كفُّه أم غَيْثُ غَوْثٍ ولا بلغَ السحابُ ولا كرامَهْ
وهذا بِشْرُهُ أم لَمْعُ بَرْقٍ ومَنْ للبرق فينا بالإقامَهْ
وهذا الجيشُ أم صَرْفُ الليالى ولا سبقتْ حوادثُها زحامَهْ
وهذا الدهرُ أم عَبْدٌ لديهِ يصرِّف عن عزيمته زِمامه
وهذا التُّرْبُ أم خَدٌّ لَثِمْنا فآثارُ الشفاه عليه شامَه

ويعرف هذا الأسلوب فى البديع باسم تجاهل العارف مبالغة فى المديح ، فالقاضى الفاضل لا يدرى أكرم ما يصيبه هو وأمثاله من العادل أم غيث سحاب منهمر ، بل إن السحاب دون كرمه الفياض . ولا يدرى أبشر وجهه الذى يتلألأ أم البرق ؟ غير أن البرق يعرض ويزول أما هو فقيم لا يَرِيم . وأيضا لا يدرى ما يقوده إلى النصر جيش أم هو صرف الليالى ، بل إن الدهر عبد لديه يصدع بأمره ومشيئته ، ويعجب لما يسير عليه وكأنه يسير على خدود يرى عليها آثار الشفاه التى تقبل الأرض من دونه ، لكثرة الحشود المزدحمة على تقبيلها ، وكأنها نفس الشامة التى نراها على الخدود .

ويظل جهاد الصليبيين الموضوع الأهم فى مدائح السلاطين الأيوبيين حتى إذا كانت سنة ٦١٥ غزا حَمَلَةُ الصليب دمياط لعهد السلطان الكامل ، وظلوا بها نحو ثلاث سنوات ، وحدثتهم أنفسهم أن يتقدَّموا إلى الجنوب نحو المنصورة واستنفر السلطان الكامل أخويه المعظم عيسى صاحب دمشق والشام والأشرف موسى صاحب الولايات الشرقية حتى الفرات . وتجمعت جيوشهم وأنزلت بحملة الصليب هزائم ساحقة ولُّوا على إثرها فارين إلى البحر المتوسط وما وراءه . وتغنَّى البهاء زهير بهذا النصر المجيد فى مدحة أنشدها السلطان الكامل وفيها يقول[2] :

بِكَ اهتزَّ عِطْفُ الدِّينِ فى حُلَلِ النَّصْرِ ورُدَّتْ على أعقابها مِلَّةُ الكُفْرِ
وما فرِحَتْ مصرٌ بذلك وحدها لقد فرِحتْ بغدادُ أكثَرَ من مِصْرِ
فمن مبلغٌ هذا الهناء لمكَّةٍ وَيثْرِبَ يُنهيه إلى صاحب القَبْرِ

(١) خزانة الأدب للحموى (طبع مطبعة بولاق) ص ١٥٥ .

(٢) البهاء زهير للشيخ مصطفى عبد الرازق (طبعة سنة ١٣٥٤ هـ) ص ٦٥

والبهاء زهير يصوِّر تهلل الدين الحنيف باندحار الصليبيين وأن الفرحة بالنصر الباهر لم تعم مصر وحدها بل عمت أيضا بغداد عاصمة الخلافة العباسية ، وإنه لحريٌّ أن تهنَّأ به منازل الوحي فى مكة والمدينة وأن يهنَّأ به الرسول فى جدثه الطاهر . وكأنما كان هذا النصر درسا ظل حملة الصليب يذكرونه نحو ثلاثين عاما ، حتى كانت سنة ٦٤٧ إذ تجمَّعوا بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا ، ونزلوا دمياط واتجهوا نحو المنصورة ، غير أن المصريين بقيادة توران شاه آخر السلاطين الأيوبيين عصفوا بهم سنة ٦٤٨ وسحقوهم سحقا ذريعا ، وأُخذ لويس التاسع أسيرا وسُجن بدار ابن لقمان كاتب الإنشاء وكان يحرسه الطواشى صبيح . وأذعن لشروط الصلح التى فرضها توران شاه وخرج من مصر مع فلول حملته خاسئا مدحورًا . وتتطور الظروف سريعا ، فيُقتَلُ توران شاه وتخلفه شجرة الدر فالسلطان أيبك . ولعل التتابع السريع لهذه الأحداث هو الذى عقد ألسنة الشعراء فلم يتغنَّوا ببطولة توران شاه وجيشه الباسل وما أذاق حَمَلَة الصليب من نكال شديد .

وتظلُّ مصرَ وشعراءها دولةُ المماليك ، وما تُوافى سنة ٦٥٧ حتى تكتسح سيول التتار الشام وتهبط إلى الجنوب فى فلسطين ويلتقى بها جيش المماليك فيكبح جماحها فى عين جالوت ، ويردها قُطز والظاهر بيبرس إلى غير مآب . ويُصبح بيبرس سريعا سلطان مصر سنة ٦٥٨ وكان عالى الهمة بعيد النظر ، فأعاد الخلافة العباسية فى القاهرة ، وبذلك أصبحت مصر حامية الخلافة والإسلام . وعصره يُعد العصر الذهبى فى زمن المماليك ، وقد صورناه من بعض الوجوه وصورنا فتوحاته وحروبه المستمرة مع الصليبيين والتتار ، وكيف قوَّض للأولين مملكتهم فى أنطاكية ، وما كان من تعقُّبه الدائم للتتار فى الموصل . وسمع يوما بجموع لهم على الشاطئ الشرقى للفرات ، فخاضه إليهم وخاضه الجيش معه فقتل منهم مقتلة عظيمة ولم ينْج منهم إلا القليل ، وفى ذلك يقول ناصر الدين حسن بن النقيب الكنانى – وكان حاضر الواقعة – من قصيدة طويلة[1] :

ولما ترامينا الفراتَ بِخَيْلنا ... سَكَرْناهُ منا بالقوى والقوائمِ[2]
فأوقفتِ التيَّارَ عن جَريانِه ... إلى حيثُ عُدْنا بالغِنى والغنائم

وكان الشعراء ينثون على بيبرس قصائدهم فى كل معركة وكل نصر مظفر على التتار والصليبيين وفى أرمينيه وآسية الصغرى ، وبالمثل حين كان ينشئ المدارس والمساجد ، وفى مدرسة الظاهرية

---

(١) النجوم الزاهرة ١٦٠/٧

(٢) سكرناه : سددناه

يقول السِّراج الورَّاق من مدحة بديعة[١] :

وشيَّدها للعلم مدرسةً غدَا عراقٌ إليها شيِّقٌ وشآمُ
ولا تذكرنْ يوما نظاميَّةً لها فليس يُضاهى ذا النظامَ نظامُ

فهى فى رأى الوراق تفوق المدرسة النظامية التى أنشأها نظام الملك فى بغداد .

ولا يلبث أن يتولى مقاليد الحكم بعد بيبرس السلطان قلاوون (٦٧٨ - ٦٨٩ هـ) . ومرَّ بنا بناؤه لمارستان ضخم وإلحاقه به مدرسته المنصورية ، وفى ذلك يقول معين الدين عثمان بن سعيد بن تولو التنيسى المصرى مستهلا قصيدة فى مديحه بقوله[٢] :

أنشأتَ مدرسةً ومارَسْتانا لتصحِّح الأديان والأبدانا

ونازل قلاوون الصليبيين مرارا ، واستولى منهم على بعض الحصون . وخلفه ابنه السلطان خليل (٦٨٩ - ٦٩٣) وكان بطلا مغوارا فافتتح أيامه بجهاد حملة الصليب واستطاع فى أقل من ثلاث سنوات أن يستخلص منهم عكا وصور وصَيْدا وبيروت وجميع سواحل الشام ، فلم تبق لهم بلد ولا قلعة ، ومن بقى منهم ولَّى على وجهه إلى البحر المتوسط وما وراءه ، وكان الشعراء ما ينون يهنئون السلطان خليل بفتوحه ، ولبدر الدين المنبجى التاجر بالقاهرة قصيدة طويلة فى تهنئته بانتصاراته المجيدة أولها :

بلغتَ فى الملك أقصى غايةِ الأملِ وفُتَّ شأْوَ ملوكِ الأعصرِ الأوَلِ

ونظم كثيرون من معاصريه قصائد وأشعارا مماثلة من ذلك قول البوصيرى شاعر المدائح النبوية المشهور[٣] :

قد أخذ المسلمون عكًّا وأشبعوا الكافرين صَكًّا
وساق سلطانُنا إليهم خَيْلاً تدكُّ الجبال دَكًّا

وحقا أشبعوهم صكا وقتلا ودفعا إلى البحر المتوسط فى غير رجعة ولا مآب ، فقد سقطت عكا آخر حصونهم ، بل لقد دمرتها مجانيق المصريين وحرقتها نيرانهم ، وفى ذلك يقول أحمد

---

(١) الخطط للمقريزى ٣٤١/٣
(٢) النجوم الزاهرة ٣٢٧/٧ .
(٣) ديوان البوصيرى (طبع مطبعة مصطفى الحلبى) ص ٢٣١ .

ابن عبد الدائم الشَّارِمْسَاحى[١] :

لا تعجبوا للمجانيقِ التى رشَقَتْ عكًّا بنارٍ وهدَّتْها بأحْجارِ
بل اعجبوا للسانِ النارِ قائلةً هذى منازلُ أهل النارِ فى النارِ

وتتوقف حركة الفتوح ، فلم يعد فى الشام صليبيون ، ويتحول شعر المديح إلى شعر مناسبات فى الأعياد ، وحين يستولى سلطان على مقاليد الحكم ، وخاصة إذا قرب من نفوس الشعب مثل السلطان الأشرف شعبان (٧٦٥ – ٧٧٨ هـ .) . وكان قد استولى على صولجان السلطنة فى ربيع الثانى فقال ابن نباتة :

طَلْعةُ سلطاننا تبدَّتْ بكامل السَّعْد فى الطلوعِ
فاْعجبْ لهاتيك كيف أبدتْ هلالَ شعبانَ فى ربيع

وكانت أيام حكمه أيام أمن ورخاء وازدهار للآداب والفنون ، وفيه يقول شهاب الدين أحمد بن العطار[٢] :

للملك الأشرفِ المنصور سيِّدنا مناقبٌ بعضها يبدو به العجبُ
له خلائقُ بيضٌ لا يغيِّرها صَرْفُ الزمان كما لا يَصْدأُ الذهب

وللعطار أشعار كثيرة فى أحداث زمنه أنشد منها ابن تغرى بردى طائفة فى الجزء الحادى عشر من كتابه النجوم الزاهرة . ولما تولى مقاليد السلطنة الظاهر برقوق يوم الأربعاء التاسع عشر من رمضان سنة ٧٨٤ مدحه بقوله من قصيدة :

ظهورُ يومِ الأربعاء ابتدا بالظاهر المعتزِّ بالقاهرِ
والبِشْرُ قد تمَّ وكل امرئٍ منشرحُ الباطن بالظاهرِ

وربما كان أهم حدث يلقانا بعد ذلك فتح السلطان الأشرف برسباى لجزيرة قبرص إذ كانت موئلا لكثير من القراصنة الذين كانوا يعيثون فسادا فى البحر المتوسط وما يحمل من سفن تجارة للمصريين ، كما كانوا يعيثون فسادًا فى شواطئ مصر والشام ، وأرسل إليها برسباى حملات ثلاثا انتهت بالاستيلاء عليها سنة ٨٢٩ وتغنى الشعراء بهذا النصر المجيد فى عدة قصائد ، من ذلك

(١) فوات الوفيات ١/٨٦ . (٢) النجوم الزاهرة ١١/٨٣ .

قصيدة زين الدين عبد الرحمن بن الخرّاط أحد كتاب الدَّسْت ، وفيها يقول[١] :

بُشْرَاكَ يامُلْكَ المليكِ الأشرفِ بفتوحِ قبرسَ بالحسامِ المَشرفي[٢]
فَتْحٌ تفتَّحت السموات العُلا من أجله بالنَّصْر واللُّطف الخفى

ولا نعود نسمع عن انتصارات حربية مجيدة أيام المماليك ، ويصبح المديح مديح مناسبات للسلاطين فى توليهم مقاليد الأمور وفى الأعياد .

. ويُظِلُّ مصر عهد العثمانيين وفيه يقدم الشعراء مدائحهم للولاة ونوابهم وكبار الموظفين فى زمنهم ويكتظ تاريخ الجبرتى وغيره بأشعارهم على نحو ما يلقانا فى مديح الوالى العثمانى رضوان كتخدا المتوفى سنة ١١٦٨ وكان قد بنى لنفسه عدة قصور وعاش للهو ، وقصدته الشعراء ومدحوه بالقصائد والأواجيز والموشحات والمقامات وأعطاهم الجوائز السنية . واتخذ له جلساء وندماء منهم عبد الله الإدكاوى ، وقد صنف فى مدائحه كتابا سماه « الفوائح الجنانية فى المدائح الرضوانية » ومن كبار مداحه مصطفى اللقيمى الدمياطى ، وله مقامة طويلة ضمنها أشعارا كثيرة فى مديحه ، وله فيه مزدوجة فريدة ، يقول فيها[٣] :

مليكُ سعدٍ قد سَما فى عصرهِ مؤيَّدٌ معظَّمٌ فى مِصْرِهِ
معزَّزٌ كيوسفٍ فى قَصْرِهِ عليه منشورٌ لواءُ نصرِهِ

ومن مداح رضوان قاسم[٤] بن عطاء الله ، وله فيه مزدوجة بديعة ومدائح كثيرة ، وله أيضا فيه توشيح عارض به الموشح المشهور للسان الدين الخطيب ، وفيه يقول :

كفُّه الغيثُ على الناس هَمَا فأعاد الخِصْبَ بعد اليَبَسِ
أصبح الدهرُ به مبتسما وهْو فى فيهِ محلُّ اللَّعَسِ

ويكثر مدح الشعراء لعلماء الأزهر الأجلاء ، ويلقانا ابن الصلاحى[٥] السيوطى كلفا بأستاذه الشمس الحفنى ، وله فيه مدائح كثيرة على شاكلة قوله :

---

(١) النجوم الزاهرة ٢٩٦/١٤ .

(٢) المشرف : نسبة إلى مشارف الشام أو اليمن ، والسيوف المشرفية : سيوف حادة قاطعة .

(٣) الجبرتى ٢٣٢/١ .

(٤) الجبرتى ١٩٣/١ ومابعدها وانظر ترجمة قاسم فى ١٨٤/٢ .

(٥) الجبرتى ٢٦٥/١ وما بعدها

إمامُ الهدى الراقى إلى ذروة العُلا ... إلى رتبةٍ عنها الثوابتُ تقعدُ
وما شئتَ قل فيه فأنت مصدَّقٌ ... مزاياه تقضى والمحاسنُ تَشْهَدُ

وأكثروا حينئذ من التأريخ بالشعر يؤرخون به قدوم والٍ أو مناسبة من المناسبات فى آخر شطر بالقصيدة إذ تحسب حروف الكلمات فيه بحساب الجمَّل فتكون سنة الولاية أو سنة المناسبة ، ويحسن أن نستعرض شعراء المديح النابهين على مر الحقب .

المهذب[1] بن الزبير

هو الحسن بن على الغسانى ، ولد بأسوان فى أوائل القرن السادس الهجرى ، وبها ثقف علوم العربية ، وأوتى ملكة شعرية خصبة ، فلم يلبث أن لهج بالشعر ، وما نصل معه إلى سنة ٥٢٦ حتى نراه يتصل ببنى الكنز سَرَاة بلدته ، ويمدح كبيرهم بقصيدة بديعة يقول فيها :

لئن جهل المدَّاحُ طُرْقَ مديحكم ... فإنى بها من سائر الناسِ أعلمُ
وهل لىَ حمدٌ فى الذى قلت فيكُمُ ... ونُعْماكمُ عندى التى تتكلَّمُ

ونال على قصيدته جائزة كبيرة : ألف دينار . ودفعه طموحه الأدبى إلى النزوح عن بلده إلى القاهرة : حاضرة الفاطميين وموطن الشعراء الكبار . ونراه يمدح رضوان بن ولخشى وزير الخليفة الحافظ (٥٢٤ - ٥٤٤ هـ) ولعله هو الذى أنفذه فى مهمة إلى اليمن ، فأكبَّ على كتب النسب ، وألف فيه دائرة معارف ضخمة قال ياقوت إنها تقع فى أكثر من عشرين مجلدا . ولم تصرفه عنايته بهذه الدائرة عن الشعر والمديح . وأهم وزير اتصل به بعد ابن ولخشى طلائع بن رزِّيك (٥٤٩- ٥٥٦هـ). وكان يعد أكبر شاعر فى زمنه، وقد ترجم له العماد الأصبهانى ترجمة ضافية استهلها بقوله : « المهذب بن الزبير محكم الشعر كالبناء المشيد ، لم يكن فى زمانه أحد أشعر منه ، وله شعر كثير ومحل فى الفضل أثير » . والغالب على شعر المهذب المديح .

ومن يدرس الشعر العربى يعرف أن قصيدة المديح تقوى تارة وتضعف أخرى ، فهى تقوى

---

(١) انظر فى ترجمة المهذب وأشعاره خريدة القصر (قسم شعراء مصر - طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٢٠٤/١ ومعجم الأدباء ٤٧/٩ والنكت العصرية لعمارة اليمنى ص ٣٥ والطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد ص ١٣ ، ١٠٠ وابن خلكان ١٦١/١ فى ترجمة أخيه الرشيد وفوات الوفيات ٢٤٣/١ والنجوم الزاهرة ٣١٣/٥ وحسن المحاضرة للسيوطى ٥٦٣/١ .

حين تعبر عن فتوح وانتصارات جديرة بأن يسجِّلها الشعراء ويتغنَّوها ، وهى تضعف حين تعبر عن زُلْفى وما يتصل بالزلفى من رياء . ومعنى ذلك أنه توجد للمديح فى الشعر العربى قصيدتان لا قصيدة واحدة ، قصيدة ذات موضوع واضح ، وقصيدة ليس لها موضوع واضح ، ومن الضرب الأول مدائح أبى تمام فى قواد الدولة العباسية وحروبهم فى خراسان وفى آسية الصغرى ، ومنه أيضا مدائح المتنبى فى سيف الدولة وانتصاراته المجيدة ضد البيزنطيين . ومن الضرب الثانى مدائح مهيار وغيره من الشعراء للخلفاء والوزراء والحكام فى المناسبات والأعياد المختلفة . وفرق بعيد بين الضربين ، ففى الضرب الأول نقرأ حقائق واقعة ، بل يقرأ العرب تاريخهم فى صورة رائعة من الغناء والشعر ، أما فى الضرب الثانى فلا نقرأ حقائق ولا ما يشبه الحقائق ، ولا يقرأ العرب تاريخهم حربيا أو غير حربى ، إنما يقرءون ملقا وتزلفا ورياء .

ويمكن أن ندخل مدائح المهذب بن الزبير للوزير طلائع بن رُزِّيك فى الضرب الأول ، لأنه ملأ أيامه ببطولة محققة فى حرب الصليبيين وردِّهم عن بعض حصون فلسطين ، وفى كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين للمقدسى ما يصور ذلك . فقد كانت الجيوش المصرية فى أيام وزارته ماتنى تنازل الصليبيين فى العريش وغزَّة وعَسْقلان ، وكان الأسطول المصرى يقوم بدور مهم فهو يُفْزعهم فى « صور » و « عكا » وهو يقطع على بعض سفنهم فى البحر المتوسط طريقها إلى الموانى الشامية والفلسطينية . وكان طلائع يقود بنفسه بعض جيوشه البرية ، وينتصر على الصليبيين فى عسقلان وغير عسقلان ، والمهذب شاعره يتغنى بانتصاراته مبتهجا بمثل قوله :

لما أبَوْا ما فى الجِفان قَرَيْتهم ... بصوارمٍ سُلَّتْ من الأجفانِ[(١)]
وثَلَلْتَ فى يوم العَريش عُروشهم ... بِشَبا ضِرابٍ صادقٍ وطِعانِ[(٢)]
ألجأتَهُمْ للبحر لما أن جَرَى ... منه ومن دمهم معًا بَحْرَانِ
ولأنت تَخْضِبُ كلَّ بَحْرٍ زاخرٍ ... مِمَّنْ تحاربُ بالنَّجيع القانى[(٣)]
حتى ترى دَمهم وخضرةَ مائهِ ... كشقائقٍ نُثِرتْ على الرَّيحانِ
وكأنَّ بحر الروم خُلِّق وَجْهُه ... وطفَتْ عليه منابتُ المَرْجَانِ[(٤)]

---

(١) الجفان : جمع جفنة وهى قصعة الطعام : والأجفان : جمع جفن وهو غمد السيف .
(٢) شبا : جمع شباة ، وهى حد السيف .
(٣) النجيع : الدم . القانى : شديد الحمرة .
(٤) خُلِّق وجهه : طُيِّبَ بالخَلوق وهو الزعفران .

والمهذب بن الزبير فرح مبتهج بما أفاء الله من نصر على ابن رُزِّيك فى العريش ، فقد دقَّ أعناق الصليبيين هناك ، ونكصت بقيتهم على أعقابها إلى البحر منهزمة . ولا ريب فى أن تصوير المهذب لِدم الأعداء على صفحة البحر المتوسط بأنه خضاب أو هو شقائق أو ورد أحمر نثر على الريحان ، وكأن المتوسط قد خُلِّق وجهه وطُيِّب بالزعفران وطفت عليه منابت المرجان ، لا ريب فى أن ذلك كله تصوير بديع . ويذكر المهذب أن الأسطول المصرى لقى فلول الصليبيين المنهزمين إلى البحر يقتل فيهم ويأسر ، يقول فى سفنه وصنيعها بهم :

شُبِّهْنَ بالغِرْبان فى ألوانها وفعلنَ فعلَ كواسِرِ العِقْبانِ
ولئنكْ مُوقَرَةً بسبىٍ بينه أسراهُمُ مغلولةَ الأذقان (١)

وهو يصف الأسرى وقد غُلَّت أعناقهم إلى أذقانهم فلا يستطيعون لرءوسهم عطفا ولا حركة ، وينوِّه بقتل أحد أمرائهم ، قائلا :

قَتلَ البِرنْسَ ومَنْ عساه أعانَهُ لَمَّا عَتَا فى البَغْىِ والعدوانِ
وأرى البريَّة حين عاد برأسِه مُرَّ الجَنَا يبدو على المُرَّانِ (٢)

وتصادف فى أثناء ذلك أن وقعت زلازل شديدة فى الشام دكَّت بعض حصون الصليبيين فذكر ذلك ابن الزبير ملتمسا له تعليلا طريفا إذ يقول لابن رزِّيك :

مازُلْزِلتْ أرضُ العِدا بل ذاك ما بقلوبِ أهلِها من الخفقانِ

وله فى ابن رزِّيك مدائح كثيرة وراء هذه النونية . وكان يتقن فنون الشعر المختلفة من استعطاف وغير استعطاف ، وله فى استعطاف أحد دعاة الفاطميين باليمن ميمية مشهورة ، كان أخوه الرشيد قد ذهب إليه فى مهمة للدولة ، فهمَّ بقتله ، وسَجَنه ، فأرسل إليه بتلك القصيدة يستعطفه لأخيه ، فعفا عنه وردَّ إليه حريته . واشتهرت القصيدة بغزلها وما يرمز فيه من لهفة على أخيه ، إذ يقول :

يارَبْعُ أين ترى الأحبَّة يَمَّموا هل أنْجدوا من بعدنا أو أتْهَمُوا (٣)
نزلوا من العينِ السوادَ وإن نَأَوْا ومن الفؤاد مكانَ ما أنا أكتمُ

---

(١) موقرة : محمَّلة .
(٢) الجنا : الثمر . المران : الرماح .
(٣) أنجدوا : دخلوا نجدا . أتهموا : دخلوا تهامة .

رحلوا وفى القلب المعنَّى بعدهم وَجْدٌ على مَرِّ الزمان مخيِّمُ
وتعوَّضَتْ بالأنسِ روحى وَحْشَةً لا أوحش اللهُ المنازلَ منهمُ
إنى لأذكركم إذا ما أشرقتْ شمسُ الضحى من نَحْوكم فأسلِّمُ
لا تبعثوا لى فى النسيم تحيَّةً إنى أغارُ من النسيم عليكمُ

والأبيات تعبر عن عاطفة الحب الملتاعة وأنه لن ينسى أحباءه أبدا نزلوا نجدا أو نزلوا تهامة ، فهم فى سويداء فؤاده والوجد يبرِّح به ، والوحشة منهم تلذع روحه ، وهو يستقبل شمس الضحى المشرقة من ديارهم بالسلام الحار . وما يلبث أن يعبر فى البيت الأخير عن رقة ورهافة حسّ بالغة ، وله من جملة قصيدة بيته المشهور :

وما لى إلى ماء سوى النِّيل غُلَّةٌ ولو أنه – أستغفر اللهَ – زمزمُ

وهو يصور أدق تصوير محبته لوطنه ، وهى محبة تملك دائما على المصريين شغاف قلوبهم . وكان المهذب وأخوه الرشيد – وكان شاعرًا مثله – وثَّقا صلتهما بشيركوه وصلاح الدين حين قدما مصر لنجدة الوزير شاور ضد خصمه وضد الصليبيين ، ولم يلبث شاور أن قلب ظهر المجن لصلاح الدين وعمه شيركوه ، واضطرا إلى مبارحة مصر فترة . وحينئذ يقتل شاوَر الرشيد ويسجن المهذب فينظم شعرًا كثيرًا فى استعطافه ، ويرد إليه حريته ، وسرعان ما يتوفى سنة ٥٦١ للهجرة .

ابن قلاقس[(١)]

هو نصر الله بن عبد الله بن قلاقس الإسكندرى ، ولد بالإسكندرية سنة ٥٣٢ ونشأ بها وسمع من شيوخها ، ولزم حلقة أبى طاهر السِّلَفى أكبر المحدثين فى عصره ، وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة فمدح بعض أولى الأمر المشرفين على الإسكندرية . وكان فى أثناء ذلك يلزم صحبة شيخه السلفى وله فيه مدائح بديعة مثبتة فى ديوانه من مثل قوله :

تَفيضُ بحارُ العلم من كلماته فإن كنت ظمآنا فرِدْ خَيْر مَنْهَلِ
فيأيها المحمودُ من كلِّ ناطقٍ على كل معنى فى فِنَا كلِّ منزل

---

(١) انظر فى ترجمة ابن قلاقس الخريدة (قسم شعراء مصر) ١/١٤٥ ومعجم الأدباء ١٩/٢٣٦ وابن خلكان ٥/٣٨٥ وحسن المحاضرة ١/٢٤٢ والشذرات ٤/٢٢٤ ومرآة الجنان ٣/٣٨٣ . وديوانه طبع قديما بمطبعة الجوائب وراجعه وضبطه خليل مطران .

تحاسدَتِ الأيامُ فيك فلم تزل مُنَى القادم الجذَلانِ والمترَحِّلِ

وهو يشير إلى علْم أستاذه وأنه كان مقصدًا للراحلين فى طلب الحديث من كل بقاع العالم الإسلامى . وليس فى ديوانه مديح لوزير مصرى قبل شاوَر وزير العاضد (٥٥٧ — ٥٦٤ هـ) . واتصل بكتّاب الديوان لعهده ومدحهم ، وفى مقدمتهم القاضى الفاضل ، وله فيه غرر المدائح ، ومن قوله فى إحداها متخلصًا من الغزل إلى مديحه :

يارُبَّ خَمْرٍ فَمُهُ كأسُها لم أقتنع من شربها بالشَّميمْ
أَتْبَعْتُ رَشْفًا قُبَلاً عندها وقلتُ : هذا زمزمٌ والحَطِيم
فافترَّ إما عن أقاحى الرُّبَى تضحك أو دُرِّ العقود النَّظيم
أو كان قد قبَّل مُسْتحسنًا ما حبَّر الفاضلُ عبدُ الرَّحيمْ
مَنْ لفظُه راحٌ وأخلاقُه رَوْحٌ وتلك الدارُ دارُ النعيم

والأبيات تصور قدرة رائعة على تكوين الصور الشعرية البديعة ، ففم صاحبته كأس خمر ، وهو يرشفها وكأنه يرشف من ماء زمزم ويقبلها وكأنه يقبل الحَطِيم المقدس . وضحكت فخال أقاحى الربى تضحك . بل عقد در نظيم . بل درر القاضى الفاضل عبد الرحيم ، مَنْ لفظه خمر وأخلاقه فَرَح وداره جنة الخلد ، ولعله يريد قصر الخلافة الذى كان يعمل به الفاضل كاتبا .

وليس فى شعره أى شائبة تدل أو تشير إلى أنه اعتنق التشيع ، وكان عهد وزارة شاوَر عهدًا مضطربًا أشد الاضطراب ، فسدت فيه أداة الحكم فسادًا شديدًا ، مما جعل شاور يصطرع مع ضرغام على الوزارة ، ويستعين بنور الدين أمير حلب ويرسل معه أسد الدين شيركوه وصلاح الدين ، فيعيدانه إلى كرسى الوزارة ، وما يلبث أن يستعين ضدهما بالصليبيين . ولعل هذا الاضطراب الشديد الذى عانته البلاد حينئذ هو الذى جعل ابن قلاقس يفكر فى مبارحة مصر إلى صقلية ، ويبدو أنه كان يسمع فى أثناء مقامه بالإسكندرية من مسلميها الذاهبين إلى الحج تنويها كثيرا بها وبرجالاتها ، وكانت قد سقطت فى أيدى النورمانديين ولكن أمراءهم منذ روجّار كانوا لايزالون يعاملون المسلمين بها معاملة حسنة ، وأعانوهم على استمرار نشاطهم العلمى والأدبى . على كل حال نفاجأ برحيل ابن قلاقس إلى صقلية فى شعبان سنة ٥٦٣ ولم يكد ينزل بها حتى أرسل بقصيدة يصف فيها رحلته البحرية إلى الجزيرة وصفًا بديعًا ، وكانت قد أعجبته مشاهدها الطبيعية فأنشد :

بلدٌ أعارتْه الحمامةُ طَوْقَها وكساه حُلّةَ ريشِهِ الطاووسُ
فكأنما الأزهارُ منه سُلافةٌ وكأنَّ ساحاتِ الديار كئوسُ

وتنقّل فى بلدانها ، وكانت لاتزال عامرة بالمسلمين ، ونزل حاضرتها بَلَرْم ، وتعرّف على أكبر شخصية عربية بها : أبى القاسم بن الحجر ، ويبدو أنه كان رئيس ديوان المسلمين وصاحب الأمر والنهى فيهم ، وفيه دبَّج مدائح كثيرة ، مشيدًا ببيانه وبلاغته ، وبحسن تدبيره، بمثل قوله :

وبيمناك طَيْرُ يُمْنٍ وسَعْدٍ أَصْفَرَ الظهر أسودُ المنقارِ
قلمٌ دبَّر الأقاليم فالكتْـ ـبُ به من كتائب الأقدارِ

والبيت الثانى يشير بوضوح إلى أن أبا القاسم كان يصرف أمور المسلمين فى صقلية ، ولعله لذلك تسميه بعض المصادر العربية صاحب صقلية ، وفيه كتب ابن قلاقس كتابا سماه « الزهر الباسم من أوصاف أبى القاسم » وصف فيه رحلته إلى صقلية ومقامه بها نحو عامين ومدائحه فيه ، واحتفظ العماد الأصبهانى فى ترجمته بقطعة كبيرة من هذا الكتاب . وفى ديوانه مدائح كثيرة لشخصية ثانية بصقلية ، هى شخصية القاضى على بن أبى الفتح بن خلف الأموى ، ويقول العماد إنه نوّه به فى كتابه الزهر الباسم وقال عنه « حَدقة العلم الناظرة وحديقة الأدب الناضرة » وفيه يقول :

وكم لك فى الفصاحة من أيادٍ ملكتَ بها الفَخار على الإيادى[1]
تَخِذتُك من صقلّيَةٍ خليلا فكنت الوردَ يُقْطَفُ من قَتادِ
وشِمْتُك بين أهليها صَفِيًّا فكنت الجمرَ يُقْبَسُ من زنادِ

وابن قلاقس لا يريد أن يهجو أهل صقلية بأنهم قتاد وشوك وابن خلف وحده هو الورد ، ولا أنهم زناد صَلْد وهو وحده الجَمْر ، وكل ما فى الأمر أنه يريد أن يمدحه ، وبالغ فى مديحه ، أما بعد ذلك فكان هناك أبو القاسم بن الحجر ممدوحه وراعيه فيها . وقد مدح بها آخرين ، منهم جُرْدُنّا وزير صاحب صقلية ، وفيه يقول :

وجَرَّدْنا المدائح فاستقرَّتْ على أوصاف جُرْدَنَّا الوزيرِ

وهو يشير مرارًا إلى مجالس الشراب فى صقلية ، وأنه قضى بها أياما وليالى هنيئة ، كان يستمتع

---

(١) هو قس بن ساعدة الإيادى الخطيب المشهور.

فيها بالاستماع إلى الغناء والموسيقى ورؤية الراقصات وهن يتثنين فى نسق بديع من الحركات يقول :

ومُغَنٍّ تناولتْ يدهُ العو دَ فعادتْ بنا إلى الأفراحِ
بين ريحٍ من المزامير أسْرَى بين أجسامنا من الأرواح
وصِباحٍ قد عقدوا طُرَرَ اللّيْـ ـلِ جمالاً على الوجوه الصِّباح
يبعثُ الروضُ منهمُ حركاتٍ سرقتْ بعضَها طِوالُ الرِّماح

وعاد ابن قلاقس إلى مصر ، فوجدها لاتزال مضطربة قبل تحول مقاليد السلطان إلى صلاح الدين ، ففكر فى الارتحال عنها ، وولى وجهه نحو عدن سنة ٥٦٥ استقبله استقبالا حسنا ياسر بن بلال وزير محمد وأبى السعود ابنى عمران حفيد الداعى سبأ صاحبها ، فأغدق عليه نائلا غمرًا ، وركب البحر الأحمر عائدا إلى مصر ، فانكسر المركب به وغرق جميع ما كان معه بالقرب من جزيرة دَهْلك ، فعاد إلى ياسر ، وأنشده قصيدة دالية استهلها بقوله :

صَدَرْنا وقد نادى السماحُ بنا رِدُوا فعُدْنا إلى مَغْناك والعَوْدُ أحمدُ
وجاذَبَنا للأهل شوقٌ يقيمنا وشوقٌ لمُغْنينا عن الأهل يقعد
وما فاحَ فينا غيرَ ذكراك روضةٌ ولا ساح فينا غيرَ نُعماك موردُ
فياياسرًا نِلْنا به الفضلَ ياسرًا ويامن وجدنا منه ما ليس يُوجَدُ
دعوتَ بصوت الجود حَيَّ على النَّدَى لأنك تَرْوِى عن بِلالٍ وتُسْنِدُ

والقصيدة كلها من هذا النمط البديع ، وما أروع بيتها الأخير ، وقد تصور ياسرا يؤذِّن بصوت الجود داعيا الناس إليه ، ويعلل ذلك تعليلا طريفا ، إذ يقرن اسم أبيه بلال إلى بلال مؤذن الرسول وهو يروى عنه ويقتدى به قدوة حسنة . وكان يحسن التعليل كما يحسن التصوير ، ومن طريف صوره وتعليلاته قوله فى جارية سوداء :

رُبَّ سوداء وَهْيَ بيضاءُ معنًى نافسَ المسكَ عندها الكافورُ
مثلَ حَبِّ العيون يحسبه النا سُ سوادًا وإنما هوَ نورُ

وهى صورة بديعة غريبة . ويكثر مثلها عنده ، كقوله يصف الشِّعْر وأن منه ما يذبل سريعًا ومنه ما يخلد على الدهر ، ومنه القبيح ومنه الجميل ، يقول :

الشِّعْرُ منه قصيرٌ عمرُه زَهَرٌ يَذْوِى ومنه طويلٌ عمرهُ زُهُرُ[1]

(١) زهر : نجوم ، كناية عن الخلود .

أو كالعيون فهذى حظُّها حَوَلٌ ... يُغَضُّ منها وهذى حَظُّها حَوَرُ

وكان قد ظل عند ياسر نحو سنتين وعاد فى شوال سنة سبع وستين ، وركب البحر إلى عَيْذاب ثغر قوص على بحر القُلْزُم ، وكأن الموت كان فى انتظاره ، فلم يكد ينزلها حتى لَبَّى نداء ربه وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره .

ابن سناء[1] الملك

هو القاضى السعيد هبة الله بن القاضى الرشيد أبى الفضل جعفر بن القاضى المعتمد سناء الملك السعدى ولد سنة ٥٥٠ بالقاهرة فى بيت يسار ونعمة ، إذ كان أبوه وجده من كُتَّاب الإنشاء فى الدولة الفاطمية ، كما يدل على ذلك تلقيبهما بلقب القاضى الذى كان يمنح لكبار الكتاب ، وكانت قد انعقدت صلة وثيقة بين جده وأبيه وبين القاضى الفاضل حين كان يعمل معهما فى الدواوين الفاطمية . ولما تطورت الظروف وأصبحت مقاليد الحكم فى مصر بيد صلاح الدين واتخذ القاضى الفاضل وزيرًا له ومستشارًا قَرَّب الفاضل منه جعفر بن سناء الملك وتوثقت الصلة بينهما حتى كان ينيبه عنه فى غيبته مع صلاح الدين بالشام . وعُنِى جعفر بتربية ابنه هبة الله منذ نعومة أظفاره ، فعهد إلى بعض القُرَّاء بتحفيظه القرآن الكريم ، حتى إذا حفظه اختلف إلى حلقات العلماء وخاصة حلقة ابن بَرِّى أكبر أئمة اللغة والنحو المصريين حينئذ . وأكبَّ يقرأ كتب الفقه وعلم الكلام والمنطق على نحو ما يشهد بذلك استظهاره فى أشعاره لبعض مصطلحات هذه العلوم فى الحين بعد الحين . ودفعه طموحه العلمى إلى الارتحال إلى الإسكندرية لسماع الحديث على السُّنِّى الكبير الحافظ السِّلَفِىّ أحمد بن محمد ، وفيه يقول :

وجئتُ إلى الإسكندريَّة قاصدًا ... إلى كعبة الإسلام أو عَلَم العِلْمِ
إلى أحمدَ المحيى شريعةَ أحمدٍ ... فلا عدمتْ منه أبًا أُمَّةُ الأُمِّى

(١) انظر فى ترجمة ابن سناء الملك وأشعاره الخريدة (قسم شعراء مصر) ٦٤/١ ومعجم الأدباء ٢٦٥/١٩ والمغرب لابن سعيد (قسم القاهرة) ص ٢٧٣ وابن خلكان ٦١/٦ وعبر الذهبى ٢٩/٥ والشذرات ٣٥/٥ وحسن المحاضرة ٢٤٣/١ وبدائع البدائه لعلى بن ظافر وخزانة الأدب للحموى فى مواضع متفرقة ومقالنا : «الروح المصرية فى شعر ابن سناء الملك» بكتابنا : «فصول فى الشعر ونقده وابن سناء الملك : حياته وشعره لمحمد إبراهيم نصر» ومقدمة محمد عبد الحق لنشرته للديوان فى الهند ، ونشره وحققه فى القاهرة محمد إبراهيم نصر.

وقد أكبَّ على دواوين الشعراء يلتهمها كما أكبَّ على الموشحات الأندلسية فى طليعة عمره كما يقول فى مقدمة كتابه النفيس « دار الطراز » الذى سبق أن تحدثنا عنه وقلنا إنه وضع فيه عروض الموشحات ، وإنه يقوم فى ذلك مقام الخليل بن أحمد فى وضعه عروض الشعر العربى ، ونراه يختم بعض موشحاته بأقفال أعجمية مما يدل على معرفته بالفارسية . ويشهد وضعه لعروض الموشحات وضعًا نهائيا بذكاء خارق .

وقد تفتحت موهبة ابن سناء الملك الشعرية مبكرًا تفتحًا راع القاضى الفاضل كبير أدباء زمنه ، فاستاذن أباه فى أن يتخذه كاتبا بين يديه ، وأذن له ، وأضفى عليه من إعجابه بشعره وودِّه ما أصبح به أبًا روحيًا له ولفنِّه . ومن خير ما يصور هذه الأبوة الروحية كتابُ ابن سناء الملك المسمى « فصوص الفصول » ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية ، والكتاب فى جمهوره مراسلات بين ابن سناء الملك وأبيه جعفر من جهة وبين القاضى الفاضل من جهة ثانية حين كان يذهب إلى الشام فى رفقة صلاح الدين ، فيكاتب الشاعر وأباه ، وخاصة حين يرسل إليه ببعض مدائحه فيه أو فى صلاح الدين . وهى ليست مكاتبات إخوانية فحسب ، بل هى أيضا ملاحظات نقدية على الشعراء السالفين والمعاصرين وخاصة ابن سناء الملك نفسه وأشعاره . وتموج رسائل الفاضل فيها بثناء غَدِقٍ عليه من مثل قوله عن بعض قصائده : « مايرينا من آية إلا هى أكبر من أختها ، وما يجلو علينا عروسًا إلا وقد جمع بين حسنها وبَخْتها ، وقلما يُجْمَعُ بين الحسن والبَخْت » ويفضِّلها على المعلقات . ويمدحه مرة ثانية فيقول : لله دَرُّ تلك الأنفاس التى تستخف عقول الرجال ، بل عقود الجبال . . ولقد أبقى للآباء ذكرا ، وللأبناء فخرا ، وأرسلها مقلَّدات ، فأرهفها مجرَّدات ، وأثارها أوابد ، فنظمها قلائد » . ويشيد الفاضل بموشحاته كما يشيد بأشعاره رافعا منزلته فيها على منزلة الأندلسيين درجات . ويهمنا ما يسجله كتاب فصوص الفصول من أنه كان ناقدا كما كان شاعرا .

واختصر ابن سناء الملك كتاب الحيوان للجاحظ ، باسم روح الحيوان ، ويقول ابن خلكان إنها تسمية لطيفة ، ويذكر له كتابا ثانيا باسم مصايد الشوارد . وكان ناثرا بارعا كما كان شاعرا مبدعًا ، يقول ابن خلكان : « ومن نثره فى وصف النيل فى سنة كان ناقصا ، ولم يوف الزيادة ، التى جرت بها العادة : « وأما أمر الماء فإنه نضبت مشارعه ، وتقطعت أصابعه ، وتيمم العمود (عمود المقياس) لصلاة الاستسقاء ، وهمَّ المقياس من الضعف بالاستلقاء » . يقول ابن خلكان : « وهذا من أحسن ما يوصف به نقصانُ النيل » . وزعم ابن سعيد فى كتابه المغرب أنه

كان غاليا فى التشيع ، وربما دفعه إلى ذلك أنه وجده يمدح القاضى الفاضل فى يوم عاشوراء ذاكرًا مقتل الحسين الشهيد فيه يقول :

يومٌ يساءُ به وفيه كلُّ شيعيٍّ وسُنِّى

ولم يكن القاضى الفاضل شيعيا ، بل كان سُنِّيًّا ومثله ابن سناء الملك ، وهو لذلك يقول إن ذكرى هذا اليوم تحزن السنيين والشيعة معًا . وقد أشار فى رثائه لبعض العلويين من أصهاره إلى نوم الخلق عن ثأر الحسين . وفى رأينا أنه ليس فى ذلك ما يعارض سنيته ، فإن مصرع الحسين يأسى له الطرفان المتعارضان من أهل السنة والشيعة جميعا ، وقد صرح فى مدحه للقاضى بأنه سنى رغم حبه وتشيعه له يقول :

وغدوتُ فى حبى له متشيِّعا من ذا رأى متشيِّعا متسنِّنا

وليس من المعقول أن ينال حُظْوة القاضى الفاضل وصلاح الدين شاعرٌ شيعى غالٍ فى تشيعه . ويبدو أن الصفدى قرأ هذه التهمة عند ابن سعيد ، وأكدها عنده أنه قرأ فى ديوان ابن الساعاتى هجاء له فى ابن سناء الملك حين سقط عن جواد له كان يسمى الجمل ، فزعم أنه إنما سقط عنه لبغضه أم المؤمنين السيدة عائشة وأباها الصدِّيق أبا بكر ، يقول :

أبغضتَ بالطبع أمَّ المؤمنين ولم تُحْبِبْ أباها فجاءتْ وقْعَةُ الجَمَلِ

وهو هجاء لابن الساعاتى جرَّه إليه أن اسم الجواد الجمل ، وله فيه أهاج مختلفة كما يشهد ديوانه ، وكأنه ذكر ذلك كيدًا له . وقد أشاد فى مقدمته لفصوص الفصول بالصحابة جميعا ، ولم يخص على بن أبى طالب بتنويه . ومر بنا أنه تتلمذ على الحافظ السلفى أكبر سنيٍّ فى عصره .

وكان ابن سناء الملك يعيش فى رغد من العيش ، لثراء أبيه ، وفى الديوان أنه أهداه مرة بستانا ومرة فندقًا . وظل موظفا فى ديوان الإنشاء منذ بواكير حياته ، وبعد وفاة صلاح الدين واستعفاء القاضى الفاضل من عمله ظل يعمل فى الديوان مع السلطان العزيز ثم أخيه السلطان الأفضل ثم السلطان العادل وابنه الكامل ، حتى إذا كانت سنة ٦٠٦ عهد إليه السلطان الكامل بتدبير ديوان الجيش ، غير أنه استعفاه فأعفاه . ولم يلبث أن توفى سنة ٦٠٨ . ولم يكن يعمل مع كل أولئك السلاطين فحسب ، بل كان يقدم إليهم مدائحه وكانوا يجزلون له فى العطاء ، وبالمثل كان يجزل له فى العطاء أمراء البيت الأيوبى حين كان يمدحهم ، وفى ديوانه مدائح كثيرة لهم ولصفى الدين بن شكر وزير السلطان العادل . فالأموال كانت تُغْدَقُ عليه بالإضافة إلى راتبه

وما ورثه عن أبيه مما يؤكد أنه عاش مترفا منعما . وفى ديوانه أشعار كثيرة يصف فيها داره التى كانت تطلُّ على النيل وحديقتها وما كان بها من نافورات ، وكانت منتدى للشعراء من أصدقائه وكانت تجرى بينهم فيها محاورات ومفاكهات طريفة .

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن ابن سناء الملك ، أكبر شاعر ظهر بمصر قبل العصر الحديث ، وقد أوضحنا فى مقال عنه بكتابنا فصول فى الشعر ونقده تمثيله فى أشعاره للروح المصرية ، من ذلك ما يجرى فى أساليبه من السهولة التى تعد انعكاسًا لما يشعّ منها فى روح المصريين أبناء النيل وأوديته وسهوله وما أسبغ على ساكنى ضفافه من حياة سهلة ، مما دفعه إلى استخدام بعض الكلمات العامية المألوفة فى ألسنة المصريين مثل « ياما بمعنى كثير جدا ، ومثل « ودينى هو علىّ أكثر » ومثل « على عينى » . ومن ذلك الرقة فى ألفاظه ومعانيه وما يتصل بها من اللين والدماثة ، مما جعله يكثر من التغزل بمن فقدن أبصارهن من الفتيات والنساء كقوله فى إحداهن :

شمسٌ بغيرِ الليلِ لم تُحْجَبِ وفى سوى العَيْنين لم تُكْسَفِ
مُغْمَدَةُ المُرْهَفِ لكنها تَفْتِكُ بالغِمْدِ بلا مُرْهَفِ[1]

فهى شمس منيرة تحجبها غلالة من الليل ، شمس أصابها فى عينيها كسوف ، ونورها يغمر كل ما حولها وإن جفونها لتطبق على عينيها إطباق الغمد على سيفه ، ومع ذلك تفتكان بمن يبصرهما كما يفتك السيف القاطع . ويتجسَّد تمثل ابن سناء الملك للروح المصرية فى تعلقه الشديد – مثل المصريين جميعا – بوطنه ونفوره من الغربة حين يذهب إلى القاضى الفاضل بالشام فى إحدى القضايا المهمة ، حتى ليقول :

ووالله ما أَشْرِى الشآمَ ومُلْكَهُ وغُوطتَه الخَضْرا بِشبْرين من شُبْرَا

فغوطة دمشق بمشاهدها الساحرة بل الشام وملكه وصولجانه ، كل ذلك لا يشتريه بشبرين من شبرا : إحدى ضواحى القاهرة . وصِفة مصرية رابعة ماثلة بالقوة فى شعره هى حبه لأبويه وأسرته حبًّا يملك عليه كل شىء مِنْ أمره ، مما نراه ماثلا فى مراثيه لأمه وأبيه وجده وزوجه وأخته وإخوته . وله فى أبيه مدائح بديعة من مثل قوله وكأنه يمدح بعض السلاطين :

يا سائلا عن مَعاليهِ ليشْهَرَها البدرُ فى الأفقْ يستغنى بشهرتِهِ

(١) المرهف : السيف القاتك

ذاك الذى يَبْسِم الدهرُ العبوسُ بهِ تِيهًا وتبتهج الدنيا ببهجتهِ

ونحسُ فى مديحه لأبيه بسعادته سعادة غامرة وهو يتحدث عن منزلته وأدبه وعلمه وشِيَمه فى إجلال وإكبار يفوقان الوصف . وأيضا ما تمتاز به مصر من تعلق بالدين تجده مصورا فى أشعاره .

وأهم من استنفد مدائحه صلاح الدين والقاضى الفاضل ، ومعروف أن صلاح الدين قضى على أسطورة الصليبيين وما كان يقال عن بأسهم وما أسَّسوه فى الشام من ممالكهم فقد مزق جموعهم تمزيقا ، وردَّ فلولهم إلى البحر المتوسط وما وراءه . وقد مضى ابن سناء الملك يمدحه مدائح رائعة منذ إعداده لحرب الصليبيين ومدِّ سلطانه على حلب وغيرها من ديار الشام ، وجمعه للعرب تحت لوائه ، حتى ينقضَّ بهم على حمَلة الصليب ، وله يقول :

بدولةِ التُّركِ عزَّت ملَّةُ العربِ وبابن أيوبَ ذلَّتْ شيعةُ الصُّلُبِ
وفى زمان ابن أيوبٍ غَدتْ حلبٌ من أرض مصرٍ وعادتْ مصرُ من حَلَبِ

وكأنه كان يستشعر فى عمق أمنية توحيد العالم العربى . وله فى صلاح الدين مدائح كثيرة يصور فيها بطولته وبطولة جيوشه وسحقهم للصليبيين . ومازال صلاح الدين ينزل بهم الدمار ويأخذ منهم الحصون والبلاد حتى كانت هزيمتهم الكبرى فى موقعة حِطِّين ، وفيها جرت دماؤهم أنهارا وتعمّ الفرحة الديار العربية ، ويهنئ ابنُ سناءِ الملك صلاح الدين بهذا النصر المبين قائلا :

لستُ أدرى بأىِّ فَتحٍ تُهنَّا يا مُنيلَ الإسلامِ ما قد تمنَّى
أنهنِّيك إذ تملَّكتَ شامًا أم نُهنِّيك إذ تملَّكت عَدْنا
قد ملكت الجِنان قَصْرًا فقصرا إذ فتحتَ الشآم حِصْنًا فحِصْنا
لك مدحٌ فوق السموات يُنْشا ومحلٌّ فوق الأسنَّة يُبْنَى
حَمَلوا كالجبال عُظْمًا ولكن جَعَلتْها حَملاتُ خَيْلك عِهْنا[1]
لم تلاق الجيوش منهم ولكنـ ـك لاقيتهم بلادا ومُدْنا
وتصيَّدتهم بحلقة صَيْدٍ تجمع اللَّيْثَ والغزال الأغنَّا[2]

(١) يشير إلى الآية الكريمة : (وتكون الجبال كالعهن المنفوش) . والعهن : الصوف .

(٢) الغزال الأغن : الذى يخرج صوته من خياشيمه .

والقصيدة مديح رائع وتحمل كثيرا من الصور المبتكرة ، وقد مضى فيها يصور أخذ صلاح الدين لصليب الصلبوت الذى يزعم المسيحيون أن المسيح صُلب عليه ، ويغريه بإحراقه ، كما يصور أخذه لطبرية وعكا ونابلس وبيت جبريل وتبنين وغيرها من مدن الشام وحصونه ، وذكر فتكه بأرناط صاحب الكَرك بيده جزاء وفاقا لسوء فعله وقوله لتعرضه القبيح للحجاج المصريين ولإعداده أسطولا – كما مر بنا – لغزو مكة والمدينة ، ولما نُقل إليه عنه من استخفافه بالرسول عليه السلام .

ومدائحه فى القاضى الفاضل كثيرة حتى لَتُعَدّ بالعشرات ، إذ كاد لا يترك مناسبة دون أن يهديه من أشعاره ، فهو يهديها له فى الأعياد وفى القدوم من الشام ومن الحج وفى انتصارات صلاح الدين ، إذ كثيرا ما ينوِّه بها فى مدائحه له ، وهو فيها يبالغ مبالغات كثيرة من مثل قوله :

صوَّر الله ذلك الشخصَ نورًا　　وجميعُ الأنام ماءٌ وطينُ

وقوله :

وما الدهرُ إلا خادمٌ أنت ربُّهُ　　وما الخلقُ إلا عالَمٌ أنت فاضلُهْ

وقوله :

الدهر مدَّ إليه كفَّ مفتقرٍ　　فمدَّ للدهر منه لحظَ محتقرِ
فى كفِّه قلمٌ إن شئتَ أو قَدرٌ　　يصرِّف الخلق بين النفع والضررِ

وهو يكرر معنى البيت الثانى ويطيل فيه ، وله يقول :

بميمونِ رأيك كان الفتوحُ　　ومنصورِ عزْمك كان الغَلبْ

وكثيرا ما يردد هذا المعنى وكأنه يشير إلى قولة صلاح الدين المشهورة : لم أنتصر على الأعداء بسيفى وإنما انتصرت بقلم القاضى الفاضل ، وفيه يقول واصفا كرمه الفياض :

لا يستقرُّ المال فوق بنانِه　　حتى كأن بنانه مَخْروقُ
ياطالبين ذُرَى عُلاه توقَّفوا　　ومؤمِّلين نَدَى يديهِ أفيقوا

وهما بيتان رائعان فى وصف الجود ، وبحق كان القاضى الفاضل يستحق منه كل ثناء وكل تكريم فقد رعاه أعظم رعاية ، ونوه بأشعاره تنويها ليس وراءه غاية وبحقٍّ ، يقول له :

شكرى لنُعْماك شكرُ الأرض للمطرِ　　أولا فشكرُ سوادِ العَيْنِ للنظرِ

فهو يشكره شكر الأرض المجدبة للغيث المدرار الذى يحيى مواتها ، بل شكر سواد العين لنور البصر الذى يصلها بالوجود ومشاهده . وله فيه صور كثيرة مبتكرة مثل قوله فى جوده المنهمر على الناس :

وقصَّر البحرُ عنه فهْو مكتئبٌ أما تراه بكفَّىْ مَوْجِهِ التَطما
وولَّتِ السحبُ — إذ جارتْه — باكيةً أما ترى الدمع من أجفانها انْسَجَما

فالبحر يشعر إزاء كرمه بقصوره حتى ليندب حظه ويلطم وجهه بكفى موجه ، وإن الغيث ليبكى بدموع غزار لاتزال تنهمل . ونحسُّ بفرحة تسرى فى كثير من مدائحه للفاضل كما نحس خفة الظل التى يشتهر بها المصريون وخاصة فى تخلصاته من الغزل إلى المديح كقوله :

ضَنَّتْ بطرفٍ ظلَّ يُعْدِى سُقْمُهُ أرأيتمُ مَنْ ضَنَّ حتى بالضَّنا
إنى رأيتُ الشمس ثم رَأيتها ماذا علىَّ إذا هَوِيتُ الأحسنا
وسألتُ من أىِّ المعادن ثغْرُها فوجدتُ من عبد الرحيم المعدنا
أبصرتُ جوهرَ ثَغْرِها وكلامَه فعلمتُ حقًّا أن هذا من هنا

وضَنَّ صاحبته بالطرف وعدواه وضنَّها حتى بالسقم أو بالضَّنا غريب ، وتلطَّف فى التخلص من الغزل إلى مديح القاضى الفاضل عبد الرحيم ما شاء له التلطف والرشاقة وخفة الروح وعذوبة الكلم . وله فى غزله كثير من هذه التصاوير المبتكرة ، كقوله :

أقمتِ على عاشقيك القيامَهْ بوردِ الخدِّ وغُصْنٍ لِقَامَهْ
فمِنْ وَرْدِ خدِّك كيف النّجاةُ ؟ ! ومن غُصْنِ قدِّك كيف السلامَهْ

وقوله :

وأشكو إلى ليلِ الغَدائِرِ غَدْرَها وأُملى عليه وهْو فى الأرض يكتب

وقوله :

ألقىَ حَبائلَ صَيْدٍ منْ ذَوائبهِ فصادَ قلبِىَ بأشْرَاكٍ من الشَّعَرِ

وقوله :

لا تَخْشَ منى فإنى كالنسيم ضَنًا وما النَّسيمُ بمخشىٍّ على الغُصُنِ

وقوله :

يُعانقها من دونيَ العِقْدُ وَحدَهُ فيا عجبًا ياقومُ هل يَقْلَقُ العِقْدُ

وقوله :

سألتْنى ما حالُ قلبك بعدى ربَّةَ البيت أنتِ بالبيت أخْبَرْ

وهو باب واسع عند ابن سناء الملك ويدل على شاعرية خصبة وأنه كان مايزال يغوص وراء التصاوير حتى يأتى منها بفرائد عجيبة ، مع حلاوة الأسلوب وعذوبته ، مما يدل على أنه كان شاعرا مبدعا إلى أبعد حدود الإبداع . وسنعود إليه مرارا فى عرض موضوعات الشعر الأخرى سوى المديح .

ابن نُباتة [1]

هو جمال الدين محمد بن شمس الدين محمد بن شرف الدين محمد ، من سلالة عبد الرحيم ابن نباتة خطيب سيف الدولة المشهور ، وقد غلبت عليه نسبته إليه . كان أبوه وجده من شيوخ الحديث ، وقد ولد لأبيه بزقاق القناديل فى القاهرة ، واختلف من ترجموا له فى سنة ولادته هل كانت سنة ٦٧٦ أو سنة ٦٨٦ وجمهورهم يؤكد أنه ولد فى السنة الأخيرة ، غير أن هناك نصًّا عنه يذكر فيه أساتذته أو شيوخه فى الأدب ، ويذكر من بينهم محيى الدين بن عبد الظاهر المتوفى سنة ٦٩٢ وليس من المعقول أن يتتلمذ له ويأخذ عنه الأدب وهو فى الخامسة أو السادسة من عمره ولذلك كنا نرجح أنه ولد فى سنة ٦٧٦ على الأقل إن لم يكن قبيل ذلك . ويذكر مترجموه كثرة من شيوخه فى الحديث من بينهم أبوه وجدّه . وتنقل فى حلقات شيوخ الأدب وتفتحت موهبته الأدبية فى الشعر والنثر مبكرة . وكان كثير من العلماء فى مصر يبرحونها إلى دمشق والشام فى تلك الحقب . وبالمثل كان كثير من علماء الشام يبرحونها إلى مصر والقاهرة ، ويبرح أبوه مصر إلى الشام

(١) انظر فى ابن نباتة وشعره الدرر الكامنة ٣٣٩/٤ وحسن المحاضرة ٥٧١/١ وطبقات الشافعية للسبكى ٢٧٣/٩ والوافى بالوفيات للصفدى ٣١١/١ والبداية والنهاية لابن كثير ٣٢٢/١٤ والنجوم الزاهرة ٩٥/١١ وشذرات الذهب ٢١٢/٦ والبدر الطالع ١٥٢/٢ وخزانة الأدب للحموى فى مواضع متفرقة وكتاب ابن نباتة المصرى لعمر موسى (طبع دار المعارف) والأدب فى العصر المملوكى لمحمد زغلول سلام (طبع دار المعارف) ٢٢١/٢ وطبع ديوانه قديما فى مصر وهو فى حاجة إلى طبعة محققة ، ومنه مخطوطات كثيرة فى مكتبات العالم العربى والغربى

حوالى سنة ٧١٠ وينزل دمشق ، ويأخذ الطلاب عنه الحديث[١] ، ويستقر بها ويتولّى فيما بعد مشيخة الحديث بالمدرسة الظاهرية هناك . ولعل ارتحال أبيه عن مصر هو الذى حبّب إليه الرحلة وراءه إلى دمشق واتخاذها منذ سنة ٧١٦ دار مقام له ، وظل بها مدة تقارب نصف قرن أو بعبارة أدق نحو خمسة وأربعين عاما ، وقد ظل يحن إلى مصر حنينا متصلا بمثل قوله :

آهٍ لمصرَ وأرض مصرَ وكيف لى ... بديار مصرَ مراتعا وملاعبا
حيث الشبيبةُ والحبيبةُ والوفا ... فى الأقربين مشاربًا وأصاحبا
والدهرُ سلمٌ كيفما حاولتُه ... لا مثلُ دهرى فى دمشق محاربا

وفؤاده يهفو إلى مصروتراب مصر ونيل مصر ورياض مصر ومراتع صباه بها وملاعبه ، ويقول إنها ديار شبابه وحبه وديار الوفاء فى الأقرباء وغير الأقرباء وديار الأمن والسلام ونعيمه . وفى أثناء مقامه بدمشق كان يتردد على حلب ، وبالأخص على حماة وصاحبها المؤيد أبى الفداء الذى استقبله أروع استقبال ، وقرر له راتبا سنويا : ستمائة درهم غير ما كان يسبغه عليه من العطاء كلما قدم عليه بمدحة من مدائحه ، وظل يفد عليه حتى توفى سنة ٧٣٢ فوفد على ابنه الأفضل من بعده .

وفى دمشق والشام تفجر ينبوع الأشعار عند ابن نباتة حتى أصبح – كما يقول ابن كثير والسبكى – حامل لواء الشعر فى زمانه ، غير منازع ولا مدافع . وأروع أيامه حينئذ أيام اتصاله بالسلطان المؤيد ، ونراه لا يكتفى بما يقدم إليه من مدائح ، بل يؤلف الكتب باسمه ويهديها له مثل كتابه « سَرْح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون » وهى الرسالة الهزلية ، ومثل كتابه « مجمع الفوائد » . وكان قد قرظه كثيرون من فضلاء دمشق وعلمائها وأدبائها ، مما جعله يؤلف فيهم كتابه « سجع المطوق » مترجما لهم ، وهو كتاب نفيس لايزال مخطوطا . ونراه فى هذه الفترة : فترة اتصاله بالسلطان المؤيد وثيق الصلة بشيوخ دمشق وأعلامها ، من مثل ابن الزَّمْلكانى وابن صَصْرى القاضى والشهاب محمود شاعر الشام وتقى الدين السبكى وابنه تاج الدين وابن فضل الله العمرى ، وله فيهم جميعا مدائح بديعة . وكان ابن فضل الله يتولى كتابة السر فى دمشق ، فكان

---

(١) انظر ترجمته فى الوافى بالوفيات ٢٧٠/١ والدرر الكامنة ٢٩١/٤

طبيعيا أن يقرب ابن نباتة ويعهد إليه بكتابة التوقيع . وكان أحياناً يُعْزل عنها وأحيانا يعود إليها حتى سنة ٧٦١ . وفى هذه السنة استدعاه الناصر حسن سلطان مصر والشام إلى القاهرة فى ربيع الأول وأمر أن يُصْرَفَ له ما يتجهَّز به وأن يرد عليه ما انقطع عنه من الراتب ، وعينه موقِّعا للدَّسْت وكانت قد تقدمت سنه ، فلم يستطع القيام بتوقيع الدَّسْت ، فأعفاه السلطان حسن من الحضور وأمر بإجراء راتبه عليه ، كما أمر بنسخ ديوانه وحفظ نُسَخٍ منه فى المكاتب السلطانية . وبذلك أمَّره على الشعراء ، مما جعله يلهج بمدحه والثناء عليه . ولم يلبث السلطان حسن أن توفى ، وكان راتبه ربما صُرف له وربما لم يصرف حتى توفى بمارستان قلاوون سنة ٧٦٨ للهجرة .

وكان نَبْعُ الشعر عند ابن نباته فياضا ، فله بجانب ديوانه الكبير ديوان سماه « القطر النباتى » وهو خاص بمقطوعاته الشعرية ، والقطر السكر والتورية فى اسم الديوان واضحة ، يريد السكر النبات . وله ديوان خاص بغزلياته سماه « سوق الرقيق » . وديوانه الكبير يكتظ بالمدائح ، وعُنِىَ كثيرون من معاصريه بمعارضته فى بعض قصائده ، واشتهر الصفدى بكثرة إغارته على معانيه ، وخاصة على توریاته البديعة وكان مغرما بصنعها ، وألف فى سرقات الصفدى منه كتابا سماه « خبز الشعير » يريد أن سرقاته كخبز الشعير المأكول المذموم ، واستهلَّ خطبة هذا الكتاب بالآية الكريمة : (ربِّ اغفرْ لى ولوالدىَّ ولمن دخل بيتىَ مؤمنا) ويورد دائما أبياته موضع السرقة ، ثم يورد سرقة الصفدى مثل قوله فى الغزل موريا .

ومولــع بـفِـخـاخٍ يمدُّهـا وشِـبـاكِ
قالت لىَ العين ماذَا يصيدُ قلت كَراكى

ويقول الصفدى :

أغار على سَرْحِ الكَرَى عند ما رمى الـ ـكراكى غزالٌ للبدور يحاكى
فقلت ارجعى ياعينُ عن وِرْد حسنهِ ألم تنظريه كيف صادَ كراكى

والكرى: النوم ، والكراكىُّ طير مفرده كركىّ . والتورية واضحة عند ابن نباته وخفيفة رشيقة وقد أحالها الصفدى ثقيلة بما أضاف إليها من شرح وتطويل ، ومن ذلك قول ابن نباتة متغزلا :

فديتُك أيها الرَّامى بقوسٍ ولَحْظٍ ياضَنَا قلبى عليهِ
لقوسك نحو حاجبك انجذابٌ وشِبْهُ الشىءِ منجذبٌ إليه

ويقول الصفدى :

تشرَّط مَنْ أحبُّ فذُبْتُ وَجْدًا فقال وقد رأى جَزعى عليهِ
عقيقُ دمى جَرَى فأصاب خَدِّى وشِبْهُ الشيء منجذب إليه

وتشبيه الحاجب بالقوس وانجذابه إليه طبيعى ، أما انجذاب الدم إلى الخَد وتشبيهه به فنافر منه بعيد .

وابن نباتة فى شعره يمثل بحق ما تمتاز به الروح المصرية من الخفة والرشاقة . ويذكر السبكى فى كتابه طبقات الشافعية أنه مدح ابن الزَّمْلكانى بتائية رائعة بدأها بالغزل ووصف الخمر ، وأنشدها ثم قال : « حاول أدباء عصره معارضته فيها فلم يحسنوا إحسانه ، بل قصَّروا وتأخروا ولم يلحقوا شأوه »[1] . وأروع مدائحه ما نظمه فى المؤيد صاحب حماة وابنه الأفضل ثم بعد ذلك فى السلطان حسن ، وقد دبَّج فى المؤيد نحو أربعين قصيدة ومقطوعة من مثل قوله :

لو أنَّ للبحر جَدْواه لفاض على وَجْه الثَّرى بنفيس الدرِّ منضودِ
ولو أمرَّ على صَلْد الصَّفا يدَه لأنْبتَ العُشْبَ منها كلُّ جُلْمودِ
ياحبَّذا الملكُ السارى على شِيَمٍ تُرْوَى وتُنْقَلُ عن آبائه الصِّيد
أغنى العُفاة فلولا ناهياتُ تقًى — أستغفر الله — سمَّوه بمعبودِ

وهو دائم الإشادة بجوده الفياض على العفاة والسائلين ، ويكثر من مديح أسرته الأيوبية وآبائه الصيد الشجعان وماشادوا لأنفسهم من بيت فخار مدّوه فى أعلى السموات ولايزال يتألق ويضىء بين الكواكب . وكان المؤيد مؤرخا كبيرا ، وعالما فى العربية والفقه والأصول والطب والفلك والمنطق والفلسفة ، وينوه ابن نباتة مرارا بعلمه من مثل قوله مشيرا إلى تصانيفه الكثيرة :

العـالـِمُ الملكُ السيارُ سُؤْدُدُه فى الأرض سَيْرَ الدَّرارِى بين أفلاكِ

وقوله :

وللعلوم تصانيفٌ بدَتْ فغَدَتْ نعم السِّوارُ على الإسلام والسُّورُ

وكان مولعا بالتورية كما أسلفنا ، وكان يدخلها فى مدائحه للمؤيد ، وورّى كثيرا باسم مدينته حماة عن الحماة الحقيقية ، ومن توررياته الطريفة فى مديحه قوله :

---

(١) طبقات الشافعية ٩/٢٠٠

أقسمتُ ما الملكُ المؤيَّدُ فى الوَرَى ... إلا الحقيقةُ والكرامُ مجازُ
هو كعبةٌ للفضل ، ما بين النَّدَى ... منها وبين الطالبين حِجازُ

وواضح أنه ورَّى فى كلمة « مجاز » فلم يرد بها المعنى القريب المقابل للحقيقة ، وإنما أراد بها المعنى البعيد وهو المَعْبَرُ ، وورَّى فى كلمة « حجاز » فلم يرد بها المعنى القريب الذى تشير إليه كلمة الكعبة وهو الحجاز إقليم الكعبة المعروف ، وإنما أراد المعنى البعيد وهو الحاجز ، ومن ذلك قوله فى مديح المؤيد :

يذكّرنا أخبارَ مَعْنٍ بجودِهِ ... ونُنْشى له لفظًا فيُنْشى لنا مَعْنًا

ومعن بن أوس المزنى مشهور بجوده فى مفتتح العصر العباسى شهرة حاتم فى الجاهلية ، وقد ورَّى آخر البيت فى مدلول كلمة معنى ، فلم يرد بهاالمعنى القريب المقابل للفظ وإنما أراد بها مَعْنًا المزنى .

وممدوحه الثانى فى الديوان بعد المؤيد ابنه السلطان الأفضل ، وقد أنشده حين تولى إمارة حماة بعد أبيه تهنئة بسلطنته وتعزية له عن أبيه ، تُعَدُّ من فرائد الشعر العربى ، وفيها يقول :

هناءٌ محا ذاك العزاء المقدَّما ... فما عبسَ المحزونُ حتى تبسَّما
ثغورُ ابتسامٍ فى ثغورِ مدامعٍ ... شبيهان لا يمتاز ذو السَّبْق منهما
مليكان هذا قد هوَى لضريحهِ ... برغمى وهذا للأسرَّة قد سَمَا
كأنَّ ديار الملك غابٌ إذا انقضَى ... به ضَيْغَمٌ أنْشا به الدهرُ ضَيْغَمًا
فإن يَكُ من أيوبَ نجمٌ قد انقضى ... فقد أطلعتْ أوصافُك الغُرُّ أنجما
وإن تك أيامُ المؤيد قد مضَتْ ... فقد جدَّدتْ عُلْياك وقتًا ومَوْسما
هو الغيثُ ولَّى بالثَّناء مشيَّعًا ... وأبقاك بحرًا بالمواهب مُنْعِما

وعلى هذا النحو تمضى تهنئة الأفضل جامعة بين النقيضين فى كل بيت : بين المدح والرثاء ، وفى ذلك ما يصور براعة ابن نباتة وحدة ذهنه وذكائه وخصب شاعريته وسهولة أسلوبه ، وهى سهولة تتمم سهولة أشعار ابن سناء الملك ، بل سهولة أشعار المصريين عامة ، سهولة تقترن بعذوبة ، وكأنها نفس عذوبة مياه النيل ، وكان يحس ذلك معاصروه إزاء أشعاره وما تقترن به من حلاوة ، فقالوا إن أشعاره سكر نبات أو قَطْر نبات . وله فى مديح الأفضل وآبائه الأيوبيين :

قومٌ لَذِكراهم على صُحُف العُلا ... أصْلُ الفَخارِ وكلُّ ذكْرٍ مُلْحَقُ
الملكُ بعضُ ديارهم فلينزلوا ... والنجمُ بعضُ جدودهم فليرتقوا
إن يَبْقَ ماضيهم على سُنَنِ الوَفا ... فلأنهم ببقاء أفضلهم بَقُوا
ملأتْ مواهبُه القلوبَ مهابةً ... فالقلبُ قبل الطَّرْف فيها مُطْرَقُ
وكـأنما أقلامُـه بسوادهـا ... غربانُ بَيْنٍ فى الخزائن تنِعَقُ
لاعيبَ فيه سوى العزائم قصرَّتْ ... عنها الكواكبُ وهْى بعدُ تحلِّق

وواضح أنه مع سهولة الأسلوب فى القصيدة نحس كأن الألفاظ يستدعى بعضها بعضا مع جمال التصاوير فالقلب مطرق قبل العين هيبة ، والأقلام كأنها غربان فراق لخزائن الأمير ماتزال تنعق فى أموالها بالبين والبعد إلى غير مآب ، وعزائم الأفضل ماتنى محلقة فى السموات البعيدة ، حتى لتعلو الكواكب فى تحليقها المتغلغل فى الفضاء ، وإن قومه لأصل الفخار وكل فخر لغيرهم إنما هو ملحق بفخرهم . وكان قد خرج مع الأفضل فى رحلة صيد ، فوصفها فى أرجوزة طويلة نيفت على مائة وستين بيتا ، وصف فيها رياض حماة ثم أطنب فى وصف القَنَص بالشواهين والصقور والكلاب والبندق بمثل قوله :

وكلُّ شاهينٍ شهيُّ المُرْتَمَى ... كبارقٍ طار وصَوْبٍ قد هَمَا [1]
بينا تراه ذاهبا لصيدهِ ... مـعتصما بأَيْدهِ وكيـدهِ [2]
حتى تراه عائدا من أفْقهِ ... مـلتزما طائرَه فى عُنُقهِ
وكلّ صقرٍ مُسْبل الجناحِ ... مواصلُ الغدوِّ والرَّواحِ [3]
ذو مقلةٍ لها ضرامٌ واقدُ ... يكاد يَشْوِى مايصيد الصائد
كأنما المخلبُ منه مِنْجَلُ ... لحصْد أعمار الطيور مرسل
وكل منسوبٍ إلى سَلوقِ ... أهْرتَ وثاب الخُطا ممشوقِ [4]
طاوى الفؤاد ناشر الأظافرِ ... ياعجبًا منه لطاوٍ ناشرِ
يعضّ بالبيض ويخطو بالقنا ... ويسبق الوهم لإدراك المنى

---

(١) الصوب : المطر . هما : سال
(٢) الأيد : القوة
(٣) مسبل : مرسل
(٤) سلوق تنسب إليها كلاب الصيد السلوقية . أهرت : واسع الشدق .

وإنما تمثلنا بهذه الأبيات جميعها من الأرجوزة لتدل على أن أرجوزة الطرد والصيد المليئة بالألفاظ الغريبة عند أبي نواس ومن جاءوا بعده استحالت إلى هذه اللغة السهلة عند ابن نباتة بفضل مهارته الأسلوبية ، والأبيات محملّه بصور بديعة ، فقلة الصقر كأنها شعلة نار ومخلبه كمنجل يحصد من الطير الأعمار ، وكل كلب سلوق يعض بأسنانه الحادّة ويخطو بسيقان كأنها القنا أو الرماح القاتلة . وختم الأرجوزة بمديح الأفضل وبحق سماها : « نظم السلوك فى مصايد الملوك » .

وممدوحه الثالث السلطان الناصر حسن ، مدحه بأخرة من حياته حين ألقى عصاه بالقاهرة ، وليس فى مديحه له الحرارة التى ألفناها فى مديح الأفضل وأبيه المؤيد ، وقد يكون ذلك لتقدم سنه ، وله يقول :

ياناصرَ الدين والدنيا لقد نفذتْ أقلامُ مدحك فى الدنيا بسلطانِ
دانتْ لك الخلقُ من بدوٍ ومن حضَرٍ وفاض جودُك فى قاصٍ وفى دانى
هذى المدائنُ منَ أقصى مشارقها لمنتهى الغرب فى طوعٍ وإذعان

وله وراء مديح السلاطين والأمراء والعلماء والكتّاب مديح نبوى رائع . وبينه وبين صلاح الدّين الصفدى محاورات ومراسلات ومعاتبات ، وأرسل إليه الصفدى قصيدة عتاب جعل شطورها الثانية أعجاز معلقة امرئ القيس ، مفتتحالها بقوله :

أفى كل يومٍ منك عتبٌ يسوءنى كجلمود صَخْرٍ حطَّه السَّيْلُ من عَلِ

ولعله كان يعاتبه لتسجيله عليه سرقاته منه فى كتابه « خبز الشعير » السالف . وصنع ابن نباتة صنيعه فرد عليه بقصيدة من نفس الطراز شطورها الثانية مقتبسة من نفس الشطور فى معلقة امرئ القيس استهلّها بقوله :

قطعتَ ولائى ثم أقبلتَ عاتبا أفاطمُ مهلا بعضَ هذا التدلُّلِ

وابن نباتة كثير الشكوى فى شعره من بؤسه ورقة حاله ، وربما صدق ذلك على أيامه قبل لقاء السلطان المؤيد الذى غمره بنواله ، وربما كان لكثرة عياله أثر فى ذلك ، بل إنه يعلن هذه الكثرة فى مثل قوله :

لقد أصبحتُ ذا عُمْرٍ عجيبٍ أقَضِّى فيه بالأنكاد وقتى
من الأولاد خمسٌ حول أمٍّ فواحَرباه من خَمْسٍ وستٍّ

وكلمة ست لا يريد بها العدد كما يتبادر ، وإنما يريد أم عياله ، ويسميها ستّه أو سيدته . وكان مرزأً ، حتى ليقول ابن تغرى بردى فى ترجمته بالمنهل الصافى إن كثيرين من أولاده توفوا فى سن الخامسة والسادسة والسابعة ، فكان يألم لهم ويرثيهم مراثى كثيرة ، وله رثاء حار فى السلطان المؤيد وابنه الأفضل . ويقول الشوكانى : هو أشعر المتأخرين ولاسيما فى الغزليات .

عبد الله[1] الشبراوى

من بيت علم وجلالة ، كما يقول الجبرتى ، ولد فى سنة ١٠٩٢ ومضى فى نعومة أظفاره يحفظ القرآن الكريم ، ثم اختلف إلى الشيوخ بالأزهر يأخذ عنهم الفقه الشافعى ، وسرعان ما ظهرت براعته ، فأملى وحاضر الطلاب . واعترف له الجميع بالفضل والتعمق فى الشريعة والعلوم الدينية ، مما أتاح له أن يتولى مشيخة الأزهر فى سنة ١١٣٧ . وكان له جاه رفيع ومنزلة عظمى عند الأمراء ورجال الدولة ، وكانت كلمته لديهم نافذة وشفاعته مقبولة . وصار لأهل العلم فى مدة مشيخته للأزهر مقام علىٌّ وهيبة وتجلّة عند الخاص والعام ، ومن مؤلفاته عنوان البيان وبستان الأذهان فى الأدب والسلوك والأخلاق وشرح الصدور بغزوة بدر والإتحاف بحب الأشراف وديوان منائح الألطاف فى مدائح الأشراف ، وكلها مطبوعة بالقاهرة من قديم . يقول الجبرتى : « وله ديوان يحتوى على غزليات وأشعار ومقاطيع مشهور بأيدى الناس » . ومازال يتولى مشيخة الأزهر حتى وفاته سنة ١١٧١ عن نحو ثمانين سنة .

وللشبراوى مدائح فى ولاة مصر العثمانيين ، وأهم وال دبّج فيه مدائحه عبد الله الكبورلى أو الكبورى لأوائل العقد الخامس من القرن ، وكان جديرًا حقًّا بمديحه له ، إذ يقول الجبرتى عنه : « كان خيّرا صالحا منقادًا إلى الشريعة أبطل الخمارات والمنكرات » ويقول « إنه كان من أرباب الفضائل وله ديوان شعر جيد على حروف المعجم ومدحه شعراء مصر لفضله وميله إلى الأدب » ويذكر أن للشبراوى فيه مدائح طنانة ، وفيه يقول :

سليلُ المكرمات ابنُ الكبورى ... كريمُ الطبع والأصلِ الشهيرِ
أقام العدلَ فى مصرٍ وأحيَا ... معالمه بها بعدَ الدثُورِ

(١) انظر فى ترجمة الشبراوى سلك الدرر ١٠٧/٢ وتاريخ الجبرتى ١ / ٢٠٨ وراجع فى أشعاره الجبرتى ٧١/١ ، ١٤٤ ، ١٧٦ ، ٢١١ .

وإن لمعتْ صَوارمُه بأرضٍ   تسارعت العصاةُ إلى القبورِ
وإن حادثتَه فى العلم تَلْقَى   بحورًا مَوْجُها درُّ النُّحورِ
وإن ساومتَه شعرًا فحدِّثْ   عن ابن أبى ربيعةَ أو جَريرِ
وإن تسمعْ تلاوتَه تجِدْهُ   حكى داودَ يلهج بالزَّبورِ
أدام اللهُ دولـتـه بمصرٍ   ومتَّعنا به دهرَ الدهورِ
وأنقذنا به من كلِّ كرْبٍ   وكفَّ بعزمه أهلَ الفجورِ

ونسيج القصيدة جيد ، والشبراوى يمدح الكبورى بقضائه على أهل الفجور وإشاعته للعدل الذى لا تصلح حياة الأمة بدونه ، وينوِّه بعلمه وحسن تلاوته للذكر الحكيم كما ينوه بشعره ونثره . وقد مضى فى القصيدة يمدحه ببلاغته وتفوقه على نوابغ الشعراء من أمثال ابن هانئ الأندلسى ونوابغ الكتَّاب من أمثال الحريرى . وكثرت منذ زمن المماليك تقاريظ الكتب والمصنفات الأدبية والبلاغية ، وللشبراوى من تقريظ لبديعية وشرحها لعلى بن تاج الدين :

أذاك ثَـغْـرٌ تـبـسَّـمْ   أم ذاك لُطْفٌ تجسَّمْ
أم روضـةٌ قـد تَـغَنَّى   شُـحْـرورُهـا وتـرنَّـم
أم الصَّبا حين هبَّت   أزالت الهمَّ والـغَـمّ
قد كنت أعتب دهرى   وأحسب الـدهـر أعْـقـم
حتى رأيتُ عـجـيـبًـا   من فضلك الباهر الجَمّ
فـكـلٌّ لـفـظك لُطْفٌ   وكـلٌّ مـعـنـاك محكـم

والتقريظ طويل إذ تحوَّل به الشبراوى إلى مدحة يشيد فيها بعلم على بن تاج الدين وحفظه وفهمه كما يشيد بنثره وشعره وذكائه وبراعته . وكان من عادة الشعراء حين يتولى أمير أو يتوفَّى هو أو بعض العلماء أو الأدباء أن ينظموا أبياتا فى تلك المناسبة ، إذا حُسبت حروف الكلمات فى شطرها الأخير بحساب الجمَّل أرَّخت لسنة الوفاة أو الولاية ونحو ذلك . وكان الشبراوى يشارك فى هذا الصنيع ، من ذلك تأريخه لوفاة الشيخ أحمد الدلنجاوى شاعر وقته المتوفى سنة ١١٢٣ للهجرة :

سألتُ الشعر هل لك من صديقٍ   وقد سكن الدِّلنجاوىُّ لَحْدَهْ
فصاحَ وخرَّ مغشيًّا عليه   وأصبحَ ساكنا فى القبر عنده
فقلتُ لمن أراد الشِّعرَ اقْصِرْ   فقد أرَّختُ : ماتَ الشِّعْرُ بعده

وللشيخ الشبراوى بعض غزليات رقيقة ، كان يفرد لها أحيانا مقطوعات قصيرة ، وأحيانا يجعلها فى مقدمات مدائحه على عادة الشعراء السابقين ، ومن قوله فى مقدمة إحدى مدائحه لعبد الله الكبورى :

أعِدْ خبَر العُذَيبِ وساكنيهِ وكرِّرْ طيبَ ذكرِهمُ عليَّا
فإنهمُ - وإن هجروا وصَدُّوا أحبُّ الناس كلِّهمِ إليَّا

وواضح أن صياغة الشبراوى جيدة ، وفى شعره وشعر أمثاله من معاصريه مايدل على أن الشعر كانت لاتزال فيه أيام العثمانيين بقية من حيوية وحياة .

٥

شعراء المراثى والشكوى

نشط الرثاء فى مصر من قديم ، ونلتقى به زمن الولاة فى العهد الأموى ، ولعل أهم وال رثاه الشعراء حين موته عبد العزيز بن مروان ، وكان - كما مرَّ بنا - ممدَّحا ، وتصادف أن توفى بعد وفاة ابنه الأصبغ بنحو شهر ، فبكاهما الشعراء ، وسجل الكندى بكاءهم لهما فى كتاب الولاة والقضاة كما سجل بكاءهم لدارهما المذهبة حين أمر مروان بن محمدآخر الخلفاء الأمويين بحرقها وهو فارٌّ بمصر وجيش العباسيين يطارده ، وكان عبد العزيز قد تأنق فيها ، وكأنما عزَّ على مروان أن تصير للعباسيين .

ونمضى فى زمن الولاة وتلقانا فى كتاب الولاة والقضاة مراثٍ مختلفة لنفر منهم ولبعض الشخصيات العربية ، وفى رأينا أن أهم مرثية خلفتها تلك الحقبة مرثية المعلَّى الطائى لجاريته ، وقد أشرنا إليها فيما أسلفنا من حديث . وتُظلّ الدولة الطولونية مصر ، ومرَّ بنا ماكفلته لمصر من استقلال عن بغداد ومن نهضة عمرانية وعلمية وأدبية وما أقامته من آثار عظيمة فى مقدمتها قصر ابن طولون وميدانه الذى حوله خمارويه إلى بستان رائع واتخذ فيه بركة من الزئبق ، واتخذ لنفسه فى قصره مجلسا سماه مجلس الذهب نُقش على جدرانه صور بارزة له ولحظاياه وعلى رءوسهن أكاليل الذهب المرصعة بالجواهر . وأغدقت الدولة على الشعراء إغداقا واسعًا ، فلما قضى عليها جيشُ الخلافة العباسية بقيادة محمد بن سليمان - كما أسلفنا - وهُدمت آثارها بكاها الشعراء وبكوا آثارها

بلموع غزار من مثل قول إسماعيل بن أبي هاشم[1] :

قِفْ وَقْفَةً بِفناء باب السَّاجِ والقَصْرِ ذى الشُّرُفاتِ والأَبْراجِ[2]
وربوعِ قومٍ أُزْعِجوا عن دارهم بعد الإقامة أَيَّما إزعاج
فانظرْ إلى آثارهم تلقى لهم علما بكل ثَنِيَّةٍ وفِجاج[3]

ولسعيد القاصّ مرثية طويلة للدولة وآثارها احتفظ بها الكندى[4] فى كتابه الولاة والقضاة ، واقتطف بعض أبياتها ابن تغرى بردى وأنشدها مع ما أنشد من مراثى الشعراء للدولة وما كانت أقامت من قصور ومبان وآثار فخمة ضخمة ، ومن قول ابن أبى هاشم مخاطبا القصر وقد خلا من سكانه :

بالله عندك عِلمٌ من أحبَّتنا أم هل سمعتَ لهم من بعدنا خبرا

وتكاثر الشعراء - كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع - لعهد الدولة الإخشيدية ، غير أنهم لم يبكوها حين دخل جوهر الصقلى مصر واستولى عليها باسم إمامه المعز لدين الله سنة ٣٥٨ وقد يرجع ذلك إلى أن مدة الإخشيد لم تَطُلْ ، وخلفه ابنه أُنوجور حتى سنة ٣٤٩ فأخوه على حتى سنة ٣٥٥ وكان كافور مدبر مملكتهما ، ولم يكن لهما من السلطان شيء . وخلف عليا كافور حتى سنة ٣٥٧ وتوفى فخلفه أحمد بن على بن الإخشيد وعمره إحدى عشرة سنة ، واضطربت أمور مصر اضطرابا شديدًا ، ولم يتداركها الخليفة العباسى ببغداد ، وسرعان ما دخلت رايات المعز الفاطمى بقيادة جوهر ، واستولى على البلاد دون مقاومة تذكر ، وكأنما تنفست مصر الصعداء بزوال هذه الدولة فلم يبكها أحد من شعرائها على نحو ما بكوا الدولة الطولونية .

وتلقانا فى أوائل الدولة الفاطمية مراثٍ مختلفة لتميم بن المعز أوَّل خلفائها بمصر ، وكان أكبر أولاده ، وكان المظنون أن يتخذه ولى عهده ، غير أن سيرته السيئة جعلت أباه يَصْرِف ولاية العهد عنه إلى أخيه عبد الله ، حتى إذا توفى مبكرًا سنة ٣٦٤ حولها إلى أخيه نزار الذى تلقب بلقب العزيز ، ولتميم مرثية فى أخيه عبد الله مطلعها[5] :

كل حَيٍّ إلى الفناء يصيرُ والليالى تَعِلَّةٌ وغرورُ

---

(١) النجوم الزاهرة ١٤٠/٣ وانظر الولاة والقضاة ص ٢٥٢ وكان ابن طولون قد بنى مدينة القطائع فوق قلعة الجبل .

(٢) باب الساج : أحد أبواب القصر .

(٣) الثنية : الطريق فى الجبل ، والفجاج : الطرق .

(٤) الولاة والقضاة ص ٢٥٣ .

(٥) ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمى (طبع دار الكتب المصرية) ص ١٤٧ .

ويبكي شبابه بدموع غزار ، وما يلبث القدر أن يلمَّ بأبيه المعز سنة ٣٦٥ ويرثيه بمقطوعة قصيرة تخلو من اللوعة على فقده ، وهو شيء طبيعي لتنحيته له عن العهد . ويتوفَّى أخوه عقيل عن ثلاثين عاما ، ويبكي فيه الحسينَ الشهيدَ وآباءه الفاطميين . ويبكي جارية له بكاء فيه غير قليل من اللهفة والحسرة على ما ضاع منه فيها من الجمال وحسن الصوت والغناء وطيب المدام كما يقول ، ويبكي بالمثل قينة امغنية . وله في الحسين مرثية رائعة ، وهو يبكيه بكاءً مؤثرًا قائلا[1] .

نحَروه غير مذمَّمٍ نَحْرَ الهَدايا للضَّحِيَّهْ

ويصوِّر موقعة كربلاء وما سُفك فيها من دماء البيت العلوى ، ويصف موكب النساء اللائى كُنَّ مع الحسين وهنَّ مشهَّرات على ظهور الإبل إلى يزيد بالشام ولا من يرحمهن أو يشفق عليهن ، ويتوعد الأمويين بالويل والثبور والدمار ، والمرثية تكتظ بالأنّات واللوعات الممضة . ونلتقى بالمسبِّحي مؤرخ دولتهم المتوفى سنة ٤٢٠ ويذكر له ابن خلكان فى ترجمته مرثية لأبيه ومرثية أخرى لأم ولده ، وفيها يقول[2] .

ويا ليتني للموت قُدِّمتُ قبلها وإلا فليتَ الموت أذْهَبنا معا

وتكثر مراثى الشعراء لخلفاء تلك الدولة ، ومن ذلك مرثية أبي المناقب عبد الباقى بن على التنوخى للمستنصر ، إذ يقول[3] :

وليس رَدَى المستنصر اليوم كالرَّدَى ولا أمرُه أمرٌ يقاسُ به أمرُ
وقد بكت الخنساءُ صخرًا وإنه ليبكيه من فَرْط المصاب به الصَّخْرُ

وقلما مات وزير فى العصر إلا بكاه الشعراء وبالمثل القضاة وكبار الكتاب وأصحاب الوظائف العليا فى الدولة ، ونلقانا من ذلك طرائف كقول ابن قادوس الدمياطى فى مرثية[4] :

يا فجعةً هى فى الجنان مسرَّةٌ لقدومِهِ تختال فى غُرُفاتها
إن كان فى الدنيا عليه مأتمٌ فأراه عُرْسَ الحُورِ فى جنَّاتها

وحين قضى صلاح الدين الأيوبى على هذه الدولة لم يبكها المصريون ولا ودَّعوها ، لأنهم لم يكونوا راضين عن عقيدتها الإسماعيلية المفرطة فى الغلو ، وكان حكمها قد فسد فسادا شديدا على

---

(١) الديوان ص ٤٥٥ وما بعدها .
(٢) ابن خلكان ٣٧٨/٤
(٣) النجوم الزاهرة ٢٣/٥
(٤) الخريدة (قسم شعراء مصر) ٢٣١/١ .

نحو ما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع ، وتكفل بذلك شاعر من شيعتها هو عُمارة اليمنى الذى ترجمنا له فى الجزء السابق من هذا التاريخ للأدب العربى . ولعل بطلا لم يبكه الشعراء كما بكوا صلاح الدين محطم الصليبيين حين انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء ، وقد أقيمت عليه المآتم فى غير بلد من البلدان العربية ، ورثاه كثير من الشعراء ، من ذلك قول العماد الأصبهانى فى رثائه[١] :

لا تحسبوهُ مات شخصًا واحدًا ... قد عمَّ كلَّ العالمين مَماتُهُ
لو كان فى عصر النبىِّ لأُنزِلَتْ ... فى ذِكْرِهِ من ذكرهِ آياتُهُ
ياراعيا للدين حين تمكنتْ ... من كل قلبٍ مؤمنٍ روعاتُه
فعلى صلاح الدين يوسفَ دائما ... رضوانُ رَبِّ العَرْش بل صلواتُه

وهى مرثية طويلة فى مائتين وثلاثين بيتًا ، صوَّر فيها جهاده فى الدين واستبساله فى حروب الصليبيين حتى استخلص منهم بيت المقدس وأكثر بلدانهم وحصونهم فى الشام ما حقًّا لَهمْ محقًا ذريعا . ويتوفَّى صلاح الدين ويخلفه ابنه العزيز سنة ٥٨٩ كما مر بنا فى غير هذا الموضع ويتوفى سنة ٥٩٥ ويخلفه أخوه الأفضل وما يلبث عمّه العادل أن يستولى منه على عرش مصر ، ويعمل على تعفية آثار العزيز ويبكى القاضى الفاضل قصره وقصر أبيه بمثل قوله مخاطبا القصر[٢] .

وكم قد حَجَجْنا فيك للمجدِ كعبةً ... وكم قد أقمنا فيك للحجِّ مَوْسمًا
وكم قد وجدنا فيك رأفةَ راحةٍ ... تقبِّلُ إذ تُعطى حَطِيمًا وزَمْزما .

ولابن سناء الملك مراث مختلفة فى أصدقائه وأقربائه وأهله ، وله ندب رائع فى أبيه ، تنهمر فيه دموعه ، وتنسكب ، وهو يذكر تقواه ونسكه ذكرى ممضة ، وما يزال يندبه ويبكيه قائلا[٣] :

ويا أرضَه إن ينكسفْ بكِ بَدْرهُ ... فما برحتْ فى الأرض تُكْسَف أقمارُ

وبنفس اللوعة والحرقة لموت الأب يلتاع لموت الأم وتظلم الدنيا فى عينه ، ويحس كأنما كان فى فردوس معها من فراديس الجنان وأُخْرج منه إلى غير أوبة يقول[٤] :

لهفَ نفسى عليك ياما بقلبى ... منك ياطول حسرتى وعَنائى
كنتُ فى جنَّةٍ فأُخرجتُ منها ... واستعادَ العطاءَ ربُّ العطاءِ

---

(١) النجوم الزاهرة ٦/٦٠ وانظر خاتمة كتابة البرق الشامى .

(٢) ديوان القاضى الفاضل (نشر بدوى) ص ٣٤ .

(٣) ديوان ابن سناء الملك (طبعة حيدر آباد) ص ٣٢٣

(٤) الديوان ص ٣ وما بعدها .

وكلمة « ياما » فى الشطر الأول من كلمات العاميَّة المصرية ومعناها كثير . ويلقانا بنفس اللهفة والحسرة والإحساس الحاد بالألم والحزن والضيق والوحشة فى رثائه لجارية شابة ، اختطفها منه الموت دون شفقة أو رحمة ، ويظل يئنّ ويسكب دموعه إلى أن يقول[١] :

وآنسنى من بعدها طولُ وحشتى ... وضاجعنى فى مضجعى بعدها كرْبى
أيا تُرْبُ ما أنصفتَ نَضْرَةَ غُصْنِها ... أهذا صَنِيعُ التُّرْبِ بالغُصُن الرَّطْب

ويشتهر ابن النبيه بمرثية دالية رائعة رثى بها ابنا للخليفة الناصر سنة ٦١٣ وهى من بدائع المراثى ، إذ يعزِّى الناصر عن ابنه فى أسى ولوعة ودعوة حارة إلى الصبر على المصاب بمثل قوله[٢] :

الموتُ نقَّادٌ على كفِّهِ ... جواهرٌ يختار منها الجِيادْ
والمرءُ كالظلِّ ولابُدَّ أن ... يزول ذاك الظِّلُّ بعد امتداد

ولا يموت سلطان أيوبى بمصر حتى يندبه الشعراء ، وممن ندبوه الملك الصالح نجم الدين أيوب المتوفى سنة ٦٤٧ وهو يستعد لمنازلة لويس التاسع ، وخلفه ابنه توران شاه ففتك بالصليبيين فتكا ذريعًا ، وأخذ لويس التاسع قائد الحملة الصليبية أسيرا ، غير أن مماليكه لم يلبثوا أن فتكوا بالبطل : بطل موقعة المنصورة وبكاه غير شاعر مصرى من مثل قول ابن مطروح[٣] :

يابعيدَ الليلِ من سَحَرِهْ ... دائما يبكى على قَمرِهْ
خَلِّ ذا واندب معى ملكا ... ولَّتِ الدنيا على أثره

وحقًّا ولَّت دنيا الدولة الأيوبية على أثره وغربت شمسها المضيئة ، إذ استولى المماليك على صولجان الحكم بمصر . وأول سلاطينهم العظام الظاهر بيبرس بطل موقعة عين جالوت التى سحق فيها التتار ، ودفع سيولهم إلى الوراء حتى حلب فالعراق . وله بعد ذلك بلاء رائع فى حرب بقايا الصليبيين والاستيلاء على كثير منْ حصونهم بالشام . حتى إذا توفى سنة ٦٧٨ بكاه شعراء مصر بمثل قول محيي الدين[٤] بن عبد الظاهر :

---

(١) الديوان ص ٦٢ .

(٢) ديوان ابن النبيه (تحقيق عمر الأسعد) ص ١٠٤ ومابعدها .

(٣) فوات الوفيات ١/١٨٥ .

(٤) انظر تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور قلاوون لمحيي الدين بن عبدالظاهر (نشر وزارة الثقافة والإرشاد بمصر) ص ٢٥ .

هذا الذى هزمَ التتارَ فأصبحوا تغتالهم عند الكرَى الأحلامُ
هذا الذى قهر الفرنج فكلّهم تُرْديهُم من رُعْبهِ الأوهام

وقلما يتوفى سلطان بعد الظاهر فى زمن المماليك إلا ويبكيه الشعراء.

ومرَّ بنا الحديث عن ابن نباتة وممدوحه السلطان المؤيد الذى دبَّج فيه غرر المدائح، حتى إذا مات رثاه بمراث طنانة وفيهايبكيه بكاء حارا من مثل قوله فى إحدى مراثيه :

نَعَى المؤيَّدَ ناعيهِ فوا أسفا للغيث كيف غدتْ عنا غوَاديهِ
وارَوْعتا لصباحٍ من رزيَّتهِ أظنّ أن صباح الحَشْرِ ثانيه
ليت الحِمامَ حَبَا الأيامَ موهبةً فكان يُفْنِى بنى الدنيا ويبقيه
ليت الأصاغر يُفْدَى الأكبرون بها فكانت الشُّهْبُ فى الآفاق تَفْدِيه

وهو تأبين ممزوج بندب وأنين، وحسرة ما بعدها حسرة، حتى ليتمنى لومات الناس جميعا فداء للمؤيد بل يتمنى لوكانت الشهب تستطيع أن تفديه.

ويستولى العثمانيون على مصر ويتعاقب عليها ولاتهم ولشعرائها فيهم وفى كبار الموظفين حيث يتوفون مراث كثيرة، من ذلك قول الشيخ محمد الغمرى فى رثاء الأمير إسماعيل بن إيواظ المتوفى سنة ١١٣٦ للهجرة[1] :

أفْق أمانٍ وسيفُ الأمن قد غُمدا وبدرُ أفْق سماء العدلِ قد فُقدا
وشمسُ نصرِ عباد الله قد كُسفَتْ ودولة العزِّ ماتتْ بالذى لُحِدَا
كم قد أغاث فقيرًا من ظُلامته وأبدل الجور عدلا والفسوقَ هُدَى

وتكثر مراثى العلماء الأعلام وتكتظ بمراثيهم كتب التراجم، وخاصة منذ عصر المماليك، من ذلك قول[2] عبد الباسط بن خليل الحنفى، فى رثاء جلال الدين عبد الرحمن السيوطى حين توفى سنة ٩١١ :

مات جلالُ الدين غوثُ الوَرَى مجتهدُ العصر إمامُ الوجودْ
فـيـاعـيـونُ انهملى بـعـده ويا قلوبُ انْفَطِرى بالوَقود

ويروى الجبرتى أنه لما مات الشيخ محمد العشماوى سنة ١١٦٧ قال بعض شعراء الوقت وهو

(١) الجبرتى ١/١٢١.
(٢) بدائع الزهور لابن إياس ٣/٦٣.

السيد حسين الإدكاوى قصيدة أُنشدت وقت الصلاة عليه مطلعُها[١] :

ما بين حرقة أدمعى وتولُّهى نارٌ يؤجِّجها لهيبُ تولُّهى
يا أرضُ ميدِى ياسماء تشقَّقى ياشمسُ نوحى يانجومُ تأوَّهى

والمبالغة واضحة فى البيت الثانى

وكان وتر الشكوى من الزمن وأحواله وتقلباته ونوائبه ورزاياه ومن نكد الحظوظ وبؤس الحياة مشدودًا دائمًا إلى قيثارات الشعراء يتغنون عليه آلامهم وأحزانهم وما يصيبهم من شر الحياة ونكرها ومن ضعة الحظوط التى كتبت عليهم فيها ، ومن نزول المصائب التى تعصف بهم ، من مثل قول تميم بن المعز[٢] :

أما والذى لا يملك الأمرَ غيرهُ ومَنْ هو بالسرِّ المكتَّم أعلمُ
لئن كان كتمانُ المصائب مؤلمًا لَإعلانُها عندى أشدُّ وآلَم
صبرتُ عن الشكوى حياءً وعفةً وهل يشتكى لَدْغَ الأراقم أرقمُ[٣]
وبى كلُّ ما يُبْكى العيونَ أقلُّه وإن كنت منه دائمًا أتبَّسمُ

وكان تميم يعيش فى نعيم لأنه ابن المعز مؤسس الدولة الفاطمية بمصر ، غير أنه كان أكبر أبنائه وصرف ولاية العهد عنه إلى أخيه عبد الله حتى إذا توفى صرفها إلى أخيه نزار الملقب بالعزيز الفاطمى . وعاش تميم يتجرع مرارة هذه الغُصَّة دون أن يستطيع التفوه بكلمة ، إلا مثل هذه الأبيات التى كان ينفس بها عما يجثم فى دخائله من ألم مرير . ويردد شعراء الدولة الفاطمية بعده شكواهم من الحياة وكوارثها والحظ وبؤسه وقصوره عن أمانيهم كقول ظافر الحداد[٤] :

ولى همَّةٌ تَبْغى النجومَ وحالةٌ تصحِّف ماتبغيه فَهْوَ لنا ضِدُّ
إذا رفعتْنى تلك تخفضُ هذه فكلٌّ تناوٍ فى إرادته الحَدُّ[٥]
فما حالُ شَخْصٍ بين هاوٍ وصاعدٍ وليس له عن واحد منهما بُدُّ
تولتنىَ الأرْزاءُ حتى كأنما فؤادى لكفَّىْ كلِّ لاطمةٍ خَدُّ

فهمته ماتزال تصعد به حتى يصافح النجوم وحظه مايزال يهبط به حتى يهوى إلى الدَّرْك

(١) تاريخ الجبرتى ١٨٩/١ .
(٢) الديوان ص ٣٩٨ .
(٣) الأرقم : الأفعوان .
(٤) الخريدة (قسم شعراء مصر) ٣/٢ .
(٥) الحد : المنع .

الأسفل من البؤس والشقاء وكأنه فى أرجوحة مايزال صاعدا هابطا وماتزال الأرزاء والكوارث تنزل به بل تلطم فؤاده لطما عنيفا .

ويلقانا بأخرة من الدولة الفاطمية داود بن مقدام من أهل المحلة شمالى طنطا ويقول العماد : كان منحوس الحظ غير مبخوت ، منكوب الجاه بحرفة الأدب منكوت ، وينشد له[1] :

لقد بكرتْ تلومُ على خمولى كأن الرزقَ يجلبُه احتيالى
وكم أدليتُ من دَلْوٍ ولكنْ بلا بَلَلٍ يُرَدُّ على قَذالى[2]
وكم علَّقتُ أطماعى رجاءً بخُلَّبِ بارقٍ ووميضِ آلِ
ولا أنا بالكفافِ النَّزْرِ راضٍ ولا أنا عن طِلاب الكُثْرِ سالِ

فصاحبته تلومه على خموله وأنه يقعد عن طلب الرزق ، ومفتاحه ليس فى يده ، وطالما أدلى بدلوه مع طلابه فعادت دلاؤهم ملاء ، وارتد عليه دلوه فارغا ، وكأنما يتعلق ببرق كاذب وسراب يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ، وهو مع ذلك لايزال يطمع فى الكثير وكان حريًّا به أن يرضى بالنزر القليل .

وتخفُّ الشكوى على ألسنة الشعراء فى زمن الدولة الأيوبية وانتصاراتها المدوية ، إلا فى بعض لحظات تعسة قد تمر بالشاعر فيشكو شكوى عارضة كقول ابن سناء الملك[3]

يـاخَـيْـبَـةَ الحرِّ الذى لم يلق فوق الأرض حرًّا
وإذا اشتكَى فقرًا أسا ل الدمعَ من عينيه تِبْرا
والخَلْقُ تُذرِى الدمعَ ما ءً وهوْ يُذْرى الدمعَ جَمْرا
وإذا تمَلَّـكتِ الـلـئا مُ فإن موتَ الحرِّ أحْرى

ولا أظن أن ابن سناء الملك اشتكى الفقر والبؤس يوما ، فقد كان يعيش فى بحبوحة من الترف والنعيم ، ولذلك نظن أنه قال قصيدةَ هذه الأبيات فى لحظة من لحظات غضبه ، وهى فعلا أبيات عارضة فى ديوانه الضخم .

ويعود الشعراء إلى الشكوى فى أيام المماليك والحديث عن بؤسهم ، وكانوا يمزجون هذا الحديث بخفة الظل التى عُرف بها المصريون ، حتى لتصبح الشكوى ضربا من الفكاهة أحيانا على

---

(١) الخريدة ٢/٤٦ .
(٢) القذال : القفا .
(٣) الديوان ص ٣٢٨

نحو ما هو معروف عن الجزار والوراق وابن دانيال ، وسنترجم لهم فى حديثنا عن شعراء الفكاهة . ويأخذ هذا الحديث صورة عابسة جادة عند نفر من الشعراء ، وفى مقدمتهم ابن نباتة الذى أكثر – كما أسلفنا – عن الحديث عن كثرة عياله كقوله لأحد ممدوحيه :

ياسيِّدى دعوةُ ذى حالةٍ أحبالها الدهرُ وعدوانُهْ
تفليسُه فى الشام بعد الغنى يمعى بأن القلب حرَّانُهْ
فارقَ أولادًا وأهلا وما تحمَّلتْ للبَيْن أظعانُهْ

فهو يستعطف ممدوحه لما أصابه الدهر به من البؤس والضنك وضيق العيش ، وقد فارق أولاده وأهله يبتغى أن يجد لهم ما يقوتهم وأن يعود لهم غنيا ثريا أوتى بسطة من الرزق . ويردد ابن نباتة ذلك كثيرا فى أشعاره . ووراءه كثيرون فى زمن المماليك كانوا يشكون مما يتجرعون من مرارة الحياة وعيشها البائس المضنى . وساعد على ذلك أن المماليك لم يرعوا الشعراء فى زمنهم رعاية الحكام من قبلهم ، وأنهم قلما كانوا يسبغون عليها عطاياهم ، وحتى ما كانوا يعطونه لهم أحيانا كان نزرا قليلا ، فكان طبيعيا أن يستشعروا الحرمان والبؤس وأن يندبوا حظهم العاثر ، وأن يصبُّوا نقمتهم على الدهر والزمان . ثم حلت الحقبة العثمانية ، فزادتهم إيغالا فى البؤس واليأس والشكوى المريرة . ولعل من الخير أن نقف قليلا عند بعض شعراء الرثاء والشكوى فى المراحل المختلفة لهذا العصر .

على بن النَّضْر[1]

من أهل الصعيد كان نحويا أديبا روى عنه ابن برِّى وغيره ويقال إنه كان يحفظ كتاب سيبويه ، وكان متصرفا فى علوم كثيرة ، وهو أحد قضاة الصعيد النابهين ، تولى قضاء الصعيد وإخميم فى زمن الأفضل بن بدر الجمالى (٤٨٧ – ٥١٥ هـ .) ويبدو أن موهبته الشعرية استيقظت مبكرة ، مما جعله يقبل على شعر المديح محاكيا شعراء عصره . فمدح كثيرين من أعيان الصعيد وفى مقدمتهم بنو الكنز أعيان أسوان . ثم قصد بمديحه الأفضل فرفع منزلته وعينه قاضيا للصعيد ، وفيه يقول أبو الصلت فى رسالته المصرية التى كتبها عن شعراء مصر وأدبائها ، وقد

(١) انظر فى ترجمة ابن النضر وأشعاره رسالة أبى الصلت أمية فى نوادر المخطوطات لعبد السلام هرون (المجموعة الأولى) ص ٤٠ وما بعدها وخريدة القصر (قسم شعراء مصر) للعماد الأصبهانى ٢/٩٠ والطالع السعيد ص ٢٢٠ والبغية للسيوطى ص ٣٥٣ .

افتتحها بذكره قائلا : « من الأفاضل الأعيان ، المعدودين من حسنات الزمان ، ذو الأدب الجم والعلم الواسع ، والفضل الباهر والنثر الرائع ، والنظم البارع ، وله فى سائر أجزاء الحكمة اليد الطولى ، والرتبة الأولى » ويبدو أنه كان واسع الثقافة . ويقول الأُدْفُوِىّ صاحب الطالع السعيد : « أكثر شعره فى تشكى الزمان والإخوان » . وكان قد قصد الأفضل فى أول الأمر راجيا خدمة عنده أو ولاية فخاب أمله فيه وضاع رجاؤه ، فقال من قصيدة يعاتب فيها الزمان ويشكو الخيبة والحرمان :

بين التعزُّزِ والتذلل مسلكٌ ... بادى المَنارِ لِعَيْنِ كل موفَّقِ
فاسلكْه فى كل المواطن واجتنبْ ... كِبْرَ الأبىِّ وذِلَّةَ المتملِّقِ
ولقد جلبتُ من البضائع خيرَها ... لأجلِّ مختارٍ وأكرم مُتَّقِ
ورجوتُ خَفْضَ العَيْش تحت رِوَاقه ... لابدَّ إن نفقتْ وإن لم تَنْفقِ
ظنًّا شبيها باليقين ولم أخَل ... أن الزمان بما سقانى مُشْرِقى[1]
لأقارعنَّ الدهرَ دون مروءتى ... وحُرِمتُ عزَّ النَّصْر إن لم أَصدُقِ

وهو ينصح غيره من الشعراء أن لا يصعِّروا خدهم كبرا ، وأهم من ذلك أن لا يُسيموا أنفسهم ذل الملق والهوان ، وليتخذوا منه ومما صنع به الأفضل عبرة وعظة ، إذ قدم له بين يدى ما أمَّله منه قصيدة بديعة من قصائده ، فكان جزاؤه خيبة ما بعدها خيبة ، ومع ذلك فهو يمسك نفسه ، إذ هى أكبر من أن تنكسر ، بل إنه ليهدد بمقارعة الدهر ونزاله دون مروءته وعزة نفسه وفزع إلى غير قليل من الزهد والقناعة يحض عليهما ويذم الضراعة ، متأسفا على امتهان نفسه وإراقة ماء وجهه للأفضل دون طائل بمثل قوله :

لَهْفِى لملكِ قناعةٍ لو أننى ... مُتِّعْتُ فيه بعِزَّةِ المتملِّكِ
ولكَنْزِ يأسٍ كنت قد أحرزتُه ... لو لم تَعِثْ فيه الخُطُوبُ وتَفْتكِ
آلَيْتُ أجعلُ ماءَ وجهى بعده ... كدمٍ يُهِلُّ به الحجيج بِمَنْسِكِ
لا أنشأتْنى الحادثاتُ لمثلِها ... ورُميتُ قبل وقوعها بالمهلكِ

لقد أضاع ملك قناعة كان هنيئا به متمتعا فيه بعز سلطانه ، وأضاع معه كنز يأس من الوزراء والحكام أمثال الأفضل كان مغتبطا به سعيدا ، ويقسم أن لا يريق ماء وجهه لأحد بعد الأفضل

---

(١) مشرقى : جاعلى أغصّ بما سقانى .

وما صنعه ، ويدعو على نفسه بالموت إن هو فكر أن يعود إلى المديح وهوان الاستجداء وذله ، ويتجه إلى ربه داعيا ضارعا بمثل قوله :

يامستجيبَ دعاء المستجيرِ بهِ ويامفرِّجَ لَيْلِ الكُرْبَةِ الدَّاجِي
قد أُرْتِجتْ دوننا الأبوابُ وامتنعتْ وجَلَّ بابُك عن مَنْعٍ وإرْتاجِ
نخافُ عَدْلَك أن يجرى القضاءُ بهِ ونرتجيك فكُنْ للخائف الراجى

فقد أُغلقت أبواب الرجاء من دونه ، وأظلمت الدنيا من حوله ، وغرق فى كرب وغمّ ، وأخذه اليأس من كل جانب ، فلا أمل ، بل قنوط مقيم ، حتى ليخشى على نفسه من أن يغلق الله عنه بابه ، وإنه ليمتلئ خوفا ورجاء . ويعزى نفسه ويدعوها إلى الصبر الجميل :

يانفسُ صبرًا واحتسابا إنها غمراتُ أيامٍ تمرُّ وتَنْجَلِى
لا تيأسى من رَوْحِ ربِّكِ واحْذَرِى أَنْ تستقِرِّى بالقنوط فَتُخْذَلِى

إنه يتمنى لنفسه أن تخلص من محنة اليأس الذى يملؤها شقاء وعناء ومسرة ولوعة ، فيخفف عنها ذلك كله أو يحاول أن يخففه بما يدعوها إليه من الصبر على البلاء وأن لا تيأس من روح ربها فإنه لا ييأس من روحه إلا الظالمون لأنفسهم المستسلمون للقنوط وأهواله .

وكان على بن النضر يجيد الرثاء كما يجيد الشكوى من الزمان وأهله ، وله مرثية بديعة فى إبراهيم ابن الزبير حاكم قوص لسنة ٤٧٢ للهجرة وهو جد المهذب بن الزبير الشاعر المار ذكره ، استهلها بقوله :

يامُزْنُ ذا جَدَثُ الرَّشِيدِ فقِفْ معى نَسْفَحْ بساحتِه مزادَ الأدْمُعِ [(١)]
وامْسَحْ بأَردان الصَّبا أركانَهُ كى لا يُلمَّ به شحوبُ البَلْقَعِ
وبودِّ نفسى لو سَقَيْتُ ترابَهُ دَمَ مُهْجَتِى ووقيتُه بالأَضْلُعِ

وهو يتجه إلى المزن أو السحاب الممطر محاولا أن يستوقفه ليسفح أمطاره معه على قبر صاحبه ، بل ليسفحا معا عليه قربانًا من الدموع ، ويتوسل إليه أن يمسح بأكمام الصَّبا أركانه ، حتى يظل ناضرا لا يلم به شىء من شحوب البلقع أو القفر من حول جدثه ، وكان بود نفسه لو فَدَاه بروحه وسقى ترابه دم مهجته ووقاه بأضلعه ، ويخاطب قبره مُلْتاعا بقوله :

---

(١) مزاد : جمع مزادة وهى القربة .

لتنفَّسَتْ فيك الصَّبا مفتوقةً بسيم مِسْكِ رياضها المتضوِّعِ
أوماعجبتَ لِطودِ عزٍّ باذخٍ مُستَوْدَعٍ فى ذى الثلاثِ الأذْرُعِ
ولخدِّ مَنْ وَطِئَ الكواكبَ راقيًا كيف ارتضَى من بعدها باليَرْمَعَ
ولقد وقفتُ على ربوعك شاكيًا وبها الذى بى من أسًى وتوجُّعِ

وهو يدعو للقبر أن تهب عليه ريح الصَّبا العطرة بمسك الرياض ذكى الرائحة وأن يظل ذلك دائما أبدا ، ويعجب لهذا الجبل الشامخ عزا أن تطويه ثلاث أذرع ومن وطئ الكواكب بقدمه راقيا أن يرتضى النزول تحت اليرمع أو الحجارة الرخوة ، وإنه – مثل كل ما حوله من الربوع – يمتلىء حسرة وأسى وتوجعا ما بعده توجع . ولعل فى ذلك كله ما يصور ملكة ابن النضر الشعرية الخصبة .

على بن عَرَّام(١)

شاعر أسوان مسقط رأسه وموطنه ، بل شاعر الصعيد قاطبة ، دفعه طموحه فى شبابه إلى أن ينزل الفسطاط ويأخذ عن علمائها اللغويين من أمثال ابن بركات وغير اللغويين . وكان فيه ذكاء وحب للعلم وفنونه ، فبرع فى غير فن ، وصنف تصانيف كثيرة . ويبدو أنه آثر المقام ببلدته أسوان ، وله فى أعيانها غير مدحة ، وكان كثير الوفود على حكام الصعيد من الأيوبيين فى قوص وغير قوص ، من مثل مبارك بن منقذ وتوران شاه . ويقول العماد الأصبهانى إنه سأل عنه سنة ٥٧٣ فقالوا له إنه حَىٌّ فى أسوان ، وكان لايزال يذكرها حين يبرحها فترة فى حنين بالغ ، حتى ليقول فى إحدى رحلاته وقد ذكرها ، فكأنما نكأ جرحا فى فؤاده إذ يقول متلهفا فى العودة إليها حين نفاه بنو الكنز أعيانها إلى إسنا :

ولا بارك الرحمنُ فيمن أزاحنى عن الظلِّ والماء الزُّلال الذى يَجْرى
مَقِيلٌ ولكن أين منِّىَ ظِلُّهُ وسُقْيا ولكنى بعيدٌ عن القَطْرِ

فهو يتمنى وقت قيلولة بأسوان وشربة من مائها السلسبيل ، إنها نعيمه وفردوسه الذى لا يماثله فردوس ، وسرعان ما عاد إليها وظل بها حتى توفى سنة ٥٨٠ . ويقول صاحب الطالع السعيد :

(١) انظر فى ابن عرام وترجمته وأشعاره الخريدة (قسم شعراء مصر) ٢/١٦٥ والطالع السعيد ص ١٩٨ وحسن المحاضرة ١/٥٦٥ .

« لم يكن فى أرض مصر من يدانيه فى فضله ويضاهيه فى نبله » . ويشيد به وبشعره العماد الأصبهانى إشادة رائعة ، ويذكر أن بعض أصدقائه أحضر له ديوانه فوجده من طبقة عالية ، مما جعله يعرض منه ألوانا ، ويقول : « قد أوردت من جملة نظمه الفائق الرائق ، ولفظه الرائع الشائق ، ما إذا حُسِرَ[١] اسَحر . ولابن عَرّام فى ميدان النظم عُرام[٢] ، وبابتكار المعانى الحسان غرام ، ولرويَّته فى إذكاء[٣] نار الذكاء ضِرام . . وكل سحر وخمر سوى منسوج فِدامِه[٤] وممزوج مدامه حرام ، اعجَبْ : بحرٌ فى الصَّعيد[٥] يُقْصَدُ بالتيمم لمائه ، ونجم فى صعود السعود لا يَرْتقى إلى سمائه » . ويتلو العماد ذلك بطائفة من أشعاره مرتبة على حروف الهجاء ، ويذكر له من قصيدة فى رثاء بعض العلويين ، وربما كانت من أشعاره فى زمن الفاطميين ، وفيها يقول :

إنما هــذه الحيــاةُ غــرورٌ ... كَسَرَابٍ بدا لنا فى فِجاجِ
تَتْبع الحُلْوَ من جَنَى عَيْشها الحُلْـ ... ـوِ بِمُرٍّ من الرزايا أُجاجِ[٦]
نحن فيها كمثل ركبٍ أناخوا ... ساعةً ثم أُرْهِقوا بانزعاجِ

وتلك سنة الحياة : غرور كلها وسراب سرعان ما يزول ، وحُلْو سرعان ما يحول مرا وملحا أجاجا ، وما أشبه الناس فيها بركب أناخوا قليلا وجميعهم وقوف ، كل منهم ينتظر دوره فى الرحيل ، فالكل راحلون إلى أجداثهم وقبورهم فهى قرارهم ومنزلهم ولا مآب لهم منه ولا خلاص . وله مرثية فى ابن عمه هبة الله بن عَرَّام ، وكان شاعرا محسنا وفيه يقول :

مَنْ لسود الخطوب غَيْرُكَ يُجْلِيـ ... ـها وقد غاب منك بدرٌ منيرُ
مَنْ يَحُوكُ القَرِيضَ مثلَك يُسْدِيـ ... ـه على خِبْرَةٍ به ويُنِيرُ[٧]
ليس فى العَيْش بعد فقدك خيْرٌ ... حَبَّذا وافدُ الرَّدَى لو يزورُ
كان ظنى إذا المنايا انتحتْنا ... أننى أوَّلٌ وأنت أخيرُ[٨]

---

(١) حسر : انكشف .
(٢) عرام : قوة وشدة
(٣) إذكاء : إيقاد .
(٤) الفدام : مايوضع على فم الدن لتصفية مافيه .
(٥) الصعيد : الوجه القبلى وهى أيضا وجه الأرض والتراب
(٦) أجاج : شديد الملوحة .
(٧) يسدى : من السدى وهو مايمد طولا فى النسيج .
ينير : ينجم أو يجعل له لحمة وهى مايمد عرضا فى النسيج يريد أنه يحكم الشعر إحكاما دقيقا
(٨) انتحتنا : قصدتنا .

كيف لى بالسلوّ عنه وطىٌّ الـ ـقلب من فقده جوًى منشورُ
فسَقَى قبرَه نداهُ ففيهِ لِثَراه غِنًى ورِىٌّ غَزيرُ

وهو شديد اللوعة على ابن عمه وصديقه ، ولذلك يخلط ندبه بتأبينه ، إذ فقد البدر الذى كان ينير فى دجى خطوب الدهر وكوارثه ، وإنه ليندب للشعر شاعره المبدع الذى كان ينسج خيوطه نسجا محكما ، وكأنما فقد كل نعيم فى دنياه وكل خير ، حتى ليتمنى الموت ، إذ لم يعد له بقاء بعده ، ولا عاد يعرف كيف السلوان عنه ،وقلبه منطو على نار من الجوى لا تخبو ولا تهدأ ، وإنه ليذكر نداه وكرمه الذى طالما أغدقه على من حوله ، ويدعو الله أن ينزله على جدثه شآبيب رحمة .

ويَرْوِى العماد لابن عرام قصيدة بل مناحة كان ينوح بها أهل أسوان على المقابر نادبين موتاهم باكين ، استهلها بقوله :

الـرَّدَى للأنـام بـالمرصـادِ كل حَىٌّ منه على ميعادِ
كيف يُرْجَى ثباتُ أمرِ زمانٍ هو جارٍ طبعا على الأضدادِ
فإذا سَرَّ ساء حَتْمًا وَيقْضِى بوجودٍ إلى بِلىً ونفادِ

فالموت غاية كل حى ، والناس جميعا يسقطون فى قراره العميق ، لكل منهم موعده لا يتقدم عنه ولا يتأخر ، ويالها من سخرية للزمان ، فإنه لا يبقى للإنسان على شىء ، وحتى لو سَرَّه يومًا لساءه يوما أو أياما ، وإنه ليسلبه كل ما أعطاه حتى وجوده وحياته . ويمضى فى نفس القصيدة أو المرثية قائلا :

نحنُ فى هذه الحياة كسَفْرٍ ربما أُعْجلوا عن الإرْوادِ(١)
عَرَّسوا ساعةً بها ثم نادى بالرحيل المجدٌّ فيهم مُنادِ(٢)
كم أبٍ والهٍ بثُكْلِ بَنِيهِ كم يتيمٍ فينا من الأولادِ
يدَّعى المرءُ إرْثَ أرضٍ ودارٍ سَفَهًا غيرَ لائقٍ بالسَّدَادِ
وهْو موروثُها إذا كان يَبْقَى وَهْىَ تَبْقَى على مَدَى الآبادِ
وقُصَارَاهُ أنْ يشيَّع مَحْمو لاً بأكفانه على الأعوادِ

(١) الارواد : الامهال .

(٢) عرسوا : نزلوا آخر الليل للراحة .

وما أبأس الحياة من رحلة ، وما أبأس ركب هذه الرحلة ، فليس لهم فيها حق فى الريث والأناة ، ولا فى التمهل والوقوف ، إنها لا تزيد عن ساعة تنزلها قافلة ، وسرعان ما يصيح فى ركبها مناد بالرحيل السريع ، وكل من فى الركب يبكى وينوح ويئن أنينًا لا ينقطع ، أب يئن ويذرف الدموع مدرارًا على أبنائه ، وأبناء أيتام يئنون ودموعهم لا تجفُّ ولا ترْقأ على آبائهم وأمهاتهم ، وكأنما يقطعون جميعا واديا كله غُصص وآلام ، إنه وادى الموت يجوسون خلاله ، وهم لا يدرون . وأعجب العجب أن يحرص الإنسان على إرث الأرض وملكها ، وهو موروثها ومملوكها الذى سرعان ما يزول ويفنى ، بينما هى باقية على كرِّ الدهور ، وما أعظمها عبرة ، فكل إنسان مهما بلغ من الثراء أو المجد يخرج من دنياه كغيره محمولا على أعواد ، وسرعان ما يُلْقَى عليه رداء التراب الثقيل . ويقولُ ابن عزّام

وإذا الأهلُ والأقارب والأحـ ـبابُ رَاحُوا فأنت فى الإثْر غادِ
فالقبورُ البيوتُ مضْجَعُنا فيـ ـها وما إنْ سِوَى الثَّرى من وِسادِ
كم أحال البِلَى إليه قديمًا جَسَدًا ناعما من الأجسادِ
شاهدُ الموتِ لائحٌ فى جَبِين الـ ـحَىِّ منا فى ساعة الميلادِ

فالكل ميت ، وكل ما هناك سابق ومسبوق ورائح وغادٍ إلى القبور : البيوت الدائمة التى نضطجع فيها على وسائد الثرى ، لا فرق بين إنسان وإنسان ، فنحن جميعا بنو الموت ، ونحن جميعا سكان القبور ومنذ يولد الإنسان يلوح على جبينه ساعة ميلاده شاهد موته وأنه ملق به - طال أجله أو قصر - وراء تراب وأحجار .

ابن النقيب[1] : الحسن بن شاوَر الكنانى

ولد بالفسطاط سنة ٦٠٨ وتوفى سنة ٦٨٧ وهو بذلك من شعراء الدولتين : الأيوبية والمملوكية ، وكانت له عناية بالحديث النبوى . روى عنه الحافظ الدمياطى وغيره ، واتصل بالأيوبيين ، فعينوه فى دواوينهم ، وقد لقيه ابن سعيد الأندلسى مؤلف كتاب المغرب حين زار

(١) انظر فى ابن النقيب : الحسن بن شاور المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد (قسم الفسطاط) ص ٢٥٨ وفوات الوفيات لابن شاكر ٢٣٢/١ والنجوم الزاهرة ٣٧٦/٧ وحسن المحاضرة للسيوطى ٥٦٩/١ وشذرات الذهب لابن العماد ٤٠٠/٥ .

مصر فى أوائل العقد الرابع من القرن السابع ، يقول : « اجتمعت به وهو يتولى لسلطان مصر معدن الزمرد ، فأبصرت شخصًا مجسدًا من الفضائل معنونا عن بيته – إذ يُنْسَبُ إلى شاور وزير العاضد الخليفة الفاطمى – بما يبدو عليه من كرم الشمائل » وصنف كتابا سماه « منازل الأحباب ومنازه الألباب » . وفى شعره ومنزلته الشعرية يقول ابن سعيد : « هو عندى من أفراد شعراء العصر المتغلغلين فى الغوص على المعانى الحائزين من غايات الإحسان ما يقصر فى إطرابه عنه المثالث والمثانى » ويقول ابن شاكر : « شعره جيد عذب منسجم فيه التورية الرائعة اللائقة المتمكنة . وهو أحد فرسان تلك الحلبة الذين كانوا من شعراء مصر فى ذلك العصر ، ومقاطيعه جيدة إلى الغاية » . وابن شاكر يقصد بالحلبة السراج الوراق والجزار والحمامى الذين كانت أسماؤهم على كل لسان لخفة روحهم وكثرة ما كانوا ينظمونه من التوريات ، وكان ابن النقيب على شاكلتهم يكثر منها ومن طريف تورياته :

أنا العُذْرِىُّ فاعذُرْنى وسامحْ ... وجُرَّ علىَّ بالإحسان ذَيْلا
ولما صِرْتُ كالمجنون عِشْقًا ... كتمتُ زيارتى وأتيت ليلا

وكلمة « ليلا » فى نهاية البيت الثانى لا يريد بها الليل الحقيق إذ جاء بها تورية عن صاحبته « ليلى » . وهى تورية تدل على ما وراءها من سرعة بديهته ، ورقة حسّه ، وله غزل بديع سننشد منه قطعة فى حديثنا عن شعراء الغزل . وله محاورات كثيرة مع من سميناهم من الشعراء ، وكتب إليه ابن سعيد ببيتيه اللذين أنشدناهما فى غير هذا الموضع ، وهما :

أياساكنى مصرٍ غدا النيلُ جاركم ... فأكسبَكم تلك الحلاوةَ فى الشِّعْرِ
وكان بتلك الأرض سحرٌ وما بقى ... سوى أثرٍ يبدو على النظم والنَّثْرِ

وأجابه ابن النقيب من قطعة كتب بها إليه متواضعا :

ولا تَطْلُبَنْ سحرَ البيان بأرضنا ... فكم فيه موسى مبطلٌ آيَةَ السِّحْرِ
ولا رِقَّةَ الشعر الذى كان أولا ... وكيف رقيق الشِّعْر مَعْ قسوة الدهر

وإنما ذكرنا هذه الإجابة لما فيها من شكوى الدهر وقسوته ، منذ الثلاثينيات من عمره ، ولا ندرى هل ظل موظفا بالدواوين فى عهد المماليك أو أنه آثر العزلة مكتفيا بما ورثه عن آبائه ؟ . وأكبر الظن أنه ظل متصلا بالمماليك ودواوين الدولة ، يدل على ذلك ما رواه ابن تغرى بردى ،

مما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع من أنه كان حاضرا وقعة الظاهر بيبرس مع التتار على شَطِّ الفرات سنة ٦٧١ وكيف أنه صوَّر انتصاره تصويرا رائعا .

وحانت منه التفاتة فيما يبدو إلى جندى قبل المعركة كان فى الساقة وعرف أن له نظراء لا يوضعون فى مقدمة الجيش وإنما يوضعون فى مؤخرته ، أو لعله إنما التفت قبل كل شىء إلى نفسه ، فتأثر وبلغ به التأثر حدا بعيدا من الإحساس بالظلم ، وإذا هو ينشد فى ألم بالغ :

نحن إلا قطاعةُ الأجنادِ ... وبُرَاياتُ غُرٍّ هذا النادى[1]
نحن إلا حكايةٌ وخيالٌ ... وحـديثٌ لحاضـرٍ ولبـادى
نحن إلا غُسالةٌ لمَرَاقٍ ... لـقـدور تـفـرَّغت وزبـادىِ
نحن إلا زُبالة ضَمَّها الزُّبْـ ... ـالُ فوق الأكوام للوقَّادِ
جرَّدونا فما قطعنا فردُّو ... نا — وقد أحسنوا — إلى الأغمادِ
وعُرِضْنا على بَراذينِ جيشٍ ... ما استعدَّتْ لحملةٍ وطِرادِ[2]
ورماحٍ لم تعتقل لطعانٍ ... وسيوفٍ ما جُرِّدتْ لجلادِ
فَهْيَ لا فرق فى يد الفارس الكَشْـ ... ـحانِ منَّا أو فى يد الحداد

ويبدو أنها شكوى بلسان فريق من الفرسان ، ممن وضعوا فى مؤخرة الجيش الذى يقوده الظاهر بيبرس لحرب التتار يريدون أن يكونوا فى أول الصفوف لمنازلة العدو التتارى ودحره دحرًا لاتقوم له قائمة بعده ، ويسوق ابن النقيب الشكوى فى مرارة ، إذ يقول على لسان هؤلاء الفرسان متهكما : ما نحن إلا نُحاتَة الأجناد بل نحن حكاية وخيال وحديث مردد ، بل غُسالة لمراق بل زبالة ، ولعله يبالغ فى تصوير ما أصاب هؤلاء الفرسان من ظلم ويبدو أنهم كانوا مثله بلغوا من العمر عتيا فوُضعوا فى المؤخرة . على أن فى شكوى ابن النقيب ما يدل على أن فرسان المقدمة إنما كانوا يختارون من أصلب الجنود وأعتاهم ، إذ كانوا هم وغيرهم يعرضون ، ويختارون فى أثناء العرض وبعد الاختبار ، وهو لذلك يقول إنهم جردوهم لينظروا إلى أى حد هم سيوف قاطعة فلما لم يقطعوا ردوهم إلى الأغماد أو إلى المؤخرة ، ويلقى التبعة على البغال التى ركبوها ، فإنها

(١) القطاعة : النحاتة كالبراية .
(٢) براذن جمع برذون : بغل ضخم .

لم تكن ممرنة على العدو الشديد والغارة السريعة ، وأيضا فإن السيوف والرماح كانت قد علاها الصدأ ولم تعد صالحة للنزال ، فسيان هي فى يد الفارس البطل منا أو فى يد الحداد كى يشحذها ويزيل عنها الصدأ . وتلقانا عند ابن النقيب شكوى مرددة من البؤس والفقر ، فى مثل قوله :

يا قُفْلَ بابِ الرِّزق ياذا الذى   مازال عند الفتح قُفْلاً عَسِرْ
أفرطتَ فى العُسْرِ ولابُدَّ أَنْ   تنفشَّ أو تندقَّ أو تنكسِرْ

وهو يشعر كأن باب الرزق أُغلق من دونه ، وهو يعالج فتحه ، ولا ينفتح ، ويشكو ما يلقاه من عسر وضيق وضنك ، وييأس من فتح هذا القفل بأى مفتاح من مفاتيح طلب الرزق فيأمل فى أن ينفشَّ وتنفتح أغلاقه أو يندق أو ينكسر . وتجتمع عليه الشيخوخة والعوز والإملاق ، فينشد :

وجُرِّدْتُ مَعْ فَقْرِى وشيخوختى التى   تراها فَنومِى عن جُفونى مشرَّدُ
فلا يدَّعى غيرى ثيابى فإننى   أنا ذلك الشيخُ الفقيرُ المجرَّد

وحتى ثيابه نزعها البؤس عنه ، فهو شيخ فقير عريان مسهَّد لا ينام . ولعل فى ذلك كله مبالغة ، وهى على كل حال تدل على مدى إحساسه بلوعة البؤس واستطالته عليه فى شيخوخته . ويبدو أن محنته بالحياة لم تقف عند ضيق ذات اليد ، فقد اتسعت لتشمل الأصدقاء والأصفياء ، حتى ليقول :

لا تَثِقْ من آدَمِىٍّ فى ودادٍ بصفاء
كيف ترجو منه صفوا وهْو من طينٍ وماء

فطبيعى – فى رأيه – أن لا يُصْفِى إنسان لصديقه إخاء . لأنه لا يعرف الصفاء ، بل هو دائما كدر وكذلك كل ما يتصل به إذ هو مركب من طين وماء .

عبد الله[1] الإدكاوى

ولد بإدكو بالقرب من رشيد سنة ١١٠٤ وألحقه أبوه بكتَّاب بها حفظ فيه القرآن الكريم ، حتى إذا أتمه ذهب فى طلب العلم إلى القاهرة ، فحضر دروس العلماء بها فى زمنه ، واشتهر بأدبه

---

(١) انظر فى ترجمة الإدكاوى وأشعاره تاريخ الجبرتى ٣٥٢/١ وراجع ٢١٠/١ ، ٢١٦ ، ٢٦٣ ، ٣٤١٠ .

وشعره ، ولزم السيد على برهان زاده نقيب الأشراف ، وظل يسبغ عليه من عطاياه ، وحَجَّ معه بيت الله الحرام سنة ١١٤٧ وزار قبر الرسول ﷺ وعاد إلى القاهرة ، وأقبل – كما يقول الجبرتى – على تحصيل الفنون الأدبية فنظم ونثر ، ومهر وبهر ، وهو فى أثناء ذلك يكثر من رحلاته إلى رشيد والإسكندرية ويطارح أدباءهما . وتزوج حينئذ وأصبح صاحب عيال ، وتوفى النقيب المذكور ، فلزم الشيخ عبد الله الشبراوى المترجم له بين شعراء المديح ومدحه بقصائد كثيرة ، حتى إذا توفى سنة ١١٧١ لزم الشيخ الشمس الحفنى ، وأنشد الجبرتى بعض مديحه فيه ، وله يخاطبه من قصيدة :

يابهجةَ العصر يامنهاجَ كلِّ عُلاً ... يامُحيِيَ الدين بالآثار والسُّنَنِ

وظل يلازمه إلى أن توفى سنة ١١٧٨ وصوَّح روض عزِّه بعده إلى أن توفى سنة ١١٨٤ . وله تصانيف كثيرة منها الدرة الفريدة فى شرح مدحة نبوية ، وهداية المتوهمين فى كذب المنجمين ، ومختصر شرح بانت سعاد للسيوطى ومنظومة فى علم العروض والمقامة التصحيفية ضمنها ألفاظا تتغير معانيها بالتصحيف ومقامة أخرى مجونية ، وبضاعة الأريب فى شعر الغريب ، وهى مجموعة من أشعاره . وله أيضًا تخميس بانت سعاد والدر المنتظم فى الشعر الملتزم والفوائح الجنانية فى المدائح الرضوانية جمع فيها أشعار المادحين للأمير رضوان كتخدا ، ثم أورد فى خاتمتها ماله من الأمداح فيه نظما ونثرا ، وفيه يقول :

رضوانُ أوحدُ من تفرَّد بالعطا ... فمنائحُ الأجواد بعضُ هباتِهِ

الفارسُ المقدامُ فى يوم الوَغىَ ... والمرهبُ الآسادِ فى وثباتِه

ومن تصانيفه « الدر الثمين فى محاسن التضمين » . وبجانب ذلك كله ديوانه وهو مرتب على الحروف الهجائية .

ويورد الجبرتى قطعة من شعر الإدكاوى تدل على براعته وقدرته على استخدام فنون البديع من تضمين وغير تضمين ، ونراه يستعيد قدرة الحريرى فى بناء الأبيات من كلمات منقوطة وأخرى عاطلة أوكلها منقوطة أوكلها عاطلة أو الكلمات تتكون من حرف عاطل فحرف منقوط ، وكذلك فى صنع أبيات تُقرأ شطورها طردا وعكسا ، فهى تقرأ من اليمين إلى اليسار أو من اليسار إلى اليمين ، وهو ماكانوا يسمونه « ما لا يستحيل بالانعكاس » مثل قوله :

ارْعَ لخِلٍّ إن أسا ... وانْسَ لخِلٍّ إنْ عَرَا

وكان يكثر من تشطير بعض القصائد المشهورة ، وكذلك من تخميس بعض الأبيات ، وتصنّع لاستظهار مصطلحات بعض العلوم ، ولكن فى خفة ودون أن تصطدم عنده بتكلف شديد ، كقوله مستظهرا لمصطلحات المنطق ، إذ يذكر المناطقة كثيرا المقدمات والبراهين والنتائج :

وشقائقٍ قالتْ لنا بين الرُّبا ... بمقدِّماتٍ ما بها إبهامُ[1]
برهانُ سعدى الآن أنتج قائلا ... دَعْ وَجْنَةَ المحبوب فهْىَ ضِرَام

وله مراث مختلفة فيمن سميناهم من الشيوخ رعاته وفى غيرهم من علماء عصره ، وممن رثاهم وتفجع عليهم طويلا الشيخ حسن المدابغى المتوفى سنة ١١٧٠ للهجرة ، وله فيه مرثيتان مطلع أولاهما :

مَضَى عالمُ العصرِ الإمامُ لربِّهِ ... حميدَ المساعى فانْدُبَنْهُ وبالغِ

وفى خاتمتها ينشد :

ولما قضَى ذاك المهذبُ نَحْبَه ... وآبَ برضوانٍ من الله سابغِ
دعوتُ أحبَّائى وقلت لهم قفوا ... معى عند ذا التاريخ نبكى المدابغى

ومطلع الثانية :

صبرا فذا الدهر من عاداته المحَنُ ... وفى تلوُّنه قد حارتِ الفِطَنُ

ويختمها بقوله :

والحورُ جاءتك بالبشرى مؤرِّخةً ... حُلِّيت من حُلَلِ الأبرارِ ياحَسَنُ

ولم ينشد له الجبرتى شيئا من مراثيه الأخرى ، وكأنه اكتفى بالإشارة إلى مرثيتيه فى المدابغى ، ومع ذلك فقد أنشد له مقطوعة فى رثاء نفسه وبكائها قبل موته ، وفيها يقول :

ليت شعرى إذا دَنَا يارِفاقى ... أجلى ثم هيَّئوا لى تُرابى
واغْتَدوا بى إلى مَحَلٍّ بِهِ صَحْـ ... ـبى جَفَوْنى وليس يُرْجَى إيابى
هل إذا غَرْبَلُوا الترابَ أيَلْقَوْا ... ذرَّةً من عَظْمى فيالَمصابى
وَيْحَ هذى الدنيا التى تحرق الأكـ ... ـبادَ قد مزَّقَتْ بِلَحْدِى إهابى
وبذاك القَفْرِ اغتديتُ رَهِينًا ... ليس لى من زادٍ ولا من رِكابِ

(١) الشقائق : زهر أحمر.

وهو يذكر ساعة الموت وقد حُفر لحده والمشيعون يحملون نعشه إلى مثواه ، وما يلبثون أن ينصرفوا عنه إلى غير رجعة أو مآب ، وقد بلى جسده فى التراب ولم تبق من عظامه باقية . ويتساءل هل إذا فتشوا عن ذرة من عظامه أيجدونها أم لا يجدون إلا عدما ، فقد مزقت الدنيا إهابه وعظامه فى لحده . وكأنما لا يكفيها ما تصنعه بالإنسان فى حياته من إحراق كبده . وإنه ليندب نفسه ويبكيها وقد غدا وحيدا غريبا فى قفر موحش ، بل غدا حبيسا لازاد ولا ركاب إلى يوم الحشر ، وفى الحق أنه كان شاعرا مجيدا وهو يعد أنبه الشعراء المصريين فى زمنه .

٦

شعراء الدعوة الإسماعيلية

مرَّ بنا – فى غير هذا الموضع – أن الدولة الفاطمية قامت على أساس العقيدة الإسماعيلية الشيعية وأنه كان لهذه العقيدة طائفة من المبادئ جعلتها متطرفة غاية التطرف ، بل جعلتها تنفصل عن نظرية أهل السنة انفصالا تاما . وقد عملتْ بقوة على نشر هذه المبادئ منذ أول الأمر متخذة دعاة لها فى أقطار العالم الإسلامى ، ودفعت معهم الشعراء إلى تقريرها والعمل على إذاعتها وفى مقدمتهم ابن هانئ وسنخصه بكلمة . وتميم بن المعز أول خلفائها بمصر يرددها فى أشعاره لأخيه الخليفة العزيز ، ولا نكاد نتقدم فى ديوانه حتى نجده يخاطبه بقوله فى إحدى مدائحه[1] :

إنما أنت حُجَّةُ الله لاحتْ فى البَرايا ووارثُ الأنبياء

والحجَّة عند الإسماعيلية مصدر الحكم ولا يراجع فى حكمه لأن حكمه الحق ، ويقول عنه وارث الأنبياء مشيرا بذلك إلى نظرية الدور التى تزعم أن الأئمة منذ آدم يتوالون فى أدوار حتى إذا ختم الأئمة من الأنبياء بالرسول ﷺ بدأت أئمة آل البيت ، وبذلك يصبح العزيز وغيره من الأئمة الفاطميين ورثة للأنبياء ، على نحو ما يزعم تميم . ونمضى فى الديوان وفى قراءة مدائحه للعزيز ، وسرعان ما نلتقى بقوله فيه[2] :

وهْو لسان التُّقَى ومقلتُه وهو يمينُ العُلا ويُسْراها
صُوِّرَ من جوهر النبوَّة إذ كان الوَرَى طينةً وأمواها
فمن يُطِعْه يَفُزْ بطاعتهِ ومَنْ عصاه فقد عصى الله

(١) الديوان ص ٢٦ .

(٢) الديوان ص ٣٨ .

وواضح فى البيت الثانى ما كان يردده شعراء الفاطميين من أن الأئمة منهم ومن الأنبياء خُلقوا من جوهر لطيف مصفًّى وأن أجسادهم ليست كأجساد البشر المادية الغليظة ، بل هى أجساد نورانية شفافة . والبيت الثالث يصور بوضوح مبدأ طاعة الإمام فى مذهب الإسماعيلية وأنها واجبة بحيث يفوِّض إليه أتباعه أمورهم دون أى مناقشة أو سؤال ، إذ هى فريضة توجب طاعة الإمام ، وجزء لا يتجزأ من إيمانهم بالدعوة الإسماعيلية . وكانوا يزعمون أن كل إمام من الفاطميين له مرتبة قائم القيامة أوكما يسمونه المهدى المنتظر ، وبذلك يخاطب تميم أخاه قائلا[١] :

أنت المسمَّى المرجَّى قبل مولدِهِ   والخامسُ القائمُ المذكورُ فى الكتبِ

وهو يشير فى أول البيت إلى ما كان يؤمن به الإسماعيليون فى الإمامة من فكرة الوصية الشرعية وأن كل إمام تالٍ وصى لسلفه كما قدَّر الله وقضى ولا راد لقضائه ، ويقول إنه القائم أو المهدى المنتظر وأنه خامس الخلفاء الفاطميين منذ جهرهم بالدعوة فى المغرب ، وهم المهدى والقائم والمنصور والمعز ثم العزيز الخامس ، أما من كانوا قبلهم فلم يجهروا بالدعوة بل كانوا مستترين يدعون لها سرًّا . ويقول تميم أيضا فى العزيز[٢] :

ما أنت دون ملوك العالمين سوى   روحٍ من القُدْسِ فى جسمٍ من البَشرِ
نورٌ لطيفٌ تناهى فيك جوهرُه   تناهيًا جاز حدَّ الشمسِ والقمرِ
معنًى من العِلَّة الأولى التى سبقتْ   خَلْقَ الهيولَى وبَسْطَ الأرض والمدرِ

والبيت الأول يشير فيه تميم بصراحة إلى ما كان يؤمن به الإسماعيليون من أن للإمام نسبتين : نسبة بروحه إلى عالم القدس ، ونسبة بجسده إلى عالم الطبيعة ، أما نسبته إلى عالم القدس فهى الجانب النورانى فيه ، وهو جانب صاف لطيف ، يجعل عقله فوق عقول البشر ، عقلا ممثلا للعقل الكلى الفعَّال المتصل بالله ، وقد سماه بالعلة الأولى ، وجعله معنى من معانيه . وأوغل الإسماعيليون فى هذا التصور حين قالوا إن الإمام مدبِّر الكون ، وما يقولون إلا زورا وبهتانا . وتميم يقول إن هذا العقل الأول أو العلة الأولى أول ما خلق الله ، فهو سابق لخلق الهيولى أو المادة وخلق الأرض وما عليها . ونمضى فى قراءة ديوان تميم فنجده يقول فى إحدى مدائحه للعزيز[٣] :

وإنَّ جميع الغيب لله وحدَهُ   تبارك من رَبٍّ ومن صَمَدٍ وَتْرِ
وما علمتْ منه الأئمة إنما   رَوَوْهُ عن المختار جَدِّهم الطُّهْرِ

(١) الديوان ص ٦٩ .
(٢) الديوان ص ٢٢٤ .
(٣) الديوان ص ٢٠٧ . والوتر : الفرد .

وتميم يجعل الغيب فى البيت الأول لله وحده ، وأشرك الرسول ﷺ معه فى علمه ، وكأنه يصدر فى ذلك عن قوله جَلَّ شأنه : (عالمُ الغيب فلا يُظْهِر على غَيْبه أحدا إلا من ارتضى من رسول) ولو أنه سكت عند بيان ذلك لما كان فى كلامه غلو ، ولكنه لم يسكت بل أضاف أن الأئمة يعلمونه عن طريق الرسول مشيرًا إلى ما يزعمه الإسماعيلية من توارث أئمتهم لعلم الغيب عن الرسول وهو تماد فى الغلو والبهتان .

وسنرى ابن هانئ يتمادى مثل تميم فى الغلو ، بل لعله يزيد عنه درجة أو درجات ، ونرجع إلى كتب التاريخ والشعر والشعراء فلا نجد أصداء واضحة لها فضلا عن أن تكون قوية فى أشعار من خلفوهما فى القرنين الرابع والخامس للهجرة الا ماكان من المؤيد داعى الدعاة لعهد المستنصر ولم يكن مصريا ، بل كان إيرانيا ، وسنخصه بكلمة بعد ابن هانئ ، والشاعر المصرى الوحيد الذى ردَّد هذا النغم الإسماعيلى الغالى هو ظافر الحداد المتوفى سنة ٥٢٩ وسنترجم له بعدهما ، وكان يعاصره على بن محمد الأخفش وهو مغربى وليس مصريا ، ونرى العماد الأصبهانى ينشد له فى الخريدة بيتا فى الخليفة الآمر قائلا[١] :

إلى ذِرْوَةِ النُّورِ العَلائىِّ إنه ... إلى ذروة النُّور الإلهىِّ يُنْسَبُ

وهو ينسب الآمر إلى نور الأنوار ، إلى النور الإلهى الذى يعم الأكوان . ويذكر له العماد قصيدة فى الخليفة الحافظ ملاحظا أن الغلو أفضى به إلى الكفر الصريح ، إذ يقول فيه مستطردا من وصف الخمر إلى مديحه [٢] :

صِرْفُ جِرْيالٍ يرى تحريمها ... من يرى الحافظَ فَرْدًا صَمَدَا
بَشَرٌ فى العين إلا أنَّه ... من طريق العقل نورٌ وهُدَى
جَلَّ أن تُدْرِكه أعْيُنُنا ... وتعالى أن تراه جَسَدا
فَهْوَ فى التسبيح زُلْفَى راكع ... سمع اللهُ به مَنْ حَمِدا
تُدْرِك الأفكارُ فيه نَبَأً ... كاد من إجلالِه أنْ يُعْبَدَا

وهو يسبغ على الحافظ صفات الله من الفردية والصمدية ، وكان دعاتهم يزعمون أن الله

---

(١) الخريدة (قسم شعراء مصر) ٢٣٩/١ (٢) الخريدة ٢٤١/١ والجريال : الخمر

ينبغى أن ينزَّه عن الصفات والأسماء ، وأن ما فى القرآن الكريم من أسمائه وصفاته إنما هى صفات العقل الكلى الأول وأسماؤه . ومرَّ بنا آنفا أنهم كانوا يزعمون أنه ممثول الأئمة ، ومن هنا أضفوا عليهم أسماءه وصفاته ، وبالغوا فجعلوهم تجسدا للذات العلية ، بل إن ابن الأخفش يخلى الحافظ من كل تجسد ومادة ، فهو نور خالص لا تدركه الأعين . ويتمادى فى هذا الغلو والبهتان الآثم ، حتى يكاد يجعله معبود الإسماعيلى فى ركوعه وقيامه . ويلقانا نفس الغلو المقيت عند الشريف ابن أنس الدولة داعى دعاتها ، إذ يُرْوَى أن الخليفة الحافظ صعد المنبر يوم عيد ، فوقف بإزائه ، وقال يخاطب المصلين[1] :

خشوعًا فإن الله هذا مقامُهُ وهَمْسًا فهذا وَجْهُه وكلامُهُ

وهذا الذى فى كلِّ وقتٍ بروزهُ تحيَّاتُه من ربِّنا وسلامُه

وهو غلو ما بعده غلو ، بل هو انحراف عن جادَّة الدين ما بعده انحراف ، وكأنما الحافظ تجسيد للذات الإلهية على نحو ما جسَّد المسيحيون الرب فى المسيح .

ويلقانا بأخرة من أيام الدولة الفاطمية يحيى بن حسن بن جبر ، وله مجموع[2] فى مدائح بنى أبى أسامة كتَّاب الإنشاء فى عهد الحافظ والآمر من قبله ، ألفه سنة ٥٢٥ وجعله الشيخ الأمينى فى الغدير من شعراء المستنصر فى سنة ٤٨٧ وهو متأخر عنه بشهادة ترجمة العماد الأصبهانى فى الخريدة إذ أنشد له شعرا فى ابن[3] رُزِّيك الوزير الفاطمى من سنة٥٤٩ حتى سنة ٥٥٦ وله قصيدة فى فضائل على بن أبى طالب وبكاء الحسين أنشدها صاحب «الغدير» وفيها يقول[4] :

يا آل أحمد كم يكابد فيكُمُ كبدى خطوبًا للقلوب بواكى

كبِدى بكم مقروحةٌ ومدامعى مسفوحةٌ وجَوَى فؤادىَ ذاكى

وإذا ذكرتُ مصابكم قال الأسى لجفونىَ اجْتَنِى لذيذَ كراكِ[5]

وابْكِى قتيلا بالطفوف لأجله بكتِ السماءُ دمًا فحقَّ بُكاكِ

وهو يغلو فى مديح على بن أبى طالب ، وينسب له كثيرا من معجزات غير ثابتة ، كرد الشمس إليه ببابل لقضاء فرض كان سيفوته وقته ، ويزعم أن الريح سُخِّرت له رُخاء ، ويقول إنه

---

(١) خطط المقريزى ٢/٢١٤ .
(٢) الخريدة ٢/١٠٥
(٣) الخريدة ٢/٢٣١ وما بعدها
(٤) شعراء الغدير ٤/٣١٣ وانظر أدب الطف ٢/٣٢٨ .
(٥) كراك : نومك .

أحيا الموتى إلى غير ذلك من مزاعم غير صحيحة . ونقف عند ثلاثة من أعلام الدعوة الإسماعيلية هم ابن هانىء والمؤيد فى الدين وظافر الحداد .

ابن[1] هانئ

هو محمد بن هانئ المهلبى الأندلسى ، ينتمى إلى المهلب بن أبى صفرة الأزدى القائد المشهور فى زمن بنى أمية وواليهم فترة على خراسان ، ويقال إنه من سلالة حفيده يزيد والى المنصور العباسى على إفريقية ، وقيل : بل من سلالة أخيه رَوْح واليها بعده . ويبدو أن أبناءهما ظلوا بعد وفاتهما بإفريقية ، وكان من سلالتهما أبو الشاعر هانئ ، إذ يقال أنه كان من قرية من قرى المهدية بتونس وكان شاعرا أديبا نزح إلى الأندلس داعيا - فيما يبدو - للمذهب الإسماعيلى هناك ونزل إشبيلية وفيها وُلد له الشاعر سنة ٣٢٠ أو سنة ٣٢١ على اختلاف الروايات ، وبها نشأ وعكف على الأدب ، وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، فاتصل بصاحب إشبيليه وحظى عنده ، غير أنه كان كثير الانهماك فى اللذات ، واتهم بأنه يعتنق مذهب الفلاسفة ، أو لعله اتهم باعتناقه المذهب الإسماعيلى متابعا فى ذلك أباه ، وكانتا تعدان تهمتين خطيرتين هناك فنصحه ممدوحه بالغيبة عن البلدة مدة فبارحها إلى إفريقية فى السابعة والعشرين من عمره ونزل بجعفر بن على الأندلسى أمير الزاب وأخيه يحيى فأكرماه ومدحها الشاعر مدائح بديعة بمثل قوله فى جعفر :

المشرقات النيِّراتُ ثلاثَةٌ ... الشمسُ والقمرُ المنيرُ وجَعْفَرُ

وسمع به المعز فطلبه من جعفر وأخيه فلما وصل إليه بالغ فى الإنعام عليه وخاصة حين رآه يعتنق المذهب الإسماعيلى ويلجّ فى مديحه بمبادئ المذهب التى أسلفنا الكلام عنها ، بل لكأنما اتخذ أشعاره أداة لتسجيلها فى صور مغالية غلوا شديدا . وكان شاعرا مبدعا فأبدع فى مدائحه ، كما أبدع فى مديح قواده وخاصة فى جوهر الصقلى فاتح مصر ، وله فيه حين يمَّم بجيشه مصر من القيروان عينية رائعة استهلَّها بقوله :

---

(١) انظر فى ابن هانئ وترجمته وشعره كتاب التكملة لابن الأبار ص ١٠٣ والمطمح للفتح بن خاقان ص ٧٤ والمطرب لابن دحية (الفهرس) والجذوة للحميدى : ٨٩ وبغية الملتمس رقم ٣٠١ ونفح الطيب (الفهرس) والإحاطة للسان الدين ٢/٢١٢ والمغرب لابن سعيد (طبع دار المعارف) ٢/٩٧ ومعجم الأدباء ١٩/٩٢ وابن خلكان ٤/٤٢١ وعبر الذهبى ٢/٣٢٨ والشذرات ٣/٤١ وديوانه طبع قديما بالهند .

رأيت بعينى فوق ماكنتُ أسمَعُ ... وقد راعنى يومٌ من الحشر أروَعُ
غداةَ كأن الأُفقَ سُدَّ بمثلِهِ ... فعاد غروبُ الشمس من حيث تطلعُ

ونوَّه بالجيش وعِظمه ورحلةِ جوهر المظفرة إلى الديار المصرية ، ولم يلبث جوهر أن أرسل إلى المعز يهنئه بفتح مصر سنة ٣٥٨ فهتف ابن هانىء فرحًا مستبشرًا :

يقول بنو العباس هل فُتِحَتْ مِصْرُ ... فقل لبنى العباس قد قُضِىَ الأَمْرُ
ومُذْ جاوز الإسكندريَّةَ جَوْهَرٌ ... تصاحبه البُشْرى ويَقْدُمُه النَّصْرُ

وجمع المعز أسبابه وتوجه إلى مصر سنة ٣٦٢ وشيعه ابن هانئ ورجع إلى أسرته بالمغرب لأخذها معه واللحاق به ، وتجهز وتبعه ، غير أنه اغتيل فى برقة لشهر رجب سنة ٣٦٢ ويقال إنه لم يشيِّع المعز بل كان فى صحبته إلى أن دخل مصر ثم عاد إلى المغرب لأخذ عياله ، واغتيل ببرقة كما ذكرنا . ولما بلغت المعز وفاته حزن عليه وتأسف قائلا : هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدَّر لنا ذلك . ولعله لم يكن يريد أن يفاخر به من حيث روعة شعره فحسب ، بل كان أيضا يريد أن يفاخر به من حيث استظهاره للعقيدة الإسماعيلية ومبادئها المفرطة فى الغلوإفراطا بعيدًا حتى لتنحرف عن الإسلام وجادَّته .

وبمجرد أن نقرأ فى ديوان ابن هانىء نراه يردد أن إمامة الفاطميين ربانية وأنها فريضة مكتوبة على كل مسلم وأنهم يتوالون بترتيب إلهى وأنهم معصومون من كل زلل وأن طاعتهم من طاعة الله من أطاعهم استحق رضوان الله ومن عصاهم كان مآله الخسران المبين ،يقول فى المعز :

إمامٌ رأيتُ الدين مرتبطا بهِ ... فطاعتُه فوزٌ وعصيانُه خُسْرٌ

وهم دائما مبرأون من الذنوب مطهرون من الآثام ، بل هم نور الله ومشكاته فى العباد ، يضيئون للناس حياتهم ، ويكشفون عنهم ظلمات الضلال ، وكأنهم يُتِمُّون نور الله أوكأنهم يشاركون فيه ، يقول فى المعز :

وما كُنْهُ هذا النورِ نورُ جَبِينهِ ... ولكنَّ نورَ الله فيه مشاركُ

ويكرر هذه الفكرة كثيرا فى مثل قوله مادحا للمعز :

تَسْعى بنورِ الله بين عبادهِ ... لتضىء برهانًا لهم وتَلُوحا
وجَد العِيانُ سَنَاكَ تحقيقا ولم ... تُحِطِ الظنونُ بكنههِ تصريحا

وقد انتقل ابن هانئ نقلة واسعة فقد جعل المعز نورًا خالصا ، وكأنما ليس فيه شيء من المادة ولا من الطبيعة البشرية ، ويصرح بذلك إذ يقول إن العيان والحسَّ إنما يشهدان سناه وضياءه فحسب ، أما هو فكأنه الذات العلية لا تحيط الظنون بكنهه وحقيقته ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . ويعود إلى مثل هذا الغلو الشائن فى مدحه للمعز قائلا :

أتبعتُه فِكَرِى حتى إذا بلغتْ غاياتها بين تصويبٍ وتصعيدِ
رأيتُ موضوع برهانٍ يلوح وما رأيْت موضوع تكييفٍ وتحديد

وقد خطا ابن هانئ فى الغلو هنا خطوة أبعد من سابقتها إذ جعل المعز يخلو من كل صورة للمادة ، بل كأنما جعله الخالق نفسه ، إذ نفى عنه ما ينفيه المعتزلة عن الله من كل تشبيه وتجسيد ، فلا حد له ولا كيف ولا هيئة بأى شكل من الأشكال . وقد بدأوا كما بدأ المسيحيون فى مسيحهم بأن فى الإنسان لاهوتا وناسوتا أو روحا وجسما . وبالغوا فخلَّصوا – مثل ابن هانئ – أئمتهم من كل أثر للمادة ، وجعلوهم روحا أو نورا خالصا ، بل جعلوهم نفس الله بأسمائه وصفاته ، حتى لنرى ابن هانئ يقول فى المعز :

ما شئتَ لا ما شاءت الأقدارُ فاحكمْ فأنت الواحدُ القهّارُ

ويقول فيه أيضا :

ندعوه منتقماً عزيزا قادرا غَفّارَ موُبقةِ الذنوبِ صَفُوحا

فالمعز الواحد القهّار المنتقم العزيز القادر الغفار . وعلى هذا النحو زين لهم دعاتهم وشياطينهم أن ينزهوا الله عن أسمائه وصفاته فى القرآن الكريم ويسبغوها على أئمتهم ، ضلال ما بعده ضلال ومروق لا يدانيه مروق . ومن هذا الباب ما يزعمه ابن هانئ فى المعز من أنه مقسِّم الأرزاق بين العباد :

رأيتك مَنْ تَرْزُقْهُ يُرْزَقْ من الوَرَى دِراكًا ومَنْ تَحْرِمْ من الناس يُحْرَمِ

فمن شاء رَزَقه ووسَّع رزقه ومن شاء حرمه وضيَّق عليه وجعل حياته ضنكا ، وكل شيء فى الأرض بل فى الكون بمشيئته حتى ليقول ابن هانئ فيه :

أدارَ – كما شاء – الوَرَى وتحيَّزتْ على السبعة الأفلاكِ أَنْمُلُهُ العَشْرُ

فهو لا يهيمن على شئون الناس وأحوالهم فحسب ، بل هو أيضا يهيمن ويسيطر على الأفلاك التى تصدر عنها الحركة فى الكون . وكل ذلك لما لجئوا فيه من أن الإمام ممثول العقل الفعال المسيطر على الوجود ، فجعلوه نفس هذا العقل الذى آمن به الفلاسفة ، وجعلوه لذلك العلة الأولى أو علة العلل التى ينبثق عنها الكون ، مما جعل ابن هانئ يقول عن المعز :

هو عِلَّةُ الدنيا ومَنْ خُلِقَتْ له ولعلةٍ ما كانتِ الأشياءُ

وماذا بقى لخالق الكون ؟ وحتى الحياة والموت ملَّكها ابن هانئ للمعز يوزعها على الناس كيف يشاء إذ يقول مخاطبا للمعز :

لك الدهرُ والأيامُ تَجْرِى صُرُوفها بما شئتَ من حَتْفٍ ورزقٍ مقسَّمِ

فهو الذى يحيى ويميت وهو الذى يدبِّر الدنيا ويصرِّفها ، وهو الذى يهيمن على الكون وينسِّقه ، وهو الرازق ومانع الرزق وهو المنتقم العزيز الغفار وهو الواحد القادر القهار . ولا نعجب بعد ذلك كله لابن هانئ إذ يقول :

أرى مَدْحَهُ كالمدحِ لله إنَّه قُنوتٌ وتسبيحٌ يُحَطُّ به الوِزْرُ

ويستضىء ابن هانئ بفكرة الدور عند الإسماعيلية مرارا وما يذهبون إليه من أن الأئمة الفاطميين خلفاء الأنبياء وأنهم ينتظمون معهم منذ آدم فى أدوار سبعية ، كل دور يُخْتَمُ بإمام سابع نبى أو من الخلفاء الفاطميين ويسمونه الناطق وهو يمثل عندهم العقل الأول الفعال الذى تحولت إليه قدرة الله وأسماؤه وصفاته ، ومن هنا كانت تطلق على ممثوله من الأئمة ، وهو الإمام السابع الحامل للنور الربانى الذى يتمثل فى كل إمام سابع منذ آدم . ولما كان المعز نهاية السبعة الثانية من الأئمة الفاطميين فإنه كما يَمْثُلُ فيه نور كل إمام سابع قبله من الأنبياء يَمْثُل فيه نور نوح :

لو كنت نوحاً منذرا فى قومهِ مازادهم بدعائهِ تضليلا

ويَمْثُل فيه قبس موسى وشعلته وهداه :

من شُعلة القَبَسِ التى عُرِضَتْ على موسى وقد حارتْ به الظلماءُ

ويمثل فيه نور المسيح الذى كان يبرئ الأكْمَه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله :

أقسمتُ لولا أن دُعيتَ خليفةً لدُعيتَ من بعد المسيحِ مَسيحَا

ويمثل فيه نور الرسول ﷺ المشاهَد فى كل نور بملكوت السموات : فى الشمس والقمر والكواكب والنجوم :

وكأنما أنت النبىُّ محمَّدٌ وكـأنما أنصـارُك الأنصـارُ

ويبلغ به الإلحاد فى الدين أن لا يكتفى بحلول أرواح الأنبياء فى المعز ، بل يجعل الله يحلّ فيه ، بل لكأنه الله ، جَلَّ جَلاله عن أن يتعلق بذاته العلية شىء من ترهاته إذ يقول فى غير استحياء للمعز حين حلَّ بقرية رَقَّادة بجوار القيروان :

حَـلَّ بِـرَقَّـادةَ المسيـحُ حَـلَّ بها آدمٌ ونـوحُ
حَلَّ بها اللهُ ذو المعالى وكـلُّ شىءٍ سواه ريحُ

وكان ابن هانئ شاعرا فذا بارعا ، وإنا لنأسى له حين سخر ملكاته الشعرية الخصبة التى منحها له ربه فى الدعوة للعقيدة الإسماعيلية الضالة . وهو فى رأينا يُعَدُّ مسئولا إلى حد كبير عن اندفاع الشعراء بعده فى هذه الدعوة الخاطئة المنحرفة ، وهو أيضا إلى حد ما يعد مسئولا عن ضلال الخليفة الحاكم الفاطمى حين قال بعد جده المعز : أنا رَبُّكم الأعلى ، وتبعه فى ضلاله ومروقه من تبعه . وكان ابن هانىء يكثر من التشبيهات والاستعارات أحيانا فى أشعاره ، ونفذ إلى صور كثيرة مبتكرة كقوله فى مطلع قصيدة مدح بها جعفر بن على الأندلسى :

فتقَتْ لكم رِيحُ الجِلاد بِعَنْبَرٍ وأمدَّكم فَلَقُ الصباح المُسْفِرِ
وجنيتُمُ ثَمَرَ الوقائع يانعًا بالنَّصْر من وَرق الحديدِ الأخضَرِ

وهو يتصور الجلاد أو القتال ريحا عاصفا يفوح منه شذى العنبر والطيب وهو يهبُّ فى الصباح المشرق الجميل . ونفذ إلى صورة بديعة إذ تخيل السيوف شجرا مورقا مثمرا وهم يجنون منه النصر المأمول ، والقصيده تكتظ بأبيات رائعة .

المؤيَّد[1] فى الدين الشيرازى

هو هبة الله بن أبى عمران موسى بن داود ، ولد بشيراز فى العقْد الأخير من القرن الرابع

(١) انظر فى المؤيد ديوانه ومقدمته بتحقيق الدكتور محمد كامل حسين وكتابه : فى أدب مصر الفاطمية ص ٥٩ ونشره للسيرة المؤيدية وراجع مختصر المجالس المؤيدية لحاتم بن إبراهيم نشر د . محمد عبد القادر عبد الناصر ، وانظر معجم الأدباء ١٧٥/٣ وما بعدها فى ترجمة أبى العلاء .

المجرى لأبيه موسى ، وكان من دعاة الدولة الفاطمية الإسماعيلية ، وتقدم فى الدعوة ، حتى استحق لقب حُجَّة إقليم فارس ، ونشأ ابنه على مثاله فى الإخلاص لتلك الدعوة ومازال يسعى له عند الحاكم الخليفة الفاطمى (٣٨٦ – ٤١١ هـ) حتى جعله خليفة له فى فارس ، ومنحه نفس اللقب الفاطمى : الحجة ، وهو لقب رفيع من ألقابهم . وكان سيوسا ، فتقرب من نفوس أتباعه وأخلصوا له ، وحاول أن يدخل أباكاليجار الحاكم البويهى فى عقيدته ، ويقال إنه عقد له مجلسا كان يلقى فيه كتاب دعائم الإسلام للقاضى النعمان بن محمد الكتامى داعى الدعاة لعهد المعز ، وأيضا فإنه بنى مسجدا بالأهواز ونقش على محرابه بالذهب أسماء الأئمة الفاطميين ، وطلب من أتباعه أن يؤذِّنوا فيه بأذان الإسماعيليين : «حَيَّ على خير العمل» . ومن أهم أتباعه حينئذ ناصر خسرو . وتنبه له الخليفة العباسى ببغداد ، فأرسل إليه من يتعقبه ، وخشى على نفسه ، ففرَّ موليا وجهه نحو مصر والقاهرة : مركز دعوته ، ووصل إليها سنة ٤٣٧ لعهد الخليفة الفاطمى المستنصر ، واستقر بها ، وحضر مجالس الدعوة فيها ، وعيَّنه الوزير اليازورى رئيسا لديوان الإنشاء ، وظل فى هذا العمل حتى سنة ٤٥٠ وهو يتصل سرا بدعاة الدولة فى إيران والعراق ، وأحسَّ خطر طغرلبك السلجوقى حين تستقيم له العراق ، فربما فكر فى الاستيلاء على الشام ومصر ، وكانت العلاقة ساءت بين طُغْرُلْبك وأخيه إبراهيم ، وكان قد ولاه على الموصل ، فأعلن العصيان لأخيه ورحل إلى بلاد الجبل فتبعه بجيشه ، ونشبت الحرب بين الفريقين ، ورأى المؤيد فى الدين الفرصة سانحة فكاتب البساسيرى مقدم الأتراك ببغداد . وذهب إليه بنفسه محمَّلا بالأموال من المستنصر ، ويحدثنا فى سيرته كيف أخذ يستميل أمراء العرب فى طريقه إلى بغداد وكيف نفروا معه ، يؤازرهم أهل الكوفة وواسط وحلب ، وكيف وصل إلى بغداد ، حيث وجد البساسيرى قد أبعد الخليفة العباسى القائم بأمر الله إلى « عانة » سنة ٤٥٠ ودعا على المنابر باسم المستنصر بالله ، وظل ذلك نحو عام ، حتى إذا قضى طغرلبك على عصيان أخيه وثورته قدم إلى بغداد وقضى على البساسيرى ودعوته وأعاد الخليفة العباسى إلى عرشه . وفرَّ فى هذه الأثناء المؤيد إلى القاهرة ، وتولى بها مرتبة داعى الدعاة جزاءً لجهوده وإن كانت قد أخفقت إخفاقاً ذريعا ، غير أنه حقق للفاطميين حلما طالما رجوا تحقيقهَ وهو أن يُدْعَى على منابر بغداد باسمهم ولو إلى حين اقصير . وكتابه «السيرة المؤيدية» يصور فيه حياته من سنة ٤٢٩ حتى سنة ٤٥٠ وما اضطرب فيه من أحداث ، وهو لذلك يعد وثيقة تاريخية مهمة .

وأخذ المؤيد فى أثناء اضطلاعه بمرتبة داعى الدعاة يلقى دروسه بالجامع الأزهر ، وقد جمعها

فى كتابه « المجالس المؤيدية » وهى تضم ثمانمائة مجلس له ، وقد اختصرها حاتم بن إبراهيم الداعى اليمنى ، وعُنى بنشر مختصره وتحقيقه الدكتور محمد عبد القادر عبد الناصر وهو موسوعة كبيرة فى العقيدة الفاطمية والتأويل الباطنىّ وما يتصل به من الحكمة التأويلية ، ويشتمل على مناظرات مع مخالفيه وردود عليهم ، لعل من أهمها ردوده على ابن الراوندى ودحض آرائه الإلحادية[1] . وله رسائل متبادلة مع أبى العلاء المعرى ناظره فيها طويلا فى تحريمه على نفسه أكل الحيوان وكل ما ينتجه من اللبن والبيض وعسل النحل ، وقد احتفظ بها ياقوت فى معجمه . وكان شاعرا كما كان كاتبا ناثرًا ، وحقق الدكتور محمد كامل حسين ديوانه ونشره بالقاهرة ، وهو فى مديح المستنصر الفاطمى وآبائه والدعوة إلى العقيدة الفاطمية وكل ما يتصل بها من التأويل الباطنى الموقوف على الأئمة الفاطميين وآبائهم من البيت العلوى ، فهم وحدهم الذين يعرفون أسرار التأويل فى القرآن على نحو ما خَصَّ الله « الخضر » الرجل الصالح بأسرار لم يعرفها موسى عليه السلام ، وبالمثل الأئمة يعرفون من الأسرار فى تأويل الذكر الحكيم ما لا تعرفه العامَّة ، وفى ذلك يقول فى أولى قصائده بديوانه محتجا بقصة الخضر على جهل العامة بسر الملكوت أو أسراره ووَقْفها على الأئمة :

يا قومُ سِرُّ الملكوت هذا يجعلُ أصنامكمُ جُذاذا
سرٌّ له صاحبَ موسى الخضْرا قال معى لن تستطيعَ صَبْرا
تدبَّروا القصَّة ماذا يَمَّا من قَصَّها إن لم تكونوا نُوَّما

وكأن كل إمام خِضْرُ زمنه ، وهو وحده الذى يعرف أسرار الكون وبواطن الآيات القرآنية ، وهى معرفة اختص الله بها الوصى الأول على بن أبى طالب وأبناءه الأئمة . والمؤيد فى الدين بذلك يرفع الأئمة درجات على سائر الخلق ، بل هى العقيدة الفاطمية التى تجعلهم نورا خالصا . لا تعلق بهم مادة ولا ما يشبه المادة على نحو ما رأينا عند ابن هانئ ، وقد مضى المؤيد وراءه يردِّد تقديسه للأئمة وأنهم فوق الطبيعة البشرية ، ومضى يسبغ عليهم كثيرا من الصفات الربانية ، حتى ليجعلهم القائمين على الجنة والنار فيدخلون الجنة بأتباعهم ويزجُّون بأعداءهم فى الجحيم ، يقول :

يقسِمون الجِنانَ والنارَ فيهم فلكلٌّ نَصيبُه الموجوبُ

كَبُرَتْ كلمة بل كلماتٍ تخرج من فمه ، ويتمادى فى هذا الضلال فيجعل زيارة الإمام أداء

(١) انظر فى ذلك كتاب تاريخ الإلحاد فى الاسلام لعبد الرحمن بدوى (نشر مكتبة النهضة) ص ٧٥-٨٨ .

لفريضة الحج يقطع إليها أصحابه الفلوات للتبرك به ، فهو القبلة والغاية التى ليس بعدها غاية ، يقول :

هلمّ إلى الأرضِ المقدَّسة التى بساحتها سكّانُها أُمِنوا الموتا
إلى عَلمِ الإيمان والقِبلة التى عليها بلامِسْكٍ دُلِلْتَ ووُجِّهْتَا
وميزانِ ربِّ العالمين الذى بهِ تُوَفَّى الثوابَ الجَزْلَ إن أنت وَفَّيْتَا

فالمستنصر وأمثاله ميزان الله فى الأرض ، بطاعتهم ومقدارها يكون الثواب وبعصيانهم ومقداره يكون العذاب ، ومايزال المؤيِّد يردد مثل هذا الضلال والبهتان فى ديوانه .

ومما ردده المؤيد طويلا نظرية الدور التى تصور إيمان الإسماعيلية فى أئمتهم وأنهم مثل العقل الفعال الأول فى عالم الطبيعة ، وهم لذلك يعدون مدبرين للكون ، وأيضا فإن أسماء الله الحسنى تُسْبَغُ عليهم ، وقد رُتِّبوا فى أدوار تشترك معهم فيها الأنبياء والرسل منذ آدم ، وكل منهم يمثِّل من سبقوه فى هذه الأدوار من الأئمة والرسل ، وفى ذلك يقول فى المستنصر وآله :

سلامٌ على العِتْرة الطاهره وأهلا بأنوارها الزَّاهِرَهْ
سلامٌ بدئٌ على آدمٍ أبى الخَلَقْ باديه والحاضره
سلامٌ على من بطوفانِه أُديرتْ على مَنْ بَغَى الدائره
سلامٌ على من أتاه السَّلامُ غداة أحفَّتْ به النائره[1]
سلامٌ على قاهرٍ بالعَصا عُصاةً فراعنةً جائِرهْ
سلامٌ على الروح عيسى الذى بمبعثه شَرُفَتْ ناصِرَه[2]
سلامٌ على المصطفى أحمدٍ ولىِّ الشفاعة فى الآخره
سلامٌ على المرتضى حَيْدرٍ وأبنائهِ الأنجمِ الزاهره
سلام عليك فحصولهم لديك أيا صاحبَ القاهره
بنفسىَ مُسْتَنصرًا بالإله جنودُ السماء له ناصرهْ
شهدتُ بأنك وَجْهُ الإلٰهِ وجوهُ الموالى به ناضِرَه

وواضح أن المؤيد بدأ سلامه بآل البيت ، ثم تلاهم بآدم ونوح صاحب الطوفان وإبراهيم الذى ألقاه النمرود فى النار فجعلها الله عليه بردا وسلاما وموسى صاحب العصا التى استحالت

(١) النائرة : نائرة الحروب : شرها

(٢) ناصرة : بلدة المسيح .

ثعبانا فى مجلس فرعون فإذا هى تلقف كل ما جاء به سحرته من سحر رهيب ، وعيسى الروح الأمين الذى شرفت به مدينته الناصرة ، ومحمدٍ المصطفى الشفيع المشفع فى الآخرة ، وعلى أو حَيْدر المرتضى وأبنائه الأئمة الأنجم الزاهرة . ويقول إن المستنصر لديه محصول كل هؤلاء الرسل وكل الأئمة فهو الرسول وهو عيسى وهو موسى وهو إبراهيم الخليل وهو نوح وهو آدم وهو على والأئمة جميعا قبله إماما إماما . وهو بذلك وارث الأئمة والرسل ، وارث علومهم ومعجزاتهم وخوارقهم . ولا يكتفى المؤيد بكل ذلك ، إذ يقول إن الملائكة جنده الذى ينصره فى معاركه ، وليس ذلك فحسب ، فإنه يتقدم خطوة بل خطوات إذ لا يُسْبغ عليه صفات الله وحدها ، بل يجعل ذاته نفس ذات الله إذ يقول إنه وجه الإله ، وكأنه اتحد معه فى ذاته تعالى الله عن هذا البهتان الآثم علوا كبيرا ، وهو ليس بهتانا فحسب ، بل هو ضلال مبين .

ظافر[1] الحداد

هو ظافر بن القاسم الإسكندرى ، من سلالة قبيلة جُذام اليمنية ، كان أبوه حدادا بالإسكندرية ، ولد له فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى ، ويبدو أنه أرسله فى صباه إلى الكُتّاب ، ورأى من ذكائه ماجعله يدفعه إلى حلقات العلماء ، وهو مع ذلك يعاونه فى حرفته . وأكبَّ الصبى على حفظ الشعر وكانت له ملكة خصبة ، سوَّتْ منه شاعرا كان يلفت أقرانه ، كما لفت كثيرين من شعراء الإسكندرية ، وكانت بها آنذاك نهضة شعرية واسعة ، جعلت شعراءها يتكاثرون ، كما جعلت العماد الأصبهانى فى الخريدة يترجم لكثيرين منهم . ولعل شيئا من العجب يداخلنا إذ نجد بين الشعراء هناك شاعرا حدادا ، ولكن إذا عرفنا أن الثقافة العربية الإسلامية كانت طوال الحقب السالفة ثقافة شعبية عامة إذ كانت تُلْقى بالمساجد ، ولكل شخص الحق فى أن يجلس إلى حلقة الشيخ الذى يريد الاستماع إليه ، وكانت للشعراء فى المساجد حلقات ، مما أتاح لشباب العامة المشاركة فى الشعر وفى العلوم العربية والإسلامية ، وتكثر هذه الظاهرة بين شعراء الدولة المملوكية ، إذ نجد بينهم جزارا وحَمّاميًّا ووراقًا وخيَّاطا وكحالا . وقد

---

(١) انظر فى ترجمة ظافر وشعره الخريدة (قسم شعراء مصر) ١/٢ وما بعدها ومعجم الأدباء ٢٧/١٢ ووفيات الأعيان لابن خلكان ٥٤٠/٢ والرسالة المصرية لأبى الصلت أمية فى الجزء الأول من نوادر المخطوطات لعبد السلام هرون والنجوم الزاهرة ٣٧٦/٥ وفى أدب مصر الفاطمية للدكتور محمد كامل حسين ص ١٩٠ وظافر الحداد لحسين نصار وديوانه بتحقيقه (نشر مكتبة مصر).

تفتحت موهبة الشعر عند ظافر مبكرة وتهيأت له فرصة أن يتألق اسمه بين شعراء مدينته ، فإن ابن ظَفر واليها من قبل الخليفة الفاطمى تصادف أن ورم خنصره وبه خاتم ، فخشى عاقبة الأمر وطلب حدادًا كى يكسر حلقته ، فجاءوه بظافر ، فلما كسر الحلقة أنشده بديها :

قَصَّـرَ فى أوصـافك العـالَـمُ واعترف النـاثـرُ والنـاظـمُ
من يكنِ البَحْرُ له راحةً يضيـق عـن خِنْصَرِه الخاتَمُ

فاستحسن ذلك منه ابن ظفر ووهبه الحلقة وكانت من ذهب . وكان بين يديه غزال مستأنس قد ربض أو طوى قوائمه ، وجعل رأسه فى حجره ، فقال له أحد الحاضرين : إن كنت ذا خاطر سمح فأنشدنا أسرع من لمح البصر فى هذا الغزال المستأنس ، فقال توًّا :

عـجبتُ لجرأة هـذا الغـزالِ وأمـرٍ تخطَّى لـه واعْـتَـمَـدْ
وأعجبْ به إذ بَدَا جاثما فكيف اطمـأنَّ وأنت الأسَدْ

فزاد ابن ظفر وجلساؤه فى الاستحسان . وكانت هناك شبكة مسدولة على باب المجلس تمنع الذباب من دخوله ، فتأملها ظافر وقال بديها :

رأيتُ بـبـابك هـذا المنيـفِ شِبـاكًا فـأدركنى بعضُ شَكّْ
وفـكَّـرْتُ فيما رأى خاطرى فـقلتُ البِحارُ مكانُ الشَّبكْ

وكانت هذه الحادثة سببا فى اشتهار ظافر بمدينته ، وتهاداه أعيانها وقضاتها مثل ابن أبى حديد قاضيها وله فيه مدائح طريفة .

وطمح ظافر إلى لقاء الأفضل بن بدر الجمالى وزير الفاطميين ، وكان قد حجر على الخليفة الآمر وأصبح له الملك والسلطان كله ، فاتخذ الأسباب إلى لقائه ، ولم يكد يستمع منه إلى مديحه حتى أكبره وقدَّمه على أقرانه ، وسكن ظافر بجواره فى الفسطاط ، وأخذ يدبِّج فيه مدائح طنانة ، وهو يغدق عليه من نواله مع راتب قدَّره له ، وإلى ذلك يشير قائلا :

وهذا الجنابُ الأفضلىُّ يُكِنُّنى ذُرى ظِلِّه إنى إذنْ لسعيدُ

وقُدِّر لهذه السعادة أن ينحسر ظلها عن ظافر إذ دبَّر الخليفة الآمر للأفضل من قتله غِيلة سنة ٥١٥ للهجرة ، وولى الوزارة بعد الأفضل المأمونُ البطائحى ، ولظافر فيه مدحتان يشكو فيهما من عوزه وضيق ذات يده ، ومع ذلك يشكره على ما أولاه من نعم . ويبدو أن ما نعم به فى زمن الأفضل

من أموال انقطع بعده إلا قليلا ، وكأن أبواب المأمون لم تكن مفتوحة له إلا من حين بعيد إلى حين ، ولا يلبث الخليفة الآمر فى سنة ٥١٩ أن يصادر المأمون ثم يقتله . حينئذ نجد ظافرا يفكر فى تقديم مدائحه للخليفة ، ولم يكن شيعيا فضلا عن أن يكون إسماعيليا طوال أيامه الماضية ، فقد رأيناه حين نزل الفسطاط يقصر مدائحه على الوزير الأفضل بن بدر الجمالى ، وكان سنّيًّا ، وكأن المأمون البطائحى من رجاله ، ولعله لذلك لم يكن شيعيا أو بعبارة أدق لم يكن غاليا فى تشيعه . على كل حال ليس فى مديح ظافر له وللأفضل ما يدل على صلته بالتشيع الإسماعيلى حتى هذا التاريخ . ولكن المأمون قُتل ، وكأنما دُفع دفعا لكى يمدح الخليفة الآمر ، فأكبَّ على ديوان ابن هانئ الأندلسى يدرسه ليتمثل معانى العقيدة الإسماعيلية ، ويرى نهجه فى عرضها بمديحه ليحتذيه ، يقول فى إحدى مدائحه للآمر مصرحا بذلك دون أى مواربة :

أجادَ ابْنُ هانى فى المعزِّ مدائحًا هداه إليها ذلك الفضلُ والمَجْدُ
وقد جادَ مَدْحِى فيك لما رأيتُ ما رأى فاستَوى المدحان والإبْنُ والجَدُّ

ونراه فى نفس هذه القصيدة يردد ما ردده ابن هانئ من أن طاعة الخليفة أو الإمام الفاطمى فريضة واجبة ، على كل إسماعيلى أن يعتنقها وأن يؤدى واجباتها ، يقول :

فمن عاشَ أحْياه نَدَاهُ ومن يَمُتْ على حُبِّهِ طوعًا فمسكنُه الخُلْدُ
أطاعتْه أسرارُ القلوبِ ديانةً فما لامرئٍ لم يعتقد حُبَّه رُشْدُ
فطاعتُهُ فرضٌ وخدمتُه تُقًى ونُصْرَتُهُ دينٌ ومَرْضاتُه جَدُّ

فطاعة الآمر وأمثاله من الأئمة فرض مكتوب ، فمن أطاعه فاز بالرضوان ومن عصاه كانت عاقبته الخسران ، وإن مرضاته لجَدٌّ أو حظ أكبر ، ولا إسلام إلا بطاعته وموالاته ومحبته . والآمر مثله مثل الأئمة قبله ، يرتفع فوق حدود الطبيعة البشرية ، إذ هو مثل العقل الفعال الأول الرابط بين الله والوجود ، وهو بذلك النورُ الإلهى ، نورُ السموات والأرض . ولن يفهم ظافر كل هذه الفلسفة الإسماعيلية المنحرفة التى تحدثنا عنها فى غير هذا الموضع ، وهو لذلك سيلتقط دون تعمق من ابن هانئ فكرةِ النور التى يرددها فى مديحه للمعز قائلا فى الآمر :

إمامٌ تبدَّى للوَرَى من جَبينهِ ضياءٌ به تُشْفَى بصائرُها الرُّمْدُ
ونورُك ما يُهْدِى الصباحُ لناظرٍ ولولاه ضَلَّ الناسُ وامتنع القَصْدُ

وكأن ظافرا ينقل ذلك عن ابن هانئ دون أن يدرك مقصده تماما وأن ممدوحه نور السموات والأرض ، وبالمثل نقل عنه نظرية الأدوار التى تزعم أن الأنبياء والأئمة الفاطميين إنما هم مظاهر دورية للعقل الفعال وحلقاته البادئة بآدم والتى ينتظم فيها نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ثم على وأبناؤه وأحفاده من الأئمة الطاهرين ، ويلم ظافر بظاهر من ذلك كله قائلا فى مدحة أخرى للآمر :

أنت الذى بعثَ الإلهُ لنا به ... آباءَهُ فتمثَّلوا بِمُثولِهِ
هذا ضياءُ اللهِ والمعنى الذى ... تتفاضلُ العلماءُ فى تَعْليلِهِ
مازال يَنْقُلُه الإلهُ مُطَهَّرًا ... عن ظَهْرِ مثلِ ذَبيحه وخليلِهِ
وتوارثَتْه الأنبياءُ وسادةُ الـ ... ـخلفاءِ حتى حان وقتُ حُلولِهِ

فآباء الآمر من الأئمة والأنبياء قد تمثلوا فيه بميراثهم الربانى من النور الذى يعمُّ أطباق السموات والأرض ، ومازال الله ينقل هذا النور من نبى إلى نبى ومن إمام إلى إمام من مثل إبراهيم وإسماعيل ذبيحه ومثل على وجعفر الصادق إلى أن حلَّ فى الآمر المطهر المحفوف بالعناية الإلهية والنَّفْحة النورانية ، ومن ثَمَّ كان ابن هانئ يقول فى المعز إنه جوهر الملكوت وإنه العقل المدبر للكون .

ولم يكن ظافر يتغلغل فى العقيدة الإسماعيلية هذا التغلغل ، بل كان يقف كما رأينا عند ظاهر من أقوال ابن هانئ فى المعز ويرددها فى الآمر . وهو معنى ما قلناه فى غير هذا الموضع من أن المصريين انصرفوا عن العقيدة الاسماعيلية ولم يحاول أحد منهم أن يكون داعية لهم على شاكلة المؤيد وابن هانئ . ولعل مما يؤكد ذلك عند ظافر أننا نجده يضيف إلى قيثارة مديحه للآمر وترين لا نجدهما عند ابن هانئ ، وهما ميراث الآمر وآبائه للرسول ﷺ ، مما جعله يتغنى بمعجزاته الخارقة من المعراج وغير المعراج ، ثم الاتساع بخياله فى بيان سحق جيوش الآمر للصليبيين ، وكانوا قد استولوا فى عهده على بيت المقدس وكثيرٍ من ثغور الشام وبلدانه ، والخليفة ووزيره الأفضل والمأمون يغطُّون فى غفلة لا تدانيها غفلة ، وكأن ظافرا يحاول إيقاظ الآمر ودفعه للذبِّ عن حُرمات الإسلام ودياره أمام حملة الصليب ، وهو فى ذلك إنما كان لسانا للمصريين يعبر عن فزعهم للغزو الصليبى وما يأملون من القضاء على حَملة الصليب قضاءامبرما . وهذا الوتر فى مدائح ظافر للآمر ووتر الميراث النبوى أتاحا لمدحته له أن لا تقف عند المبادئ الإسماعيلية فى مدح الأئمة الفاطميين إلا لماما وإلا عند هذا الظاهر السطحى منها الذى صوَّرْناه .

ودليل ثان على أن هذه المبادئ لم تتعمق نفس ظافر أنه حين قُتل الآمر سنة ٥٢٤ وتولى ابن عمه الخليفة الحافظ واتخذ أبا على بن الأفضل الجمالى السنى وزيرا له ، حينئذ نجد ظافرا يمدحه مدحا يخلو خلوا تاما من هذا الغلو الإسماعيلى الذى رأيناه فى مدائح الآمر . وكان من المبادئ الإسماعيلية أن يتولى الخلافة ابن الخليفة وتصادف أن الآمر لم يترك ابنا ، وقيل بل ترك طفلا رضيعا اسمه الطيب ، وتعصبت له جماعة سميت الطيبية وتعصبت جماعة أخرى سريعا للحافظ عبد المجيد ابن عم الآمر ، وأُخذت له البيعة واستولى على مقاليد الخلافة . وظل من ذلك جَمْر مختف وراء الرماد ، مما جعل ظافرا يدافع فى بعض مديحه للحافظ عنه وعن حقه فى الخلافة قائلا :

ورثَ ابنُ عمٍّ محمدٍ من بعده حقَّ الخلافةِ مُنْصفا فى نَقْلها
وورِثْتَ أنت عن ابن عَمِّك حقَّها فجرى قياسُ خلافةٍ فى شكلها

فالحافظ ورث الخلافة عن الآمر كما ورثها عن الرسول ﷺ ابن عمه على بن أبى طالب رأس الأئمة . ولا يلحّ ظافر فيما كان يعتقده الإسماعيليون فى أئمتهم من معان قدسية ومن رفعهم عن حدود الطبيعة البشرية المادية ، فهو إنما يمدح الحافظ بميراثه للرسول مما يجعله يطيل فى بيان معجزاته . ولعلنا لا نغلو إذا قلنا إن كل ما استبقاه من العقيدة الفاطمية فى مديحه قوله .

ياحُجَّةَ الله التى أبدتْ لنا بِكمالها الآياتِ والُبرهانا

وكأنما حدث انقلاب فى مديح ظافر للحافظ بالقياس إلى مديحه للآمر ، وليس له فى الحافظ إلا قصيدتان مع أنه عاش فى مدة خلافته خمس سنوات ، إذ توفى سنة ٥٢٩ . وأكبر الظن أن فيما قدمت ما يدل على أن ظافرا لم يكن إسماعيليا بالمعنى الدقيق ، وإنما هى فترة محدودة نحو أربع سنوات اضطر فيها لمديح الآمر على طريقة القوم ، مما جعله يعود إلى ديوان ابن هانئ يستظهر ما فيه أو بعضا مما فيه ، ولم يَعْدُ استظهاره قشورا ، ردَّدها حينا فى مديح الآمر ثم كفَّ عنها فى مديح الحافظ إلا ما سقط عفوا .

وبدون ريب كان ظافر شاعرا بارعا وفيه يقول العماد الأصبهانى فى ترجمته له بكتابه الخريدة : « ظافر ، بحظه من الفضل ظافر ، يدل نظمه على أن أدبه وافر ، وشعره بوجه الرقة والسلاسة سافر . حَدَّاد لو أُنصِفُ لسمِّى جوهريًّا ، وكان باعتزائه إلى نظم اللآلئ حريًّا ، أَهْدَى بِرَوِيِّ شعره

الرَّوِىّ للقلوب الصَّادية[١] رِيًّا ، فياله ناظما فصيحا مفلقا جَرِيًّا[٢] » . وحقا شعره غاية فى السلاسة والعذوبة ، وهى ظاهرة عامة تلاحظ دائما فى شعر المصريين ، كما يلاحظ عندهم على الأقل حتى زمن ظافر أنهم لا يتصنعون للبديع ومحسناته المعقدة ، قد تأتى عندهم وقد يستخدمونها أحيانا ولكن فى خفة ورشاقة . ودائما تلقانا عند ظافر العذوبة والرقة على نحو مانرى فى مثل قوله متغزلا :

ياساكنى مصرٍ أما مِنْ رَحْمَةٍ فيكم لمن ذهب الغرامُ بِلُبِّهِ
أمن المروءةِ أن يزورَ بلادكم مثلى ويرجعَ مُعْدمًا من قلبهِ

وهما بيتان فى منتهى السهولة ، وكان ينفذ كثيرا إلى صور طريفة مبتكرة ، وقد يبعد فيها حتى لتصبح كأنها رؤى حالمة على شاكلة قوله :

لئن أنكرتْ مقلتاها دَمَهْ فمنهُ على وَجْنَتَيْها سِمَهْ
وها فى أناملها بَعْضُه دَعَتْهُ خِضاباً لكى تُوهِمَهْ

وواضح أنه كان عند ظافر حظ من الخيال المغرق فى الوهم إغراقا يروع قارئه ، وسننشد له قطعة من غزله فى الفصل التالى ، ونكتفى بصورة واحدة من صوره الحالمة العجيبة لندل على هذه المقدرة البارعة ، وهى صورة وصف فيها الهرمين وأبا الهول وصفا لم يقع لشاعر من قبله ولا من بعده ، يقول :

تأمَّلْ بِنْيَةَ الهرمين وانْظُرْ وبينهما أبو الهولِ العجيبُ
كعَمَّارِيَّتَيْنِ على رحيلٍ لمحبوبين بينهما رقيبُ
وماءُ النِّيل تحتهما دموعٌ وصوتُ الريح عندهما نحيبُ

وهى صورة مركزة لمشهد واسع كبير استحال إلى هذه الرؤيا الحالمة ، فالهرمان كأنهما عمارِيَّتان أو هودجان هرميا الشكل لمحبوبين بينهما أبو الهول وكأنه رقيب ، يشهدهما ساعة الوداع ، وهما يذرفان الدمع مدرارا ، ويهمى تحت أقدامهما نهرا فياضا كبيرا هو نهر النيل ، والريح من حولهما تنتحب وتئن أنينًا لا ينقطع . ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن ظافرا كان أبرع شاعر عرفته مصر زمن الدولة الفاطمية .

---

(١) الصادية : الظامئة .

(٢) جريا : جريئا .

الفصل الرابع

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل

لعل موضوعا لم يشغل شعراء مصر طوال هذا العصر كما شغلهم الغزل ، الذى يصور عاطفة الحب الإنسانية الخالدة ، والذى طالما تغنَّى به الشعراء مصورين حبهم للمرأة وهيامهم بها ، وما شعروا به من سعادة حين أقبلت عليهم ولو بعض الإقبال وما شعروا به من شقاء حين كانت تعرض عنهم ولو بعض الإعراض . أما حين كانت تقبل فكأنها تناولهم شرابا هنيئا بل رحيقا صافيا لا يدانيه رحيق ، وأما حين كانت تعرض فكأنها تلق عليهم شواظا من نار يلذع قلوبهم وأفئدتهم ، ويصور الشاعر كيف يتصل ذلك كله بقلبه وبنفسه وبأحاسيسه ومشاعره ، يصور ما يجد فى حبه من لذة أو ألم ومن نعيم أو جحيم . ولا يكاد يوجد محب إلا وهو يخشى القطيعة والفراق إلى غير مآب ، فإن حدث الفراق فإنه يشكو ويضرع ويستعطف . لقد حُرم حتى من الإشارة واللمحة من بعيد ، ولكن الأمل فى اللقاء يظل يراوده مهما تجرَّع من الآلام واحتمل من ألوان العذاب ، ويبدىء ويعيد فى تصوير عذابه وآلامه لعل صاحبته تعطف عليه وتعيد ما كان بينها وبينه من وصال . وحقا قد تلقانا فى تضاعيف ذلك صور من الحب الجسدى الذى تمليه الغرائز ، وهو خليق بالازدراء ، إنما الذى يملؤنا إعجابا هو الحب العذرى العفيف الطاهر الذى يشغف قلوب أصحابه ويملؤهم بوجد ليس بعده وجد ، وجد لا يخجلون منه ولا يستخزون ، لأنه لا يتعلق بمآرب مادى ، فحسبهم الوصال واللقاء ، وهنىء لهم عذابهم بهذا الحب الذى ليس بعده عذاب ، إنه حب قوى حار ، حب نقى صاف ، حب يمتلئ احتانًا . وسواء استحال هذا الحب نارا من اليأس أو نورا من الأمل فإن تعقبه عند الشعراء المصريين وعَرْضَه فيه كثير مما يلذّ النفس ويمتعها ، وخاصة ما نفذوا إليه من غزل وجدانى صادق فى وصف حبهم وما انطوت عليه قلوبهم من مشاعر الصبابة ، مما سنراه واضحا عند ابن النبيه والبهاء زهير .

ويخيل إلى الإنسان كأنما أوقد الحب جذوة من النار لا تنطفئ أبدا فى قلوب الشعراء ، فهم دائما يَصْلَوْنَها ويَصْلَوْنَ معها البعد والفراق ، وحتى مع القرب يَصْلَوْنَ عذاب الحب ، دون إشفاق أو عطف أو رحمة ، على نحو ما يقول ابن هانئ[1] .

فَتَكاتُ طَرْفِكِ أم سيوفُ أبيكِ وكئوسُ خمرٍ أم مَراشفُ فيكِ
أجِلادُ مُرْهَفةٍ وفَتْكُ محاجِرٍ ما أنتِ راحمةٌ ولا أهلوكِ
يا بِنْتَ ذى السَّيْفِ الطويلِ نِجادُهُ أكذا يجوز الحكمُ فى ناديكِ
عَيْناكِ أم مَغْناكِ موعدُنا وفى وادى الكرَى ألقاكِ أم واديكِ
قد كان يدعونى خيالُكِ طارقًا حتى دعانى بالقَنا داعِيكِ
منعوكِ من سِنَةِ الكرَى وسَرَوْا فلو عَثَروا بِطيفٍ طارقٍ ظَنُّوكِ

وهو لا يدرى كيف يتقى فتكات طرف صاحبته التى تشبه أتم الشبه فتكات سيف أبيها ، وإنها جميعا لتصيبه فى الصميم دون أى رأفة ، وإنه ليائس يأسا شديدا من رأفة أبيها وأهلها ، فلا يأمل فى رؤية لها أو لقاء ، ويتعلل بلقائها ورؤيتها فى الكرى والأحلام ، ويألم ألمًا شديدًا ، فقد منعوا طيفها من الإلمام بعينيه فى الحلم ، وإنه ليبيت خائفا منهم حذرا ، أن تسفر له عن وجهها الباسم حتى فى النوم ، فما أشقاه وما أشد عذابه ، إذ لا يجنى من حبه لها سوى الألم والحرمان واللوعة .

ولم يكن تميم بن المعز الفاطمى أقل منه لوعة وأسى حين صور وداعه لصاحبته ، وهى لا تقل عنه أسى والتياعا ، يقول[2] :

مازال فى الحبِّ شوقٌ موجعٌ وأسًى مبرِّحٌ يَقْطَعُ الأحْشاءَ والكَبِدا
حتى رمى البَيْنُ بالتفريق أُلْفَتَنا وحَلَّ من وَصْلِها ماكان قد عُقِدَا
فآهِ من لوعةٍ مشبوبةٍ وجَوًى فى الصدر لم يُبْقِ لى صَبْرًا ولا جَلَدَا
قالتْ وعَبْرَتُها مخلوطةٌ بِدَمٍ تَجْرِى وأنفاسُها مرفوعةٌ صُعُدَا
لا تطلبِ النطقَ منى بالسَّلام فما أَبْقَى فراقُكَ لى روحًا ولا جَسَدا

وهو يصور أساه فى حبه وكيف يفتت منه الأحشاء والكبد ، وإذا البين ينعب بالفراق ، فيلتاع لوعة تستعر بين جوانحه ، ويتهالك ويفقد الصبر والجلد ، بينما هى تذرف الدمع مدرارا مرسلة

---

(١) ديوان ابن هانئ (طبعة زاهد على) ص ٥٣١ . (٢) ديوان تميم ص ١٣١ .

أنفاسا حارة ملتهبة ، وتتلطف له قائلة لا تطلب منى النطق بالسلام ، فلم أعد أستطيع الكلام ، وتشعر كأن الفراق يكلفها من الجهد فوق ما يطيق جسدها وروحها ، بل لكأنما لم يعد لها جسد ولا روح . ويعود إلى تصوير لوعة هذا الفراق لمحبوباته فى الديوان مرارا بمثل قوله[١] :

قالتْ وقد نالها للبين أوجعُه والبينُ صعبٌ على الأحباب موقِعُهُ
اجعلْ يديك على قلبى فقد ضَعُفَتْ قُواه عن حَمْلِ ما فيه وأضلعُه
كأننى يوم ولَّت – حسرةً وأسًى – غريقُ بَحْرٍ يرى الشاطئ ويُمْنَعُهُ

فقد ارتفع نبضها وعلت ضرباته ، وتحس كأنما لم يعد فى قلبها فضلٌ من قوة تستطيع به أن تحتمل صدمة الفراق المروعة ، وتميم يبادلها نفس المشاعر ونفس الآلام والأوجاع ، وإنه ليذوب حسرة وأسى لفراقها ، ولا يستطيع أن ينقذها وينقذ نفسه من هذه المحنة ، وكأنه غريق تلعب به الأمواج وهو يرى الشاطئ ولا يستطيع وصولا إليه . وعلى الرغم من أنه كان أميرا وكان ابن الخليفة المعز تلقانا عنده مشاعر الحب الحقيقية التى ترتفع عن أدران الحسِّ ، ومن طريف قوله فى بعض غزله[٢] :

قلتُ اسْمَحى لى بتقبيلٍ أعيش به قالت : وأىُّ محبٍّ قَبَّل القمَرا

ومرَّ بنا فى ترجمة ظافر الحداد أن له غزلا رقيقا يطير عن الفم بخفة وأنشدنا له قطعتين ، واشتهر بقصيدة له ذالية أو اختار أن تكون ذالية ليدل على قدرته فى النظم على هذه القافية التى يظن أنها تستصعب على الشعراء ، وهى قصيدة غزلية ، تجرى على هذا النمط[٣] :

لو كان بالصبر الجميل مَلاذُهُ ما سَحَّ وابلُ دمعه ورَذَاذُهُ
من كان يرغبُ فى السلامة فليكن أبدًا من الحدَقِ المِراض عِياذُه
لا تخدعنَّك بالفتور فإنَّه نَظَرٌ يضرُّ بِقَلْبِك استِلذاذُهُ
يا أيها الرَّشأ الذى مِنْ طَرْفِهِ سهمٌ إلى حَبِّ القلوب نفاذُه
دُرٌّ يلوح بِفيك مَنْ نظَّامُهُ خمرٌ يجولُ عليه مَنْ نَبَّاذُه[٤]
وقناةُ ذاك القَدِّ كيف تقوَّمتْ وسِنانُ ذاك اللَّحْظِ ما فولاذُهُ
رِفْقًا بجسمك لا يذوبُ وإننى أخشى بأن يَجْفُو عليه لاذُهُ[٥]

---

(١) الديوان ص ٢٦٠ .
(٢) الديوان ص ١٥٢ .
(٣) ابن خلكان ٥٤٠/٢ والنجوم الزاهرة ٣٧٦/٥ .
(٤) النباذ : صانع النبيذ
(٥) اللاذ : ثوب من حرير

والقصيدة على هذه الشاكلة تسيل رقة وعذوبة ، حتى مع قوافيها الذالية ، وتملأ صوره النفس بهجة ، فهذا الرشأ أو الظبى الجميل الغرير يرسل سهامه وهى سهام حقيقية تنفذ إلى حَبِّ القلوب وسويدائها ، ويخال دُرًّا ملء فمها ويتساءل من نظمه فى هيئته البديعة ، أما ما حوله من رُضاب أو ريق فخمر حقيقية ويتساءل من النباذ الذى صنع هذه الخمر العجيبة ، ويشتد به العجب وهو ينظر إلى قامة صاحبته واستوائها الرائع ، ويتساءل أى فولاذ صلب اتُّخذ منه سنان لحظها المرهف القاطع النافذ إلى الأفئدة . وإن جسد صاحبته ليذوب رقة ما بعدها رقة ونعومة ما تماثلها نعومة ، حتى ليظن كأن اللاذ أو الحرير الذى تلبسه ينبو عليه لشدة لطفه ورهافته . وله يتغزل موجهًا الخطاب إلى معاتبه فى حبه وتهالكه فيه(١) :

عتبتَ ولكننى لم أعِ ... وأين ملامُكَ من مَسْمَعى
وما قدرُ عَتْبِكَ حتى يزيل ... غراما تمكَّنَ من أضْلعى
ومـــا دام لومُكَ إلا وأنْت ... تَقْدِرُ أنَّ جَنانى معى
مضى كى يودِّع سُكَّانَهُ ... غداةَ الفِراق فلم يرجعِ
فؤادىَ فى غير ما أنت فيهِ ... فخُذْ فى ملامته أودَعِ

والقطعة تموج برقة الحسّ ولطفه إلى أبعد حدود الرقة واللطف اللذين يشتهر بهما أهل القاهرة من قديم ، وليس فيها لفظة غريبة بل كأنه تعمد أن يختار ألفاظها أقرب ما تكون إلى لغة الحياة القاهرية اليومية . ولا نبعد إذا قلنا إنها تعد هى ونظيراتها عند ظافر مقدمة للغزل الوجدانى الصافى الذى سنعرضه عند ابن النَّبيه ومعاصريه . وهو يقول لصاحبه فى القطعة بمنتهى الرقة والتلطف كفى عتابا فقد سلبت محبوبتى عقلى وسمعى ، وملك حبها جَنانى ، بل لقد مضى وراءها منذ الفراق ولم يعد . فأنا لا أعقل ولا أسمع شيئا مما تقول ، ويتلطف إليه غاية اللطف حين يترك له الخيرة فى أن يستمر فى لومه أو يكف عنه ، وعادة المحبين أن يَعْنُفوا بلائميهم فى الحب ، وظافر لا يعنف بل يتلطف فى ود ارقيق .

وربما كان من تتمة الرقة فى غزل الشعراء المعاصرين لظافر أن نجد ابن قادوس الدمياطى يتغزل بجارية سوداء ، محاولا بكل ما استطاع أن يرد عنها ما يُظَنُّ من قبح السواد ، يقول(٢) :

---

(١) الخريدة (قسم شعراء مصر) ٦/٢

(٢) الخريدة ٢٣٢/١ .

وعاذلٍ مُختَفلٍ مجتهدٍ فى عَذَلى
يلومنى فى ظَبْيةٍ مخلوقةٍ من كُحُلِ
إن السَّوادَ علَّةٌ من نورِ هذى المُقَلِ
والحَجَرُ الأسودُ لم يُخْلَقْ لغير القُبَلِ
والقارُ — مذ كان — وعا ءُ السَّلْسَبيل السَّلْسَلِ

فقد دافع عن تلك الجارية دفاعا بديعا . إذ جعلها مخلوقة من الكحل الذى تزدان به الحسان فى عيونها ، بل جعلها مخلوقة من سواد العيون الذى تبصر به من حولها النور المنبثق فى الكون ، وإنه ليذكر الحجر الأسود وإكباب الحجاج على تقبيله ، كما يذكر القار أو القطران واتخاذه فى دعم الجدر لآنية الماء العذب . وهو ظرف بالغ من ابن قادوس ، ظرف نعرفه دائما للشعراء المصريين . وكانوا يسندون هذا الظرف بكثير من الصور الخيالية المبتكرة ، وقد يبالغون فى وصف هيامهم مبالغة بعيدة على نحو ما نقرأ للمهذب بن الزبير[١] :

إذا أحرقتْ فى القلب موضعَ سُكناها فمن ذا الذى من بعدُ يُكرم مَثْواها
وما الدمعُ يوم البَيْن إلا لآلئٌ على الرَّسْم فى رسم الديارِ نثرناها[٢]
وما أطلعَ الزَّهْرَ الربيعُ وإنما رأى الدَّمْعُ أجيادَ الغُصونِ فحلاَّها
ولما وقفنا للوداع وترجمتْ لعينىَ عما فى الضمائر عَيْناها
بدتْ صورةً فى هيكلٍ فلو انَّنا ندينُ بأديان النَّصارى عبدناها

وهو يشكو من النار التى دلعتها صاحبته فى فؤاده ، ويقول لها إنه مسكنك فإذا لم تبق عليه فأين يكون مثواك ، استعطاف واسترحام ، فقلبه مُلئ بها فتونا بل نارا موقدة ، وقد أزمعت البين والفراق وهو ينثر دموعه نثرا . ويمتد به الخيال فيظن أن الندى العالق بغصون الأشجار دموعه ، ويعلن سحرها له وشغفه بها ، وكيف يعبث جمالها بفؤاده ، حتى لتبدو له وكأنها صورة فى هيكل تقدَّم لها القرابين والتراتيل ، ويوشك أن يعبدها كما يعبد النصارى المسيح . ونحس عند المهذب نقلة لشعر الغزل المصرى ، إذ يستحيل وجدًا وصبابة ورقة وخفة من مثل قوله[٣] :

(١) معجم الأدباء ٩/٦١ .
(٢) على الرسم : على العادة .
(٣) الخريدة ١/٢١٦ .

هُمْ نُصْب عينى أَنْجَدُوا أو غاروا ومُنَى فؤادى أنصفوا أو جاروا[١]
فارقتهم وكأنهم فى ناظرى مما تمثُّلهم لىَ الأفكار
تركوا المنازلَ والديار فمالهم إلا القلوبَ منازلٌ وديارُ
واستوطنوا البِيدَ القِفارَ فأصبحتْ منهم ديارُ الإنسِ وهْىَ قِفار
فلئن غَدتْ مصرٌ فلاةً بعدهم فلهم بأجواز الفَلا أمصار[٢]
أو جاوروا نجدًا فلى من بعدهم جاران : فيض الدمع والتَّذكار
والدهر ليلٌ مذ تناءت دارهم عنى وهل بعد النهار نهارُ

إنه لن ينساهم أبدا مهما أنجدوا أو غاروا ومهما شرقوا أو غربوا ، ومهما أنصفوه أو ظلموه ، لقد فارقوه وصورهم ماثلة فى خياله لا تبرحه ، وحقا تركوا المنازل والديار ، ولكنهم تركوا وراءهم منزلا عظيما ، لا تزايله صورهم ، إنه قلبه الملتاع المطوى على حبهم . وينظر إلى الديار والمنازل حوله بمصر فيظنها فلوات ومفازات ، فقد غادروها قفرا يبايا خرابا إلى ديار كانت خالية موحشة فأصبحت بهم أمصارا ، وليس من جار له فى قفره الخرِب إلا جاران : تذكارهم ودموعه المنهلة التى لا ترقأ أبدا ، وقد أظلمت الدنيا فى عينيه . حتى غدا النهار مظلما داجيا ، فقد أخذوا معهم كل شىء حتى النهار وضياءه . وله أبيات غزلية خفيفة من مثل قوله[٣] :

لم يَهُنْ قَطُّ علينا بُعْدُكم مثلما هانَ عليكم بُعْدُنَا
لم تبالوا إذ رحلتم غُدْوَةً أىَّ شىء صَنَعَ الدهرُ بنا

وقوله[٤] :

أحبابَنا ما بالُكم فينا من الأَعْداء أَعْدَى
وحياة وُدِّكمُ وتُربة وصلكم ماخنتُ عَهْدًا

والرقة واضحة فى الأبيات ، وواضح فى البيت الأخير الظرف المصرى ، فالوصل مات وقُبر والمهذب يحلف - كما يحلف المصريون حتى اليوم بأعزائهم وتُربهم أو قبورهم - بتربة الوصل العزيز وما سكب عليه من الدموع الحارة .

(١) أنجدوا : دخلوا نجدا . غاروا : دخلوا الغور أى تهامة .
(٢) أجواز : جمع جوز : وسط .
(٣) الخريدة ٢١٩/١ .
(٤) الخريدة ٢١٤/١ .

ويلقانا فى أوائل أيام صلاح الدين الأيوبى على بن الدباغ الإسكندرى ، ومن بديع ماله فى الغزل أبياته المشهورة[١] :

يـارب إن قـدَّرتَـهُ لِـمُقَبَّلٍ غيرى فـلِـلْـمسواك أوللأكْؤسِ
ولئن قضيتَ لنا بصحبة ثالثٍ يارَبِّ فلْيَكُ شمعةً فى المجلسِ
وإذا قضيت لنا بعين مراقبٍ فى السرِّ فَلْتكُ من عيون النَّرْجِسِ

وابن الدباغ يصور فى أبياته أنانية المحب وكأنه يحب نفسه كما يحب محبوبته ، بل هو يرى فيها ظلال نفسه ، ولذلك يتمنى لها ما يتمنى لنفسه من أن لايقبِّل شَفَتيها سوى المسواك للوضوء والأكؤس أو الأكواب للشراب ، وأن لايصحبها ثالث إلا أن يكون شمعة تضىء المجلس ، وإذا كان لابد من عين لرقيب فلتكن من عيون النرجس .

وكان القاضى الفاضل وزير صلاح الدين يجنح إلى استخدام المحسنات البديعية وإلى صور مختلفة من التكلف ، وكان قد نشأ بمصر وتنفس فى حياتها الأدبية ولعله لذلك يؤثر من حين إلى حين السهولة فى غزله وأن يَمْتح من المعين المصرى العذب كقوله[٢] :

ياطَرْفُ مالك ساهدًا فى راقدٍ ياقلبُ مالك راغبًا فى زاهدِ
من يشترى عمرى ، الرخيصَ جميعَهُ من وَصْلك الغالى بيومٍ واحدِ
عـاتـبـتُـه فـتـورَّدت وَجَـنـاتُـهُ والقلبُ صخرٌ لايلينُ لقاصِدِ

والقطعة مكتظة بالطباق ولكن لا نكاد نحسه ، لأن الألفاظ متداخلة متواصلة ، وهو يصور فيها انصراف المحبوبة عنه ، بينما هو واله بها واجد ، وعاتبها فتضرجت وجناتها بالخجل ، غير أنها ظلت منصرفة عنه لا تلين له ولا تعطف عليه ، ومن غزله البديع قوله[٣] :

تُرَى لحنينى أو حَنينِ الحمائمِ جرتْ – فحكتْ دَمْعى – دموعُ الغمائمِ
وهل من ضلوعٍ أو ربوعٍ ترحَّلوا فكلٌّ أراها دارساتِ المعالمِ
لقد ضعفتْ ريح الصَّبا فوصلتُها فمِنِّىَ لامنها هبوبُ السَّمائمِ

وهو ترداد طريف ، فهو لا يدرى أيحاكى السحاب فى قطره المنهل حنينه الملتاع أو هو يلبى

(١) الخريدة ١٣٣/٢ وخزانة الأدب للحموى (طبع مطبعة بولاق) ص ٢٤٦ .

(٢) الخزانة ص ٢٤٧ .

(٣) الخزانة ص ٢٤٦ .

الحمائم وما ترسل من حنين شجي ، وهو لا يدرى أيضا أى منازل رحل عنها أحبابه أهي الربوع أو الضلوع . فكلاهما أطلال دارسة ، ويبلغ به الخيال أن يظن أنفاسه الحارَّة امتزجت بنسيم الصبا ، فأحالته سمائم لافحة .

ونلتقى بخِدْن القاضى الفاضل ورفيقه : ابن سَناء الملك أكبر شعراء مصر فى العصر ، وشعره يموج بوجد لا حدود له ولا ضفاف ، وجد يشقى به تارة وينعم به تارة ، إذ يذوق لذة الحب المؤلمة والحلوة ، حتى إذا اختلس قبلة أو ضمَّة كاد يطير من الفرح طيرانا ، مهما تأبَّت عليه محبوبته ومهما صدت عنه ونفرت منه ، بل إنه ليلقى ذلك كله بحنان لا يماثله حنان ، يقول[1] :

لا أجازى حبيبَ قلبى بجُرْمهْ أنا أحْنَى عليه من قَلْب أمِّهْ
ضَنَّ عنى بريقه فتحيَّلْـ ـتُ إلى أن سَرَقْته عند لَثْمِه
وإلى اليوم من ثلاثين يوما لم تَزُلْ من فَمى حلاوةُ طَعْمه
إن قلبى لصدره ورقادى ملكٌ أجفانه وروحى لجسمه
يَكْسِرُ الجَفْنَ بالفتورِ ومالى عملٌ عند كَسْرِهِ غيرُ ضَمِّه

والأبيات تموج بالعذوبة والظرف ، فكله حنان لصاحبته ، حتى ليفوق حنوّه عليها حنوَّ الأم . ومازال بها حتى اقتطف منها خلسة قبلة ، ومرت الأيام ولاتزال حلاوتها فى فمه ، ويشعر كأن كل شيء فيه لها : قلبه وروحه ، وملك أجفانها رقاده وسهده . وتصنَّع فى البيت الأخير لاستخدام مصطلحى الكسر والضم عند النحاة ، ومع ذلك أوقعها فى موضعها ، فلا نحس فيهما تصنعا ولا ما يشبه التصنع ، ومن قوله[2] :

نَعِمَ المشوقُ وأنعم المعشوقُ فالعيشُ كالخَصْرِ الرقيقِ رقيقُ
خَصْرٌ أديرُ عليه مِعْصمَ قُبْلَةٍ فكأن تقبيلى له تَعْنيقُ
ونعم لقد طرق الحبيب وماله إلا خدودُ العاشقين طريقُ
فرشوا الخدودَ طريقه فكأنما زفراتهم لقدومه تطريقُ[3]
وافَى وصُبْحُ جَبينه متنفِّسٌ وأتى وجِيدُ رقيبهِ مخنوقُ

(١) الديوان ص ٦٦٤ .
(٢) الديوان ص ٥٠٢ .
(٣) التطريق : تسهيل الطريق للمارة .

وهي لحظة من لحظات الحب الحلوة صورها ابن سناء الملك تصويرا بديعا ، فقد سعد العاشق الولهان بما أنعم عليه المعشوق من لقاء ، وأحس بابتهاج ما بعده ابتهاج ، فقد زارته المحبوبة الفاتنة التي شغفت قلوب كثيرين ، وإنهم ليفرشون طريقها بخدودهم لتطأ عليها ، مرسلين زفراتهم ، وكأنما يمهدون بها الطريق لها ، وقد وافت بجبينها المشرق إشراق الصباح ، وغَصَّ الرقيب بريقه حتى كأنه مخنوق . ومن طرائف غزله قوله[1] :

سَعِدْتُ ببدرٍ خَدُّهُ بُرْجُ عَقْرَبٍ فكذَّب عندى قولَ كلِّ منجِّمِ
وأقسمُ ما وجهُ الصباحِ إذا بدا بأوضحَ منى حُجَّةً عند لُوَّمى
ولا سيَّما لما مررتُ بمنزلٍ كفضلةِ صَبْرٍ فى فؤادِ متيَّمِ
وما بانَ لى إلا بعودِ أراكةٍ تعلّق فى أطرافه ضوءُ مَبْسِمِ[2]
وقفتُ به أعتاضُ عن لثْم مبسمٍ شهىٍّ لقلبى لَثْمَ آثارِ مَنْسِمِ[3]
بكيتُ بكلتَىْ مُقْلتىَّ كأننى متمِّمُ ما قد فات عَيْنَىْ مُتَمِّمِ

وهو يقول إنه سعد برؤية هذا البدر وما سال على خده من عقرب الشَّعْر ، مما جعله يكذِّب قول المنجمين أن برج العقرب فى السماء إذ رآه على خد صاحبته الفاتنة . وإن فتنتها وما تدلع فى قلبه لأنصع برهان له عند لائميه ، أنصع من الصباح فى وضوحه وضيائه . وقد مرَّ بمنزلها الذى لا يكاد يبين ، كما لا يكاد يبين الصبر فى فؤاد العاشق الولهان ، وبان له بفضل عود أراك كانت تستاك به صاحبته قبل الوضوء ، إذ تعلَّق بأطرافه ضوء من مبسمها ، واهتدى إليها وإلى منزلها على لألائه فوقف مبهوتا مشدوها ولا أمل له فى قبلة يقتطفها أو ما يشبه القبلة ، وأقبل يلثم آثار منسمها أو طريقها باكيا بدموع غزار ، باكيا بمقلتيه وكأنه يتمم بكاء متمِّم بن نويرة على أخيه مالك وقد اشتهر بكثرة بكائه عليه ، وكان أعور فما زال يبكيه حتى دمعت عينه العوراء . وعلى هذا النحو لا يزال ابن سناء الملك يتقلب بين لحظات حب مؤلمة مبكية وأخرى مفرحة مبهجة . وكان يلوب لطفا ورقة مما جعله يتغزل – كما أشرنا فى ترجمته ، ببعض من فقدن بصرهن ، وهو يحتال فى غزله بهن على إيراد ألوان من حسن التعليل ترفع عنهن هذا الضيم الذى نزل بهن ، من مثل قوله[4] :

فَتَنَتْنِى مكفوفةٌ ناظراها كتبا لى من الجراحِ أمانا

(١) الديوان ص ٦٩٨ .
(٢) مبسم : ثغر
(٣) المنسم : طرف خف البعير ويريد راحلة الحبيبة .
(٤) الديوان ص ٨٤٦ .

فَهْى لم تَسْلُل الفُتورَ حُسامًا لا ولم تحمل اللَّحاظَ سِنانا[١]
وَهْىَ بِكْرُ العَيْنَين مُحْصَنَةُ الأجْـ ـفان ما افتضَّ مِيلُها[٢] الأجفانا
قَصَرتْ عشقَها علىَّ فلم تعـ ـشَقْ فلانًا إذ لم تُعاين فلانا
لا ولم تبصر الرجال فتختا ر على مُلْتحيهم المُرْدانا
عميتْ من هَوايَ وارتحلَ الإنـ ـسانُ من عَيْنها وأخلى المكانا
علمتْ غَيْرتى عليها فخافتْ أن تسمِّى غيرى لها إنسانا

وهو يعلن إليها فتنته بحسنها ، وهى فتنة ممزوجة بغير قليل من الرضا والغبطة ، إذ أمن عندها أن تصمى سهام عينيها قلبه ، أو يصحبه حسام الفتور وسنان اللحاظ ، ويصفها ببكارة العينين وطهارة الأجفان ، إنها عذراء البصر ، لم يمس مِيل الكحل عينيها ، وإنها لتفرده بالحب إذ لم تر ولم تبصر سواه ، فهو دنياها غير مفكرة فى شيب وشبان ، إذ لا تعرف الفرق بين أصحاب اللحى والمردان . وتبلغ به الرحمة والإشفاق والعطف عليها أن يقول إنها فقدت بصرها بسبب حبه ، وبذلك خلا مكان إنسان العين منها ، وكأنما عرفت غيرته عليها حتى من إنسان عينها ، فنحَّته عنها ، حتى لا يكون لها إنسان سواه . وكل ذلك لطف من ابن سناء الملك ورقة ورحمة وعطف وحنان ما بعده حنان . وهو بحق يعد فى الذروة من شعراء العرب النابهين الذين يمتازون بدقة الحس ورهافة الشعور وروعة المعانى والتصاوير .

ويتفجر هذا الغزل الوجدانى البديع على كل لسان بعد ابن سناء الملك ، وكان من أهم الأسباب فى ازدهاره الشعر الصوفى الذى ذاع وشاع منذ زمن الدولة الأيوبية ، فإن الصوفية من أمثال ابن الكيزانى وابن الفارض أذاعوا فيه وجدا ملتاعا وكان لذلك أصداؤه الواسعة فى غزل الشعراء ، فانفكوا من أصداف البديع ومن الأخيلة الجامدة المتحجرة ، وأخذوا يصورون حبهم وما يذوقون فيه من الوجد والصبابة وما يثير فى قلوبهم من المشاعر والعواطف وما يصطلون فيه من العذاب والآلام : آلام الفراق وعذاب الإعراض ، من ذلك قول الحسن بن شاوَر فى بعض غزله[٣] :

قلَّدتُ يوم البين جِيد مودِّعى دُرَرًا نظمتُ عقودَها من أدمعى

---

(١) اللحاظ : مؤخر العين مما يلى الصدغ .
(٢) الميل : المكحل أو المرود وهو مايوضع به الكحل فى العين .
(٣) فوات الوفيات ١/٢٣٦ .

وحدا بهم حادى المطىِّ فلم أجد قلبى ولا جَلَدِى ولا صبرى معى
يانفسُ قد فارقتِ يوم فراقهم طيبَ الحياةِ ففى البَقا لا تطمعى
هيهات يرجعُ شَمْلُنا بالأجْرَعِ ويعود أحبابى الأُلى كانوا معى[1]
بحياتكم جودوا علىَّ تكرُّمًا فعسى خَيالُكمُ يلمُّ بِمَضْجَعى
فلقد عدمتُ الصبرَ يوم فراقكم وتضرَّمتْ نارُ الأسى فى أضْلُعى
ياناز حين فهل لكم من عودةٍ نزحَ التفرُّق ما بقىْ من مَدْمعى
لو لم تعودوا للديار وترجعوا لهلكت من شوق وفَرْط توجُّعى

وابن شاوَر فى أول الأبيات يبكى يوم البين والفراق شاعرا بأنه يعجز عن احتمال هذه المحنة التى خانه فيها صبره وتجلده ، بل التى توشك أن تقضى عليه ، لقد تفرق شملهم ، ولم يعد هناك أمل فى لقاء بالأجرع : لقاء أحبابه ومهوى فؤاده . ويستحلفهم وقد حرموه طلعة وجوههم فى اليقظة أن لا يحرموه طيفهم فى المنام ، لعله يخفف من نار الحب المضطرمة فى صدره . ويتمنى عودة لهم أو رجعة تردُّ إليه روحه وتردّ عنه أوجاعه من الحب الملتهب وأوصابه .

ونلتقى بتقى الدين[2] السروجىّ المولود سنة ٦٢٧ والمتوفى بالقاهرة سنة ٦٩٣ ويقول عنه أبو حيان : كان مع زهده وعفته مغرما بحب الجمال وكان يغنَّى بشعره الغرامى المغنون لرقة انسجامه وعذوبة ألفاظه ، ومن غزله :

أنْعِمْ بوصلك لى فهذا وَقْتُهُ يكفى من الهجران ما قد ذُقْتُهُ
يا من شُغلتُ بحبِّه عن غيره وسلوتُ كلَّ الناس حين عشقته
بالله إن سألوك عنى قل لهم عَبْدِى ومِلْكُ يدى وما أعتقتُه
أو قيل مشتاقٌ إليك فقل لهم أدرى بذا وأنا الذى شوَّقته
ياحُسْنَ طيفٍ من خيالك زارنى منْ عُظْمِ وَجْدِى فيه ما حَقَّقْتُهُ
فمضى وفى قلبى عليهِ حسرةٌ لوكان يمكننى الرُّقادُ لحقته

وهو يتضرع لمحبوبه أن ينعم عليه بالوصل بعد طول الهجران والعذاب فى حبه وانشغاله الدائب بعشقه ، ويقول متذللاً له إنه عبده وملك يده ولن تُرَدَّ إليه حريته ، ويشكو لواعج الشوق ،

(١) الأجرع : الأرض ذات الحزونة المشاكلة للرمل .
(٢) انظر فى ترجمة السروجى وشعره فوات الوفيات ٤٦٦/١ وخزانة الأدب للحموى (طبع بولاق) ص ٢٤٥ .

ويأسى لنفسه إذ رأى طيفه فى المنام ولم يكد يحققه أو يتحقق منه حتى فرّ النوم من عينه ، وهو لا يتمنى لقاء كعادة المحبين ، ليأسه منه ، وإنما يتمنى لو عادت له رؤيته فى منامه ، أو لو طال حلمه وطال رقاده قليلا حتى يشفى منه غُلّة حبه . ويعلق ابن حجة الحموى فى خزانته على هذه الأبيات بقوله : « ما نفثات السحر إذا صدقت عزائمها بأوصل إلى القلوب من هذه النفثات ولا لسلاف ثغر الحبائب مع حلاوة التقبيل عذوبة هذه الرشفات » . ومن غزله :

قصَد الحِمَى وأتاه يَجْهد فى السُّرى حتى بـدتْ أعلامُـه وقِبابُهُ
ورأى لليلى العامريَّةِ منزلا بالجود يُعرَف والنَّدَى أصحابُهُ
قد أشْرعتْ بِيضُ الصَّوارِمِ والقَنا من حوله فهو المنيعُ حجابُهُ
وعلى حِماه جلالةٌ من أهلِهِ فلذاك طارقةُ العيون تهابُهُ
كم قُلِّبَتْ فيه القلوبُ على الثَّرى شوقا إليه وقُبِّلتْ أعتابُه

وهو يرمز لصاحبته بليلى العامرية وكأنه مجنونها وعاشقها قيس الذى ملأ البيد بأغانى حبه ، ويقول إنه ما زال يدأب فى السرى أو السير الليالى المتصلة حتى بدت أعلام حيّها وقبابه أو خيامه ، وياللهول لقد وجد من دون رؤيتها السيوف والرماح مشرعة وشعر بجلال وهيبة لا يماثلها هيبة وجلال ، وهناك رأى كثرة من العشاق يضمون الثرى إلى صدورهم مقبلين الأعتاب آملين أملا يائسا فى أن يرفع الحجاب . وكان يعاصر السروجى فخر الدين بن لقمان كاتب بيبرس وقلاوون ، وله غزليات رقيقة مثل قوله[1] :

كُنْ كيف شئتَ فإننى بك مغرمُ راضٍ بما فعل الهوى المتحكِّمُ
ولئن كتمتُ عن الوشاة صَبابتى بك فالجوانحُ بالهوى تتكلَّم
أشتاقُ من أهْوَى وأعلم أننى أشتاق مَنْ هو فى الفؤاد مخيِّم
يامَنْ يصدُّ عن المحب تدلُّلاً وإذا بكى وجدًا غدا يتبسَّمُ
أسكنتُك القلبَ الذى أحرقته فحذارِ من نارٍ به تتضرَّم

وهو راض من صاحبته بكل ما تصنع من إقبال وإعراض ، وإنه ليخفى حبه عن الوشاة بل

(١) المنهل الصافى لابن تغرى بردى (طبع دار الكتب المصرية) ١/١١٩ .

يكتمه بينما جوانحه تنطق به وتعلنه ، ويعجب أن يشتاق صاحبته ويود لقاءها ، بينما هى مخيمة فى فؤاده لا تبرحه . وإنها لتمعن فى التدلل ، وحتى إن بكى وجدا سرعان ما تبتسم . ويحذرها من هذا الدلال وما يطوى فيه من اللعب . فقد أسكنها قلبه الذى أحرقته ، ولا تزال نار الحب فيه مضطرمة متدلعة . ولابن نباتة غزل وجدانى كثير من مثل قوله[1] :

أهلاً بطيفٍ على الجَرْعاء مُختَلَسِ ... والفجرُ فى سَحَرٍ كالثغر فى لَعَسِ[2]
والنجمُ فى الأفق الغربى مُنحدِرٌ ... كشُعْلةٍ سقطتْ من كفِّ مُقْتبِس
ياحبَّذا زمنُ الجَرْعاءِ من زمنٍ ... كلُّ الليالى فيه ليلةُ العُرُسِ
وحبَّذَا العيشُ مَعْ هيفاءَ لو برزتْ ... للبدر لم يَزْهُ أو للغُصْنِ لم يَمِسِ
محروسةٍ بشعاع البِيض ملتمعًا ... ونورُ ذاك المحيَّا آيةُ الحَرَسِ
يَسْعَى وَرَا لَحْظِها قلبى ومن عجبٍ ... سَعْىُ الطَّريدةِ فى آثار مفترسِ
ليت العذولَ على مَرْأى محاسِنِها ... لو كان ثَنَّى عمى عَيْنيه بالخَرَسِ

وهو يصور فرحته بالطيف الذى رآه فى حلمه اختلاسا لأواخر الليل والفجر يتلج فى الآفاق المظلمة تبلج الثغر فى لعس الشفاه ، والنجم يسقط فى الأفق الغربى منحدرا سقوط شعلة من كف مقتبس . وتعاوده ذكرى ليالى الجرعاء المفرحة فرح ليالى العرس ، وهو يعيش رانيا إلى حبيبته التى لو رآها البدر لغضَّ من زهوه ولو رآها الغصن لغضَّ من ميسانه وخيلائه . ويقول إنها ممنَّعة محروسة بسيوف باترة ، وآية حراستها هذا النور الذى يُشِعُّه وجهها فى الآفاق ، ويعجب أن يسعى قلبه وراء لحظها سعى طريدة الصيد وراء مفترسها ، ويقول إن ضياءها أحال عينى العذول عشواءين ، فهو لا يبصرها ، ويتمنى لو ثنَّى ذلك بخرسه وانعقاد لسانه ، فلا يتحدث عنها أى حديث من قريب أو من بعيد .

وممن كانوا يكثرون من الغزل النوّاجى[3] شمس الدين محمد بن حسن صاحب كتاب حلبة الكميت فى الخمر والندماء وآدابهم ، ويعد أكبر شعراء القرن التاسع الهجرى ، توفى سنة ٨٥٩

---

(١) النجوم الزاهرة ٩٦/١١ .

(٢) الجرعاء : الأجرع أو الحزن . اللعس : سواد الشفة .

(٣) انظر فى النواجى وشعره الضوء اللامع للسخاوى ٢٢٩/٧ والنجوم الزاهرة ١٧٧/١٦ والبدر الطالع للشوكانى ١٥٦/١ وصفحات لم تنشر من بدائع الزهور (طبع دار المعارف) ص ٢٧ . وبدار الكتب المصرية مخطوطة من ديوانه . ومن كتبه « عقود اللآل فى الموشحات والأزجال » .

للهجرة ، ومن غزله قوله :

خليليَّ هذا رَبْعُ عزَّة فاسْعَيا إليه وإن سالتْ به أدمُعى طوفانْ
فجفنَى جفا طيبَ المنامِ وجَفْنُها جفانى ، فيالله من شَرَكِ الأجْفانْ

ونمضى فى قراءة مثل هذا الغزل الوجدانى الملتاع حتى إذا أظل لواء العثمانيين البلاد أخذ يفيض معينه فى القلوب والنفوس وخاصة عند نور الدين على العسيلى ، وسنخصه بكلمة ، ومثله خرِّيجه وتلميذه يحيى[1] الأصيلى ، الذى يقول فى بعض غزله :

بدا بوجهٍ جميلِ الوَصْف والشَّانِ يقول : سبحان من بالحسن وَشَّانى[2]
كـأنـه روضةٌ غَنَّاءُ مزهـرةٌ من دمع عاشقها تُسْقَى بغُدْرانِ
أشبهتُ فى حبِّه وُرْقَ الحِمَى فغدا كلٌّ يبثُّ الجوى شَجْوًا على البانِ

فالله جل شأنه زين وجهها بالجمال حتى كأنها روضة ، أليس يشبه الشعراء الثغر بالأقحوان ، والخد بالورد والشقيق والعين بالنرجس ، لذلك جعل وجهها كأنه روضة تسقى من دموع العشاق بغدران ، ومضى يستكمل خياله فورق الحمَى وحمامه يبث جواه شجوا على أغصان البان وهو يبثه على مَنْ قامتها تحاكى قامة البان . وتخرَّج على يد الأصيلى يوسف[3] المغربى ، وغزله كغزل أستاذه يسيل عذوبة من مثل قوله :

جعلوا الصباحَ مباسمًا ثم الظلا مَ ضَفائرًا ثم الرماحَ قُدودا
والوردَ خَدًّا والغصونَ معاطفًا والبَـدْر فَرْقًا والـغزالـةَ جيدا
ورأتْ غصونُ البانِ أن قُدودهم فاقتْ فأضحتْ رُكَّعا وسجودا

وتشبيه قدود الحسان بالرماح وغصون البان لضمورهم واستقامتها مشهور . وكأن المغربى والأصيلى والعسيلى يكوِّنون فى الغزل زمن العثمانيين مدرسة متماثلة فى رشاقة الموسيقى وجمال الصياغة ، وإن كان التكلف قد أخذ يعم فى الغزل بعدهم وفى أيامهم . ولعبد الله الإدكاوى :

---

(١) راجع فى يحيى الأصيلى ريحانة الألبا ٣٨/٢ وسلافة العصر لابن معصوم ص ٤١٥ وخلاصة الأثر ٤٨٠/٤ .

(٢) وشانى : زينى .

(٣) راجع فى يوسف المغربى ريحانة الألبا ٣٢/٢ وما بعدها وخلاصة الأثر ٥٠١/٤ .

عقيقُ دمعى غدَا فى الجزْع كالدِّيَمِ ... مُذْ بانَ سكانُ بانِ الحىِّ والعَلَمِ
وانهلَّ مُنْسجما من نار مضطرمٍ ... ملآنَ وجدًا إلى خِشْفٍ بذى سَلَمِ
ظَبْىٍ نفورٍ أنيسٍ ناعسٍ يقظٍ ... بالليل متَّشِحٍ بالصبح مُلْتَثِمِ
إنْ أرضَ يَغْضب وإنْ أقربْ نأى صَلَفًا ... وإن أذلَّ يَتِهْ بالعزِّ والشَّمَمِ
مُهَفْهَفٍ مابدتْ للغصنِ قامتُه ... إلا انْثَنى ذابلَ الأوراق ذا ضَرَمِ
وإن تبسَّم ما برقٌ بكاظمةٍ ... له وَميضٌ يجلِّى داجىَ الظُّلَمِ
ما فيه عَيْبٌ سوى تفتيرِ مُقْلَتِهِ ... وفَتْكِها فى فؤاد المُدْنَف السَّقِمِ

والعقيق : خرز أحمر ، يقول الإدكاوى إنه مازال يبكى حتى اختلط دمعه بالدم القانى وتناثر فى الجزع أو جانب الوادى وكأنه ديم مسكوبة مذ بَعُدَ سكان الوادى والعلم أو الجبل وما بهما من شجر البان ، وإنه ليبكى وأحشاؤه تضطرم بوجد مبرح إلى خشف أو ظبى من ظباء ذى سَلَمٍ بنجد ، وإنه لظبى نفور أنيس ناعس يتشح بوشاح أسود من شعره ، ويلتثم بلثام منير من وجهه . وإن لقيه راضيا غضب وازورَّ عنه وإن قرب منه نأى بجانبه ، وحتى إن ذل له تاه عليه صلفا وشمما أو تكبرا . وهو مهفهف ضامر دقيق الخصر ، وما يرى الغصن قامته حتى تذبل أوراقه خجلا ويلتاع لوعة ملتهبة . وإن ابتسامته لتضىء الكون من حوله ضياء لعله أكثر من ضياء البرق التماعا فى الليالى الداجية . ويجعل عيبه الوحيد فتور عينيه الذى طالما تغنَّى الشعراء به وبما يرسل من سهامه التى تصمى أفئدة المرضى بالحب ، وتفتك بهم فتكا . وواضح ما يداخل هذا التصوير من مبالغة وتكلف شديد . وحرى بنا أن نقف عند نفر من شعراء الغزل الوجدانى الذين صوروا ما اختلج فى خبايا قلوبهم وصدورهم من وجد مبرِّح ولوعات ممضة .

ابن [١] النبيه

هو الكمال أبو الحسن على بن محمد بن يوسف المعروف باسم ابن النبيه ، ولد بمصر حوالى سنة ٥٦٠ واختلف إلى كتَّابٍ حفظ فيه القرآن الكريم وبعض الأشعار على عادة لداته ، ثم أخذ يختلف

(١) انظر فى ابن النبيه وترجمته وشعره ابن خلكان ٣٣٦/٥ وفوات الوفيات ١٤٣/٢ والنجوم الزاهرة ٢٤٣/٦ وحسن المحاضرة ٥٦٦/١ وشذرات الذهب ٨٥/٥ ومقدمة عبد الله فكرى للديوان إذ جمعه ورتبه وحقَّقه تحقيقا بديعا وطُبع طبع حجر فى القرن الماضى . وطبع الديوان حديثا بتحقيق عمر محمد الأسعد (نشر دار الفكر) ببيروت .

إلى حلقات العلماء والأدباء ، وتفتحت ملكته الشعرية ، ورنا إلى الالتحاق بدواوين صلاح الدين ووزيره الكاتب البليغ القاضى الفاضل راعى الأدباء فى عصره ، وفى ديوانه مدائح مختلفة له ، وليضع أمامه الدليل الواضح على قدرته البيانية ضَمَّن جميع أبيات إحدى مدائحه له كلمات من سورة المزمل مقتبسا لها فى قوافيه بقوله فى مطلعها :

قمتُ ليلَ الصُّدودِ إلا قليلا ثم رتَّلتُ ذكركم ترتيلا
ووصلتُ السُّهادَ أقبحَ وَصْلٍ وهجرتُ الرقادَ هجرًا جميلا

ويبدو أن القاضى الفاضل لم يُعْجَبْ بالقصيدة ، فلم يعيَّن فى دواوين صلاح الدين وأيضا لم يعيَّن فى دواوين ابنه العزيز ، حتى إذا ولى شئون مصر السلطان العادل سنة ٥٩٦ رأيناه يقدِّم مدائحه إليه وإلى وزيره الصفىِّ بن شُكْر . ويبدو أن صداقة انعقدت حينئذ بينه وبين الأشرف موسى بن السلطان العادل ، حتى إذا ولاه أبوه على الرُّها سنة ٥٩٨ اصطحبه معه واتخذه كاتبه . وأخذت إمارته أو مملكته تتسع ، فشملت خِلاط وميَّافارقين ونصيبين ومعظم بلاد الجزيرة . وكان يتنقل الأشرف موسى فى بلدان إمارته وكانت أكثر إقامته بالرَّقة لموقعها على الفُرات وابن النبيه معه يلازمه ، ولا يترك مناسبة من انتصار فى حرب أو عيد إلا ويقدِّم له مدائحه . ومن أهم هذه المناسبات - كما مر بنا فى غير هذا الموضع - قدومه إلى مصر بجيش جرار ساعد به سلطانها أخاه الكامل فى سحق الصليبيين بموقعة دمياط ورد فلولهم إلى البحر المتوسط وما وراءه ، وقد تغنى ابن النبيه بذلك طويلا بمثل قوله :

دمياطُ طُورٌ ونارُ الحرب موقَدَةٌ وأنت موسى وهذا اليومُ ميقاتُ
أثلجتَ صدرَ رسول اللهِ وانكشَفَتْ عن سَرْحةِ الدِّينِ والدنيا غماماتُ
اللهُ أكرمُ أن تُمْسِى مزامرهم تُتْلَى وتُنْسى من القرآن آياتُ

وهو يستغلُّ اسمه فى مديحه ، فيقرنه إلى موسى الرسول ومعجزته فى الطور ، ويذكر فى القصيدة أن عصاه تلقفت كل ما أفكوا ، ويصور كيف اندحر الصليبيون وتوزعهم المسلمون قتلا وأسرًا وسبيًا ، ومن بقى منهم عاد إلى البحر المتوسط وما وراءه بخزى لا يماثله خزى .

ويدل ديوان ابن النبيه على أنه كان يعيش لدى الأشرف موسى معيشة مبتهجة يتمتع فيها بالرياض ومجالس الأنس والطرب حتى وفاته بنَصِيبين سنة ٦١٩ . ومع ما كان فيه من هناءة لم

ينس وطنه ، بل ظل يحنُّ له ، وظل حنينه يترقرق فى تضاعيف أشعاره كأقوى ما يكون الشعور الصادق لدى المحبين الوالهين ، كقوله مكنّيًا عن مصر بالعقيق أحد وديان الأراضى المقدسة فى المدينة المنورة الذى طالما تغنى به شعراء الصبابة والحب الملتاع :

يابَارِقا أَذْكَرَ الحَشَا شَجَنَهْ   منزلُنا بالعقيقِ مَنْ سَكَنَهْ
ومَرْبعُ اللهوِ يانعٌ خَضِلٌ   أم غيَّر الدهرُ بعدنا دِمَنَهْ[1]
يا بَرْقُ هذا جسمى يذوب ضَنًى   ومهجتى بالعقيق مُرْتَهَنَهْ
بَلِّغْ حَدِيثَ الحِمَى وساكنهِ   لمغرمٍ أَنْحَلَ الهَوَى بَدَنَهْ
أشقى المحبين عـادمٌ وطَـرًا   فكيف إن كان عادمًا وطَنَهْ
سَقْيًا لأيامنا التى سلفتْ   كانتْ بطيبِ الوصال مقترنه
لو بِيعَ يومٌ منها وكيف بهِ   كنتُ بعُمْرِى مُسْتَرخصًا ثَمَنَهْ

وابن النبيه فى أول الأبيات يخاطب برقا أذكره ما يعتلج فى أحشائه من الشجن أو الأشجان على بعده عن موطنه بوادى النيل ، ويتساءل عن السكان والأحباب وهل لايزال مربع اللهو والشباب كعهده به يوم فارقه من النضرة والجمال أم غيَّر الدهر بعده الديار وتبدَّل الحال . ويشكو للبرق ارتهان مهجته وراءه وتخلفها بمصر وكيف أنه يذوب ضَنًّا وسقما ونحولاً متمنيا لو يسمع شيئا يطمئنه عن الحمى وساكنه . ويقول إن أشقى المحبين من عدم الوصال بمحبوبه فكيف بالمحب المفتون الذى عدم الوصال بوطنه ، ويدعو بالسقيا لأيام وصاله الهنيئة الماضية له ، ويتمنى لو حج إلى هذا الوطن المقدس تقديس العقيق أو عاد إليه ، ويقول إنه يقدِّم حياته كلها راضيا بيوم واحد يقضيه بين ربوعه . وابن النبيه بذلك يصور تصويرا رائعا تعلق المصريين فى غربتهم بوطنهم وشغفهم به ومدى حنينهم إليه وظمئهم إلى جرعة من نيله فى ظلاله وبين رياضه .

وإذا أخذنا نقرأ فى ديوان ابن النبيه أحسسنا بوضوح أنه يمثل فى غزله الروح القاهرية المصرية بكل ما عُرف عنها من الدماثة والرقة وخفة الظل لا فى موسيقاه وجمال أنغامه فحسب ، بل أيضا فى تصوير مشاعره ووجداناته وعواطفه ، دون أى حجاب من أصداف المحسنات البديعية ، فهو قلما يستخدمها بل يترك نفسه على طبيعتها ، مما جعل غزله يرتفع إلى مستوى وجدانى سام ، دون

(١) خضل : مبتل ندىّ . الدمن : جمع دمنة : آثار الديار .

ترداد الأوصاف المادية الحسية للمرأة ، فحسبه أن يصور عاطفته إزاءها فى رقة متناهية . وهيأ ذلك قديما لغزله أن يكثر التغنّى به فى ديار الجزيرة والموصل وفى الشام ومصر واليمن[1] لرقته ورشاقته وصفاء موسيقاه ، ومازال المغنون والمغنيات يتغنون بأشعاره ، وتتغنّى بها السيدة أم كلثوم وغيرها ، ومن ذلك قوله :

أَفْديهِ إن حَفِظَ الهوى أو ضيَّعا ملكَ الفؤادَ فما عسى أن أَصْنَعا
من لم يذق ظُلْمَ الحبيب كظَلْمِه حُلْوًا فقد جهل المحبَّة وادَّعى[2]
يا أيها الوجهُ الجميل تدارك الصَّـبَّ النَّحيـلَ فقد وَهَى وتَضَعْضعا
هل فى فؤادك رحمةٌ لمتيَّمٍ ضَمَّتْ جوانحُه فؤادًا موجَعا
هل من سبيلٍ أن أبثَّ صَبَابَتِى أو أشتكى بَلْوَاىَ أو أتضرَّعا

وهو يفدى محبوبه بروحه سواء حفظ العهد أو ضيَّعه فهو لا يملك إزاءه فى الحالين إلا أن يزداد تعلقا بحبه وشغفا ، بل إنه ليتقبل ظلمه ويجده شرابا سائغا ، وإلا حق عليه أنه دعىٌّ حب . ويتضرع إليه أن يتداركه ، فإن كل شيء فيه حتى بدنه وهن ولم يعد يستطيع احتمالا ، ويسترحمه لوهن جسده وأوجاع روحه ، لعله يستطيع أن يبثه شيئا من حبه أو من محنته فيه . ولا تقلُّ جمالا وروعة عن هذه الأغنية فى أيامنا الأغنية التالية :

أمانًا أيُّها القمرُ المُطلُّ فمن جَفْنَيْكَ أسيافٌ تُسَلُّ
يزيد جمالُ وَجْهِك كلَّ يومٍ ولى جَسَدٌ يذوبُ ويضمحلُّ
وما عرف السقامُ طريقَ جسمى ولكنْ دَلَّ من أهْوَى يَدُلُّ
إذا نُشِرَتْ ذَوائبُه عليهِ ترى ماءً يرفُّ عليه ظِلُّ[3]
وقد يَهْدِى صباحُ الخدِّ قومًا بليلِ الشَّعْرِ قد تاهوا وضَلُّوا

وابن النبيه يتوسل إلى صاحبته أن لا تسل عليه أسياف جفنيها وأن تُبْقى عليه فلا تفتك به ، حتى يتمتع بجمال وجهها الذى يزداد ويتضاعف كل يوم ، بينما يذوب بدنه اضمحلالا وتضاؤلا ونحولا . وما عرف السقم يوما طريقا إليه إلا عن طريق حبه لها وهيامه بها ، بينما هى تدل عليه

---

(١) انظر كتاب شعر الغناء الصنعانى للدكتور محمد عبده غانم (طبع دار الكاتب العربى ببيروت) ص ١٧٧ .

(٢) الظلم بفتح الظاء : ريق الثغر وبريقه .

(٣) الذوائب : ضفائر الشعر .

وتزداد كل يوم دلالا وإعراضا . وماذا يبصر؟ إنه لا يبصر إلا جمالا فاتنا وجسدا ساحرا رقيقا رقة الماء يهتز عليه من الشَّعْر ظل ناضر باهر . ويقول :

يا ساكنى السَّفْحِ كم عَيْنٍ بكم سَفَحتْ ... نَزَحْتُمُ فَهْيَ بعد البُعْد قد نَزَحَتْ
لَهْفِى لظبيةِ إنْسٍ منكمُ نفرَتْ ... لا بل هى الشمسُ زالتْ بعد ما جَنَحَتْ
بَيْضاءُ حجَّبها الواشون * حِين وَشَوْا ... عنى ولو لمحَتْ صِبْغَ الدُّجَى لمحَتْ
يَقْتَصُّ من وَجْنَتَيْها لحظُ عاشِقِها ... إن ضَرَّجتْ قلبه باللَّحْظ أو جَرَحَتْ
مَنْ لى بسَلْمى وفى أجفانِ مُقْلتها ... للحرب بِيضٌ حدادٌ قَطُّ ما صفحت
وأسْوَدُ الخالِ فى محمرِّ وَجْنَتِها ... كمِسْكَةٍ نَفَحَتْ فى جَمْرةٍ لفَحَتْ

وفى القطعة جناس بين « السفح وسفحت » بمعنى صبَّت العين الدمع ، وكذلك بين « نزحتم » بمعنى بعدتم و « نزحت » العين بمعنى نفد دمعها ، وأيضا بين « الواشون » و « وشوا » فى البيت الثالث وبين « لمحت » من لمح البصر واختلاسه و « محت » فى آخر البيت من المحو والإزالة ، والبيت الأخير به جناس ناقص بين « نفحت ولفحت » . والجناسات جميعها جناسات خفيفة على اللسان والآذان ، لأن صانعها موسيقى ماهر فى قياس الأنغام ، وهو فى أول القطعة يشكو لساكنى السفح من كثرة ما سفحت دموعه وسكبت حتى لقد جفَّت عيناه ، ويقول كأن محبوبته سلمى ظبية نافرة بل لكأنها الشمس مالت إلى الغروب ولو أنها أطلت بطلعتها المضيئة على الليل لمحت ظلمته محوا ، ويتخيل كأنما يقتصُّ بالنظر إلى وجنتيها من جرحها لقلبه جرحا لا يندمل أبدا . وهى مبالغة مسرفة . ويتمنى لقاء سلمى مع ما قد يصيبه من فتك عينيها الساحرتين ، ويتصور الخال فى خدها الوردى كجنَّة من المسك تعلقت بجمرة لافحة ، فانتشر منها أريج عطر . ومن غزله الذى يقطر حسنا ورقة قوله :

تعالى اللهُ ما أحْسَنْ ... شقيقًا حُفَّ بالسَّوْسَنْ
خدودٌ لَثْمُها يُبْرِى ... من الأسقام لو أمكن
فما تُجْنَى وحارسُها ... بِقُفْلِ الصُّدْغ قد زَرْفَنْ[1]

---

(١) زرفن الصدغ : جعل الشعر المسدل على الخدود كالحلقة .

أبثُّ هواه من حُرَقٍ لنجم الليل لمَّا جَنّْ .
وكم أسكنْتُهُ قلبى فسار وأحرق المسكن

وهو يعلن افتتانه بجمال صاحبته واحمرار خدودها المشبهة لورد الشقيق المحفوفة بخصل السوسن من شعرها الذهبى ، ويقول إن لثم خدودها يبرئ السقم ، ولكن من يستطيع أن يصل إليها ؟ إن أحدا لا يمكنه أن يقتطف من خدودها شيئا من زهرات الحب ، فإن وراءها حارس أمين من شَعْرها لوى على خدودها قفلا كالحلقة ، فلا يستطيع أحد إليها وصولا . وإنه ليبث هواه وما يذوقه من حرارته اللافحة للنجم حين جَنَّ الليل ودجت ظلماته ، معلنا إليه هذا الهوى الذى لم يعد يستطيع اكتمانه . ويأسى لنفسه ومصيره ، فكم أسكن محبوبته قلبه فعبثت به بل أحرقته وأتت عليه . ومن غزله الرائع :

أما وبياضِ مَبْسِمِكِ النَّقىِّ وسُمْرَةِ مِسْكَة اللَّعَسِ الشَّهِىِّ[1]
لقد أسْقمتِ بالهجران جِسْمى وأعطشنى وِصالُكِ بعد رِىِّ
إلى كم أكتمُ البلوى ودمعى يبوحُ بمُضْمَرِ السِّرِّ الخَفِىِّ
وكم أشكو للاهيةٍ غرامى فويلٌ للشَّجِىِّ من الخَلِىِّ
تغازلنى وتَزْوى حاجبيها كما انبرتِ السِّهامُ عن القِسِىِّ
وتخترق الصفوفَ بريقِ فيها وهل يَخْفَى شذى المسك الشَّذِىِّ
يذود شَبَا القَنَا عن وَجْنَتَيْها كمنع الشَّوْكِ للوَرْدِ الجَنِىِّ[2]
إذا ما رُمْتُ أَقْطِفُهُ بعينى تقول حذارِ من مَرْعًى وَبِىِّ[3]

وابن النبيه يُقْسِم لمحبوبته بمبسمها الفاتن وسمرة شفاهها اللعس أنها أسقمت جسمه بهجرانها بعد الوصال وبما أصابته به من ظمأ بعد رىٍّ ، ويقول إلى كم أكتم محنتى فى الحب ودمعى يبوح بسرِّى وإلى كم أشكو للاهية عنى ، وصدق المثل القديم : ويل للشجى من الخلى . ويَعْجب أنها تغازله أو تمد له أسباب الغزل ، بينما تقطِّب حاجبيها وتزوى مابينهما ، ويلتمس لها عذرا ، فكأن حاجبيها قوسان يرسلان السهام ، ولابد لها كالقوس ووترها من الشد والجذب فى أثناء الرمى

(١) اللعس : سواد الشفة .
(٢) شبا القنا : حد الرماح .
(٣) وبى : وخيم .

بالسهام والنبال ، ويقول إن شذاريقها كشذا المسك وأريجه يعلن عنها من بعيد . ويتحدث الشعراء كثيرا عن السيوف والرماح المسلولة من العيون على الناظرين للجمال المصون ، ويرسم ابن النبيه من ذلك صورة رائعة ، فعيون صاحبته بما يحميها من الرماح تذود عن وجنتيها الفاتنتين كما يذود الشوك عن الورد حين تمتد يد لاجتنائه أو اقتطافه ، ويقول إنه حتى حين يريد أن يقتطف بعينيه لا بشفتيه شيئا من ورد وجنتيها تقول له حذار من مرعى وخيم العواقب .

وكل هذا غزل وجدانى يموج باللهفة والظمأ واللوعة الملتهبة التى لا سبيل إلى إطفائها فى قلب المحب الولهان ، وهو دائما يستعطف ويتوسل ويتضرع ، ولا مجيب حتى بنظرة أوكما يقول باقتطاف نظرة إلى الوجه الفاتن . وقد تراءت لنا صور من هذا الغزل الوجدانى الصافى الملتاع عند ظافر الحداد والمهذب بن الزبير وابن سناء الملك غير أنه تكامل عند ابن النبيه فى هذه الصورة الرائعة التى تخلو من المتاع الحسى والتى يسيل فيها الشعر رقة وعذوبة وسلاسة . وما أشك فى أن الحاجرى شاعر الموصل استلهم فى غزله الوجدانى الذى تحدثت عنه فى الجزء الخامس من هذه السلسلة لتاريخ الأدب العربى هذا الغزل الوجدانى لابن النبيه نزيل دياره حين كان الحاجرى لايزال شابا فى نحو الخامسة عشرة من عمره ، وتلاه التلعفرى الموصلى الذى تحدثنا عن غزله الوجدانى الملتاع يستضىء فيه بابن النبيه أيضا ، ولاحظ ذلك صاحب فوات الوفيات ، فقال فى ترجمته إن قصيدة التلعفرى التى أنشد منها قطعة فى ترجمته بالكتاب المشار إليه والتى يستهلها بقوله :

أىّ دمعٍ من الجفون أسالَهْ إذ أتتْه معَ النسيمِ رسالهْ

إنما نظمها معارضة ومحاكاة لقصيدة ابن النبيه :

بَدْرُ تِمٍّ له من الشعر هالَهْ من رآه من المحبين هالَهْ[1]

فهى من نفس الوزن والروى ، بل المحاكاة عند التلعفرى لابن النبيه أوسع من هذا ، إذ هى محاكاة لغزله الوجدانى الرائع لا فى أساليبه السلسة السائغة فحسب ، بل أيضا فى مضمونه الملىء بالأسى المبرِّح والوجد الملتهب ، مع الرقة والدماثة واللطف وخفة الروح . وسقطت القيثارة من يد ابن النبيه بوفاته وكانت مصر قد أنجبت البهاء زهير ، وإذا هو يستخرج من قيثارته نغما رائعا لهذا الغزل الوجدانى على نحو ما سنرى عما قليل ، وهو نغم يبلغ به الذروة التى كانت مأمولة لهذه الصبابة

(١) هالة الأولى : دارة القمر . وهاله الثانية : من هاله الشىء إذا أعجبه وروعه .

الوجدانية ، وإذا كان شرر هذا النغم قد تطاير عن طريق ابن النبيه إلى الموصل فإنه تطاير عن طريقه وطريق البهاء زهير إلى الشام وإلى بيئات عربية مختلفة .

البهاء[١] زهير

هو بهاء الدين زهير بن محمد ، ينتهى نسبه إلى المهلب بن أبى صفرة القائد المشهور فى العراق وإيران زمن بنى أمية ، ولد لأبويه المصريين فى وادى نخلة بالقرب من مكة فى أثناء حَجِّهما خامس ذى الحجة سنة ٥٨١ . وكان أبوه رجلا صالحا يشهد بذلك وصفه على نسخة خطيةٍ من الديوان بدار الكتب المصرية بأنه : « العارف محمد قدس الله روحه »[٢] وقد تؤذن كلمة العارف بأنه كان صوفيا أو على صلة بالصوفية والتصوف ، ويبدو أنه أقام مع ابنه وزوجه فى مكة ناسكا بضع سنوات ، إذ يشير البهاء فى بعض أشعاره إلى ذكريات له فيها أيام طفولته ، بمثل قوله :

تذكرتُ عهدًا بالمحصَّبِ من مِنًى … ومادونه من أَبْطَحٍ وحَجُونِ[٣]
منازلُ كانتْ لى بهن منازلٌ … وكان الصِّبَا إلفى بها وقَرِينى

وعاد العارف محمد بزوجه وابنه إلى بلدته بالصعيد : قوص ، وكانت حينئذ عاصمة الصعيد وباب المسافرين من مصر والمغرب والأندلس فى البحر الأحمر من سواكن وعيذاب إلى الحجاز ، وكانت بها حركة تجارية واسعة ونهضة علمية وأدبية ناشطة ، وهى منشأ البهاء ومرباه ، فيها تلقن العلم والأدب والشعر . وتعرف فى أثناء ذلك على خِدْنه ورفيقه ابن مطروح ، وانعقدت بينهما صداقة حتى الممات . وفى ديوانه قصيدة قصيرة مدح بها الملك المنصور حفيد صلاح الدين وكان قد ولى شئون مصر بعد أبيه العزيز فترة قصيرة سنة ٥٩٥ وأغلب الظن أنه أرسل بها إليه من قوص وهو لايزال فى الرابعة عشرة مما يدل علىّ أن ملكته الشعرية تفتحت فى سن مبكرة .

وينشد ابن خلكان له أبياتا من قصيدة مدح بها جَلْدك التقوى والى دمياط سنة ٦٠٥ وأكبر الظن أنه أرسل أيضا بها إليه من قوص . ونراه فى سنة ٦٠٧ يقدم مدحه لوالى بلدته قوص : مجد

---

(١) انظر فى ترجمة البهاء زهير وشعره ابن خلكان ٣٣٢/٢ والنجوم الزاهرة ٦٢/٧ وحسن المحاضرة ٥٦٧/١ ، ٢٣٣/٢ وشذرات الذهب ٢٧٦/٥ . و « البهاء زهير » : بحث بقلم الشيخ مصطفى عبدالرازق . وقد طبع ديوانه بكمبردج سنة ١٨٧٦ بتحقيق بلمر مع مقدمة وتعليقات . وطبع فى القاهرة مرارا وفى بيروت .

(٢) انظر فى ذلك البهاء زهير للشيخ مصطفى عبد الرازق ص ٥ .

(٣) المحصب : موضع رمى الجمار بمنى . والأبطح : أبطح مكة وهو واديها . والحجون : جبل بها .

الدين إسماعيل اللمطى يهنئه فيها بولايته على أعمالها ، وأُعْجب به اللمطى فاتخذه كاتبا له ، وظل يعمل معه نحو عشر سنوات ، ثم أخذت العلاقة تفتر بينهما ، ويبدو من استعطافاته له فى بعض أشعاره أنه عزله من منصبه فهاجر من بلدته إلى القاهرة . ويظن بعض الباحثين أن هذه الهجرة حدثت فى سنة ٦١٩ وفى رأينا أنها تسبق هذا التاريخ بسنة أو أكثر إذ نراه يهنئ السلطان الكامل الأيوبى فى انتصاره العظيم سنة ٦١٨ على الصليبيين وطردهم من دمياط أو طرد فلولهم إلى البحر المتوسط وما وراءه . ويأخذ فى دعم صلته بأبناء السلطان الكامل منذ هذا التاريخ ، ويحاول الاتصال بابنه الملك المسعود صاحب اليمن حين قدم إلى القاهرة سنة ٦٢١ ويقدم له مدحتين ، ويخف على قلب أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب ويلحقه بخدمته ، ويلبيِّه منشدا فيه قصيدة بديعة يقول فيها :

لـبَّـيْكَ يامَنْ لا مردَّ لأمرهِ وإذا دعا العَيُّوق لا يتعوَّقُ[1]
الصالحُ الملكُ الذى لزمانهِ حُسْنٌ يَتِيهُ به الزمانُ ورَوْنَقُ
سجدتْ له حتى العيُونُ مهابةً أوما تراها حين يُقبلُ تطرِقُ

ويصحبه معه حين أصبح فى سنة ٦٢٩ نائبا عن أبيه فى حكم بعض البلدان الشرقية فى نواحى الفرات . وعاش البهاء مع الملك الصالح فى رغد ، ينعم بالحياة ويهنأ بها . ويتنقل معه فى بلدان إمارته ، غير أنه لم ينس موطنه ، فقد ظل يذكره وظل لا ينسى أيامه فيه وأصدقاءه ، ولا ينسى نيله الغدق ورياضه ومراكبه المصعدات المنحدرات ، ويتلهف على العودة إلى واديه والتملى بجماله واكتحال عينيه بحسنه وبساكنيه وكل ما فيه ، بمثل قوله :

سقى واديًا بين العَرِيش وبَرْقَةٍ من الغَيْث هطّالُ الشآبيب هتَّانُ[2]
بلادٌ إذا ما جئتَها جئتَ جنَّةً لعينك منها كلما شئتَ رضوانُ
تمثَّل لى الأشواقُ أنَّ تُرابَها وحَصْباءها مِسْكٌ يفوحُ وعِقْيان[3]
فيا ساكنى مصرٍ تُراكم علمتُمُ بأنىَ مالى عنكمُ الدهرَ سُلْوانُ
عسى اللهُ يَطْوى شُقَّةَ البعدِ بيننا فتهدأَ أحشاءٌ وتَرْقأَ أجفانُ

---

(١) العيوق : نجم فى طرف المجرة يتلو الثريا .

(٢) الشآبيب : جمع شؤبوب وهو دفعة المطر ، وهتان : كثير المطر .

(٣) حصباءها : حصاها . العقيان : الذهب الخالص .

فهو يدعو للوادى من شرقيه إلى غربيه أن يظل يسقيه من الغيث هطال مدرار ، ويتصور الوادى جميعه فردوسا لا يشبهه فردوس وترابه وحصباءه مسكا وذهبا خالصا . وهو لا يسلو أهله ولا ينساهم أبدا ويتمنى لو قصرت المسافة وعاد إلى موطنه ينظر ما شاهده ، حتى تجف دموعه المنهلة ، وتهدأ أحشاؤه الموجعة .

ويستولى الملك الصالح فى سنة ٦٣٦ على دمشق فيتحول معه إليها ويتملّى بغوطتها ورياضها ، ولا يلبث الملك الصالح أن يفكر فى الاستيلاء على أملاك داود ابن عمه صاحب الكَرَك فى جنوبى الأردن وينزل نابلس ، غير أن مؤامرت تحاك له ، ويُعتَقَلُ بسببها عند ابن عمه داود فى الكرك ، ويظل البهاء زهير بنابلس حافظا لعهده . وتُرَدّ إليه حريته ، ويتجه إلى مصر فيستولى من أخيه الصغير العادل على مقاليد الحكم بها سنة ٦٣٧ ويولى البهاء زهير ديوان الإنشاء ، والبهاء يكاد يطير فرحا برجوعه إلى موطنه وتعظم منزلته عند الملك الصالح ويصبح مستشاره الأعلى وأمين سره ، وكان خيّرًا نبيلا فنفع — كما يقول ابن خلكان — خلقا كثيرًا بحسن وساطته عنده وجميل سفارته . ومن حين إلى حين كان يرحل مع الملك الصالح إلى دمشق ، وفى آخر رحلة لهما هناك جاءهما خبر الحملة الصليبية على دمياط بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا ، وتصادف أن كان الملك الصالح مريضا ، فصمّم على منازلة لويس وجيشه فى أقرب فرصة ، وحُمل من هناك فى محفّة حتى نزل بطَنَاح بالقرب من المنصورة فى شهر المحرم سنة ٦٤٧ ومضى يستعدُّ للقاء الصليبيين وهو يجاهد المرض جهادا عنيفا حتى شهر شعبان إذ لبّى نداء ربه . وقبيل وفاته بقليل عُزل البهاء زهير من منصبه ، ويذكر المؤرخون أن ذلك كان بسبب تقصيره فى الالتفات إلى إشارة كان قد كتبها الملك الصالح على كتاب كان مرسلا لابن عمه داود صاحب الكرك ، مما أغضب الملك الصالح . ونظن أنه رجع ذلك السهوَ إلى تقدمه فى السِّنّ ، فأعفاه من منصبه وأسنده إلى نائبه فخر الدين ابن لقمان . ويقال إنه حاول بعد وفاة الملك الصالح إعادته إلى منصبه ، وكأنما عزّ ذلك على البهاء فلم يقبل تقلُّده ، وقيل : قَبِلَهُ فترة ثم استعفى منه . وفى ديوانه مدائح مختلفة أرسل بها إلى الناصر الأيوبى حين استولى على دمشق ، وأكبر الظن أنه أرسل بها إليه انتظارًا لبعض رِفْده ، ولزم بيته نحو ثمانى سنوات عرف فيها شظف العيش بعد رَغَدِه ومرّه بعد حُلْوه إلى أن فارق دنياه سنة ٦٥٦ فى وباء حدث بالفسطاط والقاهرة .

ويدلُّ شعر البهاء على أنه كان صاحب نفس كريمة كبيرة ، ويقول ابن خلكان فى ترجمته : «كنت أود لو اجتمعت به لما كنت أسمعه عنه فلما اجتمعت به رأيته فوق ما سمعت عنه من مكارم

الأخلاق ودماثة السجايا » . وما مرَّ من حديثنا عنه يدل على أن حياته ظلت ، حتى أعفاه الملك الصالح من منصبه وهو فى نحو السابعة والستين من عمره ، حياةً سهلة ليس فيها حرمان ولا شىء من بؤس ، بل فيها غير قليل من النعيم ، وفى شعره وصف كثير لمجالس أنس مع الرفاق والأصدقاء ، وفيه ما يدل أيضا على شغفه بالطبيعة ومجاليها الفاتنة . وله مراسلات شعرية رقيقة مع ابن مطروح خِدْن صباه وشبابه فى قوص . وشعره يكتظ بالمرح والتفاؤل والدعوة إلى الفرحة بِمُتَع الحياة وطَرْح الهموم عن عاتق الإنسان ، يقول :

أيها الحامــــلُ هَـمًّا ... إن هـــــذا لا يــــدومُ
مثل ما تَفْنَى المسرَّا ... تُ كذا تَفْنَى الهمومُ

والغزل هو الموضوع الأساسى فى ديوانه ، وهو غزل وجدانى من نفس المعين الذى كان يستمدُّ منه ابن النبيه ، بل ربما كان يتقدم خطوة أو خطوات نحو السهولة ، مما جعل ابن خلكان يقول : « شعره كله لطيف ، وهو — كما يقال — السهل الممتنع » . وليس كل ما يلاحظ عليه السهولة فحسب ، فهو يتميز فيه حتى من ابن النبيه بالأوزان القصيرة والمجزوءة . وهو مثله يتغنَّى بالحب وتباريحه فى تدفق وانطلاق ، وقلما نجد عندهما معا رواسب تصويرية من تقليد القدماء ، وما يجىء من ذلك يُعَرَّض عرضا جديدا ، وأيضا ما يجىء أحيانا من جناس وغير جناس من المحسنات البديعية يجىء فى خفة ورشاقة . فالشعر — وخاصة الغزل — ليس محسنات ولا تصاوير محفوظة مما يتردد على الألسنة ، وإنما هو مشاعر وانفعالات وعواطف . وقد يكون ذلك غريبا على أذواق الباحثين الذين طالما رددوا أنه لم يبق عند الشعراء منذ أيام الدولة الايوبية سوى الأخيلة والتصاوير المتجمدة ، وسوى المحسنات البديعية التى استحالت إلى أصداف ينقصها البريق واللمعان .

وينبغى أن لا نجعل ذلك خاصة فريدة من خصائص البهاء زهير وحده ، فهذا الغزل الوجدانى لم يكن خاصا بالبهاء زهير ، فقد كان يَشْرَكه فيه —كما أسلفنا — ابن النبيه وأيضا ابن سناء الملك ، وله مقدمات قديمة نجدها عند المهذب بن الزبير وظافر الحداد . ولا ريب فى أنه لطبيعة مصر السهلة وطبيعة نيلها العذب السَّلس أثر كبير فى ذلك ، فعلى نحو ما يمتد الوادى فى مصر سهلا لا نتوء فيه ، كذلك شعره وشعر أصحابه تمتد لغته سهلة دون أى صعوبات ، وعلى نحو ما يجرى النيل مترقرقا متدفقا كذلك شعره وشعر أصحابه يسيل عذبا سائغا شرابه . وكما أن الوادى ينطوى على السهولة كذلك النفس المصرية نفس سهلة لطيفة لا خشونة فيها ، نفسٌ

طُبعت على اللين والرقة والدماثة ، مما انعكست آثاره عند ابن سناء الملك وابن النبيه . ومن الحق أن البهاء زهير كأنما خُلق ليبلغ بتصوير هذه النفس كل ما يسمها من عذوبة وخفة ظل ورشاقة .

وربما كان من أسباب اندلاع هذا الغزل الوجدانى على لسان البهاء زهير ما أشرنا إليه فى صدر حديثنا عنه من أن أباه كان صوفيا أو على صلة بالتصوف والصوفية مما جعله يحفظ مبكرا – وتدور على لسانه – أشعارهم المليئة بالوجد الإلٰهى وتباريحه ، وانطبع هذا الوجد فى نفسه وبثّه فى حبه . وجعل اختلاطه بهذه البيئة يُعمِّق هذا الوجد وأشواقه بأكثر مما عمقه فى نفوس الشعراء من حوله ، وإن كنا نستبق بصفة عامة أثر هذا الوجد الصوفى فى غزلهم جميعا ، مما دفع بقوة لظهور هذا الغزل الوجدانى الصادق . ومعروف أن صوفية مصر من أمثال ابن الكيزانى وابن الفارض ممن سنتحدث عنهم فى غير هذا الموضع بثُّوا فى أشعارهم وجدًا لا ضفاف له ، وكأن البهاء زهير استمد جذوة من هذا الوجد المبرِّح نشر شَررها فى غزله . وكثيرا ما نعثر عنده على أبيات تصور تأثره بالصوفية كقوله فى بعض غزله :

أنا فى الحقيقة أنتمُ هذا اعتقادى فيكمُ

ولو أننا لم نعرف أن البيت له وسُئلنا لمن هذا البيت لقلنا إنه لأحد الصوفية يعبر فيه عن مبدأ الاتحاد المعروف عندهم : اتحاد المحب بالمحبوب . ومن ذلك قوله :

يا مَنْ إليك المشتكى أنت العليمُ بحاليَه

وكأنه متصوف يخاطب الذات العلية ضارعا مستعطفا ، وهو إنما يخاطب صاحبته التى دلعت نار الحب فى فؤاده . وهذا الجانب من غزل البهاء زهير جعل بعض قصائده تلتبس عند الأسلاف بقصائد ابن الفارض ، من ذلك رائيته المشهورة التى يقول فيها :

غيرى على السلوان قادِرْ وسوايَ فى العشاق غادِرْ
أشكو وأشكر فعلَهُ فاعجبْ لشاكٍ منه شاكر
لا تنكروا خَفَقان قَلْـ ـبى والحبيبُ لدىَّ حاضرْ
ما القلبُ إلا دارُهُ ضُرِبَتْ له فيها البشائرْ
ياليلُ طُلْ ياشوق دُمْ إنى على الحالين صابِرْ
لى فيك أجرُ مجاهدٍ إن صحَّ أنَّ الليلَ كافر

والقصيدة فى ديوان البهاء زهير ، وهى أيضا فى ديوان معاصره ابن الفارض المتصوف المشهور ، وفى رأيى أن الالتباس الذى جعل الرواة يظنون أن القصيدة لابن الفارض جاءهم من أنها تحمل فكرة الغيبة والحضور التى يرددها كثيرا ابن الفارض فى غزله الربانى ، على نحو ما يلاحظ فى البيت الثالث ، وإن اختلف المنزعان فى الفكرة ، وبالمثل البيت الرابع فقد يشير من طرف خفى كسابقه إلى فكرة الاتحاد بالمحبوب . وفى البيتين : الأول والثانى جناسات ناقصة وفى البيت الأخير تورية بالكفر بمعنى الشرك بالله والمراد الستر . على كل حال يلفتنا الالتباس بين شعر البهاء زهير وابن الفارض إلى ما قلناه من أن أصداء من الوجد الصوفى انعكست فى شعر البهاء زهير . ويبدو أن انعكاسها بدأ مبكرا ، إذ نراها واضحة فى غزل قصيدة يمدح بها مجد الدين اللمطى إذ يقول :

لها خَفَرٌ يومَ اللقاء خَفيرُها ... فما بالُها ضَنَّتْ بما لا يَضِيرها[1]
أعادتُها أن لا يُعادَ مريضُها ... وسِيرتُها أن لا يُفَكَّ أسيرُها
وها أنذا كالطَّيْف فيها صبابةً ... لعلى إذا نامتْ بليلٍ أزورُها
من الغيدِ لم توقَدْ مع الليل نارُها ... ولكنها بين الضلوع تُثيرُها
يقاضى غريمُ الشَّوْقِ منى حُشَاشَةً ... مروَّعةً لم يَبْقَ إلا يَسيرها

والصور فى القطعة دقيقة فَخَفَر صاحبته أو خجلها وحياؤها يحرسها يوم لقائه ، فلماذا تبخل عليه بما لا يضيرها ؟ وهل من عادتها أن لا تعود مريضها ومن سيرتها أن لا تفك قيود أسيرها ؟ . وهو تضرع وتوسل لطيف . ويقول إنه أصبح كالطيف شبحا متضائلا نحيلا . ويتسع به الخيال فيتمنى لو أصبح طيفا حقا وزارها فى المنام وتضاعيف الأحلام . وهى صورة طريفة من مبتكرات خياله . ويقول إنها لم توقد نارها ليلا كعادة الناس اكتفاء بإيقادها بين ضلوعه وجوانحه . ويقول إنه لم يبق منه إلا بقية روح مروَّعة من حبها مفزَّعة . وفى القطعة جناسات وتصاوير لا نحس فيها بتكلف ، بل نحس كأنها جوهر الأبيات ومعانيها . ووراء هذه القطعة قطع وقصائد كثيرة تسيل رقة وخفة وعذوبة ، مع مسِّها للقلب بما يودعها من كلمات تشيع حتى أيامنا فى اللغة اليومية الدارجة من مثل قوله :

---

(١) ضنت : بخلت .

تعيشْ أنت وتَبْقَى أنا الذى متُّ عِشْقا
حاشاك يانورَ عينى تَلْقَى الذى أنا أَلْقَى
ولم أجد بين مَوْتِى وبين هَجْرك فَرْقَا
يا أنعم الناس بالاً إلى متى فيك أشقى
لم يبق منىَ إلاَّ بقيةً ليس تَبْقَى
قد كان ماكان منى (والله خيرٌ وأَبْقَى)

والقطعة تفيض بالسهولة والبساطة والرقة واللطف مع جمال الجرس واتساق الكلمات ، ومع ما يداخلها من ألفاظ اللغة اليومية مثل : « مت عشقا » و « يانور عينى » و « قد كان ماكان منى » وأيضا مع ما يداخلها من الاقتباس القرآنى فى الشطر الأخير.

وكان الشعراء المصريون فى زمنه وقبل زمنه يستظهرون بعض كلمات الحياة العاملة أو اليومية ، ولكنه توسع فيها وأكثر منها كثرة مفرطة ، وهى كثرة تجعل غزله يمس أوتار القلوب والأفئدة ، ومن طريف غزله :

من اليوم تعارفنا ونَطْوِى ما جرَى منَّا
ولا كانَ ولا صارَ ولا قلتُم ولا قُلنا
وإن كان ولا بُدَّ من العَتْبِ فبالحسنى
فقد قيل لنا عنكم كما قيل لكم عنَّا
وما أحسنَ أن نَرْجِعَ للوَصْلِ كما كنَّا

والقطعة كلها من اللغة الدارجة ، وقد عرف كيف يلتقط منها هذه الكلمات والعبارات الفصيحة ، وكأنها لا تفصل من لغتنا اليومية ، بل تفصل من القلوب والأفئدة . والقطعة عتاب ولكنه عتاب مملوء لطفا وظرفا وتسامحًا ورقَّة ودماثة ، ودائما تجرى فى غزله هذه الرقَّة الحلوة التى تشبه ماء النيل النمير الصافى والتى تجعل القلوب تتعلق بغزله من مثل قوله :

قَصِّروا مدةَ الجَفَا طوَّل اللهُ عُمْرَكُمْ
شَرِّفونى بزورةٍ شرَّف الله قَدْرَكم
قد صَبَرْتم وليتنى كنتُ أُعْطِيتُ صَبْرَكم

لو رأيتم محلَّكم من فؤادى لسرَّكم
لو وصلتم محبَّكم ما الذى كان ضرَّكم

والقطعة خفيفة خفة شديدة ، والدعاءان فى البيتين : الأول والثانى من الأدعية المتداولة على ألسنة المصريين فى لغتهم اليومية ، وإنه ليتضرع لصاحبته مظهرًا لها ما يحتمله من الصبر وجهده لعلها تشفق عليه وتخلصه من عذاب الهجر والحرمان . وهو لا يتحرج من إعلان تذلله فى الحب . بل من إعلان عبادته لمحبوبته ، يقول :

سأشكر حُبًّا زان فيكِ عبادتى   وإن كان فيه ذِلَّةٌ وخضوعُ
أصلِّى وعندى للصَّبابة رِقَّةٌ   فكلُّ صلاتى فى هواكِ خشوعُ

فغزله فيها ليس شعرا فحسب ، بل هو أيضا صلاة وتراتيل يقدمها لمن شغفت قلبه حبا ، بل عبادة وخشوع ودين ، يتعبَّد لها كما يتعبد الوثنيون للوثن ، ويأسى لنفسه ولهذا الحب الذى فُتن به ، بل الذى عبث به حتى جعله يعبد محبوبته ، يقول :

لى حَبيبٌ عبدتُهُ وَيْحَ مَنْ يعبدُ الوَثَنْ

وكأنه يريد أن يسترجع نفسه من محراب هذا الحب ، ولكنه لم يسترجعها أبدا ، فقد ظل يُنْشد تراتيل غزله الوجدانى البديع .

وكان البهاء زهير يعرف فى وضوح ما ينشئ من هذا الغزل الرائع ، يدل على ذلك ما رواه الحموى فى خزانته من حوار[1] له مع ابن سَعيد الأندلسى حين أطلعه على كتاب المغرب ورأى الأندلسيين يكثرون فى الغزل من أصداف التشبيهات والاستعارات فإنه قال له إن لنا فى الغزل طريقا آخر سماه الطريق الغرامى يقصد هذا الغزل الوجدانى . ثم لقيه مرة أخرى وأنشده : « يابانَ وادى الأجْرَعِ » وقال له : أشتهى أن تكمل هذا المطلع ففكر ابن سعيد قليلا وأنشد : « سُقيتَ غَيْثَ الأدمعِ » فقال البهاء : والله حسن لكن الأقرب إلى الطريق الغرامى أن تقول : « هل مِلْتَ من طربٍ معى » . وفى ذلك ما يدل من بعض الوجوه على إحكام البهاء للغة الغزل الوجدانى ومعانيه فى عصره ، وهو ما جعل معاصريه فى الديار الشرقية على شواطئ الفرات وفى دمشق والشام وفى القاهرة ومصر يشغفون بديوانه ويروونه ، ويشهد بذلك ابن خلكان إذ يقول عنه :

(١) خزانة الأدب ص ١٠ .

« أجازنى رواية ديوانه وهو كثير الوجود بأيدى الناس » . ومما يدل على ذلك من بعض الوجوه ما جاء فى طبعة المستشرق پلمر لديوان البهاء من أنه اعتمد فى تحقيقه للديوان على مخطوطة بمكتبة أكسفورد كتبها شرف الدين بن الحلاوى الشاعر الموصلى الأصل الدمشقى الدار والمولد . ونَصَّ ابن خلكان فى ترجمة البهاء زهير على أن هذا الشاعر لقيه ومدحه بقصيدة أحسن فيها كل الإحسان ، وطبعا طلب إليه أن يجيزه رواية الديوان فأجازه له . وأنشد ابن تغرى بردى لابن الحلاوى قصيدة[1] فى نهاية الرقة ، يتضح فيها تأثره بالبهاء وفيها يقول :

هلالٌ ولكنْ أفْقُهُ قلبى مَحلُّهُ ... غزالٌ ولكن سَفْحُ عينى عَقِيقُهُ[2]
على خَدِّه جَمْرٌ من الحسن مُضْرَمٌ ... يُشَبُّ ولكن فى فؤادى حَرِيقُهُ

وشاع هذا الغزل الوجدانى فى الشام وغير الشام ، وبدون ريب لمصر وشعرائها ابن سناء الملك وابن النبيه والبهاء زهير فضل شيوعه وذيوعه بعدهم فى مصر والبلدان العربية .

ابن[3] مطروح

هو جمال الدين يحيى بن عيسى بن مطروح ، ولد بأسيوط سنة ٥٩٢ ونشأ وأقام بقوص دار العلم والأدب والشعر حينذاك ، واختلف إلى ما بها من حلقات العلماء والأدباء ، وفيها تعرَّف على البهاء زهير وكان يكبره بنحو عشر سنوات . وأعجب به البهاء ، فاتخذه رفيقا وصديقا ، واستمع إلى أشعاره وملكته الشعرية تتفتح فكان يشجعه . ويبدو أنه حين عُيِّن حاكم قوص مجد الدين اللمطى البهاء كاتباله ، كما مرَّ بنا فى ترجمته ، سعى لديه ليسند عملا إلى صديقه ابن مطروح ، يدل على ذلك ما فى ديوانه من مدائح موجهة لمجد الدين ، وأكبر الظن أنه حين سخط مجد الدين على البهاء وأعفاه من منصبه سخط بالمثل على ابن مطروح وأعفاه من عمله . وحاول أن يستلَّ من نفسه سخطه عليه ، كما تشهد بذلك قصيدة يستعطفه بها استهلها بقوله :

لكَ اللهُ إنَّ العفوَ أقربُ للتقوى ... ومثلُك أوْلَى مثلىَ الصَّفْحَ والعَفْوَا

---

(١) النجوم الزاهرة ٦٠/٧ .

(٢) العقيق : اسم وديان ومواضع متعددة فى المدينة ونجد .

(٣) انظر فى ترجمة ابن مطروح وأشعاره ابن خلكان ٢٨٥/٦ ومرآة الجنان ١١٩/٤ وشذرات الذهب ٢٤٧/٥ والنجوم الزاهرة ٣٧٠/٦ ، ٢٧/٧ وحسن المحاضرة ٥٦٧/١ . وديوانه طبع قديما فى القسطنطينية سنة ١٢٩٨ هـ وهو فى حاجة إلى نشرة محققة .

ولم يجد الصديقان بدًّا من ترك قوص والاتجاه إلى القاهرة ، ومرّت بنا مدحة رائعة للبهاء مدح بها السلطان الكامل عقب انتصاره الحاسم على الصليبيين سنة ٦١٨ وبالمثل نجد ابن مطروح يمدح الكامل منوها بهذا الانتصار بمثل قوله :

ياناصرَ الدينِ الحنيفِ بسيفهِ ومذلَّ أهلِ الشِّرْك والطغيانِ

وقد يدل ذلك على هجرة الصديقين معا إلى القاهرة فى تلك السنة إن لم يكن قبلها ، وكما اتجه البهاء إلى أبناء الملك الكامل يمدحهم وفى مقدمتهم الملك المسعود صاحب اليمن حين قدم منها إلى القاهرة سنة ٦٢١ كذلك مدحه ابن مطروح ، ومدح أيضا عمه الأشرف موسى ممدوح ابن النبيه ، وله مدائح مختلفة فى أمراء بنى أيوب . ويقول ابن خلكان فى ترجمته إنه تنقلت به الأحوال فى الخدم والولايات ، ولا نعرف بالضبط ما هى هذه الخدم والولايات التى عمل بها .

ومرَّ بنا أن البهاء زهير وثّق صلته بالملك الصالح نجم الدين أيوب ، ونرى ابن مطروح يلتحق بخدمته ، ولا ندرى أى الصديقين قدم صاحبه إليه ، ويذكر ابن خلكان أن ابن مطروح كان فى خدمة الملك الصالح حين أصبح نائبا لأبيه الملك الكامل على البلاد الشرقية : الرُّها والرَّقة وغيرهما فى سنة ٦٢٩ وظل معه هناك حتى إذا استولى الملك الصالح على مقاليد الأمور بالقاهرة سنة ٦٣٧ استبقاه فى دمشق فترة ثم استقدمه إليه سنة ٦٣٩ وعيَّنه ناظرا فى الخزانة ، ولم يزل ينعم بقربه وحظوته منه حتى سنة ٦٤٣ إذ عيَّنه وزيرا له فى دمشق يدير شئونها ، فارتفعت منزلته . وقدم عليه الملك الصالح فى سنة ٦٤٦ ولم تعجبه بعض تصرفاته فعزله من منصبه وسيّره مع جيش للاستيلاء على حمص . وسمع بحملة لويس التاسع ومن انضموا إليه من حَملة الصليب وأنهم اجتمعوا بجزيرة قبرص لقصد مصر ، فسحب جيشه المحاصر لحمص وعاد به إلى مصر فى شهر المحرم سنة ٦٤٧ وخيَّم به على المنصورة وابن مطروح فى خدمته وهو متغير عليه متنكر له إلى أن توفى فى شعبان سنة ٦٤٧ وقاد ابنه توران شاه المعركة ، ودمر الحملة الصليبية ، وأسر لويس التاسع وسُجن بدار ابن لقمان بالمنصورة والطواشى صبيح يحرسه إلى أن فدى نفسه بأربعمائة ألف دينار وعاد مهزوما مدحورا مع فلول جيشه الصليبى إلى البحر المتوسط وما وراءه . وأغلب الظن أن ابن مطروح لم يحضر المعركة فقد عاد بعد وفاة الملك الصالح إلى داره بالفسطاط وانقطع إليها ، وشاع أن لويس التاسع يعدّ حملة ثانية لمصر فكتب إليه قصيدته البديعة :

قُلْ للفَرَنْسِيسِ إذا جئتَهُ مقالَ صِدْقٍ من قَوُولٍ نَصِيحْ

آجرَك اللهُ على ما جَرى من قَتْل عُبَّادِ يسوعَ المسيحْ
أتيتَ مصرًا تبتغى مُلْكَها تحسِبُ أن الزَّمر - ياطَبْلُ - ريحْ
فساقَك الحَيْنُ إلى أدْهَمٍ ضاق به عن ناظريكَ الفَسيحْ[1]
وكلُّ أصحابك أودعتَهم بحسن تدبيرك بَطْنَ الضَّريح
خمسون ألفا لا ترى منهمُ إلا قتيلا أو أسيرًا جَريحْ
وفَّقَك الله لأمثالها لعلَّ عيسى منكمُ يستريح
وقل لهم إن أضمروا عَوْدَةً لأخذ ثأرٍ أو لقصدٍ صحيح
دارُ ابنِ لُقْمان على حالها والقَيْدُ باقٍ والطَّواشى صَبيحْ

ويعلِّق ابن تغرى بردى على القصيدة بقوله : « لله دَرُّه ! فما أجاب عن المسلمين مع اللطف والبلاغة وحسن التركيب ». والقصيدة تمتلئ بالسخرية والتهكم ، فقد ظن لويس ظنا كاذبا أن مصر قريبة المنال فإذا من دونها حَزٌّ رقاب الكثرة من جيشه وأَسْرُ البقية فى الأغلال . ويسخر منه سخرية قاتلة حين يطلب إليه أن يعيد أمثال تلك الغزوة المشئومة حتى يستريح منهم عيسى وتُحَزَّ رقابهم جميعا . ويسخر من البابا ودعوته لهم أن يتجهوا بحملاتهم الصليبية الخاسرة إلى الشرق ، ويقول له ساخرا متهكما : لاتزال دار ابن لقمان التى سُجنتَ فيها على حالها ، ولايزاد القيد أو الغلّ باقيا ولا يزال حارسك صبيح فى انتظارك . كلمات مسمومة وكأنها سَفُّود يَشْويه عليه ، مع لطف التعبير ودقته ورهافته ومع الوخز الأليم .

وظل ابن مطروح ملازما داره إلى أن لَبَّى نداء ربه فى مستهل شعبان سنة ٦٥٠ ونراه فى السنتين الأخيرتين من حياته طوال مقامه بمنزله يكثر من الابتهال لربه أن يغفر له ، حتى إذا توفى وُجد البيتان التاليان فى رقعة تحت رأسه :

أتَجْزَعُ للموت هذا الجزَعْ ورَحْمةُ ربِّك فيها الطَّمَعْ
ولو بذنوبِ الورَى جِئْتَهُ فَرَحْمَتُه كلَّ شىء تَسَعْ

ويقول ابن خلكان : « كانت خلاله حميدة جمع بين الفضل والمروءة والأخلاق الرضية ، وكانت بينى وبينه مودَّة أكيدة . وله ديوان أنشدنى أكثره » . ويبدو أن ديوانه المطبوع لا يحتفظ

---

(١) الحين : الهلاك . أدهم : قيد .

بجميع أشعاره ، ومن أكبر الأدلة على ذلك أننا لا نجد فيه شيئا من مدائحه فى الملك الصالح إلا مقطوعة ذُكر فيها عرضا مع أنه ظل فى خدمته نحو عشرين سنة ، بينما نجد فى الديوان غير ملك أو أمير أيوبى ، وربما كان حذف مدائحه من الديوان من صنيع الشاعر نفسه ، وكأنما عزّ عليه أن يُعزل من منصبه ، فانتقم لنفسه بحذف تلك المدائح .

ومرَّ بنا آنفا أنه نشأت بينه وبين البهاء زهير مودة صافية منذ أيام صباه وشبابه فى قوص ، حتى كانا كالأخوين ، وامتدت بينهما هذه المودة الحلوة طوال حياتهما ، وجَنَيا منها واقتطفا أزهارا أوثمارا هنيئة ، كما يوضح ذلك ديواناهما وما فيهما من مراسلات شعرية بينهما . وهو مثل صديقه يكثر من شعر الغزل الوجدانى غير أنه كان يميل أكثر منه إلى الرمز عن وجده باتخاذه غالبا البدويات رمزا لمحبوباته ، وكأنه يريد أن يقرن وجده بوجد مجنون ليلى وأضرابه من شعراء نجد ، حيث يبثُّ فى وجده وحبه شذا الحنان والشوق الذى يكتظ به من قديم الغزل العذرى وما يُطْوَى فيه من حرارة ولوعة ، على شاكلة قوله :

هى رامةٌ فخذوا يمينَ الوادى ... وذَروا السيوف تقِرُّ فى الأغمادِ(١)
وحذارِ من لحظاتِ أعينِ عِينها ... فلكم صَرَعْن بها من الآسادِ(٢)
مَنْ كان منكم واثقًا بفؤادهِ ... فهنـاك مـاأنـا واثقٌ بفؤادى
ياصاحبىَّ ولى بِجَرْعاء الحِمَى ... قلبٌ أسيرٌ ماله من فادى(٣)
سلبتْه منى يوم بانوا مُقْلَةٌ ... مكحولةٌ أجفـانُها بِسَواد
وبِحَىِّ من أنا فى هواه مَيِّتٌ ... عَيْنٌ على العُشّاق بالمرصادِ
كيف السبيلُ إلى وصالِ محجَّبٍ ... ما بين بِيض ظُبًا وسُمْر صِعاد(٤)
حرسوا مُهَفْهَفَ قَدِّهِ بمثقَّفٍ ... فتشابه المَيَّاس بالمَيَّادِ(٥)

وواضح أنه رمز لحبه والتياعه فيه برامة فى نجد وظبائها ساحرات الأعين اللائى يصرعن بهن الأسد ، وقد خلف قلبه أسيرا هناك ولا من يفديه سلبته منه عين فاتنة مكحولة أجفانها بسواد

(١) رامة : موضع بالبادية .
(٢) العين : بقر الوحش .
(٣) جرعاء الحمى : أرضه ذات الحزونة
(٤) الظبى : جمع ظبة : حدالسيف . الصعاد : جمع صعدة : القناة أو الرمح .
(٥) المياس : المتبختر . المياد : المتمايل ، والمثقف : الرمح .

آسر ، وأحد لا يستطيع أن يصل أو يلمّ بتلك الديار : ديار رامة والحبيبة ، فمن دونها سيوف ورماح مسلولة مشرعة ، ويعجب أن يُحرّسَ قدُّها الرشيق المتبختر المختال برمح مشبه لها مياد أواميَّال . ويقول :

سَفَرَتْ وجاءتْ فى الغلائل تَنْثَنِى ... فـأرتْك حـظَّ المجتلى والمجتنى
ورنَتْ فما تُغْنِى التمائمُ والرُّقَى ... وأبيك عن لحظاتِ تلك الأعينِ
بدويَّةٌ كم دونها من ضاربٍ ... بالسيف مرهوبِ السَّطَا لم يؤمَنِ
لا يخدعنَّك لحظ طَرْفٍ فاترٍ ... أبدًا ولا تأمنْ لعطفةِ ليِّنِ
ألْبَسْتنى ياهاجرى ثوبَ الضَّنا ... وأخذتَنى يا تاركى من مأْمَنِى

لقد رفعت عن وجهها نقابها فشغفت قلبه حبا وافتتانا ، ومدَّت بصرها إليه فوقع فى حبائل أعينها مسحورا ولم تعد تغنيه التمائم والرق ، وإنها لبدوية أعرابية تحميها السيوف المرهفة . وينصح صاحبه أن لا تخدعه العيون الناعسة ولا القدود اللينة عما يسببان له من آلام وأوصاب دون أن يذوق شيئا من وصال ، ويشكو لصاحته البدوية ضناه وتباريح حبه ، يقول :

خذوا حِذْركم من طَرْفها فهْوَ ساهِرُ ... وليس بناجٍ من دَهَتْهُ المحاجِرُ
فإن العيون السودَ وهْى فواترٌ ... تقدُّ السيوف البِيضَ وهْى بَوَاترُ
ولا تُخْدَعوا من رقَّةٍ فى كلامها ... فإن الحميَّا للعقول تُخامِرُ
من القاصراتِ الطَّرْف غارتْ لحسنها ... ضَـرائـرُهـا والنـيِّراتُ الضَّرائرُ
إذا ما اشتهى الخَلْخَالُ أخبارَ قُرْطها ... فياطيبَ ما تُمْلِى عليه الضَّفائرُ

وهو يحذِّر من طَرْف صاحبته ، فالسهام دائمة مصوبة منه ، ومن تصبه محاجرها تصمى قلبه ، وياللعجب فإن العيون الفاترة الناعسة تقد السيوف الباترة القاطعة ، ويحذِّر من رقة كلامها المعسول فهو كالخمر يذهب بالعقول . ويقول إنها عفيفة مصونة ، تغار من حسنها الفاتن قريناتها الحسناوات والكواكب النيرات . والصورة فى البيت الأخير رائعة ، فضفائر شعرها تطول حتى تلمس خلخالها وكأنما تحدثه بأخبار قرطها ، ومن غزله فى بواكير حياته :

خَدٌّ توقَّد إذ ترقرقَ ماؤهُ ... لَهْفِى على المتوقِّدِ المترقرقِ
حتى الحلىُّ لحُسْنها متوسوسٌ ... فاعجبْ لحسنٍ للجماد منطِّقِ

ياشمسُ قلبى فى هواكِ عُطاردٌ لولا تعرُّضه لها لم يُحرَقِ
لم انس ما قالتْ وقد لمستْ يدى ماذا لقينا منه أو ماذا لقى
وأقول يا أختَ الغزالِ ملاحةً فتقول لا عاش الغزالُ ولا بقى

يقول إن خد صاحبته المتوهج حمرة كأنه نار موقدة ، وماء جماله ونضرته يتلألأ فيه ويترقرق ، مما يملؤه فتنة به ولهفة عليه . ويقول إن حسنها يُنْطق حتى الجماد ، وما وسوسة حليها إلا إعجاب منه بها ، وها هو قلبه قد احترق من تعرضه لشمس حسنها كما احترق عطارد أقرب الكواكب السيارة للشمس من تعرضه لنورها الحار المشتعل ، ويذكر رقة قلب صاحبته وأنها حين لقيته وسلمتْ أظهرت له عطفا وشفقة ، حتى إذا شبَّهها بالغزال حسنا وملاحة قالت له مدلة : لا عاش الغزال ولابقى ، فهى أكثر منه فتنة وسحرًا وجمالا . ويقول :

هزُّوا القُدودَ وأرهفوا سُمْرَ القَنا ـ واستبدلوا بدلَ السيوفِ الأعْيُنا
وتقدَّموا للعاشقين فكلُّهم أخذ الأمانَ لنفسه إلا أنا
لا خيرَ فى جَفْنٍ إذا لم يكتحِلْ أرَقاً ولا جسمٍ تجافاهُ الضَّنا
لما انثنى فى حُلَّةٍ من سُنْدُسٍ قالتْ غصونُ البانِ ما أبقى لنا
شبَّهتُه بالبدر قال : ظلمتَنى — يا عاشقى والله — ظلما بيِّنا

وهو يتصور هؤلاء الفاتنات كأنهن يقدن معركة رماحها قدودهنّ وسيوفها عيونهنّ وكل من حوله يطلب منهن الأمان إلا هو ، فقد تعلق بإحداهن ، وهو لا يرى للحياة قيمة بدون الحب والسهاد فيه وضنا الجسم والنحول . ويرى صاحبته فى حلة سندسية خضراء ، فيتصور كأن غصون شجر البان الذى طالما تغنى به المحبون تقول : ما أبقت لنا من الحسن والنضرة والجمال ، ويشبهها بالبدر فتقول له مدلة كصاحبته السابقة : ظلمتنى ظلما بيِّنا فهى أكثر منه جمالا وحسنا وروعة . ومن أبياته البديعة التى تتداولها كتب الأدب قوله فى بعض غزله .

لبسنا ثيابَ العناقِ مزرَّرةً بالقُبَلْ

ولعل فى كل ما قدمت ما يصور غزل ابن مطروح الوجدانى وما أشاع فيه من الرقة واللطف والدماثة والظرف وعذوبة الروح وخفة الظل .

برهان[١] الدين القيراطى

هو إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن عسكر ، ولد لأبيه سنة ٧٢٦ . والقيراطى نسبة إلى قيراط بلدة بمحافظة الشرقية سميت فيما بعد باسم كفر النحال وضُمّت إلى مساكن مدينة الزقازيق ، كان أبوه شيخا جليلا ولى القضاء بالمنوفية ودمياط وأسيوط ، ودرس فى مدرسة كانت تجاور الإمام الشافعى وبمشهد السيدة نفيسة والجامع الأزهر توفى سنة ٧٤٠ . ونشأ برهان الدين بالقاهرة وحفظ القرآن الكريم واختلف إلى حلقات العلماء إلى أن برع فى الفقه وعلمى الأصول والعربية وأكبَّ على كتب الحديث وأخذها عن أئمتها ، ودرَّس وحدَّث بالقاهرة . واستيقظت فيه مبكرة موهبته الشعرية ، فكان ينظم المدائح ويدبجها فى السلطان حسن وغيره ، وسلك فى شعره طريقة ابن نباتة ، وتلمذ له وراسله . وله فى وصف شعره ونثره تقريظ بديع احتفظ بفقرات منه الحموى فى باب الاقتباس بخزانته . ويقول ابن تغرى بردى فى ترجمته بالمنهل الصافى : « هو شاعر عصره بعد الشيخ جمال الدين بن نباتة وأقرب الناس إليه من دون تلامذته ومعاصريه من شعراء عصره ، مع علمى بمن عاصره من الشعراء ولا حاجة لنا إلى ذكرهم فإنه أرق وأحلى وأرشق » . ويقول ابن حجر : «كان له اختصاص بالشيخ السبكى وأولاده وله فيهم مدائح ومراثى وبينهم مراسلات » ويقول ابن العماد فى الشذرات : « له فى تاج الدين السبكى غرر المدائح » واحتفظ تاج الدين فى كتابه « طبقات الشافعية » بمراسلات بينه وبين القيراطى استغرقت نحو ثمانين صحيفة ، وأنشد مرثية له فى أبيه مطلعها :

أمسى ضريحُك موطنَ الغفرانِ ... ومحلَّ وَفْدِ ملائكِ الرحمنِ

ورأى أن يجاور بمكة مثل كثيرين من علماء عصره وقبل عصره ، فرحل إليها ، وأخذ عنه جماعة من علمائها والقادمين عليها ورووا عنه ديوانه . ويذكر ابن حجر بعض تلاميذه من جلّة المحدِّثين فى القاهرة أمثال شيخ الحفاظ أبى الفضل العراقى والشيخ بدر الدين البَشْتكى ، وفى مكة أمثال جمال الدين بن ظَهيرة وتقى الدين الفاسى المذكور فى مصادره ، وقد كتب عنه بعض شعره

(١) انظر فى ترجمة برهان الدين وأشعاره المنهل الصافى لابن تغرى بردى (طبع دار الكتب المصرية) ٧٠/١ والنجوم الزاهرة ١٩٦/١١ وطبقات الشافعية للسبكى ٣١٤/٩ ٣٩٨ و٣٣١/١٠ والدرر الكامنة لابن حجر ٣٢/٢ وشذرات الذهب لابن العماد ٢٧٠/٦ والعقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين لتقى الدين الفاسى (طبع القاهرة) ٢١٧/٣ . وله ديوان أسماه مطلع النيرين طبع بمصر سنة ١٢٩٦هـ ومنه عدة مخطوطات بدار الكتب المصرية .

وأجاز له روايته ، ومازال طلاب علمه وشعره يعكفون على حلقته بمكة حتى توفى بها سنة ٧٨١ .

ولبرهان الدين غزل وجدانى كثير ، أوكما يسميه البهاء زهير غزل على الطريقة الغرامية ، غزل يقدمه صاحبه لمحبوبته مؤملا فى الوصال ، ودائما لا وصال بل دموع وأشواق ووصف للصبابة والغرام والوجد الذى لا تنطفئ ناره فى قلوب أصحاب هذا الغزل ، مع مشاعر غامرة من اللطف والرقة ، ومع الألفاظ والأساليب الرشيقة من مثل قوله :

بأبى لحظُ غزالٍ قائلٍ فى الفلواتِ[1]
أخذتْ بابلُ عنه بعضَ تلك النفثاتِ
حسناتُ الخدِّ منه قد أطالتْ حسراتى
أعشقُ الشاماتِ منه وَهْيَ أسبابُ مماتى
إنَّ للموت بأقدا حِ جفونى سكراتِ
قلت قد مِتُّ غراما قال لى مُتْ بحياتى

والأبيات تتطاير عن الفم بخفة ، وهو يشكو من لحظ غزال بدوى يقضى أوقات قيلولته فى الفلوات ، غزال ينفث فى كل ما حوله السحر ، بفتنته وجمال وخدوده التى ملأت قلب الشيخ حسرات ، لأنه يتمنى الدنو منها ليتملَّى بحسنها وما فيها من شامات تزيدها حسنا وجمالا ، وإنه ليذوب - أوكما يقول - ليموت وجدا والتياعا ، وتلك سكرات الموت تملأ أقداح جفونها ، ويتضرع إليها قائلا إنه مات غراما ، فتضحك فى خبث مدلَّة عليه قائلة له : « مت بحياتى » ومن نفس هذا المعين المتدفق السلس يقول :

غرامى فيكِ ياقمرى غريمى وذكرُكِ فى دُجَى ليلى نديمى
وملَّنيَ الحميمُ وصدَّ عنى ومالى غير دمعى من حَميمِ
وكم سأل العواذل عن حديثى فقلت لهم على العهد القديمِ
وعمَّ يسائلون ولى دموعٌ تحدِّثهم عنِ النَّبأ العظيمِ
بدتْ فى خدِّها شاماتُ مسْكٍ كحظى أوكليْلِى أو همومى
إذا نيرانُ خدَّيْهَا تبدَّتْ رأيتُ بهنَّ جنَّاتِ النَّعيم
ومن شغفى بِغُصْن القَدِّ منها أغارُ على الغُصون من النسيم

(١) قائل : من القيلولة وهى وسط النهار ، وفعله قال يقيل .

وكأنى بصاحبته فى الأبيات هى نفس صاحبته الأولى ، ويقول إن غرامها غريمه وذكرها نديمه طوال الليل ، والتورية فى البيت الثانى بديعة فقد ملّه الحميم والصديق فى حب صاحبته ، ولم يبق له إلا دمعه الحميم الحار يرافقه . ويسيل البيت الثالث صفاء وعذوبة مع ما فيه من الجناس وكذلك البيت الرابع وما به من اقتباس عن سورة « النبأ » وتعجب أن يتساءلوا ودموعه تجرى على خدودها ، ويقول إن شامات خدودها الضاربات إلى السواد كأنها نقط مسك أو كأنها مقتطعة من حظه معها أو من ليله أو من هموم حبها المشتعل فى حنايا صدره . ويعجب أن يجمع خداها بجمرتها المتوهجة بين نيران الجحيم حرارةً وجنّات النعيم وورودها الفاتنة . ويعلن غيرته عليها حتى ليغار من النسيم إن هبَّ على ما يشبه غصنها من غصون الرياض النّاضرة . ويقول :

يا مَنْ هجرتُ على هواهم عاذلى ... أَيَحِلُّ فى شَرْعِ الهوى أن أُهْجَرَا

طلعتْ بدورُ التِّمِّ من أَزْراركم ... فغدا اصطبارُ الصَّبِّ مُنْفَصِمَ العُرَا

من كل هَيْفَاءِ القَوام كأنها ... غُصْنٌ يحرِّكه النسيمُ إذا سَرَى

ذُكرتْ فصغَّرها العَذولُ جهالةً ... حتى بدتْ للناظرين فكبَّرا

وجهلتُ معنى الحسن حتى أقبلتْ ... فرأيته فيها يلوحُ مصوَّرا

لما درتْ أنى الكليم من الهوى ... جعلتْ جوابى فى المحبة لن ترى(١)

يامَنْ إذا ما مرَّ حُلْوُ حديثها ... أغناك عن مُرِّ العتيق وأسكرا(٢)

أَرْخَصْتِ يوم البَيْن سِعْرَ مدامعى ... وتركتِ قلبى بالغرام مسعَّرا(٣)

وهو يتضرع إلى صاحبته أن لا تذيقه ألم الهجران وأن تنقذه منه ، فقد نفد صبره إذ رآها مع صواحبها الفاتنات وهن يمسْنَ مَيْس الغصون حين يداعبها النسيم ، ويقول إن العذول كان يحاول الغض من جمالها تسرية عن نفسه فلما رآها بهت وصاح . الله أكبر : أما هو فيرى فيها كل معانى الفتنة مصوّرة مغرية . ولما علمت مقدار وجده المبرح بها لم يأخذها عليه إشفاق أو رحمة ، بل مضت تُدِلّ عليه ، وتقول له : لن ترانى . ويعود إلى ندائها والتضرع إليها مصورا روعة حديثها وحلاوته المسكرة ، ويقول لها : لقد أرخصت مدامعى وأسعرت قلبى أو أشعلته نارا موقدة . وفى البيتين الأخيرين طباق وجناس مندمجان فى هذا الأسلوب السهل السائغ ، ويقول :

---

(١) الكليم : الجريح . لن ترى : لن ترانى .

(٢) يريد بالعتيق الخمر المعتقة .

(٣) فى مسعر تورية لأنها إما من السعر وهو المعنى المتبادر غير المراد ، وإما من السعير أى الجحيم وهو المعنى المراد .

علموا بأنّى لا أحولُ فعذّبوا ... وَدَرَوْا بأنى عاشقٌ فتغضّبوا[1]
قتلوا المتيَّم فى الهوى وتظلّموا ... وجَنَوْا عليه بصدّهم وتعتّبوا
ومهفهفٍ لولا حلاوةُ وجههِ ... ما كان مُرُّ عذابِهِ يُسْتَعْذَبُ
إن كان يرضى أن أموت صبابةً ... فجميعُ ما يرضاه عندى طيِّبُ
يا باخلاً وله أجُودُ بمهجتى ... رِفْقًا على صَبٍّ عليك يعذَّب
إنْ مِلْتَ فالأغصانُ يُعْهَدُ مَيْلُها ... أو غِبْتَ فالأقمار قد تتغيَّب

وهو يقول إن صاحبته عرفت أنه لا يستطيع حِوَلاً عنها فتمادت فى تعذيبه ، ولم ينفعه عندها عشقه . فقد أظهرت له سخطا وغضبا ، ومع أنها فتكت بمحبها تشتكى منه ظلما وجورا . وماتزال تتجنى عليه ، ويقول إن جمال وجهها هو الذى جلب له هذا العذاب المرير ، وإنه ليستعذبه إرضاء لها . حتى ليطيب له الموت فى سبيلها . ويقارن بينه وبينها ، فهو يجود لها بروحه ، وهى شحيحة شحا شديدا ، لا تجود له حتى بنظرة ، ويعلل نفسه قائلا : إن مالت عنه فذلك طبيعى ، لأنها غصن رشيق ، وطبيعة الأغصان أن تميل مع الرياح ، وكذلك إن وعدته وغابت فطبيعة الأقمار أن تغيب عن الآفاق .

وكان القيراطى يكثر من التوريات ، واختار له ابن حجة الحموى منها فصلا[2] طريفا أودعه خزانته ، من مثل قوله :

تنفَّس الصبحُ فجاءتْ لنا ... من نحوه الأنفاسُ مِسْكِيَّه
وأطربتْ فى العود قُمْرِيَّةٌ ... وكيف لا تُطْرِبُ عُودِيَّهْ

وعوديَّة لها معنيان : القمرية التى تطرب على عود الشجر ، والمغنية الضاربة على العود ، والتورية واضحة . ولعل فيما سبق ما يوضح الغزل الوجدانى أو الغرامى عند القيراطى ، وكان – كما أسلفنا – شيخا من شيوخ الحديث النبوى فى عصره ، وكان طلابه يختلفون إليه فى أخذه عنه بالقاهرة ومكة . ولا ريب فى أن إسهام مثله فى هذا الغزل يدل دلالة قاطعة على أن موجته بمصر فى هذا العصر كانت حادة وأنها عمت حتى شيوخ الحديث وحفاظه من أمثال القيراطى . ووراءه كثيرون من الشيوخ الفقهاء والمحدثين المصريين خلفوا دواوين تحمل سيولا من هذا الغزل الوجدانى الرقيق أمثال ابن دقيق العيد وابن الصائغ الحنفى وابن حجر

(١) أحول : أتحول .
(٢) خزانة الأدب للحموى ص ٣٨١ .

نور الدين[1] على العُسَيْلى

من علماء مصر وفضلائها وشعرائها فى القرن العاشر الهجرى توفى سنة ٩٩٤ للهجرة وكان فقيها شافعيا تتلمذ لشيوخ الأزهر، وأظهر براعة فى فنه، وعكف على التأليف والتدريس، وفيه يقول الشهاب الخفاجى: «نور حدقة الزمان ونَوْر (زهر) حديقة الحسن والإحسان وكحل عيون الفضلاء والأعيان» وعاش طويلا، وتعلق بأخرة بالسادة البكرية، فقابله الدهر - كما يقول الشهاب الخفاجى - بوجه طليق. ويبدو أن موهبته الشعرية تفتحت مبكرة، فقد غطَّى اشتهاره بشعره على شهرته بالعلم والفقه والفضل، وغلب عليه الغزل من مثل قوله:

سَقَى الحِمَى ولياليه التى سَلفتْ ... من أدمعى ومن الوَسْمِىّ هَتَّانُ[2]
لى فى الديار سقاها المزن صَيِّبُهُ ... غزالُ حُسْنٍ بديع الخلق فَتَّانُ[3]
يارَبْرَبَ الحسن قد بالغتَ فى تلفى ... أما لهجركِ بالَميْاءُ هجرانُ[4]
هلا نظرتِ إلى مُضْناكِ راحمةً ... فكان يشفع منك الحسنَ إحْسَانُ

وهو لا يمل الدعاء بأن يُسْقَى الحمى وليالى حبه فيه أمطار الربيع ودموعه الهاطلة أبدا فى الديار غزال سحره وخلب لبه. ويهتف بسرب الحسن أن يلتفت إليه وبصاحبته لمياء أن تصله بعد طول الهجر والعذاب، حتى ولو بنظرة عطف وإشفاق على مضناها الذى طال عناؤه وشقاؤه وحرمانه. ويقول:

كأنَّ الذى أهوَى على نفسه جَنَى ... فمال على تلك المحاسن بالفَتْكِ
فأغرق خَدَّيه بماء جماله ... وأوقع فى الظَّلْماء ناظرَه التُّركى
وهاجَفْنُه يبكى عليه من الضَّنا ... وها خَصْرُهُ من ثِقْل أردافه يُشْكى

وهو يجعل المحبوب التركى جانبًا على نفسه، فقد أغرق خديه فى ماء جماله أو بعبارة أخرى فى رونق حسنه، وكأنما كحل ناظره الأسود بالظلام الداجى فلمع بريقه، ويتخيل كأنما جفنه يبكى

---

(١) انظر فى نور الدين العسيلى وترجمته ريحانة الألبا (تحقيق عبدالفتاح الحلو) ١٩٧/٢ وما بعدها وشذرات الذهب ٤٣٤/٨

(٢) الوسمى: مطر الربيع. هتان: هطال.

(٣) المزن: السحاب. صيِّبه: مطره.

(٤) الربرب: القطيع من الظباء أو البقر الوحشى، والاستعارة واضحة.

على ضناه وكأنما خصرهُ يشكو من ثقل أردافه ، وقد استعمل يشكى مثل العامية بدلا من يشكو الفصيحة ، ويقول فى إحدى الجوارى .

دَبَّتْ لـــه ذُؤابـــةٌ كـحيَّةٍ من خَلْفهِ
تحمى ضعيفَ خَصْرِه من خـارجىٌ رِدْفهِ

وهو يشبه الضفيرة بحية وكأنها تحمى خصرَه من ثقل ردفه ، وقد عبر عنه بأنه من الخوارج مبالغَة ، ويقول :

كلٌّ فِعال الحِبٌ محمودةٌ وإن تجافى وتجنَّى وتـــاه
فوَصْلُه قَطْعٌ لداء الأسى وَهَجره قطعٌ لقول الوشاه

فهو يرتضى من محبوبته حتى هجرها ليقطع ألسنة الوشاة ، وهو جانب فيه من التظرف والرقة ورهافة الشعور ما يمتاز به أهل القاهرة ، وله قصيدة بديعة فى دولابٍ (ساقية) روض صوَّره فيها ينوح ويئن دائما لفراقه روضَه إذكان شجرة ضخمة فى إحدى الرياض قطَّع أوصالها غبى ودقَّ عظمها فى ضلوعها ، فهى ماتنى تبكى على عهدها بالرياض ، وماتنى عيونها جارية بالدموع . وفى الحق أنه كان شاعرا بارعا ، ومرَّ بنا أنه يكوِّن مع تلميذه يحيى الأصيلى وتلميذ يحيى الشاعر يوسف المغربى مدرسة فى الغزل زمن العثمانيين كانت تمتاز بدقة الحس ورهافة الشعور .

٢

شعراء الفخر والهجاء

الفخر والهجاء غرضان قديمان من أغراض الشعر العربى ، فمنذ الجاهلية يتغنى الشعراء بمفاخرهم الذاتية ومفاخر قبائلهم وأقوامهم ، وبالمثل يتغنون بأهاج فردية تتصل بفرد بعينه ، وأخرى جماعية تتصل بالقبائل والأقوام ومثالبهم . ولا ريب فى أن وتر الفخر الذى شدَّه الشعراء إلى قيثاراتهم كان وترا خصبا ، إذ وقَّع الشعراء عليه كثيرا من الألحان الخلقية الرفيعة ، مما يتصل بالمروءة والكرم والوفاء والكرامة وغير ذلك من الفضائل الحميدة ، كما وقعوا عليه كثيرا من الألحان الحماسية التى تصور بسالتهم الحربية وما أذاقوه أعداءهم من الهزائم الساحقة . وظلت هاتان المجموعتان من الألحان طوال الحقب التالية ، وظل العرب فى كل مكان يردِّدونها صحائف تربية

مثالية وأناشيد حربية حماسية . وشعراء مصر منذ نشط فيها الشعر يشاركون فى المجموعتين ، يشارك فيها الأمراء وأبناء الشعب ، من ذلك قول العباس بن أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية(١) :

لله دَرِّىَ إذْ أغدُو على فَرَسِى إلى الهياج ونارُ الحربِ تَستَعِرُ
وفى يدى صارمٌ أفرِى الرءوسَ بهِ فى حَدِّه الموتُ لا يُبْقِى ولا يَذَرُ

والبيتان من قصيدة حماسية ملتهبة ، ومعروف أنه أخطأ فى هذه الحماسة وما اقترن بها من شجاعة ، إذ وجّهها إلى أبيه ثائرا عليه . وأخفقت ثورته . وينزل مصر فى أيام كافور الإخشيدى المتنبى ، وتستدير حوله ندوة كبيرة تروى شعره وتتدارسه وكلَّ ما فيه من فخر مضطرم وحماسة ملتهبة . وتستقبل مصر الدولة الفاطمية ويدخلها المعز الفاطمى ، ومعه ابنه الشاعر النابه تميم ، وله فخر كثير ، وسنفرد له ترجمة عما قليل ، ونلتقى بعده بولى الدولة بن خيران صاحب ديوان الإنشاء بمصر فى عهد الظاهر والمستنصر المتوفى سنة ٤٣١ ونراه يبدئ ويعيد فى الفخر بشعره وكتاباته من مثل قوله(٢) :

ولقد سموتُ على الأنامِ بخاطرٍ اللهُ أجْرَى منه بَحْرًا زاخرا
فإذا نظمتُ نظمت رَوْضًا حاليًا وإذا نثرتُ نثرت دُرًّا فاخرا

فهو يفتخر بخواطره الغزيرة التى تنسكب من ذهنٍ كأنه بحر زاخر ، وهو يهدى منها إلى الناس والآفاق أشعارا رائعة ورسائل بديعة . ونلتقى بغير شاعر فاطمى يفخر بنفسه فخرا حماسيا ملتهبا على شاكلة قول الحسن بن زيد الأنصارى(٣) :

منالُ الثُّرَيَّا دون ما أنا طالبُ فلا لومَ إن عاصَتْ علىَّ المطالبُ
وإنى وإن لم يسمح الدهرُ بالمُنَى فلى فى كَفالات الرماحِ مآربُ
تُقرِّبُ لى مُستَبْعداتِ مطالبى جيادى وعَزْمى والقَنا والقواضِبُ

فما يطلبه ويتمناه فوق الثريا فى أعلى عليين من السموات ، وطبيعى أن لا تناله يده أحيانا ، ومع ذلك هو لا ييأس أن ينال من الدهر مطالبه ومآربه بفضل رماحه وجياده وسيوفه القواضب

(١) النجوم الزاهرة ٢١/٣ .
(٢) معجم الأدباء ٨/٤ .
(٣) الخريدة (قسم شعراء مصر) ٦٩/٢ .

القاطعة وعزمه الذى لا يُفَلّ ، إنه مملوء فتوة وقوة صلبة ينيلانه كل ما يتمنى . وكان يعاصره الرشيد بن الزبير أخو المهذب الذى ترجمنا له فى الفصل الماضى وقلنا هناك إنه وقعت لأخيه الرشيد محنة باليمن إذ ذهب رسولا عن الدولة الفاطمية إلى أحد دعاتها فسجنه وهمَّ بقتله مما جعل المهذب يستعطفه لأخيه بقصيدة رائعة ، ردَّ عليها بمجرد سماعها حريته ، إذ عفا عنه وأطلقه ، ونرى الرشيد يعلن فى قوة أن نفسه لم تنكسر ولم يصبها أى وهن بسبب هذا الحادث ، يقول[1] :

جَلَّتْ لدىَّ الرَّزايا بل جَلَتْ هِمَمِى ... وهل يضرُّ جلاءُ الصارم الذَّكرِ
لو كانت النارُ للياقوت محرقةً ... لكان يَشْتبه الياقوتُ بالحجرِ
لا تُغْرَرَنَّ بأطمارى وقيمتها ... فإنما هى أصدافٌ على دُرَرِ
ولا تظنَّ خفاءَ النجمِ من صِغَرٍ ... فالذَّنْبُ فى ذاك محمولٌ على البصرِ

وهو يقول إنه تحمَّل الرزايا والمصائب التى نزلت به جَلَدًا شجاعا ، بل لقد جَلَتْ همته جلاء السيف الباتر ، ويضرب مثلا بالياقوت فالنار مهما اضطرمت لا تحرقه ، وإلا كان حجرا لا غناء فيه . وينظر إلى أطماره وثيابه البالية فيقول لصاحبه : لا تغرنك هذه الأطمار الخلقة فإنها أصداف وقشور وأغطية للآلئ ثاقبة ، ويضرب مثلا بالنجم فى السماء تستصغر الأبصار رؤيته ، والذنب فى الصغر للبصر لا للنجم .

ونمضى إلى زمن صلاح الدين وما حققت مصر فى أيامه من مجد حربى عظيم بسحقها الصليبيين فى ديار الشام واستخلاص بيت المقدس وغيره من أيديهم ومحقهم محقا لا يكاد يبقى منهم ولا يذر . وكان لابد لمصر من شاعر يتغنى لها بهذا المجد البطولى الذى تَوَّجها به صلاح الدين ، وتغنَّى ابن سناء الملك أكبر شعرائها حينئذ ببطولة صلاح الدين وجنده المصريين فى قصائد حماسية مضطرمة ، كما مر بنا فى ترجمته ، وليس ذلك فقط ، فقد مضى يفخر فى أشعاره فخرا عارما ، وكأن كل ما تجمَّع فى صدر صلاح الدين وأبطال جيشه من أحاسيس تجمَّع فى صدر ابن سناء الملك وقلبه ، فإذا هو يتغنى بمثل هذا النشيد الرائع[2] :

سوايَ يخاف الدهرَ أو يرهبُ الرَّدَى ... وغيرىَ يَهْوَى أن يكون مخلَّدا
ولكننى لا أرهبُ الدهرَ إن سَطا ... ولا أحذرُ الموت الزُّؤامَ إذا عَدا[3]

(١) ابن خلكان ١٦٢/١ .
(٢) الديوان ص ١٦٥ .
(٣) الزؤام : السريع .

ولو مدَّ نحوى حادثُ الدَّهْرِ طَرْفَهُ ... لحدَّثتُ نفسى أن أمدَّ له يَدَا
توقُّدُ عَزْمِى يترك الماءَ جمرةً ... وحِلْيَةُ حِلْمى تترك السيفَ مِبْرَدا
وأَظْمأُ إنْ أبدى لىَ الماءُ مِنَّةً ... ولو كان لى نَهْرُ المجَرَّة موردا
ولو كان إدراكُ الهدى بتذَلُّلٍ ... رأيتُ الهُدَى أن لا أميلَ إلى الهُدَى
وإنك عَبْدى يازمانُ وإننى ... على الكُرْهِ منى أن أُرَى لك سيِّدا
ولو علمتْ زُهْرُ النجومِ مكانتى ... لخَرَّتْ جميعا نحو وجهىَ سُجَّدا

وكأنه لم يعبِّر فى هذه الأنشودة الفريدة عن شعور كل مصرى لزمنه حَمل السلاح وسفك به دماء الصليبيين المعتدين الآثمين فحسب ، بل لقد عبَّر بها عن شعور كل مصرى على مر الزمن بأمجاد أمته الحربية والحضارية . وإنه ليشمخ بنفسه فى أعلى الأفلاك والسموات ، فإذا هولا يرهب الدهر ولا يرهب الموت الزؤام ، ولو مد الدهر طرفه إليه لنازله بعزم صادق يُشْعل الماء جمرا ملتهبا ويردّ السيف كليلا صَلْدًا لا يقطع . ويمتلئ صدره بإحساس الكرامة ، حتى إنه ليظمأ إن أبدى له الماء مِنَّةً ، بل إنه ليموت ظمأ حتى لوكان نهر المجرة مورده وحقق له وروده كل ما أمَّله ، وحتى الهدى لوكان إدراكه بشيء من الهوان لرفضه . ويبلغ من استصغاره للدهر وأحداثه أن يشعر فى قوة بسيطرته عليه حتى كأنما ذلَّ له ودان ، بل حتى كأنما أضبح له عبدا مسترَقًّا ، وهو مع ذلك يشعر فى كبرياء بتعاظم شديد عليه ، حتى ليقول إن النجوم الساطعة لو رأت وجهه لخرت ساجدة تقدم له التراتيل ، وكأنما تجسدت فى روحه مضر الخالدة الجديرة بكل تقديس .

ومن طريف ما يلقانا من الفخر بعده فخر ابن نباتة الكثير بشعره وكان حاملَ لواء الشعر فى زمنه ، ومن قوله :

من مبلغُ العُرْب عن شعرى ودولتِه ... أنَّ ابن عبَّادَ باقٍ وابنَ زيدونا
إذا رأيت قوافيها وطَلْعَتَها ... فقد رأتْ مقلتاك البحرَ والنُّونا
كأنَّ ألفاظها فى سمع حُسَّدها ... كواكبُ الرُّجم يَخْرِقن الشياطينا

وهو يقول إن من سمع شعره عرف أن الأندلس لم تُنْسَ ، فلا تزال حية نضرة ولايزال شعراؤها العظام من أمثال المعتمد بن عباد أمير إشبيلية وشاعره الوجدانى ابن زيدون . وقد ورَّى فى البحر والنون يريد بهما بحر الشعر ونون القافية فى القصيدة لا الحوت ، ويسمِّى حساده باسم

الشياطين تسقط عليهم أبيات قَصِيده كشهب الرَّجْم فيحترقون ويستحيلون رمادا تذروه الرياح . وقلما نلتقى فى الحقبة العثمانية بفخر إلا ما يتصل بالشمائل والأخلاق الكريمة .

ومنذ سال الشعر على ألسنة المصريين سال معه هجاء كثير ، وكان الشعراء يقذفون بسهامه – كما مر بنا فى غير هذا الموضع – الولاة والقضاة كلما انحرفوا عن الصراط السوىّ على نحو ما يصور ذلك كتاب الولاة والقضاة للكندى . ومعروف أن أحمد بن طولون استقل بمصر وأسس بها الدولة الطولونية ، وضم إلى لوائه الشام ، وله أعمال مجيدة كثيرة ، ولم يكن يخلو منه ظلم وعسف وسفك للدماء كما يقول ابن تغرى بردى وفى كتاب الولاة والقضاة شاعر يسمى محمد بن أبى داود كان كثيرا ما يهجوه مزريا على ماشاده من المارَسْتان وغير المارستان ، وفيه يقول من أشعار مقذعة كثيرة حتى بعد وفاته :

وكم ضَجَّةٍ للناس من خَلْفِ سِتْرِهِ   تضجُّ إلى قلبٍ عن الله مُغْفَلِ

فقلبه غافل عن ذكر ربه وعن حوائج الناس وهم يضجون خلف حجابه وحرسه . ولا نشك فى أن ابن أبى داود ظلم ابن طولون ، فقد كان يعنى بالرعية وبنى جامعه المشهور وعهد إلى بعض العلماء بالتدريس فيه . وأهاجى المتنبى فى كافور الإخشيدى مشهورة ، وقد ظلمه بدوره ظلما بيِّنا . وكان المصريون قد احتفوا به حين نزوله فى الفسطاط وعقدوا له ندوة كبيرة ظلت طوال مقامه بين ظهرانيهم ، وممن لزمه فيها وروى عنه شعره صالح بن رشدين ، وعبيد الله بن أبى الجوع وله نقائض وأهاج مع صالح بن مؤنس ، وله يقول صالح[1] :

هاجيك فيما قاله مادحٌ   فأنت فى صَفْقتك الرابحُ
يا أيها الصَّعْوُ الذى لم يزل   يرقص حتى دقَّه الجارِح[2]

وهو يسمى هجاءه له مدحا لأن فيه ذكرا له ، ومثله ليس شيئا حتى يذكر ، ويقول له إنك عصفور صغير لا يزال يرقص على الأغصان من غصن إلى غصن حتى يدق عنقه صقر أو نسر جارح . ونمضى إلى زمن الدولة الفاطمية وما أخذت تنشره من عقيدتها الشيعية الغالية الرافضة . وما زعمته للأئمة من نسبةٍ إلى عالم القدس وأنهم من جوهر روحى مصفى وأنهم يعلمون الغيب

(١) اليتيمة ١/٣٨٩ .

(٢) الصعو : العصفور الصغير .

مما عرضنا له فى غير هذا الموضع . ويُرْوَى أن الخليفة العزيز بن المعز صعد المنبر فى يوم جمعة ، فرأى ورقة كتب فيها شاعر مصرى هذين البيتين[١] :

بالظلم والجَوْر قد رَضينا وليس بالكُفْر والحماقَهْ
إن كنتَ أُعطيت عِلْمَ غَيْبٍ فقُلْ لنا كاتب البطاقه

فتناولها العزيز وقرأها ولم ينبس ببنت شفة .

وظل شعراء مصر طويلا مغاضبين لهذه الدولة معرضين عنها ، كما أسلفنا ، وكان مما أثار حفيظتهم بالإضافة إلى نحلتها المنحرفة اتخاذها وزراء لها من اليهود ممن أعلنوا إسلامهم ، وكان كثير من المصريين يشك فى صحة إسلامهم وأنهم يتخذون ذلك ذريعة للاستيلاء على الوزارة والمناصب الكبرى فى الدولة ، وكان منهم صدقة بن يوسف الفلاحى وزير الخليفة المستنصر واتخذ أبا سعد التَّسْتُرِىَّ اليهودى مدبرا للدولة معه فصاح أحد الشعراء المصريين بالخليفة ساخرا غاضبا[٢] :

يهودُ هذا الزمانِ قد بلغوا غايةَ آمالهم وقد ملكوا
العزُّ فيهم والمال عندهمُ ومنهمُ المستشارُ والملك

وهى سخرية من المستنصر قاتلة ، مما اضطره إلى النزول على إرادة الشاعر والشعب ، فاعتقل الوزير الفلاحى ولقى حتفه على يده . وعلى نحو ما كان المصريون يتعرضون للفاطميين بالهجاء كانوا كذلك يتعرضون لوزرائهم هاجين هجاء مرًّا على نحو ما هجا الشاعر جاسوس الفلك الجرجرائىَّ وزيرَ المستنصر وكان أقطع اليدين لخيانة ظهرت عليه فى أيام الحاكم ، فلما ولى الوزارة استعمل الأمانة الزائدة والاحتراز الشديد فخاطبه جاسوس الفلك قائلا[٣] :

يا أحمقًا إسمعْ وقُلْ ودَع الرقاعةَ والتحامقْ
أمن الأمانة والتُّقى قُطِعَت يداك من المرافق

ولم يكن الوزير مصرى الأصل بل كان من جَرْجرايا من أرض العراق . واشتهر الناجى المصرى بمقطعاته الهجائية الكثيرة فى الأفضل بن بدر الجمالى وزير الخليفة الآمر ، وفيه يقول[٤] :

---

(١) النجوم الزاهرة ١١٦/٤
(٢) حسن المحاضرة ٢٠١/٢
(٣) ابن خلكان ٤٠٨/٣
(٤) الخريدة ١٠٣/٢ .

قُلْ لابن بَدْرٍ مقالَ من صَدَقَهْ لا تَفْرَحَنْ بالوزارة الخَلَقَهْ
إن كنتَ قد نلتَها مُراغمةً فَهْيَ على الكلب بعدكم صَدَقَه

وهو هجاء مقذع إقذاعا شديدا . ونرى داود بن مقدام المحلى الملقب برضى الدولة المار ذكره يهجو بعض أصحاب الدواوين وماكانوا عليه من فساد فى جمعهم للضرائب ، يقول[١] :

وكتَّابٍ لهم أبدا حُمَاتٌ تُعَدُّ لها الرُّقَى مثل الصِّلالِ[٢]
بأيدٍ تَبْتَدِرْن إلى الرَّشاوِى كأيدى الخَيْل أبصرت المخالى

فكأنهم يشبهون الزنابير والعقارب والأفاعى ، إن لم يقدم لهم الرشاوى لسعوا من يجمعون منهم الضرائب كما يلسع الزنبور والعقرب بحمتها أو إبرتها وكما يلسع الصِّل أو الأفعى بسمه القاتل . ونلتقى فى أثناء ذلك بدعابات ساخرة كقول ابن قادوس يتهكم على الرشيد بن الزبير وكان شديد السواد[٣] :

إن قلتَ من نارٍ خُلِقْـ ـتَ وفُقْتَ كلَّ الناس فَهْمَا
قلنا صدقتَ فما الذى أطْفاك حتى صِرْتَ فَحْمًا

وهى دعابة قد يقبلها الرشيد لما فيها من فكاهة خفيفة ، ولابن قادوس أحيانا هجاء ملىء بالسموم وخاصة ممن يضيق بهم كقوله فى منافق مايزال يتلوَّن لكل شخص باللون الذى يعجبه ، يقول[٤] :

حولَه اليومَ أناسٌ كلُّهم يُزْهَى برائِهْ
وهْو مثلُ الماء فيهم لونُه لونُ إنائه

ونمضى إلى زمن الأيوبيين ، ويلقانا ابن سناء الملك ساخطا على بعض معاصريه ، يكويهم بسياط هجائه وخاصة من يسمى ابن عثمان ، حتى ليود أن يُصْفَعَ بالنعال على حد قوله[٥] :

وكم له من وقعةٍ لم تُبْقِ منه باقيهْ
وما عليه قطُّ من صَفْعِ النِّعال واقيهْ

(١) الخريدة ٢/٤٧ .
(٢) حمات : جمع حمة وهى إبرة الزنبور والعقرب . والصلال : الأفاعى .
(٣) الخريدة ١/٢٢٩ .
(٤) الخريدة ١/٢٣٣
(٥) الديوان ص ٨٧٦ .

فهو يتصوَّره يُصْفَعُ بالنِّعال ولا مغيث له ولا مجير ، وللبهاء زهير بعض مقطوعات فى الهجاء ، وهو لا يقذع فيه ، بل يفسح للدعابة والوخز الخفيف الذى لا يدمى ، وقد لا يتعدى وصفه بالثقل كقوله[1] :

ربَّ ثقيلٍ لبُغْض طَلْعَتِهِ أخشـاه حتى كـأنَّـه أجَلى
وكـلما قـلتُ لا أشاهـده ألـقاه حتى كـأنـه عـملى

وكان الشعراء يتعرضون أحيانا للوزراء يهجونهم كقول ابن مطروح يهجو هبة الله بن صاعد الفائزى مستغلا اسم أبيه فى هجائه[2] :

لـعـن الله صـاعـدًا وأبـاهُ فصـاعـدا
وبَـنِـيـهِ فـنـازلاً واحـدًا ثم واحـدا

وهو كصاحبه البهاء زهير لا يتسع فى هجائه ولا يقذع فيه ولا يفحش .

ويظل الشعراء طوال عصر المماليك يَريشون سهام الهجاء ، ويلقانا فى أوائله الجزار والوراق ولهما أهاج فكهة كثيرة سنعرض لها فى غير هذا الموضع ، وكان يعاصرهما البوصيرى شاعر المديح النبوى الرائع ، وكان يعمل موظفا فى دواوين الأقاليم ، وله هجاء عنيف فى طوائف الموظفين جميعا أوكما يسميهم المستخدمين من كتّابِ خراجٍ وقضاةٍ وغير قضاة ، ومن قوله فيهم[3] :

ثكلْتُ طوائف الـمُسْتَخْـدمينا فلم أر فيهمُ رجلاً أمينا
أقاموا فى البلاد لهم جُباةً لقَبْض مُغَلِّها كالـمُقْطَعينا
تحيَّلتِ القضاةُ فخان كلٌّ أمـانـتـه وسـمَّوه الأمـينا
وكم جعل الفقيهُ العدلَ ظُلْماً وصيَّـر باطلا حَقًّا مُبينا

فهو يشكو من فساد جميع الموظفين ، فعمال الخراج كأنهم من أصحاب الإقطاع وهم يجمعون ما تغله إقطاعاتهم ، والقضاة يخونون الأمانة والفقهاء يجعلون بفتاواهم المضللة الظلم عدلا والباطل حقا ، ويردد ذلك فى أشعار كثيرة تصور فسادهم جميعا وكيف كانوا يجمعون ثروات طائلة بطرق غير مشروعة . وسنرى لابن دانيال أهاجى فكهة كثيرة فى حديثنا عن شعراء الفكاهة . ومما يلاحظ

(١) البهاء زهير للشيخ مصطفى عبدالرازق ص ٢٢ .
(٢) النجوم الزاهرة ٧/٥٨ .
(٣) الديوان ص ٢١٨ .

أن المصريين قلما يفحشون فى هجائهم ، وكثيرا ما يتحول إلى ما يشبه عتابا رقيقا كقول ابن مكانس المتوفى سنة ٧٩٤ هاجيا(١) :

نَعَمْ نَعَمْ مَحَضْتُهُمْ صِدْقَ الوَلا تطوُّلا(٢)
وما رَعَوْا عهدا ولا مودَّةً ولا ولاَ

وفى كلمة « ولا » الأخيرة تورية واضحة إذ يريد بها مقصور ولاء . ونراه حين يصادر أمواله وبغاله وخيله السلطان الظاهر برقوق لا يشتم ولا يهجو بل يكتفى بقوله(٣) :

رَبِّ خُذْ بالعدل قومًا أهلِ ظُلْمٍ متوالى
كلَّفونى بيع خَيْلِى برخيصٍ وبِغالى

والتورية فى كلمة بغالى مع كلمة برخيص – وهو يريد بغاله الحقيقية – واضحة ، وهو يعمد إليها فى هذا الظرف الحرج من محنته .

ونظل نلتقى بالهجاء فى أيام العثمانيين ، من ذلك قول الشهاب الخفاجى من قصيدة جميعها على النمط التالى(٤) :

يا ضَيْعَةَ الهِمْيان من عائلٍ قُبَيْلَ عيدٍ أعوزَ الفُطْرَهْ(٥)
ويا قَفا المهزوم من فارسٍ أدركه فى ساحةٍ قَفْرَهْ
وبَهْتَةَ السَّكْران من هاجمٍ فى ليلةٍ مظلمةٍ قَرَّهْ(٦)
ويا نَعِيًّا جَاءَ عَنْ واحدٍ إلى عجوزٍ مالها أُسْرَهْ

وتمضى القصيدة على هذا النحو الساخر اللاذع المُضْنى تكيل الذم لمهجوه كيلا وتهزأ به وتسخر منه سخرية قاتلة .

وتلقانا مطارحة(٧) طريفة بين الشاعر المعروف باسم شبانة المتوفى سنة ١٢٠٠ للهجرة والشاعر قاسم بن عطاء الله المتوفى سنة ١٢٠٤ ، فقد نظم شبانة – يداعب قاسما – قصيدة هجائية طويلة يقول فيها :

---

(١) ريحانة الألبا للخفاجى (طبعة الحلبى) ص ٤١ .
(٢) تطولا : تفضلا .
(٣) النجوم الزاهرة ١٢٩/١٢ .
(٤) نفحة الريحانة للمحبى ٦١٢/٤ .
(٥) الفطرة : النقل فى لغة المصريين العامية . الهميان : كيس النقود .
(٦) قرة : باردة .
(٧) تاريخ الجبرتى ١٢٨/٢ .

سبحانَ من قسمَ النُّحو سَ لقاسمٍ وأذلَّ هامَهْ
وكساه ثوبَ جنايةٍ يَخْزَى بها يومَ القيامَهْ

ومضى يتهمه بأنه يعين لصوص البيوت ويسرق الحرير ويسلّ الكحل من العيون ، وردّ عليه قاسم هاجيا مداعبا ، من نفس الوزن والقافية ، وكأنهما يعيدان لنا نقائض جرير والفرزدق يقول قاسم :

جَلَّ الذى قسم الشّقا لشبانةٍ وله أدامَهْ
بعمامةٍ لو خالها الـ ـقَلاَّ توهَّمها بِرَامَهْ
موروثةٍ عن جَدِّهِ من قبل أن تُبْنَى القِمَامَهْ
لو كان يصلحُ للصلا ة لحقَّ للقِرْدِ الإمَامَهْ

والقَلاَّ مقصور القَلاَّء وهو من يَقلى اللحوم والأطعمة ، والبرام : القدر الذى يُقْلَى فيه . يشير بذلك إلى ضخم رأسه وقذارة عمامته . ولعله يريد بالقمامة كنيسة القيامة بالقدس ، وقد بنيت حوالى سنة ٣٢١ للميلاد . والدعابة واضحة فى الأبيات . ونقف قليلا عند بعض شعراء الفخر والهجاء :

تميم[1] بن المعز

هو تميم بن المعز مؤسس الدولة الفاطمية بمصر ، ولد لأبيه سنة ٣٣٧ بمدينة المهدية التى بناها جده عبيد الله المهدى بتونس ، وقد تحول عنها ابنه الخليفة المنصور فى نفس السنة التى ولد فيها تميم حفيده إلى مدينة أسسها هناك سماها المنصورية ، وولد لأبيه بعده على التوالى عبد الله ونزار وعقيل ، وكان المعز قد بويع بولاية العهد فى حياة أبيه المنصور ، وجُدِّدت له البيعة حين توفى سنة ٣٤١ . وكان فى الثانية والعشرين من عمره ، وكان حصيفا سَيوسا ، دانت له إفريقية من تونس إلى المحيط ماعدا سبتة فإنها ظلت –كما مر بنا فى غير هذا الموضع – مع عبد الرحمن الناصر الأموى صاحب الأندلس ، وسيَّر جوهرا قائده إلى مصر فافتتحها سنة ٣٥٨ – كما مر بنا فى غير هذا الموضع – ودخلها المعز فى سنة ٣٦٢ وكان عالى الهمة يحكم تدبير الأمور حازما منتهى الحزم ،

(١) انظر فى تميم وترجمته وأشعاره اليتيمة ٤٣٦/١ وابن خلكان ٣٠١/١ والحلة السيراء (طبعة د. حسين مؤنس) ٢٩١/١ وحسن المحاضرة ٥٦٠/١ وكتاب فى أدب مصر الفاطمية للدكتور محمد كامل حسين ص ١٧٠ ومقدمة ديوانه (طبعة دار الكتب المصرية) .

واتضح حزمه إلى أقصى حد فى صرفه ولاية العهد عن ابنه الأكبر تميم ، وكان لايزال فى المنصورية بتونس ، حين تأكد أنه يسير سيرة معوجّة منحرفة ، مما جعل واليه على صقلية أحمد بن الحسن الكلابى يستأذنه فى قتل أحد أبنائه لمشاركته تميما فى مجونه[1] .

ويبدو أن المعز حاول - دون جدوى - أن يرد ابنه إلى الطريق السَّوِىّ حتى إذا فشلت محاولته صرف ولاية العهد عنه إلى أخيه عبد الله[2] ، ولم يلبث عبد الله أن توفى حين نزل مع أبيه فى مصر فجعل المعز ولاية العهد لأخيه نزار الذى خلف أباه حين وفاته بالقاهرة سنة ٣٦٥ متسميا باسم العزيز .

وليس من ريب فى أن المعز عُنى بتربية ابنه تميم الذى كان يعدّه لولاية العهد منذ نعومة أظفاره ، فأحضر له المعلمين الدينيين واللغويين وعهد إلى بعض دعاة النحلة الفاطمية بتلقينها له ، وكانت للغلام موهبة شعر فذة ، فأكبَّ على الشعر العربى فى أزمنته المختلفة يتزود منه ، وسرعان ما استيقظت فيه موهبته ، فعكف على اللهو والمجون لا يردعه رادع . وانتقل مع أبيه إلى مصر ، فمضى فى سيرته ، يَحْيا للهو والمجون . ويموت أخوه وأبوه فيرثيهما رثاء فاترا ، وهو رثاء يدل على مكنون ضميره وأنه كان يشعر فى أعماقه بأن أباه سلبه حقه . وهو فى ديوانه يكثر من مديح أخيه العزيز ، ونحس صدقه فى هذا المديح وإخلاصه له ، ومع ذلك كان لا يسلم من الوشاة بينه وبين أخيه ، مما جعله يبعده مرة إلى عين شمس بجوار القاهرة ومرة ثانية إلى الرملة بفلسطين ، ويألم ألما شديدا لغربته وبعده عن ملاعب مجونه ، وسرعان ما يردّ العزيز إليه حريته . وهما فترتان صغيرتان فى حياته الهنيئة بالقاهرة حتى وفاته سنة ٣٧٤ .

وكان العزيز يغدق عليه إغداقًا عظيما ، فقد جعل القصور على بركة الحبش - بمصر القديمة الآن - خالصة له ، وكانت تطلُّ على النيل ومن حولها حدائق بديعة ، ووهب له بستانا عظيما يعرف باسم المعشوق ، غير ما كان يضفى عليه من الأموال الضخمة . وكل ذلك أتاح له أن يحيا حياة ترف ولهو فى قصوره وبساتينه ورياضه وفى الأديرة . وكان ينتهز فرصة الأعياد الكثيرة : الأعياد الإسلامية والمسيحية والفارسية ، فيشارك الشعب فى مرحه وقصفه ، سواء فيما كان يقيم من

---

(١) سيرة جوذر (تحقيق د : كامل حسين) ص ١٢٠ .

(٢) ذكر ابن الأبار فى الحلة السيراء أن السبب فى صرف المعز لولاية العهد عن تميم أنه لم ينجب ولدا . غير أن صرفها عنه وهو لايزال فى نحو العشرين من عمره يؤكد السبب الذى ذكرناه فقد كان لايزال فى مطالع شبابه ، وقد عاد فصرفها عنه مرة ثانية بعد وفاة أخيه عبد الله . وربما كانت كتابة تميم بأبى على قاطعة فى أنه أنجب نسلا .

مضارب وسرادقات وقباب ببركة الحبش أو فيما كان يتخذ من قوارب تضاء بالشموع ليلا فى النيل ، والمغنون والمغنيات يطربون الناس . وهو يمر بزوارقه على قواربهم ، ويستمع إلى من معهم ويُسْمعهم بعض قيانه . وفى ديوانه ما يصور كئوس اللهو والمجون التى كان يعبّ منها عبًّا ، ومرَّ بنا مديحه لأخيه العزيز وما أذاعه ونشره فيه من مبادئ الدعوة الفاطمية الإسماعيلية وعقيدتها فى الإمام وارتفاعه عن البشر بجوهره الروحانى اللطيف وجسده النورانى الشفاف وعقله الكلى الفعال وإسباغ الصفات الربانية عليه . ويتمادى تميم فى ذلك ومثله حتى لكأنه داعية من دعاة الدولة ودعاة أخيه العزيز خاصة وحسبنا ما صورناه عنه فى حديثنا عن المديح . وهو فى الديوان يضيف إلى هذا المديح فخرا يمتزج أحيانا بعقيدته فى الأئمة ، وكأنه الإمام المنتظر ، إذ يقول :

أنا الصبحُ أنا الشمسُ أنا البدرُ الذى يَسْرِى
أنا المرجوُّ فى العُسْرِ أنا المرجوُّ فى اليُسْرِ
أنا المُسْبِلُ للنُّعْمَى أنا الكاشفُ لِلضُّرِّ
أنا الراتقُ للفَتْقِ أنا القاصمُ للظَّهْرِ

وكأنما تجسدت فيه شخصية أحد الأئمة ، فهو نور الصبح ونور الشمس ونور القمر ونور الأنوار الذى يستمد منه كل نور ، وهو مدبِّر الكون ومقسِّم الرزق المرجو فى العسر واليسر والمسبغ للنعمى والكاشف للضر الراتق للفتق القاصم للظهر . ويستمر فيقول إنه هو الحاطم للعظم والجابر للكسر والعالم بالذكر ، يريد أنه العارف لبواطن الذكر الحكيم ، كما يزعم الإسماعيليون لأئمتهم .

ولا يبعد أن يكون مثل هذا الفخر هو الذى كان يتخذه الوشاة أداتهم للوقيعة بينه وبين أخيه العزيز ، مما جعله يبعده ، كما ذكرنا ، مرة إلى عين شمس ومرة إلى الرملة . وتتردد أصداء من هذه المعانى فى أشعاره فى صوت عال تارة ، وتارة ثانية فى صوت خفيض ، ومن قوله فى ذلك :

أبى علىٌّ إن نكنْ نُنْمَى إلى حَسَبٍ أنافَ بنا وَجدٌّ أَرْوَعَا[١]
فلقد علمتم أننى أَغْشَى الوَغَى وأنوبُ فى الجُلَّى قَوولا مُسْمِعا[٢]
ولقد علمتم أننى رُضْتُ العلا يَفَعًا وحاولتُ المكارمَ مُرْضَعا[٣]

---

(١) أناف : أشرف وارتفع .

(٢) الجُلَّى : الأمر العظيم . قوولا : صيغة مبالغة من القول يشير إلى بلاغته فى شعره .

(٣) اليفع : الفتى فى إبان شبابه .

فدعوا لِىَ الشرفَ الذى شيَّدْتُه إذ هِضْتموه فانْكفَا وتَضَعْضَعَا[1]
لِى فى المشارق والمغارب جَوْلَةٌ يَغْدو بها قلبُ الزمانِ مصدَّعا
فادفع بحدِّ السيف كلَّ ظُلامةٍ إن لم تجد يوما سواه مَدْفَعا
فبِذاك أوصانى الوَصِىُّ ورَهْطُه وعلىَّ فَرْضٌ أن أُطيع وأسمعا

وهو يخاطب أسرته العلوية ذات الحسب العالى والحظ العظيم واضعا بين يديها شجاعته ونفوذه فى الأمور العظيمة برأيه المحكم وشعره البليغ ، ويزعم أنه راض العلا وساسها فى مطلع شبابه وأنه حاول المكارم منذ كان فى المهد مرضعا . وإذن فليعطوه حقه والشرف الذى يمنعونه منه ، وكأنه ينذرهم ويهددهم ويتوعدهم إن لم يردوا عنه ظلمهم ويردوا إليه الحق المسلوب ، ويزعم أن تلك وصية جده أبى الأوصياء على بن أبى طالب وأبنائه من الأئمة وأنَّ فرضا عليه أن يسمع ويطيع . ولا ريب فى أن هذه المعزوفة التى كان يوقعها كثيرا على قيثارته كان يضيق بها العزيز ، غير أن غمتها سرعان ما كانت تنكشف عن صدره حين يستمع إلى مدائح تميم فيه وترديد قدسيته ووجوب طاعته .

ومعزوفة ثانية كان كثيرا ما يعزفها تميم ويلحنها على وتر الفخر فى قيثارته ، ونقصد ردوده العنيفة على فخر عبد الله بن المعتز العباسى بأسرته العباسية الهاشمية . وله إزاءه موقفان : موقف يختار فيه قصيدة من قصائد ابن المعتز فى فخره بأسرته وينقضها نقضا بما يصور من مفاخر أسرته الفاطمية . وموقف ثان لا يتقيد فيه بقصيدة معينة يردُّ عليها . وهو فى الموقف الثانى حر يختار أى وزن ينظم فيه وأى قافية ، أما فى الموقف الأول فيتقيد بوزن القصيدة التى يرد عليها وقافيتها على شاكلة ما كان يحدث بين جرير والفرزدق فى نقائضهما ، ومن قصائد الموقف الأول رائية لابن المعتز استهلها بقوله : « أىُّ رَبْعٍ لآل هندٍ ودارِ » عمد تميم إلى نقضها بقصيدة تماثلها فى الوزن والروىّ ، وفيها يقول ، رادًّا على ابن المعتز والعباسيين جميعا :

ليس عَبَّاسُكم كمثل علىٍّ هل تقاسُ النجومُ بالأقمارِ
مَنْ له الصِّهْرُ والمواساةُ والنُّصْـ ـرةُ ، والحربُ ترتمى بالشَّرارِ
مَنْ دَعاهُ النَّبِىُّ خِدْنًا وسمَّا هُ أخًا فى الخفاء والإظهارِ

(١) هضتموه : من هاض العظم إذا حطمه وكان على وشك أن ينجبر .

مَنْ له قال أنت منى كهارو نَ وموسَى أكرِمْ به من نِجار[1]
ثم يوم الغَدِير ما قد علمتم خَصَّـه دون سائر الحُضَّارِ
مَنْ له قال : لا فَتَى كعلىٍّ لا ولا مُنْصُلٌ سوى ذى الفَقَارِ[2]
مَنْ توطَّا الفِراش يَخْلُفُ فيه أحمدًا وهوَ نحو يثربَ سارِ
ولـنـا حُرْمةُ الوِلادة والأعْـ ـمام والسَّبْق والهدى والمنـارِ
نحن أهلُ الكِساء سادسُنا الرُّو حُ أميـنُ المهيـمـنِ الجبَّـارِ
حُـجَجٌ كـلها تـأمَّـلها العا لِمُ بانتْ له بيانَ النهارِ

وتميم يوازن بين جده على بن أبى طالب وعمه العباس بن عبد المطلب ، ويفاخر بأنه صهر الرسول ﷺ وساعده الأيمن فى الحرب ، ويشير إلى حديث نبوى ترويه الشيعة : أن النبى عليه السلام قال : « على منى بمنزلة هرون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى » . وهم يستدلون بهذا الحديث على أن عليا ليس أحق بالخلافة من العباس فحسب ، بل هو أيضًا – فى اعتقادهم – أحق من الشيخين : أبى بكر وعمر بالخلافة . ويذكر يوم غَدِير خُمٍّ وهو موضع بين مكة والمدينة أثنى فيه الرسول ﷺ على ابن عمه علىّ ، وقال : من كنت مولاه فعلى مولاه ، وتذهب الشيعة إلى أن الرسول عليه السلام أوصى فى هذا اليوم بالخلافة لعلى . ومنذ أواسط القرن الرابع الهجرى يتخذ الشيعة هذا اليوم الموافق للثامن عشر من ذى الحجة عيدا لهم . ويشير تميم إلى ما يرويه الشيعة من أن الرسول قال : لافتى إلا على ولا سيف إلا ذو الفقار : سيفه . ويذكر أنه هو الذى اصطفاه الرسول لينام فى فراشه ليلة خرج مع أبى بكر مهاجرا إلى المدينة ، مخترقا حصارا مسلحا ضربته قريش حول بيته ، حتى لا تنتبه إلى خروجه ، وكانت قد بيَّتت القضاء عليه (يريدون أن يُطْفئوا نور الله ويأبى الله إلا أن يتمَّ نوره) . ويقول إنهم يشتركون مع العباسيين فى أنهم من سلالة أعمام رسول الله ويرتفعون فوقهم درجات بأنهم أبناء بنت رسول الله السيدة فاطمة الزهراء . ويشير إلى ما تقصّ الشيعة من أن الرسول ألقى كِساءً عليه وعلى السيدة فاطمة وعلى زوجها وابنيها الحسن والحسين وكان سادسهم –كما يقول تميم– جبريل وقال : نحن أهل البيت فى خبر يرددونه . ويذكر جهاد على المبرور فى غزوات الرسول وخاصة فى بدر وأحد وخيبر وكيف أبلى فيها جميعا بلاء عظيما . ويقول هذه كلها براهين ساطعة كالشمس بأفضلية علىٍّ وارتفاع منزلته على عمه ، ويهدد العباسيين

(١) نجار : أصل وحسَب . (٢) منصل : سيف .

بحرب مبيدة تعصف بهم عصفا شديدا .

وتمم فى الموقف الثانى الذى لا ينقض فيه قصيدة بعينها لابن المعتز يلحّ على هذه المعانى نفسها فى رده على العباسيين وفخره عليهم فخرا مضطرما بشرر كثير ، يريد به أن يثبت أن العلويين أحق بالخلافة من أبناء عمومتهم سواء من جهة إرثهم لها عن طريق جدهم على وجدتهم فاطمة بنت الرسول عليه السلام أو عن طريق وصاية الرسول بها لعلى أو عن طريق خدماته الجلَّى للدين الحنيف ونَصْره . ويمد طرفا من هذا الجدل إلى بنى أمية وهو يقصد أصحاب الأندلس فى أيامه ، وكان أخوه العزيز كتب إلى صاحبها الأموى – ولعله المستنصر بن عبد الرحمن الناصر – كتابا يسبّه فيه ويهجوه ، فكتب إليه : « أما بعد فإنك قد عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لأجبناك والسلام » فاشتد ذلك على العزيز وأفحمه عن الجواب [1] . ولعل ذلك ما جعل تميما يتصدى للأمويين ويفخر عليهم بمثل قوله :

إن قُـرَيْشًـا بِـعُلا هـاشـمٍ ... تـفـخـر فى عَقْوة عِرِّيسِها [2]
إن يك من ياقوتها هاشمٌ ... فعبد شمسٍ من ضَغابيسها [3]
اسْمُ إلى الصفوة من هاشمٍ ... أهـل مـعـاليـهـا وتَـقْـدِيسِـهـا
دَعْ عـبـدَ شـمسٍ وأباطيلَها ... فـقـد بـدا اللّٰهُ بِـتَـنْـكِـيـسِـهـا
قـبـيـلـةٌ ما طـهَّرَ اللهُ مَنْ ... شـايعـهـا مـن إثـمٍ تنجيسها

فهاشم جد الرسول والعلويين فخر قريش فى ساحة غِيلها الملتف ، وهو وبنوه ياقوت قريش ومعدنها النفيس أما بنو أمية فحجارة صلده ، وللهاشميين بفضل الرسول علاهم وقدسيتهم ، أما عبد شمس وبنوه فأصحاب أباطيل مزورة ، وقد هدم الله دولتهم فى المشرق ، وإنها لقبيلة آثمة إثما فظيعا ، وإنها لتصم كل من شايعها وصمة شنيعة . ويستمر فيذكر سفكهم لدم الحسين وسبيهم لمن كن معه من النساء ، مسجلا بذلك عارا عليهم لا يماثله عار .

---

(١) ابن خلكان ٥/٣٧٢

(٢) عقوة : ساحة . عريس : غيل الأسد .

(٣) الضغابيس : جمع ضغبوس : الضعيف اللئيم .

طلائع[1] بن رُزِّيك

أرمنى الأصل قَدم إلى زيارة مشهد الإمام على بن أبى طالب بالنجف ، وكان لايزال شابا واعتنق مذهب الشيعة الإمامية ، وتعرَّف فى أثناء زيارته له على شخص يسمى ابن معصوم يبدو أنه كان من دعاة الفاطميين ، فحبَّب إليه زيارة القاهرة والانتظام فى خدمة القوم ، ولقيتْ دعوة الرجل من نفسه قبولا حسنا ، فسار إلى مصر ، وترقى فى خدمة الفاطميين حتى ولَّوه حاكما لمنية الخصيب بالصعيد (المنيا الآن) وحدث أن تآمر عباس الصنهاجى وزير الخليفة الظافر مع ابنه نصر على قتل الخليفة سنة ٥٤٩ وتمت المؤامرة ، فاستغاث بيت الفاطميين بطلائع ضد عباس ، فأقبل يريد محاربته حتى إذا قرب من القاهرة فر عباس بما نهب من أموال القصر الفاطمى إلى الشام ، وقتله الصليبيون فى الطريق . ودخل طلائع القاهرة فخُلعت عليه الخلع الخاصة بالوزارة ونُعت بالملك الصالح فارس المسلمين نصير الدين . وكان قد ولى الخلافة الفاطمية ابن للظافر تلقب بالفائز (٥٤٩ — ٥٥٥ هـ) وكان صبيا لا يعدو خمس سنوات ، فدبَّر الدولة طلائع وأحسن تدبيرها ، حتى إذا توفى الفائز بعد نحو ست سنوات اختار للخلافة بعده طفلا لم يبلغ الحلم من الأسرة هو عبد الله بن محمد الملقب بالعاضد ، وزوَّجه ابنته ، وأصبح صاحب الأمر كله فى الدولة . وأخطأ إذ قطع رواتب الخاصة ، فلم يدر عام فى خلافة العاضد حتى دُبِّرت له مؤامرة لقتله ، فقتل سنة ٥٥٦ ويقال إن العاضد نفسه هو الذى أعمل الحيلة فى قتله لاستبداده بالأمر من دونه ، وخاصة أنه كان شيعيًّا لا على مذهب الفاطميين الإسماعيلى ولكن على مذهب الإمامية . ويقول المقريزى : « كان رجل وقته فضلا وعقلا وسياسة وتدبيرا » . ولم يكن يستر عقيدته الإمامية بل كان يعلنها ويجادل فيها الفقهاء الإسماعيليين ، وصنف فى ذلك كتابا سماه « الاعتماد فى الرد على أهل العناد » ويقول المقريزى إنه جمع له الفقهاء وناظرهم عليه . وكان يجادل أيضًا بقوة عن مذهب المعتزلة فى القدر وأن الإنسان حر الإرادة لا مجبر كما يقول القدرية ، وله فى ذلك قصيدة سماها : « الجوهرية فى الرد على القدرية » ومن قوله فى الرد عليهم :

---

(١) انظر فى طلائع وترجمته وأشعاره الخريدة ١/١٧٣ والمغرب (قسم القاهرة) ص ٢١٧ وابن خلكان ٢/٥٢٦ والجزء الخامس من النجوم الزاهرة فى مواضع مختلفة (انظر الفهرس) وخطط المقريزى ٣/١٩٢ وبَنَى عمارة اليمنى كتابه النكت العصرية عليه وعلى حياته وأمجاده ومدائحه ومدائح غيره فيه ، ونشر محمد هادى الأمينى ديوانه فى النجف ، وأودع فى مقدمته ثبتا مفصلا بمصادر ترجمته .

يا أمة سلكتْ ضلالا بَيِّنًا حتى استوى إقرارُها وجُحودُها
مِلْتُمْ إلى أنَّ المعاصى لم يكن إلا بتقدير الإله وُجُودها
لو صحَّ ذا كان الإله بزعمكم منعَ الشريعةَ أن تُقامَ حُدودُها

وقد فتح أبوابه للشعراء ، وكثير منهم كانوا يختلفون إلى مجلسه فى منزله وخاصة الجليس بن الحبَاب والمهذب بن الزبير وابن قادوس ، وأصبحت القاهرة لعهده كعبة للقصاد من شعراء البلاد العربية أمثال ابن الدهان الموصلى وعمارة اليمنى ، ولكل هؤلاء الشعراء فيه قصائد طنانة ، وفيه يقول العماد : «نفق فى زمانه النظم والنثر واسترقَّ بإحسانه الحمد والشكر وقرَّب الفضلاء ، واتخذهم لنفسه جلساء ، ورحل إليه ذوو الرجاء ، وأفاض على الدانى والقاصى بالعطاء» . وقد أدار العماد كثيرا من تراجمه فى القسم المصرى من كتابه الخريدة عليه وعلى مدائحه . وألف فى أيامه الرشيد بن الزبير كتابهِ «جنان الجَنان ورياض الأذهان» فى معاصريه من الشعراء ومادحيه وافتتحه بترجمته ، كما ألف شاعره الجليس بن الحباب كتابا قصره على مدائح الشعراء فيه .

وقد حقق محمد هادى الأمينى ديوانه ونشره بالنجف فى نحو مائة وخمس وعشرين صحيفة ، ويقول ابن خلكان إنه رأى ديوانه وإنه كان يقع فى جزءين ، وكأن ديوانه المنشور إنما هو مقتطفات من ديوانه الأصلى ، واتهمه بعض معاصريه بأن كثيرا من أشعاره ليس له وإنما هو من صنع شاعريه : الجليس بن الحباب والمهذب بن الزبير ، ويبدو أنها تهمة غير صحيحة ، وأنه ربما كان يرجع إليهما لتصحيح بعض أشعاره إن صح ما قيل من أنهما كانا يصلحان له شعره . وأكثر الديوان المنشور فى مديح آل البيت ورثائهم ورثاء الحسين خاصة ، ولعل هذا هو سبب النغم الحزين الكثير فى شعره ، إذ الشيعة دائما محزونون منذ مقتل الحسين وقد اتخذوا يوما يندبونه فيه هو يوم عاشوراء ، وجعلوا شعارهم السواد ، وهو سواد يطبع كثيرا من أشعار طلائع بالتشاؤم والتفكير الكثير فى الموت ، حتى فى يومه البهيج يوم جلوسه فى الوزارة إذ نرى الدنيا تتحول ببهجتها أمام عينيه حزنا وشؤما وموتا ، وإذا هو ينشد حين تربعه فى دَسْت الوزارة :

انظرْ إلى ذى الدارِ كم قد حلَّ ساحتَها وزيرُ
ولكم تبختَر آمنًا وَسْطَ الصفوفِ بها أمير
ذهبوا فلا والله ما بقىَ الصغيرُ ولا الكبيرُ
ولمثلِ ما صاروا إليه من الفناء غدًا نصيرُ

وكان طلائع شجاعا بل مثالا عاليا من الشجاعة والبطولة ، فمضى يعدُّ الجيش المصرى لحرب الصليبيين ونازلهم مرارا برًّا وبحرا ، وظل ينازلهم ويقاتلهم طوال أيامه ، حتى لقبه معاصروه بأبى الغارات ، فقد كان جيشه لا ينى آيبا ذاهبا إلى مواقعة الصليبيين وسحق جموعهم فى جنوبى فلسطين ودقَّ أعناقهم وسفك دمائهم فى حزونها وسهولها وعلى سفوح جبالها ، وله فى تصوير ذلك قصائد كثيرة من مثل قوله :

توالتْ علينا فى الكتائب والكتبِ بشائرُ من شَرْق البلاد ومن غَرْبِ
جعلنا جبالَ القَدْس فيها وقد جرتْ عليها عتاقُ الخيل كالتَّفْنُفِ السُّهْبِ[1]
وقد أصبحتْ أوعارُها وحُزونها سهولاً تُوَطَّا للفوارسِ والرَّكْب
ولما غدتْ لا ماءَ فى جَنَباتها صَبَبْنا عليها وابلاً من دمٍ سَكْبِ[2]

وهو فرح مبتهج بنصر جيشه على حمَلة الصليب وما أذاقهم من التقتيل ونَثْر دمائهم على جنبات فلسطين حتى سالت هناك أنهارا . وكثيرا ما كان يرسل ببشائر انتصاراته على الصليبيين إلى صديقه أسامة بن منقذ الشَّيْزَرِىّ وكان قد زار مصر وأقام فيها مدة أيام عباس الصهاجى وانعقدت بينه وبين طلائع صداقة فكان يخبره بانتصاراته حتى يستثير نور الدين صاحب حلب لتضييق الخناق على حمَلة الصليب ، وكانت فرحته بالغة حين انتصر الجيش المصرى بقيادة ضرغام عليهم فى سنة ٥٥٣ نصرا عظيما ، وصور ذلك لأسامة فى ميمية استهلها بقوله :

ألا هكذا فى اللهِ تمضى العزائمُ وتمضى لدى الحرب السيوفُ الصَّوارمُ[3]
وتُغْزَى جيوشُ الكفر فى عُقْر دارِها ويُوطَا حِماها والأنوفُ رَوَاغِمُ[4]
خيولٌ إذا مافارقتْ مصرَ تبتغى عِدًا فلها النَّصْرُ المبينُ ملازم
يسير بها ضِرْغامُ فى كلِّ مأزق وما يصحب الضِّرْغامَ إلا الضراغِمُ[5]
فقولوا لنور الدينِ لا فُلَّ حَدُّهُ ولا حكمتْ فيه الليالى الغَواشمُ[6]
تجهزّ إلى أرض العدوِّ ولا تَهِنْ وتُظهرْ فتورا أنْ مضتْ منك حازمُ

---

(١) عتاق الخيل : كرامها . التفنف : الفلاة . السهب : المستوى .
(٢) وابلا : مطرا شديدا . السكب : الهاطل السائل .
(٣) الصوارم : جمع صارم وهو السيف القاطع .
(٤) عقر : وسط .
(٥) الضراغم : جمع ضرغام وهو الأسد .
(٦) الغواشم : الشديدة الظلم .

وهو يشيد بجيش مصر الباسل وانتصاره المدمر للصليبيين : انتصار أسده الهادرة ، ويدعو أسامة إلى إبلاغ نور الدين هذا الانتصار ، وكان حملة الصليب قد استولوا منه على حصن حارم تجاه أنطاكية وعقدوا معه هدنة ، ويدعوه إلى نقض ما أبرم معهم والاستعداد لحربهم حتى يضيِّق عليهم فى الأطراف الشمالية كما يضيق الجيش المصرى فى الأطراف الجنوبية .

وكان الأسطول المصرى لايزال يجوب سواحل الشام ويفتك بسفن الصليبيين وأغار على عكا وثغر بالقرب من حمص يسمى أَنْطَرطوس ونكَّل فى الثغرين بحملة الصليب وسفنهم فكتب طلائع إلى أسامة قصيدة يسأله فيها أن يبشر الملك العادل نور الدين بذلك ويستنهضه لفتح القدس يقول :

إن بعض الأسطول نال من الإفْـ ـرِنْجِ مالا ينالـه التـأميـلُ
فحَوى من عكّا وأَنْطَرطوسٍ عِدَّةً لم يُحِطْ بها التحصيلُ
أَبْلِغَنْ قولنا إلى الملك العا دل فَـهْـو المرجوُّ والمأمولُ
قُلْ له كم تُماطل الدِّين فى الكفْـ ـارِ فاحْذَرْ أن يغضبَ المطولُ
سِرْ إلى القُدْسِ واحتَسِبْ ذاك فى اللـ ـهِ فبالسَّيْر منك يُشْفَى الغليل

وواضح أن جيوش مصر وأساطيلها لعهد طلائع كانت ماتزال تغدو وتروح إلى حملة الصليب منزلة بهم الهزائم تلو الهزائم . ودائما يستحث طلائع فى حماسيّاته إلى أسامة صاحب نور الدين أن يزحف إلى حملة الصليب شمالا ، بينما يزحف هو إليهم جنوبا ، حتى يقعوا بين شقى الرحا فتدور عليهم الدوائر . ولعل فى ذلك ما يشير بوضوح إلى أن مصر لم تقصر فى واجبها إزاء حملة الصليب لعهد طلائع ، وكانت تُعَدُّ حتى أيامه مقصرة فى القيام بهذا الواجب ، قصَّرتْ أيام الأفضل بن بدر الجمالى ومن جاء فى إثره من الوزراء ، فلما ألقيت مقاليد الأمور إلى طلائع وضع نصب عينيه أن تنهض بواجبها ، فجهَّز الجيوش والأساطيل وأمدَّها بالرجال والعتاد . ودائما يهيب فى كثير من حماسياته بنور الدين أن يهجم عليهم شمالا بينما يهجم هو عليهم جنوبا ، حتى يمزَّقوا كل ممزَّق ، غير أن يدا آثمة امتدت إليه ، فحالت دون أمانيه فى الانتصار الحاسم على حملة الصليب إذ قضت عليه ، ورثاه عمارة وغيره من الشعراء مراثى حارة .

ابن(١) الذِّرْوىّ

هو الوجيه على بن يحيى الذِّرْوِىّ أصله أو أصل آبائه من ذروة بلدة باليمن ، وفى ترجماته ما يدل على أنه نشأ بمصر إن لم يكن ولد بها ، وهو من شعراء الدولتين الفاطمية والأيوبية ، ويقول ابن سعيد : إنه رأى ديوانه وقرأ فيه مدائح فى الخليفة العاضد فى صباه وأخرى فى صلاح الدين وأخيه العادل والقاضى الفاضل وابن شكر وزير العادل . ويذكر بعض المعاصرين أنه توفى سنة ٥٧٧ وقد ذكره العماد فى الخريدة التى ألفها فى أوائل العقد الثامن من القرن السادس ، فقال إنه شاب نشأ فى هذا الزمان ، وفى كلام ابن سعيد المار أنه مدح الخليفة الفاطمى العاضد فى صباه ، وذكر أنه مدح ابن شكر وزير العادل منذ سنة ٥٩٥ ولم يذكر السيوطى فى حسن المحاضرة تاريخ وفاته ، غير أنه ذكره بعد ابن سناء الملك المتوفى سنة ٦٠٨ وكل ذلك يؤكد أنه لحق القرن السابع وعاش فيه فترة من الزمن .

وكان ابن الذروى شاعرا مجيدا نوَّه به معاصروه فى المديح ، وأنشد له ابن شاكر فى الفوات مقطعات غزلية بديعة ، ويبدو أن ابن سعيد لم يكن يعجب به ، إذ قال إنه اطلع على ديوانه فوجده دون ما كان يظن ، ومن غزلياته قوله :

يابانُ إن كان سُكَّان الحِمَى بانوا ... ففَيْضُ شأْنِى له فى إثْرهم شانُ
مَنْ لى بأقمارِ أُنْسٍ فى دُجَى طُرَرٍ ... أفلاكُها العِيسُ والأبراجُ أظعانُ(٢)
مِنْ كل قانية الخدَّين ناهدةٍ ... لو كان للضمِّ أو لِلَّثْم إمكانُ

وفى البيت الأول توريتان فكلمة بان الأولى نوع من الشجر طالما ذكره المحبون ، وبانوا بعدها بمعنى بعدوا ، ولفظ شأن الأول : واحد الشئون وهى مجارى الدمع و « شان » فى آخر البيت بمعنى خبر . والصورة فى البيت الثانى تامة وبديعة ، فهو يتمنى لو يلقى أقمارا مضيئة فى ليال شديدة من الطرر ، ويقول إنهن ركبن العيس فكأنما تحولت بهن أفلاكا وتحولت الأظعان أبراجا . ولعل

(١) انظر فى ابن الذروى وترجمته وأشعاره الخريدة ١٨٧/١ والمغرب (قسم القاهرة) ص ٣٣٣ و٣٤١ والفوات ١٨٨/٢ وحسن المحاضرة ٥٦٥/١ و٤١٦/٢ والروضتين ٢٧/٢ وفى مواضع متفرقة والخزانة ص ١٢٣ وابن خلكان فى مواضع من تراجمه (انظر الفهرس) .

(٢) الطرر : جمع طرة وهى مقدمات شعر المرأة الذى تصففه على جبهتها . العيس : الإبل .

موهبته الشعرية لم تبرز فى فن كما برزت فى فن الهجاء ، وقد اشتهرت له قصيدة فيه نظمها فى شاعر معاصر له أحدب هو ابن أبى حُصَيْنة وفيها يقول :

لا تَظُنَّنَّ حَدْبَةَ الظَّهْرِ عَيْبًا ... فَهْىَ للحسن من صفات الهلالِ
وكذاك القِسِىُّ مُحْدَوْدِباتٌ ... وهْىَ أَنْكى من الظُّبَا والعوالى[١]
وإذا ما علا السَّنامُ ففيهِ ... لقُروم الجِمال أىُّ جَمالِ[٢]
وأرى الإنْحناء فى مَنْسِر الكا ... سرِ يُلْفَى ومِخْلب الرِّئْبالِ[٣]
قد تحلَّيتَ بانحناءٍ فأنت الـ ... ـرَّاكع المستمرُّ فى كل حالِ
وتَعجَّلْتَ حمْلَ وِزْرِك فى الظَّهْـ ... ـرِ فأمنًا فى موقفِ الأهوالِ
كوَّن اللهُ حَدْبَةً فيك إن شئـ ... ـتَ من الفضل أو من الإفضالِ
فأتَتْ ربوةً على طَوْدِ حِلْمٍ ... منك أو موجةً ببحر نوالِ
ما رأتْها النساءُ إلا تمنَّتْ ... لو غَدَتْ حِلْيَةً لكلِّ الرِّجال
وإذا لم يكنْ من الهجر بُدٌّ ... فعسَى أن تزورنى فى الخيالِ

وهو هجاء مؤلم أشد الإيلام ، إذ يعرض فيه حدبة ابن أبى حصينة على أنها ميسم جمال وصفة من صفات الحسن فى الهلال ، ويأخذ فى بيان حسنها وفضائلها ، فالقسى أشد فتكا من أسنة السيوف والرماح ، وهى مصدر جمال كالسنام للجمال ، وما كان الانحناء عيبا فى منقار النسور ومخلب الأسد الهصور . ويتصوره راكعا مدى حياته ، ويعود فيثنى عنه تقواه وصلاته ، ويقول إن حدبته وزر كبير مجسَّد تعجل حمله فى دنياه . ويعود إلى السخرية والتهكم فيقول إنها ربوة تعلو طود حلمه أو موجة تعلو مياهه ، ويبلغ من السخرية به مبلغًا بعيدًا حين يزعم له أن النساء تعدها حلية وتتمنى لو تحلَّى بها كل الرجال . ويتمادى فى سخريته ، فيقول إنه مفتون برؤية جماله ، ولكنه هاجر له أبدا فيتمنى لو رآه . خيالا فى منامه وأحلامه . ويخز فقيها متأدبا وخز الإبر فيقول فيه :

هو فى الفقه ماهرٌ لا يُبارَى ... وأديبٌ فى جُمْلة الشعراءِ
لا إلى هؤلاء — إن طلبوه — ... وجدوه ولا إلى هؤلاءِ

---

(١) الظبا : جمع ظبه وهى حد السيف . والعوالى : الرماح .

(٢) قروم الجمال : عظامها

(٣) منسر الكاسر : منقار الطير الجارح . الرئبال : الأسد .

فهو يدعى الفقه وإذا طلبه الناس بين الفقهاء لم يجدوه وهو يدعى الأدب وإن طلبه الناس بين الأدباء افتقدوه ، وهو يشير إلى الآية الكريمة فى سورة النساء : (مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء) . وكان يعاصره فى شبابه شاعر يسمى هبة الله بن وزير دخل معه حماما فقال ابن وزير :

لله يومٌ بحمَّامٍ نعمتُ بهِ والماءُ ما بيننا من حَوْضِه جارى
كأنه فوق شَفَّافِ الرُّخَامِ ضُحًى ماءٌ يسيل على أثواب قَصَّارِ

والقصَّار : مبيض الثياب وغاسلها ، وكأن الشاعر غفل ، فشبه الماء بالماء . وانتهز الصديق ابن الذروى الفرصة ، فقال على البديهة :

وشاعرٍ أوقد الطبعُ الذكاءَ له فكاد يَحْرقه من فَرْط إذكاءِ
أقام يُجْهِد أياماً قريحَتَهُ وشبَّه الماءَ بعد الجُهْد بالماءِ

وشاع الشطر الأخير على ألسنة المصريين إلى اليوم لكل من يصيبه مثل هذا العى فى الكلام عمدا أو غفلة . وكأن أحدا لم يكن يسلم من لسان ابن الذروى حتى الأصدقاء ، بل أيضا حتى الطبيعة ، إذ نجده يهجو النِّيلوفر ، وهو ما يسمى فى الريف المصرى باسم البشنين وهو زهر متفاوت الزرقة والحمرة بديع المنظر ، ولم يشفع له حسنه عند ابن الذِّرْوى فعمد إلى هجائه بقوله :

ونَيْلَوْفَرٍ أَبْدَى لنا باطنًا له مع الظاهر المخضرِّ حُمْرَةَ عَنْدَمٍ[1]
فشبَّهْتُه لما قصدتُ هجاءَه بكاسات حجَّامٍ بها لَوْثَةُ الدَّمِ[2]

وكأنه يريد أن يقول إنه يستطيع أن يقبِّح كل حسن مهما يكن حسنه حتى زهر النيلوفر الذى طالما تغنى به الشعراء المصريون من قبله ومن حوله ، وقد تغنوا به طويلا من بعده .

---

(١) العندم : خشب أحمر يتخذ للصباغة .
(٢) الحجام : محترف أخذ الدم بالمحجم .

أحمد[١] بن عبد الدائم

هو شهاب الدين أحمد بن عبد الدائم الشَّرْمْساحي نسبة إلى شَرِمْساح : بلدة قريبة من المنصورة فى شمالى الدلتا ، ولد فى أوائل زَمن المماليك سنة ٦٦٣ وأقبل مثل لداته على الدراسات الدينية واللغوية ، وأكبَّ على الشعر حتى مهر فيه غير أنه لم يتجه به إلى زهد وتصوف ولا إلى غزل ومديح ، وإنما اتجه به إلى الهجاء يسلق الناس بلسانه ويخافون شره فيبادرون إلى إعطائه بعض النوال . ولم يقف بهجائه عند أهل مصر فقد كان يرحل إلى دمشق ويتخذ هناك نفس الوسيلة ، ويقال إنه دخل على قاضيها شهاب الدين الخُوَيِّى وقدم إليه قصيدة هجو فردَّها إليه وقال له : كأنك ذاهل ، فقال له : لست بذاهل ، بل صنعت ذلك عمدا لأشتهر فإنك إذا أدبتنى قال الناس : ما هذا ؟ فيجيبهم المؤدبون : هذا غريم القاضى ، فأشتهر ، فوصله وعفا عنه . وكان لا يقف فى الهجاء عند حد ، إذ كان يستخدمه كما رأينا فى هجو القضاة كذبا وبهتانا ، وبالمثل كان يستخدمه فى هجو علماء الدين غير متورع ، من ذلك أن المظفر بيبرس الجاشنكير كان يقرِّب منه فى سلطنته بعد خلع الناصر بن قلاون لنفسه سنة ٧٠٨ كلا من الفقيه ابن عَدْلان وزميله الفقيه ابن المرحِّل الدمياطى ، حتى إذا دار العام عزل نفسه وعاد الناصر بن قلاوون ، ولم يُضِع ابن عبد الدائم الفرصة ، فقد مدح الناصر بقصيدة يهنئه فيها بعودته إلى عرشه ويهجو المظفر بيبرس ويعرِّض بصحبته لشمس الدين محمد بن عدلان وصدر الدين محمد بن زين الدين الملقب بابن المرحِّل وبابن الوكيل ، ومن قوله فيها :

وَلَّى المظفَّرُ لما فاتَه الظَّفَرُ ... وناصرُ الحق وافَى وهْو مُنْتَصِرُ
فقُلْ لِبيبَرْسَ إن الدهر ألبسَهُ ... أثوابَ عاريةٍ فى طولها قِصَرُ
لما تولَّى تولَّى الخيرُ عن أممٍ ... لم يحمدوا أمرهم فيها ولا شكروا[٢]
وكيف تمشى بِهِ الأحوالُ فى زمنٍ ... لا النِّيلُ وافى ولا وافاهُمُ مطَرُ
ومَنْ يقوم ابنُ عَدْلانٍ بِنُصْرَتِهِ ... وابن المرحِّل قُلْ لى كيف ينتصر؟

---

(١) انظر فى أحمد بن عبد الدائم وترجمته وأشعاره الفوات ٨٦/١ والدرر الكامنة لابن حجر ١٧١/١ والنجوم الزاهرة ٩/٩ ، ٢٤٩ .

(٢) تولى الأولى بمعنى تقلد الحكم . وتولى الثانية بمعنى أدبر وأعرض .

وكان قد تصادف أن المطر لم يسقط فى سنة ٧٠٩ بأرض مصر وقصَّر النيل فى فيضانه أجدبت بعض البلاد وارتفع السعر . وعفا الناصر عن الشيخين فى انضمامها ضده إلى بيبرس الجاشنكير ، وكان ابن عدلان يتولى نيابة الحكم فأعفاه منها ، ومرَّ به ابن عبد الدائم فأنشده :

والله ماسرَّنى عزلُ ابن عَدْلانِ

فقال له : جزيت خيرا . فأكملَ البيت قائلا :

من غير صَفْعٍ ولا والله أرضانى

وشاعت القصيدة . وكان آخر شيخ رماه بسهام هجائه قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة وكان يشرف على الأوقاف ، وكأنه أراد أن يبتزَّه ، وكانت فيه صرامة فازدراه فانتقم لنفسه بهجائه وهجاء ابنه سنة ٧١٣ وكان فقيها وَرِعًا مثل أبيه ، وتمضى القصيدة على هذا النمط .

متى يسمعُ السلطانُ شكوى المدارسِ ... وأوقافُها ما بين عافٍ ودارسِ[1]
يموت عديمُ القوتِ بالجوع حسرةً ... ويَشْبَعُ بالأوقاف أهلُ الطَّيالسِ[2]

وأخذ يتهم القاضى وابنه بعظائم هما منها براء ، وكلها كذب وبهتان وافتراء ، وكاد القاضى ينزل به عقابا صارما لولا أن تدخل بعض الأمراء واستعفاه فعفا عنه . وازدراه الناس بعد هذه الحادثة ازدراء شديدًا ، وساءت حالته ، فإن لحوم العلماء مسمومة . وأخذ يتنقل فى البلاد لا يتحرى طريق الرشاد إلى أن عاجلته منيته حوالى سنة ٧٢٠ وكأنما كان غمة زالت عن صدور الناس والشيوخ فى زمنه .

حسن[3] البدرى الحجازى الأزهرى

يقول الجبرتى فى ترجمته : «كان عالما فصيحا مفوها متكلما منتقدا على أهل عصره وأبناء مصره» ويقول كان أبوه ملازما لقراءة كتاب الصحاح الستة : صحيح البخارى وصحيح مسلم وسنن ابن ماجة وسنن أبى داود وسنن النَّسائى وجامع الترمذى.وقد تفتحت موهبة الابن فى سن

(١) عاف ودارس : ممحو زائل .

(٢) الطيالس : جمع طيلسان وهو كساء كان خاصا بعلماء الدين تمييزا لهم .

(٣) انظر فى حسن البدرى الحجازى الأزهرى تاريخ الجبرتى ١/٧٥ وما بعدها .

مبكرة وعُنى بنظم كثير من المتون العلمية مثل رسالة الوضع للعلامة العضد ، والدرة السنّية فى الأشكال المنطقية ورموز الجامع الصغير ، وكانت وفاته سنة ١١٣١ للهجرة . وكان قد أصبح شاعرًا كبيرًا ويصف الجبرتى شعره فيقول : له فى الشعر طريقة بديعة وسليقة منيعة ، على غيره رفيعة ، وقلما تجد فى نظمه حشوًا أو تكلة ، وله أرجوزة فى التصوف فى نحو ١٥٠٠ بيت على طريقة الصادح والباغم ضمنها أمثالا ونوادر وحكايات ، وديوانه على حروف المعجم سماه باسمين : « تنبيه الأفكار للنافع الضار وإجماع الإياس من الوثوق بالناس شرح فيه حقيقة شرار الخليقة من الناس ، المنحرفة طباعهم عن طريقة قويم القياس » . وواضح من تسميته لديوانه أن شعره أو جمهوره على الأقل لم يكن مديحا وهجاء وغزلا وعتابا وما إلى ذلك من موضوعات الشعر المعروفة إنما كان نقدا للمجتمع ، وهو نقد يشوبه كثير من الذم لسلوك الناس حتى ليدعو إلى اعتزالهم لما يتصفون به من الطمع والجشع والأنانية ، والعاقل من اجتنبهم وفرّ منهم فرار السليم من الأجرب لا من الأباعد فحسب بل أيضا من الأقارب ، يقول :

أخى فَطِنًا كُنْ واحذر الناسَ جملةً ... ولا تَكُ مغرورَ الظنون الكواذبِ
ولا سيَّما نوعُ الأقارب إنهم ... عقابُك فى الدنيا وعُقْرُ العقارب[1]

ويستمر فى هجو الأقارب وأنهم يتمنون الموت لك ، إن كنت ثريا ليرثوك ، وإن كنت فقيرا كنت لديهم خسيسا أخس من الكلاب . وهو على هذا النحو سيئ الظن بالناس حتى بالأقرباء من ذوى الرحم ، وكاد لا يسلم من سياط ذمه وهجائه أحد حتى المتصوفة ، يقول فيهم من قصيدة طويلة :

احذَرْ أولى التَّسْبيح والسُّبْحَةِ ... والصُّوف والعُكّاز والشَّمْلَةِ[2]
قد صار إبليس لَهم تابعًا ... يقول يا لَلْعَوْن والنَّجْدَةِ
مما حَوَيْتم علّمونى فما ... لى عنكمُ فى المكر من غُنْيَةِ
لكم قيادى وانقيادى وما ... مثلكُمُ فى النادِ والنَّدْوَةِ[3]
وأنتمُ تاجى على هامتى ... ماهِمْت إلاكنتمُ هِمَّتى[4]

---

(١) عقر : بيت أو منزل .

(٢) الشملة : شال كالطيلسان يتلفع به على المنكبين والصدر .

(٣) الناد : النادى حذفت الياء لضرورة الشعر .

(٤) همت : من هام يهيم إذا خرج على وجهه لايدرى أين يتوجه .

وهو طبعا يقصد نفرا من المتصوفة حادوا عن طريق التصوف وانحرفوا عن واجباته ومسئولياته ، وتورطوا - كما يقول فى القصيدة - فى بعض الآثام ، وكان يؤذيه منهم من يدعون الجنون وتظنهم العامّة أقطابا وأولياء ، حتى إذا ماتوا شادوا لهم أضرحة وجعلوها مَزارا ، يقول :

ليتنا لم نَعِشْ إلى أن رأينا كلَّ ذى جِنَّةٍ لدى الناس قُطْبا
عَلَمًا هم به يلوذون بل قد تَخِذوه من دون ذى العَرْش ربَّا
إذ نسوا الله قائلين فلان عن جميع الأنام يُفْرِجُ كَرْبَا
وإذا مات يجعلوه مَزارا وله يُهْرَعون عُجْمًا وعُرْبَا

وكأننا بإزاء داعٍ مصرى يدعو ضد الصوفية ومن كانت تسميهم العامة بالمجذوبين وتقيم لهم الأضرحة والمزارات وتطلب منهم الدعاء أحياء وتقدم لهم النذور أمواتا . ومع كثرة أشعاره فى هذا الجانب لم تترك وراءها فى مصر أثرًا . على أننا نجده يوجه ذمه وهجاءه - ظلما وعدوانا - لبعض رجال الدين كما وجهه إلى المتصوفة ، وهو فى ذلك كله يسرف فى هجائه وذمه ، فلا رجال الدين انصرفوا عن التقوى ولا المصريون اتخذوا أقطاب الصوفية أربابا .

٣

شعراء الطبيعة ومجالس اللهو

عاش شعراء مصر على ضفاف النيل وفى وديانه ورياضه ، ينعمون بمياهه المتدفقة العذبة وبما ينشئ من غروس وزروع وثمار وأزهار ، وهو يجرى نافثًا لُعابه من حوض إلى حوض ، باثًّا الحياة والجمال فى كل ما يمسه ، مما جعل العرب يلقبون مصر حين فتحوها بأنها فردوس الدنيا . وقد وصفها القرآن الكريم بأنها جنات وعيون وزروع ومقام كريم . وفى كل مكان نعم الشعراء بهذه الجنات يسرِّحون الطرف فيها والخيال ، فتتكون لديهم حاسة الجمال ، ويتعمقهم الشعور بما خصّ الله ديارهم من هذا النعيم الذى يقصر أى وصف عن تصويره . وطبيعى أن يتردد ذكر النيل على ألسنة الشعراء وذكر مشاهد رياضه الفاتنة وقواربه وسفنه الشراعية . ويحدثنا ابن قيس الرقيات حين زار مصر لعهد واليها عبد العزيز بن مروان فى العصر الأموى عن رحلة نيلية له من الفسطاط إلى حلوان . وعُنى شعراء مصر بعده بوصف مثل هذه الرحلة ووصف النيل وزوارقه وسفنه ، غير أن الشعر المصرى فى عصر الولاةٌ لم يبق منه القليل وإلا بقية تتصل بالأحداث والولاة والقضاة

احتفظ بها الكندى . وتبدو العناية بتدوين أشعار الشعراء منذ عهد الدولة الطولونية ، ونجد المرىى القاسم بن يحيى شاعر خمارويه يخص النيل بقصيدة بديعة يصور فيها مراكبه بمثل قوله[1]

ومَطايا لا يَغْتَدين ولا يَسْـ ـأمْنَ كدَّ البُكور بعد الرَّواحِ[2]
أصْلُها البَرُّ وَهْيَ ساكنةٌ فى الـ ـبَحْر سُكْنى إقامةٍ لا براحِ
وإذا أُوقِرَتْ فذَاتُ وقارٍ وإذا أُخْلِيَتْ فذاتُ مِراحِ[3]
جارياتٌ مع الرياح وطورًا كاسراتٌ بالجَرْى جِدَّ الرِّياح
سارياتٌ لا يشتكين سُرَى اللَّيْـ ـل ولا يرتقبن ضوء الصباح
لا يَخَفْنَ الغِمارَ يُقْذَفْنَ فيها ويَخَفْنَ المرورَ بالضَّحْضَاحِ[4]

ويطنب فى تصوير المراكب ، فهى فى الماء وهى خالية تماما من الماء ، وهى ذات أجنحة بيضاء وإن لم يكن لها جناح حقيق ، وهى من البيض ويطلى شطرها الأسفل بالقار ، فهى بيضاء سوداء من ذوات الألواح لا الأرواح ، وتقِرّ على الشاطئ فتسكن دون ذلة فى السكون ، وتسير على صفحة النيل وتجدّ فى سيرها دون اعتزام جماح ، وكأنها على الماء قصور متحركة ، وتنساب فى النيل خفيفة خفة الأفاعى ، وتتجمع أحيانا فتظنها كباشا سودا تقابلت للنطاح . ومع ضؤولة ملاّحها يُحْسن تدبير جريها مع الرياح مكافحا فى ذلك أشد الكفاح ، وله مساعدون يكثرون من الصياح حتى كأن السفن تجرى خوفا من صياحهم . وهو تصوير بديع للسفن السابحة فى النيل من شاطئ إلى شاطئ ومن مكان إلى مكان . ويوجز تميم بن المعز القول فى وصف النيل وسفنه فيقول[5] :

يومٌ لنا بالنيل مُخْتَصَرُ ولكل يومِ مسرَّةٍ قِصَرُ
والسُّفْنُ تَجْرِى كالخيول بنا صُعُدًا وجَيْشُ الماء مُنْحَدِرُ
فكأنما أمواجُه عُكَنٌ وكأنما داراتُه سُرَرُ[6]

---

(١) انظر مقالا عن المرىى لهلال ناجى بمجلة الكتاب العراقية فى العدد الثامن من السنة الثامنة

(٢) الرواح : الرجوع فى المشى .

(٣) أوقرت : حملت حملا ثقيلا . المراح : المرح والنشاط .

(٤) الغمار : جمع غمر وهو الماء الكثير العميق الضحضاح : الماء القليل لا عمق فيه .

(٥) ديوان تميم ص ٢٤١ .

(٦) العكن : جمع عكنة وهى ماتثنى من ظاهر البطن وطياتها .

والصورة الأخيرة للنيل بديعة ، فكأن أمواجه عُكَن أو تثنّيات أمامية لأجساد عارية وكأنما فَوّاراته أو داراته فى فيضانه السُّرر أو النقر الصغيرة أو النُّكت فى بطون من كن يهدين إلى النيل من عرائسه . ولتميم أشعار كثيرة فى وصف الحدائق والأزهار والثمار . ومن أوصافه الطريفة قوله فى الناعورة[1] :

تـئنّ ولـيستْ بمحـزونـةٍ أنينَ المحبِّ الكئيبِ الحزينِ
فتنطقُ بالصوتِ لا من فَمٍ وتقذف بالدمع لا من جُفونِ
كأن لها ميِّتا فى الثَّرى فأدمعُها هُمَّعٌ كلَّ حين[2]
إذا زمرتْ أطربتْ نفسها فغنَّت بمختلِفاتِ اللحونِ
غـنـاءً يـرقُّص كـيـزانَـهـا ويُظْهِر فيهن وثبَ المجونِ
فتهْوِى فوارغَ فى بئْرها وتَصْعَدُ منها مِلاءَ العيونِ

والناعورة تئن أنين المحب اليائس الحزين وتشكو لا بفم وتبكى لا من عين ، وتلحّن مختلف اللحون وكيزانها ترقص هاوية فارغة وصاعدة ممتلئة ، لا تلتقى أبدا . ولظافر الحداد أشعار كثيرة فى الرياض والثمار والأزهار ، ومن قوله فى النخل وبُسْره أو بلحه[3] :

النَّخْلُ كالهِيف الحسان تَزيَّنتْ فلَبِسْنَ من أثمارهنَّ قلائدا

وكأنها فى خياله فاتنات تتزين حول جيدها بعقود البسر الزمردية والياقوتية ، ويشبه طلعها الأخضر وهو لا يزال مغلقا على سنابل البلح البيضاء فى أول تكونها بسلاسل من فضة يضمها حق من خشب الصندل طيب الرائحة . أما حين يتفتح الطلع ويظهر بلحه الأخضر المتصل بسنابله الصفراء فكاحل من زبرجد رءوسها مسَّها الذهب . وأما الخوص الأخضر وتحته البلح الأحمر فزبرجد يثمر عقيقا ، وكأنما الطبيعة جميعها من حول الشاعر جواهر نفيسة .

ويتغنى ظافر ببركة الحبش فى مصر القديمة وكانت تشرف عليها قصور تميم ، كما يتغنى بجزيرة الروضة التى يفترق النيل عندها أمام القاهرة وسرعان ما يجتمع ، ويجعلها منه هى وأختًا لها بجوارها بمنزلة السراويل ، ويعجب ابن قلاقس بغروب الشمس وراء النيل فيقول[4] :

---

(١) الديوان ص ٤٢٤ .
(٢) همع : سوائل .
(٣) حسن المحاضرة ٢/٤٣٥ .
(٤) الديوان ص ٧٥ .

انظرْ إلى الشمس فوق النيلِ غاربةً   واعجبْ لما بعدها من حُمْرَةِ الشَّفَقِ
غابتْ وأبدت شعاعًا فيه يخلفها   كأنما احترقتْ بالماء فى الغرقِ
وللهلال فهل وافى لِيُنْقِذَها   فى إثرها زورقٌ قد صِيغَ من وَرِقِ[1]

وهى صورة خيالية بديعة ، فقد غابت الشمس بل احترقت فى النيل وخلّفت فيه شعاعا ، كما خلفت على صفحة الأفق حمرة الشفق ، ويتسع به الخيال فيتصور الهلال زورقا من فضة جاء لإنقاذها من الغرق . ويموج بصدر البهاء زهير الحنين إلى مصر وهو مع الملك الصالح فى الديار الشرقية نواحى الفرات ، فيتشوق إلى النيل ورحلاته النيلية فيه ، وينشد[2] :

حبذا النيلُ والمراكبُ فيهِ   مُصْعِداتٍ بنا ومنحدراتِ
وليالىَّ بالجزيرة والجـ   ـيزةِ فيما اشتهيتُ من لذّاتى
بين روضٍ حكى ظهورَ الطواويـ   ـسِ وجوٌّ حكى بطونَ البُزَاةِ[3]
حيث مَجْرى الخليج كالحيَّة الرَّقـ   ـطاءِ بين الرياض والجنَّاتِ
هاتِ زدْنى من الحديث عن النيـ   ـلِ ودَعْنى من دِجْلَةٍ والفُرَاتِ

إنه يذكر ذكرى عطرة رحلاته النيلية وامواج النيل تصعد بقاربه وغيره من القوارب وتنحدر ، وماتنى صاعدة منحدرة ، كما يذكر ذكرى عطرة مجالس أنسه فى الجيزة وجزيرة الروضة والطبيعة متبرجة بأزهارها وورودها من حوله وهى مختلفة الألوان البهيجة كأنها ألوان الطواويس فى جو صاف صفاء بطون البزاة الطائرة ، والنيل يجرى فى خلجانه وبين رياضه كأنه حيات تسعى ، حيات لا تنفث السم بل تنفث الحياة فى الوديان والسهول الخضراء الجميلة ، ويخفق قلب البهاء مرارا بهذا الحنين فى أشعاره . وتُظِلُّ مصرَ أيامُ المماليك ويَظَلُّ الشعراء يتغنون بالطبيعة المصرية ومفاتنها الرائعة من النيل وقواربه ونزهاته وأشجاره وأزهاره ، ولابن مكانس المتوفى سنة ٧٩٤ وَصْفٌ لشجرة سَرْو باسقة قصَد موضعها مع بعض رفاقه ، وَوَصَفَ معها القارب المطلى بالقار الذى ركبوه ، يقول[4]

مالتْ على النَّهْرِ إذ جاشَ الخَرِيرُ بِهِ · كـأنها أُذُنٌ مـالتْ لإصْـغاء

---

(١) ورق : فضة .
(٢) البهاء زهير ص ٢ .
(٣) البزاة : جمع بازى وهى جنس من الصقور الصغيرة طويلة الساق والذنب .
(٤) خزانة الأدب للحموى ص ٤٢٤ .

كأن صَمْغتها الحمرا بقشرتها الـ ـدَّكناء قُرْصٌ على أغصانِ سمراءِ
نَسْعَى إليها على جرداء جاريةٍ من آلةٍ كهلال الأفق حَدْباءِ
سوداء تحكى على الماء المُصَنْدَلِ شا مةً على شَفَةٍ كالشُّهد لَعْساء

والتصوير فى الأبيات بديع ، فشجرة السرو المائلة على النيل كأنها أذن مالت لتصغى إلى خَرِيره ، ويتخيلها بلونها الأحمر الداكن وهى منحنية على أمواج النيل فى فيضانه كأنها قرص ملتصق بطيات بطن لسمراء عارية . ويقول ابن مكانس إنهم سعوا إليها فى سفينة حدباء كهلال الأفق سوداء ، ويتخيلها على ماء النيل الداكن المعطَّر عطر خشب الصندل شامةً مطبوعة لا على خَدٍّ ، وإنما على شفة ضاربة إلى السواد تقطر شَهْدا وعسلا مصفى .

وبجانب شعر الطبيعة المصرية ومفاتنها الجميلة نجد شعراء يتغنون بمجالس الأنس والشراب ، وقد زار مصر – كما مر بنا – أبو نواس أكبر من تغنوا بالخمر وكئوسها وسقاتها وندمائها ، ولكن يبدو أنه لم يخلف من مجونه أثرا أو آثارا واضحة ، لأن الشعب المصرى بطبيعته معتدل ولا يجترئ على ما حرَّمه الدين ، وفى رأيى أن المصريين إنما كانوا يحاكون شعراء العصر العباسى فى المديح وغير المديح ودفعتهم هذه المحاكاة أو قل دفعت نفرا منهم نلتقى به منذ أيام الطولونيين إلى التغنى بالخمر ، إما إدمانا عليها وإما محاكاة وتقليدًا لأبى نواس وأضرابه . وكان أول ما ساعد على ظهور هذا النفر أن أحمد بن طولون مع تمسكه بالدين كان لا يتحرج من معاقرة الخمر ومثله ابنه خمارويه ، ويقال إنه كان يشرب أربعين رطلا من النبيذ[1] . فحاكاهما بعض الشعراء فى احتساء الخمر ، وأخذوا يقصدون لها الأديرة ، واشتهرت منذ هذا الحين أربعة أديرة ذكرها الشابشتى فى كتابه الديارات ، وهى دير القُصَير على قمة الجبل الشرقى ويشرف على طرة والنيل ، وكان خمارويه كثيرا ما يزوره ، ودير مَرْحَنَّا بمصر القديمة على شاطئ بركة الحبش ، ودير نهيا بالجيزة ، ودير طمويه بجوار حلوان . ويلقانا فى أيام الإخشيديين غير شاعر يعكف على كئوس الخمر حتى الثمالة ، يتقدمهم أحمد بن محمد بن طباطبا نقيب الأشراف العلويين بمصر ، وفيها يقول :[2]

أأترك الشُّرْبَ والأمطارُ دائمةٌ والطَّلُّ منها على الأشجار مَنْثورُ
والغُصْنُ يَهتَزُّ كالنَّشْوان من طربٍ والوردُ فى العود مطوىٌّ ومنشورُ

---

(١) النجوم الزاهرة ٦٣/٣ .
(٢) المغرب (قسم الفسطاط) ص ٢٠٣ .

وإذا كان نقيب الأشراف يشربها حتى الثمالة فقد حاكاه غير شاعر من مثل سعيد المنبوز باسم قاضي البقر وصالح بن مؤنس ومحمد بن عاصم وابن أبي العصام ، وكان الأخيران يلمّان بالأديرة ، وكان ثانيهما خاصة يتهتك فى شربها ويجترئ على الدين فى غير استحياء حتى ليقول فى وصف مجلس آثم من مجالسه[1] :

مجلسٌ لا يرى الإلهُ بهِ غيـ ـرَ مُصَلٍّ بلا وضوءٍ وطُهْرِ
سُجَّدٌ للكئوس من دون تَسْبيـ ـحٍ سوى نَغْمَةٍ لعودٍ وزَمْر

فهو يعيش معيشة مزرية ماجنة أشد ما يكون المجون مستهترة أسوأ ما يكون الاستهتار .

ونلتقى بتميم بن المعز ، ومر بنا أن أباه حرمه من ولاية العهد لانحرافه وسوء سلوكه وما سمعه عن مجونه ، وله فى الخمر أشعار كثيرة ، وقد يسوق الحديث فيها منفردة ، وقد يجمع بينها وبين جمال الطبيعة أو بينها وبين بعض صواحبه ، ومن قوله فيها وفى الورد[2] :

ووردٍ أعارتْه الغوانى خُدودَها وأهدى إليه المسكُ أنفاسَ مَفْتوقهْ
كأن النَّدَى فيه مدامعُ عاشقٍ أُريقتْ غداةَ البَيْن فى خَدِّ معشوقه
أدَرْنَا كئوسَ الرَّاحِ فى جَنباتِه على حُسْن مرآه ورقَّةِ تَوْريقه

وواضح أنه يحسن التصوير ، فالورد خدود الغوانى وهو عبق بشذا المسك ، وكأن الندى فيه دموع عاشق تناثرت على خد معشوقه يوم الفراق ، وهو يشرب على حسنه ورقة أوراقه . ومن طريف ماله فى المزج بين الخمر وصاحبته قوله[3] :

ناولتُها مثل خَدِّيها مُشَعْشَعَةً صِرْفًا كأن سَنَاها ضوءُ مِقْباسِ[4]
فقبَّلَتْها وقالتْ وهْى ضاحكةٌ وكيف تسقى خدودَ الناسِ للناسِ
إذا تناولتُ خَدِّى كنتُ نائلةً نفسى وهذا لعمرى غيرُ منقاسِ

والفكرة بديعة ، فالخمر تشبه خديها بلونها ووهجها ، وتناولت كأسها منه وقبلته مازحة قائلة له : كيف تسقى خدود الناس للناس ؟ وكأنه قدَّم لها خدودها لتشربها ، بل كأنه قدم لها نفسها ،

---

(١) المغرب (قسم الفسطاط) ص ٢٧٣ .
(٢) الديوان ص ٢٩٨ .
(٣) الديوان ص ٢٤٩ .
(٤) المقباس : شعلة النار .

وهل من أحد يشرب نفسه ، وإنه لقياس غريب ، بل لا ينقاس . وقبس منه الفكرة ابن هانئ الصغير المتوفى لأواخر العهد الفاطمى ، إذ يقول فى خمرية له[١] :

ومهفهفٍ أبدى الشبابُ بخدِّه صُدْغاً فرقْرق وَرْدَه فى آسهِ[٢]
تتلهَّبُ الصَّهْباءُ فى وجناتِهِ فتسير من عَيْنيه فى جُلاَّسهِ
حتى إذا ملأ الزجاجةَ خَدُّهُ نورًا وفاحَ الخمرُ من أنفاسهِ
خالَ الزجاجةَ أُفعِمَتْ بمدامةٍ فدَنا ليشرب نُورَه من كاسهِ

وهو يقول إن صدغ الشعر أو خصلته تمتزج بخده كما يمتزج الآس الأبيض بالورد ، ويتسع به الخيال فيقول إن الخمر تلهب فى خده فتلهب السحر فى عينيه فيسير منهما إلى جلاسه ، حتى إذا ملأ خده الكأس نورا ظنها ملئت خمرا ، واستحال ظنه يقينا ودنا من الكأس يريد أن يحتسيها .

ولابن سناء الملك خمريات مرحة فى لغة سهلة سلسة من مثل قوله[٣] :

أين كئوسى وأين أكْوابى فَهْيَ وحَقِّ المجونِ أَوْلَى بِى
يبدو عليها الحَبابُ إن مُزِجتْ مثلَ عيونٍ بغيرِ أهدابِ
تأتى ويأتى السرورُ يتبعها كأنه واقفٌ على البابِ
أسجدُ شكرًا لها إذا طلعتْ كأن كأسى لدىَّ مِحرْابى

وهو يصور فى خمرياته مرحًا وابتهاجا ، ومرَّ بنا أنه كان يعيش فى بُلَهْنِيَةٍ ونعيم ، وقلما كان يعترضه فى حياته شوك يؤذيه ، فهى ورد عطر ، وهى ترف ، وكل وسائل الترف مهيأة له ، لذلك لا نعجب إذا رأيناه مرحا فى خمرياته .

وكانت حياة ابن النبيه هنيئة لينة ناعمة مثله ، مما جعل خمرياته تطفح بالمرح والابتهاج والشعور بأن كل ما فى الكون والطبيعة رائق شائق ، ومن طريف خمرياته قوله[٤] :

باكرْ صَبُوحَك أَهْنَا العيشِ باكُرُهُ فقد ترنَّم فوقَ الأَيْكِ طائِرُهُ[٥]
واللَّيْلُ تجرى الدرارِى فى مجرَّتهِ كالرَّوْض تطفو على نهرٍ أزاهِرُهُ[٦]

---

(١) الخريدة (قسم مصر) ١/٢٧٠ .
(٢) رقرق : مزج .
(٣) الديوان ص ٣٤
(٤) الديوان ص ٩١
(٥) الأيك : الشجر الملتف .
(٦) الدرارى : الكواكب المتلألئة . المجرة : مجموعة من النجوم تبدو كوشاح أبيض .

فانْهَضْ إلى ذوبِ ياقوتٍ لها حَبَبٌ ... تنوبُ عَنْ ثَغْرِ مَنْ تَهْوَى جواهِرُه
حمراء فى وَجْنة الساق لها شَبَهٌ ... فهل جَناها مع العنقود عاصِرُهُ
ساقٍ تكوَّن من صُبْحٍ ومن غَسَقٍ ... فابيضَّ خَدَّاه واسودَّتْ غَدائِرُهُ[1]
تعلَّمتْ بانةُ الوادى شمائلَهُ ... وزوَّرتْ سحرَ عينيه جآذِرُهُ[2]
فلو رأتْ مُقْلَتا هاروتَ آيتَه الـ ... ـكُبْرى لآمن بعد الكفر ساحِرُهُ

والفرحة تسرى فى الخمرية ، وتلف كل شىء فيها ، فالطير يتغنى فرحا على الغصون ، والسماء منوَّرة بكواكبها الساطعة ، وحباب الكأس كأنه ثغر الحبيبة ، والخمر حمراء كخدها وكأنما الجانى اقتطف خمرته مع عنقودها وما أجمل بياض خديها المشرقين وسواد ضفائرها البهيجة ، وكأنما قبست بانة الوادى رشاقتها ، وزوَّرت جآذره سحر عينيها الخلابتين ، ولو رآه هاروت لآمن بربه وكفَّ عن سحره .

ويكثر من الخمريات شعراء اللهو والخمر فى أوائل عصر المماليك مثل الجزار والوراق وابن دانيال وستتحدث عنهم بين شعراء الفكاهة . ولعل مما يشهد بأن كثيرين ممن كانوا ينظمون الخمريات إنما كانوا ينظمونها محاكاة وتقليدًا ولم يكونوا يتعاطون الخمر ولا تورطوا فى إثمها أن نجد فقيها كبيرا من فقهاء زمن المماليك هو صدر الدين محمد بن عمر المشهور باسم ابن المرحِّل وابن الوكيل المتوفى سنة ٧١٦ ينظم فيها خمرية تداولها الرواة فى عصره وبعد عصره استهلها على هذا النمط[3] .

ليذهبوا فى ملامى أيَّةً ذهبوا ... فى الخمر لا فِضَّةٌ تَبْقَى ولا ذَهَبُ
لا تأسفنَّ على مالٍ تمزِّقه ... أيدى سُقاةِ الطِّلا والخُرَّدُ العُرُبُ[4]
فما كَسَوْا راحتى من راحِها حُلَلاً ... إلا وعَرَّوْا فؤادى الهمَّ واستلبوا

وقد مضى يحبِّب فيها ويغرى بها على عادة المجان ، مما جعل بعض الناس يتهمه بمعاقرتها ، وقُدِّم للقضاء وثبتت براءته من وزرها الآثم ، وعاد إلى دروسه وعاد إليه طلابه . وللشيخ برهان الدين القيراطى الذى مرت ترجمته بين شعراء الغزل خمريات بدوره ، وكان فقيها ومحدثا ، وكأنه

---

(١) الغسق : الظلام . الغدائر : الضفائر
(٢) الجآذر : جمع جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية المعروفة بجمال عينيها .
(٣) الفوات ٢/٥٠٢ .
(٤) الطلا : الخمر . الخرد : جمع خريدة وهى البكر الحييّة .

ينطق بلسان شاعر ماجن كبير ، إذ يقول[1] :

كم ليلةٍ نادمتُ بدرَ سمائها ... والشمسُ تُشرق فى أكفِّ سُقاتِها
والبدرِ يُستَرُ بالغيوم وينْجَلى ... كتنفُّس الحسناءِ فى مرآتِها
خالفتُ فى الصَّهْباء كلَّ مقلِّدٍ ... وسعيتُ مجتهدًا إلى حاناتِها
أمحرِّكَ الأوتار إن نفوسنا ... سَكناتُها وَقْفٌ على حركاتها
ومليحةٍ أرغمتُ فيها عاذلى ... قامتْ إلى وصلى برغم وُشاتها
ياخَجْلةَ الأغصان من خَطَراتها ... وفضيحةَ الغزلانِ من لَفتاتها

والقيراطى إنما يستخدم مهارته الفنية التى صوَّرناها فى غير هذا الموضع ، ليدل على براعته فى محاكاة المجان لزمنه ، بل لعل أحدا من معاصريه لا يستطيع اللحاق به فى مثل هذه الأبيات ، وهو يجمع فيها بين جمال الطبيعة فى الليالى القمرية وبين الصهباء أو الخمر وصاحبته أو الغزل ، وهى طويلة ، وقد نوَّه بها الأسلاف طويلا لروعتها الموسيقية والتصويرية .

وأخذ يزاحم الخمر فى عصر المماليك تعاطى الحشيش ، وحين أمر الظاهر بيبرس سنة ٦٦٦ هـ . بإغلاق حانات الخمور وحَطْم دِنانها أمر بحرق الحشيش ، وأشار إلى ذلك ابن دانيال فى بعض شعره ويقول حين أُبطلت المنكرات فى أيام السلطان لاجين سنة ٦٩٦ وفى مقدمتها الخمر والحشيشة[2] :

احذرْ نديمى أن تذوق المُسْكِرا ... أو أن تحاول قطُّ أمرا مُنْكَرا
ذى دولةُ المنصورِ لاجينَ الذى ... قهر الملوك وكان سلطان الورى
يإذا الفقيرُ يصير جِسْمُك أحمرا ... إياك تأكلُ أخضرًا فى عصره

والأخضر : الحشيش . ويشير إلى العقاب الشديد الذى سينزل بمتعاطيه ، ونهى ابن دانيال بالمثل عن تعاطى الخمر . وسرعان ما يذهب عصر لاجين كما ذهب عصر الظاهر بيبرس ، ويعود نفر من الناس إلى الحشيشة والخمر ، وممن تعلق بها ابن الصائغ ، وله فيها عدة[3] مقطوعات من مثل قوله :

---

(١) المنهل الصافى ٧٢/١
(٢) فوات الوفيات ٣٨٨/٢
(٣) انظر فى هذه المقطوعات كتاب دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين للدكتور محمد كامل حسين ص ١٠٧ وما بعدها .

قم عاطني خضراء كافوريّةً قامتْ مقام سُلافةِ الصَّهْباء
يغدو الفقيرُ إذا تناول درهما منها له تيهٌ على الأمراء

ووصفَها بأنها كافورية لأنه كان يُزْرَعُ منها كثير ببستان كافور فى القاهرة ، ويلقانا كثيرون يفضلون عليها الخمر لمجالسها وكئوسها ودنانها وقيانها .

وتظل الحشيشة والخمر على ألسنة الشعراء فى الحقبة العثمانية ، ومما نقرأ لهم قول أبى المواهب[1] البكرى المتوفى سنة ١٠٣٧ للهجرة :

وقهوةٍ تَنْضَحُ مِسْكاً ولا بِدْعَ ففى الفِنْجان شكْلُ الغَزَالْ[2]
تديرها هيفاءُ ممشوقةٌ خَوْد تَثَنتْ فى بُرود الدَّلالْ[3]
بِغُرَّةٍ أوطُرَّةٍ وزَّعتْ أفكارنا بين الهدى والضَّلال
تقول للشمس وقد أقبلتْ تلثَّمى ما أنتِ إلا خيالْ

وربما كان من أسباب شيوع الخمريات على ألسنة بعض الشيوخ أيام المماليك والعثمانيين أنها كانت قد شاعت على ألسنة الصوفية من أمثال ابن الفارض وابن عربى متخذين من نشوتها رمزًا لنشوة الحب الإلهى ، فلم يجد كثيرون حرجا فى نظمها ومحاولة التفنن فيه . ونقف عند نفر من شعراء الطبيعة ومجالس اللهو ، وكلهم من الشعراء أيام الفاطميين ، أما من جاءوا بعدهم فقد مزجوا بين المجون والفكاهة الشعبية وسنخصهم ببعض الحديث .

ابن[4] وكيع التِّنِّيسى

يسوق ابن خلكان لابن وكيع نسبا طويلا ، فيقول هو الحسن بن على بن أحمد بن محمد بن خلف الضبى ، ووكيع لقب جده محمد بن خلف ، ويذكر أنه كان من أهل القرآن والفقه والنحو والسير وأيام الناس وأخبارهم ، وله مصنفات كثيرة ، ويقول إنه كان نائبا فى الحكم بالأهواز فى إيران لعبدان الجواليق وإنه توفى سنة ٣٠٦ ببغداد ، ويذكر عن الشاعر أنه بغدادى ومولده

---

(١) ريحانة الألبا ٢/٢٢٦
(٢) قهوة : خمر .
(٣) خود : الشابة الحسنة .
(٤) انظر فى ابن وكيع وترجمته وأشعاره اليتيمة ١/٣٥٦ وتتمة اليتيمة ١/٢٩ وحلبة الكميت فى مواضع متفرقة والعمدة لابن رشيق (طبعة أمين هندية) ٢/٢١٦ وابن خلكان ٢/١٠٤ .

بتنِّيس ، وهي مدينة كانت بقرب بورسعيد الحالية ، وتمتد في بحيرة المنزلة ، واشتهر أهلها [١] بصناعة النسيج والتفوق في صنع الثياب الشفافة والملونة ، ويذكر المؤرخون والجغرافيون أنها كانت تكتظ بالجنان والكروم والفواكه والأشجار والأزهار والطيور من كل لون ، وأكثر أغذية أهلها السمك ، وهم مياسير أصحاب ثراء ، وأكثرهم حاكة ، وهم يحبون النظافة والدماثة والغناء واللذة وأكثرهم يبيتون سكارى . ويبالغ الأسلاف في وصف ما كان بهذه المدينة أو الجزيرة التي اندثرت من مشاهد طبيعية ومن جنات ورياض . وفيها وُلد ابن وكيع كما يقول ابن خلكان ولا نعرف تاريخ مولده ، أما وفاته فمعروف تاريخها وهو سنة ٣٩٣ وكذلك مكانها وهو مسقط رأسه تنِّيس . ولا نعرف الأسباب التي دفعت أباه إلى اتخاذ تنيس دار مقام له ولأسرته ، وقد نشأ فيها الشاعر وتثقف . ويبدو أنه طلب المزيد من الثقافة والتعرف على أدباء القاهرة فرحل إليها ، وكانت شاعريته تفتحت فلفت إليه الأنظار ، ولا ندرى متى كان ذلك تماما ، غير أن من المؤكد وجوده في القاهرة حين نزلها المتنبي سنة ٣٤٦ ويبدو أن صلة انعقدت بينه وبين ابن حِنْزابة وزير كافور ، وكانت العلاقات قد ساءت بينه وبين المتنبي ، حينئذ رأينا ابن وكيع يؤلف كتابا في سرقات المتنبي سماه المنصف إرضاء للوزير ، ويقول ابن رشيق في العمدة : « سماه كتاب المنصف ، مثل ما سُمِّيَ اللديغ سليما ، وما أبعده عن الإنصاف » . ولم يكن المتنبي من ذوق ابن وكيع ، وبون بعيد بين ذوقيهما ، فالمتنبي شاعر جاد منتهى الجد ، لا يعرف اللهو ولا الخمر ولا المجون ، وابن وكيع شاعر ماجن منتهى المجون ، فاندفع يريد أن يسقط المتنبي من عليائه وأنَّى له ذلك ؟ ! ويبدو أنه كان ثريا ، فأعانه ثراؤه على انغماسه في المجون ، ويدل على هذا الثراء أننا لا نجد رواة شعره يذكرون له قصائد في ابن حِنْزابة ولا في الخلفاء الفاطميين وقد عاصر منهم المعز والعزيز والحاكم ، فحسبه دائما كأس وطاس ، حتى ليؤثرهما على تولى منصب الخلافة الرفيع يقول :

وإنْ أتوك فقالوا كُنْ خليفَتنا	فقلْ لهم إننى عن ذاك مشغولُ
وارْضَ الخمولَ فلا يَحْظَى بلذَّتهِ	إلا امرؤٌ خاملٌ في الناس مجهول
واسفِكْ دمَ القهوةِ الصَّهْباء تُحْيِ بهِ	روحى فإن دم الصَّهْباء مطلولُ [٢]

فهو يؤثر حياة الخمول والمجون على حياة العزة حتى لو كانت الخلافة ، ويبدو أنه تمثل كل

(١) انظر فيهم نقول المقريزي عنهم في كتابه الخطط ٣٣١/١ وما بعدها .

(٢) مطلول : مهدر لا يُطلب ثأره .

ما فى ديوان أبى نواس من مجون حتى الجانب السيىء عنده جانب الغلمان ، إذ نراه يداعب غلاما نصرانيا فى مربعة مزدوجة طويلة أشرنا إليها فى الفصل الماضى ، شكا له فيها من حبه وعذابه فيه ، ومضى يتوعده تظرفا إن لجَّ فى هجره أن يشكوه إلى القساوسة والرهبان والأسقف والمطران والبطرك ، ويقول له كيف تحل قتل الروح وهو ما لم يأت به المسيح ولا أخبر به يوحنا ومتى ولوقا ومرقص .

وكل ذلك على سبيل الدعابة ، ونظن ظنا أنه لم يكن متورطا فى هذا الإثم ، وكل ما فى الأمر أنه هو ومن نظموا فيه بعده على مر السنين . إنما كانوا يحاكون فيه مجان بغداد تظرفا ودعابة على نحو ما يتضح فى مربعة ابن وكيع المزدوجة . وربما كان من أسباب ذلك كثرة النصارى فى تنيس كما يقول المقريزى وكثرة حاناتهم فيها ومن بها من السقاة والغلمان . ومن المؤكد أنه كان لا يطيل مكثه فى القاهرة فهو دائم الرجوع إلى بلدته ناعما بثرائه فيها وبمشاهدها الطبيعية . وله بجانب هذه المزدوجة المربعة مزدوجة ثانية فى وصف فصول السنة يبدؤها بوصف فصل الصيف وحره وغباره وما يجلب لشارب الخمر من الصداع ، ويتلوه بفصل الخريف وأهويته واختلاف برده وحرِّه ، ويتبعه بفصل الشتاء وما فيه من برد وأمطار وزكام وحاجة مدمنى الخمر فيه إلى الدفء وإيقاد النار ثم يفيض فى بيان محاسن الربيع المنتشرة فى كل عناصر الطبيعة من شمس وقمر وطيور ورياض وأزهار وثمار ، مما ينعم به شارب الخمر ويجد فيه هناءه . ونقتطف الأبيات التالية من خمرية له جمع فيها بين وصف الخمر ووصف الطبيعة فى الربيع وصفَ مشغوف بها مفتون ، يقول :

أَبْدى لنا فصلُ الرَّبيع منظرًا ... بمثله تُفْتَنُ ألبابُ البَشَرْ
فالأرض فى زىٍّ عروسٍ فوقها ... من أَدْمُعِ القطر نِثارٌ من دُرَرْ[1]
أما تَرَى الوَرْدَ كخَدَّىْ كاعبٍ ... راودها ، فامتنعت منه بَشَرْ
كأنما الخمر عليهِ نَفَضَتْ ... صِباغَها أو هى منه تُعْتَصَرْ[2]
أخْجَله النَّرْجِسُ إذ جادلَهُ ... فاحمرَّ من فَرْط حياءٍ وخَفَرْ
وانظر إلى الأطيار فى أرجائهِ ... إذا دَعا الثاكلُ فيها وصَفَرْ[3]
كأنها – تَصْفِرُ فى رياضها – ... سِرْبُ قيانٍ فوق بُسْطٍ من حِبَرْ[4]

(١) النثار : ماينثر على العروس ليلة الزفاف من الدراهم الفضية

(٢) صباغها : لونها .

(٣) الثاكل : من فقدت ابنًا لها .

(٤) حبر : جمع حبرة ، وهى القطعة من نسيج الحرير .

والنُّسْكُ في عصر الصِّبا كأنه من قبحه خَلْعُ عِذارٍ في الكِبَرْ[١]
فاشربْ عُقارا لو أصابتْ حَجَرًا لطارَ من خفَّته ذاك الحَجرْ
كأنما الأوطارُ فيها جُمِّعَتْ فليس في العيش لجافيها وَطَرْ[٢]

وإنما أطلنا في اقتطاف هذه الأبيات لتدل على براعة ابن وكيع في تصوير الطبيعة تصوير الصب المفتون بها ، فهي عروس جميلة موشاة بألوان زاهية ، ورأتها السماء فعشقتها وأخذت تبكي بأجفان المطر ، وما أروع الورد ، إنه كوجنتي فتاة راودها ولهان بها ، فانثنت حياء وتضرجت وجنتاها خفرا . ويعجب ابن وكيع أشد العجب هل الخمر نفضت لونها القاني على الورد أو هي معصورة منه ومستخرجة ، أو لعل النرجس جاد له فاحمرَّ لقوة حجته خجلا . وفي أرجاء هذا الروض البديع يغني الطير غناء شجيا مؤثرا ، وكأنه أسراب قيان تغني فوق بسط من سندس وحرير . ويدعو إلى اللهو واللذة في زمن الصبا والشباب ، ويزعم أن النسك وهجران المتاع في بواكير الحياة ذميم مثل خلع العذار والمجون في الكبر . وكأنه نظم هذه الخمرية في شبابه . ويزعم ما زعمه أبو نواس قبله من أن الخمر لو مستْ حجرا لمسَّه السرور ، وأنها مجمع الأوطار والمنى . ودائما يقول إنه عاكف على شرب الخمر وسط مباهج الطبيعة ، غير مُرْعَوٍ ولا مزدجر على شاكلة قوله :

جانبتُ بعدك عفَّتي ووَقاري وخلعتُ في طرق المجون عِذاري
خوَّفتني بالنار جُهْدَك دائبًا ولججتَ في الإرهاب والإنذار
خوفي كخوفك غيرَ أني واثقٌ بجميل عَفْوِ الواحد القهارِ
انظُرْ إلى زهر الربيع وما جَلَتْ فيه عليك طرائفُ الأنوار
ناحتْ لنا الأطيارُ فيه فأرْهَجَتْ عُرْسَ السرور ومأتمَ الأطيار[٣]
فاشربْ معتَّقَةً كأن نسيمها مسكٌ تضوِّعه يَدُ العطَّار[٤]
مع مُسْمِعٍ حَلَفَتْ له أوتارُه أن لا تنافرَ رنَّةَ المزمار
فطنٍ يحرِّكُ كلَّ عضوٍ ساكنٍ تحريكُهُ لسواكن الأوتار

وهو يعلن لصاحبه أنه انغمس في المجون غير مصغ لتخويفه له من عذاب النار ، إذ يأمل في

---

(١) خلع العذار : كناية عن التهتك والإغراق في المجون .
(٢) الوطر : الأمنية .
(٣) أرهجت : أثارت .
(٤) تضوعه : تذكي رائحته وتنشرها .

عفو الله وغفرانه ، وهو يكرر هذه النغمة كثيرا فى خمرياته ؛ ويقول له : انظر إلى ما حولك من جمال الطبيعة الساحر وما فيها من بدائع النور والزهر وما ينتشر فيها من نواح الطير الذى يستثير حزنه كما يستثير فيه السرور والفرح . ويدعوه إلى شرب الخمر ذكية الرائحة وسط مباهج الطبيعة على ألحان مغن حاذق يجيد العزف حتى ليحرك فى السامع كل عضو ساكن منه تحريكه لسواكن أوتاره . وفى كتاب اليتيمة قطعة كبيرة من شعر ابن وكيع . وكان له ديوان رآه ابن خلكان سقط من يد الزمن ، ولو وصلنا لعرفنا بوضوح مدى تأثيره فى الشعراء المصريين بعده وفيما نظموه من شعر الخمر والطبيعة ، ومع ذلك فنى رأينا أن هذه القطعة كافية فى بيان أثره فيمن خلفوه . وهذه هى أول مرة نلتقى فيها بشاعر فى إقليم عربى يعيش للخمر والطبيعة ولا يعنى أى عناية بالمديح .

الشريف[1] العَقيلىّ

هو على بن الحسين بن حَيْدرة ينتهى نسبه إلى عقيل بن أبى طالب ، وتاريخ مولده غير معروف وكذلك تاريخ وفاته ، غير أن الثعالبى ترجم له فى اليتيمة باسم أبى الحسن العقيلى وأردف الاسم بكلمة رحمه الله والثعالبى ترجم لشعراء أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس ، وقد يفهم من قوله رحمه الله ، أن العقيلى لابد أن يكون قد توفى قبل وفاته ومعروف أن الثعالبى توفّى سنة ٤٢٩ ، ويقول ابن سعيد فى المغرب : « سألت عن العقيلى جماعة من أهل مصر فلم أر فيهم من يتحقق أمره ، وقال لى أحد الشرفاء المعنيين بأنساب الشرف : كان فى المائة الرابعة » . وقد يشهد لذلك أننا نجد فى ديوانه أبياتا ينوه فيها بالحسين بن جوهر وزير الحاكم ، وكان من بين من قتلهم سنة ٤٠١ . ويبدو أن كلمة « رحمه الله » فى اليتيمة وضعها الثعالبى — إن كان هو الذى وضعها — خطأ أو سهوا فقد جاء فى خطط المقريزى ما يشير إلى أن العقيلى امتدت حياته حتى سنة ٤٤٨ إذ ذكر أنه أنشد المستنصر الفاطمى صبيحة يوم عرفة فى هذه السنة :

قُمْ فانْحَرِ الراحَ يوم النَّحْرِ بالماء ... ولا تُضَحِّ ضُحًى إلا بِصَهْباء[2]
أدركْ حَجيجَ النَّدامى قبل نَفْرِهِم ... إلى مِنَى قَصْفِهِم مَعْ كلِّ هيفاء

(١) انظر فى الشريف العقيلى وترجمته وأشعاره اليتيمة ٤١٥/١ والمغرب (قسم الفسطاط) ص ٢٠٥ وقد أنشد ابن سعيد قطعة كبيرة من شعره وراجع الفوات ٩٩/٢ والفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ٤٨٣ ومقدمة ديوانه (طبع الحلبى) . بتحقيق د . زكى المحاسنى .

(٢) انحر : اذبح . يوم النحر : يوم الأضحى . تضحى تذبح الأضحية . الصهباء الخمر .

فخرج المستنصر فى ساعته بروايا الخمر تُزْجى بنغمات حُداة الملاهى وتساق ، حتى أناخ بعين شمس (بجوار القاهرة) فى كبكبة من الفسَّاق فأقام بها سوق الفسوق على ساق ، يقول : « وفى ذلك العام أخذه الله وأخذ أهل مصر بالسنين[1] » وكأن ذلك كان فى أول عام من أعوام المجاعة المشهورة لعهد المستنصر التى بدأت سنة ٤٤٢ وظلت سبع سنوات ، حتى هلك الحرث والنسل . والخبر يدل على أن الشريف العقيلى عاش على الأقل حتى هذه السنة ، ويستدرك صاحب المغرب على من ذكر له أنه كان فى المائة الرابعة قائلا : « وقفت فى الخريدة (للعماد الأصبهانى » على ترجمته فدلَّ على أنه متأخر العصر عن المائة الرابعة » . ولعل فى ذلك كله ما يشهد بأنه عاش مطالع شبابه فى القرن الرابع ، وامتدت به الحياة فعاش دهرًا فى القرن الخامس .

وهو من أهل الفسطاط ، وكان ثريا ثراء مفرطا حتى قال ابن سعيد : كان له بها متنزهات ، وهو فى ذلك مثل تميم بن المعز ، فهما جميعا من سكانها وأصحاب البساتين والقصور بها ، غير أن تميما شُغل فى ديوانه بمديح أبيه وأخيه العزيز ، أما العقيلى فكما يقول ابن سعيد « لم يكن يشتغل بخدمة سلطان ولا مدح أحد » ويشهد بذلك ديوانه فليس فيه مديح لخليفة من الخلفاء الفاطميين ، فيه فقط بعض إخوانيات قليلة ، وكذلك بعض فخر وهجاء ، ولا نبالغ إذا قلنا إنه استغرقه شعر الطبيعة والخمر والحب وكأنه امتداد لابن وكيع التنيسى . ينظم أشعاره لنفسه ويتغنى لها بالطبيعة ومفاتنها مازجًا بينها وبين الخمر فى نشوة وفرح ومسرة . ونشعر كأنما ينتفض أمامها انتفاضا يعم كيانه كله ، وهو يشاهد جداولها ومياهها ورياضها وأشجارها وأزهارها وبركها ، حتى لتتحول أمامه معبدًا مايزال يقدم إليه تراتيله مصحوبة ببخور الخمر وشذاها ، وكأن حياته وعبادته إنما تأتلف من الطبيعة والخمر وكئوسها المترعة ، وهو يدعو دائما إلى احتساء هذه الكئوس ، وكأنه يعب من الطبيعة ما يعب من فتنها ، ثم يعب من الخمر ما يعب من دِنانها ، مع القدرة البارعة على التصوير والتحول بالمناظر الواسعة فى الطبيعة إلى مناظر مركزة ، كالكُوَّة تتجمع فيها الأشعة فتتحول إلى ما يشبه قوس قزح رائع بديع ، يقول داعيا إلى المتاع بجمال الطبيعة وشرب الخمر العتيقة :

الـغَـيْـمُ ممدودُ السُّرَادقْ والـزَّهْـرُ مفروشُ النَّمارقْ[2]
والقاشُ قد نُقِشَتْ لنا منـه المجالسُ والمرافق

---

(١) خطط المقريزى ٥٨٣/٢ . والسنين : الجدب .
(٢) النمارق : الوسائد .

أشـــــجـــــاره وثمارُهُ مــثــلُ الترائب والمخانق[1]
قـد غَـنَّتِ الأطـيارُ فى طـرقـاتـه كـلَّ الـطـرائق
فاعتِقْ فؤادك فيه من رِقِّ الهموم بشربِ عاتق[2]
فــالأقــحوانُ غصونُــه بِـيضُ الـنَّواصى والمفارِق
ومـراودُ الأمـطـار قـد كُحِلَتْ بها حَدَقُ الحدائق

والطبيعة من حوله قد تجمعت فى حفل بسرادق بهيج وسائده من الزهر الملون ، وكذلك مجالسه ومتكآته كأنما قد قُطِّعت وفُصِّلت من القاش أو من نسيج حريرى متعدد الأصباع ، بينما تطلّ عليه من الأشجار والثمار الترائب والقلائد . والطير تشدو وتغنى ، منظر فاتن ومَغْنى ساحر ، جدير بالشراب المزيل للهموم ، والأقحوان يتمايل على أغصانه وكل ما فى الحدائق آخذ زينته وزخرفه ، حتى العيون لم تنس كحلها ، عيون الأزهار البديعة ، فقد ناولتها الأمطار مراود تتمم بها زينتها وحسنها الفاتن . ومن قوله فى مطلع الربيع .

قـد بُيِّضَتْ قُبَّةُ السماء وزُوِّقَتْ قـاعـةُ الـفضـاء

فالسماء بسحبها البيضاء الممتدة على الأفق من كل جانب كأنها قُبَّة بُيِّضت ، والربيع بأزهاره وأنواره كأنه قاعة متألقة نُقِشَت ونُمِّقَتْ بمنمنمات الربيع وزخارفه البديعة . وعلى نحو ما تتجسد الطبيعة فى مناظر يتمثل فيها التجميع والحشد والتركيز يكثر عنده التشخيص وبث الحياة فى عناصر الطبيعة من مثل قوله :

قد حبا طِفْلُ الصباحِ بين دايـاتِ الـريـاحِ

وقوله :

السُّحْبُ تُرْضع من بنات الأرض ما جعلَ الربيعُ لها الغصونَ مهودا

وقوله :

أمهاتُ الثمارِ بين الرَّوابى تائهاتٌ بلُبْس خُضْر الثيابِ
وبناتُ الكروم تُجْلَى بما قد صاغَه الماءُ من عقود الحَبابِ

---

(١) المخانق : القلائد.
(٢) العاتق : الخمر.

فطفل الصباح يحبو بين دايات الرياح والسحب ترضع أزهار الأرض على مهود الغصون ، وأمهات الثمار من الأشجار يملؤها التيه والدلال بثيابها الخضراء ، والماء يجلو الخمور من بنات الكروم بما يصوغ لها من عقود الحباب . وعلى هذا النحو ما نزال نحس عند الشريف العقيلى باندماجه فى الطبيعة وتملِّى عينيه وقلبه بمشاهدها الساحرة ، فهو مسحور بها سحرًا لا حدود له ، سحرا كان يحس إزاءه بنشوة كنشوة الخمر ، وكان لا ينسى النشوتين جميعا حتى فى غزله كقوله :

قامتْ قيامةُ روحِها لرواحى ... إن النَّوَى لقيامةُ الأرواحِ
وبكتْ فصار الدمعُ فى وَجَنَاتها ... مثل الحَباب على كئوس الراحِ
وكأنَّ صفحةَ وجهها لما بكتْ ... روضٌ يرصِّع وَرْدَه بأقاحى

وقرار هذه الأبيات الروض وما يرصعه من أنوار وأزهار وهو القرار العام لشعره ، فهو شاعر الرياض ومباهجها ، وهى أنشودته أو أناشيده التى ظل يتغنَّى طوال حياته بها وبما كانت تُلْقى فى وهمه وخياله من رؤى وأحلام وأشباح لا تكاد تحصى ، مما جعل الاستعارة المكنية القائمة على التشخيص تكثر فى أشعاره كثرة مفرطة ، مع التفوق فيها والبراعة ، ولاحظ ذلك الصفدى من قديم فقال : « مارأيت أحدا من شعراء المتقدمين أجاد الاستعارة مثله ولا أكثر من استعاراته اللائقة الصحيحة التخيل » .

ابن[1] قادوس

هو أبو الفتح محمود بن إسماعيل الدمياطى المشتهر باسم ابن قادوس ، من شعراء النصف الأول من القرن السادس الهجرى ، ذكره أبو الصلت الشاعر الأندلسى نزيل مصر فى رسالته التى ألفها عن الشعراء المصريين حوالى سنة ٥١٠ مما يدل على أن نجمه أخذ يلمع ويتألق فى المحافل الأدبية بالقاهرة منذ هذا التاريخ . وله مدائح مختلفة فى الأفضل بن بدر الجمالى المقتول . كما مرَّ بنا سنة ٥١٥ . ويبدو أن نجمه ظل يصعد فى الأدب حتى عمل فى الدواوين الفاطمية ، ومازال يترقَّى بها حتى أُسندت إليه - مع الموفق بن الخلال - رياسة ديوان الإنشاء ، واستمر يتقلدها حتى

---

(١) انظر فى ابن قادوس وترجمته وأشعاره الخريدة (قسم شعراء مصر) ٢٢٦/١ والرسالة المصرية فى المجموعة الأولى من نوادر المخطوطات نشر عبدالسلام هرون وحسن المحاضرة للسيوطى ٥٦٣/١ ومقالا لنا عنه فى مجلة الثقافة العدد ٦٨٩ .

نزل به القضاء سنة ٥٥١ للهجرة . ورياسته لهذا الديوان تجعلنا مهيَّئين لأن يكون شعره – مثل النثر المصرى الكتابى فى تلك الحقبة – مرصعا بالبديع ، كقوله فى الأفضل :

مليكٌ تذلُّ الحادثاتُ لعِزِّه يُعيد ويُبْدى والليالى رواغمُ
وكم كربةٍ يوم النزالِ تكشَّفَتْ بحمْلاته وَهْيَ الغواشى الغواشمُ[1]
تَشيد بناء الحمدِ والمجدِ بِيضُه وهن لآساس الهوادى هوادم[2]

وواضح أن فى البيت الأول طباقا بين « يعيد ويبدى » وأن فى البيتين الثانى والثالث جناسا ناقصا بين « الغواشى والغواشم » وكذلك بين « الهوادى وهوادم » . وكان بارعا فى صنع ما يسمى فى البديع بحسن التعليل ، إذ كان يعرف كيف ينفذ إلى تعليلات طريفة إن هو رضى عن شىء ، فإنه يلتمس له ما يحسِّنه كقوله الذى أنشدناه بفواتح الفصل فى جارية سوداء :

يلومنى فى ظبيةٍ مخلوقةٍ من كُحُلِ
والحجَرُ الأسودُ لم يُخْلَقْ لغير القُبَلِ

فهو يرد عن السواد فى الجارية قبحه ، إذ يجعلها مخلوقة من كحل العيون الذى تتزين به لنساء ، وقد مضى يقول – كما مربنا – إن السواد هو الذى يمنح العين السوداء بصرها ونورها ، رما يبلغ حجر كريم ما يبلغ الحجر الأسود من القدسية ، حتى لينهال عليه الحجَّاج بالقبل . وفى شعاره توريات يصنعها تظرفا . وكل شىء يؤكد أنه كان شاعرا بارعا ، غير أن ديوانه سقط من د الزمن ، وهو فى شعره يتغنى بالخمر وينفذ فى وصفه لها إلى تصاوير بديعة ، ويبدو أنه كثيرا ا كان يشربها مع صحبه فى الأديرة ، يقول :

قُمْ قبل تأذين النواقيسِ واجْلُ علينا بنتَ قِسِّيسِ
عروسَ دَنٍّ لم يَدَعْ عِتْقُها إلا شُعاعا غيرَ ملموسِ
تُجْلَى علينا باسمًا ثَغْرُها فلا تقابلْها بتَعْبيسِ
مُذْهَبَةُ اللَّوْن إذا صُفِّقَتْ مُذْهِبَةٌ للهَمِّ والبوسِ

---

١) الغواشى : النوازل : الغواشم : القاهرة . (٢) البيض : السيوف .

نارٌ إلى النار دعا شُرْبُها وشَرَّدَتْ بالعقل والكِيسِ
فى روضةٍ كانت أزاهيرُها كــأنها رِيشُ الــطواويسِ

وهو يحتسيها مع رفاقه فى بستان دير ، وهو يعبّ منها متمليا بجمال الطبيعة ، وهى تجلى عليهم عروسا رشيقة معتقة ، كأنما لم يبق منها عتقها إلا شعاعا يفرِّج الهموم حين يمسّ الحلوق ، وإنها لذات ثغر باسم بما يطفو عليها من حَباب ، وابن قادوس يشربها وهو غير ناس أنها محرمة وأنه يتناولها من يد إبليس ، وكأنه آمل فى عفو ربه . وعلى نحو ما كان يمزج بين الخمر والطبيعة ، محتسيا كئوس النشوة منهما جميعها ، كذلك كان يمزج بينها وبين الغزل فى مثل قوله :

وليلةٍ كاغماضِ الطَّرْفِ قَصَّرها وَصْلُ الحبيب ولم تَقْصُرْ عن الأملِ
بِتْنا نجاذب أهدابَ الظلام بها كفَّ الملام وذِكرَ الصَّدِّ والمَلَلِ
وكلما رام نطقا فى معاتبتى سَدَدْتُ فاهُ بِطِيبِ اللَّثْم والقُبَلِ
وبات بدرُ تمام الحسن مُعْتَنِقى والشمسُ فى فَلَك الكاسات لم تَفِل[1]
فبتُّ منها أرى النار التى سجدتْ لها المجوسُ من الإبريقِ تَسْجُد لى
راحٌ إذا سفك النَّدْمان من دمها ظلَّت تُقَهْقِهُ فى الكاسات من جَذَل[2]
فقلْ لمن لام فيها إننى كلفٌ مُغْرًى بها مِثْلَ ما أُغْرِيتَ بالعَذَلِ[3]

والخمرية بديعه يصوِّر فيها ابن قادوس ليلة من أروع ليالى وصاله ، يعاتب فيها صاحبته مصرحا بما اقتطفا فيها من أزهار الوجد والوله والصبابة ، بينما شمس الخمر تتفلَّت أشعتها من أفلاكها فى الكئوس مشرقة غير غاربة ، ويشعر كأنها نفس النار التى طالما سجد لها المجوس تسجد له حين تصب من إبريقها فى كأسه ، ويعجب أن يسفك دمها الشارب فتسيل من الدن إلى كأسه غير محزونة ، بل مستبشرة ، بل ضاحكة مقهقهة لشدة فرحها وسرورها . ويقول لعاذله فى شربها كفى عذلا ، فإننى مولع بها ولوعك باللوم والعذل . وحسبنا هذه الخمرية وسابقتها لتدل على تفوق ابن قادوس فى تصوير الشغف بالخمر إما حقيقة وإما محاكاة لشعراء بغداد من أمثال أبى نواس ومعاصريه .

---

(١) تفل : تغرب .
(٢) جذل : سرور .
(٣) العذل : اللوم .

عبد[1] الباقى الإسحاقى المنوفى

من شعراء القرن الحادى عشر الهجرى أيام العثمانيين ، ولد بمنوف وبها نشأ ، وتلقى العلم على شيوخها ، ثم نزل القاهرة وأكبَّ على حلقات علمائها ينهل منها ، حتى أصبح من علمائها ، وعُنى بالتاريخ ، وكان شاعرا بارعا ، ويصفه المحبى بأنه تجاوز فى الرقة الحد وأنه يمتاز بحلاوة معانيه وعذوبة مبانيه ، ومازال ينظم الشعر حتى توفى بمسقط رأسه سنة ألف ونيف وستين ، وقد أنشد له طائفة من أشعاره ، استهلَّها بخمرية ممزوجة بالغزل على هذا النمط .

تمشَّتْ لنا تُخْجِلُ الكوكبا ... فناديتُها مَرْحَبًا مَرْحبًا
أدارتْ بحضرتنا قهوةً ... وطافتْ بكأس الطِّلا مُذْهبا[2]
رَنَتْ ورمتْنى بألحاظها ... وقد أذكرتنىَ عَهْدَ الصِّبا
وغنَّتْ لنا فطربنا لها ... ويا حُسْنَ ذاك الذى أطربا

وهو يتغزل بساقية مغنية أسرت لبَّه ، وقد دارت عليه بكئوس الخمر ، وهو ينتشى بها وبجمال المغنية كما يقول ، مصرِّحا بذلك مجاهرا فى غير مداراة . وفى قصيدة ثانية يذكر مجلسا للهو والغناء نعم به بين مشاهد الطبيعة فى عفاف لا يدانيه عفاف . ومن قوله فى خمرية راقصة :

رقص المجلسُ أُنْسًا ... فاجعَل الجرَّةَ كأسا
واسقنى بالزِّقِّ والطَّا ... سِ . فإنى طِبْتُ نفسا
وأقِمْ لِلَّهو واللَّـ ... ـذَّات فى حانىَ عُرْسا
كيف لا وهْىَ ترينى ... فى دُجَا الظلماء شمسا
وتقيم المَيْتَ حَيًّا ... بعد ما جاور رَمْسَا

وهو لغرامه بالخمر وشغفه بها يريد أن يحتسبها جرارا وزقا وطاسا لا كأسا فحسب ، وتصوَّر نفسه كأنما يعيش فى حان يخالها فيه شمسا ، ترد إلى الموتى الحياة ، تعبيرا بذلك عن شدة تعلقه بها ، ويقول :

---

(١) انظر فى عبد الباقى الإسحاقى وترجمته نفحة الريحانة للمحبى ٥٨٩/٤ وكذلك كتابه : خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر ٢٨٩/٢

(٢) الطِّلا : الخمر.

امْلَ لى الكاس تماما واسقنى جَامًا فجَاما[1]
اسْقِنِى بالكوب والكا سِ فُرادى وتُواما[2]
ثم بالجَرَّة فالجـ ـرَّة حتى أتَرامَى
اسْقِنِى حينئذٍ بالـ ـزِّقِّ حتى لا كلاما
ثم أزهى موضعٍ فى الـ ـرَّوْضِ فاختَرْه مقاما

وهو صَبٌّ بالخمر يريد أن يحتسيها حتى الثمالة ، بل يريد أن يشربها أرطالا جاما فجاما وكئوسا وأكوابا وَجرَّات متوالية حتى يفقد الكلام ويغيب عن حسه ، وهو يشربها فى أزهى موضع بالروض قد عبقت فيه الأزهار بأريجها العطر. وكأنما يعيد الإسحاق فى أيام العثمانيين ذكرى أبى نواس وأمثاله من الماجنين العباسيين.

٤

شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية

مرَّ بنا أن مصر عرفت الزهد والنسك الدينى من قديم ، ويكفى أنها هى التى أنشأت فى المسيحية نظام الرهبنة الذى شاع منها وانتشر فى العالم المسيحى . وقد أقبلت على الإسلام بمجرد اعتناقها له ونزول العرب المسلمين فيها تنهل منه ، ورأيناها تسهم منذ زمن الولاة فى نشر مذهبى مالك والشافعى ، كما أسهمت فى القراءات عن طريق مقرئها المشهور : ورش . وأكبت على الحديث النبوى وتفسير الذكر الحكيم وأخذت تدرسهما كما تدرس القراءات والفقه ، وتكونت لها طبقات من علماء الدين ومن الوعاظ والقصاص ، وكان كل من شدا منهم شعرا نظم فى الزهد والوعظ أبياتا كان يتداولها الناس على نحو ما كانوا يتداولون أشعار الإمام الشافعى المتوفى سنة ٢٠٤ وظلوا يتداولون بعده أشعار منصور بن إسماعيل الفقيه الشافعى المتوفى سنة ٣٠٦ من مثل قوله[3] :

كُنْ بما أوتيتَه مُغْتَبِطًا تَسْتدمْ عمرَ القَنوعِ المكتفى
إن فى نَيْل المنى وَشْكَ الرَّدَى وقياسُ القَصْد عند السَّرَفِ
كسراجٍ دُهْنُه قُوَّتُه فإذا غَرَّقْتَه فيه طُفِى

(١) الجام : إناء من فضة .
(٢) توام : توأم : من الاثنين إلى مازاد .
(٣) نكت الهميان ص ٢٩٨

وهو يدعو إلى القناعة والاكتفاء بالقليل وعدم التطلع إلى مُنًى عريضة يكون فيها حَتْف صاحبها ، ويقول لابد من القصد والاعتدال لتظل للإنسان مُنّته وقوته ، أما إذا أفرط وتجاوز الاعتدال والقصد فإنه لاشك صائر إلى الهلاك . وإذا تركنا الفقهاء إلى الشعراء وجدناهم يرددون بعض أشعار زاهدة وبعض مواعظ ، واتخذوا – كما أسلفنا – من زوال الدولة الطولونية عبرة كبرى للدهر ونكباته ، وأخذت العظة وما يتصل بها من شعر الزهد تتكاثر على ألسنة الشعراء ، ولتميم بن المعز قصيدة فى القرافة ومقابرها وما تبعث فى النفس من خشية الله ، وفيها يتجه إلى ربه قائلا أو مناجيا[1] :

رجوتُك يا ربِّ لا أنني أطعتُك طوعَ أولى الانتهاء
ولـكـنـنى مؤمنٌ موقنٌ بأنك ربُّ الوَرَى والسَّماء
وأنك أهلٌ لحسنِ الظنونِ وأنك أهلٌ لحُسْنِ الرجاء

فهو يرجو الله ويعبده لا خشية عقابه ولا خوف ناره ، ولكنه يعبده لأنه أهل لعبادته ، فهو رب الكون ، رب الأرض والسماء ، وهو يرجوه للرجاء لا لشيء وراءه من مآرب الحياة أو مآرب الآخرة . فشيء من ذلك لا يعلق بنفسه ، وإنما يعلق بها اليقين والإيمان بأنه الرب الأعلى الخليق بكل عبادة وكل رجاء .

ومن يتصفح ديوان الشريف العقيلى شاعر الطبيعة والخمر يجده يختم كل قافية من قوافيه المرتبة على الحروف الهجائية بأبيات واعظة ، كأنما يكفر بها عما نظمه من مجون فى نفس القافية ، كقوله فى قافية الباء[2]

أيها التائه الذى ضَلَّ عما يَراد بِهْ
إنَّ للعَرْضِ وقْفَةً أمرُها غيرُ مُشْتبه
فانتبهْ قبل أن تُرَى مذنبًا غير منتبه

ووعظيات الشريف ليس فيها روح ، لسبب طبيعى وهو أنه لم يكن شاعر وعظ وزهد ، وإنما كان شاعر خمر وطبيعة ، ومع ذلك فأغلب الظن أنه هو الذى أوحى لشعراء الموشحات الأندلسية فى الحقب المتأخرة بفكرة الموشحات المكفرة لموشحاتهم الماجنة .

---

(١) ديوان تميم ص ٢٧

(٢) ديوان الشريف العقيلى ص ٧٩ .

ونلتق بظافر الحداد بعد تميم ، وهو يذكِّر دائما بالموت كقوله[١] :

كُنْ من الدُّنْيا على وَجَلٍ وتوقَّعْ سرعةَ الأجَلِ
تخدعُ الإنسانَ لذَّتُها فَهْيَ مثلُ السُّمِّ فى العَسَلِ
أنت فى دنياك فى عملٍ والليالى فيك فى عملِ

فالسعيد فى رأى ظافر من وضع الموت نصب عينيه ، ولم يغتر بمتاع الحياة ولذتها فهى كالسم فى العسل ، لاتزال تسرى فى الجسم ، ولاتزال الأيام والليالى تعمل عملها فيه ، حتى يفنى فجأة وعلى غير أهبة أو انتظار . ولا بن النَّضْر يدعو دعوة حارة إلى الزهد والقناعة[٢] :

جهادُ النَّفْسِ مفترضٌ فخُذْها بآدابِ القناعةِ والزَّهادَهْ
فإن جنحتْ لذلك واستجابتْ وخالفت الهوى فهو الإراده
وإن جمحتْ بها الشهواتُ فاكبَحْ شَكيمتها بمِقْمَعةِ العباده
عساك تُحِلُّها دَرَج المعالى وتَرْفَعُها إلى رُتَب السعاده

وهو يحض على جهاد النفس وترويضها على الزهد فى طيبات الحياة ، فإن خالفت هواها وأصغت لك فهى الأمنية المبتغاة ، وإن استعبدتها الشهوات فاكبح جماحها بالنسك والعبادة ، فهى خير مؤدب ومروِّض مذلل لها حتى ترقى إلى درج المعالى وتصعد إلى رتب السعادة . ومن تبتلاته إلى ربه[٣] :

يامستجيبَ دعاءِ المستجير بهِ ويا مفرِّجَ ليلِ الكُرْبةِ الدَّاجى
قد أُرْتجَتْ دوننا الأبوابُ وامتنعتْ وجَلَّ بابُك عن مَنْعٍ وإرتاجِ
نخاف عَدْلَك أن يجرى القضاءُ بهِ ونَرْتجيك فكُنْ للخائف الراجى

وهو تبتل وتضرع رقيق إلى الذات العلية ، إذ يدعو الله المفرج لظلمات الكربة ، الكاشف لليلها الداجى ، أن يفتح له الأبواب بعد أن أُغْلِق دونه كل باب ، وإنه ليتعلق بالأمل فى رحمته

(١) الخريدة ٢/٨
(٢) الخريدة ٢/٩٥
(٣) الخريدة ٢/٩٢

رحمة تمنع العدل أن يجرى القضاء به متوسلا بخوفه ورجائه فى رحمة الله الواسعة ، ولابن سناء الملك[١] :

أقولُ دارى وجيرانى مغالطةً والقَبْرُ دارىَ والأمواتُ جيرانى
فى وَحْشة القبر والدودِ المقيم بهِ شُغْلٌ لنفسىَ عن دارى وبُسْتانى
سأوسع القبرَ بالأعمال أُصْلحها جهدى وألبسُ زهدى قبل أكفانى

فليست داره هى الدار الحقيقية له وليس جيرانه هم جيرانه الحقيقيون ، فداره الحقيقية القبر وجيرانه الأموات حول قبره ، وإنها لدار مفزعة ، دار وحشة وديدان تنتظره ، دار ضيقة وسيحاول أن يمد أطنابها بالأعمال الصالحة ، وسيسرع إلى ثياب الزهد فى الحياة الدنيا يلبسها قبل أن يلبس أكفانه وينزل رمسه وحفرته المظلمة .

ويكثر ابن مطروح من مناجياته لربه كقوله[٢] :

يامَنْ عَلا فى مُلْكِهِ فاقترب ومَنْ بَدَا فى نوره فاحتجَبْ
ومَنْ هو القَصْدُ لأهل النُّهَى والمطلبُ الأسنى وكلُّ الأرَبْ
عوَّدْتنى الأُنسَ فلا تَــنْسَـنِى وهَـبْنِىَ الرَّحْـمَةَ فيما تَـهَبْ

وهو يتضرع إلى ربه الذى علا فى ملكوته وهو أقرب إليه من حبل الوريد ، والذى يملأ الدنيا نورا وضياء من حوله ، وهو محتجب لا يراه أحد ، والذى هو المقصد والمطلب الأسنى وكل الأرب والأمل ، والذى عوده الأنس به ، أن لا ينساه وأن يهبه من خزائنه العلية ورحمته الواسعة .

ويظل شعر الزهد والتبتل إلى الله مزدهرًا زمن المماليك ، من ذلك قول عبد الملك الأرمنتى القوصى المتوفى سنة ٧٢٢ متعلقا بعفو ربه[٣] :

قالتْ لىَ النَّفْسُ وقد شاهدتْ حالىَ لا تصلحُ أو تستقيمْ
بأىِّ وَجْـهٍ تَلْتقى ربَّنا والحاكمُ العَدْلُ هناك الغَرِيمْ
فقلتُ حسبى حُسْنُ ظنى بهِ يُنيلنى منه النعيمَ المقيمْ

---

(١) الديوان ص ٧٨٧ .
(٢) ديوان ابن مطروح مع ديوان العباس بن الأحنف ص ٢١٢
(٣) طبقات الشافعية للسبكى ٩٨/١٠

قالتْ وقد جاهرْتَ حتى لقد حَقَّ له يُصْليك نارَ الجحيم
قلت معاذَ الله أن يَبْتلى بـنـارِه وهْـو بحالى عـليم

والمراجعة بين عبد الملك ونفسه طريفة ، فهى تلومه على حاله المعوجة وسلوكه غير الصالح وتقول بأى وجه تلقى غريمك وهو ربك ، فيرد عليها بأنه حسن الظن بإلهه وعفوه ، وأنه سيدخله جنات النعيم . فتسأله متعجبة أتجهر بذلك ولا تخفيه ، لقد حقت عليك النار . فيقول معاذ الله أن يصليه ربه الجحيم وهو العالم بحاله وصحة نيته فى إيمانه .

ويقول الحافظ المحدث شمس الدين أبو المعالى ابن القماح المتوفى سنة ٧٤١ للهجرة[١] :

اصْبِرْ على حُلْوِ القضاء ومُرِّهِ واعلم بأن الله بالغُ أمرِهِ
واثْبُتْ فكم أمرٍ أمضَّك عُسْرُهُ لـيلا فـبشَّرك الصـباحُ بِيُسْرِهِ
واضْرَعْ إلى الله الكريم ولا تَسَلْ بَشَرًا فليس سواه كاشفَ ضُرِّهِ

وهو يدعو إلى الرضا بكل ما يأتى به القضاء من حلو ومر ، فتلك إرادة الله ولا راد لأمره ، وينصح بالثبات حتى تنكشف ظلمة الغمة وتسفر عن بشرى مضيئة ضوء الصباح وأن يلجأ الإنسان إلى ربه ويضرع إليه ، فهو وحده كاشف الغم ومفرِّج المحن .

ونلتقى بتبتلات وأدعية كثيرة عند الشيوخ ، من ذلك قول قاضى القضاة ابن التنسى المالكى المتوفى سنة ٨٥٢ للهجرة[٢] :

إلَهَ الخلق قد عظمتْ ذنوبى فسامِحْ ما لعفوك من مشاركْ
أغِثْ ياسيدى عَبْدًا فقيرًا أناخ ببابك العالى ودارِكْ

فهو يتضرع لربه أن يعفو عن ذنوبه ، ويستغيث به ، فهو عبد فقير من عباده ، ألقى عصاه ببابه ، آملا فى قبول تضرعه ، ويورِّى تورية واضحة فى قوله : « دارك » فمعناه القريب الدار الحقيقية بدلالة كلمة الباب قبلها ، والمعنى البعيد المقصود أن يدركه قبل أن ييأس من عفوه ورحمته .

ويلقانا زهد كثير فى الحقبة العثمانية من مثل قول محمد بن أحمد الحتادى فى الدعوة إلى القناعة

(١) السبكى ٩/٩٣
(٢) النجوم الزاهرة ١٥/٥٣٩

وأن لا يفكر الإنسان فى رزق الغد[١] :

تـأنَّ ولا تجزعْ لأمـرٍ تحاولُـهْ فخيرُ اختيارِ المرء ما اللّهُ فاعلُهْ
تَفيَّأ بظلِّ الله من روضِ قولِهِ ألستُ بكافٍ تَلْحَفَنَّكَ فواصلُه[٢]
وعِزَّ تُهِنْ دنياك واغْنَ بتركها ولا تَحْفِلَنْ بالرزق فاللهُ كافلُهْ

فهو يدعو إلى الصبر فى طلب الرزق وأن لا ييأس الإنسان ، بل يدع شأنه لربه فإنه ضامن رزقه ولن ينساه ، وحرى بالإنسان أن يستظل بمثل قوله : (أليس الله بكاف عبده) مؤمنا بأنه يتكفل بعباده ولا يترك ظامئا إلا سقاه ولا عاريا إلا اكساه ، وما العز الحقيقى إلا رفض الدنيا وما الغنى الحقيقى إلا تركها وعدم التعلق بها وأن لا يشغل الإنسان نفسه برزق الغد ، فالله كافله وضامنه .

وقد تحدثنا فى الفصل الأول عن نشأة التصوف بمصر وأنه أخذ طريقه فيها إلى الظهور منذ سنة ٢٠٠ للهجرة ولم يلبث ذو النون المصرى المتوفى سنة ٢٤٥ للهجرة أن رفع صرحه سامقا ، إذ يعد المؤسس الحقيقى للتصوف الإسلامى وترتيب أحواله ومقاماته ، وقد ذكرنا أطرافا من آرائه الصوفية وبعض تلاميذه من أعلام الصوفية بعده فى الشام والعراق وإيران ، وكأن مصر التى يرجع إليها الفضل فى قيام نظام الرهبنة فى المسيحية يرجع الفضل إليها أيضا فى قيام التصوف فى أركان العالم الإسلامى ، أو قل بعبارة أدق يرجع الفضل فى قيامه إلى أحدأبنائها وهو ذو النون المصرى ، ومرَّ بنا تصوير ذلك من بعض الوجوه وكيف أنه كان أول من وضع تعريفا للوجد الصوفى وأول من ذكر كأس المحبة الربانية التى هى جوهر التصوف وقوامه ، ومن ضيائها استمد فى قوله مخاطبا ربه[٣] :

لك من قلبىَ المكانُ المصونُ كلُّ لومٍ علىَّ فيك . يَهُونُ
لك عزمٌ بأن أكونَ قتيلا فيك والصبرُ عنك ما لا يكون

وكأنه أول قتيل بل أول شهيد فى الحب الإلهى ، فقد سبح فى بحاره وغرق بين أمواجه ، غرق فى مياه عميقة ، مادًّا بصره إلى القاع وأعمق الأعماق ، يريد أن يرتوى وأن يحظى بأمانيه من الوصال ، محتملا فى ذلك جهودا مضنية ، وفى ذلك يقول[٤] :

---

(١) سلافة العصر لابن معصوم (طبع القاهرة) ص ٤١٨

(٢) تفيأ : استظل .

(٣) ابن خلكان ٣١٦/١

(٤) طبقات الصوفية للسلمى ص ٢٧ .

أموت وماماتتْ إليك صَبابتى ... ولا قُضِيَتْ من صدق حُبِّك أوطارى
تحمَّل قلبى فيك مالا أبثُّه ... وإن طال سُقْمى فيك أو طال إضرارى

فصباباته بالحب الإلهى لا تنقضى ، إنه لايزال يريد أن يكون حبه لربه لايدانيه حب ، ولا يزال يجد فيه نصبا وشقاء ، ولذته التى لا تحد إنما هى فى هذا الشقاء والنصب الذى لا يشبهه نصب . وتناول كأس هذه المحبة منه كثيرون فى العالم الإسلامى . ويدور الزمن بمصر دورات وندخل فى هذا العصر : عصر الدول والإمارات ، وسرعان ما تنشأ بمصر الدولة الفاطمية الإسماعيلية ، وكانت تعارض التصوف حتى لا يطغى على عقيدتها التى صورناها فى غير هذا الموضع وبَصرف المصريين عنها ، ومن هنا تراجعت موجته فى عهدها ، ومع ذلك فينبغى أن لا نظن أنه تلاشى ، فقد ظل حبله ممدودا بعد ذى النون . ومرَّ بنا من متصوفتها بعده أبو بكر الدقاق الكبير المتوفى سنة ٢٩٠ وبنان الحمَّال المتوفى سنة ٣١٦ وأبو على الروذبارى المتوفى سنة ٣٢٢ ويعد السيوطى بعض أسماء لمتصوفة ظهروا فى عهد الدولة الفاطمية[١] مثل ابن الترجمان المتوفى سنة ٤٤٨ ويقول عنه : كان شيخ الصوفية بديار مصر . ونلتقى بأخرة من أيام الفاطميين بصوفى كبير هو ابن الكيزانى وسنترجم له عما قليل . ومرَّ بنا أنه أخذ يتضح فى التصوف منذ قيام الدولة الأيوبية اتجاهان ، اتجاه فردى فلسفى واتجاه جماعى سنى ، ومثَّل الاتجاه الأول ابن الفارض وسنخصه بترجمة ، ومن تلاميذه ابن الخيمى محمد بن عبد المنعم المتوفى سنة ٦٨٥ ولم يتجه بتصوفه اتجاه ابن الفارض الفلسفى ، بل وقف به عند الوجد والحديث عن الشوق وأكثر من ذكر معاهد الحب على طريقة العذريين ، واشتهر بأنه تنازع مع محمد بن إسرائيل صوفى الشام فى قصيدة صوفية واحتكما إلى ابن الفارض ، فشهد لابن الخيمى أنها من نظمه ، وفى فوات الوفيات قطعة من شعره ، ومن قوله فى الذات الإلهية[٢] :

وحجَّبَ عنا حُسْنُه نورَ حسنِهِ ... فمن ذلك الحسن الضلالةُ والهُدَى
فيا نارَ قلبى حبَّذا أنتِ مُصْطَلًى ... ويادَمْعَ عينى حبَّذا أنت مَوْرِدا

وشعره الصوفى يهبط عن شعر ابن الفارض كثيرا . وكان يعاصره كتاكت المصرى الواعظ

---

(١) حسن المحاضرة ١/٥١٥ ... (٢) الفوات ٢/٤٦٥

المقرئ المتوفى سنة ٦٨٤ ونحس عنده قبسا من ابن الفارض فى مثل قوله[1] :

حَضروا فمُذْ نظروا جمَالَك غابوا والكُلُّ مذ سمعوا خطابَك طابوا
فكأنهم فى جَنَّةٍ وعليهمُ من خَمْر حُبِّك طافتِ الأكوابُ
أنت الذى ناولتنى كأس الهَوَى فإذا سكرتُ فما علىَّ عِتَابُ

ويقول ابن تغرى بردى إنها قصيدة مشهورة عند الفقراء يريد الصوفية ، وواضح أنه يصور فى هذه الأبيات الغَيْبة التى طالما صورها ابن الفارض والتى تعنى عنده السكر وفقدان الوعى ، فقد غاب عن وعيه حين أحس بمشاهدته للجمال الربانى وكأنما طافت أكواب الخمر الإلهية ، وتناول منها كوبا ، جعله يغيب عن الوجود شاعرا بوجد لا يشبهه وجد ، وجد بالجمال الإلهى المطلق الذى يسرى فى كل كائن جميل مستمدا منه حسنه وجماله ، يقول[2] :

من أنت محبوبُه ماذا يغيِّرُهُ ومن صفوتَ له ماذا يُكَدِّرُهُ
هيهات عنك مِلاحُ الكون تشغلنى والكلُّ أعراضُ حسنٍ أنت جَوْهَرُهُ

وكأن الله يشاهَدُ فى كل جميل بالكون ، أو قل كأن كل جميل يستمد منه جماله ، أو يشاهد فيه جماله ، وفكرة الشهود سنعرض لها عند ابن الفارض عرضا أكثر سعة . وبدون ريب أثر ابن الفارض فى صوفية مصر وغير مصر بعده آثارا تضيق وتتسع حسب مواجد الصوفى .

ويلقانا صوفى من أتباع ابن عربى ، مر بنا ذكره فى الفصل الأول ، وهو عبد العزيز بن عبد الغنى الحسنى المتوفى سنة ٧٠٣ وفى شعره ما يدل على تلمذته لابن عربى إذ يقول[3] :

وجدتُ بقائى عند فَقْدِ وجودى فلم يبق حدٌّ جامعٌ لحدودى
وألقيتُ سِرِّى عن ضميرى ملوِّحا برمز إشاراتى وفَكِّ قُيُودِى
فأصبحتَ منى دانيا بمعَارفى وقد كنتَ عنِّى نائيا بجمودى

ويقول ابن حجر معلقًا على الأبيات : « وهذا نَفسُ الاتحادية لا شك فيه » . يريد أن الأبيات تصدر عن فكرة الاتحاد بالذات العلية التى كان يؤمن بها ابن عربى ، وكان له ديوان

---

(١) انظر ترجمة كتاكت فى الفوات ١٠٨/١ والنجوم الزاهرة ٣٦٤/٧ .
(٢) النجوم الزاهرة ٣٦٥/٧
(٣) الدرر لابن حجر ٤٨٤/٢

كبير ، ويذكر له قصيدة نونية طويلة اسماها اليعسوب وهى ملكة النحل .

ومن المؤكد أن النزعة الفلسفية فى التصوف بمصر كادت تنحسر بعده إلا قليلا ، إذ مضت مصر تؤثر التصوف السنى وما أشاعه من الطرق الصوفية الكثيرة ، وقد أفضنا فى بيان ذلك بالفصل الأول ، وكان من أهم الطرق التى تأسست بها الطريقة الشاذلية ، ومن أهم أصحابها ابن عطاء الله السكندريّ الصوفى الواعظ تلميذ مؤسسيها أبى الحسن الشاذلى وأبى العباس المرسى ، ومن شعره قصيدة يقول فيها(١) :

ويا صاحِ إن الركب قد سار مسرعا ونحن قعودٌ ما الذى أنت صانعُ
أترضى بأن تبقى المخلّف بعدهم صريعَ الأمانى والغرامُ ينازع
وهذا لسانُ الكونِ ينطق جهرةً بأنَّ جميعَ الكائناتِ قَوَاطِعُ

فهو يهتف بصاحبه أن يتبع ركب المحبوب ولا يتخلف ، حتى لا يفقد أمانيه ويضيع منه حبه ، بل إن الكون كله ليهتف به أن يرحل وراءه ويهاجر له ، فجميع الكائنات ماتزال مهاجرة تتبعه . وكثير من شعر هؤلاء الصوفية كانوا ينظمونه ليردده المنشدون فى الذكر بين صفوف الذاكرين الله كثيرا ليملئوهم حماسة وإمعانا فى ذكر الله وتسبيحه ، من مثل قول عبد الغفار بن أحمد بن نوح القوصى الصوفى المتوفى سنة ٧٠٨ للهجرة :

أنا أُفْتِى أنَّ تركَ الحبِّ ذَنْبٌ آثمٌ فى مذهبى مَنْ لم يُحبّ
ذُقْ على أمرى مراراتِ الهَوَى فَهْوَ عَذْبٌ وعذاب الحبِّ عَذْب
كل قلبٍ ليس فيه ساكنٌ صَبْوَةٌ عُذْرِيَّةٌ ماذاك قلبْ

ويكثر هؤلاء الشعراء من الصوفية فى أيام المماليك ، ومن أشهرهم برهان الدين بن زَقّاعه ، المتوفى سنة ٨٥٩ عن سن عالية ، وكان يتبرك به السلطان برقوق وابنه السلطان فرج ، وله فى الحب الصوفى ومواجده أشعار كثيرة من مثل قوله(٢) :

رأى عقلى ولُبِّى فيه حارا فأضرمَ فى صَميم القلب نارا
ألا يـــالائمى دَعْنى فــإنى رأيت الموتَ حَــجْـا واعتمارا
وأهلُ الحب قد سِكروا ولكنْ صـحـا كـلٌّ وفِرْقَتنا سُكارى

(١) النجوم الزاهرة ٢٨٠/٨ (٢) المنهل الصافى ١٥٤/١ والنجوم الزاهرة ١٢٦/١٤ .

وهى نار كانت لا تزال مشتعلة فى قلوب الصوفية ، نار حبهم للذات العلية ، نار لا تنطفئ أبدا فى أثناء حبهم بل جهادهم الشاق العنيف فى هذا الحب ، الذى كانوا لايزالون يرحلون إليه رحلتهم الصوفية المجهدة حجًّا وعمرة ، ومايزالون راحلين هائمين مفضين إلى سكر لايدانيه سكر ، متجردين عن كل رغبة فى النفس ، حتى لكأنما تتعطل إرادتهم ويموت كل شئ إلا رغبتهم الجامحة فى الوجد الربانى .

ويلقانا شعراء صوفية كثيرون فى كل طريقة من طرق الصوفية بل إن كثيرين من أصحاب هذه الطرق التى كان يرثها الأبناء عن الآباء كانوا شعراء ويجرى الشعر على ألسنتهم على نحو ما نقرأ عند السادة الوفائية الشاذلية. والسادة البكرية فى أيام المماليك وأيام العثمانيين من مثل قول على بن وفا :

تغيبتَ عن عينى فَغَيْبُك شاهـدى ... ووَجْهُك مشهودى وما عنك عائقُ

فإن غبتَ فالأشباحُ منى مغاربٌ ... وإن لُحْتَ فالأرواح منِّى مشارقُ

ويتلو الشهاب الخفاجى البيتين بطائفة من أشعار أبنائه ويقول لهم أنفس قدسية أُفِيضَتْ عليها العلوم اللدنية[1]. ونشأ للصوفية وطرقهم من قديم مريدون كثيرون كانوا لايزالون ينوِّهون بأصحاب طرقهم وأساتذتهم، وقد يبالغون فى ذلك، فيطلبون منهم الهداية إلى طريق التقوى والصلاح[2].

وكان المديح النبوى يقترن بشعر التصوف من قديم ، ومنذ حسان بن ثابت وكعب بن زهير والشعراء يمدحون الرسول ﷺ . وأخذت هذه المدائح تتكاثر منذ القرن الرابع الهجرى ، تكاثرت على ألسنة أهل السنة مجسدين فى الرسول المثل الكامل للمسلم فى نسكه وجهاده فى سبيل نشر دعوته ورسالته النبوية ، وكذلك على ألسنة الشيعة ذاهبين إلى أن نوره المحمدى يتجسَّد فى أئمتهم من بعده . وبالمثل على ألسنة المتصوفة وقد أخذوا منذ الحلاج يشيعون فكرة الحقيقة المحمدية وأن الرسول مبدأ الوجود الروحى للحياة الإنسانية ، بل مبدأ النور فى الكون ، منه يستمد ضياءه . وقد مضى كل هؤلاء المادحين ينوهون بصحابة الرسول وبمعجزاته المادية ومعجزته الكبرى القرآنية ، مع التوسل إليه بطلب الشفاعة يوم العَرْض وأن يكون دائما معينا لهم ونورا هاديا . ومازال الشعراء المصريون – مثلهم مثل شعراء العالم الإسلامى يتغنون بمديح الرسول ﷺ ، حتى إذا نشبت

(١) ريحانة الألبا ٢/٢٠٨ ومابعدها

(٢) تاريخ الجبرتى ٢/٢١٢

الحروب الصليبية ، وكانت حربا دينية ، أخذ حملة الصليب يهاجمون رسول الإسلام برسائل منكرة ، واندلعت الحروب بين المسلمين وبينهم فكان طبيعيا أن يزدهر المديح النبوى للرد على أعداء الإسلام من جهة ، ومن جهة ثانية لرفع سيرته العطرة وجهاده فى نشر رسالته شعارًا يتخذ منه الذائدون عن حمى الإسلام القدوة الحسنة دالعا فيهم الحماسة لدق أعناق الصليبيين وسحقهم سحقا ذريعا . وكاد لايخلو ديوان شاعر مصرى حينئذ من مدحة أو مدائح نبوية ، وخاصة منذ ظهور البوصيرى أنبه مادح مصرى للرسول ، بل أنبه مادح عربى له على الإطلاق ، وسنخصه بكلمة ، ولكثيرين من معاصريه مدائح نبوية طنانة ، ونكتفى بأن نشير من بينهم إلى شيخ الإسلام تقى الدين محمد بن على المشهور باسم ابن دقيق العيد المتوفى سنة ٧٠٢ وله أكثر من مدحة نبوية ، ومن قوله فى مديحه ﷺ [(١)] :

لم يبق لى أملٌ سواك فإنْ يَفُتْ ... ودَّعتُ أيام الحياة وَداعا
لا أستلذُّ لغيرِ وجهك منظرا ... وسوى حديثك لا أريد سماعا

وكان العَزازى معاصره المار ذكره بين الوشاحين يكثر من المديح النبوى ، ومن قوله فى بعض مديحه للرسول الكريم [(٢)] :

أَوْفَى النبيِّين برهانًا ومعجزةً ... وخيرُ مَنْ جاءهُ بالوحى جبريلُ
سلَّ الإلهُ به سيفًا لملّتِهِ ... وذلك السيف-حتى الحشر-مسلولُ
وَيْلٌ لمن جَحدوا برهانَه وَثَنَى ... عِنانَ رُشْدهم غَيٌّ وتضْليلُ

ولابن سيد الناس صاحب السيرة النبوية المتوفى سنة ٧٣٤ للهجرة ديوان خصَّه بمديح الرسول عليه السلام سماه « بشرى اللبيب بذكر الحبيب » مخطوط بدار الكتب المصرية . ولابن نباته وبرهان الدين القيراطى مدائح نبوية مختلفة ، ويظل الشعراء يمدحون الرسول الكريم مدائح كثيرة ويطرد ذلك فى الحقبة العثمانية عند الشهاب الخفاجى وغيره [(٣)] ، كما يطرد التوسل به وطلب الشفاعة ، على نحو ما نجد عند عبدالله الإدكاوى من مثل قوله متوسلا [(٤)] :

---

(١) الفوات ٤٨٧/٢ .
(٢) المنهل الصافى ٣٤٣/١ .
(٣) وانظر نفحة الريحانة للمحبى (طبعة عيسى البابى الحلبى) ٤١٣/٤ وما بعدها ، وقد أنشد المحبى فى كتابه قطعا كثيرة من المدائح النبوية .
(٤) تاريخ الجبرتى ٣٥٣/١ .

يارَبِّ بالهادى الشفيعِ محمدٍ مَنْ قد بدا هذا الوجودُ لأجلِهِ
كُنْ لى معينًا فى معادى واكْفِنى همَّ المعاش وما أرى من ثِقْلِهِ
واستُرْ بفضلك زَلَّتى واغفرْ بِعَدْ لك سَيِّئتى واشْفِ الحشا من غِلِّهِ

وهو يضرع إلى الله متوسلا إليه بالرسول الشفيع يوم القيامة لأهل دينه أن يكون عونا له فى معاده ومعاشه ، وأن يغفر له ذنوبه ويستر عيوبه ، وحرى بنا أن نتوسع قليلا فى الحديث عن بعض شعراء التصوف والمديح النبوى :

ابن[1] الكيزانى

هو محمد بن إبراهيم الكتانى المقرئ الواعظ الشافعى ، مصرى الدار ، من شعراء الحب الإلهى وما يتصل به من الأحوال والمقامات ، اشتهر باسم ابن الكيزانى ، من شعراء مصر فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى ، إذ توفى سنة ٥٦٢ للهجرة ، وقد رأى ابن سعيد صاحب كتاب المغرب الذى زار مصر فى العقد الخامس من القرن السابع الهجرى ديوانه يباع بكثرة فى سوق الفسطاط وسوق القاهرة ، غير أنه لم يصلنا إذ سقط من يد الزمن ، وقد دوَّن منه العماد الأصبهانى فى كتابه « الخريدة » طائفة كبيرة من شعره ، تصور إلى حد بعيد مواجده الصوفية ، ونراه يقدم لها بأنه « فقيه واعظ مذكر حسن العبارة مليح الإشارة لكلامه رقة وطلاوة ، ولنظمه عذوبة وحلاوة .. وله ديوان شعر يتهافت الناس على تحصيله وتعظيمه وتبجيله ، لما أودع فيه من المعنى الدقيق ، واللفظ الرشيق ، والوزن الموافق ، والوعظ اللائق ، والتذكير الرائع الرائق . ودفن عند قبر الشافعى » ويقول عنه : عالم بالأصول والفروع ، عالم بالمعقول والمشروع ، مشهور بالتحقيق فى علم الأصول ، وكان ذا رواية ودراية بعلم الحديث ومعرفة بالقديم مكون الحديث إلا أنه ابتدع مقالة ضلَّ بها اعتقاده ، وزلَّ فى مزالقها سَداده ، إذ ادعى أن أفعال العباد قديمة والطائفة الكيزانية بمصر على هذه البدعة إلى اليوم مقيمة » وهم أشباه الكرامية بخراسان » فهو عالم

(١) انظر فى ترجمة ابن الكيزانى وأشعاره المغرب لابن سعيد (القسم الخاص بالفسطاط) ص ٢٦١ وما بعدها ، وتذكرة الحفاظ ١٣١٩/٤ والخريدة (قسم مصر) ١٨/٢ وابن خلكان ٤٦١/٤ وطبقات الشافعية للسبكى ٩٠/٦ والوافى بالوفيات للصفدى ٣٤٧/١ والنجوم الزاهرة ٣٦٧/٥ ، ٣٧٦ . وراجع مقالين لنا عن ابن الكيزانى فى مجلة الثقافة ، العددين ٦٩٢ ، ٦٩٣ .

بالسنة والفقه والشريعة وبالفلسفة وعلوم الأوائل ، غير أنه صاحب مقالة خاصة تشبة مقالة الكرامية فى خراسان . ويقول المقدسى الذى زار مصر فى أواخر القرن الرابع الهجرى إنه كان لهم محلة بالفسطاط ، ومن الممكن أن تكون هذه المحلة ظلت حتى عصر ابن الكيزانى ، وهو بذلك كان كراميا صوفيا ، أو صوفيا على مذهب الكرامية القائلين بالتشبيه على الذات العلية للعباد ، وهو تشبيه كان يقترن بالتنزيه ، وتبدو الفكرة معقدة ولكن من الممكن تصورها ، فأنت إذ تشاهد كائنا جميلا ترى فيه خالقك ، مع تنزيهه عن أن يكون هونفس الكائن الجميل . وليست هذه الفكرة كل مايميز الكرامية ، فقد كانوا يعتقدون -كما اعتقد الكيزانية - فكرة القدم فى أفعال العباد لا فى أفعال الله وحدها ، وقد أنكر العماد ذلك على ابن الكيزانى . وهو والكرامية معه إنما يريدون قدمها فى العلم الإلهى ، ومادام العلم الإلهى قديما فهى قديمة مثله . ومر بنا آنفا أن العماد قال إنه كانت تتبعه بمصر لعهده فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى فرقة كانت تعتنق نحلته ، ويقول القفطى المتوفى سنة ٦٤٦ : «لابن الكيزانى بمصر وسواحل الشام فرق تنتمى إليه فى المعتقد وأكثرهم بحوف مصر» ويقول ابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ : «بمصر طائفة ينسبون إلى ابن الكيزانى ويعتقدون مقالته» . وفى ذلك مايدل على أن منزعه الصوفى ظل معروفا بمصر وظل له أتباع طوال القرن السابع الهجرى على الأقل . ويبدو أنه كان هناك من يعارضه فى حياته وبعد مماته ، فقد ذكروا أن الفقيه نجم الدين الخبوشانى نبش قبره فى عهد صلاح الدين وأخرج منه عظامه ، وقال : «لاتتفق مجاورة زنديق إلى صدِّيق» ويقصد بالصديق الشافعى . وقد نقله إلى سفح المقطم ، يقول ابن خلكان : «وقبره مشهور هناك يزار ، وزرته مرارا ، رحمه الله» ويقول ابن تغرى بردى : «لا يلتفت لقول الخبوشانى فيه لأنهما أهل عصر واحد ، وتهور الخبوشانى معروف» . وتجمع كتب التراجم على أنه كان ورعا زاهدا ، بل متصوفا متقشفا ، وقد أنشد له العماد أكثر من ثلاثمائة بيت فى الحب الالهى ، تسيل عذوبة ورشاقة وخفة من مثل قوله :

تلذُّ لى فى هوى ليلى معاتبتى ... لأنَّ فى ذكرها بَرْدا على كَبِدى
وأشتهى سَقَمى أن لايفارقنى ... لأنها أودعتْه باطنَ الجسَدِ
وليس فى النوم لى ماعشتُ من أرَبٍ ... لأنها أوقفت جَفْنى على السُّهُدِ
ولو تمادتْ على الهجران راضيةً ... بالهجر لم أشْكُ ما ألقى إلى أحد
اللومُ أشبهُ بى منها وإن ظلمتْ ... أنا الذى سُقْتُ حَيْنى فى الهوى بِيَدِى

ولو أننا لم نعرف قائل هذا الشعر وأنه من الصوفية لظنناه شاعرا عذريا ، فهو يشكو الصد والهجر ويرمز عن الذات الإلهية بليلى ، ويتمادى فى العتاب ، معلنا سقمه وسهده ، بل لقد عرض نفسه للموت والهلاك . وابن الكيزانى مثله مثل شعراء الحب الإلهى جميعا فقد رفعوا كل الحواجز بينهم وبين أصحاب الغزل العذرى ، معبرين بما فى غزلهم من حسية واضحة عن رموز ومعان صوفية ، حتى لنرى ابن الكيزانى يقول :

أتزعم ليلى أننى لا أحبُّها وأنّى — لما ألقاه — غيرُ حَمولِ
فلا ووقوفى بين ألوية الهَوَى وعصيانِ قلبى للهوى وعذولى
لو انتظمتْنى أسهمُ الهجر كُلُّها لكنتُ على الأيام غيرَ ملولِ
ولستُ أبالى إذ تعلقتُ حبَّها أفاضتْ دموعى أم أضرَّ نُحولى
وماعَيْنى بالنوم إلا تعلُّلٌ عسى الطيفُ منها أن يكونَ رسولى

وهل من فارق بين هذه الأبيات وأبيات الحب العذرى ؟ إنه ليذكر وقوفه بمعاهد الهوى وعصيانه للعذول أو العواذل وصبره على الهجران الأليم وما يعانى فيه من البكاء والنحيب والسقم والنحول ، ويأمل فى طيف يزوره فى الحلم ليلا ، ولكن لنحذر هذا الفهم الظاهرى للأبيات فابن الكيزانى إنما يتخذ ذلك كله رموزا عن معانى حبه وهيامه بالذات العلية ، وهو هيام لا نهائى غير محدود بحس ولا مايشبه الحس ، هيام كله لوعة ووجد ، وجد سماوى علوى يندلع شرره فى كل جسمه وجوارحه وحشاه وهو صابر لايتألم ولايشكو ، بل يجد لذة لا يبلغها وصف فى ألمه ، حتى ليبذل دمه فى سبيل حبه طائعا مختارا ، فهو النور الذى يضىء فى جنبات قلبه وفؤاده ، وهو الخمر الروحانية التى سرت فى شرايينه ، فلم يعد يملك إزاءها حولا ولا قوة ، يقول :

جُرْ كيف شئتَ فلستُ أولَ عاشقٍ كأسُ المحبّة فى محبتهِ سُقِى

إنه لم يعد فى حال صحو بل أصبح فى حال سكر بالعشق الإلهى الذى لاحدود ولاضفاف له ، عشق ما إن يأمل فيه بلقاء محبوبه ، حتى يبتعد عنه ، تاركا له الحسرات والدموع ، لقدكان شهوده قاب قوسين أو أدنى ، وسرعان ماطار الحلم وولى الأمل ، وينادى ابن الكيزانى :

ياحادىَ العيسِ اصْطَبِرْ ساعةً فمهجتى سارتْ مع الرَّكْبِ
لاتَحْدُ بالتفريق عن عاجلٍ رفقاً بقلبِ الهائمِ الصَّبِّ

وهو يعبر عن ضياع الأمل فى لقاء المحبوب بالرحلة ولوعاتها الممضة فى نفوس العشاق تعبيرا رمزيا عن آلامه وأوصابه وأوجاعه النفسية ، فلم يعد يستطيع اللحاق بمحبوبه فضلا عن مشاهدته . وعلى نحو ما يعبر عن ذلك تعبيرا حسيا بالرحلة كذلك يعبر عنه - كما عبر المحبون العذريون طويلا - ببكاء الديار والوقوف على الأطلال الدارسة أو العافية ، بمثل قوله :

بِـربْعِنا عَرِّجَا ساعةً ... نَنوحُ على الطَّلَلِ الدارسِ
فَفيضُ الدموع على رَسْمِهِ ... يُتَرجم عن حُرَقِ البائسِ

ودائما يتعلق ابن الكيزانى بخيط من الأمل فى مشاهدة محبوبه ، ونوره يتألق له ولايراه ، ويبحث عنه بين الأطلال ، ويسأل عنه العِيسَ ، وهى ملحة فى المسير ، لتلتفت إليه ، وهو هائم على وجهه غارق فى دموعه ، ونار الحب تتقد فى أحشائه ، يقول :

يامَنْ يَتِيهُ على الزمان بحسنهِ ... اعْطِفْ على الصَّبِّ المشُوق التائهِ
أضحى يخاف على احتراق فؤادهِ ... أسفًا لأنك منه فى سَوْدائه

ودائما تلقانا عند ابن الكيزانى هذه اللوعة ونارها التى توشك أن تحرق والتى مايزال يلذعها ويصلى بها مالكة عليه قلبه مستأثرة منه بكل شىء ، إنه ليس حبا فقط ، بل هو حب ومحنة أو هو سعادة وعذاب ، وهو راض بذلك كل الرضا ، حتى لايطلب لحبّه دواء ولاشفاء ، يقول :

اصْرِفوا عنى طبيبى ... ودَعونى وحَبيبى
عَلِّلوا قلبى بذكرا ... هُ فقد زادَ لهيبى
طابَ هتكى فى هواهُ ... بين واشٍ ورقيبِ
لا أبالى بفوات النَّفْـ ... ـسِ مادامَ نصيبى
ليس من لامَ وإن أطْـ ... ـنَبَ فيه بمصيبِ
جَسدى راضٍ بِسُقْمى ... وجُفونى بنَحيبى

إن الداء هو نفس الدواء وإن العلة هى نفس الشفاء ، وهو لايفكر فى برء من علة أو داء ، لأنهما سعادته الغامرة ، وحقًّا إنهما يثيران حريقا فى فؤاده ، غير أنهمايشربه معهما من رحيق المحبة الربانية المصفى ينسيه الحريق وناره الملتظية التى لاتنطفئ فى سويداء فؤاده أبدا .

ابن [1] الفارض

هو عمر بن كمال الدين على الفارض ، كان أبوه من حماة بسوريا ، هاجر منها فى مطالع شبابه إلى القاهرة ، وفيها رزقه الله ابنه عمر سنة ٥٧٦ للهجرة ، فهو مصرى المولد والمنشأ والمربى والحياة . كان أبوه من علماء الفقه والشريعة ولُقِّب بالفارض لكتابته الفروض على النساء والرجال . ولِىَ نيابة الأحكام بالقاهرة والفسطاط ، ويقال إنه عُرِضت عليه وظيفة قاضى القضاة فأباها ولزم قاعة الخطابة بالجامع الأزهر يتنسَّك ، وعُنى بابنه فألحقه بدروس العلماء بالعلوم الشرعية واللسانية ، حتى إذا شبَّ دفعه إلى التقوى وعبادة الله ومعاشرة المستضعفين من المتصوفة فى الجبل الثانى من المقطم ، وهناك أخذ عمر يتجرد للعبادة والنسك . وأحسَّ برغبة شديدة للمقام بمكة مهبط الوحى على الرسول ﷺ فرحل إليها ، ومَكث بها خمسة عشر عاما سائحا فى أوديتها عابدا الله ناسكا مؤملا فى أن تفيض عليه الفتوحات الإلهية ، مكثرًا من الصلاة والصيام ، حتى فُتحت له الأبواب المغلقة ، وشعر كأنه فى مقام الشهود للذات العلية . وعاد إلى وطنه ، غير أنه ظل يأسى لفراقه مهبط فتوحاته الإلهية بمثل قوله :

ياسميرى رَوِّح بمكَةَ روحى ... شاديًا إنْ رغبتَ فى إسْعادى
كان فيها أُنسى ومِعْرَاجُ قُدْسىِ ... ومُقامى المَقامُ والفَتْحُ بادى

ولزم مناسك العبادة وخاصة وادى المستضعفين بالمقطم والجامعَ الأزهر ، يذكر الله ويسبِّحه ويعبده حق عبادته ناسكا خاشعا متضرعا ، شاعرا من وقت إلى آخر أنه أصبح فى مقام الشهود لربه ، فيشخص بصره ويغيب عن كل ماحوله غيبة قد تطول أياما وهو لايسمع صوتا ولا يرى أحدا ولايشرب ولايطعم ولاينام ، فقد غاب عن كل حواسه وغمره نور شهوده للذات العلية ، ومضى يعكف على التقوى والنسك والصلاة ، وشاع أمره فى القاهرة فكان الناس يزدحمون عليه إذا سار فى الطرقات يلتمسون منه الدعاء ، وهو غائب عنهم ، مشغول بحبه لربه وبما ينظم فى هذا

(١) انظر فى ابن الفارض وترجمته وأشعاره النجوم الزاهرة ٢٨٨/٦ وابن خلكان ٤٥٤/٣ وميزان الاعتدال ٢١٤/٣ وعبر الذهبى ١٢٩/٥ والبداية والنهاية ١٤٣/١٣ ولسان الميزان ٣١٧/٤ وشذرات الذهب ١٤٩/٥ وحسن المحاضرة ٥١٨/١ وكتاب ابن الفارض والحب الإلهى للدكتور محمد مصطفى حلمى وكتابنا فصول فى الشعر ونقده ص ١٩٧ وما بعدها . وديوانه طبع بمصر مرارا طبعات مستقلة ، وطبع مع شرح عبدالغنى النابلسى وهو شرح صوفى رمزى ، ومع شرح حسن البورينى على ظاهر اللفظ دون تأويل .

الحب من أشعار لعلها أروع مانظمه الصوفية فى حبهم الإلهى ، حتى لُقِّب بحق سلطان العاشقين للذات الربانية . وهى أشعار تموج بوجد ملتاع لاحدود له ، متخذا لذلك لغة العشاق العذريين ومايذكرونه من معاهد المحبوبة يريد معاهد مكة التى هبط عليه فيها النور الإلهى ، وأيضا مايذكرونه من نسيم الصبا المحمل بشذى المحبوبة ، وهو فى أثناء ذلك يئن وينوح آملا فى الوصال وأن يشرق عليه النور الربانى ، متجرعا غصص الهجر والصد والسهاد ، ويصيح فيمن تحدثه نفسه بسلوك هذا الطريق المحفوف بمالا يحصى من الأشواك والصعاب :

هو الحبُّ فاسْلَمْ بالحَشا ما الهَوى سَهْلُ   فما اختاره مُضْنًى به وله عَقْلُ
وعِشْ خاليًا فالحبُّ راحتُهُ عَنًا   وأوّلُه سُقْمٌ وآخِرُه قَتْلُ

وهو لايريد القتل الحقيقى ، بل يتخذه رمزًا للحظات الفناء فى الذات العلية حين يتجرد الصوفى – مثل ابن الفارض – من حواسّه ومن كل وجوده فلا يشعر بزمان ولا بمكان ، وكأنما غاب عن حياته ، بل كأنما مات بسبب حبه شهيدا ، وهو موت لايتحقق تصوف بدونه ، حتى ينمحى المتصوف فى الذات الربانية ونورها الإلهى ، وحتى لايرى فى الوجود سوى ربه الماثل فى الكون وكائناته وكل شىء فيه ، يقول :

تراه – إن غابَ عنى – كلُّ جارحةٍ   فى كلِّ معنى لطيفٍ رائقٍ بَهِجِ
فى نَغْمة العُود والنّاىِ الرَّخيم إذا   تألّفا بين ألحانٍ من الهَزَجِ [1]
وفى مَسَارح غِزْلان الخمائل فى   بَرْدِ الأصائل والإصباح فى البَلَج [2]
وفى مساقط أنداء الغمام على   بساطِ نَوْرٍ من الأزهار مُنْتسِجِ
وفى مساحبِ أذيالِ النّسيمِ إذا   أهدى إلىّ سُحَيْرًا ، أطيبَ الأرَجِ [3]

فهو يرى الله وجلاله وجماله ماثلا فى جميع أركان الكون وعناصره : فى أنغام العود والناى المرافقة لألحان الهزج ، وفى مشهد غزلان الرياض وقد انتعشت قلوبها بأنفاس الأصيل والصباح ، وفى الأزهار والورود مساقط أنداء الغمام وهى متناثرة هنا وهناك على أبسطة الطبيعة البهيجة ، وفى النسيم يملأ الجو سحرًا بشذاه وأريجه العطر . وابن الفارض لايعبر بذلك ومثله فى أشعاره عن إيمانه

---

(١) الرخيم : اللين الناعم .
(٢) البلج : أول إسفار الصبح وانتشار الضوء .
(٣) الأرج : الشذى والرائحة العطرة .

بوحدة الوجود التى كان يؤمن بها غلاة الصوفية من أمثال ابن العربى معاصره ، فهو إنما يريد أن يقول إن نور الله منبثٌ فى الكون بجميع كائناته وعناصره ، متجلٍّ فى كل مناظره ومشاهده ، وذلك هو سر وجده وهيامه وولهه بربه ، يريد أن يشرق عليه ضياء جماله . ويظل يحلم بشهوده حلما متصلا مجاهدا فى سبيل ذلك محتملا من العذابْ مايطاق ومالايطاق ، متغنيا بالجمال الربانى ومايَصْلَى فيه من هجر ، هاتفا من فؤاده :

تِهْ دَلالاً فأنت أهلٌ لِذاكا ... وتحكَّمْ فالحسنُ قد أعطاكا
وتَلافِى إن كان فيه ائتلافى ... بك عَجِّلْ به جُعلتُ فِداكا
فُقْتَ أهل الجمال حُسْنًا وحُسْنَى ... فبِهم فاقةٌ إلى مَعْناكا

وهو يضيف إلى الذات العلية التحكم والدلال على طريقة أصحاب الحب العذرى ، ولايلبث أريج الحب الصوفى أن يعبق فى البيت الثانى ، فهو يطلب أن يتلف فى حبه مادام فى تلفه ائتلافا بربه المحبوب ، وهو لايريد التلف الحقيقى إنما يريد الفناء المطلق فى ربه وجماله الذى يفوق كل جمال ، بل إن كل جميل ليفتقر إلى جماله المتجلى فى الكون بنوره . وعلى نحو اتخاذ ابن الفارض للغزل العذرى رمزًا لحبه الصوفى نراه يتخذ الخمر ونشوتها رمزا لهذا الحب ، ولاخمر ولا كئوس ولادنان ولاسقاة ، وإنما هو جمال الذات الإلهية الذى شغف به حتى ليظن كأنما نهل من شراب قدسى مسكر ، فهو سكران دائما منتشٍ غائب عن وجوده . ومن قوله فى ذلك من قصيدة بديعة :

شَرِبْنَا على ذكرِ الحبيبِ مُدَامَةً ... سَكِرْنَا بها من قبل أن يُخْلَقَ الكَرْمُ
لهَا البَدْرُ كأْسٌ وَهْى شمسٌ يُديرها ... هلالٌ وكم يبدو – إذَا مُزِجَتْ – نَجْمُ
وإن خطرتْ يوما على خاطرِ امرئٍ ... أقامتْ به الأفراحُ وارتحل الهَمُّ
ولو نَضَحُوا منها ثَرَى قَبْرِ مَيِّتٍ ... لعادتْ إليه الروحُ وانتعشَ الجِسْمُ

وهو يقول إن سُكْره بتلك المدامة أو الخمر قديم أقدم من الوجود ، وهو يشير إلى فكرة الحقيقة المحمدية التى يذهب المتصوفة إلى أنها تسبق نشأة الكون ، وأن أضواء مازالت تفيض من تلك الحقيقة فى نفوس الأنبياء ونفس الرسول ﷺ ونفوس المتصوفة من بعده حتى تجلت فى ابن الفارض ، ومن هنا يقول إن سكره بها ونشوته يسبقان الخليقة . ويقول إنها تجلب الفرح وتطرد

الهم ، وتحيي الروح لامجازا بل حقيقة ، فلو صبوها على قبر ميت لعادت إليه الروح ودبت فيه الحياة . ويمضي فيقول : إنها صفاء ولا ماء ، ولطف ولا هواء ، ونور ولانار ، وروح ولاجسم . خمر ربانية لاتشوبها أي شائبة مادية ، خمر ينتشي بها ابن الفارض وأمثاله فيغيبون عن وجودهم غيبة كلها متاع وكلها نعيم لاحدود له . وديوانه كله من هذا الطراز انتشاء وسكر وحب ووجد ووله والتياع ، وتطول إحدى قصائده حتى تبلغ سبعمائة وستين بيتا أو تزيد ، وهى تائية وتسمى التائية الكبرى لأن له بجانبها تائية صغرى ، وهو فيها يصور معراجه القدسي بمكة وفتوحه التى هبطت عليه هناك وإنمحاءه حينئذ فى الحقيقتين : الإلهية والمحمدية ، حتى ليتكلم فى بعض أجزاء القصيدة باسمها ، وهو يستهلها ببيان شربه من كأس المحبة الربانية ونشوته بها وما تجشمه فى معراجه من أهوال وخطوب ومحن ، وكلها كما يقول منح من ربه وعطايا اجتازها فى معراجه ، خالصا إلى الانمحاء والفناء فى الذات العلية حتى ليقول :

ولم تَهْوَني ما لم تكن فيَّ فانيًا ... ولم تَفْنَ مالم تُجْتَلَبْ فيك صورتى
كلانا مُصَلٍّ واحدٌ ساجدٌ إلى ... حقيقتِهِ بالجَمْعِ فى كلِّ سَجْدَةِ
وما كان لى صَلَّى سوايَ ولم تكن ... صلاتى لغيرى فى أدَا كلِّ ركعةِ

وكأنه يشعر فى البيت الأول أنه لايزال دون الحب الإلهي لاتصاله بل لاتصافه بالصفات البشرية . ويقول فى البيت الثانى إنما ينبغى أن تُمْحى فيه حتى يفنى فى الذات الربانية وتتجلّى فيه الصورة الإلهية ، وما يلبث أن يقول فى البيت الثالث إن حواسه تعطلت وتعطلت فيه كل إرادة وشعور ، حتى فنى فناء مطلقا فى ربه ، متخطيا مرتبة الصحو إلى مرتبة الشهود أو كما يسميها الجمع ، وكأنما يصلى لنفسه أو لربه متجليا فيه ، يقول :

وطاحَ وجودى فى شهودى وبِنْتُ عن ... وجودِ شهودى ماحيًا غيرَ مثبتِ
وفى الصَّحْوِ بعد المحْوِ لم أكُ غيرها ... وذاتى بذاتى إذ تجلَّتْ تجلَّتِ

فهو قد انمحى وفنى فناء كليا فى الذات العلية ، وبلغ من هذا الانمحاء والفناء أعلى مراتبه ، إذ لا يعتريه فى حال المحو والغيبة مع الشهود للنور الربانى ، بل أيضا يعتريه فى حال الصحو ، فهو دائما ممحُوٌّ فانٍ فى الذات الإلهية . وهو دائما يعلن أنه متمسك أشد التمسك بالكتاب وأداء الفرائض

الدينية وبالسنة والحديث النبوى ، فنهما يستمد فى كل موارده الروحية . وقد أشار مرارا إلى أن لب تصوفه ومايذهب إليه من عقيدة الفناء فى الذات الربانية إنما يصدر فيه عن الرسول ، يقول :

وجاء حديثٌ فى اتحادىَ ثابتٌ روايتهُ فى النَّقْل غيرُ ضعيفةِ
يشيرُ بحبٍّ الحَقِّ بعد تقرُّبٍ إليه بنَفْلٍ أو أداء فريضةِ

وهو يشير إلى الحديث النبوى المشهور : « ماتقرَّب إلىَّ عبدى بشىء أحبَّ إلىَّ من أداء ما افترضتُه عليه ، ولايزال عبدى يتقرَّبُ إلىّ بالنوافل حتى أحبيته ، فإذا أحبيته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها . وإن سألنى أعطيته ، ولئن استعاذنى لأعيذنَّه » . وفكرة الاتحاد والفناء واضحة فى الحديث ولعل فى ذلك مايشير بوضوح إلى أن تصوف ابن الفارض وأمثاله إنما كان تصوفًا إسلاميا خالصا. ومازال يتنسك لربه حتى وفاته سنة ٦٣٢ للهجرة .

البوصيرىّ[1]

هو أبوعبد الله محمد بن سعيد بن حماد ، كان أبوه من بوصير وأمه من دلاص ، فكوَّن لنفسه من اسم بلديهما لقبًا هو الدلاصيرى ، غيرأن اللقب الذى غلب عليه ، وبه اشتهر ، هوالبوصيرىّ. واختلف م ترجموا له فى تاريخ مولده كما اختلفوا فى تاريخ وفاته ، والأرجح أنهُ ولد سنة ٦٠٨ وتوفى سنة ٦٩٨ وقى بل ولد سنة ٦٩٨ه وتوفى قبل السنة السالفة فقيل سنة ٦٩٤ أو ٩٥ أو ٩٦ أو ٩٧ وقيل بل سنة ٦٨١ والصحيح مارجحناه . واختلف مثل لِداته إلى الكتاتيب حتى حفظ القرآن الكريم ، ثم انتظم فى حلقات الشيوخ يأخذ عنهم علوم الشريعة واللغة ، ويبدو أن ميوله الأدبية اتضحت فيه مبكرة وتفتحت فى نفسه ملكاته الشعرية ، مما جعله ينتظم فيمن يعملون فى الكتابة الديوانية ، وعُيِّن فى دواوين بلبيس بالشرقية . ومرَّ بنا هجاؤه للموظفين هناك وتسجيله عليهم

---

(١) انظر فى البوصيرى وحياته وأشعاره الفوات ٢/٤١٢ والوافى بالوفيات للصفدى ٣/١٠٥ وحسن المحاضرة ١/٥٧٠ وشذرات الذهب ٥/٤٢ ومقدمة ابن حجر الهيثمى على شرح مدحته الهمزية النبوية ولطائف المنن لابن عطاء الله السكندرى وطبقات الصوفية للشعرانى ٢/١١ وما بعدها ، والخطط الجديدة لعلى مبارك ١٠/٨ وكتابنا فصول فى الشعر ونقده ص ٢٢٩ – ٢٥٤ . وديوانه (طبعة الحلبى) بتحقيق محمد سيد كيلانى . وأورد بروكلمان فى كتابه تاريخ الأدب العربى ٥/٨١ ترجمات بردته إلى اللغات الأجنبية وتخميساتها وتشطيراتها وشروحها المختلفة وكذلك الهمزية .

الخيانة للدولة وأكل أموال الناس بالباطل . ويبدو أنه زهد فى العمل معهم سريعا وعاد إلى القاهرة ، محترفا إقراء القرآن للصبية وبعض الفتية فى مسجد الشيخ عبد الظاهر ، وكان مسجدا مغمورا وتصادف أن أمر الملك الصالح فى أثناء توليه لمقاليد الأمور بمصر (٦٣٧ – ٦٤٧ هـ) بتوزيع ألف دينار على طلبة العلم . ولم يصب منها مسجده المغمور وطلابه شيئا ، فنظم على لسان المسجد شكوى للملك الصالح استهلها بقوله :

ليت شعرى مامُقْتَضِى حِرْمانى دون غيرى والألفُ للرَّحْمٰنِ
أتراني لا أستحقّ لكونى جامعًا شملَ قارئى القرآنِ

ونراه كثير الرحلة إلى البلدان المصرية والاتصال بمن فيها من الولاة ، وله فيهم بعض المدائح وكذلك فى بعض وزراء الدولتين الأيوبية والمملوكية وفى بعض الأمراء والسلاطين ، ويبدو أنه كان يضطر للمديح اضطرارا ، ليوفر لأولاده الكثيرين الطعام والثياب ، ويصرح بذلك مرارا فى مديحه بمثل قوله :

إليك نشكو حالنا إننا عائـلةٌ فى غاية الـكثْرَهْ

وكما تلقانا فى أشعاره المبكرة أهاج مختلفة لموظفى الشرقية تلقانا عنده دعابات مختلفة تصور المزاج المصرى المعروف بالميل إلى الفكاهة والنادرة ، وربما أراد بشكواه فى مدائحه من فقره وبؤسه إلى الدعابة ، ويقول :

ولو أنّى وحدى لكنتُ مريدًا فى رِباطٍ أوعابدًا فى مَغَارَهْ

وكأنه كان يشعر فى أعماقه بأنه خُلق لاليكون إنسانا يضطرب فى الحياة ومشاغلها اليومية ومكاسبها الضرورية له ولأسرته ، وإنما ليكون عابدا ناسكا فى رباط صوفى أو فى كهف يخلو فيه للنسك والعبادة . ويبدو أنه مدَّ إحدى رحلاته إلى الاسكندرية وتعرف على أبى الحسن الشاذلى صاحب الطريقة الشاذلية المشهورة ، وانتظم فى سلك مريديه وطريقته الصوفية ، حتى إذا خلفه أبو العباس المرسى على الطريقة ظل يلزمه ، حتى عُدَّ ثانى اثنين من تلاميذه هو وابن عطاء الله السكندرى ، وفى ديوانه قصيدة دالية يمدحه بها ، ويعزيه فى شيخه أبى الحسن حين توفى سنة ٦٥٦ ويشيد به إشادة رائعة إذ كان من سلالة الحسن بن على بن أبى طالب ، يقول :

اسْلُكْ طريقَ محمدِىٍّ شريعةٍ وحقيقةٍ ومحمَّدِىٍّ المَحْتِدِ
إن الإمامَ الشاذلىّ طريقهُ فى الفضل واضحةٌ لعين المهتدى
قطبُ الزمانِ وغَوْثهُ وإمامُه عَيْنُ الوجود لسانُ سِرِّ الموجدِ

فهو قطب الزمان وإمامه ، وعين الوجود إذ كان يؤمن المتصوفة بأن القبس الإلهى المبثوث فى الأنبياء نُقل إليهم وإلى أئمتهم ، ويقول إنه من أهل الشريعة المحمدية والحقيقة الصوفية ويشير إلى أنه سليل الرسول ﷺ فهو محمدى نسبا وحقيقة صوفية وشريعة إسلامية .

ويبدو أن البوصيرى منذ صلته بالطريقة الشاذلية لم يتجه بأشعاره نحو المحبة الإلهية على نحو ما اتجه ابن الفارض ، بل اتجه إلى المديح النبوى ، وبلغ فيه ذروة لم يبلغها أحد قبله ولا فى زمنه ، فقد نظم فيه ديوانا رائعا . وكان الصليبيون ، شاهت وجوههم ، يكتبون رسائل ضد الدين الحنيف وصاحبه ، فرد عليهم طويلا فى مديحه النبوى ، وأفرد للرد عليهم وعلى اليهود قصيدة طويلة فى نحو مائتين وسبعين بيتا ، داحضا افتراءاتهم على الرسول الكريم ناقضا ما ادعاه النصارى من ألوهية المسيح وصَلْبه وما جاء فى التوراة المحرَّفة من ارتكاب الأنبياء للمعاصى ، وسمى قصيدته « المخرَج والمردود على النصارى واليهود » ويتحدث فى حماسة فياضة عن صفات الرسول وسيرته ومعجزاته الباهرة وانتصاراته الساحقة على أعدائه وأعداء الله . ويكثر من المديح النبوى ومن التنويه بالخلفاء الراشدين وبالصحابة وآل البيت مصورا فى الرسول أزلية النور المحمدى المعنوى لُبَّ الوجود وروحه ، وكأن للرسول وجودين هذا الوجود المعنوى الذى يستمد منه الكون وجوده والذى تعاقب فى الأنبياء منذ آدم ، ووجود ثان حسى مادى هو وجوده حين وُلد ثم بُعث بشيرا ونذيرا ، وبذلك اتحد المعنى والصورة أو قل الحقيقة المحمدية الأزلية وصورة الإنسان ، على نحو مانقرأ فى قوله :

محمدٌ حُجَّةُ اللهِ التى ظهَرتْ بسُنَّةٍ مالها فى الخلق تحويلُ
من كمَّل الله معناهُ وصورتَهُ فَلم يفُتْه على الحالين تكميلُ
من آدمٍ ولحين الوَضْع جوهرُه الـ ـمكنونُ فى أَنْفَس الأصْداف محمول
فللـــنـبوَّة إتمامٌ ومُـبْـتَــدأٌ بهِ وللفخرِ تعجيلٌ وتأجيلُ

ودائما يعصف الحنين بقلبه إلى زيارة مكة والمدينة عصفَ الوجد الملتاع ، ودائما يردد معجزات

الرسول وجهاده فى غزواته ، ودائما يكرر حقيقته الأزلية ، حتى لكأنه مبدأ الوجود ومبدأ النبيين وأيضا خاتمهم ، يقول :

كان سِرًّا فى ضمير الغَيب منْ قبل أن يُخْلَقَ كونٌ أو يكونا
تشرق الأكوانُ من أنوارِهِ كلها أودعها اللهُ جَبِينا
ختم اللهُ النبيين بـــهِ قبل أن يَجْبُلَ من آدم طِينا
فَهْوَ فى آبائهم خيْرُ أبٍ وهَوَ فى أبنائهم خيرُ البنِينا

فهو السر الأول فى الكون أو هو العلة الأولى ، خُلِقَ قبلَ الكون وخلق قبل أن يُجْبل أو يخلق آدم ، وكل نور فى الكون مستمد منه ، وهو مبدأُ الأنبياء ومنتهاهم ، وهو أبوهم المعنوى الأزلى ، فيه تبدأ الحياة وإليه تنتهى . ويكثر البوصيرى فى مدائحه النبوية من الضراعة للرسول أن يقبل توبته وأن يكون شافعه يوم القيامة حتى ينال رضوان ربه وغفرانه .

ويشتهر البوصيرى بمدحته النبوية المسماة بالهمزية وقد سماها « أم القرى فى مدح خير الورَى » وهى فى نحو أربعمائة وخمسين بيتا وعُنى كثيرون بشرحها ، وهو فيها يجمل سيرة الرسول حتى يوقد حمية الشباب المحاربين للصليبيين ، ويفتتحها بفكرة الحقيقة المحمدية وأن الرسول سر الوجود ونوره الذى يفيض على الكون وعلى الأنبياء من قديم ، يقول :

كيف تَرْقَى رقِيَّك الأنبياءُ ياسَماءً ما طاولتْها سماءُ
إنما مثَّلوا صفاتِك للنَّا سِ كما مثَّل النجومَ الماء
أنت مصباحُ كلِّ فضلٍ فما تَصـ ـدُرُ إلا عن ضوئك الأضواءُ

فالرسول لاتبلغ منزلته ودرجته الرفيعة منزلةُ أى نبىٍ أو رسول ، إنه فى أعلى عِلِّيين ، وكل رسول إنما مثَّل جانبا من صفاته الربانية ، كما تَمثِّل النجوم المترائية على صفحة الماء النجوم على صفحة السماء . وإن كل ضوء ونور فى الكون ليستمد من مصباحه ، فهو منبع كل نور ومصدره . ويتحدث عن مولده وما اقترن به من دلائل النبوة ، ويفيض فى الحديث عن سيرته حتى مبعثه ، ويعدد بعض معجزاته الباهرة وفى مقدمتها الإسراء ، ويصور جهاده الباسل فى نشر دينه ، ويرد على النصارى واليهود افتراءاتهم على الدين الحنيف ، ويعرض بعض معتقداتهم الفاسدة . ويلم بعداء اليهود للإسلام وحربهم لرسوله . ويصور حِجَّته إلى مكة وأداء المسلمين

لمناسك الحج . وينوه بمواقف كبار الصحابة وبالصحابة جميعا وبأستاذيه الشاذلى وخليفته أبى العباس المرسى ، ويتضرع فى أثناء ذلك للرسول أن يكون شفيعا له عند ربه فى محو ذنوبه .

وأروع من هذه المدحة النبوية مدحته الميمية المسماة بالبُرْدة وقد عارضها كثيرون ويقال إنه كان قد أصابه فالج ، فنظم هذه القصيدة واتخذها شفيعا لدى الله كى يعافيه ، وظل يكرر إنشادها ويبكى ويدعو ويتوسل ، ونام فرأى النبى ﷺ يمسح على وجهه بيده المباركة ويلقى عليه بردة ، وانتبه فوجد نفسه معافى ، وشاعت القصة وسميت القصيدة البردة . وهو يفتتحها متغزلا بحجازية من ذى سَلَم أشعلت الحب فى قلبه ، وهو إنما يتخذها رمزا لوجده الملتاع بحب الرسول عليه السلام ، ويلم بأصل من أصول الطريقة الشاذلية . وهو كبح جماح النفس وردها عن شهواتها . ويتحدث عن فضائل الرسول مبتدئا بفضيلة الزهد وكيف أنه لولاه لم تخرج الدنيا من العدم ويسترسل فى تصوير الحقيقة المحمدية الأزلية قائلا :

فاقَ النبيين فى خَلْقٍ وفى خُلُقٍ ... ولم يدانوه فى عِلْمٍ ولا كَرَمِ
وكلُّهم من رسول الله ملتمسٌ ... غَرْفًا من البَحْر أورَشْفًا من الدِّيَمِ
فإنه شمسُ فضلٍ هم كواكبُها ... يُظهرْن أنوارَها للناس فى الظُّلَمِ

فهو يفوق الأنبياء صورة وخلقا وعلما وكرمًا وكلهم يلتمس من علمه وحكمته ويستمد من نوره ، فنوره يتجلىَّ فى الأنبياء جميعا ومهما تعددوا فى الأزمنة فإنهم شخصية واحدة وحقيقة واحدة هى الحقيقة المحمدية . ويفيض البوصيرى فى بيان معجزات الرسول ، وخاصة القرآن معجزته الكبرى كما يفيض فى بيان جهاد الرسول وصحابته لأعداء الرسول ودينه الحنيف حتى استسلموا صاغرين . ويضرع للرسول أن يكون شفيعا له عند ربه كما يضرع لله أن يلطف به فى دنياه وآخرته . ولاتزال هذه القصيدة وأختها الهمزية تنشد إلى اليوم فى حفلات الموالد وحلقات الذكر الصوفى وله بجانبهما فى المدائح النبوية أناشيد أخرى رائعة .

محمد بن أبى الحسن[1] البكرى الصِّدِّيق

من سلالة أبى بكر الصديق بمصر ، ولد بها سنة ٩٣٠ وحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين ، وأقبل على حفظ المتون والتلقى على شيوخ عصره يأخذ ماعندهم ، وكان أستاذه الأول أباه ، وجلس مكانه فى الجامع الأزهر للتدريس بعد وفاته وعمره لايتجاوز إحدى وعشرين سنة ، وكان يدرس لطلابه فقه الشافعى ، وله شرح على متن أبى شجاع . وكان آية فى العلم والزهد واشتهر بتعمقه فى العلوم الشرعية واللغوية والصوفية ، وورث عن أبيه مشيخة السادة البكرية وله يناجى ربه :

رَبِّ إنى عبدٌ ذليلٌ ضعيفٌ فلِحالى باللطف منك تدارَكْ
كُلُّ قَطْرٍ أصابنى منك بَحْرٌ كيف والحالُ فىَّ تجرى بحارُكْ
كلُّ جزءٍ منى لسِرِّك دارٌ عَمَّر الله ياحبيبى ديارَكْ
من رآنى رآك من غير شكٍّ أىُّ شكٍّ وقد جعلتُ مَزارَكْ

وتمثل فى الأبيات مثولا بينا فكرة الاتحاد بالذات الربانية المعروفة عند المتصوفة ومايتبعها من فكرة الفناء ، فناء الإنسان عن صفاته البشرية ، وهى فكرة رأيناها واضحة عند ابن الفارض : وله قصائد كثيرة يصف فيها حبه ومواجده الروحية من مثل قوله :

حَبِيُبك دانٍ رقيب قريبُ فماذا البكاءُ وماذا النَّحيبُ
نعم هو دانٍ ولكنَّنى بَعيدٌ فقيدٌ طريدٌ غريب
بُكائى علىَّ لأنى بُليتُ بداء الصُّدودِ وعزَّ الطبيبُ

وعلى هذا النحو دائما هو واله ملتاع يبغى الوصال ، ومحبوبه قريب منه ، بعيد لأنه لاينيله أمنيته من الوصول وهو لذلك دائم القلق ، ويئن والمحبوب منصرف عنه معرض . وهو يهتف

---

(١) انظر فى محمد بن أبى الحسن ريحانة الألبا للخفاجى ٢٢٠/٢ وأكمل الترجمة بعد ترجمته لابنه أبى المواهب ص ٢٢٣ وراجع شذرات الذهب ٤٣١/٨ والنور السافر للعيدروس (طبع بغداد) ص ٤١٤ وكتاب بيت الصديق للسيد محمد توفيق البكرى وماذكره من مراجع .

وينادى آملا راجيا ويردد مارddه ابن الفارض وغيره من الصوفية قبله . من الحديث عن مدامة الحب الإلهى ورحيقه المسكر للصوفية .

وللبكرى استغاثات كثيرة بالرسول ﷺ حبيب الله خير مبعوث قرّبه الله إليه ، وسره الأعلى الذى لايخيب أمله ، والذى ينال سؤله اللائذ . ومن قوله فى إحدى استغاثاته :

يا أكرمَ الخلق على ربِّهِ ... وخيرَ من فِيهم به يُسْأَلُ
قد مسَّنى الكربُ وكم مرةٍ ... فرَّجتَ كرْبًا بعضهُ يُذْهِلُ
وأنت بابُ الله أىُّ امرئٍ ... أتاه من غيرِك لا يدخلُ

ويضيف فى استغاثاته بالرسول إلى تفريج الكرب عنه وإقالته من عثراته الشفاعةَ له من ذنبه يوم المحشر بما أوتى من محبة الله ورؤيته له فى عروجه إلى السموات .

٥

شعراء الفكاهة

من أهم مايميز مصر قديما وحديثا ميل أهلها إلى الفكاهة والتنذير والدعابة ، وقد صورنا ذلك تصويرا جامعا فى كتابنا « الفكاهة فى مصر » مستعرضين هذه الخصلة فى مزاج المصريين من عصر الفراعنة حتى العصر الحديث . ونراها واضحة طوال هذا العصر . بل منذ أن وجدت مصر شخصيتها الأدبية زمن الدولة الطولونية على نحو مايتضح من نبز شاعر بلقب الجمل الأكبر ، وخلفه شاعر كان يلقَّب بالجمل الأصغر ، ويقول ابن سعيد . « كان ينحو فى الظرافة والتطايب منحى الجمل الأكبر[١] » . ولايلبث أن يقول فى سعيد القاص شاعر الإخشيد الملقب هو الآخر بقاضى البقر : « من شعراء الإخشيد وزاد اختصاصه لديه بما كان فيه من الحلاوة والتندير والهزل[٢] » . وإذا مضينا إلى زمن الدولة الفاطمية وجدنا ظاهرة النبز بالألقاب دعابةً للشعراء

---

(١) المغرب لابن سعيد (قسم الفسطاط) ص ٢٧٠ (٢) المصدر نفسه ص ٢٧١ .

تتسع ، إذ ينبز غير شاعر بلقب غريب كما يوضح ذلك كتاب الخريدة للعماد الأصبهانى إذ يلقانا فيه شاعر لُقِّب بشَلَعْلَع وثان بالوضيع وثالث بالكاسات ورابع بالجهجهان وخامس بالنسناس إلى غير ذلك من ألقاب .

ومن أوائل الشعراء فى هذا العصر ابن وكيع التنيسى ومرت فى الفصل الماضى مربعة مزدوجة له ، جعل موضوعها غزله بغلام مسيحى ، وقد مضى فيها يداعبه ، منذرا له ، إن ظل هاجرا ، أن يشكوه إلى القساوسة ويتسع فى ذلك محتجا بتعاليم المسيح ووصايا متى ولوقا ومرقص ويوحنا ، ويقول إنه سيشكوه إلى الأسقف فإن لم يقلع عن هجره شكاه إلى المطران ، فإن لم يكف شكاه إلى البطريرك . وكانت تقترن بهذه الفكاهة سخرية شديدة بالفاطميين ووزرائهم عرضنا لها فى حديثنا عن الهجاء . وأدى هذا الميل إلى السخرية والفكاهة والرغبة فى التندير بالمصريين إلى الاتساع فى القذف بسهام التورية ، وهى تكثر فى سماء أشعارهم طوال هذا العصر حتى لتشبه النيازك التى يكثر إلقاؤها إلى الفضاء فى الأعياد ، فلاتزال النيازك تلقى ليلة العيد ، ولايزال الشعراء المصريون يرمون بتورياتهم قدحا ومدحا وغزلا على كل لون من مثل قول الشريف العقيلى مثنيا على زامر ونايه أو ناياته [١] :

وزامرٍ يكذبُ فيه عائبُهْ تكثُرُ فى صنعته عجائبُهْ
يحجب صبرَ المرءِ عنه حاجبُهْ كأنما ناياتُه ذوائبه

والتورية واضحة فى حاجب وذوائب . وممن تعلقوا بصنع التورية فى الحقبة الفاطمية ابن قادوس -كما مر فى غير هذا الموضع- ومثله قمر الدولة جعفر بن دوَّاس ، وله يقول فى ابن أفلح أحد الكتاب الشعراء وكان شديد السواد [٢] :

هذا ابنُ أفلحَ كاتبٌ متفرِّدٌ بصفاتِهِ
أقلامُه من غيرِهِ ودواتُه من ذاتِهِ

وتلقانا بجانب التورية دعابات كثيرة للشعراء فى زمن الفاطميين ، يداعبون بها زملاءهم من الشعراء وأصدقاءهم من الكتاب والعلماء والأطباء ، من ذلك دعابة مشهورة للقاضى الجليس

---

(١) الخريدة (قسم شعراء مصر) ٦٣/٢ .

(٢) الخريدة ٢١٩/٢

شاعر الفاطميين ووزيرهم طلائع ابن رزيك وجّه بها إلى طبيب تعهّده وكان محموما ، فلم يبر أعلى يديه وفيها يقول[1] :

وأصْلُ بَلِيَّتِى مَنْ قد غزانى ... من السُّقْم الملحَّ بعسكرَيْنِ
طبيبٌ طِبُّهُ كغُرابِ بَيْنٍ ... يفرِّقُ بين عافيتى وبينى
أتى الحُمَّى وقد شاختْ وباختْ ... فردَّ لها الشبابَ بنُسْختَيْنِ
ودبّرها بتدبيرٍ لطيفٍ ... حكاه عن سِنانٍ أو حُنَيْنٍ[2]
وكانتْ نوبةً فى كلِّ يومٍ ... فصيَّرها بحذقٍ نَوْبَتَيْنِ

والجليس يداعب الطبيب فبدلاً من أن يصله بعافيته فرق بينهما ، ويقول إنه جاء فى أواخر الحمى وقد شاخت وباخت أو فترت فإذا هو يردُّ لها الشباب بورقتين من سَفوف الدواء أو كما يقول بنسختين ، وكأنما أحكم تدبيره فى ردّ قوة الحمى إليها فإذا هى لاتعاوده فى اليوم نوبة بل نوبتين . ولعل القارئ لم ينس ابن الذّروى فى الحقبة الأيوبية ووصفه لحدبة ابن أبى حصينة وصفا ساخرا لاذعا . ومن طريف مانقرأ من دعابات فى هذه الحقب دعابة البهاء زهير مع أحد أصدقائه ، وقد جعل موضوعها بغلته ، يقول[3] :

لك ياصديقى بَغْلَةٌ ... ليستْ تساوى خَرْدَلَهْ
تمشى فتحسبُها العيو ... نُ على الطريق مُشَكَّلَهْ[4]
وتُخالُ مدبرةً إذا ... ما أقبلتْ مُسْتعجله
مقدارُ خُطْوَتِها الطو ... يلةِ حين تسرعُ أُنْمُلَهْ
تهتزُّ وهْىَ مكانَها ... فكأنما هى زَلْزله

ويريد البهاء زهير بالخردلة أقل شىء فى الصغر ، ويقول إنها حين تمشى يُظَن أنها مقيدة لبطئها الشديد ، ويجعلها مدبرة حين تقبل ومقدار خطوتها الطويلة أنملة فما بالنا بخطوتها القصيرة ، وإنها لتهتز واقفة لاتسير ولاتتحرك كأنما هى زلزلة .

---

(١) الخريدة ١/١٩٢ .

(٢) سنان هو سنان بن ثابت بن قرة من أطباء القرن الثالث ومثله حنين بن إسحق .

(٣) كتاب البهاء زهير للشيخ مصطفى عبدالرازق ص ٥٤ .

(٤) مشكلة : مقيدة .

وتكثر التورية فى شعر القاضى الفاضل وزير صلاح الدين كثرة مفرطة من مثل قوله متشوقا إلى مصر وإلى شَربة من ماء النيل[١] :

باللهِ قُلْ للنيل عنى إننى ... لم أشفِ من ماء الفُراتِ غَليلا
وسَلِ الفؤادَ فإنه لى شاهدٌ ... أن كان طَرْفى بالبكاء بَخيلا
ياقلبُ كم خَلَّفْتَ ثَمَّ بُثَيْنَةً ... وأظن صبرك أن يكون جميلا

فقد غاب عن مصر مع صلاح الدين فى بعض رحلاته وحملاته إلى الموصل ، وهو يعلن أن ماء الفرات لن يشفى غليله ، ولن يكف بكاؤه شوقا إلى مصر ورياضها ونيلها . والتورية واضحة فى كلمة جميل بعد ذكره لبثينة صاحبة جميل الشاعر الغزل القديم .

ويتوقف ابن حجة الحموى بكتابه خزانة الأدب فى حديثه عن التورية ملاحظا أنه خلفت القاضى الفاضل شعبتان[٢] : شعبة مبكرة وشعبة لاحقة ، أما المبكرة فجميعها مصريون وجميع اللاحقة شاميون ، ويعدِّد المبكرة ومن قاموا عليها من المصريين فى القرنين السادس والسابع للهجرة مسميا لهم ، وهم ابن سناء الملك من مثل قوله فى بعض غزله[٣] :

ملكتَ الخافقين فتِهْتَ عُجْبًا ... وليس هُمَا سوى قلبى وقُرْطك

فهى لاتمتلك قرطها الخافق المهتز وحده بل تمتلك أيضا قلبه الخافق ، والتورية فى كلمة الخافقين وهما الشرق والغرب . ويذكر ابن حجة بعد ابن سناء الملك شعراء القرن السابع المصريين : الجزار والوراق وابن النقيب والحمَّامى وابن دانيال ومحيى الدين بن عبدالظاهر ، وسنلم ببعض توريات من سنترجم لهم منهم ، ومن توريات ابن النقيب قوله المشهور[٤] :

أقول وقد شنَوا إلى الحرب غارةً ... دعونى فإنى آكلُ الخبزَ بالجُبْنِ

والتورية فى الجبن واضحة . ومن توريات النصير الحمامى قوله فى بعض غزله[٥] :

ويظننى حَيًّا رَوِيتُ بريقهِ ... فإذا دعا قلبى يجاوبُه الصَّدَى

---

(١) خزانة الأدب للحموى (طبع مطبعة بولاق) ص ٣٠٠

(٢) خزانة الأدب ص ٢٩٨ .

(٣) الديوان ص ٤٦٣ والخزانة ص ٣٠٠

(٤) خزانة الأدب ص ٣٠٨

(٥) نفس المصدر ص ٣٠٨

والمعنى القريب للصَّدَى المتصل بالدعاء والجواب رجع الصوت ، والمعنى البعيد المراد الذى ورَّى عنه النصير الحمامى هو العطش . ويتوقف ابن حجة طويلا عند توريات ابن نباتة ، وقد روى منها أكثر من مائة تورية ، غير ماروواه مما أخذه عنه الصفدى وغيره ، ومن طريف توورياته قوله لمن أهدى إليه تمرًا رديئًا غالبه نَوَى ، إذ كتب إليه[1] :

أرسلتَ تَمرًّا بل نَوًى فَقَبِلْتُه ... بيد الودادِ فما عليك عِتابُ
وإذا تباعدت الجسوم فودُّنا ... باقٍ ونحن على النَّوى أحباب

والمعنى القريب المتبادر لكلمة النوى هو نَوَى التمر ، والمعنى البعيد الذى أراده ابن نباتة هو البعد والفراق .

ويترك ابن حجة توريات ابن نباتة إلى توريات من جاء بعده من المصريين أمثال ابن الصائغ الحنفى وفخر الدين بن مكانس وبدر الدين البَشْتكى وابن أبى الوفا وابن حجر العسقلانى المصرى . وتستمر التورية فى الحقبة العثمانية وكأنها والمزاج المصرى صنوان لايفترقان . ويلقانا فى أيام العثمانيين شاعر فكه كان يعيش للهزل هو عامر الأنبوطى وسنترجم له عما قليل بين شعراء الفكاهة فى العصر .

ابن [2] مِكْنَسة

هو إسماعيل بن محمد الإسكندرى عاش فى القرنين الخامس والسادس للهجرة إذ توفى سنة ٥١٠ وفيه يقول أبوالصلت فى الرسالة المصرية : « شاعر مكثر التصرف ، قليل التكلف ، يفتنُّ فى نَوعىْ جِدِّ التعريض وهزله ، وضاربٌ بسهم فى رقيقه وجزله » . وكان مع جودة شعره يتبذل فى مديحه وبلغ منه ذلك أنه انقطع إلى عامل مسيحى يسمى أبامليح فى عهد بدر الجمالى وزير المستنصر وكأنه لم يجد عند بدر ما يغنيه ، فلما تحوّلت الوزارة منه إلى ابنه الأفضل وتعرَّض لامتداحه لم يقبله ولم يُقبل عليه ، لقوله فى رثاء أبى مليح :

طُويتْ سماء المكــرمــا ... تِ وكُوِّرَتْ شمسُ المديحِ
مـاذا أُرَجِّى فى حيا ... ةِ بعد موتِ أبى مليحِ

(١) خزانة الأدب ص ٣٦٢

(٢) انظر فى ابن مكنسة وترجمته وأشعاره الرسالة المصرية لأمية بن أبى الصلت نشر عبد السلام هرون والخريدة ٢/٢٠٣ وفوات الوفيات ١/٣٦ ومعجم السلفى فى مواضع متفرقة .

ويبدو أن البيت الثانى هو الذى آذى نفس الأفضل ، فأعرض عنه وكفله عز الدولة بن فائق ويبدو أنه كان من كبار رجال الدولة الفاطمية ، وله فى المديح كثير من الأبيات الطريفة كقوله :

يلقاك مبتهجًا والغيثُ فى يدهِ يَهْمِى فيجمعُ بين الشمس والمطرِ

وقوله :

الطَّوْدُ حاسدُ حِلْمِهِ وأناتهِ والسيفُ حاسدُ بأسهِ ومَضائهِ

وله أشعار غزلية كثيرة كان يعرف كيف يسوق فيها أفكارا وصورا مبتكرة ، وهو كالسابق إليها أوسابق فعلا من مثل قوله يصف خصلة من الشعر التوتْ على خد جميل فى شكل عقرب :

قلتُ إذ عقربَ الدَّلا لُ على خَدِّهِ الشَّعَرْ
مارُنِى قطُّ قبلَ ذا عقربٌ حلَّتِ القَمَرْ

والحديث عن عقرب الشعر وقرنه ببرج العقرب قديم ، وربما كان أروع من هذه الصورة ، وهى بحق صورة مبتكرة له قوله :

لاتخدعنَّك وَجْنَةٌ محمرَّةٌ رَقَّتْ ففى الياقوتِ طَبْعُ الْجَلْمدِ

وعلى شاكلة هذه الصورة المبتكرة قوله :

الحسنُ فى وَجْنتهِ وطَرْفهِ يفتح وَرْدًا ويَغُضّ نَرْجِسا

وكانت له أشعار كثيرة فى المجون والخمر ومعاقرة الدنان ، وكثيرا ماينفذ منها إلى صور وخيالات بديعة من مثل قوله يصف الخمر وهى تُصَبّ من إبريق :

إبريقُنا عاكفٌ على قَدَحٍ كأنه الأمُّ ترضعُ الولدا
أوعابدٌ من بنى المجوس إذا توهَّم الكأسَ شُعْلَةً سَجَدَا

وكان فى ابن مكنسة ميل شديد إلى الفكاهة والدعابة ، وله فى ذلك نوادر وأشعار كثيرة ، كان فيها ينماجن على طريقة أبى الشمقمق الذى عرضنا له فى كتاب العصر العباسى الأول ، إذ كان دائم التصوير لبؤسه وفقره وخلو داره من الطعام وعبثِ الجرذان فيها وبنات وَرْدان أو الصراصير ، ويتابعه ابن مكنسة واصفا قبح داره وضيقها ، قائلا :

لىَ بَنتٌ كأنه بيتُ شعرٍ لابن حجاجَ من قصيدٍ سخيفِ
أين للعنكبوتِ بيتٌ ضعيفٌ مثلهُ وهو مثلُ عقلى الضعيف
بقعةٌ صَدَّ مطلَعُ الشمس عنها فأنا – مذ سكنتُها – فى الكُسوفِ

وهو يذكر عبث بنات وردان فيه وضيقه الشديد وقبحه ، ويقول أنه يشبه بيت شعر سخيف من أشعار ابن حجاج المفحشة ، ويقول إنه – مذ سكنه – فى الكسوف ولا يريد كسوف الشمس وهو المعنى القريب الملائم لما قبله ، وإنما يريد المعنى البعيد من الخجل والاستحياء الشديد . وهى تورية واضحة . ومن قوله الفكه يشكو شيخوخته ووهن عظمه وكلال بصره :

عشتُ خمسين بل تزيـ ـدُ رقيعًا كما تَرَى
أحسبُ المُقْلَ بُنْدُقًا وكذا المِلْحَ سُكَّرًا
وأظن الطويلَ من كلِّ شىءٍ مُدَوَّرا
قد كَبِرْ بِرْ بِرْ بِرْ تُ وعقلى إلى وَرَا
عجبًا كيف كلُّ شـ ـيْىءٍ أراه تغيَّرَا
لا أرى البَيْضَ صارَ يُؤْ كَـلُ إلا مُـقَشَّرَا
وإذا دُقَّ بالحجا رِ زجاجٌ تكسَّرَا

وهو يعلن فى مطلع الأبيات أنه عاش ماجنا رقيعا ، وكأنه لن يكفَّ عن رقاعته ومجونه ، ويصور شيخوخته وضعف نظره حتى لم يعد يفرق بين ثمر الدوم المسمى بالمقل والبندق ولا بين الملح والسكر ولا بين الطويل والمدور . ويجسِّم ارتعاشه فى شيخوخته بالبيت الرابع إذا لم يكد يلفظ بكلمة كبرت حتى ارتعش به فمه مكونا شطرا من بيت ، ويعجب أن كل شىء تغير ، ونقرأ ما تغير فنستغرق فى الضحك ، إذ تحولت الحقائق فى عقله الكليل إلى عجائب ، فالبيض يؤكل مقشرا ، والزجاج إذا دق بالحجارة تكسر . وما من ريب فى أن هذه الفكاهة فيه والدعابة هى التى جعلت المصريين لزمنه يلقبونه ابن مكنسة .

الجزّار (١)

هو يحيى بن عبدالعظيم ولد سنة ٦٠١ وتوفى سنة ٦٧٩ فهو من شعراء الدولتين : الأيوبية والمملوكية ، نشأ بالفسطاط فى أسرة كانت تحترف الجزارة ، ويقول ابن سعيد صديقه فى ترجمته له بكتاب المغرب : دكاكين أسرته فى الفسطاط عاينتها وأبصرته معهم بها . وكان فى أول أمره قصَّابا وسال الشعر على لسانه وكانت ملكته خصبة فاحترفه ، وقصد به السلاطين والأمراء وعمال الدولة فى الاسكندرية والمحلة ودمياط . وروى ابن سعيد فى ترجمته قطعة كبيرة من شعره ومدائحه ، ويرجع تاريخ بعضها إلى سنة ٦٢٧ ويقول صاحب مسالك الأبصار : « قال الشعر وهو صغير أول ما احتلم ، وطاف بأركان بيت له واستلم » . ويشيد ابن سعيد بكرمه وما أغدق عليه من بره ، ويذكر دعوته له مرارا للنزهة مع طائفة كبيرة من شعراء جيله أمثال ابن النقيب والسراج الوراق . وكانت للجزار مسامرات ولقاءات كثيرة مع البوصيرى والحمامى وابن دانيال ، وجعله كرمه يقترب ممن كانوا يفدون على مصر أمثال ابن العديم وابن خلكان وابن سعيد الذى يشيد بوصف مروءته وكرمه وحسن عشرته . ويخيل إلى الإنسان كأن لم يبق سلطان ولاوزير ولاقاض ولا كبير فى الدولة إلا أسبغ عليه مدائحه ، وهى مدائح وسطى ليست بالغة الجودة ، ومع ذلك يقول الصفدى : « لم يكن فى عصره من يقاربه فى جودة النظم غير السراج الوراق ، وهو كان فارس الحلبة ، ومنه أخذوا وعلى نمطه نسجوا ومن مادته استمدوا » ويقول ابن سعيد : « رُزِق من حسن الاهتداء لغرائب المعانى وبدائع الالفاظ مايدل على غَوص فكره ، وطريقه من أسهل الطرق التى يميل إليها العامة ولا ينكرها الخاصة ، لقرب مأخذها وحسن منزعها » .

وابن سعيد دقيق كل الدقة فى وصف لغة الجزار بأنها سهلة تميل إليها العامة ، مع فصاحتها ، وهى ظاهرة ترجع إلى نشأته ، وأنه تربى بين طبقة العامة فى الفسطاط لزمنه ، فطبيعى أن لايجنح فى أشعاره إلى الألفاظ الغريبة إنما يجنح إلى الألفاظ الواسطة بين لغة العامة ولغة الخاصة بحيث يرضى الطرفين ويقع منهما موقعا حسنا . والجزار إحدى حلقات هذه السلسلة التى تصور صلة عامَّة

(١) انظر فى الجزار وترجمته وشعره المغرب (قسم الفسطاط) ص ٢٩٦ وحسن المحاضرة ٥٦٨/١ وفوات الوفيات ٦٣٠/٢ ومسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى (مخطوطة دار الكتب المصرية) ١٢ الورقة ١٦٦ والنجوم الزاهرة ٣٤٥/٧ وشذرات ابن العماد ٣٦٤/٥ ومطالع البدور للغزولى ١٩١/٢ ومابعدها ، وبمكتبة جامعة القاهرة مصورة لمنتخبات من شعره بخط الصفدى فى ١٨٠ ورقة .

الشعب المصرى دائما بالشعر العربى صلة لاتنقطع ، إذ دائما نرى شعراء من طبقة العامة الكادحة يرقون فى الشعر إلى درجة عالية مثل ظافر الحداد فى الحقبة الفاطمية ، وكثير من معاصرى الجزار كانوا مثله من أبناء عامة الشعب نذكر منهم صديقه الوراق ، وكان ورَّاقا يبيع الكتب ، وكذلك صديقه الحمامى ، وكان له حَمَّام يقوم عليه ، ومثل مجاهد الخياط بالفسطاط ، وله فيه بيت مشهور لزمنهما دار على الألسنة إذ يقول :

وليس يرجوه غيرُ كلبٍ ... وليس يخشاه غيْرُ تَيْسِ

وردَّ عليه الجزّار غير غاضب بل كأنما يريد استمرارًا فى الدعابة :

يـرجِّينا بنو كلبٍ ... ويخشانا بنو عِجْلِ

ويبد أنه كان يعود فى بواكير حياته إلى القصابة والجزارة مما جعل صديقا له يسمى شرف الدين يعاتبه ويكثر من عتابه ولومه لتركه الأدب إلى حرفة الجزارة فقال :

كيف لاَ أشكرُ الجزارةَ ما عِشْـ ... ـتُ حِفاظًا وأرفضُ الآدابا
وبها أضحتِ الكلابُ تُرَجِّيـ ... ـنى وبالشعرِ كنتُ أرجو الكلابا

ولابد أن أزمة كرامةٍ مرت به ، فانسحب فترة إلى دكاكين أهله ، ولكن سرعان ماعاد إلى الأدب وإلى الكرام من ممدوحيه وأصدقائه وزملائه الكثيرين .

وربما كان أهم مايتصف به الجزار ميل متأصل فى نفسه إلى الفكاهة والدعابة ، مما جعله يُشبَّه بابن مكنسة وأبى الشمقمق العباسى فى الشكوى من بؤسه وفقره مداعبا متفكِّهًا بمثل قوله :

لى من الشمس خِلْعَةٌ صفراءُ ... لا أبالى إذا أتانى الشّتاءُ
بيتىَ الأرضُ والفضاءُ به سو ... رٌ مُدَارٌ وسقْفُ بيتى السماءُ
لو ترانى فى الشمس والبردُ قد أنْـ ... ـحَلَ جسمى لقلتَ إنى هَبَاءُ
كلما قلت فى غَدٍ أدركُ السّؤْ ... لَ أتانى غدٌ بما لا أشاءُ

فحتى الثياب لايجدها ، وبيته الأرض وسقفه السماء ، وقد أنحله البرد حتى صار شبحا لايكاد يُرى ، وكل يوم يأمل ويرجو ويخيب الأمل والرجاء ، إذ لاينال شيئا من دنياه سوى اليأس والشقاء ، ويعود إلى وصف داره قائلا :

ودارٍ خرابٍ بها قد نزلتُ ولكن نزلتُ إلى السابعَهْ
فلا فرق ما بين أنى أكونُ بها أو أكونُ على القارعه
وأخشى بها أن أقيم الصلاة فتسجد حيطانُها الراكعهْ
إذا ماقرأتُ : (إذا زُلْزِلَتْ) خشيتُ بأن تقرأ : (الواقعه)

إنها دار خربة هوت به إلى الأرض السابعة ولاسقف ولاحيطان فكأنه على القارعة أو على الطريق . وإنه ليخشى أن يقيم بها الصلاة فتنقضّ حيطانها . ويتندر قائلا إذا قرأت فى صلاتى سورة الزلزلة خشيت أن تقرأ هى سورة الواقعة ، والتورية واضحة ، ويعود إلى ثيابه ويصف جُبّةً له هذا الوصف الفكه :

لىَ نِصْفِيَّةٌ تَعُدُّ من العُمْـــرِ سنينًا غَسَلْتها ألف غَسْلَه
كلَّ يومٍ يحوطها العَصْر والدَّقُّ مرارا وما تُقِرُّ بعُمْلَهْ
أين عَيْشى بها القديم وذاك التِّــيهُ فيها وخَطْرتى والشَّمْله
حيث لا فى أجنابها رقعةٌ قــطُّ ولا فى أكمامها قَطُّ وَصْلَه

فهى نصفية أو « جُبّة » طالما لُبست وغُسلت وصُبغت ، وفى كلمة « العصر » تورية لأنها كانت شائعة الدلالة على عصر الخصيتين تأديبا للمجرمين وتقريرا لهم ، وترشحها فى البيت كلمة الإقرار بالعملة وهى بفتح العين الجناية وبالضم النقود . والشملة لاتزال تستعمل فى العامية المصرية على مايتلفع به الرجال من الصوف أو الحرير ، وهى فصيحة . والأبيات مختارة من قطعة طويلة مضحكة فى وصف هذه الجبة البالية . وصلى التراويح عند الوزير بهاء الدين بن حنَّا فقرأ الإمام فى ركعة من ركعات التراويح سورة الأنعام ، فقال تَوًّا :

مالى على الأنْعام من قدرةٍ لاسيَّما فى ركعةٍ واحده
فلا تسومونى حضورا سوى فى ليلة الأنْفال والمائده

ولكلمة الأنفال معنى قريب هو السورة الكريمة ومعنى بعيد هو الهبات ، وهو المراد ، وبالمثل لكلمة المائدة معنى قريب هو سورتها فى القرآن ومعنى بعيد هو مائدة الطعام وهو المراد . وله فى أطعمة رمضان : القطائف والكنافة وما إليها مداعبات كثيرة من مثل قوله :

سَقَى اللهُ أكنافَ الكنافة بالقَطْرِ وجادَ عليها سُكَّرٌ دائمُ الدَّرِّ

والقطر هنا السكر ، والدر : الهطلان والكثرة .

وتزوج أبوه امرأة متقدمة فى السن ، فمضى ينتقم منه ومنها بفكاهات واصفا فيها هرمها ، مصورا ضعف عقلها لكبر سنها وقبح وجهها كما يزعم بمثل قوله :

تزوَّج الشيخُ أبى شيخةً ليس لها عَقْلٌ ولا ذِهْنُ
لو برزتْ صورتُها فى الدُّجَى ماجسرتْ تبصرها الجِنُّ
كأنها فى فَرْشها رِمَّةٌ وشَعْرُها من حولها قُطْنُ
وقائلٍ قال فما سِنُّهَا فقلت ما فى فمها سِنٌّ

والبيت الثالث شديد الإقذاع لهذه المرأة المسنة ، واستخدام التورية فى البيت الأخير إذ سئل عن سنها أى عمرها ، فجعل السؤال عن أسنانها .

وينظم فى حمار له مقطعات كثيرة فكهة ، ومات فأكثر من رثائه محاكيا بشارًا فى رثائه لأتانه ، وجمع بعض معاصريه مراثيه لحماره فى مجلد ، وهى مراث تدور على الدعابة الخالصة . ومن قوله اللاذع فى أحد البخلاء لأيامه :

لايستطيع يرى رغيــ ـفًا عنده فى البيت يُكْسَرْ
فلو انَّهْ صَلَّى – وحا شاه لقال الخبزُ أكبر

وفى الحق أنه كان جعبة فكاهة ودعابة ، وهو أحد من أكثروا لزمنه صنع التوريات ، وقد روى له ابن حجة طائفة كبيرة ، منها قوله :

قلتُ لسُقْم الجسم منى وقد أفرطَ بى فَرْطُ ضَنًا واكتئابْ
فعلتَ بى ياسُقْمُ مالم يكن تُلْبَسُ – والله – عليه الثياب

والشطر الأخير له معنيان : المعنى الظاهر الضنا والنحول حتى لاتكاد الثياب تلبس ، والمعنى البعيد المراد وهو : مالايصح ولايجوز أبدا .

السراج [1] الوراق

هو سراج الدين عمر بن محمد بن حسن رفيق الجزار وصديقه ، وُلد مثله بالفسطاط سنة ٦١٥ وتوفى سنة ٦٩٥ وفيه يقول ابن تغرى بردى : «كان إماما فاضلا أديبا مكثرا متصرفا فى فنون البلاغة ، وهو شاعر مصر (الفسطاط) فى زمانه بلا مدافعة » ويقول صاحب فوات الوفيات : «كان حسن التخيل ، جيد المقاصد ، صحيح المعانى ، عذب التراكيب عارفا بالبديع وأنواعه » . ولم يكثر أحد من الشعر إكثاره إذ كان ديوانه سبعة أجزاء كبار ، وأكثره مقطوعات قصيرة . ويمتاز شعره – مثل الجزار – بالسهولة المفرطة ، لسبب طبيعى ، وهو أنه نشأ فى أسرة شعبية متواضعة ، ومازال الشعر يصعد به حتى عُيِّن كاتبا للدرج عند بعض الأمراء ، ويبدو أنه لم يظل فى ذلك طويلا وأنه احترف الوراقة ، وفى شعره مدائح لبعض السلاطين والأمراء كقوله فى الظاهر بيبرس أثناء الاحتفال بافتتاح مدرسته الظاهرية :

وشيَّدها للعلم مدرسةً غدا عراقٌ إليها شيِّقٌ وشآمُ
ولا تذكُرَنْ يوما نظاميَّةً لها فليس يضاهى ذا النظامَ نظامُ

وهو يجعلها فوق نظامية بغداد المشهورة التى بناها بها نظام الملك الوزير السلجوقى المشهور ، وقد عرضنا لها فى حديثنا عن العراق بالجزء السابق من هذه السلسلة ومدى إنفاقه عليها وعلى العلماء والطلاب بها ، وماحبس عليها من أوقاف دارَّة ، وكان لها شأن بعيد فى النهضة العلمية ببغداد . ومر بنا حديث عن المدرسة الظاهرية فى فصل الثقافة . وللوراق مرثية بديعة فى المعز أيبك حين قتل ، يقول فيها :

نقيمُ عليه مأتما بعد مأتمٍ ونسفحُ دمعا دون سَفْحِ المقطَّمِ

وله شعر غزل كثير مثل الجزار ولا نحس عنده بحرقة ولا بلوعة ، مثله فى ذلك مثل صاحبه ، ومن قوله فى بعض غزله :

---

(١) انظر فى السراج الوراق وترجمته وأشعاره فوات الوفيات لابن شاكر ٢١٣/٢ والنجوم الزاهرة ٨٣/٨ وشذرات الذهب ٤٣١/٥ وخزانة الأدب للحموى ص ٣٠٠ ومابعدها ومطالع البدور ٩٠/١ وخطط المقريزى ٣٤١/٣ . ومن ديوانه مخطوطة بدار الكتب المصرية ومصورة بخط الصفدى فى مكتبة الجامعة فى ١٨٠ ورقة .

فى خَدِّها ضَلَّ علمُ الناس واختلفوا ... أللشقائق أم للورد نِسبَتُهُ
فذاك بالخال يَقْضى للشقيق وذا ... دليلُه أن ماء الوردِ رِيقَتُهُ

وإذا غضضنا النظر عن حَشْره لعلم الناس واختلافهم فى خَدِّ صاحبته ، فإن الصورة تبدو بعد ذلك بديعة ومعروف أن الشقيق قاتم الحمرة ، وقد أبدع فعلا إذ جعل دليل نسبة الخد إلى الورد رى صاحبته الشبيه بمائه . ومن غزله أيضًا :

لا تَحْجُب الطيفَ إنى عنه محجوبُ ... لم يَبْق منى لفرط السُّقْم مطلوبُ
ولا تثقْ بأنينى إن موعده ... بأن أعيش للُقْيا الطَّيْف مكذوب
هذا وخدُّك مخضوبٌ يُشاكله ... دَمْعٌ يَفيض على خَدَّىَّ مخضوب
تأوَّد الغُصْنُ مهتزًا فأنبأنا ... أن الذى فيك خُلْقٌ فيه مكسوبُ

وإنه ليتمنى رؤية خيال المحبوبة قبل موته وهيهات ، ويقول إنه يبكى دما قانيا كخد صاحبته فى حمرته . ويزعم أن ميلان الغصن واهتزازه إنما هو خلق فيه اكتسبه من تقليد صاحبته . وهو يستعير صورة الكسب فى البيت من رأى المعتزلة فى أن الإنسان يكسب عمله بفعله لابقدر مقدور عليه .

وأهمية السراج الوراق فى تاريخ الشعر المصرى كأهمية الجزار ، إنما ترجع إلى جانب الفكاهة والدعابة عنده، وقد خطا بفن التورية خطوة أوسع من خطوة صديقه الجزار ، مستغلا فيها إلى أبعد حد لقبه : السراج الوراق كما استغل الجزار لقبه فى كثير من تورياته . ومن المؤكد أن السراج أربى عليه فى هذا الباب حتى قال له بعض معاصريه : « لولا لقبك وصناعتك لذهب نصف شعرك » ومن تورياته فى لقبه السراج قوله مادحا :

كم قطع الجودُ من لسانٍ ... قَلَّد من نظمه النُّحورا
فها أنا شاعرٌ سِراجٌ ... فاقطَعْ لسانى أَزِدْكَ نورا

وهو يشير إلى السراج الحقيق حين يقول « اقطع لسانى » وهو إنما يريد النوال الذى يقطع لسانه ويزيده مدحا وتنويها وإشادة . ومن تورياته فى لقبه الوراق :

واخَجْلتى وصحائفى قد سُوِّدَتْ ... وصحائفُ الأبرارِ فى إشراقِ

وفضيحتى لمعنِّفٍ لى قائلٍ أكذا تكون صحائفُ الورَّاقِ

فهو خجل من لقاء ربه بصحائفه السود ، ويقول له لائمه : أكذا تكون صحائف الوراق سوداء ، بينما ينبغى أن تكون مشرقة بيضاء كصحائف زملائه من الوراقين . ومن تورياته فى غير لقبه « السراج » وصناعته « الوراق » :

أصونُ أديمَ وجهِى عن أناسٍ لقاءُ الموت عندهمُ الأديبُ
وربُّ الشِّعرِ عندهمُ بغيضٌ ولو وافى به لَهُمُ حَبيب

ولكلمة حبيب معنيان : معنى قريب من الحب ، ومعنى بعيد هو أبو تمام إذ اسمه حبيب ، وهو المعنى المراد . ومن توررياته البديعة قوله :

دَعِ الهُوَيْنَىَ وانتصبْ واكتسبْ واكْدَحِ فنفسُ المرءِ كدَّاحَهْ
وكُنْ عن الراحة فى عُزْلَةٍ فالصَّفْعُ موجودٌ مع الرَّاحَهْ

ولكلمة الراحة معنيان : معنى أول هو الراحة من الاستراحة ، ومعنى ثان هو الكف أو اليد ، ومن تورياته فى بقلة معروفة فى مصر باسم « الرجلة » ، وقد أضافه بعض أصدقائه ، فداعبه قائلا :

وأحمقٍ أضافنا ببقلَهْ لنسبةٍ بينهما وَوُصْلَهْ
إذ مَدَّ فى وجه الضيوف رِجْلَه

وهو لايريد مد الرجل الحقيقية ، وإنما يريد مد طعام الرجلة على المائدة ، مما يدل بوضوح على حضور بديهة الوراق . ومن تورياته .

فسَّر لى عابرٌ منامًا فَصَّلَ فى قوله وأجْمَلْ
وقال : لابد من طُلوعٍ فكان ذاك الطلوعُ دُمَّل

والطلوع : الصعود والرقى ، واستغل الوراق تسمية العامة للدمل طلوعا ، وصنع هذه التورية البارعة . وفى كتاب خزانة الأدب للحموى توريات كثيرة للسراج الوراق اقتطفنا منها ما أنشدناه . ووراءها توريات لاتقل عنها لطفا وبراعة .

ابن [1] دانيال .

هو شمس الدين محمد بن دانيال ، ولد سنة ٦٤٦ للهجرة بالموصل وتركها فتىً إلى القاهرة ، ولا نعرف أسباب هجرته من بلدته ولا تاريخ هذه الهجرة ، ويقال إنه نزل القاهرة فى سن العشرين ، ويلقب بالكحَّال ، ويقولون : كان له دكان كحل داخل باب الفتوح ويلقبونه بالحكيم وليس معروفا بالضبط هل احترف طب العيون أو كان تاجر كحل وبائعه فقط . وأغلب الظن أنه كان يعالج العيون لقوله :

ياسائلى عن حرفتى فى الوَرَى　　واضَيْعتى فيهم وإفلاسى
ماحالُ مَنْ درهمُ إنفاقهِ　　يأخذه من أَعْيُنِ الناس

والتورية فى الشطر الأخير واضحة ، وهى عبارة تدور على ألسنة العامة ، يقولون يأخذ حقه من عينه أى رغم أنفه ، وهو لايريد ذلك إنما يريد الإشارة إلى صنعته وحرفته . وكانت تنعقد فى دكانه أغلب الليالى ندوة سمر يجتمع فيها كبار الفكهين لزمنه من أمثال الجزار وابن النقيب والوراق والحمامى ، ويروى أنهم جاءوه يوما فقالوا له : نحتاج إلى عُصَيَّات يومئون بذلك إلى أن من يداوى عيونه يُجْهز على بصره فيصبح ضريرًا محتاجا إلى عصا تقوده ، فقال لهم على الفور : ليس عندى إلا أن يكون فيكم من يقود لله تعالى . وكان يلازم الأشرف خليل ابن السلطان قلاوون قبل تقلده الحكم فى عهد أبيه ، وأعطاه يوما فرسا ومرت أيام فإذا به يراه على حمار أعرج ، فقال له : ياحكيم أما أعطيناك فرسا تركبه ؟ فأجابه مسرعا : نعم بعته وزدت على ثمنه واشتريت هذا الحمار ، فضحك الأشرف وأعطاه فرسا آخر . ومن تورياته الطريفة قوله :

قد عقَلْنا والعَقْلُ أىُّ وثاقٍ　　وصَبَرْنا والصَّبْرُ مرٌّ المذاقِ
كلُّ مَن كان فاضلا كان مثلى　　فاضلا عند قسمة الأرزاق

وكلمة « فاضلا » الثانية ليست من الفضيلة كسابقتها . وإنما من الفضل بمعنى الزائد عن

---

(١) انظر فى ابن دانيال وترجمته وأشعاره فوات الوفيات ٣٨٣/٢ والدرر الكامنة لابن حجر ٣٨٢/٣ وشذرات الذهب لابن العماد ٢٧/٦ والنجوم الزاهرة ٢١٥/٨ والبدر الطالع للشوكانى ١٧١/٢ وكتابنا الفكاهة فى مصر (طبع دار الهلال) ص ٥٣ ومابعدها .

الحاجة . وهذا الجانب الفكه فى ابن دانيال استطاع أن ينفذ منه إلى صنع ثلاث تمثيليات أو كما يسميها بابات لتمثل على مسرح خيال الظل فى أيامه ، وهو مسرح دُمًى متحركة متحاورة ، واسم أولاها « طيف الخيال » والثانية « عجيب وغريب » والثالثة « متيم » . وتصور الأولى الحياة الاجتماعية لعهد الظاهر بيبرس . والثانية تصور سوقا مصرية ومن فيها من أخلاط الناس والأمم وقد جمدت ألسنتهم عند لهجاتهم الوطنية فى بلدانهم وصور معينة من كلامهم تثير الضحك فى النظارة . وتصور الثالثة الحِيَل وخاصة حيل المحبين مع صور مضحكة من عراك الديكة ونطاح الكباش والثيران .

وأبدع المسرحيات الثلاث وأطرفها « طيف الخيال » وهى مسرحية شعرية نثرية ونثرها مسجوع كنثر المقامات وليس فيها لفظ غريب ، وكأنما حاول ابن دانيال أن يجعلها قريبة قربًا شديدًا إلى عامية أهل القاهرة لزمنه ، وهو يفتتحها بتقديمه لطيف الخيال الأحدب الموصلى متغنيا بفضله وجِدِّه وهزله ، ويسلِّم سلام القادم ويرد عليه الريس السلام مادحا له ولحدبته بمثل قوله :

قسماً بحُسْنَ قَوامك الفتَّانِ   يا أوحدَ الأمراء فى الحُدْبانِ
يامشبهَ الغُصْن الرطيبِ إذا انثَنى   من حَدْبتيه يميسُ بالرمَّانِ
يامخجلاً شكلَ الهلالِ بقدِّه   حاشاك أن تُعْزَى إلى نُقْصان

ويستمر فى تحسين حدبته ، فهو صاحب رِدْفَيْن ، وهوْ جمل جليل السَّنام ، بل هو كالعود الأحدب المطرب . ويرد طيف الخيال عليه : لافضَّ الله فاك ، ولا أقال من سيف الحسبة قفاك . وكان الحاسب رجل شرطة وقانون . فهو يتمنى أن يظل سيفه مسلطًا على قفاه . ويغنى طيف الخيال بأبيات يستقبل بها النظارة من الحاضرين ، ويذكر أنه جاء مصر من الموصل زمن الظاهر بيبرس حين أمر فى سنة ٦٦٦ بتحريم المنكرات وإغلاق الحانات وإعدام أحد أصحابها المسمى ابن الكازرونى بعد تجريسه فى الطرقات وفى عنقه دِنّ نبيذ أو نباذية . وإلى ذلك يشير طيف الخيال ، إذ يقول ابن دانيال على لسانه :

لقد كان حَدُّ السُّكْر من قبل صَلْبِهِ   خفيفَ الأذى إذ كان فى شَرْعنا جَلْدَا
فلما بدا المَصْلُوبُ قلتُ لصاحبى   ألا تُبْ فإنَّ الحدَّ قد جاوزَ الحَدَّا

والتورية واضحة فى كلمة « جاوز الحد » إذ لايريد المعنى المتبادر من مجاوزة الشىء لحده

وإفراطه ، وإنما يريد مجاوزة الحد الشرعي فى العقوبة . ويتوقف طيف الخيال الأحدب ليرثى إبليس وغواياته ويندب تحطيمَ أوانى الخمر ودِنانه وندمانها وسقاتها بمثل قوله :

مات – ياقومُ – شَيخُنَا إبليسُ   وخلا منهُ رَبْعُه المأنوسُ
والقَنانى به تكسَّرْنَ والخمـ   ـارُ من بعد كسرها محبوسُ
وذَوو القَصْف ذاهلونَ وقد كا   دتْ على سَيْلها تسيلُ النفوسُ
والحَرافيشُ حولها يتباكو   ن بنارٍ تُراع منها المجوس
وقضيبٌ ونرجسٌ وسُعادٌ   باكياتٌ ونُزْهَةٌ وعَروسُ

والمرثية طويلة ، واكتفينا منها بهذه الأبيات لتدل على ماتموج به من هزل ودعابة . ويذكر طيف الخيال أنه جاء إلى مصر يبحث عن أخيه الأمير وصال ، وهو أمير مزيف ، ويظهر أخوه ، ويطلب الأمير كاتبه ، ويحدِّثه فى توقيعات وودائع ، ويأمره بكتابة تقليد بولاية ، تدليسا وافتراء . ويلقب الكاتب طيف الخيال بلقب صُرُّبَعْر انتقاما منه حين هزئ به ، فى مقابل لقب لشاعر بغدادى مشهور يسمى صُرَّدُرّ . ويذكر وصال لأخيه أنه قد عزم على ترك الخلاعة والمجون والتوبة إلى الله والعمل بعمل أهل السنة والجماعة ، بادئا بالزواج . وتبدأ مشاهد التمثيلية من حين هذا اللقاء بين وصال وأخيه وتدور حول مشكلة الخاطبة فى الحقب الماضية وما كان ينشأ عنها من أغلاط فى تبين حقائق العروسين ، فالزوج يدَّعى أنه من أمراء الموصل ومعه كاتبه وحاسبه المزيف ، وحقيقته أنه بائس فقير لايملك شَرْوَى نَقير كما يقول بلسانه فى التمثيلية ، حين طُلب منه المهر . وقد أُطلق البخور ورُشَّ الطِّيب على الحضور ويُنْشد :

أمسيتُ أفقرَ مَنْ يروحُ ويَغْتَدى   ما فى يدى من فاقتى إلا يدى
فى منزلٍ لم يَحْوِ غيرى قاعدًا   فإذا رقدتُ رقدتُ غيرَ ممدَّدِ
وترى البعوضَ يطير وهْو بريشهِ   فإذا تمكَّن فوق عِرْقٍ يَفْصِدِ
والفارُ يَرْكُضُ كالخيول تسابقتْ   من كلِّ جَرْداء الأديم وأجْرد
وترى الخنافسَ كالزنوج تصفَّفتْ   من كل سوداء الأديم وأسودِ
هذا ولى ثوبٌ تراه مرقَّعا   من كل لونٍ مثل ريش الهُدْهُدِ

ومع ذلك يُزَفّ الأمير وصال على عروسه ، وحين تكشف عن وجهها يصيبه الذهول لهرمها

وقبحها المتناهي ، وينادى على الخاطبة وتأتيه ويشكو منها . وينشد طيف الخيال على لسانه شكوى مرة من زوجته . ويصور مايتعاطاه من الحشيش وما يرسم له من الخيالات والأوهام ، حتى ليرى وجهه فى زير مملوء ماء فيظن به لصا إذ يراه يعبس ويضحك مثل عبسه وضحكه ، فيحطمه حطما : وتموت الخاطبة وينوح عليها زوجها بمثل قوله :

ساعدونى بالنَّوْح والتعديدِ بعد فقْد العجوز أمِّ رشيدِ
هلكتْ آخرَ الليالى السودِ ياليالى الوِصَال بالله عُودى

والتمثيلية تزخر بالمواقف المتناقضة كما تزخر بهذه الروح الفكهة ، ويتخللها الغناء والرقص ويطَّرد فيها التسلسل ، وشخوصها فى غاية الوضوح . وهى تصور جوانب كثيرة من الحياة الاجتماعية والسياسية وعلاقات الرجال بالنساء وعلاقات الشعب بحكامه فى تلك الحقبة . ومازال ابن دانيال يمتع أهل القاهرة بتمثيلياته الهزلية وفكاهاته التى كانت تدور فى أفواه الناس حتى وفاته سنة ٧١٠ للهجرة .

عامر [١] الأنبوطى

يقول الجبرتى فى ترجمته : «شاعر مفلق هجاء» ويقول إنه كان يقيم فى بلده ويلم بالقاهرة من حين إلى حين فيزور العلماء والأعيان . وكلما رأى قصيدة مشهورة سائرة قلبها وزنًا وقافية إلى الهزل والطبيخ ، فكان الشيوخ والشعراء يتحامونه ويكرمونه ويجزلون له فى العطاء ، وكان فيه ظرف يجعلهم يأنسون لكلامه ويهشون لشعره الفكه . من ذلك نظمه لألفية فى الطعام على غرار ألفية ابن مالك فى النحو ، استهلَّها بقوله :

يقول عامرٌ هو الأنبوطى أحمد ربى لستُ بالقُنُّوطى [٢]
وأستعين الله فى ألفيَّه مقاصدُ الأكلِ بها محويَّه
فيها صنوفُ الأكل والمطاعمِ لذَّتْ لكل جائعٍ وهائمِ [٣]
طَعامُنَا الضَّانى لذيذٌ للنَّهِمْ لحما وسَمْنًا ثم خُبْزًا فالْتقم

---

(١) انظر فى ترجمة عامر الأنبوطى وشعره الجبرتى ٢٤٨/١ .

(٢) القنوطى : كلمة جلبتها القافية ولعله يريد بها اليائس

(٣) الهائم : شديد العطش .

فإنها نفيسةٌ والأكل عَمْ مطاعمٌ إلى سَناها القلبُ أمْ [١]
والأصلُ فى الأخبازِ أن تُقَمَّرا وجوَّزوا التَّقْديد إذ لاضررا [٢]

ولا ريب فى أن شيوخ الأزهر وطلابه حين كانوا يسمعون منه شيئا من أشعار هذه الألفية يغرقون فى الضحك إغراقا ، لأنه نقل أكثر صنيع ابن مالك فى ألفيته النحوية الجادة منتهى الجد إلى هذه الألفية الجديدة المضحكة غاية الضحك . ورأى أن لامية العجم للطغرائى تستولى على إعجاب الشعراء والناس منذ زمنه فى القرن السادس لما تحمل من حكم وخبرات تنفع الناس فى حياتهم وسلوكهم ، فنظم على وزنها وقافيتها لامية فى المطاعم من مثل قوله :

أناجرُ الضَّانِ تِرْياقٌ من العللِ وأَصْحُنُ الرزِّ فيها منتهى أملى [٣]
ولا خليلٌ بِدَفْعِ الجوع يرحمنى ولا كريمٌ بلَحْم الضَّان يسمح لى
طال التلهف للمطعوم واشتعلتْ حُشاشتى بحَمام البَيْت حين قُلى
أريد أكلاً نفيسًا أستعين بهِ على العبادات والمطلوبِ من عملى

وكانت لابن الوردى الشامى المتوفى سنة ٧٤٩ قصيدة لامية جعلها جميعا حكما وأمثالا ، طارت شهرتها بين معاصريه ومن خلفوهم فصاغ على وزنها لامية حكمية فى الطعام ، يقول فيها :

اجتنبْ مطعومَ عدسٍ وبَصَلْ فى عَشاءٍ فَهْو للعقل خَبَلْ
وعَنِ البِيصَارِ لاتُغْنَ به تُمسِ فى صحَّة جسْمٍ من عِلَلْ
واحتفلْ بالضان إن كنت فتى زاكىَ العقل وَدعْ عنك الكسَلْ
من كبابٍ وضلوعٍ قد زكَتْ أكلُها يَنْفى عن القلب الوَجَلْ

وطعام العدس والبصل وكذلك البيصار من الأكلات الشعبية المصرية ، وهو ينهى عن أكلها ويدعو إلى أكل لحم الخرفان الضانى ومايتخذ منه من طعام الكباب واللحم المشوى .

وكان عامر بهذه الأشعار وما يماثلها يطرف معاصريه فى القاهرة ويسرِّى عن نفوسهم بهزله ويجعلهم يستغرقون فى الضحك ، بما يعرض عليهم فى أشعاره الفكهة من أصناف الأطعمة وألوان

---

(١) أمْ : قصد .
(٢) تقمر : كلمة عامية أى تعرض على النار
(٣) أناجر : جمع أنجر ويطلق فى العامية على أوانى الطعام وطهيه الكبيرة .

الحلوى ، مع إكثاره من دعاء ربه أن يُنيله «كبابا» ودواء من الحلوى والخشاف . ومازال ذلك دأبه فى أشعاره حتى توفى سنة ١١٧٣ للهجرة .

٦

شعراء شعبيون

ليس معنى هذا العنوان أن شعراء مصر لهذا العصر ينقسمون إلى شعبيين وغير شعبيين ، فشعراؤها جميعا كانوا شعبيين إذا أردنا من نشأوا فى بيئات شعبية ولم يكونوا من أبناء القصور أو من الطبقات الأرستقراطية . ونستطيع أن نستثنى فقط تميم بن المعز أول خلفاء الدولة الفاطمية بمصر ، فهو وحده الذى نستطيع أن نقول عنه إنه نشأ فى ترف ونعيم ، أما بعد ذلك فالشعراء كانوا من أبناء الشعب ، وكثيرون منهم كانوا من طبقته الدنيا التى تمتهن الحرف والصناعات ، بل هم أنفسهم كانوا يمتهنون تلك الصناعات والحرف على نحو مامر بنا فى حديثنا عن ظافر الحداد وأنه نشأ حدادا ، وتفجر ينبوع الشعر على لسانه ، فترك عالم الحدادة إلى عالم الشعر والفن . ويلقانا كثيرون من هؤلاء الشعراء المحترفين حرفا متنوعة مثل الجزار والوراق ومجاهد الخياط والحمامى الذين عرضنا لهم فى حديثنا عن شعراء الفكاهة .

ومعنى ذلك أننا لانريد أن نتحدث عن شعبية شعراء العصر بهذا المعنى من نشأتهم فى الأوساط الشعبية ، فهى نشأة مشتركة تجعلهم جميعا شعراء شعبيين ، إنما نريد معنى أدق من ذلك معنى يتصل بلغة طائفة من شعراء مصر فى العصر رأوا أن ينظموا بلغة الحياة اليومية حتى يصلوا مباشرة إلى التأثير فى الناس باستخدام العامية لغتهم فى التخاطب اليومى . وكانت قد نشأت فى البلاد العربية فنون شعرية عامية ، هى الزجل أنشأته أو استحدثته الأندلس ، والمواليا استحدثه أهل واسط بالعراق ، والكان وكان استحدثته بغداد ومثله القوما . وسرعان ماشاعت هذه الفنون فى العالم العربى وخاصة الزجل والمواليا .

والزجل أنواع منه مايسمى بالاسم الأصلى وهو الزجل ويختص بالغزل والنسيب والخمر والطبيعة ، ومنه ماسَمَّته مصر بُلَّيْقًا وجمعته على بلاليق ، وهو ما تضمن الغزل أو الخلاعة والأحماض ، ومنه ماسُمِّى قَرْقيًا وهو ماتضمن الهجاء أو الهزل ، ومنه ماسُمِّى مكفِّرًا وهو ماتضمن المواعظ والحكمة ، وكأنهم اشتقوه من تكفير الذنوب . ومرَّ بنا أن الشريف العقيلى فى القرن

الخامس كان يختم كل قافية من قوافى ديوانه بأبيات مكفِّرة لما قدم فى القافية من مجون .

وأخذت مصر منذ القرن السادس الهجرى تشترك فى صنع الزجل بأنواعه السابقة ، ولْخذت تلْطف أساليبه وأوزانه حتى بلغت فيه غاية لاتكاد تدرك ، وكما أقبلت على الزجل بالمعنى العام أقبلت على البُلَّيق وهو زجل هزلى ويقول ابن سعيد فى منتصف القرن السابع الهجرى : « كان بالفسطاط جماعة يصنفون البُلَّيق ، وهو على طريقة الزجل الأندلسى ، منهم ساكن البُلَّيْقى ، ومن بُلَّيقاته :

بَسِّى من الدين الثانى نرجع لدينى الحقانى
نـرجع لـدينى الأول عن النِّسا لَسْ نتحوَّل
إن كنت فِ ذا تتقوَّل اصْفَعْ وقطَّعْ آذانى

وهذا من الطراز العالى فى هذا الفن ، وهو عنوان كاف عن غيره[1] » . واشتهر فى القرن السابع ابن دقيق العيد ينظم البلاليق [2] وممن اشتهر فى القرن الثامن بصنع البلاليق زين الدين القوصي وقد روى له ابن حجر بُلَّيْقًا[3] ومثله سراج الدين عمر بن مولاهم ، وقد روى له ابن تغرى بردى بُلَّيقا[4] هزليا رقص به منشدوه بين يدى السلطان حسن ، وفيه يقول :

من قال أنا جندى خَلَقْ فـقـد صـدق
عندى قَبًّا من عهد نوح على الـفـتوح [5]
لو صادفوا شمس السطوح كـــان احترق

وقد أشار بقوله : « أنا جندى خلق » أى هرم إلى يَلْبُغا مملوك السلطان وكان واقفا بين يديه ، وأغرق السلطان فى الضحك واستعاد البُلَّيق مرارا . وبجانب البلاليق تلقانا أزجال كثيرة فى هذا العصر ، من ذلك مطلع زجل رواه صفى الدين الحلِّى ، وكان قد نزل القاهرة فى العقد الثالث من القرن الثامن الهجرى ، وهو يجرى على هذا النمط[6] :

---

(١) المغرب (قسم الفسطاط) ص ٣٦٥

(٢) انظر بعض بُلَّيْقات ابن دقيق فى الطالع السعيد ص ٣٢٧

(٣) الدرر الكامنة ١٤/٣

(٤) النجوم الزاهرة ٣١٧/١٠ - ٣١٨ .

(٥) القبا : ثوب يلبس فوق الثياب أو يتمنطق عليه .

(٦) العاطل الحالى لصفى الدين الحلى نشر ولهلم هو نرباخ بألمانيا ص ٢٧ .

مَنْ نَعْشَقوا سيد الملاحْ في خَدُّو ما ونارْ طَرَّزوا من زانوا بالعِذارْ
عَرَضتُ لُو بالالتماحُ صار وَرْدُو كالبَهارْ(١) وتبدَّلْ لُونو بالصَّفارْ

وأنشد زجلا مصريا كاملا ، قال : سمعته للمصريين ، وهو يصور خفة روحهم ورقتهم ولطفهم وظرفهم ، ومما جاء فيه (٢) :

لَسْ غريبْ مَنْ فارَقْ أوطانو أو بعِدْ عن ناظرو المحبوبْ
إلا مَنْ دارو قُبَلْ دَارُو والحبيبْ عن ناظرو محجوبْ
حِبِّى عنِّى حجَّبوه أهلو وأسرفوا فى جَمْع حُفَّاظو
والرَّقيبْ قد غيَّبوا عنى حتى عنى قيدَ الفاظُو
كل يوم لأجلو يغيظ قلبو ربَّ غيظْ قلب الذى غاظو
ماخطَرْ إلا وَهُو خائفْ أوعَبَرْ إلا وَهُو مَرعوبْ
لسْ نطيقْ نلفظ مَعُو لفظةْ لا ولا نرْسِلْ إليه مكتوبْ
ريتْ حبيبى فى الرياض يمرحْ بين أقرانو وأَتْرابُو
قلتُ قد صحَّ المثل فينا من لِقِى أحْبابونسى أصْحابو
قالْلى قدصحَّتْ بنا اعْدانا ورَمُونا قلت ماصابوا

والزجل يسيل رقة ونعومة وعذوبة . وقد روى صاحب خزانة الأدب قطعة من زجل ابن القماح فى وصف النرجس (٣) . ولما توفى السلطان الأشرف شعبان سنة ٧٧٨ حزن الناس عليه حزنا عظيما ورثاه الشعراء بعدة قصائد ، كما رثاه الزجالون ومن قول أحدهم (٤) :

كوكب السعد غابْ مِن القلعهْ وهلالُو قد انطفَا بأمانْ
وزُحَلْ قد قارن المرِّيخْ لكسوفْ شمسِ الضُّحى شعبانْ

ومن أطرف الأزجال المصرية لعهد المماليك زجل نشرته قديما بمجلة الثقافة(٥) نظمه زجال مصرى فى رثاء الفيل مرزوق ، وهو فيل كان قد أهداه تيمور لنك فى أوائل القرن التاسع الهجرى إلى سلطان مصر ، وتصادف أن الغلمان الموكَّلين به ساروا معه نحو بولاق ورجعوا مجازفين به على

(١) البهار : زهر أصفر.
(٢) العاطل الحالى ص ١٠٩
(٣) خزانة الأدب ص ٢١٩
(٤) النجوم الزاهرة ٨٣/١١
(٥) مجلة الثقافة : العدد رقم ٣٧١ لسنة ١٩٤٦ .

قنطرة ضعيفة فوق ماء ، فانخسفت به ولم يقدر أحد على إنقاذه ومات ، وخرج الناس زمرا يتفرجون عليه ، وأنشأ فيه بعض الزجالة مرثية بديعة ، وفيها يقول على لسان زوجته باكية له نادبة :

سهم الفراق قد صابْ قلبى يا مسلمينْ
ونا غريبَهْ هنديَّه قلبى حزين
وعَيَّطتْ حتى أبكتْ جيرانها[١]
من كُتْر ماناحتْ ناحوا لأحزانها
من نارها صارت تلطم بوْدانها[٢]
حتى الزرافة جاءتها متحسِّره
تبكى على الفيل اللى مات فى القنطرة

وكانت لدى هذا الزجال روح فكهة ولفتات ذهنية بديعة ، إذ جعل زوجة الفيل هندية كما جعلها تلطم « بودانها » أو آذانها ، واختار الزرافة لتساعدها فى حزنها لما يبدو عليها دائما من تأمل وحزن كأنما ضاع منها شيء . ويبدو أن الزجل ازدهر حينئذ بمصر . وفى دار الكتب مجلد نفيس لأحمال زجل مصرية مطبوع بباريس .

وتظل الأزجال حية فى الحقبة العثمانية ومثلها المواليا ، وهى الفن الشعبى العامى الثانى الذى استكثر منه المصريون ومعروف أنه يخرج من بحر البسيط ، ونجده فى ديوان ابن الفارض الصوفى ، واشتهر به فى عصر المماليك أبو بكر بن العجمى عين كتاب الإنشاء فى مطلع القرن التاسع الهجرى وكان إمام فن المواليا[٣] لزمنه وضروبه المتشعبة ، ومن موالياته :

للحِبِّ قالوا معنَّاك الذى اذبَلْتو جُدْلُو بقُبْله فقَلْبُو فيك خبَّلْتو
فقال أقسمْ لو انَّ البُوس سبَّلْتو ومات ، للشَّرْق مادِرْتو وقبَّلْتو[٤]

---

(١) عيطت : بكت .

(٢) ودانها بالعامية : آذانها .

(٣) خزانة الأدب ص ٤٣ .

(٤) درتو : كلمة عامية أى أدرته . وفى قبلتو تورية لأنها قد تكون من القبلة بضم القاف وهو المعنى المتبادر لسبقها بكلمة البوس ، وقد تكون من القبلة بكسر القاف أى ما أداره نحو القبلة بعد موته وهو المعنى المراد .

وتظل المواليا حية فى أيام المماليك وأيضا فى أيام العثمانيين . وكانت تتوزعها منذ القرن السابع الهجرى الأنواع التى مرت فى الزجل وهى : البُلّيق ، وموضوعه الغزل وقد تصحبه الخلاعة ، وأنشد الجبرتى من أمثلته الغزلية البارعة قول الشيخ الشمس الحفنى الشافعى الخَلْوتى :

خَطَر علىَّ غزالى مَرْ ما اتكلِّم فَوّق جفونه وقلبى والحشا اكلِّمْ
إيشْ كانْ يضرّه إذا بالراسِ لى سَلِّمْ حتى أسَرْ مهجتى لُولا السلام سلِّم

والنوع الثانى القَرْقيا وينظم فى الهزل والفكاهة وما يتصل بهما ويسوق الجبرتى منه مثل قول حسن شَمَّه .

قَالوا تحب المدمِّسْ؟ قلت بالزيت حارْ والعيش الابيض تحبّه قلت والكِشْكارْ
قالوا تحب المطَّبَقْ؟ قلت بالقنطار قالوا اشْ تقلْ فى الخضارى قلت عقلى طار

والفول المدمس طعام شعبى لأهل مصر ومثله الكشك ، والمطبق نوع من الرقاق محشو بالنقل والسكر ، أما الخضار فن طيور البحيرات . والنوع الثالث من المواليا المكفّر وينظم فى الحب الإلهى والمديح النبوى والمواعظ وفى ديوان ابن الفارض منه أمثلة متعددة . ويسوق منه الجبرتى قول الشيخ شمس الحفنى أو الحفناوى وهو مواليا يمكن قراءتها معربة على هذا النمط .

بالله ياقلبُ دَعْ عنك الهوى واسْلَمْ من كلِّ مَيْلٍ ووافى عهدهم أَسْلَمْ
والزمْ حمى سادةٍ من أَمَّهُمْ يَسْلِم واسْلُكْ سبيل التُّقَى يوم اللُّقا تَسْلَمْ

ويقول صفى الدين الحلى إن القوما خاصة بسحور رمضان من قول المغنين فى آخر كل بيت فيها « قوما قوما للسحور » . أما الكان وكان فالشطر الأول من البيت فيه غالبا يكون أطول من الشطر الثانى وهو خاص بالحكايات والخرافات والمراجعات فكأن قائله يحكى ما كان وكان . ويقول إن فن القوما وكذلك فن الكان وكان لايعرفها سوى أهل العراق[١] . ويحكى ابن تغرى بردى منه منظومة فى وقعة قوصون ساقى الناصر بن قلاوون وما كان من قتله ، وهى تستهل على هذا النمط[٢] :

من الكَرَكْ جانا الناصرْ وجَبْ معه أُسْد الغَابه

---

(١) العاطل الحالى ص ١٤٨ ، ١٧١ ، ١٧٢ (٢) النجوم الزاهرة ٤٨/١٠ .

ووقعتك يا أمير قوصونْ ما كانتِ ألا كدَّابَهْ

ويبدو أن المصريين حاكوا فن القوما العراق أيضا ، إذ نرى الجبرتى فى الحقبة العثمانية يتوقف مرارا ليقول إن هذا الشاعر أو ذاك كان ينظم فى الزجل والقوما والكان وكان والمواليا والبُلَّيق [1] ونقف قليلا عند بعض أصحاب هذا الشعر الشعبى العامى .

إبراهيم [2] المعمار

هو جمال الدين إبراهيم بن على المعمار ، يقول فيه صاحب فوات الوفيات : « إبراهيم الحائك وقيل المعمار وقيل الحجار عامى مطبوع تقع له التوريات المليحة المتمكنة لاسيما فى الأزجال والبلاليق » ويقول الصفدى : « عامى مطبوع تقع له التوريات المليحة المتمكنة المطبوعة الجيدة ولاسيما فى الأزجال والبلاليق ، بحيث إنه فى ذلك غاية لاتدرك ، أما المقاطيع الشعرية فإنه يقعد به عنها مراعاة الإعراب وتصريف الأفعال » ويقول ابن تغرى بردى : « كان ذكى الفطرة قوى القريحة لطيف الطبع » ويقول ابن حجر : « كان يلزم القناعة ولايتردد إلى أحد من الأكابر إلى أن مات فى الطاعون سنة ٧٤٩ ومن قوله فيه قبل موته .

قُبِّح الطاعون داءٌ فُقدتْ فيه الأحبَّهْ
بيعتِ الأنفسُ فيه كلُّ إنسانٍ بحبَّه

وفى كلمة « حبة » تورية واضحة لأن الطاعون يصحبه دمَّل كبير ، وله توريات كثيرة كما قال من ترجموا له ، من ذلك قوله :

ياقلبُ صبرًا على الفراق ولو رُميتَ ممن تحبُّ بالبَيْنِ
وأنت يادمعُ إن ظهرتَ بما يُخفيه قلبى سقطتَ من عينى

وفى كلمة « سقطت من عينى » تورية إذ لايريد معناها القريب وهو تحدر الدمع من عينه وإنما يريد معناها المعروف فى العامية إلى اليوم وهو أنه ضاع ولم تعد له مكانة . وكان الناصر بن قلاوون

(١) انظر الجبرتى ٢٩٠/١ .

(٢) انظر فى المعمار وترجمته وأشعاره فوات الوفيات ٥٥/١ والنجوم الزاهرة ٢١٢/١٠ والمنهل الصافى ١٧٤/١ والوافى ١٧٣/٦ والدرر الكامنة لابن حجر ٥٠/١ وتاريخ ابن إياس فى مواضع متفرقة وخزانة الأدب ص ٣٨٥ . وله زجل ماجن فى كتاب عقود اللآل للنواجى .

يألفه ويقربه منه لطرافة تورياته وله فى زوجته مداعبا :

لما جَلَوْا عِرْسى وعاينتُها وجدتُ فيها كلَّ عَيْبٍ يُقالْ
فقلت للدلاَّل ماذا ترى؟ فقال : ما أضمنُ إلا الحلال

والدلال : جالب العروس ، ولكلمة الحلال معنيان : ضد الحرام والمباح . ومن توررياته مداعبا بعض من أمر بصفعه ، فحتى فى هذا الموقف يفزع إلى التورية قائلا :

ما كان صَفْعُ بالرِّضا لكنه من خَلْف أُذْنى
لولا يَدٌ سبقتْ له لأمرتهُ بالكفِّ عنى

وفى البيت الأول تورية فى كلمة « من خلف أذنى » إذ تحمل معنيين هما القفا موضع الصفع وعدم الاكتراث . وفى البيت الثانى تورية فى كلمة « يد » إذ لها معنيان هما النعمة والصفع باليد ، وبالمثل لكلمة « الكف » معنيان هما : الانصراف عن الشىء والصفع بالكف . ومن تورياته :

وخادمٍ يعلو على عشاقهِ برتبةٍ من الجمال نالها
وإسْمُه – وهو العجيبُ – محسنٌ وكم دموعٍ فى الهوى أسا لها

وفى كلمة « أسالها » تورية إذ تحمل معنى قريبا هو إسالة الدمع ومعنى بعيدا من الأسى وهو الحزن كأنه يرق لمحبيه حين يرى دموعهم ويحزن لهم . ومن لطائف تورياته :

ما مصرُ إلا منزلٌ مستحسنٌ فاستوطنوه مَشْرِقًا أو مَغْربا
هذا وإن كنتم على سَفَرٍ بهِ فتيمَّموا منه صَعيدًا طيبًا

وقد اقتبس الشطر الأخير من الآية القرآنية : (فتيمموا صعيدًا طيبا) وهو لا يريد معنى الصعيد فى الآية وهو وجه الارض وإنما يريد صعيد مصر ووجهها القبلى ، وهى تورية بديعة ، ومن ذلك قوله :

حَزِنَ الخزَّانُ لما أن رأى نِيلَنا قد عمَّ سهلا وجَبَلْ
ورأى الأرض لنا قد أخرجتْ سُنْبلاتٍ ذاتَ حَبٍّ فاختَبلْ
وبكى إذ رَمِدتْ أعيُنُه زادها اللهُ عروقا وسَبَلْ

والسبل : داء يصيب العين بغشاوة كأنها نسج العنكبوت بعروق حمر ، وهو لايريد هذا المعنى فهو لايريد الدعاء على الخزان وإنما يريد الدعاء لأرض مصر ونيلها وأن تزيد عروق قمح وسَبَل كما تقول العامة أو سنبلات . ومن تورياته :

شهرُ الصيام تولّى فراقُه يومُ عيدى
فقيل شيْءْ بستٌ فقلت أيضا وسيدى

وكلمة « ست » لها معنيان معنى قريب هو الأيام الستة البيض التى تصام نفلا بعد رمضان ، ومعنى ثان هو السيدة ، وقد وجه العبارة إلى هذا المعنى كما يشهد بذلك الشطر التالى . ولم تُغْنَ كتب الأدب والتراجم برواية شيء من بلاليقه . ومن موالياته :

مَزَجْت يوما مع الحِبِّ الرشيق القَدّْ وقلت آهى على من قَبَّلكْ فى الخدّْ
فسَلَّ سيفو من اَجْفَانو لقتلى حَدّْ قلت انتهى الأمر ياحِبِّى لهذا الحدّْ

وفى كلمة « الحد » الأخيرة تورية إذ لها معنيان : العقوبة مثل كلمة الحد السابقة ، والنهاية المفرطة . ومن موالياته أيضا :

رمى ، أصاب صميمَ القلب زين الزِّينْ وَاَصْبَحْت مُضْنى قلقْ أخشى حلول الحَيْن
وكنت قبلُ خَلِىْ لم أشك وشْك البين سالمْ من العشق حتى صابنى بالعين

ولكلمة « صابنى بالعين » معنيان هما الحسد ، وإصابة المحب لمحبوبه بعينه وسهامها القاتلة . وله مواليات وأشعار مفحشة كثيرة كان يقولها تظرفا لأهل زمنه .

الغُبارى (١)

هو خلف بن محمد الغُبارى عاش فى القرن الثامن الهجرى ، وكان فقيها وعالما وأديبا وشاعرا ينظم الشعر الفصيح ولكنه اشتهر بنظم الزجل . ونرى السلاطين منذ الناصر بن قلاوون يقربونه منهم ، كما نراه ينظم أزجالا مختلفة فى أحداث مصر ، ولايعرف تاريخ وفاته ، ويقال إن مئذنة

(١) انظر فى الغبارى تاريخ ابن إياس فى مواضع متفرقة من القرن الثامن الهجرى ، وراجع زجلا له فى عقود اللآل للنواجى ص ٢٥٥ وكتاب « الزجل والزجالون » لأبى بثينة ص ٢١ .

المسجد بقلعة الجبل سقطت عليه فمات ودُفن تحت أنقاضها ، وهو يعد أستاذ فن الزجل لزمنه ، فعنه تلقاه كثير من المصريين ، ويبدو أنه نظمه فى موضوعات كثيرة : فى المديح والرثاء والأحداث السياسية ، ومن زجل له فى مديح السلطان شعبان (٧٦٤ – ٧٧٨هـ) وكان محبوبا من رعيته :

حُبّ قلبى شعبان موفَّق رشيدْ وجمالو أشرقْ ومالو حدودْ
وأبوه الحسن وعمه الحسينْ وارث الملك من جُدود لجدود
زَعَقِ السعد بين يَديك شاويشْ فرح القلب بعد ما كان حزين
ونصَبْ لك كرسى على المملكه وظهَرْ لك نصره بفتحو المبين
والعصايب من حولك اشتالتْ – خفقت فى الركوب عليك – البنود
فاحكم احكم فى مصر ياسلطان فجميع الجنود لحسنك جنود

والشاويش : رتبة عسكرية ، ويريد الغبارى أن السعد مثل بين يدى السلطان شعبان مؤتمرا بأمره ، ويقول إن العصابات أو جماعات الفرسان والرجالة اشتالت أى رفَعت البنود والأعلام كناية عن أنه أصبح فى مصر صاحب الأمر والنهى والسلطان . ونراه متصلا بابنه السلطان على (٧٧٨ – ٧٨٣هـ) ناظما الأزجال فى الأحداث الكبرى لأيامه ، من ذلك زجل طويل نظمه فى وقعة العربان بالبحيرة القريبة من الإسكندرية ، وفى مطالعه يقول :

جا الخبَرْ يوم الأربعا بأنُّو فى ليلة الأحَدْ
جا دمنهور عرب خَلوا سوقها وأخربوا البلد
وابن سلام أميرهم هو الذى للجميع حشَدْ
فبرز أيتمش سريع بمماليك وجند نُوَبْ
وعُدد مالها عدد ويطلبوا لهم طلب
حضروا ما التقوا أحَدْ من جميع العرب حضَرْ

وله وراء ذلك أزجال كثيرة فى النصائح والوصايا والحكم ، ولعلها أروع مما أنشدناه ، إذ كانت تنفصل من روحه ومن خبرته بالحياة ، وكأنما يريد بها إلى حسن التربية وإحكام السلوك والانتفاع بخبرة الآباء والأسلاف وتجاربهم فى الحياة ، من مثل قوله فى زجل طويل :

فى الناس رَأينا للخير معادنْ والشرّ يوجد فى كَتر مِثْلُهْ

وآنْ رُمْت جوهر فى الشخص مكنونْ   فجوهر الشَخص حسن فِعْلُهْ
وآن كان تريد صحة المعانى   وشرح ما فى البيان محرَّر
خُدْ فرع بإيدك من أصل حنّظل   وازرع جذوره فى أرض عنّبر
واسقيه بماء بان وورد ممزوج   وعقد جُلّاب وحَلّ سُكَّر[1]
وحينْ تشوفه عقد ثماره   وآن أوانـه وحـلّ فصـلُهْ
ذُوقُهْ تراه مُرّ والسبب فيه   مايرجع الفرع إلا لأصله

ولغة هذا الزجل تختلف عن لغة الزجْلين السابقين ، فهى أكثر خفة وقربا من اللغة العامية المصرية ، وليس ذلك فحسب فهى تكتظ بالصور والاخيلة البديعة ، وكأننا بازاء شاعر بارع يحسن تأليف الصور وايرادها فى موضع البراهين الساطعة ، ومن طريف حكمه ووصاياه فى هذا الزجل نفسه قوله ناصحا صادقا :

لاتحتـــقـــر أىّ ابـن آدم   فى طول حياتك ولا تذمُّه
كم حى خامل تقول عليه   مايعرف اسم البهيم من اسمهْ
وآن جيتْ صاحبتُه فى يوم يبانْ لك   تظهر معارفه وينجلى علمه
ويشبه الروض حين يبدو شوكه   والورد مستور من تحت سِلُّهْ
والبحر تلقى الـرّمَمْ تعومْ به   والدرّ غايص مخلوط برَملَهْ

وهى وصية نفيسة أن لايبادر الإنسان إلى الحكم حكما سريعا على شخص دون تبين حقيقته ومعرفة جوهره ، والسُّلُّ فى العامية : الشوك . وبمثل هذا الزجل كان الغبارى إمام فنه فى زمنه غير مدافع .

---

(١) البان : شجر مقدود الأغصان تشبه به الحسان .
والجلاب : ماء الورد والزهر .

ابن (١) سودون

هو علي بن سودون أكبر شخصية شعبية فكهة في القرن التاسع الهجري عُني في بواكير حياته بحفظ القرآن الكريم وتحصيل العلوم والمعارف حتى أصبح شيخا فقيها ، وعُيِّن إماما بأحد المساجد في القاهرة ، وكان فيه ميل متأصل إلى الفكاهة والهزل وقدرة على نظم الأشعار الهازلة الفكهة ، فشغف الناس به ، وتنافسوا في رواية أشعاره ودعاباته . ولم يلبث أن عُني بجمعها وأضاف إليها بعض حكايات فكهة مكونا من ذلك كتابه أو ديوانه : « نزهة النفوس ومضحك العبوس » وجعله في خمسة أبواب : الباب الأول في القصائد والتصاديق ، ويقصد بالتصاديق مقدماتها وهي قصائد نُظمت بالفصحى ، والباب الثاني في الحكايات الملافيق وواضح من اسمه أنه أقاصيص قصيرة ، والباب الثالث في الموشحات الهبالية كما يقول وهي بالعامية ومثل هذا الباب باب الزجل والمواليا التالي فهو أيضا عامي اللغة . أما الباب الخامس فجعله للطرف العجيبة والتحف الغريبة ، وكأن البابين الثالث والرابع هما الخاصان بالشعر الشعبي العامي وإن كانت العامية عنده تتسرب إلى الباب الأول : باب القصائد ، ومن الطريف أن عاميته شعرا ونثرا تقترب جدا من عاميتنا الحديثة ، وقد يكون في ذلك مايشير إلى أن مصر بلد محافظ . وبدون ريب يصور ابن سودون في كتابه مزاج المصريين الفكه . وفكاهته تقوم على ضروب من المفارقة المنطقية تجعلك تشعر بغير قليل من فقدان التوازن على شاكلة قوله في وصف الربيع وجمال طبيعته :

إلى الربيع أرى الأهواء تَلْويني	لما بدا زَهْرُه في حسن تلوينِ
قد عطَّر الأرضَ نَشْرُ الفول حين سرتْ	نُسَيْمَةٌ سحرا منه تُحَيِّيني
كأن زهرته أمُّ الخُلول إذا	فَلَّقتَها فوق نَعْناعٍ بصَحْنُونِ
وكاد يشبه تاجُ القمح باميةً	لولا شعورٌ كأعراف البَراذين (٢)
واعجبْ من الماء وَسْط البحر كيف غدا	يمشي بلا قدمٍ سَحْبًا على الطِّينِ
مُسَلْسلا قد جَرى ياصاح منطلقا	فاعجبْ لمن جمع الضِّدَّيْن في حين

---

(١) انظر في ابن سودون شذرات الذهب ٣٠٧/٧ ومقالين لنا في تحليل ديوانه بمجلة الكاتب العددين رقم ١٠ ، ١٢ وراجع كتابنا الفكاهة في مصر ص ٦٧ وديوان نزهة النفوس ومضحك العبوس مطبوع في القرن الماضي وطبع حديثا .

(٢) البراذين : جمع برذون وهو البغل .

ومن يراه يتحدث عن الربيع والزهر فى البيت الأول يظن أنه سيستمر فى الحديث عن الجمال الهاجع فى الطبيعة وأزهارها وورودها ورياحينها ، وإذا هو يسقط به إلى النشر الفائح من نبات الفول وإلى زهره الذى يشبه صَدَفَة أم الخلول التى يَطْعمها المصريون واضعين على الخلول النعناع والبهارات . أما القمح فتشبه سنابله البامية : الخضار المعروف ، لولا مايتدلّى من سنابله من شعور كأعراف البغال والخيل . ويعجب عجبا لاحد له من جريان الماء على الطين ، ويسمى الماء مسلسلا إذا جرى منحدرا . ويستغل الكلمة ابن سودون إذ لها هذا المعنى ومعنى ثان من السلسلة بمعنى مقيدا بالسلاسل .

ونحن فى أثناء ذلك كله نضحك ، لما أصاب توازننا المنطقى من اختلال ، وكأنما الأشياء تهوى أمامنا من حالق . ومن ذلك قوله .

عجبٌ عجبٌ هذا عجبُ ... بَقَرا تَمشى ولها ذنبُ
ولها فى بُزَّيْزها لَبَنٌ ... يبدو للناس إذا حلبوا
من أعجب ما فى مصر يُرَى الـ ... ـكَرْمُ يُرَى فيه العِنبُ
والنَّخْلُ يُرَى فيه بَلَحٌ ... أيضا ويُرَى فيه رُطَبُ
والمركبُ مَعْ ماقد وَسَقَتْ ... فى البحر بحبلٍ تنسحبُ
والناقةُ لا منقارَ لها ... والوزَّةُ ليس لها قَتَبُ

وحين نقرأ قوله عجب ، نظن أنه سيعرض علينا بعض العجائب فإذا هو يعرض بديهيات غاية فى البداهة ، فى صورة مغرقة من التباله . ونحس كأن عُدْوانا أصاب منطقنا أو وقع عليه ، فالبقرة تمشى ولها ذنب وضرع مملوء لبنا ، وشجر الكرم يحمل العنب ، وعلى النخل البلح بُسْرا ورطبا ، والملاحون يجرُّون بحبالهم المركب الموسوق ، والناقة لا منقار لها وكأنه كان يظنها بجسمها الضخم من الطير . ويظن الإوزة من الإبل تمشى على أربع ، ويتساءل عن قتبها أو رحلها . وكل هذه مفارقات تعتدى على منطقنا فنفقد توازننا ونستغرق فى الضحك لهذا الهزل الذى يُلْغَى فيه المنطق السديد إلغاء .

ومن طريف هزل ابن سودون ومفارقاته المنطقية المتناهية فى الإضحاك . وصفه لحفل زواجه وقبح زوجته على هذا النمط :

حَلَّ السرورُ بهذا العَقْد مبتدرا ... ونجمُ طالعه بالسَّعْد قد ظهَرا

و« الفُلُّ » كلَّل وجهَ الأرضِ فانعطفتْ ... أغصانهُ بالتهانى تنثرُ الزَّهرا
والطيرُ من فَرْحِها فى دَوْحِها صدحتْ ... بكل عودٍ عليه لاترى وتَرا
تقول فى صَدْحِها : دام الهنا أبدًا ... على العرايس كى يَقْضوا به الوطَرا
هذا وعقلُ عروسى كان أصغر من ... عقلى ولكن حوتْ فى عمرها كِبَرا
فى السنِّ قد طَعَنَتْ ماضَرَّ لو طُعِنتْ ... بالسِّنِّ من رمحٍ أوسيفٍ إذا بَتَرا
فى وجهها نَمَشٌ فى أذنها طَرَشٌ ... فى عينها عمَشٌ للجفن قد سِترا
ياحُسْنَ قامتها العَوْجا إذا خطرتْ ... يومًا وقد سَبْسَبَتْ فى جِيدها شعرا
تظلُّ تهتف بى : حَسْنَا حَظِيتَ بها ... أوَّاهُ لو حاسَها موتٌ لها قَبَرا

وهو فى أوائل الأبيات يجعل السعد رفيقا له كما يجعل الطبيعة ترقص طربا لزفافه على عروسه ، فالأشجار تنثر أزهارها فرحا والطير تصدح على أعوادها داعية للعروسين بدوام الهنا أبدا . ونفاجأ بعد ذلك بمفارقة منطقية شديدة ، فالعروس عجوز شمطاء صَمَّاء فى وجهها نَمَشٌ وفى عينيها عمش وقد حَنَى قامتها الهرمُ . ومع كل هذا القبح تظل تهتف به أن يحمد الله على حظوته بها ، ويتمنى لوطُعنت بسيف أو حازها الموت ودفنت فى التراب إلى غير مآب

وعلى نحو هزل ابن سودون فى تصويره لحفل قرانه نراه يهزل فى رثائه لأمه هزلا ، يبعث على الابتسام بل على الضحك والإغراق فيه ، يقول :

لموت أمىٍّ أرى الأحزان تَحْنِينى ... فطالما لَحَسَتْنِى لَحْسَ تَحِنِينِ
وطالما دلَّعتْنِى حال تربيتى ... خوفا على خاطرى كي لا تبكِّينِى
أقول : « مَمْ مَمْ » تجى بالأكل تُطْعمنى ... أقول : « أمبو » تِجى بالماء تَسقِينى
إن صحتُ فى ليلةٍ « وَأْوَأْ » لأُسْهِرَها ... تقول « هُوهُو » بهزٍّ كى تُنَيِّمِنى
كم كحَّلتْنى ولى فى جَبْهتى جعلتْ ... « صوصو بنيلَى » وكم كانتْ تحنِّيِنى
ومن فقيهىَ إن أهْرِبْ ورام أبى ... مَسْكى وبَعْثى له كانتْ تخبِّيِنى
وزَغْرَدَتْ فى طهورى فرحةً وغدتْ ... تنثِّر الملح من فوقى وتَرْقِينى
وخلَّفَتْنى يتيما ابنُ أربعةٍ ... وأربعين سِنِينًا فى حِسابِينى

والمرثية طويلة اقتصرنا منها على هذه الأبيات وكلها على هذا النحو عدوان على ما نألف فى الرثاء عامة ، إذ بدلا من أن يحمل كل بيت صرخة ألم أو دمعة حزن تتحول المرثية كلها هزلا

ودعابة . وكأنما ينظمها فى عيد من أعياد أمه فهو يذكّرها بأيام طفولته وكيف كان يقول لها « مَمّ » فتأتى له بالطعام « وأمبو » فتأتى له بالماء ، وكيف كان يبكى على صدرها وهى تهزه فى حنان ، كما يذكّرها بأيام صباه ، وكيف كانت تدلّى من شعره تعويذة على جبهته ، وكيف كانت تخبئه حين يهرب من الكتّاب . ويذكّرها بيوم ختانه وزغاريدها فيه وكيف كانت تنثر فوقه الملح بركة ، وتَرقيه من شر كل مايؤذيه . وكل هذه مفارقة شديدة للرثاء وموقف الموت الوقور الحزين ، فإذا ابن سودون يهزل فنضحك ونتمادى معه فى الضحك . وقد جاء فى المرثية ببعض كلمات الأطفال ، وهو يكثر من لغتهم فى هزله كقوله :

ولما أن كبرتُ بحمد رَبِّى وصار لِمُنْتَهى عقلى ابتداءُ
بقيتُ أقول : نُنُّو تُتُّو تاتَهْ ودَحُّو كخْ وأُمْبُو مَمَّ آءُ

والكلمات كلها من لغة الأطفال قبل نطقهم بالكلام ، ومعنى كلمة دح فى اللهجة المصرية العامية حسنا كلمة كخ قبيح ولاتفعل . والحق أن ابن سودون كان جَعْبَة هزل وفكاهة ، وقد بَنَى فكاهته على المفارقة المنطقية فنحس دائما بعدوانه على منطقنا ببلاهته ، ونشعر كأنما الأشياء من حولنا تَهْوِى من أبراج عالية ، هى أبراج المنطق والعقل الواعى ، فنضحك ونسترسل فى الضحك .

الفصل الخامس

النثر وكُتّابه

١

الرسائل الديوانية

ظلت مصر فى عهد ولاتها من قبل الأمويين والعباسيين لا تعرف من الدواوين سوى ديوانى الخراج والبريد ، وكانت الكتابة فى الديوان الأول باليونانية إلى أن تعرب فى عهد الوليد بن عبد الملك ، وعادة كان القائمون عليه وعلى ديوان البريد يجلبهم الولاة معهم من العراق[1] ، وبحق يقول القلقشندى إنه « لم يصدر عنهم مايدوَّن فى الكتب وتتناقله الألسنة[2] » . ومرجع ذلك – كما لاحظ – أن الولاة لم يهتموا حينئذ باتخاذ ديوان للإنشاء . يوظَّف فيه كتاب مجيدون وتصدر عنهم رسائل محبَّرة .

حتى إذا ولى مصر أحمد بن طولون وأسس بها دولته الطولونية وامتد سلطانه إلى الشام وعلا شأنه أقام ديوان الإنشاء ورفع مقداره كما يقول القلقشندى[3] ، واتخذ فيه جماعة من مهرة الكتاب على رأسهم أحمد بن محمد بن مودود المعروف باسم ابن عبد كان . ويشهد اسمه بأنه فارسى الأصل ، إذ الكاف فى الفارسية القديمة تدل على التصغير والألف والنون على النسبة ، فعبدكان يقابلها فى العربية عبيدى . وقد ظل قائما على ديوان الإنشاء بعد وفاة ابن طولون فى عهد ابنه خمارويه حتى توفى فخلفه على الديوان إسحق بن نُصَيْر الكاتب البغدادى .

وابن عبد كان يبتدئ بمصر سلسلة كتابها المشهورين ، ودوَّت شهرته منذ زمنه لا فى مصر وحدها بل أيضا فى العراق ، إذ نجده بعد نحو قرن من الزمان يُقْرَن إلى أبى إسحق الصابى كاتبها حينئذ . وإذا رجعنا إلى رسائله الديوانية وجدناه يُعْنَى فيها بالسجع، وقد يتخفف منه فيستخدم

(١) انظر كتابنا « الفن ومذاهبه فى النثر العربى » (طبع دار المعارف) ص ٣٤٥ وما بعدها .

(٢) صبح الأعشى ١/٩٥

(٣) صبح الأعشى ١/٩٥ و١١/٢٨ .

الازدواج من حين إلى آخر ، وسجعه خفيف . ويمده بغير قليل من التصاوير[١] ، وتوقف القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى ليذكر عنه كيف وضع رسوم الدعاء فى افتتاح الرسائل وكيف تبتدئ أجوبةُ الكتب[٢] . وكان أهل بغداد فى زمنه يغبطون عليه مصر ، ويقولون إن بها كاتبا – يقصدون ابن عبدكان – ليس لأمير المؤمنين بمدينة بغداد مثله[٣] . وكانت رسائله متداولة بين الكتاب حتى زمن ياقوت فى القرن السابع الهجرى[٤]

ونمضى إلى زمن الدولة الإخشيدية وقد ترتب ديوان الإنشاء وكثر الكتاب فيه ، غير أن أحدا منهم لم يشتهر شهرة ابن عبدكان ، ومن كتاب الديوان حينئذ إبراهيم بن عبد الله النجيرمى ، واشتهر برسالة طويلة له ، ردَّ بها على رومانوس حاكم بيزنطة ، وكان قد أرسل إلى الإخشيد رسالة يفتخر فيها ويمنّ عليه بأنه كاتبه وعادته أن لايكاتب إلا خليفة ، فكال له النجيرمى الصاع صاعين ، ولإعجابه برسالته كتب منها نسخا وأرسلها إلى العراق مفاخرا بها مباهيا[٥]

ويستولى الفاطميون على مقاليد الأمور بمصر منذ منتصف القرن الرابع الهجرى ويعظم ديوان الإنشاء فى زمانهم لاتساع دولتهم من أقاصى المغرب إلى نهر الفرات وامتداد سلطانهم إلى الحجاز واليمن وأيضا لأنهم كانوا أصحاب نحلة شيعية غالية اتخذوا لها دعاة كثيرين فى العالم العربى ونظموا الدعوة لها تنظيما دقيقا ، فكان من الطبيعى أن يهتموا اهتماما واسعا بديوان الإنشاء القائم على كل شئون الدولة السياسية والإدارية والمذهبية ، وفى ذلك يقول القلقشندى : « لما ولى الفاطميون مصر صرفوا مزيد عنايتهم لديوان الإنشاء وكتَّابه ، فارتفع بهم قدره ، وشاع فى الآفاق ذكره ، ووليه عنهم جماعة من أفاضل الكتاب وبلغائهم ما بين مسلم وذمى[٦] » . وكانت لصاحب هذا الديوان منزلة كبرى لدى الفاطميين ، فكان لايتولاه – كما يقول القلقشندى – إلا أجلُّ كتاب البلاغة ، ويخاطب بالأجلِّ ويلقب بكاتب الدَّسْت ، والدست صدر المجلس إشارة إلى أنه فى الصدر من مناصب الدولة « وكان أول أرباب الإقطاعات فى الكسوة والرسوم والملاطفات .. وله حاجب من الأمراء والشيوخ ، وله فى مجلسه المرتبة العظيمة والمخادّ والمسند والدواة العظيمة

---

(١) الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ٣٤٩ ومابعدها .

(٢) صبح الأعشى ١٦٠/٨ ومابعدها .

(٣) صبح الأعشى ١٧/٣

(٤) معجم الأدباء ٨٥/٦ .

(٥) المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد : القسم الخاص بالفسطاط (طبع جامعة القاهرة) ص ١٦٧ وما بعدها .

(٦) صبح الأعشى ٩٦/١ .

الشأن ، ويحمل دواته أستاذ من خواص الخليفة عند حضوره إلى مجلس الخلافة »[١] . وكانت تساعده طائفة من الكتاب البلغاء . وبلغ من اهتمام الفاطميين بهذا الديوان أن ألحقوا به دائما أكبر النحاة واللغويين فى أيامهم لمراجعة الرسائل قبل صدورها من الديوان ، وممن اختاروه لذلك ابن بابشاذ كبير نحاة مصر ولغوييها فى القرن الخامس الهجرى وخلفه فى مكانه ابن بركات من تلاميذه ، حتى إذا توفى خلفه ابن بَرِّى اللغوى المشهور ، إلى نهاية أيام الدولة الفاطمية[٢] . وكان يلتحق بالديوان بعض الشباب للتدريب فيه على تجويد الكتابة ، حتى إذا جوَّدها شاب وأتقنها أصبح من كتَّابه على نحو ماحدث[٣] للقاضى الفاضل بأخرة من زمن الفاطميين .

وتظل لديوان الإنشاء مكانته فى عهد الأيوبيين ، ويتولاه لصلاح الدين القاضى الفاضل مع قيامه على وزارته ، ويشرك معه العماد الأصبهانى فى الكتابة ، وكان صاحب الديوان حينئذ يسمى كاتب الدَّسْت وكاتب الدَّرْج وهو الورق الذى يكتب فيه . واتسع عمل هذا الديوان اتساعا كبيرا فى عهد المماليك ، مما جعل الظاهر بيبرس يعيِّن ثلاثة كانوا أصحاب الدَّسْت ،حتى إذا تحولت السلطة إلى قلاوون سمى صاحب الديوان كاتب السِّرّ[٤] . ورفع منزلته فوق كتاب الدست . وجعلهم أعلى درجة من كتاب الدرج ، وكان فى كل ولاية كبيرة-لمصر ديوان إنشاء : فى الإسكندرية وفى دمشق وغير دمشق . وظل هذا الديوان قائما إلى نهاية عصر المماليك ، حتى إذا تبعت مصر الدولة العثمانية ضاعت منزلته نهائيا وأصبح أثرا بعد عين .

وفى صبح الأعشى للقلقشندى ثبت بأسماء من تولوا رياسة هذا الديوان حتى زمنه[٥] سنة ٨٢١ وأضاف إليه ابن تغرى بردى من تولوه حتى أيامه[٦] سنة ٨٦٥ وأتمه السيوطى حتى نهاية القرن التاسع الهجرى[٧] ، ووراء هؤلاء الرؤساء كتاب كثيرًا مابذُّوا من كانوا يكتبون بين أيديهم وهم كثيرون . ومرَّ بنا أن ابن عبد كان الذى وضع رسوم الكتابة الإنشائية بمصر لزمن الطولونيين كان يعنى بالسجع فإن تركه فإلى صور من الازدواج ، وظل كتاب الدولة الفاطمية فى القرن الرابع الهجرى يترسَّمون طريقته ، فهم يسجعون ويزاوجون على نحو مايلاحَظ فى الكتب التى كانت تصدر عن المعز والعزيز ، ويبدو أن ابن سورين المسيحى كاتب العزيز والحاكم كان يعنى بالسجع

(١) صبح الأعشى ١٠٢/١
(٢) انظر كتابنا «المدارس النحوية» طبع دار المعارف ص ٣٣٨
(٣) ابن خلكان ٢٢٠/٧
(٤) السلوك للمقريزى ٦٦٦/١ وابن تغرى بردى ٣٣٢/٧
(٥) صبح الأعشى ٩١/١ ومابعدها
(٦) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٣٣٤/٧ وما بعدها
(٧) حسن المحاضرة ٢٣٠/٢

كثيرا[١] ، وإذا مضينا إلى القرن الخامس الهجرى ، وجدنا كتابا يصدر على لسان الخليفة الظاهر سنة ٤١٤ مسجوعا كله ، وربما كان الذى كتبه أحمد بن على بن خيران الملقب بولى الدولة ، وكان يلى ديوان الإنشاء فى عهد الظاهر (٤١١-٤٢٧هـ) والمستنصر إلى وفاته سنة ٤٣١ ، وكان كاتبا شاعرا ، وكان يعتدُّ بشعره وكتابته مما جعله يرسل إلى الشريف المرتضى ببغداد جزء ين من شعره ورسائله ليعرضها على الأدباء هناك ، فإن استحسنوهما خلدهما له بمكتبة دار العلم ، وأعجب هلال بن المحسن الصابئ فيما يبدو برسائله[٢] . ويقول ابن سعيد فى المغرب : « وقفت على رسائله فى مجلدين . وأكثرها من طبقة المغسول »[٣] ويسوق له رسالة عن الظاهر مسجوعة ، ويبدو أن ابن سعيد بالغ فى الحكم عليه ، أو لعله وجد عنده السجع فقط ولم يجد سجعه يزدان بألوان البديع ، ولذلك قال إن رسائله مغسولة أى من زينة البديع ومحسناته ، ومع ذلك فقد روى له قوله فى فصل من إحدى رسائله : « وكان قلمك يَجِفُّ[٤] ولا يجفّ ، وسيفك من ذوى العناد يَكِفُّ[٥] ولايكفُّ ، ووزنك فى سَدِّ ثُلَم الفساد يَرجح ولايخفّ » . والجناس واضح بين يَجِفُّ ويجفّ وبين يَكفُ ويكُفُّ وقد طابق بين يرجح ويخف مما يدل على أن ابن خيران لم يكن يخلى سجعه من محسنات البديع ، فهو ليس مغسولا دائما كما يقول ابن سعيد .

ولعل أهم كاتب خلف ابن خيران بديوان الإنشاء فى القرن الخامس الهجرى ابن أبى الشخباء ولم يكن من رؤساء الديوان بل كان من الكتاب فيه ، وسنترجم له بين كتاب الرسائل الشخصية . واشتهر ابن الصيرفى فى إثره إذ تولى ديوان الإنشاء فى عهد الآمر (٤٩٥-٥٢٤هـ) وسنترجم له عما قليل . وكان يكتب معه ابن قادوس المار ذكره بين الشعراء ، ومازال يرقى فى الديوان حتى أسند إليه الديوان مع الموفق بن الخلّال إلى وفاته سنة ٥٥١ . وكان يعمل معه لزمن ابن الصيرفى الحسن بن زيد الأنصارى وهو حفيد ابن أبى الشخباء من قبل أمه ، وكان كاتبا بليغا واحتفظ العماد الأصبهانى بطائفة من رسائله الديوانية والشخصية[٦] . وقام على ديوان الإنشاء حتى نهاية الدولة الفاطمية الموفق بن الخلّال وفى صبح الأعشى بعض رسائله[٧] ، وعلى يديه تخرّج القاضى الفاضل

---

(١) المغرب فى حلى المغرب (القسم الخاص بالقاهرة - طبع مطبعة دار الكتب) ص ٢٤٩

(٢) معجم الأدباء ٥/٩ وما بعدها

(٣) المغرب (قسم القاهرة) ص ٢٤٧ .

(٤) يجف : يسرع . وفى الأصل يوجف

(٥) يكف : يسيل .

(٦) الخريدة (قسم شعراء مصر) ٧٣/٢ .

(٧) صبح الأعشى ٣١٠/١٠ و٣١٦ وانظر فى ترجمته الخريدة ٢٣٥/١ وابن خلكان ٢٢٠/٧ وشذرات الذهب ٢١٩/٤ .

فى صناعة الرسائل . وظل يرعى له حق التعليم والتخريج إلى أن توفى سنة ٥٦٦ للهجرة .

وكان القاضى الفاضل صاحب ديوان الإنشاء ووزير صلاح الدين وابنه العزيز ومقاليد الأمور كلها بيده فأشرك معه العماد الأصبهانى كما أسلفنا ، وسنترجم لهما بعد قليل ، ومن كتاب الأيوبيين فى عهد الفاضل ابن مماتى وسنترجم له بين كتاب الرسائل الشخصية ، وكتب من بعدهما للأيوبيين جماعة ، منهم البهاء زهير الشاعر الذى ترجمنا له ، ولم تؤثر له رسائل مدونة ، وأشرك معه إبراهيم بن لقمان لعهد الصالح نجم الدين أيوب . ولم يلبث الصالح أن أعفى البهاء ، وظل ابن لقمان حتى نهاية الدولة الايوبية ، وامتازت الكتابة الديوانية فى العهد الأيوبى بأنه تكوَّنت فيها مدرسة جديدة قادها القاضى الفاضل ، والحق أنها ليست جديدة خالصة ، فهى الثمرة النهائية لرقى الكتابة زمن الفاطميين ، إذ نرى الفاضل يكثر من المحسنات البديعية ، وكانت قد بدأت مع ابن خيران كما مر بنا ، وأضاف الفاضل إليها الإكثار من التورية ، وهى أيضا قديمة فى الكتابات والأشعار الفاطمية منذ القرن الخامس على نحو ما مر بنا فى حديثنا عن أشعار الشريف العقيلى . وأُلِّف فى العصر الأيوبى كتابان فى دواوين الخراج وشئونها المالية هما كتابا قوانين الدواوين لابن مماتى ، وسنعرض له فى ترجمته عما قليل ، وكتاب لمع القوانين المضيَّة فى دواوين الديار المصرية لعثمان بن إبراهيم النابلسى ، وكان كاتبا فى دواوين مصر لعهد السلطان نجم الدين الأيوبى (٦٣٧-٦٤٨هـ) .

ويلقانا إبراهيم[١] بن لقمان على ديوان الإنشاء أيام المماليك فى عهد أيبك وقطز وبيبرس ومدة قليلة فى عهد قلاوون ثم نقله إلى الوزارة ، وظل وزيرا لابنه خليل . ثم عاد كاتبا فى ديوان الإنشاء إلى أن توفى سنة ٦٩٣ . وكان يشاركه فى عهد الظاهر بيبرس محيى الدين بن عبد الظاهر ، وهو أهم كتاب المماليك ، وجعله قلاوون كاتب السر ، وظيفة أنشأها لأول مرة ، وسنترجم لابن عبد الظاهر ، وممن كان يكتب بين يديه فى الديوان ابنه فتح[٢] الدين . وخلفه على كتابة السر لعهد السلطان خليل بن قلاوون ، وكتب بين يديه أيضا سِبْطُه شافع[٣] بن على بن عباس ، وهو الذى كتب عن السلطان قلاوون رسالة طويلة إلى السلطان أحمد القان بن هولاكو جواب كتاب كان قد أرسله القان إلى قلاوون يذكر فيه إسلامه وأنه حرَّم على عساكره الغارات على البلاد[٤] .

---

(١) انظر فى ابن لقمان صبح الأعشى ١١١/١٠ والنجوم الزاهرة ٥٠/٨ .

(٢) انظر فى فتح الدين حسن المحاضرة ٥٧٠/١ والنجوم الزاهرة ٣٥/٨ وصبح الأعشى ٣٣٩/١٣ وشذرات الذهب ٤١٩/٥ .

(٣) راجع ترجمته فى فوات الوفيات ٣٧٦/١ .

(٤) صبح الأعشى ٢٣٧/٧

ويلمع فى رياسة ديوان الإنشاء بمصر ودمشق مُنذ عهد السلطان خليل المتوفى سنة ٦٩٣ حتى نهاية القرن الثامن غير كاتب من أسرة فضل الله العمرى . وأول من ولى كتابة السر منها أو بعبارة أخرى رياسة الديوان عبد[١] الوهاب بن فضل الله العمرى ، وظل يشغل هذه الوظيفة حتى العقد الثانى من القرن الثامن إذ نقله الناصر بن قلاوون إلى دمشق ووليها بعده من الأسرة فى سنة ٧٢٩ أخوه[٢] محيى الدين يحيى ، وكان يَشرُكه فى كتابة السر ابنه شهاب الدين أحمد ، وفى سنة ٧٣٢ نقلها الناصر فترة قليلة إلى دمشق ولم يلبث أن أعادهما فظلا على كتابة السر حتى سنة ٧٣٨ إذ تغير الناصر على شهاب الدين وأقام مقامه أخاه[٣] علاء الدين ،وظل فى الوظيفة حتى سنة ٧٦٩ وتولاها بعده ابنه بدر الدين[٤] إلى أن توفى سنة ٧٩٦ .

ومن الكتاب المهمين المعاصرين له ابن مكانس ، وسنترجم له بين كتاب الرسائل الشخصية . ويلمع فى أوائل عهد المماليك البرجية اسم القلقشندى صاحب صبح الأعشى ، ولم يتول كتابة السر ولكنه ألمع كاتب بالدواوين فى زمنه وسنترجم له بين كتّاب المقامات . ويتولى رياسة ديوان الإنشاء غير كاتب مصرى وشامى ويتوقف النشاط فيه مع دخول العثمانيين مصر كما أسلفنا . ونعرض طائفة من أنبه كتابه .

ابن[٥] الصيرفى

هو على بن منجب بن سليمان ولد بالقاهرة سنة ٤٦٣ وكان أبوه صيرفيا ، بينما كان جده معدودا بين كتّاب زمنه . ولعله هو الذى وجّهه إلى اتخاذ الكتابة الديوانية حرفة له . ولا بد أنه جمع له من أسبابها وأدواتها الثقافية ماجعله يتقنها سريعا ، والتحق بديوان الجيش وعنى به صاحبه صاعد بن مفرج ، وعمل فى ديوان الخراج . وتنبه له وزير مصر لأيامه الأفضل بن بدر الجمالى (٤٨٧–٥١٥هـ) فنقله إلى ديوان الإنشاء ، وأعجب به متوليه سناء الملك أبو محمد الحسنى

(١) النجوم الزاهرة ٢٤٠/٩

(٢) انظر ترجمته فى فوات الوفيات ٤٦/٢

(٣) النجوم الزاهرة ١٠٢/١١

(٤) النجوم الزاهرة ١٤٠/١٢ .

(٥) انظر فى ابن الصيرفى وترجمته ورسائله معجم الأدباء ٧٩/١٥ وتاريخ مصر لابن ميسر فى مواضع مختلفة وحسن المحاضرة ٦٠٤/١ وصبح الأعشى ٩٧/١ ، ٢٣٧/٨ - ٢٤١ ، ٣١٦ - ٣٢١ ، ٣٢٤ ، ٣٢٩ وخطط المقريزى ٢١٤/٢ والمغرب لابن سعيد (قسم القاهرة – طبع دار الكتب المصرية) ص ٢٥٢ وراجع كتابيه قانون ديوان الرسائل (طبع مصر) والإشارة إلى من نال الوزارة (طبع المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة) .

الزيدى ، فأسند إليه كتابة التقاليد والمراسيم والتوقيعات ، حتى إذا توفى الخليفة الفاطمى المستعلى سنة ٤٩٥ وولّى الأفضل الجمالى ابنه الآمر (٤٩٥-٥٢٤هـ) وهو فى الخامسة من عمره حينئذ نرى ابن الصيرفى هو الذى يكتب السجل بوفاة المستعلى وولاية الآمر . ويُقرأ سجله على رءوس كافة الأجناد والأمراء ويضيف إلى ذلك كتابا عن الآمر عند استقراره فى الخلافة بعد أبيه بأنه فوّض إلى الأفضل الجمالى وزيره تدبير شئون الدولة والرعية . ويكتب كتابا ثانيا إلى ولاة الأطراف بعد كتابة السجل أو العهد وتفويض الأمور إلى الأفضل مهنئًا فيه بخلافة الآمر وتجديد ولايته . ويسجل القلقشندى فى صُبْحه طائفة أخرى من كتب ابن الصيرفى فى البشارة بسلامة الخليفة فى مواسم رمضان إذ كانت تكتب فى مواكب الجمعة الأولى والثانية والثالثة وكذلك فى عيد الفطر وعيد النحر ، وحذف القلقشندى من تلك الكتب اسم الخليفة ، وقد ظل يعمل فى ديوان الإنشاء لعهد الآمر برياسة الشيخ ابن أسامة ، حتى إذا خلفه فيه ابنه أبو الرضا شركه فى رياسة الديوان ، ثم انفرد برياسته لعهد الحافظ (٥٢٤-٥٤٣هـ) . ويبدو أنه ظل يعمل فيه حتى توفى سنة ٥٤٢ . ويذكر ياقوت أنه توفى لأيام طلائع بن رزيك وزير الخليفة الفائز بعد سنة ٥٥٠ ولعل التاريخ الأول لوفاته هو الصحيح .

وكان ابن الصيرفى كاتباً بليغاً بل يُعَدّ أبلغ الكتاب المصريين زمن الفاطميين ، وفيه يقول ياقوت : «أحد فضلاء المصريين وبلغائهم مسلَّم ذلك له غير منازع فيه . . وله رسائل أنشأها عن ملوك مصر تزيد على أربع مجلدات» ويشيد ابن سعيد فى المغرب ببلاغته قائلاً : «وقعت على ترسله فى مجلدات عدة ، فوجدت [القاضى] الفاضل البيسانى ينسج على منواله وينزع منزعه» وسنعرف عما قليل أن القاضى الفاضل أبرع كتاب مصر فى هذا العصر . وتتضح مهارة ابن الصيرفى البيانية فى أول كتاب احتفظ له القلقشندى به ، وهو السجل الذى كتبه على لسان الآمر بوفاة الخليفة المستعلى وولايته الخلافة بعده سنة ٤٩٥ وقد استهله بحمد الله والصلاة على الرسول وعلى آله الطيبين الطاهرين الأئمة المهديين ، يقصد آباءه من الخلفاء الفاطميين ، ويقول إن الله استرعى الأئمة هذه الأمة مشيراً بذلك إلى أن الله اصطفاه لهداية الناس ، ويصلّى على جَدّه لأبيه على بن أبى طالب ، ويقول «إن الله أكرمه بالمنزلة العلية ، وانتخبه للإمامة رأفة بالبرية ، وخصَّه بغوامض علم التنزيل ، وجعل له مبرة التعظيم ومزية التفضيل» . وكل ذلك ترداد لما كان يبدىء الفاطميون فيه ويعيدون من تفضيل علىٍّ بن أبى طالب على أبى بكر وعمر وغيرهما من جِلّة الصحابة ، وأن الله خصه بعلم فوق العلم الدينى المعروف للأمة ، به يعرف المعنى الحقيقى للقرآن أو المعنى الخ

يعلو على الفهم العادى ، ويشيد ابن الصيرفى على لسان الآمر بنشر أبيه المستعلى للعدل بين الرعية ، ويصور فداحة الرزء به والفجيعة فيه ثم يقول :

«وقد كان الإمام المستعلى بالله – قدَّس الله روحه – عند نقلته ، جعل لى عقد الخلافة من بعده ، وأودعنى ما حازه من أبيه عن جده ، وعهد إلىّ أن أخلفه فى العالم ، وأُجْرى الكافة فى العدل والإحسان على منهجه المتعالم ، وأطلعنى من العلوم على السر المكنون ، وأفضى إلىّ من الحكمة بالغامض المصون ، وأوصانى بالعطف على البرية ، والعمل فيهم بسيرته المرضيَّة ، بما جبلنى[1] الله عليه من الفضل ، وخصَّنى به من إيثار العدل ، وإننى – فيما استْرعِيتُه – سالك منهاجه ، عامل بموجب الشرف الذى عَصَب الله لى تاجه» .

والسجل أو العهد كله بهذه اللغة الصافية المسجوعة ، لا غرابة فى كلمة ولا نبو فى لفظ ، بل ينساب الكلام فى فيض من البراعة البيانية ، وفيه يقرر ابن الصيرفى على لسان الآمر أن الخلافة انتقلت إليه بالوراثة عن آبائه ، وأن أباه عَهِدَ إليه بها ، فهو يخلفه عن عَهْد أو وصية ، وعند الفاطميين وجميع الشيعة أن الرسول أوصى بالخلافة لعلى وأنها تنتقل بالوصية من الأب إلى الابن . ويقول ابن الصيرفى على لسان الآمر إن الله أطلعه من العلوم على السر المكنون ومن الحكمة على الغامض المصون ، مشيراً بذلك إلى عقيدة الفاطميين فى أن الأئمة يتميزون من الناس بعلم باطنى يتوارثه إمام بعد إمام متنقلاً من جيل إلى جيل ، وهو عندهم علم لا يشمل أمور الدين وحقائقه فحسب ، بل أيضاً يتَّسع ليشمل حوادث العالم حتى يوم القيامة ، وهو ما يفرض لهم على الناس طاعة واجبة لا تحدها حدود ، طاعة بدون قيد أو شرط .

وتتوالى كتب ابن الصيرفى فى الجزء الثامن من صبح الأعشى يكتبها فى وصف خطابة الآمر وصلاته فى جُمَع شهر رمضان وفى عيد الفطر وعيد النَّحْر أو الأضحى وفى وفاء النيل . ولا نراه يعود إلى مثل الإشارات السالفة للعقيدة الفاطمية الإسماعيلية ، ويبدو أنه لم يكن غالياً فى العقيدة أو لعل القلقشندى حذف مما دوَّنه من كتبه ورسائله غلوه . ولم يكن كاتباً بليغاً يكتب الرسائل الديوانية فحسب ، بل كان أيضا يكتب رسائل أدبية طريفة ، وقد أشار إليها ابن سعيد فى المغرب حين قال : «له تصانيف مشهورة صغار ظراف» ويبدو أنه كان قد صنَّفها للوزير الأفضل بن بدر الجمالى صاحب الأيادى السابغة عليه ، وله فيه إشادات مختلفة سجلها فى رسائله الديوانية التى

(١) جبلنى : خلقنى .

أشرنا إليها وردَّدها مرارا وتكرارا ، وقد ذكر ابن سعيد من تصانيفه كتاب « لُمَح المُلَح »[١] وأورد من نثره فيه قوله :

« جرت العادة فى الغِطاس ، إعمال الكاس والطاس ، وهذه الآلة - إذا فقدت الراح - بمنزلة أجسام عدمت الأرواح ، فداوِ بإحيائها قلبا لى قريحا ، وإذا كانت عازَر فكُنْ مسيحا » .

والغطاس عيد من أعياد القبط بمصر كان يحتفل بليلته النصارى والمسلمون فى الحادى عشر من شهر طوبة أشد أشهر الشتاء برودة ، وكانوا يكثرون فيه من الملاهى فى الزوارق بالنيل وعلى شاطئيه كما كانوا يكثرون من إيقاد المشاعل والفوانيس مع الاستماع إلى المغنين والمغنيات . وواضح أن ابن الصيرفى يشير إلى ما كان يتخذ فى هذا العيد من اللهو وشرب الخمر فى أوعيتها من الكاس والطاس ، ويقول إن هذه الأوعية إن لم تملأ بالخمر أو الراح كانت أجساما بدون أرواح . وكأنه يطلب خمرا من صديق ، فيقول له : داوِ بإحيائها قلبا لى جريحا ، يطلب منه أن يبث فى دنانه الحياة التى عدمتها بفقدانها الراح . ويقول إنها أصبحت مثل الميت المعروف باسم عازر الذى أحياه المسيح ، فأحيها وابعثها من جديد . ويذكر ابن سعيد من رسائل ابن الصيرفى الأدبية التى صنفها للأفضل الجمالى رسالة بعنوان « منائح القرائح » وينقل من صدرها قوله :

« أولى ماتُقُرِّبِ به إلى الله تعالى الإكثار من تحميده ، والإقرار بربوبيته وتوحيده ، والصلاة على نبيه محمد الذى عَضده بتأييده ، وخصَّه من الشرف بمالا سبيل إلى تحديده[٢] ، وعلى آله الممنوحين من الفضل مايعجز الواصف عن تعديده ، ثم التوسل إلى ملوك كل وقت بشكر نعمتهم ومواصلة خدمتهم ، وشَهْر خصائصهم التى امتازوا بها عن العباد ، وذكر مناقبهم التى سارت فى الأقطار ونَقَّبت[٣] فى البلاد ، والاجتهاد فيما نفقت[٤] بشريف مقاماتهم سوقه ، والاعتماد على ماظهر سُمُوقه[٥] فى البلاغة وبُسُوقه ، ولاخلاف أن سلطان هذا العصر ، والمخصوص من الفضائل بمالا يدخل تحت الحصر ، مالكُنا السيد الأجلّ الأفضل أمير الجيوش سيف الإسلام ، ناصر الإمام » يقول ابن سعيد : وأخذ فى الاطناب على الأفضل . ويذكر أنه قال من تتمة تقدمته لتلك الرسالة :

---

(١) فى المغرب (قسم القاهرة) : ملح الملح .

(٢) فى المغرب : تجديده

(٣) نقبت : ذهبت وشاعت .

(٤) نفق : راج .

(٥) سموقه وبسوقه : ارتفاعه

« فيجب على كل من صَفَتْ فكرته ، وصحَّت فِطْرته ، وأمكنه استنباط معنى غامض ، واستدلَّ على المحاسن ببَرْقها الوامض ، وعرف موضع الفضيلة فيما يضعه[١] من تصنيف ، وعلم موقع الوسيلة به إلى كل موقف شريف ، أن يُظهر كامن قوّته ، ويُعْمل مطايا رَوِيَّتِه ، فيما يخدم مجلسه[٢] العالى به ، مما يُطْرِب مورده ومسموعه ، ويعجب مؤلفه ومجموعه » .

وواضح أن ابن الصيرفى كان يحسن الكتابة إحسانا بعيدا ، دون أى غرابة فى لفظ ، بل مع السهولة واليسر ، فسجعه خفيف لا غلظ فيه ولا كزازة ، وكأنه يفيض من ينبوع غَدِق ، شرابا يمتع النفس . وكان يوشِّيه أحيانا بالألفاظ القرآنية مثل قوله عن المناقب إنها « نقَّبت فى البلاد » أى مضت وانتشرت أخذا من قوله تعالى : (فنقَّبوا فى البلاد هل من محيص) . واقتباسه للألفاظ والآيات القرآنية واضح فى رسائله . وكثيرا مايوشى سجعه بالمحسنات البديعية وخاصة الاستعارة والتشبيه والجناس والطباق . وأورد ابن سعيد لُغْزًا له فى السيف على هذا النحو : « يبالغ فى شكره إذا أقصد[٣] وجرَّح ، وتقبل فى تزكيته شهادة المجرَّح » . وفى كلمتى التزكية والمجرَّح توريتان واضحتان فالتزكية معنيان . التعديل من قولهم زكى الشهود أى عدَّلهم ، وهو المعنى القريب للكلمة بدليل كلمة الشهادة . والمعنى الثانى بعيد ، وهو الإطراء وهو المراد ، وكذلك لكلمة المجرَّح معنى قريب بدليل كلمة الشهادة وهو الذى لاتقبل شهادته . ومعنى ثان بعيد وهو المجرَّح بالسيف فى الحرب ، وهو أيضا المراد . ولعل فى هاتين التوريتين مايدل على أن ابن الصيرفى كان يستظهر التورية فى نثره أحيانا ومرَّ بنا أن شعراء القرن الخامس وفى مقدمتهم الشريف العقيلى كانوا يستخدمونها كثيرا . وتبعهم فى ذلك الكتاب كما نرى الآن عند ابن الصيرفى . وبذلك يتبين خطأ ابن حجة الحموى حين زعم أن القاضى الفاضل هو الذى ذلل من التورية الصعاب وأنزل الشعراء بساحاتها ورحابها[٤] فقد نزلها شعراء الدولة الفاطمية من قبله وكتَّابها ، وبهديهم اهتدى القاضى الفاضل ، وعن قوسهم رمى .

ولابن الصيرفى كتابان مطبوعان موجزان هما : قانون ديوان الرسائل ، وكتاب الإشارة إلى من نال الوزارة . والكتاب الأول فى نظام ديوان الرسائل وبيان ماينبغى أن يتحلى به رئيسه وموظفوه من ثقافات وصفات مميزة ، وبه مقتطفات من بعض رسائله وهو كتاب نفيس . والكتاب الثانى

---

(١) فى المغرب : يصنفه .

(٢) فى المغرب : محله .

(٣) فى المغرب : أقصد ، وأقصد السهم : أصاب

(٤) خزانة الأدب للحموى (طبعة بولاق) ص ٦٧

يؤرخ فى إجمال لوزراء الدولة الفاطمية ، وهو مع إجماله بالغ الأهمية التاريخية . وأنشد ياقوت لابن الصيرفى بعض أشعار ، وهى تدل على أن ملكته النثرية كانت أخصب من ملكته الشعرية .

القاضى[1] الفاضل

هو عبدالرحيم بن على بن حسن اللخمى أصلا ، العَسْقلانى مولدا ، البَيْسانى نسبة إذ كان أبوه يتولى قضاءَ بَيْسان بفلسطين للفاطميين فنُسب إليها . ويذكر بعض من ترجموا له أنه ولد سنة ٥٢٩ وأكبر الظن أنه ولد قبل هذا التاريخ . كما سنرى بعد قليل . وكان طبيعيا أن يُعْنَى أبوه بتربيته ، وبدأ بإرساله إلى كُتَّاب أو مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم ، وحفظه وحفظ كثيرا من الأشعار . ويبدو أن الأب أحسَّ بميل ابنه إلى الأدب ، فرأى أن يرسل به إلى ديوان الإنشاء بالقاهرة ليتدرب فيه على الكتابة ، وفرح الابن برغبة أبيه : أن يصبح من كُتَّاب الدواوين الفاطمية ، فسافر إلى حاضرة الفاطميين لعهد الخليفة الفاطمى الحافظ (٥٢٤ - ٥٤٣هـ) ويقول الرواة إنه كان فى الخامسة عشرة من عمره ، ونظن ظنا ان سنه كانت أعلى من ذلك على الأقل سنتين أو أكثر حتى يتسنى له أن يهاجر من بيسان إلى القاهرة ، وقد اشتد عوده قليلا وخاصة أنه كان أحدب ضعيف البنية . ويقول الرواة إنه حين ألمَّ بديوان الإنشاء كان يرأسه الموفق بن الخلَّال أحد كتاب مصر المبدعين ، وكان يشركه فى رياسته ابن قادوس الذى ترجمنا له بين الشعراء ، وظلت لهما الرياسة حتى توفى ابن قادوس فانفرد بها الموفق بن الخلال حتى نهاية الدولة الفاطمية .

وعُنى به الكاتبان الكبيران ، وخاصة الموفق بن الخلال ، ويقول القاضى الفاضل إنه سأله فى أول لقاء له : ما الذى أعددت لفن الكتابة من الآلات ؟ فأجابه ليس عندى شىء سوى أنى أحفظ القرآن الكريم وكتاب الحماسة ، فقال له . فى هذا بلاغ ثم أمره بملازمته فمكث يتردد إليه ويتدرَّب بين يديه ، وأمره الموفق بحلِّ شعر ديوان الحماسة ، فحلَّه من أوله إلى آخره ، ولم يزل ابن

---

(١) انظر فى ترجمة القاضى الفاضل ورسائله وشعره عبر الذهبى ٢٩٣/٤ وابن خلكان ١٥٨/٣ وطبقات الشافعية للسبكى ١٦٦/٧ وحسن المحاضرة للسيوطى ٥٦٢/١ والخريدة للعماد الأصبهانى (قسم شعراء مصر) ٣٥/١ والنجوم الزاهرة ١٥٦/٦ وشذرات الذهب ٣٢٤/٤ ونهاية الأرب ١/٨-٥١ وصبح الأعشى (انظر الفهرس) وراجع الكتب التاريخية فى زمنه وخاصة كتاب الروضتين . ونشر له د . أحمد بدوى ديوانه ومختارات محيى الدين بن عبدالظاهر من نثره باسم الدر النظيم من ترسل عبدالرحيم . وله فيه كتاب بعنوان : القاضى الفاضل : دراسة ونماذج ، وانظر كتابنا « الفن ومذاهبه فى النثر العربى » ص ٣٦٨ .

الخلال يدربه حتى أتقن فن الكتابة . ويبدو أنه أحسَّ أن المكانة التى يريدها لنفسه فى ديوان الإنشاء بالقاهرة من الصعب تحقيقها سريعًا لكثرة منافسيه فيه ، فرحل إلى ابن حديد قاضى الإسكندرية ومتولى الأمر فيها لعله يحقق لنفسه مايريد من الشهرة ، ورحَّب به ابن حديد وعهد إليه بالكتابة عنه وظل عنده ثمانى سنوات ، وكانت كتبه تسترعى أنظار موظفى الديوان الفاطمى لفصاحته فيها وحسن بيانه . ويقول الرواة إنها لفتت نظر العادل بن رزيك حين تقلد الوزارة للعاضد آخر الخلفاء الفاطميين سنة ٥٥٦ فأرسل إلى ابن حديد فى طلبه ليعمل فى دواوينه ، وأرسله إليه ، ووظفه رئيسا لديوان الجيش وتوثقت الصلة بينه وبين الوزير . ويبدو أنه انتقل من ديوان ابن حديد إلى دواوين الخلافة بالقاهرة فى وقت مبكر عن خلافة العاضد (٥٥٥ – ٥٦٧) إذ نرى فى الجزء التاسع من صبح الأعشى ص ٣٧٩ عهداً من إنشائه بولاية العهد من خليفة لولده بالخلافة ولم يُذْكَر اسم الخليفة ، وآخر خليفة فاطمى تولى الخلافة بعد أبيه الفائزبن الظافر الذى تقلدها من سنة ٥٤٩ إلى سنة ٥٥٥ ووليها بعده عمه العاضد آخر خلفائهم . وواضح أن هذا العهد يؤكد أن القاضى الفاضل عمل فى دواوين القاهرة على الأقل فى عهد الفائز بل لابد أن يكون قد عمل فيها قبله فى عهد أبيه الظافر (٥٤٣ – ٥٤٩) حتى يمكن أن يكتب عنه هذا العهد . وقد استخلصه الموفق ابن الخلال رئيس ديوان الإنشاء لنفسه فكان يكتب بين يديه . ولا يلبثُ شاور أن يقتل العادل ويستولى على مقاليد الوزارة سنة ٥٥٨ . وينشب خلاف عنيف بين شاوَر وضرغام على نحو مامر بنا فى الفصل الأول من هذا القسم ، ويستنجد شاور والخليفة العاضد بنور الدين صاحب حلب ، ويَقْدُم عليه شاور ويرسل معه بعساكر يقودها أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، وينصرانه . وسرعان ما يعض اليد التى نصرته . وتتطور الأمور ويستعين شاور بالصليبيين مرارا ، ويستصرخ العاضد نور الدين فيرسل إليه شيركوه وابن أخيه صلاح الدين المرة تلو المرة ولكن « شاور » لا يثوب إلى رشده فُيفَتك به ويُقْتَل ، ويتقلد أسد الدين شيركوه الوزارة المصرية للخليفة العاضد .

وفى هذه الأثناء كان القاضى الفاضل يكتب السجلات والتقاليد والمنشورات عن العاضد بين يدى الموفق بن الخلال ، وكان قد أخذ بصر الموفق يضعف جدا حتى أضرَّ ، فأصبح القاضى الفاضل هو المتصرف فى المكاتبات باسم العاضد وفى الجزء التاسع من صبح الأعشى ص ٣٧٩ عهد من إنشائه بولاية العهد من خليفة لولده بالخلافة ، ولم يذكر اسم الخليفة ، وأكبر الظن أنه العاضد ، وتكثر العهود والسجلات من إنشائه فى الجزء العاشر مما كتب به عن العاضد إلى القضاة

والولاة بتقلد أعمالهم ، ومن ذلك العهد الذى كتبه عن العاضد بتولى أسد الدين شيركوه الوزارة فى شهر ربيع سنة ٥٦٤ وتفويض كل شيء إليه ، وأيضا العهد الذى كتبه عن العاضد فى نفس السنة حين توفى أسد الدين فى جمادى الآخرة بتولى ابن اخيه صلاح الدين الوزارة بعده . وكان القاضى الفاضل قد وثّق الصلة به وبعمه ، وأنس به صلاح الدين وتمكن منه غاية التمكن كما يقول ابن خلكان ، فلم يكتف له برياسته لديوان الإنشاء ، بل اتخذه وزيرا ، قلما يبرم شيئا إلا بعد مشورته ، وكان إذا أناب عنه أحدا من أفراد أسرته بمصر فى اثناء غزواته للصليبيين أبقاه معه لإدارة دفة السياسة ، وكثيرا ما كان يصحبه معه فى مواقعه مع الصليبيين ، وخاصة منذ منازلته لهم فى حطين وفتح القُدْس .

وكان القاضى الفاضل اللسان المبين لصلاح الدين طوال حكمه يكتب عنه إلى الخلفاء العباسيين والملوك والولاة مسجلا أحداث زمنه ومبلغا عنه عهوده وسجلاته وتوقيعاته إلى كل من تشملهم راية حكمه من الإسكندرية إلى الفرات وإلى النوبة وأقاصى الصعيد والحجاز واليمن . وبلغ من تقدير صلاح الدين له أن كان يقول لأصحابه ،لاتظنوا أنى ملكت البلاد بسيوفكم ، إنما ملكتها بقلم القاضى الفاضل . وللفاضل كتب كثيرة وجَّه بها إليه ، تفيض بالحب والإجلال والإعزاز ، وكان حاضرا وفاته بدمشق سنة ٥٨٩ ، وبكاه بكاء مرا . وولى بعده على مصر ابنه العزيز فآزره ، وظل عنده فى نفس المكانة التى كانت له عند أبيه والرفعة ونفاذ الأمر ، وتوفى العزيز سنة ٥٩٥ وخلفه ابنه المنصور وكان صبيا فظل على ولائه له وعونه ، حتى قدم الأفضل عمه من الشام . ولم يلبث السلطان العادل أخو صلاح الدين أن قدم إلى مصر بنية أخذها من المنصور وعمه الأفضل فى سنة ٥٩٦ وكانت بينه وبين القاضى الفاضل وحشة كما يقول ابن تغرى بردى ، فدعا الفاضل على نفسه بالموت – فيما يقولون – واستجاب الله دعوته فبينما كان العادل داخلا من باب النصر كانت جنازة الفاضل خارجة من باب زويلة .

وكان الفاضل شاعرًا وله ديوان شعر مطبوع ، كما كان كاتبا ، ودوت شهرته فى الكتابة ، وعُدَّ فيها رئيس مدرسة تبعه فيها المصريون والشاميون ، وفيه يقول العماد الأصبهانى فى كتاب الخريدة : « رَبّ القلم والبيان واللَّسن واللسان ، والقريحة الوقَّادة ، والبصيرة النقَّادة ، والبديهة المعجزة ، والبديعة المطرزة ، والفضل الذى ماسُمع فى الأوائل بمن لو عاش فى زمانه لتعلق بغباره ، أو جرى فى مضماره ، فهو كالشريعة المحمدية التى نسخت الشرائع ، ورسخت بها الصنائع ، يخترع الأفكار ، ويفترع الأبكار ، ويطلع الأنوار ، ويبدع الأزهار » . ويقول النويرى : « إلى القاضى

انتهت صناعة الإنشاء ووقفت ، وبفضله أقَرَّتْ أبناء البيان واعترفت ، ومن بحر علمه رَوِيَتْ ذوو الفضائل واغترفت ، وأمام فضله ألقت البلاغة عصاها ، وبين يديه استقرَّتْ به نَواها ، فهو كاتب الشرق والغرب فى زمانه وعصره ، وناشر ألوية الفضل فى مصره وغير مصره ، ورافع علم البيان لامحالة ، والفاضل بغير إطالة » .

وفيما يلى قطعة من السجل أو العهد الذى كتبه بلسان العاضد آخر الخلفاء الفاطميين مسندا فيه الوزارة إلى صلاح الدين ، يقول بعد أن صوَّر ماقدمه هو وعمه أسد الدين شيركوه للعاضد من عون متحدثا بلسان الخليفة :

« ولو لم يكن لك هذا الإسناد فى هذا الحديث ، وهذا المسند الجامع من قديم الفخر وحديث ، لأغنتْك غريزةٌ ، عزيزة ، وسَجِيّة ، سجيَّة [١] ، وشيمة ، وسيمة [٢] ، وخلائق ، فيها ماتحب الخلائق ، ونحائز [٣] ، لم يحز مثلها حائز ، ومحاسن ، ماؤها غير آسن [٤] ، ومآثر جَدٌّ غير عاثر ، ومفاخر ، غفل عنها الأول ليستأثر بها الآخر ، وبراعةُ لسانٍ ينسجم قِطارها [٥] ، وشجاعة جَنان تضطرم نارها ، وخلالٌ جِلالٌ [٦] عليك شواهد أنوارها تتوضح ، ومساعى لديك كمائم [٧] نَوْرها تتفتّح .. وابْسُطْ يدك فقد فوَّض إليك أمير المؤمنين بسطا وقَبضا ، وارفع ناظرك فقد أباح لك رفعا وخفضا ، واثبت على درجات السعادة فقد جعل لحكمك تثبيتا ودَحضا ، واعقد حُبَى [٨] العزمات للمصالح فقد أطلق بأمرك عَقْدًا ونقضا . وانفُذْ فيما أهَّلك له فقد أدَّى بك نافلة من السياسة وفَرْضا ، وصَرِّف أمور المملكة فإليك الصَّرْف والتصريف ، وثَقِّفْ أودَ [٩] الأيام فعليك أمانة التهذيب والتثقيف » .

وإنما اخترت هذه القطعة من سجل أو عهد كتبه الفاضل سنة ٥٦٤ لأدل على أن خصائص فنه النثرى كانت قد استوت وتهيأت له مبكرة ، وقد استهل القطعة بذكر الإسناد والحديث كأنه يريد أن يحدث تورية ، فهو لايريد الحديث النبوى وإنما يريد ما سبق فى العهد من حديث عن عم صلاح الدين وجهوده التى بذلها للخليفة الفاطمى ، وجعل لصلاح الدين إسنادا فيه لا من السند وإنما من المساندة والمساعدة ، ومضى فى تورياته المتصلة بالحديث النبوى ، فجعل قديم فخر

(١) سجية : خليقة ، وسجية الثانية : دائمة .
(٢) وسيمة : جميلة
(٣) نحائز جمع نحيزة : طبيعة .
(٤) آسن : متغير الطعم .
(٥) قطارها : قطرها ومطرها .
(٦) جلال : عظام .
(٧) كمائم : جمع كميمة وهى غطاء النور والزهر .
(٨) حبى : جمع حبوة ، وهى الثوب يديره الجالس حول ساقيه وظهره للاستناد عليه
(٩) أود : اعوجاج .

صلاح الدين وحديثه مسندا جامعا ، وكتب المساند النبوية معروفة ومنها الجامع الصحيح للبخارى ، وقد جانس بين الحديث أى الكلام السابق وحديث بمعنى جديد والطباق واضح بين كلمتى قديم وحديث . وتتوالى سجعات قصيرة أقامها على الجناس الناقص وكان كلفا بجميع صوره . ويجانس بين خلائق بمعنى طباع والخلائق بمعنى الناس والتورية واضحة فى كلمة الخلائق . وتتوالى جناسات ناقصة وتداخلها بعض التصاوير ، فماءُ المحاسن غير آسن والجَدّ أو الحظ غير عاثر . ويحاول الإغراب والابداع فى سجعه فيأتى بسجعة هى كلمة مفاخر تليها سجعة طويلة يداخلها طباق بين الأول والآخر . ويوغل فى إغرابه وإبداعه ، فيأتى بسجعتين تداخلهما فى صدرهما سجعتان إذ يقول : « وبراعة لسان ، ينسجم قطارها ، وشجاعة جَنان يضطرم نارها » . ويعمد إلى التصوير البارع فى السجعتين التاليتين فشواهد أنوار الخلال أو الخصال تتوضح ، وكمائم نَوْر المساعى وزهرها تتفتح . ويفزع إلى الطباق فى السجعات الخمس التالية وقد تصنع أو تكلف فى استخدامه للطباق بذكره المصطلحين النحويين : رفعا وخفضا ، ولكنه تصنع مقبول ، فقد استظهرهما فى خفة وعذوبة .

ولعل فيما قدمنا مايصور بوضوح خصائص القاضى الفاضل فى كتابته الديوانية ، وهى كتابة فيها روح مصر التى نشأ فى دواوينها وصقل لسانه فى رسائل كتابها من أمثال ابن الصيرفى والموفق بن الخلال ، كتابة ليس فيها ثقل ولا تكلفٌ بعيد ، بل فيها انطلاق وسهولة مع الرونق وصفاء التعبير . وتتردد فى الكتب التى ترجمت للقاضى الفاضل أو عرضت لبراعاته البلاغية عبارات مضيئة بحسنها البيانى كقوله عن صلاح الدين وأسرته :

« أنتم – يابنى أيوب – أيديكم آفةُ أنفس الأموال ، كما أن سيوفكم آفة أنفس الأبطال ، ولو ملكتم الدهر لامتطيتم لياليه أداهم [١] ، وقلَّدتم بيضَ أيامه صوارم [٢] ، وأفنيتم شموسه وأقماره فى الهبات دنانير ودراهم ، وأوقاتكم أعراس إلا على الأموال فهى مآتم ، والجود فى أيديكم خاتم ، ونَفسُ حاتم [٣] فى نقش ذلك الخاتم » .

والقطعة تمتلئ بالاستعارات والتشبيهات الرائعة ، مع مايحفُّ بها من الجناسات والطباقات ، ومع ماصيغت فيه من العبارات الناصعة التى تلذ الألسنة والأفئدة . ومن هذا النسيج البديع قوله من رسالة فى صفة قلعة شاهقة ، اسمها كوكب :

---

(١) أداهم جمع أدهم : يريد خيولا سودا معدة للحرب
(٢) صوارم : جمع صارم وهو السيف .
(٣) حاتم : جواد العرب المشهور

« بهذه القلعة عُقاب فى عِقاب [1] ، ونجم فى سحاب ، وهامة لها الغمامة عمامة ، وأنملة إذا خضبها الأصيل كان الهلال لها قُلامة » .

والجناس واضح بين عُقاب بضم العين وعقاب بكسرها ، وقد استمر فى تشبيهات وتصويرات بديعة ، وقال نقاده : إن قوله : «كان الهلال لها قلامة » أخذه من قول ابن المعتز فى الهلال :

ولاح ضَوْءُ هلالٍ كاد يفضحنا   مثل القُلامة قد قُدَّتْ من الظُّفَرِ

غير أن القاضى أضاف إلى القلامة إضافة بديعة بذكره الأنملة إذا خَضبها الأصيل . ولعل فى ذلك مايشير إلى قدرته على مراعاة النظير فى صياغاته ، وذلك كثير فى كتاباته على نحو مانرى الآن حين ذكر القلامة ذكر معها الأنملة والخضاب . ومن أروع رسائله رسالته ، التى كتب بها إلى الخليفة الناصر يبشره فيها بانتصار صلاح الدين على حملة الصليب فى حِطّين وفتحه العظيم لبيت المقدس .

وللقاضى الفاضل كثير من الرسائل الشخصية ، وسنقف عندها قليلا فى غير هذا الموضع ، ومرَّ بنا أن مخطوطة فصوص الفصول المحفوظة بدار الكتب المصرية تحمل مراسلات كثيرة بينه وبين ابن سناء الملك ، وكان يتخذه ابنا روحيًّا له وذكرنا فى غير هذا الموضع أن بها ملاحظات ومراجعات نقدية كثيرة .

محيى الدين [2] بن عبد الظاهر

هو عبد الله بن عبد الظاهر المصرى من بيت علم وفقه وأدب ، ولد سنة ٦٢٠ وبدأ بحفظ القرآن الكريم مثل لِداته ثم اختلف إلى حلقات الفقهاء والمحدثين وأصحاب التاريخ والسير ، وأحس بميل شديد إلى الأدب وجرى على لسانه الشعر ، وأنس فى نفسه قدرة أدبية ، فالتحق بالدواوين لعهد الأيوبيين ، ولم يلبث أن أظله عهد المماليك ونرى نجمه يتألق فى عهد الظاهر

(١) عقاب بضم العين طائر جارح وبكسرها جمع عقبة وهى المرقى الصعب فى الجبال .

(٢) انظر فى محيى الدين بن عبد الظاهر وترجمته ورسائله فوات الوفيات ٤٥١/١ وتاريخ ابن كثير ٣٣٤/١٣ وشذرات الذهب ٤٢١/٥ والنجوم الزاهرة ٣٨/٨ وحسن المحاضرة للسيوطى ٤٧٠/١ و٣٦٦/٢ ونهاية الأرب : الجزء الثامن فى مواضع مختلفة وصبح الأعشى (انظر الفهرس وخاصة ١٥٦/١ و ١٧٦/١ و ٣٥٦/٧ ، ٣٦٦ ، ٣٠٠/٨ ، ١١٧/١٠ ، ١٦٣ ، ١٦٦ و ١٣٩/١٤ وراجع كتابه تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور قلاوون (نشر وزارة الثقافة) .

بيبرس ، إذ يصبح رئيسا لكتاب الدَّسْت ، ثم رئيسا لديوان الإنشاء ، وتظل له هذه الوظيفة فى عهد السلطان قلاوون وابنه الأشرف خليل حتى يلبى نداء ربه سنة ٦٩٢ . وعنه كانت تصدر العهود والسجلات والتقاليد والمنشورات والتوقيعات نحو أربعين عاما ، مما جعله يضع مصطلحات ديوان الإنشاء لزمنه وبقية زمن المماليك ، وكان ابنه فتح الدين على غراره مهارة بيانية ، ورقى إلى وظيفة كاتب السر لعهد قلاوون وابنه الأشرف خليل . وهى أكبر وظيفة فى الدولة حينئذ ، وسبق أباه إلى رضوان ربه بعام فحزن عليه حزنًا شديدًا .

وقد أشاد بمحيى الدين وبلاغته معاصروه إشادات رائعة ، من ذلك قول النويرى فى نهاية الارب : « كان محيى الدين أجلّ كتاب العصر ، وفضلاء المصر ، وأكابر أعيان الدُّوَل ، والذى افتخر بوجوده أبناء عصره على الأُوَل ، له من النظم الفائق ماراق صناعة وحسنا ، ومن النثر الرائق مافاق بلاغة ومعنى ، فقصائده مدونة مشهورة ، ورسائله بأيدى الفضلاء ودفاترهم مسطورة ، وكلامه كاد يكون لأهل هذه الصناعة وعليهم حجة ، وطريقه فى البلاغة أسهل طريق وفى الفصاحة أوضح محجَّة » ويقول ابن شاكر فى كتابه الفوات عنه : « الكاتب الناظم الناثر شيخ أهل الترسل ومن سلك الطريقة الفاضلية فى إنشائه » . وجمع بعض رسائل القاضى الفاضل فى كتاب سماه : « الدر النظيم من ترسل عبدالرحيم » .

وكان يستخدم فى كتاباته السجع ، وكثيرا مايطيل السجعة الثانية ليضمّنها مايريد من المحسنات البديعية ، وفى مقدمتها التصاوير والجناس والطباق ، وكذلك مايريد من الاقتباسات القرآنية ومن حَلّ بعض الأشعار ونثرها ، مع حسن الألفاظ وعذوبة الكلم . وكان يرافق الظاهر بيبرس وقلاوون والأشرف خليل فى غزواتهم ، ويرسل بوصفها لملك اليمن وغيره من أصحاب السلطان وللوزراء فى مصر . ومن رسائله المهمة رسالته إلى الوزير بهاء الدين بن حنا ، يصف له حروب بيبرس مع التتار وبنى سلجوق واقتلاعه مدينة قَيْسارية من أيديهما مع ما أخذ فى طريقه إليها من الحصون والبلاد ، مصورا مسيرة الجيش المصرى فى جبال شاهقة مذلِّلا فيها طريقه لايعوقه عن مقصده عائق . والرسالة طويلة فى نحو خمس عشرة صحيفة مدَّونة فى الجزء الرابع عشر من صبح الأعشى ، وهى وثيقة تاريخية بحروب بيبرس للتتار والسلجوقيين فى ذى القعدة من سنة ٦٧٢ وفيها يقول :

« سرنا لايستقر بنا فى شىء من المهالك قرار ، ولا يُقْتَدح من غير سنابك الخيل نار ، ولا نمرُّ

على مدينة إلا مرور الرياح على الخمائل فى الأصائل والأبكار . ولا نقيم إلا بمقدار مايتزيَّد الزائرين من الأهبة ، أو يتزوَّد الطائر من النُّغْبة [١] ، نسبق وَفْدَ الرِّيح من حيث نَنْتحى ، وتكاد مواطئ خيلنا بما تَسْحبه أذيال الصوافن [٢] تمّحى ، تحمل همَّنا الخيل العتاق ، ويكبو البرق خلفنا إذا حاول بنا اللحاق ، وكلٌّ يقول لسلطاننا نصره الله :

أين أزمعتَ أيُّهذا الهمامُ   نحن نبتُ الرُّبَى وأنت الغمامُ

وبتنا هنالك ليلة نستحقر بالنسبة إلى شدَّتها ليلة الملسوع ، وتتمنَّى العين بها هجمة هجوع . وأخذنا فى اختراق غابات أشجار تخفى الرفيقَ عن رفيقه ، وتَشغله عن اقتفاء طريقه ، يَنْبرى منها كل غصن يرسله المتقدم إلى وجه رفيقه ، كما يخرج السهم بقوة من منجنيقه ، حولها مغائر أحجار كأنها قبور بُعْثرت ، أوجبالٌ تفطَّرت [٣] ، بينها مخائض لا بل مغائص ماخر جنا منها إلا إلى جبال قد تمنطقت بالجداول وتعممت بالثلوج ، وعُمِّيت مسالكها فلا أحدٌ إلا هو قائل : فهل إلى خروج من سبيل أو إلى سبيل من خروج ، تضيق مناهجها بمشى الواحد ، وتلتفُّ شجراتها التفاف الأكمام على السواعد » .

وعلى هذه الشاكلة يتدفق ابن عبد الظاهر فى الرسالة دون أى عائق من لفظ غريب أو أسلوب ملتو ، بل سيولة وعذوبة مع السجع الرشيق ومع ما يشاء من الجناسات والاستعارات دون أن نشعر بالكلفة أو بشىء منها ، وفى صبح الأعشى رسائل وعهود له بديعة ، منها عهد الظاهر بيبرس لابنه الملك السعيد وعهد قلاوون لابنه الملك الأشرف خليل ، وفيه ينوه ابن عبد الظاهر بالأشرف على لسان أبيه قلاوون قائلا :

هو الذى بقواعد السلطنة أدرى وبقوانينها الأعرف ، وعلى الرعايا الأعطف ، وبالرعايا الأرأف ، وهو الذى ما قيل لبناء ملك هذا عليُّه قد وهَىَ إلا وقيل هذا خير منه ومن أعلى بناء سعدٍ أشرف ، والذى مابرح النصر يتنسَّم من مهابٍّ تأميله الفلاح ، ويتبَسَّم ثغره فتتوسم الثغور من مبسمه النجاح ، ويُقْسَم نوره على البسيطة فلا مصر من الأمصار إلا وهو يشرئبّ إلى ملاحظة جبين عهده الوضاح .. والذى كم جَلا ببهىٍّ جبينه من بَهيم ، وكم غدا الملك بحسن رُوائه ويمن

---

(١) النغبة : الجرعة .

(٢) الصوافن : جمع الصافن وهو الفرس

(٣) تفطرت : تشققت .

آرائه يَهيم ، وكم أبرأ مورده العذب هِيمْ (١) ، ولا ينكر الخليل إذا قيل عنه أبْرَاهيم » .

والسجعات فى هذا العهد تتوالى فى مجاميع على حرف واحد أو رويّ واحد ، قد يكون الفاء أو الحاء أو الميم كما فى هذه القطعة ، وقد يكون حرفا آخر كالدال أو التاء أو النون إلى غير ذلك من حروف تتعاقب فيها السجعات فى خفة . وقد ورّى فى السجعات الفائية حين ذكر فيها لفظ « أشرف » موريًا به عن الأشرف خليل ، ولم يكتف بهذه التورية فى اسمه فقد أضاف إليها تورية أخرى فى لفظ أبراهيم بآخر القطعة ، وقدم لذلك بذكر الخليل كأنه يريد إبراهيم عليه السلام ، وهو لايريده إنما يريد بالكلمة أنه أبرأهيما أى عطاشا أشد العطش . ومن ذلك قوله فى رسالة إلى صاحب اليمن مبشرا بفتوح قلاوون لبعض حصون الصليبيين بالشام .

« تعطيه الملوك الجزية عن يَدٍ وهم صاغرون ، ويصطفى كرامَ أموالهم وهم صابرون لا مصابرون ، وكم شكت منه حَماة تنبئ بشَكْوِها عن قلة الإنصاف ، وكم خافته معَرّةُ وما من معرَّةٍ خاف ، ومازالت أيدى الممالك تمتد إلى الله بالمدعاء عليه تشكو من جَوْر جواره تلك الحصون والصَّياصى (٢) ، وتبكى بمدمع نهرها من تأثير آثاره مع عصيانها وناهيك بمدمع العاصى » .

وواضح فى أول هذه القطعة اقتباس محيى الدين بن عبدالظاهر لآية سورة التوبة : (حتى يعطوا الجزية عن يَدٍ وهم صاغرون) . ويكثر الاقتباس لآى الذكر الحكيم وألفاظه فى كتاباته كما يكثر حَلُّ الشعر والاستشهاد بنصوصه وأبياته . وقد ورّى فى القطعة بذكره لفظ معَرّةُ الثانية من العار مقدما لها بذكر حماة والمعَرَّة وهما من مدن الشام . وورَّى أيضا فى قوله : « وناهيك بمدمع العاصى » وهو إنما يريد نهر حماة المعروف باسم العاصى . ودائما نحس عنده العذوبة والسلاسة وكأنه يستمد من نبع فياض لا يغيض أبدا ، على نحو ما نرى فى قوله من رسالة يصف بها فتح قلاوون لطرابلس :

« صرف مولانا السلطان إلى طرابلس العِنان ، وسبق جيشه إليها كل خبر وليس الخبر كالعيان ، وجاءها بنفسه النفيسة والسعادة قد حرسته عيونها والمخاوف كلها أمان .. وفى خدمته جنود لا تستبعد مفازة . وكم راحت وغدت وفى نفسها للأعداء حزازة ، فامتطوا بخيولهم من جبال لبنان تيجانا لها صاغتها الثلوج ، ومعارج لا مرافق بها غيرُ الرِّياح الهوج ، وانحطت الجنود من تلك الجنادل انحطاط الأجادل (٣) ، واندفعوا فى تلك الأوعار اندفاع الأوعال (٤) ، ولم يحفل أحد

---

(١) هيم : جمع أهيم وهو العطشان عطشا شديدا .

(٢) الصياصى : الحصون .

(٣) الأجادل : الصقور .

(٤) الأوعال : جمع وعل وهو تيس الجبل

منهم بطريق لاصق ، ولاجبل شاهق ، فقال : هذا منخفض أوعال » .

والكلمات والسجعات تنزلق عن اللسان فى خفة إذ كانت ملكته الأدبية خصبة ، فهى ماتزال ترفده بما يريد من الألفاظ التى تروق فى السمع لا بسجعها فحسب ، بل أيضا بجرسها وحسن انتخابه لها ، وما يوفره لها من محاسن بديعة بقدر الحاجة دون تكثر يحيلها إلى تكلف شديد . وحقا كان يتصنع أحيانًا لبعض مصطلحات النحو ولكنه لايأتى بها إلا فى الحين بعد الحين ماعدا رسالة اقترحتْ عليه أن تكون توقيعا لمدرس نحو استهلها بقوله مداعبا : « حرس الله نعمة مولاى ، ولازال كلم السعد من اسمه وفعله ، وحرف قلمه يأتلف ، ومنادَى جوده لايرخَّم وأحمد عيشه لا ينصرف » ومضى فيها على هذه الشاكلة متصنعا لمصطلحات النحو ، ولكن من الحق أنه أرادبها إلى الدعابة ، وعلى نحو ما كان يبشر بالفتوح كان يبشر بوفاء النيل وله فى ذلك رسائل بارعة يقول فى إحداها :

« نِعَمُ الله وإن كانت متعددة ، ومِنَحه وإن غدت بالبركات متردِّدة ، ومِنَّته وإن أصبحت إلى القلوب متوددة ، فإن أشملها وأكملها ، وأجملها وأفضلها ، وأجزلها وأنهلها ، وأتمَّها وأعمَّها ، وأضمَّها وألمَّها ، نِعمة أجزأت المَنَّ والمَنْح ، وأنزلت فى بِرك سَفْح المقطَّم أغزر سَفْح ، وأتت بما يعجب الزرَّاع ، ويعجز البرق اللمَّاع ، ويُعلّ [1] القِطاع ، ويُغِلُّ [2] الأقطاع ، ويأتى فى الغد بأكثر من اليوم وفى اليوم بأكثر من الأمس ، ويركب الطريق مجدًّا فإن ظهرت بوجهه حمرة فهى مايعرض للمسافر من حر الشمس .. وبينا يكون فى الباب إذا هو فى الطاق ، وبينا يكون فى الاحتراق [3] ، إذا هو فى الاجتراء للإغراق ، وبينا يكون فى المجارى ، إذا هو فى السوارى [4] » .

والتورية واضحة فى كلمة سفح الثانية ، إذ ليس معناها معنى سابقتها وهى سفح جبل المقطم إذ أراد الانصباب من قولهم سفح الماء إذا صبَّه . واقتبس من القرآن الكريم قوله عز شأنه فى سورة الفتح (يعجب الزرَّاع) واقتباسه من الذكر الحكيم كثير فى كتاباته كما أسلفنا . وتعليل مايخالط النيل من الطمى بأنه نفس الحمرة التى تعرض للمسافر من طول سفره وتعرضه للشمس تعليل حسن يدل على عمق تخيله وطرافته . وتصويره لفيضان النيل وأنه سرعان ما يملأ مجرى النهر وتعلو أمواجه ويطفح عُبابه ويتمادى طوفانه ، فبينا يدخل سُدَّة باب إذا هو فى الطاق وأعلى الشرفات ،

---

(١) يعل القطاع : يروى قطاع الأرض مرارا .

(٢) يغل الأقطاع : يجعل الضياع تعطى الغلة والثمار

(٣) الاحتراق : قلة الماء .

(٤) السوارى : يريد الأعالى .

وبينا تكون مصر قبل فيضانه فى زمن الاحتراق والتعطش للماء إذا هو يخترق الآفاق فيها لإغراقها بمياهه العذبة ، وبينا يكون فى أسافل الأرض ومجاريها إذا هو فى السوارى وأعلى الأعالى.

ولم يكن محيى الدين بن عبدالظاهر كاتبا ديوانيا فحسب ، فله رسائل شخصية سنلمُّ بإحداها ، وأيضا كان مؤرخا ، وعنه أخذ البرزالى وغيره من كبار المؤرخين لزمنه ، واهتم فى التاريخ بكتابة السير ، فكتب سيرة الظاهر بيبرس ، وهى أحد مصادر المقريزى فى خططه ، وكتب سيرة قلاوون بعنوان « تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور » ، وكتب أيضا سيرة الأشرف خليل بعنوان « الألطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الأشرفية » وله كتاب فى خطط القاهرة ينقل عنه كثيرا المقريزى وكذلك القلقشندى فى صبح الأعشى. ولعل فيما قدمنا من رسائله الديوانية مايدل بوضوح على قدرته البيانية والبلاغية.

ابن[1] فضل الله العمرى

هو شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمرى ، من سلالة أسرة مصرية تنتسب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وَلِيَتْ أسرته ديوان الإنشاء بمصر ودمشق نحو قرن من الزمان هو القرن الثامن الهجرى، وقد وُلد لأبيه كاتب السر بدمشق سنة ٧٠٠ للهجرة وبها نشا، فحفظ القرآن الكريم ، ثم أخذ يختلف إلى حلقات علمائها من أمثال ابن تيمية الفقيه الحنبلى المشهور وقاضى قضاة دمشق الشافعى شهاب الدين محمد بن المجد وشيخ الشافعية بدمشق برهان الدين بن الفركاح الفزارى وأخذ علم الأصول على الشيخ شمس الدين الأصفهانى نزيل دمشق منذ سنة ٧٢٤ وبها ظل سبع سنوات وكان من أبرع علماء زمنه فى العقليات ، وأذن لابن فضل الله فى الإفتاء على مذهب الشافعى. وأخذ شهاب الدين العربية عن كمال الدين بن قاضى شُهْبَة وابن الزَّمْلكانى ، أما الأدب فأخذه عن أبيه ورفيقيه فى ديوان الإنشاء الشهاب محمود وعلاء الدين

---

(١) انظر فى ترجمة ابن فضل الله فوات الوفيات ١٢/١ والنجوم الزاهرة ٢٣٤/١٠ والدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر ٣٥٢/١ وصبح الأعشى وخاصة الجزء الحادى عشر والرابع عشر (انظر الفهرس) وخطط المقريزى ٣٨٩/١ وحسن المحاضرة ٣٧١/١، ٣٩٤ ، ٢٣٤/٢ والشذرات ١٦٠/٦ والوافى ٢٥٢/٨ وتاريخ الأدب الجغرافى لكراتشكوفسكى ٤١٠/١ . وطُبع له الجزء الأول من موسوعته مسالك الأبصار وانظر فيها ماتقدم فى حديثنا عن النشاط الجغرافى بمصر وطُبع له كتابه التعريف بالمصطلح الشريف.

الوداعى . ورحل إلى مصر فى أثناء الطلب ، وأخذ العربية عن شيوخها وعلمائها مثل ابن الصائغ الحنفى ونزيلها أبى حيان الأندلسى . وسمع الحديث على علمائها كما سمعه على حُفاظ الشام . ويبدو أنه نزع إلى العمل مع أبيه مبكرا فى ديوان الإنشاء بدمشق ، وتخرج فيه كاتبا بارعا . وكان إلى ذلك لايزال يأخذ عن العلماء فى زمنه بالشام ومصر ، وكان أبوه يعمل أحيانا بالديوان فى دمشق وأحيانا يعطل ، فكان إذا عمل لزمه ، حتى إذا استدعى الناصر محمد بن قلاوون أباه لكتابة السر بالقاهرة سنة ٧٢٩ تقلَّد معه هذه الوظيفة فكان هو الذى يقرأ كتب البريد ورسائله على الناصر ، ونقلها إلى دمشق فى شعبان سنة ٧٣٢ ثم أعادهما ثانية إلى القاهرة مسندا إليهما كتابة السر ورياسة ديوان الإنشاء سنة ٧٣٣ ويبدو أنه كان حادَّ الطبع ، ولم يتحاش عن إظهار هذه الحدة فى مخاطبته للناصر ، فتغيَّر عليه وصرفه ، وولّى أخاه علاء الدين مكانه ، وكانت منزلة أبيه عند الناصر قد عظمت ، وطلب أن يرجع إلى دمشق فأجابه إلى طلبه ، على أن تستمر له رياسة ديوان الإنشاء فى جميع ديار السلطنة وأن يكون جميع الموظفين فى تلك الدواوين نوابه ، وسرعان مالبى نداء ربه . وعاد الناصر فى سنة ٧٤٠ فرضى عن شهاب الدين وولاه كتابة السر بدمشق ، ودخلها فى المحرم سنة ٧٤١ وظل يلى وظيفته بها حتى طُلب إلى القاهرة سنة ٧٤٣ لكثرة الشكايات منه وشفع فيه أخوه علاء الدين ، وقُبلت شفاعته وعاد إلى دمشق ، وبارحها فى سنة ٧٤٩ لقضاء فريضة الحج ، وتوفى بمكة ونُقل تابوته إلى دمشق ، ولم يكد يبلغ الخمسين من عمره .

وكان شاعرا كما كان كاتبا ، نظم كثيرا من القصائد والأراجيز والمقطعات والدوبيت ، غير أن شهرته الكتابية غطت على شهرته الشعرية ، وقد أشاد بكتابته معاصروه من ذلك قول صلاح الدين الصفدى : « هو الإمام الفاضل البليغ المفوَّه الحافظ حجة الكتَّاب ، إمام أهل الأدب ، أحد رجالات الزمان كتابة وترسلا ، وتوسلا إلى غايات المعانى وتوصلا ، يتوقد ذكاء وفطنة ويتلهَّب ، وينحدر سيله مذاكرة وحفظا ويتصبَّب ، ويتدفق بحره بالجواهر كلاما ، ويتألق إنشاؤه بالبوارق المستعرة نظاما ، ويقطر كلامه فصاحة وبلاغة ، وتَنْدَى عباراته انسجاما وصياغة ، وينظر إلى غرر المعانى من ستر رقيق ، ويغوص فى لجَّة البيان فيظفر بكبار اللؤلؤ من البحر العميق ، يكتب من رأس قلمه بديها ، ما يعجز تروِّى القاضى الفَاضل أن يدانيه تشبيها .. صرَّف الزمان أمرا ونهيا ، ودبرَّ الممالك تنفيذا ورأيا » .

ولعل من الطريف ان ابن فضل الله جمع من كتاباته نماذج فى جميع صور المكاتبات الديوانية وضمنها كتابه النفيس : « التعريف بالمصطلح الشريف » وجعله فى سبعة أقسام أولها فى رتب

المكاتبات إلى الخليفة العباسى بالقاهرة وعنه مع رسوم الكتابة إلى أمراء البلدان وراء السلطنة المصرية من الهند إلى الأندلس ، وأيضا إلى نواب السلطنة والحكم خارج مصر . والقسم الثانى فى العهود والتقاليد والتواقيع والمراسيم والمناشير والعهود إما من الخلفاء إلى السلاطين وإما من السلاطين إلى ولاة العهد . والتقاليد خاصة بكبار الموظفين والتواقيع لصغارهم والمراسيم لصغائر الأمور والشئون والمناشير خاصة بالأمراء والجند . والقسم الثالث خاص بنسخ الأيمان على العامة والولاة وكبار الموظفين وأهل الكتاب . والقسم الرابع فى الأمان والهُدَن مع الأعداء ونقض المعاهدات . والقسم الخامس فى حدود المدن والبلاد وهو جغرافى . والقسم السادس فى مراكز البريد ووسائله برا وبحرا . والقسم السابع فى الآلات وخاصة آلات الحرب من سيف وغير سيف وكذلك آلات السفر وآلات الصيد وآلات الطرب وأيضا الحيوان الأليف والوحشى والطير ، ويتسع هذا القسم للحديث عن المدن والحصون وأنواعها والأزمنة وفصولها والأنواء . وواضح أن الأقسام الأربعة الأولى هى التى دفعته لإعطاء النماذج الكتابية المتصلة بموضوعاتها . أما الأقسام الثلاثة التالية فقد رأى معرفتها ضرورية لكتّاب الديوان لأنها تتصل بأعمالهاتصالا قويا . واشتهر هذا الكتاب بعد ابن فضل الله واتخذه الكتّاب إماما لهم وجعلوه نصب أعينهم فى كتاباتهم الديوانية يحاكون نماذجه وأمثلته ، واعتمد عليه القلقشندى فى بيان رسوم الكتابة الديوانية ، وما يصورها من أمثلة بليغة محكمة ، من ذلك قوله فى تقليد وزير ووصيته بما ينبغى عليه فى وزارته :

« عليه بالكُفاة الأمناء ، وتجنُّب الخونة وإن كانوا ذوى غَناء ، وإياه والعاجز ، ومن لو رأى المصلحة بين عينيه أَلقَى بينه وبينها ألف حاجز ، وليطهِّرْ بابه ، ويسهِّل حجابه ، ويفكر فيما بَعُدَ أكثر مما قرب مقدما الأهَمّ فالأهَمَّ من المصالح ، وينظر إلى ماغاب عنه وحضر نظر المماسى والمصابح ، ولا يستبدل إلا بمن ظهر لديه عجزه أو ثبتت عنده خيانته ، ولا يدع من جميل نظره مَنْ صَحَّتْ لديه كفايته ، أو تحققت عنده أمانته . وليصرفْ اهتمامه إلى استخلاص مال الله الذى نحن أمناؤه ، وبه يشغل أوقاته وتمتلئْ كالإناء آناؤه ، فلا يدع شيئا يجب لبيت المال المعمور من مستحقه ، ولا يتسَمَّح فى تخلية بشىء منه كما نوصيه أن لا يأخذ شيئا إلا بحقِّه » .

وواضح أن ابن فضل الله لا يتكلف فى كتابته ، وكأنه — كما قال الصفدى — بحر يتدفق ، وفى تضاعيف تدفقه ينثر جواهر المحسنات ، وهى تواتيه طيعة ، تارة يطابق وتارة يجانس فى يسر دون أن نحس عنده بتصنع أو ما يشبه التصنع . ومن طريف وصفه للسيف فى كتابه التعريف قوله :

« سَلَّ سيفا سال المَنون من لُعابه ، وسار الموت فى إهابه [(١)] ، وتناوم غِرارُه[(٢)] ملء جفنيه فما هجع ، وتناوب [(٣)] للوثوب للمهج فما رجع ، وتباكى على من قتل فجرت دموعه دماء ، وتحرَّق على من سلم فتوقَّدت ضلوعه نارا وترقرقت مآقيه ماء » .

وهى كلمات قصار ولكنها مليئة بالاستعارات والتشخيصات المتلاحقة ، وفيها الجناس والطباق وكأنهما غير ملحوظين ، لما تجريان فيه من سهولة اللفظ وعذوبته . وله فى وصف قدح أوكاس : « تكوَّن من جوهر مكنون ، وتجسَّد من هواء مظنون ، واتُّخذ خِدْرًا لابنة العنب[(٤)] ، وطاف به الساقى فأصبح منه فى راحة وهو فى تعب ، قَهْقَه عليه الإبريق فصدح ، وطار منه شرار المدام فقيل : قَدح » .

والقطعة مثل سابقتها زاخرة بالاستعارات والصور الطريفة . مع جناسات وطباقات بديعة ومع جمال الجرس والمهارة فى انتخاب اللفظ ، وقد ختمها بكلمة قدح والتورية واضحة ، فهو لا يريد مايتبادر من أنه يريد القدح الذى يصفه ، إنما يريد الفعل الماضى قدح أى قدح الشرر وأذكاه من قولهم قدح النار من الزند .

ولابن فضل الله العمرى بجانب رسائله الديوانية رسائل شخصية قليلة وذكر له مترجموه نحو عشرة كتب ، منها التعريف بالمصطلح الشريف الذى وصفناه . ومنها فواصل السمر فى فضائل آل عمر ، ومنها صُبابة المشتاق فى مجلد فى مدح النبى ﷺ . وأهم كتبه دون ريب كتابه « مسالك الأبصار » وقد نشر الجزء الأول منه وهو خاص بالديارات ، وهو فى أكثر من عشرين مجلدا ، وهو مقسوم إلى قسمين كبيرين : قسم للأرض وأقاليمها وبحارها وطرقها أو مسالكها ، وقسم للممالك فى العالم الإسلامى وغيره وسكان المعمورة ، وبه فصول طويلة عن الكتاب والشعراء فى العالم العربى بمختلف أقطاره ، وعادة يضع مقدمة مسجوعة لكل كاتب وشاعر ثم يختار للكاتب نماذج من رسائله وللشاعر نماذج من شعره ، وبه مقتبسات من كتب سقطت من يد الزمن ، ومن خير ما احتفظ به تراجمه لشعراء صقلية ، وكذلك معلوماته الجغرافية والتاريخية عنها . وبالكتاب مفاخرة طريفة بين المشرق والمغرب تمس حضارتيهما ومن كان بهما من أفذاذ العلماء والأدباء .

---

(١) إهابه : جلده .

(٢) غرار السيف : حده .

(٣) تناوب الأمر : قام به مرة بعد مرة .

(٤) الخدر : البيت . ابنة العنب : الخمر .

٢

الرسائل الشخصية

تموج كتب الأدب والتراجم بكثير من رسائل الأدباء والكتاب المصريين الشخصية والإخوانية فى التهنئة والتهادى والشكر والعتاب والاعتذار والاستعطاف والتعزية . وعادة معانيها محدودة ، ولكن أصحابها يحاولون إظهار براعتهم بإطالتها وتحبير عباراتها ونشر زخارف البديع ومحسناته عليها حتى تروق من تُرْسل إليهم وتبلغ من التأثير فيهم المبلغ المنشود . وممن برعوا فى تدبيجها وكتابتها فى أيام الفاطميين عبد المجيد بن أبى الشخباء العسقلانى الكاتب الديوانى لزمن الخليفة المستنصر ، وسنخصه بحديث مفرد ، وكان لايكاد يقل عنه إحسانا فى تلك الرسائل سبطه أو ابن ابنته الحسن [1] بن زيد الأنصارى الكاتب مثله فى الدواوين الفاطمية ، وكان جده لأبيه شاعرًا ، وهو على بن إسماعيل ، وكان أيضا فقيها ولى قضاء الأردن للفاطميين ، ويقول السلفى فى معجمه : لم يكن له نظير فى الأدب بقطره سوى ابن أبى الشخباء ، وقتلهما بدر الجمالى وزير المستنصر . والحسن بن زيد بذلك سليل قتيلين وكأنما كُتِبَ عليه أن يقتل مثلهما ، وتولى إثم ذلك الحسن بن الخليفة الحافظ (٥٢٤ - ٥٤٣) فى أوائل خلافة أبيه لأبيات فى هجائه دسَّها بعض معاصريه عليه ، وكأنما أراد القدر أن يثأر له وكان الحسن قد استبدَّ بتنفيذ الأمور دون أبيه فدس عليه السم فى طعامه فمات لسنة ٥٢٨ .

وواضح أن الحسن بن زيد - كما يقول ابن سعيد - « عريق النسب ، فى صناعة الأدب ، يمتُّ إليها بأوفى ذمام ، ويضرب فيها بأخوال وأعمام » ويقول العماد الأصبهانى : « وصفه القاضى الفاضل وأثنى على فضله ، وأنه فى فنه لم يسمح الدهر بمثله » . واحتفظ العماد له فى خريدته بطائفة من رسائله الديوانية والشخصية ، من ذلك قوله فى رسالة إلى صديق يهنئه بالبرء من مرضه .

« إذا قَدُمَ الوداد ، وصحَّ الاعتقاد ، وصَفت الضمائر ، وخَلصت السرائر ، حلَّ الإخاء المكتسب ، محَلَّ أخوة النسب ، وصار المتعاقدان على الإيثار ، والمتحابَّان على بعد الدار ، متساهمين فيما ساء وسرَّ ، ومتشاركين فيما نفع وضرَّ ، وتلك حالى وحال حضرة مولاى فانى وإياها

---

(١) انظر فى ترجمة الحسن بن زيد الخريدة (قسم شعراء مصر) ٦٧/٢ وما بعدها والمغرب (قسم القاهرة) ص ٢٣٧ ومعجم السلفى ص ٤٤٨ .

كنفس قسِّمت على جسمين ، وروح فُرِّقَتْ بين شخصين ، فأما ألمها فقد مضى وأزعجنى ، وأما بُرْؤها فقد سرَّها وأبهجنى » .

ومهارته فى صياغة أسجاعه واضحة فعباراتها تتوازن وتتعادل تعادلا دقيقا ، وكأن كل كلمة فى السجعة الثانية تعانق أختها فى السجعة الأولى فى عذوبة ونصاعة وسلاسة وطلاقة . ومن كتاب له فى تعزية :

« الخَطْبُ الحادث ، فادحٌ كارث (١) ، كادت له القلوب أن تتبرَّأ من أضالعها ، والعيون أن تتعوَّض بدمائها من مدامعها ، والضحى أن يَدَّرِع (٢) جلباب الدُّجُنَّة ، والحوامل أن تُجْهَضَ بما فى بطونها من الأجنَّة . وإن المنية حَوْضٌ كل الناس وارده ، ومنهلٌ كل الخليقة قاصده ، لا يسلم منها ملك نافذ الأمر .. ولافقير خامل الذكر » .

وتحمل القطعة نفس الصياغة السالفة بكل ماتتسم به من اكتمال الإيقاع فى الألفاظ بين السجعات وحسن الانتخاب للألفاظ والكلمات .

وكان يعاصر الحسن بن زيد الشاعر ظافر الحداد الذى مرت ترجمته بين الشعراء ، وكانت قد انعقدت صداقة بينه وبين أبى الصلت أمية بن عبدالعزيز نزيل الإسكندرية ، وكان قد بارحها إلى المهدية بتونس سنة ٥٠٦ ولم يصله من ظافر كتاب فأرسل إليه يعاتبه ، ومن قوله يجيبه عن كتابه (٣) :

« فضضت الكتاب عن رسالته التى يبهج قَشيبها (٤) ، ويضوع (٥) طيبها ، ولايَنْزِف قَليبها (٦) ، فخلتُ أنى أختال أىَّ اختيال فى حلل الشباب ، وأذكر الأحباب ، وأرشف الرُّضاب (٧) ، من الثنايا العذاب ، بعد الصدِّ والاجتناب :

ذكـرتُ بـه عـهـدا كـأن لم أفُـزْ بـهِ
وعَـيْشًـا كـأنى كـنـت أقـطـعـه وَثْـبَـا

ثم نزهت ناظرى ، وجلوت خاطرى ، ببدائع ماتضمَّنه الكتاب ، من العتاب ، حتى وددت أنى أجدِّد كل يوم ذنبا ، يوجب منه عتبا ، كى أقطف منه مثل تلك الأزهار ، وأجنى مثل تلك

---

(١) كارث : محزن .
(٢) يدرع : يلبس . الدجنة : الظلمة .
(٣) انظر الرسالة فى ديوان ظافر
(٤) قشيب : جديد
(٥) يضوع : يفوح
(٦) قليبها : معينها
(٧) الرضاب : الريق

الأثمار ، فما أخصبها رياضا ، وأعذبها حياضا ، وأشرفها أجساما وأعراضا » .

وظافر يعنى فى رسالته بسجعاته ، ويوفر لها كل مايستطيع من جمال اللفظ وحسن الجرس ، حتى تقع من نفس أمية الموقع الذى يريده من بلاغة القول وروعة البيان . وإذا مضينا إلى زمن الأيوبيين لقينا القاضى الفاضل أهم كتأبهم يدبج كثيرًا من الرسائل الإخوانية أو الشخصية واقتطف منها محيى الدين بن عبدالظاهر باقات كثيرة فى مختاراته من رسائله التى سماها « الدر النظيم من ترسل عبدالرحيم » ومن قوله فى إحداها يصف لأحد أصدقائه دمشق :

« إنى وصلت إلى دمشق المحروسة حين شَرَّد بَرْدُها ، وورَّد وردُها ، واخضرَّ نباتها ، وحَسُنَ نَعْتها ، وصفا ماؤها ، وضَفا [1] رداؤها ، وتغنت أطيارها ، وتبسَّمت أزهارها ، وافترَّ [2] زهر أُقْحوانها فحكى ثغور غِزْلانها ، ومالتْ قُضُبُ بانها ، فانثنتْ تثنّى ولدانها . فلما قربتُ من بساتينها ، ولاح لى فَسْحُ ميادينها ، وتوسطت جَنَّة واديها ، ورأيت ما أودعه الله العظيم فيها ، سمعت عند ذلك حماما يغرِّد ، وهَزارًا [3] ينشد ويردِّد ، وقُمْريًّا [4] ينوحُ ، وبلبلا بأشجانه يبوح » .

وأسلوب القاضى الفاضل واضح فى هذه القطعة لابأسجاعه فحسب ومايبلغ فيها من اكتمال الجرس والإيقاع بين أوائلها وتواليها ، بل أيضا بما يوشىً به كلامه من الاستعارات البديعة وزخارف الجناسات ، وكان ما يزال يضيف إلى مثل ذلك طباقاته وتورياته الرشيقة وماعرف به من العناية بمراعاة النظير . وكثرت المراسلات بينه وبين ابن سناء الملك وأبيه القاضى الرشيد ، مما أتاح لابن سناء الملك أن يجمع منها كتابا يسميه « فصوص الفصول وعقود العقول » ، وتحتفظ دار الكتب المصرية بمخطوطة منه ، وهو مقسوم قسمين : قسم لمراسلات القاضى الفاضل وابن سناء الملك وقسم لمراسلات القاضى الفاضل مع أبيه ، وفيه مراجعات كثيرة بين الفاضل وابن سناء الملك تتصل بنظرات له ونقد لبعض أبيات من قصائده . وحرىٌ بنا أن نذكر كثرة استشهاد الفاضل فى رسائله الشخصية بالشعر حتى ليروى له القلقشندى فى الجزء الأول من صبحه [5] رسالة موزعة بين كلمات نثرية تليها أبيات شعرية ، ورسالة ثانية موزعة بين كلمات وشطور أبيات . ومن كتَّاب الديوان حينئذ البارعين فى تحبير الرسائل الشخصية الأسعد بن مماتى ، وسنترجم له عما قليل .

---

(١) ضفا : سبغ .

(٢) افتر : تفتح .

(٣) الهزار : العندليب .

(٤) القمرى : ضرب من الحمام المطوق حسن الصوت

(٥) صبح الأعشى ٢٧٦/١ .

ونمضى فى زمن المماليك فنجد الأدباء من كتاب وشعراء يتبادلون رسائل شخصية كثيرة ، من ذلك رسالة بعث بها محيى الدين بن عبدالظاهر سنة ٦٥٣ إلى الشاعر ابن النقيب الذى مرت ترجمته ، وقد بلغه أن شخصا عابه فى مجلسه وأزرى به وبقدرته الكتابية ، وكان لايزال شابا فى نحو الثلاثين من عمره ، ويبدو أنه عرف أن ابن النقيب ردَّ على عائبه ، فكتب إليه يهجو هذا العائب ويشكره على جميل رده عليه ، وهى رسالة طويلة [١] ، جعل عنوانها « التواضع » وقد مضى فيها يصور حملة هذا العائب عليه ثم أخذ يعنِّفه تعنيفا شديدًا ، وأنهاها بالدعاء لابن النقيب والدعاء على عائبه بالويل والثبور ، ونلم بأطراف منها ، يقول :

« إن فلانا غَضَّ منى .. وزعم أن إناء إبانى غير مُفْعَم [٢] ، وبناء مجدى غير محكم ، وأن جوارح إجادتى جريحة ، وقرائح ارتجالى قريحة [٣] ، وأن صدور المجالس تنكر إقدام أقدامى ، وبطون الطروس لاتُلْقَح بأقلامى ، وأنى لا أُعَدّ فى جملة الكتَّاب ، وإذا دخلوا من أبواب متفرقة للتكريم لا أدخل معهم فى باب ، والذى أقوله له مخاطبا ، وأومى [٤] به إليه مجاوبا : ماكل الأفاعى تعبث بها الأنامل ، ولاكل المراعى تُنْصَبُ بها الحبائل ، ولاكل زَخَّار [٥] يُخاضُ ، ولاكل جَناح يُهاض ، ولاكل جامح يُراض ، ولاكل سابغة تُفاضُ [٦] .. ولايَضُرُّ الزنادَ الواريَ [٧] قدحُ القادح ، كما أنه لايضير النجمَ السارىَ نبحُ النابح » .

والرسالة على هذه الشاكلة من السجع الموقَّع الملحن تلحينا حسنا ، مع توشيته بزخارف الاستعارات ومحاسن الجناسات ، وقد ورَّى فى كلمة « قدح القادح » مع ذكر الزند الوارى فلم يرد بها قدح القادح للزند طلبا لإخراج النار منه ، وإنما أراد ذم الهاجى ، من قولهم : قدح فى عرض أخيه إذا عابه وثلبه .

وتكثر فى الرسائل الشخصية حينئذ تقريظات الأدباء والشعراء ، ولعل شاعرا لم يكثر تقريظ شعره ومصنفاته كما قُرِّظ ابن نباتة . ومرَّ فى ترجمته أن له كتابا سماه « سجع المطوَّق » ترجم فيه لكل من قَرظوا كتابه « مجمع الفوائد » . ولتلميذه برهان الدين القيراطى الذى مرَّت ترجمته بين الشعراء تقريظ طريف لشعره ونثره ، ومن قوله فيه [٨] :

---

(١) انظرها فى نهاية « تمام المتون فى شرح رسالة ابن زيدون » للصفدى

(٢) مفعم : ملىء

(٣) قريحة : جريحة .

(٤) أومى : أشير .

(٥) زخار : النهر الزخار : الملىء الطامى .

(٦) تفاض : تكون سابغة ضافية

(٧) الوارى : المتقد .

(٨) خزانة الأدب للحموى ص ٥٤٧ .

« لاغرو أن فضَح بديعَ [١] الزمان بلفظه البديع ، وأزهرت الأوراق بمنثور رسائله التى كل فصل منها ربيع ، وتبارك الذى جعل فى سماء دوحته لشمس بلاغته بروجًا ، وأعلى همه التى لاتَرْضَى الشهبَ جيادًا والأهلَّة سُروجا .. وقد زهت أمداحه المؤيدية [٢] فأصبحت بيوته المرفوعة (ذاتَ العماد) وراقت محاسنه التى (لم يُخْلَقْ مثلها فى البلاد) .. وطالما سرَّح الناظر فى بستانها نظره ، ورام[٣] ابن سُكَّرة فتح الأبواب لمعارضة قطرها النباتى فوجدها مسكَّره[٤] ، وعلم المتنبى أن هذا خاتمَ الأدباء لامحاله ، والمترسل الذى نهض دونه بأعباء كل رساله » .

والتقريظ زاخر بالاقتباس لآىِ القرآن الكريم وألفاظه كقوله فى مديح أبيات ابن نباته إن بيوته المرفوعة أصبحت ذات العماد . وفى كلمة بيوت تورية إذ لايريد بيوت الشعر من الخيام التى ترفعها الأعمدة أخذًا من قوله تعالى فى سورة الفجر (ألم تركيف فعل ربك بعاد إرَمَ ذات العماد) أى أنهم كانوا أهل خيام وأعمدة ، وهو لايريد ذلك كله وإنما يريد بيوت شعر ابن نباتة أو أبياته . وأكمل فى العبارة التالية وصف القرآن فى السورة نفسها لعاد بقوله : (التى لم يخلق مثلها فى البلاد) . وراعى النظير مراعاة دقيقة حين ذكر ابن سكرة فذكر معه القطر النباتى يريد شعر ابن نباتة الحلو . وحين ذكر المتنبى أشار إلى ماقيل من تنبؤه وأنه نهض عنه بأعباء كل رسالة ومعروف أنه لم يثبت تنبؤ المتنبى تاريخيا غير أن القيراطى رأى استغلال ذلك فى جلب مايخدم غرضه من مراعاة النظير والتورية بكلمة رسالة . وربما كان أكثر من رسائل التقريظات رسائل الاستدعاءات ، إذ كان الأدباء من الكتاب والشعراء يستدعى بعضهم بعضًا للمشاركة فى مجالسهم ومابها من أنس ومدام ومن رفاق وصحاب . ولبدر الدين بن الصاحب المتوفى سنة ٧٨٨ للهجرة رسالة[٥] طويلة أرسل بها إلى فخر الدين بن مكانس يدعوه لمجلس أنس وشراب ، واصفًا له ما سيتمتع به معه من خمر معتقة ، وكأنه كان من المدمنين عليها فى غير تحرج ، وله يقول :

« هل لك — بسط الله آمالك ، وضاعف نعيمك ودلالك — فى عذراء مَصُونة ، كالدرة المكنونة ، فتَّانة مفتونة ، كأن على خدها فوق ورده ياسمينة .. لها من ذاتها طرب يغنى عن المزامير ، بلقيسية الجمال لها (صَرْحٌ ممرَّد من قَوَارير) ليلها من حسنها نهار ، وضوء وجهها ليد لامسها سوار ، تلثمت بالصباح ، وتلطفت حتى مازجت الأرواح ، أديمها كلما تعتَّق يغلو ،

(١) بديع الزمان : صاحب المقامات والرسائل المشهور .
(٢) المؤيدية : يريد أمداحه فى المؤيد (انظر ترجمته) .
(٣) ابن سكرة : شاعر بغدادى ماجن معاصر للمتنبى .
(٤) مسكرة : مغلقة .
(٥) مطالع البدور للغزولى ١٥٢/١ والأدب فى العصر المملوكى للدكتور محمد زغلول سلام ص ١١ .

ووردها كلما مرَّ يحلو ، أيامها أعياد ، وأوقاتها أقوات القلوب والأكباد . من « القاصرات الطَّرْف » فى كل قَصْر وهى على الإطلاق ذهبية العصر .. لاتنزل الحوادث ساحتها ، ولا يعرف التعب من صافح راحتها ، حمراء تخلع ثوبها على الندمان ، بل تكاد تطبق عينها على الإنسان » .

وهو ينثر فى الرسالة كثيرا من التصاوير مع القدرة البديعة على صياغة السجع والاقتباس فيه أحيانا من لفظ الذكر الحكيم كقوله مورِّيًا عن دَنِّ الخمر الزجاجية بما جاء فى سورة النمل من وصف الصرح فى قصر سليمان عليه السلام الذى شمرت بلقيس ملكة سبأ ثوبها حين دخلته إذ (حسبته لُجَّةً وكشفتْ عن ساقيها قال إنه صرح ممرَّد من قوارير) أى من زجاج شفَّاف لايحجب ماوراءه . ووصف بدر الدين بن الصاحب الخمر التى دعا ابن مكانس إليها بأنها من القاصرات الطرف اللائى لم يمسسهن أحد ، أخذًا للكلمة من الذكر الحكيم . ولم يلبث أن قال إنها ذهبية العصر . والتورية واضحة إذ لا يريد أن عصرها ذهبى كما يقال عصر هرون الرشيد الذهبى مثلا وإنما يريد أنها صفراء اللون حين تعصر من عنبها وكَرْمها . وفى السجعتين التاليتين بآخر القطعة توريتان واضحتان ، فهو لايريد بلفظة « راحتها » كفَّها كما تشهد لذلك كلمة صافح ، وإنما يريد الخمر نفسها إذ تسمى راحة . وبالمثل لايريد فى السجعة التالية بالإنسان إنسان العين وسوادها وإنما يريد الإنسان الحقيقى الذى يحتسيها .

وظلت الرسائل الشخصية تتداول بين الأدباء طوال الحقبة العثمانية ، ودخلها غير قليل من التكلف والتصنع . ونسوق قطعة حينئذ من رسالة محمد بن أبى الحسن البكرى الذى مرت ترجمته ، أرسل بها إلى النور العُسَيْلى ليتسلى بمجلسه فى متنزه نَضرٍ يلتقى فى شاطئه ماء النيل وقت فيضانه بخضرة الزروع الزاهية ، وفيها يقول [١] :

« سيدنا البَرّ الذى يجرى بحر الفضائل من برِّه ، ويعذب الوِرْد والصَّدَرُ بما يصدر من صدره ، ويفيض إحسانه نهرًا لراجيه وآمله ، وتبتدر الأنام لتلقى تيار أنامله ، وتتزاحم على سِيف [٢] زخَّار علومه ، تزاحم رقاب أعدائه على سيفه وخصومه .. ومدينة بولاق هى مجتمع البحور ، ومدار فُلْك السرور ، بِفَلَك الحبور ، طفحت بالنيل لا جُزِرَ عن الجزر مَدُّه المديد ، واستلَّت سيف النهر لقطع حروف الجروف من أقصى الصعيد » .

والرسالة تجرى على هذه الصورة من التكلف الشديد كما يلاحظ فى السجعات الأخيرة ، وقد تصنع فيها لذكر مصطلحات الفلك والعروض والنحو . ولمحمد الطيلونى من كتاب القرن الحادى

---

(١) ريحانة الألبا للخفاجى (طبعة الحلبى) ٢٢٩/٢ (٢) سيف : شاطئ .

.عشر الهجرى وشعرائه رسالة[1] هجا بها القاضى عمر المغربى هجاء أراد به إلى الفكاهة والضحك من مثل قوله :

« يامن ثوبة رَثّ ، وحديثه غثّ ، ياكثير النُّباح ، ياخائبا فى الغدوّ والرواح ، ياتارك السُّنّة والفَرْض ، يامَنْ سعى بالفساد فى الأرض ، يامَهْبط الدواهى ، وتابع الغَىِّ والملاهى .. ياكثير الشكوى ، ياأثقل من رَضْوَى[2] ، ياموت الحبيب وطلعة الرقيب .. ياأثقل من المكتب على الصِّبيان ، ومن كِرَا[3] الدار على السكان » .

والرسالة طويلة اقتطف منها المحبى مقتطفات فى نحو سبع صفحات أتبعها بقصيدة هجاء على غرارها للشهاب الخفاجي مؤلف ريحانة الألبا . وتظل المحسنات البديعية بارزة فى الرسائل ، ولكنا نشعر فى العبارات بضعف الصياغة ، وقلما نشعر بعاطفة فياضة أو إحساس مرهف أو معنى دقيق . وحرى بنا أن نقف عند بعض النابهين من كتاب هذه الرسائل الشخصية على مدار العصر ومختلف أزمنته .

ابن[4] أبى الشخباء

وقيل ابن الشخباء ، هو الحسن بن محمد بن عبد الصمد العسقلانى ، ولانعرف متى انتقل هو أو أسرته العسقلانية إلى القاهرة ، ويبدو أنه التحق مبكرا بدواوين الدولة الفاطمية لعهد الخليفة المستنصر (٤٢٧–٤٨٧هـ) وتخرج فيها على من كان يعمل بها من كبار الكتاب ، ولمع اسمه فيها وتألق ، غير أننا لانمضى إلى سنة ٤٨٢ حتى نراه يُقْتَل بسجن مصر المسمى خزانة البنود ، وأكبر الظن أن بدرًا الجمالى وزير المستنصر هو الذى أمر بقتله كما أمر بقتل صهره القاضى إسماعيل بن على كما مرَّ بنا آنفا فى الحديث عن حفيدهما الحسن بن زيد .

وكان ابن أبى الشخباء شاعرا بارعا كما كان كاتبًا بارعا ، ولذلك لُقِّب بالمجيد ذى الفضيلتين ، وفيه يقول العماد : « المجيد مجيد كنَعْته ، قادر على ابتداع الكلام ونَحْته ، له الخطب البديعة ، والملح الصنيعة » ، ويقول ياقوت عنه : « أحد البلغاء الفصحاء والشعراء ، له رسائل مدونة مشهورة قيل إن القاضى الفاضل عبدالرحيم البَيْسانى منها استمَّد ، وبها اعتدَّ .. كتب فى ديوان

---

(١) نفحة الريحانة للمحبى (تحقيق عبد الفتاح الحلو طبعة الحلبى) ٤/٦٠٥

(٢) رضوى : جبل بالمدينة

(٣)كرا : أجر

(٤) انظر فى ابن أبى الشخباء معجم الأدباء لياقوت ١٥٢/٩ والذخيرة لابن بسام (طبع الدار العربية للكتاب بتونس القسم الرابع – المجلد الثانى) ص ٦٢٧ وابن خلكان ٨٩/٢ .

الرسائل للمستنصر صاحب مصر .. إلا أن أكثر رسائله إخوانيات وما كتبه عن نفسه إلى أصدقائه ووزراء وأمراء زمانه » ويقول عنه ابن خلكان : « صاحب الخطب المشهورة ، والرسائل المحبرة ، كان من فرسان النثر ، وله فيه اليد الطُّولَى » . وبدون ريب كان أبرع كاتب قاهرى فى القرن الخامس الهجرى ، كما تشهد رسائله الديوانية والشخصية ، واحتفظ ياقوت وابن بسام فى الذخيرة بطائفة كبيرة منها ، وأكثرها رسائل شخصية بديعة ، من ذلك قوله فى رسالة استعطاف :

« المودَّات إذا كانت متينةَ العقود ، صادقة المشهود ، موضوعةً على أصل عريق ، وأساس وثيق ، لم تَخْتَرِمْها الشبهة المُرْمِضة [١] ، ولم تزلزلها الأباطيل المعترضة ، وإن تناقلتْها ألسن مختلفة ، وعَلَتْها برود من اللفظ مفوَّفة [٢] ، ولما رأيت زيارة مولاى قد صارت مرقَّعة ، وجَنوب [٣] مودته قد عادت مروَّعة ، وصرتُ أرى قوله متناقضًا ، وماءَ البِشْر من وجهه غائضا ، من بعد ما عهدته :

تُنْبِى طلاقةُ وَجْهِه عن وجهِهِ فتكاد تَلْقَى النُّجْحَ قبل لقائهِ
وضياء وجهٍ لو تأمَّله امرؤٌ صادى الجوانح [٤] لارتوى من مائه

لم أتجاسر على سؤاله عن العلة خوفا أن يعيب علىَّ الارتياب بودِّه ، ويتطرَّقَ سوء الظن على عهده ، فسألتُ من يعلم دفائنه ، ويَخْبُر ظاهره وباطنه ، فأخبرنى أن بعض الناس — ولم يُسَمِّه — نقل إليه عنِّى فشَنَّ الغارة على وفائه ، وزلزل أواخىَّ [٥] وده وإخائه ، فقلت : عَتْبٌ ، والله ولا ذنب ، وشكاية ولا نِكاية [٦] . وأنا أحاكم مولاى إلى إنصافه ، لا إسعافه ، وعَدْلِه ، لا فَضْله ، وما كان أجدره برفض قول الماحل [٧] ، وتغليب الحقِّ على الباطل .. والآن فقد أَوْضَعْتُ وأوجفت [٨] ، وتألفت مولاى واستعطفت ، فإن عادت ظلال وده مَديدة ، وحبالُ كرمه محصوفةً [٩] جديدة ، فحسنٌ بتلك الشمائل ، أن تجمع شمل الفضائل » .

والسجعات تنزلق عن الفم بخفة ورشاقة ، تشهد لابن أبى الشخباء بأنه كان كاتبا مجيدا حقا ، وأن الكلم كان يطاوعه ، ليحيله دررًا مختارة . وكان يزين سجعاته بمحسنات البديع من جناس

---

(١) المرمضة : الموجعة .
(٢) البرود المفوفة : الثياب الرقيقة المخطَّطة .
(٣) الجنوب : ريح لينة كالنسيم ، والاستعارة واضحة .
(٤) صادى الجوانح : عطشان .
(٥) أواخى : أواصر .
(٦) نكاية : غلبة وقهر .
(٧) الماحل : الساعى بالنميمة .
(٨) أوضع : سار سيرا سريعا ، ومثلها أوجف .
(٩) محصوفة : محكمة متينة .

وطباق . وتكثر عنده الاستعارات المبتكرة الطريفة ، وكان يعرف كيف يغوص عليها ويستخرج لآلئها النفيسة من أصدافها البراقة ، وطبيعى للقاضى الفاضل وللكتّاب من بعده أن يعنوا بحفظ كلامه ويستحضروه فيما يكتبون ويصوغون . وله من رسالة يعاتب فيها بعض القواد .

« رأيت فلانًا عند نظرته لى بالأمس قد قطّب[1] حاجبه ، وزعزع مناكبه ، فقلت : ماله ؟ أأنزل إليه وَحْى ، أم عُصب [2] به أمر ونَهْى ، أم قَلَّ عقله فعقَّ نفسَه وظلمها ، وجهل مقادير الأشياء وقيمها ، واعتقد أن الدنيا طوع حكمه ، والفِطَنَ صائبُ فهمه ، أم رأى الملائكة المقربين تَتشفَّع به ، والحور العِين [3] تشكو لاعج حبِّه ، وثمارَ الجنة تدلَّت إلى يده ، ونار جهنم تُقْتَبَسُ من زَنْده ، والكوثر يُمدّ من مَعينه ، والسمواتُ مطوياتٌ بيمينه »

وهو عتاب مرير لهذا القائد الذى شمخ بأنفه عليه ، وتعالى واستكبر استكبارا ، فمضى يهزأ به ويسخر منه سخريات متعاقبة ، فهو ليس نبيا مرسلا . ولاآمرًا ناهيا ، بل هو جاهل مغرور ، لايعرف قيم الناس ولا أقدارها ، وكأنما ظن أنه الحاكم بأمره وأن عقله مجمع الفطن ، بل لكأنما توهم أنه نبى تتشفع به الملائكة ، وأن الحور العين تشكو تباريح حبه ، وأن ثمار الجنة مَدّ يده ، ونار جهنم تقتبس من زنده الوارى المضطرم ، ومن معينه يستمد نهر الجنة ، أو أحد أنهارها : الكوثر . بل لكأنما توهم نفسه رب الكون ، وخال السموات مطويَّاتُ بيمينه . وعلى هذا النحو تتوالى سخرياته ، يطعن بها هذا القائد فى الصميم ، وفى آخر القطعة اقتباس واضح لآية سورة الزمر : (والسموات مطويَّاتٌ بيمينه) . ويكثر هذا الاقتباس لآيات القرآن الكريم وألفاظه فى رسائله ، كما يكثر الاستشهاد بالشعر وإنشاده فيها مازجًا له بكلامه . وكلُّ ذلك وما تقدم من استخدامه للمحسنات البديعية وضعه الكتاب المصريون بعده شِعارا لهم وسُنَنًا فى رسائلهم . وله من رسالة فى هجاء مضيف ومائدته .

« ولجتُ منزلا قد استعار من قلب العاشق حرًّا ورَهَجا [4] ومن أخلاق مالكه ضيقا وحرجا ، كأنما زفرت فيه النار ، ونُقِّط على جدرانه بالقار ، فجلست طويلا إلى أن حضر الإخوان ، وقُدِّم

(١) قطب : عبس وضم حاجبيه
(٢) عصب به : ضمّ إليه .
(٣) العين : جمع عيناء : واسعة العينين جميلتهما .
(٤) رهجا : غبارا

الخِوان [١] ، فرأيت أرغفة قد أُحكمت فى الصغر والإلطاف ، ولم تتعوَّذ [٢] قط من الأضياف .. وثلاثة صِحاف ، واسعة الأكناف ، بعيدة الأوساط من الأطراف ، قد جُعل فى قرارة كل منها مالايدفع السَّغَب [٣] ، ولاتجده اليد إلا بالتعب ، فجُلنا جولة وعينه تطرف علينا شمالا ويمينا ، وتتفقد منا حركة وسكونا ، وقمنا ولم نقارب الكفاف ، وقد ظُنَّ بنا الإسراف » .

والسجع يطرد دائما عنده على هذا النحو من صفاء اللفظ ورصانته والقدرة البارعة على الملاءمة بين السجعات فى الجرس ، مع الانطلاق والسهولة ، وكأنه يصدر عن النيل العذب وسلاسته . وهو بحق جدير بما أسبغ عليه الأسلاف من ثناء وإطراء .

ابن [٤] ممَّاتى

هو أسعد بن الخطير مهذب بن مينا بن أبى المليح زكريا بن مَمَّاتى ، سليل أسرة قبطية من أسيوط ، هاجرت منها إلى القاهرة فى القرن الخامس الهجرى ، وكان جده مَمَّاتى جوهريا واشتهر بأنه كان يصبغ البِلَّوْرَ صبغة الياقوت فلا يعرفه إلا الخبير بالجواهر . ويقال إن القَصَّ من عمله كان إذا نودى عليه فى سوق الصاغة تشوفت نحوه العيون لجودته وحسن منظره . واتصل ابنه أبو المليح بوزير المستنصر بدر الجمالى أمير الجيوش ، ووظفه بديوان الإقطاعات وشئون المال ، وكتب بعده لابنه الأفضل ، وظل هذا العمل الديوانى فى بيته ، يتولون ديوان الإقطاعات أو ديوان الجيش أو ديوان المال ، ولعلها جميعا كانت ديوانا واحدا متداخلا . وتولَّى هذا الديوان لآخر أيام الدولة الفاطمية الخطير مهذب ، حتى إذا أسندت الوزارة فى آخر أيام العاضد الفاطمى إلى أسد الدين شيركوه نراه يُسْلم هو وأولاده على يده . وأقره أسد الدين على مابيده من ديوان الإقطاعات ، وقيل بل ديوان الجيش . وكانا متداخلين كما ذكرنا . ومعروف أن أسد الدين شيركوه ولى الوزارة المصرية

---

(١) الخوان : المائدة عليها الطعام

(٢) كناية عن أن الأضياف لم يلمسوها

(٣) السغب : الجوع الشديد

(٤) انظر فى ابن مماتى وترجمته ورسائله الخريدة (قسم مصر) ١/١٠٠ ومعجم الأدباء ٦/١٠٠ والمغرب (قسم القاهرة) ص ٢٦٩ وابن خلكان ١/٢١٠ وإنباه الرواة للقفطى ١/٢٣١ وخطط المقريزى ٢/٥٧٧ والنجوم الزاهرة ٦/١٧٨ والبداية والنهاية لابن كثير ١٣/٥٢ وشذرات الذهب ٥/٢٠ وحسن المحاضرة ١/٥٦٥ وطبقات الشافعية للسبكى ٨/٢٤٣ ولأبيه الخطير ترجمة بعده فى الخريدة وقبله فى المغرب .

سنة ٥٦٤ وكان أسعد فى العشرين من عمره فأسلم وحسن إسلامه وهو لايزال فى ريعان شبابه ، وكان ساعد أبيه وعونه طوال عمله الديوانى إلى وفاته سنة ٥٧٧ .

وكان القاضى الفاضل يعجب بابن مماتى ويسميه بلبل المجلس لظرفه ، مما جعله يعينه ناظر الدواوين بمصر مع إسناد ديوانى الجيش والمال إليه ، وظل له هذا العمل بقية مدة صلاح الدين وابنه العزيز والأفضل ، حتى إذا ولى السلطان العادل بن أيوب سنة ٥٩٦ واستوزر الصفى بن شكر أخذ الجو يكفهر بينه وبين الوزير ، بسبب ما كان يصدر منه فى حقه أيام عمله فى الديوان معه ، فلم تمض مدة طويلة حتى أخذ يدبر عليه المؤامرات ، وصودرت أمواله . واستتر فترة نحو عام ثم احتال فى الفرار إلى الشام ، وأبعد فى فراره حتى نزل حلب سنة ٦٠٤ على سلطانها الظاهر بن صلاح الدين فأحسن استقباله ، وجعل له راتبا معلوما وظل يسبغ عليه عطاياه حتى توفى هناك سنة ٦٠٦ .

وصنف ابن مماتى مصنفات كثيرة عدَّ له ياقوت فى معجمه منها أكثر من عشرين مصنفا ، منها مؤلفات ومنها مختارات شعرية من بعض الدواوين أو من كتب الموسوعات الشعرية مثل الذخيرة لابن بسام . ومن مصنفاته « الشيء بالشيء يذكر » ويقال إن القاضى الفاضل أعجب به حين عرضه عليه وسماه سلاسل الذهب . ومن أهم مؤلفاته كتاب قوانين الدواوين الذى نشره بمصر عزيز سوريال عطية فى جزء واحد ، ويبدو أنه مختصر للكتاب إذ يقول المقريزى فى خططه « كتابه قوانين الدواوين صنفه للملك العزيز فيما يتعلق بدواوين مصر ورسومها وأصولها وأحوالها ومايجرى فيها ، وهو أربعة أجزاء ضخمة ، والذى يقع فى أيدى الناس جزء واحد اختصره منها غير المصنف ، فإن ابن مماتى ذكر فيه أربعة آلاف ضيعة من أعمال مصر ومساحة كل ضيعة وقانون ريِّها ومتحصّلها من عَيْن (نقد) وغلّة » . ومن أهم مؤلفاته تهذيب أفعال ابن طريف فى اللغة ، ويقول القفطى فى إنباه الرواة : « أجاده ، وأتى فيه بالحسنى وزيادة » ومن أجله ترجم له بين اللغويين والنحاة . وله كتاب اختار العامية لغة له ، هو كتاب الفاشوش فى حكم قراقوش ، وسنعرض له فى غير هذا الموضع . وكان له ديوان شعرى سقط من يد الزمن . ونظم سيرة صلاح الدين كما نظم كتاب كليلة ودمنة شعرا . وكان أبوه الخطير شاعرا كما تدل على ذلك ترجمته عند العماد وفى المغرب .

وكان ابن مماتى يحسن الكتابة كما يحسن الشعر ، وفيه يقول العماد : « أحد الكتاب فى الديوان الفاضلى ، ذو الفضل الجلىّ ، والشعر العلىّ ، والنظم السَّوِىّ ، والخاطر القوىّ ، والسحر

المانوى [١] ، والروىُّ الروىُّ [٢] ، والقافية القافية [٣] أثر الحسن ، والقريحة المقترحة صورة اليُمْن ، والفكرة المستقيمة على جَدَد [٤] البراعة ، والفطنة المستمدة من مَدد الصناعة » . وبعد أن أنشد العماد طائفة من أشعاره روى فصولا من رسائله الشخصية تدل على براعته الكتابية بجانب براعته الشعرية مستهلا لها بقوله : « ومن نَوْر [٥] نثره البديع ، ونور فجره الصَّديع [٦] وغرر درره النَّصيعة [٧] ودرر غرره الصَّنيعة [٨] ، ماتُحْذَى [٩] له بهائم التمائم . وتُحْدَى [١٠] به كرائم المكارم ، ويَرْتَعُ الحسن فى روضه ، وتكرع الحسناء من حوضه ، وتغتبط الآداب بدابه [١١] ، وترتبط الألباب ببابه » .

ومن طريف مادوَّنه له العماد فصل من رسالة شخصية يصور فيها فراقه لصديق فى إحدى الأمسيات قائلا :

« فصلت عنه فى أُخريات النهار ، وقد ظهر فى أطراف الجدران لَفَرق [١٢] فراق الشمس اصفرار ، فلما ذَهَب ذهبُ الأصيل بنار الشَّفَق ، ولبست المشارق السَّواد لما تمَّ فى المغارب على الشمس من الغرق ، وأقبلت مواكب الكواكب فى طلب الثار ، كدراهم النِّثار [١٣] وتشابهتْ زواهرها – وإن اختلفت فى الأسحار – بالأزهار فى الأشجار ، وتكلف القمر الموافقة فظهر على وجهه الكَلَف [١٤] ، ومرتْ به طوالع النجوم فلم يستخبرها حسدا فأعرب عن غدر الخلف بالسَّلف ، وظهر الوجوم ، فى وجوه النجوم ، وعيل صَبْر النَّسْرَيْن [١٥] فواحد طائر يحوم ، وآخر واقع لايقوم . ولم تزل متلاحقة متسابقة لتقفو الأثر وتسمع الخبر ، إلى أن بدا سَوْسَنُ الفجر ولاح ، وابتسم ثغر الصباح عن الأقاح [١٦] ، وكاد ثعلبه يأكل عنقود الثريا ، وبرزت الغَزالة من أُسِّ الكِناس [١٧] طلقة المحيَّا » .

---

(١) المانوى نسبة إلى مانى مؤسس مذهب المانوية الفارسى قبل الإسلام

(٢) الروى الأولى : الحرف الذى تُبنى عليه القصيدة والروى الثانية من الماء أى شاف الغلة .

(٣) القافية الأولى : نهاية البيت فى القصيدة ، والقافية الثانية من قفا الشىء أى تبعه .

(٤) جدد : نهج مستو (٥) نور : زهر

(٦) الصديع : المنشق نورا (٧) النصيعة . الناصعة

(٨) الصنيعة : البديعة .

(٩) تحذى : تقطع . بهائم : مبهمات . التمائم : التعاويذ

(١٠) تحدى : تساق بالأراجيز والأشعار .

(١١) دابه : تسهيل دأبه أى نمطه (١٢) فرق : جزع

(١٣) النثار : ماينثر على العروس فى الزفة من الدراهم

(١٤) الكلف : مايعلو وجه القمر أحيانا من كدرة

(١٥) النسران : نجمان أحدهما يسمى النسر الطائر ويسمى الثانى النسر الواقع

(١٦) أقاح : جمع أقحوان وهو نبت زهره أبيض وورقه كأسنان المنشار وهو الأراولة ويشبه به الاسنان .

(١٧) الغزالة : الشمس . الكناس : بيت الغزال فى الشجر يستتر به . طلقة المحيا : بشة الوجه .

ويدل هذا الفصل على أن العماد الأصبهانى كان محقا كل الحق فى التنويه ببراعة ابن مماتى الكتابية ، وهى براعة تكاد تبدو فى كل سجعة من سجعات هذا الفصل ، فأضواء الشمس فى الأصيل تعكس بصفرتها على أطراف الجدران فرقا وفزعا لهول الفراق . وتَوارَى ذهب الأصيل وراء نار الشفق الملتاع ، ولبست المشارق السواد على الشمس الغريقة فى المغارب . وأقبلت مواكب الكواكب ، وجيوشها تطالب للشمس بالثأر ، متفرقة ومتجمعة وكأنها نِثار الدراهم فى الأعراس ، أو كأنها الأزهار على الأشجار فى الأسحار ، وتكلف القمر أن يظهر وحده لغياب الشمس أخته فظهر الكلف على وجهه ، ومرت به الكواكب وطوالعها فلم يسألها ما الخبر ، حسدًا وغدرًا كما يغدر الخلف بالسلف . وبدأ الوجوم فى وجوه النجوم ، وكاد النسران أن يفقدا صبرهما فواحد طائر يحوم وآخر واقع لايقوم . ولم تزل النجوم متلاحقة ، إلى أن بدا سَوْسن الفجر وزهره الأبيض المشرق ولاح ضياؤه ، وابتسم ثغر الصباح عن أضواء كالأقاح . وطالما شبَّه الشعراء مجموعة نجوم الثريا بالعنقود . ويستغل ذلك ابن مماتى ، كما يستغل تسمية الشعراء للشمس الغزالة فجعلها تستتر ليلا وراء الأفق فى كناس ككناس الغزال والظباء فى الشجر . ومراعاة النظير واضحة فى السجعات الأخيرة . ويشيع فى الفصل كله حسن التعليل ، كتعليل ابن مماتى الرائع لصفرة الأصيل على أطراف الجدران ، وتعليله لانتشار الظلام فى بواكير الليل على المشارق حزنًا على غرق الشمس ، وهو حزن تبعه لبس السواد ، ومن هذا اللون أيضا تعليله لكلف القمر لتكلفه الحزن على غرق الشمس . ويتمادى ابن مماتى مع مراعاة النظير ، فيجعل القمر لايسأل الكواكب عن مصير الشمس حسدا يستشعر فيه من تلقاء نفسه غدر الخلف المعروف بالسلف . ومن هذا اللون أيضا ماعلل به طيران أحد النسرين ووقوع صاحبه لما فقدا من صبرهما . وتتلاحق فى تضاعيف ذلك الاستعارات ، ومايوشى به سجعاته من الجناسات والطباقات . وله من صدر مكاتبة :

« لم يزل العبدُ لما عرضَ من إعراض المجلس .. ذا زفراتٍ سَوامٍ تتضرّم[١] ، وعبرات هوامٍ تتصرَّم[٢] ، وعبارات عن بسط عذره تعثر بالكلام عيًّا فيتذمَّمُ[٣] ، بالصمت عن أن يتحرَّز ويتحرَّم[٤] ، وأفكارٍ تتنزَّه عن إساءة الظن بمودته فما يتكدَّر حتى يتكرم ، فكم تناول القلب جَلَده ، فجَلَّده بالقلق لما تجاوز حدَّه وحدُّه[٥] ، وأجرى من سوابق دموعه عسكرا أجرى فشق

---

(١) سوام : لازمة لاتبرح . تتضرم : تشتعل

(٢) هوام : سائلة . تتصرم : تنقطع

(٣) يتذمم : يتوسل

(٤) يتحرم : يجده حراما

(٥) حده : ضربه بالسياط

خدَّه وخَدَّه[١] .. إلى أن بدت صحيفة وجه صَبْره مسودَّة، وتمنى لوكان الموت قبل إخلافه وعدَه ، وإخلاقه وُدَّه[٢] وَدَّه[٣] ، حتى جَنَى وَردَ ورود كتابه الكريم من انتظام شوك انتظاره ، ورفع ناظره بقدومه عليه على كافَّة أمثاله وأنظاره ، فعلم أن عَلَم المودة قد رُفع ، وموصول حبل الجفوة قد قُطع ، وكاد القلب يخرج لمصافحته لو استطاع نفاذا ، واجتمعت فيه أمانى النفس ، فاتخذته دون جميع الملاذِّ مَلاذَا[٤] . وتناوله بيد الإجلال ، وفضَّه بيد الإدلال ، فوجده منظوما على خطٍّ كالكئوس المرصَّعة لما لاح مداده مُداما ونَقْطه حَبَبًا . وألفاظ تتيح للخواطر طربا ، وتعريضاتٍ لوكان التصريح فضة لكانت ذهبا ، ومنَنٍ مالاحت سحائبها حتى وَكَفَتْ[٥] وأيادٍ ما استكفت فواصلها حتى عمَّت وكَفَتْ » .

ووشى الجناسات والاستعارات واضح فى هذا الفصل ، فالزفرات تتضرَّم والعبرات تتصرَّم بينما يتذمم بالصمت ويتحرم . ولاتلبث أن تلقانا جناساته التامة . فالقلب يلوذ إزاء إعراض صاحبه عنه فى مجلسه بجلده فيضربه بأسواط القلق ، حين تجاوز حَدَّه ومنتهاه ، ويحدُّه كما يُحَدُّ الجناة ، وتجرى سوابق دموعه فتشق خده وتخدّه أى تشقه وتؤثر فيه ، وتَخْلَق وتَبْلى مودة صاحبه فيتمنّى لو كان الموت ودَّه وزاره . ويعود ابن مماتى إلى هذا الجناس التام بين « الملاذّ وملاذا » كما يعود إليه فى نهاية الفصل حين وكفت السحب أى أمطرت وعمت فواضل صاحبه وكفت من الكفاية . وتلقانا فى الفصل مراعاة النظير والطباق ، وكأنما كان ذلك شعارا له فى نثره . ومن طريف ماأُثر عنه من تصويره لوفاء النيل قوله .

« وأما النيل المبارك فإنه عَمَّ اليَفاع[٦] ، وطَبَّق[٧] ، البِقاع ، وانتقل من الإصبع للذراع ، حتى لم يُلْف بمصر قاطع طريق سواه ، ولا موهوب مرهوبٌ إلا إياه » .

وهو يصور فى هذه الكلمات القليلة فيضان النيل بل طوفانه الذى لا يقاس بالإصبع وإنما بالذراع والذى علا موجه مرتفعات الوادى وجميع البقاع ، حتى قطع الطرق وأخذ بخناق الدور والسكان ، ورهبه الناس وطلبوا منه الأمان . ولعل فى كل ماقدمنا مايصور قدرة ابن مماتى البيانية

---

(١) خده : شقَّه وأثر فيه

(٢) إخلاق الشيئ : جعله باليا

(٣) وده : زارَه

(٤) ملاذا : ملجأ

(٥) وكفت : أمطرت ، وكفت فى آخر الفصل من الكفاية

(٦) اليفاع هنا : مرتفعات وادى النيل

(٧) طَبّق : عمَّ

وأنه كان جديرا بأن تعنى كتب الأدب والتراجم . بشعره ونثره ، وتحمل إلينا باقات كثيرة من رسائله .

فخر الدين [١] بن مكانس

هو أبوالفرج عبدالرحمن بن عبدالرزاق بن إبراهيم بن مكانس ، من سلالة أسرة قبطية ، ولد لأبيه سنة ٧٤٥ بالقاهرة . وكان الأب مسلما كما يتضح من اسمه ، وكان من الكتاب فى الدواوين ، فنشأ ابنه على غراره ، وكان ذكيا ذا ملكة خصبة ، فسال الشعر مبكرا على لسانه . وصحب برهان الدين القيراطى وبدر الدين البَشْتكى الشاعر أحد تلاميذ ابن نباتة ، وعنه روى شعره ونثره . وكان حنفى المذهب . واحتل سريعا مكانة أدبية بين أقرانه فى القاهرة ودواوينها السلطانية ، ورقى بها إلى منصب ناظر الدولة ، وغيره من المناصب الرفيعة . وغضب عليه السلطان برقوق (٧٨٣-٨٠١) ذات مرة فأمر بمصادرته وتأديبه على خشبة السِّرْياق منكَّسا على رأسه ، فقال :

وما تعــلَّقتُ بالسِّرياق منتكسًا ... لِجَرْمةٍ أوجبتْ تعذيبَ ناسوتى [٢]
لكننى مذ نفثتُ السِّحْرَ من أدبى ... عُلِّقْتُ تعليق هاروتٍ وماروتِ

ويدل البيتان على ظرفه . وعفا عنه السلطان برقوق وأعاده إلى العمل ، ثم عينه وزير دمشق ، فأقام بها مدة . وفى صحبة السلطان برقوق دخل حلب ، وطارح فضلاءها كما طارح فضلاء دمشق . وطلبه السلطان برقوق بعد عودته إلى القاهرة ليلى الوزارة بالديار المصرية ، غير أنه توفى قبل دخوله القاهرة ، ودفن بها سنة ٧٩٤ قبل أن يكمل سنته الخمسين . وخلف ديوان شعر كبير ، وفى دار الكتب المصرية مخطوطتان منه إحداهما بخط ابنه مجد الدين وكان شاعرا بارعا على شاكلة أبيه ، وقد أنشدنا بعض شعره البديع فى غير هذا الموضع .

وأشاد بفخر الدين كل من ترجموا له ، فيقول ابن حجر فى الدرر الكامنة : «كان قوى الذهن حسن الذوق حاد النادرة يتوقد ذكاء» ويقول صاحب النجوم الزاهرة : «كان أديبا فاضلا شاعرا

---

(١) انظر فى ابن مكانس وترجمته ونثره وشعره الدرر الكامنة ٤٣٨/٢ والنجوم الزاهرة ١٣١/١٢ وصبح الأعشى ٢٦٧/١٤ وخزانة الأدب للحموى ص ١٩ ، ٢٢٤ ، ٣١٩ ، ٣٣٠ ، ٤١١ ، ٥٤٧

(٢) الجرمة : الجرم أى الذنب . ناسوتى : جسدى .

فصيحا بليغا .. وهو أحد فحولة الشعراء بالديار المصرية فى عصره ، وشعره فى غاية الحسن والرقة والانسجام ، وديوان شعره مشهور كثير الوقوع بأيدى الناس » وكان كثير التورية فيه على نحو مايتضح مما رواه له مترجموه وخاصة الحموى صاحب خزانة الأدب . وله رسائل شخصية تدل على روعته البيانية ، من ذلك رسالة احتفظ بها القلقشندى فى صبحه كتب بها إلى بدر الدين البَشْتَكى فى غيبته عن مصر بدمشق سنة ٧٨٤ وتصادف أن كان فيضان النيل عاليا وزاد زيادة مفرطة ، فرأى أن يصور له ذلك قائلا :

« ربَّنا اجعلنا فى هذا الطوفان من الآمنين ، وسلامٌ على نوح فى العالَمين . ماتأخيرُ مولانا بَحْرِ العلم وشَيخه عن رؤية هذا الماء ؟ .. فإنه قارب النيل أن يمتزج بنهر المجرَّة بل وصل وامتزج ، وأرانا من عجائبه ماحقق أنه المعنىّ بقول القائل : حَدِّثْ عن البحر ولا حرج .. وسَقَى الناس من ماء حياته المعهودة كما شربوا من الموت أصعبَ كاس ، وسُئل ابن أبى الرَّدَّاد عن قياس الزيادة فقال : زاد بلا قياس ، امتلأ اليَباب[1] ، وهال العُباب ، كال فطفَّف ، وزار فما خفَّف ، جمع فى صعوده إلى الجبال بين الحادى والملاَّح ، ودخل الناسُ إلى أسواق مصر وخصوصا سوق الرقيق على كل جارية ذات ألواح[2] ، وغَدَا التيَّار ينساب فى كل يَم كالأيْم[3] ، وأصبحت هضاب الموج فى سماء البحر وكأنما هى قطع الغَيْم ، واستحالت الأفلاك فكل بُرْجٍ مائىّ ، وتغيَّرت الألوان فكل مافى الأرض سمائى .. وتحالى إلى أن أقرف[4] الليمون الأخضر ، واحَمرَّت[5] عينه على الناس فأذاقهم الموت الأحمر ، ولقد صعب سلوكه وكيف لا وهو البحر المديد ، وأصبح كل جدول منه جعفرا[6] ويزيد .. ولكم قال الهرم للسَّارين ، ياسارية الجبلَ ، وأنشد وقد شمَّر ساقه للخوض : أنا الغريق فما خوفى من البلل ، وكم قال أبوالهول : لا هول إلاَّ هولُ هذا البحر ، وقال المسافرون : مارأينا مثل هذا النيل من هنا إلى ما وراء[7] النهر .. ولو رآه مولانا وقد هَجم على مصر فجاس خلال الديار ، ودخل إلى المعشوق فتركه كالعاشق المهجور لم يُر منه غيرُ الآثار ، لبكى بعينى عُرْوة[8] ، وأوى من الرَّصَد إلى رَبْوة .. وكل سفينة قد علت على وجه الماء ، وارتقت لارتقاء البحر إلى أن اختلطت بالسماء ، وقد قالت لها أترابها عند الفراق إلاَّ ترجعى ،

---

(١) اليباب : القفر والخراب .

(٢) يريد السفن

(٣) اليم : البحر . الأيم : الحية الذكر

(٤) أقرف هنا : عطَّر ، من القرفة المعروفة طيبة الرائحة

(٥) احمرت عينه : كناية عن الحمرة فى طمى النيل

(٦) الجعفر : النهر الصغير .

(٧) ما وراء النهر : ماوراء خراسان فى شمالها الشرقى

(٨) عروة هو عروة بن حزام العاشق المشهور فى صدر الإسلام

وقلنا لها نحن على سبيل التفاؤل : (ياسماءُ أقلعى [١]) .. ولقد طار النَّسْرُ مبلولَ الجناح ، ودنا نهر المجرة من السُّكارى بالشخاتيت [٢] إلى أن كاد يدفعه من قام بالرَّاح ، ونرجسُ البساتين وقد ابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم .. والورد وقيل له مالك من آس ، وغُصْن البان وقد قيل له طوبى لمن عانقك ولا باس » .

ونكتفى بهذه المقتطفات من الرسالة فإنها طويلة ، وهى رسالة بديعة فى وصف فيضان النيل وسمو أمواجه وارتفاعها إلى أعلى الأعالى فى شولطىء النيل حتى كادت أن تمتزج بالمجرة فى السماء كما يقول ابن مكانس ، فإذا الحادى للإبل يلتقى بالملاح ، وإذا الناس يدخلونَ إلى أسواق مصر والفسطاط على سفن ذات ألواح . فقد انسابت غدرانه وأمواجه إلى الطرقات والشوارع وتعالت هضاب أمواجه إلى السماء حتى لكأنها قطع السحاب . ولم تعد هناك أرض وسماء ولا أفلاك ووهاد ، وحلا النيل وتظرف حتى عطَّر الليمون الأخضر ، واحمرت عينه إشارة إلى طميه الأحمر ، فأغرق الناس وأذاقهم الموت الزُّؤام . ويستمر ابن مكانس فى هذه الاستعارات ، فيخلط بين النيل وبين وزن المديد الصعب فى الشعر وبحره وكذلك بين جداوله والجعفر أى النهر الصغير . ويستعير الكلمة المأثورة عن عمر بن الخطاب وهو على المنبر حين هتف بقائده سارية وهو يحارب فى الشام فقال له ياسارية الجبل أى الزمه ويقال أن الريح حملت الكلمة إلى سارية . وما أروع تصويره لهرم الجيزة وقد شمر ساقه للفيضان حين علا إلى جدرانه فقال متمثلا بشطر من الشعر : أنا الغريق فما خوفى من البلل . وقد ورَّى بكلمة ماوراء النهر فهو لايريد ماوراء النيل من بلاد السودان وإنما يريد ماوراء خراسان فى أوزبكستان الحالية وكانت تسمى بلاد ماوراء النهر . والمعشوق بستان ورباط عظيمان كانا بظاهر القاهرة . وقد اقتبس من الحديث عن الطوفان فى القرآن الكريم : (ويا سماءُ أقلعى) . وتلقانا فى الرسالة آيات أخرى وأشعار كثيرة منثورة . وما أسرع ماجاء باقتباس من سورة يوسف عن أبيه وقد أسف عليه : (وابيضَّت عيناه من الحزن فهو كظيم) . وورَّى فى كلمة آس فهى تحمل معنيين : الآس زهر وردى أو أبيض ، والآسى الطبيب المداوى . والاستعارات بديعة هى وما تتحلَّى به من زخارف البديع وحلاه ومحسناته من جناس وطباقات ومراعاة نظير وحسن تعليل .

ووشى شخص قيروانى ضرير إلى أبى بكر بن العجمى أحد الكتاب النابهين فى ديوان الإنشاء

---

(١) أقلعى : أمسكى عن الماء

(٢) الشخاتيت : لعلها القوارب .

بأن صديقه ابن مكانس يقول عنه إنه يستعين بكلام غيره ، فتأذى ابن العجمى من ذلك . وتأذى ابن مكانس من كذب الناقل فكتب إليه من رسالة :

« (ليس على الأعمى حرج) بلغنى – ما بلغ سيدنا ومولانا الإمام العالم العلامة الأديب الشاعر الناظم الناثر المحقق الأمة الكاتب الحجة زين الدنيا والدين ، قرة عين الكرام الكاتبين ، لازال زينة يَحْلَى به العاطل ، ويُظلّ تحت جناح أدبه القائل[١] – من غيبة ذلك الضرير ، مالاخشى اللهَ فيه بظهر الغيب ، ونقل إلى المسامع الكريمة مالايحتاج للاعتذار عنه لما فيه من الرَّيْب ، ولكن لاغناء لسيف ذهن المملوك الكليل من التنصل ،[٢] ولابد من نهلة اعتذار على سبيل التعلل .. ولو اختلف الأدباء على إمام لأهل هذه الصناعة مطهَّر من الأرجاس [٣] ، لقال لهم لسان البلاغة مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس .. والمسئول من إحسانه أمران : أحدهما الجواب فإنه يقوم عند المملوك مقام الفرج من هذه الشدة ، والآخر ردّ كل فاسق عن الباب العالى فإن أبا بكر أول من تصلَّب[٤] فى الردة ، وبلغ المملوك أن هذا الضرير قصد بعض الأصحاب برمية كهذه فأَصْمَى[٥] ، وتردَّد إليه مرة أخرى فـ(عَبَسَ وتولَّى أن جاءه الأعمى) » ..

والسجعات خفيفة رشيقة مع مايزينها من الاستعارات والجناسات ، وفى كلمة « القائل » تورية واضحة ، إذ لا يريد أن ابن العجمى يُظل تحت جناح أدبه الأديب المتكلم القائل ، وإنما يريد القائل من القيلولة ووقتها الحار فى الظهيرة ، فهو غوث العائذين وملاذ المعوذين المحتاجين . واستغل اسمه أبا بكر فى التورية باسم أبى بكر الصديق متلطفا بذكر حادث صلاته بالمسلمين نزولا على أمر الرسول ﷺ له حين اشتد به المرض إذ قال : « مروا أبا بكر فليصل بالناس » . وعاد ابن مكانس إلى التورية بأبى بكر الصديق حين طلب من ابن العجمى أن لايفتح بابه للواشى مقتديا فى ذلك بالصديق حين تشدد فى حروب الردة على نحو ماهو معروف . ولم يلبث أن اقتبس من الذكر الحكيم آية تصور ماينبغى على ابن العجمى من لقاء الواشى لقاء متجهما على نحو ماتصور ذلك الآية : (عَبسَ وتولّى أن جاءه الأعمى) . ولعل فى كل ماقدمت مايصور خفة روح ابن مكانس وعذوبة سجعه ومايشيع فيه من سلاسة .

---

(١) القائل : المتعب من القيلولة وهى وسط النهار
(٢) التنصل : التبرؤ
(٣) الأرجاس : جمع رجس وهو الإثم
(٤) تصلب : تشدد .
(٥) أصمى السهم : أصاب إصابة نافذة

٣

المقامات

معروف أن المقامة حديث قصصي قصير يصور كيف يحتال أديب متسوّل على سامعيه بسجعه وأساليبه الرشيقة ، فيستخرج الدراهم والدنانير من جيوبهم ، وهو جَوّاب آفاق يظهر فى بلدان كثيرة أديبا متسولا يخلب الجماهير ببيانه وبلاغته ، وبديع الزمان الهمذانى هو أول من ابتكر هذه الأحاديث القصصية ، على نحو ماهو معروف عن مقاماته ، ونسج على منواله الحريرى فى مقاماته المشهورة .

وأكبَّ الناس على مقاماتهما إكبابا شديدا مما دفع كثيرين من الأدباء فى الأقطار العربية المختلفة إلى محاكاتهما ف هذا الفن البديع ، تارة يبنونه على الشحاذة الأدبية مثلهما ، وتارة يستقلون عنهما مكتفين فيه بضرب من الحديث القصصي الفكه . وقد يتركون القصص جانبا ، ويبنون المقامة على الوعظ أو على عرض مسائل علمية ، أو على وصف الحيوانات ، أو وصف البساتين والحوار بين الأزهار ، وغير ذلك من موضوعات شتى . ولظافر الحداد الذى ترجمنا له بين الشعراء والذى توفِّى بعد الحريرى بنحو عشر سنوات مقامة [١] ، صوَّر فيها نفسه وقد أصبح ذات يوم تائقا إلى لقاء بعض الأدباء ، ومطرته الح ، لم يلبث أن جاءته منهم رفقة ، فتلقاهم بالبشر والسرور وأخذ فى الحديث معهم ، حتى دن وقت الغداء فأسرَّ إليه غلام أن ليس عندهم للإنفاق إلا الإملاق ، وبينما هو يفكر فى وسيلة لإنقاذ الموقف إذا الباب يقرع وإذا رسول شَّواء كان قد خلصه من حبس الشرطة يرسل إليه بإناء كبير مليء بأرز ولحم وسكر . وبعد حوار مع غلامه هل يرجعه للشواء أو يقبله ، يقنعه بقبوله . ويشبع الضيفان ، ولا يجد عنده شيئا من فاخر الحلوى يقدمه لهم . ويقدم قصيدة يعتذر بها عن ضيق حاله ، ويستفزهم الضحك والطربّ ، ويعودون إلى حديثهم العذب حتي غروب الشمس ، ويستهل ظافر مقامته على هذا النمط :

« أصبحت ذات يوم فى منزلى ، وقد كلَّ جَنَانى وبَنانى ولسانى وإنسانى [٢] ، من الدَّأب فى الطلب ، والإكباب على الكتب ، ومتابعة المراجعة ، فى النسخ والمطالعة ، بين معنى أُحكمه ، أو

---

(١) انظر ديوان ظافر ص ٣٤٩

(٢) إنسانى : يريد إنسان عينه

خطٌّ أرقه[١] ، فتاقت النفس إلى الإحماض بمفاكهة أديب ، والارتياض بمذاكرة لبيب ، وإذا الغلام قد دخل وأسرع ، وقال : الباب يُقْرَع . فقلت له : ما الشان ؟ فقال جماعة من الإخوان ، منهم فلان ، فذكر لى كل صديق صدوق ، ورفيق رفيق ، فقلت : ويحك عَجِّلْ بفتح الباب ، وَأْذَن للأحباب ، فهم نزهة النفس ، وثمرة الأنس » .

وتمضى المقامة بهذا السجع الخفيف ، الذى يكاد يطير عن الأفواه طيرانا بعذوبته وقصره ، وحسن الاختيار للفظه . ويلقانا بأخرة من أيام الدولة الفاطمية الرشيد[٢] بن الزبير المتوفى سنة ٥٦٢ وهو أخو المهذب الذى ترجمنا له بين الشعراء وكان شاعرا مثله ، ويقول ابن خلكان له ديوان شعر ، وكان من أهل الفضل والنباهة والرياسة صنّف كتاب جنان الجَنَان ورياض الأذهان فى شعراء عصره ، وكان تكلة لكتاب اليتيمة للثعالبى وسقط من يد الزمن ، وقال العماد الأصبهانى عنه : « أوحد عصره فى علم الهندسة والرياضيات والعلوم الشرعيات والآداب » ويقول ياقوت عنه : « كان كاتبا شاعرا ، فقيها نحويا لغويا عروضيا مؤرخا منطقيا . مهندسا ، عارفا بالطب والموسيقى والنجوم متفننا » . ومن كتبه كتاب مُنْيَة الألمعىّ وبُلْغة المدعى ، وهو موسوعة علمية . وصوَّر معارفه الكثيرة فى مقامة تسمى المقامة الحصيبية[٣] ، استعرض فيها جوانب من معارفه العلمية الواسعة ، وهو يدير فيها الحوار بينه وبين طائفة من العلماء بادئا بعالم نحوى موردا عليه من النحو ومسائله مايبهره . ويصنع نفس الصنيع بعالم بلاغى ، ويتوالى حواره أو حديثه مع علماء العروض والفقه وأصوله والتفسير والتأويل والفلسفة والمنطق والهندسة والحساب والرياضة وعلم الفلك والهيئة والأجرام والكواكب العلوية وعلم الطب . حتى إذا أنهى المقامة تلاها بشرح لماجاء فيها من مسائل هذه العلوم ومصطلحاتها . والمقامة تموج بالسجع ، من ذلك قوله فى مطالع مقامته ناعيا على من لايعرفون سوى علم أو علمين ويعمدون إلى التزيِّى بزى الزهاد والصوفية احتيالا على الناس ليسبغوا عليهم من أموالهم ، وهم لايقدرون العلوم حق قدرها فضلا عن التغلغل إلى مسائلها ومشاكلها :

« أحسبتم يا أعلام الضلال أن كل من نظر فى علم أو علمين وحفظ مسألة أو مسألتين ثم قصَّر سِرْباله[٤] ، وقصَّ سِباله[٥] ، مظهرًا للنسك والزهادة ، متعرضا للاستفادة فى معرض

(١) أرقه : أكتبه

(٢) انظر فى الرشيد وترجمته الخريدة (قسم شعراء مصر) ٢٠٠/١ وابن خلكان ١٦٠/١ والشذرات ١٩٧/٤ ، ٢٠٣

(٣) من هذه المقامة مخطوطة بدار الكتب المصرية ومخطوطتان بمكتبة الإسكندرية

(٤) سرباله : ثوبه

(٥) سباله : شاربه

الإفادة ، يستوهب بذلك الطعام ، ويستجلب الحُطام [١] ، ويجلب الحرام ، ويسمى بالشيخ الإمام ، قد صَلُح لأن يفصل بين العلوم ، ويميز بين المحمود منها والمذموم » .

والمقامة كسابقتها ليس فيها أديب شحاذ يروى حيله وما يحسن من الأساليب الأدبية ، فقد تحولت من بعض الوجوه إلى مايشبه الرسائل إذ تتناول موضوعا يحلُّ صاحبها فيه محل أبى الفتح الإسكندرى عند بديع الزمان وأبى زيد السَّروجى عند الحريرى .

ويعرض الأدفوى فى الطالع السعيد طائفة من هذه المقامات أو الرسائل على ألسنة كتابها من أدباء الصعيد ، من ذلك مقامة [٢] أو رسالة لمحمد بن يوسف بن نحرير المتوفى بعد سنة ٦٦٥ يمدح فيها أميرًا ويصف خروجه إلى الصيد ، من ذلك قوله فيها :

« خرج يوما مامع أناس ، وصل برَّهم بإيناس ؛ كل منهم يهتز للأُكرومة ، ويأوى إلى أشرف [٣] أرومة ، على خيل مسوَّمة [٤] ، مثقفة مقوَّمة ، مابين جَوْن أدهم [٥] ، أذكى من فارسه وأفهم ، إذا زاغ عن سِنان ، أوانعطف لعنان ، وأشهبٍ كريم ، له سالفة رِيم [٦] ، كأنما خلق من عَقيق أو تردّى برداء شقيق ، إن أوردته الطِّراد ، أوردك المراد ، وهملاجٍ [٧] إن زجرته ألهب أديمه [٨] ، روضة بهار [٩] ، ينظر فى ليل كالنهار ، ينساب انسياب الأيْم [١٠] ، ويمر مرور الغَيْم ، لاينبه النائم إذا عُبر به ، ولايحرك الهواء فى سِرْبه ، أخف وَطأً من طَيْف ، وأوطأ من مهاد الصيف .. ولم يزل بنا المسير ، وكل منا فى طاعة صاحبه أسير ، إلى أن قصدنا واديا ، كان لعيوننا باديا ، فما قطعنا منه عرضا ، حتى أتينا أرضا ، كأنما فُرِشَ قرارها زبرجد ، وصيغت ألوانها من لُجَيْن وعَسْجد .. تُهدى للناشق ، أنفاس المعشوق للعاشق » .

والمقامة على هذا النحو قطع من الوصف المسجوع البارع للخيل ولكلاب الصيد .

---

(١) الحطام : متاع الحياة

(٢) الطالع السعيد للادفوى (طبع مطبعة الجمالية) ص ٣٦٧

(٣) الأرومة : الأصل ، الأكرومة : إكرام

(٤) مسوَّمة : معلمة لأصالتها

(٥) جون أدهم : أسود

(٦) ريم : ظبى أبيض . والفرس الأشهب : يخالط بياضه سواد أوحمرة

(٧) الهملاج : الفرس فى سيره بخترة .

(٨) أديمه : جلده .

(٩) بهار : زهر أبيض .

(١٠) الأيم : الحية الذكر .

وتكثر المقامات فى أيام المماليك ، وتأخذ طابع المناظرات والمفاخرات ، وكأنما نُسى أصلها عند الهمذانى والحريرى نهائيا ، فلا بطلٌ صاحب حِيَل ،ولاقصصٌ ، وإنما حجاج وجدال وتوليد لايكاد ينتهى للأدلة والبراهين ، مع السفسطة والمغالطة وقلب المحاسن مساوئَ بغرض الإفحام وإظهار القدرة على القهر والغلبة ، ومع المبالغات والإفراط فيها بهدف الاستعلاء . ومن طريف هذه المقامات والمفاخرات المفاخرة بين السيف والقلم لابن نباتة (١) ، وفيها يستهل القلم مفاخرته بقوله تعالى : (ن والقلم ومايسطرون) وهى براعة استهلال واضحة ، وما يلبث أن يقول ابن نباتة عنه .

« إن القلم منار الدين والدنيا ، ونظام الشرف والعَلْيا ، وزمام أمور الملك السائرة ، وقادمة (٢) أجنحته الطائرة ، ومطلق أرزاق عُفاته (٣) المتواترة ، وأنملة الهدى المشيرة إلى ذخائر الدنيا والآخرة ، به رُقم كتابُ الله الذى لايأتيه الباطل وسنةُ نبيه ﷺ التى تهذب الخواطر الخواطل (٤) .. إن نُظمتْ فرائد العلوم فإنما هو سلكها ، وإن علت أسرّة الكتب فإنما هو ملكها .. وإن وعد أوفى بجلب النَّفع ، وإن أوعد أخاف كأنما يستمد من النَّقْع (٥) » .

ويستمر القلم فى هذه المفاخرة ، فهو الذى يأمر بالجهاد والسيف نائم فى قِرابه ، وهو الذى يأمر بالعدل والإحسان ، مع المحاماة عن الدين ومايتزل بالأعداء من الرعب . وكأن ابن نباتة يريد ان يُعْلى فضله على السيف حتى فى الحرب وجهاد الأعداء . ويستغفر القلم من الشرف وخُيَلائه والخيلاء وكبريائه . وينبرى السيف مدافعا عن حماه مستهلا كلامه بقوله تعالى : (وأنزلنا الحديدَ فيه بأسٌ شديد ومنافعُ للناس وليعلم الله من ينصره ورُسلَه بالغيب إن الله قوى عزيز) ويحمد الله الذى جعل الجنة تحت ظلال السيوف . ويفاخر القلم بعزمه الثاقب وفتوحه ، مما جعل الناس يدخلون فى دين الله أفواجا . وينتفض القلم فى دواته ويضطرب على وجه القرطاس ، وينفجر قائلا للسيف فى حدة وعنف .

« أتفاخرنى وأنا للوصل وأنت للقطع ، وأنا للعطاء وأنت للمنع ، وأنا للصلح وأنت للضِّراب ، وانا للعمارة وأنت للخراب ، وأنا المعمر ، وأنت المدمر .. وأنا ذو اللفظ المكين وأنت

---

(١) خزانة الأدب للحموى ص ١٣٠ ، ٥٤٥

(٢) قادمة الأجنحة : ريشات أربع كبار فى مقدمة الجناح

(٣) عفاته : طلاب معروفه .

(٤) الخواطل : الحائدة عن الصواب

(٥) النقع : غبار الحرب . والوعد يكون فى الخير والإيعاد فى الشر

ممن دخل تحت قوله تعالى (أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فى الحِلْيَة وهو فى الخصام غير مبين) لقد تعدَّيت حدَّك ، وطلبت مالم تبلغ به جهدك ، هيهات أنا المنتصب لمصالح الدول وأنت فى الغمد طريح ، والمتعب فى تمهيدها وأنت غافل مستريح .. أين بطشك من حلمى ، وجهلك من علمى .. وأين نذير الأعداء من رسول الأحباب » .

ويرد عليه السيف مَغيظًا محنقًا ، ويكيل له الكيل كيلين .. ويشعر القلم أخيرا بفضل السيف ، ويميلان إلى الصلح معترفين بأنهما للملك كاليدين وفى آفاقه كالقمرين . وهى مقامة أو قل مناظرة بديعة دُبِّجت بأسلوب يتدفق بالسلاسة وخفة السجع ولطف مآخذه ودقة معانيه . وابن نباتة فى نثره مثل شعره يمتاز بالصفاء مع الرصانة والرونق وجمال اللفظ وحسن اختياره . ولابن مكانس الذى ترجمنا له بين كتاب الرسائل الشخصية مقامة فى ديوانه المخطوط بدار الكتب المصرية بناها على الفكاهة والمجون إذ أدارها على الشراب . وقد جعلها حوارا بين عشرات من الأشخاص يمثلون ما كان بالقاهرة لزمنه من المهن والصناعات .

وتظل المقامات حية فى الفترة العثمانية ، وينحو بعضها نحو الفكاهة والمجون والدعابة أو نحو الهجاء كما سترى عند الشهاب الخفاجى ، وسنخصه بكلمة ، وكثير منها يتخذ المديح موضوعا له ، من ذلك مقامتان [1] لمصطفى اللقيمى الدمياطى المتوفى سنة ١١٧١ مدح بهما الأمير العثمانى رضوان كتخدا ، وإحداهما طويلة وتكثر فيها مقطوعات الشعر ونقرأ بها قصيدتين ومزدوجة فى مديح الأمير . ولحسن شمَّه مقامة [2] فى مديح الشيخ محمد بن سالم الحفناوى الشافعى الخلوتى ضمَّنها سائر الفنون الشعرية من النسيب والموشح والدوبيت والزجل والكان وكان والقوما والمواليا مع العناية بالسجع فى نثرها وحَشْد محسنات البديع ، وجدير بنا أن نترجم لبعض أصحاب المقامات والمفاخرات .

ابن [3] أبى حَجَلة

هو شهاب الدين أحمد بن يحيى بن أبى بكر بن عبدالواحد أبى حجلة التلمسانى الأصل . ولد بزاوية جَدِّه أبى حجلة بتلمسان سنة ٧٢٥ ورحل فى بواكير حياته إلى الحج ودخل دمشق ، ثم

---

(١) تاريخ الجبرتى ٢٢١/١ ومابعدها

(٢) تاريخ الجبرتى ٢٩٠/١

(٣) انظر فى ابن أبى حجلة الدرر الكامنة لابن حجر (نشر دار الكتب الحديثة) ٣٥٠/١ والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ١٣١/١١ وحسن المحاضرة ٥٧١/١ وشذرات الذهب لابن العماد ٢٤٠/٦ وصبح الأعشى ٢٧٦/١٤ . والحجلة : طائر فى حجم الحمام أحمر الرجلين والمنقار .

استوطن مصر ، وأولع بالأدب حتى مهر فيه ، واعتنق المذهب الحنفى مع ميله إلى المذهب الحنبلى . ولم يلبث بمصر أن أصبح شاعرا بارعا فاضلا وكاتبا ناثرا ، وولى مشيخة الصوفية بخانقاه منجك اليوسفى بظاهر القاهرة . وكان يكثر الإزراء على أهل الوحدة من الصوفية ، كما كان يحمل على ابن الفارض وامتُحن بسببه . وعارض جميع قصائده بقصائد نبوية . ومازال يتولى خانقاه منجك حتى توفى سنة ٧٧٦ للهجرة . ويقول ابن تغرى بردى : له مصنفات كثيرة تبلغ ستين مصنفا ، وأكثرها كتب أدبية ومن أشهرها : « سكر دان السلطان » و« ديوان الصبابة » وهما مطبوعان .

ومعنى سكردان إناء السكر وقد أهداه بعد سنة ٧٥٥ إلى سلطان مصر المملوكى السلطان حسن ابن محمد الناصر بن قلاوون ، وهو يدور فى معظمه حول العدد ٧ وأهميته فى تاريخ مصر واحداثها . وقد جعله فى مقدمة وسبعة أبواب ، ويذكر فى الباب الأول خاصية العدد : ٧ . ويتحدث فى الباب الثانى عن السلطان حسن وأنه سابع السلاطين فى أسرته . ويعرض فى الباب الثالث لإقليم مصر وصلة العدد سبعة به . ويعود فى الباب الرابع إلى السلطان حسن مع أحاديث قصيرة عمن تقدمه من ملوك مصر . ويخص الباب الخامس بأسرة السلطان حسن وجده قلاوون ويمتد به الحديث عن الأسرة فى البابين السادس والسابع . ويُتْبع ابن أبى حجلة هذه الأبواب بأبواب سبعة أخرى ، يتناول فى أولها قصة يوسف وتفسير سورته . ويجعل الثانى لقصة موسى وفرعون ، والثالث لملوك مصر وبعض أخبارهم ، والرابع لسيرة الحاكم الفاطمى ، والخامس لبعض الأحداث بمصر ، والسادس لأحداث القاهرة . والسابع للزهرات السبع . ومما ذكره عن الحاكم الفاطمى ، أنه لبس الصوف سبع سنين وأمر بإيقاد الشمع ليلا ونهارا مدة سبع سنين ومنع النساء من الخروج سبع سنين وسبعة أشهر ، وكان يقرأ نسبه على المنبر كل جمعة أو كل سبعة أيام ، وقُتل وهو يلبس سبع جبَّات بعضها فوق بعض . ولاريب فى أنه بالغ فى ربط الأحداث التاريخية بالعدد ٧ ، ومع ذلك فالكتاب يشتمل على أخبار تاريخية كثيرة ، تجعل له من حيث التاريخ لا من حيث العدد ٧ غير قليل من الأهمية .

وكتاب ديوان الصبابة - كما يتضح من عنوانه - يتناول العشق وكل مايتصل به من الوصف المادى للمرأة ومن الزيارة والعتاب واللقاء والهجران والاستعطاف وإفشاء السر والكتمان والغيرة ومَنْ أحب من أول نظرة وأشهر العشاق ، وهو فى ثلاثين بابًا ويزخر بالمختارات الشعرية والنثرية فى الحب والصبابة . ووضع بين يدى أبوابه عن العشق أسبابه وعلاماته ، ويذكر طائفة من أحاديث

الأدباء والفلاسفة عنه . ويختمه بذكر من مات بسبب عشقه . والكتاب كسابقه طريف فى بابه .

وربما كان أهم من الكتابين السابقين لابن أبى حجلة مقاماته ، وكانت مشتهرة فى زمنه ، ويقول ابن حجر : « أنشأ مقامات أجاد فيها » . ويعرض القلقشندى لإحدى مقاماته وهى المقامة الزعفرانية الخاصة بفيضان النيل ووفائه ، ويقتبس منها نحو خمس صفحات كبيرة مقدما لها بقوله عنه ، « الأديب الذى كان حجة العرب ، والناثر الذى كان بنسبته إلى الطيور [١] محرِّك المناطق وإلى الشعر صنَّاجة الأدب » ويستمر فى الثناء عليه حتى يقول : من مقامته الزعفرانية عن أبى الرِّياش ، وكأن ابن أبى حجلة سمَّى راويها أبا الرياش ، ومن قوله فيها :

«إن النيل تزايد دفعه فقد امتزج بالمعصِرات ثَجَّاجُه [٢] ، وأعْيَى طبيبَ الغِيطان [٣] علاجه :

وشرَّق حتى ليس للشَّرْقِ مشرِقٌ وغرَّب حتى ليس للغربِ مغربُ

قلت : فما فعل النُّغَيْر [٤] ، بجزيرة الطَّيْر ؟ قال : لم يبق بها هاتف يبشِّر بالصباح ، ولا ساعٍ يَسْعى برِجْلٍ (ولا طائر يطير) بجَناح ، إلا اتخذ (نفقا فى الأرض أو سُلَّمًا فى السماء) أو آوى (إلى جبل يَعْصمه من الماء) فأذاق بها الحمَام الحِمام [٥] فى المروج ، وترك أرضها كسماء مالها من فروج ، وتلا على الحمام : (أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بُروج) وكم فى سماء مائها من نَسْرٍ واقع ، وبُومَةٍ تصفِّر على ديارها البلاقع [٦] :

ومَنْهَلٍ فيه الغرابُ مَيْتُ سَقَيْتُ منه القومَ واستقيتُ

قلت : فمصر ؟ قال : زَحف عليها بعسكره الجرار ، ونفْط مائه الطيَّار ، قلت فالجيزة ؟ قال . طغى الماء حتى علا على قناطرها وتجسَّر ، ووقع بها القصبُ من قامته حين علا عليه الماء وتكسَّر ، فأصبح بعد اخضرار بِزَّته [٧] شاحبَ الإهاب ، ناصل الخِضاب ، غارقا فى قعر بحر (يغشاه موجٌ من فوقه موجٌ من فوقه سحاب) وقطع طريق زاويتها على مَنْ بها من المنقطعين والفقراء ، وترك الطَّالح كالالح يمشى على الماء (فتنادَوا مُصْبِحين) : (أن لايدخلنَّها اليوم عليكم مسكين)

---

(١) يشير إلى كنية جده أبى حجلة كما يشير بتحريك المناطق إلى كتاب له سماه منطق الطير .

(٢) المعصرات : السحاب الممطر تعتصره الريح . ثجاجه : سيله أو سيوله المتدافعة . يبالغ فى عتوه حتى صافح السحب .

(٣) الغيطان : الحقول

(٤) النغير : طائر صغير كالعصفور

(٥) الحِمام : الموت . والجناس بينه وبين الحمام واضح

(٦) البلاقع : الخالية

(٧) بزّته : شارته وثوبه .

وأدركهم الغرق فأيسوا (١) من الخلاص (فغَشِيَهُمْ من اليَمِّ ماغَشِيهم) (ولات حين مَناص (٢)) و (خرَّ عليهم السَّقْفُ من فوقهم) فهُدَّت قواهم ، واستغاثوا من كثرة الماء بالذين آمنوا وعملوا الصالحات (وقليلٌ ماهم) قلت : فالروضة ؟ قال : أحاط بها إحاطة الكِمام (٣) بزهره ، والكأس بِحَباب (٤) خمره :

فكأنها فيهِ بساطٌ أخضَرٌ وكأنه فيها طرازٌ مُذْهَبُ(٥)

فلم يكن لها بدفع أصابعه يدان ، وكم أنشد مَرْجها حين (مَرَج(٦) البحرين يلتقيان) :

أعينيَّ كُفَّا عن فؤادى فإنه من البَغْيِ سَعْيُ اثنين فى قَتْل واحدِ(٧)

قلت : فدار (٨) النُّحاس ؟ قال : أنْحَس حالها ، وأفسد ماعليها ومالها ، فدخل من حَمّامها الطُّهْر ، وقطع الطريق بالجامع الظُّهْرْ ، فألحق مجازَ بابه بالحقيقة ، ورَقِيَ منه على درجتين فى دقيقة .. قلت فجزيرة أرْوَى ؟ قال : قد أفسد جُلَّ ثمارها ، وأتى على مغانيها (٩) فلم يَدَعْ شيئا من رَدِيِّها وخيارها ، أخلق ديباجة روضها الأُنُفِ (١٠) ، وترك قُلْقاسَها فى الجروف (١١) على شَفا جُرُف (١٢) :

بعينى رأيت الماء يوما وقد جَرَى على رأسه من شاهقٍ فتكسَّرا

طالما تضرَّع بأصابعه إلى ربِّه ، ولطم برءوسه الحيطان مما جَرَى من الماء على قلبه ، وتمثَّل بقول الأول :

وإن سألوك عن قلبى وما قاسَى فقُلْ قاسى وُقلْ قاسى وقُلْ قاسى

لم يُفِده تحصُّنه من ورقه بالدَّرَق (١٣) والستائر ، ولاحَنَّ عليه حين تضرَّع بأصابعه فصحَّ أن

---

(١) أيسوا : يئسوا

(٢) مناص : ملجأ ومفرّ

(٣) الكمام : جمع كم بكسر الكاف : غلاف الزهرة قبل أن تتفتح

(٤) الحباب : الفقاقيع على وجه الكأس

(٥) جعل لون النيل مذهبا إشارة إلى ما كان يصحبه فى فيضانه من الطمى

(٦) مرج البحرين : أرسلها فى مجريهما متجاورين

(٧) يشير إلى أن البحرين يأخذان بخناق جزيرة الروضة حتى تكاد تلفظ أنفاسها

(٨) تسمى الآن دير النحاس وهى أمام النيل بمصر القديمة

(٩) مغانيها : منازلها .

(١٠) الأنف : الجديد

(١١) الجروف : شقوق المحراث ومجاريه

(١٢) شفاجرف : شفا : حرف : جرف : المكان يجرفه الماء

(١٣) الدرق : جمع درقة : الترس

الماء سلطان جائر » .

وهو وصف رائع لفيضان النيل وعلو أمواجه ، كأنما يريد أن يبلغ عنان السماء ، وحلّقت الطير فى أعلى عليين فَرَقًا منه واعتصم الناس بالكثبان والجبال . ويصف ابن أبى حجلة زحفه على الفسطاط أوكما يسميها مصر وطغيانه على الجيزة حتى علا قناطرها وجرّد القصب من بزّته ، وطما عليه حتى غرق فى قاعه ، وقطع طريق الزاوية أو خانقاه الصوفية وأدركهم جميعا الغرق فى عُبابه ، وخرّ عليهم السَّقْفُ من فوقهم ، ولاملجأ ولا مناص ، وأحاط بجزيرة الروضة إحاطة السوار بالمعصم ، ولم تستطع دفع أصابعه التى يقاس بها عادة طوفان فيضانه ، ولاردّ مَجْرييه أوكما يسميهما ابن أبى حجلة بحريه من حولها آخذين بخناقها ، كأنما يريدان أن تصبح خاوية على عروشها . ويصف دار النحاس وما أصابها وأصاب جامعها من مياهه المتدفقة ، ويصف ما أنزله بجزيرة أروى ومغانيها وكيف عمَّ مابها من الخضراوات مثل « القلقاس » وقد تكسر ، وهو يتضرع بأصابعه إلى ربه إذ أصبح عاليه سافله . وتنبت فوقه فروع ذات ورق عريض ، ويتصورها ابن أبى حجلة ستائر له ودرقا أو تروسا غير أنها لم تفده إزاء أمواج النيل وطوفانه .

ويمضى ابن أبى حَجلة فيصور ماأصاب بولاق وغير بولاق من النيل فى هذه اللغة العذبة التى عرف كيف يصب فيها وصفه للنيل وفيضانه . وهو يكسوها بألوان البديع من جناس وغير جناس ، ولانحس أى كلفة . وقدرته على بث التصاوير فى لغته واضحة ، وهى تصاوير رسمها مصور ماهر . ومن تتمة براعته الأدبية قدرته على اقتباس الأشعار فى موضعها الملائم ، وأهم من ذلك قدرته على اقتباس الآيات والكلم القرآنية ، فتزيد لغته عذوبة ونصاعة ، وهو تارة يأتى بالآيات تامة ، وتارة يأتى بكلم منها . ويكثر ذلك فى المقامة ، وقد وضعنا الآيات بين قوسين هلاليين تمييزًا لها . وقد تمثل فى القلقاس ببيت يحمل شطره الثانى جناسًا طريفًا مع اسمه . وفى المقامة روح الدعابة والفكاهة المصرية ، وكأنه تشربها فى استيطانه بمصر حتى الثمالة . والتورية عنده واضحة فى قوله عن النيل بدار النحاس : « قطع الطريق بالجامع الظهر فألحق مجاز بابه بالحقيقة » ولكلمة مجاز معنيان : معنى قريب وهو مايخالف الحقيقة بدليل اقترانها به ، ومعنى بعيد وهو المَعْبَرُ الى الجامع . وهو لايريد المعنى القريب للقلب أى قلب الإنسان مما قد يفهم مع ظاهر استعارته ، وإنما يريد ماحدث للقلقاس من القلب فأصبح أسفله أعلاه ، وهى تورية بديعة . ولعل فيما قدمت مايصور براعة ابن أبى حجلة الأدبية .

القلقشندى[1]

هو شهاب الدين أحمد بن على وُلد بقلقشندة بالقرب من قليوب سنة ٧٥٦ وإليها يُنْسَبُ ، وهو من أصل عربى صميم إذ ينتمى إلى عشائر فزارة التى استوطنت مصر عقب الفتح الإسلامى ويبدو أنه نشأ فى القاهرة ، وأخذ فيها ينهل من حلقات علماء الشافعية وغيرهم فى زمنه ، وهو مع ذلك يعنى بالأدب والعلوم اللغوية . وفى نحو العشرين من عمره بارحها إلى الإسكندرية ونرى العالم الشافعى الكبير المعروف بابن الملقن يجيزه فيها سنة ٧٧٨ بالفتيا والتدريس على مذهب الإمام الشافعى كما يجيزه برواية مؤلفاته فى الفقه والحديث وكل ما كان يرويه من الصِّحاح الستة ومسند الشافعى ومسند ابن حنبل . وسرعان ما تصدر للإفادة وهو فى الحادية والعشرين من عمره ، وأقبل عليه كثير من التلاميذ يأخذون عنه الفقه والأصول وعلوم العربية . وظل فى ذلك نحو ثلاثة عشر عاما ، ألف فى أثنائها شرحا فى الفقه الشافعى على كتاب جامع المختصرات ومختصرات الجوامع سمَّاه الغيوث الهوامع . كما ألف فى أنساب القبائل العربية كتابين هما : « نهاية الأرب فى معرفة قبائل العرب » و« قبائل الجمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان » . ونراه فى سنة ٧٩١ يترك مهنة التدريس للعمل بديوان الإنشاء ، وكان يرأسه بدر الدين بن علاء الدين بن يحيى بن فضل الله العمرى ، وهو آخر من وليه من هذا البيت كما مر فى ترجمة عمه ابن فضل الله العمرى . واعترافا بفضله أنشأ القلقشندى مقامة طويلة فى تقريظه صوَّر فيها صناعة الإنشاء وأصولها وعكف تَوًّا على تأليف كتابه « صبح الأعشى فى صناعة الإنشا » . وهو موسوعة ضخمة فى أربعة عشر مجلدا ظل يُعنى بتأليفها فى نحو ربع قرن من الزمان حتى سنة ٨١٤ وظل يراجعها ويزيد عليها حتى حين وفاته سنة ٨٢١ للهجرة .

ويبتدئ القلقشندى صبح الأعشى بمقدمة تتناول فضل الكتابة ومدلولها وتفضيل كتابة الإنشاء على سائر أنواع الكتابة وصفات الكتّاب وآدابهم والتعريف بحقيقة ديوان الإنشاء وقوانينه ووظائفه ، ثم تتوالى عشر مقالات أو أقسام كبيرة ، والمقالة الأولى تتحدث عما يحتاج إليه كاتب

---

(١) انظر فى القلقشندى الضوء اللامع للسخاوى ٢/٨ وشذرات الذهب ٧/١٤٩ والمنهل الصافى لابن تغرى بردى ١/٣٣٠ ومقدمة الجزء الأول من صبح الأعشى وتاريخ الأدب الجغرافى لكراتشكوفسكى ١/٤١٦ . وراجع فى مقامات القلقشندى ومفاخراته صبح الأعشى ١٤/١١٢ ، ٢٠٤ ، ٢٣١ . وصبح الأعشى مطبوع من قديم بدار الكتب المصرية فى ١٤ مجلدا .

الإنشاء من المعارف والأدوات المتعلقة بصناعته كالخط واللغة والنحو والبلاغة وغير ذلك من مختلف العلوم ، يشغل ذلك من الكتاب الجزء الأول بعد المقدمة والجزء الثانى وشطرًا غير قليل من الجزء الثالث . والمقالة الثانية تبدأ بالمسالك والممالك وبمعلومات تاريخية عن الخلافة الأموية والعباسية وبمعلومات جغرافية وتاريخية مهمة عن مصر من أول دخولها فى الإسلام إلى زمن القلقشندى ، ويترك مصر إلى الشام وجميع الدول التى كان لها أدنى صلة بمصر من أقصى الشرق إلى السودان وأقصى الغرب والبلدان الأوربية . ويمتد حديث القلقشندى فى ذلك إلى الشطر الأكبر من الجزء الخامس . والمقالة الثالثة فى أنواع المكاتبات وأسماء الكنى وألقاب أرباب السيوف والأقلام وأصحاب الوظائف من النصارى واليهود والخلفاء العباسيين والأمويين فى الأندلس والفاطميين والموحدين بالمغرب وألقاب الملوك الأقدمين فى اليمن وإيران ومصر والروم والحبشة وملوك فرغانة وأوروبا والحبشة مع التفصيل فى الألقاب الإسلامية . ويعود إلى الحديث عن الورق والكتابة ويشغل ذلك كله بقية الجزء الخامس والجزء السادس . ويتحدث القلقشندى فى المقالة الرابعة عن المكاتبات الصادرة عن ملوك مصر وغيرهم ومصطلحات الكتابة السلطانية والإخوانية ويمتد ذلك فى الكتاب إلى شطر من الجزء التاسع ، والمقالة الخامسة يوضح فيها القلقشندى الولايات ووظائف الدولة الكبرى ويقدم طائفة كبيرة من البيعات والعهود والتقاليد والمراسيم والتفاويض والتواقيع وخاصة مايتصل بزمن المماليك . وتحمل هذه المقالة كثيرا من الوثائق التاريخية والاجتماعية المهمة ، وهى تشغل بقية الجزء التاسع حتى نهاية الجزء الثانى عشر . والمقالة السادسة فى متنوعات من الوصايا الدينية والإطلاقات والمراسيم السلطانية والإقطاعات والأيمان وعقود الصلح والأمانات والهُدَن . وتشغل هذه الوثائق الجزء الثالث عشر من الكتاب وشطرا من الجزء الرابع عشر . وتعْرض بقيةُ هذا الجزء طرائف من المقامات والرسائل والمفاخرات والإجازات والتقريظات والتقاليد ، وتلحق بالجزء خاتمة عن البريد وشئون المواصلات والاتصالات بين مصر وغيرها من البلدان الإسلامية

ونعود إلى مقامته التى أشرنا إليها والتى وصف فيها صناعة الإنشاء وقرَّظ بها صاحب ديوانها بدر الدين العمرى وقد سماها : « الكواكب الدرِّية فى المناقب البدرية » وهى محكية أومروية على لسان الناثر بن نظام ويلقانا فى فواتحها قوله :

« لم أزل من قبل أن يبلغ بريدُ عمرى مركزَ التكليف ، ويتفرق جَمْعُ خاطرى بالكُلَف بعد التأليف ، أنْصِبُ لاقتناص العلم أشراك التحصيل ، وأنزِّه توحيد الاشتغال عن إشراك التعطيل ..

أُونسُ من شوارد العقول وَحْشِيَّها ، وأشرِّد عن روابض المنقول حُوشيَّها ، وألتقط ضالَّة الحكمة حيث وجدتها ، وأقيِّد نادرة العلم حيث أصبتُها ، مقدِّما من العلوم أشرفها ، ومؤثرا من الفنون ألطفها ، معتمدا من ذلك ماتألفه النَّفس ويقبله الطبع ، مقبلا منه على مايستجلى حُسْنَه النظر ويَسْتحلى ذكره السمع .. عارفا لكل عالم حقَّه ، وموَفِّيا لكل علم مستحَقَّه ، قد استغنيت بكتابى عن خلِّى ورفيقى ، وآثرت بيت خَلْوتى على شَفيقى وشقيقى .. إلى أن أتيح لى منِ الفتح ما أفاضته النعمة وحصَلتُ من الغنيمة على ما اقتضته القسْمة » .

وأكبر الظن أنْ قد اتضح لنا صوت القلقشندى ومايعمد إليه من حسن الجرس فى انتخاب ألفاظه وقوافى أسجاعه ، بحيث لانكاد نشعر بتكلف عنده ، والجناس يرصِّع كلامه على نحو مانرى فى التكليف والكلف ، وأشراك (حبالات) الصائد ، والإشراك ، وشوارد وأشرِّد ، والوحشى والحوشى ، ويستجلى ويستحلى ، وحقه ومستحقه ، ورفيقى وشفيقى وشقيقى ، وكل ذلك يمر على اللسان والسمع دون أى إحساس بنبو أو كلفة غير مستحبة ، وبالمثل يرصِّع كلامه بطباقات كثيرة من مثل التفرق والجمع والتوحيد والتعطيل وشوارد العقول وروابض المنقول . وفى أثناء ذلك يوشِّى كلامه بالتورية إذ يقول : « أنزِّه توحيد الاشتغال عن إشراك التعطيل » والتعطيل رفض التوحيد والشريعة ، وهو المعنى القريب لسبق التعطيل بالإشراك والتوحيد ، وهو لا يريده ، وإنما يريد التعطل عن الاشتغال بالعلم والانصراف عنه . وبالمثل لا يريد بالإشراك الكفر الذى قد يفهم من اقترانه بالتعطيل إنما يريد الشركة أو المشاركة ، وأيضًا لايريد بالتوحيد توحيد الله لاقترانه بالتنزيه وإنما يريد الوحدة . والتعبير لذلك كله ملىء بتوريات متعاقبة . وبالمثل قوله فى نهاية كلامه : « الفتح » وقد تلاه بالغنيمة والقسمة موريا بذلك عن الفتوح العلمى لا كما يظن من السياق الفتح الحربى . وبالمثل كلمة القسمة فهو لايريد بها المعنى القريب الملائم للغنيمة وهو القسمة فى الحرب وإنما يريد بها المعنى البعيد وهو الحظ من قولهم قسمة ونصيب .

ولعل خصائص صوت القلقشندى ولغته قد اتضحت لنا تماما فهو كمعاصريه يستخدم السجع ويوشيه بمحسنات البديع وفى مقدمتها ، الجناس والطباق والتورية ، ونحس عنده بطواعية العبارات المسجوعة ومرانه على استخدام ألوان البديع دون أن نشعر بأى ثقل أو أى عبارة أوكلمة مستكرهة . وإذا مضينا فى قراءة المقامة وجدناه يذكر على لسان الناثرين نظام أنه لابد لكل إنسان من حرفة يكتسب بها معاشه وأن الكتابة هى خير الحرف ، وأفضل أنواعها الديوانية كتابة الإنشاء ، إذ لها الذروة المنيفة والرتبة الشريفة ، وأصحابها – كما يقول – أسُّ المُلْك وعماده ،

وأركان الملك وأطواده . ولسان المملكة الناطق ، وسهمها المفوَّق الراشق . ويحاور الناثر بن نظام فى كتابة الإنشاء والخراج أيهما أفضل ؟ ويجيبه أنّى لكتّاب الأموال التأثير فى فَلِّ الجيوش من غير قتال ، وفتح الحصون من غير نزال . وكأن القلم فى يد كاتب الإنشاء ينال من الأعادى مالا تناله السيوف والرماح . ويأخذ القلقشندى على لسان الناثر بن نظام فى بيان مايلزم كاتب الإنشاء من حفظ كتاب الله وأحاديث رسوله وجوامع كلمه والعلم بالأحكام السلطانية واستظهار أشعار العرب على مر الأزمنة وأمثالهم وأقوال فصحائهم وخطبهم ورسائلهم مع سعة الباع فى اللغة والنحو والتصريف وفى علوم المعانى والبيان والبديع ، ومع معرفة الخط وقوانينه وأصوله وقواعده ، ومع ماتتم به الصناعة من الوقوف على علم الكلام وأصول الفقه والأحكام الشرعية والمنطق والجدل وأحوال الفرق والنِّحَل وعلم العروض والقوافى والرياضيات والهندسة وعلم الطب والبيطرة وعلمى الأخلاق والسياسة وعلم تدبير المنزل والفراسة . وأيضا لابد من المعرفة بكل ماذكره القلقشندى بعد ذلك مفصلا فى صبحه من شئون الولايات وألوان المكاتبات والبيعات والعهود والتقاليد والمراسيم والتواقيع والمناشير والأيمان والهُدَن وطرق البلدان ومسالكها . ويتساءل القلقشندى عمن يضم هذه الرتبة الرئيسة والمنقبة الشريفة ؟ ويجيبه الناثر بن نظام إن ذلك قاصر على آل فضل الله العمرى ومنحصر فى سليلة البدر ، الذى تدور عليه ، فهو ابن بَجْدَتها الذى ترجع فى علومها ورسومها وسائر أمورها إليه .

وللقلقشندى مقامة فى المفاضلة بين العلوم . وهى تنزع منزع المقامة الحصيبية للرشيد بن الزبير التى ألممنا بها فيما مر من حديثنا وفيها يعقد القلقشندى مفاخرة بين نحو سبعين علما ابتدأها بعلم اللغة واختتمها بفن التاريخ ذاكرًا فخر كل علم على ماسبقه ، محتجا عليه بفضائل موجودة فيه دون سابقه . استهلّها ببيان منافع العلوم بعامة ، وذكر أنها اجتمعت يوما فتجادلت وتفاخرت ، وكل منها ينتصر لنفسه بالحجج والبراهين الدامغة . وقد تلا فخر علم اللغة بفخر علم الصرف ثم بفخر علم النحو عليه قائلا :

« هل أنت إلا بَضْعَة [1] منى ، تُسْنَدُ إلىّ وتُنْقَل عنى ، لم يزل علمك بابا من أبوابى ، وجملتك داخلة فى حسابى ، حتى ميَّزك المازنى فأفردك بالتصنيف ، وتلاه ابن جِنِّىّ فتبعه فى التأليف .. وأنت مع ذلك كله مطوىٌّ ضمن كتبى ، نِسْبَتُك متصلة بنسبتى ، وحَسَبُك لاحقٌ بحسبى . أنا مِلْحُ الكلام ، ومِسْكُ الختام ، لا يستغنى عنى متكلم ، ولايليق جهلى بعالم ولامتعلم ،

(١) بضعة : قطعة

فى تتبيَّن أحوال الألفاظ المركبة فى دلالتها على المقاصد ، ويرتفع اللَّبْسُ عن سامعها فيرجع من فهمها بالصلة والعائد » .

وهذه القطعة من مفاخرة علم النحو على علم الصرف فضلا عن تصويرها لبراعة القلقشندى البيانية ترينا جانبا من ثقافته بعلمى النحو والصرف ، وكانا مندمجين بعضهما ببعض فى كتاب سيبويه ، وظلا على ذلك بعده حتى أفرد أبو عثمان المازنى علم الصرف بالتأليف وتبعه فى ذلك ابن جنِّى . ومضى المؤلفون فى العلمين تارة يجمعون بينهما ، وتارة يفصلون ، مما جعل القلقشندى يصور ذلك مرارا على لسان علم النحو قائلاً إن علم الصرف باب من أبوابه يُنْقَلُ عنه ويُسْند إليه وأنه مطوىّ فى كتبه متصل بنسبه لاحق بحسبه . واستخدم فى آخر ما اقتبسناه من تلك المفاخرة مصطلحى الصلة والعائد المعروفين فى النحو وهما صلة الموصول وما تحمل من الضمير العائد فى عبارتها على الموصول ، معبرا بهما عن العطية ومايعود منها بالنفع . وللقلقشندى مفاخرة ثانية بين السيف والقلم ، ومن قول القلم فيها مفاخرا للسيف :

« مهلاً أيها المساجل ، وعلى رِسْلِك أيها المغالب والمنَاضل ، لقد أسأت مقالا ، ونَمَّقت محالا .. وإنى — وإن صَغُر جِرْمى — فإنى لكبير الفِعال ، وإن نَحُفَ بدنى فإنى لشديد البأس عند النزال . وإن عَرِى جسمى فكم كسوت عاريا ، وإن جرى دمعى فكم أرويت ظاميا ، وإن ضاق ذرعى فإنى بسعة المجال مشهور ، وإن قَصُر باعى فكم أطلقت أسيرا وأنا فى سجن الدواة مأسور » . ويمضى القلقشندى بمثل هذه الصياغة الموشاة بالسجع ومحسنات البديع من تصوير وغير تصوير ، ودائما نشعر عنده بالطلاقة والسلاسة ونصاعة الكلم .

السيوطى [1]

هو جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال أبى بكر بن محمد ، من سلالة شيخ صوفى أسيوطى هو همام الدين السيوطى ، وكان لأسرته وجاهة ورياسة فى أسيوط ، منهم مَنْ ولى الحكم فيها ،

(١) انظر فى السيوطى وترجمته حسن المحاضرة ٣٣٥/١ والضوء اللامع للسخاوى ج ٤ رقم ٢٠٣ والكواكب السائرة للغزى (نشر الجامعة الأمريكية ببيروت) ٢٢٦/١ وتاريخ ابن إياس فى مواضع متفرقة وذيل الطبقات الكبرى للشعرانى ص ٤ والبدر الطالع للشوكانى ٣٢٨/١ والنور السافر للعيدروسى ص ٥٤ ودائرة المعارف الإسلامية وبروكلمان (الطبعة الألمانية ١٤٣/٢) . وانظر فى مقاماته مجموعة خطية بعنوان مقامات السيوطى بدار الكتب المصرية رقم ٣٢ مجاميع وطبعت من مقاماته مجموعة بالآستانة . وانظر فى نشاط السيوطى النحوى تأليفا وآراء كتابنا المدارس النحوية ص ٣٦٢ .

ومنهم مَنْ ولى الحسبة ، ومنهم من كان تاجرا ثريا ، وأول من خدم العلم من أسرته أبوه ، وقد هاجر من بلدته إلى القاهرة ونبه شأنه بين فقهاء الشافعية وأفتى ودرَّس وناب فى الحكم بالقاهرة ، وفى سنة ٨٤٩ ولد له عبدالرحمن ولم يكد يبلغ السادسة من عمره حتى توفى الأب ، ويبدو أنه ترك له ثروة أعانته على نشأة علمية طيبة ، وقد ترجم لنفسه فى كتابه : « حسن المحاضرة » ترجمة ضافية ، ذكر فيها طائفة من شيوخه فى مقدمتهم الشيخان : البُلْقينى والمناوى فى الفقه الشافعى وتقى الدين الشِّبلى فى الحديث والكافِيَجىّ فى التفسير والأصول والعربية وعلم المعانى وسيف الدين الحنفى فى الكشاف للزمخشرى وفى بعض المصنفات البلاغية للسكاكى والقزوينى . ويقول إنه شرع فى التصنيف سنة ٨٦٦ ولما يتجاوز السابعة عشرة من عمره ، كما يقول إنه أفتى فى سنة ٨٧١ وعُقد له مجلس لإملاء الحديث سنة ٨٧٢ . ويذكر أن زار بلادًا كثيرة : الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب والتكرور ، كما يذكر أنه تبحَّر فى سبعة علوم : التفسير والحديث والفقه والنحو والمعانى والبيان والبديع ، ويقول إنه يستثنى الفقه فأستاذه كان أعلم به منه . أما العلوم الستة الباقية فلم يكن أحد يجاريه فيها ، ودونها فى التعمق العلمى أصول الفقه والجدل والصرف ، ودونها هى الأخرى الإنشاء والترسل وعلم الميراث والقراءات ثم الطب . ويذكر أنّ مشايخه فى الرواية سماعا وإجازة كثيرون إذ تبلغ عدَّتهم نحو مائة وخمسين .

ويمضى السيوطى فى ترجمته لنفسه ، فيذكر مؤلفاته فى العلوم والفنون المختلفة ، وقد بلغت أكثر من ثلاثمائة كتاب ورسالة ، منها فى الحديث النبوى نحو تسعين مصنفا وفى التفسير ومتعلقاته نحو عشرين وفى اللغة وعلوم العربية نحو خمسين وفى الأصول والبلاغة والتصوف نحو عشرين وفى الفقه نحو عشرين أيضا وفى التاريخ والأدب نحو خمسين . وعلى هذا النحو تلقانا لا مؤلفات بل سيول من المؤلفات فى كل علم وفن . وبحق يُعَدّ السيوطى أكثر علماء هذا العصر تأليفا وإحاطة بالعلوم العربية والشرعية الدينية . وله أكثر من كتاب طُبع فى العصر الحديث وطارت شهرته ، من ذلك فى الحديث النبوى كتابه « جمع الجوامع » وهو معجم واف للأحاديث النبوية ، ومن ذلك فى التفسير تفسير الجلالين ، ومرَّ حديث عنه في الفصل الثانى ، وله لباب العقول فى أسباب النزول ، وأيضا الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ، وهو مطبوع فى ستة مجلدات . وكتابه « الإتقان فى علوم القرآن » كتاب رائع . ومن مصنفاته فى التاريخ والتراجم تاريخ الخلفاء وهو مطبوع مرارا فى الغرب والشرق . وقد عرضنا لنشاطه فى هذا الجانب فى حديثنا بالفصل الثانى عن التاريخ والمؤرخين . وكان نشاطه اللغوى والنحوى خصبا إلى أبعد غاية ، وصورنا ذلك من بعض الوجوه

فى حديثنا عن اللغة واللغويين والنحاة والنحويين فى الفصل الثالث .

وهذا النشاط العلمى الواسع اقترن به نشاط أدبى ، فقد كان السيوطى شاعرا ، كما كان كاتبا ناثرا ، وعُنى عناية واسعة بفن المقامة على الطريقة المصرية التى وصفناها ، فالمقامة لاتدور على الصعلكة كما كانت عند الهمذانى والحريرى ، وإنما تدور على المنافرة والمفاخرة ، وأكثرَ من ذلك حتى لتبلغ مقاماته نحو الأربعين ، وربما كان أطرفها ما أداره منها حول مفاخرات الأزهار والفواكه والبقول والنقل والعطور ، وقد خص الأزهار بمقامته الوردية والفواكه بمقامته التفاحية والبقول الخضراء بمقامته الزمردية والنُّقْل بمقامته الفستقية والعطور بمقامته المسكية ، وخصَّ الأحجار الكريمة بمقامته الياقوتية . ونقف قليلا عند مقامته الوردية فعلى غرارها تلك المقامات جميعا ، وهى مفاخرة أو مناظرة بين الأزهار والرياحين ، استهلَّها الورد ببيان محاسنه وأنه ملك الرياحين منعش للأرواح ومتاع إلى حين ، وأنه ظاهر على أزهار البساتين منتصر منها بقوة الشوكة والصولة . وواضح ما فى كلمة الشوكة من تورية إذ لايريد البأس بشهادة كلمة الصولة ، وإنما يريد الشوكة الحقيقية للورد واحدة أشواكه ، ومايلبث الورد أن يُدلّ بفوائده الطبية ، ويرد عليه النرجس مفاخرا بمحاسنه محاولا أن يغض منه ، قائلا :

« لقد تجاوزت الحد ، ياوَرْد ، وزعمت أنك جمعٌ فى فَرْد ، إن اعتقدت أنه لك بحمرتك فخر ، فإنه منك فُجْر .. فاحفظ بالصمت حُرْمتك ، وإلا كسرت بقائم سيفى شَوْكتك . وإنى القائم لله فى الدياجى على ساق ، الساهر طول الليل فى عبادة ربى فلا تَطْرف أحداق .. وأنا فريد الزمان فى المحاسن والإحسان ، ولهذا قال فىَّ كسرى أنوشروان : النرجس ياقوت أصفر بين در أبيض على زمرد أخضر .. وأنا المشبَّه بى عيون الملاح ، والمقرون فى مهمات الأدواء بالصلاح » .

وللسيوطى بجانب ذلك مقامات جعل محورها الذى تدور عليه مسائل علمية ، إذ يورد فيها أسئلة تحمل ألفاظا غريبة ملغزا بها ، ثم يذكر جوابها مفسرا لها . مزيلا عنها غرابتها ، محاكيا بذلك الحريرى فى مقامته الطيبيَّة نسبة إلى طيبة أى المدينة وقدضمَّنها مائة مسألة فقهية وأجوبتها كأن يقول فيها : « أيستباح ماء الضرير ؟ » ويجيب أبو زيد السروجى بطل المقامات الحريرية : نعم ويُجتَنبُ ماء البصير » والضرير : حرف الوادى والبصير الكلب . ونرى السيوطى يستوحى هذه المقامة ، فيكتب على غرارها مقامته المكية ، ويستهلها على هذا النمط :

« حدثنا هاشم بن القاسم قال : مازلت أقتحم المهامه [1] المخيفة ، وأدخل فى المسالك العنيفة

(١) المهامه : القفار والفلوات .

إلى أن نزلت بمكة الشريفة ، فحططتُ الرِّحال بعِتابها (١) ، وأرحت النفس من عنائها ، وظللت أجوب في مشاهدها وأجول في معاهدها .. وأتردد في الغدو والرَّواح ، وأتزوَّد من تلك الآثار في المساء والصباح ، وأتمنى أديبا يُسَلِّي بمسامرته الغُرْبة ، وأديبا يُنيل بمحاضرته الإِرْبة (٢) ، فبينا أنا ذات ليلة في المطاف ، وقد تسمَّرتْ سحائب الألطاف ، إذا أنا بشعبة مؤتلفين ، وعصبة محتفين ، وهم بين سلام وترحيب ، وبكاء ونحيب . وفي صدر الحلقة ، شاب نحيف الخلقة ، قد تدرع بثياب البهاء . قال هاشم بن القاسم : فتساميت إلى لقائه ، وتقدمت إلى تلقائه ، لأستنور بباطنه على ظاهره ، وأستظهر من كامنه على باهره ، وأتخذه معاضدا ونصيرا ، ومحاضرا وسميرا ، فقلت : وَعَيْتُ مامنك رأيت ، وشِمْتُ (٣) ما عنك فهمت ، فائتِ على ما ادَّعيت ببرهان من الدلائل ، وأجب إلى ما أقترحه عليك من مسائل ، فقال : على الخبير سقطت ، ومن البحر لقطتَ ، فأوضحْ عن مسائلك ، وأفصح عن مقالك ، فقلت : ماتقول فيمن توضأ ولم يمسح أُمَّه ؟ فقال : لم يصحّ ياأمّة » .

والأم الأولى الرأس والوضوء بدون مسحها باطل ، وقد ألغز السيوطى بها ، كما هو واضح . وتوالت الأسئلة على هذا النحو مثل هل يجوز بيع الحر ؟ والجواب الجواز ، لان المراد بالحر الفرس الأصيل . ومثل هل تصح الصلاة على الفحل ؟ والجواب تصح لأن المراد بالفحل الحصير المتخذ من فَحْل النخل .

وللسيوطى مقامة ثانية سماها المقامة الأسيوطية بناها على ألغاز نحوية ، محاكاة لمقامة الحريرى المسماة بالمقامة القطعية وهي المقامة الرابعة والعشرون بين مقاماته . وللسيوطى مقامة فكهة سماها « رشفة الزلال من السحر الحلال كتبها على لسان عشرين عالما بينهم المقرئ والمفسر والأصولى والفقيه واللغوى والنحوى ، وجعل كلا منهم يصف ليلة زفافه على عروسه بلغة علمه ومصطلحاته . ومن مقاماته مقامة تسمى الجيزية جعل موضوعها لغزا شعريا . وكأنه كان يرى المقامة صالحة لأن تعرض أى موضوع حتى لنراه يتخذ نجاة أبوى الرسول ﷺ من النار موضوعا لإحدى مقاماته ، وقد سماها المقامة السندسية ، وهي مطبوعة ، ونجاة أبوى الرسول من النار لايشوبها أى شك . إذ هما الطاهران الطيبان الذكيان النيِّرانِ . ولعل فيما قدمنا مايدل على الخصائص الأدبية لمقامات السيوطى وبدون ريب كانت ملكاته العلمية أخصب من ملكاته الأدبية .

(١) عتاب : جمع عتبة . (٢) الاربة : الأمنية . (٣) شام : نظر متطلعا أو مؤملا شيئا

الشهاب [١] الخفاجي

هو شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصرى ، ولد لفقيه شافعي بسرياقوس قرب القاهرة سنة ٩٧٧ ونشأ فى حجر أبيه يعلمه ، ثم اختلف إلى شيوخ الأزهر فى زمنه ، فأخذ النحو وعلوم العربية عن خاله أبى بكر الشعرانى والفقه الشافعى عن مفتى زمنه شمس الدين الرملى . ومضى ينهل من حلقات الشيوخ المختلفين الحديثَ والتفسير والأدب والمنطق وعلم الأصول ، ورحل مبكرًا مع أبيه إلى حج بيت الله وأخذ عن شيوخ الحرمين لأيامه . ولم يعد إلى مصر بعد الحج ، بل رحل إلى القسطنطينية عاصمة الدولة العثمانية فأخذ عن شيوخها ، وفى طريقه إليها نهل من حلقات الشيوخ فى بيت المقدس ودمشق . وعُرف فضله فى القسطنطينية فعين قاضيا فى الروملى ثم فى سلانيك . وعينه السلطان مراد قاضيا للعسكر بمصر ، فظل بها مدة ، وزار القسطنطينية فلقيه مفتيها يحيى بن زكريا لقاء سيئا وأمر بعزله . وعاد إلى مصر وعين قاضيا فى القاهرة وأخذ يصنف ويحاضر طلابه وأتوه من كل بلد عربى ، ومن أهمهم عبدالقادر البغدادى صاحب الخزانه ، وظل على ذلك حتى وفاته سنة ١٠٦٩ للهجرة ، وكان ماحدث له فى لقاء المفتى سببا فى أن يكتب رسالة فى بيان فساد القضاء والحكم فى القسطنطينية وأتبعها بخمس مقامات يصور فيها تفاقم الأحوال بعاصمة الخلافة . وكان إلى ذلك عالما ومؤرخا كبيرا ، صنف حاشية على تفسير البيضاوى طبعت بمصر فى ثمانية مجلدات وحاشية على شفاء القاضى عياض طبعت فى أربع مجلدات وله شفاء الغليل بما فى كلام العرب من الدخيل وهو كتاب نفيس طُبع مرارا . وصنف فى تراجم الأدباء لزمنه فى جميع البلدان العربية كتابه « ريحانة الألبا » الذى نذكره كثيرا فى هوامش الفترة العثمانية ومثله خبايا الزوايا ولايزال مخطوطا . وكان شاعرا مجيدا ، وتحتفظ المكتبة التيمورية بديوانه مخطوطا ، وقد أنشد من شعره كثيرا فى الريحانه وبالمثل أنشد منه كثيرا المحبى فى ترجمته له ، وهى فى أكثر من مائة صفحة .

وقد دوَّن الشهاب الخفاجى مقاماته التى أشرنا إليها فى ترجمته التى عقدها لنفسه فى نهاية كتابه الريحانة وسمى أولاها المقامة الرومية وهو يستهلها بقوله : « أنبأنا النعمان بن ماء السماء عن شقيق وقد رحل من وادى العقيق فى الحجاز إلى القسطنطينية ، ويصفها بأن البحر قد مَدَّ لعناقها ساعديه

(١) انظر فى الشهاب الخفاجى ترجمته لنفسه فى نهاية ريحانة الألبا ٢/٣٢٥ وما بعدها ونفحة الريحانة ٤/٣٩٥ - ٤٧٧ وخلاصة الأثر ١/٣٣١ وسلافة العصر ص ٤٢٠

بينما تقبّل الأمواج الأرض بين يديه ، ويصف من بها من الجوارى الحسان والفرسان الشجعان ، ثم يهاجم متصوفتها وعلماءها . ولايلبث أن يكوى المفتى دون ذكر اسمه بسياط من الهجاء المقذع من مثل قوله

« لوقارنه السَّعْد الأكبر إلى أعلى عِلِّيين ، حملته بنات نَعْشٍ إلى أسفل سافلين ، أعمى البصيرة والبصر ، عارٌ على آدم أبى البشر ، إنما خلق اعتذارا لإبليس فى ترك السجود ، وأنى يقبل له عذر وهو كفور جحود .. وما أحسنه فى زوال النعم ، وأقبحه إذا قضى له الدهر بدولة وحكم » .

ويختم المقامة بمديح السلطان العثمانى حينذاك . ويذكر بعدها مقامة الغربة راويا لها عن الربيع ابن ريان عن شقيق بن النعمان ، وفيها يصور فساد الأمور فى القسطنطينية ، ويوجه إلى المفتى المذكور فيها قصيدة هجاء لاذعة . ويتلوها بالمقامة الساسانية ، وقد استعار اسمها من الحريرى فى مقامته التاسعة والأربعين ، وفيها صور الفقهاء والعلماء فى القسطنطينية كأنهم جميعا أهل كُدْية واستجداء يتقدمهم المفتى . ويقول قد فُقد العلم لولا بقايا شرح الله بهم صدر الدين . ويدعو للدولة العثمانية بالازدهار . ويعارض بالمقامة الرابعة رسالة لرشيد الدين الوطواط المترجم له فى قسم إيران كتبها فيمن كان يزاحمه فى أداته ودواته وعمله فى ديوان الدولة الخوارزمية وفيها يزرى بصاحبه ويحط منه حطا شديدا . ونسج الشهاب الخفاجى على منواله فى صنع هذه المقامة قاصدا بها المفتى خصيمه مسميا له باسم الوزير ، وفيها يضع منه ويهجوه هجاء مرا ، ويصور قصته معه وأنه سمع قول الوشاة ونفاه ويمثّل به تمثيلا شديدا . والمقامة الخامسة سماها المقامة المغربية ، اقترض اسمها من لدن الحريرى وتسميته لمقامته السادسة عشرة بالمقامة المغربية ، والشهاب الخفاجى يكثر فى مقامته تلك من بعض الأمثال والأعلام والمقتطفات من الأشعار وبعض أقوال الحكماء والألفاظ الغريبة ، ولذلك أتبعها بشرح لما استظهره فى المقامة من ذلك كله .

٤

المواعظ والابتهالات

فَرضَ الإسلام الوعظ فى خطب صلاة الجمعة من كل أسبوع ، وفى خطب صلاة العيدين ، وكان يتولاهما أئمة المساجد ، وأحيانا خلفاء الأمة ، واشتهر كثير من الوعاظ نسمع عنهم فى كل بلدة ، غير أن المصادر قلما احتفظت بمجاميع من خطبهم إلا ما كان من خطب ابن نباتة خطيب

سيف الدولة الحمدانى . وطبيعى أن يشتهر بمصر غير واعظ ، ويلقانا فى مفتتح هذا العصر أبو الحسن [١] على بن محمد البغدادى المتوفى سنة ٣٣٨ وقد استوطن الفسطاط ، وكان له بها مجلس وعظ عظيم . ويستولى المعز لدين الله الفاطمى على مصر ، ويؤسس بها الدولة الفاطمية التى ظلت نحو مائتى عام ، وكان خطيبا مفوها ، وكان يخطب الناس يوم الجمعة بالجامع الأزهر ، ولم تحتفظ كتب التاريخ بشيء من خطبه ومواعظه فى القاهرة ، وقد احتفظت بخطبة [٢] خطبها عقب وفاة أبيه المنصور فى بلدة المنصورة بالقرب من القيروان ، بدأها بأسجاع فى بيان عظمة الله وتحميده وتمجيده . وكان ابنه العزيز يخطب مثله فى الجامع الأزهر حتى إذا بنى الحاكم جامعه أخذ هو ومن جاءوا بعده يخطبون فيه [٣] . ويبدو أن الخطب والمواعظ كانت تُعَدُّ لهم – ولمن ينيبونه عنهم من الوزراء – فى ديوان الإنشاء . ويذكر الرواه لابن أبى الشخباء كاتب الدواوين فى زمن المستنصر مجموعة من المواعظ لعلها كانت خطبا أعدَّها للخليفة ووزيره بدر الجمالى ، وقد اشتهرت فى أيامه ببلاغتها ، إذ كان – كما مر بنا فى ترجمته – كاتبا بارعا ، ونقتطف قطعة من إحدى خطبه ، إذ يقول [٤] :

« أيها الناس فكّوا أنفسكم من حلقات الآمال المتعبة ، وخففوا ظهوركم من الآصار المستحقبة [٥] ، ولاتُسيموا [٦] أطماعكم فى رياض الأمانى المتشعِّبة ، ولا تُميلوا صَغْوَكم [٧] إلى زبارج [٨] الدنيا المحبَّبة .. أين الجبابرة الماضية المتغلِّبة ، والملوك المعظَّمة المُرَجَّبة [٩] أولو الحفَدة [١٠] والحجبة ، والزخارف المعجبة ، والجيوش الجرَّارة اللَّجبة [١١] .. طرقت – والله – خيامَهم غِيَرٌ منتهبة ، وأصبحت أظفار المنية من مهجهم قانية [١٢] مختضبة ، وأكلت لحومهم هوامُّ الأرض السَّغِبة [١٣] ، ثم إنهم مجموعون ليوم لايُقْبَلُ فيه عُذْرٌ ولامَعْتَبة ، وتجازَى كل نفسٍ

---

(١) انظر فيه حسن المحاضرة للسيوطى ١/٥٥١ والعبر ٢/٢٤٧

(٢) انظر سيرة الأستاذ جوذر (طبع دار الفكر العربى) ص ٧٦

(٣) النجوم الزاهرة ٤/١٠٢

(٤) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد (طبع القاهرة سنة ١٩٢٩) ١٠/٥٤٥

(٥) الآصار : الذنوب . المستحقبة : المرتكبة

(٦) أسام الدابة فى المرعى : خلاها ترعى فيه كما تشاء والاستعارة واضحة

(٧) الصغو : الشق والجانب

(٨) زبارج : جمع زبرج : الحلية والزينة

(٩) المرجبة : الموقرة المعظمة

(١٠) الحفدة : الأعوان .

(١١) الجرارة : الكثيفة . اللجبة : ذات الجلبة والضوضاء

(١٢) قانية : حمراء . مختضبة : مصبوغة بالخضاب الأحمر

(١٣) السغبة : الجائعة

بما كانت مكتسبة ، فإما سعيدة مقرَّبة ، تجرى من تحتها الأنهار مثوَّبة [١] ، وإما شقيَّة معذَّبة ، فى النار مُكَبْكَبة [٢] » .

وقد التزم ابن أبى الشخباء فى موعظته الباء والهاء فى روى أسجاعه ، ليعطى للصوت فى أول السجعة وما وراءه من الكلمات والمقاطع الفرصة كى يعلو ، ثم ينخفض فجأة آخر السجعة ، وكأنما لم تعد فيه بقية من شدة التأثر . وخصائص ابن أبى الشخباء الفنية التى عرضنا لها فى حديثنا عنه واضحة أتم وضوح فى هذه القطعة من الخطبة ، فهو يعنى بالتصاوير عناية شديدة ، إذ يطلب إلى الناس أن يفكوا أنفسهم من سلاسل الآمال المرهقة ويحطوا عن ظهورهم ذنوبهم المقترفة ، ويصرفوا أطماعهم عن رياض الأمانى المتشعبة ، ولا تغرنهم زينة الحياة الدنيا . ويدعو الناس إلى العظة بالأمم الخالية والملوك السالفة وما كانوا فيه من ترف ونعيم . كل ذلك زال إلى غير مآب ، وذاقوا كئوس الموت دِهاقا ، وأكلت هوامّ الأرض وحشراتها لحومهم . ويرفع أمام أعين الناس يوم القيامة ، يوم الجزاء الأكبر ، فإما إلى النعيم وإما إلى الجحيم .

ونمضى إلى زمن الأيوبيين ، فيلقانا إبراهيم بن منصور المتوفى سنة ٥٩٦ إمام جامع عمرو بن العاص بالفسطاط وخطيبه ، وولى الخطابة بعده ابنه محمد يقول السبكى : « وله ديوان خطب مشهور [٣] » . وطبيعى أن الخطابة لزمن الأيوبيين وحروبهم مع الصليبيين كانت تحض بقوة على جهاد أعداء الله والإسلام وبذل المهج والأرواح فى سبيل نصرة دينه الحنيف . ولم تكن خطب الجهاد تُلقىَ فى أيام الجمع فحسب . بل كانت تلقى كلما أريد تجميع الشعب لحمل السيف والسلاح . ويروى المقريزى [٤] أنه حينما علم الفرنج بموت الملك نجم الدين أيوب سنة ٦٤٧ تقدموا من دمياط تجاه المنصورة « فورد كتاب إلى القاهرة من العسكر أوله : (انْفِرُوا خفافًا وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) وكان فى الكتاب مواعظ بليغة فى الحث على الجهاد ، فقرئ على منبر جامع القاهرة ، وقد جُمع الناس لسماعه ، فارتجتَّ القاهرة والفسطاط وضواحيهما وخرج الناس للقاء الصليبيين من المدينتين الكبيرتين ومن سائر الأعمال ، فاجتمع عالم عظيم سحق الصليبيين سحقا ذريعا كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع .

---

(١) مثوبة : مكافأة

(٢) مكبكبة : مجُمعة .

(٣) انظر ترجمة أبيه عند السبكى ٣٧/٧

(٤) الخطط ٤١٣/١

ونلتقى فى زمن المماليك بابن المنير [1] الإسكندرى المتوفى سنة ٦٨٣ المتولى قضاء الإسكندرية وخطابتها مرتين ، ويقول صاحب فوات الوفيات : « له ديوان خطب » . وكان يعاصره أخطب الخطباء قاطبة أيام المماليك ابن دقيق [2] العيد المتوفى سنة ٧٠٢ علم الأعلام وشيخ الإسلام وقاضى القضاة فى جميع ديار مصر منذ سنة ٦٩٥ إلى وفاته . ويشيد مترجموه بورعه وتقواه ، ويقول السبكى : « له ديوان خطب مفرد معروف » . وكان شاعرًا ، ويطيل مترجموه فى ذكر أشعاره ، ولا يعرضون شيئا من خطبه ومواعظه إلا موعظة ذكر السيوطى أنه كتب بها إلى قاضى إخميم بالصعيد ، وفيها يقول [3] :

« نحمد الله الذى (يعلم خائنةَ الأعين وما تُخْفِى الصدور) ، ويمهل حتى يلتبس الإمهال بالإهمال على المغرور ، ونذكِّره بأيام الله (وإن يوما عند ربِّك كألف سنة مما تعُدُّون) ونحذره صفقة مَنْ باع الآخرة بالدنيا فما أحد سواه مغبون ، عسى الله أن يرشده بهذا التذكار . وتأخذ هذه النصائح بحُجَزِته عن النار ، والمقتضى لإصدارها ما لحناه من الغفلة المستحكمة على القلوب ، ومن تقاعد الهمم مما يجب للرب على المربوب ، .. ووالله إن الأمر عظيم ، والخطب جسيم ، ولا أرى .. إلا رجلا نبذ الآخرة وراه ، واتخذ إلهه هواه ، وقصرهمَّه وهمته على حظِّ نفسه ودنياه ، فغاية مطلبه حب الجاه .. فاتق الله الذى يراك حين تقوم ، واقصر أملك عليه فإن المحروم من فضله غير مرحوم .. واجعل أكثر همومك الاستعداد ليوم المعاد ، والتأهب لجواب الملك الجواد فإنه يقول : (فوَربِّك لنسألنَّهم أجمعين عما كانوا يعملون) .

ولعل فى هذه القطعة مايصور وعظ ابن دقيق العيد فى خطبه وأنه كان يتدفق فيه كالنيل العذب . مما جعل معاصريه يشيدون طويلا برقائق وعظه وكلمه التى كان يخلب بها وبما يضمنها من آى الذكر الحكيم عقول مستمعيه ، فيملأ نفوسهم بالإنابة إلى الله . وكان دائما يرفع أمام أعينهم أهوال يوم المحشر يوم تجزى كل نفس بما كسبت وعملت وقدمت ، فاذا هم يرتجفون ويبكون بدموع غزار ، وقد خشعت قلوبهم وذابت نفوسهم وهلعوا إلى دعاء الله يستغفرونه ويتوبون إليه توبة نصوحًا .

---

(١) انظر فى ابن المنير فوات الوفيات ١/١٣٢ والنجوم الزاهرة ٧/٣٦١ وحسن المحاضرة ١/٣١٦ وشذرات الذهب ٥/٣٨١

(٢) راجع مصادر ترجمة ابن دقيق العيد ص ١٤٦ .

(٣) حسن المحاضرة ٢/١٦٨

ومايزال السيوطى فى حسن المحاضرة يسوق إلينا أسماء كبار الوعاظ وخاصة بين الصوفية ، ومرَّ بنا فى الفصل الأول حديث مفصل عن التصوف بمصر وكيف أخذ يزدهر بها منذ عنيت به الدولة فى عهد صلاح الدين ، وإنشائه لخانقاه سعيد السعداء . واتسع بناء الخانقاهات بعده فى أيام المماليك ، وكانت دورا كبيرة للنسك ودراسة العلوم الدينية على نحو ما يذكرون عن خانقاه سرياقوس التى أنشأها الناصر محمد بن قلاوون ، ومرَّ حديث مفصل عنها وعن غيرها من الخانقاهات المملوكية . وبنوا بجانبها للصوفية اثنى عشر رباطا . كل ذلك عمل على ازدهار التصوف بمصر منذ القرن السادس الهجرى . وكان كثير من الصوفية يتبعون الطريقتين العراقيتين : القادرية الجيلانية والرفاعية .

ولم تشع طريقة فى العالم الإسلامى إلا كان لها فروع وأتباع فى مصر ، وأخذت تؤسَّس بها طرق مشهورة فى مقدمتها الطريقة الشاذلية المنسوبة إلى مؤسسها أبى الحسن الشاذلى المتوفى سنة ٦٥٦ وسنخصه بترجمة قصيرة . وتلتها سريعا الطريقة البرهامية نسبة إلى إبراهيم [(١)] الدسوقى المتوفى سنة ٦٧٢ بدسوق بالقرب من رشيد ، وهو من ذرية على بن أبى طالب ، والطريقة الأحمدية نسبة إلى أحمد [(٢)] البدوى المتوفى سنة ٦٧٥ بطنطا وهو أيضا سليل على بن أبى طالب . وكان لكل طريقة ورد خاص تردده ، كله ابتهالات إلى الله ومناجيات وأدعية ، وكثرت على ألسنة المتصوفة هذه الأدعية والمناجيات والابتهالات والأوراد ، وسنعرض لهذا الجانب عند أبى الحسن الشاذلى فى ترجمته . ونسوق قطعة من ورد أو حزب إبراهيم الدسوقى ، يقول مناجيا ربه :

« بأسمائك يارب العالمين . بالسموات القائمات ، فهن بالقدرة واقفات ، بالسَّبع المتطابقات ، بالحجب المترادفات ، بمواقف الأملاك (الملائكة) فى مجارى الأفلاك . بالكرسى البسيط ، بالعرش المحيط .. اللهم احرسنى من كيد الفاسق ، ومن سطوة المارق ، ومن لَدْغة المنافق » .

وكان يعاصر الدسوقى والبدوى أبو العباس [(٣)] المرسى المتوفى سنة ٦٨٦ تلميذ أبى الحسن

---

(١) انظر الدسوقى فى الطبقات الكبرى للشعرانى (طبع القاهرة سنة ١٢٨٦ هـ) ١٨٣/١ وخطط على مبارك ٧/١١

(٢) راجع ترجمة البدوى فى الشعرانى ٢٠٢/١ والنجوم الزاهرة ٢٥٣/٧ وحسن المحاضرة ٥٢١/١ وشذرات الذهب ٣٤٦/٥

(٣) انظر فى ترجمة أبى العباس كتاب لطائف المنن فى مناقب أبى العباس المرسى وشيخه أبى الحسن وراجع الشعرانى ١٤/٢ والنجوم الزاهرة ٣٧١/٧ وحسن المحاضرة ٥٢٣/١ والوافى ٢٦٤/٧ وشذرات الذهب ٢٧٣/٥ .

الشاذلي ، وهو أندلسي من مرسية ، ولد بها سنة ٦١٦ للهجرة ، وفي الرابعة والعشرين من سِنّه خرج إلى الحج ، وفي طريقه توقف بتونس ، وفيها تعرف على الصوفي الكبير أبي الحسن الشاذلي ، وأصبح أقرب أتباعه ومريديه إليه ، حتى إذا رحل إلى الاسكندرية سنة ٦٤٢ رحل معه . وكان لايبرح مجلسه ، وزوَّجه ابنته ، وأعلن إلى أتباعه في جامع العطارين بالإسكندرية أنه خليفته ، وكان يتقن العلوم الشرعية ، ويدرِّسها هي وبعض كتب الصوفية ، وأقبل على دروسه الطلاب . واستأذن شيخه في السفر إلى القاهرة للتدريس بمساجدها ونشر طريقته بها ، فأذن له ، وكان يلقي دروسه في الجامع العتيق : جامع عمرو بن العاص وجامع المقس ويسمى الآن جامع أولاد عنان بالقرب من محطة باب الحديد . وكانت حلقته في الجامعين تزدحم بالطلاب والعلماء . وتوفي أستاذه سنة ٦٥٦ فخلفه على الطريقة ، وكان أكثر مقامه بالإسكندرية ، ومن حين إلى حين ينزل القاهرة ، ناشرا هنا وهناك الطريقة الشاذلية ، ولتلميذه ابن عطاء الله كتاب قصره عليه وعلى أستاذه الشاذلي سماه « لطائف المنن في مناقب أبي العباس المرسي وشيخه أبي الحسن » ويعد جامعه اليوم أكبر جوامع الإسكندرية ، ويورد ابن عطاء الله كثيرا من أقواله ، كما يورد له وردا أو حزبًا نقتطف من ابتهالاته وأدعيته قوله[1] :

« اللهم إنا نسألك الخوف منك والرجاء فيك ، والمحبة لك ، والشوق إليك ، والأنس بك ، والرضا منك ، والطاعة لأمرك ، على بساط مشاهدتك ، ناظرين منك إليك ، وناطقين بك عنك .. اللهمَّ ياجامع الناس ليوم لاريب فيه اجمعْ بيننا وبين الصدق والنية والإخلاص والخشوع والهيبة والحياء والمراقبة ونور اليقين والعلم والمعرفة والحفظ والعصمة والنشاط والقوة والستر والمغفرة والفصاحة والبيان والفهم في القرآن وخُصَّنا منك بالمحبة .. وآتنا العلم اللدنيَّ والعمل الصالح والرزق الهنيّ على بساط علم التوحيد والشرع .. وسخِّرْ لي الرزق واعصمني من تعلق الهمة به ومن الذل للخلق بسببه .. وهَبْ لي لسانا لايفترعن ذكرك وقلبا يسمع بالحق منك .. وبَغِّضْ لنا الدنيا وحَبِّب لنا الآخرة .. اللهم لاتعذبنا بإراداتنا وحب شهواتنا فنشتغل أو نُحجب أو نفرح بوجود مرادنا أو نحزن أو نسخط .. وأنت أعلم بقلوبنا فارحمنا بالنعيم الأكبر والمزيد الأفضل والنور الأكمل » .

---

(١) لطائف المنن لابن عطاء الله على هامش كتاب لطائف المنن والأخلاق للشعراني (طبع المطبعة الميمنية بمصر) ٢/ ٣٧

والورد طويل ويتخلله كثير من الآيات القرآنية ، وهو مناجاة روحية صافية للذات العلية . ويتضح فيه كيف تجمع الطريقة الشاذلية بين علم الشريعة وعلم الحقيقة الصوفية ، ولعل ذلك ماجعلها تشدِّد على أتباعها فى أن لايلبسوا المرقَّعات وأن لايسألوا الناس شيئا مما فى أيديهم من مال أو غذاء مع الاعتماد على النفس فى كسب القوت عن طريق التجارة والزراعة وغيرهما . وبذلك وصلت بين أتباعها والحياة والشريعة ، وسنخص ابن عطاء الله تلميذ أبى العباس المرسى بترجمة قصيرة . ومن متصوفة مصر المعاصرين لأبى العباس عبدالعزيز[1] الدَّميرىُّ الدِّيرينىُّ ، ولد بقرية دَميرة بالقرب من دمياط سنة ٦١٢ وتوفى بديرين فى الصعيد سنة ٦٩٤ وكان يتجول فى ريف مصر شمالا وجنوبا ، وكان فقيها شافعيا ، ونظم كتاب التنبيه لأبى إسحاق الشيرازى ، ونظم سيرة نبويَّة . وكان له تفسير فى مجلدين . وكان متقشِّفا مخشوشنا ، وله فى التصوف كتاب « طهارة القلوب فى ذكر علام الغيوب » وهو يمتلئْ بمناجيات إلهية بديعة من مثل قوله :

« إلهى ، عرَّفتنا بربوبيَّتك ، وغرَّقتنا فى بحار نعمتك ، ودعوتنا إلى دار قُدْسك ، ونعَّمتنا بذكرك وأنسك .

إلهى ، إن ظلمة ظُلْمِنا لأنفسنا قد عمَّت ، وبحارَ الغفلة على قلوبنا قد طمَّت ، فالعجز شامل ، والحصَرُ[2] حاصل ، والتسليم أسلم ، وأنت بالحال أعلم .

إلهى ، ماعصيناك جهلا بعقابك ، ولاتعرُّضا لعذابك ، ولكن سوَّلتْ[3] لنا نفوسنا ، وأعانتْنا شِقْوتُنا ، وغرَّنا سَتْرك علينا ، وأطمعنا فى عفوك برُّك بنا ، فالآن من عذابك من يَسْتَنِقذُنا ؟ وبحَبْل مَنْ نَعْتصم إن قطعتَ حَبْلك عنا ؟ واخَجْلَتنا من الوقوف غدًا بين يديك ، وافضيحتنا إذا عُرِضَتْ أعمالنا القبيحةُ عليك .

اللهم اغفِرْ ما علمتَ ، ولاتهتك ماسترت .

إلهى ، إن كنا عصيناك بجهل فقد دعوناك بعقل ، حيث علمنا أن لنا ربًّا يغفر الذنوب ولايُبالى » .

وهى مناجاة لله بديعة صافية كل الصفاء نقية كل النقاء ، مناجاة تنبئْ عن قصور العبد وتعلقه

---

(١) انظره فى طبقات الشافعية للسبكى ١٩٩/٨ وحسن المحاضرة ٤٢١/١ والشعرانى ٢٢٤/١ ومناجاته المذكورة فى السبكى

(٢) الحصر : العى .

(٣) سوَّلت : أغرت . وتقال فى الشرور والسوء .

بربه وطمعه فى غفرانه وعفوه إذ يرى كل صلاته ونسكه وعبادته وكل ما قدم يقصر عن حق إلهه .

ويروى السبكى مناجاة لصوفى شاذلى من صوفية القرن الثامن هو شمس [1] الدين بن اللبان محمد ابن أحمد المتوفى سنة ٧٤٩ وقد أخذ الطريقة الشاذلية عن ختنه (والد زوجته) ياقوت العَرْشى تلميذ أبى العباس المرسى ، ويقول السبكى إنه نقل مناجاته عن كتابه « المتشابه فى الربانيات » وهى تطرد على هذا النمط .

« إلهى ! جَلَّتْ عظمتُك أن يَعْصيك عاصٍ ، أو ينساك ناسٍ ، ولكن أوحيتَ روح أوامرك فى أسرار الكائنات ، فذكرك الناسى بنسيانه ، وأطاعك العاصى بعصيانه ، وإنْ من شىء إلا يسبِّح بحمدك ، إن عَصَى داعى إيمانه فقد أطاع داعىَ سلطانك ، ولكن قامتْ عليه حُجَّتك ، ولله الحجَّة البالغة : (لايُسْأَل عما يَفْعَل وهم يُسْأَلون) .

ويبدو أن كتاب المتشابه فى الربانيات كان شطحات كثيرة على نحو ما نرى الآن من قوله : إن العاصى يطيع الله بعصيانه وإنه إن عصى داعى إيمانه فقد أطاع داعى سلطانه ، فكيف يُعَد العاصى لله مطيعا له ؟ وإذن لايكون فى الدنيا عاص ومطيع . ولذلك يقول السبكى إن هذه المناجاة مما أُخذ عليه . ويقول ابن حجر : ضُبطت عليه كلمات على طريق الاتحادية القائلين بالحلول ، كما يقول إن له كتابا على لسان الصوفية ، فيه مَنّ إشارات الصوفية القائلين بالوحدة ، وهو فى غاية الحلاوة لفظا وفى المعنى سم قاتل .

وكان يعاصره يوسف [2] بن عبدالله العجمى الكردىّ المصرى الدار المتوفى سنة ٧٦٨ وقد دفن بزاويته بقرافة مصر . ويقول ابن حجر : « له زوايا فى عدة بلاد » .ويصفه ابن تغرى بردى بقوله : « الإمام العالم المسلِّك الصوفى العارف بالله تعالى المعتقد .. وقبره يقصد للزيارة ، كان شيخا حقيقةً ومُقْتَدًى طريقة ، كان إمام المسَلِّكين (آخذى العهود على المريدين) فى عصره وله رسالة فى التصوف سماها « ريحان القلوب والتوصل إلى المحبوب » . ومن هذه الرسالة مخطوطتان بدار الكتب المصرية وقد ذكر فيها شرائط التوبة ولبس الخرقة أو المرقعة الصوفية وتلقين الذكر .. ويقول ابن تغرى بردى : انتفع بصحبته جماعة من العلماء والصلحاء والفقهاء ، وكان

---

(١) انظر ابن اللبان فى الدرر الكامنة ٣/٤٢٠ والسبكى ٩/٩٤ وحسن المحاضرة ١/٤٢٨ والوافى بالوفيات للصفدى ٢/١٦٨ ومرآة الجنان ٤/٣٣٣ وشذرات الذهب ٦/١٦٣

(٢) انظر فى يوسف العجمى النجوم الزاهرة ١١/٩٤ والدرر الكامنة لابن حجر ٥/٢٣٨ والشعرانى ٢/٧١ وحسن المحاضرة ١/٤٢٦

على قدم هائل ، كان غالب علماء عصره يقتدون به ، وكان له أوراد وأذكار هائلة » وهذه الأذكار والأوراد سقطت من يد الزمن . وهو وأوراده رمز لمن جاء بعده من المتصوفة في أيام المماليك وما كان لهم من أوراد وأحزاب سقطت من يد الزمن .

ونمضي إلى أيام العثمانيين ونلتقي في مطلعها بأبي السعود [١] الجارحي المتصوف المتوفى سنة ٩٣٠ ويشيد به الشعراني ، وأهم منه الشعراني [٢] نفسه المتوفى سنة ٩٧٣ وقد ألممنا به في حديثنا عن الزهد والتصوف في الفصل الأول ، وفي كتابه « لطائف المنن والأخلاق » بيان بالمؤلفات التي قرأها وبأساتذته ومراحل حياته الصوفية والأخلاق التي التزمها في حياته . ومع أنه صوفي سني نراه يدافع عن أستاذه الروحي : ابن عربي ، محاولا تأويل عباراته على نحو مايصور ذلك في كتابه « الكبريت الأحمر في علوم الشيخ الأكبر » . وتظل الطرق التي عرضنا لها في غير هذا الموضع ناشطة بمصر . ويعلو شأن الطريقة الخلوتية المنسوبة الى الشيخ محمد الخلوتي منذ نزل القاهرة الشيخ مصطفى [٣] بن كمال الدين البكري الناشئ ببيت المقدس ، وقد طوَّف في بلدان الشام والعراق وتركيا وحج مرارا وسكن بأخرة القاهرةَ وتوفي بها سنة ١١٦٢ ويعرِّف به الجبرتي قائلا : شيخ الطريقة والحقيقة ، قدوة السالكين ، ومربي المريدين الإمام المسلِّك ، تآليفه تقارب المائتين ، وأوراده أكثر من ستين وردا . وأجلها ورد السحر ، ونقتطف من مناجياته لربه فيه وابتهالاته قوله [٤] :

« إلهي ، أنت المدعوُّ بكل لسان ، والمقصود في كل آن .

إلهي ، أنت قلت : (ادْعوني أستجبْ لكم) فها نحن متجهون إليك بكليتنا فلا تردَّنا ، واستجبْ لنا كما وعدتنا .

إلهي ، اين المفر منك وأنت المحيط بالأكوان ؟ وكيف البراح عنك وأنت الذي قيَّدتَنا بلطائف الإحسان .

---

(١) راجع فيه الطبقات الكبرى للشعراني ١٤٣/٢

(٢) انظر في ترجمة الشعراني كتابه « لطائف المنن والأخلاق في بيان وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق ، والكواكب السائرة ١٥٩/٢ وطبقات المناوي الكبرى ٤٩٥/٢ والخطط التوفيقية ١٠٩/١٤ وكتاب الشعراني والتصوف الإسلامي لطه عبدالباقي سرور ، والشعراني إمام التصوف في عصره لتوفيق الطويل .

(٣) انظر في ترجمة مصطفى البكري الصديقي الخلوتي تاريخ الجبرتي ١٦٥/١ وسلك الدرر ١٩٠/٤ ودائرة المعارف الإسلامية في البكري .

(٤) انظر في ورد السحر للبكري مجموع الأوراد الكبير (طبع مكتبة النصر) ص٧٨ – ١١٨

إلهى ، بحق جمالك الذى فَتَنَ به أكبادَ المحبين ، وبجلالك الذى تحيرت فى عظمته ألبابُ العارفين .

إلهى ، بالنور المحمدى الذى رفعت على كل رفيع مقامه ، وضربتَ فوق خزانة أسرار ألوهيَّتك أعلامه ، افتحْ لنا فتحا صَمَدانيّا وعلمًا ربانيًّا ، وتجلِّيا رحمانيا ، وفَيْضًا إحسانيا » .

وعن هذا الشيخ أخذ الطريقة الخلوتية جمع من العلماء المصريين الأعلام فى مقدمتهم الشيخ الحفنى شيخ الجامع الأزهر وهو ملتقى أسانيد الطريقة بعده ، وممن أخذها عنه الشيخ أحمد الدردير . وسنخصه بترجمة قصيرة بعد أبى الحسن الشاذلى وابن عطاء الله السكندرى .

أبو الحسن (١) الشاذلى

هو على بن عبد الله بن عبد الجبار ، من سلالة الحسن بن على بن أبى طالب ، ولد سنة ٥٩٣ للهجرة بقرية تسمى غمارة بالقرب من سبْتة فى المغرب الأقصى ، وعلى عادة لداته فى النشأة بدأ حياته بحفظ القرآن الكريم وأكبَّ على العلوم الاسلامية واللغوية حتى أتقنها . ولم يكد يبلغ نحو العشرين من عمره حتى أحسَّ برغبة شديدة للنهل من معين الصوفية ، فرحل إلى المشرق ليلقى العلماء النساك ، ونزل تونس ، ولقى فيها وفى المدن المغربية قبلها حَمَلة طريقة الصوفى المغربى أبى مدين . ولم يلبث أن عزم على أداء فريضة الحج فزار مصر ودخل الحجاز ، ثم زار فلسطين والشام والعراق ، وتعرف فى بغداد على صوفى رفاعى هو أبو الفتح الواسطى ، وكأنما كان باب سلوكه الصوفى . وعاد إلى المغرب ، فكان من محاسن الصدف أن تعرف فى فاس على صوفى هو عبد السلام بن مشيش ، فلزمه ، واتخذه إماما وشيخًا ، وقد دفعه دفعًا إلى أن يعيش للتصوف ومحبة الله ، إذ كان يكرر عليه قوله : « أدْمِن على الشرب والمحبة وكأسها مع السكر والصحو ، كلما أفقت أو تيقظت شربت ، حتى يكون سكرك به ، وحتى تغيب بجماله عن المحبة وعن الشرب والشراب والكأس ، بما يبدو لك من نور جماله ، وقدس كما له وجلاله » . ولم يلبث شيخه أن أمره

---

(١) راجع ترجمة الشاذلى فى كتاب « لطائف المنن فى مناقب أبى العباس المرسى وشيخه أبى الحسن » وحسن المحاضرة ٥٢٠/١ ونكت الهميان ص ٢١٣ والشعرانى فى الطبقات ٤/٢ والنجوم الزاهرة ٦٩/٧ وراجع المفاخر العلية فى المآثر الشاذلية لابن عياد وهو مطبوع ، وأبو الحسن الشاذلى للدكتور عبد الحليم محمود ، وأعلام الاسكندرية فى العصر الاسلامى للدكتور جمال الدين الشيال ص ١٦١ والأدب فى التراث الصوفى للدكتور محمد عبد المنعم خفاجى ص ١٥٠ .

بالهجرة إلى شاذلة بالقرب من تونس فى إفريقية الوسطى ، فهاجر إليها ، وهناك أخذ ينشر فى الناس الدعوة إلى التصوف ، ولصقت البلدة باسمه حتى اشتهر باسم الشاذلى وكان يتركها أحيانا إلى تونس وفيها تعرَّف بتلميذه أبى العباس المرسى وتوثقت الصلة بينهما فى الله ومحبته حتى قال له الشاذلى يوما : « ماصحبتك إلا لتكون أنت أنا »

وهاجر الشاذلى وتلميذه أبو العباس وجمع من مريديه إلى الاسكندرية فى سنة ٦٤٢ وبها ألقى عصا تسياره ، وذاع صيته لا فى الإسكندرية وحدها ، بل أيضا فى القاهرة ، إذ كان يتردد عليها لنشر طريقته الصوفية ، وكان يحضر مجالسه فى مدرسة الحديث الكاملية شيوخ الإسلام حينئذ وأكابر العلماء من الفقهاء والمحدثين والمفسرين .. وكان يلقى دروسه ومواعظه فى الاسكندرية بجامع العطارين . وطار صيته فيها وفى القاهرة والمدن المصرية ، فانهال المصريون عليه ، يطلبون القرب من الله على يديه ، وفى هذه الأثناء أصاب عينيه رمد أفقده بصره . وكان يُعجب بأبى العباس المرسى منذ لقائه به فأعلن فى أتباعه – كما مر بنا – أنه خليفته على طريقته ، وهى تقوم على التمسك بالكتاب والسنة والشريعة المحمدية بجانب النسك والعبادة وصدق القلب . والشعور الباطنى الصوفى .

وهاجم الشاذلى بقوة حياة الخانقاهات والتسول التى كان يعيشها الدراويش الرحَّل ، فعنده أن الصوفى الحقيقى لايكون سائلا ولا طفيليا يمد يده للغير ، بل لابد أن يعتمد على نفسه فى كسْب قوته ، فتصوُّفه أو طريقته الصوفية كانت طريقة سنية . وكان يدعو مريديه لحمل السلاح ضد أعداء الإسلام الصليبيين ، وكان يرحل معهم إلى ميادين الحرب كما حدث فى موقعة المنصورة المشهورة لعهد السلطان نجم الدين أيوب وابنه توران شاه حين اقتحم لويس التاسع ملك فرنسا دمياط وتقدم منها سنة ٦٤٧ بجيشه نحو المنصورة إذ نجده مع مريديه هناك ، ونجد معه شيوخ الدين وعلماءه الكبار من مثل العز بن عبد السلام وابن دقيق العيد ومحيى الدين بن سراقة وغيرهم من جلّة الشيوخ . وحدث أن تكلموا يوما واعظين ، وجاء الدور فى الكلام والخطابة على أبى الحسن ، فتكلم – كما يقول الرواة – بالأسرار العجيبة والعلوم الجليلة ، وانبهر الشيخ العز بن عبد السلام ، فقام هاتفا منبهرا قائلا : اسمعوا هذا الكلام الغريب القريب العهد من الله » . وأنزل الجيش المصرى بالصليبيين هزيمة ساحقة ، واستسلم ملكهم لويس التاسع ذليلا كسيرا ، وارتحلوا عن دمياط خاسئين مدحورين إلى البحر المتوسط وماوراءه .

وعاد أبو الحسن الشاذلى إلى الاسكندرية والعلماء والناس يكبُّون عليه للاستزادة من علمه وطريقته وتعاليمه . حتى إذا كانت سنة ٦٥٦ خرج إلى الحج عن طريق القُصير ومعه أبو العباس وبعض مريديه ، وفى صحراء عيذاب بين قنا والقصير أحسَّ بدنو أجله فأعلن إلى أتباعه استخلافه عليهم أبا العباس المرسى ، ولم يلبث أن أسلم روحه إلى بارئه . وتدل أقواله وأدعيته وابتهالاته ومناجياته لربه فى أوراده على أنه كان يملك ناصية العربية مصرِّفا أزمتها كيف شاء ، وله أوراد كثيرة ، وقد ساق ابن عطاء الله منها فى كتابه لطائف المنن أربعة أوراد له أو أحزاب ، لعل أهمها الحزب المسمى بالحزب الكبير وهو يستهله ويتخلَّله بآيات قرآنية كثيرة ، ويناجى ربه فيه بمثل قوله :

« اللهم إنك تعلم أنى بالجهالة معروف ، وأنت بالعلم موصوف ، وقد وسعتَ كل شىء من جهالتى بعلمك فسَعْ ذلك برحْمتك كما وسعته بعلمك واغفرْلى إنك على كل شىء قدير .

يارزاق ياقوى ياعزيز ! لك مقاليدُ السموات والأرض تبسط الرزق لمن تشاء وتقدر فابسُطْ لنا من الرزق ما توصِّلنا به إلى رحمتك ، ومن رحمتك ماتحول به بيننا وبين نقمتك ، ومن حلمك مايسعنا به عفوك ، واختم لنا بالسعادة التى ختمت بها لأوليائك ، واجعل خير أيامنا وأسعدها يوم لقائك ، وزحزحْنا عن حب الدنيا وعن نار الشهوة وأدخلنا بفضلك فى ميادين الرحمة ، واكسُنا من نورك جلابيبَ العصمة ، واجعل لنا ظهيرا من عقولنا ، ومهيمنا من أرواحنا ، ومسخرا من أنفسنا (كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا إنك كنت بنا بصيرا) » .

اللهم إنا نسألك إيمانا دائما ، ونسألك قلبا خاشعا ، ونسألك علما نافعا ، ونسألك يقينا صادقا ، ونسألك دينا قَيِّما ، ونسألك العافية من كل بليَّة ، ونسألك الشكر على العافية ، ونسألك الغنى عن الناس » .

والمناجاة طويلة ، وهو يلح فيها – كما نرى – بطلب المغفرة والرحمة من ربه وأن يكون خير أيامه وأسعدها يوم لقائه وأن ينفِّره من حب الدنيا ويعصمه من شهواتها وأن يجعل حياته نسكا وعبادة له . ومايزال فى الورد يتمنى أن يهبه الله رضاه وحبَّه وأن يدفع عنه كل ضر وأذى وأن يغنيه عن السؤال وأن ينعم عليه بعزِّ الدنيا من الإيمان والمعرفة وبعز الآخرة من اللقاء والمشاهدة . ولم يكن يطلب إلى أصحابه أن يشقوا على أنفسهم فى العبادة والنسك وأن يلبسوا الخرق والمرقَّعات بل كان يطلب إليهم الرفق بأنفسهم فى التقوى والعبادة ، وأن يشتركوا فى الحياة مع مجتمعهم تجارا وزراعا وأصحاب حرف ، فإن العمل نفسه يعد عبادة . وبذلك كان يدعو أتباعه أن لا يكونوا عالة على

المجتمع بل يعملوا ويجدوا مع صفاء النفس وسمو الروح ، ومع التقوى والعمل الصالح . وشاعت طريقته فى الديار المصرية وفى شمال أفريقيا وخاصة فى الشمال الغربى ، وتفرعت منها أكثر من عشرة طرق من أهمها الطريقتان الوفائية والخلوتية.

ابن عطاء [(١)] الله السكندرى

هو تاج الدين أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله السكندرى ، ولد بالإسكندرية فى أواخر العقد السادس من القرن السابع ، واستهل حياته بحفظ القرآن الكريم ، ثم أخذ يعكف على دراسة العلوم الدينية واللغوية حتى برع فيها ، يقول السيوطى : «كان جامعا لأنواع العلوم من تفسير وحديث ونحو وأصول وفقه على مذهب مالك» . ويبدو أنه جمع إلى مذهب مالك دراسة مذهب الشافعى مما جعل السبكى يترجم له فى طبقات الشافعية ، وله فى مذهب مالك مختصر تهذيب المدونة للبرادعى . وكان فى أول أمره منصرفا عن التصوف والصوفية . بل كان ينكر عليهم طريقتهم ، حتى تصادف أن استمع إلى أبى العباس المرسى تلميذ أبى الحسن الشاذلى ، فأعجب به ، وأخذ يقتنع بطريقة القوم ، حتى أصبح أكبر مريد لأبى العباس وآثر تلاميذه عنده ، ولما توفى سنة ٦٨٥ خلفه على رياسة الطريقة الشاذلية . وله فضل كبير فى نشرها ، فقد كان فقيها كبيرا ، كما كان صوفيا شاذليا لَسِناً ، فجلس مجلس أستاذه يدرِّس للناس الفقه والتفسير ويعظهم ، فيبلغ كل مايريد من التأثير فيهم .

واستوطن ابن عطاء الله القاهرة ، واتخذ له حلقة فى الجامع الأزهر تارة وفى المدرسة المنصورية تارة أخرى يعظ الناس ويرشدهم ، وأكبَّ عليه الفقهاء وفى مقدمتهم تقى الدين السبكى ، وأكبَّت عليه العامة ، ودخل كثيرون فى طريقته لروعة وعظه وحسن بيانه ، وخاصة أنه كان يمزج مواعظه بالقرآن الكريم والحديث النبوى وأقوال السلف . فكثر أتباعه ، وأصبح لطريقته الشاذلية شأن عظيم ، وكان يكرر ويردد دائما مبدأها الأساسى وهو أن الصوفى الحقيقى مَنْ يجمع بين علوم الشريعة وعلوم الصوفية ، وأنه لاتصوف بدون أداء الفرائض والنوافل ، وأن على المتصوف أن يكتسب قوته ومايقيم به أَوَده ، وأما من يسألون الناس ويتضرعون إليهم طالبين مايسدُّون به رمقهم

---

(١) انظر فى ابن عطاء الله النجوم الزاهرة ٢٨٠/٨ وطبقات الشافعية ٢٣/٩ والدرر الكامنة ٢٩١/١ وحسن المحاضرة ٤٢٤/١ وطبقات الشعرانى ١٤/٢ والبدر الطالع ١٠٧/١ والديباج المذهب لابن فرحون (طبع القاهرة ١٣٥١ هـ) ص ٧٠ والوافى ٥٧/٨ وشذرات الذهب ١٩/٦ وكتابا عنه للدكتور التفتازانى وأعلام الاسكندرية للدكتور الشيال ص ٢١٤ .

فليسوا من التصوف فى شيء . فالصوفى يعمل ويجنى ثمرة عمله ولايسأل سوى ربه راضيا برزقه ونصيبه من دنياه ، ويقول ابن حجر : «كان المتكلمَ على لسان الصوفية فى زمانه» وألّف فى مناقب شيخه أبى العباس المرسى وأبى الحسن الشاذلى كتابه «لطائف المنن» فأرسى به الطريقة وتعاليمها وكتب لها الذيوع . ويقول الذهبى : «كانت له جلالة عجيبة ووقع فى النفوس ومشاركة فى الفضائل» ويقول السبكى : «كان إماما عارفا صاحب إشارات وكرامات وقدم راسخ فى التصوف» ويقول صاحب النجوم الزاهرة فى التعريف به «الشيخ القدوة العارف بالله تعالى الصوفى الواعظ المذكِّر المسلِّك ، وكان يحضر حلقة وعظه خلق كثير ، وكان لوعظه تأثير فى القلوب وكان له معرفة تامة بكلام أهل الحقائق وأرباب الطريق» . وصنَّف ابن عطاء الله «لطائف المنن فى مناقب أبى العباس المرسى وشيخه أبى الحسن والتنوير فى إسقاط التدبير ، والمرقى إلى القدس الأبقى ، وتاج العروس الحاوى لتهذيب النفوس ، ومفتاح[1] الفلاح ومصباح الأرواح» . وواضح من عنوانات هذه المصنفات أنها كتبٌ صوفية . وله أقوال وكلمات بليغة دوَّنها أصحابه فى كتاب باسم «حكم ابن عطاء الله السكندرى» وهى منشورة . وله أشعار على طريقة الصوفية . أنشدنا منها مقطوعة فى غير هذا الموضع . وتوفى بالمدرسة المنصورية كهلا سنة ٧٠٩ ودفن بجبانة [2] آل أبى الوفا شرقى جبانة الإمام الليث ، وكانت جنازته – كما يقول مترجموه حَفِلة لكثرة أتباعه من الفقهاء والعلماء والعامة

وكان ابن عطاء الله إذا وعظ استرسل فى وعظه ، وقد يذكر آية قرآنية أو حديثا نبويًّا فتتوالى سيول القول ، من ذلك ماجاء فى وصفه للرسول ﷺ فى كتابه «لطائف المنن» إذ يقول :

«مشرق الأنوار ومعدن الأسرار ، مَنْ له الفتح والختام ، والحائز للمقامات العلية بالتمام ، رسول رب العالمين ، وسيد الأولين والآخرين ، محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين . فهو نور الأنوار وسر الأسرار ، إليه تنزل الأسرار الربانية ، وعنه تؤخذ المعارف الإلهٰية . أخذ أهل الظاهر عنه ظاهرهم ، وأخذ أهل الباطن (الصوفية) منه باطنهم ، وقال ﷺ : العلماء ورثة الأنبياء ، وكل على قدر إرثه ، وإرثه على قدر نوره ، ونوره على قدر فتحه ، وفتحه على قدر صفاء قلبه ، وصفاء قلبه على قدر معرفته بربه ، ومعرفته بربه على حسب ماسبق له من حبه» .

---

(١) انظره مطبوعا مع لطائف المنن على هامش كتاب لطائف المنن والأخلاق فى بيان وجوب التحدث بنعمة الله على الاطلاق للشعرانى (طبع المطبعة الميمنية)

(٢) فى الإسكندرية مسجد منسوب إليه ، ولعله كان يلقى فيه أحيانا بعض مواعظه

وتكثر عنده مثل هذه التفريعات والتوليدات فى الكلام ، وكأنما يستمد من معين ذهنى وروحى لاينضب ، مع التنويع الدائم فى الأفكار وتشعيبها شعبا وفروعا لاتكاد تقف عند حد ، وكأنما يريد أن يشيد منها طبقات ، بعضها فوق بعض ، أو كأنما يريد أن يرفع منها صروحا شاهقة . وقد يستعين بالتكرار مع تلوين الأسلوب ألوانا مختلفة على شاكلة قوله واعظا :

«كيف يُتَصَوَّر أن يحجب الله شيء وهو الذى أظهر كل شيء ؟
كيف يتصوَّر أن يحجبه شيء وهو الذى ظهر بكل شيء ؟
كيف يتصوَّر أن يحجبه شيء وهو الذى ظهر فى كل شيء ؟
كيف يتصوَّر أن يحجبه شيء وهو الذى ظهر لكل شئ ؟
كيف يتصوَّر أن يحجبه شيء وهو الظاهر قبل وجود كل شئ ؟
كيف يتصوَّر أن يحجبه شيء وهو الواحد الذى ليس معه شئ ؟
كيف يتصوَّر أن يحجبه شيء وهو أقرب إليك من كل شئ ؟

ياعجبا كيف يظهر الوجود فى العدم ، أم كيف يثبت الحادث مع مَنْ له وصف القدم ؟ »

والعظة تدور على أن لاحجاب بين العبد ومولاه إذ هو مُظْهِر الكائنات جميعا وموجدها ، وجميعها تشهد بوجوده ، وإنه ليتجلى فيها جميعا . وقد ظهر لها وعرفته وسبَّحته ، وإن وجوده لأبدى أزلىّ ، وإنه لواجب الوجود وحده دون سواه ، وإنه لأقرب إلى الإنسان من كل شيء ، أقرب إليه من حَبْل الوَريد . وياعجبا كيف يحجبه الفانى الحادث ، وهو القديم الأزلى . وهو يُسْر فى العرض وروعة بيان وبلاغة . ويروى أن السلطان لاجين طلبه ليعظه ، وسأله فى أثناء وعظه عن الشكر ، فأجابه توا :

« الشكر على ثلاثة أقسام : « شكر باللسان ، وشكر بالأركان ، وشكر بالجَنان . فشكر اللسان : التحدث بالنعمة ، قال تعالى : (وأما بنعمة ربِّك فحدِّثْ) . وشكر الأركان : العمل بطاعة الله قال تعالى : (اعملوا آل داود شكرا) . وشكر الجَنان : الاعتراف بأن الله وحده هو المنعم قال تعالى : « ومابكم من نعمة فمن الله) . وسأله لاجين : ما الذى يصير به الشاكر شاكرا ؟ فقال : إذا كان ذا علم فبالتبيين والإرشاد ، وإذا كان ذا غنى فبالبذل والإيثار للعباد ، وإذا كان ذاجاه فبإظهار العدل فيهم ودفع الأضرار والأنكاد » . ويحق ماقاله الشعرانى من أن لكلامه حلاوة وجلالة .

أحمد [1] الدردير

هو أحمد بن محمد العدوى المالكى الأزهرى الشهير بالدردير ، ولد ببنى عدى سنة ١١٢٧ للهجرة وحفظ القرآن الكريم وجوّده وشُغف بطلب العلم ، فورد القاهرة ، وأكبَّ على حلقات العلماء يأخذ كل ماعندهم من حديث وفقه وتفسير وعلم كلام ولغة ونحو وبلاغة . وشغف بدروس الشيخ الحفنى شيخ الجامع الأزهر حينذاك ، وكان قد انتظم فى سلك الخلوتية - كما مرَّ بنا - عن طريق الشيخ الخلوتى الكبير مصطفى بن كمال الدين البكرى ، فأخذ الدردير عنه الطريقة فيمن أخذوها عنه من العلماء والأجلاء وكان زاهدا عفيفا تقيا ورعاسليم الباطن مهذبا كريم الخلق ، فقربه منه الشيخ الحفنى وشيوخه بعامة . وسرعان ما أذنوا له بالإفتاء فى حضرتهم ، وأجازوا له التدريس ، فكان يدرس للطلاب المذهب المالكى ، وله فيه شرح « مختصر خليل » اقتصر فيه على الراجح من أقوال أئمة المذهب المالكى . ولما توفى شيخ المالكية : الشيخ الصعيدى شغل مكانه فى المشيخة والإفتاء ، وعُيِّن ناظرا على وقف الصعايدة وشيخا لطائفته الخلوتية الصوفية .

وعدَّد الجبرتى فى تاريخه مؤلفات الدردير فى الفقه المالكى وفى علم التوحيد وفى متشابهات القرآن وفى علوم البلاغة . وذكر له بجانب ذلك مؤلفات فى التصوف منها تحفة الإخوان فى آداب أهل العرفان ، وشرح على وِرْد الشيخ كريم الدين الخلوتى ، وشرح على صلوات السيد أحمد البدوى وهى صلوات نبوية . ومازال الدردير يتولى مشيخة المالكية بالجامع الأزهر ومشيخة الطائفة الخلوتية الصوفية حتى توفى سنة ١٢٠١ للهجرة ، وصُلِّىَ عليه بالأزهر فى مشهد عظيم ، ودُفن بزاويته التى بناها بحى الكعكيين . وله ورد أو حزب مشهور باسم المسبعات [2] والصلوات ، والمسبعات أدعية وابتهالات عشر ، وتليها صلوات عطرة على الرسول ﷺ ، وله معها منظومة لأسماء الله الحسنى ، تشتمل فى نهايتها على صلوات وتسليمات على الرسول ﷺ وأدعية له ولشيوخه فى الطريقة الخلوتية ، ومما يقول فى مسبعاته داعيا ربه متبتلا إليه .

« اللهم إنى أعوذ بك من الفقر إلا إليك ومن الذل إلا لك ومن الخوف إلا منك ، وأعوذ بك أن أقول زورا ، أو أغشى فجورا ، أو أكون بك مغرورا . وأعوذ بك من شماتة الأعداء .

---

(١) انظر فى الدردير تاريخ الجبرتى ١٤٧/٢

(٢) انظر فى هذه المسبعات والصلوات مجموع الأوراد الكبير (طبع مكتبة النصر) ص١٣

وعُضال الداء ، وخيبة الرجاء ، وزوال النعمة ، وفُجاءة النقمة .

اللهم إنى أعوذ بك من شر الخَلْق وهمِّ الرِّزْق ، وسوء الخُلق .

اللهم إنىَ أعوذ بك من الزَّيْغ والجزع ، وأعوذ بك من الطمع فى غير مطمع » .

ويظل يستعيذ من الهم والحزن ومن شر ما خلق الله ومن أن يَظلِم أو يُظلَم أَوَ يبْغى على إنسان أو يَبْغى عليه ذو سلطان أو يَطْغى أو يُطْغَى عليه . ويستعيذ من الشرك الظاهر والخفى ، ويتوسل إلى الله أن يكون دائما فى حرز منيع من جميع خلقه ، وأن يظل معافًى فى بدنه ودينه ودنياه .

وننتقل معه إلى الصلوات على الرسول ، وتتضح فيها نظرية الحقيقة المحمدية التى مر بنا حديث عنها عند البوصيرى ، إذ يقول :

« اللهم اجعلْ أفضل صلواتك أبدًا ، وأنْمى بركتك سَرْمَدًا ، وأزكى تحيَّاتك فضلا وعددا ، على أشرف الخلائق الإنسانية ، ومجمع الحقائق الإيمْانية .. شاهد أسرار الأزل ، وترجمان لسان القدم .. وإنسان عين الوجود العلوى والسُّفْلى ، روح جسد الكونين ، وعين حياة الدّارين .

اللهم صَلِّ على مَنْ مِنْه انشقَّت الأسرار ، وانفلقت الأنوار ، وفيه ارتقت الحقائق ، ونزلتْ علوم آدم فأعجز الخلائق ، وله تضاءلت الفهوم فلم يدركه مناسابق ولا لاحق ، فرياض الملكوت بزهر جماله مونقة ، وحياض الجبروت بفيض أنواره متدفقة .

اللهم صَلِّ على الذات المحمدية ، اللطيفة الأحدية ، شمس سماء الأسرار ، ومظهر الأنوار . ومركز مدار الجلال ، وقطب فلك الجمال » .

ونظرية الحقيقة المحمدية وما يطوى فيها من قدم الوجود المحمدى وأن وجود الكائنات مستعار منه واضحة فى قول الدردير عن الرسول عليه السلام إنه ترجمان لسان القدم ، وإنسان عين الوجود العلوى والسفلى وروح جسد الكونين وأن الأنوار منه انشقت ، فنوره هو المرئىّ فى كل نور ، ووجوده هو المشاهَدُ فى كل وجود . وكل ذلك يعنى أزلية النور المحمدى أو قل أزلية الحقيقة المحمدية . ويوزع الدردير صلواته على الحروف الهجائية فلكل حرف سجعاته الخاصة ، ومع الصلوات أدعية وابتهالات شتى من مثل قوله فى الصلوات على حرف الدال :

« اللهم صَلِّ وسَلِّم وباركْ على سيدنا محمد واسْلُكْ بنا طريقَ الرشاد .
وصَلِّ وسَلِّمْ وباركْ على سيدنا محمد واخلعْ علينا خِلَع الرِّضوان والوداد ،
وصَلِّ وسَلِّم وبارك على سيدنا محمد وَتوِّجنا بتاج القبول بين العباد .

وصَلِّ وسَلِّم وبارِكْ على سيدنا محمد وارأفْ بنا رأفة الحبيب بحبيبه يوم التَّناد [1] ،

وتتوالى مثل هذه الأدعية مع الصلوات على الرسول ﷺ وكأن الدردير يستمد من معين لاينضب ، وهو معين يسيل دائما سلاسة وعذوبة .

٥

كتب النوادر والسير والقصص الشعبية

(ا) كتب النوادر

تطلق كلمة النوادر إطلاقين ، فهى تارة يراد بها الأقاصيص القصيرة التى تروِّح عن النفس أو التى يُقْصَدُ بها إلى غرض خلقى نبيل ، وتارة يراد بها أقاصيص فكهة قصيرة سخرية بحاكم أو معلم أو قاض أو بخيل . وكتب الأدب العربى تمتلئْ بهذين النوعين من كتب النوادر ، وهى كثيرة فى مصر على مدار هذا العصر ، ونكتفى بالحديث عن كتاب من المجموعة الأولى وكتابين من المجموعة الثانية .

كتاب المكافأة

مؤلف هذا الكتاب أحمد [2] بن يوسف المعروف باسم ابن الداية كانت أم أبيه يوسف بن إبراهيم داية لإبراهيم بن المهدى عم المأمون فنسب إليها . وظل يوسف فى خدمته حتى توفى ، ويبدو أنه كان مثقفا ثقافة متنوعة ، مما جعل بعض ولاة العباسيين بمصر يستكتبه فى ديوانها ، واستقر مقامه بها هو وأسرته منذ سنة ٢٢٦ للهجرة . ويروى أنه صنف كتابا فى أخبار أصحاب الطب ، مما يؤكد أنه كان على صلة بعلوم الأوائل . ورُزق بابنه أحمد ، وعُنى بتثقيفه ، مما أهله ليعمل كاتبا فى دواوين الدولة الطولونية وليكتب سيرة أحمد بن طولون وابنه خمارويه وليس ذلك فحسب ، فإنه وصله بعلوم الأوائل وبرع فيها وخاصة فى الطب والرياضة والفلك وأيضا فى الفلسفة . ويسوق له مترجموه كتابا فى أخبار الأطباء وكتابا فى النسبة والتناسب وكتابًا فى الأقواس

---

(١) يوم التناد : يوم القيامة

(٢) انظر فى أحمد بن يوسف معجم الأدباء ١٥٤/٥ وتاريخ الحكماء للقفطى (مختصر الزوزنى) ص٧٨ واستوعب ابن سعيد فى كتابه المغرب (قسم الفسطاط) كتابه عن سيرة أحمد بن طولون وابنه خمارويه . وكتابه المكافأة طبع مرارا .

المتماثلة ، كما يسوقون له كتاب مختصر المنطق وكتاب السياسة لأفلاطون ، وشرح كتاب الثمرة فى الفلك لبطليموس . وقد توفى سنة ٣٤٠ .

وتؤكد سيرة أحمد بن يوسف وسيرة أبيه أنهما كانا من أصحاب المروءات ، وكانا يحسنان تثمير أموالها فى التجارة والزراعة ، فأغدقا كثيرا على كل من رأياه تلم به كارثة أو ينزل به خطب من الخطوب . ولعل هذا الجانب فى أحمد بن يوسف هو الذى جعله يؤلف كتابه « المكافأة » . وهو فى ثلاثة أقسام : قسم يضم إحدى وثلاثين نادرة أو حكاية قصيرة تدور حول مكافأة الجميل بالجميل ليرغِّب فى عون المنكوب ومد يد المساعدة إليه ، وحتى يكافئ الإنسان جميلا بجميل يماثله . ويعرض ذلك فى النوادر عرضا جذابا بما يذكر من نوادر وقعت فى أيامه وغير أيامه فى مصر وغير مصر . ويتلو هذا القسم بقسم ثان يضم إحدى وعشرين نادرة أو حكاية قصيرة تصور كيف أن مكافأة القبيح تستتبع قبيحا مثله ، حتى يرتدع أهل الشر والسوء ، ويكفوا عن سوئهم وشرهم لما يجرَّان من أوخم العواقب . والقسم الثالث يضم تسع عشرة نادرة أو حكاية قصيرة وهى تصور حسن العُقْبى وكيف أن أناسًا تورطوا فى شر أو بلاء ونجوا منه . والكتاب بذلك دعوة حارة إلى عمل الخير بضرب أمثلة بديعة من النوادر والحكايات القصيرة . وهو مكتوب بفصحى جزلة ناصعة ، إذ كان أحمد بن يوسف من كتَّاب زمنه البارعين . ويبدو أنه قصد به إلى أن يشيع فى الشعب ، ولعل ذلك هو السبب فى أننا نراه يقترب من لغته اليومية ، إذ تدور فيه صيغ وتعابير لاتزال تجرى على ألسنتنا فى الحياة اليومية من مثل :

كاد والله يموت فرحا – كثَّر الله فى الناس مثله – حصَّلنى على الباب أى لحقنى – اعتذرت إليه من تقصيرى فى حقه – امرأة تُطْلق (أى أصابها المخاض) – ست (أى سيدة) – امرأة مقربة (أى قربت ولادتها). واستخدم قليلا مدَّ تاء المخاطبة بحيث تتولد من الكسرة ياء فقال على لسان تاجر يكافئ سيدة على جميل : « هذا جزاء ماقد متيه » كما نقول فى عاميتنا المصرية . واستخدم أيضا مطابقتنا فى العامية بين الفعل والفاعل فى الجمع فقال : « اشتُهوا علىّ صبيانى حلواء فى العيد » والفصيح أن يقال « اشتهى علىَّ صبيانى » . ويكثر من الاستفهام فى الجمل دون ذكر أداة من أدوات الاستفهام كما نصنع أيضا فى عاميتنا . وكثير من نوادر الكتاب واسع الدلالة التاريخية على زمن المؤلف وجوانبه السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، بجانب دلالته القيمة على الأسلوب الأدبى فى مصر حينئذ ، وما كان يستخدم فيه من عبارات لاتزال حية إلى اليوم .

أخبار سيبويه المصرى

ألف هذا الكتاب ابن [١] زولاق الحسن بن إبراهيم المولود سنة ٣٠٦ والمتوفى سنة ٣٨٧ وقد جمع فيه نوادر رفيق له فى الدراسة هو محمد [٢] بن موسى الكندى المعروف باسم سيبويه المصرى ، ولم يكن عالما بالنحو فحسب بل كان عالما أيضا بالقراءات والفقه وعلوم الحديث ورواية الشعر ، وكان عفيفا متنسكا اجتمعت فيه أدوات الأدباء والفقهاء والعبَّاد ، وبلغ فى ذلك - كما يقول ياقوت - مبلغا جالس به حكام مصر ، وكان ينقدهم نقدا يحمِّله كثيرا من السموم ، ولم يكن يخفيه بل كان يعلنه فى الأسواق وعلى رءوس الأشهاد ، وكان الناس يتبعونه يكتبون نقده ، ويروونه فى المجالس العامة والمساجد والمتنزهات . ومازال هذا دأبه حتى توفى سنة ٣٥٨ مع نهاية الدولة الإخشيدية . وكان ابن زولاق مؤرخا كبيرا ، ويقول ابن خلكان له كتاب فى خطط مصر استقصى فيه ، وله كتاب أخبار قضاة مصر جعله ذيلا على كتاب الكندى : أخبار قضاة مصر ، وكان قد انتهى فيه إلى سنة ٢٤٦ ، فكمله ابن زولاق إلى سنة ٣٨٦ ، وله كتاب فى سيرة الإخشيد اعتمد عليه ابن سعيد فى قسم الفسطاط من كتابه « المغرب » .

ويسوق ابن زولاق فى كتابه أخبار سيبويه مشاهد مختلفة لنقد سيبويه للحكام وللناس فى عصره ممزوجا بشىء من التباله ، ولم يكن ينقد أو يذم بلفظ قبيح ، إنما كان يزجر وينهر بألفاظ غير قبيحة ولكنها تخز وخز الإبر ، من ذلك أن الإخشيد كان يركب فى موكب لصلاة الجمعة ، تصدى له يوما فى أثناء ركوبه إلى الصلاة والناس محتشدون لرؤيته فقال بأعلى صوته : « ماهذه الأشباح الواقفة ، والتماثيل العاكفة ؟ سُلِّطتْ عليهم قاصفة (يوم تَرْجُفُ الرَّاجفة تتبعها الرَّادِفة) قلوبهم (يومئذ واجِفة) » فقال له رجل : « إنه الإخشيد يمر إلى الصلاة ، فلم يفزع ولم يسكت بل قال توا : « هذا الأصلع البطين » ، المسمَّن البدين ، قطع الله منه الوَتِين [٣] ، ولاسلك به ذات اليمين ، أما كان يكفيه صاحب ولاصاحبان ، ولا حاجب ولاحاجبان ، ولاتابع ولا تابعان ؟ لاقَبِلَ الله له صلاة ولاقبل له زكاة ، وعمَر بجثته الفَلاة » .

---

(١) انظر فى ابن زولاق معجم الأدباء ٢٢٥/٧ وابن خلكان ٩١/٢ ولسان الميزان لابن حجر ١٩١/٢ حيث يقول إنه كان يتولى المظالم للفاطميين ويظهر التشيع لهم .

(٢) راجع فى سيبويه المصرى معجم الأدباء ٦١/١٩

(٣) الوتين : الشريان الرئيس الخارج من القلب .

وكان سيبويه المصرى يستخدم السجع دائما فى نقده أوقل فى هجائه للحكام ، ويوشّيه بآية أو آيات قرآنية على نحو مامرَّ بنا آنفا أو بحديث نبوى . وكان يسوق مثل هذا الهجاء فى أثناء وعظه للناس ، إذكان واعظا كبيرا . والناس يضحكون لتنفيسه عنهم ماكان يقع عليهم من ظلم الحكام لزمنه فيضحكون ويغرقون فى الضحك . وكان بعض الحكام والوزراء يقرِّبه ويجالسه أملا فى أن لايكويهم أمام الشعب بسياطه . ورأى أبا الفضل جعفر بن الفرات يسير فى موكب كبير وكان قد تولى الوزارة ، فقال : « ما بال أبى الفضل قد جمع كتَّابه ، ولفَّق أصحابه ، وحشد بين يديه حجَّابه ، وشمَّر أنفه ، وساق العساكر خلفه ؟ أبلغه أن الإسلام طُرِق فخرج ينصره ، او أن ركن الكعبة سُرِقَ فخرج لهذا الأمر ينكره » ؟ . ومع أن سيبويه كان يصوغ نوادره فى هذه الفصحى المسجوعة نجد عنده بعض ظواهر من عاميتنا أو لغتنا المتداولة ، من ذلك أنه كان يعيد الضمير لغير العاقل مع الفعل مجموعا فى مثل : « فجاءت فراريج فلقطوا ما بين يديه » والفصيح فلقطت ما بين يديه . وكأن أسلافنا سبقونا إلى ذلك فى لغتهم اليومية منذ مئات السنين .

كتاب الفاشوش فى حكم قراقوش

ألف هذا الكتاب ابن مماتى الذى مرت ترجمته ، وقد قَصَّ فيه طائفة من النوادر نَسبها إلى قراقوش [١] التركى أحد قواد صلاح الدين الأيوبى . وكان قد أنابه عنه مدة بالديار المصرية وفوَّض أمورها إليه ، وهو الذى بنى السور الذى كان يحيط بالقاهرة ، وبنى قلعة الجبل والقناطر فى طريق الأهرام . وكانت فيه شدة وقسوة ، كما كانت فيه غفلة وغير قليل من الحمق ، فانتهز ابن مماتى ذلك فيه ، وألصق به طائفة من النوادر فى أحكامه جمعها فى كتابه « الفاشوش [٢] فى حكم قراقوش » . ويدافع عنه ابن خلكان قائلا : فى الكتاب أشياء يبعد وقوع مثلها منه ، والظاهر أنها موضوعة فإن صلاح الدين كان معتمدا فى أحوال المملكة عليه ، ولولا وثوقه بمعرفته وكفايته مافوَّضها إليه » .

ويبدو أن قراقوش قَسَا فى تسخير المصريين فى بناء السور والقلعة والقناطر المذكورة ، فانتقم لهم ابن مماتى منه بهذا الكتاب الذى وضعه عليه . وهو يستهلُّه بقوله : « إننى لما رأيت عقل بهاء الدين قراقوش حُزمة فاشوش ، قد أتلف الأمة ، والله يكشف عنهم كل غُمَّة ، لايقتدى بعالم ،

(١) انظر فى قراقوش ابن خلكان ٩١/٤ والنجوم الزاهرة ١٧٦/٦ وعبر الذهبى ٢٩٨/٤ .

(٢) راجع فى تحليل هذا الكتاب مقالا لنا فى مجلة الكاتب المصرى عدد نوفبر سنة ١٩٤٦ ص ٣٦١ .

ولايعرف المظلوم من الظالم والشكية عنده لمن سبق ، ولايهتدى لمن صدق ، ولايقدر أحد من عظم منزلته أن يردَّ كلمه ويشتط اشتطاط الشيطان ، ويحكم حكما ماأنزل الله به من سلطان ، صنفت هذا الكتاب لصلاح الدين ، عسى أن يريح منه المسلمين » . ويأخذ ابن مماتى فى سرد أحكام قراقوش المضحكة . من ذلك أن سيدة سوداء شكت لقراقوش جارية مملوكة لها ، فعجب أن تكون امرأة بيضاء خادمة لسيدة سوداء ، فردَّ شكواها مؤمنا بأنها ليست السيدة بل هى الجارية ، والجارية البيضاء هى السيدة ، وهمَّ بحبسها لولا أن شفعت فيها جاريتها فعفا عنها . ومن ذلك أن رجلين من أصحاب اللحى الطويلة جاءاه يشكوان إليه رجلا أجردكان يعبث بلحيتيهما ، ونظر قراقوش إلى الرجل فلم يجد له لحية حينئذ صرخ فى الرجلين قائلا : إنهما اللذان اعتديا عليه بنتف لحيته ، وصاح فى غلمانه أن يزجُّوا بالرجلين فى غياهب السجون حتى ينبت الشعر فى ذقن الرجل وتطول لحيته . ومن ذلك أن الشرطة جاءته بحدَّادٍ له قتل نفسا محرمة بغير حق ، فأمر بشنقه فقيل له إنه حدادك الذى يَنْعَلُ لك الفرس ، فنظر أمام بابه فرأى رجلا قفَّاصا فقال : « اشنقوا القفَّاص وسيِّبوا (اتركوا) الحداد . وعلى هذا النحو يصور ابن مماتى قراقوش متصرفا فى القضايا بحمق مابعده حمق ، ونضحك للتضاد بين المقدمات والنتائج ، تباينا يضيع فيه المنطق ، فسيدة تدخل شاكية لخادمتها ، فتخرج خادمة والخادمة تصبح سيدتها ، ورجل يدخل بدون لحية ، فيخرج وله لحية نُتفت ، أو قل يدخل جانيا ويخرج مجنيا عليه ، وقاتل يبرَّأ وبرىء يقتل .

وما نظن أحدا فى مصر قديما بلغ من التشهير بحاكم مابلغه ابن مماتى من التشهير بقراقوش وأحكامه بين الناس عن طريق هذه النوادر الشعبية التى اختار لها لغة المصريين الدارجة لزمنه قاصدا بذلك أن تشيع بين العامة ، وهى فعلا شاعت أكبر شيوع وأوسعه فى مدن مصر وريفها ، فكلما اشتكوا من حاكم وظلمه قالوا : « حكم ولا حكم قراقوش » .

وأضافت الحقب التالية إلى شخصية قراقوش نوادر مضحكة بجانب مافى كتاب الفاشوش من نوادر كثيرة ، مما جعل السيوطى يؤلف كتابا يستعير له اسم كتاب ابن مماتى ، مضيفا فيه إلى قراقوش نوادر جديدة . وكأنما أصبحت شخصية قراقوش فى الأزمنة التالية شخصية خيالية لكل حاكم أحمق يخلط حمقه بظلمه . وأكبر الظن أن كلمة قراقوز التى تطلق فى تركيا والشام على خيال الظل وتصويره للحكام الظالمين الحمقى ترجع فى اشتقاقها إلى اسم قراقوش لا إلى مايقال من أنها مؤلفة من لفظتين تركيتين هما « قره » أى أسود و« قوز » أى عين وبذلك يكون معناها العين

السوداء لأن من كانوا يعرضون هذه اللعبة بتركيا كانوا من الغجر الجوالين ، غير أنا نرجح الرأى الأول . وقد دخلت الكلمة ثانية إلى مصر باسم « أراجوز » .

هز [١] القحوف

نمضى إلى زمن العثمانيين بمصر فنجد عالما واعظا يسمى يوسف الشربينى يصف حال سكان الريف المصرى ومانزل بهم لعهد العثمانيين من البؤس والفقر والضنك والجهل فى قصيدة يسميها « قصيدة أبى شادوف » وشرح لها يسميه « هز القحوف » وقد ملأ الشرح بنوادر فكاهية عما كان يعانيه أهل الريف حينئذ من الأمية والجهل وبطش الكاشف أو حاكم الإقليم وظلمه وما كان يصليهم من السخرة وما كانوا يرزحون فيه من المسغبة فإن طعموا لم يطعموا إلا العدس وطعاما يتّخذ من الفول يسمى البيسار والمِشّ العتيق ، ومعاذ الله أن يطعموا شيئا وراء ذلك من لحم وغير لحم . ويقول عن أبى شادوف الثرىّ الريفىّ صاحب القصيدة إنه لم يكن يملك سوى حمار أعرج وعنزتين وحصة فى ثور الساقية ونصف بقرة وعشر دجاجات وديك وأربع كيلات من نخال الشعير . ويفيض الكتاب بنوادر لاذعة تحمل فى أطوائها كثيرا من الطعنات لحكم العثمانيين الغاشم وسوآته .

(ب) كتب السير والقصص الشعبية

كثرت فى مصر منذ أيام الفاطميين كتب قصص الأنبياء مجموعة أو مفردة : قصة لموسى وقصة ليوسف عليهما السلام أو لغيرهما من الأنبياء وخاصة إبراهيم الخليل . ومرَّ بنا فى الحديث عن كتابة التاريخ فى الفصل الثانى بيان لبعض ما كُتب فى السيرة النبوية ، ومنذ الحروب الصليبية كثرت الكتابة فى ميلاد الرسول ﷺ وما اقترن به من خوارق وحياته وما رافقها من معجزات ، وكان ذلك يكتب نثرا وتتخلله أشعار باسم « المولد النبوى » . وعادة كان هذا المولد يلقى فى الاحتفال بذكرى ميلاد الرسول ، وكانت تلقى معه « قصة الإسراء والمعراج » الإسراء برسول الله ﷺ إلى المسجد الأقصى والعروج به إلى السماء . وقد أصبح من الثابت أن دانتى تأثر تأثرا واضحا بهذه القصة الأخيرة فى الكوميديا الإلهية [٢] وبجانب هذا القصص الدينى الذى لايزال كثير منه مخطوطا

---

(١) انظر فى تحليل كتاب هز القحوف مقالا لنا فى مجلة الكاتب المصرى عدد يناير سنة ١٩٤٧ ص ٧٢٩ .

(٢) راجع تاريخ الفكر الأندلسى لبالنثيا ترجمة الدكتور حسين مؤنس ص ٥٥١ - ٥٦٤ .

ومحفوظا برفوف دار الكتب المصرية قصص كثير محفوظ بتلك الرفوف عن العشاق العذريين. ونعرض الآن طائفة من السير والقصص الشعبية التى ألفت فى مصر - أو أخذت بها شكلها النهائى - وهى سيرة عنترة والسيرة الهلالية والظاهر بيبرس وسيف بن ذى يزن وألف ليلة وليلة.

سيرة [١] عنترة

أساس هذه السيرة أخبار عنترة فى الجاهلية وماجاء فيها من أنه كان ابن أمة ومن أنباء فروسيته وحبه لعبلة ابنة عمه. ويتحول عنترة فى السيرة بطلا عظيما لملحمة عربية تمتد فيها بطولاته من العصر الجاهلى حتى نهاية القرون الخمسة الأولى للإسلام. ويقال - طبقا لرواية فى أول كتاب منية النفس فى أشعار عنترة عبس - إن أول كتابة لهذه السيرة كانت فى أيام العزيز الخليفة الفاطمى (٣٦٥-٣٨٦هـ) إذ حدثت ريبة فى قصره جعلت أهل القاهرة يلهجون بالحديث عنها، فأشار على شخص يسمى يوسف بن إسماعيل أن يشغل الناس بسيرة تلهيهم عن الكلام فيها، فألّف لهم سيرة عنترة وشُغفوا بها. غير أن هذه الرواية -إن صحت - إنما تشير إلى أول ما كان من وضع السيرة. إذ أخذت الأجيال تزيد فيها حتى أوائل القرن السادس الهجرى، وحتى أصبحت فى اثنين وثلاثين جزءا، وهى منشورة فى أربع مجلدات. ولا تمتد فيها سيرة عنترة فى الزمان فحسب، بل تمتد أيضا فى المكان، إذ تشمل ساحاتُ بطولات عنترة العالم القديم: الهند وفارس ومصر والشام وجنوب أوربا وشمال إفريقيا والحبشة والسودان. وهى موزعة بين نثر وأشعار، مما أتاح لرواتها من قديم أن ينشدوها الناس على الربابة فى حفلات كانت تعقد لها. وقد كتبت بلغة تدنو دنوا شديدا من اللغة اليومية، وصيغت صياغة قصصية جذابة بحيث يقتطع الكلام فى كل جزء من أجزائها عند حادث مهم. وبذلك يشغف القارئ والسامع بمعرفة الجزء الذى يليه. وهكذا حتى نهايتها. وتتسع السيرة فى عرض أخبار الجاهلية حتى نصل إلى زمن زهير ملك بنى عبس قبيلة البطل، وتعرض السيرة مولد عنترة وبطولته فى صباه وشبابه وحبه لابنة عمه وحمايته لقبيلته ضد القبائل المنافسة لها وما فرضه عليه عمه لقاء زواجه بعبلة من أعمال شديدة الخطر جشّمته الرحلة إلى العراق وملازمة

---

(١) انظر فى سيرة عنترة وترجماتها وما وضع فيها المستشرقون من بحوث دائرة المعارف الإسلامية

ملوك الحيرة ووفوده على إيران وتعرفه بملوكها وفى مقدمتهم كسرى وما كان من طلبهم منه العون فى منازلة بطل إغريقى .

ويصبح عنترة حاكما للشام ويفد على القسطنطينية ويقود مع إمبراطورها حروبا ضد الفرنجة ويبلغ إسبانيا ويخترق شمال إفريقيا إلى مصر ويستعين به ملك روما ضد بوهمند ويقتله ، وهو أحد أمراء الحروب الصليبية الأولى وكان نورمانديًّا إيطاليا ، وكأن المؤلف الأخير للسيرة كان يعرف أصله وموطنه . ومعروف أن الحملة المذكورة نزلت آسية الصغرى سنة ٤٩٠ للهجرة ولذلك نقول إن ميادين السيرة وساحاتها البطولية تمتد حتى نهاية القرن الخامس الهجرى ، وليس بوهمند فقط الوحيد من أمراء الحملة الصليبية الذى يلقانا فى السيرة ، إذ يلقانا فيها أيضا زواج عنترة من أميرة إفرنجية وإنجابه منها الجوفران وربما كان تحريفا لجودفرى صاحب بويون دوق اللورين الأدنى الذى استولى على بيت المقدس سنة ٤٩٢ ولم يلبث أن توفى وخلفه أخوه بلدوين . وبطولات عنترة فى السيرة تتسع لا لتشمل ميادين الحروب الصليبية والبلاد الأوربية فحسب ، بل أيضا لتشمل الهند والسودان وبلاد النجاشى ، وعرف عنترة أنه جد أمه زبيبة . وكل من يقرأ السيرة يرى أن أجيال المؤلفين التى تداولتها كانت أجيالا بصيرة بتاريخ العرب فى الجاهلية وما اتصل بها من قصة إبراهيم الخليل وتاريخ العرب فى الإسلام وفتوحاتهم العظيمة وتاريخ الفرس وملوكهم وبلاطهم وآدابهم وتاريخ الحروب الصليبية وطقوس النصارى وشعائرهم وأعيادهم . والسيرة ملحمة رائعة للبطولة العربية التى مثَّلها عنترة أروع تمثيل فى أكثر من خمسمائة عام ومثَّل معها فضائلها النبيلة التى نقلها الصليبيون إلى ديارهم . وقد تخللت السيرة أحلام ورُؤًى وأساطير وخوارق عجيبة .

السيرة [1] الهلالية

قوام هذه السيرة حروب مستمرة بين بنى هلال ومن دخل معهم من قبائل زغبة وسُلَيم ورياح وعدى وربيعة والأثبج إلى إقليمى طرابلس وتونس وشمالى إفريقيا ومن كان بهذه الاقاليم من الصنهاجيين وزناتة وغيرهم من القبائل المغربية المستوطنة . وكانت القبائل العربية المذكورة قد

(١) انظر فى السيرة الهلالية الجزء الرابع من تاريخ ابن خلدون (طبع بولاق) ص ٦٢ وكذلك الجزء السابع ص ٤٣ وأواخر مقدمة ابن خلدون حيث روى بها أشعارًا للهلالية والزناتية ، وراجع دائرة المعارف الإسلامية وكتابا فى السيرة الهلالية لعبد الحميد يونس .

حاربت مصر لعهد المعز أول الخلفاء الفاطميين سنة ٣٦٠ تحت لواء الأعصم القرمطى . وكان قد استولى على دمشق والرملة ودخل مصر والتقى بالجيش الفاطمى فى عين شمس بالقرب من القاهرة وكاد يُكْتَبُ له النصر لولا خروج بعض قواده عليه وانضمام القبائل سالفة الذكر إلى الجيش المصرى . وبذلك دارت عليه الدوائر فعاد إلى الشام ومنها إلى البحرين موطنه . وأسكن المعز تلك القبائل القيسية الصعيد ، لعله يمكن الانتفاع بها فى المستقبل . وحانت الفرصة لذلك فى عهد الخليفة الفاطمى المستنصر (٤٢٧-٤٨٧ هـ) إذ خرج عليه المعز بن باديس الصنهاجى صاحب تونس والقيروان سنة ٤٤٣ وأعلن العودة إلى المذهب المالكى السنى وتبعيته للخليفة العباسى القائم بأمر الله ، وانفصل بذلك الجناح الغربى للدولة الفاطمية ولم تقم للمذهب الشيعى الفاطمى قائمة فى تلك الأنحاء منذ هذا التاريخ . واستشاط المستنصر غضبا ، وأشار عليه وزيره اليازورى أن يسلط عليه القبائل القيسية النازلة بالصعيد منذ أيام جده المعز ، فاتصل بشيوخهم ووعدهم أن تكون ديار طرابلس وتونس وكل ماتحت يد المعز إقطاعا لهم وأيضا كل مايمتلكونه من بلاد المغرب وسرعان ماألَّبته جموعهم ، وخرجت إلى المغرب : إلى تونس وإفريقية ، واستولت فى سنة ٤٤٣ على برقة بزعامة يحيى الرياحى وتملك بنوزغبة فى سنة ٤٤٦ طرابلس ، واتجهت هلال ورياح والأثبج وعدى إلى إفريقيا وأضرموها نارا بقيادة زعيمهم مؤنس بن يحيى الرياحى وحاول المعز بن باديس أن يقربه منه مجزلا له العطايا ولم يغن ذلك عنه شيئا . ونازل تلك الجموع ودحرته وأنزلت به هزائم متوالية ، مما اضطره أن يخلى لهم القيروان وأن يكتفى بالمهدية وبلدان صغيرة حولها . واكتفى بها من بعده ابنه تميم الذى حكم بعده إلى نهاية القرن الخامس . وأخذت تتضعضع الإمارة بينما تحول إقليم تونس والجزائر إلى إقطاعيات صغيرة يحكمها هلاليون أو زناتيون إلى أن أعادت دولة الموحدين إلى شطر كبير من المغرب وحدته .

ويبدو أنه حين ارتضت هذه القبائل القيسية هجرتها إلى المغرب أرسلت إلى عشائرها فى الجزيرة العربية أن تقدم عليها لتشاركها فى هذه الهجرة الكبيرة وأن عشائر فعلا لبَّت دعوتها ، يدل على ذلك أننا نجد القاصَّ للسيرة أو قصاصها استغلُّوا فيها قصة فتاة جميلة من بنى هلال هى الجازية بنت الحسن بن سرحان عشقها فتى من عشيرتها وأراد الزواج منها وتصادف أن أمير مكة شكر بن أبى الفتوح (٤٣٠-٤٥٣ هـ) رآها وأعجب بها ، وطلب يدها من أبيها فآثره على عشيقها ، وزوَّجها منه . ثم حدث أن أغضب شكرٌ عشيرتها ، ورأوا الانتقام منه فاحتالوا عليه لأخذ الجازية وحرمانه منها ، فادعوا أنهم يريدونها لزيارة أبويها فى نجد ، حتى إذا قدمت معهم

مضوا مع أبيها فى الرحلة إلى إفريقيا ، وهناك زوَّجوها من ابن عمها ولكن قلبها ظل معلقا بزوجها الأول حتى ماتت من شدة هيامها وحبها له . وهى قصة صحيحة فى أصلها المتصل بشكر أمير مكة وزوجته الجازية ، مما يدل على أن عشائر هلالية من الجزيرة قدمت على بنى هلال بالصعيد أو بعد تركهم له مباشرة وواصلت بدورها الهجرة إلى المغرب .

والأساس فى السيرة تاريخى صحيح وهو هجرة بنى هلال ومن معهم من القبائل القيسية إلى المغرب واستيلاؤهم على بعض مدنه ، غير أن الأحداث بعد ذلك تمضى وكأنها أضغاث أحلام لتلك الهجرة الكبيرة إذ سَمَّى القصاص بطلها أبازيد الهلالى وسموا خصمه فى قبيلة زناتة : الزناتى خليفة . وبذلك غابت عن السيرة قبيلة صنهاجة وأميرها المعز بن باديس الصنهاجى ، كما غاب زعيم القبائل يحيى الرياحى وابنه مؤنس . وقد يرجع ذلك إلى أن القاص أو القصاص الذين وضعوها كانوا بمصر بعيدين عن ساحة الأحداث أو ساحاتها فبدت وقائعها وكأنها أخلاط أحلام ، بما فى ذلك اسم بطليها العربيين الخياليين : أبى زيد الهلالى ودياب بن غانم الزغبى . وأغلب الظن أن ذلك يرجع إلى أنها تأخرت فى وضعها طويلا عن زمن أحداثها ولذلك كنا نظن أنها أُلفت فى القرن السابع الهجرى أو بعده فى القرن الثامن وهى مكتوبة باللغة اليومية : شعرا ونثرا ، وقد تعلق بها الشعب المصرى فى ريفه وحضره ، وعادة كان يلقيها على الناس منشد على ربابة فى المقاهى والحفلات ، يسمونه الشاعر . وللسيرة ثلاث مراحل : مرحلة الريادة إلى بلاد المغرب ، وفيها يرود الطريق بطلها الخيالى أبو زيد الهلالى وأبناء أخته يحيى ومرعى ويونس وفى تونس يُلْقَى بهم فى غياهب السجون ، ويستطيع أبو زيد الفرار من السجن ويستنفر القبيلة لتخليص أبنائها الثلاثة . والمرحلة الثانية تسمى التغريبة وفيها تهاجر القبيلة إلى تونس وتمكنها سعدى ابنة ملكها الزناتى خليفة من دخولها وتَفك القبيلة الأسرى الثلاثة . ويأخذ الحسن بن سرحان القيروان ودياب تونس وأبو زيد الأندلس ويستولون على قلاع كثيرة حتى يصلوا إلى أقصى المغرب . والمرحلة الثالثة خاصة بأبناء الأبطال ويسمون الأيتام ، وفيها يجمع زيدان بن أبى زيد الهلالى العرب من الشام والحجاز ويلتقى بهم فى صعيد مصر ويرحل معهم إلى تونس ويشدد الحصار عليها وعلى أميرها دياب بن غانم الزغبى ويوافيه الهلالية من الأندلس ويفتحون جميعا المدينة ويقتلون دياب بن غانم . ويتنازل الهلالية عنها لابن الزناتى خليفة ويتأمَّر على الهلالية ابن الحسن بن سرحان ، ويعود زيدان الهلالى إلى صعيد مصر ، كما يعود الهلالية الذين قدموا من الأندلس إليها . وبذلك تنتهى السيرة ، وهى تمتلئ بانطباعات مصرية كثيرة .

سيرة الظاهر بيبرس [١]

كان طبيعيا أن يضع المصريون سيرة شعبية طويلة للظاهر بيبرس بطل موقعة عين جالوت التى لم تقم بعدها للتتار قائمة . بل لقد ولوا الأدبار إلى الشمال فى الشام وبيبرس يلاحقهم حتى اتجهوا شرقا إلى شمالى العراق . وبمجرد استيلائه على الحكم فى مصر سنة ٦٥٨ أخذ يثبِّت حكمه باستقدامه أحد سلالة العباسيين ، وكان من أبناء الخليفة العباسى الظاهر ونجا من مذبحة المغول ببغداد ونزل دمشق ، فاستدعاه بيبرس إلى القاهرة ، وبايعه بالخلافة ، وبذلك أصبح بيبرس حاميا لها . وتبعه فى حمايته سلاطين المماليك إلى أن أخذ السلطان سليم العثمانى فاتح مصر الخليفة العباسى معه إلى القسطنطينية . وكان بيبرس سيوساحازما وقائدا ماهرا فاتسع بدولته فى الجنوب ببلاد النوبة ودانت له القبائل فى ليبيا ، وهزم التتار على الفرات فى غير معركة وأوقع بالأرمن خسائر فادحة ، وكال للصليبيين ضربات قاصمة ، واستولى على كثير من قلاعهم وحصونهم ، ودان له الحشاشون الفدائيون داخل الشام بالطاعة . وَتُعَدُّ أيامه أزهى أيام مصر زمن المماليك وأعظمها ازدهارا ، لذلك كان من الطبيعى أن تؤلَّف عنه سيرة شعبية ، وهو فيها بطل عربى يسمى « محمود بيبرس » وقد مثلوا فيه الفروسية العربية ومظاهرها الباسلة وخاصة فى حروبه مع الصليبيين .

ولغة السيرة عامية والنثر يغلب فيها بالقياس إلى الشعر ، ولذلك لم تكن تُنْشد ، بل كانت تُرْوَى ، وتنسب إلى أربعة رواة أصليين هم ابن الدينارى وكاتم السر أى كاتب السر وناظر الجيش والصاحب والدويدارى (تحريف للدوادار) وهو الأمين الخاص للسلطان . وتتداخل فى السيرة قصص طويلة كقصة إبراهيم الحورانى ورحلته إلى روما . وتتحدث السيرة عن نشأة محمود بيبرس وعلاقته بالسلطان الأيوبى نجم الدين الملقب بالملك الصالح وماعهد إليه من الأعمال ، وصلته بشجرة الدر وأيبك وقطز . وتصف جلوسه على عرش مصر وامتداد حروبه وساحات بطولته إلى أوروبا ، وتعرض أعماله وإخضاعه الفدائيين الحشاشين المشهورين بكثرة اغتيالاتهم منذ زعيمهم الحسن الصبَّاح ، وتذكر من زعمائهم جمال الدين شيحه ، ولعله صاحب القبر المعروف باسمه فى دمياط . ومن أبطال السيرة معروف زوج مريم الزنارية النصرانية وقد أنجبت منه ابنا حاربه قبل أن

---

(١) انظر هذه السيرة تحت كلمة بيبرس فى دائرة المعارف الإسلامية .

يعرفه . ويبدو أن هذه السيرة لم تكتب فى عهد قريب من الظاهر ، لأن الأحداث التاريخية وأسماء الأبطال سوى الظاهر يشوبها كثير من الخيال وتحفل بأساطير وأعمال خارقة للعادة ، ونرجح كتابتها بعد القرن السابع وقد تكون كتابتها تأخرت إلى القرن التاسع الهجرى .

سيرة (١) سيف بن ذى يزن

قصة شعبية مصرية طويلة ، تعرض بطولة سيف بن ذى يزن سليل ملوك حمير ، وهى تصور الصراع بين العرب والأحباش فى أواخر العصر الجاهلى . وكيف طردهم سيف بن ذى يزن من الجزيرة العربية بعد أن كانوا قد سيطروا على اليمن . وهى فى ١٧ جزءا وتحمل كثيرا من الأساطير والعجائب ومغامرات سيف بن ذى يزن فى سبيل استقلال بلاده ، وبذلك تأخذ السيرة مكانة فى التاريخ القومى العربى ، إذ موضوعها حرب بين العرب وأمة الأحباش الأجنبية. وتجعل السيرة سيف بن ذى يزن حَنيفا يقتحم معاقل الشرك وهو يقول انما لا إله إلا الله إبراهيم خليل الله ، ويغلب أن تكون قد أُلفتْ بمصر فى القرن الثامن أو التاسع للهجرة .

ألف (٢) ليلة وليلة

ذكر ابن النديم فى كتابه « الفهرست » : من كتب الأسمار والخرافات التى نُقلت عن الفرس كتاب هزار أفسانه أى ألف خرافة . والمعروف أنه يرجع إلى أصل هندى . ويغلب أن يكون قد نُقل إلى العربية فى القرن الثالث الهجرى ، ولايعرف بالضبط متى أضيفت إلى اسمه وهو ألف ليلة كلمة ليلة الثانية ، ويغلب أن يكون قد أريد بها أن يحوى ليالى كثيرة تزيد عن الألف . وأخذت تضاف إلى الكتاب فى بغداد أقاصيص كثيرة ، وبالمثل أضافت إليه مصر بدورها أقاصيص متنوعة . ويمكن أن تميز الأقاصيص الهندية الأصل فيه بتداخلها كحكاية الصعاليك الثلاثة .

وتميِّز الحكايات الفارسية فيه بحكايات الظرفاء وبعض الحكايات المفردة . وبه حكايات عربية خالصة كحكاية حاتم الطائى وإبراهيم المهدى . ويشيع فى الحكايات البغدادية ذكر هرون الرشيد وتنكره وتدينه البالغ وحبه لمباهج الحياة وللرعية وحب الرعية له ووصف بلاطه وقصوره . وتكثر

(١) راجع فى هذه السيرة ومابها من تأثيرات مصرية مقال باريه عنها فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) انظر فى ألف ليلة وليلة بحثا لأحمد حسن الزيات فى كتابه « أصول الأدب » ودائرة المعارف الإسلامية وماذكرت من مراجع .

القصص المصرية فى الكتاب وحكايات الشطار بها وما تطبع به من المروءة والفكاهة كما فى حكايات علاء الدين أبى الشامات وأحمد الدنف ودليلة المحتالة وزينب النصابة ومعروف الإسكافى وعلى الزيبق ، ويشيع السحر فى هذه الحكايات كما تشيع عادات المصريين ، وتصوَّر حياتهم فى الأسواق والحمامات ومايغلب عليهم من الإيمان بالطلاسم والرقى والتعاويذ . ونلتقى بجوانب من هذا كله فى حكايات مصرية أخرى كحكاية أبى قير وحكاية أبى صير ومثلها حكاية المصباح العجيب وأيضا حكاية مريم الزنارية وحكاية الصعيدى وزوجته الإفرنجية وهما تعكسان الصراع بين المسلمين وحملة الصليب. وأهم من كل ما سبق لمصر فى الكتاب أنها هى التى صاغته بلغتها العامية وانتشر بها فى العالم العربى منذ القرن الثامن الهجرى، وبالمثل انتشرت فيه بتلك العامية السِّيَر الشعبية: سِيَر عنترة والهلالية والظاهر بيبرس وسيف بن ذى يزن. وكان لذلك أثر واسع فى تعرف تلك البلدان على العامية المصرية من قديم. وكثيرون يظنون أن تعرف تلك البلدان على عاميتنا أو لغتنا اليومية حديث، وأن الإذاعة والسينما أتاحتا لها هذا التعرُّف فى عصرنا، وهو - كما قلنا - تعرُّف قديم.

خاتمة

تحدثت فى هذا الجزء عن تاريخ الأدب العربى بمصر فى عصر الدول والإمارات، ورأيت أن أضم إلى العصر ما سبقه بها منذ الفتح العربى من مختلف شئونها التاريخية والأدبية والعلمية على مر الأزمنة الإسلامية. وأوضحت كيف أن قبط مصر رحَّبوا بالعرب لما كفلوا لهم من معتقداتهم الدينية وما رفعوا عنهم من ظلم الروم وضرائبهم الفادحة. وتولى أمرها فاتحها العظيم عمرو بن العاص، وتعاقب الولاة عليها فى زمن الأمويين وأخذوا يفرضون على أهلها ضرائب استثنائية، وأمر الخليفة الأموى عمر بن عبدالعزيز برفعها عن كواهلهم. وتتحول الخلافة إلى العباسيين ويرسلون إلى مصر بولاتهم حتى إذا انتصف القرن الثالث وليها أحمد بن طولون وأسس بها الدولة الطولونية، واستشعرت مصر فى عهدها استقلالها، وبالمثل فى عهد الدولة الإخشيدية. ومايكاد ينتصف القرن الرابع حتى تتولاها الدولة الفاطمية الإسماعيلية، ويظل المصريون منصرفين عنها وعن مبادئها الشيعية المتطرفة، وتضعف دولتهم وينزل الصليبيون الشام، ويؤسسون دولة لهم فى بيت المقدس. ويدور الزمن دورات وتسقط الدولة الفاطمية، ويتولى مصر صلاح الدين الأيوبى، وينازل حملة الصليب ويسحق جموعهم سحقا فى حطِّين وغير حطين، ويسير سيرته خلفاؤه من حكام الدولة الأيوبية فى ضربهم الضربات الماحقة، ويخلفهم المماليك فيسحقون جموع المغول فى عين جالوت سحقا ذريعا، ويطردون حملة الصليب نهائيا من الشام إلى البحر المتوسط وما وراءه. ويستولى العثمانيون على مصر لمدة ثلاثة قرون وتصبح بعد أن كانت دولة عظيمة ولاية تابعة للدولة العثمانية.

وقد أتاحت الزروع والبساتين على ضفاف النيل رخاء واسعا لسكَّان مصر من قديم. وأعطى هذا الرخاء لحكامها منذ ابن طولون الفرصة واسعة لبناء البيمارستانات والجوامع الكبيرة والقصور الفخمة. وأتاح ثراؤها الضخم للدولة الفاطمية حياة مترفة بالغة الترف كما أتاح لصلاح الدين أن يعدَّ جيشه بل جيوشه لضرب حملة الصليب ضربات قاصمة، وأيضا فإنه بنى بالقاهرة قلعته المشهورة ومارستانا كبيرًا سوى ما شيَّد من المدارس. وتزدهر الحياة

بمصر لعهد المماليك وتتكاثر الأعياد بها تكاثرًا واسعًا وتتسع موجات الغناء وفنون اللهو والتسلية، وارتقى حينئذ خيال الظل وأصبح مسرحا شعبيا عاما. وألممت بعد عرض المجتمع فى مصر للدعوة الفاطمية الشيعية الإسماعيلية وانصراف المصريين عنها، كما ألممت بالزهد وما كان بمصر من جماعات النساك وكيف أسس ذو النون المصرى التصوف الإسلامى ومبادءه الروحية وما يتصل به من الأحوال والمقامات، ويزدهر التصوف منذ زمن الدولة الأيوبية، ويتضح فيه اتجاهان: اتجاه فلسفى يمثله ابن الفارض واتجاه سُنِّى شعبى تمثله الطرق الصوفية، ومن أهمها الطريقة الشاذلية التى أسسها أبو الحسن الشاذلى، وقد تعددت فروعها لعهد المماليك تعددا واسعا، حتى بلغت أحد عشر فرعا، ومن أهمها الطريقتان: الوفائية والخلوتية.

ومعروف أن مصر أدَّت دورًا عالميا عظيما فى تاريخ الحضارة الإنسانية، ولا تزال أهراماتها الشامخة تمثل هذا الدور تمثيلا باهرا، ويدين لها العلم بمعناه العالمى دينا كبيرا بما أدت له فى الهندسة والمعمار والطب والرياضة، وتظل جذوتها العلمية متقدة مهما اقتحم أسوارها من الجيوش المغيرة، على نحو ما هو معروف عنها فى عهد البطالمة إذ لم تلبث فى أيامهم أن استعادت نشاطها وأخذت ترسل أضواءها فى الفلسفة وغير الفلسفة. وما إن يمضى على دخولها فى الإسلام نحو قرن ونصف حتى تعود روحها العلمية إلى النشاط وإرسال أضوائها وشررها إلى العالم العربى، على نحو ما هو معروف عن ابنها وَرْش وحَمْل المغاربة والأندلسيين قراءته إلى أوطانهم، ولا تزال القراءةَ الشائعةَ فى المغرب إلى اليوم، وما يلبث الأندلسيون والمغاربة أن يتتلمذوا لعبد الرحمن بن القاسم تلميذ مالك، ويحملون عنه المذهب المالكى فى الفقه. وينزل مصر الإمام الشافعى ويعنى تلامذته المصريون بمذهبه الفقهى والمحاضرة فيه، ويأخذه عنهم تلامذة من الشام والعراق وإيران وينشرونه فى بلدانهم. ويكتب مؤرخها ابن عبد الحكم - لأول مرة - تاريخ الفتوح بمصر والمغرب، ويحمله عنه المغاربة وأهل الأندلس كما يكتب مؤرخها ابن هشام السيرة النبوية العطرة، ويحملها المؤرخون لها فى العالم العربى جميعه مغربا وغير مغرب.

ويعنى حكام مصر - منذ عهد ابن طولون - بالحركة العلمية وإنمائها ويؤسس فيها الفاطميون جامعة كبرى تسمى: «دار العلم» كما يبنون الجامع الأزهر ويظل جامعة إسلامية

كبرى إلى اليوم، وينشىء بها صلاح الدين الأيوبى خمس مدارس، ويتبارى خلفاؤه الأيوبيون والمماليك فى إنشاء المدارس بها والإكثار منها حتى ليقول ابن بطوطة الذى زار مصر سنة ٧٢٦ إن أحدا لا يستطيع أن يحيط بحصرها لكثرتها. وكانت المساجد والجوامع -وخاصة الجامع الأزهر- تنافس المدارس فى هذه الحركة العلمية، وكانت مصر قد ظلت ملاذا لعلماء العالم العربى غربا وشرقا، وخاصة بعد استيلاء النورمان على صقلية والإسبان على مدن الأندلس وبعد غزو المغول لمدن إيران والعراق، وأيضا فإنها أصبحت الحامية للثقافة الإسلامية والعربية. وفى كل مجال يلقانا علماؤها فى الفلسفة وعلوم الأوائل من الرياضيات والطبيعيات والطب والجغرافيا. وينهض فيها العلماء باللغة والنحو منذ أوائل القرن الرابع الهجرى وتصبح لها مدرسة نحوية يلمع فيها غير نحوى كبير منذ الدولة الأيوبية، ويكثر فيها علماء البلاغة والنقد منذ ابن وكيع التنيسى فى القرن الرابع الهجرى، ويتكاثر بها علماء القراءات والتفسير والحديث النبوى والفقه بمختلف مذاهبه الكبرى وعلم الكلام. ويُؤَرَّخ لكل علمائها الأعلام فى العلوم جميعا تأريخا دقيقا. وتنشط الكتابات التاريخية نشاطا واسعا فى السيرة النبوية العطرة والتاريخ العام وتاريخ مصر ودولها وتاريخ المدن وخاصة القاهرة والإسكندرية وتاريخ الرجال والعلماء من كل صنف وتاريخ الشعراء والأدباء.

وتأخذ مصر فى التعرب منذ الفتح الإسلامى، ويدخل كثير من أبنائها فى الدين الحنيف، وحتى القبط أو - بعبارة أدق - جميع من بقى منهم على دينه المسيحى يأخذون فى التعرب ويتم تعربهم فى القرن الثالث الهجرى. ويتصل نشاط الشعر فى مصر، ويظل محدودا زمن بنى أمية، وزارها فى أيامهم بعض الشعراء من نجد والحجاز والعراق، ويتسع نشاط الشعر بمصر فى زمن ولاة العباسيين أو يأخذ فى النشاط، ويصبح لها شعراء نابهون مثل المعلَّى الطائى، وينزلها أبو نواس لمديح الخَصيب والى الخراج فيها، كما ينزلها أبو تمام لمديح ولاتها ويظل بها فترة. ومن شعرائها فى النصف الأول من القرن الثالث ذو النون المصرى الإخميمى مؤسس التصوف، ويشتهر بها فى بواكير أيام الدولة الطولونية الجمل الأكبر الحسين بن عبد السلام. ويبدو أن الشعراء تكاثروا فى عهد هذه الدولة، يدل على ذلك أنها حين انتهت فى أواخر القرن الثالث بكاها منهم كثيرون حتى ليقول المقريزى إنه رأى كتابا به اثنتا عشرة كراسة بأسماء الشعراء الذين بكوها، ويعلق على ذلك قائلا: إذا كانت أسماء الشعراء فى اثنتى عشرة كراسة فما مقدار شعرهم؟ ثم يقول إنه لا يوجد لأحدهم الآن ديوان واحد،

ومما يؤكد بوضوح ما كان بمصر من حركة شعرية خصبة أن نجد الصولى المتوفى سنة ٣٣٥ للهجرة يؤلف كتابا فى أخبار شعراء مصر.

وينزلها قبيل منتصف القرن الرابع المتنبى ويحدث نزوله بها حركة أدبية واسعة، ويظل الشعر بها نشيطا فى عهد الفاطميين، ويدل على ذلك من بعض الوجوه ما يروى من أنه لما توفى ابن كلِّس وزير المعز وابنه العزيز رثاه مائة شاعر. وينثر الخلفاء الفاطميون ووزراؤهم العطايا والأموال على الشعراء، مما جعلهم يلهجون بالثناء عليهم، ويؤلف بأخرة من العصر الفاطمى الرشيد بن الزبير كتابا فى شعراء مصر سماه: «جِنان الجَنان ورياض الأذهان» سقط من يد الزمن، ويخص شعراءها فى القرن السادس الهجرى العماد الأصبهانى وزير صلاح الدين الأيوبى بمجلدين فى كتابه الخريدة، ترجم فيهما لنحو مائة وأربعين شاعرا، ويفد عليها فى أواخر أيام الدولة الأيوبية على بن سعيد الأندلسى صاحب كتاب المغرب ويخصها هى وشعراءها وكتّابها وحكّامها ووزراءها وقضاتها بستة مجلدات من كتابه ضاع أكثرها، وبقى منها القسمان الخاصان بالفسطاط والقاهرة، وحُقِّقا ونُشرا. وتظل كتب التراجم فى عصر المماليك تترجم لكثيرين من الشعراء النابهين بمصر. وتألَّقت حينئذ أسماء كثيرين منهم ونُشِرت دواوينهم كما نُشرت طائفة من دواوين الشعراء فى العهدين الفاطمى والأيوبى. وبقيت من هذا النشاط بقية أيام العثمانيين مما جعل شهاب الدين الخفاجى فى القرن الحادى عشر الهجرى يؤلف كتابا فى شعراء زمانه سماه: «ريحانة الألبَّا» خص مصر بالقسم الثالث منه، ونلتقى بتراجم كثيرين منهم بعد الخفاجى فى كتب التراجم والتاريخ وخاصة تاريخ الجبرتى.

ويكثر الشعر الدورى بمصر وتكثر مزدوجاته ومسمَّطاته ورباعياته. وتكثر الموشحات وكان شعراء مصر قد أخذوا يتعرفون عليها فى أواخر أيام الدولة الفاطمية، ويتصدى لها الشاعر ابن سناء الملك فى أيام صلاح الدين والدولة الأيوبية فيضع لها عروضها كما وضع الخليل بن أحمد قديما عروض الشعر العربى على نحو ما يوضح ذلك كتابه النفيس: «دار الطراز». وقد ألحق بدراسته له فى الكتاب أربعا وثلاثين موشحة بديعة لكبار الوشاحين الأندلسيين، وأتبعها بخمس وثلاثين موشحة له، وبذلك أعدَّ هذا الفن الأندلسى للذيوع والانتشار، فأقبل عليه شعراء مصريون وغير مصريين ينظمون فيه موشحات لهم رائعة،

ونفس ابن سناء الملك مضى ينظم فيه عشرات جديدة من الموشحات حتى لنجد السخاوى فى كتابه «سجع الورق المنتحبة فى جمع الموشحات المنتخبة» ينشد له أربعا وثمانين موشحة. وترجمتُ لوشَّاحَيْن مصريين كبيرين هما العَزازى وابن الوكيل. وشاعت الموشحات بمصر على ألسنة المتصوفة فى أذكارهم، ولعلى بن وفاشيخ الطريقة الوفائية فى أواخر القرن الثامن الهجرى وأوائل التاسع ديوان جميعه موشحات صوفية. ويُكثر القاضى الفاضل وزير صلاح الدين فى شعره من المحسنات البديعية، ويصبح له فى طريقة استخدامه لها وفى إكثاره من التورية مدرسة يتكاثر أتباعها فى أيام الدولتين الأيوبية والمملوكية بمصر والشام.

ويكثر شعر المديح، ويظل يجرى على الألسنة زمن الولاة أيام الدولتين الأموية والعباسية، حتى إذا أظل مصر عهد الدولة الطولونية تبارى الشعراء فى مديح أحمد بن طولون وفى مقدمتهم الجمل الأكبر الحسين بن عبد السلام الذى مر ذكره آنفا، ومن شعراء تلك الدولة المريمى القاسم بن يحيى شاعر خمارويه. ويشتهر بعده فى زمن الإخشيد سعيد بن فاخر شاعره، ويترجم الثعالبى فى اليتيمة لكثيرين من شعراء الدولة الإخشيدية، وخاصة من التفوا حول المتنبى حين مقامه فى القاهرة مادحا لكافور، ويكثر المديح كثرة مفرطة منذ القرن السادس الهجرى ويكثر شعراؤه النابهون، وقد ترجمت لخمسة منهم عارضا روائع مدائحهم، وهم المهذب بن الزبير شاعر طلائع بن رزيك الوزير بأخرة من الدولة الفاطمية، وقد نوه طويلا ببعض انتصاراته على حملة الصليب، وابن قلاقس الشاعر الاسكندرى المادح لشاور الوزير الفاطمى والمهاجر بشعره إلى صقلية واليمن مادحا رجالاتها مدحا رائعا، والشاعر المبدع ابن سناء الملك شاعر صلاح الدين ووزيره القاضى الفاضل، وهو أهم شعراء مصر قبل العصر الحديث ويتميز بفرائد بديعة من التصاوير الطريفة والألفاظ الحلوة العذبة، وابن نباتة شاعر المؤيد صاحب حماة والسلطان المملوكى حسن ، ويتميز بلغة سهلة رشيقة مع كثرة التوريات، والشيخ عبدالله الشبراوى شيخ الأزهر فى أيام العثمانيين وله مدائح كثيرة فى ولاتهم.

وينشط الرثاء فى مصر للحكام وكبار الكتاب وأصحاب المناصب العليا فى الدول المتعاقبة. وتكثر الشكوى من الزمن وتقلباته ونوائبه، على نحو ما نجد عند على بن النضر الشاعر الفاطمى ومراثيه وشكواه من الزمن، وعند على بن عرام شاعر أسوان، وله مرثية

بديعة بل مناحة كان ينوح بها أهل أسوان على المقابر نادبين موتاهم، وابن النقيب الحسن بن شاور وله شكوى مرة من الظلم والخسف ومن العَوَز والبؤس، وعبدالله الإدكاوى أيام العثمانيين، وله مرثية يرثى فيها نفسه ويبكيها وقد حمله النَّعْش إلى مثواه. وكان للدعوة الفاطمية الإسماعيلية شعراء غلوا فى مديح خلفائهم غلوا مَقيتا، إذ جعلوهم فوق البَشر والبشرية مسبغين عليهم بعض صفات الذات العلية، وأهم شعرائهم ابن هانئ الأندلسى، وتموج أشعاره فى المعز الفاطمى بضلال ما بعده ضلال، وكان شاعرا فذا غير أنه سخَّر ملكته الشعرية فى مديح المعز بصفات إلهية قدسية، بهتان ما بعده بهتان. وعلى شاكلته المؤيد فى الدين الشيرازى إذ يجعل الخلفاء الفاطميين فى مديحه فوق الطبيعة البشرية ويسبغ عليهم الصفات الربانية. وثالث هؤلاء الشعراء ظافر الحداد وهو مصرى من الإسكندرية، ويلتقط من ابن هانئ - الذى صرَّح فى بعض مديحه للآمر بأنه يحاول محاكاته - بعض معانيه مثل فكرة طاعة الخليفة الفاطمى وأنها فرض واجب، كما أخذ عنه فكرة أن الخليفة نور خالص، غير أنه ظل لا يسرف إسراف ابن هانئ والمؤيد الشيرازى فى إضفاء الصفات الإلهية على الخليفة، ومع ذلك يُعد شذوذا على المصريين فى أيام الفاطميين، إذ انصرفوا انصرافا تاما عن العقيدة الفاطمية الإسماعيلية المنحرفة، وظلوا مثل آبائهم سُنِّيين.

ويكثر الغزل مصورا عاطفة الحب الإنسانية عند الشعراء المصريين وقد بثوا فيه حبا متقدا لا تخبو ناره أبدا بما يصور من اللوعات والصبابة والهيام والوله، ويموج شعر كثيرين بوجد لا حدود له على نحو ما يلاحظ فى غزل ابن سناء الملك، ويعم الغزل الوجدانى بعض أشعار الغزلين، وكأنما يتأثرون فيه الغزل الصوفى الملتاع المعاصر لهم، ومن أهم شعرائه وأروعهم ابن النبيه، وغزله يتسامى إلى مستوى وجدانى رفيع، مما دفع المغنين إلى التغنى به لا فى مصر وحدها بل أيضا فى كثير من ديار العرب، وتغنت السيدة أم كلثوم ببعض غزله الوجدانى المكتظ باللهفة واللوعة والرقة واللطف. ولا يقل عنه فى الغزل الوجدانى روعةً البهاء زهير، وكأنما انطبع الوجد الصوفى وأشواقه فى أعماق نفسه مما جعل بعض غزلياته تلتبس عند الأسلاف بغزليات ابن الفارض وما تحمل من مواجد صوفية. ولابن مطروح صديقه حظ من هذا الغزل المملوء بحرارة الوجد ولوعاته والذى يقطر رقة ودماثة وظرفا. ولبرهان الدين القيراطى غزل وجدانى كثير يتمثل فيه هذه الطريقة الغرامية التى يذوب

فيها المحب لوعة وهياما، ونلتقى فى أيام العثمانيين بالعُسَيْلى وما يتميز به غزله من رهافة الحسّ ودقته.

ويتكاثر الفخر بدوره : الفخر بالأخلاق النبيلة وبالبأس والشجاعة، ولابن سناء الملك فيه منظومة رائعة جسَّد فيها روحا قوية عاتية: روح بطولة صلاح الدين وجيشه المصرى الباسل وما أذاقا حملة الصليب من دمار وتنكيل لا يماثله تنكيل. ومن قديم يسيل الهجاء فى ألسنة الشعراء المصريين، وكثيرا ما سلطوا سهامه على الفاطميين ووزرائهم وقد ينحون به أحيانا نحو الدعابة. ونلتقى فى الفخر بتميم بن المعز الفاطمى المفاخر بأسرته الفاطمية العلوية فخرا مضطرما بشرر كثير وجهه إلى ابن المعتز الشاعر العباسى وأسرته العباسية، ولطلائع بن رُزّيك وزير الفاطميين بأخرة من أيامهم فخر كثير بانتصاراته على حملة الصليب. وكان ابن الذروى من كبار الهجائين، وله أهجية فى أحدب مليئة بالسخرية الموجعة، ومثله أحمد بن عبد الدائم الشرمساحى، وكان يكثر من هجائه للناس حتى القضاة وعلماء الدين، وعلى شاكلته حسن البدرى الحجازى إذ لم يسلم من هجائه أحد حتى المتصوفة.

ويتعمق الشعور بجمال الطبيعة على ضفاف النيل وفى وديانه ورياضه وحدائقه نفوس الشعراء منذ المريمى شاعر خمارويه، وتكثر مجالس الأنس واللهو والغناء والطرب، ويمثل ذلك كله ابن وكيع المشغوف فى أشعاره بالطبيعة والخمر، والشريف العقيلى شاعر الطبيعة المصرية غير مدافع، وابن قادوس وكان يشغف بوصف الخمر، ومثله عبد الباقى الإسحاقى أيام العثمانيين. وعُرفت مصر بالزهد والنسك من قديم، ويظل شعر الزهد فيها مزدهرا على مر الأزمنة، وكان ذو النون المصرى – كما مرَّ بنا – قد وضع أسس التصوف الإسلامى فى القرن الثالث الهجرى، غير أنه لم يزدهر بمصر إلا منذ عصر صلاح الدين الأيوبى، وأخذ يتضح فيه – كما مر بنا – اتجاهان: اتجاه فلسفى مثَّله خير تمثيل ابن الفارض واتجاه سنى مثله أصحاب الطرق الصوفية وأتباعهم من مثل الطريقة الشاذلية. ومن أتباعها الشعراء أبو العباس المرسى، وقد ترجمت قبله لابن الكيزانى الصوفى المعاصر لصلاح الدين وله أشعار صوفية بديعة، وفصلت القول فى ابن الفارض ومجاهداته الروحية وعشقه الربانى، وفنائه وانمحائه فى الذات الإلهية إنمحاء كليا.

وكان الشعراء المصريون يتغنون بمديح الرسول ﷺ من قديم، وأخذ هذا المديح يزدهر فى زمن الحروب الصليبية وأكبر مادح مصرى للرسول البوصيرى ويشتهر بمدحته النبوية المسماة بالهمزية، وربما فاقتها روعة ميميته المسماة بالبردة، وظلت القصيدتان تنشدان - إلى اليوم - فى حفلات الموالد وحلقات الذكر الصوفى. ونلتقى فى العصر العثمانى بمحمد بن أبى الحسن البكرى، وله أشعار يصور فيها بعض مواجده الصوفية، وسؤاله الرسول الشفاعةَ له يوم القيامة. وألممت بشعراء الفكاهة وعرضت فى ترجمات ابن مكنسة والجزار والسراج الوراق طرائف من فكاهاتهم كما عرضت عند ابن دانيال مسرحياته الفكهة وخاصة مسرحية «طيف الخيال» وهى عمل تمثيلى بديع. وألممت بعامر الأنبوطى فى أيام العثمانيين ومعارضته الفكهة لألفية ابن مالك وغيرها. وعرضت جوانب من الشعر الشعبى وثلاثة من أعلامه هم: إبراهيم المعمار وتورياته المستملحة، والغبارى وأزجاله المتنوعة وابن سودون وفكاهاته المضحكة سواء فى وصفه لزوجته ليلة الدخلة أو فى رثائه لأمه أو فى حديثه عن عجائب الطبيعة، وفيها جميعًا يعتمد على المنطق اعتداء يجعل قارئه يستغرق فى الضحك.

وينهض النثر وتزدهر الرسائل الديوانية فيه منذ أيام ابن عبدكان كاتب أحمد بن طولون، ومن أعلام الكتاب الديوانيين فى عهد الفاطميين ابن الصيرفى، وتتميز لغة كتابته بالسجع والسهولة والتوشيح لها بالألفاظ القرآنية والمحسنات البديعة. ونلتقى بالقاضى الفاضل أهم كتاب مصر، وهو رأس مدرسة ظلت حية فى أيام الأيوبيين والمماليك، وهى تلتزم السجع مع صفاء التعبير ومع الإكثار من المحسنات البديعية والعناية بالتورية. ومن كبار الكتاب فى أيام المماليك محيى الدين بن عبد الظاهر وابن فضل الله العمرى، وتطبع كتابتهما الديوانية بطوابع كتابة القاضى الفاضل.

وتكثر الرسائل الشخصية من تهنئة وشكر وعتاب وتعزية واعتذار منذ أيام الفاطميين وتعمها خصائص الكتابة الديوانية لأن أكثر كتابها كانوا من كتّاب الدواوين، ومن أهمهم ابن أبى الشخباء فى زمن الفاطميين، وسجعاته خفيفة رشيقة مع صفاء اللفظ ورصانته. ولابن مماتى كاتب الدواوين فى عهد صلاح الدين رسائل شخصية يعنى فيها بالسجع ومحسنات البديع ومراعاة النظير وحسن التعليل. ويتميز ابن مكانس فى أيام المماليك بالسجع الرشيق والاستعارات والتوريات والجناسات البديعة مع خفة الروح والعذوبة والسلاسة.

ويُعْنَى غير كاتب بصنع مقامات منذ أواخر الدولة الفاطمية، ولا تدور على الشحاذة الأدبية المعروفة فى مقامات الهمذانى والحريرى، بل تدور على المحاورات أو على عرض بعض مسائل علمية أو على المفاخرات أو على حديث قصصى أو على وعظ، وممن نلتقى بهم فيها ابن أبى حجلة المغربى، وله مقامة بديعة فى وصف فيضان النيل، والقلقشندى وله مقامة فى وصف صناعة الإنشاء وتقريظ صاحب ديوانها، وأخرى فى المفاضلة بين العلوم، والسيوطى وله مقامات كثيرة، وأغلبها مفاخرات تدور بين الأزهار أو بين الفواكه أو بين البقول أو بين العطور، والشهاب الخفاجى أيام العثمانيين وله مقامات مختلفة، منها مقامة رومية فى وصف القسطنطينية، وفيها يهاجم متصوفتها وعلماءها ومفتيها، ويختمها بمديح السلطان العثمانى.

وتتكاثر المواعظ والابتهالات وقد ترجمتُ فى عَرْضها لأبى الحسن الشاذلى إمام الطريقة الشاذلية، وذكرت قطعة من حزبه الكبير، كما ترجمت لابن عطاء الله السكندرى وذكرت بعض مواعظه، وبالمثل لأحمد الدردير أيام العثمانيين وذكرت قطعة من ورده أو حزبه المشهور. وعرضت كتب النوادر والسير الشعبية بادئا بكتاب المكافأة لابن الداية، وتلوته بأخبار سيبويه المصرى، وكان ينقد الحكام نقدا به كثير من السموم. وتحدثت عن كتاب الفاشوس فى حكم قراقوش لابن مماتى، وكتاب هز القحوف ليوسف الشربينى وما يحملان فى نوادرهما من سخرية لاذعة بالحكام، كما تحدثت عن كتب السير والقصص الشعبية: سيرة عنترة والسيرة الهلالية وسيرة الظاهر بيبرس وسيرة سيف بن ذى يزن وعن ألف ليلة وليلة.

الفهـــرس

صفحة

صفحة

صفحة

تاريخ الأدب العربي

٨

دكتور شوقي ضيف

عصر الدول والإمارات

الأندلس

دار المعارف

تاريخ
الأدب العربى

عصر
الدول والإمارات
الأندلس

تأليف
الدكتور شوقى ضيف

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

عصر

الدوَل والإمَارات

الأندلس

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا الجزء من تاريخ الأدب العربى خاص بالأندلس فى عصر الدول والإمارات ويشتمل على خمسة فصول، أولها يتناول تاريخها السياسى منذ فتح العرب لديارها سنة ٩٢ هـ / ٧١١ م إلى خروجهم منها سنة ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م مع عرض لتكوين مجتمعها وظواهره وما تسرَّب إليه من تشيع وسَرَى فيه من زهد وتصوف. ويوضح الفصل كيف أن أسس الحضارة الأندلسية تكاملت منذ عهد الأمير الأموى عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦هـ/٨٢٢م- ٢٣٨هـ/٨٥٢م)- وكانت قد استقرت منها ثلاثة أسس قبله، هى أسس الدين الحنيف والعربية والعلوم بشعبها اللغوية والدينية، وضمَّ عبد الرحمن الأوسط إلى هذه الشعب شعبة علوم الأوائل من الرياضيات وغير الرياضيات، وأرسى فى تلك الحضارة قواعدها المادية عن طريقين: طريق زاوله بنفسه، إذ شغف باقتناء أدوات الترف والتحف المشرقية، وجاراه الأندلسيون فى هذا الشغف، وطريق زاوله مغنيه زرياب تلميذ إسحق الموصلى الوافد على قرطبة فى أول عهد عبد الرحمن إذ سَنَّ للمجتمع الأندلسى سُنَنًا ظلت راسخة فيه، سُنَنًا عمت المأكل والملبس وما يتصل بهما من هيئة الأندلسيين رجالاً ونساءً وما يتخذون من صور التزين. وأرْسَى عبد الرحمن قواعد الحكم متخذا له مجلسَ وزراء يدير شئون الدولة ومصالح الرعية على نحو ما نعرف الآن من مجالس الوزراء فى الأمم المتحضرة. وقد استطاع زرياب إرساء أسس فنية قوية لنهضة موسيقية رائعة كان لها - فيما بعد - تأثير واسع فى الموسيقى الإسبانية والأوربية. وحظيت المرأة فى هذا المجتمع الأندلسى بمكانة رفيعة لم تحظ بها أختها المشرقية.

ويوضح الفصل الثانى كيف أن إيبيريا - قبل الفتح العربى - لم يكن لها دور حضارى بارز فى الحضارة العالمية، والعرب هم الذين أتاحوا لها - حين استوطنوها - أن تنهض بدور عظيم فى هذا المضمار، ويعرض الفصل نشوء الحركة العلمية الأندلسية

وتطورها على مر العصور العربية هناك وإسهام المرأة الأندلسية فيها وما أضافه علماء الأندلس فى مختلف العلوم الرياضية وغير الرياضية من مثل البِطْرَوْجى وهو - لاكبلر (Kepler) الألمانى - الأب الحقيقى لعلم الفلك الحديث، ومثله الزهراوى فى الجراحة العالمية وعبد الملك بن زهر فى الطب الإكلينيكى وابن البيطار فى الصيدلة. وناهيك بازدهار الفلسفة فى الأندلس وتلمذة الغربيين لفلاسفتها وخاصة ابن رشد الذى ظل يُدْرَسُ قرونًا متعاقبة فى جامعاتهم منذ القرن الرابع عشر الميلادى، وكان أثره العميق فى الفكر الأوربى حاسمًا، وخاصة فى حركة التحرر والإصلاح الدينى.

وأوضح الحديثُ عن النشاط اللغوى بالأندلس اكتشاف ابن حزم وابن سِيده لعلم فقه اللغة المقارن بين اللغات السامية قبل اكتشاف الغربيين لهذا العلم بقرون عديدة. وتبينَّ فى الفصل ما لعلماء مصر من أستاذية لغير عالم أندلسى فى اللغة والنحو والتاريخ والقراءات وحَمْل الأندلسيين فيها لقراءة ورش المصرى، وحَمْلهم لفتاوى عبد الرحمن بن القاسم ونظرائه المصريين فى الفقه. وأشار الحديث فى الفصل إلى التقاء المبدأين الأساسيين فى فلسفة ديكارت بأفكار المعتزلة والمتكلمين، وهما مبدأ الشك فى حقائق الأشياء حتى يتضح وجه اليقين، ومبدأ أنا أفكر فأنا موجود، مما يقتضى وجود الخالق رب العالمين.

والفصل الثالث يعرض نشاط الشعر والشعراء، ويستهل بالحديث عن تعرب سكان الأندلس جميعًا: مَنْ أسلم منهم وأبنائهم المولدين ومَنْ ظل على دينه المسيحى ولم يدخل فى الإسلام. وتدل على تعرب المسيحيين هناك أقوى دلالة صرخة القس ألْبَرُو المشهورة التى يتحسَّر فيها على إهمال الشبان المسيحيين فى إيبيريا للغة آبائهم اللاتينية الدارجة وازدرائهم لما أُلِّف فيها من كتابات مسيحية، بينما يقبلون فى شغف على تعلم العربية واتخاذها أداة للتعبير عن أفكارهم ومشاعرهم نثرًا وشعرًا. ويؤكد پالنثيا فى كتابه تاريخ الفكر الأندلسى تلك الصيحة ويدعم دلالتها بوثائق كنسية لاتينية تحمل قصائد عربية وأيضًا بكتابات لاتينية لنصارى الإسبان - حتى بعد خروج العرب من الجزيرة - على هوامشها شروح وتعليقات باللغة العربية. وفى ذلك ما يؤكد - بوضوح - خطأ نظرية المستشرق الإسبانى ريبيرا المفضية إلى أن عرب الأندلس كانوا يستخدمون اللاتينية الدارجة لغة خطاب فى حياتهم اليومية، وهم إنما كانوا يستخدمون فى تلك الحياة عامية عربية أندلسية، وزعم ريبيرا - خطأ - أن الأزجال الأندلسية نُظمت باللاتينية الدارجة

وهى إنما نظمت بعامية عربية أندلسية أتاحت لها أن تُرْوَى فى المشرق وتتداول به وتحاكى فيه، وقد كتب فيها علماء اللغة الأندلسيون - مثل الزبيدى - كتبًا مختلفة. وامتازت الأندلس بكثرة الشعراء فيها كثرة مفرطة، ويدل على ذلك وفرة ما وُضع فيهم هناك من كتب، وخاصة كتاب الذخيرة لابن بسام بمجلداته المقصورة على عصر أمراء الطوائف، وقد ترجم لأكثر من مائة شاعر أندلسى فى هذا العصر القصير الذى لا يكاد يتجاوز ثمانين عامًا، فما بالنا بمن وراءهم من الشعراء فى قرون الأندلس الثمانية. ومَنْ يرجع إلى كتاب نفح الطيب يجد المقرى يترجم فيه لعشرين شاعرة كن مشهورات، ووراءهن كثيرات لم تكن لهن شهرتهن. ونفذت الأندلس فى أثناء هذا النشاط الشعرىِّ الجَمِّ إلى ابتكار فن شعرى جديد هو فن الموشحات، وذهب غير مستشرق إسبانى إلى أن هذا الفن نشأ فى الأندلس من المزج بين الشعر العربى وبعض الأغانى الرومانسية فى اللاتينية الإسبانية الدارجة، وليس فى أيديهم أغنية رومانسية واحدة يستطيعون أن يثبتوا بها دَعْواهم فى هذا المزج المزعوم. والصحيح أن الموشحات صورة أندلسية حديثة تطورت عن المسمَّطات المشرقية المعروفة فى الشعر العربى، وهى تتألف من أدوار، وكل دور فيها يُخْتَمُ بشطر تغاير قافيته قوافى الشطور السابقة له فى الدور بينما تتحد مع قوافى جميع الشطور الأخيرة فى الأدوار المختلفة، وكل ما بين المسمطات والموشحات من خلاف أن الشطر الأخير المتحد القافية فى أدوار المسمطات تعدَّد فى الموشحات مما يقطع - دون أدنى ريب - بأنها تطورت تطورًا طبيعيًّا عن المسمطات. ويؤكد ذلك أن من أنشأوها وطوَّروها فى الأندلس كانوا من أصول عربية خالصة فقد أنشأها عربى فى أواخر القرن الثالث الهجرى هو مقدم بن معافى، وطوَّرها فى القرن الرابع الهجرى وأوائل الخامس عربيان هما يوسف بن هرٰون الرمادى الكندى وعبادة بن ماء السماء الخزرجى الأنصارى. وألَمَّ هذا الفصل الثالث بكبار الوشاحين وترجم لنفر منهم، كما ألَمَّ بالأزجال التى نظمت بالعامية على غرار الموشحات مع الترجمة لناظمها الأندلسى المشهور: ابن قزمان. واستعرض الفصل - بعد ذلك - روائع شعراء المديح فى الأندلس على مر العصور مع الترجمة لسبعة من أعلامهم، وبالمثل استعرض روائع شعر الفخر مع الترجمة لثلاثة منهم وروائع شعراء الهجاء مع الترجمة لأربعة من كبار الهجائين، كما استعرض روائع أصحاب الشعر التعليمى مع الترجمة لعلمين من أعلامهم.

وعرَض الفصل الرابع روائع الأغراض فى بقية الشعر الأندلسى مع الترجمة لبعض شعراء الأندلس المبدعين، وأول غرض عرضه الغزل، وفيه تتفوق الأندلس - فى رأينا -

على جميع البلدان العربية بما بثّت فيه من لوعات وَجْد لحب عذرى عفيف ظلت جذوتها تتقد وتتوهج فى أشعار الغزلين الأندلسيين قرونًا متوالية، وبلغ من توهج تلك اللوعات أن امتد شررها الساطع إلى الأدبين الإسبانى والفرنسى وبالتالى إلى الآداب الأوربية، ويتضح هذا الشرر - بقوة - عند الإسبان فى قصة دون كيشوت لسرفانتس (١٥٤٧ - ١٦١٦ م) وكأنها قصة محب عذرى عربى فُتن بمحبوبته حتى جُنَّ أو كاد يُجَنّ، وسرفانتس فى سطورها الأولى ينسبها إلى عربى حدَّثه بها، مما يؤكد أنه استلهم فيها أقاصيص الحب العذرى عند الأندلسيين، ونمضى معه فى القصة فنرى الحب العنيف يخرجه دائمًا عن طوره إذ يعيش هائمًا على وجهه والجنون يصيبه أحيانًا وكلما أفاق منه تغنى بحبه مفتونًا بصاحبته مثله الأعلى فى الجمال البارع. ويعم شرر هذا الحب عند شعراء التروبادور الفرنسيين فى القرن الثانى عشر الميلادى. إذ نراهم مفتونين بمحبوباتهم فتنة تدفعهم إلى التذلل لها وتمجيدها لما تستشعره من عفة وجمال مثل قرينتها الأندلسية. ومما أثَّر به الغزل الأندلسى العفيف فى هؤلاء الشعراء ترداد ذكرهم للوشاة والرقباء، وأيضًا ظهور القافية فى أشعارهم لأول مرة فى الشعر الأوربى. وللمرأة الأندلسية فى هذا الغزل العفيف الملتاع مشاركة واضحة، وتغزلت أحيانًا فى أختها الأندلسية الفاتنة، وكانت لبعضهن ندوات يؤمها بعض الشعراء ورجال الأدب والفكر. وعكس غير شاعر عواطفه فى عناصر الطبيعة من حوله، مدوِّنا فى شعره بدقة مشاعره وروعة تصاويره.

وتحوَّل الفصل من الغزل إلى الطبيعة والخمر، وينوِّه البحث دائمًا بتفوق الأندلس على البلدان العربية فى شعر الطبيعة، لما كان يتملَّى به الشاعر من جمال هذا الفردوس بجناته ورياضه وأزهاره ورياحينه وأنهاره وما يجرى فيها أو يتهادى من زوارق تزدان بالشموع ليلًا، وكأن أهل الأندلس كانوا فى عُرْسٍ دائم ليلًا ونهارًا. وقد تغنى الشعراء الأندلسيون بجمال هذا الفردوس الأرضى وما يسكب فى النفوس من سحر يروع القلوب والألباب على نحو ما هو معروف عن ابن خفاجة، وتفجؤنا عنده وعند أضرابه من شعراء الطبيعة - بل عند جميع شعراء الأندلس فى كل الأغراض الشعرية - صور فى منتهى الروعة.

وعرض الفصل - بعد ذلك - رثاء الأفراد وما لشعراء الأندلس من فرائد فى التفجع على الأبناء والزوجات والأصدقاء، ويبلغ التأثر بالقارئ مُنْتهاه فى مراثيهم للشهداء الأبرار فى حروب أعدائهم من حَمَلة الصليب الشماليين، ومن أروعها مرثية لابن الزقاق بكى فيها شابًا استشهد فى عنفوان شبابه بعد أن أبلى فى حرب أعداء دينه بلاء عظيمًا،

ولا تقل عنها روعةً موشحة على بن حزمون فى بكاء بطل بلنسية أبى الحملات قائد الأعنة حين استشهد فى معركة ضارية مع حَمَلة الصليب بعد أن مزَّق كثيرين منهم تمزيقًا. ويتميز ابن وهبون فى مراثيه بتأملات عميقة فى حقائق الموت والحياة. وبجانب مراثى الأفراد مراث للدول الأندلسية حين تغرب شمسها وتدور عليها الدوائر مثل مراثى ابن اللبانة لدولة المعتمد بن عباد حين استولى يوسف بن تاشفين على إمارته بإشبيلية ونفاه إلى أغمات بالمغرب، ولابن عبدون مرثية طويلة لدولة المتوكل بن الأفطس أمير بطليوس حين فتك به المرابطون على أبواب مدينته، وفيها يسوق ابن عبدون الأمثال من الملوك الغابرة والدول الداثرة وكل ما على الأرض من حيوان كاسر وطير جارح فإن كل ذلك إلى فناء. وأنشد الفصل خواطر شتى فى الزهد وخاصة لأبى إسحق الإلبيرى كما أنشد خوالج وجدانية متنوعة فى التصوف الفلسفى الإسلامى عند ابن عربى وغيره. وتكاثرت المدائح النبوية على لسان كثيرين مثل ابن جابر الوادى آشى. ومنذ سقوط طليطلة فى حجر حَمَلة الصليب يستصرخ أهل الأندلس المغاربة والعرب لرد عدوانهم، ويكثر هذا الاستصراخ منذ القرن السابع الهجرى حين أخذت تسقط المدن الكبرى: قرطبة وأخواتها فى حجور النصارى الشماليين على نحو ما هو معروف من استصراخ ابن الأبار وأبى البقاء الرُّنْدى.

والفصل الخامس خاص بالنثر وكتّابه، ويبتدىء بعرض روائع الأندلسيين فى الرسائل الديوانية مع الترجمة لأهم كتابها الرسميين، وجعلهم جهادهم الدائب للنصارى الشماليين ونزالهم الضارى لهم يكثرون فى تلك الرسائل من تصوير مواقعهم معهم والتحول بتلك الرسائل أحيانا إلى ما يشبه منشورات حربية تستثير حمية أهل الأندلس والمغرب لسَحْق أعداء الدين الحنيف سحقا لايبقى منهم ولايذر، ومن أروع تلك الرسائل المنشور الذى وجهه أبو محمد بن عبد البر إلى أهل الأندلس لحمل السلاح والأخذ بثأر مدينة «بَرْبَشْتر» حين نكّل بها النورمانديون ونصارى الشمال على حين غفلة من أهلها سنة٤٥٦هـ وتوالت مثل هذه الصيحات، ومُزِّق المغيرون شر ممزق. ولابن القصيرة رسالة ديوانية بديعة يصور فيها انتصار ابن تاشفين والأندلسيين فى موقعة الزلاقة وقد بلغ من كثرة قتلى النصارى فيها أن كان الناس يصنعون من رءوسهم صوامع يؤذنون عليها. ولابن أبى الخصال منشور حربى ملتهب للحض على خوض معركة حامية الوطيس، ولابن الخطيب تصويرٌ حماسى لمنازلة أمير غرناطة الغنى بالله النصارى فى جيَّان. وحرىّ بالعرب فى كل عصر أن يرفعوا هذه الرسائل الديوانية الأندلسية وما يماثلها شعارات

لمجدهم الحربى على توالى العصور. وتلى الرسائل الديوانية فى الفصل الرسائل الشخصية مع الترجمة لأهم كتابها النابهين وقد استطاعوا أن يتحولوا بها من باب المناسبات وما يتصل به من مثل التهنئة والعتاب والاعتذار والاستعطاف والاستمناح إلى لوحات أدبية لوصف البطولة الحربية فى جهاد النصارى. وأكثروا من وصف الطبيعة على نحو ما نجد عند ابن خفاجة فى وصف نزهة، وأبى القاسم بن الجد فى وصف مطر بعد جدب شديد،واين أبى الخصال فى وصف ليلة قاسية البرد. وعقدوا فى بعض رسائلهم مناظرات رائعة بين الأزهار والرياحين، عقدها ابن برد وحبيب وأبوعمر الباجى وابن حَسْداى وحوَّل الفقيه ابن سراج رسالة له فى الشفاعة لشخص يسمى الزُّرَيْزير إلى دعابة مرحة أودعها كل ما يميز طائر الزُّرْزُور مما يتصل بريشه وأجنحته وهيئته وأفراخه وأعشاشه، وطارت الرسالة فى الأندلس وحاكاها كثير من الكتاب أمثال أبى القاسم بن الجد وأبى بكر عبدالعزيز بن القبطورنه. وبذلك كله استحالت الرسائل الشخصية فى الأندلس على أيدى كتابها المجلِّين - فى بعض جوانبها - إلى لوحات أدبية بارعة.

وتتميز الأندلس بكثرة الرسائل الأدبية الخالصة، ويعرض الفصل طائفة طريفة منها فى مقدمتها رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد، مع إثبات أن لا علاقة لها برسالة الغفران لأبى العلاء وأن ابن شهيد استوحاها من إحدى مقامات بديع الزمان، ومع بيان أن ابن شهيد استطاع بها أن يبتكر قصة رائعة يدور الحوار بها فيما وراء الطبيعة فى عالم الجن وأن يضمنها نظرات نقدية وغير قليل من الفكاهة المستملحة. ويُلمُّ الفصل برسائل ابن برد الأدبية فى المناظرة بين السيف والقلم وفى وصف بخيل صاحب نخلة شحيح منتهى الشح، وتصوير صديق له يدافع بحرارة عن تفضيله لأُهب الشاء - أو بعبارة أخرى جلود المْعز - على البسط صيفا وشتاء، وقد استوحاها من رسالة سهل بن هرون فى فاتحة كتاب البخلاء للجاحظ وبيانه لفضل البخل وشُحِّ النفس على الجود والكرم. وتحدَّث الفصل عن رسالتى ابن زيدون الهزلية والجدية، وأولاهما فى السخرية - على لسان ولادة مهوى فؤاده - بغريمه فى حبها: ابن عبدوس، وثانيتهما فى استعطاف أبى الحزم جهور حين زَجَّ به فى غياهب السجون، وهما أثران أدبيان بارعان. ويلمُّ الفصل برسالة ابن غرسية الذميمة فى الشعوبية والردود المفحِمة عليها، كما يلمّ بالرسائل النبوية التى ضمَّنها كبار الكتاب من أمثال ابن الجنَّان شوقا حارًّا إلى زيارة الرسول ﷺ وطلب الشفاعة. وتكاثرت المواعظ على نحو ما هو معروف عن منذر بن سعيد وأبى بكر الطرطوشى.

ويعرض الفصل أعمالا نثرية متنوعة لكتاب الأندلس المبدعين، وفى مقدمتهم ابن حزم

وكتابه «طوق الحمامة» والكتاب دراسة تحليلية نفسية بديعة للحب العذرى العفيف وتجارب ابن حزم فيه وتجارب معاصريه فى غير مواربة بل فى صراحة مستحبَّة، صراحة تسمو فيها العاطفة الإنسانية الخالدة، عاطفة الحب، وترتفع عن صغائر الغريزة النوعية. والكتاب تُرجم من قديم إلى اللاتينية وتأثر به دانتى فى كتابه «الحياة المتجددة» وبالمثل تأثر به بعض شعراء الإسبان.

ومن الأعمال النثرية الأندلسية الرائعة كتاب المقتبس لابن حيان فى تاريخ الدولة الأموية بالأندلس، وهو نموذج فريد فى كتابة التاريخ كتابة تحليلية بصيرة لامثيل لها عند العرب قبله ولابعده، وعلى شاكلته كتاب الذخيرة لابن بسام فى كتابة التراجم الأدبية لعصره كتابة تاريخية تحليلية نقدية بارعة. ومن الطُّرَف النثرية الأندلسية مذكرات الأمير عبدالله بن بُلُقِّين آخر أمراء غرناطة من بنى زيرى، وفيها يتحدث عن إمارة أسرته بتلك المدينة، وكذلك عن إمارته قبل نفى يوسف بن تاشفين له إلى المغرب، وهو حديث صريح كل الصراحة حتى لتصبح تلك المذكرات شبيهة بكتب الاعترافات عند الغربيين.

ومن أروع الأعمال النثرية الأندلسية، بل العربية عامة، قصة حى بن يقظان لابن طفيل الوادى آشى القيسى وهى قصة رمزية، أراد بها ابن طفيل التوفيق بين الفلسفة والدين، وقد أدارها على طفل نشأ فى جزيرة مهجورة نما فيها وحده ونما معه عقله، حتى أدرك حقائق الأشياء على نحو ما يدركها الفلاسفة، واستنبط أن للكون خالقا وشعر بحاجته إلى الاتحاد به، وما زال يحاول ذلك حتى تحقق له هذا الاتحاد. وابن طفيل بذلك يثبت أن التأمل الفكرى المحض، كالإيمان الحقيقى الصادق عن طريق الأنبياء، يؤدى مثله إلى الاتصال بالله والاتحاد به، وإذن فلا تعارض ولا تنافر بين الفلسفة والدين. وتصادف أن عثر غرسية غوميس فى مخطوطة موريسكيه بمكتبة الإسكوريال فى مدريد كتبت فى القرن السادس عشر على قصة تسمى قصة الصنم والملك وابنته تتشابه فى إطارها الخارجى مع قصة ابن طفيل التى كتبها فى القرن الثانى عشر، وبدلا من أن يستنتج أن مؤلف هذه القصة الموريسكية اطلع على قصة حى بن يقظان أو استلهمها إما فى أصلها العربى وإما فى ترجمة لاتينية أو قشتالية قديمة زعم العكس وأن ابن طفيل هو الذى استلهم هذه القصة أو أصلها القديم الذى كان شائعا فى زمنه، وهكذا بنى زعمه على مقدمات وهمية. وتنبه جوتييه فى مقدمة ترجمته الثانية لقصة حى بن يقظان لما وقع فيه غرسية من خطأ. وبالمثل أخطأ بالنثيا فى توهمه تأثر ابن طفيل بالمسيحية فى القصة وأن يقظان فيها رمز الله وبالتالى «حىّ» رمز المسيح ابن الله، والقصة تكتظ بالآيات

والتعبيرات القرآنية والروح الصوفية الإسلامية. وهى بحق عمل فريد أصيل لابن طفيل لاسابقة له فى الآداب العالمية، وقد تأثر به الأدب الإسبانى كما يتضح فى قصة الصنم والملك وابنته الموريسكية التى ذكرها غرسية وأيضا فى قصة الناقد (الكريتيكون) الإسبانية لجراثيان المنشورة فى منتصف القرن السابع عشر والتى يقول منندث بيلايو عنها إنها تتطابق مع قصة حى بن يقظان تطابقا واضحا. وقد كتب على هُدَاها فى سنة ١٧٠٩ الكاتب الإنجليزى دانييل ديفو قصته المعروفة: «روبنسن كروزو».

وتحدث الفصل بعد ذلك عن فن المقامات بالأندلس والتحامه بمقامات الحريرى المعتمدة على الكدية أو الشحاذة، مع عرض المقامات اللزومية للسرقسطى وخصائصها فى الأسلوب والمضمون، ومع بيان تأثير هذا الفن فى الأدب الاسبانى خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر للميلاد، إذ نشأ عند الاسبان - على هداه - ما سُمِّى بالقِصص البيكارسية أو قصص الشطارة والشطار، وبطلها «البيكارو» يعيش - كبطل المقامات - على التسول والشحاذة مستخدما لذلك حيلا وخُدَعا شتى.

وألمَّ الفصل برحلات الأندلسيين مبينا أنها تعددت عندهم بسبب أدائهم لفريضة الحج سنويا، وللإلمام بمراكز الثقافة فى المشرق، وللسفارة الخارجية إلى ممالك النصارى الشمالية، وللسفارة الداخلية إلى الإمارات الأندلسية، ولزيارة ماوراء البلدان العربية فى آسيا وشرقى أوربا، ولمرافقة أمراء غرناطة فى عهد الأندلس الأخير فى رحلاتهم وكذلك فى مرافقة بعض سلاطين المغرب فى رحلاتهم. ومن أطرف رحلات الأندلسيين رحلة ابن جبير المتميزة بحسن العرض وجمال الأسلوب المرسل العذب.

وهذه الدراسة المستفيضة لتاريخ الأدب العربى فى الأندلس أثناء ثمانية قرون طوال جعلتنى أرجع إلى كل ما استطعت الاطلاع عليه من المصادر والمراجع الأندلسية المتصلة بكتب التاريخ والتراجم وكتب علوم الأوائل والعلوم اللغوية والدينية وكتب الشعر ودواوينه وكتب النثر وأعمال كتّابه، كما رجعت إلى طائفة من كتب المستشرقين والباحثين محاولا - بقدر ما أستطيع - أن أرسم هذه الصورة المستوعبة لأدب الأندلس مع تصحيح الأحكام المخطئة التى من شأنها الغَضّ من مكانته الرفيعة ومن المدى الخطير الذى أثّر به فى الأدب الإسبانى والآداب الأوربية. والله - وحده - ولى الهُدَى والتوفيق.

القاهرة فى أول مايو سنة ١٩٨٩م.

شوقى ضيف

الفصل الأول

السياسة والمجتمع

١

التكوين الجغرافى والبشرى(١)

تقع شبه جزيرة إيبيريا فى الجنوب الغربى من القارة الأوربية، وتتصل بالقارة عن طريق جبال شاهقة وعرة، هى جبال البرينيه التى تكوِّن حاجزا منيعا بينها وبين أوربا، ولا يمكن لأحد اجتيازها إلا من ممرين يخترقانها فى الشرق والغرب، وبينهما ممرات متعرجة ملتوية ضيقة سماها العرب باسم الأبواب مما جعلهم يسمون تلك الجبال جبال الأبواب. وفى وسط الجزيرة هضبة كبرى تنحدر نحو الشرق مطلَّةً على البحر المتوسط مهد الحضارات القديمة الكبرى: المصرية والفينيقية واليونانية والرومانية، كما تنحدر نحو الغرب مطلة على المحيط الأطلسى، وهو يطوِّق شماليها الغربى فى خليج بسكاى ويتصل فى جنوبيها بالبحر المتوسط عن طريق مضيق الزقاق الذى سُمِّى بعد الفتح العربى إلى اليوم باسم مضيق جبل طارق. وتمتد فى هضبة إيبيريا الوسطى سلاسل جبال من الشرق إلى الغرب تصعِّب التواصل بين أجزائها فى الداخل. وبها أنهار كثيرة وخاصة فى الغرب حيث تصب فى المحيط، وهى من الشمال إلى الجنوب نهر المنيو ثم نهر دُوَيرة، وهو كثير الفروع غزير المياه خصب التربة، ويليه نهر تاجُه وتقع عليه مدريد وطليطلة ويصب عند أشبونة، ثم نهر آنه وتقع عليه بطليوس، فنهر الوادى الكبير وتقع عليه قرطبة وإشبيلية ومنه يتفرَّع نهر شنيل مادًّا ذراعا له إلى غرناطة، وجنوبيه نُهَيْر لكه ويصب فى المحيط بالقرب من قادس. وتصب فى البحر المتوسط أنهار أقل أهمية ما عدا نهر إبرو فى

---

(١) انظر فى التكوين الجغرافى لإيبيريا كتب الجغرافية العربية القديمة وخاصة التراث الجغرافى الأندلسى والتعريف به فى كتاب الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس للدكتور حسين مؤنس. وراجع فى التكوين البشرى لإيبيريا الصفحات الأولى من كتاب فجر الأندلس للدكتور مؤنس وكتاب دولة الإسلام فى الأندلس لمحمد عبد الله عنان وكتاب الإسلام فى إسبانيا للدكتور لطفى عبد البديع.

الشمال وهو متعدد الفروع غزير المياه، وينبع من شرقى إقليم قشتالة ويمر بإقليم أراجون فإقليم سرقسطة فى الثغر الأعلى فإقليم قطالونية ويصب عند طرطوشة جنوبى بَرْشلونة. ويليه جنوبا نُهَيْر الوادى الأبيض ويصب عند بَلَنْسية، فنهير شُقْر بأوديته وفروعه الخصبة ويصب شمالى دانية، ثم نهير شَقورة وعليه تقع مرسية، ويليه نهير أندرَش ويصب عند المرية، فنهير البُشَرَّات ويصب عند شَلَوْبينيه.

والمناخ فى إيبيريا متباين لاختلاف أقاليمها، فهو فى الجبال وشمالى البلاد بارد، وهو دافئ فى الوديان بالوسط وفى الجنوب. ومناخ الأقاليم فى الشرق مناخ البحر المتوسط وتخضع له تلك الأقاليم فى نباتاتها وحيواناتها، بينما تخضع الأقاليم فى الغرب لمناخ المحيط الأطلسى ونباتاته وحيواناته وغاباته. وإيبيريا لاتساع مساحتها وقيام الجبال والهضاب فيها متعددة المناخ، فمناطق جبلية بها غابات وأحيانا معادن وبسفوحها مراع، ووديان وسهول بها زروع وبساتين، وهضاب بها قفار ومراع، وأحواض أنهار بها حبوب وبقول وحدائق ذات بهجة. ومن يعيشون فى تلك الأحواض وما بها من زرع وضَرْع تجرى حياتهم سهلة هيِّنة، ومن يعيشون فى الجبال يتأثرون بوعورتها ومن يعيشون فى سفوحها والقفار ومراعيها يتأثرون بما يتأثر به أهل البوادى. وعلى هذه الشاكلة بينما نجد فى إيبيريا أهل مدن متحضرين نجد أهل جبال بائسين كما نجد رعاة متبدين، مما حال من قديم بين أهل إيبيريا وبين قيام وحدة جغرافية تؤلف بينهم وتجمع أشتاتهم.

وهذا الاختلاف فى أقاليم إيبيريا رافقه - منذ أقدم الأزمنة - اختلاف فى العناصر والأجناس البشرية التى كوَّنت سكانها، وأول من سكنها الإيبيريون وهم قبائل من غالة والبسك، وسرعان ما أخذت أجناس وأمم تفد عليها، وكان أولُ الوافدين الفينيقيين، وفدوا عليها فى القرن العاشر قبل الميلاد للتجارة، وأقاموا بشواطئها الجنوبية مؤسسين على البحر المتوسط مدينة مالقة وعلى المحيط مدينة قادس، ووفد عليها بعدهم الإغريق فى القرن الخامس قبل الميلاد وأقاموا بشواطئها الشرقية الشمالية وهم الذين سموها إيبيريا وقد أسسوا بها مدينة بَرْشلونة على البحر المتوسط، ووفد عليها بعدهم بنحو قرنين القرطاجنيون وأسسوا فى شرقيها مدينة قرطاجنة. واستولت عليها روما فى أواسط القرن الثانى قبل الميلاد، وكان جيشهم الفاتح لها خليطا من شعوب أوربية مختلفة إيطالية وغير إيطالية واستوطنتها بعض أسر رومانية، وأطلقت عليها روما اسم إسبانيا، وأشاعت فيها حضارتها ولغتها حتى إذا تنصرت أدخلتها معها فى النصرانية. وظلت خاضعة لها، حتى

إذا أقبل القرن الخامس الميلادى وأقبلتْ معه غارات المتبربرين من الألمان وغيرهم على الدولة الرومانية الغربية وقضت عليها كان من سابقيهم إلى إسبانيا قبائل، الوندال، وزحزحتهم إلى الجنوب قبائل ضخمة من القوط وسُمِّى باسمهم: «ڤاندالوسيا» وعرَّب الفاتحون من العرب هذا الاسم إلى الأندلس وسموا به جميع إيبيريا من الجنوب إلى أقصى الشمال. وظل القوط يحكمون البلاد متخذين طليطلة - كما اتخذها الرومان - عاصمة لهم، ونزلها فى عهد القوط يهود كثيرون، وازداد عددهم بها حتى كانت لهم مدن خاصة بهم مثل أليُسانة قرب قرطبة وكثروا فى إلبيرة وغرناطة.

وأضاف الفتح العربى إلى هذه العناصر البشرية الكثيرة فى المجتمع الإيبيرى عناصر جديدة آسيوية من العرب وإفريقية من البربر. وكان عدد العرب فى الفتح لا يتجاوز ثمانية عشر ألفا، وسموا باسم البلديين تمييزا لهم من فوج عربى نزل الأندلس سنة ١٢٣ للهجرة مع واليها بلج بن بشر القُشَيْرى، وكان تعداده عشرة آلاف وسموا باسم الشاميين تمييزا لهم من البلديين، ونزلها فى سنة ١٢٥ للهجرة مع واليها أبى الخطار حسام بن ضرار الكلبى فوج عربى ثان، وسمع العرب بخيراتها فارتحل إليها كثيرون منهم. وكانت كثرة الفاتحين من البربر حتى إذا تم الفتح أخذت بعض القبائل والعشائر البربرية تهاجر إلى الأرض الجديدة واتخذوها سكنا ومقاما لهم. وبجانب البربر والعرب نجد عنصرا ثالثا فسح له حكام الدولة الأموية فى الأندلس والمقام بها منذ أفضى زمام تلك الدولة إلى الحكم الربضى (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) إذ استكثر من شراء الصقالبة، وهم رقيق أوربى كان يُخْصَى ويباع، وأصل نشأته فى بلغاريا شرقى أوربا، ولذلك قيل له صقلبى، وعم الاسم فى الأندلس الرقيق الأوربى جميعه من ألمانيا وغير ألمانيا. وكان حكام الدولة الأموية يشترون هؤلاء الصقالبة شبانا ويدخلونهم فى الإسلام ويعلمونهم العربية وآداب المجتمع الأندلسى ويدربونهم على الفروسية واتخذوهم حرسا وخدمًا فى قصورهم، وألحقوا نفرا منهم بجيوشهم وازدادوا حتى بلغوا أكثر من ثلاثة عشر ألفا فى عهد عبد الرحمن الناصر، وسنراهم يستقلون ببلنسية ودانية والمرية فى عهد ملوك الطوائف.

وواضح أنه شاركت فى التكوين البشرى لإيبيريا أجناس كثيرة منها الآسيوى والإفريقى والأوربى، وبذلك أصبحت فى دمائها القارات القديمة الثلاث، مما حال دون قيام وحدة سياسية فيها، إذ أخذ كل إقليم من أقاليمها يشعر أن له وجودا ذاتيا وأن من حقه التمتع بالاستقلال، ومن ينظر إلى خريطتها اليوم يرى فيها أمتين مستقلتين تمام الاستقلال: الأمة الإسبانية والأمة البرتغالية، ولكل منهما نظامها السياسى الخاص.

٢

الفتح - عصر الولاة

(أ) الفتح[1]

أتمَّ موسى بن نصير والى المغرب منذ سنة ٨٦ هـ/٧٠٦ م فتح بلاد المغرب حتى المحيط الأطلسى غربا وجبال السوس الأقصى جنوبا، واتبع موسى سياسة حميدةً: أن يرسل مع الجيوش الغازية طائفة من الفقهاء ليدخلوا البربر فى الدين الحنيف ويلقنوهم تعاليمه، مما عمل على تعريبهم سريعا، وأسس فى بلاد المغرب الأوسط ولاية جعل حاضرتها تلمسان، وأسس فى بلاد المغرب الأقصى ولاية ثانية جعل حاضرتها طنجة المطلة على مضيق الزقاق، وولَّى عليها أحد قواده من البربر هو طارق بن زياد. وأبقى موسى على سبتة شرقيها على الزقاق لواليها الرومى البيزنطى يوليان، وكان قد سارع إلى موسى حين وصوله إلى إقليم طنجة سنة ٨٩ هـ/٧٠٩ م فأعلن له ولاءه وطاعته. ويُظن أنه أغراه حينئذ بغزو إيبيريا، وكان ملكها غيطشة Witiza قد توفى سنة ٧٠٨ م وأبى الأشراف أن يخلفه على العرش أحد أبنائه، وأجلسوا عليه لذريق Roderic حاكم قرطبة، ونشبت حروب بينه وبين أبناء غيطشة، وانتصر عليهم، ويبدو أنهم استغاثوا بيوليان حاكم سبتة البيزنطى حليف أبيهم، ورأى أنه لا قِبلَ له بلذريق وفكَّر أن يستعين عليه بالعرب، فأغرى موسى بن نصير - حين لقيه فى طنجة - بغزوها. أما ما يقال من أن دافع يوليان إلى حَث موسى على هذا الغزو مسألة شخصية هى عدوان الملك الجديد لذريق على ابنته فى قصره وأنه أراد أن يثأر لانتهاك عرضه بحض العرب على غزو إيبيريا ففى رأينا أن ذلك من باب الأساطير، والمعقول أن يكون الباعث الحقيقى لموسى بن نصير على غزوها

---

(١) انظر فى الفتح الصفحات الأولى من أخبار مجموعة (طبع مدريد) وتاريخ افتتاح الأندلس لابن حبيب وأيضا لابن القوطية والجزء الثانى من البيان المغرب لابن عذارى والروض المعطار لابن عبد المنعم الحميرى وتاريخ ابن خلدون (طبع مطبعة بولاق) ١١٦/٤ وما بعدها ونفح الطيب (طبعة إحسان عباس) ٢١٥/١ - ٢٢٠، ٢٣١ وما بعدها ونزهة المشتاق للإدريسى بتحقيق دى جويه ودوزى (طبع ليدن) ص ١٧٧ وتاريخ إسبانيا الإسلامية لبروفنسال ٨/١ وما بعدها والصفحات الأولى من دولة الإسلام فى الأندلس لمحمد عبد الله عنان وفجر الأندلس لحسين مؤنس ص ٥٢ وما بعدها والتاريخ الأندلسى لعبد الرحمن الحجى ص ٤٣ وما بعدها.

أو بعبارة أدق على فتحها أنه سأل عنها وعرف كثيرا من أحوالها الجغرافية والسياسية وأنْ ليس بها جيش حقيقى يحميها، فتطلع للاستيلاء عليها ونشر الإسلام بها، وشاور فى ذلك الخليفة، وكان الوليدَ بن عبد الملك، وكان مثله شديد الطموح للفتوح وكانت جيوشه تتغلغل فى أقصى الشرق: فى أواسط آسيا وفى الهند، فشجع موسى، غير أنه أمره بالتمهل حتى يرسل حملات استكشافية، يتبين بها أين ينزل الجيش الفاتح وكيف يتحرك. وندب موسى لهذه المهمة قائدا من قواده هو طريف فعبر - مع أربعمائة من الجند ومائة فارس - إلى الشاطىء الإيبيرى فى سنة ٩١ هـ/٧١٠ م ونزل فى موضع أقيمت به بلدة سميت باسمه، ولا تزال قائمة إلى اليوم، وقام طريف بعدة غارات تبين له منها أنه لا توجد بجنوبى إيبيريا وسائل دفاع تحميها. واستدار العام فرأى موسى أن يرسل حملة أكثر عددا بقيادة طارق بن زياد والى طنجة، فعبر فى سنة ٩٢ هـ/٧١١ م مضيق الزقاق بجيش عداده سبعة آلاف، وتجمعوا عند جبل سُمِّى فيما بعد إلى اليوم جبل طارق. ويقال إن عبور هذه الحملة للمضيق - مثل عبور سابقتها - إنما كان بسفن أعدَّها يوليان، ويدحض ذلك أنه كان لموسى بن نصير والعرب حينئذ أسطول يحمى شواطىء إفريقيا من الأسطول البيزنطى وأقيمت له دار صناعة كبيرة بتونس، وما دام موسى قد عزم على فتح إيبيريا فلابد أنه أمر أسطوله بالتوجه غربا ليعبر - بحملة طريف ثم بحملة طارق - مضيق الزقاق، أما قصة عبور الحملتين على سفن يوليان فلا يؤيدها منطق الأحداث، وهى - فى رأينا - تكملة لما نسجه الخيال الشعبى من سخط يوليان على لذريق بسبب اعتدائه المزعوم على ابنته. ومما يتصل بهذا القصص الأسطورى عن فتح الأندلس الخطبة البليغة التى أضيفت إلى طارق، وقيل إنه ألقاها على جنوده بعد عبورهم مباشرة مفتتحا لها بقوله: «أيها الناس! أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم فليس لكم والله إلا الصدق والصبر» والخطبة من روعة البيان بحيث يبعد أن ينشئها مغربى تعرَّب حديثا مثل طارق، غير أنها شاعت بين الأندلسيين شيوعا أعدَّ الخيال الشعبى ليضيف إليها أسطورة إحراق طارق للسفن التى جاز بها مع جنده إلى الشاطىء الإيبيرى، وهى لو صحت لكانت عملا طائشا، وهو عمل لا يمكن أن يقدم عليه أى قائد يقدر مسئولياته وتبعاته. ومما يؤكد أنها مختلقة ومن نسج الخيال الشعبى أنها لم ترو فى كتب التاريخ الأندلسى طوال خمسة قرون وأن أول من رواها الإدريسى الجغرافى المتوفى سنة ٥٦٠ للهجرة فى كتابه نزهة المشتاق.

وانحدر طارق بجيشه غربا مارًّا برأس بارز على الزقاق، أقيمت به - فيما بعد - مدينة الجزيرة الخضراء، وتابع مسيرته على المحيط، وعلم أن لذريق يعدّ جيشا للقائه، فأرسل إلى موسى بن نصير يستمدُّه، فأمدَّه بخمسة آلاف بقيادة طريف، جازوا المضيق فى سفن عربية، ولم يلبث طارق أن التقى مع لذريق فى السهول المنبسطة شرقى قادس وهزمه هزيمة ساحقة، جعلت كثيرا من مدن إيبريا تفتح أبوابها لطارق وجنده، بينما فرَّ لذريق إلى الشرق، وقُتل على نهر شقورة. وأرسل طارق أحد قواده إلى قرطبة فاستولى عليها. وتمادى طارق فى الفتح حتى طليطلة عاصمة لذريق والقوط، فألقت له عن يد، وفرَّ منها الأسقف والقساوسة يحملون مذبح كنيستها، ولحقت بهم كتيبة عربية عند بلدة صغيرة واستولت منهم على المذبح وذخائر كثيرة، وقيل لهم إنه مائدة سليمان، فسميت البلدة بعد ذلك باسم المائدة. وأخذت تشيع - منذ فتح طليطلة - أسطورة شعبية، مؤداها أنه كان بها بيت مطلسم عليه أقفال كثيرة أمر بفتحه لذريق، فوجده فارغا إلا من تابوت مغلق وجد فيه لفائف مدرجةً رسمت فيها صور عرب مدججين بالسلاح وفى أعلاها كتابات بالعجمية تشير إلى أن أمة الرجال المصورين ستغلب على الأندلس حين تكسر أقفال هذا البيت، وواضح أنها أسطورة مختلقة ولا أساس لها من حقيقة.

ولما بلغ طارق طليطلة فى وسط إيبيريا رأى موسى بن نصير أن يسير إليه فى قوة كبيرة ليشد أزره ويثبِّت فتحه ويمكن له، وحين نزل بجنده الجزيرة الخضراء بنى بها مسجدا، وظل كلما دخل بلدة كبيرة أسس بها بيتا من بيوت الله، وكان قد استقدم معه مهندسا معماريا لبناء تلك البيوت أو المساجد، واتبع فى إيبيريا ما اتبعه فى المغرب من تكليف بعض الفقهاء الداخلين معه تعليم أهل إيبريا القرآن الكريم وفرائض الإسلام. ومضى بجيشه غربا يتمم فتوح طارق واستولى على شذونة وإشبيلية وقرمونة وماردة ولقنت وانتهى إلى طليطلة، ويقول بعض المؤرخين خطأ إنه كان قد امتلأ غيظا وحقدا على طارق لما فتح الله على يديه من البلاد، وزعموا أنه حين لقيه - بدلا من تهنئته بانتصاراته - شدَّ وثاقه وهمَّ بقتله، وكل ذلك يخالف الأحداث، ولم يكن موسى من الطيش والحمق بأن يصنع ذلك بطارق الجدير بكل شكر وثناء. ويدل أقوى الدلالة على صحة ما نقول أن طارقا ظل الساعد الأيمن فى استكمال الفتح.

وأقام موسى مع طارق فى طليطلة طوال الشتاء فى سنتى ٩٤، ٩٥ هـ/٧١٣ - ٧١٤ م. وضرب للبلاد عملة جديدة تحمل على أحد وجهيها شهادة أن لا إله إلا الله، وبذلك كان أول عربى حكم قطرا أوربيا، وجاءه نبأ بانتقاض إشبيلية فأرسل إليها ابنه عبد العزيز

فأخمد الانتقاضة، واستولى غربيها على لَبْلة وباجة. وكان مما كتب به موسى بن نصير إلى الخليفة يبشره بالفتوح قوله: «إنها ليست الفتوح ولكنه الحَشْر ولكنها الجنة». وخرج فى ربيع سنة ٩٥ هـ/٧١٤ م - ومعه طارق - بالجيش إلى الشمال لإيبيريا قاصدا سرقسطة مفتاح منطقة وادى نهر إبرو، واستولى عليها كما استولى على لاردة شرقيها، وجاءه حينئذ أمر من الخليفة الوليد بن عبد الملك بوفوده عليه مع طارق لتقديم تقرير مفصل إليه عن الفتوح، ورأى أن يؤخر الوفود عليه بضعة أشهر حتى يستكمل فتح إيبيريا، إذ رأى بلدانها ومعاقلها فى الشمال تستسلم له دون مقاومة تذكر. وللإسراع بالفتح أمر طارقًا أن يتجه بجنده إلى الشمال الشرقى فاستولى على أراجون، واتجه موسى إلى الشمال الغربى، ولحق به طارق بعد استيلائه على أراجون، واستولى فى طريقه على ليون بمنطقة قشتالة، وتوغل موسى فى مسيرته وعبر جبال كنتبريه، واستولى على حصن أُبَيْط فى أقصى الشمال، ووصل إلى خليج بسْقاية (بسْكاى) على المحيط. وأحس أنه أنهى فتح إيبيريا إذ استولى مع طارق على أقاليم قطالونيا فى الشرق وأراجون والبشكنس وقشتالة وجليقية فى الشمال إلى أقصى الغرب. فرأى أن يلبِّى مع طارق أمر الخليفة بوفودهما عليه، وأناب عنه فى حكم البلاد ابنه عبد العزيز. ومن سوء حظهما أن الموت كان قد أسرع إلى الخليفة الوليد، وخلفه أخوه سليمان فلم يحسن لقاء الفاتحين العظيمين، ولم يعودا بعد ذلك إلى إيبيريا، ولا عُرف مصيرهما. ويقال إن موسى حجَّ مع سليمان سنة ٩٧ هـ وإنه توفى بالطريق فى المدينة أو فى وادى القرى، أما طارق فيبدو أنه عاد إلى موطنه مكتفيا بما أدى فى سبيل الله من جهاد وفتوح عظيمة.

وكان موسى وطارق قد استوليا على أهم البلدان فى إيبيريا، وبقيت فيها بلدان وجهات لم تخضع لهما، فأخضعها ابنه عبد العزيز فى ولايته القصيرة قبل مقتله: (٩٥ - ٩٧ هـ). وكان قد اتخذ إشبيلية عاصمة له، واتجه منها إلى الغرب فاستولى على باجة ويابُرة وشَنْترين وقُلُمْرية، وبذلك استكمل فتح غرب إيبيريا، وكانت لاتزال فى الجنوب الشرقى جهات وبلدان لم تخضع للعرب خضوعا تاما، فرأى عبد العزيز أن يخضعها، وبدأ بمالقة فاستولى عليها كما استولى على غِرناطة، وولى وجهه نحو إقليم مرسية، ولم تكن أنشئت فيه إنما أنشئت فيما بعد، وكانت أُريولة عاصمة هذا الإقليم، وكان يحكمه قائد قوطى تسميه المصادر العربية تدمير، فامتنع فى مدينته وصمد لحصار المسلمين، حتى إذا لم يبق فى قَوْس صبره منزع لجأ إلى حيلة، هى نشر نساء مدينته لشعورهن ووقوفهن على سور المدينة وبأيديهن القُضْبان إيهاما للمسلمين بأنه لايزال فى المدينة عدد

ضخم من الرجال البواسل المتهيئين لمواصلة القتال، وخرج هو وطلب لقاء قائد المسلمين عبد العزيز، فاستأمنه، فأمّنه، وعقد له الصلح ولأهل بلده على إتاوة وجزية يؤدونها. وفى رأينا أن هذه الحيلة للاستئمان تُعَدُّ - بدورها - من أساطير الفتح الشعبية الكثيرة التى كانت تتداول فى إيبيريا. إذ يكفى أن يخرج هذا القائد بعد حصار طويل لقائد المسلمين المحاصرين لبلدته ويطلب الأمان له ولمدينته فيجاب إلى طلبه كما حدث كثيرا فى الفتوح الإسلامية.

(ب) عصر[1] الولاة (٩٥ هـ/٧١٤ - ١٣٨ هـ/٧٥٥ م)

عملت عوامل متعددة على كثرة الاضطرابات فى هذا العصر، منها كثرة العناصر التى تكوَّن منها الشعب فى الأندلس، إذ كان منه أسبان مختلفو الجنسيات كما أسلفنا ويهود، وحلَّ به بربر كثيرون وهم ينقسمون إلى قبيلتين كبيرتين: البتر والبرانس، كما حلَّ به العرب وهم ينقسمون بدورهم إلى عدنانية أو مضرية ويمنية أو قحطانية، وكانت بينهما خصومات قديمة أشعلتها فى العصر الأموى حروب قيس المضرية وكلب اليمنية فى موقعة مرج راهط، واستعادت القبائل العربية فى الأندلس هذه الخصومات سريعا. وكان البربر البُتْر يأخذون صفَّ العدنانية والقيسية، بينما البربر البرانس كانوا يأخذون صفَّ القحطانية وكلب اليمنية، وكان الوالى على الأندلس إذا كان يمنيا أو كلبيا تعصب لقومه، وبالمثل إذا كان عدنانيا أوقيسيا مماهيأ لكثرة الاضطرابات والقلاقل فى تلك البلاد. وعامل ثان هيَّأ لها هو كثرة تعيين الولاة هناك حتى بلغوا فى نحو أربعين عاما اثنين وعشرين واليا، فلم يكن الوالى يشعر بشىء من الاستقرار. وعامل ثالث هيأ بدوره لكثرة الاضطرابات فى الأندلس هو بعدها عن السلطة المركزية فى دمشق، فكان الخلفاء الأمويون لا يعرفون شئونها معرفة واضحة، مما جعلهم يكلون تعيين ولاتها إلى ولاتهم على المغرب، مع أنها كانت أكثر من المغرب ثراء وخراجا، وكانت تنعم بغير قليل من الحضارة، بينما أهل المغرب كانوا - وخاصة فى الداخل بعيدا عن الشواطئ - بدوا غير متحضرين، وكان أهل الأندلس يأنفون من هذه التبعية، والخليفة الوحيد الذى تنبه إلى

---

(١) انظر فى ولاة الأندلس بعد الفتح كتاب الأخبار المجموعة وافتتاح الأندلس لابن القوطية والجزء الثانى من البيان المغرب لابن عذارى وتاريخ ابن خلدون ١١٨/٤ ونفح الطيب ٢٣٤/١ وما بعدها و١٤/٣ وما بعدها وفجر الأندلس لحسين مؤنس ص ١٢٢ وما بعدها والتاريخ الأندلسى لعبد الرحمن الحجى ص ١٣١ وما بعدها.

ذلك هو عمر بن عبد العزيز، إذ فصل ولاية الأندلس عن ولاية المغرب، وولّى عليها سنة مائة للهجرة السمح بن مالك، فطبق سياسة عمر فى إنصاف الإسبان المغلوبين والمساواة فى الحقوق بينهم وبين المسلمين من العرب والبربر، ودفع الناس بقوة إلى الجهاد فى سبيل الله وراء جبال البرينيه فى غالة (فرنسا) وتوالت انتصاراته حتى مدينة تولوز، وثبّت أقدام المسلمين فى ولاية سبتهانية جنوبى فرنسا وعاصمتها أُرْبونة بحذاء البحر المتوسط، ولم يلبث ان استشهد فى آخر سنة ١٠٢ للهجرة.

وكان عمر بن عبد العزيز قد توفى قبل السمح فعادت الأندلس تابعة لوالى المغرب، فولى عليها عنبسة الكلبى، واقتدى بالسمح فى متابعة الجهاد وراء جبال البرينيه واستولى على قَرْقشونة فى داخل سبتهانية، وتوغل فى وادي نهر الرون حتى سانس على بعد ٧٠ كيلو مترا من باريس واستشهد سنة ١٠٧ وولّى عليها والى المغرب يحيى بن سلمة الكلبى وظل عليها حتى سنة ١١٠ وكان شديد العصبية - مثل عنبسة الوالى قبله - لقبيلته كلب اليمنية، ولقيت قيس المضرية منها الأمرين، وولى بعدهما ولاة قيسيون كالوا لكلب الصاع صاعين أهمهم الهيثم الكلابى وله بلاء حسن فى الجهاد بأرض غالة، ويقال إنه توغل فيها حتى ماسون شمالى ليون. ووليها عبد الرحمن الغافقى فأعاد إلى الأندلس الهدوء والنظام وقاد جيشا كبيرًا لغزو غالة، وواصل انتصاراته بين نهرى جَرونة ودوردونى، ومضى فى اتجاه اللوار وكان شارل مارتل قد حشد له جيشا كثيفا من الفرنج والألمان وشعوب الشمال الأوربى، والتقى به لسنة ١١٤ هـ/٧٣٢ م بين تور وبواتييه على بعد مائتى كيلو مترًا من باريس، وصمد المسلمون عشرة أيام ينازلون أعدادا ضخمة، وفجأهم استشهاد قائدهم عبد الرحمن فى المعركة فانسحبوا. ووَلِيَ الأندلس عبد الملك بن قطن الفهرى لمدة سنتين وخلفه عليها سنة ١١٦ عقبة بن الحجاج القيسى وظل يليها خمس سنوات محمود السيرة، ورابط فى جليقية بأقصى الشمال الغربى من إيبيريا حتى لم يبق فيها قرية إلا فُتحت ماعدا حصن بلاى بالقرب من خليج بسكاى لوعورة الطريق إليه، وتخطى جبال البرينيه إلى سبتهانية وعسكر بجيشه فى عاصمتها أربونة وتقدم على نهر الرون واستشهد فى قرقشونة. وباستشهاده يتوقف هذا المد العربى الإسلامى وراء جبال البرينيه فى غالة (فرنسا) بعد استمراره عشرين سنة أو تزيد، سجل فيها العرب صفحات انتصار مجيدة بجانب انتصاراتهم وفتوحاتهم العظيمة فى إيبيريا.

وإنما عاق العرب عن المضى فى هذه الفتوحات والانتصارات ما أفضوا إليه فى الأندلس - منذ أول العقد الثالث فى القرن الثانى - من عصبيات عنيفة أخذت تضطرم

اضطراما شديدا لا بين العرب المضرية واليمنية فحسب، بل أيضا بين العرب أنفسهم والبربر وكانت قد اندلعت العصبية بينهما فى المغرب، واضطر هشام بن عبدالملك أن يرسل جيشا ضخما بقيادة كلثوم بن عياض القشيرى وابن أخيه بلج بن بشر لإخماد ثورة ضارية للبربر، فهزم الجيش مرارا، واضطرت قوات منه تبلغ عشرة آلاف كان يقودها بلج بن بشر أن تلجأ إلى مدينة سبتة، وحاصرها البربر وأصابها جوع قاتل فكاتب بلج بن بشر والىَ الأندلس أن يسمح له بدخولها مع جنده، فتردد، وكان قد تطاير شرر كثير من فتنة البربر بالمغرب إلى إخوانهم فى الأندلس لإبعاد العرب لهم عن أداة الحكم ولما ينزلونه بهم من عسف، فثاروا فى بلدان كثيرة هناك وخشى الوالى مغبة ذلك فسمح لبلج بن بشر أن يدخل الأندلس سنة ١٢٣ بآلافه العشرة. وتعاون مع الوالى فى القضاء على ثوراتهم، مما جعلهم يتنادون – وخاصة فى شمال البلاد – بالرجوع إلى موطنهم فى المغرب. وكانت من البربر كثرة فى جليقية وحوض نهر الدُّوَيْرة وفى الأراضى الواقعة شمالى نهر تاجُه، فتركوا تلك الديار جميعا تَنْعَى أهلها، وكان لهذه الهجرة البربرية الجماعية أسوأ الأثر على مستقبل الإسلام لا فى الأندلس وحدها بل أيضا فى ساحات الجهاد والفتوح خلف جبال البرينيه فى غالة، فقد توقف هذا الجهاد، وليس ذلك فحسب، إذ ضاعت جليقية وأراضى حوض نهر الدويرة أو أشرفتا على الضياع، فقد تركها المغاربة لنصارى الشمال، وأوشك أن يكون ما تركوه وخسره الإسلام نحو ربع إيبيريا، تركوه للنصارى دون حرب أو ما يشبه الحرب، ليتجمع النصارى فيه ويعمروه ويغيروا على المسلمين منه طوال القرون التالية ويخرجوهم من ديارهم وفردوسهم الأرضى.

ولم يلبث بلج بن بشر أن اشتبك بعد ذلك مع جنوده الشاميين فى حروب مع والى الأندلس وجنوده من العرب الفاتحين، وسموا أنفسهم البلديين تمييزا لهم من هؤلاء الشاميين الطارئين. وانتصر بلج ولم يلبث أن توفى وعادت الحرب جذعة بين العرب الشاميين والعرب البلديين ومن انضم إليهم من البربر المستقرين فى الأندلس إذ كانوا يرون أنفسهم – مثل العرب البلديين – أحق بالأندلس وخيراتها. وهاجت الفتن والحروب بين الفئتين، ووَلِى – من قبل والى المغرب – أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبى، وحاول أن يعيد إلى الأندلس الهدوء والنظام، غير أنه أفرط فى التعصب لقومه من كلب واليمنية ضد القبائل المضرية والقيسية ونشبت فتنة ضارية، فخُلع سنة ١٢٨، ولم تهدأ البلاد، فقد احتدمت الفتنة بين اليمنية والمضرية وأيضًا بين العرب الشاميين والبلديين، واستطاع الصميل بن حاتم زعيم المضرية أن يضم تحت لوائه قومه ومعهم

العرب الشاميون بينما انضوى اليمنيون والعرب البلديون والبربر تحت لواء يوسف بن عبدالرحمن الفهرى، واتفق الطرفان سنة ١٢٩ أن تكون ولاية الأندلس ليوسف ويتخذ الصميل مستشارًا له ووزيرًا، وبذلك عاد الأمن والنظام إلى الأندلس حتى سنة ١٣٨ ولكنها لم تعد إلى الجهاد فى غالة (فرنسا) ولا إلى الحفاظ على ما أضاعته من الأندلس الهجرة البربرية الكبرى، مما أتاح الفرص لنصارى الشمال أن يقيموا لهم دُوَلاً ما زالت تناضل المسلمين قرونًا متطاولة إلى أن سقطت غرناطة آخر معاقلهم بتلك الديار.

٣

الدولة الأموية(١)

لا نصل إلى أواخر السنة الثانية والثلاثين بعد المائة حتى يقضى العباسيون على الدولة الأموية فى المشرق وقد مضوا يستأصلون الأمويين فى مذابح جماعية، وكأنهم لا يريدون أن يبقوا منهم على وجه الأرض باقية. فى هذه الأثناء فرَّ شاب أموى فى التاسعة عشرة من عمره إلى إفريقيا هو عبد الرحمن بن معاوية ابن الخليفة هشام بن عبد الملك، واستطاع أن يدخل الأندلس - ولذلك سُمِّى عبد الرحمن الداخل - وأن يقبض على زمام الحكم بها ويجعله وراثيًا فى أسرته لمدة ثلاثة قرون متوالية. وبذلك أثبت أن الدولة الأموية إذا كانت سقطت فى المشرق فقد قامت فى الأندلس وكل ما هناك أن العاصمة انتقلت من دمشق إلى قرطبة.

وأُحيط فرار عبد الرحمن إلى إفريقيا ودخوله إلى الأندلس بكثير من المبالغات والأساطير، من ذلك أنه كان بإحدى قرى العراق مع أختين له وأخ صغير فى الثالثة عشرة من عمره حين كان العباسيون ينكلون بأفراد أسرته، وحاصرت جنودهم القرية،

---

(١) انظر فى الدولة الأموية بالأندلس البيان المغرب لابن عذارى الجزء الثانى وأخبار مجموعة والجزء الأول من المغرب وأعمال الأعلام لابن الخطيب، والذخيرة لابن بسام فى خلفاء الحقبة الأخيرة للدولة الأموية ونفح الطيب فى مواضع مختلفة وتاريخ ابن خلدون ٤ / ١١٦ وما بعدها والمقتبس من أنباء أهل الأندلس: الأجزاء المنشورة بتحقيق الدكتور مكى والحجى وشالميتا ومعه رفيقان. وراجع دولة الإسلام فى الأندلس لمحمد عبد الله عنان ومعالم تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس والتاريخ الأندلسى لعبد الرحمن الحجى.

فاصطحب عبد الرحمن أخاه وحمل ما استطاع من المال وأوصى أختيه أن يرسلا إليه بموضع عيَّنه لهما فى الشام مولاه بدرا ومولاهما سالما. وحين كان يهم مع أخيه بعبور الفرات لحقتهما جنود العباسيين وعرضت عليهما الأمان، وكان التعب قد أخذ بخناق أخيه فاستجاب لهم. أما هو فألقى بنفسه فى الفرات، وبمجرد أن وصل إلى الشاطئ رأى سيوف الجند العباسى تنوش أخاه، فحمد الله أن نجا بنفسه، واتجه إلى الموضع الذى عيَّنه لأختيه بالشام فوجد بدرا وسالما فى انتظاره ومعهما مال وجواهر. ومضى معهما مسرعًا إلى إفريقيا وأخذ يتنقل فيها بين قبائل البربر، واستقرَّ عند أخواله من قبيلة نفزة بالقرب من طنجة. وكان سالم قد أعياه طول التنقل فعاد إلى الشام أما بدر فظل مع مولاه. وتُساق مع هذه الأسطورة أسطورتان تزعم أولاهما أن والى المغرب أحسَّ بخطر عبد الرحمن فأرسل فى طلبه، وكاد أن يقع فى يد طالبيه، لولا أن خبأته امرأة من قبيلة نفزة فى ثيابها، وتزعم الأسطورة الثانية أن عم أبيه مسلمة بن عبد الملك كان على علم بالنجوم وأنها أخبرته أن الأمير عبد الرحمن سيتحقق الأمر على يده. ولم يكن مسلمة على شىء من العلم بالنجوم، إنما هى أسطورة كالأسطورتين السابقتين وكأساطير أخرى تتصل برحلة عبدالرحمن وجميعها وضعها قُصَّاص شعبيون بعد أن عظم شأن عبدالرحمن وبيته فى الأندلس. وتساق أخبار كثيرة عن إرسال عبد الرحمن بمولاه بدر إلى موالى أسرته الأموية فى الأندلس واستجابتهم له واستجابة اليمنية التى طالما أيَّدت أسرته فى صِفِّين وفى مرج راهط. ودخل عبد الرحمن الأندلس وكوَّن سريعًا جيشًا للقاء الوالى يوسف الفهرى ومستشاره الصميل على مشارف قرطبة. واندحر جيشهما وأسر الصميل ومات فى السجن خنقًا، أما يوسف ففرَّ إلى طليطلة وفى إحدى قراها لقى حتفه.

وفى مساء هذا الانتصار فى اليوم العاشر من ذى الحجة سنة ١٣٨ للهجرة دخل عبد الرحمن القصر بقرطبة وصَلَّى بالناس وخطب فى الجند معلنًا ميلاد الدولة الأموية فى الأندلس، وأخذ يحاول جادًّا أن تكون دولته فى قرطبة امتدادًا لدولة آبائه فى دمشق، وكان أول ما مهَّد به لذلك قطعه الخطبة للعباسيين بعد عشرة أشهر من استيلائه فى الأندلس على صولجان الحكم، وحاول بعض دعاة العباسيين أن يثوروا به فى أول أمره، فقبض عليهم وحزَّ رءوسهم، وقيل إنه وضعها فى جَوَاليق (أوعية) وعلى رأس كل منهم بطاقة تحمل اسمه وأرسلها إلى والى العباسيين فى القيروان، وقيل: بل أرسلها إلى المنصور، فقال: الحمد لله الذى جعل بينى وبين عبد الرحمن صقر قريش بحرًا. وأخذ عبد الرحمن يعمل على تثبيت الحكم بالأندلس فى بيته وأن يكون وراثيًّا فى أبنائه وأحفاده، وبذلك حمى

الأندلس لمدة ثلاثة قرون من الاضطرابات والحروب الأهلية وأن تتوزع إلى أندلسات كثيرة. كما حدث فى القرن الخامس الهجرى لعهد ملوك الطوائف.

وهذا الحكم الوراثى حاكى فيه عبد الرحمن وأبناؤه وأحفاده حكم أسلافهم الأمويين فى دمشق، وكانوا - مثلهم - حكامًا مستبدين لا يشركون فى حكمهم أحدًا، فكل أزمَّة الحكم بأيديهم، وسنرى عوامل فى الأندلس تلطِّف هذا الحكم الاستبدادى وتخفِّفه، إذ كان علماء الدين والقضاة والعامة يأبون فى أحوال كثيرة إلا أن يُسْمَعَ لهم ويؤخذ بوجهات نظرهم، ولا نصل إلى عهد عبد الرحمن بن الحكم حتى ينشئ فى الأندلس نظامًا للوزارة يشبه نظمها الحديثة. وعلى نحو ما كان الخلفاء الأمويون فى دمشق يتخذون لأبنائهم المؤدبين والمعلمين كذلك اتخذ عبد الرحمن الداخل وأبناؤه المعلمين والمؤدبين لأبنائهم فى قرطبة، وكان لذلك أثره فى رعاية الأمويين فى الأندلس للأدب وأهله وأيضًا للعلم وأصحابه على نحو ما كان أسلافهم فى دمشق يرعونهم. واسْتَنُّوا سنة أسلافهم فى بناء القصور بالبادية على نحو ما نعرف عن هشام جد الأسرة من بنائه لنفسه قصرًا بعيداً عن دمشق فى البوادى سماه الرُّصافة أو مُنْية الرصافة، وحاكاه فى قرطبة حفيده عبد الرحمن الداخل فبنى لنفسه قصرًا شمالى قرطبة سوى قصره المواجه لجامعها الكبير اتخذه للتنزه ولسكناه فى كثير من أوقاته، وتبعه أبناؤه يبنون لأنفسهم قصورًا خارج قرطبة، وكانوا كذلك يبنون دورًا لأبنائهم يعلِّمون فيها ويؤدِّبون. واقتدى عبد الرحمن بأسلافه فى بناء الجوامع والمساجد، وقد بدأ بناء جامع قرطبة الكبير وظل الأمراء بعده يزيدون فيه حتى أصبح يضارع الجامع الأموى الكبير فى دمشق، إن لم يتفوق عليه، وبنى مسجدًا فى إشبيليه وفى بلدان أخرى متعددة. وعُنى عبد الرحمن الداخل بالتنظيم الإدارى والشئون المالية على نحو ما كان يعنى أسلافه الأمويون فى دمشق. ومن تتمة هذه المحاكاة لأسلافه اتخاذه دارًا للسكة وضرب العملة فيها باسمه، واتخاذه مذهب الأوزاعى فقيه الشام المتوفى سنة ١٥٧ للهجرة أساسًا للفتوى والقضاء فى الأندلس، ومن تتمة ذلك أيضًا أن نجده يسمى وزيره عبد الواحد بن مغيث الغسانى حاجبًا بالضبط كما كان يسمى أسلافه فى دمشق وزراءهم، وظل ذلك بعده فترة.

وشُغل عبد الرحمن الداخل - وأبناؤه بعده - بثورات داخلية كثيرة على نحو ما شُغل أسلافهم فى دمشق بثورة ابن الأشعث فى العراق وثورات الخوارج والشيعة، وكانت ثورات الأندلس دائمًا حادة عنيفة بسبب ما كان بها من عصبيات - تحدثنا عنها - بين اليمنية والمضرية، وبين العرب البلديين والشاميين، وبين العرب والبربر، وأخذت تظهر

عصبية جديدة هى عصبة المولَّدين من أبناء وأحفاد من أسلموا منَّ الإسبان وانضم إليهم المسالمة (المسلمون الجدد من الإسبان) وكذلك المسيحيون ممن استعربوا وغير المستعربين، وقد تنادوا بأن البلد بلدهم وهم أحق بها وأخذوا يثورون، وشبت بسبب ذلك كله ثورات فى الجزيرة الخضراء وباجة وإشبيلية وطليطلة وأخمدها عبد الرحمن جميعًا. وبجانب هذه الحروب الداخلية كانت هناك حروب فى الشمال مع الإمارات الإسبانية، وعلى نحو ما حوَّل أسلافه فى دمشق الحرب بينهم وبين بيزنطة، إلى حرب صوائف، وهى حملات صيفية كانت توجَّه إلى حدود بيزنطة كذلك صنع عبد الرحمن وخلفاؤه فى قرطبة. وبذلك توقفت حركة الفتوح التى رأيناها فى عصر الولاة والتى كانت قد توغلت فى جنوبى فرنسا الغربى حتى بواتييه ونهر الرون، إذ أخلى عبد الرحمن كل ما كان بأيدى العرب من أرض شمالى جبال البرينيه بفرنسا واقتصر على ما بيده من الأندلس. وكان ينفس عليه سلطانه واليان عربيان هما واليا سرقسطة وبرشلونة عاصمة قطالونيا وبلغا من خيانتهما أن اتصلا بشارلمان ملك الفرنجة وإمبراطور الغرب وأغرياه بغزو الأندلس سنة ١٦١ هـ/٧٧٨ م واقتحم جبال البرينيه وحاصر سرقسطة طويلاً واضطر إلى رفع الحصار عنها وعاد إلى بلاده، ولكن بعد أن أنشأ ولاية فى قطالونيا مهدتٍ لاستقلال تلك المنطقة. وفى أثناء عودته أخذ الأندلسيون وحلفاؤهم من البشكُنْس ينقضُّون على مؤخرته ومزقوها تمزيقًا هى وقائدها رولان الذى تكونت حوله - فيما بعد - ملحمة شعبية باسم ملحمة رولان.

وتوفِّى عبد الرحمن الداخل سنة ١٧٢ وخلفه ابنه هشام بعهد منه، وقد بايعته العامة بقرطبة، مما يدل على أن الحاكم الأموى هناك كان يضع فى اعتباره رضاها عنه، وليس ذلك فحسب. فقد اتخذ هشام مستشارين له من الفقهاء أو مشاورين يرجع إليهم فى تدبير الأمور، ويروى أن مصعب بن عمران قاضى قرطبة حكم على أحد رجال هشام بحكم فشكاه إليه، فقال له: والله لو أمرنى بالخروج عن مقعدى (إمارتى) لخرجت عنه. وعلى هذا النحو كان يخفف من حدة استبداد الحاكم الأموى فى قرطبة الرعية التى كان يخشاها والقضاة والفقهاء أوعلماء الدين، وظل ذلك مرعيا طوال أيام الأمويين فى الأندلس حرصا على طلب السمعة وحسن الأحدوثة بين الرعية. وظلت جيوش هشام تقضى على ثورات المسيحيين فى الشمال إلى أن توفى سنة ١٨٠ للهجرة.

وولى بعده ابنه وولى عهده الحكم، وكان فى السادسة والعشرين من عمره، وهو أول من استكثر من الصقالبة، إذ بلغوا فى عهده خمسة آلاف. ومع حزمه كان يأخذ بشىء من

اللهو ويخرج للصيد، ولم تعجب سيرته الفقهاء والعامة، وكثر تعرض الناس له فى الطريق بالسِّباب، فصلب فى سنة ١٩٠ نفرا من الفقهاء، مما جعل مراجل الغضب عليه تغلى فى قرطبة إلى أن انفجرت ثورة ضده فى جنوبيِّها كان يقودها الفقهاء، واتسعت فشملت قرطبة، وتحركت جموع الشعب نحو قصره تطالب بعزله، فسلَّط عليهم جنده من الصقالبة فسفكوا دماء كثيرين وتبعوهم فى دورهم بالهدم والإحراق وهدموا الربض الجنوبى منشأ الثورة ومركزها. وبعد ثلاثة أيام أعلن الحكم الأمان للثائرين على أن يخرجوا من قرطبة، فخرج منهم جمهور إلى طليطلة، وخرج جمهور ثان إلى دار الحرب فى الشمال وجمهور ثالث ركب البحر إلى الإسكندرية يبلغ نحو خمسة عشر ألفا، وأنزلهم عبدالله بن طاهر والى مصر للمأمون جزيرة كريت سنة ٢١٢ وأنشأ وا فيها دولة إسلامية ظلت بها إلى أن استعادها البيزنطيون سنة ٣٥٠ للهجرة. وكانت جيوش الحكم ماتنى غادية رائحة لحرب المسيحيين فى الشمال، واستطاع البَشْكُنْس بقيادة ونقة الاستيلاء على مدينة بنبلونة سنة ١٨٣ وأقاموا من حينئذ مملكتهم نبارَّة وظلت وراثية فى أبناء ونقة. وحاصرت فى سنة ١٩٠ قوات فرنسية مدينة برشلونة، وسقطت بعد مقاومة عنيفة، وبذلك ضاع من أيدى العرب فى الشمال الشرقى إقليم قطالونية كما ضاع إقليم بنبلونة، وكان قد ضاع فى عهد عبد الرحمن الداخل إقليم جلِّيقية وأشتوريش. ويقول ابن سعيد فى المغرب إن الحكم كان من أشد بنى أمية فى الأندلس إقداما إلى ما جمع من جودة الضبط وحسن السياسة وكان يشبه بالمنصور العباسى فى شد الملك وقهر الأعداء وتوطيد الدولة، وتوفى سنة ٢٠٦ للهجرة.

وولى بعده بعهد منه ابنه عبد الرحمن، ويسمى عبد الرحمن الأوسط لتوسطه بين جده عبد الرحمن الداخل وحفيده عبد الرحمن الناصر، وفى عهده تكاملت أسس الحضارة العربية فى الأندلس، وكانت ثلاثة أسس من أسسها أخذت فى الاستقرار هناك هى الدين الحنيف ولغته العربية ودعوته إلى العلم والتعلم وكانت الأندلس قد سارعت إلى العناية بالعلوم اللغوية والدينية، فدفعها عبد الرحمن الأوسط إلى العناية بعلوم الأوائل، وضم إلى ذلك أساسا رابعا هو الجانب المادى للحضارة الأندلسية، إذ شغف ببناء القصور وأثاثها ورياشها الفاخرة وحاكاه الأندلسيون مما جعل التجار يحملون إلى الأندلس نفائس المشرق وطرائفه، وانضم إلى ذلك أساس خامس فيها اكتمل للمجتمع من تكوين فنى وحضارى عن طريق وفود زرياب المغنى تلميذ إسحق الموصلى على قرطبة فى أول عهد الأمير عبد الرحمن وقيادته هنالك نهضة للغناء والموسيقى وبثه فى المجتمع الأندلسى

جوانب حضارية جديدة فى الملبس والمأكل والهيئة.

وبنى عبد الرحمن بقرطبة دارا للسكة وضرب الدراهم باسمه، وهو الذى وضع أساس الحضارة الأندلسة من وجهة تنظيم الحكم وضبط قواعده إذ اتخذ مجلس وزراء جعل له رئيسا باسم الحاجب، وجعل له ولمرءوسيه من الوزراء بيتا فى قصره يجلسون فيه على فرش منضدة، وجعل الأمر شورى بينهم، واختص كل منهم بشأن من شئون الدولة فوزير للمال ويسمى الخازن ووزير للمظالم ووزير للثغور أو الحرب، وعدَّ ابن حيان وزراءه وبلغ بهم ستة عشر طوال أيامه. وكان الوزراء يجتمعون مع رئيسهم يوميا، وكل منهم يعرض مسائله ويتشاورون فيها، وإذا قضوا بأمر عرضه الحاجب على الأمير، فإن قبله فبها وإلا رُدَّ إلى مجلس الوزراء لإعادة النظر فيه. وعلى نحو ما عُنى عبد الرحمن بتنظيم الوزارة عنى بالخطط، وقد تكون للوزارة خطة واحدة كخطة المظالم وخطة الثغور، وكانت أهم الخطط خطط القضاء وأجلُّها خطة قضاء الجماعة بقرطبة، ويليه خطة صاحب الرد فيها استرابه الحكام وردوه عن أنفسهم، وخطة الشرطة الوسطى (وقد تسمى الكبرى) وكان لصاحبها الضرب على أيدى أصحاب المناصب والجاه فى الظلامات، وخطة الشرطة الصغرى وكان صاحبها خاصا بالعامة، وخطة السوق لصاحب الحسبة المشرف على الأسواق. وبذلك كله أحكم عبد الرحمن النظام الإدارى للدولة، وظل هذا النظام بعده إلى نهاية أيامها. وكان لايصدر فى أمر إلا بعد الرجوع إلى مجلس الوزراء، وكان له مستشارون من القضاة والفقهاء لايحيد عن مشورتهم، وبذلك كله أُرسيت قواعد الحكم الأموى فى قرطبة، إذ أصبح الحاكم يحكم عن طريق مجلس الوزراء والقضاة ورجال الدين، مما جعل الحكم هناك شوريا إلى حد كبير. وكان يقال لأيامه أيام العروس لما شمل الناس فيها من أمن ورخاء، وزاد فى جامع قرطبة رواقين فى الجنوب وبنى فى الأندلس جوامع كثيرة، وتولع مثله ببنائها جواريه.

وفى أيامه نشبت فتنة بين اليمنية والمضرية فى تدمير (مرسية) ظلت سبع سنوات إلى أن أخمدت، وكثيرا ما كانت جيوشه تغزو المسيحيين فى الشمال، وأحيانا كان يقود تلك الحملات بنفسه ويغنم غنائم كثيرة. وغزا النورمان (سكان إسكنديناوة) شواطىء الأندلس الغربية عند أشبونة وقادس فى آخر سنة ٢٢٩ وصعدوا من مصب الوادى الكبير إلى إشبيلية، ونكل بهم قواده وولت فلولهم إلى المحيط. وأرسل إليه إمبراطور بيزنطة بهدية، فأرسل إليه الشاعر القرطبى يحيى الغزال بهدية مماثلة، ويقال إنه قضى فى بيزنطة ثلاث سنوات، ولما عاد أرسله بهدية إلى ملك النورمان، ونجح فى السفارتين

أو الوفادتين جميعا، وعنى عبد الرحمن الأوسط ببناء أسطول لحراسة الثغور على المحيط الأطلسى وعلى البحر المتوسط وفتح به سنة ٢٣٤ جزائر البليار ميورقه ومنورقة ومما يُذْكر له بنيانه ثغر مُرْسية على مقربة من ساحل البحر المتوسط. وفى أواخر أيامه أشعل المتعصبون من أحبار النصارى فتنة دينية ضد الإسلام والمسلمين، وأثاروا بعض القسس والشباب فكانوا يجاهرون بسبِّ الدين الحنيف ومقدساته حتى إذا لم يبق فى قوس الصبر منزع طلب عبد الرحمن إلى رئيس الأساقفة عقدَ مجمع كنسى فى قرطبة للنظر فى هذه المحنة، وعُقد المجمع وأصدر قرارا باستنكار هذه الفتنة الحمقاء وتحريم سب الإسلام. وهدأت الأمور، ولم يلبث عبد الرحمن أن لبَّى نداء ربه فى سنة ٢٣٨ للهجرة.

وولى بعده ابنه محمد بعهد منه، وطالت إمارته فى الأندلس حتى وفاته سنة ٢٧٣ للهجرة، وكان محبا للعلوم مؤثرا لأهل الحديث حسن السيرة، وزاد فى ترتيب الأداة الحكومية مستكثرا من الوزراء حتى بلغوا ثلاثة وعشرين فى عهده. وكان مثل آبائه يعامل المسيحيين معاملة حسنة، وفسح للمستعربين منهم ممن اتخذوا العربية لسانا لهم فى مناصب الدولة، من ذلك تعيينه لقومس بن أنتنيان متولى جمع الضرائب من أهل الذمة للدولة كاتبا له سنة ٢٤٦ ولم يلبث أن أسلم وحسن إسلامه ويُذْكر أنه استعفى الأمير محمدًا أثناء اعتناقه النصرانية من العمل يوم الأحد، فأعفاه وأعفى جميع الموظفين، وأصبح ذلك بعده - كما يقول ابن حيان - عامًّا فى الأندلس. وفى سنة ٢٤٥ أغار النورمان غارتهم الثانية على شواطىء الأندلس الغربية على المحيط وشواطئها الشرقية على البحر المتوسط وصدَّهم الأسطول ونكَّل بهم، فلم يعودوا بعد ذلك للإغارة على الأندلس. وكثرت الفتن والحروب فى عهد الأمير محمد كما كثرت الثورات، وفى مقدمتها ثورة عبد الرحمن بن مروان الجليقى فى بطليوس بالغرب سنة ٢٦٠ وثورة عمر بن حفصون فى مالقة سنة ٢٦٧ ودخل فى هذه الثورات عناصر جديدة من المسالمة (المسلمين الجدد) والمولدين (أبناء وأحفاد من أسلموا من الإسبان) وتحيزت النصارى إلى هؤلاء الثوار وصاروا إلْبا على العرب يقولون نحن أولى بحكم الأندلس لأنها بلدنا ووطننا. وظلت الثورتان المذكورتان محتدمتين وظلت جيوش الأمير محمد تحاول القضاء على هذه الفتن مع خروجها من حين إلى حين لحرب المسيحيين فى الشمال. وكان مشغوفا بالبنيان فزاد قصور آبائه فخامة، وبنى لنفسه قصرا أنيقا فى الجنوب الغربى لقرطبة.

وخلف محمدًا فى حكم الأندلس ابنه المنذر لمدة عامين شغل فيهما بحرب عمر بن حفصون فى قلعة بُبَشْتر بين مدينتى رُنْده ومالقة، وحصره فيها، غير أن الأجل وافاه أثناء

الحصار، فعاد به أخوه عبد الله إلى قرطبة فى صفر سنة ٢٧٥ وولى الامارة بعده. وكان عبد الله يكثر من تلاوة القرآن والتهجد وصلاة الجماعة مع العامة، وكان مجلسه يحفل بطبقات أهل الآداب والعلوم، وفتح للعامة بابا فى قصره لأخذ رقاعهم والنظر فى ظلاماتهم،وبذلك انتعشت الرعية فى عهده، غير أن الثورات والفتن تفاقمت تفاقما شديدا فى أيامه، حتى لقد كادت تعم كُوَر الأندلس، إذ ماجت جميعها بالفتنة والثورة بين المولدين والمسالمة والنصارى من جهة وبين العرب من جهة ثانية أو بين البربر والعرب أو بين العرب بعضهم وبعض فبجانب ثورتى عبد الرحمن بن مروان الجليقى وابن حفصون كانت هناك ثورات عبد الملك بن أبى الجواد فى باجَة وابن وضاح فى لورقة بكورة مرسية وغيرهما كثيرون، سوى من ثار من البربر أمثال بنى ذى النون فى شَنْتبرية. وفى أثناء هذه الفتن والثورات التى امتدت فى عهد الأمير محمد وطوال عهد ابنيه المنذر وعبد الله استطاع ألفونس الثالث ملك ليون والجلالقة أن يوسع رقعة مملكته حتى شملت الحوض الممتد بين نهرى الدويرة والتاجه وأنشأ به عددا كبيرا من الأديرة والكنائس، وأسكن هذه الأراضى الجديدة المستعربين من نصارى الإسبان الذين قدموا عليه من أرجاء الأندلس وتوفى عبد الله سنة ٣٠٠ للهجرة.

وكان لابد للأندلس من حاكم قوى حازم يعيد إليها وحدتها، ويبدو أن الأمير عبدالله شعر بذلك فى عمق مما جعله يعد للأمر عدته برعايته لحفيد له صنعه على يديه هو عبدالرحمن، اتخذه وليا لعهده، وكان يملك قلبه وقلوب الحاشية والرعية والجند، وكان شابًّا له اثنتان وعشرون سنة، وهاله مارأى فى الأندلس من كثرة الثورات، وفى مقدمتها ثورة عمر بن حفصون ومن قادهم من المولدين والمسالمة والعجم، فقاد إليه جيشا فى أول سنة من سنى حكمه، واستولى فى طريقه إلى مركز ثورته فى ببشتر بالقرب من مالقة على سبعين حصنا، وأعاد الكرة إليه فى السنة التالية وردَّ إلى طاعته إشبيلية وشذونة ومالقة. ولم يجد ابن حفصون مفرا فى السنة الثالثة من إعلان طاعته والانقياد إليه، وتوفى سنة ٣٠٥ وتبين أنه كان قد تنصر إذ دُفن فى كنيسة ببشتر، وثار أبناؤه على عبد الرحمن وقضى على ثوراتهم نهائيا سنة٣١٤ وحوَّل كنيسة البلدة إلى مسجد، واستخرج منها جثة ابن حفصون وصلبه بقرطبة، وعاد جنوب البلاد جميعه إلى طاعته. واتجه عبدالرحمن بعد ذلك إلى غربى الأندلس وعبدالرحمن بن مروان الجليقى، ولم تكد تدخل سنة٣١٨ حتى كان الغرب كله قد استسلم، واستسلمت طليطلة وجميع البلدان فى إقليمها. وبذلك محا عبد الرحمن فكرة الثورة فى الأندلس وعاشت فى أمن ورخاء. وأخذ منذ السنوات الأولى من حكمه يفرض

هيبته على من جاوره من المسيحيين الإسبان فى الشمال وأذعنت له بالولاء مملكتا الجلالقة والقشتاليين واتخذتا منه الحكَمَ المطاع فيما ينشأ بينهما من خلاف، وفزع إلى سُدَّته ملوكهما وأمراؤهما يلتمسون رضاه، وطار صيته فى أوربا، فوفدت منها سفارات كثيرة محملة بالهدايا: من إمبراطور بيزنطة والبابا فى روما وإمبراطور المملكة الجرمانية وهيو ملك الفرنجة وكونْت برشلونة وماركيز توسكانيا وماركيز بروفنسا: قلدو الذى أصبح - فيما بعد - ملكا على إيطاليا. وكانت تعقد لهذه السفارات فى قصره حفلات فخمة[1]. وكانت الدولة الفاطمية قد قامت فى القيروان قبيل حكمه بقليل وقضت على الدولة الرستمية فى المغرب الأوسط فأخذ يرسل المال والسلاح للأدارسة فى المغرب الأقصى حتى يستطيعوا الوقوف فى وجه الفاطميين واستولى على طنجة وسبتة، ورأى بثاقب فكره وقد أعلن عبيد الله المهدى الخلافة الفاطمية فى القيروان ولم يعد للعباسيين وجود فى المغرب أن يبادر إلى إعلان نفسه خليفة للمسلمين فى أواخر سنة ٣١٦ وتلقب بلقب أمير المؤمنين الناصر. وبذلك فصل الأندلس عن العالم العربى بعد أن ظلت طويلا تخضع لسلطان العباسيين الروحى قبله، إذ رأى هذا السلطان يتقلص فى إفريقيا. وبذلك تكاملت للأندلس شخصيتها السياسية، وأصدر فى ذلك منشورا قرىء على الناس فى مساجد الأندلس، وفيه أعلن تمسكه بنصرة أهل السنة والجماعة، مع استنكاره الشديد لعقيدة ابن مسرة المتوفى سنة ٣١٩ أى بعد منشوره بنحو سنتين، وكان قد مزج فى عقيدته بين مبادىء المعتزلة والمتفلسفة والصوفية.

وبلغ من احتفاء الناصر بأبهة الملك أن بنى لنفسه وحواشيه وجنده مدينة الزهراء على سفح جبل العروس المطل على قرطبة. وتأنق غاية التأنق فى قصره بها وأبهائه، ولم ينشأ له ولد إلا بنى له فيها قصرا مقرونا ببستان واختار له بعض الكفاة للقيام بشئونه وبعض المعلمين لتربيته وتعليمه. وعُنى بالمسجد الجامع فى قرطبة، فأضاف إليه فى اتجاه الجنوب زيادة ضاعفت حجمه. وعنى بعمده وزخرفته وأقواسه وأقام به محرابا بديعا. ومن إنشاءاته الضخمة بناؤه مدينة سالم فى الثغر الأوسط بمواجهة مملكتى نبارَّة والجلالقة فى الشمال لتكون مركزًا للجيوش المجاهدة هناك. وبنى أيضا مدينة المرِيَّة على البحر المتوسط لتكون قاعدة لأسطوله. ويُعَدّ عهده أعظم عهد مرّ بالأندلس، بما أتاح لها من الاستقرار

(١) انظر فى ذلك تاريخ ابن خلدون ١٣٧/٤، و٢٧٢/٢ وما بعدها. ١٤٢ وما بعدها، وأزهار الرياض ٢٥٨/٢

والوحدة والمنزلة العليا بين الدول الغربية والعربية، وأعانته على ذلك حنكته فى السياسة وتدبير الحكم وخبرته الدقيقة فى اصطفاء الرجال واختيار القواد، كما أعانه خلق إسلامى عربى كريم من التسامح والعفو عند المقدرة والوفاء بالعهد لكل من استسلم من الثوار مع حسن المعاملة. وطالت مدة حكمه إلى سنة ٣٥٠ إذ استغرقت خمسين سنة وستة أشهر وثلاثة أيام، ويقال إنه عدَّد أيام السرور التى صَفَتْ له فى هذه المدة الطويلة من حكمه، فكانت أربعة عشر يوما.

وخلفه بعهد منه ابنه الحكم المستنصر وكان فى السابعة والأربعين من عمره، وظلت الأندلس فى عهده موحدة وظلت للخلافة الأموية هناك هيبتها فى الداخل والخارج، وأخذت سفارات[1] ممالك النصارى فى الشمال وممالك أوربا تفد على قرطبة. وحاول البشكنس فى بنبلونة والجلالقة فى ليون الإغارة على بلاده فأوغلت جيوشه سنة ٣٥٢ فى أراضيهما، وأرغمتهما على العودة إلى إعلان ولائهما لقرطبة. وتابع سياسة أبيه فى إمداد الأدارسة بالمغرب الأقصى بالمال والسلاح، وأمدهم بالجنود ضد الفاطميين. وفى عهده عاد النورمان إلى الإغارة على شواطئ الأندلس الغربية فى المحيط والشرقية فى البحر المتوسط ونكل بهم الأسطول غربًا وشرقًا. وكان قد تعهده العلماء فى شبابه فشُغف بالعلوم على اختلاف ألوانها واستحال جامع قرطبة لعهده إلى جامعة كبرى، وعُنى عناية واسعة بمكتبته ومكتبة القصر. وكان أبوه توفى قبل إتمامه للزيادة فى الجامع فأتمها. ووقع فى خطأ كبير إذ أوصى بالحكم من بعده لابنه هشام الملقب بالمؤيد وكان لا يزال طفلاً صغيرًا فى الثانية عشرة من عمره حين وفاته سنة ٣٦٦ وبذلك عرَّض الدولة لحكم الحجَّاب الأوصياء وبالتالى لزلزلة لابد أن تنزل بها سريعًا.

وقام بأمر المؤيد فى أول خلافته جعفر المصحفى حاجب أبيه، وأشركت معه فيها «صبح» أمه محمد بن أبى عامر المعافرى صاحب خطة الشرطة والسكة بقرطبة وكان قد ازدلف إليها فى عهد الحكم بحسن الخدمة والقيام بمواقع الإرادة، وأخذ يُعِدُّ سريعًا لتفرده بالحجابة، فأغرى المصحفى بالصقالبة وأخذ ما فى أيديهم من الأموال العظيمة، واستعان بالبطل غالب صاحب مدينة سالم على جعفر فسجنه حتى هلك فى سجنه، ثم بجعفر بن على الأندلسى أمير الزاب بالمغرب الأوسط على غالب ثم بعبد الرحمن بن هاشم التجيبى على جعفر، ثم فتك بعبد الرحمن، وخلصت له الحجابة، وكان المؤيد متخلفًا شديد

---

(١) راجع تاريخ ابن خلدون ١٤٥/٤ وما بعدها وأزهار الرياض ٣٨٨/٢ وما بعدها.

التخلف إلى حد البله، فانفرد بالسلطان المطلق فى الحكم، ونقلَ الأموال المختزنة فى قصر الخلافة إلى داره. وذكر ابن حزم فى رسالته نقط العروس أنه فكر فى عزل الخليفة هشام وتنصيب نفسه خليفة، واستشار نفرًا من الفقهاء فاختلفوا بين مؤيدين ومعارضين، فرجع عن ذلك واكتفى بلقبه المنصور. وكان له مجلس معروف فى أحد أيام الأسبوع يجتمع فيه إلى أهل العلم. ورأى أن يتخذ لنفسه جيشًا من البربر، فاستقدم منهم آلافًا أعانوه فى غزواته الكثيرة ضد البشكنس أصحاب نبارَّه والجلالقة أصحاب ليون، ويقال إن غزواته أربت على عشرين غزوة وقيل بل على خمسين، واستولى فى إحداها سنة ٣٧٧ على بَرْشلونة.

وقد أخطأ ابن أبى عامر فى تكوينه الجيش البربرى الذى أنزله فى قرطبة إذ سيكون له - فيما بعد - أثر سىء فى فتنتها التى طالت سنين متعاقبة انتهت بالقضاء على الدولة الأموية. ودامت دولة ابن أبى عامر ستًا وعشرين سنة إذ توفى سنة ٣٩٢ بمدينة سالم فى الثغر الأوسط للبلاد. وتولى الحجابة بعده لهشام المؤيد ابنه عبد الملك الملقب بالمظفر، ونوَّه ابن حيان بحسن ضبطه للأندلس وأن الناس سكنوا منه إلى عفة ونزاهة فأخذوا فى المكاسب والرفاهية وارتفعت نفائس الأعلاق والتحف الثمينة، ورام صهره ابن القطاع الاستيلاء على أزمَّة الدولة ففطن له وقتله. وسار بسيرة أبيه فى الجهاد وكثرة الغزو للجلالقة والبشكنس واحتل بنبلونة عاصمة الأخيرين سنة ٣٩٧ وتوفى فى غزوة كبيرة له سنة ٣٩٩. وخلفه فى الحجابة أخوه عبد الرحمن الملقب بالناصر وكان نحسًا على نفسه وعلى المؤيد هشام وعلى أهل الأندلس، إذ انفتح منه - كما يقول ابن سعيد - بابٍ الفتنة العظمى وفسد الناموس، لما انهمك فيه شربا وزندقة وطعنا فى الدين الحنيف قولاً وفعلاً، وطلب من هشام أن يوليه العهد بعده ففعل، وخرج لحرب المسيحيين فى الشمال، فثارت عليه الأسرة الأموية، وكان فى طليطلة، فرجع إلى قرطبة ليتدارك الأمر فتلقاه جند سفكوا دمه فى جمادى الأولى سنة ٣٩٩. وبذلك انتهت دولة بنى عامر.

واتفق بنو أمية على خلع هشام المؤيد ومبايعة محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر وتلقيبه بالمهدى، وكان طائشًا: فرأى - بغير رويَّة - مناصبة جند العامريين من البربر العداء، فاجتمع بهم بظاهر قرطبة سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر، فبايعوه فى ربيع الأول سنة ٤٠٠ للهجرة ولقبوه بالمستعين، ونهضوا به إلى طليطلة وهناك استنصر بالجلالقة فنصروه، وكان ذلك أول إسفين دُقَّ فى ضياع

الأندلس، وحاصر البربر وجموع الجلالقة قرطبة وبرز إليهم المهدى فى كافة أهلها، وهُزم مع أنصاره هزيمة ساحقة، فرَّ على إثرها إلى طليطلة، فاستعان بالجلالقة – مثل المستعين – فأعانوه، ودخل قرطبة، غير أن أهل القصر قتلوه وأعادوا هشامًا إلى خلافته، وحجبه واضح الصقلبى، وحاصر البربر مع المستعين قرطبة وأرسل إلى الجلالقة ليمدوه، وبعث إليهم هشام وحاجبه واضح بالتنازل لهم عن ثغور قشتالة التى استولى عليها المنصور بن أبى عامر، فلم يلبوا المستعين. واستطاع البربر اقتحام قرطبة سنة ٤٠٣ وفتكوا بهشام المؤيد، وعاد للمستعين صولجان الحكم.

وكان من قواد البربر على بن حمود وأخوه القاسم وهما من أسرة الأدارسة العلوية، وعقد المستعين لعلى بن حمود على طنجة وعملها وللقاسم على الجزيرة الخضراء، وظل فى الحكم طوال خلافته ست سنوات وعشرة أشهر كانت كلها شدادًا مشئومات، ويكفى دولته ذلاً وذمًا أن أنشأها وثبَّتها الجلالقة حتى سنة ٤٠٧ إذ يهاجم على بن حمود قرطبة ويستولى على أداة الحكم ويقتل المستعين. وكان واضح الصقلبى قد فر إلى شاطبة وفر كثير من الصقالبة بزعامة خيران إلى المريَّة ومُرْسية ونزلت جماعة منهم دانية، ولم يلبث غلمان على بن حمود أن قتلوه سنة ٤٠٨ فخلفه أخوه القاسم وتلقب بالمأمون، ونازعه فى سنة ٤١٢ يحيى ابن أخيه على وكان واليًا لسبتة واستولى على قرطبة وتلقب بالمعتلى وفرَّ المأمون إلى إشبيلية وعاد ببعض البربر إلى قرطبة ولحق المعتلى بمالقة واستولى على الجزيرة الخضراء. وثار على المأمون أهل قرطبة وبايعوا عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار سنة ٤١٤ وقرَّب البربر منه فوثب عليه العامة بعد ٤٧ يومًا من حكمه، وبايعوا محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن عبد الرحمن الناصر وتلقب المستكفى بالله ويقال إنه لم يجلس على كرسى الخلافة أيام الفتنة أسقط منه ولا أنقص إذ كان أسير الشهوة عاهر الخلوة. وفى أيامه استؤصلت بقية قصور جده الناصر فى الزهراء، ولم يلبث يحيى بن على بن حمود أن تحرك سنة ٤١٦ للاستيلاء على قرطبة. فهرب المستكفى ومات ببعض الثغور واستولى يحيى على مقاليد الأمور، وثار عليه أهل قرطبة سنة ٤١٧ وبايعوا هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الجبار وظل يتردد فى الثغور ثلاثة أعوام، ثم سار إلى قرطبة وتلقب بالمعتدّ، وفى سنة ٤٢٢ خلعه أهلها، وبذلك انتهت الدولة الأموية فى الأندلس.

٤

أمراء الطوائف - المرابطون - الموحدون - بنو الأحمر فى غرناطة

(أ) أمراء الطوائف[١]

تقوَّض الصرح الشامخ الذى شاده بالأندلس أمراء البيت الأموى وخلفاؤه، ونشأ عن ذلك تفكك الدولة واستقلال مدنها الكبرى بأعمالها وقيام النظام المسمى بنظام أمراء الطوائف أوملوك الطوائف، وقد بدأ منذ زمن الفتنة (٣٩٩-٤٢٢هـ) إذ أخذت العناصر المختلفة تقتسم تلك البلدان، فكان للصقالبة أكثر بلدان الشرق وللعرب والبربر بلدان الموسطة والغرب والجنوب. وتنافست هذه البلدان تنافسًا أدى إلى طور حضارى راق كما أدى إلى نهضة واسعة فى الأدب والعلم. وفى الوقت نفسه أخذت تتحارب فيما بينها، بل أدهى من ذلك أن بعض أولئك الأمراء أدى الجزية صاغرا لمسيحيى الشمال مما قوَّى فى نفوسهم فكرة استرداد الأندلس من العرب المسلمين. ونقف قليلاً عند أهم المدن التى تكوَّنت فيها هذه الإمارات.

وأول مدينة نقف عندها قرطبة وقد اجتمع الملأ فيها أو كبار رجالاتها ووقع اختيارهم على أبى الحزم جهور ليكون أمينًا على حكمها، وبذلك تأسَّس فيها نظام جمهورىٌّ ارستقراطى يرأس الحكم فيه أبو الحزم جهور، ويساعده مستشارون يأخذ بمشورتهم فى المسائل المهمة، وخلفه فى الحكم سنة ٤٣٥ ابنه أبو الوليد محمد باتفاق الملأ، وفوَّض

(١) انظر فى هؤلاء الأمراء الذخيرة لابن بسام والمغرب لابن سعيد فى بلدانهم والجزء الرابع من تاريخ ابن خلدون والحلة السيراء لابن الأبار فى تراجمها، وكذلك التكملة، والجزء الثانى والثالث من البيان المغرب (طبع باريس) والثانى من أعمال الأعلام (طبع بيروت) وكذلك الرابع بتحقيق د.إحسان عباس (طبع بيروت) ونفح الطيب للمقرى (بتحقيق إحسان) فى مواضع مختلفة والتبيان: مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين آخر أمراء غرناطة (طبع دار المعارف) ودول الطوائف لمحمد عبد الله عنان (طبع القاهرة) والصقالبة للعبادى (طبع مدريد) والإسلام فى المغرب والأندلس لبروفنسال (تُرجم إلى العربية) طبع القاهرة والتاريخ الأندلسى لعبد الرحمن الحجى ومعالم تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس وتاريخ البحرية الإسلامية فى المغرب والأندلس لعبد العزيز سالم والعبادى (طبع بيروت).

التدبير إلى ابنه عبد الملك، فأساء السيرة وحاصره المأمون بن ذى النون، فاستغاث بالمعتمد بن عباد أمير إشبيلية، فوجه إليه ابنه الظافر سنة ٤٦٢ فى عسكر كثيف ففك ابن ذى النون حصاره، وغدر الظافر بعبد الملك فخلع بنى جهور عن قرطبة ونفاه مع أبيه إلى شلطيش فى الجنوب الغربى للأندلس، واغتال حريز بن عكاشة الظافر ليلاً، فأقبل المعتمد بجنوده وهرب ابن عكاشة ولحقته خيل فقتلته، ودخل المعتمد قرطبة وولى عليها ابنه المأمون فظل يدير شئونها إلى أن قتله المرابطون سنة ٤٨٤ للهجرة.

وتُعَدُّ إمارة إشبيلية أهم إمارات الطوائف لما قادت من حركة أدبية وعلمية كبرى ولما صار إليها من بلدان كثيرة فى شرقى الأندلس وغربيها، وأول من جمع زمام الحكم بيده بها قاضيها محمد بن إسماعيل اللخمى منذ سنة ٤١٤ إلى أن توفى سنة ٤٣٣ وخلفه ابنه عباد الملقب بالمعتضد وكان جبارًا سفاكًا للدماء وأحاط نفسه بكوكبة كبيرة من الشعراء واتسع بسلطانه على حساب جيرانه من العرب والبربر بينما كان يرهب المسيحيين فى الشمال رهبة شديدة حتى ليدفع لهم الجزية صاغرًا، وبذلك كان معولاً كبيرًا لهدم الإسلام والعروبة فى الأندلس. وتوفى سنة ٤٦١ فخلفه ابنه المعتمد وفى عهده بلغت الإمارة الذروة فى السلطان إذ دان له كثير من البلدان فى غربى الأندلس مثل قرمونة وشريش وشلب وفى شرقيها مثل مالقة ومرسية، وظل مثل أبيه يدفع الجزية صاغرًا لملك ليون وقشتالة، وكان شاعرًا واجتمع له من الشعراء ما لم يجتمع لأى حاكم أندلسى، وكان مولعًا بالشراب ومجالس الغناء، وعزله يوسف بن تاشفين فى عبوره سنة ٤٨٤ ونفاه إلى أغمات فى المغرب، وبها توفى سنة ٤٨٨ للهجرة.

وقامت فى الجنوب إمارة ثالثة هى إمارة غرناطة تملكتها صنهاجة وأول أمرائهم بها زاوى بن زيرى الذى اشتهر بهزيمته لخيران أمير المرية حين بايع المرتضى المروانى بالخلافة وزحف به على غرناطة. وخاف الكرة عليه من أهل الأندلس فرحل بما حازه من الأموال والذخائر إلى موطنه فى المغرب، وخلفه بغرناطة ابن أخيه حَبوس بن ماكسن (٤١٠ - ٤٢٩ هـ) وورثه ابنه باديس (٤٢٩ - ٤٦٥ هـ) وكان من أبطال الحروب وعِظَم سلطانه بهزيمته لزهير صاحب المرية وقتله سنة ٤٢٩ هـ وخلفه حفيده عبد الله بن بُلُقِّين، وظل على غرناطة، إلى أن سلمها ليوسف بن تاشفين سنة ٤٨٤ للهجرة.

وقامت فى الثغر الأعلى إمارة سرقسطة، ثار بها منذر بن يحيى التجيبى ممدوح ابن درّاج، وتوفى سنة ٤١٤ فخلفه عليها ابنه المظفر يحيى وبعده ابنه منذر، وكان له ابن عم متهور كثير الحسد له فدخل عليه قصره وقتله، فانتهز الفرصة واليه على لاردة - وقيل

على تُطيلة – سليمان بن أحمد بن هود وانقضَّ على سرقسطة سنة ٤٣١، فهرب القاتل وخلصت له ولعقبه، ووليها بعده ابنه المقتدر أحمد وهو عميد بنى هود وكان فارسا مغوارا وله غزوات مشهورة للمسيحيين فى الشمال، وكان شاعرا وممدَّحا للشعراء. وجمع ألفونس السادس ملك ليون وقشتالة جيشا ضخما للاستيلاء على سرقسطة وباءت حملته بالإخفاق الذريع فأعاد الكرة سنة ٤٥٦ وفاجأ النورمانديون بلدة بربشتر على مسافة ٦٠ كيلو مترا فى الشمال الشرقى من سرقسطة واقتحموها وأنزلوا بأهلها مذبحة بشعة وسبوا منها خمسة آلاف من النساء والعذارى وباعوهن فى الأسواق بيع الإماء، وبارك البابا إسكندر هذا العمل الوحشى الفظيع. واستعاد المقتدر البلدة حين استدار العام ومزَّق المعتدين شر ممزق، ودانت له وشقة فى الشمال الغربى من بربشتر وطُرْطوشة فى الجنوب الشرقى من سرقسطة، وأخرج إقبال الدولة بن مجاهد من دانية على البحر المتوسط وأدخلها فى إمارته، وتوفى سنة ٤٧٤ وخلفه ابنه المؤتمن يوسف وكان شجاعا باسلا وحاميا للعلماء والشعراء وتوفى سنة ٤٧٨ فولى بعده ابنه المستعين أحمد، وحين استولى يوسف بن تاشفين على ديار أمراء الطوائف رأى أن يتركه حاجزا بينه وبين المسيحين فى الشمال، وتوفى شهيدا فى حروبه معهم سنة ٥٠٣ وخلفه ابنه عماد الدولة عبد الملك، وحاول على بن يوسف بن تاشفين أخذ الإمارة منه، فاستعان بالنصارى وتملكها المرابطون حتى سنة ٥١٢ إذ حاصرها النصارى واستولوا عليها وأخذوا فى تملك بلاد الثغر الشمالى الأعلى إلى أن ملكوها جميعا.

ومن الإمارات المهمة فى مَوْسَطة الأندلس إمارة طُلَيْطلة ثار فيها زمن الفتنة فى أواخر الدولة الأموية قاضيها ابن يعيش، وتوفى سنة ٤١٩ فتملكها إسماعيل بن ذى النون وأسرته البربرية طوال حقبة أمراء الطوائف، وتوفى سنة ٤٢٩ فخلفه فيها ابنه المأمون يحيى، وهو أعظم أمرائها قدرا، اجتمع عنده جِلَّة من الشعراء والكتاب، وعنى ببناء قَصْر له تأنق فيه غاية التأنق مما جعل الأدباء والشعراء يطنبون فى وصفه، وتوفى سنة ٤٦٧ وخلفه حفيده القادر يحيى وكان قصير النظر سيِّء التدبير، وفغر ألفونس السادس فاه على ثغوره وجعل يطويها – كما يقول ابن سعيد – طى السجل للكتاب، فثار عليه أهل طليطلة وهرب إلى بعض حصونه وتملكها المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس لمدة عشرة أشهر، واستردها القادر بمعونة ألفونس السادس، وأسلمها له سنة ٤٧٨ على أن يساعده فى أخذ بلنسية، فأخذها لمدة عامين إلى أن قتل سنة ٤٨١. وكان قد تملكها زمن الفتنة صقلبيَّان هما مبارك ومظفر وصارت لحفيد للمنصور بن أبى عامر يسمى عبدالعزيز

سنة ٤١٧ وظل يدبر شئونها حتى سنة ٤٥٢ ووليها بعده ابنه المظفر عبد الملك، واستولى عليها القادر وثار عليه قاضيها ابن جحَّاف، وأخذ فارس نصرانى يغير عليها هو السيد القنبيطور واستسلمت له سنة ٤٨٧ فنكل بأهلها وذبح الآلاف منهم وأحرق قاضيها حَيًّا، ومات سنة ٤٩٢ واستولى عليها المرابطون سنة ٤٩٥.

ومن إمارات الشرق المهمة – بجانب إمارة بلنسية – إمارة دانية تملكها أول الأمر فى مدة أمراء الطوائف مجاهد الصقلبى منذ سنة ٤٠٥ إلى سنة ٤٣٦ وكان محبا للعلماء مجزلا العطاء لهم وللشعراء، وكان قد تملك مع دانية جزر البليار، وخلفه ابنه على الملقب بإقبال الدولة ومنه تسلم دانية المقتدر صاحب سرقسطة سنة ٤٦٨ وخلفه على ميورقة مولاه أغلب وتولاها بعده مبشر الصقلبى وآلت إلى المرابطين.

ومن الإمارات المهمة فى الشرق مُرْسِيَة، وهى – كما أسلفنا – من بنيان عبد الرحمن الأوسط، وثار بها فى زمن أمراء الطوائف المرتضى المروانى وبايعه الصقالبة الذين تغلبوا على الشرق وذهبوا به إلى غرناطة، فهزمهم زاوى بن زيرى وقُتل المرتضى فى المعركة، وخلفه على مرسية أبو عبدالرحمن بن طاهر، وثار عليه أهلها وراسلوا المعتمد بن عباد فأرسل إليهم وزيره ابن عمار الشاعر فأخذها من يده وثار بها لنفسه، وثار عليه القائد عبد الرحمن بن رشيق، وتملكها أبو الحسن بن اليسع باسم المعتمد بن عباد ثم صارت للمرابطين. ومن إمارات الشرق أيضا المرية وهى من بنيان الناصر على البحر المتوسط وقد تملكها الصقالبة ثم معن بن صمادح إلى أن توفى سنة٤٤٣ وورِثها ابنه المعتصم، وكان شاعرا وكريما جزل العطاء للشعراء، توفى سنة ٤٨٤ وجيش المرابطين يحاصره.

ومن إمارات الغرب المهمة إمارة بطليوس، تملكها زمن أمراء الطوائف الأفطس عبد الله حتى سنة ٤٣٠ فورثها عنه ابنه المظفر وهو من أعلم أمراء الطوائف وآدبهم، وخلفه عليها ابنه المتوكل سنة ٤٦٠ ويؤثر له أنه انتدب أبا الوليد الباجى كبير فقهاء الأندلس فى زمنه ليدعو أمراء الطوائف إلى توحيد كلمتهم ضد نصارى الشمال، غير أن دعوته – بسبب أطماعهم – ذهبت أدراج الرياح، ومن يد المتوكل أخذ المرابطون هذه الإمارة وما كان يتبعها من المدن مثل أشبونة.

(ب) المرابطون[١]

رأينا ألفونس السادس ملك ليون وقشتالة يغير على ثغور طليطلة وما يلبث أن يستولى عليها سنة ٤٧٨ وهى نتيجة طبيعية لتفتُّت الأندلس وتوزعها بين أندلسات أو إمارات تتناحر وتتحارب بينها تؤدى الإتاوات لألفونس السادس وأمراء أراجون ونبارَّة وبرشلونه، تؤديها إشبيلية وبطليوس وغيرهما. وأحسَّ أمراء الأندلس وفى مقدمتهم المعتمد أمير إشبيلية والمتوكل أمير بطليوس أن ما أصاب طليطلة أصبح قاب قوسين أو أدنى إلى إصابة إماراتهم، فتقع فريسة لألفونس السادس ملك ليون وقشتالة أو لغيره من الأمراء المسيحيين فى الشمال، وأجمعوا أمرهم على أن يستغيثوا بيوسف بن تاشفين أمير دولة المرابطين فى المغرب، وأرسلوا إليه نفرا من قضاة مدنهم الكبرى يستنفرونه – واستنفره كثير من الفقهاء – للوقوف معهم فى وجه أعدائهم الشماليين من المسيحيين، وكان المرابطون قد نذروا أنفسهم للجهاد فى سبيل الله ونَشْر الإسلام بالصحراء الكبرى والسنغال. واستمع يوسف إلى القضاة، وهاله الأمر، فجهز سريعا جيشا جرارا وأعدَّ له أسطولا عبر به فى سنة ٤٧٩ الزقاق، واتجه إلى إشبيلية، وانضم إليه المعتمد صاحبها توا، وبالمثل عبد الله بن بلقين أمير غرناطة والمتوكل أمير بطليوس، وعلم ألفونس بمقدمه فاستغاث بملوك النصارى فى إسبانيا وفرنسا وإيطاليا وجاءته سيول من الفرسان، والتقى الجمعان فى الزلاقة بالقرب من بطليوس، ودارت معركة حامية الوطيس سُحق فيها جيش ألفونس، وفرَّ على وجهه مع الفارين. وتصادف أن توفى ابن ليوسف بن تاشفين فعاد إلى المغرب بعد هذا النصر المبين ولو تابع تقدمه لاستردَّ طليطلة، وكأنه اكتفى بتقليم أظافر العدو، وسرعان ما عاد ألفونس للإغارة على شرقى الأندلس، وعلم بذلك ابن تاشفين، فجاز إلى الأندلس جوازه الثانى سنة ٤٨١ وكاد ينزل بألفونس ما أنزله به فى الزلاقه،

---

(١) انظر فى المرابطين: الجزء الثالث من البيان المغرب (طبع باريس) والرابع (طبع بيروت بتحقيق إحسان عباس) والثالث من أعمال الأعلام لابن الخطيب (طبع الدار البيضاء بالمغرب) ونفح الطيب للمقرى وتاريخ ابن خلدون والحلة السيراء والتكملة لابن الأبار والمعجب للمراكشى ونظم الجمان لابن القطان (تحقيق د. مكى – طبع الرباط) والاستقصا فى أخبار دول المغرب الأقصى للناصرى وتاريخ البحرية الإسلامية فى المغرب والأندلس لعبد العزيز سالم والعبادى (طبع بيروت) وعصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس لمحمد عبد الله عنان (طبع القاهرة) والتاريخ الأندلسى لعبد الرحمن الحجى (طبع دار القلم) ومعالم تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس والإسلام فى المغرب والأندلس لبروفنسال بمراجعة د.لطفى عبدالبديع (نشر مكتبة النهضة المصرية).

غير أن الشتاء دخل فعاد إلى المغرب بعد أن ترك فى الأندلس حامية. وسرعان مادبَّ الشقاق بين أمراء الطوائف فجاز يوسف إلى الأندلس مرة ثالثة سنة ٤٨٣ مصمما - بمشورة الفقهاء الأندلسيين - على إنهاء حكم هؤلاء الأمراء، واستسلم له سريعا أمير غرناطة، واضطر إلى العودة إلى المغرب وترك لصهره سير بن أبى بكر تنفيذ الخطة، فاستنزلهم جميعا ومن أبى أخذه أسيرًا مثل المعتمد بن عباد الذى نُفِى إلى أغمات بالمغرب، أو قتَله بعد حصاره مثل المتوكل صاحب بطليوس. وبذلك أظلَّ حكم ابن تاشفين الأندلس ما عدا سرقسطة، فإنه تركها لبنى هود لتكون حاجزا بين الأندلس ونصارى الشمال، وعبر إلى الأندلس مرة رابعة سنة ٤٩٠ لأخذ البيعة لابنه على وتوفى سنة ٥٠٠ للهجرة.

وتولى على ابنه الحكم بعده فحاول الاقتداء بأبيه فى الجهاد فعبر إلى الأندلس سنة ٥٠١ ووجه أخاه تميما بجيش إلى أقليش شرقى طليطلة، والتقى بألفونس وأوقع به هزيمة ساحقة قُتل فيها ولى عهده - وكان ابنه الوحيد - فتوفى متأثرًا بفقده، واستولى تميم على أُقْليش وشَنْتبريَّة. وفى سنة ٥٠٣ غزا جيش للمرابطين أراضى طليطلة واستولى على طَلَبيرة غربيها، واستعاد المرابطون جزائر البليار سنة ٥٠٩. وكان على بن يوسف قصير النظر فحاول أخذ سرقسطة من بنى هود، واستولى عليها كما مر بنا، وسرعان ما أخذها منه النصارى سنة ٥١٢. واشتبك المرابطون سنة ٥١٤ مع ألفونس الأول ملك أراجون فى معركة بكتندة ولم يكتب لهم النصر. وفى سنة ٥١٩ استدعى المعاهدون من نصارى غرناطة ألفونس الأول للاستيلاء على بلدهم فاندفع إلى الجنوب، وردَّه المرابطون على أعقابه، وأجْلَوْا عن غرناطة من كانوا سببا فى استدعائه من النصارى إلى سَلا ومكناسة بمراكش. وفى سنة ٥٢٨ وجه على بن يوسف جيشا بقيادة يحيى بن غانية والى بلنسية ومرسية إلى إفراغة شرقى سرقسطة، ولقى جيشا لألفونس ملك أراجون فمزقه شر ممزَّق. وتوفى على بن يوسف بن تاشفين أمير المرابطين سنة ٥٣٧ وخلفه ابنه تاشفين وكان ضعيفا مما آذن بنهاية تلك الدولة.

وقد حمل كثير من المستشرقين فى مقدمتهم دوزى وبروفنسال على تلك الدولة زاعمين أنها كانت دولة بدو جفاة لا عهد لهم بالحضارة، وفاتهم أن أهل المغرب اعتنقوا الدين الحنيف من قديم وأخذوا بقسط من حضارته الإسلامية وكل ما اتصل بها من علوم وآداب، فليس بصحيح أنهم كانوا بدوا جفاة وقد فتح سلاطينهم أبوابهم فى مراكش للعلماء والشعراء الأندلسيين واختاروا لرياسة دواوينهم فى حاضرتهم أبا بكر بن القصيرة كبير

كتاب الإمارة العبّادية بإشبيلية، حتى إذا توفى سنة ٥٠٧ خلفه زميل له من كتاب تلك الدولة هو أبو القاسم بن الجد، وتوفى سنة ٥١٥ فخلفه الكاتب الأندلسى البارع ابن أبي الخصال، وكان يساعد الثلاثة جميعا كتاب من الأندلس. وقد ازدهرت فى عهد المرابطين العلوم اللغوية وعلوم الدراسات الإسلامية وكذلك الدراسات الفلسفية ولمع فيها فيلسوف كبير هو ابن باجة. وشجّع حكام المرابطين فى الأندلس الحركتين العلمية والأدبية وفتحوا أبوابهم على مصاريعها للشعراء، على نحو ما يوضح ذلك ديوان ابن خفاجة ومدائحه فيه لإبراهيم بن يوسف بن تاشفين الذى ألف الفتح بن خاقان باسمه كتابه قلائد العقيان، وكذلك مدائحه لأخيه تميم حاكم غرناطة ثم إشبيلية والأندلس ولأخيهما سلطان المرابطين: على ولابن تيفلويت حاكم سرقسطة راعى ابن باجة والحركة الفلسفية ولأبى عبد الله محمد بن الحاج حاكم قرطبة وابنه أبى بكر. وتبرز من نسائهم راعيات للأدب مثل مريم زوجة تميم بن يوسف ممدوحة ابن خفاجة، وأهم منها السيدة حواء زوجة أهم قوادهم سِير بن أبى بكر حاكم إشبيلية مددا متطاولة ممدوحة الأعمى التطيلى، وكانت لها ندوة فى قصر الإمارة يحضرها كبار الشعراء والمتفلسفة، وتحاورهم فى الشعر ونقده على نحو ما حدث فيها بعد بفرنسا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر وظهور سيدات متأدبات فيها على غرارها، وكان لهن صالونات يتحاور فيها أدباء باريس النابهون.

وحقا كان لفقهاء المالكية سطوة كبيرة فى عصر المرابطين، وهى سطوة لا ترجع إلى المرابطين ذات أنفسهم، وإنما ترجع إلى أن هذا العصر أتى بعد عصر فساد فى الحكم انتشر فيه اللهو، وأصبحت الأندلس أندلسات وإمارات كثيرة بل شراذم، والجيران والإخوان يتحاربون، والعدو فاغرٌ فاه، يكاد يلتهمهم جميعا، مما جعل الفقهاء يستغيثون بالمرابطين وابن تاشفين كى ينقذوا الأندلس مما تحولت إليه من دار لهو كبيرة ممزقة، واستنقذها المرابطون ومن ورائهم ومعهم الفقهاء يؤيدون ويساعدون، فكان طبيعيا أن يعظم شأنهم فى هذا العصر بالقياس إلى عصر أمراء الطوائف عصر اللهو والفساد. وكان من أخطاء بعضهم أن أفتوا بأن الغزالى مجدد الإسلام المصلح يعد من المبتدعة، مما أدى إلى ظهور حركة دينية إصلاحية جديدة هى حركة الموحدين التى عجلت بسقوط دولة المرابطين. وفى هذه الأثناء انتهز نفر من رؤساء المدن فى الأندلس الفرصة فاستقلوا بها، وكان أولهم ابن حمدين قاضى قرطبة وتبعه فى بطليوس ابن قسى وفى المرية يوسف بن مخلوف ثم الرميمى وفى مرسية عبد الله بن عياض ثم صهره ابن مردنيش وتبعته بلنسية وطرطوشة

وجيان وظلت الجزر الشرقية مع بنى غانية حتى سنة ٥٨٠ إذ صارت لدولة الموحدين.

(جـ) الموحدون[1]

أنشأ هذه الدولة ابن تومرت، وهو مصلح دينى مغربى زار المشرق وتتلمذ على أساتذته من الأشعرية وغيرهم، وعاد إلى المغرب فنظم فيه ثورة واسعة ضد المرابطين وفقهائهم المالكية الذين كانوا يهتمون فى دراسة الفقه بالفروع دون الأصول، وتبعه خلق كثيرون وجعلهم طبقات: الطبقة الأولى سماها الجماعة، وسمى الطبقة الثانية باسم الموحدين وألف منهم جيشًا ضخمًا واقع به المرابطين سنة ٥٢٤. وتوفى سريعًا فخلفه عبد المؤمن بن على حتى وفاته سنة ٥٥٨ للهجرة، وهو يعد المؤسس الحقيقى للدولة، إذ استطاع القضاء نهائيًا على دولة المرابطين، وتبعه المغرب من طرابلس إلى المحيط، وتمَّ له ملك أكثر الأندلس منذ سنة ٥٤٠. وكان ابن الرُّنك صاحب قلمرية شمالى نهر تاجه بالقرب من المحيط قد استولى على أُشْبونة وشَنْتَرين وقصر أبى دانس، وهو يعد أول ملوك البرتغال بينما استولى ابن مردنيش على شرقى الأندلس وولى صهره إبراهيم بن همشك على جيان، فنازلهما الموحدون وقضوا عليهما فى الستينيات، وكان النصارى قد استولوا على المرية من يد ابن الرميمى فاستعادوها. وتوفى عبد المؤمن فخلفه ابنه يوسف، وكان مثقفًا ثقافة واسعة أتيحت له فى أثناء ولايته لأبيه على الأندلس واتخاذه إشبيلية عاصمة له، وكان مثل أبيه وإمامه ابن تومرت ثائرًا على كتب المذاهب الفقهية وما بها من كثرة الفروع والعلل والأقيسة ومعتنقًا لمذهب أهل الظاهر، وعبر إلى الأندلس فى سنة ٥٦٦ لجهاد النصارى، وأعاد عليهم الكرة فى سنة ٥٨٠ وهى سنة وفاته وخلفه ابنه يعقوب، وكان متعصبًا للمذهب الظاهرى تعصبًا شديدًا، وفى السنة الثانية من حكمه توفى ابن الرنك ملك البرتغال واستولى ابنه شانجه على مدينة شلب، واستردها يعقوب فى السنة التالية ومعها قصر أبى دانس فى الجنوب الشرقى لأُشبونة. وعبر إلى الأندلس سنة ٥٩١ فى جيش

---

(١) انظر فى الموحدين بالأندلس الجزء الثانى والثالث من البيان المغرب (طبع باريس) ونفح الطيب وتاريخ ابن خلدون ٤/١٦٥ والمعجب للمراكشى (طبع القاهرة) وكتاب المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين لابن صاحب الصلاة وتاريخ الدولتين الموحدية والحفصية للزركشى (طبع تونس) والجزءين الثانى والثالث من الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للناصرى وأعمال الأعلام لابن الخطيب (طبع بيروت والمغرب) وعصر المرابطين والموحدين لمحمد عبد الله عنان والتاريخ الأندلسى لعبد الرحمن الحجى ومعالم تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس والإسلام فى المغرب والأندلس لبروفنسال بمراجعة د. لطفى عبد البديع.

جرار، وعلم به ألفونس الثامن ملك قشتالة فجمع له جموعًا كثيرة تزيد على مائتى ألف راجل وخمسة وعشرين ألف فارس، والتقيا عند حصن الأرَك فى وسط الطريق بين قرطبة وطليطلة، ومُنِىَ ألفونس وجيشه بهزيمة ماحقة وتنادوا الفرار الفرار، وفر ألفونس ناجيًا بنفسه. وعاد يعقوب إلى إشبيلية مبتهجًا بكثرة الأسلاب والغنائم، وأصلح مسجدها وبنى مئذنته التى عرفت باسم الخيرالدا، وكان حريًّا أن يتبع ألفونس إلى طليطلة ويستولى عليها حتى يفيد الفائدة المرجوة من هذا النصر العظيم، غير أنه اكتفى بعقد معاهدة بينه وبين ألفونس بعدم الاعتداء لمدة عشر سنوات. وتوفى سنة ٥٩٥ وخلفه ابنه الناصر وكان ضعيفًا وشغلته ثورات مختلفة فى المغرب كما شغله استيلاؤه على جزائر البليار من يد بنى غانية، بينما كان ألفونس يعد العدة لمعركة فاصلة بينه وبين الموحدين وأعان ملوك النصارى فى الشمال والبابا والأساقفة فى جنوبى فرنسا واعدين مساعديه بالغفران وجاءه عُبَّاد الصليب من كل فَجٍّ، والتقى سنة ٦٠٩ بالناصر وجيش الموحدين فى حصن العقاب إلى الجنوب الشرقى من حصن الأرَك، وهُزم الناصر وجيشه هزيمة مرة، ولم تَدُر السنة حتى توفى وخلفه ابنه المستنصر حتى سنة ٦٢٠ وأخوه المأمون حتى سنة ٦٢٩ وفى أيامه أعلن استقلاله ابن أبى حفص واليه على تونس، وولى بعده ابنه الرشيد حتى سنة ٦٤٠ وفى عهده استقل بنوزيان بتلمسان (المغرب الأوسط) وخلفه ابنه السعيد وفى أيامه عظم شأن بنى مرين فى المغرب الأقصى واستولوا على فاس ومكناس وأيضًا على سلا والرباط على شاطئ المحيط ودخلوا مراكش سنة ٦٦٤ وبذلك انتهى عهد الموحدين.

ومنذ زمن المأمون الموحدى أخذ بعض الثائرين فى الأندلس يعلنون استقلالهم، وفى مقدمتهم ابن هود الملقب بالمتوكل الثائر بمرسيه سنة ٦٢٥ ومَلَكَ قرطبة وإشبيلية وغرناطة فضلاً عن مالقة والمرية، ولقيه النصارى فى ماردة شرقى بطليوس سنة ٦٢٦ فهزموه وأخذوها، واستولى صاحب برشلونة على جزائر البليار سنة ٦٢٧، ولم يلبث ملك قشتالة أن استولى على قرطبة جوهرة الأندلس الكبرى سنة ٦٣٣ وقتل ابن هود وزيره ابن الرميمى غيلة فى المرية، وثار زيان بن يوسف بن مردنيش ببلنسية سنة ٦٢٦ وأخذها منه ملك أراجون سنة ٦٣٥ وسقطت جزيرة شقر سنة ٦٣٩ ودانية سنة ٦٤١ وشاطبة سنة ٦٤٤ واستولى فرناند الثالث ملك قشتالة على إشبيلية عروس الأندلس سنة ٦٤٦. وآلت مرسية لعم المتوكل بن هود بفريضة للنصارى وخدمة، وثار عليه عزيز بن خطاب سنة ٦٣٥ وهُزم فى وقعة مع النصارى فاستدعى أهل مرسية زيان بن يوسف بن مردنيش فدخلها وقتله سنة ٦٣٦ وعاد أهل مرسية فثاروا على ابن مردنيش وأخرجوه من بلدتهم،

فعادت لبنى هود، وما زال فرناند الثالث ملك قشتالة يغاورها ويحاصرها حتى استولى عليها سنة ٦٦٤ للهجرة.

(د) بنو الأحمر[١] فى غرناطة

تنتمى هذه الأسرة إلى حفيد الصحابى الجليل سعد بن عبادة سيد الخزرج لعهد الرسول ﷺ وهو محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر والملقب بلقب الغالب بالله، وكان فارسًا مقدامًا، رأس فى قريته أرجونة شمالى جَيَّان واستولى على جَيَّان سنة ٦٢٩ من ابن هود ثم على بَسْطة ووادى آش شمالى غرناطة، ثم على غرناطة نفسها سنة ٦٣٥ واتخذها عاصمة وامتدَّ سلطانه فى الشرق إلى مالقة والمرية، غير أنه اضطر إلى التخلى عن جيان سنة ٦٤٣ لملك قشتالة، وعقد معه معاهدة التزم فيها بتقديم عون له فى استيلائه على إشبيلية سنة ٦٤٦ واتسع بسلطانه شمالى مالقة والمرية حتى لورقة وجنوبيًا حتى جبل طارق والجزيرة الخضراء وحتى لبلة وشريش وشذونة فى الجنوب الغربى لغرناطة، ومكَّن له من تثبيت ملكه حنكته السياسية وطول مدة حكمه حتى سنة ٦٧١. وخلفه ابنه محمد الملقب بالفقيه، وسرعان ما هاجمه ألفونس العاشر ملك ليون فاستنجد بالمنصور عبد الحق سلطان المرينيين بالمغرب فأرسل إليه قوة كبيرة، والتقى الجمعان عند إستجة جنوبى قرطبة سنة ٦٧٤ وانتصر المسلمون انتصارًا عظيمًا. واتفق محمد الفقيه سلطان غرناطة وسلطان بنى مرين على أن تقيم فى مملكة غرناطة قوة مرينية يرأسها قائد مرينى يسمى شيخ الغزاة يدخل فى عداد كبار الشخصيات بغرناطة، واتُّفق على أن تكون مالقة قاعدة للقوات المرينية، وعبر المنصور المرينى مرارًا وظل يشتبك مع القشتاليين حتى أذعنوا لمسالمة محمد الفقيه، وتوفى سنة ٧٠١ وخلفه ابنه محمد المخلوع سنة ٧٠٨ وولى بعده أخوه نصر حتى سنة ٧١٣ إذ تنازل لابن عمه إسماعيل، والتقى بالقشتاليين سنة ٧١٨ ودارت عليهم الدوائر، وله فضل فى إقامة بعض منشئات قصر الحمراء واغتيل سنة

---

(١) انظر فى بنى الأحمر بغرناطة أو بنى نصر كتاب اللمحة البدرية فى الدولة النصرية والإحاطة فى أخبار غرناطة (فى تراجم أمرائهم) وأعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب ونبذة العصر فى أخبار ملوك بنى نصر لمجهول (طبع المغرب) والمغرب لابن سعيد (طبع دار المعارف) ١٠٩/٢ والذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية لابن أبى زرع (طبع الرباط) وتاريخ ابن خلدون: الجزء الرابع ونفح الطيب للمقرى (انظر الفهرس) ويوسف الأول سلطان غرناطة لمحمد كمال شبانة (طبع القاهرة) ونهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين لمحمد عبد الله عنان (طبع القاهرة) والتاريخ الأندلسى لعبد الرحمن الحجى ومعالم تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس.

٧٢٥ وخلفه ابنه أبوالحجاج يوسف الأول، وفى أيامه استولى القشتاليون على طريف المشرفة على جبل طارق، وحدث وباء كبير سنة ٧٤٩ ولابن خاتمة الشاعر رسالة فى وصفه. واغتيل أبو الحجاج يوسف الأول سنة ٧٥٥ وخلفه ابنه محمد الخامس الغنى بالله وله القسط الأوفر من منشئات قصور الحمراء، وتوفى سنة ٧٩٣ وكانت علاقته حسنة بملك القشتاليين وبالمثل علاقات ابنه يوسف وحفيديه محمد ويوسف المتوفى سنة ٨٢٠ وتلا يوسف أمراء ضعاف دب الخلاف بينهم وبين أبناء عمومتهم، ولم يلبث القشتاليون أن استولوا على جبل طارق سنة ٨٦٧ وبذلك أصبحت إمارة غرناطة محاصرة بالقوات النصرانية، بالإضافة إلى ما نشب من حروب بين أبناء الأسرة الحاكمة كانوا يستعينون فيها بملوك قشتالة. وأخذ ذلك ينذر بنهاية إمارة غرناطة وعجّل بها زواج فرناند ملك أراجون من إيزابيلا ملكة قشتالة، فتعاونا على القضاء على الإمارة، وقدما بقوات ضخمة استوليا بها على بعض المدن الصغرى، ثم حاصرا غرناطة آخر معقل للإسلام فى الأندلس، واستسلم أبو عبد الله الصغير وسلم مفاتيح الحمراء لفرناند سنة ٨٩٧ للهجرة ونصت معاهدة التسليم على أن يحتفظ المسلمون فى غرناطة والأندلس بكامل حقوقهم وبمساجدهم وإقامة شعائرهم الدينية، ولكن الاسبان ضربوا بكل ذلك عرض الحائط ومضوا يضطهدون المسلمين المتبقين أسوأ اضطهاد وسموهم المدجنين، بينما سموا من تنصر منهم ظاهرا الموريسكيين وعقدوا لهم محاكم التفتيش المشهورة إلى أن أصدر الملك فيليب الرابع سنة ١١١٧ هـ / ١٦٠٩ م أمرًا بخروجهم من إسبانيا. ومن الغريب أن هذا التعصب الدينى المقيت الذى أخرج المسلمين من الأندلس هو الذى أتاح لأوربا استكشاف أمريكا وطريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند فإن فردناند الذى ساعد أرستوف كولمب على اكتشاف أمريكا كان متأثرًا – بعد استيلائه على غرناطة – بفكرة حصر الإسلام والمسلمين بين نارين، وتأثر بنفس الفكرة البرتغاليون فى اكتشافهم لطريق الهند.

٥

المجتمع(١)

رأينا - فيما مر بنا - كيف كان التكوين البشرى لسكان إيبيريا مزيجًا معقدًا من عناصر جنسية كثيرة إذ نزلها قديمًا قبائل من بلاد الغال فى الشمال، ثم نزلتها عناصر فينيقية ويونانية وقرطاجنية ورومانية وجرمانية، ونزلها كثيرون من اليهود ثم نزلها مع الفتح العربُ والبربر. وجلب إليها حكام الدولة الأموية كثيرين من الصقالبة المنتمين إلى شرقى أوربا وفرنسا وألمانيا. ومن كل هذه العناصر تألف المجتمع الأندلسى مشتركة فى تكوينه القارات القديمة الثلاث: أوربا وإفريقيا وآسيا. ودخل كثير من أهل إيبيريا فى الإسلام وكانوا يُسَمَّوْن: «مسالمة» وسُمِّى أبناؤهم باسم المولدين، وظل كثيرون على مسيحيتهم مع اصطناعهم لحياة المسلمين وعاداتهم وتعلم العربية والتكلم بها وسُمُّوا باسم المستعربين.

وأخذت تعمل عوامل فى المزج السريع بين المسلمين والمسيحيين، منها كثرة المصاهرة فقد تزوج كثيرون فى الجيش الفاتح من الإسبانيات. وظل ذلك فيما بعد، إذ كان كثيرون من العرب والبربر يؤثرون الإسبانيات الشقراوات، وكان البيت الأموى يكتظ بهن. ومن تلك العوامل أيضًا روح التسامح الدينى الذى بثّه الإسلام فى أتباعه فكان أهل الذمة من النصارى واليهود يعاملون بالحسنى معاملة كريمة. ومرت بنا فى غير هذا الموضع فتنة دينية لعهد عبد الرحمن الأوسط أثارها بعض قساوسة النصارى ورهبانهم، وسرعان

(١) انظر فى المجتمع الأندلسى مواضع مختلفة من المقتبس لابن حيان بأجزائه المنشورة والصلة لابن بشكوال والحلة السيراء والتكملة لابن الأبار والذخيرة لابن بسام وكتاب أحكام السوق ليحيى بن عمر (طبع تونس) وكذلك نشرة صحيفة المعهد المصرى بمدريد: المجلد الرابع، والتبيان: مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين (طبع دار المعارف) ورسالة الحسبة لابن عبدون وصورة الأرض لابن حوقل ونقط العروس فى نوادر الأخبار لابن حزم نشر مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة العدد الثانى من المجلد الثالث عشر وتاريخ ابن خلدون ومقدمته وصفة الأندلس (من نزهة المشتاق) للإدريسى نشر دوزى ودى جويه (طبع ليدن) ونفح الطيب وكتاب ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية ١٨٥/٢ حيث ينقل التيفاشى عن ابن سعيد نصًا مهما عن الموسيقى الأندلسية، وراجع تراث الإسلام: الجزء الأول طبعة القاهرة وانظر طبعته المتجددة فى الكويت وبحثا قيما عن المجتمع القرطبى للدكتور الطاهر مكى فى كتابه: «دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة» ص ١٥ وما بعدها وص ٢٤٧ وما بعدها.

ما انتهت وحل محلها تعصب وطنى استشعره المسالمة والمولدون والمسيحيون إذ داخلهم عصبية التعصب لوطنهم والشعور بأن العرب والبربر الأندلسيين غرباء أجانب، مما هيأ لثورات عبد الرحمن بن الجليقى فى بطليوس وعمر بن حفصون فى بُبَشْتر وكثيرين غيرهما، واستطاع عبد الرحمن الناصر القضاء على هذه الثورات واستعادة وحدة الأندلس. ونتوقف قليلا بإزاء الحضارة والغناء والمرأة فى الأندلس.

الحضارة

كانت حياة أهل إيبيريا قبل الفتح العربى أقرب إلى حياة البداوة، وظل المسيحيون فى القسم الجبلى بالشمال يعيشون هذه الحياة لوعورة موطنهم، ولما تقوم عليه حياتهم من شظف وخشونة، وظل العرب والبربر وأهل الأندلس جميعًا يعيشون نفس هذه المعيشة المتبدية زمن الولاة، غير أنهم أخذوا فى التحضر زمن الدولة الأموية لما ساد حياتهم من أمن واستقرار، وأخذوا يخطون فى ذلك خطوات قوية منذ عهد عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ – ٢٣٨ هـ). بسبب شغفه بحضارة العرب المادية فى المشرق مما دفع تجار قرطبة إلى استيراد أدواتها ونفائسها، وفى ذلك يقول ابن سعيد فى ترجمته بكتاب المغرب: «فى أيامه دخل الأندلس نفيس الجهاز من ضروب الجلائب لكون ذلك نفَق عليه وأحسن لجالبيه، ووافق زمنه انتهابُ الذخائر التى كانت فى قصور بغداد عند خلع الأمين فجُلبت إليه». وحاكاه أهل قرطبة والأندلس فى العناية بالفرش والرِّياش وأدوات الزينة، ولم يلبث أن أنشأ بقرطبة دار طراز لصنع المنسوجات والملابس الأنيقة، وأخذت تنشأ هناك صناعة الحلى والحقاق والتحف والأوانى والأثاث. وسرعان ما أخذ المجتمع القرطبى يتحضر فى المعاش والحياة الاجتماعية وآدابها فى المأكل والملبس والتزين وكان من أهم العوامل فى ذلك وفود زرياب غلام إسحق الموصلى فى أول عهد عبد الرحمن الأوسط الذى احتفل به احتفالاً عظيمًا وقد علَّم الأندلسيين الأكل على الموائد بالملاعق والسكاكين بدلاً من الأصابع مع تفضيل آنية الزجاج، وأضاف إلى أطعمتهم ألوانًا جديدة من أطعمة بغداد، وعلم المرأة الأندلسية كيف تتزين وما تتخذ من عطور ومن ضروب الثياب وكيف تتفنن فى تصفيفات شعرها وكيف تسدله على جبهتها وجوانب وجهها، وعلمَ الرجال آدابًا مختلفة فى اتخاذ الثياب وتقصيرها وتضييق الأكمام وإرسال شعرهم وراء آذانهم، وأيضًا كيف يتأنقون فى فرشهم وتأثيث بيوتهم.[١]

---

(١) انظر فى هذا الدور الحضارى لزرياب النفح للمقرى (تحقيق د. إحسان عباس) ١٢٧/٣ وما بعدها.

وأخذت الأندلس تخطو خطوات واسعة فى الحضارة المادية، وساعدها على ذلك ثراؤها لوفرة الأنهار فيها والثمار والضَّرْع والزرع والبساتين وكثرة المعادن، ولاحظ ذلك كل من زاروها من رحالة المشرق فقالوا إن خيراتها كثيرة وليس بها شحاذ ولا متسول، وهيأ هذا الثراء فيها وما كان يجنيه حكامها من الضرائب للتفنن فى بناء القصور منذ عهد عبد الرحمن الأوسط وابنه محمد حتى إذا كنا فى عهد عبد الرحمن الناصر وجدناه لا يبنى قصرًا أو قصورًا متعددة فحسب، بل يبنى مدينة الزهراء بجوار قرطبة على سفح جبل العروس وقد ظل عشرة آلاف عامل ينهضون ببنائها لمدة خمسة وعشرين عامًا، وكانت الطبقة الدنيا فيها بساتين وحدائق، وفى الطبقة الوسطى دور الموظفين، وفى الطبقة العليا قصره وقاعته الكبيرة المزدانة بأعمدة الرخام وحليِّها الذهبية وجوهرةٍ كبيرة تتلألأ فى وسطها سوى ما كان بالمجلس المعروف بمجلس المؤنس من تماثيل لحيوانات من الذهب الخالص. وكان القصر يمتد طولاً فى نحو ثلاثة آلاف ذراع وعرضًا فى نحو ألف وخمسمائة، وكان به نحو أربعة آلاف عمود من الرخام. ويتضح ثراء الحكم الأموى وأبهته فى بناء المسجد الجامع بقرطبة. ولا تزال روعته ماثلة إلى اليوم على الرغم مما اقتطع منه لكاتدرائية وكنيسة، وقد استغرق وصف روعة المعمار فيه نحو عشرين صحيفة فى كتاب الفن العربى فى إسبانيا وصقلية لفون[١] شاك. وبنى المنصور بن أبى عامر حاجب الخليفة هشام المؤيد بدوره مدينة الزاهرة. ولا يتضح ثراء الحكم الأموى فى بناء الجامع الكبير الذى ظل يعنى الحكام الأمويون حتى عهد المنصور بزخرفته والاتساع به ولا فى بناء القصور وبناء المدن فحسب، فمن أهم صوره الهدايا الفاخرة التى ذكر ابن حيان أن عبدالرحمن الناصر[٢] كان يرسل بها إلى أمراء المغرب مثل هديته إلى موسى بن أبى العافية سنة ٣٢٢ وما كان بها من قطع البَزِّ العجيب الصنعة والطرف الأنيقة من ثياب وغير ثياب وطيب وغير طيب. وذكر ابن خلدون فى ترجمته للناصر هدية[٣] وزيره أحمد بن عبد الملك بن شهيد وما حمل إليه فيها من الذهب، وقد بلغ خمسمائة ألف مثقال وحمل من التبر مثله، سوى كميات كبيرة من سبائك الفضة والعود الهندى والمسك الذكى والعنبر والكافور والثياب الحريرية المرقومة بالذهب والفراء الثمين والملاحف المذهبة للخيل والأبسطة، وأيضًا سوى عشرين جارية بكسوتهن وزينتهن وأربعين وصيفًا، وسوى ما لا يكاد يحصى من السلاح وعتاق الخيل الكريمة.

---

(١) انظر الكتاب بترجمة الدكتور الطاهر مكى (طبع دار المعارف) ص ٢٢.

(٢) المقتبس ٢٣٨/٥.

(٣) تاريخ ابن خلدون ١٣٨/٤. وانظر أزهار الرياض ٢٦١/٢.

وظل كثير من صور هذا الثراء الواسع ماثلاً فى عهد أمراء الطوائف، وهو يتضح فى تنافسهم فى بناء القصور والتفنن فى كل مايتصل بها من أناقة وتنميق على نحو مايصور ابن بسام ذلك فى وصفه لقصر المكرم للمأمون بن إسماعيل بن ذى النون حين احتفل فيه بإعذار لحفيده يحيى، ونشعر كأننا انتقلنا إلى قصر مسحور من قصور ألف ليلة وليلة لكثرة ما فيه من ضروب الديباج والطنافس والستائر المزركشة وأزر الحيطان المرمرية وما عليها من تماثيل وصور لحيوانات وأطيار وأشجار وثمار، سوى بحيرتين فى القصر صفَّتْ عليهما تماثيل أسود من الذهب والمياه تنساب من أفواهها. ونعجب أن ينفق أمير طليطلة – وهو أقرب أمراء الأندلس إلى ملوك قشتالة والنصارى عامة – هذه القناطير المقنطرة من الذهب على قصره المكرم، ولا يكاد يبقى فى خزائنه ما لا يشترى به سلاحًا للقاء أعدائه، وما هى إلا سنوات حتى سقطت طليطلة من يد حفيده يحيى فى حجر ألفونس السادس ملك قشتالة. ولم يكن المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية يقل عن المأمون فى طليطلة إسرافًا فى بناء قصوره والإنفاق على حظاياه ومجالس أنسه الكثيرة وكان مشغوفًا بزوجته اعتماد الرميكية وفى نفح الطيب أنها رأت يومًا بإشبيلية نساء البادية حولها يَبِعْنَ اللبن فى القِرب، وهن رافعات – فى الطين – ثيابهن عن سوقهن، فقالت له: أشتهى أن أفعل مثلهن أنا وجوارىّ فأمر بعنبر ومسك وكافور وماء ورد، وصيرَّ كل ذلك طينًا فى القصر ومعه قِرَبٌ وحبال من حرير، وخرجت – هى وجواريها – يَخُضْنَ فى ذلك الطين. ويحكى عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة أنه حين تنازل عن أمواله ليوسف بن تاشفين كان بينها سَفَط ذهب فيه عشرة عقود من أنفس الجواهر، وتنازلت أمه عن خمسة عشر عقدًا نفيسًا. وعلى هذا النحو ظل أمراء الطوائف ينعمون بهذا الترف على حساب الشعب، وحقًا كانت هناك طبقة وسطى من التجار والصناع ممن كانوا يقدمون أدوات الترف والنعيم للطبقة الحاكمة وحواشيها من الوزراء والولاة والقواد وكبار رجال الدولة، غير أنه كان وراءها طبقة من العامة تكدح وتنصب لطائفة استأثرت لنفسها بزينة الحياة.

على أنه ينبغى أن لا نبالغ فى صور ما كانت تعيش فيه الطبقة العامة من شظف فى الحياة أو بؤس لكثرة ما كان فى الأندلس من طيِّبات الرزق، وقد ظلت تنعم بما فيها من ثراء لعهدى المرابطين الموحدين ونرى آثاره فى بناء السلطان يعقوب الموحدى لجامع إشبيلية ومئذنته «الخيرالدا» التى لا تزال قائمة إلى اليوم، أما الجامع فأحاله المسيحيون إلى كنيسة، وما كان أحراهم أن يبقوه متحفًا – على مر الزمن – يعرض مهارة الفنان الأندلسى فى المعمار والزخرفة. وحرى بنا أن نذكر أنه كان بالأندلس غابات كثيرة هيأت

لصناعة الأساطيل وازدهار صناعة الأثاث، واشتهرت طرطوشة بصنوبر أحمر صافى البشرة، ومن عيدانه اتُّخذ خشب المسجد الجامع بقرطبة. وكانت المعادن كثيرة، ومن أهمها معدن الزئبق فى شمالى قرطبة،ويقول الإدريسى فى القرن السادس الهجرى إنه كان يعمل فيه ما يزيد على ألف عامل، وازدهرت صناعات الحلى والأوانى والحِقاق والطرف المعدنية والبرونزية والفضية والملابس والثياب الحريرية، ويقول الإدريسى إنه رأى فى المرِّية ثمانمائة دار طراز للحرير تصنع فيها الحلل والثياب والستائر والبُسُط. ويقول ابن خلدون فى مقدمته عن الأندلس وصناعاتها وقد نزلها فى أواخر القرن الثامن الهجرى: «إنا نجد فيها رسوم الصنائع قائمة وأحوالها مستحكمة راسخة فى جميع ما تدعو إليه عوائد أمصارها كالمبانى والطبخ وأصناف الغناء واللهو من الآلات والأوتار والرقص وتنضيد الفرش والرياش وحسن الترتيب والأوضاع فى بناء القصور وصَوْغ الآنية من المعادن والخزف وجميع المواعين وسائر الصنائع التى يدعو إليها الترف وعوائده فنجدهم أقومَ عليها وأبصرَ بها، ونجد صنائعها مستحكمة لديهم، وهم على حصة موفورة من ذلك وحظ متميز بين جميع الأمصار لما قدمناه من رسوخ الحضارة أيام الدولة الأموية ودول الطوائف»[1]. ومن أكبر الأدلة على استمرار ازدهار الصناعات ومظاهر الحضارة المادية فى الأندلس قصر الحمراء الذى شاده بغرناطة أمراؤها فى الحقب العربية الأخيرة بها، وليس قصرًا فحسب بل معرضًا خلابًا لما وصلت إليه الحضارة الأندلسية من ازدهار، وبه يحيط سور يعلوه شرف للحراسة، وتلقاك بداخله جنة العريف، وهى حديقة كأنها اقتطعت من الفردوس بنافوراتها ومياهها المتدفقة وأشجار البرتقال والريحان بها والأزهار الأرجة، ومن ورائها القصر الفخم وقد فُرشت أرضه بالرخام وازدانت حيطان قاعاته وردهاته وغرفه بالآيات القرآنية والأشعار وآلاف الزخارف، وتلقاك أسود فى قاعة حاملة حوضًا من الماء ينسكب من أفواهها، وقد استغرق وصف هذا القصر وجنته فى كتاب «الفن العربى فى إسبانيا وصقلية» لفون شاك أكثر من خمسين صفحة، وإنه ليقول وقد أخذت روعته بلبه: «سعيد من يستطيع زيارة الحمراء إذ سوف تستيقظ فى روحه الأحلام المكبوتة وتحيا الآمال الضائعة[2]».

---

(١) المقدمة (تحقيق د. على عبد الواحد وافى) ص ٩٣٨ وما بعدها.

(٢) انظر الفن العربى فى إسبانيا وصقلية لفون شاك ص ١٨٢.

الغناء

وكان الغناء يشيع فى الأندلس منذ وفود زرياب غلام إسحق الموصلى على الأمير عبد الرحمن الأوسط واحتفاله به احتفالاً عظيمًا، إذ جعل له راتبًا مائتى دينار فى الشهر وأقطعه من الدور والضياع ما يقدر بأربعين ألف دينار غير صلات سنية. وأقام زرياب فى قرطبة معهدًا يتدرب فيه الفتيان والفتيات على الغناء، واشتهر بأنه أضاف إلى أوتار العود وترًا خامسًا اخترع له مضرابًا من قوادم النسر[١]، وجعل للغناء تقاليد انفردت بها الأندلس فكان يبدأ بالنشيد ويخرج منه إلى البسيط ويختم بالمحركات والأهازيج[٢]، وينقل التيفاشى عن ابن سعيد أنه لم يكن بالأندلس قبله سوى طريقة حُداة العرب وترانيم الكنائس دون قانون[٣] فيها أى دون رقْمٍ (نُوت) موسيقية. وزرياب بذلك يفتتح حركة الغناء والموسيقى فى الأندلس. وخرَّج زرياب كثيرين من الشباب والجوارى منهن منفعة أهداها إلى الأمير عبد الرحمن الأوسط ومنهن بنانة وقلم وعلم وشفاء. وأخذ الغناء فى الأندلس يزدهر بعده وممن أتقنوه عباس بن فِرْناس المتوفى سنة ٢٧٤ واتسع التعلق به، حتى أصبح الشغل الشاغل لكثير من المدن، ويحكى التجيبى شارح أشعار كتاب المختار من شعر بشار للخالديين فى مقدمة شرحه أنه بات ليلة فى سنة ٤٠٦ بمالقة ساهرًا لما كان يخفق حوله من أوتار العيدان والطنابير والمعازف من كل ناحية. وكل بلاد الأندلس كانت مثل مالقة عزفًا وغناء، واتسعت الموجة زمن أمراء الطوائف وخاصة فى إشبيلية وطُلَيطلة. وممن اشتهر بعد زمنهم بجودة التلحين أبو الصلت أمية بن عبد العزيز، وهو الذى أخذ أهل إفريقية الألحان الأندلسية عنه، وكان يعاصره الفيلسوف ابن باجة وكان إمام الأندلس الأعظم فى الموسيقى والألحان، وخلفه عليها تلميذه أبو عامر بن الحمارة وكان يصنع عود الغناء بيده وينظم الشعر ويلحِّنه عليه ويغنى[٤] به، شأن المغنين الأوربيين المعاصرين الذين ينظمون الشعر ويلحنونه ويغنونه. ويبدو أنه كان يقترن الرقص بالغناء منذ زرياب، وقد رقى بدوره فنونًا من الرقى حتى لنجد ابن كسرى المالقى المتوفى سنة ٦٠٣ للهجرة يصف حركات راقصة تسمى نزهة على هذا النمط[٥]:

---

(١) النفح ١٢٦/٣.

(٢) النفح ١٢٨/٣.

(٣) انظر كتاب ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية (طبع تونس) ١٧٩/٢.

(٤) المغرب ١٢٠/٢.

(٥) تحفة القادم نشر الفريد البستانى بمجلة المشرق ببيروت العدد ٤٠، ٤١ سنة ١٩٤٧م رقم ٥٧.

إذا رقصتْ أبصرتَ كلَّ بديعةٍ تُرَى ألفا حينًا، وحينا هى النونُ

فهى تتحرك فى رقصها حركات شتى، تارة تُرَى معتدلة، وتارة تتثنى وتبالغ فى الثنى حتى لتصبح مثل القوس أو مثل النون. ويرسم لنا على بن يوسف بن خروف القرطبى نفس الصورة فيقول فى راقص ولعلها راقصة[(١)]:

ومنوَّع الحركات يلعب بالنُّهى لبسَ المحاسن عند خلع لباسِهِ
متأوِّدًا كالغُصن وسط رياضِهِ متلاعبًا كالظبى عند كِناسه[(٢)]
بالعقل يلعب مُقبلا أو مُدبرا كالدَّهْر يلعبُ كيف شاء بناسِهِ
ويضمُّ للقدمين منه رأسهُ كالسيف ضُمَّ ذُبابُه لِرآسهِ[(٣)]

واشتهر فى القرن السابع أبو الحسن المرسى وكل تلحين بالأندلس والمغرب فى شعر متأخر فهو من صنعته. وقد أخذ ملوك قشتالة منذ القرن الخامس الهجرى يجذبون إليهم بعض المغنين والمغنيات الأندلسيات ويقيمون لهم الحفلات وكان لذلك أثره البعيد فى نشأة الموسيقى عند الاسبان، إذ لم يكن يعرفون قبل الغناء العربى وما صحبه من موسيقى سوى ترانيم الكنائس كما يقول ابن سعيد، فعرفوا آلات الموسيقى العربية الكثيرة ورقمها الموسيقية، تدل على ذلك أكبر الدلالة أسماء تلك الآلات فى اللغة الإسبانية، فقد انتقلت إليها بأنغامها وألحانها العربية وهو دين كبير للموسيقى الأندلسية العربية على الموسيقى الأوربية فقد أخرجتها من عالم الترانيم الكنسية إلى عالم الموسيقى المؤلفة فى رُقُمٍ (نوت) موسيقية بتقديرات لحنية زمنية دقيقة.

المرأة

ولم نتحدث حتى الآن عن المرأة فى المجتمع الأندلسي، وكانت تحظى فيه بشىء من الحرية قلما كانت تحظى به أختها فى المشرق، يدل على ذلك من بعض الوجوه أن نجدها تركب مع الأمير فى موكبه إذ نرى ابن حيان يروى أن الأمير عبد الرحمن الأوسط قال لحاجبه عيسى بن شهيد يومًا وكان قد طال عليه المرض والمكث فى قصره دون خروج:

---

(١) المغرب ١٣٧/١.

(٢) متأودًا: متثنيا - كناس الظبى: مأواه فى الشجر.

(٣) ذباب السيف: طرفه القاطع - رآس السيف: مقبضه.

«إن بعض كرائمنا سألننا تجديد العهد لديهن بالركوب معهن للنزهة على مقتضى العادة، فاخرجْ من فَوْرك فانظر فى إقامة ما يحتاج إليه للنزهة على مقتضى العادة واعجَلْ بذلك فإنا متحركون صبيحة[١] غد» ويبدو أن الأميرات كن يبرزن للشعب سافرات يدل على ذلك ما ذكره ابن حزم فى رسالته: «نقط العروس» من أن رَسيس كانت سيدة مهيبة اتصلت بعبد الرحمن الناصر ونالت عنده مكانة رفيعة مما جعله يُرْكبها فى موكب له ذات يوم على بغل خلفه سافرة بقلنسوة وشقَّ بها الربض الغربى كله بقرطبة إلى مدينته: الزهراء[٢]. ومما يدل على ما كان للمرأة الأندلسية من منزلة أن نجد بينهن كاتبات أو كما نقول الآن سكرتيرات للأمراء والخلفاء مثل مُزْنة كاتبة عبد الرحمن الناصر كما يقول صاحب[٣] الصلة، وأيضًا كاتبته كتمان[٤] كما يقول صاحب الذيل والتكملة، ومثل لبنى[٥] كاتبة ابنه الحكم المستنصر كما فى الصلة. واشتهرت فى الأندلس غير شاعرة حتى ليترجم المقرى لعشرين منهن، وسنلم بذلك فى الفصل التالى. ويبدو أن كثيرات من النساء وخاصة فى البيت الأموى كن يتقن أرقى الآداب الاجتماعية مع حيازتهن للثقافة ونظمهن للشعر مما أعدَّ لظهور ولَّادة بنت الخليفة المستكفى واتخاذها فى قصرها ندوة أدبية كان يحضرها ابن زيدون وغيره من الشعراء والأدباء. وظل ذلك فى الأندلس، فكانت هناك سيدات من البيوت الرفيعة تحذو حذو ولّادة فى اتخاذ ندوة أدبية لها، حتى فى عهد المرابطين الذين يقال عنهم إنهم كانوا محافظين، إذ نجد سيدة شريفة من بيتهم هى السيدة حواء زوجة سير بن أبى بكر - الذى مهَّد بحسن قيادته ليوسف بن تاشفين حكم الأندلس وظل حاكمًا على إشبيلية اثنين وعشرين عامًا - تتخذ لنفسها ندوة مماثلة لندوة ولّادة، وسنعرض لها فى ترجمتنا للأعمى التطيلى ومدحه لها بقصيدة بديعة. وعلى شاكلتها وشاكلة ولّادة تلقانا حفصة الركونية وندوتها الأدبية فى عصر الموحدين وسنترجم لها مع أبى جعفر بن سعيد فى حديثنا عن الغزل.

---

(١) انظر المقتبس (بتحقيق د. مكى - طبع بيروت) ص ٢١.

(٢) راجع نشرتنا لتلك الرسالة فى الجزء الثانى من المجلد الثالث عشر من مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ص ٧٣ - ٧٤.

(٣) الصلة لابن بشكوال رقم ٦٥٤.

(٤) الذيل والتكملة للمراكشى (طبع المغرب) ٤٩١/٢/٨.

(٥) الصلة رقم ٦٥٣ وبغية الملتمس رقم ١٥٨٩ وكانت بارعة الخط نحوية عروضية شاعرة.

٦

التشيع - الزهد والتصوف

(أ) التشيع[١]

من الخطأ أن نظن أن ثورة أحد أحفاد من ناصروا عليا فى صفين كانت ثورة شيعية كما حدث فى عهد عبد الرحمن الداخل وبالمثل ثورة حفيد لعمار بن ياسر عليه، ويقال إن عمر بن حفصون اتصل - فى أثناء ثورته بالفاطميين - وكانوا لا يزالون فى القيروان ولم يكن اتصال ولاء إنما كان اتصالا سياسيًّا كيديا للأمير عبد الله بن محمد. ودعا ثائر أموى لنفسه سنة٢٨٨ للهجرة هو أحمد بن معاوية وتلقب بالمهدى، فظُنَّ خطأ - لهذا اللقب - أن لثورته علاقة بالتشيع وكل ما هناك أنه استعار هذا اللقب من دعاة الشيعة. ونجد ابن عبد ربه المتوفى سنة ٣٢٨ يتحدث فى كتابه «العقد الفريد» عن الشيعة وفرقهم وليس معنى ذلك أنه كان شيعيا، فقد كان متشيعا للأمويين متعصبا لهم.

وحاول آسين بلاسيوس أن يرد بعض آراء ابن مسرة المتوفى سنة ٣١٩ إلى آراء الإسماعيلية من الشيعة لمقامه فترة فى القيروان عاصمة الفاطميين قبل انتقالهم إلى مصر. غير أنها ترد - كما سنرى فى غير هذا الموضع - إلى الاعتزال والتصوف والفلسفة، فلا علاقة بينه وبين التشيع، وبالمثل لا علاقة بين منذر بن سعيد خطيب عبد الرحمن الناصر وبينه. وحقا أرسل الفاطميون بعض جواسيسهم للتعرف على الأندلس والدعوة لهم مثل ابن حوقل، غير أن ذلك لم يأت بطائل، إذا استثنينا تشيع ابن هانئ الشاعر الأندلسى وإيمانه بالعقيدة الإسماعيلية، وربما كان أبوه من دعاتهم السرِّيين فى الأندلس.

ووُجدت فى الأندلس زمن الفتنة الأموية فُرْصة للشيعة كى ينشطوا للدعوة إلى أنفسهم هناك حين استولى على بن حمود - من أسرة الأدارسة فى المغرب - على مقاليد الخلافة الأموية سنة ٤٠٧ غير أن غلمانه قتلوه - كما أسلفنا - فى السنة التالية، وولى

---

(١) انظر فى التشيع بالأندلس صورة الأرض لابن حوقل وأحسن التقاسيم للمقدسى والعقد الفريد لابن عبدربه والمغرب فى مواضع مختلفة والتشيع فى الأندلس للدكتور محمود مكى ومصادره.

بعده أخوه القاسم، ونازعه ابن أخيه المعتلى - كما مر بنا - ولم يلبث أن لحق بمالقة، وبها قتل سنة ٤٢٧. ولم يأخذ هؤلاء الحموديون الفرصة كي ينشروا فى الأندلس دعوة شيعية، وهم أنفسهم لم ينظموا هذه الدعوة هناك. وتنشأ صلة فى عهد أمراء الطوائف بين أمير دانية على بن مجاهد والفاطميين غير أنها لا تتعدى تبادل بعض الرسائل. ويربط بعض الباحثين بين ما حظى به اليهود - لعهد الطوائف - من مكانة فى غرناطة وبين ما كان فى أمرائها بنى زيرى من نزعة شيعية، وكأنما للتشيع صلة باليهودية، وهو ربط بعيد، والصحيح أن اليهود حظوا بهذه المكانة عند بنى زيرى لقدرتهم الاقتصادية مما جعل بنى زيرى يولون أحدهم - وهو ابن النغريلة - الوزارة

ونستطيع أن نزعم أن الأندلس كانت محصنة ضد التشيع ودعاته، حتى ليقول المقدسى فى أواخر القرن الرابع الهجرى إن الأندلسيين إذا عثروا على متشيع ربما قتلوه. وحتى بعد انتهاء الدولة الأموية نجد كبار المؤرخين فى الأندلس مثل ابن حيان وكبار المفكرين هناك مثل ابن حزم يتعصبون للأمويين ضد الشيعة تعصبا شديدا. وكل ما يمكن أن يكون للتشيع فى الأندلس إنما هو بعض الأصداء فى مدائح الشعراء للحموديين فى قرطبة ومالقة لمدة ربع قرن، وهى أصداء ضعيفة جدا إذ قلما صدر الشعراء فى شعرهم عن تشيع حقيقى لآل البيت. وسنرى فى حديثنا عن الرثاء أن الأندلسيين أخذوا منذ عصر المرابطين يستوحون مأساة الحسين فى نظم بعض مراث له، بل لقد أقاموا له أحيانا مآتم يندبونه فيها، وكأنما كانوا يندبون مأساتهم ومأساة رجالهم فى الأندلس. ونخلص من كل ما قدمنا إلى أنه لم تظهر فى الأندلس موجة حادّة للتشيع، وكل ما حدث أن أفرادا قد يتشيعون، وهو تشيع لا يعدو - غالبا - حب آل البيت.

(ب) الزهد[1] والتصوف

أخذت تنمو فى الأندلس نزعة مبكرة إلى الزهد فى متاع الحياة الدنيا والإقبال على العبادة، وكان مما يزكيها فى نفوس الأندلسيين الوعاظ فى المساجد الذين كانوا يعظونهم

(١) انظر فى الزهد والتصوف بالأندلس وأعلامها المذكورين هنا الصلة لابن بشكوال والتكملة لابن الأبار والمغرب لابن سعيد والفِصَل فى الملل والنحل لابن حزم والذيل والتكملة للمراكشى والمقتبس لابن حيان والإحاطة فى أخبار غرناطة والنفح وأزهار الرياض (انظر الفهارس) والمرقبة العليا للنباهى والطبقات الكبرى للشعرانى وتاريخ الفكر الأندلسى لبالنثيا

دائما ويذكرونهم بالله واليوم والآخر وأنهم معروضون على ربهم يوم القيامة فإما إلى الجنة والنعيم، وإما إلى النار والجحيم. وزكاها أيضا أن الحكام الأمويين كانوا يلتزمون الصلاة فى المسجد الجامع وكانوا يأخذون أبناءهم ونساءهم بآداب الإسلام والقيام بفرائضه وواجباته، ومنذ عبد الرحمن الأوسط كانت تُعْنَى زوجاتهم ببناء المساجد على نحو ما كانوا يعنون هم أنفسهم وكنَّ يقفن بعض أموالهن للجهاد فى سبيل الله، واشتهرت طروب زوجة عبد الرحمن الأوسط ببنائها مسجدا فى الربض الغربى من قرطبة، واشتهرت ابنته البهاء بزهدها ونسكها وكتابتها لمصاحف وقفتها فى مسجد لها بين مساجد الربض الغربى.

ومن أوائل من يلقانا من زهاد الأندلس وعُبَّادها أيوب البَلّوطى. ويروى أن السماء شحَّت بمطرها لأول عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ -٢٣٨ هـ) وفزع الناس إلى قاضيه مسرور بن محمد كى يصلى بهم صلاة الاستسقاء لما يعرفون من صلاحه، فلباهم حتى إذا وقف ليخطب خطبة الاستسقاء نادى: يا أيوب البلوطى! عزمت عليك حيث كنت لتقومنَّ، فلم يقم إلا بعد أن أقسم عليه فى الثالثة، وقال حين قام: يا هذا أشهرتنى أما كنت أدعو حيث أنا؟ ثم رفع القاضى رأسه فقال: اللهم إنا نستشفع إليك بوليِّك هذا، وألحَّ بالدعاء، وكثر الضجيج والبكاء، فلم ينصرفوا إلا وأحذيتهم فى أيديهم من كثرة المطر. وطُلب أيوب بعد ذلك فلم يوقَفْ له على أثر. ويدل هذا الخبر على أنه كان لأهل الأندلس اعتقاد حسن فى النسَّاك الزهاد. ومَنْ كان يفرط فى زهده ونسكه كانوا يظنون أنه من أولياء الله وأنه مجاب الدعوة. وكان يعاصر أيوب إمام فى المذهب المالكى هو عيسى بن دينار المتوفى سنة ٢١٢ وكان فى الذروة من العبادة والزهد، ويقال إنه صلَّى أربعين سنة الصبح بصلاة العتمة أو العشاء. واشتهر بالزهد من قضاة عبد الرحمن الأوسط معاذ بن عثمان المتوفى سنة ٢٣٤ وقيل إنه كان مجاب الدعوة. ومن الزهاد أيام عبد الرحمن الناصر أبو وهب عبد الرحمن العباسى المتوفى سنة ٣٤٤ وسنعرض له بين شعراء الزهد. ويلقانا فى زمن الفتنة الزاهد عبد الرحمن بن مروان القنازعى المتوفى سنة ٤١٣ نُسب إلى ما كان يكتفى به لسد رمقه من صنع القنازع التى كان يتخذها الأندلسيون لغطاء رءوسهم مما يشبه القلنسوة، وكان صَوَّام النهار قوَّام الليل راضيا بالقليل من كسبه، ولم ينحطَّ يوما إلى مسألة أحد. ومن الزهاد فى عصر أمراء الطوائف الفقيه المحدِّث ابن الطلاع، واشتهر بأنه لقى المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية، فوعظه ووبَّخه على حياته الماجنة اللاهية. ويؤلف ابن بشكوال المتوفى سنة ٥٧٨ كتابا فى زهاد الأندلس وأئمتها، وتظل نزعة الزهد حية مطردة فيها حتى خروج الإسلام والمسلمين

منها فى نهاية القرن التاسع الهجرى

وأخذت موجة من التصوف ترافق هذا الزهد منذ أيام عبد الرحمن الناصر، وكان أول من بعثها ودفعها دفعا قويا فى الأندلس محمد بن عبد الله بن مسرة المتوفى سنة ٣١٩ للهجرة، وكان قد حج وطوّف ببلدان المغرب ومصر والشام والحجاز ولابد أن سمع بمحنة الحلاج وصَلْبه سنة ٣٠٩ ببغداد وعاد إلى موطنه، واعتزل مع تلاميذه فى منزله بجبل قرطبة، وأخذ يلقنهم تعاليمه، وكانت مزيجا من آراء الصوفية والمعتزلة ومر بنا استنكار عبد الرحمن الناصر لعقيدته، وذكر ابن حيان فى الجزء الخاص•بالناصر إرساله سنة ٣٤٠ إلى البلدان المختلفة فى الأندلس منشورا يندِّد فيه بعقيدة ابن مسرة ويتوعد أتباعه، مما يدل على أنها كانت قد أخذت تشيع وتتألف حولها فرقة. وتمادى الطلب لأفرادها بقيَّة عهد الناصر وفى عهد ابنه الحكم المستنصر، مما جعلهم يضطرون للاختفاء حتى إذا أظلهم عهد هشام المؤيد عادوا إلى الظهور والنشاط فى الدعوة لعقيدتهم مما اضطر القاضى محمد ابن يبقى بن زَرْب المتوفى سنة ٣٨١ للهجرة إلى الكشف عنهم واستتابتهم، وتابت على يديه منهم جماعة. غير أن هذه العقيدة الصوفية استمرت، ويذكر ابن حزم فى كتابه «الفِصَل» من معتنقيها فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى إسماعيل بن عبدالله الرُّعَيْنى، ويقول إنه أدخل على عقيدة ابن مسرة بعض التعديل، من ذلك أنه ذهب إلى أن العالم لا يفنى وأنه مستمر إلى ما لا نهاية. ولم تضمحل هذه العقيدة الصوفية فى الأندلس لعهد أمراء الطوائف بل ظل لها أتباع فى قرطبة وإشبيلية والمرية وغيرها من المدن الأندلسية،

وأخذ التصوف ينشط فى عهد دولة المرابطين، ومن أهم المتصوفة لعهدها أبوالعباس ابن العريف المتوفى بمراكش سنة ٥٣٦ وهو من أهل المرية وله فى التصوف كتاب محاسن المجالس نشره آسين بلاسيوس مع ترجمة فرنسية، وكانت تقوم طريقته على الزهد فى منازل الصوفية والعطايا والمواهب الإلهية والكرامات وما يتصل بها من المنن التى يمنّ الله بها على النفس الإنسانية. ويقول إن طريقته هى طريقة الخواص التى تقف عند الفناء فى محبة الذات الإلهية، وكأنه لا يقول بوحدة الوجود إنما يقول بالفناء فى المحبة الإلهية، وهو بذلك يعد من أصحاب التصوف السنى، وكأنه يبتعد عن مراتب التصوف الفلسفى القائل بوحدة الوجود خطوة أو خطوات. ومن معاصريه فى الأندلس ابن برَّجان الإشبيلى عبد السلام بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٥٣٦، وأيضا ابن قَسِّى أبو القاسم أحمد بن الحسين المتوفى سنة ٥٤٦ والذى قاد ثورة بغرب الأندلس ضد المرابطين حين ساءت

أحوالهم وأوشكت على نهايتها، وكان يتزعم فى ثورته طائفة كبيرة من المريدين أى المتصوفة. ويلقانا فى عصر الموحدين غير متصوف أندلسى ينزع بقوة نحو التصوف الفلسفى مثل أبى عبدالله الشوذى وتلميذه ابن دهاق المالقى المتوفى سنة ٦١١ للهجرة وينشأ فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى محيى الدين بن عربى (٥٦٠ - ٦٣٨ هـ) بإشبيلية، ويأخذ فيها تصوفه الفلسفى المعروف عن شيوخ متعددين يذكرهم من ترجموا له كما يأخذه عن عجوز تسمى نونة فاطمة بنت ابن المثنى القرطبية لزمها سنتين خادما ومريدا. وأشهر من جاءوا بعده فى التصوف الفلسفى أبو الحسن الششترى المتوفى سنة ٦٦٨ وابن سبعين المتوفى سنة ٦٦٩. ويلقانا فى القرن الثامن ابن عباد الرُّنْدى المتوفى سنة ٧٣٣ وقد طاف ببلدان المغرب، وكأنما وجد فى العقيدة الشاذلية السنية مأربه فانضم إلى أتباعها، وعُنى بشرح كتاب الحكم لابن عطاء الله السكندرى ووصف فى شرحه رياضاته ومجاهداته النفسية.

الفصل الثانى

الثقافة

١

الحركة العلمية

لم يكن لإيبريا دور حضارى فى العالم القديم، إذ ظل سكانها قرونا متطاولة يستقبلون الحضارات ولا ينفذون من خلالها إلى حضارة لهم متميزة، وكان أول ما استقبلوا من الحضارات الحضارة الفينيقية إذ غزاها الفينيقيون فى القرن العاشر قبل الميلاد وأسسوا بها مالقة على البحر المتوسط وقادس على المحيط الأطلسى، وبعد نحو خمسة قرون استقبلوا الحضارة اليونانية إذ غزاها اليونانيون وأسسوا فيها مدينة برشلونة على البحر المتوسط وسموها إيبيريا، وحدثت حروب بينهم وبين الفينيقيين واستعان الفينيقيون ضدهم بأبناء عمومتهم من القرطاجنيين، فأعانوهم. واستقبلت إيبيريا حضارتهم وأسسوا بها مدينة قرطاجنة على البحر المتوسط نفس اسم مدينتهم فى إفريقيا، ونشبت الحرب بينهم بقيادة هانيبال وبين الرومان فى أوائل القرن الثانى قبل الميلاد وانتصر الرومان واستولوا سريعا على إيبيريا، ونشروا فيها - بواسطة جنودهم ومن سمع بخيراتها فى إيطاليا ورحل إليها - لغتهم اللاتينية. وحين اعتنقت روما المسيحية نشرتها فيها، وهى التى سمتها بإسم إسبانيا.

وأخذت إسبانيا تشارك روما بعض المشاركة فى حياتها السياسية بفضل من نشأوا فيها أو وُلدوا بها لأسر إيطالية وخاصة من القياصرة مثل تراجان وابن أخيه هدريان. وكانت الخطابة مزدهرة فى روما بسبب ما كان لديها من مجلس شيوخ أعدَّ بقوة لهذا الازدهار، كما أعدَّ لكثرة الأساتذة الذين كانوا يعلّمون الشباب فنون البلاغة الخطابية، وشاركت إسبانيا فى هذا النشاط الخطابى باثنين من أبنائها القرطبيين هما سنيكا الأب الذى نشأ فى قرطبة وانتقل إلى روما وعلم فيها فن الخطابة، وسنيكا الابن الذى ولد بقرطبة فى العام الرابع قبل الميلاد، وجىء به إلى روما وتلقى تعليمه على أبيه ومن بها من الفلاسفة

الرواقيين، وأصبح فيلسوفا رواقيا ومعلما كبيرا للخطابة، وعلَّمها نيرون، وله مسرحيات اتخذها كورنيّ وراسين مثلهما المسرحى الأعلى، وحكم عليه نيرون بالموت لاتهامه باشتراكه فى مؤامرة ضده. ورحل إلى روما شاب إسبانى هو كونتليان ليتعلم فن الخطابة، وبرع فيها هناك وأنشأ مدرسة لتعليمها، وألف فيها كتابا كان - ولايزال - المرجع الأساسى للأوربيين فى التعرف على الخطابة الرومانية. واشتهر بروما حفيد لسنيكا، هو «لوكان» الشاعر، وكان قد وُلد بقرطبة سنة ٣٩ للميلاد ونشأ بروما وأصبح شاعرا متألقا بما نظم من ملحمة قصصية من طراز ملحمة الإنيادة لفرجيل، وقد وصف فيها الحرب الأهلية بين قيصر وبومبى، واتهمه نيرون باشتراكه مع عمه فى مؤامرة ضده وحكم عليه بالموت وعمره لا يتجاوز السادسة والعشرين[١].

وواضح أن من شاركوا من إسبانيا قديما فى الأدب اللاتينى أفنوا شخصياتهم فيه، وهم لم ينتجوه فى إسبانيا، بل أنتجوه فى روما، وهو لذلك أدب لاتينى رومانى خالص. وإسبانيا - بذلك - لاتزال فى العهد الرومانى كما كانت فى العهود الفينيقية واليونانية والقرطاجنية لا تستطيع أن تضيف إلى الحضارة الإنسانية أعمالا إسبانية متميزة القسمات، بل ظلت روما ترعاها وتتعهدها فى الحضارة كما تعهدها ورعاها من قبل القرطاجنيون واليونان والفينيقيون، حتى إذا دخلت فى القرن الخامس للميلاد أغارت عليها القبائل الجرمانية المتبربرة التى قضت على الدولة الرومانية الغربية ونزلها منهم الفندال ثم القوط الذين حكموها إلى أن تسلَّمها العرب منهم. ولم يكن للقوط حضارة، وقد قضوا على ما كان بإسبانيا من حضارة رومانية، ولا يحفظ التاريخ كتابا من أيامهم سوى مجموعة القس إيزيدور الإشبيلى المتوفى سنة ٦٣٦ للميلاد، وهو يعرض فيها تصوره الساذج للتاريخ والعلوم الطبيعية مع تفسيرات مجازية للكتاب المقدس، ويقول ديورانت فى قصة الحضارة إنها تكتظ بأخطاء فى الحقائق، وتدل على ما كان فاشيا فى عهد القوط بإسبانيا من الجهالة[٢]، وليس لهذه المجموعة أى ذكر فى كتابات الأندلسيين.

ومعنى ذلك أن العرب حين فتحوا إسبانيا كان ظلام الجهل يطبق عليها ولم يكن بها علم ولا علماء، وبحق مايقوله صاعد فى كتابه طبقات الأمم من أن هذا القُطر لم يُعْرَف فى

---

(١) انظر فى سنيكا وأسرته وكونتليان ولوكان قصة الحضارة لول ديورانت: (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٠/١٦٣ وما بعدها وكذلك ١٧٤ وما بعدها و١٩٩ وما بعدها.

(٢) قصة الحضارة لول ديورانت ١٢/١٩٤ وما بعدها.

العصر القديم بالعلم ولا كان به شخص اشتهر بحبه للعلم، وظل مغلقا فى وجه الحكمة إلى أن فتحه العرب[١]. وكان فيه - كما مر فى الفصل الماضى - يهود ولكن لم يكن لهم أى كتاب علمى، وأيضا لم يكن لهم دور فى الحركة العلمية لأيام العرب، إنما دورهم يقوم فقط على تمثل العلم العربى ثم على المساهمة فى ترجمته إلى اللاتينية فيما بعد حين جَدَّ الغرب فى طلب العلم الأندلسى والوقوف عليه. ومثل اليهود - فى ذلك - الصقالبة الذين مرَّ ذكرهم فى غير هذا الموضع والذين جلبهم الحكام الأمويون إلى الأندلس منذ عهد الحكم الرَّبضى، وكانوا يتعلمون العربية ويتثقفون ثقافة عربية إسلامية، ولم يكن لهم أى دور فى الحركة العلمية بالأندلس إلا أن يصبح أحدهم حاكما لإحدى المدن فى عصر أمراء الطوائف، ويجزل العطاء للعلماء. أما أهل إسبانيا فإنهم - كما قلنا - لم يحملوا إلى الحركة العلمية فى الأندلس تراثا لاتينيا، وكل ما لهم أن من أسلموا منهم وسلالاتهم من المولَّدين أسهموا فى تلك الحركة العلمية العربية، وعروبتها لا ترجع إلى اللسان الذى استخدمته فحسب، بل ترجع - أيضا - إلى أنها أُسست - ونهضت كما سنرى - على أصول عربية مشرقية.

ومعروف أن الإسلام دفع أمته فى كل قطر وبلد إلى العلم والتعلم، ومرَّ بنا أن موسى ابن نصير فاتح الأندلس ومكمل فتح المغرب كان يرسل دائما مع الجيوش فقهاء يعلِّمون أهل الديار المفتوحة الإسلامَ ويحفِّظونهم بعض القرآن ويبصِّرونهم بالدين الحنيف وتعاليمه. ولما كان تعليم الناشئة المسلمة القرآن شعارا من شعائر الدين أخذ به المسلمون فى جميع بلدانهم فإن الأندلس - بدورها - أخذت بهذا التعليم، وافتتحت له الكتاتيب منذ عصرها الأول عصر الولاة[٢]، واطرد ذلك طوال الحقب التالية. ويؤثر عن الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) أنه أنشأ بقرطبة سبعة وعشرين كتَّابا فى عهده، جعل ثلاثة منها بجوار المسجد الجامع والباقى فى أماكن مختلفة من أحياء قرطبة.[٣] وكانت قرطبة تكتظ بكتاتيب أخرى قبل كتاتيبه. وكان معلِّم الكتاتيب يسمى مؤدِّبا، وكان يأخذ أجرا على تعليمه الناشئة[٤]، ولم يكن تعليمه لها يقتصر على تحفيظها القرآن الكريم وبعض نصوص الحديث النبوى بل كان يتسع ليشمل تعليمها النحو وإحسان الكتابة والخط مع

(١) طبقات الأمم لصاعد (طبع مطبعة السعادة) ص ٩٧.

(٢) افتتاح الأندلس لابن القوطية (طبع مدريد) ص ٤٠.

(٣) البيان المغرب لابن عذارى (طبع بيروت) ٢٤٠/٢.

(٤) طبقات النحويين واللغويين للزبيدى (طبع القاهرة) ص ٢٧٨.

تحفيظها بعض النصوص من الأشعار والرسائل البارعة، وينوِّه ابن خلدون بتعليم الناشئة فى الأندلس قائلا: «وأما أهل الأندلس فأفادهم التفنن فى التعليم وكثرة رواية الشعر والرسائل ومدارسة العربية (النحو) من أول العمر حصول ملكة صاروا بها أعرف فى اللسان العربى»[١]. وابن خلدون يثنى - بذلك - على مؤدبى الأندلس وأنهم استطاعوا أن يغرسوا فى الناشئة - فضلا عن حفظ القرآن الكريم - الملكة العربية بما مرنوهم عليه من قواعد النحو وما حفظوهم من منتخبات الشعر والنثر، مما أعدَّهم ليصبحوا أهل أدب بارع. ومنهم من كان يُؤدِّب أبناء الخاصة من الحكام الأمويين والأشراف من الأسرة الأموية والوزراء وغيرهم، ومنهم من كان يؤدب أبناء العامة فى المساجد أو فى دور ملحقة بها أو فى دور مستقلة بهم أو فى دورهم الخاصة.

وكان الناشئ حين يُنْهى هذا التعليم الأول على أيدى المؤدبين يتحول إلى حلقات الشيوخ فى المساجد ليتسع فى دروس العربية إن شاء أو ليتزود من هذا العلم أو ذاك من العلوم الدينية إما الفقه وإما التفسير وإما الحديث النبوى، وقد يجمع بين هذا كله. ومنذ عبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية يقود حكامها الحركة العلمية. واستقر منذ أول هذه الدولة أن العالم فى أى علم من علوم العربية أو الدين لا يتم له علمه على الوجه الأكمل إلا إذا رحل إلى ينابيعه الأساسية فى المشرق، وحتى مؤدبو الكتاتيب تُذْكَر لهم رحلات إلى البصرة والكوفة وبغداد على نحو ما نقرأ عن جودى[٢] النحوى المتوفى سنة ١٩٨ والغازى[٣] بن قيس المتوفى سنة ١٩٩. وكانت الرحلة فى طلب الفقه والعلوم الدينية أوسع، واشتهر الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل (١٧٢ - ١٨٠ هـ) بتحبيبها إلى الشباب القرطبى وتشجيعهم عليها، ورحل فى عهده كثيرون إلى المدينة لحمل فقه الإمام مالك وموطَّئه. وتصبح الرحلة فى طلب العلم إلى المشرق تقليدا متبعا منذ هذا التاريخ، ويكثر الراحلون إليه من شباب العلماء الأندلسيين، ويفرد المقرى لمشاهيرهم فصولا طويلة فى نَفْحه، وهى تدل على أنها ظلت تقليدا متبعا قرونا متوالية. ونحن لا نصل إلى عصر الحكم الربضى (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) حتى يكثر الفقهاء لعهده كثرة مفرطة، كما تدل على ذلك ثورة أهل الربض القبلى عليه بقرطبة، فقد ألَّبهم كثيرون من الفقهاء عليه، حتى إذا أخفقت الثورة أمر بأن يرحل الثائرون ومؤلبوهم عن قرطبة،

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص١٢٥٢ ص ٢٧٨

(٢) طبقات النحويين واللغويين للزبيدى (٣) الزبيدى ص ٢٧٧.

فرحل فريق إلى دار الحرب وفريق إلى طليطلة ورحل إلى الاسكندرية ١٥ ألفا وأنزلهم أميرها عبدالله بن طاهر جزيرة كريت على نحو ما مر بنا فى الفصل الماضى.

ويلى الإمارة بعد الحكم ابنه عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) ويقول عنه ابن سعيد فى المغرب، كما مر بنا: «عُنى أبوه بتعليمه وتخريجه فى العلوم الحديثة والقديمة، وكان من أهل التلاوة للقرآن والاستظهار للحديث، وكان يداخل كل ذى علم فى فنه»[١] ويقول ابن خلدون: «كان عالما متبحرا فى علوم الدين والفلسفة»[٢] ويقول ابن القوطية: «التزم إكرام أهل العلم وأهل الأدب والشعر فى دولته وإسعافهم فى مطالبهم كلها»[٣] وسنرى فى غير هذا الموضع أنه هو الذى دفع الأندلس إلى الاهتمام بعلوم الأوائل. وأقبل الطلاب لعهده على حلقات العلماء - وكانوا يعدون بالمئات - فى المسجد الجامع بقرطبة، وكانت حلقة عبد الملك بن حبيب كبير الفقهاء لزمنه بعد يحيى الليثى تضم ثلاثمائة طالب[٤]. وخلف عبد الرحمن الأوسط ابنه الأمير محمد (٢٣٨ - ٢٧٢ هـ) ويقول ابن حيان نقلا عن الرازى: «كان مكرما لأعلام الناس مقدِّما على طبقاتهم ذوى الفقه والعلم منهم يرفع مجالسهم ويزلف وسائلهم ويسعف فى رعايتهم ويستشعر مع ذلك الحذر من تحاسدهم»[٥] ويذكر ابن حيان موقفين عظيمين له[٦]، هما موقفه من بقى بن مخلد وموقفه من محمد بن عبد السلام الخشنى فقد رحلا إلى المشرق وجلَب أولهما كتاب مصنف ابن أبى شيبة فى الحديث فأنكر جماعة من الفقهاء ذلك عليه وسلطوا عليه العامة ليمنعوه من قراءته، وعلم بذلك الأمير فحماه منهم ونهاهم أن يتعرضوا له. وجاء الثانى أيضا من المشرق حاملا كتاب الناسخ والمنسوخ لأبى عبيد، فأنكر الفقهاء عليه إملاءه الكتاب على الطلاب فى المسجد الجامع، فنهاهم الأمير محمد عن تعرضهم له. ويقول ابن حيان عن ابنه الأمير عبد الله (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) إنه «كان كثير التلاوة للقرآن مثابرا على درسه متصرفا فى فنون العلم متحققا بلسان العرب بصيرا بلغاتهم وأيامهم حافظا للغريب والأخبار آخذا من الشعر بحظ وافر، وكان مجلسه أعمر مجالس الملوك بالفضائل وأجمعها لطبقات أهل الآداب والتعاليم، وكان لا يقدم أمرا ولا يؤخره إلا بمشورة أهل

---

(١) المغرب (طبع دار المعارف) ١/٤٥.
(٢) تاريخ ابن خلدون (طبعة بولاق) ٤/١٣٠.
(٣) افتتاح الأندلس (طبع مدريد) ص ٨٥.
(٤) الديباج المذهب لابن فرحون. (نشر مكتبة دار التراث بالقاهرة) ٢/٨.
(٥) المقتبس (تحقيق د. محمود مكى - طبع بيروت) ص ٢٤٥.
(٦) المقتبس ص ٢٤٨ وما بعدها.

العلم والفقه باسط اليد على الفقراء وأهل الحاجة وذوى الزمانة[١]» وفى ذلك ما يؤكد بسطة يده على العلماء من كل صنف وإغداقه عليهم الأموال الجزيلة.

وتولّى بعده حفيده عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ). وتبلغ الأندلس فى عهده الذروة المنتظرة فى قوة السلطان، وتزدهر الحركة العلمية فى أيامه، وكان قد انتدب لرعايتها ابنه وولى عهده الحكم المستنصر، واستنّ له الإغداق على العلماء، ويكفى أن نعرف أنه أرسل إلى محمد بن القاسم بن شعبان الفقيه المالكى بالفسطاط - وهو أندلسى الأصل - عشرة آلاف دينار[٢] ليفرِّقها على شيوخ المالكية بمصر لنتصور مدى ما كان ينثر حينئذ من الأموال على فقهاء الأندلس وعلمائها من كل صنف، واستنّ لابنه الحكم أيضا إكرام العلماء القادمين من المشرق لينشروا فى الأندلس علمهم، ووفد عليه من بغداد أبو على القالى[٣] سنة ٣٣٠ فبالغ فى الحفاوة به، وقاد أبو على فى الأندلس - كما هو معروف - حركة لغوية ضخمة بمؤلفاته اللغوية وبمن تخرج على يديه هناك من تلاميذه اللغويين الكثيرين. وكما عُنى الناصر بعلماء الدين واللغة عُنى بمن يدرسون علوم الأوائل، ونرى إمبراطور بيزنطة قسطنطين السابع يرسل إليه بهدية بينها كتاب ديوسقوريدس فى الصيدلة باليونانية، ولم يكن فى قرطبة حينئذ من يعرف تلك اللغة، فطلب الناصر من الإمبراطور أن يرسل إليه أحد العارفين بها، فأرسل إليه الراهب نيقولا سنة ٣٤٠ وكان يعرف اليونانية واللاتينية جميعا، وألف الناصر لجنة لمساعدته فى ترجمة الكتاب إلى العربية[٤].

واقتدى الحكم بأبيه منذ كان وليا لعهده وأسند إليه الإشراف على الحركة العلمية، فنهض بها فى أيامه، حتى إذا خلفه فى الحكم (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) عُنى بتلك الحركة إلى الذروة، وقد طرَّز القالى باسم أبيه واسمه كتابه الأمالى ونوَّه بهما طويلا فى مقدمته للكتاب، ونرى مؤلفين كثيرين فى الأندلس وفى المشرق يقدمون إليه مؤلفاتهم، من ذلك كتاب الاستيعاب[٥] فى فقه مالك لأحمد بن عبد الملك ومحمد بن عبيد الله القرشى،

---

(١) انظر المقتبس (طبع دارالمعارف) الفصل الخاص بالثناء على الأمير عبدالله وتقريظه.

(٢) حسن المحاضرة للسيوطى ٣١٣/١-٣١٤.

(٣) انظر فى وفادة أبى على القالى على الناصر ومقامه بقرطبة طبقات النحويين واللغويين للزبيدى ص٢٠٤ وإنباه الرواة ٢٠٤/١ ومعجم الأدباء لياقوت ٣٠/٧ وبغية الملتمس للضبى ص٢١٦ وجذوة المقتبس للحميدى (طبع القاهرة) ص١٥٥.

(٤) انظر طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل تحقيق فؤاد سيد (طبع المعهد الفرنسى بالقاهرة) ص٢٢ وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة (طبعة دار مكتبة الحياة ببيروت) ص٤٩٣ وما بعدها.

(٥) الصلة لابن بشكوال (طبع مدريد) رقم ٣٦.

ووصلها بجائزة كبيرة، ومن ذلك كتاب الحدائق لأحمد بن فرج الجيانى الذى ألفه له، وقد عارض به كتاب الزهرة لابن داود الأصبهانى، وكان ابن داود ذكر فى كتابه مائة باب فى كل باب مائة بيت فجعل الجيانى كتابه مائتى باب فى كل باب مائتا بيت ولم يورد فيه لغير شعراء الأندلس شيئا[١]، وسمع الحكم بكتاب الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى فأرسل إليه ألف دينار ذهبا ليبعث إليه بنسخة من الكتاب، فأرسل إليه نسخة منه منقّحة، وأرفقه بكتاب فى أنساب أسرته الأموية موشّحا بمناقبهم، فجدّد له الحكم الصلة الجزيلة، وصنع نفس الصنيع مع القاضى الأبهرى المالكى حين طلب إليه شرحه لمختصر ابن عبد الحكم فى الفقه المالكى[٢].

ويقول ابن الأبّار: «لم يُسْمَعْ فى الإسلام بخليفة بلغ مَبلغ الحكم فى اقتناء الكتب والدواوين وإيثارها والاهتمام بها[٣]» ويقول ابن خلدون: «اجتمعت بالأندلس لعهده خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده[٤]». وكان له ورّاقون أو بعبارة أخرى جُلّاب كتب بأقطار البلاد وعواصمها مثل الإسكندرية والقاهرة ودمشق وبغداد ينتخبون له نفائس الكتب، ويقال إن عدد الفهارس بمكتبته فى القصر كانت أربعا وأربعين فهرسا فى كل فهرس عشرون[٥] ورقة – وفى رواية خمسون ورقة – وكانت الدار التى اتخذها لمكتبته أشبه بمجمع علمى، وكانت تزخر بالحذاق فى صناعة النسخ والتجليد[٦] وبالعلماء الدارسين من كل صنف وبالمحققين الذين يقابلون مخطوطات الكتب المهمة بعضها على بعض مستخلصين منها للمكتبة نسخا منقحة غاية التنقيح. ويذكر الحميدى فى الجذوة أن الحكم مرَّ يوما بأبى على القالى ومجموعة من العلماء يقابلون نسخ معجم العين وبينها نسخة القاضى منذر بن سعيد التى أخذها بالفسطاط عن عالم مصر اللغوى ابن ولاد، ومكث معهم قليلا يسألهم عن نسخ الكتاب[٧]. ويقول ابن الأبار منوها بثقافة الحكم ومعرفته بالكتب ومؤلفيها: «كان كثير الاهتمام بكتبه والتصحيح لها والمطالعة

---

(١) انظر الجذوة ص٩٧ وبغية الملتمس ص٤٠ وابن دحية فى المطرب ص٤ ومعجم الأدباء ٢٣٦/٤.

(٢) تاريخ ابن خلدون ١٤٦/٤.

(٣) انظر ترجمة الحكم فى الحلة السيراء لابن الأبار (طبع القاهرة) ٢٠٠/١ وما بعدها.

(٤) تاريخ ابن خلدون ١٤٦/٤.

(٥) المغرب لابن سعيد (طبع دار المعارف) ١٨٦/١ وراجع ترجمته فى الحلة السيراء وجمهرة أنساب العرب لابن حزم ص١٠٠.

(٦) تاريخ ابن خلدون ١٤٦/٤ ويقال كان بمكتبة الحكم أربعمائة ألف كتاب.

(٧) جذوة المقتبس للحميدى ص٤٧ وما بعدها.

لفوائدها، وقلما تجد له كتابا كان فى خزانته إلا وله فيه قراءة ونظر من أى فن كان من فنون العلم، يقرؤه ويكتب فيه بخطه - إما فى أوله أو فى آخره أو فى تضاعيفه - نسبَ المؤلف ومولده ووفاته والتعريف به وأنساب الرواة له، ويأتى من ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده لكثرة مطالعته.. وصار كل ما كتبه حجة عند شيوخ الأندلسيين وأئمتهم، ينقلونه من خطه ويحاضرون به[١]». وطبيعى أن تبلغ الحركة العلمية بالأندلس فى عهده كل ما كان يؤمل لها من ازدهار لا بفضل ما وضعه تحت أعين العلماء من أمهات الكتب فى العلوم اللغوية والدينية وعلوم الأوائل من طب وغير طب فحسب، بل أيضًا بفضل ما أغدق عليهم من الرواتب الجزيلة. ولم يكن الحكم يقصر الرواتب على العلماء المتخصصين الذين يحاضرون الطلاب فى المساجد، بل كان يعممها فى المؤدبين الذين يعلمون أولاد الفقراء والمساكين فى الكتاتيب[٢] ومرَّ بنا أنه أنشأ فى قرطبة سبعة وعشرين كُتَّابا، سوى ما كان بها قبله من الكتاتيب، ويقول ابن الأبار إنه أفاء على العلم بما بسط عليه من المال، ونوَّه بأهله ورفع ذكرهم، ورغَّب الناس فى طلبه، ووصلت عطاياه وصلاته إلى فقهاء البلدان النائية عن بلده[٣].

وولى بعد الحكم المستنصر ابنه هشام المؤيد، وكان فى الحادية عشرة من عمره، واستبد بالسلطان وتدبير الدولة حاجبه أو رئيس وزرائه المنصور بن أبى عامر، لا ينازعه فى ذلك منازع طوال حياته، وله وقائع كثيرة مع النصارى فى الشمال انتصر فيها دائما واستولى منهم على برشلونة وحصونا وبلدانا أخرى كثيرة، مما حبَّب الناس فيه. وأعلى مراتب العلماء وجعل لهم فى كل أسبوع يوما يجلس لهم فيه ويتناظرون بين يديه[٤]، وكان يجزل الرواتب والعطايا لهم، ووفد عليه بعض علماء المشرق فأكرم وفادتهم عليه، على نحو ما هو معروف من وفادة صاعد بن الحسن البغدادى اللغوى، وألف له فى اللغة كتبا مختلفة نال بها منه أموالا جمة، منها كتابه الفصوص ألفه على شاكلة كتاب الأمالى لأبى على القالى، وحين قدمه إليه أمر له توا بخمسة آلاف دينار[٥]. وكان يعنى بالفقهاء

---

(١) ترجمة الحكم فى ابن الأبار ٢٠٢/١ ويقول القاضى عياض فى كتابه ترتيب المدارك (طبع الرباط ٢٢/١): «كان الحكم ممن طالع الكتب ونقّر عن أخبار الرجال تنقيرا لم يبلغ فيه شأوه كثير من أهل العلم».

(٢) البيان المغرب لابن عذارى ٣٥٨/٢.

(٣) ابن الأبار فى الحلة السيراء ٢٠١/١.

(٤) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب لعبدالواحد المراكشى (طبع القاهرة) ص ٨٣ والحميدى ص ٧٢.

(٥) الصلة لابن بشكوال ٢٣٥/١ وإنباه الرواة للقفطى (طبع القاهرة) ٨٩/٢.

والمحدثين عنايته بصاعد اللغوى واللغويين. وكان شديد الطموح فأمر أن يحيىَّ بتحية الملوك، وقعد على سرير الملك. وطمح – كما مرَّ بنا فى الفصل الماضى – إلى تنصيب نفسه خليفة، ورأى – تقربا للعامة – أن ينكّل بتلامذة ابن مسرة الصوفى المتفلسف المعتزلى[١]، ودفعه هذا التقرب إلى أن يأمر بإحراق كل ما كان فى مكتبة الحكم المستنصر بالقصر من كتب الفلسفة والفلك والتنجيم[٢] حتى يرضى العامة، غير أن ذلك لم يقف الحركة العلمية التى ازدهرت فى عصر عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم فقد ظلت فى مدِّها، إذ كانت أقوى من أن يعصف بها هذا الحادث. وسرعان ما تنشب بعد ابن أبى عامر الفتنة أو الفتن التى ظلت أكثر من عشرين عاما وانتهت بالقضاء على الدولة الأموية فى الأندلس سنة ٤٢٢ للهجرة، وكان من آثار هذه الفتن أن هاجر من قرطبة إلى مدن الأندلس المختلفة كثير من علمائها. وهاجر معهم إلى تلك المدن كثير من الكتب العلمية التى كانت مختزنة فى مكتبة الحكم وغيرها من مكتبات المساجد والمكتبات الخاصة.

وأعدَّ ذلك من بعض الوجوه لأن تنشط الحركة العلمية فى المدن الكبرى التى تأسست فيها إمارات أمراء الطوائف أو ملوك الطوائف كما كانوا يسمونهم، إذ انتثر عقد الأندلس وأصبحت أندلسات أو قل إمارات كثيرة، ففى كل مدينة كبيرة فرد أو أسرة تحكمها، وتنافست هذه المدن، فكل مدينة تريد أن تتفوق على أخواتها فى العلم والفلسفة والأدب، وكل أمير لمدينة يريد أن يظفر بقصب السبق على نظرائه فى السلطان والشئون المادية والثقافية والفنية، وكأنما أعيدت فى هذه الحقبة سيرة المدن اليونانية القديمة: أثينا وإسبرطة وأخواتها وما كان بينها من تنافس هيَّأ لعصر من أزهى العصور اليونانية فى الفلسفة والفن والعلم والأدب، مما جعل حقبة أمراء الطوائف من أزهى الحقب فى تاريخ الأندلس، ومن يرجع إلى إشبيلية سيجد حاكميها المعتضد عباد وابنه المعتمد يتحولان بها إلى ما يشبه سوقا كبرى للشعر والشعراء، بينما يجد بنى الأفطس فى بطليوس بغربى الأندلس وقد صعدوا بالتأليف فى الثقافة والآداب إلى الأوج على نحو ما يصور ذلك المظفر بن الأفطس فى موسوعته التى سماها كتاب المظفرى فى الأدب والتاريخ، وكانت

---

(١) يدفعنا إلى اعتقاد ذلك أن قاضى الجماعة محمد ابن يبقى فى صدر دولة ابن أبى عامر هو الذى تولى محاكمة هؤلاء التلاميذ ولابُدَّ أنْ كان ذلك بإيعاز منه. انظر النباهى فى تاريخ قضاة الأندلس ص ٧٨ وتاريخ الفكر الأندلسى لبالنثيا (الترجمة العربية) ص ٣٣٠.

(٢) طبقات الأمم لصاعد ص١٠٣ ونسبة إحراق الكتب للخليفة هشام المؤيد خطأ وانظر البيان المغرب لابن عذارى ٢/٤٣٧.

نحو مائة مجلد[١]. وبثَّ بنو ذى النون فى طليطلة حركة علمية وأدبية واسعة وخاصة فى عهد أميرهم المأمون يحيى بن إسماعيل، ويقول ابن سعيد: «لم يجتمع عند ملك من ملوك الأندلس ما اجتمع عنده من الوزراء والكتاب الأجلاء[٢]». ونهضت سرقسطة فى أقصى الشمال بحركة علمية نشطة فى الرياضيات والفلك وبالمثل نشطت فى دراسة الفلسفة، وخاصة على عهد أميرها المؤتمن من بنى هود وله فى العلوم الرياضية تآليف مثل الاستهلال والمناظر[٣] وكان مألفا للعلماء والأدباء والشعراء. وازدهرت فى المرية شرقى الأندلس نهضة علمية وأدبية واسعة قادها أحمد بن عباس الوزير لزهير الصقلبى أول أمرائها، وكان كاتبا مبدعا وشُغف بجمع الكتب واقتنائها حتى قالوا إنه اقتنى منها أربعمائة ألف مجلد[٤]. وصارت الإمارة سريعا إلى بنى صُمادح فانتعش بهم العلم والشعر وخاصة فى عهد أميرها المعتصم وكان شاعرا مجيدًا كما كان ممدَّحا أكثر الشعراء من مديحه[٥]. وتكاثر العلماء والشعراء المبدعون فى مرسيه وبلنسية فى شرقى الأندلس وقاد مجاهد صاحب دانية هناك حركة علمية وأدبية، وكان عالما بالعربية وعلوم القرآن، وجمع من الكتب ما لم يجمعه أحد من نظرائه، ووفد عليه العلماء الأجلاء والشعراء الأفذاذ، وشاع العلم فى حضرته حتى فشا فى جواريه وغلمانه[٦]. وكان لغرناطة فى جنوبى الأندلس ما لأخواتها الأندلسيات من النشاط العلمى والأدبى، وظلت قرطبة تفوح بشذاها العطر فى الفلسفة والعلوم والآداب.

واستولى ألفونس السادس على طليطلة سنة ٤٧٨ للهجرة، واستقر فى نفوس أمراء الطوائف أن لا حول لهم ولا قوة إزاءه وإزاء المسيحيين بالشمال فاستغاثوا بيوسف بن تاشفين أمير دولة المرابطين فى المغرب فلباهم، وأوقع بألفونس وجيوشه هزيمة ساحقة فى وقعة الزلاقة المشهورة، ورأى من الخير أن يضم شتات الأندلس ودويلاته المتنازعة تحت لوائه، لما ثبت له من فساد حكمهم وعجزهم عن مقاومة المسيحيين فى الشمال وبذلك أظل الأندلس حكم دولة المرابطين إلى أواخر العقد الرابع من القرن الخامس، وعظم شأن

---

(١) المغرب لابن سعيد ٣٦٤/١ ويذكر أنه اجتمع عنده ابن شرف حسنة القيروان وعبدالله بن خليفة المصرى الحكيم وأبو الفضل البغدادى الأديب.
(٢) المغرب ١٢/٢.
(٣) تاريخ ابن خلدون ١٦٢/٤.
(٤) المغرب ٢٠٦/٢.
(٥) انظر ابن الأبار فى الحلة السيراء ٨٢/٢ ويقول كان يجلس يوما فى كل أسبوع للفقهاء والخواص فيتناظرون بين يديه فى التفسير والحديث.
(٦) المغرب ٤٠١/٢ وأعمال الأعلام للسان الدين ابن الخطيب (نشر بروفنسال) ص ٢٥٦ والبيان المغرب ١٥٧/٣.

الفقهاء فى هذه الدولة منذ ابن تاشفين وأجرى الرواتب على كثيرين منهم طوال أيام حكمه[١]، واحتذاه فى ذلك ابنه على خليفته فى الحكم. ولا تلبث دولة الموحدين أن تحل فى المغرب والأندلس محل دولة المرابطين، وتدين الأندلس لمؤسسها عبد المؤمن وكان فقيها عالما مشاركا فى كثير من العلوم الدينية والدنيوية[٢] وكان مؤثرًا لأهل العلم ويجرى عليهم الرواتب الواسعة[٣] وخلفه ابنه يوسف (٥٥٨ – ٥٨٠ هـ.) وكان قد درس فى إشبيلية على فقهائها وعلمائها اللغويين، وقيل إنه كان حُفَظَة حتى ليقولون إنه حفظ البخارى بأسانيده، وشُغف بالفلسفة وأمر بجمع كتبها فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحَكم المستنصر[٤]، وولى بعده ابنه يعقوب وكان مثقفا مثله ثقافة واسعة وكان يعقد المناظرات بين يديه للعلماء والفلاسفة.[٥] وكل ذلك يشهد بأن الحركة العلمية والفلسفية ظلت مطردة النمو فى الأندلس طوال عصر دولتى المرابطين والموحدين.

وأخذت المدن الأندلسية الكبرى تسقط فى أيدى المسيحيين الشماليين منذ العقد الثالث فى القرن السابع الهجرى، واستطاع محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر أن يؤسس فى غرناطة سنة ٦٣٥ إمارة ظلت حتى سنة ٨٩٧ للهجرة وقد استطاعت بعلمائها وأدبائها ومن آوى إليها من أدباء المدن الأندلسية الساقطة فى حجر النصارى أن تستتم نهضة العلوم والآداب الأندلسية، وهاجر كثير من الأدباء والعلماء الأندلسيين إلى مراكش والمشرق ونشروا بها آدابهم وعلومهم وذاع صيتهم. وكان لغرناطة والمدن التابعة لها مثل مالقة الحظ الأوفر فى الحركتين العلمية والأدبية ونرى أمراءها منذ الأمير محمد الفقية (٦٧١ – ٧٠١) يرعون العلماء والشعراء، وعُرف باسم الفقية لدراسته الفقة أيام أبيه وشغفه به، ويبدو أنه كان شغوفا بكل فروع العلم حتى علوم الأوائل، يدل على ذلك استقدامه من مرْسية لمحمد بن إبراهيم الأوسى ومحمد بن أحمد الرقوطى كى يدرسا للطلاب فى غرناطة العلوم الطبية والفلسفية[٦] ولعل أكبر أمير من بنى الأحمر نشطت دراسة العلوم فى عهده هو أبو الحجاج يوسف الأول

---

(١) روض القرطاس لابن أبى زرع (طبع الرباط) ص ٣٨.

(٢) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (طبع القاهرة) ١٥٨/١.

(٣) المعجب ص ٢٦٩.

(٤) المعجب ص ٣١٠.

(٥) انظر كتابنا الرد على النحاة (طبع دار المعارف) ص ١٥.

(٦) الإحاطة فى أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب (تحقيق عنان – طبع القاهرة) ٦٧/٣ – ٦٨.

(٧٣٣ – ٧٥٥) الذى أنشأ لأول مرة فى غرناطة – بل ربما أيضا فى الأندلس – مدرسة سماها المدرسة[١] النصرية. ومعروف أنه لم يكن لأهل الأندلس مدارس لتعليم فروع العلم، بل كانوا يدرسونها جميعا فى المساجد أو فى دور العلماء أنفسهم، إذ كان كثيرون منهم يعلمون الطلاب فى منازلهم، ولم يكن ذلك قاصرا على أصحاب علوم الأوائل بل كان عاما عند أصحاب العلوم اللغوية والدينية وأيضا عند بعض معلمى الكتاتيب. ومع أن الأندلس لم تعرف المدارس قبل القرن الثامن الهجرى فإن الحركة العلمية ازدهرت بها ازدهارا عظيما كما رأينا سواء فى المساجد أو فى منازل العلماء التى كانت تتحول إلى ما يشبه المدارس منذ القرنين الثانى والثالث الهجريين.

وحظيت المرأة فى هذه الحركة العلمية بغير قليل من العلم والتعليم، ومعروف أن الإسلام يُلْزم أتباعه رجالا ونساء بأخذ قسط من التعليم فكان طبيعيا أن تقبل المرأة الأندلسية عليه حتى تتعرف على فروض دينها وخاصة من العبادات وحتى تحفظ أجزاء من القرآن وقد تحفظه جميعه. وكانت تتعلم بداخل الدور، وكان الأمراء يختارون المؤدبين لبناتهم ولجواريهم وكانت قصورهم تكتظ بهن، ومثلهم الوزراء وأصحاب الثراء. وتذكر كتب التراجم بجانب المؤدبين مؤدبات كن يتفرغن لتأديب الصبيان فى الصغر مثل ابنة حزم التى كانت تشترك مع أبيها وأخيها فى تأديب الناشئة بدار واحدة[٢] وكان قيام المؤدبين بهذه المهمة أوسع، ولم يكن هناك عالم فى أى فرع من فروع العلم إلا ويأخذ بناته بالتعليم المبكر. وكثيرات كن لا يكتفين بتعلم القراءة والكتابة وشىء من الحساب مع حفظ بعض المختارات من الشعر، بل كُنَّ يحاولن استيعاب العلوم ويتفرغن لإتقانها، واشتهرت البهاء بنت الأمير عبد الرحمن بن الحكم الربضى (٢٠٦ – ٢٣٨ هـ) بأنها كانت زاهدة عابدة متبتلة وكانت كما مر بنا تكتب المصاحف وتقفها على القراء بالمساجد[٣] وكانت تعاصرها أم الحسن بنت سليمان بن وانسوس وزير الأمير محمد والمنذر وعبد الله وقد تتلمذت للمحدث بقى بن مخلد المتوفى سنة ٢٧٦ وروت عنه سماعا منه وقراءة عليه، وصحبته، وكان لها يوم فى الجمعة تنفرد فيه به لأخذ العلم عنه بداره،

---

(١) راجع هذه المدرسة فى ترجمة رضوان النصرى فى الإحاطة ٥٠٨/١ وبها لوحة تحدد تاريخ الانتهاء من بنائها بسنة ٧٥٠.

(٢) التكملة لابن الأبار رقم ٩٧ وانظر رقم ٣١٢.

(٣) الذيل والتكملة للمراكشى (طبع أكاديمية المملكة المغربية – تحقيق محمد بن شريفة) ٤٨٤/٢/٨.

وحجت وسمعت هنالك الحديث والفقه وعادت إلى الأندلس[١]. ومن لداتها ورفيقاتها رقية بنت تمام بن عامر وزير الأمير محمد وكان أديبا شاعرا وأحسنت ابنته رقية الكتابة حتى اتخذتها ابنة الأمير المنذر بن محمد (٢٧٣ - ٢٧٥ هـ) كاتبة لها[٢]. ومر بنا فى الفصل الماضى ثلاث من جوارى القصر الأموى كانت اثنتان منهن: مزنة وكتمان تكتبان للناصر، وكانت الثالثة لُبْنى تكتب للمستنصر. وكانت نظام كاتبة بقصر الخلافة أيام هشام المؤيد (٣٦٦ - ٣٩٩هـ) وكانت أديبة بليغة تحسن تحبير الرسائل ومن إنشائها الرسالة التى عزَّى فيها هشام المؤيد حاجبه المظفر بن المنصور بن أبى عامر عن أبيه وجدَّد له العهد بالحجابة[٣] سنة ٣٩٢. ويدل على ما كان للجوارى فى قصور الخلفاء والوزراء وعلية القوم من ثقافة أنهن اللائى كن يقمن على تربية النَّشْءِ فى تلك القصور وهو ما يشهد به ابن حزم أحد أبناء الوزراء فى العهد الأموى إذ يقول عن نشأته فى أواخر القرن الرابع الهجرى بكتابه طوق الحمامة: «إننى رُبِّيت فى حجور الجوارى ونشأت بين أيديهن ولم أعرف غيرهن ولا جالست الرجال إلا وأنا فى حد الشباب وحين بَقَل[٤] وجهى وهن علمننى القرآن وروَّيننى كثيرا من الأشعار»[٥]. وتلقانا فى كتب التراجم من حين لآخر عالمات متعمقات فى العلم مثل ابنة فائز زوجة أبى عبد الله بن عتاب، وقد أخذت عن أبيها التفسير واللغة والعربية والشعر وعن زوجها الفقه ورحلت إلى دانية لأخذ القراءات السبع عن أبى عمرو الدانى المقرئ وكان قد سبقها إليه الموت فأخذت تلك القراءات عن تلميذه أبى داود بن نجاح فى آخر سنة ٤٤٤ للهجرة[٦]. وكانت تعاصرها إشراق السويداء وقد برعت فى العربية واللغة والآداب واشتهرت بتقدمها فى علم العروض وعنها أخذه أبو داود المقرئ وقرأ عليها كامل المبرد وأمالى القالى[٧] واشتهرت فى تلك الحقبة جارية الطبيب ابن الكتانى بحسن الغناء وبإحسانها لعلم الطب وتشريح الأعضاء مما يقصر عنه كثيرون من أصحاب الصناعة.[٨] وتلقانا فى القرن السادس أم العز[٩] راوية قراءة ورش عن أم معفر إحدى زوجات محمد بن سعد بن مردنيش

---

(١) المراكشى ٤٨١/٢/٨.
(٢) نفس المصدر ٤٨٥/٢/٨.
(٣) المراكشى ٤٩٣/٢/٨.
(٤) يقال بقل وجه الغلام حين ينبت شعر خده ولحيته.
(٥) طوق الحمامة لابن حزم (تحقيق د. الطاهر أحمد مكى طبع دار المعارف) ص ٧٩.
(٦) التكملة رقم ٢١١٨ والمراكشى ٤٩٤/٢/٨.
(٧) التكملة رقم ٢١١٥ والمراكشى ٤٨٠/٢/٨.
(٨) المجلد الأول من القسم الثالث من الذخيرة لابن بسام (تحقيق احسان عباس) ص ١١٢.
(٩) التكملة رقم ٢١٢٥ والمراكشى ٤٨٣/٢/٨.

أمير شرقي الأندلس (٥٤٢ - ٥٦٨ هـ) كما تلقانا أم عمرو بنت عبد الملك بن زهر الطبيب وأخت أبي بكر وكانت تحذق الطب مثل أبيها وأخيها وكثيرين من أسرتها، وكانت الطبيبة لنساء الأمراء من بنى عبد المؤمن بإشبيلية وأطفالهم وجواريهم، وكانت تُسْتَفْتَى فى الطب لرجالهم فتزيد حظوة[١] عندهم، وتوفيت بعد سنة ٥٨٠ وتُعَد بحق - جدَّة الطبيبات العربيات المعاصرات. وكثيرات هن العابدات المتبتلات اللائى كن يعظن النساء هناك مثل ناسكة تسمى رشيدة كانت تتجول فى بلدان الأندلس مذكرة للنساء وواعظة.[٢] ويذكرون عن محيى الدين بن عربى الصوفى المشهور أن من أهم من دفعوه إلى اعتناق التصوف زوجته مريم بنت محمد بن عبدون بما كان يسمعه من مواعظها ويشاهده من ورعها، وأهم منها فى دفعه إلى التصوف نونَّة فاطمة بنت ابن المثنى القرطبية، وقد لزمها سنتين خادما ومريدا، مأخوذا بما كانت تذكره من تنبؤات غريبة. وسنلم فى موضع آخر بإقبال المرأة الأندلسية على التثقف بالشعر، مما هيأ لظهور شاعرات أندلسيات كثيرات.

٢

علوم الأوائل - الفلسفة - علم الجغرافيا

(أ) علوم الأوائل

لم يكن فى إسبانيا قبل فتح العرب لها شيء واضح من علوم الأوائل فى الرياضيات وغير الرياضيات، ويبدو أن العرب أخذوا يجلبون أطرافا منها منذ أواخر القرن الثانى الهجرى مما ترجم فى بغداد عن اليونانية وغيرها، إذ يقول ابن سعيد فى ترجمة الأمير عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) إن أباه الحكم الربضى (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) عُنى بتعليمه وتخريجه فى العلوم الحديثة والقديمة، حتى إذا استولى على صولجان الحكم بعد أبيه رأى أن يحدث فى الأندلس نهضة علمية بالتعرف الدقيق على علوم الأوائل مع رعاية الدولة لها،إذ يمضى ابن سعيد فى ترجمته قائلا إنه: وجَّه عباس بن ناصح إلى العراق فى

---

(١) انظرها فى الذيل والتكملة للمراكشى ٤٨٣/٢/٨ وراجع طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة فى ترجمة أخيها الطبيب أبى بكر ابن زهر، وكانت ابنتها طبيبة مثلها.

(٢) انظر المراكشى ٤٨٥/٢/٨.

التماس الكتب القديمة، فأتاه بكتاب السند هند وغيره منها، وهو أول من أدخلها الأندلس وعرَّف أهلها بها، ونظر هو فيها»[١]. وعبد الرحمن الأوسط - بذلك - لم يدخل الكتب الخاصة بعلوم الأوائل من مثل كتاب السند هند المترجم عن السنسكريتية الهندية والخاص بعلم الحساب والهيئة والجداول الفلكية فحسب، بل إنه دفع الأندلسيين إلى تعلمها والتثقف بها. وكان ذلك فاتحة عصر جديد فى الأندلس: عصر دراسة علوم الأوائل، وسرعان ما نجد أندلسيا فى زمنه يقبل على دراسة علم الفلك والهيئة ويصبح منجما له هو عبد الله بن الشِّمْر، وكان شاعرا فكان الأمير عبد الرحمن الأوسط يجرى عليه راتبا للشعر وراتبا للتنجيم، وكان رئيس المنجمين لعهده، وله معه فى التنجيم أخبار طريفة[٢].

وابن الشمر رمز لاهتمام الأندلسيين فى القرن الثالث الهجرى منذ فواتحه بالفلك والتنجيم وما يتصل بهما من الرياضيات، وأخذوا سريعا يهتمون بالكيمياء والفلسفة، واشتهر بذلك كله عباس[٣] بن فرناس المتوفى سنة ٢٧٤ للهجرة فى أوائل أيام الأمير المنذر بن محمد (٢٧٣ - ٢٧٥ هـ)، وفيه يقول ابن سعيد: «كان فيلسوفا حاذقا وشاعرا مفلقا مع علم التنجيم، وهو أول من استنبط بالأندلس صناعة الزجاج من الحجارة.. وكان كثير الاختراع والتوليد واسع الحيل حتى نُسب إليه السحر وعمل الكيمياء» ويقول ابن حيان فى المقتبس: «أبدع عباس بن فرناس عندنا فى فنون التعاليم القديمة والحديثة وتفلسف وأغرب فى غير مذهب من الحكمة وخدمة الموسيقى وضرب العود وصَوْغ اللحون». وبلغ من علمه بالفلك أن صنع فى بيته قبة على هيئة السماء تتراءى للناظر فيها النجوم والغيوم والبروق والرعود، ويقول ابن سعيد إنه احتال فى تطيير جثمانه، فكسا نفسه الريش على سَرَق (شقق) الحرير فتهيأ له أن طار فى الجو من ناحية الرصافة بقرطبة واستقل فى الهواء فحلَّق فيه حتى وقع على مسافة بعيدة.

وتأخذ علوم الأوائل ومايتصل بها من الفلسفة فى النمو منذ عصر الأمير محمد

---

(١) انظر المغرب (طبع دار المعارف) فى ترجمة الأمير عبد الرحمن الأوسط ٤٥/١.

(٢) انظر فى ابن الشمر المغرب ١٢٤/١ والمقتبس (تحقيق د. مكى) ص ٦٥، ٤٧٧ وابن الفرضى رقم ٦٨٩ والزبيدى ص ٢٨٠ والبيان المغرب لابن عذارى ٨٥ وما بعدها والقضاة للخشنى ص ٨٣. والجذوة للحميدى رقم ٥٠٥ وبغية الملتمس رقم ٨٤٥.

(٣) راجع فى ابن فرناس المغرب ٣٣٣/١ والمقتبس ص ٢٧٩ والجذوة رقم ٧٣١ والبغية رقم ١٢٤٧.

(٢٣٨ - ٢٧٣ هـ)، ولم يبق حينئذ كتاب مهم فى علوم الأوائل ببغداد ودمشق والقاهرة والإسكندرية إلا جُلب وأكبَّ العلماء عليه يدرسونه. وطبيعى لذلك أن يظهر فى عهد المستنصر مسلمة[1] المجريطى المتوفى سنة ٣٩٨ وهو يفتتح سلسلة الرياضيين الأندلسيين العظام، وسرعان ما يصبح أستاذ مدرسة رياضية أندلسية، ومن أعماله شرحه لقبة الفلك لبطليموس وقد تُرْجم إلى اللاتينية فى بازل بسويسرا سنة ١٥٣٦ بعنوان: «سرعة أفلاك السماء ونجومها وطبيعتها وحركتها» وبالمثل ترجمت له إلى اللاتينية رسالة فى الأسْطُرْلاب وزيج محمد بن موسى الخوارزمى أو جداوله الفلكية وقد حوَّلها من التاريخ الفارسى إلى التاريخ العربى وزاد فيها جداول حسنة، وله ملخص لزيج البتّانى سماه تعديل الكواكب. وخلفه فى الرياضيات كثير من التلاميذ مما يدل على أن أمرَ المنصور بن أبى عامر فى زمن حجابته باحراق كتب علوم الأوائل - كما مرَّ بنا - كان حدثا عارضا، وظلَّ لعلوم الأوائل رياضيات وغير رياضيات نشاطُها فى بلدان الأندلس.

ومن أهم تلاميذ مسلمة الرياضيين أبو القاسم[2] أصبغ بن محمد بن السمح الغرناطى المتوفى سنة ٤٢٥ وكان رياضيا بارعا فى الحساب والهندسة وهيئة الأفلاك وحركات النجوم وله «المدخل إلى الهندسة» فى تفسير كتاب إقليدس وكتب مختلفة فى الحساب، وكتابان فى الأسطرلاب أحدهما فى التعريف بصورة صنعته والآخر فى العمل به، وله أيضا زيج فلكى انتفع به وبكتاباته الفلكية ألفونس العاشر وعلماؤه. ومن تلاميذ مسلمة ابنُ الصفّار[3] أحمد بن عبدالله الغافقى، وله زيج جيد ورسالة فى العمل بالأسطرلاب، وكان يعلِّم فى قرطبة علوم العدد والهندسة والنجوم، وهاجر منها - زمن الفتنة فى أوائل القرن الخامس الهجرى - إلى دانية لعهد صاحبها مجاهد العامرى وظل بها إلى وفاته سنة ٤٢٤. ومن تلاميذ مسلمة أيضا الكرمانى[4] عمرو بن عبدالرحمن المتوفى سنة ٤٥٨ عن تسعين

---

(١) انظر فى مسلمة المجريطى طبقات الأمم لصاعد (طبع مطبعة السعادة بالقاهرة) ص١٠٧ وابن أبى أصيبعة (نشر مكتبة الحياة ببيروت) ص ٤٨٢ وتاريخ الفكر الأندلسى لبالنثيا (ترجمة د. حسين مؤنس نشر مكتبة النهضة) ص ٤٤٨ والعلم عند العرب لألدومييلى (ترجمة د. عبد الحليم النجار) ص٣٥١ وفى مواضع مختلفة (انظر الفهرس) وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٣٢٣/٤.

(٢) راجع طبقات صاعد ص١٠٧ وابن أبى أصيبعة ص٤٨٣ وبالنثيا ص٤٤٩ وألدومييلى ص٣٥١.

(٣) انظر فى ابن الصفار طبقات صاعد ص١٠٨ وابن أبى أصيبعة ص٤٨٤ وبالنثيا ص٤٥٠ وألدومييلى ص٣٥١ وبروكلمان ٢٢٧/٤.

(٤) راجع فى الكرمانى طبقات صاعد ص١٠٩ وابن أبى أصيبعة ص٤٨٤ وبالنثيا ص٤٥٥ وألدومييلى ص٣٥١ وبروكلمان ٢٢٨/٤.

عاما وقد رحل إلى المشرق وجلب معه - لأول مرة - إلى الأندلس - رسائل إخوان الصفا، واستقر بسرقسطة عند بنى هود فى رعاية المقتدر بالله بن هود أميرها (٤٣٨ - ٤٧٤ هـ) وكان يشغف بالرياضيات والفلك والفلسفة، وخلفه ابنه يوسف المؤتمن إلى أن توفى سنة ٤٧٨ وكان يكبُّ على الرياضيات وله فيها كتاب المناظر، وله أيضا كتاب الاستهلال فى الفلك[١].

ولعل فى التلامذة السابقين لمسلمة المجريطى ما يدل من بعض الوجوه على أن أمراء الطوائف كانوا يأخذون أنفسهم بتشجيع العلماء، وكانت منافسة حميدة بينهم، ولايلبث أن يظهر فى عصرهم عَلَمُ الرياضيات الزِّرقالى[٢] القرطبى المتوفى سنة ٤٧٢ وهو من أعاظم علماء الفلك العرب، وله زيج أو جداول فلكية وأُسْطرلاب واخترع له أجهزة دقيقة كالزرقالية والصفيحة. وابتكر فى الفلك نظرية جديدة مهمة عن الكواكب السيارة والحركات الدائرية للنجوم، واستخدم ألفونس العاشر وعلماؤه من مؤلفاته رسالة فى العمل بأسطرلاب الصفيحة، وكما تُرْجمت إلى الإسبانية القديمة أو القشتالية ترجمت إلى اللاتينية ومثلها كتابه «طريقة فى عمل أسطرلاب لرصد الكواكب السبعة وأفلاكها».

وينتهى عصر أمراء الطوائف وتدخل الأندلس فى حوزة المرابطين منذ سنة ٤٨٥ للهجرة ويكون للفقهاء سلطان كبير فى عهدهم ولكنه لايعوق نشاط الرياضيين والفلكيين وغيرهم من أصحاب علوم الأوائل والفلسفة، ويظل المرابطون فى الأندلس حتى أواخر العقد الرابع من القرن السادس الهجرى ويلمع فى عصرهم اسم جابر[٣] بن أفلح الإشبيلى وله كتاب فى حساب المثلثات، عرضها فيه بطريقة مبتكرة، وأهم منه كتابه فى علم النجوم الذى سماه إصلاح المجسطى، وفيه عرض ملاحظات دقيقة عن منازل الشمس وحركات الكواكب، وهو أحد الكتب التى تعد بالعشرات مما ترجمه إلى اللاتينية جيرار دى كريمونا المتوفى بطليطلة سنة ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ م. وتخلف دولة الموحدين دولة المرابطين فى الأندلس منذ العقد الخامس فى القرن السادس الهجرى، ويتألق فى عهدهم بالنصف الثانى من القرن اسم عالم رياضى إشبيلى عربى يُعَدّ فى طليعة الرياضيين

---

(١) تاريخ ابن خلدون ١٦٣/٤ وبالنثيا ص ٤٥٥. وعاش فى بلاط بنى هود من تلامذة مسلمة المجريطى ابن البغونش انظر فيه طبقات صاعد ص ١٢٧ وابن أبى أصيبعة ص ٤٩٥ وبالنثيا ص ٤٥٣.

(٢) انظر الزرقالى فى طبقات صاعد ص ١١٧ وبالنثيا ص ٤٥١ وألدوميبلى ص ٣٥٩ (انظر الفهرس).

(٣) انظر فى جابر بالنثيا ص ٤٥٦ وألدوميبلى ص ٣٨٣.

العالمين، ونقصد البِطْرَوجي[1] أبا إسحق نور الدين (من أهل النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادى) وأصله من بطروج قرية كبيرة بقرب قرطبة، وترجع شهرته وأهميته إلى كتابه الفلكي فى علم الهيئة، إذ قوّض فيه نظرية بطليموس فى كتابه المجسطي عن الكواكب السيارة قائلا إنها تتحرك فى مدارات إهليليجية أو بيضاوية حول الشمس، وتَرْجَم هذا الكتاب الفلكي سريعا إلى اللاتينية ميشيل سكوت حين نزل طليطلة واطّلع عليه حوالى سنة ٦١٤ هـ/١٢١٧م وبذلك أدخل نظرية البطروجي الفلكية مبكرا إلى العالم الغربى وترجمها إلى العبرية موسى بن طِبُّون سنة ٦٥٧ هـ/١٢٥٩م ونقلها عن العبرية إلى اللاتينية قالينيموس بن داود سنة ٩٣٥ هـ/١٥٢٩ ونشرت ترجمته فى البندقية سنة ٩٣٧ هـ/١٥٣١م.وبدون ريب اطلع كيلر[2] الألمانى (١٥٧١ - ١٦٣٠م) على تلك النظرية الفلكية وصاغ منها نظريته الفلكية التى استخرج منها نيوتن قانون الجاذبية، وبذلك عُدَّ كبلر أبًا لعلم الفلك الحديث، وهو ليس أباه الشرعى، فأبوه الشرعى الحقيقى هو البِطْرُوجي الإشبيلى العربى. وتوقف هذا النشاط فى الدراسات الفلكية بإشبيلية منذ سقطت فى يد فرناند ملك القشتاليين سنة ٦٤٦ هـ/١٢٤٨م.

ولم تسقط إشبيلية وحدها فى أيدى المسيحيين الشماليين من الإسبان بل سقطت قرطبة وغيرها من مدن كثيرة فى الأندلس، وأخذ النشاط فى علوم الأوائل ينحسر عن أكثر تلك المدن وينحاز إلى إمارة غرناطة التى ظلت للعرب فى الجنوب نحو قرنين ونصف وقد هاجر إليها من مدينة مرسية الرَّقوطى[3] محمد بن أحمد وتوفى بها سنة ٧٤٤ هـ/١٣٤٤م وكان قد اشتهر بحذقه بالرياضيات فى مسقط رأسه وتوافد عليه الطلاب من كل ملة، وسمع به أمير غرناطة محمد بن يوسف بن الأحمر المعروف باسم الأمير محمد الفقيه فاستدعاه لتدريس الرياضيات للطلاب فى حاضرته، ولبَّاه سريعا، ويختتم الرياضيين الأندلسيين فى نهاية القرن التاسع الهجرى القَلَصادى[4] على بن محمد القرشى وقد بارح غرناطة قبيل سقوطها إلى بلاد المغرب وتوفى ببجاية سنة ٨٩١ هـ/١٤٨٦م وظلت كتبه تتدارس فى المغرب طويلا وخاصة كتابه كشف الجلباب عن علم الحساب.

---

(١) راجع فى البطروجي ابن أبى أصيبعة ص ٤٨٢ وبالنثيا ص ٤٥٦ وألدوميلى ص ٣٨٣ ومابعدها.

(٢) راجع بالنثيا ص ٥٣٥.

(٣) انظر فى الرقوطى بالنثيا ص ٤٥٧ والاحاطة ٦٧/٣ وما بعدها.

(٤) راجع فى القلصادى ترجمة واسعة فى نفح الطيب ٦٩٢/٢ وانظر الضوء اللامع للسخاوى ١٤/٥ وبالنثيا ص ٤٥٧ ومابعدها وألدوميلى ص ٤١٢. ومقدمة رحلته المطبوعة بتونس بتحقيق الأستاذ محمد أبو الأجفان.

وازدهر الطب فى الأندلس – مثل علوم الرياضة والفلك – ويقول ابن جلجل إنه لم يكن للنصارى الإسبان بَصَرٌ بالطب ولا بالهندسة والفلسفة حتى عهد عبد الرحمن الأوسط[١] (٢٠٦ – ٢٣٨) ويمكن أن نعمم ذلك فى الأندلسيين بعامة، كما مرَّ بنا آنفا، فإنهم انتظروا فى ذلك كله حتى جلب لهم هذا الأمير علوم الأوائل من بغداد والمشرق. وكان أول من اشتهر ببراعته فى الطب لعهد ابنه الأمير محمد (٢٣٨ – ٢٧٣ هـ) طبيب يسمى حمدين[٢] بن أبان وكان – كما يقول ابن جلجل – طبيبا حاذقا، ووفد على قرطبة حينئذ طبيب من المشرق يسمى الحرانى[٣] اشتهر بدواء لأوجاع الجوف سماه المغيث، ويذكر ابن جلجل فى عهد الأمير عبد الله بن محمد (٢٧٥ – ٣٠٠ هـ) طبيبا يسمى إسحق وآخر يسمى ابن ملوكة[٤]. ثم أخذ علم الطب فى الازدهار لعهد عبدالرحمن الناصر (٣٠٠ – ٣٥٠ هـ) إذ كثر دخول الكتب الطبية من المشرق إلى الأندلس، ومن الأطباء الذين اشتهروا فى صدر دولته يحيى[٥] بن إسحق الطبيب السالف، وكان يعالج بنات الناصر وجواريه، وله فى الطب كتاب فى خمسة أسفار. ومن أطباء العيون حينئذ سليمان[٦] بن باج، وكان يعاصره سعيد[٧] بن عبدالرحمن ابن أخى عبدربه صاحب كتاب العقد الفريد، توفى سنة ٣٤٢ وكان حاذقا فى علاج الحميات، وله كتاب فى الصيدلة. ومن الأطباء لعصر المستنصر (٣٥٠ – ٣٦٦ هـ) أحمد[٨] بن يونس وأخوه عمر وكانا قد رحلا إلى المشرق سنة ٣٤٠ وتتلمذا لثابت بن سنان بن قرة الطبيب المشهور ببغداد وقرآ عليه كتاب جالينوس، واختلفا إلى ابن وصيف الحرانى وأخذا عنه علاج أمراض العيون، وعادا إلى قرطبة سنة ٣٥١ فاستخلصهما المستنصر لنفسه، وتوفى عمر، وظل المستنصر حفيا بأحمد وأسكنه قصره بمدينة الزهراء وكان ماهرا فى علاج أمراض

---

(١) طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل ص ٩٢.

(٢) انظر فيه ابن جلجل ص٩٣ وبالنثيا ص ٤٦١.

(٣) انظر فى الحرانى ابن جلجل ص٩٤ وابن أبى أصيبعة ص ٤٨٦.

(٤) راجع فى ابن ملوكة وإسحق ابن جلجل ص٩٧ وابن أبى أصيبعة ص٤٨٦ ويقول ابن جلجل كان على باب دار ابن ملوكة ثلاثين كرسيا لقعود الناس.

(٥) انظر فى يحيى بن اسحق ابن جلجل ص ١٠٠ وابن أبى أصيبعة ص ٤٨٨.

(٦) راجع فى ابن باج ابن جلجل ص١٠٢ وابن أبى أصيبعة ص ٤٨٩

(٧) انظر فى سعيد ابن جلجل ص١٠٤ وابن أبى أصيبعة ص٤٨٩ والمغرب لابن سعيد ١/١٢٠ والتكملة لابن الأبار رقم ١١٩٥ وبالنثيا ص ٤٦٢.

(٨) راجع فى أحمد وأخيه عمر ابن جلجل ص١١٢ وابن أبى أصيبعة ص٤٨٧ وبالنثيا ص ٤٦٤

العيون كما كان صيدلانيا حاذقا، وكان يعاصره محمد[١] بن عبدون الجبلى وكان قد رحل إلى المشرق سنة ٣٤٧ وأقام بالفسطاط ودبَّر مارستانها وعاد إلى قرطبة سنة ٣٦٠ وخدم المستنصر وابنه المؤيد (٣٦٦ - ٣٩٩ هـ) وحاجبه المنصور بن أبى عامر.

وتتوَّج النهضة الطبية حينئذ بالزهراوى[٢] أبى القاسم خلف بن عباس، وهو منسوب إلى الزهراء مدينة الناصر التى بناها غربى قرطبة، وقد خدمه - فيما يبدو - وخدم ابنه المستنصر وحفيده المؤيد وتوفى سنة ٤٠٤ هـ/١٠١٣م وقد ألف موسوعة طبية كبيرة فى ثلاثين جزءا، بعنوان كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف، وجعلها أقساما ثلاثة: قسما فى الطب العام والأمراض وقسما فى الصيدلة وقسما فى الجراحة، وعُنى جيراردى الكريمونى فى القرن الثانى عشر بترجمة قسم الجراحة من الكتاب إلى اللاتينية وترجم أجزاء أخرى منه. وعكف آخرون بعده على ترجمة بعض أجزائه. وتمت ترجمة قسم الصيدلة إلى اللاتينية سنة ١٢٢٨. وأخذت هذه الترجمات تنتشر فى البلدان الغربية، حتى إذا ظهرت المطبعة فى القرن الخامس عشر اتسع انتشار الكتاب فى الغرب، وظل يدرس فى الجامعات الأوربية من القرن الثانى عشر إلى القرن السابع عشر وخاصة قسم الجراحة منه، إذ ظل الجراحون الأوربيون يعدُّون الزهراوى إمامهم فى الجراحة سواء فى جراحة العظام أو فى جراحة الحصاة فى المثانة والمهبل والشق عنها وتفتيتها وعمليات الفتق والدوالى وأمراض النساء والعيون وطب الأسنان وزرعها. وضمَّن هذا القسم تصوير آلات الجراحة، وهى تتوالى عنده بالعشرات مع بيان كيفية استعمالها، وهو بكل ذلك يعد أبا للجراحة العالمية، كما يعد البِطْرَوْجى السالف الذكر أبًا لعلم الفلك العالمى.

ويظل علم الطب فى الأندلس مزدهرا فى عصر أمراء الطوائف وكذلك فى عصر المرابطين والموحدين، ويُتوارث فى بعض البيوت مثل بيت بنى زهر بإشبيليه، وقد أنجب سلسلة من الأطباء المشهورين فى القرنين الخامس والسادس للهجرة يتقدمهم عبدُ الملك[٣] جدهم وكان ماهرا فى صناعة الطب، وطارت شهرته بها فى عصر أمراء

(١) انظر فى ابن عبدون ابن جلجل ص ١١٥ وابن أبى أصيبعة ص ٤٩٢.

(٢) راجع فى الزهراوى الصلة لابن بشكوال ٣٦٨ وابن أبى أصيبعة ص ٥٠١ وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٤/٣٠٠ ومابعدها وبالنثيا ص ٤٦٥ وألدومييلى ص ٣٥٣، ٣٥٥.

(٣) انظره فى طبقات الأمم لصاعد ص ١٢٩ والتكملة رقم ١٦٩١ وابن أبى أصيبعة ص ٥١٧ والذيل والتكملة للمراكشى تحقيق د. إحسان عباس ٥/١/٣٧.

الطوائف إلى أن توفى سنة ٤٦٧ للهجرة، وعنه تلقن الطب ابنه أبو العلاء[١] طبيب المعتمد بن عباد ثم يوسف بن تاشفين أمير المرابطين وابنه على إلى أن توفى سنة ٥٢٥ للهجرة، وله فى الطب تصانيف متعددة، ذكرها ابن أبى أصيبعة، وقال إن أمير المرابطين على بن يوسف بن تاشفين أمر بجمعها ونسخها فى السنة التالية لوفاته، ومن أهمها كتاب التذكرة (ويسمى أحيانا باسم كتاب النكت) وقد نشره جبرييل كولان بالعربية والفرنسية فى باريس سنة ١٩١١ وعليه تتلمذ ابنه عبد الملك[٢] طبيب المرابطين ثم الموحدين إلى أن توفى سنة ٥٥٧ للهجرة ولم يكن بزمانه من يماثله فى صناعة الطب واشتغل الأطباء بمصنفاته وقد بقى منها ثلاثة إلى اليوم، هى: كتاب الاقتصاد فى إصلاح الأنفس والأجساد وهو فى الطب الباطنى، وكتاب الأغذية والأدوية وهو فى الصيدلة والأدوية المفردة، وكتاب التيسير، وقد كتبه تلبية لطلب من ابن رشد، وهو فى الطب العملى، وترجم إلى اللاتينية، وطبعت الترجمة فى البندقية سنة ١٤٩٠ للميلاد، ويقول ألدوميلى: «يُعَد عبد الملك بن زهر أعظم طبيب عربى عملى (كلينيكى) بعد الرازى». وأخذ عنه صناعة الطب ابنه أبو بكر بن زهر الوشاح والشاعر المشهور، الذى انفرد بالإمامة فى الطب لزمنه إلى أن توفى سنة ٥٩٥ ومرَّ بنا فى غير هذا الموضع أن أخته - الملقبة باسم أم عمرو - كانت طبيبة ماهرة، وكانت تعالج نساء الموحدين. واتصل الاهتمام بصناعة الطب فى هذا البيت. فكان عبد الله[٣] بن أبى بكر بن زهر طبيبا حاذقا وخدم الناصر الموحدى (٥٩٥ - ٦١٠ هـ) إلى أن توفى سنة ٦٠٢ وورث صناعة الطب عنه ابنه أبو العلاء. واشتهر لأبى الوليد بن رشد فيلسوف الأندلس المتوفى سنة ٥٩٥ كتاب الكليات فى الطب، ويعرض فيه التشريح ووظائف الأعضاء، كما يعرض الأمراض وأعراضها والأدوية والأغذية والعلاج وحفظ الصحة، وقد ترجم إلى اللاتينية فى منتصف القرن الثالث عشر وطبعت الترجمة سنة ١٤٨٢ وتكررت بعد ذلك طبعاته مع كتب أبى العلاء زهر، وتلقَّن صناعة الطب عن ابن رشد ابنه أبو محمد[٤] عبد الله وخدم بها الناصر

---

(١) راجع أبا العلاء فى التكملة رقم ٢٥٥ وابن أبى أصيبعة ص٥١٧ والمطرب لابن دحية (طبع القاهرة) ص٢٠٣ وفيه أنه تطبب زمانا طويلا بالمشرق وتولى رياسة الطب ببغداد ثم بمصر ثم بالقيروان وعاد إلى الأندلس وبذَّ بها أهل زمانه.

(٢) انظر فى عبد الملك بن أبى العلاء بن زهر ابن أبى أصيبعة ص ٥١٩ والتكملة لابن الأبار (طبعة كوديرا بمدريد) رقم ١٧١٧ وبالنثيا ص ٤٧١ وألدوميلى ص ٣٩٧ وما بعدها وكتاب كولان عن حياته ومؤلفاته.

(٣) راجع ابن أبى أصيبعة فى ترجمة أبيه ص ٥٢٩.

(٤) انظر أيضا ابن أبى أصيبعة بعد ترجمة أبيه ص ٥٣٣.

الموحدى. وتظل عناية الأندلسيين بالطب متصلة زمن بنى الأحمر بغرناطة، ويؤلف ابن خاتمة المتوفى سنة ٧٧٠ رسالة فى وصف وباء الطاعون الذى اجتاح مدينة المرية سنتى ٧٤٩، ٧٥٠ يصف فيها العدوى وأسبابها ومرض الطاعون وصفا طبيا. ويؤلف معاصره لسان الدين بن الخطيب فى الطب كتابا فى جزءين عن الأمراض والحميات والجراحة.

وكان طبيعيا أن ينشط علم الأدوية أو الصيدلة مع علم الطب إذ هما صنوان، غير أن نشاطه يتسع منذ ترجمة كتاب ديوسقوريدس فى الحشائش والأدوية لعهد عبد الرحمن الناصر، على نحو ما مرَّ بنا، وكان له تأثير بعيد فى نهضة علم الصيدلة والأدوية بالأندلس. ومر بنا ذكر أحمد بن يونس طبيب العيون لعهد المستنصر، وكان حاذقا فى صناعة الأدوية والأشربة، ويقول ابن جلجل فى ترجمته إنه تولى خزانة الطب فى قصر المستنصر، ورتّب لها اثنى عشر صَبِيًّا صقالبة طبَّاخين للأشربة صانعين للمعجونات. ونلتقى فى عصر المؤيد وحاجبه المنصور بن أبى عامر بصيدلى يسمى عبد الرحمن بن إسحق بن الهيثم، إذ ذكر له ابن أبى أصيبعة[1] كتابا يسمى كتاب الكمال والتمام فى الأدوية المسهلة والمقيِّئة. وأعظم صيادلة القرن الرابع أبو داود سليمان بن حسان المعروف باسم ابن جلجل[2] مؤلف طبقات الأطباء والحكماء الذى يتردد ذكره فى الهوامش، وأهم كتبه تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديوسقوريدس، وقد فسرها فى الكتاب وأفصح عن مضمونها، وله مقالة فى ذكر أدوية لم يذكرها ديوسقوريدس فى كتابه مما يستعمل فى صناعة الطب، ومقالة ثانية فى أدوية الترياق. وكان يعاصره حامد بن[3] سَمَجون وله كتاب فى الأدوية المفردة والعقاقير حظى بغير قليل من الشهرة. واطرد نشاط الصيادلة فى عصر أمراء الطوائف، وأهم صيدلى فى عصرهم ابن[4] وافد عبد الرحمن بن محمد المتوفى سنة ٤٦٦ للهجرة، وفيه يقول صاعد: «تمهّر فى علم الأدوية المفردة حتى ضبط منها ما لم يضبطه أحد فى عصره، وألف فيها كتابا جليلا لا نظير له، جمع فيه ما تضمنه كتاب ديوسقوريدس وكتاب جالينوس المؤلفان فى الأدوية المفردة ورتبه أحسن ترتيب، وله

---

(١) راجع ابن أبى أصيبعة ص ٤٩٣.

(٢) انظر فى ابن جلجل طبقات الأمم لصاعد وابن أبى أصيبعة ص ٤٩٣ وجذوة المقتبس للحميدى (طبع القاهرة) ص ٢٠٨ وبغية الملتمس للضبى (طبع مدريد) ص ٢٨٥ وبالنثيا ص ٤٦٥ وألدومييلى ص ٣٥٤.

(٣) انظر فى ابن سمجون ابن أبى أصيبعة ص ٥٠٠ وبالنثيا ص ٤٦٧

(٤) راجع فى ابن وافد طبقات الأمم لصاعد ص ١٢٨ وابن أبى أصيبعة ص ٤٩٦ وبالنثيا ص ٤٦٧.

نوادر محفوظة فى الإبراء من العلل الصعبة بأيسر العلاج وأقربه. وقد استوطن طليطلة، ووزر فيها – حتى وفاته – لأميرها المأمون بن ذى النون. وتَسْند كتبَ الصيدلة حينئذ كتب أُلِّفت فى الفلاحة والنباتات والأشجار، من أهمها كتاب المقنع فى الفلاحة لابن[١] حجاج الإشبيلى المؤلف سنة ٤٦٧ وقد نشره مجمع اللغة العربية الأردنى. وهو يفيض فى بيان الزراعة والغراسة لمختلف البقول والفواكه والثمار وخاصة الزيتون مع بيان معالجة الآفات والأمراض، وعلى شاكلة هذا الكتاب فى الفلاحة كتاب لأبى عبيد البكرى الجغرافى المتوفى سنة ٤٨٧ وهو فى نباتات الأندلس وأشجارها، وكتاب لابن بصال المتوفى سنة ٤٩٩ بعنوان: «القصد والبيان».

ونمضى إلى القرن السادس الهجرى، ونلتقى فيه بصيدلى كبير هو أحمد[٢] بن محمد الغافقى المتوفى سنة ٥٥٩ للهجرة صاحب كتاب الأدوية المفردة فى العقاقير والأعشاب، وسقط الكتاب من يد الزمن، غير أن ابن البيطار احتفظ فى كتبه بنحو مائتى نقل عنه، وأيضا فإن ابن العبرى المتوفى سنة ٦٨٤ كان قد وضع له مختصرا ونشره جورج صبحى وماكس مايرهوف بالقاهرة. ونلتقى بعده بابن[٣] العوام أبى زكريا يحيى بن محمد صاحب كتاب الفلاحة المنشور بمدريد، وهو موسوعة تاريخية نفيسة فى علم النبات، وقد عدَّد منه ٥٨٥ نوعا منها أكثر من خمسين من الأشجار المثمرة. وممن تعمقوا فى دراسة النباتات فى الكتب الإغريقية والعربية أحمد بن محمد بن مفرج المعروف بلقبه ابن الرومية[٤] الإشبيلى المتوفى سنة ٦٣٧ وقد نزل مصر فى طريقه إلى الحج سنة ٦١٣ وتجوَّل فى الشام والعراق وعاد إلى موطنه، وله تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديوسقوريدس، ومقالة فى تركيب الأدوية، وأعظم ما أهداه إلى الصيدلة تلميذه ابن البيطار[٥] أهم صيادلة العرب أندلسيين وغير أندلسيين، وهو ضياء الدين عبدالله بن أحمد، وقد تجول فى نواحى المغرب والشام وآسيا الصغرى وبلاد اليونان والروم، واستقر بالقاهرة وجعله السلطان الكامل

(١) انظر ابن حجاج فى المغرب ٢٥٦/١ وبالنثيا ص ٤٦٨ ومقدمة كتابه المقنع فى الفلاحة.

(٢) راجع فى الغافقى ابن أبى أصيبعة ص ٥٠٠ وبالنثيا ص ٤٧٢ وألدومييلى ص ٤٠١.

(٣) راجع فى ابن العوام بالنثيا ص ٤٧٥ وألدومييلى ص ٤٠١ وأعمال مؤتمر المستشرقين فى استوكهلم (١٨٨٩م) ٢١٥/٢ – ٢٥٧ ودائرة المعارف الإسلامية.

(٤) انظر فى ابن الرومية بقية التكملة لابن الأبار طبع الجزائر رقم ٣٠٤ وابن أبى أصيبعة ص ٥٣٨ وبالنثيا ص ٤٧٨ وألدومييلى ص ٤١٤.

(٥) راجع فى ابن البيطار ابن أبى أصيبعة ص ٦٠١ وفوات الوفيات لابن شاكر (تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد) ٤٣٤/١ وبالنثيا ص ٤٧٨ وألدومييلى ص ٤١٤.

رئيسا على العشّابين بمصر، وظل يرأسهم فى عهد ابنه السلطان الصالح نجم الدين أيوب إلى أن توفى بدمشق سنة ٦٤٦ ويقول ابن أبى أصيبعة عنه: أوحد زمنه فى معرفة النبات ومواضعه ونعته وماهيته. وأهم كتبه كتابان ألفهما باسم السلطان الصالح نجم الدين أيوب، وهما: كتاب «الجامع لمفردات الأغذية والأدوية» المطبوع ببولاق فى أربعة مجلدات وهو معجم أبجدى للأدوية والأغذية يضم أكثر من ٢٣٣٠ مادة جمع منها كل ما ذكره السابقون من اليونان والعرب عن الأدوية وزاد عليهم ثلاثمائة دواء لم يذكرها أحد قبله، ويذكر أسماء الأدوية باليونانية، ويضيف كثيرا أسماءها بالفارسية والبربرية والإسبانية الدارجة. والكتاب الثانى المغنى فى الأدوية، وفيه يتحدث عن الأعشاب من حيث العلاج بها فقط لا من حيث التاريخ الطبيعى. وأخذت كتبه تدرس بعده فى العالم الإسلامى دراسة واسعة، وقد ترجم كتاب الجامع إلى الفرنسية والألمانية، وهو بحق خاتم صيادلة العرب العظام. وربما كان أهم صيدلى فى الأندلس بعده محمد بن[1] السراج الغرناطى المتوفى سنة ٧٢٩ للهجرة، وقد ترك موطنه إلى مراكش ووضع فى الأدوية والأعشاب كتبا كثيرة، سقطت جميعها من يد الزمن.

(ب) الفلسفة

لم نتحدث حتى الآن عن الفلسفة، وقد تأخرت العناية بها فى الأندلس، وأول شخص تضاف إليه محمد بن[2] عبد الله بن مسرة المولود بقرطبة سنة ٢٦٩ للهجرة، ويبدو أنه اعتنق مبكرا بعض الآراء الفلسفية والاعتزالية مما جعل بعض الفقهاء يتهمه فى عقيدته، وكأنما خشى على نفسه، فرحل فى سنة ٢٩٩ إلى بيت الله الحرام، لأداء فريضة الحج، واخْتَلف فى رحلته إلى حلقات المتكلمين ومجالس المتفلسفة والمتصوفة، وعاد إلى موطنه، فاعتزل فى ضيعة له بقرية من قرى قرطبة، واجتذب إليه كثيرين عاشوا معه فى عزلته، وآمنوا بما كان يردده من آراء تتصل بالاعتزال والفلسفة والتصوف ، أما الاعتزال فقد كان يردد فيه فكرة أن القرآن مخلوق وفكرة استطاعة الإنسان وحريته فى إرادته ووجوب إنفاذ الوعيد على الله. وأما الفلسفة فكان يردد فيها بعض مبادئ المدرسة

---

(١) انظر فى ابن السراج بالنثيا ص ٤٨٢.

(٢) راجع فى ابن مسرة تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى (طبع القاهرة) رقم ١٢٠٢ وأخبار الحكماء للقفطى (طبع ليبزج) ص ١٦ والجزء الخامس من المقتبس لابن حيان ص ٢٠ وما بعدها وكتاب الناصر فى التنديد بمذهبه ص ٢٥ والفصل فى الملل والأهواء والنحل لابن حزم (طبع القاهرة) ١٩٨/٤ وبالنثيا ص ٣٢٦.

الأفلاطونية الحديثة المنسوبة خطأ إلى إنباذوقليس والقائلة بوجود مادة روحانية تشترك فيها جميع الكائنات ما عدا الذات الإلهية، وأنها أول صورة للعالم العقلى المؤلف من الجواهر الخمسة. وأما التصوف فكان يردد فيه أفكار أمثال ذى النون المصرى الذى كان يتحدث عن الأحوال والمقامات وعلم الصوفية الباطن، وألَّف فى ذلك كله كتابين هما التبصرة والحروف. وكان يقدح فى أحاديث الشفاعة ويؤوِّل آيات القرآن. وكان يَسْتُر دعوته بالتقشف والورع والنسك وكان تلامذته يتناقلون آراءه سرا. ويبدو أن أتباعه أخذوا يتكاثرون بعد وفاته سنة ٣١٩ ولا نصل إلى سنة ٣٤٥ حتى نجد عبد الرحمن الناصر يأمر بأن يُتْلَى على الناس فى قرطبة والبلدان الأندلسية المختلفة كتاب توضِّح فيه نحلتهم وأنهم خرجوا على الجماعة بمعتقداتهم وخاصة الاعتزالية وأنهم يستحلون دماء المسلمين مع تحريف التأويل لآى القرآن العظيم وأحاديث الرسول الأمين، وأَمَرَ من يتولون الأحكام بتتبعهم واستتابتهم. ويعودون إلى الظهور فى عهد ابنه المستنصر لما شاع لزمنه من التسامح الفكرى حتى إذا توفى وولى ابنه المؤيد وأصبح زمام الحكم بيد المنصور بن أبى عامر حاجبه - وكان يستشعر الحمية للدين - أمر قاضى قرطبة محمد بن يبقى بالقبض على كل من يؤمن بتعاليم ابن مسرة، فأخذ يتعقبهم وتاب على يده كثيرون منهم. وألَّف ابن يبقى ضد هذه التعاليم كتابا ينقضها، وحاكاه فى ذلك الزبيدى اللغوى. ويظل لابن مسرة أتباع مستترون. ويذكر ابن حزم فى كتابه الفصل - كما مر بنا - داعيا كبيرا لتلك التعاليم كان يعاصره فى القرن الخامس الهجرى، وكان يرى أن البعث إنما يكون بالأرواح لا بالأجساد وبمجرد الموت تحاسب الروح فإما إلى الجنة وإما إلى النار، واسمه إسماعيل بن عبد الله الرعينى، وكان يقول إن العالم لا يفنى أبدا، إلى غير ذلك من آراء جعلت أتباع المذهب يبرءون منه[١]. وظلت تعاليم ابن مسرة حية فى الأندلس طويلا، إذ هيأت - من بعض الوجوه - لاعتناق بعض الأفراد مذهب الاعتزال وعناية أفراد آخرين بالتصوف إلى أن انتهى - فيما بعد - إلى ابن عربى، وأيضا عناية كثيرين بالفلسفة، وإن كانوا لم يستمروا فى اتجاهه أو بعبارة أخرى فى اتجاه المدرسة الأفلاطونية الحديثة، فقد أخذوا يتجهون إلى المدرسة المشائية وفيلسوفها الكبير أرسطاليس.

وكثر هذا الاتجاه فى عهد أمراء الطوائف، وكان قد كثر دخول الكتب الفلسفية إلى

---

(١) الفصل ٤/١٩٩.

الأندلس، وكثر معها الإقبال على الدراسات المنطقية، ويشير صاعد بن أحمد الطليطلى المتوفى سنة ٤٦٢ فى كتابه طبقات الأمم مرارا إلى من أكبوا على دراسة المنطق من مثل أبى الوليد الوقشى الطليطلى وابن الجلاب السرقسطى وابن سيده المرسى، وفيه يقول: «عنى بعلوم المنطق عناية طويلة وألف فيه تأليفا كبيرا مبسوطا». وعلى الرغم مما يقال من أن عصر المرابطين كان عصر الفقهاء المحافظين نجد الدراسات المنطقية والفلسفية تنشط فيه ويشتهر بها غير منطقى ومتفلسف، ويلقانا ممن عكفوا على دراسة المنطق أبو الصلت أمية[1] بن عبد العزيز الدانى المتوفى سنة ٥٢٩ وله فى المنطق كتاب تقويم الذهن المنشور بمدريد مع ترجمة إسبانية. ويلقانا من المتفلسفة ابن[2] السيد البطليوسى عبد الله بن محمد المتوفى سنة ٥٢١ وهو عالم لغوى وله فى الفلسفة رسالة مطبوعة فى القاهرة بعنوان: «كتاب الحدائق فى المطالب الفلسفية العويصة» وفيه يتحدث عن ترتيب الموجودات عن السبب الأول وأن صفات الله - جل شأنه - لا يصح أن يوصف بها إلا عن طريق السلب وأن نفس الإنسان الناطقة لا تفنى - بل تبقى - بعد موته. ويذكر ابن السيد فى الكتاب بعض أقوال لأرسطو وزينون وأفلاطون وغيرهم من فلاسفة اليونان، وقد أورد فيه لأفلاطون فقرا من محاورة تيماوس ونقل بالنثيا عن آسين بلاسيوس أنها لا تتفق مع النص اليونانى المعروف لتلك المحاورة.

وأهم من ابن السيد معاصره ابن[3] باجة المتوفى سنة ٥٣٣ للهجرة، وهو أول فيلسوف أندلسى بالمعنى الدقيق لكلمة فيلسوف، وقد انحدر من أسرة فى سرقسطة شمالى الأندلس كانت تحترف الصياغة، ولا تذكر المصادر التى عنيت بالترجمة له شيئا عن نشأته ودراسته، ويبدو أنه أكبَّ مبكرا على دراسة الفلسفة وعلوم الأوائل، كما أكبَّ على علم الألحان والغناء، وبلغ فيه كما بلغ فى الفلسفة وعلم الأوائل مبلغا عظيما. وكان شاعرا مبدعا كما كان ناثرا بليغا، مما جعل أبا بكر[4] بن تِيفَلْوِيت حين حكم سرقسطة من قبل

---

(١) انظر فى مصادر أمية ترجمته فى الفصل الرابع.

(٢) راجع فى ابن السيد الصلة لابن بشكوال (طبع مدريد ١٨٨٢) رقم ٦٣٩ والمغرب ٣٨٥/١ وقلائد العقبان لابن خاقان ص ١٩٣ وابن خلكان ٩٦/٣ وأزهار الرياض ٥٦/١، ١٠١/٣ وبالنثيا ص ٣٣٤.

(٣) انظر فى ابن باجة القفطى ص ٤٠٦ وابن أبى أصيبعة ص ٥١٥ والمغرب ١١٩/٢ والفتح فى القلائد ص ٣٠٠ وابن خلكان ٤٢٩/٤ ونفح الطيب (تحقيق د. إحسان عباس) ٢٧/٧ والوافى بالوفيات للصفدى (طبع إستانبول) ٢٤٠/٢ والخريدة للعماد الأصبهانى (قسم شعراء المغرب والأندلس) طبع الدار التونسية ٣٣٢/٢ وبالنثيا ص ٣٣٥.

(٤) انظر ترجمته فى الإحاطة ٥٠٤/١.

المرابطين لأواخر سنة ٥٠٣ للهجرة يتخذه كاتبا له ووزيرا، حتى إذا توفى هذا الحاكم سنة ٥١٠ أكثر من مراثيه وتغنى بها فى ألحان مبكية كما يقول ابن سعيد، ولم يطب له فيها المقام بعده، فهاجر منها إلى المرية ثم إلى غرناطة، وظل بها فترة ثم رحل عنها إلى فاس عاصمة المرابطين فى المغرب، وقيل بل إلى جيان وانقطع للدرس والتأليف حتى وفاته سنة ٥٣٣. وكان من أهم ما انقطع له الفلسفة المشائية وأستاذها أرسطو وتعمقها أدق تعمق حتى ليقول ابن أبى أصيبعة: إذا قارنت أقاويله فيها بأقاويل ابن سينا بان لك الرجحان فى أقاويله، وقد عنى عناية واسعة بشرح كثير من أعمال أرسطو، فشرح كتابه السماع الطبيعى أو سمع الكيان، وجزءا من كتابه الكون والفساد، والمقالات الأخيرة من كتابه عن الحيوان، وجزءا من كتابه عن النبات. وشرح المنطق للفارابى والأدوية المفردة لجالينوس وأيضا لابن وافد. وله تصانيف فى الرياضيات والهندسة والفلك فاق فيها المتقدمين. وله فى الفلسفة كتاب فى البرهان وكتاب فى النفس وكتاب فى العقل الفعال إلى غير ذلك من كتب لم يبق منها إلا بعض رسائل وإلا كتابه تدبير المتوحد المنشور بمدريد وفيه يتخيل مدينة فاضلة مثالية لا يحتاج أهلها إلى طوائف الأطباء الثلاث: لا أطباء البدن لأن أهلها لا يرتكبون أى رذيلة تسبب لهم المرض، ولا أطباء العدالة لأن أهلها متحابون لا يقع بينهم ما يحتاجون معه إلى قضاة وقضاء، ولا أطباء النفوس لأن أهلها كاملون. ويفيض فى بيان الصور الروحية والعقلية وأن غاية المتدبر اتحاد عقله بالعقل العلوى الفعال حتى يبلغ مرتبة المعرفة العقلية الحقيقية، وبذلك وصَل بين التأمل العقلى وبين عَوْنٍ علوى، محاولا الوَصْل بذلك بين الفلسفة والدين، وخلفه ابن طُفَيْل وابن رشد[1]، فبلغا بالفلسفة الإسلامية فى موطنها الغاية التى ليس وراءها غاية.

وابن طُفَيْل[2] هو أبو بكر محمد بن عبد الملك - وقيل ابن عبد الله - القيسى، ولد سنة ٥٠٦ للهجرة فى بُرْشانة من أعمال المريَّة، وقيل فى وادى آش من أعمال غرناطة، وقيل بل فى تاجَلة من أعمال جيَّان، وقد أكبَّ على كتب الفلسفة والطب مبكرا، وخاصة كتب ابن باجة أكبر فيلسوف فى زمنه، وتبعه يشرح بعض كتب أرسطو مثل كتابه الآثار العلوية، كما تبعه يؤلف فى الفلسفة مثل كتاب له فى النفس، واشتغل بالطب فى غرناطة

(١) انظر فى تلمذة ابن طفيل لابن باجة المعجب للمراكشى (طبع القاهرة) ص ٣١١ وفى تلمذة ابن رشد له ابن أبى أصيبعة فى ترجمة ابن باجة ص ٥١٦.

(٢) راجع فى ابن طفيل المعجب ص٣١١ وما بعدها والمغرب ٨٥/٢ وتحفة القادم (الموجز - عدد أيلول سنة ١٩٤٧) رقم ٤٣ والإحاطة ٤٧٨/٢ وبالنتياص ٣٤٨ والميتافيزيقا فى فلسفة ابن طفيل للدكتور عاطف العراقى. (طبع دار المعارف).

وببعض الأعمال الإدارية فيها وفى سبتة وطنجة، ثم صار طبيبا لسلطان الموحدين يوسف بن عبد المؤمن، واتخذه مستشارا، فجلب إليه العلماء من جميع الأقطار، وممن جلبه إليه صديقه ابن رشد، وما زال يوسف حفيًّا به إلى أن توفى قبله بقليل فى مراكش سنة ٥٨٠، بينما توفى ابن طفيل سنة ٥٨١ وكانت له فى الطب والفلك مؤلفات سقطت فى يد الزمن، ويقول البطروجى أكبر علماء الفلك الأندلسيين إنه أخذ عنه قوله فى الدوائر الخارجية والدوائر الداخلية. وقد اشتهر فى عصره إلى اليوم بقصته: حى بن طفيل، وسنخصها بحديث مفرد فى الفصل الأخير.

وابن رشد[1] هو أبو الوليد محمد بن أحمد سليل أسرة فقهية قرطبية، وُلد بها فى العقد الثانى من القرن السادس الهجرى، وتولى مثل أبيه وجده القضاء فكان قاضيا فى إشبيلية سنة ٥٦٥ وفى قرطبة سنة ٥٦٧، مما يدل على أنه أكبَّ على دراسة الفقه فى بواكير حياته، وله فيه كتاب بداية المجتهد ونهاية المقتصد وهو منشور بالقاهرة. وكان - ولا يزال - مرجعًا مهما فى الفقه وفتاويه. واهتم بعلوم الأوائل، فدرس الفلك وله فيه رسالة عن حركته وأخرى عن النجوم الثابتة، ودرس الطب وله فيه كتاب الكليات المنشور بتطوان، وتُرْجم فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى إلى اللاتينية وطبع فى البندقية سنة ١٤٨٢ وتُرْجم له أيضا إلى اللاتينية شرح على أرجوزة لابن سينا فى الطب طُبع أيضا فى البندقية بعد كتابه الكليات بسنتين. وله تلخيصات لكتب جالينوس الطبية مثل: كتاب المزاج وكتاب القوى الطبيعية وكتاب العلل والأعراض وكتاب الحميات وكتاب الأدوية المفردة. وشُغف بالفلسفة وعرف فيه ذلك صديقه ابن طفيل، وكانت له حظوة عند السلطان يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٧ - ٥٨٠ هـ) فشكا إليه قلق عبارات أرسطو فى كتبه وحاجتها إلى الشرح والتلخيص، وسأله أن يقوم بذلك، فاعتذر بعلو سنه، وأشار عليه أن يطلب ذلك من ابن رشد - وكان قاضى إشبيلية حينذاك - فاستدعاه وطلب إليه أن

(١) راجع فى ابن رشد ابن أبى أصيبعة ص ٥٣٠ والمعجب ص ٣١٤ وما بعدها وابن الأبار فى كتابه التكملة رقم ٨٥٣ والوافى بالوفيات للصفدى (طبع إستانبول) ١/١١٤ وابن فرحون فى الديباج المذهب ٢/٢٥٧ والمغرب ١/١٠٤ وابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة ٦/١٥٤ وابن العماد فى الشذرات ٤/٣٢٠ وبالنثيا ص ٣٥٣ وتراث الإسلام (طبع لجنة الترجمة والتأليف والنشر بالقاهرة) ص ٣٠٥ وما بعدها وكتاب ابن رشد والرشدية لرينان ومقالة كرادى ڤو عنه فى دائرة المعارف الإسلامية وراجع كتاب مؤلفات ابن رشد للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (طبع الجزائر) وكتابى د. عاطف العراقى عن النزعة العقلية والمنهج النقدى فى فلسفة ابن رشد. (طبع دار المعرف).

ينهض بهذا العمل فنهض به على خير وجه، وظل حاسدون يسعون ضده عند السلطان يعقوب بن يوسف (٥٨٠ - ٥٩٥ هـ) حتى إذا انتصر فى موقعة الأَرَك المشهورة ضد نصارى الإسبان سنة ٥٩١ أخذته الحميَّة للدين فكلف طائفة من الفقهاء ببحث كتبه وهل فيها ما يخالف الدين، ورأوه يقول بقدم العالم بالقوة موفقا بين الفلسفة والدين وأن البعث سيكون بالأجسام كما قال الدين ولكن لا بعينها ولكن بأجسام تشبهها أكثر كمالا، فاتهموه لذلك بالزندقة. وعرف السلطان خطأه فى سنة ٥٩٥، فاستدعاه إلى مراكش لإعلان رضاه عنه، واسترضاه ولم يلبث كل منهما أن لبىَّ نداء ربه.

وقد وضع ابن رشد شروحا مطولة ومتوسطة وموجزة لكثير من مؤلفات أرسطو، ويقول صاحب المعجب: «رأيت له تلخيص كتب أرسطو فى جزء واحد فى نحو مائة وخمسين ورقة لخَّص فيه كتبه: سمع الكيان، والسماء والعالم، والكون والفساد، والآثار العلوية، والحس والمحسوس، ثم لخَّصها وشرح أغراضها فى كتاب مبسوط فى أربعة أجزاء» ويقول بالنثيا إنه وضع شروحا مطولة لكتاب البرهان وكتاب السماع الطبيعى وكتاب السماء والعالم، وكتاب النفس وكتاب ما وراء الطبيعة، ووضع شروحا متوسطة لهذه الكتب، وللمنطق وللكون والفساد والآثار العلوية، وللأخلاق وللحس والمحسوس أو الطبيعيات الصغرى، وللأجزاء التسعة الأخيرة من كتاب الحيوان. وكل هذه الشروح تُرْجمت إلى اللاتينية والعبرية وترجمت إليها أيضا مؤلفاته الأصيلة فى الفلسفة وفى مقدمتها تهافت التهافت الذى يرد فيه على الغزالى فى كتابه تهافت الفلاسفة مدافعا بحرارة عن الفلسفة وأرسطاليس. وله شروح على كتابى الشعر والخطابة لأرسطو، وتُرْجم إلى اللاتينية أيضا كتاباه: «الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة» و«فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال» ومن قوله فيه: «الحكمة (أى الفلسفة) صاحبة الشريعة وأختها الرضيعة وهما مصطحبتان بالطبع ومتحابتَّان بالجوهر والغريزة، ويقرر ما قاله صديقه ابن طفيل فى قصة حى بن يقظان من أن الفلسفة تخاطب الخاصة والدين يخاطب العامة.

وكان يذهب إلى أن عقول الأفلاك تصدر عن الله، وكل فلك أو كل عقل يحدث الحركة فيما دونه إلى أن نصل إلى العقل الفعال، وفى كل إنسان قبس منه، وإذا ازداد اتصاله به سما إلى حالة الكشف الصوفى. وأدَّته محاولته فى التوفيق بين الدين والفلسفة إلى التأويل فى النصوص الدينية حتى يتاح للإنسان فهم الحقائق العليا. وحاول أن يوفق بين

رأى أرسطو والفلاسفة المشائين بأن العالم قديم ورأى الغزالى وعامة المتكلمين بأنه محدث، فقال إن قدمه إنما هو بالقوة لا بالفعل، ثم وُجِد وتشكَّل فهو قديم ومحدث، وكذلك المادة قديمة ومحدثة. وقال إن الله يعقل الأشياء فى ذاته لا كما نعقلها نحن على وجه كلى أو جزئى، إذ هو علة الموجودات جميعا والمحرك لها من القوة إلى الفعل.

ومنذ أخذ مترجمو ابن رشد إلى اللاتينية: جيرار الكريمونى (١١٨٧ م) وميشيل سكوت الإنجليزى (١٢٣٥ م) وهرمان الألمانى (١٢٧٢ م) يذيعون أعماله أخذت تُدْرَسُ فى الجامعات الأوربية بإيطاليا وفرنسا وإسبانيا بينما كانت الكنيسة تقاومها وخاصة رهبان الدومينيكان، وصبت الكنيسة لعناتها على سيجر البرابانتى الأستاذ بجامعة باريس وطردته من رحابها فى سنة ١٢٦٦ إذ عدته زنديقا رشديًّا، وعلى الرغم من أن الراهب الدومينيكانى الألمانى ألبرت الكبير وتلميذه الراهب توماس الأكوينى هاجما بعض الآراء والتعاليم المنسوبة إليه خطأ فقد انتفعا أكبر انتفاع بأدلته وبراهينه فى التوفيق بين الفلسفة أو العقل وبين الدين، حتى ليسيران معه فى طريق واحدة متبعين خطاه فيما قرر من وحدانية الله لوحدة العالم وتنزيهه عن كل نقيصة. وظلت فلسفة ابن رشد وتعاليمه وأفكاره تدرس فى الغرب منذ القرن الرابع عشر، وعلى الرغم من أن مجمع لاتران البابوى قرَّر سنة١٥٠٢ لَعْنَ كل من ينظر فى فلسفة ابن رشد ظل له أنصار كثيرون وظل يدرس فى الجامعات الغربية حتى العصر الحديث. ومما لا ريب فيه أنه كان لفلسفته وأفكاره أثر بعيد فى قيام حركة التحرر والإصلاح الدينى فى النهضة الأوربية، ويقول بالنثيا إن تأثير ابن رشد فى تاريخ الفكر الأوربى كان حاسما، وهو تأثير يحتاج بيانه إلى مجلدات طوال وهو يُعَدّ - بحق - خاتمة الفلاسفة والمفكرين العظام فى الأندلس.

(جـ) علم الجغرافيا

تابع الأندلسيون المشارقة فى الاهتمام بعلم الجغرافيا لمعرفة مسالك العالم وممالكه مما أتاح لهم جغرافيون يصفون جزيرتهم، وقد يصفون معها المغرب والعالم العربى والإسلامى، وقد يصفون أنحاء من أوربا الغربية والشرقية، وأضافوا إلى ذلك وصف رحلات لهم كثيرة. والعرب بطبيعتهم رحالة، وبدأوا ذلك فى جاهليتهم حين كانوا يكثرون من الرحلة وراء الكلأ ومساقط الغيث ولغرض الحج، وجعل الإسلام الحج جزءا لا يتجزأ من عبادتهم ومَنْسِكهم، ثم كانت فتوحهم الإسلامية وهجراتهم الطويلة شرقا

إلى أواسط آسيا وغربا إلى الأندلس والمحيط الأطلسي، فكان طبيعيا أن يولعوا بالرحلات والأسفار والتعرف على البلدان القريبة والبعيدة والمسالك المؤدية إليها. وطبيعي لذلك أن يكون لكل بلد عربي جغرافيوُّه ورحَّالته، وأن تشارك الأندلس فى ذلك بحظ أو حظوظ، وأول جغرافى مهم نلتقى به فيها أحمد[١] بن محمد الرازى المتوفى سنة ٣٤٤ للهجرة، وهو مؤرخ وجغرافى، ولم يبق من أعماله سوى قطعة فى جغرافية الأندلس احتفظت بها ترجمات إسبانية وبرتغالية، ويظن أنها كانت مقدمة لكتابه: «أخبار ملوك الأندلس» وهو فيها يتحدث عن موقع الأندلس وهيئتها ومناخها فى قسميها الغربى والشرقى وأنهارها وجبالها وكورها ومدنها وإنشائها وحدودها وحصونها. وقد استشهد ابن حيان فى كتابه – وكذلك ابن سعيد فى كتاب المغرب – بفقرات من هذه المقدمة الجغرافية. ويبرز من الجغرافيين بعده أبو[٢] عبد الله محمد بن يوسف التاريخى القيروانى نزيل الأندلس فى عصر المستنصر (٣٥٠ – ٣٦٦هـ) المتوفى سنة ٣٦٣ وله كتاب عن مسالك إفريقية وممالكها انتفع به أبو عبيد البكرى فى كتابه المسالك والممالك. ويلقانا فى عصر أمراء الطوائف أحمد[٣] بن عمر بن أنس العذرى الدلائى المريِّى المتوفى سنة ٤٧٦ وله كتاب نظام المرجان فى المسالك والممالك وفيه يعرض كُوَر الأندلس وأجزاءها والطرق السالكة إليها، وبه انتفع أيضا أبو عبيد البكرى[٤]، وهو عبد الله بن عبد العزيز المتوفى سنة ٤٨٧ للهجرة، كان آباؤه أمراء وَلْبة وشَلْطيش بعد سقوط الخلافة، وأخذهما منهم المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية، ونشأ أبو عبيد بقرطبة وتتلمذ على ابن حيان المؤرخ المشهور، وبعد وفاته سنة ٤٦٩ نزل المريَّة، وأرسله ابن صُمادح صاحبها فى رسالة إلى المعتمد بإشبيلية، فآثر المقام عنده، حتى إذا خلعه يوسف بن تاشفين سنة ٤٨٤ هاجر إلى قرطبة وبها توفى. وله فى الجغرافية كتابان: المسالك والممالك، والقسم الخاص بالمغرب منه

---

(١) انظر فى الرازى جذوة المقتبس للحميدى (طبع القاهرة) ص٩٧ وتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى رقم١٣٥ وكتاب الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس لحسين مؤنس (طبع مدريد) ص٥٦.

(٢) راجع فى أبى عبدالله التاريخى الحميدى رقم ٩٠ وبغية الملتمس للضبى رقم ٩٠ والتكملة لابن الأبار رقم ٣٤٤ ومؤنس ص ٧٣.

(٣) انظر فى الدلائى الحميدى رقم ٢٣٦ والضبى رقم ٤٤٦ ومؤنس ص ٨١.

(٤) راجع فى أبى عبيدالبكرى الذخيرة لابن بسام، المجلد الأول من القسم الثانى (تحقيق د. إحسان عباس) ص٢٣٢ والقلائد للفتح بن خاقان (طبع بولاق) ص١٩١ والصلة لابن بشكوال ص٢٨٢ وابن أبى أصيبعة ص٥٠٠ والمغرب ١/٣٤٧ والحلة السيراء (طبع القاهرة ٢/١٨٠) ومؤنس ص١٠٨ وما بعدها وتاريخ الفكر الأندلسى لبالنثيا ص٣٠٩ وما بعدها والدوميلى ص٣٦٠.

مطبوع، والكتاب الثانى معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع فى جزيرة العرب، طبعه وستنفلد قديما، ثم طبعه الأستاذ مصطفى السقا طبعة علمية محققة فى أربع مجلدات ضخمة بالقاهرة، ويقول أبو عبيد فى مقدمته: «هذا كتاب ذكرت فيه جملة ما ورد فى الحديث والأخبار والتواريخ والأشعار من المنازل والديار والقرى والأمصار والجبال والآثار والمياه والآبار والدارات والحِرار منسوبة محدَّدة ومبوَّبة على حروف المعجم مقيدة» واستهلَّه بوصف الجزيرة العربية وحدودها الجغرافية وأقسامها: الحجاز وتهامة ونجد واليمن مع بيان مفصل عن قبائلها وما يتصل بها من التنقلات والوقائع والأيام.

ونلتقى فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى بجغرافى يسمى محمد[1] بن أبى بكر الزهرى عاش فى المرية أو غرناطة، وله كتاب جغرافى فى وصف ما سماه «الخارطة المأمونية للعالم» وفيه يتحدث عن أقاليم الأرض السبعة وطبيعتها وسكانها ويعنى بالأندلس ووصف مدنها. وقد نشرت منه مقتطفات عن الأندلس ومراكش وصقلية، ويكتظ بالعجائب والغرائب حتى ليمكن أن يوصف بأنه جغرافيا شعبية.

وتلقانا فى الأندلس كتابات جغرافية عند بعض المؤرخين يضعونها فى مقدمات كتبهم عن تاريخ الأندلس أو عن رجالها مثل مقدمة كتاب فرحة الأنفس فى تاريخ الأندلس لابن غالب[2] من مؤرخى القرن السادس الهجرى وهى تعرض كور الأندلس وما تضمه من مدن وحصون وقرى ومسالك وما تشتهر به من صناعة وزراعة مع تفصيل القول عن قرطبة ومسجدها الجامع ومقصورته ومحرابه ومنبره ومع بيان الجبال فى الأندلس والأنهار. ولابن سعيد المتوفى سنة ٦٨٢ مقدمة جغرافية نفيسة للقسم الأندلسى من كتابه المغرب، سقطت أوراقها منه، غير أن المقرى احتفظ بها فى النفح، وله فى الجغرافيا كتاب مجمل سماه «كتاب بسط الأرض فى الطول والعرض»، ويقول الدكتور حسين مؤنس: «يمكن وصفه بأنه جدول بالمدن والجبال والأنهار والبحار وغيرها من الأعلام الجغرافية موقعة على أطوالها وعروضها فى دقة[3]» والأرض عنده تسعة أقاليم مقسمة إلى عشرة أجزاء تبتدىء من جزائر الخالدات فى المحيط الأطلسى، وتنتهى بجزائر السِّيلى أى اليابان.

---

(١) انظر فى الزهراوى د. مؤنس فى كتابه تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ص٣٥٨ وما بعدها.

(٢) راجع فى ابن غالب ومقدمته تحقيق الدكتور لطفى عبدالبديع لها وقد نشرها فى الجزء الثامن من المجلد الأول فى معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، وانظر كتاب د.مؤنس ص٤٥٢ ومابعدها.

(٣) انظر د. مؤنس ص ٥٠١ وكتاب بسط الأرض لابن سعيد نشر بتطوان.

وللسان الدين بن الخطيب مقدمات جغرافية فى وصف غرناطة لكتابيه: الإحاطة فى تاريخ غرناطة واللمحة البدرية فى الدولة النصرية. وحرىّ بنا أن نذكر محمد[١] بن عبد المنعم الحميرى المتوفى سنة ٩٠٠ للهجرة وكتابه الروض المعطار فى خبر الأقطار، وهو معجم جغرافى نشر منه بالقاهرة المادة الخاصة بالأندلس.

٣

علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد

كان طبيعيا أن تعنى الأندلس مبكرة بقيام مؤدبين على تعليم الناشئة الفصحى وقواعدها وتحفيظها القرآن الكريم أو سورًا منه وبعض الأحاديث النبوية، وبالمثل تعليم من دخلوا فى الدين الحنيف من الإسبان وأبنائهم حتى يستطيعوا جميعا النطق بالفصحى وببعض آيات القرآن الكريم فى صلاتهم. ونلتقى فى القرنين الثانى والثالث للهجرة بكثير من هؤلاء المؤدبين، وهم يعدون بالعشرات فى كتاب طبقات النحويين واللغويين للزبيدى، ومن أوائلهم الغازى[٢] بن قيس المؤدب بقرطبة حين دخلها عبدالرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية هناك سنة ١٣٨ للهجرة وتوفى الغازى سنة ١٩٩ ونراه يرحل إلى المشرق، ويلتقى بالأصمعى ونظرائه فى اللغة بالبصرة ويأخذ عن مالك الموطأ فى الفقه، وهو إشارة واضحة إلى أن المؤدبين بالأندلس فى القرن الثانى والثالث للهجرة كانوا يأخذون أنفسهم بثقافة لغوية ودينية واسعة، وكانوا يرحلون للقاء أئمة اللغة والدين فى القراءات والفقه والحديث النبوى. وعلى شاكلته فى الرحلة والأخذ عن الأصمعى ومالك وغيرهما من الأئمة معاصره أبو موسى[٣] الهوارى، وله كتاب فى القراءات وكتاب ثان فى التفسير. ومن معاصريهما جودى الراحل إلى المشرق المتوفى سنة ١٩٨ وهو تلميذ الكسائى إمام النحو الكوفى وأول من أدخل كتابه إلى قرطبة، وله تأليف فى النحو، وكان يعاصره محمد[٤] بن عبد الله مؤدب أبناء الحكم الربضى الراحل بدوره إلى المشرق.

---

(١) راجع فى الحميرى كراتشكوفسكى ص٢٩٥ وبالنثيا ص٣١١ ود.مؤنس ص٥٢٩.

(٢) انظر فى الغازى كتاب طبقات النحويين واللغويين للزبيدى بتحقيق الأستاذ محمد أبى الفضل إبراهيم (طبع ونشر الخانجى) ص ٢٧٦.

(٣) انظر فى الهوارى الزبيدى ص ٢٧٥.

(٤) راجع الزبيدى ص ٣٠٦.

ويذكر الزبيدى فى طبقاته عشرات من لغويى الأندلس فى القرن الثالث الهجرى، منهم عثمان[١] بن المثنى القيسى تلميذ ابن الأعرابى، لقى أبا تمام وأخذ عنه ديوانه وأقرأه بقرطبة، ومنهم الرشاش سعيد[٢] بن الفرج وكان من أقوم العلماء فى زمانه على لسان العرب وأحفظهم للغة وأعلمهم بالشعر وكان يحفظ أربعة آلاف أرجوزة، ومنهم محمد بن عبدالله حفيد الغازى السالف ذكره، تتلمذ للغويى العراق من أمثال الرياشى وأبى حاتم وجلب إلى الأندلس علما كثيرا من اللغة والعربية، وعنه روى الأندلسيون الأشعار المشروحات كلها، ومنهم ثابت[٣] بن عبد العزيز وابنه قاسم وهما أول من أدخل معجم العين المنسوب إلى الخليل بالأندلس، وأدخله بعدهما القاضى منذر بن سعيد بسماعه من أبى العباس بن ولاد المصرى المتوفى سنة ٣٣٢ ويبدو أنه كانت قد وصلت إلى الأندلس نسخ مختلفة من هذا المعجم مما جعل الحكم المستنصر يكلف أربعة من العلماء اللغويين بمقارنة هذه النسخ من العين بعضها على بعض لاستخلاص نسخة دقيقة الضبط[٤].

وينزل قرطبة أبو على[٥] القالى اللغوى الكبير سنة ٣٣٠ لعهد عبد الرحمن الناصر، فيكون نزوله فيها فاتحة عهد لغوى عظيم، ويستقبله الناصر استقبالا كريما، ويوالى هو وابنه الحكم رعايته وإغداق المال عليه، ونشط فى التأليف والتدريس بقرطبة وضاحيتها الزهراء حتى وفاته سنة ٣٥٦ وكان مما أملاه على الطلاب من مؤلفاته كتابه «الأمالى» وهو مجلدان من مختارات شعرية ونثرية مع شرح ما جاء فيها من الغريب، وأتبع هذا الكتاب بكتاب على شاكلته سماه «ذيل الأمالى والنوادر» وأملى أيضا من تأليفه كتابه المقصور والممدود والمهموز وكتابا فى الأمثال سوى مؤلفات أخرى، وأهم من ذلك شروحه للمعلقات وروايته هناك للمفضليات والنقائض وشعر الهذليين وإدخاله دواوين النابغة الذبيانى وعلقمة والأعشى والحطيئة والشماخ والنابغة الجعدى وأوس بن حجر والقطامى

---

(١) انظر فى ابن المثنى الزبيدى ص ٢٨٨ وابن الفرضى ١/٨٨ والمغرب ١/١١٢.

(٢) راجع فى الرشاش الزبيدى ص ٢٨٤ وابن الفرضى ص ١٤١ والحميدى ص ٢١١ والمغرب ١/١١٤.

(٣) انظر فى ثابت وابنه قاسم الزبيدى ص ٣٠٩ وابن الفرضى ١/٨٨ وبغية الملتمس للضبى ٢٣٨ وإنباه الرواة للقفطى (تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم) ١/٢٦٢.

(٤) الحميدى ص ٤٧.

(٥) راجع فى القالى الزبيدى ص ٢٠٢ وابن الفرضى ١/٨٣ والقفطى ١/٢٠٤ وبغية الملتمس ٢١٦ ومعجم الأدباء ٧/٢٥ والأنساب للسمعانى ٤٣٧ ب وابن خلكان ١/٢٢٦ والحميدى فى الجذوة ١٥٤ وفهرسة ابن خير ص ٣٩٥ وفى مواضع مختلفة وشذرات الذهب ٣/١٨.

والأخطل وذى الرمة إلى غير ذلك من دواوين الجاهليين والإسلاميين سوى معجمه «البارع» وإن لم يتمه. وهو بذلك كله دفع الأندلس إلى حركة لغوية خصبة، وكانت قد بدأت هذه الحركة وأخذت فى النمو أثناء القرن الرابع الهجرى على نحو ما يشهد بذلك ابن القوطية محمد بن عمر المتوفى سنة ٣٦٧ وقد امتدحه القالى فى اللغة، ومن مؤلفاته فيها كتاب تصاريف الأفعال طَبعه جويدى فى ليدن باسم كتاب الأفعال وتصاريفها ويقول ابن خلكان هو الذى فتح للعلماء الكتابة فى هذا الموضوع، وله كتاب فى المقصور والممدود يقول ابن خلكان جمع فيه ما لا يحد ولا يوصف، وفاق من تقدمه. وأهم من ابن القوطية فى القرن الرابع الزبيدى[١] محمد بن الحسن تلميذ القالى المتوفى سنة ٣٧٩ وفيه يقول ابن خلكان: «كان واحد عصره فى حفظ اللغة وعلم النحو وكان أخبر أهل زمانه بالإعراب والمعانى والنوادر ولم يكن بالأندلس فى فنه مثله فى زمانه» واختاره الحكم المستنصر لتأديب ابنه وولى عهده المؤيد، وولاه القضاء، وولاه المؤيد الشرطة، ونال فى عهدهما دنيا عريضة، وفى مقدمة كتبه اللغوية مختصر معجم العين للخليل ويشهد له القدماء بأنه يفضل أصله لحذفه منه الأبنية المصحفة والمختلة وزيادته فيه كثيراً من المواد التى يفتقر إليها المعجم مع استدراكه الأخطاء الواقعة فيه، وقد ذهب إلى أن هذا المعجم ليس من صنع الخليل، لما فيه من رواية عن أناس متأخرين عن الخليل بحيث لايمكن أن يروى عنهم، ولأن جميع ما فيه من مسائل النحو إنما هو على مذهب الكوفيين والخليل نحوى بصرى، بل هو إمام المدرسة النحوية البصرية. وله فى لحن العوام من أهل الأندلس مصنف طريف نشره الدكتور رمضان عبدالتواب، وهو لا يقصد بالعوام الدهماء من الناس وإنما عوام المثقفين، وما يجرى فى ألسنتهم من أخطاء. ومن لغويى القرن الرابع السرقسطى[٢] سعيد المعافرى المتوفى بعد سنة ٤٠٠ للهجرة، وهو تلميذ أبى بكر ابن القوطية، وقد روى عنه كتابه الأفعال، ورأى أن يبسطه فى كتاب مطول ويزيد فيه بنفس اسمه وقد نشره مجمع اللغة العربية فى أربعة مجلدات. ومن تلاميذ الزبيدى ابن الإفليلى[٣] إبراهيم بن محمد المتوفى سنة ٤٤١ روى عن أستاذه كتاب الأمالى للقالى، وله

---

(١) انظر فى الزبيدى ابن الفرضى ٩٢/٢ والحميدى ٤٣ والمغرب ٢٥٥/١ وبغية الملتمس رقم ٨٠ وإنباه الرواة ١٠٩/٣ ومعجم الأدباء ١٨٠/١٨ وابن خلكان ٣٧٢/٤. وكتابه طبقات النحويين واللغويين من مراجعنا فى الهوامش.

(٢) راجع فى السرقسطى الصلة رقم ٤٧٤ ومقدمة نشرة كتابه الأفعال.

(٣) انظر فى ابن الإفليلى الذخيرة لابن بسام (طبعة إحسان عباس) ٢٨١/١ والصلة ٩٤ والإنباه ١٨٣/١ ومعجم الأدباء ٤/٢ وابن خلكان ٥١/١.

شرح جيد على ديوان المتنبى. ومن لغويى القرن الخامس ابن سيده[١] على بن إسماعيل الضرير المتوفى سنة ٤٥٨ وفى المغرب لابن سعيد: «لايُعلم بالأندلس أشد اعتناء من هذا الرجل باللغة ولا أعظم تأليفا، تفخر مدينة مرسية به أعظم فخر» وله معجمان ضخمان: المحكم وهو على شاكلة كتاب العين مرتب حسب مخارج الحروف، والمعجم الثانى المخصص وهو موزع على الموضوعات والمعانى فى سبعة عشر مجلدا، ويذكر فى مقدمته مصادره، وهى تتوالى بالعشرات، حتى ليخيل إلى الإنسان أنه لم يبق فى اللغة كتاب لعالم لغوى قبله إلا اطلع عليه، وقد تنبه ابن سيده فى هذا المعجم بوضوح إلى القرابة اللغوية بين بعض اللغات السامية وبين العربية، إذ يقول: «كنعان بن سام بن نوح، إليه ينسب الكنعانيون، وكانوا أمة يتكلمون بلغة تضارع (تشابه) العربية».[٢] وهو ما قرره علماء اللغات السامية حديثا من أن الكنعانية تعد إحدى اللغات السامية المتفرعة – مثل العربية – من أم واحدة. ونجد ابن حَزْم معاصره يتنبه بقوة إلى أن السريانية والعبرية والعربية بينها جميعا لحمة قرابة وثيقة كقرابة اللهجات فى لغة واحدة، يقول فى كتابه الإحكام فى أصول الأحكام: «إن الذى وقفنا عليه وعلمناه يقينا أن السريانية والعبرانية والعربية التى هى لغة مضر وربيعة – لا لغة حمير – هى لغة واحدة تبدلت بتبدل مساكن أهلها، فحدث فيها جرس كالذى يحدث من الأندلسى إذا رام نغمة أهل القيروان ومن القيروانى إزا رام نغمة الأندلسى.. وهكذا فى كثير من البلاد، فإنه بمجاورة أهل البلدة بأمة أخرى تتبدَّل لغتها تبدلا لا يخفى على من تأمله.. فمن تدبر العربية والعبرانية والسريانية أيقن أن اختلافها إنما هو من نحو ما ذكرنا من تبديل ألفاظ الناس على طول الأزمان واختلاف البلدان ومجاورة الأمم وأنها لغة واحدة فى الأصل[٣]». وواضح أن ابن حزم يرى أن العربية والعبرانية والسريانية كانت جميعا لغة واحدة، وبتفرق أهلها وهجرتهم من الجزيرة شمالا وغربا أخذت تحدث عند كل قوم تغيرات أعدت لحدوث لغاتهم، وهو نفس ما يقرره علماء اللغات السامية حديثا، وكأن ابن حزم وابن سيده وأمثالهما من الأندلسيين هم الذين نبهوا الأوربيين – بذلك – إلى علم فقه اللغات السامية وما يطوى فيه من مناهج لغوية علمية مقارنة. وبذلك كانوا المكتشفين لفقه

---

(١) راجع فى ابن سيده الحميدى وبغية الملتمس رقم ٢٠٥ والمطمح ٦٠ والصلة ص ٤١٠ ومعجم الأدباء ٢٣١/١٢ وابن خلكان ٣٣٠/٣ والإنباه ٢٢٥/٢ ونكت الهميان ٢٠٤ وشذرات الذهب ٣٠٥/٣ والديباج المذهب ٢٠٤ والمغرب ٢٥٩/٢.

(٢) انظر المخصَّص لابن سيده ١٦٧/١٣.

(٣) راجع الإحكام فى أصول الأحكام لابن حزم (طبع القاهرة) ٣٠/١.

اللغات المقارن بين اللغات السامية التى ترجع إلى أم أو لغة واحدة. وقد مضى الأوربيون يطبقونه على مجموعات اللغات اللاتينية والسكسونية وغيرها من الأسر اللغوية، شأنهم فى ذلك نفس شأنهم الذى مر بنا فى قيام علومهم وفلسفاتهم الحديثة على أساس الفلسفات والعلوم الأندلسية. وكان يعاصر العلمين الأندلسيين السابقين: ابن حزم وابن سيده الأعلم الشنتمرى[١] يوسف بن سليمان المتوفى سنة ٤٧٦ شارح الدواوين الستة لأعلام الشعر الجاهلى: امرىء القيس والنابغة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة بن عبدة، وهو يحتفظ فى شرحه لتلك الدواوين برواية الأصمعى، وبعد أن ينتهى منها فى كل شاعر يضيف إليها بعض الزيادات من روايات أخرى. وعلى هداه كتب أبو بكر عاصم[٢] بن أيوب البطليوسى المتوفى سنة ٤٩٤ شرحا لنفس الشعراء الستة المذكورين، وكان يعاصره أبو عبيد البكرى المذكور بين الجغرافيين، وله كتاب اللآلى فى شرح أمالى القالى نشره عبد العزيز اليمنى بالقاهرة، وكتاب فصل المقال فى شرح كتاب الأمثال لأبى عبيد القاسم بن سلام نشره إحسان عباس وعبد المجيد عابدين بالخرطوم. ومن لغويى الأندلس المهمين ابن السيد[٣] البطليوسى عبد الله بن محمد المتوفى سنة ٥٢١ وله الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب لابن قتيبة وشرح سقط الزند لأبى العلاء وهو منشور مع مجموعة شروح السقط طبع دار الكتب المصرية وأيضا شرح على مختارات من لزوم ما لا يلزم لأبى العلاء نشره بالقاهرة الدكتور حامد عبد المجيد، وكان يعاصره الأشتركونى أبو الطاهر محمد بن يوسف المتوفى سنة ٥٣٨ وله كتاب المسلسل فى الألفاظ العربية وهو منشور بالقاهرة، ويلقانا فى أوائل القرن السابع الشريشى أحمد بن عبد المؤمن المتوفى سنة ٦١٩ وشرحُه لمقامات الحريرى منشور بمصر.

ونشاط الأندلس فى النحو لا يقل عن نشاطها فى اللغة إن لم يتفوق عليه إذ كان المؤدبون فى القرنين الثانى والثالث للهجرة كما يعلمون الناشئة اللغة كانوا يعلمونها العربية أو النحو، ومرَّ بنا أن جوديا المتوفى سنة ١٩٨ أدخل إلى الأندلس كتاب الكسائى، وله تأليف فى النحو، ويُرْوَى أن للفقيه عبد الملك بن حبيب السلمى المتوفى سنة ٢٣٨ كتابا فى إعراب القرآن، ونلتقى فى أواخر القرن الثالث الهجرى بالأقشتين[٤]

(١) انظر فى الشنتمرى الصلة رقم ١٣٩١ والمطمح ٦٤ وابن خلكان ٨١/٧ ومعجم الأدباء ٦٠/٢٠ ونكت الهميان ٣١٣ وكتابنا المدارس النحوية ص ٢٩٣.

(٢) راجع فى عاصم الصلة رقم ٩٦٦.

(٣) انظر مصادره فى ص ٨٤ وكتابنا المدارس النحوية (طبع دار المعارف) ص ٢٩٤.

(٤) انظر فى الأقشتين الزبيدى ص ٣٠٥ وابن الفرضى ٣٢٩/١ والإنباه ٢١٦/٣.

محمد بن موسى المتوفى سنة ٣٠٧ وله رحلة إلى المشرق أخذ فيها بالفسطاط عن أبي جعفر الدينوري كتاب سيبويه، وكان يدرس في قرطبة لطلابه. ونلتقي بعده بمحمد[١] بن يحيى الرباحي المتوفى سنة ٣٥٨ تلميذ أبي جعفر النحاس بالفسطاط، وعليه درس كتاب سيبويه، وحذق مسائله ومشاكله وعاد إلى قرطبة يدرسه لطلابه، وهو يفتتح في الأندلس دراسة كتاب سيبويه والنحو دراسة تستوفي دقائق العربية وغوامضها والتعليل لمسائلها كما يقول الزبيدي، وهو أستاذه في النحو وعليه درسه وتمثله وألف فيه كتابه الواضح الذي نشره بالأردن الدكتور عبد الكريم خليفة. وكان ابن الإفليلي المار ذكره بين اللغويين يقرئ تلاميذه – مع ما يهتم به من شرح الشعر – كتاب سيبويه رواية عن العاصمي عن الرباحي. ولابن سيده الذي تحدثنا عنه آنفا بين اللغويين شرح مشكل أبيات المتنبي، وينوه في مقدمة معجميه: المخصص والمحكم بأنه أودع فيهما مواد نحوية كثيرة من كتابات النحاة، ويذكر من بينهم خاصة أبا علي الفارسي وابن جني، مما يدل على أن نحاة الأندلس أخذوا يتعمقون – بجانب تعمقهم في نحو المدرستين البصرية والكوفية – في نحو المدرسة البغدادية وينهجون نهجها من المزج بين آراء المدارس النحوية المختلفة. ومن النحاة الشنتمري الذي عرضنا له بين اللغويين ويقول ابن مضاء إنه كان شغوفا بعلل النحو المعقدة، وقد روى كتاب سيبويه عن ابن الإفليلي وأقرأه لطلابه مذللا لهم صعابه ومشاكله، وتوفر الأندلسيون – بفضل نسخة الرباحي من كتاب سيبويه التي ذكرناها آنفا – على الكتاب يدرسونه ويفسرون غوامضه واشتهروا بذلك شهرة جعلت الزمخشري يرحل في شبابه من خوارزم إلى مكة لقراءة الكتاب على نحوي أندلسي كان مجاورا بها هو عبدالله[٢] بن طلحة المتوفى سنة ٥١٨. ونلتقي بابن السيد البطليوسي المار ذكره بين اللغويين، وكان يعنى بشرح كتاب الجمل للزجاجي، وله كتاب في النحو سماه المسائل والأجوبة، وهو في آرائه النحوية بغدادي الاتجاه، يختارها أحيانا من المدارس النحوية السابقة وأحيانا ينفذ إلى آراء جديدة، ومثله في ذلك معاصره ابن[٣] الباذش

---

(١) راجع في الرباحي الزبيدي ص ٣٣٥ وابن الفرضي ٣١٤/١ والإنباه ٢٢٩/٣ وابن خلكان ٣٧٢/٤.

(٢) انظر في ابن طلحة تفسير البحر المحيط لأبي حيان ٣٧٢/٤ وبغية الوعاة للسيوطي ص ٢٨٤ وانظر التكملة رقم ١٣٣٠ والعقد الثمين في تاريخ البلد الأمين للفاسي (طبع القاهرة ١٨٢/٥).

(٣) راجع في ابن الباذش بغية الملتمس ص ٤٠٦ والإنباه ٢٢٧/٢ وطبقات القراء لابن الجزري ٥١٨/١ والديباج المذهب ١٠٧/٢ وكتابنا المدارس النحوية ص ٢٩٥ والإحاطة ١٠٠/٤.

على بن أحمد المتوفى سنة ٥٢٨ وله شروح على كتاب سيبويه والمقتضب للمبرد والأصول لابن السراج والإيضاح لأبي على الفارسي، وعلى شاكلته وشاكلة صاحبه ابنُ الطراوة[١] سليمان بن محمد معاصرهما المتوفى سنة ٥٢٨.

ويسود هذا الاتجاه فى النحو الأندلسى من انتخاب أفذاد النحاة لآرائهم من آراء نحاة المدارس المختلفة مع النفوذ إلى بعض الآراء المبتكرة على نحو ما نرى عند السهيلى[٢] عبد الرحمن بن عبد الله المتوفى سنة ٥٨١ فى كتابه «نتائج الفكر» وكان يشغف بمحاولة الإكثار من العلل النحوية كما يقول ابن مضاء، وعلى شاكلته عيسى[٣] الجزولى المتوفى سنة ٦٠٧ وله مقدمة فى النحو وحواش على كتاب الجمل للزجاجى، ومثله ابن خروف[٤] على بن يوسف المتوفى سنة ٦١٠ ويشتهر بشرح له على سيبويه وشرح ثان على كتاب الجمل للزجاجى، وحرى بنا أن نذكر ابن مضاء أحمد[٥] بن عبد الرحمن القرطبى قاضى قضاة دولة الموحدين المتوفى سنة ٥٩٢ وهو صاحب كتاب الرد على النحاة الذى نشرتُه مع تحليل لآرائه التى هاجم فيها نظرية العامل عند النحاة وما انطوى فيها من تعليلات وتقديرات، ومع محاولة لوضع أسس فى تيسير النحو وتبسيطه للناشئة على هدى آرائه. ومن أهم نحاة القرن السابع الأندلسيين الشلوبين[٦] عمر بن محمد المتوفى سنة ٦٤٥ وله شرح على مقدمة الجزولى المسماة بالجزولية وكتاب فى النحو سماه التوطئة، وكان يعاصره ابن عصفور[٧] على بن مؤمن المتوفَّى سنة ٦٦٣ حامل لواء العربية فى زمنه بالأندلس، وله الممتع فى التصريف والمقرب فى النحو وهما منشوران،

---

(١) انظر فى ابن الطراوة بغية الملتمس ص ٢٩٠ والتكملة لابن الأبار ص ٧٠٤ والمغرب ٢/٢٠٨ وكتابنا المدارس النحوية ص ٢٩٦.

(٢) راجع فى السهيلى بغية الملتمس ص ٣٥٤ والإنباه ٢/١٦٢ وطبقات القراء ١/٣٧١ وابن خلكان ص ١٤٣ والمدارس النحوية ص ٢٩٩.

(٣) انظر فى الجزولى الإنباه ٢/٣٧٨ وابن خلكان ٣/٤٨٨ والمدارس النحوية ص ٣٠٠.

(٤) راجع فى ابن خروف التكملة ص ٦٧٦ ومعجم الأدباء ١٥/٧٥ وابن خلكان ٣/٣٣٥ والذيل والتكملة للمراكشى ٥/٣١٩ والفوات ٢/١٦٠ وصلة الصلة (طبع الرباط) ١٢٢ وكتابنا المدارس النحوية ص ٣٠١.

(٥) انظر فى ابن مضاء بقية التكملة رقم ٢٣٤ وبغية الملتمس ص ١٩٢ والديباج المذهب لابن فرحون ١/٢٠٨ والمدخل لتحقيقنا كتابه الرد على النحاة.

(٦) راجع فى الشلوبين التكملة ص ٦٥٨ والمغرب ٢/١٢٩ والإنباه ٢/٣٣٢ وابن فرحون فى الديباج ٢/٧٨ وابن خلكان ٣/٤٥١ وكتابنا المدارس النحوية ص ٣٠٢.

(٧) انظر فى ابن عصفور بغية الوعاة للسيوطى ص ٣٥٧ وعرضنا لآرائه فى كتاب المدارس النحوية ص ٣٠٦

وكانت له ثلاثة شروح على كتاب الجمل للزجاجي. ونلتقى بعده بابن[١] مالك محمد بن عبد الله إمام النحاة المتوفى بدمشق سنة ٦٧٢ وهو صاحب الألفية المشهورة فى النحو وله مصنفات نحوية كثيرة منها التسهيل وشرحه وشرح الكافية لابن الحاجب المصرى وشرح الجزولية وإعراب مشكل صحيح البخارى سوى مصنفات أخرى فى النحو تبلغ نحو الثلاثين، وكان يعاصره ابن الضائع[٢] على بن محمد المتوفى سنة ٦٨٠ وله شروح مختلفة على كتاب سيبويه والإيضاح لأبى على الفارسى والجمل للزجاجى، وخاتمة أئمة النحو فى الأندلس أبو حيان[٣] محمد بن يوسف تلميذ ابن الضائع المتوفى بالقاهرة سنة ٧٤٥ وعلى يديه تخرج جيل من النحاة المصريين وله شروح على كتاب سيبويه وكتابى ابن عصفورٍ: المقرب والممتع وألفية ابن مالك وكتابه التسهيل، وله أيضا فى النحو كتاب ارتشاف الضَرَب أى عسل النحل فى ستة مجلدات، وصنع له مختصرًا فى مجلدين، ويقول السيوطى فى البغية: «لم يؤلف فى العربية أعظم من هذين الكتابين ولا أجمع ولا أحصى للخلاف بين النحاة».

وبجانب علوم النحو واللغة عُنيت الأندلس بالبلاغة العربية، وظلت حتى نهاية القرن الرابع الهجرى تعتمد فى ذلك على رواية النصوص الأدبية للناشئة والتعرف على كتابات المشارقة فى البيان العربى، واستطاع المؤدبون فى أثناء ذلك أن يدفعوا الناشئة للإكباب على الأدب الجاهلى والإسلامى والعباسى بفرعيه من الشعر والنثر حتى استقامت لهم ألسنتهم وحتى تمثّل كثيرون خصائص البيان العربى، وأصبحوا شعراء وكتابا نابهين. ويبدو - بوضوح - أنهم ظلوا يكتفون بكتابات الجاحظ والمبرد وابن قتيبة وابن المعتز وأضرابهم من أصحاب الاتجاه العربى فى البلاغة وبذلك ظلوا - آمادا - بعيدين عن مناحى الاتجاه البلاغى المجدد الغالى فى التجديد[٤] والذى كان يتخذ من البلاغة اليونانية - كما يمثلها كتابا الخطابة والشعر لأرسطو - معايير للبلاغة العربية.

---

(١) راجع فى ابن مالك طبقات الشافعية لسبكى ٢٨/٥، ٢٥٧ وفوات الوفيات ٢٢٧/٢ وطبقات القراء لابن الجزرى ١٨٠/٢ والنجوم الزاهرة ٢٤٣/٧ وبغية الوعاة ص ٥٣ وشذرات الذهب ٣٣٩/٥ وفى كتابنا المدارس النحوية ص ٣٠٩ وما بعدها عرض لآرائه النحوية.

(٢) انظر فى ابن الضائع الإحاطة ١٢٠/٤ وبغية الوعاة ص ٣٥٤ والمدارس النحوية ص ٣١٨.

(٣) راجع فى أبى حيان طبقات الشافعية للسبكى ٣١/٩ وطبقات القراء ٢٨٥/٢ والإحاطة ٤٣/٣ والدرر الكامنة لابن حجر ٣٠٢/٤ وفوات الوفيات ٣٥٢/٢ ونكت الهميان ص ٢٨٢ وبغية الوعاة ص ١٢١ والشذرات ١٤٥/٦ والمدارس النحوية ص ٣٢٠ وما بعدها.

(٤) انظر فى هذا الاتجاه وسابقه كتابنا البلاغة : تطور وتاريخ طبع دار المعارف ص ٦٢ - ٦٦.

ويلقانا فى مطالع القرن الخامس الهجرى كتابان عن التشبيه أحدهما سقط من يد الزمن واسمه «الفوائد فى التشبيه من الأشعار الأندلسية» لعلى[١] بن محمد بن أبى الحسين المتوفى قريبا من سنة ٤٣٠ ويدل اسمه على أنه كان مختارات من التشبيهات لشعراء الأندلس، والثانى على شاكلته، واسمه «كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس» لابن الكتانى[٢] أبى عبد الله محمد المتطبب المتوفى سنة ٤٢٠ وكان من أهل المنطق والفلسفة، ومع ذلك لم يعن بدراسة تلك التشبيهات دراسة علمية على نحو ما صنع ابن طباطبا المشرقى المتوفى سنة ٣٣٢ فى كتاب «عيار[٣] الشعر» وتقسيمه للتشبيه فيه من حيث المادى الحسى والمعنوى الذهنى ومن حيث الصورة واللون والهيئة والتركيب، إنما عُنى بعرض أبيات مختارة للشعراء الأندلسيين حتى زمنه، وهى موزعة على أكثر من ستين بابا، استهلها بأبواب فى وصف الطبيعة من سماء ونجوم وكواكب ورياح وأمطار ورياض، وأتبع تلك الأبواب بأبواب فى وصف الخمر والغناء والمغنين وآلاتهم فأبواب للجمال الإنسانى والحب ومشاعره، ثم أبواب تتضمن صور الصراع بين الإنسان والطبيعة من مثل قطع المفاوز والبحار وصيد الحيوان وكذلك الصراع بين الإنسان والإنسان فى الحرب وما يتصل به من آلات الحضارة ومن الأخلاق الفردية والاجتماعية مع العبرة بالشيخوخة والفناء. وتُعْرضُ فى كل ذلك التشبيهات الطريفة فى رأى ابن الكتانى لشعراء الأندلس. وعلى شاكلة هذا الكتاب كتاب البديع فى وصف الربيع لأبى الوليد إسماعيل بن حبيب الحميرى الملقب بحبيب[٤] المتوفى بعد ابن الكتانى بنحو عشرين عاما قريبا من سنة ٤٤٠ للهجرة، وكلمة البديع فى العنوان لا تعنى البديع بمعناه البلاغى الاصطلاحى، وإنما تعنى المستطرف المستحسن من الشعر والنثر للأندلسيين من أهل عصره مما يتصل بالربيع ويتفوق به الأندلسيون على أهل المشرق، كما يقول فى مقدمة الكتاب «لما لهم فيه من الاختراع الفائق والابتداع الرائق وحسن التمثيل والتشبيه ما لا يقوم أهل المشرق مقامهم فيه». وحقا للأندلسيين أشعار بديعة فى وصف الربيع والطبيعة، أما أنهم يتفوقون

---

(١) راجع فى ابن أبى الحسين واسم كتابه الحميدى ٢٩٠ والصلة رقم ٨٨٠ وبغية الملتمس رقم ١١٩٣ والحلة السيراء طبعة حسين مؤنس بالقاهرة ٢٢٤/١.

(٢) انظر فى ابن الكتانى طبقات الأمم لصاعد ص ١٢٥ وابن جلجل ص ١٠٩ وابن أبى أصيبعة ص ٤٩١ ومقدمة الدكتور إحسان عباس لتحقيقه لكتابه (طبع دار الثقافة ببيروت).

(٣) انظر تحليلنا لهذا الكتاب وحديثنا عن التشبيه فى كتاب البلاغة: تطور وتاريخ ص ١٢٣.

(٤) انظر فى حبيب ومصادره وترجمته الفصل الخامس. وكتابه البديع نشر فى الرباط بتحقيق هنرى بيريس وفى السعودية بتحقيق د. عبد الله عسيلان.

فيها على المشارقة فقول يحتاج إلى نظر، ويكفى المشارقة أن يكون من بينهم ابن الرومى أكبر مبدع فى وصف الطبيعة والربيع. ويورد الحميرى فى كتابه مختاراته الشعرية والنثرية فى ثلاثة أبواب: باب جعله فى وصف الربيع ورياحينه وباب ثان فى وصف أزهاره، وباب ثالث فى وصف كل زهرة منفردة على حدة، ويشفع ذكره لبعض القطع بمثل قوله مقدما لها: «ومن غريب الرصف فى عجيب الوصف» وقوله: «ومن جيد التشبيه وحسن التمثيل» وقوله: «ومن السحر المنتحل والكلام المنتخل». وتلى مثل هذه التعبيرات المقطوعات الشعرية. والكتاب بذلك - مثل سابقه - كتاب مختارات من النثر والشعر الأندلسيين وليس كتاب بلاغة. وكأن الأندلس حتى عصر أمراء الطوائف لم تكن تعنى بالكتابة فى البلاغة، إنما كانت تعنى بعرض المختارات الشعرية، وقد أكبَّت كما مر بنا على دواوين الجاهليين والإسلاميين والعباسيين وأخذت فى أواخر العصر تعنى بمختارات للأندلسيين أنفسهم، مكتفية بما نُقل إليها من كتابات المشارقة فى البلاغة، وكان مما نقل إليهم كتاب العمدة فى صناعة الشعر ونقده لابن رشيق القيروانى سنة ٤٦٣ وفيه دراسة مفصلة عن فنون البديع ومحسناته وهى تضم عنده الصور البيانية من تشبيه واستعارة ومجاز وكناية، ويبدو أنهم عكفوا عليه بالدرس، يدل على ذلك من بعض الوجوه أن نجد محمد[١] بن عبد الملك الشنترينى المتوفى سنة ٥٤٥ للهجرة يصنع تلخيصا له مع بيان أغلاط فيه.

وربما كان أول كتاب للأندلسيين عنى بمباحث أساليب الكتابة البلاغية وفصَّل القول فيها كتاب إحكام صنعة الكلام للكلاعى[٢] أبى القاسم محمد بن عبد الغفور المتوفى حوالى منتصف القرن السادس الهجرى، وقد جعل كتابه فى مقدمة تحدث فى فصولها عن صور من محاكاته لأبى العلاء ومضى يعلى النثر على الشعر ثم أفاض القول فى بابين: باب خصه بالكتابة وآدابها، وباب خصه بضروب الكلام قدم له بحديث مفصل عن الإيجاز والإطناب والمساواة، وهو باب كبير من أبواب علم المعانى، ومن الطريف أنه نفذ إلى مصطلح المساواة المتوسطة بين الإيجاز والإطناب على نحو ما شاع ذلك بعده عند المشارقة منذ بدر[٣] الدين بن مالك المتوفى سنة ٦٨٦ كما نفذ إلى تقسيم الإيجاز إلى إيجاز قصر وإيجاز حذف، ويبدو أنه رأى أن يعدل عن الحديث فى الصور البيانية والمحسنات البديعية لأنها

---

(١) راجع التكملة ص ١٩١ رقم ٦٦٠.

(٢) انظر فى الكلاعى المطمح ص ٢٩ وابن الأبار فى التكملة ص ١٨٧ والمغرب ٢٤٢/١ ومقدمة كتابه إحكام صنعة الكلام طبع بيروت بتحقيق محمد رضوان الداية.

(٣) انظر كتابنا البلاغة تطور وتاريخ ص ٣١٥.

قُتلت بحثا عند المشارقة وأيضا عند ابن رشيق، فأفرد فصولا لأنواع الأسلوب فى الكتابة وهى عنده سبعة: الأسلوب العاطل وهو الخالى من الأسجاع، والحالى وهو المحلى بالسجع والصور البيانية، والمصنوع وهو المسجوع الموشح بمحسنات البديع، والمرصع وهو ما حُلِّى بالأخبار والأمثال والأشعار والآيات القرآنية والأحاديث النبوية، والمغصَّن وهو ما تتضمن فيه السجعتان المتقابلتان سجعات داخلية تتقابل فى كل سجعة طويلة مع قرينتها فى السجعة الطويلة التالية، وكأنما أصبح للسجعتين الأساسيتين فى الأسلوب أغصان وفروع مثل: «ومن السلام سلام وإن لاح جوهرا، ومن الكلام كلام وان فاح عنبرا» والمفصَّل وهو ما تعقب فيه الأبيات الشعرية الجمل النثرية على شاكلة كتاب ملقى السبيل لأبى العلاء ولبديع الزمان الهمذانى رسالة مشهورة من هذا النوع، والأسلوب السابع المبتدع وهو ما تقرأ فيه سطور الكلمات والكلمات نفسها من جهتين أو أكثر، وهى صورة من التعقيد ليس فيها فن ولا جمال. وبعد فراغه من كل ذلك يتحدث عن فنون الكتابة من التوقيعات والخطب والحكم والأمثال والمقامات والحكايات والتوثيقات والمؤلفات، وهى أول مرة يتحدث فيها ناقد بإفاضة عن فنون النثر المختلفة.

وكان يعاصره المواعينى محمد[1] بن إبراهيم بن خيرة المتوفى سنة ٥٦٤ وله كتاب ريحان الألباب وريعان الشباب، جمع فيه ما يحتاج اليه الشاعر والكاتب من فنون وجعلها فى سبعة مراتب وتهمنا فى حديثنا عن مباحث البلاغة بالأندلس المرتبة الرابعة من هذه المراتب إذ جعلها للفصاحة والبلاغة وإنشاء الصناعة، وفيها أسهب فى بيان شروط الفصاحة مستمدا من كتابات المشارقة فيها وخاصة ابن سنان الخفاجى فى كتابه «سر الفصاحة» واستمد منه ومن الجاحظ فى حديثه عن عيوب الكلام من المعاظلة وغيرها، ويتحدث عن أنواع البديع متأثرا فيها بقدامة فى كتابه نقد الشعر والحاتمى فى كتابيه: حلية المحاضرة وسر الصناعة.

ونمضى فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى فنرى البلاغة تلتحم فى الأندلس بالفلسفة عند ابن رشد إذ يتصدَّى لكتابى الخطابة والشعر لأرسطو، فيلخصهما ويشرحهما بفكره العبقرى الناصع، وكان ابن سينا قد وضع لكتاب الخطابة تلخيصا، وتحول ابن رشد بهذا التلخيص إلى شرح موسع للكتاب ونصوصه موردًا لكل مبدأ بلاغى فيه أمثلة من الشعر العربى على نحو ما يتضح فى قسمه الثالث الخاص بالعبارة

(١) راجع فى المواعينى ابن الأبار فى التكملة رقم ٧٦٣ ص ٢٣٣ والمغرب ٢٤٧/١.

وهو فيه يفصل الحديث فى أبواب علم البيان المعروفة: التشبيه والاستعارة والكناية، أما التشبيه[١] فيتحدث فيه عن أدواته وأن لكل أمة تشبيهاتها المستمدة من بيئتها، ويحذر من التشبيهات النابية ملاحظا أن التشبيه ينبغى أن ينعقد بين أشياء متجانسة، ويلم بالتشبيهات التمثيلية المركبة، ويتحدث عن الاستعارة ويلاحظ - متأثرا بأرسطو - أن الاستعارة المكنية لا تقوم - مثل التصريحية - على التشبيه، ويعرض صورا مختلفة من الكناية. ويلاحظ أن الصور البيانية تتفاوت حسنا وقبحا كقول القائل فى وصف امرأة مخضوبة اليد بالحناء إنها وردية اليد وقول آخر إنها دموية اليد، فشتان - فى رأيه - بين الوصفين، ويلاحظ أيضا تفاوت البيان فى التعبيرات الحقيقية، وأن صور البيان البارعة تعرض مشاهد تامة، بل حية نابضة. وكل ذلك لم يفد منه البلاغيون بعد ابن رشد، ويتحدث عن الايجاز والإطناب والطباق والمقابلة وعن المبالغة ويقول إنها تقبل فى الشعر ولا تقبل فى النثر خطابة ورسائل، ومثلها الألفاظ الغريبة. وكان ابن سينا قد صنع قبل ابن رشد تلخيصا لكتاب الشعر، فعمد ابن رشد إلى إعادة تلخيصه وشرحه، بحيث أصبح عمله فى هذا الكتاب أشبه بتعريب له، ووقف فيه عند التشبيه وأنه قد يكون تشبيه محسوس بمحسوس أو تشبيه معنوى بمحسوس ملاحظا أنه ينبغى أن لايكون بالأشياء الخسيسة، ويعرض أمثلة للاستعارة المكنية عند أبى تمام، ويهاجمها متأثرا بالآمدى فى كتابه الموازنة بين الطائيين أبى تمام والبحترى. ويعود إلى فكرة الصورة أو الصور المتكاملة فى بيتين أو ثلاث مما يصور مشاهد حية حافلة بالحركة والحياة، وعرض للكناية وللجناس التام والناقص وللطباق ولمراعاة النظير، وهاجم المبالغة فى الشعر التى تخرج إلى حد الاستحالة، بخلاف المبالغة المحمودة التى تعتمد على أصل من الواقع والحقيقة. ولم ينتفع البلاغيون بعده بملاحظاته الدقيقة.

ويجىء بعد ابن رشد بنحو قرن أبو البقاء[٢] صالح بن شريف الرندى المتوفى سنة ٦٨٤ للهجرة، وله كتاب مخطوط فى المكتبة التيمورية، يسمى: «الوافى فى نظم القوافى» وهو فى أربعة أجزاء أولها فى فضل الشعر، والشعراء وطبقاتهم، وعمل الشعر وأغراضه

(١) انظر فى آراء ابن رشد البلاغية مقالنا: البلاغة عند ابن رشد فى الجزء الثانى والأربعين من مجلة مجمع اللغة العربية ص ١٥. وراجع فى الحركة النقدية وأعلامها التالين بالأندلس كتاب تاريخ النقد الأدبى عند العرب للدكتور إحسان عباس ص ٤٧٠ وما بعدها.

(٢) انظر فى مصادر أبى البقاء الرندى ترجمته فى الفصل الرابع ص ٣٨٨ وانظر تحليل كتابه: الوافى فى كتاب تاريخ النقد الأدبى فى الأندلس للدكتور محمد رضوان الداية (طبع بيروت) ص ٤٣٣ وما بعدها وقد لاحظ تأثره الشديد بابن رشيق فى كتابه العمدة وراجع د. إحسان عباس ص ٥٣٨.

وآدابه، وهو يتأثر فيه بابن رشيق فى كتابه العمدة، والجزء الثانى فى محاسن الشعر وبديعه ومعانيه، والثالث فى سرقات الشعراء، والرابع فى حد الشعر والعروض. والجزء الثانى فى الكتاب يلتقى فى وضوح بمباحث البلاغة المعروفة عند المشارقة، إذ يتناول فيه الصور البيانية من تشبيه واستعارة وغيرهما، كما يتناول المحسنات البديعية، وقد أضاف اليها نحو ثلاثين محسنا. ومن أهم ما تحدث عنه من المحسنات الطباق والمقابلة والتجنيس والتصدير والتضمين والتتميم والتسهيم والترصيع والمبالغة، وفى كل ذلك يتأثر بابن رشيق وكتابه العمدة. وقلما نلتقى بعد الرندى فى الأندلس بكتب مستقلة فى علوم البلاغة، وكأنها ارتضت أن تعيش فيها على ما يكتبه المشارقة.

وأخذت الكتابات النقدية تنشط فى الأندلس منذ القرن الخامس الهجرى على نحو ما يتضح فى رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد المتوفى بقرطبة سنة ٤٢٦ للهجرة وسنفصل القول فى هذه الرسالة[١] فى الفصل الأخير وبها كثير من الآراء النقدية، ونحن نسوقها مرتبة بترتيب ابن بسام لها، فمن ذلك ذهابه إلى أن اللغويين والنحاة القائمين على تعليم الناشئة البيان لا يصلحون للقيام على هذا التعليم ويهاجم فى رسالته شيخهم ابن الإفليلى، لأنهم يفقدون فى رأيه الملكة الأدبية أو كما يقول الطبع والذوق الأدبى، وينوه بروعة الكلام وجمال نسقه قائلاً: «إن للحروف أنسابا وقرابات تبدو فى الكلمات فإذا جاور النسيبُ النسيبَ ومازج القريب القريب طابت الألفة وحسنت الصحبة». ويلاحظ على أبى تمام كثرة الجناسات ويرى من الخير للشاعر أن لا يغرق فيها، بل ينحو منحى الاعتدال، ويشيد بالطبع وحسن البديهة والجمع بين المعانى الخفية الدقيقة والأساليب الناصعة البيِّنة. ويعرض لسرقات الشعراء للمعانى بعضهم من بعض، وينصح الشاعر إذا أخذ معنى سبقه إليه غيره أن يحسن صياغته، ونحس دائما عنده رهافة الذوق الأدبى ودقة الإحساس بالجمال الفنى. ويعرض ابن حزم بعده لمراتب البلاغة، وينوه بالبلاغة المكونة من الألفاظ المألوفة عند عامة المثقفين كبلاغة الجاحظ كما ينوه بالبراعة فى الشعر ويقصد بها إيراد المعانى الدقيقة البعيدة ويقول إن الشعر مبنى على الإغراق والمبالغة.

ونمضى إلى القرن السادس الهجرى ونلتقى بابن خفاجة ومقدمته لديوانه، وفيها يُنَوِّه

---

(١) انظر فى الرسالة وآراء ابن شهيد ترجمته فى الذخيرة لابن بسام (تحقيق د. إحسان عباس) ١٩١/١ وراجع كتابه تاريخ النقد الأدبى عند العرب ص ٤٧٥.

بالتخييل فى الشعر ويعيب على نقاد عصره تمسكهم بالجزالة حتى فى الغزل مع أن الرقة مستحسنة فيه على نحو ما يلاحظ فى شعر عبد المحسن الصورى والشريف الرضى ومهيار. وكان يعاصره الأشتركونى الذى مر ذكره بين اللغويين وله مقامات سنعرض لها فى غير هذا الموضع ونراه فى مقامتين من مقاماته يصدر أحكاما سريعة على أعلام الشعر المشرقى حتى زمن مهيار، وهى أحكام منثورة فى كتب النقد عند المشارقة وليس فيها نظرات جديدة. ويلقانا ابن بسام بكتابه الضخم: «الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة» من الشعراء والكتاب، وصفحات مجلداته الثمانية تكتظ تراجم الشعراء فيها ببيان كثرة ما أخذوا من المعانى المبثوثة فى أشعار المشارقة، وبذلك يفتح دراسة واسعة لتحويرات شعراء الأندلس لمعانى الشعر المشرقى وصوره وأخيلته، ونراه يحمل[١] على من يضمن شعره بعض ألفاظ فلسفية مثل المتنبى أو بعض معان إلحادية مما نسب إلى أبى العلاء، كما يحمل على الاستعارات البعيدة مما يؤكد نزعته المحافظة. ويلقانا عند الكلاعى الذى تحدثنا عنه بين البلاغيين كتاب له باسم الانتصار لأبى الطيب غير أنه مفقود. ويخرج المواعينى فى كتابه ريحان الألباب شعر المواعظ والحكم من الشعر بمعناه الدقيق.

وكل ما قدمنا من نشاط نقدى كان يرتكز على نقد المشارقة، وقلما التحم منه شىء بالنقد المشوب بالفلسفة اليونانية وما نقل عن اليونان فى كتابى الشعر والخطابة لأرسطو، وكأنما احتفظ النقد الأندلسى بذلك لناقد متأخر هو حازم[٢] القرطاجنى المتوفى بتونس سنة ٦٨٤ وسنترجم له بين أصحاب الشعر التعليمى وهو فى النقد الأندلسى يقابل ابن رشد فى البلاغة الأندلسية الذى سبقه بنحو قرن، وقد وُلد حازم - ونشأ - بقرطاجنة شرقى الأندلس، وهاجر منها - حين سقطت فى حجر الروم - إلى المغرب وعاش فى ظل الدولة الحفصية. وله فى النقد كتاب يسمى «منهاج البلغاء وسراج الأدباء»، سقط منه قسمه الأول وكان يتناول - كما ذكر محققه - القول وأجزاءه والأداء وطرقه وأثر الكلام فى السامعين، وسلمتْ منه ثلاثة أقسام تتناول صناعة الشعر وطريقة نظمه وتتعمق فى بحث المعانى والمبانى والأسلوب، وكل قسم من هذه الأقسام الثلاثة موزع على أربعة أبواب، ويسمى حازم كلا منها باسم منهج وكل باب أو منهج يتألف من فصول اختار لكل منها

---

(١) الذخيرة ٤٧٩/٢ وما بعدها تحقيق د. إحسان عباس ص٥٠٣ وما بعدها.

(٢) انظر فى كتابه منهاج البلغاء ومصادره وآرائه النقدية مقدمة محققه الدكتور محمد الحبيب بن الخوجة، وانظر تاريخ النقد الأدبى عند العرب للدكتور إحسان ص ٥٣٩.

اسم مَعْلم أو معرف، ويُعْنَى المعلم بالتفريعات المنطقية غالبا بينما يعنى المعرف بالدلالات النفسية، وكل فصل يختم بملاحظات سماها مَأْمًا أى مقصدا، وكل فصل تتناثر فيه كلمات إضاءة وتنوير، والإضاءة بسط لفكرة فرعية، والتنوير بسط لفكرة جزئية. وقد حقق الدكتور محمد الحبيب بن الخوجة الأقسام الثلاثة الباقية من الكتاب تحقيقا علميا سديدا وقدم لها بمدخل علمى قيم تناول فيه مصادر حياة حازم وحياته ومصنفاته وتحليل كتابه ومميزاته ومنزلته بين كتب النقد العربية.

وحازم فى كتابه يمزج بين قواعد النقد والبلاغة عند العرب وقواعدهما عند اليونان، وقد ذكر من أصحاب البلاغة والنقد العربى الجاحظ صاحب البيان والتبيين أربع مرات، وذكر ابن سنان الخفاجى صاحب سر الصناعة مرارا وأكثر من ذكر قدامة صاحب نقد الشعر. وأما اليونان فعوَّل فيهم على أرسطو من خلال تلخيص ابن سينا لكتابه عن الشعر فى الفن التاسع من كتاب الشفاء وقد أشار إليه فى الكتاب أربع عشرة مرة كما أشار إلى تلخيص الفارابى للكتاب مرتين، ويصرح بأنه ذكر من تفاصيل صنعة الشعر ما جاء عند ابن سينا خاصة عنه. وهو فى أكثر كتابه يعد شارحا لما جاء عنده من أقاويل أرسطو، وقد سيطرت عليه فكرة أرسطو المشهورة: أن الشعر محاكاة لأعمال الناس، وغاب عنه أنه كان يتحدث عن الشعر اليونانى والمأساة فيه وأنها تمثل أعمالا وأفعالا للناس. وجعله ذلك يظن أن المحاكاة هى تشبيه الأشياء. ومع سيطرة هذه الفكرة فى الكتاب نفذ حازم إلى كثير من الآراء البصيرة الدقيقة عن الشعر. وهو فى القسم الثانى أول الأقسام المنشورة من كتابه يبحث فى الشعر وقيامه على التخييل فى المعانى والتصرف فيها وطرق اجتلابها وتأثيرها فى النفوس دافعا عن معانى الشعر ما لا يلائمها من المعانى العلمية مع بيان طريقة انتقاء الشعراء لمعانيهم ووجوه تأليفها وبيان ما ينبغى لكل عمل فنى من مهيآت وأدوات وبواعث، وألم بما رآه فى البلاغة والنقد العربيين من الحديث عن المطابقة والمقابلة والتقسيم والتفسير والتفريع، ويقول إنه لابد فى الشعر من إثارة الإغراب والتعجب، ونفى عن الشعر ما يقال بسبب المبالغة فيه من انطوائه على الكذب، ويقول إنه أكثر صدقا من الخطابة القائمة على إيقاع الظن إيقاع اليقين، وينبه على أهمية الاستعارة والتشبيه، وينوّه بآراء علماء البلاغة والنقد من العرب. وفى القسم التالى يبحث فى الملكة الشعرية ومقوماتها وفى أوزان الشعر واستخدامها وأعاريضها ويحاول أن يصور مدى تناسبها مع الأغراض الشعرية، ويقول إنه لابد فى القصيدة من ترابط أجزائها ويشيد بالمتنبى وصنيعه المحكم فى قصائده. وفى القسم الأخير قَسَّم الشعر

إلى جدى وهزلى وتحدث عن موضوعات الشعر العربى ونوه بالشريف الرضى ومهيار وابن خفاجة، كما تحدث عن الأساليب الشعرية ونوه بابن المعتز والبحترى والمتنبى وأبى تمام وابن الضحاك وأبى سعيد المخزومى ويقول إن وظيفة الناقد صعبة وإنه تصعب المفاضلة بين الشعراء إلا إذا كانوا ممتازين ولكل منهم امتيازه وتفرده الواضح. وحازم يختتم النشاط النقدى فى الأندلس، فلم يظهر فيها بعده ناقد كبير.

٤

علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

أخذ المؤدبون فى الأندلس يحفِّظون الناشئة سورا من القرآن الكريم منذ استقر المسلمون هناك، ومرَّ بنا أنه كان من أوائل هؤلاء المؤدبين الغازى بن قيس الذى كان يؤدب الناشئة قبل دخول عبدالرحمن الداخل إلى الأندلس سنة ١٣٨ للهجرة وذكرنا أنه رحل إلى المشرق طلبا للعلم وقد أخذ عن نافع مقرئ أهل المدينة وأحد القراء السبعة المشهورين قراءته، وهو أول من أدخلها - كما يقول الزبيدى - إلى الأندلس، وكان ابنه عبد الله يقرئ بها - بعده - الناشئة والناس، وكان يعاصر عبد الله بن الغازى أبو عبد الله محمد بن عبد الله مؤدب أبناء الحكم الربضى (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) ويقول الزبيدى إن له رحلة إلى المشرق أخذ فيها عن ورش عثمان بن سعيد القبطى الأصل المصرى تلميذ نافع قراءته، وأخذت تشيع هذه القراءة فى الأندلس كما أخذت تشيع فى المغرب عن طريق تلاميذ آخرين لورش، ولا تزال شائعة فيه إلى اليوم. ومن حين إلى آخر طوال العصر يلقانا من اشتهروا بهذه القراءة مثل عبد الله[١] بن محمد القضاعى الذى كان يقرئ الناس بقراءة ورش فى عهد الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) حتى توفى سنة ٣٧٨. وما نكاد نصل إلى نهاية القرن الرابع وأوائل الخامس حتى نجد نفرا من الأندلسيين يأخذون القراءات - وخاصة القراءات السبع - عن المشارقة ويحاولون التأليف فيها مقتدين بهم فى ذلك إذ نجد بقرطبة مؤلفا كبيرا فى القراءات هو أبو عمر[٢] الطلمنكى المولود سنة ٣٤٠ وقد رحل إلى المشرق فأخذ القراءات عن أئمتها فى الشام

(١) طبقات القراء ١/٤٥٦.

(٢) انظر فى الطلمنكى النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى ١/٧١ وكتابه طبقات القراء ١/١٢٠.

ومصر، وخاصة عن عبدالمنعم بن غلبون المتوفى سنة ٣٨٩ صاحب كتاب الإرشاد فى القراءات السبع وشيخ المقرئين بالقاهرة، وعاد إلى قرطبة يعنى بدراستها حتى توفى سنة ٤٢٩ وله فيها كتاب الروضة. وكان يقرئ الناس معه بقرطبة مكى[١] بن أبى طالب المعروف بحموش القيروانى منذ نزلها سنة ٣٩٣ إلى أن توفى سنة ٤٣٧ وهو تلميذ عبدالمنعم بن غلبون مثل الطلمنكى، وعدَّ له ابن خلكان فى القراءات واختلاف القراء تصانيف كثيرة منها كتاب التبصرة فى خمسة أجزاء، وكتاب فى أصول قراءة نافع وذكر الاختلاف عنه فى جزءين وكتاب فى تصحيح المدِّ لوَرْش فى ثلاثة أجزاء. ومن القراء المهمين حينئذ أبو عمرو عثمان بن سعيد الدانى[٢] المولود بقرطبة سنة ٣٧١ وقد رحل إلى مصر سنة ٣٩٧ وأخذ القراءات عن شيوخها وعاد إلى قرطبة يقرئ بها القرآن إلى سنة ٤٠٣ إذ تركها سبعة أعوام إلى سرقسطة فى الشمال وعاد إلى قرطبة وتركها سريعا إلى المرية ورحل عنها إلى جزيرة ميورقة فأقام بها ثمانية أعوام، ثم غادرها إلى دانية سنة ٤١٧ واتخذها سكنا ودار إقامة إلى أن توفى سنة ٤٤٤ للهجرة، وهو أحد الأئمة فى قراءات القرآن وتفسيره وعلومه، وله فيها مصنفات حسان يطول تعدادها، منها كتاب التيسير فى القراءات السبع وعليه عوَّل الأندلسيون وهو منشور، وله كتاب إيجاز البيان فى قراءة ورش عن نافع، ونشر له فى دمشق كتاب المحكم فى نقط المصاحف. ويلقانا بعده محمد[٣] بن شريح الإشبيلى المتوفى سنة ٤٧٦ وكتابه الكافى فى القراءات. وأهم قراء الأندلس بعد الدانى الإمام الشاطبى[٤] الضرير القاسم بن فِيرُّه نزيل القاهرة المتوفى بها سنة ٥٩٠ نزلها سنة ٥٧٢ ورتبه القاضى الفاضل وزير صلاح الدين بمدرسته متصدرًا لإقراء القرآن الكريم وقراءاته، وله قصيدة «حرز الأمانى ووجه التهانى فى القراءات» وعدَّتها ألف ومائة وثلاثة وسبعون بيتا، وعليها عوَّل القراء فى زمنه وبعد زمنه حفظا وقراءة وتفسيرا، ولها شروح كثيرة، يقول ابن خلدون: «استوعب الشاطبى ما دوَّنه

---

(١) راجع فى مكى طبقات القراء ٣٠٩/٢ وبغية الملتمس ٤٥٥ ومعجم الأدباء ١٦٧/١٩ وإنباه الرواة ٣١٣/٣ وابن خلكان ٢٧٤/٥.

(٢) انظر فى الدانى طبقات القراء ٥٠٣/١ والصلة رقم ٨٧٣ ومعجم الأدباء ١٢١/١٢ وبغية الملتمس ٣٩٩ وتذكرة الحفاظ ٢٩٨/٣ وطبقات المفسرين للسيوطى ١٥٩ وإنباه الرواة ٣٤١/٢ والنفح ١٣٥/٢.

(٣) راجع النشر فى القراءات العشر ٦٧/١ وابن خلكان ٨٢/٧.

(٤) انظر فى الشاطبى التكملة لابن الأبار رقم ١٩٧٣ وطبقات القراء ٢٠/٢ والذيل والتكملة للمراكشى ٥٤٨/٥ ومعجم الأدباء ٢٩٣/١٦ ونكت الهميان ص ٢٢٨ وطبقات الشافعية للسبكى ٢٧٠/٧ ونفح الطيب ٤٥/٢.

الدانى فى القراءات بقصيدته وعُنى الناس بحفظها وتلقينها للولدان المتعلمين وجرَى العمل على ذلك فى أمصار المغرب والأندلس[١]». وخاتمة قراء الأندلس أبو حيان الغرناطى الذى مر ذكره بين النحاة، ويقول فى مقدمة تفسيره إن له فى القراءات منظومة فى ألف بيت وأربعة وأربعين ويذكر من ترجموا له أن له كتابا فى كل قارئ من القراء السبعة وأيضا كتابا فى قراءة زيد بن على إمام الزيدية.

ومعروف أنه تكونت حول القرآن علوم كثيرة تتناول نقطه ورسمه والإملاءات فيه والإدغام والوقف والابتداء كما تتناول مشكل معانيه وناسخه ومنسوخه وأحكامه، وللقارئين: الدانى ومكى فى ذلك كتب مختلفة. وظلت الأندلس تعنى بتلك العلوم وظل الأندلسيون يؤلفون فيها مثل المشارقة، ويطول بنا الحديث لو تعقبنا ما كتبوا فيها. وحسبنا أن نتحدث عن نشاطهم فى تفسير الكتاب العزيز، ومن أقدم ما أُلِّف فيه هناك كتاب بقى[٢] بن مخلد المتوفى سنة ٢٧٦ للهجرة، وفيه يقول ابن حزم: «هو الكتاب الذى أقطع قطعا لا أستثنى فيه أنه لم يؤلف فى الإسلام تفسير مثله: لا تفسير محمد بن جرير الطبرى ولا غيره» وابن حزم يضعه فوق تفسير الطبرى أهم التفاسير المشرقية للذكر الحكيم حتى زمنه فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى. ونلتقى بعد بقى بمحمد[٣] بن عبد الله بن أبى زمنين المتوفى سنة ٣٩٩ وله مختصر فى التفسير منه مخطوطة بمكتبة القرويين، ولمكى المذكور آنفا تفسير ضخم سماه: «الهداية إلى بلوغ النهاية فى معانى القرآن الكريم وتفسيره وأنواع علومه» وكان فى سبعين جزءا، وسقط من يد الزمن. وأهم تفسير أنتجته الأندلس بعد تفسير بقى التفسير الكبير لابن عطية[٤] أبى محمد عبد الحق بن غالب بن عطية قاضى المريَّة المتوفى سنة ٥٤٢، وولى أبوه قبله قضاء غرناطة، فهو من بيت علم وفضل، وكان فقيها نابها عارفا بالأحكام والحديث، وكتابه المحرر الوجيز فى التفسير من أحسن التآليف فيه وأبدع التصانيف على مر الأزمنة، وسماه الوجيز تواضعا، وهو فى مجلدات ضخمة، وفيه لخَّص - كما يقول

---

(١) مقدمة ابن خلدون تحقيق الدكتور وافى ١٠٣٠/٣

(٢) راجع فى بقى ابن الفرضى ١٠٧/١ والحميدى ١٦٧ ونفح الطيب (تحقيق إحسان عباس) ١٦٨/٣ والصلة رقم ٢٧٧ والبغية للضبى ٢٢٩ ومعجم الأدباء ٧٥/٧ وتذكر الحفاظ للذهبى ٦٢٩.

(٣) انظر فى ابن أبى زمنين الحميدى ٥٣ وابن بشكوال، رقم ١٠٤٧ والبغية ٧٧ وطبقات المفسرين للسيوطى رقم ١٠٢ والوافى للصفدى ٣٢١/٣ وابن فرحون ٢٣٢/٢.

(٤) راجع فى ابن عطية الفتح فى القلائد ص ٢٠٨ وتاريخ القضاة للنباهى ص ١٠٩ والصلة رقم ٨٢٥ وابن فرحون فى الديباج ٥٧/٢ والمغرب ١١٧/٢.

ابن خلدون - التفاسير المأثورة كلها وتحرَّى الأقرب إلى الصحة منها، وتداول تفسيره بعده أهل المغرب والأندلس[١]. وينسب لمحيى الدين بن عربى المتوفى سنة ٦٣٨ تفسير مطبوع، وأكبر الظن أن نسبته له غير صحيحة، ونلتقى بعده بالقرطبى[٢] محمد بن أحمد نزيل مصر الذى اختار المنيا بالصعيد سكنا إلى أن توفى سنة ٦٧١ وله تفسيره المشهور المسمى: «جامع أحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة وآى القرآن» وهو فى عشرين مجلدا، سار فيه على نهج ابن عطية فى تفسيره[٣]. ويختتم نشاط الأندلسيين فى تفسير القرآن العظيم بكتاب البحر المحيط لأبى حيان الذى مرَّ بنا ذكره بين النحاة وهو فى ثمانى مجلدات ضخام، ويذكر فى مقدمته مصادره فى اللغة والنحو والبلاغة والحديث النبوى وأصول الفقه وعلم الكلام وكتب القراءات والتفسير ويشيد بتفسير عبدالحق بن عطية مواطنه وتفسير الزمخشرى، ويذكر من روى عنهم هذين التفسيرين خاصة لأنه كثير النقل عنهما والمراجعة لهما فى تفسيره، ويعنى فيه عناية واسعة بوجوه الإعراب وببيان لغات العرب كما يعنى بالقراءات السبع وما وراءها مما يكمل القراءات الأربع عشرة والشاذة.

ونشطت الأندلس فى علم الحديث نشاطا واسعا منذ محدثها وقاضيها معاوية[٤] بن صالح المتوفى سنة ١٧٨ سواء فى روايته أو فى التصنيف فيه وفى رجاله. ويتسع هذا النشاط منذ القرن الثالث الهجرى، ونلتقى فيه ببقى بن مخلد الذى مر ذكره بين المفسرين، وله فى الحديث النبوى مصنف يقول فيه ابن حزم: «له فى الحديث مصنفه الكبير الذى رتبه على أسماء الصحابة رضى الله عنهم، فروى فيه عن ألف وثلاثمائة صحابى ونيف، ثم رتب حديث كل صحابى على أسماء الفقه وأبوابه فهو مصنف ومسند» أى أنه مصنف فى الفقه وأحكامه ومسند على طريقة مسند ابن حنبل يراعى فيه الصحابى الراوى للحديث عن رسول الله ﷺ ومع كل حديث سنده، ويقول ابن حزم: «ما أعلم أحدا سبق بقى بن مخلد إلى مثل ذلك مع ثقته وضبطه وإتقانه واحتفاله وجودة شيوخه،

---

(١) مقدمة ابن خلدون ١٠٣٢/٣.

(٢) انظر فى القرطبى طبقات المفسرين للسيوطى ص ٢٨ وابن فرحون ٣٠٨/٢ والوافى للصفدى ١٢٢/٢ وشذرات الذهب ٣٣٥/٥.

(٣) ابن خلدون ١٠٣٢/٣.

(٤) راجع فى معاوية ابن الفرضى رقم ١٤٤٣ والحميدى رقم ٧٩٦ ومعجم الصدفى لابن الأبار ص ١٨٠ وترتيب المدارك للقاضى عياض ٣٤٩/١ وابن القوطية ص ٤٣ والمغرب ١٠٢/١ والقضاة للخشنى (طبعة ريبيرا) ص ٣٠ وتهذيب التهذيب لابن حجر (طبع حيدر آباد) ٢٠٩/١٠

فإنه روى أحاديثه فى المصنف عن مائتى رجل وأربعة وثمانين ليس فيهم عشرة ضعاف وسائرهم أعلام مشاهير»[١] ويقول ابن حيان فى المقتبس به انتشر الحديث بالأندلس ورسا أصله، ثم تلاه محمد[٢] بن وضّاح المتوفى سنة ٢٨٧ - وله رحلتان إلى المشرق - فى نشر الحديث وسعة الرواية، «فاستوسع أهل الأندلس فى الحديث من يومئذ وصارت دار حديث ومعدن سند»[٣] وهما لم يدفعا الأندلس إلى السعة فى الحديث وروايته فحسب، بل دفعاها أيضا إلى معرفة طرقه وعلله. ويلقانا بعد بقى وابن وضاح تلميذهما ثابت[٤] بن عبدالعزيز السرقسطى المتوفى سنة ٣١٣ وابنه قاسم المتوفى قبله سنة ٣٠٣ وقد رحلا إلى المشرق فى طلب الحديث وعادا إلى قرطبة، فعنى قاسم بتأليف كتاب فى غريب الحديث سماه «الدلائل» وحال الموت بينه وبين تمامه فأتمه أبوه، ويقول ابن حزم إن كتاب الغريب المصنف المشهور فى غريب الحديث لأبى عبيد القاسم بن سلام لا يتميز عليه إلا بالتقدم فى زمن تأليفه فحسب. ومن أهم المحدثين فى القرن الرابع قاسم[٥] بن أصبغ تلميذ بقى بن مخلد وابن وضاح المتوفى سنة ٣٤٠ وله كتاب غرائب حديث مالك بن أنس مما ليس فى الموطأ، وكتاب المجتبى ويشيد ابن حزم بعلو سنده، ويقول: له فى الحديث مصنف، وكذلك لمعاصره محمد[٦] بن عبدالملك بن أيمن (المتوفى سنة ٣٣٠) وهما مصنفان رفيعان احتويا من صحيح الحديث وغريبه ما ليس فى كثير من كتب المصنفات. ويلقانا فى آخر القرن الرابع ابن فطيس المتوفى سنة ٤٠١ وينوه ابن بشكوال فى كتابه الصلة بحفظه للحديث وعلله، ومعرفته بأسماء الرواة: المعدَّلين منهم والمجرَّحين[٧]. ونلتقى فى القرن الخامس بكتاب الجمع بين الصحيحين للحميدى[٨] صاحب جذوة المقتبس التى نرجع إليها فى الهوامش المتوفى سنة ٤٨٨. ويتكاثر المصنفون لكتب الحديث النبوى فى القرن السادس الهجرى، ومنهم رزين[٩] السرقسطى المتوفى سنة ٥٢٤ وله كتاب التجريد فى الجمع بين الموطأ والصحاح الخمس: البخارى ومسلم وأبى داود والترمذى والنسائى، وقد

---

(١) نفح الطيب ١٦٨/٣.

(٢) انظر فى ابن وضاح ابن الفرضى رقم ١١٣٤ والحميدى رقم ١٥٢ والضبى رقم ٢٩١.

(٣) المقتبس (تحقيق د. محمود مكى - نشر بيروت) ص ٢٦٤

(٤) راجع فى ثابت وقاسم ابنه مراجعها فى هامش ص٩٢ وأيضا النفح ١٧٠/٣ والحميدى رقم٣٤٥، ٧٧١

(٥) انظر فى ابن أصبغ النفح ١٦٩/٣ وابن الفرضى رقم ١٠٦٨

(٦) راجع فى ابن أيمن النفح ١٦٩/٣ والحميدى رقم ٩٨ وابن الفرضى رقم ١٢٢٨.

(٧) انظر الصلة رقم ٦٧٩.

(٨) راجع فى الحميدى الصلة رقم ١١١٤ ومعجم الأدباء ٥٨/٧ وابن خلكان ٢٨٢/٤ وما به من مصادر والوافى للصفدى ٣١٧/٤.

(٩) انظر فى رزين الصلة رقم ٤٢٤ والضبى ٧٤١.

دوت شهرته فى المغرب والمشرق وعليه اعتمد ابن الأثير فى كتابه «جامع الأصول». وجاء بعده الرشاطى[١] عبدالله بن على المتوفى سنة ٥٤٢ وله كتاب فى أنساب رواة الحديث على نهج كتاب الأنساب للسمعانى،

وجاء بعده ابن قُرْقول[٢]: إبراهيم بن يوسف المتوفى سنة ٥٦٩ وله كتاب مطالع الأنوار وضعه على مثال كتاب مشارق الأنوار للقاضى عياض فى غريب الحديث. وكان يعاصره عبد الحق[٣] الإشبيلى المعروف بابن الخراط المتوفى سنة ٥٨١ وله كتاب الجمع بين الصحيحين: البخارى ومسلم، وله أيضا كتاب فى الجمع بين الصحاح الستة وكتاب فى المعتل من الحديث وكتاب فى غريبى القرآن والحديث ضاهى به الغريبين للهروى وثلاث نسخ من كتاب له فى الأحكام: كبرى ووسطى وصغرى. ومن أهم المحدثين بالأندلس فى القرن السابع الهجرى ابن القطان[٤] على بن محمد المتوفى بفاس سنة ٦٢٨ وكان من أبصر العلماء بالحديث وعلله ورجاله ورأس طلبة الحديث بمراكش قاطبة، ويذكر ابن الأبار أن له تآليف مختلفة فى الحديث. وخاتمة المحدثين بالأندلس أحمد بن[٥] فرح الإشبيلى نزيل دمشق وبجامعها حدَّث إلى أن توفى سنة ٦٩٩ وله قصيدة غزلية ضَمَّن أبياتها أكثر مصطلحات الحديث. وللأندلسيين معاجم مختلفة فى رجال الحديث ورواته، من أهمها كتاب أنساب الرواة للرشاطى المار ذكره، ومن أهمها أيضا كتاب طبقات المحدثين وطبقات أئمة الفقهاء لابن الدباغ[٦] يوسف بن عبدالعزيز الأندى المتوفى سنة ٥٤٦ وكان من أعرف المحدثين بثقات الرواة وضعفائهم.

وللأندلس نشاط خصب فى الفقه ودراساته، وكانت تعتمد فيه أولا على مذهب الإمام الأوزاعى فقيه الشام المشهور المتوفى سنة ١٥٧ للهجرة، إذ كان أكثر العرب الفاتحين للأندلس والقادمين إليها من الشام، فكان الفقهاء يفتون الناس به، وفى مقدمتهم صعصعة[٧] بن سلام تلميذه المتوفى سنة ١٩٢ وهو الذى أفتى الناس هناك – أخذا برأى

---

(١) راجع فى الرشاطى الصلة رقم ٦٤٨ وتذكرة الحفاظ للذهبى ١٣٠٧ والمطرب لابن دحية (طبع القاهرة) ٦١، ١٢٠ وابن خلكان ١٠٦/٣

(٢) راجع فى ابن قرقول بقية التكملة رقم ٣٩٤ وابن خلكان ٦٢/١

(٣) انظر فى ابن الخراط عبد الحق التكملة رقم ١٨٠٥ وتذكرة الحفاظ ١٣٩/٤ والمراكشى فى المعجب ص ٣٤٧ وفوات الوفيات ٥١٨/٢.

(٤) راجع ابن القطان فى التكملة رقم ١٩٢٠

(٥) انظر ابن فرح فى طبقات الشافعية (الطبعة الجديدة) ٢٦/٨ وتذكرة الحفاظ ١٤٨٦/٤ وشذرات الذهب ٤٤٣/٥ والنجوم الزاهرة ١٩١/٨.

(٦) راجع ابن الدباغ فى الصلة رقم ١٣٩٥

(٧) انظر فى صعصعة ابن الفرضى رقم ٦٠٥ والحميدى رقم ٥١٠.

أستاذه - بغرس الشجر فى صحن المسجد الجامع بقرطبة، وظل به العمل فى المساجد الجامعة بالأندلس[١] بعد انصرافها عن مذهب الأوزاعى إلى مذهب مالك[٢] بن أنس إمام المدينة، إذ كانوا يرحلون فى كل عام إلى الحجاز للحج، وكانت المدينة حتى وفاة مالك سنة ١٧٩ تُعَدّ دار الفقه ويؤمها ويؤم إمامها مالك التلاميذ من كل فَجّ، فكان طبيعيا أن يكون بين هؤلاء التلاميذ أندلسيون، وخاصة أنه كان لمالك سمعة مدوِّية فى العالم الإسلامى، وأيضا فإن عبد الرحمن الداخل (١٣٨ - ١٧٢ هـ) وابنه هشاما (١٧٢ - ١٨٠ هـ) دفعا الطلاب للرحلة إلى مالك لأنه كان مغاضبا للعباسيين منذ أفتى أهل المدينة بالتحلل من بيعة الخليفة المنصور ومبايعة النفس الزكية محمد بن عبدالله سليل الحسن بن على بن أبى طالب سنة ١٤٥ ولم يلبث واليها جعفر بن سليمان أن دعا بمالك سنة ١٤٦ بعد القضاء على ثورة النفس الزكية، وجرَّده وضربه بالسياط عقابا له على فتواه[٣]. وهو ما جعل - فى رأينا - عبدالرحمن الداخل وابنه هشاما يتشيعان لمالك ومذهبه الفقهى نصرة له ضد العباسيين وصاحبهم أبى حنيفة وتلاميذه، مما أشعل الحماسة فى نفوس طلاب العلم الأندلسيين للتلمذة على مالك وحَمْل كتابه الموطأ إلى الأندلس ودراسته للطلاب بقرطبة وغير قرطبة، ومن أوائل من أدخله إلى الأندلس - إن لم يكن أول من أدخله - الغازى بن قيس الذى مر بنا بين المؤدبين والقراء، يقول ابن القوطية: «فى أيام عبدالرحمن بن معاوية (الداخل) دخل الغازى بن قيس الأندلس بالموطأ عن مالك وبقراءة نافع، وكان له مكرما ومتكررا عليه بالصلة فى منزله»[٤] ويقول الحميدى: كانت تدور الفُتْيا على الغازى بن قيس فى عهد هشام إذ كان مشاورا مع مصعب بن عمران[٥]. ومن أوائل من أدخلوا الموطأ أيضا إلى الأندلس شبطون[٦]: زياد بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٢٠٤ وفى بعض الروايات أنه أول من أدخل الموطأ إلى

---

(١) انظر فى هذه المسألة تاريخ قضاة الأندلس للنباهى (طبع القاهرة) ص ٥١.

(٢) ظلت فى الأندلس بقية لمذهب الأوزاعى فى الفقه، يدل على ذلك أن نجد زهير بن مالك المتوفى سنة ٢٥٠ فقيها على مذهبه. انظر الحميدى ص ٢٠٥ وابن الفرضى فى تاريخ علماء الأندلس (طبع مدريد) ص ١٨١.

(٣) راجع ترجمة مالك فى ابن خلكان ٣٥/٤.

(٤) انظر افتتاح الأندلس لابن القوطية (طبع مدريد، ص ٣٥

(٥) الحميدى ص ٣٠٥.

(٦) راجع فى شبطون ابن الفرضى رقم ٤٥٦ والحميدى رقم ٤٣٩ والقضاة للخشنى ص ١٤، ٣٣ وابن فرحون ٣٧٠/١.

الأندلس. وأول فقيه أندلسى مالكى يُعَدُّ - بحق - بين أئمتها المالكيين عيسى[١] بن دينار المتوفى سنة ٢١٢ ويقول ابن حيان فى المقتبس: «رحل عيسى فأدرك أصحاب مالك، وسمع من عبد الرحمن بن القاسم رئيس المدرسة المالكية بمصر حتى وفاته سنة ١٩١ واقتصر عليه فاعتلت فى الفقه المالكى طبقته.. وكان محمد بن وضاح يقول: «هو الذى علَّم أهل الأندلس الفقه» ويقول أيضا ابن حيان: «كان لايُعَدُّ فى الأندلس أفقه منه فى نظرائه» وله فى الفقه المالكى كتاب الهداية، وفيه يقول ابن حزم إنه من أرفع الكتب وأجمعها فى معناها على مذهب مالك وتلميذه عبد الرحمن بن القاسم[٢]. وتألق فى الفقه المالكى بالأندلس بعد ابن دينار نجم يحيى[٣] الليثى المتوفى سنة ٢٣٤ وقد سمع الموطأ فى أول نشأته بالأندلس من شبطون ورحل فى الثامنة والعشرين من عمره إلى المشرق ولحق الليث بن سعد فقيه مصر، كما لحق مالكا وسمع الموطأ منه إلا بعض أبواب سمعها فى الفسطاط من عبد الرحمن بن القاسم. وكان أقرب الفقهاء إلى الأمير عبد الرحمن بن الحكم الربضى (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) وكان يلتزم من إعظامه وتكريمه وتنفيذ أموره ما يلتزمه الولد لأبيه ويقول ابن حزم: «إنه كان لا يولِّى قاضيا إلا بمشورته واختياره ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه المالكى وبذلك انتشر مذهب مالك فى الأندلس». ولم يقبل تولى القضاء إذ فرَّغ نفسه للدراسة ولقاء طلابه الكثيرين.

وحرى بنا أن نتوقف قليلا لنوضح - من بعض الوجوه - مدى ما كان للفقهاء المصريين من تأثير فى الفقه المالكى وفقهائه فى الأندلس فإن إمامهم عيسى بن دينار تخرَّج فى الفقه المالكى على يد عبد[٤] الرحمن بن القاسم، وتخرَّج مثله على يده سحنون

---

(١) انظر فى ابن دينار ابن الفرضى رقم ٩٧٣ والحميدى ص ٢٧٩ والضبى ص ٣٨٩ والمقتبس لابن حيان (طبعة بيروت - تحقيق مكى) ص ٧٨، ٩٩.

(٢) النفح ١٦٧/٣ وترتيب المدارك للقاضى عياض (طبعة الرباط) ١٧/١

(٣) راجع فى يحيى المقتبس ص ٤٢ و٨٣ وما بعدها وابن الفرضى رقم ١٥٥٤ والحميدى رقم ٩٠٨ وابن خلكان ١٤٣/٦ والمغرب ١٦٣/١ وترتيب المدارك لعياض (طبع بيروت) ٥٣٤/١.

(٤) يُذْكر كثيرًا فى النصوص الأندلسية أن الفقهاء كانوا يلتزمون بآراء عبد الرحمن بن القاسم المصرى الفقيه حتى ليقول أبو الوليد الشقندى فى رسالته التى كتبها فى فضل الأندلس واحتفظ بها المقرى فى النفح (طبعة د. إحسان عباس) ٢١٦/٣: «أهل قرطبة أشد الناس محافظة على العمل بأصح الأقوال المالكية حتى إنهم كانوا لا يولون قاضيا إلا بشرط أن لا يعدل فى أحكامه عن مذهب ابن القاسم».

فقيه القيروان الذى حمل عنه مدونته[١] وأذاعها بموطنه، فنُسبت إليه، وهى من عمل ابن القاسم وإملاءاته[٢] على طلابه. وقد تتلمذ عليه من فقهاء قرطبة كثيرون ويدور اسم ابن القاسم تاليا لاسم مالك فى كتب الفقه المالكى الأندلسى، ونمثل لذلك بكتاب الوثائق والسجلات لابن العطار، فقد ذكر مالكًا فى فتاويه وأحكامه نحو تسعين مرة وذكر ابن القاسم ٥٤ مرة. ويذكر أيضا فى تلك الكتب اسم كبار الفقهاء المالكيين بمصر ممن تتلمذ لهم الأندلسيون مثل أشهب بن عبد العزيز رئيس المدرسة المالكية بعد ابن القاسم إلى أن توفى سنة ٢٠٤ وأصبغ بن الفرج رئيس تلك المدرسة بعد أشهب إلى أن توفى سنة ٢٢٥. ويذكر أيضا فيها الإمام الليث المذكور آنفا الذى قال فيه الشافعى: «الليث بن سعد أفقه من مالك، إلا أن أصحابه لم يقوموا به» يقصد تلاميذه المصريين. ونرى يحيى الليثى عميد الفقهاء المالكيين فى الأندلس المذكور آنفا والذى كان لا يفتى إلا برأى مالك يترك رأيه فى القنوت فى الصبح لرأى الليث، كما يترك رأيه فى الأخذ باليمين مع الشاهد لرأى الليث فى إيجاب شاهدين والمسألة الأخيرة من المسائل الثلاث[٣] التى خالفت فيها مالكية الأندلس جميعا الإمام مالكا مؤثرة رأى الليث، والمسألة الثانية مسألة الخلطة وهى الشركة غير المميزة كأن يكون لرجل فى غنم مائة وعشر ولآخر فى نفس الغنم مائة وعشر فهل تؤخذ الصدقة على مجموعها فيكون عليهما ثلاث شياه أو تؤخذ من كل منهما على حدة فيكون على كل واحد منهما شاة واحدة، والفقهاء يختلفون هل تؤخذ الصدقة على الجمع أو على التفريق. والمسألة الثالثة التى خالفت فيها مالكية الأندلس جميعا مالكا إلى رأى الليث هى مسألة كراء الأرض للفلاح بجزء مما يخرج منها بالنصف أو الثلث مثلا وهو نظام معروف فى مصر إلى اليوم، وكأن المصريين أخذوا بفتوى الليث على مر الأزمنة كما أخذ بها الأندلسيون. ومرَّ بنا أنهم أخذوا بمذهب الأوزاعى فى غرس الشجر فى المساجد مخالفين فى ذلك رأى مالك. وخلف يحيى الليثى فى رياسة المدرسة المالكية بالأندلس عبد[٤] الملك بن حبيب المتوفى سنة ٢٣٨ للهجرة، وله كتاب

---

(١) ابن خلكان ١٨١/٣ إذ يقول أصل المدونة أسئلة سأل عنها فقيه القيروان أسد بن الفرات ابن القاسم فأجابه عنها، وجاء بها إلى موطنه فكتبها عنه سحنون ورحل بها إلى ابنَ القاسم سنة ١٨٨ فعرضها عليه وأصلح فيها مسائل ورجع بها إلى القيروان سنة ١٩١.

(٢) انظر المقتبس ص٨٤.

(٣) راجع فى هذه المسائل التى خالف فيها مالكية الأندلس مذهب مالك النباهى ص٥١.

(٤) انظر فى عبد الملك بن حبيب ابن الفرضى رقم ٨١٤ والزبيدى فى طبقات النحويين واللغويين ص٢٨٢ والحميدى رقم ٦٢٨ والمغرب ٩٦/٢ والمطمح لابن خاقان ص٣٦ وابن فرحون فى الديباج ٨/٢ وتذكرة الحفاظ ١١٢/٢.

الواضحة فى الفقه المالكى الذى اشتهر فى الأندلس وبلدان المغرب. ومن كبار الفقهاء بعده ابن عتبة[١] محمد بن أحمد المتوفى سنة ٢٥٤ وهو تلميذ يحيى الليثى وعبد الملك بن حبيب، رحل إلى المشرق ومصر وسمع بها أصبغ بن الفرج، وله كتاب المستخرجة وتسمى العتبية نسبة إليه، وطارت شهرتها فى الأندلس والمغرب. وكان يعاصره يحيى[٢] بن مزين المتوفى سنة ٢٥٩ وله كتاب فى تفسير الموطأ للإمام مالك أشاد ابن حزم به وباستقصائه لمعانى الموطأ، كما أشاد بكتاب ثان له فى رجال الموطأ. ومن الفقهاء المؤلفين بعده يحيى[٣] بن عبد الله حفيد يحيى الليثى المتوفى سنة ٣٦٧، وكان يملى على الطلاب بقرطبة الموطأ وكتاب سماع ابن القاسم وحديث الليث وعشرة[٤] جدِّه يحيى الليثى. وفى ذلك ما يدل على أن كتابا فى الأندلس كان يروى عن ابن القاسم يسمى سماعه وهو يقابل كتاب المدونة رواية سحنون فى القيروان، كما كان يُرْوَى كتاب آخر عن الليث يسمى حديثه، فكان لكل من هذين الفقيهين المصريين كتاب متداول هناك. وجاء بعد ذلك ابن أبى زمنين[٥] المتوفى سنة ٣٩٩ وله المغرب فى اختصار مدونة سحنون وكتاب فى الشروط وشرح كبير على الموطأ.

ونلتقى فى زمن أمراء الطوائف بالفقيه المالكى الأندلسى الكبير ابن عبد[٦] البر يوسف النمرى المتوفى سنة ٤٦٣ للهجرة وله «كتاب الاستذكار لمذاهب علماء الأمصار فيما تضمن الموطأ من معانى الرأى والآثار» شرح فيه الموطأ على نسق أبوابه وكلامه شرحا بديعا، وله «كتاب التمهيد لما فى الموطأ من المعانى والأسانيد» رتبه على أسماء شيوخ مالك على حروف المعجم، قال ابن حزم: لا أعلم فى الكلام على فقه الحديث مثله أصلا، وله كتب لا مثيل لها، منها كتابه المسمى بالكافى فى الفقه على مذهب مالك وأصحابه خمسة عشر جزءا». واشتهر بعده فى القرن الخامس أبو الوليد[٧] الباجى

---

(١) راجع ابن عتبة فى ابن الفرضى رقم ١١٠٢ والحميدى رقم ٥ وابن فرحون ١٧٦/٢.

(٢) انظر فى ابن مزين ابن الفرضى رقم ١٥٥٦ والحميدى رقم ٨٨٠ وابن فرحون ٣٦١/٢ والنفح ١٦٨/٣.

(٣) راجع فى يحيى بن عبد الله ابن الفرضى رقم ١٥٩٥.

(٤) يريد بعشرة جده كتبا عشرة له كان يرويها عن شيوخه وخاصة شبطون.

(٥) انظر مصادر ابن أبى زمنين بين المفسرين ص ١٠٨

(٦) راجع فى ابن عبد البر المطمح ص ٦١ والحميدى ص ٣٤٤ والصلة رقم ١٣٨٦ وتذكرة الحفاظ ١١٢٨ وابن فرحون ٣٦٧/٢ والمغرب ٤٠٧/٢ وترتيب المدارك ٨٠٨/٤.

(٧) انظر فى أبى الوليد الباجى الصلة رقم ٤٤٩ وقلائد العقيان ص ١٨٨ والنباهى ص ٩٥ والمغرب ٤٠٤/١ ومعجم الأدباء ٢٤٦/١١ وابن خلكان ٤٠٨/٢ وابن بسام المجلد الأول من القسم الثانى ص ٩٤.

سليمان بن خلف المتوفى سنة ٤٧٤ رحل وسمع منه خلق كثير غربا وشرقا وله كتاب الاستيفاء شرح الموطأ، والمنتقى مختصره، والإيماء مختصر المنتقى، وكتاب فى الأصول باسم إحكام الفصول فى أحكام الأصول، وأيضا كتاب المقتبس من علم مالك بن أنس والمهذب فى اختصار مدونة سحنون. ويلقانا فى القرن السادس ابن[١] رشد الجد أبو الوليد محمد بن أحمد أشهر فقهاء المالكية فى زمنه المتوفى سنة ٥٢٠ وله «البيان والتحصيل لما فى المستخرجة (العتبية) من التوجيه والتعليل» بسط فيه الأحكام الفقهية لمذهب مالك بحسب ما جاءت فى المستخرجة، وكتاب المقدمات لأوائل كتاب المدونة. وجاء بعده الفقيه المتبحر أبو[٢] بكر بن العربى محمد بن عبد الله المتوفى سنة ٥٤٣ وله كتاب القبس فى شرح موطأ مالك بن أنس، وشرح عليه ثان باسم ترتيب المسالك فى شرح موطأ مالك، سوى كتب أخرى كثيرة فى شرح كتب الصحاح فى الحديث وفى أحكام القرآن. ويختم القرن السادس بابن رشد المتفلسف حفيد ابن رشد الفقيه، وله فى الفقه كتاب بداية المجتهد ونهاية المقتصد ويقول ابن الأبار: ذكر فيه أسباب الخلاف وعلَّل ووجهً فأفاد وأمتع به، ولا يعلم فى فنه أنفع منه ولا أحسن مساقا[٣]. ولا تكاد الأندلس بعد ذلك تخرج فقيها مالكيا كبيرا باستثناء ابن حرب محمد بن أحمد المتوفى سنة ٧٤١ وله كتاب الفوائد الفقهية فى المذاهب المالكية والشافعية والحنفية والحنبلية فى ثلاثة مجلدات وجاء بعده ابن عاصم أبو بكر محمد بن محمد المتوفى سنة ٨٢٩ وله أرجوزة فى الفقه المالكى فى نحو ١٦٩٠ بيتا وهى منشورة فى باريس منذ القرن الماضى، وكان الطلاب يدرسونها فى جامعة فاس إلى عهد قريب.

ولعل فيما سبق ما يدل على مدى ازدهار المذهب المالكى فى الأندلس، وكان من أهم الأسباب فى ذلك أن جُمع له القضاء، فكان له غير قليل من السلطان والرياسة، والناس سراع إلى طلب الدنيا، فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به. ولذلك قل من اعتنق مذهب[٤] أبى حنيفة، إذ عُدَّ مذهب العباسيين خصوم الأمويين فى الأندلس، ومثله المذهب

---

(١) انظر فى ابن رشد الجد الصلة رقم ١١٥٤ والنباهى ص٩٨ والديباج ٢/٢٤٨

(٢) راجع فى ابن العربى الضبى رقم ١٧٩ والنباهى ص١٠٥ والمغرب ١/٢٥٤ واللصلة رقم ١١٨١ وابن خلكان ٤/٢٩٦ وتذكرة الحفاظ رقم١٢٩٤ وأزهار الرياض ٣/٨٦ - ٩٥ وابن فرحون ٢/٢٥٢.

(٣) التكملة رقم ٨٥٣.

(٤) ممن ذكر عنه أنه تأثر بالفقه الحنفى محمد بن عيسى الأعشى وكان من الفقهاء المشاورين فى عهد عبد الرحمن الأوسط. انظر ابن الفرضى رقم ١١٠٠ والمقتبس (طبع بيروت) ص ٤٢.

الحنبلى البغدادى، أما المذهب الشافعى فعنى به بعض الفقهاء ممن كانوا ينزلون مصر، وكثرتهم كانت تتلمذ لأصحاب مالك من مثل عبدالرحمن بن القاسم وأشهب وأصبغ ومن جاء بعدهم، وقلة منهم كانت تتلمذ لأصحاب الشافعى من مثل المُزَنى ومحمد بن عبدالله بن عبدالحكم وإبراهيم بن المنذر وأبى الطاهر أحمد بن عمرو ويونس بن عبدالأعلى والحارث بن مسكين وإبراهيم بن محمد ابن عم الشافعى ومن جاء بعدهم. وأول فقيه شافعى يلقانا بقرطبة هو قاسم[١] بن محمد بن سيار المتوفى سنة٢٧٦ تتلمذ لبعض من سميتهم من أصحاب الشافعى بالفسطاط ولزم منهم خاصة محمد بن عبدالله بن عبدالحكم للتفقه والمناظرة وصحبه وتحقق به، وعاد إلى الأندلس فعنى بنشر مذهب الشافعى عن طريق التأليف والتدريس، ومما ألف كتابُ الإيضاح فى الرد على ابن عتبةٍ وابن مزين الفقيهين المالكيين المار ذكرهما فى ترك التقليد والأخذ بالحجة والنظر، والتفَّ حوله بعض الشباب من الفقهاء أمثال أحمد بن خالد ومحمد بن عمر بن لبابة وسعيد بن عثمان الأعناقى. وكان يعاصره بقى بن مخلد، ولم يكن يعيش لمذهب الشافعى مثله غير أنه كان يدعو إلى النظر فيه بجانب مذهب مالك والمذاهب الفقهية الأخرى، وكان قد رحل وتتلمذ لشافعيين مختلفين ولأحمد بن حنبل. ويذكر ابن الفرضى من فقهاء الشافعية يحيى بن عبد العزيز المعروف بابن الخراز[٢] المتوفى سنة ٢٩٥ تتلمذ بمصر للمزنى والربيع بن سليمان ومحمد بن عبدالله بن عبد الحكم أصحاب الشافعى وليونس بن عبد الأعلى، ومما سمعه من ابن عبد الحكم مختصر المزنى ورسالة الشافعى. ومن شافعية الأندلس تلميذ لبقى وقاسم هو أبو الخيار هرون[٣] بن نصر القرطبى المتوفى سنة ٣٠٢ وكان قد تفقه بكتب الشافعى. ومن فقهاء الشافعية فى القرن الرابع الهجرى أسلم[٤] بن عبد العزيز المتوفى سنة ٣١٩ وقد رحل إلى المشرق وتتلمذ للمزنى والربيع بن سليمان ومحمد بن عبدالله بن عبدالحكم أصحاب الشافعى، وعاد إلى قرطبة، وولى بها قضاء الجماعة مرتين فى أيام عبدالرحمن الناصر وكان يقضى بين الناس بما عليه الجماعة هناك من مذهب مالك..

---

(١) راجع ابن سيار فى الحميدى ٣١٠ وابن الفرضى ٣٩٧/١ والسبكى فى طبقات الشافعية (طبعة الحلبى الجديدة) ٣٤٤/٢.

(٢) راجع فى يحيى ابن الفرضى رقم ١٥٦٨.

(٣) انظر فى هرون ابن الفرضى رقم ١٠٤٧ وابن فرحون ٣٦٠/٢

(٤) انظر فى أسلم ابن الفرضى رقم ٢٧٨ والحميدى رقم ٣٢٢ والقضاة للخشنى ص ١٥٥ وابن فرحون ٣٠٨/١ والإحاطة (نشر عنان) ٤٢٧/١.

وكان عبد الله بن عبد الرحمن الناصر شافعيا، وثبت لأبيه أنه يدبر مؤامرة ضده، فأمر بقتله سنة ٣٣٩ ولو قدرت له الحياة لأعان على انتشار المذهب الشافعى فى الأندلس. ووفد فى عصر المستنصر (٣٥٠-٣٦٦هـ) فقهاء يحملون المذهب الشافعى فأكرمهم وتوسع لهم فى العطاء والرواتب مثل عبيد[١] الله بن عمر المتوفى بقرطبة سنة ٣٦٠ وكان إماما فى الفقه على مذهب الشافعى كثير التصنيف فيه وفى القراءات والفرائض. ومن فقهاء الشافعية المهمين فى القرن الرابع الأصيلى[٢] عبد الله بن إبراهيم المتوفى سنة ٣٩٢ وله كتاب فى اختلاف مالك والشافعى وأبى حنيفة سماه كتاب الدلائل على أمهات المسائل. ومن كبار فقهاء الشافعية فى القرن الرابع ابن[٣] أمية الحجارى وله كتاب فى أحكام القرآن نوه به ابن حزم قائلا إنه كان بصيرا بالكلام، وقلما نسمع بعد عصر بنى أمية عن فقهاء شافعيين مهمين.

وعرفت الأندلس مبكرًا مذهب الظاهرية فى الفقه لصاحبه داود بن خلف الظاهرى المتوفى ببغداد سنة ٢٧٠ إذ تتلمذ له أندلسى هو عبد الله بن محمد بن قاسم المتوفى سنة ٢٧٢، وقد نسخ كتبه بخطه وأقبل بها إلى الأندلس واجتهد فى نشر المذهب، ولم يكتب له النجاح فيما ابتغى إذ لقى معارضة شديدة من فقهاء المذهب المالكى. ونمضى إلى القرن الرابع الهجرى، ونلتقى بمنذر[٤] بن سعيد المتوفى سنة ٣٥٥ وقد رحل إلى المشرق ودرس على شيوخه من الفقهاء واللغويين، وعاد إلى بلده يحمل معجم العين للخليل عن ابن ولاد المصرى واختلاف العلماء روايةً عن ابن المنذر النيسابورى، كما يحمل مذهب داود الظاهرى، وكان خطيبًا مفوهًا، وولاه عبد الرحمن الناصر الصلاة والخطابة فى المسجد الجامع بالزهراء ثم ولاه قضاء الجماعة وظل يليهما فى عهد ابنه الحكم وكان شديدًا فى دينه لا تأخذه فى الله لومة لائم، وله مع الناصر عظات محمودة، وكان مذهبه الفقهى المذهب الظاهرى وكان يحتج له ويحامى عنه ويؤثره، حتى إذا جلس مجلس القضاء قضى بمذهب مالك الذى عليه العمل فى بلده ولم يعدل عنه، ويقول ابن حزم إنه كان قويًّا على الانتصار للمذهب الظاهرى، وله كتاب فى أحكام القرآن غاية فى بابه. ويلقانا فى القرن

---

(١) راجع فى عبيد الله بن عمر ابن الفرضى رقم ٧٦٩.

(٢) انظر فى الأصيلى ابن الفرضى رقم ٧٨٥ وابن فرحون ٤٣٣/١

(٣) راجع فى ابن أمية الحميدى ص ٣٨٠ وقد سماه ابن آمنة وانظر فى كلمة ابن حزم عنه النفح ١٦٩/٣.

(٤) انظر مصادر منذر فى ترجمته بالفصل الخامس.

الخامس إمام مذهب الظاهرية فى الأندلس على[١] بن أحمد بن حزم المتوفى سنة ٤٥٦، وكان من أسرة نابهة، إذ كان أبوه وزيرًا للمنصور بن أبى عامر، ونشأ نشأة مترفة، ولم تلبث الفتنة أن هبت على قرطبة منذ سنة ٤٠٠ فخرج من قرطبة وعاد إليها مرارًا وأقامه المستظهر وزيرًا سنة ٤١٤ ولم يلبث المستظهر أن قتل فصمّم ابن حزم على اعتزال السياسة والتفرغ للعلم والأدب، وكان قد عكف على دراسة المذهب المالكى، ورأى العدول عنه إلى مذهب الشافعى ثم عدل عنه إلى دراسة المذهب الظاهرى على أبى الخيار مسعود بن مفلت المتوفى سنة ٤٢٦ واعتنقه مؤمنا به، وألف فيه كتاب الإبطال وفيه يبطل الأصول الخمسة التى أخذ بها الأحناف والشافعية، وهى القياس والرأى والاستحسان والتقليد والتعليل، فكل ذلك ينبغى إبطاله والاكتفاء بالكتاب والسنة. وله كتاب فى أصول المذهب المالكى القائمة على التقليد، وكتاب ثان يناقش فيه أصول المذهب الشافعى وفروعه. ومعروف أن المذهب الظاهرى ازدهر فى عصر دولة الموحدين إذ كانت تعتنقه مذهبًا فقهيًّا لها من دون المذاهب المشهورة: مذهب أبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل واتخذ ذلك شكل ثورة عنيفة فى عهد يعقوب بن يوسف (٥٨٠ - ٥٩٥) حتى لنجده يأمر بحرق كتب تلك المذاهب، وكان طبيعيًّا لذلك أن تصبح كثرة القضاة من فقهاء المذهب الظاهرى يتقدمهم قاضى القضاة ابن مضاء[٢] أحمد بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٥٩٢ وابن[٣] حوط الله عبد الله المتوفى سنة ٦١٢ وكان قد ولى القضاء ببلدان أندلسية كثيرة مثل إشبيلية وقرطبة ومثلها ابن[٤] خطاب الإشبيلى على بن عبد الله قاضى إشبيلية المتوفى سنة ٦٢٩ وابن الرومية المار ذكره بين الصيادلة. ويعود المذهب المالكى بعد زوال دولة الموحدين - بقوة - إلى سلطانه القديم وقلما نسمع عن أتباع للمذهب الظاهرى، ويتحول عنه كثيرون على نحو ما تحول أبو حيان المار ذكره بين المفسرين فقد بدأ حياته ظاهريًّا ثم تحول إلى المذهب الشافعى.

ولم نعرض لفقهاء القضاء المالكيين فى الأندلس لأن لهم كتبًا متعددة مطبوعة تعنى بهم مثل كتاب القضاة للخشنى ولابن عبد البر كتاب مماثل وكذلك للنباهى، وإنما يهمنا من دفعوا الحركة الفقهية المالكية فى الأندلس إلى الازدهار بدراستهم المذهب للطلاب

---

(١) راجع فى مصادر ابن حزم ترجمته فى الفصل الخامس.

(٢) مرت مصادر ابن مضاء فى ص ٩٧.

(٣) راجع فى ابن حوط الله النباهى ص ١١٢ والتكملة ٨٣٨/٢.

(٤) انظر فى ابن خطاب التكملة رقم ١٩٠١.

ومؤلفاتهم النفيسة. على أنه ينبغى أن أشير إلى أن النظام القضائى بالأندلس رافقته ثلاث ظواهر لا يعرفها نظيره فى المشرق، أولاها أنه كان هناك - منذ أول الأمر - هيئة استشارية[١] من الفقهاء يرجع إليها القضاة للتشاور وإبداء الحكم السديد فى القضايا المشكلة، وهى تشبه ما نعرف فى قضائنا المعاصر من قيام هيئة استشارية بجانب محاكم مجلس الدولة للرجوع إليها فى القضايا الملتبسة ودراستها وإبداء الحكم فيها وقد نقلنا ذلك عن القضاء الفرنسى. والظاهرة الثانية ظاهرة هيئة المحامين من الفقهاء عن أصحاب الدعاوى والمتهمين على نحو ما نعرف فى قضائنا اليوم، وكان من يوكل عنه محاميًا يثبت ذلك فى عقد بينه وبين المحامى[٢] وكان للمحامى الحق فى أن ينيب من يترافع عنه فى القضية أمام القاضى، ويثبت ذلك أيضًا فى عقد بينهما[٣]. والظاهرة الثالثة وضع كتب باسم الوثائق يضعها كبار الفقهاء تبين للناس كيفية العقود وصيغها القانونية، وهى كتب بالغة الأهمية فى بيان الأحوال الاجتماعية فى الأندلس إذ تعرض علينا عقود المعاملات فى المزارعات وغيرها من الاستئجارات، ومن الطريف أن نعرف أنه كانت هناك محلات لاستئجار الخيل والسلاح للحرب واستئجار الثياب والحلى والكتب[٤]، وكان لابد لإسلام نصرانى أو يهودى من وثيقة يقدمها للقاضى وعليها شهادة شهود بأنه أسلم غير مكره ولا فارٍّ من شىء ولا متوقع لأمر، وأنه اختار الإسلام بعد أن وقف على شريعته وعلم أنه ناسخ لجميع الأديان وأنه الدين الذى لا يقبل الله سواه، وأنه أسلم على يد فلان القاضى أو صاحب الشرطة أو المدينة أو السوق[٥].

ولم تعرف الأندلس الخلافات الكلامية الكثيرة التى عرفها المشرق، ولذلك لم تنشأ فيها فرق المرجئة والجبرية والقدرية أو المعتزلة أو بعبارة أدق لم تجد لها أنصارًا فيها إلا ما كان من الاعتزال بسبب قراءة بعض الراحلين إلى المشرق لكتابات الجاحظ المعتزلى ونقلهم لها إلى الأندلس، فأخذ الناس يقرءون كتاباته وأخذوا يحاولون التعرف على الاعتزال منذ القرن الثالث الهجرى ومن المعتزلة القدامى حينذاك عبد الأعلى بن وهب

---

(١) يتردد أسماء أعضاء هذه الهيئة فى مقتبس ابن حيان لعهد بنى أمية ويسميهم المشاورين.

(٢) انظر فى ذلك كتاب الوثائق والسجلات لابن العطار الأندلسى المتوفى سنة ٣٩٩ (طبع مدريد) ص ٤٩٨. وراجع ترجمة ابن العطار فى الديباج المذهب ٢/٢٣١.

(٣) ابن العطار ص ٥٠٠.

(٤) راجع ابن العطار ص ١٩٤، ١٩٧، ٢٠٦.

(٥) ابن العطار ص ٤٠٥، ٤٠٩.

القرطبى المتوفى سنة ٢٦٢ للهجرة وكان يقول بحرية الإرادة[١] للإنسان، وكان يعاصره معتزلى مثله هو خليل الغفلة، وكان يقول مثله بحرية الإنسان[٢] فى أفعاله، وتابعه فى اتجاهه الاعتزالى ابن السمينة[٣] يحيى المتوفى سنة ٣١٥ إذ يقول صاعد إنه كان معتزليًّا. وأول معتزلى أندلسى دعا إلى الاعتزال بمعناه الكامل ابن مسرة الذى ألممنا به فى أول حديثنا عن الفلسفة ملاحظين من كتابٍ أمرَ الناصر فى سنة ٣٤٥ بتلاوته على الناس لبيان خروجه هو وتلاميذه عن العقيدة السنية للجماعة بترويجه لأفكار المعتزلة من مثل قولهم بخلق القرآن وبأن الانسان حر فى إرادته ووجوب إنفاذ الوعد والوعيد على الله. ومع ذلك ظل له تلاميذ يرددون آراءه الاعتزالية، واضطروا إلى الاختفاء - كما أسلفنا - فى عهد الناصر وعادوا إلى الظهور فى عصر ابنه الحكم لما نشر من التسامح إزاء الاعتزال وغيره من العقائد. ولم يلبث أن خلفه ابنه المؤيد (٣٦٦ - ٣٩٩هـ) وحاجبه المنصور بن أبى عامر الذى أظهر التشدد فى كل ما يخالف آراء أهل الأندلس. ومع ذلك كان حكم بن منذر بن سعيد فى عهدهما رأس المعتزلة بالأندلس وكبيرهم وأستاذهم ومتكلمهم وناسكهم كما يقول[٤] ابن حزم، واضطرت شيعة ابن مسرة إلى الاختفاء ثانية فى عهد ابن أبى عامر وعادت إلى شىء من النشاط فى عصر أمراء الطوائف على نحو ما مرَّ بنا - فى حديثنا عن ابن مسرة - وداعية تعاليمه إسماعيل الرعينى. ولا نسمع بعده عن نشاط اعتزالى أو كتب اعتزالية لأندلسيين. ويبدو أن كثيرًا من كتابات المعتزلة والمتكلمين عامة تسرب إلى الغرب عن طريق ما حملته الأندلس من تلك الكتابات على نحو ما حملت إليه من علوم الطب والرياضيات والصيدلة مما هيأ لقيام التأليف العلمى فى أوروبا ولنهضتها العلمية، كما هيأ لقيام التفكير الفلسفى فيها. ومن أقوى الدلالات على تأثير المعتزلة فى التفكير الأوربى أن نجد ديكارت (١٥٩٧ - ١٦٥٠م) أبا الفلسفة الغربية الحديثة يقيم فلسفته على مبدأين يلتقيان بأفكار المعتزلة والمتكلمين وهما مبدأ الشك فى حقائق الأشياء حتى نتبين فيها وجه اليقين ويردد الجاحظ هذا المبدأ عن أستاذه النظام فى كتابه الحيوان مستشهدًا بقوله: «لم يكن يقين قط حتى كان قبله شك». وكان حريًّا بالأستاذ الدكتور طه حسين حين نوه بهذا المبدأ فى أوائل كتابه «فى الأدب الجاهلى»

(١) انظر ترجمته فى ابن الفرضى رقم ٨٣٥ وابن فرحون ٥٥/٢ وبالنثيا ص ٣٢٥.

(٢) راجع ترجمته عند ابن الفرضى رقم ٤١٧ وبالنثيا ص ٣٢٥.

(٣) انظر فيه طبقات الأمم لصاعد ص ١٠١ وابن الفرضى رقم ٥٧٨، والنفح ٣٧٥/٣ وبالنثيا ص ٣٢٥.

(٤) طوق الحمامة (تحقيق د. الطاهر مكى) ص ٧٢.

وأضافه إلى ديكارت أن يضيفه إلى أصحابه الحقيقيين من المعتزلة. والمبدأ الاعتزالى أو الكلامى الثانى أشار إليه بيير دانييل هويه إذ قال إن ديكارت أخذ عن أهل الفكر والجدل الإسلاميين مبدأه الفلسفى: «أنا أفكر فأنا موجود»[1] مما يقتضى وجود الله، وحديث المتكلمين والمعتزلة عن وجود الإنسان الممكن ووجود الله الواجب علة وجوده معروف. وبذلك يكون المبدآن أو الأصلان الأساسيان للفلسفة الأوربية اجتلبهما ديكارت اجتلابًا مما ترجم فى اللاتينية من كتابات الكلاميين الإسلاميين وخاصة المعتزلة. وقد ذكر المقرى فى[2] النفح عن شخص يسمى محمد بن خلف أنه كان متكلمًا متحققًا برأى الأشعرية، وأنشد له بيتين فى مديح إمام الحرمين الجوينى المتوفى سنة ٤٣٨ للهجرة، وإعلانه حبه له وإيمانه بعقيدته ومعروف أنه إمام كبير من أئمة الأشعرية.

وإذا كانت الأندلس لم تنتج فى الاعتزال والدراسات الكلامية بحوثًا خصبة، فإنها أنتجت عند ابن حزم أروع تاريخ ناقد للأديان والفرق والمذاهب الدينية من إلهية ووثنية بكتابه «الفِصَل فى الملل والأهواء والنحل» وهو عرض باهر لكل ما يتصل بعلم الكلام فى الإسلام، وفيه ينقض نقضًا دقيقًا مذاهب الزنادقة وعقائد المجوسية، كما ينقض عقيدة اليهود بمذاهبها الخمسة: السامرية والصدوقية والقراءية والربانية والعيسوية أتباع أبى عيسى الأصبهانى، وينكر صحة العقيدة المسيحية وقواعدها الأخلاقية قائلاً إنها جميعًا من صنع البشر. ويرى أن الكلمات فى التوراة وفى الإنجيل بعهديه – القديم والجديد – حُرِّفت عن مواضعها على أيدى أصحابها من اليهود والنصارى. وينتهى من دراساته المتعمقة فى التوراة والإنجيل وعقائد الوثنيين والمجوس والزنادقة إلى أن الدين الصحيح المنزل من السماء هو الإسلام، ويدلل – ببراهين قاطعة – على صحته وصحة النبوة المحمدية والوحى الإلهى، وكيف أن الله نسخ بالإسلام ما أوحى به قبله إلى أنبياء بنى إسرائيل بما فيهم عيسى، إذ يعدُّه – كما يعده المسلمون عامة – نبيًا مرسلاً.

---

(١) بالنثيا ص٥٣٤. وانظر فى مبدأ ديكارت الفلسفى ترجمته فى قصة الفلسفة الحديثة للدكتورين أحمد أمين وزكى نجيب محمود ١/١٠٠.

(٢) النفح ٣/٣٥٣.

٥

التاريخ

نشطت الأندلس -منذ القرن الثالث الهجرى- فى الكتابة التاريخية سواء منها ما اتصل بالتاريخ العام للأندلس وغيرها من الدول العربية أوبالتاريخ الخاص لتلك الدول ومدنها وأعلامها أوبالسيرة النبوية العطرة أوبكتب التراجم من كل لون، ومع كثرة ما فقد فى هذه الجوانب لا تزال بقية كبيرة منها. ويتضح فى كتب التاريخ العام تأثر المؤرخين هناك بالمؤرخين المصريين من أمثال ابن عبد الحكم وكتابه فتوح مصر والمغرب. وأول ما يلقانا من هذه الكتب كتاب لعبد الملك بن حبيب رئيس المدرسة المالكية بعد يحيى الليثى الذى مر بنا ذكره بين فقهائها، وهو يتحدث فيه عن ابتداء خلق الدنيا وخلق آدم وحواء وقصة إبليس معهما وتاريخ الأنبياء وخاتمهم المصطفى ﷺ وألم بالخلفاء وبفتح الأندلس وولاتها وحكامها إلى زمنه فى عهد عبد الرحمن الأوسط، ومنه مخطوطة بمكتبة بودليانا فى أوكسفورد[١]. ونلتقى بعده بعَرِيب[٢] المتوفى سنة ٣٣١ وكتابه صلة تاريخ الطبرى وهو مثله على السنوات بادئًا بسنة ٢٩١ حتى سنة ٣٢٠ وفيه أضاف أخبار إفريقيا والأندلس. ولابن حزم المار ذكره بين الفقهاء والمترجم له فى الفصل الأخير رسالة تدخل فى التاريخ العام سماها نقط العروس فى تواريخ الخلفاء ونوادر أخبارهم نشرتُها فى مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة سنة ١٩٥١. ولابن الخطيب المترجم له بين الكتّاب كتاب إعلام الأعلام فى تاريخ الأندلس والمغرب. وتكثر الكتب الخاصة بتاريخ الأندلس وفى مقدمتها أخبار ملوك الأندلس لأحمد[٣] بن محمد الرازى المتوفى سنة ٣٤٤ وكتاب الموعب لابنه عيسى، والكتابان مفقودان. ونلتقى بكتاب الأخبار المجموعة، لمؤلف مجهول، ويمتد التاريخ فيه من الفتح إلى زمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠) مما يؤكد أنه ألف فى أيامه، كما نلتقى بكتاب تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية المار ذكره بين اللغويين، وهو يعرض فى الكتاب تاريخ الأندلس من الفتح إلى نهاية أيام الأمير عبد الله

---

(١) راجع مقال د. مكى عن هذا المخطوط فى صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بالمجلد الخامس ص ١٨٩، ٢٢١.

(٢) انظر فى ترجمة عريب القسم الأول من الجزء الخامس من كتاب الذيل والتكملة للمراكشى ص ١٤١ وكتابه منشور بدار المعارف.

(٣) انظر مصادر ترجمة الرازى بين الجغرافيين ص ٨٩.

(٣٧٥-٣٠٠هـ). ونلتقى فى عصر أمراء الطوائف بابن حيان كبير مؤرخى الأندلس المتوفى سنة٤٦٩ وموسوعتيه التاريخيتين الكبيرتين: المقتبس والمتين وسنلم بهما فى الفصل الأخير، وليحيى[١] بن الصيرفى المتوفى سنة ٥٥٧ كتاب فى تاريخ دولة لمتونة (المرابطين) وجاء بعده ابن صاحب[٢] الصلاة المتوفى سنة ٥٧٧ وله فى تاريخ الموحدين كتاب باسم «المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين وظهور الإمام المهدى إمام الموحدين». ويلقانا عبد الواحد[٣] المراكشى المتوفى بعد سنة ٦٢١ ومع أنه مغربى درس فى الأندلس وعنى بكتابة تاريخها منذ الفتح إلى سنة ٦٢١. وجاء بعده أبو الحجاج البياسى[٤] يوسف بن محمد صاحب كتاب الحماسة المغربية المتوفى سنة ٦٥٣ وله تاريخ ذيَّل به على تاريخ ابن حيان إلى عصره. ويلقانا بعده لسان الدين بن الخطيب، المترجم له فى الفصل الأخير وله كتاب اللمحة البدرية فى الدولة النصرية، وهو تاريخ لبنى الأحمر حكام غرناطة، ومثله كتاب نبذة العصر فى أخبار ملوك بنى نصر لمجهول.

وتكثر الكتابة فى السيرة النبوية الزكية على هدى سيرة ابن هشام المصرى المتوفى سنة ٢١٨ للهجرة ولابن حزم فيها «جوامع السيرة النبوية» ولابن عبد البر الفقيه المار ذكره فيها كتاب الدرر فى اختصار المغازى والسير، وهما منشوران بدار المعارف. وللقاضى عياض كتاب الشفا فى التعريف بحقوق المصطفى ﷺ وهو سَبْتى، وأولى لذلك أن نذكره فى الجزء الخاص بالمغرب، وللكلاعى[٥] سليمان بن موسى المتوفى سنة ٦٣٤ كتاب الاكتفاء، بما تضمنه من مغازى رسول الله ﷺ ومغازى الثلاثة الخلفاء وهو منشور بالقاهرة، ولابن[٦] سيد الناس الإشبيلى المتوفى بالقاهرة سنة ٧٣٤ فى السيرة النبوية «عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير» وهو منشور بالقاهرة من قديم فى مجلدين.

وتتكاثر كتب تراجم العلماء من كل صنف والأدباء من شعراء وكتاب، ومن الكتب

---

(١) راجع فى ترجمة ابن الصيرفى التكملة رقم ٢٠٤٥ والمغرب ١١٨/٢.

(٢) انظر ترجمة ابن صاحب الصلاة فى التكملة رقم ١٧٢٦ وكتابه منشور.

(٣) راجع فى ترجمة عبد الواحد مقدمة كتابه المعجب لمحققه محمد سعيد العريان.

(٤) انظر فى ترجمة البياسى المغرب ٧٣/٢ واختصار القدح المعلى (طبع القاهرة) بتحقيق الأستاذ الإبيارى ص ٩٤.

(٥) انظر فى الكلاعى التكملة رقم ١٩٩١ والمغرب ٣١٦/٢ وتحفة القادم رقم ٩٠ وابن فرحون ٣٥٨/١.

(٦) راجع فى ابن سيد الناس الدرر الكامنة للسيوطى ٢٠٨/٤ والنجوم الزاهرة ٣٠٣/٩.

العامة كتاب الاستيعاب لابن عبد البر فى تراجم الصحابة، وكتاب جمهرة أنساب العرب لابن حزم وهو مفيد فى تراجم الأندلسيين والكتابان منشوران. ومن كتب تراجم الأندلسيين العامة تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى[١] عبد الله بن محمد المتوفى سنة ٤٠٣ وكتاب طبقات الأمم لصاعد[٢] المتوفى سنة ٤٦٢، وجذوة المقتبس للحميدى[٣] محمد بن فتوح المتوفى سنة ٤٨٨ وينتهى به عند المتوفين سنة ٤٤٩ وكتاب الصلة لابن بشكوال[٤] المتوفى سنة ٥٧٨، وكتاب بغية الملتمس للضبى أحمد بن عميرة المتوفى سنة ٥٩٩ وقد اعتمد على الحميدى فى جمهور تراجمه، وكتاب التكملة لابن الأبار المترجم له فى الفصل الرابع المتوفى سنة ٦٥٨ وهو تكملة لكتاب الصلة، وله كتاب الحلة السيراء فى تراجم العلماء والأدباء والأمراء الذين نظموا الشعر فى الأندلس والمغرب وله أيضًا معجم الصدفى وشيوخه وأصحابه، وللملاحى[٥] محمد بن عبد الواحد المتوفى سنة ٦١٩ كتاب فى علماء إلبيرة وغرناطة، وكتاب صلة الصلة لابن الزبير[٦] أحمد بن إبراهيم الغرناطى المتوفى سنة ٧٠٨ وهو صلة وتتمة لكتاب ابن بشكوال. وأخيرًا كتاب الإحاطة فى تاريخ غرناطة وعلمائها وأدبائها لابن الخطيب وهو فى أربعة مجلدات. ومن كتب تراجم الفقهاء والقضاة كتاب الفقهاء لابن عبد البر أحمد بن محمد وتاريخ قضاة قرطبة للخشنى[٧] المتوفى سنة ٣٦١ والمرقبة العليا للنباهى[٨] المتوفى سنة ٧٩٣. ومن كتب تراجم الأطباء طبقات الأطباء والحكماء حتى عصر المستنصر لابن جلجل المتوفى سنة ٣٧٧ ومرّ ذكره بين الصيادلة. ومن كتب تراجم اللغويين طبقات النحويين واللغويين للزبيدى المار ذكره، وألفت فى أخبار الشعراء بالقرن الرابع كتب مختلفة مفقودة منها كتاب لعبادة بن ماء السماء المترجم له بين الشعراء، ويلقانا كتاب المطرب من أشعار أهل المغرب

---

(١) انظر فى ابن الفرضى كتاب الصلة رقم ٥٦٧ والحميدى ٢٣٧ والمغرب ١/١٠٣ والذخيرة ٦١٤/٢.

(٢) راجع فى صاعد الصلة لابن بشكوال رقم ٥٣٥.

(٣) انظر مصادر الحميدى بين المحدثين ص ١١٠.

(٤) راجع ابن بشكوال فى التكملة رقم ١٧٩ ومعجم شيوخ الصدفى لابن الأبار رقم ٧٠ وابن فرحون وابن خلكان ٢٤٠/٢.

(٥) انظر فى الملاحى التكملة رقم ٩٦٠ والمغرب ١٢٦/٢.

(٦) راجع فى ترجمة ابن الزبير الذيل والتكملة للمراكشى ٣٩/١ والإحاطة ٨٨/١ والدرر الكامنة ٨٤/١ والمنهل الصافى ١٩٧/١ وطبقات القراء ٣٢/١ وابن فرحون ١٨٨/١.

(٧) انظر فى الخشنى ابن الفرضى رقم ١٣٩٨ والضبى رقم ٩٥ وتذكرة الحفاظ للذهبى ٢٠٩/٣ والأنساب للسمعانى الورقة ٢٠٠.

(٨) راجع فى النباهى الجزء الثانى من أزهار الرياض ونيل الابتهاج لأحمد بابا ص ٣٠٥ وشذرات الذهب ١٠٨/٦.

(الأندلس) لابن دحية[١] المتوفى سنة ٦٣٣. وتكثر الكتب الخاصة بالأدباء من شعراء وكتاب، وفى مقدمتها قلائد العقيان والمطمح للفتح[٢] بن خاقان والذخيرة لابن بسام وهى فى ثمانية مجلدات وسنلم بها فى الفصل الأخير، ولابن الأبار غير كتاب ومن كتبه الحلة السيراء المذكورة آنفًا وكتاب تحفة القادم فى تراجم الشعراء ونشر منتخب له بمجلة المشرق فى العددين الثالث والرابع من سنتها الحادية والأربعين، ولابن[٣] سعيد المتوفى سنة ٦٨٥ كتاب المغرب وقد نشرت القسم الخاص بتراجمه الأندلسية فى جزءين بدار المعارف، وله الغصون اليانعة فى محاسن شعراء المائة السابعة وهو منشور بالدار أيضًا، ونشر له بالقاهرة اختصار كتابه القدح المعلى وبه طائفة كبيرة من شعراء الأندلس فى النصف الأول من القرن السابع. ولابن الخطيب كتاب الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، ولابن[٤] الأحمر إسماعيل بن يوسف المتوفى سنة ٨٠٧ نثير فرائد الجمان فى نظم فحول الزمان. وقبل أن نختم الحديث عن نشاط الأندلسيين فى كتابة التاريخ ينبغى أن نشير إلى أن لهم رسائل سجلوا فيها روائع علمائهم وأدبائهم مثل رسالة فضل الأندلس لابن حزم المدونة فى نفح الطيب، وأهم من ذلك كتب الفهرسة بأسماء الشيوخ وما حُمل عنهم من الكتب مثل فهرسة[٥] ابن خير المتوفى سنة ٥٧٥.

---

(١) انظر فى ابن دحية التكملة رقم ١٨٣٢ وصلة الصلة ٧٣ وابن خلكان ٤٤٨/٣.

(٢) انظر فى الفتح بن خاقان معجم الصدفى: ٣٠٠ والمغرب ٢٥٩/١ ومعجم الأدباء ١٨٦/١٦ والذيل والتكملة للمراكشى ٥٢٩/٥ وابن خلكان ٢٣/٤.

(٣) راجع فى ابن سعيد الإحاطة ٢٣٠/١ والفوات لابن شاكر ١٨١/١ ومقدمتنا لنشر القسم الأندلسى من كتابه المغرب (طبع دار المعارف).

(٤) انظر فى ابن الأحمر درة الحجال لابن القاضى (طبع الرباط) ١١٦/١ وجذوة الاقتباس ٦٩ ونيل الابتهاج ٩٩.

(٥) راجع فى ابن خير التكملة رقم ٧٨٠ والضبى ٦٥ والذيل والتكملة للمراكشى (تحقيق د. محمد بن شريفة) ٢٩٩/٨ وطبقات القراء لابن الجزرى ١٣٩/٢.

الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

١

تعرب الأندلس – كثرة الشعراء

(أ) تعرب الأندلس

مرَّ بنا أنه كان بالأندلس قبل الفتح العربى الإسلامى عناصر جنسية مختلفة، منها الأوربى من الغالة والبسك والجلالقة والإغريق والرومان والفاندال والقوط، ومنها الآسيوى من الفينيقيين والقرطاجنيين واليهود، ونزلها مع الفتح عرب من آسيا: قحطانيون يمانيون وعدنانيون مضريون ونزلها معهم بربر كثيرون من أفريقيا وكانوا ينقسمون مثل العرب إلى قبيلين كبيرين: بُتْر وكانوا ينحازون إلى العرب العدنانيين، وبرانس وكانوا ينحازون إلى العرب القحطانيين، وجلب الحكام الأمويون إلى الأندلس كثيرين من الصقالبة، وبذلك كله كانت الأندلس مجمعا لعناصر جنسية شتى. وذكرنا – فيما أسلفنا من حديث – أن الرومان أدخلوا فيها المسيحية، وأن بعض أهلها شاركوا فى الأدب والفكر اللاتينيين ولكن لا فى موطنهم بالأندلس، وإنما فى روما نفسها حين نشأوا فيها أو هاجروا إليها. والأندلس بل جميع شبه جزيرة إيبيريا لم تستطع فى تاريخها القديم أن تضيف إلى تاريخ الحضارة الإنسانية شيئا ذا بال يذكر لها. ونزلتها منذ أوائل القرن الخامس للميلاد قبائل جرمانية متبربرة من الفندال والقوط قضت – أو كادت – على ما كان بها من حضارة رومانية، وأنزلت بها ضروبا من العسف والظلم حتى كاد أهلها يستحيلون إلى ما يشبه الرقيق، سوى ما نشروا فى البلاد من الجهل، مما جعل الأندلس تلقى العرب والبربر الفاتحين بلهجة رومانسية عامية مجدبة من كل ما يتصل بالعلم والفكر والدين إلا ما كان من مجموعة القس إيزيدور الإشبيلى المتوفى سنة ٦٣٦ للميلاد وقد أشرنا إليها فى الفصل الماضى وقلنا إنها تعرض صورة ساذجة للتاريخ والعلوم ولبعض تفسيرات للكتاب المقدس، كما قلنا إنها تمتلئ بأخطاء كثيرة، وتدل – بوضوح – على ما كان يعم الأندلس وإيبيريا عامة من جهالة مطبقة وتخلف شامل فى مضمار الدين

والفكر والعلوم مع ما كان يعمها من فقدان الحرية والعدل الذى لا تطيب حياة أى شعب بدونهما بل إنها تصبح نُكْرا وشرا خالصين مع ما كان يجثم عليها من الظلم والقهر البشع والبؤس التعس.

وكأنما كُتب للأندلس - حينئذ - أن تتخلص من كل هذه الخطوب المدلهمة بنزول العرب فيها حاملين إلى أهلها تعاليم دينهم السمح فى معاملة أهل الكتاب من النصارى واليهود بمنتهى الرفق، بحيث تُكْفَلُ لهم حريتهم الدينية فى عباداتهم وما يتخذون لها من كنائس وبيوت وشعائر دون أى تدخل، وبحيث يُرْفَع عنهم ثقل الضرائب الفادحة التى فرضها عليهم القوط وأحالوا بها حياتهم إلى صور بغيضة من البؤس والظلم والهوان. وكانت هذه المعاملة الإسلامية الكريمة التى حررت أهل الأندلس من جَوْر القوط بعد أن كانوا مسترقين لهم استرقاقا قبيحا، والتى ملأت الأندلس بالعدل الذى يعطى لصاحب الحق حقه دون أى حَيْف، والذى يسوى بين الناس فى مواجهة الحياة بقسطاس مستقيم، سببا قويا فى أن يعتنق كثيرون من مسيحيِّ الأندلس الإسلام لما يرون فيه من مُثلٍ إنسانية رفيعة، ومن دين قويم لا تشوبه أى شائبة من فكرة التثليث المعقدة فى الدين المسيحى، مع ما يتيح لمعتنقه من سعادة فى دنياه وآخرته، وأيضا لأن من كان يعتنق الدين الحنيف منهم يصبح له جميع حقوق العربى الفاتح لدياره، فله كل ما للمسلمين الفاتحين من هذه الحقوق. وهيأ ذلك سريعا فى الأندلس لأن تدخل أفواج متلاحقة فى الإسلام وكانوا يسمون المسالمة، وسُمِّي أبناؤهم باسم المولدين. وينبغى أن نذكر أنه لم يحدث فى تاريخ العرب بالأندلس أن أُكْره أحد على الإسلام، فقد كانت الحرية الدينية مكفولة للنصارى واليهود إلى أقصى حد، وكان من أسلم من أهل الكتاب لابد أن يعلن ذلك أمام قاض من قضاة المسلمين فى قرطبة وغيرها من البلدان، وأن يسجل إعلانه لذلك فى وثيقة يُشْهد عليها شاهدين، قائلا فيها إنه يعتنق الإسلام بعد أن وقف على شريعته «طائعا آمنا، غير فارٍّ من شيء ولا مكره، وأنه يحمد الله على أن هداه للإسلام شاكرا له نعمته على هدايته له»[١].

وطبيعى أن يُقْبل من أسلم من أهل الأندلس على تعلم العربية حتى يحسنوا أداء شعائر الإسلام وتلاوة كتابه التى تُعَدّ جزء لا يتجزأ من اعتناقه، وبالمثل دفعوا أبناءهم إلى هذا التعلم، ومعنى ذلك أن شطرا كبيرا من أهل الأندلس تعربوا تعربا كاملا: دينا ولغة،

---

(١) كتاب الوثائق والسجلات لابن العطار (طبع مدريد) ص ٤٠٥ وما بعدها.

وقد بقى وراءهم شطر ظل على مسيحيته، وكان يتخذ لهجة لاتينية عامية أو رومانسية لغةً فى تخاطبه اليومى، غير أنه شعر سريعا بما ذكرناه آنفا من أنها لغة مجدبة فقيرة، وخاصة حين يقرنها إلى العربية، إذ ليس لها تراث أدبى كتراث العربية، وأيضا ليس لها مثلها تراث ثقافى ولا حضارى، تستطيع أن تثبت به أمامها، فضلا عما لأهل العربية فى البلاد من عزة وقوة وسلطان وغلبة، ومعروف أن المغلوب دائما يحاول أن يحاكى الغالب، فما بالنا إذا ظل هذا الغالب يستعلى على مسيحيِّى الأندلس ويهودها ثقافيا وأدبيا وحضاريا لا قرنا ولا قرنين بل قرونا متعاقبة من القرن الثامن الميلادى حتى نهاية القرن الخامس عشر، وهم طوال هذه الحقب كانوا يقفون مشدوهين أمام هذا الفكر العربى الباهر فى العلم والأدب والفلسفة، ويصور ذلك «ترند» فى مقاله بتراث الإسلام قائلا: «كانت قرطبة فى القرن العاشر الميلادى أكثر المدن الأوربية حضارة، وكانت فى ذلك الحين مثار إعجاب العالم، وبلغ من ارتفاع شأنها أن حكام ليون ونبارّه وبرشلونه كانوا يقصدون إليها كلما مسَّتهم الحاجة إلى جراح أو مهندس معمارى أو مطرب كبير»[١]. ومنذ أواسط القرن الحادى عشر تتحول طليطلة وبعض المدن الأندلسية التى استولت عليها الإمارات المسيحية الشمالية إلى مؤسسات[٢] ترجمة ضخمة لكل ما هو عربى من علم وفلسفة وأدب، ويؤمّ طليطلة طلاب العلم من مختلف البلاد الأوربية: الفرنسية والإيطالية والألمانية والإنجليزية فضلا عن البلاد الإسبانية يحمل كل منهم بمقدار طاقته وجهده أقباسًا عربية إلى مدنه وبلدانه، وظل ذلك حتى القرن الخامس عشر للميلاد، وكانت هذه الأقباس من أكبر العوامل فى نهضة أوربا وخروجها من ظلام العصور الوسطى إلى أضواء العصر الحديث. وإنما قلت ذلك كله لأتخذ منه الدليل الساطع على أن من بقى من المسيحيين فى الأندلس على دينه تعرب – مثل زميله الذى اعتنق الدين الحنيف – بحكم ما كان للعربية والعرب من تفوق حضارى وثقافى، وأيضا بحكم ما كان لهم من شعر وأدب رفيع قصص وغير قصص، بينما كانت اللهجة الرومانسية الدارجة فى التخاطب «اليومى» للمسيحيين فى الأندلس وفى شمال إيبيريا فقيرة فقرا شديدا، بحيث لا نستطيع أن نجد مبررًا كافيًا لما ذهب إليه المستشرق الإسبانى ريبيرا فى نظريته[٣] الجديدة المفضية إلى أن عرب الأندلس كانوا يستخدمون العربية الفصيحة لغة رسمية يتعلمونها فى

---

(١) تراث الإسلام (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١٧.

(٢) انظر فى ذلك تاريخ الفكر الأندلسى لبالنثيا ص ٥٣٦ وما بعدها وفى مواضع مختلفة.

(٣) راجع هذه النظرية فى بالنثيا ص ١٤٢ وما بعدها.

المدارس ويكتبون بها الوثائق وما إليها، وكانوا فى شئونهم اليومية وأحاديثهم فيما بينهم يستخدمون لهجة من اللاتينية الدارجة أو الرومانسية، ويقول: إن هذا الازدواج فى اللغة كان الأصل فى نشوء طراز شعرى مختلط تمتزج فيه مؤثرات غربية وشرقية. واتخذ هذا الطراز الجديد من الأدب الشعبى صورتين هما الزجل والموشحة وهما فن شعرى واحد، غير أن الزجل سوقى دارج والموشحة عربية فصيحة. وفى رأينا أن ريبيرا بالغ فى كل ذلك مبالغة أدته إلى نظريته المخطئة.

وقد يشهد لها أن يروى الخشنى عن بعض القضاة بقرطبة أنه كان يعرف اللاتينية الدارجة أو كما كانوا يسمونها العجمية، إذ ذُكر عنه أن شخصا صاح عليه بالعجمية وهو منصرف من مجلس قضاء ليقف له، فقال لمن معه قولوا له بالعجمية إن القاضى قد أدركته الملالة والسآمة[١]. وواضح أنه فهم مراده من صياحه بالعجمية، مما يدل على أنه كان يعرفها. وأوضح من ذلك فى الدلالة على معرفة بعض القضاة للاتينية الدارجة ما ذكره الخشنى من أن رجلا من شهود أحد القضاة يسمى ابن عمار كانت له بغلة هزيلة تلوك لجامها طوال النهار على باب المسجد، فتقدمت امرأة إلى هذا القاضى فى مجلسه بالمسجد، فقالت له بالعجمية: يا قاضى انظر لشقيَّتك هذه (تقصد نفسها) فقال لها بالعجمية: - كما يقول الخشنى - لست أنت شقيتى إنما شقيتى بغلة ابن عمار التى تلوك لجامها على باب المسجد طوال النهار[٢]. وكان بين القائمين على الشهادة عند القضاة بقرطبة شيخ أعجمى اللسان مقبول الشهادة عندهم[٣]. وهذه الأخبار جميعا عند الخشنى لا تدل دلالة قاطعة على أنه كانت بقرطبة فضلا عن الأندلس لهجة لاتينية دارجة يستخدمها العرب فى لغة التخاطب لأنها أخبار فردية، وممكن أن يكون القاضيان السالفان رُزقا لأمَّيْن أعجميتين، فتلقَّظ كل منهما الأعجمية عن أمه، أما اتخاذ القضاة لشاهد أعجمى اللسان فيدل على أنهم كانوا فى حاجة إليه وأنهم كانوا لا يعرفون اللاتينية الدارجة التى يلوكها بعض الأعاجم، فاحتاجوا إلى مترجم يترجم ما يقولون سواء أكانوا من أصحاب الدعاوى أو المتهمين، حتى يحكم القضاة فى قضاياهم عن حسن فِقْهٍ بها ودقة فهم لها. وهو بذلك خبر ينقض ما يقال من أن لغة التخاطب فى قرطبة كانت لهجة لاتينية دارجة، إذ لم تكن كثرة القضاة بها تعرفها. ومما يدلل به أيضا أنصار نظرية ريبيرا أن بعض الألقاب

---

(١) قضاة قرطبة للخشنى (طبعة مصر) ص٩٦.

(٢) الخشنى ص١١٨.

(٣) الخشنى ص٨٤.

اللاتينية ظلت تلاحق بعض أعلام الأسر الإسبانية التى دخلت فى الإسلام، وهو شىء طبيعى أن يظل اللقب اللاتينى القديم ملحقا ببعض الأعلام لأنه رمز الأسرة، وقد يقولون: إننا نجده يَلْحَقُ بعض أبناء العرب أنفسهم من الشعراء وغيرهم، من ذلك أن الشاعر مؤمن بن سعيد المتوفى سنة ٢٦٧ لقَّب زميله عبد الله بن بكر بن سابق الكلاعى الشاعر بلقب النَّذْل كما فى المقتبس لابن حيان[١]، وفى التكملة لابن الأبار أنه لقَّبه بالقملة ولعلها تحريف لكلمة القنلة Canalla باللاتينية أى النذل[٢]، وكأنما شاع عليه اللقب بالعربية واللاتينية. ويلقانا بعده شاعر يسمى محمد بن يحيى بن زكريا المتوفى سنة ٣٠٢ وكان هجاء كبيرا قذر الثياب دائما، فلقبه بعض معاصريه انتقاما منه بلقب القلفاط، و Calafate باللاتينية الدارجة دهَّان السفن بالقار، نبزوه بذلك - كما يرى الدكتور مكى - لقذارة ثيابه. وكان سعيد بن عثمان المروانى شاعر المنصور بن أبى عامر فى أواخر القرن الرابع يُنْبَز بلقب البَلِّينه[٤] Ballena وهو باللاتينية الدارجة - كما قال ابن سعيد - الحوت لضخامته. ومثل هذا النبز بالألقاب العجمية لأبناء العرب فى قرطبة والأندلس كان محدودا إذ لا يتجاوز المعروف منه الواضح فى دلالته على النبز عدد أصابع اليدين إن لم يكن عدد أصابع اليد الواحدة، ولذلك لا نستطيع أن نتخذه دليلا على شيوع اللاتينية الدارجة فى تخاطب العرب بالأندلس.

وقد يقول أصحاب نظرية ريبيرا إن فى أيدينا برهانا قويا على صحتها هو ما ذكره ابن حزم فى كتابه «جمهرة أنساب العرب» عن قبيلة بَلِيّ بالأندلس، إذ قال: «دارهم فى الموضع المعروف باسمهم بشمالى قرطبة، وهم هنالك إلى اليوم (فى القرن الخامس الهجرى) على أنسابهم لا يحسنون الكلام باللاطينية لكن بالعربية فقط: نساؤهم ورجالهم»[٥]. ويقولون واضح من هذا النص لابن حزم أن قبيلة بليّ وحدها فى الأندلس دون القبائل العربية الأخرى لم تكن تحسن الكلام باللاتينية الدارجة، بخلاف سواها من القبائل، إذ كانت تتكلم بها وتتخاطب فى لغتها اليومية. وابن حزم إنما تحدث عن بليٍّ وحدها، دون أن ينسب بوضوح إلى غيرها من القبائل أنها كانت تحسن الأداء عما فى نفسها باللاتينية. ولعل مما يؤكد أنه كان وراءها قبائل بل مدن لا تتكلم إلا بالعربية على

---

(١) انظر المقتبس (تحقيق د. مكى طبع بيروت) ص٩٨ وقابل بالمغرب ١١٣/١.

(٢) التكملة (طبع مدريد) رقم ١٢٤٠ وراجع فى ذلك تعليق د. مكى فى المقتبس ص ٥٠٤

(٣) راجع المغرب ١١١/١.

(٤) المغرب ١٩٧/١.

(٥) راجع جمهرة أنساب العرب لابن حزم (طبع دار المعارف) ص ٤٤٣.

شاكلتها ما جاء عند ياقوت بالقرن السابع فى كتابه معجم البلدان عن أهل شِلْب إذ يقول: «قلَّ أن ترى من أهلها من لا يقول شعرا ومن لا يعانى الأدب، ولو مررت بالفلاح فيها خلف محراثه، وسألته عن الشعر قرض من ساعته ما اقترحت عليه وأى معنى طلبت منه»[١]. وفى الروض المعطار للحميرى المتوفى سنة ٩٠٠: «مدينة شلب فى الجنوب الغربى للأندلس» ويقول: «إن سكانها وسكان قراها ظلوا يحافظون على اللغة العربية الفصيحة إلى عهود متأخرة»[٢]. وكأنما ظل يعيش فى الأندلس ببعض مدنها وديارها عرب لم يفارقوا لغتهم الفصيحة حتى عصور متأخرة، فكيف يذهب باحث إلى أن العرب -أوكثيرًا منهم- هناك زايلت العربية أماكنها من ألسنتهم وعقولهم وقلوبهم وحلت محلها اللاتينية الدارجة فى تخاطبهم اليومى، بينما كانت الفصحى لغة السياسة والسلطان والحكم ولغة الدين والثقافة والفكر والأدب؟!

ومما يدل على خطأ نظرية ريبيرا أيضا -من بعض الوجوه- صيحة أَلْبَرُو القرطبى المشهورة التى يأسى فيها لولع نصارى الإسبان بالأدب العربى ولغته العربية، فما بالنا بولع المسلمين من العرب والإسبان بهذه اللغة وأدبها الرائع، يقول، والحسرة تقطِّع نياط قلبه: «إن إخوانى فى الدين يجدون لذة كبرى فى قراءة شعر العرب وحكاياتهم، ويقبلون على دراسة مذاهب أهل الدين والفلاسفة المسلمين، لا ليردّوا عليها وينقضوها، وإنما لكى يكتسبوا من ذلك أسلوبا عربيا جميلا صحيحا، وأين تجد الآن واحدا - من غير رجال الدين - يقرأ الشروح اللاتينية التى كتبت على الأناجيل المقدسة؟! ومَنْ - سِوَى رجال الدين - يعكف على دراسة كتابات الحواريين وآثار الأنبياء والرسل؟! يا للحسرة! إن الموهوبين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب وآدابها، ويؤمنون بها ويقبلون عليها فى نَهَم، وهم ينفقون أموالا طائلة فى جَمْع كتبها، ويصرِّحون فى كل مكان بأن هذه الآداب حقيقة بالإعجاب، فإذا حدثتهم عن الكتب النصرانية أجابوك فى ازدراء بأنها غير جديرة بأن يصرفوا إليها انتباههم. يا للألم! لقد أُنْسِىَ النصارى حتى لغتهم، فلا تكاد تجد بين الألف منهم واحدا يستطيع أن يكتب إلى صاحب له كتابا سليما من الخطأ، فأما عن الكتابة بلغة العرب فإنك واجد فيهم عددا عظيما يجيدونها فى أسلوب منمق، بل هم ينظمون من الشعر العربى ما يفوق شعر العرب أنفسهم فنا وجمالا»[٣].

---

(١) انظر مدينة شلب فى معجم البلدان لياقوت.

(٢) الروض المعطار للحميرى (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١٠٦.

(٣) راجع نص هذه الصيحة فى بالنثيا ص ٤٨٥ وما بعدها.

وألْبَرُو يصرخ – بأعلى صوته – إن شبان النصارى فى الأندلس لزمنه أصبحوا يشغفون شغفا شديدا بلغة العرب وآدابها الرائعة، حتى لقد نسوا لروعتها الباهرة لغتهم اللاتينية، فإذا هى تملك منهم الألسنة والقلوب وتسيطر على العقول والمشاعر والأحاسيس، وإذا هم يعكفون عليها قارئين متخذين منها أمثلتهم فى الكتابة المنمقة ونظم الأشعار البديعة. ويؤكد بالنثيا تلك الصيحة لألْبَرُو قائلا: «إن كل ما ذكره حقيقى تؤيده تلك القصائد التى نجدها فى خاتمة مخطوط محفوظ فى المكتبة الأهلية بمدريد، وهو يضم مجموعة من القوانين الكنسية، وقراراتها مرتبة أبوابا على حسب موضوعاتها ومترجمة من اللاتينية إلى العربية بقلم قُسٍّ يسمَّى بِنْجِنْسُيسْ، والكتاب مُهْدًى إلى الأسقف عبد الملك، ونظمت عبارات الإهداء فى قصيدة شعرية عربية لا تفترق فى شىء عما ينظمه العرب المسلمون فى هذا المقام شكلا ومضمونا». ويسوق بالنثيا أربعة أبيات بديعة من تلك القصيدة، ثم يقول: «والكثير من الكتب اللاتينية التى كتبها المستعربون (من نصارى الإسبان) تحمل هوامشها شروحا وتعليقات عربية.. وقد ظلوا يستخدمون العربية زمنا طويلا بعد زوال سلطان الإسلام من الجزيرة (فى طليطلة وغيرها من المدن الأندلسية الوسطى والغربية والشرقية) وظلوا يكتبون بلغة العرب وقائعهم ويتسمَّون بأسماء عربية حتى أوائل القرن الرابع عشر، كما يتضح من الوثائق التى خلَّفها لنا مستعربو طليطلة»[1].

ويشهد لبالنثيا وألْبَرو أن نجد بين الإسبان المسيحيين من بلغ من إتقانهم العربية أن عُيِّنوا كتابا فى دواوين الدولة الأموية منذ أواسط القرن الثالث الهجرى مثل قومس بن أنتنيان الذى مرَّ ذكره فى الفصل الأول لعهد الأمير محمد بن عبدالرحمن. وإذا كان ألبرو يشهد بتعرب الإسبان المسيحيين بحيث أصبحوا يستحبُّون العربية على لغتهم اللاتينية الدارجة فإن اليهود الذين كانوا يعيشون بإسبانيا منذ قرون طويلة تعرَّبت – فى ظننا – كثرتهم حتى لنجد كتب التراجم الأدبية الأندلسية تترجم لنفر منهم بين كتاب الأندلس وشعرائها وموسيقييها ووشَّاحيها، وقد ترجم ابن سعيد فى كتابه المغرب لسبعة منهم، هم: إسماعيل بن يوسف بن النغريلَّة وزير باديس بن حبوس فى غرناطة وكان سيئ السيرة، وكذلك لابنه يوسف وكانا شاعرين، ولمعاصرهما حسداى بن يوسف بن حسداى كاتب بنى هود بسرقسطة، وقد أقاله الله من دينه، فأسلم وحسن إسلامه، وكان أديبا مجيدا شعرا ونثرا، وله ترجمة طويلة فى كتاب الذخيرة وكان أبوه كاتبا عند بنى هود قبله، وعين

---

(١) انظر بالنثيا ص ٤٨٦ وما بعدها.

عبد الرحمن الناصر جده حَسْداى كاتبا فى دواوينه. وممن ترجم لهم ابن سعيد بين شعراء المائة السادسة إلياس بن صَدّود الطبيب وإسحق بن شمعون وكان يحسن الغناء والضرب على الآلات الموسيقية الأندلسية. وترجم ابن سعيد لشاعر يهودى طليطلى مستعرب هو إبراهيم بن الفخار رسول ألفونس إلى الأئمة فى دولة الموحدين. وترجم ابن سعيد فى القرن السابع أيضا لإبراهيم بن سهل الإسرائيلى الإشبيلى الذى آثر الإسلام دينا وعقيدة، وكان شاعرا نابها ووشاحا مجيدا. ومما يدل على اتساع التعرب بين يهود الأندلس أن نجد بين نسائهم شاعرات مجيدات مثل قَسْمونة بنت إسماعيل اليهودى وكان أبوها – كما يقول المقّرى – شاعرا واعتنى بتأديبها، وكانت تطارحه الشعر، وكان ربما نظم قسما من موشحة، فأتمتها هى بقسم آخر. ومما يؤكد أن الكثرة من يهود الأندلس تعربت تعربا كاملا أنه حين أخذ الإسبان والغربيون يطلبون ترجمة الثقافة العربية إلى الإسبانية الدارجة واللاتينية كان لهم فى ذلك دور ضخم، سوى ما تمثلوه من تلك الثقافة فى لغتهم العبرية، حتى ليقول بالنثيا: «نبعت ثقافة يهود إسبانيا من موارد الثقافة الإسلامية الأندلسية بصفة مباشرة»[١].

ولعل فى ذلك كله ما ينقض – بوضوح – على خطأ نظرية ريبيرا المفضية إلى أن عرب الأندلس كانوا يستخدمون فى شئونهم اليومية وأحاديثهم فيما بينهم لهجة من اللاتينية الدارجة أو العجمية، لأن فى ذلك ما يخالف الحقائق الكبرى التى قدمناها. وأيضا فإنه لايستطيع أحد أن يقول إن نصارى الإسبان فى الأندلس ويهودها لم يكونوا يستخدمون فى تخاطبهم اليومى العامية العربية الأندلسية، بينما سموا مستعربين وهو اسم لصق بهم طوال امتزاجهم بالعرب قرونا متوالية. وكل ما يستدل به ريبيرا على نظريته المخطئة ظهور طراز جديد من الأدب الشعبى فى الأندلس اتخذ صورتين هما الموشحة والزجل، ومعروف أن الموشحة سبقت فى نشأتها الزجل بأكثر من قرنين على الأقل وأنها كانت تنظم بالعربية الفصحى فى جمهورها، إلا ما قد يتظرف به ناظمها فى الحين بعد الحين من ذكر كلمات رومانسية فى نهايتها، على نحو ما سنوضح ذلك فيما بعد، ومعروف أيضا أن الزجل لا ينظم بلاتينية دارجة، إنما ينظم بعامية أندلسية تتراءى فيها أحيانا ألفاظ من اللغة اللاتينية الدارجة، وهى ليست عامية لاتينية، إنما هى عامية عربية، شأنها شأن العاميات التى نشأت فى جميع البلاد العربية من التقاء الفصحى فيها بلغات أهلها

(١) راجع دور اليهود فى ترجمة الثقافة الأندلسية عند بالنثيا ص ٤٨٨ و٥٣٧.

الوطنية، وقد دخلتها فى كل بلد عربى بعض خصائص تلك اللغات فى النبر والتصريف، كما دخلتها ألفاظ منها كثيرة. وهو ما حدث فى الأندلس على نحو ما يتضح فى أزجالها، فهى منظومة بعربية عامية تتخللها من حين إلى حين ألفاظ من اللهجة الرومانسية التى كانت مستقرة فى الأندلس قبل الفتح العربى وظلت حية فيها وراءها من الإمارات المسيحية فى الشمال، وبالمثل فى الأندلس على ألسنة بعض النصارى والجوارى الإسبانيات والمسترقين من الإسبان فى الحروب، وانزلقت منها بعض ألفاظ فى الأزجال. وبين أيدينا نصوص لا تكاد تحصى أو تستقصى من هذه الأزجال المنظومة بالعامية، وليس فيها أى نص مكتوب أومنظوم باللهجة الرومانسية الدارجة فى الأندلس، مما يؤكد أن نظرية ريبيرا المفضية إلى شيوع تلك اللهجة على ألسنة عرب الأندلس مخطئة وكل ما يمكن أن يقال أن بعض عرب الأندلس كانوا يعرفون تلك اللهجة أويلمون بشىء منها بجانب الفصحى والعامية العربية الأندلسية المتداولة فى الألسنة. ولم يكتب الزجالون بتلك العامية أزجالهم وحدها، بل كتبوا معها أيضا قصائد نظموها على أوزان العروض العربى، على نحو ما يلقانا عند أبى عبدالله أحمد بن الحاج المعروف باسم مَدْغَلِّيس، وهو من شعراء القرن السادس الهجرى، إذ ذكر صفى الدين الحلى فى كتابه: «العاطل الحالى» أنه قرأ له فى ديوانه بجانب أزجاله ثلاث عشرة قصيدة عامية على أوزان الشعر العربى، وقد سمَّى أوزان عشر قصائد منها، وهى أربع من وزن المديد، واثنتان من وزن الرمل، وأخريان من وزن الخفيف، وقصيدة من وزن المتقارب وأخرى من وزن مخلَّع البسيط، وأنشد من كل قصيدة مجموعة غير قليلة من أبياتها العامية[1]. ومن المؤكد أن الأزجال عند مدغليس وغيره كانت مثل هذه القصائد العامية تنظم على أوزان الشعر العربى كما سيتضح - فيما بعد - فى تعليقنا على ما ننشده من بعض الأزجال.

والأندلس - بذلك كله - لم يتداول أهلها من العرب فى ألسنتهم لهجة لاتينية دارجة كما توهم ريبيرا، إنما تداولوا فيها عامية عربية، كان يتداولها العامة بالأندلس فى تخاطبهم اليومى بالأسواق وغير الأسواق، واشترك معهم فيها أوساط المثقفين مع تمسكهم بالفصحى وآدابها الرفيعة، يستوى فى ذلك المسلمون والمسالمة، كما يستوى المسيحيون المستعربون ممن تحدث عنهم ألْبَرُو آنفًا. والشعب الأندلسى - فى هذا الصنيع - يلتقى

---

(١) راجع كتاب العاطل الحالى والمرخص الغالى لصفى الدين الحلى بتحقيق حسين نصار (نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة) ص ١٥ وما بعدها.

بجميع الشعوب الإسلامية فى البلدان العربية المختلفة، إذ كانت الأوساط الثقافية فيها جميعًا تتمسك بالفصحى وتتمثل آدابها وتشارك فيها بما تنتج من شعر ونثر، وفى الوقت نفسه تتحدث هذه الأوساط بلغة عامية دارجة مثلها فى ذلك مثل العامة من حولها، وهى لغة أهمل فيها الإعراب، ودخلتها بعض خصائص وألفاظ من اللغات القديمة التى كانت سائدة فى تلك البلدان قبل أن ينزلها العرب ويستقروا فيها ويتخذوها أوطانًا جديدة لهم. وكما أن العامة بمختلف البلدان العربية بدَّلت فى بعض ألفاظ العربية تبديلات مختلفة فى حركاتها وانزلقت من كلماتها السوقية والعامية بعضُ ألفاظ إلى كتابات الكتَّاب وقصائد الشعراء مما جعل بعض اللغويين فى المشرق يؤلف كتبًا فى لحن العامة، حتى يجتنبه الأدباء وينحّوه عن كتاباتهم وأشعارهم على نحو ما نعرف عند الكسائى البغدادى المتوفى سنة ١٨٩ للهجرة كذلك ألَّف الزبيدى القرطبى الذى مرَّ ذكره بين اللغويين الأندلسيين فى القرن الرابع الهجرى كتابًا فى لحن العوام حتى ينبِّه الكتَّاب والشعراء إلى ما أفسدته العامة من ألفاظ العربية ودخل أحيانًا فى كتاباتهم وأشعارهم حتى يتبيَّنوه ويجتنبوه[١].

وإذن فقد كانت تشيع عامية عربية فى الأندلس على ألسنة العرب والمستعربين لا لاتينية دارجة أو رومانسية، كما ظن ريبيرا، وهى عامية كانت تهمل الإعراب وتفسد أحيانا النطق السليم لبعض ألفاظ العربية شأن العاميات التى نشأت فى البلدان العربية الأخرى، وقد كتب فيها - كما ذكرنا - العلماء اللغويون من أمثال الزبيدى كتبا، ونظم فيها زجالون أزجالا كثيرة، وأحيانا دواوين زجلية، وأضاف بعض الزجالين إلى أزجالهم قصائد عامية، وهو تراث عربى أندلسى عامى ضخم، وهو لا يقاس من حيث الضخامة إلى ما خلفت العربية هناك من تراث فصيح هائل ثقافى وأدبى وعلمى وفلسفى، بحيث نستطيع أن نقول بحق إن العرب أنشأوا فى الأندلس شعبا عربيا كبيرا ظل بها ثمانية قرون متعاقبة، وظل عربىَّ اللغةِ فصيحةً وعاميةً، وظل عربىَّ الدين والحضارة كما ظل عربى الثقافة والعقل والفكر والشعور والوجدان.

---

(١) انظر مقدمة كتاب لحن العوام للزبيدى بتحقيق الدكتور رمضان عبد التواب (طبع مكتبة دار العروبة بالقاهرة).

(ب) كثرة الشعراء

كان طبيعيا أن يظل نشاط الشعر بالأندلس محدودا زمن الولاة (٩٢ - ١٣٨ هـ) وصدر الدولة الأموية هناك حتى عهد الحكم الربضى (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) لأن أكثر العرب الفاتحين للأندلس كانوا يمنية، والشعر إنما ينشط على ألسنة العدنانيين، وربما نُظمت أشعار فى تلك الفترة لم يسجلها الرواة، ومع ذلك فقد حدثونا عن شاعر مضرى مبكر فى عصر الولاة لم يلحق زمن الدولة الأموية هو جَعْونة الكلابى كان مدَّاحا للصُّمَيْل بن حاتم مستشار يوسف بن عبد الرحمن الفهرى والى الأندلس منذ سنة ١٢٩ للهجرة، وأنشدوا بعض شعره، كما أنشدوا أشعارا لعبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية وابنه الأمير هشام وحفيده الحكم الربضى. ويظل الرواة ينشدون أشعارًا لأمراء البيت الأموى. وقد أخذ هذا البيت القرشى فى رعاية الشعر منذ أول ولايته فى الأندلس، ويذكرون من الشعراء فى عصر الداخل قاضيه معاوية بن صالح وابن عم جده بشر بن عبد الملك المروانى الداخل إلى الأندلس فى صدر أيامه وحبيب بن عبد الملك المروانى وكانت له عند الداخل مكانة عليَّة. واشتهر من الشعراء فى عهد الأمير هشام أبو المخشىّ عاصم بن زيد المتوفى فى دولة ابنه الحكم الربضى، واشتهر لزمن الحكم غِرْبيب بن عبد الله الثقفى الطُّلَيْطلى المتوفىَّ فى أول دولة عبد الرحمن الأوسط ابن الحكم (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) وعهده يُعَدّ - كما مر بنا - بدء الازدهار الحضارى والثقافى بالأندلس، وأيضا بدء الازدهار الأدبى، وحظى بنزول زرياب فى قرطبة لأول حكمه، ودَفْعه لنهضة غنائية ومُوسيقية تحدثنا عنها فى غير هذا الموضع. ورافق ذلك نشاط واسع للشعر وإعزاز لمكانته ورعاية متصلة من عبد الرحمن الأوسط لشعرائه، ونعد من مشهوريهم عباس بن ناصح قاضى الحكم الربضى على شذونة والجزيرة، ومرَّ بنا - فيما أسلفنا - أن عبد الرحمن الأوسط وجَّه به إلى العراق فى التماس الكتب القديمة التى تحمل علوم الأوائل فجلب منها إلى الأندلس كنوزا كثيرة أكبَّ عليها الأندلسيون، وبدءوا نهضتهم فى إساغة تلك العلوم ثم الإضافة إليها - فيما بعد - إضافات باهرة. ومن مشهورى الشعراء أيضا فى هذا العهد يحيى الغزال الذى بدأ ظهوره فى عهد الحكم الربضى وعاش طويلا حتى سنة ٢٥٠ للهجرة، ومثله عباس بن فرناس صاحب قصة الطيران المشهورة، وقد نجم فى عهد الحكم وعاش حتى سنة ٢٧٤. وكان يعاصرهما عبد الله بن الشِّمْر منجم الأمير عبد الرحمن الأوسط ونديمه وعثمان بن المثنى مؤدب أبنائه، ومثله

عبد الله بن بكر الكلاعى الملقب بالنذل، ومثلهما أبو عثمان سعيد بن الفرج الملقب بالرشاش، وكان من آدب الناس فى زمانه وأقومهم على لسان العرب، يقال إنه كان يحفظ أربعة آلاف أرجوزة. ومن مشهورى الشعراء لعهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ) عبد الله بن حسين بن عاصم الثقفى جليسه، ووزيره عبد الملك بن أحمد بن شهيد وعامر بن عامر بن كليب، ومحمد بن عبد العزيز العتبى وله مدائح كثيرة فى الأمير وابنه القاسم ووزيره هاشم بن عبد العزيز، ومؤمن بن سعيد كبير شعراء قرطبة كما يقول ابن حيان، ولكل هؤلاء تراجم وأشعار فى المغرب والمقتبس. وممن تدور أسماؤهم من الشعراء فى المقتبس لعهد الأمير محمد طاهرُ بن حزم وتمام بن أحمد بن عامر وعبد الله بن محمد المرورى وأحمد بن محمد بن فرج البلوى. ومن الشعراء المشهورين لعهد الأمير عبد الله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) حسب تعداد ابن حيان لهم فى المقتبس ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد، ويقول إنه زعيمهم وسابق حلبتهم وعبيد الله بن يحيى بن إدريس وسيحظى عبد الرحمن الناصر بمدائحهما له حتى وفاتهما لعهده، وعِداد ابن عبد ربه فى بيوتات المولدين ومثله عداد ابن إدريس فى بيوتات المولَّدين لعهد الدولة المروانية كما يقول ابن حيان. ومضى يعد من شعراء الأمير عبد الله مقدم بن معافى القبرى مخترع الموشحات وهو عربى صليبة كما سنعرف فيما بعد وقاسم بن عبد الواحد العجلى وأحمد بن قلزم وإسحاق المنادى وزيد بن ربيع وسعيد بن عبد ربه المطبِّب ابن أخى الشاعر ابن عبد ربه وعبيديس بن محمود، وكان كاتبا فى القصر وله مدائح كثيرة فى الأمير عبد الله، ثم خرج إلى عبيد الله بن أمية المعروف باسم ابن الشاليه الثائر بجيَّان فكتب له وامتدحه بشعر كثير، كما امتدح زميله الثائر مثله على الدولة ابن حفصون. ومن أهم الشعراء حينئذ القلفاط محمد بن يحيى المار ذكره وله مدائح فى الأمير عبد الله وأيضا فى كثيرين من الثوار على الدولة. ومر بنا فى الفصل الأول أن الفتن كانت قد تفاقمت لعهد الأمر عبد الله فى ديار كثيرة بالأندلس بين المستعربين والمسالمة والمولدين من جهة وبين العرب من جهة ثانية وكانت من الديار التى حدثت فيها هذه الفتنة إلبيرة ومعها غرناطة، ونشبت بين الطرفين فيهما حروب ووقائع كثيرة. والمهم أن ذلك أدى إلى ظهور شعراء ينتصر كل منهم لجماعته ويهجو متوعدا الجماعة المقابلة، واشتهر من هؤلاء الشعراء بين العرب سعيد بن سليمان بن جودى والى الأمير عبد الله على غرناطة، وشعره يفيض بحمية قوية للعرب وتوعد شديد لخصومهم، وأدار شاعران: عربى هو الأسدى محمد بن سعيد بن مخارق، ومولَّد من أبناء المسالمة هو العبلى عبد الله مناقضات، يناضل فيها كل منهما عن قومه.

ونفر غير قليل من شعراء الأمير عبد الله عاشوا فى عهد حفيده عبد الرحمن الناصر لذى امتد خمسين عاما حتى سنة ٣٥٠ للهجرة يقول ابن حيان: «اجتمعت له حَلْبة من فحول الشعراء أمراء الكلام افتنوًّا فى تقريظه وتوسعوا فى ذكر عدالته وسماحة كفه وشجاعة قلبه وجزالة رأيه وثقوب فهمه وبصره بتدبير حروبه واتصال فتوحه.. فأبدعوا فيما تناولوه به من ذلك بفضل اقتدارهم ومكانهم من صناعتهم فزادوا دولته حسنا وبهاء وكان المقدمون لديه من طبقتهم عدة خناذيذ[1] مقدَّمهم معلمه فى الصبا ابن عبد ربِّه، ويليه من نمطه عبيد الله بن يحيى بن إدريس وعبد الملك بن سعيد المرادى وإسماعيل بن بدر وأغلب بن شعيب وحسن بن حسان السِّناط وغيرهم من كِبار الطارئين عليه من المشرق مثل طاهر بن محمد البغدادى ومحمد بن الحسين الطُّبْنى الإفريقى[2]. ويذكر ابن حيان فى الجزء الخامس الخاص بالناصر من المقتبس لهم مدائح كثيرة كانوا يهنئونه فيها بانتصاراته وخاصة لابن عبد ربه وابن إدريس ولشعراء آخرين مثل جعفر المصحفى ومحمد بن أضحى صاحب الحامَّة وعبد الملك بن جهور وزيره وأحمد بن محمد الرازى الذى مر ذكره بين المؤرخين. وكثير من هؤلاء الشعراء باستثناء الأولين يدخلون فى عداد شعراء ابنه الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦هـ) وفى مقدمتهم جعفر المصحفى مولاه وحاجبه ومحمد بن الحسين الطُّبْنى ومن شعرائه المهمين وزيره أحمد بن عبد الملك بن شهيد ويحيى بن هذيل ومحمد بن شخيص وأحمد بن فرج الجيَّانى صاحب كتاب الحدائق. وكان الحكم مِثل أبيه الناصر - شاعرا، وأنشد له صاحب المغرب أشعارا بديعة، وكذلك أنشد لأخوته عبد الله ومحمد وعبد العزيز ولابن أخيهم محمد بن عبد الملك بن الناصر. ويخلفه ابنه المؤيد (٣٦٦ - ٣٩٩هـ) ويحجب له المنصور بن أبى عامر ثم ابناه المظفر والناصر، وتصبح الدولة دولتهم، وليس للمؤيد حول ولا طول، وتنشب بقرطبة فتنة تظل نحو عشرين عاما، ويُقْضَى فيها على الحكم الأموى قضاء مبرما. ومن مشهورى الشعراء فى الدولة العامرية والسنوات العجاف بعدها عبد الملك بن أحمد بن شهيد، وابنه أحمد صاحب رسالة التوابع والزوابع المشهور بجودة نثره وشعره، والبلّينه سعيد بن عثمان المروانى وهو من مداح المنصور بن أبى عامر، والقائد يَعْلَى بن أحمد بن يَعْلَى وعبد الملك بن إدريس الجزيرى كاتب المنصور وابن النظام عبد الرحمن بن محمد والمطرف بن عمر الهَشَيِّمى وعبد الله بن أبى الحسن

---

(١) الخناذيد جمع خنذيد،وهو من الشعراء: المجيد المحسن.

(٢) راجع الجزء الخامس من المقتبس (طبع المعهد الأسبانى العربى للثقافة بمدريد) ص٤٠ وما بعدها.

ومحمد بن شخيص شاعر المستنصر ويوسف بن هرون الرمادى المتوفى سنة ٤١٣ ومحمد بن الحسين الطُّبْنى وجعفر بن أبى على القالى، وعيسى بن الحسن، وعُبادة بن ماء السماء المتوفى سنة ٤١٩ وابن الكتّانى محمد بن الحسن المذحجى المطبِّب وابن دراج القسطلى وأمية[١] بن غالب المورورى.

ومما يدل بوضوح على كثرة الشعراء فى زمن الدولة الأموية منذ القرن الثالث أن نجد كثيرين من الأندلسيين يعنون بالترجمة لشعرائهم منذ صدر القرن الرابع الهجرى، على نحو ما نجد عند عثمان بن ربيعة المتوفى سنة ٣١٠ واسم كتابه «طبقات الشعراء بالأندلس» وتتوالى بعده المصنفات التى تعنى بتاريخ الشعراء الأندلسيين وعَرْض أشعارهم مثل شعراء الأندلس لابن سعيد الكنانى المتوفى سنة ٣٢٠ وأخبار شعراء الأندلس لمحمد بن هشام الأموى فى زمن عبد الرحمن الناصر، والشعراء من فقهاء الأندلس لقاسم بن نصير المتوفى سنة ٣٣٨ وشعراء الأندلس لمحمد بن عبد الرءوف الأزدى المتوفى سنة ٣٤٣ وشعراء إلبيرة لمطرف بن عيسى الغسانى المتوفى سنة ٣٥٧ وكتاب الحدائق لأحمد بن فرج الجيانى، ومرَّ بنا فى الفصل الماضى أنه ألفه للحكم المستنصر معارضا به كتاب الزهرة لابن داود البغدادى وكان ابن داود وزَّع كتابه على مائه باب وأودع فى كل باب مائة بيت، فجعل ابن فرج كتابه - كما مر بنا - فى مائتى باب وفى كل باب مائتا بيت، افتخارا بذلك لأهل موطنه وبيانا لتفوقهم فى الشعر وبراعتهم فيه. وألف بعده ابن الفرضى المتوفى سنة ٤٠٣ كتابا فى أخبار شعراء الأندلس، وبنفس العنوان ألف عبادة بن ماء السماء كتابا مماثلا. وألف ابن الكتّانى «كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس» وهو نماذج من التشبيهات البديعة اختارها للشعراء الأندلسيين حتى زمنه، وقد ألممنا به فى حديثنا عن عناية الأندلسيين بالبلاغة العربية فى الفصل الماضى. وفى سرد تلك الكتب العشرة ما يدل بوضوح على كثرة الشعراء الأندلسيين كثرة مفرطة زمن الدولة الأموية.

ونمضى إلى عصر أمراء الطوائف، وقد أدّت المنافسة بينهم إلى أن يجمع كل منهم حوله كوكبة من الشعراء ولعل إمارة لم تُعْنَ بجذب الشعراء إليها كما عُنيت إمارة بنى عباد بإشبيلية، فقد أكثروا من إغداقهم على الشعراء، وليس ذلك فحسب، فقد أحالوا إشبيلية

(١) انظر تراجم هؤلاء الشعراء فى المغرب وخاصة فى كتاب مدينة الزاهرة ١/١٩٧-٢١١.

إلى دار غناء ضخمة، وكانت مجالس المعتضد وابنه المعتمد ندوات كبيرة لالتقاء الشعراء وإنشادهم مدائحهم فى الأميرين، وكانا شاعرين، وخاصة المعتمد إذ كان شاعرا كبيرا وله ديوان شعر منشور. ويترجم ابن بسام فى الذخيرة وابن سعيد فى المغرب لشعراء إشبيلية والوافدين عليها فى عهد المعتضد والمعتمد، وهم يعدون بالعشرات، نذكر منهم لعهد المعتضد أبا عامر بن مسلمة صاحب كتاب الارتياح فى وصف حقيقة الراح ألفه للمعتضد وإسماعيل بن عامر الحميرى الملقب بحبيب صاحب كتاب البديع فى وصف الربيع وأبا جعفر أحمد بن الأبار وأبا حفص عمر بن الحسن الهوزنى وعلى بن غالب بن حصن ومحمد بن ديسم وأحمد بن محمد الإشبيلى وإبراهيم بن خيرة بن الصباغ وعبد الله بن حجاج وأبا القاسم محمد بن عبد الغفور وابن زيدون القرطبى الذى اتخذه وزيرا ومدبِّرًا لشئون دولته منذ نزوله بإشبيلية سنة ٤٤١. وكان ابنه المعتمد راعيا كبيرًا للشعر والشعراء، ومن شعرائه أبو الوليد محمد بن عبد العزيز المعلم وزيره وكاتبه وأبو القاسم بن الجد وأبو القاسم بن مرزقان وابن المِرْعِزِّى النصرانى الإشبيلى. وكاد أن لا ينجم فى بلد من بلدان الأندلس شاعر كبير إلا ويفد عليه ويقدم مدائحه إليه من مثل ابن عمار الشلبى الذى وفد على أبيه، وانعقدت بينه وبين المعتمد صحبة حتى إذا أفضت الإمارة إليه جاءه فتلقاه بأعظم قبول، وظلت الصلة بينهما وطيدة إلى أن أفسدها ابن عمار. ومن كبار شعراء الأندلس الوافدين عليه من البُشَرات فى إلبيرة ابن القزاز محمد بن عُبادة، ومن المريّة يوسف بن عبد الصمد، ومن مرسية عبد الجليل بن وَهْبون الذى تغنى طويلا بانتصاره مع يوسف بن تاشفين فى موقعة الزلاقة، ومن دانية ابن اللبانة الذى تفجع على دولته تفجعا مريرا حين نفاه ابن تاشفين إلى أغمات بمراكش. وممن وفد عليه أيضا ومدحه ابن حمديس شاعر صقلية المشهور.

ولعل فى هذا العرض السريع للشعراء المستوطنين والوافدين على إمارة إشبيلية ما يصور – من بعض الوجوه – كثرة الشعراء فى عهد أمراء الطوائف وحقا لم تبلغ إمارة من إماراتهم ما بلغته إشبيلية من رعاية الشعراء حينئذ، غير أنه لم تكد تخلو إمارة من شعراء يحفون بها وبأمرائها، ولنأخذ مثلا المريَّة، فقد كان من أمرائها راعٍ كبير للشعر هو المعتصم بن صُمادح الذى ظل على إمارتها نحو أربعين سنة وكان شاعراً، وكذلك كان أبناؤه أبو يحيى وأبو جعفر أحمد وأبو محمد عبد الله وأختهم أم الكرم وكانت تنظم الشعر والموشحات، ومن مداحه يوسف بن عبد الصمد الوافد على المعتمد فى إشبيلية، وأبو حفص بن الشهيد، وابن الطراوة سليمان بن محمد، ومن كبار الشعراء الوافدين

عليه من الأندلس وغيرها الأشكركي يوسف بن محمد وابن القزاز محمد بن عبادة الإلبيرى الذي كان يفد على المعتمد بإشبيلية وابن الحداد محمد بن أحمد الوادى آشى والأسعد بن بلِّيطة الطُّليطلى وابن شرف القيروانى. وتكتظ الذخيرة وكتاب المغرب بشعراء إمارات الطوائف المختلفة.

وكان تعدد هذه الإمارات سببا فى أن تتعدد بالأندلس المراكز التى تُغْدَقُ على الشعراء فيها الأموال والعطايا الجزيلة، مما لم يكن مألوفا زمن الدولة الأموية، إذ كانت قرطبة وحدها هى التى تنثر الدنانير، أما فى هذا العصر فقد أخذت منها هذه المكانة - أو قل بَزَّتها فيها - مدن كثيرة من مثل إشبيلية والمريَّة ومُرْسية ودانية وبطليوس وطليطلة وسرقسطة وغرناطة، ودفع ذلك إلى ظاهرة مستجدة فى هذا العصر هى ظاهرة الشعراء الجوَّالين الذين يرحلون من إمارة إلى إمارة أو من أمير إلى أمير فى طلب النوال والمال مثل أسعد بن بلِّيطة الطليطلى وابن القزاز محمد بن عبادة وأبى عامر بن الأصيلى وكان جواب آفاق وعبد الرحمن بن مقانا الأشبونى المبدع، ورأى أن يرجع أخيرا إلى موطنه «القَبْذاق» ويشتغل فيها بالزراعة بعد أن كلَّت قدماه وأضناه التطواف على الإمارات والأمراء[1]. وأخذت تشيع حينئذ ظاهرة غريبة هى ظاهرة المداحين المتسوِّلين من أهل الكُدْية الذين يسميهم ابن بسام فى الذخيرة باسم القوَّالين، وهم لا ينظمون شعرا ولا مديحا، وإنما ينشدون غرر القصائدعلى الأبواب وفى الأسواق يَسْتجدون بها الناس بما يسمعونهم من شعر رائع يمتعونهم به، ويذكر ابن بسام من ذلك الشعر قصيدة ابن مُقانا:

ألبرقٍ لائحٍ من أَنْدرينْ ذرفتْ عيناك بالدمع المَعِينْ[2]

ويقول إن طائفة القوالين فى الأندلس كانوا يتداولون أكثر أبياتها لما تشتمل عليه من عذوبة فى اللفظ وسلاسة[3].

وينتهى عصر الطوائف وأمرائه، وتدخل الأندلس فى عصر المرابطين (٤٨٤ - ٥٤١هـ) وكانوا مشغولين بحرب النصارى فى الشمال، ولم يكن لهم اهتمام بالشعر والأدب، غير أنهم لم يلبثوا - وخاصة ولاتهم فى الأندلس - أن أشربوا روح الأندلس وثقافتها وعنايتها بالشعر، وطبيعى أنْ ظلَّ يعيش فى عصر المرابطين شعراء كثيرون ممن نشأوا فى عصر أمراء الطوائف، ومن الشعراء فى هذا العصر عبد الله بن سارة وابن أبى

(١) الذخيرة ٧٨٧/٢.
(٢) أندرين: قرية بالشام.
(٣) الذخيرة ٧٩١/٢.

الخصال الكاتب وابن الزقاق وابن خفاجة وعبد العزيز بن القبطورنة وعلى بن الإمام ومحمد بن الجراوى الغرناطى وعبد الرحمن بن مالك ويحيى بن الصيرفى وله كتاب فى تاريخ الدولة اللمتونية أو دولة الملثمين أو المرابطين ومحمد بن أحمد بن حجاج وجعفر بن الحاج وأمية بن أبى الصلت والفتح بن خاقان صاحب القلائد والمطمح وابن بسام صاحب الذخيرة وأبو بكر المخزومى الأعمى وأبو العلاء بن الجنّان وابن عائشة الكاتب وأبو بكر بن العربى وابن العريف وأبو أمية بن عصام وعبد الحق بن عطية وعبد المجيد بن عبدون وجعفر بن محمد بن الأعلم ومحمد بن الروح وابن الفخار الأصولى المالقى، ومن كبار الشعراء الوشاحين فى العصر الأعمى التطيلى ويحيى بن بقى واليكّى يحيى بن سهل والأبيض أبو بكر محمد بن أحمد الأنصارى وأبو عبد الله بن أبى الفضل بن شرف وأبو الحسن بن نزار وابن باجة الفيلسوف. ولكل هؤلاء الوشاحين والشعراء تراجم وأشعار فى كتاب المغرب لابن سعيد، وأيضا فإنه ترجم لابن قزمان الواضع النهائى لفن الزجل الأندلسى وديوانه منشور منذ القرن الماضى وقد توفى سنة ٥٥٥ بعد عصر المرابطين بنحو خمسة عشر عاما، وهو لذلك حرى بأن يلحق بعصرهم.

ونمضى إلى عصر الموحدين ونرى ابن سعيد فى كتابه المغرب يترجم فيه لأكثر من أربعين شاعرا نذكر منهم أحمد بن شطرية القرطبى وابن خروف على بن يوسف ومحمد بن الصفار الأعمى القرطبى والهيثم بن أحمد بن الهيثم ومحمد بن عياض اللبلى والخراز البسطى وابن طفيل الفيلسوف وأبا عامر محمد بن الحمارة تلميذ ابن باجة ومحمد بن عبد الواحد الملاحى مؤرخ غرناطة وعبد البر بن فرسان وعبد الله بن عذرة وأحمد بن عبد الملك بن سعيد وصفوان بن إدريس صاحب زاد المسافر والكتندى محمد بن عبد الرحمن وأحمد بن عتيق الفيلسوف المعروف بابن الذهبى والرصافى محمد بن غالب وأحمد بن طلحة ومرج الكحل وأبا عامر بن ينّق الشاطبى ويحيى الجزار السرقسطى. وترجم ابن سعيد بجانب هؤلاء الشعراء وأشعارهم لطائفة من الوشاحين مع إنشاده لبعض موشحاتهم، منهم أحمد بن حنون وأبو بكر بن زهر وابن حبيب القصرى الفيلسوف وعلى بن المرينى وابن هردوس وعلى بن الفضل وعلى بن حريق وعبد الرحيم بن الفرس وابن موهّد الشاطبىّ. وبالمثل ترجم لطائفة من الزجالين مع إنشاده لبعض أزجالهم منهم أبو عمرو بن الزاهر الإشبيلى والبلارج القرمونى وابن الدباغ ومدغليس وابن ناجية اللورقى. ومما يدل بقوة على ازدهار نهضة الشعر فى الأندلس منذ القرن الثالث الهجرى كثرة ناظميه بين الفقهاء واللغويين والنحاة والأطباء

والرياضيين والمتفلسفة وحتى بين العامة وأهل الريف على نحو ما مرَّ بنا عن أهل شلب مما حكاه ياقوت. ومن أكبر الأدلة على هذا الازدهار أن المرأة الأندلسية أسهمت فيه إسهاما واسعا بزَّت فيه أخواتها فى البلاد العربية الأخرى، مما جعل كتب التراجم الأدبية الأندلسية من مثل المغرب تترجم لغير شاعرة، وقد ترجم المقرى فى النفح لأكثر من عشرين شاعرة، منهن فى القرن الثالث حسانة التميمية بنت الشاعر أبى المخشىّ عاصم بن زيد، ومنهن فى القرن الرابع حفصة بنت حمدون الحجارية وعائشة بنت أحمد القرطبية والشاعرة الغسانية البجانية، ومنهن فى القرن الخامس ولادة بنت الخليفة المستكفى ومهجة بنت التيَّانى القرطبية ومريم بنت أبى يعقوب الإشبيلية وأم العلاء بنت يوسف الحجارية والعبادية جارية المعتضد بن عباد واعتماد المعروفة باسم الرُّمَيْكية زوجة ابنه المعتمد وأم أبنائه وغاية المنى جارية المعتصم بن صمادح صاحب المرية وأم الكرم ابنته وحواء زوجة القائد المرابطى سير بن أبى بكر والى إشبيلية حتى وفاته، وكانت لها ندوة أدبية تجلس فيها للشعراء تحاضرهم فيها وتستمع إلى أحاديثهم وأشعارهم وتبدى بعض انتقادات على ما تسمع. وممن ترجم لهن المقرى فى القرن السادس نزهون بنت القليعى وحمدة بنت زياد وحفصة بنت الحاج الركونية الغرناطية وورقاء بنت ينتان القرطبية والشاعرة الشلبية وأسماء العامرية،وترجم المقرى فى أواخر عصر الموحدين بالنصف الأول من القرن السابع لأم السعد بنت عصام القرطبية وأختها مهجة. وهو عدد وفير من الشاعرات الأندلسيات لم يتح لأى إقليم عربى، مما يدل بوضوح على شغف الأندلسيين الشديد بفن الشعر شغفا أذكى فى نفوسهم نساء ورجالا جذوة الشعر مما جعل الأندلس تمتلئ شاعرات وشعراء.

وما إن ينحسر لواء دولة الموحدين عن الأندلس حوالى سنة ٦٢٥ حتى يأخذ هذا الازدهار الذى رافق الشعر الأندلسى قرونا متعاقبة فى التقلص والنصول، إذ أخذ كثير من ينابيع الحياة التى كان يستمد منها فى الجفاف بسبب ضياع الشطر الأعظم من الأندلس فقد سقطت الحواضر الكبرى فى وسط الأندلس وشرقيها وغربيها فى حجور المسيحيين، ولولا أن أتيح للشطر المتبقى القائد العربى ابن الأحمر حفيد سعد بن عبادة الأنصارى الصحابى لضاعت الأندلس نهائيا من أيدى العرب، ولكنه استطاع أن يصمد للنصارى الشماليين وأن يكوِّن دولة فى غرناطة والأجزاء الجنوبية من الأندلس ظل أبناؤه وأحفاده يقومون عليها حتى غُلبوا على أمرهم لسنة ٨٩٧ للهجرة وخرجوا - وخرج معهم جمهور العرب - من الجزيرة. ومنذ واقعة العقاب سنة ٦٠٩ واندحار جيش

الموحدين فيها أحسَّ الأندلسيون أن الخطر تفاقم وأن ديارهم لن تثبت طويلا أمام ضربات العدو، وهو ما أخذ يتراءى لهم سريعا، وكان ذلك سببا فى أن يغادر الأندلس كثيرون من أهلها إلى البلاد المغربية والمشرقية فاستقروا بها حاملين معهم علومهم وآدابهم التى أثروا بها تأثيرا عميقا فى البلاد المغربية،خاصة فى مراكش وبجاية وتونس.

ولابن سعيد صاحب كتاب المغرب المتوفى سنة ٦٨٥ كتابٌ نُشِر مجمل له باسم اختصار القِدْح المعلَّى وهو يعرض فيه شعراء الأندلس فى المائة السابعة ممن جالسهم فى الأندلس وقيَّد عنهم بعض أشعارهم أو جالسهم فى البلدان المغربية وخاصة تونس أو فى البلدان المشرقية فى الإسكندرية أو فى القاهرة أو فى دمشق، وقد بلغوا فى كتابه اثنين وسبعين شاعرا، وتراجمهم أكثر تفصيلا وأشعارا من ترجماته فى كتاب المغرب، وممن يذكره بينهم أبو الوليد الشَّقُنْدى صاحب الرسالة المشهورة فى فضل الأندلس وتفوقها الثقافى والأدبى، ويذكر إبراهيم بن محمد بن صناديد الجيانى ويقول إن أباه ممدوح مدغليس فى أزجاله. ويتوسع فى الحديث عن علماء اللغة والنحو: الشلوبين والدباج والأعلم البطليوسى منشدا بعض أشعارهم وكان قد أقام بتونس طويلا. ولذلك عنى بالحديث عمن نزل فيها من الأدباء والشعراء الكبار مثل ابن الأبار صاحب التكملة والحلة السيراء وتحفة القادم ومعجم الصدفى وبها توفى سنة ٦٥٨ ومثل أبى المطرف أحمد بن عميرة وأبى الحجاج يوسف البياسى وابن هَمْشك محمد بن يحيى. وممن ذكر أنهم رحلوا إلى مصر أبو الحجاج يوسف الإشبيلى المطبِّب وقد عيَّنه المصريون فى مارستان القاهرة. وكانت مصر دائما ترحب بالمهاجرين إليها من الأندلس مثل ابن دِحْية الذى أسند إليه السلطان الكامل رياسة مدرسة الحديث ومثل ابن البيطار الذى جعله رئيسا للعشَّابين أو الصيادلة فى القاهرة، وهاجر إلى دمشق ابن عربى المتصوف وتوفى بها سنة ٦٣٨ وهاجر تلميذه ابن سبعين إلى مكة وبها توفى سنة ٦٦٩. وكتاب اختصار القدح المعلى مهم لأنه يعرض علينا جمهرة كبيرة من شعراء الأندلس فى المائة السابعة. ونلتقى بعده بكتاب «الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة» للسان الدين بن الخطيب وبه ترجمات لمائة شاعر وثلاثة، بدأهم بالوعاظ والمتصوفة من مثل ابن عباد النفزى المتوفى سنة ٧٩١ وتلاهم بالمقرئين والمدرسين من الشعراء مثل أبى حيان المهاجر إلى القاهرة،وذكر فى إثرهم طبقة القضاة ثم طبقة الكتاب والشعراء من أمثال ابن خاتمة وابن زمرك. ويكمل كتاب لسان الدين فى شعراء الأندلس فى المائة الثامنة كتاب نثير فرائد الجمان فى نظم فحول الزمان لابن الأحمر إسماعيل بن يوسف المتوفى سنة ٨٠٧ وقد

عاش بعد لسان الدين المتوفى سنة ٧٧٦ ثلاثين عاما، وهو يلتقى معه فى طائفة من تراجمه غير أنه يضيف إليه بعض تراجم جديدة، بينها ترجمة للسان الدين بن الخطيب وترجمة لنفسه.

ولعل فى كل ما قدمت ما يدل بوضوح على كثرة الشعراء فى الأندلس منذ اكتمل تعربها فى القرن الثالث الهجرى كثرة مفرطة، وظل الشعر حيًّا بل مزدهرا فى الأندلس حتى الأنفاس الأخيرة من حياة العرب هناك، وكأنه توأم روحهم، فكلما وُجدوا تغنوا بالشعر وصد حوا به معبرين عن مشاعرهم ووجداناتهم، يشترك فى ذلك علماؤهم من كل صنف ورجالهم ونساؤهم وشيوخهم وشبانهم، ومثقفوهم وعامتهم، حتى الأميون منهم وأصحاب الحرف كالخراز والجزار اللذين مر ذكرهما ومثلهما مرج الكحل الشاعر البلنسى فقد نشأ ينادى فى الأسواق ويتعيَّش من بيع السمك، وأخذت همته تترقّى قليلا قليلا فى حب الشعر إلى أن نظمه وأجاده. ومثله ابن جاخ الصباغ البطليوسى.

٢

الموشحات والأزجال

(أ) الموشحات

الموشحات جمع موشحة، وهى مشتقة من الوشاح وهو - كما فى المعاجم - خيطان من لؤلؤ وجوهر منظومان يخالَف بينهما معطوف أحدهما على الآخر. والتسمية دقيقة إذ الموشحة تتألف من قفل يسمى مركزا، وتتعدد أجزاؤه أو شطوره، ويليه غصن متعدد الأجزاء أو الشطور، وبينما تتحد أجزاء الأقفال التالية مع الأجزاء المقابلة لها فى القفل الأول سواء فى الوزن أو القافية تختلف أجزاء الأغصان التالية مع أجزاء الغصن الأول فى قافيته، فلكل غصن قافية تتحد فى أجزائه أو شطوره مع اتفاق أجزاء الأغصان جميعا فى الوزن. والموشحة - بذلك - تتألف من مجموعتين من الأجزاء أو الشطور، مجموعة تتحد أجزاؤها المتقابلة فى الأقفال المتعاقبة فى الوزن والقافية، ومجموعة تتحد أجزاؤها فى الوزن وحده دون القافية فإنها تتخالف فيها دائما، وهما - بهذه الصورة - يشبهان الوشاح المذكور آنفا أدق الشبه.

واشتهرت الأندلس بأنها هى التى ابتكرت فن الموشحة، ويُظَنُّ أنه كان لاتساع موجة الغناء والموسيقى منذ زرياب فى عهد عبد الرحمن الأوسط على نحو ما مرَّ بنا فى الفصل

الأول أثر كبير فى نشوء الموشحة بقصد الغناء بها مع العازفين، وكأنها تتألف من فقرتين: فقرة للمنشد وفقرة ترد بها الجوقة. وكان بدء ظهورها فى عهد الأمير عبد الله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠هـ) يقول ابن سعيد: «ذكر الحجارى فى كتاب المسهب فى غرائب المغرب أن المخترع لها بجزيرة الأندلس مقدم بن معافى القَبْرى من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المروانى وأخذ عنه ذلك أبو عمر بن عبد ربه صاحب العقد ولم يظهر لهما مع المتأخرين ذكر وكسدت موشحاتهما»[١]. ويسمى ابن بسام فى ترجمته لعبادة بن ماء السماء مخترعها خطأ باسم محمد بن حمود القبرى الضرير، ويقول: «كان يضعها على أشطار الأشعار، غير أن أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة»[٢] وظن بعض الباحثين - وخاصة من المستشرقين الإسبان - أن ذلك يدل على أن الموشحة لم تكن تنظم فى نشأتها بالفصحى على أعاريض الشعر العربى وأوزانه إنما كانت تنظم على أعاريض المقاطع مثل الشعر الأوربى[٣]، وهو خطأ فى الفهم إذ أن كلمة «الأعاريض المهملة غير المستعملة عند ابن بسام لا تفيد ذلك، إنما تفيد ما ردده العروضيون المشارقة والمغاربة من أن الدوائر الخمس التى ضبط بها الخليل بن أحمد المتوفى سنة ١٧٥ للهجرة أعاريضَ الشعر العربى تفسح لأوزان مهملة لا تنحصر لم يستخدمها العرب فى أشعارها، واستخدمها فى عصره - كما يقول صاحب الأغانى - تلميذه عبد الله بن هرون بن السَّمَيْدع البصرى، وأخذ ذلك عنه وحاكاه فيه رُزَيْن العروضى وأتى فيه ببدائع جمة، وجعل أكثر شعره من هذا الجنس[٤] وقد أنشد ياقوت قصيدة له فى مديح الحسن بن سهل، وأشار إلى أنها خارجة على أوزان الشعر العربى وأنها إنما تجرى على وزن من أوزان الخليل المهملة، وهو - فى رأينا - عكس وزن المنسرح. ويعد أبو العتاهية أهم شاعر عباسى ثان نظم أشعارا له مختلفة على تلك الأوزان المهملة على نحو ما يصور ذلك كتابنا «العصر العباسى الأول».[٥]

ومعنى ذلك كله أن كلمة الأعاريض المهملة غير المستعملة التى أشار ابن بسام إلى أن أشطار أكثر الموشحات نظمت عليها لا يقصد بها أنها أعاريض أعجمية، إنما يقصد بها

---

(١) راجع كتاب المقتطف من أزاهر الطرف لابن سعيد بتحقيق د. سيد حنفى حسنين (نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب) ص ٢٥٥.

(٢) الذخيرة ٤٦٩/١.

(٣) انظر بالنثيا فى تاريخ الفكر الأندلسى ص ١٤٢ وما بعدها وراجع فصل الأدب للدكتور مكى فى كتاب أثر العرب فى النهضة الأوربية ص ٥٠ وما بعدها.

(٤) أغانى (طبع دار الكتب) ١٦٠/٦.

(٥) العصر العباسى الأول (طبع دار المعارف) ص ١٩٥.

أنها من أعاريض دوائر الخليل المهملة التى لم يستعملها العرب، وقد يقال إنك اقتطعت كلمة ابن بسام من بقية لها تدل على ما نقول، إذ يذكر ابن بسام عن منشئها - فى رأيه - محمد بن حمود القبرى الضرير أنه كان: «يأخذ اللفظ العامى والعجمى ويسميه المركز ويضع عليه الموشحة» وهو يقصد قفلها الأخير الذى يأتى فى الخاتمة. وربما كان ذلك ما دعا «ريبيرا» إلى القول بأن الموشحة طراز شعرى يمتزج فيه الشرق بالغرب. ويتسع المستشرق الإسبانى المعاصر غرسية غوميس بالفكرة ويقول مستدلا بكلمة ابن بسام إن الخرجات (الخواتيم) الرومانسية فى الموشحات الأولى كانت أجزاء مقتبسة من أغان شعبية إسبانية أعجب بها الوشاح الأول، واتخذها قاعدة بُنى على شاكلتها موشحته مرصِّعا لها بذلك الجزء كما يرصع الخاتم بفَصٍّ من الجواهر الكريمة. وليس فى يد غرسية دليل على أن الخرجة عند الوشاح الأول كانت تقتطع من أغنية رومانسية، فهو مجرد ظن، وأقرب منه وأصحّ منطقيا أن يكون قد حدث أحيانا عند الوشاح الأول ومن حاكوه اقتباس صيغة عامية أو أعجمية فى نهاية الموشحة على سبيل التظرف، كما حدث ذلك مرارا عند بعض الشعراء العباسيين[١]. وحتى بعد أن ازدهر هذا الفن فى القرن الخامس ومابعده لم يستطع باحث بين المستشرقين الإسبان أن يرد خرجة رومانسية إلى أغنية رومانسية كانت متداولة فى الأندلس أو تغنًى، فالقول بذلك إنما هو - فى رأينا - مجرد ظنٍّ لا دليل عليه.

أما لماذا استمر الوشاحون يجنحون أحيانا فى بعض موشحاتهم إلى اختتامها بصيغة رومانسية أو أعجمية فقد ذكر ابن سناء الملك السبب الأهم فيه إذ قال: «الخرجة عبارة عن القفل الأخير من الموشح، والشرط فيها أن تكون حجاجية (نسبة إلى ابن حجاج شاعر بغداد المفرط فى المجون) من قبل السخف، قزمانية (نسبة إلى ابن قزمان الزجال) من قبل اللَّحْن حارة محرقة من ألفاظ العامة.. ويُجْعَلُ الخروج إليها وثبا واستطرادا وقولا مستعارًا على بعض الألسنة وأكثر ما تجعل على ألسنة الصبيان والنسوان والسكرى والسكران، ولابد فى البيت قبل الخرجة من قال أو قلت أو قالت أو غنى أو غنت»[٢].

وواضح أن ما تحمله الخرجة أحيانا - أو ما يريد لها الوشاح أن تحمل - من مجون زائد

(١) انظر فى ذلك فصلا فتحه الجاحظ فى البيان والتبيين (طبعة هرون) ١/١٤١ - ١٤٤ لمن كان يتملّح بإدخال ألفاظ فارسية فى شعره من الأعراب فضلا عمن كانت أصولهم فارسية، وراجع كتابنا العصر العباسى الأول ص١٤٢ وما بعدها.

(٢) انظر دار الطراز لابن سناء الملك بتحقيق الدكتور جودة الركابى (طبع دمشق) ص ٣٠.

عن الحد وأنها قد تقال على لسان المرأة كان السبب فى استخدام الوشاح الأندلسى أحيانا للخرجات الرومانسية فرارًا من التصريح بألفاظ مفحشة نابية. ومن يرجع إلى ما ذكره الدكتور عبد العزيز الأهوانى من خرجات الموشحات فى كتابه - الزجل الأندلسى - يلاحظ أن كثيرا من الخرجات العجمية التى ذكرها تشكو فيها الفتاة لأمها تباريح حبها لمن سلبها روحها وفؤادها متذللة لعاشقها تذللا شديدا، وقد يصاغ ذلك فى خرجات عامية ولكن فى تلميح غالبا دون أن يخدش حياء الفتاة، أما ما كان يظن الوشاح أنه يخدش حياءها فكان يصوغه فى عبارة لاتينية دارجة أو رومانسية وهذا - فى رأينا - هو الباعث على وجود الخرجات الأعجمية فى بعض الموشحات لا أنها نشأت على أساس بعض الأغانى الرومانسية الأعجمية. ومما يؤكد - بل يقطع - بأن الموشحات عربية خالصة أن من يقرنها إلى المسمطات العباسية التى ظهرت منذ القرن الثانى الهجرى على لسان أبى نواس وأضرابه يلاحظ توا أن المسمطات قصائد تتألف من أدوار تقابل الأغصان فى الموشحة وكل دور - مثل الغصن - يتألف من أربعة شطور أو أكثر تتفق فى قافية واحدة ما عدا الشطر الأخير فإنه يستقل بقافية مغايرة، وهو يتحد فيها مع الشطور الأخيرة فى كل دور من أدوار المسمط، ويسمى - من أجل ذلك - عمود المسمط فهو القطب الذى يدور عليه. وهو يقابل بوضوح المركزَ أو القفلَ فى الموشحة، وكل ما بينهما من فروق أن الشطر فى نهاية أدوار المسمط واحد بينما هو فى مراكز الموشحة متعدد، وسنرى عما قليل أنه كان فى الموشحات الأولى شطرا واحدا. وقد أحس الأندلسيون من قديم بالمشاكلة الشديدة بين الموشحة والمسمط كما يتبين من الاسم الذى اختاروه لها اشتقاقا من الوشاح كما أسلفنا إذ وجدوا العباسيين يشتقون لفظ المسمط من السمط، وهو القلادة تنتظم فيها عدة سلوك تلتقى جميعا عند جوهرة كبيرة، على شاكلة التقاء كل دور فى المسمط مع الأدوار الأخرى فى قافية الشطر الأخير. لذلك - رأوا - أى الأندلسيين - بدورهم أن يشتقوا الموشحة من وشاح المرأة الذى يمتد فيه خيط مرصع باللؤلؤ وخيط مرصع بجواهر متنوعة يخالَف بينهما ويُعْطَف أحدهما على صاحبه. وهى تسمية بارعة للموشحة وما تحمل من لآلئ الأقفال وجواهر الأغصان.

ومن أكبر الأدلة على أن الموشحة بدأت محاكاة للمسمط أن القبرى وشاحها الأول كان - كما يقول ابن بسام - يجعل اللفظ العامى أو العجمى مركزا أو كما سُمِّى فيما بعد قفلا ويضع عليه أشطارا، والمركز بذلك كان عند الوشاح الأول شطرا واحدا بالضبط كما كان فى المسمط. ويقول ابن بسام إنه كان يبنى على هذا المركز أو الشطر أشطار الأشعار،

وكان أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة، وهى الأعاريض التى أشار إليها الخليل بن أحمد فى دوائره العروضية الخمس وما أخضعها له من فكرة التباديل والتوافيق الرياضية[١] بحيث يمكن أن يستخرج منها ما لا يحصى من أوزان مهملة لم يستخدمها العرب، وكأن الوشاح الأول فى الأندلس كان يقوم من تلك الأوزان أو الأعاريض مقام ابن السميدع ورزين العروضى وأبى العتاهية فى بغداد، ممن عنوا - كما أسلفنا - بالنظم على الأعاريض المهملة. ومضت الموشحة على هذه الصورة عند الوشاح الأول الذى ابتكرها ومن خلفوه عليها، حتى ظهر يوسف بن هرون الرمادى الكندى المتوفى سنة ٤٠٣ فأحدث فيها تطورا مهما يقول ابن بسام فى نفس النص السابق: «فكان أول من أكثر فى الموشحة من التضمين فى المراكز» يريد أنه أول من أحدث فى الموشحة تعدد الأجزاء أو الشطور فى المراكز، ولم تحتفظ كتب الأدب له بموشحة تصور لنا بدقة صنيعَه. ثم يقول ابن بسام إنه نشأ بعده عبادة بن ماء السماء الخزرجى، الأنصارى المتوفى سنة ٤١٩ فأضاف إلى الموشحة تطورا جديدًا هو تضمينه مواقع الوقف فى الأغصان أو بعبارة أخرى دقة التجزئة فى أشكال الأغصان، وبذلك تمت للموشحة صورتها التى حملتها العصور التالية، وصور ذلك ابن بسام قائلا: «كانت صنعة التوشيح التى نهج أهل الأندلس طريقها ووضعوا حقيقتها غير مرقومة البُرود، ولا منظومة العقود، فأقام عبادة بن ماء السماء منآدها، وقوَّم ميلها وسِنادها فكأنها لم تسمع بالأندلس إلا منه ولا أُخذت إلا عنه». وإذا كانت الكتب الأدبية لم تحتفظ للرمادى بإحدى موشحاته فإن فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى احتفظ لعبادة بن ماء السماء بموشحتين تتقابل فيهما أجزاء المراكز أو الأقفال، وبالمثل تتقابل الأجزاء فى كل غصن تقابلا دقيقا على نحو ما نرى صنيعَه فى هذا الغصن متغزلا[٢]

لَيْلِيَّـةُ الـذوائبْ ووَجْهُهـا نهارُ[٣]
مَصْقولَةُ التَّرائب ورَشْفُهـا عُقارُ[٤]
أَصْداغُها عَقارب والخَـد جُلَّنـارُ[٥]

وتتوالى الأغصان على هذه الصورة مجزأة إلى ستة شطور، تتحد الثلاثة الأولى منها فى القافية، وبالمثل الثانية. وأصبح ذلك تقليدا ثابتا فى الموشحات بعده. والوزن فى هذا

(١) راجع فى ذلك ترجمة الخليل فى كتابنا المدارس النحوية (طبع دار المعارف) ص ٣١.
(٢) راجع الموشحة فى الفوات ٤٢٨/١.
(٣) الذوائب = الضفائر.
(٤) العقار = الخمر.
(٥) جلنار: زهر الرمان.

الغصن والأغصان بعده مستفعلن فعولن، وكأنه تجزئة من وزن الرجز، وموشحته الأخرى التى أنشدها ابن شاكر من وزن الرمل أقفالها وغصونها، ومطلعها:

مَنْ وَلِي　　فى أمةٍ أمرا　　ولم يعدلِ　　يُعْزَلِ
إلا لحاظَ الرَّشَإِ الأكْحَلِ

وظلت الموشحات بعد ابن ماء السماء تُنْظم إما على أعاريض الشعر العربى المستعملة وإما على أعاريضه المهملة، وموشحتاه تتألف من ستة أقفال وخمسة أغصان، ويغلب فى الموشحات بعده أن تتخذ هذه الصورة وقد تطول أكثر أو تنقص فيزيد فيها عدد الأقفال والأغصان إلى ثمان أو تنقص إلى أربع، وقد يبدأ الموشح بغصن ويسمى - حينئذ - أقرع، وقد يتألف القفل من جزءين أو ثلاثة وقد يطول إلى ثمانية أجزاء وبالمثل الغصن. ويسمى القفل الأخير باسم الخرجة وقد تكون ألفاظه أعجمية أو عامية كما مر بنا، ويكثر أن تكون عربية بلغة سهلة مألوفة تقرب قربا شديدا من اللغة الدارجة.

ويقبل على نظم الموشحة غير شاعر من شعراء أمراء الطوائف، نذكر منهم القزَّاز محمد بن عبادة وسنخصه بكلمة مستقلة، ومنهم ابن أرفع رأسه شاعر المأمون بن ذى النون أمير طليطلة، ووزيره أبو عيسى بن لبُّون، وابن اللبانة محمد بن عيسى، وكان هو والقزاز فرسى رهان فى العصر، وسنترجم له بين الشعراء لأنه كان يجيد الشعر كما كان يجيد الموشحات، وأغلب موشحاته مدائح فى المعتمد بن عباد أمير إشبيلية وأبنائه، وهو يستهلها دائما بغزل رقيق من مثل قوله فى موشحة مدح[1] بها المعتمد:

يفترُّ عن لؤلؤٍ فى نَسَقِ　　من الأقاحِ　　بنسيمه العَبِقِ
هــل من سبيــلٍ لــرَشْفِ القُبَــلِ
هـيهــاتَ مـن نَيْــلِ ذاك الأمــلِ
كـم دونــه مـن سُيــوف المُقَــلِ
سُــلَّتْ بِــلَحْظِ وَقــاحٍ خَــجِــلِ

والقفل يتكون من أربعة أجزاء أولها على زنة: مستفعلن فَعِلن مُسْتعلن. والثانى على زنة: مُتَفْعلاتُ والثالث على زنة: متفاعلن. والرابع على زنة فعلن. واجتماع هذه التفاعيل تخرج القفل عن أعاريض العرب المستعملة وتجعله من أعاريضهم المهملة، أما الغصن

(١) انظر الموشحة فى دار الطراز ص ٥٤ وفى المغرب ٤١٤/٢.

فيطرد على زنة: مستفعلن فاعلن مستفعلن، وهو وزن عربى مستعمل بكثرة ونقصد وزن البسيط، واستخدمه ابن اللبانة فى موشحاته مرارا لعذوبته.

وتتسع موجة الوشاحين فى عصر المرابطين، ومن أهمهم فى عهدهم، بل من أهم الوشاحين الأندلسيين عامة الأعمى التطيلى المتوفى حول سنة ٥٢٥ ويحيى بن بَقِىّ المتوفى سنة ٥٤٠ وسنخصه بكلمة ولم يكن الأعمى التطيلى يقل عنه براعة، غير أن له ديوانا كبيرا مما جعلنا نخصه بترجمة بين الشعراء، ويكفى لبيان مهارته فى صنع الموشحات ما يروى من أن جماعة من الوشّاحين اجتمعوا لإنشاد موشحات لهم فى مجلس بإشبيلية بينهم يحيى بن بقى والأعمى التطيلى، وقدموا الأعمى للإنشاد، فلما افتتح موشحته بقوله:

ضاحكٌ عن جُمانْ سافرٌ عن بَدْرِ
ضاقَ عنه الزمانْ وحَواهُ صَدْرى

مزّق ابن بقى موشحته وتبعه الباقون[1] لما فجأهم به التطيلى فى موشحته من عذوبة فى اللفظ وروعة فى التصوير، والقفل السالف مكون من أربعة أجزاء، والجزآن: الأول والثالث المتقابلان على زنة: فاعلاتن فعول، والجزآن الثانى والرابع المتقابلان على زنة: فاعلاتن فَعْلن، وتمضى جميع الأقفال بهذه الزنة بينما تمضى الأغصان على زنة: فاعلن فاعلن أو بعبارة أخرى على وزن المتدارك على شاكلة قوله فى الغصن الأول:

آهِ مما أجِدْ شفّنى ما أجِدْ
قام بى وقعَدْ باطنٌ متّئِدْ

وكأن التطيلى تعمّد أن يكون القفل من أعاريض العرب المهملة، إذ مزج فيه بين تفاعيل من أوزان أو بحور مختلفة، بينما نظم الغصن من وزن المتدارك، وقد ينظم الوشاح موشحته جميعها أقفالا وأغصانا من وزن عربى مستعمل واحد كالرجز أو البسيط أو السريع أو المجتث، وكل ذلك نجد له أمثلة فى موشحات التطيلى الملحقة بديوانه كقوله فى موشحة نظمها من الوزن الأخير:

حُثَّ الكئوسَ رَوِيَّهْ على رُواءِ البساتينْ من قهوةٍ بابليَّه
أرقَّ من دَمْع محزونْ
خلعتُ عِزِّى ودينى فى أهيف القَدِّ لَدْنِهْ

---

(١) المغرب ٤٥٦/٢ والمقتطف ص ٢٥٦.

يَسْطو بسيف المنونِ ما جَفْنه غير جفنه
يا قسوةَ الحبِّ لِيني ولو برُمَّان غُصْنه

وأجزاء الأقفال والأغصان تطرد هكذا على وزن المجتث: مستفعلن فاعلاتن. وعاصر التطيلى من الوشاحين النابهين أبو بكر بن باجة الفيلسوف المار ذكره فى الفصل الماضى وهو أحد من طوروا الموسيقى الأندلسية، وكانت له تلاحين مشهورة، ويحكى أنه صنع موشحا فى مديح ابن تِيفَلْويت المرابطى الوالى على شرقى الأندلس وسرقسطة ليوسف بن تاشفين، ولحنه وألقاه على قينة، فلما غنت ابنَ تيفلويت به صاح: واطرباه، وحلف بأيمان مغلظة أن لا يمشى ابن باجة فى طريقه إلى داره إلا على الذهب، وتلطف ابن باجة فاحتال بأن جعل ذهبا فى نعله ومشى عليه. ومن الشعراء الوشاحين البارعين فى عصر المرابطين الأبيض أبو بكر محمد بن أحمد الأنصارى وأبو بكر بن رُحَيم ويحيى بن الصيرفى المؤرخ وأبو الحسن بن نزار وله موشح بناه من مخلع البسيط مستخرجا دائما الجزء الثانى من أغصانه وأقفاله من آخر كلمة فى الجزء الأول على هذا النمط[١]:

يا ربَّة المنظر الجميلِ ميلى
رأيت فى وجهك السعيد عِيدى

وتظل الموشحات مزدهرة فى عصر الموحدين (٥٤٠ - ٦٣٤ هـ) بل تبلغ غاية ازدهارها على لسان ابن هرودس كاتب عثمان بن عبدالمؤمن والى غرناطة كما يتضح فى موشح له بديع[٢] مستخرجا الجزء الثانى من أقفاله - على شاكلة ابن نزار - بعد نهاية الجزء الأول كقوله فى مطلعه:

يا ليلة الوَصْلِ والسُّعودِ بالله عُودِى

والجزء الأول من القفل - مثل سابقه عند ابن نزار - على زنة مخلع البسيط، وزنة الجزء الثانى مستفعلان، والأغصان جميعها من مخلع البسيط: مستفعلن فاعلن فعولن، ومن كبار الوشاحين على بن المرينى وفى المغرب له موشحة[٣] بارعة. وسابق الحلبة - كما يقول ابن سعيد - أبو بكر بن زهر، وسنخصه بكلمة، ومن المشهور أنه لما سمع قول عبد الرحيم بن الفرس فى إحدى موشحاته:

---

(١) المغرب ١٤٧/٢.
(٢) المغرب ٢١٥/٢.
(٣) المغرب ٢١٨/٢.

ورداءُ الأصيـلِ تَطْويه كفُّ الظلامِ

قال لمن حوله: أين كنا نحن عن هذا الرداء[١]؟ وهى صورة رائعة، ودخل عليه أبو الحسن سهل بن مالك، ولم يكن يعرفه، حتى إذا أنشده موشحة من مجزوء البسيط يقول فيها:

كُحْلُ الدُّجَى يَجْرِى من مُقْلة الفَجْرِ على الصَّباحْ
ومِعْصَمُ النَّهْرِ فى حُلَلٍ خُضْرِ من البِطاح

طرب لهذا القفل منها طربا شديدا[٢] لعذوبة ألفاظه وحسن صوره. ومن كبار الوشاحين حينئذ على بن حزمون الهجَّاء، وله موشحة[٣] بديعة يرثى بها أبا الحملات قائد الأعنة ببلنسية، وقد استشهد فى الدفاع عنها فى إحدى معاركه المحتدمة مع النصارى وسننشد منها قطعة فى الحديث عن شعراء الرثاء. وكان يعاصر ابن حزمون على بن الفضل الإشبيلى المتوفى سنة ٦٢٧، وله فى إحدى موشحاته[٤]:

وأُفْرِدْتُ بالرَّغْم لا بالرِّضا وبتُّ على جَمَرات الغَضَا
أعانِقُ بالفكر تلك الطُّلولْ وأَلْثِمُ بالوهم تلك الرسومْ

وأغصان الموشحة وأقفالها من بحر المتقارب، وزنته: فعولن أربع مرات. وتفضى الأندلس بعد الموحدين إلى التفكك وسقوط مدنها الكبرى فى حجر النصارى، وقلما يظهر وشاح مبدع إلا من نشأوا فى عصرهم من تلاميذ من سميناهم فيه من مثل إبراهيم بن سهل الإسرائيلى، وأشهر موشحاته[٥]:

هل دَرَى ظَبْىُ الحِمَى أنْ قد حَمَى قلبَ صَبٍّ حَلَّه عن مَكْنَسِ
فَهْوَ فى حَرٍّ وخَفْقٍ مِثْلَما لعبتْ ريحُ الصَّبا بالقَبَسِ

وقد صاغه أقفالا وأغصانا من بحر الرمل وزنته: فاعلاتن فاعلاتن فاعلن. ويقبل المتصوفة على صنع الموشحات ويهاجر كثيرون بها إلى المشرق مثل ابن عربى والششترى. ونلتقى فى غرناطة بابن زمرك ولسان الدين بن الخطيب، وله موشحة

---

(١) المقتطف ص ٢٦٠.
(٢) المقتطف ص ٢٥٨ وما بعدها.
(٣) المغرب ٢/٢١٧.
(٤) المغرب ٢/٢٨٩ والغضا: من أشجار نجد. يستوقد بخشبه.
(٥) ديوان ابن سهل الإشبيلى (طبع بيروت) ص ٢٨٣ ومكنس الظبى: مأواه فى الشجر ليستتر به. القبس: شعلة النار.

مشهورة عارض بها موشحة ابن سهل المارة مفتتحا لها بقوله[١]:

جادكَ الغيثُ إذا الغَيْثُ هَمَى ... يـا زمانَ الـوَصْلِ بـالأندلسِ
لم يـكـن وَصْلُك إلا حُـلُمًا ... فى الكَرَى أو خِلْسَةَ المختلس

وكأنها كانت مسك الختام لفن الموشحات بالأندلس. وحرى بنا أن نفى بما وعدنا من كلمات مجملة عن ثلاثة من كبار الوشاحين بالأندلس، هم ابن عبادة القزاز وابن بقى وابن زهر.

ابن عُبادة[٢] القزَّاز

هو أبو عبدالله محمد بن عبادة المعروف بابن القزاز، ترجم له ابن سعيد فى المغرب وقال إنه من حصن بِلّور من إقليم غرناطة وظنّه ابن خاتمة من أهل مالقة، واشتهر بأنه شاعر المعتصم بن صمادح أمير المرية، وله فيه مدائح شعرية وموشحات، وفيه يقول:

ولو لم أكن عبدًا لآل صُمادحٍ ... وفى أرضهم أصلى وعيشى ومَوْلدى
لما كان لى إلا إليهم تـرحُّلٌ ... وفى ظلِّهم أُمْسى وأضْحِى وأغْتدى

وكان يلم بالمعتمد بن عباد وله أيضا فيه موشحات ومدائح، ويصفه ابن بسام بقوله عنه: «من مشاهير الأدباء الشعراء وأكثر ما ذُكر اسمه وحُفظ نظمه فى أوزان الموشحات التى كثر استعمالها عند أهل الأندلس وهو ممن نسج على منوال ذلك الطراز، ورقم ديباجه، ورصَّع تاجه، وكلامه نازل فى المديح، أما ألفاظه فى التوشيح فشاهدة له بالتبريز والشفوف». وربما قسا ابن بسام عليه فى حكمه على مديحه لروعة موشحاته روعة فاق بها كل أقرانه فى زمنه حتى قالوا إنه لم يشق غباره واحد من معاصريه، وهو أحد خمسة أدار عليهم ابن سناء الملك حديثه واختياراته من الموشحات فى كتابه: دار الطراز، هو ومعاصره ابن اللبانة ثم التطيلى ويحيى بن بقى من عصر المرابطين وأبو بكر بن زهر من عصر الموحدين، ومن أروع موشحاته موشح غزلى يتكون قفله من ستة أجزاء بينما يتكون غصنه من أربعة أجزاء، ونكتفى منه بغصن بهر أبا بكر بن زهر، حتى أثر عنه أنه

---

(١) أزهار الرياض (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٢١٣/٢ وهى: سقط مدرارا.

(٢) انظر فى ابن عبادة القزاز القلائد للفتح بن خاقان: ١٤ و المغرب ١٣٤/٢ وأزهار الرياض ٢٥٢/٢ والذخيرة ٨٠١/١ وما بعدها والخريدة (طبعة تونس) ١٨٢/٢ ودار الطراز لابن سناء الملك: الموشحات أرقام ٩، ١٥، ١٨، ٢١، ٢٣

قال: كل الوشاحين عِيال على عبادة القزاز فيما اتفق له من قوله:

بَدْرُتِـــمّْ شَمْسُ ضُحَى غُصْنُ نَقَـا مِسْكُ شَمّْ
مـا أتَمّْ مـا أوضَحَـا مـا أوْرَقَـا مـا أنَـمّ
لا جَـرَمْ مـن لَمَحَـا قـد عَشِقَـا قـد حُرِمْ

والألفاظ رشيقة رشاقة لا تُحَدّ، رشاقة كأنما تطير بها فى خفة فتحدث عَبَقًا، وهو عبق مصدره الدقة فى انتخاب الألفاظ وانتخاب الوزن، إذ هى مشتقة من بحر البسيط الرقيق العذب، إذ تتوالى الأجزاء فى كل سطر على: فاعلن، مستعلن مستعلن فاعلن. وليس هذا بالضبط عروض البسيط فعروض الأجزاء الأربعة المتوالية فيه مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن، وقدم القزاز فى الجزءين الأولين فاعلن على مستفعلن. وبمثل ذلك وبما قدمنا من تكوين الوشاح لعروض بعض موشحاته من تفعيلتين إحداهما من بحر والثانية من بحر آخر على نحو ما مرَّ بنا فى قفل موشحتين للتطيلى وابن اللبانة قال ابن بسام إن أكثرها يجرى على الأعاريض المهملة غير المستعملة فظن «ريبيرا» ومن تبعه خطأً بأنه يقصد أعاريض أعجمية لا يعرفها العرب، وهو إنما كان يقصد الأعاريض المهملة غير المستعملة عند العرب التى نص عليها الخليل بن أحمد، بما وضع فى دوائر العروض الخمس من تفاعيل أدارها فيها مقدِّما ومؤخرا فى أسبابها وأوتادها ومستخدما إشارات من النقط والحركات تصور ما يحدث فى التفعيلات من زحافات بحيث تجمع الأعاريض أو الأوزان العروضية عند العرب وما يمكن عقلا أن يستخدم من أوزان جديدة أهملها العرب ولم يودعوا فيها من أشعارهم شيئا. وكانت هذه الدوائر وما يداخلها من أعاريض مهملة وكيفية استحداث تلك الأعاريض معروفة للأندلسيين منذ بدأوا فى نظم الموشحات بدليل أن ابن عبد ربه المعاصر للقبرى الوشاح الأول أثبتها مفصلة فى كتابه العقد الفريد. ولابن عبادة بجانب الموشحة التى أنشدناها والتى أعجب ابن زهر بأحد أغصانها إعجابا شديدا أربع موشحات إحداها غزلية، والثانية فى وصف عَرْض لأسطول المعتصم فى البحر المتوسط يوم المهرجان، وفيها نفس العذوبة والرشاقة التى رأيناها فى الموشحة السابقة كقوله يصف سفن الأسطول فى أحد الأغصان:

وجـاريـاتٍ تـجـولْ مثـلَ الجياد الســابقه
إنشاءُ مَنْ فى المُحولْ يُنْشِى السحابَ الوَادِقه[1]

(١) المحول: الجدب. الوادقة: المطرة. وهو يشيد بجود المعتصم وقد أشاد طويلا ببسالته الحربية.

سمتْ على النجم طولْ　　منهـا فروعٌ بـاسِقَه[١]

والموشحة تُرَدُّ إلى بحر الرجز وزحافاته. والموشحة الثالثة جمع فيها بنفس السلاسة والانسياب بين مديح المعتصم بن صمادح والمعتمد بن عباد ، وفى أحد أقفالها يقول فيهما :

بَحْرا نِعَمْ　لمن وَرَدْ　ظَمْآنْ　سيفا نِقَمْ　لمن مَرَدْ[٢]　أوخانْ

ولعل فيما قدمنا ما يوضح نهج ابن عبادة القزاز وأنه كان يعنى بتقصير أجزاء القفل والغصن حتى يتيح لموشحته كل ما يمكن من عذوبة النغم وحلاوته، وعادة لا يكتفى بذلك بل يعنى عناية شديدة بانتخاب ألفاظه، بحيث تعبق الموشحة بأريج عطر من النغم البديع.

يحيى[٣] بن بقى

هو أبو بكر يحيى بن محمد بن عبد الرحمن القرطبى القيسى المشهور باسم ابن بقى نسبة إلى جد أبيه، وقد ترجم له الفتح فى القلائد، فقال عنه: «هو رافع راية القريض، وصاحب آية التصريح فيه والتعريض، أقام شرائعة، وأظهر روائعه، وصار عصيُّه طائعَه، إذا نظم أَزْرَى بنظم العقود، وأتى بأحسن من رَقْم البرود، ضفا عليه حرمانه، وما صفا له زمانه، فصار قعيد صهوات، وقاطع فلوات، مع توهم لا يظفره بأمان، وتقلُّب دهرٍ كواهى الجُمان» وهو أحد من حكمت عليه حرفة الأدب بإقلاله وحرمانه، فامتطى غارب الاغتراب إلى بلاد المغرب، ويبدو أن كثيرا من الأبواب أغلقت دونه مما جعله ينشد:

وَغَلْتُ فى المغرب الأقصى فأعجزنى　　نَيْلُ الرغائبِ حتى أُبْتُ بالنَّدمِ

ولم يلبث أن فُتح له باب كبير هو باب بنى عَشْرة قضاة سَلا بالقرب من الرباط

---

(١) باسقة: عالية. يقصد الصوارى وما يرفع عليها ويمتدّ من القلاع.

(٢) مرد: عتا وجاوز الحد.

(٣) انظر فى يحيى بن بقى القلائد ٢٧٩ والذخيرة ٦١٥/٢ ومعجم الأدباء ٢١/٢٠ والتكملة رقم ٢٠٤٢ وابن خلكان ٢٠٢/٦ والمغرب ١٩/٢ والإحاطة ٤١٨/٤ والمقتطف ص ٢٥٦ وما بعدها ومعجم السلفى ٥٠ والخريدة (طبع تونس) ٢٣٦/٢ ونفح الطيب فى الجزءين الثالث والرابع (انظر الفهرس) وأزهار الرياض ٢٠٨/٢ ودار الطراز أرقام: ١٧، ١٩، ٢٠، ٢، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٣ وله موشحة فى المغرب وثانية فى معجم الأدباء وافتتح ابن الخطيب كتابه «جيش التوشيح» بطائفة من موشحاته.

الحالية عاصمة المملكة المغربية، وكانوا بحارا فياضة فى الجود فغمروه بجودهم وخاصة يحيى بن على بن القاسم وأخاه أحمد قاضى سَلا، فمكث فى رحابها طويلا، وأضفى عليهما من شعره وموشحاته دُرَرا كثيرة، وأول ما نقف عنده من موشحاته فيهم الموشحة التى مدح بها القاضى أحمد، والتى قال فى خرجتها أو خاتمتها أبو بكر بن زهر: ما حسدت وشاحا على قول إلا ابن بقى حين وقع له:

أما ترى أحمدْ فى مَجْده العالى لا يلحقُ
أطلعه المغربْ فأرِنَا مِثْلَهُ يا مَشْرِقُ

وهو لم يحسده فى رأينا على جمال صياغته فحسب، بل حسده أيضا على روعة تصويره فى الفقرة الثانية إذ جعل القاضى أحمد كوكبا يبزغ فى المغرب ولا مثيل له فى المشرق. ويتضح إبداعه فى تصويره إذ يقول فى أحد أغصان هذا الموشح متغزلا بصاحبته:

عطا بِلِيتَيْـهِ ومرَّ كالظَّبْىِ لِبِيدِهْ[1]
فدلَّ عليـه تكسُّر الحَلْىِ بِجِيدِهْ
تفتيرُ عَيْنَيْـهِ يُسْرِع فى بَرْىِ عَمِيده

وهو يجعلها كأنها ظبية حقيقية تمد عنقها لتناول الأوراق فى الشجر مصورا بذلك جمال جيدها، ويقول إنه إنما رآها لمحا أو كاللمح إذ مرَّتْ سريعا إلى منزلها، ويصوره كأنه بيداء فلن يعود يراها. ويعود إلى نفسه فليست من الظباء بل هى من النساء إذ سمع صوت الحلى بجيدها. ويقول إن تفتير عينيها الجميلتين يسرع فى ضَنَا محبوبها، ولا يزال يأمل من البيد والفلوات ردَّها. والموشحة من مجزوء البسيط. وواضح أن نسبتها إلى ابن بقى لا يشوبها شك فقد نسبها إليه أبو بكر بن زهر وكذلك ابن سعيد فى كتابه «رايات المبرزين» والمقرى فى أزهار الرياض ومع ذلك نجدها فى ديوان التطيلى خطأ[2] كما نجد أختا لها فى ديوانه أيضا وهى فى مديح يحيى بن القاسم ممدوح ابن بقى الذى تفيأ ظلاله،

(١) الليت: صفحة الجيد وجعلها تعطو بها وتمدها، كناية عن طولها.

(٢) انظر ديوان التطيلى ص ٢٧٠ وقارن برايات المبرزين ص٧٩ وأزهار الرياض ٢/٢٠٩.

وينص ابن سناء الملك فى مقدمته لدار الطراز على نسبتها إليه[١] وينشدها كاملة بين ما اختاره من الموشحات الأندلسية، وفيها يقول:

صبرتُ والصَّبْرِ شِيمةُ العانى ولم أقل للمطيل هجرانى معذِّبى كفانى
لما جَنَى الوَرْدُ مِلْءِ كفَّيْهِ تشوَّفَتْ وردتان إليه
فحلَّتا فى رياض خَدَّيْهِ

ويقول ابن سناء الملك إن هذه الموشحة من وزن المنسرح، ما عدا نهاية القفل: «معذبى كفانى» لأن وزنه مستفعلن فعولن، والأولى تفعيلة الرجز والثانية تفعيلة المتقارب. وألفاظ القفل بعذوبتها كأنها اقتطعت من اللغة الأندلسية الدارجة لتخفف عن قارئها متاعبه. وصورة الورد فى خدود صاحبته تنقلنا إلى عالم شعرى حالم مكتظ برؤى بديعة. ويلاحظ ابن سناء الملك أن موشحته:

ياوَيْحَ صَبٍّ إلى البَرْقِ له نَظَرُ وفى البكاءِ مع الوُرْق له وَطَرُ

من وزن البسيط أقفالا وأغصانا، وهو يضم فى الوزن الجزءين الأولين والتاليين بعضها إلى بعض، ويقول من موشحة:

إن لم يكن إليك سبيلُ فالصَّبْرُ بالجميل جميلُ

والوزن فى أقفالها وأغصانها مستفعلن فعولن فعولن، فهو مكون من تفعيلة الرجز وتفعيلة المتقارب ويكثر هذا الوزن بين الوشاحين. وتكثر هذه السهولة المفرطة فى كثير من أغصان ابن بقى وخرجاته كقوله فى موشحة من وزن الرجز:

ليلٌ طويلْ ولا مُعينْ يا قلبَ بعضِ الناسْ أما تَلينْ

وقوله فى خرجة موشحة ثانية مستخدما لغة عامية كأنما تفصل من قلوب سامعيه فتؤثر فيهم تأثيرا بعيدا:

---

(١) راجع ديوان التطيلى ص ٢٦٩ وقارن بدار الطراز لابن سناء الملك ص ٣٤ ونسب أيضا ابن سعيد فى المغرب ٢/٢٥ الموشحة: ما الشوق إلا زناد إلى ابن بقى وقد أضيفت الى التطيلى فى ديوانه ص٢٧٩ مما يدل على أن موشحات ابن بقى اختلطت بموشحات التطيلى وخاصة فى كتاب جيش التوشيح لابن الخطيب على نحو ما يلاحظ فى نسبة الموشحات الثلاث المذكورة إلى التطيلى وعنه ألحقها د. إحسان عباس بالديوان حين حققه مع إشارته إلى ذلك!

سافَرْ حبيبى   سَحَرْ وما وَدَّعْتُو   يـا وَحْــشَ قلـبى   فى الليل إذا افتكرتُو

وكلمة وحش حذفت منها التاء لضرورة تفعيلة الرجز: مستفعلن مع زيادة سبب فيها أحيانا إذ تصبح مستفعلاتن. وبهذه الألفاظ الغزلة المفرطة فى السهولة وبما كانت تتضمنه موشحات ابن بقى من صور بديعة طارت شهرته فى عصره وبعد عصره، وقد لبَّى نداء ربه سنة ٥٤٠ للهجرة.

أبو بكر(١) بن زُهْر

هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن أبى العلاء زهر بن عبد الملك، وهو سليل أسرة طبية ألممنا بها بين الأطباء فى الفصل الماضى، ولد سنة ٥٠٧ بإشبيلية، وأخذ علم الطب عن أبيه وجده، وانفرد بالإمامة فى عصره، ويقول ابن الأبار إنه كان يحفظ صحيح البخارى أسانيد ومتونا، وكان له حظ وافر من الآداب واللغة والحفظ لأشعار الجاهلية والمولدين، وحدَّث بمقامات الحريرى عن أبيه، ويقول صاحب المطرب. كان بمكان من اللغة مكين، كان يحفظ شعر ذى الرمة وهو ثلث لغة العرب مع معرفة جميع أقوال أهل الطب. وكان له منزلة عليا عند الموحدين وخاصة عند الأمير يعقوب بن يوسف سلطان الموحدين (٥٨٠ – ٥٩٥ هـ) وتوفى فى آخر سنة ٥٩٥ وصلى عليه السلطان الناصر بن يعقوب ودفن بروضة الأمراء فى مراكش. ويقول صاحب المطرب إن الذى انفرد به وانقادت إليه طباعه وأصارت النبهاء أتباعه الموشحات، وقد طار فى المغرب والمشرق موشحه:

أيُّها السَّاقى إليك المُشْتَكى   قد دَعَوْناكَ وإن لم تَسْمَعِ
ونـــديمٍ هِمْتُ فى غُـرَّتــهِ
وسقــانى الرَّاحَ من راحَتـهِ
كلما استيقظ من سَكْــرتــهِ
جذَب الزِّقَّ إليه واتَّكى   وسَقـانى أربعًا فى أربـعِ

---

(١) انظر فى أبى بكر بن زهر التكملة رقم ٨٥٥ والمغرب ١/٢٧١ والمطرب لابن دحية ص ٢٠٣ وما بعدها والمعجب ص ١٤٢ وابن أبى أصيبعة ص ٥٢١ ومعجم الأدباء ١٨/٢٥٦ وزاد المسافر لصفوان (طبع بيروت) ص ٧١ والوافى للصفدى ٤/٢٩ وراجع فى موشحاته المغرب ومعجم الأدباء وابن أبى أصيبعة وتوشيع التوشيح للصفدى (انظر الفهرس) وبالمثل جيش التوشيح لابن الخطيب.

والموشحة من وزن الرمل، وهي تسيل خفة ورقة وعذوبة ورشاقة فى نسق من بديع الألفاظ المختارة، وكأنها لا تتلاقى فحسب، بل تتعانق آخذا بعضها بتلابيب بعض. وله من موشحةٍ هذا الغصنُ وقفله:

هـل تستعادْ أيـامُنـا بـالخليـجْ أو ليـاليـنـا
إذ يُسْتـفـادْ من النسيم الأرِيج مِسْـكُ دارينا[١]
وإذ يـكـادْ حُسْنُ المكان البَهيج أن يحيِّيـنـا
نهرٌ أظـلَّهْ دَوْحٌ عليه أنيق مـورقٌ فينانْ[٢]
والماء يجرى وعَـائمٌ وغريقْ من جَنَا الرَّيْحانْ

والغصن والقفل جميعا يزخران بشجىً يثير فى القلب حنينا بل جذوة متقدة من الحنين لأيام سعيدة هنيئة مرت وكأنها حلم من الأحلام لن يعود. لن تعود تلك الأيام والليالى ولا ما كان فى حدائقها البهيجة من النسيم العطر حتى لكأنما كل شىء فيها كان يلقاهم بالتحيات والبسمات، وماء نهر إشبيلية يجرى من تحتهم وفروع الأشجار وأغصانها المورقة تظلله، والرياحين والزهر بين سابح وغريق. كل ذلك سقط من يد ابن زهر وهو مولَّه مشوق أعظم شوق، حتى لكأنما انتزع منه انتزاعا. وزنة الجزء الأول فى القفل والغصن مستفعلاتن، وزنة الجزء الثانى مستفعلن فاعلانْ، وزنة الجزء الثالث فى القفل فاعلانِ وفى الغصن فَعْلن، وبذلك يُرَدّ وزن الموشحة إما إلى البسيط وإما إلى السريع مع زيادة سبب إلى التفعيلة الأولى دائما وكذلك إلى التفعيلة الأخيرة، وهذه التغيرات فى تفاعيل هذه الموشحة وما ماثلها مما أشرنا إليه هو ما جعل ابن بسام يقول إن الموشحات تجرى أحيانا على أعاريض مهملة أى من أعاريض الشعر العربى كما أسلفنا مرارا لا من أعاريض الشعر الأعجمى الوهمية، كما ظن «ريبيرا» وتلاميذه. ولابن زهر موشحة صاغها على طريقة ابن نزار هكذا:

قَلْبِى من الحبِّ غير صاحِ صاح
وإن لَحـانى عـلى المِـلاح لَاحِ
وإن دَرَى قِصَّتـى وشـانـى شـانـى

والجزء الأول فى الغصن والقفل من مخلع البسيط، والجزء الثانى على زنة فعلن تفعيلة

(١) دارين: قرية كانت على الخليج العربى ينسب إليها المسك والطيب.
(٢) فينان: كثير الفروع والأغصان.

المتدارك وصاح الأولى: مستيقظ، والثانية: ترخيم صاحب، واللاحى: العاذل اللائم، وشانى الأولى: مخففة من شأنى والثانية: المبغض. واستمر ابن زهر فى هذه الموشحة يستخرج الجزء الثانى من الجزء السابق له أو يكرره بمعنى جديد، مما يفجأ به قارئه ويدخل عليه غير قليل من المتاع الشعرى. وكان كثيرا ما يفجأ قارئه بصور طريفة كقوله فى الموشحة التى أنشدها له ياقوت فى معجم الأدباء:

طرقتْ والليل ممدودُ الجَناحْ   مرحبًا بالشمسِ من غير صباحْ

فجناح الليل ممدود على الكون من حوله، وزارته صاحبته فأضاءت فى هذا الليل كأنها شمس تطلع دون صباح مما يلقى فى نفسه غير قليل من العجب، والموشحة جميعها أقفالا وغصونا من وزن الرمل، وأنشد له ابن دِحْية فى المطرب موشحة من وزن المتقارب افتتحها على هذه الصورة:

سَدَلْنَ ظلامَ الشعورْ   على أَوْجهٍ كالبدورْ
سفَرْن فلاح الصَّباحْ
ضحكنَ ابتسامَ الأقاحْ
كأن الذى فى النُّحورْ   تَخَيَّرْنَ منه الثُّغورْ

والصور طريفة إذ يجمع فى غزله والإعجاب بجمال صواحبه ظلام الشعور وبدور أو أقمار الوجوه ويضيف أنهن سفرن ونحين النقاب عن وجوههن فأضاء الصباح، وضحكن وابتسمت ثغورهن ابتسام زهر الأقاح الذى طالما شبه به الشعراء الثغور لنصاعة بياضه. ويفجؤنا ابن زهر بما ملأ نفسه حيرة، إذ يتنقل بصره بين ثغورهن وعقود اللآلئ التى تزدان بها نحورهن فيخال كأنهن تخيرْن ثغورهن من تلك اللآلئ البهيجة.

وواضح من كل ما قدمت أن موشحات ابن زهر وابن بقى وابن عبادة القزاز وغيرهم من الوشاحين الأندلسيين تموج بالنغم، وحقا خالفوا بين قوافى الأقفال وقوافى الأغصان، ولكن الأقفال تتحد قوافيها فى كل موشحة كما تتحد قوافى الأجزاء فى كل غصن. فالقافية لم تهمل فى الموشحة إنما تنوعت فى الأغصان، وظلت موحدة فى أجزاء الأقفال، وكان حريا أن يسقط بذلك شىء من وفرة الأنغام المعروفة فى القصيدة العربية غير أنهم تلافوا ذلك باختيارهم لموشحاتهم أرشق الألفاظ العربية وأكثرها عذوبة وسلاسة وصفاء، وليس ذلك فحسب، فقد قصَّروا الشطور فى أجزاء الأقفال والأغصان، حتى أصبحت أنغام أى موشحة لا تقل عن أنغام القصائد وَفْرَة، بل إنها لتتفوق عليها فى

كثير من الأحيان بسرعة التدفق والانسياب، حتى لتصبح روائعها وكأنها يَمٌّ من الأنغام تغرق الأذن فى خِضَمِّه. وليس بصحيح ما زعمه بعض المستشرقين الإسبان من أنها وُضعت فى نشأتها - وظلت توضع أحيانا - على أسس إيقاع لأنغام أغنيات باللغة الإسبانية أو الرومانسية الدارجة، ليس ذلك بصحيح، إذ هو وهم تبادر إليهم - كما أسلفنا - من كلمة ابن بسام : إن أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة، وهو إنما يقصد أعاريض الشعر العربى المهملة التى حاول بعض العباسيين أن ينظم فيها أشعاره أو بعض أشعاره، ثم جاء الأندلسيون من أصحاب الموشحات بعدهم فنظروا فى دوائر الخليل وتحريكه فيها للتفاعيل بالزيادة والنقص، فاستغلوا ذلك فى موشحاتهم أحيانا بزيادة سبب فى بعض التفاعيل أو نقصه مع اطراد ذلك فى الموشحة، بحيث تدخل بدقة فى أعاريض الشعر العربى وإيقاعه، فضلا عن أن كثيرا منها - إن لم تكن كثرتها - صيغت كما رأينا عند كبار الوشاحين من نفس أعاريض الشعر العربى وأوزانه المستعملة من قديم.

(ب) الأزجال

الأزجال جمع زجل[١]، وهو فى اللغة التطريب، وقد سمى به الأندلسيون الفن الشعرى العامى المقابل للموشحة. وفى اسمه الذى اختاره الأندلسيون ما يدل على أنه نشأ للتغنى به فى الطرقات والأسواق والمحافل العامة، وظل ذلك شأنهم على توالى الزمن، ونرى ابن قزمان يصرح بذلك فى بعض أزجاله[٢]، ونلتقى بعده بابن عبد الرءوف ورسالته فى الحسبة، ونراه يقول إنه ينبغى أن يمنع الذين يمشون فى الأسواق بالأزجال إلا أن تكون نفيرا للجهاد أو تهليلا لحج بيت الله الحرام والسفر إلى الحجاز[٣]. وحين رأى المستشرق الإسبانى «ريبيرا» أن صورتها لا تختلف فى شىء عن صورة الموشحة من حيث الأقفال والأغصان قرنها بها فى نشأتها منذ أواخر القرن الثالث الهجرى قائلا إنه نشأ حينئذ طراز شعرى شعبى تمتزج فيه مؤثرات غربية وشرقية متخذا صورتين هما

---

(١) راجع فى هذا الموضوع كتاب الزجل فى الأندلس للدكتور عبد العزيز الأهوانى (نشر معهد الدراسات العربية العالية فى الجامعة العربية) وكتاب تاريخ الأدب الأندلسى: عصر الطوائف والمرابطين للدكتور إحسان عباس ص ٢٥٢ وما بعدها.

(٢) انظر الزجل رقم ٦١ فى ديوانه.

(٣) راجع رسالة الحسبة لابن عبد الرءوف فى ثلاث رسائل نشر بروفنسال.

الموشحة الفصيحة والزجل السوقى الدارج[1]، ويبسط غرسية غوميس فكرته قائلا إنه «قدَّم براهين جلية على وجود لغة رومانسية كان يتكلمها أهل الأندلس وهى اللغة التى كتب بها ابن قزمان شاعر القرن الثانى عشر الميلادى أزجاله.. وكانت اللغة الدارجة الجارية على الألسن فى قرطبة»[2]. والشعبتان جميعا كما يراهما ريبيرا تحتاجان إلى مراجعة، إذ ينقصهما البرهان اليقينى، أما أنه كانت تشيع فى الأندلس لغة دارجة رومانسية كتبت بها الأزجال فإن الأزجال نفسها تنقضها لأنها كانت مكتوبة بلغة عامية عربية لا رومانسية بدليل أن أبواب البلدان العربية جميعا فُتحت لها وتناشدها الناس فيها، وأكبُّوا على روايتها ودراستها، حتى ليقول ابن سعيد إنه رأى أزجال ابن قزمان إمام الزجل الأندلسى مدونة ببغداد أكثر مما رآها مدونة بحواضر المغرب[3]. ومن الطريف أن نعرف أن الأندلسيين لم يكتبوا فيها بحثا ولا دراسة، وأن أول مَنْ بحثها ودرسها وحاول أن يعرض شيئا من تاريخها وخصائصها العروضية واللغوية بغدادى هو صفى الدين الحلى المتوفى سنة ٧٥٠ فى كتابه «العاطل الحالى والمرخَّص الغالى» ولو أنها كانت منظومة بلغة رومانسية أو لاتينية كانت دارجة فى الأندلس ما استطاع فهمها ولا دَرْسها دراسة علمية قيمة على نحو ما نقرأ فى كتابه السالف، الذى لا أبالغ إذا قلت إن أحدا لا يستطيع أن يدرس الأزجال الأندلسية دراسة علمية بصيرة دون الاعتماد عليه. ولم يَبْن دراسته للزجل على دراسة ديوان ابن قزمان وحده بل لقد استعرض معه طائفة من دواوين الزجالين الذين جاءوا بعده حتى القرن السابع مما يدل - بوضوح - على أنها كانت متداولة جميعا فى المشرق وأنها كانت منظومة بعامية عربية لا لاتينية دارجة أو رومانسية، ولا ننكر أنه تتخلل بعض الأزجال وخاصة عند ابن قزمان بعض ألفاظ رومانسية بحكم أنها دخلت العامية الأندلسية، بالضبط كما حدث لمثيلات لها فى لغات الشعوب التى فتحها العرب والتى استُحْدثت فيها عاميات مختلفة، ولكن ذلك لا يخرجها جميعا - كما لا يخرج العامية الأندلسية - من عالم العاميات العربية.

وبالمثل الشعبة الثانية من رأى «ريبيرا»، وهى أن الزجل نشأ مع الموشحة منذ أواخر القرن الثالث الهجرى فى حاجة أيضا إلى مراجعة، إذ لا تذكر المراجع الأندلسية أى شىء عن زجل أو أحد الزجالين قبل القرن السادس الهجرى، مما يمنعنا علميا أن ننسب نشأة الزجل إلى القرن الخامس فضلا عن القرن الرابع وما قبله. ونفس ابن قزمان

---

(١) انظر بالنثيا ص ١٤٢.

(٢) دراسات أندلسية للدكتور الطاهر مكى ص ١٨٦.

(٣) المقتطف ص ٢٦٣.

المتوفى فى منتصف القرن السادس يحدثنا فى مقدمة ديوانه بأن الزجالين الذين عاشوا فى زمنه أو قبله بقليل لم تستقر عندهم القاعدة الأساسية للزجل، وهى أن يكون بلغة عامية تخلو من الإعراب ومن التفاصح بالألفاظ العربية الجزلة، ويقول إن أول من اتخذ هذه القاعدة أساسا للزجل أخطل بن نماره وحده دون غيره ممن سبقوه فإن ألفاظ أزجاله ملحونة وسلسة. ويدل على أن أصول الزجل وقواعده لم تكن قد وضعت نهائيا قبل ابن قزمان، أنه عاد يأخذ على ابن نمارة تفاصحه ببعض الألفاظ التى لا تجرى فى العامية الأندلسية، وحمل بسبب ذلك على زجال يسمى يخلف بن راشد حملة عنيفة. وهذا يؤكد أن نشأة الزجل متأخرة وأنه لم يأخذ مقوماته وخصائصه الكاملة إلا على يد ابن قزمان، ويشهد بذلك ابن سعيد إذ يقول إن الأزجال قيلت بالأندلس قبل ابن قزمان ولكن لم تظهر حُلاها، ولا انسكبت معانيها، ولا اشتهرت رشاقتها إلا فى زمانه[1]». ويجزم ابن خلدون بأنها ظهرت متأخرة محاكاة للموشحة، يقول: «لما شاع فن التوشيح فى أهل الأندلس وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه وترصيع أجزائه نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ونظموا فى طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيها إعرابا، واستحدثوا فنا سموه بالزجل»[2].

ومعنى ذلك أن تصور «ريبيرا» ومن تابعه مثل غرسيه غوميس أن الزجل نشأ مبكرًا مع الموشحة وأنه نُظم بلغة رومانسية دارجة كانت تشيع على ألسنة أهل الأندلس تصور مخطئ أشد الخطأ، فقد نُظم بلغة عامية عربية لا لاتينية دارجة، أو رومانسية، ونُظم محاكاة للموشحة بعد أن شاعت وذاعت وازدهرت فى عصر الطوائف وما بعده كما يقول ابن خلدون. وسنخص ابن قزمان بكلمة. وينبغى أن نعرف أن الزجل مثل الموشحة يكثر فيه الغزل ووصف المتاع بالخمر ووصف الطبيعة والإعجاب بجمالها الفاتن والمديح والهجاء والرثاء وجميع أغراض الشعر العربى، وكان كثير منه يُنشد فى الحث على جهاد النصارى وفى المناسبات الدينية. وأكبر زجَّال فى الجيل التالى لابن قزمان هو أحمد بن الحاج المشهور باسم مَدْغَلِّيس[3]، وهو من أهل المريَّة، وله أزجال كثيرة فى مديح الأمراء والقواد، ويقول ابن سعيد إن أزجاله مطبوعة إلى نهاية، ويقول المقرى فى نفح

(١) المقتطف ص ٢٦٣.

(٢) مقدمة ابن خلدون (تحقيق د. على عبد الواحد وافى) ص ١٣٥٠.

(٣) انظر فى مدغليس المغرب ٢١٤/١ وتعليقنا على ترجمته فى الهامش.

الطيب: كان أهل الأندلس يقولون: ابن قزمان فى الزجالين بمنزلة المتنبى فى الشعراء ومدغليس بمنزلة أبى تمام بالنظر إلى الانطباع والصناعة، فابن قزمان ملتفت للمعنى ومدغليس ملتفت للفظ، وكان أديبًا معربًا لكلامه مثل ابن قزمان (يريد أنهما كانا ينظمان الشعر الفصيح) ولكنه لما رأى نفسه فى الزجل أنجب اقتصر عليه»[١] وكان ديوانه يُرْوَى فى المشرق وحصل صفى الدين الحلى على مخطوطة منه، وأدار عليه وعلى ابن قزمان أكثر ملاحظاته على عروض الزجل الأندلسى وخصائصه اللغوية، وذكر له كما أسلفنا - ثلاث عشرة قصيدة عامية على أوزان الشعر العربى، وذكر له قطعًا من أزجاله وأروعها الزجل الذى أنشده له ابن سعيد، وفيه يقول:[٢]

ثلاث آشيا فِالبساتينْ　　لَسْ تُجَدْ فى كلّ موضعْ
النَّسيم والخُضْرَهْ والطَّيرْ　　شِمْ واتْنَزَّهْ وإسْمَع
وِرَذاذًا دقّ يِنْزِلْ　　وشعاعِ الشمس يِضْرَبْ
فترى الواحدْ يِفضَّضْ　　وترى الآخرْ يِذَهَّبْ
والنباتْ يِشرْب ويِسْكَرْ　　والغصونْ تُرْقُصْ وتِطْرَبْ

ويشيد فى نهاية الزجل بغناء أم الحُسْن. والزجل مفعم بالسلاسة والعذوبة والتصاوير الرائعة الملحنة على أنغام وزن الرمل المرقص المطرب، وكأنما تحمل إلينا الألفاظ أنفاس البستان وأريج رياحينه. ومع أن مدغليس لم يوحّد القوافى بين الأجزاء الأولى المتقابلة فى قوافل هذا الزجل وأغصانه واكتفى باتحادها فى الأجزاء الثانية أسوة بابن قزمان فى بعض أزجاله يموج زجله بجرس يلذ الأذن ويمتع النفس لدقته فى اصطفاء ألفاظه وحسن ذوقه فى انتخابها حتى لكأننا نستمع فيها إلى لحن موسيقى. وربما كان هو أول من ابتكر صياغة القصائد بالعامية التى أسلفنا الحديث عنها، وكأنما رأى أن يقيس القصيدة على الموشحة، فكما صاغوا الزجل قياسًا على الموشحة صاغ القصائد العامية قياسًا على قصائد الفصحى بنفس أعاريضها المستعملة عند العرب - كما مرّ بنا - من مديد وخفيف وغير ذلك. ومن كبار الزجالين بعده أبو الحسن على بن محمد الشاطبى، وقد أنشد له صاحب العاطل الحالى قطعةً من زجل يبدو أنه كان من أزجال الاستنفار للجهاد وأنه قاله عقب انتصار، يقول فيه واصفًا حال العدو[٣]:

---

(١) النفح ٣/٣٨٥.
(٢) المغرب ٢/٢٢٠.
(٣) انظر العاطل الحالى ص ٣٤ و٨٠.

كلما رَا السيوفْ إليه تَنْجرِدْ   صاح ويشكو وثَمّ لم يَرْتَفِدْ[١]
يَنْبَحِ الكلبُ إذ يَرَى الأَسَدْ   والأَسَدْ لَسْ يَهُزُّو ذاك النَّباحْ

ورَجاعتْ عليه جنودْ ووبالْ   ومال النَّحْس ماعو كَفْ ماماْلْ
لم تنجيَـه وصيَّةُ الكـرِدنالْ   ولَ فـادِتْ نصيحةُ النُّصَّـاحْ

وواضح أن الزجل من وزن الخفيف. ويذكر ابن سعيد فى المغرب طائفة من الزجالين وطرائفهم الزجلية، وقد نقل كثيرين منهم عن كتاب ملح الزجالين لابن الدباغ المالقى، ومنهم زجَّالو إشبيليه: أبو عمرو الزاهر وأبو بكر الحصار وأبو عبد الله بن خاطب وأبو بكر بن صارم ومنهم ابن[٢] ناجية اللورقى. وقد أضاف ابن سعيد إليهم طائفة من زجالى القرن السابع أمثال البُلَّارج القرمونى ويحيى بن عبد الله بن البحبضة. وترجم لابن الدباغ[٣] المذكور آنفًا وقال إنه لقيه بمالقة وإنه إمام فى الهجو على طريقة الزجل، وذكر له بعض أزجاله. ونشعر أن الزجل - مثل الموشحة - انتهى عصر ازدهاره بانتهاء عصر الموحدين لولا ما أتيح له من حيوية وروحانية بعد ذلك على لسان المتصوفة من أمثال الششترى المتوفى بدمياط سنة ٦٦٨ للهجرة. ومن الزجالين المهمين ابن عمير، وقد أنشد له صاحب العاطل من زجل قوله[٤]:

يـا حَبِيبْ قلبى تعـطَّفْ   بعض هـذا الهجر يكْفـا
فـدموعْ عَيْنَىَ مـا تَرْقَـا   ولهيبْ قلبىَ مـا يـطْفَـا

والزجل من وزن الرمل، ويقول ابن خلدون إنه نزل بمدينة فاس فى المغرب ونظم لهم نوعًا من الشعر الملحون فى أعاريض مزدوجة فأولعوا بالنظم فيه وسموه عروض[٥] البلد. ويذكر ابن خلدون من الزجالين فى عصره ابن الخطيب (المتوفى سنة ٧٧٦ للهجرة) وكان يعاصره إمام فى الزجل هو محمد بن عبد العظيم من أهل وادى آش، وينشد له ابن خلدون قطعة من زجل عارض به زجلًا لمدغليس استهله بقوله:

حلَّ المجونْ يا أهل الشطارا   مذ حلَّتِ الشمس بالحَمَلْ

وجدير بنا أن نقف قليلًا عند ابن قزمان إمام الزجل الأندلسى ونتحدث عن بعض أزجاله.

---

(١) يرتفد: يريد أنه لم يدعم بعدد من قومه.
(٢) انظر فى هؤلاء الزجالين فهرس المغرب.
(٣) المغرب ١/٤٣٨.
(٤) العاطل الحالى ص ٥٦.
(٥) المقدمة ص ١٣٥٧.

ابن قزمان[1]

هو أبو بكر محمد بن عيسى بن عبد الملك بن قزمان، ولد حول سنة ٤٨٠ وعاش فى عصر المرابطين إلى أن توفى بعده سنة ٥٥٥ للهجرة فى صدر دولة الموحدين (٥٤٠ - ٦٤٠ هـ) وفى المغرب أنه من بيت عريق بقرطبة وأن أفراد أسرته لم يزالوا بين عالم ووزير ورئيس. وقد نشأ مثل أترابه فى قرطبة نشأة علمية أدبية، وهى نشأة أهلته ليكون أديبًا وكاتب وثائق كما يكون شاعرًا ووشاحًا[2]، أما شعره فروى له منه ابن الأبار بعض مقطوعات فى كتابه تحفة القادم، وروى له ابن سعيد مقطوعة من قصيدة فى مديح يحيى بن غانية والى غربى الأندلس من قِبَل على بن يوسف بن تاشفين ومقطوعة ثانية نظمها وقد رقص فى مجلس شراب، فأطفأ فيه السراج بأكمامه. ولعل فى ذلك ما يدل على أنه اتجه مبكرًا للمتاع بالخمر واللهو. وأما التوشيح فقد روى له صاحب العاطل الحالى موشحة غزلية غزلاً ماديًّا صريحًا[3]. وفى المُغْرِب أنه «كان فى أول شأنه مشتغلاً بالنظم المعرب (شعرًا وتوشيحًا) فرأى نفسه تقصر عن أفراد عصره كابن خفاجة وغيره، فعمد إلى طريقة لا يمازجه فيها أحد منهم، فصار إمام أهل الزجل المنظوم بكلام عامة الأندلس». وقد طارت شهرته فى الزجل لا بقرطبة وحدها، بل فى كل مدن الأندلس، وأيضًا فى المغرب والمشرق، حتى لتحتفظ العصور بمخطوطة من ديوانه كتبها نسَّاخ بمدينة صفد فى فلسطين قبل سنة ٦٨٣ هـ/١٢٣٤م وقد نشرها المستشرق جنزبرج سنة ١٨٩٦ مصوَّرة فى لوحات، وعُنى فى سنة ١٩٣٣ المستشرق التشيكى «نيكل» بنشره بحروف لاتينية مع دراسة عن ابن قزمان، وصدرت هذه النشرة فى مدرسة الدراسات العربية بمدريد وغرناطة، وانتقد المستشرق كولان هذه النشرة وقال إنها مليئة بأخطاء كثيرة، ونشر الديوان من جديد المستشرق غرسية غوميس بحروف لاتينية مع ترجمة إلى الإسبانية، غير أنه أخطأ فى رأينا خطأ كبيرًا حين حاول أن يطبق على أزجاله أعاريض الشعر الغربى القائمة على النبر والمقاطع كأوزان الشعر الإسبانى بحجة أن الزجل نُظم على تلك الأوزان لا على الأوزان العربية، وهى حجة لا دليل

---

(١) انظر فى ابن قزمان المغرب ١/١٠٠ و١٦٧ وما بعدها وتحفة القادم لابن الأبار فى مجلة المشرق عدد ٣ سنة ١٩٤٧ رقم ٢٥ ص ٣٧٥ والإحاطة ٢/٤٩٤ والعاطل الحالى لصفى الدين الحلى (انظر الفهرس) والوافى للصفدى ٤/٣٠٠.

(٢) راجع الزجل السابع فى الديوان.

(٣) العاطل الحالى ص ٨٢.

عليها أي دليل، بل كل شيء ينقضها نقضًا فقد صيغت الأزجال محاكاة للموشحات كما لاحظ ابن خلدون، وهي لذلك تلتقي بها في أوزانها العربية وتفاعيلها المعروفة على نحو ما أوضحنا في تحليلنا العروضي لطائفة من الموشحات، بل لقد أوضحنا ذلك في الأزجال المارة إذ ذكرنا معها أعاريضها وأوزانها العربية. ولو أن غرسية غوميس درس أعاريض الشعر العربي ودوائر الخليل التي أثبتها ابن عبد ربه في العقد الفريد وتأنَّى في قراءة أزجال ابن قزمان لعرف أنها جميعًا لا تخرج عن الأعاريض العربية، وكيف كان يمكن لناسخها في صفد قديمًا أن ينسخها، وكيف كان يمكن لصفي الدين الحلي أن يدرسها في كتابه العاطل الحالي، وهي على أعاريض الأشعار الأوربية أو الأندلسية: أعاريض النبر والمقاطع. ونفس صفي الدين يشهد في كتابه بأنها جمعت بين أصول الطرب وصحة أوزان العرب[1]. ونضيف كيف كان يمكن للبلدان العربية أن تحاكيها وأن تزدهر فيها إلى اليوم لو أنها كانت على أعاريض الشعر الأوربي؟ إن كل ذلك يقطع بأن الزجل نظم – مثل الموشحة على الأعاريض العربية، سواء عند ابن قزمان أو عند غيره من الزجالين.

والديوان – بدون ريب – كنز نفيس لأن الزمن لم يحتفظ لنا من دواوين الأزجال الأندلسية إلا به، وفيه غُنْية عن سواه لأنه ديوان إمام الزجالين في الأندلس غير مدافع، ويتراءى لنا فيه ابن قزمان ماجنًا عاكفًا على اللذات من الخمر والنساء والغلمان لا يرعوى ولا يزدجر، وهو يعلن ذلك مرارا مجاهرًا به في غير حياء، ويبدو أنه كان يهبط أحيانًا إلى صور من العبث والمجون جعلت ابن المناصف القاضي يأمر بسجنه، ويستغيث بالقائد المرابطي محمد بن سير فيرد إليه حريته. وطبيعي لمن يعيش هذه المعيشة الماجنة المسرفة في المجون أن يتلف كل ما ورثه من مال وأن لا يبقى على مال يصل إلى يده، مما جعله في أزجاله مداحًا كبيرًا للأمراء والولاة وسلاطين المرابطين والقضاة ووجهاء قرطبة وغير قرطبة إذ كانت له رحلات إلى إشبيلية وغير إشبيلية، يستجدي العطاء في إلحاح. وهو يهبط في هذا الاستجداء حتى ليطلب الثياب والدقيق والفحم والزيت وأجرة البيت الذي يسكنه مصورًا في تضاعيف ذلك بؤسه وحرمانه وماهو فيه من تعاسة وضنك ومسغبة حتى ليدنو من صورة أصحاب الكدية والتسول. وهو جانب ننكره عنده كما ننكر إسرافه في اللهو وما ملأ به أزجاله من مجون وإثم. غير أننا إذا نحينا ذلك كله عن ابن قزمان يظل عندنا الزجّال الفنان الكبير الذي أعطى للزجل صورته العامية

---

(١) العاطل الحالي ص ٢٢ ويؤكد صفي الدين ذلك قائلًا إنهم خالفوا أحيانًا بين الأوزان في الأقفال والأغصان من غير أن يُخْسروا في الميزان.

التامة وسلاسته وعذوبته المكتملة بحيث أصبح يخلب الألباب بخفته ورشاقته من مثل هذه الفقرة الأخيرة من الزجل رقم ٥٨ فى الديوان:

لانْسيتِ إذْ زارني حِبِّي   وانجلى همى وزاد كَرْبى   قلتُ لُهْ وَقْتَا أخذْ قلبى
قالْ متى تَجينِ قُلْ غدا   وغـدا للناظـرين قـريبْ

والزجل من وزن الرمل مع تعديل طفيف فى جزئى القفل. والجزء الثانى فى الغصن: «وانجلى همى وزاد كربى» يدل على عمق شاعرية ابن قزمان وأحاسيسه، فحين زال همه زاد كربه، وهى صيغة لا يقولها إلا من شفَّه العشق. ويقتطف صفى الدين الحلى هذا المطلع من أحد أزجاله[1]:

قالوا عنِّي بأنِّي فيكْ عاشقْ   إيشْ تَـقُـلْ يَـصْـدُقـوا
ياحبيبى لْقيتْ كثيرْ فى الناسْ   بـالـصـوابْ يَـنْـطِقـوا
هذا شئْ والنَّبِيْ يا نورْ عينى   مـا تحدَّثـت بِـيـه
ولَ بـالله خـطَرْ عـلى بـالى   لا ولا خُـضْـتُ فِـيـه

والزجل من وزن المقتضب: مفعولات مستفعلن فَعْلن. والفقرة رقيقة رقة شديدة، مع غير قليل من الرفق والعطف والحب الذى يكظمه فى نفسه ويشيع - دون إرادته - من حوله وحول محبوبته. وأنشد له ابن سعيد فى المغرب طائفة من أزجاله الماجنة، وتتخللها أحيانا قطع أو فقر بديعة فى وصف الربيع والطبيعة مثل قوله:

الـرَّبيـع ينشُـرَ غْـلامُ   مثـل سلطانـاً مؤيَّـدْ
والثمـارْ تنشـر حليَّـه   بثيـابْ بِحَـلْ زَبَـرْجَـدْ
والرياضْ تلبسْ غِـلالا   من نبات فِحَلْ زمـرُّدْ
والـبَهـارْ مـع الـبنـفسَـجْ   يـاجمـال ابيَضْ فى أزْرَقْ

واستمر يذكر الندى يترقرق على الغصون وأزهار الخيرى والآس، والماء يجرى، والظل يمتد يمينا ويسارا. ويستطرد إلى الحديث عن الخمر وإلى غزل يصور فيه غريزته النوعية. وواضح أنه صاغ هذا الزجل من وزن الرمل المرقص المطرب. وإذا كانت تشوب أزجاله أحيانا كلمات أو صيغ رومانسية فإنها جاءته من العامية الأندلسية، وهى أشياء محدودة لا تُخْرج صياغة أزجاله إلى صياغة لاتينية أو رومانسية كما ظنَّ «ريبيرا»

---

(١) العاطل الحالى ص ٣٤

وغرسية غوميس، فالصياغة المطردة فى أزجاله صياغة عامية عربية هى عامية الأندلس على نحو ما يلاحظ فيما أنشدناه من أزجاله. وبحق لاحظ صفى الدين الحلى أنه على الرغم من أنه دعا إلى أن تكون ألفاظ الزجل ملحونة وأن لا تكون من الألفاظ العربية الجزلة الرصينة فإن بأزجاله كثيرا من الألفاظ والصيغ العربية الرصينة المصقولة وأيضا من الألفاظ المعربة بالحركات والحروف، واستشهد صفى الدين لذلك كله وما يماثله بشواهد كثيرة من أزجاله.[١] ولا نبالغ إذا قلنا إن أحدا لا يستطيع أن يدرس أزجال ابن قزمان ولا الأزجال الأندلسية دراسة لغوية وعروضية دون الرجوع - كما أسلفنا - إلى دراسة صفى الدين لها فى كتاب العاطل الحالى، إذ لم يتصدَّ أحد لدراستها دراسة علمية خصبة قبله، وسيظل كتابه منجما لا ينفد للدارسين لها والباحثين.

وحرى بنا أن نشير إلى أنه أصبح من الثابت بين علماء الاستشراق أن صيغة الزجل ونظامه وما اقترن به من الموسيقى الأندلسية، كل ذلك أثر تأثيرا واسعا فى الغرب، إذ على هديه ظهرت الطُّرُز الشعرية المقفاة عند أوائل التروبادور البروفانسيين. ويتحدث بالنثيا حديثا مفصلا عن مدى تأثيره فى فرنسا وإنجلترا وألمانيا وإيطاليا والبرتغال بدليل ما نشأ عندهم من أغان مقفاة على شاكلة القوالب الزجلية، وليس ذلك فحسب فإنها تأثرت بمضامين الزجل الغزلية وما فيها من تصور للعشق، وأيضا بما كان يرافقها من موسيقى. ويمضى بالنثيا فى الحديث عن تأثير الزجل فى الأغانى الإسبانية بطرازه الشعرى وموسيقاه، ويذكر أن دواوين نظمت أكثر أغانيها وأناشيدها فى قالب الزجل، منها ديوان ألفونس العاشر فى القرن الثالث عشر (١٢٢١ - ١٢٨٤ م) الذى سماه أناشيد لمريم العذراء المقدسة وهو يتضمن أربعمائة وعشرين أنشودة منها نحو ثلاثمائة على نسق الأزجال الأندلسية وقوالبها المعروفة، ومثل هذا الديوان ديوان القس هيتا فى القرن الرابع عشر الميلادى الذى سماه: «الحب الطيب» ويقول بالنثيا إن التشابه بين مقطوعاته وبين الأزجال لا يرقى إليه شك، ويمثل ببعض مقطوعاته.

(١) انظر العاطل الحالى ص ٦٤ وما بعدها

٣

شعراء المديح

طبيعى أن يأخذ شعراء المديح فى الظهور منذ تأسيس عبد الرحمن الداخل للدولة الأموية بقرطبة، وهم يأخذون فى التكاثر منذ عهد عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) كما مرَّ بنا، ويخلفه ابنه محمد ويظل من عاش فى عصره من الشعراء يدبج القصائد فى مديحه مثل مؤمن بن سعيد وطاهر بن حزم، وربما كان أهم مداحه عباس[١] بن فرناس ويقال إنه مدح أباه عبد الرحمن وجده الحكم، وينوه ابن حيان بإبداعه فى التفلسف وفنون التعاليم القديمة والحديثة وحذقه للموسيقى والضرب على العود وصوغه للألحان، وله فى تهنئة الأمير محمد عند قفوله مظفرا سنة ٢٥٩ من غزوته الكبرى لأهل بنبلونة فى نبارّة بأقصى الشمال قصيدة بديعة، وكان صادف اقتران قفوله منها بعيد الفطر مما جعله يقول[٢]:

إنَّ القُفولَ الذى أوْفى بعيدينِ ... مكرَّمين على الدنيا عَزِيـزَيْنِ
قُدومُ أكرمِ مَنْ فى الأرض قاطبةً ... قُدومَ فِطْرٍ فكانا خيرَ عيدين
طابا كتفَّـاحَتَىْ خَدَّىْ مُنَعَّمـةٍ ... تورَّدا فى بياضٍ بين صُدْغَيْن[٣]
أو مُقْلَتَىْ رَشَأٍ فى طَرْفهِ حَوَرٌ ... مَكْحُـولتين بِسِحْر البـابليَّيْنِ[٤]

ونلتقى بعده بشعراء ابنه الأمير عبدالله وفى مقدمتهم ابن عبد ربه، وعبيد[٥]الله بن يحيى بن إدريس وهو من بيوتات الشرف فى المولدين. وللشعراء فيه مدائح كثيرة سجلها ابن حيان فى قسم المقتبس الخاص به، من ذلك قول عبيدالله بن يحيى بن إدريس يهنئه بفتح حصن لُكّ:

---

(١) انظر فى عباس بن فرناس المقتبس لأبى حيان (تحقيق د. مكى - طبع بيروت) ص ٢٧٩ والزبيدى ص ٢٩١ والحميدى رقم ٣٧١ والمغرب ٣٣٣/١ وبغية الملتمس رقم ١٢٤٧ وله وللشعراء المذكورين أشعار كثيرة فى المقتبس.

(٢) المقتبس ص ٣٣٩.

(٣) الصدغ: الشعر على جانب الوجه من الأذن إلى العين.

(٤) البابليان: هاروت وماروت المشهوران بالسحر.

(٥) انظر فى ابن إدريس الحميدى رقم ٥٨٢ وابن الفرضى رقم ٧٦٥ والضبى رقم ٩٧٤. واختار له ابن حيان فى الجزء الخاص بعبد الرحمن الناصر أشعارا كثيرة (انظر الفهرس) وبلغ من إعجاب الناصر به أن أسند إليه الوزارة، وكان متواضعا حتى قالوا إنه كان يؤذن فى مسجده وهو وزير.

قد جاءك الفَتْحُ فى العِيد الكبير فما رأيتُ مثلهما فى اليوم عِيدَيْنِ
يافَرْحةً مَنْ رأى فى الغَزْو طالعها وشاهدَ الفتح لم يأسف على البَيْنِ
ألذُّ فى السمع من بُشْرَى الحَمِيمِ إذا وَافَى ومنْ منظر المعشوق فى العَيْن

وممدَّح البيت الأموى الجديد بكل مديح وثناء عبد الرحمن الناصر الذى أعلن نفسه خليفة سنة ٣١٦ وقد ظل صولجان الحكم بيده خمسين سنة، كانت قرطبة فيها عاصمة الحضارة والثقافة فى أوربا، وعادت إلى الأندلس وحدتها التى تفككت فى عهد جده عبد الله، ودان حكام نبارَّة وقشتالة وبرشلونة وليون له بالولاء، ومرَّ بنا حديث ابن حيان عن كثرة الشعراء فى زمنه. وكانت غزواته طوال حكمه متصلة فاتصل مديح شعرائه جميعاً بها وفى مقدمتهم ابن عبدربه وسنفرده بكلمة، وبالمثل اتصل بها مديح عبيد الله بن يحيى بن إدريس وله يقول فى مدحة ميمية:[١]

يَهْنا الخلافة سَعْىُ خيرِ إمام لله مَسْعَاهُ ولِلإسلامِ
لِيُعزَّ دينَ الله فى كَنَفِ العُلا ويذبَّ عن حَرم الهدى ويُحامى
مستنجزًا وعد الإلـه بِنَصْرِه فى شِيعة الإشراك والإجرامِ

وكان الناصر قد غزا نصارى الشمال فى شهر رمضان وأدركه عيد الفطر فى بلاد العدو فلم ينكل ولم يتراجع بل صمد - كما يقول ابن حيان - للقاء العدو ومزَّق جموعه تمزيقا. ولابن إدريس يذكر زيادته فى جامع قرطبة وبناءه لمدينة الزهراء بجوارها[٢]:

سَيَشْهَدُ ما شيَّدتَ أنك لم تكن مُضِيعًا وقد مُكِّنْتَ للدين والدُّنْيا
فبِالجامعِ المعمورِ للعلم والتُّقَى وبالزَّهرة الزَّهْراء للمُلْك والعَلْيا

وقد استحال جامع قرطبة فى عهده إلى جامعة كبرى للعلوم والآداب، وإلى ذلك يشير ابن إدريس. ودائما يرفع شعراء الأندلس فى مدائحهم لأمراء البيت الأموى الدين الحنيف شعارا لهم فى غزواتهم للمسيحيين فى الشمال، فهم يحامون ويصولون تحت لوائه دفاعا عنه وانتصارا له زُلْفى لربهم. ويخلف الناصر ابنه الحكم المستنصر أكبر راع للعلوم والآداب فى الأندلس، بل فى جميع العالم العربى، لعصره، غير أنه لم يكن داهية فى السياسة، فقد رأى أباه الناصر يشعر بخطر نشوء الدولة الفاطمية فى تونس فيستولى على سبتة وطنجة ويرسل إعانات مالية كبيرة لزعيم الأدارسة يحيى بن إدريس ويمده بالسلاح

(١) المقتبس الجزء الخامس ص ٤٢.
(٢) المغرب ١/ ١٨٠.

والعتاد لمقاومة الخطر الفاطمى، ويستطيع يحيى التغلب على نصير الفاطميين موسى بن أبى العافية ويعلن ولاءه للناصر. ولا يسلك الحكم المستنصر مسلك أبيه فى تلك السياسة إذ ألقى بخيرة قواده وجنوده فى الصراع مع المغرب، ولم يظفر من ذلك بطائل سوى إضعاف جبهته الشمالية فى حروبه مع نصارى الإسبان. وفى هذه الأثناء وفد عليه جعفر بن على أمير الزاب وأخوه يحيى معلنين الانفصال عن مَعَدّ الفاطمى ودعوته وولاءهما له، وهلَّل شعراؤه بوفادتهما طويلا، من ذلك قول شاعره محمد بن شخيص[1]:

بِـأيْمنِ إقبالٍ وإسْعـادِ طائـرِ ... تباشيرُ محتومٍ من الأمرِ واقعِ
توافتْ بمُلْكٍ من معدٍّ مقوَّضٍ ... لمُلْكٍ إلى مهديِّ مروانَ راجعِ
فيالكِ من بُشْرَى سرورٍ تَضَمَّنَتْ ... بلوغَ الأمانى عن سُعود الطوالعِ
فجعفرُ يُغْنِى عن جنودٍ بِرأْيِهِ ... ويَحْيَى يلاقى حاسرًا ألفَ دارعِ

وهو يقول إن وفودهما بشرى بأن ملك معد الفاطمى تقوض من أساسه للملك المروانى: الحكم، ويصفه بأنه مهدى منتظر على نحو ما كان معد يصف نفسه. ويتغنى بذلك شاعر الحكم محمد بن حسين الطُّبْنى وغيره من الشعراء. ويخلفه على العرش ابنه المؤيد وهو غلام فى الثانية عشرة من عمره ويحجب له المنصور بن أبى عامر وابناه المظفر والناصر، ويظل صولجان الحكم بيد المنصور نحو ربع قرن ويخلفه عليه ابناه نحو سبع سنوات وكان المنصور شجاعا فأكثر من غزوات النصارى فى الشمال حتى بلغت – فيما يقال – نيفا وخمسين غزوة، ومن أهمها غزوة جربيرة فى صيف سنة ٣٩٠ وفيها هزم نصارى الشمال هزيمة ساحقة تغنى بها شعراؤه طويلا من مثل قول صاعد[2]:

اليوم عاشَ الدِّينُ وابتدأ الهُدَى ... غَضًّا وعاد الملكُ عذبَ المورِدِ
من فـاته بـدرٌ وأدرك عُمْـرُه ... جَرْبيرَ فَهْو من الرَّعيلِ الأسعدِ

وهو يجعل غزوة جربيرة أختا لغزوة بدر التى أعز الله بها الإسلام ورسوله والمؤمنين

---

(١) قطعة المقتبس الخاصة بالحكم المستنصر (طبع بيروت) ص ٥٤. وانظر فى ترجمة ابن شخيص الحميدى فى الجذوة ص ٨٤ وبغية الملتمس ص ١١٩ واليتيمة للثعالبى (تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد – طبع دار الفكر) ٢/٢٢ وقال الضبى فى البغية: له على لسان رجل يعرف بأبى الغوث أشعار مشهورة فى أنواع الهزل.

(٢) انظر أعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب ص ٧٢ – ٧٣ وهو صاعد البغدادى اللغوى الشاعر الوافد على المنصور بن أبى عامر، وراجع ترجمته فى الذخيرة ٤/١/٨ وما بعدها والحميدى: ٢٣٣ والبغية رقم ١٥٢٣ والصلة رقم ٥٣٦ ومعجم الأدباء ١١/٢٨١ وإنباه الرواة ٢/٨٥ والمعجب للمراكشى ص ٧٥ وابن خلكان ٢/٤٨٨.

مبالغة فى تمجيده لانتصار ابن أبى عامر فيها. وشاعره الفذ هو ابن درَّاج القسطلى وسنخصه بكلمة. ويقول فيه وفى حجابته عبادة بن ماء السماء[١]:

لنا حاجبٌ حاز المعالى بأسْرها ... فأصبحَ فى أخلاقه واحدَ الخَلْقِ
فلا يغترِرْ منه الجَهُولُ بِبِشْره ... فمعظَمُ هولِ الرَّعْدِ فى أثَر البَرْقِ

وعاصر عبادةُ زمنَ الفتنة بقرطبة (٣٩٩ - ٤٢٢ هـ) حتى إذا استولى على مقاليد الخلافة على بن حمود العلوى من أدارسة المغرب سنة ٤٠٧ نجد عبادة يقدم له مدائحه متحزبا له متشيعا بمثل قوله[٢]:

أطاعتك القلوبُ ومَنْ عَصِيٌّ ... وحِزْبُ الله حزبُـك يا علىُّ
وإن قال الفَخورُ أبى فلانٌ ... فَحَسْبُكَ أن تقول أبى النبىّ

ويتوفى على سنة ٤٠٨ ويخلفه أخوه القاسم فيقدم مدائحه إليه وينازعه الخلافة يحيى ابن أخيه، ويستولى على صولجان الحكم فترة سنة ٤١٢ ويفر عمه إلى إشبيلية، ويعود بجنود من البربر إلى قرطبة ويستردّ الحكم من يحيى سريعا، ويغادر قرطبة إلى الجزيرة الخضراء ويستولى عليها، وله يقول عبادة:

فهـا أنا ذا يـابنَ النبوَّة نـافثٌ ... من القول أرْيًا غير ما يَنْفُثُ الصِّلُّ[٣]
وعندى صريحٌ فى ولائك مُعْـرقٌ ... تشيُّعـه محضٌ وَبَيْعَـتُـهُ بَتْـلُ[٤]

وهو يقول إن ولاءه لآل البيت عريق ويمضى فيذكر أن جده كان مواليا لعلى مما جعل معاوية يبغضه بغضا شديدا. وكان ابن الحناط الكفيف القرطبى يتشيع مثله للحموديين وله مدائح متعددة فيهم وخاصة فى على بن حمود وفيه يقول:[٥]

إمامٌ أقام الدِّينَ حَدُّ حسامِه ... طريرًا ومنه فى يد الله قائمُ[٦]

وكأنما كان الصوتان المتشيعان نشازا على أسماع الحموديين فى الأندلس، إذ لم يكونوا

---

(١) راجع ترجمة عبادة فى الذخيرة ٤٧٥/١ وسنخصه بكلمة بين شعراء الطبيعة والخمر.

(٢) انظر فى هذين البيتين والأبيات التالية ترجمة عبادة فى الذخيرة ٤٦٨/١ وما بعدها.

(٣) الأرى: عسل النحل. الصل: الحية.

(٤) بتل: حق.

(٥) انظر القصيدة فى ترجمة ابن الحناط بالذخيرة ٤٣٧/١ وراجع ترجمته فى الجذوة ص ٥٣ والبغية رقم ١٢٤ والصلة رقم ١٤٣٥ والمغرب ١٢١/١ والتكملة رقم ٤٢٩ والوافى ١٢٤/٣.

(٦) طريرا: له رُواء وبهجة.

هم ولا آباؤهم الأدارسة فى المغرب دعاة نحلة أو عقيدة شيعية، لذلك ذهب هذان الصوتان أدراج الرياح.

وإذا مضينا فى عصر أمراء الطوائف وجدنا عواصم هؤلاء الأمراء تتحول إلى ساحات كبرى للمديح، فليس هناك أمير ولا وزير إلا وتدبَّج فيه المدائح، إذ تكاثر الحَبُّ فى تلك الساحات وتكاثر الشعراء الذين يلتقطونه من داخل الإمارة ومن الوافدين على أمرائها، وقد استحالت قصورهم إلى ندوات واحتفالات لإنشاد الشعراء مع ما يتخلل ذلك من مجالس الأنس والطرب والغناء، مما أحدث فى الأندلس نهضة شعرية بأدق ما تؤديه كلمة نهضة من معان، وقد كتب ابن بسام فيها كتابه الذخيرة بمجلداته الثمانية الضخام متحدثا عن الشعراء البارعين بكل حاضرة فى هذا العصر وقد بلغوا أكثر من مائة شاعر فذ، ولكل منهم مدائح بديعة، من ذلك مدحةُ أبى زيد عبد الرحمن بن مُقانا الأُشبونى لإدريس بن يحيى الحمودى أمير مالقة جعل مقدمتها طبيعة وغزلاً وخمرًا وسنعرض لذلك فى ترجمته بين شعراء الطبيعة والخمر، وخرج إلى المديح، منشدًا[١]:

وكأنَّ الشمسَ لما أشرقتْ ... فانْثَنَتْ عنها عيونُ الناظرينْ
وَجْهُ إدريسَ بن يحيى بن عليٍّ بنِ حَمُّودٍ أمير المؤمنين
كتب الجودُ على أبوابهِ ... ادْخُلُوها بسلام آمنينْ
انظرونا نَقْتَبِسْ من نوركم ... إنَّه من نورِ ربِّ العالمينْ

وكان ابن مقانا بدأ إنشاد إدريس هذه القصيدة وهو محتجب على عادته، فلما سمع البيتين الأخيرين أمر برفع الحجاب حتى نظر إليه، وأضفى سابغ نواله عليه. وتغنى ابن زيدون مرارا بأمراء قرطبة بنى جهور، ولما ظنوا أنه مشترك فى مؤامرة ضدهم وزجُّوا به فى غياهب السجن أخذ يعتذر إليهم بمثل قوله[٢]:

بنى جَهْورٍ أحرقتُمْ بجفائكم ... جَنانى فما بالُ المدائح تعبَقُ
تظنوننى كالعَنْبَرِ الوَرْد إنما ... تطيبُ لكم أنفاسُه وهْو يُحْرَقُ

ورُدَّت إليه حريته، فالتحق بالمعتضد بن عباد أمير إشبيلية، فاتخذه وزيرا له وأجزل له فى الراتب والعطاء، وفيه يقول ابن زيدون فى إحدى مدائحه[٣]:

---

(١) انظر القصيدة فى ترجمة ابن مقانا بالذخيرة ٤٨٦/٢.

(٢) ديوان ابن زيدون ومعه رسائله (تحقيق محمد سيد كيلانى) ص ٦٠ والمغرب ٦٩/١.

(٣) الديوان ص ١١٢.

هُمامٌ يَزين الدهرَ منه وأهلَه   مليكٌ فقيهٌ كاتبٌ متفلسفُ
يتيهُ بِمَرْقاهُ سريرٌ ومنْبَرٌ   ويحمد مَسْعاه حسامٌ ومُصْحَفُ
جحيمٌ لعاصيه يُشَبُّ وقودُه   وجَنَّةُ عَدْنٍ للمطيعين تُزْلَفُ[١]

ومرَّ بنا أنه اجتمع للمعتضد وابنه المعتمد كثيرون من الشعراء الأفذاذ، والذخيرة تكتظ بما قدموه لهما من مدائح بديعة، وسنخص ابن عمار من بينهم بكلمة، ومنهم الشاعر ابن اللبانة، وسنترجم له فى الفصل التالى، ومن قصيدة له فى مديح المعتمد[٢]:

ملكٌ إذا عقد المغافرَ للوَغَى   حَلَّ الملوكُ معاقدَ التِّيجانِ[٣]
وإذا غدتْ راياتُه منشورةً   فالخافقانِ لهنَّ فى خَفَقانِ[٤]
يامنشئَ العَلْياءِ بعد مماتِها   تَفْنى النجومُ وما ثَناؤك فانِ
الأرضُ حاجتُها إليكِ بِطَبْعها   كالعَيْنِ حاجتها إلى الإنسانِ

وكانت سوق الشعر نافقة بالمرية فى عهد أميرها المعتصم بن معن بن صُمادح وطالت إمارته إلى إحدى وأربعين سنة وكان شاعرا، فهتفت باسمه الشعراء فى إمارته ووفدوا عليه من بلدان الأندلس، وهو يغدق عليهم من أمواله، ولمواطنه أبى حفص بن الشهيد أمداح فيه كثيرة من مثل قوله[٥]:

وأحسنُ من روضٍ تحلَّى بنَوْرِهِ   مُحَيَّا ابن مَعْنٍ فى حُلِيِّ الفضائلِ
جوادٌ كأن الأرضَ جمعاءَ راحةٌ   له وبحورَ الأرض خمسُ أناملِ
جَلَلْتَ فجلَّ القولُ فيك وإنما   يُقَدُّ لقَدْرِ السيف قدرُ الحمائلِ

وشاعر المعتصم المبدعِ ابن الحداد، وسنفرد له كلمة، ولم يكن يقلُّ عن المعتصم والمعتمد جودا وشعرا ولَسَنًا وفصاحة المتوكلُ بن المظفر بن الأفطس أمير بَطَلْيَوْس، ولأبيه كتاب المظفرى فى الأدب والتاريخ نحو مائة مجلد، واستحالت بطليوس فى عهده إلى كعبة للشعراء تطوف بها آمالهم وتُتْلَى فيها مدائحهم، وتغنى بمدح المتوكل الشاعر الفذ

---

(١) تزلف: تقدَّم وتصبح زلفى ومنزلة
(٢) الذخيرة ٦٨٧/٣
(٣) المغافر: جمع مِغفرة: زرد من الدروع على قدر الرأس يتقنع به المسلح للقتال. الوغى: الحرب
(٤) الخافقان: المشرق والمغرب. الخفقان: سرعة نبضات القلب.
(٥) انظر فى الأبيات ترجمة أبى حفص بن الشهيد فى الذخيرة ٦٧٠/١ وما بعدها، وانظره فى الحميدى ص ٢٨٣ والمغرب ٢٠٩/١ وبغية الملتمس ص ٣٩٤ وقال ابن سعيد: شاعر المرية فى زمانه وكان مقتصرا على أمير بلده المعتصم بن صمادح.

عبد المجيد بن عبدون مواطنه وقصر مدائحه عليه، وسنخصه بترجمة فى الفصل التالى، وفيه يقول[1]:

طَبَّقْتَ آفاق الكلامِ فلم أَدَعْ زَهَرًا يرفُّ ولا جُمانًا يُنْظَمُ
لله دَرُّكَ هل لمجدك غايةً إلا وأنت بها معنًى مُغْرَمُ
هزَّتْك أَرْوَاحُ السماحة بانةً ومن الرَّجاحة فى حِماك يَلَمْلَمُ
وتعلَّمتْ منك الغمامةُ شيمةً تَهْمِى وفيها للبروق تبسُّم

وجعل ابن عبدون المتوكل كالبانة التى يشبه بها الشعراء محبوباتهم فى الحسن سماحة وجودا، ومثل جبل يلملم فى رجاحة العقل وحلمه ورزانته. والصورة الأخيرة بديعة إذ جعله يغدق أمواله على الشعراء والمجتدين وهو يبتسم وكأنه غمامة تهطل والبروق فيها ماتنى تلمع كبسماته التى ترتسم دائما على وجهه.

وحرى بنا أن نقف قليلا عند موقعة الزلاقة فى أواسط سنة ٤٧٩ وكانت الأندلس أصبحت أندلسات كثيرة، كما مر بنا فى الفصل الأول، إذ توزعت إلى عديد من الإمارات والعواصم لأمراء عاشوا للترف واللهو، وإن سدَّدوا سيوفهم فإلى صدور جيرانهم فى الإمارات وإخوانهم فى الدين، بينما يدفعون الإتاوات للمسيحيين فى الشمال، وسقطت طليطلة فى حجر ألفونس السادس سنة ٤٧٨. ويتأهب للاستيلاء على عواصم هؤلاء الأمراء المترفين المفكَّكين المتطاحنين، مما جعلهم يجمعون وفى مقدمتهم المعتمد بن عباد أمير إشبيلية - وأجمع الشعب معهم وفى مقدمته الفقهاء - على استصراخ أمير المسلمين فى المغرب يوسف بن تاشفين ليدفع عنهم الكوارث الخطيرة الموشكة الوقوع، فعبر الزقاق، وانضمت إليه الجموع الأندلسية فى غرناطة وإشبيلية يتقدمها المعتمد بن عباد، والتقى يوسف بجموع ألفونس السادس فى الزلاقة بالقرب من بطليوس فى اليوم الثانى من رجب سنة ٤٧٩ وصدَق - ومعه المعتمد وجموع المسلمين - فى وطيس القتال، وسحقوا أعداء الله سحقا ذريعا، وكأنما استؤصل جيشهم استئصالا، إذ لم ينج منه إلا من سارع منهم إلى الفرار مخذولا مقهورا، وفرَّ على وجهه ألفونس يتسنَّم الجبال الشاهقة ويسلك الطرق الوعرة حتى دخل طليطلة، وهنأ الشعراء المعتمد بهذا النصر الحاسم من مثل قول ابن القزاز محمد بن عبادة الوشاح فى تهنئة له[2]:

---

(١) الذخيرة ٦٨٥/٢.

(٢) الذخيرة ٨٠٣/١ والمغرب ١٣٥/٢ ومرت فى الحديث عن الموشحات مصادر ترجمة ابن القزاز.

ثناؤك ليس تَسْبقه الرِّياحُ يطيرُ ومن نَدَاك له جَناحُ
تطيبُ بذكرك الأفواهُ حتى كأن رُضَابَها مِسْكٌ ورَاحُ[١]
جلبتَ إلى الأعادى أُسْدَ غابٍ بَرَاثِنُها الأسنَّةُ والصِّفاحُ[٢]

وكان يوسف بن تاشفين والمرابطون ينسبون أنفسهم إلى العرب فى حمير وكان بنو عباد من قبيلة لخم اليمنية، وذكر ذلك عبد الجليل بن وهبون فى قصيدة يهنئ فيها يوسف بن تاشفين والمعتمد بهذا النصر المبين منشدا [٣]:

نُمِى فى حِمْيَرٍ ونَمتْك لَخْمُ وتلك وشائجُ فيها التحامُ
فيوسفُ يوسفٌ إذ أنت منه كيامِنَ، لا وَهَى لكما نظام
فإنْ يَنْجُ اللَّعِينُ فلا كَحُرٍّ ولكنْ مثلما ينجو اللئامُ
وصاروا فوق ظهر الأرض أرضا كأن وِهادها منهم إكامُ

وهو يجعل يوسف نفس سميه الصديق ويجعل المعتمد أخا له يشد أزره مثل يامن أخى الصديق وهو بنيامين. ويقول إن وهاد الأرض استحالت من جثث الأعداء إكاما أو أكمات وتلالا. وللشاعر يوسف بن عبد الصمد شاعر المرية تهنئة بديعة[٤] للمعتمد بهذا النصر غير أنه خصه بها وحده. وعاد يوسف بن تاشفين إلى المغرب بعد أن نصح أمراء الطوائف بالوحدة، ولُقِّب بعد تلك الموقعة المظفَّرة بأمير المسلمين، وبنى ألفونس حصنا ضخما بالقرب من مرسية فى موضع يسمى لييط، ليجدد إغاراته على أمراء الطوائف، فاستنجدوا بابن تاشفين، وعبر ثانيا الزقاق سنة ٤٨١ ووجَّه قواته إلى حصن لييط، واضطر ألفونس إلى هدم الحصن وإخلائه. وسرعان ما عاد أمراء الطوائف إلى سابق العهد بهم من الانغمار فى الخلافات وفى الترف واللهو، فاستصرخ فقهاء الأندلس ابن تاشفين ليزيل - إلى غير رجعة - حكم هؤلاء الأمراء الذين يخربون بيوتهم وبيوت المسلمين فى الأندلس بأيديهم. وعبر يوسف الزقاق فى رجب سنة ٤٨٣ وتقدم قائده ابن أخيه سير بن أبى بكر، فاستسلم طواعية عبدالله بن بُلقِّين أمير غرناطة، واستسلم المعتمد بن عباد فى إشبيلية كرها واستسلمت المرية ومرسية وشاطبة وبطليوس، وهلَّل

---

(١) الرضاب: الريق المرشوف. راح: خمر
(٢) البراثن: جمع برثن: مخلب السبع. الصفاح: السيوف.
(٣) الذخيرة ٢٤٥/٢ وابن وهبون من شعراء المعتمد بن عباد، وسنفرد له ترجمة فى الفصل التالى.
(٤) انظر فى هذه التهنئة الذخيرة ٨١٤/٣.

فقهاء الأندلس لزوال حكم هؤلاء الأمراء، ويصور ذلك أبو الحسن بن الجد فى مدحة لابن تاشفين متشفيا فيهم قائلا[١]:

نامُوا وأَسْرَى لهم تحت الدُّجَى قدرٌ هوى بأنجمهم خَسْفًا وما شعروا
وكيف يشعرُ مَنْ في كفِّه قَدَحٌ تحدو به مذهلاتُ النَّاىِ والوَتَرُ[٢]
فقُلْ لمن نام أصبحتَ انْتَبِه فلقد مضى لك الليل صِرْفًا وانقضى السَّحَرُ
وانظرْ إلى الصبح سَيْفًا في يدىْ ملكٍ فى اقه من جُنْدِه التأييدُ والظَّفَرُ
يَرْعَى الرعايا بطَرْفٍ ساهرٍ يَقِظٍ كما رعاها بِطَرْفٍ ساهرٍ عُمَرُ[٣]

ويُظِلّ الأندلس عهد المرابطين الذين أبلوا فى قتال النصارى ما أخَّر استردادهم للأندلس جميعها قرونا بفضل جيوشهم وجيوش دولة الموحدين المغربية من بعدهم. ويموج ديوان الأعمى التطيلى بمديح على بن يوسف بن تاشفين خليفة أبيه على المغرب والأندلس: وسنفرده بكلمة، وبالمثل يموج ديوان ابن خفاجة بمديح أخويه إبراهيم وتميم، وكان إبراهيم واليا له على شرقى الأندلس حتى وفاته سنة ٥١٥ وكان تميم واليا له على غرناطة منذ سنة ٥٠٠ وولى مرسية شرقى الأندلس فترة، ولعل ذلك ما وصل ابن خفاجة به، وديوانه مُفْتَتَحٌ بمدحة بديعة فيه استهلها بوصف الطبيعة والغزل، وفيها يقول[٤]:

وأَبْلَجَ منصورِ اللِّواء إذا سَرَى أظلَّتْ عُقابُ النَّصْر أجنحةَ النَّسْرِ
له فتكةٌ لو زاحم الدهرَ تحتها لعُدَّتْ به دُهْمُ الليالى من الشُّقْرِ
وعزمٌ يردُّ الطَّوْدَ هَدًّا ونَجْدَةٌ تهزّ قُدودَ السُّمْر فى الحُلَلِ الحُمْرِ
تقسَّمه جودٌ يَفيضُ وهِمَّةٌ فمن مَنْهَلٍ غَمْرٍ ومن جَبَلٍ وَعْرِ

والمدحة على هذا النحو تلوينات وتوليدات فى معانى الشجاعة والكرم، ففتكته تحيل الليالى شقراء بما تلطخها من الدماء وبالمثل تحيل الرماح حلل الأعداء حمرا مما تلطخها به من الدم المسفوك، وجوده يفيض كمنهل عذب، وهمته لا تبارى كجبل وعر لا يساميه جبل فى وعورته. ولابن خفاجة قصيدة بديعة فى مديح زوجة تميم مريم، وكانت سيدة أديبة

---

(١) راجع القصيدة فى الذخيرة ٢/٢٥٦ وانظر فى ترجمة ابن الجد المغرب ١/٣٤٠.

(٢) يشير ابن الجد إلى تهالك أمراء الطوائف على الملذات والخمر والغناء وكأنهم يعيشون فى دور ملاهٍ لا فى دور حكم وسياسة.

(٣) يريد بعمر الفاروق عمر المشهور برعايته للدولة وعدله.

(٤) الديوان (تحقيق د. السيد مصطفى غازى) ص ٢٥ وما بعدها.

فاضلة تحفظ جملة وافرة من الشعر، وكانت لها ندوة تحاضر به فيها وتستمع إلى الشعراء وتثيبهم على أشعارهم، وفيها يقول ابن خفاجة[١]:

مشهورةٌ فى الفضل قِدْمًا والنُّهَى ... والجودِ شُهْرَةَ غُرَّةٍ فى أدْهَمِ
تُولِى الأيادى عن يدٍ نَزَلَ النَّدى ... منها بمنزلةِ المحِبِّ المُكْرَمِ
حمل الثناءَ بها القريضُ وإنما ... حمل الحديثَ روايةً عن مسلمِ

وابن خفاجة يجعل ما يحمله الشعر من الثناء على هذه السيدة عَطِرا عطرَ الحديث المرويِّ عن مسلم فى صحيحه مبالغة منه فى بيان تقواها وما يحف بها من تجلة تغنى بها ابن خفاجة وغيره مادحين مطرين، وسنفرد لابن خفاجة ترجمة فى الفصل الثانى. وفى ابن تيفلويت والمرابطين يقول ابن باجة معللا لاسمهم «الملثمين» إذ كانوا يضعون لثاما على وجوههم[٢]:

قــومٌ إذا انتقبـوا رأيت أهِلَّةً ... وإذا همُ سَفَـرُوا رأيتَ بُدورا
لا يسألون عن النَّوال عُفاتَهُمْ ... شكرا ولا يَحْمُون منه نَقِيرا[٣]
لو أنهم مسحوا على جَدْب الرُّبى ... بـأكفِّهم نَبَتَ الأقـاحُ نَضِيــرا

وهو يجعل وجوههم أهلة حين ينتقبون ويخفون جزءا من وجوههم فإذا سفروا ورفعوا النقاب رأيتهم بدورا. ويمدحهم بالكرم الفياض وأنهم لا يسألون طلاب النوال والحاجات شكرا على ما يبذلون لهم، وهم يجودون بكل ما يملكون ولا يبقون منه لأنفسهم أى شيء. ولا يلبث ابن باجة بخياله الخصب أن يقول إنهم لو مسحوا على أرض مجدبة بأكفهم لاهتزَّت وربتْ وأنبتت أزهارا وأقاحا ناضرا.

ولمحمد بن إبراهيم بن المواعينى المار ذكره بين البلاغيين فى الفصل الماضى مدحة فى الزبير بن عمر الملثم والى قرطبة يقول فى تضاعيفها مخاطبا الملثمين أو المرابطين[٤]:

جُولوا وصُولوا فالمناسبُ حِمْيَرٌ ... أهلُ المفاخر والنَّدَى والنادِى
للقوم فى كل البلادِ رياسـةٌ ... تحكى بنى العباس فى بَغْدادِ
أضْحَتْ مجالسُهم سروجَ جيادهم ... إن السروجَ مجالسُ الأمجادِ

---

(١) الديوان ص ٩٧ – ٩٨.
(٢) النفح ٤١٧/٣.
(٣) النوال: العطاء. العفاة: السائلون طلاب المعروف .. النقير: الشيء المتناهى فى الصغر.
(٤) انظر الأبيات فى ترجمته بالمغرب ٢٤٧/١.

والصورة فى البيت الأخير بديعة، ولليكّى يحيى بن سهل هجّاء الأندلس فى المرابطين معللا لتسميتهم بالملثمين بالغا بهم الغاية من المديح[١]:

قومٌ لهم شرفُ العلا فِي حميرٍ ... وإذا انْتَمَوْا صنهاجةً فهمُ همُ
لما حَوَوْا إحْرازَ كلِّ فضيلةٍ ... غلبَ الحيـاءُ عليهمُ فتلثمـوا

واشتهرت أسرة مغربية زمن المرابطين بأنها حامية للآداب وراعية للشعر والشعراء، وهى أسرة بنى عشرة أصحاب خطة القضاء فى مدينة «سَلا» على شاطئ المحيط، وأول من رحل إليه شعراء الأندلس لمديحه أو أرسلوا إليه بمدائحهم القاضى على بن القاسم بن عشرة المتوفى سنة ٥٠٢ وهو ممدوح يحيى بن بقى وعيسى بن وكيل الغرناطى ومحمد بن سوار الأشبونى المترجم له بين شعراء الرثاء، وكان قد خلصه من أسره عند النصارى بفدية كبيرة فأكثر من مديحه بمثل قوله[٢]:

لو أن رِفْقَكَ فى القلوب مركّبٌ ... لم يَلْتقم فى البحر يونسَ حوتُ
ولقد حملتَ منَ الوقار سكينةً ... لم يحتملْهـا قبلك التـابـوتُ

وهو يشير إلى الآية الكريمة عن الرسول يونس عليه السلام: ﴿فالتقمه الحوت وهو مُليم﴾ وإلى آية سورة البقرة عن طالوت: ﴿إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينةٌ من ربِّكم﴾. وخلف عليا فى القضاء ابنه أحمد وأنشد ابن بسام فى ترجمته بالذخيرة مدحه لابن سوار فيه، وكان هو وأخوه يحيى موئلا لشعراء الأندلس، وبنى أحمد قصرا، هنأته به الشعراء، وكان المتفلسف الشاعر أبوعامر محمد بن الحمارة حاضرا ولم يكن أعدَّ شيئا ففكر قليلا، ثم أنشد[٣]:

يا أوحدَ الناس قد شيَّدتَ واحدةً ... فحُلَّ فيها حلولَ الشمس فى الحَمَلِ[٤]
فما كدارِكَ فى الدنيا لـذى أملٍ ... ولا كدارك فى الأخرى لذى عَملِ

ومرَّ بنا فى ترجمة يحيى بن بقى بين الوشاحين أنه خصَّ القاضى أحمد وأخاه يحيى بدرر كثيرة من موشحاته وأشعاره بينما كانا يواليان إغداق نوالهما عليه، مما جعل لسانه

(١) المغرب ٢٦٨/٢ وسنفرد له ترجمة فى الفصل التالى بين الهجّائين.
(٢) البيتان فى ترجمته بالذخيرة ٨١١/٢.
(٣) انظر ترجمة أبى عامر فى النفح ١٣/٤ و١٤٠ وقد دعاه أبا الحسين على بن الحمارة وراجع ترجمته فى المغرب ١٢٠/٢ وفى البغية ص ٥١٧.
(٤) الحمل: من منازل الشمس.

يلهج بمديحها والثناء عليها طويلا، من مثل قوله فى يحيى من مدحة طويلة[١]:

نَدْبٌ عليه من الوقار سكينـةٌ فيها حفيظةُ كلِّ لَيْثٍ مُخْدِرِ[٢]
مثل الحسام إذا انطوى فى غِمْدهِ أَلْقَى المهابةَ فى نفوس الحُضَّرِ
أَزْرَى على البحر الخِضَمِّ لأنه فى كل كفٍّ منه خَمْسَةُ أَبْحُرِ
أقبلتُ مــرتـادًا لجــودكَ إنــه صَوْبُ الغمامةِ بل زُلالُ الكَوْثَرِ[٣]

وانتهت دولة المرابطين وخلفتها دولة الموحدين منذ سنة ٥٤١ وأخذت المدن الأندلسية تستظل بلوائهم من مثل الجزيرة الخضراء ورندة ثم إشبيلية وقرطبة وغرناطة، وظل شرقى الأندلس: مرسية وجيَّان وبلنسية بيد محمد بن سعد المشهور باسم ابن مردنيش حتى توفى سنة ٥٦٧ فدخل كل ما بيده فى حوزة الموحدين. وأمر عبد المؤمن ببناء مدينة على جبل طارق، حتى إذا تم بناؤها عبر الزقاق إلى هذا الجبل بجموع غفيرة سنة ٥٥٦ وسماه جبل الفتح، وأقام به شهرا يستقبل وفود الأندلس للبيعة من أهل مالقة وغرناطة وقرطبة وإشبيلية. واتخذ يوما لاستقبال الشعراء، وكانوا قد جاءوه من كل مدينة لاستقباله ومديحه، وكان يوما مشهودا، أنشده كثيرون منهم قصائدهم فيه، وفى مقدمتهم الأصم المروانى القرطبى الشاعر حفيد الشريف الطليق والرصافى البلنسى محمد بن غالب، وسنفرد له ترجمة عما قليل وأحمد بن سيد الإشبيلى وأخيل الرندى وأبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد الغرناطى، وأنشده مدحة يقول فى تضاعيفها[٤]:

دعانا نحو وجهك طِيبُ ذِكْرٍ ويدعو للرياضِ شذا الرياحِ
وكنت كساهرٍ ليـلا طـويـلاً تـرنَّح حين بُشِّـر بـالصبـاح

ورتَّب عبد المؤمن أمور الأندلس، واتخذ ولاة لمدنها الموالية له، وولَّى مدينة إشبيلية وأعمالها ابنه يوسف ولى عهده، وبذلك كانت حاضرة الموحدين فى الأندلس، وولَّى ابنه عثمان غرناطة وأعمالها، وكان محبًّا للأدب والشعر، فاجتمع حوله شعراء أندلسيون كثيرون. وخلف يوسف (٥٥٨ - ٥٨٠ هـ) أباه وكان ممدحا، ومن مدَّاحه أبو محمد المالقى وهو يستهل مدحة قدَّمها له بأنه سيملك العالم بأقاليمه السبعة المعروفة لزمنه تسنده سُوَرُ الحواميم القرآنية السبع التى يرددها هى وغيرها من سور القرآن الكريم آناء الليل

---

(١) ابن خلكان ٦/٢٠٤.

(٢) حفيظة : حمية. ليث مخدر: أسد فى خدره وغيله.

(٣) صوب: مطر. الكوثر: نهر فى الفردوس.

(٤) انظر مدحته فى المغرب ٢/١٦٤ وسنخصه بكلمة فى الفصل التالى.

وأطراف النهار، ويقول إنه ستسنده وتنصره السبع المثانى وهى آيات سورة الفاتحة السبع التى يرددها كل يوم فى صلواته، وكذلك السور السبع الطوال من البقرة إلى نهاية التوبة بحسبان التوبة والأنفال سورة واحدة، ولهذا لم يفصل بينهما فى المصحف بالبسملة. ويجعله الجوهرة الواسطة أو الوسطى لسلك أو عقد يضم جواهر العلم والدين والدنيا وينوه بإحكامه لتدبيره السياسى. وكان سيوسا وعالما بالعربية وبالحديث ويقال انه كان يحفظ البخارى بأسانيده وجمع من كتب الفلسفة ما اجتمع للحكم المستنصر الأموى قبله، واتخذ الفيلسوف ابن طفيل جليسه ووزيره، وهو الذى نبَّهه - كما مرَّ فى الفصل السالف - إلى ابن رشد. وخلفه ابنه المنصور يعقوب الطائر الصيت (٥٨٠ - ٥٩٥ هـ) وفى أيامه شرع فى بنيان مدينة الرباط إلى أن أتم سورها ومسجدها وكثيرا من قصورها، وفى سنة ٥٩٠ نقض ألفونس ملك قشتالة العهد الذى بينه وبين الموحدين وأخذت خيله تغير على أطراف دولتهم فى الأندلس، فعبر إليه الزقاق فى جمادى الآخرة سنة ٥٩١ بجموع عظيمة نزل بها فى إشبيلية. وأخذ يعد العدة للقاء ألفونس وجنده، وتجهز ألفونس للقائه بدوره، والتقى الجمعان فى الثالث من شعبان فى الأَرَك بالقرب من قلعة رباح، فأنزل الله نصره على يعقوب، وسحق المسلمون أعداءهم ودقوا أعناق ستة وأربعين ألفا منهم، وأسروا ثلاثين ألفا، وفرَّ ألفونس ومن بقى من جموعه على وجوههم إلى طليطلة وفرائصهم ترتعد رعبا وفزعا، وكان حريا بالمنصور أن يتعقبهم إلى طليطلة ويستنزلهم منها، غير أنه صنع ما صنعه يوسف بن تاشفين فى موقعة الزلاقة، فاكتفى بهذا النصر المبين، وقد تغنى به الشعراء، ومن أروع قصائدهم قصيدة على بن حزمون المرسى من وزن المتدارك ويستهلها بقوله مخاطبا المنصور[1]:

حَيَّتْـك معـطَّرَةَ النَّـفَسِ ... نفحـاتُ الفَتْـح بـأَنْـدَلُسِ
فـذَرِ الكفـارَ ومَـأْتَـمَهـم ... إن الإسـلام لفى عُـرُسِ
أإمـام الـحـقِّ ونـاصِـرَهُ ... طهَّرتَ الأرض من الدَّنَسِ
وصـدعتَ رداءَ الكفر كمـا ... صَدَع الدَّيْجُورَ سَنَا قَبَسِ[2]

ومضى يصور فى القصيدة هزيمتهم الماحقة وما سُقِيت به الوهاد والتلال من دمائهم، ويلؤهم هلعا قائلا إن خيل المنصور وراءهم وقد ملأ التوحيد أعنَّتها وأغار بها روح

---

(١) القصيدة بتمامها فى المعجب ص ٣٧٠ وما بعدها.

(٢) الديجور: الظلمة. قبس: ضوء.

القدس، وإن كان نجا ألفونس وبعض جنده فإلى عيش نكد تعس. وتوفى يعقوب بعد أربع سنوات، وخلفه ابنه الناصر محمد (٥٩٥ - ٦١٠ هـ) وفى عهده استرد ألفونس وجنوده قواهم وأخذ يعدُّ لمعركة فاصلة استصرخ لها الشعوب الأوربية حتى بلغ استصراخه إلى بيزنطة، وكأنما شعر الناصر بهذا الإعداد، فعبر إلى الأندلس واستقبله الشعراء بمثل قول أحمد بن شطريَّة القرطبى[1]:

كذا يشرفُ الطالعُ الأسْعَدُ ... ويسمو لأملاكه السَّيِّدُ
ويَسْرَعَى أقاصىَ أقطارِه ... قريبٌ له عزمةٌ تَبْعُدُ

وأخذ الناصر يعدّ العدة للقاء ألفونس، بينما جاءه عباد الصليب من كل أركان أوربا وقد منحهم البابا الغفران. ولم تلبث رحي هذه الموقعة الصليبية أن دارت فى سهل يقع إلى الشمال الشرقى من قرطبة وجنوبى قلعة رباح، ومُنى الناصر وجيش المسلمين بهزيمة فادحة، كانت نذيرًا لانتهاء دولة الموحدين، واستولى ألفونس سريعا على قلعة رباح وبياسه وأبدة. وتوفى الناصر بعد نحو عام من الموقعة، وخلفه ابنه المستنصر (٦١٠ - ٦٢٠ هـ) وتوفى، فخلفه عمه العادل فأخوه المأمون فالرشيد، والدولة تزداد وهنا على وهن، مما هيأ لملوك قشتالة وأراجون الاستيلاء على كثير من الحصون والمدن، وأخذت تسقط فى حجورهم العواصم الكبرى، وأصبح كل شىء يؤذن بخروج العرب من الأندلس، وأخذ كثيرون من علمائها وشعرائها يغادرونها الى المغرب والمشرق، واتصل ذلك طوال القرن السابع. وكان كثيرون منهم يمنون أنفسهم بأنهم سيعودون إلى وطنهم بجحافل الجيوش المغربية التى ترد الأمر إلى نصابه، ومنهم ابن الأبار وسنترجم له بين شعراء الاستصراخ، ومنهم حازم القرطاجنى الذى اتجه إلى أبى زكريا الحفصى، وقدّم إليه مدحة يقول فيها[2]:

أميرَ الهُدَى من يَدْن منك فإنه ... بِقُرْبك عن صَرْف الحوادث قد أُقْصِى
عسى الله أن ينتاشَ أنْدُلسًا بكم ... ويأخذ فيها للهدى أخْذَ مقتصِّ

وسنترجم له بين أصحاب الشعر التعليمى. وكان قد قُيِّض للأندلس منذ الثلاثينيات فى القرن السابع ابن الأحمر فأقام بغرناطة دولة أسرته التى استمرت نحو قرنين ونصف،

---

(١) انظر البيتين فى ترجمته بالمغرب ١٣٩/١ وله ترجمة فى تحفة القادم لابن الأبار رقم ٦١ ومعها بعض شعره.

(٢) ديوان حازم القرطاجنى (طبع بيروت) ص ٦٦.

وطبيعى أن يتجمع حولها الشعراء وأن يقدموا لحكامها مدائحهم، وطبيعى أن يكون أول من أشادوا به مؤسس الدولة ابن الأحمر محمد بن يوسف وفيه يقول ابن سعيد: «كان من عجائب الدهر فى الفروسية والإقدام والسعادة فى لقاء العدو، ويفهم الشعر ويكثر مطالعة التاريخ، أنشدته قصيدة أولها:

لمثلك تنقادُ الجيوشُ الجَحافِلُ وتُذْخَرُ أبناءُ القَنَا والقنابلُ»[1]

وما زال ينازل ملك قشتالة حتى اضطر إلى عقد معاهدة بينهما، ويتعاقب أبناؤه وأبناء أسرته على الحكم بعده منذ توفى سنة ٦٧١ وحكمهم صفحات مشرقة من جهاد النصارى الشماليين، وأرْغم حفيده محمد على تسليم جبل طارق لملك أرَاجون سنة ٧٠٧ واستولى على صولجان الحكم سنة ٧١٣ أبو الوليد إسماعيل، ونازله الجيش القشتالى سنة ٧١٨ فى مرج غرناطة، فهزم هزيمة ساحقة وقتل قائده، ويهنئه أبو عبدالله اللوشى بمثل قوله[2]:

قصدوا العَرينَ ليغلبوا آسادَهُ فقضى عليهم بأسُك الغلَّابُ

وقويت شوكة المسلمين فى عهد أبى الوليد وعهد ابنه أبى عبدالله محمد، وقد جمع رأيه على استعادة جبل طارق، وأعاده بعد موقعة بحرية عنيفة سُحق فيها أسطول ملك أراجون ويهنئه بهذا الفتح المبين أبو العلاء محمد بن سماك العاملى منشدا[3]:

فتحٌ قضاه لمُلْكك الرحمنُ لم تأت قط بمثله الأزمانُ
فلأىِّ يومٍ سعادةٍ أولاكَهُ ذلَّتْ بعزَّةِ نَصْرِه الصُّلْبانُ

وخلفه أخوه أبو الحجاج يوسف الأول (٧٣٣ - ٧٥٥) وكان راعيا للآداب والفنون، وأضاف إلى قصر الحمراء المشهور بغرناطة منشآت كثيرة، ومدحه كثيرون فى مقدمتهم لسان الدين بن الخطيب، وله فيه نحو خمسين قصيدة بين مدح وتهنئات بالأعياد والمولد النبوى الشريف وإشادة بأعماله ومنها بناؤه للمدرسة التى تحدثنا عنها فى غير هذا الموضع، وفى ديوانه أنه أمره بنظم أبيات تزيِّن بها قبَّة العَرْض المطلة على مجلسه فى الحمراء، فنظم تسعة أبيات منها قوله على لسان القبة[4]:

---

(١) المغرب ١٠٩/٢.

(٢) انظر ترجمة أبى عبدالله اللوشى فى الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة للسان الدين بن الخطيب تحقيق د. إحسان عباس (طبع بيروت) ص ١٧٥ وراجع فى ترجمة اللوشى الإحاطة ١٩٧/٢ وكانت وفاته سنة ٧٥٢.

(٣) راجع ترجمة ابن سماك العاملى فى الكتيبة الكامنة ص ١٩٨.

(٤) انظر ديوان ابن الخطيب المسمى: «الصيب والجهام والماضى والكهام» تحقيق الدكتور قاهر (طبع الجزائر) ص ٢٦١.

أأبصرت مِنّى فى المصانع قُبَّةً   تأنّق فىَّ السَّعْدُ من كل جانبِ
فتُتلَى سُطورُ الكُتْب فوقىَ دائما   وتُعرَضُ من تحتى سطورُ الكتائبِ

والقطعة بديعة، ولابن جُزَىّ الغرناطى مؤلف رحلة ابن بطوطة مدحة بديعة فى أبى الحجاج من مثل قوله[١]:

إن المعالىَ والعوالىَ[٢] والنَّدى   والبأسَ طَوْعُ يَدَىْ أبى الحجاجِ
ماضى العزيمة والسيوفُ كليلةٌ   طَلْق المُحَيّا والخطوبُ دواجى
ليث الوَغَى والخيلُ تُزْجَى بالقنا   والبِيض تنهلُ من دم الأوْداج[٣]

وخلفه ابنه محمد الخامس الغنى بالله (٧٥٥ - ٧٩٣ هـ.) مكمل منشآت قصر الحمراء، وكان ممدَّحا للشعراء، وأهم مادحيه منهم ابن زمرك، وسنفرد له ترجمة عما قليل. وكان حفيد الغنى بالله يوسف الثالث (٨١٠ - ٨٢٠ هـ.) شاعرا، ولزمه ابن فُرْكون الشاعر يمدحه واتخذه كاتب سره، وتستغرق ديوانه مدائحه فيه، حتى لتبلغ نحو مائة قصيدة ومقطوعة، إذ لم يترك مناسبة شخصية أو اجتماعية أو سياسية أو حربية إلا ونظم للسلطان فيها مدحة طنانة، ومن قوله فيه حين تقلَّد السلطة[٤]:

إليـك تباشـيرُ البشائـر مُقْبِله   تلوح بـآفـاق الهـدى متهلِّله
فهُنِّئْتَ ما استقبلتَ يا ملكَ الهدى   من العزِّ لا زالتْ سعودك مقبله
لقد قلَّد الرحمنُ أمـرَ عبادهِ   إمامًا له فى العدل أرفعُ منزله

ويُعَدّ يوسف الثالث آخر أمراء بنى الأحمر المهمين، ويفضون بعده فى القرن التاسع الهجرى إلى خلافات، تقضى على الإمارة قضاء مبرما. وحرى بنا أن نتوقف قليلا لنتحدث عن أهم شعراء المديح فى الأندلس، وهم ابن عبد ربه وابن دراج القسطلى وابن عمار وابن الحداد والرُّصافى وابن زمرك.

---

(١) انظر هذه القصيدة فى ترجمة ابن جزى الضافية فى أزهار الرياض ١٨٩/٣ وترجم له ابن الأحمر إسماعيل بن يوسف فى كتابه نثير فرائد الجمان وابن الخطيب فى الكتيبة الكامنة ص ٤٦.
(٢) العوالى: الرماح.
(٣) تزجى: تدفع. الأوداج جمع ودج وهو عرق فى العنق إذا قطعه الذابح لم تبق فى الإنسان حياة.
(٤) انظر ديوان ابن فركون بتحقيق د. محمد بن شريفة (طبع أكاديمية المملكة المغربية) ص ١٠٣.

ابن عبد ربه[١]

هو أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه، ولد فى قرطبة سنة ٢٤٦ للهجرة، فى أسرة متواضعة من أسر الموالى إذ كان جده سالم من موالى هشام بن عبد الرحمن الداخل، وألحقه أبوه بأحد الكتاتيب، ثم وجهه إلى الدراسة على الشيوخ فى جامع قرطبة الكبير، فأخذ يختلف إلى حلقات الفقهاء والمحدثين واللغويين من أمثال بقى بن مخلد وابن وضّاح والخشنى. ولم تلبث موهبته الشعرية أن تفتحت، فأخذ ينظم - مثل أقرانه - فى الغزل والخمر، وقلما يقع له فيهما شعر جيد. ويبدو أنه لم يكن ينظم فيهما عن عاطفة حقيقية، وأنه كان يصدر فيهما عن محاكاة أنداده، ومن خير ما له فى الغزل قوله:

الجسم فى بلدٍ والروح فى بلدِ ... ياوحشةَ الروح بل ياغربة الجسَدِ
إن تبكِ عيناك لى يامَنْ كلفتُ بهِ ... من رحمةٍ فهما سَهْماك فى كبدى

وكان سريع الغضب، وجَرَّ عليه ذلك اشتباكه مع القلفاط الشاعر معاصره فى الهجاء، ونراه فى كثير من أشعاره شابا وشيخا ميالا إلى التشاؤم وإلى ذم الدنيا والناس وسوء الظن بالأشخاص. وربما كان صادرا فى ذلك عن نزعة دينية غرسها فيه شيوخه، ومن بقيتها عنده أن نراه بأخرة من حياته يعارض كل مقطوعة غزلية أو خمرية فى شبابه بمقطوعة فى ذم الدنيا والتنفير منها، وسمَّى تلك المقطوعات الممحِّصات أى المخلصات من الذنوب، كأنما عدَّ شعره فى شبابه ذنوبا وآثاما وهو إنما كان فى رأينا محاكاة للشعراء العباسيين لا اقترافا حقيقيا للآثام، لأنه لم يكن مهَّيئا لذلك بحكم روحه المحافظة. ويدل على ذلك أبلغ الدلالة كتابه «العقد الفريد» وهو مطبوع بمصر مرارا فى عدة مجلدات، وفيه يعرض الثقافة الأدبية المشرقية على نهج كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة، ولم يعن فيه بالحديث عن أدباء بلده وشعرائه إلا ما كان من تمثله بكثير من أشعاره وذكره لشاعر

---

(١) انظر فى ترجمة ابن عبد ربه وأشعاره الحميدى ٩٤ وابن الفرضى ٤٩/١ والبغية رقم ٣٢٧ واليتيمة للثعالبى (طبعة محيى الدين عبد الحميد) ٥/٢٢ - ١٠، ٧٤ - ٩٩ والمطرب ص ١٤١ ومعجم الأدباء ٢١١/٤ والمطمح ص ٥١ وابن خلكان ١١٠/١ والمقتبس لابن حيان الجزء الخاص بالأمير عبد الرحمن وابنه محمد (نشر د. محمود مكى ببيروت) والجزء الخاص بالأمير عبد الله نشر ملشور بباريس والجزء الخامس الخاص بعبد الرحمن الناصر والعقد الفريد لابن عبدربه ونفح الطيب للمقرى. انظر فى كل ذلك الفهارس، وتاريخ الأدب الأندلسى عصر سيادة قرطبة للدكتور إحسان عباس ص ١٣٥ والأدب الأندلسى للدكتور هيكل ص ٢٢٣.

الأمير عبد الرحمن الأوسط يحيى الغزال، أما بعد ذلك فالكتاب مشرقى خالص بما فيه من شعر ونثر بحيث قال الصاحب بن عباد حين اطلع عليه: هذه بضاعتنا رُدَّت إلينا، وهو رمز واضح لروحه المسرفة فى المحافظة.

ومع أن غزلياته وخمرياته وزهدياته يبدو فيها جميعا التكلف الشديد تتجلى فى مدائحه شاعرية بارعة، وكأنما خُلق للمديح أو مداحا، وبدأ مديحه مبكرا، وقد استهله بمديح الأمير محمد بن عبد الرحمن، وتوفى فعنى بمديح ابنه المنذر ويؤثر له فيه قوله من مدحه:

بـالمـنـذر بن محـمـد شَـرُفَتْ بلادُ الأنـدلسْ
فـالـطيرُ فيهـا سـاكنٌ والوحشُ فيها قد أنِسْ

وتوفى المنذر وخلفه أخوه عبد الله (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) ويمدحه لأول استيلائه على صولجان الحكم بقصيدة قافية يقول فيها متجاوزا كل حد فى المبالغة على عادة الشعراء:

إذا فُتحتْ جنَّاتُ عَدْنٍ وأُزْلفتْ فـأنت بهـا لـلأنبيـاء رفيقُ

وينتصر عبد الله على ابن حفصون الثائر فى إحدى المعارك معه سنة مائتين وثمان وسبعين، وكان قد اشتدت شوكته وتداعى له - كما يقول ابن حيان - أهل الشر من أقطار الأندلس، فهنأه ابن عبد ربه بقصيدتين: حائية وجيمية، وفى الثانية يقول:

هذى الفتوحاتُ التى أذكتْ لنا فى ظُلمة الآفاق نـورَ سِراجِ

ويخلف عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) جده عبد الله وكان ابن عبدربه أحد معلميه وكان الناصر جديرا بكل حمد فعاش ابن عبد ربه بقية حياته حتى وفاته سنة ٣٢٨ يتغنى بفتوحاته وانتصاراته الضخمة على الثائرين فى الداخل، ودانت له الأندلس ودان له ملوك النصارى وأمراؤهم فى الشمال. وبمجرد استيلائه على مقاليد الحكم يُعِد جيشا جرارا لغزوة المنتلون، ويستولى فيها على مائتى حصن من حصون الثوار ويهنئه ابن عبدربه بهذا النصر المبين مرارا منشدا:

فى غزوةٍ مائتا حِصْنٍ ظفرتَ بها فى كل حصْنٍ غواةٌ للعناجيج[1]
مـا كان ملكُ سليمـانٍ ليدركهـا والمُبْتَنِى سَدَّ يأجوجٍ ومأجوجِ

وهو يعلى ملكه على ملك سليمان بن داود وملك الإسكندر ذى القرنين بانى سد يأجوج ومأجوج وصاحب الفتوح الكبرى. ولابن عبدربه فى حروب الناصر من سنة ٣٠٠

---

(١) العناجيج: الخيل.

إلى سنة ٣٢٢ منظومة[١] تاريخية يصف فيها انتصاراته على مدار تلك السنوات البالغة اثنتين وعشرين سنة، وهو يستهلها بالتسبيح والتحميد، وينوه بالناصر وحسبه ونسبه وتقواه، ثم يقص غزواته موزعة على تلك السنين بهذا الأسلوب الذى نقرؤه فى حديثه عن غزوة المُنْتلون بجيَّان:

أُرْجفتِ القِـلاعُ والحصـونُ كـأنمـا سـاورهـا المَنـونُ[٢]
وأقبلتْ رجـالُـهـا وُفـودَا تَبْغى لدى إمامهـا السُّعودا
قلوبهم بـاخعـةٌ بـالـطَّاعَـةْ قد أجمعوا الدُّخولَ فى الجماعَةْ

وأسلوب ابن عبد ربه فى المنظومة جميعها يخلو من التصاوير مما يدخلها فى دوائر الشعر التاريخى التعليمى كمنظومة على بن الجهم التاريخية التى ألممنا بها فى كتاب العصر العباسى الثانى، وفى الحق أن أجنحة ابن عبد ربه كانت من القصر بحيث لم يستطع أن يحلِّق فيها بين شعراء الملاحم المبدعين.

ابن[٣] دراج القسطلى

هو أبو عمر أحمد بن محمد بن دراج ولد سنة ٣٤٧ فى بيت من بيوت قبيلة صنهاجة المغربية بمدينة من أعمال جَيَّان تسمى قسطلة دراج، وفى نسبتها إلى جده ما يدل على عراقة أسرته، وألحقه أبوه منذ نعومة أظافره بكتاب حفظ فيه القرآن وبعض الأشعار على عادة لداته، حتى إذا أتم حفظ القرآن انتقل إلى حلقات الشيوخ بجيَّان فاتسعت ثقافته اللغوية والأدبية. ويبدو أن ملكته الشعرية تفتحت مبكرة، فأخذ ينظم الشعر حتى عُرف بين شعراء بلدته، ولم يلبث أن تزوج وأنجبت له امرأته بنتا وطمحت نفسه إلى الشهرة، فرأى أن يرحل إلى قرطبة محاكيا بذلك بعض شعراء جيان ممن سبقوه إليها

---

(١) أنظر فى هذه المنظومة العقد الفريد لابن عبدربه (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٤٩٩/٤ ومابعدها وسنلهم بها بأخرة من هذا الفصل.

(٢) أرجفت: اضطربت من الفزع. ساورها: صارعها.

(٣) راجع فى ترجمة ابن دراج وشعره الذخيرة ٥٩/١ وما بعدها والحميدى ١٠٢ واليتيمة للثعالبى (طبعة محمد محيى الدين عبد الحميد) ١٠٣/٢ وما بعدها والصلة لابن بشكوال رقم ٧٥ وبغية الملتمس رقم ٣٤٢ والمغرب ٦٠/٢ والمطرب ص ١٥٦ والمعجب للمراكشى ص ٨٥ والبيان المغرب لابن عذارى ٢٧٤/٢ و ٩/٣ وفى مواضع مختلفة وأعمال الأعلام لابن الخطيب ص ١٢٢ - ١٢٤ وأيضا فى مواضع مختلفة وابن خلكان ١٣٥/١ ومقدمة ديوانه المنشور بدمشق تحقيق د. محمود مكى وكتابنا الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (الطبعة الحادية عشرة) ص ٤٢٤ وتاريخ الأدب الأندلسى عصر سيادة قرطبة للدكتور إحسان عباس ص ١٩١ والأدب الأندلسى للدكتور هيكل ص ٣٠٢.

ونالوا فيها غير قليل من الشهرة مثل الغزال يحيى بن حكم شاعر الأمير عبد الرحمن الأوسط وأحمد بن فرج الجيانى صاحب كتاب الحدائق شاعر الحكم المستنصر. ورحل إليها مخلفا وراءه زوجته وابنته سنة ٣٨٢ وكان المنصور بن أبى عامر حاجب المؤيد هشام فى الذروة من سلطانه، وكان يرعى الشعراء، واتخذ لهم ديوانا لأعطياتهم ورواتبهم وأقام عليه أديبا بصيرا بالشعر هو عبد الله بن مسلمة فعرض عليه ابن دراج مدحة فى المنصور أعجبته فقدمه إليه، وأخذ المنصور يختبر بداهته فى نظم الشعر وهو يوفَّق فيما يطلبه ويختبره فيه، وألحقه بدواوينه وفسح له فى مجالسه، وطلب إليه ذات مرة أن يعارض أبا نواس فى رائيته: «أجارة بيتينا أبوك غيور» فنظم فى معارضتها قصيدة بديعة صوَّر فيها امرأته متلهفة عليه فى وداعه مشفقة ورضيعها فى المهد وهى تتجرع مرارة الفراق وتنتحب .. يقول:

ولما تدانتْ للوداع وقد هَفَا ... بصبرِىَ منها أَنَّةٌ وزفيرُ
تناشدنى عهدَ المودَّة والهوى ... وفى المَهْد مبغومُ النِّداءِ صغيرُ[1]
تبوَّأَ ممنوعَ القلوب ومُهِّدَتْ ... له أذرعٌ معطوفةٌ ونحورُ

ويطيل فى تصوير هذا الوداع مما جعل القصيدة تطير شرقا وغربا، ويصور رحلته من جيان إلى قرطبة لزيارة المنصور ومديحه، ويشيد بجهاده للنصارى فى الشمال ونصرته للدين الحنيف وانقضاضاته المتوالية على الأعداء. وكان ملوكهم مايزالون يفدون عليه فى قرطبة معلنين خضوعهم له وطاعته، ووفد فى أول سنة نزل بها ابن دراج قرطبة ملك نبارّة معلنا ولاءه ومحكِّما له فى نفسه، فأنشده مدحة يقول فيها:

ألا هكذا فَلْيَسْمُ للمجد مَنْ سَما ... ويَحْمى ذِمارَالملك والدين مَنْ حَمَى[2]
فهذا عظيمُ الشِّرْك قد جاء خاضعا ... وألقى بكفَّيْه إليك محكِّما

ووفد فى نفس السنة أمير قشتالة وولى عهدها على المنصور، ويصف فى لامية له مثوله خانعا بين يدى المنصور والعرضَ العسكرى الرهيب الذى أُقيم لاستقباله. ولا يفد أمير ولا ملك إلا وابن دراج يشيد بالمنصور ويمدحه، وبالمثل كان يوالى مدائحه فيه مع انتصاراته المتعاقبة، ومعروف أن المنصور غزا طوال حجابته اثنتين وخمسين غزوة، وحضر ابن دراج غزواته الأخيرة، ومع كل غزوة كان يغزوها ينشده مدحة بديعة كان بحقٍّ أهلا لها وجديرا، ومن أهم تلك الغزوات غزوة شنتياقب فى جلِّيقية بأقصى الشمال الغربى

---

(١) مبغوم النداء: رقيقه ولينه.
(٢) ذمار الملك: ما ينبغى حياطته والدفاع عنه.

لإسبانيا وفيها دمر المسلمون تلك البلدة مشعلين النار فيها وفى كنيستها، وتُعَدُّ من أهم مراكز الحج عند المسيحيين وفى تلك الوقعة يقول ابن‌دراج فى مدحه بديعة:

لقد قصمت عُرَى دينِ الضلالة من رأسِ القواعد ممنوعِ الحِمَى أشِبِهْ[١]
وسُمْتَه جاحما للنار مابقيتْ نفسٌ من الكفر إلا وَهْيَ من حَطبه
فاللّهُ جازيك يامنصورُ غزوتَه بسيفِ ماضٍ لنصر الدين مُحْتَسِبه

ويتوفى المنصور بن أبى عامر سنة ٣٩٢ ويخلفه ابنه المظفر عبد الملك وكانت مدته حتى سنة ٣٩٩ فترة رخاء ورفاهية، وسكن الناس منه إلى عدالة ونزاهة، واستنَّ سنة أبيه فى غزو النصارى، ولابن دراج فيه مدائح مختلفة. وخلفه أخوه عبد الرحمن فى الحجابة لمدة شهرين إذ قُتل فى إثرهما وكان نحسا على نفسه وعلى الأندلس إذ انفتح به باب فتنة ظلت قرطبة تعانى منها أشد العناء نحو عشرين عاما هُدِّمت فيها أحياء وهدمت الزهراء مدينة عبد الرحمن الناصر والزاهرة مدينة المنصور بن أبى عامر. ونجد ابن دراج يقدم مدائحه لمن يستولون على صولجان الخلافة والحكم واحدا بعد الآخر، فهو يقدمها للخليفة الجديد المهدى، ثم للخليفة الثائر عليه المستعين ولوزيره القاسم الحمودى ويعبر الزقاق إلى سِبْتة لمديح أخيه على بن حمود ويستظهر فى مديحه مشاعر التشيع له، لنسبه ونسب أسرته إلى الرسول ﷺ. ومرَّ بنا أن الحموديين لم يستشعروا حقوق أهل البيت النبوى فى الخلافة، ولذلك كان مثل هذا التشيع لا يلقى منهم استجابة. ويترك ابن دراج على بن حمود إلى الأمراء الذين استولوا فى أثناء الفتنة على بلدان الأندلس الشرقية: مرسية وشاطبة وطرطوشة والمرية وصاحبها خيران الصقلبى، ويمدحه بنونية يستهلها بقوله:

لك الخيرُ قد أوفى بعهدك خَيْرانُ وبُشْراك قد آواك عِزٌّ وسلطانُ

ويقصِّر خيران فى جزائه، وينتهى به المطاف - بعد سنوات ثمان مضنية - إلى الأمراء التجيبيين فى سرقسطة سنة ٤٠٨ ويهنأ بها فى رعاية منذر بن يحيى التجيبى ولا يترك مناسبة إلا ويمدحه فيها وخاصة حين ينكّل بالنصارى المجاورين لإمارته على نحو ما نرى فى عينيه، يهنئه فيها بجهاده فى شهر رمضان وظفره بأعدائه، يقول فيها:

ساقى الحياة لمن سالمتَ، مُطْعِمُها ذُعافَ سُمٍّ لمن حاربتَ ناقعهُ[٢]
مواصلًا بالنَّدى ماالله واصلهُ وقاطعا بالظُّبَى ماالله قاطعُهُ

---

(١) أشب: ملتف الشجر، ويقصد الكنيسة وكانت على مرتفع غاص بالشجر.

(٢) السم الذعاف: السم القاتل.

في جيش عزٍّ ونصرٍ أنت غُرَّتُهُ وشَمْلِ دينٍ ودنيا أنت جامعُه

ويتوفى منذر سنة ٤١٢ فتظل له نفس المنزلة والرعاية عند ابنه يحيى، حتى إذا كانت سنة ٤١٩ وسمع بما ذاع وشاع عن مجاهد أمير دانية والجزائر الشرقية وإسباغه العطايا الجزيلة على الشعراء والعلماء وفد عليه مادحا بقصيدة بديعة استهلها بقوله:

إلى أيِّ ذكرٍ غيرِ ذكرك أرتاحُ ومن أيِّ بحرٍ بعد بَحْرك أَمْتاحُ

واحتفل مجاهد بقدومه عليه وأجزل له فى العطاء مما جعله يؤثر المقام عنده ولكن القدر لم يمهله فقد توفى بدانية بعد عامين من نزوله بها سنة ٤٢١

وقد أشاد بابن دراج كل من كتبوا عنه شرقا وغربا، فالثعالبى يقول عنه فى اليتيمة: «كان بصُقْع الأندلس كالمتنبى بصقع الشام وهو أحد الشعراء الفحول وكان يجيد ما ينظم» ويقول ابن حيان عنه: «أبو عمر بن دراج القسطلى سبَّاق حلبة الشعراء العامريين وخاتمة محسنى أهل الأندلس أجمعين» ويصفه ابن شهيد «بجزالة شعره وصحة قدرته على البديع وحَوْك الكلام وتلاعبه بالمعانى وإطالته فيها» ويقول ابن بسام عنه: «لسان الجزيرة شاعرا وآخر حاملى لوائها، سار نظمه ونثره مسير الشمس» ويلاحِظ بحق كثرة اقتراضه للمعانى من المتنبى، ولاحظ ابن شهيد كثرة استخدامه للبديع، وكأنه يحاكى فيه أبا تمام، وقد عرضنا من ذلك أمثلة فى ترجمتنا له بكتاب «الفن ومذاهبه فى الشعر العربى»، كما عرضنا أمثلة أخرى تدل على ميله للتصنع، إذ يتصنع فى بعض شعره للمصطلحات العلمية. ومما يلاحظ عليه أنه يكثر عنده حين يلم بمعنى أن يطيل فيه حتى يفقد حرارته، وأيضا يلاحظ عليه كثرة معارضاته لقصائد المشارقة وخاصة أبا نواس وأبا تمام والمتنبى، وهو - كما ذكرنا فى كتاب الفن ومذاهبه فى الشعر العربى - يلتقى صوته فى أشعاره بصوت ابن هانئ فى العناية باللفظ الطنان وقعقعاته، وتعلق منذ قصائده الأولى بالشكوى من الدهر والسخط على الناس محاكيا بذلك المتنبى فى مطالع كثير من قصائده، وازداد هذا النغم عنده منذ الفتنة التى جعلته يحس بالضياع سنين عديدة.

ابن[١] عمار

هو أبو بكر محمد بن عمار من قرية من قرى مدينة شلب يقال لها شنّبوس، ومر بنا ما ذكره ياقوت عن شلب وأن نظم الشعر كان يشيع على كل لسان بها، حتى لو طلب أحد إلى فلاح بها خلف محراثه قَرْض شيء من الشعر قَرَضه له توا فى أى معنى يطلبه منه، فكان طبيعيا أن تهدى إلى الأندلس شاعرا فذا من شعرائها، وكأنما اختار القدر لها محمد ابن عمار الذى نشأ بشلب طفلا لأسرة متواضعة، وتعلم فيها العربية والأدب على شيوخ متعددين منهم أبو الحجاج يوسف بن عيسى الأعلم، ثم رحل إلى قرطبة فأكمل فيها تأدبه، واستيقظت ملكته الشعرية على شيء غير قليل من ضنك العيش وبؤسه، مما جعل ابن بسام يقول عنه إنه «أحد من امترى[٢] أخلاف الحرمان، وقاسى شدائد الزمان، وبات بين الدكة والدكان واستحلس[٣] دهليز فلان وأبى فلان». ولم يكن له شيء يتكسب به سوى شعره، فطاف به فى بعض مدن الأندلس مسترفدا، لا يبالى ممن أخذ ولا من مدح من سيد أو سوقة. وحدث أن عاد إلى شلب من بعض سفراته على دابة لا يجد علفها، فنظم مديحا فى رجل من أهل السوق ظنا منه أنه يعطيه النوال الوفر، وإذا هو يسرّ إلى غلامه بكلام، فأتاه بمخلاة شعير، وفكّر فى دابته وحاجتها إلى العلف، فاحتمل الغضاضة. ومضى يتقلب فى بلاد الأندلس للمديح والاستجداء إلى أن وفد على المعتضد (٤٣٣ - ٤٦١ هـ) أمير إشبيلية ومدحه بقصيدته الفريدة:

أدِرِ الزُّجاجةَ فالنسيمُ قد انْبَرَى   والنَّجْمُ قد صَرَفَ العِنان عن السُّرَى[٤]

واستحسنها المعتضد وأمر له بمال وثياب ومركب وأن يُكْتَب فى ديوان الشعراء، وتعرف حينئذ على ابنه وولى عهده المعتمد، وتوثقت عرى المودة بينهما حتى أصبح المعتمد لا يستغنى عنه ساعة من ليل أو نهار. وولى المعتمد على مدينة شلب من قبل أبيه فاتخذ ابن عمار وزيره فى تلك الولاية وساءت السمعة عنهما لعكوفهما على الخمر والغناء، فأمر

---

(١) انظر فى ترجمة ابن عمار وأشعاره الذخيرة ٣٦٨/٢ وما بعدها والقلائد ٨٣ والحلة السيراء (طبع القاهرة)١٣١/٢ والمغرب ٣٨٩/١ والمطرب ص ١٦٩ والمعجب للمراكشى (طبع القاهرة) ص ١٦٩ وأعمال الأعلام لابن الخطيب ١٦٠ والخريدة ٧١/٢ وبغية الملتمس رقم ٢٢٧ وابن خلكان ٤٢٥/٤ ونفح الطيب للمقرى (انظر الفهارس).

(٢) امترى: حلب. الأخلاف: الضرع.

(٣) استحلس: لزم. الدهليز: المدخل بين الباب والدار.

(٤) السرى: المسير ليلا.

المعتضد بالتفريق بينهما وخروج ابن عمار عن بلده، فمضى يطوف بأمراء الطوائف، ففترة عند المعتصم بن صُمادح أمير المريَّة وفترة عند أبى عبد الرحمن بن طاهر أمير مُرْسِية، وفترات أخرى عند غيرهما، إلى أن توفى المعتضد فاستدعاه المعتمد وقرَّبه حتى أصبح أقرب إليه من حبل الوريد، وسأل المعتمد ولاية شلب: بلده ومنشئه، فأجابه إلى أن اشتد شوقه إليه، فاستدعاه منها واتخذه وزيره ومستشاره.

وطمح المعتمد إلى الاستيلاء على مرسية، وزيَّن له ذلك ابن عمار، فأعدَّ جيشا جرارا بقيادته وقيادة عبد الرحمن بن رشيق، وتكفل له ابن عمار بأخذها وإخراج ابن طاهر عنها، غير مراع له حرمة برِّه القديم به كما أسلفنا. ونزل بالجيش على مرسية سنة ٤٧١ وأخذها وأخرج ابن طاهر عنها، وتمادى فى إنكاره للجميل إذ سوَّلت له نفسه أن يستلبها من المعتمد وأن يعلن استقلاله بها، ودانت له هى وأعمالها، وجلس مجلس التهنئة للخواص والعوام واستقبل الشعراء يهنئونه ويمدحونه. واستعمل على الحصون خِساس عبيده وأقطعهم الضياع وأقبل على اللهو والخمر والمتاع، وعبثا حاول المعتمد بن عباد أن يرده عن غَيِّه، وله معه مراجعات شعرية كثيرة، وبدلا من أن يطلب الصفح هجاه وهجا زوجته الرُّمَيْكيَّة قرة عينيه بقصيدة طارت شهرتها فى الأندلس منها:

فيا عامرَ الخيل يا زَيْدَها   منعتَ القِرَى وأبحتَ العِيالا[1]

وأفحش فيها غاية الفحش ولم يفكر فى العواقب، وبينما كان سادرا فى خمره ولهوه أخذ عبد الرحمن بن رشيق يستبدل العبيد من ولاته ببنى إخوته وأخواته حتى صارت مرسية وأعمالها فى يده، حينئذ انتهز فرصة خروجه لرؤية حصن من حصونه، وأغلق أبواب مرسية فى وجهه. وعرف أن لا سبيل إلى دخولها فولَّى وجهه نحو سرقسطة وأميرها المؤتمن بن المقتدر بن هود (٤٧٤ - ٤٧٨ هـ.) واستقبله على مضض منه لما فعل بالمعتمد ولىِّ نعمته، وأرسل إليه قصيدة يستعطفه بها استهلها بقوله:

علىَّ وإلا ما نُواح الحمائمِ   وفىَّ وإلا ما بكاء الغمائمِ

وأخذ يذكِّره بأيامه معه ويسترحمه، لعله يرق له، ولكن ذنبه كان عظيما. ولم يلبث أن رغَّب المؤتمن فى الاستيلاء على حصن شقورة شمالى مرسية من يد أميرها عتاد الدولة عبدالله بن سهل، فعرف عتاد الدولة كيف يخدعه ويودعه سجنه، وأرسل إلى المعتمد وغيره من الأمراء هل لأحد فيهم رغبة فى شراء هذا الخائن الآثم الكنود؟ فأرسل إليه

(١) القرى: طعام الضيوف.

المعتمد ابنه الراضى بمال وخيل، وتسلَّمه من عتاد الدولة سنة ٤٧٧ وحاول أن يستلين قلب الراضى ببعض شعره فلم يصغ إليه، ونظم فى طريقه إلى المعتمد قصيدة يستعطفه بها افتتحها بقوله:

سجاياك - إن عافيتَ - أندى وأسمحُ   وعذرُك - إن عاقبتَ - أجلى وأوضحُ

ولم ينفعه عند المعتمد تذلله فيها وتضرعه، وكان بقرطبة، فكان يحضره كل ليلة راسفا فى قيوده ويوبخه على سوء فعله، وانحدر به إلى إشبيلية، وأودعه غياهب السجون إلى أن استثارته عليه زوجته الرميكية فأجهز عليه، ورثاه عبد الجليل بن وهبون ببيت مفرد هو قوله:

عجبًا لمن أبكيه ملْءَ مدامعى   وأقولُ: لاشَلَّتْ يمينُ القاتلِ

وبدون ريب كان ابن عمار انتهازيا وصوليا لا يرعى صداقة ولا عهدا، أما شعره ففى الذروة من شعر الأندلسيين وفيه يقول الفتح فى القلائد: «مقذف حصا القريض وجماره ومطلع شمسه وأقماره» ويقول ابن بسام: «شعره غرَّب وشرَّق، وأشأم فى نغم الحُداة وعلى ألسنة الرواة وأعرق.. وهو يضرب فى أنواع الإبداع بأعلى السهام، ويأخذ من التوليد والاختراع بأوفر الأقسام» ويطيل فى الإشادة به، ويقول ابن الأبار فى ترجمته: «من بديع صنيعه إتلاف أشعاره المقولة فى الامتياح وقصائده المصوغة فى الانتجاع ومحو آثارها فما يوقف منها اليوم على شىء سوى أمداحه فى المعتضد وما لا اعتبار به لنزوله» ويتيمته - بحق - وفريدته مدحته الرائية فى المعتضد عباد التى ذكرنا مطلعها، وفيها يصف روضا كأنه حسناء تكتسى بوشى الزهر الأنيق، وتتقلَّد بجوهر الندى النفيس، ويخرج إلى المديح فينشد:

عبـادٌ المخضـرُّ نـائـلُ كفِّـهِ   والجوُّ قد لبِسَ الرداءَ الأغْبَرا[١]
أَنْدَى على الأكبادِ من قَطْرِ النَّدَى   وألذُّ فى الأجفان من سِنَة الكَرَى[٢]
أيقنتُ أنى مـن ذراه بجـنَّـةٍ   لما سَقانى من نَدَاه الكَوْثَـرا[٣]
فـاحَ الثَّـرَى متعـطِّرًا بثنـائـهِ   حتى حسبْنا كلَّ تُـرْبٍ عَنْبَرا

وما يزال ابن عمار يفجأ قارئ مدحته بهذه الصور والمعانى البديعة، ومما يفجأ قارئه به تصويره لإطاحة المعتضد بالملوك ودقِّه لأعناق كُماتهم وشجعانهم إذ يقول:

(١) الجو قد لبس الرداء الأغبر: كناية عن الجدب.
(٢) الكرى: النوم. سنة الكرى: الغفوة فى أوله.
(٣) ذراه: كنفه. الكوثر: نهر فى الجنة.

أثمرتَ رُمْحَكَ من رؤوس ملوكهمْ ... لما رأيت الغُصْنَ يُعْشَقُ مُثْمِرَا
وصبغتَ دِرْعَك من دِماء كُماتِهم ... لما رأيتَ الحسن يُلْبَسُ أحمرا

وابن عمار لا يبارَى فى روعة التصاوير والأخيلة وروعة الأداء وحسن الصياغة، وكأن مدينة شلب وقراها الشاعرة ظلت تمخض الشعر فيها حتى أنتجت رحيق شعره الصافى البديع.

ابن الحداد القَيْسى(١)

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الحداد القيسى من مدينة وادى آش فى إلبيرة موطن بنى عقيل وغيرهم من القيسيين وشُغف فى صباه - كما يقول ابن بسام - بصبية نصرانية رمز إليها باسم نويرة، وسنعرض لغزله بها فى حديثنا عن شعراء الغزل. وقد اشتهر بمعارفه الواسعة فى الآداب العربية والعلوم الإسلامية وأيضا فى الفلسفة والعلوم القديمة ولذلك ترجم له ابن سعيد كأحد العلماء فى موطنه، ويذكر مترجموه أن له فى العروض كتاب «المستنبط فى علم الأعاريض المهملة عند العرب» ولا أرتاب فى أنه لو وصل إلينا لكان دليلا قويا على ما قلته فى حديثى عن الموشحات من أن الأعاريض المهملة التى يُنْظم فيها والتى أشار إليها ابن بسام ونقلناها عنه هناك إنما هى أعاريض العرب المهملة التى نصَّ عليها الخليل فى دوائره العروضية لا أعاريض أشعار رومانسية كما توهم «ريبيرا» ومن تابعه، وقال مترجمو ابن الحداد إن له فى العروض كتابا ثانيا باسم: «قيد الأوابد وصيد الشوارد» وكتابا ثالثا باسم: «الامتعاض للخليل» ردَّ فيه على السرقسطى المنبوز بالحمار - وهو سعيد بن فتحون - مازجا فيه بين الأنحاء الموسيقية والآراء الخليلية، ولا أرتاب فى أن كتبه جميعا تؤكد ما ذهبت إليه فى فهم كلمة ابن بسام عن نظم الموشحات فى الأوزان المهملة التى أشار إليها الخليل فى وضعه لدوائره العروضية، وهى مرسومة بدقة فى كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه.

وكان يلزم المعتصم محمد بن معن بن صُمادح التجيبى أمير المريَّة التى بناها عبد الرحمن الناصر بالجنوب الشرقى للأندلس وأصبحت قاعدة للأساطيل الأموية،

(١) انظر ترجمة ابن الحداد فى الذخيرة ٦٩١/١ والمطمح ص ٨٠ والمغرب ١٤٣/٢ والتكملة رقم ٤٦٨ والخريدة ٢٠٤/٢ والفوات ١٦٧/٢ والإحاطة ٢٥٠/٢ والذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى ١٠/٦ والوافى للصفدى (طبع إستانبول) ٨٦/٢.

وقاد فيها المعتصم منذ أصبح أميرا لها فى الثامنة عشرة من عمره سنة ٤٤٣ حركة علمية وأدبية كبيرة طوال مدة حكمه التى امتدت إلى أكثر من أربعين عاما، وكان يخصص يوما فى كل أسبوع لمناظرة الفقهاء والمحدثين بين يديه، ولزم حضرته كثيرون من الشعراء، منهم من المرية يوسف بن عبد الصمد وأبو حفص بن الشهيد ومن غيرها الأسعد بن بلّيطة الطليطلى والقزاز محمد بن عبادة الإلبيرى المترجم له بين الوشاحين ويوسف بن محمد الأشكركى ومنهم - كما أسلفنا - شاعرنا ابن الحداد الذى عاش عنده أكثر حياته مما جعله يستنفد أكثر أشعاره ومدائحه فيه من مثل قوله فى إحدى مدائحه:

ولولا أبو يحيى ابنُ معنٍ محمدٌ لما كانت الأيامُ عندى ذخائرا
يحجُّ ذَراه الدهرَ عافٍ وخائفٌ جُموعا كما وافى الحجيجُ المشاعرا[١]
فزر مكّةً مهما اقترفتَ مآثما وزُرْ أفْقَهُ مهما شكوتَ مَفاقِرا[٢]
تهيمُ بمرآهُ العصورُ جلالةً وتحسدُ أولاها عليه الأواخرا

والصورة فى البيت الثانى رائعة، وكان يعرف كيف ينفذ إلى طرائف الصور والأخيلة البديعة، كقوله فى مدحة أخرى للمعتصم، استهلها بالمزج بين الطبيعة والغزل على مألوف المدائح عند الأندلسيين ولم يلبث أن خرج من وصف نهر إلى المديح منشدا.

ويا لك من نَهْرٍ صَئُولٍ مُجَلْجِلٍ كأن الثَّرَى مُزْنٌ به دائمُ الرَّعْدِ[٣]
كأن يدَ المَلْك ابنِ معنٍ محمَّدٍ تُفجِّره من مَنْبع الجود والرِّفْدِ[٤]
فمن جوده ما فى الغمامة من حَيًا ومن نوره ما فى الغزالة من وَقْدِ[٥]
ومنك أخذنا القول فيك جلالةً وما طاب ماءُ الوَرْد إلا من الوَرْدِ

وقَرْنُ جلجلة ماء النهر فى حصباء الثرى بصلصلة الرعد الدائم فى السحاب الممطر فى منتهى الروعة، ومن نفس الطراز الصور فى البيتين الثالث والرابع.

ويبدو أن أخًا له اقترف ذنبا اضطر المعتصم إلى اعتقاله سنة ٤٦١ وأحس الشاعر بشىء من سخط المعتصم عليه، فغادر المرية موليا وجهه إلى المقتدر بن هود (٤٣٨ - ٤٧٤ هـ) بسرقسطة، وكان شاعرا يقدر الشعر وأهله كما كان بطلا مجاهدا

---

(١) ذراه: حماه وكنفه عاف: طالب معروف.
(٢) مفاقر: وجوه فقر.
(٣) صئول: شديد الهياج. المزن: السحاب الممطر.
(٤) الرفْد: العطاء.
(٥) الحيا: الغيث والمطر. والغزالة: الشمس.

صاحب غزوات مشهورة، واستقبل ابن الحداد استقبالا حافلا، وأكثر من إسباغ عطاياه عليه، وأكثر ابن الحداد من التغنى بانتصاراته على ابن ردمير حاكم أَراجون، وله فيه من مدحة يصور فيها بسالته الحربية وبناءه حصن المدوَّر فى نَحْر العدو:

مساعيك فى نَحْرِ العدوِّ سِهامُ ورأيُك فى هامِ الضلال حُسامُ[١]
ولَمْحُك يرْدِى القِرْنَ وهوُ مُدَجَّجٌ وذكرُك يَثنى الجيش وهو لُهامُ[٢]
كأنك لا ترضى البَسيطةَ منزلا إذا لم يُطَنِّبْه عليك قَتامُ[٣]
كأنك خلت الشمسَ خَوْدا فلم يَزَلْ يقنِّعها بالنَّقْع منك لِثامُ[٤]

وواضح أنه أبدع فى تصوير غزوات المقتدر المستمرة التى لا يزال يشنها على العدو حربا فى إثر حرب، حتى ليتصوره ابن الحداد لا يتخذ له مسكنا فى الأرض إلا ساحات القتال وقد شُدَّت عليه فيها أطناب القتام وغبار القتال الأسود الكثيف ويُبْعد فى الخيال، فيظن المقتدر يخال الشمس فتاة جميلة، وكأنه يغار عليها، فلا يزال يثير غبار الحرب متخذا منه لها لثاما أو حجابا. وحنَّ إلى المعتصم بن صمادح، فعاد إليه وإلى المرية، وهو يردِّد.

واصِلْ أخاك وإن أتاك بجفوة فخلوصُ شىءٍ قلما يتمكَّنُ
فى كلِّ شىءٍ آفةٌ موجودةٌ إن السِّراج على سَناه يُدَخِّن

وذكرنا فى صدر الحديث عنه أن كان مولعا بالفلسفة وعلوم الأوائل، ولعل ذلك ما دفعه إلى نظم قصيدة سماها «حديقة الحقيقة» وضاعت فيما ضاع من ديوانه، وكانت كبيرة كما يقول مترجموه، وأنشد منها ابن الأبار قوله:

ذهب الناسُ فانفرادى أنيسى وكتـابى محـدِّثى وجليسى
صاحبٌ قد أمنتُ منه مَلالا واختـلالا وكلَّ خُلْقٍ بَئيسِ

ولعله تناول فيها جوانب من أخلاق الناس بعد أن عاشرهم طويلا دون محاولة لسخط عليهم أو نقمة، وأخيرا لبىَّ ابن الحداد نداء ربه بالمرية سنة ٤٨٠.

---

(١) هام: جمع هامة: الرأس.
(٢) اللهام: الجيش الجرار.
(٣) يطنبه: يغطِّيه كالخيمة. القتام: الغبار.
(٤) الخود: الحسناء. النقع: غبار الحروب.

الأعمى التُّطِيلى القَيْسى[١]

هو أبو جعفر – وقيل أبو العباس – أحمد بن عبد الله بن أبى هريرة التطيلى القيسى، فهو عربى الأرومة، أما نسبته إلى تُطيلة – وكانت تقع إلى الشمال الغربى من سرقسطة – فلأنها كانت موطن آبائه. ويبدو أن أباه – وربما جده – هاجر منها مبكرا إلى إشبيلية، فوُلد الشاعر فيها، ومن المؤكد أنه نشأ بها كما يقول ابن سعيد فى كتابه «رايات المبرزين» ففيها كان مَرْباه وتعلمه، ويعلن مرارا أنه ضيِّق باستيطانها، يقول عنها:

فتَاللهِ ما استوطنتُها قانعًا بها ولكننى سَيْفٌ حَواه قِرابُ

فهو منها كسيف حواه قراب أوغمد، لابد أن يسكن لها راضيا أو راغما. وربما بعثه على إعلان ذلك بَرَمٌ وقلق كانت تنطوى عليهما نفسه، بسبب فقده لبصره، إذ كان ضريرا، وبكَّر إليه – فيما يبدو – شىء من الصلع أو بعض الشعرات البيض فى رأسه، مما جعله يصرخ:

أما اشتفتْ منِّىَ الأيامُ فى وطنى حتى تضايق فيما عَنَّ من وَطَر[٢]
ولا قضتْ من سَواد العين حاجتَها حتى تِكرُّ على ما كان فى الشَّعَرِ[٣]

وكان يلتقى فى إشبيلية دائما بطائفة من الشعراء والوشّاحين المجيدين فى مقدمتهم الشاعر والوشاح الفذ يحيى بن بقى وكان يقدِّمه على نفسه معترفًا له بالتفوق والسبق فى التوشيح كما مرَّ بنا فى حديثنا عن الموشحات، وتكفل له شاعر إشبيلى هو أبو القاسم بن أبى طالب الحضرمى المنيشى برافقته فى روحاته وغدواته. وليس فى ديوانه مدائح لأمراء الطوائف ولا ليوسف بن تاشفين مما يدل على أنه لم يلحق عصر يوسف المتوفى سنة ٥٠٠ بينما نجد فيه مدائح لابنه على أمير المرابطين (٥٠٠ – ٥٣٧ هـ) مما يدل على أن شاعريته إنما تفتحت فى القرن السادس، وقد يؤكد ذلك أنه توفى سنة ٥٢٥ بينما يقول ابن بسام إنه لم يطل زمانه ولا امتد أوانه، وأنه اعتُبط (مات) شابا (أو قريبا من

---

(١) انظر فى ترجمة الأعمى التطيلى وأشعاره الذخيرة ٧٢٨/٢ وما بعدها والقلائد ص ٢٧٣ والخريدة ٥١١/٣ وبغية الملتمس رقم ٤٢٩ والمغرب ٤٥١/٢ ونكت الهميان للصفدى ص ٤١٠ ونشر ديوانه وقدم له د. إحسان عباس فى دار الثقافة ببيروت وألحق به موشحاته.

(٢) وطر: مأرب.

(٣) تكرّ: تعاود من حين إلى حين، ومنه: كرّ الليل والنهار.

الشباب) عندما به اغتُبط». ويدل ذلك على أن مولده لا يتجاوز سنة ٤٩٠ وإن تجاوزها فإلى سنوات معدودات. وفى ديوانه مرثية حارة لزوجة له تسمى آمنة، ويبدو أنه اقترن بعدها بأخرى تسمى زهرا، ويذكر فى بعض شعره أنها كانت تعنفه لقعوده عن التماس الرزق، ولعل ذلك ما جعله يكثر من مديحه لذوى الجاه والثراء فى إشبيلية من مثل بنى الحضرمى وخاصة محمد بن عيسى ومثل الطبيب أبى العلاء زهر، وكان قد أثرى ثراء طائلا من مهنته وحلّ من السلطان محلا لم يحظَ به أحد من أهل الأندلس فى وقته وله ينشد:

خَشُنْتَ فلم تَتْرك وأنت منازَعٌ ... ولِنْتَ ولم تأخذ وأنت قديرُ
من المَجْدِ دانٍ دونه متعرِّضٍ ... إلى الهول سباقٌ عليه جَسُورُ
كفيلٌ بأرواح الأنام موكَّلٌ ... عليمٌ بأسرار الحِمام خبيرُ

وهو يشير فى البيت الأخير إلى مهارة أبى العلاء فى الطب وعلاج الأنام أو الناس ومعرفة أسرار الحمام أو الموت. ونظم فى أمير المرابطين على بن يوسف بن تاشفين ثلاث قصائد، ويتوسل فى إحدى قصائده إلى مالك بن وهيب المتفلسف مواطنه، الذى اتخذه الأمير المرابطى جليسا له ومستشارا، أن يحمل إليه ما ينظمه، وينزل عند رغبته مرارا، وفى إحداها يثنى عليه بمثل قوله:

جنابُك للعُلا حِصْنٌ حَصِينٌ ... وذكـرُك للمُنَى دُنْيا ودِينُ
طليعةُ جيشك الظَّفرُ المُوَاتِى ... وظلٌّ لِوائك الفَتْحُ المبينُ
جـوادٌ بالديار وما حَوَتْهُ ... ولو أنّ الزمان بها ضَنِينُ
قد اهتزَّتْ بأنْعُمِك الليالى ... كما تهتزُّ بالثَّمرِ الغصون

وله فى على بن يوسف بجانب قصائده أرجوزة طويلة، وله أيضا فيه موشحة بديعة، وإحدى فقراتها تمضى على هذه الشاكلة:

سما علىٌّ ... لإمرةِ المسلمينا
صبحٌ جَلِىٌّ ... راقَ، النُّهى والعيونا(١)
سمحٌ أبىٌّ ... يرضيك شَدًّا ولِينا
كالهُنْدوانى ... وكالغمام الهتَّانِ ... وَفْقُ الأمانى ... ومِلْءِ عَيْنِ الزَّمانِ

(١) النهى: العقول.

ومن أكثر من مديحهم ابن حمدين أبو القاسم أحمد بن محمد التغلبى قاضى الجماعة بقرطبة منذ سنة ٥١٣ حتى وفاته سنة ٥٢١ وكان يرسل بمدائحه إليه، وفى أخباره أنه زار قرطبة، وربما زارها من أجل لقائه، وله يقول:

أسـدٌ يملأ العَـرينَ من البَأْ ... سِ وطَوْدٌ يحمى من الإمْلاقِ[1]
زُهِيَتْ خطةُ القضاء بـه زهـ ... ـوَ حَمامِ الغصونِ بالأطْوَاقِ
أرْيَحِىٌّ تـراه يهتـزُّ للبـذْ ... لِ اهتزازَ القضيب للإيراق[2]

وكان صديقا للشاعر الوشاح يحيى بن بقى ورآه يطرق أبواب بنى عشرة قضاة سَلا رعاة الشعر لزمانه كما مرَّ بنا فى ترجمته وقد خص من بينهم أبا العباس أحمد القاضى بعد أبيه على وأخاه يحيى، فتبع ابن بقى يقدم إليهما مثله شعره وموشحاته، من ذلك قصيدة كافية مدح بها أبا العباس يقول فيها:

لقاضى قُضاةِ الغَرْبِ وابن قضاتِهِ ... تـودَّدتِ الآمال وَهْىَ سَـوامكُ[3]
إذا سمعتْ أُذْناه حَىَّ على العُلا ... فلا الجودُ متروكٌ ولا البأس تارك
رفعتم لأهل الغرب أعلامَ دينهم ... فـأبصر مـأفوكٌ وأقْصَـر آفـكُ[4]

وقد أضيفت إلى الشاعر فى الديوان قصيدة نونية ص ٢١٨ قال الفتح بن خاقان إنه مدح بها القاضى أبا الحسن على بن القاسم بن عشرة، وعنه نقلها محقق الديوان مع إشارته إلى أن العماد الأصبهانى فى الخريدة ذكر أنها فى مديح أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين، وفى رأينا أن الصواب ما ذكره العماد، لأن القاضى المذكور توفى سنة ٥٠٢ وكان التطيلى لا يعدو حينئذ الخامسة عشرة من عمره، وذكرنا أن له فى الأمير على بن يوسف ثلاث قصائد فأولى أن تضاف إليها، فيكون له فيه أربع قصائد سوى الأرجوزة. وألحقت بديوانه فى بنى عشرة ست موشحات، وقد ذكرنا فى ترجمة يحيى بن بقى أن القدماء نصوا على ثلاثة منها بأنها لابن بقى، فنسبتها إلى التطيلى مخطئة، ونظن ظنا أن الموشحتين رقم ١٠ و١٥ الخاصتين بمديح يحيى بن على بن القاسم حرى بهما أن تنسبا أيضا إلى ابن بقى مثل أختهما رقم ١١ فى ملحق الديوان إذ هو الذى تفيأ ظلاله كما نصَّ القدماء وتغنى به فى غير موشحة. وفقط ذات الرقم ١٣ فى مديح من يسمى

---

(١) العرين: الغيل أو بيت الأسد. البأس: القوة. طود: جبل. الإملاق: الفقر.
(٢) القضيب: الغصن: الإيراق: خروج الورقة منه.
(٣) سوامك: جمع سامك: عال.
(٤) مأفوك: ضعيف العقل. آفك: كذاب مفتر.

يوسف بن القاسم، فهى التى يمكن أن تضاف إلى التطيلى، وخاصة أن نسبتها إليه شاعت بين الوشاحين حتى ليعارضه فيها ابن الصباغ[١] المتصوف فى القرن السابع الهجرى، وفيها يقول:

إن جئت أرض سَلا   وافـاك بـالمكـارمِ   فِتْيانُ
هُمْ سطور العُلا   ويوسف بن القاسمِ   عنوان

وله قصيدة بديعة مدح بها السيدة حواء زوجة سير بن أبى بكر الذى مهَّد الأندلس ببطولته وقيادته الحازمة ليوسف بن تاشفين، وهو ابن أخيه، وولاه يوسف إشبيلية وظل عليها - دهرًا: سبعة وعشرين عاما فيما يقال وكانت سيدة فاضلة نبيلة تقرأ القرآن وتنظم الشعر، وكانت لها ندوة فى قصر الإمارة بإشبيلية تحاضر فيها الكتّاب والشعراء وتستمع إلى حوارهم فى الشعر وتشارك فى نقد بعض الأبيات، وممن كان يتردد على ندوتها مالك بن وهيب المتفلسف المار ذكره والكاتبان أبو بكر بن القصيرة وابن المُرْخَى محمد بن عبد العزيز، وكانت ممدحة، ومن ثناء التطيلى عليها فى قصيدته:

مليكةٌ لا يوازى قَـدْرَهـا ملكٌ   كالشمس تَصْغُر عن مقدارها الشُّهُبُ
دُنْيَـا ولا تـرفٌ، دِينٌ ولا قَشَفٌ   مُـلْكٌ ولا سَـرَفٌ دَرْكٌ ولا طلبُ
بِــرٌّ ولا سَقَمٌ عَيْشٌ ولا هِــرَمٌ   جَـدٌّ ولا نَصَبٌ وِرْدٌ ولا قَـرَبُ[٢]

ويفيض التطيلى فى وصف جودها وما تغدق من الذهب والفضة على الأدباء والشعراء، ويشيد بإخوتها يحيى والى قرطبة ومحمد محرِّر بلنسية، ولا يشير إلى زوجها حاكم إشبيلية والأندلس بكلمة، وأغلب الظن أنه كان قد توفى منذ فترة. ولعل صوت الأعمى التطيلى اتضح لنا الآن، وبحق يقول عنه ابن بسام: «له أدب بارع، ونظر فى غامضه واسع، وفهم لا يجارَى، وذهن لا يبارَى، ونظم كالسحر الحلال، ونثر كالماء الزلال، جاء فى ذلك بالنادر المعجز، فى الطويل منه والموجز».

---

(١) انظر أزهار الرياض للمقرى ٢/٢٣٣ - ٢٣٥.

(٢) القرب: سرى الليل لورد الغد يعنى أن وِرْد العطاء لهذه السيدة فى متناول الأيدى ولا يكلف عناء ولا مشقة.

الرُّصافى محمد بن غالب(١)

وُلد محمد بنِ غالب فى رصافة بلنسية، فنُسب إليها، وقد رزقت به أسرة متواضعة، إذ كان أبوه رفّاء، وكأنما كان مولده فى تلك الرصافة بشيرا بأنه سيكون من شعراء الطبيعة فى الأندلس لجمالها إذ كانت – كما يقول ابن سعيد فى ترجمته بالمغرب – مناظر وبساتين ومياها جارية، وفى بلنسية يقول: «خصَّها الله بأحسن مكان، وحفَّها بالأنهار والجنان. وحيث خرجت من جهاتها لا تلقى إلا منازه ومسارح ومن أبدعها وأشهرها الرصافة». وفى هذه الجنة الفيحاء نشأ الطفل المرهف غير أنه لم يكتب له أن تتم له نشأته فيها، إذ اضطر أبوه – فيما يبدو – لمبارحتها إلى مالقة وهو لا يزال صغيرا فى نحو الثامنة أو التاسعة من عمره، مما جعله – فيما بعد – يكثر – كما قال ابن الأبار فى ترجمته بالتكملة – من الحنين إليها ويقصر أكثر منظومه عليها، وفى ذلك يقول عنها:

بلادى التى رِيشتْ قُوَيْدمتى بها … فُرَيْخًا وآوتْنى قَرارتُها وَكْرا(٢)
مِهادى ولَيْنُ العَيْش فى رَيِّق الصِّبا … أَبَى الله أن أَنْسى لها أبدًا ذِكْرَا

وطار الطفل صغيرا من وكره مع أبيه إلى عُشٍّ متواضع فى مالقة، وفيها أخذ أبوه يلقنه حرفته من رَفْو الملابس، وفسح له من الوقت ما مكنه من الاختلاف إلى كُتَّاب لحفظ القرآن الكريم ثم الاختلاف فيما بعد إلى حلقات الشيوخ لتعلم العربية والتزود من علوم الدين الحنيف ومن الأدب والشعر. وتفتحت ملكته الشعرية مبكرة، إذ يُرْوى أنه خرج مع بعض رفاقه فى الدراسة إلى نزهة فى مالقة، وارتجل فى تلك النزهة بيتين أعجب بهما الشيخ المرافق، وتنبأ له أنه سيكون شاعر زمانه. ويقدم عبد المؤمن أمير الموحدين لزيارة الأندلس سنة ٥٥٦ للهجرة، ويُسْتدعى الشعراء من بلدان الأندلس لاستقباله فى جبل طارق أو جبل الفتح، وكان عبد المؤمن – كما مرَّ بنا أمر ببناء مدينة على سفحه، وفيها أنشده شعراء الأندلس مدائحهم فيه، ومن بينهم الرصافى، وهو لا يتجاوز عشرين ربيعا كما يقول صاحب المعجب، وقصيدته أو مدحته تصوِّر شاعرية

---

(١) انظر فى ترجمة الرصافى وأشعاره المغرب ٣٤٢/٢ والمعجب للمراكشى ص ٢٨٦ والإحاطة ٥٠٥/١ والتكملة لابن الأبار رقم ٧٧٢ وكتابه تحفة القادم رقم ٣٤ وابن خلكان ٤٣٢/٤ والوافى ٣٠٩/٤ وجمع د. إحسان عباس أشعاره ونشرها فى دار الثقافة ببيروت باسم ديوان الرصافى البلنسى مع مقدمة عن حياته وشعره.

(٢) قويدمة الطائر: الريشات فى مقدم الجناح.

ناضجة، وقد تمثل فيها دعوة ابن تومرت مهدىّ الموحدين وإمامهم ونهوض عبد المؤمن بها من بعده كأنها نار شبّت فى جانب جبل الفتح كالنار التى جاء فى القرآن الكريم أنها شبت لموسى من جانب الطور الأيمن بسيناء ﴿فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى فلما أتاها نودىَ يا موسى إنى أنا ربك فاخلع نَعْليك إنك بالوادى المقدس طُوًى وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى﴾ وتمثّل الرصافى الآيات الكريمة ومضى ينشد عبد المؤمن مفتتحا قصيدته بقوله:

لو جئتَ نارَ الهُدَى من جانب الطُّورِ قَبَسْتَ ما شئتَ من عِلْمٍ ومن نورِ
فَيْضِيَّةَ القَدْحِ من نور النبوّة أو نـور الهدايـة تجلو ظلمةَ الـزُّورِ
ما زال يُقْضمها التَّقْـوَى بمَوْقِـدِها صـوَّامُ هـاجـرةٍ قـوَّامُ دَيْجُـورِ[1]
نورٌ طوى الله زَنْدَ الكون منه على سِقْطٍ إلى زمن المهدىِّ مَذْخورِ[2]
حتى أضاءتْ من الإيمان عن قَبَسٍ قد كان تحتَ رمادِ الكفر مكفورِ[3]

ويشيد الرصافى بعبد المؤمن وما يحمل من دعوة المهدى إمام الموحدين ابن تومرت وأضوائها التى طبَّقت البلاد المغربية والأندلسية، ويصف عبور عبد المؤمن الزقاق على سفن تتهادى بين أيدى مجاذفها وكأنها تغرق فى ماء الورد الأرجوانى الصافى، وتسرع خائضةً التيارات فى الزُّقاق فيُخال كأنها تطير بأجنحة النور الكاسرة. ويبدع الرصافى فى تصويره لجبل طارق الشامخ الصاعد فى عنان السماء بذراه حتى لتتوج النجوم مفرقه بأكاليلها المتألقة. ويقول إن الجبل مقيَّد الخَطْو غير أنه جوَّال الخواطر يواصل الصمت والتفكير فيما جاء بالذكر الحكيم عن يوم القيامة وتسيير الجبال ودكها دكّا، ويطمئنه على غده فقد زاره عبد المؤمن. ويعود إلى الإشادة به وبهدى دعوته وبسالة جيشه، وينهى القصيدة بتمثله فى جبل طارق والمهدى ابن تومرت وخليفته عبد المؤمن جبلَ الطور وموسى وفتاه يوشع قامع الجبابرة الذى تأخرت له الشمس عن مغربها، وكأن عبد المؤمن يوشع جديد.

والقصيدة رائعة بل أكثر من رائعة وانتظر الشاب الرصافى أن يقدرها عبد المؤمن

---

(١) يقضمها: يطعمها. الهاجرة: نصف النهار عند اشتداد الحر. الديجور: الظلمة.
(٢) الزند: الحجر الأعلى الذى تقدح به النار. السقط: شرر النار. مذخور: مخبوء.
(٣) مكفور: محجوب مستور.

وحاشيته حق قدرها فيعلن أنه الشاعر الرسمى للموحدين أو يسبغ عليه ولاية صغيرة أو جاها، وفوجيء بأن عومل معاملة غيره من الشعراء الكثيرين الذين زفُّوا إلى عبد المؤمن مدائحهم، فكوفئ مِثلهم على قصيدته بدنانير معدودات، وتحسَّر على شعره وعلى نفسه وموهبته، ورجع إلى مالقة مصمما أن يهجر صنعة المديح إلى الأبد مكتفيا بصنعة رَفْو الملابس. وسكن غرناطة وقتا وانعقدت صداقة بينه وبين شاعرها أبى جعفر بن سعيد، ويبدو أنه ألحَّ عليه فى امتداح أخيه محمد فامتدحه بقصيدة عادية، كأنه نظمها مجاملة لأبى جعفر. وفى بعض أشعاره ما يدل على أنه زار مكناسة والمسيلة فى المغرب، وعاد ثانية إلى مالقة وهو مصر على أن لا يمدح أحدا، وراجعه بعض الشعراء فى ذلك وألح عليه، فكتب إليه يراجعه:

يقول أناسٌ لو رفعتَ قصيدةً ... لأدركتَ حَتْمًا فى الزمان بها أمرا
ومن دون هذا غَيْرَةٌ جاهليَّةٌ ... وإنْ هى لم تلزم فقد تلزم الحُرَّا

وهى ليست غيرة جاهلية، بل هى غيرة شعرية، غيرة الشاعر الحر على شعره وفنه أن يسخره فى تملق الحاكم وأن لا يكون نصيبه من ذلك إلا أجرا زهيدا تأباه النفوس الحرة الكريمة. وكان ممن عرف قدره وروعة شعره أبو جعفر الوقَّشى الشاعر وزير ابن همشك صهر محمد بن سعد بن مردنيش الثائر على الموحدين بمرسية وشرقى الأندلس (٥٤٣ - ٥٦٧ هـ) فأخذ يرسل إليه بهدايا نفيسة، ولم ير الرصافى بدا من أن يشكره، ووالى الوقَّشى هداياه فشكره بقصيدة بديعة، وفيها يقول:

رجلٌ إذا عرض الرجالُ له ... كثر العَدِيدُ وأَعْوَزَ النِّدُّ[1]
من معشرٍ نَجَمَ العلاءُ بهم ... زُهْرٍ كما يتناسقُ العِقْدُ[2]
وكأنما فاق الأنامَ بهم ... نسبٌ إلى القمرين ممتدُّ
فيرى وَليدُهمُ المنامَ على ... غير المجرَّة أنه سُهْدُ
هيهاتَ يذهب عنك موضعُه ... هطلَ الغمامُ وجَلْجَل الرَّعْدُ

وظل الرصافى بمالقة قانعا بصناعة الرفو وما يكسبه منها بعرق جبينه، وهو مع ذلك ينظم الشعر لا فى المديح ولكن فى الطبيعة وفى بعض مجالس اللهو والخمر مع بعض رفاقه وأصدقائه محرِّما على نفسه أن ينتجع أحدا بقصيدة أو يبتذل شعره بمدحة حاكم

---

(١) الند: النظير.
(٢) نجم: نشأ. زهر جمع أزهر: النجم والكوكب الساطع.

لا يستحقها. ولم يتزوج وبالتالى لم يكن له أسرة ولا أبناء إلى أن توفى سنة ٥٧٢ وهو فى نحو السادسة والثلاثين من عمره، وشعره - كما يقول ابن الأبار مِدون بأيدى الناس متنافَسٌ فيه.

ابن زَمْرَك[١]

هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد، ولد بحى البيازين فى غرناطة سنة ٧٣٣ لأسرة هاجرت إليها من شرقى الأندلس، وهى أسرة متواضعة حياتها بها غير قليل من الشظف، إذ كان أبوه حدادا، ويقول ابن الأحمر المؤرخ عنه إنه نشأ ضئيلا كالشهاب يتوقد، وحفظ القرآن الكريم سريعا، وأخذ يختلف - مثل أترابه - إلى حلقات الشيوخ ينهل من معارفهم ومحاضراتهم. ويذكرون من شيوخه فى الفقه أبا سعيد بن لب وفى الحديث النبوى أبا البركات ابن الحاج وفى الأصول أبا على منصور الزواوى وفى التصوف أبا عبد الله بن مرزوق وفى العربية أبا عبد الله بن الفخار والشريف الغرناطى أبا القاسم محمد بن أحمد شارح مقصورة حازم وفى الأدب والشعر ابن الخطيب وزير الإمارة المشهور، فهو تلميذه وخرِّيجه وصنيعته، وعُنى به فألحقه بدواوين الإمارة وكفل له راتبا حسنا. ونراه حين خُلع السلطان محمد الخامس الغنى بالله عن إمارة الأندلس سنة ٧٦٠ ونفى إلى المغرب والتجأ إلى أبى سالم المرينى يلتحق به فى منفاه مثل أستاذه ابن الخطيب وغيره ممن رفضوا التعاون مع أخيه أبى الوليد إسماعيل مدبر المؤامرة ضده، ولم يهنأ إسماعيل باستيلائه على الإمارة، إذ سرعان ما دار العام وفتك به زوج شقيقته من أبناء عمومته واستولى على صولجان الحكم وهو أبو عبد الله محمد واتخذ لقبا له الغالب بالله، وتطورت الظروف سريعا، فقتل بدوره وعاد محمد الخامس الغنى بالله إلى إمارته فى جمادى الأولى سنة ٧٦٣ وعاد معه ابن زمرك كما عاد وزيره لسان الدين بن الخطيب، ونرى ابن زمرك يردد لأستاذه دائما فى رسائل وقصائد ولاءَه له وحمده وشكره

---

(١) انظر فى ترجمة ابن زمرك وأشعاره وموشحاته الإحاطة ٣/٢ - ٣١٤ والكتيبة الكامنة فى شعراء المائة الثامنة ص ٢٨٢ ونيل الابتهاج للتنبكتى (طبع فاس) ص ٢٨٢ وجذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام بمدينة فاس لابن القاضى (طبع فارس) ص ١٨٤ والدرر الكامنة لابن حجر ٤١٢/٤ وخصَّه السلطان يوسف الثالث (٨١٠ - ٨٢٠ هـ.) بكتاب ضخم سماه البقية والمدرك من كلام ابن زمرك، واطلع المقرى على هذا الكتاب، فنقل عنه ترجمة ضافية له بالجزء الثانى من كتابه أزهار الرياض وهى تشغل فى هذا الجزء من صفحة ٧ إلى صفحة ٢٠٦ وتشتمل على سيرته وكثير من أشعاره وموشحاته.

على ما أنعم به عليه. وتظل الأيام تسير رُخاء حتى سنة ٧٧٣ إذ يترامى إلى ابن الخطيب أن مؤامرة تدبَّر للقضاء عليه فيفر فجأة إلى السلطان المرينى عبد العزيز بتلمسان ويحتل ابن زمرك منصبه، فيصبح الوزير الأول للسلطان الغنى بالله. ويرسل الغنى بالله إلى السلطان المرينى أبا الحسن النباهى قاضى الجماعة بغرناطة ليتسلم منه ابن الخطيب متهما بتهمة الإلحاد والزندقة. وأخفق القاضى فى مهمته، إذ حمَى ابن الخطيب منه السلطان المرينى، غير أن حاميه لم يلبث أن توفى سنة ٧٧٤ ونقل المرينيون عاصمتهم إلى فاس، وتجددت مساعى الغنى بالله للقبض على ابن الخطيب، وأخيرا يقبض عليه فى سنة ٧٧٦ وتقْدم من غرناطة لجنة لمحاكمته برياسة ابن زمرك ويمثل أمامها ويعنف به تلميذه القديم وصنيعته فى المحاكمة متهما له بالزندقة والإلحاد لعبارات صوفية وردت على لسانه فى كتابه: «روضة التعريف بالحب الشريف» ويسترسل فى توبيخه. وزُجَّ به فى غياهب السجون، وبإحدى الليالى دُسَّ إليه من قتله وأشعلت فيه النار على قبره قبل دفنه، فاسودَّت بشرته ووُورى التراب مأسوفا عليه لتهمة زائفة دُبِّرت له كيدا آثما. ونعم ابن زمرك بوزارة الغنى بالله عشرين عاما متوالية أصبح فيها المدبِّر لشئون الإمارة حتى ليروى ابن الأحمر المؤرخ سفاراته الموفقة للغنى بالله إلى الملوك وأنه فوَّض له فى عقد الصلح بين الملوك بالعُدْوتين أى بين ملوك المغرب وملوك إسبانيا والبرتغال، ويقال إنه فوَّضه فى الصلح مع النصارى تسع مرات. ويتوفى الغنى بالله سنة ٧٩٣ ويخلفه ابنه يوسف الثانى فيهوى به من حالق إلى غياهب السجون ويردّ إليه بعد نحو عام ونصف حريته ويعيده إلى منصبه، وبعد أيام قليلة يتوفى ويخلفه ابنه محمد السابع فيعزله ويولى مكانه محمد بن عاصم، ثم يعيده إلى منصبه سنة ٧٩٥ وسرعان ما إقتحم حرس السلطان عليه داره وفتكوا به وبابنين له.

وإذا أغضينا النظر عن أخلاقية ابن زمرك وجحوده لفضل أستاذه ابن الخطيب والتجنى عليه لمآرب دنيوية زائلة ورجعنا إلى شعره وموشحاته نقرؤها وجدناه ينزل فيهما منزلا عليًّا من شعراء الأندلس فى مختلف عصورهم، ويذكر السلطان يوسف الثالث فى كتابه السالف:«البقية والمدرك من كلام ابن زمرك» أنه خدم جده السلطان الغنى بالله سبعا وثلاثين سنة، منها ثلاثة بالمغرب وباقيها بالأندلس وأنه أنشده فى تلك السنوات ستاوستين قصيدة أو مدحة فى ستة وستين عيدا. ويذكر أيضا أن كل ما فى منازل الغنى بالله من القصور والرياض والضياع من نظم رائق ومدح فائق منقوش فى القباب والطاقات والثياب السلطانية فهو له. وينشد المقرى له فى كتابه أزهار الرياض عن كتاب

«البقية والمدرك» ما يقرب من عشرين قصيدة ومخمسة طويلة ونحو ثلاثين مقطوعة فى مديح الغنى بالله سوى مقطوعات متعددة فى مديح ابن الخطيب ولىّ نعمته وسوى قصيدة فى مديح أبى سالم المرينى وقطع من قصائد للسلطان يوسف الثانى وابنه السلطان محمد وسوى ثلاث مراث فى الغنى بالله ومرثية فى أستاذه الشريف الغرناطى. ومن أهم مدائحه للغنى بالله يائية امتدت إلى نحو مائة وخمسين بيتا استهلها بغزل بديع شغل ثمانية وعشرين بيتا، وخرج منه إلى مديح الغنى بالله قائلا إنه الشمس يعم نفعها وضوؤها القريبَ والبعيد والغيثُ الذى يهطل على العفاة دائما والباسلُ الذى يروى غصون الرماح العطشى دماء الأعداء القانية. ثم يأخذ فى وصف مبانيه فى قصور الحمراء مأخوذا بروعة النقوش وترصيعاتها وزخارفها، يقول:

ولله مَبْنــاك الجميــلُ فــإنَّـه ... يفوقُ على حكم السعود المبانيا
بنيتَ لـه كفَّ الثريـا معيذةً ... ويصبـح معتلّ النـواسم راقيا
وتَهْوى النجومُ الزُّهْرُ لو ثبتتْ بهِ ... ولَم تكُ فى أُفْق السماء جَواريا

وقد جعل ابن زمرك نجمة الثريا عُوذة له وتميمة من عيون الحساد لشدة سموقه وارتفاعه، وجعل النسيم العليل فيه كأنه الرُّقْيَةَ التى يستروحها الناس، لما يندفع فيه من مياه تجرى فى قنوات مثبتة فى الحوائط بجميع الغرف لتلطيف الجو. ويمضى ابن زمرك فيصور البهو الذى شاده الغنى بالله وما يتوسطه من حوض كبير من المرمر به نافورة مرمرِّية يحملها اثنا عشر أسدا تمج المياه من أفواهها إلى بركة تحيط بها، ويستمر ابن زمرك فى وصفه المبنى الباهر وهذا البهو الرائع والنافورة قائلا:

به البَهْوُ قد حاز البهاءَ وقد غدا ... بـه القَصْرُ آفـاقَ السماءِ مُبـاهيا
به المَرْمَرُ المجلوُّ قد شَفَّ نورُه ... فيَجْلُو من الظَّلْماء ما كان داجيـا
وراقصةٍ في البَهْوِ طـوعَ عِنانهـا ... تـراجـع ألحـانَ القيـانِ الغَـوانيـا
إذا ما علتْ فى الجّو ثم تحدَّرتْ ... تُحَلِّى بمُرْفَضِّ الجُمَان النَّواصيا[1]
يـذوبُ لُجَيْنٌ سالَ بين جـواهـرٍ ... غدا مثلها فى الحسن أبيضَ صافيا[2]
تشـابَـه جـارٍ للعيـون بجـامـدٍ ... فلم أدْر أيًّا منهما كـان جاريـا

وتصويره للنافورة فى الأبيات الأربعة الأخيرة تصوير بديع، وخاصة البيت الأخير،

---

(١) مرفض الجمان: متناثر اللؤلؤ. (٢) اللجين: الفضة.

إذ لم يعد يدرى أيها السائل لجين الماء أو جواهر المرمر الناصعة البياض، ويشيد بما فى البهو من زخارف بديعة ترصع أعمدته. ويلتفت إلى قاعة السفراء أو قاعة العرش البهيجة وما يعلوها من برج قمارش المصعد فى السماء وينشد:

وطامحةٍ فى الجوِّ غيرِ مُطالةٍ يردُّ مداها الطَّرْفَ أحْسَر عانِيا[1]
تمدُّ لها الجوزاءُ كفَّ مصافحٍ ويدنو لها بَدْرُ السماء مناجيا
ولا عجبٌ أن فاتت الشُّهْبَ بالعلاَ وأن جاوزتْ منها المَدى المتناهيا

والأبيات السالفة جميعا لا تزال ترصع البهو إلى اليوم ومعها غيرها من نفس القصيدة امتدت على حافات النافورة وحيطان البهو وقاعة بنى سراج المتصلة به. ويصور ابن زمرك فى نفس القصيدة جنة العريف القائمة فى مدخل القصر، وهى من عجائب البساتين والرياض فى الدنيا، وكأنما تكمل زينة القصر بل كأنما تكمل العرس البهيج الذى لا يزال قائما فيه ليل نهار بدون أهله.

ولابن زمرك خمس عشرة موشحة أكثرها فى مديح الغنى بالله، وإحداها فى مديح الرسول ﷺ، وجمهورها من مخلع البسيط. واشتهرت له موشحات صبحية يذكر فيها وداع صاحبته فى الصباح، ولذلك أصل واضح عند الأندلسيين قبله بل عند العرب منذ عمر بن أبى ربيعة وسنعرض لذلك فى حديثنا عن الغزل، ويعد ابن زمرك بدون ريب آخرَ الشعراء الأندلسيين المبدعين.

٤

شعراء الفخر والهجاء

(أ) شعراء الفخر

الفخر من أغراض الشعر العربى التى رافقته - مثل المدح - من قديم، وقد ظل الشعراء يتغنون به طوال العصور الإسلامية مجسِّدين فيه دائما مثاليتهم الخلقية الفردية من الوفاء والمروءة والعزة والكرامة وغير ذلك من الشيم الرفيعة كما يتغنون عصبياتهم القبلية والقومية وبأسهم وشجاعتهم الحربية التى يسحقون بها أعداءهم. وأول ما يسوقه الرواة من أشعار الفخر فى الأندلس يضيفونه إلى الأسرة الأموية وحكامها منذ القرن

---

(١) أحسر: كليلا.

الثانى الهجرى وخاصة على لسان الحكم الربضى (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) الذى استطاع بحزمه ومضائه وجلده أن يقضى قضاء مبرما على ثورة أهل الرَّبَض الجنوبى بقرطبة، مما جعله ينشد مبتهجا بعد تلك الوقعة[١]:

رَأَبْتُ صُدوعَ الأرض بالسيف راقعًا ... وقِدْمًا لأمتُ الشَّعْبَ مذ كنتُ يافعا[٢]
فسائلْ ثُغورى هل بها اليومَ ثَغْرَةٌ ... أُبادِرُها مُسْتَنْضِىَ السَّيْفِ دارِعا[٣]
وشافِهْ على الأرض الفضاء جَماجما ... كأقْحاف شِرْيان الهَبيد لوامعا[٤]
تُنَبِّيك أنى لم أكن فى قِراعهم ... بوانٍ وأنى كنت بالسيف قارعا

ومع تلك الأبيات أبيات أخرى يصور فيها رباطة جأشه فى القتال وأنه لا ينكل عن الحرب ولا يتراجع حتى يذيق أعداءه الموت ناقعا. ويهتف شاب أموى متهور فى عهد ابنه عبد الرحمن الأوسط يسمى بشر بن حبيب الملقب بدحّون أنه فوق الناس جميعا من بيته وغيره وأنه سيُشعل الأرض ويُضْرمها بنيران الحروب، فيزجّ به عبد الرحمن فى غياهب السجون ثم يعفو عنه ويرد إليه حريته.

ومرَّ بنا فى الفصل الأول كيف أن نيران فتنة هائلة بين المولدين والمسالمة والنصارى من جهة وبين العرب من جهة ثانية أخذت تتقد فى نواح كثيرة بالأندلس لأواخر عهد الأمير محمد، وظلت لعهد الأمير عبد الله (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) وقادها فى نواحى مالقة عمر ابن حفصون وفى نواحى بطليوس عبد الرحمن الجليقى وأخذ يطير من هذه الفتنة شرر كثير إلى إلبيرة فى أوائل عهد الأمير عبد الله، وقاد العرب فيها يحيى بن صقالة وفتك به المولدون والنصارى، فقادهم سوار بن حمدون المحاربى القيسى، وساعدُه الأيمن سعيد بن جودى وكان فارسا وشاعرا مجيدا، وواقع سوارٍ جموع النصارى والمولدين ثأرًا لابن صقالة سنة ٢٧٦ وفتك بسبعة آلاف منهم، وتغنى بهذه الوقعة سعيد بن جودى مفاخرا متوعدا ومهددا، وأخذ كثيرون من العرب من كورتى جيَّان وريَّة يتجمعون إلى سوار فى حصن غرناطة، بينما لاذ المولدون والنصارى بعمر بن حفصون، ونشبت بين الفئتين معركة اندحر فيها النصارى والمولدون من أهل إلبيرة، ولسعيد بن جودى فيها قصيدة

(١) المغرب ١/٤٤.

(٢) يقصد بصدوع الأرض انشقاقات الثائرين، ورأب: لأم وأصلح. والشعب: الصدع والانفراج بين جبلين. والاستعارة واضحة.

(٣) مستنضى السيف: شاهره. دارعا: لابسا درع الحرب والنزال.

(٤) أقحاف: رءوس. الهبيد: الحنظل.

حماسية ملتهبة، وحانت بعدها للمولدين والمسالمة والنصارى غِرَّة من سوار ففتكوا به سنة ٢٧٧ وأمَّر العرب عليهم سعيد بن جودى، فقادهم سبع سنوات أنزل فيها بخصومهم هزائم كثيرة إلى أن قتل غيلة سنة ٢٨٤ وله أشعار كثيرة يحرِّض فيها العرب ويفاخر ببأسه وشجاعته، وسنخصه بترجمة عما قليل. واندلعت مع المعارك الحربية لهذه الفتنة معركة شعرية[1] نُظم فيها شعر حماسي كثير يكتظ بالتهديد والوعيد بين شاعر للمولدين يلقب بالعَبْلى واسمه عبد الرحمن (أو عبد الله) بن محمد وبين شاعر للعرب يسمى الأسدى محمد بن سعيد بن مخارق من أسد بنى خزيمة، ومن قول العبلى فى إحدى قصائده يهوِّن من العرب وجموعهم بغرناطة:

منـــازلُهم منهم قفـــارٌ بَـــلاقِـــعُ ... تجارى السَّفَا فيها الرِّياحُ الزعازعُ[2]

ومضى يهدد العرب بوقائع مبيرة تحصدهم حصدا، فردَّ عليه الأسدى ناقضا لقوله، منذرا متوعدا له ولجماعته بالويل والثبور يقول:

منــازلنــا معمــورةٌ لا بــلاقــعُ ... وَقَلْعُتنا حصنٌ من الضَّيْم مانعُ
ألا فانذنوا منها قريبا بوقعةٍ ... تشيبُ لها وِلْدانكم والمرَاضِعُ

واتفق أن كان للعرب عليهم بعد سبعة أيام وقعة لقى فيها سبعة عشر ألفا منهم حتفهم وصرخوا واستغاثوا بالأمير عبد الله فى قرطبة، ومن مشهور قول العبلى فى تلك الوقائع والحروب قصيدة حماسية استهلها بقوله:

قد انقصفتْ قناتُهمُ وذَلُّوا ... وزُعْزِعَ ركنُ عزِّهمُ الأذلُّ

وناقضه الأسدى بقصيدة طويلة يعيِّره هو وقومه فيها بما ينزله العرب بجموعهم من تقتيل وسفك لدمائهم، ومن قوله مفاخرا:

لواءُ النَّصْر معقودُ علينا ... بتـأييد الإلـهِ فمـا يُحَـلُّ

وللأسدى شعر كثير يحرِّض فيه العرب على التجمع ضد خصومهم، واستطاع الأمير عبد الله أن يصلح بين الفئتين المتخاصمتين فى كورة إلبيرة حتى إذا خَلَفه حفيده الناصر قضى على مثيرى هذه العصبية الجنسية فى كل أنحاء الأندلس. وبذلك عادت لأهل الأندلس وحدتهم عربا ومسالمة ومولدين.

---

(١) انظر فى أشعار هذه المعركة المقتبس لابن حيان الجزء الخاص بالأمير عبد الله.

(٢) بلاقع: مقفرة. السفا: التراب.

ومن طريف ما يُرْوَى عن المستنصر بن الناصر (٣٥٠ - ٣٦٠هـ) أن نزارًا الفاطمى الملقب بالمستنصر صاحب مصر (٣٦٥ - ٣٨٦هـ) كتب إليه كتابا يسبُّه فيه ويهجوه، فرد عليه المستنصر المروانى:«أما بعد فإنك عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لأجبناك:

ألسنا بنى مروان كيف تبدَّلتْ بنا الحالِ أودارتْ علينا الدوائرُ
إذا وُلد المولـودُ منا تهلَّلَتْ له الأرضُ واهتزَّتْ إليه المنابر»

فأفحمه[١] ولم يستطع الجواب. وللشاعر الطليق حفيد أخى المستنصر المروانى المسجون فى عهد المنصور بن أبى عامر شعر كثير يفتخر فيه بنفسه وبآبائه، وسنفرده بكلمة. وللمنصور بن أبى عامر[٢]:

رميتُ بنفسى هولَ كل عظيمةٍ وخاطرتُ والحرُّ الكريم يخاطِر
رفعنا المعالى بالعوالى بسالةً وأورثناها فى القديم مَعافِر[٣]

وحكاياته فى الجهاد كثيرة، ويقال إن له نيِّفا وخمسين غزوة فى النصارى وإنه كان لا يخلّ فى أكثر أيامه بغزوتين فى السنة يشنُّها عليهم، ومَّر بنا فى الفصل الأول حديث عنه وعن غزواته المظفرة. ولابن شهيد[٤]:

بالعلم يفخرُ يومَ الحَفْل حاملُه وبالعفاف غـداةَ الجمعِ يـزدانُ
ومـا ألان قَناتى غَمْـزُ حـادثـةٍ ولا استخفَّ بحلمى قَطُّ إنسانٍ
أمضى على الهَـوْل قُدْمًا لا يُنَهْنِهُنى وأنثنى لسفيهى وهْــو غضبـانُ

ومضى يقول إنه لا يرد على حمق بحمق وإنه يعتصم بالصبر وكظم الغيظ ولا يتملق ولا يفوه بغير الحق، وإنه قد يبيت على الطَّوَى حانيا الضلوع على لظى المسغبة دون تبرم أو ضيق، بل مع البشر وطلاقة الوجه. ويقول صديقه ابن[٥] حزم:

أنا الشمس فى جَوِّ العلوم منيرةً ولكنَّ عَيْبى أن مطلعىَ الغَرْبُ
ولو أننى من جانب الشرق طالعٌ لجدَّ على ما ضاع من ذكرىَ النَّهْبُ

---

(١) انظر هذه الرواية فى النفح ٥٥٨/٣.
(٢) المغرب ٢٠٣/١.
(٣) العوالى: الرماح. ومعافر بفتح الميم: قبيلة ابن أبى عامر وهى يمنية.
(٤) ديوان ابن شهيد تحقيق يعقوب زكى (طبع القاهرة) ص ١٦٣.
(٥) الذخيرة ١٧٣/١.

وهو حقًا - كان شمسًا منيرة فى العلوم ولم يعبه طلوع شمسه من المغرب، فقد أضاءت ما بينه وبين المشرق، ولا تزال تضىء ما بينهما إلى اليوم، وسنفرد له حديثًا فى الفصل الأخير.

وتتكاثر على ألسنة أمراء الطوائف أشعار الفخر، يفتخرون بما حققوه من مجد وبكرمهم الفياض وبأسهم وشجاعتهم وحمايتهم لإماراتهم وحسن سياستهم وتدبيرهم، ومن قول المعتضد عباد صاحب إشبيليه[١]:

أقـومُ على الأيَّام خيـر مُقـام ... وأوقدُ فى الأعداءِ شرَّ ضِرَامِ
وأُنْفقُ فى كسب المحامد مُهجتِى ... ولو كان فى الذِّكرِ الجميلِ حِمامى
وأَبْلغ من دنياى نَفْسِىَ سُؤْلَها ... وأضربُ فى كل العلا بسهامى

فهو يعيش لإحكام السياسة وسحق الأعداء وكسب المحامد والذكر الجميل بالغا من دنياه كل ما يتمنى محققًا لنفسه كل ما يريد من المعالى والأمانى. وسنخص من بين هؤلاء الأمراء عبد الملك بن هذيل بكلمة. ونشعر كأن الفخر يغيض معينه بعدهم فى نفوس الأندلسيين غير أنه بقيت من ذلك بقية من مثل قول[٢] على بن أضحى الهمدانى الغرناطى المتوفى سنة ٥٤٠ للهجرة:

نحن الأهِلَّةُ فى ظلام الحِنْدسِ ... حيث احتللنا فَهْوَ صَدْرُ المجلسِ
إن يذهب الدَّهْرُ الخئونُ بعزِّنا ... ظلمًا فلم يذهب بعزِّ الأنفسِ

والبيتان يصوران قوة نفس عزيزة صلدة تنزلق عنها توًّا محن الزمن دون أن تنال منها أى نيل. ولابن خفاجة قصيدة يفتخر فيها بنفسه وبرفاق له فى مسقط رأسه بجزيرة شُقْر يعيشون للبأس والنجدة والنضال وخَوْض الدماء بخيلهم المحجَّلة إلى أعدائهم منزلين بهم صواعق الموت التى لا تبقى ولا تَذر، وفيها يقول[٣]:

مَضاءٌ كما سُلَّ الحُسام من الغِمْدِ ... وبأسٌ كما طار الشَّرارُ من الزَّنْدِ
تساقَوْا وما غيرُ النَّجيعِ سُلافةٌ ... تدارُ ولا غيرُ الأسنة من وِرْد
وإنى على أن لست صَدْر قناتهم ... لِخدْنُ العُلا تِرْبُ النَّدى لِدَةُ المجدِ
أخوضُ الظُّبا تخضرُّ فى النَّقْع بِيضُها ... فألْقَى المنـايا الحُمْرَ فى الحُللِ الرُّمْدِ

---

(١) الحلة السيراء (تحقيق د. مؤنس) ٢/٤٤.
(٢) مغرب ٢/١٠٨.
(٣) ديوان ابن خفاجة (طبع منشأة المعارف بالإسكندرية) ص ٣٤٦.

والقصيدة تتوهج بحماسة ملتهبة، وتتكاثر فيها الصور. - على عادة ابن خفاجة فى شعره - فرفاقه لا يقلّون عن السيف مضاء ولا عن شرار النار بأساودمارا، وإنهم ليتساقون المنايا حتى لكأن سلافتهم وخمرهم فيها نجيع الدماء التى يسفكونها من الأعداء ولا وِرْد لهم سوى الأسنة الفاتكة بهم، ويقول - تواضعا - إنه ليس صَدْرهم، بل هو فرد منهم، ويقول إنه خدْن وصديق للعلا ورفيق للندى والكرم ووليد للمجد، وإنه ليخوض معهم الحرب وقد أصاب النقع أو الغبار الظُّبا بغير قليل من الخضرة كما أصاب الحلل والثياب بغير قليل من الكدْرة، وهو يندفع - مثلهم - إلى الأعداء، مقتحما إليهم المنايا الحمر التى تسحقهم سحقا.

وبهذه الروح العاتية التى لا تقهر، يقو ل الطبيب الشاطبى أبو عامر محمد بن يَنَّق[١] المتوفى فى آخر سنة ٥٤٧:

دَعْنِى أُصادِ زمانى فِى تقلُّبِهِ ... فهل سمعت بظلٍّ غير مُنْتقلِ
وكلما راح جَهْمًا رُحتُ مبتسمًا ... كالبَدْرِ يزداد إشراقا مع الطَّفَل
ولا يـروعَنْك إطْـراقى لحـادِثـةٍ ... فالليثُ مكمنه فى الغِيلِ للغِيَلِ
وما تأطَّر عِطْفُ الرُّمحْ من خَوَرٍ ... فيه ولا احمرَّ صَفْحُ السيف من خَجل
لا غَرْوَ أنْ عُطِّلَتْ من حَلْيها هممى ... وهل يُعيَّر جِيدُ الظَّبْى بالعَطَل

وهو يقول دعنى أصادى الزمان وأعارضه فى تقلباته بى وأحداثه معى، وهل سمعت بظل ثابت فى مكانه، ومهما تجهَّم لى ونظر إلىّ مكفهرَّ الوجه فسأظل مبتسما كالبدر يزداد إشراقا مع الطفل أو الظلام الداجى، وإذا رأيتنى مطرقا إزاء حادثة ملمة فإنه إطراق الليث فى غِيله للوثوب على فريسته، ومهما يصبنى من أحداث فلن تثنى إرادتى، وحتى إن ظُنَّ أنها تنثنى فهو تثنى حد الرمح شديد المضاء،وسأظل قاطعًا نافذا كالسيف تسيل على صفحته الحمراء حمرة الظفر، لا حمرة الخجل. وإن هممى لأعظم من أن تتحلى بالرماح والسيوف، فهى أحد من أى سيف وأمضى من أى رمح، وإنها مجردة من تلك الحلى تجرد جيد الظبى رائع الجمال. وهو زهو ما بعده زهو وعُجْب لا يماثله عجب بمروءته وشخصيته ورجولته.

ونلتقى بسهل بن مالك الأزدى الغرناطى البارع فى العلوم القديمة والحديثة، وكانت

---

(١) مغرب ٣٨٨/٢ وانظر فى ترجمة ابن ينق ص ١٦٢ والخريدة ٤٦٣/٣ القلائد ٢١٢ والتكملة ص ١٩٨ ومعجم الصدفى

قد نالته محنة فى عهد ابن هود صاحب مرسية (٦٢٥ - ٦٣٥) وغُرِّب عن غرناطة إلى أن مات ابن هود فعاد إليها وهو يردد[١]:

وإنِّىَ من عزمى وحزمى وهمتى ... وما رُزِقَتْهُ النفسُ من كرم الطَّبْعِ
لفى منصبٍ تعلو السماءَ سِماتُهُ ... فتثبتُ نورًا فى كواكبها السَّبع
تدرَّعتُ بالصبر الجميل وأجلبتْ ... صُروفُ الليالى كى تمزِّقِ لى دِرْعى[٢]
فما ملأتْ قلبى ولا قبضتْ يدى ... ولا نَحَتَتْ أصلى ولا هَصَرتْ فَرْعِى[٣]
فإنْ عرضتْ لى لا يفوه بها فمى ... وإن زَحَفتْ لى لا يضيق لها ذَرْعِى[٤]

ونفس سهل - حقًّا - كانت نفسًا كبيرة لم تنكسر لما نزل به من محنة، بل ظل رابط الجأش قوىَّ النفس أمام صروف الدهر وهمومه إلى وفاته سنة ٦٣٩. ولابن[٥] جُزَىٍّ المار ذكره المتوفى سنة ٧٨٥:

وكم من غادةٍ كالشمس تبدو ... فيُسْلى حُسْنُها قلبَ الحزينِ
غَضَضْتُ الطَّرْفَ عن نظرى إليها ... محافظةً على عِرْضى ودِينى

وهو يفتخر بعفافه، وليوسف الثالث سلطان غرناطة فخر كثير وسنخصه بكلمة، ولم نعرض لفخر الأندلسيين بأشعارهم، وهو عندهم - كما عند المشارقة - كثير، وحسبنا الآن أن نقف عند ثلاثة من شعرائهم فسحوا للفخر فى أشعارهم، وهم سعيد بن جودى وعبد الملك بن هذيل ويوسف الثالث.

سعيد[٦] بن جودى السعدىّ

هو سعيد بن سليمان بن جودى بن أسباط بن إدريس السعدى من هوازن من جند

---

(١) الذيل والتكملة للمراكشى (بقية السفر الرابع - تحقيق د. إحسان عباس) ص ١٠٣ وراجع فى ترجمته التكملة رقم ٢٠٠٧ واختصار القدح المعلى ص ٦٠

(٢) أجلبت: أحدثت جلبة وصخبا، كناية عن تكاثرها

(٣) هصرت فرعى: كسرته، كناية عن أن صروف الليالى انزاحت عنه دون أن تنال منه.

(٤) الذرع: الطاقة.

(٥) أزهار الرياض ١٨٦/٣.

(٦) انظر فى ترجمة سعيد بن جودى المقتبس: الجزء الخاص بالأمير عبد الله (راجع الفهرس) والحميدى ص ٢١٣ والبغية ص ٢٩٤ والحلة السيراء لابن الأبار ١٥٤/١ وما بعدها وأيضا فى ترجمة سوار بن حمدون السابقة لترجمته والمغرب ١٠٥/٢ وأعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٣٥ والإحاطة ٢٧٥/٤.

دمشق الداخلين إلى الأندلس فى عهد الولاة، ولىَ جده الأقرب جودى بن أسباط - كما يقول ابن حيان - الشرطة للأمير الحكم الربضى (١٨٠ - ٢٠٦هـ) وصحب سعيد - كما ذكرنا منذ قليل - سوارَ بن حمدون المحاربى أمير عرب إلبيرة المنازعين للمولدين والمسالمة والنصارى من أهل تلك الكورة أيام نشوب الفتنة العصبية بها لأول عهد الأمير عبد الله. وتحيز سوار بأصحابه إلى حصن غرناطة فملكه ودانت له العرب فى تلك الأنحاء واتخذ سعيد بن جودى - وكان شاعرًا - أهم مساعد له فى حركته لشجاعته وبأسه وفروسيته، ومر بنا كيف استطاع سوار أن يأخذ ثأر زعيم العرب قبله فى تلك المنازعة مع المولدين وأصحابهم: يحيى بن صقالة، إذ قتل منهم فيما يقال سبعة آلاف، ونرى ابن جودى يرميهم حينئذ بشواظ من شعره منشداً:

قـد طلبنـا بِثَـأْرِنـا فقتلنـا ... منكمُ كـلَّ مـارقٍ وعَنيـدِ
قـد قتلنـاكمُ بيحيى ومـا إنْ ... كـان حكمُ الإلـهِ بـالمردودِ
فاصطلوا حرَّها وحرَّ سيوفٍ ... تتلظَّى عـليكمُ كـالـوَقـودِ
لم تزالوا تبغونها عِوَجًا حَتَّـ ... ـى وَرَدْتُم للموت شَرَّ وُرودِ

ويقول إنهم قتلوا يحيى بن صقالة غدرا، ويشيد بشجاعته وجوده وحلمه وتقواه ويدعو الله أن يجزيه جزاء الشهداء الأبرار. ويحشد المولدون ومن يؤيدهم من المسالمة والنصارى جموعهم ويهاجمون غرناطة، فتدور عليهم الدوائر وتحصد سيوف العرب منهم اثنى عشر ألفا، ويرميهم بقصيدة ملتهبة، يقول فيها:

لقيتم لنـا مَلْمـومَـةً مُسْتَحِـرَّةً ... تُجِيدُ ضِراب الهام تحت العَوامل(١)
وظلَّتْ سيوفُ الهند تَحْصُدُ جمعكم ... حصـادَ زروعٍ أَيْنَعَتْ للمَناجـل(٢)
ولم يَبْقَ منكم غيرُ عانٍ مُصَفَّـدٍ ... يُقاد أسيرًا موثَقًا فى السلاسل(٣)
وآخـر منكم هاربٌ قـد تضايقتْ ... به الأرضُ يَعْدُو من جَوًى وبلابلِ(٤)

ولم يلبث سوار قائد هاتين المعركتين أن قُتل بحيلة دبرها المولدون سنة ٢٧٧ فأمَّر العرب مكانه فى زعامتهم سعيد بن جودى صاحبه، وظل يذود عنهم ذياد الأبطال سبع

---

(١) ملمومة: كتيبة. مستحرة من استحر القتل إذا اشتد. الهام: الرءوس. العوامل: الرماح
(٢) تحصد: تقطع. أينعت: حان حصادها وقطعها. وأينع الثمر: حان قطافه. المناجل: جمع منجل: آلة لحصد الزرع
(٣) عان: أسير. مصفد: مقيد بالأغلال.
(٤) يعدو: يفر. جوى: ضيق. بلابل: وساوس.

سنوات طوال، مثيرا فيهم الحماسة والحميةَ لمنازلة خصومهم. ويبدو أن شعرا حماسيا كثيرا لسعيد نظمه فى تلك الحروب سقط من يد الزمن، من ذلك قصيدة دالية لم يبق منها إلا هذا البيت:

وما كان إلا ساعةً ثم غودروا ... كمثل حَصيدٍ فوق ظَهْرِ صَعِيدِ(١)

وله مرثية فى بطل وربما رثى بها سوار بن حمدون أو بعض أصحابه من الفرسان ممن لقوا حتفهم فى تلك الحروب، وله أيضا بعض أشعار غزلية، ويقول ابن الأبار إنه يشوبها بشجاعته على شاكلة أبى دلف قائد المأمون فى غزلياته. وله فى جارية تسمى جيجان سمعها بقرطبة تغنى للأمير عبدالله فى إمارة أبيه محمد، فهام بها دهرًا دون أن يراها وفيها يقول:

سَمْعِى أَبَى أن يكون الروح فى بَدنى ... فاعتاض قلبىَ منه لوعةَ الحزَنِ
أعطيت جيجانَ روحى عن تذكرها ... هذا ولم أرها يوما ولم ترنى
فقل لجيجان يا سُؤْلى ويا أملى ... استوصِ خيرا بروح زال عند بدن(٢)
كأننى واسْمَها والدمع منسكبٌ ... من مقلتى راهبٌ صَلَّى إلى وَثَنِ

ومن عجب أن قُتل هذا الفارس البطل غيلةً بأيدى بعض أصحابه فى شهر ذى القعدة من سنة ٢٨٤.

عبد الملك(٣) بن هذيل

هو أبو مروان عبد الملك بن هذيل، كان أبوه هذيل بن خلف بن رَزِين من أكابر جند البربر، وفى أول الفتنة بقرطبة سمت نفسه إلى اقتطاع كورة السهلة بين طليطلة وسرقسطة، وتم له ذلك بالاتفاق مع أمراء البلدتين بحسن سياسته وتدبيره. ومرَّ بنا أنه أول من أفرط فى ثمن القينات من أمراء الطوائف وأنه اشترى قينة بثلاثة آلاف دينار كانت أديبة تحسن الغناء مع معرفة بالطب والتشريح وعلم الطبيعة واللعب بالسيوف والخناجر المرهفة، وابتاع لها هذيل قينات مغنيات مشهورات بالتجويد فكانت ستارته أرفع ستائر أمراء الطوائف. والستارة عندهم تعنى المسرح الذى كانت تغنى وترقص عليه

---

(١) الحصيد: الزرع المحصود أو المقطوع. الصعيد: وجه الأرض

(٢) حذف الياء فى «استوص» فى خطاب جيجان لضرورة الوزن.

(٣) انظر فى عبدالملك بن هذيل وشعره القلائد ٥١ والخريدة ١٠٩/٣ ومابعدها والحلة السيراء ١٠٨/٢ والمغرب ٤٢٨/٢ وأعمال الأعلام ٢٣٨ والبيان المغرب لابن عذارى ٣٠٩/٣ والمطرب ص٣٩.

القينات مع العود وغيره من آلات الطرب. وفى هذه البيئة نشأ عبد الملك نشأة فيها كثير من اللهو والعناية بالشعر، فكان طبيعيا أن تتفتح فيها ملكته. وتوفى أبوه سنة ٤٣٦ فخلفه على السهلة، ويقول الفتح بن خاقان إنه كان غيثا فى النَّدَى، وليثا فى العِدا» بينما يقول ابن الأبار إنه «كان - مع شرفه وأدبه - متعسفا على الشعراء، متعسرا بمطلوبهم من ميسور العطاء» ويقول ابن بسام: «كان له طبع يدعوه فيجيبه، ويَرْمى ثُغْرَة الصواب عن قوسه فيصيبه». وظل على إمارة السهلة حتى تغلب على ما بيده ابنُ تاشفين وتوفى سنة ٤٩٦ وكانت له نجدة وفيه شجاعة، وكان يختلط بجنده ويتحبب إليهم حتى إنه كان لا يمتاز منهم فى مركب ولا ملبس. وله وقائع مع النصارى مشهورة، وربما كانت مطالب هذه الوقائع من أموال للسلاح وإعداد هى التى اضطرته إلى عدم الاتساع فى النوال على الشعراء لا عن شُحٍّ وبخل، ولكن عن حاجة للأموال واضطرار، وقد تدل على ذلك دعوته للجود فى بعض شعره قائلا:

اهدمْ بناءَ البخلِ وارْفُضْ لهُ ... مَنْ هَدم البخل بنى مَجْدَهُ

لا عاش إلا جائعًا نائعًا ... مَنْ عاش فى أمواله وحده

وهو يدعو على البخيل الشحيح الذى يقيض يده عن العطاء للناس ولا يشركهم فى أمواله أن يعيش جائعا نائعا أو ظامئا وبعبارة أخرى فقيرا بائسا. وكان موقفه كريما من ابن طاهر حين سلبه ابن عمار مرسية - كما مرَّ بنا - فقد كتب إليه يسأله أن ينزل عنده وأن يقاسمه خاصَّ ضياعه وأملاكه، وإن شقَّ عليه ذلك لبعد السهلة وبرد هوائها فإنه يهبه بلدة من بلدانها الجنوبية، هى شنتمرية ويقف طاعتها عليه وتصريف أمورها بيديه، ومن قوله مفاخرا:

شَأَوْتُ آل رزينٍ غيرَ محتفلٍ ... وهم - على ما علمتم - أفضلُ الأمم

قومٌ إذا سُئلوا أغْنَوْا وإنْ حَرَبُوا ... أفْنَوْا وإنْ سوبقوا جازوا مَدَى الكرمِ(١)

جادوا فما يتعاطى جودَ أنْمِلُهم ... مَدُّ البحار ولا هَطَّالةُ الدِّيَمِ

وما ارتقيتُ إلى العَلْيا بلا سبب ... هيهاتَ هل أحدٌ يَسْعى بلا قَدَمِ

فمن يَرُمْ جاهدا إدراكَ منزلتى ... فَلْيَحْكنى فى النَّدَى والسَّيْفِ والقلم

ومبالغة منه مسرفة أن يقول عن أسرته من آل رزين إنها أفضل الأمم، وهو يصفهم -

---

(١) حربوا: طعنوا. جازوا: قطعوا وتعدَّوا.

ويصف نفسه معهم - بالكرم الفياض، ويقول إنه لم يرتق مصعدًا إلى ذروة العلياء إلا بجوده وبأسه وقلمه وما يدونه من جيد المنظوم والمنثور. ويقول:

أنا مَلْكٌ تجمَّعتْ فيَّ خَمْسٌ   كلُّها للأنام مُحْيٍ مُمِيتُ
هي ذهنٌ وحكمةٌ ومَضَاءٌ   وكلامٌ في وقتِهِ وسكوتُ

وهو يفتخر بذكائه وحكمته وشجاعته، وأنه يصمت حين ينبغي الصمت ولا يتكلم إلا حين يطلب الكلام وحينئذ يكون الكلام نافذا ماضيًا كالسهام المصمية. وروى له ابن بسام مقطوعة ذم فيها ذما شديدًا من يتناولون الناس بالسخرية والإزراء عليهم وثلبهم بينما هم في الدرك الأسفل من الدناءة والغباء، كما روى له مقطوعة ثانية يعجب فيها من رهبته أمام عيون صاحبته وما تسلّه من ألحاظها بينما لا يخشى السيوف في القتال ولا يرهبها، يقول:

إذا سلَّت الألحاظُ سَيْفًا خشيتهُ   وفى الحرب لا أخْشَى ولا أتوقَّعُ

ولعل في كل ما قدمت ما يشهد لعبد الملك بن هذيل بأنه كان على حظ غير قليل من الفضل والنبل والشيم الكريمة.

يوسف الثالث(١)

حفيد الغني بالله، حكم غرناطة من سنة ٨١٠ إلى سنة ٨٢٠ وترتيبه الثالث عشر بين أمرائها بني الأحمر النصريين، وله ديوان كبير حَقَّقه الأستاذ عبد الله كنون سنة ١٩٥٨ ويذكر يوسف في مقدمته التي سقطت من الديوان واحتفظ بها المقرى في نفحه - كما جاء في مقدمة محققه - شيوخه الذين ثقف عليهم العربية والشريعة الإسلامية. ونعرف من الديوان اسم زوجته «سلمى» وله فيها غزل كثير قبل اقترانه بها، وهي ابنة عمه وأم أولاده. وتوفيت في أثناء حكمه فرثاها، ومن قبلها رثى أباه السلطان يوسف الثاني، وله مراث في بعض إخوته وأبنائه. وفي الديوان إشارات كثيرة إلى منازعات ظلت طويلا بينه وبين أبي سعيد عثمان المريني صاحب فاس (٨٠٧ - ٨٢٣ هـ) بسبب جبل طارق ومن

(١) انظر في ترجمة يوسف الثالث وشعره مقدمة الأستاذ عبد الله كنّون لديوانه بتحقيقه (طبع تطوان) ودراسة د. محمد بن شريفة له ولشعره في تقديمه لديوان ابن فركون شاعره من ص ١٩ إلى ص ٩٤ والتاريخ الأندلسي لحجى ص ٥٤٨ وما بعدها ونهاية الأندلس لمحمد عبد الله عنان.

يكون صاحب السيادة عليه، ويظفر أخيرا به وتصفو بينهما العلاقة، ويمتدحه ويمتدح قومه. وكان نصارى الشمال - وخاصة القشتاليين - لا يزالون مع يوسف بين مهادنة ومنازلة وموادعة ومحاربة، وانتصر عليهم يوسف فى بعض الوقائع، مما جعله ينشد مثل قوله فى قصيدة حماسية من قصائده:

راقَ الزمانُ وجاءنا ميقاتُهُ بالضَّحوة الغرَّاء من أيامهِ[١]
نأتمُّ فى حَرْب الصَّليب وحِزْبِهِ بِشَفيعِ كلِّ موحِّدٍ وإمامهِ
مستأصلى بِيَعَ العُداة مُهَتِّمِي ما صان فيها الكفرُ من أصنامه[٢]
والله جَلَّ جلالُه متكفِّلٌ بالنَّصْر والمعهودِ مِن إنْعامهِ

ويوسف يعلن أنه انتصر فى ضحوة أوضحى أحد الأيام على حملة الصليب، وهو يقتدى فى جهاده لهم بجهاد الرسول ﷺ للكفار. مصمما على استئصال بِيَعهم أو كنائسهم وتهتيم أو تهشيم أصنامهم مستعينا بعون الله فى نصره عليهم وسحقهم سحقا ذريعًا. وطبيعى أن يكتظ ديوان يوسف بحُمَم كثيرة من الحماسة والفخر المضطرم من مثل قوله:

لقد علمتْ نَصْرٌ بأنى كفيلُها إذا هاجت الهيجاءُ واحمرَّت الأرضُ[٣]
أدافع عنهم بالصوارم والقَنا وأحمى حِماها أن يُنال لها عِرْضُ
بنا ساعةَ الهيجاء يَحْمَى وَطيسُها وتُهْتك أستارُ البُغاة إذا انقضُّوا
إلى عِتْرة الأنصار تُعْزَى أرومَتِى إلى معشرٍ فى الذِّكر حُبُّهُمُ فَرْضُ

وهو يقول إن بنى نصر من أسرته يعلمون بلاءه فى الحرب وأنه حين يحمى وَطيسها أو شرارها وتسيل الدماء على أديم الأرض ويتساقط عليها القتلى صرعى يذود عن حماهم ويدافع عنهم مستميتا بالسيوف وبالرماح، ولا غرو فإنه ينتمى إلى رهط الأنصار إذ أسرته من سلالة سعد بن عبادة، ومعروف أن عداده فى السابقين الأولين من الأنصار. وينشد مفاخرًا:

ألستُ سليلَ الصِّيدِ من آل حِمْيَرٍ وخيرِ ملوك الأرض قومًا ولا فَخْرُ[٤]

---

(١) الضحوة: الضحى.
(٢) بيع: كنائس مهتمى: محطمى.
(٣) كفيل: ضامن. الهيجاء: الحرب. احمرار الأرض: كناية عن كثرة الدماء.
(٤) الصيد: جمع أصيد: السيد.

لنا المنصبُ الأعلى على كل منصب   لنا العِزَّةُ القَعْسَاءُ والغُرَرُ الغُـرُّ[١]
لنا الهَضْبَةُ الشَّمَّاء ساميةُ الذُّرَى   لنا الرَّاية الحمراء يَهْفُو بها النَّصْرُ[٢]
مكارمُ أَعْيَتْ كلَّ من رام حَصْرها   وهيهاتَ ما للشُّهْب فى أفْقها حَصْرُ

وهو يفتخر بأنه سليل أصحاب الحَوْل والطَّوْل من حمير، إذ أصل الأنصار من اليمن، وأن لهم المنصب أو المقام الرفيع والعزة الوطيدة والأعمال العظيمة المشهورة والهضبة الضاربة فى السماء التى لا يمكن لأحد بلوغ ذراها السامقة والراية الحمراء رمز إمارتهم وانتصاراتها الماحقة، وهى مكارم يعزّ حصرها، وهل يمكن أن تحصر أو تحصى الشهب والنجوم فى السماء. ووراء ما اخترناه ليوسف الثالث من أشعار فى الفخر والحماسة أشعار ذات نسيج ضعيف، وهى طبيعية ممن ينشأ مثله فى الملك والترف والنعيم.

(ب) شعراء الهجاء

الهجاء قديم فى الشعر العربى، ومرّ بنا – فى كتابنا عن العصر الجاهلى – أنه كان فى الأصل لعنات يصبها الأفراد على أعدائهم وأعداء قبائلهم آملين أن تنزلها بهم المقادير، وأخذ يتحول من لعنات خالصة إلى سباب وتهوين للمهجوِّين على ألسنة شعراء الجاهلية، ومضوا يتقاذفونه ويسلُّونه كما يسلون سيوفهم فى حروبهم، وبقيت منه بقايا غير قليلة فى الإسلام بين شعراء المدينة ومكة لعهد الرسول ﷺ، ولم يلبث أن احتدم بالعراق فى العصر الأموى ونشأت عنه مناظرات هجاء حادة بين جرير والفرزدق سُمِّيت بالنقائض. وظل التهاجى مضطرما بين الشعراء فى العصر العباسى، وسقطت منه شعل كثيرة إلى الأقاليم، وبمجرد أن نشط الشعر فى الأندلس لعهد عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ – ٢٣٨ هـ) نشط الهجاء وأخذ شعراؤه يتكاثرون، وفى مقدمتهم يحيى الغزال، وسنخصه بكلمة، ومن هؤلاء الهجائين المبكرين عبد الله[٣] بن الشِّمْر المتفنن فى العلوم منجم الأمير عبد الرحمن الأوسط، ويذكر ابن حيان[٤] عن قاض اسمه يُخامر بن عثمان كانت فيه غفلة أن ابن الشمر استغلَّ ذلك يوما – وهو فى مجلس القضاء – فألقى بين البطاقات التى كان ينادى بها الخصوم للتقدم إليه بطاقة مكتوبا عليها: يونس بن متى،

(١) القعساء: الوطيدة. الغرر: الأعمال العظيمة. الغر: المشهورة.
(٢) الشماء: السامقة: يهفو: يخفق.
(٣) مرت مصادر ابن الشمر فى الحديث عن علوم الأوائل فى الفصل الثانى.
(٤) المقتبس (تحقيق د. مكى – طبع بيروت). ص ٦٥ – ٦٦.

المسيح بن مريم. وحين وقعت البطاقة فى يده أمر أن يُدْعَى له بمن فيها، فهتف الهاتف: يونس بن متى والمسيح بن مريم وكرَّر الهاتف النداء خارج مجلس القاضى ولا مجيب إلى أن صاح ابن الشمر: إن نزولهما من علامات الساعة! وتناول بطاقة وكتب فيها مع بيتين آخرين:

دعوتَ ابنَ مَتَّى والمسيحَ بنَ مَرْيَما ... يُخامرُ ما تنفكُّ تأتى بِفضْحةٍ
وعَقْلُك ما يَسْوَى من البَعْر دِرْهما ... قَفاك قَفا جَحْشٍ ووجهُك مظلمٌ

فتألب الفقهاء على يُخامر وأجمعوا على ذمه والقدح فيه، وثارت به العامة لفقده حسن المعاملة ولقلة درايته. ومن الهجائين المعاصرين لابن الشمر مؤمن[1] بن سعيد الملقب بدعبل الأندلس، وكان يهاجى ثمانية عشر شاعرًا رموه عن قوس واحدة لتمزيقه أعراض الناس. وكان هاشم بن عبد العزيز وزير الأمير محمد بن عبد الرحمن يقرِّبه ويجزل له النوال، وأسرته النصارى فى إحدى المواقع، فقال يخاطب أبا حفص ابن عمه وعدوَّه شامتا به فى قصيدة طويلة:

تصبَّحْ أبا حفصٍ على أَسْرِ هاشمٍ ... ثلاثَ زُجاجاتٍ وخمسَ رَوَاطِم[2]
وبُحْ بالذى قد كنت تُخْفيه خِفْيَةً ... فقد قطعَ الرحمنُ دولةَ هاشمِ

وافتدى الأمير محمد هاشما فلما عاد إلى وزارته وعلم بالقصيدة نصب لمؤمن حبائل السعاية عند أميره فحبسه، وطال حبسه حتى توفى سنة ٢٦٧. ومن كبار الهجائين فى عهد الأمير عبدالله (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) القلفاط[3] محمد بن يحيى المتوفى سنة ٣٠٢ وكان يسلّ لسانه على الناس جميعا حتى على الأمير عبدالله وفيه يقول:

ما يَرْتَجِى العاقلُ فى مُدَّةٍ ... أَلرِّجْلُ فيها موضعُ الراسِ

وكان صديقا لابن عبد ربه، وبدرت منه بادرة له، فتوجَّس منه شرا، وتهاجيا وأقذع كل منهما فى هجاء صاحبه. وتخف حدة الهجاء لعهد عبد الرحمن الناصر،

---

(١) انظر فى ترجمة مؤمن بن سعيد وشعره الحميدى. ٣٣٠ والجزء السابق من المقتبس فى مواضع مختلفة (راجع الفهرس) وقضاة قرطبة للخشنى ١٠٣ - ١٠٥ والحميدى ص ٣٣٠ وبغية الملتمس ص ٤٥٦ والمغرب ١٣٢/١.

(٢) رواطم لعلها من آنية الخمر فى الأندلس.

(٣) انظر فى القلفاط وشعره الزبيدى ٣٠١ والحميدى ٩١ وبغية الملتمس ١٣٤ والمغرب ١١١/١ وابن عذارى ١٩٣/٢ وإنباه الرواة ٢٣١/٣ والمقتبس الجزء الخاص بالأمير عبد الله.

(٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) حتى إذا أمر المستنصر ابنه (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) بإراقة الخمر وتشدد فى ذلك تعرضت له جماعة من الشعراء بذمه، من بينهم الرمادى: يوسف بن هرون، فأمر بسجنه حتى إذا توفى عادت إليه حريته، واشتهر له قوله فى طفل حلق أهله شَعْره خوفا عليه من الحسد[1]:

حلقوا رأسَهُ ليكسوه قُبْحا ... خيفةً منهمُ عليه وشُحَّا
كان قبل الحِلاقِ ليلاً وصُبْحا ... فمحَوْا ليله وأبقوه صُبْحا

ونمضى إلى عصر أمراء الطوائف وفيه يشتد التنافس بين الشعراء، ويشتد معه الهجاء ولو أن ابن بسام عُنى فى الذخيرة بعرضه لأورد منه عشرات بل مئات من الصحف، ولكنه عاهد نفسه أن لا يعرض منه إلا القليل الأقل. وأخذ حينئذ يتخصص بعض الشعراء بنظمه، فهم لا يكادون يطرقون بابا سواه وفى مقدمتهم السُّمَيْسر وسنفرد له ترجمة وكان على شاكلته أبو تمام غالب[2] الملقب بالحجَّام شاعر قلعة رباح غربى طليطلة وقد سقطت فى حجر ألفونس السادس سنة ٤٦٧ وغالبا لا يذكر ابن بسام من يهجوهم وخاصة إذا كانوا من رجال الأندلس أو علية القوم، ولعل ذلك ما يجعله يختار له الأبيات العامة التى تصيب كل مذموم كقول غالب مما أنشده صاحب الذخيرة:

صغارُ الناسِ أكثرهُم فسادا ... وليس لهم لصالحةٍ نهوضُ
ألم تَرَ فى سباع الطير سِرًّا ... تسالمنا ويؤذينا البَعوضُ

وقوله:

فيا للمَلْك ليس يَرَى مكانى ... وقد كُحِلتْ لواحظُه بنورى
كذا المِسْوَاكُ مطَّرَحًا هوانًا ... وقد أبقى جِلاءً فى الثغورِ

وأخذ يظهر من حينئذ شعراء يطوفون بمدن الأندلس، ويتغنون على كل باب يظنون منه خيرا، وقد يتعثر الخير، وقد يشعرون بشىء من الاستطالة مع الإقلال والجدب فيمن يقصدونهم، فيتركونهم إلى غيرهم ممن يحسنون بهم الظن، فيجدونهم أكثر إقلالا وإجدابا، ومن أشهر هؤلاء الشعراء الجوالين أبو عامر[3] الأصيلى، وهو كثير الذم والهجاء للناس

(١) رايات المبرزين (طبعة القاهرة) ص ٧٨. ورايات المبرزين ص ٨٢.

(٢) راجع فى أبى تمام غالب الحجام وشعره الذخيرة ٨٢١/٣ وما بعدها والمغرب ٤٠/٢

(٣) انظر فى أبى عامر الأصيلى وشعره الذخيرة ٨٥٧/٣ والمغرب ٤٤٤/٢ والخريدة ٣٠٨/٢.

بمثل قوله مما اختار له ابن بسام:

أرى الأوغادَ يَعْتمرون دورًا ... ومالى فى بلادِ الله دارُ
أجولُ فلا أرى إلا رِعاعًا ... كبارُهمُ إذ اخْتُبِروا صغارُ

ونشبت لعهد أمراء الطوائف أكبر[١] معركة للهجاء ضد يهود غرناطة، ذلك أن كورة إلبيرة كانت قد وقعت من نصيب زاوى بن زيرى الصنهاجى زمن الفتنة، فاتخذ غرناطة قاعدة له حتى سنة ٤٢٠ إذ رحل عنها إلى بلاده بإفريقية وتركها لابن أخيه حبوس بن ماكسن، واتخذ وزيره أبو القاسم بن العريف كاتبا له يهوديا يسمى إسماعيل (صمويل) ويلقّب بابن النَّغْرِيلَّه، وكان داهية خبيثا درس بقرطبة الديانة اليهودية وكل ما اتصل ببحوثها التلمودية مع ما درس من الثقافة والآداب العربية. وتوفى حبوس سنة٤٢٩ وخلفه باديس حتى سنة٤٦٧ وفى عهده أصبح ابن النغريلة رئيس وزرائه أو وزيره الأول بحسن تدبيره لشئون المال، وبالغ باديس فى الثقة به، بينما هو كان يعد نفسه حاميا لليهود فى الأندلس، فجاءوه من كل بلد، وأخذ يعهد إليهم بكثير من وظائف الحكم والضرائب، كما أخذ يرعى مصالحهم الاقتصادية والتجارية. ودفع باديس إلى أن يعيش بين كاس وطاس لا يدرى شيئا من شئون الحكم، وبلغ من عدائه للإسلام أن كان لا يجد حرجا من استهزائه به، وأقسم أن ينظم القرآن فى أشعار، وتوفى سنة ٤٥٦ وكان قد أعدَّ ابنه يوسف ليخلفه فى وزارته لباديس، وسرعان ما أخذ الناس يعلنون ضيقهم به وبسيطرة اليهود على شئون الدولة من ضرائب وغير ضرائب، وأخذ غير شاعر يستثير العامة للثورة على اليهود وزعيمهم يوسف وفى مقدمتهم السُّمَيْسر وأبو الحسن يوسف بن الجد القائل فى سخط وغضب[٢]:

تحكَّمتِ اليهودُ على الفُروجِ ... وتاهتْ بالبِغالِ وبالسُّروجِ
وقامتْ دولةُ الأَنْذال فينا ... وصار الحكمُ فينا للعُلوجِ[٣]
فقل للأعور الدَّجَّالِ هذا ... زمانُك إن عزمتَ على الخروجِ

---

(١) انظر فى هذه المعركة والثورة على يهود غرناطة الذخيرة ٢/٧٦٦ وما بعدها وانظر المغرب ٢/١١٤ وأعمال الأعلام ص ٢٦٤ والبيان المغرب ٣/٢٦٤ والإحاطة ١/٤٣٩ وتاريخ ابن خلدون ٤/١٦١ وراجع مقدمة د. إحسان عباس على رسالة الرد على ابن النغريلة لابن حزم (طبع القاهرة) ص ٩ - ١٨.

(٢) الذخيرة ٢/٥٦٢

(٣) العلوج: جمع علج: الفظ.

وأصبح المسلمون فى غرناطة، يموجون بالحنق والغيظ من يوسف واليهود الذين اعتصروا طيبات الأرض وعرق الكادحين باسم الضرائب، وقد اختلت الموازين فبعد أن كان المسلمون هم الذين يجبون الضرائب من اليهود وأهل الذمة أصبح اليهود هم الذين يجبونها، وبينما كان الناس ينتظرون شعلة لتثير بركان الثورة الكامن، إذا أبو إسحق الإلبيرى الذى سنترجم له بين الزهاد يمدهم بقصيدة حماسية ملتهبة، بل بالشعلة الشعرية المضطرمة شواظا ونارا حامية، وإنه ليهتف فى مطلعها برجال صنهاجة الحاكمين[1]:

ألا قُلْ لصَنْهاجَةٍ أجمعينْ بدور النَّدِىِّ وأُسْدِ العَرِينْ[2]
لقد زلَّ سَيِّدُكم زَلَّةً تَقَرُّ بها أَعْيُنُ الشامتينْ
تخيَّر كاتبَه كافرًا ولو شاءَ كان من المسلمين
فعزَّ اليهودُ به وانْتَخَوْا وتاهوا وكانوا من الأَرْذَلِينْ[3]
ونالوا مناهم وجازوا المَدى فحانَ الهلاكُ وما يَشْعُرون

ويتساءل ألم يكن من الواجب على باديس أن يبقيهم - كما أبقاهم حكام المسلمين قبله - باعة جوَّالين يحملون أخراجهم على ظهورهم فى صغار وذل وهوان باحثين فى المزابل عن خرق من الثياب ملوَّثة يتخذونها أكفانا لموتاهم. ويتجه إلى باديس مادحا مثنيا حتى يتنبه ليوسف وأعوانه وما يدبرون من الكيد له بينه وبين شعبه، وما كنزوا وبنوا من القصور الباذخة. وما يزال يستثير باديس حتى إذا ظن أنه بلغ به الغاية من الثورة على اليهود وحاميهم يوسف أفتاه - كفقيه - بسفك دمه ودماء أعوانه من اليهود، يقول:

فبادِرْ إلى ذَبْحه قُرْبةً وضَحِّ به فَهْو كَبْشٌ ثمينْ
ولا تحسبَنْ قتلهم غَدْرةً بل الغَدْرُ فى تركهم يعبثون
وقد نكثوا عَهْدَنا عندهم فكيف تُلام على الناكثين

وأخذ سكان غرناطة يتناسخون القصيدة وينشدونها فى الطرقات، وغلت نفوسهم وصمموا على الانتقام، وحانت الفرصة إذ كان يوسف قد اتفق مع المعتصم بن صمادح أن يرسل إليه جنودا إلى غرناطة أملا فى أن تخلص له بعد خلوصها من باديس. وفى مساء يوم السبت لعشر خلون من صفر سنة ٤٥٩ تسوَّر كثيرون من الرعية قصره حين تبينت

(١) ديوان الإلبيرى (طبع مدريد) ص ١٥١.
(٢) الندى: مجلس القوم. العرين: غيل الأسد ومأواه.
(٣) انتخوا: تعاظموا وتكبروا.

لهم جليّة نواياه مصممين على قتله، فاختبأ منهم فى بيت فحم، فقبضوا عليه وقتلوه وصلبوه على باب المدينة، ونهبوا متاجر اليهود ومنازلهم وقتلوا منهم نحو أربعة آلاف.

ومن كبار الهجائين فى عصر المرابطين عبد الله[1] بن سارة الشنترينى المتوفى سنة ٥١٧ ويقول ابن بسام عنه: «رأيت له عدة مقطوعات فى الهجاء تُرْبى على حَصَى الدَّهْناء، وهو فيه صائب السهم نافذ الحكم» ويقول إنه أضرب عن ذكرها إلا لمعا قليلة لمنهجه الذى اتخذه فى الذخيرة، وهو أن ينحىَّ عنها الهجاء وخاصة المفحش منه، وكان ابن سارة مقترًا عليه فى الرزق، فتنقل طويلا فى بلدان الأندلس، ثم استوطن إشبيلية واحترف فيها الوِراقة، وفيها يقول ذامًّا هاجيا:

أما الوِراقَةُ فَهْىَ أَنْكَدُ حِرْفةٍ ... أغصانها وثمارُها الحِرْمانُ
شبَّهتُ صاحبها بإبرة خائطٍ ... تكسو العُراةَ وجِسْمُها عريانُ

ويكثر فى زمن المرابطين هجاء الفقهاء لما حازوا لأنفسهم فيه من مال وسلطان، وابن سارة أحد من تعرض لهم هاجيا، ومثله ابن خفاجة وابن البَنى وفيهم يقول مخاطبا لهم:

أهلَ الرِّياءِ لبستمُ ناموسَكم ... كالذئب أَدْلَجَ فى الظلام العاتمِ
فملكتمُ الدنيا بمذهب مالكٍ ... وقَسَمتمُ الأموالَ بابن القاسمِ
وركبتمُ شُهْبَ الدوابِّ بأشهبٍ ... وبأَصْبغٍ صُبغتْ لكمْ فى العالَمِ

وهو يتهمهم بالمراءاة وأكل الأموال بالباطل ويزعم أنهم ملكوا الدنيا بمذهب مالك وأئمته المصريين الذين تتلمذ عليهم فقهاء الأندلس واتخذوا كتبهم مصدرا لفتاويهم وأحكامهم، وهم ابن القاسم المتوفى سنة ١٩١ وأشهب بن عبد العزيز المتوفى سنة ٢٠٤ وأصبغ بن الفرج المتوفى سنة ٢٢٥. وممن عنف بالفقهاء فى الهجاء الأبيض[2] محمد بن أحمد المتوفى حول سنة ٥٢٥ وولع بهجاء الزبير المرابطى حاكم قرطبة بمثل قوله:

عكف الزُّبَيْرُ على الضلالة جاهدا ... ووزيرُه المشهورُ كَلْبُ النَّارِ
ما زال يأخذ سَجْدَةً فى سجدةٍ ... بين الكُئوسِ ونَغْمة الأوْتار

---

(١) انظر فى ترجمة عبد الله بن سارة وشعره الذخيرة ٨٣٤/٢ والخريدة ٣١٥/٢ والقلائد ٢٦٠ والتكملة ٨١٦ والبغية رقم ٨٩٦ والمغرب ٤١٩/١ وابن خلكان ٩٣/٣ والمطرب ٧٨، ١٣٨، ٢٣٥.

(٢) راجع فى ترجمة الأبيض وشعره المغرب ١٢٧/٢ وزاد المسافر ص ٦٦ ونفح الطيب ٤٨٩/٣ وما بعدها.

فإذا اعتراه السَّهْوُ سَبَّح خلْفه ... صوتُ القِيان ورَنَّةُ المزمارِ

وكانت فى الأبيض جرأة شديدة، وأفحش فى بعض هجائه للزبير فاستدعاه وقال له: ما دعاك إلى هذا الهجاء؟ حتى إذا أخذ يقرِّعه ويوجعه باللوم قال له هازئا به: إننى لم أر أحق بالهجو منك ولو علمتَ ما أنت عليه من المخازى لهجوتّ نفسك إنصافا ولم تَكِلها إلى أحد. وقامت قيامة الزبير حين سمع منه ذلك وأمر بقتله، وهو حمق منه ما بعده حمق. وكان معاصره اليَكّى يهجو المرابطين مثله، غير انه لم يبلغ مبلغه فى الإقذاع وهو من كبار الهجائين، وسنخصه بكلمة. وكانت بين المتفلسفين أبى العلاء بن زهر وابن باجة - بسبب المشاركة فى مهنة الطب كما يقول المقرى - ما يكون بين النار والماء، والأرض والسماء، فقال فيه ابن[1] باجة:

يا ملكَ الموت وابنَ زُهْرٍ ... جاوزتما الحدَّ والنهايَهْ
ترفَّقا بالوَرَى قليلاً ... فى واحدٍ منكما الكِفايَهْ

وهى فى رأينا دعابة وممازحة، لا هجاء ذميم كما ظن المقرى، مما جعله يعقِّب لأبى العلاء بن زهر ببيتين يصف فيهما شخصا بالزندقة وأنه لابد أن يصلب والجذع والرمح حاضران، إلا أن يكون ذلك بقصد الدعابة. ومن الهجائين المخضرمين الذين عاشوا فى عصر المرابطين، ولحقوا عصر الموحدين الأعمى[2] المخزومى أبو بكر محمد، وأنشد له ابن سعيد فى المغرب هجاء كثيرا، من ذلك قوله فى إحدى مقطوعاته يهجو قوما لقوه لقاء قبيحا:

وأنتم سَنَنْتُمْ كلَّ مُحْدَثِ سُبَّةٍ ... ولم تتركوا فيها لحَاقًا لآخرِ

فقد جمعوا - غير مسبوقين - كل مسبَّة وكل مذمَّة وكل قبيحة، وقطعوا الطريق فيها على كل لاحق، حتى استحقوا لعنة تزرى سوءًا وعارًا بلعنات كل من فى المقابر كما يقول. ولم يسلم أحد من هجائه حتى تلميذته الشاعرة نزهون[3] - وكانت من بيت فضل وعلم - هجاها قائلا:

ألا قُلْ لنَزْهونةٍ مالها ... تجرُّ من التِّيهِ أذْيالَها

(١) نفح ٤٣٤/٣ وما بعدها.
(٢) انظر فى ترجمة الأعمى المخزومى وشعره المغرب ٢٢٨/١ والإحاطة ٤٢٤/١ ٢١٦/٣.
(٣) تأتى فى الفصل التالى مراجع نزهون.

فردَّت عليه بهجاء موجع أخرسه. وكما هجا تلميذته التى كانت حرية بكل ثناء على الأقل لخصب ملكتها الشعرية هجا ابنًا له بقوله:

الحقُّ أبلجُ لستَ أنت وحقِّ مَنْ ... أَحْيا بِكَ الأَجْلافَ مِمَّنْ يُفْلِحُ[١]
لا تهتدى بفضيلةٍ لا تَرْعَـوى ... بمــلامــةٍ لا أنت ممن يَصْلح
يزدادُ عقلك ما كَبِرْتَ تناقصا ... وتَلِجُّ فى صَمَمٍ إذا ما تُنْصَحُ[٢]

وبدلا من أن يتعاطف مع ابنه فلذة كبده ويصوغ له النصح برفق يجرح مشاعره بهذه السهام المصمية. ويقول ابن سعيد عنه فى مطلع ترجمته نقلا عن الحجارى: «بشار الأندلس انطباعا ولسنا وأذاة، وهو الذى أحيا سيرة الحطيئة بالأندلس فمُقت، وكان لا يسلم من هجوه أحد». ويروى ابن سعيد أن جده عبد الملك كان يبرُّه ويكرمه وأنه قصده مرة فأنزله فى دار تلطفا، وقال لغلام له: اسأل فى الموضع الذى نزل فيه المخزومى متى يرحل وكان يريد أن يرسل إليه حين يهم بالرحيل زادا وينظر له فى دابة تحمله، وأساء الغلام الطريقة إذ ضرب على المخزومى فخرج إليه، فقال له: يقول لك صاحبك متى ترحل؟ فقال له انتظر حتى أكتب لك الجواب وكتب له أبياتا منها:

لا ترجونَّ بنى سعيدٍ للنَّدَى ... فـالظلُّ أَفْيَـدُ منهمُ للسائـلِ
قـومٌ مصيبتهُم بـطلعـة وافـدٍ ... وسرورُهم أبدًا بخيبـةِ راحلِ

ومن كبار الهجائين فى عصر الموحدين على بن حزمون وسنفرد له ترجمة، وكان يعاصره محمد[٣] بن الصفار الأعمى القرطبى المتوفى سنة ٦٣٩ وكان قد أخذ نفسه بالوقوع فى الأعراض، وكان لا يزال يتناول أعراض الأمراء ووجوه القوم، ويروى ابن سعيد أنه لما قال أبو زيد الفازازى كاتب أبى العلاء المأمون الموحدى (٦٢٤ - ٦٢٩ هـ) ابن يعقوب المنصور قصيدته التى أولها: «الحزم والعزم منسوبان للعرب» يشير بذلك إلى أنصاره من عرب جشم ناقضه ابن الصفار بقصيدة فى مديح يحيى بن الناصر الموحدى أخى المأمون مخاصمه على إمارة الموحدين، أشار فيها إلى عمه المأمون هاجيا له بقوله:

وإن ينازعك فى المنصور ذو نسب ... فنَجْلُ نوحٍ ثَوَى فى قِسْمة العَطَبِ
وإن يَقُلْ أنا عَمٌّ فـالجوابُ لـهُ ... عمُّ النبىِّ بــلا شَـكٍّ أبــو لَهَبِ

---

(١) أبلج: مضيىء.
(٢) تلج: تتمادى.
(٣) انظر فى ترجمة ابن الصفار الأعمى وشعره المغرب ١/١١٧ واختصار القدح المعلى ص٢٠٣ والتكملة ص٣١٣.

وشاعت القصيدة وبلغت المأمون فحرَّض على قتله، وفرَّ ابن الصفار إلى أبي زكريا بن عبد الواحد أمير تونس وأجرى عليه راتبا شهريا إلى أن بارح دنياه. ويظل شرر الهجاء يتطاير فى إمارة بنى الأحمر، ويكثر الشعراء حينئذ من ذم الزمان والناس، على نحو ما يلقانا عند البَسْطى محمد بن عبد الكريم القيسى بأخرة من زمن تلك الإمارة، وقد صبَّ كثيرا من هجائه على القضاة والمشرفين على الأحباس، ومن هجائه لقاضى بلدته[1]:

تبًّا لقاضى بسطةَ ابنِ مفضَّلٍ تَبًّا له فيه يروح ويَغْتدى
إذ غيَّر الأحكام عما أُصِّلتْ تغييرَ جبَّارٍ عنيدٍ مُعْتدى

وحرى بنا أن نتوقف قليلا بإزاء أربعة من كبار الهجائين فى الأندلس على مر عصورها هم يحيى الغزال والسُّمَيْسر واليكِّى وعلى بن حَزْمون.

يحيى[2] الغزال

هو يحيى بن الحكم البكرى الجيَّانى المعروف باسم الغزال، وُلد حوالى سنة ١٥٦ للهجرة وتوفى حوالى سنة ٢٥٠ وإذا صحَّ ذلك يكون قد عاش أكثر من تسعين سنة، ويؤكد ذلك ما ذكره فى أرجوزته التاريخية من قوله:

أدركتُ بالمِصْرِ ملوكًا أربعَهْ وخامسًا هذا الذى نحن معَهْ

فهو قد أدرك زمن عبد الرحمن الداخل المتوفى سنة ١٧٢ وابنه هشام وحفيده الحكم الربضى وابنه عبد الرحمن وحفيده محمد، وكان جميل الصورة لذلك لُقِّب بالغزال وهو ممن رحلوا إلى المشرق وأفادوا منه أدبا وعلما. ويبدو أنه كان يتولى أحيانا بعض أعمال للدولة وخاصة فى زمن الأمير عبد الرحمن الأوسط، إذ تولى له قبض الأعشار من المحاصيل وخزنها، ويقال إن سعرها ارتفع فى بعض الأعوام فباع كل ما لديه من مخزون، وغضب الأمير حين علم بصنيعه لأنها كانت معدة للجند، وأمره أن يرد ثمنها ويشترى

(١) انظر كتاب البسطى آخر شعراء الأندلس للدكتور محمد بن شريفة (طبع بيروت) ص ١٩٤.

(٢) راجع فى ترجمة يحيى الغزال المقتبس: الجزء الخاص بالأمير عبد الرحمن وابنه محمد (تحقيق د. مكى - طبع بيروت) ص ١١ - ١٣، ٦٤ - ٦٥، ٦٩، ٧٠، ١٣٤ والحميدى رقم ٨٨٧ والبغية للضبى رقم ١٤٦٧ والمغرب ٢/٥٧ والمطرب ص ١٣٣ وما بعدها والبيان لابن عذارى ٢/٩٣ والنفح ٢/٢٥٤ واليتيمة للثعالبى ٢/٥٦ وكتاب القضاة للخشنى ص ٨٣. ونشر ديوانه د. محمد رضوان الداية بدار قتيبة.

للدولة منها حاجتها وكان السعر قد هبط، فرأى أن يكتفى برد ما يماثلها من الطعام دون رد المال جميعه، فأمر عبد الرحمن بسجنه. وكان شاعرا فذا فاستعطفه ببعض منظومه أو بعبارة أدق بقصيدة من قصائده فعفا عنه. وكان الأمير عبد الرحمن يعجب به، ولذلك نراه يكلفه بسفارتين سفارة لتيوفيل ملك بيزنطة، ولنجاحه فيها كلفه بعد القضاء على غارة النورمان الدانماركيين بغربى الأندلس سنة ٢٢٩ بسفارة ثانية إلى ملكهم، ونجح فيها كما نجح فى السفارة الأولى وعاد بذخائر ملوكية.

ويبدو من مدائح الغزال للأمراء الأمويين ولشغله لبعض الوظائف ولسفارته المتكررة للأمير عبد الرحمن الأوسط أنه عاش فى غير قليل من لين العيش وأنه كان فى أكثر حياته - إن لم يكن فيها جميعا - على حظ غير قليل من اليسر والرخاء وسعة ذات اليد، ولذلك نعجب أن نجد نفسه مطوية على غير قليل من المرارة مما دفعه إلى أن يكثر من الهجاء، فهو يهجو المرأة ويرميها بعدم الوفاء، ويهجو زرياب فى أول قدومه على قرطبة، ويهجو الناس جميعا حاكمين ومحكومين، يقول:

ما أَرَى هاهنا مِن الناسِ إلا ... ثَعْلبًا يطلبُ الدَّجاجَ وذِيبا
أو شبيهاً بالقِطِّ ألقى بعينيـ ... ـه إلى فَأْرَةٍ يريدُ الوثوبا

فالناس بين ثعلب ماكر وذئب مفترس وقطٍّ ينتظر فرصة من فأرة، وجميعهم متحفز للوثوب والتقاط صيد ثمين ما وسعهم الصيد. ومن أهم من سلط عليه سهام هجائه قاضى الجماعة بقرطبة يُخامر بن عثمان الجذامى الجيانى مواطنه، ولاّه عبد الرحمن قضاء الجماعة سنة ٢٢٠ فأكثر من هجوه وذمه ووصفه بالجهل والبله مع السخرية المرة منه ومن أحكامه، كقوله فى شعر استهله باعتذاره لشخص كلفه عملا لا يحسن أداءه على نحو ما كُلِّف القاضى يخامر بالقضاء وهو لا يحسنه:

فقلتُ لـه كلَّفتنى غيـرَ صَنْعتى ... كما قلَّدوا فَضْلَ القضاء يُخامـرا
وقلتُ لو استعفيتَ منه فقال لى ... سأفضحُ ما قد كـان منك مُغـايرا
فقلت لـه: رأسُ الفُضُوح إقـامةٌ ... علينا كذا من غَيْرِ عِلْمٍ مُكابرا
وخَبْطُك فى دين الإله على عَمىً ... خِباطـةَ سكـرانٍ تكلَّم سَـادِرا[١]
فلن يَحْمل الصَّخْرَ الذُّبابُ ولن ترى الـ ... سَّلاحِفَ يُزْجِينَ السُّفين مَوَاخِرا[٢]

---

(١) سادرا: غير مبال.

(٢) مواخر: تمخر البحر أى تشقه.

وهو هجاء مقذع ليخامر إذ يصفه بأنه يخبط فى قضائه وأحكامه على الناس خبط أعمى لا يبصر، بل خبط سكران فقد عقله ورشده، ويمثله فى حمله للقضاء ومهمته الثقيلة التى لا يؤتاها إلا أولو العزم بذباب يُطْلب إليه أن يحمل صخرا ضخما وبسلاحف يطلب إليها أن تدفع سفنا تشق مياه البحار شقا. وما يزال يهوِّن منه ويزرى به حتى عزله الأمير عبد الرحمن عن القضاء. وكان نصر الصقلى الخصىّ تمكن من الأمير عبد الرحمن غاية التمكن وكان ذلك يؤذى الغزال وكثيرين غيره من الحاشية وكان نصر يسكن بالقرب من مقابر قرطبة، فقال يتوعده عذاب الله وجحيمه على ما قدَّمت يداه:

أيا لا هيًا فى القَصْر قُرْبَ المقابرِ ... يَرى كلَّ يوم واردًا غير صادر
تراهم فتلْهُو بالشَّراب وبعضِ ما ... تَلَذُّ به من نَقْرِ تلك المَزَاهِر[١]
سترحلُ عن هذا وإنك قادمٌ ... - وما أنت فى شَكٍّ - على غير غافرِ

وكان الأمير عبد الرحمن ولَّى ابنه عبد الله من حظيته طروب ولاية العهد، وأخذ فى سنة ٢٣٦ يفكر فى صرفها عنه إلى أخيه محمد لاستهتاره وانهماكه فى اللذات، فأغرت طروب نصرا أن يسقيه شربة سم حتى يعجله الموت عن تنفيذ فكرته، وصدع نصر لمشيئتها، ونُبِّه الأمير عبد الرحمن إلى ذلك، فشكا وعكة فى معدته، فأحضر له دواء، فأمره بشربه، ولم يستطع أن يعصى له أمرا، فشربه، ومات، فقال الغزال ملقِّبا له بأبى الفتح ومتشفيا فيه من قصيدة طويلة:

أَغْنَى أبا الفتح عما كانَ يأْمُلُهُ ... حُفَيْـرَةٌ حُفِرَتْ بين المقـابيـرِ
فصار فيها كأشقى العالمين وإنْ ... لَفُّوه بالنَّفْح فى مِسْكٍ وكافورِ

وأمر عبد الرحمن بإنزال زرياب مغنيه فى قصر نصر بعد موته، فنظم الغزال قصيدة يذكر فيها تقلب الدنيا بأهلها وأن نصرا قد ترك قصره إلى مسكن ليس عليه حجاب سوى التراب، ولم يأخذ معه من كل ما جمعه سوى كفنه أو كما يقول سوى ثلاثة أثواب. ولعل فيما أسلفنا ما يدل بوضوح على أن الغزال كان صاعقة من صواعق الهجاء المقذع الموجع فى زمنه.

(١) المزاهر جمع مزهر: العود.

السُّمَيْسِر (١)

هو خلف بن فرج الإلبيرى، من أعلام الشعراء فى زمن أمراء الطوائف، اشتهر بالشعر وخاصة إذا هجا وقدح، وكأنما تخصص بالقدح والهجو فى أهل زمنه، حتى ليكتب فى هجائهم كتابا فى مجلدات سماه «شفاء الأمراض فى أخذ الأعراض». وكانت كورته إلبيرة وعاصمتها غرناطة بيد الأمير عبد الله بن بلقين الصنهاجى منذ سنة ٤٦٧ وكان السميسر ينظر حوله، فيجد أمراء الطوائف غارقين فى ملاهيهم بين الكاس والطاس متنابذين متخاصمين، بينما أفواه ألفونس وملوك النصارى فاغرة تريد أن تلتقم بلدانهم، وإنهم ليرهبونهم حتى ليدفعون لهم الإتاوات، مما جعله يهتف بهم قائلا:

نادِ الملوكَ وقل لهم ... ماذا الذى أحدثتمُ
أسلمتُمُ الإسلام فى ... أَسْرِ العِدا وقَعَدْتُمُ
وجَبَ القيامُ عليكمُ ... إذْ بالنَّصارى قمتمُ
لا تنكروا شَقَّ العَصا ... فعَصَا النبىِّ شَقَقْتُمُ

فهو يدعو أهل الأندلس إلى الثورة - أو إلى القيام كما يقول - على أمرائهم الذين أحدثوا أحداثا منكرة مسلمين أموال البلاد إلى العدو، واضعين أيديهم فى يده، بل إنهم لَيَسْتَعْدون به بعضهم على بعض متخذين منه العون والنصير فى حكم إماراتهم، شاقين بذلك عصا الإسلام ورسوله. ويهتف بأمير غرناطة وقبيلته صنهاجة أن يتداركوا الأمر، ولكن لا حياة لمن ينادى، فعبد الله بن بلقين غارق فى تشييد قلعة يتحصَّن بها عند نزول كارثة فيقول فيه ساخرا:

يَبْنِى على نفسه سَفاهًا ... كأنه دودةُ الحريرِ

فهو - فى رأيه - كدودة القَزِّ لاتزال تنسج حولها معقلا لها وهو ليس معقلا بل عقالا تلفّه حولها وتموت فيه، ويكرر هتافه بالأمير وقبيلته، ولا سميع ولا مجيب، فيهجو صنهاجة والبرابر جميعا بمثل قوله:

---

(١) انظر فى ترجمة السميسر وشعره الذخيرة ٨٨٢/١ وما بعدها، ونفح الطيب ٢٢٧/٣، ٢٩١، ٤١٢، ١٠٨/٤ والحميدى ص ١٩٣ والخريدة ١٦٧/٢ والمطرب لابن دحية ص ٩٣ والمغرب ١٠٠/٢

رأيتُ آدم في نَوْمي فقلتُ له ... أبا البريّة إنَّ الناسَ قد حكموا
أنَّ البرابرَ نَسْلٌ منك قال إذنْ ... حوَّاءُ طالقةٌ إن كان ما زعموا

ولما كثر منه مثل هذا الهجاء الموجع المؤلم توعده الأمير عبد الله بسَفْك دمه، ففر إلى المعتصم بن صُمادح أمير المريَّة مستجيرا به، فأجاره، وأقام عنده حتى استولى المرابطون على إمارته سنة ٤٨٤. وكان السميسر سيئ الظن بالناس سوءا شديدا، حتى لينشد:

رأيتُ بني آدمٍ ليس في ... جموعهمُ منه إلا الصُّوَرْ
ولما رأيتُ جميعَ الأنامِ ... كذلك صِرْتُ كطيرٍ حَذِرْ
فمهما بدا منهمُ واحدٌ ... أقولُ أعوذُ بربِّ البَشَرْ

فقد أصبح من الناس جميعا مثل طير حذر لايزال يتلفت يمينا ويسارا خشية أن يقع فى شبكة من شباكهم رصدوها له، وإنه ليستعيذ منهم ومن شرهم بربه لاجئا إليه ضارعا. وعلى شاكلة ظنه السيئ بالناس ظنه بأهل صنعته من الشعراء إذ يقول فيهم:

أنا أحبّ الشعرَ لكنني ... أُبْغِضُ أهلَ الشعرِ بالفِطْرَهْ
فلستَ تلقي رجلا شاعرًا ... إلا وفيه خَلَّةٌ تُكْرَهْ
والعُجْبُ والنَّوْكُ إلى الجهل في ... أكثرهم إلا مَعَ النُّدْرَهْ

وطبيعى أن يعجب كل شاعر بشعره، أما النوك أو الحمق وكذلك الجهل اللذان يسجلهما على أكثرهم فمبالغ فى وصمهم بهما. ويعلن مرارا أنه هجر اللذات، ويبدو أنه هجرها بأخرة من حياته، مما جعله يكثر من أشعار طريفة فى الزهد والقناعة والحياة والموت.

اليَكّيّ (١)

هو أبو بكر يحيى بن سهل اليكى من قرية يكَّة شمالى مُرْسِيَة، قال فيه الحجارى: «هو ابن رومى عصرنا وحُطيئة دهرنا، لا تجيد قريحته إلا فى الهجاء، ولا تنشط به فى غير ذلك من الأنحاء» عاش فى زمن المرابطين ولحق دولة الموحدين إلى أن توفى حوالى سنة ٥٦٠

---

(١) انظر فى ترجمة اليكى وشعره زاد المسافر لصفوان ص ٧٧ والمغرب ٢/٢٦٦ والخريدة ٣/٥٨٠ والضبى فى البغية ص ١٨٨.

وكان المرابطون يضعون اللثام على وجوههم، ولذلك سموا الملثمين، ونراه يعلل لاتخاذهم اللثام بمثل قوله:

لمَّا حَوَوْا إحرازَ كلِّ فضيلةٍ غَلبَ الحياءُ عليهمُ فتلثَّموا

فى مدحة بلغ بها غاية رضاهم، ثم عاد إليه طبعه وما فُطر عليه من الهجاء المقذع، فهجاهم وقدح فى أخلاقهم ولثامهم راميا لهم بالدناءة ونقص العفاف قائلا:

فى كلِّ مَنْ ربط اللِّثامَ دَناءةً ولو أنه يَعْلُو على كَيْوانِ[1]
لا تطلبَّن مُرابِطًا ذا عفَّةٍ واطلبْ شعاعَ النار فى الغُدْرانِ

وفى نفس هذه المقطوعة ومقطوعة ثانية ما هو أكثر بذاءة، وكأنه نسى - كأندلسى - أن الملثمين هم الذين أنقذوا الأندلس من وقوعها فى براثن النصارى الشماليين، ولم تكن موقعتهم المظفرة بالزلاّقة التى سحقوهم فيها سحقا ببعيدة. وربما هجاهم بعد زوال دولتهم وقيام دولة الموحدين، غير أن ذلك لا يشفع - إن صح - له. وعلى شاكلته هجاؤه لأهل فاس بعد أن أكرموه بمثل قوله:

ياأهلَ فاسٍ لقد ساءتْ ضمائرُكم فأصبحتْ فيكمُ الآراءُ متَّفقه
وربما اجتمعتْ فى بَعْضِ سادتكم نقائصُ أصبحتْ فى الناس مُفْترقه

ويتمادى فى البذاءة بهذه المقطوعة ومقطوعات أخرى، وكأنما يحصى عيوب نفسه، وبالمثل ما أحصاه من خصالٍ عشرة ذميمة للفقيه وزوجته، وما وصم به قاضى بلدته: مرسية من جَوْره وأكله أموال اليتامى وأموال المساجد سرقة وغصبا، يقول:

يطالبه الأَيْتامُ فى جُلِّ مالهم ويطلبه فى حقِّه كلُّ مسجدِ[2]

والهجاء حين ينزل إلى هذا الدَّرْك أو إلى هذا المنحدر لا يصبح من الفن والشعر فى شيء، إذ يصبح سَبًّا وقذفا مذموما. وربما كان أخفَّ ما هجا به أهل فاس قوله:

قصدتُ جِلَّةَ فاسٍ أسترزقُ الله فيهمْ[3]
فما تيسَّر منهم دفعتُه لبنِيهم

---

(١) كيوان: كوكب زحل وهو كوكب نحس وشؤم.
(٢) جل: معظم.
(٣) جِلّة: أجلاء.

وإنما نقول إنه هجاء خفيف لأن فيه شيئا من الدعابة، إذ يقول إن ما يأخذه منهم من النوال بيمينه يدفعه لأبنائهم بيساره. ومن هجائه المقذع اللاذع قوله فى بعض مهجوِّيه:

أَعِدِ الوضوءَ إذا نطقتَ بهِ متذكِّرًا من قبلِ أن تَنْسَى
واحفظْ ثيابك إن مررت به فالظِّلُّ منه ينجِّس الشَّمْسَا

وكأنه يصفه بدنس لا يماثله دنس وقذارة لا تشبهها قذارة، وهو غلو فى الإقذاع والإيلام. وفى أهاجيه فحش كثير. وتردد ابن سعيد فى المغرب فى نسبة موشح له وقال إنه لابن المرينى ويروى لليكى مما يدل على أنه شارك فى نظم الموشحات.

على[1] بن حَزْمون

هو أبو الحسن على بن عبد الرحمن بن حزمون، من المَرِيَّة، يقول فيه ابن سعيد: «صاعقة من صواعق الهجاء» ويقول ابن عبد الملك المراكشى: «كان شاعرا مفلقا ذاكرا للآداب والتواريخ أحد بواقع[2] الدهر، بذىء اللسان مقذع الأهاجى». ومر بنا فى حديثنا عن شعراء المديح أنه كان أحد من مدحوا المنصور يعقوب الموحدى بعد قفوله من غزوة الأَرَك المظفرة سنة ٥٩١ وقد وقعت قصيدته من المنصور موقع استحسان، وأنشدنا منها قطعة هناك، ويذكر ابن عبد الملك المراكشى أنه وفد على المستنصر الموحدى (٦١٠ - ٦٢٠هـ) بمراكش مادحا له ومتظلما من واليه المجريطى على مرسية لضربه بالسياط لما بلغه من هجائه له، وتبرأ للمستنصر مما نُسب إليه من ذلك، فأمر بتمكينه من الوالى وتحكيمه فيه حتى ينتصف منه، غير أن ابن حزمون لم يكد يصل إلى الأندلس حتى توفى المستنصر فلم يتم له أمله من القصاص من الوالى واشتدَّ أسفه. ويبدو أنه عاش فترة غير قصيرة بعد وفاة المستنصر. وله مرثية رائعة لقائد الأعنة بمرسية سنعرض لها فى غير هذا الموضع، وجرَّه هجاؤه إلى التعرض لأحد قواد الأندلس، واسمه محمد بن عيسى، بهجاء لاذع، زاعما أنه فرَّ فى إحدى المواقع مع النصارى قائلا:

يودُّ بأَن لو كان فى بَطْنِ أُمِّهِ جَنِينًا ولم يسمع حديثًا عن الغَزْوِ

---

(١) انظر فى ترجمة ابن حزمون وشعره المعجب ص ٣٧٠ وما بعدها وزاد المسافر ص ٦٤ والمغرب ٢١٤/٢ وما بعدها وأزهار الرياض ٢١١/٢.

(٢) بواقع جمع باقعة: داهية.

ثقيلٌ ولكنْ عقلُه مثلُ ريشةٍ تطيرُ بها الأَرْوَاحُ فى مَهْمَهٍ دَوٍّ[١]
تميل بشِدْقَيْه إلى الأرضِ لِحْيَةٌ تظنُّ بها ماءً يفرَّغ من دَلْوِ
وقد حدَّثوا عنه بكلِّ نقيصةٍ ولكنَّ مثلى لا يروِّى ولا يَرْوِى

وهو تجنٍّ على هذا القائد الذى كان مشهورا فى قومه بالشجاعة والنجدة، ويبدو أنه بدر منه ما أسخطه عليه، فمضى يصفه بالجبن، وهو برىء منه، وبثقل الروح وخفة العقل وضخم اللحية التى لا تزال تميل بشدقيه السائلين إلى الأرض. وهى مبالغة فى هجاء مقذع كان حريا به أن ينحيه عن مثل هذا الفارس الشجاع. وحين وفد على المستنصر رأى أن يلتقى بالوزير الموحدى أبى سعيد بن جامع، فقصد داره وكان لها بابان، فوقف بأحدهما ينتظر لقاءه، فقيل له إنه خرج من الباب الآخر، فأنشد:

نعوذُ بالله من وَجْدٍ ومن بَيْنِ ومن وقوفٍ على دارٍ ببابين
ومن زيارةِ أرْبابٍ بلا عَدَدٍ لا يملكون حياتى لا ولاَ حَيْنِي[٢]
إنى وجدتهمُ لماَّ رَجَوْتُهُمُ كالرِّيحِ تطلبها ما بين كَفَّيْنِ

وكان أبو سعيد بن جامع أديبا وغيثا مدرارا وممدَّحا للشعراء، ولكنها نزعة الهجاء فى ابن حزمون إذ جعلته يهجو متسرعا لأول بادرة ممن يستحقون منه المديح والإطراء. وبلغ من تعلقه بهذا الفن أن هجا نفسه، وكأنما أراد أن يقتصَّ منها لكل من رماه بسهام هجائه، فقال:

تأمَّلتُ فى المرآة وَجْهِى فخِلْتُهُ كوجه عجوزٍ قد أشارتْ إلى اللَّهْوِ
إذا شئتَ أنْ تهجو تأمَّلْ خَلِيقَتِي فإنَّ بها ما قد أردتَ من الهَجْوِ
كأنَّ على الأَزْرار منىَ عَوْرَةً تنادى الوَرَى غُضُّوا ولا تنظروا نَحْوِى
فلو كنتُ مما تنبتُ الأرضُ لم أكُنْ من الرائقِ الباهى ولا الطيِّبِ الحُلْوِ

وفى الحق أنه كانت فى ابن حزمون مرارة كثيرة، وربما كانت هى التى دفعته إلى أن يسلك طريقة ابن حجاج البغدادى الماجنة المفحشة فى كثير من شعره، وكان وشاحا مجيدا ودفعته نزعته الماجنة إلى أن لا يدع موشحة تجرى على ألسنة الناس - كما يقول صاحب المعجب - إلا نظم فى عروضها ورويها موشحة ماجنة مكثرا فيها من الفحش. وينهى المراكشى حديثه عنه بقوله: «ونال ابن حزمون عند قضاة المغرب وعماله وولاته جاها وثروة خوفا من لسانه» وبعبارة أخرى خوفا من هجائه البذىء المقذع.

(١) الأرواح: الرياح. مهمه: مفازة. دَوٌّ: واسع. (٢) حينى: هلاكى وموتى.

٥

الشعراء والشعر التعليمى

ذكرنا فى كتاب العصر[١] العباسى الأول أن رقى الحياة العقلية فى هذا العصر دفع الشعراء إلى استحداث فن الشعر التعليمى، وكان من أوائل السابقين إليه أبان بن عبد الحميد فترجم كتاب كليلة ودمنة عن الفارسية إلى العربية فى ١٤ ألف بيت من الشعر المزدوج المؤلف من وزن الرجز، وفيه تختلف القافية من بيت إلى بيت بينما تتحد فى الشطرين المتقابلين. وبجانب ترجمته لكليلة ودمنة فى هذا الفن الجديد نظم مزدوجات طويلة فى تاريخ ملوك الفرس وفى الفقه وأحكام الصوم والزكاة. وممن نظم فى هذا الفن الجديد محمد بن إبراهيم الفزارى، إذ نظم فى علم الفلك مزدوجة طويلة استغرقت عشرة مجلدات، ونظم الأصمعى فيه قصيدة فى ذكر الملوك والجبابرة الهالكين والأمم البائدة، وكان بشر بن المعتمر يكثر من النظم فى هذا الفن التعليمى، وساق الجاحظ له فيه بكتابه الحيوان قصيدتين طويلتين تحدث فيهما عن الحشرات وأصناف الحيوان، ولعلى بن الجهم منظومة تاريخية تحدث فيها عن بدء الخليقة والأنبياء والإسلام والخلفاء حتى سنة ٢٤٨ للهجرة.

ومن أوائل شعراء الأندلس الذين حاكوا العباسيين فى هذا الفن الجديد – إن لم يكن أولهم السابق إليه – الشاعر يحيى الغزال الذى مرت ترجمته بين شعراء الهجاء، إذ نظم فى فتح الأندلس أرجوزة طويلة ذكر فيها السبب فى غزوها وتفصيل الوقائع بين الفاتحين من المسلمين وأهلها وعدد أمرائها وأسماءهم مستقصيا محسنا[٢]. ونلتقى بعده بتمام بن عامر وزير الأمير محمد وابنيه المنذر ثم عبدالله إلى أن توفى فى حدود سنة ٢٨٠ ويقول ابن الأبار: له الأرجوزة المشهورة فى ذكر افتتاح الأندلس وتسمية ولاتها والأمراء فيها ووصف حروبها من وقت دخول طارق بن زياد مفتتحها إلى آخر أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم[٣]، ويقول ابن حيان إنها تشتمل على كتاب ضخم[٤] وفى ذلك ما يؤكد أنها كانت مفرطة فى الطول.

---

(١) العصر العباسى الأول ص ١٩٠ وما بعدها
(٢) نفح الطيب ٢٨٢/١.
(٣) الحلة السيراء تحقيق د . حسين مؤنس (طبع القاهرة) ١٤٤/١.
(٤) المقتبس تحقيق الدكتور محمود مكى (نشر دار الكتاب العربى بلبنان) ص ١٧٩.

وإذا استمررنا فى تتبع الشعر التاريخى التعليمى وأراجيزه التقينا بأرجوزة[١] ابن عبد ربه التى سجَّل فيها انتصارات عبد الرحمن الناصر من سنة ٣٠٠ إلى سنة ٣٢٢ موزعا لأبياته فيها على تلك السنوات وهى فى نحو ٤٥٠ بيتا، وقد استهلها بقوله:

سبحانَ مَنْ لم تَحْوِهِ أقطارُ ... ولم تكنْ تدركُه الأبصارُ
ومَنْ عَنَتْ لوجهه الوجوهُ ... فما له نِدٌّ ولا شَبِيهُ

ومضى يصف الله ببعض صفاته القدسية حامدا له على آلائه التى أسبغها على الأندلس، ويشيد بعبد الرحمن الناصر وانتصاراته الباهرة وجمعه لعقد الأندلس بعد أن كانت حَبَّاته قد تناثرت وعمَّت الفتن فى كل الأنحاء وكثر الثوار فى كل مكان، وإذا عبد الرحمن بغزواته المتوالية سنويا يعيد إلى الأندلس وحدتها ويقضى قضاء مبرما على الثوار والمرَّاق ويأخذ فى منازلة نصارى الشمال حتى يلقوا له عن يَدٍ وهم صاغرون، ونكتفى من أرجوزة ابن عبد ربه بالوقوف عند غزوة[٢] السنة الأولى من غزوات الناصر وهى سنة ثلاثمائة، وكان قد أعدَّ جيشا ضخما خرج به من قرطبة فى السابع من شهر رمضان فى تلك السنة، وبدأ بثوار كورة جيَّان واتجه إلى حصن المُنْتِلون وثائره سعيد بن هذيل ونازله واستسلم ولاذ بالأمان، ورحل إلى حصن شمنتان وثائره عبيدالله بن الشاليه، فبادر بالاستسلام متنازلا له عن جميع معاقله وحصونه وكانت تقارب المائة، ورحل إلى الحصون التى كانت موالية لعمر بن حفصون فى جيَّان ثم فى البُشَرَّات وافتتحها جميعا، ثم تقدم إلى ما كان بيد ابن حفصون فى إقليم إلبيرة من الحصون فافتتح أكثرها ولم يدع فيها مخالفا. ورأى أن يريح جيشه وكان قد فتح سبعين حصنا من أمهات الحصون سوى حصون وبروج ومعاقل تبلغ نحو الثلاثمائة، وهى فتوح لم يسمع بمثلها – كما يقول ابن حيان – لملك واحد من ملوك الأرض فى غزوة واحدة، وقفل منها عائدا إلى عاصمته قرطبة بعد ثلاثة أشهر وأيام، وفيها يقول ابن عبد ربه فى أرجوزته مشيدا بالناصر وما أذاق الثائرين من بأسه واستسلامهم له صاغرين خانعين:

وجَمَّعِ العُدَّةَ والعَديدا ... وكثَّف الأجنادَ والحُشودا
ثم انْتَحَى جَيَّانَ فى غَزاتِهِ ... بِعَسْكرٍ يَسْعَرُ من حُماتِهِ[٣]

---

(١) انظر الأرجوزة فى العقد الفريد ٥٠٠/٤ وما بعدها.

(٢) راجع هذه الغزوة فى الجزء الخامس من المقتبس ص ٥٨ وما بعدها.

(٣) يسعر: يتقد. حماة: جمع حام.

فـأذعنتْ مُرَّاقُهـا سِـراعـا ... وأقبلَتْ حُصـونهـا تَـداعى
وافتتح الحصونَ حِصْنًا حِصْنا ... وأوسع الناسَ جميعًـا أَمْنَا
ثم انتحى من فَوْرِه إلبيره ... وهْىَ بكـل آفةٍ مَشْهـوره
ولم يَدَعْ من جِنِّها مَرِيدا[1] ... بها ولا من إنسها عَنِيدا
إلا كساهُ الذُّلَّ والصَّغَـارا ... وعَـمَّـه وأهـلَه دمـارا
وانصرف الأميرُ من غَزَاتِهِ ... وقد شفاه الله من عُدَاتِهِ

والأبيات ليس فيها الحرارة التى ينبغى أن تموج بها إزاء هذه الغزوة التى ليس لها مثيل فى تاريخ الأندلس. وربما كان ذلك بسبب أنها صيغت فى أرجوزة من الشعر التاريخى التعليمى الذى تفتر فيه الحرارة ويصبح أشبه بالسرد منه بالشعر الغنائى المتوهج حرارة. ولابن عبد ربه مدائح كثيرة فى الناصر تشتعل فيها الحماسة، بل فى نفس هذه الغزوة إذ ينشد ابن حيان له فيها قوله فى مدحه للناصر[2]:

فى نصف شَهْرٍ تركتَ الأرض ساكنةً ... من بعد ما كان فيها الجَوْرُ قد ماجا
لما رأوا حَوْمـةَ الشَّاهين فـوقهمُ ... كـانوا بُغَـاثًا حـواليهـا ودُرَّاجـا[3]

ويقول فى وصف عدله فى رعيته:

أحيـا لنـا العـدلَ بعـد مِيتَتِـهِ ... وردَّ روح الحيـاة فـى جَسَـدِهْ

ونلتقى فى عصر المرابطين بأهم ناظم للشعر التعليمى التاريخى، ونقصد أباطالب عبدالجبار الملقب بالمتنبى، وسنفرده بكلمة عما قليل، وكان يعاصره ابن أبى الخصال الكاتب المشهور وله قصيدة فى نسب الرسول ﷺ سماها «معراج المناقب». وأهم من نظموا بعده فى هذا اللون التاريخى من الشعر لسان الدين بن الخطيب الذى ستأتى ترجمته فى الفصل الخامس، فله فيه أرجوزة طويلة سماها «رَقْم الحلل فى نظم الدول» وهى تاريخ شعرى للدول الإسلامية، عرض فيها بإيجاز الخلفاء الراشدين فالأمويين فالعباسيين فبنى الأغلب بإفريقيا فالعبيديين (الفاطميين) فبنى أمية بالأندلس فأمراء الطوائف فالمرابطين فالموحدين فبنى نصر بغرناطة وبنى مرين بإفريقيا، وطُبع جزء من هذه الأرجوزة بتونس بأخرة من القرن الماضى، ويسوق ابن الخطيب فى تضاعيفها نثرا لتوضيح الأبيات، وفى كتابه «الإحاطة» اقتباسات منها كثيرة. من ذلك عرضه لتاريخ الحكم الربضى وما كان

---

(١) مريدا: خبيثا شريرا.

(٢) الجزء الخامس من المقتبس ص٦٢.

(٣) الشاهين: من جوارح الطير وسباعها. البغاث والدراج: طائران صغيران والاستعارة واضحة.

من ثورة الفقهاء وأهل الربض عليه وسفكه لدماء كثيرين وهدمه لدورهم وقضائه السريع على الثورة مع رباطة جأشه فى حينها رباطة أذهلت من كانوا محيطين به، وكان من شدة الجبروت بحيث لم يرع لأحد فى الثورة عليه عهدا ولا ذمة، يقول لسان الدين مشيرا إلى توليه الحكم بعد وفاة أبيه هشام[١]:

حتى إذا الدهرُ عليه احتكما قام بها ابنُه المسمَّى الحكَما
واستشعرَ الثورةِ فيهـا وانقبضْ مستوحشا كاللَّيْث أقْعَى وَرَبَضْ[٢]
حتى إذا فُرْصَتُه لاحتْ نَفَضْ فأفحشَ الوقعةَ فِى أهل الرَّبَضْ
وكـان جبَّـارا بعيــدَ الهمــةِ لم يَرْعَ من إلٍّ بها أو ذِمَّة[٣]

وإذا تركنا التاريخ وشعره التعليمى إلى العلوم الدينية واللغوية قابلتنا كثرة من الأراجيز والقصائد العلمية، وهى أكثر من أن تحصى فى الأندلس أو تستقصى، إذ لم يكادوا يتركون علما دون أن ينظموا فيه أراجيز أو قصائد مطولة، وطائفة منها ذاعت شهرتها فى العالم العربى وكتبت عليها شروح كثيرة وأصبحت محور الدراسة فى العلم الذى نظمته مهما شرقنا أو غربنا فى البلدان العربية والإسلامية، من ذلك منظومة القاسم بين فِيرُّه الشاطبى الذى مر ذكره بين القرَّاء فى الفصل الثانى، وقد سماها - كما مر بنا - حرز الأمانى ووجه التهانى فى القراءات، واشتهرت باسم الشاطبية نسبةً إليه، وعدَّتها -كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع- ألف ومائة وثلاثة وسبعون بيتا، وقد شرحت مرارا، شرحها العلم السخاوى وغيره، وظلت المرجع الأساسى للقراء منذ عصر الشاطبى إلى اليوم. وذكرنا معه من القراء أبا حيان الغرناطى وقلنا هناك إن له فى القراءات منظومة فى ألف بيت وأربعة وأربعين وقد سماها: «عقد اللآلى فى القراءات السبع العوالى»، ويقول ابن حجر إنها أخصر وأكثر فوائد من الشاطبية غير أنها لم ترزق حظها[٤] من الشهرة والذيوع. ودوَّت شهرة ابن عبد البر حافظ الأندلس وإمام مذهبها المالكى لعصر أمراء الطوائف بكتاب نفيس فى الفقه والحديث ألفه على هدى كتاب الموطَّأ لمالك وسمّاه: «التمهيد لما فى الموطأ من المعانى والأسانيد» ويقول ابن حزم - كما مر بنا - «لا أعلم فى الكلام على فقه الحديث مثله أصلا» ولعل ذلك ما جعل الشاطبى ينظم قصيدة فى

---

(١) الإحاطة ٤٨٢/١

(٢) الليث: الأسد. أقعى: جلس على إليتيه ونصب ساقيه وفخذيه. ربض: طوى قوائمه ولصق بالأرض.

(٣) إل بتشديد اللام: عهد.

(٤) الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر ٧٣/٥.

خمسمائة بيت تحيط علما بهذا الكتاب إحاطة دقيقة، غير أنها لم ترزق حظ أختها الشاطبية. ويلقانا غير عالم أندلسى حتى آخر أيام العروبة هناك يؤلف أراجيز ومنظومات فى العلوم الدينية المختلفة على نحو ما يلقانا عند أبى بكر بن عاصم المتوفى سنة ٨٢٩ تلميذ لسان الدين بن الخطيب وله فى القراءات[١] منظومة باسم «إيضاح المعانى فى القراءات الثمانى» ومنظومة ثانية فى علم الفرائض (الميراث) باسم: «كنز المفاوض فى علم الفرائض» ومنظومة ثالثة فى علم الأصول باسم: «مهيع الوصول إلى علم الأصول» وله فى الفقه المالكى أرجوزة فى نحو ١٦٩٠ بيتا نشرت فى باريس منذ القرن الماضى وكانت تدرس فى جامعة فاس إلى عهد قريب. وكثيرا ما كانوا ينظمون قصائد ومقطوعات لضبط بعض المسائل المتصلة بالقرآن أو بالقراءات أو بالفقه وأحكامه على نحو ما نجد فى رائية[٢] أبى الحسن بن الحصار، وهى اثنان وعشرون بيتا فى بيان المدنى والمكى من سور الذكر الحكيم، وذكر فيها أن المدنى باتفاق عشرون سورة والمختلف فيه اثنتا عشرة سورة وما عدا ذلك فمكى.

وكان طبيعيا أن تشارك الأندلس المشرق فى نظمه لفنون البيان والبديع، وابن المعتز هو أول من جمع بينهما فى كتابه «البديع» إذ أحصى فيه ثمانية عشر محسِّنا وضم إليها صور البيان الأساسية وهى الاستعارة والتشبيه والكناية، وأخذت الحقب التالية تضيف إلى محسناته محسِّنات جديدة إلى أن بلغ بها ابن أبى الإصبع المصرى مائة واثنين وعشرين محسنا. وتأخذ فى الظهور منذ على بن عثمان الإربلى المتوفى سنة ٦٧٠ منظومات البديعيات[٣]، وهى منظومات يتضمن كل بيت فيها محسنا من محسنات البديع والبيان، حتى إذا كان صفى الدين الحلى المتوفى سنة ٧٥٠ رأيناه ينظم بديعيه من وزن البسيط فى ١٤٥ بيتا موضوعها مديح الرسول صلى الله عليه وسلم، وكل بيت فيها يتضمن محسنا من محسنات البديع، وبلغت المحسنات فيها مائة وخمسين. ونرى معاصره أبا حيان الغرناطى ينظم قصيدة فى علمى البديع والبيان، ويبدو أنه لم يتجه بها وجهة الحلى والإربلى فى أن يجعل من كل بيت إشارة إلى لون معين من ألوان البيان والبديع، ولذلك لم يعد العلماء له هذا العمل بين قصائد البديعيات. وأول أندلسى أسهم فى تلك القصائد ابن جابر الوادى آشى المترجم له بين شعراء المديح النبوى، إذ نظم بديعية من بحر البسيط

(١) انظر فى أسماء هذه المنظومات لابن عاصم النفح ١٩/٥.

(٢) راجع الذيل والتكملة للمراكشى: القسم الأول من السفر الثامن ص ٢١٠.

(٣) انظر كتابنا البلاغة: تطور وتاريخ ص ٣٥٨ وما بعدها.

فى مائة وسبعة وعشرين بيتا وجعل موضوعها مديح الرسول صلى الله عليه وسلم وسماها: «الحلة السِّيَرا فى مدح خير الورى» واستهلّها بقوله:

بِطَيْبَة انْزِلْ ويَمِّمْ سيِّد الأممِ وانْثُرْ له المدحَ وانْشُرْ أطيبَ الكَلِمِ [1]

وسرعان ما شرحها مواطنه ومعاصره أبو جعفر الرُّعينى، ويقول فى مقدمته لها إن ابن جابر اتبع فى سرد المحسنات البديعية الخطيب القزوينى فى كتابيه الإيضاح والتلخيص، ولعل ذلك ما جعله يكتفى فيها بنحو ستين محسنا.

ولعل الأندلس لم تكثر من النظم فى علوم كما أكثرت من نظم علوم النحو والتصريف واللغة، ويكفى أن نرجع إلى ترجمة ابن مالك الطائى الجيَّانى المتوفى سنة ٦٧٢ بدمشق، ويعد أشهر نحاة القرون العربية المتأخرة لا فى الأندلس فحسب بل فى العالم العربى جميعه، وكان نظم الشعر التعليمى سهلا عليه سهولة مفرطة مع التعبير الناصع عن أدق الدقائق فى النحو والصرف واللغة، وتشهد بذلك كثرة أراجيزه ومنظوماته فيها المصوغة صياغة بديعة، وفى مقدمتها نظمه المفصل للزمخشرى فى النحو باسم «المؤصَّل فى نظم المفصل» ومنظومته المطولة «الكافية الشافية» فى النحو، وتقرب من ثلاثة آلاف بيت، وله فى الصرف منظومة لامية فى أبنية الأفعال باسم «المفتاح أو اللاميات» وهى فى مائة وأربعة عشر بيتا من وزن البسيط، ومنظومة ثانية فى ٤٩ بيتا من وزن الكامل ضمنها الأفعال الثلاثية المعتلة بالواو أو الياء احتفظ بها السيوطى فى الجزء الثانى من كتابه المزهر. وله فى اللغة منظومة واوية فى ١٦٢ بيتا سماها «تحفة المودود فى المقصور والممدود» وهى تتضمن الألفاظ التى تنتهى بألف مقصورة أو ممدودة مع اختلاف معانيها وقد طبعت فى القاهرة مع شرح موجز لها، ومنظومة ثانية فى ٦٢ بيتا من وزن البسيط سماها: «الاعتداد فى الفرق بين الزاى والصاد» ضمنها الكلمات المتماثلة التى تنتهى بهما. وأهم منظوماته جميعا الألفية فى النحو والصرف وهى أرجوزة فى ألف بيت اختصر فيها أرجوزته الكبرى الكافية الشافية، وقد رزقت من الشهرة ومن المدارسة وإكباب الشيوخ والطلاب عليها فى جميع البلاد العربية منذ تأليفها إلى اليوم ما لم ترزقه أى منظومة أخرى فى النحو والصرف واللغة، ومن أجل ذلك كثرت شروحها وحواشيها مثل شرح الأشمونى وحاشية الصبان عليه وشرح ابن عقيل وحاشية الخضرى عليه. ولحازم القرطاجنى المتوفى سنة ٦٨٤

---

(١) طيبة: المدينة. يمم: اقصد.

منظومة نحوية تضمنها ديوانه وسنعرض لها فى حديثنا عنه عما قليل، ولأبى حيان المتوفى سنة ٧٤٥ أرجوزة فى النحو سماها «غاية[١] الإغراب فى علمى التصريف والإعراب» أى النحو، ولم تحظ -كأرجوزته فى القراءات- بشيء من الشهرة، وبالمثل الأراجيز النحوية التى نظمت بعد عصره، إذ سلبتها الشهرة جميعا ألفية ابن مالك. ويذكر ابن حجر فى كتابه الدرر أن ابن جابر الوادى آشى نظم كتاب فصيح ثعلب فى اللغة.

وكان قد شاع نمط لغوى من وزن الرجز يتضمن كثيرا من الألفاظ المقصورة الشائعة والمهجورة بغرض أخذ المتأدبين بمعرفتها وحفظها، وبدأ ذلك ابن دُرَيْد فى القرن الرابع بمقصورته التى تقع فى نحو مائتين وخمسين بيتا من الشعر والتى مدح بها عبد الله بن محمد ابن ميكال والى الأهواز وابنه، وأخذ بعض الشعراء فى المشرق يحاكونه بصنع مقصورات مماثلة لمقصورته غير أنه ظل لمقصورته القدح المعلى فى عناية الشعراء بها وفى تخميس بعضهم لها، ونجد شعراء الأندلس - وخاصة منذ القرن السادس - يحاولون محاكاته فى هذا اللون من الشعر التعليمى اللغوى، ونذكر منهم على بن حريق المخزومى، إذ ذكر المراكشى أن له مقصورة[٢] عارض بها ابن دريد، وأضاف أن له أرجوزة لغوية بديعة عارض بها أرجوزة لغوية لابن سيده المتوفى سنة ٤٥٨ وذكر المراكشى أن لمعاصره عامر بن هشام المتوفى سنة ٦٢٣ مقصورة[٣] جعلها فى ثلاثة أقسام: الأول فى الزهد والتضرع إلى الله واستغفاره، والثانى فى الحديث النبوى: بُنى الإسلام على خمس، والثالث فى الشكوى من الزمان والإخوان ورثاء أبى محمد عبد الله بن أبى حفص بن عبد المؤمن، وعدتها نحو مائة وخمسة وستين بيتا أنشأها لابن أخيه وشرحها له شرحا مفيدا. ولحازم القرطاجنى مقصورة نالت حظا من الشهرة وسنلم بها فى حديثنا عنه وموضوعها مديح المستنصر صاحب تونس. وبدأ بالمقصورة ابن جابر الوادى آشى موضوعا جديدا هو مديح الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد أنشدها المقرى فى النفح[٤] مسميا لها باسم المقصورة الفريدة، وهى فى أكثر من ثلاثمائة بيت من وزن الرجز، وجعل لقافية كل حرف من حروف الهجاء فيها عشرة أبيات وتلى الحرف دائما الألف المقصورة واستهلها بالنسيب على العادة التى شاعت فى قصائد المدح النبوى، مع تضمينها بعض

---

(١) ذكرها أبو حيان فى كتابه منهج السالك فى الكلام على ألفية ابن مالك ص ٤٥.

(٢) الذيل والتكملة: القسم الأول من السفر الخامس ص ٢٧٦.

(٣) نفس المصدر ص ١٠٧.

(٤) راجع نفح الطيب ٣٠٦/٧.

الحكم الطريفة والإفاضة فى سيرة الرسول العطرة وذكر بعض معجزاته الخارقة والتنويه بمعراجه إلى السماء وقُرْب جبريل منه، وازدياده قربا حتى كان منه قابَ قوسين أو أدنى وكيف أن الله ارتضاه للأمة رسولا هاديا منذ نشأة الخليقة. ومع أن المقصورة تكتظ فى قوافى أبياتها بالألفاظ الغريبة تشيع فيها السهولة مع حسن الأداء، إذ كان شاعرا بارعا. وحرى بنا أن نخص كلا من أبى طالب عبد الجبار وحازم القرطاجنى بكلمة.

أبو[1] طالب عبد الجبار

لم تُعْنَ كتب التراجم الأندلسية بإعطائنا معلومات وافية عن حياة أبى طالب عبد الجبار، وحقا عُنى ابن بسام بالترجمة له وإنشاد أرجوزته التاريخية كاملة، غير أنه اكتفى بقوله إنه من أهل جزيرة شُقْر بين شاطبة وبلنسية، ونهرها يحيط بها من جميع جهاتها. وهو بذلك يشترك مع ابن خفاجة شاعر الطبيعة فى مسقط رأسه. ويقول ابن بسام إنه كان يُعْرَف بلقب المتنبى، ويضيف أنه كان «أبرع أهل وقته أدبا، وأعجبهم مذهبا، وأكثرهم تفننا فى العلوم، وأوسعهم ذَرْعا (طاقة) بالإجادة فى المنثور والمنظوم». ويذكر أنه كان يسرف فى المجون، وأنشد له خمرية اقتطفنا منها أبياتا فى الفصل التالى، ويقول إنه كان قانعا بما يسدّ حاجته من العيش، فلم يمدح أميرا ولا غير أمير بشعره، وينوه بأرجوزته التاريخية، ويقول إنها تدل على رسوخ قدمه فى العلم والمعرفة. وتدل مقدمته لها على أنه قدمها إلى أحد الرؤساء، ونظن ظنا أنه أحد ولاة دولة المرابطين على شرقى الأندلس. ولا يذكر لنا ابن بسام شيئا عن الحقبة التى عاش فيها، غير أنه أرخ فى أرجوزته ليوسف بن تاشفين سلطان المرابطين وذكر عقبه ابنه عليا السلطان بعده (٥٠٠ - ٥٣٧ هـ) وانه يقتفيه ويهتدى به فى حكمه، مما جعل العماد الأصبهانى يستنتج فى ترجمته له أنه عاش بعد سنة خمسمائة أى بعد السنة الأولى من حكم على، ومن يرجع إلى أرجوزته وحديثه فيها عن الخلفاء العباسيين يلاحظ أنه ختمهم بالخليفة المسترشد (٥١٢ - ٥٢٩ هـ) قائلا عنه:

وهْوَ إلى الآنَ إمامُ الخَلْقِ　　　والملكُ لله الإلـٰهِ الحقِّ

وفى قوله): «إلى الآن» ما يدل على أنه عاش فترة فى مدة حكمة، قد تكون سبع سنوات أو أقل أو أكثر.

---

(١) انظر فى ترجمة أبى طالب عبد الجبار الذخيرة ٢/٢١٠ وما بعدها والمغرب ٢/٣٧١ وما بعدها. والخريدة للعماد الأصبهانى ١/٩١٦ - ٩٤٤

والأرجوزة فى أربعمائة وخمسين بيتا، وقد وضع بين يديها مقدمة نثرية ذكر فيها أنه قدمها - كما أسلفنا - إلى أحد الرؤساء قاصدا بها استمناحه ونواله، ويصفه بأنه غيث مدرار وبحر فياض بالجود والكرم، ثم يذكر أنه رجع فى أرجوزته إلى كتب التاريخ قاطفا عيون زهرها وملتقطا مكنون دررها، مع الإجمال والإيجاز. ويقول إنه ذكر فى فاتحتها مقدمات من أصول الاعتقادات، ويبدؤها باسم الله والصلاة على رسوله وآله الطيبين، ويأخذ فى حمد الله مبتدع السماء والأرض والبريَّة ابتداعَ خالق مهيمن منفرد بوحدانيته منزَّه عن قول جَهْم بن صَفْوان وغيره من المجسِّمة، ويدعو إلى التأمل فى ملكوت العالم وتدبيره وإحكام خلقه وأيضا إلى التأمل فى خلق الإنسان وأطواره وما وهبه الله من الحواس والحياة والرزق إلى الممات والعقل والعلم بالقلم علم التاريخ وغيره من العلوم. وينتقل من حمد الله وإبداعه للكون والإنسان إلى الاستدلال على أنه الصانع للكون فكل ما فى الكون أجسام، والأجسام لا تصنع الأجسام، بل لابد من صانع هو الذات العلية، وينشد:

أُفٍّ لقول الفِئةِ البَصْريَّهْ ... أهلِ الهوى والفِرْقة الغَويَّهْ
واحذَرْ هداك الله ياذا الفَهْمِ ... قولَهُمُ واحذرْ مقالَ جَهْمِ
وقُلْ بما يقولُ أهلُ الحقِّ ... من مُثْبتى صفاتِ ربِّ الخلقِ

وهو يريد بالفئة البصرية المعتزلة ويشتد به الضجر من قولهم بأن صفات الله ليست زائدة عن الذات الربانية كما يشتد به الضجر من جهم وأنداده المجسمة، ويعلن أنه يقول بما يقول به أهل الحق، يريد أهل السنة ممن يثبتون له صفاته القدسية، ولعله كان يدين بعقيدة الأشعرية أتباع أبى الحسن الأشعرى. ويقول إنه يؤمن - بجانب العقل - بالنقل المتواتر للأخبار الذى ينقله الجم الغفير عن الجم الغفير أو الجماهير عن الجماهير، وهو بذلك سنى أو قل أشعرى، ولا يلبث أن يحدثنا عن الجوهر والعرض، مما يؤكد صلته بالفلسفة، يقول:

وكلُّ شىءٍ جَوْهَرٌ أو عَرَضُ ... إلا الذى الطَّوْعُ له مُفْتَرَضُ
فإن فحصتَ قائلا ما الجوهرُ ... وما هو العَرَضُ إذ يُفَسَّرُ
فالجوهرُ الحاملُ للأعراض ... وَهْو الذى ليسَ بِذِى أَبْعاض
والعَرَضُ المحمول كالألوانِ ... وحركاتِ الجِرْم والإسْكان

فكل ما فى الكون إما جوهر وإما عرض إلا رب البرية فإنه لا جوهر ولا عرض إذ

هو منزّه عن التجسيم وعن كل ما يتصل بالتجسيم. والجوهر – ويريد الجوهر الفرد – لا يتجزَّأ، والعرض لاحق به إذ يحمله كالألوان ويلابسه ملابسة الحركة والسكون. وينتقل إلى مقدمة ثالثة فى بيان العلم ويوصى بأن يعرف الإنسان فرق ما بين المعلوم والموهوم وأن لا يهمل العقل ويأخذ بالتقليد، ويتخذ العلم للعلم لا للمباهاة به ولا لغلبة الخصوم، ويعرِّفه بأنه معرفة الشىء على ما هو به، ثم يتحدث عن أنواع العلم قائلا:

العلمُ علمانِ أيا مَنْ يبحثُ ... علمٌ قديمٌ ثم علم مُحْدَثُ
إن القديمَ علمُ ربِّ العرشِ ... بارى البريَّة الشديدِ البَطْش
ومُحْدَثٌ فذاك علمُ الخَلْقِ ... من ناطقٍ وغير ما ذى نُطْقِ
وكل علمٍ محدثٍ عِلْمانِ ... علمٌ ضروريٌّ بلا برهانِ
وبعده فَعلمُ الاستدلالِ ... والمنطقُ الباحث عن أحوال

فالعلم علمان: علم قديم أزلى خاصٌّ بالذات العلية وعلم محدث هو علم الخلق من ناطق وغير ناطق، ثم العلم المحدث علمان أو قسمان: علم ضرورى بدون برهان وهو البديهيات كالعلم بأن اثنين ضعف الواحد وعلم يقوم على الاستدلال والمنطق وبراهينه ومقدماته الصحيحة. ويستمر قائلًا: إن صانع العالم فرد صمد لا شريك له. ويَنْعَى على النصارى قولهم بالتثليث، واعتقادهم مع اليهود فى الذات العلية بالتجسيم، ويقول: جَلَّ جلاله عن شريك وأن يكون جسما له حد وانتهاء. ويتحدث فى مقدمة رابعة عن التفكر فى ملكوت السموات والأرض، ويقول إن كل ما فى الأرض من نبات وحيوان يدل على أن له صانعا يدبِّره، وكذلك النجوم والبروج، فجميعها شواهد ناطقة بوحدانية الصانع، ويذكر أن النفس ليس لها إرادة وأنها تنقاد لقوة العقل إذ هو أعلى رتبة وأشرف، ومع ذلك قد تلحقه الآفات من غيره أو من ذاته، فدلَّ ذلك على أن رَبًّا فوقه هو الكمال المطلق الذى ليس له نهاية تحدده. وفى مقدمة خامسة يتحدث عن بدء الخليقة وخلق البرية مهتديًا بأضواء من الذكر الحكيم منشدا:

قد خلقَ اللّهُ السمواتِ العُلا ... كما عَنِ الرَّسولِ فى الذِّكْرِ تَلَا
أخرجَ من ماءٍ دُخانا فسَما ... ثم دَحَا الأرض لِيَبْلُو الأُمَما
وآدمٌ صُوِّرَ من صَلْصالِ ... فكان منه جُمْلَةُ الأَنْسالِ
ثم بَرَا لآدمٍ حَوَّاءَ ... فسكنَا جنَّتَه العَلْياءَ

وهو يشير فى الأبيات إلى ما جاء فى الذكر الحكيم من خلق السموات فى مثل قوله

تعالى بسورة النازعات: ﴿السماءُ بناها رفع سَمْكها فسوَّاها وأغطش (أظلم) ليلها وأخرج ضحاها﴾ وقوله عزَّ شأنه فى سورة فُصِّلت: ﴿ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طَوْعا أو كَرْها قالتا أتينا طائعين﴾ وقوله سبحانه فى سورة النازعات: ﴿والأرضَ بعد ذلك دَحاها﴾ أى بسطها للإنسان ووسع رقعتها إلى أبعد حد. ويقول إن آدم صُوِّر من صلصال وهو الطين اليابس بشهادة مثل قوله تعالى فى سورة الحِجْر: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من صَلْصال﴾ وقوله فى سورة الرحمن: ﴿خُلق الإنسان من صَلْصال كالفَخَّار﴾. ويذكر أبو طالب أن الله برأ أو خلق لآدم حواء وأسكنهما الفردوس. ويستمر فى الأرجوزة متحدثا عن عصيانهما لربهما وأكلهما من الشجرة وهبوطهما للأرض ويتحدث عن قتل ابنهما قابيل لأخيه هابيل، وعن تكاثر نسلهما وانتشار الفساد فيه وما كان من إرسال الله لنوح، وعن الأنبياء المنصوص على قصصهم فى القرآن الكريم. ويستغرق ذلك نحو مائة وستين بيتا، دلَّ فيها على ثقافة واسعة وخاصة ثقافته بالفرق الإسلامية وبالفلسفة وما يتصل بها من المنطق. ويترك تلك المقدمات إلى التاريخ الخالص، فيتحدث عن الخلفاء الراشدين ومن تلاهم من خلفاء بنى أمية وخلفاء بنى العباس حتى عهد المسترشد كما أسلفنا. ثم يؤرخ لدولة بنى أمية فى الأندلس وما كان من الفتنة بقرطبة والقضاء على الحكم الأموى فى تلك الديار قضاء مبرما. ويستقصى أمراء الطوائف وبلدانهم استقصاء دقيقا، ويصور فساد حكمهم بمثل قوله الغاضب عنهم:

قد أهملوا البلادَ والعبادا ... وعطَّلوا الثغورَ والجِهادا
واشتغلتْ أذهانهم بالخمرِ ... وبالأغانى وسماع الزَّمْرِ
وزادهم فى الجهل والخِذْلانِ ... أن ظاهروا عِصابة الصُّلْبانِ

فهم قد أهملوا الرعية والجيوش المقاتلة عن الثغور والحمى وعاشوا للهو والخمر والغناء والزمر، وداخلوا طوائف النصارى فى الشمال حتى قويت أطماعهم وخاصة أذفونش ففرض الجزية على المعتمد بن عباد وعلى غيره والتقم طليطلة واسطة القِلادة سنة ٤٧٨ واشتعلت فى كل جهة ناره. وفزعت الأندلس إلى يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين فعبر إلى الأندلس، واستنقذها من أذفونش ونصارى الشمال بسحقه لجنوده سحقا وبيلا فى موقعة الزلاقة على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع، وفيها وفى استصراخ أهل الأندلس لابن تاشفين يقول أبو طالب:

وإذْ أراد اللّهُ نَصْــرَ الـدينِ ... اسْتَصْرَخَ الناسُ ابنَ تاشفينِ
فجاءهم كالصُّبْحِ فى إثْرِ غَسَقْ ... مستدركا لما تبقّى من رَمَقْ
وواصـل السَّيْرَ إلى الـزلّاقـه ... وشـاقـه ليـومهـا مـا شـاقـه
لله دَرُّ مِـثْلهــا مــن وَقْعَــهْ ... قامت بنصر الدين يومَ الجُمعه
وثُـلَّ للشرْك هنـاك عـرشُـه ... لم يُغْن عنـه قومُـه أُذْفُنْشُه

وهو يقول إن الله حين أراد نصر الدين الحنيف فى الأندلس استصرخ أهلها ابن تاشفين، وكان ذلك فى صدر سنة ٤٧٩ فلبَّاهم كالصُّبح المضىء فى إثر ظلامٍ مطبق، مستدركا لما بقى فى الأندلسِ من رمق يوشك أن يزهق ونفَس يوشك أن يضمحلّ، وبادر عجلا متلهفا إلى الزلاقة بأُسْد وَغىً والنصر يحفّ بركابه، ونازل العدو يوم جمعة، وكان يوما فاصلا إذ حاقت فيه الهزيمة القاضية بألفونس السادس وجنوده وثُلَّ عرشه وسلطانه.

والأرجوزة رائعة فى نسيجها وصياغتها الجزلة الرصينة ونسقها المحكم فى اختيار الألفاظ والقوافى دون تكلف ودون محسنات بديعية تستر المعانى أو تضفى عليها شيئا من الإبهام. وهى تدل - بوضوح - على تعمق أبى طالب فى الثقافات الكلامية والفلسفية والإسلامية، كما تدل على بصره الواعى بتاريخ حكام العرب شرقا وغربا منذ أقدم الحقب فى الدول الإسلامية حتى زمنه.

حازم[1] القرطاجِّنى

مرَّ بنا فى الفصل الثانى حديث عن كتاب منهاج البلغاء لحازم، وهو من أفذاذ علماء الأندلس وأدبائها، رُزق به أبوه محمد بن الحسن الأوسى الأنصارى قاضى قرطاجنة سنة ٦٠٨ للهجرة، وعُنى بتربيته فحفظ القرآن الكريم، وشبَّ فأخذ يتلقى الآداب والعلوم فى بلدته الواقعة على البحر المتوسط فى الجنوب الشرقى للأندلس، ورحل منها إلى مدينة مرسية ليأخذ عن شيوخها، ومدَّ رحلاته غربا إلى إشبيلية ولزم حلقات أستاذه الشلوبين بها مدة، وكانت فيه نزعة إلى الفلسفة فأوصاه بقراءة كتب ابن رشد، ولعل اطلاعه على

(١) انظر فى حازم وترجمته وشعره اختصار القدح المعلى ص ٢٠ وبغية الوعاة للسيوطى وأزهار الرياض ١٧١/٣ وما بعدها وشذرات الذهب لابن العماد ٣٨٧/٥ ومقدمة كتابه منهاج البلغاء (طبع تونس) للدكتور محمد الحبيب بن الخوجة وما بها من مصادر، ودراسة الدكتور مهدى علام بعنوان «أبو الحسن حازم القرطاجنى وفن المقصورة فى الأدب العربى مع تحقيقها» وجمع شعره ونثره ببيروت عثمان الكعاك مع تعريف به.

تلخيصه لكتابى الخطابة والشعر لأرسطاليس هو الذى وصله بالثقافة اليونانية النقدية مما يتضح أثره فى كتابه منهاج البلغاء. وهاجر فى أواخر العقد الثالث من حياته إلى مراكش لعهد الرشيد الموحدى وله فيه أمداح ونال منه صلات سنية. وأحسَّ أن سلطان الموحدين يوشك على نهايته وأن لا أمل فى دفعهم لمنازلة نصارى الشمال، فاتجه - مثل كثيرين من معاصريه الأندلسيين - إلى أبى زكريا الحفصى صاحب تونس، فعرف له فضله وقرَّبه، وتوفى فقرَّبه منه ابنه المستنصر (٦٤٧ - ٦٧٥ هـ) ووظفه فى دواوينه، واتخذ تونس موطنا له حتى وفاته سنة ٦٨٤. وذاع صيته فقصده طلاب العلم من كل مكان، فكان وقته موزعا بين العمل فى ديوان المستنصر وبين محاضراته للطلاب والتأليف ونظم الشعر. وعُنى الدكتور محمد الحبيب بن الخوجة بالحديث عن شعره فى مقدمته لكتابه منهاج البلغاء ملاحظا أنه يتناول فى المقاطيع المأثورة له موضوعات الزهد ووصف الطبيعة والخمر والنسيب وأنه قد يتصنع لذكر بعض المصطلحات العلمية فى شعره أو لذكر بعض المحسنات البديعية. ويذكر له قصيدة ومقطوعة فى رثاء الحسين رضوان الله عليه، كما يذكر له طائفة من المدائح فى أبى زكريا الحفصى وابنه المستنصر، ويذكر له مدحة فى الرسول الأعظم ﷺ ضمنها أعجاز معلقة امرئ القيس على نحو ما يقول فى فاتحتها:

لعينيك قُلْ إن زرتَ أفضلَ مُرْسَلِ ... قِفانَبْكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ

وأهم مدائحه مقصورته التى مدح بها المستنصر. وحاول الإسهام فى صنع مختصر شعرى للنحو على نحو ما نرى فى ميميته النحوية التى نظمها من وزن البسيط وهى فى مائتى بيت وتسعة عشر، وهو يستهلها بإطراء المستنصر الحفصى لإكرامه الوافدين على عاصمته من الأندلس، ويشيد بعدله وحسن سياسته وانتصاراته على أعدائه، ثم يأخذ فى عرض المختصر الشعرى للنحو، ويعرض فيه طائفة من مباحثه بادئا بتعريف النحو والكلام وتقسيمه إلى اسم وفعل وحرف ثم يذكر أحكام الإعراب والبناء والعوامل والفعل وأحكامه ونواصب الأفعال ونواصب الأسماء والنداء والاستثناء والخفض وأحرف النصب وعلامات الإعراب والابتداء وعنده تتوقف القصيدة. وكأنه كان يريد أن يصنع ألفية مثل ألفية ابن مالك ووجد الطريق شاقا فانصرف عنه. وأروع قصائد حازم الشعرية - دون ريب - مقصورته التى مدح بها المستنصر، وهى أرجوزة طويلة بل مسرفة فى الطول، إذ تبلغ ألف بيت وستة، وقد استهلها بالغزل منشدا:

لله ما قد هِجْتَ يا يومَ النَّوَى ... على فؤادى من تَباريح الجَوَى

ويطيل فى غزله إلى خمسين بيتا ناسجا فى أبياته أكثر المعانى التى ألمَّ بها الغزلون من الحديث عن جمال صواحبهن وتصوير لحظات الفراق والتألم من الوشاة وما يثير فى نفوسهم هديل الحمام من شجى. ويتحول إلى مديح أسلاف المستنصر ومديحه فى مائة وعشرين بيتا ذاكرا انتسابه إلى الفاروق عمر بن الخطاب، وهو انتساب يسمو إلى أعلى مرتقى، وينشد:

مستنصرٌ بالله منصورٌ بهِ   مؤيَّدٌ بعونهِ على العِدا
مُلْكٌ حكى مُلْكَ سليمانَ الذى   لم يتَّجه لغيره ولا ابْتَغى

ويشيد بعاصمة تونس ويشبهها بجنَّة الخُلْد كما يشبه قناتى المياه اللتين تحملانه من جبل زغوان إلى تونس واللتين جددهما المستنصر، بنهرين كبيرين، وكأن كل قناة إنما هى نفس الكوثر: نهر الفردوس. ويطيل فى وصف جنات أبى فهر والقصبة بتونس، ويتحدث عن بأس المستنصر وخيله وجيشه وفتكه بأعدائه، ويقول إنه ليث كفاح وغيث سماح وبحر جود فياض، قد طابت به الأيام، ويعدد فواضله عليه ومآثره منشدا:

بلغتُ آرابَ المنى فى دولةٍ   أولتْ يَدِى أَسْنَى الأيادى واللُّهَا[(١)]
والدَّهْرُ عِيدٌ والليالى عُرُسٌ   والدَّهْرُ أحلامٌ كأحلام الكَرَى[(٢)]

وكأنما تَهيج تونس بمباهجها فى نفسه الذكرى لمرابع شبابه ومراتع لهوه، ويتغنى بالحب، ويصف الكواكب والشهب كما يصف لهوه ومتاعه بالصيد، وكل ذلك فى نحو ثلاثين بيتا. ويعود بذاكرته إلى ماضيه متحدثا فى نحو ثلاثمائة بيت عن المدن التى نهبها النصارى والتى كانت تكتظ بالعلماء والسادة الأعلام، مصوِّرا كم نَعِم فيها مع خلَّانه من الشباب متنقلين بين قصور وجسور على شواطئ الأنهار وقرى ورُبى ومروج وبطاح، ويتغنى بمشاهد مدينة مرسية ونسائها الجميلات وكأنما يصف فردوسا مفقودا كان ملء عينيه وسمعه وقلبه، ومن قوله:

نَصيف من مُرْسيةٍ بمنزلٍ   ضَفَا به الدَّوْحُ على ماءٍ صَفَا[(٣)]
نقطع دُنْيانا بوَصْلِ الأنس فى   مُغْتَبَقٍ فى رَوْضه ومُغْتَدَى[(٤)]

---

(١) الأيادى: النعم. اللها: العطايا.
(٢) الكرى: النوم
(٣) نصيف: نقضى الصيف. ضفا الدوح: نما الشجر وكثر.
(٤) مغتبق: مكان الغبوق وهو شرب العشى، مغتدى: مكان الغدوّ فى الصباح.

وتتناجى بالمنى أنفسنا حيث تداعى الطَّيْرُ منها وانتجى[١]
تقسَّم الناسُ بها قسمين من بين خليٍّ قلبه ومُصْطَبى[٢]
إذا اجْتَنى زَهْرَ الجمال وامقٌ فيها اجْتَنى خِلْوٌ بها زَهْرَ الرُّبى[٣]
وكم أغانٍ كنظيم الدُّرِّ في تلك المغانى قد وَشاها مَنْ وَشى[٤]
وكم حديثٍ كنَثِير الزَّهْر في تلك المبانى قد حكاه مَنْ حكى

وهذه خطوط من اللوحة الباهرة التى رسم فيها مرسية وجناتها العطرة ونجوى الشباب هناك بالمنى فى أنس موصول، والناس قسمان محب وقع فى شرك الهوى وخال منه يوشك أن يقع فيه، وبينما يجتنى المحبُّ أزهار حبه من النظر أو من القُبل يجتنى الخلىُّ من مشاهد الطبيعة الخلابة، والناس هناك كأنما لا يقضون أياما، بل يقضون أعيادا تكتظ بالغناء والموسيقى وبأحلى سمر تهواه الأفئدة. ويطيل حازم فى رسم تلك اللوحة ووصف كل ما وقف به من عشرات الأماكن التى كانت تلتقى فيها الأرواح والأدواح، حتى إذا ودَّع تلك الجنان ارتسمت فى خياله قرطاجنة وخليجها ونزهاته مع صحبه فى فُلْكها، متساقين فيها كئوس الأنس فى حدائق، منتشين فيها بأكؤس الأحداق والعيون الساحرة. ويرسم للأماكن فيها لوحة لا تقل فتنة وجمالا عن لوحة مرسية. ويطيل فى وصف حدائقها وأزهارها من بنفسج وسوسن وورد وشقيق وخِيرِىّ ونرجس وياسمين، ويصف كلٍ ما يطوف بها من جبال ورياض ومنازل أو مغان يقول من يراها تفديها مغانى الشعب: شعب بَوَّان التى تغنى بها المتنبى، ويدعوها بالسقيا ويندب جَدَّها العاثر وما عفا فيها وفى أخواتها من رسوم الهدى ومعاهد الدين الحنيف. وقد استغرق ذلك كله من حازم نحو ثلاثمائة بيت، وكأنما أراد بما صور من تلك الفراديس أن يستثير المستنصر ليحاول إنقاذ الأندلس ويسترجع ما ضاع منها. ويشبب بمحبوبة له هناك باعدت بينه وبينها الأيام، وكأنما يتخذ من حبها الذى ضاع رمزا للأندلس الضائعة. ويلم بمديح المستنصر وكأنما استرد بإكرامه له شيئا مما ضاع منه. ويتحدث فى نحو مائتى بيت عن هجرته من الأندلس إلى تونس وما لقى فيها من المتاعب والمشاق التى احتملها فى جلد وصبر، ويفكر فى شئون الحياة وفى نفسه وخصاله وتسيل على لسانه عشرات من الحكم من مثل قوله:

---

(١) انتجى: تناجى.
(٢) خلىٌّ: خال من الحب. مصطبى: محب مغرم.
(٣) وامق: محب. خلو: خلىّ.
(٤) وشى: زين وزخرف.

ما أحدثتْ حادثةٌ لى روعةً ... ولا اعْتَرانى جَزَعٌ لما اعْتَرَى
والعيشُ طَوْرًا مُشْتَهىً مُسْتَمْرَأٌ ... وتارة مُسْتَوْبَلٌ ومُجْتَوَى
والعيشُ محبوبٌ إلى كل امرىءٍ ... لا فرقَ بين الشيخِ فيه والفتى
قد يُدْرِك الحاجةَ مَنْ لم يَسْعَ فى ... طِلابها وقد تفوتُ مَنْ سَعَى
إنَّ احتياطَ المرء فى أفعاله ... رأىٌ يؤدِّيه إلى سُبْل الهُدَى

ويطيل فى الكلام عمن ضلوا نهج الرشد فكان فى ذلك هلاكهم ممن تحدث عنهم التاريخ الجاهلى من مثل قصة النعمان وقتله لعدى بن زيد تسرعا، وقصة زرقاء اليمامة وتكذيب قومها لها حين حذرتهم أن جيشًا قادمًا ولم يصدقوها فكان فى ذلك حتفهم، وقصة الزبَّاء فى حصنها وكانت أمنع من عُقاب فى أعلى ذروة شاهقة، وكانت قد احتالت على جذيمة ملك الحيرة قاتل أبيها فقدم عليها وقتلته، وخلفه ابن أخته عمرو بن عدى، فدسَّ لها أحد أتباعه، فجدع لها أنفه وشكا إليها عمرا فوثقت به ووعدها أن يفد عليها بتجارة كبيرة محملة على إبل كثيرة. وعاد مع إبل تحمل رجالا فى جواليق أو صناديق، وفتحت له الحصن وهى تظنه يحمل بعض عروض التجارة، ودخلت الإبل ولفتها أنها تمشى مثقلة كأنها تحمل حديدا. ولم تتنبه. وخرج الرجال من الجواليق واستولوا على المدينة وقتلوها. هكذا تقول الأسطورة العربية، ومعروف أنها حاربت الرومان وظفروا بها فأخذوها أسيرة إلى روما حيث قضت بقية أيامها، وحازم إنما يروى الأسطورة العربية ليبيِّن ما حدث فيها من تغرير بالزباء وقصر نظرها وعدم احتياطها حين رأت الإبل تسير وئيدة من ثقل ما تحمل، يقول:

وغَرَّها جَدْعُ قَصيرٍ أنْفَهُ ... فأَمِنَتْهُ وهْوَ مرهوبُ الشَّدَا[1]
وأَوْقَرَ العِيسَ رِجالاً وعَبَا ... بُؤْسًا لها وأَبْؤُسًا فيما عَبَا[2]
وارتابَ فى مَشْىِ الجمال لحظُها ... ولم تحقِّق عندما قالت: عَسَى[3]
وما درتْ ما فوقها حتى غدتْ ... مُقْصَدَةً بسهمِ دَهْىٍ ما خَبَا[4]

ويتحدثُ عما تروى الأساطير والتاريخ عن رجالات العرب وملوكهم الجبابرة فى الجاهلية، وينصح بالحزم فى الأمور مع العزم، ويعرض كثرة من الأحداث عمن شبوا

---

(١) الشدا: الحدّ، شبه قصيرا بالسيف القاطع.
(٢) أوقر العيس: حمّل الإبل. عبأ: هيأ.
(٣) قالت عسى أى أنها شكّت ولم تتحقق من شكها وريبتها ولا ظنت بعض الظنون.
(٤) دهى: دهاء ومكر. خبا هنا: أخطأ.

نيران الحروب ومن أخطأهم الحظ مثل امرئ القيس فى ثأر أبيه حُجْر. ويسوق أخبارا كثيرة عن رجالات الإسلام من مثل الجحَّاف وإيقاعه بتغلب فى معركة البِشْر ومصعب بن الزبير وقضاء عبد الملك بن مروان عليه وفقدان الخنساء لأخيها صخر ومراثيها فيه، ويتذكر حاله وغربته عن وطنه وينشد:

إنَّ ثَوَاءَ المَرْءِ فى أوطانِهِ عِزٌّ وما الغُرْبَةُ إلا كالتَّوَى[1]

ويذكر طائفة من الجاهليين والإسلاميين الذين فارقوا أوطانهم وحنّوا إليها حنينا ملتاعا، راجين أن يشتفوا بجرعة أو جرعات من مياهها. ويعود إلى ذكر الأحداث فيذكر جيش أبرهة حين غزا مكة قبيل الإسلام وكيف أن الله قضى على كيده فأرسل على جيشه طيرا جماعات دمرته تدميرا. ويذكر قصة هدهد سليمان وبلقيس ملكة سبأ وسدَّ مأرب وانقضاضه وكيف أن الله أنقذ البشرية بإرساله نبىّ الهدى الذى أضاءت بنوره الآفاق، ويشيد بخلفائه وبفتح الأندلس، وبانتصار الموحدين فى موقعة الأرَك سنة ٥٩١. ويقول إن الأندلس أصبحت بعد هذا التاريخ فريسة للثوار، وعمَّ طوفان فتنة انجلى عن ضياع جواهر الأندلس الكبرى: قرطبة وإشبيلية ومرسية، وأصبحت لسانُ الحال تملى شجوها، وبكى كلُّ ما هنالك وبكت حتى الأنهار بدمع هام وأنَّت الوديان وبثَّت شكواها الثغور والمدن، وانتثرت الأندلس كحبَّات عقد فى حجور نصارى الشمال، واحتووا كل ما بتلك الديار من ذخائر الدين الحنيف، ويستثير بكل ذلك حفيظة المستنصر ويهيب به أن ينجد الأندلس ويسترجعها من براثن الإسبان منشدا:

ولــو سَمــا خليفــةُ الله لهــا لافْتَكَّها بالسَّيْف منهم وافْتَـدَى
ففى ضمان سَعْدِه مِنْ فَتْحِهــا دَيْنٌ على طَرْف العَوَالى يُقْتَضَى[2]
فقد أشادتْ أَلْسُنُ الحـال به حَىَّ على اسْتِفْتاحِها حَىَّ على
أثْأَى العِدا ما كان مرءوبًا بها وهو الذى يُرْجَى به رأْبُ الثَّأَى[3]
مــا زال يُمْلِى المَلَوان نَصْــرَهُ وسَيْفُهُ يختطُّ ما يُمْلِى المَلَا[4]

ويمضى فى استصراخه لإنقاذ الأندلس بكل ما يستطيع من كلم مثير، ويهتف بهتاف

---

(١) ثواء: إقامة. التوى: الهلاك.

(٢) العوالى: الرماح.

(٣) أثأى العدا: أكثر من القتل فيهم والجراحات.. مرءوبا: ملتئما. رأب الثأى: إصلاح الصدع والفتق.

(٤) الملوان: الليل والنهار. الملا هنا: الخلق الكريم.

المسلمين فى كل أذان: «حيَّ على» استفتاحها أى أقدم أقدم وياخيلِ الله اركبى الطريق، فقد فتق الأعداء ما كان ملتئما بها، وهو الذى يُرْجَى به لْأمُ ما انفتق، وإنه لمعوّد النصر. وما تزال انتصاراته تتوالى وما يزال يمليها على الأيام، ويستثير حميته، ويتصور كأن جيشه يوشك أن ينقض على الأعداء فيسحقهم، ويقول إن طاعته من طاعة الله، ويتمنى على ربه العفو والرضا، وينصح الإنسان أن لا يغتر بعمره وأن يعمل لآخرته قائلا:

لا تَلْهُ فى وجودك الأوَّلِ عن وُجُودِك الثانى ونَهْنِهْ مَنْ لَهَا[1]

ويقول إن للنفس وجهين: وجها يشدّها إلى عالم القدس والنور أو عالم الكمال الأعلى ووجها يشدُّها إلى عالم الدنيا وشهوات الحياة، والعاقل من حرص على التمسك بسُنن السنة والاقتداء بأهلها وأن لا يأخذ من الآراء إلا ما وافق أقوال الله فى فرقانه وأن يحرص على صنع الخير والعمل الصالح. ويتحدث عن قصيدته أو مقصورته وما بذل فيها من جهد فى تخير الألفاظ والمعانى، وهى - كما رأينا - مجموعة من لوحات بديعة تخلب القارئ بروعتها البيانية.

---

(١) نهنه: ازجر.

الفصل الرابع
طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل

لا نبالغ إذا قلنا إن الغزل أهم موضوع شغل شعراء العرب فى جميع عصورهم وأقاليمهم، وقد ظلوا يصورون فيه عاطفة الحب الإنسانى الخالدة، ويضيفون فيه من الأحاسيس والخواطر ما يملأ مجلدات فى كل عصر على حدة، بل أيضا فى كل إقليم. ودائما الشاعر موزع بين وصال ولقاء وبين وداع وفراق، تارة هانئٌ بحبه وتارة شقى محروم يشكو الهجران، ويتمنى لمحة خاطفة ولو من بعيد، حتى إذا أقبلت عليه صاحبته أحسَّ بفرحة لا تماثلها فرحة، فإذا انصرفت عنه أظلمت الدنيا فى عينيه، واحتمل ما لا يطاق من الآلام والعذاب، ومضى يئن بالشكوى ويتضرع ويستعطف. والغزل من قديم يتفرع عند العرب فرعين كبيرين: فرعا ماديا حسيا، يصدر فيه الشاعر عن الغريزة النوعية أحيانا، إذ مأربه منه اللذة الحسية، وهو لذلك قد يعنى بتصوير متاعه المادى فيه تصويرا مزريا وفرعا ثانيا عذريا عفيفا يتسامى فيه الشاعر عن الحس والمادة إلى النقاء والصفاء والطهر، وكأنه يحب صاحبته لمعانى الحب والوجد فى ذاتها، لا لشىء حسى وراءها، وهو الفرع الذى نمتلئ به إعجابا عند شعراء العرب، ممن أحبوا واستأثر الحب بقلوبهم وأفئدتهم، حتى كأنما أصبح نارا فى صدورهم لا يمكن إطفاؤها، وهم يتعذبون بتلك النار وما تذيقهم من العذاب واجدين فيها متاعا لا يفوقه متاع، متاع يرافقه دائما الحرمان والدموع والآلام. وهذان الفرعان من الحب العذرى والحب المادى يكتظ بهما الشعر الأندلسى ولأولهما دائما الغلبة والرجحان، ونشعر كأنما أصبح الناس جميعا شعراء ينظمون فى الغزل والحب وبيان دقائقه ومشاعره، سواء فى ذلك أمراء البيت الأموى وحكامه أو أبناء الشعب عربا وبربرا ومسالمة ومولدين، من ذلك قول الحكم الربضى فى جَوارٍ غاضبْنه وهَجَرْنه [١]:

(١) انظر فى مقطوعة البيتين الحلة السيراء ١/ ٥٠ والبيان المغرب لابن عذارى ٢/ ٧٩.

قُضْبُ من البانِ ماسَتْ فوق كُثْبانِ — أعرضْن عنى وقد أَزْمعْنَ هجرانى
مَلَكْنَنِى مِلْكَ من ذلَّت عزائمهُ — للحب ذُلَّ أسيرٍ موثَقٍ عانِ

وهو يشكو من هجر هؤلاء الجوارى، ويعترف بأنهن يملكنه، بل يأسرنه بأغلال الحب، ويستعطفهنَّ متذللا. وكانت طروب زوجة ابنه الأمير عبد الرحمن الأوسط قد شغفت زوجها حبا، غير أنه كان يعرف واجبه من قيادة الجيش فى الدفاع عن الأندلس ضد أعدائه الشماليين، مما جعله يمزج غزله فيها ببيان شجاعته مثل قوله[1]:

إذا ما بدتْ لىَ شمسُ النها — رِ طالعةً ذكَّرتْنى طَروبا
عَدانِىَ عنكِ مَزارُ العِدَا — وقَوْدى إليهم لُهامًا مهيبا[2]
سموتُ إلى الشرك فى جَحْفَلٍ — ملأتُ الحُزُونَ به والسُّهُوبا

وقد استهل القصيدة بستة أبيات فيي الغزل بطروب ثم خلص إلى بيان بأسه وقوة جيشه واقتحامه معه للحزون والسهوب أو للمرتفعات والفلوات وكيف ظل طويلا يَدَّرع غبار القتال حتى استحالتْ نضرة وجهه شحوبا ابتغاء ما عند الله من ثواب المجاهدين عن حِمى الإسلام، ويفتخر بنسبه الأموى وأنه لا يزال يضرم ويطفئ حروبا فى سبيل نصرة الدين الحنيف واستئصال أعدائه من أهل الصليب. وحسبنا ذلك من أمراء البيت الأموى فى القرنين الثانى والثالث للهجرة على لسان الحكم وابنه عبد الرحمن. ولمؤمن بن سعيد شاعر عبد الرحمن[3]:

حُرِمْتُكِ ما عدا نظرا مُضِرًّا — بقلبٍ بين أضلاعى مقيمِ
فعينى منك فى جَنَّات عَدْنٍ — مخلَّدة وقلبى فى الجحيم

والبيتان تلاعبًا بالمقابلة بين جنات عدن والجحيم أكثر منهما غزلا يعبر عن عاطفة حارة، وللقلفاط الهجَّاء غزلٌ يُرْوَى فى ترجمته بالكتب الأدبية من مثل قوله[4]:

ياغزالاً عنَّ لى فابْـ — ـتَزَّ قَلْبى ثم ولَّى
أنتَ منى بفؤادى — يا مُنَىَ نفسىَ أولى

وهما بيتان رقيقان ولغتهما عذبة. ولابن عبد ربه شاعر الأمير عبد الله وحفيده

---

(١) راجع فى قصيدة هذه الأبيات الحلة السيراء ١١٤/١. والمغرب ٤٧/١ والبيان المغرب ٨٥/٢.
(٢) لهاما: جيشا كثيفا.
(٣) المغرب ١٣٣/١.
(٤) طبقات النحويين واللغويين للزبيدى ص ٣٠٢ ومرت فى الحديث عن الهجاء مصادر ترجمته.

عبد الرحمن الناصر غزليات فيها جمال فى التصوير ورشاقة فى التعبير كقوله [١]:

يـالؤلؤا يَسْبِى العقـولَ أنيقـا ورَشًـا بتعـذيب القلوب رفيقـا
ما إن رأيتُ ولا سمعتُ بمثلهِ دُرًّا يعودُ من الحيَـاء عَقيقـا
وإذا نظرتَ إلى محاسنِ وَجْهِهِ أبصرتَ وجهك فى سَنَاه غَريقا
يـامَنْ تقطَّع خَصْـرُهُ من رِقَّـةٍ ما بالُ قلبك لا يكون رقيقا

والصور متناسقة تناسقا بديعا فاللؤلؤ الأبيض تتضرج الخدود منه بحمرة الحياء فيصبح عقيقا أو ياقوتا، والبصر يغرق فى محاسن الوجه وسناها أو ضوئها المتوهج جمالا وفتنة، والخصر رقيق رقة شديدة، واللغة فيها انسياب وصفاء وسلاسة، وللحكم المستنصر [٢]:

عجبتُ- وقد ودَّعتُها- كيف لم أَمُتْ وكيف انثنتْ بعد الوَداع يدى معى
فيامُقْلتى العَبْرَى عليها اسْكُبِى دَمًا ويـا كَبِدى الحَـرَّى عليهـا تقـطَّعى

والبيتان ينمان عن شعور مرهف رقيق، ولغتهما سلسة. ومن كبار الشعراء لعهد الحكم المستنصر الرمادى وسنفرد له كلمة، ومنهم أحمد بن فرج الجيانى وقد زَجَّ به المستنصر فى سجن ببلدته جَيَّان لما رُفع له من أنه هجاه، فسجنه ومات فى سجنه، ولم يشفع له تأليفه كتاب الحدائق الذى تحدثنا عنه فى غير هذا الموضع، وهو يعد بحق حامل لواء الشعر العذرى فى الأندلس، كما يتضح فى قوله [٣]:

وطـائعةِ الـوِصالِ عَفَفْتُ عنهـا ومـا الشيـطانُ فيهـا بـالمـطاعِ
بدتْ فى الليل سَافِرَةً فبـاتتْ دَياجى الليل سَافرةَ القِناعِ [٣]
ومـا من لحـظةٍ إلا وفيهـا إلى فِتَنِ الـقلوب بهـا دَواعِ
فملَّكْتُ النُّهى جَمَحاتِ شـوقى لأجرى فى العفافِ على طباعى
وبتُّ بهـا مبيتَ السَّقْبِ يَظْمـا فيمنعه الكِعامُ من الـرَّضاعِ [٤]
كـذاك الروضُ مـا فيه لمثلى سـوى نَـظَرٍ وشَمٍّ من مَتـاعِ

---

(١) النفح ٥٦٤/٣.
(٢) مغرب ١٨٧/١.
(٣) انظر فى ترجمة أحمد بن فرج الجيانى وشعره الحميدى ص٩٧ والقلائد ص٧٩ والبغية ص ١٤٠ والمغرب ٥٦/٢ والمطرب ص٤ ومعجم الأدباء ٢٣٦/٤.
(٤) السقب: ولد الناقة. الكعام: ما يجعل على فمه لمنعه من الرضاع.

ولستُ من السَّوائم مُهمَلاتٍ فأتخذَ الرِّياضَ من المراعي[1]

وابن فرج الجيانى يصف لنا جمال صاحبته الخلاب وأنها كانت طوع وصاله وحبه، وكيف أنه أمضى معها ليلة سافرة فاتنة فؤاده، وفى كل لحظة تتجدد فتنتها، ومع ذلك ظل معتصما بالعفاف المفطور عليه، يردُّ بعنفٍ جمحات عواطفه وغرائزه، ساميا بنفسه عن عالم الحيوانية والغَريزة النوعية إلى عالم كله سمو وصفاء ونقاء وطهر ما وراءه طهر. ويصور نفسه مثل سقب يظمأ والكعام على فمه، بل إنه ليكفيه من صاحبته النظر، يشفى به غليله إذ ليس كغيره ممن حوله المشبهين للحيوانات المرسلة فى المراعى ترعى كل ما تلقاه. ولا نشك فى أن هذا التسامى اقترن بالحب والغزل فى الأندلس منذ أول الأمر، غير أن ابن فرج الجيانى عبّر عنه فى لوحة بديعة، وكأنما رسمه فيها وجسَّده تجسيدا قويا. ولجعفر المصحفى وزير الحكم المستنصر[2]:

كلَّمتْنى فقلتُ: دُرٌّ سَقِيطٌ فتأمَّلتُ عِقْدَها هل تَناثَرْ
فازْدهاها تبسّمٌ فأرتْنِى عِقْدَ دُرٍّ من التبسمُ آخَرْ

واستعارة الدر للكلام وللثغر قديمة، غير أن المصحفى عرف كيف يحورها ويعرضها عرضا بديعا، حتى ظَن من حسن كلام صاحبته أنها تلفظ دررا حقيقية أو أن عقدها تناثرت درره وحباته. وللشريف الطليق حفيد الناصر غزليات كثيرة، وسنخصه بكلمة.

وتنشب الفتنة وتموج الأمور وتضطرب اضطرابا شديدا، ويتولى الخلافة ما يقرب من سبع سنوات سليمان الملقب بالمستعين أحد أحفاد عبد الرحمن الناصر، وكان يحسن نظم الشعر، وضاع شعره مع ما ضاع زمن الفتنة، إلا قصيدة نظمها معارضة لقصيدة هرون الرشيد: «ملك الثلاث الآنسات عنانى» وفيها يقول المستعين[3]:

عجبًا يهابُ اللَّيْثُ حدَّ سِنانِى وأهابُ لَحْظَ فَوَاتِرِ الأجْفانِ
وتملَّكتْ نفسى ثلاثٌ كالدُّمَى زُهْرُ الوجوه نواعمُ الأبدانِ
فأبحَنْ من قلبى الحِمىَ وتركْنَنِى فى عِزِّ مُلْكى كالأسِيرِ العانى
لا تَعْذِلُوا مَلِكا تذلَّل للهَوَى ذلُّ الهوى عِزٌّ وملكٌ ثانِ

(١) السوائم: الحيوانات المخلّاة فى المراعى.
(٢) رايات المبرزين لابن سعيد (طبع القاهرة) ص ٦٩ وانظر فى جعفر وشعره المطمح ص ٤ والحلة السيراء ٢٥٧/١ – ٢٦٧ والذخيرة ٥٨/٤ وما بعدها.
(٣) الذخيرة ٤٧/١.

والقصيدة غزلية بديعة. ولم يهنأ المستعين بخلافته إلا نحو سبع سنوات، وفتك به بنو حمود واستولوا على الخلافة. وعادت إلى أحفاد عبد الرحمن الناصر بعد سبعة أعوام، وتولاها عبد الرحمن بن هشام الملقب بالمستظهر سنة ٤١٤ لمدة شهرين إذ فتك به ابن عمه المستكفي. وكان المستظهر شاعرا وشغف بابنة عم من أعمامه، وروى له ابن بسام فيها أربع مقطوعات تصور حبه لها ومدى تعلقه بها من مثل قوله [١]:

غزالٌ براه الله من نورِ عَرْشِهِ لتقطيع أنفاسي وليس من الإنْسِ [٢]
وَهبتُ له مُلْكي وروحي ومُهْجَتِي ونَفْسِي ولا شيءٌ أعزُّ من النَّفْسِ

وكثيرون من أبناء البيت الأموي تترجم لهم كتب الأدب وتذكر لهم غزليات وأشعارًا مختلفة. ومن الشعراء المهمين الذين عاشوا بقرطبة زمن الفتنة عبادة بن ماء السماء الخزرجي الأنصاري الذي أعطى الموشحة صيغتها النهائية، ومن غزلياته قوله [٣]:

إذا رُمْتُ قَطْفَ الوَرْدِ ساورَني الصُّدْغُ بعقربِ سِحْرٍ في فؤادي له لَدْغُ [٤]
غـزالٌ بجسمي فَتْرَةٌ من جُفُونِهِ وفي أَدْمعي من لون وَجْنَته صِبْغُ
زيـارتُه أَخْفَى خفـاءً من السُّهَـا ودون فراغي من محبته الفَرْغُ [٥]

وهو يقول إنه إذا رام قطف الورد من خدود صاحبته ساوره أو وثب عليه ومنعه عقرب الصدغ، وإنه ليشعر بلدغاته في فؤاده. وزعم أنها أعْدت دموعه بلون خدودها الوردية كما أعْدت جسمه بفتور جفونها وانكسارها البديع، ويقول إن زيارتها تتعذّر عليه حتى لتصبح كأنها نجم السُّها الذي تتعذر رؤيته. ويقول ابن شهيد معاصره، وكان شاعرا بارعا وكاتبا مبدعا، وسنترجم له بين الكتّاب، ومن غزلياته قوله [٦]:

ولما فشا بالدمع من سرِّ وَجْدنا إلى كاشِحينا ما القلوبُ كواتمُ [٧]
أَمرنا بإمْساك الدُّموع جفـونَنا لِيَشْجَى - بما تَطْوِى - عَذولٌ ولائمُ
فظلَّتْ دموعُ العَيْن حَيْرَى كأنها خِـلالَ مـآقينـا لآلٍ تـوائمُ

وتصويره لدموعه ودموع صاحبته وإمساكها بها تترقرق في جفونها ولا تسقط باللآلئ التوائم تصوير بديع.

---

(١) الذخيرة ١/ ٥٧.
(٢) براه: خلقه.
(٣) الذخيرة ٤٧١/١.
(٤) ساوره: وثب عليه.
(٥) السها: نجم خفيّ. الفرغ هنا: الموت والهلاك.
(٦) ديوان ابن شهيد (تحقيق يعقوب زكى) طبع القاهرة ص ١٥٤.
(٧) الكاشحين جمع كاشح: العدو المبغض.

وتتكاثر سيول الغزل فى عصر أمراء الطوائف، عصر الغناء واللهو ومجالس الأنس، ونجده متداولا شائعا على ألسنة جميع الأمراء والوزراء والشعراء والفقهاء، وكأنه تمائم يضمونها جميعا الى صدورهم وفى مقدمتهم الفقيه ابن حزم، وسنفرد له ترجمة بين الكتّاب، وكان شاعرا وله غزليات كثيرة منها قوله[١]:

وددتُ بأن القلب شُقَّ بمُدْيةٍ ... وأُدْخلتِ فيه ثم أُطْبِقَ فى صَدْرى
فأصبحتِ فيه لاتَحُلِّين غيره ... إلى مُقْتَضَى يوم القيامة والحَشْر
تعيشين فيه ما حييتُ فإن أَمُتْ ... سكنتِ شِغافَ القلب فى ظُلَم القَبْرِ

وقوله متحولا بمحبوبه، أومحبوبته، إلى إدراك مجرد وراء صورته الحسية[٢]:

أَمِنْ عالم الأملاك أنت أم اَنْسِىُّ ... أَبِنْ لِى فقد أزرى بتمييزىَ العِىُّ
أرى هيئةً إنْسِيَّةً غير أنه ... إذا أُعْمل التفكير فالجِرْمُ عُلْوِىّ
عدمنا دليلاً فى حدوثك شاهدا ... نقيسُ عليه غير أنك مَرْئِىّ
ولولا وقوعُ العَيْن فى الكَوْن لم نَقُلْ ... سوى أنك العقلُ الرفيعُ الحقيقىّ

فهو لا يدرى أمحبوبه إنسى أم ملاك طاهر، ويحار، وتعظم حيرته، فالهيئة إنسية، والجسد علوى، بل لكأنه تخلص من جسديته، ولولا أن العين تبصره وتشاهده لظن أنه العقل الرفيع الذى لا يحده مكان حسى. ونلتقى بابن برد الأصغر، وسنخصه أيضا بترجمة بين الكتاب، وكان مثل ابن حزم شاعرا، وله غزل بديع مثل قوله[٣]:

لما بَدَا فى لازَوَرْ ... دِىِّ الحَرير وقد بَهَرْ
كبَّرتُ من فَرْط الجما ... لِ وقلتُ: ماهذا بَشَرْ
فأجابنى: لا تُنْكِرَنْ ... ثَوْبَ السماءِ على القَمَرْ

والأبيات تنم عن شعور رقيق مرهف مع عذوبة الألفاظ والصياغة وجمال الخيال والتصوير. ولأبى جعفر الخولانى أحد شعراء المعتضد بن عباد صاحب إشبيلية:[٤]

بَدْرٌ ألَمَّ وبدرُ التِّمِّ مُمْتَحِقٌ ... والأُفْقُ مُحْلَوْلِكُ الأرجاءِ من حَسَدِ[٥]
أردتُ توسيدَه خَدِّى وقلَّ له ... فقال: كفُّك عندى أفضل الوُسُدِ

---

(١) طوق الحمامة (تحقيق د. الطاهر مكى) طبع دار المعارف ص ٩٢.
(٢) طوق الحمامة ص ٢٥.
(٣) المغرب ١/٩٠.
(٤) الذخيرة ٢/١٣٦.
(٥) بدر التم: البدر فى تمامه واكتماله. ممتحق: مختف نوره. محلولك: شديد السواد.

فبات في حَرَمٍ لا غَـدْرَ يَذْعَـرُهُ ... وبِتُّ ظمـآنَ لم أَصْـدُرْ ولم أرِدِ

فكأنما بات بجوار صاحبته في حرم مقدس ملتزما للعفاف لا ينقع غُلَّة حبَّه بِرِيٍّ منها ورشف والمنهل طوع يده وهو لا يَرِدُه ولا يصدر عنه، بل يكتفي بتكرار النظر للخدود والوجنات. وينشد له ابن بسام قطعا أخرى مماثلة في العفاف مع ما يحمل من ألم الحب وأثقاله.

وشاع في الأندلس - كما مر بنا في الشواهد السابقة، وكما يلي في شواهد مماثلة - هذا الغزل العذري أو الروحي السامي الذي تُعَدّ العفة مقومه الأساسي والذي يجري فيه هيام ليس بعده هيام مع الإجلال للمرأة والشعور بقدسيتها حتى ليشرد لبُّ المحب والمحبوبة معه ويغيب عن حسه، مكتفيا منها - وهي طوع يديه - بنظراته وكأنه في حلم - أو - كما يقول الخولاني - في حرم مقدس.

وهذا الحب الأندلسي العذري أو الروحي النقي تطاير شرر كثير منه إلى الأدبين الإسباني والفرنسي، وهو يتضح عند الإسبان أشد الوضوح في قصة دون كيشوت لسرفانتس (١٥٤٧ - ١٦١٦ م) وهو يذكر في سطورها الأولى أنه يقصُّها عن عربي، وكأنه مترجم لها فحسب. ونمضي في قراءتها فنشعر كأنما تجسد في بطلها الفارس العاشق: دون كيشوت الحب الروحي السامي الأندلسي، وهو يخرج في حبه عن طوره ويصيبه الجنون أو ما يشبه الجنون، إذ يهيم - ومعه تابعه سانشو - على وجهه متنقلا في إسبانيا مقتحما في أوقات جنونه كل ما يصادفه - أو يظنه - من أخطار أملا في رضا محبوبته. وكلما تغلب على خطر تذكرها، إذ هي مثله الأعلى، وهو لذلك لا يزال يقدم إليها حبَّه وشجونه فيه. وعلى نحو ما يتألق شعر الحب الروحي الأندلسي عند الإسبان في قصة دون كيشوت يتألق عند الفرنسيين فيما نظمه شعراء التروبادور في القرن الثاني عشر الميلادي، إذ تتشابه أشعارهم من حيث الشكل وطريقة النظم والعروض والأغصان والأقفال والقوافي مع الموشحات الأندلسية[١]، وأيضا فإنها تتشابه معها ومع الغزل الأندلسي العفيف في المضمون: في عذاب الحب وحرقة القلب والخشوع أمام المحبوبة والطاعة والتذلل بين يديها وأيضا فيما يجري في هذا الغزل من ذكر خداع المحبوبة أحيانا وذكر الرقباء والوشاة. ويقول عبد الرحمن بن مُقانا[٢]:

(١) انظر الدكتور مكي في كتاب أثر العرب والإسلام في النهضة الأوربية (طبع الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر) ص ٥٧ وما بعدها.

(٢) الذخيرة ٢/٧٨٨.

لمن طَللٌ دارسٌ باللِّوَى ... كحاشية البُرْد أو كالرِّدَا
رمادٌ ونُؤْىٌ ككُحْلِ العروسِ ... ورَسْمٌ كجسمٍ بَراه الهَوَى
غدا مَوْسمًا لوفود البِلَى ... وراح مَراحًا لِسِرْب المَهَا
عجبتُ لطيفِ خيالٍ سَرَى ... من السِّدْر أنَّى إلىَّ اهتدى
وكيف تجاوز جَوْزَ الحجازِ ... وجَوْزَ البحار وسِدْرَ المُنَى
ولم يَثْنِه حرُّ نارِ الضلوعِ ... وبَحْرُ الدموع وريحُ النَّوَى
فذكَّرَ أيامنا بالعَقيقِ ... ولَيْلتنا بهضاب الحِمَى

وقد ضمن الحديث عن الأطلال وطيف الخيال صورا وخواطر جديدة، فالطلل الدارس باللوى أو منقطع الرمل يشبه فى عين المحب الواله الرداءَ المعلمَ أو حاشيته المنمنمة، والرماد كأنه كحل العروس سوادا والتماعا. وقد أصاب الرسم أو الطلل - لفراق أحبائه - ضنا المحبين، ولم يكتف بأن جعله مسرحا لبقر الوحش مثل امرئ القيس فى مطلع معلقته فقد جعله أيضا موسما لوفود البِلَى، وأيضا لم يكتف فى ذكر المواضع بموضع شجر السدر فى حمى صاحبته، فقد أضاف اليه مواضع أخرى من الجزيرة: جوز (وسط) الحجاز والعقيق أحد وديانه. وكل ذلك ليجلب إلى قصيدته جوًّ بوادى الحجاز وحبّها العذرى الملتاع، وصوَّره مضطرما فى حنايا ضلوعه. وعجب أن يصل إليه طيف الخيال ولا تثنيه النار الصاعدة من صدره ولا بحار الدموع المنهمرة من عينيه، ولا ريح النَّوَى العاصفة، وبذلك مزج الغزل الأندلسى بروح الغزل العذرى الظامئ المتلهف أبدا.

ويقول محمد بن البَيْن وزير يحيى الوالى على يابُرة لأبيه المظفر أمير بطليوس (٤٣٠ - ٤٦٠ هـ) فى إحدى قصائده[١]:

غَصَبوا الصَّباحَ فقسَّموه خُدودا ... واستوهبوا قُضُبَ الأَراك قُدُودا
ورأوا حَصَى الياقوت دون محلِّهم ... فاستبدلوا منه النجومَ عُقودا
واستودعوا حَدَقَ المهَا أجفانَهُمْ ... فَسَبَوْا بهنَّ ضَرَاغِماً وأُسُودا
لم يَكْفِ أن سَلَبُوا الأسنَّةَ والظُّبَا ... حتى استعانوا أعينًا ونهودا
وتضافروا بضَفائرٍ أَبْدَوْا لنا ... ضَوْءَ النهارِ بِلَيْلها مَعْقودا

وهى قطعة من الغزل الفريد بروعة تصاويره، وهى مثل سابقتها من أطرف ما يصور تواصل الشعر الأندلسى مع أصوله الشعرية العربية، فكل ما فى القطعة من صور طالما

(١) الذخيرة ٢/٨٠٢ والمغرب ١/٣٧٠.

كرره العرب فى غزلياتهم، فقالوا إن الخدود مشرقة كالصباح، والقدود أو القامات كغصون الأراك، وجواهر العقود على الترائب كالنجوم، والحدق تسبى الضراغم والأسود، وكأنما الأعين والنهود أسنّة وظبا سيوف، وكأنما الضفائر ليال حالكة السواد. وكل ذلك صاغه ابن البين هذه الصياغة الرائعة، فإذا كل هذه الصور تأخذ نسقا أندلسيا جديدا، ينعش الفكر بعبقه. ومن أصحاب الغزل المبدعين المعاصرين لابن البين ابن زيدون وسنفرد له ترجمة مع صاحبته ولادة.

ونلتقى بابن الحداد الذى ترجمنا له بين شعراء المديح، ويقول ابن بسام فى ترجمته[١] له: «كان قد مُنِى فى صباه بصبية نصرانية ذهبت بلبه كل مذهب.. وكان يسميها نُوَيرة كما صنع الشعراء الظرفاء قديما فى الكناية عمن أحبوه».. وكان اسمها الحقيقى جميلة» وإنما اختار لها هذا الاسم تصغيرا لكلمة «نار» التى أشعلها حبها فى قلبه» وأنشد ابن بسام له فيها إحدى عشرة منظومة بين قصيدة ومقطوعة، وفيها يعرض مرارًا لعقيدة التثليث المسيحية وللقسس والصلوات فى الكنائس، وهو يستهلها بتائية يذكر فيها حضوره لرؤية فتاته المسيحية الاحتفالَ بعيد فصحٍ فى إحدى الكنائس وقد تراءى الأسقف ممسكا بمصباح وعَصًا ومن حوله القسس وعينه تسرح - كما يقول - فى الحسناوات المسيحيات، والجميع يتلون صحف الإنجيل، ويخلص من ذلك إلى وصف مشاعره تلقاء فتاته فيقول[٢]:

الشمسُ شمسُ الحسنِ من بينهم … تحت غَماماتِ اللِّثاماتِ
ونـاظرى مختلِسٌ لَمْحَها … ولَمْحُها يُضْرِمُ لَوْعاتى
وفى الحَشَا نارُ نُوَيْرِيَّةٌ … عُلِّقْتُها منذ سُنَيَّاتِ
لا تَنْطِفى وقتًا وكم رُمْتُها … بل تَلْتظى فى كل أوقاتى

وفى ذكر ابن الحداد لغمامات اللثامات فى البيت الأول ما قد يشير إلى أن فتاته كانت راهبة، ويؤكد ذلك أنه دائما فى أشعاره لها لا يراها إلا فى الكنائس وبين القسس فى أثناء التراتيل والصلوات مع تكراره لذكر الصلبان وعقيدة التثليث. وكان حبا فى صباه كما يقول ابن بسام - أو فى بواكير شبابه، وكان من جانب واحد إذ لا وصف فيه للقاء ولا لوداع.

---

(١) الذخيرة ٦٩١/١ وما بعدها.

(٢) الذخيرة ٧٠٥/١.

وكان فى هذا العصر كثيرات من الحرائر والجوارى يحسنَّ نظم الشعر، إذ كان الآباء - أمراء ووزراء وعلماء وأدباء - يعنون بتثقيف فتياتهم، كما مر بنا فى غير هذا الموضع، وبالمثل كانت هناك عناية واسعة بتثقيف الجوارى، وكانت تستيقظ فى أثناء هذا التثقيف ملكات بعضهن الشعرية، واشتهرت من دانية «العبادية»[1] التى أهداها أميرها مجاهد العامرى إلى المعتضد أمير إشبيلية بأنها كانت أديبة ظريفة كاتبة شاعرة مع معرفة دقيقة باللغة، واقترن بها المعتضد، وتصادف أن سهر ليلة لأمر شغله، وكانت نائمة، فقال:

تنامُ ومُدْنفها يَسْهَرُ   وتَصْبر عَنْه ولا يَصْبِرُ

فأجابته بديهة بقولها:

لئن دام هذا، وهذا بهِ   سيهلك وَجْدًا ولا يَشْعُر

وكانت لا تقل عنها إجادة للشعر مع سرعة البديهة «اعتماد»[2] الملقبة بالرُّمَيْكيَّة زوجة المعتمد ابنه، وهى إشبيلية، ويقال إن سبب معرفته بها أنه ركب نهر إشبيلية فى نزهة مع ابن عمار وزيره، وقد أحالت الريح سطح النهر إلى ما يشبه زَرَدَ الدِّرْع: فقال المعتمد لابن عمار: أجِزْ

صَنَعَ الريحُ من الماءِ زرَدْ

فأطال ابن عمار التفكير ولم تسعفه بديهته، فقالت فتاة من الغسَّالات على حافَّة النهر:

أىّ دِرْعٍ لقتالٍ لو جَمَدْ

فعجب ابن عباد من حسن ما أجازت به الفتاة الشطر الذى صاغه، مع عجز ابن عمار الشاعر النابه، والتفت إليها، فأعجبته، فسألها: أأنت متزوجة؟ فقالت: لا. فتزوجها وهى أم أولاده النجباء: الراضى وإخوته وأختهم بثينة وكانت شاعرة. وعلى شاكلة الرُّميكية والعبادية «غاية[3] المنى» جارية المعتصم بن صمادح أمير المرية، وكانت قينة مغنية وتجيد نظم الشعر، وعُرضت عليه، فلما مثلت بين يديه قال لها: ما اسمك؟ قالت: غاية المنى، فقال لها: أجيزى:

سَلْ هَوَى غايةِ المُنَى

(١) انظر فى العبادية والخبر المذكور عنها نفح الطيب ٢٨٣/٤

(٢) راجع فى اعتماد الرميكية النفح ٢١١/٤.

(٣) انظر فى غاية المنى القسم الثانى من السفر الثامن للمراكشى ص ٤٨٨ وما بعدها.

فقالت بديهة:

مَنْ كَسَى جِسْمِيَ الضَّنَا
وأرانى مدلَّها سيقول الهوى أنا

وأُعجب بها، واستبقاها بين جواريه، وربما كانت أم ابنته أم[١] الكرم، وكان أبوها المعتصم قد اعتنى بتأديبها، لما رأى من ذكائها، حتى نظمت الشعر والموشحات وأحبّت - كما يقول ابن سعيد - الفتى المشهور بالسمار، وأنشد لها:

ألا ليت شِعْرِى هل سبيلٌ لخلوةٍ ينـزَّهُ عنهـا سَمْـعُ كـلِّ مـراقـبِ
ويـا عجبًا أشتـاق خَلْوَةَ مَنْ غدا ومَثْـواه مـا بين الحَشَـا والتَّـرائِبِ

والصورة فى البيت الثانى تدل على أنها كانت شاعرة تجيد نظم الشعر، ولعلها كانت تجيد أيضا نظم الموشحات.

ونمضى إلى عصر المرابطين، ويلقانا غزل كثير على ألسنة الشعراء، إذ لا يكاد يوجد شاعر فذ إلا وهو ينظم فيه معبرا عن مشاعره الوجدانية، من ذلك قول الأعمى التطيلى[٢]:

أريقُ ثَغْـرِك أم بنتُ الزَّراجينِ وعَرْفُ نَشْرِك أم مسكٌ لِدَارِينِ[٣]
جسمٌ بَـرَاه الإلهُ حين صـوَّرَهُ من ماء لؤلؤةٍ والناسُ من طينِ
وحاش لله أن يُعْزَى إلى بَشَرٍ أو أن يضافِ لِحُسْنَ الخُرَّدِ العِينِ[٤]
يُديرُ لى مُقَلاً مَرْضَى بـلا سَقَمٍ يُميتنى تـارةً فيـهـا ويُحْـيينـى
كم زَفْرَةٍ تستعيرُ النـارُ وَقْدَتَهـا ولـوعـةٍ طَىَّ أضـلاعى تنـاجينى

وهو يقرن ريق صاحبته إلى الخمر ورائحتَها الطيبة الذكية إلى مسك دارين: مرفأ لسفن الهند على الخليج العربى كانت تُحْمَل إليه أنواع المسك والطيب، طالما أشاد بطيبه ومسكه شعراء العرب. ويجعل صاحبته ملاكا صوَّره الله - حين خلقه - من ماء لؤلؤة

---

(١) راجع فى أم الكرم المغرب ٢/٢٠٢ وما بعدها.
(٢) الديوان ص ٢١١.
(٣) الزراجين جمع زرجون: شجرة العنب. بنت الزراجين: الخمر. العرف والنشر: الرائحة الذكية الطيبة.
(٤) الخرد جمع خريدة: الحسناء. العين جمع عيناء: واسعة العين الفاتنة.

إشادة بجمالها الخلاب الذى لا يقاس به - ولا يمكن أن يُقْرن به - جمال الخرَّد العين أو الفاتنات ساحرات العيون من البشر، ويشعر فى حرارة زفراته كأنها أنفاس نار متقدة، وتكتظ أضلاعه بلوعات محرقة ممضة. وسنخص معاصره ابن الزقاق بكلمة أو ترجمة مختصرة، ولابن عبدون[1]:

وما أَنْسَ لَيْلَتنـا والعِنـا ... قُ قد مَزَجَ الكلَّ منا بكُلّ
إلى أن تقوَّس ظَهْرُ الظلامِ ... وأَشْمَط عـارضُـه واكْتَهَـلْ[2]
ومسَّ رداءَ رقيقِ النسيمِ ... على عاتق الفَجْر بعضُ البَلَلْ

وقد صوَّر هرم الليل وشيخوخته وهو يكاد يلفظ أنفاسه لتفلُّت أضواء الفجر وحواشيه بعجوز تقوس ظهره ووهنت عظامه من الهرم والشيخوخة، واشتعلت صفحة خدِّه شيبا. والتفت إلى ما يحدث من برودة الجو فى أخريات الليل، فتخيل النسيم العليل حينذاك رداء رقيقا على منكب الفجر مسَّه بعض البلل، وهى صورة بديعة. ويقول ابن خفاجة فى وصف صاحبة له[3]:

غـزاليَّةُ الألحـاظ رِيميَّةُ الطُّلَى ... مُدَاميَّةُ الأَلْمى حَبَابيَّةُ الثَّغْـرِ[4]
تَـرَنَّـحُ فى مَـوْشِيَّـةٍ ذهبيَّـةٍ ... كما اشتبكتْ زُهْرُ النجوم على البَدْرِ[5]
تـلاقَى نسيبى فى هواهـا وأدمعى ... فمن لؤلؤ نـظمٍ ومن لؤلؤ نَـثْرْ
وقد خلعتْ ليلا علينا يَدُ الهَوَى ... رداءَ عِنـاقٍ مزَّقَتْهُ يَـدُ الفَجْـرِ

والأبيات - مثل أشعار ابن خفاجة - تكتظ بالصور، فصاحبته مثل الغزال فى سحر عيونه والظَّبْى فى طول جيده أو عنقه وجماله، أما شفتاها فَمَبْسِمُ دَنٍّ خمرى، وأما ثغرها فعلى حِفافيه حَبابُ هذا الدنِّ المسكر، ومن حولها وَشْى ثوبها الذهبى يتجمع كنجوم مشرقة مضيئة حول القمر المنير. ويبدع ابن خفاجة حين يتصور - فى البيت الأخير - يد الحب والهوى تنسج حوله هو وصاحبته رداء غريبا، هو رداء العناق، ويأسى لأن يد الفجر امتدت له ممزقة إيذانا بالوداع. ويقول يحيى[6] بن بقى المارة ترجمته بين الوشاحين:

---

(١) الذخيرة ٧١٥/٢ والمغرب ٣٧٥/١.
(٢) أشمط العارض: شابت صفحة الخد.
(٣) الديوان ص ٢٤.
(٤) الريم: الظبى خالص البياض. الطُّلى: العنق. المدام: الخمر. الألمى: الشفة تضرب خفيفا إلى السمرة. الحباب: الفقاقيع على وجه الكأس.
(٥) زهر النجوم: النجوم المشرقة المضيئة.
(٦) الذخيرة ٦٣٦/٢ والمغرب ٢١/٢.

بـأبي غـزالٌ غـازلتـه مُقْلتي بين العُذَيْبِ وبين شَطَّيْ بـارقِ[١]
وسألتُ منه قُبْلةً تَشْفِي الجوَى فـأجـابني فيهـا بـوعـدٍ صـادقِ[٢]
بِتْنـا ونحن من الدُّجى في لُجَّةٍ ومن النجوم الزُّهْـر تحت سُرادق
حتى إذا مالتْ به سِنَةُ الكَرَى زَحْـزَحْتُـهُ شيئـا وكـان مُعـانقى[٣]
بـاعـدتُـه عن أضْلعٍ تشتـاقـه كيـلا ينـامَ عـلى وِسـادٍ خـافقِ

وهو يتخيل أنه لقى صاحبته بين موضعين من المواضع التى طالما لقى فيها شعراء الغزل العربى محبوباتهم، وهما العذيب وبارق، ويقول إنها واصلته ومدَّت له فى الوصال واللقاء، وأنها باتت معه فى ليلة تحت سرادق النجوم المضيئة، معانقة له، حتى إذا ألم النوم بمعاقد أجفانها دفعه حنوُه عليها إلى أن يزحزحها قليلا عن صدره الذى توسدته، حتى لا تنام - كما يقول على وِسادٍ خافق بحبها نابض نبضا شديدا. ويقول ابن باجة المتفلسف[٤]:

همُ رحلوا يـومَ الخميسِ غُـدَيَّةً فـودَّعْتُهم لـمـا استقلُّوا وودَّعـوا[٥]
ولـمـا تـولَّـوا ولَّت النفسُ إثْـرَهمْ فقلت: ارْجعى قالتْ إلى أينَ أرجعُ
ولى جسـدٌ مـا فيـه لحمٌ ولا دمٌ ولا هــو إلا أعْــظُمٌ تتَقَعْقَــعُ[٦]
وعينـان قد أعْـاهما كثـرةُ البُكا وأُذْنٌ عَصَتْ عُـذَّالَها ليس تسمـع

وهو يقول إن صاحبته وأهلها رحلوا يوم الخميس صباحا فودَّعوه وودَّعهم ورحلت نفسه فى إثرهم، وعبثا يدعوها إلى الرجوع وهى تردد إلى أين أرجع؟ وقد ضنى جسدى ونحل حتى لم يبق فيه لحم ولا دم، إذ أصبح أعظما فوق أعظم. وحين تتحرك أى حركة تسمع قعقعتها وأصواتها، فقد صار جلدا على عظم كما يقولون، وابيضت عيناه من كثرة البكاء وصارت أذنه صماء لا تسمع ما يقوله العذال من لغو وهراء.

ومن الشاعرات البارعات اللائى أظلَّهن عصر المرابطين ولحقن - فى أغلب الظن - عصر الموحدين نَزْهون وحمدة الغرناطيتان، أما نزهون[٧] فيقول ابن الأبار أحسب أن

---

(١) العذيب: ماء. بارق: جبل. وهما بنجد.
(٢) الجوى. الوجد. (٣) الكرى: النوم.
(٤) الخريدة ٣٣٣/٢. (٥) استقلوا: رحلوا.
(٦) تتقعقع: تتحرك مع صوت.
(٧) انظر فى نزهون وأخبارها وشعرها المغرب ١٢١/١ وتحفة القادم لابن الأبار رقم ١٠٠ مكررًا والذيل والتكملة للمراكشى (القسم الثانى من السفر الثامن، نشر بنشريفه بالمغرب ص٤٩٣ والبغية ص ٥٣٠ والنفح ٢٩٥/٤ والإحاطة وانظر ٤٢٤/١، ٣٤٤/٣ وراجع فى أبيها التكملة رقم ٥١٥.

أباها محمد بن أحمد الملقب بالقليعى قاضى غرناطة إلى أن توفى سنة ٥١٠ وإذا صح ذلك كانت من بيت فقه وقضاء. وعلى كل حال تدل أخبارها أنها كانت من بيت نابه، إذ نجد أهلها يلاحظون ذكاءها، فيعنون بتخريجها فى الأدب، ويقال إنه كان بين من قرأت عليهم - كما مر بنا - المخزومى الذى مر ذكره بين شعراء الهجاء. ونجد لها مطارحات ونوادر مع الشعراء، مما يدل - من بعض الوجوه - على أنها اتخذت لنفسها ندوة كانت تلقى فيها الشعراء، ويقال إن الكتندى الشاعر الغرناطى دخل يوما مجلسا كانت تقرأ فيه بعض الشعر على المخزومى فقال له - وكان أعمى - أجِزْ:

لو كنت تبصر من تكلِّمُهُ

فأُفْحم الأعمى ولم تسعفه بديهته، فبادرت نزهون قائلة ومثنية على نفسها فى سرعة خاطفة.

لغدوتَ أخرسَ من خلاخِلِهِ
البــدرُ يَـطْلُعُ من أزِرَّتِــهِ والغُصْن يَمْرَحُ فى غَلائلِهِ

ويروى أنه لقيها ابن قزمان الزجال وعليه غفارة صفراء، وكان قبيح المنظر، فقالت له: أصبحت كبقرة بنى إسرائيل ولكن لا تسرُّ الناظرين، تشير إلى وصف القرآن الكريم لبقرتهم: بأنها (صفراء فاقع لونها تسر الناظرين). ومر بنا فى حديثنا عن المخزومى بين شعراء الهجاء أنه لم يسلم منه أحد، حتى تلميذته نزهون، وأنها ردت عليه وألقمته حجرا أخرسه. وأما حمدة[1] فكانت ابنة مؤدب فاضل يسمى زياد بن بقىّ ربَّاها هى وأختها زينب تربية فاضلة تثقفا فيها ثقافة أدبية واسعة، حتى أحسنتا نظم الشعر وصوغه. ويترجم ابن الأبار لحمدة فى التكملة وفى التحفة ويقول: من أهل مدينة وادى آش (بالقرب من غرناطة) وإحدى الأديبات المتظرفات العفيفات، وفى كتاب المُغرب أنها حسناء المَغْرب وشاعرة الأندلس. وينقل المقرى عن ابن سعيد أنها هى وأختها زينب من نساء غرناطة المشهورات بالحسب والجلالة. ويذكر الرواة أنها خرجت مع صواحب لها إلى النهر فى مدينة وادى آش، وهو يجرى بين بساتين ورياض، ولما خلعن

(١) راجع فى ترجمة حمدة بنت زياد وأختها زينب المغرب ١٤٥/٢ وتحفة القادم رقم ١٠٠ والتكملة رقم ٢١٢٠ والمطرب ص ١١ والذيل والتكملة للمراكشى ٤٨٥/٨/٢ والإحاطة ٤٨٩/١ ونفح الطيب ٢٨٧/٤.

ثيابهن ونظرت إلى صاحبة لها من بينهن كانت تهواها، وألقين بأنفسهن فى النهر سابحات متلاعبات قالت فى محبوبتها:

أباح الدَّمْعُ أسْراري بوادى ... له فى الحسن آثارٌ بَوَادِى[1]
فمن نَهْرٍ يطوفُ بكلِّ رَوْضٍ ... ومن روضٍ يَرِفُّ بكل وادى
ومن بينِ الظباءِ مَهاةُ إنْسٍ ... لها لُبِّى وقد سلبتْ فؤادى[2]
لها لَحْظٌ ترقِّدُه لأمْرٍ ... وذاك الأمرُ يمنعنى رُقادى
إذا سَدَلَتْ ذَوائبها عليها ... رأيت البَدْرَ فى جُنْح الدآدى[3]
كأنَّ البدر مات له شقيقٌ ... فمن حُزْنٍ تَسَرْبل بالسَّوادِ

والأبيات بالغة الروعة، وبدون ريب كانت صاحبتها فى منتهى الفتنة والحسن والجمال، وكانت السباحة فى النهر والأشجار مصطفة من حوله متحلية بالورود عبقة بالرياحين، وصاحبتها التى خلبت لبها تلعب معها ومع صواحبها فى المياه، ولطالما سهرت الليالى تفكر فى سحر عينيها، وها هى تسدل أحيانًا ضفائرها على جوانب من وجهها، ويطل وجهها من خلالها، وكأنما ترى قمرا يطل فى جنح الليالى الحالكة أو كأنما مات له شقيق فهو يلبس السواد عليه. وتقول أختها زينب[4]:

ولما أبَى الواشون إلا فِراقَنا ... ومالهمُ عندى وعندك من ثارِ
وشَنُّوا على أسْماعنا كلَّ غارةٍ ... وقلَّ حُماتى عند ذاك وأنْصارى
غزوتهمُ من مُقْلتيك وأدمعى ... ومن نَفَسى بالسَّيْف والماء والنارِ

وواضح ما فى البيت الأخير من تشبيه للمقلة والدموع والنفس الحار على الترتيب بالسيف والسيل والنار، وهى مقابلة بديعة، ويسمى البلاغيون هذا الصنيع باسم اللف والنشر، وهو كثير فى الشعر العربى من قديم، ومنه أمثلة كثيرة فى الشعر الأندلسى قبل زينب.

وتظل سيول هذا الغزل الرائع تتدفق من كل بلدة أو مدينة أندلسية فى عصر الموحدين، ويلقانا فى صدره محمد بن عياض صاحب المقامة العياضية، وهى مقامة غزلية،

(١) بوادى الأخيرة: ظاهرة.
(٢) المهاة: بقرة الوحش واسعة العينين.
(٣) الدآدى: الليالى الأخيرة فى الشهر القمرى، وهى حالكة السواد. جنح الليل: ظلامه.
(٤) نفح ٢٠٨/٣ وفى المغرب أن الأبيات لأختها حمدة.

ولذلك تتضمن بعض مقطوعات فى الغزل، ومن أروعها قوله[١]:

أنكرتُ إلا سَقَامَ طَرْفٍ — وأىُّ سيفٍ بلا ذُبابِ[٢]
إن أنا لاحظتُه تَوارَى — من دَمْعةِ العين فى حِجابِ
أبْصَرْتُهُ جدولا ووُرْقًا — من دَمْعِ عَينىَّ وانتحابى[٣]

وتشبيه العين بالسيف القاتل تشبيه متداول فى الشعر العربى من قديم، ولكن ترقرق الدموع فى عينيه بالبيت الثانى حتى لتصبح حِجابا بينه وبين رؤية صاحبته تشبيه طريف لم يسبق إليه. أما تشبيه الدموع بالجدول وتشبيه انتحابه بهدير الحمام فكلاهما متداول قديما، وإن كان قد أخرجها إخراجا طريفا. والغزل فى الأندلس يتشابك بقوة مع الغزل العربى الطاهر العفيف، ومن أهم ما يلاحظ فيه الارتباط الوثيق بالعناصر البدوية القديمة على نحو ما يلقانا فى غزلية لمتفلسف الأندلس أبى بكر محمد بن طُفَيْل الذى تحدثنا عنه فى نشاطها الفلسفى، إذ يستهلها على هذا النمط[٤]:

ألمَّتْ وقد نام الرقيبُ وهَوَّما — وأسْرَتْ إلى وادى العَقيق من الحِمىَ[٥]
وجرَّتْ على تُرْبِ المحصَّب ذَيْلَها — فما زال ذاك التُّرْبُ نَهْبًا مقسَّما[٦]
تناقَلَه أيدى التِّجارِ لَطِيمةً — ويَحْمله الدارىُّ أيَّان يَمَّما[٧]
ولما رأتْ أن لا ظَلامَ يُجِنُّها — وأن سُرَاها فيه لن يَتَكَتَّما[٨]
أزاحتْ غَمامَ العَصْب عن حُرِّ وَجْهِها — فأبدتْ شُعاعا يُرْجِع الصُّبْحَ مظلما[٩]
فكان تَجَلِّيها حِجابَ جمالِها — كشمس الضُّحىَ يَعْشَى بها الطَّرْفُ ساهما

ولو أننا لم نعرف صاحب هذه الأبيات وأنه أندلسى لظنناه أمويا من شعراء نجد العذريين أو عباسيا ممن كانوا يتمثلون العناصر البدوية مثل أبى تمام متخذين منها رموزًا لإسباغ العذرية والعفاف الملتاع على غزلهم، وها هو الشاعر الأندلسى بدوره يتخذ تلك العناصر

(١) مغرب ٣٤٥/١.
(٢) ذباب السيف: حده القاطع.
(٣) ورق جمع أورق: ما لونه رمادى من الحمام.
(٤) مغرب ٨٥/٢ والمعجب ص ٣١٦ وتحفة القادم رقم ٤٣.
(٥) هوم: مال رأسه فى النعاس. أسرت: سارت ليلا. وادى العقيق: مواضع كثيرة بالمدينة وبالطائف ونجد.
(٦) المحصب: موضع رمى الجمار بمنى.
(٧) اللطيمة: وعاء المسك. الدارى: العطار نسبة إلى دارين: فرضة أو مرفأ كان يحمل إليه قديما المسك من الهند. يمّم: قصد.
(٨) يجنها: يسترها. سراها: سيرها ليلا.
(٩) العصب: العصابة على الرأس وطرف الوجه. حر ظاهر.

رموزا تصور كيف أن جذوة الحب العذرى الطاهر لا تزال متقدة فى نفوس الشعراء هناك، مما جعل ابن طفيل يستعير من المدينة وادى العقيق ومن مكة المحصَّب، وجعل التراب الذى يمر عليه ذيل ثوب صاحبته مسكا، يتقاسمه الناس وينهبونه، ولمعت فى ذهنه ذكرى العطار الذى ذكره الغزلون القدماء مرارا فى مثل قول الشاعر العربى القديم متحدثا عن ولع صاحبته بالمسك والتعطُّر به:

إذا التاجرُ الداريُّ جاءَ بِفَأْرَةٍ ... من المسكِ راحتْ فى مَفارقها تَجْرِى[1]

ويفضى إلى الحديث عن جمال صاحبته الذى بهره، ويقول إنها بلغت من إشراقها ما جعلها ترى الظلام لا يسترها مهما صنعت، فأزاحت العصابة عن رأسها وجوانب وجهها فأبدت من أشعة ضوئها ما يفوق أشعة الشمس فى الصباح، بل إن ضوء الصباح ليبدو مظلما بالقياس إلى ضوئها، ولعله فى ذلك نظر إلى قول أبى تمام:

بيضاء تَسْرِى فى الظلام فيكتسى ... نورا وتَمْشِى فى الضياء فيظلمُ

وما يلبث ابن طفيل أن يحلق فى خياله، إذ يتصور جمال صاحبته حجابا لها يُغْشى الناظرين فيدفعهم عن النظر إليها، وهو حجاب أروع من حجاب الدموع المار بنا آنفا عند محمد بن عياض. وكان يعاصر ابن طفيل أبو جعفر بن سعيد وسنفرد له كلمة مع صاحبته حفصة الركونية. ونلتقى فى مدينة الجزيرة الخضراء بشاعر من بيت نباهة وثراء هو ابن أبى روح، وله يصف ليلة[2] قضاها مع صاحبته فى متنزه على ضفة نهر الجزيرة الخضراء المسمى وادى العسل لحلاوته[3] كما يقول ابن سعيد:

عرِّج بوادى العَسَلِ ... وقفْ عليه واسْألِ
عن ليلةٍ قطعتُها ... صُبْحًا برغمِ العُذَّلِ
أرشُف خمرَ الرِّيقِ أو ... أقطفُ وردَ الخجَلِ
وقد تعانقنا اعتنا ... قَ القُضْب فوق الجدولِ[4]

---

(١) فأرة المسك: وعاؤه. الدارى: العطار.

(٢) رايات المبرزين لابن سعيد (تحقيق د. النعمان القاضى طبع القاهرة) ص ٥٤.

(٣) المغرب ١/٣٢٠ إذ يقول ابن سعيد عندما يخرج الإنسان من باب الجزيرة الخضراء يجد المياه الجارية والبساتين النضرة، ونهرها يعرف بوادى العسل لحلاوته وعليه حاجب مشرف على النهر والبحر فى نهاية من الحسن يسمى الحاجبية، ومن متنزهاتها النقا.

(٤) القضب: الغصون.

والشَّمْـعُ في دِرْعِ الغَديـرِ كعَـوَالي الأسَـلِ[١]
بِتنـا إلى أنْ حَثَّنـا إلى النَّوَى بَرْدُ الحُلي

وابن أبي روح يتمثل فى البيت الأخير من المقطوعة ما جاء فى كتاب الأمالى من أن عربية سُئلت كيف تعرفين الفجر؟ فقالت: أعرفه ببرد الحلى. وهو يصور ليلة هنيئة له قضاها مع صاحبته متعانقين يقطف من ورد الخجل ويجنيان معا من زهرات حبهما، وكأنما كانت ليلة من ليالى العرس، فالشموع متقدة متلألئة على سطح الغدير وعادة يشبهه العرب بالدرع لما تحدثه الرياح فيه من غضون. ويقول محمد بن سفر المترجم له بين شعراء الطبيعة[٢]:

وواعـدتُها والشمسُ تَجْنَـحُ للنَّوَى بزَوْرتِها ليلا وبَدْرُ الدُّجىَ يَسْرِى
فجاءتْ كما يمشى سَنَا الصُّبْح في الدُّجىَ وطورًا كما مرَّ النسيمُ علىَ النَّهْر
فعطَّرتِ الآفاق حـولى فأشْعَـرَتْ بمَقْدَمِها والعَرْفُ يُشْعِرُ بـالزَّهْـرِ[٣]
فتـابعتُ بـالتَّقبيـل آثـارَ سَعْيِهـا كما يتقصَّى قارئٌ أحْرُفَ السَّطْرِ
فبِتُّ بها والليلُ قد نام والهوَى تنبَّه بين الغُصْن والحِقْفِ والبَدْر[٤]
أعـانـقُهـا طـورًا وألْثِمُ تـارةً إلى أن دعتْنا للنَّوَى رايةُ الفجَرْ
ففَضَّتْ عقـودًا للتعـانق بيـننـا فيا ليلةَ القَدْر اتركى ساعةَ النَّفْرِ

والمعانى والأخيلة بديعة، فقد زارته وتارة كأنها سنا الصبح يتخلل الظلام أو كأنها النسيم العليل الذى يحيى النفوس، وعطرت الأرجاء بعرفها أو نشرها، وكأنما استحال الثرى تحت أقدامها طيبا ذكى الرائحة وهو ما ينى يقبِّل مواضع خَطْوِها، وكانت ليلة سعيدة نام فيها الليل واستيقظ الحب حتى كان الفجر وحتى كان الوداع، بل لكأنما كانت ليلة القدْرُ الهنيئة، وإنه ليهتف بها أن لا تنفر وتقبض أجنحتها عن الكون، حتى يؤجّل الوداع ولو إلى حين.

ونلتقى بصفوان بن إدريس المتوفى سنة ٥٩٨ قبل إكماله الأربعين صاحب كتاب زاد المسافر فى شعراء زمانه المتردد ذكره فى الهوامش، وله يصف ليلة أنس عفيفة وصفا

---

(١) الأسل: الرماح: عواليها: أطرافها القاطعة.
(٢) النفح ١٩٩/٣.
(٣) العرف: الرائحة العطرة.
(٤) الحقف: الكثيب من الرمل.

بديعا[١]:

يا حُسْنَهُ والحسْن بعض صفاتهِ	والسِّحْرُ مقصورٌ على حركاتهِ
بَدْرٌ لو آنَّ البدرَ قيل له: اقترحْ	أملًا لقال أكون من هالاتـهِ
صاحبتهُ والليْـلُ يُذْكِى تحتـه	نارَيْن من نَفسى ومن وَجناتِهِ[٢]
وضَمَمْتـهُ ضَمَّ البخيل لمـالـهِ	أُحْنُو عليه من جميع جِهاتهِ
أوثقتـه فى ساعِـدىَّ كـأنَّـه	ظبىٌ أخافُ عليه من فَلتاتهِ
وأبَى عفافى أن أقبِّل ثغْـرَهُ	والقلبُ مطوىٌّ على جَمَراتِـهِ
فاعجبْ لملتهبِ الجَوانح غُلَّةً	يَشْكُو الظَّما والماءُ فى لَهَوَاتِهِ[٣]

وصفوان يقول إن محبوبته جميلة جمالا خلب لُبَّه، حتى ليتصور أن كل أمل للبدر أن يكون من هالات جمالها الفاتن. ويكون لقاء ذات ليلة، وهو يكاد يحترق من حبه المتقد فى جوانحه، كما يقول، ويأخذها بين ساعديه ويضمها إلى صدره ويعف عن تقبيلها، وهى طوع يديه، وهو ظامىء ظمأ شديدا، والماء فى أعالى حلقه، ويجاهد حتى لا ينزلق إلى صدره الملتهب ويطفىء غلته. وعلى هذا النحو يردُّنا غَزِلون أندلسيون إلى نجد وغزلها العذرى عند مجنون ليلى وأضرابه بمثل هذا التصوير الرائع للعفاف الملتاع، بجانب ما استشعروه من العناصر البدوية وعرض صورها البديعة على نحو ما رأينا عند ابن طفيل. ونلتقى فى عهد الناصر الموحدى (٥٩٥ - ٦١٠ هـ) بشاعره أحمد بن شَطْرِيَّة الذى اختطفه الموت فى ريعان شبابه، ومن غزله الطريف[٤]:

سَتَـرَ الصُّبْـحَ بِـطُرَّهْ	وجَـلَا الـليـلَ بِغُـرَّه
كـعبـةٌ لـلحُسْـنِ فى كـلِّ	فـؤادٍ منـه جَـمْـرَه
جـاءنى كالـظَّبْىِ فى أشْـرَاكـهِ	إذ حَـلَّ شَعْـرَه[٥]
ومَـضَى عـنِّـى ولـكـنْ	بعـد ما خَلَّفَ نَشْـرَه[٦]

ويقول على بن حريق[٧]:

(١) انظر فى ترجمة صفوان وشعره المغرب ٢٦٠/٢ ورايات المبرزين ص ١١١ والتكملة ص ٤٢٩ والتحفة رقم ٥٢ الإحاطة ٣٤٩/٣ ومقدمة كتابه زاد المسافر لعبد القادر محداد.

(٢) يذكى: يضرم ويوقد.

(٣) لهوات جمع لهاة: أعلى الحلق.

(٤) انظر المغرب ١٤٠/١.

(٥) أشراك جمع شَرَك: حبالة الصائد.

(٦) نشره: عطره.

(٧) المغرب ٣٦٩/٢.

كلَّمْتُه فاصفرَّ من خجَلٍ حتى اكْتَسَى بالعَسْجَد الوَرِقُ
وسألته تقبيلَ وَجْنته فأبى وقال: أخاف أحترِقُ
حتى زَفيرى عاقَ عن أملى إن الشقىَّ بريقه شَرِقُ

وهو يشبه صفرة الخجل التى كست خد صاحبته بالعسجد أو الذهب ووجنتها بالورِق أو الفضة، ويقول إن أنفاسه بلغ من حرارتها أن صاحبته خشيت لو قبَّلها أن يحترق خدها من زفيره، ويقول إن الشقىَّ بريقه شَرِقٌ أو غاصٌ. ومن الغزلين بأخرة من عصر الموحدين سهل بن مالك الذى مر ذكره بين شعراء الفخر، وله متغزلا[1]:

ولما بدا ضوء الصَّباح رأيتُها تنفِّضُ رَشْحَ الطلِّ عن ناعمٍ صَلْتِ[2]
فقلتُ: أخاف الشمسَ تفضح سِرَّنا فقالتْ: معاذَ الله تفضحُنى أختى

وسهل يتصور صاحبته زهرة جميلة تنفض عن وجهها الناعم المضىء فى الصباح نَدى العرق، ويخوِّفها من إذاعة الشمس لسرهما، وتطمئنه، فهى أختها ولن تذيع لها سرا. ويقول ابن سعيد[3] صاحب كتاب المغرب المبثوث فى الهوامش المتوفى سنة ٦٨٥ بتونس[4]:

وهبتُ فُؤَادِى للمَباسم والحَدَقْ وحَكَّمْتُ فى جَفْنى المدامعَ والأرَقْ
ولم أستطع إلا الوفاءَ لغادرٍ ويا ليتنى لما وَفيتُ له رَفَقْ
ومن أجله قد رقَّ جسمى صَبابَةً ويا لَيْتَهُ لما رآهُ عليه رق

ومنذ أواسط القرن السابع الهجرى - بل منذ هزيمة العقاب سنة ٦٠٩ نشعر أن نبع الغزل الذى كان متدفقا فى بلدان الأندلس أخذ يغيض وتغيض معه البهجة عن نفوس الأندلسيين لسقوط مدنهم واحدة إثر أخرى فى حجر نصارى الشمال، ولم يبق لهم سوى إمارة غرناطة التى ظلوا ثابتين فيها ثبوت الجبال الراسية، ولكن مع غير قليل من الأسى والإحساس بمستقبل مفجع ملبد بالغيوم. وطبيعى أن يعم الغزل فى تلك الإمارة غير قليل من التكلف وأن يُصاغ كثير منه للتعبير عن جناس أو تورية أو غيرهما من محسنات البديع، ومع ذلك لا يزال هناك من يتخففون من هذه المحسنات محاولين التعبير عن شىء من الوجد، ونشعر دائما عندهم بغير قليل من التصنّع وأنهم يبدئون ويعيدون فى خواطر

---

(١) رايات المبرزين ص ٨٦.
(٢) الجبين الصلت: الجبين الوضىء المشرق.
(٣) انظر مصادر ترجمة ابن سعيد بين المؤرخين فى الفصل الثانى.
(٤) المغرب ٢/١٧٨.

الغزلين قبلهم وأخيلتهم، على نحو ما سنرى فى الكلمة التى سنسوقها للحديث عن ابن خاتمة وغزله. ويشيد ابن الخطيب بما فى قصيدة لابن جُزَىّ من وجد قائلا إنها من الغراميات التى سلك فيها مسلك مجنون ليلى، وربما كان أجمل ما فيها قوله:(١)

تباعدتُ لما زادنى القُرْبُ لوعةً   لعل فؤادى من جَواه يُفيقُ
ولا سلوةٌ تُرجَى ولا الصبرُ ممكنٌ   وليس إلى وَصْل الحبيب طريقُ
شجونٌ يَضِيقُ الصَّدْرُ عن زَفَراتها   وشوقٌ نطاقُ الصبر عنه يَضِيقُ
فياغائبًا عن ناظرىَّ أما يُرى   لشَمْسك من بعد الغروب شُروقُ

وواضح أن الأبيات ليس فيها لوعة أمثال مجنون ليلى من أصحاب الحب العذرى، ولا فيها حرارة هذا الحب ولا ما يتّقد فى أفئدة العذريين من نيرانه. ويلقانا ركام هائل فى الغزل من زخارف البديع وكأنما أصبحت هى - لا الغزل ووجد المحب - الغاية فى هذا الغرض القديم من أغراض الشعر على نحو ما نرى فى قول ابن جُزَىّ(٢):

أَبِحْ لىَ يا روضَ المحاسن نظرةً   إلى وِرْدِ ذاك الخدِّ كنتُ لك الفِدَا
وبالله لا تَبْخَلْ علىَّ بِقَطْفَةٍ   فإنى عهدتُ الروضَ يوصَفُ بالنَّدَى

وليس المراد بالندى المعنى القريب وهو قطراته الملائمة للروض وإنما المعنى البعيد وهو الكرم والسماح بما يريد، وهو - فى الواقع - لا يريد بالبيتين التعبير عن عاطفة حب، وإنما يريد التعبير عن تورية وهو لذلك يتكلف لها استعارة الروض والورد كما يتكلف طلب الإباحة، وكأنه بإزاء مسألة فقهية!

ويموج ديوان يوسف الثالث أمير غرناطة - المترجم له فى الفصل السابق - بالغزل، بل إنه محوره، إذ كثرة قصائده ومقطوعاته تدور عليه، وهو يكثر فيه من ذكر العفاف والعناصر البدوية كبارق وسَلْع والجَرْعاء والعُذَيْب والرقمتين والغزال والرِّيم والقِباب والخيام والإبل المودِّعة. وحقا هذا كله يطبع به الغَزِلون الأندلسيون أشعارهم وصلا محكما لها بالشعر العذرى ودقائقه الشعورية، غير أن حب يوسف الأمير حب سطحى متكلف أو هو حب مترف لا ينبع من القلب، مع أنه يكثر من ذكر الشريف الرضى ومهيار غير أن غزله ينقصه ما عندهما من الرقة والوجد واللوعة وأيضا ما عندهما من صفاء التعبير وعذوبته، ومن أجمل ما نقرأ له فى غزلياته قوله:

---

(١) الكتيبة الكامنة للسان الدين بن الخطيب ص ٢٢٥.
(٢) الكتيبة الكامنة ص ٢٢٧.

هل البانُ يحكى من معاطفكِ القَدَّا أو الوَرْدُ فى توريده يُشْبه الخَدَّا
لقد أخطأ التشبيه مَنْ حَسِب السُّهَا يقـاوم فى آفاقـه القمر السَّعْـدا
وهل لحُلَى ليلى نظيـرٌ وإن هُمُ يظنون منها الثَّغر قد أشبه العِقْدا
هى الغايةُ القصوى محاسِنُ لم تجد شبيهًا لها فى الغانياتِ ولا نِـدًّا

وهو يريد أن يقول إن قدَّ ليلى أرشق من قَدِّ البان وحمرة خدها تفوق حمرة الورد جمالا وبهاء، ومَثَلُ أترابها منها مثل نجم السها الخافت الذى لا يكاد يبين سَناه بالقياس إلى ضوء البدر الذى يملأ الآفاق نوره، وثغرها فى بياضه وصفائه يشبه درر العقد المتلألئة. وكل هذه التشبيهات مرت بنا فى أخيلة بديعة تصور انبهار الغزلين بجمال صواحبهن، وقد أضعفها عنده أيضا عرضها فى صور من الاستفهام واقترانها بالحسبان والظن.

ولعله يحسن بنا أن نتوقف قليلا عند نفر من شعراء الغزل الأندلسيين المبدعين وهم: الرمادى، والشريف الطليق، وابن زيدون وولادة، وابن الزقاق، وأبو جعفر بن سعيد وحفصة الركونية، وابن خاتمة.

الرَّمادى[1] الكندى

هو أبو عمر يوسف بن هرون الكندى المعروف بالرمادى، ويقول مترجموه إن نسبته إلى قبيلة كندة جعلت كثيرين من شيوخ الأدب فى زمنه، يقولون: فُتح الشعر بكندة وختم بكندة يعنون امرأ القيس الكندى فى الجاهلية والمتنبى والرمادى القرطبى الكنديين. أما لقبه الرمادى فيقول ابن بشكوال فى الصلة إنه تعريب لكنية إسبانية هى: «أبوجنيس» ويبدو أنه كناه بها أحد معاصريه على نحو ما مرَّ فى كُنْيات وألقاب شعراء آخرين مثل البَلِّينة أى الحوت. وقال ابن سعيد فى المغرب إنه منسوب إلى رمادة من قرى مدينة شلب فى الجنوب الغربى للأندلس، وربما كان قول ابن سعيد أكثر دقة لأنه أعرف بشلب وقراها، ولو كانت الكلمة نقلا لكنية: «أبى جنيس» الإسبانية أو

(١) انظر فى ترجمة الرمادى وشعره الجذوة ص ٣٤٦ والمطمح ص ٦٩ والبغية ص ٤٧٨ والصلة ص ٦١٣ والمغرب ١/٣٩٢ والمطرب لابن دحية ص ٦٦ وما بعدها وابن خلكان ٧/٢٢٥ واليتيمة ٢/١٤ ، ٩٩ وما بعدها ومعجم الأدباء ٢٠/٦٢ والذخيرة ١/٣٢٢ و ٢/١٤١ و ٣/٣٤٦، ٨٢١ و ٤/١٢٠ وانظر تاريخ الأدب الأندلسى عصر سيادة قرطبة للدكتور إحسان عباس ص ١٥٥.

الرومانسية لقيل: «أبو الرماد» لا الرمادى. وقد تتلمذ لأبى على القالى وروى عنه كتاب النوادر الملحق بالأمالى، وله فيه مدحة بديعة. ويبدو أنه درس كتبه بعده للطلاب إذ يذكر ابن سعيد بين طلابه بقرطبة أميرًا من بنى ذى النون الطليطليين. وأخذ يشتهر فى الشعر منذ عصر الحكم المستنصر، ويقول الفتح بن خاقان فى المطمح إنه: شاعت عنه أشعار فى دولة الحكم ورجالها سدَّد إليهم سهاما فأوغرت عليه الصدور،وسجنه الحكم دهرا، ثم رُدَّت إليه حريته بعد وفاته، وفى سجنه ألف كتابا عن الطير ختم كل حديث له فى طائر بأبيات فى مديح الحكم ولكنها لم تُلن قلبه، ويبدو أنه بدأ اللمز له ولرجاله حين أمر بإراقة الخمور فى جميع الجهات بالأندلس، إذ نرى للرمادى قصيدة يتوجع فيها متألما لشاربيها. وفى أشعاره بعض خمريات وبعض غزل فى الغلمان ولا ندرى أكان ينظم فى ذلك عن عاطفة حقيقية أو محاكاة لأبى نواس وأضرابه من المشارقة، إذ نراه يصرح مع خمرياته وغزلياته فى السقاة بمثل قوله:

فُتِّحتِ الجنَّـةُ من جَيْبِهِ   فبتُّ فى دَعْوة رضوانِ[1]
مروَّةٌ فى الحبِّ تَنْهَى بأنْ   يجُـاهَـرَ اللّهُ بعصيـانِ

وقوله:

ومابىَ فخرٌ بـالفجور وإنمـا   نصيبُ فجورى الرَّشْفُ والشَّفَتانِ

وأكبر الظن أنه لم يكن ماجنا. ويقال إنه كما مدح الحكم المستنصر مدح المنصور بن أبى عامر حاجب ابنه المؤيد، ولم يصلنا شىء من مدائحه لهما، وعاش عشر سنوات بعد ابن أبى عامر إذ توفى سنة ٤٠٣. وقد سقط ديوانه من يد الزمن غير أن الذخيرة والجذوة والمغرب واليتيمة للثعالبى تحتفظ جميعا بغزل له غير قليل، وهو يطبع بطابعين: طابع الرقة البيِّن فى مثل قوله:

هُـوَ ظـالمى لكنْ أرِقُّ عليـه   مـن أن أُجيـلَ الـلحظَ فـى خَـدَّيْـهِ
أَعْفَيْتُ رِقَّـةَ وجْنَتَيْـهِ مـن أذَى   عَيْنى ومـا أُعْفِـيتُ مـن عَيْـنيـه

ومع ما يحمل البيتان من رقة متناهية إذ يقول إنه يخاف على خدود صاحبته من نظراته أو كما يسميها أذى عينه يحملان أيضا الخاصة الثانية فى غزله، وهى البعد فى التصور حتى ليصبح وهما من الأوهام على نحو ما أصبحت نظراته أذى يوشك أن يلم بالخدود، ولعله

---

(١) جيب الثوب: فتحته العليا.

يشير بذلك إلى الحياء والخجل الذى يلم بصاحبته فتحمر وجنتاها حين تلاحظ نظراته. ومن ذلك ما أنشده الحميدى فى الجذوة من قوله:

غَـدًا يَـرْحَلون فيـا يـومُ رِسْلَـ ـكَ كُنْ بالظلام بطىءَ اللَّحاقِ[١]
ويـا دَمْعَ عينىَ سُـدَّ الـطَّرِيقَ وأفـرِغْ عليهم نَجِيعَ المـآقى[٢]
ويـا نَفْسِى جِئْهُـمُ مِـن أمـامٍ وقـابلهـمُ بـنـسـيـمِ احـتـراقِ
ويـاهمَّ نَفْسى بهمْ كُنْ ظلامًـا وقَـيِّـدهمُ عـن نَـوًى وانـطلاقِ
ويـاليـلُ من بعـد ذا إنْ ظَفِـرْ تَ بالصُّبْحِ فاقذفْ به فى وَثاقِ

فصاحبته سترحل مع أهلها غدا، وهو يتضرع لليوم أن يتريث فى مسيرته، حتى يتأخر ليل الغد المؤذن بالفراق، ويتجه لدموعه يأمل أن تستحيل جدولا من الدم القانى، فتسد الطريق على هذا الركب، كما يتجه إلى نَفَسه الحارّ بالحب وشراره أن يلفح الركب بلهيبه المشتعل حتى لا يستطيع مسيرا، وبالمثل يتجه إلى هموم نفسه مبالغا فى وهمه إذ يطلب إليها أن تنشر ظلامها، بحيث لا يستطيع الركب انطلاقا، وحتى الليل يبالغ فى وهمه إزاءه، فيطلب إليه إن ظفر بالصبح أن يأسره ويشد من حوله الوثاق. وكل ذلك إغراق فى الوهم ما بعده إغراق، وعلى شاكلته قوله:

على كَمَدى تَهْمِى السحابُ وتَذْرِفُ ومن شَجَنِى تَبْكى الحمامُ وتهتفُ

فالسحاب إنما يذرف دموعه لما يرى من كمده وهمِّه وضناه، والحمام إنما يبكى وينوح لما يرى من شجنه وحزنه، ومن طريف صوره الغزلية قوله:

وإذا أراد تنـزُّهًا فى رَوْضَـةٍ أخذَ المِراةَ بكفِّـهِ فأدارهـا[٣]

وهى مبالغة واضحة فى الوهم. إذ صاحبة هذا الوجه الفاتن فى رأيه لا تحتاج إلى روضة. تقضى فيها نزهة تمتع به نفسها، إذ حسبها أن تنظر فى مرآتها فترى أروع روضة، ومن الممكن أن يكون قد أراد أن وجه صاحبته بالقياس إليه كأنه مرآة بديعة لروضة فاتنة. وكل ذلك شاهد على أن الرمادى الكندى كان شاعرا متفننا، فلا غرو أن يتفنن فى الموشحة الساذجة عند القبرى، ويتيح لها - كما مر بنا - تطورا جديدا بالغ الأهمية.

---

(١) رسلك: تمهل.
(٢) نجيع: دم.. مؤق العين: طرفها من جهة الأنف، وهو مجرى الدمع.
(٣) المراة: المرآة.

الشريف[١] الطليق المروانى

هو أبو عبد الملك مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن عبد الرحمن الناصر، قيل إنه كان يعشق جارية رباها أبوه معه، فنشأ يصبو إليها، وكانت تصبو إليه، وذكر ذلك لأبيه، ولم يحترم رغبته، فاستأثر بها من دونه، واشتدت غيرته من أبيه، فانتضى يوما سيفا وانتهز فرصة منه، فقتله، وكانت سنه إذ ذاك ست عشرة سنة، فزجَّ به المنصور بن أبى عامر فى السجن وظل به ست عشرة سنة، ثم أطلقه، فسمى الطليق لذلك، وعاش بعد إطلاقه ورد حريته إليه ست عشرة سنة ثالثة، وهو من نادر الاتفاق، وتوفى قريبا من سنة أربعمائة. ويقول ابن حزم فى كتاب الحلة السِّيَراء: «أبو عبد الملك هذا فى بنى أمية كابن المعتز فى بنى العباس ملاحة شعر وحسن تشبيه». ويقول فى جمهرة أنساب العرب: «مروان هذا من الشعراء المفلقين المحسنين». ويروون له أشعارا نظمها فى السجن وينقصها الإحساس بالمرارة، وكأنما يشعر بعظم ذنبه تلقاء أبيه. وله وراءها أشعار كثيرة فى الغزل والخمر ووصف الطبيعة، وهو فيها يعبر عن مشاعر صادقة، وتتضح فيها ثقافته بالشعر العربى، وتمثله للصياغة الشعرية الرصينة المونقة، مع العناية بالأخيلة والتصاوير، من ذلك قوله متغزلا فى قافيَّة له مشهورة:

غُصُنٌ يهتزُّ فى دِعْصِ نَقَا ... يَجْتَنِى منه فؤادى حُرَقَا[٢]
أطلَعَ الحسنُ لنا من وَجْهِهِ ... قمرًا ليس يُرَى مُمَّحِقَا
ورَنا عن طَرْفِ ريمٍ أحْوَرٍ ... لحظُهُ سَهْمٌ لقلبى فُوِّقَا[٣]
باسمٌ عن عِقْدِ دُرٍّ خِلْتُهُ ... سلبتْه لِثَتَاهُ العُنُقَا
سال لامُ الصُّدْغِ فى صَفْحتِهِ ... سيلانَ التِّبْرِ وَافَى الوَرِقَا[٤]

ونشعر بجمال موسيقاه وعذوبة ألفاظه وأنه يعرف كيف يضم اللفظة إلى اللفظة فى نسق صوتى يلذ الأسماع والألسنة، وحقا تشبيه قامة المرأة بالغصن النابت فى كثيب نقا أو رملة متداوَلٌ وكذلك تشبيهها بالقمر وبظبى أحور، وهى تسدِّد السهام إلى قلوب

---

(١) انظر فى ترجمة الشريف الطليق وشعره الحلة السيراء ١/٢٢٠ والمغرب ١/١٩١ والحميدى ص ٣٢١ والبغية ص ٤٤٧ والمعجب ص ٢٨٥ وما بعدها ونفح الطيب ٣/٥٨٦ وما بعدها والذخيرة ١/٥٦٣ وما بعدها وجمهرة الأنساب لابن حزم ص ١٠٢.

(٢) دعص: كثيب. نقا: رملة.

(٣) ريم: ظبى. فوِّق: سُدِّد.

(٤) الصدغ: الشعر المسدل بين الأذن والعين. الورق: الفضة.

المفتونين بها وأيضا تشبيه الأسنان فى اللثة بعقود در وصدغ الشعر المسدل بين الأذن والعين باللام وأن الأشقر منه يسيل سيلان التبر على الورق أو الفضة، كل ذلك ردده الشعر قبل الطليق ولكنه عرف كيف يصوغه ويحوِّر فيه تحويرات تروع قارئه. ومن غزله قوله:

وَدَّعتُ مَنْ أهوى أَصِيلًا ليتني ... ذُقْتُ الحِمام ولا أذوقُ نَواهُ
ووجدتُ حتى الشمسَ تشكو وَجْدَهُ ... والوُرْقُ تندب شَجْوها بِهَواه[1]
وعلى الأصائل رِقَّةٌ من بُعْده ... فكأنها تلقى الذى أَلقاهُ
وغدا النسيمُ مبلِّغا ما بيننا ... فلذاك رَقَّ هَوًى وطاب شَذاه[2]
ما الرَّوضُ قد مُزِجتْ به أندَاؤهُ ... سَحَرًا بأطيبَ من شَذَا ذِكْراه
ولذاك أُولِعُ بالرياض لأنها ... أبدًا تذكِّرنى بمن أَهْواهُ

وهو يصور وجده والتياعه بذكرى من يهواها من خلال عناصر الطبيعة، فالشمس فى وداعها للأفق أصيلا وما يصيبها من شحوب وصفرة كأنما تشكو وجدها بحبها، وبالمثل تندب الورق الرمادية من الحمام لوعتها بهواها، وكأنما سُكبت على الأصيل والنسيم رقة الوجد وأريجه العطر، وإن شذى ذكراه لصاحبته ليفوق شذى أى روض تتفتح أزهاره الندية سحرا، وهو ما يجعله صبًّا بالرياض إذ تمثِّل عناصرها صاحبته له وتجسمها بكل ما فيها من حسن وجمال وفتنة. ودائما نشعر عند الطليق بروعة الموسيقى مع ما تمتاز به صياغته ولغته من صفاء وسلاسة.

ابن[3] زيدون وولَّادة[4]

هو أبو الوليد أحمد بن عبدالله بن زيدون المخزومى الأندلسى ولد بقرطبة سنة ٣٩٤ فى بيت علم وفقه، لأب فقيه كان من هيئة الفقهاء المشاورين لعهد الخليفة المستعين

(١) الورق: الحمام الرمادى اللون
(٢) الشذى: رائحة الطيب والمسك.
(٣) انظر فى ترجمة ابن زيدون وشعره الذخيرة ٣٣٦/١ وما بعدها والحميدى ص ١٢١ والقلائد ص ٧٠ والمطرب ص ١٦٦ والمعجب للمراكشى ص ١٦٢ والمغرب ٦٣/١ والخريدة ٤٨/٢ وابن خلكان ١٣٩/١ والبغية رقم ٤٢٦ ومقدمتى سرح العيون وتمام المتون لرسالتيه الهزلية والجدية وكتابنا عنه طبع دار المعارف وديوانه وقد نشر مرات آخرها سنة ١٩٥٧ بتحقيق الدكتور على عبد العظيم.
(٤) راجع فى ولادة وأخبارها مع ابن زيدون وشعرها الذخيرة ٤٢٩/١ وما بعدها والصلة ص ٦٥٧ والمغرب ٦٥/١، ٦٦، ١٤٣، ١٨٠ والمطرب ص ٧ والوافى للصفدى ٢٥١/٤ ونفح الطيب ٢٠٥/٤ وما بعدها.

(٣٩٩ - ٤٠٧ هـ) وكان جده لأمه صاحب الأحكام بقرطبة، فهو من بيت حسب ونسب وثراء، وعُنى أبوه بتربيته إلى أن توفى سنة ٤٠٥ وظل بعده ينهل من العلوم والمعارف بقرطبة وخاصة من الآداب العربية. وليس لدينا أخبار واضحة عنه فى شبابه إلا ما انعقد بينه وبين ولادة بنت الخليفة المستكفى من حب، وقد توفى أبوها سنة ٤١٦ وما توالى سنة ٤٢٢ حتى تسقط دولة الخلافة الأموية فى قرطبة، ويتولى أبو الحزم جهور مقاليد الحكم وجعله حكما شوريا ديمقراطيا من خلال مجلس كان يرجع إليه فى سياسته وتدبير شئون حكمه. وأكبر الظن أن ابن زيدون كان ممن انتظموا حوله فى حاشيته، ودُسَّ عليه حوالى سنة ٤٣٠ أنه يشترك فى مؤامرة ضد أبى الحزم جهور، وتصادف أن اتُّهم بالاستيلاء على عقار لبعض مواليه، وزج به أبوالحزم فى السجن، واستعطفه برسالته الجدية وبقصائد مختلفة، غير أنه ظل يُصِمّ أذنيه عنه إلى أن توسط له ابنه أبو الوليد - وكان صديقا له - فرد إليه أبو الحزم حريته. ويتوفى سنة ٤٣٥ ويخلفه ابنه أبو الوليد فيعهد لصديقه ابن زيدون بالنظر على أهل الذمة، ثم يتخذه وزيرا له، ويوفده فى عدة سفارات إلى أمراء الطوائف، وتدبَّر فى سنة ٤٤٠ مؤامرة ضد أبى الوليد وتفشل المؤامرة، ونجد ابن زيدون بعدها مضطربا ويرسل إلى المعتضد عباد أمير إشبيلية أن يلجأ إليه، ويرحب بمقدمه عليه سنة ٤٤١ ويتخذه وزيرا له حتى وفاته سنة ٤٦١ ويظل وزيرا لابنه المعتمد إلى أن يلبى نداء ربه سنة ٤٦٣.

وابن زيدون من أعلام الشعر والنثر فى الأندلس، وله مدائح رائعة فى أبى الحزم بن جهور وابنه أبى الوليد والمعتضد عباد، وله أيضًا مراث بديعة. غير أن القطعة الأرجوانية فى حياته وشعره هى كلفه بولادة وما نظمه فيها من غزل، وكانت أديبة شاعرة، واتخذت لها مجلسا أو ندوة بقصرها تخالط فيها الشعراء وتساجلهم وتفوق أحيانًا البارعين منهم، وفيها يقول ابن بسام: «كانت فى نساء أهل زمانها واحدة أقرانها حضور شاهد، وحرارة أوابد، وحسن منظر ومخبر، وحلاوة مورد ومصدر، وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر، وفِناؤها ملعبا لجياد النظم والنثر، يَعْشُو أهل الأدب إلى ضوء غُرَّتها، ويتهالك أفراد الشعراء والكتَّاب على حلاوة عشرتها، إلى سهولة حجابها، وكثرة منتابها، تخلط ذلك بعلو نِصاب، وكرم أنساب، وطهارة أثواب».

وولادة - بذلك - تكون قد سبقت سيدات الصالونات الأدبية فى فرنسا اللائى نسمع بهن بعدها بستة قرون أو سبع ممن كن يتخذن - على شاكلتها - ندوات يختلف

إليها بعض الشباب والكهول من الأدباء والمتفلسفة لما يمتزن به من رجاحة العقل وخفة الروح والقدرة على إدارة الحديث والمشاركة فيه مع شيء من الحسن والجمال. ولو أن الأمور والأحوال السياسية استقامت واطردت استقامتها فى الأندلس لوجدنا كثيرات مثل ولادة، لهن مثل مجلسها ومنتداها على نحو ما مرَّ بنا من حديث عن السيدة حواء زوجة حاكم إشبيلية المرابطى سير بن أبى بكر وممدوحة الشاعر الأعمى التطيلى، وكما سنرى عما قليل مثيلتها حفصة الرَّكونيَّة فى عهد الموحدين، ومن المؤكد أن كثيرات من الشاعرات اللائى ترجم لهن المقرى واللائى يبلغن أربعا وعشرين كان لهن مجالس ومنتديات على شاكلة ولادة. وهى ثمرة الحرية التى استمتعت بها المرأة فى الأندلس والتى أشرنا إليها مرارًا. وينبغى أن نفرق دائما بين الحرية والمجون، فلم تكن ولادة ومثيلاتها فى الأندلس ماجنات إنما كن سيدات فضليات قُدْنَ فى المجتمع الأندلسى نهضة أدبية وفكرية، وقد أشار ابن بسام إلى عفة ولادة فقال «مع طهارة أثواب»، كما أشار إلى استشعارها لكرامتها بقوله: «مع علو نِصاب، وكرم أنساب» وكذلك كانت مثيلاتها من ذوات الحسب والنسب، على نحو ما صورنا ذلك عند السيدة حواء فيما أسلفنا من حديث.

وكان ممن اختلف إلى مجلس ولادة أو منتداها الفتى الشاعر النابغ ابن زيدون، وظل مواظبا على ذلك أيامًا وشعر أنها تؤثره، فوقعت فى قلبه كما وقع فى قلبها، واتصل بينهما الود، ويروى أنها كتبت إليه بعد طول تمنع لما أولع بها:

ترقَّبْ إذا جَنَّ الظلامُ زيارتى فإنى رأيتُ الليلَ أكتَمَ للسِّرِّ
وبى منك ما لو كان بالشمس لم تَلُحْ وبالبَدْرِ لم يَطْلُعْ وبالنجم لم يَسْرِ

واتصل بينهما اللقاء فى منتداها وفى حدائق قرطبة، تغمرهما نشوة الحب، وتارة ينشدها من أشعاره فيها وتارة ينشدها من أشعار الغزلين من أمثاله، وحدث أن غاب عنها لأمر عرض له، فكتبت إليه:

ألا هَلْ لنا من بعد هذا التفرُّقِ سبيلٌ فيشكو كلُّ صبٍّ بما لَقِى
تمرُّ الليالى لا أرى البَيْنَ يَنْقَضِى ولا الصبرَ من رِقِّ التشوُّق مُعْتِقِى

غير أنها لم تلبث أن تبدلت، فأذاقته بعد نعيم حبها وقربها جحيم هجرها وبُعْدها، ويقال إن سبب هذا الهجر أنها لاحظت مغازلته لإحدى جواريها، ويقال: بل لأنه نقد لها بعض

شعرها، وسواء كان هذا أو ذاك هو السبب فإن ابن زيدون أخطأ فى حقها أو فى حَقِّ شعرها خطأ كبيرا. ويقال إنها صَبَتْ إلى أديب نابغ ثرى ممن كانوا يختلفون إلى منتداها هو ابن عبدوس وصبا إليها، فطار صواب ابن زيدون، وكتب إليه رسالته الهزلية ساخرًا منه كما كتب إليه قصائد مهددا متوعدا، غير أن ولادة لم تصفح عنه، وظل مبعدا محروما. وغزله فيها - كما صورنا ذلك فى كتابنا عنه - يصور ثلاث مراحل: مرحلة وصله، ومرحلة هجره، ومرحلة يأسه، وغزل المرحلة الأولى فيه بهجة وفرحة، إذ ينعم بقرَّة عينه ويسعد سعادة لا حدود لها. أما غزل المرحلة الثانية ففيه الشكوى والحرقة والالتياع العميق والحسرة على فردوسه المفقود. بينما غزل المرحلة الثالثة غزل المبتئس الباكى النادب لحظه. وغزله يعدُّ فى الذروة من الغزل العربى وخاصة غزل المرحلتين الثانية والثالثة، لما يصور فيهما من لوعاته المحرقة الممضة، ومن أروع قصائده الغزلية فى صاحبته قافيته التى يستهلها بقوله:

إنى ذكرتُكِ بالزَّهْراءِ مُشْتاقا ... والأُفْقُ طَلْقٌ ومَرْأى الأرضِ قد رَاقَا

وهو يذكر منتداها فى قصرها بضاحية الزهراء وما تموج به من رياض وبساتين، وتغمره اللوعة واللهفة على لقائها ويُشْرك الرياض التى طالما جاسا معا خلالها وتجوَّلا بين أشجارها وأزهارها وطيرها ومياهها فى أحاسيسه ومشاعره، وكأنها تشاركه همومه، وأروع من هذه القصيدة قصيدته:

أضْحَى التَّنائى بديلا من تَدانينا ... ونابَ عن طيب لُقْيانا تجافينا
حالتْ لبُعْدكُم أيامُنا فغدتْ ... سودًا وكانت بكم بيضًا ليالينا
بالأمس كنا وما يُخْشَى تفرُّقُنا ... واليومَ نحن وما يُرْجَى تلاقينا
يا جَنَّةَ الخُلْد أُبْدِلْنا بِسَلْسلِها ... والكَوْثَرِ العَذْبِ زَقُّومًا وغِسْلينا(١)

والقصيدة تكتظ بالحنين وبلوعات قلب محترق وزفراته، ولعل يأسه من ولادة هو الذى دفعه إلى مغادرته قرطبة مسقط رأسه إلى إشبيلية، لعله يستطيع أن ينسى حبه أو يسلوه، ويقول صاحب الصلة إنها عمرت عمرا طويلا ولم تتزوج قط، وتوفيت سنة ٤٨٤ بعد أن خلدت اسمها فى تاريخ الشعر العربى وتاريخ المرأة الأندلسية.

---

(١) السلسل: الماء العذب. الكوثر: نهر فى الجنة. الزقوم والغِسْلين: طعامان من أطعمة أهل النار.

ابن الزَّقاق[١] اللَّخْمى

هو أبو الحسن على بن إبراهيم بن عطية اللخمى البلنسى المعروف باسم ابن الزَّقاق، وهو ابن أخت الشاعر الأندلسى المشهور ابن خفاجة، رُزق به أبوه فى أواخر العقد التاسع من القرن الخامس الهجرى، ويصل بعض مترجميه بين أبيه وبين أسرة المعتمد بن عباد أمير إشبيلية فى عصر أمراء الطوائف، ويقولون إنه حين خلع يوسف بن تاشفين المعتمد من إمارة إشبيلية اختفى الأب وهاجر إلى بلنسية، واستوطنها، وعمل بها مؤذنا بمسجدها الكبير. وفى نفح الطيب رواية تزعم أن أباه كان فقيرا جدا وأنه كان صاحب حانوت يكبّ فيه على صناعة الزِّقاق، وأنه كان يتلوم ابنه لسهره ليلًا يشتغل بالآداب، لما يكلفه ذلك من الزيت الكثير لمصباحه، ويقال إنه نال بأولى قصائده فى أمير بلنسى ثلاثمائة دينار، فأتى بها إلى أبيه ووضعها فى حجره، وقال له: اشتر بها زيتا، ونظن ظنا أن هذا الخبر غير صحيح وأن صاحبه حاول به تفسير لقب أبيه المتصل باسمه: ابن الزقاق. ولا نعرف أهذا اللقب كان لأبيه أو لأحد أجداده، ويغلب أن لا يكون له أى صلة بزِقاق الخمر وأن هذا الأب أوالجد لقب «زقّاقا» لسمنه الزائد وانتفاخ كرشه، كما أشارت إلى ذلك عفيفة ديرانى محققة ديوانه. وعُنى الأب بتربية ابنه لما رأى فيه من مخايل الذكاء حتى إذا شبَّ لزم دروس ابن السيد البطليوسى وعلى يديه درس العربية والآداب. وتفتحت موهبته مبكرا، وأخذ يلفت نظر الشعراء والأدباء فى بلدته. وامتدح بعض الكبراء من بنى عبد العزيز أمراء بلنسية قديما قبل مولده وبعض القضاة ويحيى بن غانية أمير بلنسية ومرسية لعهد على بن يوسف بن تاشفين. وكان قليلا ما يمدح أميرا أو كبيرا، إذ كان يترفع عن المديح، ونوه بذلك مرارا فى شعره من مثل قوله:

أنا من تمنَّته الملوك فلم أُعُجْ ... منها على ذى طارفٍ وتِلادِ[٢]

فالملوك لزمنه كانت تتمنى أن يصوغ لهم شيئا من مدائحه، وكان يتمنَّع عليهم لإباء نفسه وشعوره العميق بكرامته. وفى الديوان مراث مختلفة وبينها مرثية حارة فى سيدة

---

(١) انظر فى ترجمة ابن الزقاق وشعره المغرب ٢/٣٢٣ والتكملة ص ٦٦٣ والمطرب ص ١٠٠ وما بعدها. والنفح ٣/١٩٩ و٢٨٩. والديوان تحقيق عفيفة محمود ديرانى (طبع دار الثقافة ببيروت) ومقدمتها له وما بها من مصادر.

(٢) أعج من عاج: التفت. تلاد: قديم ضد طارف.

لعلها زوجته كما ترجح محققة الديوان، وقد رزق منها بنجلين: محمود وإبراهيم، ويصور حبه لهما وعاطفته الأبوية نحوهما بإحدى قصائده. والديوان موزع بين موضوعين كبيرين هما الغزل وحب الطبيعة، والغزل تارة يقدم به إحدى قصائد المديح، وتارة ثانية يخلطه بالطبيعة مضيفا إلى النشوة بها النشوةَ بالخمر، ومن بواكير غزله قوله فى مقدمة إحدى مدائحه:

يا شمسَ خِدْرٍ ما لها مَغْرِبُ ... أرامةٌ خِدْرُكِ أمْ يثْرِبُ(١)
ذهبتِ فاستعبر طَرْفى دَمًا ... مفضَّضُ الدَّمعِ به مُذْهَبُ
ناشدتُكَ اللّهَ نسيمَ الصَّبا ... أنَّى استقَرَّتْ بعدنا زينبُ
لم تَسْرِ إلا بشَذَى عَرْفِها ... أوْلا فماذا النَّفَسُ الطَّيِّبُ(٢)
إيهِ وإن عذَّبَنى حُبُّها ... فمن عذابِ النفسِ ما يَعْذُبُ

وتتضح فى هذه الأبيات المبكرة - كما يقول الرواة - الخاصة الفنية الرائعة التى أشار إليها أبو الوليد الشقندى فى بيانه براعةَ الأندلسيين فى الشعر، وهى أن ابن الزقاق يتناول فى أشعاره الصور والأخيلة التى تداولها الشعراء قبله مرارًا وتكرارًا حتى غدت كالثوب الخلَق البالى، فإذا هو يبث فيها حياة وحيوية فتصبح جديدة نضرة مغربا فى ذلك أحسنَ إغراب وأطرفه، على نحو ما يتضح فى تلك الأبيات، فقد أخذ عن الشعراء استعارة الشمس لصاحبته فى البهاء والجمال، وأضاف إليها أنها شمس لا تغرب، إذ ما تنى طالعة فى خدرها مشرقة، ويناشد نسيم الصبا أين مستقر صاحبته؟ ويذكر أن شذاها يفوح لا من حولها فحسب، كما يقول الشعراء، بل فى النسيم ذاته بدليل أنفاسه المحملة بأريج هذا الشذى، ويقول:

سَلِ الرِّيحَ عن نَجْدٍ تخبِّرْك أنها ... معطَّرةُ الأنفاسِ مُذْ سكنتْ نَجْدا
وأنَّ الغَضَا والسِّدْرَ مذ جاورتْهما ... بِطِيبِ شَذاها أشبها البانَ والرَّنْدا

فصاحبته منذ سكنت نجداً أحالت الريح فيها إلى أنفاس معطرة، بل لقد أحالت الغضا والسدر من أشجار البادية العادية إلى أشجار البان والرند التى طالما ذكرها الغزلون واستدارت من حولها فى أخيلتهم هالات الجمال لمحبوباتهم. ومن قوله فى مقدمة إحدى مدائحه:

---

(١) الخدر: البيت. رامة: موضع بنجد. يثرب: المدينة.

(٢) شذى العرف: رائحة الطيب العطرة.

ولقد مررتُ على الكثيب فأَرْزَمَتْ　　　إبِلى ورجَّعتِ الصَّهيلَ جِيادى[١]
ما بين ساحاتٍ لهم ومعاهـدٍ　　　سُقِيتْ من العَبَرات صَوْبَ عِهاد[٢]
والوُرْقُ تهتف حولهم طربًا بهم　　　وبكـل مَحْنِيـةٍ تـرنُّم شـادى[٣]

والبيت الأول يكتظ بالحنين لصواحبه وراء الكثيب وحوله، حتى الإبل جمدت فى مكانها ولا تريد أن تفارقه، وتجاوبت الخيل بصهيلها، فهى لا تريد أن تبرحه. ويدعو لساحاتهن ومعاهدهن أن تظل تُسْقَى بعبرات المحبين، ويسوق الحمام الورق لا ليصور فيه حنينه وأنينه لفراق صواحبه على عادة الشعراء، بل ليصور بهجته، فهو يشدو لهن طربا. وتكثر فى غزله مثل هذه الصور الطريفة من مثل قوله فى وصف دقة الخَصْر:

أسائلها أين الوشاحُ وقد أتتْ　　　معُـطَّلةً منـه معـطَّرةَ النَّشْـرِ
فقـالتْ وأوْمَتْ للسِّـوار نقلتُـه　　　إلى مِعْصَمِى لما تقلقل فى خَصْرِى

وقوله:

وقفتُ على الربوع ولى حنينٌ　　　لسـاكنهنَّ ليس إلى الرُّبـوعِ
ولـو أنى حَنَنْتُ إلى مَغـانى　　　أحِبَّـائى حَنَنْتُ إلى ضُـلوعى

وقوله:

تحاذرُ من عمود الصبح نورًا　　　مخـافةَ أن يُلِمَّ بنـا افتضـاحُ
ولم أر قَبْلَهـا واللَّيْـلُ داجٍ　　　صَبـاحًا بـات يَـذْعَـرُهُ صَبـاحُ

والتعبير عن نحول الخصر بنقل السوار إليه تعبير طريف، وبالمثل تعبيره عن أضلاعه بأنها غدت معاهد وربوعا لمحبوباته، وتصويره لما جال فى نفس صاحبته من خوف بل من ذعر حين أخذت تتفلّت فى الأفق تباشير الصباح، ويعجب لفزع صباح إنسى من صباح كونى. وقد توفى ابن الزقاق سنة ٥٢٨ ولم يبلغ الأربعين من عمره، ولعل فيما قدمنا ما يكفى للدلالة على خصب شاعريته وأخيلته.

---

(١) أرزمت: حنَّت.
(٢) العهاد: المطر فى أول الشتاء. وصوبه: الساقط منه.
(٣) الورق: الحمام. مَحْنية: منعطف.

أبو جعفر[١] بن سعيد وحَفْصة الرَّكونيَّة

هو أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد، من سلالة عمار بن ياسر، نزل أسلافه قلعة فى إقليم غرناطة نُسبت إليهم، وحين نشبت فتنة قرطبة فى نهاية القرن الرابع وظلت إلى نحو الربع الأول من القرن الخامس الهجرى استقلت بها هذه الأسرة، وعادت إلى الاستقلال بها فى نهاية عصر المرابطين حين نشبت عليهم الفتنة فى الأندلس. ثم دان زعيمهم عبد الملك بن سعيد للموحدين وكان قبل إعلان ولائه لهم حاول أن يتخذ من ابنه أبى جعفر أحمد وزيرا له يدبر معه شئون القلعة، وكان شاعرا وفى ريعان شبابه فاعتذر له بأنه صاحب لهو وطرب، ولا يصلح لوزارته، فأعفاه، ومضى يعيش للهوه مع رفاقه، حتى إذا نزل عبد المؤمن بجبل الفتح سنة ٥٥٦ وأقبلت إليه وفود الأندلس تعلن ولاءها له رأيناه يفد عليه مع أبيه ويقدم إليه بعض مدائحه. وولَّى عبد المؤمن على بلدان الأندلس بعض أبنائه وقواده، وكانت غرناطة من نصيب ابنه أبى سعيد عثمان، وكانت فيه صرامة مع محبته للآداب وإسباغ المكافآت والنوال على الشعراء. وطلب وزيرا أديبا من أهلها يستعين به ووُصف له أبو جعفر وحسبه وأدبه فاستوزره، وحاول أن يستعفيه، فأبى، وتقلد وزارته.

وكان أبو جعفر قد كلف بفتاة شاعرة ذات جمال وحسب وثراء هى حفصةِ الرَّكونيَّة، وكان أبوها قد لفته ذكاؤها، فعُنى بتربيتها، وأتاح لها من الحرية ما جعلها تلقى الأدباء والشعراء وتحاورهم، وتأخذ سريعا مكانة رفيعة فى بلدتها، ويبلغ من مكانتها أن تفد على عبد المؤمن بجبل الفتح وأن تنشده متلطفة:

يا سيِّد الناس يامن ... يؤمِّل الناسُ رِفْدَهْ
امنُنْ علىَّ بطِرْسٍ ... يكون للدَّهر عُدَّه
تخطُّ يُمْناك فيه ... الحمدُ لله وَحْدَه

مشيرة بالشطر الأخير إلى العلامة السلطانية عند الموحدين، إذ كان سلطانهم يكتب

(١) انظر فى ترجمة أبى جعفر بن سعيد وشعره المغرب ١٦٤/٢ والإحاطة ٢١٤/١ والنفح ١٧٣/٤ - ٢٠٤. وراجع فى ترجمة حفصة وأشعارها المغرب ١٣٨/٢ - ١٣٩ و ١٦٦/٢ والمطرب ص١٠ والإحاطة ٤٩١/١ وانظر ص٢٢٠ والتحفة رقم ١٠٠ ومعجم الأدباء ٢١٩/١٠ والنفح ١٧١/٤ - ١٧٩.

بخط يده فى رأس كل منشور: الحمد لله وحده. وأعجب بها عبد المؤمن واستنشدها من شعرها وأنشدته ما زاده إعجابا، ويبدو أن ابنه عثمان الذى تولى غرناطة بعد ذلك رآها حينئذ وبهره جمالها. فلما ولى غرناطة حاول القرب منها عن طريق وزيره أبى جعفر، ولا بد أنه عرف ما كان قد انعقد بينهما من حب وهو ليس حب مجون، بل حب طهارة وعفاف على نحو ما عُرف عن فتيات الأندلس وسيداتها من تحرر ومن لقاءات بينهن وبين الشعراء فى قصورهن، وفى الحدائق والرياض، إذكن أحيانا يمضين فيها بعض الليالى مع من يهواهن وظلت ذكرى ليلة قضاها أبو جعفر مع حفصة فى بستان بمتنزه يسمى «حَوْر مؤمّل» عبقة فى نفسه حتى ليكتب إليها:

رَعَى الله ليلا لم يَرُحْ بِمَذمَّمٍ عشيَّة وارانا بحَوْرِ مؤَمَّل
وقد خفقتْ من نَحْوِ نجدٍ أَريجةٌ إذا نفحتْ هَبَّتْ بريًّا القَرَنْفُلَ
وغرَّد قمريٌّ على الدَّوْح وانثنى قضيبٌ من الريحان من فوق جدْولِ

فهو يدعو لليل الذى نعم فيه مع حفصة باللقاء بين نسيم الرياض ونفحاتها التى تحيى القلوب أن يسبغ الله دائما عليه رعايته. وتجيبه:

لعمرك ما سُرَّ الرياضُ بوصْلِنا ولكنَّما أَبْدَتْ لنا الغِلَّ والحسَدْ
ولا صفَّق النَّهْرُ ارتياحًا لقربنا ولا غرَّد القُمْرِىُّ إلا لِما وجَدْ

وكأنها تحدث عن حسد الناس لها وأنهما لن يتركوهما ينعمان بحبهما، ويقطفان من أزهاره ما يعنّ لهما وما يمتعان به روحاهما، واتصل بينهما الحب واللقاء فكتبت إليه وقد استبطأت لقاءه:

أزورُك أم تزورُ فإنَّ قلبي إلى ما تَشْتهى أبدًا يميلُ
فعجِّلْ بالجواب فما جميلٌ أَناتُكَ عن بُثَيْنَةَ ياجميلُ

وهى تشير إلى حب جميل لبثينة حبا عذريا شاع ذكره فى بوادى نجد والحجاز لعصر بنى أمية. وأجابها مصورا ولعه بها وتوقيره لها:

أُجِلُّكُمْ مادامَ بى نهضةٌ عن أن تزوروا إن وجدتُ السَّبِيلْ
ما الرَّوْضُ زوَّارا ولكنما يَزُورُهُ هَبُّ النسيمِ العَليلْ

فالروض لا يزور ومثله الفاتنة التى ملكت قلب صاحبها وخلبت لبه، وإنما يزوره

النسيم العليل يستشفى بشذاه وأريجه. ويبدو فى أشعارها له أنه استأثر بقلبها وأنه لم يدع فيه مكانا لسواه حتى لتنشده ملتاعة بحبه ناعمة به سعيدة، غير منكرة غَيْرتها عليه:

أغار عليكَ من عَيْنَى وَمِنِّى ومنك ومن زَمانك والمكانِ
ولو أنى خبأْتُكَ فى عيونى إلى يوم القيامةِ ما كفانى

فهى تغار عليه غيرة لا تماثلها غيرة، حتى لتغار منه هو ومن كل ما يحيطه به من زمان ومكان، وتقول لو أنها خطفته ووضعته وراء جفونها فى عيونها إلى يوم القيامة ما كفاها. وبينما هى تنعم بهذا الحب مع أبى جعفر إذا عثمان بن عبد المؤمن صاحب السلطان فى غرناطة ومن له كل الأمر والتدبير يعترض طريقها المفروش بالورود والرياحين، وتخشى حفصة العاقبة، وتحاول أن تناوره وتداوره فتستأذن عليه فى يوم عيد كاتبة إليه:

يـاذا العُلا وابنَ الخَليـ ـفةِ والإمـامِ المُـرْتَضَى
يَهْنِيـكَ عِيدٌ قـد جَـرَى منـه بما تَهْـوَى القَضَـا
وافــاك من تَهْـواه فى طَـوْعِ الإجابـة والـرِّضـا

ويمتلىء قلب عثمان على كل من العاشقين موجدة وغيظا، وتزيده الوشاياتُ موجدة على موجدة وغيظا على غيظ، إذ يقال له إن أبا جعفر قال لحفصة عنه: ما تحبين فى ذلك الأسود - وكان لون بشرته مائلا إلى السواد - فأسرَّها فى نفسه، ونقلوا إليه أنه قال:

فقُلْ لحريصٍ إذْ يرانى مقيَّدًا بِخدْمته لايُجْعَلُ البازُ فى القَفَصْ

وواتت عثمان الفرصة للانتقام، فإن أخا أبى جعفر عبد الرحمن فرَّ إلى ابن مردنيش الثائر فى شرقى الأندلس على الموحدين، ويبدو أن أبا جعفر فكر فى الانضمام إلى أخيه، فأمر عثمان بقتله، وقُتل صبْرًا فى مالقة سنة ٥٥٩ للهجرة. وبكتْه حفصة طويلا وندبته ندبا حارًّا ولبست عليه السواد، وهجرت غرناطة لغريمها عثمان إلى مراكش ولقيت أخاه سلطان الموحدين يوسف، وأنشدته من الشعر ما جعله يعطف عليها ويفسح لها فى قصره معلمةً لفتياته، وتظل معززة مكرمة فى عاصمة الموحدين إلى أن لبت نداء ربها سنة ٥٨٦ للهجرة.

ابن خاتمة[١]

هو أبو جعفر أحمد بن على بن خاتمة الأنصارى المريِّى، ولد فى نهاية القرن السابع أو مطلع القرن الثامن إذ يقال إنه توفى سنة ٧٧٠ أو قبلها بقليل عن سبعين عاما. وليس بين أيدينا ما يوضح نشأته وثقافته، غير أن فى نهوضه بالإقراء للقرآن الكريم فى مسجد المرية الجامع ما يشهد بأنه كان متعمقا فى الثقافة الإسلامية من قراءات الذكر الحكيم ومن الفقه والحديث النبوى، وتؤكد ذلك مؤلفاته وأشعاره وما تحمل من إشارات ثقافية إسلامية وأخرى لغوية. ونرى فى أخباره زيارات كثيرة لغرناطة وانعقاد صلات بينه وبين أعلامها وخاصة وزيرها لسان الدين بن الخطيب، مما يدل على أنه اتصل بالأعمال الديوانية لأمير غرناطة، ولعله عمل كاتبا مدة فى دواوين المرية بلدته التى كانت تتبع أمير غرناطة، إذ يُذْكَر فى ترجمته أنه تخلَّى عن الكتابة، حتى إذا طُلب إليه أن يعود إليها أنشد:

تَقضَّى فى الكتابة لى زمانٌ ... كشأْنِ العَبْدِ ينتظرُ الكتابه

وكتابة العبد التى يشير إليها هى أن يكاتب الرجل عبده على مال يؤديه إليه مقسَّطا، فإذا أدَّاه صار حُرًّا، وهو يقول إننى قضيت فى الكتابة زمانا غير قصير. مما يدل على أنه ظل يعمل فى الكتابة لأولى الأمر ببلدته فترة وأنه استُعْفى منها فأعفى، وبذلك رُدَّت إليه حريته ولن يعود إلى حمل نير الكتابة أبدا. وتدل مؤلفاته أوضح دلالة على اتساع ثقافته وأنه لم يقف بها عند الثقافة الدينية واللغوية، بل اتسع بها لتشمل الطب من علوم الأوائل كما يتضح فى كتابه: «تحصيل غرض القاصد فى تفصيل المرض الوافد» وفيه يتحدث عن وباء الطاعون الذى اجتاح المرية فى عامى ٧٤٩ و ٧٥٠ ويفصل القول فيه وفى أسبابه. وله فى التاريخ الأدبى كتاب مزية المريَّة على غيرها من البلاد الأندلسية، وله فى اللغة كتاب سماه: «إلحاق العقل بالحس فى الفرق بين اسم الجنس وعلم الجنس» وكتاب

---

(١) انظر فى ترجمة ابن خاتمة وشعره الإحاطة ٢٣٩/١ وما بعدها والكتيبة الكامنة ص ٢٣٩ ونثير فرائد الجمان لابن الأحمر (تحقيق رضوان الداية) طبع بيروت – رقم ٢٠ ودرة الحجال لابن القاضى (طبع الرباط) ٤٠/١ ونيل الابتهاج لأحمد بابا (طبع القاهرة) ص٧٢ ونفح الطيب فى مواضع مختلفة (انظر الفهرس) وديوانه حققه وقدم له د. رضوان الداية. وراجعْ دراسة عنه للمستشرقة الإسبانية سوليداد خيبرت فى كتاب دراسات أندلسية للدكتور الطاهر أحمد مكى (طبع دار المعارف) ص٩٧.

«إيراد اللآل من إنشاد الضوال وإرشاد السؤَّال». وله فى الأدب رسالة صغيرة فى «الفصل العادل بين الرقيب والواشي والعاذل» وكتاب «رائق التحلية فى فائق التورية» وليس دراسة فى التورية وإنما هو أشعاره الذى صاغها للتورية، وبها توريات عن مصطلحات علمية متنوعة.

وديوان ابن خاتمة فى نحو مائتى صفحة، وهو موزع على أربعة أقسام: قسم فى المدح والثناء، وقسم فى التشبيب والغزل، وقسم فى الملح والفكاهات، وقسم فى الوصايا والحكم، ونبذة كبيرة من الموشحات استغرقت نحو أربعين صحيفة، وتليها مستدركات المحقق على الديوان. وأكبر الأقسام قسم التشبيب والغزل وهو فى نحو خمسين صحيفة تضم تسعا وأربعين منظومة بين قصيدة ومقطوعة. ونشعر منذ أول قصيدة نقرؤها فيه أن منظوماته ليست ثمرة تجارب حقيقية فى الحب، إنما هى محاولات لمحاكاة شعراء الغزل والنسيب السابقين، إذ يختار ابن خاتمة لنفسه وزنا من أوزان الشعر، وينظم فيه أبياتا تتحدث عن الحب حديثا كله تكلف وتصنع لبيان قدرته على النظم فى هذا الغرض القديم من أغراض الشعر العربى، وفيه تتجمع العناصر البدوية من أسماء المواضع والأشجار والأزهار والآرام وغير الآرام من مثل قوله:

تهبُّ نُسَيْماتُ الصَّبا من رُبَى نَجْدِ ... فيَنْفَحْنَ عن طيب ويَعْبقن عن نَدِّ[1]
ومـا ذاك إلا أنهنَّ يَـجُلْنَ فـى ... معـاهدنـا بين الأُثَيْلات والـرَّنْدِ[2]
معـاهدُ نهـواهـا وتَهْـوى لقـاءنـا ... بها قد مضى حكمُ العفاف على الوُدِّ
وفِي القُبَّةِ البيضاءِ بيضاءُ لو بدتْ ... لشمس الضحى يوما لحارتْ عن القَصْدِ[3]
تطلَّع عن صُبْحٍ من الوجه نَيِّرٍ ... وتَغْرُبُ عن ليلٍ من الشَّعْر مُسْوَدِّ

ونسيج الصياغة فى الأبيات به غير قليل من الضعف، والمعانى والصور مكررة معادة دون تحويرات فيها - على نحو ما رأينا عند ابن الزقاق - تعيدها خلقا جديدا، ودائما الخد كالورد والريق كالشهد والمبسم كالعِقْد والصدغ كالعقرب. وقد يختلط الغزل بالحماسة ولكن دون حرارة ومع غير قليل من التكلف كأن يزعم أن مقلة صاحبته تغير على الورى وأن أناملها النواعم مخضَّبة بدمائهم. ولا نظلم ابن خاتمة فهو من أنبه الشعراء فى زمنه، غير أن الشعر حينئذ نضب معينه، واستحال فى كثير من جوانبه إلى

(١) الند: عود عطر الرائحة.
(٢) الأثيلات تصغير الأثلات: من أشجار البادية. ومثلها الرند وهو شجر طيب الرائحة.
(٣) حارت: رجعت.

صور من التكلف الشديد، وقد أصبح التصنع بدع العصر للإتيان بمحسنات البديع من جناس وطباق ولف ونشر وتوريات وبذلك لم يعد الشعر فى جمهوره يعبر عن عواطف ومشاعر صادقة للشاعر، وربما كانت أجمل مقطوعة غزلية لابن خاتمة قوله:

زارتْ على حَذَرٍ من الرُّقباءِ والَّليْـلُ ملتفٌّ بفَضْـلِ رِداءِ
تَصِلُ الدُّجى بسوادِ فَرْعٍ فاحمٍ لتـزيـد ظلمـاءً إلى ظَلْمـاء
فوَشَى بها من وجهها وحليِّها بَدْرُ الدُّجَى وكـواكبُ الجوزاءِ
أقسمتُ لـولا عفَّةُ عُـذْرِيَّةُ وتُقىً عـليَّ لـه رقيبٌ رائى
لنَقَعْتُ غُلَّةَ لَـوْعتى برُضَـابِهـا ونضحتُ وَرْدَ خـدودها ببكـائى

ومع ذلك فإننا نشعر بغير قليل من التكلف فى المقطوعة على نحو ما نرى فى الشطر الثانى من البيت الثانى، والصور فى البيت الثالث متراكمة، وقسمه الذى مهَّد به لعفته وتقاه الذى يراقبه فى حبه، كل هذه صور من التكلف الشديد فى الغزل. ويخف هذا التكلف فى موشحاته بحكم القصر الشديد فى شطورها، وبذلك لا تظهر فيها هلهلة النسيج التى تلاحظ بوضوح فى كثير من أبيات شعره.

٢

شعراء الطبيعة والخمر

تتميز الأندلس بطبيعة فاتنة فى سهولها ووديانها وأنهارها وجبالها وغاباتها وأشجارها وأزهارها وبساتينها ومتنزهاتها، وهى طبيعة خلبت ألباب الشعراء هناك فتغنوا بفاتنها ومشاهدها دائما باثين فيها عواطفهم ومشاعرهم. وكان مما زادهم شغفا بها ما مرَّ بنا من اختلافهم إلى المتنزهات والحدائق المحيطة ببلدانهم مع صواحبهم، ولذلك كثر عند شعراء الأندلس المزج بين الطبيعة والغزل، وأيضا كثر عندهم المزج بين الطبيعة والخمر، ونظن ظنا أن إقبالهم على الخمر إنما كان بسبب مزاجهم الحاد العنيف الذى ولدته فيهم حربهم الدائمة لنصارى الشمال، إذ تقوم حياة المحارب دائما على الحدة والعنف والإقبال على فنون المتاع. وكان من آثار ذلك أن كثر عندهم شعر الخمر مقرونا بالطبيعة أو بها وبالحب، وكثيرا ما يسوقون ذلك فى مقدمات مدائحهم، ولا نستطيع الحديث عن شعراء الطبيعة والخمر فى قسمين متقابلين كما صنعنا فى حديثنا عن شعراء الفخر والهجاء، إذ هما

ممتزجان، مما يجعلنا نسوق الحديث عنهما معا. وقد يكون من الطريف أن نلتقى عند عبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية فى تلك الديار بمقطوعة له فى وصف نخلة ببستان قصره فى قرطبة المسمى منية الرُّصافة، وهى تمضى على هذا النمط [1]:

تبدَّتْ لنا وَسْطَ الرُّصافة نخلةٌ ... تناءتْ بأرض الغَرْبِ عن بَلَدِ النَّخْلِ
فقلتُ: شَبيهى فى التغرُّب والنَّوَى ... وطول التنائى عن بنىَّ وأَهْلِى
نشأتِ بأرضٍ أنتِ فيها غريبةٌ ... فمثلُكِ فى الإقصاء والمُنْتَأَى مثلى

وكأن هذه النخلة رمز العرب هناك، وكأن هذه القطعة الشعرية أيضا بدورها رمز لهم بما تحمل من حنين لا ينقطع إلى الوطن البعيد، حنين مبثوث فى هذه النخلة الغريبة التى نقلها العرب إلى تلك الديار النائية القاصية البعيدة. وكما نقلوا النخلة معهم نقلوا إلى أشعارهم كل العناصر البدوية النجدية من أطلال وغير أطلال، ونقلوا ما استحدثه العباسيون فى وصف الطبيعة وسكبوا عليه من بيئتهم ومشاعرهم وأخيلتهم مابث فيه الحياة والحيوية على نحو ما نجد فى هذه الأبيات البديعة المبكرة، وكأنها إرهاص لما يستشعره الشاعر الأندلسى من تمثل عناصر الطبيعة لمشاعر الإنسان. ونقلوا - بجانب ذلك - ما استحدثه العباسيون فى الخمر وخاصة أبا نواس، وممن حاول محاكاته مبكرا يحيى الغزال الذى ترجمنا له بين الهجائين، وله قصيدة على طريقة أبى نواس تصور مغامرة له فى حان من حانات الخمارين وفيها يقول [2]:

ولما أتيتُ الحانَ ناديتُ ربَّهُ ... فثابَ خفيفَ الروح نحو نِدائى
فقلتُ أَذِقْنِيهــا فلما أذاقهــا ... طرحتُ عليه رَيْطَتِى ورِدَائى [3]

وهو يقول إنه حين ذاق خمر صاحب الحان بلغ من نشوته بها أن خلع ملابسه. وحرى بنا أن لا نأخذ مثل هذه الخمرية عند الغزال مأخذ الجد، فكثير من شعر الخمر - لا فى الأندلس وحدها بل فى كل البلدان العربية - كان يقال محاكاة لأبى نواس على سبيل الفكاهة فى المجالس، ومثل ذلك ما يقال فى وصف سقاتها والغزل بهم، فأكثر ذلك وجمهوره، إنما كان يقال على سبيل التندير والمداعبة، ولا يمثل حقيقة ولا ما يشبه

---

(١) الحلة السيراء ٣٧/١.
(٢) الديوان ص ٤٣.
(٣) الريطة: الثوب الرقيق تحت الرداء.

الحقيقة. ويقول عباس بن ناصح فى قطع مفازة ليلا[١]:

ومخــوفَــةٍ تَنْفِى مخــافتُهــا نومَ الفتى ذى المِرَّةِ النَّدْبِ[٢]
للجنِّ فى أَجْــوَازِهــا لَغَطٌ بالليل مثلُ تنازعِ الشَّرْبِ
وتَرَى بها جُونَ النَّعام إذا أَشْرَفْن كالمَهْنُوءَةِ الجُرْبِ[٣]

وهو يصف سُرَى الليل فى فلاة مخوفة حتى ليخاف السرى فيها الشجاع شديد المضى. ويستلهم ما كرره طويلا ذو الرمة فى وصف الفلوات ليلا وعزيف الجن بها الذى يشبه كما يقول عباس بن ناصح لغط الشَّرْب، ويشبِّه ما بها من النعام الأسود بالإبل الجرب المطلية بالقطران، وكأننا لا نقرأ لشاعر أندلسى فى القرن الثالث الهجرى وإنما نقرأ لشاعر نجدى من أمثال ذى الرمة. ويقول ابن عبد ربه فى وصف نهار ممطر[٤]:

نهارٌ لاح فى سِرْبالِ ليلٍ فما عُرِفَ الرَّواحُ من البُكورِ
وعَيْنُ الشمس تَرْنو من بعيدٍ رُنُوَّ البِكْر من خَلْف السُّتورِ

فالسحب منعقدة فى السماء والجو مظلم، ولا يدرى ابن عبد ربه هل الناس السائرون فيه باكرون أو مبكرون صباحا قبل طلوع الشمس أو هم رائحون أو راجعون، وأحيانا تتراءى عين الشمس رانية من بعيد، ولكن سرعان ما تختفى وراء السحب اختفاء الفتاة الرانية خلف الستور خجلا واستحياء. ونتقدم فى القرن الرابع الهجرى ونلتقى بيحيى بن هذيل وله أشعار كثيرة فى الربيع وأزهاره. وله فى وصف حمامة وأنينها محزونةً لفراق صاحبها أو هديلها[٥]:

ومُرِنَّةٍ والدَّجْنُ يَنسِجُ فَوْقها بُرْدَيْنِ من طَلٍّ ونَوْءٍ باكِ[٦]
مالتْ على طَيِّ الجناح وإنما جَعَلَتْ أريكتَها قضيبَ أراكِ[٧]
وترنَّمتْ لَحْنَيْنِ قد حلَّتْهما بغِناء مُسْمِعَةٍ وأنَّةِ شاكِ
ففقدتُ من نفسى لفرطِ تلهُّفى نَفَسَ الحياة وقلتُ من أبكاكِ

وهو يقول إن الحمامة ترن وتصدح والغيم يملأ أقطار الأرض والسماء ناسجا فوقها

(١) كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس لابن الكتانى (تحقيق د. إحسان عباس) ص ١٧٣.
(٢) ذو المرة: القوى الشجاع. الندب: الماضى.
(٣) جون: سود. المهنوءة: الإبل المطلية بالهناء وهو القطران.
(٤) الذخيرة ٧٧٩/١.
(٥) الذخيرة ٣٤٦/٣.
(٦) الدجن: الغيم يعم أطباق الأرض والسماء. النوء: المطر.
(٧) الأريكة: المقعد. قضيب: غصن.

رداءين من طل ومطر تذرفه السحب، وهي محزونة قد مال رأسها على طي الجناح متخذة من غصن الأراك أريكة لها ومقعدًا، وشجاها فراق صاحبها فهي تترنم بغناء ممزوج بأنين، مما جعله يذكر حبه ويملؤه تلهفا لرؤية صاحبته حتى لكأنما يوشك أن يفقد الحياة. ويبكي من حُرَق هواه بصاحبته، ويسأل الحمامة سؤال العارف من أبكاك؟ فنحن في الهوى سواء. وتكثر أشعارهم في الأزهار، وكثيرون منهم يردون على ابن الرومي في تفضيله النرجس على الورد، ولسعيد بن فرج في الرد عليه قصيدة يقول فيها:[١]

أزعمت أن الوَرْدَ من تفضيلهِ ... خَجِلٌ وناحلُه الفضيلةَ عانِدُ
إن كان يَسْتحيي لفضل جَمالِه ... فحياؤُهُ فيهِ جمالٌ زائدُ

فهو يجعل خجل الورد لاحمرار وجنته من جوهر حسنه يزيده جمالا على جمال، فهو ليس احمرارا ولا خجلا عارضا أمام النرجس، بل هو جزء لا يتجزأ من جماله. ونزل الرمادي ضيفا على صَحب له في مدينة وادي آش إلى الشمال الشرقي من غرناطة، وكان الوقت شتاء، وقدموا له احتفالا به باقة من الورد كانوا اجتلبوها من بجّانة في الجنوب الشرقي، فتعجب من وجود الورد في وادي آش شتاء، فقالوا له إنه من بجّانة، فأخلد إلى الصمت ولم يلبث أن لثَمها وأنشد[٢]

يا خُدودَ الحُورِ في إخْجالها ... قد علتْها حمرةُ مكتسبهْ[٣]
اغتربنا أنتِ من بجّـانةٍ ... وأنا مغتربٌ من قُـرْطبه
واجتمعنا عند إخوانٍ صفًا ... بـالنَّدَى أمـوالُهم مُنْتهَبه
إنَّ لَثْمي لــك قُـدَّامَهم ... ليس فيه فِعْلةٌ مستغربَـهْ
لاجتماعٍ في اغترابٍ بيننا ... قَبَّـلَ المغتربُ المغتـربَـه

والمقطوعة مع سهولة ألفاظها تفيض بالعاطفة، وكأنه أعاد لنا حديث عبد الرحمن الداخل السابق إلى النخلة، فهو والوردة متماثلان في الغربة، وأضاف إلى ذلك حبا للوردة ولثما وتقبيلا عند إخوان صفاء كرام كرما فيّاضا. وكان للمنصور بن أبي عامر الحاجب ثلاث جوارٍ سماهن بأسماء الأزهار: بهارَ ونرجس وبنفسج، ونرى عبد الملك بن إدريس

---

(١) الحميدي ٢١٢.
(٢) البديع في وصف الربيع لأبي الوليد إسماعيل بن عامر الحميري (تحقيق هنري بيريس - طبع الرباط) ص ١٢٢.
(٣) الحور جمع حوراء: المرأة البيضاء.

الجزيرى يجعل كلا منهن تخاطب مولاها متمثلة زهرتها ومحاسنها بين الأزهار فى مقطوعات[١] شعرية بديعة. ويقول الشريف الطليق فى نفس قصيدته الفريدة السالفة فى ترجمته[٢]:

وغَمـــامٍ هَـطِلٍ شُؤْبُـوبـهُ ... نادمَ الروض فغَنَّى وسَقَى[٣]
فى ليالٍ ضلَّ سارى نَجْمِها ... حـائرًا لا يَسْتبين الـطُّرُقـا
أوقـد البرقُ لهـا مِصْباحَـهُ ... فانثَنى وَجْهُ دُجـاها مُشْـرِقا
وشَدا الرَّعْدُ حنينًا فجـرتْ ... أكؤسُ المُزْنِ عليه غَدَقا[٤]
وغدتْ تَحْنُو له الشمسُ وقد ... ألحفتْه من سَناها نُمْرُقـا[٥]

وقد بثَّ الشريف الطليق فى الغمام الممطر والروض مشاعر مجلس أنس وطرب بما فيه من مغن وساق فى ليلة داجية، أمسى النجم فيهاحائرا لا يتبين طريقه، وسرعان ما أشعل البرق لها مصابيحه، فاستحال وجهها الداجى المظلم مشرقا مضيئا، وأخذ الرعد يشدو ويغنى، فجرت أكؤس المزن غزيرة حتى انتشى الروض، وأُصْبِحَ، فرأت الشمس ما أصاب الغصون وبعض الأزهار من المطر المنهمر ليلا، فعطفت على الروض وأشفقت عليه وكسته من سناها وضوئها طنافسها الذهبية، حتى يسرى فيه الدِّفء.

ولم نقف حتى الآن عند الخمريات لا لأنها كانت قليلة، فلم يكد يخلو شاعر ممن سميناهم فى هذا العصر الأموى من أشعار له فى الخمر، غير أنها فى جملتها تعد محاكاة وتقليدا لما قال المشارقة فيها. وربما كان الشريف الطليق أول شاعر نقرأ له فى الخمر أشعارا فيها شىء من الطرافة لملكاته الخيالية الخصبة من مثل قوله فى نفس القصيدة السالفة:

رُبَّ كأسٍ قد كستْ جُنْحَ الدُّجَى ... ثـوبَ نـورٍ من سَنـاهـا يَققـا[٦]
بتُّ أَسْقيهـا رَشًـا فى طَـرْفِـه ... سِنِـةٌ تُـورثُ عيـنى أرَقـا[٧]
خَـفِيَـتْ للعـين حـتى خِـلْتُهـا ... تـتَّقـى من لَـحْـظِه مـا يُتَّقَى

(١) راجع هذه المقطوعات فى الذخيرة ٤٧/٤ وانظر فى ترجمة الجزيرى الجذوة ٢٦١ والمطمح ١٣ والصلة ٣٥٠ والمغرب ٢٢١/١.
(٢) الحلة السيراء ٢٢٣/١.
(٣) شؤبوب المطر: أول دفعة منه.
(٤) المزن: السحاب. غدقاء: غزيرة.
(٥) النمرق: الطنفسة من القطيفة أوالصوف.
(٦) الأبيض اليقق: الناصع البياض جنح: ظلام.
(٧) الرشأ: ولد الظبية.

أشرقتْ في ناصعٍ من كفِّه كشُعاع الشمسِ لاقى الفَلَقا[١]
طلعَتْ شمسًا وفُوهُ مَغْرِبًا ويدُ الساقي المحيِّي مَشْرِقا
فإذا ما غربتْ في فَمِهِ تركتْ في الخدِّ منه شَفَقا

والاستعارات في الخمرية جيدة، فالكأس كست ظلام الدجى ثوب نور من ضوئها ناصع البياض، وقد بات يسقيها رشأ عيناه ذا بلتان كأن بها سنة من النوم، وإن فتورهما وجماله ليؤرقه. ويقول إنها خمر روحانية، حتى إنها لا تكاد تُرَى، وكأنها تتوارى من لحظ هذا الرشأ خشية أن تصيبها سهامه، ويجعل يد الساقي مشرقا لتلك الشمس أو تلك الخمر، كما يجعلها تغرب في فم الرشأ أو فم صاحبته. وكل ذلك فيه أصداء من خمريات أبي نواس، وقد نفذ إلى إضافة حين جعل يد الساقي مشرقا وجعل الخمر حين تغرب في فم صاحبته تتحول في الخد منها شفقا. ويتصور معاصره الفقيه سليمان بن محمد البطليوسي الأرض في الربيع كأنها مجلس أنس كبير، يقول[٢]:

تبدتْ لنا الأرضُ مزهوَّةً علينا ببهجة أثوابها
كأنَّ أزاهِرَها أكْؤُسٌ حَوَتْها أنامِلُ شُرَّابها
كأن الغصونَ لها أذرعٌ تناولها بعضَ أصحابها
كأن تَعَانُقَها بالجَنُوب تعانقُ خَوْدٍ لأتْرابها
كأنَّ تَرَقْرُقَ أجفانها بُكاها لفُرْقَةِ أحبابِها

فالأرض قد ازدهت بأبهج أثوابها لهذا الاحتفال الكبير، وكأنما أزهارها تحولت إلى كئوس في أنامل الشاربين تمدها لهم أذرعها من الغصون، مبتهجة فرحة بلقائهم، وريح الجنوب تعانق الغصون عناق خَوْد أو شابة فاتنة لأترابها الفاتنات، ويتلفت فيجد النَّدَى على وجنات الأزهار وفي عيونها فيقول إن الدموع تترقرق في أجفانها لفرقة أحبابها. ونلتقي بعده بعبادة بن ماء السماء، وسنخصه بكلمة. وكان يعاصره ابن شهيد بأخرة من العصر الأموي، وله في زيارة دَيْر أيام شبابه مع صحبه في طلب الخمر واللهو:[٣]

ولَرُبَّ حانٍ قد شَرِبْتُ بِدَيْرِهِ خَمْرَ الصِّبا مُزِجتْ بِصَفْوِ خُمورِهِ
في فتيةٍ جعلوا الزِّقاقَ تِكاءَهم مُتَصاغرين تخشُّعا لكبيره

---

(١) الفلق: الصباح.
(٢) ابن الكتاني ص٤١ والبديع في وصف الربيع ص١٤ وانظر في ترجمة الفقيه الحميدى ٢٠٦ وبغية الملتمس رقم ٧٦٢.
(٣) الديوان ص١١٥.

يُهْدِى إلينا الرّاحَ كلُّ مُعَصْفَرٍ كالخِشْف خفُّره التماحُ خَفيره[1]
وترنّم الناقـوسُ عند صـلاتهمْ ففتحتُ من عينى لرَجْع هديره

وهو يقول إنه بات مع بعض رفاقه فى حانة دير اصطفت فيها الدنان وأخذوا يعبُّون من الخمر متخذين من زقاقها متكئًا لهم، كأنما يريدون أن لا يتركوا فيها بقية، وغلمان الدير يدورون عليهم بكئوسها وعين القسيس ترصدهم وترعاهم. وأخذتهم سنة من النوم، ودقّ ناقوس الكنيسة فى الصباح فأيقظهم من رقادهم. وحرى بنا أن نشير هنا إلى كتاب التشبيهات لابن الكتانى المتوفى حوالى سنة ٤٢٠ للهجرة، فكل ما فيه من عرض للشعراء مع طرائف تشبيهاتهم هو من إنتاج العصر الأموى بالأندلس، وقد خص شعر الطبيعة بنحو ستين صفحة وشعر الخمر بنحو عشرين صفحة، تتوالى فيها جميعا تشبيهات طريفة لكثرة من الشعراء الذين أظلهم هذا العصر ونالوا شيئا من الشهرة فيه، وقد بلغوا فى الكتاب جميعه نحو مائة شاعر، مما يدل بحق على أن الشعر نشط فى الأندلس لعصر بنى أمية - كما قلنا فى غير هذا الموضع - نشاطا عظيما.

ونمضى إلى عصر أمراء الطوائف ونلتقى فى أوائله بأبى عبد[2] الله محمد بن السراج شاعر بنى حمود بمالقة فى الجنوب الشرقى للأندلس على البحر المتوسط، وكان صَبًّا بمن اسمها حُسْن الورد وله فيها وفى الورد وفى الطائر المسمى حَسُّونًا ويسمى عندهم أم الحسن أشعار كثيرة نذكر منها قوله:

ذكرتُ بالورد حُسْنَ الوَرْدِ شِقَّتَهُ حُسْنًا وطِيبًا وعهدًا غير مضمونِ
هيفاءَ لو بعتُ أيامى لِرؤيتها بساعةٍ لم أكن فيهـا بِمَغْبُونِ
فاشـربْ على ذكرها خَمْرًا كِريقَتِهـا وخُصَّنى بهـواها حين تَسْقِينى

فورد الربيع على أغصانه يذكِّره باسم صاحبته وبالورد المطبوع على خديها، ويقول إنها صِنْوٌ للورد طيبا وحسنا وقصرًا إذ أيامه قليلة. ويذكر لقاءات له معها، فيطلب إلى الساقى كأسا يشربه على ذكرها، وذكرى الأيام التى نعم فيها بقربها. وكان يزامله فى مديح بنى حمود أصحاب مالقة عبد الرحمن بن مُقانا وسنخصه بكلمة ونلتقى

---

(١) معصفر: مصبوغ بالعصفر وهو صبغ أحمر. ويريد السقاة من غلمان القسس. الخشف: ولد الظبية. خفره: حماه. خفيره: حارسه.

(٢) انظر فى ترجمة ابن السراج وشعره الذخيرة ٨٧٠/١ وما بعدها والحميدى ٥٦ والبغية رقم ١٤٤ والمغرب ٤٣٤/١.

بأبى عامر بن مسلمة صاحب كتاب حديقة الارتياح فى وصف حقيقة الراح الذى ألفه للمعتضد عباد أمير إشبيلية، وله فى وصف الخمر[١]:

خمرةٌ ماتتْ زماناً بحجابٍ يَحْتويها
لبثتْ فى بَطْنِ أمٍّ غَيَّبتْها عن بَنِيها
ألْحَدَتْها الدَّنُّ دَهْرًا ثم عاد الرُّوحُ فيها
فانبرى منها سراجٌ رائقٌ مَنْ يجتليها

وهو يقول إنها ماتت زمانا طويلا وراء حجاب دَنِّها أو سِداده، ويزعم أنها ظلت فى بطن أمها حقبا لا تبرزها لبنيها من الكئوس، وما زالت الدن مدفونة، أو بعبارة أدق ما زالت الخمر مدفونة لا حياة فيها ولا روح، ثم قُدِّر لها أن يعيد الماء لها روحها وحياتها حين وُضع فيها وامتزج بها، ولم تلبث أن بدا فيها سراج يروق الناظرين. وكان يعاصره فى إشبيلية أبو الوليد إسماعيل بن عامر الحميرى الملقب بحبيب المتوفى سنة ٤٤٠ عن اثنين وعشرين عاما، وله كتاب البديع فى وصف الربيع الذى تحدثنا عنه فى الفصل الثانى، وهو أحد مصادرنا المبثوثة فى الهوامش، وقد جمع فيه روائع مما للأندلسيين فى صفة الربيع وأزهاره ونواويره، وهو دليل واضح على كثرة ما نظم الأندلسيون فى الطبيعة مما أتاح له أن يؤلف فيها منتخباته البديعة فى مائة وستين صفحة، مما نظموه فيها. ولابن عمار أبيات فى الخمر والطبيعة اشتهرت قدَّم بها مدحة للمعتضد عباد، وهى تمضى على هذا النمط[٢]:

أَدِرِ الزُّجاجةَ فالنسيمُ قد انْبَرَى والنَّجْمُ قد صَرَفَ العِنانَ عن السُّرَى
والصُّبْحُ قد أَهْدَى لنا كافورَهُ لما استردَّ الليلُ مِنَّا العَنْبرا
والرَّوْضُ كالحَسْنا كساهُ زهرُه وَشْيًا وقلَّده نَدَاه الجوهرا
روضٌ كأن النهرَ فيه مِعْصَمٌ صافٍ أطلَّ على رداءٍ أخضرا

وموسيقى القصيدة وصياغتها وصورها على هذه الشاكلة من التفنن، وكأنما تحولت الدنيا والطبيعة إلى محفل راقص، حتى النجم كأنما ثبت فى مكانه لا يريم، واسترد الليل المرح الذى قضوه عنبره وسواده منهم، فأهداهم الصباح كافوره وضياءه المشرق، وتبرَّج الروض فى وشيه وجواهره، وكأن النهر الذى يجرى فيه معصم صاف متلألئ بمياهه يشرف

(١) الذخيرة ١٠٨/٢.
(٢) الذخيرة ٣٨٤/٢ ومغرب ٣٩١/١.

على بساط بل على رداء سُنْدسى أخضر. وتتداخل صور الطبيعة فى مديح القصيدة ومعانيها مرارا كقوله السالف فى المعتضد:

أَنْدَى على الأكباد من قَطْرِ النَّدَى   وألَذّ فى الأجفان من سِنَةِ الكَرَى

وكان يعاصره بإشبيلية على بن حصن الماجن، وسنفرد له كلمة. ونمضى إلى عصر المرابطين، ونلتقى بعبد الله بن سارة، وله أشعار كثيرة فى الأزهار: النرجس وغيره وفى الخمر ومجالسها، ومن قوله فى النارنج[1]:

أَجَمْرٌ على الأغصانِ زادتْ نضارةً   به أم خدودٌ أَبْرَزَتْها الهوادِجُ
كُراتُ عَقيقٍ فى غُصونِ زَبَرْجَدٍ   بكفِّ نسيمِ الرِّيح منها صَوالِجُ
نقبِّلها طورا وطورا نَشُمُّها   فهنّ خدودٌ بيننا ونوَافِجُ

وابن سارة لا يدرى أيرى على الأغصان جمرا ناضرا أم خدودًا لحسان تومض من بعيد على الهوادج، بل هى كرات من عقيق أحمر تتوّج غصونا من زبرجد أخضر، بل هى صوالج يرسلها النسيم بكفه إلى أعالى أشجارها حتى إذا تناولها بيده مضى يقبل فيها خدود الحسان ويشم أريجها العطر، وكأنها طورا خدود وطورا نوافج مسك ذكى الرائحة. ولهم شعر كثير فى الفواكه والثمار نكتفى منه بهذا المثال. ولأبى طالب عبد الجبار المترجم له بين أصحاب الشعر التعليمى خمرية نواسية، وصف فيها زيارته لإحدى الحانات، يقول فيها[2]:

وخمّارٍ أنختُ به مَسِيحى   رَخيمِ الدَّلِّ ذى وَتَرٍ فَصيحِ[3]
سقانى ثم غنَّانى بصوتٍ   فداوَى ما بقلبى من جُروحِ
وفَضَّ فَمَ الدِّنان على اقتراحى   ففاحَ البيتُ منها طِيبَ رِيحِ
فقلتُ له لِكَمْ سَنَةٍ تراها   فقال: أظنُّها من عهد نوحِ
ولما أن شَدَا الناقوسُ صَوْتا   دعانى: أن هَلُمَّ إلى الصَّبوحِ

فهو قد نزل بخمار مسيحى يحسن الغناء على العود بصوت رقيق، وسقاه وغناه وشفى - كما يقول - ما بقلبه من جروح، وأخذ يفضّ له باقتراحه دَنًّا وراء دن، وسأله عن عمرها فقال له إنها عتيقة وأظنها من عهد نوح، ودقَّ الناقوس، فنبَّهه إلى الصبوح أو

(١) الذخيرة ٨٤٠/٢ ومغرب ٤٢٠/١.
(٢) الذخيرة ٩١٨/١ والمغرب ٣٧٢/٢.
(٣) رخيم: رقيق.

شُرْبها فى الصباح. ولابن الزقَّاق يصف أمسية وقد غربت الشمس وخلَّفت وراءها على أفق السماء الغربى الشفق البهيج[١]:

وعَشِيَّةٍ لبستْ رِداءَ شَقِيقِ ... تَزْهُو بلونٍ للخدود أَنيقِ
أبقتْ بها الشمسُ المنيرةُ مثلَما ... أبقى الحياءُ بِوَجْنَةِ المعشوقِ
لو أستطيع شربتُها كَلَفًا بها ... وعدلتُ فيها عن كُئوسِ رَحِيقِ

وهو يتصور العشية كأنما أعارها زهر شقائق النعمان الأحمر رداء أو كأنما اكتست بحمرة الخدود الفاتنة أو كأنما خلَّفت الشمس المضيئة عليها ما يخلِّفه الخجل على وجنة المعشوق. وإنه ليفتن بتلك العشية وما يلابس الأفق من أضواء الشفق الوردية والياقوتية التى تفوق نشوته برؤيتها نشوته بالكئوس من رحيق الخمر، حتى ليتمنى - لو استطاع - أن يشربها هانئا بها هناءة ما بعدها هناءة. وابن الزقاق ينتشى دائما بمناظر الطبيعة الساحرة وله بجانب شعره فيها خمريات كثيرة، ولكن تظل نشوته بالطبيعة أشد أو أكثر شدة. وكانت فتنة خاله ابن خفاجة بالطبيعة أعمق أو أكثر عمقا وسنخصه بكلمة عما قليل.

ونظل فى عصر الموحدين نلتقى بكثيرين مفتونين بمناظر الطبيعة الأندلسية الخلابة، وفى مقدمتهم الرصافى الذى ترجمنا له بين شعراء المديح، وله يصف نهر الوادى الكبير الذى يمر أمام إشبيلية وما يحيط به من أشجار ونباتات قائلا[٢]:

ومهدَّلِ الشَّطَّيْنِ تحسب أنَّه ... مُتَسَايِلٌ من دُرَّةٍ لصَفَائهِ
فاءتْ عليه معَ الهَجِيرَةِ سَرْحَةٌ ... صَدِئتْ لفَيْئَتِها صَفِيحةُ مائهِ[٣]
وتراه أزرقَ فى غِلالة سُنْدسٍ ... كالدَّارعِ اسْتَلْقَى بِظلِّ لِوَائهِ

فالنهر تتهدلُ على شطيه أغصان الأشجار، وهو يجرى تحتها صافيا متلألئا كأنه يسيل من درة أو درر نفيسة وقد بسطت شجرة ضخمة على مائه ظلها، وكأنما ألقت صدأ على صفيحته أو وجهه العريض، وهى صورة بديعة. ولم يلبث النهر أن تراءى له مع جِفافيه من النباتات والزروع كأنما يرتدى غِلالة سندسية، وأيضا تراءى له مع ما تلقى عليه السرحة

---

(١) الديوان ص ٢٠٦ والمغرب ٢/٣٣٤.
(٢) رايات المبرزين (طبع القاهرة) ص ١١٩ والإحاطة ٢/٥١٤.
(٣) فاءت سرحة: بسطت ظلها. السرحة: الشجرة الضخمة. الهجيرة: نصف النهار عند اشتداد الحر.

من ظل كدارع محارب استلقى يستريح مستظلا بلوائه. والرصافى لا يبارى فى روعة تصاويره، وله يصف أمسية قضاها مع بعض رفاقه منتشيا بشرب الخمر وبرؤية مغرب الشمس والطير تصدح من حوله، يقول[١]:

وعَشِيٍّ رائقٍ منظرُهُ	قد قطعناهُ على صِرْفِ الشَّمولْ[٢]
وكأنَّ الشمس في أثنائهِ	ألصقتْ بالأرض خدًّا للنزولْ
والصَّبا ترْفَعُ أذيالَ الرُّبَى	ومُحَيًّا الجوِّ كالسَّيف الصَّقيل
حبَّذا منزلُنا مُغْتَبَقًا	حيث لا يُطْرِبُنا غيرُ الهَدِيل
طائرٌ شادٍ وغُصْنٌ مُنْثَنٍ	والدُّجَى يَشْرَبُ صَهْباءَ الأصيل[٣]

وهو يقول إنه ظل فى هذه الأمسية يتمتع بشراب الخمر الصافى وبمنظر الطبيعة الخلاب والشمس تودع الأرض وتلصق بها خدها إعزازا ومحبة، ونسيم الصَّبا العليل يحرك النباتات والغصون أو كما يقول أذيال الربى والمرتفعات، ويثنى على منزلهم واغتباقهم أو احتسائهم للخمر فيه مساء على سماع الهديل وهديره وما يحمِّله من أنغامه وأشجانه. ويُبَلْوِر روعته بالمنظر فى طائر شاد وغصن منثن، ويحلق خياله، إذ يجعل الدجى ينتشى مثله ومثل رفاقه بما يشرب من صهباء الأصيل ورحيقه الهنيء. وكانوا كثيرًا ما يتنزهون فى الأنهار والخلجان ويركبون لها الزوارق ذات الأشرعة والأخرى ذات المجاديف، وأحيانا كانوا يُجْرون فيها سباقا على نحو ما كانوا يصنعون بسباق الخيل، ويتحدث الفقيه أبو الحسن على بن لبَّال قاضى شَريش عن أحد هذه السباقات فى نهرها قائلا[٤]:

بنفسىَ هاتيك الزوارقُ أُجْريتْ	كحَلْبَةِ خَيْلٍ أولاً ثم ثانيا
وقد كان جِيدُ النَّهْر من قبلُ عاطلا	فأمسى بها فى ظُلْمة الليل حَاليا
عليها لزُهْرِ الشَّمْع زُهْرُ كواكبٍ	تُخَالُ بها ضِمْنَ الغَدِير عَواليا[٥]
وربَّ مُشارٍ بالجناح وآخرٍ	برجلٍ يحاكى أرْنباً خلف بازِيا

وهو يقول إن الزوارق أُجريت فى النهر على دفعات تزينها شموع أصبح بها جيد النهر

(١) رايات المبرزين ص ١١٩.
(٢) صرف الشمول: خالص الخمر.
(٣) الصهباء: الخمر.
(٤) رايات المبرزين ص ٥٣ وانظر فى ترجمة ابن لبال وشعره المطرب ص ٩٧ والمغرب ٣٠٣/١ والتكملة ص ٦٧٣ وصلة الصلة ص ١٠٩. توفى سنة ٥٨٣.
(٥) العوالى: الرماح. زُهْر جمع أزهر: مشرق مضىء.

حاليا بعد أن كان عاطلا من الحلى والزينة. ويخال الشموع فى النهر كأنها رماح مشرعة، بينها الزوارق منها ذات الشراع أو الجناح ومنها ذات المجاديف، وتسرع كأنما هى أرانب تخاف أن يصيدها البزاة والصقور. ومن شعراء الطبيعة المبدعين حينئذ محمد بن سفر، وسنخصه بكلمة. ونلتقى بأخرة من أيام الموحدين بالهيثم بن أبى الهيثم حافظ إشبيلية بل الأندلس جميعها فى عصره، وكان أعجوبة دهره، كان يحفظ ديوان ذى الرمة الشاعر الأموى، ومن عجائبه أنه كان يملى على شخص شعرا - كما يقول ابن سعيد - وعلى ثان موشحة وعلى ثالث زجلا، وكل ذلك يمليه ارتجالا دون توقف، وله فى فرس أصفر[1]:

أطِرْفٌ فات طَرْفِى أم شِهابٌ ... هفا كالبرق ضَرَّمه التهابُ[2]
أعارَ الصُّبْحُ صَفْحتَه نِقابًا ... ففرَّ به وصَحَّ له النِّقابُ
فمهما حُثَّ خالَ الصُّبْحَ وَافَى ... ليطلب ماستعار فما يُصابُ
إذا ماانْقَضَّ كلَّ النَّجْمُ عنه ... وضَلَّتْ عن مَسالكه السَّحابُ

وللأندلسيين شعر كثير فى وصف الخيل لأنهم كانوا يحاربون عليها دائما، وكانوا يعقدون أحيانا بينها سباقات. ويتشكك الهيثم حين رأى هذا الفرس يعدو عدوا سريعا كأنه يبارى به الرياح، فيقول أهذا طِرْف أى حصان أو هو شهاب سقط من أحد أركان السماء، وكأنه برق مضطرم لهيبا. ويظن كأن الصبح أعاره نقابا أصفر، ففرَّ به، وهو دائما لا يتوقف كأنه يظن الصبح فى إثره يطلب نقابه الذى اقترضه منه. ويقول إنه إذا انقضَّ وراء فريسة أعيا النجم أن يلحق به وضلَّت السحب عن معرفة مسالكه. ويلقانا أبو جعفر أحمد بن طلحة، وله[3]:

أدِرْها فالسماءُ بدت عُروسًا ... مضمَّخَةَ الملابس بالغَوَالِى[4]
وخَدُّ الروض خفَّره أصِيلٌ ... وجَفْنُ النهرِ كحِّلَ بالظِّلال
وجِيدُ الغُصْنِ يُشْرف فى لآلٍ ... تضيىءُ بهنَّ أكنافُ الليالى

وهو يقول لصاحبه: دعنا نتناول خمر الغبوق المسائية، فالسماء قد بدت عروسا

---

(١) الرايات ص ٤٧ وانظر فى الهيثم وترجمته وشعره المغرب ٢٦٣/١ واختصار القدح المعلى ص ١٥٨ والتكملة ص ٧١٦. توفى سنة ٦٣٠.
(٢) طرف بكسر الطاء: حصان. هفا: أسرع.
(٣) اختصار القدح المعلى ص ١٤ وانظر فى ترجمة ابن طلحة أيضا المغرب ٣٦٤/٢ والتحفة رقم ٩٦.
(٤) الغوالى: جمع غالية: المسك.

مبتهجة مضمخة أو معطرة بالمسك فى منظر الروض البهيج، وكأنما سكب الأصيل على خد الروض حياء وخفرا فاصفرَّ لونه، بينما كُحِّلَ جَفْن النهر بالظلال، وقد أضاءت على جيد الغصن أزهار كاللآلئ تضيء الليالى المظلمة.

ويلقانا مَرْج الكُحْل: محمد بن إدريس الذى نشأ بائعا متجولا فى الأسواق يتعيش ببيع السمك ثم ترقت به همته إلى الأدب قليلا قليلا - كما يقول ابن سعيد - إلى أن نظم الشعر ثم ارتفعت فيه طبقته، وله خمرية يمزج فيها بين نشوته بالطبيعة ونشوته بالخمر يقول فيها[١]:

عَرِّجْ بِمُنْعَرَجِ الكَثِيبِ الأعْفَرِ ... بين الفُراتِ وبين شَطِّ الكَوْثَرِ[٢]
ولْتَغْتَبِقْهَا قَهْوةً ذهبيةً ... من راحتَىْ أَحْوَى المراشفِ أحْوَرِ[٣]
والروضِ بين مُفَضَّضٍ ومذهَّبٍ ... والزَّهْرُ بين مُدَرْهَمٍ ومُدَنَّرِ[٤]
والوُرْقُ تَشْدُو والأراكةُ تنثنى ... والشمسُ تَرْفُلُ فى قميصٍ أَصْفَرِ[٥]
ما اصفرَّ وَجْهُ الشمسِ عند غروبها ... إلا لفرقة حُسْنِ ذاك المنظرِ

وهو يدعو صاحبه أن ينزل معه بطريق الكثيب المشرب بحمرة فى تلك الجنَّة البعيدة بين الفرات والكوثر ليتمتعا هناك بالغَبوق أو خمر المساء، وبمناظر الأزهار المفضضة والمذهبة، والورق أو الحمام يشدو ويهدر وأغصان الأراكة تنثنى، يثنيها النسيم العليل والشمس تتبختر فى قميصها الأصفر الرقيق، ويقول إن صفرتها عند الغروب بسبب فراقها ووداعها لمنظر هذا الروض الفاتن. ويقول أبو الحجاج يوسف بن عتبة الإشبيلى المتطبب فى خاتمة موشح له يصور شرب الخمر والصباح يطل على الطبيعة[٦]:

فَقُمْ نباكِرْها للاصطباحِ
والشُّهْبُ تُنْثَرْ من خَيْطِ الصباحِ

---

(١) مغرب ٣٧٣/٢ وانظر فى ترجمة مرج الكحل وشعره أيضا زاد المسافر ص ٢٧ والوافى بالوفيات ١٨١/٢ والتكملة ص ٣٤٤ والاحاطة ٣٤٣/٢ حُمل عنه ديوان شعره وتوفى سنة ٦٣٤.

(٢) منعرج الكثيب الأعفر: طريق الكثيب المخالط لونه حمرة. الكوثر: نهر بالجنة ولعله يريد دجلة.

(٣) القهوة: الخمر. اغتباقها: شربها فى المساء. المراشف: الشفاه.

(٤) المدرهمة: الفضية من الدرهم. والمدنرة: الذهبية من الدينار.

(٥) ترفل: تتبختر.

(٦) مغرب ٢٨٢/١ وانظر فى ترجمة أبى الحجاج وشعره أيضا اختصار القدح المعلى لابن سعيد ص ١٦١.

والقُضْبُ ترقصُ فى أيدى الرِّياحِ

على غنـاء الحمـامِ والكاسُ ذاتُ ابتسامِ
والـظلام قـتـيـلٌ والصُّبْحُ دامى الحسامِ

وإنما ذكرنا هذا الدور الختامى لإحدى موشحات أبى الحجاج لنشير بوضوح إلى أننا إذا كنا قد أغفلنا فى حديثنا عن أغراض الشعر ذكر الموشحات فليس معنى ذلك أنها انفصلت فى أغراضها عن الأغراض العامة للشعر فقد كانت هى نفسها أغراض الموشحات وهم فيها ما لا يحصى من الأخيلة البديعة، على شاكلة ما نرى فى هذا الدور من تمثيل غياب النجوم مع تباشير النهار، فقد جعلها أبو الحجاج تنثر من خيط الصباح وكأنها دنانير تنثر فى عُرْس والغصون راقصة متشابكة ومتلاعبة مع الرياح،والحمام يشدو ويغنى والخمر فى كئوسها تبتسم ثغورها. ولا يلبث أبو الحجاج أن يعرض علينا هذا المشهد الدرامى البديع فالظلام طريح قتيل، إذ سفك الصبح دمه، ولا تزال حمرته القانية تلطِّخ سيفه. ويقول ابن الأبار مستلهما الرصافىّ فى وصف نهر[1]:

ونهرٍ كما ذابتْ سبائكُ فضَّـةٍ حكى بمحانيه انعطافَ الأراقمِ[2]
إذا الشَّفَقُ استولى عليه احمرارُه تبدَّى خَضِيبًا مثل دامى الصَّوارمِ[3]
وتحسبـه سُنَّتْ عليـه مُفـاضَـةٌ لإرهابِ هَبَّات الرياح النواسمِ[4]
وتُـطْلعه فى دُكْنـةٍ بعد زُرْقـةٍ ظـلالٌ لأدواحٍ عليـه نـوَاسم

وهو يجعل ما فى النهر سبائك فضة سائلة، ويشبهه فى انعطافاته يمينا ويسارا بانعطافات الأفاعى، حتى إذا سقط عليه الشفق تصوَّره سيفا داميا، وسقط عليه الظل فتصوره درعا لبسه النهر لإرهاب الرياح، وإنها لتُحيل لونه داكنا بعد أن كان أزرق صافيا. ويقول إبراهيم[5] بن سهل الإشبيلى:

الأرض قد لبستْ رداءً أخضرا والـطلُّ ينثرُ فى رُبـاها جـوهـرا

(١) أزهار الرياض ٢٢٣/٣.
(٢) الأراقم: الأفاعى.
(٣) خضيبا: ملونا. الصوارم: السيوف.
(٤) سُنت: صُبَّت. مفاضة: درع.
(٥) انظر فى ابن سهل وترجمته وشعره المغرب ٢٦٩/١ واختصار القدح ص٧٣ والفوات ٢٣/١ والمنهل الصافى ٥١/١ وهو يهودى أسلم فى شبابه توفى سنة٦٤٦. طبع ديوانه محققا ببيروت.

فاحتْ فخِلْتُ الزهر كافورا بها وحسبتُ فيها التُّرْبَ مِسْكًا أذْفَرَا[١]
وكأن سَوْسَنها يصافحُ وَرْدَها ثَغْرٌ يُقَبِّل منه خدًّا أحمرا

وهو يقول إن الأرض لبست خضرة الربيع، وكأنما الطل ينثر فى رباها كل ما فى حجره من جوهر، وسطعت رائحة كافور زهرها الأبيض حتى خلت التراب فيها مسكا أذفر أو عاطرا، وكأن سوسنها الأبيض الجميل حين يصافح وردها ثغر يقبل خدا ياقوتيا. ويقول أبو الوليد[٢] بن الجنان:

هات المُدامَ وقد ناح الحمامُ على هذا الظلامِ وجيشُ الصُّبْحِ فى الطلَبِ
والسُّحْبُ قد بَدَّدَتْ فى الأرض لُؤْلُؤَها تضمّهُ الشمسُ فى ثَوْبٍ من الذهبِ

وقد جعل ابن الجنان الحمام ينوح على الظلام وجيش الصبح فى إثره، وهو ينسحب بسرعة أمامه، بينما السحب تمطر لآلئها وقطراتها الفضية، ولم تلبث شمس الصباح أن التقطت كل هذه اللآلى؛ ولمّتها أو جمعتها فى ثوبها الذهبى. ولابن خاتمةفى بلبل وردية اللون تغنى فى روض مكتظ بالورود والأزهار[٣]:

ووَرْدِيَّة الجلبابِ أعجبَها الوَرْدُ فغنَّتْ وما بالغانيات لها عَهْدُ
أتتْ وبِطاحُ الأرضِ تُجْلَى عرائسًا وفى كل غُصْنٍ من أزاهرهِ عِقْدُ
وقد أَبْدَت الدنيا محاسِنَ وَجْهِهَا فمِن زهرةٍ ثَغْرٌ ومن وردةٍ خَدُّ
فغَنَّتْ غناءَ الشَّرْبِ أنْشَتْهمُ الطِّلا وحَنَّتْ حَنين الصبِّ باح بهِ الوَجْدُ[٤]

وهو يصور البلبل الوردية قد أعجبها ورد الروض وخلبها، فتغنَّتْ له غناء ساحرا لم تعهده الغانيات الجميلات، ويقول إنها أتت الروض فى وقت الربيع، وقد ازدانت بطاح الأرض حتى لكأنها عرائس وازدانت غصون الأشجار بعقود الأزهار وأبدت الدنيا محاسن وجهها فمن زهرة – مثل زهرة الأقحوان – ثغر، ومن وردة – وما أكثر الورود – خد. وأسكر البلبل المنظر الرائع فانتشت وغنت وحنت حنين الصب المغرم الولهان. ولابن زَمْرَك فى وصف زهر القَرَنْفُل بجبلِ الفتح أو جبل طارق[٥]:

---

(١) أذفرا: عطرا.
(٢) راجع فى ابن الجنان وترجمته وشعره المغرب ٣٨٣/٢ واختصار القدح ص ٢٠٦.
(٣) الديوان ص ٩٨ .
(٤) الطلا: الخمر.
(٥) أزهار الرياض ٢/٤٠.

رَعَى اللهُ زَهْرًا ينتمى لقَرَنْفُلٍ حكى عَرْفَ مَنْ أهوى وإشراقَ خَدِّهِ[١]
ومَنْبِتُهُ فى شاهقٍ متمنعٍ كما امتنعَ المحبوبُ فى تِيه صَدِّهِ
أميل إذا الأغصان مالَتْ بروضةٍ أعانقُ فيها القُضْبَ شوقًا لقَدِّه[٢]
وأهفو لخفَّاقِ النسيمِ إذا سَرَى وأهْوَى أريجَ الطِّيب من عَرْف نَدِّهِ[٣]

وهو يدعو لزهر القرنفل أن يرعاه الله لأنه يحكى عرف من يهواها وطيبها، ويقول إن منبته فى أعالى جبل الفتح الممتنع على غزاته امتناع المحبوب فى صَدِّه وتيهه وخُيَلائه، كما يقول إنه كلما رأى الأغصان فى روضة عانقها شوقا لعناق محبوبه، ويقول أيضا إنه يحنّ إلى خفَّاق النسيم مساء يظنه من قِبَل محبوبه، ويهوى أريج الطيب يظنه من أريجه الذكىّ العطر. وحرى بنا أن نلم إلمامات قصيرة بمن وعدنا بالحديث المجمل عنهم من شعراء الطبيعة والخمر، وهم عبادة بن ماء السماء وعبد الرحمن بن مقانا وعلى بن حصن وابن خفاجة ومحمد بن سفر.

عبادة[٤] بن ماء السماء الأنصارى

هو عبادة بن عبد الله الأنصارى من ذرية سعد بن عبادة الخزرجى أحد النقباء الذين اختارهم رسول الله ﷺ فى العقبة الثالثة، وقيل له عبادة بن ماء السماء انتماء إلى جد الخزرج الأول، ولسنا نعرف شيئا واضحا عن نشأته إلا ما يذكر مترجموه من أنه تلميذ الزبيدى تلميذ أبى على القالى وأهم اللغويين بعده. ولم تلبث موهبته الشعرية - على ما يبدو - أن تفتحت، ومدح المنصور بن أبى عامر الحاجب (٣٦٦ - ٣٩٢ هـ) فأعجب به وأسبغ عليه جوائزه، وسُجِّل اسمه فى ديوان الشعراء وأعليت مرتبته فيه وأعلى عطاؤه. وتدور الأيام وتكون فتنة قرطبة التى ظلت نحو عشرين عاما، ويعتلى عرش الخلافة على بن حمود من سلالة الحسن بن على بن أبى طالب سنة ٤٠٧ ويدور العام فيقتل ويخلفه أخوه القاسم حتى سنة ٤١٢ ويخلعه يحيى ابن أخيه على. وعاد القاسم فانسحب يحيى إلى مالقة، ولم تلبث الخلافة أن عادت إلى الأمويين بقرطبة سنة ٤١٤. ولعبادة مدائح فى هؤلاء الحموديين الثلاثة، وفى مديحه لهم غير قليل من مبالغات الشيعة فى مديح

---

(١) العرف: الشذا وطيب الرائحة.
(٢) القضب: الغصون.
(٣) سرى: سار ليلا. أريج: فائح. الند: عود طيب الرائحة.
(٤) انظر فى ترجمة عبادة وشعره الذخيرة ٤٦٨/١ وما بعدها والجذوة ٢٧٤ والمطمح ٨٤ والبغية رقم ١١٢٣ والصلة رقم ٩٦٣ والفوات ٤٢٥/١.

أئمتهم، غير أنهم جميعا لم يكونوا يستظهرون شيئا من العقيدة الشيعية. ويبدو أن عبادة تبع يحيى إلى مالقة يمدحه ويسبغ عليه يحيى من نواله، حتى إذا كانت سنة ٤١٩ ضاعت منه عطايا يحيى وأهل بيته له، وكانت مائة مثقال ذهبا فاغتم غما شديدا، وكان ذلك سبب وفاته.

ويشيد ابن بسام بعبادة، ويقول إنه كان شيخ الصناعة وإمام الجماعة بزمنه فى قرطبة معللاً ذلك بأنه سلك إلى الشعر مسلكًا سهلاً، فقالت له غرائبه: مرحبًا وأهلاً. ولم يكن شاعرًا فحسب، بل كان أيضًا مؤرخًا أديبًا إذ كان له كتاب فى أخبار شعراء الأندلس، وعنه ينقل ابن سعيد فى المغرب بعض أخبارهم. وأهم من ذلك ما ذكره ابن بسام - على نحو ما مر بنا فى حديثنا عن الموشحات - من أنه هو الذى «نهج لأهل الأندلس طريقتها - وكأنها لم تُسْمَع بالأندلس إلا منه ولم تؤخذ إلا عنه». ومر بنا أن مقدَّم بن معافى القَبْرى - وهو عربى - أول من ابتكرها وأن الرمادى الكندى - وهو أيضًا عربى - تطور بها بعض التطور، ثم خلفه عبادة الخزرجى الأنصارى فأعطاها شكلها النهائى. ومرَّ بنا نقض دعوى أنها نشأت على غرار أغان رومانسية إسبانية فقد نشأت وتطورت وأخذت صيغتها النهائية على أيدى عرب تطويرًا منهم - كما ذكرنا فى حديثنا عن الموشحات - لفن المسمطات المشرقية.

وكان عبادة - بحق - إمام الشعراء فى زمنه، وما رواه ابن بسام له منه - يتميز بمتانة العبارة ونصاعتها وبحسن الأداء الموسيقى وبجمال الأخيلة، وله مبهورًا بجمال صاحبته وجمال أناملها التى شبهها بالعنَّاب:

سقى الله أيَّامى بِقرطبةِ المُنَى ... سُرورا كرىِّ المُنْتَشِى من شَرابِهِ
وكم مُزِجَتْ لى الراحُ بالرِّيق من يَدىْ ... أغرَّ يُرينى الحسنَ ملءَ ثيابه
تعلِّلنى فيه الأمانى بوعدها ... وهيهات أن أُرْوَى بورْد سَرابِهِ[1]
سَلِ العَنَم البادى من السِّجْف دَالفًا ... لتعذيب قلبى هل دَمِى من خضابِهِ[2]

وهو يذكر أيام شبابه الماضية بقرطبة، ويدعو لها أن تُسْقَى سرورا ترتوى به وتنتشى كانتشاء صاحب الخمر من شرابه، ويذكر كم شرب الخمر فيها من يد حسناء وكيف كان يعلل نفسه بلقائها ووعدها، غير أنه كان دائما سرابا لا يتحقق، ويتساءل هل خضاب

(١) الورد: الماء الذى يرده الناس، وقد أضافه إلى السراب تخيلا.

(٢) العنم: الخضاب الأحمر وأراد به الأنامل. السجف: ستر الخيمة بجانب بابها. دالفا: مقبلا.

أناملها البادى من الستر لتعذيب قلبه من دمه، كأنه قتيل هواها وقد سفكت دمه وعلق منها بالأنامل، ويقول:

اجْلُ المدامة فهى خيرُ عَروسٍ تَجْلُو كروبَ النَّفْسِ بالتَّنْفيسِ
واستغنمِ اللذاتِ فى عَهْد الصِّبا وأوانِه لا عِطْرَ بعـد عَروسِ

وهو يتصور المدامة عروسا تهفو لها نفسه، ويزعم أنها تذهب كروب النفس وهمومها، ويدعو إلى اغتنامها فى عهد الصبا، فهو عهدها، وبعده لا يأبه الإنسان بها، ويتمثل بقول العرب: «لا عطر بعد عروس» فالعطر إنما تحتاجه العروس وقت زفافها. وأكبر الظن أن عبادة انصرف عن الخمر بعد شبابه أو لعله كان ينظم هذه الأبيات وما يماثلها تقليدا ومحاكاة للمجان وإلا ما استطاع أن يدَّخر المثاقيل الذهبية المائة التى ضاعت منه بمالقة.

عبد[١] الرحمن بن مُقانا

هو أبو زيد عبد الرحمن بن مُقانا، من قرية القُبْذاق من قرى أُشبونة (ليشبونة الحالية بالبرتغال) ولسنا نعرف شيئا عن نشأته وهل ثقف الآداب العربية فى أشبونة وحدها أو أنه اختلف إلى الأدباء والعلماء فى مدن سواها. ونلتقى به فى أوائل عصر أمراء الطوائف مترددا على سرقسطة لمديح أميرها منذر بن يحيى التُّجيبى المتوفى سنة ٤٣٠ وعلى دانية لمديح أميرها مجاهد المتوفى سنة ٤٣٦ ويذكر ابن بسام أنه «جال أقطار الأندلس على رؤساء الجزيرة». وأهم من مدحهم من هؤلاء الرؤساء أو الأمراء وأسبغوا عليه نوالهم إدريس بن يحيى بن على بن حمود الحسنى أمير مالقة الذى خلف أباه عليها سنة ٤٢٧ وظل بها حتى سنة ٤٤٧. ورأى ابن مقانا حين أصبح شيخا أن يكفَّ عن تطوافه بأمراء الجزيرة وأن يعود إلى قريته وأن يمضى فيها بقية حياته معنيًّا بضيعة له فيها وما تحتاج إليه من حرث وزرع وغَرْس. ولا يعرف بالضبط تاريخ وفاته.

ويعرِّف ابن بسام بابن مقانا قائلا: «من شعراء غربنا المشاهير، وله شعر يعرب عن أدب غزير، تصرَّف فيه تصرُّف المطبوعين المجيدين فى عنفوان شبابه وابتداء حاله، ثم تراجع طبعه عند اكتهاله» وكأن ابن بسام يجعل وفوده على أمراء الطوائف فى أيام

---

(١) انظر فى ابن مقانا وترجمته وشعره الذخيرة ٧٨٦/٢ وما بعدها والحميدى ٢٦٠ والبغية رقم ١٠٤٤ والمغرب ٤١٣/١.

الشباب وحدها، ويبدو أن هذا الوفود امتد به حتى بدء كهولته بل ربما حتى بدء شيخوخته إذ ينقل ابن بسام عن بعض مواطنيه أنه إنما انصرف إلى قريته شيخا لا كهلا. وأهم قصائده التي طارت شهرتها في الآفاق مدحته النونية لإدريس بن يحيى الحمودي، وهو يستهلها بغزل طريف ولا يلبث أن يمزجه بنعته للخمر قائلا:

قد بَدَا لى وَضَحُ الصُّبْحِ المبينْ ... فاسْقِنِيها قبلَ تكْبيرِ الأذِينْ(١)
مُزَّةً صافيةً مشمولةً ... عُتِّقَتْ فى دَنِّها بِضْعَ سِنين(٢)
مَعَ فتيانٍ كرامٍ نُجُبٍ ... يتهادَوْنَ رياحينَ المجونْ
وعليهم زاجرٌ من حِلْمهم ... ولديهم قاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينْ(٣)
ويُسَقَّوْنَ إذا ما شَرِبوا ... بأباريقَ وكأسٍ من مَعين(٤)

وابن مقانا يتراءى له ضوء الصبح فى السحر، فيهتف بالساقى أن يملأ كأسه قبل تكبير الأذان، ويقول إنها مزة الطعم صافية باردة معتقة، كما يقول إنه يشربها مع فتيان كرام نجب يتهادون أزهار المجون الأرجة وعليهم زاجر من عفاف مع ما معهم من حسان غاضات البصر فاتنات العيون، ويقول إنهم يسقون الخمر بأباريق وكأس من عين جارية. وينتقل من وصف خمر الصَّبوح أو الصباح إلى نعت الطبيعة من حوله سماء ونجوما ورياضا وأزهارا ويبدع خياله بمثل قوله:

ومصابيح الدُّجَى قد أُطْفِئتْ ... فى بقايا من سَواد الليلِ جُونْ(٥)
والثريَّا قد علتْ فى أُفْقِها ... كقضيبٍ زاهرٍ من ياسَمينْ
وانبرى جُنْحُ الدُّجىَ عن صُبْحِهِ ... كغرابٍ طار عن بَيْضٍ كَنِينْ(٦)
وجَناحُ الجوِّ قد بلَّله ... ماءُ وَرْدِ الصُّبْحِ للمصطبحينْ
والنَّدَى يقطرُ من نَرْجسِهِ ... كدموعٍ أسبلتهنَّ الجفونْ(٧)

وهو يقول إن مصابيح الدجى من الكواكب والنجوم أخذت تنطفئ واحدة إثر أخرى فى بقايا من سواد الليل، وتعالت الثريا فى السماء كأنها غصن مزهر من ياسمين، وأوشك

(١) الأذين: نداء الأذان للصلاة.
(٢) مزة الطعم: بين الحلو والحامض. مشمولة: باردة.
(٣) قاصرات الطرف: يغضْضنَ من أبصارهن. عين جمع عيناء: واسعة العين جميلتها.
(٤) معين: عين جارية.
(٥) جون: سوداء.
(٦) جنح: ظلام. كنين: مستتر.
(٧) أسبلتهن: أرسلتهن.

الياسمين بدوره على التوارى والانطفاء، وأخذ ظلام الليل ينْبرى وينكشف عن أضواء الصباح وكأنه غراب حالك السواد اضطره إلى مفارقة بيض له ظل يستره، ووِرْد الصبح بل ماؤه بلّل جناح الجو تحية للمصبطحين والندى يقطر من النرجس والأزهار والورود وكأنه دموع أسبلتها الجفون. وهى صور بديعة متلاحقة. وقد تداول القصيدة أدباء الكُدْية والشحاذة الأدبية فى الأندلس ممن يسميهم ابن بسام باسم القوَّالين، وكانوا يقفون على الأبواب منشدين الشعر لقاء بعض الدراهم، وإنما اختاروها لما يجرى فيها من عذوبة وسلاسة وروعة فى الموسيقى والتصاوير.

على[1] بن حِصْن

هو أبو الحسن على بن حصن الإشبيلى، من شعراء أمير إشبيلية المعتضد، نشأ معه، وكان يعجب به وبشعره فاستوزره حين أصبح له صولجان إمارتها بعد أبيه إسماعيل. وظل الجوله صافيا إلى أن لحق ابن زيدون بالمعتضد، واتخذه وزيرا له معه، وكان فى ابن زيدون شىء من الدهاء استحوذ به على قلب المعتضد، فنَفِس ذلك عليه ابن حصن. وكان المعتضد يدعوهما أحيانا إلى المساجلة بالشعر بين يديه، فكان ابن حصن يتفوق عليه لسرعة بديهته ورضاه بالعفو من طبعه، غير أن ابن زيدون كان يعلوه بحلمه ووقاره. وكان فى ابن حصن تهور وطيش فزلَّت قدمه وأدَّياه إلى أن يسفك المعتضد دمه، وكان سفاحا للدماء قتَل كثيرين من وزرائه وخواصه.

ويشيد ابن بسام بشاعرية على بن حصن قائلا عنه: «أحد من راشَ سهام الألفاظ بالسحر الحلال،وشَقَّ كمائم المعانى عن أفتنَ من محاسن ربَّات الحِجال، بين طبع أرقَّ من الهواء، وأعذب من الماء، وعلم أغزر من القطر،وأوسع من الدهر». ويعجب ابن بسام من قوم أضربوا عن ذكره، وزهدوا فى شعره ويعلل ذلك بأشعار له كثيرة كان يعبث بها بين مجونه وسكره، ويقول إن إحسانه أكثر وفضله أشهر، وينوه بروعة تصاويره، ومن قوله فى إحدى خمرياته الماجنة:

خَضَبَتْ بنانَ مديرها بشُعاعها فِعْل العَرَارة فى شفاه الرَّبْرَبِ

والربرب: القطيع من بقر الوَحْش، يقول إن الخمر خضبت بنان الساقى بشعاعها

---

(١) انظر فى على بن حصن وترجمته وشعره الذخيرة ١٥٨/٢ وما بعدها والحميدى ص٢٩٦ والبغية ص١٤٣ والمغرب ٢٥٠/١.

كما يخضب نبات العَرار الصحراوى شفاه قطعان البقر الوحشى. وهى صورة طريفة لأنه يجلبها من بعيد من الجزيرة العربية وحديث شعرائها عما يتراءى لهم فى البقر الوحشى هناك من جمال. ويقول فى خمرية أخرى:

إذا بدتْ لك فى قِطْـ ـعةٍ من البـلّارِ
حسبتها شفقًا صُـ ـبَّ فى زجاج نهار

وهو يتخيل الخمر الحمراء كأنها الشفق الأحمر، ويتسع به الخيال فيقول إنها تُصَبُّ لا فى زجاج بِلّورى أو مصوغ من بلور بل فى زجاج مصوغ من نهار مضىء.
ويخاطب إشبيلية موطنه والنهر يتهادى أمامها والشمس جانحة للغروب:

كأنكِ والشمسَ عند الغروبِ عروسٌ من الحسن منحوتَهْ
غدا النهر عِقْدكِ والطَّوْدُ تاجَـ ـكِ والشمس أعلاه ياقوتَهْ

فالنهر وما يحفّ به من أزهار عقدٌ نفيس يتألق فى جيد إشبيلية والجبل من ورائها كأنه تاج معقود على رأسها ترصّعه فى أعلاه ياقوتة الشمس البديعة. ومن قوله فى وصف هَديل:

وما هاجنى إلا ابنُ وَرْقاء هاتفٌ على فَنَنٍ بين الجزيرة والنَّهْرِ(١)
مُفَسْتَقُ طوقٍ لازَوَرْدِيُّ كَلْكَلٍ مُوَشَّى الطُّلَى أَحْوَى القوادم والظَّهْرِ(٢)
أدارَ على الياقوتِ أجفانَ لؤلؤٍ وصاغَ على الأجفان طَوْقا من التِّبْرِ(٣)
حديدُ شَبَا المِنْقارِ داجٍ كأنَّه شَبَا قلمٍ من فِضَّةٍ مُدَّ فى حِبْرِ(٤)
توسَّد من فَرْعِ الأراكِ أريكَةً ومالَ على طَيِّ الجناحِ معَ النَّحْرِ(٥)
ولما رأى دَمْعِى مُرَاقًا أرابَه بُكائىَ فاسْتَوْلَى على الغُصْن النَّضْرِ(٦)
وحثَّ جناحَيْه وصَفَّقَ طائرا وطارَ بقلبى حيثُ طار ولا أدرى(٧)

وابن حصن يتابع شعراء العرب فيما يتخيلونه من ترتيل الحمام المبغوم وأنه يبكى

---

(١) ابن ورقاء: الهديل وهو ذكر الحمام. فنن: غصن.
(٢) مفستق طوق: طوقه فستقى اللون. كلكل: صدر. لازوردى: أزرق أو بنفسجى. الطلى: أصل العنق. أحوى: أسود ضارب إلى الحمرة. القوادم: ريش الجناح الطويل.
(٣) التبر: الذهب.
(٤) شبا: حد، سنّ.
(٥) أريكة: منصة، مقعد. طىّ: جانب.
(٦) أرابه: شكّكه وحيره.
(٧) صفق الطائر: حرك جناحيه للطيران.

وينوح محزونا لفراق أليفته، وهو يقول فى مطلع مقطوعته إن هدير الهديل هاجه شوقا إلى محبوبته، وتروعه صورته الجميلة فيرسمها رسما دقيقا، فطوقه فستقى اللون وصدره لازوردى أو أزرق بنفسجى وعنقه موشى وظهره وريشه الطويل أسود ضارب إلى الحمرة، وقد أدار فوق طوقه لؤلؤتى عينيه، ومن حولها أهداب ذهبية. وحدُّ منقاره أسود داج كأنه سِنُّ قلم من فضة غُمس فى مداد شديد السواد. وقد توسد من فرع الأراكة منصة، ومال برأسه محزونا على أحد جناحيه وما يحف به من النحر. وأحسَّ الشاعر أنه - مثله - حزين مهموم لفراق صاحبته فانهمرت دموعه، وحانت من الهديل التفاتة فرآه يبكى واحتار ماذا يصنع، ولم يلبث أن بسط جناحيه وحركهما طائرا، فطار قلبه معه. وهو تصوير بديع استطاع فيه ابن حصن أن يسوّى منه لوحة تامة الخطوط والألوان والظلال والأضواء. ومما أعجب به ابن بسام من شعره قوله فى وصف سحابة:

بكرتْ سُحْرَةً قُبَيْلَ الذَّهابِ   تَنْفُضُ المِسْكَ عن جَناحِ الغُرابِ

واستعارة الغراب لليل معروفة قديما ولكن الرائع أنه جعل السحابة بأمطارها تنفض المسك الأسود عن جناحه. وفى ذلك كله ما يدل على أن ابن حصن كان من شعراء الأندلس المبدعين.

أميّة[1] بن أبى الصلت

هو أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت الأندلسى، ولد سنة ٤٦٠ بمدينة دانية على البحر المتوسط، وشبَّ - على ما يبدو - بمدينة إشبيلية وكانت تزخر بطائفة من الفقهاء والأطباء والمتفلسفة والشعراء وأصحاب الموسيقى، وتخرَّج على أيديهم طبيبا متفلسفا وشاعرا بارعا يَثْقَف الموسيقى وتلاحينها الأندلسية. وفى أوائل العقد الثالث من حياته هاجر عن مدينته إلى المشرق مصطحبا والدته، وقد تكون الرغبة فى التزود من علماء المشرق أو الرغبة فى الحج من دواعى تلك الهجرة المبكرة عن مدينته. ونزل المهدية بجوار القيروان، ويبدو أنه كان قد وفد عليها لمديح أميرها وأمير إفريقية تميم بن المعز

(١) انظر فى أمية وترجمته وشعره معجم الأدباء ٥٢/٧ وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ص ٥٠١ والتكملة ٢٠٣/١ وتحفة القادم ٣ وابن خلكان ٢٤٣/١ والمغرب ٢٦١/١ والبيان المغرب لابن عذارى ٣١٢/١ والخريدة: قسم شعراء المغرب والأندلس (طبع تونس) ١٨٩/١ - ٢٧٠ وتاريخ الحكماء للقفطى (طبعة ليبزج) ص ٨٠ ومرآة الجنان لليافعى ٢٥٣/٣ وشذرات الذهب ٨٣/٤.

الصنهاجى (٤٥٤ - ٥٠١ هـ) إذ كان مقصدا للشعراء لما يجيزهم به من الجوائز السنية، وامتدحه مرارا، وظل فى حاشيته فترة. ورأى أن يوجه به إلى مصر برسالة، وكانت العلاقة بين تميم وحكام مصر سيئة، فحين وصل أمية برسالته إليهم زَجُّوا به فى سجن خزانة البنود بالقاهرة، وكان فيها خزائن متنوعة فى أصناف الكتب وفنونها المختلفة، فأكبَّ عليها يقرؤها ويلتهم ما فيها من المعارف، ويقال إنه ظل بها ثلاث سنوات قبل صدور العفو عنه، وقيل بل عشرين سنة، وهى مبالغة واضحة. وفى كتاب طبقات الأطباء رسالة طريفة من على بن منجب الصيرفى صاحب ديوان الإنشاء وجه بها إليه فى السجن منوها فيها بأنها رد على رسالة لأمية وهو فى سجنه، ويثنى على قصيدتين أرسل بهما إليه فى مديح الأفضل بن بدر الجمالى وزير مصر حينئذ (٤٨٧ - ٥١٥ هـ) وقد أنشد العماد فى الخريدة قطعة من مدحة لأمية يمدح بها شفيعه ويسميه عليا وهو ابن الصيرفى كما ذكرنا. وعاد إلى المهدية سنة ٥٠٥ فى عهد يحيى بن تميم (٥٠١ - ٥٠٩ هـ) وإليه قدم الرسالة المصرية وكتاب الحديقة الآتى ذكرهما وعظم شأنه عنده وكذلك عند ابنه على أمير المهدية بعده (٥٠٩ - ٥١٥ هـ) وحين أنشأ على مدرسته المشهورة للكيمياء أسند إليه الإشراف عليها وظل يتولاها إلى آخر أيامه. وقد نشرت له بالقاهرة الرسالة المصرية وفيها يذكر ما رآه بمصر من هيئتها وآثارها ومن اجتمع بهم فيها من الأطباء والمنجمين والشعراء وأهل الأدب، وعُنى فيها بذكر مُدَّاح الأفضل الجمالى وألم ببعض من هجوه. ويقول ابن سعيد فى المغرب: «عنه أخذ أهل إفريقية (تونس) الألحان التى هى الآن بأيديهم». ويبدو من هذه العبارة أنه لحَّن هناك لهم أغانيهم الإفريقية على أسس الألحان الأندلسية. وألف لهم كتابا فى الموسيقى أهداه إلى الأمير على بن يحيى. وإشادة ابن سعيد بصنيعه فى هذا الجانب لها أهمية كبيرة، إذ ختم رحلاته بتونس وظل بها إلى أن توفى سنة ٦٨٣ للهجرة، ويقول إن أمية جَلَّ قدره عند الحسن بن على خليفة أبيه كما جَلَّ عند أبيه وجده، وظل ينزل هناك منزلة جليلة إلى أن توفى سنة ٥٢٩. وله مصنفات مختلفة فى التنجيم والطب والهندسة تدل على واسع علمه، من ذلك كتاب الوجيز فى علم الهيئة وكتاب الأدوية المفردة وله كتاب فى المنطق سماه: «تقويم الذهن» وبجانب ذلك له الرسالة المصرية السالفة وهى أهم نص عن شعراء مصر فى فواتح القرن السادس الهجرى، وله أيضا كتاب الحديقة فى شعراء عصره على نهج كتاب اليتيمة للثعالبى وكتاب الملح العصرية فى شعراء الأندلس والطارئين عليها. وهو يعد فى النابهين من شعراء زمنه، وكان له ديوان كبير سقط من يد الزمن، غير أن العماد فى الخريدة انتقى منه طائفة كبيرة بترتيب الحروف الهجائية امتدت

فيه إلى أكثر من ثمانين صفحة مهّد لها بقوله: «كل شعره منقح مستملح، صحيح السبك، محكم الحَوْك، نظيم السلك» وهو موزع بين مديح ورثاء وغزل وهجاء ووصف للقصور والخيل ومن قوله فى الهرمين:

بِعَيْشك هل أبصرتَ أعجبَ منظرا على طول ما أبصرتَ من هَرَمَىْ مِصْر
أنافَا بأعنان السماءِ وأشرفا على الجوِّ إشرافَ السِّماكِ أو النَّسْرِ[١]
وقد وافيا نَشْزًا من الأرض عاليا كأنهما ثَدْيانِ قاما على صَدْرِ[٢]

وفى هذه الصورة ما يدل على أنه كانت لأمية ملكة خيالية خصبة، ومن أهم ما يتميز به كثرة خمرياته وتصاويره للطبيعة، وتتداول الكتب التى ترجمت له وصفه لبركة الحبش بمدينة الفسطاط (مصر القديمة الآن) وكانت جنات وبساتين تحتها مَسْرَبٌ من مياه النيل يصبُّ فى قنوات تتخللها، وكان أهل الفسطاط يخرجون للنزهة فيها وللمتاع بمناظرها، وفيها يقول أمية:

لله يومى ببركة الحبَشِ والْأُفْقُ بين الضياءِ والغَبَشِ
والنيلُ تحت الرياح مضطربٌ كصارمٍ فى يَمين مُرْتعِشِ[٣]
ونحن في روضةٍ مفوَّفةٍ دُبِّج بالنَّوْر عِطْفُها ووُشِى[٤]
قد نسجتْها يَدُ الربيعِ لنا فنحنُ من نَسْجِها على فُرُشِ
فعاطِنى الرَّاحَ إنَّ تاركها من سَوْرَة الهمِّ غير مُنْتَعِشِ[٥]

وهى نزهة ببركة الحبش فى يوم من أيام الربيع الجميلة، وتتوالى الأخيلة فى الأبيات بديعة، فاضطراب النيل تحت الرياح كاهتزاز السيف فى يد مرتعش لا يهدأ ولا يسكن أبدا، وهو وصحبه فى روضة أنيقة وُشيت جوانبها وزينت بالنور، ومدَّ الربيع من تحتهم بساطا سندسيا. وفى هذا الموكب الرائع الذى ملأ قلبه فتنة بالطبيعة وجمالها يسأل صاحبه أن يناوله كأس الخمر، حتى يزول - كما يزعم - كل هم فى طوايا نفسه. ويعلن مرارا أنه مولع باحتساء الخمر وسط الرياض ومباهج الطبيعة، ويفتنّ فى مزجها بالغزل إذ يجتمع عليه صبابته بالخمر وبجمال المرأة وينشد مثل قوله:

قامتْ تديرُ المُدام كفُّاها شمسٌ ينير الدُّجَى مُحَيَّاها

(١) أناف: ارتفع وأشرف. السماك: نجم نيرٌ.
(٢) النشز: المرتفع من الأرض.
(٣) صارم: سيف.
(٤) مفوقة: مزخرفة.
(٥) سورة: شدة.

للمسك ما فاح من مَرَاشِفها والبَرْقِ ما لاح من ثناياها
غــزالــةٌ أخجلتْ سَمِيَّتهــا فلمْ تشبَّه بها وحــاشاهــا[١]
هَبْهــا لها حُسْنهــا وبَهْجتها فهــل لها خَــدُّها وعَيْنــاهــا

والأبيات تملك القلوب والأسماع بعذوبتها وتمكن ألفاظها وقوافيها فى سياقها، وأيضا برَقتها ولطف معانيها ودقة التقابل فيها بين القامة والغصن والرِّدف والكثيب والمراشف وما يلمع وراءها من الثغر وصاحبته والشمس، وهَبْ للشمس حسنها وبهجتها فهل لها خدها الجميل وعيناها الفاتنتان. وله وراء ذلك أشعار بديعة.

ابن[٢] خفاجة

هو أبو إسحق إبراهيم بن أبى الفتح بن عبد الله بن خفاجة، ولد سنة ٤٥٠ للهجرة بجزيرة شُقْر بين شاطبة وبلنسية، وماء نهرها يحيط بها من جميع جهاتها، ولذلك سميت جزيرة وفى المغرب: أنها «عروس الأندلس المقلدة من نهرها بسلك، المتلفعة من جناتها بسندس، روض بسام، ونهر كالحسام، وبلبل وحمام». وفى هذه الجنة الفيحاء نشأ ابن خفاجة فى أسرة علم وأدب وغير قليل من الثراء، وأقبل على الدرس والتزود بالآداب العربية، وتفتحت موهبته الشعرية، وغذاها غذاء شعريا رفيعا بأشعار عبد المحسن الصورى والشريف الرضى ومهيار والمتنبى كما يقول فى مقدمة ديوانه، ويضرب لتأثره بهم أمثلة تدل على أنه تأثر بالصورى فى مزج الغزل بالطبيعة وبالشريف الرضى ومهيار فى ذكر الظعائن والعيس والأماكن الحجازية والنجدية والطيف والخيال ونسيم الصبا وأنفاس الخزامى، أما المتنبى فيقول إنه تأثر به فى لفّ الغزل بالحماسة. ويقول أيضا فى مقدمة ديوانه إنه ظل فى شبابه يتمثل هؤلاء الأربعة فى شعره، متغنيا فيه بحب وجدانى وبمتاعه من الخمر والطبيعة الجميلة التى نشأ فى حجرها. ولم يحاول حينئذ أن يفد على أمراء الطوائف مادحا، كما كان يصنع الشعراء من حوله لأنه كان مكفول الرزق

(١) غزالة: يريد صاحبته، وتسمى بها الشمس.
(٢) انظر فى ابن خفاجة وترجمته وشعره الذخيرة ٥٤١/٣ ومابعدها والقلائد ص٢٣١ والمغرب ٣٦٧/٢ والمطرب ص١١١ وابن الأبار فى التكملة (البقية المطبوعة فى الجزائر) ص١٧٥ ومعجم الصدفى ص٥٩ والمطمح ص٨٦ وبغية الملتمس ص٢٠٢ وابن خلكان ٥٦/١ والخريدة ١٤٧/٢ ومقدمة ابن خلدون (طبع نهضة مصر) ص١٣٠٨. ومقدمة ديوانه بتحقيق د.السيد مصطفى غازى (طبع منشأة المعارف بالإسكندرية). وراجع ترجمته فى كتابنا الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (الطبعة الحادية عشرة بدار المعارف) ص٤٤٤ ومابعدها وتاريخ الأدب الأندلسى: عصر أمراء الطوائف والمرابطين للدكتور إحسان عباس ص٢٠٤ وما بعدها.

بضيعة ورثها عن آبائه، وفى الديوان مقطوعة سينية نظمها فى زيارة للمعتصم بن صُمادح دعت إليها مناسبة طارئة فنظمها، وليس فى الديوان وراءها مدحة لا فى ابن صمادح ولا فى غيره من أمراء الطوائف. ويذكر أن فترة الشباب وما له فيها من منظومات فى الغزل والطبيعة والخمر أعقبتها فترة انقطع فيها عن نظم الشعر، ويقول إنها كانت فترة طويلة، وأكبر الظن أنها كانت سنوات معدودة انتهت بانتهاء عصر أمراء الطوائف، وكأن هذا العصر كان عبئا غليظا على نفسه، كما كان عبئا غليظا على نفوس كثيرين من أهل الأندلس لانغماس أمرائه فى الترف والمجون، حتى ضاعت طليطلة سنة ٤٧٨. ونظن ظنا أن هذا الحادث الخطير هو الذى جعله يتوقف عن الشعر فترة، وأخذ يعود إليه الأمل فى إنقاذ الأندلس حين دخلها المرابطون وانتصروا فى الزلاقة انتصارهم الحاسم، ولعل إعجابه بهم هو الذى جعله يزور المغرب ومراكش ويعود منها سنة ٤٨٣ كما جاء فى ديوانه، ولايلبث يوسف بن تاشفين أن يجمع الأندلس تحت لوائه فى نفس السنة فينتعش الأمل فى نفس ابن خفاجة ويعود إلى نظم الشعر، وتلك هى الفترة الثالثة فى حياته، وفيها ظل يدبج المدائح فى أمراء المرابطين وقوادهم ورجالاتهم مستهلا ذلك - كما يقول فى مقدمة ديوانه - بمديح إبراهيم بن يوسف بن تاشفين أول ولاة المرابطين على شرقى الأندلس. وتوالت بعد ذلك مدائحه فيه وفى أخيه تميم والى غرناطة ثم مرسية بشرقى الأندلس لفترة قليلة وزوجته السيدة الحرة مريم وفى على بن يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين وفى أبى بكر بن تيفَلْويت ممدوح ابن باجة. وفى كل هذه المدائح وغيرها فى تلك الفترة الثالثة من حياته لم يكن طالب نوال أوعطاء، وإنما كان - كما قال فى مقدمة ديوانه «مصطنعا، لامنتجعا، ومستميلا، لامستنيلا اكتفاء بما فى يده من عطايا منّانٍ وعوارفِ جوادٍ وهّاب». ونظن ظنا أنه عاش فترة فى حياته الطويلة بأخرة، إذ امتدت إلى أكثر من ثمانين عاما، مفكرا فى مصيره وفى متاع الحياة الزائل وما ينتظر الإنسان من العقاب والثواب، وفى هذه الفترة نظم طائفة من شعره فى العظة والاعتبار والتوبة والابتهال والاستغفار، وفيها جمع ديوانه، وعُنى كما يقول فى مقدمته بتنقيحه وإصلاح بعض أشعاره «إما لاستفادة معنى، وإما لاستجادة مبنى» وعُنى بجانب ذلك بكتابة بعض كتب الحديث والسنن - كما ذكر فى بعض شعره - تقربا لله ورسوله. وكان فى هذه الفترة الرابعة من حياته يخرج من جزيرته ويسير بين الوديان والجبال وينادى بأعلى صوته: يا إبراهيم تموت، فيجيبه الصدى ويخرّ مغشيا عليه. ويتوفى سنة ٥٣٣ عن اثنين وثمانين عاما.

ويشيد به ابن بسام وغير ابن بسام إشادة رائعة، وأهم موضوع استنفد أكثر شعره واشتهر به وصف الطبيعة حتى سماه الأندلسيون الجنّان نسبة إلى جنان الأندلس وتصويره لها تصاوير بديعة، وعلّل هو نفسه لهذه النزعة فى ص ٢٩٠ بديوانه قائلا: «إكثاره فى شعره من وصف زهرة ونعت شجرة وجَرْية ماء ورنة طائر ما هو إلا [إما] لأنه كان جانحا إلى هذه الموصوفات لطبيعة فُطر عليها وجِبِلّة، وإما لأن الجزيرة كانت داره ومنشأه وقراره، وحسبك من ماء سائح، وطير صادح، وبطاح عريضة وأرض أريضة،[١] فلم يعدم هنالك من ذلك ما يبعث مع الساعات أنسه، ويحرّك إلى القول نفسه، حتى غلب عليه حب ذلك الأمر، فصار قوله فيه عن كَلَفٍ[٢] لا تكلف، مع اقتناع، قام مقام اتساع، فأغناه عن تبذل وانتجاع». ومن قوله فى وصف روض صباحا:

وكِمَامةٍ حَدَرَ الصباحُ قِناعهَا ... عن صَفْحَةٍ تَنْدَى من الأزهارِ[٣]
فى أَبْطَحٍ رَضعتْ ثغورُ أقاحِهِ ... أَخْلافَ كلِّ غمامةٍ مِدْرارِ[٤]
وحللتُ حيثُ الماءُ صفحةُ ضاحكٍ ... والطَّلُّ يَنْضَحُ أَوْجُهَ الأشجارِ
متقسِّمَ الألحاظِ بين محاسنٍ ... من رِدْفِ رابيةٍ وخَصْرِ قرارِ[٥]

والصور تتراكم فى القطعة، فالصباح يكشف قناع الظلام عن الأكمام فتبدو أزهارها النَّديَّة وثغور الأقاح ترضع من أخلاف الغمام الدارّ والماء يضحك والطل يرش أوجه الأشجار، وألحاظه موزعة بين النظر إلى ردف جميل بأزهاره لرابية وخصر بديع برياحينه لقرار. ويقول فى وصف عشية:

وعَشِيٍّ أُنسٍ أَضْجعتْنِي نَشْوَةٌ ... فيهِ يُمهِّد مَضْجعى ويُدَمِّثُ[٦]
خَلَعتْ علىَّ به الأراكةُ ظِلَّها ... والغُصْنُ يُصْغِى والحمامُ يحدِّثُ
والشمسُ تَجْنَحُ للغروب مَرِيضَةً ... والبَرْقُ يَرْقِى والغمامة تَنْفُثُ[٧]

وهو يقول إنها عشية جميلة انتشى فيها بمنظرها، إذ كان يستظل بأراكة فى مقعد ممهد لطيف، والحمام يحدِّث والغصن يرهف السمع إليه، والشمس تجنح للوداع وقد اصفرَّ

---

(١) أريضة: كثيرة النبات.
(٢) كلف: هيام.
(٣) كمامة: أكمام وهى جمع كم بكسر الكاف: برعوم الزهرة.
(٤) أخلاف جمع خلف بكسر الخاء: حلمة
(٥) الردف: العجز بضم الجيم. خصر الإنسان: وسطه. قرار: منخفض من الأرض.
(٦) يدمث: يمهد ويوطأ بتشديد الطاء.
(٧) تنفث: تنفح.

وجهها وشحب لفراق هذا المنظر، وشُعَل البرق كأنها رُقىً تريد أن ترقيها والغَمامة تنفث كما ينفث الراقى فى العقد. ومن قوله فى إحدى خمرياته:

وأراكةٍ ضربتْ سماءً فوقنا ... تَنْدَى وأفلاكُ الكئوسِ تُدارُ
حَفَّتْ بدَوْحتِها مجَرَّةُ جَدْوَلٍ ... نثرتْ عليه نجومَها الأزهارُ
وكأنَّها وكأنَّ جدول مائِها ... حسناءُ شُدَّ بِخَصْرِها زُنَّارُ[1]
زفَّ الزجاجُ بها عروسَ مُدامةً ... تُجْلَى ونُوَّارُ الغُصونِ نِثارُ[2]

وقد جعل ابن خفاجة الأراكة التى جلس مع ندمائه تحتها سماء، ومضى يستتم الصورة، فالكئوس تدار وكأنها النجوم تدار فى الأفلاك، والجدول وما حوله من الأزهار كأنه المجرة بما حولها من النجوم، وكأن الأراكة وما بجانبها من الجدول حسناء شدت حزاما إلى خصرها. وهذا زجاج الكئوس يزفّ المدامة إلى الشاربين ويجلوها عليهم، وما النوار والأزهار إلا نثار الدراهم والدنانير يلقى به المحبون فى هذا العرس الكبير. وواضح ما يتميز به شعر الطبيعة عند ابن خفاجة من بث العواطف والمشاعر فى عناصر الطبيعة، بحيث يصبح لكل عنصر أحاسيسه التى يشترك بها مع غيره من العناصر. وتتراكم هذه الأحاسيس فى شعره وتتراكم معها تصاوير الطبيعة، مما جعل بعض الأندلسيين من موطنه يعيب عليه كثرة معانيه وازدحامها فى البيت الواحد، وهى ليست كثرة معان إنما هى كثرة تصاوير، وهى ليست عيبا بل هى حسنته وفضيلته، إذ أحس بعناصر الطبيعة إحساسا عميقا، وهو إحساس تفرَّد به لا بين شعراء الأندلس وحدهم بل بين شعراء العربية جميعا، بحيث يعد أكبر شعراء الطبيعة عند العرب فى مختلف عصورهم، وجعله إحساسه بها ينقل أوصافها إلى المديح فيقول فى أبى بكر بن تيفلويت والى سرقسطة:

وجَلا الإمارةَ فى رَفيفِ نَضارةٍ ... جَلَتِ الدُّجىَ فى حُلَّة الأنوارِ
متقسِّمٌ ما بين شمسٍ دُجُنَّةٍ ... طلعتْ وبين غمامةٍ مِدْرَارِ
أَرِجَ النَّدِىُّ بذكره فكأنه ... متنفِّسٌ عن رَوْضةٍ مِعْطارِ

فهو قد جلا الإمارة فيما يشبه رفيف البساتين من الرى والنضارة، حتى لكأنما أسبغت على الليل الداجى حلة من الأنوار، وما أروع طلعته كأنها طلعة شمس من دجنّة مظلمة

---

(١) زنار: حزام يشد فى الوسط.
(٢) النثار: ما ينثر على العروس فى الزفاف من الدراهم والدنانير.

تضيء للأبصار، وكأنما يداه غمامة ما تزال تهمي بالنوال على العفاة والزوار، وإن ذكره في النَّدِيِّ ليملؤه بأريجه العطر، حتى لكأنه يتنفس عن روض فائح العطر. وكما يمزج الطبيعة بالمديح يمزجها بمراثيه كقوله في رثاء صديق عزيز:

فى كلِّ نادٍ منك رَوْضُ ثناءِ　　وبكل خَدٍّ فيك جَدْوَلُ ماءِ
ولكل شخصٍ هِزَّةُ الغُصْنِ النَّدِى　　تحت البُكاء ورَنَّةِ المُكَّاءِ

وهو يقول - مخاطبا صديقه - إن كل ناد تحول إلى روض ثناء عليك وكل خد هطلت عليه الدموع الكثيرة حتى استحال كل شخص بأنينه وانهمار دموعه إلى ما يشبه هزة الغصن الندىّ ورنة طائر المكاء الصغير يبكي أليفته.

ولم نتمثل حتى الآن بشيء من شعر الطبيعة الذى نظمه فى الفترة الأخيرة من حياته، فترة التأمل فى مصيره وما ينتظره، مثل أقرانه الذين رثاهم مرارا، من الموت والعدم، ولعل خير قصيدة تصور هذه الفترة قصيدته البائية المعنونة فى الديوان بأنه قالها فى الاعتبار، وهو يفتتحها بوصف سُراه فى الليل وكيف أن وجوه الموت كانت تتجلى له دائما، وكأنما يصف رحلته الطويلة فى الحياة، ويلتقى فى سراه بجبل ضخم شاهق شامخ ويقيم معه حوارًا ينطقه فيه بما يدور فى نفسه، إذ يقول له: كم آوى إلىَّ واستوطننى من فُتّاك ونُسَّاك وكم مرَّ بى من غادين ورائحين وراكبين وراجلين، وكلهم عصف بهم الموت، يقول:

وما كان إلا أن طَوَتْهم يَدُ الرَّدَى　　وطارتْ بهم ريحُ النَّوَى والنَّوائبِ
وما خَفْقُ أَيْكِي غيرُ رَجْفَةِ أَضْلعٍ　　ولا نَوْحُ وُرْقِى غيرُ صَرْخة نادبِ
فحتى متى أَبْقَى ويَظْعَنُ صاحبٌ　　أودِّعُ منه راحلًا غيرَ آيبِ
فسلَّى بما أَبْكَى وسَرَّى بما شَجَى　　وكان على لَيْل السُّرَى خيرَ صاحبِ

فالجبل مثله محزون لما يرى من مصير الناس جميعا صالحين وطالحين إلى الموت والفناء وفقدان الحياة. وكل شيء يشترك مع الجبل ومع ابن خفاجة فى الإحساس بهول هذا المصير حتى ليرتجف الأيك والشجر وينوح الورق أو الحمام فزعا لهذا المصير المفجع لكل الناس. ويستطيل الجبل وابن خفاجة بقاءهما بعد رحيل كل الصحاب. ويقول إن الجبل سرَّى عن نفسه لأنه وجد عنده نفس الحزن ونفس الشجا إزاء ما يشعر به من تلاحق الفواجع بالناس وأن كل من على الأرض كركب واقفين ينتظر كل منهم دوره للرحيل إلى الدار الباقية.

محمد[1] بن سفر

هو أبو الحسين محمد بن سفر، من شعراء عصر الموحدين فى المائة السادسة، ويقول ابن الأبار عنه، منسوب إلى جده وأصحابنا يكتبون اسمه بالصاد، كان بإشبيلية. ويقول ابن سعيد فيه: «شاعر المرية (بشرقى الأندلس) فى عصره الذى يغنى ما أنشده من شعره عن الإطناب فى التنبيه على قدره» وأشاد به المقرى فى النفح مرارا بمثل قوله: «الإحسان له عادة» وقوله: «أحد الشعراء المتأخرين عصرًا المتقدمين قدرا». ويقول ابن سعيد: «أعجب ما قيل فى مد نهر إشبيلية وجَزْره (لتأثره بجَزْر المحيط الأطلسى ومَدِّه) قوله:

جئتُ الجزيرةَ والخليجُ يَحُفُّها ... يشكو إليها كى تجيبَ جِوارَهُ
شقَّ النسيمُ عليه جَيْبَ قميصِه ... فانساب من شَطَّيْهْ يطلب ثارَهُ
فتضاحكتْ وُرْقُ الحمام بِدَوْحِهِ ... هُـزْءًا فضمَّ من الحَيـاء إزارَهُ

وهو يجعل الخليج شاكيا إلى جزيرة هناك بقرب إشبيلية، فتعرض له النسيم شاقا جيب قميصه أو بعبارة أخرى فَتْحَة مصب النهر، فانساب المحيط من شطيها يطلب ثاره، وهو يكنى بذلك عن المد، فتضاحك الحمام الذى كان رابضا على الدوح هزءا به، فاستحيى الخليج أو المحيط وضم من الحياء إزاره، وهويكنى بذلك عن الجزر. وهو خيال بديع، وله يصف نزهة لبعض الشباب فى زورق شراعى بنهر، وربما كان أيضا نهر إشبيلية المسمى بنهر الوادى الكبير:

لو أبصرتْ عيناك زورقَ فتيةٍ ... يُبْدِى لهم بَهَجُ السُّرور مِراحَهُ
وقد استداروا تحت ظِلِّ شِراعهِ ... كـلٌّ يمدُّ بكـأسِ راحٍ راحَهُ
لحسبته خوفَ العواصفِ طائرا ... مدَّ الحَنانُ على بَنيه جَناحَـه

وهو أيضا خيال بارع لابن سفر، إذ يقول إن فتية ترافقوا فى زورق مرحين مسرورين ولم يلبثوا أن تجمعوا فى ظل شراعه يتهادون كئوس الخمر وكل منهم يمد بها لصاحبه، ويشطح به الخيال، فيقول لكأن الزورق وهم متجمعون تحت شراعه خشية الريح الشديدة طائر فى عشه دفعه الحنان إلى أن يمد جناحه على أولاده خوفا عليهم من

---

(١) انظر فى محمد بن سفر وترجمته وشعره المغرب ٢١٢/٢ والرايات ص١٠٦ والتحفة رقم ٦٦.

العواصف المباغتة. ويقول:

يامن رأى النهر استثارَ به الصَّبا ... خَيْلاً لإرهاب الغُصُونِ المُيَّدِ[١]
لمـا رأتهـا سُـدِّدَتْ تِلْقـاءَهُ ... قرنتْ به خَيْلاً تروحُ وتَغْتَدِى
وغَدَتْ تُدَرِّعُه ولم تبخَلْ لهـا ... شمسُ الضُّحَى بمسامرٍ من عسجد

وهو يجعل ريح الصبا كأنها خيل تهبّ لإرهاب الغصون المتمايلة، ولقيته الغصون بخيل ما تزال غادية رائحة وذاهبة آتية، وأخذت تلّبس النهر دروعا من ظلالها للقاء خيل الصبا، وأهدتها شمس الضحى مسامر ذهبية كى تحكم تلك الدروع على النهر، وهو خيال بديع. ويقول فى وادى المرية بلدته:

اشربْ على شَدْوِ الحمام فإنهُ ... أَشْهَى إلىَّ من الغَرِيضِ ومَعْبَدِ
أتُراه أطْرَبه الخليجُ وقد رأى ... تَصْفِيقَـه تحت الغُصون المُيَّـدِ
وكـأنهنَّ رواقصٌ من فـوقـه ... وبها من الأزهار شِبْهُ مُقَلَّدِ[٢]

وهو يجعل شدو الحمام فى سمعه أروع من غناء مغنِّيَىْ مكة والمدينة: الغريض ومعبد المشهورين فى العصر الأموى، ويقول: كأنما أطربه شدو المياه وخريرها تحت الغصون الراقصة المطوقة لجيدها بالأزهار الجميلة، ولعل فى ذلك كله ما يشهد لابن سفر بروعة أخيلته وتصاويره.

٣

شعراء الرثاء

(أ) رثاء الأفراد

يتخذ رثاء الأفراد فى الشعر العربى منذ الجاهلية ألوانا ثلاثة، هى الندب أو النواح لموت ذوى الرحم، والتأبين بذكر فضائل الميت تبيانا لخسارة المجتمع فيه، والعزاء بتصوير الموت وأنه سنة من سنن الكون لا مفر منه ولا نجاة. ونجد هذه الألوان الثلاثة ماثلة فى الشعر الأندلسى، ونبدأ بعرض نصوص من ندب الشعراء لبعض أقربائهم من الأبناء

---

(١) الميد: المتمايلة.

(٢) مقلد: موضع القلادة من العنق.

والزوجات والإخوة، ونلتقى بابن عبد ربه ملتاعا لفقد ابنين له هصَر الموت غصن أكبرهما وهو فى ريعان شبابه، أما الثانى فكان صبيا لم يبرح زمن الطفولة، وله فيهما مراث مختلفة، ومن قوله فى الشاب ملتاعا بعد فترة من موته[1]:

بَلِيَتْ عـظامُك والأسَى يتجـدَّدُ ... والصَّبْـرُ يَنْفَدُ والبُكـا لا يَنْفَدُ
يـا غـائبًـا لا يُـرْتَجَى لإيـابـهِ ... ولقـائِـهِ دون القيـامـةِ مـوعـد
ما كان أحسنَ مَلْحـدًا ضُمِّنْتَهُ ... لو كان ضَمَّ أبـاك ثَمَّ المَلْحَدُ
باليَأْسِ أَسْلُو عنك لا بِتجلُّدِى ... هيهاتَ أين من الحزين تجلُّدُ

وهو يقول إن حزنه يتجدد وصبره ينفد والبكاء لا ينفد لغياب ابنه غيابا لا أوبة بعده إلى يوم القيامة، ويتمنى لو كان دفن معه. ويقول إنه يسلو عنه باليأس من لقائه، لا بتجلده، فلم يعد له تجلد ولا صبر. وكثير من الزوجات الأندلسيين كن قُرَّة أعين لأزواجهن، ونرى كثيرين من الشعراء يلتاعون لوعة شديدة حين يختطف الموت منهم زوجاتهم، من مثل قول أبى إسحق الإلبيرى يبكى زوجته[2]:

عُجْ بالمطىِّ على اليَباب الغامرِ ... وارْبَعْ على قبرٍ تضمَّن ناظرى[3]
واقرَا السلامَ عليه من ذى لَوْعَةٍ ... صَدَعَتْه صَدْعًا ما له من جابر
ولـو أننى أنـصفـتُـه فى وُدِّهِ ... لقضيتُ يومَ قضى ولم أستأخِرِ[4]
وشققتُ فى خِلْبِ الفؤادِ ضَرِيحَه ... وسقيتهُ أبدًا بماءِ محاجـرى[5]

وهو ينادى صاحبه أن يقف الركبَ على قبر محبوبته ويقرأ عليه السلام من ملتاع صدعت بفراقها قلبه صدعا لا يمكن أن يلتئم، ويقول إنه كان من الإنصاف أن أُلْحَدَ معها فى قبر واحد، فإن لم أمت شققت لها فى سويداء الفؤاد ضريحا وسقيته أبدا بدموعى المنهلّة. ومات لمعاصره فقيه الأندلس المشهور أبى الوليد الباجى ابنان مغتربان فندبها ندبا حارًّا بقوله[6]:

---

(١) اليتيمة للثعالبى ٢/٧٦.
(٢) الديوان (تحقيق د. محمد رضوان الداية - طبع دمشق) ص ٧٤.
(٣) عج: اعطف. اليباب: القفر. الغامر: المغمور بالتراب. اربع: قف.
(٤) قضيت هنا: مت.
(٥) خلب الفؤاد: حجابه. محاجر العينين: ما يحيط بهما.
(٦) المغرب ١/٤٠٥ وانظر أيضا فى ترجمة أبى الوليد الذخيرة ٢/٩٤ ومعجم الأدباء ١١/٢٤٦ وابن خلكان ٣/٤٠٨ والقلائد ١٨٨ والصلة ١٩٧.

رَعَى الله قَبْرَيْن استكانا ببلدةٍ ... هما أَسْكناها فى السَّوادِ من القلبِ
يَقَرُّ بعينى أن أزورَ ثَراهما ... وأُلْصِقَ مكنونَ التَّرائبِ فى التُّرْبِ[١]
وأبكى - وأبكى - ساكِنيها لعلَّنى ... سَأُنْجَدُ من صَحْبٍ وأُسْعَدُ من سُحْبِ[٢]
وما ساعدتْ وُرْقُ الحمام أخَا أسىً ... ولا روَّحتْ ريحُ الصَّبا عن أخى كَرْبِ
ولا استعذبتْ عيناىَ بعدهما كَرًى ... ولا ظمئتْ نفسى إلى البارِدِ العَذْبِ

وهو يدعو الله أن يرعى قبرى ابنيه اللذين يسكنان فى السواد من قلبه، ويقول إنه يُسَرُّ بزيارة قبريهما واحتضان ثراهما، وإنه ليبكى آملا فيمن ينجده ويساعده فى بكائه، ولكن هيهات، فلا منجد لا من الإنسان ولا من ورق الحمام، ولا مروِّح عنه لا من ريح الصبا ولا من غيرها. وإنه يبيت مسهدا وقد زهد فى كل متاع الحياة من بارد عذب وغير بارد عذب. وللأعمى التطيلى مرثية بديعة لزوجته آمنة تكاد فيها نفسه تذوب أسى وحسرات، وفيها يقول[٣]:

أآمِنَ إن أَجْزَعْ عليكِ فإننى ... رُزِئتكِ أَحْلَى من شبابى ومن وَفْرى
برغمىَ خُلِّى بين جسمِك والثَّرى ... وإن كنتُ لا أَخْشى التُّرابَ على التِّبْرِ[٤]
هنيئا لقبرٍ ضَمَّ جِسْمَكِ إنه ... مَقَرُّ الحَيا أو هالةُ القَمرِ البَدْرِ
إذا جئتِ عَدْنًا فاطلبينا فقلَّما ... تَقَدَّمْتِنى إلا مشيتُ على الإثْرِ[٥]
ولا تعذُلينى إن أقمتُ فرُبَّما ... تأخَّر بى سَعْيِى وأَثْقَلَنِى وِزْرِى

والمرثية تكتظ بخواطر وصور بديعة، وهو يتمنى فى مطلعها أن لو واروا جسد زوجته فى صدره مع ما يحتدم فيه من لظى فرقته لها، ويسألها هل احتملت الصبر على الفراق. أما هو فقد ضعف عن الصبر. ويقول لزوجته لا ترسلى إلىَّ بطيفك فدونه سدود من كتائب السهد عليك، كما يقول لها أُخْبِرْت إن جيدك أصبح عاطلا من الحلىّ فخذى أدمعى مكانها إن كنت غاضبة على الدر، إن محارتها أوصدفتها عينى ولجتها أو يَمُّها صدرى. ويبكى ابن خفاجة ابن أخت له توفى فى عنفوان شبابه بصحراء المغرب فيما يبدو، وجاءه نعيه، وفيه يقول[٦]:

---

(١) الترائب: عظام الصدر.
(٢) أسعد: من أسعد إذا أعان على البكاء.
(٣) راجع ديوان الأعمى التطيلى ص ٧٠.
(٤) التبر: فتات الذهب.
(٥) عَدْن: الفردوس.
(٦) الديوان ص ٢٦٧.

أرِقتُ أكفُّ الدمعَ طورا وأسفحُ ... وأنْضَحُ خَدِّى تارةً ثم أمسحُ[١]
فيا لغريب فاجأته منيّةٌ ... أتته على عهد الشباب تجلِّحُ[٢]
ترى بى - إذا أعولتُ حزنا - حمامةٌ ... ترنُّ وطورا أيْكةٌ تترنّحُ
وما أتلقَّى الركب أرجو تحيّةً ... توافى له أورقعةً تُتَصَفَّحُ
فعرِّجْ على مَثْوى الحبيب بنظرةٍ ... تراه بها عنى هناك وتلمح

وهو يقول إنه يقضى الليل مسهدا تارة يكفكف دمعه وتارة يرسله مدرارا، وطورا يفيض فوّارا وطورا يمسحه. ويأسى لابن أخته أن أسرع إليه الموت غريبا شابا، بل لقد اختطفه اختطافا. ويرقّ له كل ما حوله، فالحمام يرن بهديله والشجر يترنح ويتمايل بأغصانه. ويقول إنه لن يعود يتلقى القادمين ممن كانوا معه ليسألهم هل أرسل إليه معهم تحية أو رسالة وينادى كل من حوله أن يعرج على مثوى الحبيب، ويلقى نظرة عليه، لعله يراه بها عنه أو يلمحه. ويقول أبو عامر بن الحمارة الفيلسوف تلميذ ابن باجة فى زوجته زينب[٣]:

أزَيْنَبُ إن ظَعَنْتِ فإنَّ ظهرًا ... أقلَّك سوف يَرْكَبُه المُقِيمُ[٤]
بأية حجَّةٍ أسْعَى لأنْثَى ... سواكِ وأنتِ هامدةٌ هشيمُ
ولما أن حللتِ التُّرْبَ قلنا ... لقد ضَلَّتْ مَواقِعَها النُّجومُ
ألا يا زَهْرَةً ذَبُلَتْ سريعًا ... أضنَّ المُزْنُ أم رَكَدَ النَّسِيمُ

وهو يقول لها إن الدابة التى حملتك إلى المقابر سوف تحملنى قريبا، وسأظل وفيا لك على العهد لا أتزوج بعدك أبدا. والصورة بديعة فى البيت الثالث، فقد تعجَّب لهذا النجم الثاقب أن يحل فى التراب ومكانه السماء فى أعلى علّيين، ويعجب أيضا لهذه الزهرة العطرة أن تذبل فى إبّانها وشبابها سريعا، ويتساءل أبخل المزن بقطره أم ركد النسيم، وهى أيضا صورة بديعة.

ويكثر التأبين عندهم لكثرة رجالات الأندلس من أمراء وخلفاء وحكام ووزراء وقواد وفقهاء وعلماء من كل صنف وأدباء من الكتاب والشعراء، وعادة يذكرون مناقبهم

---

(١) أكف: أكفكف. أسفح: أصبّ. أنضح: من نضحت العين إذا فارت.
(٢) تجلح: تسرع.
(٣) الرايات ص ١٢٨ وانظر فى ترجمته المغرب ٢/١٢٠ والبغية ص ٥١٧ والمطرب ص ١٠٩ والوافى ٢/٢٤٢.
(٤) ظهرا: دابة، ويريد النَّعْش أقلك: حملك.

ويعددون محامدهم وخصالهم الكريمة، ومن أوائل من أبَّنوهم عبدالرحمن الأوسط المؤسس الحقيقى للحضارة العربية فى الأندلس على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع، وفيه يقول شاعره طاهر[١] بن حزم:

وياحَسْرَتا إذ أُظْفِرَ الموتُ بَغْتَةً ... بمن لم يكن إلا به الموتُ يَظْفَرُ
تداعتْ إلى النَّعْشِ السحابُ فظلَّلَتْ ... سريرا عليه السيِّد المتخيَّرُ
سَقَى الله قَبْرًا بالنَّخيلِ غَمامَةً ... تكادُ إذا حُلَّتْ عُراها تَفَطَّرُ[٢]
كأنَّ ثَراه مُنْذُ به سَكن النَّدَى ... إذا لاَعَبْتُه الريحُ مِسْكٌ وعَنْبَرُ[٣]

وهو يتحسر على عبد الرحمن إذ ظفر به الموت، وكان الموت إنما يظفر به لأنه عدته وسلاحه، ويقول إن السحاب ظلل نعشه فى مسيرته، ويدعو لقبره فى النخيل (مقبرة الأمويين بقرطبة) أن تسقيه غمامة، وتظل هاطلة. ويقول إن ثرى القبر مذ سكنه جثمان عبد الرحمن تفوح منه رائحة المسك والعنبر. ويتوفى سعيد بن جودى زعيم العرب بغرناطة فيؤبِّنه مقدَّم بن معافى القَبْرىّ مبتكر الموشحات بقوله[٤]:

مَنْ ذا الذى يُطْعِمُ أو يكسو ... وقد حَوَى حِلْفَ النَّدَى رَمْسُ[٥]
لا اخضرَّتِ الأرضُ ولا أورق الـ ... ـعودُ ولا أشرقتِ الشَّمْسُ
بعد ابنِ جوديٍّ الذى لن تَرَى ... أكرمَ منه الجِنُّ والإنْسُ
دموعُ عَيْنِى فى سبيل الأسى ... على سعيدٍ أبدًا حُبْسُ[٦]

فقد دفن الجود مع سعيد ولم يعد هناك من يطعم أو يكسو، فلا عمت الأرض خضرة ولا أورق الشجر ولا أشرقت الشمس بعد سعيد الذى لن يرى الجن والإنس من يفوقه جودا وكرما. ويقول إنه سيظل يبكيه ملتاعا وستظل دموعه محبوسة عليه أسى وحزنا ولوعة. وكان سعيد يقود العرب ضد ثورة عليهم فى إقليم غرناطة من المسالمة والمولدين والنصارى، ووقوف مقدم معه يدل بوضوح على أنه عربى من سلالة عربية، كما أشرنا إلى ذلك فى حديثنا عن الموشحات. ولابن الحنَّاط الكفيف يرثى أبا الحزم بن جهور أمير

---

(١) المقتبس (تحقيق د. مكى - طبع بيروت) ص ١٢٥.
(٢) حلت عُرًا الغمامة: هطلت كثيرا. تفطر: تشقق، كناية عن غزارة المطر.
(٣) الندى: الجود والكرم.
(٤) المقتبس: الجزء الخاص بالأمير عبد الله بن محمد (انظر الفهرس).
(٥) رمس: قبر.
(٦) حُبُس جمع حبيس: محبوس وموقوف.

قرطبة ويهنئ بالإمارة بعده ابنه أبا الوليد[١]:

إنَّا إلى الله في الرُّزْءِ الذى فَجَعا ... والحمدُ لله في الحكم الذى وَقَعا
أبٌ كريمٌ غَدَا الفِـرْدَوْسُ مسكنَه ... وابنٌ نجيبٌ تولَّى الأمرَ واضْطلعا[٢]
لله شمسُ ضُحىً في اللَّحْدِ قد غربتْ ... فـأعقبتْ قَمرًا بـالسَّعْد قـد طلعا

وهو يستسلم لله فيما فجع به من موت أبي الحزم جهور ويستبشر بولاية ابنه أبي الوليد، ويقول إن جهورا أصبح في الفردوس ونهض ابنه بالحكم، ويقول إن أبا الحزم شمس غربت فطلع سريعا قمر يحمل السعد بعده. ولابن مُعَلَّى الطرسوني يرثي عالما من علماء العربية فيما يبدو[٣]:

رُزْءٌ بَكَتْ منـه العُلا ومصـابُ ... شَقَّتْ عليـه جُيُوبَهـا الأحْبابُ
وطفقتُ أَلْتَمِسُ العـزاءَ فخانني ... نَفْسٌ تَـذوبُ وأدمـعٌ تنسـابُ
وتلجلج النَّـاعي بـهِ فسـألتُـهُ ... عَـوْدَ الحـديث لعله يَـرْتـابُ
أنْعَى إلى الإعرابِ منك مُعِيدَه ... غَضًّا كما نَطَقَتْ به الأَعْرابُ
ناحتْ بك الأقلامُ غايةَ وُسْعها ... وبكتْ بـأَبْلَغِ جُهْدهـا الآدابُ

وهو يقول إن موت هذا العالم مصاب جَلَلٌ بكت منه العلا وشقت عليه الأحْباب جيوبها حزنا، ويقول انه التمس العزاء فخانته نفسه الذائبة ودمعه المنساب، وتلجلج الناعي فأمَّل أن لا يكون النعي صحيحا. وينعيه إلى العربية التي أعادها غضة ناضرة كما نطق بها الأعراب في القديم، ويقول إن الأقلام والآداب تنوح عليه نواحا لا ينقطع. ونلتقي بابن سوار وسنخصه بكلمة مفردة. ويتوفى أبو بكر بن تِيفَلْويت المرابطي حاكم سرقسطة سنة ٥١٠ وكان بحرا فياضا وبطلا مغوارا ويرثيه صديقه الفيلسوف ابن باجة بمثل قوله[٤]:

سلامٌ وإلمـامٌ ورَوْحٌ ورحمـةٌ ... على الجسَدِ النائي الذى لاأزورُهُ
أحقًّا أبو بكرٍ تقضَّى فما يُـرَى ... تردُّ جماهيـرَ الوفـود ستورُهُ[٥]
لئن أنستْ تلك القبـورُ بقبرِه ... لقد أُوحِشَتْ أمصارُه وقصـورُهُ

---

(١) الذخيرة ٤٤٩/١ وانظر في ترجمة ابن الحناط الذخيرة ٤٣٧/١ وما بعدها والحميدى ٥٣ والصلة ٦٤٠ والتكملة ٣٨٧ والمغرب ١٢١/١ والخريدة ٢٩٧/٢ والوافي ١٢٤/٣.

(٢) اضطلع: نهض

(٣) الذخيرة ٨٤٤/٣ والمغرب ٤٥٧/٢

(٤) المغرب ١١٩/٢

(٥) تقضى: مات

وابن باجة، وقد يئس من زيارته لأبى بكر بن تيفلويت يتمنى له سلاما ورَوْحا أوراحة ورحمة. وإنه لفى ذهول فيتساءل أحقا أنه لم يعد يغدو إلى قصره ولم يعد يَرَى ما كان على أبوابه ونوافذه من ستور كانت تردّ الجماهير؟ ويقول إن كانت القبور وجدت أنسا بقبره فقد خلفت وحشة فى قصوره وأمصاره التى كان يمد عليها سلطانه، وفيه يقول أيضا راثيا مؤبِّنا باكيا[1]:

يا صَدًى بالثَّغْر جاوِرَهُ رِمَمٌ بوركْن من رِمَم[2]
صبَّحتْكَ الخيلُ غاديةً وأثارتْك فلم ترِمِ
قد طَوَى ذا الدَّهْرُ بِزَّتَهُ عنك فالبس بِزَّةَ الكَرمِ[3]

وهو يقول أيها الجثمان الثاوى بثغر سرقسطة الأعلى بوركت رمم الأموات الذين جاورتهم، ويلتفت إليه قائلا: لقد صبَّحتك الخيل التى تعوَّدت أن تقودها لمنازلة الأعداء وأثارتك كى تنهض معها، غير أنك لم تبرح مكانك. ثم يقول - وقد أمضّه الحزن - إن يكن الدهر طوى عنك شارة الحياة فالبس شارتك الرائعة شارة الجود المنهلّ المدرار. ولابن الزقّاق مرثية فى شهيد تقطر لوعة وأسى وهو يبكى فيه شبابه ومضاءه وتنكيله بحملة الصليب شر تنكيل، وهو يستهلها بأن الشهب ناحت عليه وبكى الغيم وانحسر ظل الأنس واغبرّ ضوء الشمس وبكاه حزب الله والإسلام، ويقول لحامليه: قفوا نودعه ونقض حقه من الدموع ولا تسلموه إلى الثرى، بل ادفنوه فى جوانحنا وأحشائنا، ويهتف ملتاعا[4]:

أعززْ علىَّ بضَيْغَمٍ ذى سَطْوَةٍ أَجَمَاتُهُ بعد الرِّماح رِجامُ[5]
أعزِزْ علىَّ بزهرةٍ مَطْلُولَةٍ أمستْ ولا غيرُ الضَّريحِ كِمام
إن راح مهجورَ الفِناء فطالما هجرتْ به أرواحَها الأجسامُ
الليلُ بعدك سَرْمَدٌ لا ينقضى فكأنما ساعاتُه أعوامُ
ياحاملين النَّعْشَ أين جيادُهُ يامُلْبِسيه التُّرْبَ أين اللَّامُ[6]

وهو يقول ونفسه تتقطع على هذا الشهيد حسرات تلذع حرقها فؤاده لذعا: إنه يعزّ

---

(١) المغرب ١١٩/٢.

(٢) الصدى: جسد الإنسان بعد موته.

(٣) بزة: شارة.

(٤) الديوان ص ٢٦٣ والمغرب ٣٣٦/٢.

(٥) أجمات جمع أجمة: الغابة والشجر الكثيف الملتف وهى مخبأ الأسد. الرجام جمع رجمة: الحجارة تنصب على القبر.

(٦) اللام: الدروع.

عليه أن يصبح غيل هذا الأسد الضرغام وغابه الملتف حجارة ملقاة على قبره تندبه. ولقد كان زهرة غضة أرجة فى عنفوان شبابه، فصهرها الموت، وأبدلها من كمام الزهر حيطان ضريحه. ويقول إن كان قصره أصبح مهجور الفناء فطالما هجرت به أجسام أعدائه أرواحها وسحق ضلوعهم سحقا ذريعا، ويخال كأن الدنيا أصبحت بعده ليلا داجيا لا ينقضى أبدا وطالت ساعات السهد والغم والضيق والحزن العميق، وكأنما يذهل عن موت هذا الشاب البطل الذى تعود أن يراه ممتطيا جواده ممتشقا حسامه لحرب الأعداء، فيتساءل أين جياده، ويعجب أن يلبسه ملحدوه الترب وعادته أن يلبس الدرع ولأمة الحرب لمنازلة الأعداء منازلة ضارية. ومن أروع المراثى الأندلسية مرثية على بن حزمون للبطل أبى الحملات قائد الأعنة ببلنسية وقد استشهد فى بعض معاركه الضارية مع النصارى بعد أن أبلى بلاء عظيما، وجعل ابن حزمون مرثيته موشحة كأنما أراد أن تكون ندبا ونواحا على البطل الصريع، وفيها يقول[١]:

نَضَا لِباسَ الزَّرَدْ وخاضَ مَوْجَ الفَيْلَقِ[٢]
ولم يَرُعْهُ عَدَدْ ذاك الخَميسِ الأزْرَقِ[٣]
والحورُ تَلْثِمُ خَدّ أديمِهِ المُمَزَّقِ
وكان ذاك الأسَدْ فى كل خَيْلٍ يَلْتَقِى
إذا رأى الأعلاجْ وكبَّرا ثم انْبَرَى يُماصِعْ[٤]
رأيتهم كالدَّجاجْ منفَّرَا وَسْطَ العَرَا الواسِعْ

والموشحة من بحر الرجز وهو يقول إن البطل خلع عنه الدِّرْع وخاض دماء الكتيبة الباسلة وسط موجها المتلاطم يتقدم الصفوف مدافعا ذائدا غير مكترث بأعداد النصارى من الإسبان ولا برماحهم تنوشه، وأخذ يمزِّقهم شَرَّ ممزَّقٍ حتى تكاثروا عليه فخرَّ صريعا، وحفَّت به الحور العين تزفه إلى الفردوس تقبِّله وتلثِم مواضع الطعنات فى جسده. وكم كان هذا الأسد المغوار يقود الخيل العاديات إلى النصارى يمحقهم محقا، وكان إذا نازلهم فرّوا فى غير نظام كأنهم دجاج منفَّر، متناثرين فى كل صَوْب فزعا وهلعا، وكأنما كان قفلا كبيرا لبلنسية، يصدّ عن حماها العلوج النصارى منزلا بهم صواعق الموت صاعقة من بعد صاعقة إلى أن استشهد مشتريا بجهاده الفردوس ورضوان ربه. ونلتقى بمحمد بن

(١) المغرب ٢/٢١٧.
(٢) الزرد: الدروع. الفيلق: الكتيبة.
(٣) الخميس: جيش الإسبان، ووصفه بالزرقة لزرقة عيونهم.
(٤) يماصع: يجالد بالسيف ونحوه.

عبد الله بن أبي القاسم يرثي عالم العربية ابن الفخار الغرناطي قائلا[١]:

قَضَى من بني الفَخَّار أفضلُ ماجدِ ... جميلُ المساعي للعُلا جِدُّ شائدِ[٢]
أمــولايَ مَنْ للمشكـلات يُبينُهـا ... فتَجْلُو عَمَى كلِّ القلوب الشواهد
ومن ذا يَحُـلُّ المُقْفَلاتِ صِعـابَها ... ومن ذا الذي يَهْدِي السبيلَ لحائدِ[٣]

وهو يصف أستاذه ابن الفخار بجده في السعي للمعالي وحله لمشكلات النحو ومغلقاته، ملحا في ذلك حتى تذلَّل وتستبين معمياتها وصعابها، وكلما ذلل مسألة معماة أو مشكلة صعبة أخذ يذلل مشاكل ومسائل أخرى أشد عسرا. ويقول أبو عبد الله اللوشي في رثاء سلطان غرناطة أبي الوليد إسماعيل بن فرج المتوفى لسنة ٧٢٥ للهجرة:[٤]

كادتْ نجومُ الأُفْق تَسْقط في الثَّرَى ... لما شكتْ شمسُ العلاءِ أُفُولاَ
لا صَمْتَ إلا وهْو نارٌ في الحَشَا ... لا نُطْقَ إلا ما يعودُ عَويـلا
ضاقتْ صدورُ الخلق عن أنفـاسهم ... إذ ضَمَّ بَطْنُ الأرض إسماعيلا

وهو يبالغ مبالغة مفرطة إذ يقول إن النجوم في السماء كادت تسقط في الثرى حين أفلت شمس أميره إسماعيل، وإن الحزن عليه استحال نارا في الحشا واستحال كل نطق عويلا له وأنينا وضاقت الصدور عن أنفاسها لوعة وأسى.

واللون الثالث من ألوان رثاء الأفراد العزاء، وهو في أصله الصبر على الموت في الأقرباء وغير الأقرباء، ومن قديم يدعو الشعراء إليه مصورين كيف أن الموت سنة من سنن الكون، فهو الغاية والنهاية لكل إنسان، إذ الناس جميعا لابد أن يرحلوا عن دنياهم، مما دفع الشعراء - وخاصة من أخذوا بحظ من الفلسفة - إلى التفكير في حقائق الحياة والموت والوجود والعدم، ونلتقي بابن شهيد وقد هدَّه فالج أو شلل، وطال ألمه وتزايد سقمه، فنظم رثاء لنفسه، ومما قاله فيه متعزيا متقبِّلا للموت عن رضا:[٥]

يقولون قد أَوْدَى أبو عامِر العُلا ... أَقِلُّوا فقِـدْمًا مـات آباءُ عـامرِ[٦]
هو الموتُ لم يُصْرَفْ بأسجاعِ خاطبٍ ... بليغٍ ولم يُعْطَفْ بأنفاسِ شـاعرِ
ولم يجتنبْ للبـطش مُهْجةَ قـادرٍ ... قـويٍّ ولا للضَّعْف مهجةَ صـابـرِ

---

(١) الكتيبة الكامنة لابن الخطيب ص ٢١٢.
(٢) قضى: مات. شائد: بان.
(٣) حائد هنا: ضال.
(٤) الكتيبة الكامنة ص ١٧٦.
(٥) الديوان ص ١١٣ والذخيرة ٣٣٢/١.
(٦) أودى: مات. أقلوا: لا تتكلموا.

يَحُلُّ عُرَى الجبَّار فى دَارِ مُلْكِه   ويَهْفُو بنفسِ الشارب المتساكرِ[١]

وهو يقول لمن سيبكونه من إخوانه: لا تبكوا ولا تقولوا مات، فالناس - مثل آبائه - جميعا يرحلون عن دنياهم. إنه كأس الموت لابد للجميع من احتسائه، ولا يستطيع شيء أن ينحّيه عن الناس لا أسجاع خطيب ولا أنفاس شاعر، ولا يفلت من شباكه قوى ولا ضعيف، ولا ملك جبار ولا أحد سكران أو غير سكران. ويقول جعفر حفيد مكى بن أبى طالب المقرئ المشهور فى رثاء عبد الملك بن سراج عالم العربية المتوفى سنة ٤٨٩ للهجرة[٢]:

المَـوْتُ حَتْمٌ والنفـوسُ ودائـعٌ   والعيشُ نَـوْمٌ والمنى تَضْليـلُ
لا يَعْصِمُ العَصْماءَ منه شاهقٌ   صَعْبٌ ولا الوَرْدُ السَّبَنْتَى غِيلُ[٣]
يَهْوَى الفتى طولَ البقاء مؤمِّلا   وله رحيلٌ ليس عنهُ قُفُولُ
يَلْهو ويَلْعبُ مطمئنًا ذاهلا   وله رَسِيمٌ نحوه وذَمِيلُ[٤]

وهو يقول إن الموت حتم لا مفر منه، وما النفوس إلا ودائع له يسترجعها واحدة فى إثر أخرى، وما الحياة إلا برهة قصيرة كبرهة النوم، وما المنى إلا خُدَع يضلل بها الإنسان نفسه، ولن ينجو منه أحد لا العقاب المعتصم بجبل شاهق ولا الأسد القوى الجرىء فى غيله أو غابه، وإن الفتى ليهوى طول البقاء مؤملا آمالا كبارا غير مفكر فى رحلته الكبرى التى ليس منها قفول ولا رجوع. وإنه ليلعب ويلهو مطمئنا ذاهلا عن حركته المستمرة بين عدو وإبطاء نحو الموت. واغتيل بإشبيلية ذات ليلة شاب من شبابها المأمولين يسمى محمد بن البناقى كان من المعجبين بالأعمى التطيلى وشعره، وكان يكثر من الافتقاد له، فحزَّ فى نفسه اغتياله ونظم نونية بديعة يعزى بها أخاه أبا الحسن، استهلها على هذه الشاكلة[٥]:

خذا حدِّثانى عن فُلٍ وفلانِ   لِعلى أرى باقٍ على الحدَثانِ[٦]
وعن دول - جُسْنَ الديار - وأهلِها   فَنِينَ، وصَرْفُ الدهر ليس بفانِ[٧]

---

(١) المتساكر: متعاطى السكر والمتظاهر به.
(٢) الذخيرة ٨١٤/١.
(٣) العصماء هنا: العقاب. شاهق: جبل سامق. الورد السبنتى: الأسد الجرىء.
(٤) رسيم: عدو سريع. ذميل: سير دون السريع.
(٥) الديوان ص٢٢٤.
(٦) الحدثان: الليل والنهار.
(٧) جُسْنَ: وَطِئْنَ. صرف الدهر: أحداثه ونوائبه.

وعن هَرَمَىْ مصر – الغداةَ – أُمُتِّعا بشرخِ شبابٍ أم هما هَرِمانِ

فالناس والدول جميعا لا يبقى منهم باق على الزمان، فالكل يفنى ولا تفنى كوارث الدهر ومصائبه. ويتساءل عن الهرمين الباقيين بمصر هل مُتِّعا بشباب حى ناضر أو هما نشآ هرمين عجوزين لم يعرفا شبابا ولا متاعا بالحياة، ويقول إن كل شىء – حتى فى الكواكب – إلى فراق، ويعود بالذكرى إلى أعزاء العرب فى الجاهلية الذين طحنتهم الحروب، ثم يقول:

فذلَّتْ رقابٌ من رجالٍ أعزَّةٍ إليهم تناهى عزُّ كلِّ مكانِ
وأىّ قبيلٍ لم يصدَّع جميعُهم ببِكْرٍ من الأرزاء أو بعَوانِ[1]
ونبَّهنى ناعٍ مع الصبح كلَّما تشاغَلْتُ عنه عنَّ لى وعنانى
أغمِّض أجفانى كأنىَ نائمٌ وقد لجَّت الأحشاءُ فى الخفقانِ
أقول كأنى لست أحفلُ وانبرتْ دموعى فأبدتْ مايُجِنُّ جَنانى[2]

فكل أعزاء العرب واراهم التراب، وكل قبائلهم تصدعت بأرزاء لا مثيل لها أو مكررة أو معادة، ويقول إنه حين سمع نعى هذا الشاب كان يتشاغل عنه أملا فى أن يكون غلطا وكان ما يلبث أن يتراءى له، وهو بين الظن واليقين وأحشاؤه تخفق، ويحاول أن يكتم حزنه، غير أن دموعه انهملت فأظهرت ما يستره جنانه من الهم والغم والحزن. ويقول ابن الزقاق معزيا[3]:

هُوَ القَدرُ المحتومُ إن جاء مُقْدِمًا فلا الغابُ محروسٌ ولا اللَّيْثُ وَاثِبُ
تساقُ أبِيَّاتُ النفوسِ ذليلةً إليه وتنْقاد القرومُ المَصاعب[4]
وما الناسُ إلا خائضو غَمْرةِ الرَّدَى فطافٍ على ظَهْرِ التُّراب وراسبُ

وهو يقول إن الموت قدر حتمى للإنسان، ولذلك حين ينزل به لا يستطيع أن يرده غِيل ولا أسد متأهب للنزال، وإن الناس جميعا سادة وغير سادة ليساقون إلى وِرده، ويخال ابن الزقاق كأن الناس جميعا يخوضون ماء غمرا، فطافٍ منهم لابد أن ينشب الموت فيه أظفاره، وراسب سبق صاحبه إلى قاع الموت وقراره. ويقول ابن خفاجة فى صديق مات شابا متعزيا[5]:

---

(١) بكر: لم تسبق. عوان: مكررة.
(٢) الجنان: القلب والعقل.
(٣) الديوان ص ١٠٩.
(٤) القروم المصاعب: السادة العظام.
(٥) الديوان ص ٢١٧.

إذا ارتجعتْ أَيْدى الليالى هِباتِها فغـايةُ هـاتيك الهبـات نِهـابُ
تخبُّ بنا فى كلِّ يومٍ وليلةٍ مَطايا إلى دار البِلى وركابُ(١)
وهل مُهْجَةُ الإنسان إلا طَرِيدَةٌ تحـومُ عليها للحِمـام عُقابُ(٢)

وهو يقول إن الليالى إذا أعادت إلينا هبة سرعان ما تستردها، وكأننا غافلون، فتلك مطايا الموت تعدو بنا فى كل يوم مسرعة إلى دار الفناء، وما أشبه روح الإنسان بطريدة صيد تحوم عليها عقبان الموت ونسوره. ويقول أبو الحسن سهل بن مالك راثيا ومعزيا فى ابن رشد فيلسوف الأندلس المشهور(٣):

مَضى عَلَمُ العِلْمِ الذى ببيانِهِ تبيَّن خـافيـه وبـانَ طَـريقُـهُ
رجوعًا إلى الصَّبْرِ الجميلِ فحَقُّهُ علينا قَضَى أن لا تُؤَدَّى حُقوقُه
أعزِّيكُمُ فى البُعْدِ عنـه فإننى أُهَنِّيه قُرْبـا من جِوارٍ يـروقُه
ومـا كان فينـا منه إلا مكـانُهُ وفى العالم العُلْوَىّ كان رفيقُهُ

وهو يقول إن علَم العلم الذى طالما أوضح خفياته وذلَّل مشكلاته مات، وليس أمامنا إلا الصبر على هذه الفجيعة الموجعة: الصبر الجميل الذى دعا إليه الذكر الحكيم بقوله: ﴿وبشِّر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ وإن التمسك بعُرَى هذا الصبر وحقوقه ليحول بيننا وبين أن نؤدى لهذا العالم العظيم ما ينبغى من العويل والبكاء. ويقول لرفاقه من تلاميذ ابن رشد: إذا كنت أعزيكم فيه فإنى أهنئه بالجوار الذى يروقه، جوار الملائكة المصطفين الأخيار، وهل كان معنا منه إلا مكانه وجسده، أما روحه فكانت فى العالم الأعلى الذى صعدت إليه. ويقول ابن زَمْرك فى رثاء سلطان غرناطة الغنى بالله صفيّه وخليله حين توفى لسنة ٧٩٣ معزيا ابنه وخليفته يوسف(٤)

عـزاءً أميـرَ المسلمين فـإنهـا مقاديرُ ربِّ الخَلْق فى الخلْق يُجْريها
هـو المـوتُ وِرْدٌ للخليقـة كلِّهـا أواخـرُها تَقْفـو سَبِيـلَ أواليهـا(٥)
ومـا بينـنـا حَىٌّ ومـا بـين آدمٍ ألا هكـذا سَوَّى البَـرِيَّة بـارِيها
وفى موت خير الخَلْقِ أكبرُ أُسْوَةٍ تصبِّـر أحـرارَ النفـوسِ وتُسْليهـا

---

(١) تخب: تعدو. ركاب: مطايا معدة للركوب.
(٢) الحمام: الموت.
(٣) اختصار القدح المعلى ص ٦٣.
(٤) أزهار الرياض ٢/١٥٥.
(٥) تقفو: تتبع.

وهو يعزى ابن الغنى بالله بأن الله قَدَّر الموت على الخلق جميعا، فالكل لابد أن يردوا حياضه، يتبع الآخر الأول منذ آدم إلى اليوم، وقد مات رسول الله خير البريَّة، وفى ذلك أكبر عزاء لك عزاء لا يماثله عزاء. وآن أن نخص محمد بن سوار، وبالمثل ابن وهبون، بكلمة موجزة.

محمد[١] بن سوار

هو أبو بكر محمد بن سوار الأشبونى، ولد ونشأ فى أُشْبونة بغربى الأندلس، ولا نعرف شيئا واضحا عن نشأته وتعلمه غير أن ابن بسام يقول إنه نظم عدة قصائد فى أمراء الطوائف قالها فيهم «تحبُّبًا لا تكسبا، وعمر مجالسهم بها وفاءً لا استجداء» مما يدل على أنه نشأ فى يسار ونعمة أغنته فى شبابه عن التكسب بأشعاره. ويستمر ابن بسام قائلا إنه بعد أن خلع ابن تاشفين أمراء الطوائف لسنتى ٤٨٣، ٤٨٤ حالت بابن سوار الحال وتوزعه الإدبار والإقبال، إلى أن وقع فى أسر النصارى وسجن بقورية على أحد فروع نهر تاجُه غربى طليطلة، وظل يستغيث بمن يفتديه وينقذه من هذا الأسر وعذابه ولا مغيث إلى أن سمع باستغاثته على بن القاسم بن عشرة قاضى سَلا فى المغرب على المحيط، فأغاثه وافتداه، ورُدَّت إليه حريته بعد عام طويل من الأسر والعذاب، وعبر إليه الزقاق، فأظله برعايته وأسبغ عليه من نواله الغَمْر على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع، وظل الشاعر يدبج فيه المدائح، وكان القاضى من المقربين ليوسف بن تاشفين، ونظن ظنا أنه وصل ابن سوار به، إذ نراه حين توفى ابن تاشفين فى المحرم سنة ٥٠٠ للهجرة ينشد مرثية على قبره، قائلا:

اسمعْ أميرَ المسلمين وناصرَ الـ ... دِّينِ الذى بنفوسنا نَفْدِيهِ
جُوزِيتَ خَيْرًا عن رَعِيَّتَكَ التي ... لم تَرْضَ فيها غيرَ ما يُرْضيه
فى كلِّ عامٍ غزوةٌ مبرورةٌ ... تُرْدِى عَدِيدَ الرُّومِ أو تُفْنِيه[٢]
تصلُ الجهادَ إلى الجهاد موفَّقا ... حَكَمَ القضاءُ بكل ما تَقْضِيهِ
متواضعاً لله مُظْهِرَ دينهِ ... فى كل ما تُخْفيه أو تُبْديهِ

---

(١) انظر فى محمد بن سوار وترجمته وشعره الذخيرة ٨١١/٢ والمغرب ٤١١/١ والمحمدون من الشعراء للقفطى ٣٥٩ والوافى ١٤٣/٣ وراجع أسرة بنى عشرة للدكتور محمد بن شريفة: فصلة من مجلة تطوان، العدد العاشر سنة ١٩٦٥.

(٢) تردى: تهلك.

وهو يشيد بابن تاشفين صاحب موقعة الزلاقة التى أجَّلت استرداد الإسبان للأندلس العربية مئات السنين. ويقول إنه ناصر الدين الذى يفديه كل مسلم بروحه ودمه، ويدعو الله أن يجزيه خير الجزاء عما بذل لرعيته فى جهاده المستميت للإسبان وغزواته المتعاقبة واصلا الجهاد بالجهاد، إعلاء لكلمة الله فى تواضع حميد. ويتوفى القاضى على بن القاسم بعد ابن تاشفين بعامين، فيقول فيه من مرثية طويلة:

العيشُ بعدك ياعليُّ نَكالُ ... لا شىءَ منه سوى العناءِ يُنالُ
ياعِصْمَةَ الفقراءِ بل يامالَهم ... هيهات ما للناسِ بعدك مالُ
قد كنتَ آمالى التى أنا طالبٌ ... جَهْدِى ومتَّ فماتتِ الآمالُ
لا الظلُّ ظلٌّ بعد فَقْدك ياأبا ... حَسَنٍ ولا الماءُ الزُّلال زُلالُ

وهو يقول إن العيش بعد ابن عشرة نكال وعقاب وعناء وعذاب، ويسميه عصمة الفقراء بما كان ينثر عليهم من أمواله، كما يقول إن آماله ماتت بموت ابن عشرة. ولم يعد الظل ظلا باردا بل أصبح يحموما، ولم يعد الماء الزلال زلالا عذبا، بل أصبح مرا لا يُساغ. وخلف القاضى فى القضاء ابنه أبو العباس أحمد، فرعاه ووالى عليه نواله، ووالى ابن سوار له مديحه. وينشد ابن بسام له قطعة من مرثيته فى صبى يسمى محمدا لعله كان ابنا لأبى العباس، كما ينشد له أبياتا فى رثاء قاضيين، وربما كانا من بنى عشرة. ولعل فيما قدمنا ما يدل بوضوح على موهبته الشعرية الخصبة..

ابن[1] وهبون

هو أبو محمد عبد الجليل بن وهبون، مولده ومنشؤه بمُرْسية على البحر المتوسط، وهى من بنيان الأمير عبد الرحمن الأوسط وكانوا يسمونها بستان شرقىّ الأندلس، واشتهرت بما كان يصنع فيها من أصناف الحرير والديباج. وكانت بها حركة علمية وأدبية نشطة، ويكفى أن تكون هى التى أنتجت ابن سيدة أكبر لغوى أندلسى صاحب المخصص والمحكم المتوفى سنة ٤٥٨ للهجرة وكان مع إتقانه للعربية متوفرا على علوم الحكمة والفلسفة، وأكبر الظن أن ابن وهبون تتلمذ له، وقد يكون هو الذى دفعه للقراءة فى كتب

---

(١) انظر فى ابن وهبون وترجمته وشعره الذخيرة ٤٧٣/٢ والقلائد ص ٢٤٢ والخريدة ٩٥/٢ والمطرب ١١٨ وبغية الملتمس رقم ١١٠١ والمعجب للمراكشى ١٥٩ وفوات الوفيات لابن شاكر ٥١٣/١.

الفلسفة. وكانت شهرة المعتمد بن عباد قد طبقت الآفاق برعايته للشعراء، ونراه يفد على إشبيلية يريد أن يحظى بشيء من هذه الرعاية، ويلزم الأعلم الشنتمرى ويختلف إلى حلقته، ويعجب به ابن وهبون، وكان فيه - مثل ابن سيده - نزوع إلى الفلسفة، فلعله أيضا كان من أسباب اهتمامه بها. وقدَّم الأعلم قصيدة له إلى المعتمد بن عباد فطار بها وزيره ابن عمار، ووصله بالمعتمد، وأعجب به بدوره، فقصره على هواه، ولم يرحل إلى أمير من أمراء الطوائف سواه، وظل عنده إلا أياما كان يرحل فيها كل سنة إلى مرسية مسقط رأسه يتعهد فيها أهله، حتى إذا استنزل يوسف بن تاشفين أمير المرابطين المعتمد من عَرْش إمارته ونفاه إلى أغْمات خرج من إشبيلية متجها إلى مرسية، وبالقرب منها سنة ٤٨٤ للهجرة لقى قطعة من خيل النصارى فاشتبك معهم، وكُتبت له - على ايديهم - الشهادة. ويتميز شعره بمسحة التأمل والبعد فى الفكر والعمق فيه بتأثير قراءاته الفلسفية، وتوفى أستاذه الأعلم الشنتمرى سنة ٤٧٦ فبكاه بمرثية حارة استهلها بتأملات عميقة فى الحياة والموت منشدا:

نَفْسِى وجِسْمِى إن وصفتهُما معا ... آلٌ يَـذُوبُ وصخـرةٌ خَلْقـاءُ(١)
لو تعلم الأجْبالُ كيف مـآلُها ... عِلْمِى لما امتسكتْ لها أرْجاءُ
إنـا لنعلمُ مـا يـرادُ بنـا فلِمْ ... تَعْيَـا القلوبُ وتَغْلَبُ الأهـواءُ
طَيْفُ المنايا فى أساليب المُنَى ... وعلى طـريقِ الصحَّـة الأدْواءُ

وهو يقول ما الحياة؟ إن نفوسنا فيها سراب يذوب وأجسامنا صخرات ملساء لا تلبث أن تمسَّها يد الفناء، وحتى صخرات الجبال لو علمت حقيقةَ أنها لابد أن تتداعى يوما لما تماسكت لها أرجاء، ويقول إنا نعلم مصيرنا إلى الموت والفناء فلم نكلف قلوبنا ما تعيا به وتشقى؟ ولم تغلبنا الأهواء والشهوات؟، وتلك أطياف الموت وأشباحه تتراءى لنا فيما نحاول ونحقق من أمانى، وتلك الأدواء والأمراض كأنها تنتظر الأصحَّاء. ويستمر فى إنشاده:

ماذا على ابن الموتِ من إبصاره ... ولقـائِـه هـل عَقَّت الأبْنَـاءُ
لِمَ ينكرُ الإنسانُ ما هو ثابتٌ ... فى طَبْعِـه لـو صَحَّت الآراءُ
دَنِفٌ يبكى للصحيـح وإنمـا ... أمواتُنا - لو تَشْعُرُ - الأحياءُ
ما النفسُ إلا شُعْلَةٌ سقطتْ إلى ... حيثُ استقلَّ بها الثَّرَى والماءُ

---

(١) خلقاء: مصمتة ملساء.

حتى إذا خلصتْ تعودُ كما بدتْ ومن الخـلاصِ مشقَّـةٌ وعنـاءُ

وهو يقول إن الإنسان ابن الموت فلماذا يفزع من لقائه؟ أهو ابن عاقٌ لأبيه؟ ولماذا يتنكر الإنسان لما هو ثابت فى كيانه؟ ولو أنصف الأحياء لعرفوا أنهم مرضى مرضا ثقيلا يُشْفى بهم على الموت، وكأنهم هم الخليقون بالبكاء لهم، وفيم إذن يبكون على من لبّوا نداء الموت المستكن فيهم؟ إنهم الأموات الحقيقيون الجديرون بالبكاء عليهم. وما النفس إلا شعلة هبطت - كما يقول ابن سينا - من العالم العلوى إلى الجسد أو بعبارة أخرى إلى التراب والماء، وما الموت إلا خلاص لها من هذا الأسر الطويل، ورب خلاص فيه مشقة وعناء. ومضى ابن وهبون بعد هذا العزاء يقول بأن ليس فى الدنيا بقاء وأن الكل إلى فناءَ،مؤبّنا الأعلم الشنتمرى أستاذه تأبينا رائعا، وهو - بحق - من شعراء الأندلس المبدعين.

(ب) رثاء الدول

هذا اللونِ من رثاء الدول قديم فى الشعر العربى منذ العصر الجاهلى، إذ نجد الأسود بن يعْفُر يرثى دولة آل محرِّق فى الحيرة وحضارتهم وما شادوا من قصور الخَوَرْنَق والسَّدير وسِنْداد، حيث كانوا يعيشون فى ظل ملك ثابت ونعيم رافه، فزال ذلك كله، وأصبح باليا مندثرا. وحين قضى العباسيون على الدولة الأموية بكاها الشاعر أبو العباس الأعمى المكى طويلا. وسينية البحترى فى إيوان كسرى حين زار أطلاله مشهورة إذ خلبت لبه نقوشه وما على حيطانه من تصاوير، فوصفه وصفا بديعا، وبكى فى تضاعيف وصفه دولة الفرس ومجدها الحضارى. وحين أقنع فقهاء الأندلس يوسف بن تاشفين بعد موقعة الزلاقة المشهورة بأن عليه واجبا أن ينقذ الأندلس من أمراء الطوائف بها المتعادين المتحاربين المفضين فى حياتهم إلى اللهو والقصف متناسين مسئولياتهم إزاء نصارى الشمال لبّأهم مقتنعا بأنه يجب أن تجتمع الأندلس تحت لواء واحد، حتى تستطيع مدنها الصمود أمام نصارى الشمال، بل حتى تذيقهم وبال غاراتهم فى مواقع لا تقل عنفا عن موقعة الزلاقة. حينئذ رأى بنافذ بصيرته أنه لا بد من القضاء على حكم هؤلاء الأمراء بالأندلس وعبر الزقاق إليها سنة ٤٨٣ وبدأ الجيش بغرناطة ثم بالمعتمد بن عباد أمير إشبيلية، فقاوم قليلا ولم تغنه مقاومته، واستسلم، ونفاه ابن تاشفين إلى أغمات بقرب مراكش وكانت قرطبة تتبعه وعليها ابنه المأمون، وقاوم المرابطين وقتل، واستولى المرابطون على المدينة، كما استولوا على قلعة رندة من يد يزيد الراضى بعد أن لقى

مصير أخيه المأمون. واستولى المرابطون على بقية مدن الأندلس ما عدا سرقسطة إذ رأى ابنٍ تاشفين أن تُتْرك لأمرائها البواسل الذين ينازلون مجاوريهم من نصارى الشمال وينكلون بهم. وأبَى أمير بطليوس المتوكل عمر بن المظفر تسليم مدينته للمرابطين، وحاربهم ودارت عليه الدوائر فقتل من دونها هو وولدان له، وكان مثل المعتمد بن عباد أديبا كاتبا شاعرا، وأحالا مدينتيهما: إشبيلية وبطليوس إلى كعبة للقصاد من الأدباء والشعراء وقبلة لآمالها، فاجتمع عندهما من الشعراء ما لم يجتمع عند أحدٍ من أمراء الطوائف، وبذلك أعادا سيرة سيف الدولة فى حلب والرشيد فى بغداد، وكُتب للمعتمد أن يعيش بِضْع سنين، فبكى دولته، وأهم شاعر بكاها مثله ابن اللبانة، وحريّ أن نخص كلا منهما بكلمة، وبالمثل بكى ابن عبدون شاعر المتوكل دولته ببطليوس، وسنخصه مثلهما بكلمة موجزة.

المعتمد[1] بن عباد

هو المعتمد محمد بن المعتضد عباد أمير إشبيلية، من سلالة النعمان بن المنذر اللخمى أمير الحيرة فى الجاهلية رُزق به المعتضد سنة ٤٣١ ونشأ فى الحلية والزينة والترف، وكان المعتضد أديبا مثقفا، فكان طبيعيا أن يعنى بتربيته وأن يحضر له المعلمين من فقهاء وعلماء بالعربية وكانت فيه فطنة وذكاء، وشبَّ وتفتحت ملكته الشعرية. ورأى أبوه وهو لا يزال فى بواكير شبابه أن يعهد إليه بحكم شِلْب فى الجنوب الغربى للأندلس وكانت تتبعه، ونزل المعتمد فيها بقصر الإمارة المسمَّى بقصر الشراجيب، وتعرَّف عليه سريعا ابن عمار الشلبى، وكان شابا مثله وفيه مجون، فأغواه وأغراه بالخمر والمجون والسماع، وترامت إلى أبيه أنباء لهوه، فاستدعاه فى نحو العشرين من عمره إلى إشبيلية، وأخذ يدربه على الحكم. وتصادف أن تعرَّف سريعا على فتاة تسمى اعتماد مولاة لرُمَيْك من أهل إشبيلية، فاستهوته بجمالها وبداهتها الشعرية على نحو ما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع، فاقترن بها، وهى أم أبنائه، وله فيها كثير من أشعاره، وكان أبوه قد استطاع أن يستولى بجانب شلب على مدينة الجزيرة الخضراء الواقعة على زقاق جبل طارق وقِرْمونة فى الشمال الشرقى لإشبيلية ولَبْلة وباجة فى غربيها، وطمح إلى الاستيلاء على مالقة سنة ٤٥٩ من يد باديس

(١) انظر فى المعتمد بن عباد وترجمته وأشعاره الذخيرة ٤١/٢ وما بعدها والقلائد ٤٠ والحلة السيراء ٥٢/٢ والخريدة للعماد الأصبهانى ٢٥/٢ والمعجب ١٥٨ والمطرب ١٤ وما بعدها والإحاطة ١٠٨/٢ وما بعدها وأعمال الأعلام ١٥٧ والبيان المغرب ٢٥٧/٣ والوافى ١٨٣/٣ وابن خلكان ٢١/٥ وما بعدها. وديوانه نشره بالقاهرة الدكتوران: أحمد بدوى وحامد عبد المجيد.

الزيرى الصنهاجى أمير غرناطة، وأرسل إليها جيشا بقيادة المعتمد فاستولى عليها سريعا، وغرَّه ذلك فأفضى إلى لهوه وخمره، وأرسل باديس إليه جيشا باغته وتشتت جيشه وعاد إلى إشبيلية مدحورا. وتوفى المعتضد سنة ٤٦١ فأمسك المعتمد بزمام الحكم، وجاءه ابن عمار فاستوزره واستطاع الاستيلاء على قرطبة فى العام التالى لحكمه. وأخذ يكثر مع ابن عمار من مجالس الأنس ولياليه، كما أخذ يكثر من الإغداق على الشعراء فاجتمع ببابه منهم كثيرون عُنى ابن بسام فى الذخيرة بالترجمة لغير شاعر منهم. وبينما كان يغاور جيرانه من أمراء الطوائف المسلمين أبناء دينه كان يسالم ألفونس السادس ملك قشتالة ويؤدى إليه الجزية صاغرا كل عام، وحاول ألفونس أن يسلبه بعض ممتلكاته. وكان ضغط النصارى يشتد أيضا على المتوكل صاحب بطليوس فى الغرب وعلى أمير غرناطة عبد الله بن بلقين، فأجمع أمرهم - مع الفقهاء - على استدعاء يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، ولبَّاهم وكُتب لهم معه النصر المؤزر فى الزلاقة، وعاد يوسف إلى بلاده، وعاد المعتمد وغيره من أمراء الطوائف إلى اللهو والقصف والانغماس فى اللذات، فاستغاث الفقهاء وأهل الأندلس بابن تاشفين ثانية كى يخلص الأندلس من حكم هؤلاء الأمراء الذين مزَّقوها فى يد كل منهم مِزْقة مع ما يستنزفونه من طيباتها فى الخمر والمجون. وعبرَ يوسف الزقاق، واستسلم سريعا أمير غرناطة، أما المعتمد فأبى الاستسلام وطلب من ألفونس السادس المهزوم فى الزلاقة النجدة ضد ابن تاشفين والمرابطين. وكان ذلك جُرْمًا فظيعا وخطئا كبيرا لا يحق له بعده أن يظل أميرا فى موطنه، وقاوم ولم تنفعه مقاومته فاستسلم، وأمر ابن تاشفين بنفيه مع أهله إلى المغرب، فنُقلوا بالسفن من إشبيلية إلى طنجة، ومنها إلى مدينة مكناس، وأخيرا إلى أغْمات بالقرب من مدينة مراكش، وظل بها مع أسرته، وفيها توفيت زوجته اعتماد الرميكية، ولم يلبث أن توفى سنة ٤٨٨ للهجرة بعد نحو أربع سنوات قضاها فى منفاه. وطبيعى لشاعر مثله أن يبكى إمارته ودولته وما كان فيه من عز وسلطان وأبهة وحياة مرفهة، واسمه ملء الآذان فى الأندلس، والشعراء يغدون عليه ويروحون بفرائد من أمداحهم، وهو يسبغ عليهم عطايا كأنها سحب غدقة منهلّة. وكل ذلك امحى وزال، وكأنه كان حلما واستيقظ منه على اليأس والبؤس، ويبكى ويظل يبكى ويذرف الدمع مدرارا، منشدا:

غريبٌ بأرضِ المَغْرِبَيْن أسِيرُ سيَبْكى عليه مِنْبَرٌ وسريرُ
وتَنْدُبُهُ البيضُ الصَّوارمُ والقَنَا وينهلُّ دمعٌ بينهنَّ غزيرُ
فياليت شِعْرِى هل أبيتنَّ ليلةً أمامى وخَلْفى رَوْضَةٌ وغَديرُ

بِمُنْبَتَةِ الزَّيْتون مورثةِ العُلا   تغَنَّى قِيانٌ أو تَرِنّ طيورُ
بزاهرها السَّامى الذُّرَى جاده الحَيَا   تُشِيرُ الثريَّا نحونا ونُشير

لقد أصبح غريبا وأسيرا منفيا فى المغرب وإن منبر خطابته وعرش إمارته ليبكيانه وتبكى شجاعته السيوف والرماح، ويتقاطر دمع غزير، ويتساءل هل يمكن أن ينعم ليلة بما كان فيه من بساتين ورياض بإشبيلية بلدة الزيتون والعز والعلا والقيان المغنيات الجميلات والطيور الصادحات حول قصوره: الزاهر والثريا وغيرهما مما تأنق فى بنيانه. لقد تحولت كل هذه المباهج التى نعم بها المعتمد فى إشبيلية إلى متاعسَ فى أغمات، وحانت منه التفاتة فرأى قُمْرِيَّة تنوح بِفَنَنِها وأمامها وكر أوعشّ به حمامتان، وكأنها تبكى أليفها فقال:

بكتْ أنْ رأتْ إلْفَيْنِ ضَمَّهما وَكْرُ   مَساءً وقد أَخْنى على إلْفِها الدَّهْرُ
بكتْ لم تُرِقْ دَمْعًا وأَسْبَلْتُ عَبْرَةً   يُقَصِّر عنها القَطْرُ مهما هَمَى القَطْرُ
وناحتْ وباحتْ واستراحتْ بسِرِّها   وما نطقتْ حَرْفًا يبوحُ بهِ سِرُّ
فما ليَ لا أبكى؟ أم القلبُ صَخْرَةٌ   وكم صخرةٍ فى الأرض يَجْرِى بها نَهْرُ
بكتْ واحدًا لم يُشْجِها غيرُ فَقْدِهِ   وأبْكى لألَّافٍ عديدُهُم كُثْرُ

وهو يقول إن القمرية بكت حين رأت إلفين فى وكر، بينما هى فقدت إلفها، فهى تبكيه بدمع مترقرق فى جفونها لا يبلغ تعبيرَه فى الحزن والشجا القطرُ مهما همى وسال. ويقول كأنما نواحها أراحها من سرها الدفين سر حزنها على إلفها الذى فقدته، ويخاطب نفسه لماذا لا أبكى؟ هل أنا صخرة؟ ومع ذلك فالصخر تتشقق منه - وتجرى به - الأنهار والمياه الغزيرة. ولقد بكت واحدا شجاها وأحزنها فقده، وحرى بى أن أبكى أُلَّافى وخِلَّانى الذين يخطئهم العد. ويمر به سِرْب قَطا فيهيج وجده ويحرّك شوقه، ويتمنى لو كان مثله حرا ينطلق كما شاء، ويدعو له منشدا:

ألا عَصَمَ الله القَطَا فى فِراخِها   فإنَّ فراخى خانها الماءُ والظِّلُّ

فهو يدعو لكل قطاة أن يعصمها الله فى فراخها فلا تصاب بظمأ ولا بسغبة ولا بعناء كما أصيب أولاده من بنين وبنات. وللمعتمد أشعار أخرى كثيرة تصور لوعته لفقده ملكه وحرقة فؤاده على فلذات كبده.

ابن اللبانة[١]

هو أبو بكر محمد بن عيسى اللَّخْمى الدانى، من دانية على البحر المتوسط، إحدى المدن الأندلسية التى كانت مليئة بالعلماء والكتاب والشعراء، وهو منسوب إلى أمه، وكانت امرأة صِدق، تشتغل ببيع اللبن، حتى غلب اسمه عليها، ونُسب أولادها إليها، وعنيت به وبتربيته، فثقف الآداب العربية وتفتحت ملكته الشعرية مبكرة، فتردد على أمراء الطوائف، وكلهم أعجبوا بشعره. واستقر أخيرا عند المعتمد بن عباد، إذ كان أكثرهم نوالا، وظل عنده حتى استنزله ابن تاشفين من إمارته، وأخذ بعده يتنقل فى البلاد، وزاره بأغمات فى منفاه، وعاد إلى الأندلس، وألف كتابه «سقيط الدرر ولقيط الزهر» وتدل نقولُ ابن سعيد عنه أنه كان فى أخبار الشعراء، وحاضر به فى المريَّة بجنوبى الأندلس على المتوسط - كما يقول ابن الأبار - سنة ٤٨٦ ولا ندرى هل عاد إلى زيارة المعتمد فى أغمات أو لم يعد، غير أنه لما توفى رثاه رثاء حارا. ونراه يلحق بناصر الدولة مبشر بن سليمان بميورقة، ويبدو أن كلا منهما أهدى صاحبه خير ما عنده، أهداه ناصر الدولة الأموال وأهداه ابن اللبانة الأشعار والمدائح البديعة، ومازال ابن اللبانة يعيش فى رعايته حتى توفى فى الجزيرة سنة ٥٠٧. وضرب ابن اللبانة مثلا رائعا فى الوفاء للمعتمد بن عباد، فقد بكى دولته مرارا وتكرارا، ومن أروع ما قاله من ذلك دالية، وهو يفتتحها على هذه الشاكلة:

تبكى السماءُ بِدَمْعٍ رائحٍ غادِى ... على البَهاليلِ من أبناءِ عَبَّادِ[٢]
على الجبال التى هُدتْ قواعِدُها ... وكانت الأرض منهم ذاتَ أوتادِ[٣]
عِرِّيسَةٌ دخلتْها النائباتُ على ... أساوِدٍ منهمُ فيها وآسادِ[٤]
إنْ يُخْلَعُوا فبنو العبَّاس قد خُلعوا ... وقد خلتْ قبل حِمصٍ أرضُ بَغْدادِ[٥]
ياضَيْفُ أقْفَر بيتُ المكرمات فخُذْ ... فى ضَمِّ رَحْلِك واجْمعْ فَضْلَة الزادِ
ويا مؤمِّلَ واديهم لتَسْكُنَهُ ... خَفَّ القطينُ وجَفَّ الزَّرْعُ بالوادِى[٦]

---

(١) انظر فى ابن اللبانة وترجمته وشعره الذخيرة ٦٦٦/٣ والقلائد ٢٤٥ والمغرب ٤٠٩/٢ والمعجب ٢٠٨ والمطرب ١٧٨ والخريدة ١٠٧/٢ والتكملة رقم ٥١١ والفوات ٢٧/٤ والوافى بالوفيات ٢٩٧/٤ وبغية الملتمس رقم ٢١٣.

(٢) رائح غادى: راجع ذاهب. البهاليل: السادة.

(٣) أوتاد: جبال.

(٤) أساود جمع أسود: الأفعى الكبير. العريسة: غيل الأسد والآساد.

(٥) حمص: إشبيلية.

(٦) خف القطين: رحل السكان.

وهو يقول إن السماء تبكى بسحبها على السادة من بنى عباد الذين كانت الأندلس ترسو بهم كما ترسو الأرض بالجبال وإن قصورهم بإشبيلية لغابة اقتحمتها الكوارث على أسد مفترسة وحيَّات ضخمة سامة. ويعزِّى ابن اللبانة نفسه وأهل إشبيلية بأن لهم أسوة فى خلع آل عباد بمن خُلعوا قبلهم من الخلفاء العباسيين. ويلتفت إلى من كانوا ينزلون بالمعتمد وآبائه طالبين القِرَى والضيافة، فيقول لهم إن بيت الكرم والجود أغلقت أبوابه، فاستعدوا للرحيل واجمعوا بقايا الزاد إن كانت هناك بقايا، ويقول لمن كانوا يأوون إلى ظلالهم رحل السكان وجفَّ الزرع بالوادى الذى كان خصبا ممرعا. ويصوِّر مشهد المعتمد وأهله، وقد هبطوا من قصورهم لركوب السفن فى نهر إشبيلية االكبير متجهين إلى طنجة وقد تجمع أهلها يودِّعونهم، يقول:

نسيتُ إلا غَداةَ النَّهْرِ كونَهُمُ ... فى المنشآت كأمواتٍ بألحادِ
والناسُ قد ملأوا العبْرين واعتبروا ... من لؤلؤ طافياتٍ فوق أزبادِ[1]
حُطَّ القِناعُ فلم تُسْتَرْ مخدَّرةٌ ... ومُزِّقَتْ أوجُهٌ تمزيقَ أبْرادِ[2]
حانَ الوَداعُ فضجَّتْ كلُّ صارخةٍ ... وصارخٍ مِنْ مفدَّاةٍ ومنْ فادِى
سارتْ سفائنُهم والنَّوْحُ يَصْحَبُها ... كأنها إبِلٌ يَحْدُو بها الحادى
كم سال فى الماء من دَمْعٍ وكم حملتْ ... تلك القطائعُ من قِطْعاتِ أكبادِ[3]

يقول إننى مهما نسيت فلن أنس رحيل المعتمد وآله فى السفن، وكأنها مقابر نزلوها والناس قد ملأوا الشاطئين متعجبين لتلك اللآلئ من النساء تطفو على الماء فوق زَبده ولا ترسب فى القاع. ويقول إنهن سِرْنَ من قصورهن سافرات لحزنهن يلطمن ويخمشن وجوههن بأظافرهن لفجيعهتن. وضج الرجال والنساء على الشاطئين، وضجَّ من فى السفن وضج المفدّون الملوحون لهم بأيديهم، وسارت السفن يصحبها الندب والنواح كما يصحب الحداء الإبلَ السائرة فى الصحراء، وكم سال فى ماء الوادى الكبير من دمع وكم حملت تلك السفن من فلذات أكباد. والمرثية طويلة. ووفد ابن اللبانة على المعتمد فى أغمات - كما يقول ابن بسام - وفادة وفاء لا وفادة استجداء، وانقطع إليه انقطاع وداد لا انقطاع استرفاد، ويقول إنه مدحه للوفاء بأحسن مما مدحه به للعطاء، وبذلك ملأ قلوب العرب فى كل مكان - إلى اليوم - عطفا على المعتمد. وكأنما غسل بدموعه عليه

---

(١) العبرين: الشاطئين.
(٢) المخدرة: السيدة ملازمة الخدر أو البيت.
(٣) القطائع مثل المنشآت: السفن.

سيئات حكمه من أدائه الجزية للملك النصرانى فى الشمال ومحاربته لجيرانه من الأمراء المسلمين أبناء دينه وإنفاقه الأموال بسخاء على مجونه وملذاته كأنه يملك خزائن قارون ثم موقفه بأخرة من ابن تاشفين بطل الزلاقة منذ سنوات تعد على أصابع اليد الوحدة، إذ استنجد ضده بألفونس السادس عدو الإسلام والمسلمين. كل هذه السيئات استطاع ابن اللبانة أن يمحو دنسها عن المعتمد بعويله وتفجعه الملتاع على دولته. وكما كان ابن اللبانة شاعرًا كبيرًا كان وشاحا كبيرًا أيضا، وله موشحات كثيرة مدح بها المعتمد بن عباد، وهو أحد أربعة من وشّاحى الأندلس أدار عليهم ابن سناء الملك اختياراته من موشحات الأندلسيين فى كتابه «دار الطراز»

ابن عبدون[1]

هو أبو محمد عبد المجيد بن عبد الله بن عبدون الفهرى اليابُرى، من يابُرة غربى بطليوس، عُنى أبوه بتربيته، وطمحت نفسه إلى التلمذة على أعلام العربية من مثل الأعلم الشنتمرى المتوفى سنة ٤٧٦ وعبد الملك بن سراج المتوفى سنة ٤٨٦ وأبى بكر عاصم بن أيوب البطليوسى المتوفى سنة ٤٩٤. وفى الصلة لابن بشكوال أنه كان عالما بالخبر والأثر ومعانى الحديث وأن الناس أخذوا عنه. واستيقظت ملكته الشعرية مبكرة، فمدح المتوكل عمر بن المظفر أمير بطليوس وكان كاتبا شاعرا مع شجاعة وفروسية، وكان مثل أبيه ملاذا لأهل الأدب والشعر، وكانت إمارته تشمل مدن يابرة وشَنْترين وأُشبونه إلى المحيط. وأعجب المتوكل بالشاعر الشاب الناشىء فى إمارته، ونفاجأ بوفود الشاعر على المعتمد ومديحه، ولم يجد لديه قبولا لما كان بينه وبين المتوكل أمير بلدته، فربما ظن أنه أرسله عَيْنا عليه، ولو كان يعرفه ويعرف خلقه الكريم ما داخله هذا الظن. وعاد الشاعر من لدنه، فلم يَفِدْ بعد ذلك على أحد من أمراء الطوائف، واستغرقه المتوكل بنواله وبمودته، إذ اتّخذه جليسا ورفيقا له فى زياراته لمدن إمارته، وأسبغ عليه من الود حللا ضافية، جعلته يلهج بمديحه ويقصر شعره عليه، حتى إذا غاضب المرابطين، وقاتلهم وقُتل هو وابناه: الفضل والعباس رثاه ورثى دولته برائية مشهورة سنعرض لها عما قليل. ونراه يعلن بعد ذلك فى شعره أنه لن يقدِّمه إلى أمير، وكأنما مات

---

(١) انظر فى ابن عبدون وترجمته وشعره الذخيرة ٦٦٨/٢ والقلائد ١٤٥ والمغرب ٣٧٤/١ والخريدة ١٠٣/٢ والصلة رقم ٨٣١ والتكملة: ٤٠٧ والمطرب ص ١٨٠ والمعجب للمراكشى ص ١٢٨، ١٤١، ٢٢٨، ٢٣٤، ٢٣٧ والفوات ١٩/٢ والنفح فى مواضع مختلفة (انظر الفهرس).

الأمراء جميعا فى شخص المتوكل ومات معهم المديح. ويقول صاحب المعجب إنه كان يكتب للمتوكل أمير بطليوس ثم يقول إنه كتب بعد ذلك للأمير سير بن أبى بكر بن تاشفين الذى ولى إشبيلية بعد استنزال المعتمد منها مدة طويلة، ويذكر له رسالة كتب بها عنه إلى سلطان المرابطين يوسف بن تاشفين بفتح مدينة شنترين، ويقول المراكشى إن ابن عبدون كتب ليوسف بن تاشفين أولابنه لا يدرى والصحيح أنه إنما كتب لابنه على بعد سير بن أبى بكر، ويؤكد ذلك قول المراكشى فى موضع آخر: «لم يزل أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين من أول إمارته يستدعى أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس، وصَرَف عنايته إلى ذلك حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك» ثم يعِّددهم ويذكر من بينهم أبا محمد عبد المجيد بن عبدون. ويبدو أنه ظل كاتبا عنده إلى آخر حياته إذ يقول صاحب الصلة إنه انصرف إلى يابُرة لزيارة من له بها، فتوفى فيها سنة ٥٢٩ للهجرة. ويشيد ابن بسام والفتح بن خاقان وكل من ترجموا له بأشعاره، وخاصة برائيته التى رثى فيها دولة المتوكل ببطليوس وقد نالت شهرة واسعة مما جعل كثيرين ممن ترجموا له ينشدونها فى ترجمته، وعنى بشرحها عبد الملك بن عبد الله الشلبى من أدباء القرن السابع الهجرى فشرحها. ونشرها مع شرحها دوزى ثم طبعت مع الشرح بالقاهرة، وهو فيها يسوق العبرة بمن ماتوا واندثروا من عظماء الأمم وحكامها الكبار ودولها الغابرة وحيواناتها الفاتكة وطيورها الجارحة، يقول ابن بسام: «اقتفى فيها أبو محمد أثر فحول القدماء من ضربهم الأمثال فى التأبين والرثاء بالملوك الأعزة وبالوعول الممتنعة فى قُلَل الجبال والأسود الخادرة[١] فى الغياض وبالنسور والعقبان والحيَّات فى طول الأعمار».[٢] وهو يستهلها بقوله:

الـدَّهْـرُ يَفْجَـعُ بـعـد العَيْنِ بـالأثَـرِ — فمـا البكـاءُ على الأشْبـاحِ والصُّوَرِ

أنْهـاكَ أنهـاك - لا آلـوكَ مـوعـظةً - — عن نَـوْمـةٍ بين نـاب اللَّيْثِ والـظُّفُـرِ[٣]

مـا لِـلَّيـالـى أَقَـال الله عَـثْـرَتَـنـا — من الليـالى وخَـانَتْهـا يَـدُ الغِيَـرِ[٤]

فى كـل حينٍ لهـا فـى كـلِّ جـارحـةٍ — مـنـا جـراحٌ وإن زاغَتْ عـن النَّـظَرِ

تَـسُـرُّ بـالشىء لـكنْ كـى تَـغُـرَّ بـهِ — كـالأَيْم ثـارَ إلى الجـانى من الـزَّهَـرِ[٥]

---

(١) الخادرة: الساكنة. الغياض جمع غيضة: الأجمة.

(٢) راجع الذخيرة ٨١٨/١.

(٣) لا آلوك موعظة: لا أقصر فى وعظك.

(٤) أقال: تجاوز وصفح. الغير: أحداث الدهر.

(٥) الأيم: الأفعى.

وهو يتحدث عن الدهر وأنه دائما يرسل فواجعه على المحسوس وما وراء المحسوس، ففيم الحزن على من يموتون، وهم ليسوا إلا أشباحا وصورا، ويقول إننى لا أقصِّر فى وعظك ونهيك عن الاستنامة إلى الدهر، وهو قد أنشب فيك نابه وظفره. ويدعو الله أن يُقيلنا وينقذنا من عثرات الليالى وأن يسلط عليها الأحداث حتى تنهكها ولا تبقى فيها بقية، إذ فى كل حين تصيبنا فى عضو منا عزيز علينا بجراح، منها ما نراه، ومنها ما يزيغ عن البصر، وإنها إن سرَّت بشىء - وهيهات - فلكى تخدعنا به، بل لكى تلسعنا من خلاله اللسعة القاضية، كالأفعى المختبئة فى الزهر تلسع يد قاطفه اللسعة السامة المميتة. ويأخذ فى العظة بذكر من أبادتهم الليالى والأيام من الدول العظيمة منشدا:

كم دولةٍ وَلِيَتْ بالنَّصْرِ خِدْمَتَها ... لم تُبْقِ منها - وسَلْ دُنْياك - من خبَرِ
هَوَتْ بِدَارا وفَلَّتْ غَرْبَ قاتِله ... وكان عَضْبًا على الأَمْلاك ذا أُثُرِ[١]
واسترجعتْ من بنى ساسانَ ما وَهَبتْ ... ولم تَدَعْ لبنى يونانَ من أَثَرِ
وأتبعتْ أُخْتَها طَسْمًا وعادَ على ... عادٍ وجُرْهُمَ منها ناقضُ المِرَرِ[٢]
ومزَّقَتْ سَبَأً فى كل قاصيةٍ ... فما التقى رائحٌ منهم بمبتكرِ[٣]

وهو يقول: دول كثيرة أتاحت الليالى لها الظفر والرفعة، ثم عادت فهوت بها من حالق، هوت بدارا ملك الفرس، فقتله الإسكندر المقدونى، ولم تلبث أن هدَّتْ منه، وكان سيفا قاطعا ساطعا فثلَّمته وحطمته. وقد استرجعت من بنى ساسان ملوك الفرس كل ما وهبتهم من عز ومجد، ولم تدع لليونانيين شعب الإسكندر من أثر كأن لم يكونوا شيئا مذكورا. وبالمثل صنعت بقبيلتى طسم وأختها جديس فى اليمامة، وكرَّ الدهر على عاد وجرهم نكباته حتى محاها محوا، ومزقت الليالى سبأ كل ممزق، فتفرق أهلها فى الأرض ولم يلتق منهم رائح بغاد مبكر. ويمضى ابن عبدون فى الحديث عمن أهلكتهم الليالى من أعاظم العرب فى الجاهلية والإسلام مشيرا معهم إلى كثير من الأحداث فى العصر الجاهلى وصدر الإسلام والعصرين الأموى والعباسى مما يدل بوضوح على اتساع ثقافته وكيف يتحول التاريخ إلى شعر وفن، ثم يخاطب المتوكل عمر وآباءه بنى المظفر أمراء بطليوس:

بنى المظفَّر والأيامُ ما بَرِحَتْ ... مراحلًا والوَرَى منها على سَفَرِ
سُحْقًا ليومكُم يوما ولا حملتْ ... بمثله ليلةٌ فى مُقْبِل العُمُرِ

---

(١) العضب: السيف القاطع. أثر: فرندورونق.
(٢) المرر جمع مرة: القوة. ناقض المرر: الدهر.
(٣) مبتكر: مبكر فى الذهاب ضد رائح: راجع.

مَـنْ لـلأسِـرَّة أو من لـلأعِـنَّـةً أو من لـلأسنَّـة يُهْـديهـا إلى الثُّغـر[١]
وَيْـحَ السماحِ ووَيْـحَ البأس لـو سَلما واحسـرةَ الـدِّين والـدنيـا على عُمَـرِ

وهو يقول لبنى المظفر بعد أن عدد لهم ما أبادته الليالى من الدول والعظماء تلك هى الأيام مراحل، وما أشبه الناس فيها بقوافل راحلة إلى عالم الموت والفناء، ويقول: سحقا وبعدا لليوم الذى زالت فيه دولتكم ولا حملت بمثله ليلة تعسة من الليالى. ويبكيهم لعرش بطليوس وخيلها العادية وسيوفها الباترة، ويتوجع للسماح وللشجاعة، ويتحسر على ما خسر الدين من جهاد المتوكل للأعداء وخسرت الدنيا من مجده وأبهة إمارته. والمرثية تعد من فرائد الشعر الأندلسى، بل الشعر العربى بعامة، وبدون ريب يُعَدّ ابن عبدون من أفذاذ الشعراء الأندلسيين.

٤

شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية

(أ) شعراء الزهد

الزهد من جوهر الدين الحنيف ومنذ عصر الرسول ﷺ تتألق أسماء زهاد كثيرين، زهدوا فى متاع الحياة الدنيا، مؤثرين عليه ما عند الله من متاع الآخرة، مع وصلهم زهدهم بالعمل والكسب، حتى لا يعيشوا عالة على المجتمع. وتلقانا – على مر التاريخ – طوائف من هؤلاء الزهاد، وكثيرون منهم استحال زهدهم – على ألسنتهم – إلى مواعظ وأشعار كثيرة. وشركهم فى أشعارهم الزاهدة كثيرون من علماء التفسير والفقه والحديث النبوى وعلماء العربية، فضلا عن الشعراء الذين طالما حانت منهم التفاتات إلى مصيرهم وما ينتظرهم من الموت. ومن أجل ذلك كله أصبح الزهد غرضا كبيرا من أغراض الشعر العربى فى كل عصر وفى كل بلد عربى، وتلقانا منه سيول كثيرة فى الأندلس، ولن نستطيع أن نعرض منها إلا شيئا يسيرا وخاصة ما جاء على ألسنة الزهاد الحقيقيين الذين قصروا حياتهم – أو شطرا كبيرا منها – على النسك والعبادة. وأول من نذكره من هؤلاء الزهاد أبو وهب[٢] عبد الرحمن العباسى القرطبى المتوفى سنة ٣٤٤ لعهد عبد الرحمن الناصر.

---

(١) الثغر: جمع ثغرة: أعلى الصدر. يريد: طعنه بالأسنة صدور الأعداء.

(٢) انظر فى أبى وهب وترجمته وشعره المغرب ١/٥٨ والتكملة ص٧١٨ والنفح ٣/٢٠٧، ٢٢٦.

ويقول ابن بشكوال: كان منقطع القرين فى الزهد والورع، ويذكر ابن سعيد أنه كان لا يكلم - ولا يجالس - أحدا، وكان أكثر دهره مفكرا وجهه على ركبته، ومن شعره:

أنا فى حالتى - التى قد ترَانى إن تأملتَ - أحسنُ الناسِ حالا
منزلى حيثُ شئتُ من مسْتقَرِّ الـ ـأرض أسْقَى من المياه زُلالا[1]
ليس لى كُسْوَةٌ أخاف عليها من مُغيرٍ ولا ترى لىَ مالا
أجعلُ الساعدَ اليمينَ وِسادى ثم أثْنى - إذا انقلبتُ - الشمالا

وهو لا يملك منزلا يقيه البرد وينام فيه ليلا ولا ثوبا غير الثوب الذى يستر جسده ولا مالا يكنزه، ويرى نفسه بذلك أسعد الناس لأنه لا يملك شيئا يخاف عليه من مغير أو ناهب، وحسبه جرعات من ماء عذب، وإذا نام اتخذ يمينه وساده، فإن تعب ثَنى الشمال وسادا. ويقول ابن سعيد: كان إذا أصبح ونظر إلى استيلاء النور على الظلمة رفع يديه إلى السماء قائلا: اللهم إنك أمرتنا بالدعاء إذا أسفرنا[2]، فاستجب لنا كما وعدتنا، اللهم لا تسلِّط علينا فى هذا اليوم من لا يراقب رضاك ولا سخطك، اللهم لا تشغلنا فيه بغيرك، اللهم لا تجعل رزقنا فيه على يد سواك، اللهم امحُ من قلوبنا الطمع فى هذه الفانية كما محوت بهذا النور هذه الظلمة، اللهم إنا لا نعرف غيرك فنسأله، يا أرحم الراحمين، يا غياث من لا غياث له. ومن قوله:

تنامُ وقد أُعِدَّ لك السهادُ وتوقن بالرحيل وليس زادُ
وتُصْبح مثل ما تُمْسى مُضِيعًا كأنك لست تدْرى ما المُرَادُ
أتطمعُ أن تفوز غداً هنيئا ولم يَكُ منك فى الدنيا اجتهادُ
إذا فرَّطْتَ فى تقديم زَرْعٍ فكيفَ يكون من عدمٍ حَصادُ

وهو يقول مخاطبا: كيف تنام وقد هُيِّئ لك سهاد، كى تعبد الله حق عبادته، وكيف توقن بأنك راحل عن دُنياك وأنت لم تهيئ لنفسك زادا لرحلتك، وتصبح وتمسى لا تدرى من أمرك شيئا فكيف تطمع فى الفوز بقبول الله لك ورضاه عنك وأنت لم تؤد حقه من العبادة والنسك، وهل يمكن لشخص قصَّر فى رعاية زرعه أن يحصد منه شيئا. ونلتقى فى عصر أمراء الطوائف بأبى إسحق الإلبيرى، وسنخصه بكلمة، وكان يعاصره الطُّيْطل[3]

(١) زلالا: عذبا.
(٢) أسفرنا: أصبحنا.
(٣) انظر فى الطيطل وترجمته وشعره الذخيرة ٧٩٧/٢ والجذوة ٢٩٤ والبغية رقم ١٢١٢ والذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى القسم الأول من الجزء الخامس ص ١٩٥.

على بن إسماعيل الفهرى القرشى الأشبونى، وفيه يقول ابن عبد الملك المراكشى، قرأ العلم بقرطبة ودرس على طائفة من علمائها وأكثر من حفظ الآداب والأشعار، وكان من الأدباء النبلاء والشعراء المحسنين سمح القريحة، مشاركا فى الحديث والفقه، أمضى فى ذلك صدرا من عمره، ثم مال إلى النسك والتقشف ونظم فى معانيها أشعارا رائقة وضروبا من الحكم تناقلها الناس وحفظوها عنه. واتخذ لنفسه رابطة[1] فى رقعة من بستان له على بحيرة شقبان عُرفت برابطة الطُّلَيْطَل ولزم بها العبادة والنسك إلى أن توفى. ويقول ابن بسام: إن أهل أوانه كانوا يشبهونه بأبى العتاهية فى زمانه، ويذكر إنه نظم الدرّ المفصَّل فى الزهد، ومن نظمه:

إذا سُدَّ بابٌ عنك من دون حاجةٍ فَدَعْهُ لأخرى ينفتحْ لك بابُها
فإنَّ جِرابَ البَطْنِ يكفيك ملؤهُ ويكفيك سَوْءاتِ الأمور اجتنابُها[2]
ولاتك مِبْذالاً لِعرْضِك واجتنبْ ركوبَ المعاصى يَجْتَنِبْك عِقابُها

وهو يوصى صاحبه بأن لا ييأس أبدا، فإذا سُدَّ عنه باب فى الرزق فليتركه إلى باب آخر ينفتح له، وليكفه كفاف القوت فإن وعاء البطن حسبه أن يمتلىء، وما زاد عن ذلك لا يحتاجه الإنسان، وليغنه عن الأمور السيئة أن يجتنبها، حتى لا يعرِّض نفسه لعقاب، ولْيَصُنْ عرضه وشرفه ويجتنب المعاصى حتى لا تصيبه أى عقوبة. ويقول:

الموتُ يرعاك كلَّ حينٍ فكيف لم يَجْفُكَ المِهادُ
ما حالُ سَفْرٍ بغير زادٍ والأرضُ قَفْرٌ ولا مَراد[3]
فابْنِ بها للتُّقَى بُروجًا تَأْمَنْ إذا رُوِّع العِبادُ

وهو يقول إن جرس الموت يدق فى كل حين، فكيف لا تُحْيى الليل بالعبادة، وإنك لراحل مسافر إلى ربك، وهل يستطيع مسافر أن يسافر بغير مئونة وزاد، إنه يكون أشبه بمن يسافر فى صحراء مجدبة ولا مرعى ولا قوت، فاتخذِ التقى والورع عُدَّتك تأمن حين يعصف بك الموت الذى لا بد منه للعباد. وله وصف دقيق للنملة يصور فيها خصرها الضامر، وكأنما آخرها قطرة من قطران أو حبر أسود، تحمل قوتها مدخرة له مهتدية فى ظلمة الليل إلى خرق كثقب الإبرة، لا يسمع لها أحد حركة، مسبِّحة ربها، وسبحانه العالم وحده بتسبيحها.

---

(١) الرابطة: بيت للعبادة.
(٢) الجراب: وعاء الزاد.
(٣) مراد بفتح الميم: مَرْعى.

وولد فى عصر الطوائف سنة ٤٤٠ بكار[١] بن داود المروانى، ولحق عصر المرابطين وعاش فيه فترة غير قصيرة، مولده فى شنترة من بلدان أشبونة بغربىّ الأندلس، درس فى قرطبة ثم استوطن أشبونة. ويروى ابن سعيد عن أبى عمرو بن الإمام صاحب سفط اللآلى فى أخبار شعراء عصره المتوفى بعد سنة ٥٥٠ أنه لقيه وكان غاية فى الزهد مطّرحا لنفسه واستشهد فى جهاد العدو، ويقول إنه استنشده من شعره فأنشده:

ثِقْ بالذى سوَّاكَ من عَدَمٍ فإنك مِن عدَمْ
وَانْظُرْ لنفسك قبل قَرْ عِ السِّنِّ من فَرْطِ النَّدَمْ
واحْذَرْ - وُقيت - من الورَى واصْحَبْهُمُ أعمى أصَمْ
قد كنتُ فى تِيهٍ إلى أن لاحَ لى أهْدَى عَلَمْ
فاقْتَدْتُ نحو ضيائهِ حتى خرجتُ من الظُّلَمْ

وهو يقول: ضع ثقتك فى الله الذى سوَّاك وخلقك من عدم، وفكر فى نفسك وما ينبغى أن تنهض به من عبادته قبل أن تعض على أصابعك نادمًا على ما فرطت فى جَنْب خالقك. واحذر الناس واصحبهم كأنك لا تراهم ولا تسمعهم. ويقول إنه كان فى تيهِ ضلال وظلام حالك إلى أن لاح علم الهدى فاهتدى بضيائه. ومن الزهاد لعصر الموحدين أبو الحجاج يوسف[٢] المَنْصفى، من قرية المَنْصَف من قرى بلنسية فى شرقى الأندلس، ويقول المقرى: كان صالحًا وله رحلة حجَّ فيها، ومال إلى علم التصوف، وله أشعار حُملت عنه، منها قوله:

قالتْ لىَ النَّفْسُ: أتاك الرَّدَى وأنتَ فى بَحْرِ الخطايا مُقيمْ[٣]
هلا اتخذْتَ الزاد قلت: اقْصِرِى هل يُحْمَلُ الزاد لدار الكريم

فنفسه قالت له: أتاك الموت وأنت غارق فى الذنوب فهلا اتخذت زادًا للمعاد؟ فقال لها إن الزاد لا يحمل لدار الجواد الكريم. ومن طريف ما قيل حينئذ فى الزهد والدعوة إلى العمل الصالح قول الفيلسوف أبى بكر بن طفيل[٤]:

يا باكيًا فُرْقَةَ الأحباب عَنْ شَحَطٍ هلا بكيتَ فِراقَ الروح للبدنِ[٥]

---

(١) راجع فى بكار وترجمته وشعره المغرب ٤١٥/١ والنفح ٣٣٤/٣.
(٢) انظر فى أبى الحجاج المنصفى وترجمته وشعره المغرب ٣٥٤/٢ والتحفة رقم ٣٧ والنفح ٣٣٦/٣.
(٣) الردى: الموت.
(٤) المعجب للمراكشى ص ٣١٣.
(٥) شحط: بعد.

نـورٌ تردَّدَ فى طينٍ إلى أجـلٍ ... فانحاز عُلْوًا وخَلَّى الطينَ للكَفَنِ
ياشدَّ ما افْتَرَقا من بعدما اعتَلَقاً ... أظُنُّها هُدْنَـةً كانتْ على دَخَنِ[١]
إن لم يكنْ فى رِضا الله اجتماعُهما ... فيـالَها صَفْقَـةً تَمَّتْ على غَبَنِ[٢]

وهو يقول لمن يبكى على أحبابه حين يختطفهم الموت أتبكى لفراقهم ولا تبكى لما ينتظرك من فراق الروح للبدن، وكأنما كانت الروح نورًا تردد وقتًا فى طين الجسد، ثم تسامى عنه عُلْوًا وخلّاه للكفن، وإنها لفرقة شديدة بعد امتزاجهما طول الحياة، وكأنما كانت بينهما هدنة غير صافية، ويقول إن اجتماعهما وامتزاجهما إن لم يكن فى رضا الله كان صفقة أو بيعة خاسرة.

وتكاثر الزهاد لعهد يعقوب الموحدى وكوّن منهم فرقة كبيرة جعلها بمقدمة جيشه فى غزوة الأرَك المشهورة لسنة ٥٩١ وكان يشير إليهم فى الغزوة. ويقول: هؤلاء هم الجند، لا أولئك ويشير إلى العسكر. ويقول صاحب المعجب إنه حين رجع من المعركة أمر لهؤلاء الزهاد الصالحين بأموال عظيمة، ومنهم من رأى قبول العطية، ومنهم من ردَّها، وتساوى عنده الفريقان وقال: لكلٍ مذهب[٣]. ومن كبار الزهاد حينئذ أبو عمران[٤] موسى بن عمران المارْتُلى وهو من مارْتُلة، حصن من حصون باجة، وعنه قال ابن الأبار فى التكملة: كان منقطع القرين فى الورع والزهد والعبادة والعزلة، وله فى ذلك آثار معروفة مع الحظ الوافر من الأدب والتقدم فى قرض الشعر فى الزهد والتخويف، وكان ملازمًا لمسجده بإشبيلية، توفى سنة ٦٠٤ عن اثنتين وثمانين سنة، ومن شعره:

إلى كم أقـولُ ولا أفعـلُ ... وكـم ذا أُحُـومُ ولا أنـزلُ
وأزْجـرُ عَيْنِى فـلا تَـرْعَـوِى ... وأنْصَـحُ نفسى فـلا تَقْبَـلُ
وكم ذا أؤمِّـل طـولَ البَقَـا ... وأَغْفُـلُ والمـوت لا يَغْفُـلُ
وفي كـل يومٍ يُنـادِى بنـا ... مُنادى الرحيـلِ ألا فارْحَلُوا
كأنْ بى وَشِيكاً إلى مَصْرعى ... يُـسـاق بنعشـى ولا أُمْـهَـلُ

وهو يتلوم نفسه فكم ينوى الخير ولا يفعل وكم يروم العمل الطيب ولا يعمل، وكم يزجر عينه أن لا تنظر إلى المحرمات ولا تزدجر، وكم ينصح نفسه أن ترعوى

---

(١) هدنة على دخن: هدنة على فساد وعدم صفاء.
(٢) الغبن فى البيع: الوكس والخسارة.
(٣) المعجب للمراكشى ص ٣١٣.
(٤) انظر فى ترجمة أبى عمران المارتلى المغرب ٤٠٦/١ والنفح ٢٢٥/٣، ٢٩٦ والتكملة ص ٤٥٧ وتحفة القادم رقم ٥٨ والغصون اليانعة ص ١٣٥.

ولا تنتصح، وكم يؤمل فى البقاء غافلاً عن الموت والموت لا يغفل، وكأنه لا يسمع منادى الرحيل، مع أنه قريبًا سيرحل، ويُحْمَل فى نعشه ولا يهل.

ومنذ عصر المرابطين نجد كثرة الزهاد تتحول إلى التصوف وعالمه، وتظل أسراب شعر الزهد الذى كان يجرى على ألسنة العلماء والشعراء تنطلق فى مجراها الذى بدأت مسيرتها فيه منذ عصر الدولة الأموية، من ذلك قول حازم القرطاجنى(١):

لم يَدْرِ مَنْ ظَنَّ الحياة إقامةً ... أنَّ الحيــاةَ تنقُّلٌ وتــرحُّــلُ
فى كل يوم يَقْطَعُ الإنسان مِنْ ... دُنْيَـاه مَرْحلةً ويـدنـو المَنْهَـلُ
يَحْظَى السعيدُ به بطول سعادةٍ ... وأخـو الشقاوة للشقـاوة يُنْقَـلُ
لاتَبْـكِ إشفاقًا لما اسْتَـدْبَرْتَـه ... ولْتَبْـكِ إشفـاقًـا لمـا تَسْتقبـل

وهو يقول: من الخطأ أن يظن الإنسان أن الحياة دار إقامة، فإنها دار تنقل وارتحال، فى كل يوم يقطع الإنسان فيها مرحلة من حياته إلى أن تكون المرحلة الأخيرة، وينتقل إلى حياته الثانية فينتقل إما إلى سعادة ونعيم وإما إلى شقاوة وجحيم، ومن عجب أن يبكى المرء إشفاقًا على ما خلَّف منها وراء ظهره وحقه أن يبكى إشفاقًا على ما يستقبله فى آخرته من مصير غير معروف: شقى أو سعيد. ويقول ابن خاتمة متشبثًا بعفو الله ورحمته فى أول قصيدة بديوانه:

لقد فَتحَ الرَّحْمٰنُ أبوابَ عَفْوهِ ... لمنْ راجعَ الذِّكرى وأَقْبَل خاشيا
إلهىَ لا تَفْضَحْ عُوارًا سَتَـرْتَهُ ... فما لىَ مأمـولٌ سواكَ إلهيـا(٢)
هلكتُ رَدًى إن لم أَنَلْ منك رحمةً ... تبعِّـد رَوْعـاتِى وتُـدْنِى أمـانيـا
لعلَّ الذى قام الوجودُ بجوده ... يُعِيدُ بحسْنِ اللُّطْفِ حالىَ حاليا(٣)

وهو يقول إن الله - جلَّ شأنه - فتح أبواب عفوه على مصاريعها لمن راجع نفسه وأقبل خاشيا منيبا، ويدعو الله أن يستر عيوبه ويرحمه رحمته الواسعة، ويرجوه بجوده الفياض على الوجود أن يعيد حاله حاليا مزدانا. ويستغيث لسان الدين بن الخطيب بربه منشدًا(٤):

---

(١) الديوان ص ٩٧.
(٢) العوار: العيب.
(٣) حاليا: مزدانا.
(٤) أزهار الرياض ١/٢٧١.

إلهَىَ بـالبيـت المقـدَّسِ والمَسْعَـى ... وجَمْـعٍ إذا ماالخلقُ قـد نزلـوا جَمْعـا[١]
وبالموقف المشهودِ- يارَبِّ- فى مِنى ... إذا ماأسالَ الناسُ من خوفك الدَّمْعَا
وبالمصطفى والصَّحْبِ عجِّلْ إقالتى ... وأنجحْ دُعائى فيك ياخَيْرَ من يُدْعَى[٢]
صَدَعْتُ وأنتَ المستغاثُ جَنابـهُ ... أقِلْ عَثْرتى يامَأمَلِى واجْبُرِ الصَّدْعـا[٣]

وهو يتوسَّل إلى الله بمقدساته: ببيت القدس والمسعى بين الصفا والمروة فى الحج وبجمع أو المزدلفة مجتمع الحجاج، وبموقفهم فى مِنىً متبتلين إلى ربهم، وبالرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه أن يتجاوز عن سيئاته وأن يقبل منه دعاءه، فقد جهر بذنوبه ولاذ بجنابه، وإنه ليستغيث به ضارعًا إليه أن يُقيله من عثرته ويجبر الصدع أو الشَّقَّ البيِّن فى أعماله. وحرىٌّ بنا أن نتحدث عن الزاهد الكبير الإلبيرى.

أبو إسحق[٤] الإلبيرى

هو أبو إسحق إبراهيم بن مسعود بن سعد التُّجيبى، من أهل حصن العقاب بالقرب من إلبيرة، ولزم فى نشأته فقيهها ومحدثها ابن أبى زمنين المتخلق بأخلاق الصالحين المتوفى سنة ٣٩٩ ويقول بعض من ترجموا له إنه كان من البكَّائين الورعين الخاشعين، ويقول ابن الأبار فى التكملة إن أبا إسحق روى مصنفاته عنه مما قد يدل على أنه جلس مجلسه لإفادة الطلاب فى إلبيرة. وخُرِّبت سريعًا فى عهد زاوى بن زيرى الذى اتخذ غرناطة دار إمارة له (٤٠٣ - ٤١٠ هـ) مما جعل كثرة أهلها تهاجر إلى غرناطة، وهاجر إليها أبو إسحق، غير أنا لا نعرف تاريخ هجرته إليها بالضبط، ونظن ظنا أنه ظل بها يروى لطلاب العلم كتب أستاذه ابن أبى زمنين. ونرى أبا الحسن على بن محمد بن توبة حين يتولى القضاء لباديس بن حبوس أمير غرناطة (٤٢٩ - ٤٦٧ هـ) يتخذ أبا إسحق كاتبًا له. واصطحبه معه إلى المرية حين طلب إليه باديس حمل رسالة إلى أحمد بن عباس وزير

---

(١) جمع: المزدلفة.
(٢) الإقالة للشخص: العفو عنه والصفح والإعفاء.
(٣) صدعت: جهرت. الصدع: الشق والكسر.
(٤) انظر فى أبى إسحق وترجمته وشعره الحميدى فى الجذوة والضبى فى البغية ص٢١٠ والتكملة لابن الأبار (البقية المطبوعة) ص ١٦٧ والمغرب ١٣٢/٢ وفهرسة ابن خير ٤١٨. وقد نشر الديوان فى مدريد غرسية غومس وأعاد نشره وتحقيقه مع كتابة مقدمة له الدكتور محمد رضوان الداية (طبع دمشق).

زهير الصقلبي أميرها، مما يدل على حسن منزلته عند القاضي وأنه ظل كاتبًا له إلى أن أخذ يحمل بعنف على إسماعيل بن النغريلة اليهودي وزير الأمير باديس لتسلطه- مع من عهد إليهم بالعمل معه من اليهود- على شئون الحكم. واستطاع إسماعيل أن يستصدر أمرًا من باديس بنفي أبي إسحق من غرناطة إلى إلبيرة، وربما عاد حينئذ إلى مسقط رأسه في العقاب. وتوفي إسماعيل بن النغريلة، وخلفه في وزارة باديس ابنه يوسف فزاد الطين بلة، وضج الناس، وكان أبو إسحق قد عاد إلى غرناطة، فألقى في أهلها قصيدة كانت أشبه بقنبلة، طالب فيها بقتل يوسف، وردّدها الناس في الشوارع، وسرعان ما نشبت لسنة ٤٥٩ ثورة ضارية على اليهود ألممنا بها في حديثنا عن الهجاء، وكان أبو إسحق قد بلغ العقد التاسع من عمره فلبّى نداء ربه في نحو سنة ٤٦٠ للهجرة. ولم يحمل أبو إسحق عن أستاذه ابن أبي زمنين مصنفاته في الفقه والحديث فقط. بل حمل عنه أيضًا مصنفاته في الوعظ وأخبار الصالحين. ولا يقل عن ذلك كله أهمية حمله عنه أشعاره الزهدية، مما غرس الزهد في نفسه مبكرًا، وأتيحت له ملكة شعرية خصبة، فاستغلها في نظم أشعار زهدية كثيرة، ويقول ابن الأبار: «كان من أهل العلم والعمل شاعرًا مجودًا وشعره مدون وكله في الحكم والمواعظ والأزهاد» ويقول ابن سعيد: «له ديوان ملآن من أشعار زهدية، ولأهل الأندلس غرام بحفظها» وهو غرام مرجعه إلى ما تمتاز به زهدياته من لغة ناصعة وخواطر منوعة تمس القلوب بما تحمل من فيض المشاعر الدينية، وكأنما يستمد من نبع حماسي يتدفق في عذوبة. والديوان يستهل بتائية في مائة بيت وسبعة يفتتحها بقوله:

تفتُّ فؤادَك الأيامُ فتًّا ... وتنْحَتُ جِسْمَك الساعاتُ نَحْتا
وتدعوك المَنُونُ دُعاءَ صِدْقٍ ... ألا ياصاحِ: أنتَ أُريد أنتا

ويمضي أبو إسحق في القصيدة بهذه الصياغة والمعاني التي تؤثر في الأفئدة تأثيرًا يملك على قارئه وسامعه كل شيء من أمره، فالدنيا عروس غادرة، والعاقل يفصل نفسه منها دون رجعة، وويح الإنسان ينام ويستغرق في نومه حتى إذا وافاه الموت انتبه بعد انخداعه. ويقول إلى كم ينخدع ولا يرعوى، وكان أولى به أن يرفض متاع الحياة الدنيا وكل ما يتصل به من طعام وشراب، فالقوت الحقيقي هو قوت الروح، وحرى به أن لا يحفل بجاه ولا بمال ولا بقصور مشيدة. ولن يضره الفقر إذا ما عرف ربه، ويقول: ما الدنيا إنها تسوء حقبة وتسر وقتًا، ويحبها الإنسان مع أنه مسجون فيها وهل يحب أحد سجنه، ولا يغره طعامه فيها فستأكله حطامًا، وكل يوم يشهد فيها دَفينًا، وهو لم يخلق ليعمرها،

إنما خلق ليعبرها، وحرى به أن لا يحزن على ما فات منها وأن يفرح لما فاز به فى أخراه، وينصحه أن يلازم قرع باب الله فسُيُفْتَح له يومًا، وينشد:

فلو بكتِ الدِّما عَيْناك خَوْفًا لِذَنْبك لم أقلْ لك قد أَمِنْتا
ومَنْ لك بالأمان وأنت عبدٌ أُمِرْتَ فما ائتَمرْتَ ولا أطعتا
وتُشفق للمصرِّ على المعاصى وتَـرْحَمُهُ، ونفسَـك مارَحِمْتـا
تَفِـرُّ من الهَجِيرِ وتتَّقيـهِ فهلَّا عن جهنَّم قد فَرَرْتَا

فلو أن الإنسان لم يعمل الصالحات الباقيات وبكى وبالغ فى بكائه حتى بكى دما فإن ذلك لن يتيح له الأمان مادام لم يطع أوامر ربه. ومن عجب أن يشفق الإنسان على عاصى ربه ويرق له قلبه وقلبه لا يرق لنفسه، وعجبٌ عجابٌ أن يفر من حرارة الهاجرة ولا يتخذ العدة للفرار من جهنم ولظاها المشتعل. وفى قصيدة كافية يقول للدنيا: لقد عهدنا الأم تعطف على أبنائها وأنت تعاملييننا بكل قسوة ودون أى شفقة، وفرضٌ على الأبناء أن يبروا أمهاتهم إلا أنت، فواجب عقوقُك وبغضك أشد البغض. ودائما ينصح بعمل الخير والإحسان إلى الفقراء ويخوِّف أشد التخويف من عذاب النار، وله قصيدة: خمسة وثلاثون بيتا ختمها جميعا بكلمة النار وفيها يقول:

ويـلٌ لأهلِ النَّـارِ فى النَّارِ مـاذا يُقاسـون من النَّـارِ
تنقـدُّ من غَيْظٍ فَتَغْلِى بهمْ كمِرْجَـلٍ يَغْلِى على النـارِ

ويستمر قائلا: لا تقبل التوبة فى النار، والشقى يفر من النار إلى النار، وويل له من النار، إذ لا راحة له فيها وكيف يرتاح وهو يشرب المُهْل فيها، ويطعم الزقّوم، وتتدافع سيول النار فى القصيدة حتى نصل إلى نهايتها فنطلب من الله مع أبى إسحق المعافاة والعتق من النار. ومن أروع قصائد الديوان قصيدة من ثلاثة وخمسين بيتا ختمها جميعا بلفظ الجلالة على هذا النحو:

يـاأيهـا المُغْتَـرُّ بـاللهِ فِـرَّ مـن الله إلـى اللهِ
ولُذْ به واسْأَلْهُ من فَضْلِه فقـد نَجَـا مَنْ لاذ بـالله
وقُمْ له والليلُ فى جُنْحِهِ فـحـبَّـذا مـن قـام للهِ
واتْلُ من الوَحْىِ ولو آيةً تُكْسَى بها نُورًا من اللهِ
وعَفِّرِ الوَجْـهَ له ساجِدًا فـعـزَّ وَجْـهُ ذلَّ لله

وهو يقول: يا أيها الغافل عن ذكر ربه، فِرَّ من عقابه إلى ثوابه والجأ إليه واسأله من فضله تنج من عذاب النار، وتهجَّد فى آناء الليل، واتل من القرآن ولو آية يسبغ الله نورها عليك، ومَرِّغ وجهك فى العَفْر ووجه الأرض ساجدا لربك متذللا له، فعزٌّ وجه يتضرع إليه ويخضع وينقاد. وتمضى القصيدة بهذه الروعة فى الصياغة، وكل بيت يدل دلالة جديدة، ومعه جوهرة لفظ الجلالة تضىء جوانبه، وتنزل منه منزلا محكما.

(ب) شعراء التصوف

ألممنا فى الفصل الأول بنشأة التصوف فى الأندلس وأنها ترتبط بمحمد بن عبد الله بن مسرة المتوفى سنة ٣١٩ وكان يجمع فى عقيدته بين التصوف على طريقة ذى النون المصرى كما يقول ابن الفرضى وبين آراء المعتزلة فى القول بخلق القرآن الكريم وإنفاذ الوعد والوعيد والاستطاعة مع التأويل لبعض آى الذكر الحكيم والأحاديث النبوية.[١] وقاوم عبد الرحمن الناصر هذه العقيدة، كما مرَّ بنا، كما قاومها ابنه الحكم والمنصور بن أبى عامر حاجب ابنه هشام المؤيد، وظلت مكتَنة فى كثير من الصدور وظل لها أنصار فى عهد أمراء الطوائف، ويذكر ابن حزم منهم - كما مرَّ فى غير هذا الموضع - إسماعيل الرُّعَيْنى.

ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن أول شاعر صوفى استظهر فى وضوح عقيدة التصوف مقترنة بعقيدة الاعتزال هو أبو عمر[١] أحمد بن يحيى بن عيسى الإلبيرى الأصولى المتوفى سنة ٤٢٩ للهجرة، ويقول عنه تلميذه أبو المطرف الشعبى الذى روى عنه تآليفه «إنه كان متكلما دقيق النظر عارفا بالاعتقادات على مذاهب أهل السنة». ويذكر ابن بسام أن أمر مدينة إلبيرة كان دائرًا عَليه مع زهده وورعه، بينما يذكر أبو المطرف أنه لقيه بغرناطة وفيها أخذ عنه مصنفاته، وأكبر الظن أنه ظل بإلبيرة حتى خرَّبتها قبيلة صنهاجة فى عهد الزيريين كما مر بنا، فانتقل عنها - مع أكثر سكانها إلى غرناطة. وأشاد ابن بسام بنثره

---

(١) راجع تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى رقم ١٢٠٢ والجزء الخامس من المقتبس لابن حيان (طبع مدريد) ص ٢٠ وما بعدها.

(١) انظر فى أبى عمر أحمد بن عيسى الإلبيرى وترجمته وشعره الذخيرة ٨٤٧/١ وما بعدها والمغرب ٩٥/٢ والصلة رقم ٨٩ وقد أسنَّ تلميذه أبو المطرف عبد الرحمن ابن قاسم الشعبى واشتهر بالعلم والفضل، توفى سنة ٤٩٧. انظر الصلة: ٣٢٩.

وشعره وروى له رسالة كتبها سنة ٤١٩ إلى بعض إخوانه وفيها نزعة صوفية واضحة، وسنلم بها فى الفصل التالى، وينشد له ابن بسام:

شربتُ بكأس الحُبِّ من جَوْهَرِ الحُبِّ … رَحِيقًا بكفِّ العَقْل فى رَوْضَةِ الحبِّ
وخامَرَ ماءَ الرُّوحِ فاهتزَّتِ القُوَى … قُوَى النَّفْسِ شوقا وارتياحا إلى الرَّبِّ
ونادى حَثِيثًا بالأنين حنينُها … إلهى إلهى مَنْ لعبدك بالقُرْبِ
وخاطبه وحْيًا إليه مليكُهُ: … سأكشفُ – ياعَبْدى لعَيْنك – عن حُجْبى
فأعلن بالتسبيح: مثلك لم أجِدْ … تعاليتَ عن كفءٍ يكافيك أوصَحْب

وهو يقول إنه شرب فى روضة الحب الإلهى رحيقا مصفًّى من جوهر الحب امتزج بروحه، فحنَّت قوى نفسه شوقا إلى مشاهدة ربه، ونادى – وأنَّ فى ندائه – متلهفا على قربه من ربه، وتجلَّى له الله رافعا ما بينه وبين عبده من حجبه، فسبَّح بحمده منزها له عن أن يكون له كفء أو صحب، وكأنه يشير إلى الآيتين: ﴿ولم يكن له كفوا أحد﴾ – ﴿أنَّى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة﴾. والتصوف فى الأبيات – كما ذكر تلميذه أبو المطرف – تصوف سنى، فيه إشارة إلى وحدة الشهود، وليس فيه إشارة إلى الاتحاد بالذات العلية الذى يؤمن به أصحاب التصوف الفلسفى. وكان يقرن إلى تصوفه إيمانه بعقيدة الاعتزال فى مثل قوله:

يا مُحْدِثاً للكلِّ كنتَ ولم تَزَلْ … وكذاك رَبِّى لايزالُ بلا مكانْ

وقوله:

جَلَّت صفاتُ جلالِه، فجلالُه … قد جَلَّ عن تَحْديدِ كَيْفَ ومَنْ وما

وهو يشير بذلك إلى ما يؤمن به المعتزلة من تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين فلا يحدّه مكان ولا زمان ولا تحصره كيفية ولا جوهر ولا عرض، تعالى جلال الله عن ذلك علوا كبيرا.

ويذكر آسين بلاسيوس – ويتابعه بالنثيا – أن مدينة المرية على البحر المتوسط فى الجنوب الشرقى للأندلس أصبحت فى القرن الخامس الهجرى – بتأثير آراء ابن مسرة – مركزا مهما من مراكز الصوفية القائلين بوحدة الوجود، فظهر فيها محمد بن عيسى الإلبيرى الصوفى وأبو العباس بن العريف[1]، وما ذكرناه آنفا عن أحمد بن

(١) انظر فى ذلك بالنثيا ص ٣٢٩ وما بعدها وكتاب ابن سبعين وفلسفته الصوفية للدكتور أبى الوفا التفتازانى (طبع دار الكتاب اللبنانى) ص ٧٦.

عيسى الإلبيرى المتوفى قبل ابن العريف بأكثر من قرن يدل على أن اسمه حُرِّف عند بلاسيوس، فأصبح محمدا بدلا من أحمد، ونفس لقبه الإلبيرى يدل بوضوح على أنه ليس من أهل المرية إنما هو من إلبيرة بجوار غرناطة، وفيها قضى حياته كما مرَّ بنا، وكان من أصحاب التصوف السنى بشهادة أشعاره وتلميذه أبى المطرف الشعبى.

أما أبو العباس بن العريف المتوفى سنة ٥٣٦ للهجرة فكان من أهل المرية حقا غير أنه لم يكن من أصحاب التصوف الفلسفى على نحو ما سيتضح فى ترجمتنا له عما قليل. وكان يعاصره فى إشبيلية ابن[1] بَرَّجان عبد السلام بن عبد الرحمن اللخمى المتوفى سنة ٥٣٦ وفيه يقول ابن الأبار: «كان من أهل المعرفة بالقراءات والحديث والتحقق بعلم الكلام والتصوف مع الزهد والاجتهاد فى العبادة وله تآليف مفيدة، منها تفسير للقرآن لم يكمله وشرح الأسماء الحسنى» وله فى التصوف كتاب عين اليقين. وكان يعاصره أبو القاسم[2] أحمد بن قسى، ويقول ابن حجر فى لسان الميزان إنه رحل إلى ابن العريف فى المرية، وعاد إلى موطنه فى مارتُلة بقرب باجة فى غربى الأندلس وكثر أتباعه من المريدين. وحين احتدمت الثورة على المرابطين فى أواخر العقد الرابع من القرن السادس الهجرى ثار عليهم مع مُريديه وغلب على شِلْب ولَبْلة، وكاتب عبد المؤمن سلطان الموحدين ودخل فى طاعته وانقلب على واليه، وحاول الاستعانة بالنصارى، وشعر بحركته بعض من معه فقتل سنة ٥٤٦. وينسب ابن حجر إليه - كما ينسب إلى ابن بَرَّجان - تحريفهما لمعانى النصوص القرآنية وتأويلها بخلاف الظاهر، وله كتاب خلع النعلين وشرَحه فيها بعد ابن عربى. وكان تصوفه هو وابن بَرَّجان - مثل تصوف ابن العريف - تصوفا سنيا، إذ لم ينسب إليهم جميعا مترجموهم كلاما فى وحدة الوجود. وفى رأينا أن اعتناق بعض المتصوفة الأندلسيين لهذه الوحدة تأخر إلى عصر الموحدين. وممن اعتنقها حينئذ أبو عبدالله الشوذى الإشبيلى الملقب بالحلوى، ولى القضاء بإشبيلية فى دولة الموحدين، ثم خلص للتصوف ومزجه بالفلسفة، وقال بوحدة الوجود[3]، وأهم تلاميذه ابن دهاق إبراهيم بن يوسف الأوسى المالقى المتوفى سنة ٦١١ وفيه يقول ابن الأبار: «كان فقيها مشاورًا غلب عليه علم الكلام، فرأس فيه واشتهر به، وله تآليف منها شرح الإرشاد فى علم الكلام

---

(١) انظر فى ابن برجان التكملة ص ٦٢٥ وابن شاكر فى الفوات ٥٦٩/١ ولسان الميزان لابن حجر (طبع حيدر آباد) ١٣/٤.

(٢) راجع فى ابن قسى لسان الميزان ٢٤٧/١ وبالنثيا ص ٣٣٢، ٣٧٣.

(٣) انظر فى الشوذى وطريقته الصوفية وقوله بوحدة الوجود كتاب ابن سبعين ٧١ - ٧٥.

لأبى المعالى الجوينى إمام الحرمين، وكتاب فى مسائل الإجماع وشرح على محاسن المجالس لابن العريف، سكن مرسية وتجول فى غير بلد، وكان يعتنق رأى أستاذه فى وحدة[1] الوجود.

ونلتقى بمحيى الدين بن عربى، وهو أشهر متصوفة الأندلس، وسنخصه بترجمة قصيرة، وظهر فى إثره ابن سبعين[2] عبد الحق العكى المولود بمرسية سنة ٦١٤ لأسرة كانت على حظ من الجاه والنعمة، وأكب فى بدء حياته على علم المنطق والفلسفة الإلهية والعلوم الطبيعية والرياضية ونظر فى أصول الدين على طريقة الأشعرية كما نظر فى كتب التصوف لابن دهاق وغيره، وانتقل إلى سبتة سنة ٦٤٠، وبها أخذ يدعو لعقيدته الصوفية، وتبعه كثير من الفقراء والعبَّاد، وتصادف أن أرسل فردريك الثانى صاحب صقلية إلى علماء سبتة أسئلة فلسفية آملا منهم فى الإجابة عليها، وانتدب ابن سبعين للرد عليها، وكانت ردوده مقنعة حاسمة، مما جعل فردريك يشكره عليها، وظل علماء الغرب يهتمون بها اهتماما واسعا، وأكبَّ حينئذ على كتب المتصوفة يستوعبها، واستقامت له فى التصوف عقيدة ظل يدافع عنها بقية حياته، دافع عنها أمام علماء سبتة، حتى إذا ضيَّقوا عليه الخناق غادر سبتة إلى بجاية وأقام بها فترة ثم نزل تونس وجادله علماؤها حتى اضطر إلى مغادرتها. ونزل القاهرة، ولم يطب له المقام - على ما يبدو - فى مصر، فغادرها فى أوائل العقد السادس من القرن السابع، ونزل مكة وجاور بها بقية حياته إلى أن توفى سنة ٦٦٩ وبها عُقدت صلة وثيقة بينه وبين حاكمها الشريف أبى نُمَىّ محمد الأول (٦٥٤ - ٧٠٢ هـ). وألف ابن سبعين مصنفات ورسائل متعددة، وأهم مصنفاته: الإحاطة وبدّ العارف وسماه صاحب الفوات: «ما لابد للعارف منه» وكأنه أراد أن يشرح المراد بالعنوان، وله بجانب ذلك مصنفات فى آداب السلوك والرياضات العملية، ومن أهمها رسالة العهد ورسالة الفقيرية التى يصور فيها معانى الفقر الصوفى وآدابه، وله رسائل فى علم الحروف. وهو بدون ريب صاحب عقيدة صوفية تابعه فيها فرقة صوفية نسبت إليه فسميت السبعينية، وتهمنا عقيدته فيما يتصل بوحدة الوجود إذ غالى فيها غلوا مفرطا بإيمانه بالوحدة المطلقة، بمعنى أنه لا وجود سوى وجود الله فهو عين الخلق وهو عين

---

(١) راجع فى ابن دهاق التكملة (البقية المطبوعة فى الجزائر) ص ٢٠٠ والإحاطة وراجع كتاب ابن سبعين (انظر الفهرس) ومقدمة ابن خلدون ١١٠٦/٣

(٢) انظر فى ابن سبعين فوات الوفيات ٥١٦/١ والبداية والنهاية ٢٦١/١٣ ولسان الميزان ٣٩٢/٣ والنفح ١٩٦/٢ والعقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين للفاسى ٣٢٦/٥ وشذرات الذهب ٣٢٩/٥ وكتاب ابن سبعين وفلسفته الصوفية للدكتور أبى الوفا التفتازانى.

الكون والسموات والأرض، وهو صورة كل موجود. وهو ما جعل الفقهاء والعلماء فى كل مكان يأخذون على يده إذ يجعل حقيقة الوجود بين الله وعباده واحدة، فالله فقط وليس فى الكون سواه، وفى ذلك يقول فى كتابه الإحاطة:

من كان يُبْصر شأنَ الله فى الصُّوَرِ فإنَّه شاخصٌ فى أَنْقَص الصُّوَرِ
بل شأنهُ كَوْنُهُ، بَلْ كَوْنُهُ كُنْهُهُ لأنَّه جملةٌ من بَعْضِها وَطَرى
إيهِ فأَبْصرَنى إيهِ فأَبصِرْهُ. إيهٍ فلِمْ قلتَ لى: ذا النَّفْعُ فى الضَّرر

والأبيات تحمل فكرته، فالله تُرى صوره فى كل شىء: جميل وقبيح وضخم وصغير، وشأنه أو وجوده الكون، والكون كونه وحقيقته، وابن سبعين صورة منه، وكل ما فى الكون من نفع وضرر وخير وشر من صور الله المنبثة فى الوجود وكل موجود. وهو غلو مفرط يباعد بين صاحبه وبين الدين الحنيف مما جعل العلماء والفقهاء فى عصره وبعد عصره يردون عليه ردودا عنيفة مثبتين عليه الإلحاد والزندقة. وحاول كثيرون من أتباعه الدفاع عنه وأن لكلامه ظاهرا وباطنا وأنه ينبغى أن لا يحكم عليه بظاهر أقواله. وممن اشتهر بأنه من أتباعه أبو الحسن الششترى الصوفى المعروف، وسنرى فى ترجمتنا له أنه ينفصل عنه فى اعتقاده بوحدة الوجود. وكأنما بلغت هذه النظرية الذروة عند ابن سبعين، وأخذت سريعا فى الانكسار، فإننا نجد كثرة المتصوفة - وخاصة فى الأندلس والمغرب - تعتنق التصوف السنى.

ومن أهم المتصوفة الأندلسيين بعده ابن عباد[١] الرُّنْدى أبو عبد الله محمد بن إبراهيم النفزى المولود بُرْندة سنة ٧٣٣ وبها منشؤه ومرباه. ورحل منها مبكرا وتجوَّل فى بلدان المغرب، وأقام فى سلا على المحيط سنوات طويلة ملازما للشيخ الزاهد الصوفى ابن عاشر أحمد بن عمر، وتحول عنه إلى فاس فاختير فيها إماما وخطيبا لجامع القرويين، ويقول صاحب نفح الطيب إنه كان صوفيا على طريقة الشاذلية، وهى من طرق التصوف السنى، وفى الجزء السادس من هذه السلسلة بمصر حديث مفصل عن هذه الطريقة وأستاذها أبى الحسن الشاذلى وتلميذه أبى العباس المرسى ومريده أو تلميذه ابن عطاء الله السكندرى. ومن أكبر الدلالة على أن ابن عباد الرندى كان شاذليا أن أهم مصنفاته شرحُه كتابَ الحِكَم لابن عطاء الله السكندرى، وهى أقوال وخواطر وعظية بليغة. وكان يعاصره لسان الدين بن الخطيب، وله كتاب روضة التعريف بالحب الشريف، وفيه يعرض

---

(١) انظر فى ابن عباد الرُّنْدِىّ الإحاطة ٢٥٢/٣.

الاتجاهات الصوفية ومسائل التصوف الكبرى من وحدة الوجود والاتحاد والحلول ونظرية المعرفة والمحبة الإلهية وغير ذلك. ونشعر أن نفسه أُشْرِبتْ منازع التصوف السنى، وينعكس ذلك عنده فى بعض القصائد وبعض المقطوعات، وهى جميعا إلى أن تكون خواطر صوفية أقرب منها إلى أن تكون تصوفا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، ولا ينطبق ذلك على أشعاره فى الكتاب وحدها بل أيضا على ما يماثلها فى ديوانه: «الصيِّب والجهام والماضى والكهام». وبالمثل ينطبق على ما نجد عند ابن خاتمة معاصره وغيره من قصائد وأبيات تحمل أصداء صوفية، لاتساع رنين التصوف منذ أواسط القرن السابع الهجرى فى كل بلد وكل دار. وحرىٌّ بنا أن نقف قليلا عند ابن العريف وابن عربى والششترى.

ابن[1] العريف

هو أبو العباس أحمد بن محمد بن موسى الصنهاجى الأندلسى، ولد بالمرية على البحر المتوسط سنة ٤٨١ وبها كان منشؤه ومرباه حفظ القرآن الكريم - مثل أترابه - فى صباه، وعكف فى شبابه على قراءات الذكر الحكيم والأخذ عن الشيوخ فى التفسير والحديث النبوى والفقه والدراسات اللغوية والأدبية. وأقرأ الطلاب فى المرية ثم فى سرقسطة، ووَلِىَ الحسبة ببلنسية ويقول ابن بشكوال: «كانت له مشاركة فى أشياء من العلوم وعناية بالروايات وجَمْع القراءات واهتمام بطرقها وحَمَلتها». وأكبَّ على قراءة كتب التصوف، وإذا هو يصبح صوفيا كبيرا، ولا يكتفى بتصوفه، بل يؤلف فيه بعض كتب[2]، لم يبق منها إلى اليوم سوى كتابه: «محاسن المجالس» وقد نشره آسين بلاسيوس سنة ١٩٣١ وفى نفس السنة نشر عنه دراسة فى مجلة جامعة مدريد، وأعيد نشرها فى أعماله المختارة، وعُنِى الدكتور الطاهر مكى بنقلها إلى العربية، وهو فيها يتحدث عن حياة ابن العريف وكتابه «محاسن المجالس» ويحلله تحليلا دقيقا ملاحظا أن طريقته الصوفية تقوم على الزهد فى كل ما عدا الله ومحبته، بما فى ذلك الزهد فى المنازل الصوفية العشرة، وهى المعرفة والإرادة والزهد والتوكل والصبر والحزن والخوف والرجاء والشوق والشكر، فلا معرفة سوى معرفة الله، ولا إرادة مع إرادته. ولا زهد فى شىء، لأن الصوفى لا يتعلق

(١) انظر فى ترجمة ابن العريف وشعره الصلة لابن بشكوال ص ٨٤ والبغية ص ١٥٤ والمطرب ص ٩٠ والتحفة لابن الأبار رقم ٨ ومعجم الصدفى ١٤ والمغرب ٢/٢١١ والنفح ٣/٢٢٩ و ٤/٣٣١ وراجع كتاب دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة للدكتور الطاهر مكى (طبع دار المعارف) وترجمته فيه لدراسة آسين بلاسيوس عن ابن العريف وكتابه محاسن المجالس.

(٢) ذكر المقرى من كتبه كتاب مطالع الأنوار ومنابع الأسرار.

إلا بربه غير مفكر فيما سواه، ولا توكل، لأنه يتخلص من كل تدبير لنفسه راضيا بكل ما يكون من تدبير ربه، ولا صبر لأنه ليس هناك ما يحتاج إلى صبر، إذ كل ما يسوقه الله تصحبه الرأفة والرحمة، ولا حزن لأنه لا يوجد شيء مما قدَّره الله يوجب الحزن، ولا خوف من عذاب أو عقاب، ولا رجاء فى تحقيق شيء، ولا شوق إلى أى شيء، إذ الصوفى لا يرجو ولا يشتاق إلا ربه: ولا شكر إذ الصوفى لا يميز بين المنحة والمحنة أو النعمة والشدة. ومنزل واحد يتعلق به الصوفى هو المحبة للذات العلية والخلوص لله، بحيث لا يكون هناك أى شيء سواه، يقول: «إنما عين الحقيقة عند القوم أن يكون الصوفى قائما بإقامة الحق له، محسا بمحبته له، ناظرا بنظره له، من غير أن تبقى منه بقية تقف على رسم أو تُناط باسم، أو تتعلق بأثر، أو توصف بنعت أو تنسب إلى وقت». وابن العريف بذلك كله يصور مدى اتصال الصوفى الحق بربه، بحيث لا يكون فيه أى شيء من فكر أو جسم سوى الفناء فى الله، وهو بكل ذلك صوفى سنى، ومن الخطأ الظن بأن فى تصوفه شية من وحدة الوجود أو الاتحاد بالله، ومن طريف شعره الصوفى قوله:

سَلُوا عن الشَّوْقِ مَنْ أَهْوَى فإنَّهُمُ ... أَدْنى إلى النَّفْسِ من وَهْمى ومن نَفَسِى
مازلتُ - مذ سكنوا قلبى - أَصُونُ لهم ... لَحْظِى وسَمْعى ونُطْقى إذ هُمُ أُنسِى
فمَنْ رسولى إلى قلبى ليسألَهُم ... عن مُشكلٍ من سؤالِ الصَّبِّ مُلْتَبِسِ
حَلُّوا الفؤاد، فما أَنْدَى! ولو وَطِئوا ... صَخْرًا لجادَ بماءٍ منه مُنْبَجِسِ[1]
وفى الحَشَا نزلوا والوهمُ يَجْرَحُهُمْ ... فكيف قَرُّوا على أَذْكَى من القَبَسِ[2]
لأنهضَنَّ إلى حَشْرِى بحبِّهِمُ ... لا باركَ الله فيمن خانهم فَنَسِى

وابن العريف يتحدث عن شوقه لربه، مع أنه أقرب إلى نفسه من وهمه وأنفاسه، ويقول إنهم مذ نزلوا قلبه يقصر عليهم لحظه وسمعه ونطقه، فهم كل أنسه. ويتساءل هل هناك من يبلغهم ما فى قلبه من صبابته وحبه ويقول: ما أروحهم على فؤاده، ولو وطئوا صخرا لتفجر منه الماء، وقد سكنوا فى حشاه المضطرم بحبهم، ويعجب منهم - والوهم يجرحهم - أن يسكنوا فى ناره المتقدة، ويقول إنه سيظل - إلى الحشر - وفيا بعهدهم وحبهم لا ينساهما أبدا، ويقول:

قِفَا وقفةً بين المحصَّبِ والحِمىَ ... نُصافحْ بأَجْفان العيونِ المَغَانيا[3]

---

(١) منبجس: منفجر.
(٢) قرّوا: سكنوا واستراحوا.
(٣) المحصب: موضع رمى الجمار بمنى. المغانى: المنازل.

ولا تَنْسَيَا أن تَسْأَلَا سَمُرَ الهَوَى　　متى بات من سُمْرِ الأسِنَّة عاريا[١]
فعهدى به والماءُ ينسابُ فوقَهُ　　سماءً وماءُ الوَرْدِ ينسابُ واديا
أقامَ على أَطْلالهم ضوءَ بارقٍ　　من الحسن لا يُبْقى على الأرض ساليا

وهو يطلب من صاحبيه الوقوف بمنازل محبوبه القدسية: بالمحصب فى منى والحمى المكى ليصافح ببصره المغانى والمنازل وشجر الهوى والمحبة من الطلح الذى تعرًّى من سهامه وأسنته. ويقول إن عهده به والمطر ينسكب عليه من فوقه وماء الورد يجرى من تحته والنفوس معلقة بما فى الأطلال من ضياء الحسن الذى لا يستطيع أحد أن يسلوه. ويقول:

تمشَّى والعيونُ له سوامٍ　　وفى كلِّ النفوس إليه حاجَه[٢]
وقد مُلئتْ غلائلُه شُعاعًا　　كما مُلِئَتْ من الخمر الزُّجَاجه[٣]

وهو يتغزل بمحبوبه مستخدما لغة الحب الإنسانى كما استخدمها فى الأبيات السابقة، فقد رحل والعيون كلها متطلعة إليه، والنفوس جميعا مفتقرة إلى رؤيته، وقد ملئت غلائله الكونية بأشعته. ولابن العريف بجانب ذلك مدائح فى الرسول الكريم سننشد منها أطرافا. وقد توفى سنة ٥٣٦ للهجرة.

ابن[٤] عربى

هو أبو بكر محيى الدين محمد بن على بن عربى الطائى، ولد بمرسية سنة ٥٦٠ لأسرة تحظى بشىء من الثراء، وانتقل به أبوه فى صباه إلى إشبيلية، وبها نشأ نشأة علمية حفظ فيها القرآن الكريم، ودرس على أحد تلامذة مدرسة ابن حزم المذهب الظاهرىَّ فى الفقه، كما درس الحديث النبوى على شيوخه والآداب على معلميها وكتب لبعض الولاة، وتزوج بمريم بنت محمدبن عبدون الباجى، وكانت صالحة ورعة، فدفعته نحو الزهد والتقشف

---

(١) السُّمُر: شجر الطلح.
(٢) سوام: شاخصة ومتطلعة.
(٣) الغلائل: جمع غلالة: الثوب الرقيق.
(٤) انظر فى ابن عربى التكملة رقم ١٠٢٣ وميزان الاعتدال للذهبى ١٠٨/٣ ونفح الطيب ١٦١/٢ والبداية والنهاية لابن كثير ٤٩/١٤ والعقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين (طبع القاهرة) ١٦٠/٢ والكتاب التذكارى لمحيى الدين بن عربى فى ذكراه المئوية الثامنة لميلاده (نشر وزارة الثقافة المصرية) وابن عربى: حياته ومذهبه لآسين بلاسيوس ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى (طبع القاهرة) وبالنثيا ص ٣٧١ وما بعدها.

والتصوف، فأخذ يجتمع بزهاد ومتصوفة كثيرين، فى مقدمتهم الزاهد أبو عمران موسى بن عمران المارتلى الذى مرَّ ذكره بين الزهاد وأبو العباس العريانى المتصوف، ولزم نونة «فاطمة بنت ابن المثنى» الصوفية سنتين تابعا ومريدا، حتى إذا أشربت روحه كثيرا من الرياضات الصوفية خرج من إشبيلية يتجول فى الأرض، وهو فى نحو الثلاثين من عمره، واتجه إلى مرسية والمرية وهناك كتب رسالته الصوفية «مواقع النجوم» ثم رحل إلى المغرب واستقر فى فاس مدةً سنة ٥٩١ منصرفا إلى رياضته الصوفية. وقام بسياحات متعددة فى نواحى المغرب فى مراكش وغير مراكش، ونزل بجاية ولزم أبا مدين الصوفى فترة معجبا بطريقته الصوفية. وألم بتونس وفيها صنف كتابه: «الدوائر الإحاطية فى مضاهاة الإنسان للخالق». وفى سنة ٥٩٨ رحل لأداء فريضة الحج ونزل مكة وتعرف فيها على مكين الدين أبى شجاع زاهر بن رستم الأصفهانى إمام مقام إبراهيم بالمسجد الحرام، وحضر دروسه وسمع عليه الجامع الصحيح فى الأحاديث النبوية للترمذى، وتوثقت بينهما العلاقة، وكانت لهذا الشيخ فتاة جميلة اسمها نظام، فشغف بها ابن عربى حين رآها ونظم فيها ديوانه «ترجمان الأشواق» متخذا منها ومن غزله فيها رمزا لحبه الربانى ومواجده الصوفية، وكتب حينئذ كتابه: «الدرة الفاخرة» فى تراجم شيوخه من الصوفية، وفيه أشاد بشيخه أبى مدين وطريقته. وبارح مكة إلى بغداد والموصل سنة ٦٠١ وأخذ يتجول فى البلدان، ونجده بالقاهرة سنة ٦٠٣ وجادله فقهاؤها فيما يفهم فى أقواله من فكرة وحدة الوجود واتهموه بالمروق من الدين، غير أن السلطان العادل الأيوبى حماه منهم. ويتجه إلى الأناضول ويعجب به كيكاوس ملك قونية، ويؤلف مصنفيه: «مشاهد الأسرار» و«رسالة الأنوار». وينزل بغداد سنة ٦٠٨ ويلتقى بشهاب الدين السهروردى الصوفى السنى، ويتوجه إلى مكة للحج سنة ٦١٠ ويؤلف شرحا على ديوانه ترجمان الأشواق يسميه ذخائر الأعلاق، وفيه يوضح المعانى الصوفية التى تضمنتها أبيات الديوان. ويعود إلى الأناضول وينزل حلب ويحتفى به سلطانها الظاهر غازى، ويؤلف كتابه: «الحكمة الإلهامية». وفى سنة ٦٢٠ يختار دمشق دار إقامة له حتى وفاته سنة ٦٣٨ وفيها ألف «فصوص الحكم» و«الفتوحات المكية» وأذاع ديوانا له، وظل مشغولا بالتأليف حتى الأنفاس الأخيرة من حياته.

وكان ابن عربى مكثرا من التأليف حتى يقال إن مؤلفاته ورسائله بلغت نحو أربعمائة، وعنده أن العلوم ثلاثة أنواع: علم العقل ويشمل العلوم المعروفة، وعلم الأحوال ويدرك بالذوق، وعلم الأسرار وهو فوق العلمين السابقين مما ينفث به الروح القدس فى الروع

ويختص به الأنبياء والأولياء. وأهم من ذلك عقيدته فى وحدة الوجود، وهى التى ملأت كتاباته وأشعاره بالألغاز، واختلف إزاء عباراتها العلماءُ من معاصريه ومن جاء بعدهم، فمنهم من قال إن لها باطنا سوى ظاهرها وتأوَّلها، ومنهم من قال بمروقه من الدين الحنيف لمثل قوله: «إن الحق المنزَّه (أى الله) هو الخلق المشبَّه» و «إن العالم صورة الله وهوية الله». وربما كان ابن تيمية أكثر خصومه إنصافا له إذ قال إنه أقرب الصوفية القائلين بوحدة الوجود إلى الإسلام، فإنه يفرق بين الظاهر والمظاهر ويقر الأمر والنهى والشرائع على ما هى عليه ويأمر فى السلوك بكثير مما أمر به المشايخ من الأخلاق والعبادات»[(١)].

ويمكن أن تؤوَّل العبارتان السالفتان اللتان جعلتا كثيرين يحملون عليه حملات شعواء بسببهما أنه إنما يريد أن الله المنزَّه عن الشبه بالخلق يتجلَّى فيهم كما يتجلى فى العالم بتكوينه له وخلقه. وبالمثل عباراته الأخرى الموهمة التى إن أُخذت على ظاهرها ظُنَّ به المروق من الدين والضلال، بينما لو أخذت بباطنها حُملت على الإيمان والعرفان، وهو ما جعل كثيرين من معاصريه ومن جاء بعدهم يدافعون عنه. وقد سمع على الشيوخ بجانب صحيح الترمذى السالف صحيح مسلم وصحيح البخارى، وأجاز له السلفى فى الإسكندرية أن يحدث عنه، وأجازه ابن الجوزى فى بغداد وابن عساكر فى دمشق، وهم جميعا من كبار المحدثين فى عصره سوى شيوخ كثيرين. وبجانب هذه الشعبة الكبيرة فى عقيدته: شعبة وحدة الوجود تتراءى شعبة ثانية كبيرة هى شعبة المحبة الإلهية، وقد صورها مبكرا فى ديوانه: «ترجمان الأشواق» ومن يقرؤه حسب ظاهره يظن أنه غزل صَبٍّ عاشق لنظام – كما يقال – فتاة الشيخ مكين الدين إمام مقام إبراهيم فى الحرم المكى، إذ يصف جمالها وفتنته به ودارها والأطلال والمنازل ودلالها ومراشفها ولوعته وحرقة فؤاده بحبها وسهام عيونها وفتور أجفانها وكأننا بإزاء شاعر من شعراء الغزل العذرى على شاكلة قوله:

مَرِضِى من مَرِيضة الأَجْفانِ ... عَلِّلانى بِذِكْرِها عَلِّلانى
بأبِى طفلةٌ لَعُوبٌ تَهادَى ... من بنات الخُدُورِ بين الغَوانى
طلعتْ فِى العِيانِ شمسًا فلمَّا ... أَفَلَتْ أشْرَقَتْ بأُفُقِ جَنانِى
بِأبِى ثُمَّ بِى غزالٌ رَبيبٌ ... يَرْتَعِى بَيْنَ أضْلُعِى فى أمانِ

فهو محب موجع الفؤاد أو هو مريض مرضا لا يرجى له منه شفاء لما وقع فى قلبه من

(١) انظر مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية (طبع دار المنار) ١/١٧٦.

حب هذه الفتاة أو هذه الطفلة اللعوب التى رآها تتبختر بين الغوانى الجميلات. وحين رآها ظنها شمسا فقد ملأت كل ما حوله وكل ما فيه من جَنان أو عقل وغير عقل واستقر حبها فى قلبه وملك عليه كل شيء من أمره. وإنه ليفدى بروحه هذا الغزال المصون الذى يرعى بين أضلعه فى قلبه وسويداء فؤاده. والديوان كله - على هذا النحو - غزل وصبابة لا سبيل إلى إطفائها إذ تستمد من وجد ملتاع مايزال ابن عربى يذوق ناره المحرقة، وليست نار الفتاة نظام، وإنما هى نار المحبة الربانية، وإلى ذلك يشير فى الديوان منشدا:

كلُّ ما أذكرهُ منْ طَلَلٍ ... أو ربوعٍ أَوْ مَغَانٍ كلُّ ما
أو نساءٍ كاعِباتٍ نُهَّدٍ ... طالعاتٍ كشموسٍ أَوْدُمَى
صفةٌ قُدْسِيَّةٌ عُلْوِيَّةٌ ... أعلمتْ أنّ لصدقى قدَمَا
فاصْرِفِ الخاطرَ عن ظاهِرها ... واطلبِ الباطنَ حتى تَعْلَما

وهو لا يذكر فى القصيدة الطلول والربوع والمغانى أو المنازل والنساء المشرقات كالشموس والدمى فحسب، بل يذكر أيضا: نجدًا وتهامة والسحب تبكى والزهر يبتسم والمواضع النجدية مثل الحاجر وورق الحمام وأنينها والبروق والرعود والرياح والطرق والجبال والتلال والعقيق والنَّقا والرُّبى والرياض والغياض، وكل ذلك حين يذكره صفات قدسية علوية يتخذها رموزا لبيان حبه الربانى وأسراره وأنواره فى فؤاده، وهو حب يتسع به حتى ليشمل أصحاب الديانات جميعا، إذ يقول:

لقد صار قَلْبِى قابلا كلَّ صُورَةٍ ... فَمَرْعىً لِغِزْلانٍ وَدَيْرٌ لرُهْبانِ
وبَيْتٌ لأوثانٍ وكعبةُ طائفٍ ... وألواحُ توراةٍ ومصحفُ قرآنِ
أدينُ بدين الحبِّ أنَّى تَوَجَّهَتْ ... رَكائبهُ فالحبُّ دِينى وإيمانى

فدينه الحب الذى يسع جميع الديانات السماوية والوثنية، ولعل هذه شطحة من شطحاته الصوفية، إذ لا يمكن أن يصبح الناس أمة واحدة فضلا عن أن يكون دينها المحبة. وله بجانب أشعاره موشحات صوفية، وتميزها نفس العذوبة والسلاسة اللتين نجدهما فى شعره كقوله فى إحدى موشحاته:

يقول والوَجْدُ ... أضناه والبُعْدُ ... قد حيَّرهْ
وهُيِّم العَبْدُ ... والواحد الفَرْدُ ... قد خَيَّرَهْ
فى البَوْحِ والكتمان ... والسرِّوالإعْلانِ ... فى العالَمين

وفى الحق أنه كان صوفيًا كبيرًا، وقد لقبه تلاميذه ومريدوه بالشيخ الأكبر، وسميت طريقته الطريقة الأكبرية.

الششترى[١]

هو أبو الحسن على بن عبد الله النميرى، ولد بقرية شُشْتر من عمل مدينة وادى آش فى إقليم غرناطة لأسرة ذات جاه وثراء. بدأ حياته بحفظ القرآن الكريم وجوَّده، وعُنى بتفسيره والوقوف على معانيه، كما عنى بدراسة الفقه المالكى، حتى نُعت بالفقيه وعروس الفقهاء. وأخذ يكبُّ فى شبابه على دراسة التصوف ولقَاء المتصوفة، حتى استوعب وتمثَّل كثيرا من الرياضات الصوفية، وسرعان ما أخذ بمبادئهم فى السياحة والتجول فى البلدان، فطاف ببعض البلاد الأندلسية ثم عبر الزقاق إلى البلاد المغربية، وظل بها متجولا فترة غير قليلة، تلمذ فى أثنائها لأبى مدين المتوفى سنة ٥٩٢ وربما لم يلقه، فأخذ طريقته عن تلاميذه ومريديه. وكان صوفيا سنيا، وشاعت طريقته الصوفية - منذ حياته - فى البلدان المغربية، وملأت - فيما يبدو - نفس الششترى فاعتنقها. ولقى ببجاية ابن سبعين وعرف منه ابن سبعين أنه ذاهب إلى أصحاب أبى مدين فقال له: إن كنت تريد الجنة فسِرْ إليهم وإن كنت تريد رب الجنة فهَلُمَّ إلىّ. وظل طويلا معجبا بابن سبعين حتى كان يعبر عن نفسه فى بعض منظوماته بعبد ابن سبعين، ويقال إن ابن سبعين قال له: لن تدخل فى طريق الصوفية إلا إذا تجردت من متاعك وثيابك ولبست قشبانية الصوفية (يريد رقعهتم البالية) وحملت فى يدك بنديرًا (يريد علم الدراويش) ودخلت السوق بهذه الصورة وبدأت بذكر الحبيب. فصنع كما رسم له ابن سبعين، وظل فى السوق ثلاثة أيام يغنى بخواطر المتصوفة منشدا:

شويخ من أرض مكناسْ   فى وسط الأسواق يغنى[٢]
اشْ علىّ من النــاسْ   واشْ على الناس منى

واتجه إلى مصر، وأقام بالإسكندرية فترة تعرَّف فيها على الشيخ أبى الحسن الشاذلى

---

(١) انظر فى الششترى وترجمته وأشعاره وموشحاته وأزجاله نفح الطيب ١٨٥/٢، ٢٠٥ والإحاطة ٢٠٥/٤ وعنوان الدراية للغبرينى ص ١٤٠ وما بعدها ونيل الابتهاج للتنبكتى والرسائل الكبرى لابن عباد الرندى (طبع فاس) ص ١٩٧ وراجع فى أشعاره وموشحاته وأزجاله ديوانه بتحقيق د. على النشار (طبع الإسكندرية).

(٢) مكناس: مدينة بالمغرب بينما بجاية مدينة ساحلية بالجزائر.

صاحب الطريقة الشاذلية وتلميذه أبي العباس المرسى وحمل عنهما طريقتهما، وبذلك يعترف فى بعض أزجاله قائلا: «شيوخى هم الشاذليَّه» وحج مرارا وكان كلما حجَّ طوَّف فى العراق والشام ثم عاد إلى مصر. ويذكر مترجموه أنه لقى ابن إسرائيل تلميذ ابن عربى فى الشام سنة ٦٥٠ كما لقى أصحاب عمر السهروردى البغدادى المتصوف السنى المشهور مؤلف كتاب عوارف المعارف. وفى أوبة له من الشام إلى ساحل دمياط سنة ٦٦٨ توفى بقربها ودفن بمقبرتها، وقبره بها. وعليه شاهد يحمل اسمه. وكان لقاؤه لابن سبعين وإعجابه به وذكره لاسمه فى موشحاته وأزجاله مثنيا منوها سببا فى أن يظن بعض معاصريه ومن جاء بعدهم أنه كان - مثله - يؤمن بوحدة الوجود المطلقة، وهو منها براء، إذ بدأ حياته على طريقة أبى مدين المغربى الصوفية السنية، وانتقل منها فى مصر إلى طريقة أبى الحسن الشاذلى الصوفية السنية، فهو صوفى سنى، وفيه يقول الغبرينى: «الشيخ الفقيه الصوفى الصالح العابد، من الفقراء (يريد الصوفية) المنقطعين، له معرفة بالحكمة ومعرفة بطريقة الصالحين الصوفية» ونوَّه به ابن عباد الرندى الشاذلى فى رسائله الكبرى، كما نوه به من صوفية الشاذلية أحمد زروق شارح قصيدته:

أرى طالبًا منا الزيادةَ لا الحُسْنَى ... بفكْرٍ رَمَى سَهْمًا فعدَّى به عَدْنا[1]

إذ نقل عنه التنبكتى فى كتابه نيل الابتهاج نعته له بقوله: «الشيخ العارف أحد الصوفية من أبناء الملوك ثم صار من سادات الصوفية، كان يُقْرَأ عليه القرآن والسنن، عارفا بالحديث، وأما علم الأسرار والأنوار والحكم والأذواق فحاز فيه قصب السبق». ويقول المقرى فيه: عروس الفقهاء وإمام المتجردين وبركة لابسى الخرقة الصوفية.. كان مجوِّدًا للقرآن قائمًا عليه عارفًا بمعانيه، من أهل العلم والعمل، جال فى الآفاق ولقى المشايخ، وحج حجات، وآثر التجرد والعبادات، وصنف كتبًا مختلفة، منها: «العروة الوثقى» و«المقاليد الوجودية فى الأسرار الصوفية» و«الرسالة القدسية فى توحيد العامة والخاصة» و«المراتب الإيمانية والإسلامية والإحسانية». ومن شعره قوله:

لقد تِهْتُ عُجْبًا بالتجرُّد والفَقْرِ ... فلم أَنْدَرِج تحتَ الزمانِ ولا الدَّهْرِ
وجاءتْ لقلبى نَفْحَةٌ قُدُسيَّةٌ ... فغِبتُ بها عن عالم الخَلْق والأَمْرِ
وصلتُ لمن لم أنفصلْ عنه لحظةً ... ونزَّهت من أعنى عن الوصل والهَجْرِ

---

(١) الحسنى وعدن: الجنة. الزيادة: مقام المحبة الصوفية.

وما الـوَصْفُ إلا دونـه غيـرَ أننى ... أريدُ به التشبيب عن بَعْض ما أدْرى
وذلك مثلُ الصَّوْتِ أيقظَ نائـمًـا ... فأبْصَرَ أمْرًا جلَّ عن ضابطِ الحَصْرِ
فقلتُ لـه الأسمـاءُ تَبْغى بَيـانَـهُ ... فكانتْ له الألفاظُ سِتْرًا على سِتْرِ

وهو يتيه عجبًا وزهوًا بالاجتهاد فى العبادة والإمامة لفقراء الصوفية، فلا يهمه أى شىء مما يتعلق به الناس من جاه السياسة ومتاع الحياة، فحسبه نفحة قدسية امتزجت بقلبه، فغاب عن الكون وكل ما فيه من عالم الخلق والتدبير. ويقول وصلتُ إلى رضوان الله ومحبته، ويستدرك فإنه غنىٌّ عن الوصل والهجر ولا وصف يحيط به، وما تشبيبى وغزلى إلا بعض ما أشعر به، وكأنى مثل نائم أيقظه صوت فأبصر من جلال الله ما يجلّ ويعظم عن الحصر، وحتى أسماؤه الحسنى لا تجلو هذا الجلال، إذ لا تحيط به ألفاظ، بل لكأنما الألفاظ تضيف دونه حجابًا إلى حجاب، وله فى إحدى موشحاته:

خلعتُ عِذار عشقى فى غرامى ... وهِمْتُ وقد حَلا عندى هُيامى
بمن أهْوَى وكاسات المُدامِ
مـذهبى دنّى ... لائمى دَعْنِى ... الهـوى فَنّى
ببَذْلى فى الهَوَى روحى ومَالِى ... عَشقتُ فما لعُذَّالى ومـالى

وهو يقول إنه لم يعد يتحفظ أو يتحشم فى غرامه، بل لقد أصبح يتهتك فيه، لا يستحى ولا يخجل، إذ جمح به هيامه بمن يهوى بل لقد حلاله هذا الهيام كما حلاله الإكباب على كاسات المدام حتى ينتشى بشراب المحبة الإلهية إلى أقصى حد ممكن، وهو ليس شرابًا عاديًّا بل هو رحيق صاف، وهو يتخذ دنَّه مذهبا له حتى يُبْهج روحه وقلبه بهذا الحب الربانى الذى بذل فيه روحه وكل ما يملك، فما للعذَّال اللائمين وماله. وقد اندلع فى فؤاده هذا الحب وإنه ليشرب رحيقه من دَنّ قدسى عظيم. ومن قوله فى موشحة ثانية:

يـاحَبِيـبى بـحيـاتِـكْ يـا حَبِيـبى
رِقَّ لى وانْـظرْ لحـالى ... أنتَ أدْرَى بـالـذى بِى
أنـتَ دائـى ودَوائـى ... فـتـلطَّفْ يـا طبيـبى

وهى كلمات تكاد تطير من الفم طيرانًا لخفتها وعذوبتها وسلاستها. ولهذه السلاسة والعذوبة كان يكثر إنشاد شعره وموشحاته وأزجاله فى حلقات المتصوفة من شاذلية وغير شاذلية، ونوَّه بها جميعًا مترجموه، يقول الغبرينى: «شعره فى غاية الانطباع والملاحة،

وتواشيحه ونظمه الزجلى فى غاية الحسن» ويقول ابن عباد الرندى: «فى موشحاته وأزجاله حلاوة، وعليها طلاوة».

(جـ) شعراء المدائح النبوية

طبيعى أن يتغنى شعراء الأندلس بمدائح الرسول صلى الله عليه وسلم، مثلهم فى ذلك مثل الشعراء فى جميع البلدان العربية الإسلامية، إذ هو المثل الكامل لكل مسلم فى تقواه ونسكه وورعه وامتثاله لأوامر ربه. وقد أخذت هذه المدائح تتكاثر فى الأندلس منذ عصر أمراء الطوائف الذى أصبحت فيه الأندلس دولاً وإمارات كثيرة، مما جعل نصارى الشمال ينشطون لاسترداد الأندلس، واستردوا طليطلة وبعض حصون وقلاع، وفرضوا على أمراء الطوائف المتنابذين إتاوات كانوا يؤدونها لهم خانعين. وهو ماجعل غير شاعر أندلسى يفزع إلى مديح الرسول الكريم آملاً أن تستمد الأندلس منه الأيد والقوة فى نضال أعدائها وأعداء الدين الحنيف. واتسع ذلك منذ القرن السادس الهجرى حتى أصبح المديح النبوىّ غرضًا كبيرًا من أغراض الشعر الأندلسى، ونحن نجده فى هذا القرن على لسان ابن السيد البطليوسى المتوفى سنة ٥٢١ وله فى مخاطبة مكة مهبط الوحى النبوى ورسولها الكريم شعر[١] طريف، وبالمثل نجده على لسان أبى عبدالله بن أبى الخصال كاتب يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، وله مع مديح الرسول مرثيتان[٢] فى مقتل الحسين بكربلاء. ويسوق المقَّرى فى الجزء الأخير من كتابه نفح الطيب لابن العريف الصوفى أشعارًا نبوية يذكر أنه نقلها عن كتابه: «مطالع الأنوار ومنابع الأسرار» ومن قوله فى إحداها:[٣]

وحَقِّكَ يامُحَمَّدُ إنَّ قَلْبِى ... يحبُّك قُرْبَةً نَحْوَ الإلٰهِ
جَرَتْ أمْواهُ حُبِّك فى فُؤَادِى ... فهامَ القلبُ فى طيبِ المياهِ

فهو محب والهٌ للرسول عليه السلام، ويستمر قائلا إنه نال به فى دنياه فرحة وسرورًا، وسينال به فى أخراه جاهًا ونعيمًا إذ يحب محبوب الإله وصفيَّه، ويتذلل له فى بعض مدحه قائلاً إنه عبد مسترق له ويطلب منه العتق والرضا وأن يكون له ملاذًا وملجئًا. ويختم

---

(١) أزهار الرياض ١٤٧/٣ وما بعدها.
(٢) فهرست ابن خير ٤٢١.
(٣) انظر فى هذه القصيدة وتاليتها نفح الطيب ٤٩٧/٧.

المقرى اختياراته من كتابه بقصيدة له تفتتح جميع أبياتها بصلاة الله على النبى الهادى العظيم على هذا النمط:

صَلَّى الإلهُ على النبىِّ الهادى ... ما لاذت الأرواحُ بـالأجسَادِ
صَلَّى عليه اللّهُ ما اسودَّ الدُّجىَ ... فكسَا مُحَيَّا الأفْقِ بُـرْدَ حِدادِ
صَلَّى عليه اللّهُ ما انْبَلَج السَّنا ... فابيضَّ وَجْهُ الأرضِ بعد سَوادِ

ويظل يدعو الله أن يصلى على رسوله ما هطلت السحب بالغيث وتغنى الطير على الأغصان، إذ خصَّه بالنور والإرشاد وخَتَمَ النبوةَ كتابُه الهادى. ولا تتضح عند ابن العريف فيما ساقه له المقرى من مديح نبوى فكرة الحقيقة المحمدية التى وجدت منذ الأزل ودارت حولها الأفلاك ودار الوجود، مما ردده بعض المتصوفة وبعض مداح الرسول فى المشرق، مما يؤكد ما قلناه من أن ابن العريف كان صوفيًّا سنيًّا. ونلتقى بأبى الحسن بن لبَّال وتشوقه[١] الحار إلى الروضة المقدسة الطاهرة لزيارة سيد ولد آدم، واشتهر صفوان بن إدريس بقصره[٢] أمداحه على آل البيت وإكثاره من تأبين الحسين، ولابن المناصف محمد بن عيسى المتوفى سنة ٦٢٠ أرجوزة[٣] فى مئات من الأبيات فى مديح الرسول. ونلتقى بمعاصره أبى زيد الفازازىّ وسنخصه بكلمة.

وحين اشتد الضعف بدولة الموحدين وأخذت المدن الأندلسية الكبيرة تسقط مدينة وراء مدينة فى حجر النصارى الإسبان الشماليين تكاثر المديح النبوى إذ اتخذه الشعراء الأندلسيون أداة للاستغاثة والاستنجاد بالرسول الكريم لإنقاذهم من محنتهم، وكانوا لا يكتفون بنظم الأشعار النبوية إذ كانوا يرفقونها برسائل إلى القبر النبوى الشريف واصفين ما يعانيه وطنهم من محن خطيرة، وسنلم بطرف من هذه الرسائل فى الفصل التالى مع الترجمة لابن الجنان المتوفى فى عشر الخمسين وستمائة، وقد أنشد له المقرى فى الجزء السابع من نفح الطيب طائفة رائعة من مدائحه النبوية، ويستهلها بمخمس[٤]، بديع جعل شطره الخامس: «صَلُّوا عليه وسلِّموا تسليما» وفيه عرض عرضًا رائعًا سيرته المنيرة ومعجزاته الباهرة. وكان يعاصره إبراهيم[٥] بن سهل الإشبيلى، وكان يهوديًّا

---

(١) المطرب ص ٩٠.
(٢) المغرب ٢/٢٦٠.
(٣) سماها الدرة السَّنية فى المعالم السُّنية. انظر التكملة ص٣٢٥.
(٤) نفح الطيب ٧/٤٣٢.
(٥) انظر فى ابن سهل مصادره فى ص٣٠٦ ومقدمة ديوانه لإحسان عباس طبع دار صادر ببيروت.

كما أسلفنا، ونشأ يقرأ ويدرس مع الشباب الإشبيلى المسلم ويختلط به، وشرح الله صدره للإسلام فأعلن فى بواكير شبابه إسلامه، وكان شاعرًا ماهرًا، وله ديوان طبع مرارًا، وبه قصيدة عينية تحمل تشوقًا إلى يثرب والحجاز، وأنشد له المقرى منظومة[1] نبويةً بديعةً لعله استلهم فيها مخمس ابن الجنان إذ جعل شطرها الخامس الذى تدور عليه نفس شطر ابن الجنان السالف وقد ختمها بقوله:

يا شوقىَ الحامى إلى ذاك الحِمَى
فمتى أقضِّيه غرامًا مغرما
ومتى أعانقه صعيدًا مكرما
بضميرِ كل موحِّدٍ مَلْثوما صَلُّوا عليه وسلموا تسليما

ولأبى الحسن الرُّعَيْنى الإشبيلى المتوفى سنة ٦٦٦ قصيدتان حجازيتان وأخريان ربَّانيتان[2]. ولحازم القرطاجنى المترجم له بين أصحاب الشعر التعليمى مدحتان[3] نبويتان بَنَى أولاهما على شطر له ثان من معلقة امرئ القيس وبنى الثانية بنفس النظام: شطر له وشطر من لامية امرئ القيس: «ألاعم صباحًا أيها الطلل البالى». ويلقانا فى كتاب الكتيبة الكامنة فى شعراء المائة الثامنة مدائح نبوية[4] لغير شاعر مثل ابن الصائغ وأبى جعفر بن جُزَىّ، وله مدحة على غرار مدحة حازم القرطاجنى الثانية.

وكان قد أصبح تقليدًا فى غرناطة أن يُحْتَفل بالمولد النبوى احتفالاً رسميًا كل عام، وأن تُلْقَى فيه مدائح نبوية. وتسمى مولدية، وللسان الدين بن الخطيب طائفة من تلك المولديات، وهى مسجلة فى ديوانه والجزء الأول من أزهار الرياض والجزء الأخير من نفح الطيب، ودائمًا يبدؤها بالحنين إلى الحجاز، ثم يتغنى بفضائل الرسول ومعجزاته الباهرة، وينهى المولدية غالبًا بمديح السلطان الذى أقيم الاحتفال النبوى فى عهده، ومن تصويره لحنينه الملتاع إلى الاكتحال برؤية القبر الطاهر قوله:

إذا أنت شافهتَ الديار بِطَيْبَةٍ وجئتَ بها القبرَ المقدَّسَ واللَّحْدا
فَنُبْ عن بعيد الدار فى ذلك الحِمىَ وأَذْرِ به دمعًا وعَفِّرْ به خَدًّا

(١) النفح ٤٤٥/٧.
(٢) الذيل والتكملة للمراكشى القسم الأول من الجزء الخامس ص ٣٦٤.
(٣) أزهار الرياض ١٧٨/٣ وما بعدها.
(٤) راجع الكتيبة الكامنة ص ٨٨، ١٣٤، ١٣٩، ٢٥١، ٣٠٣.

وكان يعاصره ابن جابر الوادى آشى وسنخصه بكلمة، وعاصرهما ابن خاتمة وفى ديوانه مدائح نبوية بديعة، وأنشد المقرى لابن زمرك مَوْلديات له فى الجزء الثانى من أزهار الرياض، ومن قوله فى إحداها مخاطبًا الرسول صلى الله عليه وسلم:

وأنت حبيبُ الله خاتَمُ رُسْلهِ ... وأكرمُ مخصوصٍ بزُلْفى ورضوانِ
وأنت لهذا الكون علة كَوْنهِ ... ولولاك ما امتاز الوجود بأكوانِ
ولولاك للأفلاك لم تَجْلُ نَيِّرًا ... ولا قُلِّدتْ لبَّاتهُنَّ بِشُهْبانِ

وواضح أنه يقتبس من البوصيرى وأمثاله فكرة الحقيقة المحمدية وأن الله اصطفاه قبل نشأة الكون وأنه علة الوجود ومطلع النور فى الأفلاك، ولولاه ما سطعت فى لبَّاتها ومواضع القلائد من جيدها شهبانه وشعله النيرة، وحرى أن نتوقف قليلاً بإزاء أبى زيد الفازازى وابن جابر الوادى آشى.

أبو زيد[1] الفازازى

هو أبو زيد عبد الرحمن بن أبى سعيد بن يَخْلُفْتن، وُلد بقرطبة، وبها منشؤه، وبمجرد أن حفظ القرآن الكريم أكبَّ على حلقات الشيوخ يتزود من الحديث النبوى وروايته والفقه وأصوله وعلم الكلام واللغة والنحو والأدب والشعر، وتفتحت موهبته الأدبية مبكرة، وسال ينبوع الشعر متدفقا على لسانه، وعمل فى الدواوين الحكومية، وحظى بمكانة رفيعة عند أبى إسحق والى إشبيلية لأخيه الناصر الخليفة بمراكش (٥٩٢ - ٦٠٩ هـ) ولابن أخيه المستنصر (٦٠٩ - ٦٢٠ هـ) وعمل بدواوين عمه أبى العلاء إدريس فى ولايته على إشبيلية وقرطبة، وتطورت الظروف ونودى بأبى العلاء - وهو فى الأندلس - خليفة للموحدين بمراكش. وجاز الزقاق إلى عاصمته سنة ٦٢٦ واستقدم أبا زيد للعمل فى دواوين مراكش ولباه راضيا، ولم تكد تمضى بضعة أشهر حتى لبى نداء ربه سنة ٦٢٧ ويقول لسان الدين بن الخطيب فى ترجمته إنه كان فاضلا سُنيا شديد الإنكار والإنحاء على أهل البدع، وكان متلبسا بالكتابة عن الولاة والأمراء ملتزما بذلك مع كره له وحرصه على الانقطاع عنه..

ويقول لسان الدين أيضا عن أبى زيد إنه كان آية الله فى سرعة البديهة وارتجال النظم

---

(١) انظر فى ترجمة أبى زيد الفازازى التكملة رقم ١٦٤١ والإحاطة ٥١٧/٣ ونفح الطيب للمقرى ٥٠٧/٧ وما بعدها.

والنثر وفورَ مادة وموالاةَ استعمال. وله فى الزهد عملان: عمل طُبع بدار إحياء الكتب العربية فى القاهرة باسم «القصائد العشرية فى النصائح الدينية والحكم الوعظية» ولعلها هى التى سماها لسان الدين المعشرات الزهدية. ويقول إنه افتتحها بقوله: «المعشرات الزهدية، والمذكرات الحقيقية الجدية ناطقة بألسنة الوجلين المشفقين، شائقة إلى مناهج السالكين المستبقين، نظمها متبركا بعبادتهم، متيمنا بأغراضهم وإشاراتهم، قابضا عنان الدعوى عن مداناتهم ومجاراتهم..». والمعشرات قصائد تشتمل كل منها على عشرة أبيات فأكثر، منظومةً على جميع الحروف الهجائية. وكان له بجوار هذا الديوان ديوان ثان بنفس النسق نظمه فى العبادة والنسك وسماه: «المعشَّرات الحبِّيَّة» وافتتحها بقوله: «النفحات القلبية، واللفحات الشوقية، منظومة على ألسنة الذاهبين وجدا، الذائبين كمدا، نظم مَنْ نسج على منوالهم» وله يناجي ربه ويدعوه ضارعا:

إليك مددتُ الكفَّ فى كلِّ شِدَّةٍ ومنــكَ وجـدتُ اللُّطْفَ فى كـل نـائبِ
فحقِّقْ رجائى فيك يارَبِّ واكْفِنِى شمـاتَ عدوٍّ أو إساءةَ صـاحبِ
وكم كُـرْبَةٍ نَجَّيْتَنى من غِمـارِهـا وكانتْ شَجًا بين الحَشَا والتَّرائبِ
فيـامنجىَ المُضْـطَرِّ عنـد دعـائـهِ أغِثْنى فقـد سُدَّتْ علىَّ مَـذَاهِبى

وسمَّى مجموعته فى المدائح النبوية «الوسائل المتقبَّلة» وأضاف: «والآثار المسلَّمة المقبَّلة مودَعة فى العشرية النبوية» نَظْم من اعتقدها من أزكى الأعمال، وأعدَّها لما يستقبله من مدهش الأهوال، وفرَّغ خواطره لها على توالى القواطع وتتابع الأشغال، ورجا بركة خاتم الرسالة، وغاية السؤدد والجلالة.. والله - سبحانه - ولىُّ القبول للتوبة، والمنَّان بتسويغ هذه المنة المطلوبة، فذلك يسير فى جنب قدرته، ومعهود رحمته الواسعة ومغفرته» ولعل هذه المجموعة هى نفسها المطبوعة فى دار إحياء الكتب العربية باسم «الوسائل المتقبلة فى مدح النبى ﷺ». وهى مخمسات على الحروف الهجائية من الهمزة إلى الياء، والمخمس قد يشتمل على عشرين دورا، وقد يقل عدد الأدوار فيه حتى أحد عشر، ومن قوله فى المخمس النونىّ عن رسول الله:

بدا قمرًا مَسْراهُ شرقٌ ومغربُ وخُصَّتْ بِمَثْـواهُ المدينـةُ يثربُ
وكان له فى سُدَّة النورِ مَضْرِبُ نجىٌّ لـربِّ العالمينَ مقـرَّبُ[1]
حبيبٌ فيدنو كلَّ حينٍ ويُسْتَدْنَى

(١) سدة النور: يريد بها سدرة المنتهى المذكورة فى سورة النجم وأن عندها الجنة التى تأوى إليها أرواح الشهداء والملائكة.

من العالَمِ الأعلي وماهو منهمُ شبيهٌ بهم فى الوصفِ زاكٍ لديهمُ
رحيمٌ بكـلِّ الخَلْق دانٍ إليهمُ نَصيحٌ لأهل الأرض حانٍ عليهمُ
أضاء لهم صُبْحًا وصابَ لهم مُزْنا(١)

وهو يقول إن الرسول ﷺ قمر استضاءت بأشعة نوره المشارق والمغارب، وخُصَّت به داره يثرب، شرف لها ما بعده شرف، ونزل فى السماء، حين صعد إليها بمعراجه، عند سِدْرة المنتهى، نجيًّا لرب العالمين مقربا إليه حبيبا، بل أقرب محبوب إليه. وإنه لمن عالم الملائكة الأعلى وإن لم يكن منهم، لشبهه بهم فى الوصف وطهارته وإنه للرحمة المسداة إلى الخلق مع النصح الخالص لوجه ربه ومع الحنو والعطف، بل إنه شمس يضىء الوجود صبحا وينسكب عليه غيثا غدقا. ولأبى زيد وراء هذا الديوان نبويات كثيرة أنشد منها المقرى فى النفح شذورًا، من ذلك قوله فى الرسول:

تقدَّم كلَّ العـالمينَ إلى مَدًى تظلُّ به الأَوْهامُ ظالِعَةً حَسْرَى(٢)
وعفىَّ رُسُومَ الكافـرين وأهلَها فلا قَيْصَرُ من بَعْد ذاكَ ولا كِسْرَى
وخُصَّ بتشريفٍ على الناسِ كلِّهم بنـور سماءٍ نـاقلوه عن الإِسْـرا
ترقَّى إلى السَّبْعِ الطِّباقِ ترَقِّيًا حَقِيقًا ولم يَعْبُرْ سَفِينـا ولاجِسْرا
فسبحان مَنْ أَسْرَى إليه بِعَبْدِه وبُورك فى السارى وبُورك فى المَسْرَى

وهو يقول إن الرسول ﷺ تقدم عند ربه إلى مدى لا تستطيع الأوهام أن ترتفع إليه مهما صعَّدت ومهما تلهفت. وقد محا رسوم الكفار كأن لم تكن شيئا مذكورا، فلا كسرى إذ سُلبت منه كل بلاده وأصبحت من ديار الإسلام، ولا قيصر فقد سُلبت الجوهرتان المتلألئتان فى تاجه: مصر والشام. وخصَّه الله بتشريف على الناس ما بعده تشريف، خصه بالإسراء ليلا إلى بيت المقدس وترقيه إلى السموات السبع ونزوله عند سدرة المنتهى يناجى ربه، فسبحان الذى أسرى بعبده. مرددا بذلك ما جاء فى أول سورة الإسراء. ويقول بورك فى الرسول السارى وفى المسرى والإسراء. ويردد أبو زيد فى مديحه النبوى معجزات الرسول المادية ومعجزته الكبرى الخارقة معجزة القرآن الكريم وبلاغته التى ليس لها سابقة ولا لاحقة، ودائما يذكر أنه خير الأنبياء وأفضلهم، وأكثرهم برا بأصحابه، ويحمل مرارا على أعدائه من الملحدين، ويقول إنهم انحرفوا عن شاطئ النجاة فتردَّوا فى بحار هلاك ما بعده هلاك.

(١) المزن: السحاب الغدق الممطر. (٢) ظالعة: عرجاء. حسرى: متلهفة.

ابن[1] جابر الأندلسى

هو أبو عبدالله محمد بن أحمد بن جابر الهوارى، من أهل المرية ولد بها سنة ٦٩٨ وحفظ القرآن واختلف إلى الشيوخ من مثل ابن أبى العيش فى العربية ومحمد بن سعيد الرندى فى الفقه وأبى عبدالله الزواوى فى الحديث. وكان كفيف البصر، ورأى أن يستتم ثقافته بالرحلة إلى الديار المصرية والشامية، وصحبه صديقه أبو جعفر أحمد بن يوسف الغرناطى، فكان ابن جابر ينظم وأبو جعفر يكتب. وحجَّا وعادا إلى الشام، وسمع ابن جابر بدمشق على شيوخ عصره، واتجه مع صاحبه فى سنة ٦٤٣ إلى حلب وتغلغلا شماليها حتى ماردين[2]، إذ يذكر ابن بطوطة فى رحلته عن سلطان ماردين ابن الملك الصالح أنه كان بحرا فياضا فى الكرم، يقصده الشعراء والفقراء من الصوفية فيجزل عطاياهم، ويقول إنه قصده أبو عبدالله محمد بن جابر الأندلسى الهوارى الكفيف مادحا، فأعطاه عشرين ألف درهم. وعاش طويلاً فى حلب وتوفى بإلبيرة سنة ٧٨٠. وقد أكثر من النظم فى المديح النبوى، وله فيه ديوان سماه «العقدين فى مدح سيد الكونين» وبالمكتبة التيمورية مخطوطة منه. وله بجانب ذلك مشاركة خصبة فى الشعر التعليمى إذ نظم فيه فصيح ثعلب وكفاية المتحفظ وغير ذلك، وله بديعية اشتهرت بين البديعيات، وهى قصائد فى المديح النبوى، عارض بها أصحابها - منذ صفى الدين الحِلِّى - بردة البوصيرى الميمية، وأودعوا كل بيت فيها لونا - وأحيانا لونين - من ألوان البديع، وشرحها رفيقة فى رحلته أبو جعفر الغرناطى، واشتهرت باسم بديعية العميان وقد سمَّاها: «الحلة السِّيرا[3] فى مدح خير الورى» وفى النفح طائفة كبيرة من نبوياته، منها مقصورة فى نحو ثلاثمائة بيت نقتطف منها قوله:

إنَّ رسـولَ الله مصباحُ هُـدًى ... يُهْدَى بهِ مَنْ فى دُجَى الليل مَشَى
إنْ تَحْسَبِ الرُّسْلَ سماءً قد بَدتْ ... فـإنَّـه فى أُفْقِهـا نَجْمُ هُـدَى
وإن يكـونوا أَنْجُمًـا فى فَلَكٍ ... فــإنَّـه من بينهم بَــدْرٌ بَـدَا

---

(١) انظر فى ابن جابر وترجمته وشعره نكت الهميان ص ٢٤٤ والإحاطة ٣/٣٣٠ والدرر الكامنة لابن حجر ٤/٤٢٩ وشذرات الذهب ٦/٢٦٨ ونفـح الـطيب ٢/٦٦٤ - ٦٩٠، ٧/٣٠٢ - ٣٧٠.

(٢) ماردين: قرية بتركيا الآن.

(٣) السِّيَرا: المخطَّطة خطوطا بديعة.

أحسنُ أخلاقًا من الرَّوْضِ إذا ماإختالَ فى بُرْد الصَّبا أوِارْتَدى
تَفْدِيه نَفْسى من شَفِيعٍ للوَرَى وقَلَّتِ النفسُ لَـهُ منّى فِـدَا

وقد بدأ ابن جابر المقصورة بالغزل وضمنها فى تضاعيف المديح النبوى كثيرا من الخواطر والحكم، وفصَّل القول فى شمائل الرسول ومعراجه ومعجزاته، وتحدث عن الدهر وسطواته بأولى البأس والدول، كما تحدث عن حجه إلى البيت الحرام وزيارته بعده للرسول واكتحال عينيه بنور قبره، ويقول إنه ملاذه وعُدَّته وذخره لربه. وأنشد له المقرى مدحة من غرر مدائحه للرسول ورَّى فيها بسور القرآن الكريم، ويقول المقرى: لو لم يكن له فى مديحه سواها لكفى، وهى تمضى على هذا النحو:

فى كـلِّ فاتحـةٍ للقول مُعْتَـبره حقَّ الثَّناءُ على المبعوثِ بالبَقَرهْ
فى آل عِمْرانَ قِدْمًا شاع مَبْعَثُهُ رجالُهم والنساءُ استوضحوا خَبَره
من مدَّ للناس من نُعماه مائدةً عمَّتْ فليستْ على الأنْعامِ مُقْتَصِرَه
أَعْرَافُ نُعْماهُ ماحلَّ الرَّجاءُ بها إلا وأنْفَالُ ذاك الجودِ مُبْتَـدِرَه

والطريف أنه يُحْكم وضع اسم السورة فى مديح البيت ويلتحم بمعناه التحاما رائعا على نحو ما نرى من ذكره فى هذه الأبيات لسور الفاتحة والبقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال. وآل عمران آل السيدة مريم كما جاء فى السورة، والأنعام اسم السورة وهى الإبل، والأعراف كذلك اسم السورة، وهى فى البيت جمع عرف بمعنى المعروف، والأنفال اسم السورة وهى العطايا. واطردت هذه الدقة فى استظهار أسماء السور الكريمة فى جميع أبيات القصيدة. ويُهْدى فى نهايتها أزكى صلواته للرسول وعِتْرته وصحابته، وخصوصا عشرة منهم، ويسميهم، كما يهدى أزكى تحيتين للسيدتين الكريمتين خديجة وعائشة زوجتى الرسول ﷺ ولابنته فاطمة الزهراء وابنيها الحسن والحسين، ويقول انه سيظل يهدى كل من سماهم مدائحه. وله قصيدة مطولة فى فضائل الصحابة العشرة وآل البيت، ولكل علَمٍ منهم فى أبياتها حظ مقسوم. ونشعر دائما عنده أنه يستمد من نبع فياض لا يتوقف ولا يتقطع، بل يتدفق تدفقا غزيرا.

٥

شعراء الاستنفار والاستصراخ

أخذت قصائد الاستنفار والاستصراخ وطلب الغوث والعون تتكاثر فى الأندلس منذ عصر أمراء الطوائف، إذ انقسمت الأندلس الشامخة فى عصر الدولة الأموية إلى أندلسات ودول وإمارات كثيرة، وأخذ أولئك الأمراء يعيشون للهو والقصف، وقلما فكروا فى مصير الأندلس، وكثير منهم كانوا يحملون السلاح ويسدِّدونه إلى صدور جيرانهم الأندلسيين وما يلبثون أن يغمدوه حين يشهر الحرب على أحد هؤلاء الجيران أعداؤهم من نصارى الشمال. وأكثر من ذلك كانوا يفدون أنفسهم وإماراتهم منهم بإتاوات سنوية يدفعونها لهم راغمين. وانتهز أولئك النصارى الفرصة وهذه الفرقة بين أمراء الطوائف فتنادوا باسترداد الأندلس، وكان أول ما حاولوا استرداده حصن بَرْبَشْتر سنة ٤٥٦ الواقع بين مدينتى لاردة وسرقسطة ركنى الثغور الشمالية، فقد حاصره النورمانديون واستولوا عليه ونكّلوا بأهله ونسائه وفتياته تنكيلا بشعا، زلزل الأندلس وأطار من أهلها الأفئدة، وكان ممن أفزعه هذا الحادث الجلل، فقيه طليطلة الزاهد عبد الله العسال، فنظم قصيدة ملتهبة يستصرخ بها أهل الأندلس وفيها يقول[١]:

ولقد رمانا المُشركون بأسْهُمٍ ... لم تُخْطِ لكنْ شأنُها الإصْماءُ[٢]
كم موضعٍ غنموه لم يُرْحَمْ بهِ ... طِفْلٌ ولا شَيْخٌ ولا عَذْرَاءُ
ولكم رضيع فرَّقوه من أمِّه ... فلَهُ إليها ضَجَّةٌ وبُغَاءُ[٣]
ولربَّ مولودٍ أبوه مُجَدَّلٌ ... فوقَ التُّراب وفَرْشُهُ البَيْدَاءُ
ومصونةٍ فى خِدْرها مَحْجُوبَةٍ ... قد أبْرَزُوها ما لها اسْتِخْفَاءُ

وهو يقول إن المشركين رمونا بأسهم قاتلة، وغنموا مغانم ضخمة، لا تأخذهم شفقة ولا رحمة على طفل ولا على فتاة ولا على رضيع ينشد أمه ويصيح بها، ولقد هُتكت الحُرَم ونُهبت الفتيات، والدماء هناك مطلولة، وقد رُوِّع سِرْب الله وفُلَّ غَرْبه، وإن العين لتدمع وإن النفس لتتقطع. وكان ممن استثارتهم هذه النكبة وأقضّت مضاجعهم الفقيه أبو حفص

(١) الروض المعطار (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٤٠.

(٢) الإصماء: القتل.

(٣) بغاء: نشدان.

عمر بن الحسن الهوزنى تِرْب المعتضد أمير إشبيلية ورفيقه فى شبابه، فكتب إليه يستصرخه[١]، ليرأب الصدع ويداوى الجروح، ونظم أشعارا يحض فيها الأندلسيين على جهاد العدو قبل أن يستفحل الخطب ويُعْضل الداء من مثل قوله[٢]:

بَيَّتِ الشـرَّ فـلا يَسْتَـزِلُّ ... طَرَقَ النُّوَّامَ سِمْعٌ أزلُّ[٣]
فثِبوا واخْشَوْشنـوا واحْزَئلُّوا ... كلُّ مارُزْءٍ سوى الدِّين قُلُّ
بَدْءُ صَعْق الأرضِ نَشْءٌ وطَلٌّ ... وريــاحٌ ثـم غَيْـمٌ أَبَـلُّ[٤]
يَدُنا العليا، وهم - وَيْكَ - شُلٌّ ... فلِمَ استرعى الأعزَّ الأذلُّ[٥]
عجبُ الأيـامِ ليثٌ صُمُـلٌّ ... ذَعَـرَتْـهُ نَعْجَـةٌ إذْ تَصِـلُّ[٦]

وهو يصرخ فى كل أندلسى أن يعزم - بقوة - على الشر، فقد صكَّ مسامع النوام ذئب فاتك. وعليهم أن يثبوا بأعدائهم ويخشوشنوا ويتجمعوا لهم حتى يضربوهم الضربة القاضية. وإنه لينذر قومه فبدء الصواعق سحاب ينشأ وطل خفيف ورياح لينة، ثم غيم كثيف ورعود وبروق وعواصف مدمرة. ويحاول أن يملأ روح الأندلسيين حماسة ملتهبة، فيقول إننا كثرة غالبة ولنا العز والبأس والمنعة، وأعداؤنا قلة ذليلة، فكيف دَهَى الأذلاء الأعزاء واستباحوا ديارهم، ويعجب أشد العجب من أن تُفْزِع نعجة لا حول لها ولا قوة بصوتها اللين الرخيم أسدا ضاريا بالغ الصلابة مفرط القوة. واستطاع أبو حفص الهوزنى وأضرابه من شعراء الأندلس أن يملئوا نفوس أهل سرقسطة غضبا لإخوانهم من أهل بربشتر، فلم يدر عامٌ حتى انقضوا على النورمانديين ونكَّلوا بهم، واسترجعوا بربشتر، وغسلوها من وضرهم ورجسهم.

وكان فردناند ملك قشتالة قسم دولته بين أولاده الثلاثة: شانجه بقشتالة وألفونس بليون وأشتوريش وغرسية بجليقية والبرتغال، واختصم شانجه وألفونس وانتصر شانجه ففر ألفونس إلى دير، ثم لجأ إلى المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة، وبدلا من أن ينتهز الفرصة التى أمكنته من عدوه أنزله ببلده فى قصر وأكرمه لمدة تسعة شهور، درس فيها طليطلة ومداخلها ومخارجها. واغتيل شانجه، واستدعى القشتاليون ألفونس وأصبح

(١) الذخيرة ٢/٨٩.
(٢) الذخيرة ٢/٨٩.
(٣) سمع أزل: ذئب فاتك.
(٤) غيم أبل: غيم ممطر مطرا شديدا.
(٥) شل: يريد قلة.
(٦) صمل: شديد الخلق. تصل: تصيح بصوت لين رقيق.

ملكا عليهم وعلى ليون وجليقية والبرتغال. وكان أول ما أهمَّه الاستيلاء على طليطلة حتى يردَّ الدَّيْن الذى فى عنقه لبنى ذى النون! يقول ابن الخطيب: «وسُكْناه بطليطلة واطلاعه على عوراتها هو الذى أوجب تملك النصارى لها[١]». ولم يلبث أن استولى عليها - كما مر بنا فى غير هذا الموضع - سنة ٤٧٨ واستولى على جميع المدن والقرى التابعة لها من وادى الحجارة إلى طلبيرة وشنتمرية، وكان لذلك زلزلة ضخمة فى نفوس الأندلسيين، إذ استولى ألفونس لا على مدينة بل على قلعة ضخمة من أكبر قلاعهم، وانبرى شاعر كبير يحرض الأندلسيين على الأخذ بالثأر واسترداد تلك الجوهرة الكبيرة، بقصيدة تقطر غضبا وموجدة، وفيها يقول[٢]:

طُلَيْطِلَةٌ أباحَ الكُفْرُ منها ... حِماها إنَّ ذا نَبَأٌ كَبِيرُ
ألم تَكُ مَعْقِلًا للدِّين صَعْبًا ... فذَلَّله - كما شاءَ - القديرُ
فعادتْ دارَ كُفْرٍ مصطفاةً ... قد اضْطَرَبَتْ بأهليها الأمورُ
مساجدُها كنائسُ أيُّ قَلْبٍ ... على هذا يَقِرُّ ولا يطيرُ؟!
أُذِيلَتْ قاصِرَاتُ الطَّرْفِ كانتْ ... مَصُوناتٍ مساكنُها القصُورُ[٣]

والنزعة الدينية قوية فى القصيدة، إذ كانت حرب الشماليين فعلا حربا صليبية، والشاعر جزع أن يسقط هذا المعقل الكبير للدين الحنيف، ولا يهبُّ أبناؤه لحمايته واستعادته، حتى لقد أصبح دار كفر بعد أن كان دار إيمان وهداية. ولم يوف ألفونس بما عاهد عليه بنى ذى النون أمراءها وأهلها من الإبقاء على مساجدهم واحترام شعائرهم الدينية، فقد أحال مسجدها الكبير كنيسة. ويستثير الشاعر حمية المسلمين لا للدين الحنيف فحسب، بل أيضا للعِرْض الذى طالما سُلَّت السيوف من أجله وأذيقت الحتوف، فقد امتهنت النساء العفيفات ربات القصور الحسان ذوات الجمال، وتحوَّلن إلى خادمات فى بيوت العلوج، وإنه لحرى أن يَغْلى لذلك دم كل مسلم وأن يمتشق الحسام للثأر والفتك بأعداء الإسلام، يقول:

خذوا ثأرَ الديانةِ وانْصُروها ... فقد حامَتْ على القَتْلَى النُّسُورُ
ولا تَهِنُوا وسُلُّوا كلَّ عَضْبٍ ... تَهابُ مضاربًا منه النُّحورُ[٤]
وموتوا كلُّكم فالموتُ أولَى ... بكم مِنْ أنْ تجُاروا أو تخوروا[٥]

(١) أعمال الأعلام ٢/٣٣٠.
(٢) نفح الطيب ٤/٤٨٣ وما بعدها.
(٣) أذيلت: امتهنت. قاصرات الطرف: عفيفات.
(٤) العضب: السيف القاطع.
(٥) تجاروا: من أجاره إذا حماه. تخوروا من خار: ضعف ووهن.

ونَـرجُوُ أن يُتِيـحَ الله نَصْرًا   عليهـم إنَّـه نِعْـمَ النَّصِيـرُ

وهو يقول للأندلسيين جميعا ولأمراء الطوائف: هبوا من نومكم للأخذ بثأر دينكم ولا تهنوا بل جالدوا أعداءه مجالدة ضارية، حتى تذيقوهم وبال عدوانهم الأثيم، وإنه لعار ما بعده عار أن تسالموهم وتقبلوا إجارتهم وحمايتهم لكم فإن فى ذلك هوانًا لكم ما بعده هوان. ويستصرخ كل أندلسى أن ينازلهم حتى الذماء الأخير، عسى أن يُجْبَرَ العظم الكسير. ومع روعة القصيدة وامتدادها إلى نحو ستين بيتا لم يذكر معها اسم ناظمها، وأكبر الظن أنها لزاهد طليطلة أبى محمد عبد الله العسَّال، ومرَّ بنا آنفا شعره حين استولى العدو على بَرْبشتر، ولا يعقل أن يستولى ألفونس على طليطلة بلده ولا ينظم فيها قصيدة حارة يستنفر بها الأندلسيين لاستردادها، ونظن ظنا أنه نظم فى نجدتها لا هذه القصيدة فحسب، بل قصائد مختلفة يستثير بها مواطنيه كى ينقذوها من أيدى القشتاليين.

وكان يوسف بن تاشفين - كما مر بنا - حين استولى على إمارات أمراء الطوائف رأى أن يدع سرقسطة فى أقصى الشمال لأمرائها من بنى هود لاستبسالهم المستمر فى حمايتها أمام ملوك أراجون، حتى إذا خلفه ابنه على زيَّن له الملتفون حوله من الفقهاء ورجال دولته أن يأخذها من أيدى بنى هود، فأجبرهم على التنازل عنها، وسرعان ما أزفت الآزفة إذ حاصرها ملك أراجون سنة٥١٢ واستولى عليها من يد المرابطين. وكان ذلك نذير شؤم، فقد استولى النصارى بعدها على الثغور المجاورة، استولوا على كُتُنْده جنوبيها سنة ٥١٤ وعلى تُطيلة وطرَسونة غربيها سنة ٥٢٤. وفى سنة ٥٣٩ انحسر ظل دولة المرابطين عن الأندلس، وانتهز الفرصة كثيرون من شخصياتها فسيطروا على بعض بلدانها، وسيطر من بينهم ابن همشك على جَيَّان واتخذ وزيرا له أبا جعفر الوقَّشى أحد رجالات الأندلس النابهين وكان شاعرا، وما زال يقنع ابن همشك بالدخول فى طاعة الموحدين حتى ارتضى رأيه سنة ٥٦٢ فأرسل به إلى يوسف بن عبد المؤمن فى عاصمته مراكش ليعلن إليه دخوله فى طاعته، وأحسن يوسف استقباله، وله فيه غير قصيدة، ونراه فى إحداها[1] يستصرخه لجهاد النصارى فى الأندلس ورد كيدهم فى نحورهم، وفيها يقول:

ألا لَيْتَ شِعْرى هل يُمَدُّ لىَ المَدَى   فأُبْصِرَ شَمْلَ المشركين طَرِيدا[2]

(١) انظر القصيدة فى نفح الطيب ٤/٤٧٧ - ٤٧٨.

(٢) يمد لى المدى: تطول حياتى.

وهل – بعدُ – يُقْضَى فى النَّصارى بنُصْرَةٍ تغادرهم للمُرْهَفَاتِ حَصِيدا[١]
ويغزو أبو يعقوبَ فى «شَنْتَ ياقُبٍ» يُعيد عَمِيدَ الكافرين عَميدا[٢]
ويُلْقِى على إفْرِنْجِهِمْ عِبْءَ كَلْكَلٍ فيتركهم فوقَ الصعيد هُجودا[٣]
يغادرهم جَرْحى وقَتْلى مبرَّحًا ركوعًا على وَجْه الفَلا وسُجودا

والوقَّشى يتمنى أن يُمَدَّ له فى عمره حتى يبصر جموع المشركين مهزومين مدحورين مطرودين إلى أقصى الشمال وقد حصدتهم سيوف المسلمين حصدا بقيادة أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، وهو يتعقبهم منزلا بهم الهلاك والدمار حتى «شنت ياقوب» فى جلِّيقية بأقصى الغرب من مملكة قشتالة، وقد أصبح عميدهم أو ملكهم قتيلا إثر مواقع تمزِّقهم تمزيقا، حتى لتُمْلأ الأرض بهم جرحى وقتلى كُبُّوا على جباههم، وكأنهم راكعون على وجه الفلوات ساجدون وهم مجرَّحون مصرَّعون. ويمضى قائلا:

ويفتكُ من أيدى الطُّغاةِ نواعمًا تبدَّلْنَ من نَظْمِ الحُجُولِ قيودا[٤]
وأقبلْنَ فى خُشْنِ المُسوحِ وطالما سَحَبْنَ من الوَشْىِ الرَّقيق بُرودا
وغبَّر منهنَّ الترابُ تَرَائِبًا وخدَّدَ منهنَّ الهجيرُ خُدودا[٥]
فحقٌّ لدمعى أن يَفيض لأَزْرَقٍ تملَّكها دُعْجَ المدامع سُودا[٦]
ويالهفَ نفسى من معاصم طَفْلَةٍ تجاورُ بالقِدِّ الأليم نُهودا[٧]

والوقَّشى يستثير حمية يوسف بن عبد المؤمن بما حدث من هوان النساء المسلمين وفتياتهم الحسناوات إذ تبدَّلن من زينتهنَّ وحلىِّ خلاخيلهن أغلال القيود، بل يا للذل فقد ألبسوهن مسوح النصارى الصوفية الخشنة بعد أن عِشْنَ يلبَسْن الثياب الحريرية الموشَّاة الرقيقة، بل يا للهول لقد صِرْنَ خادماتٍ يلَطِّخ التراب مواضع القلائد النفيسة فى صدورهنَّ، وقد غاضت من خدودهن النضرة من العمل الشاق فى لفح الهاجرة بعد أن كن

---

(١) المرهفات: السيوف. حصيدا: محصودين كالزرع المحصود.
(٢) يريد بعميد الأولى سيد النصارى وملكهم، وبعميد الثانية قتيلا وأصل معناها القتيل بالعمود.
(٣) كلكل: وقعة مبيرة. الصعيد: وجه الأرض. هجودا: موتى كأنهم نائمون
(٤) الحجول: الخلاخيل.
(٥) غبَّر: لطخ بالغبار. الترائب جمع تريبة: موضع القلادة فى أعلى الصدر. خدد: أنحل. الهجير: اشتداد الحر.
(٦) يريد بالأزرق الإسبانى لزرقة عينيه. دعج جمع أدعج: شديد السواد.
(٧) معاصم جمع معصم: موضع السوار فى يد المرأة. طفلة بفتح الطاء: المرأة أو الفتاة البضة الناعمة. القِد: سير من جلد.

ربَّات بيوت وفتيات قصور مخدومات تحفّ بهن الفخامة والجلال. ويقول الوقّشي حقٌّ لدمعي أن يسيل مدرارا لأولئك الحسان ذوات العيون النجلاء الدُّعج اللائي نشأن في الحلية والنعيم، فقد بُدِّلت الأساور والحليّ الذهبية في معاصمهن أَقُدًّا أو سيورا من جلد. فياللعار! ويا للإسلام! ويا للعروبة

وكان لهذه القصيدة وما يماثلها من استصراخات الأندلسيين ليوسف بن عبد المؤمن أمير الموحدين الأثر العميق في نفسه، فدخل الأندلس في سنة ٥٦٦ على رأس مائة ألف فارس شاكي السلاح، وسحق النصارى في غير موقعة واستردَّ كثيرا من ديار الأندلس والقلاع والحصون، واتسعت بها مملكته. وخلَفه ابنه يعقوب المنصور فمزَّق جموعهم في موقعة الأَرَك المشهورة سنة ٥٩١ غير أن النصر كُتب لهم في موقعة العِقاب سنة ٦٠٩ لعهد ابنه الناصر. وثارت الأندلس على الموحدين، وتفككتْ بلدانها وتحارب أمراؤها، مما آذن سريعا بضياع الشطر الأكبر منها، وما توافى سنة ٦٢٦ حتى يستولى النصارى القشتاليون على مدينة ماردة في الغرب شرقي بطليوس، وفي السنة التالية يستولى صاحب بَرْشلونة على جزيرة ميورقة، وما تلبث حَبَّات العقد ودرره أن تَنفرط واحدة في إثر أخرى، وتسقط في سنة ٦٣٣ قرطبة جوهرة الأندلس الكبرى في حجر القشتاليين، وتنشب بأخرة من سنة ٦٣٤ موقعة أنيشة على بعد سبعة أميال من بلنسية بين رجالها وذوى البأس والشجاعة فيها وبين ملك أرجون وجنوده، واستطاعت الكثرة النصرانية أن تدحر الأبطال الأشداء ومن كان يلهب حماستهم من العلماء أمثال القاضي أبي الربيع الكلاعي الذي استشهد وهو ينازل العدو منازلة ضارية. ولم يلبث ملك أراجون أن حاصر بلنسية أشهرا متعاقبة، وشدَّد الحصار حتى أعوزت شجعانها المؤن، ولم يبق إلا الموت جوعا أو التسليم. ومنذ موقعة أنيشة أخذ أميرها أبو جميل زيان بن أبي الحملات يستصرخ حكام المغرب لإغاثته ونجدة بلدته مرسلا إليهم الوفود تلو الوفود، وكان ممن استغاث به أبو زكريا يحيى بن أبي حفص أمير تونس، إذ أرسل إليه وفدًا على رأسه كاتبه ووزيره المؤرخ الأديب ابن الأبار، وسنترجم له عما قليل ملمين بقصيدته التي أنشدها بين يديه مستنفرًا له قبل سقوط بلنسية في يد العدو. وتأثر حين سماعه القصيدة فجهَّز أسطولاً من ثماني عشرة سفينة محمَّلة بالمؤن والسلاح، واتجه الأسطول – مع ابن الأبار والوفد المرافق له – إلى بلنسية، غير أن الأسطول أخفق في إيصال المؤن إلى المحاصَرين، واضطر إلى إنزالها في ثغر دانية جنوبي بلنسية. وقد ظلت المدينة تقاوم أشهرا طوالا حتى نفدت الأقوات واضطر أميرها وأهلها إلى التسليم في صدر سنة ٦٣٦ وكان

ذلك رُزْءًا أليما وخطبا جسيما، مما جعل كثيرين من شرقى الأندلس يستنهضون عزائم أهل المغرب وأمرائهم لاسترداد بلنسية والأخذ بثأرها، من ذلك قصيدة مطولة أنشدها المقرى لشاعر وجَّه بها إلى أبى زكريا الحفصى أمير تونس، يقول فيها[(١)]:

نادتْك أَنْدَلُسٌ فلبِّ نِداءَها — واجْعَلْ طواغيتَ الصَّليبِ فداءَها
رِشْ أيُّها المولى الرَّحيم جَناحَها — واعْقِدْ بأَرْشِيَةِ النجاة رِشاءَها[(٢)]
إيهِ بَلَنْسِيَةٌ وفى ذِكْراك ما — يُمْرِي الشئونَ دماءَها لا ماءَها[(٣)]
بأبى مآذِنُ كالطُّلولِ دَوارِسٌ — نسختْ نواقيسُ الصَّليب نِداءها
هُبُّوا لها يا مَعْشَرَ التَّوحِيدِ قد — آنَ الهُبُوبُ وأَحْرِزوا عَلْيَاءَها

والقصيدة تزخر بالعاطفة الدينية، فالأندلس تستجير ضارعة من حملة الصليب الطغاة، ويتوسل الشاعر إلى أبى زكريا أن يريش جناح الأندلس المهيض ويعقد حبلها وخيوطها بحبال النجاة وما يرسل إليها من الجيوش الجرارة. ويبكى بلنسية وما دهاها، مما يُفيض المدامع لا ماء بل دماء ساخنة حارة، ويود لو فدى المآذن الدارسة بروحه، ويتحسر على ندائها: «الله أكبر» الذى نسخته نواقيس الصلبان بل محته محوا. ويستصرخ المسلمين أهل التوحيد أن يهبوا لإنقاذ الأندلس من أهل الصليب وما ينزلون بها من محن وخطوب عظام. وتسقط فى أواخر سنة ٦٣٩ مدينة شُقْر جنوبىّ بَلَنْسِيَة: بلدة ابن خفاجة أكبر شعراء الطبيعة فى الأندلس، ويلتاع الكاتب الشاعر ابن عميرة أحد أبنائها لسقوطها التياعا شديدا آملا فى استردادها من حملة الصَّليب بمثل قوله:[(٤)]

قد عاد قَلْبى من شَرْقِ أَنْدلسٍ — عيدُ أسىً فَتَّه وما فَتَرْ[(٥)]
ودون شُقْرٍ ودونَ زُرْقتِهِ — أزرقُ يَحْكى قَناهُ أَوْ أَشْقَرْ
الرُّومُ حربٌ لنا وهُمْ وَشَلٌ — سَالمه الواردونَ فاسْتَبْحَرْ[(٦)]
إنا لنرجو للدَّهر فَيْأةَ مَنْ — أنابَ مما جَناهُ واسْتغفرْ[(٧)]
ونرقُب الكرَّةَ التى أبدًا — بها على الروم لم نزلْ نُخْبَرْ

---

(١) نفح الطيب ٤٧٩/٤.

(٢) رش من راش: أنبت الريش. أرشية جمع رشاء: الحبل.

(٣) يمرى من أمرى الناقة: أدرّ لبنها.

(٤) انظر: أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومى للدكتور محمد بن شريفة (طبع الرباط) ص ٢٣٢.

(٥) عيد هنا: ما يعتاد الإنسان من الهموم. فتر: سكن

(٦) وشل: قليلون. استبحر: كثر واتسع.

(٧) فيأة: رجعة.

وهو يقول إنه زار شرق الأندلس، فامتلأ قلبه مما حدث له ولموطنه «شقر» أَسًى وَغَمًّا فتّته تفتيتا، ولم - ولن - يفتر أو يسكن، وأين شُقْرٌ؟ وأين نهرها بزرقته وحلله السندسية؟ لقد استولى عليه شُقْر من الروم زرق العيون مثل زرقة قناته، ويقول: يا للعجب! لقد كانوا فئة معادية قليلة فسالمهم الواردون على الأندلس، فإذا هم يتكاثرون ويتسع سلطانهم. وإنه ليأمل أن يتوب الدهر مما جناه على أهل الأندلس من عدوان حملة الصليب، ويسترجع طالبا الغفران. ويقول إننا لا نزال نرقب الكرَّة على الروم والنصر الذى وعد الله به الإسلام والمسلمين على الكفار وأهل الشرك. ويتوالى بعد ذلك سقوط المدن الأندلسية، فتسقط دانية على المتوسط سنة ٦٤٣ وجيَّان شرقى قرطبة سنة ٦٤٣ وشاطبة شرقى دانية سنة ٦٤٤. وإشبيلية سنة ٦٤٥ ومرسية سنة ٦٦٤ ويصرخ أبو البقاء الرُّندى فى نونية له مشهورة صرخة مدوية، وحرى بنا أن نتحدث بإيجاز عنه وعن ابن الأبار.

ابن[1] الأبَّار

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى، كان أبوه من جِلَّة القرَّاء، من أهل حصن أُنده من أعمال بلنسية، بارحها إليها واتخذها وطنا له ومستقرا، وبها رُزق بابنه محمد سنة ٥٩٥ للهجرة، وعنى به، فحفظ القرآن الكريم، وأخذ عنه قراءة نافع مقرئ أهل المدينة المشهور، وأكبَّ على دراسة الحديث ورجاله والفقه والتاريخ، وأخذ يلتهم كل ما يسمعه عن الشيوخ وخاصة عن إمام بلنسية وقاضيها لعصره أبى الربيع سليمان بن موسى الكلاعى، وكان ابن الأبار يعجب به إعجابا يملأ عليه نفسه، وهو الذى وجهه إلى العناية بالكتابة التاريخية عن أعلام الأندلس، واتخذه الكلاعى صفيًّا له، لما رأى من ذكائه النادر، غير أنه طمح إلى العمل السياسى فى دواوين الحكام، ولم يلبث والى الموحدين على

---

(١) انظر فى ابن الأبار عنوان الدراية للغبرينى ص ١٨٣ واختصار القدح المعلى لابن سعيد ص ١٩١ والمغرب ٣٠٩/٢ وتاريخ ابن خلدون ٢٨٣/٦ وفوات الوفيات لابن شاكر ٤٥٠/٢ وبقية السفر الرابع من كتاب الذيل والتكملة للمراكشى ص ٩٠ وأزهار الرياض للمقرى ٢٠٥/٣ وما بعدها ونفح الطيب ٤٥٧/٤ وفى مواضع مختلفة (انظر الفهرس) وشذرات الذهب ٢٩٥/٥ وراجع كتاب الدكتور عبد العزيز عبد المجيد عنه (طبع بمعهد مولاى الحسن ١٩٥١) وكذلك مادة دائرة المعارف الإسلامية عنه ومقدمة الدكتور مؤنس لتحقيقه لكتابه «الحلة السيراء» وقد عرض فيها جميع من تحدثوا عنه من المستشرقين والمعاصرين.

مدينته محمد بن أبي حفص أن اتخذه كاتبا له، وكتب بعده لابنه أبي زيد عبدالرحمن، ويستخلص منه بلنسية أبوجميل زيّان بن مرْدنيش صاحب مرسية، ويظل ابن الأبار كاتبا له، وتحدث معركة أنيشة، ويستشهد فيها أستاذه الكلاعى ويندبه ويندب من استشهدوا معه ندبا حارا. وما يلبث صاحب برشلونه أن يحاصر بلنسية، وحينئذ يرسل به أميرها إلى أبي زكريا يحيى بن أبي حفص أمير تونس على رأس وفد لطلب الغوث والمعونة، فجهَّز له أسطولا محمَّلا بالمؤن والأسلحة كما مرَّ بنا، غير أنه لم يستطع إيصال ما يحمله إليها بسبب ما أحاطها به النصارى من حصار شديد، فانسحب الأسطول إلى دانية جنوبيها وسلَّم أهلها ما حمله كما مرَّ بنا. وتطورت الظروف فاستسلمت بلنسية فى صدر سنة ٦٣٦ وحضر ابن الأبار عقد تسليمها وشروطه، ودائما كان أمراء النصارى حين يستولون على بلد أندلسى لا يفون بالشروط المأخوذة عليهم، وكأنما زهد ابن الأبار فى المقام بالأندلس بعد سقوط مدينته، فاتجه إلى البلاد المغربية ونزل بجاية وأقام بها بضعة أشهر، ثم تركها إلى تونس، فألحقه أميرها أبو زكريا بدواوينه، فتولى بها كتابة الإنشاء والعلامة أوشارة الدولة، وهى توقيع يوضع على المكاتبات الرسمية لبيان أنها صادرة عن الدولة الحاكمة، وكان يكتبها بخطه الأندلسى، فرأى الأمير أبوزكريا أن تكتب بالخط المشرقى وأن يختص بكتابتها أحمد بن ابراهيم الغسانى، وغضب ابن الأبار لذلك وظل يكتب تلك العلامة بخطه الأندلسى، مما اضطر أبا زكريا أن يعفيه من عمله فأقام ببجاية فترة حتى إذا توفى أبو زكريا سنة ٦٤٧ وخلفه ابنه المستنصر أبو عبد الله محمد أعاده إلى الكتابة فى ديوانه ورفعه إلى مرتبة الوزارة، وكانت فيه حدة لسان تنفِّر الناس منه، ويقول ابن خلدون: «كان فيه أنفة وَبَأْوٌ (عظمة) وضيق خلق» فأوجد له أعداء ألداء، واستطاعوا أن يقنعوا المستنصر باشتراكه فى مؤامرة ضده، فأمر بقتله وإحراق أشلائه وكتبه، وهكذا قُتل سنة ٦٥٨ مظلوما مأسوفا عليه من معاصريه وكل من جاء بعدهم.

ويعد ابن الأبار فى الذروة من مؤرخى الأندلس وعلمائها البررة الموثوق بهم ثقة لا تدانيها ثقة، وهو فى مقدمة من مكَّنوا الباحثين المعاصرين من الكتابة عن الأندلس وأعلامها النابهين بفضل كتبه النفيسة، وهى: التكملة فى مجلدين - المعجم فى أصحاب القاضى الصدفى المتوفى سنة ٥١٤ هـ - الحلة السيراء فى مجلدين وتشتمل

على تراجم الأمراء والأعيان في الأندلس والمغرب - تحفة القادم فى شعراء عصره - إعتاب الكتاب: عن الكتاب الذين فقدوا مكانتهم وحظوتهم عند الحكّام ثم استعادوها، وبهذا الكتاب استعاد مكانته عند المستنصر، ثم غضب عليه.

وكان ابن الأبار شاعرا مجيدًا، وحين حدثت وقعة أنيشة أظلمت الدنيا فى عينيه لمن استشهدوا فيها من الشيوخ الجلة وخاصة شيخه أبا الربيع الكلاعى، وكان قد بلغ السبعين من عمره، وحين سمع النفير بادر لقتال أعداء الإسلام، ولم يزل متقدما أمام الصفوف زاحفا إلى الأعداء مرغِّبا فى قتالهم مناديا فيمن ينهزمون: أعن الجنة تفرُّون؟ وظل يُعْمل السيف فى الأعداء حتى استشهد مع من استشهدوا من شيوخ بلنسية وشجعانها البواسل، وندبهم معه ابن الأبار بقصيدة، تشعل الحمية فى قلب كل مسلم، وفيها يقول:

أَلِمَّـا بأشْـلاءِ العُلا والمكـارمِ تُقَدّ بأطراف القَنَا والصَّوَارِمِ[1]
مَضَوْا فى سَبِيلِ الله قُدْما كأنما يَطِيرون من أَقْدامهم بِقَوَادِمِ[2]
مواقفُ أبرارٍ قَضَوْا من جهادهمْ حقوقًا عليهم كالفُروضِ اللَّوَازِمِ
أَبِيتُ لها تحتَ الظَّلامِ كأننى رَمِيُّ نِصالٍ أو لدِيغُ أراقمِ[3]
فوا أَسَفِى للدِّين أعْضلَ داؤهُ وأَيْأَسَ من آسٍ لِمَسْراهُ حاسمِ[4]

وهو يهيب بكل مسلم أن يلمَّ بتلك الأشلاء الطاهرة التى قطَّعتها ومزقتها رماح النصارى وسيوفهم ويقول إنهم مضوا إلى الجهاد فى سبيل الله مسرعين، كأنهم طير وأقدامهم قوادمه، حتى يؤدوا حقوق دينهم أداءَ المجاهدين الأبرار. وإن ذكرى الواقعة وشهدائها لتحز فى نفسه، بل لكأنما رمى منها بنصال تنزف الدم من فؤاده، أو كأنه لديغ حيات ما تزال سمومها تسرى فى شرايينه. ويتحسر للدين الحنيف فى الأندلس فكأنما أنزل النصارى به داء عُضالا، لا يمكن لطبيب أن يشفيه منه أو يحسمه. وذكرنا آنفا أنه حين قدم مع وفد بلنسية على أبى زكريا صاحب تونس أنشده قصيدة يستصرخه بها لإنقاذ بلنسية ويقول ابن سعيد: عارضها كثير من الشعراء ما بين محظىّ ومحروم، وولِعَ الناس

---

(١) تقد: تشقق. القنا: الرماح. الصوارم: السيوف.
(٢) قدما: مسرعين. القوادم: الريشات الكبيرة فى مقدم الجناح.
(٣) نصال جمع نصل: حد السيف. الأراقم: الحيات.
(٤) أعضل الداء: لم يمكن البرء منه. آس: طبيب.

بحفظها وَلَع بنى تغلب بقصيدة عمرو بن كلثوم، ويقول المقرى فى أزهار الرياض إنها من «غرر القصائد الطنانة» ويقول فى النفح: إنها «قصيدة فريدة فضحت من باراها، وكبا[١] دونها من جاراها» وفيها يستغيث:

أدرِكْ بخَيْلِك خيلِ الله أَنْدَلُسَا ... إنَّ السبيلَ إلى مَنْجاتِها دَرَسا[٢]
يا للجزيرةِ أضحى أهلُها جَزَرًا ... للحادثاتِ وأمسى جَدُّها تَعِسَا[٣]
وفي بَلَنْسيــةٍ منهــا وقُــرْطُبَــةٍ ... ما يَنْسِفُ النَّفْسَ أو ما يَنْزِفُ النَّفَسَا
يا لَلْمساجِدِ عادتْ للعِدَا بِيَعًا ... وللنِّداء غدا أثناءها جَـرَسا[٤]
طَهِّرْ بِلادَكَ منهمْ إنهم نَجَسٌ ... ولا طهارةَ ما لم تَغْسِلِ النَّجَسَا
واملأْ - هنيئًا لك التأييدُ - ساحتَها ... جُرْدًا سَلاهِبَ أو خَطِّيَّةً دُعُسَا[٥]

وهو يقول لأبى زكريا: أدرك الأندلس بخيلك: خيل الدين الحنيف فقد تعس حَظُّها وأصبح أهلها جزرًا لسيوف النصارى. وإن ما حدث لقرطبة ويوشك أن يحدث لبلنسية لما يروع النفوس ويخنق الأنفاس، إذ أصبحت المساجد كنائس وغدا الأذان والنداء للصلاة أجراسا لنواقيس النصارى، ويقول له إنهم نجاسة ينبغى أن تطهر بلادك منهم بما تسفك من دمائهم، إذ لا طهارة ما لم تغسل النجاسة وتَمْحُها محوا، واملأ الأرض وساحاتها عليهم بخيلك وأسلحتك القاضية. وأثارت القصيدة أبا زكريا وملأت قلبه حفيظة وحمية وموجدة، فأمر - كما أسلفنا - بإعداد أسطول محمل بالمؤن والذخائر، وأرسل به مع ابن الأبار والوفد البلنسى المرافق له لإغاثة بلنسية المحاصرة، غير أن النصارى كانوا قد ضربوا حولها حصارا لم يستطيعوا اجتيازه، وسقطت فى أيديهم المدينة.

أبو[٦] البقاء الرُّندىّ

هو صالح بن أبى الحسن يزيد بن صالح بن شريف يكنى كنية مشهورة بأبى البقاء

---

(١) كبا: تعثر.
(٢) درس: أخلق وتقادم عهده.
(٣) جزرا: قطعا وذبائح. جدها: حظها.
(٤) بيع: كنائس. النداء هنا: الأذان. جرسا أى للنواقيس.
(٥) جردا: خيلا سابقة. سلاهب: عادية. خطية: رماحا. دعسا: طاعنة.
(٦) انظر فى ترجمة أبى البقاء وشعره بقية السفر الرابع من كتاب الذيل والتكملة للمراكشى ص١٣٦ ومابعدها والإحاطة لابن الخطيب ٣٦٠/٣ ونفح الطيب للمقرى ٤٨٦/٤ ومابعدها وأزهار الرياض ٤٧/١ ومابعدها ومجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ٢١١/٦ وكتاب تاريخ النقد الأدبى فى الأندلس للدكتور محمد رضوان الداية ص٤٣٣-٤٦٠.

وكنية أخرى بأبى الطيب، ومسقط رأسه رُنْده إلى الغرب من مالقة، على قمة جبل سامق يشقها نهر وينابيع وتحفّها وديان، مما جعلها - كما فى المغرب - تُعَمَّم بالسحاب وتوشَّح بالأنهار العذاب، وقد رُزق أبوه به سنة ٦٠١ وكان من أهل العلم، ولذلك سلكه المراكشى بين أساتذته، وذكر منهم على بن جابر الدباج الإشبيلى الذى ظل يتصدر للإقراء بإشبيلية خمسين سنة، كما ذكر مواطنَ الدبَّاج أبا القاسم بن الجد نزيل تونس. ولم يتتلمذ لهذين العالمين فقط بل تتلمذ أيضا لابن الفخار الشريشى ولابن زرقون الغرناطى. ويذكر ابن الخطيب عن ابن الزبير صاحب كتاب صلة الصلة أنه تتلمذ له، وكل ذلك يدل على نهم فى طلب العلوم والآداب، واتضح ذلك فى جانبين عنده هما التأليف ونظم الشعر. أما التأليف فله فيه كتاب: «روضة الأنس ونزهة النفس» ويبدو أنه كان كتاب محاضرات وطرف أدبية، وسبق أن ذكرنا فى الفصل الثانى أن له أيضا كتاب الوافى فى نظم القوافى، وأن منه مخطوطة بالمكتبة التيمورية، وأنه فى أربعة أجزاء أولها فى فضل الشعر وطبقات الشعراء وعمل الشعر وآدابه وأغراضه، وثانيها فى محاسن الشعر وفنونه البديعية، وثالثها فى الإخلال والسرقة والضرورة، ورابعها فى حد الشعر وعروضه وقوافيه وأخباره تدل بوضوح على صلته الوثيقة بمحمد بن الأحمر مؤسس إمارة غرناطة، وهى صلة جعلته يكثر من مدائحه. وكان له بجانب هذين الكتابين المتصلين بالأدب شعره ونثره كتاب فى علم الفرائض، وهو يدل - كما قال المراكشى - على أنه كان بجانب ثقافته الأدبية «فقيها فرضيا حافظا» أى محدثا ويقول إنه كان متفننا فى معارف جليلة.

ويقول المراكشى إنه «كان خاتمة الأدباء بالأندلس بارع التصرف فى منظوم الكلام ومنثوره» وإنه كتب إليه بإجازة ما رواه وألَّفه، ويذكر أن له فى النثر مقامات بديعة فى أغراض شتى، كما يذكر أن كلامه نظما ونثرا مدون، مما يدل على أنه خلف ديوان شعر كان معروفا فى زمنه. وقد طارت شهرة أبى البقاء الرندى شرقا وغربا لقصيدته النونية التى نظمها بعد سقوط مدن الأندلس الكبرى فى يد النصارى: قرطبة وإشبيلية وبلنسية وجيان ومرسية سوى ما فى حيِّز كل منها من مدن ومعاقل وحصون مما تنخلع له القلوب والأفئدة أسى وحزنا لهذا المصير المفجع، لا مصير المدن فحسب بل أيضا مصير السكان المسلمين من رجال ونساء وأطفال ووقوعهم أسرى فى أيد لا ترحم، أيد استعبدتهم وأنزلت بهم أهوالا من العذاب لا تطاق. وكأنما ندب أبو البقاء نفسه عن أهل الأندلس يستصرخ المسلمين لنصرة إخوانهم فى الدين وإنقاذهم من يد الكافرين الآثمين، وهو يستهل قصيدته بالحديث عن الدول التى دالت، وكأنما يتأثر فى هذا الجزء من قصيدته بابن

عبدون آملا أن تدول دولة النصارى الشماليين، ثم ما يلبث أن يتمثل الفواجع التى نزلت بقرطبة وأخواتها الأندلسيات، ويهتف:

دَهَى الجزيرةَ أمرٌ لا عَزاءَ له هَوَى لَهُ أُحُدٌ وانهدَّ ثَهْلانُ[1]
فاسْألْ بَلَنْسِيَةً ما شَأْنُ مُرْسِيةٍ وأيْنَ شاطِبةٌ أم أينَ جَيَّانُ
وأينَ قُرْطُبَةٌ دارُ العلومِ فكم من عالمٍ قد سَمَا فيها لَهُ شانُ
وأينَ حِمْصٌ وما تَحوْيهِ من نُزَهٍ ونَهْرُها العَذْبُ فيَّاضٌ وملآنُ[2]
قواعدٌ كنَّ أرْكانَ البلادِ فما عَسَى البقاءُ إذا لم تَبْقَ أرْكانُ
إن المساجدَ قد صَارَتْ كنائسَ ما فيهنَّ إلا نواقيسٌ وصُلْبانُ

إن ما نزل بالأندلس ودهاها من الخطوب أمر يجلّ عن العزاء فيه، إنه لكارثة تهوى لها الجبال وتنهدّ فى كل أرض إسلامية، فتلك مدن كبرى برمَّتها ضاعت وضاعت معها قرطبة دار العلوم وإشبيلية دار الغناء والموسيقى، لقد سقطت أركان البلاد الأندلسية وقواعدها الأساسية، فهل يؤمل بعد ذلك بقاء لغرناطة وغيرها مما لا يزال فى أيدى المسلمين، لقد أصبحت المساجد وما كان يتلى فيها من قرآن كنائس تكتظ بالنواقيس والصلبان، ويصرخ مستنفرا:

يا راكبين عِتاقَ الخيلِ ضامِرَةً كأنها فى مجال السَّبْق عِقْبانُ
وحاملين سيوفَ الهندِ مُرْهفَةً كأنها فى ظلام النَّقْع نِيرانُ[3]
وراتعين وراءَ البحرِ فى دَعَةٍ لهم بأوطانهم عزٌّ وسُلْطانُ
أعندكم نبأٌ من أهْلِ أندلسٍ فقد سَرَى بحديث القوم رُكْبَانُ
ماذا التقاطعُ فى الإسلام بينكمُ وأنتمُ يا عبادَ الله إخْوانُ

وهو يصيح فى فرسان المسلمين وأبطالهم من حملة السيوف المرهفة أن يسارعوا لنجدة الأندلس، ويعجب أن يرى المسلمين راتعين فى ديارهم يعيشون فى دعة وعزة وقوة، كأن ليس عندهم خبر عن الأندلسيين وما أصابهم من محن وكوارث، لا تصيبهم وحدهم بل تصيب أيضا الحنيفية البيضاء فى الصميم، فما هذا التقاطع والتنابذ وأنتم إخوان فى الدين أخوَّة أقوى من أخوة ذوى الرحم، إذ ليست أخوَّة دم بل أخوة روح وقلب وفكر وفؤاد، ويصيح جزعا:

---

(١) أحد: جبل بالمدينة مشهور. ثهلان: جبل بنجد.
(٢) حمص: إشبيلية.
(٣) النقع: غبار الحرب.

يا مَنْ لذلّةِ قومٍ بَعْد عِزِّهِمُ ... أحال حالَهُمُ كُفْرٌ وطُغْيانُ
بالأمس كانوا مُلوكًا فى منازلهم ... واليومَ هُمْ فى بلاد الكفر عُبْدَانُ
ولو رأيتَ بُكاهم عند بَيْعِهِمُ ... لهالك الأمرُ واسْتَهْوَتْك أحْزانُ
يا رُبَّ أمٍّ وطِفْلٍ حِيلَ بينهما ... كما تفرَّقُ أرواحٌ وأبْدانُ
وَطِفْلةٍ مثل حُسْن الشمس إذ طلعتْ ... كأنَّما هىَ ياقوتٌ ومَرْجانُ
يَقُودُها العِلْجُ للمكروه مُكْرَهةً ... والعين باكيةٌ والقلبُ حَزْنانُ

وهو يلتاع لوعة محرقة لهؤلاء المسلمين الذين استذلهم الكفر والطغيان بعد أن كانوا فى الذروة من العز والكرامة، لقد كانوا ملوكا وأمراء، فأصبحوا عبيدا، وإنهم ليبكون بكاء مرا، حين يرون أنفسهم - وقد فقدوا أعز شىء على نفوسهم، فقدوا حرياتهم - يباعون بيع العبيد. وياللهول فكم من طفل فرَّقوا بينه وبين أمه كما يفرَّق بين الروح والبدن، إذ لن ترى ضناها وفلذة كبدها أبدا، وكم من سيدة فائقة الحسن فاتنة كأنما هى ياقوت ومرجان يرغمها إسبانى جاف غليظ على المكروه البغيض، وهى محزونة تذرف الدمع مدرارا.

والقصيدة درة يتيمة رائعة، ولروعتها أخذت الأجيال التالية تزيد عليها أبياتا تندب بها البلاد التى سقطت فى أيدى النصارى الشماليين بعد وفاة أبى البقاء الرندى سنة ٦٨٤ للهجرة. وتنبه لذلك المقرى فى نفح الطيب، إذ ذكر بعد إنشاده لها من رواية وثيقة أن بأيدى الناس منها زيادات نُدبت فيها مدن الأندلس التى ظلت تسقط حتى عهد العرب الأخير وحتى استسلام غرناطة مع غروب الشمس العربية نهائيا فى تلك الديار بعد أن ظلت ساطعة فى سمائها ثمانية قرون طوال.

الفصل الخامس

النَّثْرُ وكُتَّابه

١

الرسائل الديوانية

كان طبيعيا أن يعنى عبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية فى الأندلس بديوان الرسائل، كما عُنى به خلفاء أسرته الأمويون فى دمشق، وخاصة جده هشام بن عبد الملك، وقد أسند الكتابة فى ديوانه بقرطبة إلى أمية بن يزيد بن أبى حَوْثرة، وأسندها ابنه الأمير هشام إلى محمد[١] بن أمية المذكور، وتولى مقاليد الحكم بعده ابنه الحكم الربضى، وأسندها إلى حجاج[٢] المغيلى، وفُطَيْس بن سليمان وفى كتاب الحلة السِّيَراء أن راتبه كان خمسمائة[٣] دينار. وخلفه ابنه عبد الرحمن الأوسط مؤسس الحضارة الأندلسية ونُظمها الإدارية التى استقرت منذ عهده، كما ذكرنا فيما أسلفنا، إذ اتخذ مجلس وزراء وقسم شئون الدولة فى القضاء والمال والحرب وغير ذلك إلى خطط. واقتضى ذلك تعدد الكتَّاب مع الوزراء وأصحاب الخطط مما كان له أثره فى نهضة الكتابة الديوانية. ويذكر ابن حيان كتَّابه، ويسميهم أصحاب الكتابة العليا، وهم - على التوالى - عبد[٤] الكريم بن عبد الواحد بن مغيث مع ما كان له من الحجابة، وتوفى سنة ٢٠٩، فخلفه فيها محمد بن[٥] سعيد الزجالى، حتى إذا توفى سنة ٢٢٨ خلفه فيها عبد الله[٦] بن محمد بن أمية، وتوفى عبد الرحمن الأوسط سنة ٢٣٨ فظل يليها - مع مرض كان ينتابه - فى عهد

---

(١) انظر فى محمد بن أمية وأبيه وتوليهما الكتابة المقتبس لابن حيان (تحقيق د. محمود مكى - طبع لبنان) ص ٣١ والمغرب ١/٧١.

(٢) راجع فى تولى المغيلى وفطيس الكتابة للحكم الربضى المغرب ١/٤٤.

(٣) انظر الحلة السيراء لابن الأبار (تحقيق د. مؤنس) ٢/٣٧٣.

(٤) المقتبس ص ٣٢ وانظر الحلة السيراء ١/١٣٥.

(٥) المقتبس ص ٣٢ والمغرب ١/٣٣٠.

(٦) المقتبس ص ٣١ والحلة السيراء ٢/٣٧٣.

محمد بن عبد الرحمن الأوسط حتى وفاته سنة ٢٤٦ وكان يخلفه فى الكتابة أثناء مرضه قومس[١] بن أنتنيان النصرانى وكان بليغا بصيرا بصناعة الكتابة فأسلم وحسن إسلامه، وولاه الأمير محمد الكتابة العليا، وكان قد استنَّ فى أثناء اعتناقه للنصرانية - كما ذكرنا فى غير هذا الموضع - الإجازة يوم الأحد، فتبعه فى ذلك جميع الكتاب فى ديوان الأمير محمد، وأصبحت تلك الإجازة - كما يقول ابن حيان - سنة عامة فى الأندلس. وعجلت المنية بقومس، فتقلد الكتابة العليا بعده حامد[٢] بن محمد بن سعيد الزجالى مع ما تقلد من الوزارة إلى وفاته سنة ٢٦٨. وحين أصبح صولجان الحكم بيد ابنه الأمير عبد الله اتخذ على الكتابة العليا عبيد[٣] الله بن محمد بن أبى عبدة، ومنذ سنة ٢٨٧ يقلدها عبد[٤] الله بن محمد بن عبدالله الزجالى، ويظل يتقلدها سنتين زمن عبد الرحمن الناصر حتى وفاته سنة ٣٠٢ فيعهد بها الناصر إلى عبد[٥] الملك بن جهور فعبد الحميد بن بَسِيل فعبد الرحمن بن بدر فعيسى بن فُطَيس بن أصبغ بن فطيس، ونراه يحبرٌ عن عبد الرحمن الناصر رسالة سنة ٣٢٧ فيخليها من السجع[٦]، مما يدل على تأخر استخدامه فى الكتابة الديوانية بالأندلس، ويؤكد ذلك أننا نرى عبد الرحمن الناصر يعهد بالكتابة العليا بعد ابن فُطَيْس إلى عبد[٧] الرحمن بن عبد الله الزجالى سنة ٣٢٩ حتى إذا كلَّفه فى سنة ٣٤٥ بكتابة منشور[٨] - على نحو ما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع - يُقْرأ فى المساجد الجامعة بقرطبة وغيرها من مدن الأندلس ضد ابن مسرَّة وأتباعه أخلاه من السجع. وظلت الكتابة الديوانية تخلو من السجع فى عهد ابنه الحكم المستنصر، حتى إذا كان عهد هشام ابنه وحاجبه المنصور بن أبى عامر وابنيه الحاجبين بعده المظفر والناصر رأينا السجع يشيع على ألسنة كتابهم، على نحو ما يلقانا عند ابن[٩] بُرْد الأكبر صاحب ديوان الإنشاء لعهد المنصور بن أبى عامر وابنيه وفى زمن الفتنة للمستعين (٤٠٠ - ٤٠٧ هـ) ثم لبنى حمود بعده، وتوفى سنة ٤١٨ وقد نيَّف على الثمانين، وله من

---

(١) المقتبس ص ١٣٨ والقضاة للخشنى ص ١١٠.

(٢) المقتبس ص ٣٢، ٣٧ والمغرب ١/٣٣١.

(٣) راجع فى ابن أبى عبدة الحلة السيراء ١/١٤٦.

(٤) المقتبس ص ٣٢ وإعتاب الكتاب لابن الأبار ص ١٧٢.

(٥) راجع فى ابن جهور وغيره من كتاب عبد الرحمن الناصر فهرس المقتبس الجزء الخامس الخاص بالناصر طبع مدريد.

(٦) المقتبس ٥/٤٣٨.

(٧) المقتبس ٥/٤٧١.

(٨) المقتبس ٥/٢٥.

(٩) انظر فى ابن برد الأكبر الذخيرة ١/١٠٣ والمغرب ١/٨٦ والحميدى ١١١ والصلة لابن بشكوال ص ٤٠.

رسالة[١] ديوانيه عن الحاجب المظفر بن المنصور بن أبي عامر، يبرِّر فيها قتله لصهره ابن القطّاع:

«إنا أخذناه من الحَضِيض الأوْهَدِ، وانتشلناه من شظف العيش الأنْكد، ورفعنا خَسِيسَتَه، وأتممنا نقيصَته.. فلا أقرَّ لنا بحق، ولا قابل إحساننا بصِدْق، ولا عامل رعيَّتنا برِفْق، ولا تناول خدمتنا بحِذْق، بل أعلن بالمعاصى ونَبذ عهودنا، وخالف سُبلنا، وكدَّر على الناس صَفْونا»

وينتهى عصر الدولة الأموية، وندخل فى عصر أمراء الطوائف: عصر التنافس السياسى الحاد بينهم والتنافس الأدبى الحاد بين الأدباء من كتّاب وشعراء، ويصبح السجع أشبه بقانون عام فى جميع الرسائل الديوانية الصادرة عن هؤلاء الأمراء إذ التمسه جميع كتّابهم فى كل ما يكتبونه عنهم، التمسه أحمد[٢] بن عباس كاتب زهير أمير المريَّة على البحر المتوسط المقتول معه سنة ٤٢٩ والتمسه محمد بن أحمد البزلياني كاتب حبوس صاحب غرناطة وسنترجم له عما قليل كما التمسه أبو عامر[٣] التاكرنى كاتب أمراء بلنسية: المظفر ومبارك حتى سنة ٤١٧ ثم المنصور بن أبى عامر الأصغر أميرها بعدهما، وكان يعاصره ابن برد الأصغر كاتب مَعْن أمير المرية وسنترجم له بين أصحاب الرسائل الأدبية، وعاصرهما أبو محمد بن عبد البر كاتب مجاهد وابنه على أميرى دانية وسنترجم له بعد قليل. ومن الكتاب النابهين فى هذا العصر أبو المطرف[٤] بن مثنى كاتب المأمون بن ذى النون أمير طليطلة (٤٢٩ - ٤٦٧ هـ) وأبو المطرف عبد الرحمن بن فاخر المعروف بابن الدباغ كاتب المقتدر بن هود أمير سرقسطة (٤٣٨ - ٤٧٥ هـ) وسنترجم له بين كتاب الرسائل الشخصية، وكان يشاركه فى الكتابة للمقتدر أبو عمر الباجى، ومنهم أيضا ابن المعلم[٥] كاتب المعتضد بن عباد أمير إشبيلية، وأبو عبد الرحمن بن طاهر أمير مرسية وسنترجم له بين كتاب الرسائل الشخصية ومحمد[٦] ابن أيمن كاتب المتوكل بن الأفطس أمير بَطَلْيوس، وله رسالة عنه إلى يوسف بن تاشفين أمير المرابطين بمراكش

---

(١) الذخيرة ١٢١/١.

(٢) راجع فى أحمد بن عباس الذخيرة ٦٤٣/١ والمغرب ٢٠٥/٢ والإحاطة (طبعة عنان) ٢٦٧/١

(٣) انظر فى التاكرنى الذخيرة ٢٢٦/٣ والمغرب ٣٣٢/١ والحميدى ٥٦ وإعتاب الكتاب ٢٠١.وتاكرنا كانت قصبة رندة.

(٤) راجع فى ابن مثنى الذخيرة ٤٠٩/٣.

(٥) راجع فى ابن المعلم الذخيرة ١١٢/٢، ١١٨.

(٦) انظر فى ابن أيمن الذخيرة ٦٥٢/٢ والمغرب ٣٦٦/١.

يستصرخه لنجدة الأندلس ضد ألفونس ملك قشتالة ونصارى الشمال، وفيها يقول:[١]

«لما كان نورُ الهدى دليلَك، وسبيلُ الخير سبيلَك، ووضحتْ فى الصلاح معالمُك، ووقفتْ على الجهاد عزائمك، وصحَّ العلم بأنك لدعوة الإسلام أعزُّ ناصر، وعلى غزوك الشرك أقدرُ قادرٍ، وجب أن تُستدعَى لما أعْضَلَ من الداء، وتُسْتَغاثَ لما أحاط بالجزيرة من البلاء، فقد كانت طوائفُ العدو المُطيفةُ بها - أهلكهم الله - عند إفراط تسلُّطها واعتدائها، وشدَّة كَلَبِها[٢] واستِشْرائِها، تُلاطَف بالاحتيال، وتُسْتَنْزَلُ بالأموال.. ولم يزل دَأْبُها التشطُّطَ والعِنادَ، ودأْبُنا الإذعان والانقياد، حتى استُصْفِيَ الطريفُ والتِّلاد، واضطرمت فى كل جهة نارهم، ورَوِيتْ من دماء المسلمين أسنَّتُهم وشِفارُهم[٣]، فيالله! ويا للمسلمين! أيسطو هكذا بالحق الإفْكُ، ويغلب التوحيدَ الشِّرْكُ، ويَظْهر على الإيمان الكفرُ، ولا يَكْتنف هذه الملةَ النَّصْرُ، ألا ناصرَ لهذا الدين المهتضمِ؟! ألا حامىَ لما استُبيح من حِمَى الحُرَم؟ وإنا لله على ما لحق عَرْش الدين من ثَلٍّ[٤]، وعِزَّه من ذُلٍّ!»

وتمضى الرسالة بهذا الاستصراخ المتقد حمية للدين الحنيف وأهله. وتوالى على ابن تاشفين مثلها من المعتمد. وأرسل هو والمتوكل له قاضييهما مستغيثين بـه، كما استغـاث به كثـير من فقهاء الأندلس، فخفَّ بجنوده وعبر بهم المجاز خِفافا وثِقالا رجالا ورُكبانـا، وأنزل بهم وبمن اجتمع له من أهل الأندلس بألفونس السادس ونصارى الشـمال موقعـة الزلاقـة التى سحق فيها أعداء الدين الحنيف سحقا، على نحو ما مرَّ بنـا فى الفصل الأول. ويـرى ابن تاشفـين ببصيرته النافذة أن يرفع عن الأندلس عبء أمراء الـطوائف الذين أحـالوهـا مِزَقًـا بينهم، فجمَع بلدانها تحت لوائه، وكان قد تعرف على أبى بكر بن القصيرة كاتب المعتمـد بن عباد، فاستدعاه إلى مراكش بعد ثلاث سنوات وعهد إليه بديـوان الإنشاء، وظـل يتولاه فى عهـد ابنه على إلى وفاته، وسنترجم له عما قليل. وطالت مدة حكم على بن يوسف (٥٠٠ - ٥٣٧) وممن كتب له أبو القاسم بن الجد وسنترجم له بين كتاب الرسائل الشخصية، وأبو عبد الله محمد بن أبى الخصال وسنترجم له عما قليل وعبد العزيز بن القبطورنة كاتب المتوكل بن الأفطس مع ابن أيمن المار. وكثر ولاة المرابطين فى الأندلس وكان كل منهم يتخذ كاتبا بليغا وممن كتب لتميم بن يوسف بن تاشفين والى غرناطة أبو الحسن

---

(١) الذخيرة ٦٥٣/٢.

(٢) الكلب: شدة الحرص والمعاناة، والاستشراء: تفاقم الاعتداء.

(٣) الشفار جمع شفرة: حد السيف.

(٤) ثل: هدم.

على[١] بن الإمام تلميذ ابن باجة الفيلسوف، وكتب لسير بن أبى بكر والى إشبيلية عبد المجيد بن عبدون، وهو من كتاب المتوكل بن الأفطس ومرت ترجمته مع مرثيته المشهورة لدولة بنى الأفطس، وقد كتب بعدهم للمرابطين، أولا لسير بن أبى بكر -كما ذكرنا- ثم لعلى بن يوسف بن تاشفين إلى وفاته على نحو ما مرَّ فى ترجمته.

وتخلف دولةَ الموحدين فى الأندلس دولة المرابطين، ويذكر صاحب المعجب كتَّاب حكامها ويبدأ بكتَّاب مؤسسها عبد المؤمن، وهم أبو جعفر أحمد[٢] بن عطية وهو مراكشى وأبو القاسم القالمى من بجاية وعياش بن عبد الملك بن عياش القرطبى، وفى مجموع رسائل موحدية المطبوع بالرباط غير رسالة ديوانية للأولين، وهما جميعا مغربيان. وكتب ليوسف بن عبد المؤمن عياش[٣] والقالمى إلى أن توفى فخلفه ابن محشرة وهو من بجاية مثله. وكتب ليعقوب بن يوسف ابن محشرة كاتب أبيه وأبو عبد[٤] الله محمد بن عبد العزيز بن عياش التجيبى المريى المولود سنة ٥٥٠ استكتبه يعقوب سنة ٥٨٦ فنال دنيا عريضة، وظل يلى ديوان الإنشاء لابنه الناصر ثم لابن ابنه المستنصر حتى وفاته سنة ٦١٨ وفى مجموع رسائل موحدية ثلاث رسائل، له اثنتان منها عن الناصر والثالثة عن يعقوب، وهى فى وصف غزوته الثانية للنصارى سنة ٥٩٢ بعد سحقهم فى موقعة الأَرَك سنة ٥٩١، وكانت وجهته طليطلة، فاستولى على كثير من الحصون حولها، وفيها يقول[٥]:

«فلما صارت البلاد كأن لم تَغْنَ، والمعاقلُ كأن لم تُبْنَ، وعُلم أن من حِيل بينهم وبين المواطن والأموال والأقوات أحياءٌ ولكن فى عِداد الأموات، صوَّبْنا على طُلَيْطلة قاعدةِ الصُّفْر، وأم بلاد الكفر.. وأخذهم العذَابُ من حيث لا يشعرون. وعرفوا التخاذل من حيث كانوا يُبْصرون، واستقبلتهم العِبَرُ أَفْوَاجًا أفواجا، وجاءتهم النذر تأويبًا وإدلاجا».

وكان أبو عبد الله محمد[٦] بن يَخْلُفْتن الفازازى القرطبى يعمل فى ديوان قرطبة وعُيِّن

---

(١) المطرب ٨٩ والمغرب ١١٦/٢

(٢) المعجب ص ٢٦٧.

(٣) لعله أبو الحسن بن عياش المذكور فى مجموع رسائل موحدية وله فيه عن يوسف رسالتان.

(٤) انظر فى كتَّاب يعقوب المعجب ص ٣٢٨ وراجع فى أبى عبدالله بن عياش التكملة رقم ٩٥٢ وزاد المسافر ٩٤ والمعجب ص ٣٩١، ٤٠٥.

(٥) مجموع رسائل موحدية (طبع الرباط) ص ٢٢٨ وما بعدها.

(٦) راجع فى محمد بن يخلفتن المعجب ص٣٩١، ٤٠٦ والتكملة رقم٢١٣٥.

قاضيا فى مدينة مرسية، واستُدْعى للنهوض بالكتابة فى ديوان المستنصر حين توفى ابن عياش، وظل قائما عليه فى عهد العادل (٦٢١ - ٦٢٤) وتوفيا معا فى سنة واحدة. وخلف العادل إدريس بن يعقوب وتلقب بالمأمون (٦٢٤ - ٦٢٩ هـ) وكان يحكم إشبيلية قبل ذلك وثار عليه البياسى بجيّان وقضى على ثورته وكان يكتب له حينذاك أبو زيد[١] عبد الرحمن بن يَخْلُفْتن المترجم له فى الفصل الماضى أخو محمد المذكور آنفا، وقد استقدمه إلى مراكش ولم يكد يمضى بها عدة أشهر - كما مرَّ بنا فى ترجمته - حتى توفى سنة ٦٢٧.

وكان يكتب لولاة الموحدين فى الأندلس كتاب بارعون ويكفى أن نذكر أنه كتب لعثمان بن عبد المؤمن والى غرناطة عبد[١] الرحمن بن مسعدة وأخوه يحيى وابن جبير الرحالة المشهور وابن هَرَوْدس الوشاح المبدع على نحو ما ذكرنا فى حديثنا عن الموشحات. وأخذت الأندلس جميعها تثور على المأمون والموحدين لضعفهم فى مقاومة الأرجونيين فى الشرق والقشتاليين فى الشمال والبرتغاليين فى الغرب. وكان أهل شرق الأندلس أول من ثاروا على الموحدين بزعامة أبى عبد الله محمد بن هود سنة ٦٢٥ تحت شعار الخلافة العباسية إرضاء للعامة، واتخذ مرسية قاعدة له ومدَّ سلطانه على مالقة والمرية وقرطبة وإشبيلية وغرناطة، وثار عليه بإشبيلية الباجى وابن صاحب الرد وابن الجد وتوفى ابن هود سنة ٦٣٥ وثار بمرسية عزيز بن خطاب سنة ٦٣٦ وقتل بعد تسعة أشهر. ومن أكبر الثوار حينئذ ابن الأحمر محمد بن يوسف، وقد واقع ابن هود وانتصر عليه مرارا واستخلص منه غرناطة وأسس فيها دولتهم التى ظلت أكثر من قرنين ونصف. ومن كبار هؤلاء الثوار أبو جميل زيان بن مردنيش الثائر ببلنسية سنة ٦٢٦ وقد حكم أولا تحت شعار العباسيين مثل ابن هود، ثم حول الدعوة منهم إلى الحفصيين فى تونس رجاء أن يمدوا له يد العون ضد ملك أرجون. وقد أخذت تسقط جواهر الأندلس ومدنها الكبرى فى حجور الأرجونيين والقشتاليين والبرتغاليين، وإنما ذكرنا ذلك لأن كل ثائر ممن سميناهم اتخذ كاتبا بليغا، فالبياسى كتب له أبو يحيى[٢] بن هشام القرطبى وأحبطت ثورته سريعا، واعتنق النصرانية مذموما مدحورا، وكتب لابن هود أبو جعفر[٣] أحمد بن

---

(١) راجع فى عبد الرحمن وأخيه يحيى المغرب ١١٢/٢ - ١١٣.

(٢) انظر فى أبى يحيى بن هشام المغرب ٧٤/١ واختصار القدح المعلى ص ٨٩ وصبح الأعشى ٣١/٧ حيث احتفظ برسالة مهمة له عن ابن هود.

(٣) راجع فى أبى جعفر المغرب ١٦٤/٢ والقدح ١١٤.

طلحة وابن الجنان[١] وأبو المطرف بن عميرة، وسنترجم له، وكتب عن الباجى ابن[٢] البناء الإشبيلى، وكتب لابن الأحمر ابن خطاب[٣] الجيانى وأبو عبد الله[٤] ابن الخيال، وكتب لزيان أبو المطرف بن عميرة، وابن الأبار الذى ترجمنا له فى الفصل الماضى.

ومن الكتاب فى دواوين بنى الأحمر ابن الحكيم[٥] كاتب الحاكم الثانى فى الأسرة محمد بن محمد بن نصر المعروف بالفقيه (٦٧١ - ٧٠١ هـ) وكتب ابن الحكيم أيضا لابنه محمد (٧٠١ - ٧٠٨ هـ) ومن كتاب بنى الأحمر النابهين فى القرن الثامن الهجرى ابن الجيَّاب[٦] ولسان الدين بن الخطيب الكاتب المشهور وسنترجم له، وخلفه على ديوان الإنشاء ابن زَمْرَك، ومرَّت ترجمته بين شعراء المديح، وربما كان أنبه كتابهم فى القرن التاسع الهجرى أبو عبد الله[٧] الشرَّان محمد بن إبراهيم. وحرى بنا أن نتوقف قليلا لنتحدث بكلمات مجملة عن ستة من كتاب الرسائل الديوانية النابهين هم: البِزِلْيانى وأبو محمد بن عبد البر وابن القصيرة وابن أبى الخصال وابن عَميرة ولسان الدين بن الخطيب.

البِزِلْيانى[٨]

هو أبو عبد الله محمد بن عامر البزليانى المالقى، وبزليانة من قرى مالقة، وكانت مالقة تتبع غرناطة وكانت إمارة الإقليم فى عصر أمراء الطوائف لبنى زيرى المغاربة، وأول من تولاها منهم زاوى حتى سنة ٤١٠ وتولاها بعده ابن أخيه حَبُوس بن ماكسن بن زيرى، وطمحت نفس البزليانى للعمل فى الدواوين بغرناطة وسبقت شهرته بإحسان الكتابة إليها فاستكتبه أميرها حبوس وأصبح رئيسا لديوانه وكتابه. وعمل بعده مع ابنه باديس (٤٢٩ - ٤٦٥ هـ) وكانت فيه قسوة وجفوة، فرأى التحول عنه وعن دواوينه، ويقول صاحب الذخيرة إنه «ممن أدار الملوك ودبرها، وطوى الممالك ونشرها» وإنه تقلب فى البلاد، وانتهى به المطاف إلى المعتضد بن عباد سنة ٤٤٣ فألحقه بدواوينه، ووصله بابنه

---

(١) راجع فى ابن الجنان ورسالة له عن ابن هود صبح الأعشى ٣٤/٧.
(٢) انظر فى ابن البناء القدح ص ١١٨.
(٣) راجع فى ابن خطاب الجيانى القدح ص ٢٢.
(٤) انظر فى أبى عبد الله بن الخيال القدح ص ٦٦.
(٥) أزهار الرياض ٢٤٠/٢ والإحاطة ٤٤٤/٢.
(٦) الكتيبة الكامنة ص ١٨٣.
(٧) انظر فى الشران أزهار الرياض ١٣٣/١.
(٨) راجع فى ترجمة البزليانى ورسائله الذخيرة ٦٢٤/١ والمغرب ٤٤١/١.

إسماعيل، وما تدخل سنة٤٤٥ حتى يأمر المعتضد ابنه إسماعيل بغزو قرطبة، ولم يكن البزلياني - كما سنرى - يرتضى سياسة المعتضد فى غزو جيرانه، بينما يرضخ خاضعا لنصارى الشمال، وأغوى إسماعيل بمخالفة رأى أبيه، وخوَّفه من إسراع باديس أمير غرناطة بنجدة بنى جهور فى قرطبة، فيقع بين فَكَّىْ أسدين بمضغانه. وكان المعتضد أبوه يعامله بقسوة وفظاظة فرأى أن ينصرف من طريقه بجيشه إذ تعاظمه الهجوم على قرطبة مع قرب حلي أمرائها باديس أمير غرناطة منهم كما ذكرنا. ويقال إن البزلياني مضى فى استغوائه له وإنه أشار عليه بهربه من أبيه ودبَّره، وتطورت الظروف، فقتل المعتضد البزلياني لما وقَر فى نفسه من أنه هو الذى أغواه، وقتل بعده ابنه. هكذا يقول الرواة ونظن ظنا أن المعتضد استدرج البزلياني للعمل فى دواوينه، وهو يبيِّت له هذا المصير المحتوم، لما عرف عنه من إنحائه على أمراء الطوائف باللوم-فى رسائله-منذ كان عند حبوس - على سياستهم وحربهم بعضهم لبعض واستعانتهم فى ذلك بنصارى الشمال، ليغرسوا حِرابهم فى صدور إخوانهم المسلمين. وليس ذلك غريبا على المعتضد فقد كتب إليه أصدق أصدقائه أبو حفص عمر الهوزنى يحضه على جهاد النصارى فاستدرجه، ووضعه بأعلى محل، وعوَّل عليه فى العقد والحل، حتى إذا مضى عليه عامان باشر قتله بيده[1]، فكان طبيعيا أن يفتك بالبِزِلْيانى، حتى لو لم يتصل بابنه إسماعيل، لحملته العنيفة على سياسته وسياسة أنداده من أمراء الطوائف، على نحو ما يتضح من رسالة أرسل بها - كما يقول ابن بسام - عن حبوس إلى يحيى بن منذر التجيبى أمير سرقسطة: وفيها يقول:

«اتصل بى ما وقع بينك وبين المؤتمن (المنصور[2] الأصغر عبد العزيز) أمير بلنسية (٤١٧ - ٤٢٥ هـ) والموفق مجاهد (أمير دانية) (٤١٣ - ٤٣٦ هـ) وعضد الدولة (أمير إشبيلية)، وأنكم اضْطُرِرْتم إلى إخراج كل فريق منكم النصارى إلى بلاد المسلمين، فعظم قَلَقِى، وكثُر على المسلمين شَفَقِى، فى أن يطأ أعداؤهم بلادَهم، ويُوَتِموُا أولادهم.. ولو لم تكن الفتنة - يا سيدى - إلا بين المسلمين والتشاجر إلا بين المؤمنين لكانت القارعة العظمى، والداهية الكبرى، فإذا تأيَّدنا بالمشركين، واعتضدنا بالكافرين، وأبحناهم حُرْمتنا، ومنحناهم قوتنا، وقتلنا أنفسنا بأيدينا، وأدَّتْنا إلى النَّدم مساعينا، كانت الدائرة

---

(١) المغرب ١/٢٣٩ وما بعدها. الذخيرة ١/١٩٣، ٢٠٣-٢٠٥.

(٢) انظر فى تلقيب المنصور الأصغر بهذا اللقب

أمضّ[١]، والحيرة أرْمَض[٢]، والفتنة أَشدّ، والمحنةُ أهدّ، والأعمال أحْبَطَ، والأحوال أَسْقَط، والأوزار أثْقَلَ، والمضارّ أَشْمَلَ، والله يُعيذنا من البَوائِق[٣]، ويَسْلُك بنا أجملَ الطرائق.. وأنت يا سيدى للمسلمين الحِصْنُ الحَصِين، والسَّبَبُ المتين، والنَّصيح المأمون، فاجْرِ فى جَمْعْ كلمتهم والمراماة دون حَوْزتهم[٤]».

والبزلياني يصرخ فى يحيى بن المنذر التجيبى أمير سرقسطة فى أقصى الشمال، فإن أمراء الطوائف من أمثال أمير بلنسية وأمير دانية وأمير إشبيلية يوطئون النصارى بلادهم مستعينين بهم فى حرب أهل دينهم وقتل الآباء وتيتيم الأطفال والأبرياء. ويقول لو كانت المحنة محاربة المسلمين بعضهم بعضا فحسب لكانت تلك قارعة عظمى وداهية كبرى، ولكن المحنة أدهى وأمر فإننا نستعين بالنصارى ونبيحهم ديارنا فيا لله ويا للمسلمين. ويستغيث بيحيى بن المنذر أن يجمع كلمة هؤلاء الأمراء، حتى يدافعوا عن حَوْزتهم وحدود أرضهم ويرموا العدو يدا واحدة حتى لا تقوم له قائمة. ومن غريب أن هذه الصرخة دوّت فى العشرينيات من القرن الخامس، وكأنها صرخة فى فلاة ولا حياة لمن تنادى. ويصرخ البِزلياني فى رسالة ثانية وجّه بها إلى (المنصور الأصغر أمير بلنسية الذى ذكره فى الرسالة السابقة)، وله يقول - فيما أظن - على لسان باديس:

«اتصل بى ما جزعتُ له من لزومك مع الموفق مجاهد ومَنْ تبعكما من مُعاقديكما لمقاتلة المظفر أبى بكر محمد أمير بطليوس (٤٣٠ - ٤٦٠ هـ) ومنازلته ومقارعته واستجاشة[٥] كل حزب منكم النصارى وطمعكم أن تمنعوا بهم ذِمارًا، وتَقضوا بإخراجهم (معكم) أَوْطارا[٦]، وتُدْركوا بأيديهم أَوْتارا.[٧] ولم يَخْفَ عليك ما يتسبَّب بالفتن، من البلوى والمِحَن.. باخترام[٨] الرِّجال، وإيتام الأطْفال، وإرْمال[٩] النساء، وإحْلال الدماء، وانتهاب الأموال، واعْتِساف[١٠] الأهوال، وإخْلاء الأوطان، وإجْلاء السكان. هذا إذا كانت الدعوة واحدة، والشرعة معاضدة، فأما إذا انساق العدوّ إلينا، وتطرّق علينا،

---

(١) أمض: أكثر ألما.
(٢) أرمض: أوجع.
(٣) بوائق: جمع بائقة: الداهية.
(٤) الحوزة: الحمى.
(٥) استجاشة هنا: استعانة.
(٦) أوطارا جمع وطر: مأرب.
(٧) أوتار جمع وتر: ثأر.
(٨) اخترام هنا: قتل أو موت.
(٩) أرملت المرأة: مات زوجها.
(١٠) اعتساف: ركوب.

وضَرِىَ[١] على أموال المسلمين ودمائهم، وجَرُؤ على قَتْل رجالهم وسَبْى نسائهم، وبانَتْ له العَوْرات، وتحققت عندهم الاختلافات، أحدُّوا رَحَاهم[٢]، واستمدُّوا مَنْ وراهم، ولم يكن للمسلمين بهم بعد يد[٣]، ولا عن إخلاء هذه الجزيرة بُدّ، والله يحميها من الغِيَرَ[٤]، ويكفيها سوءُ القَدر»

ولا تقل هذه الصرخة عن سابقتها قوة، والبزليانى يهيب فيها بالمنصور الأصغر أن لا يمضى مع مجاهد فى حشد الجيوش ضد أخيهما المظفر بن الأفطس أمير بطليوس مستعينين فى قتال أهلهما المسلمين بالنصارى طامعين أن يحموا لهما حماهما وأن يحققوا لهما آمالهما ويدركوا لهما أثآرهما غير مراعين فى أهل دينهما حقا، إذ تُقْتَلُ الرجال وتيتَّم الأطفال وترمَّل النساء وتنهَب الأموال وتخلو الأوطان ويجلو السكان. والطامة الكبرى أن العدو إذا جاس خلال ديارنا وتجرَّأ على نهب أموال المسلمين وعلى سفك دمائهم وقتل رجالهم وسبى نسائهم وانكشفت له فى البلاد العورات، وتحقق مما بين أمراء المسلمين من الاختلافات والمنازعات شحذ أسلحته وأدار رحى حرب طاحنة مستمدا فيها النصارى من ورائه فى أوربا، فجاءوه من كل فج، وأصبح المسلمون ولا طاقة لهم فى نزالهم ولا قدرة، واضطروا اضطرارا إلى مبارحة الجزيرة لا يلوون. وذهبت الصرختان جميعا هباء، وبدلا من أن يعيها هؤلاء الأمراء الذين عاشوا للترف وأعدوا لضياع البلاد جازاه المعتضد الباغى منهم شر الجزاء، فسفك دمه.

أبو محمد[٥] بن عبد البر

هو أبو محمد عبد الله ابن الفقيه المشهور أبى عمر بن عبد البر النمرى القرطبى، وقد عُنِى به أبوه، فخرجه على يده فى أجمل صورة علمية للشاب الأندلسى فى عصره، وتفتحت فيه مبكرا نزعة أدبية جعلته يؤثر على حلقات العلم والدراسة دواوين أمراء الطوائف، ويقول ابن بسام إنه «حلَّ من كتاب الإقليم محل القمر من النجوم.. وتهادته الآفاق، وامتدت إليه الأعناق.. ففاز به المعتضد (أمير إشبيلية) بعد طول خصام، والتفاف

---

(١) ضرى: اجترأ.
(٢) الرحى هنا: رحى الحرب.
(٣) يد هنا: طاقة، قوة.
(٤) غير الدهر: أحداثه وتقلباته.

(٥) انظر فى ترجمة أبى محمد ورسائله الذخيرة ١٢٥/٣ وما بعدها والمغرب ٤٠٢/٢ والقلائد ١٨١ والصلة رقم ٦٠٦ وبغية الملتمس رقم ٩٦٥ وإعتاب الكتاب ٢٢٠ والخريدة ١٦٦/٢، ٤٥٩/٣.

زحام، فأصاخ أبو محمد لمقاله، وتورط بين حبائله وحباله» وأصبح من كتَّاب ديوانه، ولا نعرف الأسباب التى جعلت ابن زيدون يَغَصّ - كما يقول ابن بسام - بمقامه معه فى حضرة المعتضد، إذ أخذ يوغر صدره عليه، ومضت الأيام. وشعر أبو محمد بتغير المعتضد عليه، وكان سفاكا للدماء، فأخذ فى اقتناء الضياع والديار حتى يوهمه بأنه لن يفارق عمله عنده، ويبدو أنه أرسل إلى أبيه يطلعه على موقف ابن زيدون وزير المعتضد - وموقف المعتضد نفسه منه - وأنه يخشى مغبة مكثه عنده، فربما فتك به كما فتك بكثيرين. وكان أبوه قد استوطن دانية وطاب له المقام عند أميرها مجاهد، فخفّ إلى المعتضد، وخلصه من يديه، وانصرف به محفوفا بالتجلة والإكرام، يقول ابن بسام: «وجعل أبو محمد بن عبد البر بعد نجاته من المعتضد يتنقل فى الدول كالبدر يترك منزلا إلى منزل.. وكتب عندنا عن أكثر ملوك الطوائف» وأكبر الظن أن ابن بسام بالغ فى قوله إنه تنقل بين ملوك الطوائف وكتب عند أكثرهم، فإنه هو نفسه لم يَرْوِ له رسائل ديوانيه إلا عن المعتضد وعلى بن مجاهد أمير دانية بعد أبيه مجاهد (٤٣٦ - ٤٦٧ هـ) وكأنه صَحب أباه إلى دانية، فوظفه على بن مجاهد رئيسا لديوانه وكتّابه، وظل يعمل فيه، حتى توفى سنة ٤٥٨ وحزن أبوه لفقده، ولعل ذلك ما جعله يتحول عن دانية إلى شاطبة، شرقيها، وبها توفى. وقد أورد ابن بسام لأبى محمد رسائل ديوانية كثيرة عن المعتضد وعلى بن مجاهد، ومن أطرفها رسالة عن ابن مجاهد وقد زفّ ابنته إلى المعتصم بن صمادح أمير المرية، وفيها يقول:

«أُنفِذت الهديَّة (العروس).. وأنا أسأل الله فى متوجَّهها ومُنْقَلبها الرعاية الموصولة بك، والكفايةَ المعهودةَ منك، حتى يَفِيءَ[1] عليها ظِلُّك، ويبوِّئَها[2] مَثْوَى الحفاوة محلُّك، ويحميها حَوْزُك ومكانك، ويُؤْويها عِزُّك وسُلْطانك، ثم حَسْبى عليها كرمك وكَنَفُك[3]، وخليفتى عليها بِرُّك ولُطْفُك.. وإنك - واللهُ يُبْقيك ويُعْليك، ويشدُّ[4] قَبْضتك على رقاب أمانيك وأراجيك - ذُخْرُ الأَبَد، وعَتادُ الأهل والإخوان والولد، وعندك ثمرة النفس وفَلْذَةُ الكَبِد، فارقتُها عن شدة ضَنانة، وأسلمتها بعد طول صِيانة، وماأُزَّفتْ إلا إلى كريم يحملها محملَ الأمانة، ويقضى فيها حقَّ الديانة، ويَرْعَى لها انقطاعها عن أهلها، واغترابَها عن مَلَئِها ومَنْشَئِها، وهو حُكْمُ الله الواجب، وقَدَرُه الغالب، وسُنَّته المشروعة، ومَشِيئته المتبوعة»

---

(١) يفىء: ينبسط.

(٢) يبوئها: ينزلها.

(٣) الكنف: الحفظ والجناح.

(٤) يشد: يقوّى ويحكم.

وحدثت فى سنة ٤٥٦ نكبة عظمى، فإن النورمانديين فى الشمال الغربى لفرنسا تجمعوا وتجمعت معهم شراذم من فرنسا وأوربا لحرب المسلمين فى الأندلس، مكوِّنين حملة صليبية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة إذ باركها البابا إسكندر الثانى، واخترقت الحملة جبال البرينيه الفاصلة بين فرنسا وإسبانيا وحاصرت مدينة وَشْقة فى أقصى الشمال الشرقى لإسبانيا، ولم تستطع اقتحامها، فاتجهت إلى مدينة بَرْبَشْتر إلى الشمال الشرقى من سرقسطة، وحاصروها أربعين يوما، واضطر أهلها إلى التسليم لنقص القوت والمئونة، ففتكوا بهم فتكا ذريعا وانتهكوا نساءهم وسبوا عشرات الألوف من غلمانهم وفتياتهم، وحملوا من الكسوة والفرش والأمتعة خمسمائة حمل، كل ذلك والمقتدر أمير سرقسطة قد وكلهم إلى أنفسهم وقعد عن النفير لهم. وِزْر لا يماثله وزر، وقد شركه فيه أمراء الطوائف جميعا، إذ لم ينهض أحد منهم للدفاع عن بَرْبشتر. ويعلل ابن حيان تلك الكارثة بعلتين: علة صمت الفقهاء لأكلهم على موائد هؤلاء الأمراء وتقيةً وخوفا منهم، والعلة الثانية، وهى الأفدح، أن الأمراء استناموا إلى التنابذ والتنافر، ويسميهم «أمراء الفرقة الهمل» ويعجب أن لا تنبِّههم هذه اللطمة الضخمة إلى جمع الكلمة ووقوفهم صفا واحدا ضد العدو الكاشر عن أنيابه، وأن يكون كل ما دفعتهم إليه حَفْر الخنادق حول مدنهم وتعلية الأسوار وتوثيق البنيان. وأطارت النكبة أفئدة المسلمين فى الأندلس وتزلزلت بهم الأرض، وتجمعوا فى السنة التالية بقيادة المقتدر بن هود أمير سرقسطة وكأنما أراد أن يغسل عنه عار نكوله عن إغاثة أهل بربشتر، وسرعان ما أجيل السيف فى النصارى المعتدين واستؤصلوا أجمعين ورُدَّتْ بربشتر إلى المسلمين فغسلوها من رِجْس الشرك - كما يقول ابن حيان - وجلوها من صدأ الإفك[1]. وإنما قدمنا كل ذلك لتتضح لنا صرخة ضخمة وجّهها أبو محمد بن عبد البر فى شكل منشور وُزِّع فى كل مدن الأندلس، مما دفع أهل الجهاد فى كل مكان منها إلى حمل سلاحهم واستردادها سريعا هذا الاسترداد المشرف، وقد جعل المنشور على لسان أهل بربشتر وعنوانه - كما يقول ابن بسام -:

«من الثُّغور القاصية، والأطراف النائية، المعتقدين للتوحيد، المعترفين بالوعد والوعيد، المستمسكين بعُرْوَة الدين، المستهلَكين فى حماية المسلمين، المعتصمين بعصمة الإسلام، المتآلفين على الصلاة والصيام، المؤمنين بالتنزيل، المقيمين على سُنَّة

(١) انظر فى تصوير ابن حيان لموقعة بربشتر الذخيرة ١٧٩/٣.

الرسول، محمد نبيّ الرحمة، وشفيع الأمة، إلى مَنْ بالأمصار الجامعة، والأقطار الشاسِعة، بجزيرة الأندلس من وُلاة المؤمنين، وحُماة المسلمين، ورُعاة الدين، من الرؤساء والمرءوسين»

والمنشور كان طويلا مما جعل ابن بسام يقتطف منه فصولا، وقد مضى أبو محمد يصور ما نزل بأهل بربشتر من الأهوال التى تقشعر لها الأبدان وتشيب لها الولدان، ومن قوله فى بعض فصوله مستثيرا مستنفرا بما يوجع القلوبَ سماعُه من انتهاك النساء والدين:

«إنا لله وإنا إليه راجعون - على ما رأت منا العُيون - من انتهاك النِّعم المدَّخرات، وهَتْك سِتْرِ الحُرَمِ المحجَّبات، والبنات المخدَّرات، ولو رأيتم - معشر المسلمين - إخوانَكم فى الدين، وقد غُلبوا على الأموال والأهلين، واستحكمتْ فيهم السيوف، واستولت عليهم الحتوف، وأثخنتهم الجراح، وعبثت بهم زُرْقُ الرِّماح، وقد كثر الضَّجيج والعَويل والنّواح... ومصاحف تمزَّق، ومساجد تحرَّق، ولا الأخ يلبِّى أخاه، ولا الابنُ يدعو أباه، ولا الأب يدنى بنيه، (لكل امرئ منهم يومئذ شأنٌ يُغْنيه) ولا المرضعة تَلْوِى (تعطف) على رضيعها، ولا الضجيعةُ ترثى لضجيعها.. وقد سِيقت النساءُ والوِلدان، ما بين عاريةٍ وعُرْيان، ومشيخةُ الرجال مُقَرَّنين فى الحِبال، مصفَّدين فى السلاسل والأغلال.. والجوامع، والصَّوامع، بعد تلاوة القرآن، وحلاوة الأذان، مُطْبقةٌ[1] بالشرك والبهتان، مشحونة بالنواقيس والصلبان، عوضا من شِيعَةِ الرحمن، والكفر يضحك ويُنْكِى[2]، والدين ينوح ويَبْكى، فيا ويلاه! ويَاذُلّاه! وياكَرْباه! ويا قُرْآناه! ويا محمداه! ولو شهدتم - معشر المسلمين - ذلك لطارت أكبادكم جَزَعا، وتقطَّعت قلوبكم قِطَعا، واستعذبتم طَعْمَ المنايا، لموضع تلك الرَّزايا، ولهجرتْ أسيافكم أَغْمادَها، وجَفَتْ أجفانكم رُقادَها، امتعاضًا لعبَدة الرحمن، وحَفظَة القرآن، وضَعَفة النساء والوِلْدان، وانتقامًا من عَبَدة الطُّغْيان، وحَمَلة الصُّلْبان»

والرسالة - بهذا النمط - تشعل الحماسة فى النفوس الخامدة حميةً للدين الحنيف وما حُرِّق من مساجده وصوامعه وما مُزِّق من قرآنه ومصاحفه، ولنساء المسلمين وما انتهك من حرماتهم وما ساموهم به من أسر وسباء، بل من عُرْىٍ وعذاب أليم، ومن بقى من الرجال أُوثِقوا فى السلاسل والأغلال. ويقول أبو محمد: إن

---

(١) مطبقة: مغطاة. (٢) ينكى: يقهر.

مادَهى بربشتر إنما هو رمز لما أصاب الأندلسيين فى عهد أمراء الطوائف من تقاطع وتنابذ ويدعو إلى التواصل والألفة، حتى يتدارك الأندلسيون ما يوشك أن يصيبهم من هلاك مدمر، يقول متحسرا:

«ولو كان شملنا منتظمًا، وشعبنا ملتئما، وكنا كالجوارح فى الجسَدِ اشتباكا، وكالأنامل فى اليد اشتراكا، لما طاش لنا سَهْم، ولا سَقط لنا نَجْم[1]، ولا ذلَّ لنا حِزْب، ولا فُلَّ لنا غَرْب، ولا رُوِّع لنا سِرْب، ولا كُدِّر لنا شِرْب[2]، ولكُنَّا عليهم ظاهرين، إلى يوم الدين، فالحذرَ الحذرَ! فإنه رأس النظر، من بركانٍ تطاير منه شَرَرٌ مُلْتهب، وطوفانٍ تساقط منه قَطْرٌ مُرْهب، قلما يُؤْمَنُ من هذا إحراق، ومن ذلك إغراق، فتنبَّهوا قبل أن تُنبَّهوا، وقاتلوهم فى أطرافهم قبل أن يقاتلوكم فى أكْنافكم، وجاهدوهم فى ثغورهم قبل أن يجاهدوكم فى دوركم»

ولم تذهب صرخة أبى محمد أدراج الرياح، فسرعان ما حمل الأندلسيون أسلحتهم كما ذكرنا، وهاجموا العدو فى بربشتر وردوا كيده فى نحره مستأصلين له إلا ما باعوه بيع الرقيق من الأبناء والعيال. وكان حريًّا بأمراء الطوائف بعد تلك الكارثة المروعة أن يأتلفوا ويتحدوا ضد نصارى الشمال، ولكنهم عادوا إلى فرقتهم كما عادوا إلى استخذائهم من دفع الإتاوات السنوية لأولئك النصارى مع تسديدهم الرماح والسيوف إلى صدور إخوانهم من المسلمين إلى أن ضاعت طليطلة، ولولا أن تدارك يوسف بن تاشفين الأندلس لسقطت مدنها فى حجور النصارى واحدة إثر أخرى.

أبو بكر[3] بن القصيرة

هو أبو بكر محمد بن سليمان الكُلاعى الوَلْبى الإشبيلى المعروف بابن القصيرة، نشأ فى إشبيلية، وتفتحت موهبته الأدبية فى عهد المعتضد أمير إشبيلية، وفطن له – كما يقول ابن بسام – ابن زيدون وزيره، فنبه عليه المعتضد آخر دولته، فألحقه بديوانه، وتعرَّف

---

(١) يقال لم يسقط لهم نجم كناية عن غلبتهم وظفرهم الدائم.

(٢) الشرب: مورد الماء.

(٣) انظر فى ترجمة ابن القصيرة ورسائله الذخيرة ٢٣٩/٢ والمغرب ٣٥٠/١ والقلائد ١٠٤ والصلة رقم ١١٣٧ والمطرب ٨١ والمعجب ٢٢٧ والإحاطة ٥١٦/٢ وإعتاب الكتاب ٢٢٢ والوافى ١٢٨/٣ والخريدة ٣٨٣/٣ والذيل والتكملة ٢٢٧/٦ ووثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين فى المجلد السابع من صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد وما بها من رسائل ابن القصيرة مع تحليل د. محمود مكى لها.

حينئذ بالمعتمد وأعجب كل منهما بصاحبه، حتى إذا استولى على صولجان إشبيلية بعد أبيه رفعه إلى مرتبة الوزارة، مع إسناد الكتابة إليه، وله عنه فى الذخيرة غير رسالة، وعهد إليه غير مرة بالسفارة بينه وبين جيرانه من أمراء الطوائف، حتى إذا استولى ألفونس ملك القشتاليين على طليطلة، وشدَّد عليه فيما كان يأخذ من المعتمد من إتاوات سنوية استصرخ – وبالمثل المتوكل أمير بطليوس – يوسف بن تاشفين أمير المرابطين لكى يقدم بجيشه إلى الأندلس نجدة لها ضد ألفونس ومطامعه، وكان أبو بكر بن القصيرة هو الرسول أو السفير الذى حمل رسالته إلى يوسف واستغاثته. ولبَّاه ولبَّى المتوكل وفقهاء الأندلس، فعبر بجنوده المجاز، وأنزل – يعاونه الأندلسيون وأمراؤهم : المعتمد وغيره – بألفونس وقعة الزلاقة المشهورة فى رجب سنة ٤٧٩ وفيها سحق جيش ألفونس سحقا كاد لا يبقى منه ولا يذر. وتطورت الظروف فاستولى ابن تاشفين – نزولا على إرادة الأندلسيين وفقهائهم – على إمارات الطوائف جميعا ماعدا سرقسطة فى الشمال إذ تركها لبنى هود، لما رأى من إحسانهم لحمايتها ودفاعهم عنها ضد النصارى، وأخذ المعتمد معه أسيرا إلى أغمات كما مر بنا فى غير هذا الموضع. وطبيعى أن يبتعد أبو بكر بن القصيرة عن حكام إشبيلية الجدد من المرابطين، ويظل على ذلك نحو ثلاث سنوات، ويفاجأ فى سنة ٤٨٧ باستدعاء يوسف له كى يتولى ديوان الإنشاء عنده بمراكش وكان كاتبه عبد الرحمن بن أسباط قد توفى، ويبدو أنه كان يعجب بابن القصيرة والرسائل التى حملها إليه على لسان المعتمد، وأصبح منذ هذا التاريخ رئيس ديوان الإنشاء ليوسف بن تاشفين حتى وفاته سنة ٥٠٠ وظل قائما على هذا الديوان زمن على ابنه حتى وافاه القدر سنة ٥٠٨ بمراكش.

وتحتفظ الذخيرة – كما ذكرنا آنفا – بكثير من الرسائل التى كتبها على لسان المعتمد بن عباد، ولعل أهمها الرسالة التى فصَّل فيها القول فى هزيمة ألفونس بالزلَّاقة، وكان جيشه قد دُمِّر، وبلغ من كثرة قتلاه أن كان الناس يتخذون من رءوسهم صوامع يؤذِّنون عليها ويشكرون الله على حسن صنيعه، ومن قول ابن القصيرة فى الرسالة المذكورة يبعض فصولها بلسان المعتمد.

«قد عُلِم ما كنا – قبلُ – مع عدوِّ الله أَذْفونش قَصَمه الله – من تَطَأْطُؤنا واستعلائه، وتقامئنا وانْتِخائه[1]، وأنا لم نجد لدائه دواءً، ولا لبلائه انقضاءً، ولا لمدة الامتحان به

(١) تقامؤ: تصاغر وتذلل. انتخاء: تعاظم.

فَنَاءً، إلى أن سَنَّى[١] الله تعالى من استصراخ أمير المسلمين وناصر الدين، أبى يعقوب يوسف بن تاشفين - أيده الله - ما سَنَّى، وأدْنى من نَأْىِ دياره وشَحَطْ[٢] مزاره ما أدنى.. ثم أجاز - على بركة الله وعونه - يَريش[٣] ويَبْرى، وسار قُدُمَاً[٤] يَخْلُقُ ويَفْرِى[٥]. واتفق رأينا بعد تشاور على قصد قُورِيَة (بالقرب من ماردة شرقى بَطَلْيوس) - حَرسها الله - وسمع العدو - لعنه الله - بذلك فقصد بمُحْتَشَدِه إليها فى جيوش تملأ الفضاءَ، وتسدّ الهواءَ، وتمنع أن تقع على ما تحت راياته ذُكاء[٦]، قد تحصَّنوا بالحديد من قُرُونهم إلى أقدامهم، واتخذوا من السلاح ما يزيد فى جرأتهم وإقدامهم، ودعاه تعاظمه إلى مواجهة سبيلنا، وحَمَلَهُ نَفْجُه[٧] وتهوُّره على السلوك فى مَدْرَج سيولنا، ودَنَوْنا إليه بمحلاَّتنا، وأَظْلَلْنا عليه براياتنا، وتنادَى المسلمون بشعارهم[٨] المنصور، وأقبلوا عليه وعلى من معه فى حالٍ مؤذنةٍ بالظهور والوفور، وتواقف قليلاً الجمعان، وتجاولَ مَلِيًّا[٩] الفريقان، ثم صدق أميرُ المسلمين، وناصرُ الدين - أيدَّه الله - الحملةَ، وصدَمَ فى جمعٍ لم يكثر عدد الجملة، فلم يلبث أعداءُ الله أن وَلُّوا الأدبار، واتبعتهم خيلُ المسلمين تقتلهم فى كل غَوْر ونَجدْ[١٠]، وتقتضى أرواحهم على حالين من كالئٍ ونَقْد[١١]، ولم يخلص منهم على أيدى المتبَّعين - آجرهم الله - إلا من سيلتهمه البُعْد، ويأتى على حُشاشِته[١٢] الجَهْد.. ولم يُصَبْ بحمد الله من المسلمين - وفَّرهم الله على هول المقام، وشدة الاقتحام، كثير، ولامات من أعلامهم تحت تلك الجولة إلا عدد يسير، وإن كان أذفونش - لعنه الله - لم يمت تحت السيوف بِدَدا[١٣]، فسيموت لا محالة أسفًا وكَمَدا، ونحمد الله على ما يسَّر من هذا الفتح الجليل وسناَّه، ومنحه من هذا الصُّنْعِ الجميلِ وأولاه».

وليت ابن بسام روى هذه الرسالة كاملة حتى تتراءى وقعة الزلاقة المجيدة بكل تفاصيلها، والمعتمد يعترف فى مقدمتها باستخذائه[١٤] أمام ألفونس وتصاغره وشعوره

(١) سنىَّ: فتح.
(٢) شحط: بعد.
(٣) يريش ويبرى: يضر وينفع.
(٤) قدما: مسرعا.
(٥) يخلق ويفرى. يقرر الأمر ويمضيه.
(٦) ذكاء: الشمس.
(٧) نفجه: فخره بما ليس عنده.
(٨) شعارهم: الله أكبر.
(٩) مليا: زمنا غير قليل.
(١٠) الغور: المنخفض من الأرض. النجد: المرتفع منها.
(١١) الكالئ: المؤجل. النقد: الحالّ، يقصد القتل السريع والقتل المؤجل مشيرا بذلك إلى أسراهم.
(١٢) الحشاشة: بقية الروح.
(١٣) بددا: قطعا.
(١٤) الاستخذاء: الخضوع والذل.

بالمذلة والهوان مع التزامه بما كان يدفعه له سنويا من إتاوات. ويقول إنه كان دأبه ودأب أمراء الطوائف من حوله الإذعان لنصارى الشمال، بينما كان دأب النصارى التسلط ونهب الحصون والقلاع، بل لقد نهب ألفونس طليطلة الجوهرة الكبرى، والمعتمد وأمثاله من أمراء الطوائف فى غفلة يعمهون. وقيضّ الله للمسلمين هناك ابن تاشفين، فقلّم أظفار ألفونس وردَّ كيده فى نحره ونحر أتباعه مذمومين مدحورين على نحو ما يصور ابن القصيرة فى رسالته. واحتفظت الذخيرة برسالة لابن القصيرة على لسان يوسف بن تاشفين وجَّه بها إلى أبى عبد الله محمد بن على بن حمدين حين ولاه القضاء بقرطبة سنة ٤٩٠ وله يقول:

«اسْتَهْدِ الله يَهْدِكَ، واستعنْ بالله يُعِنْك، وتولَّ القضاءَ الذى ولَّاكه الله بجدٍّ وحَزْم، وجلَدٍ وعَزْم، وأَمْضِ القضايا على ما أمضاها الله تعالى فى كتابه وسنة نَبِيه، ولا تُبال برغم راغمٍ، ولا تشفق من ملامة لائم.. وقد عهدنا إلى جماعة المرابطين أن يسلّموا لك فى كل حقٍّ تمضيه، ولا يعترضوا عليك فى قضاء تقضيه، ونحن أولا وكلُّهم آخرا مذ صرتَ قاضيا سامعون منك، غيرَ معترضين فى حق عليك، والعمالُ والرعيةُ كافَّةً سواءٌ فى الحق».

وواضح أن ابن تاشفين يجعل القاضى فوقه وفوق الرعية جميعا، ويقول إنه ليس لجماعة المرابطين فى الأندلس من أولى العقد والحل الحق فى أى اعتراض يوجهونه إليه أو إلى قضائه، ويوسف بن تاشفين نفسه أولا ثم المرابطون جميعا مذ صار قاضى الجماعة فى قرطبة قد أصبحوا خاضعين له ولأحكامه. وهو جانب مشرف فى القضاء الإسلامى، نجده فى كل مكان، ونقصد استقلاله وأن مكانة القاضى فوق مكانة الحاكم مهما بلغ من السلطان. وقد نشر الدكتور محمود مكى مجموعة من رسائل كتاب الديوان المرابطى فى عهد على بن يوسف بن تاشفين فى المجلد السابع من صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد بينها تسع رسائل لابن القصيرة من الرسالة الخامسة فى المجموعة إلى الثالثة عشرة، والسابعة فى ترتيب المجموعة أشبه بمنشور وجهه إلى أهل الأندلس بلسان على بن يوسف، وكان فى زيارة لقرطبة، وفيه ينصح الأندلسيين بطاعة الوالى وأن لا يعصوا له أمرا قائلا:

«إنه النائبُ عنا فى تدبيركم، وإقامة أموركم، وسياسة صغيركم وكبيركم، وقد فوَّضْنا

إليه ذلك وأفردْناه بالنظر فى دِقِّه وجُلِّه[١]، وُقلِّه وكُثْره[٢].. وما فعلٍ من ذلك كلِّه فنحن فعلناه، وما قال فيه فكأننا نحن قلناه، ولا نوقف ما أمْضاه، ولا نُمضى ما وقعَّه وأباه، ولا نرى فى أحد منكم إلا ما يراه، ولا نتولاّه كائنا ما كان إلا أن يتولاّه، ولا نرضى من أحواله ما لا يرضاه، بلساننا يتكلم، وعما فى جَنَاننا[٣] يترجم، وعلى ما يوافقنا يُسْدِى ويُلْحم[٤]».

وفى رأينا أن هذه قسوة فى معاملة الرعية، وواجب الحاكم الأعلى مثل على بن يوسف أمير المرابطين أن يأخذ الرعية بالحلم، وأن يوصى ولاته بعاملتها بالعدل الذى لا تصلح حياة الناس بدونه وأن يسمعوا إلى شكواهم وأن يفتحوا أبوابهم لكل متظلم أو مظلوم فى الرعية. وتخلو بعض السطور فى رسائل ابن القصيرة من السجع، وهو ما جعل عبد الواحد المراكشى يقول عنه: «كان ابن القصيرة على طريقة قدماء الكتاب من إيثار جزل الألفاظ وصحيح المعانى من غير التفات إلى الأسجاع التى أحدثها متأخرو الكتَّاب، اللهم إلا ما جاء فى رسائله من ذلك عفوا من غير استدعاء». وهذا الحكم إنما يصدق فقط على بعض سطور تتخلل أحيانا رسائله المسجوعه.

ابن أبى الخصال[٥]

هو أبو عبد الله محمد بن مسعود الغافقى الشَّقُورى المعروف بابن أبى الخصال، المولود سنة ٤٦٥ بفَرْغليط إحدى قرى شقوره من إقليم جيان غربى مرسية. سكن قرطبة، ودرس على شيوخها، ونهل من حلقاتهم ما جعله متفننا فى العلوم مستبحرا فى الآداب واللغات، عالما بالأخبار ومعانى الحديث والآثار والسير والأشعار. ويضيف ابن بشكوال إلى ذلك أنه «كان مفخرة وقته وجمال جماعته، حسَن العشرة، واسع المبرة، من

(١) دقه: دقيقه. جله: كبيره.

(٢) قله: قليله. كثره: كثيره.

(٣) الجنان: العقل.

(٤) يسدى ويلحم: يصيب ويحكم.

(٥) انظر فى ترجمة ابن أبى الخصال ورسائله الذخيرة ٧٨٦/٣ والمغرب ٦٦/٢ والقلائد ١٧٥ والصلة رقم ١١٨٧ والبغية رقم ٢٨٢ والمطرب ١٨٧ والمعجب ٢٣٧ وفهرست ابن خير ٣٨٦، ٤٢٠ ومعجم الصدفى ١٤٤ والخريدة ٤٤٩/٢ والإحاطة ٣٨٨/٢ وصبح الأعشى ٤١٣/٢، ٥٣/٨، ٨٥، ٨٦، ٨٩، ٩١، ٢٢٢، ٢٢٧، ٢٦٣/١٤ وراجع أربع رسائل ديوانية له فى وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين فى المجلدين السابع والثامن من صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد بتحقيق وتحليل د. محمود مكى. وفى معهد المخطوطات بالقاهرة التابع لجامعة الدول العربية مخطوطة له بعنوان ترسل الفقيه الكاتب ابن أبى الخصال.

أهل الخصال الباهرة والأذهان الثاقبة، فصيح اللسان، حسن البيان، حلو الكلام أحد رجال الكمال، وله تآليف حسان» منها كتاب «سراج الأدب» وكتاب «ظل الغمامة وطوق الحمامة» فى مناقب من خصَّه الرسول عليه الصلاة والسلام من صحابته بالكرامة، وأحلَّه بشهادته الصادقة دار المقامة. وكان كاتبا بليغا وشاعرا محسنا، وله قصيدة طويلة فى نسب الرسول ﷺ سماها «معراج المناقب ومنهاج الحسب الثاقب». وله بجانب ذلك رسائله الديوانية والشخصية البديعة، ويقول صاحب المعجب: «له ديوان رسائل يدور بأيدى أدباء أهل الأندلس قد جعلوه مثالا يحتذونه، ونصبوه إماما يقتفونه» ويقول صاحب المطرب إن نظمه الرائق وترسله الفائق يقع فى خمس مجلدات.

ولم يلتحق بديوان أحد من أمراء الطوائف، وأول مرابطى التحق بديوانه محمد بن الحاج القائد المرابطى والى يوسف بن تاشفين على قرطبة، وكان يسند إليه أحيانا قيادة الجيوش التى تنازل نصارى الشمال، وولاه فى سنة ٤٩٧ على غرناطة، وعزله عنها فى السنة التالية، إذ أبقاه للجيوش المحاربة. وحين تحولت مقاليد الحكم بعد يوسف إلى ابنه على ولاه على فاس سنة ٥٠١ وعلى بلنسية سنة ٥٠٣ وظل ينازل ألفونس ملك أراجون بالقرب من سرقسطة محاميا عنها ومدافعا حتى وفاته سنة ٥٠٨. وإنما ذكرنا ذلك كله عن محمد بن الحاج، لأننا نظن أن ابن أبى الخصال ظل كاتبا له حتى مطالع القرن الخامس الهجرى، وحتى استدعاه على بن يوسف أمير المرابطين للعمل فى ديوانه بمراكش، وسنرى عما قليل أنه كتب عنه رسالة سنة ٥٠٧ ولا نعرف بالضبط متى استدعاه أو متى بدأ العمل فى هذا الديوان. ويقول ابن بسام: إنه كاتبه سنة ٥٠٣ ليرسل له مقتطفات من نثره وشعره يسجلها فى كتاب الذخيرة، ويذكر أنه أرسل له هذه الرسالة وهو مجتاز بإشبيلية فى جملة العسكر، وإذا عرفنا أن على بن يوسف قاد جيشا فى تلك السنة اتجه به إلى طليطلة وفتح عدة مدن وحصون بينها طلبيرة رجحنا أن يكون ابن أبى الخصال رافقه فى جملة هذا العسكر أو هذا الجيش وكان معه ابن حمدين قاضى قرطبة، وربما التحق فعلاً بديوانه فى هذه السنة أو قبلها بقليل. وظل يحظى عند على بن يوسف بمنزلة أثيرة، وعينً أخاه أبا مروان معه فى الديوان، وما زالا يكتبان عن على، وهو راض عنهما كل الرضا حتى غزا ألفونس المحارب رذمير صاحب أراجون فى الشمال إقليم بلنسية سنة ٥٢٣ ونهضت له منها حشود ضخمة من الأندلسيين ومن المرابطين، والتقى الجمعان عند قلعة قليرة بمقربة من جزيرة شقر، وكانت الدائرة على المرابطين والأندلسيين، وفقدوا اثنى عشر ألفا بين قتيل وأسير يقول ابن القطان: «وبلغ ذلك على بن يوسف فغاظه، وأمر

بالكتابة إلى جنود لمتونة (المرابطين) فى بلنسية بالخزى، فكتب ابن أبى الخصال عنه إليهم بكل تنكيل وخزى[١]» وأفحش أبو مروان عليهم فى رسالته بقوله فى بعض فصولها: «أى بنى اللئيمة وأعيار الهزيمة، إلام يزيِّفكم الناقد[٢]، ويردكم الفارس الواحد؟ فليت لكم بارتباط الخيول ضأنا -لها حالبٌ قاعد ، لقد آن أن نوسِعَكم عِقابا وأن لا تَلُوثوا[٣] على وجه نِقابا، وأن نعيدكم إلى صحرائكم، ونطهِّر الجزيرة من رُحَضائكم[٤]». وهى مبالغة فى الإفحاش على جيش المرابطين المجاهد فى الأندلس، مما أحنق على بن يوسف، فأخَّر أبا مروان عن كتابته. ويقول صاحب المعجب: إن على بن يوسف راجع أبا عبد الله بن أبى الخصال فيها كتب أخوه وأن أبا عبد الله استعفاه فأعفاه ورجع إلى قرطبة بعد ما مات أخوه أبو مروان بمراكش» وأخوه إنما توفى سنة ٥٣٩ مما يدل - فى رأينا - على أن على بن يوسف لم يقبل استقالتهما من ديوان الكتابة وأنهما ظلا يعملان فيه حتى وفاة على بن يوسف سنة ٥٣٧ على الأرجح، وربما عملا فيه بعد وفاته إلى أن توفى أبو مروان، فعاد أبو عبد الله إلى قرطبة، ولازم داره بها حتى توفى سنة ٥٤٠.

ولأبى عبد الله رسائل شخصية ومواعظ ووصف نثرى للطبيعة ومقامة، وسنعرض لكل ذلك فى غير هذا الموضع، وحسبنا الآن أن نعرض لرسالتين اخترناهما من رسائله الديوانية كتب أولاهما فى سنة ٥٠٧، وهى موجهة إلى أهل الأندلس للحض على الجهاد وإعلامهم أن أمير المسلمين على بن تاشفين عزم على خوض معارك ضارية مع النصارى الشماليين وفى فاتحتها يقول:

«كتابُنا - أعزَّكم الله - بتَقْواه، وكنَفكم بظلِّ ذُرَاه، ووفَّر حظوظكم من حُسْناه، من حضرة مراكش - حرسَها الله - يوم الاثنين منتصف شوال من سنة سَبْع وخمسمائة بين يدى حركتنا يَمَّن الله فاتحتها وعُقْباها، وقد قرَعْنا الظَّنَابِيب[٥]، وأشْرَعْنا الأنابيب[٦]، وضمَّرنا اليَعاسيب[٧]، واستنفرنا البعيد والقريب، مستشعرين إخلاصَ نية، وصدق حميَّة،

---

(١) راجع قسما من نظم الجمان لابن القطان تحقيق د. محمود مكى (طبع الرباط) ص ١١٠ وما بعدها.
(٢) الناقد: الصيرفى الذى يميز النقد الحق من الزائف.
(٣) تلوثوا: تضعوا اللثام شعار لمتونة على وجوهكم.
(٤) رحضاء: عرق الحمى، والكناية واضحة.
(٥) قرع الظنابيب: كناية عن الإسراع للحرب.
(٦) الأنابيب: الرماح.
(٧) اليعاسيب: الخيل.

في نَصْر دين الإسلام، وَمَنْع جانبه أن يُضام، أو يناله من عدوه اهْتِضام[١]، ونحن وإن كنا قد بالغنا في الاحتشاد والاستعداد، واستنهضنا من الأجناد، ما يُرْبى على الحَصَى والتَّعْداد، فإنا نعتقد اعتقاد يقين، بقول رَبِّ العالمين، في كتابه المبين ﴿قل ما يَعْبَؤُ بكم رَبِّي لولا دعاؤُكم﴾ أن استنفار الدعاء، واستفتاح أبواب السماء، بخالص الثناء، من أنفع الأشياء، وأنجح الدواء، فيما أعضل[٢] من الأَدْوَاء».

وكانت هذه السنة حقا من السنوات التي أبلى فيها المرابطون بلاء عظيما في قتال نصارى الشمال سواء نصارى أراجون أو برشلونة أو القشتاليين. وإنه لما يحمد لهم ولعلى بن يوسف أنهم ظلوا لا يغمدون سيوفهم أبدا وظلوا يواجهون أعداءهم منزلين بهم ضربات قاصمة، وكان النصارى أحيانا ينتصرون في بعض الوقائع، ولكن سرعان ما كان المرابطون يأخذون ثأرهم، ويكيلون لهم الصاع صاعين. وفي أثناء ذلك كتب المعاهدون من النصارى من أهل الذمة - وخاصة في غرناطة - إلى الملك النصراني ألفونس بن رذمير ملك أراجون يدعونه للاستيلاء على ما بيد أهل الأندلس من البلدان، فلباهم في أواخر شعبان سنة ٥١٩ وقاد جيشا كثيفا اخترق البلاد من سرقسطة إلى غرناطة، وهاجم كل ما في طريقه من بلدان مثل دانية ومرسية ووادي آش وحاصر غرناطة غير أنه اضطر إلى فك الحصار عنها، وكان قد واقعه المرابطون بجوار اليُسانة بالقرب من قرطبة ولم يكتب لهم النصر، ومضى على وجهه مخترقا إقليم البُشَرَّات ومالقة إلى البحر المتوسط، واتجه إلى الشمال عائدا إلى موطنه[٣]. وكان قد ظل في هذه الحملة نحو سنة يعيث في الأندلس مما أغضب أهلها أشد الغضب، وخاصة على المعاهدين من أهل الذمة الذين يعايشونهم لا لأنهم كاتبوا ملك أراجون فحسب بل أيضا لأنهم كانوا يشدون أزره أينما توجه ويدلونه على عورات البلاد ويبذلون له كل عون. وكان يزيد في غضبهم شيء من تقاعس تميم بن يوسف بن تاشفين والى غرناطة وقرطبة في تلك السنة. وانتدب أبو الوليد بن رشد الفقيه الكبير جد الفيلسوف ابن رشد نفسه للوفود على أمير المرابطين على بن يوسف بمراكش وإطلاعه على صنيع المعاهدين من أهل الذمة واستدعائهم لملك أراجون وعونهم له في حملته مما نقضوا به العهد الموثق بينهم وبين

---

(١) اهتضام: ظلم.

(٢) أعضل: أعجز. الأدواء: الأمراض.

(٣) انظر في هذه الحملة الإحاطة (طبعة عنان) ١١٤/١، والحلل الموشية ٧٥ وتاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين لأشباخ ترجمة عنان ص ١٤٦.

المسلمين «وأفتى بتغريبهم عن أوطانهم[١]» ووعده على بن يوسف أن يأخذ بفتواه، وأمر ابن أبى الخصال أن يكتب إلى أهل الأندلس - وخاصة أهل غرناطة وقرطبة - يطمئنهم بأنه سيتخذ من الإجراءات ما يرضيهم، وصدع ابن أبى الخصال بأمره، وكتب إليهم رسالة ضافية جاء فيها:

«وَفَدَ إلينا، وورد علينا، الفقيُه الأجَلّ المشاور أبو الوليد بنُ رُشْد، فبسط لدينا شأن تلك الجزيرة - كلأها الله - وجَلّاه، ووصف من حالها ما أَصَخْنا له حتى استوفاه، وجال بميدان البيان أفصح مجال، وعرض الأمور فى معرضها بأبلغ مقال.. ولن نَأْلُوَ[٢] جهدا مَبْذولا، وجِدًّا حَفِيلا، وعَزْما لا نابيا ولا كَلِيلا[٣]، فيما نَدْرَأ ونَدْفَع، ونذودُ عن حَوْزة[٤] الملة ونمنع، ونَدْأَبُ لذلك الدَّأبَ الحَثِيث[٥]، نُتْبع القديم فيه بالحديث، ونَنْصِبُ له النَّصَبَ الذى ليس حَبْلُه السَّحِيلَ[٦] ولا النَّكيثَ[٧]، ولا يشغلنا عنه شاغل وإن أهمّ، بل نصرف نحو جنابكم الحزم الأتمَّ الأهم، وجهدَ الكفاية مادهَم حادث وألمّ، فاستَشْعِروا أن أموركم إزاء ناظر اهْتبالنا[٨]، ومن آكد مؤكَّدات أشغالنا، وقد عاين الفقيهُ الأجلُّ المتقدمُ الذكر، حقيقةَ الأمر، وسيبلغكم ذلك عنه فلا تكونوا فى ريب منه، والله تعالى يُعيننا على ما نحن بصدده، ويَمْنَحنا من تأييده ما يُعِزّ الإسلامَ ويقيم من أَوَدِه[٩]، بحوله وطَوْله، وعَدْله وفضله».

وفعلا نفَّذ على بن يوسف فتوى الفقيه ابن رشد، فأمر فى رمضان من سنة ٥٢٠ بإجلاء المعاهدين من النصارى الذين نقضوا العهود الموثقة إلى مكناسة وسَلا وغيرهما من بلدان المغرب، وعزل أخاه تميما عن غرناطة وقرطبة لتقصيره إزاء حملة ابن رذمير. وإذا كان المرابطون قصَّروا - أو أُخذ عليهم شىء من التقصير - فى مواجهة ابن رذمير فإنهم طالما أبلوا فى منازلة النصارى الشماليين وأبلى معهم تميم كما حدث فى موقعة أُقليش التى انتصروا فيها على جيش ألفونس السادس ملك قشتالة، وفيها كان مصرع ابنه شانجه. وواضح مما اخترناه من كتابات ابن أبى الخصال الديوانية أنه كان كاتبا مجيدا يحسن انتخاب الكلم فى نسق محكم من السجع الرصين.

---

(١) الإحاطة ١/١١٩ - ١٢٠.
(٢) نألوجهدا: نقصر فى جهد.
(٣) كليلا: ضعيفا.
(٤) حوزة الملة: حدودها وجوانبها.
(٥) الحثيث: السريع.
(٦) السحيل: المفتول على قوة واحدة فتلا خفيفا.
(٧) النكيث: المنقوض المشعث، ضد المفتول.
(٨) اهتبالنا: اغتنامنا الفرصة.
(٩) أوده: اعوجاجه.

ابن عَمِيرة المخزومي[1]

هو أبو المطرف أحمد بن عبد الله المخزومى من سلالة خالد بن الوليد، وُلد سنة ٥٨٢ بجزيرة شُقْر بين شاطبة وبَلَنْسِية، ونهرها يحيط بها من جميع الجهات، ولذلك سميت جزيرة، وطالما تغنى أبناؤها - من أمثال ابن خفاجة - بجمال طبيعتها. وعُنى به والده منذ نعومة أظفاره، فأدخله كتابا حفظ فيه القرآن الكريم وبعض الشعر، ثم دفعه إلى حلقات بعض الشيوخ، حتى إذا أيفع وشبَّ أرسل به إلى بلنسية لينهل من حلقات حافظها وفقيهها وقاضيها أبى الربيع الكلاعى، وفيها أخذ يختلف إلى حلقات غيره من العلماء وخاصة حلقة ابن نوح الغافقى شيخ العربية وقواعدها النحوية. ودفعه شغفه بالاستزادة من العلم إلى الرحلة فى طلبه عند بعض العلماء المشهورين لأيامه، فرحل إلى شاطبة ونهل من حلقتىْ شيخها أبى عمر الشاطبى وقاضيها أبى الخطاب بن واجب، ورحل إلى دانية للأخذ عن ابن حوط الله الأنصارى، ونزل مرسية وأخذ عن شيخها عزيز بن خطاب، وسمع عليه كتاب المستصفى فى علم الأصول للغزالى وبعض كتب الصوفية. وطمحت نفسه مبكرا إلى أن يكون من أصحاب الجاه، وكانت فيه نزعة أدبية هيأته ليكون شاعرا، ولم يلبث أن عمل بديوان أبى عبد الله بن أبى حفص الموحدى حاكم بلنسية حوالى سنة ٦٠٧ وهو فى نحو الخامسة والعشرين من عمره. وظل بهذا الديوان سنوات متعاقبة، ونراه فى سنة ٦١٧ بإشبيلية، ولعله كان يريد العمل بدواوينها، وظل بها فترة اختلف فيها إلى حلقة الشلوبين إمام العربية بالأندلس فى عصره. وعاد إلى بلنسية، وكان قد وليها للموحدين سنة ٦٢٠ أبو زيد بن أبى عبد الله بن أبى حفص فألحقه بديوانه مع صديقه ابن الأبار، حتى إذا كانت سنة ٦٢٦ ثار على أبى زيد زيانُ بن أبى الحملات بن مردنيش واستولى منه على بلنسية، وظل ابن عميرة يعمل فى ديوان زيان حتى أواخر سنة ٦٢٨ وأحسَّ من زيان شيئا من

---

(١) انظر فى ابن عميرة وترجمته ورسائله معجم أصحاب الصدفى ص ١٦٣ وتحفة القادم رقم ٩٢ واختصار القدح المعلى ص ٤٢ والمغرب ٣٦٣/٢ وجذوة الاقتباس لابن القاضى ص ٧٢ وعنوان الدراية للغبرينى ص ١٧٨ والإحاطة ١٧٣/١ ونفح الطيب ٢٧٢/١ وصبح الأعشى ٥٣٤/٦، ٣٧/٧، ٩٤، ٩٨، ١١٠، ١١٦، ١٤٩/٨، ١٥٠، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٦، ٣٠١/٩، ٣٠٦/١٠ وراجع كتاب «أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومى: حياته وآثاره» لمحمد بن شريفة (طبع الرباط) وتحتفظ الخزانة العامة فى الرباط بمخطوطتين من رسائله.

الوحشة، فترك بلنسية إلى بلدته جزيرة شُقْر، وكان سلطان ابن هود أمير مُرْسية قد اتسع، فكتب له فى سنة ٦٢٩ وعيَّنه ابن هود قاضيا فى شاطبة، جامعا له بين القضاء والكتابة كما تدل على ذلك بيعة طويلة كتبها باسم ابن هود عن نفسه وعن أهل شاطبة فى الأندلس للمستنصر العباسى مع بيعة الناس فيها أيضا له ولابنه وليا للعهد من بعده. وابن هود فيها يعلن ولاءه وطاعته للخليفة العباسى استكمالا لثورته على الموحدين وما يدَّعون من خلافتهم. وربما ظل يجمع بين عمله فى الكتابة لابن هود وقضاء شاطبة. وتوفى ابن هود سنة ٦٣٥ وخلفه عمه واستولى منه على الحكم عزيز بن خطاب، واتخذ ابن عميرة كاتبا له، وقُتل ابن خطاب. وكان ملك أراجون قد استولى على بلنسية، وقبله بقليل استولى ملك قشتالة على قرطبة، وشعر ابن عميرة أن مستقبل الأندلس مظلم، فرأى الهجرة منها إلى المغرب، وعبر الزقاق، ونزل سبتة عند واليها ابن خلاص فرحب به، ولم يلبث أن لقى الخليفة الموحدى الرشيد فى مدينة الرباط حين زارها، وصحبه معه إلى حاضرة مملكته: «مراكش» وألحقه بدواوينه، ولبث بها ابن عميرة قليلا، إذ عينه الرشيد قاضيا فى سَلاوالرباط. وتوفى الرشيد سنة ٦٤٠ فأقرَّه أخوه السعيد على عمله، ثم نقله إلى مكناسة، ونراه فيها يكتب باسم أهلها بيعة لسلطان تونس أبى زكريا الحفصى، ويبدو أنه إنما أغراه بذلك أنه رأى بوضوح أن دولة الموحدين تحتضر، وتكاد تلفظ أنفاسها الأخيرة. وعاد إلى سبتة يكتب لحاكمها. وفى سنة ٦٤٦ تحوَّل إلى أبى زكريا سلطان تونس ودولته الحفصية، ونزل بجاية وأفضال أبى زكريا تتوالى عليه. ولم يلبث أبو زكريا أن توفى سنة ٦٤٧ وخلفه ابنه المستنصر، فاستقدمه إلى تونس، وولاه القضاء فى قسنطينة وغيرها، ثم استخلصه لنفسه مستشارا وأنيسا، وغمره بأفضاله إلى أن توفى سنة ٦٥٨ للهجرة.

وطبيعى أن تكون لابن عميرة رسائل ديوانية كثيرة، إذ كتب لحكام بلنسية من الموحدين وخاصة لأبى زيد الموحدى، وكتب بعده لحكامها: زيان بن مردنيش الثائر عليه وابن هود أمير مرسية وعزيز بن خطاب صاحبها والرشيد الموحدى، ومن أقدم رسائله رسالة كتبها عن أبى زيد الموحدى أمير بلنسية إلى المستنصر الموحدى سنة ٦٢٠ يستأذنه فى وفود أمير نصرانى عليه من أراجون يسمى: «پلاسكو أرطال» كان وصيا على ملكها خايمى، ولما استبد بالملك اختلف معه ونفاه فلجأ إلى بلنسية، واستُقْبل بالترحيب على أمل كاذب أن يكون فيما بعد عونا لحاكم بلنسية فى حروبه ضد ملك أراجون. وصوَّر ابن عميرة هذا الأمل المخطئ وأمر هذا اللاجئ فى رسالته، وقد احتفظ القلقشندى فى الجزء

السادس من صبح الأعشى بشطر كبير منها، وفيها يقول عنه ابن عميرة:

«كان له فى البلاد الأرَغُونِيَّة زعامة فى شَأْوها[١] بَرَّز، ولغايتها أَحْرَز، وكان قد كفل صاحبَ أراجون فى الزمان المتقدم كفالةً دارَ أمرها عليه، وأُلْقِى زمامُها إليه. ثم إنه حُطَّ من رتبته، وتأكدت المبالغة فى نكبته.. والظاهر من حَنَقه على أهل أراجون وشدة عَداوته لهم، وما تأكَّد من القطيعة بينه وبينهم، أنه إن صادف وَقْتَ فتنةٍ معهم ووجد ما يؤمِّله من إحسان الأمر العالى - أيَّده الله - فينتهى من نكايتهم والإضرار بهم إلى غايةٍ غريبة الآثار، مفضية به إلى درْك الثار، وكثير من زعماء أراجون ورجالها أقاربه وفُرسانه وكلهم - فى حَبْله - حاطب[٢]، ولإنجاده - متى أمكنه - خاطب».

وكأن أبا زيد ومن حوله لم يأخذوا درسا من التجاء ألفونس القشتالى إلى طليطلة حين حاربه أخوه شانجه وانتصر عليه وفرَّ منه إلى دير، ولجأ إلى المأمون أمير طليطلة فرحب به وبالغ فى إكرامه تسعة شهور متعاقبة، عرف فيها مداخل حصن طليطلة العتيد ومخارجه، فلما توفى أخوه وأصبح ملكا على قشتالة لم يكن له هم إلا الاستيلاء على طليطلة، واستولى عليها، وكان ذلك بدء ضياع الأندلس منذ هذا التاريخ، وهو درس كان ينبغى أن لا ينساه أبو زيد، وخطأ أكبر الخطأ أن يفتح حكام بلدة صدورهم وبلدهم لأعدائهم ظانين أنهم يستطيعون أن يحيلوهم أصدقاء أو ما يشبه الأصدقاء، وما أبعده وهما أن يصبح العدو صديقا فما بالك إذا كان العدو محاربا لك، ولكن هكذا قُدِّر لبلنسية أن يحكمها غِرّ ليس عنده بصر بالأمور وأن يجد فى كنفه «پلاسكو» الأرَجونى عدوه الأمان والضيافة لمدة عامين متعاقبين، ويرجع إلى بلده، ويعود منها بعد قليل مع ملكها بجيش يستولى به على بلنسية بعد تنكيله بأهلها تنكيلا شديدا.

ونقف قليلا عند البيعة للخليفة العباسى المستنصر التى أشرنا إليها والتى كتب فيها ابن عميرة رسالة طويلة بعقد ابن هود على أهل شاطبة الولاء لهذا الخليفة والبيعة لنفسه ولابنه وليا للعهد من بعده، وهو يستهلها بحمد الله والصلاة على رسوله بهذا النمط:

«الحمدُ لله الذى جعل الأرضَ قَرارا، وأرسل السماءَ مِدْرارا، وسخَّر ليلًا ونهارا، وقدَّر آجالا وأَعْمارا، وخلق الخلق أَطْوارا، وجعل لهم إرادةً واختيارا، وأوجد لهم تفكُّرًا

---

(١) شأوها هنا: سلطانها.

(٢) يقال حطب فى حبله إذا أعانه ونصره.

واعتبارًا، وتعاهدهم برحمته صِغارا وكبارا، نحمده حمد من يرجو له وَقارا، ونبرأ ممن عانده استكبارا، وأَلْحَدَ فى آياته سَفاهة واغترارا، وصلَّى الله على سيدنا محمد الشريف نِجارا، السامى فخارا، رفع الله من شريعته للأمة مَنارا، وأطفأ برسالته للشِّرْك نارا، حتى علا الإسلام مقدارًا، وعزَّ جارًا ودارا، وأذعن له الكفر اضطرارًا، واستسلم ذلَّةً وصَغارا، فمضى وقد ملأ البَسِيطة أنوارا، وعمَّها بدعوته أنجادا وأَغْوارا، وأوجب لولاة العهد بعده طاعة وائْتمارا. فجزى الله أفضل ما جزى نبيًّا مختارا، ورسولا اجْتَباه اختصاصًا وإيثارا، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين آثارا واختبارا، وعلى أصحابه الكرام مهاجرين وأنصارا، صلاة نواليها إعلانا وإسرارا، ونرجو بها مغفرة ربِّنا إنه كان غفارا»

وواضح أن ابن عميرة التزم فى سجع هذه القطعة التى استهل بها البيعة حرف الراء، وهو جانب يشيع شرقا وغربا حتى لنجد الرسالة يُخْتار لها أحيانا حرف بعينه، وكان الحريرى قد ابتدأ ذلك برسالتين التزم فى إحداهما السين وفى الثانية الشين، فأخذ الحصكفى وبعض الكتاب فى الشرق يحاكيه فى هذا الصنيع، وبالمثل أخذ بعض الكتاب فى الأندلس يحاكونه فيه ببعض رسائلهم الشخصية دلالة منهم على مهارتهم الفنية، وسنعود إلى الحديث عن هذا الجانب فى عرضنا للرسائل الشخصية عند ابن عميرة وغيره من الكتاب. وله فصول وكلمات وعظية على طريقة ابن الجوزى كما ذكر ذلك ابن عبد الملك فى ترجمته له بكتابه «الذيل والتكملة، وله مؤلفات مختلفة منها تعليقات على كتاب المعالم للفخر الرازى وتعقيب على كتاب التبيان فى البلاغة لابن الزملكانى، ومنها كتاب فى تاريخ ثورة المريدين على دولة المرابطين وكتاب عن كائنة ميورقة واستيلاء ملك أراجون عليها. وبالخزانة العامة بالرباط مخطوطتان من رسائله.

لسان[1] الدين بن الخطيب

أكبر كتاب غرناطة والأندلس فى أزمنتها الأخيرة، وهو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد، ولد سنة ٧١٣ للهجرة لأسرة يمنية بلوشة على نهر شنيل بالقرب من غرناطة، وكان أبوه من أهل العلم والأدب، فعيِّن بدواوين غرناطة عند أمرائها بنى

(١) انظر فى ترجمة لسان الدين التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١٥٥ وما بعدها وصبح الأعشى للقلقشندى ٥٣٦/٦ وتاريخ ابن خلدون ٣٣٢/٧ وأزهار الرياض ١٨٦/١ وما بعدها والجزءين الخامس والسادس من نفح الطيب وكتاب الاستقصا للسلاوى (طبع الدار البيضاء) ١٢/٤ وفى مواضع متفرقة وراجع كتابه: أعمال الأعلام:=

الأحمر، وبها نشأ لسان الدين، وعُنى أبوه بتربيته، فبعد حفظه للقرآن الكريم ألحقه بحلقات علماء العربية والدراسات الإسلامية، وطمحت نفسه لمعرفة علوم الأوائل فلزم يحيى بن هذيل أهم علمائها فى زمنه. وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة، وأخذ فى مديح السلطان أبى الحجاج يوسف (٧٣٣ - ٧٥٥) وهو أهم سلاطين بنى الأحمر فى القرن الثامن الهجرى، ويُعَدّ مؤسس قصر الحمراء المشهور بما أضاف إليه من غرفه وأبهائه الفخمة. وأعجب السلطان بأشعار لسان الدين فألحقه بدواوينه، وأخذ يلزم أبا الحسن بن الجياب رئيس ديوان الكتاب وشيخ العدوتين: الأندلس والمغرب فى النثر والنظم وسائر العلوم الأدبية، وعُنى بالأديب الشاب، ومازال يعمل معه حتى توفى سنة ٧٤٩ فولاه السلطان أبو الحجاج رياسة ديوان الكتّاب بعده، وتوفى السلطان سنة ٧٥٥ وخلفه ابنه الغنى بالله، فازدادت حظوته عنده ورفعه إلى مرتبة الوزارة. ونشبت ثورة ضد سلطانه واضطر إلى اللجوء إلى السلطان أبى عنان المرينى بفاس سنة ٧٦٠ وصحبه لسان الدين هناك ولم يلبث أن جال فى بلاد المغرب واستقر بمدينة سَلا زمنا، وعاد سلطانه إلى عرشه بغرناطة سنة ٧٦٣ فاستدعاه وألقى إليه بمقاليد الحكم، ولقّبه بذى الوزارتين: السيف والقلم، وانفرد بالحل والعقد فترة، ثم أخذ يشعر بدسائس كثيرة من حوله، فخشى على نفسه مغبة ذلك، فجمع حقائبه سنة ٧٧٢ وتوجه إلى السلطان عبد العزيز المرينى بفاس فأكرمه. ولم يهدأ خصومه بغرناطة وفى مقدمتهم تلميذه ابن زَمْرَك وقاضى غرناطة أبو الحسن النباهى ودسُّوا عليه عند الغنى بالله أنه يحرض سلطان فاس على غزو الأندلس وضم غرناطة إليه ووصموه بالزندقة لما ذكر فى كتابه: «روضة التعريف» من عقيدة التصوف الفلسفية وما يتصل بها من الحلول وغير الحلول، ورُفع ذلك إلى السلطان عبد العزيز المرينى فأبى تسليمه مبرِّئا له مما وصموه به.. ولم يلبث السلطان أن توفى سنة ٧٧٤ واضطربت الأمور فى فاس، وتولى سلطنتها - بمساعدة الغنى بالله - أبو سالم المرينى سنة ٧٧٦ ولم يلبث أن أودع ابن الخطيب السجن إرضاء للغنى بالله. ولم يكتف تلميذه ابن زمرك بذلك، إذ قدم إلى فاس وعقد محاكمة لأستاذه فى مجلس السلطان

= القسم الثانى (طبع الرباط) ص٢٦١ وما بعدها وكتابنا الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ٣٣٣ وللسان الدين أعمال كثيرة منها الإحاطة فى أخبار غرناطة (طبع دار المعارف) والكتيبة الكامنة فى معاصريه بالمائة الثامنة تحقيق د. إحسان عباس (طبع بيروت) ونفاضة الجراب فى كتاب مشاهدات لسان الدين بن الخطيب فى المغرب والأندلس (طبع الإسكندرية) وكتابه فى التصوف: روضة التعريف بالحب الشريف (طبع بيروت) وديوانه الشعرى: الصيب والجهام (طبع الجزائر).

أبى سالم وعرض عليه بعض كلمات كتبها فى مصنفه «روضة التعريف» تتصل بآراء الصوفية المتفلسفة من مثل الحلول والاتحاد، وأعلن النكير عليه موبخا له، ونقل إلى السجن، وأخذ القوم يتشاورون فيه وأفتاهم بعض الفقهاء قصار النظر بقتله، ودُسَّ إليه فى السجن مَن قتلوه خنقا، وألقيت جثته على قبره، ويقال إنه أضرمت عليه نار فاحترق شعره واسودت بشرته، ووُورىَ التراب. وعجب الناس فى فاس وفى غرناطة من هذا التمثيل الشنيع، وعدّوه من هنات ابن زَمْرَك تلميذه العاق.

ولم يكن ابن الخطيب متصوفا فضلا عن أن يكون متصوفا فلسفيا كما حاول ابن زمرك أن ينعته بذلك كذبا عليه وافتراء، إنما كان كاتبا موسوعيا كما تشهد بذلك مصنفاته الكثيرة، وقد كتب فى التصوف كتابه «روضة التعريف» لشيوع التصوف فى زمنه بالأندلس وخاصة بالمغرب، ولو كان متصوفا حقا لهجر الدنيا وعاش فى زاوية - أو ضرب فى الأرض - ناسكا مثل ابن عربى وابن سبعين والششترى. ولا نخليه من ميول إلى الزهد والتصوف كما تدل على ذلك أشعاره ولكن هذا شىء والتصوف الحقيقى شىء آخر، وفيه يقول المقرى: «هو لسان الدين وفخر الإسلام بالأندلس فى عصره الطائر الصيت المثل المضروب فى الكتابة والشعر والمعرفة بالعلوم على اختلاف أنواعها» ويقول ابن خلدون فى وصف براعته الأدبية: «كان آية من آيات الله فى النظم والنثر والمعارف والأدب لا يساجَل مداه، ولا يُهْتَدى فيها بمثل هداه». ومما قيل فيه: «كاتب الأرض إلى يوم العرض». وله - بجانب ديوانه: الصيِّب والجهام - مقامة بناها على المفاخرة بين سلا فى المغرب ومالقة فى الأندلس وثلاث رحلات منها رحلتان فى وصف البلدان وصف فيهما بلدان الأندلس والمغرب هما: «خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف» فى وصف بعض البلدان الأندلسية الشرقية، و «معيار الاختبار فى ذكر أحوال المعاهد والديار» فى وصف بعض البلدان المغربية والأندلسية. وهذه الأعمال منشورة وكذلك رحلته نفاضة الجراب، وسنعرض لكل ذلك فى موضع آخر. ونقف قليلا عند رسائله الديوانية.

وعادة إذا كانت الرسالة الديوانية موجهة إلى أحد السلاطين ممن يلقبون أنفسهم بالخلافة مثل سلاطين تونس أو يكتفون بالسلطنة فقط مثل سلاطين بنى مرين أن تذكر لفظ الخلافة أولا أو يذكر لفظ المقام أو المقر ويطيل لسان الدين فى هذا الوصف، ثم يذكر ألقاب الخليفة أو السلطان المرسل إليه، كما يطيل فى الدعاء له ولدولته ويذكر السلطان

المكتوب عنه، ويتبع ذلك بالتحميد والصلاة على رسول الله والرضا عن صحابته، ويذكر المكان الذى كُتبت فيه الرسالة ثم يأخذ فى بيان المقصود منها ويختمها بالدعاء. ومن خير ما يصور ذلك كله من رسائله الديوانية رسالة له عن سلطانه الغنى بالله إلى سلطان تونس الملقب بالخليفة، جوابا عن كتاب وصل منه مصحوبا بهدية من الخيل والرقيق، ولروعتها البيانية رواها ابن خلدون فى كتابه التعريف والقلقشندى فى صبح الأعشى، وهو يستهلها على هذا النمط:

«الخلافةُ التى ارتفع فى عقائد فَضْلها الأصيلِ القواعدِ الخلافُ، واستقلت مبانى فَخرْها الشائع وعِزِّها الذائع على ما أسَّسه الأسلافُ، وجب لحقِّها الجازم وفَرْضها اللازم الاعتراف، ووسعتْ الآملين لها الجوانبُ الرَّحيبةُ والأكناف، فامتزاجُنا بَعلائها المُنيف وولائها الشريف كما امتزج الماءُ والسُّلاف، وثناؤنا على مجدها الكريم وفضلها العَميم كما تأرَّجت الرياض بالأفْواف[1]، لما زارها الغمام الوكَّاف[2]، ودعاؤنا بطول بقائها واتصال عَلائها يسمو به إلى قَرْع أبواب السموات العلا الاستشراف، وحرصُنا على توفية حقوقها العظيمة وفواضلها العَميمة لا تحصره الحدود ولا تدركُه الأوصاف، وإن عَذَر فى التقصير عن نَيْل ذلك المرام الكبير الحقُّ والإنصاف».

ولعل بلاغة لسان الدين قد اتضحت فى هذه القطعة، إذ ينعت فيها الخلافة التونسية نعوتا بديعة، وبدعها لا يأتى من انتخاب ألفاظها ذات الرونق والحسن فحسب، بل يأتى أيضا من أسجاعها الطويلة التى يتلاقى طولها بما يجرى فى تضاعيفها من أسجاع داخلية على نحو ما نرى فى تقابل السجعتين: «فخرها الشائع» و «عزها الذائع» فى السجعة الثانية وبالمثل تقابل السجعتين فى السجعة الطويلة الثالثة إذ يقول: «لحقِّها الجازم، وفَرْضها اللازم». وبنفس النمط تلاقى «المنيف والشريف» فى السجعة الخامسة، و «الكريم والعميم فى السجعة السادسة». ويكثر ذلك فى الرسالة طلبا لاكتمال الجرس حتى تلذ الأسماع لذة موسيقية، وهى لذة تقترن بمحسنات البديع، إذ تتوالى الجناسات فى السجعات الداخلية، كما تتوالى التصاوير، ففضل الخلافة أصيل القواعد، ومبانى فخرها وعزها استقلت وارتفعت، وامتزاج السلطان الغنى بالله وحواشيه بشرفها امتزاج الماء بالسلاف، وثناؤهم عَطِرٌ كشذى الرياض فى الأزهار غِبَّ الغيث المدرار. وأخذ بعد ذلك فى نعت الخليفة نفسه وآبائه الأمجاد، وامتد نعته نحو أربعة عشر سطرا، ثم ذكر الغنى بالله مع

---

(١) الأفواف: الزهر. (٢) الوكّاف: المدرار.

طائفة من النعوت، ومع سلام كريم كما حملت أحاديثَ الأزهار نسماتُ الأسحار، وأطال فى التحميد والصلاة على رسول الله والدعاء للخلافة، كما أطال فى وصف الرسالة وحاملها والهدية النفيسة من الخيل فرسا فرسا، واستطرد إلى ذكر الخيول والأفراس المشهورة عند العرب، ويعود إلى ذكر رسول الخليفة أو سفيره مطريا مثنيا، ثم يأخذ فى وصف جهاد سلطانه الغنى بالله لنصارى الشمال ومنازلته لهم فى مدن كثيرة، من ذلك منازلته لهم فى جيَّان وكانت قد سقطت فى أيديهم سنة ٦٤٣ للهجرة ويصف تلك المنازلة بقوله:

«وهذه المدينة هي الأمُّ الوَلود، والجنَّة التى فى النار لسكَّانها من الكفار الخلود، وكُرْسِيّ الملك، ومجنَّبتهُ[١] الوسطى من السِّلْك،غابُ الأسود، وجُحْرُ الحيّات السود.. ولما أكثبنا[٢] جوارها، وكدنا نلتمح، نارها، تحركنا إليها وِشاحُ الأفق المرقوم[٣] بزُهْر النجوم قد دارَ دائرُه، واللَّيْلُ من خوف الصباحِ على سطحه المستباحِ قد شابت غدَائِرهُ.. ولما فشا سرُّ الصباح، واهتزَّت أعْطافُ الرايات بتحيات مبشراتِ الرياح، أطللنا عليها إطلال الأسود على الفَرائس، والفحول على العرائس.. ودفعوا من أصْحَر[٤] إليهم من الفرسان، وسبق إلى حَوْمة الميدان، حتى أجحروهم[٥] فى البلد، وسلبوهم لباسَ الجلَد، في موقف يُذْهل الوالد عن الولد، صابت[٦] السهامُ فيه غماما، وطارتْ كأسْراب الحَمام تُهْدِى حِماما[٧]، وأضحت القَنَا قِصَدًا[٨]، بعد أن كانت شهابا رَصَدًا».

والقطعة زاخرة بالجناسات والتصاوير، فجيان أم ولود، وجنة من جنان الأندلس ولساكنيها النار وبئس القرار. وقد دنوا منها فى أخريات الليل ووشاح الأفق المرصع بالنجوم يوشك أن يغيب والليل من خوف الصباح يوشك أن يشيب، ولم يلبث الصباح أن أخذ يذيع أسراره بينما تهتز الأغصان بتحيات الرياح مبشرة لهم بالظفر على الأعداء، وهبطوا عليهم كالأسود الكواسر، ولم يلبثوا أن دخلوا فى جحورهم فرارا من الموت الزؤام وما ينزلون بهم من غمام السهام وصواعق الموت، وتكسرت الرماح التى كانت تحميهم، وخروا صرعى مجدَّلين.

---

(١) مجنبة واسطة السلك: الجوهرة بجانب الجوهرة الوسطى الفريدة فى العقد.
(٢) أكثبنا: قاربنا.
(٣) المرقوم: الموسوم والمنقوش.
(٤) أصحر: برز.
(٥) أجحر: أدخل.
(٦) صاب: انصبَّ.
(٧) الحِمام بكسر الحاء: الموت.
(٨) قصد جمع قصدة: قطعة.

ويكثر ابن الخطيب - كعادة أهل الأندلس فى زمنه وقبل زمنه - من الكتابة عن سلطانيه أبى الحجاج وابنه الغنى بالله إلى الرسول ﷺ متوسلين إليه بالشفاعة فى تحقيق أمانيهم الدنيوية فى النصر على الأعداء وأمانيهم الأخروية فى الغفران والرضوان، مع تصوير جهادهما الدائب فى نصرة الإسلام والذب عن حياضه فى الأندلس. ويفيض المقرى بكتابه نفح الطيب فى الحديث عن شيوخه وتلاميذه وأولاده وهو بحق مفخرة من مفاخر الأندلس حُسْنَ أداء وروعةَ بيان.

٢

الرسائل الشخصية

طبيعى أن يعنى الكتاب بهذه الرسائل منذ عنايتهم بالرسائل الديوانية معبرين عن عواطفهم ومشاعرهم من ثناء وشكر وعتاب واستعطاف واعتذار وتهنئة وشفاعة واستمناح وتعزية، وليس بين أيدينا نصوص منها قبل عصر المنصور بن أبى عامر فى أواخر القرن الرابع إذ احتفظ ابن بسام فى الذخيرة بطائفة من الرسائل الديوانية التى صدرت من دواوينه على لسان ابن برد الأكبر وابن دراج شاعره وساق للأخير رسالة شكر لمن أنقذه من ضَنْك حياته، وهو يصف فيها ما كان قد نزل به من الضنك والبؤس بعد أن كان فى ثراء وحال حسنة قائلا[١]:

«كنت قد نشأتُ فى مَعْقل من العَفَا[٢] والوَفْر، مُحْدَقا بسورٍ من الأمن والسَّتْر، حتى أرسل إلىَّ سلطان الفقر، رسولا من نُوَب الدهر، يريد استنزالى إليه، وخضوعى بين يديه، فأبيت من ذلك عليه، فغزانى بكتائب من النَّوائب، تسير تحت أَلْوِيَةِ المصائب، تُبْرِقُ بسيوف الرَّزايا، وتُشْهر أسنَّة المنايا، يرمون عن قِسِيِّ الأوجال، ويضربون طبول الذُّعْر وسوء الحال، بأيدٍ باطشة لا تَكِلّ، وبصائر ثابتة لا تَمَلّ».

والرسالة مبنية على السجع، مبالغة فى التأنق، وقد اختيرت فيها الألفاظ وامتلأت بالتصاوير، مما يؤكد شيوع التنميق فى الرسائل الشخصية منذ أواخر القرن الرابع الهجرى على نحو ما أخذ يحدث فى الرسائل الديوانية عند ابن دراج نفسه وعند ابن برد

---

(١) الذخيرة لابن بسام (تحقيق د. إحسان عباس) ١/٦٢.

(٢) العفا هنا: كثرة الخير وطيب العيش.

الأكبر، ونلتقى بأخرة من العصر الأموى بابن شهيد الكاتب البارع المتوفى سنة ٤٢٦ وقد ترجم له ابن بسام فى ذخيرته، وذكر له طائفة كبيرة من رسائله الشخصية، وهو يطيل فيها طولا شديدا، ونسوق له قطعة من رسالة أطنب فيها ما وسعه الإطناب كتب بها إلى صاحب بلنسية شاكرًا معتذرا عن الإلمام ببابه لتعلقه بقرطبة مع ما أصابها من الفتنة ومن التخريب والهدم والحرق، يقول[1]:

«قد كان أقلَّ حقوق مولاى أن أقفَ ببابه، وأخيِّم بفِنائه، وأُهْدِى إليه الشكر غَضًّا، وأنثر عليه المدح بضًّا[2]، ولكنى ممنوع، وعن إرادتى مَقْموع، يملكنى سلطان قَدير، وأمير ليس كمثله أمير، شيء غلب صَبْرَ الأتقياء، واستولى على عزم الأنبياء، وهو العشق، باطل يلعب بالحق، ليُبين ضعف البشر، وتلوح قدرةُ مصرِّف القدر، والذى أشكو منه أغربُ الغرائب، وأعجبُ العجائب، بَثٌّ شاغل، وبَرْحٌ[3] قاتل، وصَبْر يَغيض[4]، ودمع يَفيض، لعجوزٍ بَخْراء[5]، سَهِكة دَرْدَاء[6]، تُدْعَى قرطبة:

عجوزٌ لعَمْرُ الصِّبا فانيه لها فى الحشَا صورةُ الغانِيَهْ

طاب لى الموتُ على هواها، ولذَّ عندى سَقْى دمى لثَراها». وله من رسالة يصور فيها أحد الأبطال المنازلين لجيوش الأعداء من نصارى الشمال[7]:

«واصل الجهاد، واستأصل الكفر والعِناد، واتخذ ظهر الجواد بَيْتًا، وظلَّ اللِّواء كُمَيْتًا[8]، واستبدل من نَقْر الكِران[9] قَرْعَ الطبول، ومن نغم القيان شَجَا الصهيل، ومن وَجْبَة[10] المعازف لجَبَ الخيول، يمشى فى الهَجير[11]، ويَسْرِى[12] فى الزَّمْهَرِير، ويحنُّ إلى الأذان والتكبير، فى خِطَّة إبليس، ومَصْدح النواقيس».

وسنترجم لابن شهيد فى مطلع الحديث عن الرسائل الأدبية، ونمضى إلى عصر أمراء الطوائف ومن أوائل من نلقاه فى هذا العصر ابن برد الأصغر كاتب مَعْن بن صُمادح أمير

(١) الذخيرة ٢٠٧/١.
(٢) بضّا: ناضرا.
(٣) برح: عذاب.
(٤) يغيض: يغيب.
(٥) بخراء: رائحة فمها كريهة.
(٦) سهكة: كريهة الرائحة. درداء: ساقطة الأسنان.
(٧) الذخيرة ٢٢٧/١.
(٨) الكميت من الخيل: الأشقر ضاربًا إلى السواد.
(٩) الكران: العود.
(١٠) وجبة: صوت.
(١١) الهجير: القيظ وسط النهار.
(١٢) يسرى: يسير ليلا. الزمهرير: البرد الشديد.

المريَّة، وقد أطال ابن بسام فى ذكر تحميداته، وذكرَ طائفة من رسائله فى العتاب والاستزارة وله رسالة فى ذم صديق، ويقول ابن سعيد فى المغرب إنها من أبدع ما قيل فى ذم مؤاخٍ، ومن قوله فيها:[١]

«خلَّيتُ عنه يَدِى، وخلَّدتُ قِلاه خَلَدِى، بَيْضُ الأنُوقِ[٢] من رِفْده أمكن، وصَفَا المُشَقَّر[٣] من خَدِّه أَلْيَن، نَزْر النوال، رَثُّ المقال، أحاديث وَعْده لا تعود بنفع، ولا هى من غَرَبٍ ولا نَبْع[٤]، على وجهه من التعبيس قُفْلٌ ضاع مِفْتاحه، وليلٌ مات صباحه، غنىٌّ من الجهل، مفلسٌ من العقل، تتضاءل النِعم لديه، وتقبح محاسنُ الإحسان إليه، غِرْبال حديث إذا وَعَى سِرًّا قَطر منه، كَبِدُ الزمان عليه قاسية، ونِعَمُ الله له ناسية، قصيرُ عمرِ الوفاء للإخوان، عَوْنٌ عليهم مع الزمان، مربٌّ لأطفال الإحَن، مُحْيٍ لأموات الدِّمَن[٥]، رقدتُ ملء عينى فى فَرْش القِلَى[٦] له وشربت زُلالَ[٧] ماءِ العَزاء عنه»

ولابن برد رسالة وجَّه بها إلى أبى الوليد بن جهور أمير قرطبة (٤٣٥ - ٤٦١ هـ) جعل موضوعها مجلسا للرياحين وأنوار البساتين أخذت فيه تتفاوض وتتحاور فى أيها أجمل فى صورته وأعبق فى رائحته ثم قام من بينهم خطيب، ففضل الورد على سائر الأزهار لحمرته معللا لذلك بأن الحمرة لون الدم والدم صديق الروح. وكان بالمجلس من رؤساء الأزهار والرياحين النرجس الأصفر والبهار والبنفسج والخيرىّ، فأدوا للورد شهادتهم بتقدمه، ونسوق منها شهادة النرجس إذ يقول[٨]:

«والذى مهَّد لى حِجْرَ الثَّرَى، وأَرْضَعنى ثَدْىَ الحَيَا[٩]، لقد جئت بالشهادة أوضح من لَبَّةِ[١٠] الصباح، وأسطع من لسان المصباح، ولقد كنت أُسِرُّ من التعبُّد له والشغف به، والأسف على تعاقب الموت دون لقائه. ما أنحلَ جسمى، ومكَّن سَقمى، وإذ قد أمكن البَوْحُ بالشكوى، فقد خفَّ ثِقْلُ البَلْوَى»

وتتوالى شهادة البنفسج والبهار[١١] والخيرىّ، ثم تعقد الأزهار العزم على كتابة عقد

(١) الذخيرة ٥٠٤/١ والمغرب ٨٩/١.
(٢) واضح أن بيض الأنوق مثل لبيان الاستحالة.
(٣) المشقر: حصن فى البحرين اشتهر صفاه أو صخره بشدة الصلابة، ويريد أن صديقه صفيق.
(٤) الغرب والنبع: شجر تتخذ منه السهام.
(٥) الدمن: جمع دمنة: الحقد.
(٦) القلى: الكراهية.
(٧) الماء الزلال: العذب الصافى السلس.
(٨) الذخيرة ١٢٧/٢.
(٩) الحيا: المطر.
(١٠) اللبة: موضع القلادة من العنق.
(١١) زهر البهار أصفر ويشبه زهر النرجس.

بذلك ويكتبون رقعة بتحالف الرياحين جميعا على أنها أعطت للورد قيادها وملَّكته أمرها، واعترفت بأنه أميرها المقدم لخصاله والمؤمَّر لسوابقه، وهى لذلك تلتزم له بالسمع والطاعة والرقِّ والعبودية. وربما كنى بالورد عن أمله فى أن يكون وزيرا لابن جهور مفضلا له على كل من حوله. وقد طارت شهرة هذه الرسالة وحاكاها غير كاتب، وممن حاكوها معاصر ابن برد حبيب صاحب كتاب فصل الربيع وسنترجم له عما قليل، أما ابن برد فسنترجم له بين أصحاب الرسائل الأدبية.

ويكتظ كتاب الذخيرة لابن بسام بالرسائل الشخصية يدبِّجها كتاب الدواوين والوزراء والشعراء وينمقونها صورا مختلفة من التنميق، وممن روى له كثيرا من رسائله الشخصية أبو محمد بن عبد البر الذى ترجمنا له بين كتاب الرسائل الديوانية، وله رسائل كثيرة فى الشفاعات والوسائل والمودة وفى التهنئة والتعزية، من ذلك تعزيته لأب فى فتى له استشهد فى قتال أعداء الدين الحنيف، وفيها يقول [١]:

«كتبتُ عن قلب يقشعرُّ، ونَفْس بين ضلوعها لا تستقرّ، لخبر الرُّزْء الهاجم، والنبأ الشنيع الكالِم.. فيا لها حسرةً ما أَنْكاها[٢] للنفوس، وجمرةً ما أذْكَاها[٣] فى القلوب. ورَوْعَةً ما أفتَّها للأعْضاد، ولوعةً ما أحرَّها على الأكباد:

وما نحن إلا مثلُهم غيرَ أننا أقمنا قليلًا بعدهم وتقدَّموا

ولقد خرج من بيته مجاهدا، وعن حِمَى الدين ذَائدا، فوقع أجره على الله.. وأنت الطَّوْدُ الموفى[٤] على كل هَضْبة، المعلَّى على كل فَرْحة وكَرْبة. واللَّهَ - يا سيدى - فى نفسك العزيزة أن يكون فيها كامنُ رزْءٍ[٥] يَقْدح، أو أن يُوهِنَ منها باطن أَسًى يَفْدَح»

وكان يعاصر أبا محمد ابنُ حيان مؤرخ الأندلس الكبير المتوفى سنة ٤٦٩ وقد ترجم له ابن بسام ترجمة ضافية، وسنترجم له فى غير هذا الموضع، وروى ابن بسام له رسائل شخصية بديعة، وفى إحداها يقول مهنئا بعض العمال بخلاصه من نكبته[٦]:

«كتابى عن نفسٍ قد أشرق وجْهُ صباحها، وهبَّت رياحُ ارتياحها، بما طلع علينا من

---

(١) الذخيرة ٢١٩/٣.
(٢) ما أنكاها: ما أنكأها أى ما أشد جرحها وألمها.
(٣) ما أذكاها: ما أحرّها.
(٤) الموفى: المشرف.
(٥) رزء: مصيبة.
(٦) الذخيرة ٥٨٤/١.

البشائر السارَّة بخلاصك، وجميل انفكاكك، على حين بلغتْ قلوبُ الأوِدَّاء الحناجرَ، وكادت مواردُ الحزن لا تكون لها مصادر، فإن الأيام عمَّت فيك، بإساءتها إليك، كلَّ مُنْتَسِبٍ إلى فضل، مُتَّسِمٍ باسم نُبْل، وإن كانت قد أصابتْ فيك سَوادَ ناظرها الذى تضيء به وتتجمَّل، وسَخَتْ منك بحَلْىِ جيدها الذى يحقُّ به أن تبخل.. وقد صادفتْ منك الإِبْرِيزَ[١] الذى لا يزيده السَّبْك إلا تمحيصا، والمبرِّز الذى لا يُعْقبه تحوُّل الأحوال نكوصا، تتلقى الخطوب بصَدْرٍ وَساعٍ،[٢] وصَبْرٍ منفسح الباع، وتَسْبُرُ[٣] الدهر بمِسْباره، وتعرف من مكنونه حقيقةَ إيراده وإصْداره».

ونلتقى بابن الدباغ كاتب المقتدر بن هود أمير سرقسطة، وسنخصه بكلمة، وكان يكتب للمقتدر أيضا أبو عمر[٤] الباجى المتوفى سنة ٤٧٥ وروى له ابن بسام رسالة على لسان زهر البَهار وجَّه بها إلى المقتدر بن هود مزدلفا إليه آملا أن تكون له الحظوة الكبرى بين كتابه ووزرائه كما للبهار بين نواوير الربيع وفيها يقول[٥]:

«أطال الله بقاء المقتدر مولاى وسيدى ومُعْلِى حالى ومقيم أوَدِى[٦]، وأعاذنى من خَيْبة العناء، وعَصَمنى معه من إخفاق الرَّجاء، ولا أشمتَ بى عدوا من الرياض يناصبنى[٧]، وحاسدا من النواوير يراقبنى، وقد علم الوَرْدُ موقع إمارتى، وغَنِىَ بلطيفِ إيمائى عن عبارتى.. وقد أتيت فى أوانى، وحضرت وغاب أقرانى، ولم أُخْلِ من خدمتك رتبتى ومكانى.. فهل لمولاى أن يُحْسن إلىّ صَنيعا، ويكرم النَّوْرَ جميعا، ويُدْنينى فأَرْقَى إلى أختى الثُّرَيَّا سريعا، فى مجلس قد أخلصتْه سحائبه، وأفرغتِ الحسن عليه والطيب ضَرائبه[٨]، وَجْهُكَ بَدْره، وغُرَّتك فَجْره، وأخلاقك زَهْره، وثناؤك دُرُّه وعِطْرُه»

والباجى يجعل البهار فوق الورد وجميع الأزهار مصورا بلسانه مطامحه فى التقدم عند المقتدر فى مجالس تدبيره وأنسه على جميع كتابه ووزرائه. ولمواطنه كاتب المقتدر حَسْداى[٩] - وكان يهوديا وأسلم وحسن إسلامه - رسالة مماثلة كتب بها إلى المقتدر على

---

(١) الإبريز: الذهب الخالص.
(٢) وساع: متسع.
(٣) تسبر: تختبر. مسبار: آلة الاختبار.
(٤) انظر ترجمة الباجى فى القلائد ١٠٢ والذخيرة ١٨٦/٢ والخريدة ٣١٣/٢ والمغرب ٤٠٥/١.
(٥) الذخيرة: ١٩٤/٢.
(٦) أودى: اعوجاجى.
(٧) يناصبنى: يفادينى.
(٨) ضرائبه: طبائعه وسجاياه.
(٩) راجع ترجمته فى القلائد ١٨٣ والذخيرة ٤٥٧/٣ والخريدة ٤٨/٢ والمغرب ٤٤١/٢.

لسان النرجس[١]

ومن شعراء العصر الذين عنى ابن بسام برواية طائفة من رسائلهم الشخصية البديعة ابن الحداد الذى مضت ترجمته بين أفذاذ الشعراء فى العصر، وتنم رسائله عن أنه كان مثقفا ثقافة واسعة بالآداب العربية ومايطوى فيها من أعلام وأمثال وأشعار، وبعلوم الأوائل ومايطوى فيها من فلسفة وغير فلسفة، ومن طريف رسائله فى الشكر والإخاء[٢]:

«يا سيدى الذى هو قَسِيمُ ذاتى إن تحققت الذَّوات والنَّحائز[٣]، وشقيقُ نفسى إن تبيَّنت الخلائق والغرائز، ومن أبقاه الله بقاءَ الفَرْقَدَيْن[٤] فى تدبير السَّعْدَيْن. بيننا من التحام المِقة[٥]، واستحكام الثِّقة، ما أُرْبَأُ[٦] به عن تضمين الصَّحائف، ولو قُدَّتْ من السَّوالف[٧]، وأنزِّهه عن اشتمال المِداد، ولو كان من دم الفؤاد، فصفاؤنا شمسىّ النَّقاء، ووفاؤنا فَلكىّ البقاء، ولا تُضَمَّن الطروس، إلا ما لحقه الدروس. وكتابى هذا إثْر إتحافك لى بكتابين كالنَّيِّرَيْنِ، فإن كان القمر ويُوح[٨]، لإنارة اللُّوح، فهذان، لجلاء الأذهان».

ومن الكتاب المبدعين أبو عبد الرحمن بن طاهر، وسنخصه بكلمة، وكان يعاصره أبو الحسين[٩] سراج بن عبد الملك بن سراج اللغوى الفقيه الكاتب المتوفى سنة ٥٠٨ وله رسالة طريفة بناها على الدعابة فى الشفاعة لشخص يسمى بالزريزير مستغلا اتفاق اسمه مع اسم طائر الزُّرْزور على هذا النمط[١٠]:

«يَصِلُ بالكتاب - وصلَ الله عُلُوَّك، وكَبَتَ عدوَّك - شَخْصٌ من الطيور يُعْرَفُ بالزُّرَيْزِير أقام لدينا أيام التَّحْسِير[١١]، وزمانَ التبلغ بالشَّكير[١٢]، فلما وافى رِيشُهُ، ونبتْ بأفراخه عُشُوشُه، أزْمَع عنا قُطوعا[١٣]، وعلى ذلك الأفق اللَّدْن تدلِّيا ووُقوعا، رجاء أن

---

(١) الذخيرة ٤٧٠/٣.
(٢) الذخيرة ٧٠٤/١.
(٣) النحائز: الطبائع.
(٤) الفرقدان: نجمان قريبان من القطب.
(٥) المقة: المحبة.
(٦) أربأ به: أنزهه.
(٧) السوالف جمع سالفة: جانب العنق.
(٨) النيران: الشمس والقمر يوح: الشمس. اللوح: الهواء بين السماء والأرض.
(٩) انظر ترجمته فى الذخيرة ٨٢١/١ والمغرب ١١٦/١ والصلة ٢٢٢ والمطرب ١٢٣ والخريدة ٤٨٤/٢ ومعجم الأدباء ١٨١/١١.
(١٠) الذخيرة ٣٤٧/٢.
(١١) التحسير: سقوط الريش العتيق.
(١٢) الشكير: صغار الريش. التبلغ: الاكتفاء.
(١٣) قطوعا: طيرانا.

يَلْقَى في تلك البساتين مَعْمَرًا[١] وعلى تلك الغصون حَبًّا وثمرا، وأنت بجميل تأتِّيك، وكرم معاليكِ، تصنع له هنالك وُكُونا[٢]، وتستمع من نغم شكره على ذلك أغاريدَ ولُحونا، دون أن يلتقط في فنائك حَبَّة، أو يَسْترط[٣] من مائك نُغْبَة[٤]».

وطارت الرسالة في الأندلس وحاول غير أديب محاكاتها لِمَا فيها من دعابة مستملحة، إذ صور سراج ما كان فيه هذا الشخص من ضيق جعله يلتمس منه الشفاعة لصاحبه بالزرزور حين ينحسر عنه ريشه العتيق ولا يبقى له إلا الريش القصير، حتى إذا كثر ريشه صمم على القطوع أو الرحيل آملا أن ينزل على أفق هذا الجواد ويجد عنده منزلا وحبًّا وثمرا ووكونا أو عشوشا يأوى إليها متغنيا بالثناء عليه. وينصحه أن لا يجد في فنائه حبَّة يلتقطها ولا جَرْعة ماء تبلّ ريقه. وممن حاول محاكاة سراج بن عبد الملك في هذه الدعابة الطريفة أبو بكر عبد[٥] العزيز بن القَبْطورْنة كاتب على بن يوسف بن تاشفين المتوفى حوالى سنة ٥٢٠ للهجرة، ومن قوله في رسالته[٦]:

«يصل بكتابى – وصل الله سعودك – من الطير نَطَّاق، من غير ذوات الأَطْواق[٧].. مهَّدَته العَذارى الحجُور، وألْحَفَتْه الشعور، وربَّته بين التَّرائب والنُّحور، وعَلَّلته بالرُّضاب[٨]، وسقته بأفواهها العِذاب، أقام عندنا زمانا، لا يتألف إلا رَنْدا[٩] أو بَانا، يتدرَّج في البساتين، يتطلب العِنَب المُنْتَقَى والتِّين، فذكرت له يوما والحديث ذو شُجون، أرضَك المَيْثاء[١٠] ذات الشجر والعيون، فصفَّق جَناحا، واهتزَّ ارتياحا، وسألنى إلى مَجْدك كتابا فأَنَلْتُه ما ابتغى، وقلت: سلمتَ أخا البَبَّغا، وبُلِّغْتَ المَدَى، وجُنِّبْتَ من حَزَّةِ المُدَى[١١] وأخذ الكتاب بِمنقار، وصفَّق بريش الجناحين سُرورا وطار، وأنت بسيادتك تَبْسُطُ له في بساتينك، وتَفْرِشُ له من وردك وياسمينك»

وكان يعاصر ابن القبطورنة أبا القاسم بن الجد، وسنخصه بكلمة، وعاصرهما ابن عبدون الشاعر الفذ الذى ترجمنا له بين شعراء الرثاء، وقد عمل في دواوين المتوكل

---

(١) معمرا: منزلا.
(٢) وكونا جمع وكن: عش الطائر.
(٣) يسترط: يبتلع.
(٤) نغبة: جرعة.
(٥) راجع ترجمته في الذخيرة ٧٥٣/٢ والمغرب ٣٦٧/١ والتكملة رقم ١٧٤٣ والقلائد ١٤٨.
(٦) الذخيرة ٧٥٨/٢.
(٧) ذوات الأطواق: الحمام.
(٨) الرضاب: الريق المرشوف والعسل.
(٩) الرند: شجر طيب الرائحة. البان: شجر يشبّه به الحسان في الطول واللين.
(١٠) الميثاء: اللينة الطيبة.
(١١) المدى، جمع مدية: السكين.

ببطليوس ثم فى دواوين المرابطين، وله رسائل يخطب فيها ودّ أبى القاسم بن الجد، وفى إحداها يقول[١]:

«إن تعذَّر لِقاء، فقد انتشر ثَناء، امتلأت الأرضُ منه والسماء، ووَصْفٌ عزَّ الأوصافَ وغَلبها، وهزَّ الأعْطاف وجَذَبها، وذِكْرٌ ملأ الآذان حُليًّا، والآنافَ رَيًّا[٢]، والأفواه أَرْيًا، ونُبلٌ جَلَتْ مطالعهُ دياجِىَ الأوهام، ورَوَتْ مواقعهُ صَوادِىَ[٣] الأوهام.. ولله دهرٌ أطلعك أفقه، ووقتٌ وَسِعَك طَلَقُه[٤]، ما أكرمَ طبيعته، وأضخم دَسِيعَته[٥]، وأعبقَ فى الآناف شَمِيمَه، وأرقَّ على الأنفاس نَسِيمه.. وأنا أخطب إلى عِمادى - أدام الله عزَّته - مودَّته عقيلةً[٦]، وأجعل رَحِمى[٧]: الأدبَ والنسب وسيلة، وأبذل من تحلية حَمدى وشكرى مَهْرًا، وأَبْنِى لها بين سَحْرى ونَحْرى[٨] قَصْرا.. والله - جَلَّ وعلا - يُعيننى على فَرْضه أؤديه، وقَرْضِه أَقْضيه».

وللأعمى التطيلى الشاعر معاصره رسالة عتاب بديعة لمن خدمه الزمان وأقبل عليه السلطان، وله يقول مترفعا عن بره وعونه: «إنى أبيت ظمآن، ولا أبيت خَزْيان، وأحتمل الحرمان، ولا أحتمل الهوان[٩]». وكان يعاصره ويعاصر ابن الجد ابنُ خفاجة شاعر الطبيعة المبدع الذى مرت ترجمته، وكما كان يبدع فى وصفها شعرا كان يبدع فى وصفها نثرا، وله من رسالة يصف نزهة مع بعض رفاقه غِبَّ مطر[١٠]:

«لما أكبَّ الغَمامُ إكْبابا، لم أجدْ معه إغْبابا[١١]، واتصل المطر اتصالا، لم آلَفِ معه انفصالا، أذن الله تعالى للصَّحْو أن يُطْلِعَ صفْحته، وينشر صَحيفته، فقَشَعتِ الريحُ السحاب، كما طوى السجلُّ الكتاب، وطفقت السماءُ تخلع جِلْبابها، والشمس تحطُّ نِقابَها، وتطلَّعت الدنيا تبتهج كأنها عروس تَحَلَّتْ، وقد تجلَّت، ذهبتُ فى لُمَّة من الإخوان نستبق إلى الراحة رَكْضًا، ونَطْوِى للتفرُّج أَرْضًا، وننشر أرضا، وتردَّدْنا بتلك الأباطح نتهادى[١٢] تهادىَ أغْصانها، ونتضاحك تضاحك أُقْحوانِها، وللنسيم، أثناء ذلك

---

(١) الذخيرة ٦٧٠/٢.
(٢) ريا: شذى.
(٣) صوادى: عطاش.
(٤) طلقه: شوطه.
(٥) دسيعته: طبيعته وشيمه.
(٦) العقيلة: السيدة الكريمة.
(٧) رحم: قرابة.
(٨) السحر: الرئة. النحر: أعلى الصدر.
(٩) الذخيرة ٧٢٩/٢.
(١٠) الذخيرة ٥٤٣/٣.
(١١) إغبابا: انقطاعا.
(١٢) نتهادى: نتمايل.

المنظر الوَسِيم، تراسلُ مَشْيٍ، على بساط وَشْيٍ، وأَجَلْنا النظر فى نهر صافى لجُيَنْ[١] الماء، كأنه مجرَّةُ السماء، مؤتلقِ جَوْهَرِ الحبَاب[٢]، كأنه من ثغور الأحباب. وحضَرَنا مُسْمِعٌ[٣] يجرى مع النفوس لَطافة فهو يعلم غرضها وهواها، ويغنى لها مُقْتَرَحها ومُنَاها:

يحرِّك - حين يَشْدُو - ساكناتٍ ويَبْتَعِثُ الطبائـعَ للسُّكونِ»

ولابن خفاجة - بجانب ذلك - رسائل فى التهادى وفى العتاب وفى الشفاعة، وفى التهانى وفى التعازى، وهى مبثوثة بترجمته فى الذخيرة، وله يتفجع على شهيد بإحدى رسائله[٤]:

«قَمَرُ فَضْلٍ سار إلى سِراره[٥]، ووُسْطَى عِقْدٍ أخذ فى انتثاره، وصَباح جَذَل[٦] أسرع فى انطوائه، ومصباح أمل عُجِّل بانطفائه، فقبحًا لدنيا قَصَفَتْه أنضر ما كان غُصْنا، وكَسَفَتْه أقْمر[٧] ما كان حسنا. وصار مفقودًا، كأنْ لم يكن مشهودا، ومَنْشُودا[٨] كأن لم يكن مَوْجودا. وقد وجدتُ لذلك وَجْدًا لا يسعه الصَّدْرُ، ولا يقاومه الصَّبْرُ، وأوارًا[٩] لا تَطْوِيه أَحْناءُ الضلوع، ولا تُطْفئه أَحْسَاءُ[١٠] الدموع. وكأنَّ كل ذلك لما انقضى، فمضى، خيال ألمَّ ثم تولَّى، وغمامٌ أظَلَّ ثم تَجَلَّى».

ومن معاصرى ابن خفاجة أبو عبد الله بن أبى الخصال أهم الكتاب فى دواوين المرابطين بأخرة من أيامهم، وتحتفظ المجلدات الثامن والتاسع والرابع عشر من صبح الأعشى بطائفة من رسائله الشخصية بين شكر وتهنئة بقدوم وتعاز فى وزير وبنت وأخ وزوجة وشفاعة ووصف لغيث بعد جدب وما أعقبه من تغنى الطيور فرحا بجمال الطبيعة وازديانها بروائع الأزهار من نرجس وغير نرجس، واحتفظ له ابن بسام بطائفة أخرى من رسائله فى ذخيرته، من بينها رسالتان وجَّه بهما إلى ابن بسام ردًّا على رسالة كان أرسلها إليه فى طلب بعض شعره ونثره ليضمنه الذخيرة، وهو فى أولاهما يعتذر عن تلبية طلبه فى تواضع جم إذ ليس له من الشعر والنثر - كما يقول - إلا ما يعد من سَقَط المتاع. ويبدو أن ابن بسام ألح عليه فى الطلب فاضطر أن يلبيه بقليل من شعره قائلا إنه

---

(١) اللجين: الفضة.
(٢) الحباب: الفقاقيع تلمع فوق سطح الماء.
(٣) مسمع: مغن.
(٤) الذخيرة ٥٥٧/٣.
(٥) السرار: آخر ليلة فى الشهر.
(٦) جذل: سرور.
(٧) أقمر: أضوأ.
(٨) منشودا: مطلوبا.
(٩) الأوار: حر النار.
(١٠) أحساء هنا: ينابيع.

يربأ بقدر الذخيرة عن مثل هذه النتف الأخيرة، ويعتذر بأنه يخط ما خطه من هذا الشعر فى ليلة قاسية البرد، ويمضى فى تصويرها قائلا[١]:

«إنى خططتُ والنوم مُغازل، والقُرُّ مُنازل، والرِّيح تلعب بالسِّراج، وتصول عليه صَوْلة الحجّاج[٢]، فطَوْرًا تسدِّده سِنانا، وتارة تُحَرِّكه لِسانا، وآونةً تطويه حَبابَة[٣]، وأخرى تنشره ذُؤَابَة، وتقيمه إبرةٍ لَهَب، وتعطفه بُرَة ذَهَبٍ، أو حُمَة[٤] عَقْرب، وتقوِّسه حاجبَ فتاة، ذات غمزات، وتستل روحه من ذُباله، وتعيده إلى حاله، وربما نصبته أذن جواد أو مسَخَتْه حَدَق[٥] جَراد.. فلا حظَّ منه للعَينْ، ولا هداية فى الطِّرْس ِ لليدَيْن، والليلُ زنجيٌّ[٦] الأدِيم تِبْرِيّ[٧] النجوم، قد جَلَّلَنا سَاجُه[٨]، وأغرقتْنا أمواجه، ولو نظرتْ فيه الزرقاء[٩] لاكتحلَتْ، أو خُضبت به الشَّبيبة لما نَصَلتْ[١٠]، والكلبُ قد صافح خَيْشومُه ذنبَهُ، وأنكر البيتَ وطُنُبَه،[١١] والتوى التواء الحُباب[١٢]، واستدار استدارة الحَباب، وجَلَده الجليد، وضَرَبه الضَّريب[١٣]، وصعَّد أنفاسه الصَّعِيد،[١٤] فحِماه مباح، ولا هريرَ ولا نُباح، والنار كالصديق أو كالرَّحِيق[١٥]، كلاهما عنقاءُ مُغْرِب[١٦]، أو نجمُ مغرِّب».

والرسالة وصف شعرى بديع لهذه الليلة من ليالى الشتاء الباردة بردا شديدا فى الأندلس والرياح تقصف، والليل داج معتم، والسراج تقبضه الريح وتبسطه، وقد يضيىء ويستعرض، وقد يتضاءل حتى يصبح إبرة أوبُرَة، وقد يستطيل حتى كأنه سنان أو لسان، وقد يتقوس حتى كأنه حاجب أو يتلوَّى كأنه عقرب. ويستمر ابن أبى الخصال فى وصف الليلة الباردة وما أضفى عليها من أخيلته الرائعة. وليستتم صورة بردها الشديد وصف كلبا مقرورا مدَّ عليه الثلج رواقه، حتى لم يعد يبصر طنب بيته والتف ذنبه على خيشومه

(١) الذخيرة ٧٩٢/٣.
(٢) يريد الحجاج الثقفى وفتكاته بأعدائه.
(٣) حبابة: فقاعة الماء.
(٤) البُرَة: الحلقة توضع فى أنف البعير، وبها شبَّه الكاتب لسان الشمعة. حمة العقرب: إبرته.
(٥) أذن جواد أى مستعرضا مثلها. حدق جراد أى ضئيلا كنقطة مداد.
(٦) زنجى الأديم: أسود الجلد.
(٧) تبرى: ذهبى.
(٨) جللنا: غطانا. الساج: شجر خشبه شديد السواد.
(٩) زرقاء اليمامة: اشتهرت بحدة نظرها.
(١٠) نصلت: بهتت.
(١١) الطنب: الحبال تشد بها الخيمة والخباء.
(١٢) الحباب بالضم: الأفعى. وبالفتح: فقاقيع الماء.
(١٣) الضريب: الثلج.
(١٤) الصعيد: وجه الأرض.
(١٥) الرحيق: الصافى من الخمر والشراب.
(١٦) عنقاء مغرب: طائر خرافى.

أوخرطومه، وتقرفص وتكوَّم كالأفعوان، وكاد يتجمد، فحَشْوُ الجو من فوقه إبر من الثلج اللاسع، وأرضه قوارير من الجليد اللاذع، وجفَّ ريقه فى حلقه فلا هرير ولا نباح، ولا نار لمصطل، فالرياح العاصفة لها بالمرصاد حتى لكأنها الطائر الخرافى المسمى عنقاء مغرب.

ونمضى فى عصر الموحدين، ونلتقى فيه بصفوان بن إدريس المتوفى سنة ٥٩٨ المار ذكره بين شعراء الغزل والمدائح النبوية، وله من رسالة يهنئ بها أبا القاسم بن بقى حين تولّى خطة القضاة سنة ٥٩٢ وفيها يقول[١]:

«حُسْنُ الأيام وجمالُها، ومآل الآمال وثِمالُها[٢]، وبَصَرُ المعارف وسَمْعها، وواحدُ الفضائل وجمعها، أبو القاسم بن بقى بن مخلد، بُورِكَ فى والدٍ وما ولد:

نسبٌ كأن عليه من شمس الضُّحَى نورًا ومن فَلَق الصَّباحِ عَمُودا

.. نفع الحقُّ به عِلله، ونقع غُلَلَه[٣].. عِمادى الأكرم، ومَلاذى الذى أنفخ من حَدِّه فى ضَرَم[٤]، وأحلّ من الاختصاص به محلٍ الحرَم، تخيرتُ عُلاه ومن أخْصَبَ تخيرَّ وما كنت إلا كالغريب ارتاد الجِوار، والمحلِّى انتقى المِعْصَم حين صاغ السِّوار.. والله - تعالى - يديم مدةَ قاضى الجماعة الأسْرَى[٥]، وكَلِمُ حَمْدِه أسْيَرُ من الأمثال وأسْرَى[٦]، ونِعمُ الله سبحانه عليه تَتْرَى، وما يريه من نعمة إلا هى أكبر من الأخرى». والتورية واضحة بين الأسرى وأسرى، وهى تكثر فى نثر الأندلس وشعرها منذ هذا التاريخ.

ولسهل بن مالك - بأخرة من عصر الموحدين - رسائل شخصية بديعة، وسنخصه بكلمة، ولأبى عبد الله بن الجنان المترجم له بين شعراء المدائح النبوية من رسالة يعزى بها أبناء سهل حين توفى استهلها بقصيدة أو بمرثية طويلة وفيها يقول[٧]:

«يا له حادثًا، جمع قديمًا من الكُروب وحادثا، ومُصابا، جرَّع أوْصَابا، وأضحى كلٌّ به مُصابا، لا جرم أنى شربت من كأسه مُسْتفظَعها، وشَرِقْتُ[٨] بها وبدمعى الذى ارفضَّ[٩] معها، فغالتْ خَلَدى، وغالبتْ جَلَدى، حتى غبتُ عنى، ولم أدر بآلامى التى تَعنى.

---

(١) بقية السفر الرابع من كتاب الذيل والتكملة تحقيق د. إحسان عباس ص ١٤١.
(٢) ثمالها: ملجأها.
(٣) نقع غلله: شفاه.
(٤) ضرم: وقود النار.
(٥) الأسرى: الأشرف.
(٦) أسرى: أسير ليلا.
(٧) بقية السفر الرابع المار آنفا ص ١١٥.
(٨) شرقت: غصصت.
(٩) ارفض: تفرق وتبدد.

وبكيتُ حتى خشيت البكاء أنْ يُعْشِينِى[١]، وغُشيت[٢] إذ غَشِيَنِى[٣] من ذلك اليَمِّ[٤] ما غَشِيَنى، «وظَلِلْتُ لَقىً[٥] أينما شاء التَّرَحُ يلقينى، فتارة يُفْنينى، وتارة يُبْقِينى.. ويا ليت شعرى إذ أفادوا الماء طهارةً زائدة بغسلِ جلاله، هل حنَّطوه بغير ثنائه أو كفَّنوه فى غير خِلاله، ويا ليت شعرى إذ استقلَّ به نَعْشُه الأشرف، تُرَفرِفُ عليه الملائكةُ ويظلُّه الرَّفْرَف، هل رأوا قبله حَمْلَ الأطْواد[٦]، على الأعواد، وسير الكواكب فى مثل تلك المواكب، ولِمَ آثروا على نفوسهم، ورضوا الأرض مغربا لأنوار شموسهم؟ هلا حفروا له بين أحناء الضلوع، وجعلوا الصَّفِيح ضَرِيحَ الحب والولوع.. وهب الله لكم فى مُصابكم صبرا على قَدْره، وسكب دِيَم مغفرته على مَثْوَى فقيدكم وقبره».

وأخذ الكتَّاب فى الأندلس منذ القرن السابع الهجرى على لسان أبى المطرف بن عميرة الذى ترجمنا له بين كتاب الدواوين وغيره يتصنعون فى كتاباتهم بإلماعات وإشارات إلى الأمثال وإلى مسائل العلوم ومصطلحاتها على نحو ما نقرأ من رسالة لأبى المطرف حين أعلمه صديق نبأ استيلاء الروم على بلنسية، فقال متحسرا[٧]:

«بالله أىَّ نَحْوٍ نَنْحو، أو مَسْطور نُثْبِت أو نَمْحو، وقد حُذف الأصلِ والزائد، وذَهبت الصِّلَة والعائد.. وذهبت علامةُ الرفع، وفُقِدت نون الجمع، والمعتلّ أَعْدَى الصحيح، والمثلَّث أَرْدَى الفصيح.. ومالت قواعدُ الملَّة، وصِرْنا جمع القِلَّة، وظهرتْ علامةُ الخَفْض، وجاء بَدَلُ الكل من البَعْض».

وواضح أنه استغل مصطلحات النحو استغلالا واسعا فى التورية عما أراد من تصوير بؤس الأندلسيين إزاء ما يسقط من بلدانهم فى حجر نصارى الإسبان، وأضاف إلى التوريات بمصطلحات النحو توريات ببعض كتب الأندلسيين، وأقصد كتابى الصلة والعائد وهما من كتب التراجم ومن مصطلحات النحو أيضا وأشار معهما إلى تغلب المسيحى على العربى بكلمتى المثلث والفصيح موريا بهما عن كتابين لغويين هما مثلث قطرب وفصيح ثعلب، ومعروف أن من أنواع البدل عند النحاة بدل الكل من البعض. وبجانب هذه الإشارات والإلماعات إلى مصطلحات العلوم وكتبها التى يحاكون بها تملحا

(١) يعشينى: يعمينى البكاء.
(٢) غشيت: أغمى على.
(٣) غشينى: غطانى وحوانى.
(٤) اليم: البحر يريد بحر الحزن.
(٥) لقى: مطروحا مهملا.
(٦) الأطواد: الجبال.
(٧) الإحاطة ١٧٣/١.

أبا العلاء المعرى فى نثره وشعره على نحو ما أوضحنا ذلك عنه فى كتابينا عن الفن ومذاهبه فى الشعر والنثر العربيين. وأخذت تشيع فى الرسائل مع المحسنات البديعية - وخاصة التورية - عقدٌ يصعِّب بها الكتّاب الممرات إلى صنع الرسائل، على نحو ما صنع المشارقة من ذلك منذ الحريرى صاحب المقامات، إذ كان يلتزم فى بعضها أن تكون كلماتها غير منقوطة أو تكون إحدى الكلمات منقوطة وتاليتها غير منقوطة وكثر مثل ذلك عند المشارقة كما كثر أن يُلْتَزم حرف بعينه فى كلمات الرسالة أو كلمات العهد على نحو ما صنع ابن الجنَّان إذ التزم فى عهد أن يكون السجع فيه جميعه حاء مع إردافها بالألف مثل صلاحا، فلاحا[1]. والتزم فى رسالة له العينَ فى جميع ألفاظها، ويقول ابن عبد الملك المراكشى إنها «شاعت فى الأندلس، وتنوقلت شرقا وغربا» وراجعه أبو الحسين الرُّعَيْنى برسالة مماثلة، وردَّ عليه ابن الجنَّان أيضا برسالة على غرارها، مما دفع أبا المطرف بن عميرة أن يكتب إلى الرعينى برسالة نونية ملتزما النون فى جميع كلماتها[2]. ومن الحق أن كتاب الأندلس كانوا من البراعة فى الكتابة بحيث كانت رسائلهم تسع هذا التصنع وما يشاكله دون أن يجور على إبداعاتهم الأدبية وحيويتها النافذة بما كانت تتوهج به دائما من سجع ومحسنات وتصاوير رائعة مع العناية دائما بجمال الجرس وحسن الأداء. وظل ذلك ماثلا فى كتابات الكتّاب بغرناطة طوال إمارتها من أواسط القرن السابع الهجرى إلى أن خرج منها العرب بأخرة من القرن التاسع، ويزخر كتاب الإحاطة بكثير من الرسائل الشخصية للكتاب الغرناطيين وفى مقدمتهم ابن الخطيب مؤلفه، وقد ختمه برسالتين راسل بهما ابن خلدون صديقه، واحتفظ ابن خلدون له بطائفة من رسائله إليه فى كتابه «التعريف» وفى إحداها يرحب بمقدمه إلى غرناطة قائلا[3]:

«لو خُيِّرْتُ أيها الحبيبُ الذى زيارتُه الأمنيَّةَ السنيَّة والعارفةَ الوارفة[4]، واللطيفة المُطِيفة، بين رَجْع الشباب يقطرُ ماء، ويَرِفُّ نَماء، ويغازل عيونَ الكواكب فضلا عن الكواعب إشارةً وإيماء.. وبين قدومك لما اخترتَ الشباب وإن شاقنى زمنُه وأجرتْ سحابَ دمعى دِمَنُه[5]، فالحمد لله الذى رَقَّى جنون اغترابى، وملَّكنى أزمَّة آرابى»

وكانت بينهما مودة وثيقة، وآن أن نترجم لبعض كتاب الرسائل الشخصية المبدعين: حبيب وابن الدباغ وأبى عبد الرحمن بن طاهر وأبى القاسم بن الجد وسهل بن مالك.

---

(١) الإحاطة ٣٥٢/٢ - ٣٥٣.

(٢) انظر فى هذه الرسائل المراكشى (تحقيق د. إحسان عباس) ٣٢٧/٥ وما بعدها.

(٣) التعريف بابن خلدون ص ٨٢ وما بعدها.

(٤) العارفة: العطية. الوارفة: الواسعة المبهجة.

(٥) الدمن: آثار الديار، والاستعارة واضحة.

حبيب[١]

هو أبو الوليد إسماعيل بن محمد الملقب بحبيب، من أهل إشبيلية، كانت له ولأبيه قدم فى الرياسة عند المعتضد أميرها، ولقبه الضبى بالوزير الكاتب، وقال فيه ابن بسام: «كان سديد سهم المقال، بعيد شأوِ الرويَّة والارتجال.. ولو تحاماه صرف الدهر، وامتد به قليلا طَلَقُ[٢] العمر، لسدَّ طريق الصباح، وغبَّر فى وجوه الرياح، إذ توفى ابن اثنتين وعشرين سنة» وانفرد ابن سعيد بقوله إن المعتضد قتله، والراجح أنه توفى شابا معتبطًا بغير علة قريبا من سنة ٤٤٠ للهجرة، وكان - كما يقول ابن الأبار - آية فى الذكاء والفهم والبلاغة وتجويد الشعر على حداثة سنه. وله كتاب البديع فى وصف الربيع جمع فيه أشعار أهل الأندلس خاصة فى الربيع ومشاهده وأزهاره ورياحينه، قال فى فاتحته:

«فَصْلُ الربيع آرَجُ وأَبْهجُ، وآنَسُ، وأَنْفس، وأَبْدع، وأَرْفع، من أن أَحُدَّ حُسْنَ ذاته، وأعدَّ بديع صفاته.. وهو مع صفاته الرائقة، وسِماته الشَّائقة، وآلائه الفائقة، لم يُعْنَ بتأليفه أحد، ولا انفرد بتصنيفه منفرد».

وقد جمع حبيب فى كتابه أروع ما للأندلسيين فى وصف الربيع سواء ما نظموه فيه خاصة وما أودعوه مقدمات مدائحهم، وأضاف إلى ذلك بعض ما كتبوا فيه رسائلهم من وصف الأزهار، وأشاد برسالة ابن برد إلى أبى الوليد بن جهور وما بثه من حوار فيها بين خمسة نواوير هى الورد والنرجس الأصفر والبنفسج والبهَار والخِيرىّ النمام واعتراف النواوير الأخيرة بفضل الورد وكتابتها عهدا أو وثيقة بذلك على نحو ما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع. وأردف حبيب رسالة ابن برد برسالته إلى المعتضد حاكاه فيها مفضلا البهار على الورد مع وصفه لسبعة من نواوير الربيع، وهو يستهل رسالته بإنكاره لتفضيل ابن برد الورد عليها فى رسالته، يقول:

«أولُ من رأى ذلك الكتاب (رسالة ابن برد فى تفضيل الورد) وعاين الخطاب، نواويرُ فصل الربيع التى هى جِيرةُ الوَرْد فى الوطن، وصَحابتُه فى الزمن، ولما قرأْته

---

(١) انظر فى ترجمة حبيب الذخيرة ١٢٤/٢ والجذوة ١٥٢ والبغية رقم ٥٣٤ والتكملة (البقية الجديدة) ص ٢١٩ والمغرب ٢٥٠/١. وراجع كتابه: «البديع فى وصف الربيع بتحقيق هنرى بيريس طبع الرباط سنة ١٩٤٠. وطبع فى السعودية بتحقيق د. عبد الله عسيلان.

(٢) طلق: شوط.

أنكرتْ ما فيه، وبَنَتْ على هَدْم مبانيه، ونَقْض معانيه، وعرَّفت الورد بما عليه، فيما نُسِب إليه.. وكتبت إلى الأُقْحُوانِ والخِيريِّ الأصفر كتابا قالت فيه: لا ندرى لأى شيء أوْجبت الأزهار تَقْديمه، بما غَيْرُهُ أشْكَلُ له وأحقُّ به وهو نَوْرُ البَهار، البادى فَضْلُه بُدُوَّ النهار، والذى لم يزل عند علماء الشعراء، وحكماء البلغاء، مشبَّها بالعيون التى لا يَحُول نظرها، ولا يَحُور حَوَرُها، وأفضل تشبيه للورد، بنضرة الخَدّ، عند من تشيَّع فيه، وأشرفُ الحواسِّ العَيْنُ، إذ هى على كل منوَّلٍ عَوْن، وليس الخدُّ حاسَّةً، فكيف تبلغه رئاسة:

أين الخدودُ من العيونِ نَفاسَةً ورِئاسةً لولا القياسُ الفاسِدُ»

واستمر حبيب فى هذه الرسالة طويلا، وختمها بمبايعة الأزهار للبَهار بتفضيله على الورد. وله من رسالة إلى أبيه:

«لما خُلق الرَّبيعُ من أخلاقك الغُرِّ، وسَرقَ زَهْرَه من شِيَمك الزُّهْر، حَسُنَ فى كل عين منظرُه، وطاب فى كل سمع خَبَرُه، وتاقت النفوسُ إلى الراحة فيه، ومالتْ إلى الإشراف على بعض ما يَحْتويه من النَّوْر الذى كسَا الأرضَ حُلَلا، لا يرى الناظر فى أثنائها خللا، فكأنها نجومٌ نُشِرتْ على الثَّرَى، وقد مُلئَت مِسْكًا وعَنْبرا، إن تنسَّمتهَا فأرِجَة، أو توسَّمتها فبَهِجَة، تروق العيونَ أجناسُها، وتُحْيى النفوسَ أنفاسُها.. فأوجدْ لى سبيلا إلى إعمال بصرى فيها، لأجلوَ بَصِيرتى بمحاسن نواحيها، فالنفوس تَصْدَأُ كما يَصْدَأُ الحديد، ومَنْ أَجَمَّها[١] فهو السَّديد الرشيد».

وواضح فى الرسالة لطف الابن لأبيه، مع حسن تأتِّيه وجمال وصفه للربيع وشغفه بمشاهد نواويره البديعة. وله من رسالة إلى بعض إخوانه يستدعيه للمتعة معه والأنس به فى منظر فاتن من مناظر الربيع، يقول:

«قد علم سيدى أن بمرآه يكمل جَذَلِى، ويدنو أَمَلِى، وقد حللتُ محلاًّ عُنِىَ الجوّ بتحسينه، وانفرد الربيع بتحْصِينه، فكساه حُلَلًا من الأنْوار، بها يَنْجلى صَدَأُ البصائر والأبصار، فمن مَكْمومٍ[٢] يَعْبَقُ مِسْكُه، ولا يمنعه مَسْكه، ومن بادٍ يروق مُجْتَلاه، ويفوق مُجْتَباه، فى مرآه ورَيَّاه، فتفضَّلْ بالخفوف[٣] نحوى لنجدِّد من الأنس مَغَانِىَ[٤] درستْ،

(١) أجمها: أراحها.
(٢) مكموم: أى زهر مستور فى كمّه.
(٣) الخفوف: الإسراع.
(٤) مغانى: منازل. درست: عفت وذهب أثرها.

ونفكّ من السرور معانى أَشْكَلَتْ وأَلْبَسَتْ،[١] ونشكرَ للربيع، ما أرانا من البديع»

والرسالة كسابقتها جمالَ صياغة وحسنَ أداء ، وهى تصور - مثلها - تعلقه بالطبيعة فى أعيادها وأعراسها أيام الربيع، مما جعله يصنف فيه كتابه «البديع» متنقلا بين مشاهده وأزهاره ونواويره وما صاغ فيها هو وشعراء موطنه من أوصاف رائعة.

ابن[٢] الدباغ

هو أبو المطرف عبد الرحمن بن فاخر المعروف بابن الدباغ الوزير الكاتب، نشأ بسَرَقُسْطة، وعمل بدواوينها وقرَّبه المقتدر بن هود أميرها (٤٣٨ - ٤٧٥ هـ) حتى أصبح من وزرائه، وأحسَّ منه جفوة، وخشى أن يسطو به ويبطش، فخرج عنه، ونزل بالمعتمد بن عباد فى إشبيلية، فأجزل قِراه، وخصَّه بحظ من دنياه، وجعله مكان سرِّه ونجواه. وسفر بينه وبين المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس حين كان بيابُرة. وحدثت مشادة بينه وبين ابن عمار قرينه فى وزارة المعتمد، وبلغه أنه قُدح فيه بمجلس المعتمد، وخشى مغبّة ذلك، فلحق بالمتوكل أمير بطليوس فرحب به، ويبدو أنه لم يكن موطَّأ الكنف فى العشرة، إذ لم يلبث أن فسد ما بينه وبين وزير المتوكل أبى عبدالله بن أيمن، واشتعلت بينهما نار ملأ الأفق شعاعها، وأخذ بأعنان السماء - كما يقول ابن بسام - ارتفاعها، فكرَّ راجعا إلى سرقسطة، وبعد فترة قليلة قتل ببستان من بساتينها.

ويبدو أن ابن الدباغ كان شديد الضجر بالناس كثير الظنون بهم أو قل سيئ الظنون، فنبا به مقامه عند المقتدر بن هود ثم عند المعتمد والمتوكل بن الأفطس، وربما دفعه إلى ذلك تشاؤم شديد جُبلت عليه نفسه. وهو من كتاب عصر أمراء الطوائف النابهين، وفيه يقول ابن بسام: «فيما انتخبته من نظمه ونثره ما يشهد بفضله، ويدل على نبله». ومضى ابن بسام يعرض طرائف من رسائله امتدت إلى نحو ستين صحيفة، جميعها غُرر ودُرر، وأكثرها فى ذم الزمان ومعاصريه وتعذر آماله فيه، من ذلك قوله فى بعض رسائله:

«كتابى وعندى من الدهر ما يهدُّ أَيْسَرُهُ الرَّوَاسِيَ، ويفتِّت الحجرَ القاسيَ.. ومن أقلِّها قَلْبُ محاسنى مساوىَ، وأوليائى أعادىَ، وقَصْدى بالبِغْضَةِ من جهة المِقَةِ[٣]،

(١) أشكلت وألبست: اشتبهت وانبهمت.

(٢) انظر فى ترجمة ابن الدباغ الذخيرة ٣/٢٥١ والقلائد ص ١٠٦ والمغرب ٢/٤٤٠ والخريدة (قسم شعراء المغرب والأندلس - طبع الدار التونسية) ٣/٣٨٧

(٣) المقة: المحبة.

واعتمادي بالخيانة من حيث الثقة.. وقد غُيِّر عليَّ حتى شرابى، وأوحشنى حتى ثيابى، فها أنا أتّهم عِيانى، وأَسْتَرِيبُ من بَيانى، وأجنى الإساءة من غَرْسِ إحسانى.. وما أصنع؟ وقد أبى القضاء إلا أن أقضى عمرى فى بوس ولا أنفكّ من نحوس.. لست أشكو إلا زمانى وقُعُودَه بجَدِّى[١]، وقبيحَ آثاره عندى، يخصُّنى بمزية حِرْمان، ويتوخّانى بِفَضْلة عُدْوان، ويجعلنى نَصْبَ سَعْيه، وغرضَ رَمْيه، ومكان أذايَته وبَغْيه.. ما أجد إلا من يَثْلِبُ، ولا أمرُّ إلا بمن يتجهَّم ويقطِّبُ.. وسبحان من جَعل الدنيا دارَ كرْبٍ ومِحْنة، لكل ذى لُبٍّ وفطنة، ومقام تنعُّم وترف، لكل ذى خِسَّةٍ ونَطَف[٢].. وما أظن أن لدُجَى حالى انْبلاجا، ولا لكَرْبَةِ نفسى انْفراجا، ولا إخال غَمَرات الهمِّ تَنْجلى، ولا مُدَدَ النحوس تَنْقضى، ومَنْ كانت له من الدنيا حُظْوَة يصطفيها، ومكانة يستقر فيها، فليس لى منها إلا أن أرى كيف تنقسم رُتَبُها وتُتناوَبُ، وتُتنازَع نِعَمُها وتُتجاذَبُ، وتُغْتَنَم فوائدُها وتتناهَبُ، حتى كأنى جئت على العدد زائدا، ولم أكن عند القسمة شاهدا، وما أقول هذا قول ساخط، ولا أيأس من رحمة الله يأس قانط، ولكن ربما استراح العليلُ فى أنَّة، واستغاث المتوجع إلى رَنَّة[٣]، وخفَّف عن المصدور نَفْث[٤]، ونفَّس من وَجْد المكروب بَثّ[٥]».

وهو يطيل فى مثل ذلك صادرا عن قريحة أدبية خصبة، وكأنما سيول الكلام العذب تفد عليه من كل صوب، وهو يختار أسلسَ الألفاظ وأحلاها فى الجريان على الألسنة ومصافحة الأسماع والقلوب، مما يصور براعة أدبية حقيقية، إذ يمتع دائما بألفاظه ومعانيه الألسنة والآذان والأذهان. وله من تهنئة:

«قد كنتُ - أعزَّك الله - متمنيا لهذه الأيام، كما يُتَمنَّى فىَ المَحْل[٦] صَوْبُ الغمام، ومنتظرًا لظهورك فيها، كانتظار النفس أَعْذَبَ أمانيها، ولما أطلعتْ طلائعَها السعودُ، واستمرَّ بك الارتقاءُ والصعودُ، قلت لنفسى بُشْراكِ، أَسْعَفَك الدهرُ بمناكِ، وسرَّك فى بعض أعِزَّتكِ وأرضاكِ، وأُذْنِى فى الإِصْغاء، إلى ما يَطْرأ من الأنباء، وكلما قيل فَرَع[٧] من الجاه ذروة، واستجدَّ من العِزِّ كُسْوة، سَرَتِ العِزَّة فى خَلَدِى[٨]، وطالت[٩] على النُوَب يدى»

---

(١) جدى: حظى.

(٢) نطف: عيب.

(٣) رنة: صيحة.

(٤) نفثة المصدور: ما يخفف به عن صدره المريض.

(٥) البث: ما يبثه المكروب والمحزون تخفيفا عنه.

(٦) المحل: الجدب.

(٧) فرع: علا.

(٨) الخلد: البال والفكر.

(٩) طالت: غَلبت وتفوقت.

وبهذا البيان الخلاب لانزال نقرأ فى رسائل ابن الدباغ معجبين، ونأسى لمصيره، وكان حريا بأحد الثلاثة: المقتدر بن هود والمعتمد بن عباد والمتوكل بن الأفطس أن يرفق به ويعرف له فضله ومنزلته الأدبية الرفيعة، فيُقيله من أوضار تشاؤمه وعثرات بؤسه بما يُسْدل عليه من صفو الحياة ورخاء العيش مما يبدِّل قنوطه من معاصريه رجاء ويأسه منهم أملا وخوفه ثقة واطمئنانا. غير أن أحدا منهم لم يحاول إنقاذه من محنته، بل جميعهم تركوه يتجرع غُصَصَ الضَّيْم والحرمان فى غير شفقة ولا رأفة.

أبو[١] عبد الرحمن بن طاهر

هو أبو عبد الرحمن محمد بن أحمد بن طاهر، من بيت ثراء وشرف وفضل بمدينة مرسية فى شرقى الأندلس، وهو بيت كان ينتمى إلى قبيلة قيس بن عيلان فى الجزيرة، وكان يعتز بقيسيته وعروبته. ولما انتثرت الأندلس وتوزعت بلدانها بأيدى أمراء الطوائف دعا أبوه أحمد بن طاهر لنفسه فى بلدته مرسية، فاجتمع أهلها على طاعته، وازدهر إقليم أهلها بجميل سيرته. وكان قد رُزق بابنه أبى عبد الرحمن محمد حوالى سنة ٤٢٠ للهجرة، وشبَّ فأعان أباه فى حكمه إلى أن توفى سنة ٤٥٥ فخلفه على مرسية، وانتهج سيرته، فاستقام له حكم أهلها، وكأنهم لم يفقدوا أباه. وكان من أهل العلم والأدب البارع إذ عنى أبوه بتربيته، وكان يتقدم أمراء الطوائف فى بلاغة الكتابة، وكانت رسائله متداولة لما تتميز به من حسن الأداء، ولابن بسام تأليف خصها به سماه «سلك الجواهر من ترسل ابن طاهر» وترجم له فى الذخيرة ترجمة ضافية.

وكان ابن طاهر جوادا ممدَّحا، ينتجعه الشعراء والأدباء فيجزل لهم العطاء، وانتجعه ابن عمار الذى مرت ترجمته بين الشعراء أيام خموله، فرحَّب به وأكرمه، وجزاه على إكرامه وترحيبه جزاء سنّمار، إذ عرف فى مقامه بضيافته ضعف جنده وعورات بلده، فلما تطورت به الظروف، وأصبح وزيرا ومستشارا للمعتمد بن عباد أمير إشبيلية زيَّن له الاستيلاء من يد ابن طاهر على مرسية، وما زال يُغْريه بفتحها وأن ذلك لن يكلفه مئونة كبيرة حتى استجاب وأعدَّ له جيشا جرارا لفتحها، وفى طريقه إليها اتخذ قائدا لعسكره عبد الرحمن بن رشيق، ولم يلبث أن انتزعها من يد ابن طاهر سنة ٤٧١ وزجَّ به فى سجن

---

(١) انظر فى ترجمة أبى عبد الرحمن بن طاهر الذخيرة ٣/٢٤ - ١٠٣ والقلائد: ٥٨ والمغرب ٢/٢٤٧ وبغية الملتمس رقم ٢٣ والمعجب ١٨٠ والحلة السيراء ٢/١١٦ والذيل والتكملة للمراكشى ٥/٥٩٠ والخريدة ٣/٣٦٣ وأعمال الأعلام لابن الخطيب ٢٣٢.

بحصن قريب من مرسية يسمى «مُنْتْ أقوط» وسوّلت له نفسه أن يخلع ولاءه للمعتمد ويستقل بمرسية، فسلّط عليه قائده عبدالرحمن بن رشيق، فاستخلصها منه. وتوسط لديه أبوبكر بن عبد العزيز الوزير ببلنسية، كي يرد إلى ابن طاهر حريته، فردّها عليه. وعاش ابن طاهر بقية حياته ببلنسية مبجّلا معزّزا، وشهد محنة المسلمين بها سنة ٤٨٧ على يد الفارس الإسبانى المغامر السيد الكنبيطور، ووقع - بعد بلاء مبرور فى حربه - بأسره، وافتدى وأطلق سراحه، ولم يبرح بلنسية إلى أن استردها المرابطون سنة ٤٩٥. ومدَّ له فى البقاء إلى أن توفى ببلنسية سنة ٥٠٨ للهجرة.

وهذه الحياة الطويلة التى امتدت بابن طاهر إلى نحو تسعين عاما أمضى منها فترة معاونا لأبيه فى حكم مرسية وفترة ثانية فى حكمها وفترة ثالثة قصيرة معتقلا ثم فترة طويلة ببلنسية معززا موقّرا. وهذه الحياة المديدة أتاحت له أن تتكاثر المكاتبات بينه وبين أمراء الطوائف، يخطبون وداده، وهو تارة يثنى ويشكر، وتارة يعاتب أويشفع أويعزى أويهنِّى، وقد اهتزَّ هزة عنيفة لأوائل حكمه مرسية حين نكل النورمانديون بأهل بربشتر فى الشمال الشرقى لسرقسطة سنة ٤٥٦ وأنزل بهم مذبحة - كما مرَّ بنا - تقشعر لهولها الأبدان وسبى منهم خمسة آلاف من النساء والعذارى وباعهم فى الأسواق بيع الإماء، وما إن علم بذلك حتى ضاقت به الأرض بما رحُبت، وأخذ يكتب لأقرانه كى يكيلوا للعدو الغاشم الصاع صاعين، ومن قوله فى وصف هذا الحادث المروِّع:

«خطب أطار الألباب، وطأطأ الرقاب، وقطع الآمالَ والهمم، وأسلم من الذلَّة والقلَّة إلى ما قَصَم، فما شئت من دمع مسفوحٍ مُراقٍ، ونَفْسٍ متردِّدةٍ بين لَهاةٍ وتَراق[١]، وأسًى قد قرع حُصَيَّات القلوب فرضَّها[٢]، وعدل عن المضاجع بالجنوب فأقضَّها[٣]». ويقول من رسالة أخرى مستنفرا للجهاد:

«لِيَنْدُبِ الإسلامَ نادب، وليَبْك له شاهدٌ وغائب، فقد طُفِئَ مصباحُه، ووُطِئَ ساحُه، وقُصَّ جَناحُه، وهِيضَ[٤] عَضُدُهُ، وغِيضَ ثَمَدُهُ[٥]، إلى الله نَفْزَعُ، وإليه نَضْرَع، فى طارق الخطب ومُنْتابه، ولا حول ولَا قوة إلا به، فهو كاشفُ الكروب، وناصرُ المحروب».

---

(١) التراقى: جمع ترقوة: أعلى الصدر. اللهاة: أقصى سقف الحلق.
(٢) رضّها: دقها.
(٣) أقضها: جعلها لا تريح النائم بجنبه فيها.
(٤) هيض: تحطم.
(٥) غيض ثمده: جفَّ ماؤه القليل.

وحين رُدَّت إليه حريته وأُطلق من معتقله بفضل وساطة أبى بكر بن عبد العزيز الوزير ببلنسية واستجاب إلى رغبته فى المقام عنده كتب وهو فى طريقه إليه رسالة يقول فى فصل منها:

«كتابى وقد طَفَلَ[١] العَشِىُّ، وسالَ بنا إليك المَطِىُّ[٢]، ولها من ذكرك حادٍ، ومن لُقْياك هادٍ، وسنوافيك المساء، ونَغْتفر للزمان ما قد أساء، ونَرِدُ ساحةَ الأمن، ونشكر عظيمَ ذلك المَنّ، فهذه النفس أنت مُقيلها[٣]، وفى بَرْدِ ظِلِّك يكون مَقيلها[٤]، فللّه مجدُك وما تأتيه، لازلتَ للوفاء تُحْييه وتَحْويه»

وكانت فى ابن طاهر دعابة لم تفارقه حتى فى أيام محنته بالاعتقال، وله فى ذلك - كما يقول ابن بسام - عدة نوادر أحر من الجمر وأدمغ من الصخر، ويروى منها أن ابن أخت لعبد الرحمن بن رشيق كان ذا لحية طويلة، وطلعة ثقيلة، وقف عليه يوما فى اعتقاله، فجعل يتفجع له ويتوجع، ويتملَّق معه ويتصنَّع، فقال له ابن طاهر: خلاصى بيدك إن شئت، فإنك لو أخرجتنى فى لحيتك لتخلصت ولم يرنى أحد. وكتب إليه رجل يتزهد، وأطال الوعظ وردَّد، وهو يعرف أنه على الضِّدِّ من وعظه، فأجابه:

«ورد كتابك فوعظ وذكَّر، ونصح فبَصَّر، ونبَّه من سِنَةِ الغفلة، واغترار المُهْلة، وحذَّر من يوم النَّدامة، وبَعْثِ يوم القيامة، فيرحمك الله من هادٍ، وخائف مَعادٍ، ومبتغٍ إرشاد، وداعٍ إلى صلاح وسَداد، لقد حرَّكت أنْفُسًا قاسِية، وهززتَ جَنْدَلَةً راسِية، ومِعْوَلُك دونها نابٍ، لا يؤثر فيها بِظُفْرٍ ولا ناب»

ودائما يسيل الكلام على لسان ابن طاهر فى خفة ورشاقة وعذوبة، وفى الذخيرة من ذلك بدائع وروائع يقول ابن بسام بعقبها: «أبو عبد الرحمن أكثر إحسانا، وقد وهب الطروس من ألفاظه ما يفضح العقود الدُّرِّيَّة، وتُعَسْعِس[٥] معه الليالى البَدْرية».

---

(١) طفل العشىّ: مال للغروب العشى وهو آخر النهار.

(٢) المطى: الإبل.

(٣) مُقيلها: منحِّيها أى عما كانت فيه من اعتقال.

(٤) مقيلها: مكان راحتها.

(٥) تعسعس: تظلم.

أبو[1] القاسم بن الجد

هو أبو القاسم محمد بن عبد الله بن الجد الفهرى، من أسرة بنى الجد، من بيوتات لبْلة غربى إشبيلية وإشبيلية نفسها، وفى كتاب المغرب ترجمات لغير فقيه وأديب من هذه الأسرة، وقد أكبَّ فى نشأته على كتب الفقه والحديث والأدب، وأخذ اسمه يلمع بين أقرانه فى إشبيلية، فاختاره المعتمد بن عباد أميرها وزيرا لابنه الراضى حين ولّاه مدينة الجزيرة الخضراء فى أقصى الجنوب، وظل معه حين ولّاه مدينة رُنْدة غربى مالقة إلى أن استنزله منها المرابطون سنة ٤٨٤ وفتكوا به. وعاد أبو القاسم إلى بلدته: لَبْلة فولَّوه خطَّة الشورى ومقاليد الفتوى، وهو مع ذلك يساجل إخوانه ويراسلهم ويخطب مودتهم، وخاصة أبا بكر بن القصيرة رئيس الديوان بمراكش منذ سنة ٤٨٧ ليوسف بن تاشفين ثم لابنه على. ويبدو أن ابن القصيرة استدعاه ليعمل معه فى هذا الديوان، ولا نعرف تاريخ هذا الاستدعاء، وأكبر الظن أنه استدعاه منذ عهد يوسف بن تاشفين حتى إذا توفى ابن القصيرة سنة ٥٠٨ أسندت إلى ابن الجد رياسة الديوان بمراكش إلى أن توفى سنة ٥١٥ للهجرة.

وقد استهل ابن بسام ترجمته بقوله: «قريع[2] وقتنا، وواحد عصرنا، ممن اسْتَمْرى[3] أخلاف النظم والنثر، فَدرَّت له بالبيان أو بالسحر.. ورُوَيْدك حتى ترى الصبح كيف يُسْفر، وثَبَج[4] البحر كيف يزخر. وهو على نباهة الذكر، وعلو القدر، وشرف المحل من فهر[5]». وتلا ابن بسام ذلك بطائفة من رسائله، ونقرأ من بينها رسالة كتب بها إلى صديقه رئيس دواوين المرابطين: ابن القصيرة، وقد تصادف أن كان على مسافة قريبة منه، ولم يتفق لهما لقاء، وفيها يقول:

«لم أزل - أعزك الله - أستنزل قربك براحة الوهم، من ساحة النجم، وأنصب لك شرك المنى، فى خُلَس الكَرَى. وما ظنك بى وقد نزلت على مسافة يوم، وطالما نفر عن

---

(١) انظر فى ترجمة أبى القاسم بن الجد الذخيرة ٢٨٥/٢، ٣٤٧ والصلة ص ٥١٦ والمطرب ص ١٩٠ والمعجب ص ٢٣٧ والقلائد ١٠٩ والذيل والتكملة للمراكشى ٣٢٦/٦ والمغرب ٣٤١/١ والخريدة ٣٩٣/٣ وإحكام صنعة الكلام لابن عبد الغفور الكلاعى ص ١٨٥.

(٢) قريع: سيد.

(٣) استمرى أخْلاف النظم: احتلب ضَرْعه.

(٤) ثبج البحر: وسطه.

(٥) فهر: قبيلة قرشية.

خيالى نوم، ودنوت حتى هممت بالسلام، وقد كان من خُدَع الأحلام.. وما كان على الأيام لو غفلت قليلا، حتى أشفى بلقائك غليلا.. ولئن أقعدتنى بعوائقها عن لقاء حر، وقضاءِ برٍّ فما تحيَّفتْ (تنقصت) ودادى، ولا ارتشفت مدادى، ولا غاضت (نقصت) كلامى، ولا أَحْفَتْ (استأصلت) أقلامى، وفى الكتاب بُلْغَة الوطر، وُيْسَتدلّ على العين بالأثر.. وإن فرغتَ للمراجعة ولو بحرف، أو لمحة طرف، وصلتَ صديقا، وبَلَلْتَ ريقا، وأسديتَ يدا، وشفيت صدًى (عطشا)، لا زالت أياديك بيضا، وجاهك عريضا، ولياليك أسحارا، ومساعيك أنوارا».

ويبدو أنه كتب لابن القصيرة هذه الرسالة حين كان يتولى ديوان الإنشاء بمراكش للمرابطين، وقد تولاه منذ سنة ٤٨٧ كما أسلفنا حتى وفاته سنة ٥٠٨ ونراه فيها يشير - من طرف خفى - إلى تمنيه أن يستدعيه صديقه للعمل معه فى ذلك الديوان، ولاتخفى سطور الرسالة مراده وأنه يأمل لو ردَّ عليه بكتاب يحقق له أمنيته. وقد صاغ الرسالة صياغة بديعة، مع لطف الأخيلة ودقة المعانى ومع حسن الأداء. ولانلبث أن نقرأ له رسالة فى وصف مطر بعد جدب شديد، وفيها يقول:

«لما استرابتْ حِياضُ الوِهاد، بعهود العِهاد[١]، وتأهَّبَتْ رياضُ النِّجاد، لبرود الحِداد، واكْتَحَلَتْ أَجْفانُ الأزهار، بإِثْمِدِ[٢] النَّقْعِ المثار، وتعطَّلت الأنوار، من حُلِيِّ الدِّيمة المِدْرار، أرسل الله تعالى بين يَدَىْ رحمته رِيحًا بليلةَ الجناح، سريعة الإلقاح، فنَظَمتْ عقودَ السَّحاب، نَظْمَ السِّخاب[٣]، ولم تلبث أن انهتك رُواقُها[٤]، وانْبَتَك[٥] وَشِيكا نطاقُها، وانبرت مدامعُها تبكى بأجفان المشتاق، غداةَ الفِراق، فاستغربت[٦] الرياضُ ضحكا ببكائها، واهتزَّت رُفاتُ[٧] النَّباتِ طرَبًا لتغريد مُكَّائها[٨]، فيا بَرْدَ موقعها على القلوب والأكباد، ويا خلوص رِيِّها إلى غُلَل النفوس الصَّوَاد[٩]، كأنما استعارت أنفاسَ الأحباب، أو ترشَّفت رُضَابًا[١٠] من الثَّنايا العِذاب، أو تحمَّلت ماءَ الوصال، أو

---

(١) العهاد: المطر.
(٢) إثمد: كحل. النقع: الغبار.
(٣) السخاب: القلادة من الأزهار.
(٤) الرواق: مقدم البيت
(٥) انبتك: انقطع
(٦) استغرب فى الضحك: بالغ فيه
(٧) رفات: حطام
(٨) المكاء: طائر له تغريد حسن
(٩) ريها: شربها حتى الامتلاء. الغلل: جمع غلة: شدة العطش الصوادى. العطشى.
(١٠) الرضاب: الريق المرشوف.

سَرَتْ على أَنْداءِ الأسحار ورَيْحان الآصال. فالحمد لله على ذلك ما انْسَكَبَ قَطْرٌ، وانْصَدَعَ فجر، وتوقَّد قَبَس، وتردَّد نَفَس».

ولعل صوت ابن الجد اتضح، فهو صوت يفيض بألحان عذبة يأخذ بعضها بتلابيب بعض لما تتميز به من عذوبة ورشاقة، وهو صوت يتخايل أو يتجسد فى تصاوير متتابعة، فيمتع النفس بنغماته وأخيلته البديعة. وله من رسالة يخطب فيها وداد أديب وأخوّته:

«إن كانت المداخلة بيننا لم يُفْتَحْ لها باب، ولا علقت بها أسباب، ولا رُمِىَ لنا فى محصَّبها[١] جمار، ولا عَطف بنا نحو كعبتها اعتمار، فقد جمعتنا فى معرَّف[٢] المعرفة معارف، وضمَّتنا من معالم العلم معاهد ومآلف، ووشجَت[٣] بيننا من أواصر الأدب أنساب، وضُرِبتْ علينا فى مدارج الطلب قِباب، ولا غرو من تدانى القلوب على تنائى الديار، وائتلاف النفوس مع اختلاف النجار[٤]، فربما ألَّف تشاكل الشيم والأخلاق، بين مستوطن الشام وساكن العراق. على أنى لا أدعي رتبتك فى فنون العلم والآداب، ومن يُضاهى محل الفَرْقد[٥]، بمنبت الغَرْقد، لكنى وإن لم أُعَدَّ فى رعيلك، فعندى من بضائع الكلم ما ينفق فى سوقك، بقيتَ حلية للدهر فائقة، وغُرَّة فى وجد الزمن رائقة».

وعذوبة الكلم وحلاوة الصوت وسلاسة الجرس ونعومته، كل ذلك تغرق الآذان فى أنغامه مع ما يسوق من أطياف وخيالات رائعة. وكان فيه ميل إلى الدعابة، مما جعله يعارض أبا الحسين بن سِراج فى رقعته التى مرت بنا والتى شفع فيها عند بعض ذوى الجاه والثراء لرجل يسمى الزريزير مستعيرا له بعض الصفات المتصلة بالطيور كالريش والعش والشَّكير والتحسير، وعلى غِرار رقعة ابن سراج يقول فى رقعته:

«لئن سُمِّى بالزُّرَيْزِر، لقد صُغِّر للتَّكْبِير، ولما طار ببلاد الغَرْب ووَقَع، وزَقَا فى أكنافها وصَقَع[٦]، وعاين ما اتفق فيها هذا العام من عدم الزيتون، فى تلك البطون، والمتون، ولم يجد بها قَرارا، أَزْمَعَ عنها فِرارا. واستخفَّه هائجُ التذكار، نحو تلك الأَوْكار،

(١) المحصب: موضع رمى الجمار بمنى.
(٢) المعرف: الموقف بعرفات، والاستعارة واضحة.
(٣) وشجت: تشابكت.
(٤) النجار: الأصل والحسب.
(٥) الفرقد: النجم القطبى: الغرقد شجر قصير فروعه شائكة.
(٦) زقا: صاح. صقع: ذهب فى كل وجه.

حيث يكتسى ريشُه حريرا، ويحتشى جَوْفُه بَرِيرا[١]، ويحتسى قَراحا نَمِيرًا[٢]، فخذه إليك، نازلا لديك، ماثلا بين يديك، يترنَّم بالثناء، ترنم الذُّباب فى الروضة الغَنَّاء. ولن يَعْدَمَ فى جنابك حَبًّا نَثِيرا، وخِصْبًا كثيرا، وعُشًا وَثيرا[٣]».

والدعابة لطيفة والصياغة بديعة، ويقول ابن بسام فى ختام ترجمته له إن كلامه أبهى من النجوم وأبهر، وأَسْرَى من النسيم وأسير» لما يُشيع به من صياغة تأخذ بمجامع القلوب

سهل[٤] بن مالك

هو سهل بن محمد بن سهل بن مالك الأزدى، من أسرة علمية غرناطية ذات جاه وثراء، وفيه يقول ابن عبد الملك المراكشى: «كان من أعيان مصره وأفاضل عصره تفننا فى العلوم وبراعة فى المنثور والمنظوم، محدِّثا مجودا للقرآن متقدما فى العربية، وافر النصيب من الفقه وأصوله، كاتبا مجيد النظم فى معرب الكلام وهزله ظريف الدعابة مليح التندير» ويقول ابن سعيد فى القدح المعلى: «لو لم تأت غرناطة إلا بهذا الجليل المقدار، لكان حسبها فى العلم والجود والرياسة وجميع أنواع الافتخار، وبرع فى العلوم الحديثة والقديمة وبلغ بين نظرائه مبلغ الكمال»، وصنَّف فى العربية كتابا مفيدا رتب الكلام فيه على أبواب كتاب سيبويه، وله تعليقات نافعة على كتاب المستصفى فى الأصول للغزالى.

ولما ثار محمد بن يوسف بن هود الملقب بالمتوكل بمدينة مرسية سنة ٦٢٥ وملك قرطبة وإشبيلية وغرناطة بلغه أن سهل بن مالك يتندر به وبرجاله، وكان مطبوعا على النادرة ظريفا خفيف الروح، ولكن ابن هود لم يحتمله فغرَّبه عن غرناطة بلدته إلى مدينة مرسية، وظل بها حتى توفى ابن هود سنة ٦٣٥ وصارت غرناطة إلى الغالب بالله محمد بن يوسف بن الأحمر مؤسس دولة بنى نصر أو بنى الأحمر فى غرناطة فعاد إليها، وظل فى جاه بها وبلوغ أمنية حتى توفى سنة ٦٣٩ للهجرة عن سنٍّ عالية ورثاه تلميذه ابن الجنَّان رثاء حارا.

وكان سهل شاعرا كما كان ناثرا، ونثره يبذّ شعره ويدل على عمق فكره واصطباغه

---

(١) البرير: ثمر الأراك.

(٢) يحتسى: يتجرع. قراحا نميرا: ماء صافيا زاكيا.

(٣) وثيرا: وطيئا.

(٤) انظر فى ترجمة سهل بن مالك التكملة لتلميذه ابن الأبارص ٧١٢ واختصار القدح المعلى لابن سعيد ص ٦٠ وزاد المسافر رقم ٢٣ وابن فرحون والذيل والتكملة للمراكشى (بقية السفر الرابع) ص ١٠١ والإحاطة ٢٧٧/٤.

بأصباغ الفلسفة. وكان من تلاميذ ابن رشد، وعنه أخذ العلوم القديمة، وكان شديد الشغف به والإعجاب بفلسفته وفكره، فلما توفى سنة ٥٩٥ أظلمت الدنيا فى عينيه وكأنما طُعن فى كبده فأمسك بالقلم وكتب إلى بنيه يعزيهم - وقد حَزَّ فى نفسه الجزع وعَضَّها الوجع - تعزية ملتاع أَضْرَمت اللوعةُ نارًا فى فؤاده، وفيها يقول:

«لا أقول كفى ولا أستشعر صَبْرًا، وقد أُسْكن نورُ العِلْمِ قبرًا، بل أُغْرِقُ الأجفان بمائها، وأستوهب الأشجان غَمْرَة[١] غَمَّائها، وأتهالك تهالكَ المجنون، وأستجير من الحياة بِرَيْب المَنُون، وأنافرُ السلوَّ منافرة اليقين لوساوس الظنون. وهو الخطبُ الذى نَفَى الهُجُودَ[٢]، وألزم أَعْيُنَ الثَّقَلَيْن أن تجود، وبه أَعْظَم الدهرُ المصابَ، وفيه أخطأ سَهْمُ المنية حين أصاب، والدهر يَسْترجع ما وهبَ، كان الصُّفْرَ[٣] أو الذَّهَبَ، ولا غرو أن دَهَمَ[٤] الرُّزْءُ، يؤود[٥] الفلكَ الدائر منه الجُزْءُ.. وإنا لله لفظةً أوليها، وأُتْبعها زَفْرةً تليها، ولقد بحثت الأيام عن حَتْفها بِظِلْفها، وسَعَتْ على قدمها إلى رَغْم أَنْفها، حين أتلفت الواحد يزن مائةَ أَلْفِها، فمَنْ لبثِّ الوَصْلِ ولرَعْى الوسائل[٦]؟ وإلى من يُلْجَأ فى مُشْكلات المسائل؟ ومن المجيب إذا لم يكن المسئول بأعلم من السائل؟ اللهم صَبِّرنا على فَقْد الأُنس بالعلم، وأدِلْنا[٧] من خُفوف الوله بوقارِ الحِلْم، وأَخْلِفْه فى بنيه وعامة أهليه بِشَبِيه، ما أوليتَه فى جِوارك المقدَّس وتُوليه»

والتعزية طويلة، وجميعها - على هذا النحو - توجُّع وتفجع لهذا الرزء الفادح الذى نزل بالأندلس لفقد فيلسوفها العظيم منقطع القرين: ابن رشد. وكتب صديق لسهل يعزيه عن محنته بنفيه إلى مُرْسية وغربته، فردَّ عليه برسالة يقول فيها:

«أنا أستوهبُ لك أيها الشيخُ الأخُ الجليلُ عافيةً لا تَعْفُو[٨] بأَلْسُنِ الحُسَّاد، ولا تَقْفُو[٩] موادَّها أَعْيُنُ السعاة البغاة الذين ما لهم مَقْعَدٌ إلا بالمرصاد، وأُثْنِى على كرم طِباعك بوصول رسالتك التى طلعتْ على ليلى البَهيم[١٠] صَباحا، وأدارتْ عليَّ من التسلِّى والتعزِّى أَقْداحا.. ويعلم الله أيها العَلَمُ علما وفهما، أنى لولا مخاطبتك ومِثالُك[١١]

---

(١) غمرة غمائها: شدة شدائدها.
(٢) الهجود: النوم.
(٣) الصفر: النحاس.
(٤) دهم: فجأ. الرزء: المصيبة.
(٥) يؤود: يثقل ويجهد.
(٦) الوسائل: الصلات.
(٧) أدلنا: انصرنا.
(٨) تعفو: تنطمس.
(٩) تقفو هنا: تحيط بها.
(١٠) البهيم: المظلم.
(١١) مثالك: يريد مثال مخاطبه وشخصه.

لمتُّ أَسَفًا وغَمًّا، ولستُ - عافاك الله - بذى سِجْنٍ ولا قيود، ولكن معاشرة من لا يشاكَل عَقَبَةٌ كَؤُود[١]، ولعلها ذنوبٌ تمحَّصُ، وسَبْكٌ يُصَفِّى به الإنسان ويُسْتَخْلَصُ، وقد شكونا لو أن الشكاة تُسْمَعُ، ودَعَوْنا لو أنَّ الدعاءَ - عند من لا يَقْبله يَنْفع».

وسهل يومئ فى أول رسالته إلى ما صنعه به أهل الحسد والعداوة مما انتهى به إلى النفى عن بلده، ويعبر عن ألمه وحزنه لهذا النفى مع الثناء على صديقه والشكر على رسالته التى أثلجت صدره وفتحت له من التسلى والتعزى أبوابا كانت مغلقة، فخففت من أسفه وغمه. ويقول المراكشى عنه إنه كان كريم النفس فاضل الطبع نزيه الهمة حصيف الرأى وجيها مبرورا معظما عند الخاصة والعامة.

٣

الرسائل الأدبية

مما تميَّز به النثر الأندلسى كثرة الرسائل الأدبية فيه، وكانت تسعف الكتَّاب فى ذلك ملكات أدبية خصبة، وهى تلاحظ بوضوح فى كثير من رسائلهم الشخصية إذ نرى الكاتب يتحول برسالته فى المودة والإخاء أو فى العتاب أو فى الرثاء إلى الاتساع والامتداد بها صفحات تلو صفحات. وكان من آثار كثرة الحروب عندهم مع نصارى الشمال كثرة الرسائل الطويلة التى تتخذ الجهاد والاستنفار للحرب وتصوير معاركها العنيفة موضوعات لها، وفى كتاب الذخيرة لابن بسام رسائل كثيرة فى كل ذلك، وخاصة مع موقعتى بَرْبَشْتر سنة٤٥٦ والزلاقة سنة٤٧٩. وتكثر عندهم الرسائل الشخصية التى تتخذ الطبيعة موضوعا لها، وألممنا فيها أسلفنا برسائل بارعة على لسان الأزهار عند ابن برد وحبيب وأبى عمر الباجى، ومرَّ بنا أن لابن الجد رسالة بارعة فى وصف مطر بعد قحط شديد، وأن لابن أبى الخصال رسالة فى وصف ليلة شديدة البرد نوَّه بها السابقون، ولابن خفاجة أكثر من رسالة فى وصف الطبيعة، وبالمثل لكتاب غرناطة وفى مقدمتهم ابن الخطيب رسائل متعددة فى وصف الطبيعة. وكان للأندلسيين ميل واضح إلى الدعابة والفكاهة، وهما يتضحان فى كثير من رسائلهم الشخصية، على نحو ما يلقانا عند محمد بن مسعود القرطبى فى أوائل القرن الخامس الهجرى وكان شاعرا يتصعلك فى شعره على

---

(١) كؤود: صعبة.

طريقة الأدباتية أصحاب الكُدْية ممن يصفون فى أشعارهم بؤسهم وحرمانهم ومايسود حياتهم من ضنك وفقر وإقلال طلبا للنوال، وكان له ابن رحل إلى غربى الأندلس وعرف أنه عاش هناك للمجون والشراب فكتب إليه رسالة طويلة حاكى فيها الجاحظ مستمدا من رسالته التربيع والتدوير وما فيها من هزل، وقد ذكر منها ابن بسام فصولا فى ترجمته له[١]. ولأحمد بن عباس وزير زهير صاحب المرية المقتول معه سنة ٤٢٩ رسالة هزلية بديعة فى وصف رسول بكتاب أرسله إليه أبو المغيرة بن حزم، ورد على رسالته أبو المغيرة مستوحيا شيئا من هزله[٢]، وسنلم لابن شهيد برسالته: التوابع والزوابع وما فيها من سخرية وأيضا بالرسالة الهزلية لابن زيدون. ويذكر ابن بسام لابن طاهر الذى ألممنا به طائفة من رسائله فى الدعابة والهزل، ومرت بنا رسالة أبى الحسين سراج بن عبد الملك فى الشفاعة التى بناها على الدعابة لشخص يسمى الزريزير مستغلا فى وصفه طائر الزرزور، وكأنه هو نفس هذا الطائر، وطارت شهرة الرسالة - كما أسلفنا - فى الأندلس وحاكاها كثيرون من أعلام الكتابة بغرض الفكاهة والدعابة. وهو جانب واسع فى الرسائل الشخصية الأندلسية مثل وصف الطبيعة والجهاد والحرب. وحرىّ بكل جانب من هذه الجوانب أن تُجْمَع رسائله مع مقدمة تحليلية توضح روعته الأدبية، وحسبنا الآن أن نلم ببعض رسائل أدبية اشتهرت للأندلسيين.

رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد

ابن شهيد[٣] هو أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن عبد الملك بن شهيد الأشجعى القرطبى، فهو من أصل عربى، كان جده الأعلى عبد الملك بن شهيد وزيرا للأمير محمد (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ) ووز ابنه أحمد لعبد الرحمن الناصر ولقبه بذى الوزارتين ومر بنا فى الفصل الأول ذكر هدية نفيسة له إلى الناصر تدل على أنه كان من أكثر أهل قرطبة ثراء، وولد له فى سنة ٣٢٣ ابنه عبد الملك وأصبح فيما بعد وزيرا للمنصور بن أبى عامر، وولاه على الولايات الشرقية: بلنسية ومرسية مدة تسع سنوات، وعاد مضيفا منها إلى ثرائه

(١) الذخيرة ٥٤٩/١.

(٢) الذخيرة ٦٤٥/١ وما بعدها.

(٣) انظر فى ترجمة ابن شهيد اليتيمة ٣٥/٢ والجذوة ١٢٤ والمطمح ١٦ والذخيرة ١٩١/١ - ٣٣٦، ٤٣٧ والبغية رقم ٤٣٧ والخريدة ٥٥٥/٢ ومعجم الأدباء ٢١٨/٢ وابن خلكان ١١٦/١ والوافى للصفدى ١٤٤/٧. ونشر شعره يعقوب زكى بالقاهرة وشارل بلا فى بيروت وللأخير محاضرات عنه بجامعة عمان.

الموروث عن أبيه ثراء واسعا، واصطفاه المنصور بن أبى عامر لنفسه مستشارا وجليسا. ونقل سكناه إلى جواره. وكان قد رُزق بابنه أحمد سنة ٣٨٢ فنشأ فى نعيم نشأة مترفة وضاعف ترفها رعاية ابن أبى عامر وحظياته له، فكان لا يزال يغدو ويروح إلى قصوره مختلطا بأحفاده. وعنى أبوه بتربيته. ومنذ نعومة أظفاره كان عنده نهم للأدب والمعارف، يقول فى فواتح رسالة: التوابع والزوابع: «كنت أيام كُتَّاب الهجاء أحن إلى الأدباء وأصبو إلى تأليف الكلام. فابتعت الدواوين وجلست إلى الأساتيذ، فنبض لى عِرْق الفهم، ودرّ لى شِرْيان العلم.. فطعنتُ ثغرة البيان دِراكا، وأعلقت رِجْلَ طيره أشْراكا، فانثالت لى العجائب وانهالت علىَّ الرغائب». ويضيف إلى ذلك فى إحدى رسائله أنه درس ضروب العلم المختلفة من أدب وخبر وفقه وطب وكيمياء وحكمة. وبينما هو غارق فى النعيم وفى تثقيف نفسه إذ النكبة تحل بأسرة ابن أبى عامر سنة ٣٩٩ وكان قد توفى منذ سبع سنوات. وولى الحجابة المظفر ابنه فسعدت الأندلس والرعية به، غير أن القدر لم يمهله، فتوفى سنة ٣٩٩ وخلفه أخوه الناصر عبد الرحمن وكان نحسا على نفسه وانهمك فى الشرب والزندقة والطعن فى الدين الحنيف، فقتل سريعا. وانفتح باب الفتنة التى قضت على الدولة الأموية ودُمِّرت فيها قرطبة وُأحرقت المدينتان المحدثتان بجوارها: الزهراء والزاهرة، وسُفكت الدماء بقرطبة وظلت تنزف طويلا. وترك ذلك آثارا عميقة فى نفس ابن شهيد فقد اندكّت صروح آماله ومطامحه، وداخله أسى عميق لما نزل بمدينته وبأسرة بنى أبى عامر، ولما رأى فى أثناء ذلك من انتهاك القيم واختلال الموازين، فأكبَّ على كئوس الخمر واللذات يغرق فيها همومه محاولا أن ينساها أو يتسلى عنها، وأنَّى له، إذ كانت تتجدد كل يوم، فكيف يحتمل الحياة إنه ليس أمامه إلا أن يسرف على نفسه فى الخمر وما يتصل بها من اللذات، لعلها تخفف عنه محنته وما يُطْبق عليه من أحزان. وتصادف أن أصابه الصمم مبكرا، فتضاعف حزنه وهمه، وتضاعف إقباله على الخمر والمجون حتى ليقول ابن حيان: «غلبت عليه البطالة فلم يحفل فى آثارها بضياع دين ولا مروءة حتى أسقط شرفه ولم يُقْصِر عن ارتكاب قبيحة» ويقول ابن بسام: «كان بقرطبة فى رقته وبراعته وظرفه خليعها المنهمك فى بطالته وأحطَّ الناس فى هوى نفسه وأهتكهم لعرضه وأجرأهم على خالقه». وكان الشعر قد انثال على لسانه مبكرا، كما أخذت تظهر مخايل نبوغه الأدبى، وسرعان ما أصبحت داره منتدى لأترابه من الشباب القرطبيين المتأدبين أمثال ابن حزم وابن عمه أبى المغيرة عبد الوهاب وابن برد الأصغر وأبى عامر بن المظفر بن أبى عامر وابن عمه المؤتمن عبد العزيز. ويقدم غير مدحة

للخليفة المستعين الأموى (٤٠٠ - ٤٠٧ هـ) ويشكو له ممن يتهمونه بسرقة الشعر كذبا وبهتانا. وفتك بالمستعين قائده على بن حمود الحسنى واستولى على صولجان الخلافة وانعقدت صلة بين ابن شهيد وكاتبه أبى جعفر اللبائى، وفتك بابن حمود غلمانه سنة ٤٠٨ وخلفه أخوه القاسم وخلعه ابن أخيه يحيى بن على بن حمود سنة ٤١٢ وكان قد اتخذ وزيرين أبا عبد الله بن الفرضى وابن فتح جعفر بن محمد وأفسدا العلاقة بينه وبين ابن شهيد مما جعله يزجّ به فى غياهب السجن فترة ظل فيها يستعطفه حتى رد إليه حريته.

وكان ابن شهيد يختلف إلى مجالس أبى العباس بن ذكوان المتوفى سنة ٤١٣ وفيها انعقدت صلة بينه وبين ابنه أبى بكر وكان مثله رقاعة وخلاعة، وتعرف على ابن الحناط الكفيف الذى كانت ترعاه أسرة بنى ذكوان، واصطدم به، وربما كان من أسباب ذلك أنه كان يوالى بنى حمود ويقدم إليهم مدائحه بينما كان ابن شهيد يوالى بنى أمية، وأيضا ربما رجع ذلك إلى المنافسة الأدبية، فنشبت بينهما مناقضات نظما ونثرا استمرت طويلا. ولم يكن يؤذيه شىء مثل اتهامه بالسرقة فى شعره ونثره، وبلغه أن أبا بكر محمد بن القاسم إشكمياط (فى كتاب المغرب: إشكنهاط) يتهمه بالسرقة فى نثره، فكتب إليه محنقا رسالة عنيفة، قال فيها: «لأقطعن حبالك هاجرا، ولأتركن ليلك ساهرا». ويصبح صديقه الأمير عبد الرحمن بن هشام الأموى خليفة فى سنة ٤١٤ ويتلقب بالمستظهر، ويتخذه مع صاحبه ابن حزم وزيرين، وأحسَّ ابن شهيد أن الدنيا تبتسم له بعد طول العبوس، غير أن ابتسامتها سرعان ما غاضت بعد سبعة وأربعين يوما، إذ خلف المستكفى الأموى المستظهرَ، وعادت الهموم تطبق عليه. وكان يحيى بن على بن حمود قد انسحب إلى مالقة، ففكر ابن شهيد أن يهاجر إليها كما تدل على ذلك قصيدة فى ديوانه، ونظن أنه زار حينئذ مجاهدا أحد فتيان العامريين الصقالبة وكان قد أسس له إمارة فى دانية بشرقى الأندلس سنة ٤١٢ غير أنه ازورَّ عنه فيما يبدو لاختلاف مسلكهما فى الحياة، إذ لم يكن مجاهد يأخذ نفسه بشىء من اللهو، بل على العكس كان منصرفا إلى الجد والعناية بالعلماء والقراء. وعاد ابن شهيد إلى قرطبة ولم يلبث يحيى بن على بن حمود أن قدم إليها بجنوده من مالقة واستولى على أزمة الأمور بها سنة ٤١٦ وقدَّم إليه ابن شهيد بعض مدائحه غير أن وزيريه ابن فتح وابن الفرضى ظلا يغلقان أبوابه فى وجهه. واستدار العام، فانصرفت قرطبة عن ابن حمود وبايعت لأموى هو الخليفة المعتدّ وظل بعيدا عنها يتنقل فى الثغور نحو ثلاث سنوات. وكان صديق ابن شهيد المؤتمن العامرى أصبح أميرا على بلنسية منذ

سنة ٤١٧ فتراسلا مرارا، وألحَّ عليه المؤتمن أن يترك قرطبة إلى بلنسية، فاعتذر إليه بشعر رقيق يصور فيه شغفه بقرطبة مع ما أصابها من المحن والخطوب والدمار وتفجَّع لها وتوجع فى أسى مرير. ويقرِّبه الخليفة المعتدّ ويتخذه جليسا وسرعان ما يتقوض حكمه وتتقوض معه الدولة الأموية سنة ٤٢٢ ويستولى على مقاليد الأمور بها أبو الحزم جهور. وفى سنة ٤٢٥ يزور أمير المرية زهير الصقلبى - من فتيان بنى عامر - قرطبة ومعه وزيره وكاتبه أبو جعفر أحمد بن عباس وكان فيه عجب شديد، فاصطدم به ابن شهيد وهجاه هجاء مقذعا. ويصاب فى أواخر هذه السنة بفالج ويقاسى منه لمدة سبعة أشهر أهوالا ثقالا حتى ليفكر فى الانتحار كما ذكر فى بعض شعره، ويلبى داعى ربه فى جمادى الأولى سنة ٤٢٦، وصلّى عليه - وأقام مراسم دفنه - أمير قرطبة أبو الحزم جهور، ويكْثُرُ البكاء والعويل على قبره وتُنْشَد مراث متعددة لصديقه ابن برد الأصغر وغيره.

وهذه حياة ابن شهيد، وهى حياة امتلأت بغيوم الهموم مع ما امتاز به من تفوق فى الأدب نثرا وشعرا، وفيه يقول ابن حيان مؤرخ الأندلس: «إذا تأملته ، وكيف يجرّ فى البلاغة رسَنه، قلت عبد الحميد فى أوانه، والجاحظ فى زمانه.. وله رسائل كثيرة فى أنواع التعريض والأهزال قصار وطوال برَّز فيها شَأْوه، وأبقاها فى الناس خالدة بعده» وقال عنه الفتح بن خاقان فى المطمح: «عالم بأقسام البلاغة ومعانيها، حائز قصب السبق فيها، لا يشبهه أحد من أهل زمانه، ولا ينسِّق ما نسَّق من درِّ البيان وجُمانه» وقال فيه ابن بسام: «نادرة الفلك الدوَّار، وأعجوبة الليل والنهار، إن هزل فسجع الحمام، أو جَدَّ فزئير الأسد الضرغام، نظْمٌ كما اتسق الدر على النحور، ونثرٌ كما خُلط المسك بالكافور». وقد سقطت من يد الزمن أعماله ولولا ما احتفظ به ابن بسام وأصحاب الكتب الأدبية من أشعاره لضاع هذا الكنز النفيس من منظوماته، وأيضا لولا ما احتفظ به ابن بسام من رسائله وخاصة من رسالته التوابع والزوابع لفقد النثر الأندلسى دررًا بديعة من لآلئه وروائعه.

وابن بسام لم يحتفظ برسالة التوابع والزوابع جميعها، إنما احتفظ ببعض فصولها، وما جاء فى صدرها من مخاطبة ابن شُهيد لصديق له هو أبو بكر بن حزم، وتصادف أن كان لأبى محمد بن حزم أخ يتفق مع هذا المخاطب فى اسمه توفى سنة ٤٠١ فظن بعض الباحثين أنه هو المخاطب، ورتبوا على ذلك أن ابن شهيد ألف رسالته وهو شاب، ولو أنهم رجعوا إلى الحميدى فى الجذوة لوجدوه ينص على أنه شخص آخر، إذ يقول: «يحيى بن حزم أبو بكر شيخ من شيوخ الأدب.. وهو الذى خاطبه أبو عامر بن شهيد

برسالة التوابع والزوابع التى سماها شجرة الفكاهة، وهو من بيت آخر غير بيت الفقيه أبى محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم». وإذا أضفنا إلى ذلك أن ابن شهيد أنشد فى الرسالة قطعة من رثائه لوزير الخليفة المستظهر حسان بن مالك المتوفى – كما جاء فى كتاب الصلة – سنة ٤١٦ تعين أن تكون الرسالة كتبت فى هذه السنة على الأقل أو بعدها فى إحدى السنوات التالية القريبة. وبذلك يسقط كل ما ذهب إليه الباحثون من أن الرسالة أُلِّفت قبل هذا التاريخ.

والتابع فى الرسالة الجِنِّىُّ والزوبعة الشيطان، وابن شهيد يذكر فى صدرها لصديقه أبى بكر بن حزم أنه أُرْتِجَ عليه ذات يوم فى شعر كان ينظمه، فتراءى له تابعه من الجِنِّ على فرس أدْهم، فأجازه، واستحلفه من هو فقال: زهير بن نُمَيْر من قبيلة أشجع فى الجن،وكأن فى الجن قبيلة تقابل قبيلة ابن شهيد: أشجع فى الإنس، وتحادثا حينا، ثم علَّمه أبياتا إذا أراد استحضاره، وأوثب الفرس جدار الحائط وغاب عنه، فكان كلما أُرْتِجَ عليه أنشد الأبيات المذكورة فمثل تَوًّا. ولما تأكدت صحبته له عرض عليه أن يلقى معه توابع الشعراء والكتاب وزوابعهم فاستأذن له شيخه الجنى، وأذن له، فأركبه معه على متن جواده، وسار بهما كالطائر يقطع الجوَّ فالجوَّ والدَّوَّ (الفلاة) فالدَّوَّ حتى لمح ابن شهيد أرضا لا كأرض الإنس متفرِّعة الشجر عطرة الزهر، وقال له تابعه تلك أرض الجن، وطلب منه ابن شهيد أن يلقى صاحب امرئ القيس «وأمال التابع عِنان الجواد إلى واد من الأودية به دَوْحٌ تتكسر أشجاره وتترنَّم أطياره، وصاح تابعه على تابع امرئ القيس قائلا: «ياعُتَيْبة بن نوفل، بسقط اللِّوَى فَحوْمَلِ (وهما موضعان بمعلقة امرئ القيس) يوم دَارة جُلْجُل (أيضا فى المعلقة) إلا ماعرضتَ علينا وجهك، وأنشدتنا من شعرك، وسمعتَ من الإنسىّ وعرَّفتنا كيف إجازتك له؟ فظهر لهما فارسٌ على فرس شقراء كأنها تلتهب، فقال: حياك الله يا زهير وحَيًّا صاحبك أهذا فَتاهم؟ قال زهير هو هذا. وأى جَمْرة (يشيد بابن شهيد) يا عُتَيْبة، فقال لابن شهيد: أنشدْ، فقال: السيد أولى بالإنشاد، فتطامح (ارتفع) طَرْفه، واهتزَّ عِطْفه، وقبض عِنانَ الشَّقْراء (فرسه) وضربها بالسوط، فسمت تَحْضِر (تثب) طُولاً عنا، وكَرَّ فاستقبلنا بالصَّعْدة (القناة) هازًّالها، ثم رَكَزها، وأنشده إحدى قصائد امرئ القيس حتى أكملها، ثم قال لابن شهيد: أنشدْ، فهمَّ إزاء روعة قصيدة امرئ القيس بالحيْصَة (النكول) ثم اشتدتْ قُوَى نفسه وأنشده قصيدة يعارض بها قصيدته، فلما انتهى منها تأمله تابع امرئ القيس مُعْجَبًا به، ثم قال له: اذهبْ فقد أَجَزْتُكَ وغاب عن بصره. وسأله تابعه زهير: من تريد بعده، فطلب

لقاء صاحب طَرفة، فقطع معه وادى عتيبة، وركضا جوادهما حتى انتهيا إلى غَيْضة. ويصف ابن شهيد الغَيْضَةَ وأشجارها ولقاءه فيها بعنتر بن العجلان تابع طَرفة، ويحاوره وينشده عنتر قصيدة لطرفة ويعارضها بقصيدة بديعة، ويصيح عَنْتر معجَبا بقصيدته، ويجيزه، ويَغيب عنه. ويلتقى ابن شهيد مع صاحبه بتابع قيس بن الخطيم شاعر يَثْرب ويتحاوران ويتناشدان الشعر ويجيزه. ويترك توابع شعراء الجاهلية إلى شعراء العصر العباسى. ويلتقى بصاحب أبى تَمَّام، وينشده ابن شهيد أشعارا مختلفة له منها مرثيته للوزير حسان بن مالك. ويلتقى بتابع البحترى، ويتناشدان الشعر ويجيزه.

ويسأل ابن شهيد صاحبه أن يلقاه بصاحب أبى نواس وينقل لنا صورة من منازل خمره وسكره، إذ بوادى الجن منازل مماثلة لمنازل أبى نواس فى دُنْيا الإنس، فهذا دَيْرُ حَنَّة الذى كان كثيرا ما يختلف إليه، ويَشُقُّ سَمْعَ ابن شُهَيد قَرْعُ النواقيس، ويجتاب مع تابعه أديارًا وكنائس وحانات حتى ينتهيا إلى دَير عظيمٍ تعبَق روائحه وتفوح نوافِحُه، ويقف صاحبه زهير ببابه ويصيح سلام على أهل دَيْر حَنَّة، ويسأله ابن شهيد هل صِرْنا بذاتِ الأُكَيْرَاح (ساحة يخرج إليها الرهبان فى أعيادهم وطالما تغنى بها أبو نواس) ويجيبه: نعم، وتقبل نحوهما الرهابين وفى أوساطهم الزَّنانير المشدودة وقد قبضوا على العكاكيز، بيض الحواجب واللِّحَى، وقالوا لصاحبه ما بُغْيَتُكَ؟ فقال حُسَيْنُ الدَّنان تابع أبى نواس، فقالوا إنه فى شرب الخمر، منذ أيام عشرة، ونزلوا بابن شهيد وتابعه إلى بيت اصطفَّتْ دنانُه وحولها غزلانه، وفى فُرْجَته شيخٌ طويل الوجه واللحية افترش أَضْغَاثَ (أخلاطَ) زهر، واتَّكأ على زِقِّ خمر، وبيده طاسُ خمر كبير، فصاح به زهير: حيَّاك الله أبا الإحسان، فأجاب بجواب لا يُعْقَلُ لغلبة الخمر عليه، فقال زهير لابن شهيد: اقْرَعْ أُذُنَ نَشْوته. بإحدى خمريّاتك فإنه ربما تنبَّه لبعض ذلك، فصاح ابن شهيد ينشده إحدى خمرياته، فصاح تابع أبى نواس وسأله أأشجعى كأنه لا يحسن مثل هذه الخمرية إلا ابن شهيد الأشجعى، وأجابه ابن شهيد: أنا ذاك، فاستدعى ماء قَرَاحًا، فشرب منه وغسل وجهه، فأفاق واعتذر إليه مِنْ حاله، وأنشده قصيدة أبى نواس:

يا دَيْر حَنَّةَ مِنْ ذات الأُكَيْرَاحِ ‏ ‏ ‏ مَنْ يَصْحُ عنك فإنى لستُ بالصَّاحِى

وكاد ابن شهيد يخرج من جلده طَرَبًا، وسأله تابع أبى نواس أن ينشده من شعره، وقام حسين يرقصُ ببعض شعر ابن شهيد ويردده، وقال له: هذا والله شىء لم نُلْهَمْه نحن وقبَّل بين عينيه وأجازه. وسأل زهير ابن شهيد مَنْ تريد بعد ذلك؟ فقال له: تابع

أبى الطيب المتنبى، ولقيه فارسا على فرس بيضاء كأنه قضيبٌ على كَثيب، وبيده قناة قد أسندها إلى عنقه وعلى رأسه عمامة حمراء قد أرخى لها عَذَبَةً صفراء، فحيَّاه زهير، فأحسن الردَّ ناظرا من مُقْلة شَوْساءَ مضمومة أجفانها استعلاءً قد مُلئت تِيهًا وعُجْبًا، واستنشد ابنَ شهيد فأنشده بعض أشعاره، ولما انتهى قال لزهير إن امتد به شَوْط العُمر فلا بد أن يَنْفُثَ بدرر، وما أراه إلا سيُخْتَضر (يموت شابا) بين قريحة كالجَمْر وهمَّة تضع أخْمَصه (باطن قدمه) على مفرق البدر، ويجيزه. وكأنما كان تابع المتنبى يقرأ فى صفحة القدر، إذ تنبأ له أن يحطم الموت غصنه اليافع بعد سنوات معدودة، وحطمه.

وسأل ابن شهيد زهيرا بعد لقائه بالمتنبى أن يلقاه بتوابع الكتَّاب - ويسميهم الخطباء - وركضا الجواد طاعِنين فى مطلع الشمس، ومالا إلى توابعهم بمرَجْ دَهْمان وإذا بنادٍ عظيم جَمعهم، والكلُّ منهم ناظر إلى شيخ أَصْلَع جاحظ العين اليمنى على رأسه قلَنْسُوَةٌ بيضاء طويلة، فسأل ابن شهيد زهيرا عنه فقال: عتبة بن أرقم صاحب الجاحظ وكنيته أبو عتيبة، فقال ابن شهيد: بأبى هو ليس رغبتى سواه وغير صاحب عبدالحميد الكاتب فقال له إنه ذلك الشيخ الذى إلى جَنْبه. وعرَّف عتبة بابن شهيد، فقال له: إنك حائك للكلام مجيد، لولا أنك مُغْرى بالسجع، فكلامك نظم لا نثر، فاعتذر له قائلا إنه يعرف فضل الازدواج والمماثلة (خاصَّة أسلوب الجاحظ وعبدالحميد الكاتب) غير أنه عدم ببلده فُرْسان الكلام. ويسوق حَمْلة عنيفة على كُتَّاب زمنه مستخدما أسلوبهما من الازدواج والمماثلة، ويقرأ لهما رسالة طويلة مسجوعة فى الحَلْواء، يصف فيها طائفة منها، من مثل الخبيص والزلابية، ويستحسنانها قائلَيْن إن لسَجْعِهِ موضعا من القلب ومكانا من النفس، مع حلاوة اللفظ وملاحة السياق. ويذكران له أنه بلغهما أن من أبناء جنسه من يطعن على أدبه، وسألاه مَنْ أشدهما فى الطَّعْن والإجْحاف بحقك، فيذكر لهما ثلاثة هم أبو محمد وأبو بكر وأبو القاسم، ولا نعرف شخصية أبى محمد، إذ تكنَّى بهذه الكنية لزمنه غيرُ واحد، وأما أبو بكر فأكبر الظن أنه إما أبو بكر بن حزم، الذى ذكر فى مطلع الرسالة أنه يتهمه بأن شيطانًا يجرى على لسانه مايخرج عن قدرة الإنس، وإما أبو بكر محمد بن قاسم المعروف بإشكمياط الذى مر بنا فى حياته أنه اتهمه بسرقة فقر نثره الحسان من سابقيه، وأما أبوالقاسم فذكر ابن شهيد بعد سطور قليلة أنه أبوالقاسم الإفْليلى، ويهتف صاحبا الجاحظ وعبد الحميد بتابعه أنفِ الناقة بن مَعْمر، وينهض لهما جِنىٌّ أَشْمطَ (دبَّ الشيب فى شعره) رَبْعة وارمُ الأنف (متكبر شامخ بنفسه) يتظالَع (يتعارج) فى مشيته كاسرًا لطرفه، وزاويًا لأنفه.

وكان الإفليلى قد تصدَّر فى قرطبة، يقرئ علم الأدب ويختلف الطلاب إليه، وكان مع علمه باللغة والنحو يتكلم فى معانى الشعر والبلاغة والنقد، واستكتبه المستكفى فى خلافته ثم أعفاه لخلو كلامه من حُسْن البيان والبلاغة. ويتهم تابعُه أنفُ الناقة ابنَ شهيدٍ بنقصِ اطلاعه، ويطلب إليه أن يناظره على كتاب سيبويه وشرح ابن درستويه، فيسخر ابن شهيد منه ويقول الإفليلى بلسان أنف الناقة إنه أبو البيان، فيهزأ به قائلا إنه لا يحسنه. ويطلب إليه أنف الناقة مثالا، فيصف له بُرْغوثا وثَعْلبا وصفا رائعا. ويلتفت إليه تابع بديع الزمان زُبْدة الحقب فيطلب إليه أن يصف جارية ويعجب بوصفه، ويذكر له زبدة الحقب وصف البديع للماء ويقول له إنه من العُقْم أو المعجز، فيعارضه ابن شهيد بوصف رائع للماء، ويمتلىء زبدة الحقب غيظا، فيضرب الأرض برجله، فتنفرج عن هُوَّةٍ يغيب فيها. ويشتدّ غيظُ أنف الناقة تابع الإفليلى، فيطلب إليه أن ينشد بعض أشعاره، وينشد أشعارا بديعة متحدِّيا له، وتَصيح فتيان الجن إعجابا واستحسانا، وتعلو أنف الناقة الكآبة، ويحاول فتى من الجن أن يصلح بينهما، فيأبى ابن شهيد لما يتتبع الإفليلى فى دروسه لزلّة قد تمر به فى شعره أو نثره، فيهتف بها بين تلاميذه ويجعل وقوفه عليها مفخرة من مفاخره. فيقول له الفتى الجنىّ إن الشيوخ قد تزلّ أحلامهم فى النُّدْرة، ويقول ابن شهيد: بل إنها المرة بعد المرة. وما يلبث صاحبا الجاحظ وعبد الحميد الكاتب أن يشهدا له بأنه شاعر وناثر، وينفضّ الجمع، والكل ممتلىء إعجابا به. ويقول ابن بسام إنه امتد بعد ذلك بابن شهيد الكلام فى باب التوابع والزوابع، ومدَّ فيه أطناب (أسباب) الإطناب والإسهاب، ولذلك وقف دون الغاية، وقطع قبل النهاية. وكنا نتمنى أن لا يقطع ابن بسام وأن لا يقف، بل كنا نتمنى أن يورد التوابع والزوابع بحذافيرها، لأنها طرفة رائعة من طرف النثر الأندلسى، وهى طرفة بديعة النسق فى الصياغة والرونق فى العبارة دون سجع ولا ما يشبه السجع إلا ما جاء عفوًا.

وأضاف ابن شهيد فى الرسالة إلى هذا الباب الخاص بلقائه لتوابع الكتاب والشعراء بابا تذاكر فيه مع زهير تابعه ما تعاورتْه الشعراء من المعانى ومَنْ أحسن منهم الأخذ للمعنى ومن قصَّر فيه، ويعرض لبعض المعانى ومن تداولوها، ويتمثل له جنىٌّ يسمى فاتك بن الصَّقْعب ويتحاور معه ويجرى على لسانه بعض أبيات من سينية غزلية له، ويسأله فاتك هل جاذبت أحدا فيجيبه نعم أبا الطيب المتنبى، وينشده من ذلك بعض أشعاره فيصيح فاتك صيحة منكرة من صياح الجن إعجابا واستحسانا. وكان بقربه جنى ضخم هو فرعون بن الجون، أخذ يتحداه بأشعار رائعة للمتنبى، فأنشده ابن شهيد بعض أشعاره

البديعة وبَهَرتْه، فأخذ يسأله عن أشعار لأبيه وأخيه وعمه وجده وجَدِّ أبيه، وابن شهيد يذكر له قائله منهم، حينئذ أقسم أن لايعرض له أبدا، وشهد له بعراقته فى الكلام، وكأنما ألقمه حجرا بشعره وشعر آبائه فتضاءل وغاب عن بصره.

ويُتْبع ابن بسام ذلك بفصل أخير من فصول الرسالة أو قل بمشهد نرى فيه ابن شهيد مع تابعه زهير بأرض الجن يستعرضان أندية أهل الآداب، وإذا هما يشرفان على أتان من حُمر الجن وبعض بغالهم وتعرَّضت لابن شهيد. الأتان تحكِّمه فى شِعْرين لحمار وبَغْل من عشاقهم اختلفت التوابع من الجن فيهما، وتقدمت إليه بَغْلَةٌ شَهْباء عليها جُلُّها (غطاؤها الصائن لها) وبُرْقعها، وأنشدته الشِّعْرَيْنِ ففضَّل شعر البَغْل وقال: كان أنف الناقة أجدر منى بالحكم، وقالت له البغلة: أما تعرفنى؟ فقال لها: لو كانت بك علامة، فأماطتْ لثامها، فإذا هى بغلة أبى عيسى والخالُ على خدِّها، فتباكيا طويلا، وأخذا فى ذكر أيامهما، وسألته: ما فعل الأحبَّة بعدها؟ أهم لايزالون على العهد؟ فقال: شاخ الفتيان، وتنكرت الخلَّان، ومن إخوانك من بلغ الإمارة، وانتهى إلى الوزارة، وحالوا عن العَهْد، ونَسَوْ أيام الوُدّ. وكانت بقربهم إوزّة بيضاء شهلاء فى مثل جثمان النعامة، ويسأل ابن شهيد زهير عنها، فيقول له إنها تابعة شيخ من مشيختكم تسمى العاقلة وتكنى أم خفيف، ويتحاور معها مثنيا عليها، فمرة تَسْبَحُ ومرة تطير، ومرة تنْغمس فى الماء ومرة تَخْرج منه، ثم سكنت وأقامت عنقها وعرَّضت صدرها ورفرفت بمجدْافيها (بجناحيها) واستقبلته مع صاحبه جاثيةً (قائمة على مؤخرتها) كصدر المركب، ثم سألته ماذا يُحْسن؟ فقال لها من الشعر أو النثر، فقالت له إنما أريد النحو والغريب تريد أن تتهمه بأنه لايحسنهما، ويطيل الحوار معها واصفا لها بالحمق وأنها فى حاجة إلى عقل التجربة إذ عدمت العقل الطبيعى، ويسألها أيهما أفضل: الأدب أم العقل؟ وتجيبه العقل، فيقول لها إذا ظفرت منه بحظ فناظرى حينئذ فى الأدب. وكأن الإوزَّة بذلك تأخذ صفة الإفليلى بشهادة تحديها لابن شهيد بإحسان النحو والغريب اللذين كان الإفليلى يشتهر بهما. وبذلك نفهم كلمة ابن بسام عن الرسالة لابن شهيد وتكرار ذكر الإفليلى فيها بأنه هو الذى به ابن شهيد عرَّض، وجعله الغرض، وكأنما أنشأها من أجل الرد على ما وسمه به فى بعض دروسه من زلات وعثرات، مما جعله يعرض فى الباب الأول من الرسالة روائع شعره ونثره على توابع الشعراء والكتاب النابهين مقارَنة إلى قصائد أصحابهم، وإذا هم يبهرون بشعره ونثره دائما ويجيزونه، محاولا بذلك أن يسقط نقد الإفليلى له. ثم أخذ يعرض جانبا من

تداول المعانى بين الشعراء ومن قدرته على نقد الشعر وتذوقه ليبرهن على أنه يبذ الإفليلى فى انتقاد الشعر وتذوقه والوقوف على المعانى التى يشترك فيها الشعراء ويتداولونها، وكان تابع الكاتب والشاعر فى الشطر الأول من الرسالة يتمثل له بشرا سويا، وتشكَّل له فى الشطر الثانى على صورة بعض الحيوانات والطير مستمدا فى ذلك كله من قصص الجن عند العرب.

وقرن كثير من الباحثين[١] هذه الرسالة لابن شهيد إلى رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى، ومنهم من ذهب إلى تأثر أبى العلاء بابن شهيد، ومنهم من ذهب إلى أن ابن شهيد هو الذى تأثر بأبى العلاء، وكلا الرأيين يجانبه الصواب، وحقا الرسالتان رحلتان فيها وراء الواقع، لكنها بعد ذلك تتباينان فى موضوعيها، فرحلة أبى العلاء تدور على عقيدة إسلامية هى عقيدة المعاد وما يتصل به من أهوال الحشر والصراط ونعيم الجنة وعذاب النار ولقاء بعض من غُفر لهم من الشعراء واللغويين فى الفردوس ورؤية إبليس وبشار وأضرابه من الزنادقة فى الجحيم. أما رحلة التوابع والزوابع لابن شهيد – كما مرَّت بنا – فتدور على ما شاع على ألسنة العرب فى عصرهم الجاهلى الوثنى من تصور شياطين للشعراء يلهمونهم أشعارهم. وواضح من موضوع الرحلتين أنهما لا يلتقيان أى التقاء وأن من الخطأ كل الخطأ أن يحاول باحث تبين أثر لإحداهما فى الأخرى. وذكرنا من قديم فى كتابنا «الفن ومذاهبه فى النثر العربى» ثم فى كتابنا «المقامة» أن الذى أوحى إلى ابن شهيد برحلته فى أرض الجن ووديانها إنما هو بديع الزمان وما قرأه فى مقامته الإبليسية عن لقاء عيسى بن هشام لإبليس فى واد من وديان الجن وتحاورهما وإنشاد إبليس له أشعارا جاهلية، ثم عرض عليه أن ينشده من شعره، فأنشده إبليس قصيدة لجرير، وعجب عيسى من انتحاله قصيدة جرير، ولم يلبث إبليس أن قال له: «ما أحد من الشعراء إلا ومعه معين منا، وأنا أمليت على جرير هذه القصيدة، وغاب عنه، وكأنما ابتلعته الأرض. وفى نفس رسالة التوابع والزوابع ما يؤكد الصلة بين ابن شهيد وبديع الزمان فى مقاماته، إذ نرى ابن شهيد يعرض على تابعى الجاحظ وعبد الحميد الكاتب رسالة طويلة فى ألوان من الحلواء أراد بها محاكاة بديع الزمان فى مقامته المضيرية. وما يلبث ابن شهيد أن يذكر أنه لقى تابع بديع الزمان المسمى زبدة الحقب، ويقترح

---

(١) راجع بلاغة العرب فى الأندلس للدكتور أحمد ضيف (طبع القاهرة) ص ٤٨ والأدب الأندلسى للدكتور هيكل ص ٣٨١.

عليه وصف جارية ويصفها، ويعجب زبدة الحقب بوصفه، ويسأله ابن شهيد أن يسمعه وصفه للماء، ويقول له إنه وصف معجز، ويعارضه ابن شهيد بوصف رائع للماء يبهره. وفى ذلك كله ما يقطع بأن المقامة الإبليسية لبديع الزمان هى التى ألهمت ابن شهيد رسالة التوابع والزوابع وأوحت بها إليه. ويتردد فى كتابى الجذوة للحميدى والمغرب لابن سعيد اسم كتاب لابن شهيد سماه حانوت عطار ويبدو من نقولهما عنه أنه ترجم فيه لأدباء الأندلس فى عصره وقبل عصره ترجمات قصيرة ذكر فيها بعض أخبارهم وما استطرفه من أشعارهم مع بعض نظرات نقدية.

رسائل ابن بُرْد[1] الأصغر

ابن بُرْد الأصغر هو أبو حفص أحمد حفيد أبى حفص أحمد بن بُرْد الأكبر الذى ولى ديوان الإنشاء للمنصور بن أبى عامر، وكتب بعده لابنيه المظفر والناصر. ثم كتب لسليمان المستعين الأموى وللأمراء الحموديين، ويترجم له ابن بسام فى الذخيرة، ويشيد ببيانه وبلاغته قائلا إنه «أسمع الصُّمَّ بيانا، واستنزل العُصْمَ إبداعا واستحسانا» ويتلو ذلك بطائفة بديعة من رسائله. وحين رُزق ابنه محمد بولده أحمد توسم فيه النجابة منذ نعومة أظفاره، فعُنى بتربيته وتخريجه فى الأدب نثره وشعره، وفى ذلك يقول الحفيد ابن برد الأصغر، كما روى ابن بسام عن كتاب له سماه «سر الأدب وسبك الذهب»: «وكان جدى أحمد بن برد - رحمه الله - بطول ممارسته لهذه الصناعة قد اقتعد سَنامها، ورفع أعلامها، وأصبح إمامها، وإنى وافقت أول معالجتى لها آخر أيامه خلا أنه قد كان أقبسنى مصابيح من وصاياه فيها، ووطّأ لى مراكب من دلائله إليها، وضرب لى صُوًى (أعلاما) من هداياته نحوها أفاد الله بها نفعا». ويقول ابن بسام إن بنى برد ينتمون إلى بنى شهيد بالولاء، ولعلنا بذلك نفهم ما كان ينعقد من صلة وثيقة بين ابن برد الأصغر وابن شهيد، ويتضح ذلك فى جوانب من أخبار ابن شهيد، وحين توفى بكاه - كما أسلفنا - بكاء حارا. وليس بين أيدينا أخبار عن نشأة ابن برد الأصغر إلا الخبر السالف عن عناية جده به ورعايته له. ونرى ابن بسام يذكر أنه حين اتخذ المستظهر الأموى فى سنة ٤١٤ ابن

---

(١) انظر فى ترجمة ابن برد الأصغر الجذوة للحميدى: ١٠٧ والمطمح: ٢٤ والبغية رقم ٣٥٤ والمغرب ٨٦/١ ومعجم الأدباء ١٠٦/٢ والذخيرة ٤٨٦/١ - ٥٣٥ وأخبارًا متفرقة عنه فى ٣٥٨/١، ٧٧١، ٧٨٧ وراجع رسالته فى تفضيل الورد على سائر الأزهار فى ١٢٧/٢ وراجع ٨١٩/٣.

شهيد وزيرا كتب له ابن برد ولم يوضح ابن بسام هل هو ابن برد الأصغر أو هو جده ابن برد الأكبر، وبالمثل يقول إن أبا القاسم الإفليلى كتب للخليفة المستكفى بعد ابن برد فى نفس السنة ولا يذكر هو الأصغر أو الأكبر، وأكبر الظن أنه الأصغر، وكأنه كتب للمستظهر فى الأشهر التى تولاها ثم كتب فترة للمستكفى بعده ولم يلبث أن أعفاه. وقد ظل ابن برد الأكبر حيا حتى توفى بسرقسطة عن ثمانين عاما سنة ٤١٨ ويبدو أنه رحل إلى تلك البلدة فى الشمال لما سمع من كرم منذر التجيبى أميرها وهبته لقصاده أموالا عظيمة. ويقول ابن برد الأصغر إن صروف الأيام باكرته بعد مصابه فى جده ويبدو أن الدنيا ظلت لا تبتسم له فترة غير قليلة كما يبدو أن أبواب دواوين قرطبة ظلت مغلقة دونه فى عهد جهور حين أصبح حاكمها المتصرف فى شئونها منذ سنة ٤٢٢ ولعل سبب ذلك عمله فى دواوين الخليفتين الأمويين: المستظهر والمستكفى. ومن المؤكد أنه ظل بقرطبة حتى وفاة ابن شهيد سنة ٤٢٦ ويقول المؤرخون أنه رحل منها إلى مجاهد الصقلبى أمير دانية (٤١٢ - ٤٣٤ هـ) وسنراه يوجه إليه أولى رسائله الأدبية الخاصة بالسيف والقلم وربما حنَّ إلى قرطبة ورفاقه فيها وعاد إليها، وقد يدل على ذلك أن نجد ابن زيدون حين سجنه جهور سنة ٤٣٢ يوجه إليه قصيدة كى يشفع له عند جهور أو عند ابنه أبى الوليد. وربما كان بقرطبة حين خلف أبو الوليد أباه سنة ٤٣٥ ومرَّت بنا رسالته البديعة إليه بتفصيل الورد على سائر الأزهار، ولعله كان يرمز إليه بالورد وأنه يفضل جميع أمراء الطوائف. وكان المظنون أن يظل بقرطبة، غير أننا نراه يؤثر المقام بالمريَّة عند أميرها معن بن صُمادح (٤٣٢ - ٤٤٣ هـ) الذى عرف له فضله، فاتخذه وزيرا له، وإليه قدم ابن برد كتابه: «سر الأدب وسبك الذهب» وافتتح ابن بسام ترجمة ابن برد بصدر هذا الكتاب وقد نوه فيه برعاية جده له وتخريجه كما مرَّ بنا، وأثنى ثناء غامرا على معن بن صمادح ورعايته للعلوم وفنون الآداب، وما أسبغ عليه من شرف المرتبة الرفيعة. وضمَّن الكتاب رسائلة السلطانية والإخوانية وطرَّز أبوابه بأبيات من الأشعار المحتوية على الحكم الجارية مجرى الأمثال. ومن المؤكد أنه قضى الشطر الأخير من حياته فى ظل هذا الأمير، ويقول الحميدى فى الجذوة إنه رآه فى المرية مرارا بعد الأربعين وأربعمائة، ولا ندرى هل لحق عصر المعتصم بن معن بن صمادح (٤٤٣ - ٤٨٤ هـ) أو أن القدر لم يمهله حتى عصره، أو حتى إذا كان أمهله فإنما أمهله إلى فترة قصيرة، ويشيد به ابن بسام قائلا:

«كان أبو حفص بن برد الأصغر فى وقته فلك البلاغة الدائر، ومثلها السائر، نفَث

فيها بسحره، وأقام من أَوَدِها (اعوجاجها) بناصع نظمه، وبارع نثره». وأتبع ذلك بفصول من تحميداته ورسائله الديوانية والشخصية وطائفة من أشعاره فى النسيب وغيره، وألحق أديب بترجمته فى الذخيرة من قديم ثلاثا من رسائله الأدبية فى: السيف والقلم، والنخلة، وأُهُب الشاء، وقدم لها بقوله إنها من بدائعه العُقْم (التى لا مثيل لها) المستنزلة للعُصْم (النوادر) ويقول إن ابن بسام لم يتجاف عنها غضا منها، ولكن ربما أعجله القدر أو لم يسمح له بها الزمن، وحرىّ أن نلمّ بها فى إجمال.

(أ) رسالة السيف والقلم

كتب ابن برد بهذه الرسالة إلى الموفق أبى الجيش مجاهد أمير دانية مناظرا بين السيف والقلم متقدما مناظرتها بالثناء عليهما معًا فهما مثل جوادين سبقا فى حلبة أو غصنين نُسِّقا فى تُرْبة، بل هما مثل نَجْمين أنارا فى أفق، وسَهْمين صارا على نَسق، غير أنهما جرَّرا أذيال الخيلاء تفاخرا، وادعى كل واحد منهما أن له الفوز على صاحبه وامتد بينهما الجدال والخصام، فقاما يتباريان فى المقال، ويتساجلان فى الخصال. وبدأ القلم فقال:

﴿نٓ. والقَلمِ وما يَسْطرون﴾ فجلَّ من مُقْسم وعزَّ مَنْ قَسَم، لقد أخذتُ الفضلَ برُمَّته، وقُدْتُ الفخر بأزمَّته. فقال السيف: عُدْنا من ذكر الطبيعة إلى ذكر الشريعة، ومن وصف الخصلة إلى وصف الملة، لا أُسِرّ ولكن أُعلِنُ، قيمةُ كل امرىءٍ ما يُحْسِنُ، إنّ عاتقا حَمَل نِجادى (حمائل سيفى) لسعيد، وإن عَضُدًا بات وسادى لسديد، أفصح والبطل قد خَرِسَ، وأبتسم والأجلِ قد عَبَسَ. فقال القلم: الحق أَبْلَجُ (مضىء) والباطل لَجْلَج (أعرج) أَجْلِبُ الغِنَى من ضروعه، وأَجْتَنِى النَّدى (الجود) من فروعه، وهل أنا إلا قُطْب تدور عليه الدول، وجوادٌ شَأْوُهُ (شَوْطه) يدرك الأمل، شفيع كل ملك إلى مطالبه، ووسيلته إلى مكاسبه فقال السيف: يالله! استنّت الفِصال (أولاد النوق) حتى القَرْعَى[1]، وربَّ صَلَفٍ تحت الرَّاعِدة.[2] لقد تحاول امتدادا بباعٍ قصيرة، وانتفاضا بجَناح كسيرة، أمُسْتعرب (دخيل فى العرب) والفِلْسُ ثمنك، وكلّ بقعة وطنك؟ إن الملوك لتبادر إلى دَرْكِى، ولتتحاسد فى ملكى، ولتتوارثنى على النسب، والتغالى فىَّ على الحسب، فَتُكَلِّلُنى (فتتوجنى) المرجان، وتُنْعِلنى العِقيان[3]، وتلحفنى بحمائل

---

(١) مثل يضرب لمن يفعل ما ليس له بأهل والاستنان هنا: العدو. وهو يشير إلى أن الفصال إذا عَدَتْ حاكتها أخواتها المصابة بالقرع.

(٢) مثل يضرب للبخيل. والراعدة: السحابة. والصلف: قلة المطر أى أنها مَنُوعٌ مع كثرة ما تحمل من المطر.

(٣) العقيان: الذهب. تنعله هنا: تكسو غمده.

كخمائل. فقال القلم: أستعيذ بالله من خطل أرعيتَ فيه سَوامَك (إبلك) وزَللٍ افتتحت به كلامك، إن ازدراءك بتمكن وجداني، وبَخْس أثماني، لنقصٌ فى طباعك، وقِصَرٌ فى باعك، ألا وإن الذهب معدنه فى العَفر (التراب) وهو أنفس الجواهر، والنار مكمنها فى الحجر، وهى إحدى العناصر، وإن الماء - وهو الحياة - أكثر المعايش وجِدْانا، وأقلّها أثمانا، وقلما تُلْقَى الأعلاق النفيسة إلا فى الأمكنة الخسيسة. فقال السيف: جَعْجَعَة رَحًى لا يتبعها طِحْن (دقيق) وجَلْجَلة رَعْد لا يليها مُزْنٌ، وجه لئيم، وجسم سقيم، ودموع سِجام، كأنهن سُخام (فحم) فهُبَّ من نومك، وأفْطِرْ من صومك، إنى لو انتضيت (سُللت) والشمسُ كاسفة لم ينظر وقت تجلّيها[١]، أو السِّنون مجدبة أيْقَنِ بالحَيَا (بالغيث) راعيها. أكْرَعُ (أشرب) يوم الوَغَى فى لَبَّة البطل (أعلى صدره) فأعود كالخدِّ كُسِيَ صِبْغَ الخجل».

ولما كثر تعارضهما، وطال تناظرهما، ولم يَنْثِن أحدهما كهاما (كليلا) بادرا إلى السلم يعقدان لواءه، قائلَيْن إن من القبيح أن تتشتت أهواؤنا وتتفرَّق آراؤنا وقد جمعنا الله فى المألف الكريم، وقال القلم إن مما نُبرم به عَقْدنا، وننظم عِقْدنا إن حالت حال، وكان للدَّهْر انتقال، أن نَخُطَّ كتابا مُصيبا، يكون لنا مَنابا وعلينا رَقيبا، فقد يدبُّ الدهر بعَقاربه، بين المرء وأقاربه، واختار القلم أن يكون العَقْد شعرا، لأنه شَدْوُ الحادى، وزادُ الرائح والغادى. وسجله فى قطعة شعرية بديعة. وواضح ما امتاز به ابن برد الأصغر فى تلك المناظرة بين السيف والقلم من قدرة على صوغ الأدلة والبراهين فى لسانى الخصمين المتناظرين، إذ ما زال يؤلف لكل منهما حججا يُدْلى بها مع نقضه لحجج منافسه. وطبيعى أن لا ننقل تلك المناظرة بحذافيرها، فقد اجتزأناها مكتفين بما نقلناه منها للدلالة على قدرة ابن برد فى توليد الأفكار والبراهين وفى صوغ الكلام وحوكه حياكة تموج بالعذوبة، إذ كان يعرف كيف يصطفى ألفاظه وكيف يلائم بينها ملاءمات موسيقية بديعة.

(ب) رسالة النخلة

هي رسالة عتاب لصديق سبق أن عاتبه فى العام الفارط على كتمانه لرُطَب نخلة، وهى تُعد بالأندلس إحدى الغرائب وفريدة العجائب، ويقول إنه سأله من جَناها قليلا، فقال له لو علمت أن لكم به هذا الكلف لأمسكته عليكم، ولكنه فى العام المقبل إن شاء

---

(١) يشير إلى كثرة الغبار فى الحرب حين تسلّ السيوف وتكر الخيل.

الله يكون غلَّتكم وعتادا نفيسا لكم وذُخْرا حبيسا عليكم، ويمضى ابن بُرْد قائلا له:

«رسمنا تلك العِدَة فى سويداوات قلوبنا، ووكلنا بها حَفَظة خواطرنا، أما أنت فهِلْتَ عليها التراب، وأسلمتَها إلى يد البِلَى، حتى إذا أخذت النخلة زُخْرُفَها وازَّيَّنَتْ زينتها، وبلغت غايتها، وأشبع القمر صِبْغَها، وأحكمتِ الشمس نُضْجَها، جنيتها على حين نامَ السُّمَّار، وغفلت الجارةُ والجار، وُأبْتَ بها إيابة الأسد بفريسته.. ولما رأينا طلائع الرُّطب فى الأسواق، والجنِىَّ من بواكير النخيل على الأطباق، هزَّتْ جوانحنا ذكرى العِدَة، وقلقل أحشاءَنا حذرُ الخيبة، فركضنا الدوابَّ إلى حُرْمتك[1]، وجعلنا نسرع طمعا فى لقائك»

ويذكر ابن بُرْد لصاحبه أنهم حين وصلوا إلى مَحِلَّته لقيهم فتى ظريف، فسألهم عن مقصدهم، فقالوا له: إن جارك وصديقنا وعدنا منذ عام أن يسهم لنا فى جَنَى نخلة لديه، لم تتشقق تربة هَجَر المشهورة على الخليج العربى بتمرها عن مثلها، ولا آوت قمارىُّ (حَمام) البصرة إلى نظيرها، فجاءوها ليأكلوا منها ويعلموا أن قد صَدقهم ويكونوا عليها من الشاهدين. ويقول ابن بُرْد:

«قال الفتى بالإخوانى فى الخيبة أنا ساكنٌ فى المحلة التى مَنْبِتُ هذه النخلة فى ساحتها وقد صَرَمَها (قطعها) منذ خمسة عشر يوما، وقد كنت قبل صَرْمها أمنحها نظر العاشق إلى المعشوق، فإذا رأتِ الطيرُ وهى على سَعَفها ما أواصلُ إليها من لحظاتى، وأتابع عليها من زَفَراتى، رمتْنى بأفراد من رُطبها أَحْلَى من شفاه العَذارى، وأنا اليوم أبكى رَبْعًا خاليا».

ويتجه ابن برد بالحديث إلى صاحبه قائلا: ما هذه الخيانةُ للعهد، ويسأله شيئا مما ادخره منها لأعياده واعدًا له أن يناصبوا عنه أعداءه برا وبحرا وأن لا يعصوا له أمرا. ويصف له شيئا من كلام العرب فى النخل وبدء نَباته والبلح وتلوُّن حالاته وبعض منظومهم فيه لعله يذيب من جموده ويولِّد عَقيم جوده، ويورد عليه ما أُثر من قول الرسول ﷺ: «نعمت العمة لكم النَّخْلة» ويقول: «ليس من حقِّه أن يستبدَّ بخيرها ويمسك معروفها عنهم، ويختم الرسالة بقوله: «نستغفر الله ونسأله أن يبدلنا من بُخْلك نوالا، وبمطلك إعجالا». وهى رسالة طريفة بما فيها من فكاهة ومن قدرة على التصوير ومن سلاسة فى التعبير.

---

(١) الحرمة: ما لا يحل انتهاكه من صحبة أو حق.

(جـ) رسالة أُهُب الشَّاء

سمَّى ابن برد هذه الرسالة: «البديعة فى تفضيل أهب (جلود) الشَّاء على ما يُفْتَرَشُ من الوِطاء» وهو فيها يردُّ على من لامه على استخدام أُهُب (جلود) الشاء فى الجلوس شتاء وصيفا دون وَطِيءِ الفُرُشِ ورافهها من قِطَعِ البُسُط والسجاجيد والحَشايا. وهو فى فاتحتها يدعو الله أن يلهمه الرشاد ويمنحه الصواب ويعرِّفه بركة التواضع وينفره من الكبر، ويطيل فى المقدمة، ثم يقول للائمه:

«عِبْتنى - أعزَّك الله - بارتخاص الأشياء فى الشِّراء، وقلت لَمْ تؤثر ذلك إلا للؤم الخليقة، والهمة الدقيقة، وربما مالت نفسُ الحريص إلى الرَّخيص.. وسأفسح للكلام ميدانا، وأنثر عليك من الألفاظ مُرْجانا، وأعاطيك من سُلاف (خمر) المعانى أكْوَابًا، وأشِمّك من روض البيان آسًا.. جَلَّ ماله عبتَ وفيه قلت وردَّدت، وبه أبدأت وأعدتَ، من إيثارى فى الصيف والشتاء أُهُبَ (جلود) الشاء، ومُراوحتى منها فى البرد والحر، بين البَطْن والظهر. وأىُّ بساط مثلها أدلّ على التواضع وأعربُ عن القناعة وأدفأ فى السَّبْرَة (الغداة الباردة) وألين فى المَسِّ وأخفّ فى الحَمْل وأمكن للنَّقْلة وأوفق لمقدار الحاجة وأجدر بطول المتعة وأبقى على حدث الدهر، وأغنى عن تكلُّف التَّبْطين ومراعاة أوقات الترقيع. ولا تحوجك إلى خَيَّاط ينازلك فى السَّوْم (الثمن) ويُخْجلك أمامَ القوم، ويُنْتِحُ جَبينك (يجعله يرشح) بعرق الاختلاف إليه، وذلِّ التكرار عليه، وهو متبجِّحٌ (متمكن) فى دكانه، ومشتغل عن سوء مقامك باستطابة محادثة صبيانه، فتُشمت العدوَّ بنفسك، وتبدى ما كان مستورًا من حالك،وهذه (الأهب) بأنفسها مكتفية، وعن سواها مستغنية، مع صيانة المروءة ووقاية ماء الوَجْنَةِ، إن قَلَبْتَها لظهورها شتوت على وِثارة[1]، أو صرفتها لبطونها صِفْتَ فى لُدونة».

ويذكر ابن برد أن من يطلبها يشتريها فى الأضحية تقرُّبًا إلى ربه وطلبا لكريم ثوابه، ويقول إن رخص ثمنها فضيلة لها مع قلة المئونة والكلفة، ويذكر أن من فضلها أن جعل الله من جنسها كبشا فداء إسماعيل ابن خليله إبراهيم، وسماه فى تنزيله ذِبْحًا عظيما. ويقول لصاحبه إن الصوف زى النسَّاك والمنقطعين للعبادة، وقد استخدمها المعلمون لأنها الأرفق والأرْخص والأوْفَق. ويختم هذه الرسالة الطويلة بالنصح لعائبه أن لا يستقبل

---

(١) يشير إلى فروة هذه الجلود من الصوف. والوثارة: الفراش الوثير: الوطىء الناعم.

بالذم من يفترشها مغتبطا بها، إذ لا يفترشها إلا الشيوخ الجِلّة من العلماء ذوى المهابة والوقار، يقول:

«لا تجد مفترشًا لها إلا شيخًا رائعَ الوَسَامة، أبيضَ الشَّعْرة، أُنْسَ إخوانه، وحِلْسَ (ملازم) أسطوانه[١]، قد حفظ المسائل وملأ من إجازات الشيوخ الخزائن، تقصده الفتيات والفتيان، وتفدِّيه الجارات والجيران، ويُتنافَس فى حضوره أيَّامَ الزِّفاف، ويختصّ بصدور المجالس وطيِّبات الصحاف، أو معلما.. قد ائتمنتْه الملوك على ثمار قلوبها وعماد ظهورها وقِطَعِ أكْبادها، يقعد عنده الورَّاقون، ويتحاكم إليه فى الخطوط الناسخون، فإذا كانت أيام الأخمسة والجمعات أطال قَلَنْساته[٢]، ووالى الزيارة بِمنْساته[٣]، وسار مُهَيْنما[٤] بتسبيحه وتقديسه وتهليله وتحميده، يزور الإخوان والمعارف، والكل هَشٌّ إليه، مقبل عليه. فإن عارضت هذا الجنس ضاقت عليك الأرض، وأخوك من صدقك، ومحبك من نصحك».

والرسالة تصوِّر قدرة ابن برد على صنع الأدلة والبراهين بحيث يأخذ على عائبه فى استخدام جلود الشياه كل المسالك، فهى تدل على فضيلتى التواضع والقناعة بالقياس إلى البسط والسجاجيد الفاخرة والحشايا الثمينة المزدانة. ومما يميزها دفء فروتها فى الشتاء القارس، وليونتها فى المسّ وخفتها فى الحمل والانتقال من موضع إلى موضع. ثم هى لا تحتاج مثل الحشايا والبسط إلى تبطين كما لا تحتاج إلى ترقيع. ثم يعرض ابن برد صورة الخياط، وهو يساوم صاحب الحشية أوالسجادة فى أجرة الترقيع والتبطين مخجلا له أمام الناس، ويتفقان على الأجر. وما يزال الخياط يرجىء إنجازه لما يراد منه من تبطين أوترقيع، ويظل صاحب الحشية أوالسجادة يتردد عليه، وجبينه يرشح عرقا من ذل التكرار عليه، والخياط - مع إلحاحه عليه - منصرف عنه مع سوء وقفته أمامه، مشغول بمحادثة صبيانه أو عماله وكأنما يجد فى ذلك متعة له. وهى صورة بديعة تدل على روعة خيال ابن برد مع جمال الصياغة، وهو جمال يطرد فى نثره لما يعمه من نقاء فى اللفظ وصفاء وعذوبة.

---

(١) يريد أنه عالم يلازم عمودا فى المسجد يلقى محاضرته عنده ويتحلق حوله الطلاب لشهرته.

(٢) قلنسات: جمع قلنسوة.

(٣) المنسأة: عصا غليظة تكون مع الراعى يهش بها على غنمه.

(٤) مهينما: هامسا.

رسالتا ابن زيدون: الهزلية والجدية

ابن زيدون هو أحمد بن عبد الله بن زيدون المخزومى، القرطبى، وقد مرت ترجمته بين شعراء الغزل فى الفصل الرابع، وقلنا هناك إن حادثين كبيرين أثرا فى حياته، أولهما تبادله فى شبابه الحب مع الشاعرة ولادة بنت الخليفة المستكفى واتصال هذا الحب بينهما فترة ثم هجرها له إلى الأبد بسبب ما لاحظته من مغازلته إحدى جواريها، وقيل بل بسبب نقده لبعض شعرها، وقد يكون للسببين جميعا. وظل ابن زيدون يبكى حبها ووصلها طويلا، وكَلِفَتْ بعده بشخص كان يختلف مع غيره من شباب قرطبة إلى مُنْتداها هو ابن عبدوس، وهو موضوع رسالة ابن زيدون الهزلية. والحادث الكبير الثانى الذى كان له تأثير فى حياته، هو سخط أبى الحزم جهور أمير قرطبة عليه والزجّ به فى غياهب السجون مما جعله يستعطفه مرارا إلى أن عفا عنه وردَّ إليه حريته بشفاعة ابنه أبى الوليد، وفى استعطافه كتب رسالته الجدية، وحرىٌّ بنا أن نتحدث عن الرسالتين جميعا: الهزلية والجدية.

(أ) الرسالة[١] الهزلية

كتب ابن زيدون هذه الرسالة على لسان ولَّادة إلى ابن عَبْدوس منافسه فى حبها متهكما به ساخرا منه سخريات لاذعة، وما يمضى القارئ فيها حتى يشعر بوضوح أنه استوحى فيها رسالة التربيع والتدوير للجاحظ التى سخر فيها من كاتب معاصر له يسمى أحمد بن عبد الوهاب كان يكثر من ذمه وثلبه، فوصفه بأنه مربع مدوَّر، وظل فى نحو خمسين صفحة من القطع الكبير يخلع عليه صورا ساخرة من الجمال وصورًا أخرى ساخرة من المعرفة، تتخذ شكل أسئلة فى تاريخ العرب والأمم القديمة وفى العلوم كيمياء وغير كيمياء وفى الحيوان والجماد وفى الفلسفة والمنطق مع سؤاله عن أسماء كثيرين من الرجال عربا وغير عرب فى ميادين الثقافات المختلفة. وكأن ابن زيدون رأى أن يجاريه فى رسالته، إذ مضى على شاكلته يكثر من أسماء الرجال وما يتصل بهم من التاريخ والأخبار والأحداث، مع محاولته الواضحة فى أن يكون لرسالته سماتها الخاصة لا فى طريقة عرضه لأسماء الرجال بها فحسب، بل أيضا بما أكثر فيها من ضرب الأمثال ونثر

---

(١) انظر هذه الرسالة وتعليقنا عليها فى كتابنا عن ابن زيدون (طبع دار المعارف) وراجع شرح ابن نباتة لها فى كتاب: سرح العيون شرح رسالة ابن زيدون. ومرت مصادر ابن زيدون فى ترجمته بالفصل الماضى.

الأبيات وجلب الأشطار، مما جعل الرسالة فى حاجة شديدة إلى التعريف بما عدد فيها ابن زيدون من الأعلام وأخبارهم ومن الأمثال والأشعار المنثورة، وتجرد لذلك ابن نباتة فى شرحه لها، وهو يستهلها على هذه الشاكلة:

«أما بعد أيها المصابُ بعقله، المورَّط بجهله، البَيِّن سَقَطُه، الفاحش غَلَطُه، العاثرُ فى ذَيْل اغتراره، الأعْمَى عن شمس نهاره، الساقط سُقُوطَ الذُّباب على الشراب، المتهافتُ تهافتَ الفَراش فى الشِّهاب (الضوء).. وإنك راسلتنى مستهديا من صلتى ما صَفِرَت (خلت) منه أيدى أمثالك، مرسلا خليلتك مرتادة وقد أعذرتْ (جهدت) فى السفارة لك، وما قصَّرتْ فى النيابة عنك، زاعمةً أن المروءة لفظٌ أنت معناه، والإنسانية اسمٌ أنت جِسْمُه وهَيُولاه (مادته) قاطعةً أنك انفردتَ بالجمال، واستأثرتَ بالكمال، واستعليتَ فى مراتب الجلال، واستوليتَ على محاسن الخلال، حتى خيَّلتْ أن يوسفَ عليه السلام حاسَنَك (باراك فى الحسن) فغَضَضْتَ منه، وأن امرأةَ العزيز رأتْك فسلتْ عنه، وأن قارونَ أصاب بعضَ ما كَنَزْتَ، وكسرى حَمل غاشِيَتَك (مظلَّتك) وقيصَرَ رعى ماشيتك، والإسكندرَ قَتَل دارا فى طاعتك».

ويظل ابن زيدون يورد على ابن عبدوس رجالا وأعلاما تاريخيين عديدين، مدعيا أن جميعهم تصرَّفوا عن إرادته محاولين الزلفى إليه من مثل أردشير ملك الفرس القديم وجَذيمة الملك العربى الجاهلى. ويقول له إن شيرين زوجة أبرويز نافست ابنته بوران فيه وفى حسنه، وكليبا إنما حمى حِماه بعزته، ومهلهلا أخاه إنما طلب ثأره بهمته، وحاتما إنما جاد بأمواله والسُّلَيْك بن السُّلَكة العدَّاء الجاهلى إنما عدا على قدميه، وسحبان البليغ إنما كان يتكلم ببيانه، وأن الحجاج إنما تقلد ولاية العراق بحظِّه، والمهلب القائد الأموى إنما ظفر بالخوارج الأزارقة بقوته. وليس هناك فيلسوف لليونان أو عالم لهم - ويعددهم - إلا صدر عن فكره، وبالمثل ليس للعرب مفكر ولا فيلسوف مشهور إلا منحه القدرة على ابتداعه، وما بلغاؤهم بالقياس إليه؟ إن عبد الحميد الكاتب بارى أقلامه وسهل بن هرون مدون كلامه والجاحظ مستمليه، وبالمثل الفقهاء الكبار من أمثال الإمام مالك. بل هو الذى أقام البراهين ووضع القوانين وحَدَّ ماهية الأشياء وبيَّن الكيفية والكمية وناظر فى الجوهر والعرض وفرَّق بين الصحة والمرض. حتى إذا بلغ ابن زيدون من ابن عبدوس كل ما أراد من سخرية أخذ يكويه بسياط هجائه معددا صفاته الذميمة، وكأنما جمع كل مثلبة. وتتوالى المثالب، فهو خسيس أرعن مفرط الحمق سيِّئ الإجابة والسمع، ظاهر الوسواس، منتن الأنفاس، كلامه تمتمة وبيانه فهفهة، ودينه زندقة، وباقل المشهور بالعى

عند العرب بليغ بالقياس إليه، ووجوده عدم، والاغتباط به ندم، والخيبة منه ظفر والجنة معه سَقر، وأين هو من ولّادة؟ إن الشرق والغرب لا يجتمعان ولا يتقاربان. ويجعلها تهدده وتتوعده بسوء المصير حتى كأنما يطلب حَتْفه، ويقول له على لسانها مقارناً فى سخرية شديدة بينه وبين من يختلفون إلى ندوتها من نوابغ الشباب الأفذاذ.

«النارُ، ولا العارُ، والمنيَّةُ، ولا الدَّنيةَّ، والحُرَّة تَجُوعُ ولا تأكل بِثَدْييها، وما كنت لأتخطَّى المسك إلى الرَّماد، فإنما يَتَيَمَّمُ من لم يجد ماءً.. ولعلك إنما غَرَّك مَنْ علمتَ صَبْوَتِي إليه وشهدتَ مُساعفتى له من أقمار العصر، ورَيْحان المصر، الذين هم الكواكب عُلُوَّهِمَم، والرِّياضَ طيبَ شِيَم.. ما أنت وهُمْ؟ وأين تقع منهم؟ وهل أنت إلا واو عمرو فيهم، وكالَو شِيظَةِ (النتوء) فى العَظْم منهم. وإن كنت إنما عطَّرت أرْدَانَكَ (أكْمامَك) وجَرَرْتَ سِرْوالَك، واخْتَلْتَ فى مِشْيَتِك، وحذفتَ فضول لِحْيَتِك، وأصلحت شارتك، ومططت حَاجبك، ورقَّقت خَطَّ عِذارك، واستأنفتَ عَقْد إزارك، رجاءَ الاكتنان فيهم، وطمعا فى الاعتداد منهم، فظننت عَجْزًا، وأخطأتَ الغرض».

وتمضى ولادة قائلة لابن عبدوس فى سخرية مرة: فلو أن عمرو بن هند ملك الحيرة أعطاه بُرْدَيْه وحَلَّتْه مارية بنت ظالم زوجة أحد ملوك الغساسنة بالقُرْطَيْن اللذين أهدتها إلى الكعبة، وقلّده عمرو بن معد يكرب الفارس القديم سيفه الصمصامة، وحمله الحارث بن عباد سيد وائل فى الجاهلية على فرسه النعامة، ما شكّت فيه ولا أخفى ذلك كله أصله ونسبه، وهل يجتمع لها فيه إلا خَلَّتان سيئتان: كأردأ التمر وسوءِ كَيْله وهل يقترن عليها به إلاما اقترن على عامر بن الطفيل الذى دعا عليه الرسول ﷺ فاقترنت غُدَّه فى رقبته بموته ميتة ذليلة فى بيت سَلُوليَّة. وتقول له هازئة به ساخرة إنه كان أجدر به أن يقدر الأمر تقديرا دقيقا فلا يكلف نفسه ما لا تستطيعه، حتى لا يكون مثله مثل الكلبة بَرَاقِش التى غزا أصحابها قوم فلم يعرفوا مكانهم ونبحت فدلّتهم، وضَرَب العرب بها المثل فى الشُؤْم، فقالوا «دَلَّتْ على أهلها بَرَاقِش». ويختم ابن زيدون الرسالة قائلا على لسانها: «قد أعذرتُ إن أَغْنَيْتُ شَيًّا، وأَسْمَعْتُ لو ناديتُ حَيًّا، وإن بادرتَ بالندامة، ورجعت على نفسك بالملاَمَة كنتَ قد اشتريت العافيةَ لك بالعافية منك، وإن أنشدت:

لا يُؤْيسنَّك من مخدَّرةٍ قَوْلٌ تغلّظه وإن جَرَحا[1]

فعُدْتَ لما نُهيت عنه، وراجعتَ ما استعفيتَ منه بعثتُ من يزعجك إلى الخضراء

---

(١) البيت لبشار.

(الريف) دفعا ويستحثك نحوها وَكْزًا (ضرب) وصَفْعًا، فإذا صرتَ إليها عبث أكَّاروها (فلاَّحوها) بك، وتسلَّط نواطيرها (متعهدو بساتينها) عليك بما قدَّمتْ يداك، لتذوق وبال أمرك، وترى ميزان قدرك».

وبدون ريب بلغ ابن زيدون فى هذه الرسالة الذروة بالسخرية من ابن عبدوس، وقد أصبح فى يده كلُعْبة تارة يعلو به فيرفعه إلى السموات العليا فى القوة والسلطان والعلوم والفلسفة والبيان والبلاغة وتارة يسقط به فيهوى من حالق إلى الحضيض والدرك الأسفل. وهو فى كل ذلك يزدرى عقله وعلمه وأدبه وفكره وهيئته وكل ما يتصل به. ويسوق ابن زيدون للإغراق فى السخرية به أعلام التاريخ القديم والإسلامى وأعلام الفلسفة والعلوم والبيان العربى، وكأنه هو الذى نفث فيهم كل ما امتازوا به. واستكثر فى الرسالة من الأمثال ومن نثر الأشعار، وهو لا يطرف فيها بذلك فقط، بل يطرف أيضا بالألفاظ الجارحة الموجعة الملأى بسموم التهكم.

(ب) الرسالة[1] الجدية

كتب ابن زيدون هذه الرسالة يستعطف بها أبا الحزم جهورًا أمير قرطبة حين ألقى به فى غياهب السجن ووراء قضبانه، لما قيل من نهبه عقارًا لبعض مواليه، وقيل - وهو الأصح - بل لما دُسَّ عليه عند جهور من اشتراكه ضده فى مؤامرة فاشلة، وظل يدبج فيه القصائد ويرسل إليه الشفعاء، وهو لا يعفو عنه ولا يصفح، فدبَّج له هذه الرسالة الرائعة مستهلا لها بقوله:

«يا مولاىَ وسيدى الذى ودادى له، واعتمادى عليه، واعتدادى به، وامتدادى منه، أبقاك الله ماضىَ حَدِّ العَزْم، ثابتَ عَهْدِ النعمة، إن سلبتنَى - أعزَّك الله - لباسَ إنعامك، وعطَّلتنى من حَلْى إيناسِك، وأظمأْتنى إلى برود (بارد) إسعافِك، ونَفَضْتَ بى كفَّ حياطتك (رعايتك) وغضضت عنى طَرْف حمايتك، بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلى لك، وسمع الأصمُّ ثنائى عليك، وأَحَسَّ الجمادُ باستنادى إليك، فلا غَرْوَ قد يَغَصُّ بالماء شاربُه، ويَقْتل الدواءُ المستشفىَ به، ويُؤْتَى الحذِرُ من مَأْمنه.. وإنى لأتجلَّد وأرى الشَّامتين أنى لرَيْبِ الدَّهر لا أَتَضَعْضَعُ، فأقول: هل أنا إلا يَدٌ أَدْماها سِوارُها، وجَبِينٌ عضَّه إكْليلُه، ومشرفىٌّ ألصقه بالأرض صَاقِلُه، وسَمْهرِىٌّ[2] عرضه على النار مُثَقِّفه..

---

(١) انظر فى هذه الرسالة وتعليقنا عليها كتابنا عن ابن زيدون، وراجع شرح الصفدى لها فى كتابه: «تمام المتون شرح رسالة ابن زيدون».

(٢) المشرفىّ: السيف. السمهرىّ: الرمح.

وهذه النكبةُ سحابةُ صَيْفٍ عن قليل تقشَّع، ولن يَريبَني – من سيدى – أنْ أَبْطأَ سَيْبُه (عطاؤه).. فأبطأُ الدِّلاء فَيْضًا أملؤها، وأثْقَلُ السحائب مَشْيًا أَحْفَلُها (أملؤها) وأَنْفَعُ الحَيَا (الغيث) ما صادف جَدْبًا، وألَذُّ الشرابِ ما أصاب غِليلاً».

وابن زيدون – فى مطلع رسالته – يسترحم جهورا مستعطفا، فطالما أثنى عليه وطالما ظن أنه سيسبغ عليه نعمه، فإذا هو ينزل به عقابا أليما. ويتجلَّد للنكبة، ويحاول أن يسرِّى عن نفسه، ويخال كأنه يد أدماها سوارها أو جبين عضَّه تاجه أو سيف ركزه صاقله فى الأرض أو رمح سوَّاه على النار صانعه. ويمنى نفسه بأن نكبته سحابة صيف ستنجلى ويعود إلى سماء الود الصَّحْوُ والصفاء، وإذا كان عطاء جهور على ثنائه ومديحه أبطأ فإن أبطأ الدلاء فيضًا أغزرها وأثقل السحاب مسيرةً فى السماء أملؤها، وأنفع الغيث ما صادف أرضا مجدبة، وألذ الشراب ما صادف نفسا ظامئة، ويستمر فيهوِّن من ذنبه مخاطبا جهورا بقوله:

«ليت شِعْرى ما هذا الذنبُ الذى لم يَسَعْهُ عَفْوُكَ، والجهلِ الذى لم يأت من ورائه حِلْمُك.. وما أرانى إلا أُمِرْتُ بالسجود لآدمَ فأبيتُ واستكبرتُ، وقال لى نوحٌ: اركبْ معنا فقلت: (سآوِى إلى جبلٍ يَعْصِمُنى من الماء)، وأُمِرْتُ ببناء الصَّرحِ (لعلِّى أطَّلع إلى إله موسى) وعكفتُ على العجل، واعتديت فى السَّبْت، وتعاطيتُ فعَقَرْت، وشربتُ من ماء النهر الذى ابْتُلِىَ به جنود طالوتَ، وعاهدتُ قريشا على ما فى الصحيفة، وانخذلتُ بثلث الناسِ يومَ أُحُدٍ، وتخلَّفتُ عن صلاة العصر فى بنى قُرَيْظَةَ، وجئت الإِفْكَ على السيدة عائشة الصِّدِّيقيَّة، وأَنِفتُ من إمارة أُسامة، ومزَّقت الأديمَ[١] الذى باركتْ يَدُ الله عليه، وضحيَّت بالأشْمَطِ[٢]، ورَجَمْتُ الكعبةِ».

وهو يقول كأننى اقترفت كبيرة مثل كبيرة إبليس حين استكبر وأبى السجود لآدم معلنا عصيانه لربه، أو ارتكبت ما ارتكبه ابن نوح حين عصى أمر أبيه فلم يركب معه فى السفينة فكان من المُغْرَقين، أو كأنه ارتكب جريرة فرعون حين أمر وزيرَه هامانَ أن يَبْنى له صرحا لعله يرى إله موسى، أو جريرة بنى إسرائيل حين عبدوا العِجْلَ وحين اعتدوا فى يوم السَّبْت فصادوا فيه، أو جريرة عاقرِ ناقة صالح (فدمدم عليهم ربهم بذنبهم) وأهلكهم، أو جريرة جنود طالوتَ الذى حرَّم عليهم الشرب من نهر فخالفوه، أو جريرة

(١) يشير إلى مقتل عمر بن الخطاب.
(٢) الأشمط: عثمان بن عفان.
(٣) راجم الكعبة الحجاج فى حربه لابن الزبير.

من تعهدوا لقريش بما فى الصحيفة التى كتبوها من مقاطعة الرسول وأصحابه، أو جريرة أبَىّ بن سَلول حين انخذل بمن معه من المنافقين عن رسول الله يوم أُحُدٍ، أو جريرة من تخلفوا عن صلاة العصر مع الرسول فى بنى قُرَيْظة من اليهود، أو جريرة من شاركوا فى حادثة الإفك والبهتان على زوج الرسول السيدة عائشة بنت الصديق، أو جريرة من أنفوا من تولية أسامة الصحابى الجليل على رأس جيش، أو جريرة قاتل عمر بن الخطاب أو جريرة قتلة عثمان بن عفان، أو جريرة رَجْم الحَجَّاج للكعبة، إلى عظائم أخرى ذكرها لا يُعَدّ ذنبه بجانبها شيئا مذكورا. ومضى ابن زيدون يقول إنه لا ذنب له إلا وشاية مشَّاء بنميم، وُيشْهد الله أنه ما غشَّ جهورا ولا انحرف عنه ولا عاداه بعد أن تشيع له وأصبح فى عداد خاصته مما سوَّل لحساده أن يوغروا صدره عليه بوشاياتهم ونمائمهم الدنيئة، يقول:

«كيف لا تتضرَّم جَوانِحُ الأكفاء (النُّظَراء) حَسَدًا لى على الخصوص بك، وتتقطَّع أنفاسُ النُّظَراء منافسةً فى الكرامة عليك؟ وكيف وقد زاننى رَسْمُ خدمتك، وزهانى وَسْمُ نِعْمتك، وأَبْلَيْتُ البلاءَ الجميل فى سِماطك (صَفِّك) وقمتُ المقامَ المحمودَ على بِساطك.. وهل لَبِسَ الصباحُ إلا بُرْدًا طَرَّزْتُه بفضائلك، وتقلَّدتِ الجوزاءُ إلا عِقْدًا فصَّلتُه بمآثرك، واسْتَمْلَى الربيعُ إلا ثناءً ملأْتُه بمحاسنك، وبَثَّ المسكُ إلا حديثا أذعته فى محامدك؟. ما يومُ حليمة بِسِرٍّ. ولم أكْسُك سَليبا، ولا حَلَّيتك عُطْلا، ولا وسَمْتك غُفْلًا بل وجدتُ آجُرًّا وجِصًّا فبَنَيْتُ، ومكانَ القول ذا سَعةٍ فقلتُ. حاشَ لك أن أُعَدَّ من العاملة الناصبة، وأكون كالذُّبالة المنصوبة تضيىء للناس وهى تحترق، فلكَ المثل الأعلى وهو بك، وبى فيك، أولى».

وهو يقول لجهور إنه من الطبيعى أن تضطرم جوانح النظراء حسدا وتتقطع أنفاسهم غيظا لمنزلتى منك وقد ازدنت بخدمتك وازدهيت بنعمتك، وأبليت البلاء الجميل فى صفِّك ونصرتك وقمت المقام المحمود على بساطك، أنثر بين يديك خِلَع مدائحى المضيئة بفضائلك، وعقود ثنائى المنظومة بدررِمآثرك، ولكأنما عطرُ الربيع إنما يفوح بمحاسنك وشذى المسك إنما يُذيع أحاديث محامدك، ويقول: ما يوم حليمة بسر أى أن ذلك كله مشهور، ويصيح إن جهورا لم يكن سليبا أو عاريا فكساه ولا عُطْلا غير مزدان فحلَّاه ولا غفلا غير معلم فوسمه وأبداه، بل لقد وجد آجُرًّا وجِصًّا فبنى وشاد قصائده، ويقول حاش لجهور أن أُعَدَّ عنده من العاملة الناصبة إشارة إلى آية التنزيل: ﴿وجوهٌ يومئذ خاشعة عاملةٌ ناصبة تصلى نارا حامية﴾ وأيضا حاش لجهور أن يعده كالذبالة أو فتيلة

السراج تضيىء للناس وهى تحترق وتلفظ أنفاسها الأخيرة. وتَعِزُّ على ابن زيدون نفسه، فيقول إنه لن يصبر على الذل والهوان، ويقول إن الأدب خير وطن للأديب وإنه لا يُجْفَىَ فى أى مكان ينزل به فأينما توجّه ورد أعذب منهل وضُوحك قبل إنزال رحله، وأُعطى حكم الصبى على أهله. وكأنه يلمِّح بأنه سيفارق وطنه قرطبة إلى من يعرف له حقه ويقدر أدبه. وتهدأ نفسه فيعود إلى صوابه، ويعلن محبته لوطنه وأنه لا يؤثر عليه أى وطن كما لا يؤثر على أبى الحزم جهور أى أمير، ويأخذ فى استعطافه حتى يعفو عنه ويصفح عن زلته، يقول:

«إن الوطنَ محبوبٌ، والمَنْشَأَ مألوفٌ، واللبيبُ يحنُّ إلى وطنه حنينَ النَّجِيبِ (البعير) إلى عَطَنِه (مَبْركه) والكريم لا يجفو أرضا فيها قَوَابِلُه (داياته) ولا ينسى بلدًا فيها مَراضعه. هذا إلى مغالاتى بِعَقْد جِوارك، ومنافستى فى الحظِّ من قربك، واعتقادى أن الطمع فى غيرك طَبَعٌ (دناءة) والغِنَى من سواك عَناء، والبدلَ منك عَوَزٌ (فاقة) والعِوَض لَفَاء (خِسَّة). وما هذه البراءة ممن يتولاَّك؟ والميل عَمَّنْ لا يميلُ عنك، وهلاَّ كان هواك فيمن هواه فيك، ورضاك لمن رضاه لك».

ويظل ابن زيدون إلى نهاية الرسالة يستعطف أبا الحزم جهورا كي يرد إليه حريته، ويضيف إليها قصيدة استعطاف بديعة، ويختمها بقوله لجهور: «هَبْ ذَنْبًا لِحُرْمَةٍ، واشْفَعْ نعمةً بنعمة، ليتأتَّى لك الإحسانُ من جهاته، وتسلكَ إلى الفضل من طُرقاته». والرسالة تكتظ بالأمثال وبالأحداث التاريخية فى عهود الرسل وفى الإسلام، كما تكتظ باقتباسات من القرآن الكريم والأشعار مع حَلٍّ كثير منها، ومع رهافة الشعور ودقة الحسِّ وصفاء الذوق فى انتخاب ذلك كله وفى اختيار الألفاظ والتنسيق بينها تنسيقا بديعا. ولكثرة ما فى الرسالة من أمثال العرب ووقائع التاريخ والأشعار احتاجت إلى الشرح وشرحها الصفدى، وسمى شرحه «تمام المتون شرح رسالة ابن زيدون» وواضح من كلمة المتون التى اختارها اسما لكتابه أنه شَعرَ أن الرسالة تشبه المتون لكثرة ما فيها من الأمثال وغير الأمثال، مما يحتاج إلى تفسير وفضل بيان، وهى – كأختها السالفة – آية بديعة من آيات النثر الأندلسى.

رسالة ابن غرسية فى الشعوبية والردود عليها

ابن غرسية[١] هو أبو عامر أحمد بن غَرْسية، كان من أبناء نصارى البَشْكُنْس فى شمالى إسبانيا، سُبى صغيرا - كما يقول ابن سعيد - وأدَّبه مجاهد مولاه ملك دانية والجزر المقابلة لها فى البحر المتوسط شرقى الأندلس (٤٠٥ - ٤٣٦ هـ) وكان مجاهد من فتيان المنصور بن أبى عامر الصقالبة الذين دان لهم شرقى الأندلس فى أوائل عصر أمراء الطوائف أثناء الفتنة التى أطاحت بالدولة الأموية. ولما رأى براعة ابن غرسية البشكنسى فى العربية والكتابة ألحقه بدواوينه، وأخطأ جولدتسيهر فى مقاله عن الشعوبية الإسبانية، فظن أنه كان فى خدمة المعتصم ابن صُمادح التجيبى أمير المريَّة (٤٤٢ - ٤٨٤ هـ). وله رسالة يذم فيها العرب ويفخر بالعجم كتب بها لا إلى أبى عبد الله بن الحداد شاعر المعتصم بن صمادح كما ظن جولدتسيهر وبروكلمان، وإنما إلى أبى جعفر أحمد بن الجزار كما جاء عند ابن سعيد، وذكره ابن بسام باسم ابن الخراز وهو تصحيف بدليل هجاء ابن غرسية له الذى أنشده ابن سعيد فى ترجمته إذ هجاه بأنه سليل أسرة كانت تحترف الجزارة. ويقول ابن بسام إنه خاطب برسالته الأديب أب جعفر بن الجزار معاتبا له لتركه مدح مجاهد (الصقلبى أمير دانية) واقتصاره على مدائح ابن صمادح التجيبى (العربى) الذى كان أميرا للمرية فى حياة مجاهد المتوفى سنة ٤٣٦ وهو معن بن صمادح مؤسس دولة الصمادحية بالمرية (٤٣٢ - ٤٤٣ هـ) لا ابنه المعتصم كما ظن ابن سعيد ومن ظن ظنه من المستشرقين. والرسالة تشغل فى الذخيرة نحو تسع صفحات، ونقتطف من فِقرها قوله:

«سلام عليك ذا الرَّوِىِّ المَرْوِىِّ الموقوفَ قريضُه على حَلَلة بَجَّانة أَرْش اليمن[٢]، بزهيد الثمن.. ولو أن القوم خلطوك بالآل، لما ألجأوك إلى الخَبْط فى الآل[٣]، مَهْ، مَهْ[٤]

---

(١) انظر فى ابن غرسية ورسالته الذخيرة ٣/٧٠٤ وما بعدها والمغرب لابن سعيد ٢/٤٠٦ وبحثا لجولد تسيهر عن «الشعوبية عند مسلمى الأندلس فى مجلة الجمعية الألمانية الشرقية المجلد ٥٣ ص ٦٠١ - ٦٢٠ (طبع ليبزج) وتاريخ الأدب الأندلسى عصر أمراء المرابطين للدكتور إحسان عباس ص ١٧٠ وما بعدها وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان (طبع دار المعارف) ٥/١٤١ والمجموعة الثالثة من نوادر المخطوطات للأستاذ عبد السلام هرون وبها ملخص لمقال جولد تسيهر المذكور. وراجع فى أبى جعفر أحمد بن الجزار الذى كتب إليه ابن غرسية بالرسالة وأنه من أسرة كانت تحترف الجزارة المغرب ٢/٣٥٥ - ٣٥٦.

(٢) ذا الروى: القصيد. حللة بجانة: سكانها وهى بجوار المرية. أرش هنا: اقليم.

(٣) الآل الأولى: الأهل والأصل. والثانية: السراب.

(٤) مه: كُفَّ.

مَنْ أَحْوجك إلى ركوب المَهْمَه[١] وإذا يَمَّمْت بطن تَبالةَ تَتَبَالَه، وصرت ضِغْثًا على إبَّالة[٢].. وأحسبك أن أُزْرَيْت، وبهذا الجيل النجيب (يقصد مجاهد أو الصقالبة) ازدريت، وما دريت أنهم الصُّهْبُ الشُّهْب ليسوا بعرب، ذوى أيْنُق جُرْب، بل هم القياصرة الأكاسرة، بُهَمٌ لا رُعاة شُوَيْهاتٍ ولا بهَم[٣]، شُغلوا بالماذِيّ والمُرَّان، عن رَعى البُعْران[٤]، وبجلْب العِزِّ عن حَلْب المَعْز، جَبابرة قَياصِرَة، صُقورة غلبت عليهم شُقورة، صُقورة الخُرْسان[٥]، لكنهم خَطَبة بالخِرْصان، أرومةٌ روميَّة وجرثومة صُفْرِيَّة.. فلا تهاجُرَ بنى هاجَر، أنتم أرقاؤنا وعَبَدتنا، وعتقاؤنا وحفدتنا، مننًا عليكم بالعِتقْ، وأخرجناكم من رِبْق (كرب) الرق، وألحقناكم بالأحرار فغمطتم النعمة، فصَفَّعْناكم صَفْعا، يشارك سَفْعَا، اضطرَّكم إلى سُكْنَى الحجاز وألجأكم إلى ذات المَجَاز[٦]. وإذا قامت الحرب على ساق، وأخذت فى اتساق، وقُرعت الظَّنابيب، وأُشرعت الأنابيب، وقَلَّصت الشِّفاه، وفغر الهِدانُ فاه، وولَّى قفاه، ألفيتهم ذَمَرة الناس[٧] عند احمرار الباس، الطَّعْنُ بالأسل، أحلى عندهم من العَسَل، تزدان بهم المحافل والجحَافل، كواكبُ المواكب، قُيُولٌ، على خيول، كأنهم فيُول، نجومُ الرُّجُم من العجم، ضراغمة الأجَم، تَبَحْبحت عنهم سارةُ الجمال والكمال، ربَّةُ الإياة[٨].. دوَّخوا المشارق والمغارب، فاستوطنوا من المجد الذروة والغارب غَنُوا بالإستبرق (الحرير) عن البَتِّ (الكساء) المجموع من النُّعَيْجَات طعامهم الحَنيذ (اللحم المشوى) لا الهَبيد (الحنظل) بُسُلٌ (شجعان) لاحُرَّاس

---

(١) المهمه: الفلاة.

(٢) تبالة: بلدة صغيرة باليمن يشير إلى أصل الأسرة الصمادحية التجيبية اليمنية. ضغث على إبالة: مثل يضرب للبلية فوق البلية.

(٣) الصهب الشهب: ذوو الوجوه المشربة حمرة يريد العجم من صقالبة وغير صقالبة. بُهَم: بضم الباء فرسان حرب، وبفتحها صغار الغنم.

(٤) الماذى: السيوف. المران: الرماح. البعران: جمع بعير.

(٥) صقورة: جمع صقر. شقورة: حمر. الخرسان: الصقالبة. كانوا يلقبون أيام الدولة الأموية بالخرس لعجمة لسانهم، ويقول إنهم فصاح بالخرصان أى الرماح.

(٦) هاجر زوجة إبراهيم: أم النبى إسماعيل أصل العرب. عبدة وحفدة: عبيد وخدم. سفعا: لَطْما على الوجوه. ذات المجاز: سوق فى الجاهلية كانت بقرب مكة.

(٧) قامت الحرب على ساق: اشتدت، وكذلك قول العرب قرعت الظنابيب وأشرعت الأنابيب. الهدان: الجبان. ولّى قفاه: انهزم. ذمرة: يحثون على القتال. الأسل: الرماح.

(٨) الجحافل: الجيوش الضخمة . قُيُولٌ: جمع قيل: ملك. الرجم: الشهب: يتساقطون على الأعداء مثلها. الأجم: جمع أجمة غيل الأسد وهى الشجرة الملتفة. تبحبحت عنهم: ولدتهم فى عزة وسارة زوجة النبىّ إبراهيم أم إسحق. الإياة هنا: الحسن.

مُسُلٍ (جريد النخلَ) ولاغرَّاسُ فُسُل (صغار النخل).. فكُفَّ أيها الشَّانِ، فلهم عظيم الشَّانِ واليَدُ الطَّولى إذ تخلَّصوكم من يد الحُبْشان.. رَسَخَتْ فى المجد أصولُنا وفروعنا، ومَنْ يطُولنا، وكل الوَرَى قد شمله فضلنا وطَوْلنا[١]، ذوو الآراء الفلسفية والعلوم المنطقية حَمَلة الأسترلوميقى والجومطريقى، والعَلَمة بالأرثماطيقى وأنولوطيقى والقَوَمة بالموسيقى والبوطيقا[٢]، والنَّهَضة بعلوم الشرائع والطبائع، والمهرة فى علوم الأديان والأبدان، ما شئت من تدقيق، وتحقيق، حبسوا أنفسهم على العلوم الدينية والبدنية لا على وصف الناقة الفَدَنية (الضخمة).. فلا فخر معشر العُرْبان الغِرْبان، بالقديم المفَرَّى الأدِيم[٣]، لكن الفخر بابن عمِّنا (يريد الرسول صلى الله عليه وسلم)، الذى بالبركة عَمَّنا، الإسماعيلى الحسب، الإبراهيمى النسب الذى به إنما انتشلنا الله تعالى وإياكم من الغَواية والعَماية، ولا غَرْوَ أن كان منكم جِبْره وسِبْره، ففى الرَّغام يُلْفَى تِبْرُه».[٤] وينوه بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم:

«لله مما قد بَرَا صفوةٌ وصفوةُ الخَلْقِ بنو هاشمِ
وصفوة الصَّفوة من بينهم محمدُ النورُ أَبُو القاسمِ

بهذا النبى الأميِّ أفاخرُ مَنْ يفخر، وأكاثر جميعَ من تقدم وتأخَّر، المنيف (الرفيع) الطرفين، الشريف السَّلَفَيْن، المتلقىَّ بالرسالة، والمنتقى للأداء والدلالة، أصلِّى عليه عددَ الرَّمْل، ومَدَد النَّمْل، وكذلك أصلِّى على واصلى جناحه، سيوفِه ورماحه، صحابته الكرام، عليهم من الله أفضل السلام».

وابن غرسية يفتتح رسالته بالسخرية من أبى جعفر بن الجزار الذى يقف قريضه وشعره على نزَلة بجاية والمرية بإقليم اليمن فى شرقى الأندلس مختصًّا به عرب الأسرة الصُّمادحية أمراء المرية وما والاها دون مجاهد الصقلبى ذى الأصل الشريف والنسب الرفيع، ويأخذ فى التهكم بابن الجزار والتهجم على العرب، فهو قد تعلق بآل أو بسراب، ويمَّ وجهه نحو تبالة اليمنية، فتبًّا له لقد أصابه البله، وأصبحت محنته محنتين. ويعجب أن

---

(١) الغارب: الكاهل يريد مادون الذروة. الشان الأولى: الشانىء: المبغض الحاقد. الطولى: سابغة النعم. ويشير: بالحبشان إلى حكمهم اليمن فترة قبل الإسلام . يطولنا: يفوقنا. الطول: الفضل.

(٢) الأسترلوميقى: علم الفلك. الجومطريقى: الهندسة. الأرثماطيقى: الرياضة. أنولوطيقى: القياس المنطقى. البوطيقا: الشعر.

(٣) المفرى الأديم: الممزق جلده.

(٤) الغواية والعماية: الضلال. جبره وسبره: حسنه وبهاؤه. الرَّغام: التراب. التبر. فتات الذهب.

يزرى ابن الجزار على مجاهد وقومه الصقالبة. ويبدو أنه كان قد هجاه، فأخذ يشيد به وبقومه الصّهب حمر الوجوه، ويقول إنهم ليسوا بعرب ذوى نوق جُرْب. ويضم إليهم العجم قاطبة، ويقول إنهم ملوك قياصرة وأكاسرة، فرسان لا رعاة أغنام ولا غارسو زروع يعيشون للحرب وحمل السلاح. ويستغلّ ما قيل من أن هاجر أم إسماعيل كانت جارية لسارة زوجة أبيه إبراهيم، فيزعم أنهم منّوا على العرب بنعمة العتق ونعمة الحرية، وأسكنوهم الحجاز إشارة إلى نزول هاجر وابنها إسماعيل بمكة. ويطيل فى الحديث عن فروسية العجم وبطولتهم فى الحرب وانشغالهم بالسيوف عن الملاهى وربات الأقراط أو الشنوف. ويقول إن لباسهم الإستبرق لا الصوف وطعامهم اللحم المشوى لا الحنظل ولا الضب، وسكناهم القصور لا الخيام وبيوت الشعر. ويفخر على العرب بأن الفرس من العجم خلصوا اليمن من يد الحبش أيام الجاهلية، كما يفخر بأم العجم سارة ويتغنى بجمالها وكمالها. وأيضا يفخر بأن العجم أصحاب العلوم الفلسفية والفلكية والهندسية والرياضية والمنطقية والموسيقية والشعر، لا أصحاب النوق الفدنية الضخمة. وابن غرسية فى كل ذلك يستمد من أصحاب الشعوبية فى القرن الثانى والثالث بالعصر العباسى، وكانت أهم مطاعنهم على العرب - كما أوضحتها فى كتاب العصر العباسى الأول - أنهم كانوا فى الجاهلية بدوا رعاة أغنام وإبل، ولم يكن لهم ملك ولا حضارة ولا مدنية ولا علوم، فأين هم قديما من ملك الأكاسرة والقياصرة؟ وأين هم من علوم الفرس واليونان والرومان. وكان الشعوبيون يصدرون فى ذلك عن بغض للإسلام، ولذلك اقترنت الشعوبية عند كثير منهم بالزندقة والإلحاد فى الدين الحنيف. وشعوبية ابن غرسية فى رسالته لا تقترن بإلحاد ولا بزندقة، ومع أنه شعوبى ذميم يعلن فى نهاية رسالته تمجيده للرسول ﷺ ولصحابته.

وليس بين أيدينا فى الأندلس أعمال صدرت عن نزعة الشعوبية سوى هذه الرسالة لابن غرسية، وحقا هناك كتاب صُنِّف قبلها سُمِّى: «الاستظهار والمغالبة على من أنكر فضل الصقالبة». ومن المؤكد أن نزعة الشعوبية فى الأندلس كانت نزعة فردية، ولم تتحول - كما تحولت فى القرنين الثانى والثالث بالعراق - إلى نزعة اجتماعية تقوم على معاداة العرب والإسلام. ولم تكد رسالة ابن غرسية تُشْعلها حتى انطفأت، بل لقد أطفأها هو نفسه فى نهاية رسالته إذ أعلن تمسكه بالدين الحنيف وإشادته بالرسول وصحابته من المهاجرين والأنصار. ومع ذلك نجد ردودا عليه، لكن لا بأبحاث مطولة تهدم الشعوبية، كما نرى عند الجاحظ وابن قتيبة مما عرضناه مفصلا فى حديثنا عن تاريخ الأدب العربى

بالعصر العباسى الثانى وإنما برسائل تنقض مزاعمه نقضا حميَّة للعرب والعروبة. وفى الذخيرة لابن بسام ثلاث رسائل منها رسالة لابن الدودين وثانية لعبد المنعم بن منّ الله القروى، وثالثة لشخص يسمى ابن عباس لم يوضح هويته ابن بسام. وظلت ردود تدبَّج فى القرن السادس الهجرى، منها رد لابن أبى الخصال باسم: «خطف البارق وقذف المارق فى الرد على ابن غرسية الفاسق». وسقط هذا الرد من يد الزمن كما سقط رد الفقيه أبى مروان عبد الملك بن محمد الأوسى، ورد عبد المنعم بن الفرس، ورد عبد الحق بن فرج، ووصلنا رد أبى يحيى بن مسعدة المعاصر لعبد المؤمن بن على مؤسس دولة الموحدين وكذلك رد أبى الحجاج يوسف البلوى المتوفى سنة ٦٠٤ إذ سجَّله فى موسوعته: ألف باء، وهو يكثر فيه من الشعر. ونقف قليلا عند الردود الثلاثة الأولى ورد أبى يحيى بن مسعدة.

وأولى الرسائل الثلاث عند ابن بسام رسالة أبى جعفر[١] أحمد بن الدودين البلنسى، ويقول ابن بسام إنه أملاها عليه بالأشْبونة سنة ٤٧٧ وهو يفتتحها بسب ابن غرسية مع تهديد شديد ومع هجاء قومه من العجم هجاء مقذعا أشد الإقذاع رادا كلًّ مثلبة للعرب فى رسالة ابن غرسية إلى محمدة لهم وكل محمدة للعجم إلى مثلبة، ومن قوله فيها:

«اخْسَأْ أيُّها الجَهُولُ المارق، والمرذولُ المنافق، ثكلتْك أمُّك، حَبَّرْتَ بحبْرِك لذهاب خبرك، ومَشَقْتَ[٢] فى قرطاسك لمشَقّ رأسك، وما حقيقةُ جوابك على خَطَلِ خطابك إلا سَلْبُك عن إهابك (جلدك) وصَلْبُك على بابك، وأُقسم ببارئِ النَّسَم، وناشر الأمَم من رُفاتِ الرِّمَم.. لأخلِّدنَّك سَمَرًا غابرا، ومثلا سائرا، أو تَحْتَزِم بزُنَّارك[٣] وتلحق بأَدْيَارِك، مآلك، ومَقَرِّ آلِك، أسرتِك الأرْذَلين، وعِتْرَتِك الأنْذلين الصُّهب (الحمر) أَكَلَةِ الجِيَف.. وأما فخرك بربَّة الإياة (سارة) فياليتها حين ولدتكم ثكِلتْكم، فلقد سَرْبَلْتموها عارا مجدَّدا، وعصبتم بها شَنارًا (عارا) مخلَّدا، حين خِمْتُم[٤] عن الكفاح، حَذَر الصوارم والرماح، فأسلمتم لعُداتها، من بَناتها، كل طَفْلَة ردَاح[٥]، جائلة الوِشاح[٦]، ذات ثَغرْ

---

(١) انظر فى ترجمة ابن الدودين ورسالته الذخيرة ٧٠٣/٣ وما بعدها وراجع ترجمته فى المغرب ٣٢٢/٢ ورسالته فى مجموعة هرون.

(٢) مشقت: طعنت. مشق: طعن وقطع.

(٣) الزنار: حزام كان يشده النصارى فى أوساطهم تمييزا لهم.

(٤) خمتم: جبنتم ونكلتم.

(٥) طفلة: ناعمة. رداح: ضخمة الردف.

(٦) جائلة الوشاح: كناية عن دقة الخصر.

كالأقاح، وغُرَّة كالصباح.. ووصفُك قومك بأن ليسوا حَفَرةَ أُكَر[١]، ولا حَفرَةَ عَكَر[٢]، الله أجلُّ الأُكَرَ أن يَحْفروها، والعَكر أن يَحْفزوها، لكنهم حَفَرَة جِحْشان، وحَفرةُ كهوفٍ وغِيران[٣]، اتخذوها مَخْبأً من قبائل العُرْبان، ومَلْجأ من وَقْعِ الصَّوارم والمُرَّان، فعلَ الخِزَّان[٤] واليرابيع والجُرْذان. وأما وصفك قومك أنهم مُجُدٌ، نُجُدٌ، فهيهات تلك صفات قومنا العرب أولى اللَّسَن والبيان والإسهاب فى الصواب، والحكمة وفصل الخطاب، أَنْديتهم عِراضُ المنيَّة، وأرْديتهم بِيضُ المشرفيَّة، ولَبُوسهم مضاعفةُ الماذِيَّة[٥]، مجالسهم السُّروج، وريحانهم الوَشِيج[٦]، مُناهم، تعجيل مَناياهم، أسودُ الأَغْيال[٧]، حُماة الأشبال».

والرسالة الثانية عند ابن بسام فى الرد على ابن غرسية رسالة[٨] أبى الطيب عبد المنعم بن منّ الله القروىّ، دخل الأندلس، ودرَّس الحديث فى شرقيها إلى أن توفى سنة ٤٩٣، وكان أديبا شاعرا، واطلع على رسالة ابن غرسية فاستثارته، وكتب نقضا لها رسالة سماها «حديقة البلاغة ودوحة البراعة، المورقة أفنانها، المثمرة أغصانها بذكر المآثر العربية ونَشر المفاخر الإسلامية والردِّ على ابن غرسية فيما ادعاه للأمم الأعجمية» وهى تمتد فى الذخيرة إلى نحو خمس وعشرين صحيفة، ويقول له فى مطالعها:

«أَخْبِرْنى عنك أَمَا كانتْ للعرب يَدٌ تَشْكرها، ومِنَّةٌ تذكرها؟ أما جَبَرتْ نقيصتَك؟ أما رفعتْ خَسِيسَتَك؟ ألم تُرَبِّك فينا وَليدا؟ ألم تتَّخذك بها تِليدًا؟[٩] ألم تُعْنَ بتخريجك وتَدْرِيجك؟ أما أنطقتك بعد العجمة؟ أما أَسْلَقَتْك[١٠] عقبَ اللُّكْنة، حتى إذا اشتدّ كاهلُك، وقوىَ ساعدك، كفرتَ نعمتَها لديك، ونَتَرْتَ عِصْمتها من بين يديك.. وهات أرنا مفاخرَك نُرِك مساخرَك، أنت صاحبُ الشُّهبْ الصُّهْب أين أنت عن السُّمْر القُمْر[١١]، البيضِ غُرَرًا وصِفاحا[١٢]، الدُّعْجِ عيونًا ورِماحا، البُلْجِ[١٣] وجوها وسماحا؟ سعَروا

---

(١) أكر: حُفَر.
(٢) عكر: إبل.
(٣) جحشان: جمع جحش. غيران: جمع غار.
(٤) الصوارم: السيوف. المران: الرماح. الخزان: أولاد الأرانب. الجرذان: الفئران.
(٥) المشرفية: السيوف. الماذية: الدروع.
(٦) الوشيج: الرماح.
(٧) الأغيال: جمع غيل: بيت الأسد.
(٨) انظر فى ترجمة ابن من الله ورسالته الذخيرة ٣/٧٢٢ - ٧٤٦ وراجع فيه الصلة: ٣٧١ وانظر فى رسالته المجموعة الثالثة من نوادر المخطوطات لهرون.
(٩) تليدا هنا: مقيما.
(١٠) أسلقتك: أتاحت لك السليقة العربية.
(١١) القمر جمع أقمر: المشرق الوجه.
(١٢) الصفاح: السيوف.
(١٣) البلج: المشرقون.

(أوقدوا) عليكم نارَ الحرب، بتلك الأيْنُق الجُرْب، فكسَروا أكاسرتكم، وقصَروا قياصرتكم، فسفكوا دماءهم، وأباحوا أحْماءهم[١]، وأخمدوا نارَ صَوْلتهم، ومحوا آثارَ دولتهم، وطهَّروا الأرضَ المقدسةَ من أنْجاسكم والمسجدَ الأقصى من أرْجاسكم. وَيْحك بِمَ آثرتَ (فضَّلت) وبمن كاثرتَ (فخرت) أما استحييتَ مما انتحيتَ؟ هل كانت العرب إلا كنزَ عِزٍّ وذُخْر فخر، وخبيئةً ذخَرها الله إلى الوقت المحتوم ليختار منها صَفِيَّه، وميزَّها ليميز منها حَفِيَّه. يمشى أحدهم إلى الموت ثابتة وَطْأته، فسيحةً خُطْوتهُ، شديدةً سَطْوتُه، لَبِقًا بتصريف القَناةِ بنانُه، بصيرا بمهج الدارعين سنانُه.. أليس شعارُكم: الهربَ، الهربَ، هذه العرب.. وما تركوا من الأعاجم عاجما، ولا ناجما، وساروا يَذْبَحُونَ البرَّ ذبحا، ويَسْبَحون البحر سَبْحا، حتى طَرَقكم طارقُهم[٢] فى هذا الطَّرَف، ورشقكم راشِقُهم فى هذا الهدف، وملكوا أرضَكم بساحتيها، وأحاطوا بها من ناحيتيها، سلبوها بأقطارها وحَلبوها من أشطارها».

ويطيل ابن من الله فى الفخر بدول العرب قبل الإسلام، وبشجاعتهم وفروسيتهم، ومايزال يتتبع مفاخر العجم عند ابن غرسية ناقضا لها حتى فى العلوم. وينوه بعلم العرب فى الفلك والطب وبراعتهم فى الغناء والموسقي. ويضع له أمام عينيه فخر العرب برسولها محمد سيد ولد آدم الذى به برَّت الأمم، ويطلب إليه أن يتوب توبة تهديه وتنجيه. والرد الثالث الذى ساقه ابن بسام يذكر أنه اقتبسه من كتاب[٣] لابن عباس رد فيه على ابن غرسية، ولا يعرِّفنا بشخصية ابن عباس هذا، وحديثه يدور على الهجاء المقذع ولا يخرج عما رأينا فى الرسالتين السالفتين من نقض مزاعم ابن غرسية نقضا يصيب قومه العجم فى الصميم.

ومثل هذه الردود فى الرد المفحم على رسالة الشعوبية لابن غرسية رسالة[٤] أبى يحيى ابن مسعدة، وهو يستهلها بهجاء شديد فابن غرسية غَثيث (لا خير فيه) آبق وَقاح لئيم الجدود. وبعد قَرْع صَفاه، وصَفْع قفاه، ينتقل إلى الحديث عن دين العجم وأقانيمه الثلاثة وعقيدة التثليث وينكر أن يكون إبراهيم الخليل أبا للعجم أو تكون سارة زوجته أمًّا هم

(١) أحماء: جمع حمى.
(٢) تورية لطيفة عن طارق بن زياد فاتح الأندلس.
(٣) انظر الذخيرة ٧٤٦/٣.
(٤) راجع فى أبى يحيى بن مسعدة ورسالته المجموعة الثالثة من نوادر المخطوطات لعبد السلام هرون.

أو تكون هاجر أمةً لسارة. وينقض على ابن غرسية كل ما أشار إليه من خبر أو أسطورة تتصل بالعرب، ويشَوْيه ويَشْوى العجم معه بسياط من أهاجيه، ويتهكم على ما افتخر به من علوم الأعاجم، ويقول إنه كفخر الجارية بهودج سيدتها، إذ العلوم التى ذكرها إنما هى علوم اليونان والفرس والكلدان. ويتهكم على موسيقاهم التى يندبون بها فى نواحهم ويقصفون عليها فى أعيادهم. ويفخر بانتصار العرب على الفرس والروم فى القادسية واليرموك. ويتمدح بما يجلبه العجم للعرب من القيان والدِّنان، كما يتمدح بشغف العرب بالمرأة وما لهم فيها من الغزل الرقيق مع ما يميزهم من الشجاعة والإقدام حتى ملكوا الأرض، وتلك منازلهم منها بمكان الغُرَّة. ويقول ابن مسعدة: كفى ابن غرسية والعجم أن فى العرب رسول الله هادينا ومرشدنا سيد البشر وشفيع هذه الأمة وسفير يوم العرض وإمام أهل السموات والأرض، وبه يفاخر العرب البشر، ويناظرون الشمس والقمر. ويشيد ابن مسعدة فى ختام الرسالة بابن تومرت داعية الموحدين وخليفته عبد المؤمن بن على مؤسس دولتهم فى المغرب والأندلس.

وواضح - مما تقدم - أن الشعوبية فى الأندلس لم تؤيدها إلا رسالة وحيدة لابن غرسية البشكنسى، وكأنها شىء عارض أو كأنها حجر ألقى فى بحر لجى للعروبة، فلم تترك أثرا وراءها سوى ما كان من كثرة الردود عليها طوال القرنين الخامس والسادس للهجرة، وهى كثرة تدل - دلالة بيِّنة - على تعمق نزعة العروبة فى الأندلس وأن الأندلسيين كانوا يستشعرونها دائما بقوة. أما ما نقرؤه أحيانا عن عالم أندلسى أو أديب هناك من أنه كان شعوبيا فإنما كان يوصف غالبا بذلك لنزعة وطنية تجعله يشيد بأبناء وطنه لا لنزعة شعوبية معادية للعرب. وقد ظلت الأندلس بعيدة عن استشعار تلك النزعة كما ظلت بعيدة عن استشعار نزعة الزندقة والإلحاد المعادية للإسلام.

رسائل نبوية ومواعظ

(أ) رسائل نبوية

للأندلسيين كتابات كثيرة فى مناقب الرسول ﷺ، على شاكلة كتاب الشفا فى التعريف بحقوق المصطفى للقاضى عياض حافظ المغرب والأندلس المتوفى سنة ٥٤٤ ولسنا نريد الحديث عن مثل هذه الكتابات الجليلة إنما نريد أن نتحدث عن رسائل نبوية كثيرة صوَّر فيها الأندلسيون شوقهم الحار لاكتحال عيونهم برؤية الروضة الشريفة

ضارعين إلى صاحبها عليه السلام أن يكون شفيعهم إلى غفران ربهم يوم القيامة، يوم تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه. ومنذ أواخر عصر أمراء الطوائف تتكاثر الرسائل النبوية إذ أخذ الكتاب فى الأندلس يستشعرون محنة بلدهم وما يتهدّدُها من الأخطار فبثوا شكواهم إلى الرسول ﷺ فى رسائل تفيض بوجد ملتهب لزيارة قبره الشريف وبتوسل ضارع لشفاعته يوم الحشر الأكبر. وأخذوا - مع تقدم الزمن - يضمّنون رسائلهم بعض الأحداث فى الأندلس آملين من الرسول الغوث والعون على أعدائهم وأن تدور عليهم الدوائر. ومن طريف ما نقرأ فى تلك الرسائل رسالة لأبى القاسم بن الجد المتوفى سنة ٥١٥ ومرت بنا ترجمته، وله رسالة نبوية كتبها على لسان صديق صَدر من بيت الله الحرام وزيارة قبر رسوله عليه السلام، وقد امتلأ قلبه شوقا إلى العودة لزيارة الروضة الشريفة، مؤملا فى شفاعته، والحشر فى عداد زمرته وجماعته، وفيها يقول ابن الجد:[1]

«صلوات الله على خاتم الرُّسُل وناهج السُّبُل، وناسخ جميع المِلل.. وعليه من لطائف التسليم ما يُرْبى على عدد النجوم، ويُزْرِى بالمِسْك المختوم، ويَقْتَضِى باتصاله رِضا الحيِّ القيوم.. ولما صدرتُ يا رسول الله عن زيارتك الكريمة، وقد ملأتْ هيبتُك ومحبتك أرجاءَ فكرى، وفضاءَ صَدْرى، وغِشيَنى من نور برهانك ما بَهَرَ لُبِّى، وعمرَ قَلْبى، لحقنى من الأسف لبعد مزارك، والحنين إلى شرف جوارك، ما أَوْدَعَ جَوَانِحِى التهابا، وأَوْسَعَ جَوَارحى اضطرابا، وأَشْعَر أملى عَوْدًا إلى محلِّك المعظَّم وإيابا، وكيف لا أَحِنُّ إلى قربك، وأتهالك فى حُبِّك، وأعفِّر خَدِّى فى مقدَّس تُرْبك، وبك اقتديتُ فاهتديتُ، وكيف لا يتحرَّك نحوك نزاعى، ويتأكَّد انقطاعى، وبك استشفاعى، وإليك مَفْزعى يوم الداعى، فلا تَنْسَ لى - يارسول الله - عِياذى بك ولِياذى، واذكرنى فى اليوم العظيم المشهود، عند حَوْضك المورود، وظِلِّك الممدود، ومقامِك المحمود».

والرسالة تصور هذا الشوق المضطرم فى قلب كل مسلم ليسعد بزيارة الروضة الشريفة ويتملّى بنورها الباهر. وما إن يعود زائره إلى موطنه حتى يضطرم شوقه من جديد لينعم بزيارته آملا أن يكون له حظ فى شفاعة صفىّ الرحمن وحبيبه المصطفى من خلقه. ويذكر ابن خير الإشبيلى فى فهرسته أن لابن السيد البطليوسى عبدالله بن محمد المتوفى سنة ٥٢١ رسالة كتب بها إلى قبر الرسول ﷺ، وبالمثل ذكر ابن خير أن لابن أبى الخصال المتوفى سنة ٥٤٠ - ومرت ترجمته - رسالة كتب بها متوسلا إلى قبر الرسول

(١) انظر الرسالة بترجمة ابن الجد فى الذخيرة ٢٨٦/٢.

ومعها مقطوعة شعرية، كتبها بلسان أحد الزمنى (المقعدين) آملا فى شفائه، فلما وضعت عند القبر الشريف برئ المقعد بإذن الله وببركة رسوله الأمين. وتظل هذه الرسائل النبوية تكتب من الأندلس وترسل إلى الروضة النبوية طوال الحقب الأندلسية التالية، ويلقانا من كتَّاب هذه الرسائل ابن الجنان وسنخصه عما قليل بترجمة. وكان يعاصره أبو الحسن[١] الجيانى على بن محمد الأنصارى الذى تولى القضاء ببعض نواحى إشبيلية، واستكتبه آخر أمراء الموحدين: الرشيد (٦٢٩ - ٦٤٠ هـ) وظل يتولى الأعمال السلطانية حتى توفى سنة ٦٦٣ للهجرة، وله رسالة بارعة كتب بها إلى الروضة الشريفة وفيها يقول[٢]:

«إلى سَيِّد المرسلين، ورسولِ رب العالمين، الذى جُعِلَتْ له الأرض مَسْجِدا وطَهورا، وكان - ولم يزل - منتقلا من صلب آدمَ نُورا.. المصطفى المختار الذى انشقَّ له القمر، ودان له الأسْوَدُ والأحْمر، ولاح النور الإلهى من قَسَماته، وعَرَّفَه الكهنة والأحْبار قبل كونه بسِماته، بُشْرَى الكليم[٣] الميمون النقيبة[٤] والطليعة، المشير إلى الأصنام فخرَّتْ صَرِيعة.. من العبد المذنب الذى ثبَّطتْه الأقدار، وعاقه الفلك المُدار، عن الحلول بمشاهدك الكريمة، والمُثول فى معاهدك التى هى لِصَادِى الأمل أنْقَعُ دِيمة[٥].. كتبتُه، وأنا أتنفَّس الصُّعَداء[٦]، وأناجى بل أَغْبِطُ أهل زِيارتك السعداء، وللزَّفرات تصعُّدٌ وانحدار، وللعبرات تردُّد فى الجفن وانهمار، وكيف ألذُّ حياةً ولم أعبر لزيارتك سَبْسَبًا[٧] ولا لُجَّة، ولا أقمت على دعوى الشوق إليك بُرْهانا ولا حُجَّة، لأَلْثِمَ مواطئَ سَعَى فيها بالوحى الرُّوحُ الأمين، وتخطِّى عَرصاتها[٨] سيدُ المرسلين كيف لى أن أمرِّغ الخَدَّ فى عَبير ثَرَاها، أو أبلغ الجَدَّ[٩] الأعظم عندما أراها، اللهم ياربِّ أنْجِدْ عبدك المسيء وأعنْه على أداء الفريضة، وطيِّبْ قلبه بانتشاق ريح طَيْبة[١٠]، ولا تجعل أمله فيك ورجاءه فى كرمك إلى إخفاقٍ وخَيْبة»

والرسالة طويلة، وقد ذكر فيها أبو الحسن الجيانى طائفة من المعجزات النبوية. ويقف

---

(١) انظر فى ترجمة أبى الحسن الجيانى الذيل والتكملة للمراكشى (تحقيق د. إحسان عباس) ٢٨٧/٥ وما بعدها.

(٢) انظر الرسالة عند المراكشى ٢٨٨/٥.

(٣) الكليم: موسى عليه السلام.

(٤) النقيبة: الطبع والسجية.

(٥) صادى: عطشان. ديمة: سحابة هاطلة.

(٦) الصعداء: المشقة. يتنفس الصعداء: يتنفس نفسا ممتدا.

(٧) السبسب: الفلاة.

(٨) عرصاتها: ساحاتها.

(٩) الجد: الحظ.

(١٠) طيبة: المدينة.

على باب الروضة الشريفة مسترحما لذنبه شفيعَ المذنبين يوم الهول الأكبر الذى تغذى بحبه طفلا وشابا وكهلا، وإنه ليأمل فى اللقاء بحبيبه، وفى فؤاده لوعة لا تنطفئ وفى عينيه دموع لا تجف، وإنه ليتمنى لو طيَّب وجناته بتراب طيبة وتحقق له هذا الأمل العظيم. ويدعو ربه ضارعا أن ينيله أداء فريضة الحج وزيارة الرسول الكريم حتى يفوز بسعادة ما تماثلها سعادة.

وتسقط حينئذ مدن الأندلس العظمى: قرطبة وإشبيلية وبلنسية ومرسية وطليطلة وبطليوس فى حجر حملة الصليب الشماليين، ونرى هذه الرسائل النبوية الموجهة إلى الروضة الشريفة تضم إلى تصوير التعلق بالرسول والشغف بزيارته والتوسل إلى شفاعته تضرعا إليه كى ينصر المسلمين فى الأندلس على أعدائهم الشماليين، ومن خير ما يمثل هذه الرسائل رسالتان[١] للسان الدين بن الخطيب كتبهما إلى الرسول عليه السلام على لسانى سلطانى الأندلس أبى الحجاج يوسف الغالب بالله (٧٣٣ - ٧٥٥ هـ) وابنه محمد الغنى بالله (٧٥٥ - ٧٩٣ هـ) وربما كانت رسالته الأولى أروع من أختها الثانية، وقد افتتحها بقصيدة بديعة، يصور فيها الشوق الذى أضْنَى أبا الحجاج لزيارة قبر الرسول ﷺ، ويفخر بأن جده سعد بن عبادة كان من أنصار دينه الحنيف. ويعتذر بتقصيره عن زيارته باشتغاله بجهاد الجلالقة والقشتاليين حملة الصليب الشماليين، وتلى ذلك الرسالة، وهى طويلة، ويفتتحها لسان الدين على لسان سلطانه أبى الحجاج بقوله:

«إلى رسولِ الحقِّ، إلى كافَّةِ الخَلْق، وغَمَامِ الرحمة الصادق البَرْقِ، والحائزِ فى ميدان اصطفاء الرحمن قصَبَ السَّبْق، خاتَمِ الأنبياء، وإمامِ ملائكة السماء، ومن وَجَبَتْ له النبوة وآدم بين الطِّين والماء.. نبيِّ الهدى الذى ختم به الرسالة ربُّه، وجرى فى النفوس مجرى الأنفاس حُبُّه، الشفيع المشفَّعُ يوم العَرْض، المحمود فى ملأ السماء والأرض.. فائدة الكون ومعناه، وسرِّ الوجود الذى بهر سَنَاه، مَنِ الأنوارُ من عنصر نوره مستمدَّة، والآثارُ تَخْلَق[٢] وآثارُه مستجدّة، مَنْ طُوِىَ بِساطُ الوحى لفقده، وَسُدَّ بابُ الرسالة والنبوة من بعده».

وهذه القطعة الرائعة فى تمجيد الرسول يغمسها ابن الخطيب فى فكرة الحقيقة المحمدية

(١) انظر فى الرسالتين الإحاطة (طبعة عنان) ٥٢٧/٤ وما بعدها، وراجع فى الرسالة الأولى صبح الأعشى ٤٦٩/١٤.

(٢) تخلق: تبلى.

التى ردَّدها بعض الصوفية ذاهبين إلى أن الروح المحمدية سبقت فى الوجود صورة محمد الجسدية، وهو بذلك يسبق آدم، بل يسبق جميع الكائنات وكأنه مبدأ الرسل وخاتمهُم، بل مبدأ الوجود جميعه، فكل نور فى الكون مستمد من نوره ومستعار منه. ويستمر ابن الخطيب فى هذا التمجيد متحدثا عن معجزات الرسول، قائلا إن الرسالة من عتيق شفاعته وعبد طاعته. ويصور تشوق أبى الحجاج إلى الاكتحال بمشهد روضته الشريفة، حتى يطفئَ غلته ويسكن لوعته، ويعتذر بجهاده لحملة الصليب وما يلقى فى هذا الجهاد هو وجنوده من أهوال تعوقه عن أن يشد الرحال إلى الروضة العبقة الطاهرة، يقول:

«عاقتنى عن زيارتك العوائقُ إذْ أصبحتُ بين عدوٍّ تتكاثف أفواجهُ، ويحجبُ الشمسَ عند الظهيرة عَجَاجُه[١]، فى طائفة من المؤمنين بك وطَّنوا على الصبر نفوسهم، وجعلوا التوكل على الله وعَليك لَبوسَهُمْ، واستعذبوا فى مَرْضاة الله تعالى ومَرْضاتك بُوسَهم، يطيرون من هَيْعةٍ[٢] إلى أخرى، ويتلفَّتون والمخاوف يُمْنَى ويُسْرَى، ويقارعون - وهم الفئةُ القليلة - جموعًا كجموع قيصرَ وكسرى، قد باعوا من الله تعالى الحياة الدنيا، لأن تكون كلمة الله تعالى هى العُلْيا، فيالَهُ من سِرْبٍ مَروع، ودعاء إلى الله وإليك مرفوع، وصِبْية حُمْرِ الحواصل[٣]، تخفق فوق أَوْكارها أجنحة المناصل[٤]، والصليب قد تمطَّى ومدَّ ذراعيه.. وما ضعفت البصائر ولا ساءتْ الظنون، وما وُعد به الشهداءُ تعتقده القلوبُ حتى تكاد تراه العيون إلى أن نلقاك غدا إن شاء الله وقد أَبْلَيْنا العُذْرَ، وأعملنا فى سبيل الله وسبيلك البِيضَ والسُّمْرَ[٥]، وأَرْغَمْنا الكُفْرَ».

وهذه القطعة من الرسالة تصور الجهود المضنية التى كان يبذلها مسلمو الأندلس فى جهاد حملة الصليب، وقد جاءوهم - كالذرِّ عند انتشاره - من شمالى إسبانيا ومن البلدان الأوربية، يريدون أن يقتلعوهم من البقية الباقية من ديارهم. وتستبسل الفئة القليلة أمام تلك الجموع الغفيرة نحو ثلاثة قرون متطاولة، بائعة أنفسها لربها متزاحمة على حياض الاستشهاد لنصرة دينه حتى تكون كلمته هى العليا، وحملة الصليب ما ينون يغيرون وما تنى سحب سيوفهم تتجمع فوق ديارهم وأوكار أفلاذ أكبادهم، والفئة القليلة تنازلهم مستميتة نزالا ضاريا وكثيرا ما دقَّت أعناقهم دقا. والرسالة الثانية للسان الدين كتبها

---

(١) عجاجه: غباره.
(٢) هيعة: صيحة.
(٣) حمر الحواصل: تشبيه لأطفال غرناطة بصغار الطير حين تكون حمراء الحواصل ولا تستطيع الطيران.
(٤) المناصل: جمع منصل: السيف.
(٥) البيض: السيوف. السمر: الرماح.

سنة٧٧١ بلسان السلطان الغنى بالله، كما ذكرنا، وفيها يصور للرسول الكريم تنكيله بحملة الصليب فى غير موقعة بعونه وجاهه، مع الاعتذار عن شد الرحال إليه لانشغاله بجهاد الطغاة البغاة. وكانت توجَّه إلى الروضة الشريفة من أطراف العالم الإسلامى رسائل نبوية مماثلة لما قدمناه ممجدة له ومتشفعة إليه فى الأغراض الدنيوية والأخروية، غير أنها كثرت فى الأندلس لبعد الديار واتصال الحروب هناك مع أعداء الدين الحنيف، وحرىّ بنا أن نتوقف قليلا عند ابن الجنان.

ابن[1] الجَنَّان

هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الأنصارى المعروف باسم ابن الجنان، من أهل مرسية فى شرقى الأندلس نشأ بها وحفظ القرآن الكريم واختلف إلى حلقات شيوخها ونهل منها كل ما استطاع من علوم دينية وآداب عربية، وفيه يقول ابن الخطيب: «كان محمد راوية ضابطا، كاتبا بليغا وشاعرا بارعا» ويقول الغبرينى: «كان من أهل الرواية والدراية والحفظ والإتقان فقيها وكاتبا بارعا وأديبا». وكان مفرطا فى القصر حتى يظن مبصره أنه طفل ابن ثمانية أعوام. ولفضله وأدبه استكتبه المتوكل بن هود حين ملك مرسية سنة ٦٢٥. وضاق بهذا العمل فتركه وحين تمكن العدو من قبضته على مرسية، سنة ٦٤٠ خرج منها واستقر بمدينة أريولة شمالى مرسية. وسمع به ابن خلاص صاحب سبتة على الزقاق، فاستدعاه، ولبىَّ دعوته، وأكرمه وحظى عنده، ونراه يتوجه إلى مدينة بجاية بإفريقية ويستقر بها إلى أن لبَّى نداء ربه فى عشر الخمسين وستمائة.

وكان ابن الجنان شاعرا مبدعا كما كان كاتبا محسنا، ويقول ابن الخطيب «له فى الزهد ومدح الرسول ﷺ بدائع، ونظَم فى المواعظ للمذكرين كثيرا» وأنشد المقرى له فى الجزء السابع كثيرا من مدائحه النبوية، وهو يسترسل فيها متحدثا عن شمائل الرسول وخصاله الكريمة ومعجزاته الباهرة ونبوته وقدسيته ومرتبته العليا بين الرسل وشفاعته لأمته يوم الحشر، وينشد له المقرى مخمسا نبويا طريفا يستهله على هذا النحو:

الله زادَ محمـدًا تكـريمـا ... وَحَبَاهُ فَضْلاً من لَدُنْه عظيما
واختصَّه فى المرسلينِ كريما ... ذا رَأْفـةٍ بـالمؤمنين رحيمـا
صَلُّوا عليه وسَلِّموا تسليما

---

(١) انظر فى ترجمة ابن الجنان ورسائله ومواعظه ومدائحه النبوية الإحاطة ٣٤٨/٢ وعنوان الدراية للغبرينى ٢١٣ ونفح الطيب ٤١٥/٧ وما بعدها.

ويضيف إلى هذا الدور فى المخمس نحو ثلاثين دورا، والمخمس يسيل سلاسة وعذوبة، وأدواره تختتم بقوله: «صلوا عليه وسلموا تسليما». ولا تقل روعةً عن مدائح ابن الجنان للرسول عليه السلام رسائله ومواعظه النبوية. ومن أروعها رسالة احتفظ بها المقرى كتب بها من الأندلس إلى سيد الكونين صلى الله عليه وسلم، وفيها يقول:

«السلامُ العميمُ الكريمُ، والرحمةُ التى لا تَبْرَحُ ولا تَرِيمُ[1]، والبركةُ التى أولها الصلاةُ وآخرها التسليمُ، على حضرة الرِّسالة العامَّة الدعوة والنبوَّة، المؤيدة بالعِصْمة والأَيْدِ والقوة، ومَثابةِ البرِّ والتقوى، فهى لقلوب الطيبين صَفًا ومَرْوَة[2] مقرّ الأنوار المحمدية، والبركات السَّرْمَدِيَّة، أَمْتَعَ الله الإسلامَ والمسلمين بحراسةِ أضوائِها، وكَلاءَةِ[3] ظِلالها العليَّة وأَفْيَائِها[4]، وأقر عَينْ عَبْدِها بِلَثْم ثَراها، والانخراط فى سِلْكِ مَنْ يراها. السلامُ عليك يا محمد، السلام عليك يا أحمدُ، السلام عليك يا أبا القاسم سلام مَنْ يمدّ إليك يَدَ الغريق، ويرجو الإنقاذ ببركتك من نَكَدِ المضيق، ويتقطَّع أسفًا ويَتنفَّس صُعُدًا[5] كلما ازدلف[6] إليك فريق، وعَمَرتْ نحوك طريق، ولا يَفْتُر صلاةً عليك له لسانٌ ولا يجفُّ ريق: كتبته يارسول الله وقد رحل المجدّون وأقمتُ، واستقام المستعدون وما استقمتُ، وبينى وبين لَثْم ثَراك النبوىِّ، ولَمْحِ سَنَاك المحمدىِّ مفاوزُ وكلما رُمتُ المَتاب رُدِدْتُ، وكلما يَمَّمْتُ الباب صُدِدْتُ.. وحقك وهو الحق الأكيد والقسم الذى يبلغ به المُقْسم ما يريد، ما وَخَدَتْ[7] إليك ركابٌ، إلا وللقلب إِثْرَها التهاب، وللدمع بعدها سَحٌّ وانسكاب، وياليتنى ممن يزورك معها ولو على الوَجْنَتَيْن، ويحيِّيك بين رَكْبها ولو على المُقْلَتَيْن.. ثم السلام ورحمة الله تعالى وبركاته عليك ياسيدَ الخلق، وأقربَهم من الحق، ومن طهَّر الله تعالى مَثْواه وقدَّسه، وبناه على التقوى والرضوان وأَسَّسَه، وآتاه من كل فضل نبوى أعلاه وأَسْناه وأنفسَه.. كتبه عبدك المستمسك بعُرْوَتِكَ الوُثْقَى، اللائذ بحرَمك الأمتع الأَوْقى، المتأخر جسما المتقدم نطقا، والسلام عليك يارسولَ الله ﷺ تسليما كثيرا ورحمة الله تعالى وبركاته».

والرسالة تموج بالعذوبة فى اللفظ والصياغة، مع ما تصور من لواعج الشوق المضطرم فى صدر ابن الجنان لزيارة قبر الرسول القدسى ولثم ثراه العطر والإلمام بفنائه السنىّ

(١) تريم: تبرح.
(٢) السعى بين الصفا والمروة من شعائر الحج وفروضه والتشبيه واضح.
(٣) كلاءة: حفظ.
(٤) أفيائها: ظلالها.
(٥) يتنفس صعدا: يتنفس مع مشقة ووجع.
(٦) ازدلف: دنا وقرب.
(٧) وخدت: أسرعت.

وإن قلبه ليتقطع أسى وإنه ليتنفس الصعداء حين يرى الحجاج الأندلسيين من دونه يسيرون فى قوافلهم إلى بيت الله الحرام وزيارة الرحمة المهداة للأمة الذى أرسله الله نورا وضَّاء للعالمين. ويفضى ابن الجنان إلى أسى ولوعة عميقين، حتى ليشعر كأن الدنيا تحولت من حوله إلى سجن رهيب وأغلال وأصفاد، فلا يستطيع فكاكا ولا لحاقا بالقوافل المتجهة إلى الأراضى المقدسة فى الحجاز. ويذرف الدمع مدرارا، ويتمنى لو زار الرسول ﷺ لا على قدميه بل على وجنتيه، حتى تكتحل عيناه بسنى النور المحمدى. وروى المقَّرى له موعظة بديعة فى فضل الرسول وما أنعم الله به على البشر من رسالته الزكية وما أجرى عليه من معجزات فيها الآيات الكُبَر والدلالات الواضحة الغُرر، ويتلو المقرى هذه الموعظة بموعظة ثانية يتحدث فى نهايتها عن مصاب المسلمين بوفاة الرسول ﷺ وكيف عزَّهم الصبر، يقول: «وهل يسوغ الصبر الجميل فى فقيد بكته الملائكة وجبريل، وكثر له فى السموات السبع النحيب والعويل، وانقطع به عن الأرض الوحى الحكيم والتنزيل؟. ويصور ابن الجنان كيف عمَّ حينئذ الحزن والاكتئاب، وكأنما دموع الصحابة السحاب، ويقول إن الله عز شأنه سينجز وعده له بالشفاعة وقيامه المقام الموعود على الحوض يوم القيامة مناديا فى الناس هلموا إلى لتطفئوا حرارة العطش الملتهب فى الصدور، ويتجه ابن الجنان إلى ربه داعيا:

«اللهم اسْقِنا من حَوْضه المورود، وشرِّفنا بلوائِه المعقود، وشفِّعه فينا فى اليوم المشهود، وارحمْنا به إذا صِرْنا تحت أطباقِ اللُّحود، وانفعنا بمحبته ومحبة آله وصحابته الرُّكَّعِ السُّجود، واجعلنا معهم فى الجنة دارِ السلام ودارِ الخلود».

وبهذه اللغة الصافية التى تموج بالرقة والعذوبة والتى تلذ الألسنة حين تنطق بها والأسماع حين تنصتُ إليها كان ابن الجنان يمتع القلوب والأفئدة.

(ب) مواعظ

كانت الأندلس - مثل غيرها من البلدان الإسلامية - تكثر فيها المواعظ الدينية شفوية ومكتوبة، وكان من أهم البواعث لذلك الخطابة فى المساجد أيام الجمعة والعيدين واستشعار الخطباء هناك لخطابة الرسول والخلفاء الراشدين ومن تلاهم من جِلَّة الخطباء والوعاظ ممن حكي الجاحظ وعظهم وخطابتهم فى كتابه البيان والتبيين، وكثيرٌ هم الأندلسيون الذين تُذْكَرُ فى تراجمهم أن لهم خطبا ومواعظ مدونة، وأشهر خطباء الدولة

الأموية بالأندلس ووعاظها منذر بن سعيد، وسنخصه بكلمة. وكان يحدث كثيرا أن يتأخر المطر الذى يبعث الحياة فى الوديان والسهول والزروع، فكان الناس يجتمعون فى المساجد لصلاة الاستسقاء، ويقف بينهم الخطيب واعظا مذكرا بنعم الله عليهم مفيضا فى الحديث عن الإنابة إلى الله، داعيا الله دعاء مكررا: أن يرسل عليهم الغيث. وفى الكثرة الكثيرة من تلك الصلوات كانوا يغاثون ولا ينصرفون من المساجد إلا وأحذيتهم فى أيديهم من كثرة السيول التى تدافعت من السماء. ويتوقف أصحاب كتاب التراجم مرارا وتكرارا فى ترجماتهم للقضاة ممن كانت تسند إليهم خطابة الجامع الكبير، ليحدثونا عن صلاتهم مع أهل قرطبة لاستنزال الغيث، وبينما الخطباء يلحّون بالدعاء كان الناس يكثرون من الضجيج والابتهال، وتشملهم رحمة الله فتنعقد السحب وتُبْرِق وتَرْعد ويهطل الغيث مدرارا.

وبجانب هؤلاء الخطباء الوعاظ ومواعظهم وأدعيتهم كان هناك زهاد أُثرت عنهم مواعظ وأدعية كثيرة مثل أبى وهب العباسى المعاصر لمنذر بن سعيد المتوفى سنة ٣٤٤ المار ذكره. ويدور بنا الزمن دورة ونصبح فى عصر أمراء الطوائف، ونلتقى فيه بمواعظ كتابية تحبّر فيها رسائل بديعة. وهى رسائل وعظية تتقدم خطوة - إن لم تكن خطوات - نحو المتاع الروحى والشوق إلى اللقاء الربانى والانقطاع إلى النسك والعبادة للحى القيوم عن كل متاع دنيوى. ونحسُّ كأن الأندلس أخذت تتجه بقوة إلى النزوع الصوفى على نحو ما يلقانا فى رسالة كتبها الفقيه أحمد بن عيسى الإلبيرى سنة ٤١٦ إلى بعض إخوانه، وكان من أفراد الزهاد، وفيها يقول لصاحبه(١):

«هيَّأتْك يَدُ القدرة هَيْئَة روحانية، وأحياك رُوحُ القُدُس حياةً إلهية، وألبستْك الشريعةُ لباسَ التَّقْوَى، ورَاشَتْكَ الطبيعةُ بريشِ النُّهى(٢)، حتى تطيرَ مع الروحانيين فى مجالِ الصِّدِّيقين إلى منازل المقرَّبين، فتذوق بَرْدَ عَيْش النعيم، وتلَذَّ بالنظر إلى وَجْه القَيُّوم، وتشتاق إلى لقاءِ الربِّ الرحيم.. وإن لله يا أخى عبادًا أقام أرواحهم بقَيُّوميَّته على صراط مستقيم، فمشت بأقدام الصدقِ إلى الحق، فدنت منه ونظرت إليه على جلاله، فى اتساع كماله، فضعفتْ لكبر سلطانه، ثم أفاقت بالإسلام ونطقت بالإيمان، واتصلت بالقرآن، وعلَّمها ففازت بالحكمة، وانقطعتْ إليه بالكلية، ودانتْ له بالحنيفية،

---

(١) راجع فى النص الذخيرة ٨٤٧/١ وما بعدها.

(٢) النهى: العقل.

فآواها إلى كَنَفه، ونعَّمها بطرائف تُحَفه، وأطلع لها السِّرَّ، وأكمل لها البِرَّ، فحَيِيَتْ بقربه، وشربت بكأس حُبِّه».

والنزعة الصوفية ماثلة فى الرسالة، وهى تعد مقدمة لما سيكون من ازدهار التصوف فى زمن المرابطين والموحدين إذ يظهر فيه كثرة ممن أُشْربوا كأس المحبة الإلهية من أمثال ابن العريف وابن عربى والششترى، ومرت لهم فى الفصل الماضى ترجمات تعرِّف بمنزعهم الصوفى وأهم آثارهم وفيها وعظ كثير. وإذا تركنا المتصوفة ووعظهم إلى الوعظ العام وأهله وجدنا من أدباء الأندلس الذين يجمعون بين نظم الشعر وكتابة النثر طائفة تحاكى أبا العلاء المعرى فى كتابه الوعظى: «ملقى السبيل» وقد جعله على الحروف الأبجدية، وعادة يذكر سجعات قليلة ويتلوها بأبيات بنفس معناها، وربما كان ابن أبى الخصال الذى ترجمنا له فى هذا الفصل أول من حاول محاكاته فى هذا الاتجاه[1]، وكثر بعد ذلك من عارضوه فيه من مثل أبى القاسم السهيلى المتوفى سنة ٥٨١ وسمَّى معارضته له باسم: «حلية النبيل فى معارضة ملقى السبيل[2]» وعارضه سليمان بن موسى الكلاعى المتوفى شهيدا سنة ٦٣٤ باسم «مفاوضة القلب العليل ومنابذة الأمل الطويل بطريقة أبى العلاء فى ملقى السبيل»[3] وغيرهم كثير. ونستطيع أن نقول إن معارضة أبى العلاء فى وعظه بملقى السبيل كانت أشبه بجدول انبثق من نهر الوعظ الكبير. ونلتقى فى عصر المرابطين بأبى بكر الطرطوشى وسنخصه بكلمة.

وكان ابن جبير المتوفى سنة ٦١٤ قد أشاد فى رحلته - كما مر بنا - بابن الجوزى ومواعظه، وحملها عنه بعض الأندلسيين وأكبَّ عليها غير أديب أندلسى يحاكيها على نحو ما يلقانا عند أبى المطرف بن عميرة المترجم له بين الكتاب والمتوفى سنة ٦٥٨ إذ يقول المراكشى: «له فصول وعظية على طريقة الإمام أبى الفرج بن الجوزى» وله قوله من عظة[4]:

«يا أَعْمىَ الهوى غابَ عنك وَضَحُ النهار، طالتْ غيبتُك عنا فأىّ يومٍ تكون فى الزوَّار، العمرُ قد مضى ولم يبق إلا القليل، وأنت تعيش بالمُنَى والتَّعْليل،، أين الإخوان

---

(١) انظر تاريخ الأدب الأندلسى: عصر المرابطين للدكتور إحسان عباس ص ٢٨٧.

(٢) الإحاطة ٤٧٩/٣ وصحفت فيها لفظة «ملقى».

(٣) الذيل والتكملة للمراكشى بقية السفر الرابع ص ٨٦.

(٤) كتاب أبى المطرف بن عميرة ص ٣٠٤.

والأتراب، طاحوا[١] والله وأكلهم التراب، بينما البلبل يغرِّدُ إذ نَعَبَ الغُراب وفجأتِ الفجيعةُ فما لذَّ النومُ ولا ساغ الشراب».

وكان نبعا فياضا فى الوعظ مما جعل بعض الوعاظ يستعينون به فيها يعظون به الناس. ونلتقى بكثير من المواعظ فى دولة بنى الأحمر بغرناطة، ومن كبار الوعاظ فى دولتهم ابن الزيات الكَلاعى المالقى المتوفى سنة ٧٢٨ وله فى الوعظ كتاب «شذور الذهب فى ضروب الخطب»، وروى له لسان الدين بترجمته فى الإحاطة عظة ألغى الألف من حروفها وفيها يقول:

قد نُصِحْتم لو كنتم تعقلون، وهُديتم لو كنتم تَعْلمون، ونُصِرْتم لو كنتمُ تبْصرون، وذُكِّرتم لو كنتم تَذْكرون، وظهرت لكم حقيقةُ نَشْركم[٢]، وبرزتْ لكم خبيئة حَشْركم، فلِمَ تَرْكُضُون فى طَلَقِ[٣] غفلتكم، وتغفلون عن يوم بعثكم، وللموت عليكم سَيْفٌ مسلول، وحكمُ عزم غير مَفلول[٤]، فكيف بكم يومَ يُؤْخَذُ كلٌّ بذنبه، ويُخْبر بجميع كَسْبه، ويفرَّق بينه وبين صحبه، ويعدم نُصْرَةَ حِزْبه، ويُشْغَلُ بهمِّه وكَرْبه، عن صَدِيقه وتِرْبه».

ويسترسل فى مثل هذا الوعظ البسيط الذى ينزلق عن اللسان لخفته ولعذوبته، ولعله من أجل ذلك كان مجلس وعظه يغص بالناس ويزدحمون عليه لسماع مواعظه. وحرى بنا الآن أن نقف قليلا عند الواعظين الجليلين: منذر بن سعيد وأبى بكر الطرطوشى.

منذر بن سعيد البَلُّوطى[٥]

هو أبو الحكم منذر بن سعيد بن عبد الله، ولد سنة ٢٦٥ بموضع فى نواحى قرطبة يسمى فحص البلوط فنسب إليه، وأقبل منذ نعومة أظفاره على الدراسات الدينية واللغوية وبزَّ فيها أقرانه بقرطبة، وفى سنة ٣٠٨ رحل إلى المشرق للحج والتلقى عن علمائه، وعاد إلى قرطبة يحمل عن محمد بن المنذر النيسابورى كتابه الإشراف المؤلف فى اختلاف الفقهاء سمعه منه بمكة، ويحمل أيضا كتاب معجم العين المنسوب إلى الخليل سمعه على أبى العباس بن ولاد بمصر، غير كتب أخرى فى اللغة والفقه والحديث. وأهم

---

(١) طاحوا: هلكوا.
(٢) نشركم: بعثكم.
(٣) طلق: شوط.
(٤) مفلول: مثلوم الحد.
(٥) انظر فى ترجمة منذر ومواعظه طبقات الزبيدى ٣١٩ وابن الفرضى رقم ١٤٥٢ والبغية رقم ١٣٥٦ والجذوة ٣٢٦ والمطمح ٢٧ ومعجم الأدباء ١٧٤/١٩ وإنباه الرواة ٢٢٥/٣ وأزهار الرياض ٢٧٢/٢ ونفح الطيب (انظر الفهرس).

من ذلك أنه حمل مذهب داود الظاهرى وكتبه وظل يؤثره ويحتج لمقالته، مع أنه كان قاضيا فى بعض مدن الأندلس، والقضاء فيها كان مالكيا يلتزم القضاة فيه بمذهب مالك وفتاويه وفتاوى تلاميذه المصريين، واشتهر منذر بأنه إنما كان يأخذ بالمذهب الظاهرى فى نفسه فإذا جلس للحكومة والقضاء بين الناس قضى بينهم وحكم بمذهب مالك الذى استقر عليه العمل فى الأندلس. وثقف فى رحلته الاعتزال كما ثقف المذهب الظاهرى، وكان يحتج له كما يحتج للمذهب الظاهرى دون إفراط، مع الأخذ بالسنة والورع والرد على أهل الأهواء والبدع. وفى سنة ٣٣٠ أتيحت له فرصة عظيمة عندما أقيم بقصر الناصر فى قرطبة حفل استقبال ضخم لسفير بيزنطة الذى جاءه يحمل إليه بعض الهدايا من لدن الإمبراطور، وتقدم ابنه وولى عهده الحكم إلى أبى على القالى العالم اللغوى المشهور، وكان قد وفد على قرطبة ودوَّت شهرته فى الأندلس، فسأله أن يلقى خطبة أمام أبيه يبين فيها فخامة الخلافة الأموية بالأندلس وما تهيأ للناصر من توطيد الحكم فى بلده، فقام القالى وحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبى ﷺ، وأُرْتج عليه وانقطع عن الكلام، فلما رأى ذلك منذر - وكان حاضرا - قام فوصل افتتاحه بخطبة طويلة بليغة على غير أهبة مفتتحا لها بقوله:

«أما بعد حمد الله والثناء عليه، والتعداد لآلائه، والشكر لنعمائه، والصلاة والسلام على محمد صفيِّه وخاتم أنبيائه، فإن لكل حادثة مقامًا، ولكل مقام مقالاً، وليس بعد الحقِّ إلا الضلال، فافقَهوُا عنى بأفئدتكم، إن من الحق أن يقالَ للمحقِّ صدقتَ، وللمبطل كذبتَ.. وإنى أذكرِّكم بأيام الله عندكم وتلافيه لكم بخلافته أمير المؤمنين التى لَمَّتْ شَعَثَكُم، وأَمَّنَتْ سِرْبكم».

ومضى يتحدث عن تلافى الناصر للفتن التى كانت عمت آفاق الأندلس، وفصَّل القول فى انتصاراته وفتوحاته وعدالته وما حظيت به الدولة لعهده من مكانة جعلت الروم يخطبون مودتها. وينصح الناس بالتزام الطاعة لخليفتهم وابن عم نبيهم الناصر، ويختم خطبته بالحمد لله والاستغفار. وبهرت الخطبة المجتمعين وخرجوا يتحدثون عن بلاغة منذر وحسن بيانه وثبات جَنانه، وأُعْجب به الناصر إعجابا شديدا، فولاه الصلاة والخطابة بمسجده الجامع فى مدينته الزهراء التى بناها بجوار قرطبة، ثم ولاه قضاء الجماعة، فأصبح قاضى القضاة فى الأندلس جميعا، وظل على ذلك فى حكم الناصر وحكم ابنه الحكم إلى أن توفى سنة ٣٥٥. وكان الناصر قد مضى فى بناء مدينته الزهراء وتأنق فيها

ما وسعه التأنق على نحو ما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع، فرأى منذر أن يتناوله فى خطبة الجمعة بالموعظة الحسنة رجاء إنابته ورجوعه عن هذا السرف المفرط.

وابتدأ منذر موعظته بقول الله تعالى شأنه: ﴿أَتَبْنُونَ بكل رِيعٍ[1] آيةً تَعْبَثُونَ وتَتَّخذون مصانع[2] لعلكم تخلدون﴾ ثم قال: ولا تقولوا: ﴿سواءٌ علينا أَوَعَظْتَ أم لم تكنْ من الواعظين﴾ ﴿فمتاعُ الدنيا قليل والآخرة خَيْرٌ لمن اتَّقى﴾ ومازال يصل ذلك بكلام مؤثر فى ذم تشييد البنيان وزخرفته والإسراف فى الإنفاق عليه، واستشهد بقوله تعالى: ﴿أفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَه على تَقْوى من الله ورِضْوانٍ خَيْرٌ أم من أسَّسَ بُنْيانه على شَفَا جُرُفٍ هارٍ فانهارَ به فى نار جهنم والله لا يَهْدى القومَ الظالمين﴾ ومضى منذر يدعو إلى الزهد فى الدار الفانية والإعراض عنها وطلب ما عند الله من فراديس الجنان وأسهب فى ذلك حتى تأثر المستمعون وضَجُّوا بالبكاء، ودَعوا الله تائبين مستغفرين وبكى الناصر واستعاذ من سخط الله وغَضَبه. ولمنذر مصنفات من أهمها: «أحكام القرآن» وكان شاعرا، أما العظات فلعل واعظا فى وطنه لم يبلغ فيها مبلغه فى زمنه، وكانت له خطب مجموعة ومتداولة فى الأندلس تحمل وعظا كثيرا، ومن عظاته قوله:

«حتى متى وإلى متى أَعِظُ غيرى ولا أتَّعِظُ وأَزْجرُه ولا أَزْدَجِرُ، أدلُّ على الطريق المستدِلِّين، وأَبْقَى مُقيما مع الحائرين، كلا إن هذا لهو البلاء المبين ﴿إن هى إلا فتنتُك تُضِلُّ بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت وليُّنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين﴾. اللهم فَرِّغْنى لما خلقتنى له، ولا تَشْغَلْنى بما تكفَّلتَ لى به، ولا تَحْرِمْنى وأنا أسألك ولا تعذِّبْنى وأنا أستغفرك ياأرحمَ الراحمين».

أبو[3] بكر الطُّرْطوشى

هو أبوبكر محمد بن الوليد القرشى الطُّرْطوشى الأندلسى ولد فى سنة ٤٥١ بطرطوشة فى أعلى الشرق من الأندلس على البحر المتوسط، ويعرف بابن أبى رَنْدقة، ويبدو أنها كنية شُهر بها فيما بعد، وقد تخرج على يد أبى الوليد الباجى بسرقسطة، أحد

(١) ريع: المرتفع من الأرض وكان الناصر قد بنى الزهراء بضاحية قرطبة على جبل العروس.
(٢) مصانع: مبان من القصور والحصون.
(٣) انظر فى ترجمة الطرطوشى ومواعظه الصلة ٥١٧ وبغية الملتمس رقم ٢٩٥ والمغرب ٢/٤٢٤ وابن خلكان ٤/٢٦٢ والديباج المذهب ٢٧٦ وعبر الذهبى ٤/٤٨ وأزهار الرياض ٣/١٦٢ والشذرات ٤/٦٢ وحسن المحاضرة ١/١٩٢.

كبار المالكية فى أواخر عصر أمراء الطوائف إن لم يكن أكبرهم، وقد أخذ عنه مسائل الخلاف وغيره من كتبه الكثيرة وأجاز له روايتها عنه. ورحل إلى المشرق سنة ٤٧٦ وحجَّ ودخل بغداد والبصرة، وسمع من جِلَّة الشيوخ فى البلدتين، وسكن الشام مدة ودرَّس بها، ثم سكن مصر واستقر بثغر الإسكندرية إلى أن توفى بها سنة ٥٢٠. وكان وَرِعا متقشفا متقللا من الدنيا راضيا منها باليسير، ودخل على الأفضل بن بدر الجمالى وزير الفاطميين (٤٨٧ - ٥١٥ هـ) فوعظه حتى بكى، وكان مما وعظه به:

«إن الأمر الذى أصبحت فيه من الملك إنما صار إليك بموتِ مَنْ كان قبلك، وهو خارجٌ عن يدكِ بمثلِ ما صار إليك فاتَّق الله فيما خوَّلك من هذه الأمَّة، فإن الله - عز وجلّ - سائلُك عن النَّقير[١] والقِطْمير والفَتيل، واعلم أن الله - عز وجل - آتى سليمان بن داود مُلْكَ الدنيا بحذافيرها فسخَّر له الإنسَ والجنَّ والشياطين والطيرَ والوحش والبهائمَ، وسخَّر له الريحَ تجرى بأمره رُخاءً[٢] حيث أصاب، ورفع عنه حِساب ذلك أجمع، فقال عزَّ من قائل: ﴿هذا عطاؤنا فامْنُنْ أو أمْسِكْ بغير حساب﴾ فما عدَّ ذلك نعمة كما عددتموها، ولا حَسِبها كرامة كما حسبتموها، بل خاف أن يكون ذلك استدراجا من الله عز وجَلّ، فقال: ﴿هذا من فضل ربى لِيَبْلُوَنِى أأشكُر أم أكفرُ﴾ فافتح البابَ، وسَهِّل الحِجابَ وانْصُرِ المظلوم».

وللطرطوشى مؤلفات مختلفة منها الكتاب الكبير فى مسائل الخلاف وكتاب مختصر تفسير الثعالبى وكتاب بدع الأمور ومحدثاتها وكتاب شرح رسالة ابن أبى زيد فى الفقه المالكى، وأشهر كتبه كتاب سراج الملوك الذى ألفه للمأمون البطائحى وزير الفاطميين بعد الأفضل بن بدر الجمالى (٥١٥ - ٥١٩ هـ) وهو وعظ للملوك والحكام وبيان لما ينبغى أن يتحلوا به من الأخلاق والسياسة الرشيدة فى الحكم، ويبين فى مقدمته منهجه فيه وغايته قائلا:

«جمعتُ محاسنَ ما انطوى عليه سِيَرُ مُلوكِ سِتٍّ من الأمم، وهم العرب والفرس والروم والهند والسِّنْد والسندهند، فنظَّمت ما ألفيت فى كتبهم من الحكمة البالغة والسِّيَر المستحسنة والكلمات اللَّطيفة والظريفة المألوفة.. إلى ما رَأَيْته وجمعته من سِيَرِ الأنبياء عليهم السلام وآثار الأولياء وبراعة العلماء وحكمة الحكماء ونوادر الخلفاء وما انطوى

---

(١) النقير: ما نقر فى نواة التمر، والقطمير: القشرة الرقيقة على النواة، الفتيل: الخيط فى شق النواة والمراد أنه يُسْأل عن أصغر الأشياء.

(٢) رخاء: لينة.

عليه القرآن العزيزُ الذى هو بَحْرُ العلوم وينبوعُ الحكم ومعدنُ السياسات ومَغَاصُ الجواهِر المكنونات.. الهادى من الضلالة والحاوى لمحاسن الدنيا وفضائل الآخرة».

وقد جعل الطرطوشى الكتاب فى أربعة وستين بابا خصَّ أولها بمواعظ الملوك وثانيها بمقامات العلماء والصالحين عند الأمراء والسلاطين. وتتوالى الأبواب فى الخصال التى ينبغى أن يتصف بها الحكام والقضاة وغيرهم ممن يلون شئون الناس، ومن قوله فى الباب الأول واعظا للملوك:

«اعتبِرْ بمن مضى من الملوك والأقْيال، وخَلَا من الأمم والأجيال، وكيف بُسطَتْ لهم الدنيا وأُنسِئَتْ لهم الآجال، وانفسح لهم فى المنى والآمال، وأُمِدُّوا بالآلات والعدُد والأموال، كيف طحنهم بِكَلْكَلِهِ المَنُون[1]، واختدعهم بزخرفه الدهر الخَئُون، وأُسكنوا بعد سَعة القصور بين الجنادل والصخور.. أما ترى الدنيا تقبل إقبال الطالب، وإدبارها فجيعة، ولذَّاتها فانية، وتَبِعاتها باقية، فاغتنمْ غفوةَ الزمان، وانتهزْ فرصةَ الإمكان، وخذ من نفسك لنفسك، وتزوَّدْ من يومك لغدك، ولا تنافسْ أهل الدنيا فى خَفْض عيشهم ولِين رِياشهم[2] ولكن انظر إلى سرعة ظَعَنِهم وسوء مُنْقلبهم»

ولم يكد يترك الطرطوشى خبرا أو عظة للرسول عليه السلام والرسل الكرام والخلفاء الراشدين ومن عاصروهم وجاءوا بعدهم من الزهاد والأتقياء البررة والعبَّاد والصالحين الأطهار إلا دوَّنها فى كتابه مع ما ساقه فى تضاعيفه من عظاته التى تموج بها صفحاته. وهو بحق فى الذروة من الوعظ والإرشاد للناس جميعا حكاما وغير حكام.

٤

أعمال نثرية

تتميز الأندلس بنفوذها إلى أعمال نثرية بديعة سقط كثير منها من يد الزمن، وبقيت منها إلى اليوم بقية رائعة، بين اعترافات عاطفية كما فى طوق الحمامة لابن حزم، وكتابات تاريخية كما فى المقتبس لابن حيان والذخيرة لابن بسام، ومذكرات لسيرة ذاتية كما فى مذكرات عبد الله بن بُلقِّين أمير غرناطة، وقصص خيالية فلسفية كقصة حى بن يقظان لابن طفيل، وحرى بنا أن نلم بهذه الأعمال فى كلمات مجملة.

---

(١) الكلكل: الصدر والمراد الثقل. المنون: الموت.

(٢) الرياش: الأثاث الفاخر.

طوق الحمامة لابن حزم

ابن حزم[١] هو أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم، من أسرة كانت تنتسب إلى جد فارسى من موالى بنى أمية وزعم ابن حيان أن أسرته إسبانية من عجم لَبْلة وأنها حديثة العهد بالإسلام، فجده الأدنى أول من أسلم من آبائه. ويبدو أنه لم يعرف جذور أسرته معرفة دقيقة، إذ تجمع كتب التراجم على سلسلة من النسب له، يتصل فيها أجداد مسلمون حتى ينتهوا به إلى جد فارسى أعلى كان مولى ليزيد بن أبى سفيان، ويقول صاحب المعجب إنه قرأ هذه السلسلة بخطه على ظهر كتاب من تصانيفه، ونَصَّ ابن حزم على نسبته الفارسية وولائه لبنى أمية قائلا:

سَمَا بىَ ساسانٌ ودارا وبعدهم ... قُرَيْشُ العلا أَعْياصُها والعَنابِسُ

وهو فى الشطر الأول ينسب نفسه إلى دارا وملوك الفرس الساسانيين، وفى الشطر الثانى ينتمى بالولاء إلى بنى أمية، وكان لأمية ستة أبناء من العنابسة وخمسة من الأعياص. وسنعرف عما قليل عن ابن حزم كيف كان يأخذ نفسه بالصدق والتدين العميق، مع ما يضاف إلى ذلك من أنه لا يوجد أى مبرر لكى يرجِّح نسبته إلى عجم الفرس على نسبته إلى عجم الإسبان، مع ما ضم إلى ذلك من اعترافه بالولاء لبنى أمية، وظل مشايعا لهم حتى الأنفاس الأخيرة من حياته، وربما كان ذلك ما أثار ابن حيان ضده، محاولا أن يخلعه من ولائه وولاء أبيه للأمويين.

---

(١) انظر فى ترجمة ابن حزم ودراسته الحميدى فى الجذوة ص ٢٩٠ والذخيرة ١٦٧/١ والمطمح ص ٥٥ والبغية للضبى ص ٤٠٣ والصلة ٤٠٨ والمعجب ٩٣ وطبقات الأمم لصاعد ص ١١٧ والمغرب ٣٥٤/١ ومعجم الأدباء ٢٣٥/١٢ والقفطى فى تاريخ الحكماء ص ٢٣٢ وابن خلكان ٣٢٥/٣ والذهبى فى تذكرة الحفاظ ٣٤١/٣ وعبر الذهبى ٢٣٩/٣ وابن شاكر فى الفوات ٢٧١/٢ والشذرات ٢٩٩/٣. وكتبت عن ابن حزم دراسات كثيرة، وراجع فيه تاريخ الفكر الأندلسى لبالنثيا ص ١٤، ٧٤ - ٧٧، ٢١٣ - ٢٣٩، ٤٢٦ وكتابات د. إحسان عباس فى تاريخ الأدب الأندلسى: عصر سيادة قرطبة ص ٢٤٥ - ٢٦٤ ومقدماته لما نشر من رسائله وكتاب ابن حزم: حياته وعصره لمحمد أبى زهرة ودراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة للدكتور الطاهر مكى (طبع دارالمعارف) وابن حزم صورة أندلسية للدكتور الحاجرى وابن حزم الأندلسى: حياته وأدبه للدكتور عبدالكريم خليفة. وفى كتاب طوق الحمامة انظر مقدمته فى تحقيق الدكتور الطاهر مكى (طبع دارالمعارف) وعرضه فيها لآراء المستشرقين وما ذكره فى هوامش تحقيقه للكتاب من تأثيرات موضوعاته فى الأدب الإسبانى. وانظر كتاب ألوان للدكتور طه حسين (الطبعة السادسة فى دار المعارف) ص٩٩ وما بعدها.

وكانت أسرة ابن حزم تعيش فى قرية تملكها تسمى مُنْت ليشَم من قرى مدينة لَبْلة على بعد خمسين كيلو مترًا غربى إشبيلية، وبها وُلد أبوه أحمد، ورحل منها مبكرا إلى قرطبة، ليحرز لنفسه ما استطاع من الثقافة، وسرعان ما لمع بين أقرانه بقدرته الأدبية وبلاغته ومعرفته بالتاريخ. وتعرَّف عليه ابن أبى عامر حاجب الخليفة المؤيد أثناء الطلب والتلمذة، وكان يعجب به، فاتخذه وزيرا له سنة ٣٨١ مما جعله يسكن فى الجانب الشرقى من قرطبة بناحية الزاهرة مدينة أبى عامر ومجمع قصوره. وأقصاه فترة عن وزارته للنظر فى كُوَر غربى الأندلس، ثم أعاده إلى الوزارة. وبلغ من ثقته به أن كان يستخلفه حين مغيبه عن قرطبة، ووزر من بعده لابنه عبد الملك المظفر. ورزقه الله بابنه على سنة ٣٨٤ ووكل تربيته فى صباه إلى جوارى قصره وكنَّ على حظ كبير من الثقافة الأدبية – شأن أمثالهن من الجوارى فى قرطبة ومدن الأندلس – وفى ذلك يقول ابن حزم فى كتابه «الطوق»: «لقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن ما لايكاد يعلمه غيرى، لأنى رُبِّيت فى حجورهن، ونشأت بين أيديهن، ولم أعرف غيرهن، ولا جالست الرجال إلا وأنا فى حَدِّ الشباب وحين أبقل وجهى (نبت الشعر فيه) وهنَّ علَّمْننى القرآن وروَّيننى كثيرا من الأشعار ودرَّبْنَنِى فى الخط». وجعلتْه هذه النشأة يستشعر مبكرا عاطفة الحب لمن كن فى سنه من الجوارى، ويقول فى الطوق إنه أحب حينئذ جارية شقراء فما استحسن بعدها سوداء الشعر أبدا. وظل يختلط بهؤلاء الجوارى ويعيش معهن كما يقول إلى حد الشباب وحتى أصبح يافعا فى سن الثانية عشرة أو بعدها بقليل إذ يذكر أن أباه اصطحبه إلى مجلس الحاجب المظفر بن المنصور بن أبى عامر سنة ٣٩٦. ولم يلبث أن أخذ يتتلمذ للشيوخ وفى مقدمتهم ابن الجسور المتوفى سنة ٤٠٠ وعنه أخذ الحديث النبوى وتاريخ الطبرى وكان لايزال فى سن مبكرة. وكثيرا ما كان يرافق أباه فى مجلس وزارته ويستمع إلى مادحيه من الشعراء ويحفظ بعض أشعارهم، وكان أبوه لايزال يسكن الجانب الشرقىَّ من قرطبة، حتى إذا بدأت الفتنة الكبرى سنة ٣٩٩ رأى أن يتحول عن دوره المحدثة فى هذا الجانب إلى دورهم القديمة فى الجانب الغربى من قرطبة، وكان الخليفة المؤيد هشام قد عُزل وأعيد سريعا، فاتهمه بمساعدته للثائرين ضده واعتقل وأُغْرم إغراما ماليا فادحا، وتوفى سنة ٤٠٢.

وظل الفتى على فى هذه الأثناء يتابع دروسه على الشيوخ وقراءاته. ويتزوج من جارية له كَلِفَ بها تسمى نُعْما كانت غاية فى الحسن خَلْقا وخُلقا، ولم يلبث القدر أن فجعه فيها وهو دون العشرين فالتاع لوعة شديدة، حتى ليقول إنه أقام بعدها سبعة أشهر لا يتجرد

عن ثيابه حزنا عليها ولا تفتر له دمعة، ويقول إنه لم يطب له عيش بعدها. وكانت أحواله المادية قد تمادت فى السوء بعد وفاة أبيه ففارق قرطبة سنة ٤٠٤ إلى المرية عند حاكمها خيران أحد فتيان المنصور بن أبى عامر، ووُشى به إليه فاعتقله أشهرا ثم ردَّ إليه حريته فبارح المرية إلى حصن القصر وظل به أشهرا وغادره إلى بلنسية وأميريها مبارك والمظفر من فتيان العامريين، إذ سمع أنهما يشايعان أمويا بايعاه بالخلافة وتلقب بالمرتضى، فأسرع إليهما، ولم يلبث أن زحف معهما بالمرتضى إلى غرناطة للاستيلاء عليها سنة ٤٠٩ والانقضاض منها على قرطبة التى كانت قد أصبحت فى قبضة القاسم بن حمود. ولم يتحقق الحلم، فقد هُزم المظفر ومبارك وقتل المرتضى. وعاد ابن حزم إلى قرطبة، ورأى دورهم وأكثر دور الأمويين والعامريين أصبحت أطلالا داثرة فبكاها طويلا، وتفرغ لالتهام العلوم من لغوية ودينية وفلسفية. وفى سنة ٤١٤ تولى زمام الخلافة صديقه المستظهر الأموى فاتخذه وزيرا له مع خِدْنه ابن شهيد، وسرعان ما يقتل المستظهر بعد نحو شهر ونصف من خلافته، ويَعْتقل الخليفةُ الجديد المستكفى ابنَ حزم فترة، وتُرَدّ إليه سريعا حريته.

وعرف ابن حزم أنه لم يخلق للسياسة، ففارقها إلى غير مآب، وانقضّ على المعارف من كل لون انقضاض الوحش على فريسته، بحيث أصبح أكبر عقل مفكر أهداه عصر أمراء الطوائف إلى الإسلام والعروبة، وفيه يقول ابن حيان: «كان حامل فنون من حديث وفقه وجدل ونسب وأدب مع المشاركة فى كثير من أنواع التعاليم القديمة من المنطق والفلسفة» ويقول ابن بشكوال فى كتابه الصلة: «كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام وأوسعهم معرفة مع توسعه فى علم اللسان ووفور حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والأخبار» ويقول ابنه الفضل: إن مجموع مؤلفاته فى الفقه والحديث والأصول والتاريخ والنحل والملل والنسب والأدب والرد على معارضيه نحو أربعمائة مجلد فى قريب من ثمانين ألف ورقة. وبدأ حياته مالكيا ثم انتقل إلى مذهب الشافعى فترة ثم تركه فى أوائل الثلاثينيات من عمره إلى مذهب داود الظاهرى، وتنقل فى مدن الأندلس يناضل عنه ويكتب فيه بحيث أصبح إمامه الحقيقى، كما كان يناضل عن الإسلام أرباب الملل من اليهود والنصارى. وتتعدد مؤلفاته تعددا واسعا، منها فى الفقه كتاب الإبطال فى مناقشة الأصول الخمسة عند الشافعية والحنفية وهى القياس والرأى والتعليل والاستحسان والتقليد محاولا نصرة مذهبه الظاهرى، وكتاب الإيصال فى فقه الحديث وفيه يورد أقوال الصحابة والتابعين فى مسائل الفقه مع بيان الحجة لكل رأى،

وكتاب المحلَّى فى المذهب الشافعى، وكتاب مراتب الإجماع، وكتاب حِجَّة الوداع. ومنها فى التاريخ جوامع السيرة النبوية وكتاب جمهرة الأنساب ورسالة نقط العروس ورسالة فضل الأندلس وهى تسجل ما لعلمائها وأدبائها من مصنفات وأعمال. ومنها فى المنطق كتاب التقريب لحدوده. ومنها فى تاريخ الأديان كتابه «الفصل فى الملل والأهواء والنحل» وهو به يعد واضع علم المقارنة بين الأديان الذى لم يعرفه الغرب إلا فى منتصف القرن التاسع عشر، وفيه يبين بأدلة دامغة كيف حُرِّفت الكتب المقدسة عند اليهود والنصارى مبطلا لآرائهم العقيدية، ويعرض فى تفصيل لأركان العقيدة الدينية القويمة (عقيدة الإسلام) من التوحيد والإيمان والوعد والوعيد والقدر والإمامة، مما انتفع به فيما بعد توماس الإكوينى فى كتابه خلاصة علوم الدين. ومن كتبه النفيسة فى الأصول كتابه الإحكام فى أصول الأحكام» ومرَّ بنا فى الفصل الثانى أنه أشار فى مقدمته إلى القرابة اللغوية بين العربية والسريانية والعبرية وأن العربية الشمالية العدنانية لغة مضر وربيعة تخالف العربية الجنوبية لغة حمير اليمنية. وبذلك يعد - كما أسلفنا - واضع الأساس لعلم فقه اللغة المقارن فى العربية كما وضع علم الأديان المقارن قبل أن تعرفهما أوربا بقرون. ومن المؤكد أن كتبه كانت فى مقدمة الكتب التى عنيت مدرسة طليطلة منذ القرن الثالث عشر الميلادى بترجمتها إلى اللاتينية. وله رسائل كثيرة نشر منها الدكتور إحسان عباس طائفة، ومن أهم رسائله رسالته فى الأخلاق والسير ومداواة النفوس، وقد حققها الدكتور الطاهر مكى ونشرها بدار المعارف، وبها مبادئ تتصل بسيرته وسيرة الناس فى عصره، وفيها يصور الفضائل والرذائل الخلقية مضيفا إليها بعض اعترافات فى تواضع وإخلاص، ويبدو أنها مما ترجم من آثاره إلى اللاتينية، إذ نجد على مثالها أو قريبا منها مقالات فى الأخلاق لبيكون المعروف بصلته بترجمات طليطلة. وظل ابن حزم يطوف بمدن الأندلس ناشرا علمه ومذهبه الظاهرى فى الفقه، وله مناظرة مشهورة مع الفقيه المالكى أبى الوليد الباحى فى جزيرة ميورقة سنة ٤٥٢. وكان فقهاء المالكية لايزالون ينفرون من كتبه، مما جعل المعتضد بن عباد أمير إشبيلية يأمر بحرق طائفة منها لقصر نظره. ورأى بأخرة العودة إلى قرية آبائه منت ليشم، ويبدو أنه كان يعود إليها قبل ذلك كثيرا وبها توفى سنة ٤٥٦.

وكتابه طوق الحمامة فى الألفة والألاف ألفه فى سكناه بشاطبة سنة ٤١٨ أو ٤١٩ وموضوعه دراسة الحب العذرى ويستهل حديثه فيه بأن الحب ظاهرة إنسانية لم يسلم منها حاكم ولا محكوم، ويعرفه بأنه اتصال بين أجزاء النفوس فى الطبيعة الإنسانية فى أصل

عنصرها الرفيع ويريد به عالم النفوس العلوى قبل حلول النفوس فى الأجساد فى عالم الأرض السفلى. ويحدث هذا الاتصال حين يكون بين النفوس ائتلاف ومشاكلة فيكون الحب، أما إذا كان بينها انفصال وتباين فيكون البغض. والحب بذلك إنما يكون بين النفوس لا بين الأجسام. ويوزع ابن حزم كتابه على ثلاثين بابا، منها عشرة فى أصول الحب وعلاماته وصوره كمن أحب فى النوم أو بالوصف أو من نظرة واحدة أو مع المطاولة أو مع التعريض بالقول أو مع الإشارة بالعين أو بالمراسلة أو بالسفير والرسول. ومنها اثنا عشر بابا فى أعراض الحب المحمود والمذموم، وهى أبواب الصديق المساعد والوصل وطىّ السر والكشف أو الإذاعة والطاعة والمخالفة وحب صفة فى المحبوبة والقناعة والوفاء والغدر والضّنا والموت. ومنها ستة أبواب فى آفات الحب، وهى أبواب العاذل والرقيب والواشى والهجر والبين والسلو، ثم بابان فى قبح المعصية وفضل التعفف. وجميع هذه الأبواب تُعْرَضُ لا فى كلام نظرى بل من خلال الواقع والتجربة والمشاهدة أو بعبارة أدق من خلال اعترافات صريحة منتهى الصراحة لابن حزم ومعاصريه عن الحب دون أى مواربة أو خجل يحجبان الحقيقة، فالحقيقة دائمًا مكشوفة كالشمس. وفى تضاعيف ذلك ما لا يكاد يحصى من حقائق النفس فى الحب وترهاتها، مع أشعار لابن حزم تصور تلك الحقائق. وكأنه كان يريد بالكتاب تربية الفتاة والفتى بالأندلس موطنه ليكون حبهما حبًّا نقيًّا بريئًا من كل دنس. ومن اعترافاته عن نفسه فى الحب قوله فى باب السلو:

«وإنى لأخبرك عنى أنى أَلِفْتُ فى أيام صِباى أُلْفَة المحبة جاريةً نشأتْ فى دارنا، وكانت فى ذلك الوقت بنت ستة عشر عاما، وكانت غايةً فى حُسْن وجهها وعقلها وعَفافها وطهارتها وخَفرها ودماثتها، عديمة الهزل، منيعة البذل، فقيدةَ الذّام[١]، قليلة الكلام، غضيضة البصر، شديدة الحذر، نَقيَّةً من العيوب، دائمة القُطوب[٢]، حُلْوة الإعراض، مطبوعة الانقباض.. لا تقف المطامع عليها، ولا معرَّس[٣] للأمل لديها.. على أنها كانت تُحْسِنُ العود إحسانا جيدا، فجَنَحْتُ إليها، وأحببتُها حبًّا مفرطا شديدا، فسعيتُ عامين أو نحوهما - أن تجيبنى بكلمة، وأسمع من فمها لفظة، غيرَ ما يقع فى الحديث الظاهر إلى كل سامع - بأبلغ السعى، فما وصلتُ إلى شىء من ذلك البتة فلعهدى بِمُصْطَنَع[٤] كان فى دارنا.. تجمعتْ فيه دَخَلتنا[٥] ودَخَلَةُ أخى: من النساء ونساء فتياننا ومن لاث[٦] بنا من خدمنا ممن يخفُّ موضعه ويلطفُ محله، فلبثْنَ صدرا من

(١) الذام: العيب. (٢) القطوب: العبوس. (٣) معرَّس: مكان. (٤) مصطنع: وليمة. (٥) الدخلة: من يكثر دخولهم على قوم منهم أو ليسوا منهم. (٦) لاث: اختلط.

النهار ثم تنقَّلن إلى قَصَبةٍ[١] كانت فى دارنا مُشْرفة على بستان الدار، ويُطَّلع منها على قرطبة وفحوصها[٢] مفتَّحةَ الأبواب، فصرنَ ينظرن من خلال الشراجيب[٣] وأنا بينهن. وإنى لأذكر أنى كنت أقصد نحو الباب الذى هى فيه، أُنْسًا بقربها، متعرِّضا للدنوِّ منها، فما هى إلا أن تَرانى فى جِوارها فتترك ذلك الباب وتقصد غيره مع لُطْف الحركة. فأتعمدَّ أنا القصدَ إلى الباب الذى صارتْ إليه، فتعود إلى مثل ذلك الفعل من الزَّوال[٤] إلى غيره. وكانت قد علمتْ كَلَفِى بها، ولم يشعر سائر النسوان بما نحن فيه، لأنهن كن عددا كثيرا، وكن ينتقلن من باب إلى باب بسبب الاطلاع من بعض الأبواب على جهات لا يطَّلع من غيرها عليها. واعلم أن قيافة[٥] النساء فيمن يميلُ إليهن أنفَذُ من قيافة مدلج[٦] فى الآثار. ثم نزلنَ إلى البستان، فرغب عجائزُنا وكرائمنُا إلى سيداتها فى سماع غنائها، فأمرتْها، فأخذت العودَ، وسوَّتْه بخَفَرٍ وخجلٍ لا عهد لى بمثله، وإن الشىء ليتضاعف حسنُه فى عين مُسْتحسنه، ثم اندفعتْ تغنِّى بأبيات للعباس بن الأحنف.. ولعمرى لكأن المِضْرابَ كان يقع على قلبى، وما نسيت ذلك اليوم، ولا أنساه إلى يوم مُفارقتى الدنيا».

ويمضى ابن حزم فيذكر أن خطوبَ الفتنة الكبرى بقرطبة فرَّقت بينه وبين هذه الجارية إلى أن رآها بعد بضع سنوات فى جنازة لبعض أهله باكية نادبة، فأثارت فيه وجدا دفينا وحركت ساكنا وذكَّرتْه عهدا قديما وحُبًّا تليدا ودهرا ماضيا وجدَّدت أحزانه، وما كان نَسِىَ، وزاد الشَّجا وتوقَّدت اللوعة. واضطُرَّ إلى فراق قرطبة سنة ٤٠٤ فغابت عن بصره نحو خمسة أعوام، وعاد فنزل على بعض أهله فرآها وما كاد يميِّزها فقد غاض الحسن وذهبت نضارتُها لفقدها الصيانة التى كانت لها فى قَصْر أبيه وأيام عِزِّه، ويقول إنه مع ذلك لو أنالته أقلَّ وَصْلٍ وأنستْ له بعض الأنس لجُنَّ طربا أو لمات فرحا، غير أن هذا النفار منها هو الذى أتاحَ له الصبر والسَّلْوَى مع ما ظل يطْوى فى نفسه من عذاب حبه وآلامه.

وبمثل هذا التصوير الواقعى القصصى الصريح المرسل فى غير تكلف لسجع أو غير سجع يتحدث ابن حزم عن الحب العذرى العفيف وتجاربه فيه وتجارب معاصريه وما له

---

(١) قصبة: غرفة أو غرف مشرفة فى الدار.

(٢) فحوص قرطبة: ضواحيها.

(٣) شراجيب: قوائم.

(٤) الزوال: التحول.

(٥) القيافة: المعرفة القائمة على التتبع.

(٦) مدلج فى الآثار هنا: متعمق فى تتبع الآثار.

من سلطان على النفوس وما يثير فيها من آلام وشكوك، وما له من ضحايا، وما يحدث فيه من العتاب والخصام والصلح والتواعد على اللقاء ومن الهجر والخداع والغدر والسلوان إلى غير ذلك مما يتعثر أهل الهوى فى شباكه. وفى حديثه عن السعادة بالوصل يقول إنه «الحياة المجدَّدة» ويقول الدكتور الطاهر مكى فى هامش تحقيقه للكتاب إن هذه العبارة لفتت عامة المستشرقين لأنها تتطابق مع نفس العنوان الذى اختاره دانتى الإيطالى (١٢٦٥ - ١٣٢١ م) لكتابه La Vita Nova الرائع، وهو على غرار طوق الحمامة، طاقة طريفة من أقاصيص الحب ومقطعات الشعر والتحليل النفسى الخلقى مما يؤكد معرفته بالطوق. ولا يشك آسين بلاسيوس - كما ذكر بالنثيا - فى معرفة دانتى بالتراث الأدبى الأندلسى، ويشير الدكتور الطاهر مكى أيضا فى هوامش الكتاب إلى تأثير بعض موضوعاته فى الروايات الإسبانية. ويذكر ابن حزم قصة فى باب «القنوع من المحبوب بأى شىء» عن امرأة فى صقلية شاهدت شابا فى غاية الجمال بأحد المتنزهات، فسارت خلفه تنظر إليه، فلما بَعُدَ أتت إلى المكان الذى أثر فيه مشيه وجعلت تقبل الأرض فى مواقع قدميه، ويقول بالنثيا إن شاعرهم الإسبانى المبدع «ماثياس» حاكى هذه القصة بنفس الصنيع. ويبدو أنه كان لطوق الحمامة ترجمة لاتينية مبكرة وأخرى إلى الإسبانية.

كتابة التاريخ والتراجم الأدبية

(أ) المقتبس لابن حيان

هو أبو مروان[١] حيان بن خلف بن حيان، وقد وزر خلف للمنصور بن أبى عامر (٣٦٦ - ٣٩٢ هـ) وبعد وفاته وزر لابنه المظفر عبد الملك (٣٩٢ - ٣٩٩ هـ) وظل بقرطبة طوال اندلاع فتنتها (٣٩٩ - ٤٢٢ هـ). وتوفى سنة ٤٢٧. ورُزق بابنه حيان سنة ٣٧٧ وعنى بتربيته، ويذكر ابن بشكوال فى كتابه الصلة من شيوخه ثلاثة هم الفقيه المحدث عمر بن نابل واللغوى النحوى ابن أبى الحباب والعالم اللغوى المشهور صاعد البغدادى وجميعهم توفوا بين سنتى ٤٠٠ و٤٠٣ للهجرة، مما يدل على أن ابن حيان اكتملت له ثقافته وهو فى نحو العشرين، وكان منهوما بقراءة الكتب فعكف عليها يستوعبها وخاصة

(١) انظر فى ابن حيان وترجمته الذخيرة ٥٧٣/١ والجذوة: ١٨٨ والبغية رقم ٦٧٩ والصلة رقم ٣٤٢ وراجع دراسة د. محمود مكى فى مقدمة نشره لقطعة المقتبس الخاصة بعبد الرحمن بن الحكم الربضى وابنه محمد (طبع بيروت) وتاريخ الفكر الأندلسى لبالنثيا ص٢٠٨ وتاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس للدكتور حسين مؤنس (طبع مدريد) ص١٠١.

كتب التاريخ. وظل بعد وفاة أبيه لا يبرح قرطبة حتى وفاته سنة ٤٦٩ وليس بين أيدينا ما يدل على أنه عمل فى دواوين الدولة حتى نهاية عهد أبى الحزم جهور سنة ٤٣٥. ويبدو أنه كان له ولأبيه من قبله ما كفل لهما الحياة الكريمة، ونرى أبا الوليد حين يخلف أباه جهورا يلحقه بدواوينه ويفرض له راتبا واسعا. وذكر مترجموه أنه لُقِّب بلقب صاحب الشرطة، واستظهر الدكتور محمود مكى أن يكون هذا اللقب أسبغ عليه رسميا فقط دون أن يتولى القيام على الشرطة بقرطبة. وحين قسم أبو الوليد بن جهور الحكم فى إمارته قرطبة بين ولديه عبد الملك وعبد الرحمن، وجعل لعبد الملك أمر قرطبة نفسها، وكان سيء التدبير حاصره المأمون بن ذى النون أمير طليطلة، مما جعله يستنجد بالمعتمد بن عباد أمير إشبيلية، وانتهز المعتمد الفرصة فاستولى على تلك الإمارة سنة ٤٦٣ ونفى منها أبا الوليد وابنيه عبد الملك وعبد الرحمن كما مر بنا فى غير هذا الموضع، ونرى ابن حيان يهنئه بهذا الفتح، كما نراه يوثق علاقته بأبى بكر بن زيدون وزير المعتمد، وفى الذخيرة رسالة له يشكره فيها على ما أرسله إليه من القمح والزيت والدهن، وظلت العلاقة وثيقة بينهما إلى وفاة ابن حيان. ويذكر له الدكتور محمود مكى ثلاثة كتب تاريخية بجانب المقتبس هى:

١ - أخبار الدولة العامرية: دولة المنصور وابنيه المظفر عبد الملك والناصر.

٢ - كتاب المتين ويبتدئ بتاريخ الفتنة سنة ٣٩٩ إلى نحو سنة ٤٦٣.

٣ - وكتاب البطشة الكبرى وهو فى خلع المعتمد بن عباد لأبى الوليد بن جهور عن قرطبة ونفيه مع ولديه عبد الملك وعبد الرحمن إلى جزيرة شلطيش فى الجنوب الغربى للأندلس.

ونظن ظنا أن أخبار الدولة العامرية لم تكن كتابا مستقلا عن كتاب المتين، بل كانت أجزاؤه الأولى، وبالمثل كتاب البطشة الكبرى كان جزءا فى كتاب المتين، إذ يقال إنه كان فى ستين مجلدة. وكأن ابن حيان إنما كان له فى رأينا كتابان فى تاريخ الأندلس كتاب المقتبس وكتاب المتين، وقد سقط كتاب المتين من يد الزمن بسبب ضخامة حجمه، وفى كتاب الذخيرة والجزء الثالث من البيان المغرب لابن عذارى والمغرب لابن سعيد وكتب ابن الأبار نقول منه كثيرة. وبقيت من المقتبس خمس قطع أو قل خمسة أجزاء: جزء يضم إمارة الحكم الربضى (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) وشطرا من إمارة ابنه عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) وقد تملكه المستشرق بروفنسال ورجع إليه مرارا فى كتابه «تاريخ

إسبانيا الإسلامية» ومصير هذا الجزء بعد موت بروفنسال غير معروف. وجزء ثان يضم بقية إمارة عبد الرحمن الأوسط وابنه محمد (٢٣٨ - ٢٧٤هـ) نشره الدكتور محمود مكي ببيروت. وجزء ثالث يضم إمارة عبد الله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠هـ) نشره الراهب ملتشور أنطونيا بباريس، ويعيد نشره الآن الدكتور مكي. وجزء رابع نُشر بمدريد باسم الجزء الخامس نشره شالميتا مستعينا بكورينطي وصبح، ويضم الشطر الأكبر من خلافة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠هـ). ثم جزء فى أحداث خمس سنوات من خلافة المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦هـ) نشره ببيروت الدكتور عبد الرحمن الحجى. ويتميز ابن حيان فى المقتبس بأنه يضم فى تاريخ كل حاكم أموى إلى الأحداث المرتبة على السنوات معلومات مهمة عن شخصية الحاكم والأحوال الاجتماعية والعمرانية والاقتصادية فى عهده مع تراجم مفصلة للوزراء فى أيامه وللقواد والقضاة والعلماء والكتاب والشعراء. وبذلك يجمع المقتبس تاريخ الأندلس الثقافى والاجتماعى والعمرانى والاقتصادى إلى تاريخها السياسى. ونذكر قطعة من حديث ابن حيان فى الجزء الخاص بالناصر عن غزوته لمدينة بنبلونة قاعدة مملكة نبارَّة فى بلاد البَشْكُنْس.

«فى سنة اثنتى عشرة وثلاثمائة غَزَا الخليفة الناصر لدين الله إلى دار الحرب - دمَّرها الله - غَزْوته المعروفة بِبَنْبَلُونةَ: بلد أعداء الله الكفرة البَشْكُنس، وسلك فى سفره هذا طريقَ الشرق، وتمنّع من النزول إليه والغزو معه محمدُ بن عبد الرحمن، وكان بمدينة العَسْكر من أَحْواز[١] بَلَنْسِيَة، فنازل حصونه ووَطِئ بساطه وأوقع به.. ودخل بجموعه بلادَ المشركين بَنْبَلُونَةَ بأنفذِ عزمٍ وأوْكد حَزْمٍ وأقوى نيَّة في الانتقام لله تعالى ولدينه من الأَرْجاس[٢] الكفرة واحتلَّ من أول بلدهم حصن قَلْهُرَّة، وكان العِلْج شانجه[٣] أميرهم - لعنه الله - قد أخلاه فأمر بهدمه وإحراق جميع ما فيه. ثم انتقل منه إلى موضع يُعْرَفُ بقَنْطرة أَلْبَة وكانت حوله حصون منيعة قد أخلاها الكفرة، وخلَّفوا فى بَسائطها[٤] جميعَ أمتعتهم وأطعمتهم، إذ أُعْجلوا عن انتقالها ولجأ عُلوجٌ منهم بأهليهم وأولادهم إلى ثلاثة غِيران[٥] فى شفير جُرْف[٦] على النهر، فلم يزل المسلمون

---

(١) أحواز: نواحى.

(٢) الأرجاس جمع رجس: القذر.

(٣) العلج: الكافر الفظ، وشانجه: حاكم البشكنس (٢٩٣-٣١٤هـ).

(٤) بسائطها: أراضيها المبسوطة.

(٥) غيران جمع غار: المنخفض من الأرض.

(٦) شفير: جانب. جرف: شق الوادى.

يَتَوَقَّلون[١] إليهم فيها، ويَتَسَوَّرون[٢] عليهم من أعاليها، حتى فتح الله تلك الغِيران عليهم، فقتلوا العُلوج وسَبوا الذَّرارى وغنموا الأمتعة، وهُدِمَتْ حصون الكفَرة التى كانت فى تلك الجهة، فلم يبق فيها صَخْرة قائمة. ثم تنقَّل الناصر لدين الله من هذه المَحِلَّة[٣] بعد أن أقام فيها يوما إلى حِصْن فالجُش فأضْرِمت نارا أَرْباضُه[٤] واستقصيت زروعه ونِعَمه بالنَّسف والاستئصال.. ثم اسْتَعْزَمَ على الإيغال فى بلد الكفرة والاقتحام لسَرَوَاته[٥] والتوصل إلى موضع قَرارهم ومجتمع كفارهم ونِكايتهم فى عُقْر[٦] دارهم ومكان أَمْنهم.. وأمر بتعبئة الكتائب وترتيب المقانب[٧] وشَكّ[٨] العَسْكر.. وارتحل الناصر لدين الله بين أَجْبُلٍ[٩] شامخة، وشواهقَ منقطعة، والجيوشُ لا تمرُّ بموضع إلا اصْطَلَمَتْه[١٠] وَنسَفت زروعَه، وأفسدتْ ما لم يَسْتوف أُكُلَه وهدمتْ قُراه وحُصونه، إلى أن بلغ مدينة بَنْبلونة التى إليها يُنْسَبُ الإقليم، فأصابها خاليةً مُقْفِرة، فدخلها الناصرُ لدين الله بنفسه وجال فى ساحاتها وأمر بهدم جميع مبَانيها وتخريب كنيسةِ الكفرة المعظَّمة وموضع بِيعتهم[١١] ومكانَ مَنْسكهم فجُمعت الأيدى عليها، حتى جُعلت قاعًا صَفْصَفًا.[١٢] وتنقل الناصر لدين الله، وكان فى ممرِّه فجٌّ[١٣] ضيق المسالك وَعْرُ المجاز.. وتظاهر[١٤] أعداءُ الله لأهل الساقة[١٥] مُتَسنِّمين[١٦] فى جبل شاهق، ملتمسين الفرصة، فنهضت الخيلُ إليهم سريعا، فكشفتهم وهزمتهم، وقتلتْ طائفة منهم، فانْقَشَعُوا[١٧] مُدْبرين لاثنين لا يلْوُون ولا يعرِّجون، وتقدَّم المسلمون بعِزَّة القَهْر وسَوْرَة[١٨] النصر».

وبهذا الأسلوب الأدبى الخافق بالحيوية البارع فى تصوير المواقع الحربية يمضى ابن حيان فى المقتبس وغيره من كتبه التاريخية، وكأنه يستمد من معين لغوى وأدبى لا ينضب،

---

(١) يتوقلون إليهم: يأتونهم من الأعالى.

(٢) يتسورون: يتسلقون.

(٣) المحلة: الموضع.

(٤) الأرباض جمع ربض: ما حول الحصن أو المدينة.

(٥) سروات البلاد: أوساطها وأعاليها.

(٦) عقر دارهم: وسطها.

(٧) المقانب جمع مقنب: جماعة الفرسان.

(٨) شك العسكر: حمله للسلاح.

(٩) أجبل: جمع جبل.

(١٠) اصطلمته: استأصلته.

(١١) بيعتهم بكسر الباء: معبدهم.

(١٢) صفصفا: لا نبات فيه.

(١٣) فج: طريق.

(١٤) تظاهر: تجمَّع.

(١٥) الساقة: مؤخرة الجيش.

(١٦) متسنمين: محتلين ومختفين.

(١٧) انقشعوا: انسحَبوا وتفرقوا.

(١٨) سورة هنا: مجد.

معين يرفده بكل ما يريد من كلم ومن صور دالّة بحيث يستوى له نسق أسلوب محكم بألفاظه التى يرصفها فى يُسْر متلاحقة بجزالتها ورصانتها ونصاعتها وأى نَصاعة؟ لكأنما كانت الألفاظ مختبئة فى أكمامها اللغوية الأدبية، حتى جاء ابن حَيَّان، فتفتحت له أكمامها وانقادت إليه مهيَّئة له هذه الرَّوْعةَ فى اختيارها ونَسْج تعبيراتها مع الرونق الذى يلذ العقل والشعور، وهو رونق لا يستعين عليه بشىء من تزاويق المحسنات البديعية التى أخذ يصطنعها بعض كتّاب عصره، ولا شىء من السجع إلا ما جاء عفوا، مثله فى ذلك مثل ابن شهيد وابن حزم ولا إفراط فى السرد التاريخى ولا تفريط، بل سرد مقتصد يؤدى المعانى بدقة، مع إحكام التصوير النفسى والاجتماعى لمن يترجم لهم من الأمراء والوزراء والقضاة وأصحاب المناصب الرفيعة والنساء والجوارى. ودائما يذكر بجانب محاسن الشخصية ومناقبها ما قد سُجِّل عليها من معايب ومساوئ. وكثيرا ما يسوق قصصا ممتعة تتمِّم ملامح الشخصية أو تخفّف عن القارئ جَفاف التاريخ على نحو ما يلقانا فى الصفحات الأولى من الجزء الخاص بالناصر وحديثه فى مطلعه عن حَظِيَّته مرجان أم ولى عهده المستنصر وكيف سَلَبَتْهُ من ابنة عمه الحرَّة وأوقعتها فى شِباك سُخْطه بدهائها ومكرها حتى منتهى حياتها. وهى قصة طريفة بما تصور من مكر النساء وكَيْدهن وما يتخذن لذلك من بعض الحيل الخادعة. وفى الحق أن كتابات ابن حيان فى المقتبس وغيره طرازٌ من الكتابة التاريخية الأدبية لا مثيل له قبله ولا بعده.

(ب) الذخيرة لابن بسام

هو أبو الحسن على[1] بن بسام التَّغْلبى الشنترينى من شَنْتَرين فى أقصى الغرب على نهر تاجُه بالقرب من مصبه فى المحيط الأطلسى عند أُشْبونة، وُلد بها قبيل سنة ٤٦٠ لأسرة على شىء من اليسار، وعُنى بتربيته أبوه، وتفتحت موهبته الأدبية مبكرة، ونراه فى صحبة مَنْ ببلدته من الأدباء ومَنْ يحيطون بالمتوكل أمير بطليوس عاصمة إقليمه

(١) انظر فى ابن بسام وترجمته رايات المبرزين لابن سعيد (طبع القاهرة) ص ٤٥ وكتابه المغرب ٤١٧/١ ومعجم الأدباء ٢٧٥/١٢ وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ١٠٨/٦ ومقدمته لكتابه الذخيرة وراجِعْه فى محاورته مع ابن عبدون ١٤٤/١ وفى لقائه لابن الدودين ٧٠٣/٣ وفى عمله بدواوين إشبيلية ٢٠/٤ وفى ابتداء تأليفه للذخيرة ٦٥٤/٣ وفى أثناء تحريره لها ٤٥٢/٢ و٧٨٧/٣ و٧/٤ وانظر إحكام صنعة الكلام للكلاعى (تحقيق رضوان الداية) ص ١٣٣ إذ يذكر إرسال ابن خفاجة له طائفة كبيرة من شعره ونثره. وقد حقق الدكتور إحسان عباس الذخيرة ونشرها نشرة علمية محققة فى ثمانية أجزاء.

والوافدين عليه الملمين به مثل الشاعر ابن عبدون، وله معهم مطارحات. وينزل أُشْبونه سنة ٤٧٧ ويلتقى بأديبها ابن الدودين ويكتب عنه طائفة من نظمه ونثره، مما يدل على أنه أخذ يشغف بالتعرف على أدباء موطنه منذ شبابه وتدوين بعض أشعارهم ورسائلهم. وأكثرَ نصارى الشمال من الإغارة على بلدته، مما جعله يهاجر منها - كما ذكر فى مقدمته للذخيرة - مروَّع السِّرب، بعد أن استنفد الطريف والتِّلاد، مما اضطره إلى التقلب فى البلاد. ولم يتجه إلى عاصمة إقليمه بطليوس، وإنما اتجه إلى إشبيلية عاصمة بنى عباد، وبها كان أكبر حشد حافل بالأندلس حينئذ من الكتاب والشعراء، ويقول ابن سعيد فى كتابه الرايات إنه اتخذها موطنا له، ويذكر ابن بسام إنه خدم فى بعض أعمالها السلطانية، ولعله بدأ ذلك بأخرة من عهد المعتمد بن عباد. ولم يلبث أن أظله فيها عهد المرابطين وأميرها ابن أخى يوسف بن تاشفين الذى مهد له سلطانه على الأندلس: سير بن أبى بكر، وقد ظل يلى إشبيلية - فيما يقال - سبعة وعشرين عاما. ويشيد ابن بسَّام فى مقدمته للذخيرة بعهده وبما أسبغ عليه وعلى الأدباء من العطاء الوفر، ولم يسمِّه، ولكن من الواضح أن هذا الثناء المستطاب على من خلف فى حكم إشبيلية والبلاد إنما يريد به سير بن أبى بكر. ويقول إنه قدَّم إلى حضرته الذخيرة مطرِّزا لها باسمه حتى تجوب به الآفاق. ويبدو أنه كان يترك إشبيلية فترات، ثم يعود إليها من حين إلى حين كما يبدو أنه استعفى من الأعمال السلطانية منذ أخذ يجمع عزمه على تحرير الذخيرة مكتفيا بما كان يغدقه عليه الكتاب والشعراء ممن يريدون أن يحظوا بشرف ذكرهم فيها وما وفَّره من بيع نسخها أو إهدائها لهواة الأدب ومحبيه، ولا شك فى أن سير بن أبى بكر أعطاه فى نسخته مبلغا ضخما من المال، أكبر الظن أنه كفل له عيشة طيبة إلى أن توفى سنة ٥٤٢ للهجرة.

وكتاب الذخيرة حققه الدكتور إحسان عباس فى ثمانية مجلدات، وقد ترجم فيه ابن بسام لشعراء عصر أمراء الطوائف وأوائل عصر المرابطين وكتَّابها ترجمات ضافية، وشفع ذلك بأخبار سياسية واجتماعية عن الأمراء والحكام وأهل الأندلس ومعاركهم مع نصارى الشمال. وقسم الكتاب أربعة أقسام: قسم لقرطبة وما يصاقبها من مَوْسَطة الأندلس، وقسم لإشبيلية وأهل الجانب الغربى حتى ساحل البحر المحيط، وقسم لأهل الجانب الشرقى من دانية وبلنسية إلى الثغر الأعلى، ثم قسم رابع خاص بالوافدين على جزيرة الأندلس من المشرق والبلاد المغربية. وهو حين يعرض كاتبا أو شاعرا أو أميرا أو وزيرا لا يكتفى بكلمات مجملة أو مقتطفات شعرية ونثرية قليلة بل يعمد إلى التفصيل وذكر الدقائق مستعينا بمؤرخ عصر الطوائف ابن حيان فى كتابه المتين وبقدرة تحليلية

وبيانية على حشد كل ما يجلو ملامح من يتحدث عنهم من الأدباء ورجال السياسة والحكم، وهو بذلك يختلف اختلافا بينا عن الثعالبى فى يتيمته والعماد الأصبهانى فى خريدته، إذ لا يرصف حشودا من الثناء والإطراء لا تكشف شخصية من يكتب عنه كما يصنعان، بل يجلو شخصيته جلاء تاما، على الرغم من أنه يعتمد فى كتابه على السجع مثلهما، غير أنه سجع لا يستر حقائق الشخصية، بل يعرضها فى ضياء غامر، ولنضربْ لذلك مثالا، هو ترجمته للشاعر أبى عبد الله بن الحداد الذى مرت ترجمته بين شعراء المديح وهو يفتتحها على هذه الشاكلة[1]:

«كان أبو عبد الله هذا شمسَ ظَهيرةٍ، وبحرِ خَبرٍ وسِيرةٍ، وديوانَ تعاليمَ مشهورة، وضَح فى طريق المعارف وضوح الصُّبْح المتهلِّل، وضَرَب فيها بقِدْح ابن مُقْبل[2] إلى جلالةِ مَقْطَعٍ، وأصالة مَنْزَعٍ، ترى العلم يَنِمُّ على أشعاره، ويتبيَّن فى منازعه وآثاره، وله فى العَروض تأليف، وتصنيف مشهور معروف، مزَج فيه بين الأنحاء الموسيقية، والآراء الخِليليَّة، وردَّ فيه على السَّرَقُسْطِيِّ المنبوز بالحمار[3]، ونقض كلامه فيما تكلم عليه من الأشطار. وأصل أبى عبد الله من وادى آش إلا أنه استوطن المَرِيَّة أكثرَ عمره، وفى بنى صُمادح معظمُ شعره، ومع ذلك طُولِبَ عندهم هنالك، ولِحَقَ بثغر بنى هود، وله فيهم أيضا غيرُ ما قصيدٍ، وهو القائل بعد خروجه من المَرِيَّة من قطعة فَلْسفية:

لزمتُ قناعتى وقعدتُ عنهمْ ... فلستُ أرى الوزيرَ ولا الأسيرا
وكنتُ سَميرَ أشعارى سَفاهًا ... فعــدتُ لفَلْسَفِيَّـاتى سمَيــرا

وكان قد مُنِيَ فى صباه بصبيَّة نصرانية ذهبتْ بلُبِّه كلَّ مذهب، وركبَ إليها أصعبَ مَرْكب، فصرف نحوها وَجْهَ رضاه، وحكَّمها فى رأيه وهَواه، وكان يسمِّيها نُوَيرة كما فَعَل الشعراءُ الظرفاء قديما فى الكناية عمنَّ أحبوه، وتغيير اسمِ مَنْ عَلِقوه. وقد كتبت فى هذا الفصل بعض ما قاله فيها من مُلَحه، ورائق أوصافه ومِدَحِه، وبعض سائر شعره، بعد تقديم فصول من نثره ما يُقرُّ بتفضيله، ويشهد له بجملة الاحسان وتَفْصيله».

والتعريف بابن الحداد مثل بقية الذخيرة مسجوع، والسجع فيها دائما لا يبهم شخصيات الشعراء والكتاب بل يوضحها توضيحا تاما على نحو ما نرى الآن فى السجع

---

(١) الذخيرة ٦٩١/١.

(٢) قدح ابن مقبل: سهم فائز من سهام الميسر.

(٣) هو سعيد بن فتحون وانظره فى الجذوة ٢١٦ والذيل والتكملة ٤٠/٤.

الذى قدَّم به ابنَ الحداد، إذ يجلو ملامحه وثقافته جلاء تاما، فهو عربى الأصل من قيس، وكان مثقفا ثقافة واسعة بالفلسفة وما يتصل بها من علوم الأوائل وتنم عن ذلك أشعاره، وله فى علم العروض كتاب ردَّ فيه على الفيلسوف السرقسطى الملقب بالحمار محتجا للخليل بن أحمد واضع هذا العلم بما ذكره عن الأعاريض المهملة وقد ألممنا بذلك فى ترجمة ابن الحداد. ويذْكر أن مسقط رأسه مدينة وادى آش إلى الشمال الشرقى من غرناطة وأنه استوطن المرية، وعاش بها سنوات متوالية يمدح بنى صمادح أمراءها، وأنه حدث ما عكر صفو علاقته بأميرها المعتصم وسيذكر فيما بعد بالترجمة أنه اعتقل أخاه سنة ٤٦١. ويقول إنه ولَّى وجهه إلى بنى هود بسرقسطة، ويذكر فيما بعد بالترجمة أنه عاد ثانية إلى المرية «وحسن بَعْدُ بها مَثْواه، وأكرمه المعتصم وأجزل قِراه» وظل بالمرية إلى أن توفى بها سنة ٤٨٠. ويعرض علينا فى الترجمة قطعة كبيرة من نثره ورسائله، ثم يعرض علينا طرائف من شعره، ويقتطف من غزله بُنُوَيْرَةَ قطعة بديعة ويقول إن اسمها الحقيقى جميلة، وكأن أهلها سموها باسم عربى، ثم يذكر مقتطفات من مدائحه فى المعتصم بن صمادح منذ سنة ٤٥٥، ولا يتجلَّى لنا ذوقه الأدبى فى جمال اختياراته من شعر ابن الحداد فحسب، بل أيضا تتجلَّى لنا قدرته النقدية إذ يَرُدُّ بيتا لابن الحداد إلى أصله عند المعرى، ويقول إن النابغة الذُّبيانى سبق المعرى إلى معناه وإن عبد الجليل بن وَهْبون الشاعر يشترك مع ابن الحداد فيه ويذكر لأبى وَجْزَةَ السَّعْدى الأموى بيتا يتعلق بالمعنى. ويُنْشد لابن الحداد قصيدة ثانية ويلاحظ صلةً بين بيت له وبيتين للمتنبى ويذكر أن المتنبى ألمَّ فى بيتيه ببيتين لمسلم بن الوليد وأن مسلما مسبوق فى بيتيه ببيتين للنَّمرِىّ. وتلقانا مثل هذه التعليقات النقدية فى الذخيرة مرارا وتكرارا. وأشار ابن الحداد فى مدحة للمعتصم إلى قصة القارظين فى الجاهلية فاستطرد ابن بسام يقصها استرواحا للقارئ. وبذلك تكاملت ترجمة ابن الحداد سواء فى سيرته وحبه فى مطالع شبابه لنويرة أو فى ثقافته أو فى نثره أو فى شعره وطرائفه وبدائعه فى مديح المعتصم والمقتدر بن هود.

ويقول ابن بسام فى القسم الأول بحديثه عن أشعار بنى الطبنى (١/٥٤٤) إنه صان كتابه عن ذكر الهجاء المقذع إلا أن يكون من مليح التعريض، وكأنه أراد به مَنْحىً أخلاقيا وإن لم يطبقه بدقة أحيانا. ويمتزج هذا المنحى عنده بمنحى دينى إذ نراه فى القسم الثانى بترجمته للشاعر ابن وهبون (٢/٤٧٨) يحمل على الشعر الفلسفى المتأثر بمنزع المتنبى وأبى العلاء، وهو تشدد أكثر مما ينبغى. وبحقٍّ حمل فى القسم الأول بترجمة الوزير ابن الشماخ (١/٨٤١) على الاستعارات البعيدة التى يمجُّها الذوق كأن يجعل شاعر

للكلام كيسًا يحلُّ عَقْده، ويجعل شاعر تان للبَلْوَى بَرَصًا ويجعل شاعر ثالث للمهابة فأسًا. وكان له ذوق أدبى مصفًى أحال به الذخيرة إلى متحف رائع يموج بالاستعارات والأخيلة المبتكرة ولُمَع البديع الرائعة بل إنه يموج بفرائد لا تحصى للأندلسيينْ من الشعر والنثر، ويكفى أنهم يبلغون فى الكتاب أكثر من تسعين بين شاعر وكاتب، ولم يكد ابن بسام يترك لأحدهم عملا أدبيا أبدع فيه إلا عرضه حتى يصور بدقة ما ذكره فى مقدمة الكتاب من تفوق الأندلس فى الأدب وأنها منه فى الأفق الأعلى.

وفى الحق أنه لولا الذخيرة لظل الأدب الأندلسى بروائعه الباهرة شعرا ونثرا محجوبا عن الباحثين ولما استطاع أحد أن يكتب تاريخه. وذكر ابن بسام فى بعض الصحف أنه ابتدأ تحرير الذخيرة بقرطبة سنة ٤٩٣ وقال إنه كان لا يزال معنيا بتحريرها سنة ٥٠٠ وأنه بدأ الكتابة فى قسمها الرابع سنة ٥٠٢ ويبدو أنه كان لا يزال يعيد النظر فى بعض فصولها، إذ نراه فى ترجمته للكاتب ابن أبى الخصال يذكر أنه لم يجد لديه فى سنة ٥٠٣ شيئا من ترسله، فسأل بعض إخوانه أن يخاطبه ليرسل إليه بعض نماذج من أدبه. وبدون ريب اقتضت الذخيرة من ابن بسام جهودا مضنية فى سنين متطاولة، وهى جهود تنوء بها العصبة أولو القوة.

مذكرات عبد الله بن بُلُقِّين

هو عبد الله[١] بن بُلُقِّين بن حَبُوس بن ماكسن بن زيرى الصنهاجى القيروانى آخر أمراء بنى زيرى لعهد الطوائف. شاد لهم هذه الإمارة بغرناطة وإلبيرة زاوى بن زيرى فى زمن الفتنة، وظل يلى شئونها حتى سنة ٤١٠ وخلفه ابن أخيه حبوس بن ماكسن حتى سنة ٤٢٩ وقام عليها بعده ابنه باديس حتى وفاته سنة ٤٦٥ وورثها بعده ابن أخيه عبد الله بن بلقين وهو فى الثامنة من عمره، وحاز حظا من العربية والثقافة غير أنه لم يكن على نصيب من السياسة والمهارة فى تدبير الحكم، فاتخذ وزراء أغمارا غير مجربين مثل سِماجة الصنهاجى، ويقول ابن الصيرفى المؤرخ إنه كان جبانا هيَّابة مغمد السيف، فكان طبيعيا أن ترتعد فرائصه كلما ذكر ألفونس السادس أمير قشتالة، وقد فرض عليه

---

(١) انظر فى عبد الله بن بلقين المغرب ١٠٨/٢ وأعمال الأعلام لابن الخطيب (طبعة بروفنسال) ٢٣٣/٢ وما بعدها والإحاطة ٣٧٩/٣ وتاريخ ابن خلدون ١٦١/٤ والبيان المغرب لابن عذارى. ومذكرات الأمير عبد الله منشورة بدار المعارف فى القاهرة.

عشرة آلاف دينار يدفعها سنويا. وكان طبيعيا أن يهلل لعبور يوسف بن تاشفين أمير المرابطين بجنوده إلى الأندلس ومواقعته ألفونس فى الزلاقة وسحقه لجيشه سحقا كاد لا يبقى منه ولا يذر. وعاد يوسف إلى المغرب، وعاد أمراء الأندلس إلى المنافسات فيما بينهم ومدٍّ أيديهم إلى ألفونس السادس، كلٌّ يستعديه على أخيه، واستغاث الفقهاء فى الأندلس ثانية بيوسف. وأخذ المعتمد بن عباد أمير إشبيلية وعبد الله بن بلقين وغيرهما يحاولون استصراخ ألفونس خشية أن يفكر يوسف فى عزلهم وضم الأندلس إلى سلطانه. وعرف يوسف ما يبيِّتون وخشى على الأندلس من الضياع، فعبر إليها سنة ٤٨٣ وبدأ بغرناطة وأميرها عبد الله بن بُلُقِّين، وكان لا يزال يعد جيشه للقاء يوسف كما كان يفاوض ألفونس ويرسل إليه هدايا نفيسة ويطمعه بأموال كثيرة ليمد له يد العون، ونصحه خلصاؤه أن يلقى ابن تاشفين وكان قد أصبح على مسافة فرسخين من غرناطة، فلقيه مترجِّلا مرحِّبا سائلا العفو، فأمَّنه على نفسه وأهله وطيَّب خاطره، وصودر كل ما كان بالقصر وكل ما ملك عبد الله وأمه من أموال. وأمر يوسف بتوزيع كل ذلك على قواده ولم يستأثر منه بشىء. ونفى عبد الله إلى المغرب الأقصى مع مشيعين يؤنسونه فى الطريق ويتكفَّلون أموره، وكتب إليه يوسف: «لا أنساك ما بقيت» وأنزله بأغمات، وأسعفه – كما يقول ابن الخطيب – فى رغباته، فعاش معيشة كريمة، ورُزق ولدين وبنتا، وترك لهم – حين توفِّى – مالا جمًّا.

وكتب عبد الله فى أثناء منفاه بأغمات كتابا باسم «التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بنى زيرى فى غرناطة» وكانت قد حُفظت منه نسخة تنقص بعض الأوراق، فنشرها المستشرق بروفنسال باسم «مذكرات الأمير عبد الله». وهو فى الفصول الأولى من الكتاب يحكى مَقْدَم بنى زيرى الإفريقيين أو التونسيين إلى الأندلس وتأسيس زاوى بن زيرى لإمارتهم فى غرناطة وتدبير حبوس بن ماكسن بعده فى تنظيم حكمها وإدارته وميراث ابنه باديس الإمارة بعده واستيلاءه على مالقة وتفويضه شئون الحكم إلى وزيره اليهودى ابن النغريلّة وازدياد نفوذ النساء فى القصر ومؤامرات ابن النغريلّة وإفساده الحكم وقتل صنهاجة له واستيلاء باديس على جيان. ثم تتعاقب ثمانية فصول فى الحديث عن إمارته، وفيها يتحول الكتاب إلى مذكرات حقيقية، مستهلا لها بالحديث عن أحداث الأندلس وتمزقها أمام ألفونس السادس وغاراته المتلاحقة على غرناطة وغيرها مما أدى إلى استيلائه على طليطلة سنة ٤٧٨ ثم ما كان من استصراخ الأمراء والسفارات لابن تاشفين وعبوره إلى الأندلس واشتراك الأمير عبد الله فى موقعة الزلاقة معه مجاهدا بماله

وجنوده، ورجوع يوسف إلى المغرب واضطراره إلى العودة، ومبارحة الأندلس وعودة أمرائها إلى الخلاف. ويحاول أن يبرر نقضه لما عاهد عليه ابن تاشفين وأخذه فى اختزان الأقوات وبناء الأسوار وإعلاء الأبراج استعدادا لمنازلته وحربه، والسوءة الكبرى أنه عقد معاهدة مع ألفونس السادس التزم فيها بأداء الجزية له سنويا، ويقول إن ابن تاشفين علم بجميع ما صنع، فأرسل إليه يهدده وكتب إليه عبد الله يبرر مسلكه، ويعرض بعض الأحداث فى إمارته وبعض الشئون الشخصية والأحوال الاجتماعية. ويفصِّل الحديث فى عبور ابن تاشفين إلى الأندلس سنة ٤٨٣ للمِّ شعثها ويصور مثول جيشه أمام غرناطة وأحوالها وانصراف الناس والجند عنه واضطراره إلى التسليم وما كان من نفيه إلى المغرب الأقصى ومن عزل بقية أمراء الطوائف. وينهى المذكرات بطائفة من تأملاته وأحاديث عن نفسه وعن أولاده. والمذكرات طرفة نفيسة بما تصور من الانحلال السياسى والاجتماعى والأخلاقى فى الأندلس زمن أمراء الطوائف مما أدى إلى سقوط طليطلة فى حجر ألفونس السادس وخنوع أمرائها له وانعكاس الموقف السياسى والحربى فلم يعد نصارى الشمال يؤدون الجزية لحكام الأندلس كما كان الشأن فى العصر الأموى، بل أصبح حكام الأندلس وأمراؤها يؤدون الجزية لألفونس، وأوشكت الأندلس جميعها أن تسقط فى حجره لولا أن تداركها ابن تاشفين فقلَّم أظفار ألفونس فى الزلاقة وردَّه إلى وكره خاسئا مدحورا. ولا تصور المذكرات الانحلال الذى عمَّ الأندلس فحسب، بل تصور أيضا غرناطة وجميع أحوالها فى عهد بنى زيرى وخاصة فى عهد أميرها عبد الله، كما تصور فساد حكمه ومنازعاته مع جيرانه ومحاولاته فى التواطىء المزرى مع ألفونس السادس أمير قشتالة عدوه ضد ابن تاشفين منقذ الأندلس من براثنه. وعبثا يحاول تبرير فساد سياسته التى أدت إلى ضياع إمارته وعزله، ونفيه إلى أغمات. ومع نفاسة هذه المذكرات عبثت بها يد بروفنسال محققها إذ لم يكن يحسن العربية فامتلأت بتصحيفات لا تكاد فى أحوال كثيرة توجد بينها مسافات فى السطور والكلمات. ونسوق من المذكرات قطعة من حديث عبد الله عن أهل غرناطة حين اقترب منها ابن تاشفين وانفضاض كل من فيها من الجند والناس عنه حتى العبيد من الصقالبة وغيرهم وحتى الخدم من النساء والغلمان، يقول[1]:

«أما الجندُ من البَرْبَر فكانوا مغتبطين بهم (بالمغاربة) طامعين فى الزيادة على أيديهم

(١) المذكرات ص ١٥ وصححنا النصَّ فى غير موضع.

للجنسية، واتفق رأيهم على أن لا يلقوه بجَحدْ[١] وقدموا كتبهم بالطاعة، وراجعهم عليها، يعدهم بأن يبقيهم فى أماكنهم على أفضل ما كانوا عليه.. وأما مَنْ كان من التجار وأهل البلد فكانوا على نيَّة أنهم مع من انتصر ولا طاقة لهم بالحرب، ولا هُمْ أهلها، وأكثرهم خرج من البلدة يقول: «لأى وجه نَحْتمل الحصار؟ تاجر هنا أو صانع،كما فى غيرها. وأما الرعية فبخٍ بخ، ذلك ما كانت تبغى طمعا منها فى الحرية وأنها لا يلزمها غيرُ الزكاة والعُشْرِ. وأما العبيد والصقالبة، فالعبيد الأعلاج (الأفظاظ) أولُ من عصا، رجوا أن يكونوا عنده فى أعلى مرتبة. حتى الخدم من النساء والخِصْيان كلٌّ طامع فى إقبال الدنيا عليه والخروج عن ثِقاف (قيد) القصر إلى راحة التسريح والاستهتار بالرجال وما أشبه ذلك. وجعفر الخصىُّ منهم ولبيبٌ كانا زعيمى المداخلة ورَأْسَا الفَتْك، يقولان: «نحن لا ولد لنا ولا تالد[٢]» فعلى أى شىء نصيرُ[٣] إلى القتال؟ وما عسى نطمعُ إن نَصِرْ إليه؟ هل تحصل لنا سلطنَة أو قيادةٌ أو قضاءٌ أو فقه؟ إنما نحن بمنزلة العِيال، من سبق[٤] استمتعَ بنا وكنا عنده من جملة الفَيْء، نُرْزَقُ كسائر الكَسْب، فلا نضيع، تعالوا بنا نقدِّم لأنفسنا، ووردتْ عليهم كتبُ أمير المسلمين بالإِنْزالات القوِّية والمثاقيل والمراتب العالية، يَعِدهم بذلك عند إكمال حاجته وإسلامهم[٥] له».

وعبد الله يقول إن جيشه وهو من البربر اغتبط بالمرابطين لأنهم بربر مغاربة مثله، ولما رجوا من زيادة رواتبهم، لذلك قرروا أن لا يلقوا ابن تاشفين بإنكار لصنيعه وما كان من إنقاذه للأندلس، وأرسلوا إليه يعلنون طاعتهم، فكتب إليهم برضاه عنهم وأنه مبقيهم فى أماكنهم وزائدهم فى رواتبهم. وأما التجار والصناع فهم مع من انتصر، وأما الرعية فابتهجت بمقدم ابن تاشفين، لما كان يثقل عليهم عبد الله من ضرائب متنوعة تارة باسم ألفونس السادس وتارة باسم حاجة الجيش والدولة بجانب زكاة العين وعشر الزرع. وفعلا بمجرد أن استسلم عبد الله لابن تاشفين أسقط عن الرعية تلك الضرائب مكتفيا بزكاة العين وعُشْر الزرع، وانفض عن عبد الله سريعا العبيد والصقالبة آملين أن يجدوا عند ابن تاشفين مرتبة أعلى، ومثلهم الخدم من النساء والخصيان طامعين فى إقبال الدنيا عليهم. ويصور موقف الخصيان على لسان خَصِيين كبيرين، قالا إننا لا نعد أنفسنا شيئا إنما نحن لمن غلب، وأرسلا هما وأضرابهما الكتب إلى ابن تاشفين، وردَّ عليهم بأنه

(١) فى الأصل: بحجر. جحد: نكران للحق.

(٢) فى الأصل: تلد. والتالد: القديم والموروث من المال.

(٣) فى الأصل: نصبر.

(٤) يريد: انتصر.

(٥) فى الأصل: وإسلامهم لنا.

سيعطيهم ما أملوه من مثاقيل الدراهم والرواتب والمراتب العالية. وهكذا تلفت عبد الله حوله فلم يجد له ناصرا، مما جعله يسارع إلى تسليم نفسه لابن تاشفين. والمذكرات تمضى على هذه الشاكلة فى لغة بسيطة لا سجع فيها ولا تكلف إلا ما دخلها من تصحيفات، ويقول محققها إنه نقلها عن نسخة محفوظة بجامع القرويين بفاس، وحرى أن يعيد نشرها محقق من أبناء الضاد يتقن العربية وقراءة خطها الأندلسى.

قصة[1] حى بن يقظان لابن طفيل

مر بنا فى الفصل الثانى تعريف قصير بابن طفيل بين فلاسفة الأندلس مع ذكر أهم المصادر لترجمته، وهو فى الذروة من الفكر الأندلسى، عاش فى القرن السادس الهجرى (٥٠٦ - ٥٨١ هـ) ونريد الآن أن نفصل الحديث فى قصة أدبية فلسفية قيِّمة له هى قصة حيّ بن يقظان، وهى قصة فلسفية صوفية تثبت أنه لا تقاطع بين العقل والشريعة أو الفلسفة والدين، وهو فيها يحكى بالتفصيل قصة حى ونشأته فى جزيرة مهجورة من جزر الهند تحت خط الاستواء، ويقول إنه اختُلف فى تكوينه، فقيل إنه تولد - دون أم وأب - من طينة تخمَّرت بالجزيرة على مر السنين، وقيل إنه ابن أميرة جميلة كانت شقيقة لملك يمتلىء بالغيرة والأنفة منعها من الزواج بحجة أنه لا يجد لها زوجا كُفْئًا، فتزوجت سرا من قريب لها يسمى «يقظان»، وحملت منه بجنين، ولما وضعته خشيت أن ينكشف سرها، فوضعته فى تابوت أحكمت إغلاقه، واستودعته أمواج اليم، فألقت به فى تلك الجزيرة وسمعت صياحه ظبية فقدت وليدها، فعطفت عليه، وظلت ترضعه وصارت له كأمه، ونما الطفل العريان وأخذ يتحول تدريجا إلى معرفة كل ما حوله. وتنقل به ابن طفيل من المهد إلى الصبا إلى الشباب، وهو يلاحظ ويجرب ويتأمل، نافذا إلى كل المعارف، من خلال فكر مستبصر. وما إن يصل إلى سن الثلاثين حتى يحيط بالطبيعة من حوله، وحتى يستغلها لغذائه ولكل حاجاته بدءا بتحريك يديه واستخدامها وستر سَوْءته ومعرفته الصيد، والنار واستخدامها فى إنضاج السمك واللحم، واتخاذ المخزن لحفظ ما يفضل من غذائه، والتفت إلى فرق ما بين النبات والحيوان فى الحركة وارتفاع الهواء

(١) طبعت قصة حى بن يقظان بمصر مرارا وفى دمشق وآخر طبعاتها بالقاهرة طبعة دار المعارف سنة ١٩٥٩ ومعها نفس القصة لابن سينا وللسهروردى وانظر فيها كتابنا عصر الدول والإمارات الجزء الخاص بالجزيرة العربية والعراق وإيران ص ٦٤٤ وما بعدها وانظر فى قصة حى بن يقظان لابن طفيل وترجماتها بروكلمان وبالنثيا ص ٣٤٨ و٦٠١ ومقدمات أحمد أمين لطبعة دار المعارف وكتاب أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوربية ص ٩٩ وما بعدها.

واللهيب إلى أعلى وانحدار الماء إلى أسفل، ولاحظ أن كل ما فى الطبيعة خاضع لقانون الكون والفساد، وعرف أرفع حقائق الطبيعة. وطال به التأمل فى ملكوت السموات والأرض، وهداه تفكيره إلى أن كل ما فى الوجود لابد له من خالق لا يستغنى عنه، وأحسَّ حاجته إلى مشاهدته وما ينبغى أن يكون عليه من طهارة جسده وصفاء نفسه حتى يتحد به. وتعبَّد لذلك فى غار الأيامَ ذوات العدد وصام أربعين يوما. وظل يستغرق فى تأملاته منفصلا عن العالم الخارجى وعن جسده وحواسه حتى غاب عن كل ما حوله غيبات متصلة، وأصبح لا يحس شيئا سوى واجب الوجود، وكأنما فنى فيه عن ذاته، فليس فى الوجود إلا الواحد الأحد، وكأنما هما شيء واحد أو كأنما ذاته هى ذات الحق. وكان يفيق من حاله تلك المتصلة بالعالم الإلهى البرئ من المادة ويعود إلى العالم الحسى مرارا وتكرارا، وأحسَّ أنهما عالمان مختلفان تمام الاختلاف: عالم يقوم على الكشف والذوق ويصيب الإنسان فيه ما يشبه السكر والإغماء، وعالم يقوم على المنطق والعقل والمحسوسات المادية.

وحين بلغ خمسين عاما من عمره نزل جزيرته من جزيرة مجاورة رجل تقى يسمى أبسال وصلته - كما وصل أهلها - تعاليم النبوة، وتعرف على «حى» وعلمه اللغة والكلام، وعجب أن وجد فى الطريق الفلسفى الذى سلكه «حى» تعليلا علويا لرحلة العقل من عالم الحس إلى عالم الدين الروحى الذى اعتقده ولجميع الأديان المنزلة، وعرض عليه أن يأخذه إلى جزيرته التى يحكمها صديقه سلامان حتى يرى أهلها ما اكتشف من الحقائق العليا، وقَبِلَ عرضه ونزل معه تلك الجزيرة وأخذ يحدِّث أهلها عن العالم الإلهى الذى يتحد فيه الإنسان بربه ولا يرى فى ذاته ولا فى الوجود سواه، غير أن الناس لم يفهموا ما يتحدث عنه، وكلما زاد فى الحديث ازدادوا نبوًّا ونفارا، إذ تهالكوا على الشهوات وجمع حطام الدنيا، وأصبحت لا تنجع فيهم الموعظة ولا الكلمة الطيبة، فقد ألهتهم عن ذكر الله تعالى الدنيا، مما جعل مخاطبتهم عن طريق التذوق الروحى لا تمكن، فحَسْبُهم ما تخاطبهم به شرائعهم حتى يستقيم معاشهم، لذلك اعتذر «حى» لسلامان وأصحابه عما تكلم به معهم، ونصحهم بالتمسك بديانات آبائهم وأعمالها الظاهرة فإن ما وراءها من الاتصال بالعالم الإلهى والذات الإلهية فوق حاجتهم ومداركهم. وقرر مع صاحبه أبسال العودة إلى الجزيرة المهجورة لينعما فيها بحياة المكاشفة الإلهية. ونقتطف من القصة قطعة يصور فيها «حى» أنه ما زال يحاول الاتصال بواجب الوجود معرضا عن جميع المحسوسات، مستغرقا فى مشاهدته، واستطاع بجهاده أن تغيب عنه جميع

الذوات إلا ذاته فإنه كان لا يزال يشعر بها، وكان يدرك فى وضوح أن هذا الشعور شَوْبٌ يشوب المشاهدة الإلهية المحضة، وما زال يجاهد فى الاتحاد بربه يقول:

«ما زال يطلبُ الفناءَ عن نفسه والإخلاصَ فى مشاهدة الحق حتى تأتّى له ذلك، وغابتْ عن ذكره وفكره السمواتُ والأرض وما بينهما وجميعُ الصور الروحانية والقوى الجسمانية وجميعُ القوى المفارقة للمواد والتى هى الذواتُ العارفة بالموجود، وغابت ذاتُه فى جملة تلك الذوات وتلاشى الكلُّ واضمحلَّ وصار هَباءً منْثورا ولم يَبْقَ إلا الواحُد الحقُّ الموجودُ الثابتُ الوجود، واستغرق فى حالته هذه وشاهد ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خَطَرَ على قلب بشر. ولا تُعَلِّقْ قلبك بوصف أمرٍ لم يخطر على قلب بشر فإن كثيرا من الأمور التى قد تَخْطر على قلوب البشر يَنْدُرُ وصفُها فكيف بأمرٍ لا سبيل إلى خطوره على القَلْب ولا هو من عالمه ولا من طَوْره.. ومن رامَ التعبيرَ عنْ تلك الحال فقد رام مستحيلا. وأقول إنه لما فنى عن ذاته ولم ير فى الوجود إلا الواحدَ الحىَّ القيومَ وشاهدَ ما شاهد، ثم عادَ إلى ملاحظة الأغيار عندما أفاقَ من حاله تلك التى هى شبيهة بالسُّكْر فخطَر بباله أنه لا ذاتَ له يغاير بها ذاتَ الحقِّ تعالى وأنَّ حقيقة ذاتِه هى ذاتُ الحق وأن الشىء الذى كان يظنُّ أولا أنه ذاتُه المغايرة لذات الحق ليس شيئا فى الحقيقة، بل ليس شىء إلا ذاتَ الحقِّ. وأن ذلك بمنزلة نور الشمس الذى يقع على الأجسام الكثيفة فتراه يظهر فيها، فإنه وإن نُسِبَ إلى الجسم الذى ظهر فيه فليس هو فى الحقيقة شيئا سوى نور الشمس، وإن زال ذلك الجسم زال نورُه وبقى نورُ الشمس بحاله لم يَنْقُصْ عند حضور ذلك الجسم ولم يزدْ عند مغيبه لما قد كان بان له من أن ذاتَ الحق عز وجَلَّ لا تتكثّر بوجه من الوجوه».

وابن طفيل فى هذه القطعة من قصته يصور تصويرا رائعا شعور المتصوفة بامحائهم فى ربهم وفنائهم فيه. ولروعة القصة ترجمت إلى اللاتينية واللغات الأوربية الحديثة، ومن أقدم ترجماتها ترجمة پوكوك لها فى أوكسفورد إلى اللاتينية بعنوان الفيلسوف الذى علم نفسه بنفسه مع نصها العربى سنة ١٦٧١ وترجمت إلى الهولندية سنة ١٦٧٢ وترجمها أوكلى إلى الإنجليزية سنة ١٧٠٨ وعلى ضوئها كتب دانييل ديفو قصته: «روبنسن كروزو». وترجمها إلى الألمانية إنجهورن سنة١٧٨٢ وترجمها پونس بويجس إلى الأسبانية سنة١٩٠٠ وترجمها بتروف إلى الروسية سنة١٩٢٠ وترجمها بالنثيا إلى الإسبانية سنة ١٩٣٤ وأعاد ترجمتها سنة١٩٤٨ وترجمها إلى الفرنسية ليون جوتييه سنة ١٩٠٠ ثم أعاد ترجمتها سنة ١٩٣٦ وزعم المستشرق الإسبانى المعاصر غرسية غوميس فى بحث نشره

عن القصة بمدريد سنة ١٩٢٦ أنه وجد بمكتبة الإسكوريال فى مخطوط موريسكى يرجع إلى القرن السادس عشر الميلادى قصة بعنوان قصة الصَّنم والملك وابنته، وزعم أنها كانت شائعة بين الموريسكيين (بقية المسلمين فى الأندلس) ورأى أنها تلتقى بقصة حى بن يقظان وبالفصول الأولى من قصة الكريتيكون لجراثيان اليسوعى الأرجونى التى نشرت فى منتصف القرن السابع عشر، فقد وجد قصة الصَّنم تقول إن الأميرة بنت الملك حُجزت عن الناس فى مَحْبس لتنجو من طالع سيء، واستسلمت فى مَحْبسها لابن الوزير وحملتْ منه ووضعت وليدها فى صندوق من الخشب وألقت به فى اليَمِّ، فحملته الأمواج إلى جزيرة نما فيها واهتدى ببصيرته إلى بدائع خلق الله، وبدلا من أن يقول إن القصة الموريسكية وقصة جراثيان استضاءتا بقصة ابن طفيل السابقة لهما بأربعة قرون أوتزيد زعم زعما غريبا هو أن ابن طفيل كان قد عرف أصل القصة الموريسكية عند أجداد الموريسكيين المسلمين من معاصريه، وأنها ألهمته حينئذ قصته: حى بن يقظان. وكل ذلك لينفى عن ابن طفيل أصالته فى قصته العالمية الفريدة، وقد نقض رأيه جوتييه فى ترجمته المجددة لقصة حى بن يقظان سنة ١٩٣٦ قائلا بحق: إنه لا علاقة بين مضمون قصة حى بن يقظان والقصة الموريسكية. وقد افترض غرسية أن القصة لم تعرف فى المحيط الإسبانى إلا بعد ترجمتها إلى اللاتينية فى القرن السابع عشر! وكان ينبغى أن ينبهه ما بينها وبين قصة الكريتيكون المطبوعة فى القرن السابع عشر من تشابه إلى أن الأقرب إلى المنطق وطبائع الأشياء أن تكون قصة حى بن يقظان مما ترجمته مدرسة طليطلة إلى القشتالية أو الإسبانية القديمة فى القرن الثالث عشر الميلادى أو قبله أو لعلها ترجمت قديما إلى اللاتينية، وعلى ضوء إحدى الترجمتين كتبت قصة الكريتيكون. وأيضا كان جديرا بغرسية أن يصل بين قصة ابن طفيل وقصتى ابن سينا اللتين أشار إليهما ابن طفيل فى مقدمته لقصته وهما قصة حى بن يقظان وقصة سلامان وأبسال وما تصوران من غلبة العقل على القوى البدنية وغلبة الذات الإلهية على العلل الكونية، ويؤكد هذه الصلة أن شخصيات أبسال وسلامان وحى بن يقظان عند ابن سيناهى نفس شخصيات قصة حى بن يقظان عند ابن طفيل. وأكثر من ذلك يشير ابن طفيل فى مقدمة قصته صراحة أنه يتابع ابن سينا فى نزعته الصوفية التى بثها فى كتابه أسرار الحكمة المشرقية التى تقابل الحكمة اليونانية. وأيضا فإنه تابع ابن باجة – الذى نوه به مع ابن سينا فى مقدمة القصة – فى كتابه تدبير المتوحد الذى يتحد فيه –كما مر بنا فى الفصل الثانى– عقل الفيلسوف بالعقل العلوى الفعال مباشرة واصلا بذلك ابن باجة بين الفلسفة والدين، ولكن دون نزوع إلى التصوف كما يقول ابن طفيل فى مقدمته للقصة.

ولا علاقة أى علاقة بين قصة ابن طفيل ومذهب الأفلاطونية الحديثة كما ظن بالنثيا وغيره، وأيضا لا علاقة بين يقظان فى القصة والمسيح، فيقظان ليس هو الله ولا حى ابن الله كما ظن بالنثيا ظنا مخطئا، ومعاذ الله أن نصل بين قصة ابن طفيل والمسيحية بأى وجه من الوجوه، والقصة تزخر بالآيات والتعبيرات القرآنية والروح الإسلامية الصوفية. وكان حريا بغرسية وغيره أن يردُّوا عناصر الإطار فى القصة إلى ما ذكره ابن طفيل نفسه من أنه استوحي فكرة ميلاد «حى» بدون أم ولا أب فى إحدى جزر الهند مما جاء عند المسعودى من أن بين تلك الجزر جزيرة يتولد فيها الإنسان من غير أم ولا أب، وبها شجر يثمر نساء. أما تصوره بأن طينا تخمَّر وتخلَّق منه «حى» فقد استوحى فيه مثل قوله تعالى عن أصل خلق الإنسان من طين: (ولقد خلقنا الإنسان من سُلالة من طين). وأما على التقدير الثانى وهو أنه كان بإزاء تلك الجزيرة جزيرة يملكها رجل شديد الأنفة والغيرة وكانت له أخت ذات جمال وحسنٍ باهر فعضَلها ومنعها من الأزواج إذ لم يجد لها كُفْئًا، وكان له قريب يسمى «يقظان» فتزوَّجها سرا وحملت منه ووضعت طفلا، ولما خافت أن يفتضح أمرها وينكشف سرها وضعته فى تابوت أحكمت زمَّه (إغلاقه) وخرجت به فى أول الليل إلى ساحل البحر وقذفت به فى اليَمِّ فحملته أمواجه إلى ساحل تلك الجزيرة فإن ابن طفيل يستلهم القسم الأول من هذا الخبر للمولود مما ردَّدته بعض كتب التاريخ العربى من خبر هرون الرشيد مع أخته العباسة ووزيره جعفر بن يحيى البرمكى من أنه كان لا يستطيع الصبر عن لقائهما، فقال لجعفر أزوجها لك ليحل لك النظر إليها ولا تَقْربها، فقال: نعم. فزوَّجها منه، وكانا يحضران معا، وكان الرشيد يتركهما فحملت العباسة من جعفر، وخافت الرشيد فسيَّرت ابنها مع حواضن إلى مكة. والصلة واضحة بين ميلاد حى سِرًّا من أخت الملك وميلاد ابن العباسة سرا من أخيها الرشيد ومحاولة كل منهما تهريب مولودها، واستلهم ابن طفيل فى وضع أم حَيٍّ له فى تابوت والقذف به فى يَمٍّ نقلته أمواجه إلى جزيرة ما جاء فى القرآن الكريم عن أمِّ موسى حين وضعته وخافت عليه من فرعون ومَلئه أن يقتلوه - وكانوا يقتلون أبناء اليهود الذكور ويستحيون بناتهم الإناث فأوحى الله إليها - كما جاء فى سورة طه - ﴿أنِ اقْذِفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليَمِّ فَلْيُلْقه اليَمُّ بالساحل﴾ ونفسُ الصيغة القرآنية نجدها عند ابن طفيل حين يقول عن أم حى: «وضعت ابنها فى تابوت ثم قذفت به فى اليم فاحتمله إلى ساحل الجزيرة» وهو تطابق واضح مع العبارة القرآنية. وبذلك كله يتضح أن عناصر الإطار القصصى فى قصة حى بن يقظان عناصر عربية إسلامية صوفية خالصة.

٥

المقامات والرحلات

(أ) المقامات

فن المقامات من أهم فنون النثر العربى، وقد ابتكره بديع الزمان الهمذانى (٣٥٨ - ٣٩٨ هـ) نافذا فيه إلى أقاصيص تصور الأدباء السيَّارين المسمَّيْن فى عصره بالساسانيين المحترفين للكُدْية أو الشحاذة الأدبية متخذا له أديبا شحاذا، أو متسولا كبيرا، هو أبو الفتح الإسكندرى، ومعه راويته عيسى بن هشام. وبديع الزمان يصور حِيَل أبى الفتح فى استخلاص الأموال والمطاعم من أيدى الناس بفصاحته وخلابة منطقه فى أسلوب قصصى يشيع فيه الحوار. وطارت شهرة مقامات البديع فى العالم العربى ونزلت قرطبة فيما نزلت من بلدانه، ونرى ابن شهيد المار بنا يستوحى - كما ذكرنا - من إحدى مقامات البديع، وهى المقامة الإبليسية، رسالته التوابع والزوابع التى بناها على لقائه فى وادى الجن لشياطين الشعراء والكتاب، ولقى بينهم شيطان بديع الزمان. وليس ذلك فحسب فإننا نراه - كما مرَّ بنا - يحاكيه فى وصفه للحلواء ببعض مقاماته كما يحاكيه فى وصفه الرائع للماء. ويعرض علينا ابن بسام فى ذخيرته ثلاث مقامات، غير أنها ليست مقامات بالمعنى الذى أراده بديع الزمان إذ لا تقوم على الكدية والشحاذة الأدبية، وإنما تصف موضوعا أو موضوعات، وهى أشبه بالرسائل منها بالمقامات.

وأولى المقامات الثلاث مقامة أبى حفص[1] عمر بن الشهيد الذى لقيه الحميدى فى المريَّة سنة ٤٤٠ وهو من شعراء أميرها المعتصم بن صمادح (٤٣٩ - ٤٨٤ هـ) ومقامته أشبه بوصف رحلة له وصفا أدبيا طريفا، فيه غير قليل من الدعابة، وقد استهلها بنعى حال الكتابة فى عصره وأنها أصبحت صنعة ممتهنة. ويكتفى ابن بسام بعرض فصول منها، وفى أحد الفصول يصف ابن الشهيد الربيع وصياح الديك فى السحر، وفى فصل ثان يصف منزل بدوى دخله مع صحبه «فهشَّ البدوى وبَشَّ، وكَنَس منزله ورشَّ، وصيَّر عياله

(١) انظر فى أبى حفص بن الشهيد ومقامته الذخيرة ١/٦٧٠ وما بعدها، وراجع فى ترجمته الجذوة للحميدى ص ٢٨٣ والبغية ص ٣٩٤ والمغرب ٢/٢٠٩.

إلى ناحية، وجمع أطفاله فى زاوية». ويتحدث عن أثاث بيته حديثا فكها، ويقول إنه حاول أن يكرمهم فدعا صبيانه ليمسكوا بديكٍ هَرِمٍ، ويستغيث بهم الديك ويتشفَّع - فى حوار طويل - بهرمه وأنه أصبح لضعفه ونحُوله أشبه بالأدوية منه بالأغذية، ويَرِقُّون له. ويقدِّم إليهم البدوى بعض ألطافه معتذرا ويَقْبلون عُذْرَه ويَرْحلون سَحرا عنه. وينزل مع صحبه قريةً مسيحية سمعوا فيها صَوْتَ الناقوس وألموابذَيْر راعهم ما فيه من شموس وأقمار ولا سيوفَ إلا من مُقَلٍ ولا تُرُوسَ إلا من خَجَلٍ، فنزلوا فيه وشربوا من الدِّنان ما أسكرهم ثم شدُّوا الجياد عنه رَكْضًا فمروا بكنيسة متهدمة ويبكى ابن الشهيد أطلالها وما كان فيها. ويفضى مع صحبه إلى مروج بها قطعان من السائمة، ويصيدون كثيرا من طير البِرك، وينقش على مرمرة بيضاء مقطوعة شعرية يصوِّر فيها البرك ومياهها وما صادوه من طَيْرها. ويستأنفون السَّيْرَ ليلا، ويلقاهم شابٌّ فارس ممتطيًا جوادًا ومُتَقَلِّدًا حُساما، آبِقٌ من أهل حصن لنصارى مَرّوا به، معلنا إليهم أنه عَبَدَ الصَّليبَ وقَرعَ الناقوسَ إلى أن أسعده الله بهداية الإسلام، ويشهد أن الله إلهٌ واحد، ليس له وَلَدٌ ولا والد. وبذلك تنتهى المقامة وهى أشبه بنزهة متعددة المشاهد.

والمقامة الثانية عند ابن بسام مقامة أبى الوليد[١] محمد بن عبد العزيز المعلم أحد وزراء المعتضد أمير إشبيلية وكُتَّابه، وقد انتقى منها ابن بسام فصولا وأولها يستهله ابن المعلم بالحنين إلى ماضٍ نعم فيه برفاهية العيش، ثم دار به الدهر من نعيم إلى شظف شديد، وما يلبث أن يقول إن البشير قرع بابه حاملا إليه كتابا من أمير، فلبَّاه، حتى إذا مثَل بين يديه أسمعه مدحة فيه ثم تَلاها بنثر مُفْرِط فى الثناء عليه من مثل قوله: «هو الإمام الطاهر، والكوكب الزَّاهر، والأسَدُ الخادِرُ[٢]، والبحر الزَّاخِرُ، أوهبُ الملوك للذخائر، وأعفاهم عن الجَرائر.. أعطرُ من العنبر، فى كلِ مِنْبر، وأَفْوح من المسك الذكىّ،فى كل نَدِىّ» ومضى فى مثل هذا الثناء حتى استُطير الأمير فرحا، وازْدَهى مَرحا، وقام إليه فقبَّل بين عينيه. وبذلك تنتهى المقامة، وهى أشبه برسالة فى مديح أمير، وربما كتب بها إلى المعتضد أميره.

والمقامة الثالثة عند ابن بسام مقامة أبى محمد[٣] بن مالك القرطبى، وقد ساق فى

---

(١) انظر فى ابن المعلم ومقامته الذخيرة ١١٢/٢ وراجع الجذوة ص ٦٥ والبغية ص ٩٤ والمغرب ١١٢/١.

(٢) الخادر: المقيم بعرينه.

(٣) انظر فى أبى محمد بن مالك ومقامته الذخيرة ٧٣٩/١ وما بعدها وراجع فى ترجمته القلائد ١٧٠.

ذخيرته بعض فصولها، وابن مالك يديرها على مديح المعتصم بن صُمادح أمير المرية ويُغْرق فى مديحه إغراقا شديدا، ونراه يُطيل فى وصف فُتوحه وانتصاراته فى الحروب ووَصْف جيشه وأسلحته من الدروع والسيوف والرماح والخيل مظهرا فى هذا الوصف غير قليل من البراعة، ولا يزال ينثر عليه ثناءه من مثل قوله: «جَدْبٌ وربيع مُعْرِق، وليل ونهار مشرق، فيه الصَّابُ والعَسَلُ والسَّهْل والجَبل، ثالثُ القمرين وسِراج الخافِقَيْن[1]، وعماد الثَّقَلَيْن، المعتصم بالله ذو الرياستين». ويشكو للمعتصم عَوز أهله وضِيقَ ذاتِ يَده، وأنه لولا ما يُقَيِّده من أَفْرُخٍ كزُغْبِ القَطَا لتقدم فى صفوف جُنده تارة محاربا وتارة خَطيبا محمِّسا أو مُهادِنًا. وبذلك تنتهى المقامة، وهى أشبه بقصيدة مدح طويلة دبَّجها فى المعتصم بن صمادح

وعلى هذا النحو نَفْتقد المقامة التى تقوم على الكُدْية والشِّحاذة الأدبية فى عصر أمراء الطوائف، ويظهر الحريرى (٤٤٦ - ٥١٦ هـ) ويؤلف مقاماته فى أواخر القرن الخامس وسرعان ما تُدَوِّى شهرتها فى العالم العربى ويَؤُمُّه الرواة من كل مكان يأخذونها عنه، وأَمَّه من الأندلس فى فواتح القرن السادس الهجرى أبو[2] القاسم عيسى بن جَهْوَر القرطبى وأحمد بن محمد بن خلف الشَّاطبى وأبو الحجاج يوسف القُضاعى البَلَنْسِيّ والحسن بن على البَطَلْيَوْسِيّ، وجميعهم حملوا مقاماته إلى الأندلس وأخذها عنهم تلاميذ كثيرون ومضوا بدورهم يدرسونها لطلابهم، وأخذ نفر من دارسيها هناك يتجرَّد لشرحها، منهم عبد[3]الله بن ميمون العَبْدرى القرطبى المتوفى سنة ٥٦٧، ومنهم أبو العباس[4] أحمد الشريشى المتوفى سنة ٦١٩ وقد صنع لها ثلاثة شروح: كبير طُبع بمصر مرارا فى جزئين، ثم أوسط وأصغر. ومعروف أن مقامات الحريرى تقوم - مثل مقامات بديع الزمان - على الطريقة الساسانية أو الشِّحاذة الأدبية، وقد بلغ الحريرى بفنها الذروة.

وإذا رجعنا إلى ما أُثر من مقامات عند الأندلسيين بعد مدارستهم لمقامات الحريرى وجدنا المقامات تأخذ نهجين: نهجها المار فى القرن الخامس الهجرى القائم على الوصل بينها وبين أغراض الشعر من مديح وغيره وكذلك بينها وبين أغراض الرسائل من وصف بعض المشاهد والبلدان. ونهج جديد يستوحى الحريرى فى مقاماته الساسانية القائمة على

---

(١) الخافقان: المشرق والمغرب، والثقلان: الإنس والجن.

(٢) انظر فى ترجمة أبى القاسم بن جهور وزملائه التكملة رقم ٣٥ ورقم ٧٢٧ ورقم ٢٠٧٦.

(٣) انظر ترجمة العبدرى فى المغرب ١١١/١.

(٤) راجع فى الشريشى التكملة ١١٢ والنفح ١١٥/٢ والمنهل الصافى ٣٥٤/١.

الكُدْية والشحاذة الأدبية، ومن النهج الأول المقامة الدَّوْحِيَّة لمحمد[١] بن عياض اللَّبْلِىّ المتوفى سنة ٥٥٠ وموضوعها الغزل، وذكر ابن سعيد فى المغرب فاتحتها، والمقامة العِياضية لمحارب[٢] بن محمد بن محارب الوادى آشى المتوفى سنة ٥٥٣ وهى فى مديح القاضى عياض، ومقامة فى هجاء بعض أعيان مالقة لعلى[٣] بن جامع الأوسى، والمقامة النَّخْلية لأبى الحسن النباهى المالقى المتوفى بأخرة من القرن الثامن وهى مفاخرة بين النخلة والكَرْمة. وللسان الدين بن الخطيب مقامة فى السياسة، وهى أشبه برسالة أو مبحث فيما ينبغى أن يكون الحاكم عليه من نشر العدل فى رعيته وتعهد المجاهدين فى سبيل الله وأن لا يعوِّلوا فى كسبهم إلا على مغانمهم كالجوارح لا تَطْعَمُ إلا من صَيْدها وما يقع فى مخالبها، ويلمُّ بسياسة العمال فى ولاياتهم وأن تقوم على الحق ودَحْض الباطل، وكل ذلك على لسان شَيْخٍ فارسى ناصح لهرون الرشيد ويوصيه بعمارة البلدان والتمسك بالشريعة. والرسالة حرية بأن تقرن برسائل السياسة عند ابن المقفع. وللسان الدين غير مقامة فى وصف رحلات له فى بلدان الأندلس والمغرب الأقصى، وهى أشبه بالرحلات منها بالمقامات ولذلك سنتحدث عنها بين رحلات الأندلسيين. وحوالى منتصف القرن التاسع الهجرى يشتهر - فى أيام الأندلس الأخيرة - عمر الزَّجَّال، وقد روى له المَقَّرى مقامتين أولاهما مقدمة لقصيدة هزلية طويلة، وثانيتهما فى أمر الوباء الذى ألم بغرناطة زمن أميرها الغنى بالله، وهو فيها ينكر على قصر الحمراء بغرناطة إبقاءه فيه على السلطان مع تفشى الوباء، ويقول إنه ينبغى أن يتحول عنه إلى مالقة التى كانت تتبع حينئذ غرناطة.

ونترك هذه المقامات التى تستوحى مقامات عصر أمراء الطوائف الشبيهة بالرسائل الأدبية إلى مقامات الكدية والشحاذة الأدبية التى تستوحى الحريرى فى مقاماته أو أقاصيصه الساسانية التى رواها الحارث بن همَّام عن بطلها أبى زيد السروجى. وأول ما يلقانا من ذلك المقامات اللزومية للسرقسطى، وهى خمسون مقامة، وسنخصها بحديث مستقل. وكان يعاصره الكاتب أبو عبدالله بن أبى الخصال الذى مرت ترجمته والمتوفى سنة ٥٤٠ وله مقامة[٤] ساسانية جعل بطلها نفس بطل مقامات الحريرى: أبا زيد السروجى، كما جعل الراوى لها نفس راوية تلك المقامات: الحارث بن همام. وتبدأ المقامة

---

(١) انظر ترجمة ابن عياض فى المغرب ١/٣٤٤ والتكملة ص ٢٣٣.

(٢) التكملة ص ٤٠٧.

(٣) راجع ترجمته فى الذيل والتكملة: القسم الأول من السفر الخامس ص ٢٠٢.

(٤) انظر فى مقامة ابن أبى الخصال تاريخ الأدب الأندلسى: عصر الطوائف والمرابطين للدكتور إحسان عباس ص ٣١٦.

بمنظر فى الريف والناس متجمعون حول أبى زيد السروجى، وهو يستحثهم على الجود والسخاء وهم يحذفونه بالدراهم، وهو يتلقف ولا يتوقف. وعرفه الحارث ونصحه أن يبيت بمنزله خشية اللصوص ويلبى دعوته، ويطعم عنده الطعام المرىء، حتى إذا أصبح الحارث وجده غادر المنزل تاركا له رقعة فيها ثلاث قصائد. ويبحث عنه ويعرف أنه ذهب إلى حانة. وتطيل المقامة فى وصف الخمر والشاربين ومن فى الحانة من الجوارى والغلمان. ويقضى البطل وروايته فيها يوما هنيئا، وتنتهى المقامة بمقطوعة شعرية.

وتنوه كتب التراجم بمقامات لغير أديب، ولكن لا ندرى هل هى كمقامات عصر أمراء الطوائف أو هى تستلهم الحريرى فى مقاماته الساسانية، ومن أهم المقامات التى استلهمته مقامة العيد لعبد[1] الله بن إبراهيم بن عبد الله الأزدى المتوفى سنة ٧٥٠ وهو من أهل مدينة بَلِّيش،وكانت مجاورة لمالقة، وهى مقامة خاطب فيها الرئيس أبا سعيد بن نصر يستجديه أُضْحية، وهو فيها يحكى قصة ساسانى من أهل الكدية أو الشحاذة الأدبية، ويستهلها بأن الرجل دخل داره ليتناول شيئا من الطعام فقالت له زوجته لم جئت؟ لا طعام لك عندى إلا إذا صنعت ما صنعه زوج الجارة إذ فكَّر فى العيد وأنت قد نسيته، فقال لها: صدقت وسأخرج الآن لأبحث لك عما ذكرت، وأخذت تقول له إنك لن تأتى بشىء وأخذت تهوِّن من شأنه، ولما كان يجد من خوفها - كما يقول - ما يجد صغار الغنم من الذئاب عَدَا يطوف السكك والشوارع ويجوب الآفاق، ويسأل الرفاق، ويخترق الأسواق، إلى أن مرَّ بقصَّاب (جزَّار) وبين يديه عَنْز، وسأله أن يبيعه منه ويمهله فى الثمن، وباعه له مؤجَّلا بعشرين دينارا. وانحدر معه لدُكَّان موثِّق يكتب لهما عقْد البيع. وعاد مع الجزار فلم يجد العنز، وكان قد شَرَد، فأخذ ينادى فى الأسواق والأزقة مَنْ رأى عَنْزا، وإذا برجل فخَّار خرج من دهليز يصيح أين صاحب هذا العَنْز، والعَنْز يدور فى الدهليز ويحطم ما بقى من الطواجن والقدور. وطلبه المحتسب (شرطىّ السوق) وصاحب الدهليز أمامه يبكى، ولم يَعْف عنه إلا بعد أن أدَّى عنه جيرانه ما أفسده عنزه. وتوجَّه به مع الحمَّال إلى داره ولم تبق فى الزُّقاق عجوز إلا وصلتْ لتراه، وتسأله بكم اشتراه، والأولاد يدورون به، أما ربَّة البيت، فبادرت زوجها تقول: «ليس فى البيت خَلٌّ ولا زيت، ومتى تُفْرِح زوجتك، والعنز أُضحيتك، واقلَّة سَعْدِها، واخُلْفَ وَعْدِها، وما حَبَسَك عن الكِباش السِّمان» وتأخذ فى وصف الكبش السمين الذى كانت تريده، فيقول لها: وأين توجد هذه الصفة، يا قليلة

---

(١) راجع فى ترجمة عبد الله الأزدى ومقامته الإحاطة فى أخبار غرناطة (تحقيق عنان) ٣/٤٢١ وما بعدها.

المعرفة، فتقول له عند مولانا ومأوانا الرئيس الأعلى، ويفيض فى مديح الرئيس أبى سعيد بن نصر.

والمقامة مسجوعة سَجْعًا عذبا، وهى تصوِّر جوانب كثيرة من المجتمع الغرناطى، تصوِّر ربة البيت وما تكلف به زوجها من مطالب فوق طاقته حتى إذا أحضر لها ما تريد عادت فأَزْرَتْ به، وتصوِّر القصَّاب فى زيِّه وقد شَدَّ فى وسطه مِئْزرةً وقَصَّر ثوبه وكشف عن ساقيه وشمر ساعديه، وتصوِّر جشعه فى البيع. وتُرينا نظام التوثيق وكتابة العقود فى الأندلس وما كان يشيع هناك من صناعة الفخار، والمحتسب ومن يساعده من الأمناء ورجال الشرطة، والعجائز وتطفلهن، والأولاد والتفافهم حول كلٍّ ما يرون. وهى مقامة بديعة.

المقامات اللزومية للسَّرَقُسْطى

هو أبو الطاهر[١] محمد بن يوسف التميمى السرقسطى الإشتركونى نسبة إلى إشتركونه: حصن من أعمال تُطيلة فى الثغر الأعلى. ويبدو أنه نشأ فى سرقسطة، ولذلك نسب إليها وقيل إنه من أهلها. ويقول ابن بشكوال إنه سكن قرطبة، ولا نعرف بالضبط هل سكنها بعد أخذ النصارى لسرقسطة سنة ٥١٢ أو قبل ذلك وأكبر الظن أنه بارح سرقسطة مبكرا للقاء الشيوخ النابهين فى الأندلس، إذ تذكر كتب التراجم أنه أخذ عن ابن السيد البطليوسى ببلنسية وعن أبى بكر بن العربى بإشبيلية وعن أبى على الصدفى بمرسية سنة ٥٠٨ وعن أبى محمد الرُّكْلى بشاطبة، واستقر بقرطبة وتصدر فيها لإقراء الأدب واللغة. ونوهت كتب التراجم بأستاذيته لكثيرين من علماء الأندلس فى العربية فى مقدمتهم ابن مضاء صاحب كتاب الرد على النحاة. ولم تذكر كتب التراجم تاريخ مولد السرقسطى وذكرت أنه توفى بقرطبة سنة ٥٣٨ للهجرة. ومن آثاره كتاب المسلسل فى غريب لغة العرب وهو منشور بالقاهرة، ومقاماته اللزومية أروع آثاره، ومن أروع ما قدمت الأندلس للأدب العربى من أعمال أدبية.

---

(١) انظر فى أبى الطاهر السرقسطى الصلة لابن بشكوال رقم ١١٧٥ والتكملة لابن الأبار رقم ٥٥٤ ومعجمه ص ١٤٤ وما بعدها والإحاطة ٥٢١/٢ وتاريخ الأدب الأندلسى: عصر أمراء الطوائف المرابطين ص ٣١٧. وقد نشر مقاماته نشرة علمية محققه الدكتور بدر أحمد ضيف فى الهيئة المصرية العامة للكتاب (فرع الإسكندرية).

وقد وضع السرقسطى مقاماته فى محاذاة مقامات الحريرى وعلى غرارها من اتخاذ بطل لها من أبطال الشحاذة الأدبية هو الشيخ أبو حبيب فى محاذاة بطل مقامات الحريرى: أبى زيد السروجى واتخذ له راوية هو السائب بن تمام فى محاذاة راوية مقامات الحريرى: الحارث بن همام. وذكر مع السائب فى تسع مقامات راوية يحدث عنه هو المنذر بن حمام. وجعل السرقسطى مقاماته خمسين بعدد مقامات الحريرى وبناها مثله على عَرْض حِيَل شحاذ أدبى كبير هو الشيخ أبو حبيب ويرقّمها مثله من المقامة الأولى إلى المقامة الخمسين، غير أنه يختلف عن الحريرى فى أنه لا يعطى لكل مقامة لقبا خاصا بها يميزها ما عدا أربع عشرة منها فقط هى التى ميزها بالألقاب. والشيخ أبو حبيب سدوسى من عمان وكثيرا ما يظهر فى ثياب خَلَقة وأسْمال، منكّرا لشخصه على طريقة الحريرى. وهو دائما واعظ يزهد الناس فى الحياة ويحثهم على عَوْنه لما يرون من سوء حاله، ويُلْقون إليه بالدراهم والدنانير، أو يبذلون له المآكل والطعام، متخذا دائما حيلة أو موقفا، به يستدرّ عطفهم. وكثيرا ما يشترك معه فى الموقف أو الحيلة راويته السائب أو ابنه حبيب أو ابنته التى يتخذ منها جارية يبيعها ويأخذ ثمنها، ثم يتضح أنها حُرَّة، فيظفر بالثمن، وتُرَدّ إليها حريتها، حيلة من حيله.

ومقامات السرقسطى مبنية على السجع مثل مقامات الحريرى، غير أنه اقتدى فيه بأبى العلاء المعرى فالتزم فى نسجه مالا يلزم من تعدد قوافى السجع أو نهاياته مشترطا على نفسه أن تكون من حرفين أو أكثر. ولا يكتفى بتصعيب الممرات إلى سجعاته فى بعض مقاماته، إذ نراه فى المقامة السادسة عشرة يشترط على نفسه أن تتوالى سجعاتها ثلاثية ولذلك سماها المثلثة مفتتحا لها بقوله: «أقمت فى غَزْنة[1]، فترشّفت من مائها أى مزنة، وتوطّأت من أكنافها كل سهلة وحزنة» وسمى تاليتها المرصَّعة لأنه لم يكتف فى سجعاتها بالاتفاق فى حرف واحد بل التزم فيها حرفين أو أكثر كقوله فى مطلعها: «حننت إلى الوطن المحبوب، ونزعت إلى العَطن[2] المشبوب، حيث مآرب الشباب وملاعب الأحباب» وسمى الثامنة عشرة المدبَّجة، لأنه جعل الكلمات فى كل سجعتين تتقابل فى نهاياتها وتتعادل، على شاكلة قوله فى وعظها: «وسامِك[3] السماء ورافعها، ومانك الدِّماء ودافعها، إنك فى حَبائل الرَّزايا لمضطرب، ومن مناهل المنايا لمُقْتَرِب». واشترط على نفسه فى المقامة الثانية والثلاثين أن يختتم كل سجعاتها بحرف الهمزة ولذلك سماها

---

(١) غزنة: مدينة فى أفغانستان.
(٢) العطن: مبرك الإبل.
(٣) سامك: رافع.

الهمزية، واختتم سجعات المقامة الثالثة والثلاثين بحرف الباء ولذلك سماها البائية، وسمى الرابعة والثلاثين الجيمية لاختتامه سجعاتها بحرف الجيم والخامسة والثلاثين الدالية لاختتام السجعات بحرف الدال. وبالمثل صنع نفس الصنيع فى السادسة والثلاثين فاختتم سجعاتها بالنون وسماها النونية. ونحس غير قليل من التكلف فى هذه المقامات الخمس لبناء السجعات فيها على حرف واحد. وكذلك الشأن فى المقامات الأربع التالية وأولاها وثانيتها على نسق الحروف الهجائية وثالثتها ورابعتها على نسق حروف أبجد المعروفة، ولكن من الحق أن سجعاته فى المقامات الأخرى تشيع فيها العذوبة والسهولة والقدرة على التفنن فى الوعظ والوصف ونسج الكلام.

ويتنقل السرقسطى ببطل مقاماته بين بلدان كثيرة فيما عدا المقامتين الثلاثين والخمسين، فقد استعرض فى أولاهما على لسان البطل مميزات أنبه الشعراء فى الجاهلية وعصر المخضرمين والعصرين: الأموى والعباسى، وخصَّ الثانية - وهى المقامة الخمسون - بالحوار فى النظم والنثر بين ابن البطل حبيب وابن ثان لم يظهر إلا فى هذه المقامة اسمه غريب، وبينما ينتصر حبيب للشعر ينتصر غريب للنثر، حتى إذا اشتد بينهما الخصام، تدخل بينهما أبوهما الشيخ أبو حبيب للوئام، مبينا أن لكل من الشعر والنثر مجاله، والإحسان أنواع وضروب، حتى إذا اقتنع المتحاوران بكلامه أوصاهما - كما أوصى الحريرى ابنه فى مقامته الأخيرة - أن يقوما على حرفة الكدية وأن لا يصطحبا إلا الجواد ولا يرحلا إلا بزاد. ومثل هاتين المقامتين فى العناية بموضوع محدد المقامة التاسعة عشرة، وهى فى وصف الخمر وحاناتها. ودائما يتنقل الشيخ أبو حبيب فى مقاماته من بلد إلى بلد فى العالم الإسلامى منكرا لشخصه متحولا من حيلة إلى حيلة ومن صيد إلى صيد، وفى كل صيد وحيلة يعرفه السائب بعينه ويكشف حقيقته وسره. ولم ينزل فى الأندلس سوى جزيرة طريف ونزل فى المغرب طنجة والقيروان، ونزل فى مصر الإسكندرية ودمياط وفى الشام فلسطين وحلب. ونزل فى أنحاء كثيرة من الجزيرة العربية مثل عدن والشِّحْر وظَفار وزَبيد والبحرين واليمامة، ونزلْ بالعراق فى بغداد وواسط والأنبار والرَّقة وحَرَّان، ونزل بإيران فى الأهواز وأُصْبهان والرىّ ومَرْو، وتوغل فى بلاد الترك إلى الكَرَج وصول وغَزْنة. ولا يكتفى السرقسطى بإنزال بطله فى البلدان الإسلامية والضرب فى الصحارى والقفار، إذ رأى أن يخوض به البحار وأن يضم إلى رحلاته البرية كما صنع الحريرى رحلات بحرية تأثر فيها بما كتبه أصحاب تلك الرحلات، على نحو ما يلقانا فى المقامة الرابعة والأربعين وسماها العَنْقاوية نسبة إلى

العَنْقاء أنثى الرُّخّ، وهما طائران خرافيان ضخمان يتردد ذكرهما فى أحاديث بَحّارة العرب عن رحلاتهم فى أعماق البحار والمحيطات مبالغين فى وصف ضخامتهما وقوتهما الخارقة وحملهما لمن تحطمت سفنهم إلى البرّ والبلاد المأهولة، على نحو ما نقرأ عند الرُّبّان بُزُرْك بن شهريار من بحّارة القرن الرابع الهجرى فى كتابه: «عجائب الهند: بَرِّه وبحره وجزائره» إذ يقول إن الرُّخّ أنقذ سبعةً غرقت سفينتهم فى جزيرةٍ بقرب الهند ويَرْوِى عن بعض الملاحين أنه رأى ريشة من ريشه تسع خمسا وعشرين قربة من قرب الماء! كما يذكر أن بحارةً وقع فى سفينتهم عيب اضطرهم أن يَقْدُموا بها إلى جزيرة صغيرة رأوها فى طريقهم، فنزلوا بها وأصلحوا عيب سفينتهم وعنَّ لهم أن يوقدوا نارًا لبعض أغراضهم، فأحسوا الجزيرة تتحرك من تحتهم، فأسرعوا بالنزول إلى سفينتهم، وتولتهم الدهشة، إذ رأوا الجزيرة تغوص فى الماء وعرفوا أنها سُلْحفاة كانت طافية على وجه الماء وأحست النار فغاصت. وإنما ذكرت هذه السلحفاة الضخمة الخرافية والرخ الخرافى قبلها لأن من يقرأ مقامة السرقسطى العنقاوية لا يشك فى أنه قرأ كتاب بُزُرْك بن شَهْرِيار، وأنه استمدَّ منه حين جعل بطل مقامته وراويته يلجّجان فى رحلة بحرية، «ويخرجان إلى جزيرة عَريضة وأرض أريضة[١]، ولا ألباب ولا أفكار، ولا عرفان ولا إنكار، إلى أن استيقظا من تلك الغمرات، وصحَوَا من تلك السَّكَرات، فعلما أن الجزيرة حيوان بحرى أَصْحَر[٢]، ثم أَبْحَر، وشَمَسَ، ثم قَمَس[٣] فى الماء وانغمس» والسرقسطى يشير بهذا الوصف للحيوان إلى أنه سلحفاة، فإنها حيوان بحرى برى إذا نزل إلى الماء قصدا للاستراحة من طول المقام فى البر طفا على وجهه. وما يلبث السرقسطى أن يقول إن بطل المقامة وراويته «أظلّتهما ظُلّة ظليلة وسحابة بَليلة». وتهبط السحابة إلى الأرض وإذا هى الرخ فَرْخ العَنْقاء، ويطيل السَّرَقُسْطى فى وصفه وكيف تعلقا بأطراف ريشه يقول السائب الراوى:

«ثم لما صَدَع الفجر ووَضَح، واخْضَلَّ[٤] النَّدىَ ونَضَح، سار فى الهواء سَيْرًا رَفيقا[٥]، وجعل السحاب يسايرنا رَفيقا، تَخْفُقُ تحتنا البُروق، وتتطلع إلينا المغاربُ والشروق، إلى أن فارقَتْنا البحار، وعلمنا أنه الإِصْحار[٦]، ولما يَجِنْ من ليلنا

(١) أريضه: حسنة المرأى.
(٢) أصحر: برز فى الصحراء أو الأرض.
(٣) شمس: نفر. قمس فى الماء: غاص.
(٤) اخضل: ابتل.
(٥) رفيقا: لينا متئدا. رفيقا التالية: صاحبا.
(٦) الاصحار: يريد الأرض.

الإسْحار[١]. ثم أخذ في الانصباب إلى أرضٍ ذاتِ أشجار وأنهار، ورياض مونقةٍ وأزهار، فخُبِّرنا أنها من أرْيافِ النيل وشطُوطِه، ومجاريه وخُطُوطِه، فحمدنا الله على نَعْمائه، وتقلُّبنا بين أرْضِهِ وسَمائه».

ولا يلبث الشيخ أبو حبيب أن يعظ الناس ويَرْفدوه بالصِّلات الحَفِيَّة، والهبات الخَفِيَّة وهو دائما يضمنِّ مقاماته مواعظ خلقية ويُنْهِى المقامة بشعر، وقد يُكثر منه فى تضاعيفها. ويعود السرقسطى فى المقامة السابعة والأربعين إلى الحديث عن رحلة فى جزائر الهند لبطل مقاماته وراويته، غير أن الراوى لا يُفْضى فيها إلى وصف تلك الجزائر ولا إلى شىء من العجائب البحرية هناك إذ شُغِلَ عن ذلك بقضاء ليلة ماجنة مع البطل فى مجلس غناء. وكأنما كان السرقسطى مطلعا على شىء من الغيب، إذ جعل البطل فى المقامة الحادية والأربعين يتعيَّش من دُبٍّ يُراقصه ويَزْمر عليه ويلاعبه، ومعروف أن رمز مَدْريد فى عصرنا إنما هو الدبّ. وفى الحق أن المقامات اللزومية للسرقسطى أروع المقامات الأندلسية التى حاكت مقامات الحريرى بعده، وكانت حرية بأن يتجرد لها شارح مثل الشريشى مواطنه، وكأنما ينطبق عليه المثل: لا يطرب الزامر أهل بلده.

وحرى بنا أن نعرف أنه كان للمقامات تأثير واضح فى الأدب الإسبانى إذ نشأ على غرارها فى منتصف القرن السادس عشر الميلادى لون من الفن القصصى ازدهر خلال القرن التالى يصف حياة المشرَّدين والمتسوِّلين ويقوم على الشحاذة أو الكُدْية، سُمِّيَتْ أقاصيصه باسم «الأقاصيص البيكارسية» وسُمِّىَ بطلها باسم «البيكارو» ودائما نشأته متواضعة ويعانى من آلام المسغبة والبطالة، فيتخذ التسوُّل حرفة له يكسب بها قوته مستخدما فى ذلك حيلا وألاعيب شتى تماما كالشيخ أبى زيد السروجى فى مقامات الحريرى وكالشيخ أبى حبيب فى مقامات السرقسطى، مع صبغ كلامه مثلهما بصبغة وعظية خلقية[٢].

(ب) الرحلات

لعل مسيرة قوافل الأندلسيين إلى مكة سنويا لأداء فريضة الحج وزيارة القبر النبوى الشريف هى التى جعلتهم يولعون بالرحلة والأسفار فى العالم الإسلامى وما وراءه من

(١) الإسحار: السير فى السحر.
(٢) انظر فى ذلك د. مكى فى كتاب أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوربية ص ٨٨ وما بعدها.

بلدان وشعوب فى آسيا وأوربا وخاصة فى أنحائها الشرقية لاكتشاف المجهول من تلك الشعوب وما بديارهم من ظواهر كونية. وأيضا فإن تعدد مراكز الثقافة فى العالم العربى وفى الأندلس نفسها منذ عصر أمراء الطوائف حَبَّب الرحلة إلى المشغوفين بالعلم والعلماء، على نحو ما نجد فى عصرنا عند شبابنا العلميين من شغفهم بالرحلة إلى الغرب للتزود منه فى جميع ضروب العلم والمعرفة. ولا ننسى السفارات الخارجية التى كان يرسل بها حكام الأندلس وخاصة فى عصر أمراء الطوائف إلى إخوانهم من الأمراء فى الأندلس أو إلى نصارى الشمال أو إلى حكام إفريقيا ومصر والشام، وحتى فى أيام الأندلس الأخيرة إلى الدولة العثمانية. وكثرت الرحلات والسفارات الداخلية زمن أمراء الطوائف للتشاور فى أمر خطير من أمور السياسة والحكم كما كثرت رحلات حكام غرناطة والمغرب لتفقد شئون البلاد والرعية. ومن السفارات الداخلية سفارة الكاتب محمد[١] بن مسلم الدانى عن إقبال الدولة على بن مجاهد إلى بعض أمراء الطوائف من مثل المعتصم بن صُمادح أمير المريَّة والمعتضد أمير إشبيلية حين نازعه المقتدر بن هود (٤٣٨ - ٤٧٥ هـ) أمير سرقسطة فى أحد الحصون، فكتب إلى أغلب قائد ابن مجاهد وواليه على ميورقة يصف له أحداث سفارته فى رسالة طويلة سماها «طَىّ المراحل» قال ابن بسام إنه اقتضب من فصولها لطولها ما يدل على براعة كاتبها، وبلغ ما اقتضبه منها نحو عشرين صحيفة. وفى فواتحها يتحدث محمد بن مسلم عن صداقته لأغلب وشوقه للقائه، ويذكر دعوة إقبال الدولة إخوانه من أمراء الطوائف لإنجاده، ونداءه عليهم لإمداده فاستغشوا بأكمامهم وجعلوا أصابعهم فى آذانهم. ويقتطف ابن بسام من رسالته قطعا بديعة فى وصف الطبيعة، وأخرى فى وصف ما كان ينغمس فيه أمراء الطوائف من ترف بالغ، إذ بنوا - من عَرق الرعية - القصور المشيدة، وألحقوا بها حدائق بهيجة، ويصور كيف كان يطاف عليهم بصحاف من فضة وذهب، وحين يتوضئون تجيئهم طِساسٌ[٢] من التبر وأباريق رُصِّعت بالدر. وللشَّراب حجر خاصة وكأن الأطباق فيها مُقل الجفون مُلئت من قُرَّة العيون وكأن الكئوس مراشف الحور تُمْزج بحَباب الثغور. ومن تصويره لقرطبة حين مرَّ بها ورأى ما نزل بها من الدمار والذل والهوان قوله:

«كثيرا ما كنت أَقْتَرِحُ إتيانها وإن كانت على هَرَم، وأتمنىَّ وقفةً فيها ولو على قَدم،

---

(١) انظر فى الدانى الذخيرة ٤٢٧/٣ والمغرب ٤٠٥/٢.

(٢) طساس: جمع طست.

وأرغب [في] زيارتها ولو لِمامًا، وأودُّ رؤيتها ولو مَنامًا، لألمح دارَ الخلافة، وأرى بَيْت الرياسة، وجعلتُ أسلك في منازل المدينة، وأنظر في تلك المشابه المُبينة، فإذا رُسومها قائمةُ الأعلام، ونُصُبُها ماثلةُ الشكل والقيام.. ووقفت بالقصر المرواني وانتَبذْتُ إلى المُنْتَزَه العَبْدِ الرَّحماني(١)، فإذا الثلاثُ الأثافي(٢) والديارُ البَلاقع(٣)، وقيل هنا كانت قصورهم وهناك هي قبورهم، قد صارت معاقلُهم ترابا، ومساكنُهم يَبَابَا(٤)».

ويطيل في تصوير مجد قرطبة أيام بني أمية ويبكيها بكاء مؤثرا ويصور جامعها وقبابه ومقصورته الفخمة وزخارفها البديعة، والمحراب والمصحف العثماني بجانبه، وكأنما بيده ريشة يرسم بها لوحات بديعة. ويختم الداني رسالته بزيارته للمعتضد في إشبيلية وبيان مدى ترحيبه به وما أغدق عليه من التحف والطرف.

ويتكاثر الرحالة الأندلسيون منذ القرن السادس الهجري ومن أهمهم أبو حامد(٥) الغرناطي (٤٧٤ - ٥٦٤ هـ) شُغف بالرحلة وتجوَّل في إفريقيا وزار صقلية سنة ٥١١ ومنها رحل إلى مصر وزار الشام والعراق، وتحول إلى نواحي البحر الأسود (بحر الخزر) وتوغَّل في بلاد الصَّقالبة والبلْغار وعلى ضفاف نهر الفُولْجا، وصعد إلى أقصى الشمال في روسيا، وسجل مشاهداته في كتابه «تحفة الألْباب ونخبة الأعجاب» وله كتاب سماه «تحفة الكبار في أسفار البحار» ونشر سيزاردوبلر بمدريد ما شاهده في شرقيٍّ أوربا، وهو يكثر فيه من ذكر الخوارق والعجائب الخرافية، غير أن به من حين إلى حين بعض حقائق ومشاهد بديعة كمشهد الزُّحْلوقة يتزحلق بها الناس على الثلج في روسيا يقول:

«الطريق هناك في أرض لا يفارقها الثلج أبدا، ويتخذ الناس لأرجلهم ألواحا (زُحْلُوقة) ينحَتونها، طولُ كل لوح باعٌ وعرضه شبرٌ، ومقدمٌ ذلك اللوح ومؤخرُه مرتفعان عن الأرض، وفي وسط اللوح موضع يضع الماشي فيه رجله، وفيه ثقب، وشدّوا فيه سيورا

(١) نسبة إلى عبد الرحمن بن الناصر أهم حكام البيت الأموي بقرطبة.
(٢) الأثافي: جمع أثفية، والثلاث الأثافي: ثلاثة أحجار توضع عليها القِدْر، وكانت القبائل تتركها وراءها حين ترحل عن الديار.
(٣) البلاقع: المقفرة.
(٤) يبابا: خرابا.
(٥) انظر في أبي حامد ورحلته مقدمة جبرييل فيران لتحقيق كتابه تحفة الألباب ومقدمة سيزار دوبلر لتحقيقه قطعة من كتابه «المعرب عن بعض عجائب المغرب» وتاريخ الأدب الجغرافي لكراتشكوفسكي تعريب الأستاذ صلاح الدين عثمان هاشم (طبع لجنة التأليف) ص ٢٩٥ وتاريخ الجغرافية والجغرافيين لمؤنس ص ٣٠٣ وكتابنا: الرحلات (طبع دار المعارف) ص ٥١ وما بعدها وبالنثيا ص ٣١٢.

من جلود قوية يشدُّونها على أرْجلهم. ويقرن [الرجل] بين اللوحين اللذين يكونان فى رِجْلَيه بشندال (حبل) طويل مثل عنان الفرس، يمسكه فى يده الشمال، وفى يده اليمنى عَصًا بطوله، وفى أسفل العصا مثل كرة من الثياب محشوَّة بصوف كثير مثل رأس الإنسان خَفِيفة. ويعتمد على تلك العصا فوق الثَّلج. ويدفع العصا خلف ظهره كما يصنع الملَّاحُ فى السفينة. فيذهب على ذلك الثلج بسرعة، ولولا تلك الحيلة لم يمكن أحدا أن يمشى هناك البتة، لأن الثلج على الأرض مثل الرمل لا يتلبَّد البتة، وأى حيوان يمشى عليه يَغُوص فى ذلك الثلج فيموت إلا الكلاب والحيوان الخفيف كالثعلب والأرنب، فإنها تمشى عليه بخفة وسرعة». وهى صورة من التزحلق قديمة شبيهة أدق الشبه بصورة التزحلق الحديث الذى تُعْقَدُ له المسابقات سنويا فى البلاد الأوربية.

ونلتقى بعد أبى حامد الغرناطى من رحالة الأندلس بابن جبير، وسنفرد له مع رحلته كلمة، ويلقانا من رحالة العصر الغرناطى القاضى أبو البقاء[1] البلوى خالد بن عيسى وسمى رحلته «تاج المفرق فى تحلية علماء إفريقيا والمشرق» وقد لقى فيها كثيرين من العلماء وروى عنهم، بدأها فى ١٨ من صفر سنة ٧٣٠ وظل يلقى العلماء سنوات ويأخذ عنهم، ونزل تونس وعيَّنه أميرها كاتبا فى ديوانه زمنا يسيرا، ثم عاد إلى بلده فعُيِّن بها قاضيا. ويقول لسان الدين بن الخطيب فى الإحاطة إنه حجَّ وقيدَّ عن العلماء، ورحلته فى سِفْر وصَفَ فيه البلادَ ومَنْ لقى بفصول، جَلَب أكثرها من كتابات العماد الأصبهانى وصفوان بن إدريس. ولابن جابر الوادى آشى الذى مرت ترجمته فى الفصل الماضى رحلة دوَّن فيها ما اكتسبه من الفوائد الأدبية أثناء أسفاره الطويلة.

ويلقانا ابن[2] الحاج النميرى المولود سنة ٧١٣ لأسرة كريمة وقد عنى أبوه بتربيته حتى إذا كانت سنة ٧٣٤ عُيِّن كاتبا فى ديوان أبى الحجاج يوسف الأول أمير غرناطة، وفى سنة ٧٣٧ رحل لأداء فريضة الحج، ونزل فى عودته بقسنطينة سنة ٧٣٩ وخدم أمراءها الحفصيين، ثم تركهم وخدم أبا الحسن المرينى حتى سنة ٧٤٧ إذ رأى العودة إلى أداء

---

(١) انظر فى أبى البقاء ورحلته الإحاطة ٥٠٠/١ ونيل الابتهاج (طبع فاس) ص ٩٩ والكتيبة الكامنة ص ١٣٤.

(٢) راجع فى ابن الحاج النميرى الإحاطة ٣٤٢/١ والكتيبة الكامنة ص ٢٦٠ ونيل الابتهاج ص ١٤ والمنهل الصافى لابن تغرى بردى ٦٦/١ وجذوة الاقتباس لابن القاضى ص ٨٧ ونثير فرائد الجمان لابن الأحمر ص ١١٣ ونفح الطيب ١٠٩/٧ ورحلة: «فيض العباب» حققها الدكتور محمد بن شقرون ونشرها فى الرباط.

فريضة الحج وعاد فخدم الحفصيين سنة ٧٥٠ وبعد سنتين اعتزل للعبادة بتلمسان وأُجْبر في سنة ٧٥٧ على خدمة السلطان أبي عنان وجعله رئيس ديوان الكتبة. وأفلت عند موته وعاد إلى غرناطة فعُين قاضيا إلى وفاته بعد سنة ٧٧٤ وكان شاعرا مجيدا في الشعر الغنائي والتعليمي. ويقول ابن الخطيب في الإحاطة له رحلة «فيض العُباب وإحالة قداح الآداب في الحركة إلى قسنطينة والزاب» وقد حققها ونشرها بالرباط - كما ذكرنا في الهامش - الدكتور محمد بن شقرون، ووضع بين يديها مقدمة قيمة. وهي في وصف رحلة السلطان أبي عنان المريني من فاس إلى سَلا والعودة منها ثم إلى قسنطينة والزاب والعودة منها عن طريق الصحراء. والرحلة وثيقة تاريخية مهمة عن فتح بني مرين لقسنطينة وعنّابة وتونس وبيعة البلدان المغربية لأبي عنان، وقد كتبها ابن الحاج بأسلوب أدبي التزم فيه السجع وبعض المحسنات البديعية مع العناية باستخدام التورية والتصنع للمصطلحات العلمية وبعض الألفاظ الغريبة مما أشاع غير قليل من التكلف في صياغة الرحلة.

ولصديقه ابن الخطيب معاصره الذى مرت ترجمته بين كتاب الرسائل الديوانية رحلات بديعة في بلدان الأندلس والمغرب، وأول ما نقف عنده رحلته[١] مع أميره أبي الحجاج يوسف الأول في تفقده لبعض الثغور الشرقية لإمارته سماها: «خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف» وقد سار موكب أبي الحجاج فيها تلقاء الشمال الشرقي من العاصمة غرناطة إلى وادى آش فإلبيرة. ويعود الموكب من طريق آخر مارا بثغر المَرِيَّة على البحر المتوسط. وكانت زيارات الأمير أبي الحجاج لها ولغيرها من المدن أشبه باستعراضات عسكرية، يشترك فيها جند الأمير مع أهل البلدة إذ كانت بلاد الإمارة الغرناطية أشبه برباطات حربية، فكل من فيها حاملو سلاح. ويقول ابن الخطيب إن النساء في هذه الاستعراضات كن كثيرات، وكن يحيين الرجال ويحييهن الرجال، ونظن ظنا أن كثيرات منهن كن سافرات إذ عرفت الأندلس - كما مر في غير هذا الموضع - السفور مبكرا.

ولابن الخطيب رحلة ثانية سماها «معيار الاختيار في ذكر الأحوال والديار» ويسميها مقامة وليست مقامة بل رحلة كسابقتها وصَفَ فيها أربعا وثلاثين مدينة من مدن إمارة

---

(١) انظر في هذه الرحلة وتاليتها كتاب مشاهدات لسان الدين بن الخطيب تحقيق د. مختار العبادى.

غرناطة وبعض مدن المغرب الأقصى مثل مكناسة. والمقامة مسجوعة مثل سابقتها، وتصور فى تلك المدن عمرانها ونشاطها الثقافى وكل ما بها من صور الحياة، مع ذكر محاسن كل مدينة وما قد يكون فيها من مساوئ. وله رحلة طويلة لم يكتبها سجعا مثل الرحلتين السالفتين بل كتبها مرسلة غير مسجوعة، وصف فيها المغرب الأقصى ومدنه سماها «نُفاضة الجراب فى عُلالة الاغتراب» وكانت فى أربعة أجزاء، سقط منها ثلاثة من يد الزمن وبقى الجزء[1] الثانى وهو يفتتح هذا الجزء بالصعود إلى جبل هِنْتَاتَة بمنطقة أطلس ويزور هناك قبر السلطان أبى الحسن المرينى ويفيض فى الحديث عن أحوال قبيلة هنتاتة. ويزور أغمات وقبر المعتمد بن عباد بها ويحيِّيه بقصيدة ويلمُّ بمراكش وغيرها من المدن فى طريقه إلى مدينة سَلا على المحيط، ويذكر كل ما فى تلك المدن من مساجد ومكتبات ومدارس. ورحلات ابن الخطيب عامة تكتظ ببيان أحوال المدن الأندلسية والمغربية الاجتماعية والثقافية.

ونلتقى بأخرة من زمن دولة بنى الأحمر فى غرناطة بالقَلْصادى على بن محمد القرشى البَسْطى (٨١٥ - ٨٩١ هـ) الذى مرَّ ذكره فى الفصل الثانى بين علماء الرياضة، وله رحلة إلى الحجاز لأداء فريضة الحج والزيارة النبوية، سماها: «تمهيد الطالب ومنتهى الراغب إلى أعلى المنازل والمناقب» حققها وقدَّم لها ونشرها بتونس الأستاذ محمد أبو الأجفان، وهو لا يتوسع - باستثناء مكة ومناسك الحج - فى وصف البلدان التى نزلها ذهابا وإيابا فى رحلته إلى الحجاز، بل يلمّ بها فى إيجاز شديد، ليحدثنا عن الشيوخ الذين تتلمذ لهم فيها، وخاصة فى تلمسان وتونس والقاهرة، ويبلغون عنده ثلاثة وثلاثين شيخا. والكتاب أشبه بكتب الفهرسة والبرامج منه بكتب الرحلات، وهى كتب اشتهرت بها الأندلس من قديم، وفيها يذكر مؤلفوها شيوخهم وما سمعوه منهم وأخذوه عنهم من مؤلفات. وحرى بنا الآن أن نتحدث عن رحلة ابن جبير.

(١) نشر هذا الجزء د. مختار العبادى بالقاهرة.

رحلة ابن جبير

هو محمد[(١)] بن أحمد بن جبير الكنانى البلنسى المشهور باسم ابن جبير، أصل أسرته من مدينة شاطبة، وُلد ببلنسية سنة ٥٣٩ وقيل سنة ٥٤٠ وسمع فى نشأته من أبيه وعلماء موطنه وأكبَّ على دراسة الفقه، وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة، وطمح إلى العمل فى الدواوين، وألحقه أبو سعيد عثمان بن عبد المؤمن حاكم غرناطة لأبيه عبد المؤمن ثم لأخيه يوسف حتى وفاته سنة ٥٧٢. وكان عثمان شغوفا بالأدب، وخفَّ على نفسه ابن جبير فكان يحضره مجالس شرابه وعبثا حاول أن يقنعه بالشراب معه، إذ كان يعافه تدينا، وذات يوم أقسم عليه ليشربنَّ سبعا، ونزل مضطرا عند إرادته وشرب سبع كئوس، فملأ أبا سعيد الكأس دنانير سبع مرات وصبَّ ذلك فى حجره، فحملها إلى منزله، وصمم أن يجعل كفارة شربه الخمر الحجَّ بتلك الدنانير، حتى إذا كانت سنة ٥٧٨ باع ملكا له تزوَّد به للحج، وفصَل من غرناطة فى شوال، وركب البحر فى سفينة لبعض أهل جنوة قاصدا إلى الإسكندرية ونزل بها واتجه إلى القاهرة ومنها إلى قوص بصعيد مصر، ومنها إلى عَيْذاب حيث عبر البحر الأحمر إلى جدة، وقصد من فوره مكة، وأدى فريضة الحج، وزار القبر الشريف بالمدينة، ثم اتجه إلى الكوفة فبغداد فالموصل وبلدانه. وهو فى كل تلك البلدان يمكث بعض الوقت ويدوِّن ما شاهده فيها من مساجد ومدارس وغرائب، ونزل الشام وكان لحملة الصليب فيها مستعمرات، فجاس خلال ديارهم وسجَّل كثيرا من أحوالهم. وركب البحر المتوسط من عكا على سفينة مسيحية عائدا إلى موطنه. وألمت السفينة بصقلية فنزل فيها وتجوَّل فى بلادها، ورجع إلى السفينة، ونزل منها فى قرطاجنة بساحل الأندلس فى ١٥ من المحرم سنة ٥٨١

ورحلة ابن جبير تقصُّ ما شاهده فى البلدان التى زارها ونزل بها فى صورة مذكرات يومية، ومع كل بلدة وكل مشهد التاريخ باليوم والشهر، ويبدو أنه كتبها فى أوراق منفصلة، وكأن الموت عاجله قبل أن يجمعها نهائيا، فجمعها بعض تلاميذه ونشرها بعد وفاته باسم «تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار» وآثر من نشروها فى العصر الحديث

---

(١) انظر فى ترجمة ابن جبير ورحلته المغرب ٣٨٤/٢ والإحاطة ٢٣٠/٢ ومقدمة رايت لتحقيقه لرحلته بلندن ومقدمة دى خويه لطبعتها فى ليدن وكتاب د. مؤنس ص ٤٣٧ وكراتشكوفسكى ص ٢٩٩ وبالنثيا ص ٣١٦ ودائرة المعارف الإسلامية فى ابن جبير وكتابنا: الرحلات (طبع دار المعارف) ص ٧٠ - ٩٤. والرحلة طبعت مرارا فى ليدن والقاهرة.

من المستشرقين والعرب أن يطلقوا عليها اسم «رحلة ابن جبير». وله رحلتان بعد هذه الرحلة حجَّ فى كل منهما، والسبب فى أولاهما أنه سمع بفتح صلاح الدين لبيت المقدس سنة ٥٨٢ واستيلائه عليه من أيدى الصليبيين، فحدثته نفسه أن يزور تلك الأماكن وعلَمُ الإسلام يرفرف عليها، وارتحل لذلك سنة ٥٨٥ وعاد سنة ٥٨٧ إلى غرناطة وسكنها ثم سكن مالقة ثم سبتة منقطعا إلى إسماع الحديث النبوى وروايته. وكان قد تزوج من أم المجد عاتكة بنت أبى جعفر الوقَّشى وزير ابن همشك أمير جيان قبل دخوله فى طاعة الموحدين، وكان كلفا بها، وتوفيت فعظم وجده عليها، ونظم فيها - بجانب ديوانين له أحدهما فى الشكوى من إخوان الزمان - ديوانا سماه: نتيجة وجد الجوانح فى تأبين القرين الصالح». ولكى يخفف عن نفسه حزنه عليها رحل رحلته الأخيرة لأداء الحج سنة ٦١٤ وجاور بمكة فترة، ثم ارتحل إلى الإسكندرية وأدركته فيها منيته فى نفس السنة، ويغلب أن يكون مسجد سيدى جابر بها مسجده وأن تكون العامة حرَّفت اسمه مع الزمن.

والرحلة مكتوبة بأسلوب مرسل تشيع فيه السهولة والسلاسة والعذوبة، مما جعلها نسيجة وحدها - كما يقول ابن الخطيب - كما جعلها تطير كل مطار، ونشعر فى أحيان كثيرة كأنما بيده ريشة يبدع بها لوحات رائعة كما فى تصويره للإسكندرية حين نزلها ومبانيها وأسواقها وشوارعها ومنارها العجيب وما بها من مساجد ومدارس وبيوت لطلاب العلم. ويقول إنه بمجرد أن ينزل بها طالب علم من الأقطار النائية يجد مسكنا والعالم الذى يدرس عليه والراتب الذى يرتفق به. وينزل القاهرة ويصف القلعة والأهرام وأبا الهول، ويرسم مشهد الحسين حفيد الرسول عليه السلام فى لوحة باهرة. ويطيل فى وصفه للمارستان بالقاهرة وما به من خزائن الأَدْوية والأسرَّة كاملة الكسوة للرجال وما اتُّخذ فيه من قسم خاص بالنساء وقسم على مقاصيره شبابيك من حديد للمجانين. وينزل مدينة قوص ويصف الحياة فيها كما يصف مدينة عَيْذاب على البحر الأحمر ويقول فى بحرها جزائر بها مغاص للؤلؤ نفيس. ويركب البحر إلى جدة وينزل مكة، ويرسم المسجد الحرام فى لوحة باهرة، تجمع كل تفاصيله بأركانه وأبوابه وكل ما يَغْشى جوانب فيه من ذهب وفضة وستور حريرية وما به من مقام إبراهيم المغطى بالفضة ومن حوائط رائقة الترصيع والتجزيع وقِبَابٍ بديعة وسَوَار وأعمدة بديعة التركيب. وتشغل هذه اللوحة صفحات متصلة من الرحلة لا تترك شيئا فى المسجد ولا فى ظاهره وسطحه إلا تقيِّده. ويرسم لوحة باهرة لمسجد الرسول عليه السلام كاللوحة التى رسمها للمسجد الحرام،

ومن قوله فيها عن الروضة المقدسة: (قبر الرسول وصاحبيه أبي بكر وعمر) والمنبر الشريف:

«الروضة المقدسة مع آخر الجهة القبلية مما يلى الشرق.. وشكلها شكل عجيب لا يكاد يتأتَّى تصويره ولا تمثيله. وجميع سَعتها من جميع جهاتها مائتا شبر واثنان وسبعون شبرا، وهى مؤزَّرة بالرخام البديع النَّحت، الرائع النعْت، وينتهى إزار منها إلى نحو الثلث أو أقل يسيرا، وعليه من الجدار المكرَّم ثلثُ آخر قد علاه تضَمْيخ المسك والطِّيب، والذى يعلوه من الجدار شبابيكُ عودٍ متصلة بالسَّمْك الأعلى، لأن أعلى الروضة المباركة متصل بَسمْك المسجد. وإلى حيِّز إزار الرخام تنتهى الأسْتار، وهى لازَوَرْدِيَّة اللون.. وفى الصفحة القبلية أمام وجه النبى ﷺ مسمارُ فضةٍ، هو أمام الوجه الكريم فيقف الناس أمامه للسلام، وإلى قدميه ﷺ رأسُ أبى بكر الصديق رضى الله عنه، ورأس عمر الفاروق مما يلى كتفى أبى بكر الصديق رضى الله عنهما، فيقف المسلم مستدبر القبلة ومستقبلَ الوجه الكريم فيسلِّم، ثم ينصرف يمينا إلى وجه أبى بكر، ثم إلى وجه عمر. وأمام هذه الصفحة المكرمة نحو عشرين قنديلا معلَّقة من الفضة، وفيها اثنان من الذهب. وعن يمين الروضة المكَّرمة المِنْبَر الكريم، ومنه إليها اثنتان وأربعون خُطوة، وهو مرخَّم كله، وارتفاعه نحو القامة أو أزيد، وسَعته خمسة أشبار، وطولُه خمس خطوات، وأدراجه ثمانية، وله باب على هيئة الشبَّاك مقفل، يُفْتح يوم الجمعة، وطوله أربعة أشبار ونصف، والمِنَبُر مغشىٌّ بعود الآبنوس، وَمْقعد الرسول ﷺ من أعلاه ظاهر، قد طُبِّق عليه بلوح من الآبنوس غير متصل به يصونه من القعود عليه، فيُدْخل الناس أيديهم إليه ويتمسَّحون به تبركا بلَمْسِ ذلك المقعد الكريم».

ويسترسل ابن جبير فى وصف المسجد وقبلته وما على جدارها من الفسيفساء بهذا التصوير البارع الدقيق. ويذكر أن المؤذن الراتب فيه من أحفاد بلال مؤذن الرسول رضى الله عنه، ويصف مشاهد المدينة. ويبارحها إلى الكوفة، ويصل إلى بغداد، ويصور بعض المجالس العظيمة لعلمائها ووعَّاظها وخاصة ابن الجوزى إمام عصره فى الحديث والوعظ، وفى وصف إحدى مواعظه يقول:

«أتَى فيها بِرَقَائق من الوعظ وآياتٍ بيناتٍ من الذكر طارتْ لها القلوبُ اشتياقا، وذابتْ بها الأنفس احتراقا، إلى أن عَلاَ الضَّجيجُ، وتردد بشهقاته النَّشِيج، وأعلن التائبون بالصياح، وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح، فشاهدنا هَوْلاً يملأ

النفوس إنابةً وندامة، ويذكِّرها هولَ يوم القيامة، فلو لم نركب ثَبَجَ البحر، ونعتسف مفازات القفر، إلا لمشاهدة مجلس من مجالس هذا الرجل لكانت الصفقةَ الرابحة، والوجهةَ المفلحة الناجحة».

ويصف بغداد ومساجدها ومبانيها وأسواقها ومحالَّها، ويغادرها إلى الموصل فحلب، وتروعُه مبانيها وقلعتها وجامعها والمدرسة الملحقة به وكأنها فى الحسن روضة تجاور أخرى. ويصل دمشق جنة المشرق وعروس المدن، وتروعُه بساتينها المحدقة بها إحداق الهالة بالقمر وما يمتد بشرقيها من غوطتها الخضراء بحللها السندسية البديعة، وينوه بحسنها، ويقول صدق القائلون عنها: «إن كانت الجنةُ فى الأرض فدمشق لا شك فيها، وإن كانت فى السماء فهى بحيث تُسامِتها (تقابلها) وتُحاذيها». ويطيل الوصف لمسجدها الأموى العظيم وما به من عُمُد وقباب وأبواب وما عليها من نقوش وما يمتد على حيطانه وسقوفه من الفُسَيْفِساء البديعة وما به من مقاصير وغرائب التصاوير. ويفيض فى الحديث عن مشاهد دمشق وأسواقها ومدارسها ومارستانها وما بها من خانقاهات للمتصوفة. وأشاد بأعمال صلاح الدين الأيوبى فى الشام، كما أشاد بها فى الإسكندرية والقاهرة، ونوه بانتصاراته على الصليبيين، وتغلغله فى ديارهم، ولاحظ أن تجارهم وتجار المسلمين يغدون ويروحون فى الدارين: دار الإسلام ودار حملة الصليب دون أى اعتراض، والحرب مع ذلك قائمة بين الفئتين والتجار فى عافية. ويُبْحر من ميناء عَكًّا مع التجار النصارى فى إحدى سفنهم المعدَّة لسفر الخريف، وكانت متجهة إلى مسِّينة فى صِقِلِّية، فنزل بها وتجوَّل فى بلدانها، وكان المسلمون قد فتحوا تلك الجزيرة فى مطالع القرن الثالث الهجرى وعرَّبوها لمدة قرنين ونصف إذ فتحها النورمان، وكان ملوكهم الأولون يحتضنون الثقافة العربية ويَرْعَوْنَ علماءها، ويجلسون منهم مجلس التلاميذ، مما أتاح لصقلِّية حينئذ أن تُصبح مجازًا لعبور الثقافة العربية الإسلامية إلى أوربا وخاصة فى عهد روجر الثانى وابنه غليوم اللذين طبعا حياة الدولة فى أيامهما بالطوابع العربية الإسلامية، ويصوِّر ذلك ابن جبير فى حديثه - برحلته - عن غليوم الذى زار الجزيرة فى عهده، فيقول عنه:

«هو كثيرُ الثقة بالمسلمين، وساكنٌ إليهم فى أحواله والمهمِّ من أشغاله، حتى إن الناظر فى مطبخه رجلٌ من المسلمين.. ومن عجيب شأنه المتحدَّث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية، وعلامته (فى أول رسائله) - على ما أعلمنا به أحد خدمته المختصين به - «الحمد لله حَقَّ حمده»، وكانت علامة أبيه «الحمد لله شكرا لأنعمه». وأما جواريه وحَظاياه فى قَصْره

فمسلمات كلهن، يقول: ومن أعجب ما حدَّثنا به خَدِيمه: يحيى بن فتيان الطرَّاز أن الإفرنجية من النصرانيات تقع فى قصره، فتعود مُسْلمة، تعيدها الجوارى المذكورات مسلمة، وهُنَّ على تكتم فى ذلك كله، ولهنَّ فى فعل الخير أمور عجيبة.. وأما فتيانه الذين هم عُيُون دولته وأهل عِمالته فى ملكه فهم مُسْلمون، ما منهم إلا من يصوم الأشهر تطوُّعا وتأجُّرا (طلبا للأجر) ويتصدَّق تقربا إلى الله وتزلفا، ولهم فى فعل الجميل أخبارٌ مأثورة». وهى وثيقة تاريخية مهمة فيما كان من تعاون بين النورمان النصارى والمسلمين فى أيام ملوكهم الأولى بصقلية. ويتنقَّل ابن جبير فى الجزيرة، ومما يذكره عن نساء النصارى فى «بالرم» العاصمة أنهن كن يلبسن نفس زِىِّ المسلمات ويتَحَجَّبْنَ مثلهن منتقباتٍ بالنقب الملونة كما يتزيَّنَّ على طريقتهن، ويقول إنهن فصيحات. ومع ذلك كله يقول ابن جبير إن راية الإسلام ستنكس هناك وسُيصْبح كل ما للمسلمين من مساجد وغير مساجد هناك أثرا بعد عين، وصدق حَدْسُه. وقد أبحر من صقلية إلى قرطاجنة على الشاطىء الأندلسى ومنها إلى غرناطة. والرحلة - بحق - ممتعة لا بأسلوبها الأدبى المرسل البليغ فحسب، بل أيضا بملاحظات ابن جبير الدقيقة المتنوعة.

خاتمة

تحدثنا - فى الصحف الماضية - عن كثرة العناصر المكونة لسكان إيبيريا وأنها ظلت تستقبل عناصر متنوعة من القارات القديمة الثلاث: أوربا وإفريقيا وآسيا، ومن قديم ظلت تستقبل حضارات الفينيقيين واليونان والقرطاجينيين والرومان دون أن تضيف شيئا يميزها فى تاريخ الحضارة الإنسانية، وغزاها القوط المتبربرون فى القرن الخامس للميلاد وقضوا - أو كادوا يقضون - على كل ما وفد عليها من تلك الحضارات. ومرَّ بنا فتح العرب لإيبيريا سنة ٩٢ هـ/٧١١م والجهود التى بذلها موسى بن نُصَير وطارق بن زياد فى فتحها حتى خليج بسكاى وجبال البرينيه التى تفصلها عن غالة (فرنسا). ولم تكد تمضى أربع سنوات حتى أصبحت إيبيريا من جنوبيِّها إلى شماليِّها تدين بالولاء لدمشق كإقليم من أقاليم الدولة الأموية. ويُسْتَدْعى الفاتحان العظيمان إلى دمشق بأخرة من سنة ٩٥ للهجرة ولا يعودان إليها. واستوطن الجيش الفاتح من العرب والبربر أواسط إيبيريا وجنوبيها، وسموا ديارهم - بل إيبيريا جميعها - باسم الأندلس أخذا من كلمة «ڤندالس» سكانها فى الجنوب. وتدخل الأندلس فى عصر الولاة منذ سنة ٩٥ إلى سنة ١٣٨ وأبلى نفر من ولاتها - حتى سنة ١١٦ - بلاء حسنا فى غزو غالة (فرنسا) ويفرضون على إقليم سبتمانية بجنوبيها ولاءه للعرب، وتتقدم جيوشهم مرارا على نهر الرون وفى اتجاه بواتييه إلى الشمال وليون إلى الجنوب، وتدب العصبيات - بل تضطرم - بين قبائل العرب القحطانية والمضرية، وبين العرب والبربر، فيتوقف هذا المد العظيم، ولولا ذلك لفتح العرب شطرًا كبيرًا من أوربا الغربية.

ويقيِّض لانتشال الأندلس من العصبيات المحتدمة فيها عبور عبد الرحمن بن معاوية ابن الخليفة هشام بن عبد الملك سنة ١٣٨ للهجرة بحرَ الزُّقاق إليها وإعلانه فيها ميلاد دولة أموية غربية تخلف دولة آبائه فى دمشق التى قضى عليها العباسيون قضاء مبرما سنة ١٣٢ للهجرة. ويأخذ هو وأبناؤه وأحفاده الذين امتد حكمهم للأندلس نحو ثلاثة قرون فى تأسيس حضارة أندلسية عربية باهرة، وقد أخذت تلك الحضارة فى التكامل لعهد عبد الرحمن الأوسط الذى أنشأ للدولة أسطولا يحمى موانيها على المحيط الأطلسى

والبحر المتوسط، ووضع لحكم البلاد نظاما إداريا حضاريا، إذ اتخذ لها مجلس وزراء على نحو ما نعرف الآن من مجالس الوزراء فى الأمم المتحضرة، وأضاف إليه هيئات – باسم خطط – للإشراف على مصالح الرعية. وبلغت الأندلس الذروة فى المكانة السياسية والحضارية لعهد عبد الرحمن الناصر الذى فرض سلطانه على المسيحيين فى الشمال. وما يلبث عهد الدولة الأموية أن ينتهى بفتنة كبرى ظلت نحو عشرين عاما. وينشأ عصر أمراء الطوائف، وفيه تنقسم الأندلس إلى أندلسات، وبعبارة أخرى إلى إمارات كثيرة، ويتنافس الأمراء فى الإكثار مما يحيط بهم من شعراء وعلماء وكتّاب، وتنفق سوق الأدب والعلم، وتهبط كفّة الحكم والسياسة إلى أدنى مستوى، إذ يعيش الأمراء للترف واللهو وكل فنونه، ويتناحرون فيما بينهم، على حين يركعون – خانعين – للمسيحيين الشماليين، مما جعل ألفونس السادس ملك قشتالة ينقض على طليطلة واسطة عقد الأندلس سنة ٤٧٨ للهجرة ويستولى عليها، حتى إذا لم يبق منزع فى قوس الصبر لا للفقهاء ولا للرعية ولا للأمراء اللاهين استصرخوا جميعا يوسف بن تاشفين أمير المرابطين فى المغرب، فعبر إلى الأندلس سنة ٤٧٩ وسحق جموع ألفونس السادس فى الزلاقة سحقا ذَريعا، وتطورت الأمور سريعا، وأظل لواء المرابطين الأندلس جميعا. وتضعف دولتهم بعد نحو نصف قرن ونيِّف، وتعود الأندلس فى بعض أجزائها إلى التفكك، وتتداركها دولة الموحدين، وتظل تحميها إلى أوائل العقد الثالث فى القرن السابع الهجرى، ومن مفاخرهم تدمير أميرهم يعقوب الموحدى لجيش ألفونس الثامن فى موقعة الأَرَك سنة ٥٩١. وتعود الأندلس منذ سنة ٦٢٣ إلى التفكك، وتقع كثرة من مدنها العريقة فى حجور المسيحيين الشماليين، ويستطيع ابن الأحمر سليل سعد بن عبادة الصحابى الجليل أن يستنقذ إمارة غرناطة له ولأسرته لأكثر من قرنين ونصف إلى أن سلَّم أبو عبد الله الصغير مفاتيح المدينة لفرناند وزوجته إيزابيلا سنة ٨٩٧ للهجرة.

وذكرنا ما تم فى المجتمع الأندلسى من مزج سريع بين المسلمين من العرب والبربر وبين المسيحيين ومن دخلوا فى الإسلام منهم وأبنائهم، وكانت حياة المسيحيين حياة متبدية بها غير قليل من الشظف، بينما أخذ المسلمون الأندلسيون يتحولون إلى حياة حضارية، وخاصة منذ عهد عبد الرحمن الأوسط لشغفه بحضارة العرب المادية فى المشرق مما جعل التجار يحملون إليه كثيرا من أدواتها، وساعد على اكتمال الحضارة الأندلسية فى عهده وفود زرياب تلميذ إسحق الموصلى – أكبر الموسيقيين فى عهد الرشيد – على قرطبة، ومكّن له عبد الرحمن – إلى أقصى حد – من إحداث نهضة موسيقية فى الأندلس بإنشائه

له معهدا موسيقيا تخرج فيه كثيرون، قادوا بالأندلس الحركة الغنائية والموسيقية قيادة بديعة. ولا يقف أثر زرياب عند هذا الجانب، بل يتسع ليشمل الجوانب الحضارية المادية فى المأكل وملبس الجنسين وتزينها فى الهيئة والمظهر، وأيضا فى اتخاذ الرياش الفاخر. وأخذ عبد الرحمن الأوسط وأبناؤه يعنون ببناء القصور والتأنق فى أثاثها وزينتها، ولا يبنى حفيده الناصر قصرا فحسب بل يبنى مدينة عظيمة هى مدينة الزهراء. ومن يتابع ابن بسام فى وصفه لبعض قصور أمراء الطوائف مثل قصر المكرَّم لبنى ذى النون يظن كأنها من قصور ألف ليلة وليلة الخيالية، وما يزال قصر الحمراء بغرناطة إلى اليوم يشهد بما بلغته الحضارة المادية فى المعمار إلى أوج لم تعرفه الأندلس قبل العرب وبعدهم إلى اليوم.

وكان للمرأة فى هذا المجتمع الأندلسى الحضارى مكانة عظيمة جعلتها تحظى من الحرية بما لم تحظ به أختها فى المشرق حتى كان بينهن كاتبات مشهورات للخلفاء الأمويين، وكان بينهن عالمات مقرئات ومحدِّثات وطبيبات، وكان بينهن سيدات مجتمع راقيات كصواحب الصالونات بفرنسا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر وكان لهن - مثلهن - غير قليل من التأثير فى الحياة الأدبية.

ولم تعرف الأندلس التشيع إلا قليلا وعند أفراد محدودين، وظلت النزعة الأموية تغلب عليها بعد سقوط الدولة الأموية، وعرفت الأندلس الزهد وتألق فيها أسماء زهاد كثيرين، كما عرفت التصوف منذ القرن الرابع الهجرى وأنجبت فيه مشاهير مثل ابن عربى وابن سبعين والششترى.

ولم يكن لإيبيريا دور علمى فى العصور القديمة، والعرب هم الذين بدأوا فيها الحركة العلمية بعلومهم اللغوية والدينية، وعَمِلَ عبد الرحمن الأوسط على السعة بهذه الحركة، إذ أدخل عليها بقوة العناية بعلوم الأوائل من رياضة وطب وصيدلة، وجلب كتب تلك العلوم من بغداد. وبلغ الناصر وابنه الحكم المستنصر بالحركة العلمية الغاية المأمولة باستدعاء العلماء من المشرق وإجزال العطاء لهم وجلب المخطوطات النفيسة فى مختلف العلوم والآداب، مما أتاح لدراسة علوم الأوائل الازدهار منذ القرن الرابع الهجرى، مع ما أضاف إليها علماء الأندلس من إضافات باهرة على مر العصور، وتلمع فى الرياضة أسماء مسلمة المجريطى والزرقالى والبِطْرَوْجى والرَّقوطى، وتلمع فى الطب أسماء الزهراوى وبنو زهر وابن رشد، وفى الصيدلة أسماء الغافقى وابن العوام وابن البيطار

وفى الفلسفة أسماء ابن باجة وابن طفيل وابن رشد وفى الجغرافية أسماء الرازى وأبى عبيد البكرى وابن غالب وابن سعيد.

وينشط علماء النحو واللغة مبكرين، ويؤلف الزبيدى كتابا فى طبقاتهم حتى زمنه فى القرن الرابع الهجرى، ويبلغون عنده نحو مائة عالم نحوى ولغوى، ومن أشهرهم الرباحى راوى كتاب سيبويه عن أبى جعفر النحاس المصرى ومنذر بن سعيد راوى معجم العين للخليل بن أحمد عن ابن ولاد المصرى، والزبيدى نفسه صاحب الكتاب السالف، وأبو بكر بن القوطية وابن الإفليلى وابن سيده والشنتمرى وابن الطراوة وعيسى الجزولى وابن عصفور وابن مالك وابن حيان. وتنشط مباحث البلاغة على يد أمثال ابن الكتانى المتطبب وحبيب والكلاعى والمواعينى وابن رشد وأبى البقاء الرندى، وبالمثل تنشط الكتابات النقدية عند ابن شهيد وابن خفاجة وابن بسام وحازم القرطاجنى.

وينقل القراء مبكرين عن ورش المصرى قراءته وتشيع فى الأندلس، ومن أشهر علماء القراءات هناك القضاعى والطلمنكى ومكى بن أبى طالب وأبو عمرو الدانى والشاطبى وابن حيان. وتعنى الأندلس بتفسير القرآن مبكرة، وتلمع فيه أسماء بقى بن مخلد وابن أبى زمنين وابن عطية والقرطبى وابن حيان. ويتكاثر المحدِّثون من أمثال ابن وضاح وقاسم بن أصبغ والحميدى وابن قرقول وابن الخراط وابن القطان. ويتكاثر الفقهاء كثرة مفرطة وخاصة على مذهب مالك، وتدور فتوى فقهائهم وقضاتهم عليه وعلى حَمَلة مذهبه المصريين وخاصة عبد الرحمن بن القاسم، ومن أشهرهم شَبْطون وعيسى بن دينار ويحيى الليثى وعبد الملك بن حبيب وابن عتبة وابن عبد البر وأبو الوليد الباجى وابن رشد الجد. ويلقانا غير فقيه للشافعية من مثل ابن الخراز والأصيلى. وينشط المذهب الظاهرى هناك، ومن كبار أتباعه منذر بن سعيد وابن حزم وابن حوط الله. وعرفت الأندلس الاعتزال عند أمثال عبد الأعلى بن وهب وابن مسرة ومنذر بن سعيد وإسماعيل الرعينى، كما عرفت المذهب الأشعرى عند محمد بن خلف.

وكان للمؤرخين نشاط واسع فى الأندلس منذ القرن الثالث الهجرى، ومنهم من كتب فى التاريخ العام مثل عبد الملك بن حبيب وعَريب وابن الخطيب، ومنهم من كتب فى تاريخ الأندلس مثل أحمد الرازى وابنه عيسى وابن القوطية وابن حيان ويحيى بن الصيرفى وابن صاحب الصلاة وأبى الحجاج البياسى وابن الخطيب. ومنهم من كتب فى

السيرة النبوية مثل ابن حزم وابن عبد البر والكلاعى وابن سيد الناس. ومنهم من كتب فى تراجم الأدباء والعلماء من كل صنف. ومنهم من كتب فى الأنساب مثل ابن حزم وفى تراجم الصحابة مثل ابن عبد البر. ومنهم من كتب فى التراجم الأندلسية العامة مثل ابن الفرضى وصاعد والحميدى وابن بشكوال والضبى وابن الأبار والملاحى وابن الزبير وابن الخطيب. ومنهم من كتب فى تراجم الفقهاء والقضاة مثل ابن عبد البر أحمد بن محمد والخشنى والنباهى، ويشتهر فى الترجمة للأطباء ابن جلجل وللغويين والنحاة الزبيدى وللأدباء من شعراء وكتاب ابن دحية والفتح بن خاقان وابن بسام وابن الأبار وابن سعيد وابن الخطيب وابن الأحمر.

وأخذتُ أبحث بحثا تحليليا تاريخيا فى نشاط الشعر والشعراء موضحا كيف أن أهل الأندلس تمثلوا العربية تمثلا قويا، وشركهم المسيحيون فى هذا التمثل، حتى إن جمهورهم هجر لغته اللاتينية الدارجة، وأصبحت العربية لسانه ومهوى فؤاده وأداة تعبيره عن مشاعره وأفكاره، حتى ليعلن ذلك أحد قساوستهم متحسرا ومتعجبا أشد العجب من هجران الشباب المسيحى للغة وطنه الرومانسية وتمثله للعربية معجبا بها وبأدبها أشد الإعجاب، محاولا بكل ما استطاع أن يتقنها. ويقول القس إن كثيرين من الشباب أتقنوها وكتبوا بها أشعارا ورسائل بديعة. ويشهد لكلامه أننا نجد فعلا بين المسيحيين الإسبان من بلغوا من إتقان العربية والقدرة على التعبير الدقيق بها أن عُيِّنوا كتَّابا فى دواوين الدولة، وبذلك وبأدلة أخرى مؤيدة أضفناها ما ينقض نظرية ريبيرا المفضِية إلى أن عرب الأندلس كانوا يستخدمون فى حياتهم اليومية لهجة رومانسية من اللاتينية الدارجة، وما كانت الأندلس بدعا من الأقاليم العربية، فقد ظهرت فيها جميعا عاميات دخلتها فى جميع البلدان العربية ألفاظ من لغاتها الأصلية التى كانت متداولة فيها، وبالمثل كانت تشيع فى الأندلس عامية عربية تسربت إليها ألفاظ من اللاتينية الدارجة على نحو ما حدث فى عامية الشام ومصر وغيرهما من البلدان العربية.

وعاشت الفصحى بجانب هذه العامية الأندلسية العربية معيشة مزدهرة شأنها فى ذلك نفس شأنها وازدهارها فى جميع الأقطار العربية، وتدل على ذلك دلالة بيِّنة كثرة الشعراء فى كل بلد بالأندلس حتى فى الريف وبين أهل القرى، وهى كثرة تأخذ فى الاتضاح منذ القرن الثالث الهجرى، وتتسع سعة شديدة فى عصر أمراء الطوائف، إذ تعدَّد الأمراء الذين يغدقون عطاياهم على الشعراء. ويظلون يتكاثرون فى اطراد طوال العصور التالية.

واستطاعت الأندلس فى أثناء هذا النشاط الشعرى الواسع أن تنفذ إلى ابتكار فن شعرى جديد هو فن الموشحات، وحاول بعض المستشرقين الإسبان مثل غرسية غوميس أن يقولوا إنها نشأت من المزج بين الشعر العربى وبين بعض الأغانى الرومانسية فى اللاتينية الإسبانية الشعبية، وليس فى أيديهم أغنية رومانسية واحدة يستطيعون أن يثبتوا عن طريقها هذا المزج. والصحيح - كما أثبتنا بأدلة متعددة - أن الموشحات إنما هى صورة أندلسية تطورت عن أصول مشرقية هى المسمطات، وكان أول من أحدثها عربى هو مقدم بن معافى، وأعطاها صورتها النهائية بعده عربيان هما الرمادى الكندى وعبادة ابن ماء السماء الأنصارى. وعرضنا أوأشرنا إلى طرائف من الموشحات على مر الأزمنة مع الترجمة لثلاثة من الوشاحين البارعين هم ابن عبادة القزاز ويحيى بن بقى وابن زهر، وألممنا بالأزجال وذهبنا مع ابن خلدون إلى أنها نشأت بعد الموشحات مع الاستشهاد ببعض روائعها ومع الترجمة للزجال الفذ ابن قزمان. ثم أخذنا فى دراسة أغراض الشعر دراسة تاريخية نقدية تحليلية تعقبنا فيها كل غرض وأهم شعرائه على مر التاريخ، وبدأنا بشعراء المديح مع نماذج من مدائحهم ومع الترجمة لسبعة من أعلامهم، وصنعنا نفس الصنيع بشعراء الفخر مع الترجمة لثلاثة من أفذاذهم، وبالمثل لشعراء الهجاء مع الترجمة لأربعة من كبار الهجائين، ولأصحاب الشعر التعليمى مع الترجمة لعلمين من أعلامهم.

وعلى نحو ما عُرض من روائع الأغراض الشعرية السالفة عُرضت روائع الغزل على مر العصور مجسِّدة الشأو البعيد الذى بلغته الأندلس فى تلك الروائع، إذ تمثل شعراؤها إلى أقصى حد ما فى الحب العذرى العربى القديم من حنين ملتاع وحب ظامئ لا ينطفئ أواره، مع ما يلاحظ من أن ناظميه يعكسون مشاعرهم على عناصر الطبيعة من حولهم. وتبادلهم المرأة الأندلسية - مع ما يحفها من عفة ووقار - حبا بحب. ويشترك معهم فى الغزل الفقهاء والفلاسفة هناك، مما أتاح للغزل فى الأندلس سموا بعيدا على نحو ما يتضح عند من ترجمنا لهم وخاصة ابن زيدون وولادة. ونلتقى بشعراء الطبيعة والخمر، وتبلغ الأندلس فى شعر الطبيعة ذروة لعل إقليما عربيا لم يبلغها على مر العصور، وتوضح ذلك غاية التوضيح النصوص والتراجم المختارة وخاصة تراجم ابن مقانا وابن خفاجة وابن سفر. ويلقانا شعراء الرثاء للأفراد وفى مقدمتهم ابن وهبون وتأملاته البديعة فى حقائق الحياة والموت، وشعراء الرثاء للدول الغاربة فى الأندلس وفى مقدمتهم ابن اللبانة وابن عبدون. ونقرأ خواطر بديعة لشعراء الزهد والتصوف، وتتيح الأندلس للتصوف الفلسفى ازدهارًا عظيمًا على نحو ما هو معروف عن متصوفها ابن عربى. وتزدهر فيها

المدائح النبوية ازدهارا رائعا على نحو ما يلقانا عند ابن جابر الوادى آشى. ومنذ سقطت طليطلة فى القرن الخامس يستصرخ الشعراءُ العربَ ومواطنيهم لاستنقاذ مدنهم من أيدى حملة الصليب، ويتعالى الصراخ فى القرن السابع الهجرى وبعده، على نحو ما يلقانا عند ابن الأبار وأبى البقاء الرندى.

وازدهر النثر فى الأندلس ازدهارا لا يقل عن ازدهار الشعر فيها، ويتضح ذلك فى كثرة كتاب الرسائل الديوانية على مر العصور، وفى مقدمتهم البِزِلْيانى وأبو محمد بن عبد البرّ وابن القصيرة وابن أبى الخصال وابن الخطيب، كما يتضح فى كثرة كتّاب الرسائل الشخصية وفى مقدمتهم حبيب وابن الدباغ وابن طاهر وابن الجد. ونفذ الكتاب المبدعون هناك إلى رسائل أدبية بارعة، منها رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد المستوحاة من إحدى مقامات بديع الزمان، مع بث روح وفكر جديدين فيها، ومنها رسائل ابن برد الأدبية، وإحداها وهى فى تفضيل أهب (جلود) الشياه على البُسطِ مستوحاة من رسالة سهل ابن هرون فى فاتحة كتاب البخلاء للجاحظ التى يحتج فيها للبخل ضد الكرم، ومنها الرسالة الهزلية لابن زيدون وأختها الجدية، وأولاهما مستوحاة من رسالة التربيع والتدوير للجاحظ مع اختلاف الموضوع، ومنها رسالة ابن غرسيه الذميمة فى الشعوبية والردود عليها، ومنها الرسائل النبوية البديعة على نحو ما يلقانا عند ابن الجنان، ومنها مواعظ مؤثرة مثل مواعظ منذر بن سعيد وأبى بكر الطرطوشى. ونلتقى بأعمال نثرية متنوعة وفى مقدمتها كتاب طوق الحمامة لابن حزم الفقيه المبدع، وهو يكتظ بتجاربه وتجارب معاصريه فى الحب العذرى مع الشهادة الناطقة بازدهار هذا الحب العفيف الطاهر فى الأندلس. ونلتقى بالمقتبس لابن حيان وهو طراز فى الكتابة التاريخية لا نظير له فى كتابة التاريخ عند العرب، ومثله الذخيرة لابن بسام فى كتابة التراجم الأدبية وعَرْضِ ما لأصحابها من روائع شعرية ونثرية. وتلقانا مذكرات لأمير غرناطى هو عبد الله بن بُلُقِّين، كما تلقانا قصة حَىّ بن يقظان لابن طفيل، وهى قصة طفل ألقى به بعد مولده فى جزيرة مهجورة، فتبنته ظبية فقدت رضيعها وأرضعته، ونما وأخذ عقله ينمو معه ويرصد كل ما حوله حتى إذا بلغ الثلاثين أخذ يدرك حقائق الأشياء شأن الفلاسفة، وشعر أن للكون خالقا وأخذ يشعر برغبة شديدة للاتصال به، وبعد محاولات شتى استطاع الاتحاد بربه. وبذلك يثبت ابن طفيل أن التأمل العقلى الخالص المفضى إلى الفلسفة مثله مثل الإيمان عن طريق الأنبياء فى أن كلا منهما يؤدى إلى نفس الغاية وهى الاتحاد الصوفى بخالق الكون ومنشئه. وقد ثبت ثبوتًا بيِّناً أن عناصر القصة عناصر

عربية إسلامية خالصة، وقد أثرت فى الأدب الإسبانى إذ استُوحيت منها قصة موريسكية هى قصة الصنم والملك وابنته وقصة (الكريتيكون) للكاتب الإسبانى اليسوعى جراثيان المنشورة فى منتصف القرن السابع عشر، وأثرت القصة آثارا مختلفة فى الآداب العالمية على نحو ما هو معروف عن قصة روبنسن كروزو لكاتبها الإنجليزى دانييل ديفو.

ويعرض الفصل بعد ذلك فن المقامات فى الأندلس وسلوك بعض أصحابه مسلك الحريرى فى مقاماته القائمة على الكُدْية والشحاذة والتفاصح بالسجع والتعبيرات الأنيقة، مع عرض المقامات اللزومية للسرقسطى وبيان التزامه فيها ما لا يلزم من تعدد الحرف فى قوافى السجع محاكاة لأبى العلاء فى لزومياته، وتغلغله ببطل مقاماته فى أعماق المحيطات بالإضافة إلى ما تنقل بينه من البلدان العربية. وذُكر - فى إجمال - ما أثرً به فن المقامات فى الأدب الأندلسى إذ نشأت على غراره فى القرن السادس عشر للميلاد وخلال القرن السابع عشر قصص سميت بالقصص البيكارسية، وبطلها «البيكارو» يتجرّع - كبطل المقامات - آلام البؤس والفقر، ويعيش على التسول والشحاذة متوسلا إلى ما يكتسبه عن طريقهما بحِيل وخُدَعٍ شتى يستحوذ بها على إعجاب الناس فيوسعونه حفاوة وعطاء.

وتحدث الفصل عن رحلات الأندلسيين وبواعثها الكثيرة لأداء فريضة الحج والزيارة النبوية، وللإلمام بمراكز الثقافة فى المشرق والأخذ عن الشيوخ: أخذ المؤلفات والإجازات، وللسفارة إلى ممالك النصارى فى الشمال وأصحاب الإمارات المختلفة فى الأندلس ولمرافقه حكام غرناطة وسلاطين المغرب فى رحلاتهم، وللفرجة على ما وراء البلاد العربية فى آسيا وشرقى أوربا واكتشاف المجهول فى تلك الديار النائية من الأمم وظواهر الكون. ومن أطرف تلك الرحلات رحلة أبى حامد الغرناطى إلى بلاد البلغار والصقالبة وروسيا، ورحلة ابن جبير فى البلدان العربية، وتتميز بدقة الوصف وجمال السرد والأسلوب المرسل العذب.

فهرس

الفصل الأول

السياسة والمجتمع

صفحة

الفصل الثانى

الثقـــافة

الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

الفصل الرابع

طوائف من الشعراء

صفحة

الفصل الخامس
النَّثْرُ وكُتَّابه

صفحة

كتب للمؤلف مطبوعة بالدار

فى الدراسات القرآنية

● سورة الرحمن وسور قصار
عرض ودراسة
الطبعة الثانية ٤٠٤ صفحات

فى تاريخ الأدب العربى

● العصر الجاهلى
الطبعة الثانية عشرة ٤٣٦ صفحة

● العصر الإسلامى
الطبعة الحادية عشرة ٤٦١ صفحة

● العصر العباسى الأول
الطبعة التاسعة ٥٧٦ صفحة

● العصر العباسى الثانى
الطبعة السادسة ٦٥٧ صفحة

● عصر الدول والإمارات (١)
الجزيرة العربية-العراق-إيران
الطبعة الثانية ٦٨٨ صفحة

● عصر الدول والإمارات (٢)
مصر - الشام
الطبعة الأولى ٨٤٨ صفحة

● عصر الدول والإمارات (٣)
الأندلس
الطبعة الأولى ٥٥٢ صفحة

فى مكتبة الدراسات الأدبية

● الفن ومذاهبه فى الشعر العربى
الطبعة الحادية عشرة ٥٢٤ صفحة

● الفن ومذاهبه فى النثر العربى
الطبعة العاشرة ٤٠٠ صفحة

● التطور والتجديد فى الشعر الأموى
الطبعة الثامنة ٣٤٠ صفحة

● دراسات فى الشعر العربى المعاصر
الطبعة الثامنة ٢٩٢ صفحة

● شوقى شاعر العصر الحديث
الطبعة الثانية عشرة ٢٨٦ صفحة

● الأدب العربى المعاصر فى مصر
الطبعة التاسعة ٣٠٨ صفحات

● البارودى رائد الشعر الحديث
الطبعة الخامسة ٢٣٢ صفحة

● الشعر والغناء فى المدينة ومكة
لعصر بنى أمية
الطبعة الرابعة ٣٣٦ صفحة

● البحث الأدبى:
طبيعته- مناهجه-أصوله-مصادره
الطبعة السادسة ٢٧٨ صفحة

● الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور
الطبعة الثانية ٢٥٦ صفحة

● فى التراث والشعر واللغة
الطبعة الأولى ٢٧٦ صفحة

فى الدراسات النقدية

● فى النقد الأدبى
الطبعة السابعة ٢٥٠ صفحة

● فصول فى الشعر ونقده
الطبعة الثالثة ٣٦٨ صفحة

فى الدراسات البلاغية واللغوية

● البلاغة: تطور وتاريخ
الطبعة السابعة ٣٨٠ صفحة

● المدارس النحوية
الطبعة السادسة ٣٧٦ صفحة

● تجديد النحو

الطبعة الثانية ٢٨٢ صفحة

● تيسير النحو التعليمى قديمًا وحديثًا مع نهج تجديده

الطبعة الأولى ٢٠٨ صفحات

فى مجموعة نوابغ الفكر العربى

● ابن زيدون

الطبعة الحادية عشرة ١٢٤ صفحة

فى مجموعة فنون الأدب العربى

● الرثاء

الطبعة الرابعة ١١٢ صفحة

● المقامة

الطبعة الخامسة ١٠٨ صفحات

● النقد

لطبعة الخامسة ١١٢ صفحة

● الترجمة الشخصية

الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة

● الرحلات

الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة

فى التراث المحقق

● المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد

الجزء الأول - الطبعة الثالثة ٤٦٨ صفحة

الجزء الثانى - الطبعة الثالثة ٥٧٢ صفحة

● كتاب السبعة فى القراءات لابن مجاهد

الطبعة الثالثة ٧٨٨ صفحة

● كتاب الرد على النحاة

الطبعة الثانية ١٥٠ صفحة

● الدرر فى اختصار المغازى والسير لابن عبد البر

الطبعة الثانية ٣٥٦

فى سلسلة «اقرأ»

● العقاد — الطبعة الرابعة

● البطولة فى الشعر العربى — الطبعة الثانية

● معى (١) — الطبعة الثانية

● معى (٢) — الطبعة الأولى

● الفكاهة فى مصر — الطبعة الثانية

رقم الإيداع		١٩٨٩ / ٣٨١٧
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-٢٦٥٠-٥	ISBN

١ / ٨٧ / ٢٣٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

تاريخ الأدب العربي

٩

دكتور شوقي ضيف

عصر الدول والإمارات

لِيبيَا - تونِس - صقلِيّة

دار المعارف

تاريخ
الأدب العربي
٩

عصر
الدول والإمارات
لِيبيَا - تونِس - صَقلِيّة

تأليف
الدكتور شوقى ضيف

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

عصر

الدوَل والإمَارات

لِيْبْيَا - تُونِسْ - صَقَلِيَّة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

١

هذا الجزء من تاريخ الأدب العربى قبل العصر الحديث خاص بليبيا وتونس وصقلّية، وقد بدأته بليبيا، فتحدثت عن جغرافيتها ومناطقها: طرابلس وفزّان وبرقة، وعن زروعها وصناعاتها وتجارتها وموانيها، كما تحدثت عن تاريخها القديم وفتح العرب لها، وسطوع شمس الإسلام بديارها، وعن ولاتها أيام الأمويين والعباسيين وتبعية ولاية طرابلس وقسمها الغربى للدولة الأغلبية، وتبعية برقة وقسمها الشرقى لوالى مصر، وتبعيتها معًا للدولة العبيدية الفاطمية فى المهدية والقاهرة، وتسترجع الدولة الصنهاجية فى القيروان طرابلس، ويؤسس بها لنحو نصف قرن بنو خزرون إمارة لهم، وتكتسح ليبيا الهجرة الأعرابية الكبرى فى منتصف القرن الخامس الهجرى، وتتبع برقة مصر فى أيام الأيوبيين والمماليك، بينما تتبع طرابلس الدولة الحفصية فى تونس، وتتأسس بها دولة بنى عمار فى القرن الثامن الهجرى (٧٢٤ - ٨٠٣هـ) وتسترجعها الدولة الحفصية، ويستولى عليها فرديناند ملك إسبانيا سنة ٩١٦هـ/١٥١٠م ويُسَلِّمها بعده شارل الخامس إلى فرسان مالطة سنة ٩٣٦هـ/١٥٣٠م ويطردهم منها الأسطول العثمانى سنة ٩٥٨هـ/١٥٥١م، وتصبح ولاية عثمانية ويتولاها دايات مختلفون حتى إذا وليها أحمد القرمانلى سنة ١١٢٣هـ/١٧٩٥م جعلها وراثية فى أبنائه. وفى سنة ١٢٥١هـ/١٨٣٥م استردَّتها الدولة العثمانية من الأسرة وحوَّلتها عن إيالة إلى ولاية، وبذلك تبدأ ليبيا عصرها الحديث.

وقد سكن ليبيا - من قديم - سلالات من البربر، ويقسمها النسابون إلى برانس، وهم الحضر أهل المدن، وبُتْروهم الرحَّل أهل الهضاب والصحارى، ونزلها قديمًا الفينيقيون والإغريق والرومان وبعض اليهود والزنوج، ثم نزلها العرب ومن تألفت منهم جيوشهم من أهل إيران والعراق والشام ومصر، وهاجر إليها أندلسيون كثيرون بين القرنين السابع والحادى عشر للهجرة. ونزلتها حاميات تركية فى العهد العثمانى، وألقى إليها القراصنة ببعض أسراهم المسيحيين، وأسلم منهم كثيرون. وكل هذه العناصر انصهرت فى البوتقة الليبية وظل العنصر

الليبي البربرى - مع ما حدث له من بعض التطور - هو العنصر الغالب على كل العناصر الوافدة على دياره. ومن قديم كانت التجارة رائجة رواجًا كبيرًا فى برقة وطرابلس، مما جعل الإغريق يحتلون الأولى ويؤسسون بها مدنا تجارية متعددة، كما جعل الفينيقيين والرومان يحتلون - بدورهم - طرابلس. وكان الساحل الشمالى يموج بمصايد الأسماك فيه، وكان ما وراءه من المدن والسهول والوديان يكتظ بأشجار الزيتون والنخيل والفواكه والزروع والحبوب، واكتظت الواحات بالنخيل وأنواع التمور والفواكه، وامتلأت الهضاب والصحارى بمراعى الأغنام والأنعام. ونلتقى بصناعات يدوية كثيرة وخاصة صناعة النسيج والزجاج وعصر الزيت ودبغ الجلود وقطع الرخام: طيبات كثيرة من الرزق. وكان البربر وثنيين ونزل بديارهم اليهود وكانت لهم بطرابلس حارة خاصة بهم، واستجاب بعض أهل المدن فى عهد الرومان وبيزنطة للمسيحية، وكان بينهم أرثوذكس يتبعون كنيسة القبط فى الإسكندرية وكاثوليك يتبعون كنيسة روما البابوية. وما إن نزل الإسلام ليبيا حتى أسرعت جماهيرها إلى اعتناقه، وآثرت دائما مذهب مالك السنى واعتنق المذهب الإباضى جبل نفوسة وبعض أهل طرابلس. ومعروف أن الدولة العثمانية كانت تعمل على إشاعة مذهب الإمام أبى حنيفة فى الولايات التابعة لها، غير أن مذهب مالك ظل فى ليبيا - مثل جميع بلاد المغرب - هو المذهب العام للجماهير الليبية. وقد نزع كثير من أهل ليبيا إلى الزهد، وشاعت بينهم فى الحقب المتأخرة الطرق الصوفية السنية.

وأخذت الحركة العلمية تنشط فى ليبيا منذ الفتح، إذ لم يكن الفاتحون غزاة يبتغون المغانم، إنما كانوا مجاهدين فى سبيل الله يبتغون نشر دينه فى أرجاء الأرض، ولذلك كانوا بمجرد الفراغ من الفتح يتحولون معلمين يهدون أهل الشعوب المفتوحة للإسلام وتعاليمه مع تحفيظهم لبعض آياتٍ وسورٍ من الذكر الحكيم، وسرعان ما كانوا ينشئون لهم الكتاتيب - كما حدث فى طرابلس - يعلمونهم فيها مبادئ القراءة والكتابة ويحفظونهم القرآن ويرشدونهم إلى تعاليم الإسلام. وأخذت حلقات العلماء تكثر فى المساجد بالمدن والقرى، وبالتدريج أخذوا يعنون بتفقيه الناس فى الدين وتعريفهم بالعربية وقواعدها السديدة فى النطق والتعبير. ولم يلبث أن رحل إلى المشرق بعض الليبيين فى طلب العلم. واشتهر فى كل مدينة ليبية بعض العلماء، وظهر فى كل علم أئمة كبار، ونمت العلوم اللغوية والإسلامية. ودار الزمن دورات، وازدهرت تلك العلوم فى عهد الدولة الحفصية وساعد على ازدهارها نشوء المدارس والزوايا، وخمدت الحركة العلمية فى العهد العثمانى، أو بعبارة أدق أصابها شىء من الركود.

وإذا أخذنا نراجع العلوم والعلماء على مر الزمن لاحظنا أن ليبيا لم تعرف بنشاط فى علوم الأوائل ولكنها عرفت ذلك فى العلوم اللغوية والدينية، إذ لمع فيها - طوال القرون الإسلامية - علماء مختلفون مثل الأجدابى اللغوى فى القرن الخامس الهجرى ومؤمن بن فرج

المقرئ فى نفس القرن الخامس والمقرئ على بن عبد الحميد العوسجى فى القرن العاشر وفى التفسير الخروبى فى نفس القرن العاشر. ونبغ فى الحفاظ المحدثين أسرة أحمد بن صالح العجلى فى القرن الثالث وابن زكرون وأحمد بن نصر الداودى فى القرن الرابع وابن عبيد فى القرن السابع، ولمع فى الفقه السنى موسى بن عبد الرحمن القطان فى القرن الثالث وابن المنمر فى القرن الخامس وعمران بن موسى فى القرن السابع والزليطنى فى القرن التاسع، وممن نبغ فى الفقه الإباضى عمروس النفوسى فى القرن الثالث، وأحمد بن بكر النفوسى مؤسس جماعة العزابة فى القرن الخامس وعلى بن يخلف التيمْجارى فى القرن السادس والجيطالى والشماخى فى القرن الثامن. وظهر بليبيا بعض المؤرخين.

وقد تعرَّبت ليبيا سريعا لكثرة من نزل بها من القبائل العربية ومن الجند الناشرين للإسلام، وأكملتْ تعربها هجرةُ الأعراب الكبرى من بنى سُلَيْم وبنى هلال فى منتصف القرن الخامس الهجرى، إذ امتزجت عشائر القبيلتين أو بعبارة أدق من استقرَّ منها فى ليبيا بأهلها من البربر، وأصبحوا شعبا عربيا كبيرًا فى تقاليده وعاداته وملابسه ومطاعمه وأفراحه وأحزانه وأخلاقه وشيمه وفروسيته ومروءته ونجدته، وكان طبيعيا أن تنتصر العربية لغة الدين والثقافة أثناء ذلك على اللغة البربرية انتصارا حاسما، ويشهد الرحالة الكبير العبدرى لأهل برقة بالفصاحة، ويؤكد أنهم كانوا - حتى زمنه - فى آخر القرن السابع الهجرى - لا يزالون يتكلمون بالفصحى بأنصع وأدق مما ينطق بها ويتكلمها أهل الحجاز، ولا تزال لغة برقة - إلى اليوم بشهادة بعض المعاصرين - قريبة قربا شديدًا من أمِّها الفصحى. ولم تحدث فى ليبيا نهضة أدبية واسعة قبل عصرها الحديث، ومرجع ذلك - فى رأينا - إلى أنه لم ينشأ بها دولة ترعى الأدب والأدباء، ولا نشأ بها ديوان إنشاء يحدث فيها حركة نثرية أدبية، ولا كان فيها رعاة للشعر يجزلون العطاء للشعراء. ويلمع فيها بأخرة من القرن الثالث الهجرى شاعر طرابلسى يسمى خليل بن إسحق ويلتحق بحاشية العبيديين فى عاصمتهم مدينة المهدية، ويلمع بها فى القرن السابع الهجرى فتح بن نوح الإباضى وابن أبى الدنيا وابن معمر، كما يلمع فى العهد العثمانى البُهلول الطرابلسى، وله ديوان فى المديح النبوى، وألمع شاعر بعده أحمد بن عبد الدائم. وتذكر كتب التراجم - من حين إلى آخر - لبعض الكتاب الليبيين رسالة أو مقامة مكتفية بمثل هذه الإشارة دون أن تعرضها على القارئ، وكان فتح بن نوح الإباضى ناثرًا مجيدًا، كما كان شاعرًا مجيدًا.

٢

وتركتُ ليبيا إلى القطر التونسى قلب إفريقية النابض، فتحدثت عن جغرافيته وتاريخه المغرق فى القدم وفتح العرب له واعتناق أهله الدينَ الحنيف وعن ولاته الأولين وفى مقدمتهم عقبة بن نافع مؤسس مدينة القيروان وحسان بن النعمان مؤسس مدينة تونس وموسى بن نصير فاتح الأندلس. ومن أهم ولاتها فى القرن الثانى. عبدالرحمن بن حبيب حفيد عقبة بن نافع المستولى على جزيرة قوصْرة فى البحر المتوسط. ومن ولاتها بعده يزيد بن حاتم المهلبى وقد أحدث بها حركة أدبية نشيطة. ولم يلبث أن تولاها إبراهيم بن الأغلب وجعلها الخليفة هرون الرشيد وراثية فى أبنائه، وافتتحت تلك الدولة صقلية سنة ٢١٢ هـ/٨٢٧م ونشرت بها أضواء الإسلام والعروبة كما نشرتها فى مالطة بعد فتحها سنة ٢٥٥ هـ/٨٦٨م. وتخلفها الدولة العبيدية سنة ٢٩٦هـ/٩٠٩م إلى أن انتقل المعز العبيدى الفاطمى إلى مصر سنة ٣٦١هـ/٩٧١م وخلفه فى الإقليم التونسى الدولة الصنهاجية وظلت تستشعر ولاءها للدولة الفاطمية فى القاهرة إلى أن أعلن حاكمها الصنهاجى المعز بن باديس استقلاله عن مصر سنة ٤٣٨ هـ/١٠٤٦م وقيل بل فى سنة ٣٩ أو أربعين، مما جعل الخليفة الفاطمى المستنصر يسلِّط عليه أعراب بنى هلال وسليم، وكانوا قد نزلوا شرقى الصعيد وعاثوا فيه فسادًا فنزحوا إلى ليبيا وإفريقية التونسية كجراد منتشر، ونازلوا المعز واضطروه إلى الانحياز إلى مدينة المهدية، واستقل بعض الولاة بمدنهم وأقاليمهم. وبذلك شاع فى إفريقية التونسية نظام أمراء الطوائف مثل بنى جامع الهلاليين فى قابس وبنى خراسان فى تونس. وفى سنة ٥٤٣ هـ/١١٤٨م نزل الساحل التونسى ومدينة المهدية روجّار الثانى النورمانى وطرده عبد المؤمن الموحدى بعد اثنتى عشرة سنة، وعاث فى أرجائها قراقوش وابن قراتكين وابنا غانية، وأنقذ البلاد منهم الموحدون والدولة الحفصية، وعاشت لعهد الحفصيين فى رخاء وأمن، وحاصر تونس لويس التاسع وقُبِر تحت أسوارها، ونهضت البلاد نهضة علمية وأدبية طوال ثلاثة قرون، وأغار عليها شارل الخامس ملك إسبانيا سنة ٩٤٢ هـ/١٥٣٥م وخلّصها منه بعد نحو أربعين عاما الأسطول العثمانى سنة ٩٨١ هـ/١٥٧٣م وتبعت الدولة العثمانية، وتوالى عليها البايات، ومن خيرهم مراد باى وأسرته، والباى حسين بن على وأسرته.

ويزخر المجتمع التونسى - بجانب سلالات البربر - بعناصر جنسية كثيرة: فينيقية وقرطاجية وزنجية ويهودية ورومانية وألمانية من الوندال وبيزنطية وعربية وممن امتزج بهم العرب من إيران والشام ومصر وأيضا عناصر أندلسية وتركية ومسيحية ممن جلبهم القراصنة، وامتزجت هذه العناصر وكونت الشعب التونسى وظل للعنصر البربرى فيه الغلبة مع ما حدث

له من صور تطور مختلفة إذ ظل يفرض هويته وشخصيته على كل ما وفد عليه من عناصر. وهيأ الإقليم التونسى دائمًا لسكانه رخاء واسعا قديمًا وحديثًا من الزروع وأشجار الزيتون والنخيل من الفواكه والصناعات مثل صناعة الزجاج والبلور والخزف وعصر الزيت والمنسوجات والسجاجيد والوراقة وكل ما يلزم المنشآت العمرانية من فسيفساء وتفنن فى الزخرفة وضروب التجارات من منتوجاتها ومنتوجات ما يرد عليها من إفريقيا السوداء ومن أوربا إذ كانت سوقا عالميا ضخما. وأهَّلها ذلك لرفه واسع فى الحياة وفى المطعم والملبس ولاحتفالات عظيمة بالأعياد ولاهتمام بالموسيقى والعزف على آلات الطرب والغناء فى الحضر وعند أهل الوبر. وحظيت المرأة فى المجتمع التونسى بمكانة كريمة جعلتها تستشعر كرامتها وشخصيتها إلى أقصى حد، كما جعلتها تستشعر حمايتها لوطنها حين تدلهمّ به الخطوب، مع برهنتها على حصافتها وكياستها السياسية. وكان البربر - قديمًا - وثنيين ونزل بينهم يهود فى القرن الثالث قبل الميلاد والقرن الأول بعده، وحاولوا نشر ديانتهم فيهم ولم يتبعهم إلا القليل. واستولى على ديارهم الرومان وحاولوا - كما حاولت كنيسة الإسكندرية - نشر المسيحية بينهم، وبُنيت بعض كنائس وأسقفيات، واعتنقها بعض البربر فى المدن الشمالية، وظلت عناصر مسيحية - فيما بعد - تنزل البلاد وخاصة من الصقالبة وممن كان يجلبهم القراصنة من البحر المتوسط. والإسلام هو الدين الوحيد الذى عم إفريقية التونسية بعد الفتح العربى بحيث أصبح دين الأمة التونسية - بل الأمة البربرية جميعا - لبساطته وتحريره الشعوب من الظلم والاستعباد ومحوه الفوارق الطبقية والاجتماعية بين أفراد الشعوب. وكانت إفريقية التونسية دائمًا سنية، واختارت مذهب مالك الفقهى وعاش بجانبه المذهب الحنفى حتى نهاية القرن الثالث، وعم مذهب مالك بعد ذلك حتى إذا كان العهد العثمانى عاد المذهب الحنفى معه إلى الظهور، ولم تنجح فى إفريقية التونسية دعوة الإباضية ولا دعوة العبيديين الشيعية، وكثر فيها الزهد والزهاد، كما كثرت الرباطات لحراسة البلاد على السواحل وظل النسَّاك لا يبرحونها، وكثرت بأخرةٍ الطرق الصوفية.

ومنذ القرن الأول الهجرى ينشر الفاتحونِ فى القطر التونسى تعاليم الإسلام وشريعته السمحة فى معاملة الأمم المفتوحة، بحيث يصبح من أسلم منهم على قدم المساواة مع العربى الفاتح، ويقبلِ البربر على اعتناق الإسلام، وينشأ جيل من مواليد إفريقية التونسية من البربر والعرب ينقض انقضاضًا على حلقات العلماء فى المساجد ويأخذ كل ما لديهم، ويطلب نفر منه المزيد، فيرحل إلى المشرق للقاء الإمامين الكبيرين أبى حنيفة ومالك، ويحمل مذهبيهما إلى العاصمة: القيروان وإلى تونس. وتنمو فى القيروان حركة أدبية ولغوية.وساعد فى ازدهار الحركة العلمية بإفريقيا التونسية - على مر العصور - جامع أو جامعة عقبة فى القيروان وجامع أو جامعة الزيتونة فى تونس وما أنشىء - أيام الحفصيين - من مدارس ومكتبات. ولم يبق علم

إلا عنيت به إفريقية التونسية، ونبدأ بعلوم الأوائل فقد أسس لها إبراهيم بن أحمد الأغلبى فى عاصمته رقادة بجوار القيروان مدرسة كبرى باسم بيت الحكمة نبغ فيها أطباء عظام كان لهم ولتلاميذهم تأثير عظيم فى الغرب، وينبغ فى العهد الصنهاجى فلكى كبير كان له أثره فى علم الفلك الغربى، وتؤسس تلك الدولة مدرسة فى الكيمياء، ونلتقى فى عهد الدولة الحفصية بكيميائى كبير هو التيفاشى كما نلتقى بأطباء ورياضيين مختلفين وأيضا ببعض الجغرافيين، ويتكاثر اللغويون والنحويون فى العهد الصنهاجى ويلمع من بينهم عالمان لغويان كبيران هما القزاز وله معجم ومؤلفات لغوية كثيرة وعبد الدائم بن مرزوق حامل شعر أبى العلاء المعرى إلى القيروان والأندلس كما يلمع الحصرى بمختاراته الشعرية والنثرية فى كتابه زهر الآداب، ويضع ابن عصفور فى العهد الحفصى أسسا قوية لمدرسة نحوية تونسية ويقود ابن رشيق بكتابه: «العمدة فى صناعة الشعر ونقده» حركة نقدية وبلاغية واسعة لافى إفريقيا التونسية وحدها بل فى جميع المغرب. وكان علم القراءة للذكر الحكيم نشيطا إلى أقصى حد، ونقل ابن خيرون قراءة ورش المصرى عن نافع قارئ المدينة، وهى القراءة المنتشرة فى جميع بلدان المغرب إلى اليوم، ولم يلبث أن ظهر فى القراءات إمام كبير هو مكى بن أبى طالب، ومن أعلام القراء فى العهد الحفصى اللبيدى وابن بدال وفى العهد العثمانى باطاق. ومن أوائل المفسرين للذكر الحكيم عكرمة مولى ابن عباس ويحيى بن سلام، ومن كبار المفسرين فى العهد الصنهاجى على بن فضال وفى العهد الحفصى ابن بزيزة وفى العهد العثمانى محمد زيتونة. ويتكاثر المحدثون منذ القرن الثانى الهجرى، ومن أهمهم البهلول بن راشد، ومن كبار المحدثين القابسى فى القرن الرابع والمازرى فى القرن السادس ومحمد بن عمر الأبىّ فى القرن التاسع ومحمد بن برناز فى العهد العثمانى. ويتعايش فى الفقه المذهبان الحنفى والمالكى فى القرنين الثانى والثالث، ومن فقهاء المذهب الحنفى عبد الله بن فروخ ومن فقهاء المذهب المالكى على بن زياد حامل كتاب الموطأ عن مالك وسحنون المشهور صاحب المدوَّنة التى حملها عن عبد الرحمن بن القاسم فى الفسطاط تلميذ مالك. ومن حملة المذهب الكبار فى القرن الرابع ابن أبى زيد. وكُتب له أن يسود ويعم جميع بلدان المغرب منذ حمل المعز بن باديس الصنهاجى الفقهاء والناس عليه. ومن أهم فقهائه المازرى المذكور بين المحدثين وابن بزيزة المذكور بين المفسرين وتلميذه محمد بن عبد السلام أستاذ ابن خلدون وابن عرفة. ويجعل العثمانيون الفتوى بيد الفقهاء الأحناف ولهم الكلمة العليا فى القضاء واشتهر بينهم غير فقيه كما اشتهر غير قليل من فقهاء المالكية مثل محمد الحجيِّج وله حاشيتان على مختصر خليل فى الفقه المالكى.

وكل ما كان يدور فى المشرق من جدل فى المذاهب الكلامية كان يدور مثله فى القيروان، وقد تجادلوا طويلا فى مذاهب الخوارج ومبادئ الإرجاء وما تجادل فيه المعتزلة مع غيرهم فى مسائل

القدر وهل القرآن قديم أو حادث مخلوق، والتشبيه على الذات العلية. واشتد الجدال بين الفرق فى جامع عقبة واشتدت ضوضاؤهم مما اضطر سحنون حين ولى القضاء إلى تفريق حلقاتهم فيه وإبطالها، ومن كبار المتكلمين سعيد بن محمد المشهور بابن الحداد وله منازلات ضارية مع دعاة العبيديين الشيعة ودائمًا هو الغالب المنتصر. وشاع من قديم المذهب الكلامى الأشعرى، وكانت له الغلبة فى العصور التالية.

وازدهرت الكتابات التاريخية مبكرة فى القيروان عن مغازى إفريقيا وأخبارها وحروبها وعن الدولة الأغلبية، وعُنى بعض المؤرخين بتاريخ الدولة العبيدية وسيرة مؤسسها عبيد الله المهدى، وتكاثرت الكتابة عن علماء إفريقية التونسية كما يلقانا عند أبى العرب والخشنى، وللرقيق القيروانى كتاب فى تاريخ إفريقية والمغرب، ولابن رشيق كتاب نفيس فى تراجم الشعراء باسم أنموذج الزمان، وللمالكى رياض النفوس فى علماء إفريقية وزهادها، وللدباغ كتاب معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان وعليه تعليقات لابن ناجى، وللتجانى رحلة مشهورة تكتظ بالعلماء والأدباء فى البلاد التونسية، وليحيى بن خلدون كتاب فى تاريخ بنى عبد الواد بتلمسان،وتتوّج الكتابات التاريخية بتاريخ ابن خلدون ومقدمته النفيسة وما فيه من أخبار البربر. ويكتب ابن الهنتاتى عن تاريخ الدولة الحفصية وابن أبى دينار عن تاريخ إفريقية وتونس فى كتابه المؤنس ومحمد السراج عن الأخبار التونسية فى كتابه الحلل التونسية، ويترجم حسين خوجة – فى كتابه: ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان – لفقهاء البلدان الكبيرة فى حقبة من حقب العهد العثمانى.

وقد عايشت اللغة البربرية لغتين متحضرتين: الفينيقية واللاتينية قرونا طويلة ولم تتحول إلى لغة متحضرة لها أبجديتها الخاصة وكتبها التاريخية، وظل من يتحضر منهم أيام الفينيقيين يكتب بلغتهم، وبالمثل فى أيام الرومان. وكان كثيرون من البربر قبل الفتح العربى يحسن اللاتينية نطقا وكتابة، وظلت بعد الفتح بقايا من ذلك. ولكن سرعان ما أخذت البربرية لغة الشعب بعد الفتح واللاتينية لغة بعض الخاصة تزايلان الألسنة وتحل فيها محلها العربية، وتظل البربرية حيَّة فى جزيرة جربة وفى البوادى والجبال، حتى إذا كانت الهجرة الأعرابية الكبرى فى منتصف القرن الخامس الهجرى امتزج البربر والأعراب وكوّنوا شعبا عربيا مكتمل العروبة فى اللغة والدين والملبس والمطعم والأخلاق والعادات والأحزان والأفراح، وكان هؤلاء الأعراب من بنى هلال وسليم ينطقون عربية فصيحة، وظلوا ينطقون بها حتى القرن السابع الهجرى، وكانت تشيع بجانبها عامية فى ألسنة أهل المدن، وأخذ لسان هؤلاء الأعراب يتأثر بها مع طول السنين، ويقول ابن خلدون إنهم هجروا الإعراب لعصره فى القرن الثامن الهجرى ومع ذلك ظلت الفصحى لغة العلوم ولغة الأدب الرفيعة، وبث فيها المهاجرون الأندلسيون فى القرنين السابع والحادى عشر روحا وانتعاشا.

ويكثر الشعراء فى القطر التونسي منذ منتصف القرن الثانى الهجرى بفضل ما أحدثه فيها واليها يزيد بن حاتم المهلبى من حركة أدبية واسعة بما صحبه إليهـا - ووفد عليـه - من الشعراء، وكان إبراهيم بن الأغلب شاعرا، وبالمثل كثير من أهل بيته، فراج فى القيروان سوق الشعر وازداد رواجه فى عهد الخلفاء العبيديين وكانوا جميعا شعراء وأجزلوا لمادحيهم فى العطاء، وينهض الشعر نهضة عظيمة فى عهد المعز بن باديس الصنهاجى، وكان ينثر العطايا على مادحيه نثرا ويقال إنهم بلغوا مائة عدًّا،وألف ابن رشيق كتابه أنموذج الزمان لعهده وترجم فيه لمائة من أفذاذ الشعراء ونابهيهم وجميعهم من معاصريه. وكان ابنه تميم جوادا ممدَّحا وكان شاعرا وقصده الشعراء من جميع الآفاق: كما قصدوا ابنه يحيى وحفيده عليا وابنـه الحسن، ولابن حمديس الصقلى وأمية بن أبى الصلت الأندلسى فى الثلاثة مدائح طنَّانة سوى من كان يحف بهم من شعراء القيروان. ويتنافس حكام المدن بعهد أمراء الطوائف فى جمع الشعراء حولهم على نحو ما يصور ذلك العماد الأصبهانى فى كتابه الخريدة، وممن ذكرهم من شعراء أبى الحملات مدافع أمير مدينة قابس سلام بن فرحان القابسي وهـو من الشعراء المجيـدين وذكر من شعـراء جبارة بن كامل أمير مدينة سوسه التراب السوسى وهو من الشعراء المبدعين، ومن الشعراء الأفذاذ لهذا العهد على الحصرى المهاجر إلى الأندلس وأبـوالفضل بن النحـوى وعبد الله الشقراطسى. ويزدهر الشعر فى العهد الحفصى.ويفد على مدينة تونس كثير من شعراء الأندلس ويستقرون فيها ويبعثون فيها حركة شعـرية خصبـة مثل ابن الأبـار وابن عميرة وحـازم القرطاجنى وابن القصير. وأخذ الشعراء يتكاثرون فى تونس مثل عنان بن جابر وابن عُريبة ومحمد بن أبى الحسين وابن الشباط وابن السِّماط وابن حُسَينة والشهاب بن الخلوف. ويزاحم منذ القرن الثامن الشعر الشعبى الشعر الفصيح. ويضعف الشعر فى أواخر العهـد الحفصى وأوائل العهد العثمانى، وتبعث فيه هجرة الأندلسيين إلى الإقليم التونسى فى القرن الحادى عشر الهجرى غير قليل من النشاط ويسترد حيويته ونضرته فى عهد الأسرة الحسينية على لسان أمثال على الغراب ومحمد الورغى ومحمد ماضور وتكثر فيه المعارضات الشعرية. ويتكاثر أعلام الشعراء فى جميع أغراض الشعر وفنونه منذ الحقب التاريخية الأولى. ومن أعلام المديح على بن محمد الإيادى والكاتب الرقيق وابن رشيق والتراب السوسى وابن عُرَيْبة وعبد الله التجانى وعلى الغراب والورغى، ومن أعلام الفخر والهجاء تميم بن المعز الصنهـاجى ومحمد الرشيد الحسينى، ويتكاثر شعراء الغزل من أمثال على الحصرى وأحمد اللِّليانى ومحمد ماضور ومن شعراء الغربة والشكوى والعتاب ابن عبدون ومحمد بن أبى الحسين، ويكثر شعراء الطبيعة من مثل عبدالواحد بن فتوح وابن أبى حديدة وأبى على بن إبراهيم، وبالمثل شعراء الرثاء للأفراد والمدن والدول مثل ابن شرف القيروانى ومحمد بن عبدالسلام، ومن شعراء الوعظ أحمد الصواف وشعراء التصوف محرز بن خلف وأبوالفضل بن النحوى ومن شعراء المديح النبوى

الشُّقْراطسى وابن السماط المهدوى. ومع كل غرض من هذه الأغراض ما يوضح نشاط الشعراء فيه من الترجمة لنابهيهم وعرض روائع أشعارهم.

ونهض النثر مبكرا فى القيروان وتونس على لسان الولاة والقواد وتأسست الدواوين منذ القرن الأول الهجرى، ونهض أبو اليسر الشيبانى بالكتابة الديوانية لعهد الأغالبة نهضة عظيمة وكوَّن فيها مدرسة، وأصبح لها فيها تقاليد متبعة، صوَّرها القلقشندى فى صبح الأعشى، واحتفظ برسالة ديوانية فى العهد الحفصى بليغة بلاغة رائعة. وكثرت الرسائل الشخصية منذ القرن الثالث الهجرى بين استعطاف وعتاب ومديح وهجاء واستمناح وعزاء، وهى مسجوعة، ودخلها فى الحقب المتأخرة غير قليل من التكلف. ونلتقى ببعض مقامات، وهى لا تقوم على أديب متسول وحيله الكثيرة فى جذب السامعين وإثارة عطفهم، وإنما تقوم على موضوعات أدبية يراد بها إظهار التفنن فى الكتابة الأدبية. وترجمت لثلاثة من أهم الكتّاب، هم أبو اليسر الشيبانى رئيس ديوان الإنشاء فى عهد الأغالبة، وإبراهيم الحصرى صاحب زهر الآداب، وابن خلدون درة تونس الفريدة

٣

وانتقلت إلى جزيرة صَقَلِّية، فتحدثت عن جغرافيتها وتاريخها القديم وفتح إفريقية التونسية لها فى عهد زيادة الله الأغلبى سنة ٢١٢ هـ/٨٢٧ م ونشر الدين الحنيف فيها ولغتها العربية وغزو الدولة الأغلبية فيها قَلَوْريَّة جنوبى إيطاليا واستمرار استيلائها عليها إلى نهاية أيام الدولة الأغلبية وفتحها لجزيرة مالطة سنة ٢٥٥ هـ/٨٦٨ م ونشرها للدين الحنيف فيها واللغة العربية، ولا تزال إلى اليوم تتكلم لكنة عربية تونسية ودخلت عليها تحريفات كثيرة بحكم طول الزمن وما وقع على لغة مالطة من تأثيرات. وولى للدولة العبيدية على صقلية ولاة حكموها حكما جائرا، إلى أن وليها الحسن بن أبى الحسين الكلبى سنة ٣٣٦ هـ/٩٤٧ م وظلت وراثية فى أبنائه، وحكموها فى القرن الرابع حكما سليما، واضطرب حكمهم، وساء سوءًا شديدًا فى القرن الخامس، فثارت صقلية عليهم، واستحالت إلى أمراء طوائف وبلدان، وتحارب ابن الثمنة أمير بلرم مع أمير قصريانَّة، وهُزم فاستغاث بالنورمان حكام قَلَوْرِيَّة، فأغاثه ملكهم روجار الأول، وسرعان ما تحولت الاستعانة به إلى الاستيلاء على مدينة بلرم سنة ٤٦٤ هـ/١٠٧٢ م وما توافى سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م حتى يكون قد استولى على جميع مدن صقلية. ويدور العام فيستولى على جزيرة مالطة سنة ٤٨٥ هـ/١٠٩٢ م. ورأى روجار أن شعب صقلية العربى أكثر حضارة ومدنية من شعبه مع تفوقه عليه فى شئون الزراعة والصناعة اليدوية، فأخذ يصانعه للإفادة منه وأَخْذِ ما عنده مع التنكيل الغاشم به، وخفَّف ابنه روجار الثانى وحفيده غليوم الأول

من هذا التنكيل البشع، غير أنه من الخطأ ما يقال من أنهما عاملا المسلمين فى صقلية معاملة عادلة سمحة فإن ذلك إن صدق على تعاملهما مع حاشيتهما المسلمة فى بلرم فإنه لا يصدق على معاملتهما العامة للمسلمين فى البلدان الأخرى على نحو ما يصور ذلك ابن جبير فى رحلته حين زار صقلية أيام غليوم الأول. واستحالت المعاملة السيئة إلى عسف لا يطاق حين استولى على الجزيرة أباطرة الألمان منذ سنة ٥٩١هـ/١١٩٤م واستغاث أهلها بالمستنصر الحفصى، فاتفق سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م مع فردريك الثانى على إجلائهم إلى إفريقية التونسية، فجلوا عنها جميعا، وأجلى فردريك من كان بمالطة من المسلمين أو بعبارة أدق أجبرهم على الجلاء عنها إلى مدينة أمالفى (Amalfi) جنوبى إيطاليا.

وقد عامل المسلمون - طوال حكمهم لصقلية - أهلها المسيحيين معاملة سمحة كريمة أقصى ما تكون السماحة والكرم، فحافظوا لهم على كنائسهم وقوانينهم الدينية والمدنية. وكان بصقلية ثلاث ولايات كبيرة، ولكل ولاية مساعدون للوالى يسمون قوادا، كما كان لها قضاة عدول ومجموعة من الدواوين، من أهمها ديوان المحاسبة، وكانت صقلية تزخر بطيبات كثيرة من الرزق، فكان أهلها يعيشون فى رخاء واسع بفضل زروعها وصناعاتها الكثيرة، وانتقلت إليها صناعة الورق من القيروان ونقلتها عنها أوربا، مما أتاح لغوتنبرج اختراع الطباعة. ونلتقى فى صقلية بنفر من الزهاد أمثال القاضيين ميمون وابن أبى محرز وببعض من لهم ميول صوفية مثل أبى القاسم عبدالرحمن بن محمد البكرى.

وقد فتح النورمان صقلية العربية الإسلامية حربيا وفتحتهم حضاريا، إذ رأوا -هم وملوكهم- سمو العرب المسلمين الحضارى، فحاولوا - بكل ما وسعهم - الإفادة من حضارتهم، ونكّل روجار الأول بالمسلمين تنكيلا شديدا، واضطرته هذه الحضارة أن يدفع ابنه روجار الثانى إلى تعلم العربية والإكباب على ثقافتها وعلومها، وأخذ الرومان يفيدون من نظم المسلمين وتراتيبهم الإدارية فى الجزيرة، واتخذوا لأنفسهم دواوين على شاكلة الدواوين العربية، واندفع غليوم الأول مثل أبيه إلى إتقان العربية ومعرفة علومها ودفع النورمانَ معه إلى اقتباس العلوم والفنون وعناصر الحضارة الإسلامية فتحضروا بعد أن كانوا متبدين، وانغمسوا فى تلك الحضارة، ومع ذلك ظلوا يقسون على المسلمين ويحاولون بكل ما استطاعوا فتنتهم فى دينهم الحنيف وازداد الظلم والعسف فى عهد أباطرة الألمان، مما اضطر من بقى بصقلية من المسلمين إلى الجلاء عنها نهائيا.

ونقل العرب إلى صقلية الإسلامية ما كان بالقيروان من حركة علمية، فإذا الشباب فيها يكبُّ على ما لدى علمائها من علوم دينية ولغوية، ويرحل منهم نفر إلى القيروان والمشرق للتزود من علمائها، ويرحل إليهم كثير من علماء القيروان لتزويدهم بالعلوم والآداب ونشير

خاصة إلى رحلة ابن رشيق القيروانى بكتابه العمدة فى صناعة الشعر ونقده إلى صقلية، مما كان له أثر بعيد فى نهضتها الأدبية لعهد الكلبيين وبعدهم، وهاجر إليها كثير من شباب الأندلس وعلمائه للتعلم والتعليم، وبالمثل من علماء المشرق وأدبائه وكتب المشرق ودواوينه. ويقول ابن حوقل إنه كان فى مدينة بلرم وحدها أكثر من مائتى مسجد وثلاثمائة معلم، مما يدل على أنه كان بها نشاط علمى واسع، ومثلها بقية المدن . وكان نحو نصف سكانها المسيحيين فئتين: فئة تتكلم الإغريقية، وفئة تتكلم اللاتينية، وربما كان فى الفئتين من يتقن اللغتين جميعا، وكان فيهما مَنْ يتقن العربية، كما كان بين العرب من يتقن اللاتينية أو الإغريقية، وأهَّل ذلك للاشتغال بترجمة بعض علوم الأوائل، ويدل على ذلك – من بعض الوجوه – أن الأمير إبراهيم الأغلبى مؤسس بيت الحكمة فى عاصمته رقّادة بجوار القيروان طلب إلى بعض الرهبان الصقليين المتكلمين بالعربية ترجمة بعض المصنفات اللاتينية فى العلوم الرياضية، كما يدل عليه طبيب صقلى يسمى أبا عبدالله كان يتقن الإغريقية ومعرفة أسماء العقاقير والأدوية رحل إلى الأندلس فى زمن عبدالرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠ هـ) فضمه إلى من يشتغلون بالترجمة عن الإغريقية إلى العربية كتاب ديوسقيريدس فى الأدوية أو الصيدلة والنباتات. ومما يدل على شهرة صقلية حينئذ بالفلسفة وعلوم الأوائل أن نجد بعض متفلسفة الأندلس يهاجرون إليها. وكان بها علماء رياضيون متعددون ومهندسون كبار بشهادة عماراتها السامقة ومن تتردد أسماؤهم منهم فى الكتب. ورحل إليها غير لغوى من الأندلس ومن أشهر أبنائها ابن البِرّ وقد أسس بها مدرسة لغوية خصبة، ومن أهم تلاميذه ابن مكى صاحب كتاب تثقيف اللسان فى أغلاط العلماء وغيرهم، وهاجرت إلى صقلية دواوين كثيرة على يده ويد غيره كما هاجرت إليها كتب لغوية وبلاغية ونقدية كثيرة. ونلتقى بغير مقرئ للذكر الحكيم مثل محمد بن خراسان الصقلى وبغير مفسر مثل ابن ظَفر وغير حافظ محدِّث مثل عتيق السمنطارى. ويتكاثر بها الفقهاء من قضاة وغير قضاة، ومن أهم فقهائها البراذعى ومحمد بن يونس التميمى وعبد الحق بن محمد القرشى.

وإذا تحولنا مع الثقافة إلى العهد النورمانى وجدنا علوم الأوائل تظل ناشطة فى صقلية ويعنى روجار الأول بترجمة الثقافة العربية ويتكفل بترجمة عيونها إلى اللاتينية القيروانية فى الطب والفلك وغيرهما قسطنطين الإفريقى، واشتهرت صقلية فى هذا العهد بفلكيين ورياضيين ومهندسين كبار من تلامذة الأساتذة فى العهد الإسلامى، وألَّف الإدريسى الجغرافى المغربى لروجار الثانى كتابين جغرافيين للعالم كبير وصغير وبهما خرائط جغرافية مهمة، ووضع له خريطة كبرى للعالم على كرة ضخمة من الفضة، وكان حريا بالإدريسى أن يقدم هذه الأعمال الجغرافية الباهرة إلى حاكم عربى لا إلى حاكم نورمانى. وتظل العلوم اللغوية ناشطة فى العهد النورمانى وتسجل كتب التراجم أسماء غير عالم منهم سوى من بارحوا صقلية فرارا من الظلم

النورمانى مثل ابن القطاع الصقلى وعثمان بن على الصقلى نزيلى مصر وقد رحبت هى وأدباؤها وعلماؤها بهم أيما ترحيب. ويهاجر منها فى العهد النورمانى إمام كبير من أئمة القراءات هو ابن الفحام إلى الإسكندرية ومفسر صقلى مهم هو ابن ظفر وفقيه كبير بل إمام من أئمة الفقهاء والحفاظ هو المازرى.

ويزدهر الشعر بصقلية منذ عهد الأسرة الكلبية فى القرن الرابع الهجرى، ولو أن كتاب الدرة الخطيرة لابن القطاع الذى ترجم فيه لمائة وسبعين شاعرا فى عهد الكلبيين وصلنا لرأينا بوضوح مدى ازدهار الشعر فى أيامهم، وكأنه كان ينافس بهم شعراء الأنموذج لابن رشيق الذى ترجم فيه لمائة شاعر. وقد وصلتنا منه اختيارات مبتورة لأبى إسحق بن أغلب تشتمل على ثلاثة وأربعين شاعرا واختيارات أخرى لابن منجب الصيرفى المصرى تشتمل على تسعة عشر شاعرا وهى منشورة، وأهم من هاتين المجموعتين ما ضمنه العماد الأصبهانى فى كتابه الخريدة من اختيارات له من الدرة بلغت سبعة وأربعين شاعرا، وأضاف إلى مجموعته شاعرا من كتاب أمية ابن أبى الصلت من شعراء العهد الكلبى ثم ضم إليها اثنى عشر شاعرا فى العهد النورمانى اختارهم من كتاب لابن بشرون المهدوى يسمى المختار من النظم والنثر لأفاضل أهل العصر، وعرضتُ فى إجمال نشاط الشعراء فى عهد الأسرة الكلبية وأهم أمرائهم الذين التف حولهم شعراء صقلية والقيروان والجزائر. ثم تحدثت عن موضوعات الشعر الصقلى بادئا بالمديح وما نثره شعراء صقلية على الأمراء الكلبيين وعلى المعز بن باديس أمير القيروان وأمراء الطوائف من مدائح بديعة وما كان من تمجيد خلفاء هؤلاء الشعراء للملوك النورمان مكرهين إذ كانوا أسرى فى أيديهم فأشادوا بقصور روجّار الثانى: القبة والمنصورية والفوّارة، وكل ذلك – فى رأيى – على أمل أن يفكوا عنهم أغلال الأسر وقيوده، وترجمت لشاعر مهم من شعراء المديح فى عهد الكلبيين هوابن الخياط. وعرضت طائفة من غزليات بديعة لشعراء صقلية فى عهد الكلبيين والعهد النورمانى، وترجمت لشاعر بارع فى نظم الغزل هو أبوالحسن البلّنوبى. وتحدثت عن شعر الفخر فى عهد الكلبيين مع الترجمة لأبى الحسن الطوبى، وألممت بشعر الوصف وتصوير الشعراء الصقليين للطبيعة الفاتنة وللمغنين والراقصين وترجمت لأبى عبدالله بن الطوبى مع عرض تصاويره البديعة، وعرضت روائع الشعراء فى الرثاء مع الترجمة لمحمد بن عيسى ومراثيه وما أودع فيها من لظى نار متقدة، وألممت بما لشعراء صقلية من زهد فى متاع الحياة ومناجاة لربهم مع الأمل فى عفوه ومغفرته، يوم يؤخذ العاصون بالنواصى ويسأل كل شخص عما قدمته يداه، مع الترجمة لابن مكى ودعوته إلى العمل الصالح قبل الموت والعزلة عن الناس، بل حتى عن الزواج وتكوين الأسرة وما يصاحبه من عواصف. وآخر الموضوعات التى عرضتها التفجع والحنين واللوعة التى لا تنطفئ جذوتها أبدا فى نفوس المهاجرين من صقلية الذين لم يهاجروا منها طوعا، وإنما هاجروا قسرا وفرارا من جحيم ظلم

لا يطاق. وقد ترجمت لابن حمديس الذى عاش مغتربا عن وطنه، يتفجع عليه ويتوجع له ويئن ويحنُّ حنينا ظامئا دائما إلى رؤية عشه وسكنه وكل يوم يأتيه ما يزيده يأسا من لقائه وحرمانا من رؤيته، وحاولت أن أرسم حياته منذ خرج من فردوسه فى الرابعة والعشرين من عمره سنة ٤٧١هـ/١٠٧٨م إلى نهاية حياته غريبا فى بجاية، وهو فى أثناء ذلك يحاول أن يرسل إلى قومه فى صقلية شعلا من شعره تحمِّسهم وتدفعهم دفعا إلى جهاد العدو الباغى. وتسقط فى أيدى النورمان سرقوسة مسقط رأسه وقصريانة بعد نضال مستميت امتد سنوات، ويودعها بقصيد جنائزية تسيل حزنا وألما ويأسا مريرا، وظل يبكى صقلية طويلا ويبكى معها راعيه المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية حين نفاه يوسف بن تاشفين إلى أغمات فى مراكش، وتعاوده مرارا ذكرياته فى صقلية ويذرف الدمع عليها حارا، ويلمع له شىء من الأمل حين ينتصر الحسن بن على بن تميم أمير المهدية على النورمان سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م فيصوب إليهم قذيفة ملتهبة من مدحة له. وديوانه ضخم وليس فيه هجاء فقد كان أكرم على نفسه من أن يؤذى أحدًا إلى وفاته سنة ٥٢٧هـ/١١٣٣م ويكتظ الديوان بكثير من المعانى والأخيلة المبتكرة. وهو يعد فى الذروة الرفيعة من شعراء العرب قاطبة.

وتحدثت عن النثر فى صقلية وكتَّابه البارعين، واحتفظ ابن بشرون المهدوى فيما عقد من ترجمات لبعض شعراء صقلية برسائل لهم بديعة، وترجم ابن بسام فى الذخيرة لكاتب بارع من كتابها قبل العصر النورمانى، هو ابن الصباغ، وأفردت له ترجمة، وبالمثل لابن ظفر وعرضت له كتابين بارعين هما: أبناء نجباء الأبناء، وسلوان المطاع فى عدوان الأتباع. وألحقت بالحديث عن صقلية كلمة عن رحلة ابن قلاقس الإسكندرى إليها وأشعاره فيها ومدائحه لأعيانها ولغليوم الثانى وبعض قواده من النورمان، وربما اضطر إلى ذلك اضطرارا. وله فى راعيه هناك أبى القاسم بن الحجر كتاب سماه: «الزهر الباسم» ضمنه مدائحه فيه. والله اسأل أن يلهمنى السداد والإخلاص فى القول والفكر والعمل وهو حسبى ونعم الوكيل.

شوقى ضيف

القاهرة فى ١٥ من أبريل سنة ١٩٩٢م

القسم الأول

لِيبيا

الفصل الأول

الجغرافية والتاريخ

١

الجغرافية[١]

ليبيا أول أقاليم المغرب الممتد على البحر المتوسط غربًا من مصر إلى المحيط الأطلسى، وتنقسم من قديم إلى ثلاث مناطق: منطقة مجاورة لمصر هى برقة، ومنطقة مجاورة لتونس هى طرابلس، ومنطقة جنوبى طرابلس وصحرائها المتسعة خلف جبالها هى فزان أو منخفض فزان. وعلى طول البحر المتوسط سهل ساحلى يتراوح بين نحو ميل وعشرة أميال أو يزيد قليلا. ووراء طرابلس سلسلة جبال تسمى نُفوسة غربًا ويفرن فى الوسط وغريان شرقًا إلى أن تنقطع عند ترهونة فى أواسط منطقة طرابلس. وتعود الجبال إلى الظهور فى ساحل برقة من قرب بنغازى إلى درنة شرقًا وتسمى الجبل الأخضر. وتترامى وراء جبال طرابلس هضبة صحراوية متسعة بها جبال السودا، ومنذ واحة غدامس فى الغرب تصبح منطقتها ملاصقة للجزائر حتى أقصى الجنوب، ونلتقى عنده بجمهورية النيجر. والهضبة تمتد إلى ماوراء الساحل والجبال فى برقة وهى هناك رملية وترتكز على قواعد صخرية، وفى كثير من جهاتها تصبح أمواجًا متلاطمة من الرمال، وتمتد إلى شرقى مصر، وتترامى جنوبًا حتى تتصل بالسودان فى الجنوب الشرقى، وتلاصق تشاد فى أقصى الجنوب. ومنطقة فزان فى أقصى الجنوب إلى الغرب منخفض شديد الاتساع، وأعدَّه ذلك من قديم لتكثر فيه الواحات والوديان. وتتميز ليبيا بكثرة الواحات، وتلقانا بكثرة فى ساحل طرابلس من زواوة فى الغرب إلى مصراته فى الشرق، ونلتقى بها فى

---

(١) انظر فى جغرافية ليبيا ومدنها كتاب المغرب فى بلاد إفريقية والمغرب لأبى عبيدالبكرى، ومعجم البلدان لياقوت وكتاب وصف أفريقيا للحسن الوزان وكتاب المغرب الكبير لمحمد على دبوز وكتاب محاضرات فى جغرافية ليبيا للدكتور إبراهيم أحمد رزقانه (نشر معهد الدراسات العالية بجامعة الدول العربية) وأطلس تاريخ الإسلام للدكتور حسين مؤنس (نشر الزهراء للإعلام العربى - القاهرة).

ساحل برقة عند بنغازى ودرنة، وتكثر فى الداخل، وتلقانا على حدود مصر واحة جغبوب وغربيها واحة أوجلة وواحة جالو وإلى الجنوب واحة كفرة. والواحات كثيرة أيضا فى الصحراء المترامية بمنطقة طرابلس مثل واحة غدامس غربا وبونجيم شرقًا ومزدة إلى الشمال وغات فى أقصى الجنوب، وشماليها شرقى فزان واحة القطرون.

وإذا جاوزنا ساحل ليبيا والجبال وراءه وجدنا المادة الغذائية للأشجار والنباتات قليلة فيما عدا الواحات التى تخلع فيها الصحارى الليبية ثيابها الرملية الصفراء وترتدى حللا خضراء من حين إلى حين. ومن المؤكد أن فى الشمال وفى مناطق قريبة منه مساحات كثيرة قابلة للزراعة. غير أن المياه بصفة عامة قليلة، مما يسبب قلة الزروع، وأكثر جهات ليبيا أمطارا ساحل منطقة طرابلس والجبال وراءها وساحل برقة من بنغازى إلى درنة وماوراءهما من الجبل الأخضر. وتقل الأمطار فى خليج سرت وفى المناطق الصحراوية. ويمكن تلافى قلة الزراعة فى ليبيا بتوفير مياه كثيرة لها عن طريق ثلاث وسائل: أولاها حفر آبار ارتوازية، ومعروف أنه يمكن أن تتعمق فى الأرض إلى أكثر من مائة متر بينما الآبار العادية قلما تتعمق إلى أكثر من ثلاثة أمتار أوأربعة، وثانيتها تركيب مراوح هوائية على الآبار تديرها الرياح السريعة التى تهبّ هناك، وثالثة تلك الوسائل إصلاح السدود والصهاريج والقنوات المطمورة التى كانت مبنيَّة زمن الرومان أو محفورة للحفاظ على السيول المنحدرة من الجبال وعلى أمطار الشتاء المنهمرة حول المدن فى الشمال وفى الداخل. ومن المؤكد أن الزراعة كانت مزدهرة بليبيا أيام الرومان، إذ كانوا يعدّونها مخزنًا لغلاتهم وحاجتهم من زيت الزيتون. ومن أهم أشجارها – بجانب أشجار الزيتون – أشجار النخيل، وخاصة فى الواحات ويقال إن فى واحة غات خمسين نوعًا من البلح الليبى، ومن أشجارها اللوز، وتكثر فى الشمال كل أنواع الخضروات والفواكه والكروم، وتكثر فى طرابلس الثمار الحمضية مثل البرتقال والليمون واليوسفى. وعلى الجبال والهضاب والأجزاء الصحراوية مراع متسعة ترعى بها الإبل والبقر وقطعان الأغنام والخراف. والمعادن بليبيا كثيرة، فبجانب البترول المكتشف حديثا الكبريت ويشغل مساحة واسعة فى خليج سرت، ولذلك يسمَّى خليج الكبريت. ويوجد المرمر فى غربى طرابلس وبنغازى ويوجد فى الأخيرة الشب والفوسفات، وتشتهر فزان بالنطرون. والمظنون أن بليبيا معادن كثيرة مثل القصدير والرصاص والزنك والحديد. والمناخ فى ساحل ليبيا مناخ البحر المتوسط المعتدل فيما عدا خليج سرت، فمناخه وخيم. وأكثر اعتدالا وأقل حرارة فى الصيف مناخ الجبال وراء طرابلس وبرقة لارتفاع سفوحها ومصاطبها المختلفة، أما ما وراء الجبال من الهضاب والصحارى الداخلية فتشتد فيه الحرارة كلما توغّلنا جنوبًا حتى لتصبح بعض الأنحاء فى الصيف أشبه بحمامات عالية الحرارة، فضلا عما يهبُّ فيها من لهب متّقد محمَّل بغلالات ساخنة من التراب والرمل اللافح.

٢

التاريخ القديم[١]

تاريخ ليبيا المغرق فى القدم يختلف باختلاف منطقتيها الغربية والشرقية: منطقة طرابلس ومنطقة برقة، ومعروف أن الفينيقيين ارتادوا ساحل طرابلس فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد بقصد التبادل التجارى مع أهلها الليبيين، وكانوا شعبًا مِلاحيًّا عريقًا يحترف التجارة، مما جعلهم يجوبون سواحل إفريقيا الشمالية وإسبانيا فى القرن المذكور وبعده، وفى أول الأمر كانوا يقنعون بإقامات مؤقتة فى أثناء تبادل العروض (السِّلع) التجارية مع شعوب الأقاليم والمناطق التى نزلوا فيها، ومع الزمن آثروا أن يقيموا لهم مدنا - أشبه بمستعمرات - ليتخذوها مراكز ثابتة لما يحملون وينقلون من عروض تجارية. وفى تاريخ غير معروف بالضبط هل هو القرن الثامن قبل الميلاد أو قبله أو بعده أقاموا على ساحل طرابلس ثلاث مدن متقاربة، هى طرابلس، وكانوا يسمونها وايات Vaiat وحرَّفها الرومان فسمَّوها أويا Oea وأقاموا غربيها مدينة صبراته Sabrata فى موضع العجيلات الحالية وسماها العرب صبرة ومعناها بالفينيقية سوق القمح، وهو اسم يرمز إلى ما ستئول إليه المنطقة فى عهد الرومان إذ سيعدُّونها مخزن قمح لهم. وأقام الفينيقيون شرقى أويا أو طرابلس مدينة لبدة Leptis فى موضع مدينة الخمس الحالية.

وهذه المدن الثلاث سماها اليونان Tripolis أى المدن الثلاث وأطلق العرب هذا الاسم على أويا Oea فأصبح اسمها طرابلس، وسُمِّيت بها المنطقة جميعها فيما يقابل برقة فى المنطقة الشرقية من ليبيا.

وإقامة الفينيقيين لهذه المدن الثلاث الكبيرة تشير بوضوح إلى نقلهم الليبيين نقلة كبرى من

(١) انظر فى تاريخ ليبيا عامة فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم والبيان المغرب لابن عذارى وتاريخ إفريقية والمغرب للرقيق القيروانى (قطعة منه - طبع تونس) وتاريخ ابن خلدون وتاريخ ابن الأثير والمؤنس فى تاريخ إفريقية وتونس لابن أبى دينار ورحلة التجانى والأزهار الرياضية فى أئمة وملوك الإباضية لسليمان البارونى وكتاب ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية للأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب وتاريخ الفتح العربى للطاهر الزاوى وأعلام البيان له، والمنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب لأحمد النائب الأنصارى وتاريخ طرابلس الغرب لمحمود ناجى وفتح العرب للمغرب للدكتور حسين مؤنس وتاريخ المغرب الكبير لمحمد على دبوز وتاريخ ليبيا للدكتور إحسان عباس وليبيا بين الماضى والحاضر للدكتور حسن محمود.

حياة التجوال والرعى إلى حياة الاستقرار والزراعة، ويُظَنّ أنهم أدخلوا إلى منطقة طرابلس زراعة الفواكه مثل الخوخ والتين والبرقوق والكروم، والنباتات التى تنتج الحنَّاء والزعفران والشيح، وبعض الأشجار مثل أشجار اللوز وربما أشجار الزيتون أيضا. وبذلك بثوا فى مدن طرابلس نشاطًا زراعيًا بجانب نشاطهم التجارى. وخلفهم فى المنطقة بالقرن الخامس قبل الميلاد أبناء عمومتهم القرطاجيون، واتسعوا بالضربين من النشاط التجارى والزراعى فى طرابلس. وفى عهدهم أخذت تنظَّم الصلة بين مدن الساحل الطرابلسى الثلاث وبين الواحات الداخلية وغدامس وغات وفزان، بل أخذت القوافل التجارية تتغلغل فى قلب إفريقيا وتنقل من تلك الأنحاء الرقيق والعاج وريش النعام، ويظن أن الواحات المذكورة آنفًا كانت تستشعر الولاء للقرطاجيين.

وتتوالى الحقب حتى إذا اصطدم القرطاجيون بالرومان وتمت الغلبة للأخيرين استولوا على طرابلس ومدنها من أيدى القرطاجيين سنة ١٤٦ قبل الميلاد، وفى عهدهم ازداد ازدهار المدن الطرابلسية الثلاث ووجهوا حملة إلى غدامس وفزان استولت عليهما، واتسعوا بالنشاط التجارى إلى قلب إفريقيا، وأرسلوا لذلك ثلاث حملات استكشافية، أولاها لكشف مناطق طرابلس الجنوبية، والثانية لكشف أو اكتشاف السودان والثالثة لاكتشاف السودان الغربى. ويبدو أن أسرًا رومانية كثيرة استوطنت منطقة طرابلس يدل على ذلك مالا يزال إلى اليوم من كثرة الأطلال لمعابد وحصون وأبراج ومقابر وتماثيل ونُصب عليها كتابات لاتينية متآكلة، ولا نلتقى بها فى المدن الكبرى الثلاث: أويا وصبراته ولبدة فحسب. بل نجدها أيضا فى أماكن مختلفة على الساحل مثل ترهونة وفى مواضع مختلفة منها إلى طرابلس وأيضا فى الداخل مثل يفرن فى المنطقة الجبلية الوسطى إذ على برج بها كتابات لاتينية، ومثل بونجيم إذ فى الشمال مَبْنى رومانى كبير به كتابة لاتينية نقشت عليه سنة ٢٠١ للميلاد باسم الإمبراطور الرومانى سبتيموس سيفيروس Septimus Severus وكان قد ولد ونشأ فى مدينة لبدة إحدى المدن الطرابلسية الثلاث المذكورة آنفًا، ثم رحل إلى روما ليكمل تعلمه وتطورت به الظروف إلى أن أصبح إمبراطورا للدولة الرومانية، وقد أعفى أهل بلدته الطرابلسية: لبدة من الضرائب الحكومية، وتقديرًا منهم لصنيعه كانوا يهدون روما سنويًّا كمية وافرة من الزيت، ويقال إنها حين وزِّعت على سكان روما بعد وفاته سنة ٢١١ للميلاد كفتهم خمس سنوات. وحين اعتنقت روما المسيحية وعملت على نشرها فى الولايات التابعة لها نشرتها أو حاولت نشرها فى طرابلس لما كان بها من جالية رومانية كبيرة، وتدل على ذلك بعض الكنائس المطمورة فى الأماكن الأثرية الرومانية. وعُنيت روما عناية واسعة بازدهار الزراعة فى طرابلس إذ كانت تعدها – كما أشرنا – مخزنها الضخم للغلال ولزيت الزيتون وغير ذلك من الطيبات، وهو ماجعلها تكثر فيها

من القنوات لحمل مياه الأمطار من الجبال كما تكثر من الخزانات والصهاريج والسدود على الوديان لخزن مياه الأمطار وتوزيعها على الزروع. وازدهار الزراعة - حينئذ - جعل القرى والبلدان تكثر فى الأنحاء الشمالية من منطقة طرابلس، كما جعل السكان يزدادون بها زيادة كبيرة.

وإذا كان الفينيقيون والقرطاجيون نزلوا طرابلس قديما قرونا متعاقبة فإن اليونان هم الذين نزلوا برقة قديما على نحو مايحدثنا هيرودوت فى تاريخه، إذ يذكر أن السكان اليونان ازدادوا زيادة كبيرة فى إحدى جزر بحر إيجه، فأرسلوا فى سنة ٦٥٠ قبل الميلاد بعثة منهم إلى الشاطئ الإفريقى فى اتجاه برقة لعلها تجد لهم أراضى صالحة للنزوح إليها،ونزلت البعثة فى جزيرة بلاتيا بخليج بمبه شرقى درنة، وبعد سنوات قليلة نزحوا منها إلى الشاطئ الإفريقى، وأسسوا به مدينة سيرين Cyrene (شحات الحالية) غربى درنة، ثم أسسوا أربع مدن أخرى غربيِّها، هى على الترتيب Appollonise (سوسة الحالية) وBarca (سميت منذ القرن السادس الهجرى المرج مع أن المنطقة مسماة باسمها: برقة) وArsimoenoe (طوكره الحالية) وBerenice (بنغازى الحالية) وأطلق اليونان على هذه المدن اسم بنطابلس Pentapolis أى المدن الخمس. وغلب على المنطقة جميعها اسم برقة كما ذكرنا وبالمثل غلب على منطقة ليبيا الغربية اسم طرابلس.

وظلت سيرين تعد مدينة برقة الأولى فى عهد اليونان، ولذلك سموا أراضى الساحل حتى بنغازى باسم سيرينايكا. وعلى نحو عناية الفينيقيين والقرطاجيين والرومان بالتجارة فى طرابلس عُنى بها اليونان فى سيرينايكا أو برقة مما جعلها تنشط فى عهدهم بين مدنها الخمس وبين الواحات الداخلية من جهة، وبينها وبين السودان من جهة ثانية، فكانت القوافل التجارية تسير منحدرة وصاعدة بين بنغازى وسيرين فى أقصى الشمال وواحات كفرة وأوجلة وفزان، ويتغلغل بعضها إلى السودان وخاصة إلى دارفور ووادای حاملة من هناك الرقيق وسنَّ الفيل وريش النعام والكركم. وكانت برقة على علاقة حسنة مع مصر، وتوطَّدت هذه العلاقة بعد موت الإسكندر المقدونى وقيام دولة البطالسة بمصر إذ أصبحت جزءًا من دولتهم مما نشَّط تجارتها مع مصر إما عن طريق شاطئ البحر المتوسط والإسكندرية، وإما عن طريق الصحراء وواحة سيوة. وتدخل برقة فى حوزة الرومان سنة ٩٦ قبل الميلاد، وبذلك تصبح ليبيا جميعها شرقًا وغربًا فى نطاق دولتهم الرومانية، ولذلك تلتقى فيها الآثار اليونانية بالآثار الرومانية، وتكثر الأولى فى سيرين (شحات الحالية) حيث تُرَى بها أطلال لآلهة اليونان ومقابرهم ولمدرجات مسارحهم، وتلك المدرجات سمة دائمًا لليونان فى كل بلد أقاموا به، وحاكاهم فى ذلك الرومان. وقد ذكر بنتاءور الشاعر اليونانى فى القصيدة التاسعة من قصائده مدينة سيرين. وأخذت

مكانتها تهبط منذ قضى الإمبراطور الرومانى تراجان على ثورة اليهود بها، وما تصل إلى القرن الثالث الميلادى حتى تصبح أنقاضًا وأثرًا بعد عين. وتابعت روما فى برقة صنيعها فى طرابلس من حيث العناية بالزراعة إذ كانت تعدُّهما جميعا مخزنين لما يلزمها من الغلال، فحفرت لذلك كثرة من القنوات تُرَى - إلى اليوم - وراء ساحل برقة وقد طمرتها الرمال، كما تُرَى هناك آثار السدود والخزانات والصهاريج التى أقامها الرومان واليونان بطالسة وغير بطالسة فى كل مكان شمالا، وتحجب كثرتها عن البصر اليوم الأتربة والرمال التى انهالت عليها عَبْرَ القرون.

وهذا النشاط الزراعى وما اتصل به من النشاط التجارى أهَّل برقة قديما لرخاء جعل المدن - بجانب مدنها الخمس المارة - تكثر فيها مثل درنة وطبرق، واشتهرت الأخيرة بأن جيزيلا أحد ملوك إسبرطة المشهورين كان يتخذها دار إقامة له.

وما يوافى العقد الرابع من القرن الخامس الميلادى حتى تغزو جموع الوانداال الجرمانية الشمال الإفريقى وتسقط على ليبيا - كأمواج من جراد - تعيموتفسد فى البلاد لنحو مائة عام، بل تدمِّر وتَحْطِم كل ما شاده الفينيقيون والقرطاجيون والرومان فى طرابلس وكل ما شاده اليونان والرومان فى برقة إلى أن تجرَّد لهم القائد البيزنطى بليزير Bélisaire وكشف غمَّتهم عن صدر ليبيا سنة ٥٣٤ للميلاد وأصبحت - من حينئذ - تابعة لبيزنطة. ولا نصل إلى أواخر القرن السادس الميلادى وأوائل السابع حتى نجد إمبراطور بيزنطة يُتْبع ليبيا لحاكم الإسكندرية، إذ تذكر المصادر العربية أنه حين فتح عمرو بن العاص ليبيا كانت برقة تتبع هذا الحاكم، بينما كانت طرابلس تتبع حاكم قرطاجة بإفريقية التونسية المعروف عند العرب باسم جرجير تحريفا لاسمه الحقيقى جريجوريوس، ويبدو أنه حين رأى عمرو بن العاص يستولى على مصر سارع بالاستيلاء على طرابلس ليحوز لنفسه شيئا من الغنيمة، إذ رأى الدولة البيزنطية توشك على الانهيار.

٣

من الفتح العربى إلى منتصف القرن الخامس الهجرى

لما أتمَّ عمرو بن العاص السياسى البصير فتح مصر واستقامت له رأى أن يؤمِّن حدودها الغربية ضد الدولة البيزنطية حاكمة الشمال الإفريقى حينذاك. فأعدَّ جيشا فى أواخر سنة ٢١ للهجرة فتح به برقة، إذ استجابت له سريعا، وأرسل ابن خالته عقبة بن نافع إلى الداخل،

ففتح الديار فى الصحراء حتى وصل إلى زويلة حاضرة فزان، واستسلمت سنة ٢٢ للهجرة. وبعد أن رتب عمرو بن العاص شئون الحكم فى برقة اتجه إلى طرابلس ففتحها سنة ٢٣ للهجرة، واستعان ببعض قواده فى فتح ما بقى من بلدانها وبلدان برقة. وتمَّ ذلك كله فى عهد الخليفة العظيم عمر بن الخطاب واستتم عمرو بن العاص فى سنة ٢٣ فتح نفوسة وبذلك عمت ديار ليبيا جميعًا أضواء الإسلام. وظل عمرو طوال هذه السنة والسنة التالية أو أكثرها ينظّم شئونها، وترك لأهلها أن يجمعوا بأنفسهم الجزية والضرائب المفروضة ويؤدّوها فى الموعد المضروب. وكانت هذه سياسة رشيدة، ولم تفْرض ضرائب فادحة كما كان الشأن أيام الدولة البيزنطية، وأحسَّ البربر فى ليبيا بتعاليم الإسلام فى العدل والمساواة المثلى بين من يسلمون منهم وبين العرب، فأقبلوا على الدين الحنيف وأخذ يعتنقه كثيرون منهم. ويعود عمرو إلى مصر مخلفًا وراءه ابن خالته عقبة بن نافع. ويتولى الخلافة بعد عمر عثمان بن عفّان، فيولّى على مصر عبد الله بن أبى سرح سنة ٢٥ للهجرة وتظل ليبيا لأيامه هادئة حتى فتنة عثمان سنة ٣٥ للهجرة، فتضطرب الأمور فيها وفيما وراءها من إفريقية التونسية، ويتولّى عمرو بن العاص مصر ثانية لعهد معاوية. ويعنى معاوية ببرقة وطرابلس وإفريقية ويجعلها ولاية مستقلة ويولى عليها معاوية بن حُديج السَّكونى سنة ٤٥ للهجرة، ويولّى بدوره رويفع بن ثابت الأنصارى على طرابلس، ويترك معه كتيبة، ويدور عام وقيل بل عامان ويفتتح رويفع جزيرة جربة شرقى مدينة قابس. حتى إذا كانت سنة ٥٠ للهجرة ولّى معاوية على المغرب جميعه عقبة بن نافع، فرأى بثاقب بصيرته أن يتخذ للجيش العربى قاعدة تكون معسكرا له، فيها ينزل الجيش ويسكنها ويخرج منها لمتابعة الفتوح فى المغرب، واختار موقعا فى داخل إفريقية التونسية غربى ميناء سوسة على بعد نحو ثلاثين ميلا من البحر المتوسط، وشيد فيه مدينته وسماها القَيْروان أى المعسكر، وجعل حولها سورا من القرميد، وشيَّد فيها جامعًا كبيرًا، وسرعان ما استحالت القيروان مدينة ضخمة واستحال جامعها جامعة كبرى، ويعيد عقبة إلى إفريقية الهدوء والاستقرار ويقضى على الحكم البيزنطى فى الشمال الإفريقى جميعه. وبمجرد إتمامه لمدينته سنة ٥٥ للهجرة عُزل، وتولّى المغرب أبو المهاجر، وقد نازل قبيلة أوربة من البرانس وزعيمها كُسَيْلة فى تلمسان ودارت عليها الدوائر، وأُسر كسيلة ودخل فى الإسلام. وتولّى الخلافة يزيد بعد أبيه معاوية، فأعاد إلى المغرب عقبة بن نافع سنة ٦٢ للهجرة، فسار بجيش ضخم اخترق به الجزائر والمغرب الأقصى حتى بلغ المحيط الأطلسى، وكان قد وبّخ كُسَيْلة زعيم أوربة لما كان من حربه للمسلمين فأسرَّها فى نفسه، وصمم على الانتقام، وفى عودة عقبة بالجيش تأخر عنه فى كتيبة صغيرة بجبال الأوراس جنوبى مدينة بِسْكرة فى الجزائر وكان كسيلة قد جمع من أنصاره جمعًا كبيرًا ، فانتهز الفرصة وهجم على عقبة وصحبه واستشهد البطل العظيم، وأقيم له مسجد ضمَّ رفاته، وسميت المنطقة باسمه: سيدى عقبة.

ويتولى المغرب حسان بن النعمان (٧١ – ٨٥ هـ) فيثبِّت الدين الحنيف هناك ويدخل فيه البربر أفواجًا، إذ سوَّى – حسب تعاليم الإسلام – بين البربر والعرب فى كل شىء: فى الأعطيات وفى الخراج وفى الجيش فلا فرق بين جند عربى وجند بربرى لا فى المعاملة ولا فى الفَيْء وغنائم الفتوح، ولو أن الولاة فى القرن الثانى اتبعوا هذه السياسة مع البربر ما انتقضوا عليهم ولاشهروا السلاح ضدهم كما سنرى عما قليل. وأسَّس حسان مدينة تونس وبنى بها دار صناعة متخذًا منها نواة لإنشاء أسطول مغربى عربى لحماية السواحل المغربية من القراصنة والمغامرين الأوربيين، واستقدم من مصر ألف أسرة قبطية للمساعدة فى إنشائه. ونظَّم إدارة الحكم والدواوين تنظيما دقيقا. وأتمَّ هذا التنظيم بعده موسى بن نصير والى المغرب الجديد (٨٥ – ٩٦ هـ) إذ جعل المغرب خمس ولايات: ولاية بَرْقة، وولاية إفريقية التونسية ومعها طرابلس، وولاية المغرب الأوسط، وولاية المغرب الأقصى، وولاية السوس أو سجلماسة. وكان يرسل لبرقة وطرابلس عمَّالا أو وُلاة كانوا يُعَدّون مستقلين فى الشئون الداخلية للمنطقتين، مع إرسالهم نصيبا من الضرائب وبعض الجنود إلى القيروان. وعمل موسى – بكل ما فى وُسْعه – على نَشْر الدين الحنيف بين البربر بإنشائه فى أنحاء المغرب لكتاتيب كثيرة تحفظ فيها الناشئة القرآن الكريم مع إحسانها لتلاوته ومع تعليمها بعض مبادئ الدين الحنيف. وتمَّ هذا الرسوخ للإسلام فى المغرب وأرجاء ليبيا لعهد عمر بن عبد العزيز (٩٩ – ١٠١ هـ) الخليفة التقىّ إذ أرسل إلى المغرب عشرة من كبار الفقهاء للعمل على نشر الدين الحنيف هناك، واختار أحدهم واليًا على المغرب جميعه هو إسماعيل بن أبى المهاجر المخزومى واستجاب إليهم آلاف من البربر حتى ليمكن القول بأننا لا نصل إلى مطلع القرن الثانى الهجرى حتى يصبح المغرب جميعه دارًا إسلامية يؤدِّى فيها الجمهور الأكبر فروض الدين الحنيف.

ولا تعود ليبيا وما وراءها من المغرب تحظى بوال من أمثال ابن أبى المهاجر وموسى بن نصير وحسان بن النعمان وعقبة بن نافع منذ وفاة عمر بن عبد العزيز، فقد أخذ يتولى المغرب ولاة ساموا البربر كثيرًا من العسف والظلم، حتى إذا تولى عبيدالله بن الحبحاب المغرب زاد الطين بِلّة، بتشدده فى جباية الأموال من البربر ورفضه رفضًا باتًا التسوية بينهم وبين العرب. وانتهز الفرصة دعاة الخوارج من صفرية وإباضية ودعوا بقوة إلى مبادئهم فى التسوية المطلقة بين العرب والموالى من بربر وغير بربر فى جميع الحقوق والشئون المالية، وحتى فى الخلافة نفسها فلا تقتصر على قريش وأبنائها بل يتولاها أكفأ المسلمين ولو كان عبدًا حبشيًا. واستجاب المغرب الأقصى سريعًا لمبادئ الصفرية ونشبت فيه ثورة سنة ١٢٢ للهجرة، وتهزم جيوش الدولة جيشًا من وراء جيش إلى أن يكتب لها النصر بعد سنوات. أما مذهب الإباضية فقد انتشر انتشارًا واسعًا فى طرابلس وجبل نفوسة وغربى ليبيا، وكان قد أصبح زمام الحكم فى

المغرب بيد عبد الرحمن بن حبيب حفيد عقبة بن نافع منذ سنة ١٢٦ للهجرة، فأخذ يرقبهم ويكثر من العيون عليهم، وعرف أن رئيسهم فى طرابلس عبد الله بن مسعود التجيبى، فأرسل إليه أخاه إلياس فى قوة عسكرية كبيرة فقتله. ولم تنته بذلك الحركة الإباضية فى طرابلس فقد بايع الإباضيون فى طرابلس بعده بالإمامة الحارث بن تليد الحضرمى سنة ١٣٠ للهجرة واتخذ وزيرا له عبد الجبار بن قيس المرادى، والمظنون أنهما كانا من جيش أبى حمزة الخارجى الذى أرسله الإمام طالب الحق اليمنى لفتح الحجاز ومدينتيه المقدستين، ولم يكتب له النصر أخيرًا على الجيش الأموى، وتسلل من جيشه الحارث وعبد الجبار إلى طرابلس، وأخذا يدعوان للمذهب بها، ونجحت دعوتهما وبويع الحارث إماما، وأرسل إليه عبد الرحمن بن حبيب جيشًا، ويقال بل ذهب إليه بنفسه على رأس جيش، غير أن جيشه هزم شر هزيمة، وأصبح إقليم طرابلس من سرت فى ليبيا إلى قابس فى إفريقية التونسية يعترف بإمامته معتنقا لمذهب الإباضية. وفى سنة ١٣٢ للهجرة يغتال الحارث بن تليد ووزيره عبد الجبار فى ظروف غامضة، ويدخل عبد الرحمن بن حبيب طرابلس ويفتك بكثيرين من زعماء الإباضية.

وتعيش طرابلس وإقليمها نحو ثمانى سنوات فى هدوء، حتى إذا كانت سنة ١٤٠ للهجرة ثار الإباضية بقيادة إمامهم أبى الخطاب عبد الأعلى المعافرى واستولى على طرابلس وأعلن بها إمامته، وكان حازمًا مقدامًا جسورًا غيورا على الدين، وكانت قبيلة ورْفجومة الصفرية استولت على القيروان منذ سنة ١٣٨ للهجرة واستباحتها واستحلت المحارم وارتكبت كثيرًا من المآثم والفظائع بها وجروحها تنزف بالدماء وأهلها يكثرون من العويل ولامغيث، وعلم أبو الخطاب بعيْث ورفجومة واستحالة أبنائها فى القيروان إلى ذئاب هائجة مسعورة، فثارت ثائرته واتقدت حميته لأهلها وأعدَّ فى سنة ١٤١ للهجرة جيشًا ضخمًا نازل به ورفجومة النفزاوية فى معركة طاحنة قتل فيها قائدها عبد الملك بن أبى الجعد وهزمت هزيمة ساحقة، ودخل أبو الخطاب القيروان وطهَّرها من رجس هذه القبيلة الباغية، وأقام عليها عبد الرحمن بن رستم واليا عليها من قبله، وعاد إلى طرابلس عاصمته. وكل ذلك علم به الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور، فاختار أحد قواده العظام محمد بن الأشعث وولاه على المغرب، وأرسل معه جيشًا بالغ الضخامة فى نحو سبعين ألف مقاتل يقودهم صفوة كبيرة من القواد، ونشبت بينه وبين أبى الخطاب معركة حامية الوطيس سنة ١٤٤ للهجرة قتل فيها أبو الخطاب وأكثر أنصاره بحيث لم تقم للإباضية فى طرابلس وجبل نفوسة بعدها قائمة. وفرَّ عبد الرحمن بن رستم من القيروان إلى تيهرت فى المغرب الأوسط، وبها أقام للإباضية دولة ظلتْ نحو قرن ونصف. ويتولى المغرب يزيد بن حاتم المهلبى سنة ١٥٣ للهجرة ويعود النظام والاستقرار والهدوء إلى طرابلس حتى نهاية ولايته سنة ١٧٠ وقد ضم برقة إلى مصر. وتولى المغرب بعد يزيد أخوه روح بن حاتم

ثم هرثمة بن أعين حتى سنة ١٨١ وكان عهدهما عهد أمن وطمأنينة فى طرابلس. وكان الخليفة العباسى هرون الرشيد سئم من كثرة الاضطرابات والثورات فى البلاد المغربية، فسأل عن مقدام جرئ سيوس يستطيع ضبطها ضبطًا محكمًا فأشار عليه قائده هرثمة بن أعين بإبراهيم بن الأغلب التميمى لما يعرف من كياسته ورجاحة عقله.فمنحه حكمها هو وأولاده وأحفاده طوال إقرارهم النظام فيها والأمن، وبذلك تأسست فى إفريقية التونسية دولة الأغالبة منذ سنة ١٨٤ للهجرة حتى سنة ٢٩٦ وتبعتهم طرابلس وظلوا يرسلون إليها عمالا وظلت ثوراتها لا تهدأ بسبب من كان فيها وفى جبل نفوسة من الإباضية، وكان إباضية تيهرت لا يزالون يمدون إلى إباضيتها عونًا مستمرًا. ولعل ما كان يوليها الأغالبة من الأهمية هو الذى جعلهم دائما يولّونها ولاة بارزين من الأسرة، وكثيرًا ما كانت تنتقض عليهم، على نحو ما حدث سنة ١٩٦ فى عهد واليها عبدالله بن إبراهيم بن الأغلب، واستطاع القضاء على الثورة، ومن أهم ولاتها من أبناء الأسرة أبو العباس عبد الله بن محمد الأغلبى، ونقله الأمير أبو الغرانيق، ثم أعاده إلى طرابلس، ومنهم أحمد بن سوادة الأغلبى وكان شاعرًا بارعًا ومحمد بن زيادة الله الثانى وكان أديبًا وشاعرًا وخطيبًا ومؤلفًا بارعًا، ونفس عليه ذلك ابن عمه إبراهيم بن أحمد الأغلبى (٢٦١ - ٢٨٩ هـ) وغار من سمعته الطيبة عند خليفة بغداد الرشيد فتسلل إليه خفية فى طرابلس وقضى عليه. وفى عهد هذا الأمير الأغلبى شهدت برقة سنة ٢٦٥ ثورة عباس ابن والى مصر أحمد بن طولون على أبيه، واتخذها قاعدة له وجهز منها حملة كبيرة زحف بها على طرابلس، غير أن جيش عاملها الأغلبى محمد بن قرهب هزمه وردَّه على أعقابه. ولم يلبث أبوه أن قضى على ثورته سنة ٢٦٨ وولى على برقة عاملا يصلح فيها ما أفسده ابنه. وثار جبل نفوسة فى سنة٢٨٣ ثورة عنيفة قضى عليها إبراهيم بن أحمد الأغلبى قضاء مبرما.

وحين قضت الدولة العبيدية الفاطمية على دولة الأغالبة سنة ٢٩٦ حاولت أن تبسط سيادتها على طرابلس وتم لها ذلك، وأرسل مؤسسها عبيدالله المهدى جيشًا إلى برقة، فاستولى عليها من يد واليها العباسى، وكانت برقة سُنّية وطرابلس إباضية، وكانتا ترفضان العقيدة العبيدية الإسماعيلية، ولم تلبث طرابلس فى سنتى ٢٩٩-٣٠٠ للهجرة أن حملت لواء الثورة فى وجه ماقنون واليها من قِبَل عبيدالله المهدى وفتكوا برجاله من قبيلة كتامة التى كانت تؤيد الدعوة الفاطمية وأتاحت للمهدى استيلاءه على صولجان الحكم من أيدى الأغالبة. وصمم المهدى على الانتقام من طرابلس وأهلها، فجرَّد لها حملة كبيرة بحرية وبرية ولم يلبث أسطوله أن قضى على الأسطول الطرابلسى، وضُرب الحصار برًّا حول طرابلس حتى ساءت أحوال أهلها سوءًا شديدًا، فطلبوا الأمان، فأمنهم القائد أبو القاسم بن المهدى، وكان فى الجيش معه أحد أبناء طرابلس ممن كانوا قد سارعوا بالالتفاف حول المهدى، وكان ابنًا عاقًا فعذب أهل بلدته ونكل

بهم وأغرمهم ثلاثمائة ألف دينار، واستكانت طرابلس. وفى سنة ٣٠٤ ثارت برقة فنكل بها العبيديون تنكيلا شديدًا. وفى سنة ٣١٠ ثار الإباضيون فى جبل نفوسة ثورة عنيفة، وقضت عليها جيوش العبيديين . وتظل ليبيا غربا وشرقا خاضعة لهم إلا ثورات صغرى كثورة أبى حاتم وثورة أبى يحيى الإباضيين وقَضَى على الثورتين يزيد بن حاتم المهلبى (١٥٤-١٧٠ هـ). وحرى بنا أن نذكر أن من أهم قضاتهم الذين كانوا يرسلون بهم إلى طرابلس لنشر دعوتهم القاضى النعمان صاحب المؤلفات المشهورة فى الدعوة إلى العقيدة الإسماعيلية الفاطمية، وتبع المعز الفاطمى فى ارتحاله إلى عاصمته الجديدة: القاهرة سنة ٣٦١ للهجرة. وكان المعز قد ترك على بلاد إفريقية التونسية والمغربين الأوسط والأقصى بلكِّين بن زيرى زعيم قبيلة صنهاجة، وجعل جبل نفوسة تابعا له، وفصل عن ولايته طرابلس وبرقة ملحقا لهما بمركز الخلافة فى القاهرة، وجعل لكل منهما واليا تابعا له، ولم يدم ذلك لطرابلس طويلا، فإن بلكين ألحَّ على الخليفة الفاطمى العزيز (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ) أن يلحقها بولايته هى ومنطقتها، وأجابه إلى أمنيته سنة ٣٦٧ وولى عليها بلكِّين حتى سنة ٣٧٣ هـ ولاة من قبله، وخلفه ابنه المنصور ثم حفيده باديس سنة ٣٨٦ للهجرة وأخذ يرسل إليها بدوره ولاة مختلفين، كان آخرهم عسيلة بن بكار سنة ٣٩٠ فخانه بتسليمها إلى يانس الصقلى حاكم برقة، وأرسل إليه باديس أحد قواده على رأس جيش حاصر طرابلس. وفى هذه الأثناء تسلَّل إلى طرابلس مغامر من قبيلة زناتة يسمى فلفل بن سعيد واستولى عليها وأسَّس بها دولة بنى خزرون، وأخذت تكثر بها الاضطرابات والمنازعات بين أفراد الأسرة ومن الطريف أنه تأسس فى طرابلس حينئذ مجلس شورى يساعد الحاكم الخزرونى فى تصريف الأمور، وأول من رأسه على بن محمد بن المنمر، وقد قضى هذا المجلس على آثار المذهب الشيعى فى طرابلس وثبت المذهب المالكى السنى بها، وظلت أسرة بنى خزرون تحكم طرابلس حتى منتصف القرن الخامس الهجرى. وإذا ولينا وجوهنا نحو برقة فى تلك الفترة وجدنا أمويا أندلسيا يسمى أبا ركوة يدعو لنفسه فيها بالخلافة، ويتبعه بنو قرة البرقيون أصحاب الجبل الأخضر، ويحاربون معه الفاطميين ثم يتخلَّون عنه ويقتل. وتظل الزعامة فى برقة لبنى قُرَّة طوال النصف الأول من القرن الخامس الهجرى.

٤

من الهجرة الأعرابية إلى منتصف القرن العاشر الهجرى

هاجرت إلى ليبيا وإفريقية التونسية والمغرب الأوسط جموع أعرابية كبيرة من قبائل بنى سليم وبنى هلال كان القرامطة فى البحرين قد ضموها من نجد إلى جيش ضخم نازلوا به الفاطميين فى الشام ومصر، وما كادت تدخل فى الديار المصرية حتى انضمت إلى الجيش الفاطمى، مما كان سببا فى اندحار الجيش القرمطى وارتداده إلى البحرين، وقد نقلها العزيز بالله الفاطمى إلى الضفة الشرقية على النيل بالصعيد الأعلى، وظلت هناك مصدر قلاقل واضطرابات لأهل الريف الصعيدى، مما جعلها تتحول إلى مشكلة كبرى للحكم الفاطمى بمصر. ودار الزمن دورات وإذا الحاكم الصنهاجى الرابع المعز بن باديس (٤٠٦ - ٤٥٤ هـ) فى إفريقية التونسية والمغرب الأوسط يؤثر المذهب السنى مشايعة لشعبه المغربى ويقطع الدعوة الفاطمية الإسماعيلية منضويا تحت لواء الخليفة العباسى سنة ٤٣٨ للهجرة، وامتلأ الخليفة الفاطمى المستنصر سخطا وموجدة عليه، ولكن ماذا يفعل وهو لا يملك من الجند والجيوش ما يستطيع به القضاء على المعز بن باديس، وانتهز الفرصة وزيره الحسن بن على اليازورى، فأشار عليه بإقطاع مشايخ بنى سليم وبنى هلال أعمال المعز بن باديس فى المغربين الأدنى والأوسط وهجرتهم إليهما مع قبيلتيهما، وقال له إنهم إن ظفروا بالمعز وقبيلته: صنهاجة تحققت أمنيته وصاروا أولياء للدولة وعمالا لها فى تلك الأنحاء القاصية مع زوال عيثهم وفسادهم عن أهل الصعيد بمصر، وإن هم لم يظفروا بالمعز نكن قد تخلصنا منهم، ودبَّرنا له ما يقضى عليه. ووقعت المشورة من نفس المستنصر موقعا حسنا، واستدعى مشايخ القبيلتين وقال لهم: «قد أعطيتكم المغرب وملك المعز بن باديس الصنهاجى العبد الآبق فلا تفتقرون» وأغْرَى الشيوخ بجوائز كبيرة، وأمر لكل بدوى من القبيلتين ببعير ودينار. وانطلقت جموع بنى سليم وبنى هلال بفروعها (الأثبج وزغبة ورياح وجشم وعدى وربيعة والزواودة) سنة ٤٤٣ للهجرة إلى برقة وانسابوا فيها بخيلهم ورجلهم ينهبون ويسلبون واستقرت فيها مجاميع من بنى سُلَيْم، وتقدمت بقية هذه القبيلة مع بنى هلال بفروعها إلى طرابلس وإفريقية التونسية، وكان يتولى قيادتها جميعا يحيى الرياحى شيخ بنى رياح الهلاليين، ولما استقرت جموع القبيلتين فى طرابلس انعقدت له الرياسة فيها وفى انتقالهم إلى إفريقية التونسية، ولا يعرف عدد من دخل المغرب من القبيلتين، ويرى بعض المؤرخين أنهم لم يكونوا يقلون عن خمسمائة ألف ويقول ابن خلدون إنهم كانوا يسيرون فى جموعهم كجراد منتشر لا يمرون على شىء إلا أتوا عليه، فهم يطلقون

قطعانهم من الإبل والغنم على الزروع وهم يخرِّبون المنشآت والقصور ويقتلعون الأبواب ويقدمونها وقودًا للنار. وحقا قد يكون ابن خلدون مسرفا فيما وصف به القبيلتين المذكورتين من النهب والسلب وتخريب العمران ولكن من الحق أيضا أن أعراب هاتين القبيلتين لم يكونوا مثل عرب الأجيال العربية الأولى الذين فتحوا بلدان الدولتين الساسانية والبيزنطية وأقاموا دولة الإسلام الكبرى المجيدة، إذ لم يكونوا جيوشا نظامية، وكانوا بدوا لا صلة لهم بالحضارة، ولم يكن لهم فى هجرتهم إلى المغرب لا هدف دينى ولا هدف قومى، كما كان الشأن فى فتوح العرب الإسلامية الكبرى وقد نازلهم المعز بن باديس فى مكان يسمى حيدران بالقرب من قابس ودارت عليه الدوائر ودخلوا القيروان سنة ٤٤٦ ونهبوها وخرَّبوها، واضطر أن ينسحب منها إلى المهدية عاصمة الفاطميين بالقرب منها وبها توفى سنة ٤٥٤ للهجرة. وظل هؤلاء الأعراب سادة القسم الأكبر من إفريقية التونسية وسادة طرابلس إلى عهد الموحدين فى القرن السادس الهجرى.

وقد تحولت برقة منذ هجرة بنى سليم إليها فى أواسط القرن الخامس الهجرى من حياتها المستقرة فى المدن الشمالية والواحات الداخلية إلى مشيخات بدوية لبنى سليم واستحالت فى جميع أجزائها إلى مراع واسعة، وظل ذلك فترة طويلة نحو مائة عام، بل تزيد وكانت فى أثناء ذلك تدين بالولاء لمصر، وانشغل حكامها عنها بالحروب الصليبية وتزعزع هذا الولاء فى أواخر زمن الدولة الفاطمية لهذا السبب. ونرى صلاح الدين الأيوبى حين قضى على تلك الدولة يفكر فى برقة وفرض ولاء مصر عليها وعلى إفريقية التونسية، ويكلف بهذه المهمة ابن أخيه المظفر تقى الدين، فتستولى فرق أو كتائب من جيشه على أجزاء من برقة ويعهد إلى اثنين من قواده – ربما بمشورة صلاح الدين – بإتمام هذه المهمة، هما إبراهيم بن قراتكين وقراقوش، أما ابن قراتكين فتوغل فى أوائل العقد الثامن من القرن السادس فى ليبيا، ومضى حتى بلغ قفصة فى إفريقية التونسية، واتخذها مقرا له، واستقر بها إلى أن فتكت به دولة الموحدين المغربية سنة ٥٨٣ ودخلت قفصة فى حوزتهم. وأما قراقوش فقد مضى إلى أوجلة فافتتحها، وتقدم إلى فزَّان فاستولى على عاصمتها زويلة من بنى الخطاب واتجه إلى الشمال واستولى على طرابلس سنة ٥٧٩ فترة وتقدم فاستولى على قابس، ومنه استردها الموحدون بعد استردادهم لقفصة من ابن قراتكين سنة ٥٨٣ مما اضطره إلى إعلان طاعته لهم، غير أنه عاد إلى العيث والإفساد واضعا يده فى يدى ابنى غانية على ويحيى حين عاثا فى إفريقية التونسية ضد الموحدين، وبعد مغامرات شتى مع من انضم إليه من بنى سليم قتل سنة ٦٠٩ للهجرة، وظلت برقة بعده موالية لمصر طوال العصر الأيوبى، واطرد ولاؤها فى زمن المماليك، ونرى الظاهر بيبرس سلطانهم (٦٥٨-٦٧٦ هـ) بطل موقعة عين جالوت ضد التتار الذى دفع سيولهم عن الشام إلى غير

رجعة يُولِى برقة اهتمامه منذ سنة ٦٦٢ للهجرة ويولِّى عليها شيخا حصيفا من بنى سليم هو عطاء الله بن عَزاز، ويكل إليه جباية الزكاة من الإبل والأغنام وعُشْر الزروع والثمار. وحين غزا لويس التاسع تونس سنة ٦٦٨ بعد إخفاقه المشهور فى غزو مصر وأسره فى دار ابن لقمان بالمنصورة أمر بيبرس ابن عزاز بإرسال نجدة سريعة إلى تلك المدينة، وأخفقت غزوة لويس التاسع لها، ومات مقهورا تحت أسوارها. وكانت بعض البلدان فى برقة تثور أحيانا على ابن عزاز، فكانت مصر تسارع إلى تأييده على نحو ما حدث فى طلميثة شمالى بنغازى وعودتها سريعا إلى الطاعة. وظل بنو عزاز يتولون برقة ويصرِّفون شئونها ويشرفون على قبائلها إن لم يكن فيها جميعا ففى أكثر بلدانها وبواديها. وفى النصف الأول من القرن التاسع الهجرى نازعهم فيها عُرَيف بن عمر وابنه. وتظل برقة موالية لمصر إلى أن استولى العثمانيون على القطر المصرى من أيدى المماليك سنة ٩٢٣ للهجرة، وطبيعى أن يمدوا سلطانهم إلى برقة التى ظلَّت تدين بالولاء طويلا لمصر، وظلت تستشعر هذا الولاء إلى أن ضمَّها والى طرابلس العثمانى محمد الساقلى (١٠٤٣ - ١٠٥٩ هـ). إلى ولايته.

وتاريخ طرابلس ينفصل عن تاريخ برقة منذ انضمامها إلى إفريقية التونسية سنة ٣٦٧هـ/٩٧٧م فى عهد حكامها من بنى زيرى الصنهاجيين، وقد استقل بها بنو خزرون منذ أواخر القرن الرابع الهجرى إلى نحو سبعين عاما، وتكتسحها الهجرة الأعرابية الكبيرة لبنى هلال وبقايا بنى سليم، وتعانى من ذلك طويلا، وفى هذه الأثناء زالت السيادة العربية عن صقلية وسقطت فى حجر النورمان سنة ٤٨٤هـ/١٠٩٢م نهائيا، وحينئذ أخذت تتراءى فى الأفق نذر خطر جسيم على الساحل الإفريقى، فقد استولى النورمان على مالطة سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٣م وأعلن روجار الثانى ملك صقلية الحرب الصليبية على الساحل الإفريقى سنة ٥٣٧هـ/١١٤٢م وجهَّز أسطولا يحاصر طرابلس وينقب سورها، غير أن أهلها ومن وراءهم من الأعراب ردوا الأسطول على أعقابه وغنموا أسلحته، ولم يلبث شيخ من شيوخ العرب هو أبو يحيى بن مطروح التميمى أن استخلص طرابلس لنفسه، ونازعه فى سيادتها وسلطانها بعض أهليها، ونشبت بينهما الحرب، وكان النورمان يعلمون ما صار إليه الشمال الإفريقى من ضعف الدولة الزيرية الصنهاجية وانزواء تميم بن المعز وأبنائه فى المهدية وأنحائها وما تبعهم من شريط ساحلى ضيق، به جزيرة جربة وصفاقس وقابس، ولم يلبث الأسطول النورمانى أن استولى على المهدية وجزيرة جربة وصفاقس سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨ وعاد إلى طرابلس يريد الاستيلاء عليها، وبدلا من أن تغمد الفئتان المتنازعتان فى طرابلس أسلحتهما ويوجهاها إلى صدور أعدائهما الصليبيين ظلا يتحاربان ويقتتلان، وبذلك هيأ الفرصة لأعدائهما النورمان، فتسلقوا الأسوار، ودخلوا طرابلس وأمعنوا فى النهب والسلب والقتل وفرضوا على أهلها جزية يؤدونها لملك صقلية، وتركوا

حكمها فى يد أبى يحيى بن مطروح، فحكمها حكما شوريا، إذ ألَّف لها مجلسا مكونا من عشرة شيوخ كانوا يعقدون اجتماعاتهم فى مسجد خارج المدينة للتشاور والتداول فى تدبير أمورها. وظل النورمان الصقليون يحكمون طرابلس أكثر من عشر سنوات، ولاح لابن مطروح وأهلها نورُ قوةٍ كاسحة فى المغرب الأقصى، هو نور دولة الموحدين التى أخذت تستولى على بلدان المغرب، فعظم الأمل فى نفوس الطرابلسيين أن تمد إليهم يد العون فى التخلص من حَمَلة الصليب، وما توافى سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م حتى يشتد بهم الغضب لأدائهم جزية لنصارى صقلية، وفى إحدى الليالى يهجمون على الحامية الصقلية، فيحرقون بيوتها بالنار حرقا، ويذبحونها عن آخرها ذبحا، حتى لا يفكر النورمان فى النـزول بطرابلس ثـانية. وينـزل خليفة المـوحدين عبدالمؤمن بن على المهدية سنة٥٥٥بعد طرد النورمان من ساحل إفريقية التونسية نهائيا، ويفد عليه ابن مطروح على رأس وفد من رجالات طرابلس، ويحتفى بهم، ويولى ابن مطروح حاكما على طرابلس من قبله، وما زال يتولاها حتى أدركته الشيخوخة، فرأى فى سنة ٥٨٦ للهجرة أن يؤدى فريضة الحج فاستأذن أبا زيد بن أبى حفص والى تونس للموحدين، وأذن له واستقلَّ سفينة، واضطرت فى طريقها إلى الإسكندرية أن تتوقف قبل الوصول إليها ورست فى موضع لا يزال ينسبه المصريون إليه هو: «مرسى مطروح» المدينة المعروفة الآن على الشاطئ المصرى. وتنبَّه عبد المؤمن خليفة الموحدين للانتفاع بأعراب بنى سليم وبنى هلال فى جهاده لأعداء الدين الحنيف فى الأندلس، فكلَّف القاضى ابن عمران بنظم قصيدة يستحث فيها بنى سليم للجهاد فى نصرة الإسلام كما نصره آباؤهم قديما، وصنع صنيعه ابنه يوسف حين اعتزم غزو نصارى الأندلس سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠ م إذ طلب إلى صديقه ابن طفيل الفيلسوف الأندلسى المشهور أن يستنفر الأعراب بقصيدة حماسية، فنظم قصيدة تتأجج حماسة ملتهبة استهلَّها بقوله:

أقيموا صدورَ الخيل نحو المغاربِ ... لغزو الأعادى واقتناء الرغـائبِ

وتأخر وفودهم على يوسف خليفة الموحدين، فأرسل إليهم ابن طفيل قصيدة ثانية، فلبَّى يوسف كثيرون منهم انتظموا فى جيشه المتجه لغزو النَّصارى فى الأندلس، وأكبر الظن أن ابنه يعقوب خليفة الموحدين بعده جنَّد منهم كثيرين فى جيشه المظفَّر الذى جاز به إلى الأندلس، وأوقع بالقشتاليين ومن كانوا معهم من نصارى الشمال وقعة الأَرَك المشهورة سنة ٥٩١ التى مُزِّق فيها أعداء الدين الحنيف كل ممزَّق.

ومرَّ فى حديثنا عن برقة أن المظفر تقىّ الدين ابن أخى صلاح الدين الأيوبى كان قد أرسل إلى ليبيا وإفريقية التونسية قائدين من قواده للاستيلاء عليها، هما إبراهيم بن قراتكين وقراقوش وأن الأول استطاع الاستيلاء على قفصة بإفريقية التونسية إلى أن استولت عليها

دولة الموحدين سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م وأن الثانى استطاع الاستيلاء على أوجلة وفزان، كما استولى على طرابلس فترة محدودة سنة ٥٧٩ بعون بنى رياح وبنى دياب الهلاليين، واتجه غربا واستقر فى قابس بإفريقية التونسية، واستولى عليها منه الموحدون سنة ٥٨٣ وفى هذه الأثناء كان على بن غانية صاحب ميورقة حفيد يوسف بن تاشفين يضطغن على دولة الموحدين إزالة ملك أسرة ابن تاشفين أصحاب دولة المرابطين من المغرب والأندلس، فرأى أن يقدم على أعراب طرابلس ويكوِّن منهم جيشا لحرب الموحدين واسترداد ملك المرابطين، ووجد قراقوش يحاول دفع هؤلاء الأعراب للانتقاض على الموحدين، فوضع يده فى يد قراقوش مددا متطاولة مثيرين للقلاقل والاضطرابات فى المنطقة، وحين استولى الموحدون من قراقوش على قابس أعلن طاعته لهم مداراة ومكرا، ودار العام ففتك الموحدون بعلى بن غانية سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م وكان يرافقه أخوه يحيى، فخلفه فى الشغب على الموحدين، واشتبك مع جنودهم فى معارك مختلفة، واشترك مع قراقوش فى الاستيلاء على طرابلس سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٢م واختار يحيى بن غانية واليا عليها تاشفين بن غازى، ووالته قابس وصفاقس، وفسد ما بينه وبين قراقوش، فحاصره فى ودان جنوبى مدينة سرت حتى نفد زاده واضطر إلى الاستسلام وقتله وصلبه سنة ٦٠٩ واسترد الموحدون طرابلس سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م وأداروا مع يحيى بن غانية بالقرب من تونس سنة ٦٢١ معركة حامية الوطيس هزم فيها هزيمة ساحقة، وفر إلى الجنوب هاربا، وظل يتنقل بين الأعراب إلى أن توفى سنة ٦٣١ للهجرة. وظلت طرابلس - منذ استولى عليها الموحدون - تتبع حاكم تونس - وتطورت الظروف سريعا وأسس بتونس أبو زكريا الحفصى الدولة الحفصية سنة ٦٢٥، وأخذ فى العمل على تأسيسها وعاشت قرونا متوالية حتى القرن العاشر الهجرى. وعاشت طرابلس فى إطار سيادتها وأخذت تسترد نشاطها الزراعى والتجارى، واشتهر من قضاتها الطرابلسيين فى أوائل هذا العصر أبو موسى عمران بن معمر الهوارى، وظل يقوم على القضاء العادل البصير بها حتى سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م وطارت شهرة أحكامه وفتاويه إلى تونس وسلطانها المستنصر الحفصى فاستدعاه وأسند إليه القضاء فى عاصمته: تونس. وولى إفريقية التونسية بعد المستنصر ابنه الواثق يحيى سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٥م وخُلع سنة ٦٧٨للهجرة وتولاها عمه إبراهيم. وظهر - حينئذ - دعىٌّ من بِجاية يسمى ابن أبى عمارة أحمد بن مرزوق طمح إلى الملك فترك مهنة الحياكة التى كان يمتهنها فى بلدته، ونزح إلى سجلماسة، وادَّعى فى الأعراب هناك أنه المهدى المنتظر، وبايعه بعضهم، غير أنه شعر أن دعوته لن تنجح هناك، فتركهم، ونزل بين أعراب طرابلس، وادَّعى أنه ابن الخليفة الواثق المخلوع وأن اسمه الفضل وبايعه كثيرون من بنى سليم على نصرته، ودانت له طرابلس وبعض البلدان فى غربى ليبيا وشرقى تونس وتقدم فاستولى على تونس سنة ٦٨١ وولى على طرابلس مرغم بن صابر من بنى سليم، وأسره الصقليون فى بعض غاراتهم سنة ٦٨٢ للهجرة، وباعوه لملك أراجون البرشلونى.

ولم يلبث الخليفة الحفصى عمر بن أبي زكريا أن استرد ملك آبائه الحفصيين سنة ٦٨٣ وأرسل إليه والى طرابلس محمد بن عيسى الهنتانى رسالة مذعنا فيها لطاعته. وفى سنة ٦٨٨ أرسل ملك أراجون سنة ٦٨٨ مع أسيره مرغم بن صابر حملة إلى طرابلس يريد الاستيلاء عليها وباءت بالفشل الذريع. ونزل بطرابلس سنة ٧٠٨ أمير حفصى فى أثناء توجهه إلى أداء فريضة الحج هو أبو يحيى زكريا بن محمد اللحيانى وفى عودته سنة ٧٠٩ أقام بها فترة جعلت أهلها يجلّونه ويقدرونه. وكان الحكم فى إفريقية التونسية قد ساء سوءًا شديدًا، إذ تولاه خليفتان اختلّت الدولة فى عهدهما اختلالا سيئًا. فتحدث كثيرون من أهل طرابلس إلى الأمير المذكور محرِّضين له على تولِّى مقاليد الخلافة بتونس حتى يصلح شئون الحكم بها وتعهدوا له بتأييده ونصرته، ونجحت الخطة، واحتل اللحيانى تونس سنة ٧١١هـ/١٣١١م وأخذت له فيها البيعة، وظل يلى شئونها ويصرف أمورها تصريفا حسنا لمدة ست سنوات، ونهض فى آخرها لمقاومته أمير قسنطينة بالجزائر وكأنما داخله اليأس من الانتصار عليه، فلجأ إلى طرابلس آملا أن يعود منها بجموع تنصره، وترك الحكم فى تونس لابنه محمد الملقب بأبى ضربة، وأخذ يكوِّن فى طرابلس جيشا فتح به كثيرا من البلدان الليبية، غير أن أمير قسنطينة تغلب على ابنه أبي ضرية، وشعر أن وضعه فى طرابلس لم يعد آمنا، فرحل من طرابلس بحرا إلى الإسكندرية وحلّ بها ضيفا على السلطان قلاوون إلى أن توفِّى، أما طرابلس فقد ترك الحكم فيها إلى صهره محمد بن عمران، وظل يلى شئونها إلى أن ثار عليه أهلها سنة ٧٢٤هـ/١٣٢٣م واختاروا بعده لحكمهم شخصا من أسرة طرابلسية نابهة هو ثابت بن محمد بن ثابت بن عمار، وبه تأسست دولة بنى عمار فى طرابلس من سنة ٧٢٤ للهجرة إلى سنة ٨٠٣ وظل الأميران الأولان من هذه الأسرة يسوسان طرابلس وإقليمها سياسة حسنة، ويقول ابن خلدون إن تجارا من جنوة كانوا يترددون على طرابلس ولاحظوا ضعف تحصيناتها لعهد أميرها الثالث من بنى عمار ثابت بن محمد بن ثابت وأغراهم ذلك بمهاجمتها، وتجمع أسطولهم فى مينائها، وانتشروا فى أسواقها يتظاهرون بأن غرضهم التجارة ومبادلة السلع وفى الليل أو فى إحدى الليالى سنة ٧٥٦هـ/١٣٥٥م تسلقوا أسوار طرابلس واستولوا عليها فى غفلة من أهلها، وفرَّ ثابت أو حاول الفرار فى أثناء حصارهم لقصره بها، ورآه بعض الأعراب ممن يعادى قبيلته فقتله. وظل الجنويون بطرابلس نحو عام، ودفعت الحمية لأهلها وللدين الحنيف أباالعباس أحمدبن مكى حاكم قابس فى إفريقية التونسية إلى أن يفاوض قائد البحرية الجنوية لإخلائها والنزوح عنها فطلب لقاء ذلك خمسين ألف دينار ذهبا، فجمع ما عنده وأكمل ما بقى من أهل قابس والحامَّة وبلاد الجريد، دفعوها له متحمسين، وأداها ابن مكى، وبارح الجنويون طرابلس بعد أن تركوا لهم فيها قنصلية ومستودعًا لبيع سلعهم. وتولى شئونها ابن مكى حتى وفاته سنة ٧٦٦هـ/١٣٦٤م وخلفه عليها ابنه عبدالرحمن. وكان أحد أبناء أسرة بنى عمار: أبو بكر بن محمد بن ثابت فرَّ عنها - حين نزلها الجنويون -

إلى الإسكندرية، فعاد إليها سنة ٧٧٢هـ/١٣٧٠م في أسطول، فحاصرها، وأعانه أهلها في استيلائه عليها، حتى يتخلصوا من عبد الرحمن لسوء سيرته. ولما استولى عليها أبو بكر استسلم له عبد الرحمن، فأرسله مكرّما إلى بلدة قومه قابس، وظل أبوبكر يدبّر شئون طرابلس عشرين سنة. وخلفه عليها أخوه عمران حتى سنة ٨٠٠هـ/١٣٩٧م وأخذ أبناء الأسرة يحملون السلاح بعضهم ضد بعض، وحاول أحدهم وهو على بن عمار الاستعانة بملك صقلية المسيحى مما جعل السلطان الحفصى أبا فارس عبدالعزيز يذهب إلى طرابلس بنفسه سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠م ويعزل عنها آخر ولاتها من بنى عمار: يحيى بن أبى بكر ويعيدها إلى حظيرة الدولة الحفصية ويولى عليها أحد قواده، وبذلك انتهت دولة بنى عمار فى طرابلس. وظل الولاة الحفصيون يلون شئونها فى القرن التاسع الهجرى، وكانوا يوجهون إليها أحيانا بعض حملات، وآخرها حملة أبى عمرو عثمان الحفصى سنة ٨٦٣ وبلغ فيها تاجوراء شرقى طرابلس. وحين أخذت الدولة الحفصية فى الضعف أخذت طرابلس تحكم حكما ذاتيا بمجلس شورى يرأسه أحد الشيوخ النابهين، وكان آخرهم الشيخ عبد الله الذى رأس مجلسها وحكمها منذ سنة ٨٩٨هـ/١٤٩٢م إلى أن هاجمها الأسطول الإسبانى سنة ٩١٦هـ/١٥١٠م.

وكان يتولّى إسبانيا فرديناند الكاثوليكى الذى استولى على غرناطة من يد أبى عبدالله الصغير وأخرج العرب من الأندلس وقد سوّل له شيطانه أن يستأنف الحرب الصليبية بتعقبهم فى الساحل الإفريقى الذى نزلوا فيه، ولم يكن للدولة الزيانية فى الجزائر ولا للدولة الحفصية فى تونس وطرابلس أسطول يحمى الساحل الإفريقى، واستطاع أسطول فرديناند الاستيلاء على المرسى الكبير فى الجزائر سنة ٩١٠هـ/١٥٠٥م وعلى وهران سنة ٩١٤هـ/١٥٠٨م. وفى سنة ٩١٦هـ/١٥١٠م هاجم الأسطول الإسبانى طرابلس، واحتلها بعد مقاومة عنيفة من أبنائها استشهد فيها منهم كثيرون، وخرج منها أكثر سكانها إلى تاجوراء واتخذوها مركزا لمقاومة العدو الصليبى، وبذلك توقف كل ما كان بطرابلس من نشاط وتعطلت حركتها التجارية بينها وبين الإسكندرية والشرق وأيضا بينها وبين صقلية والبندقية وجنوة فى الغرب وساءت أحوال أهلها الاقتصادية، وفى سنة ٩٣٦هـ/١٥٣٠م سلم المدينة شارل الخامس ملك إسبانيا إلى فرسان مالطة المعروفين باسم القديس يوحنا، وظلت الأحوال فى طرابلس تزداد سوءًا على سوء، وظل كثير من سكانها يغادرونها إلى مدينة تاجوراء مركز المقاومة.

٥

فى العهد العثمانى

كانت الدولة العثمانية بالقرن العاشر الهجرى فى أوج قوتها، فانتخب أهل تاجوراء وفدًا ذهب إلى إستانبول مستغيثا بتلك الدولة طالبا منها حمايتها لطرابلس وإقليمها وطرد فرسان مالطة من ديارها، ولقيهم السلطان العثمانى: سليمان لقاء كريما، وأمر فورًا الأغا مرادا بمرافقتهم للتعرف على أحوال المنطقة ونزل تاجوراء سنة ٩٥٧هـ/١٥٥٠م وأنشأ بها جامعًا ومدرسة، وأرسل إلى السلطان بالأحوال فى المنطقة، فأمر سنان باشا قائد الأسطول العثمانى أن ينسق كافة العمليات الحربية مع مراد أغا لإخراج فرسان مالطة من طرابلس، فأمر سنان باشا درغوت الذى كان مرابطا - حينئذ - ببعض قطع من الأسطول أمام الجزائر بمهاجمته لأولئك الفرسان بطرابلس وطردهم منها، وصدع توا لأمره وهاجم طرابلس، واستسلم له فرسان مالطة سريعا سنة ٩٥٨هـ/١٥٥١م. وأصبحت طرابلس ومنطقتها تابعة للدولة العثمانية، وكان مراد أغا أول من شغل منصب الوالى التركى بها، فعمل توا على ترميم القلعة وتعمير المدينة، وحوَّل الكنيسة التى بناها فرسان مالطة بالقلعة إلى مسجد، وأخذت الحياة العامة فى طرابلس تنشط ونشطت معها التجارة، وسرعان ما أصبحت طرابلس قاعدة مهمة من قواعد البحرية العثمانية فى البحر المتوسط. وأدركته الشيخوخة سريعا، فرأى ترك طرابلس سنة ٩٦٤هـ/١٥٥٦م إلى تاجوراء، لتمضية بقية حياته، وخلفه على البلاد من قِبَل الدولة العثمانية درغوت، وكان قائدًا بحريًا عظيمًا، فاتخذ طرابلس قاعدة كبرى لعملياته البحرية الحربية ضد قراصنة وأساطيل الأوربيين من إسبان وغير إسبان، وكثرت بها الغنائم والأسرى الأوربيون، وبذلك أعاد إلى الأذهان سيرة خير الدين (بربروس) فى الساحل الجزائرى واتخاذه الجزائر وغيرها من مدن هذا الساحل قاعدة لأعماله البحرية العظيمة التى ظلت ترتعد لها فرائص الأوربيين، وبالمثل أنزل بهم الفزع والرعب درغوت بسفنه البحرية وجنوده من الترك والطرابلسيين المغاوير. وعُنى عناية واسعة بتحصين المدينة فأنشأ بها أبراجا مختلفة وقصرًا له ودارًا للبارود وأذِنَ للأسرى المسيحيين بإنشاء مقبرة خاصة بهم مما يدل على كثرتهم فى أيامه بسبب حملات أسطوله البحرية وجهاد جنوده البحرى فى سبيل الإسلام وحماية ديار أبنائه المغاربة. وأنشأ بطرابلس جامعًا عظيمًا ضم رفاته حين توفى سنة ٩٧٠هـ/١٥٦٢م ووليها بعده علج على ساعده الأيمن فى القيادة البحرية لفترة محدودة، وخلفه عليها جعفر باشا وولاة آخرون منهم مصطفى باشا وفى عهده استولى ثائر من أهل البلاد هو يحيى الجبالى سنة ٩٩٢هـ/١٥٨٤م على كل ما سوى

طرابلس من المدن والأوطان وجبى خراجها، وزحف إلى المدينة وحاصرها، واستدعت الدولة العثمانية الوالى سنة ٩٩٧هـ/١٥٨٨م لتهدئة الثائرين، وأرسلت أسطولا لفك الحصار عن طرابلس وتعقب الثائر، وسرعان ما فُكَّ الحصار وهُزم يحيى الجبالى وتوغّل فى الصحراء مع الأعراب، وقُتل، وانتهت ثورته.

وكانت الدولة العثمانية ترسل مع ولاتها فى الولايات المختلفة التابعة لها حاميات عسكرية من جنودها الإنكشارية، وكثرتهم كانت من أطفال البلاد الأوربية النصرانية التى كانت تحاربها أو الولايات التى كانت تدين لها بالولاء، أو من أبناء الشعب الذين رغبوا فى الانضمام إلى هؤلاء الجنود، وكانت تربِّيهم تربية عسكرية إسلامية، وتؤلف منهم عددًا ضخمًا فى جيوشها وترسل منهم مع ولاتها حرسًا أو حامية كبيرة، وكانت الحامية تنقسم إلى فرق، ولكل فرقة رئيس منها يلقَّب بالداى بمعنى ملازم. وما نصل إلى القرن الحادى عشر الهجرى حتى تبرز نزعة قوية فى صفوف حاميات الإنكشارية بالولايات العثمانية المختلفة للاستقلال بها وأن يتولاها داياتهم، وفى سنة ١٠٢٠هـ/١٦١١م نلتقى بصفر أول داى يحكم طرابلس ويدبِّر شئونها، وعُنِى بالحرب البحرية أو الجهاد البحرى الطرابلسى مما جعل الأسرى المسيحيين يكثرون بطرابلس فى أيامه. وحكم طرابلس بعده الداى مصطفى الشريف سنة ١٠٣٤هـ/١٦٢٤م وفى عهده نشطت البحرية، وعنى بتحسين بعض الحصون، وتولَّى طرابلس بعده الداى رمضان، وكان ضعيف الشخصية، وتخلَّى عن الحكم سريعا إلى صهره محمد الساقزلى (١٠٤٣-١٠٥٩هـ/١٦٣٣-١٦٤٩م) وهو ثالث ولاة طرابلس العثمانيين العظام بعد مراد أغا ودرغوت، وكانت له مثل درغوت شهرة بين أبطال البحر العثمانية، وكان الأسطول الطرابلسى فى عهده يتكوَّن من ٢٤ قطعة، وكانت برقة قد دخلت فى طاعة العثمانيين منذ استيلائهم على مصر سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م وضمَّها محمد الساقزلى إلى ولايته فى طرابلس ونشطت التجارة وحركة العمران فى عهده نشاطا عظيما. وتوفى سنة ١٠٥٩ للهجرة وخلفه عثمان الساقزلى وهو مثل محمد الساقزلى من أهم ولاة ليبيا، وقد طال حكمه لها إلى نحو ثلاث وعشرين سنة، وازدهرت التجارة فى عهده ازدهارًا عظيمًا، كما ازدهر النشاط البحرى، وزار طرابلس لأول عهده العياشى فى رحلته المشهورة إلى الحج، وفيها يشيد بطرابلس ومبانيها وأهلها وكرمهم الفياض وواليها عثمان الساقزلى ويقول إن له نكاية فى العدو، وله مراكب قلَّ نظيرها معدَّة للجهاد، ويذكر أنه رأى ستة من هذه المراكب أو السفن وهى تخرج لجهاد أعداء الدين، وكانت تحمل نحو ألفى مقاتل خرجت - كما يقول - مجتمعة إرهابا للعدو حين يراها. وكانت تجلب كثيرًا من الغنائم والأسرى مما جعل عثمان الساقزلى يبنى لهم سجنا كبيرًا كان به نحو تسعين غرفة أو زنزانة بجانب سجنى الداى صفر ومحمد الساقزلى، وجعل بعض القاعات فى قصر درغوت

مستشفى خاصا بالأسرى، وخصَّص لرعايتهم طائفة من الأطباء، وألحق بالمستشفى صيدلية لتحضير ما يلزمهم من الأدوية. وأنشأ لنفسه قصرًا بديعًا، كما أنشأ مدرسة قرب باب البحر لا تزال قائمة إلى اليوم، وبنى فى سنة ١٠٦٥ هـ/١٦٥٤م فندقًا كبيرًا كان به مائة غرفة كما كان به بئر فى ساحته، وعُنى بأسواق البلدة، وكان عهده عهد أمن واستقرار وعمران مزدهر إلى أن توفى سنة ١٠٨٢ هـ/١٦٧١م. وتعاقب دايات بعده ضعاف الشخصية على حكم ليبيا وكثرت تهديدات الأساطيل الأوربية إنجليزية وفرنسية، وكانوا يشفعون التهديد بقصف طرابلس حتى تضطر إلى مفاوضتهم وإرجاع أسراهم إليهم، وكانت طرابلس تردهم إليهم طلبا من داياتها للمهادنة ورغبة فى السلام. ومن خير ولاتها فى أوائل القرن الثانى عشر الهجرى محمد الإمام الذى أقام علاقات حسنة مع بعض الدول الأوربية وخاصة فرنسا، وبنى له مسجدًا بسوق الترك وجدَّد بناء هذا السوق وسوق الحرير. وسمح الوالى بعده خليل الأرناءوطى (١٠٩٠-١٠٩٦ هـ) لإسبانيا بإقامة قنصلية لها فى طرابلس، وكان ظلوما غشوما واتخذ بطانة له من النصارى ضعف دين وسوء سياسة.

وتردَّى طرابلس وليبيا فى هاوية من الصراعات والانقسامات، وينقذهما منها إجماع رأى الإنكشارية على تولى أحمد القرمانلى طرابلس وليبيا سنة ١١٢٣هـ/١٧١١م وكان شخصية قوية، فأخذ يعمل على استقلاله بليبيا وطرابلس وجعلها وراثية فى أبنائه، وتلقَّب بأمير المؤمنين، وأخذ يعنى بشئون الدفاع عن طرابلس وتجديد أسوارها وأبراجها وتزويد الحصون بمدافع من عيارات كبيرة، وبنى مسجدًا كبيرًا وألحق به مدرسة، كما بنى بعض قصور له، منها قصر للَّازينوبا الذى نفَّذ فيه مذبحته للإنكشارية، إذ دعاهم إليه، وقد أكمن لهم فى سقوفه ودهاليزه من اغتالوهم حتى يستطيع أن يحكم البلاد حكما نظيفا من شغبهم، وكأنما حاكاه محمد على - فيما بعد - حين اغتال المماليك بالقلعة. وكان حكمه حكمًا عادلًا رشيدًا، وامتد إلى نحو خمسة وثلاثين عاما، مما أعطاه الفرصة لينهض بأعمال كثيرة، من ذلك إجراؤه الماء لطرابلس على حنايا ليسقى به أهلها وينتفعوا به، ومنها بناء سوق فسيح الفناء وبناء بيوت ومقاصير أنيقة فى القلعة، ومنها بناء فسقية بقرب البحر لينهل منها أهل السفن من أسطوله وغيرهم، وفى سنة ١١٤١ هـ/١٧٢٨م اندفع إلى طرابلس أسطول فرنسى فى مظاهرة بحرية ليرغم القرمانلى على رد بعض غنائم لأسطوله ورد الحرية إلى الأسرى الفرنسيين ودفع بعض التعويضات، فرفض مطالبه بعنف، وأخذ الأسطول الفرنسى يقذف طرابلس بالقنابل قذفا شديدًا لمدة ثلاثة أيام والقرمانلى مصر على موقفه ونفدت ذخائر الأسطول الفرنسى فانسحب إلى البحر ولم يعد ثانية إلى المياه الطرابلسية. وحمد له الطرابلسيون هذا الموقف الشجاع. وانتعشت الحركة التجارية لعهده انتعاشًا كبيرًا إلى أن توفى سنة ١١٥٨هـ/١٧٤٥م وخلفه ابنه محمد حتى سنة

١١٦٧هـ/١٧٥٣م وكان عهده عهد أمن ورخاء واستقرار كعهد أبيه وخلفه ابنه على الذى ظل بيده صولجان الحكم فى طرابلس وليبيا لنحو أربعين عاما إذ توفى سنة ١٢٠٨هـ/١٧٩٣م وتميزت الفترة الأولى من عهده بالأمن والرخاء ونشاط الزراعة والتجارة، حتى إذا كانت سنة ١١٩٩هـ/١٧٨٤م حدثت كارثة خطيرة عصفت بطرابلس وإقليمها: كارثة مجاعة كبرى ظلت عامين وانتشر معها وباء الطاعون، وانهار لذلك اقتصاد طرابلس فى العهد الأخير لعلى القرمانلى، وظلت لهذا الانهيار بعده آثار غير قليلة، وفى عهده أقامت دول البحر المتوسط الأوربية قنصليات لها فى طرابلس مع مصادقته على ما مُنحته من امتيازات أجنبية، مما يدل على حمقه وهوجه وقصر نظره. وبعد وفاته حدثت انقسامات بين أبنائه على الحكم، وقتل ابنه يوسف أخاه الحسن، وشق عصا الطاعة عليه أخوه أحمد، وانتهز الفرصة مغامر عثمانى هو على برغل كان يقود بعض سفن صغيرة مسلحة فى البحر المتوسط، فنزل طرابلس واستولى عليها سنة ١٢٠٨هـ/١٧٩٣م دون مقاومة تذكر، وغضب لذلك باى تونس، إذ استغاثت به الأسرة القرمانلية، وردت إليها سنة ١٢١٠هـ/١٧٩٥م وتولًّى مقاليد الحكم بطرابلس وليبيا يوسف القرمانلى، ومهما كانت الطرق التى سلكها مع إخوته للاستيلاء على الحكم فإنه كان حاكمًا ممتازًا، ونعمت البلاد فى عهده بالأمن والرخاء والانتعاش التجارى ونشاط العلاقات بين طرابلس ومدن الشواطئ والانفتاح على الغرب والتعرف على مدنيته، مما أعدَّها لاستقبال العصر الحديث.

وكانت الأقطار العربية قد أخذت تستعد - منذ فاتحة القرن التاسع عشر الميلادى - لاستقبال هذا العصر عقب نزول الحملة الفرنسية مصر واندحارها بفضل مقاومة الشعب المصرى. وقد أيقظ هذا الحدث الخطير البلاد العربية جميعا من سبات عميق كان قد استغرقها منذ احتلال العثمانيين لأراضيها فى القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى، وأخذت كل منها تستشعر شخصيتها وتحاول انبعاثها انبعاثا جديدًا بصور تختلف سرعتها باختلاف ظروفها الخاصة، وكانت مصر أسرعها إلى هذا الانبعاث، وهو انبعاث كان يقوم فيها - وفى جميع الأقطار العربية - على ركنين: ركن التمسك بالتراث الإسلامى العربى على نحو ما يمثله الأزهر. وتمخض هذا التمسك فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر عن ظهور الشيخ محمد عبده ودعوته الإصلاحية الدينية الكبيرة، والركن الثانى ركن التعرف على ما سبقت إليه أوربا فى ميادين العلم والأدب والحضارة، مما جعل مصر تسبق شقيقاتها العربيات فى إرسال البعوث إلى الغرب وإنشاء المدارس العلمية المختلفة فى الطب وغير الطب لعهد محمد على.

وفى رأينا أن فجر العصر الحديث بليبيا أخذ ينشر أضواءه بطرابلس فيها لعهد يوسف القرمانلى وإن لم تكن أضواء مكتسحة، ولكنها أضواء على كل حال، إذ أخذ يوسف يحاول

انفتاح طرابلس على الغرب، عن طريق عنايته بأسطوله وما كان يجنى منه من اتفاقيات الحماية الكثيرة لسفن الدول الأوربية فى البحر المتوسط. وكانت الدولة تأخذ من ذلك إتاوات واسعة تفرضها على تلك الدول، وكان من بينها السويد، فطالبها يوسف بمائة ألف فرنك هدية وبدفع إتاوة سنوية قدرها ثمانية آلاف فرنك. وامتنع قنصلها فى طرابلس من أداء ما طلبه يوسف، فأمر بإغلاق قنصليته، واستولى أسطوله على بعض السفن السويدية فى البحر المتوسط، ووسَّطت السويد نابليون عند يوسف، فوافق على أن تخفَّض الهدية إلى ثمانين ألف فرنك، وتظل الإتاوة البحرية السنوية كما هى: ثمانية آلاف فرنك، وأعاد يوسف إلى السويد سفنها الأسيرة. ورأى فى سنة ١٢١٧هـ/١٨٠٢م أن يفرض على السفن الأمريكية التى تمخر عباب البحر المتوسط إتاوة سنوية على شاكلة ما يفرض على السفن الأوربية، وأبتْ تلك السفن أن تدفع شيئًا، فصادرها، وحاصر الأسطول الأمريكى طرابلس عشرين يوما، وهزمه الأسطول الطرابلسى، فانسحب إلى مالطة - ووسَّط الأمريكيون القنصل الإنجليزى ووالى الجزائر العثمانى، وقَبِلَ يوسف وساطتهما، وردَّ إلى الأمريكيين سفنهم.

وواضح أن طرابلس احتلَّت لعهد يوسف القرمانلى مكانة كبيرة فى العلاقات الدولية لم تحظ بها فى أى عهد سابق، لا بما كانت تفرضه من إتاوات سنوية على سفن الدول الأوربية فحسب، بل أيضا بكثرة الوفود الأوربية التى كانت تقدم على طرابلس للتفاوض والتصالح أو للتهديد والوعيد أو لدفع الإتاوات المفروضة. وكل ذلك كان بشارة العصر الحديث فى ليبيا واستشعار طرابلس لشخصيتها العربية بقوة، غير أن المسيحيين الأوربيين كانوا لهذه النهضة بالمرصاد، فتجمعوا فى مؤتمر إكس لاشابيل سنة ١٢٣٣هـ/١٨١٨م وقرروا تفويض الدول الأوربية منع الإتاوات البحرية لمدن الشمال الإفريقى: طرابلس وغيرها وما يتصل بتلك الإتاوات من جهاد رجال البحرية الإفريقية فى البحر المتوسط، وسموه قرصنة. وأخذت طرابلس تشهد مظاهرات واستعراضات لأساطيل إنجلترا ودول البحر المتوسط، وأخذت تلك الأساطيل ترغم يوسف القرمانلى على تحرير الأسرى المسيحيين والكف عن الغارات البحرية، ففقدت طرابلس موردًا كبيرًا من المال كانت تعتمد عليه فى إدارة البلاد ونهضتها، وأخذ يوسف القرمانلى يشعر بالضيق، ويزداد ضيقه سنة بعد أخرى لتراكم الديون على الدولة، مما دفعه فى النهاية إلى أن يتنازل لابنه على القرمانلى عن الحكم سنة ١٢٤٨هـ/١٨٣٢م. ولم تكد تستدير ثلاثة أعوام حتى استردت الدولة العثمانية طرابلس وليبيا، إذ أرسلت إليهما حاكمًا جديدًا استسلم له على القرمانلى، وبذلك انتهى عهد الأسرة القرمانلية فى طرابلس وليبيا، وتعاقب عليهما ولاة عثمانيون طوال القرن التاسع عشر، وأخذ كثيرون منهم يستجيبون لمقتضيات العصر الحديث من التطور بطرابلس وليبيا وبأسلوب الحكم.

وظلت صور التعليم القديم فى الكتاتيب والزوايا وحلقات المساجد قائمة، وعُنى العثمانيون بإنشاء مدارس تركية فى مدن طرابلس والخمس وبنغازى ودرنة، وكان يراد بها إلى تخريج موظفى الدولة، وألم الطلاب فيها ببعض العلوم العصرية مما يصلهم بالحياة العصرية بعض الاتصال، وأخذت إيطاليا تنشئ مدارس لها فى طرابلس والخمس تصل من يتعلمون بها باللغة والثقافة الإيطاليتين إعدادًا خبيثًا لما كانت تنتويه من احتلال ليبيا.وكان القرن التاسع عشر فى ليبيا يحمل كل ذلك وأهم منه الزوايا السنوسية التى بدأ إنشاءها محمد بن على السنوسى الجزائرى الأصل والمولد والأسرة وكان قد طوف بالبلاد المغربية وتغلغل فى الصحراء الجنوبية لتلك البلاد حتى السودان، وشاهد زوايا المتصوفة المنبثة فى تلك الأنحاء، وأدّى فريضة الحج سنة ١٢٤١هـ/١٨٢٥م وظل بمكة خمسة عشر عاما عرف فى أثنائها الدعوة الوهابية وما تدعو إليه من الرجوع إلى مصادر الإسلام الأولى من القرآن الكريم والحديث النبوى، فرأى أن يدعو نفس الدعوة، وأن يتخذ لدعوته نظام الزوايا المعروف فى البلاد المغربية، ولكن أى بلاد المغرب يختاره لزواياه. إن الطريقة الشاذلية تعم المغرب الأقصى وتونس وتعم الجزائر طريقة أبى مدين، وتزاحم الطريقتين فى تلك البلدان طرق أخرى بينما ليبيا - وخاصة برقة فيها - لاتشيع بها طريقة صوفية معينة، وكان قد زار أنحاءها البدوية ورأى أهلها غارقين فى دياجير الجهالة بمبادئ الإسلام وتعاليمه وهم لذلك فى حاجة إلى داع ودعوة تهديهم إلى سبيل الرشاد. ونزل برقة، وأقام لنفسه الزاوية البيضاء فى الجبل الأخضر بها، ورأى الناس يستجيبون لدعوته، فعاد إلى مكة وكان قد ترك بها أهله، ثم رجع إلى برقة ونقل مركز دعوته من الزاوية البيضاء إلى واحة جغبوب،وأخذت الدعوة السنوسية تنتشر فى عهده وعهد ابنه محمد المهدى، حتى أصبح لها نحو مائة زاوية فى بوادى برقة وحضرها فى بنغازى ودرنة. وبذلك عمت اليقظة الإسلامية العربية التى كانت أضواؤها أخذت تتفلّت إلى طرابلس وإقليمها فى عهد يوسف القرمانلى إذ أشاعتها الدعوة السنوسية فى بوادى برقة وحضرها. ولعل فى ذلك كله مايوضح كيف كان القرن التاسع عشر مبدأ تاريخ ليبيا الحديث وكل مايتصل به من أدب وغير أدب.

الفصل الثانى

المجتمع الليبى[1]

١

عناصر السكان

سكان ليبيا – منذ الأزمان السحيقة – سلالات عريقة من البربر الذين استوطنوا قديما الشمال الإفريقى من مصر إلى المحيط الأطلسى، واختلف المؤرخون فى بيان أصل منشئهم، فمن قائل إن جدودهم هاجروا إلى بلاد المغرب من فلسطين، ومن قائل إنهم عرب هاجروا من جنوب الجزيرة: من حمير، ويقال بل إن أصلهم من عرب الشمال، ويقول الطبرى إنهم أخلاط من كنعان والعماليق وغيرهم، ويقول ابن خلدون إنهم من ولد كنعان بن حام. وعلى هذا النحو يضطرب المؤرخون فى أصلهم وهل هم من العرب الساميين أو هم حاميون أو هم من الفلسطينيين الذين أخرجوا قديما من ديارهم. ومعروف أن قبائل منهم حين اعتنقت الدين الحنيف وتعرَّبت انتسبت إلى حمير أو إلى بعض القبائل العدنانية، وهو إحساس عميق بأنهم يرجعون إلى أصول عربية.

وليس هؤلاء السكان للشمال الإفريقى هم الذين سموا أنفسهم بربرًا، إنما سماهم بذلك الرومان أخذًا من الكلمة الإغريقية: «بربروس» ومعناها: الأجنبى الذى يتكلم لغة غير

---

(١) انظر فى المجتمع الليبى وسكانه ومعيشته كتب التاريخ قديما وحديثا وخاصة تاريخ ابن خلدون ووصف إفريقيا للحسن الوزان (طبع جامعة محمد ابن سعود) وتاريخ المغرب الكبير لدبوز، وراجع كتب الرحلات مثل رحلة التجانى (طبع تونس) ورحلة العبدرى (طبع الرباط) وصورة الأرض لابن حوقل والمسالك والممالك للبكرى وتراجم المالكى فى رياض النفوس ومعالم الإيمان لابن الدباغ وابن ناجى والبيان المغرب لابن عذارى وكتاب السير للشماخى وليبيا فى كتب الجغرافيا والرحلات لإحسان عباس ومحمد يوسف نجم وتاريخ طرابلس الغرب لمحمود ناجى (طبع بيروت) وتاريخ ليبيا لإحسان عباس والإباضية فى موكب التاريخ لمعمر ونفحات النسرين والمنهل العذب لأحمد النائب الأنصارى وأعلام ليبيا للزاوى والنشاط الثقافى لأحمد مختار عمر وليبيا فى كتب التاريخ والسير لإحسان عباس ومحمد يوسف نجم.

مفهومة، إذ كان لسان المغاربة بالقياس إلى الرومان أصواتا مبهمة لا يفهمونها. وحين فتح العرب البلاد المغربية وجدوا هذا الاسم «البربر» يطلق على سكانها، فاستخدموه، ومن الغريب أن فعل بربر فى العربية بمعنى قريب من المعنى الإغريقى، إذ يراد به التمتمة فى الكلام بحيث لا يفهم.

ويقسِّم النسَّابون هذه الأمة الضخمة من حيث أسلوب الحياة إلى حَضَرٍ وبدو رحَّل، ويسمون الأولين البرانس وهم سكان المدن الشمالية مثل هوارة ونفزاوة فى ليبيا وتونس وكتامة وصنهاجة فى الجزائر ومصمودة فى المغرب الأقصى. ويسمون الثانين الرحَّل باسم البُتْر وهم سكان الهضاب والصحارى مثل لُواته فى برقة ونفوسة فى طرابلس. والمظنون أن أهل ليبيا كانوا يعيشون أولا على الترحال وراء المراعى، حتى قدم عليهم الفينيقيون فى طرابلس واليونان فى برقة، فأنشأوا المدن وأخذ الليبيون يستقرون فيها وفيما وراءها من السهول والوديان. ونزل القرطاجيون مع الفينيقيين فى طرابلس، واكتسح الرومان طرابلس وبرقة جميعًا. وبذلك تكاثرت العناصر التى نزلت ليبيا قديما من الفينيقيين والقرطاجيين واليونان والرومان ونزلتها - وظلت تنزلها - سلالات من الزنوج منذ زمن الفينيقيين بعامل الاتجار فى الرقيق ومن أجل الانتفاع بهم فى المزارع والمراعى، وكانوا يكثرون فى فزّان. ونزلت ليبيا فى زمن القرطاجيين - منذ القرن الثالث قبل الميلاد - جماعات من اليهود، وبالمثل بعد تخريب تيتوس لمعبد بيت المقدس سنة ٧٠ للميلاد. ونزلتها فى القرن الخامس الميلادى جماعات من الواندال الألمان. ونزلها لخدمة الكنائس المسيحية بها بعض رهبان القبط المصريين. ومعنى ذلك أن سلالات ليبيا الأصيلة من البربر وفدت عليها عناصر جنسية أجنبية كثيرة من قارات العالم الثلاث القديمة: من آسيا ممثلة فى الفينيقيين والقرطاجيين واليهود، ومن أوربا ممثلة فى الإغريق والرومان والواندال، ومن إفريقيا ممثلة فى الزنوج والقبط المصريين. وهذا كله قبل الفتح العربى، وأخذ ينزلها معه وبعده مزيد من الأجناس الوافدة وخاصة من العرب وجيوشهم الباسلة ومن كان بها من الفرس والعراق والشام ومصر. ولا ننسى هجرة العرب الكبرى إلى ليبيا وإفريقيا فى القرن الخامس الهجرى وقد استوطن بنو سليم برقة. ومنذ القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) أخذ ينزلها أندلسيون كثيرون فى أثناء سقوط مدنهم فى حجر الإسبان، وتكاثر نزولهم فى أوائل القرن السابع عشر الميلادى حين أخرج الإسبان من بقى بديارهم من المسلمين. ونزلت طرابلس بعض أسر إسبانية حين احتلها الإسبان سنة ٩١٦هـ/١٥١٠م وبالمثل نزلتها أسر مالطية كثيرة حين احتلها بعدهم فرسان مالطة. وفى العهد العثمانى الذى ظل حقبًا متطاولة نزل طرابلس وليبيا كثير من الترك والأسر التركية بجانب من نزلوها من الإنكشارية وجنود الترك سوى عناصر الأكراد والشركس.

وقد اندمج كثير من هذه العناصر قديما فى البربر وحديثا أو بعد الفتح العربى فيهم وفى العرب فقد ظلوا دائما العناصر الأساسية فى ليبيا وأكثرها نبلا واحتراما وشعورًا بالشخصية، حتى لنستطيع أن تقول بصفة عامة، رغم كل العناصر التى نزلت ليبيا،إنها تكوِّن وحدة كبيرة من عرب وبربر، بل لقد اندمج بعضهم فى بعض بحيث لا تستطيع أن تميز الوجه العربى من الوجه البربرى، بل لقد أصبحت الوجوه جميعًا ليبية لا فرق بين بربرى وغير بربرى.

٢

المعيشة

مرَّ بنا أن الفينيقيين أقاموا فى طرابلس لتكون مركزا لتجارتهم وأقاموا معها صبراتة غربيها ولبدة شرقيها، وبالمثل أقام الإغريق فى شرقى ليبيا سيرين، وأضافوا إليها أربعة مدن: مدينة مكان سوسة الحالية، وبرقة، ومدينة مكان طوكره الحالية، وبنغازى. وكل هذه المدن حول طرابلس وفى شرقى البلاد كانت مراكز تجارية فى العصور السحيقة، وظلت التجارة النشاط الأساسى لأهلها، يتخذونها معاشا لهم طوال العصور الماضية، وأخذت تقام معها على الساحل الليبى مدن أخرى مثل زواوة غربى طرابلس وإلى شرقيها لبده وزليطن ومصراته وسرت، ومثل أجدابية وطلمثية ودرنة وطبرق فى إقليم برقة. وسكان كل هذه المدن كانوا يعنون بالتجارة وما تحمل إليهم القوافل من السودان والجنوب وما تحمل إليهم السفن من عروض البحر المتوسط شرقًا وشمالاً. وكانوا يعنون - إلى جانب ذلك ببعض الصناعات اليدوية وصيد البحر، ويصف ابن حوقل - فى القرن الرابع الهجرى - طرابلس قائلا: «بها من الفواكه الطيبة اللذيذة كالخوخ والكمثرى اللذين لاشبه لهما بمكان، وبها الجهاز الكثير من الصوف والأكسية الفاخرة الزرق والكحل النفوسية السود والبيض الثمينة» ولا يلبث أن يذكر النشاط التجارى بها قائلا: «إلى مراكب ترسو ليلا ونهارًا وترد بالتجارة على مر الأوقات والساعات صباحا ومساء، من بلد الروم وأرض المغرب، بضروب الأمتعة والمطاعم» ويقول البكرى: «لطرابلس أسواق حافلة جامعة». ويضعف نشاط طرابلس التجارى حين اكتسحتها موجات الهجرة الأعرابية فى منتصف القرن الخامس الهجرى، ويعود إليها نشاطها فى التجارة مع استيلاء دولة الموحدين إليها وعودة الأمن والاستقرار إلى ربوعها، وظلت إلى اليوم أهم مدينة تجارية فى ليبيا.

وكانت برقة منذ نزلها اليونان وأسَّسوا بها المدن الخمس المذكورة آنفًا تلعب دورًا كبيرًا فى التجارة بليبيا، وحين نزلها ابن حوقل كانت لاتزال مدينة برقة (المرج منذ أواسط القرن السابع

الهجرى) قائمة وتحدث عن نشاطها التجارى قائلا: «وجوه أموالها جمّة، وبها من التجار وكثرة الغرباء فى كل وقت مالا ينقطع، طُلّابا لما فيها من التجارة، وعابرين عليها مغرّبين ومشرّقين» وقال إنها تنفرد بالتجارة فى القطْران والجلود المجلوبة للدباغة بمصر والتمور الواصلة إليها من واحة أوجله (والواحات الأخرى) ولها أسواق عدة لبيع الصوف والفلفل والعسل والشمع والزيت وضروب المتاجر الصادرة من المشرق والواردة من المغرب. وذكرُ ابن حوقل للفلفل يجعلنا نذكر كيف أن ميناءى برقة وطرابلس كانا من قديم - كما مر بنا - مصبًّا للقوافل المصعدة من السودان وأواسط إفريقيا إليهما والمنحدرة منها إلى تلك الأنحاء، وكانت تلك القوافل تأتى محمَّلة بسلع الرقيق وريش النعام والعاج أو سن الفيل والجلود، وتعود محمَّلة بسلع ليبيا والبحر المتوسط، بحيث ظلت ليبيا قرونا متطاولة الباب أو المنفذ الكبير بين البحر المتوسط وبلدانه الشمالية والجنوبية والشرقية والغربية، وكان ذلك عاملا قويا فى ازدهار التجارة بطرابلس وبرقة والموانى الساحلية بالإضافة إلى ماكان بليبيا من سلع كثيرة من مثل القمح والشعير والزيت والملح والجلود والتمور والعسل والبسط والسجاجيد والأكلمة.

وهذا النشاط التجارى لسكان ليبيا كان يرافقه نشاط زراعى حول المدن الساحلية حيث تكثر الأمطار ومن ورائها فى السهول وفى وديان الجبال وفى المنطقة شبه الصحراوية والواحات من مثل واحة فزان. وتكثر زراعة الخضر والكروم والفواكه من كل صنف، وينمو الزيتون بكثرة فى جبال طرابلس والجبل الأخضر ببرقة، وكانت روما قديما تعتمد فى الزيت على ما تستورده من معاصر طرابلس. وتنمو بليبيا أشجار الحناء والجدارى التى تستخدم جذورها فى الصبغة، كما تنمو فى المنطقة شبه الصحراوية الحلفاء البرية ذات الأوراق الخيطية الشكل، وكانوا يستخدمونها فى صنع القِفاف والحبال، وهى صالحة كل الصلاحية لصنع الورق. ويبذر الفلاحون الحبّ ويجنون القمح والشعير. وكانت روما تعتمد قديما على ما يأتيها من حبوب طرابلس، وبالمثل الإغريق بالقياس إلى ما يأتيهم من برقة، ومما يدل - بوضوح - على أنه كان بليبيا قديما نشاط زراعى واسع ما لا يزال ماثلا فى كثير من أنحائها من مجارى المياه وقنواتها وسدودها وخزاناتها التى أنشأها الرومان والإغريق، وتحجب عنا كثرته الآن الرمال بغطائها الثقيل التى ظلت تنسجه طوال القرون الماضية، وإن ليبيا لحرية أن يعود لها هذا المجد الزراعى العريق. ولم أذكر أهم شجر يتراءى بقامته الهيفاء فى كل مكان بأنحاء ليبيا فى السهل الشمالى وفى المنطقة شبه الصحراوية وفى جميع الواحات، وأقصد النخيل وثماره من البلح، ويقال إن بطرابلس من أنواعه مايزيد عن ثلاثين نوعًا وأن فى واحة غات وواحات فزان مايبلغ خمسين نوعًا.

والزراعة لا تحتل فى ليبيا إلا الشطر الأقل فى الساحل والسهل الريفى وسفوح الجبال وبعض الوديان فى المنطقة شبه الصحراوية والواحات. والشطور الأخرى الكبيرة من ليبيا

يحتلها من قديم بدو رُحَّل يعيشون على رعى الأنعام والأغنام، وهم يربونها للحومها وألبانها وجلودها وأوبارها وشعرها وصوفها. وينوِّه البكرى الأندلسى المتوفى سنة ٤٨٧ بكثرة السائمة فى ليبيا ونموها الواسع فى مراعيها، ويقول إن كثرة ذبائح أهل مصر من ليبيا. وكان رعاتها من قبائل البدو الليبية يقتسمون مناطق الرعى بحيث لايحق لقبيلة أن ترعى ماشيتها فى منطقة قبيلة أخرى دون استئذانها، وإلا شهرت عليها الحرب، بالضبط كما كان يحدث بين القبائل فى نجد بالجزيرة العربية. وكان الجفاف يصيب أحيانا ليبيا، فلا تنزل بها الأمطار التى تعوَّدتها، فيعانى أهلها مجاعة شديدة،وربما كان ذلك هو سبب إيقاعهم - أحيانا - بحجاج المغرب والأندلس، بالضبط كما كان يصنع أهل نجد - بسبب ما يعانون من فقر وضنك - بحجاج العراق والشام ومصر، على أنه كان من شيوخ الليبيين فى قفار طرابلس وبرقة من يحمون الحجاج، مما جعل العبدرى يشهد لهم فى رحلته إلى الحج سنة ٦٨٩ للهجرة بأنهم لا يتعرَّضون للحجاج بأذى إلا فى الندرة.

وبجانب هذا النشاط الرعوى والزراعى والتجارى الذى كان مصدر معيشة أهل ليبيا طوال الحقب والقرون الماضية كانوا ينشطون من قديم فى الصناعات اليدوية من مثل صناعة الزجاج وآنيته التى مهر فيها الفينيقيون، وصناعة عصر الزيت من الزيتون، وكانت صناعة رائجة فى عصر الرومان، إذ كانوا يعتمدون - إلى حد كبير - على مايستوردونه منه من طرابلس، وهيَّأت الملاحات الكبيرة غربى طرابلس وفى بنغازى لقيام صناعة دبغ الجلود، كما هيأت لطحن الملح وتصديره، واشتهر بأنه لا يحتوى من سلفات الكلسيوم إلا على نسبة واحد فى المائة مما يجعله نوعًا جيدًا من الملح إلى أقصى غايات الجودة. ويشتهر الجبل الأخضر فى برقة بما ينتج من عسل النحل وشمعه، ويوجد المرمر فى بعض جهات طرابلس وبنغازى وخاصة فى غات، ومنه نوع وردى اللون وآخر ناصع البياض، وقد قامت حول اقتطاعه فى عهد الإغريق والرومان صناعة نشيطة، وبدون ريب أتاحت لهما كثرة هذا المرمر نحت ما شاءوا من التماثيل والمعابد والصهاريج، ولايزال أطلال كثير منها قائما بليبيا إلى اليوم. وهيأت المراعى الكثيرة فى إقليمى طرابلس وبرقة وما وراءهما من الصحارى لكثرة الأصواف والأوبار المجزوزة من الأغنام والماعز والإبل، مما أتاح لقيام صناعات واسعة من النسيج: نسيج الملابس الرجالية والنسائية والسجاجيد والبسط التى يلائمها أشد الملاءمة الصوف الليبى لخشونته الطبيعية، بينما تلائم أوبار الإبل أقمشة الخيام. ولا ننسى ماكان يتعيش عليه بعض أهل ليبيا على امتداد الساحل الشمالى من صيد الحيتان والأسماك، وعُنيت جماعة فى طرابلس وأخرى فى بنغازى بجلب الإسفنج الكثير فى مياهها. وفى كل ذلك مايوضح كيف أن ليبيا كانت - حتى العصر الحديث - كثيرة الخيرات والطيبات من الرزق.

٣

الدين

كان شأن أهل ليبيا فى العصور السحيقة شأن كل الأقاليم المغربية وثنيين يعبدون الكواكب والنجوم من مثل الشمس والقمر والكواكب السيارة جميعا ويقدمون لها القرابين ويقيمون لها المعابد. ويبدو أن اليهود لما نزلوا بديارهم منذ القرن الثالث قبل الميلاد أخذوا يحاولون نشر دينهم بين المغاربة، ويظن أن بعض جماعات منهم تهودت قديما وظلت جماعات منهم تعيش فى المدن المغربية، وجاءهم مدد جديد حين قوَّض الإمبراطور تيتوس معبدهم فى بيت المقدس سنة ٧٠ للميلاد، ونلقاهم بعد إسلام أهل المغرب-بفضل تسامح الإسلام العظيم-منتشرين فى إقليم طرابلس: فى طرابلس نفسها وفى مصراته وسيرين، ويذكر المؤرخون والرحالة حارة لهم بطرابلس، ويقال إنها كانت شديدة القذارة كما يذكرون أنه كان لهم معبد خاص.

وكانت المسيحية منتشرة – قبل الفتح العربى – بالمدن الساحلية فى ليبيا وغيرها من البلدان المغربية، وكانت شائعة فيها بين سلالات الفينيقيين والإغريق والرومان، بينما ظل جمهور البربر وثنيا. وربما اعتنق المسيحية بعض جماعات منهم فى المدن لما رأوا فيها من الدعوة إلى العدل والمساواة، ولكن لاشك أن هؤلاء كانوا أقلية، إذ كان الشعب البربرى يعدها دين حكامه الرومان المستبدين الطاغين، وهو ما جعلهم ينفرون منها نفورا شديدا وخاصة فى الهضاب والصحارى والجبال، ومع ذلك فقد سقط إلى هذه الأنحاء بعض القسس حينما اشتد أوار الخلافات الدينية واضطر بعض القساوسة إلى الفرار نحو الجبال أو نحو الجنوب، وأكبر الظن أنهم حاولوا الدعوة هناك إلى المسيحية، غير أنها لم تجد بين البربر هناك آذانا صاغية. وبدون ريب كانت المسيحية منتشرة – كما ذكرنا – بين المدن الساحلية، وربما عملت روما على نشرها منذ أعلن الإمبراطور قسطنطين سنة ٣١٢ للميلاد أنها دين الدولة الرسمى، وأخذت تعمل على نشرها فى البلاد التابعة لها. ويبدو أن القبط المصريين كانوا أسبق من هذه الحركة الرومانية فى نشر المسيحية بليبيا إذ تتحدث المصادر العربية عن مناطق بليبيا كان أهلها أقباطا، ولابد أن عملوا على نشر عقيدتهم الأرثوذكسية المسيحية فيها، وبذلك عرفت ليبيا – قبل الفتح العربى – الكنيسة الأرثوذكسية المصرية كما عرفت الكنيسة الكاثوليكية عن طريق روما وتشييدها لها فى طرابلس وغيرها.

وقد أخذ أبناء الكنيستين يتعايشون مع العرب فى العصور الإسلامية بالرغم من أن المسيحية

تراجعت فى ليبيا وكاد يَقْضى عليها الدين الحنيف، إذ نجد أبا عبيد البكرى المتوفى سنة ٤٨٧ للهجرة يذكر أنه شاهد القبط فى طرابلس وبرقة لا يزالون يحتفظون بالقبطية فى زمنه ويتحدثون بها فى لغتهم اليومية مع أنها كانت قد اختفت فى ألسنة القبط بمصر وحلّت محلها العربية إلا ما كان فى بعض الأديرة المتعمقة فى الصحراء الغربية، وكان مما عمل على استمرار الكنيسة الأرثوذكسية وبقائها وجود أسر وسلالات من اليونان فى ليبيا، ومعروف أن كنيستهم مثل كنيسة القبط المصريين أرثوذكسية. ويدل على ذلك من بعض الوجوه أن نجد الواليين العثمانيين. محمد الساقزلى وعثمان الساقزلى يرخصان لليونانيين فى زمنهما بإنشاء كنيسة أرثوذكسية قرب باب البحر وجعلاها تابعة لباترك الإسكندرية. وظلت الكنيسة الكاثوليكية - منذ أنشأها الرومان - حية فى طرابلس، وكانت تتبعها الجالية الرومانية القديمة، وظل يمدّها من تأسرهم سفن طرابلس الحربية فى البحر المتوسط من أوربا الشمالية والغربية وخاصة من إيطاليا وإسبانيا، وكانوا يعتنقون العقيدة الكاثوليكية المسيحية، ولابد أن عُنى الإسبان حين احتلوا طرابلس سنة ٩١٦هـ/١٥١٠ وظلوا بها عشرين عاما بهذه الكنيسة، وبالمثل عُنى بها فرسان مالطة حين تبعوا الإسبان فى احتلالها لنحو عشرين عاما أخرى، وقد كثر فى عهدهم نزول المالطيين بطرابلس، واستقرت بها من حينئذ بعثة الإرسالية الفرنشيسكانية للعناية بأمر المسيحيين وخاصة من كثر أَسْرُهم فى البحر المتوسط من مسيحيى الغرب لعهد العثمانيين.

ويفتح عمرو بن العاص برقة سنة٢١هـ/٦٤١م ويدور العام وتفتح طرابلس، ولم يكن العرب المسلمون غزاة فاتحين ينهبون البلاد التى يفتحونها ويسوسون أهلها بالقهر والبطش كما كان الرومان والوندال يصنعون، بل كانوا -قبل كل شيء- ناشرين للإسلام وتعاليمه السمحة، دون محاولة لإكراه المغاربة عليه، ودون أى محاولة لإساءة معاملتهم، ومع إنقاذهم مما كان يفرضه عليهم البيزنطيون والرومان من الظلم والاستعباد، ومع ما يدعو إليه الدين الحنيف من عبادة إله واحد رحيم وسعت رحمته كل شيء، وهو دين الفطرة الإنسانية التى فطر الله الناس عليها، ليس فيه شيء من تجسيد اليهودية ولا من تثليث المسيحية التى يعجز المغربى عن فهمها وتصورها. والمسلمون جميعا عرب ومغاربة سواسية فى الحقوق والواجبات ولا سيد ولا مسود. وأخذ الحكام: عقبة بن نافع ومن جاءوا وراءه يصدرون عن هذه السياسة، وخاصة حسان بن النعمان (٧١-٨٥هـ) الذى سوّى بين العرب والبربر فى الفَيْئ والخراج وعدَّ أرضهم مفتوحة صلحا لا قهرا فلم يسلبها منهم. وشعورا منهم بهذه المساواة الكاملة بينهم وبين العرب فى جميع الحقوق انتظمت كتيبة منهم فى جيشه تبلغ اثنى عشر ألفا كما يقول ابن عذارى تجاهد فى سبيل الله نصرة لدينه. ويتسع انتشار الإسلام فى عهد الوالى بعده موسى بن نصير (٨٥-٩٧هـ) من برقة إلى المحيط الأطلسى، إذ عمل - بكل جهده - على أن يعلم العرب البربر القرآن

وتعاليم الإسلام، ولم يكتف بانتظام جماعات من البربر فى جيشه، فقد رأى إشراكهم فى الحكم، وولى منهم طارق بن زياد على طنجة وإقليمها، وعهد إليه بقيادة جيش لفتح إيبيريا، وكان جيشه مؤلفا من سبعة عشر ألفا من العرب واثنى عشر ألفا من البربر، كما يقول ابن عذارى – ويرسل عمر بن عبد العزيز على رأس المائة بعثة مكوَّنة من عشرة فقهاء على رأسها إسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر للدعوة للإسلام ونشره بين البربر.

ومنذ هذا التاريخ أصبح الإسلام دين البربر فى كل مكان: فى الحواضر والبوادى وسفوح الجبال والهضاب والصحارى، ونعمت به ليبيا وغير ليبيا من بلاد المغرب، وقوَّض الديانتين اليهودية والمسيحية، إذ انتشر بسرعة عجيبة لا فى المناطق الشمالية المحدودة التى كانا يوجدان فيها فحسب، بل أيضا بين سكان الصحارى والجبال، بحيث انضوى المغرب وجميع أرجائه تحت لوائه، وهو ما لم تستطع المسيحية أن تحققه فى عهد الرومان والبيزنطيين، بل إن من تبعها من البربر كانوا فئة أو فئات قليلة، وكأنما كان فى الإسلام سحر جذبهم إليه، وليس السحر إلا ما قدمناه من ملاءمة عقيدته للفطرة الإنسانية التى فطر الله الناس عليها، وأيضا لأنه يسوِّى بين رعاياه القدماء من العرب والجدد من البربر ويرفعهم إلى أعلى المناصب.

غير أنه بمجرد أن توفى الخليفة عمر بن عبد العزيز وتولَّى بعده يزيد بن عبد الملك ثم أخوه هشام، إذا هما يوليان على البربر ولاة باغين طاغين ظلموهم ظلما شديدا، كما أسلفنا فى غير هذا الموضع، وكان أشدهم بغيا وطغيانا عبيدالله بن الحبحاب هو وولاته، وبلغ من سوء سياسته أن أخذ يفرق بين العرب والبربر فى الخراج وغير الخراج، فعمَّ الاستياء فى كل مكان من سياسته، وأدهى من ذلك أن واليه على طنجة لم يكتف بالعدوان على البربر فى الخراج، فقد أعلن أنه يريد تخميس أراضيهم متناسيا أو متعاميا عما أعلنه حسان بن النعمان فى ولايته من أن أرض البلاد المغربية فتحت صلحا لا قهرا، فهى ملك لأهلها منهم ولايصح العدوان عليها بحال من الأحوال.

٤

الإباضية والشيعة

كان طبيعيا – كما ذكرنا – أن تثور البلاد المغربية وأذكى ثوراتها وأمدَّها بوقود جزل دعاة لمذهبين من مذاهب الخوارج هما مذهب الإباضية ومذهب الصفرية، عرفوهم بهما وبدعوة الخوارج عامة التى تدعو إلى الأخذ بنظرية الإسلام فى المساواة المطلقة فى الحكم وغير الحكم بين المسلمين جميعا عربا وغير عرب، فليس فى الإسلام أشراف هم العرب ومشروفون هم غير العرب،

والخلافة لا تُقْصَرُ على قبيلة قريش وحدها، بل هى حق للمسلمين جميعا، يتولاها أكفؤهم سواء أكان عربيا أم غير عربى، وسواء أكان قرشيا أم بربريا أم عبدًا حبشيا.

(ا) الإباضية

اعتنق عقيدة الإباضية فى طرابلس وجبل نُفوسة كثيرون، ومرَّ بنا إشعالهم لثورات فى طرابلس منذ سنة ١٢٦ للهجرة إلى أن أخمدتها سنة ١٤٤ الجيوش العباسية نهائيا إلا ما كان من حركات صغرى فى طرابلس وجبل نفوسة قضى عليها يزيد بن حاتم المهلبى حين ولاه المنصور سنة ١٥٤ للهجرة كثورة أبى حاتم الإباضى وثورة أبى يحيى الهوارى، وكان الحكام - وخاصة حكام الأغالبة - يستطيعون دائما قمعها، ولكن دون أن يستطيعوا القضاء على الدعوة قضاء مبرما، فقد ظلت حية هناك حياة مستمرة إلى اليوم.

وكان ينبغى أن يشيد الباحثون الغربيون بالإسلام وأنه استطاع فى نحو ثمانين عاما أن ينتشر فى ديار المغرب: فى مدنه وجباله وصحاريه وبواديه وأن يمتلك من المغاربة أو قل من البربر قلوبهم وأفئدتهم بحيث أصبحوا يخلصون له ويحملون السلاح مع أهله للدفاع عنه ونشره فى أقاصى بلادهم المغربية وفى الأندلس، كما مر بنا، واتخذوا لغته لغة قومية لهم ورسخت - أو أخذت ترسخ - بينهم فى الجبال القاصية، بينما ظل الرومان قرونا متعاقبة يحكمون بلاد المغرب ويحاولون - بكل ما وسعهم - نشر لغتهم اللاتينية فيه ونشر عقيدتهم المسيحية، وخاصة منذ عهد قسطنطين وإعلانه أنها دين الدولة الرسمى، وظل البابا وقسسه ورهبانه يجاهدون فى نشرها بين البربر دون جدوى إلا ما كان من نفر ضئيل فى المدن الساحلية الشمالية، وبدلا من أن يسجلوا ذلك ويعترفوا للإسلام بمبادئه الروحية البسيطة التى لقيت استجابة لا تماثلها استجابة لا فى البقاع المغربية وحدها بل فى كل البقاع التى فتحها العرب الأولون: بقاع العراق وإيران والشام ومصر، إذ سرعان ما دخل أهلها جميعا فى الدين الحنيف بمجرد أن وقفوا على مبادئه وتعاليمه الدينية الروحية، أقول بدلا من أن يسجل الباحثون الغربيون هذه الظاهرة الكبرى للإسلام بالقياس إلى المسيحية وما تحمل من عقيدة التثليث المعقدة نرى نفرا منهم يطيب لهم أن يزعموا زعما باطلا أن حركات الإباضية بليبيا فى القرن الثانى الهجرى وبالمثل حركات الصفرية فى المغرب الأقصى والأوسط كانت حركات استقلالية قومية[1]، وهو زعم مخطئ أشد الخطأ، إذ لم يحاول أحد من البربر فى تلك الحركات الردة - أو الدعوة إلى المسيحية، كما لم يحاول أحد الردة، أوالدعوة إلى العودة إلى اللاتينية التى كانت منتشرة فى المدن الساحلية

---

(١) انظر : E.F. Gautier, Le Passé de l'Afrique du Nord, PP. 160 Sq.

الشمالية وأخذت تنسحب أمام العربية دون عودة. ومن أكبر الأدلة على أن الدين الحنيف ولغته احتلاَّ قلوب المغاربة وتغلغلا إلى السويداء منها أن نجد قبائل بربرية كثيرة تصطنع لها أنسابا تصلها بالعرب الجنوبيين فى اليمن أو بالعرب الشماليين سكان نجد. ومن يرجع إلى قواد ثورات الإباضية فى طرابلس ونفوسة الذين ذكرناهم فى غير هذا الموضع يرى أنهم كانوا عربا، ولم يكونوا من البربر، إذ كانوا فعلا بين تُجيبى وحضرمى ومرادى ومعافرى، وجميعهم من العرب، مما يدل دلالة قاطعة على أن ثورات الإباضية فى طرابلس وجبل نفوسة - وبالمثل ثورات الصفرية فى المغرب الأقصى والأوسط - لم تكن ثورات بربرية قومية، وإنما كانت ثورات إسلامية ضد الحكام الغاشمين الذين انحرفوا عن مبادئ الإسلام فى سياسة البربر وحكمهم، فأهدروا حقوقهم وفرَّقوا بينهم وبين العرب فى الشئون المالية وغيرها. هى إذن ثورات كانت تستمد من روح الإسلام ومقاصده وتعاليمه فى نشر العدل والمساواة بين شعوبه عربا وغير عرب، وأيضا فإن هذه الثورات لم تقم على مبادئ بربرية إقليمية أو قومية، إنما قامت على مبادئ فرقتين من فرق الخوارج فى عُمان والعراق، وقد تَغَيَّتَا فيهما سواء الإباضية أو الصفرية أغراضا وأهدافا إسلامية فى الحكم وتطبيقه وما ينبغى فيه من المساواة والعدالة المطلقة بين المسلمين جميعا عربا وغير عرب.

وحرى بنا أن نتوقف قليلا لنعرف مبادئ الإباضية التى شاعت فى طرابلس وجبل نفوسة، وأول مبدأ لهم أن الخلافة - أو كما يسمونها الإمامة - ليست حقا لقريش ولا ميراثا لأسرة قرشية، بل هى حق لله وللمسلمين جميعا، وينبغى أن يتولاَّها خير المسلمين تقوى وزهدا وورعا وتطبيقا لتعاليم الإسلام فى الحكم القائمة على العدالة والمساواة، وهم يفترقون عن عامة الخوارج فى أنهم لا يعدون مرتكب الكبيرة كافرا، بل يعدونه مسلما عاصيا ولا يعدون دار المسلمين سواهم دار حرب وينبغى أن يحملوا السلاح دائما ضدهم، وأيضا فإنهم يتوارثون معهم ويحلُّون الزواج منهم، وهم بذلك أكثر مذاهب الخوارج قربا إلى الجماعة الإسلامية، حتى ليمكن أن يُفْصَلوا عن الخوارج ويُلْحَقوا بتلك الجماعة. ومعروف أن مؤسس العقيدة الإباضية هو عبد الله بن إباض التميمى، وعنه حملها جابر بن زيد الأزدى العمانى، وعن جابر حمل لواءها أبو عبيدة مسلم بن أبى كريمة التميمى ولاء البصرى موطنا، وقد أرسل سلمة بن سعد أحد تلاميذه إلى جبل نفوسة ليدعو الناس للدخول فى عقيدتهم الإباضية، واستجاب له كثيرون فاختار منهم خمسة للقاء ابن أبى كريمة بالبصرة، وعادوا مملوئين حماسة للعقيدة أو الدعوة، وأخذوا ينشرونها فى جبل نفوسة وطرابلس وإقليمها، حتى إذا كثر أتباع الدعوة أخذوا يثورون على الدولة الأموية ثم على الدولة العباسية على نحو ما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع.

(ب) الشيعة: الدعوة العبيدية

إذا كان الإباضية نجحوا فى أن يظل جبل نفوسة موطنا لهم إلى اليوم وبعض أنحاء من طرابلس وإقليمها فإن الدعوة العبيدية الإسماعيلية، على الرغم من أنها أسست لها دولة فى إفريقية التونسية وانضوى تحت لوائها المغرب جميعه من برقة إلى المحيط الأطلسى فترة غير قليلة فى القرن الرابع الهجرى، لم تستطع أن تبقى فى طرابلس وإفريقية التونسية إلى مابعد القرن الرابع. ومعروف أن فرقة الشيعة الإمامية انقسمت منذ أواسط القرن الثانى الهجرى إلى اثنى عشرية يؤمنون بأن الإمامة انتقلت من جعفر الصادق سادس الأئمة الفاطميين إلى ابنه موسى الكاظم، ويدين بذلك الآن شيعة العراق وإيران، وإلى إسماعيلية يؤمنون بأن الإمامة انتقلت من جعفر الصادق إلى ابنه إسماعيل المتوفَّى فى حياته، لأن الإمامة تنتقل فى عقيدتهم إلى الابن الأكبر حتى لو مات فى عهد أبيه، ونظَّم هذه الدعوة عبد الله بن ميمون القدَّاح واتخذ مركزًا لها قرية سَلَمْية بقرب اللاذقية، وأخذت تنتقل الإمامة فى تلك الدعوة سرا من أب لابن، حتى إذا كنا فى آخر القرن الثالث الهجرى كان الإمام عبيد الله المهدى، وتسلَّل أحد دعاته الدهاة أبوعبدالله الصنعانى إلى الجزائر، واستطاع أن يقنع بتلك الدعوة الشيعية قبيلة كُتامة، ولم يلبث أن قضى بها على الدولة التى كوَّنتها الإباضية فى تيهرت بالجزائر، والأخرى التى كوَّنتها الصفرية فى سجلماسة جنوبى المغرب الأقصى، وقاد من كتامة حملة قضى بها على دولة الأغالبة فى إفريقية التونسية سنة ٢٩٦ وكان قد ظل يدعو للرضا من آل البيت، حتى إذا قضى على الأغالبة كشف القناع عن وجهه، فأعلن قيام الدولة الفاطمية الإسماعيلية، واستدعى من سَلَمْية الإمام المستتر بها أو المختفى عبيد الله. ووصل القيروان سنة ٢٩٧ وبويع بالخلافة بيعة عامة. ويسمى مؤرخو إفريقية التونسية الدولة باسم الدولة العبيدية نسبة إليه، وخاصة أن بعض المؤرخين تشكك فى نسب هذه الدولة إلى السيدة فاطمة بنت رسول الله ﷺ، غير أن ابن خلدون أكد صحة نسبتها إليها وأنها فاطمية حقًّا. وكان طبيعيا أن يحاول عبيد الله - حين بويع له بالخلافة - الاستيلاء على ليبيا ونشر الدعوة الإسماعيلية بها، لما فيها من طيبات الرزق، ولأنها طريقه إلى مصر المأمولة. وبمجرد استيلائه على القيروان تبعته طرابلس إذ كانت تتبعها فى أيام الأغالبة، وولَّى عليها كُتاميًّا سنة ٢٩٨ فسلَّط جنده الكتامىّ على أهلها من قبيلة هوارة، فغضبوا غضبا شديدًا وفتكوا بجنده، ولم يلبث جيش كتامى أن حاصرها، ولم يفك حصاره لها إلا بعد أن أغرم أهلها غرامة ضخمة: ثلاثمائة ألف دينار. وحاول عبيد الله المهدى ضَمَّ برقة إلى دولته واستعصت عليه، فأرسل إليها جيشًا كتاميًّا على رأسه قائد يسمى حباسة الكتامى، ففتك بكثيرين من أهلها واستصفى أموالهم، وغرَّم أهلها مائة ألف دينار. وعادت برقة سريعًا إلى الثورة سنة ٣٠٤ للهجرة، وردَّها أحد قادة عبيد الله إلى الطاعة. وثار الإباضية فى جبل

نفوسة سنة ٣١٠ وهزموا جيشين لعبيد الله، وأخيرًا انتصر جيش له على إباضية نُفوسة، واستكانت ليبيا - منذ هذا التاريخ - لحكم الفاطميين طوال بقائهم فى إفريقية التونسية وفترة بعد مغادرة المعز العبيدى لها إلى القاهرة ولكنها كانت استكانة على مضض غير قليل، فقد ظل مَنْ بها من الإباضية فى جبل نفوسة وأنحاء طرابلس يعادون الدعوة العُبَيْدية - أو الفاطمية - الإسماعيلية، كما ظل أهل السنة الذين تتألف منهم جماهير غفيرة فى طرابلس وبرقة يستنكرون الدعوة الإسماعيلية الشيعية ويرفضونها رفضًا باتًا. وبمجرد أن انسحب حكمهم من إفريقية التونسية فى عهد المعز بن باديس (٤٠٦-٤٥٤ هـ). انسحبت معه عقيدتهم الإسماعيلية لا فى إفريقية التونسية وحدها بل أيضًا فى طرابلس وإقليمها وجبل نفوسة، وبقيت لتلك العقيدة ظلال باهتة فى برقة لأنها كانت تتبع الدولة الفاطمية فى القاهرة، أما فى طرابلس وإفريقية التونسية وما وراءهما من البلاد المغربية فإنه لم يبق لها أى ظلال لا باهتة ولا غير باهتة، ويرجع ذلك فى رأينا إلى التطرف الشديد فى انحراف مبادئها عن الدين الحنيف وتعاليمه، حتى لتنسلخ جملة عنه، إذ تحيط أئمتها بهالة من التقديس لا يقرها الإسلام حتى لتزعم عصمتهم رافعة لهم فوق المستوى الإنسانى، بل إنها لتزعم أن الإمام العبيدى الإسماعيلى هو التجسُّد الربانى للذات العليَّة على الأرض، وهو لذلك المشرِّع وصاحب الأمر العالم بالغيب وما سُجِّل فى ألواحه، وكل صفات الله - جلَّ جلاله - إنما هى صفاته، إلى غير ذلك من مبالغات بل من ترهات، سوَّلت لبعض دعاة الخليفة العبيدى الحاكم بأمر الله أن يدعو إلى عبادته، وقد عرضت مبادئ هذه الدعوة الضالة بالتفصيل فى الجزء الخاص بمصر من هذه السلسلة الخاصة بتاريخ الأدب العربى، موضحًا كيف أن مصر انصرفت عنها، بل رفضتها رفضا، وهو ماحدث فى طرابلس والبلاد المغربية. وكأنما دخلتها جميعا - حين كانوا يحكمونها - من باب شديد الضيق، ثم خرجت بعدهم - حين رحلوا عنها - من باب آخر ولم تترك وراءها أثرًا. وعبثا حاول أبو عبد الله الصنعانى أن يقنع بها فقهاء القيروان وردوا عليه ردودا مفحمة، وأحسَّ عبيد الله المهدى - بوضوح - نفور الناس من عقيدتهم الإسماعيلية نفورًا شديدًا، فطلب إلى دعاتها أن يخففوا من النشاط للدعوة لها، وبنى «المهدية» على رأس بارز فى الساحل على البحر المتوسط شرقى سوسة، وأحاطها بأسوار عالية قوية مع أبراج ضخمة وأبواب مصفحة بالحديد - كما يقول الحسن الوزان فى وصف إفريقيا - سنة ٣٠٥ ونقل إليها أسرته وأمواله وجنده حتى يأمن على نفسه. وظلت طرابلس وإقليمها بل أيضا برقة وإقليمها كما ظلت إفريقية التونسية مزورَّتين عن الدعوة الشيعية، وظلت الجماهير فيها جميعا مرتبطة بمذاهب أهل السنة إلى أن خرجت طرابلس وإقليمها كما خرجت إفريقية التونسية من الدعوة السيدية الاسماعيلية فى عهد المعز بن باديس على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع.

٥

الزهد والتصوف

ازدهر الدين الحنيف فى جميع أنحاء ليبيا منذ القرن الأول الهجرى، وأخذت مساجده تُبْنى فى كل مكان: فى الحضر والبدو، ويرمز إلى ذلك المسجد الجامع الذى بناه فاتح ليبيا العظيم عمرو بن العاص فى طرابلس أمام باب قبيلة هوارة، وتنافس ولاة طرابلس وليبيا بعده فى بناء المساجد وخاصة ولاة الدولة الأغلبية، وخلفتها الدولة العبيدية، فعنى المهدى ببناء جامعها المتسع الأعظم، وبنى ابنه القائم جامعا حسن البناء فى مدينة أجدابية. وكان الشعب يشارك فى بناء الجوامع والمساجد فاكتظت بها ليبيا، وكانت جميعا بيوتا كبرى للعبادة والنسك، وكانت حلقات الفقهاء والعلماء فيها أشبه بمدارس للتعليم والدراسة، واشتهر كثيرون فى جميع أنحاء ليبيا بأنهم كانوا زهادًا فى المتاع الدنيوى وأنهم كانوا عبَّادا نُسَّاكا ينتظرون ما عند الله من ثواب الآخرة، ويسوق المالكى فى رياض النفوس وابن الدباغ فى معالم الإيمان والتجانى فى رحلته المشهورة وأحمد النائب فى نفحات النسرين والمنهل العذب والطاهر الزاوى فى أعلام ليبيا أسماء عشرات من زهاد ليبيا ونُساكها على مر القرون.

وممن نذكره من زهاد ليبيا ونُساكها عبد الله الشعَّاب المتوفى بعهد الأغالبة سنة٢٤٣ للهجرة ولد بطرابلس ونشأ بها، وكان نجارا لا يأكل إلا من كسب يده، وتمَّ بناء مسجد كان البناء فيه توقف، وسكنه وعاش يتعبَّد لربه فيه، ونُسب إليه إذ سمى بمسجد الشعاب ويقول مترجموه إنه كان من كبار الصوفية والنساك الورعين، ومن هؤلاء النساك عبدالجبار السِّرْتى المتوفى سنة٢٨١كان يختم القرآن مرة كل ليلة وختمه فى مسجده أكثر من ألف ختمة، ومنهم عبد الله بن إسماعيل البرقى المتوفى سنة ٣١٧ وكان يختم القرآن يوميا، ومنهم سعيد بن خلفون المتوفى سنة ٣٦٢ وكان من أكابر الصوفية واقفا على المعارف اللدنّية والقدسية وكان يسكن بمسجد منسوب إليه فى طرابلس، وكان للناس اعتقاد فيه حتى لقبوه بلقب المستجاب وأكثروا من الحديث عن كراماته، وكان يعاصره بطرابلس ابن زكرون على بن أحمد بن زكريا ابن الخطيب المتوفى سنة ٣٧٠ وكان يتخذ مسجد المجاز فى بلدته مسكنا ومأوى له، وكان عابدًا ناسكًا ورعًا، وكان يعاصرهما أبو نزار خطاب البرقى المتوفى سنة ٣٧٣ وكان يعاشر الصوفية وينزع منزعهم، وكان مثل صاحبيه يسكن جامعًا إلى الشرق خارج المدينة. ومن كبار الزهاد بطرابلس فى القرن الخامس الهجرى أبو الحسن السيقاطى المتوفى سنة ٤٢٠ للهجرة وكان يتعبد لربه بمسجد سيقاطة على ساحل طرابلس. وأبو مسلم مؤمن بن فراج الهوارى المتوفى

سنة ٤٤٢ للهجرة وله مسجد كان يتعبد فيه ويدرس لطلابه منسوب إليه.

ويتكاثر زهاد ليبيا ونُسّاكها ومتصوفتها فى القرون التالية، وهم أكثر من أن نحصيهم ونعدّهم عدًّا، وقد أخذ نفر منهم - منذ القرن السابع - ينتمى إلى الطرق الصوفية السنية، وطبيعى أن لا ينتسبوا إلى الطرق الصوفية الفلسفية عند أبى مدين وابن عربى وابن سبعين وأضرابهم إذ لم يكن أهل ليبيا يأخذون أنفسهم بشيء من الفلسفة أو التفلسف يفسح لهذه الطرق بينهم، ونظن ظنًّا أن بعض زهادها ونُسّاكها تبع الطريقة الشاذلية الصوفية[1] السنية التى أخذت تشيع فى تونس ومصر منذ أواسط القرن السابع الهجرى حين أسسها بتونس أبو الحسن الشاذلى، ثم غادرها إلى القاهرة، وكان من أهم أتباعه فيها ابن عطاء الله السكندرى الذى اشتهر بحكم له بديعة. ويلقانا من كبار أتباع الطريقة الشاذلية فى القرن التاسع الشيخ زروق المولود بمدينة مصراته شرقى طرابلس سنة ٨٤٦ للهجرة، وقد رحل إلى القاهرة ودرس بالأزهر وأخذ عن علمائه، ويبدو أنه اعتنق الطريقة الشاذلية حينذاك، وكان فقيها مالكيا ضليعًا وله مؤلفات مهمة فى الفقه المالكى، وأكثر مؤلفاته فى التصوف وبخاصة فى الطريقة الشاذلية وله فيها مخطوطة بدار الكتب المصرية بعنوان أصول الطريقة الشاذلية، ومخطوطة ثانية شرح فيها حزب الشاذلى المسمى بحزب البحر، ويقال إن له ستة عشر شرحًا لحكم ابن عطاء الله السكندرى، وطبع أحد هذه الشروح بالقاهرة مرارًا، وطبع له فى القاهرة كتاب بعنوان قواعد التصوف. وتوفى زروق بمصراته مسقط رأسه سنة ٨٩٩ للهجرة.

ويلقانا بعده من أتباع الطريقة الشاذلية الخروبى محمد بن على المتوفى سنة ٩٦٣، وكان أبوه من تلامذة الشيخ زروق، وعنه أخذ الطريقة الشاذلية، وتوفى فرعته أمه وكانت سيدة صالحة، فلقنته كثيرًا من المدائح النبوية والتراتيل الدينية، وكان لها ابن عمة شاذليًّا، فدرس عليه الخروبى مسالك الطريقة الشاذلية وحكم ابن عطاء الله السكندرى، واندمج روحيًّا فى تلك الطريقة طوال حياته، وله شرح لحكم ابن عطاء الله، وفى دار الكتب المصرية له تفسير مخطوط كبير. ومن أكبر أتباع الطريقة الشاذلية فى القرن العاشر الهجرى عبد السلام الأسمر المولود بمدينة زليطن شرقى طرابلس ولبدة سنة ٨٨٠ للهجرة، وكان صوفيا مجذوبا فى حب ربه، وكانت تعتريه حالات وجد وهيام شديدة واستخدم فى حلقاته ومجالسه الدف والبندير والغناء والرقص، مما جعل كثيرين من معاصريه النساك ينتقدونه نقدًا شديدًا، واضطره ذلك إلى الخروج عن بلده مرارًا إلى جهات مختلفة فى ليبيا وفى إفريقية التونسية، واستقر أخيرا فى زاويته بمسقط رأسه زليطن إلى أن توفى سنة ٩٨١ للهجرة، وكان يقرأ لأتباعه فى الزاوية كتبا مختلفة فى التوحيد

---

(١) انظر فى هذه الطريقة ومؤسسها أبى الحسن الشاذلى وتابعه ابن عطاء الله السكندرى كتابنا فى هذه السلسلة عن مصر.

والفقه المالكي، كما كان يقـرأ لهم حكم ابن عطاء الله السكنـدرى، وله مؤلفـات مختلفة فى التصوف، وكان له مريدون كثيرون لزموه فى حياته من بيته مثل ابنه عمران ومن غير بيته مثل إبراهيم بن على العوسجى المتوفى سنة ٩٩٨ ومثل كريم الدين البـرمونى المصـراتى المتوفى بأخرة من القرن العاشر الهجرى وله كتاب فى أستاذه. ويتكاثر الزهاد والصوفية فى ليبيا طوال العصر العثمانى، وتتكاثر زواياهم وتعم فى البلاد الطريقة الشاذلية، وتـزاحمها بعض الـطرق الصوفية السنية، ولكن تظل لها الغلبة.

الفصل الثالث

الثقافة

١

الحركة[١] العلمية

(أ) فاتحون وناشرون للإسلام

منذ فتح عمرو بن العاص ليبيا ووُلاتها يُعْنون بنشر الدين الحنيف وتعاليمه وثقافته فيها، فقد كان ذلك الغايةَ المُثْلَى والمقصد الأسمى من الفتوح الإسلامية لا فى ليبيا وحدها، بل أيضا فى كل ما فتحه المسلمون فى عهد أبى بكر وعمر وعثمان، ولذلك نرى وُلاة المغرب فى ليبيا وغير ليبيا يحثون كثيرين من جنودهم - وخاصة من أقاموا واستوطنوا هناك - إلى تحفيظ البربر القرآن الكريم وتعليمهم مبادئ العربية كى يستطيعوا تلاوته تلاوة سليمة، وحثهم على ذلك - بقوة - عقبة بن نافع مؤسس مدينة القيروان فى أواسط القرن الأول الهجرى، وبالمثل مؤسس مدينة تونس: حسَّان بن النعمان (٧١ - ٨٥ هـ) واتسع خَلَفه: موسى بن نُصَير - فى هذه الغاية من تعليم البربر القرآن وتعاليم الإسلام، ويقال إنه كلَّف بذلك سبعين رجلا من جنوده بثَّهم فى قبائل البربر، ويقال: بل إنه جعل ذلك فريضة على جميع جنود العرب الفاتحين.

---

(١) راجع فى ثقافة ليبيا رياض النفوس للمالكى والبيان المغرب لابن عذارى وتراجم معالم الإيمان لابن الدباغ وابن ناجى والسير للشماخى وطبقات النحويين واللغويين للزبيدى وإنباه الرواة للقفطى والديباج المذهب لابن فرحون وتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى وتاريخ ابن خلدون والأنساب للسمعانى وكتابى الأزمنة والأنواء وكفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ لابن الأجدابى ورحلة التجانى ورحلة العياشى والرحلة المغربية للعبدرى والتذكار لابن غلبون وحكاية مدينة لخليفة محمد التليسى وتاريخ المغرب الكبير لدبوز ونفحات النسرين والمنهل العذب لأحمد النائب وكتابى أعلام ليبيا ومعجم البلدان للزاوى وأعلام من طرابلس للمصراتى والإباضية فى موكب التاريخ لمعمر وكتاب النشاط الثقافى فى ليبيا لأحمد مختار عمر وتاريخ ليبيا لإحسان عباس وتاريخ طرابلس الغرب لمحمود ناجى.

ولابد من ملاحظة أن البربر الذين اعتنقوا الدين الحنيف أخذوا يشتركون مع الجيوش العربية فى الفتوح وحرب الكفار، وكان زملاؤهم من العرب فى حمل السلاح يلقنونهم آى الذكر الحكيم ومبادىء الإسلام وتعاليمه، ويذكر المالكي فى كتابه «رياض النفوس» أن جيش زهير بن قيس والى المغرب بعد عقبة بن نافع كان مكوَّنا - فى بعض حربه لكسيلة الثائر المغربى - من ألفين من البربر وأربعة آلاف من العرب، كما يذكر ابن عذارى فى كتابه «البيان المغرب» أنه كان فى جيش حسان بن النعمان (٧١ - ٨٥هـ) اثنا عشر ألفا من البربر، ويذكر أيضا أن جيش طارق بن زياد البربرى والى طنجة لموسى بن نصير كان مكونا - فى فتحه لإيبيريا - من سبعة عشر ألفا من العرب واثنى عشر ألفا من البربر، ويعقِّب ابن عذارى على ذلك بأن موسى بن نصير «أمر العرب أن يعلِّموا البربر القرآن وأن يفقِّهوهم فى الدين». ومعنى ذلك أن الجند العربى الذى كان يعايش الجند البربرى فى حرب الكفار ونشر الإسلام كان يعلِّمه القرآن وتعاليم الإسلام الدينية. ويصوِّر ذلك من بعض الوجوه ما رواه الشمَّاخى فى كتابه السِّير عن عمر بن يمكْتن أول معلم من البربر للقرآن الكريم فى جبل نفوسة بطرابلس قبيل اشتراكه فى ثورة أبى الخطاب المعافرى سنة ١٤٠ للهجرة وتوليته له على مدينة سرت، فقد رُوى عنه أنه تعلم القرآن بطريق (مُقَمَداس) كان يتلقَّى فيها السَّابلة والمارَّة من المشرق (يريد الجند العربى الداخل إلى إفريقية التونسية) فيكتب عنهم لَوْحا من القرآن وينصرف إلى منزله، فإذا حفظ ما فيه رجع إلى المحجَّة (الطريق) فيكتب من المارَّة والرِّفاق كذلك حتى حفظ القرآن وتعلَّم العلم». ويقول الشمَّاخى إنه «كان يصنع ذلك لحرصه على طلب العلم والقرآن فى أول الإسلام وقلة المعلمين فى البلدان». ونظن أنه إنما كان يصنع هذا الصنيع حتى يتلقَّن بدقة أداء ألفاظ الذكر الحكيم على وجوهها الصحيحة، لأن أداءها لا يكفى فيه ما كُتب فى مصاحفه أو فى الصحف، بل لابد فى القرآن الكريم من أخذه شفاها، حتى يحكم الشخص تلاوة آياته بنطقها وأدائها الدقيق، وهو ما دفع ابن يمكتن إلى أخذه شفاها من أفواه السابلة والمارَّة من الجند العربى الداخل إلى إفريقية التونسية والبلاد العربية. وفى هذا الخبر ما يوضح مدى ما أسداه الجند العربى الفاتح للمغرب-حتى المارَّة منهم بالطرق-فى تحفيظ القرآن وحسن أدائه للمغاربة شبابا وغير شباب، ويقول ابن يمكْتن إنه تعلم - من مارَّة الجند أيضا - العلم يريد تعاليم الإسلام والفقه بالدين الحنيف. فأينما كان الجند العربى مجاهدا فى سبيل الله مع البربر ومقيمًا بين ظهرانيهم ومارا بطرقاتهم كان يعنى بشدِّ أزرهم فى حفظ القرآن الكريم والمعرفة الدقيقة بمبادئه والتفقه البصير بتعاليمه.

(ب) الكتاتيب

إيمانا من الولاة فى ليبيا وغير ليبيا من أن الدين الإسلامى العظيم جعل طلب العلم فريضة على كل مسلم حتى يعلم بدقة فروض دينه وتعاليمه أخذوا يعنون ببناء كتاتيب لتحفظ فيها ناشئة البربر القرآن وتعرف مبادئ الشريعة الإسلامية، وكان المعلمون فيها يبدءون بتعليم القراءة والكتابة وبعض مبادئ العربية، لإحكام النطق السديد بألفاظ الذكر الحكيم. وكانت تلك الكتاتيب تلحق بالمساجد أو تخصَّص لها غرفة بداخلها ثم أخذت تشيع فى الحارات والدروب بالمدن وفى الواحات والأحياء بالوديان، وظلت تحلُّ فى ليبيا وغير ليبيا محل التعليم الابتدائى فى عصرنا، وكانت الناشئة تزوَّد فيها ببعض الأحاديث النبوية وببعض سيرة الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، وكانت تزوَّد فيها بمبادئ الحساب، وأهم من ذلك تعلُّم فروض الإسلام وخاصة الصلاة وكيفية أدائها وما ينبغى لها من الوضوء والطهارة كما تتعلم بعض إرشادات تهدى إلى الخلق المستقيم والسلوك القويم.

(جـ) المساجد

وهذا التعلُّم المبكر للقرآن وتعاليم الإسلام الذى أُنشئت من أجله الكتاتيب فى كل أنحاء ليبيا كانت الناشئة تنتقل منه إلى حلقات العلماء الذين كانوا يرابطون فى المساجد ملقين على طلابهم مختلف الدروس والمحاضرات فى فنون العلوم المختلفة من لغوية ودينية. وكانت ليبيا تكتظ بهذه المساجد فى مدنها وقراها وواحاتها، ولم يكن يخلو مسجد من عالم كبير يحاضر الطلاب أو يعظ الناس، ومرَّ بنا فى حديثنا عن الزهد والتصوف ذكر بعض مساجد اشتهرت فى طرابلس وساحلها، ويذكر التجانى فى رحلته أن بخارجها مساجد كثيرة، أما مساجدها فى أحيائها المختلفة ودروبها فلا تحصى كثرة، ويقول إن بساحلها مساجد كثيرة. ولا نلتقى بالمساجد فى ليبيا بالمدن فحسب، بل نلتقى بها أيضا فى القرى على شاكلة مسجد على بن عبد الحميد العوسجى المقرئ الذى بناه فى قريته «الحرشا» من قرى مدينة الزاوية، وكانت مدن جبل نفوسة وقراه تكتظ أيضا بالمساجد. وكان العلماء ينتصبون فى تلك المساجد لإلقاء دروسهم فى قراءات القرآن الكريم وفى تفسيره وفى الحديث النبوى وفى الفقه والشريعة وفى العربية وقواعدها السديدة، وقد أصبحت طرابلس وبرقة منذ عهد يزيد بن حاتم المهلبى (١٥٤ - ١٧٠ هـ) مركزين من مراكز العلم، وبعث فيهما الأغالبة (١٨٤ - ٢٩٦ هـ) حركة علمية خصبة، إذ عنوا بعلمائهما وأسبغوا عليهم من الرواتب ما يسد حاجتهم، وكان المجتمع الليبى بجميع طوائفه يجلّ هؤلاء العلماء ويعرف لهم قدرهم وأنهم منارة الدين وحملة أضوائه.

(د) الرحلة فى طلب العلم والوافدون

على نحو ما كان الشباب المغربى فى إفريقية التونسية يرحل إلى مصر والشام والحجاز والعراق للتزود من العلوم الإسلامية واللغوية كذلك كان الشباب الليبى يرحل فى طلب العلم وأخذه عن أعلامه، وسنذكر - عما قريب - بعض من حملوا عن الإمام مالك كتابه الموطأ وأذاعوه فى وطنهم. ولابد أن بعض المعلمين للعربية فى ليبيا مدَّ رحلته فى المشرق إلى العراق للاختلاف إلى علماء العربية بها وحمل كتبهم إلى البلدان الليبية.

وكان موقع ليبيا فى طريق الأندلسيين والمغاربة إلى الحج وزيارة الأماكن المقدسة ذهابًا وإيابا يتيح لبلدانها مثل طرابلس وبرقة أن ينزلها بعض العلماء ويطيب له الإقامة فيها شهرًا أو أشهرًا، ويلتف به طلابها يحاولون أن يأخذوا عنه ما عنده من العلم أو ما اشتهر به، على شاكلة محمد بن عيسى البيانى الذى مر بطرابلس وبرقة فى عامى ٣٣٢ و ٣٣٨ فالتف به طلابها يكتبون عنه، ومثل الفقيه أبى الحسين محمد بن إبراهيم الأندلسى الذى نزل طرابلس فى عودته من أداء فريضة الحج، فقرأ عليه طلبتها بعض مؤلفاته. وكثر نزول مثل هذين العالمين بها فى عهد الدولة الحفصية، ويقال إن ابن منظور العالم اللغوى المشهور المتوفى سنة ٧١١ بمصر تولى القضاء بها. ويروى عن بعض هؤلاء العلماء الوافدين - وخاصة على طرابلس - أنهم توقفوا بها للأخذ عن علمائها ونسمع بذلك منذ القرن الثالث الهجرى، مما يدل بوضوح على ازدهار الحركة العلمية بطرابلس وأن أسماء بعض علمائها أخذ فى الذيوع مما جعل بعض العلماء الوافدين يشغف بلقائه والأخذ عنه، على نحو ما نجد عند ابن الفرضى فى كتابه «تاريخ علماء الأندلس» إذ ذكر نفرًا نزلوا بطرابلس فى رحلاتهم إلى المشرق للتزود من علمائها وحَمْل ما عندهم من العلم، وممن ذكرهم محمد بن قاسم بن سيار المحدث الأندلسى المشهور، إذ قال عنه إنه سمع بطرابلس عن علمائها فى رحلته سنة ٢٩٤ للهجرة وممن ذكرهم أيضا محمد بن عبد الملك بن ضيفون قائلا عنه: إنه سمع بطرابلس فى رحلته سنة ٣٣٨ من يحيى بن دحمان، كما سمع منه مواطنه هاشم بن يحيى بن حجاج البطليوسى فى رحلته إلى المشرق، وسنذكر - فيما بعد - أن التجانى صاحب الرحلة المشهورة التى نرجع إليها حين زار طرابلس واستمع إلى محدِّث فيها هو ابن عبيد انبهر انبهارًا شديدًا والتمس منه أن يقرأ عليه صحيحى مسلم والبخارى.

(هـ) المـدارس

عرف العالم الإسلامى فكرة المدارس منذ أواخر القرن الرابع الهجرى وتوسع فيها نظام

الملك وزير ألب أرسلان فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى إذ بنى طائفة من المدارس فى العراق وإيران سُمِّيت كل منها باسم المدرسة النظامية، وكانت أشبه بجامعات يحاضر بها الأساتذة فى فروع العلوم المختلفة، ولهم فيها مساكن ورواتب معلومة وللطلاب نفقات تكفيهم، ولكل مدرسة مكتبة نفيسة. وأخذت تتكاثر المدارس فى البلدان العربية منذ القرن السادس الهجرى، ويشيد التجانى وغيره من الرحالة الذين زاروا طرابلس بمدرسة بديعة قام على بنائها بين سنتى ٥٥٥ و ٥٥٨ الفقيه الطرابلسى عبد الحميد بن أبى البركات بن أبى الدنيا. ونمضى إلى القرن السابع وكانت طرابلس تتبع الدولة الحفصية التى عنيت ببناء المدارس فى تونس وأرجاء دولتها، ويبدو أنه بنيت فى عهدها بطرابلس مدارس متعددة بشهادة التجانى فى رحلته إذ يذكر أن بطرابلس مدارس متعددة أو كما يقول مدارس كثيرة. ويذكر الشماخى فى كتابه السير وعلى يحيى معمر فى كتابه الإباضية فى موكب التاريخ مدارس متعددة للإباضية بنوها فى جبل نفوسة. ومع أن العثمانيين فى زمن حكمهم لطرابلس وليبيا لم يكونوا يولون الحركة العلمية العناية الواجبة نجد بعض ولاتهم يعنون ببناء بعض المدارس، يتقدمهم فى ذلك مراد أغا إذ بنى مدرسة بمدينة تاجوراء، ولابد أن هؤلاء الولاة بنوا مدارس متعددة فى البلاد، وُيذكَرُ أن عثمان الساقزلى بنى مدرسة بطرابلس قرب باب البحر، كما يذكر أن أحمد القرمانلى بنى مسجدًا كبيرًا وألحق به مدرسة. ولابد أن مدارس تركية متعددة أنشئت فى بلدان طرابلس وأيضا فى بلدان برقة حين انفكت عن تبعيتها للقاهرة، وكانت تتبعها منذ العصر الفاطمى إلى أن ضمها إلى ولاية طرابلس محمد الساقزلى. وبدون ريب ساعدت المدارس فى النشاط العلمى بتلك الديار، ولو أنه كان فى العصر العثمانى نشاطًا محدودًا.

(و) الزوايا

عرفت المغرب الزوايا وأخذت تستكثر منها منذ القرن السابع الهجرى، وكانت الزاوية تتكون من قاعة ومحراب للصلاة وغرفة لتحفيظ القرآن أو تلاوته وبعض غرف للضيوف والطلبة وبعض الزوار ممن ينزلون بها مع ما تحتاج إليه من المرافق. وكان بعضها يتسع فى مبانيه، حتى تصبح الزاوية كأنها مسجد يموج بطلابه وزواره، وكان يكثر أن يكون لشيخها ضريح يدفن فيه، ومن فوقه قبة كبيرة. وتحوَّل كثير من الزوايا إلى ما يشبه دور علم مع ما تتيحه من العبادة والنسك، ويتحدث التجانى الذى نزل بطرابلس فى أوائل القرن الثامن الهجرى عن زاوية أولاد سهيل وعنايتها بتحفيظ القرآن وما بها من كتب كانت موقوفة على الطلاب وما كان لهم بها من غرف للسكنى. ومن أشهر زوايا ليبيا زاوية عبد السلام الأسمر بمدينة زليطن، وكانت تعنى - مع تحفيظ القرآن الكريم - بالعلوم الدينية، وكان بها حجر كثيرة لسكنى الشيوخ والطلاب، وقد أسسها صاحبها سنة٩٠٠هـ وظل الطلاب يؤمونها بعده من أنحاء ليبيا وغيرها، وكانت

مكتبتها تشتمل على خمسمائة مجلد من الكتب النفيسة. ولم تكد تخلو بلدة فى ليبيا من زاوية تعنى بالعبادة وبث العلم والمعرفة.

(ز) خمود فى الحركة العلمية

أصاب الحركة العلمية بليبيا غير قليل من الخمود فى فترتين أما أولاهما فحين هاجر إلى ليبيا والمغرب أعراب بنى سليم وبنى هلال منذ سنة ٤٤٣ وكانوا بدوا جفاة، فأنزلوا بليبيا دمارًا كثيرًا، وخاصة فى حَضَرها ومدنها، شلَّ العمران فيها والحياة العلمية إلى نحو قرن من الزمان، ولم تلبث طرابلس أن مُحِنت باحتلال نورمان صقلية لها ثلاث عشرة سنة طوالا، وثار أهلها عليهم ومزَّقوهم ذات ليلة شر مُمَزَّق، ودانوا لدولة الموحدين المغربية، ولم يكد يمضى نحو ربع قرن حتى أصبحت ليبيا فى طرابلس وبرقة مسرحا لأطماع قراقوش وابنى غانية على نحو ما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع، وظلوا يعيثون فى ليبيا فسادًا عشرات السنين. وكل ذلك أثر فى الحركة العلمية بليبيا واعتراها كثير من الخمود، غير أنه خلال كل هذا الرماد الثقيل الذى انهال عليها لنحو قرن ونصف من الزمان ظل بها وميض جمر علمى يلمع من حين إلى حين، مما هيأ لاستمرار الحركة العلمية ببلدانها وظهور نفر من العلماء بها حملوا مصابيح العلوم المختلفة شرعية ولغوية . وتصبح برقة - أو تظل - موالية لمصر فى عهد الأيوبيين والمماليك وتصبح طرابلس موالية للدولة الحفصية، وترعى حركتها العلمية بما أنشأت فيها من مدارس وتعيد لها غير قليل من ازدهارها القديم.

وتعود الحركة العلمية إلى الخمود بطرابلس حين ظلت نحو أربعين عامًا فريسة للإسبان ثم لفرسان مالطة فى القرن العاشر الهجرى، وتخلفها الدولة العثمانية، ولم يكن العثمانيون أصحاب حضارة ولا أصحاب علم وثقافة، ولذلك انتكست البلاد الإسلامية جميعها التى ضموها إلى دولتهم سواء فى المشرق مثل العراق والشام ومصر أو فى المغرب مثل ليبيا وتونس والجزائر وتراجعت فيها الحركة العلمية وأصابها غير قليل من العطل والخمود، إذ لم يكن الولاة العثمانيون يشجعون العلماء فى طرابلس - وبالمثل فى برقة حين دانت لهم - تشجيعا ماديا بفرض رواتب لهم ثابتة بحيث تحدث بينهم غير قليل من التنافس والنشاط العلمى الخصب، كما تحدث فى مجالسهم غير قليل من الجدل فى العلوم ومسائلها الشرعية واللغوية، ويلاحظ ذلك الرحالة المغاربة فى رحلاتهم إلى الحج ومرورهم بطرابلس على نحو ماذُكِرَ عند ابن عبد السلام الناصرى فى رحلته الحجازية الكبرى حين مر بطرابلس سنة ١٢١١ هـ/١٧٩٦م إذ يقول: «إن أئمة طرابلس مع لطافتهم وديانتهم وحسن أخلاقهم لا يقيمون بها مجالس العلم والتدريس، غافلين عن المنافسة فى هذا الأمر النفيس، وكأنها عليهم تعذَّرت أو عادة عندهم قد

تقررت، سوى فرد من الناس، بدا فى جُنْح ليلها كالنبراس». وعالم طرابلسى واحد فقط هو الذى لفت الناصرى، والبلد لم تكن قفرا من العلماء، ولكنها كانت قفرا ممن يشجعونهم ويثيرون فيهم الرغبة فى المنافسة العلمية، وبالتالى فى البحث والجدل والمناظرة.

٢

علوم الأوائل - علوم اللغة والنحو والعروض

(أ) علوم الأوائل

لم يكن لليبيا نشاط واضح فى علوم الأوائل قبل العصر الحديث، إنما يذكر عرضا أن هذا العالم اللغوى أو الفقيه المالكى بجانب علمه الواسع بمادته كان عالما بالحساب والهندسة والكيمياء مثل عبد الله بن عبد الله البرقى الراحل إلى الأندلس زمن الخليفة المستنصر (٣٥٠-٣٦٦ هـ). ويقال إنه كان عالما باللغة والنحو وإماما فيها وعالما بالحساب والهندسة، ويقال عن الجلالمى الفقيه الإباضى فى القرن الرابع إنه كان مع براعته فى علمى الأصول والمنطق كان بارعا فى الحساب، ومثله معاصره ابن المنمر الفقيه المالكى، وكان عبدالرحمن بن محمد التاجورى الطرابلسى الفقيه المالكى فى القرن العاشر الهجرى علامة زمانه فى علم الميقات. وهى إشارات متباعدة زمنيا ولا تحمل لليبيا نشاطا بَيِّنا فى علوم الأوائل.

(ب) علوم اللغة والنحو والعروض

طبيعى أن تعنى ليبيا وبلدانها بالعربية، وكان الليبيون على مثال عمر بن يَمْكُتَن فى تلقفه للقرآن الكريم وآياته من أفواه الجند العربى يتلقفون كلهم العربية منهم وما يجرى على ألسنتهم من بعض الأشعار. ونشأت الكتاتيب، وأخذوا يتلقنون مع آيات الذكر الحكيم بعض الأمثال العربية وبعض الأحاديث النبوية، وربما ألم لهم الشيخ بشىء من خطب الرسول والخلفاء الراشدين، حتى إذا كان القرن الثانى أخذت ناشئة من العلماء من أهل ليبيا تحسن قراءة الذكر الحكيم وتروى بعض الأحاديث وتنشد بعض الأشعار، ورحل عدد منهم غير قليل لأداء فريضة الحج ولقاء العلماء فى مصر والحجاز والعراق، وسمع بعضهم بوضع علماء البصرة لقواعد العربية، فرحلوا إليهم وتتلمذوا عليهم، وعادوا إلى الكتاتيب فى ليبيا يعلمون الناشئة ما سمعوه من تلك القواعد، وعلّموها أيضا للشباب فى المساجد وأخذ يشاركهم فى هذا التعليم وافدون من المشرق: من البصرة أحيانا ومن الكوفة أحيانا أخرى، وما تلبث ليبيا أن يصبح لها لغويون ونحاة من أهلها، يتقدمهم أربعة عاشوا فى عصر الدولة الأغلبية (١٨٤ - ٢٩٦ هـ)

ترجم لهم جميعا الزبيدى فى طبقاته، وأولهم محمد بن صدقة المرادى الطرابلسى، وغلب عليه التقعر فى اللغة، إذ كان لا يكتفى بالمألوف من اللغة فى محاضراته وإملاءاته، بل يطلب دائما الشواذ والنوادر والغرائب اللغوية حتى يبهر تلاميذه وسامعيه. والثانى خلف بن مختار الطرابلسى المتوفى سنة ٢٩٠ وكان صاحب نحو ولغة ويقرض الشعر ويجيد المعانى، والثالث محمد بن سالم الطرابلسى المعروف بالعقعق وكان صاحب نحو ولغة مثل سالفه مع علم بالجدل وإيمان بالاعتزال ومبادئه، والرابع عبد الله بن محمود من أهل سرت، نشأ فيها وأخذ عن علمائها، ورحل إلى القيروان للتزود من حلقات علمائها وبها دوَّت شهرته فى اللغة والغريب وشَرْح الدواوين الشعرية وأيام العرب، وله كتب أملاها فى اللغة والعربية والغريب والعروض، يقول الزبيدى: «وإليه كانت الرحلة من جميع إفريقية التونسية والمغرب، وعليه قرأ الناس المشروحات توفى سنة ٣٠٨ للهجرة». ونلتقى عند القفطى فى إنباه الرواة بأبى بكر محمد بن مؤمن الكندى البَرْقى، وفد على مصر وتوفى فيها سنة ٣٥١ وقد قارب الثمانين وكان نحويًّا كبيرا، كما نلتقى بعلى بن مضر البرنيقى أو البنغازى نزيل مصر، كان نحويا لغويا كبيرا وكتب بخطه كثيرا من الكتب اللغوية وكان الناس يتنافسون فى تحصيل ما يكتبه، ويقول القفطى إنه رأى نسخة بخطه من معجم الجمهرة لابن دريد، وقد بيعت بأربعة وعشرين دينارا مصريا، وإذا كان قد حمل إلى القاهرة نسخة من الجمهرة بخطه، فإننا سنرى ابن القطاع بعده بأكثر من قرن يحمل إلى القاهرة من صقلية نسخة من صحاح الجوهرى، وكان عليها اعتماد المصريين فى رواية معجم الجوهرى، كما كان اعتمادهم على نسخة معجم الجمهرة بخط على بن مضر البنغازى، ولعل فى حمله لها إلى القاهرة ما يدل على ما بلغه أهل ليبيا من العلم باللغة ومعاجمها الكبيرة فى القرن الرابع الهجرى، إذ توفى سنة ٣٨٤ للهجرة.

وإذا مضينا إلى القرن الخامس الهجرى التقينا فى طرابلس بعالم فذ من علماء اللغة العربية يحق لطرابلس –بل لليبيا عامة– أن تفاخر به، ويحسن أن نتوقف عنده قليلا لنتخذ منه رمزا قويا على مدى ما حذقته ليبيا وطرابلس حتى زمنه من علوم العربية والتعمق فيها، وهو أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل الأجدابى الطرابلسى اللواتى، فهو ليبى من قبيلة لواتة البربرية التى سكنت الساحل الليبى منذ العصور السحيقة، وأصل أسرته من أجدابية فى إقليم برقة، ولذلك نُسب إليها، وقد وُلد ونشأ وأمضى حياته فى طرابلس إلى أن توفى بها، ولذلك عُرف بالطرابلسى. واختلف من ترجموا له أو ذكروه فى القرن الذى عاش فيه، فقيل عاش فى القرن السابع الهجرى، وقيل: بل فى القرن السادس، وقال التجانى فى رحلته إنه عاش فى القرن الخامس الهجرى، ويؤيده – بل يقطع به – خبر له مع قاضى بلدته ابن هانش الذى ولى قضاءها بين سنتى ٤٤٤ و٤٧٧ فقد ذكر الرواة أنه حضر مجلس قضائه، فرآه يحكم بحكم مخطئ

فردَّه، فقال له ابن هانش: «اسكت يا أحول فما استُدعيت، ولا استُفتيت» وانصرف من مجلسه غاضبا، فألف رسالة فى الحوَل تدل على سعة علمه، وهى سعة شهد له بها كثيرون مثل القفطى فى ترجمته له بإنباه الرواة، إذ يقول عنه: «من أهل اللغة، وممن تصدَّر فى بلده واشتهر بالعلم.. وكانت له يد جيدة فى اللغة وتحقيقها وإفادتها». ويقال إنه سئل من أين لك كل هذا العلم ولم ترحل؟ فأجاب: اكتسبته من بابى هوارة وزناتة فى بلدتى، يريد من العلماء الذين كانوا يفدون على طرابلس من الشرق والغرب، مما يدل على الأثر الواسع للوافدين على طرابلس فى ثقافة شبابها ومعارفهم العلمية على نحو ما أشرنا إلى ذلك فيما أسلفنا من حديث. ويقول التجانى فيه برحلته: «كان الفقيه أبو إسحق هذا من أعلم زمانه بجميع العلوم كلاما وفقها ونحوا ولغة وعروضا ونظما ونثرا». وينوه بمؤلفاته، ويذكر منها كتابه فى العروض، ويقول: «ناهيك به حسنا وترتيبا وتهذيبا، وهو نسختان: كبرى وصغرى» كما يذكر له كتابا مختصرا فى علم الأنساب، اختصر فيه أنساب قريش للزبير بن بكار، ويقول: «قد رأيت أبا إسحق قد أدخل من حفظه فى هذا المختصر زوائد تشتمل على فوائد نبَّه عليها». ومن مؤلفاته الطريفة كتاب فى الرد على ابن مكى فى كتابه: «تثقيف اللسان» وما جمعه فيه من الأخطاء اللغوية التى تدور فى أفواه الناس والعلماء، وقد راجعه فى كثير من هذه الأخطاء محاولا تصحيح بعض ما ظنه خطأ وتسويغه. وينوه التجانى بكتاب له فى شرح ما آخره ياء مشددة من الأسماء وبيان اعتلالها، ويقول التجانى: «استوفى فيه جميع أحكام هذه الياء على اختلاف أحوالها.. ولما استوفى ذلك استيفاء جميلا تعرَّض لشرح المقاطع (الفواصل اليائية) الواقعة فى سورة مريم لاشتمالها على كثير من تلك الأحكام، فجاء هذا التأليف فى غاية الإفادة». ويبدو أنه كان فقيها كبيرا، وتشهد له بذلك مراجعته لابن هانش السالفة فى حكم قضائى له، ويقول التجانى: له تآليف جليلة وأسئلة مفيدة فى الفقه، ولكن لاشك فى أن نشاطه اللغوى كان أكبر وأخصب من نشاطه الفقهى. وقد نُشر من مؤلفاته كتابان لغويان نفيسان هما: كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ، والأزمنة والأنواء.

أما كتاب كفاية المتحفظ فهو على مثال كتاب فقه اللغة للثعالبى، ويتوزَّع مثله إلى عدة أبواب، فباب فى صفات الرجال المحمودة ويتلوه بصفات الرجال المذمومة، وباب فى صفات النساء المحمودة، ويتلوه بالمذموم من صفاتهن، وباب فى خَلْق الإنسان، وباب فى الخيل، وباب فى السلاح، وباب فى السباع والوحش، وباب فى الطير، وباب فى النبات إلى غير ذلك من أبواب كثيرة، ويقول فى مقدمته: «هذا كتاب مختصر فى اللغة وما يُحتاج إليه من غريب الكلام، أودعناه كثيرا من الأسماء والصفات، وجنَّبناه حوشيَّ الألفاظ واللغات، وأعريناه من الشواهد، ليسهل حفظه ويقرب تناوله، وجعلناه مغنيا لمن اقتصد فى هذا الفن، ومعينا لمن أراد الاتساع فيه». وقد

نال هذا الكتاب شهرة واسعة فى العالم العربى من قديم شرقا وغربا وعكف عليه غير عالم يشرحه أو ينظمه شعرًا ليسهل على الطلاب حفظ ما فيه، وعدَّد بروكلمان فى ترجمته مخطوطاته ومخطوطات شروحه ونظمه، وطُبع الكتاب فى عصرنا بالقاهرة وبيروت وحلب، ونسوق مثالا من صفحاته الأولى يوضح مدى أهميته والفائدة - أو الفوائد - اللغوية منه، يقول فى باب الصفات المحمودة فى الرِّجال:

«الجواد: الرجل السخىُّ، والخِرْق: الكريم، والخِضَمّ: الكثير العطية، والخِضْرم: الكثير الإنفاق، والأَرْيَحىّ: الذى يرتاح للعطاء، والحسيب: الكريم الآباء، والماجد: الشريف، والصِّنديد: الرئيس العظيم وكذلك الهمام، والسميدع: السيد وكذلك الجَحْجَاح والأريب: العاقل، والحُلاحل: الوقور، والمنجِّذ الذى قد جرَّب الأمور، والمِدْره: الذى يكون رأس القوم ولسانهم، واللَّوْذَعِىّ: الذكىّ القلب، والمصقع: البليغ اللسان، والسَّرِىّ: المرتفع القدر وجمعه سَراة بفتح السين».

وتشهد هذه الألفاظ بأنه كان صاحب حسٍّ أدبى وذوق مرهف وذاكرة لاقطة، مما جعله يعرف كيف يختار فى كل باب من أبواب الكتاب من معاجم اللغة ومما حفظه من الشعر والنثر ألفاظا مصفَّاة نقية من شوائب الغرابة والإغراب كما قال فى مقدمة الكتاب ومع تفسيرها بحيث تكون معانيها واضحة تمام الوضوح للشباب والأدباء حين يستخدمونها ويتلفظون بها، وهو ما دفع الناس - كما يقول القفطى - فى مصر والمغرب إلى الاشتغال بالكتاب والعناية بحفظ ما فيه من الكلم المتخيَّر المستعذب.

وأما كتاب الأزمنة والأنواء فقد حققه ونشره الدكتور عزة حسن بدمشق سنة ١٩٦٤ للميلاد، ويقول ابن الأجدابى الطرابلسى فى مقدمته: «هذا كتاب مختصر أودعناه أبوابا حسنة فى علم الأزمنة وأساساتها، والفصول وأوقاتها، ومناظر النجوم وهيآتها، بأوضح ما أمكننا من التبيين، وبأسهل ما حضرنا من التقريب». والكتاب - كما يدل عنوانه - فى علم الفلك وما يتصل به من الكواكب وأوضاع الشمس والقمر على مدار العام والأمطار والرياح وتغير الفصول. والعرب منذ الجاهلية يعنون بهذا العلم لشدة حاجتهم لمعرفة مواقع النجوم فى ظلمات لياليهم الصحراوية الطويلة، حتى لكأنها المصابيح التى تهديهم فى سراهم ليلا فلا يضلون السبل، وقد أكثروا من التأليف فى هذا العلم منذ القرن الثانى الهجرى، ونقلوا عن الأمم القديمة: اليونانية والفارسية والهندية ما كتبوه فيه ومزجوه بمعارف العرب فى صور مختلفة. وكتاب ابن الأجدابى يكتظ بمعلومات طريفة، وقد استهله بحساب الأزمنة والسنين والشهور الشمسية عند الروم وغيرهم والقمرية عند العرب ثم يذكر الكواكب المشهورة ومواقعها فى القبَّة الزرقاء والكواكب السيَّارة فى السماء، ويتحدث عن بيان أزمنة السنة وبروج الشمس ومنازلها والرياح

وأسمائها، ويختم الكتاب بتفصيل الحديث فى الشهور الشمسية وأسمائها عند الأعاجم. ويذكر مع كل موضوع الأشعار والأمثال المسجوعة المرتبطة به، مع ما يعم فى الكتاب من جمال الصياغة وحسن العبارة، وبذلك استحال علم الفلك عند ابن الأجدابى الطرابلسى إلى علم أدبى، مما يدل بوضوح على قدرته وبراعته الأدبية.

وفى كتب الطبقات بعد ابن الأجدابى الطرابلسى أسماء لبعض اللغويين والنحاة الليبيين على مدار الحقب إلى العصر الحديث، غير أن أحدًا من الليبيين لم يبلغ مبلغه فى التعمق اللغوى مع حسن العرض وجمال البيان، وممن تذكره كتب التراجم بعده معاصره خلوف بن عبد الله البرقى النحوى نزيل صقلية وأبو الحسن على البرقى المتوفى سنة ٥٢٢ للهجرة، وكان نحويا كما كان شاعرا. وتمر قرون ولا يلمع فى ليبيا اسم لغوى أو نحوى، ويلقانا فى القرن التاسع يوسف بن على الجعرانى فى القصبات عاصمة مسلاتة سنة ٨٢٠ وله شرح على متن الأجرومية، وبنى له زاوية ببلدته كان يتعبد فيها لربه ويدرس النحو وغيره لطلابه، وممن نلقاهم فى القرن العاشر الهجرى محمد بن محمد بن عبد الرحمن الخطاب الطرابلسى المتوفى سنة ٩٥٤ للهجرة، وله حاشية على كتاب قطر النَّدَى لابن هشام وأخرى على كتابه التوضيح أو أوضح المسالك، وله كتاب لغوى فى المواضع التى غلط فيها الجوهرى صاحب معجم الصحاح والفيروزابادى صاحب القاموس المحيط.

٣

علـوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

تمثِّل قرَّاءُ ليبيا للذكر الحكيم – مثل بقية قرَّاء المغرب – قراءة وَرْش المصرى التى تلقَّنها عن نافع مقرئ المدينة المشهور وأحد القرَّاء السبعة، ولا يزال القرَّاء – إلى اليوم – يدوُّون بها فى ليبيا والبلاد المغربية دوىَّ النَّحْل، ومن القراء المبكرين بليبيا فى جبل نفوسة عمر بن يِكْتن الذى مر بنا ذكره فى الحركة العلمية، ومن كبار القراء فى القرون التالية بعده مؤمن بن فَرج الهوارى الطرابلسى المتوفى سنة ٤٤٢ للهجرة، وكان يقرئ القرآن فى مسجد عُرف باسمه بعده كما يقول التجانى فى رحلته، واشتهر عبد السلام بن عبد الغالب المسراتى المتوفى سنة ٦٤٦ للهجرة بأنه كان يعنى بالقراءات السبع جميعا، ومثله على بن عبد الحميد العوسجى المتوفى سنة ٩٢٥ وكان يحفظ الذكر الحكيم بالقراءات السبع، وكان يحفظه للغلمان فى مسجد بناه فى حياته واشتهر بأنه مؤدب الصبيان. وكانت المساجد والزوايا والكتاتيب جميعا تموج بقراءة القرآن الكريم على مر الحقب.

وعلى نحو ما كانت ليبيا تعنى بقراءات الذكر الحكيم كانت تعنى بتفسيره، وكان علماؤها يتلقون ما كتبه الطبرى وغيره من علماء المشرق ويعرضونه على الطلاب والناس، ومن كبار مفسريه بطرابلس مؤمن بن فرج الهوارى المذكور آنفا بين القراء، ومنهم أيضا محمد بن محمد الحطاب المتوفى سنة ٩٥٤ وله فى التفسير حاشية على تفسير البيضاوى، ويقال إنه حاول أن يكتب تفسيرا للقرآن وأنه مضى فيه حتى سورة الأعراف، ولم يكتب له أن يتمه، ومن مؤلفاته القرآنية كتاب فى تجويد القراءات أو فى علم تجويده. وكان يعاصره مفسر طرابلسى هو محمد بن على الخروبى المتوفى سنة ٩٦٣ وله تفسير تحتفظ به رفوف دار الكتب المصرية فى ثمانى مجلدات، سماه: «رياض الأزهار وكنز الأسرار» وكان صوفيا كبيرا وربما نزع فيه منزع المتصوفة فى تفسير الذكر الحكيم.

ولم تكن تقل عناية ليبيا بالحديث النبوى عن عنايتها بالتفسير للقرآن الكريم وقراءاته، ومن محدِّثيها سعيد بن عباس من أهل مدينة سرت، توفى سنة ٢٠٠ للهجرة، وتشتهر بروايته وتدريسه بعض البيوت أو الأسر مثل أسرة أحمد بن عبد الله بن صالح بن مسلم العجلى فى طرابلس المتوفى سنة ٢٦١ للهجرة، وكان يشبَّه بأحمد بن حنبل فى كثرة ما يروى من الأحاديث، وكان ابناه عبد الله وصالح محدثين، وظلت أسرته فى طرابلس تشتهر بروايتها للحديث النبوى وتدريسه للطلاب. وكان يعاصره فى برقة محدثان جليلان هما إبراهيم البرقى وعبد الكريم البرقى. ونلتقى فى القرن الرابع الهجرى بيحيى بن دحمان، وكان محدثا كبيرا، تسامع به أهل الحديث النبوى فى البلاد المغربية والأندلسية، ومرَّ بنا أن أندلسيين محدثين سمعا منه الحديث. ومن نابهى المحدثين فى هذا القرن ابن زكرون على بن أحمد بن زكريا المار ذكره فى الفصل الماضى بين الزهاد، وهو تلميذ صالح بن أحمد العجلى، وكان يلقى دروسه فى الحديث النبوى بمسجد المجاز فى طرابلس، وإليه كانت الرحلة من بلدان إفريقية التونسية والبلدان المغربية، وممن رحل إليه للسماع عنه أبو الحسن القابسى محدث تونس المشهور، وله فى الحديث والفقه والرقائق الوعظية تآليف كثيرة. ومن كبار المحدثين بعده أحمد بن نصر الداودى المتوفى سنة ٤٠٢هـ/١٠١٢م كان من أئمة المالكية، أنجبته طرابلس، وألَّف فيها كتابه: «النامى» فى شرح الموطأ لمالك، وانتقل منها إلى تلمسان، وفيها ألف كتبا متعددة، منها: «النصيحة فى شرح كتاب البخارى» ويقال إنه أول من شرحه فى العالم الإسلامى، وألف كتاب الواعى فى الفقه وكتاب الأموال وهو فتاوى وأحكام فى غنائم وأراضى البلدان المفتوحة. ومن أهم المحدثين بعده إبراهيم بن عبد السلام المسراتى المتوفى سنة ٧٠٤ اشتهر بعنايته البالغة بغريب الحديث، وأهم منه معاصره الإمام الحافظ الكبير أبو فارس عبد العزيز بن عبد العظيم المشهور باسم ابن عبيد المولود بطرابلس سنة ٦٣٩ وينوِّه به وبعلمه التجانى فى رحلته التى تحدث فيها عن زيارته

لطرابلس سنة ٧٠٧ للهجرة بصحبة الأمير الحفصى زكريا بن اللحيانى، وفيه يقول: «القائم برسم العلم فى هذه البلدة (طرابلس) فى وقتنا هذا شيخنا الإمام الحافظ أبوفارس عبدالعزيز بن عبدالعظيم حضرت درسه بمسجد مجاور لداره، فرأيت رجلا متضلعا من العلم، ذاكرا بالمذهب (المالكى) ذكرا لا يجاريه فيه أحد، ولا تكاد مسألة من مسائله تشذ عنه، حسن العبارة، مشاركا فى علوم جمّة وله اعتناء بحفظ كلام (الأئمة) القرويين (بالمغرب الأقصى) فى المذهب (المالكى) من تعليل أو تفسير أو توجيه أو تخريج، واعتماده فى الأصول الدينية والفقهية على كلام أبى المعالى (الجوينى إمام الحرمين) وكلام الشيخ أبى حامد الغزالى.. ولما حضرت درسه وتحققت مكانته المكينة فى العلم أحببت القراءة عليه مدة إقامتنا هنالك (بطرابلس) وطلب مخدومنا (الأمير أبى زكريا اللحيانى) أن يكون ذلك بمحضر منه، فلم يكن بد من استدعاء الشيخ لموضع سكنانا، فعقدنا مجلسه لذلك بالقصبة (قصر البلدة) وفى مجلس الأمير منها، وطلب الحضور بذلك المجلس جماعة من أعيان الطلبة بالبلد، فأذن لهم، ورأينا أن يكون المقروء حديث خير الأنام». ويذكر التجانى أن ابتداء هذه المجالس كان فى شهر شعبان من سنة ٧٠٧ وأنه بدأ بقراءة صحيح مسلم، والشيخ يعلق ويفسر ويجيب على الأسئلة، حتى إذا أتمَّ التجانى قراءة صحيح مسلم على الشيخ أخذ يقرأ عليه صحيح البخارى، والشيخ يفسر ويعلق تعليقات علمية ويرد على الأسئلة ردودًا دقيقة غاية الدقة، وأجاز ابن عبيد التجانى بما رواه عن شيوخه من هذين الصحيحين فى صفر سنة ٧٠٨ للهجرة.

وبدون ريب يمثل ابن عبيد الذروة التى انتهى إليها علماء الحديث وحفاظه فى طرابلس وأنهم لم يكونوا يقلون علما وحفظا ودراية للحديث النبوى وتعمقا فى دراسته عن أندادهم فى البلدان العربية: فى تونس وغير تونس بل إن هذا أحد الأفذاذ المتأدبين بتونس يقطع مع أميره رحلتهما ويظلان بطرابلس أشهرًا ليحظيا بأخذ صحيحى مسلم والبخارى عن هذا الحافظ الكبير الثبت الحجة، وقد سألة التجانى عن شيوخه فأعطاه ثبتا بأهمهم، ونفر منهم كانوا طرابلسيين ونفر آخر كانوا من الوافدين على طرابلس إما لتولى منصب القضاء وإما مارِّين بها فى الطريق لأداء فريضة الحج أو عائدين إلى ديارهم المغربية، ويذكر له الكتب التى أخذها عنهم، وفى مقدمتها كتاب الإرشاد لأبى المعالى إمام الحرمين الجوينى وكتاب البرهان له أيضا وكتاب المستصفى للغزالى. وفى ذلك مايؤكد ما قلناه فى غير هذا الموضع من أن الوافدين على طرابلس والمجتازين بها كان لهم تأثير واسع فى حركتها العلمية. وتظل رواية الحديث النبوى ودراسته متصلتين فى طرابلس وكل أنحاء ليبيا طوال القرون التالية.

ويُعَدّ الفقه أهم علم إسلامى استوعب نشاط العلماء الليبيين، وطبيعى أن لاينشأ فى ليبيا فقهاء يحسنون العلم بالمذاهب الفقهية المشهورة: مذهب أبى حنيفة ومذهب مالك ومذهب

الشافعي ومذهب ابن حنبل إلا بعد نشوء هذه المذاهب، وقد نشأت الثلاثة الأولى فى القرن الثانى الهجرى، ونشأ الرابع فى القرن الثالث الهجرى على نحو ما هو معروف، وظل بعيدًا عن أهل ليبيا لايعرفه – ولايعتنقه – أحد منهم، وكان مذهب أبى حنيفة فى العراق بعيدا عنهم، غير أن إمامه لعهد الرشيد: أبا يوسف حمله على أن يخص القضاء فى الدولة الإسلامية جميعها بأهله، فكان يشترط فى القاضى بأى بلد إسلامى أن يكون فقيها حنفيا، وكان إبراهيم بن الأغلب والى الرشيد ومؤسس الدولة الأغلبية فى إفريقية التونسية وطرابلس يصدع هو والحكام من أسرته لمشيئة الرشيد وأبى يوسف فى أن يكون القضاة بدولتهم أحنافًا ما أمكن ذلك، مما يجعلنا نظن أنه تولى القضاء فى زمنهم بطرابلس بعض القضاة الأحناف، مما جعل المذهب الحنفى يعرف فيها بعض المعرفة، وبانتهاء زمن الدولة الأغلبية تنتهى صلة طرابلس بالمذهب، حتى إذا والت ليبيا الدولة العثمانية عادت هذه الصلة. إذ كان العثمانيون يفرضون على البلدان الموالية لهم أن يكون قضاتها أحنافًا. وكان المذهب الشافعي قد انتشر بمصر وكثر فقهاؤه، ولا نسمع أن ليبيًّا اعتنقه، إذ كان قد جذبهم إليه مذهب مالك أستاذ الشافعي وإمام المدينة والحجاز. ولم يكد يبقى فى علماء ليبيا بقية لمذهب سواه، وخاصة أن نفرا منهم كانوا قد حضروا دروس مالك وحملوا عنه كتاب مذهبه: الموطأ وأخذوا يشيعون المذهب فى ليبيا على نحو مانعرف عن معاوية بن محمد الحضرمى الطرابلسى تلميذ مالك، وكان قد حمل المذهب عنه جلة من الفقهاء المصريين، فكان الليبيون يأخذون عنهم مثل إبراهيم بن أبى الفياض فقيه برقة المتوفى سنة ٢٤٥ تلميذ عبد الله بن وهب بالفسطاط حامل مذهب مالك عنه إلى مصر، أو بعبارة أدق أحد حملته عنه المصريين المهمين، وكان سحنون إمام المذهب فى المغرب وحامله عن عبد الرحمن بن القاسم فى مصر قد نزل قبل قدومه إلى القيروان فى أجدابية بليبيا سنة ١٩١ وأذاعه فيها وانتقل إلى طرابلس وظل بها ثلاث سنوات يدرس لأهلها المذهب ويشيعه، ويلقانا فقهاء ومالكية كثيرون فى بلدان ليبيا المختلفة مثل ابن أبى زرعة البرقى المتوفى سنة ٢٤٩ وله مؤلفات مختلفة فى المذهب ورجال الموطأ وزيادات على مختصر الفقيه المالكى المصرى ابن عبد الحكم ذكر فيها اختلافات فقهاء الأمصار، ونلتقى فى مدينة سرت بعبد الجبار بن خالد السرتى المتوفى سنة ٢٨١ للهجرة، وهو من تلامذة سحنون، وممن نلتقى به فى طرابلس موسى بن عبد الرحمن بن حبيب القطان المتوفى سنة ٣٠٦ وهو تلميذ محمد بن سحنون خليفة أبيه فى حلقته بالقيروان، وتولى القضاء ببلدته فترة، ويقول ابن فرحون فى الديباج إنه كان يحسن الكلام فى الفقه على مذهب الإمام مالك، ويذكر له كتابا ضخما فى أحكام القرآن فى اثنى عشر جزءًا، ونلتقى فى برقة بالفقيه المالكى عبد الله بن إسماعيل البرقى المتوفى سنة ٣١٧ ومرَّ بنا ذكره مع عبد الجبار البرقى بين الزهاد، ويلقانا فى سرت الفقيه المالكى محمد بن حسن الزويلى السرتى المتوفى سنة ٣٨٣.

ونلتقى بإمام كبير من أئمة الفقه المالكى بطرابلس، هو على بن محمد بن المنمر المتوفى سنة

٤٣٢، وهو أول من انتصر لمذهب أهل السنة فى بلده ضد المذهب الفاطمى الشيعى، وأمر بمنع شارتهم فى الأذان: «حيَّ على خير العمل» ودعا الناس إلى صلاة الضحى جهارا ولم يكونوا يصلونها فى زمن الفاطميين إلا مستخفين، وأعاد صلاة القيام فى رمضان وكان الفاطميون قد محوا رسمها محوًا تامًّا فى أيامهم، وعنى فى كتاباته ومحاضراته بمناصرة أهل السنة. ومن مؤلفاته التى عُنى بها الطرابلسيون طويلًا كتابه: «الكافى فى الفرائض». ومن أئمة الفقه المالكى بطرابلس عمران بن موسى بن معمر المتوفى سنة ٦٦٠ وهو أستاذ ابن عبيد الحافظ الكبير الذى نوه به التجانى طويلا كما مرَّ بنا، وكان يدرس لطلابه من أمهات المذهب المالكى كتاب التفريع لابن الجلاب وتهذيب المدوَّنة للبرادعى. كما كان يدرس لهم كتاب المستصفى للغزالى والمحصول لابن العربى الأندلسى، وظل قاضيًا على طرابلس أكثر من ثلاثين عاما واشتهر بدقته فى أحكامه وأقضيته، فاستدعاه المستنصر الحفصى لتولى القضاء فى تونس سنة ٦٥٨ للهجرة، وتولاه لمدة عامين بها حتى توفى. وعرف شيوخ طرابلس حينئذ نظام المعيدين المعروف بمصر وغيرها فى زمانهم، وكان المعيد عنده عبد الوهاب بن محمد الهنزولى، وخلفه فى حلقته ودروسه حين بارح طرابلس إلى تونس بدعوة المستنصر الحفصى، ومن نابهى فقهاء المالكية عبد الحميد بن أبى البركات بن أبى الدنيا المتوفى سنة ٦٨٤ وهو مثل ابن معمر من أساتذة الحافظ المحدث ابن عبيد، وكان يدرس لطلابه بطرابلس كتابى الإرشاد والبرهان لأبى المعالى الجوينى وكتاب المستصفى للغزالى، وسأعود للترجمة له بين الشعراء، إذ كان شاعرًا كبيرًا. ومن فقهاء المالكية النابهين أحمد بن عبد الرحمن الزليطنى الفقيه الأصولى المتوفى بأخرة من القرن التاسع، وهو أستاذ زروق أو بعبارة أدق أحد أساتذته، وله مؤلفات كثيرة، منها شرحان على مختصر خليل فى الفقه المالكى أحدهما ضخم فى ستة مجلدات، ومنها شرحان على أصول السبكى، ومنها شرح مختصر فتاوى البرزالى، وتولى القضاء بطرابلس فترة ثم أسندت إليه بتونس مشيخة المدارس. ومرَّ بنا زروق فى حديثنا عن الصوفية، وكان فقيها مالكيا كبيرًا، ومن كتبه الفقهية شرحان لرسالة ابن أبى زيد فى الفقه، وشرح مواضع من مختصر خليل، وشرح الإرشاد فى الفقه. ويظل الفقه المالكى مزدهرا فى طرابلس – مثلها فى ذلك مثل بقية البلاد المغربية، ومن فقهائها النابهين فى العصر العثمانى محمد بن شعبان الطرابلسى المتوفى سنة ١٠٢٠ وقد أسند إليه القضاء فى طرابلس والفتوى والتدريس، واشتهر بمناظرته لعلماء إستانبول. ومر العياشى بطرابلس سنة ١٠٥٩هـ/١٦٥٠م وذكر من فقهائها فى رحلته أثناء وصفه للمدينة محمد بن أحمد بن عيسى اليربوعى ومحمد بن مساهل مفتيها وقد ظلت ولايته للفتوى بها نحو أربعين سنة حُمدت فيها سيرته، ونوَّه بالفقيه محمد المكى وقال إن بيته بيت علم وذكر له خزانة كتب ليس لأحد من أهل بلدته خزانة تماثلها، وذكر من مؤلفاته: «شكر المنة فى نصر السنة» وهو فى الرد على عقيدة الإباضية.

والحق أن فقهاء المذهب المالكى فى ليبيا يفوتون الحصر، مثلها فى ذلك مثل الأقاليم المغربية المختلفة، وكانت الجماهير فيها جميعا تعتنق مذاهب أهل السنة وخاصة مذهب مالك فهو المذهب الذى ذاع وشاع فى جميع البقاع المغربية، إلا ما كان من جبل نفوسة فى ليبيا وجزيرة جربة فى تونس وبلاد ميزاب فى جنوبى الجزائر، فإنها جميعا اعتنقت العقيدة الإباضية إلى اليوم، ونلتقى بفقهاء لها عديدين فى جبل نفوسة، ومن أوائلهم إسماعيل بن ضرار الغدامسى أحد الذين رحلوا إلى البصرة للتلمذة على أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة داعية العقيدة الإباضية وظل ملازما له خمس سنوات وعاد إلى موطنه فولّاه أبو الخطاب عبد الأعلى المعافرى فى ثورته بجبل نفوسة وطرابلس سنة ١٤٠ القضاء فى دولته ووكل إليه بجانبه شئون التعليم، وأخذ الفقهاء الإباضيون بعده يتكاثرون فى جبل نفوسة ومن أهمهم فى القرن الثالث الهجرى عمروس بن فتح النفوسى المتوفى سنة ٢٨٣ للهجرة وله كتب فى العقيدة الإباضية: فى الأصول والفروع، من أهمها كتاب منسوب إليه يسمى «العمروسى» ولما نزل داعية الإباضية بشر بن غانم الخراسانى جبل نفوسة استودعه مدونة فى الفقه الإباضى رواها عن تلامذة داعية الإباضية الكبير بالبصرة أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة، فتفرَّغ هو وأخت له ليل نهار لنسخها، وكانت تقع فى اثنى عشر جزءا، حتى أتمّا نسخها، وتصادف أن الأيام حفظتها بينما احترقت النسخة الأصلية. وعليها اعتماد الإباضية فى الفقه، وهى تقوم عندهم مقام مدوَّنة سحنون فى مذهب الإمام مالك. ومن فقهاء الإباضية فى القرن الرابع الهجرى سليمان بن ماطوس الشروسى، وتعد فتاويه مرجعًا مهما عند الإباضية، وموسى بن يونس الجلالمى، وقد برع فى الأصول والمنطق والرياضيات وأسس مدرسة كبيرة كان بها أقسام داخلية للطلاب والغرباء، ونلتقى فى القرن الخامس بالفقيه أحمد بن بكر النفوسى مؤسس جماعة العزابة، وكانت لها هيئة عليا وفروع فى كل بلد وقرية تضم خير أهلها علما وصلاحا، ومهمتها خدمة المصلحة العامة، ولهذا الفقيه الإباضى مؤلفات كثيرة، منها أصول الأرضين فى ستة أجزاء والجامع فى الفروع فى جزءين والقسمة وتبيين أفعال العباد فى ثلاثة أجزاء، ونلتقى فى القرن السادس بيوسف بن إبراهيم السدراتى المتوفى سنة ٥٧٠ وله كتاب العدل فى أصول الفقه وكتاب الترتيب فى علم الحديث، ومن كبار فقهاء الإباضية فى القرن على بن يخلف التِّمجارى النفوسى، ناشر الإسلام فى مملكة مالى فقد رحل إليها سنة ٥٧٥ وأقنع ملكها ووزراءه وأهلها بالدين الحنيف فاعتنقوه، وظل فى ديارهم يعلمهم فرائض الإسلام ويحفظهم القرآن الكريم ويفقههم فى الدين، وهى يد عظيمة لإباضية نفوسة بجانب الأيادى الأخرى العظيمة لصوفية المغرب ودراويشها فى نشر الإسلام بإفريقية السوداء غربًا ووسطًا وشرقًا. ومن كبار فقهاء الإباضية فى القرن الثامن الهجرى أبو طاهر إسماعيل بن موسى الجيطالى نسبة إلى جيطال مدينة كبيرة فى جبل نفوسة، توفى سنة ٧٥٠ للهجرة، وهو كثير التأليف، له كتاب فى الفرائض وكتاب فى الحج والمناسك

وكتاب قواعد الإسلام وكتاب قناطر الخيرات فى ثلاثة أجزاء. ونلتقى بأبى ساكن عامر الشماخى المتوفى سنة ٧٩٢ عَزَم على أن يؤلف مدونة كبرى فى الفقه وأخرج منها أربعة أجزاء أولها فى الصلاة، والثانى فى الزكاة والصوم والحج والنذور والأيمان والحقوق، والثالث فى البيوع والقسمة والرهن، والرابع فى الوصايا والهبات. ونلتقى فى القرن العاشر ببدر الدين أحمد الشماخى المتوفى سنة ٩٢٨ ومن أهم كتبه مقدمة فى أصول الفقه. وللإباضية مجموعتان فقهيتان: مجموعة تسمى الديوان ألفها سبعة من فقهائهم فى نفوسة، ومجموعة ثانية تسميها ديوان العزابة ألفها عشرة من فقهاء نفوسة الكبار.

وقد مر المذهب الفقهى الإسماعيلى الفاطمى على ليبيا مرورا سريعًا فقد كان الناس منصرفين عنه إلا نفرا قليلا بل أقل من القليل رأوا التعلق بدنيا الفاطميين، وربما ألجأتهم إلى ذلك الضرورة، ولا نسمع فى طرابلس عن فقيه إسماعيلى إلا مايروى عن خليل بن إسحق ولم يكن فقيها بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ولا كانت له مؤلفات فقهية، إنما حضر حلقات بعض الفقهاء حتى إذا دوّى طبل المهدى وابنه القائم أسرع فى الانضواء تحت لوائهما، ومثله محمد بن سيار الفقيه البرقى المتوفى سنة ٣١٠ ومثلهما محمد بن الحسن الطرابلسى الذى استدعاه يعقوب بن كلس وزير المعز الفاطمى إلى القاهرة وفوض إليه قضاء دمياط وبلبيس والفرما، وعلى شاكلتهم أبو جعفر أحمد بن خالد البرقى المتوفى سنة ٣٧٦ ومالك بن سعيد القرافى ولى القضاء بمصر فى عهد الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله، وأمر بضرب عنقه سنة ٤٠٥ للهجرة.

وإذا كانت ليبيا نشطت فى علوم الفقه والحديث والتفسير والقراءات فإن نشاطها كان محدودا فى علم الكلام، إذ لايعدو ما يقال عن اشتغالهم به وأن يذكر أن شخصا كان نحويا أو لغويا أو فقيها كبيرًا كان يعتنق الاعتزال مثل محمد بن سالم الطرابلسي، ولانعرف إلى أى حد كان يتمثل مبادئه، ويذكر أن معاصره أبا خزر النفوسى الإباضى ناظر أحد المعتزلة فى القرن الرابع وانتصر عليه، ويقال إن الفقيه المالكى الكبير أحمد بن نصر الداودى ألف رسالة فى الرد على القدرية (المعتزلة) بعنوان الإيضاح ولو أنها وصلتنا لاستطعنا أن نأخذ صورة عن مباحث علم الكلام فى ليبيا وبالأخص فى طرابلس بلدته. ويقال إن الفقيه المالكى الكبير الدوكالى كان يدرس لطلابه من أمثال عبد السلام الأسمر فى القرن العاشر الهجرى مقدمة الأشعرى فى التوحيد، ويبدو أن ليبيا أصبح مثلها مثل البلاد المشرقية والمغربية منذ القرن الخامس الهجرى وما بعده تؤثر المذهب الأشعرى الكلامى على الاعتزال وغيره من المذاهب الكلامية.

٤

التـاريخ

طبيعى أن يشغف بعض العلماء فى ليبيا بالكتابة فى التاريخ الإسلامى، كما شغف به كثيرون فى البلدان العربية، ومن أوائل مؤرخيهم عبد الرحيم بن عبد الله بن أبى زُرْعة البرقى المتوفى سنة ٢٥٦ للهجرة روى السيرة النبوية ومغازيها عن ابن هشام مؤرخها بالفسطاط، ويبدو أن أخاه أحمد رواها معه عن ابن هشام، ويقال إن لأحمد كتابا فى التاريخ دون إشارة إلى موضوعه، ويذكر ابن ناجى فى معالم الإيمان مؤرخين فى أجدابية، هما أبو العباس عبد الله بن عبد الرحمن الأجدابى المتوفى سنة ٣٨٤ وأبو عبد الله الحسين بن عبد الرحمن الأجدابى المتوفى سنة ٤٣٢ ونلتقى فى طرابلس بمؤرخين لها، هما الحسن بن فراج المتوفى سنة ٥٢١ وعلى بن عبد الله بن مخلوف الطرابلسى المتوفى سنة ٥٣٣. ومن المؤرخين المهمين فى القرن العاشر الهجرى كريم الدين البرمونى المصراتى المتوفى سنة ٩٩٩ للهجرة، وأبوه مصرى نزل مصراته مع الشيخ زروق فى عودته من مصر، وقد بدأ كريم الدين تعلمه فى زاوية الشيخ زروق ثم تركها إلى زاوية الشيخ المحجوب، وشُغف بالتاريخ وله فيه كتاب روضة الأزهار ومنية السادات الأبرار، وفيه عرَّف بطائفة كبيرة من الأتقياء الصالحين وبأنساب الأشراف فى طرابلس وأنساب بعض القبائل العربية وله بجانب هذا الكتاب كتاب عن عبد السلام الأسمر الصوفى معاصره المار ذكره بين المتصوفه.

ويشتهر بين علماء نفوسة الإباضيين مؤرخان، أولهما أحمد بن سعيد الدرجينى الفقيه الإباضى فى القرن السابع وله كتاب طبقات المشايخ ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصريـة، وفيه عرض تراجم مفصلة لأئمة المذهب الإباضى رتَّبها فى طبقات كل طبقة تضم خمسين عاما حتى نهاية القرن السادس الهجرى، والثانى أبو العبـاس بدر الـدين أحمد بن عثمـان بن عامـر الشماخى المذكور بين الفقهاء الإباضيين وله فى تاريخ الأئمة الإباضية كتاب «السير»، وفيه يعرِّف بالمذهب الإباضى منذ نشأته ويترجم لرجاله حتى أوائل القرن العاشر الهجرى.

الفصل الرابع

الشعر والنثر

١

تعرب[١] ليبيا

أخذت ليبيا والبلدان المغربية تدخل فى الإسلام منذ فتحها العرب، ومنذ اعتنقته ليبيا لم تقم فيها أى حركة ثورية ضد العرب، كما حدث أيام كسيلة والكاهنة فى إفريقية التونسية والجزائر، وحتى هما لم يعودا إلى شق عصا الطاعة منذ عهد حسان بن النعمان (٧١ – ٨٥ هـ). ومع ذلك فإن الإسلام عمَّها بحيث لا نصل إلى أواخر القرن الأول الهجرى حتى يكون قد تغلغل إلى جميع البقاع فى المغرب، بين الحضر شمالا والبدو جنوبا وفى السهول وعلى سفوح الجبال وفى الهضاب وفى الصحارى، وهو ما ملأ نفوس المؤرخين الغربيين حيرة، فإن الفينيقيين أقاموا بين البربر قرونا، ولم يستطيعوا نشر دينهم ولغتهم فيهم بهذه الصورة الجماعية، وبالمثل الرومان، وظلت المسيحية التى حاولوا نشرها بين البربر غريبة ولا تُعْرَفُ إلا فى بعض البلدان الشمالية وبتأثير جاليات رومانية فيها. وأخذت تنسحب وتتقوض أمام المد الإسلامى منذ القرن الأول الهجرى. ولا ريب فى أن مرجع ذلك إلى أن دين الإسلام دين الفطرة الإنسانية، ويخلو من نظرية التثليث المعقدة عند المسيحيين، وأيضا فإنه يحرر البربر وغيرهم من فكرة الاستعباد للرومان وغير الرومان ممن يستولون على الديار ويتملكون كل ما فيها من الخيرات وطيبات الرزق، ثم هو لا يظلم أهل البلاد المفتوحة أى ظلم مالى أو غير مالى، وهو يسوى بين أتباعه من العرب وبين مسلمى البلدان المفتوحة فى جميع الحقوق: فى الغنائم وفى الضرائب وفى مختلف الشئون.

ظلت ليبيا طوال القرن الأول الهجرى مركزًا مهما للجيوش العربية، وكان كل جندى فيها

---

(١) انظر فى تعرب ليبيا الجزء السادس من تاريخ ابن خلدون وكتاب وصف إفريقيا للوزان ورحلة العبدرى وكتاب ورقات عن الحضارة العربية للأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب وتاريخ ليبيا للدكتور إحسان عباس وكتاب النشاط الثقافى فى ليبيا للدكتور أحمد مختار عمر.

يحاول تحفيظ بعض البربر الليبيين القرآن وتعليمهم مبادئ الدين الحنيف والعربية، والفرائض المكتوبة عليهم وينبغى أن يؤدوها على خير وجه، ولم تلبث الكتاتيب أن أسست فى المدن وغير المدن، مما أسرع بأهل ليبيا إلى دخول الدين الحنيف أفواجًا بعد أفواج، ومما أسرع بهم إلى التعرب الاختلاط بالعرب والمصاهرة بينهم وبين أسرهم. وأيضًا مما أسرع بهم إلى التعرب هجرات مبكرة للقبائل والعشائر العربية نزلت ديارهم، إذ يذكر اليعقوبى المتوفى فى أواخر القرن الثالث الهجرى أنه سكن جبل برقة الشرقى عشائر يمنية من الأزد ولخم وجذام والصَّدِف وغيرهم وسكن جبل برقة الغربى عشائر من غسان والأزد وتُجيب، ونزلت الرمادة عشائر من بنى مدلج وبَلِىّ وجهينة، ونزلت ودَّان فى الهضبة جنوبى طرابلس عشائر سهمية وحضرمية، وكل ذلك عمل على المزج بين العرب والليبيين، ولا نكاد نصل إلى منتصف القرن الخامس الهجرى حتى يحدث طوفان الهجرة الأعرابية الكبرى لبنى سليم وبنى هلال من صعيد مصر إلى ليبيا والديار المغربية على نحو ما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع، ونزلت أمواج بنى سليم – وخاصة بنى قرة منهم – فى برقة، وتغلغلت أسراب منها فى ليبيا إلى إقليم طرابلس فى الغرب، ومعها عشائر من بنى هلال. وأعد هذا الطوفان الأعرابى الكبير ليبيا ليتكامل تعربها، إذ انصهر البربر بها فى الأعراب، وأصبحوا معا شعبا عربيا كبيرًا فى تقاليده وعاداته وتناول حياته اليومية وفى أزيائه وملابسه وطعامه وفى أحزانه وأتراحه وفى أفراحه وأعراسه، وتعرَّبوا أيضا فى الأخلاق والشيم الكريمة من المروءة والنجدة والفروسية، ولم تتعرب برقة وحدها هذا التعرب الواسع فى جميع مناحى الحياة، بل تعربت أيضا طرابلس وسكان إقليمها من أفراد قبيلة هوارة البربرية، ويشهد بذلك ابن خلدون قائلا عنهم فى الجزء السادس من تاريخه: «إنهم صاروا فى عداد الناجعة من عرب بنى سُلَيم فى اللغة والزِّىِّ وسُكْنى الخيام وركوب الخيل والإبل وممارسة الحروب وإيلاف الرحلتين فى الشتاء والصيف فى تلالهم، قد نسوا رطانة البربر واستبدلوا منها فصاحة العرب فلا يكاد يفرِّق بينهم» ويشهد ابن خلدون نفس الشهادة لبنى يفرن فى جبل نفوسة قائلا: «إنهم تبدَّوا مع بنى سليم، ونسوا رطانة الأعاجم وتكلَّموا بلغات العرب، وتحلَّوا بشعارهم فى جميع أحوالهم». واتسع هذا الشعور بالعروبة بين البربر، فإذا هم ينسبون أنفسهم إلى القبائل العربية شمالاً وجنوبًا، وكانت هوارة تنسب نفسها إلى اليمن كما يقول اليعقوبى. وبذلك لا نبالغ إذا قلنا إن بربر ليبيا تحوَّلوا شعبا عربيًّا تامًّا منذ نزل بديارهم بنو سليم وبعض عشائر من بنى هلال، فقد أصبحوا عربا دينًا إذ اعتنقوا الدين الحنيف، وعربًا أسلوب حياة وعادات وتقاليد، وعربا زيا وملبسا ومطعمًا، وعَرَبًا لغة، كما لاحظ ابن خلدون.

ويبدو أن انتصار العربية على اللغة الوطنية المغربية فى ليبيا وغيرها من بلدان المغرب كان حاسمًا منذ اعتناق البربر للدين الحنيف، وكانوا يسمون لغتهم – كما يقول الحسن الوزان – آوال أمازيغ أى اللغة النبيلة، وسماها العرب اللغة البربرية، وكانت لهجات شتى. وفى العصر

الحديث اكتُشفت نقوش فى إقليمى تونس والجزائر وفى الصحراء الكبرى تدل على أن البربر عرفوا الكتابة، غير أنه لم يؤثر عنهم أى كتاب دينى ولا أدبى ولا عملى زراعى مثلا، ومعنى ذلك أن البربرية لم يكن لها تراث تستطيع أن تلقى به العربية، بحيث يمكن أن يحدث صراع بينها وبين العربية، ومن أجل ذلك لم تقاوم العربية أى مقاومة، بل سرعان ما قهرتها واحتلت ألسنة أهلها وأصبحت لغة الحياة فى ليبيا وغيرها من البلدان المغربية. ولكن هل حدث فيها ما حدث مثلا فى مصر من حدوث تحريفات فى الكلم العربية أهَّل لظهور اللغات العامية. وكلام ابن خلدون عن هوارة سكان إقليم طرابلس وبنى يفرن سكان جبل نفوسة يدل على أنه لم تشع فى ألسنتهم عامية مستحدثة، إذ قال إنهم استبدلوا من رطانة البربر فصاحة العرب، مما يؤكد أن الفصحى شاعت فى ليبيا وظلت فى ألسنة أهلها طويلا.

وإذا كان ابن خلدون شهد لأهل طرابلس من هوارة ولبنى يفرن فى نفوسة بأنهم لم يكونوا يقلُّون فصاحة عن بنى سليم فإن العبدرىّ الرحَّالة المغربى يشهد لبرقة - حين مرَّ بأحيائها فى رحلته سنة ٦٨٨ - بفصاحة أهلها فصاحة تامة، إذ يقول:

«كلام عرب برقة من أفصح كلام عربى سمعناه، وعرب الحجاز أيضا فصحاء، ولكن عرب برقة لم يكثر ورود الناس عليهم، فلم يختلط كلامهم بغيره، وهم الآن على عربيتهم، لم يفسد من كلامهم إلا القليل، ولا يخلُّون من الإعراب إلا بما لا قدر له بالإضافة إلى ما يعربون. وقد سألت بدويا لقيته يسقى إبله فى «الحصوى» على ماء يقال له أبو شمال: هل نورد على أبو شمال، وذكرته بالواو فى موضع الخفض على عادة أهل المغرب، فقال لى: نعم تطئون أبا شمال، وأثبت النون فى الفعل ونصب المفعول. وليس فى المغرب عربى ولا حضرى يفعل ذلك. ومررنا بأطفال منهم يلعبون، فقال لنا واحد منهم: يا حجاج معكم شىء تبيعونه، وأثبت النون وسكَّن الهاء للوقف. ورأيت أعرابيا منهم قد ألحَّت عليه امرأة تسأله (شيئا) من طعام يأكله. فقال لها: والله ما تذوقينه، فأتى بضمير المخاطبة على وجهه، وأثبت النون وسكَّن الهاء. وسمعت شخصا يَنْشُد فى الركب مكترى راحلة، ويقول: مَنْ يُكرى زاملة، فسمعه بدوى، فقال له: أعندك الزاملة؟ فقال: نعم: فلا تقل من يكرى وقل: مَنْ يستكرى. وذكر لى بعض أصحابنا ممن حجَّ معنا أن شخصا شرب من بئر، فقال: فى هذا الماء رائحةُ الحبَل، وحرَّك الباء بالفتح على لغة أهل المغرب يعنى الرِّشاء المستسقى به، فسمعه أعرابى، فقال له: ومن أين جاءت رائحة الحبل إلى الماء، فأشار المغربى إلى الرِّشاء، فقال له الأعرابى، قل الحَبْل ولا تقل الحبَل. وأما نادر ألفاظ اللغة وما جرت عادة أهل المغرب بتفسيره فهم - حتى الآن - يتحاورون به على سجيَّتهم، فمن ذلك أن شخصًا منهم وقف علىَّ بموضع نزولى من محلَّة الرُّكْب، وكانت الترعة (قناة الماء) منه بعيدة، فقال لى: يا سيدى تدعنى أظهر يعنى أخرج، وسألت

شخصًا منهم عن الطريق، فقال لى: إذا ظهرتم من الغابة فخذوا صَوْبَ (ناحية) كذا وكذا يعنى إذا خرجتم منها، وهذا اللفظ قد أكثر فيه أهل الغريب فى تفسير قول عروة بن الزبير رضى الله عنه: لقد حدثتنى عائشة – رضى الله عنها – زوج النبى ﷺ بأن رسول الله ﷺ كان يصلى العصر والشمس فى حجرتها قبل أن تظهر.. وأتوا عليه بشواهد وأمثال. وسمعتُ صبيا منهم ينادى فى الركب: يا حجاجُ مَنْ يَشْترى الصفيفَ؟ فلم يفهم عنه أكثر الناس، فقلت له: اللحم معك، فقال: نعم وأبرز لحم ظبى مقدَّد (مجفَّف) وهذا اللفظ (أى الصفيف) ذكره الإمام مالك فى الموطأ وقال بإثر الحديث: الصفيف القديد. وسألتُ شخصا عن ماء هل هو مَعِين (سائل) فقال لى: هو ماءٌ عِدٌّ (جارٍ) وهذا اللفظ فسَّره أبو عبيد فى غريبه، وما يتكلمون به من الغريب أكثر من أن يحصى».

وإنما نقلت هذا النص بطوله من رحلة العبدرى – مقارنا بصورته فى كتاب ورقات للأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب – لأهميته، ولأنه يثبت أن أهل برقة كانوا لا يزالون يتكلمون بالفصحى حتى أواخر القرن السابع وكانت فصحاهم تتفوق على فصحى أهل الحجاز، معللا العبدرى ذلك بأنهم لا يختلطون بغيرهم اختلاط أهل الحجاز بالحجاج من كل فجٍّ وطريق، ويقول إنهم لا يزالون يتمسكون بالإعراب مع سقوطه حينئذ من الألسنة فى بلدان العالم الإسلامى فى المغرب – كما يقول العبدرى – وفى غير المغرب إلا فى زبيد باليمن كما أوضحنا ذلك فى حديثنا بالجزء الخامس من هذه السلسلة. ويضرب مثالا لبدوى أثبت فيه نون الرفع فى المضارع ونصب المفعول وهو «أبا» فى قوله للعبدرى: «تطئون أبا الشمال» ويعلق العبدرى على ذلك قائلا: «ليس فى المغرب عربى ولا حضرى يفعل ذلك» ومثل المغرب مصر فى لغتها العامية. وذكر مثالاً ثانيًا أثبت الأعرابى فيه ياء المخاطبة مع نون الرفع فى قوله «تذوقينه» والاثنان يحذفان فى العامية المصرية والمغربية ويورد مثالاً على دقة الحس اللغوى وأن بدويا سمع شخصًا يقول من يُكْرى زاملةً أى بعيرًا راحلا، ويُكْرى معناها يؤجر، فسمعه بدوى، فقال له أعندك الزاملة؟ فقال له نعم، فنبَّهه إلى أنه يستخدم فعل يكرى وهو يريد يستأجر، فقال له لا تقل: من يكرى وقل من يستكرى أى يستأجر. وذكر العبدرى أنه سمع بدويا يقول أظهر بمعنى أخرج، ويعلق على ذلك بأن لفظه ظهر بهذا المعنى ورد فى حديث نبوى وعُدَّ غريبا، ولذلك أكثر أصحاب الغريب فى الحديث النبوى من الإتيان له بالشواهد والأمثال، ثم يذكر أن صبيا نادى فى الركب من يشترى الصَّفيف؟ ولم يفهم من معه معنى الصفيف وهو اللحم المقدد، وفهمه هو لأنه قرأه فى كتاب الموطأ للإمام مالك وتفسيره له بأنه القديد، ومن ذلك أنه يسأل شخصا عن ماء هل هو معين أى سائل فقال له عِدٌّ أى جارٍ، وقد عرف معناها لأنه قرأها عند أبى عبيد القاسم بن سلام فى كتابه «غريب الحديث». ويقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب فى الجزء الأول من كتابه الورقات بعد أن نقل هذا الفصل الطريف من رحلة العبدرى: «إن

ممّا نقلناه من رحلة العبدرى وما سنذكر من أقوال أهل برقة فيما بعد يتضح لك أن لهجة هؤلاء الأعراب لم تتغير وأنها إلى الآن قريبة جدًا من أمها الفصحى» - ويستدل على ذلك ببعض الأشعار الشعبية لأهل برقة بعد الاحتلال الإيطالى لوطنهم، ملاحظا أن اللهجة الليبية الحديثة عربية خالصة وإن اعتراها ما اعترى سائر اللهجات العربية من إهمال الإعراب. وأضاف الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب إلى هذه الملاحظات فى الجزء الأول من كتابه الورقات ملاحظة مهمة فى الجزء الثالث منه، إذ قال إن استخدام نون النسوة مع الأفعال فى مثل: «يأكلن - يشربن - يغزلن» منتشر فى كلام الأعراب بنواحى طرابلس وبرقة، وهى مبثوثة فى أقوالهم الشعرية. ويبدو أن أهل ليبيا ظلوا يحافظون بقوة على الفصحى - بعد الهجرة الأعرابية إلى ديارهم- قرونا متطاولة ربما امتدت حقبا بعد شهادة العبدرى فى أواخر القرن السابع الهجرى.

٢

نشاط[١] الشِّعر والشعراء

لعل أول ما أنشد من الشعر فى ليبيا كان على لسان الشعراء الوافدين عليها مع الجند الفاتح لها وللبلاد المغربية، ونرمز لهم بالشاعر الهذلى المشهور أبى ذؤيب، فقد خرج مع عبدالله بن الزبير فى جند عبدالله بن سعد بن أبى سرح إلى فتح إفريقيا سنة ست وعشرين وأعجب بشجاعة ابن الزبير حين فتك فى موقعة ضارية بوالى البيزنطيين: جريجوريوس وتسميه العرب جرجير، ومن قوله فى الإشادة ببطولته:

وصاحب صدقٍ كسِيد الضَّرا ... ءِ ينهض فى الغزو نهضا نَجيحا

والسِّيد: الذئب، والضَّراء: شجر يتوارى فيه وهو أفتك الذئاب فى الجزيرة العربية. وكثير من أمثال أبى ذؤيب الشاعر النابه استقروا فى برقة وطرابلس ينشدون أشعارهم وينشرون الإسلام ويأخذ البربر عنهم القرآن الكريم والعربية. غير أنه لم يكن يهمهم - فيما يبدو - أن تُحمل عنهم أشعارهم أو أن تذكر أخبارهم، فهم من عامة العرب المسلمين، وهم آخر من يفكر فى هذا الشرف. وممن نزل ليبيا من الشعراء النابهين دِعْبل الشاعر العباسى، نزلها فى العقد الثالث

(١) انظر الأغانى فى أبى ذؤيب ودعبل والحلة السيراء فى عبد الله بن محمد الأغلبى وابن سوادة وخليل بن إسحق وإنباه الرواة فى المكفوف وخلوف والودانى والخريدة (قسم شعراء مصر) فى ابن البرقى.

من القرن الثالث، نزلها على إثر خلاف بينه وبين والى مصر، وكان قد ولاه أسوان فتركها واتجه إلى ليبيا والبلاد المغربية، ويبدو أنه حاول الرحلة عن طريق واحة سيوه، واتجه منها إلى واحات ليبيا، وربما كان يقصد القيروان لمدح أمراء الأغالبة، غير أن الموت أدركه فى زويلة عاصمة فزّان، فلم تحظ به ليبيا ولا حظى به الأغالبة.

وكانت طرابلس قد أصبحت تابعة للأغالبة فى إفريقية التونسية، بينما تبعت برقة مصر، ويتولى طرابلس بعض شعراء الأغالبة مثل عبد الله بن محمد الأغلبى واليها لابن عمه أبى الغرانيق سنة ٢٥٩ وكان – مع اهتمامه بالشعر – يعنى بالفقه والحديث النبوى، وعزله عنها أبو الغرانيق وولاه صقلّية ثم أعاده إليها، ولم يلبث أن ولاه القيروان، ولم يذكر مترجموه له سوى قطعة أرسل بها إلى صديقه موسى بن مرزوق لما بلغه نبأ عزله عن طرابلس وله يقول:

قد أتى فى الكتاب ما قد علمنا ... من تنـاءٍ ورحـلةٍ وفـراقِ
فعليـك السـلام إن فـراقى ... قـد دنا والفـراق مرٌّ المذاق

وكان على شاكلته فى نظم الشعر ابن عمٍّ له هو محمد بن زيادة الله والى طرابلس لإبراهيم بن أحمد الأغلبى (٢٦٢ – ٢٨٩ هـ) وكان عالما وشاعرًا خطيبا، وله كتاب راحة القلب والزهر. وأشعر منه ومن سالفه أحمد بن سفيان بن سوادة الأغلبى الذى ولى طرابلس وأعمالها سنوات كثيرة. وأنشد له ابن الأبار قصيدتين حماسيتين يقول فى إحداهما:

قَـرِّبـوا الأبـلق إنِّـى ... أعـرف الخيـل العِتـاقـا
وعـليهـا أصـرع الأبْـ ... ـطال طَعْنًـا واعتنـاقـا
وأروِّى من نجيـع الـ ... ـهام أسيـافـا رقـاقـا

وليس بين أيدينا ما يؤكد أن هؤلاء الولاة الأغلبيين الشعراء أحدثوا فى طرابلس حركة أدبية أغدقوا فيها الأموال على الشعراء كما كان يصنع قبلهم يزيد بن حاتم المهلبى حين وَلِىَ القيروان سنة ١٥٤ فإنه أحدث فيها حركة أدبية واسعة نثر فيها على الأدباء أموالاً طائلة، ومع ذلك نظن ظنا أن تولى هؤلاء الولاة الأغالبة الشعراء لطرابلس كان له بها أثر غير قليل، إذ نجد الشعر يسيل على ألسنة بعض الليبيين من اللغويين والفقهاء وغيرهم، من ذلك أن إسحق بن خُنَيْس هجا العالم اللغوى عبد الله بن محمود المكفوف بقصيدة طويلة قال فيها:

ألا لُعِنَتْ سِرْتٌ وما جاء من سِرْتِ ... فقد حلَّ من أكنافها جبلُ الْمقْتِ

فقال فيه المكفوف:

إن الخُنَيْسـىَّ يهـجـونى لأرفـعَـهُ ... إخْسَـأْ خُنَيْسُ فـإنىِّ غـيرُ هـاجيكـا

لم تبق مَثْلَبَةٌ تُحْصى إذا جُمعتْ من المثالب إلا كلُّها فيكا

ويقول مترجمو المكفوف السُّرْتى إن له أشعارًا فصيحة وأراجيز غريبة، وقد سقطت جميعا من يد الزمن ولم يصلنا منها شيء. وكان يعاصره خليل بن إسحق شاعر المهدى الفاطمى وابنه القائم وسنفرد له ترجمة عما قليل. ونلتقى بخلوف بن عبد الله البرقى النحوى المقرئ نزيل صقلية، وكان يعيش فى أواسط المائة الخامسة وله ترجمة فى إنباه الرواة للقفطى، ومن قوله:

كتبتُ إليك مشتاقا كثيرَ الوجد توّاقا
سَئولا داعيا للّه آصالا وإشراقا
بأن تبقى على الأيّا م للأقران سباقا

والقطعة رقيقة وهى تدل على حس دقيق وذوق مرهف وقدرة على صياغة الكلام صياغة رشيقة، وله:

يا أيها المغرور دهْـرَك كم تقيم على الغَرارَهْ
إذ جَمْعُ شَمْلِك للشَّتا تِ وربحُ مالك للخسارة

والبيتان فى الدعوة للزهد والانصراف عن حطام الدنيا والاغترار بما فى يده منها، فليس فى شمله إلا الشتات والفراق وليس فى يده إلا الضياع والخسارة. وكان يعاصره أبو الحسن على بن أبى إسحق الودّانى صديق ابن رشيق وصاحب الديوان بصقلية ومن شعره:

مَنْ يشترى منى النهار بليلةٍ لا فرق بين نجومها وصحابى
دارتْ على فلك الزمان ونحن قد دُرْنا على فَلَكٍ من الآدابِ
ودنا الصباحُ - ولا أتىَ - وكأنه شَيْبٌ أطل على سواد شبابِ

والألفاظ منتقاة والصور بديعة فلا فرق بين النجوم المتألقة ووجوه صحابه المشرقة وقد دارت الليلة على فلك الزمان ودار مع صحابه على فلك الآداب، وهى مشاكلة بديعة. وقرب الصباح ويقول: لا أتَى فى خفّة وعذوبة، ويتصوره بأضوائه التى تتفلّت فى آخر تلك الليلة كأنه شَيْب مشتعل يطل على سواد شباب. ونلتقى بشاعر برقى أقام بالقاهرة طويلا مما جعل العماد يترجم له بين شعراء مصر فى الخريدة هو أبو الحسن على بن محمد المعروف بابن البرقى المتوفى سنة ٥٢٢ ومن شعره الطريف الذى أنشده العماد:

رمانى الدّهر منه بكل سَهْمٍ وفَرَّق بين أحبابى وبينى
ففى قلبى حرارةُ كلِّ قلبٍ وفى عَيْنى مدامع كلِّ عين

والبيتان فى غاية الرقة مما يدل على شاعرية خصبة مرهفة، وهى شاعرية أتاحت له أصدقاء مصريين تبادلوا معه مثل هذين البيتين الرقيقين. وكان يعاصره شاعر نفوسى إباضى هو أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم، وله مرثية بديعة يرثى بها شيخه أبا سليمان أيوب بن إسماعيل، وفيها يتحدث عن تقواه وبرِّه وذكائه:

مَنْ للصلاة بجوف ليلٍ مظلمٍ ... والليل أسود حالك غِرْبيبُ
أو للصيام إذا تطاول يومه ... وامتدَّ طرفاهُ وهاج لهيب
أو لليتامى والأرامل بعده ... وتواترتْ فى العالمين حروبُ
أو للأمور إذا تفاقم حولها ... أهل النُّهَى والرَّأْىُ - بعد - غريب

وكأنما يفتقد بموت شيخه من يصلى آناء الليالى المظلمة الحالكة ومن يصوم فى الأيام الطويلة الملتهبة أو من يأخذ بيد اليتامى والأرامل فى الحروب الضارية ومن يحل الأمور المشكلة حين يعزُّ الرأى الصائب المحكم. وحرى أن نتوقف قليلا لنترجم لشاعر أنجبته طرابلس فى حقبها الأولى.

خليل بن إسحق

هو أبو العباس خليل بن إسحق بن وَرْد، ترجم له ابن الأبار فى كتابه الحلة السِّيَراء ترجمة ضافية افتتحها بقوله: «مولده بطرابلس وهو من أبناء جندها (أيام الأغالبة) وكان فى أول أمره يطلب العلم والأدب ويصحب الصوفية ويبيت فى المساجد» وما إن انتهى حكم الدولة الأغلبية سنة ٢٩٧ وتحوَّلت مقاليد الحكم إلى عبيد الله المهدى الفاطمى، حتى رحل إليه وانضوى تحت لوائه، وانتقض أهل بلدته:طرابلس سنة ٢٩٩ على واليهم الفاطمى فأرسل إليهم المهدى ابنه أبا القاسم لمحاربتهم وردِّهم إلى الطاعة، وفى ركابه خليل، فحاصرهم أبو القاسم حتى اضطروا إلى الاستسلام، وكشَّر لهم خليل عن أنيابه الغليظة التى كان يخفيها، وتولى تعذيبهم، لاتأخذه فيهم - وهم أهله - شفقة ولا رحمة، وأغرمهم ثلاثمائة ألف دينار. وما توافى سنة ٣٠٢ حتى يرسل المهدى ابنه أبا القاسم الملقب بالقائم فى جيش لمحاربة أهل مصر، فلحق به خليل بن إسحق فى الإسكندرية فولاه القيام على أموال الجيش، وعاد القائم بجيشه، وعاد معه خليل، فقُدِّم على خيل إفريقية، وجُعل أمر جندها إليه مع النظر فى البحر وشئون الأسطول الفاطمى. وفى سنة ٣٢٥ ولاه القائم الفاطمى صقلية، فاستحال حاكما لها باغيا طاغيا أشد ما يكون البغى والطغيان، وأهلك أهلها جوعًا وقتلا وجار فيها أشد ما يكون الجور والظلم، مما جعل كثيرين من أهلها يفرّون إلى بلاد الروم. وعزله الخليفة القائم عنها، وكان يقول بعد وصوله إلى إفريقية

مفتخرًا: «المكثر يقول إنى قتلت من أهل صقلية وأهلكت ألف ألف، والمقلل يقول ستمائة ألف». وكان حريا بالقائم أن ينزل به عقابًا صارما، ولكن بدلا من ذلك أخرجه إلى مدينة القيروان سنة ٣٣٣ فى ألف فارس لقتال أبى يزيد الصُّفرى فى القيروان، فحاصره أبو يزيد فيها واعتقله وسفك دمه وصلبه. وأنشد له ابن الأبار قصيدة ومقطوعتين فى مديح المهدى الفاطمى وابنه القائم، وكأنما كان يقف شعره على مديحهما زلفى وتقربًا إليهما، والقصيدة فى مديح عبيدالله المهدى نظمها على شاكلة قصيدة مشهورة لمروان ابن أبى حفصة صاغها فى مديح المهدى الخليفة العباسى، بدأها مثله بالتشبيب وبكاء الأطلال والديار قائلا:

قِفْ بالمنازل واسْأَلَنْ أطلالها ... ماذا يضيرك إن أردتَ سؤالَها
هل أنت أولُ من بكى فى دِمْنَةٍ ... دَرَسَتْ وغيَّرت الحوادثُ حالها(١)
يا دارَ زينبَ هل تردِّين البُكا ... عن مُقْلةٍ سفحتْ عليك سِجالَها(٢)
بُدِّلْتِ بالإنْسِ الخرائِدِ كالدُّمَى ... وَحْشَ الفَلاةِ ظِباءَها ورِئالَها(٣)
ولقد عهدتُ لآل زينبَ حَبْرةً ... فيها ودُنْيا أقبلتْ إقْبالها(٤)
بيضاءَ ناعمةً يجول وِشاحُها ... وتهزُّ دِقَّةُ خَصْرِها أكفالها(٥)
ولها قوامٌ كالقضيب وفوقه ... جَعْدٌ تصافح كفُّه خَلْخالها(٦)
وكأنَّ فى فيها بُعَيْدَ رُقادها ... عَسلًا أصاب من السماء زُلالها(٧)
ولقد عصيتُ عواذلى فى حُبِّها ... والنَّفْس تعصى فى الْهَوَى عُذَّالَهَا

والأبيات تسيل عذوبة، إذ عرف خليل بن إسحق كيف يصطفى لها الألفاظ وكيف يلائم بين جرسها، مع حلاوة الصوت، ومع تشابك الكلمات فى كل بيت، وكأن كل كلمة لبَّت قرينتها، واستجابت لصاحبتها وجارتها، وحقا الصور فى الأبيات ألمَّ بها الشعراء أو طالما ألمَّ بها الشعراء قبله، غير أنه أعاد عرضها عرضا يستهويك بصياغته وما يبث فيه من الجناسات والطباقات. ويخرج إلى المديح منشدًا:

صَلَّى الإلـهُ على النبيِّ محمَّدٍ ... وعلى الإمـام وزاده أمثـالهـا

---

(١) الدمنة: آثار بالدار.
(٢) السجال جمع سجل: الدلو المملوءة.
(٣) الخرائد جمع خريدة: اللؤلؤة والمرأة الجميلة. الدمى: جمع دمية: التمثال الجميل. الرئال جمع رأل: فرخ النعام.
(٤) حبرة: مسرَّة.
(٥) أكفالها جمع كفل: عَجُز الإنسان.
(٦) جعد يريد الشعر وضفائره.
(٧) الزلال: الماء العذب الصافى.

إن الإمامَ أقام سُنَّة جَدِّهِ — للمسلمين كما حذوتَ نِعالها
أحيا شرائعها وقوَّم كُتْبَها — وفروضها وحرامها وحلالها
وهدى به اللهُ البَريَّةَ بعدما — طلب الغُواةُ الظالمون ضلالها
إن الخلافةَ يابْنَ بنتِ محمَّدٍ — حَطَّتْ إليك - عن النبيِّ - رِحالها

وهو يزعم أن الله - جَلَّ جلاله - يصلى على إمامه كما يصلى على نبيه، بل يزعم أنه يزيد صلاة إلى صلاة، ويقول إنه أقام سُنَّة جَدّه حذوك النعل بالنعل أو كما نقول مطابقا لها أشد المطابقة، ويزعم له أنه أحيا الشريعة وقوَّم كتبها وأزال عنها عوجها وانحرافها، كما قوَّم فروضها وحلالها وحرامها، وكل تلك مبالغات شائنة، وكأنه يدبِّر الدين الحنيف ويصرِّفه، وقد هدى الله به الناس كما هداهم برسوله. ولم يسق ابن الأبار مديح القصيدة تامًّا، ولعله صنع ذلك لما فى بقية القصيدة من مبالغات شديدة الإفراط فى تصوير قدسية المهدى، وحسنا صنع. وله فى القائم وقد فصده الطبيب أو بعبارة أخرى أخرج مقدارا من دم وريده للعلاج:

قُلْ للطبيب الذى أوصى ليَفْصِدَهُ — رِفْقًا ولا زلتَ بالإسعاد ترْتفقُ
كيف استطعتَ ترى بالله طلعته — ومن سَنا نوره ما يشرق الأفق
أم كيف تُخْرج من كفٍّ تقبِّلها — دمًا ومنها بحارُ الجود تَنْدفقُ
إنى لأعجبُ من كفٍّ مَسَسْتَ بها — خيرَ الوَرَى كيف لم يَنْبُت بها الوَرِقُ[١]

وهو يدعو فى البيت الأول للطبيب متلطفا أن يظل الإسعاد يرافقه ويجانس بين أول الشطر الثانى ونهايته جناسا سائغا، وما يلبث فى البيت الثانى أن يبالغ فى مديح القائم مبالغة مفرطة، إذ يجعل ضوء النور فى وجهه نور الأنوار الذى يعم الآفاق، وكأن نور وجهه من نور الله ومشكاته فى الكون. وحين أمر القائم أن يخرج فى ألف فارس ليحارب أبا يزيد مخلد بن كيداد الصفرى كتب إليه مودِّعا:

وما ودَّعْتُ خير الناس طُرًّا — ولا فارقتُهُ عن طِيب نَفْسِ
وكيف تطيب نَفْسِى عن حياتى — أفارقها وعن قمرى وشَمْسِى
ولكنى طلبتُ رضاه جَهْدِى — وعفوَ الله يومَ حلول رَمْسى[٢]
فعاش مُمَلَّكًا ما لاح شمسٌ — على الثَّقَلَيْن من جِنٍّ وإنْسِ

وهو يجعله فى أول الأبيات خير الناس طرا، وكان قد جعله خير الورى فى آخر الأبيات

(١) الورق: الفضة — (٢) رمسى: قبرى.

السالفة، وهما صفتان للرسول ﷺ يتغنى بهما الشعراء فى مديحه، ويتصوره حياته، وكأنه هو الذى يدبرها، إنه نور حياته، ويقول إنه يطلب رضاه على نحو ما يطلب المسلمون رضا ربهم. وكأنى به يظن أنه هو الذى سيمنحه عفو الله يوم حلوله فى قبره. وهى مبالغات ستتضخم فيما بعد عند ابن هانئ الشاعر الأندلسى فى مديحه للمعز الفاطمى وترهاته ومبالغاته الملحدة فيه.

٣

الشعراء فى عصر[١] الدولة الحفصية

عُنيت هذه الدولة بالحركة الأدبية، وحظيت - لعهدها - بغير قليل من النشاط والانتعاش، وكان للشعر والشعراء من ذلك نصيب موفور، إذ فتحت الدولة الحفصية الأبواب للشعراء فى إفريقية التونسية وطرابلس كى يفدوا عليها مادحين، وينالوا جوائزها السنية، وكان مؤسسها أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد شاعرًا فسنَّ للحكام الحفصيين من بعده نثر الجوائز والعطايا على الشعراء، مما جعلهم يتكاثرون. وسنترجم لثلاثة منهم: إباضى وطرابلسيين. وقد ثار عليه ثائر طرابلسى هو يعقوب بن أبى يعقوب سنة ٦٣٩ وقُتل هو وأتباعه، وصُلبتْ جثثهم بباب هوّارة، ونُصبت رءوسهم فى تونس، فهنأ أبا زكريا الحفصى بالقضاء على تلك الثورة شاعر طرابلسى يسمى أبا زيد عبد الرحمن بن محمد الأصولى بقصيدة طويلة صَوَّر فيها المصير المشئوم لهذا الثائر وصلبه: ملقبا له بالفاطمى:

لقد عَجَّلَتْ للفاطمىِّ فطامةً ... وما سوَّغته درَّها البِيضُ والسُّمْرُ
رجا رفعةً فاعتاض فيها بمنصبٍ ... نماه به للجِذْع مَنْصِبُك الحرُّ
يرى شُرفات السور قد قمن حوله ... يَصِحْنَ لأمرٍ منه أكذبه الأمر
ضُحًى فَلِحَرِّ الشمس لَعْجُ إهابِه ... وللريح لا للروح فى جسمه كَرُّ[٢]
وكم رام تشييد القصور فحلَّها ... وأعظم ما يرجوه -لو أُسْعِفَ- القَبْرُ
فدونك يا يعقوب عُقْبَى منافقٍ ... إلى النار عُقْباها، إذا ضمَّك الحَشْرُ

(١) انظر فى الشعراء التالين رحلة التجانى، ما عدا فتح بن نوح، وانظر فيه الجزء الثالث من كتاب الإباضية فى موكب التاريخ لمعمر، وديوانه الملحق بكتاب الدعائم، والنشاط الثقافى فى ليبيا.

(٢) لعج إهابه: حرق جلده.

والأبيات تحمل شماتة مرة بهذا الثائر، فقد عجَّل أبو زكريا بفطامه، فلم يطب له شيء من أمنيته، إذ سرعان ما قضت عليه وعلى أتباعه الرماح والسيوف، وكأنما أراد رفعة فنالها ولكن على جذع نخلة، ولكأنما الشرفات من حوله تصيح به: ياهول ماحاولت، وتلك جثته مصلوبة وحرّ الشمس يحرق إهابه وجلده، والريح أو الرياح تَسْفِى عليه من كل جانب، وكم أمَّل أن تنجح ثورته ويسكن القصور المشيدة، وها هو أعظم مايرجوه قبر يضم جسده وأشلاءه وتلك عاقبة ثورته فى دنياه أما فى أخراه فعاقبتها نار حامية. ونتوقف قليلا لنترجم للشعراء الثلاثة الذين أشرنا إليهم آنفا، وهم فتح بن نوح وابن أبى الدنيا وابن معمر.

(أ) فتح بن نوح الإباضى

هو أبو نصر فتح بن نوح النفوسى، من شعراء النصف الأول من القرن السابع الهجرى ولد ونشأ بجبل نفوسة، ورعاه خير رعاية علمية وأدبية خاله أبو يحيى زكريا بن إبراهيم البارونى، وكان مع شعره وأدبه عالما بالمذهب الإباضى متعمقا فيه، وكان يدرس للشباب صباحًا، وفى المساء بعد صلاة العشاء يلقى فى الناس بالمسجد فى نفوسة دروسا عامة، وأكثر أشعاره فى الموعظة بحكم أنه كان واعظًا حقيقيًّا، إذ كان مايزال يعظ الناس كل مساء، ومن قصيدة يصور فيها نفسه:

أنــا المتيَّم لا بــالـيــوسفيَّــاتِ ... مــا نَهْنَهتْنى إليهــا قط هِمَّــاتى[1]
بل تَيَّمتْنى فنون العلم أطلبهــا ... ما النفسُ باقيةٌ فى هيكل الذاتِ
لستُ الغداةَ بصبٍّ خاضعٍ طمعًا ... فى وصل غانيةٍ أرجو مـودَّاتِ
بل فى منادمَـةِ الأخيار راغبـةٌ ... نفسى إلى أجلٍ يفضى بموتاتِ

فهو لا يشغل بحب يوسفيات فاتنات، ولم يحدث أن هماته وطموحاته كفَّته أو زجرته عنها، لأنه لا يفكر فيها أى تفكير إذ شغله عنها العلم ومعرفته أن كل ماعليها فان وأنه لا يبقى للإنسان إلا عمله، وإنه لذلك لا يهوى غانية ولا يتذلل لها راجيا منها المودة والعطف، فلذته فى دنياه إنما منادمة التقاة الأخيار، حتى يوافيه أجله. وتكثر فى مواعظه المخمسات على نحو ما تكثر عند الأندلسيين، وله مخمس أدواره موزعة على جميع حروف الهجاء، وفى أول كل دور حرف القافية على هذا النمط:

حاءٌ حذارِ – واسْمَعَنْ يا صاحِ – ... من سِحْرِ ثَغْرِ الأبرقِ الوضَّاحِ[2]

---

(١) اليوسفيات: صواحب يوسف الفاتنات.

(٢) الأبرق هنا: الثغر. الوضاح: صفة للثغر أى الجميل البسام.

يُلهيــك تخـلابـا عن الأربــاحِ عمـا قليل أَضْتَ صِفر الـراحِ[1]
من صالح الأعمال جمّ الحاب[2]
خـابُ خَبَتْ نـارُ امـرئ شمَّـاخِ يفْخَـرُ بـالأنْجـارِ والأسْنـاخ[3]
مـا الفخـرُ إلا للفتـى النـوَّاخِ حيث التقى مخيَّمُ الأشيـاخِ[4]
أولي النُهَى والعَزْم والألبابِ

وهو يحذر صاحبه من سحر ثغر المرأة الجميلة، إذ يخلب لبه ويلهيه عن أرباح الأعمال الصالحة، فيعود صفر الكف من الصالحات مملوءة بالآثام والذنوب، ويقول: خمدت نار شخص شامخ بأنفه كبرًا واستعلاء، يفخر بالأصول والأنساب، وليس ذلك بفخر، إنما الفخر للفتى المقيم حيث منزل الأشياخ من التقى والصلاح أولى العزم والعقول الراجحة. وفى مخمَّس ثانٍ له ينشد:

وأوَّل ما أوصى به في مخمَّسِى لباس سَرابيلِ التُّقى خيرِ ملبسِ
به ساد أقوامٌ من الجِنِّ والإنسِ وليسوا ذوى مال ولا بذوى فِلْسِ
ولا نِيل ما نالوا ببيضٍ ولا سُمْر
بذلك أوصى اللّهُ من كان واعيا من أهل القرون السالفات الخَواليا
ونادى به أهلَ العصور البواقيا وقال: اتَّقونِ اليوم حقَّ تُقَاتيـا
يُطاع فلا يُعْصَى وشُكْرٌ بلا كُفرِ

وهو يقول: أول مايوصى به فى مخمسه أن يلبس الإنسان سرابيل التقوى ولا يخلعها عن جسمه ونفسه أبدا فهى خير ملبس، وطالما ساد بها أقوام من الجنّ والإنس وأصبحوا من أكبر الأثرياء وليسوا بأصحاب أموال كثيرة ولا قليلة، ولا نالوا ما نالوا من غنائم حرب بالرماح والسيوف، ومع ذلك هم أغنى الأغنياء. ويقول إن تلك وصية الله أوصى بها ذوى الألباب من أهل القرون السالفة، وبالمثل من أهل العصور الباقية، إذ قال - عزَّ من قائل - اتقَّونِ اليوم حق تقاتى، وطاعته واجبة وشكره فرض بلا كفر. وقرأ مخمسته مؤسس الدولة الحفصية أبويحى زكريا، فعشَّرها بمخمس ثان. وله مرثية بديعة فى خاله مربِّيه وراعيه أبى يحيى زكريا بن إبراهيم، وفيها يقول:

أَحْـرَى وأجـدرُ لـلأجفـان والمُقَـلِ تَقْنَى بكـاء على الإسـلام لم تَـبـلِ[5]

(١) أضت: صرت.
(٢) الحاب يريد الآثام، جمع حوبة (أى إثم).
(٣) الأنجار والأسناخ: الأصول والأعراق.
(٤) النواخ: المقيم.
(٥) تقنى: تحمر - تبل: تذرف الدمع مدرارا.

دَعْـهـا تسيـل أسـال الله مـقـلةَ مَـنْ ... يسـطو عليها بِسَـطْوِ العَتْب والْعَـذَلَ(١)
أبعـد مـاغـاب بَـدْرُ الـدين فى جَـدَثٍ ... يَهْنَـا الحيـاةَ بنـو الآداب بـالأمـل(٢)
كـيـف الـبـقـاءُ لـطَرْفٍ زال نـاظـرُهُ ... حين اعتـرتْه بنـاتُ الدهـر بـالسَّمَـل(٣)
زُرْ سـاحةَ السَّفـح واسْفَحْ عنـدها حـزنًـا ... دمعًـا يـزيـد على التسكـاب والهَـطَل
أعنى الـولىّ أبـا يحيى الـذى حَيِيـتْ ... صُـوَى الـعلوم بـمحيـاهُ ولم يَـؤُل(٤)

وهو يبكى خاله، ويقول إنه أحرى وأجدر للأجفان والمقل أن تبكى دما على الإسلام وفقيده، ويعجب أن لاتذرف الدمع مدرارا، ويدعو على من يعاتب الناس على بكائهم عليه ويعذلهم لائما، حتى ليتمنى لهم حزنا موجعا كحزنه، ويقول إن بنى الآداب بعد أن غُيِّب عنهم لن يهنئوا بأمل ولا بأمنية، وإنه لم يعد يرى من حوله، إذ أصابته بنات الدهر ونكباته فى ناظره وكأنما فقأت عينه بحديدة محماة. ويطلب إلى رفاقه أن يزوروا معه القبر ويسكبوا دموعهم هناك، فقد توفى أبو يحيى زكريا الذى طالما اتّقدت منارات العلوم وصواها فى حياته، وقد مات ولم يعد. ويمضى الشاعر فى مرثية خاله منشدا:

يـا غُـرْبـةَ الـدينِ بعـد الشيـخ مفتقـدا ... يـا وحشـة السِّيَـر الغَـرَّا عن الأُوَل
لا عَنْ تـراضٍ جرى حكم المنـون بـهِ ... قِـدْمًـا جَـرَى فى نبىِّ الله والـرُّسـل
قَسْرًا على الأسْـد فى الأغْيَـالِ واغلةً ... وفى الـذُّرَى لـوعـولٍ صعبـة السُّبـل(٥)
كـمثـله فَلْتَـلِدْ أنـثـى مـفـاخِـرةً ... أو لا فـلا وَلَـدَتْ عن آخـر الطُّوَل(٦)
يـا أيهـا الشـامتُ المبـدى شمـاتتـه ... مهـلا بفيـك تـرابُ السهـل والجبـلَ

وهو يبالغ إذ يجعل الدين بعد وفاة خاله يعود غريبًا، ويبدو من الشطر الثانى أن خاله كان يعنى بالسير التاريخية، ويعود إلى المبالغة فى البيت إذ يقرن وفاة خاله بوفاة الرسول ﷺ ووفاة الأنبياء! ويقول إن حَيًّا لا يستعصى على الموت، لا الأسد فى أغيالها ولا الوعول فى ذرى الجبال وقممها العالية، وينوِّه به ويفاخر، إذ يقول مثله فلتلد الأمهات وإلا فلا تلد إلى آخر الدهر، ويدعو على الشامتين بموته. ولعل فيما أنشدناه من شعر فتح بن نوح ما يصور ملكته الشعرية الخصبة.

---

(١) يسطو: يبطش ويقهر. العذل: اللوم
(٢) جدث: قبر
(٣) بنات الدهر: نكباته. سمل العين: فقؤها بسمار محمى.
(٤) صوى: أعلام ومنارات. يؤل: يرجع
(٥) أغيال جمع غيل: بيت الأسد. الوعول جمع وعل: تيس الجبل
(٦) عن آخر الطول: يريد إلى آخر الدهر

(ب) ابن أبى الدنيا

هو أبو محمد عبد الحميد بن أبى البركات بن عمران بن أبى الدنيا الصدفى الطرابلسى المولود بطرابلس سنة ٦٠٦ وفيها نشأ ونهل من حلقات علمائها وأدبائها، وارتحل إلى المشرق لقضاء فريضة الحج، واستمع إلى كثير من العلماء، وعاد إلى تونس فى عهد مؤسس الدولة الحفصية أبى زكريا (٦٢٥ – ٦٤٧ هـ). ونال حظوة عنده، ورجع إلى بلدته: طرابلس فترة، واستُدْعى إلى تونس، فولى بها الخطط الرفيعة إذ ولى قضاء الجماعة، كما ولى الخطابة بالجامع الأعظم وغير ذلك من المناصب حتى وفاته سنة ٦٨٤ للهجرة. وله تصانيف ومؤلفاتٍ قيمة، منها: العقيدة الدينية وشرحها وجلاء الالتباس فى الرد على نُفاة القياس وكتاب مذكِّر الفؤاد فى الحض على الجهاد. ومرَّ فى حديثنا عنه بين الفقهاء أنه كان يدرس لطلابه فى بعض دروسه بطرابلس كتاب الإرشاد والبرهان للجوينى إمام الحرمين وكتاب المستصفى للغزالى. وبجانب هذه الثقافة الدينية المتعمقة كان شاعرا، وفيه يقول التجانى فى رحلته: «من فضلاء طرابلس المشهورين بالعلم والمشاركة فى الأدب». وقد أنشد له بعض أشعاره، وذكر أن له قصيدة طويلة افتتحها بقوله:

بحمد الله نبتدىءُ الأمورا　　　ونختم آخرا فيه الحبُورا

ولم يذكر التجانى سوى المطلع، ويبدو أنها كانت موعظة طويلة، وقد سقطت من يد الزمن وربما سقطت له معها أشعار أخرى له فى المواعظ والدعوة إلى الزهد، ومما أنشده له التجانى قوله:

طـرقُ السلامـة والفلاح قنـاعةٌ　　　ولـزومُ بيتٍ بـالتـوحُّش مُؤْنِسِ
يكفيـه أنسا أن يكـونِ أنيسَـهُ　　　آىُ القُران ونورُهُ فى الحِنْدس[1]
وإذا رأتْ عينـاه إنسـانًـا أتَى　　　فَلْيَنْفِرَنَّ نفورَ ظَبْى المَكْنِس[2]
ولقلَّـا ينفـكُّ صـاحبُ مقـولٍ　　　من زَلَّةٍ أو عَثْرَةٍ فى المجلسِ

ويبدو أن الأبيات مقتطعة من قصيدة طويلة فى النصح بالقناعة فهى الطريق الذى لا يخطئ إلى السلامة والفلاح، والعاقل من اعتزل الناس ولزم بيته منقطعًا إلى الائتناس بمجالس الذكر الحكيم ومناراته الساطعة فى الليالى الشديدة الظلام. ويدعو إلى النفور من الاجتماع بأى إنسان

(١) الحندس: الليل الشديد الظلام.
(٢) المكنس: الكنـاس وهـو مـأوى الظبى فى الشجر.

خشيةَ لدغاته التى يصيب بها مَنْ حوله، وكأنما يرتسم فى مخيلته قول القائل:

عَوَى الذِّئبُ فاستأنستُ بالذئب إذ عَوَى ... وصــوَّت إنســـانٌ فكــدتُ أطيــرُ

ويقول أخيرًا منفرا من مجالسة الناس إن الجلوس إليهم قد يؤدِّى إلى عثرات اللسان وزلاته منك أو منهم. فأولى لك أن تبتعد عنهم وعن مجالسهم، وأن تعتزلهم معتصماببيتك حتى لا تغلط وحتى لا تسمع غلطا من إنسان. وولى المستنصر الحكم بعد أبيه أبى زكريا، وأحسَّ ابن أبى الدنيا بجفوة منه، وأنه ربما أَسَرَّ فى نفسه شيئا منه، فكتب إليه يستعطفه:

أمولاىَ مـازلتُمْ تنيلون عبـدكم ... ضروبًا من النُّعْماء جَلَّتْ عن المِثْلِ
ولم يبق إلا العفوُ وهْو أجلُّ ما ... يُنال فأكملْ لى بهِ مِنْحةَ الفَضْلِ
فما العيشُ فى الدنيا بغير رضاكمُ ... بصافٍ ولا طعمُ الحياة بِمُحْلَوْلِى
وقد كدَّر الإعراضُ صَفْوَ معيشتى ... فأنكرْتُ أحوالى وأنكرنى أهلى

وابن أبى الدنيا يعترف للمستنصر الحفصى بأنه مايزال يغمره بنعم لامثيل لها ولاقرين، ويتوسل إليه أن يمنَّ عليه بنعمة كبرى، هى نعمة العفو، حتى يكمل بها ما يمنحه من أفضالٍ كثيرة، ويقول له إن الحياة بدون رضاكم تكدَّرت مياهها، ولم يعد فى طعمها شىء من الحلاوة، ولقد بدَّل إعراضكم عنى معيشتى، حتى أصبحت أنكر أحوالى، بل إن أهلى أنكرونى لما يعترينى من قلق وضيق لم يألفوه منى. ويستمر فى استعطافه منشدًا.

ولى أمــلٌ يقضى بـغفــران زَلَّـتِى ... وبالعفو عن جُرْمى وبالصَّفْح عن فعلى
بقيتَ تــزيـد الملك عِــزًّا وبهجـةً ... وتَحْمِى رسومَ الفضل والدين والعدلِ
ولا يُخْــطِئَنِّى منك عفــوٌ ورحمـةٌ ... فــإنهمـا مــا أخطآ أحــدا قَبْلِى
وصــلَّى إلــهُ الـعَــرْش بـدءًا وعــودةً ... على المصـطفى من خلقه خـاتم الرُّسْـلِ

وهو يسأل المستنصر ضارعا أن يغفر له زلَّته ويعفو عن جرمه ويصفح عن فعله الذى اقترفه، ويأخذ فى الدعاء له أن يظل يزيد الملك عزا وأبَّهة وبهجة ومسرة ويحمى رسوم الفضل والإحسان والدين الحنيف والعدل الذى لا تصلح حياة الرعية بدونه، وهو بهذا الدعاء وما يسوق فيه من صفاته فى رأيه يحاول أن يستدر عطفه ويسأله العفو، بل يسأله الرحمة وأن يرقَّ له قلبه، ويقول له إنك دائما تسبغها على الناس، فلا تحرمنى منها، ويختم دعاءه بالصلاة على الرسول ﷺ، وكأنما يذكره ليكون شفيعًا عنده. وأسدل عليه المستنصر عفوه، وعاد إليه رضاه. ولعل فيما أنشدت له من أشعار ما يصور شاعرية غزيرة خصبة، وأنه كان يعرف كيف يصطفى ألفاظه ومعانيه فى لغة شعرية مصفاة، وبدون ريب كان معروفا بقدرته فى حَوْكِ الكلم،

مما أتاح له أن يشغل منصب الخطابة فى الجامع الأعظم، كما أتاح له هذه الأبنية الشعرية المحكمة فكرا وصياغة.

(جـ) ابن معمر

هو أبو على الحسن بن موسى بن معمر الهوَّارى الطرابلسى، كان فقيها ممتازا وشاعرا نابها مثل ابن أبى الدنيا معاصره، وفيه يقول التجانى فى رحلته: «أحد أرباب الرتب الجامعين بين رياسة الفقه ورياسة الأدب. ولد بطرابلس سنة ٦٠٩ وقرأ بها يسيرا، ثم توجه إلى (مدينة) المهدية (بتونس) للقراءة بها على الفقيه أبى زكريا البرقى» ويقول أيضًا: «كان فقيها مفوَّها خطيبا لسنا» وطمحت نفسه للنزول بتونس عاصمة الدولة الحفصية لعله يأخذ مكانه بها بين فقهائها وأدبائها ونزلها. ولفت إليه الأنظار بتعمقه فى المذهب المالكى، مما أتاح له أن يتولى مناصب متعددة فى دولة الخليفة المستنصر الحفصى (٦٤٧-٦٧٥هـ) إذ أسند إليه منصب القضاء فى كثير من بلاده فى إفريقية التونسية وفى الجزائر مثل باجة التونسية وبِجاية الجزائرية. وولى خطة أو منصب العلامة الكبرى فى ديوان الإنشاء، كما ولى النظر فى خزانة الكتب، ويقول التجانى: «كان فى لسانه فضول كثر امتحانه به والتعرض له بسببه» وفعلا نُقل إلى المستنصر عنه ما جعله يسخط عليه وينفيه إلى مدينة المهدية سنة ٦٦٧ ويعفو عنه، ولكن بعد عام كامل.

وتوفى المستنصر وخلفه ابنه الواثق (٦٧٥ - ٦٧٨هـ) فأسند إليه النظر فى خزانة الكتب بتونس، ويبدو أن فضول لسانه عاد إليه فغضب عليه رئيس الدولة ابن أبى مروان، فأدخله السجن تأديبا، ثم رُدَّت إليه حريته إلى أن فارق دنياه سنة ٦٨٣ للهجرة. وأنشد له التجانى بعض أشعاره، من ذلك قوله متغزلا:

لولا احورارُ جفونٍ أُودِعَتْ سَقما ... ما أمطرتْ سُحْبُ أجفانى الدموعَ دَمَا
ولا وقفتُ أُصَيْـلانـا بـرَبْعكمُ ... ولا سقيتُ رُباه من دمى دِيَمَا[1]
ولا نثرتُ عقيقَ الدمع فى طَلَلٍ ... منه أُذيع الذى قد كان مُكْتَتَما
شَمْلُ السلوِّ شتيتٌ بعد بُعْدكمُ ... وطالَمَا كان قبل اليوم مُلْتئما
البَيْنُ يقطع منه كل مُتَّصِلٍ ... والشوق يَنْثُرُ منه كلَّ ما انتظما
والوَجْدُ شادَ بجسمى ما يهُدِّمه ... آهٍ على ما بنى فيه وما هدما

وهو يقول لولا جمال الحور وما أودع العيون مما يشبه السقم ماهطلت سحب أجفانى بدم الدموع القانى ولا وقفت فى الأصيل بربعكم ودياركم أسقى رباها أمطارا من دمى، ولا نثرت

(١) أصيلانا: أصيلا. ديما: مطر غزير.

مُحْمَرَّ الدمع فى طلل ذاع منى فيه ماكنت أكتمه وأداريه، وقد فارقنى السلو وكان لايبارحنى وقطَّع البين والفراق منه كل ما كان متصلا ونثر منه كل ما كان منتظما والوجد آخذٌ بجسمى يبنى ويهدم مسببا لى التياعا شديدًا لا أكاد أطيقه، ويستمر ابن معمر فى غزله:

يا مَنْ يلومُ على ما جلَّ من أَسَفى — هذا اليسيرُ من الأمر الذى كُتِما
ما خطَّطَ النومُ فى جَفْنَىَّ رَسْمَ كَرًى — إلا مَحَا السُّهْدُ ما قد خُطَّ أورُسِمَا
أُنْبيكمُ أنَّنى مـن يـوم بَيْـنِكـم — مـازلتُ للسُّهْدِ والتـذكار مُلْتَـزِمـا
أرتاحُ إن هبَّ ريحٌ من جنابكمُ — أولاحَ برقٌ بذاك الأفْق وابتَسَمَا
أمـا ومن قَـدَّر الأشيـاء مقتـدرًا — وحبِّكمْ وكفى بـالحبِّ لى قَسَما
ما رام قلبى اصطبارًا بعد بُعْدِكمُ — ومـا تأخَّـر بى من وَجْدِهِ قَـدَما

وهو يقولُ لمن يلومه على ما يُظهر من عظيم الوجد واللوعة إن ذلك بعض ما أكتمه من حُرْقة الحب، ويشكو من السُّهد مفكرا فيمن يحبهن حتى يقول إن ما قد يخططه النوم فى جفنىَّ من أثر للنعاس يمحو السهد خطوطه ورسومه محوا، فسهده وتذكاره لمن يحبهن يلازمانه وإنه ليشعر براحة ما مثلها راحة حين تهب ريح من جهتهن أو يلوح برق من أفقهن مبتسما وكأنما يحمل أثرا من ابتسامهن، ويقسم بربه المقتدر وبحبِّه أن قلبه لم يحاول صبرا على فراقهنَّ وبعدهن، ولا يزال يلتاع وجدا وهياما. والأبيات تسيل عذوبة مع ما تشفع به من التصاوير، مما يدل على قدرة ملكته الشعرية وأنها تواتيه بما يريد من الأخيلة ومن الألفاظ السهلة التى تبدو لسهولتها وقربها من اللغة المألوفة كأنها طوع اليد، وهى لا تطاوع إلا الشاعر الأصيل الذى يعرف كيف يؤثر فيك بتصاويره وبلغته السلسة، ومن رقيق غزلياته قوله:

آهًـا نردِّدُ لـو تشفى لنا كُـرَبـا — وبالتِّعلَّات نَحْيَا لو قضتْ أَرَبَـا[١]
وبـالأمـانى ينـال القلبُ بُغْيتـه — وقـد تحقَّق من معتادهـا كـذبـا
يرتاعُ إن لاح بَرْقٌ من جهامتها — ومـا تراءَى لـه إلا وقـد ذهبَـا[٢]
يُسَـرُّ إن مُدَّ يـومًا حَبْـلُ مُنْيَتِه — ومـا تـطاول إلا جُـذَّ وانْقَضَبَـا[٣]
إنْ عزَّ ما يبتغيه فَهو فى هرَجٍ — ويختشى الفَقْدَ إنْ ما يَبْتَغى قَرُبا[٤]

---

(١) التعلات: ما يتعلَّل به الشخص ويتلهَّى. أربا: حاجة.

(٢) الجهامة: العبوس.

(٣) جُذَّ وانقضب: انقطع.

(٤) هرج: اختلاط.

وهو يقول إنه لا يزال يردِّد لفظة آه تعبيرا عن وجده الملتاع غير أنها لا تشفيه من كرب الوجد ولوعاته، ولا يزال يعلِّل نفسه ويمنيها باللقاء، غير أن التعلات لا تقضى مأربا ولا حاجة وإن القلب لا يزال ظامئا متلهفا إذ لا يسعفه إلا سراب الأمانى الكاذب الخادع، وقد يلوح له أمل، وسرعان ما يتوارى كالبرق يختفى بمجرد ظهوره ولمعانه - إنه يعيش بالأمانى فى اللقاء، فهى حسبه، على أن حَبْلها لا يُمَدّ ولا يطول إلا جُذَّ وانقطع، ولا يزال عقله فى اختلاط، كلما شعر أن أمنيته لن تتحقق، وحتى إن ظن أنها اقتربت لا يزال فى خوف من ابتعادها بل من فقدها فقدًا لا أوبة معه. ويستمر ابن معمر فى غزله منشدا:

وارَحْمَتاهُ لقَلْبِى كم أُجَشِّمُهُ ... أمرا يذيبُ من الأَصْلاد ما صَلُبا
وكم يُعانى ملمَّاتٍ بأيْسرها ... يهوِّنُ الأمرَ من دنياه ما صَعُبا
وكم يُلَجِّجُ فى أفكاره لُجَجًا ... سُودًا توَجَّج فى أحشائه لَهَبا
وكم تهبُّ سَمومًا من تنفُّسِهِ ... لو استمرَّتْ لما هبَّتْ نسيمُ صَبَا
أستغفرُ اللّهَ لا أشكو الزمان ولا ... أُبْدِى - إذا طرقتْ أحداثُه - رَهَبا
ولا أئِنُّ لحظٍّ منه أعْوَزَنى ... ولا أُسَرُّ إذا ماءُ المنى انسكبا
أنَّى يُسَرّ لبيبٌ أن رأى حُلُمًا ... وكيف يطرب مَنْ خَمْرَ الفَنا شَرِبا

وهو يأسى لقلبه وما يجشِّمه من متاعب حبٍّ تذيب الصخر الصلد الصلب وما يحمله من ملمات يعانى منها أشد العناء، وإن أيسرها ليهوِّن أى أمر صعب من دنياه ما ظلت صعوبته راسخة جاثمة فيه، فما بالنا بأثقال تلك الملمات وما تحمل من صعوبات لا تطاق، وما أشقى قلبه بها جميعا وما أعظم عناءه، وكم يخوض هذا القلب من أفكاره لججا شديدة السواد توجج نيران وجد فى أحشائه ماتنى تلتهب التهابا، وإنها لتقذف بسموم من تنفسه لو استمرت - كما يزعم - لمنعت نسيم الصبا اللَّيِّنَ من الهبوب. ويعود ابن معمر إلى نفسه، ويستشعر قوة عاتية، ويستغفر الله فإنه لا يشكو الزمانَ ولا يصيبه جزع من أحداثه، ولايئن لحظ فاته منه، ولا يحزن لخطوب طرقته ولا يفرح لأمانٍّ طوَّقته. ويقول كيف يسر لبيب عاقل رأى حُلْما تراءى له وكيف يطرب لمسرة من مسرات الدنيا مَنْ شرب من كأس الفناء وأسكره. وله وقد أبلَّ الخليفة الحفصى - ولعله المستنصر - من مرضه.

اللّهُ أنعم بعد اليأس بالفَرَجِ ... يا أزمةَ الدَّهْرِ عند الشدَّةِ انْفَرِجِى
شكرُ الخلائق لا يكفى لأيسر ما ... كفى وسكَّن من هَرْجٍ ومن رَهَجِ[1]

---

(١) هرج ورهج: شغب واختلاط.

أبْقَى الأنــامَ بـإبقــاء الإمـام فكم   بِصَوْنِه صانَ من مالٍ ومن مُهَـجِ
إذا رعـى الله لـلإسـلام راعـيَـهُ   لم نَأْسَ من فَقْد ذى قَدْرٍ ولا همجِ

وهو يقول إن الله أنعم على الرعية بعد يأسها بنعمة الفرج وكشف الغم الذى اعتراها بمرض الخليفة، ويتجه إلى أزمات الدهر يسألها أن تنفرج وتنكشف وتنحسر عند الشدة أو الشدائد إلى غير رجعةٍ، ويقول إن شكر الرعية لا يفى بهذه النعمة الكبرى نعمة شفاء الخليفة من مرضه وتهدئة ما كان قد حدث فيها من اختلاط واضطراب بسببه. ويفزع ابن معمر إلى المبالغة أو قل يتمادى فيها، إذ جعل بقاءه بقاء للرعية وصوناً لأموالها ونفوسها، ويجعله راعيا للإسلام ويرفعه فوق أفراد الرعية درجات. ولعل فيما أسلفت من أشعار ما يصور شاعرية ابن معمر وأنه يعد بحق أشعر شعراء ليبيا حتى عصره لحسن صياغته وروعة تصاويره ودقة أفكاره.

٤

الشعراء فى العهد العثمانى

مرَّ بنا أن العثمانيين استولوا على طرابلس فى أواسط القرن العاشر الهجرى، وقد ضمَّ محمد الساقزلى والى طرابلس برقة إلى ولايته بعد نحو قرن، وبذلك أصبح لليبيا حاكم عثمانى واحد يتخذ طرابلس عاصمة له، وكان حكامها يتخذون التركية لغة رسمية لدواوينهم، وأخذوا مع الزمن يقيمون مدارس فى ليبيا ولكنها كانت تصب عنايتها على تعليم التركية لتخريج موظفين للدواوين يساعدون فى تصريف شئون الولاية. غير أن الثقافة الإسلامية العربية ظلت ترعاها المساجد والزوايا. وكانت ليبيا قد أخذت تشغل منذ القرن الثامن الهجرى بالتصوف وزواياه وشيوخه، واتسع انشغالها بذلك منذ حكمها العثمانيون فى أواسط القرن العاشر الهجرى أو بعبارة أدق منذ حكموا طرابلس، إذ كثر الشعر حينئذ على لسان الصوفية، غير أن الكثرة الغامرة منه عامية، وما ليس عاميا يكثر فيه اللحن، وممن يضاف إليه أشعار كثيرة من دراويشهم عبد السلام الأسمر المتوفى سنة ٩٨١ وكانت له زاوية بمدينة زليطن على نحو ما ذكرنا فى حديثنا عن الزهد والتصوف، وتكثر العامية الليبية فى أشعاره ويكثر فيها الخروج على العروض، وربما لم يكن هو نفسه السبب فى ذلك، فقد تحول كثير منها شعرا شعبيا، فربما عبث به الرواة والمنشدون من العوام، ومن أهم أشعاره قصيدة نظمها فى التسعين من عمره، ونقتطف منها بعض أبيات تستقيم فصاحة وعروضا[١]:

---

(١) انظر القصيدة فى كتاب الشيخ سيدى عبدالسلام الأسمر لإسحق المليجى ص٣٠٤.

شربتُ شراب العزِّ من خَمْرةِ الصِّبا ... سقانيه محبوبى بسرِّ العِنايةِ
وبانتْ لىَ الأنوار وانكشف الغِطا ... وألهمتُ أسرارا بسرِّ الجلالةِ
ونمَّقتُ منشورا إلى كل عاشقٍ ... بأنهمُ حزْبى وأهلُ إرادتى

وكان الشطر الأول فى هذه الأبيات مضطربا وأصلحته ليستقيم الوزن. وكان للشيخ أتباع كثيرون جاءوه من كل فج فى ليبيا وتونس والبلاد المغربية، وأقاموا له - حين توفى - مأتما كبيرا أنشد فيه بعض مريديه مراثى مضطربة الوزن والصياغة، وإنما ذكرت بعض أشعاره لأدلّ على تدهور التصوف لغة ووجدا ملتاعا، فالأبيات لا تحمل أى وجد، إنما هو ظاهر مما كان يردِّده الصوفية قديما من كلمات الشراب والخمرة وانكشاف الغطاء والعشق وما إلى ذلك. وقد أحالوا الزوايا فى ليبيا وبلاد المغرب من دور عبادة ونسك وتجمُّع فيها لجهاد أعداء الله أو قل أحالوا كثيرا منها إلى دور شعوذة واعتقاد فى شيوخها بأنهم أولياء الله يطلعون على الغيب وتجرى على أيديهم أعظم الخوارق، واستخدموا فيها حلقات الذكر مع التثنى والنشوة بالاستماع إلى أناشيد صوفية ممسوخة ومع استخدام الدفوف والبنادر ونفس زاوية الشيخ عبد السلام الأسمر بزليطن استحالت إلى هذه الصورة، فقد كان يستخدم فى زاويته الدف والبندير والأناشيد والتثنى فى الذكر، مما أثار عليه حملات شعواء من فقهاء عصره، وهو لا يبالى، بل يوهم أتباعه أنه ناظر وجادل نفرا منهم وتبعوه، يقول فى نفس القصيدة:

وكم من فقيه كان ينكر حالنا ... فصار بفضل الله من أهل حَضْرتى
فأُعْطِى له التصريفُ حَيًّا وميِّتًا ... وصرتُ إمامَ الوَقْت شَيْخَ الطريقةِ

وهو يزعم - زعمًا باطلا - أن من تبعه من الفقهاء أصبحوا من الأولياء، وأصبح لهم التصرف فى القضاء أحياء وأمواتا مثله، وهى شعوذة ملأ بها أمثاله نفوس العامة فى ليبيا والعالم العربى: أن زيارة قبور الأولياء والمتصوفة تنفعهم وينبغى أن يقدموا لها النذور، وهى لاتنفع ولاشفع، إنما ينفع الإنسان -ويشفع له- عمله. ولكن إذا كان التصوف ساء سلوكا فى العصر العثمانى بليبيا وهبط شعرا فإن المديح النبوىّ ظل له غير قليل من الرونق عند شاعر ليبى لُقِّب بالبُهْلول، وهو -لغة- الجامع لخصال الخير وسنترجم له، ونتبعه بترجمة أحمد بن عبدالدائم.

(أ) البُهْلول[1] الطرابلسى

هو أحمد بن الحسين الملقب بالبُهلول، وُلد بطرابلس حوالى منتصف القرن الحادى عشر الهجرى وتوفى سنة ١١١٣هـ/١٧٠٢ م ولما نهل من حلقات الشيوخ فى مسقط رأسه، وعبَّ منها ما شاء، رأى أن يرحل إلى القاهرة للتزود من أعلام الأزهر الشريف وظل فترة به ملازما حلقتى إمامى المالكية فيه: الشيخ محمد الخرشى والشيخ عبدالباقى الزرقانى، ولكل منهما شرح على مختصر الشيخ خليل بن إسحق فى الفقه، والشيخ خليل - بدوره - فقيه مالكى مصرى، وقد طارت شهرة مختصره فى البلاد المغربية إلى اليوم، وتفتحت موهبة البهلول - حينئذ - فأنشأ قصيدة يتشوق فيها إلى موطنه طرابلس، وفيها يقول:

طـرابُلُسَ الغَـرَّا تُـرَى لِىَ عَـوْدَةٌ ... إليكِ وهل يَدْنو الذى كان قد ذَهَبْ
سَقَى الجانبَ الشرقىَّ منكِ سحابـةٌ ... ولازال فيكِ منْ رياح الصَّبَا مهبُّ
بـديعـةُ حُسْنٍ زادهـا الله بَهْجَـةً ... وآمَن أهليهـا من الخـوف والشَّغَبْ
وكيف بـدارٍ قد حـوتْ كلَّ رُقْعَـةٍ ... بقومٍ لهم فى العلم باعٌ وفى الأدبْ

ورجع إلى طرابلس بعلم غزير وأدب وفير وملكة شعرية خصبة، ولم يسخِّرها فى مديح حكام بلده، وإنما سخَّرها فى مديح صفوة الخلق سيد ولد آدم محمد ﷺ، ونظم فى ذلك ديوانا، قصائده مخمَّسات موزعة على الحروف الهجائية، وأضاف إلى تلك الحروف الثمانية والعشرين: «لا» فأصبحت تسعة وعشرين حرفا، ولكل حرف قصيدته وهو قافيتها وكل قصيدة تتألف من عشرين دورا، أو قل كل مخمس، وقد عُرف شعراء المغرب والأندلس بهذه المخمسات العشرينية، وعلى شاكلتهم ألف البهلول أو نظم هذا الديوان، ويقال إنه نظم مخمساته على أساس قصيدة عياضية، وهى لا توجد بين قصائد القاضى عياض إمام مدينة سبتة المشهور وربما كانت لعياض آخر، إذ يتسمى باسمه كثيرون بين مغاربة وأندلسيين، وأول دور فى المخمس الأول يجرى على هذا النمط:

أذوبُ اشتيـاقـا والفؤاد بحسـرةٍ ... وفى طَىِّ أحشـائى توقُّـد جمرةِ
متى ترجع الأحباب من طول سَفْرَةٍ ... أحـبَّـة قلبـى علِّلونـى بـنـظرةِ
فدائى جفاكم والوِصال دوائى

---

(١) انظر فى البهلول ديوانه ومقدمته لمحققه: الطاهر الزاوى وكتابه أعلام ليبيا، والمنهل العذب لأحمد النائب الأنصارى.

وقافية الشطر الخامس همزية ومثلها جميع الشطور الخامسة فى أدوار المخمَّس، وإلى قافية هذا الشطر يُنْسَبُ المخمَّس جميعه. والأدوار العشرة الأولى فى كل مخمس تتخذ الغزل موضوعا لها بينما الأدوار العشرة الثانية فى مديح المصطفى ﷺ كما يقول محقق الديوان الأستاذ الطاهر الزاوى. ونظن ظنا أن وراء الظاهر فى العشرة الأولى نفحات من الغزل الصوفى الحسى الذى نقرؤه فى ديوان ترجمان الأشواق لابن عربى إذ يتشابه معه فى أنه يجمع فى غزله ما يختلج فى قلوب المحبين العذريين إزاء محبوباتهم من لواعج الحب والافتتان بجمالهن وسحر عيونهن وورد خدودهن، ودائما محبوباتهم فى ارتحال وفراق وبَيْن، وهم مسهَّدون يبكون بدموع غزار، ولا يبلغ المحب مراده من الوِصال، وهو - لذلك موجع الفُؤاد، إذ لاشفاء له بلقاء أو ما يشبه اللقاء، بل قطيعة متصلة، والحب - بل العذاب - يتجدد ألوانا. وجميع العشرينيات عند البهلول تبتدئ بهذا الغزل الملتاع، ومما يؤكد تأثره فى غزله بالغزل الصوفى ذكره فى مخمسه الخائى معروفا الكرخى الصوفى وتلميذه السرى السقطى والجنيد تلميذ السرىّ، والثلاثة من صوفية القرن الثالث الهجرى المشهورين، وهو ما يجعلنا نزعم أن شعاعات من الغزل الصوفى الحسى سقطت فى الأدوار العشرة الأولى بمخمَّساته من مثل قوله فى مخمَّسه السينى:

نفـوسٌ عـزيـزاتٌ تُـرَى مَنْ أذلَّهـا وسَفْكُ دِماها فى الهوى مَنْ أحلَّها

وبى غـادةٌ كالشمس تمنـع وَصْلَهـا سمحت بنفسى فى هـواهـا لعلَّهـا

تدوم على حفظ المودَّة والأنس

تحمَّـل قلبى فى هـواهـا تحيَّـةً ولم تَـرْعَ بـالتفـريق وُدًّا وصُحْبَـةً

أنـادى عَسَـاهـا أن تفـرِّجَ كُـرْبَـةً سقتنى كئوسًـا بـالمحبَّـة صـرفـة

ثملتُ بها سُكْرًا وغبتُ على حِسِّى

وظاهر الدَّور الأول كأنه غزل طبيعى لمحبٍّ يتذلَّل لمن تدلَّه فى حبها وأصابته بسهامها حتى كأنما سفكت دمه غير مبالية بحبه، وتمنع وصالها، وتمعن فى هجرانها، وهو لايزال يأمل أن تراجع نفسها وتذكر له أيام المودة والأنس، وهى معان يقولها الغزلون العُذْرِيُّون ولكن تأمَّل فى الدور الثانى وماذكر فيه من كئوس المحبة وارتوائه منها صِرْفة صافية وكأنما ارتوى من كئوس المحبة الربانية التى طالما ردَّدها الصوفية، ويقول إن نشوة السكر غلبت عليه حتى غاب عن حِسِّه، وكأنه يعنى فكرة الفناء الصوفية فى الذات العلية إذ يبلغ الصوفى من محبته لربه غيابه عن حسِّه، فقد أصبح روحا فانية فى ربه لا يشعر بشىء فى الوجود سواه وسوى محبته التى استغرقت حواسه حتى كأنما أصبح فى غيبوبة مطلقة. وحقا لا يمعن البهلول فى غزله الحسى الذى يقدم به المديح النبوى كل هذا الإمعان الصوفى، ولذلك نقول إن فى غزله بعض شعاعات من المحبة الصوفية.

والأدوار العشرة الثانية فى مخمسات البُهلول خصَّها بمديح الرسول ﷺ، ويفيض فى ذكر معجزاته التى تتحدث عنها السيرة النبوية مثل انصداع إيوان كسرى وانطفاء نار فارس عند مولده ومثل شَقِّ جبريل لصدره ووضعه النور الربَّانى فيه بمنازل مرضعته حليمة السعدية، وشكوى الصحابة إليه من قلة الماء فى بئر صغيرة كان يتوضأ منها، ففار الماء وتكاثر ببركته وما قيل من أن الغزالة كلمته وكذلك الذئب والضب، ومعروف أن معجزة الرسول الكبرى إنما هى القرآن الكريم ورسالته العظيمة التى وضعت أسسا قويمة لهداية البشرية . ويذكر البهلول مرارا وتكرارا إسراء الرسول على البراق إلى بيت المقدس وصلاته فيه إمامًا للرسل، ومعراجه إلى السموات السبع وما غشيه من الأنوار القدسية عند سِدْرةِ المنتهى ومايني يتحدث عن محبته للرسول مصورا فضائله وشمائله المثالية السامية، ضارعا إليه دائما أن يكون شفيعه يوم المحشر، وتتراءى فى جوانب من مديحه النبوى شعاعات من فكرة الحقيقة المحمدية التى تغنى بهاالحلاج والبوصيرى لما جاء فى الأثر من قول الرسول ﷺ: «كنت نبيا وآدم بين الماء والطين» وكأن حقيقته أقدم من حقيقة آدم وخلقه، وكأنه المبدأ لكل النبوات والرسالات، وفى ذلك يقول البهلول فى مخمَّسة الخائى:

سما مَجْدُه بين الأنـام وفخـرهُ ... وقد جَلَّ من بين البَرِيَّة قَـدْرُهُ
له المنصبُ الأعلى لقد تَّم نصْرُه ... ختـامٌ وإن كـان المقـدَّم ذكـره
أخيرٌ وإن كان المبدَّأ فى النَّسْخ

فالرسول ﷺ -مع تأخره فى الرسالة- متقدم فى الرتبة على جميع الرسل والأنبياء، بل إنه المبدأ لهم جميعا، فمن رسالته استمدَّت جميع الرسالات، وكأنما نسختها منذ الأزل، بل إن الوجود جميعه ليستمد منه، إذ هو نور الله، وكل نور فى الوجود يستمد من نوره، يقول:

نبيٌّ تســامى فى الأنـام بمجــدِهِ ... لقد ضاءت الآفاقُ من نور سَعْدِهِ

وما ذكاء أو الشمس فى أضوائها الزاهية إلا فيض من نور وجهه وطلعته السنية، يقول:

لـه الشرفُ العـالى بفخرٍ وسُؤْددِ ... ذكاءٌ بدتْ من نورِ وَجْه محمـدِّ

فالرسول ﷺ منشأ النور فى الوجود وإن نور وجهه ليشاهد فى كل نور: فى الشمس وغير الشمس، إذ هو الحقيقة الأزلية أو النور الأزلى الذى يضيئ الكون والآفاق منذ الأزل أضواء نيِّرة غامرة.

وأدوار المخمسات فى ديوان البهلول تفيض بالسلاسة والعذوبة دون أى غرابة فى كلمة أو صيغة، مما جعل أهل ليبيا - فضلا عن أهل طرابلس - يشغفون بالديوان ومخمساته لما يشيع فيه من السهولة والوضوح والصفاء الموسيقى، واعتادوا أن يقيموا لإنشاده حفلات تبدأ من

غرة شهر ربيع الأول كل عام حتى اليوم الثانى عشر يوم مولد المصطفى ﷺ، وربما صحبت الإنشاد ألحان بعض الآلات الموسيقية. وكانت للبهلول - بجانب هذا الديوان النبوى - أشعار تعليمية فى فقه مذهب مالك وفى العقائد ولم تصلنا، وكانت له مقامات على نمط مقامات الحريرى سقطت - بدورها - من يد الزمن ويكفيه فخرا ومجدا هذا الديوان النبوى الذى صوَّر فيه مشاعره الصوفية ومحبته المتقدة بين جوانحه لصاحب الرسالة المحمدية.

(ب) أحمد[١] بن عبد الدائم

هو أحمد بن عبد الدائم الأنصارى، ولد بطرابلس ونشأ بها، وحفظ القرآن الكريم واختلف إلى حلقات علمائها، وتفتحت موهبته الشعرية، وكان فقيها ومؤرخًا غير أن الشعر هو الذى جذبه، وكان معاصرا لأحمد القرمانلى والى طرابلس (١١٢٣ - ١١٥٨هـ) فأخذ يدبج فيه بعض المديح وحدث فى أثناء ولايته سنة ١١٤١هـ/١٧٢٨م أن قام أسطول فرنسى بمظاهـرة أمام طرابلس وأرسل قبطانه إلى القرمانلى بشروط ينبغى أن يرضخ لها وإلا ضرب المدينة بقذائفه، ولم يرضخ القرمانلى ولا قبل الشروط، رافضا تهديد القبطان ووعيده، وضرب الأسطول طرابلس بقذائفه أربعة أيام طوالا، وأرسل القبطان أو قائد الاسطول الفرنسى بعدها خطابا يحث فيه القرمانلى على الصلح غير أنه صمم أن لا يستسلم، وكان الاسطول قد دمر أكثر من ثلث المدينة إذ ألقى عليها نحو ألفى قنبلة، واستنفد ماليديه من القذائف، فلم يجد قائده بدا من فك الحصار عن طرابلس وعودته إلى بلاده. كل ذلك حدث والخليفة العثمانى لايحرك ساكنا ولايحاول الثأر لطرابلس من الفرنسيين. فنظم ابن عبد الدائم قصيدة يستثيره فيها ضدهم محاولا أن يملأه حمية وحماسة بمثل قوله فيها:

يـا واحدا مـافى البسيطة مثله ... ملك الملوك بتــاجـه المتكلِّلِ
أو مايغيظُك حـالُ قَلْعتك التى ... فازتْ بِفَتْحك فى الزمان الأوَّلِ
إنَّا لنرجو منك أخذ الثأر من ... شَعْبِ الفرنْسيسِ اللئيم الأرذل

وكان العبدرى المغربى قد نزل طرابلس فى رحلته إلى الحج سنة ٦٨٨ ويبدو أنه أصابه حيف من بعض أهلها. فعمَّ المدينة وأهلها جميعا بذم شديد ضمنه رحلته المغربية، ذمَّ المغيظ المحنق، ولا نعرف الأسباب الحقيقية لهذا الذم، وردَّ عليه رحَّالة مغربى مواطن له زارها بعده، هو ابن عبد السلام الناصرى، إذ دافع عنها دفاعا حارًا فى رحلته الحجازية الكبرى، واستشهد على

---

(١) انظر فى أحمد بن عبد الدائم كتاب التذكار فيمن ملك طرابلس من الأخيار لابن غلبون وأعلام ليبيا للطاهر الزاوى والمنهل العذب لأحمد النائب الأنصارى.

مدحها بأشعار لمغاربة فى تقريظها وتقريظ أهلها، ومن قوله: «وحسن أخلاق أهلها وجودهم سارت به الركبان، وعلم علمائها امتلأ به الخافقان، وفضلهم من شمس الضحى أظهر وأوضح، وما زالت الأشراف تُهْجَى وتمدح». وابن عبد الدائم أحد من امتعضوا امتعاضا شديدا من ذم العبدرى لها ولأهلها، مما جعله ينظم قصيدة فى الرد عليه، كان لها دوىّ غير قليل، وفيها يقول:

طرابلُسٌ لاتقبل الذمَّ إنها ... لها حسناتٌ جاوزتْ سيئاتها
إذا أمَّها من قد نأتهُ بلادهُ ... وأوحشه ذو أمرها من حُماتها
تطامن عن نفسٍ ومالٍ وعشرةٍ ... ويُضْحِى بعزٍّ ماثَوَى بجهاتها
لها همَّةٌ تعلو لتأييد سُنَّةٍ ... بحفظ مبانيها وجَمْع رُواتها

وهو يقول إن طرابلس لا تُذَم ولا تَهجى، فحسناتها أكثر من سيئاتها ومحامدها أكثر من أن تحصى، ويذكر أن الغريب الطريد من بلاده وحكامها الجائرين إذا نزلها أمن على نفسه وماله وأهله، ويشعر بعز مابعده عز طوال إقامته ، وينوه بهمتها فى العلوم وخاصة فى تأييد السنة بحفظ نصوصها وأسانيد رواتها. والقصيدة فى تسعة وعشرين بيتا وقد شرحها مواطنه ابن غلبون المتوفى سنة ١١٧٧هـ /١٧٦٤م فى كتاب سماه: «التذكار فيمن ملك طرابلس وماكان بها من الأخيار». وشعر القصيدة وأختها السابقة متوسط، وكأن طرابلس وليبيا جميعا استبقتا نهضتها فى الشعر إلى عصرهما الحديث عند رفيق المهدوى ونظرائه.

٥

النَّثْر

من المؤكد أن ليبيا أنتجت نثرًا كما أنتجت شعرًا غير أن نثرها لم تحتفظ به الكتب إلا قليلاً جدا إذ كثيرا مانقرأ فى كتب التراجم لهذا الطرابلسى أو لهذا البرقى رسالة أو مقامة، ويُكتفَى بمثل هذه الإشارة ولا تذكر المقامة ولاتذكر الرسالة، وبالمثل نسمع عن هذا الفقيه الكبير أو ذاك أنه تولى قضاء طرابلس والخطابة أو تولَّى الخطابة بالجامع الأعظم فى تونس ولا تذكر لهذا ولا لذاك خطبة. وقد يكون من أسباب عدم الاهتمام بتسجيل فنون النثر فى طرابلس وبرقة وغيرهما من مدن ليبيا أنه لم تنشأ بها دولة ترعى الأدب وتحميه وتحدث بتشجيعها له وحاجتها إليه نهضة أدبية واسعة كما حدث فى تونس وغير تونس من البلدان العربية، ولو أنه نشأت فى

طرابلس أو برقة دولة وأنشأت لها ديوان إنشاء لتألّق لها كتاب نابهون يدبّجون رسائل سياسية بديعة تلفت معاصريهم وتجعلهم يسجلونها لهم وليتَّ ذلك فيها نشاطا أدبيا جمًّا فى النثر لا فى فن الرسائل وحده بل أيضا فى مختلف الفنون النثرية. ومع ذلك فقد بقيت من النثر الليبى قطع صغيرة وشظايا متفرقة من وصايا الفقهاء والزهاد ونصائحهم من مثل قول عبد الجبار السِّرْتى المذكور بين الفقهاء الزهاد والمتوفى سنة ٢٨١. «مَنْ قَلَّ كلامه قلّت آثامه - الصوم عن الكلام أفضل من الصوم عن الطعام - من زمَّ (صان) لسانه كثُر فى الدنيا والآخرة أمانه» . وسُئل الزاهد عبد الله بن إسماعيل البرقى المار ذكره والمتوفى سنة ٣١٧ عن كثرة بكائه خشية وتقوى، فقال: «إنما جُعِلْت عيناى للبكاء، ولسانى لتعظيم الله عز وجلّ وتحميده والصلاة على نبيه، وبدنى للتراب والبلى، وقلبى للخوف والرجاء، لم أخلق للعبِ ولا للهو، وإنما خُلِقْتُ للعمل الصالح».

وكان الإباضية أكثر احتفاظًا بأقوال أئمتهم، ونجد فى كتاب السير للشماخى خطبة لأبى الخطاب المعافرى الثائر بطرابلس سنة ١٤٠ وهى فصيحة، غير أنها شديدة البساطة ولا تعنى بجمال الصياغة، إذ ارتجلها فى مخاطبة الجيش الذى وجَّهه لإخراج الصفرية من القيروان. ويذكر الشماخى نَصًّا من أقصر الرسائل المتبادلة بين متوعد لأهل نفوسة ومجيب له، إذ كتب الأول مهددا ومنذرا: ﴿كَلَّا سَوفَ تَعلمون ثم كَلَّا سَوف تعلمون﴾ وهما عبارتان قرآنيتان، فأجابه محمد بن جنون الشروسى النفوسى من القرآن أيضا: ﴿ألم نُهلك الأولين ثم نتبعهم الآخرين كذلك نفعل بالمجرمين﴾. ونرى الشاعر فتح بن نوح الإباضى الذى ترجمنا له بين شعراء الدولة الحفصية يعارض أبا العلاء المعرى فى كتابه الوعظى: «ملقى السبيل» الذى جعله على الحروف الأبجدية، وفيه يذكر سجعات نثرية قليلة ويتبعها ببيتين بنفس معناهما، وهو ماتقيد به فتح بن نوح فى معارضته إلى نهاية الحروف الهجائية بادئًا ببيتين بقافية الهمزة، ودائما يذكر البيتين أولا ويتلوهما بالسجعات الوعظية، ومن سجعاته قوله:

«كلُّ من غَدَا على ظهرها[1] وراح، مشغولُ البال ما استراح، حتى الأجنَّة فى الأرحام، من بنى سامٍ ويافثٍ وحام، كلٌّ أهدافُ السهام، أرونى خَلْقًا خِلْوا، وسليم الخاطر سُفْلاً وعُلْوًا، وهيهات لن ترى إلا نِضْوا[2]، فإنا لله.. لم نر إلا عبد آمال، وعابد مال، وفاسد أعمال، ومتصنعا بأسمال[3]، فسد العمران والبيد، وأشرفنا على ماذكره لبيد» والسجعات تطير عن الفم بخفة لعذوبتها، وهو يعرف كيف يصطفى ألفاظه ومعانيه بحيث تلذ السامع وتمتع عقله، مضيفا إليها

(١) ظهرها: يريد ظهر الدنيا وسطحها الذى نعيش عليه.

(٢) نضوا: مجهدا مهزولا.

(٣) أسمال جمع سمل: ثوب خَلَقٌ بال.

بعض محسنات البديع وطباقاته من مثل: «غدا - راح. وسُفْلاً - عُلْوا» وجناساته من مثل: «عبد آمال - عابد مال. والبيد - لبيد) وتصاويره من مثل: «أهـداف السهام - نضـوا» ولا نشعر فى شىء منها جميعا بتكلف أو تصنع فما تميز به من حسن البيان، ويشير إلى بيت لبيد العامرى المشهور:

ذهب الـــذين يُعــاش فى أكْنــافِـهم   وبـقيـتُ فى خَلْفٍ كـجـلدِ الأجـــربِ

ومن طريف سجعاته قوله فى بعض هذا الوعظ:

«صِينَ الدِّين والعِرْض ، ومؤدِّى الواجب والفَرْض، ومطيع ديَّان السماء والأرض، وحُوشِىَ مِن اللَّوم مَنْ ليس على الدنيا بهَجوم، ولا للورى بظلوم». وقوله:

«لو علم الغابر، مصرع العابر، وفهم مضمون المقابر، ما أغْضَى جَفْنًا على سِنة (نعاس)، ولا ادَّخر شهرا لسنة. حبَّذا من اعتنى بذا، وهجر الخنا والبذا (البذاء) وأغضى على القَذَى، وآمن الناس من الأذى».

والسجعات فى غاية السلاسة والرشاقة وحسن النسق فى الجرس، بحيث تستهويك وتخلب لبَّك، وهى ملحقة بالديوان، وإنها لحرية بأن تحقق مع مايسبقها من أشعار وعظية وتنشر نشرة مستقلّة.

القسم الثانى

تُونِس

الفصل الأول

الجغرافية والتاريخ

١

الجغرافية(١)

جلب هذا القطر قديما بحسن موقعه على البحر المتوسط وكثرة خيراته الفينيقيين ومن بعدهم الرومان فالواندال فالروم البيزنطيين، وهو يقع فى المنطقة الوسطى من الشمال الإفريقى بين البحر المتوسط فى الشمال والشرق وليبيا فى الجنوب الشرقى والصحراء فى الجنوب الغربى والجزائر فى الغرب. وتبلغ مساحته نحو مائة وخمسة وعشرين ألف كيلومتر مربع. وتدخل إليه جبال أطلس من الجزائر قرب مدينة تِبَسَّة فى الجنوب الغربى، وتصعد بعض فروعها إلى الشمال الشرقى مارَّة بجبل زغوان شمالى القيروان وتنعطف منها مرتفعات - فى شكل تلال - إلى بنزرت. وتمتد سهول تحت أقدام جبال أطلس وخاصة فى الشمال. وليس فى الاقليم التونسى نهر كبير سوى نهر مجَرْدة المنحدر من الغرب إلى الشمال الشرقى فى اتجاه تونس، وسهوله من أخصب السهول، وتنتج مقادير ضخمة من الحبوب سوى ما ينمو فيها من الزروع والغروس. وتمتد فى الساحل على طول البحر المتوسط أراض خصبة وافرة السكان والعمران. ووراء قابس فى الساحل الشرقى إلى شط الجريد وواحاته تترامى فى الجنوب أراض منبسطة واسعة فى وسطها مراع كثيرة وبعض المزارع، وغربيها بقاع شاسعة من الحلفاء وتوجد بعض السبخات، وشرقيها منطقة نفزاوة. ومدينة توزر هى قاعدة منطقة أو شط الجريد الذى تلتف به غابة واسعة من النخيل، ومياهها تنبع من الرمل وتتجمع خارجها، وتتشعب فى جداول عليها أرحاء صنعها ابن الشباط المهندس فى القرن السابع الهجرى، وتوزر من قديم تُعَدّ من أهم البلاد التونسية لإنتاجها الوافر من البلح والتمور فضلا عما بها من البساتين والفواكه المتنوعة وفى الشمال الشرقى من توزر مدينة قفصة، ويقول جغرافيو العرب إنها من أكثر بلاد الله فُسْتقا، وكان

(١) انظر فى جغرافية تونس أو الاقليم التونسى كتابات ابن رسته وابن حوقل وأبى عبيدالبكرى والشريف الإدريسى، وهذه تونس للدكتور الحبيب ثامر. وتاريخ إفريقية فى العهد الحفصى ليرنشفيك ترجمة الدكتور حمادى الساحلى (نشر دار الغرب الإسلامى) ٣١٣/١ ومابعدها ومادة تونس فى دائرة المعارف الإسلامية، وما بها من مراجع.

يُحمل منها إلى سجلماسة فى المغرب الأقصى ومدن الأندلس. وكانت تمدّ القيروان بأصناف التمور والفواكه. ومدن نهر مجَرْدة هى مدن الحبوب ومن أهمها مدن الكاف وسليانة وتَبُرْسُق وباجة غربى تونس وبينها نحو مائة كيلو متر، ويقول البكرى إنها كثيرة الأنهار (لعله يريد جداول المياه) وهى على جبل فى هيئة الطيلسان، واشتهرت قديما بإنتاج الحبوب، وخاصة القمح، ولذلك سموها قديما باجة القمح. ونمرُّ بالساحل من الغرب ابتداء من مدينة بنزرت، وهى ثغر فى أقصى الغرب التونسى على البحر المتوسط فى موقع ممتاز، تحف بها مزارع مثمرة وغابات كثيفة. وتشتهر بإنتاجها من الحبوب والبقول والزيتون، فضلا عن أنها ميناء تجارى مهم، وفى شرقيها بحيرة ويقول عنها الإدريسى: فمها متصل بالبحر المتوسط وكلما دخلت فى البر اتسعت وكلما قربت من البحر ضاقت، ويصاد بها أنواع كثيرة من الأسماك. وكان بجانبها محارس أو رباطات ينزلها النساك المجاهدون فى سبيل الله لحماية تونس من القراصنة والغزاة. ونمضى شرقا على الساحل فى الشمال، فتلقانا تونس على خليجها، وقد بناها حسان بن النعمان والى إفريقية (٧١ - ٨٥هـ) بالقرب من قرطاجة الفينيقية، متخذا منها دار صناعة كبيرة لبناء أسطوله. واتخذها عاصمة، غير أن الولاة والحكام بعده تركوها إلى القيروان التى كان قد بناها عقبة بن نافع بين سنتى ٥٠ و٥٥ للهجرة واتخذها هو ومن بعده عاصمة لإفريقية، حتى إذا استولت الدولة الحفصية على صولجان الحكم فى الاقليم اتخذت تونس عاصمة للبلاد، ومازال هى العاصمة إلى اليوم. وإلى الشرق من خليج تونس خليج الحمامات وبينهما شبه جزيرة من أخصب الأراضى التونسية، وتكتظ بغابات الزيتون وبساتين الفواكه وخاصة البرتقال.

وتلقانا بعد خليج الحمامات فى الشرق مدينة سوسة، وقد اتخذتها الدولة الأغلبية منذ أواخر القرن الثانى الهجرى دار صناعة لسفن أسطولها الحربى، وبواسطة هذا الأسطول استطاعت تلك الدولة الاستيلاء على صقلية سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م وعلى مالطة سنة ٢٥٥هـ/٨٦٨م ويقول ابن رستة فى كتابه: «الأعلاق النفيسة»: إن ساحل سوسة كثير السواد من الزيتون والكروم والأشجار، وبه قرى كثيرة يتصل بعضها ببعض، وهى - مثل بنزرت - يصاد بها أنواع مختلفة من الأسماك، وخاصة من الحيتان. وجنوبى سوسة مدينة المنستير وكانت فى الأصل محرسا كبيرًا أو رباطا بناه هرثمة بن أعين والى الرشيد لحماية الساحل وحراسته وظلت تتسع مع الزمن إلى أن أصبحت مدينة كبيرة. وإلى الجنوب منها مدينة المهدية التى بناها المهدى مؤسس الدولة العبيدية الفاطمية بتونس، بناها على نتوء صخرى بالساحل لتكون حاضرة له ودار صناعة لأسطوله، ويقول البكرى إنها من أعاجيب الدنيا. وإلى الجنوب منها صفاقس وهى مدينة تجارية مهمة، وتحيط بها أشجار الزيتون والفواكه، وفى كتاب الحلل السندسية أنه يصاد بها أنواع من السمك تفوق الحصر، وببحرها صوف تصنع منه ثياب رفيعة، وقد يوجد فى بحرها صدف يشتمل

على لؤلؤ صغير الحب، وأمامها جزر قرقنة ويشتهر سكانها بصيد الإسفنج. وإذا سرنا نحو الجنوب لقيتنا مدينة قابس متوسطة خليجها ويصاد فيه الإسفنج أيضا بكثرة، ويكثر بها النخيل والعيون الجارية، ويقول البكرى إن اللوز كثير بها وبالمثل جميع الثمار، ويكثر بها التوت، وحريرها أطيب الحرير وأرقه. وإلى الجنوب الشرقى من خليجها جزيرة جِرْبة الكبيرة الخصبة. وإلى الجنوب منها منطقة نفزاوة المشهورة بواحاتها وتشتهر ناحية طرّة فيها بصنع الزجاج من قديم لوجود الكارتز هناك بكثرة. والأشجار والزروع تحيط بالاقليم التونسى على امتداد سواحله شمالا وشرقًا وفى حوض نهر مجردة غربا وفى واحات نفزاوة وشط الجريد. والمنطقة الوسطى وحدها منطقة المراعى وفيها تنتقل القبائل الرحَّل.

ومناخ القطر التونسى – فى جملته – مناخ البحر المتوسط دافئ معتدل، ونزول الأمطار بها يختلف كثرة وقلة حسب أنحائها، وهى تكثر فى الشمال شتاء، وتقل قلة شديدة فى الجنوب، وتختلف درجة الحرارة فيها باختلاف البقاع ووقوعها على الجبال وسفوحها وفى السهول الزراعية وبقرب البحر أو فى داخل الصحراء.

٢

التاريخ[1] القديم

كانت تعيش فى القطر التونسى وغيره من أقاليم المغرب – فى العصور السحيقة – قبائل لا حضارة لها سماها الرومان باسم البربر، وحوالى القرن العاشر قبل الميلاد ارتاد سواحل إفريقيا الفينيقيون بحثا عن مواقع غنية بالخيرات يُرْسون بها سفنهم للتبادل التجارى، وكانوا شعبا مِلاحيا احترف التجارة، وأعجبهم ساحل الإقليم التونسى، فاتخذوا فيه مواقع لإقامات مؤقتة يتبادلون فيها السلع التجارية مع أهله وسكانه. ومع الزمن ومرور دوراته المتعاقبة رأوا أن يقيموا لهم فى ذلك الإقليم مدينة تكون لبعض أسرهم مستقرا كما تكون مركزا ثابتا لمتاجرهم. وفى تاريخ غير معروف بالضبط هل هو القرن الثامن قبل الميلاد أو قبله أو بعده أسسوا لهم مدينة غربى مدينة تونس الحالية سموها قرطاجة، وأخذت تزداد قوة، وأخذ بحارتها وتجارها ينشئون لهم مراكز تجارية جديدة فى الساحل الإفريقى مثل بجاية وشرشال فى الجزائر وطنجة فى

---

(١) انظر فى تاريخ الإقليم التونسى القديم خلاصة تاريخ تونس للأستاذ حسن حسنى عبدالوهاب (طبع تونس) والجزء الأول من تاريخ المغرب الكبير للأستاذ محمد على دبوز (طبع مطبعة الحلبى فى القاهرة)

المغرب الأقصى ونزلوا ساحل إسبانيا فى الجنوب الشرقى والغربى وأسسوا لها مدينتين: قرطاجنة على البحر المتوسط وقادس على المحيط الأطلسى.

وكان الفينيقيون أصحاب حضارة، ومعروف أنهم اشتقوا لهم من حروف الهيروغليفية المصرية أبجديتهم التى نشروها فى البلاد التى نزلوها قديما كما نشروها فى العالم القديم. وقد نزل قرطاجة التونسية كثير من أسرهم، وخالطوا السكان الإفريقيين، وامتزجوا بهم مصاهرة وغير مصاهرة، بحيث أصبحت لهم فى قرطاجة دولة كبيرة، كما أصبح لهم شعب ضخم يتألف منهم ومن البربر، واتسعوا فى تجارتهم مع المراكز التجارية التى أنشئوها فى المواقع المذكورة آنفا وفى فرنسا وصقلية، وجابت قوافلهم الصحراء فى الجنوب وحملت من السودان الرقيق والعاج والتبر. ولا نصل إلى أواسط القرن الثالث قبل الميلاد، حتى نجد روما تحاول أن تخضد من شوكة نفوذهم فى البحر المتوسط، وسرعان مانشبت الحروب بين الطرفين وظلت أكثر من مائة عام ابتداء من سنة ٢٦٤ إلى سنة ١٤٦ قبل الميلاد، وكان ميدانها لنحو عشرين عاما جزيرة صقلية موضع النزاع بين القوتين الكبيرتين، وأذعنت قرطاجة فى نهايتها للصلح، وعادت الحرب بينهما للنشوب سنة ٢١٨ قبل الميلاد واستمرت حتى سنة ٢٠٢ إذ باءت حملة هانيبال الكبرى بالإخفاق، وكان قد كوّن جيشا ضخما اقتحم به جبال البرانس وجنوبى فرنسا وشمالى إيطاليا محاولا أن يفتح روما، غير أن الأقدار لم تسعفه، وبعد ذلك بنحو خمسين عاما نشبت بين روما وقرطاجة حرب ثالثة ظلت ثلاث سنوات من سنة ١٤٩ إلى سنة ١٤٦ قبل الميلاد انتهت بانتصار روما وتدميرها نهائيا لقرطاجة الفينيقية. وكانت حضارتها قد استقرت فى الشمال التونسى قرونا وأجيالا متعاقبة، وكانت حضارة متقدمة لا فى شئون الملاحة والتجارة فحسب فهم أساتذتها فى العالم القديم بل أيضا فى صناعة السفن والمعادن والزجاج وفى زراعة الحبوب والبقول وأشجار الفاكهة وغراسة الزيتون والمظنون أنهم نقلوه - كما نقلوا كثيرًا من أشجار الفاكهة - إلى إفريقية فى تونس وغيرها من موطنهم الأصلى فى الشام، ومن أكبر الأدلة على اهتمامهم بالشئون الزراعية فى إفريقية التونسية أن نجد عالمهم الزراعى الكبير: ماجون (Magon) يؤلف أقدم كتاب عالمى فى الزراعة وغراسة الأشجار وقد نقله الرومان إلى اللاتينية حينما قهروا القرطاجيين التونسيين واستولوا على البلاد منذ سنة ١٤٦ قبل الميلاد. كما استولوا على مافيها من كنوز العلم والعرفان وكنوز الخيرات والطيبات.

ومنافسة لقرطاجة الفينيقية وهياكلها الضخمة ومبانيها السامقة أقام الرومان لهم بجانبها قرطاجة جديدة شادوا فيها هياكل ومعابد ومبانى باسقة كما شادوا مسرحا للتمثيل وملعبا لمصارعة الحيوان وبعض الحمامات. وكانوا يحكمون قرطاجة والقسم الشمالى من الاقليم التونسى مباشرة، وما وراءه فى نفس الإقليم وفى نوميديا (القسم الشرقى من الجزائر) كان

يحكمه ولاة تابعون لهم من البربر، واشتهر من بينهم والٍ يسمى يوغرطة حارب الرومان وحاول الاستقلال ببلاده ووقع فى أيدى أعدائه فسجنوه بروما إلى أن قضى نحبه سنة ١٠٦ قبل الميلاد. وأخذت البلاد تستكين لروما، وأخذ بعض البربر ينشأ بها ويتعلم فيها مثل يوبا الثانى المتوفى سنة ٢٢ للميلاد. وهو جزائرى، وقبره بالقرب من شرشال، وله مؤلفات مختلفة باللاتينية فى تاريخ الرومان وفى الجغرافية والموسيقى. واندمج بعض البربر فى الحياة الرومانية واستطاعوا الوصول إلى أعلى الوظائف فى الدولة، حتى ليصبح أحد أباطرة روما ويجلس على عرشها سنة ١٩٣ للميلاد بربرى من مواليد لمطة على الساحل الإفريقى ويقال: بل من مواليد لبدة بجوار طرابلس، وهو سبتيموس سيفيروس. وتابعت روما قرطاجة فى العناية بالزراعة فى إفريقية التونسية وشق القنوات بها وإقامة السدود والخزانات والصهاريج والمواجل، مما جعل الزراعة تزدهر بها فى زمنهم الذى امتد نحو ستة قرون طوال. وتظل التجارة مزدهرة بها أيضا وتظل القوافل تنحدر إلى الجنوب لحمل السلع من السودان. وقد نزلتها – وعاشت فيها – أسر رومانية كثيرة. وحين اعتنقت روما المسيحية حاولت نشرها فيها، وابتنت لها بعض الكنائس، ويبدو أنها عملت على نشر لغتها اللاتينية، وقد ظلت حية فى بعض الألسنة بعد الفتح الإسلامى – كما سنرى – قرونا طويلة، وسنرى بعض الأمراء الأغالبة يتعلمونها، كما تعلمها المعز لدين الله الفاطمى.

وتأخذ الأحوال فى روما تسوء، حتى إذا مضينا فى القرن الخامس الميلادى زادت سوءًا على سوء، مما جعل أحد ولاتها فى إفريقية المسمى بونيفاس يخرج عليها ويستغيث بقبائل الواندال الجرمانية التى كانت قد استولت على إسبانيا، وتقدم تلك القبائل، وتعيث فى إفريقية التونسية دمارا وفسادا لمدة مائة عام من سنة ٤٣٩ إلى سنة ٥٣٤ للميلاد، خرَّبت فيها كل – أو أكثر – ما كانت تزدهى به البلاد من أسباب الحضارة والعمران مما أقامه بها الفينيقيون والرومان إلى أن خلصها منهم القائد البيزنطى بليزير Bélisaire سنة ٥٣٤ للميلاد، وأصبحت إفريقية التونسية – من حينئذ – تابعة لقيصر بيزنطة (القسطنطينية) ويسمى العرب سكان هذه الدولة باسم الروم. وكانت بيزنطة تولِّى على إفريقية حاكما عامًّا يلقَّب بالبطريق Patricius مقامه بقرطاجة، وأسندت إليه إصدار الأوامر والإشراف على الموظفين وعلى أداة الحكم والشئون المالية، وكانوا يتبعون سياسة خرقاء ظالمة فى فرض الضرائب الفادحة والجبايات والإتاوات الباهظة. ولم تُعْن بيزنطة – وبالتالى حكامها – بنشر لغتها اليونانية فى البلاد على نحو ماعنيت روما وحكامها – من قبل – بنشر اللغة اللاتينية، فلم تكن اليونانية تتجاوز ألسنة الموظفين والجند البيزنطيين، وظلت اللاتينية هى اللغة المسيطرة فى المدن الإفريقية: فى قرطاجة وسوسة وغيرهما بسبب ما كان فيها من جاليات رومانية كبيرة.

٣

الفتح[١] - بقية الولاة - الدولة الأغلبية

(أ) الفتح

كان يحكم قرطاجة وإفريقية قبيل الفتح العربى بطريق بيزنطى يسمى جريجوريوس وسماه العرب جرجير، وحين رأى ضعف الدولة البيزنطية واستيلاء العرب على أكبر دُرّتين فى تاجها: الشام ومصر صمّم على الاستقلال، فخلع طاعة بيزنطة وضرب الدنانير باسمه، وبينما هو غارق فى حلمه إذا الجيش العربى الفاتح للشام ومصر يستولى على برقة وطرابلس وتوابعها فى سنتى ٢٢-٢٣هـ/٦٤٢-٦٤٣م. ويتوفى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ويخلفه عثمان بن عفان فيولى على مصر عبد الله بن سعد بن أبى سرح ويأمره بغزو إفريقية، فيسير إليها فى عشرين ألفا من الصحابة والتابعين يتقدمهم نفر من الصحابة أو من أبناء كبارهم، مثل ابن أبى سرح الصحابى وعبدالله بن عمربن الخطاب وعبدالله بن العباس وعبدالله بن الزبير وعبدالله بن عمروبن العاص وعبدالله بن جعفر وعبدالرحمن بن أبى بكر الصديق، ولذلك سُمِّى الجيش جيش العبادلة، ووصلت طلائع الجيش إلى إفريقية التونسية فى سنة ٢٧هـ/٦٤٧م واستولت على قابس، وكان جريجوريوس قد عرف أن العرب لابد أن سينازلونه، فانسحب من قرطاجة إلى الداخل محتميا بحصن أنشأه البيزنطيون إلى الجنوب الغربى من القيروان يسمى سُبَيْطلة وجمع إليه جيشا جرارا من البيزنطيين والبربر، يقال إنه كان مائة ألف، والتحم الجيشان وانتصر المسلمون وقُتل جريجوريوس فى المعركة، قتله عبدالله بن الزبير، وفتحت إفريقية التونسية أبواب مدنها لسرايا الجيش العربى الباسل، وأسرع البيزنطيون والبربر فى كل مكان إلى طلب الصلح، وصالحهم القائد ابن أبى سرح على مقدار من المال، وكانت الوقعة حاسمة، فلم تقم بعدها لبيزنطة قائمة، ويقال إن ابن أبى سرح ترك بعد ذلك القطر التونسى وعاد إلى مصر دون أن يولّى عليها أحدا وهو قول غير صحيح، لأنه لم يحدث أن العرب فى فتوحهم الأولى فتحوا

---

(١) راجع فى الفتح وبقية الولاة والدولة الأغلبية كتاب فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم وتاريخ الطبرى وابن الأثير وتاريخ إفريقية والمغرب للرقيق القيروانى (قطعة منه طبع تونس) ومعالم الإيمان للدباغ وابن ناجى ورياض النفوس للمالكى والبيان المغرب لابن عذارى والقسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام لابن الخطيب (طبع الدار البيضاء) وتاريخ ابن خلدون والمؤنس فى أخبار إفريقية وتونس لابن أبى دينار والحلل السندسية فى الأخبار التونسية للوزير السراج وخلاصة تاريخ تونس للأستاذ حسن حسنى عبدالوهاب

بلدا وفرضوا عليها إتاوات وضرائب وتركوها وانصرفوا، وكأن فتحا لم يحدث، مما يجعلنا نرجح ما قاله بعض المؤرخين من أنه خلَّف عليها نافع بن عبدالقيس الفهرى، وكان يتخذ زويلة التى فتحها فى حملة عمرو بن العاص مقرا لحكمه فى طرابلس وبعد ضم إفريقية التونسية إليه. ولإقامته فى زويلة ظُنَّ خطأ أن ابن أبى سرح لم يترك وراءه فى إفريقية التونسية عاملا، ويبدو أن الخليفة عثمان بن عفَّان ولَّى عليها بأخرة من أيامه سنة ٣٤ للهجرة معاوية بن حُدَيج السَّكونى. وتحدث فتنة عثمان فيعود، وتضطرب الأمور فى إفريقية كما اضطربت فى الولايات الأخرى.

ولما استقرت الأمور لمعاوية بن أبى سفيان أرسل إلى إفريقية جيشا عداده عشرة آلاف بقيادة معاوية بن حُدَيج سنة ٤٥هـ/٦٦٥م وعلم قيصر بيزنطة بهذا الجيش فأرسل إلى قرطاجة نجدة بحرية والتحم بها وبمن انضم إليها من البربر معاوية بن حديج وهزمهم هزيمة ساحقة لم يعد البيزنطيون بعدها يقدمون لعون قرطاجة، واستشهد فى هذه الغزوة أبو زمعة عبيد الله البلوى الصحابى، وكلف معاوية عبد الله بن الزبير بفتح سوسة ففتحها وفتح عبد الملك بن مروان بنزرت.

وولَّى معاوية عقبة بن نافع الفهرى على إفريقية سنة ٥٠ هـ/٦٧٠م وبمجرد وصوله إليها رأى أن الحكم العربى لا يثبت فيها ولا يستقرّ إلا إذا أنشئت بها مدينة عربية تكون معسكرا للجيش العربى الذى تتغلغل جنوده فى إفريقية بحيث تكون دارا لأسرهم وقاعدة لنشر الدين الحنيف ولغته العربية، واختار للمدينة موقعا على بعد نحو ثلاثين ميلا من البحر المتوسط، وسماها «القَيْروان» أى المعسكر، وبدأ فيها بإنشاء الجامع المنسوب إليه فى وسطها، وبنى بجواره دار الإمارة، وأحاط بها سورا، وسرعان ما أصبحت مدينة كبرى وظلت أم المدن فى إفريقية قرونا متطاولة فى العلم والثقافة وفى التجارة، واستغرقت عمارتها منه خمس سنوات حتى سنة ٥٥هـ/٦٧٤م وأصبحت مركزا لتحركات الجيش الفاتح بعد أن كان مركز تلك التحركات برقة وزويلة. وعزله معاوية وولاها أبا المهاجر فى نفس السنة المذكورة آنفا، ومن أعماله الجليلة فتحة لجزيرة شريك وإدخاله جميع بلاد الجريد فى الإسلام، وبالمثل جميع بلاد الجزائر وتغلغل فيها بجيشه إلى تلمسان حيث دارت بينه وبين قبيلة أوربة البرنسية وزعيمها كُسَيْلة معركة انتصر فيها وأسر كُسَيْلة فعامله معاملة كريمة جعلته يعتنق الإسلام واعتنقته معه قبيلة أوربة. ويتوفى معاوية ويخلفه ابنه يزيد فيعيد عقبة بن نافع ثانية واليا على إفريقية سنة ٦٢هـ/٦٨١م واستخلف زهير بن قيس البلوى على القيروان واتجه بجيشه إلى شط الجريد وأذعن له، كما أذعن الزاب فى الجزائر ومضى يجاهد فى سبيل الله إلى أن وصل إلى البحر المحيط، فأدخل فيه قوائم فرسه ورفع يده إلى السماء قائلا بأعلى صوته: «اللهم إنى أشهدك أنى وصلت براية

الإسلام إلى آخر المعمورة حتى لا يُعْبد أحد سواك» وكرَّ راجعا بعد أن دوَّخ القبائل المغربية ودانت له، وكان قد وبَّخ كُسَيْلة زعيم قبيلة أوربة فى أول ولايته الثانية لوقوفه قديما ضد الإسلام، وأسرَّها فى نفسه هو ومن غضبوا له من البربر الذين لم ينسوا قوميتهم البربرية، وصمَّم كسيلة على الثأر، حتى إذا تقدم عقبة جيشه بالزاب فى عودته، وبقى فى نفر قليل معه إذا كسيلة الأثيم يحاصر عقبة مع جمع من الروم ومن قومه سنة ٦٤هـ/٦٨٣م ويهجمون عليه وعلى من معه من أصحابه وكانوا نحو ثلاثمائة، وقاتلوهم قتال الأبطال، وتكاثروا عليهم فاستشهدوا جميعا، ودفنوا فى نفس المكان -نضَّر الله وجوههم- وأقيم على قبر عقبة مسجد يعرف باسمه، وهو من المزارات الكبرى فى المغرب. واتسعت ثورة كُسَيْلة، وتبعته جموع غفيرة من البربر دخل بها القيروان، وتراجع الجيش العربى بقيادة زهير بن قيس إلى برقة انتظارا لجيش عربى يقدم عليه للقضاء على تلك الثورة، وتصادف أن ثورة عبد الله بن الزبير فى الحجاز كانت قد بدأت وشُغل بها مروان بن الحكم حتى إذا أصبحت الخلافة خالصة لعبد الملك بن مروان وهدأت الأمور فى المشرق أرسل إلى زهير سنة ٦٩هـ/٦٨٨م جيشا جرارا زحف به زهير إلى كُسَيْلة وجموعه، فمزَّقهم شر ممزق، وقُتل كسيلة وخلق كثير من البربر، واسترجع زهير القيروان وتعقب المنهزمين فى الجزائر إلى أن أخرجهم منها، وعاد إلى العاصمة ورتَّب شئونها، ورأى أن يعود بعد هذا النصر العظيم إلى المشرق، وبينما هو فى نفر قليل من صحبه عند برقة إذا هو يرى بعض سفن للروم وهم يسوقون أمامهم بعض المسلمين، أسروهم على حين غفلة، فنازلهم وكُتبت له الشهادة عند ربه، ويقول الرقيق القيروانى عنه: «كان زهير من رؤساء العابدين وكبراء الزاهدين».

وولَّى عبد الملك بعد زهير على إفريقية حسان بن النعمان سنة ٧١هـ/٦٩٠م وكانت لا تزال للروم جالية كبيرة فى قرطاجة تتجسَّسُ لبيزنطة وتعيث فسادا ضد العرب فحاصر البلدة وفتحها عنوة وأذعن من بها من النصارى، ولم يكد ينصرف عنها حتى تحصنوا بها فعاد إليهم وهدم حصون قرطاجة وأسوارها حتى لا يحميهم منه شىء، وفرَّ منها كثيرون إلى البحر المتوسط وما وراءه، وطهَّر بنزرت وشمال إفريقية التونسية من الروم وفرض الجزية على من ظل منهم ومن البربر على دينه المسيحى، واشتعلت فى أوائل عهده فتنة فى قبيلة جراوة الزناتية بجبال الأوراس فى الجزائر تزعمتها امرأة بربرية اسمها «دهيا» وسماها العرب الكاهنة، ونازلها حسان سنة ٧٦هـ/٦٩٥م ولم يكتب للمسلمين النصر، واضطر حسان إلى التراجع حتى مدينة سرْت بليبيا، وظل بها خمس سنوات منتظرا مددا من مصر أو من دمشق، وأتاه فى سنة ٨٠هـ/٦٩٩م مدد ضخم فاشتبك مع الكاهنة فى معركة عنيفة قتلت فيها سنة ٨١هـ وأسلم ابنان لها فجعلهما قائدين لجيش مكون من اثنى عشر ألفا من العرب والبربر، وبذلك دعم نظرية

الإسلام فى المساواة التامة بين العرب والموالى المسلمين بربرًا وغير بربر فلا فرق بين عربى وبربرى فى جميع الحقوق حتى فى قيادة الجيوش. وساد الأمن والنظام المغرب جميعه. واتجه إلى عمارة البلاد فجدَّد بناء الجامع الأعظم بالقيروان، ورأى بثاقب بصيرته ضرورة أن يكون لإفريقية التونسية ميناء بدلا من قرطاجة، ولم يلبث أن اختار للميناء موضعا بجوار قرية تسمى تينس أو ترشيش، وشق إلى البحر المتوسط قناة تدخل إليها السفن وتخرج منها وألحق بالميناء دار صناعة كبرى لانشاء أسطول ضخم يحمى شواطئ الديار الإفريقية من غارات الروم، وجلب من مصر ألف أسرة قبطية لمساعدته فى إنشاء تلك الدار والأسطول، وسمَّى الميناء تونس، ولم تلبث تونس أن أصبحت أما كبيرة من أمهات المدن المغربية إلى اليوم، وبنى بها الجامع الكبير المسمى جامع الزيتونة لزيتونة كانت فيه. واستحدث حسان للولاية تنظيما إداريا وماليا عمَّمه فى جميع البلاد المغربية، ونشر العربية فى المغرب وجعلها اللغة الرسمية فى جميع الدواوين، ونظم الجبايات فى المدن ومع رؤساء القبائل، وقسم الأراضى التى كانت ملكا للدولة البيزنطية بين صغار الفلاحين من البربر، مما جعلهم يدخلون فى دين الله أفواجا نصرة للدين الحنيف. وبكل ما قدمت عن حسان بن النعمان تعد ولايته على إفريقية خاتمة الفتح الذى بدأه عمرو بن العاص سنة ٢٢هـ/٦٤٢م فقد استقر الدين الحنيف فى جميع البلدان المغربية واعتنقه المغاربة، لما تحمل تعاليمه من المساواة التامة بين جميع المسلمين عربا وبربرا وغير بربر.

(ب) بقية الولاة

وخلف حسَّان بن النعمان على المغرب موسى بن نصير سنة ٨٦هـ/٧٠٥م وكان ماهرا فى الإدارة وشئون الحرب وبدأ أعماله بتوجيه حملة إلى جبل زغوان - وأتبعها بحملات أخرى عادت بغنائم وافرة، ثم قام بحملته الكبرى التى اكتسحت المغرب حتى طنجة على المحيط وإقليم السوس فى أقصى الجنوب. وأتم التنظيمات الإدارية لبلاد المغرب، إذ قسَّمه ولايات، وجعل لكل ولاية قاعدة عربية يحكمها أحد ولاته، فالمغرب الأقصى عاصمته طنجة، والمغرب الأوسط عاصمته تلمْسان، والمغرب الأدنى عاصمته القيروان، ومدَّه شرقا حتى شمل طرابلس وغربا حتى شمل نوميديا (قسنطينة وبجَاية) وإقليم الزاب إلى نهر شِلْف فى الجزائر، وجعل برقة ولاية قائمة بنفسها وعاصمتها برقة (المرج منذ القرن السابع الهجرى) وأضاف إلى هذه الولايات ولاية جنوبىّ المغرب الأقصى، هى ولاية السوس الداخلة فى الصحراء، وجعل عاصمتها سجلْماسة، وولَّى عليها طارق بن زياد النفزاوى البربرى، ثم نقله إلى طنجة. وفى سنة ٩١هـ/٧٠٩م عزم على غزو إيبيريا، فأرسل إليها حملة استطلاعية بقيادة طريف، وهو أيضا بربرى، فنزل بإيبيريا فى موضع يقابل مدينة طنجة، سُمِّى جزيرة طريف لنزوله فيه، وعاد يحمل إلى موسى أنباء طيبة، فأرسل فى السنة التالية طارقًا على رأس حملة كبيرة، وجاءته أنباء

فتوحاته، واستمدَّه طارق، فذهب إليه على رأس حملة جديدة أتم بها معه فتح الأندلس. والحملتان الأوليان كانتا تتكونان من العرب والبربر، ونفس قائديها: طارق وطريف كانا - كما أسلفنا - بربريين وبذلك خطا بسياسة حسان خطوات، فجعل من البربر ولاة وقوادا للجيوش. ومنذ عقبة بن نافع كان البربر يشتركون مع العرب فى حملاتهم الحربية وجهادهم فى سبيل الله، مما يدل - بوضوح - على تغلغل الإسلام فى نفوسهم، حتى أصبحوا سريعا من دعاته وحماته، وكانت كثرة جند موسى بن نصير منهم سواء فى فتوحه لبقية المغرب حتى ديار السوس أو فى فتوحه لإيبيريا.

ويعزل سليمان بن عبد الملك قصير النظر موسى بن نصير عن إيبيريا والمغرب جميعا سنة ٩٦هـ/٧١٤م ويصبح صولجان الخلافة بيد عمر بن عبد العزيز سنة ٩٩هـ/٧١٧م فيدخل إصلاحا كبيرا على أداة الحكم فى الدولة إذ يأمر الولاة بالتسوية المطلقة بين العرب والموالى أو الشعوب المفتوحة فى الخراج وجباية الأموال أخذا بتعاليم الدين الحنيف، ويرسل إلى إفريقية عشرة من الفقهاء على رأسهم إسماعيل بن عبد الله بن أبى المهاجر ويقال إنه أسند إليه الولاية، وكلَّفهم أن يعملوا على نشر الإسلام، وأسلم على أيديهم أفواج بربرية لا تكاد تحصى فضلا عن أنهم بثوا فى الشباب فكرة التفقه فى الدين، مما أعد أهل إفريقية التونسية والمغرب ليشاركوا سريعا فى الدراسات الدينية.

ولا نكاد نمضى فى القرن الثانى الهجرى حتى يتوفى الخليفة العظيم عمر بن عبد العزيز، ويتولى بعده الخليفة الطائش يزيد بن عبد الملك، فيعزل ابن أبى المهاجر عن إفريقية ويولى عليها عاملا ظلوما غشوما هو يزيد بن أبى مسلم صاحب شرطة الحجاج، فقدم إلى القيروان سنة ١٠٢هـ/٧٢٠م وسرعان ما أخذ البربر بسياسة الحجاج فى ظلم موالى السواد فى العراق والتفريق بينهم وبين العرب فى الخراج، مما يتعارض تعارضا شديدا مع تعاليم الإسلام فى رفع الفروق بين المسلمين عربا وموالى، وكأنما عمِىَ يزيد ابن أبى مسلم عن رؤية الفروق الواضحة بين الموالى الفلاحين فى سواد دجلة والفرات من جهة والبربر من جهة ثانية، فإن البربر قبل ولايته كانوا قد أصبحوا مع العرب رفقاء سلاح وجهاد، وأتموا معهم فتح بقية البلاد المغربية وإيبيريا، مما جعل البربر - حين طفح الكيل - يجمعون على قتل يزيد بن أبى مسلم الباغى وقتلوه سنة ١٠٣هـ/٧٢١م وتولَّى بعده بشر بن صفوان الكلبى، ويُذكر له أنه غزا صقلية سنة ١٠٧هـ/٧٢٥م وأصاب منها غنائم وافرة، وولَّى بعده هشام بن عبد الملك عبيدة بن عبد الرحمن السلمى وأساء السيرة، فعزله وولَّاها سنة ١١٤ سفيهًا كبيرًا هو عبيدالله بن الحبحاب، ويُذكر له أنه جدد جامع الزيتونة وعنى بدار الصناعة وغزا أسطوله صقلية، غير أنه كان باغيا طاغيا هو وعماله، فتعسفوا فى جمع الخراج وجباية الأموال من البربر، وبلغ من سفه

عامله على طنجة عمر بن عبيد الله المرادى أن صرَّح بأنه يريد تخميس أراضى البربر أى أخذ خُمسها للدولة زاعما أنها فَيْئٌ للعرب وغنائم حرب لهم. وكان الخوارج صفرية وإباضية قد دأبوا منذ ولاية يزيد بن أبى مسلم وما أنزل بالبربر من حيف وعسف فى شئون الخراج يدعون لعقيدتهم ومبادئها التى توجب التسوية بين العرب والموالى بربرا وغير بربر فى الشئون المالية ومناصب الدولة حتى منصب الخلافة، فهى ليست حقا لقريش وحدها دون العرب وبقية المسلمين بل هى حق لأكفأ المسلمين جميعا عربا وغير عرب حتى لو كان عبدا حبشيا، ووجد الخوارج فى بلاد المغرب تقبُّلا شديدا لمبادئهم بسبب سياسة ولاة بنى أمية الغاشمين فى القرن الثانى الهجرى، إذ رأى البربر - أو كثير منهم - فيها ما يخلصهم من ظلم الأمويين وعسف ولاتهم. وأخذ جبل نُفوسة فى ليبيا يصغى للدعوة الإباضية، وهى دعوة معتدلة إذ تدعو لإمام يحقق العدالة والمساواة المطلقة بين المسلمين عربا وغير عرب، ولا تكفر المسلمين ولا تقاتلهم إلا إذا بادروها بالقتال، واستجاب -أو أخذ يستجيب- المغرب الأقصى للصفرية، وهى دعوة متطرفة إذ تكفِّر المسلمين وتعد دارهم دار حرب، وتزعَّم دعوتهم بالقرب من طنجة بربرى من قبيلة مضغرة البُتْرِيَّة هو ميسرة، وبايعه البربر وكوَّن منهم جيشا احتلَّ به طنجة، وفتك بعاملها الغَشوم عمر بن عبيدالله المرادى، وهُزم ميسرة فى بعض الوقائع، فولت الصفرية عليها خالد بن حميد الزناتى سنة ١٢٣ ولقيه جيش لابن الحبحاب فى الجزائر على نهر شلف، وهزمه خالد فى معركة عنيفة، سميت معركة الأشراف لكثرة من قُتل بها من أشراف العرب. وعزل هشام بن عبد الملك واليه ابن الحبحاب سنة ١٢٤هـ/٧٤١م وولَّى على إفريقية كلثوم بن عياض القشيرى يعاونه ابن أخيه بلج بن بشر، ويلتقيان بخالد بن حميد والصفرية جنوبى طنجة ويهزمان ويقتل كلثوم، ويضطر بلج إلى العبور إلى الأندلس ببقية الجيش. ويولى هشام على إفريقية حنظلة بن صفوان الكلبى، ويقدم إلى القيروان، وسرعان ما يستنفر الصُّفْرِيَّةَ لحربه قائدان صفريان: عربى هو عكاشة بن محصن وبربرى هو عبد الواحد بن يزيد الهوارى، وكانا قد اجتمعا فى الزاب بالجزائر، واتفقا على أن يسير عكاشة مع جيشه فى السهول شمالى جبال الأوراس ليهاجم القيروان من الجنوب ويسير عبد الواحد من ناحية قسنطينة ليهاجم القيروان من الشمال، وعرف حنظلة خطتهما، فأسرع بلقاء عكاشة وهزمه هزيمة ساحقة، وتقدم عبد الواحد إلى القيروان، فاستشار حنظلة فقهاءها، فخرجوا مع جيشه لمنازلته، وخرج معهم نساء القيروان حاملات للسلاح مستبسلات للموت مع الجيش، فامتلأ الرجال حمية ودارت الدوائر على عبد الواحد وجيشه من الصفرية، وحُمِلَ رأسه إلى حنظلة فخرَّ لله ساجدا.

وقُتل الوليد بن يزيد الخليفة الأموى سنة ١٢٦ فطمع عبد الرحمن بن حبيب حفيد عقبة بن نافع فى الاستيلاء على ولاية إفريقية وأعلن الثورة سنة ١٢٧هـ/٧٤٤م ففكر حنظلة

فى حربه، وكان تقيا ورعا، فكره أن يتقاتل المسلمون، وترك القيروان عائدا إلى المشرق. وصارت الخلافة إلى مروان بن محمد سنة ١٢٩هـ/٧٤٦م فأقرَّ ولاية عبد الرحمن بن حبيب على إفريقية درءًا للانقسامات والفتن بها، ولأنه أعلم بشئونها إذ هى داره ودار جده عقبة بن نافع. ولم تلبث الإباضية أن ثارت بطرابلس سنة ١٣٠هـ/٧٤٧م بإمامة عبدالله بن مسعود التجيبى فأرسل إليه عبدالرحمن أخاه إلياس، فقضى على ثورته، وبايع الإباضية بعده الحارث بن تليد بالإمامة، واتخذ وزيرا له عبد الجبار بن قيس المرادى، ونازلا جيوش عبد الرحمن مرارا، واغتيلا سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م وبذلك انتهت ثورتها. وفى نفس السنة قضى العباسيون على الدولة الأموية، فأقروا عبدالرحمن بن حبيب فى ولايته على القيروان وإفريقية، وسمع بتجمع للصُّفْرية فى تلمسان سنة ١٣٥هـ/٧٥٢م ففاجأهم وهزمهم. وأرسل حملةً إلى صقلية وعادت بغنائم كثيرة، ومن أهم أعماله استيلاؤه على جزيرة قَوْصَرة التى تبعد عن تونس نحو ثلاثين ميلا، واستمرت تابعة للقيروان وإفريقية حتى تنازل عنها أبو زكريا مؤسس الدولة الحفصية لفردريك الثانى ملك صقلية سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م. وتآمر على عبد الرحمن أخواه إلياس وعبد الوارث وقتلاه سنة ١٣٧هـ/٧٥٤م وتولى إلياس وقتله حبيب بن عبد الرحمن، وتولى مكانه، وفى سنة ١٣٨هـ/٧٥٥م ثارت عليه قبيلة وَرْفجومة النفزاوية الصُّفْرية واستولت على القيروان منه واستباحتها، واشتبك معها حبيب سنة ١٤٠هـ/٧٥٧م وقتلته، وظلت فى القيروان تستحلّ المحارم وترتكب العظائم، فامتعض لأهلها أبو الخطاب عبد الأعلى بن السَّمْح إمام الإباضية فى طرابلس وجبل نفوسة، فخلَّص القيروان منهم سنة ١٤١هـ/٧٥٨م وولَّى عليها عبد الرحمن بن رستم الإباضى، وأرسل المنصور العباسى محمد بن الأشعث والى مصر بجيش جرار إلى إفريقية، فنازل أبا الخطاب فى معركة حامية الوطيس قتل فيها، ففرَّ واليه على القيروان عبد الرحمن بن رستم إلى الزاب فى الجزائر وأسس للإباضية دولة فى تيهرت استمرت حتى سنة ٢٩٦هـ/٩٠٩م وتولَّى الأغلب بن سالم التميمى على إفريقية سنة ١٤٨هـ/٧٦٥م وقتل سنة ١٥٠هـ/٧٦٧م فى بعض حروبه، وخلفه عمر بن حفص المهلبى، وكان بطلا مغوارا وابتنى بالزاب مدينة طُبنة، وثار عليه إباضية طرابلس بزعامة أبى حاتم وحاصروا القيروان، وخرج إليهم وقتل سنة ١٥٤هـ/٧٧٠م.

وولى القيروان وإفريقية بعد ابن حفص المهلبى ابن عمه يزيد بن حاتم، وفيه يقول مؤرخ القيروان الرقيق: «كان كثير الشبه بجده المهلب فى حروبه ودهائه وكرمه وسخائه، وقلم أظفار الصفرية فى الزاب، وانسحبت فلولهم إلى ديار زناتة فى الصحراء، كما قلَّم أظفار الإباضية فى طرابلس وجبل نفوسة وفتك بأبى حاتم الإباضى وصحبه هناك وبذلك ظلت لأهل السنة المنزلة العليا فى القيروان وجميع بلاد المغرب. وقد ضبط أمور الدولة بمنتهى الحزم، ومن أعماله تجديده بناء جامع القيروان سنة ١٥٧هـ/٧٧٣م وترتيبه للأسواق فيها، إذ أفرد لكل صناعة وتجارة

مكانا معينا. وكان أديبا حفيا بالشعراء يجزل لهم العطاء، وشدوا إليه الرحال من المشرق، وبذلك أحدث فى القيروان حركة أدبية، وكان يعقد لها الندوات فى دار الإمارة. ومما يروى من سيرته الزكية أنه رأى يوما بإحدى ضواحى القيروان غنما كثيرا فسأل عن صاحبه فقيل له إنه لابنه، فطلبه وعنّفه على مزاحمته الرعية فى صور التكسب وأمر بذبحها وتوزيعها على الناس. وظل واليا على إفريقية سبعة عشر عاما حتى توفى سنة ١٧٠هـ/٧٨٦م وولى بعده أخوه روح بن حاتم سنة ١٧١هـ/٧٨٧م وكان عالى الهمة عادلا حسن السيرة، وفى أيامه ظهرت دولة الأدارسة بالمغرب وبويع إمامها الأول إدريس الحسنى سنة ١٧٢هـ/٧٨٨م وأسسوا مدينة فاس واتخذوها عاصمة لهم، وتوفى روح سنة ١٧٤هـ/٧٩٠م ودفن مع أخيه فى قبر واحد. وتولاها بعده نصر بن حبيب المهلبى وكان حسن السيرة، وعزله الرشيد وولّى عليها الفضل بن روح، واضطربت عليه الأمور، فولّى الرشيد عليها سنة ١٧٩هـ/٧٩٥م هَرْثَمة بن أَعْين وكان من كبار قواده وكان حسن السياسة والإدارة، وابتنى رباط المنستير بين سوسة والمهدية لحماية الساحل من غارات نصارى البحر المتوسط، وظلت الأبنية تتسع حوله حتى أصبح مدينة كبيرة فى القرن السادس الهجرى. ولم يلبث هرثمة أن آثر العودة إلى المشرق سنة ١٨١هـ/٧٩٧م، وولى عليها الرشيد محمد بن مقاتل العكى ولم تحمد سيرته فعزله.

(جـ) الدولة الأغلبية

كان إبراهيم بن الأغلب التميمى قد ولاه هرثمة على الزاب، فضبطه بحزمه، وأُعجب به هرثمة لقوة شخصيته، واستشار الرشيد هرثمة فى وال كفء يوليه إفريقية، فأشار عليه بإبراهيم وامتدحه له، وكانت إفريقية تكلف الدولة العباسية نفقات باهظة بما ترسل إليها من الجيوش، وكان والى مصر يرسل إلى واليها سنويا مائة ألف دينار، وكان إبراهيم يتطلع لحكم إفريقية – مثل أبيه – وكان الرشيد يأمل فى وال يريحه من نفقاتها الباهظة، ولم يجد بأسا من كثرة ثناء هرثمة على إبراهيم بن الأغلب فى أن يوليه عليها وسُرَّ إبراهيم، وقال له إننى لن أحتاج إلى ما ترسله مصر لإفريقية من أموال، وأتعهد أن أرسل سنويًا إلى بيت المال ببغداد أربعين ألف دينار، وكأنه وفّر للدولة أو تعهد أن يوفر لها مائة وأربعين ألف دينار سنويا، سوى ما كانت تكلفها الجيوش من أموال ونفقات ضخمة. وكان قد درس فى شبابه بمصر وحضر حلقات فقيهها: الليث بن سعد، مما أتاح له أن يكون فقيها مثل أستاذه، وكان الليث يعجب بتلميذه، مما جعله يهبه جارية، هى جُلاجل زوجه وأم ابنه زيادة الله، وكان شاعرًا خطيبا. واقتنع به الرشيد فكتب له العهد بولاية إفريقية سنة ١٨٤هـ/٨٠٠م وجعلها لعقبه يتوارثونها من بعده. ومن حينئذ بدأت شخصية إفريقية – وخاصة إفريقية التونسية – فى الظهور، فقد أصبحت بها دولة مستقلة وإن ظلت تدين بالولاء اسميا للعباسيين، وأخذت تعمل جاهدة على

النهوض بالبلاد نهضة حضارية قوية. وقد ساس إبراهيم إفريقية سياسة رشيدة، وصمم على أن تكون له قوة عسكرية تحميه هو وأسرته ممن كانوا لا يزالون بالقيروان من الخراسانيين وغيرهم من الجند، وكوَّنها من ثلاثة عناصر: البربر المستعربة والصقالبة الذين كان يجلبهم تجار الرقيق وزنوج السودان الذين كانت تجلبهم القوافل. وابتنى له ولأهل بيته ضاحية على بعد نحو أربعة كيلو مترات من القيروان، سماها «العباسية» ونقل إليها معسكرات جنده وخزائن السلاح والأموال كما نقل إليها حواشيه واتخذها دار إمارته. وظل يدير دفَّة هذه الدولة إدارة حازمة ويؤسس بنيانها الشامخ طوال اثنى عشر عاما إلى أن توفى سنة ١٩٦هـ/٨١١م ويخلفه ابنه أبوالعباس عبدالله، ولم يكن سيوسا ويتوفى سنة ٢٠١هـ/٨١٦م فيخلفه أخوه زيادة الله، وكان من أعلم أهل بيته فصيح اللسان بصيرا بشئون الإدارة والحكم، فثبَّت سلطان أسرته، وتغلب دائمًا على خصومه، وشجَّع العلم والعلماء. ومرَّ بنا أن ولاة إفريقية حاولوا غزو صقلية مرارًا، وكان زيادة الله عظيم الهمة، فأخذ يعد العدَّة لفتحها، بادئا ببناء سور حصين حول ثغر سوسة، وبنى بجوارها رباطا لحمايتها وحماية الساحل واتخذها مرساة لأسطوله، وبنى له فيها دار صناعة كبيرة، وأخذ يكثر من قطعه وسفنه، حتى أصبح أقوى أسطول حربى فى البحر المتوسط، ويغزو به سردانية سنة ٢٠٦هـ/٨٢١م ويعود محمَّلا بالغنائم. ويرسل إلى صقلية سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م جيشا بقيادة الفقيه أسد بن الفرات قاضى القيروان لفتحها، ونزل الجيش بمدينة مازر، والتقى بجموع الصقليين وهزمهم، وأخذ يستولى على حصون ومدن متعددة، وفى حصار سرقوسة شرقى صقلية توفى القائد العظيم أسد بن الفرات، ومضى الجيش فى فتوحه. وهو حدث من أعظم الأحداث فى تاريخ الأمة العربية، ولزيادة الله وقائده ابن الفرات مجده وشرفه. ويدل أكبر الدلالة على قوة هذا الأسطول الأغلبى الفاتح لصقلية أن نجد أهل مدينة نابولى فى إيطاليا يستنجدون بزيادة الله ضد أعدائهم المجاورين لهم من الفرنج سنة ٢٢٢هـ/٨٣٦م وينجدهم الأسطول وتظل نابولى بأيدى جنوده وبحارته زمنا غير قليل. وجدَّد زيادة الله بناء جامع عقبة فى القيروان ولبَّى نداء ربه سنة ٢٢٣هـ/٨٣٧م وخلفه أخوه الأغلب، وفى عهده فتح الجيش أكثر ما بقى من صقلية سنة ٢٢٤هـ/٨٣٨م وتمكن الأسطول من الاستيلاء على مدينة بارى شرقى إيطاليا سنة ٢٢٥هـ/٨٣٩م واتخذها قاعدة حربية ومرساة لسفنه فى البحر الإدرياتى، ويتوفى سنة ٢٢٦هـ/٨٤٠م ويتولى مقاليد الحكم أخوه أبو العباس محمد، وفى أيامه أغارت بغتة سنة ٢٣٠هـ/٨٤٤م بعض سفن إيطالية على شواطىء الساحل ونهبت بعض أقوات السكان وأسرت عددًا منهم، ساقتهم إلى إيطاليا عبيدًا أرقاء وباعتهم فى الأسواق، وغضب الأمير الأغلبى محمد حمية لمواطنيه، فأمر الأسطول بخروج قطع منه لغزو إيطاليا وأرست عند مصب نهر تيبر المنحدر من جهة روما، وانتشر جنودها فى ضواحى روما واقتحموها عنوة واستولوا على بعض ما فى كنيستها الكبرى من تحف، وظلوا يترددون عليها

وعلى أنحائها نحوا من شهرين، وعادوا دون أن يصاب أحد منهم بأذى، ويتوفى الأمير محمد سنة ٢٤٢هـ/٨٥٦م ويتولّى ابن أخيه أحمد وفى أيامه استولى المسلمون فى صقلية على مدينة قصريانّة المنيعة سنة ٢٤٤هـ/٨٥٨م وأعاد بناء جامع تونس وزيّنه بقباب ونقوش وأعمدة رخام بديعة كما زين جامع عقبة فى القيروان بقُبَّة خارجة عن البهو ومحراب رخام مزودين بالنقوش، وبنى الماجل (الصهريج) الكبير بالقيروان وماجل سوسة، وتوفى سنة ٢٤٩هـ/٨٦٣م وخلفه ابنه زيادة الله الثانى، ودار العام، فتوفى، وتولّى بعده ابن أخيه أبو الغرانيق سنة ٢٥١هـ/٨٦٥م وفى عهده فتح الأسطول سنة ٢٥٥هـ/٨٦٨م جزيرة مالطة وظلت تابعة للقيروان نحو قرنين ونصف حتى استولى عليها روجار الأول ملك صقلية سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م ويتوفّى أبو الغرانيق سنة ٢٦١هـ/٨٧٤م ويخلفه أخوه إبراهيم وفى أيامه فُتحت سرقوسة آخر معاقل الروم فى صقلية سنة ٢٦٤هـ/٨٧٧م. وفى نفس السنة بنى مدينة رقادة على بعد ثمانية أميال جنوبى القيروان، ونقل إليها أهل بيته ودار إمارته ورجال دولته وجنده، ويعد عهده من أزهى العهود علما وحضارة فى الدولة الأغلبية إذ بنى فى عاصمته: رقّادة بيت حكمة كبيت هرون الرشيد والمأمون فى بغداد، وجلب إليه طائفة بارعة من العلماء أطباء ورياضيين وفلكيين وموسيقيين وألحق به مكتبة ضخمة، فتح أبوابها للطلاب والقصّاد. وبعث بذلك فى إفريقية التونسية نهضة علمية وثقافية واسعة. وأنشأ إبراهيم محارس ورباطات كثيرة على الساحل واستحدث فيها نظام إشارات بالأضواء ترسل توًّا من رباط إلى رباط عند حدوث أى هجوم، بحيث إذا حدثت أى غارة بحرية للأعداء فى أى بقعة على الساحل علمت بذلك فى الحال جميع الرباطات والمحارس. وأصيب فى أواخر ولايته بمرض السوداء، مما جعله يسفك دم كثيرين من أقاربه، وعلمت بذلك الدولة العباسية فأرسلت إليه سنة ٢٨٩هـ/٩٠١م أن يعفى نفسه من الحكم ويتنازل عنه لابنه عبد الله. وصدع لهذا الأمر، وسلم صولجان الحكم لابنه، وكأنما أراد أن يكفر عما صنع من سفك الدماء فرأى أن يمضى بقية حياته فى الجهاد، وأعدَّ أسطوله إعدادًا كبيرًا لغزو إيطاليا فى نفس السنة، وعبر به مضيق مسينا قاصدًا قَلَوْرِيَّة وأرض إيطاليا الجنوبية، واستولى على عدد من الحصون الإيطالية فى الجنوب غير أن الموت باغته، فعاد به الأسطول إلى بالرم فى صقلية ودُفن بها، ونقل ابنه عبد الله رفاته إلى القيروان. وكان عبدالله على جانب كبير من التقوى والصلاح وكتب إلى عماله بالرفق فى معاملة الرعية، وتوفى سريعًا سنة ٢٩٠هـ/٩٠٢م. وخلفه ابنه أبو مضر زيادة الله، وكان أبو عبد الله الصنعانى داعية عبيد الله الفاطمى قد نشر دعوته الإسماعيلية الفاطمية فى كُتامة بالجزائر، ودخل فى دعوته كثيرون، فكوَّن منهم جيشا قضى به على دولة تيهرت الإباضية، وتقدم بجموعه من الجزائر قاصدًا القيروان ولقيه جيش أغلبى فى قرية الأرْبُس، فهزمه، وأحس أبو مضر زيادة الله الأغلبى أنه لن يستطيع الصمود لأبى عبد الله الصنعانى داعية الفاطميين، فخرج عن ملكه فارًّا إلى المشرق وتردَّد بين مصر والشام فى

انتظار نجدة من العباسيين، ووافاه الأجل بمدينة الرملة فى فلسطين. وهكذا انتهت فى إفريقية التونسية دولة الأغالبة التى استطاعت فى نحو مائة عام أن تنهض بها نهضة حضارية ثقافية كبرى، كما استطاعت أن تكوِّن لإفريقية وللعرب أكبر أسطول فى البحر المتوسط لزمنها، ومن أعمالها المجيدة فتح صقلية ومالطة وتعريبهما ونشر الإسلام بهما آمادا طويلة إلى أن استولى عليهما النورمان.

٤

الدولة العبيدية – الدولة الصنهاجية – الهجرة الأعرابية

(أ) الدولة[١] العبيدية

كان أبو عبد الله الصنعانى قد تعرف على جماعة من قبيلة كُتامة الجزائرية فى الحج وقدم معهم إلى ديارهم، وكان لسنا جدلا، فأعجب من اجتمعوا حوله من هذه القبيلة، ولما اطمأن لهم أخذ يعلن بينهم أن آل البيت هم الأحق بإمامة المسلمين وخلافتهم، ودعا للرِّضا المعصوم المستتر منهم صاحب الزمان، وأخذ المستجيبون له يتكاثرون ودخلت كتامة فى دعوته وطاعته فأخذ ينظمها تنظيما عسكريًا، وزحف بها – كما أسلفنا – إلى إفريقية التونسية وهزم جيش الأغالبة فى الأُرْبس، وتقدم إلى القيروان ودخلها بجنوده واستولى على دواوينها وخزائنها، وكان قد أرسل إلى عبيد الله المهدى إمامه يستقدمه من سَلَمْية فى سوريا مقر الدعوة الإسماعيلية. وخوفا من ولاة العباسيين اتجه به رفاقه إلى سجلماسة مركز الصفرية فى المغرب الأقصى فسجنه صاحبها، وخلصه أبو عبد الله الصنعانى، وقدم به إلى القيروان سنة ٢٩٧هـ/٩٠٩م وسلّمه مقاليد الحكم. وسمى المؤرخون دولته باسم الدولة العبيدية تمييزًا لها فى إفريقية من دولة أحفاده بمصر التى لقبوها باسم الدولة الفاطمية. وبايع أهل القيروان عبيد الله وتلقب بأمير المؤمنين. ويبدو أنه أحسَّ فى أبى عبد الله الصنعانى ندمه على ما أولاه من الخلافة والملك فبادر إلى سفك دمه على نحو ما صنع قديما المنصور العباسى بأبى مسلم الخراسانى داعيتهم، وبين المؤرخين خلاف فى نسب عبيدالله المهدى إلى البيت الفاطمى وهل هو علوى حقيقة أو غير علوى، وصحح نسبه

---

(١) انظر فى الدولة العبيدية بتونس البيان المغرب لابن عذارى ومعالم الإيمان للدباغ وابن ناجى والقسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام لابن الخطيب وسيرة الأستاذ جوذر والحلة السيراء لابن الأبار وتاريخ ابن الأثير وابن خلدون والمؤنس فى أخبار إفريقية وتونس لابن أبى دينار وخلاصة تاريخ تونس لحسن حسنى عبد الوهاب.

ابن خلدون. وأخذ يصرف الأمور فى الدولة، وقرب منه قبيلة صنهاجة الجزائرية وأرسل زعيمها مصالة على رأس جيش إلى المغربين الأوسط والأقصى واستطاع الاستيلاء على مدينة فاس من الأدارسة الحسنيين. وأخذ دعاته يحاولون إقناع فقهاء السنة بمبادئ الدعوة الفاطمية وعقدوا لذلك مجالس تجرَّد لهم فيها كبار الفقهاء فى القيروان وناظروهم مناظرات حامية مبيِّنين ما فى الدعوة العبيدية الإسماعيلية من مبادئ تخالف الإسلام من مثل تقديس الخليفة العبيدى وادِّعاء أنه الصورة المجسَّدة لله فى الأرض وأنه معصوم وأنه يعلم الغيب إلى غير ذلك مما كان يزعمه دعاة عبيد الله المهدى، وشعر أن القيروان ليست - بفقهائها وشيوخها - دار أمن له ولأسرته، فرأى أن يختار موضعا على الساحل لمدينة جديدة له، واختار رأسا بارزًا بين سوسة وصفاقس، وأخذ منذ سنة ٣٠٣ يؤسسها، وتم له تأسيسها سنة ٣٠٨هـ/٩٢٠م وسماها المهدية نسبة إليه ونقل إليها آله وجنده ودواوينه وأمواله واتخذها مقر حكمه. وكانت قد عصت عليه صقلية فردها إلى طاعته وولَّى عليها أحد عماله، كما كانت قد عصت عليه طرابلس وشبت بها ثورة إباضية، فردَّها ابنه وولىّ عهده القائم إلى الطاعة وأغرمها ثلاثمائة ألف دينار، ومضى القائم فى حملة إلى الإسكندرية والفيوم وعاد دون طائل، وفى سنة ٣١٥ خرج القائم إلى المغرب الأوسط وبنى مدينة المحمدية (المسيلة). وتوفى عبيد الله المهدى سنة ٣٢٢هـ/٩٣٣م وخلفه ابنه القائم، واهتم - مثل أبيه - بالأسطول وبعث على بعض قطعه وسفنه يعقوب بن إسحق فغزا جنوة وكرسيكا وسردانيه، وعاد بغنائم وافرة، وثار عليه سنة ٣٢٦هـ/٩٣٣م أبويزيد مخلد بن كيداد الزناتى من الصُّفرية النُّكَّاريَّة الذين يستحلون سفك الدماء، وتبعه خلق كثير، وفى سنة ٣٣٣هـ/٩٤٤م زحف إلى إفريقية التونسية، واستولى على تبسة والأربس وباجة وتونس ورَّقادة بجوار القيروان وعلى القيروان نفسها وحاصر المهدية واستولى على سوسة، وتوفى القائم فى أثناء ذلك سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م وخلفه ابنه المنصور واستنجد بقبيلة صنهاجة، فجاءته وفكت عن المهدية الحصار، وأرسل أسطوله إلى سوسة ونصرها ضد أبى يزيد واستبيح معسكره نهبا وإحراقًا واتجه إلى القيروان فمنعه أهلها من دخولها وظل المنصور يتعقبه، وظفر به فى أرض كتامة بالجزائر فى أول سنة ٣٣٦هـ/٩٤٧م. وأنشأ المنصور - ابتهاجًا بانتصاره عليه - مدينة بالقرب من القيروان سنة ٣٣٧هـ/٩٤٨م سمَّاها «المنصورية». وولَّى على صقلية ابن أبى الحسين الكلبى، وظلت إمارتها لعقبة حقبة طويلة. وتوفى سنة ٣٤١هـ/٩٥٢م وخلفه ابنه المعز، وفى سنتى ٣٤٧ و ٣٤٨ دوَّخ قائده جوهر الصقلى البلاد المغربية إلى المحيط، ودان له المغرب الأوسط (الجزائر) والأقصى. وبلغ المعز اضطراب أحوال مصر بعد موت كافور الإخشيدى ولانشغال بغداد عنها بما كان بها من الفتن، فأرسل إليها قائده جوهرا الصقلىّ فى جيش جرار سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م فدخلها حتى الفسطاط دون مقاومة تذكر، وخطب جوهر فى الجامع العتيق جامع عمرو بن العاص بالفسطاط باسم المعز، وأقام بمصر الدعوة الفاطمية وأخذ فى بناء

القاهرة، واستولى عسكره على الرملة وبعض بلدان الشام . وأرسل إلى المعز يحثه على القدوم إلى مصر فعزم المعز على المسير إليها، ورتب شئون الدولة فى إفريقية، ورحل فى موكب ضخم فى شوال سنة ٣٦١هـ/٩٧١م ونزل القاهرة التى بناها له جوهر سنة ٣٦٢هـ/٩٧٢م وظلت مقر خلافته وخلافة الفاطميين من بعده إلى نهاية دولته، وكان محظوظا إذ أظلت خلافته البلاد العربية من الشام إلى السوس الأقصى.

(ب) الدولة الصنهاجية[١]

لما عزم المعز على الرحيل إلى مصر ونقل خلافتهم إليها فكر فيمن يوليه على إفريقية، وكانت قبيلة صنهاجة البربرية قد أيدت دعوتهم بزعامة شيخها زيرى فى حرب الثائر الصُفْرى مخلد بن كيداد، وكان لزيرى اليد الكبرى فى هزيمة مخلد وإنقاذ المهدية والقيروان منه وكافأه الخليفة المنصور على ذلك بتوليته على المنطقة الغربية فى الجزائر، وفيها أسس مدينة أشير ودفع ابنه بلكين إلى تأسيس ثلاث مدن: الجزائر ومليانة جنوبى شرشال والمدية إلى الجنوب منها، وكان بلكين ذا بأس وحزم وشجاعة ونجدة مع إخلاصه للعقيدة العبيدية وتفانيه فى نصرتها، فرأى المعز أن يُنيبه عنه فى إفريقية، وأنزله القيروان وكناه أبا الفتوح يوسف، ولم يجعل له ولاية على طرابلس وصقلية، وكان حريا أن يضيف إليه صقلية خاصة لأنها بعيدة عن مصر ولن يستطيع نجدتها سريعًا لا هو ولا عقبه، وأيضا فإنها تُعَدّ امتدادًا لإفريقية التونسية فى البحر المتوسط وهى التى فتحتها وأدخلت بها سكانها والإسلام وحضارته فكان ينبغى أن يتركها لبلكين. وكان بلكين ثاقب البصيرة، فأخذ يعمل على إقامة دولة بربرية إسلامية فى الديار المغربية، وهى أول مرة فى التاريخ الإسلامى يتاح لبربرى من صميم أهل المغرب تأسيس دولة مغربية إسلامية، وكان الأمويون فى الأندلس يثيرون أهل فاس والمغرب الأقصى على العبيديين وواليهم بلكين، فقاد جيشًا سنة ٣٦٨هـ/٩٧٨م لتأديب الخارجين على الدولة هناك، ودخل فاسا كما دخل أصيلا على المحيط الأطلسى. وتوفى سنة ٣٧٤هـ/٩٨٤م وخلفه فى ولايته ابنه المنصور ونشبت حروب بينه وبين أعمامه، وانهزموا ولحق بعضهم بالأندلس واتفق لهم - فى عهد الطوائف - أن أسسوا لهم مملكة بغرناطة، واشتبك فى حروب طويلة مع قبيلة زناتة، وأنهكته الحروب معها ومع أعمامه، فرأى أن ينسحب جنوده من المغرب الأقصى حتى يضع نهاية للحروب المستمرة مع زناتة، وقصر إمارته على إفريقية التونسية والجزء الشرقى من الجزائر حتى

---

(١) راجع فى تاريخ الدولة الصنهاجية البيان المغرب لابن عذارى والقسم الثالث من كتاب أعمال الاعلام لابن الخطيب وتاريخ ابن الأثير وابن خلدون ومعالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان للدباغ وابن ناجى.

الزاب ووادى نهر شلْف، وكانت جاءته هدية ثمينة من الخليفة الفاطمى بها فيلة وزرافات تبارى الشعراء القيروانيون فى وصفها، وتوفى سنة ٣٨٦هـ/٩٩٦م وخلفه ابنه باديس أبو مناد، ولما جاء تقليد الخليفة الفاطمى له أمور إفريقية سنة ٣٨٧هـ/٩٩٧م أقام بالمهدية موكبا استعرض فيه الجنود وسفن الأسطول وقذف النفّاطون بالنار، ولعبت بين يديه الفيلة والزرافات وإبل شديدة البياض. واستقرت له الأمور فى إفريقية التونسية، وثارت عليه قبيلة زناته فى المغرب الأوسط (الجزائر) سنة ٣٨٨هـ/٩٩٨م فسيَّر إليها جيشا جرارًا وجعل عمه حمادًا قائده، وله ملك ما يفتحه، وانتصر عليهم، وعاد إلى قسنطينة، وأسس لنفسه قلعة حصينة نُسبت إليه باسم قلعة بنى حماد، وجعلها قاعدة لحكمه ومركزا لجيشه، ويبدو أن باديس ندم على ما تعهد به لعمه أن يمتلك ما يفتحه، فطلب إليه التنازل عنه، وأبى حماد، ونشبت بينهما حروب كادت ترجح فيها كفة باديس، غير أن الموت عاجله - وهو يوشك على النصر - فى المحمدية بالجزائر سنة ٤٠٦هـ/١٠١٥م.

وتولَّى المعز بعد أبيه باديس وكان فى الثامنة من عمره فقام بشئون الدولة كبار رجالاتها وأعمامه ماعدا حمادا فإنه ظل مصمما على الاستقلال بقلعته عن القيروان وابن أخيه المعز، واستولى على بعض مدن فى الزاب، ونازله جيش للمعز سنة ٤٠٨هـ/١٠١٧م وهزمه فتقدم يطلب الصلح مع المعز حقنا للدماء على أن يظل مواليا له مع تمتعه بالاستقلال فى قلعته ومنطقته. وانقسمت بذلك دولة صنهاجة إلى إمارة شرقية عاصمتها القيروان وإمارة غربية عاصمتها قلعة بنى حماد، وبلغ المعز سن الرشد وكان يحسن تدبير الحكم فنبه ذكره وعلت شهرته وهادته الملوك على تنائى الديار، إذ جاءته هدية من السودان تحمل إليه عبيدًا وزرافات وأسودًا، وجاءته هدية من قيصر القسطنطينية، وجاءه تقليد من الخليفة الفاطمى بلقب شرف الدولة. وكان الشعب حانقا على العقيدة العبيدية لمبادئها المنحرفة عن روح الإسلام، وأخذت تنشب فى القيروان ثورات على أتباع تلك العقيدة، فتابع المعز شعبه، وخلع طاعة الفاطميين فى القاهرة، وحمل جميع رعيته على مذهب الإمام مالك الذى ارتضته المغرب وفقهاؤها منذ القرن الثانى الهجرى، حتى إذا وافت سنة ٤٣٨هـ/١٠٤٧م كشف القناع عن وجهه وأمر بقطع اسم خلفاء القاهرة الفاطميين من خطب الجمعة وذكر اسم الخليفة العباسى فى بغداد. وبذلك تطهَّر المغرب على يده من المذهب الشيعى الاسماعيلى الفاطمى. وحين جاءت هذه الأنباء الخليفة الفاطمى امتلأ غيظا وموجدة، فعرض عليه أحد وزرائه المسمى باسم اليازورى أن يتخلص من جموع نجدية بدوية نزلت بشرقى النيل فى الصعيد وأخذت تعيث فيه فسادا بدفعها إلى المغرب لضرب المعز بن باديس والقضاء على سلطانه ونفوذه، ولقى هذا العرض استحسانا من المستنصر، وأقبلت جموع هؤلاء الأعراب - وكانت تقدر بمئات الألوف - على ليبيا وإفريقية التونسية وواقعت المعز، وهزمته، واضطرته إلى إخلاء القيروان والانتقال إلى المهدية - وكان عاملها ابنه تميم - فانتقل

بأهله وحاشيته إلى تلك المدينة، وظل بها إلى وفاته سنة ٤٥٤هـ/١٠٦٢م ودفن برباط المتستير مع آبائه، وقد بلغت القيروان وإفريقيةالتونسية فى عهده كل ما كان يأمله أهلها من تقدم فى المدنية والحضارة والعلوم، وازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة، كما ازدهرت النهضة الأدبية وتكاثر الشعراء كثرة مفرطة مما سنعرض له فى غير هذا الموضع. واستخلف على الدولة بعده ابنه تميمًا وانكمشت الدولة إذ لم يعد يتبع تميما منها إلا جزء من ساحل البحر المتوسط بين سوسة وقابس، وكان عالما وشاعرا ومثالا للحاكم العربى الصلب وفى عهده أغار أسطول جِنوى من ثلاثمائة سفينة على المهدية سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٧م ولم يلبث أن انصرف لشدة مقاومته وأغارت بعده ثلاث وعشرون سفينة إيطالية فهزم بحارتها وقتل كثيرين منهم وعادوا مدحورين إلى البحر المتوسط وما وراءه.وفى أيامه استولى النورمان سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م على جزيرة صقلية وفى السنة التالية على جزيرة مالطة، ولم يكن يشاغب تميما أساطيل الغرب وقراصنته فحسب، فقد كان يشاغبه الأعراب المهاجرون إلى إفريقية التونسية، وظل صامدا على الرغم من قلة جنده وقلة موارده إلى أن توفى سنة ٥٠١هـ/١١٠٧م. وخلفه ابنه يحيى، وكان محبوبا من الرعية، وأنشأ أسطولا كبيرًا غزا به جِنْوة وسردانية وعاد بأموال وغنائم وافرة وتوفى سنة ٥٠٩هـ/١١١٥م وولى بعده ابنه على وقد أنشأ فى عاصمته مدرسة للكيمياء عهد بها إلى الكيميائى الأندلسى أمية بن أبى الصلت ونابزه أحمد بن خراسان أمير تونس، فأرسل إليه جيشا اضطره إلى إعلان الطاعة، وتوفى سنة ٥١٥هـ/١١٢١م وخلفه ابنه الحسن فى الثانية عشرة من عمره، وفى أوائل عهده سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م هاجم أسطول نورمانى المهدية، ولقيهم جنود الحسن وأنزلوا بهم مقتلة عظيمة، وعادوا خاسئين مدحورين. وأعد رجار الثانى أسطولا ضخما مكونا من ثلاثمائة سفينة وهجم به على المهدية، ورأى الحسن أن لاطاقة لجنده القليلين بلقائه فانسحب سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م من المهدية حقنا للدماء، واستغاث بعبد المؤمن بن على أمير دولة الموحدين بالمغرب الأقصى وكان النورمان قد احتلوا المهدية فخلصها منهم سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م وولى عليها الحسن بن على الصنهاجى وأشرك معه عاملاً من الموحدين، وبذلك انتهت الدولة الصنهاجية من إفريقية التونسية بعد ما أدى حكامها الأولون والأخيرون من أعمال ومآثر جليلة.

(جـ) الهجرة[1] الأعرابية

أعلن المعز بن باديس استقلاله بالقطر التونسى عن الدولة الفاطمية بمصر، وأسقط اسم الخليفة الفاطمى المستنصر من خطب الجمعة، وأمر الخطباء أن يذكروا الخليفة العباسى القائم

(١) خير مصدر فصّل القول فى هذه الهجرة ابن خلدون فى الجزء السادس من تاريخه (طبعة بولاق).

بأمر الله على المنابر، وجاءه منه تقليد يعترف له فيه بالاستقلال، وعلم بذلك كله المستنصر الفاطمي فاستشار وزراءه ماذا يصنع، وتقدم منه وزيره اليازوري. ذاكرا له أن خير تأديب للمعز يردعه أن نطلق عليه الأعراب البدو من قبائل سليم وهلال وزغبة ورياح الذين نزلوا فى قفار الصعيد بين النيل وزروعه والبحر الأحمر، والذين يشكو الفلاحون المصريون من غاراتهم، فنكون قد تخلصنا منهم، وانتقمنا بهم من المعز وصنيعه. واستصوب المستنصر رأيه ومشورته، فاستدعى شيوخ هذه القبائل وعرض عليهم الهجرة إلى بلاد المغرب، ووعدهم أن يوليهم أعمالها، ومنح الشيوخ أعطيات كبيرة، ومنح كل أعرابى من عامتهم بعيرا ودينارا، وقال لهم المستنصر: «قد أعطيتكم المغرب وملك المعز بن بلكين الصنهاجى» وكانوا يعدون بمئات الألوف، فانصبوا على المغرب كسيل جارف، وبدأوا بأرض برقة وطرابلس فاستولوا عليها، وتقدموا فاحتلوا مدينة قابس، وحاول المعز بن باديس إيقاف هذا الطوفان المنهمر على بلاده، فالتقى بجموعهم فى موضع يسمى «حَيْدران» بين قابس وصفاقس ولكنه هزم وانسحب مع فلول جنده إلى القيروان. ورأى خطأ أن يستقدم بعض شيوخهم إلى القيروان ويزوجهم من كريماته، زُلْفى لهم وقربى، ونصحه ابنه تميم أن لا يستدعيهم، ولم يستمع لنصحيته، وجاءوه وانتهبت جماعاتهم القيروان، واضطر إلى الانسحاب والالتجاء إلى المهدية لحصانة قلاعها وأسوارها وكان قد ولّى تميما عليها، فاتخذها قاعدة لما بقى من ملكة منذ سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٧م. ولم يقض هؤلاء الأعراب المهاجرون على دولة المعز بن باديس وسلطانه فحسب، بل لقد قضوا على كثير من الزروع والمنشئات وأحدثوا كثيرا من الاضطراب والفوضى، ووقفوا - إلى حين - النهضة الحضارية التى كان قد بثّها الأغالبة فى البلاد ونمّتها الدولة الصنهاجية، وليس ذلك أيضا فحسب، فقد تحولوا بإفريقية التونسية من نظام الوحدة السياسية إلى نظام التفرق والتشتت، فلم تعد لها دولة واحدة منظمة ترعى مصالحها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية، بل أصبحت دولا متفرقة أو قل وحدات صغرى من الدول، على نحو ما كان يعيش هؤلاء البدو فى قبائلهم من انقسامها إلى عشائر، وكما أن لكل عشيرة شيخها وحياتها المستقلة، كذلك أصبحت إفريقية التونسية إفريقيات وتحولت مدنها إقطاعيات وإمارات لنحو مائة عام ويلاحظ ذلك ابن خلدون قائلا: «لما تغلب العرب على إفريقية وانحلّ نظام الدولة الصنهاجية وارتحل المعز بن باديس من القيروان إلى المهدية انتزى الثوار فى البلاد» وكوّن كل ثائر فى بلد دولة أو إمارة صغرى وراثية. وهكذا تأسس فى البلاد - على هدى نظام العشائر المتفرقة - نظام أمراء الطوائف، ولكل أمير بلدته أو إقطاعيته، وهو غالبا أمير أعرابى ورثت عنه أسرته إمارته، ونذكر من أهمهم: بنى الورد من لخم فى بنزرت، وبنى جامع من بنى هلال فى قابس، وبجانبهم أمراء بربريون مثل بنى الرند من مغراوة الزنانية بقفصة وبنى مليل من برغواطة بصفاقس، ومن أهم هذه الامارات الصغرى إمارة تونس وكانت لبنى خراسان. وبدون ريب أضعف هذا التفتت إفريقية التونسية، مما جعل

النورمان–كما مرَّ بنا آنفا– يغزون المهدية سنة٥١٧ ويعيدون الكرة سنة٥٤٣ بقيادة روجار الثانى ويظلون بها نحو اثنى عشر عاما ويستولون على ساحل إفريقية التونسية الشرقى ومدنه: قابس وصفاقس والمنستير وسوسة، وينزل روجار فى قصور المهدية الشامخة، ويتخذ فيها دواوين لحكم تلك المدن وإدارتها إلى أن خلصتها دولة الموحدين سنة ٥٥٥ هـ/١١٦٠م. وكل ما حدث من ذلك إنما كان بسبب هجرة الأعراب الكبيرة إلى إفريقية وما نشأ عنها من تفتت قواها فى عهد إماراتها أو دولها الصغرى، فإذا روجار الثانى ملك صقلية يغزوها ولا يجد على أسوارها من كانوا يحمونها ويسحقون أعداءها سحقا.

٥

دولة[١] الموحدين – الدولة الحفصية

(أ) دولة الموحدين

أنشأ هذه الدولة ابن تومرت المصلح الدينى المغربى الذى زار المشرق وتتلمذ فيه على الأشعرية وغيرهم، ورجع إلى المغرب، فنظم فيه ثورة واسعة ضد دولة المرابطين المغربية وفقهائهم المالكية، وتبعه كثيرون، وسمَّى جمهورهم باسم الموحدين، وإليهم نُسبت الدولة. وبدأ منازلة المرابطين سنة ٥٢٤ هـ/١١٢٩م غير أنه توفى سريعا فخلفه عبد المؤمن بن على وهو يعد المؤسس الحقيقى لتلك الدولة، وقد استطاع القضاء على دولة المرابطين وأخذ يتملك الأندلس منذ سنة ٥٤٠. وذكرنا – آنفا – أن الحسن بن على آخر أمراء الدولة الصنهاجية استنجد به حين استولى منه روجار الثانى على المهدية وساحل إفريقية التونسية الشرقى، وما إن علم بجلية الأمر حتى امتلأ غيظا ولباه بجيش جرار سنة ٥٥٣ هـ/١١٥٨م ومضى يفتح مدن المغرب الأوسط. الجزائر وبجاية وقسنطينة وبعض مدن إفريقية التونسية، وكان بنو خراسان يحكمون تونس ففتحها عنوة سنة ٥٥٤ هـ/١١٥٩م ورافقه فى هذه الرحلة أسطول كبير، وتقدم إلى المهدية وحاصرها بجنوده برا وبأسطوله بحرا، وطال الحصار إلى ستة أشهر، واحتلها عبد المؤمن يوم عاشوراء سنة ٥٥٥ هـ/١١٦٠م وأقطعها الأمير الحسن بن على الصنهاجى وأشرك فى حكمها أحد الموحدين. ونقل عبد المؤمن عاصمة إفريقية التونسية منها إلى مدينة

---

(١) انظر فى دولة الموحدين البيان المغرب والجزء الرابع من تاريخ ابن خلدون والمن بالامامة لابن صاحب الصلاة والمعجب للمراكشى وتاريخ الدولتين الموحدية والحفصية للزركشى وأعمال الأعلام لابن الخطيب والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للناصرى وعصر المرابطين والموحدين لمحمد عبدالله عنان.

تونس، وتظل عاصمة للبلاد إلى اليوم ويقيم فيها دواوين الحكم، ويطبق فيها وفى ولايتها ما اتخذه فى دولته بالمغرب من التراتيب المخزنية فى تنظيم المصالح الحكومية وظلت هذه التراتيب قائمة إلى نهاية حكم الدولة الحفصية، ويتوفى سنة ٥٥٨ هـ/١١٦٢م ويخلفه ابنه يوسف وتظل إفريقية التونسية هادئة لعهده حتى إذا كانت سنة ٥٧٥ هـ/١١٧٩م ثار عليه بنو الرِّنْد فى قفصة بشط الجريد فخرج إليهم وتغلب سريعا عليهم، وعاد إلى عاصمته: مراكش وتوفى سنة ٥٨٠ وخلفه ابنه يعقوب وكان من وزرائه الشيخ عبد الواحد جد الحفصيين، وكان تقى الدين بن أخى صلاح الدين الأيوبى فكر فى الاستيلاء على ليبيا وإفريقية التونسية للاستعانة بها فى حرب الصليبيين، وكلف بهذه المهمة قراقوش وابن قراتكين، واستولى الأول على مدينة قابس واستولى الثانى على مدينة قفصة، وفى هذه الأثناء فكر بنو غانية ولاة المرابطين فى جزر ميورقة ومنورقة ويابسة أن يثأروا لدولتهم من الموحدين، وتسلَّل منهم إلى إفريقية التونسية على وأخوه يحيى يريدان أن يقيما فيها دولة ويُعدًّا جيشًا للانقضاض على الموحدين. وعلم يعقوب بما يحدث فى إفريقية التونسية فخرج إليها فى جيش جرار سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م وظل طوال طريقه يبنى فى سائر أعماله المارستانات للمرضى والمساجد للمصلين وانقضَّ على قفصة وقتل ابن قراتكين كما انقض على قابس ولم يجد بها قراقوش واستولى على أمواله وأهله مما اضطره إلى إعلان طاعته، أما ابنا غانية فحين علما بقدم يعقوب انسحبا إلى شط الجريد وفيه لقى على مصرعه سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م. وعاد يعقوب إلى عاصمته، وأخذ ينهمك فى الإعداد لموقعة الأرك التى سحق فيها سنة ٥٩١ هـ/١١٩٥م ملك قشتالة ألفونس الثامن ومن تجمع له من حملة الصليب الهولنديين والإنجليز، وازداد حينئذ عيث يحيى بن غانية واستولى على شط الجريد والقيروان وطرابلس وقابس وصفاقس وتونس، وتوفى يعقوب سلطان الموحدين سنة ٥٩٥هـ/١١٩٨م وتولى ابنه الناصر وظل يفكر فى شأن يحيى ورأى أن يرسل حملة بحرية كبرى إلى أخيه عبد الله فى جزائر البليار (ميورقة ومنورقة ويابسة) حتى يجتث جذور جرثومة الفساد واستولى عليها أسطوله سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٣م وصمَّم بعد ذلك على قطع فروع الجرثومة فى إفريقية التونسية واستئصال يحيى بن غانية، فخرج فى جيش جرار ومعه وزيره أبو محمد عبد الواحد بن يحيى بن أبى حفص سنة ٦٠٢هـ/١٢٠٥م وأوقع بيحيى هزيمة ساحقة بالقرب من مدينة قابس، واسترجع مدينة المهدية وغيرها من المدن التونسية، وعاد إلى مراكش سنة ٦٠٣ واستخلف أبا محمد عبد الواحد بن يحيى بن أبى حفص على تونس (إفريقية التونسية) وطرابلس، وأخذ زمام الأمور بها يتجمع ويستقر فى يده ويد أبنائه، وكأنما كان حكمه لتونس وطرابلس تمهيدا قويًا لقيام الدولة الحفصية، وقد نازل يحيى بن غانية فى نواحى طرابلس وهزمه وفرَّ جريحا.

(ب) الدولة[١] الحفصية

استقام حكم عبد الواحد فى تونس وطرابلس وأحبه الناس وعظَّموه إلى أن توفى سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م وخلفه ابنه عبدالرحمن، وعزله سريعا سلطان الموحدين وولَّى أخاه عبدالله، فعهد لأخيه أبى زكريا يحيى بحكم قابس سنة ٦٢٠هـ/١٢٢٣م ولم يلبث أن غضب عليه ونهض لحربه، وخالفه بعض القواد، والتحقوا بجيش يحيى وتمت له الغلبة على أخيه، فدخل تونس سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٧م وبايعته بمجرد دخوله، وأخذ يعمل على الاستقلال بولايته وكان مما حفزه على ذلك أن أبناء سلطان الموحدين يعقوب العظيم صاحب موقعة الأرَك وأبناء عمومتهم أخذوا يتصارعون على الملك والحكم وأخذت دولة الموحدين تضعف ضعفا شديدا وسرعان ما قطع أبوزكريا اسم سلطان الموحدين من خطب الجمعة وجعلها باسمه سنة ٦٢٧هـ/١٢٢٩م وبذلك أعلن قيام دولته الحفصية واستقلاله نهائيا عن دولة الموحدين. وفى سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م وقع مع فريدريك الثانى إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة - تفاديا لغارات أسطوله على ساحل تونس - معاهدة اعترف فيها بتملك فريدريك لجزيرة قوصرة (بنطلارية) بعد أن ظلت تابعة لإفريقية التونسية خمسة قرون وكان من شروط المعاهدة أن تظل الدولة الحفصية تأخذ نصف جبايتها وظل هذا الشرط ساريا طوال حياة أبى زكريا، وبمجرد وفاته انتقَض هذا الشرط وأجبر المسلمون فيها وفى مالطة وصقلية على الخروج منها جميعا إلى العدوة الإفريقية، ومن بقى أُجْبر على اعتناق النصرانية. وظل أبو زكريا يتعقب يحيى بن غانية حتى توفى فى برية تلمسان سنة ٦٣١هـ/١٢٣٣م. وفى سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٦م بايعت تونس أبا زكريا ثانية، ويقال إنه أعلن حينئذ قطع اسم سلطان الموحدين من خطب الجمعة أو خليفتهم وذكر اسمه فيها. وكأن بدء قيام الدولة الحفصية إنما كان فى سنة ٦٣٤هـ والرأى الأول أكثر سدادا.

وتعاظمت حملات نصارى الإسبان ضد عرب الأندلس وأخذت مدنهم الكبرى تسقط فى

---

(١) انظر فى الدولة الحفصية البيان المغرب لابن عذارى وتاريخ ابن خلدون ومعالم الإيمان للدباغ وابن ناجى والمؤنس فى أخبار إفريقية وتونس لابن أبى دينار ورحلة التجانى ورحلة العبدرى والفارسية فى مبادئ الدولة الحفصية لابن قنفذ والحلل السندسية فى الأخبار التونسية للوزير السراج وخلاصة تاريخ تونس للأستاذ حسن حسنى عبدالوهاب وكتابه ورقات عن الحضارة العربية وتاريخ إفريقية فى العهد الحفصى لروبار برنشفيك وراجع فيه خاصة علاقات حكام الدولة الحفصية مع أمراء وحكام صقلية وموانئ إيطاليا وفرنسا وإسبانيا.

حجورهم فأرسل إليه زيان بن مردنيش صاحب بلنسية سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧م وفدا يستنجده لنصرته ضد أعداء الاسلام، كان فيه أبوعبدالله بن الأبار، وأنشده قصيدة فريدة منها قوله:

أدركْ بخيلك خَيْلَ اللَّهِ أندلسا إن السبيـل إلى مَنْجاتها دَرَسَا

ولبَّاهم بأسطول محمَّل بالأغذية والأسلحة، ووقعت في أيدى النصارى. وقد ابتنى جامع القصبة فى تونس وصومعته ونقش عليها اسمه، وحين تمَّت أذَّن فيها بنفسه، وأنشأ فى قصره دارًا للكتب جمع فيها ستة وثلاثين ألف مجلد فى مختلف العلوم والآداب. وكان عادلا حسن السيرة كما كان فقيها وشاعرا أديبا، وكان يأخذ نفسه بالتقشف والزهد فى متاع الحياة، وجمع للدولة بعدله وسياسته الرشيدة أموالا طائلة، وأخذت تونس (إفريقية التونسية) تستعيد مجدها وشخصيتها القوية أيام الأغالبة والصنهاجيين، ونفقت سوق العلم والأدب وكثر العلماء والشعراء وتوفى أبو زكريا سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م.

وخلفه ابنه المستنصر محمد وكان أبوه عنى بتربيته فدبَّر أمور الدولة تدبيرا محكما وانتعشت تونس فى عهده. ولما قضى التتار فى بغداد على الخلافة العباسية وقتلوا الخليفة العباسى سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م وأصبح المسلمون بدون خلافة وخليفة جاءته فى سنة ٦٥٧ هـ بيعة أمير مكة بالخلافة بإنشاء عبد الحق بن سبعين صوفيٍّ الأندلس، وكان مجاورا هناك فقرئت على الملأ واحتفل بها احتفالا عظيما، ومن حينئذ تلقب بأمير المؤمنين، وبايعه بنو مرين بفاس. وفى ذى القعدة سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩م غرَّت الأمانىّ لويس التاسع بعد تنكيل مصر به وبحملته المشهورة، فقاد حملة كبيرة هاجم بها تونس برا وبحرا، وحاصرها ستة أشهر، ودُفِنَ تحت أسوارها، وعادت الحملة مدحورة إلى البحر المتوسط وما وراءه بعد أن أغرمها المستنصر مالا كثيرا. ومن أعماله الجليلة بناء الحنايا التى كان يجرى عليها الماء إلى مدينة قرطاجة من زغوان فى أيام الرومان وأصلح ما أفسده الزمن منها، ومدَّها فى تونس إلى السقايات المختلفة: جامع الزيتونة وغيره، وازدهرت الحياة والحضارة بتونس لعهده ازدهارا عظيما. وتوفى سنة ٦٧٥هـ/١٢٧٦م وتولَّى بعده ابنه يحيى الواثق وكان حسن السيرة غير أن عمه أبا إسحق إبراهيم ثار عليه سنة ٦٧٨ واستولى على أزمة الحكم، وخرج عليه فى سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م ثائر يسمى أحمد بن مرزوق المسيلى ادَّعى أنه الفضل ابن أمير المؤمنين الواثق بن المستنصر، وتمكن من الاستيلاء على تونس بمساعدة أعراب قابس الهلاليين، وبعد سنة ونصف من حكمه تصدَّى له الأمير عمر أخو الواثق وجمع له جموعا سنة ٦٨٣هـ/١٢٨٤م وقبض عليه وقتله، وتولى شئون الحكم. وسرعان ما خرج عليه بالجزائر ابن عمه يحيى بن إبراهيم واستقل ببجاية وقسنطينة، وتوفى عممر سنة ٦٩٤هـ/١٢٠٤م وخلفه أبوعصيدة محمد بن الواثق وحاول استرجاع القسم الشرقى فى الجزائر وأخفق، وتوفى سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م دون عقب واضطربت

الأمور فى تونس، واستطاع أبو يحيى زكريا بن اللحيانى أن يستولى على زمام الأمور سنة ٧١١هـ/١٣١١م وكان شيخا كبيرا، فتخلى عن الحكم لابنه أبى ضربة، وحاربه أمير قسنطينة الحفصى أبوبكر سنة ٧١٨هـ/١٣١٨م وهزمه وقبض على صولجان الحكم فى تونس وتلقب بالمتوكل على الله، وخرج عليه بعض الأمراء من أسرته وأمدهم بنو زيان أمراء تلمسان من بنى عبد الواد، فأصهر إلى سلطان بنى مرين فى المغرب الأقصى، وهاجم معه ديار هذه الإمارة أو المملكة سنة ٧٢٠هـ/١٣٢٠م واقتسماها فيما بينهما. وصفا له الجو حتى وفاته سنة ٧٤٧هـ/١٣٤٦م وأخذ يعنى بالحركتين العلمية والأدبية وازدهرت لعهده، كما عنى بشئون الزراعة والصناعة والتجارة، فازدهرت جميعا، ومما يدل على هذا الازدهار ما ذكره المؤرخون من أن عدد دكاكين العطارين وحدهم فى أيامه بلغ فى تونس سبعمائة دكان. وبويع بعده لابنه أبى حفص الثانى، وثار عليه أخوه أبوالعباس. وانتهز السلطان المرينى أبو الحسن فرصة هذه الفتن فاتجه فى جيش جرار إلى تونس سنة ٧٤٨ وفتك بسلطانها أبى حفص، واستقام له ملك المغرب الأوسط، والأدنى لمدة سنتين ونصف، غير أنه لم يحسن السياسة مع الأعراب كما كان يحسنها سلاطين تونس فثاروا عليه ونازلوه فى تونس وهزموه، وجاءه الخبر بأن ابنه أبا عنان ثار عليه فى مراكش، فعاد سريعا إلى عاصمته سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٩م. وعادت تونس للحفصيين، وتولَّى زمام الخلافة والحكم الفضل بن أبى بكر الحفصى، ودبَّر له الحاجب القديم الشرير ابن تافْراجِّين مؤامرة قُتل فيها، وتولى أخوه أبوإسحق إبراهيم سنة ٧٥١هـ/١٣٥٠م واتخذ ابن تافْراجِّين حاجباله، واضطربت عليه الأمور إلى أن توفى ابن تافْراجِّين سنة ٧٦٦ ولم يلبث أن توفى سنة ٧٧٠هـ/١٣٦٨م. واستولى على زمام الأمور فى تونس أبوالعباس أحمد الحفصى سنة ٧٧٣هـ/١٣٧٠م وهو من خيرة الحكام الحفصيين قمع الأعراب وأهل الفساد، واسترجع ما ضاع من الدولة فى أثناء الفتن مثل المهدية وسوسة وقابس وشط الجريد وجزيرة جربة، وساد الأمن والعدل فازدهرت البلاد. وفى أيامه غزا الجنويون والفرنسيون المهدية فى ثمانين قطعة، ودافعهم عنها جيشه وردهم على أعقابهم خاسرين، وتوفى سنة ٧٩٦هـ/١٣٠٣م بعد ما أعاد لتونس ما كان لها من هيبة وقوة.

وخلفه ابنه أبو فارس عبد العزيز، وفيه يقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب: «هذا السلطان درة عقد الدولة الحفصية وفخر من مفاخر البلاد التونسية، سار بعدل وتدبير وسياسة، فازدهت إفريقية (التونسية) فى أيامه، وبلغت شأوا بعيدا فى الثروة والعمران». وقد بدأ عهده بإخضاع طرابلس وقابس وقفصة والجريد وبِسْكرة والصحراء، وكان بنوسليم قد أكثروا من الثورات فقلَّم أظفارهم، واستصرخوا سلطان فاس المرينى بالمغرب الأقصى فأرسل لهم جنودا من عنده وانضم إليهم أمير بجاية الحفصى ابن أبى زكريا، واتجهوا بجموعهم إلى تونس سنة ٨١٢هـ/١٤٠٩م فهزمهم وقتل الثائر الحفصى، وصمم على الثأر من السلطان المرينى،

فلما شارف عاصمته «فاس» أرسل إليه بالطاعة، فعفا عنه ونصحه أن يحكم بالعدل الذى لا تستقيم حياة الرعية بدونه. ورجع إلى عاصمته بعد أن دان له شمال إفريقية بالسمع والطاعة. وفى سنة ٨٣٥هـ/١٤٣٢م احتلّ ملك أرجون جزيرة جربة وأنجدها ولاذ المحتلون بالفرار. وقد أنشأ طائفة من القلاع والمحارس لحماية السواحل والثغور، وبنى مارستانا للمرضى والعجزة، وأنشأ لنفسه قصرا بضاحية باردو فى تونس وأحاطه بحديقة بديعة وشيد فيه خلفاؤه الحفصيون والعثمانيون قصورا وحدائق أنيقة. ومن مآثره الجليلة تشييده مكتبة لطلاب العلم فى أحد أروقة جامع الزيتونة إلى الشمال وجمع لها آلافا من المجلدات وقفها عليها، وقد نحّى عن كاهل الشعب كثيرا من الضرائب الفادحة وبسط العدل والأمن، وتوفى سنة ٨٣٧هـ/١٤٣٤م.

وتولى بعده حفيده محمد المنتصر، وأنشأ مدرسة سميت المدرسة المنتصرية، وبنى زاوية الشيخ الصالح أحمد بن عروس وتوفى بعد عام وشهرين، وخلفه أخوه أبوعمرو عثمان سنة ٨٣٩هـ/١٤٣٥م وظلّل العدل والأمن والاستقرار الرعية طوال حكمه الذى امتد إلى نحو أربعة وخمسين عاما إذ توفى سنة ٨٩٣هـ/١٤٨٨م وقد قمع ثورة لعمه أبى الحسن فى قسنطينة وبجاية، وثارت عليه تلمسان وأعادها إلى طاعته، وكان أخوه المنتصر توفى ولم يكمل مدرسته المنتصرية فأكملها، وشيد لنفسه مدرسة كبيرة جعل فيها مسجدا للصلاة وغرفا للدراسة ومساكن للطلبة وسماطا يمتدّ كل يوم للفقراء، ووقف عليها ما يكفيها ويكفى مَنْ بها من العلماء والطلبة، وبنى ثلاثة مكاتب لقراءة القرآن، وعُنى بإنشاء مكتبة عمومية فى أحد أروقة جامع الزيتونة، وأتمها بعده حفيده أبو عبدالله محمد، ونُسبت إليه فسميت العبدلية. ومن حسناته كتابة مصحف بخطّ يده فى عدة أسفار جعله بجانب نسخة البخارى التى وقفها أبوه فى جامع الزيتونة. وخلفه حفيده أبو زكريا، لمدة ست سنوات، ووليها بعده أخوه أبو عبدالله محمد الذى أتمّ المكتبة العمومية التى ابتدأها جده كما أسلفنا.

وكانت الدولة العثمانية قد عظم شأنها وأصبح لها أسطول ضخم ينافس الأسطول الإسبانى أقوى أساطيل أوربا حينذاك فى البحر المتوسط، وكان لها أميران من أمراء البحر هما الأخوان: عَرُّوج وخير الدين ويسميه الإفرنج بربروسة، وكانا يشتغلان بالقرصنة لحساب الدولة العثمانية، وتقدما إلى الأمير أبى عبد الله محمد الحفصى المذكور آنفا طالبين منه الموافقة على أن يتخذا من جزيرة جربة قاعدة لأعمالها البحرية ضد السفن الإسبانية لتخليص مدينة الجزائر من احتلال الإسبان على أن يكون له الخمس من غنائمهما، وقبل منهما هذا العرض، وظل ذلك مدة، وحدث أن استطاع عروج وخيرالدين تخليص مدينة الجزائر فعلا من يد الإسبان واتخذاها منذ سنة ٩١٦هـ/١٥١١م قاعدة لأعمالها البحرية واستغنيا عن جزيرة جربة التونسية. وكانت الدولة التونسية قد أخذت فى التدهور والضعف الشديد لعهد الأمير أبى عبد الله محمد، ورأى

ذلك خير الدين رأى العين، وتوفى الأمير أبو عبد الله سنة ٩٣٢هـ/١٥٢٦م وخلفه ابنه الحسن فرأى خير الدين أن يزحف إلى تونس من الجزائر، ويضمها إلى الدولة العثمانية كما ضم إليها الجزائر، وزحف إليها فعلا واستولى عليها سنة ٩٣٥هـ/١٥٢٩م فلجأ الأمير الحفصى الحسن إلى كارلوس الخامس ملك إسبانيا، فرآها فرصة عظيمة، وقدم معه سنة ٩٤٣هـ/١٥٣٧م ودخل مع الحسن تونس عنوة، وفرَّ خير الدين بجنده إلى الجزائر وأَذِنَ كارلوس لجنده بنهب تونس، فاستباحوا حماها، وأجلس الحسن على عرشها وأشرك معه فى الحكم أحد قواده، وعقد معاهدة معه بمقتضاها يتنازل للإسبان عن بعض المدن التونسية سوى ما اشترطه عليه من دفع أموال باهظة سنويا، وثار على الحسن ابنه أحمد حاكم عنابة (بونة) وانضم إليه كثيرون. وبعد قتال عنيف استولوا على تونس وسملوا عينى الحسن، ففقد بصره وفر إلى القيروان وتولى ابنه أحمد مكانه، واستولى الإسبان على المهدية والمنستير وجزيرة جربة والقيروان وكان أهل طرابلس قد استغاثوا بالدولة العثمانية فأزاحت عنهم فرسان مالطا كما ذكرنا فى حديثنا عن ليبيا. سنة ٩٥٨هـ/١٥٥١م بفضل أسطول درغوت الذى كان مرابطا أمام الجزائر، وقد استطاع أن يفتكَّ المهدية والقيروان وجربة والمنستير من أيدى الإسبان وأقام بكل منها حامية عثمانية ونائبا، وكان خيرالدين (بر باروسة) قد حرَّر الجزائر من الإسبان وأصبحت ولاية عثمانية، فأرسل الأمير أحمد الحفصى إلى واليها سنة ٩٧٧هـ/١٥٧٠م أحد وزرائه يستنجد به ضد الإسبان، فانتهز الفرصة وقدم بجيش استولى به على تونس وأخذ البيعة فيها للسلطان العثمانى، فاستنجد الأمير الحفصى أحمد بالإسبان أعدائه فأعادوا الحماية وعرف الأمير أحمد خطأه، فترك الحكم لأخيه محمد سنة ٩٨٠هـ/١٥٧٣م ورحل إلى صقلية وظل بها إلى مماته، وخضع محمد للحماية الإسبانية، وأشرك الإسبان فى الحكم الكُنْت سِرَبَلونى وازدادوا عسفا وعتوا، وتكررت استغاثة التونسيين بالدولة العثمانية، فأرسلت إليهم فى سنة ٩٨١هـ/١٥٧٣م قوة عثمانية كبيرة بقيادة الوزير سنان باشا، ففتك بالحامية الإسبانية فتكا ذريعا وطرد بقيتهم من البلاد إلى البحر المتوسط وما وراءه، وأرسل بالأمير الحفصى محمد إلى الأستانة فظل معتقلا بها إلى وفاته. وبذلك انتهت الدولة الحفصية بعد أن حكمت تونس نحو ثلاثمائة وخمسين عاما.

٦

العهد[1] العثمانى

كانت فاتحة أعمال سنان باشا بعد تحريره القطر التونسى أن أعلن إلحاقه بالدولة العثمانية، فأصبحت إحدى ولاياتها فى إفريقية الشمالية الممتدة من مصر إلى الجزائر، وأخذ يرسى النظام الذى سيقوم على أسسه الحكم فى تونس، فنظم الديوان الذى تجتمع فيه الهيئة الحاكمة للنظر فى شئون الجند والولاية، وقدَّر الرواتب، ورتَّب لجباية الأموال مشرفا باسم الباى، وجعل للبلاد حامية عسكرية عدادها أربعة آلاف جندى من الإنكشارية، وهم جند الدولة الذين كانت تربيهم تربية إسلامية عسكرية، وكانت تجلبهم من الأناضول ومن سباياها فى أوربا، وجعل على كل مائة منهم أميرا يسمى «الداى» وجعل عليهم رئيسا هو الأغا، وانتخب بعض الأعيان من البلاد لمشاركة الديوان فى الحكم، وضرب السكة باسمه. ولما أنهى كل هذه الترتيبات وخطب الخطباء فى تونس باسم السلطان العثمانى عاد إلى إستانبول دار دولته وحكومته. وعينت إستانبول لتونس واليا بلقب باشا، ولم يلبث الدايات أن شغبوا على الوالى سنة ٩٩٩هـ/١٥٩١م واتفق الرأى على اختيار أحدهم ليكون له الرأى النافذ فى شئون الإنكشارية، وسرعان ما أخذ هؤلاء الدايات يتسلطون على الحكم فى تونس ويعينون الوالى منهم وتضطر الدولة إلى قبول الواقع، وأول داى مهم منهم تولى شئون البلاد عثمان داى، وكان من خيرة الجند الذين رافقوا سنان باشا، وقد تولاها سنة ١٠٠٧هـ/١٥٩٩م فسنَّ قوانين وطَّد بها الأمن والعدل فى البلاد، وأشرف على القرصنة فى البحر المتوسط وعظم حظ تونس من غنائمها الوافرة، وفى أيامه سنة ١٠١٦هـ/١٦٠٩م أخرج الإسبان من بقى بديارهم من الأندلسيين إلا من تنصر أو تظاهر بتنصره، فهاجر منهم آلاف إلى تونس، وأكرمهم عثمان داى، إذ أقطع ذوى اليسار منهم ما اختاروه من الأراضى ووزع على المحتاجين منهم الأموال والنفقات فانتشروا فى أرجاء البلاد وأخذوا يؤسسون فيها المدن والقرى وينشئون المصانع والمزارع والبساتين، وبذلك أحدثوا فى إقليم تونس نهضة عمرانية وصناعية وزراعية، ويقال إن

---

(١) انظر فى العهد العثمانى بتونس كتاب المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس لابن أبى دينار والحلل السندسية فى الأخبار التونسية للوزير السراج وذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان لحسين خوجه تحقيق الطاهر المعمورى (طبع تونس) ورحلتى العياشى والناصرى ودائرة المعارف الإسلامية فى مادة تونس وما بها من مراجع تاريخية عن العصر التركى وخلاصة تاريخ تونس للأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب.

المهاجرين منهم فى عهد عثمان داى كانوا يبلغون ثلاثين ألفا، ولم يلبث أن توفى سنة ١٠١٩هـ/١٦١١م ودفن بزاوية ابن عروس. وخلفه يوسف داى، واستمر نزول المهاجرين الأندلسيين فى البلاد وأفاءوا عليها عمرانا وفيرا، وقد استرد جزيرة جربة من والى طرابلس العثمانى، واتفق على تسوية الحدود بين تونس والجزائر، ومن أعماله إنشاؤه جامعه الكبير ومدرسة سميت المدرسة اليوسفية نسبة إليه، وتنظيمه أسواق المتاجر، ونَشِط الأسطول التونسى لأيامه بقيادة قبطانه مراد، ويقال إنه غنم فى إحدى غاراته البحرية تسعين سفينة.

وتوفى يوسف داى سنة ١٠٤٠هـ/١٦٣١م وخلفه القبطان مراد رئيس البحر، وفى أيامه تمتعت تونس بحياة رغدة آمنة فأحبه الناس، وعمل على أن تظل ولاية تونس فى بيته فتنازل عن الحكم لابنه حمودة، وأقرت الدولة العثمانية صنيعه، وبذلك أصبح حكم تونس وراثيا فى أسرته، وكان عهده وعهد ابنه حمودة عهدا هنيئا فى تونس واستطاعت كتيبة الصبائحية أن تقضى على العصاة قضاء نهائيا فى عهد حمودة فأمنت السبل وعاش الناس فى اطمئنان سابغ أو غامر فى جميع أنحاء الإقليم، ومن أعماله بناء جامع بديع بجوار زاوية أحمد بن عروس وصومعة أنيقة لجامع الزيتونة ومارستان للمرضى، وعُنى بقصور الحفصيين فى باردو. واشتهرت زوجته عزيزة حفيدة الداى عثمان بأعمال بر كثيرة، من ذلك أنها حبست وقفا كبيرا على مارستان كان خاصا بمرضى الأعصاب، ولذلك سمى دار الدراويش، ومن الطريف أنها خصَّت قسما من الوقف بالعود والرباب والضاربين عليها ترويحا لأولئك المرضى، وبذلك سبقت الطب الحديث إلى تبين تأثير الموسيقى فى مداواتهم وتهدئة أعصابهم. وتوفى حمودة المرادى سنة ١٠٧٦هـ/١٦٦٦م وخلفه ابنه مراد وكان حسن السيرة وقبض بقوة على زمام الأمور، وسمع بأن جنود الإنكشارية فى طرابلس قتلوا الوالى فذهب إليهم ونكَّل بهم، وأجلس ابنا له فى عمله. وتوفى سنة ١٠٨٦هـ/١٦٧٦م. وولى بعده خلف سيء شاع فى أيامهم البغى والظلم، وتنازعوا فى الاستيلاء على الحكم واستعان بعضهم بالجزائر، ودخلت جنودها تونس غير مرة، مما جعل الداى إبراهيم الشريف يفتك بآخر أمرائهم سنة ١١١٤هـ/١٧٠٣م. وبذلك انقرضت الدولة المرادية، وعاود الجزائريون الكرة على البلاد التونسية، وهزموا إبراهيم الشريف.

وجزع أهل الحل والعقد فى تونس من الشيوخ وغيرهم، واتفقت كلمتهم على إسناد الدولة للباى حسين بن على وكان قد تقلد وظائف حربيَّة وإدارية مختلفة للأسرة المرادية، ولم يجد بدا من النزول على رأيهم وإرادتهم. وفرح به أهل تونس وبايعوه فى ربيع الأول سنة ١١١٧هـ/يولية ١٧٠٥م. وبدأ أعماله بإصلاح سور تونس وتحصين قلاعها، ولم يلبث الجيش الجزائرى أن خيَّم بالقرب من تونس فدارت الحرب وثبت التونسيون، وتقهقر الجزائريون إلى بلادهم. وأخذ الإقليم التونسى يعيش فى أيامه حياة رغدة آمنة وانتعشت المزارع والمتاجر والمصانع، وأخذ يعنى بإنشاء المدارس، فأنشأ فى تونس مدرستين كما أنشأ مدرسة فى كل من

القيروان وسوسة وصفاقس ونفطة، واتخذ قصر باردو مقرا لحكومته وبنى به قصرا ومسجدا. ورضيت عنه الدولة العثمانية فجعلت ولاية تونس وراثية فى أسرته، ولم يكن له ولد فى أول أمره فتبنَّى ابن أخيه على بن محمد، وعُنى بتربيته وجعله وليا لعهده ثم رزق بابنيه محمد وعلى، فنقل ولاية العهد منه إلى ابنه محمد الرشيد وجلب لعلى ابن أخيه من الدولة العثمانية لقب الباشا، ولكن عليا ظل غاضبا، ووصل إلى الجزائر، فشجعه حاكمها العثمانى على مغاضبة عمه وأمده بجيش جرار، زحف به إلى الإقليم التونسى والتقى بجيش لعمه وانتصر عليه سنة ١١٤٧هـ/١٧٣٥م ودخل تونس وتقلد شعار الولاية، وأصبح تابعا لوالى الجزائر العثمانى يؤدى إليه الخراج، أما عمه حسين باى فإنه نجا مع ابنيه إلى القيروان وأخذ يعد جيشا للقاء ابن أخيه حتى إذا كانت سنة ١١٥٣هـ/١٧٤١م التقى الجيشان جنوبى القيروان ودارت الدوائر على جيش حسين وقتل فى المعركة. وأصبح على واليا لتونس دون منازع. وكان البحارة الجنويون يقيمون فى مرسى طبرقة بالشمال الغربى للقطر التونسى، فبعث ابنه يونس على رأس جيش شرَّدهم كما شرد فرنسيين فى قرية بجوارهم أقاموا بها مراكز تجارية. وحدث شقاق بين الابن وأبيه، وتحاربا ودارت الدوائر على ابنه. وكان على باشا متعمقا فى الدراسات اللغوية، وله شرح كبير على كتاب التسهيل لابن مالك فى النحو، وجمع فى قصر باردو مكتبة نفيسة، وأنشأ أربع مدارس بعاصمته: الباشية نسبة إليه والسليمانية ومدرستى بير الحجاز، وكان راعيا للأدباء والشعراء من أمثال على الغراب ومحمد الوِرْغى. وكان ابنا عمه حسين قد فرَّا بعد مقتل أبيهما إلى الجزائر مستنجدين بواليها التركى، وظلا هناك ستة عشر عاما استطاعا فى نهايتها أن يقنعا الوالى التركى بأن يرسل معهما جيشا لنصرتهما على ابن عمهما وأخذهما بثأرهما، وأرسل معهما جيشا جرارا، حاصرا به تونس، ودافع ابن عمهما على دفاعا مستميتا سنة ١١٦٩هـ/١٧٥٦م وخَرَّ صريعا فى المعركة.

وتربَّع ابن عمه محمد الرشيد على كرسىِّ تونس، وكان مولعا بالموسيقى والتلحين والضرب على مختلف الآلات، فترك تدبير شئون الدولة لأخيه على، ولم يلبث أن توفى سنة ١١٧٢هـ/١٧٥٩م وخلفه أخوه على واهتم بتعضيد التجارة والزراعة والصناعة، وانتشر فى القطر الأمن. وأنشأ فى تونس محكمة شرعية ومدرسة لقبت بالجديدة، كما أنشأ تكية للضعاف والعجزة من الرجال والنساء، ولما تم بناؤها وأخذت تقدم الغذاء للمحتاجين قاد إليها جماعة من العُمْى فاقدى البصر وجلس معهم وأطعمهم بيده. وحدث فى أوائل حكمه سنة ١١٨١هـ/١٧٦٨م أن ألحقت فرنسا جزيرة كورسيكا بممتلكاتها فلم تصادق الحكومة التونسية على هذا الإلحاق ولا اعترفت بالجنسية الفرنسية لأَسْرَى تلك الجزيرة ممن حملهم إلى تونس أمراء البحر المتوسط وقراصنتها، وأعلنت فرنسا الحرب على تونس وأطلق أسطولها قنابل على ثغور المنستير وسوسه وحلق الوادى وبنزرت وبعد اتصالات أُبْرِم الصلح بين فرنسا وتونس

بياردو سنة ١١٨٤هـ/١٧٧٠م. ولما تقدمت به السن ووهن منه الجسم أشرك ابنه حمودة معه فى الحكم، وكاتب الدولة العثمانية فى ذلك فوافقت، وتوفى سنة ١١٩٦هـ/١٧٨٢م. وخلفه ابنه حمودة، وكان أبوه قد عُنى بتربيته وإعداده لإدارة الحكم والدولة إدارة سديدة وفى عهده استأجر بحّارة تونسيون من بعض بحارة البندقية سفينة لحمل بضائعهم من الإسكندرية إلى صفاقس، وعرَّج بهم البحارة على مالطة، فقبض واليها على التونسيين وزجَّ بهم فى السجن بحجة ظهور وباء فيهم وأمر بإحراق ما معهم من السِّلع. وعاد التجار التونسيون إلى العاصمة تونس، وتظلموا لحمودة، فطلب من نائب جمهورية البندقية أن تؤدى جمهوريته قيمة ما ضاع على التجار التونسيين بمقتضى القانون التجارى، وأفضى هذا النزاع إلى إعلان تونس الحرب على البندقية سنة ١٢٠٤هـ/١٧٩٠م وجهزت لذلك أسطولها، ورضيت البندقية بدفع الغرامة وانعقد الصلح بين الحكومتين. وفى سنة ١٢٠٩هـ/١٧٩٥م وفد على تونس والى طرابلس على القرمانلى فرارا من ثورة لعلى برغل فيها، فأحسن استقباله حموده، وكان على برغل قد استولى أيضا على جزيرة جربة التونسية، فأرسل إليها حمودة الأسطول التونسى فاستردها بمجرد ظهوره أمامها، وأرسل أحد قواده على رأس جيش مع والى طرابلس فدحر على برغل وأقرَّ عليها على القرمانلى، وعاد الجيش ظافرا منصورا. ونشبت الحرب بينه وبين الجزائر سنة ١٢٢١هـ/١٨٠٧م وكانت لهم الجولة الأولى وأعاد حمودة الكرَّة وانتصر جيشه انتصارا ساحقا. وكل ذلك يدل على أن تونس حظيت فى عهد حمودة بمكانة دولية كبيرة.

وقد عم فيها الرخاء والأمن ونشطت الزراعة والصناعة والتجارة بها نشاطا كبيرا إلى نهاية حكمه سنة ١٢٢٩هـ/١٨١٤م وكان معاصرا لنزول الحملة الفرنسية مصر وانتصار المصريين عليها انتصارا حاسما سنة ١٢١٥هـ/١٨٠١م وهو انتصار هز العرب فى جميع بلدانهم هزة عنيفة جعلتهم يستيقظون من سباتهم الطويل ويستشرفون عصرهم الحديث مستشعرين فيه كيانهم وهويّتهم العربية الإسلامية، ونرى الباى حمودة يستشعر - بقوة - شخصية تونس ويحاول - جادًّا - أن يعيد إليها قواها التى طمرها العثمانيون حقبا متوالية، فيأمر بتجنيد التونسيين وإشراكهم فى الجيش والحكم مع الترك أو الحامية التركية، وضرب للتونسيين بنفسه مثلا وطنيا كريما فى ملبسه ومطعمه، فلم يكن يلبس إلا من منسوجات تونس ولم يكن يطعم إلا من خيراتها وطيباتها متباهيا بذلك مفاخرا، وبذلك ابتدأ الداى حموده ببلده العصر الحديث فى القرن التاسع عشر بدءًا قويما سديدا.

الفصل الثاني

المجتمع التونسي

١

عناصر[١] السكان

البربر هم العنصر الأول الذى سكن القطر التونسى وعمر أرضه أجيالاً وقرونا قبل أن ينزله عناصر جدد، واختلف المؤرخون فى أصلهم ونسبهم، فقيل هم إفريقيون أصلا وموطنا وقيل بل هم آسيويون، فمن قائل إن أصلهم من اليمن، ومن قائل إن أصلهم من العماليق انتقلوا من ديار الشام إلى إفريقية، ومن قائل إنهم أخلاط من كنعان والعماليق، ومن قائل إنهم من عرب الشمال من ولد قيس بن عيلان، ومن قائل إن جدهم مازيغ كان أخا لفلسطين وأن أبناءه بارحوا الشام واخترقوا مصر إلى إفريقية، ومازيغ كان ابن كنعان بن حام، وهم بذلك حاميون لا ساميون، ويعلق ابن خلدون على هذه الآراء وما يماثلها فى بيان نسب البربر بأنها «أحاديث خرافة إذ مثل هذه الأمة (البربرية) المشتملة على أمم وعوالم ملأت جانب الأرض (المغربية) لا تكون منتقلة من جانب آخر وقطر محصور، والبربر معروفون فى بلادهم وأقاليمهم متميزون بشعارهم من الأمم منذ الأحقاب المتطاولة قبل الإسلام، فما الذى يحوجنا إلى التعلق بهذه الترهات فى شأن أوليتهم ولا يُحْتاج إلى مثله فى كل جيل وأمة من العجم والعرب». ويضيف ابن خلدون إلى ذلك قوله «إن نسابة البربر يزعمون فى بعض شعوبهم أنهم من العرب مثل لواتة يزعمون أنها من حمير، ومثل هوارة يزعمون أنها من كندة ومثل زناتة يزعمون أنها من بقايا التبابعة.. وهذه كلها مزاعم، والحق الذى شهدت به الرطانة والعجمة (فى ألسنة البربر) أنهم بمعزل عن العرب». وابن خلدون محق فى وصف ذلك كله بأنه مزاعم وترهات، إذ لا حاجة للبربر بذلك كله، إذ هم شعب عريق أصيل مضاهٍ لشعوب العالم العريقة الأصيلة مثل

---

(١) انظر فى عناصر السكان بتونس الجزء السادس من تاريخ ابن خلدون، وكتاب ورقات عن الحضارة بإفريقية للأستاذ حسن حسنى عبدالوهاب: الجزء الثالث، والمغرب الكبير لرشيد الناضورى: الجزء الأول، كذلك تاريخ المغرب الكبير لدبوز وبرنشفيك ٣١٣/١ وما بعدها.

العرب والمصريين والفرس والروم. أما تسميتهم باسم البربر فالمظنون أن الرومان - وربما اليونان - هم الذين أطلقوه عليهم أخذا من الكلمة الإغريقية Barbarus ومعناها الأجنبي الذى يرطن بلغة غير مفهومة، إذ كانت لغة البربر - بالنسبة للرومان واليونان - أصواتا مبهمة، والكلمة بهذا المعنى الإغريقى تلتقى بمعنى البربرة فى العربية وهو التمتمة بالكلام بحيث لا يفهمه السامع.

وظل البربر لا يتصلون بالشعوب القديمة آمادًا طويلة حتى إذا كان القرن العاشر قبل الميلاد أو قبله أو بعده بقليل كان فينيقيون من سكان لبنان - وكانوا شعبًا ملاحيًا - يجوبون الساحل الإفريقى بحثًا عن مواضع يتبادلون فيها سِلَعهم وعروضهم مع البربر، وأعجبتهم تونس، فنزلوا بها، ومع مرٍّ عشرات السنين اتخذوا لأنفسهم فيها موطنا ومركزًا لتجارتهم، إذ أسسوا فيها مدينة قرطاجة بالقرب من مدينة تونس الحالية، واستوطنها كثير من أسرهم الفينيقية، وأنشأوا بها دولة وجيشا منهم ومن البربر، وقد امتزجوا بهم وصاهروهم وعلموهم الملاحة والتجارة وتبادل السلع وفلاحة الأرض وغرس الأشجار، ونقلت إليهم قوافلهم المتعمقة فى السودان كثيرًا من الزنوج، وفسحوا لبعض اليهود فى النزول بمدينتهم. وبذلك أصبح يوجد فيها لعهدهم أربعة عناصر من السكان: عنصر بربرى من سكانها الأولين وعنصر فينيقى وعنصر زنجى وعنصر يهودى، ويدور الزمن وتستولى روما على قرطاجة، وتبنى من أنقاضها قرطاجة جديدة، وتستوطنها أُسَرٌ رومانية كثيرة، وتضيف القوافل زنوجًا جدًا كثيرين إلى البلاد، ويفد عليها منذ سنة ٧٠ للميلاد بعد تحطيم الإمبراطور تيتوس لمعبد بيت المقدس أسر يهودية كثيرة. ويدور الزمن دورة ثانية وتستولى جموع الواندال على تونس سنة ٤٣٩ للميلاد، ويظلون بها حتى سنة ٥٣٤ مضيفين إلى البلاد عنصرًا ألمانيا جديدًا، ويخلفهم البيزنطيون حتى سنة ٦٤٧ مضيفين بدورهم العنصر البيزنطى الإغريقى.

ثم يكون الفتح العربى، وتظل تَقْدُمُ إلى القطر التونسى جيوش لإكمال الفتح أو للقضاء على بعض الثورات طوال القرن الأول الهجرى، وتخمد ثورات البربر ضد الإسلام والعرب، وتشتعل فى القرن الثانى ثورات الخوارج من البربر. وتظل الدولتان الأموية والعباسية ترسلان الجيوش لإخمادها، وكثير من جنود هذه الجيوش استقر فى إفريقية التونسية وأصبحت مستقرا له منذ أسس عقبة بن نافع مدينة القيروان فى سنة ٥٠هـ/٦٧٠م فقد سكنها بعض الجنود الفاتحين وأسرهم واتخذوها موطنا لهم ومقرا. وأخذ كثير من جنود هذه الجيوش يسكن فى بعض بلدان تونس عاملا على نشر الإسلام والعربية. وكانت هذه الجيوش تضم عناصر من العرب ومن البلاد الإسلامية المفتوحة: إيران وسكان الرافدين فى العراق والشام ومصر وكل هذه العناصر أخذت تمتزج بالبربر فى تونس امتزاجا سريعًا بحكم ما يجمع بينهم من الدين واللغة،

ولم تشارك مصر فى هذا الامتزاج بمن كان ينتظم منها فى الجيوش العربية فحسب، بل شاركت أيضا فى عهد حسان بن النعمان سنة ٧٦هـ/٦٩٥م بألف أسرة قبطية طلبها للمساعدة فى تأسيس دار صناعة لسفن أسطوله الذى سيحمى به سواحلها ويغزو جزر البحر المتوسط، وجاءته ووزَّعها بين تونس ورادس وقرطاجة،ومنذ إبراهيم الأغلب يستكثر الأغالبة فى الحرس من الصقالبة، وأيضا من الزنوج، وكانوا لعهد إبراهيم أكثر من خمسة آلاف، ولكثرة خيرات تونس وطيباتها وحسن معاملة الإسلام للنصارى واليهود ظل ينزلها منها كثيرون.

وفى منتصف القرن الخامس الهجرى تدخل القطر التونسى جموع الهجرة الأعرابية التى تحدثنا عنها فى الفصل الماضى، والتى كانت تبلغ - فيما يقال - نحو نصف مليون، ولابد أن جماهير كبيرة منهم ألقت عصاها بتونس وبلدانها وسهولها وزروعها حتى لقد أصبحت بلدان مختلفة على الساحل وفى الداخل بأيديهم. وحقا سبَّبت هذه الهجرة الكبيرة غير قليل من الاضطراب فى البلاد والفوضى، ولكن ربَّ نقمة سببت نعمة، فإن هذه الهجرة أتمت بسرعة تعريب البربر والشمال الإفريقى المغربى جميعه، فإن من كانوا يستقرون فى البلاد المغربية من الجيوش العربية الغازية فى القرنين الأولين الهجريين كانوا قلة بالقياس إلى جموع البربر العديدة، ولذلك كان تعرب البربر بطيئا، حتى إذا حدثت هذه الهجرة تعرب البربر نهائيا وأصبحوا شعبا عربيا، إذ امتزجوا بالعرب معيشة ومصاهرة، حتى أصبح لا يوجد فرق بين عربى وبربرى، ويصور ذلك ابن خلدون فى قبيلة هوارة قائلاً: إنهم صاروا فى عِداد الناجعة (الرعاة) بنى سليم فى اللغة والزىِّ وسكنى الخيام وركوب الخيل وكسب الإبل وممارسة الحروب». وهكذا الأعراب مع البربر فى كل أرجاء المغرب، وفى الحق أن هذه الهجرة الأعرابية الضخمة لم تكن عنصرًا جديدًا أضيف إلى ما كان بتونس من عناصر، بل كانت شعبا أضيف إلى شعب واندمج فيه وأصبح الشعبان شعبًا واحدًا. ويستولى النورمان على صقلية سنة ٤٨٤هـ/١٠٩٢م.

ويعود إلى تونس كثرة من أبنائها الصقليين ولا تكاد تؤسس الدولة الحفصية حتى تحدث نكبة الأندلس الكبرى نكبة سقوط مدنهم فى حجر الإسبان النصارى واحدة إثر أخرى، ويأخذ الأندلسيون فى الهجرة إلى المغرب الأقصى، ويتجه كثيرون منهم إلى تونس، ويرحب بهم مؤسس الدولة أبو زكريا وابنه المستنصر، ويفسحان لعلمائهم وأدبائهم فى الحركتين الأدبية والعلمية، كما يفسحان للزراع وأصحاب الصناعات منهم، وتأخذ أعدادهم فى التزايد طوال القرن السابع الهجرى، وخاصة مع سقوط البلدان الأندلسية مثل إشبيلية وبلنسية، وكان كثيرون من هؤلاء الأندلسيين المهاجرين يرجعون إلى أصول عربية وبربرية، وكان بينهم من يرجعون إلى أصول

مصرية أو شامية أو إيرانية، ممن قدم آباؤهم من آسيا مع الجيوش الفاتحة للأندلس كما كان بينهم مسلمون يرجعون إلى أصول إيبيرية وقوطية وواندالية من سكان إسبانيا القدماء، وكثر نزول هؤلاء المهاجرين الأندلسيين بتونس بعد سقوط غرناطة سنة ٨٩٧هـ/١٤٩٢م ويقال إنهم بلغوا حتى هذا التاريخ نحو مائة ألف أو يزيدون. وفى سنة ١٠١٦هـ/١٦٠٩م نفى الإسبان بقية من كان بها من المسلمين إلا من أعلن تنصره أو تظاهر بذلك، وقدم إلى تونس منهم فى سنة واحدة لعهد عثمان داى نحو ثلاثين ألفا، ورحّب بهم كما مر بنا فى الفصل الماضى، وهو ترحيب لا يستحق شكره من أجله وحده بل يستحقه أيضًا قبله التونسيون الذين أتاحوا لهم المعيشة الكريمة بينهم فى المدن، حتى كان لميسوريهم فى تونس العاصمة حيان: حومة الأندلس وزقاق الأندلس، وتأسستْ للعمال والصناع قرى ومراكز بالقرب من العاصمة زاولوا فيها صناعاتهم من المنسوجات الحريرية وغيرها، وأنزل القرويون منهم فى مناطق خصبة غزيرة المياه شمالاً على ضفاف نهر مجردة. ومن المؤكد أن الإسبان الذين احتلوا تونس نحو أربعين عاما (٩٤٣-٩٨١هـ) لم يخلفوا وراءهم أسرا إسبانية حين طردهم سنان باشا إلى البحر المتوسط وما وراءه.

وكان الولاة فى العهد العثمانى يتخذون لهم حاميات عسكرية من الإنكشارية، وكانت تضم تركا من الأناضول وأجناسًا متنوعة من مختلف أنحاء الدولة العثمانية وأسرى جيوشها من الدول الأوربية وكانت تربيهم جميعا تربية إسلامية عسكرية، وترسل ببضعة آلاف منهم إلى تونس وبالمثل إلى بعض البلاد العربية، وكانوا يتزوجون من تونسيات فربطتهم بتونس صلات عائلية وثيقة. واتسعت حركة القرصنة حينئذ لسببين: حذق العثمانيين بالبحارة، وقد استطاع خير الدين (بربروسة) وعروج وأمثالهما أن يجعلوا البحر المتوسط فى القرن العاشر الهجرى بحرًا عثمانيا، والسبب الثانى غيظ الأندلسيين المهاجرين من الإسبان والأوربيين الذين كانوا يساعدونهم فى الحروب، فكانوا يوغرون صدور البحارة الترك عليهم ليأسروهم ويسترقوهم، وكانوا يسحبونهم على وجوههم من البحر بالآلاف أحيانا، وكان كثيرون منهم: إسبانًا وفرنسيين وإيطاليين ويونانيين وكريتيين ونورمانا يعتنقون الإسلام وتُرَدّ إليهم حرياتهم ويكوِّنون أسرًا ويندمجون فى أهل البلاد. وكانوا يتولون فى تونس أحيانًا مناصب عليا. وهذه العناصر الإفريقية والآسيوية والأوربية المفرطة فى الكثرة، منذ أيام الفينيقيين إلى هذا العصر لها دلالتان: دلالة أولى على وفرة طيبات الرزق التى عُرفت بها تونس والتى جعلت كثيرًا من الشعوب تتسابق على النزول بها وأحيانًا على المكث بها حقبة أو حقبًا من الزمن ودلالة ثانية هى ما حملته تلك الشعوب إلى تونس من حضارات كان لها غير قليل من التأثير فى حياتها مع الاحتفاظ دائمًا بما لها من ذاتية وشخصية.

٢

المعيشة[1]

عُنى القطر التونسى - على مر الأزمنة بالزراعة، وقد أولاها الفينيقيون والقرطاجيون اهتمامًا كبيرًا، إذ رأوها تنتج وفرة من حبوب وبقول متنوعة، وقد حملوا إليها من موطنهم شجرة الزيتون، وربما أيضا الكروم والتين واللوز، ويدل - فى وضوح - على اهتمامهم بالزراعة أن أقدم كتاب عالمى فيها وفى غرس الأشجار ألفه عالم قرطاجى يسمى ماجن Magon وأن الرومان نقلوا عن قرطاجة هذا الكنز الزراعى النفيس إلى لغتهم حين استولوا عليها سنة ١٤٦ قبل الميلاد، وعُنوا - مثل القرطاجيين - بالزراعة وحفروا لها القنوات لجلب المياه، وأقاموا بها الصهاريج والخزانات والأحواض، مما لاتزال شواهده قائمة فى إفريقية التونسية. وظل أهلها فى العهود الإسلامية يعنون بالزراعة، فهى معاشهم، ومنها قوتهم وزادهم. وقد عُنى بها الأغالبة عناية كبيرة، ومما يدل على ذلك أنهم كوَّنوا لرى الأراضى وجلب المياه وتخزينها فى الصهاريج وتوزيعها فى السقايات إدارة كبيرة، عيَّنوا لها مشرفا سموه «صاحب المياه» واستغلوا فى ذلك كل ما خلَّفه القرطاجيون والرومان والبيزنطيون فى البلاد مع ما أضافوه من قنوات ودواليب وأحواض وخزَّانات جديدة، مما جعل البلاد التونسية تلقى فى حجورهم بكل ما تستطيع من طيبات الثمار، وتزدهر فيها الزراعة وغراسة الأشجار ازدهارًا لعلهما لم يبلغاه فى عصر من العصور، وأخذت البلاد تعيش فى بُلَهْنية من العيش، وأخذ الأغالبة يجنون منها أموالا طائلة، ساعدتهم مساعدة عظيمة فى بناء أسطولهم الذى فتحوا به صقلية ومالطة، كما ساعدتهم لا فى بناء قصر أو قصور فحسب، بل فى بناء مدينة هى العباسية ومدينة ثانية هى رقادة التى زارها أبوعبيد البكرى، فقال فى كتابه المسالك: «ليس بإفريقية أعدل هواء ولا أرق نسيمًا ولا أطيب تربة من مدينة رقادة، ويذكرون أن من دخلها لا يزال ضاحكًا مستبشرًا من غير سبب»: مدينتان كبيرتان بنتهما دولة الأغالبة التى أظلت البلاد التونسية قرنا من الزمان بفضل ما جنت من خيراتها. وإذا تركنا شمالى تونس إلى الداخل لقيتنا مدن فى السباسب والواحات كثيرًا ما نوَّه بها جغرافيو العرب ورحَّالتهم لما بها من البساتين المثمرة والكروم والمشمش والتين

---

(١) راجع فى المعيشة المسالك لأبى عبيد البكرى ورحلة التجانى والبيان المغرب لابن عذارى وكتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان والمؤنس فى أخبار إفريقيا وتونس لابن أبى دينار وكتاب ورقات عن الحضارة العربية فى إفريقية التونسية للأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب.

واللوز والفستق، ويقولون إن بها غدرانًا وآبارًا كثيرة. وبعض الجهات – وخاصة فى النواحى الشرقية – مفازات شاسعة تنمو فيها الأعشاب والحشائش وترعاها قطعان الغنم والأبقار والإبل والخيل.

وظلت الزراعة مزدهرة فى عصر الدولة الصنهاجية حتى منتصف القرن الخامس الهجرى، وأصابها غير قليل من الانتكاس مع الهجرة الأعرابية، حتى إذا كانت الدولة الحفصية وأخذ يعم الأمن والاستقرار فى البلاد بعد حركات قراقوش وابنى غانية عادت الزراعة فى البلاد إلى الازدهار بفضل عناية مؤسس الدولة أبى زكريا بشئون الرى وعناية ابنه المستنصر، ويقول ابن أبى دينار إنه أكمل بناء الحنايا والقنوات التى كان يجرى عليها الماء إلى مدينة قرطاجة فى الزمن الأول (لأيام القرطاجيين والرومان) وأصلح ما فسد منها، وأجرى الماء عليها من عيون جبل زغوان فى الجنوب الغربى إلى تونس وجناتها وزروعها وسقاياتها وجامعها الكبير: جامع الزيتونة. وينوِّه الحسن الوزان بما شاهد حول تونس فى القرن العاشر الهجرى من زروع وبساتين قائلا: «توجد فى خارج تونس مزارع غاية فى الإبداع تنتج فواكه رائعة بكميات قليلة ولكنها فى غاية الجودة، وهناك عدد لا يُحْصَى من البساتين المزروعة بالبرتقال والليمون، وبالورود وبزهور جميلة أخرى، وفى المكان الذى يُدْعَى باردو على الخصوص توجد البساتين والقصور الفخمة». وينوه ابن أبى دينار فى زمنه أوائل القرن الحادى عشر الهجرى بجنات تونس وبساتينها، ويقول إن من رأى ثمارها وفواكهها يعجزه الوصف إذ لا تدخل تحت حصر» ويقول أيضا: «يدخل إليها فى فصل الخريف أزيد من ألف حمل من العنب بخلاف ما يباع معه من تين وبطيخ وغيرها». وبدون ريب كان للمهاجرين الأندلسيين إلى تونس فضل كبير فى هذا الازدهار منذ عصر الدولة الحفصية، وازدادت الزراعة ازدهارًا حين ازداد المهاجرون منهم زيادة مفرطة فى سنة ١٠١٦هـ/١٦٠٩م وما بعدها لعهد الداى عثمان والداى يوسف كما مر بنا فى الفصل الماضى، ويقال إن عددهم بلغ حينذاك أكثر من مائة ألف، وقد استقر كثيرون منهم – كما أسلفنا – فى المناطق الخصبة الشمالية حول نهر مجردة، ونزل بعض منهم فى أنحاء قليلة المياه فاستخرجوها عن طريق طواحين الريح، ونزل بعضهم فى أماكن صعبة بسفوح الجبال، واستطاعوا – بجدهم – أن يحيلوا كل ما نزلوا فيه واستقروا به إلى جنات وزروع وقنوات وعيون. وتلقانا أشجار الزيتون والبرتقال واللوز والفستق فى كل مكان كما تلقانا أشجار النخيل، وخاصة فى الواحات ومنطقة شط الجريد. ويبدو أن الرومان تغلغلوا مع القوافل التجارية إلى هذه المنطقة وظل كثيرون منهم فيها بعد الإسلام لا قرنا بل قرونا متطاولة، حتى لنرى التجانى الذى زارها فى أوائل القرن الثامن الهجرى يقول فى زيارته لها التى سجلها فى رحلته: «إن أهل توزر (غربى شط الجريد) وأكثر بلاد الجريد من بقايا الروم الذين كانوا بإفريقية قبل الفتح الإسلامى» ويقول إن بعضهم كان لا يزال يتكلم اللاتينية.

وعرف القطر التونسى مختلف الصناعات - وخاصة اليدوية - من قديم كالنجارة والحدادة وعصر الزيتون واستخراج المعادن. وكان بها معادن كثيرة مثل الرصاص والحديد والزنك. والزئبق والفضة والذهب أتاحت للقطر موارد مالية غير قليلة، حتى لنرى الأغالبة يخصونها بإدارة يسندونها إلى موظف سموه: «صاحب المعادن» واشتهرت «قرطاجة» فى غربى القطر بما كان يستخرج فيها من معدن الحديد، مما هيأ لصناعات حديدية مختلفة مثل الأقفال والمفاتيح والأبواب والنوافذ، واشتهر «طَرَّة» من إقليم نفزاوة فى الجنوب الشرقى للقطر بمعدن الكارتز، وهيأ بدوره لصناعات زجاجية وبلورية. ومن أهم الصناعات صناعة الخزف مطليا وغير مطلى وما يتصل بها من الآنية والأباريق والكيزان والمواعين، ويقول ابن أبى دينار فى فواتح كتابه «المؤنس»: «تُصْنع بتونس آنية للماء من خزف شديد البياض فى نهاية الرقة والشفافية لايُعْلم له نظير فى سائر الأقطار». ومن الصناعات صناعة دبغ الجلود وكان ينتفع بها فى صناعة السروج. ومن الصناعات عصر الزيتون فى معاصر كثيرة معدة له، وتونس تشتهر بهذه الصناعة منذ عصر الرومان، وكانوا يرسلونه إلى روما فى مواعين كبيرة، ويدل على كثرة معاصره فى الحقب الاسلامية ما يذكره ابن أبى دينار وهو أن أبا يزيد مخلد بن كيداد - حين زحف على إفريقية التونسية فى عهد الخليفة العبيدى القائم بأمر الله ودخل القيروان وتونس - نهب اثنى عشر ألف جابية زيتا. ويقول الحسن الوزان فى كتابه وصف إفريقيا الذى سجَّل فيه زيارته لتونس: «على مسافة أربعة إلى ستة أميال حول تونس تنتشر مصانع عديدة لإنتاج الزيت لا لتموين مدينة تونس فحسب، بل للتصدير كذلك، ويُصْنع من حطب الزيتون فحم يستخدم فى المدينة، ويستعمل جزء منه فى التدفئة».

وكانت صناعات المنسوجات القطنية والصوفية والحريرية والكتانية منتشرة فى تونس وغيرها من بلاد القطر التونسي، ويقول أبو عبيد البكرى فى كتابه المسالك عن النسيج بمدينة سوسة: «الحياكة بها كثيرة ويُغْزَل بها غزل تباع زنة المثقال منه بمثقالين من ذهب». وينوِّه الحسن الوزان فى القرن العاشر الهجرى بما كان من النسيج فى تونس وصناعته قائلا: «غالبية سكان تونس من الحاكة (النساجين) وتصنع فيها كمية كبيرة من الأقمشة المتقنة كل الإتقان والتى تباع فى كل إفريقية، وهى مرتفعة السعر كثيرا لأنها ناعمة ومتينة، ويرجع السبب فى ذلك إلى أن النساء يتقنَّ مهنة الغزل كل الإتقان» ويرجع بنا الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب إلى مدينة رقادة فى عهد الأغالبة قائلا: «كان بها دار الطراز وكانت مصنعا تنسج فيه الأكسية من الحرير والقطن والصوف، وكذلك العمائم والأحزمة إلى غير ذلك من الخلع التى يهبها الأمير (الأغلبى) فى الأعياد وعند تقليد المناصب لأعيان الأمة ورجالات الدولة، وكانت تُكْتَبُ على هذه الخلع كتابات موشية بخيوط الحرير والذهب، وهى تقوم مقام الأوسمة فى عصرنا الحديث».

ولابد أن الصناع كانوا يوشُون ثياب النساء بهذه الخيوط وبخيوط أُخْرَى فضية لتكمل زينتهن بمالها من لمعان وبريق.

وكان الصانع التونسي يعني بزركشة ماينسج من السجاجيد وخاصة للأمراء وأعيان البلاد، وكان يرسم عليها بعض الحيوانات أو بعض البلاد، ويذكر الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب أنه صُنع للمعز الفاطمي قبل تحوله إلى القاهرة مقطع كبير رائع من الحرير الأزرق الملوَّن المنسوج بالذهب وقد رُسمت فيه صورة الأرض بكل ماتشتمل عليه من الأقاليم والمدن والأنهار والجبال وصورة الحرمين الشريفين. ولعل في عرضنا لذلك كله ما يدل على الرقي الحضاري الذي نعمت به تونس قبل العصر الحديث، وكانت الأخشاب فيها وافرة مما هيأ للتفنن في صناعة الأثاث، كما هيأ الزجاج والخزف للتفنن في صناعة المواعين والحريرُ والصوف والقطن والكتان للتفنن في الرياش وكل ما يلزم القصور والمنازل من فنون الزينة والزخرف.

ومن الصناعات التي كانت مزدهرة بتونس الوراقة أو صناعة الورق والكتابة فيه، ومعروف أن بغداد لم تعرفه إلا في عصر الرشيد، وقبل ذلك كانت الكتابة في الرق أو الجلد المهيأ للكتابة وكذلك في البردي الذي كانت تستخدمه مصر منذ عصور الفراعنة، وهو نبات كانت تضم أوراقه الطويلة بعضها إلى بعض بطريقة خاصة، فيصبح صالحا للكتابة فيه. وكان القطر التونسي يجلب النوعين من المشرق وكان اعتماده الغالب على الرِّقِّ وجَلبَ معهما الأقلام والمداد. وتعرَّف على صنعهما، حتى إذا فتحت صقلية سنة ٢١٢هـ/٨٢٨م وكان بها بردي كثير أخذوا - كما يقول ابن حوقل - «يَفْتلون أكثره حبالا للسفن» و أقله كان يُصْنع طوامير أو صحفا لدواوين الأمير الأغلبي ومَنْ تلاه من حكام القطر التونسي، وأخذ الشعب التونسي يحسن صناعة الورق من الكتان ويسمى الكاغد نفس اسمه الذي نقله العباسيون مع الورق من الصين، ويقول الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب إن صناعته انتقلت من تونس إلى صقلية وعبرت صناعته مضيق مسِّينا إلى سالِرْنو فنابولي، فألمانيا حيث استطاع جوتنبرج بعد قليل اختراع الطباعة، وبدهي أنه لولا الورق ما اخترعت المطبعة. ومن الممكن أن تكون أوربا عرفت الورق ونقلت صناعته عن الأندلس، غير أن الأستاذ عبد الوهاب يرجح معرفتها به عن طريق تونس وصقلية.

ومنذ فتح العرب القطر التونسي تُبْنى فيه المنشآت العمرانية وتشاد، ولا يشاد بناء مفرد أو قصر مفرد، بل تشاد مدن، بدأ ذلك عقبة بن نافع ببناء القيروان، وبنى تونس بعده بقليل حسان ابن النعمان، وبنى الأغالبة العباسية ورقَّادة، وأحالوا قرية سوسة على الساحل مدينة وثغرًا ضخما، وبنى عبيد الله المهدي مدينة المهدية وجعلها دارا لحكمه وثغرًا لأسطوله، وأحال حفيده المنصور قرية صبرة بجوار القيروان إلى مدينة وسماها «المنصورية» نسبة إليه. وكانت المدينة

من تلك المدن حين تُبْنى لا يُقْتَصر فيها على قصر للحاكم، بل كانت تبنى فيها قصور ومساكن لآل بيته ولجنده وحاشيته ودواوينه، ويبنى فيها جامع كبير ويخطط شارعان متعامدان يقام عليهما حوانيت للصناع والتجار ومساكنهم، فهى مدينة كاملة. وكانت هذه المنشآت - بل المدن - العمرانية تحتاج إلى مالا يكاد يحصى من العمال والصناع، إذ لابد لها ممن يقطعون الأحجار ومَنْ يقطعون الرخام وينحتونه أعمدة للقصور وكذلك للمحارس والحصون التى كانت تشاد على طول الساحل التونسى باسم رباطات.

وكان يُبْنى حول كل بلدة جديدة -وقد يُبْنى حول بعض البلدان القديمة- سور ضخم لكى يحميها من الأعداء حين يهاجمونها وتقام فيه أبواب كبيرة مصفحة بالحديد. ولم يكن العمران حينئذ مدنا ومعاقل وحصونا فحسب، بل كان أيضا صهاريج وأحواضا كبرى لسقاية الزروع والمساجد والشعب. وكل ذلك استلزم صناعات كثيرة من حدادة ونجارة وغير نجارة وحدادة سوى النقاشة واستخدام الفُسَيْفساء (الموزايكو) فى حيطان الغرف والسقوف والأروقة المختلفة الرسوم بما يتراءى فيها من الأزهار والرياحين والمناظر البديعة، وزخرفوا بالفسيفساء أحيانا صهاريج الماء وأحواضه. وكان الحكام يبنون لأنفسهم قصورا شامخة على نحو ما مر بنا فى الفصل الماضى من تشييد أبى فارس لقصره الضخم فى إحدى ضواحى تونس المسماة باردو، وتوالت فى الضاحية قصور للحكام من الحفصيين والعثمانيين كانت تبهر من يراها فضلا عمن يزورها ويرى منحوتاتها ونقوشها البديعة. وحتى المنازل العادية للشعب كان أصحابها يتأنقون فيها، يقول الحسن الوزان عن منازل تونس: «لأكثر المنازل منظر بديع، وهى مبنية بحجارة مجهزة وجيدة النحت، وسقوفها مزدانة كثيرا بالفسيفساء وبالجصّ المجزَّع، مع فن رائع، ومزوَّقة باللون الأزرق وبألوان زاهية أخرى.. وتبلَّط الغرف بمربعات من بلاط مطلىٍّ بلون فاتح كما يبلَّط الصحن أيضا ببلاط مطلىٍّ بالدهان. وبيوتها على العموم - وحيدة الطابق - ولها مدخل بديع.. ويلجأ كل واحد إلى جعل مدخل بيته أكثر أناقة وأكثر زينة. وبجانب منازل المدينة وقصورها كانت هناك دور صناعة خاصة بالأساطيل وحاجاتها وإعدادها فى تونس وسوسة والمهدية، واستلزمت كثيرا من الخشب والحديد لصنع سفن الأسطول وأيضا من الحبال ونسيج الكتان لِشراعات السفن وقلاعها، وبلغت سفن الأسطول فى عهد الأغالبة ثلاثمائة سفينة، سوى ماكان يحتاج إليه الأسطول من الأسلحة والعتاد الحربى من مثل السيوف والرماح والأقواس والسهام والمنجنيقات وآلات هدم الأسوار، سوى بناء الأحواض الواسعة فى الثغر لخدمة السفن.

وهذا الإنتاج الصناعى الوافر وما سبقه من الإنتاج الزراعى الكثير هيأ تونس - منذ عصر القرطاجيين - لأن تصبح سوقا عالمية كبرى، فكانت ترسل بمنتوجاتها شمالا إلى شعوب

البحر المتوسط الأوربية وشرقا إلى مصر والشام وتركيا وغربا إلى الجزائر ومراكش وإسبانيا وغربى أوربا حتى إسكندناوة، ومنذ عصر القرطاجيين كانت قوافلها تتغلغل فى فلوات الصحراء الكبرى إلى السودان الأوسط والغربى محملة بالسلع التونسية من الزيتون وزيته والنُّقْل ومن المنسوجات القطنية والكتانية والحريرية ومن السروج واللبود وأقفال الحديد والمفاتيح والإسفنج الذى يصاد على الساحل والملح المطحون الذى يحمل من ملاحات تونس الكثيرة، وتعود محملة بالجلود وريش النعام والعاج أو ناب الفيل والتِّبْر والرقيق الأسود الكثير. وذكرنا فى الفصل الماضى أن إبراهيم بن أحمد الأغلبى استكثر من هذا الرقيق الزنجى فى حرسه حتى بلغوا عشرة آلاف عَدًّا، ومنذ الأزمنة السحيقة كان يظل كثيرون من هذا الرقيق فى القطر التونسى مما جعل لهم فيه – من قديم – بعض القرى. وطبيعى أن تنشأ فى كل بلد تونسى سوق داخلية يشترى منها أهله ما يحتاجون إليه من الحبوب والثمار والخضر والصناعات المختلفة. وأول من أمر بتنظيم هذه الأسواق فى القطر التونسى الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك (١٠٥ – ١٢٤هـ) يقول أبو عبيد البكرى: «كان السِّماط – وهو سوق القيروان – متصلا (أى دكاكينه متلاصقة) فيه جميع المتاجر والصناعات وهو الذى أمر بترتيبه هكذا». واتبعت الأسواق فى تونس وغيرها هذا النظام، حتى إذا كان عهد يزيد بن حاتم المهلبى (١٥٦ – ١٧٠هـ) رتب أسواق القيروان. عاصمته ترتيبا جديدا، وفى ذلك يقول ابن عذارى فى البيان المغرب: «قد مهَّد أمور لبلاد، ورتب أسواق القيروان، وأفرد لكل صناعة مكانا». ومعنى ذلك أنه جعل لكل صنعة مجموعة من الدكاكين خاصة بصناعتها وبيعها، ويحدثنا الحسن الوزان عن. سوق تونس حين زارها، ويذكر أن أهم الأمكنة فى سوق تونس مكان تجار المنسوجات، يقول: «وهناك سوق خاص فى تونس يحوى عددا كبيرا من تجار القماش، ويعد هؤلاء أكثر أهل المدينة ثراء، ويشغل تجار آخرون وصناع معهم هذا السوق كالعطارين، وباعة الأشربة والترياقات، وباعة العطور والحرير، والخياطين والسرَّاجين (باعة السروج) والفرَّائين (باعة الفراء) وباعة الفاكهة، والحلَّابين، وصنَّاع الزلابية (حلواء) والقصَّابين (الجزارين) الذين يذبحون فى فصلى الربيع والصيف من الخراف أكثر من سائر الحيوانات الأخرى، وثَمَّ مِهَنٌ كثيرة أخرى تمارَس فى هذا السوق لا يتسع المقام لذكرها».

٣

الرَّفه - المطعم والملبس - الأعياد - الموسيقى - المرأة

(أ) الرفه[١]- المطعم والملبس

مما يميز القطر التونسى كثرة الأمتعة والسلع والثمار والفواكه فيه، مما أتاح له - وخاصة فى مدنه الشمالية حياة رافهة، ويصور ابن أبى دينار ما كان فيه أهل مدينة تونس من رفاهية فى حياتهم بأن أغلبهم كانت لهم جنات وبساتين خارج المدينة، يقضون فيها الصيف والخريف مع أسرهم، فكانوا يبكرون فى الذهاب إلى المدينة كل يوم حيث يزاولون أعمالهم ويعودون فى المساء إلى بساتينهم وجناتهم ومن أجل ذلك كانت الدكاكين فى أسواق تونس لاتفتح صيفا وخريفا إلا بعد طلوع الشمس.

ويقول الحسن الوزان إن الخبز ظريف جدا فى تونس، وهو أبيض اللون ومخبوز بشكل حسن، ولايُصْنع من الدقيق فحسب بل يمزج معه السميد، وتبذل عناية كبيرة فى إعداد عجينه إذ يضرب بمدقة شبيهة بتلك التى يضرب بها الأرز فى مصر. ويذكر الحسن الوزان عقب ذلك وجبتين شعبيتين أولاهما تسمى البسيس، وهى وجبة خفيفة مؤلفة من دقيق الشعير المحلول بالماء ويوضع فيه قليل من الزيت أو شىء من عصير الليمون أو البرتقال، ومن عادة الباعة والصناع وسكان المدينة تناول هذه الوجبه فى النهار، والوجبة الثانية تسمى البازين، وهى أفضل من سابقتها، وتُصْنَعُ من عجينة تُقْلَى فى الماء، وبعد أن تنضج تُرَصّ فى وسط وعاء وتُسْقَى بالزيت أو بمرق اللحم. ويقول الحسن الوزان: هناك وجبات أخرى أكثر لذة فى الطعم، ومن مطاعمهم لحم يسمى المروزية نسبة إلى مدينة إيرانية تسمى مرو الروز واللحم فيها يطبخ بأبزار تفوح، ويعدون أكلها عقب الإفطار فى الصوم من التطيب. ومن طعامهم الزرير ويسمى فى بعض البلدان باسم المويس وهو خليط من الأبزار والبهارات حار الطبيعة. ويصاد السمك على طول الساحل التونسى، وهو رخيص الثمن، ويصطادون منه أنواعا كثيرة منها نوع يسمى سبارس يصاد فى صفاقس، وقد تكون الكثرة من سكان البلدة صيادين. ويشتهر سكان مدينة المهدية بصيد الحوت،ولأهلها شغف بأكله وتفنن فى طرق صيده. وكما تتنوع مطاعم سكان القطر

(١) انظر فى الرفه والمطعم والملبس الحديث عن مدينة تونس فى كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان وراجعه فى صفاقس، وكذلك كتاب ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية للأستاذ حسن حسنى عبدالوهاب وبرنشفيك ٢٨١/٢ وما بعدها.

التونسى تتنوع حلواؤهم، ومنها المقروض ويقول برتشفيك إنه يصنع من السميد والتمر والعسل والبهارات ويقلى فى الزيت وينوه به ابن أبى دينار، ويقول: هو أطيب حلوائهم وليس بعده شيء، ومنها الزلابية وهى حلواء من عجين رقيق يصب فى الزيت ويقلى ثم يصب فى محلول السكر، ومر بنا - منذ قليل - أنه كان بتونس سوق خاصة للزلابية.

وإذا تركنا المطعم إلى الملبس وجدنا الحسن الوزان يقول: «أهل تونس طيبون للغاية ومحبُّبون كثيرًا، ويلبس صناعها وتجارها وأئمتها وجميع موظفيها هنداما جميلاً لائقا، ويضعون فوق رءوسهم قلنسوة مغطاة بقماشة طويلة، كما يضع العسكريون وموظفو البلاط قلنسوة على رءوسهم ولكن بدون قماشة. ويقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب كانوا يلبسون الشاشية التونسية الحمراء ويكتسون القشابية الصوفية. أما السيدات فيقول عنهن الحسن الوزان: إن لسيدات تونس هندامًا جيدًا، وعندما يكن فى الخارج يسترن وجوههن.. بوضع عصابة عريضة جدًا من قماش فوق الجبين، وهناك حجاب آخر يدعى سفسارى يجعل من رءوس النساء رءوسا ضخمة كبيرة، ولا تعنى النساء إلا بزينتهن وعطرهن، بدليل أن باعة العطور هم دومًا آخر من يغلق دكاكينهم» ولابد أنهن كن يعنين بجواهرهن وكانت فى تونس سوق لبيع الجواهر للنساء كى يكملن بها زينتهن. ويفصل القول فيما كان من تزيين النساء فى ملابسهن لذلك العصر الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب قائلا: «أهم ما ورثت النساء عن أمهاتهن بالمهدية فى ذلك العصر أنواع من الكساء والتطريز بالحرير على الثياب الداخلية مثل القمجّة وغيرها، ومنها أنواع من الوشاح والحواشى الحريرية المزركشة بألوان متغايرة، ومن هذه الحواشى تحلًّى صدور بعض الثياب النسائية، وهى تحفة فنية». ويقول فى موضع آخر عن حجاب النساء فى الساحل التونسى إنهن عند خروجهن من بيوتهن يرتدين إزارًا أسود ولا يتركن ظاهرًا من وجوهن إلا العيون.

(ب) الأعياد

كتب ابن أبى دينار فى كتابه: «المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس» فصلا[1] طريفًا عن الأعياد فى تونس وأن أهلها كانوا يخرجون فيها للنزهة والتملى بمواطن الجمال فى ضواحى تونس، ويستهلها بعيد عاشوراء فى اليوم العاشر من المحرم، وفيه ينفق التونسيون أموالاً طائلة فى الأطعمة والفواكه والحلواء، وعادة فى اليوم التاسع السابق له يطعمون الدجاج ويتحلون بالدويدة وهى مثل الكنافة عند المصريين ويعبِّرون عما يأكلون من ذلك بقولهم: «الفطير

(١) انظر الفصل فى أواخر كتاب المؤنس فى أخبار إفريقيا وتونس لابن أبى دينار.

وما يطير» وما يطير الدجاج والفطير الدويدة. ومن رأى هذا العيد فى تونس رأى العجب، فالحوانيت - وخاصة حوانيت الفواكه - تزين. وعادة يخرج الناس زكاة أموالهم فى هذا اليوم، ولذلك يتكاثر فيه الإنفاق على المآكل والمشارب، وكل ينفق بقدر استطاعته ويباع من آلات الطرب والملاهى للصبية ما يفوت الحصر.

ومن ذلك عيد المولد النبوى الشريف لسيد الكائنات ﷺ، وأول من عنى بإقامة الاحتفال به بين حكام الدولة الحفصية أبوفارس عبد العزيز فى مطلع المائة التاسعة للهجرة، وأصبح ذلك تقليدًا سنويا فى ليلة الثانى عشر من شهر ربيع الأول كل عام إذ توقد القناديل وتضاء الشموع وتزين المكاتب ويقام احتفال عظيم بدار نقيب الأشراف يحضره القراء والفقهاء والناس من أطراف البلد ويتعالى الغناء والأشعار والأناشيد بالمدائح النبوية، ويظل الاحتفال بهذا العيد فى بعض زوايا تونس خمس عشرة ليلة متوالية تنشد فيها مدائح الرسول الكريم، ويُهْرَعُ الناس للتفرج. وتُصْنع فى أثناء ذلك الأطعمة الفاخرة احتسابًا لوجه الله تعالى وقربى لحبيبه خير البرية.

ومن ذلك عيد الربيع أو عيد النيروز فى أول مايو من كل عام، ويقول ابن أبى دينار إنهم كانوا ينفقون فيه أموالًا تفوت الإحصاء ويتفاخرون بصنع أطعمة باهظة التكاليف من مثل المرقاز، ويقول برتشفيك إنه نوع من النقانق،ويكثرون من شراء الفواكه والرياحين والبقول، ويقول إن ما يباع فى هذا اليوم من الفواكه والخضار والرياحين يبلغ مقدار ما تشتريه تونس فى عام، ويذكر أنهم يجعلون من ذلك حوانيت فى منازلهم يعلقون فيها جميع البقول والرياحين، ويقول إنهم يتجاوزون ذلك إلى الغناء وآلات الطرب فيجتمعون عند مكان يسمى بالوردة، وفيه يحتشد أهل الخلاعة والمجون من مغان ومطربين ومشعوذين، ويذهب كثيرون من أهل تونس للفرجة عليهم وشراء ما يُعْرض من فاكهة وحلوى.

ويذكر ابن أبى دينار أنه كانت تقام أعياد فى ليلة النصف من رجب والسابع والعشرين منه وليلة النصف من شعبان والسابع والعشرين منه. وكانت ليالى شهر رمضان تُعَدُّ عيدا كبيرًا، وكانوا يحتفلون بها غاية الاحتفال ويقومون بواجب رمضان وواجب حقه أتم القيام، ويَخْتم الإمام القرآن العظيم فى صلاة التراويح بأغلب المساجد. وكان يقام احتفال كبير حين يختم صحيح البخارى، ويذكر ابن أبى دينار أن المنادى كان ينادى فى سوق تونس بأن الختم لصحيح البخارى غدًا صباحًا أو عشية فيتسارع النساء والصبيان والخواص والعوام لذلك. وكان هذا نفسه يحدث فى القاهرة حين تختم قراءة صحيح البخارى فى الليالى الأخيرة من رمضان.

(جـ) الموسيقى[١]

عقد الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب فى الجزء الثانى من كتابه: «ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية» مبحثًا طويلاً رائعًا عن الموسيقى وآلات الطرب فى القطر التونسى ذكر فيه أنه ليس لهذا القطر مأثور قديم ذو بال فى الموسيقى، وأنه يتصل فيها مباشرة بالعرب. وقد عرف عن الفاتحين الأولين طريقة الحُداء التى اشتهر بها العرب من قديم، حتى إذا تولاه المهالبة وخاصة يزيد بن حاتم (١٥٤ - ١٧٠ هـ) استحالت القيروان إلى مركز نشاط أدبى بمن استقدمهم معه من الشعراء والمغنين من بغداد، فعُرفت من حينئذ بالقطر التونسى آلات الطرب مثل الطنبور والمزاهر (الدفوف) وشبَّابات القصب. وازدادت فى القيروان المعرفة بالغناء وآلات الطرب حين نزل بها زِرياب على زيادة الله الأغلبى سنة ٢٠٥ وظل لديه أشهرًا قبل رحلته المشهورة إلى قرطبة، وزيادة الله يستمع إلى ألحانه. ويُظَنُّ أنه أخذت بعض الجوارى فى القصر عنه شيئًا من تلاحينه، وما نلبث أن نسمع بأن فى القيروان حَيًّا خاصا للملاهى والطرب، يقصده أهلها للفرجة وكان مجمعا للمغنين والضاربين على الآلات الموسيقية، وكان أهل الخلاعة والمجون يختلفون إليه، ويذكرون من أسماء المغنين فيه قاسما الجوعى وأبا شرف. ونمضى إلى أيام إبراهيم بن أحمد الأغلبى (٢٦١-٢٨٩هـ) فنجده يرسل سفارات متعددة إلى المشرق لتجلب إليه صفوة من العلماء والموسيقيين ليحدث فى رقّادة - التى شادها بجوار القيروان - نهضة علمية وموسيقية، وجُلب إليه من بغداد مغن اسمه مؤنس، لقّن غناءه جوارى القصر فى رقادة عاصمة الأغالبة وهو يقوم فيها مقام زرياب فى قرطبة عاصمة الأمويين، وجُلبت لزيادة الله الأصغر آخر الأغالبة جوارٍ يُحسنَّ الغناء من بغداد. ويتكاثر هؤلاء الجوارى المغنيات كما يتكاثر المغنون أو قل يأخذون فى التكاثر لعهد العبيديين، وتتسع الموجة فى عهد الدولة الصَّنْهاجية وما كان فى قصورها من مجالس الأنس ويشترك فى الغناء غير تونسى يتقدمهم عبد الوهاب حاجب المنصور الأمير الصنهاجى (٣٧٤ - ٣٨٦هـ) وكان شاعرًا ويتغنى فى شعره ويلحّنه، ويتحدث مرارًا مؤرخ القيروان إبراهيم الرقيق عن مجالس غنائه. ويفد على يحيى حفيد المعز بن باديس فى عاصمته المهدية (٥٠١ - ٥٠٨ هـ) أمية بن أبى الصلت الشاعر الأندلسى، وكان متقنا لعلم الموسيقى الأندلسية، فنقل إلى المغنين فى المهدية ألحان المغنين فى الأندلس، ولحّن لهم - على أساسها - الأغانى الإفريقية، ومن حينئذ أخذ الغناء فى إفريقية التونسية وما يصحبه من موسيقى يزدهران، وما لبثت الهجرات الأندلسية المارة بنا - فيما أسلفنا -

---

(١) انظر فى الموسيقى الجزء الثانى من كتاب ورقات عن الحضارة العربية فى إفريقية التونسية وما به من مراجع وبرنشفيك ٤٣٢/٢ وما بعدها ووصف إفريقيا للحسن الوزان ص٤٥٣-٤٥٤.

لعهد الدولة الحفصية أن زادتها ازدهارًا. ومما يدل على هذا الازدهار فى العهد الحفصى أنه كان للجيش فيه فرقة موسيقية تصحب أمير البلاد الحفصى فى حفلاته وتنقلاته تمشى وراء الأعلام السلطانية تدق الطبول وتنفخ فى البوقات، وذكر برنشفيك أن السلطان أبا فارس الحفصى (٧٩٥-٨٣٣هـ) ألغى ضريبة كانت تؤخذ من الموسيقيين والمغنيات المحترفات، وأهدى ملك نابولى آلة أورجن إلى ابن السلطان عثمان سنة ٨٧٧هـ/١٤٧٢م ويذكر الحسن الوزان أن السلطان الحفصى أبا عبدالله بن الحسن الذى زار تونس فى عهده سنة ٩٢٢ للهجرة كان يعيش بين المطربين والمطربات فى قصره وبساتينه. ولا يعنى الولاة العثمانيون بالموسيقى إلى أن تولى رمضان باى (١١٠٨-١١١٠هـ) إذ كان خبيرًا بأنواع الموسيقى ذات الأوتار وذات المزامير، وكان عارفا للألحان ولوعا بالغناء، وجلب من بلاد النصارى الآلة الموسيقية. المعروفة باسم الأورجن وكان مغنيه «مزهود» يطربه بتلاحينه عليه.

وتزدهر الموسيقى بتونس فى العهد الحسينى العثمانى منذ عهد الباى محمد الرشيد (١١٦٩ - ١١٧٢هـ) وكان يتقن النظم بالشعر العربى، كما كان يتقن الضرب على مختلف الآلات الموسيقية مثل العود والكمنجة، وجعله ولعه بالألحان والإيقاعات يؤلف بين الأغانى الأندلسية المعروفة فى تونس باسم المألوف والألحان التركية. وقد أدخل فيها من تلك الألحان البَشْرَف وهو افتتاح اللحن واستهلاله. وكان للبايات احتفال موسيقى يقيمونه ليلة العيد فى باردو، وكان أشبه بموكب موسيقى كبير، ويحضر فيه كبار الفقهاء، فإذا صُلِّى المغرب مُدَّ سماط بأنواع الأطعمة وألوان الحلوى، ويجلس الباى فى صدر السماط وتتوالى طبقات المدعوين، وبعد بُرْهة يجلس الباى ببهوه، ويجلس عن يمينه وشماله الفقهاء والكتّاب، ويصطفُّ باقى الناس صفين عن اليمين وعن الشمال، وتوقد الشموع ويؤتى بالمجامر يفوح منها الطيب والمسك، ثم يدخل المغنون من الترك بآلاتهم فيغنون باللسان التركى برهة ثم يخرجون ويدخل بعدهم المطربون والمغنون بالغناء العربى. وظلت هذه المواكب تعقد فى مواسم الأعياد بباردو حتى نهاية هذا العصر.

وبجانب هذه الحركة الغنائية عند سكان الحضر، وخاصة فى تونس كانت هناك حركة غنائية بدوية عند أهل الوبر التونسيين حملها إليهم - كما يقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب - بنو سليم وبنو هلال فى هجرتهم الكبيرة، إذ ظلوا يحافظون على أغانيهم التى ورثوها عن أسلافهم فى بوادى نجد والحجاز، وقد لقنوها فى بوادى تونس بعض عبيدهم وأرقّائهم من أصحاب الأصوات الشجيَّة، لينشدوها فى الأعراس مصحوبين بعازفى الشبابات وضاربى الطبول. ويقول الأستاذ عبد الوهاب إن لهم عزفا يسمى طَرْق الصيد أى صيد الأسد، يُعْزَف به على الشبّابة البدوية، وفيه يقصون أقاصيصهم الغرامية فى وصف رحلاتهم مع محبوباتهم

ويتخلّلون مقاطع الأقصوصة بطَرْق حوافر الخيل للأرض ونبح الكلاب وزئير الأسد، للدلالة على تطور الأحداث فى القصة أو فى الرحلة الغرامية فرارًا من الأهلين لعدم رضا الأب عن زواج المتحابين، وكأنهم يتمثلون فيها قصص الغرام النجدية التى كان يحرِّم فيها الأب النجدى الزواج بفتاته أو ابنته على من يتغزل بها من شباب القبيلة كما هو معروف فى قصة ليلى العامرية وعاشقها ابن عمها قيس المجنون بها غراما وهياما.

(د) مكانة المرأة[١]

مرَّ بنا فى حديثنا عن الملبس فى القطر التونسى أن النساء فى تونس والمهدية كن يبالغن فى العناية بزينتهن وعطرهن وهندامهن، ولا نريد أن نعرض لذلك وما يماثله مما يتصل بمظهرهن، إنما نريد أن نقف عند مدى إحساسهن بكرامتهن، ويصُور ذلك بوضوح ما يروى من أخبارهن، فمن ذلك ما تذكره الروايات عن أبى جعفر المنصور المؤسس الحقيقى للدولة العباسية فإن هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٤ هـ) كان قد أقام عيونا على أسرة إبراهيم بن محمد حفيد عبد الله بن العباس وإخوته لما كان يبلغه من نشاطه ويعرفه فيه من الحزم وبعد النظر أو لعله كان يتوقع من أبناء الأسرة أن يفكر أحدهم فى الثورة على خلافتهم الأموية، ولم يوعز إلى عيونه بتعقب إبراهيم بن محمد وحده بل أيضًا بتعقب أخويه السفاح وأبى جعفر المنصور ويبدو أن المنصور رأى أن يبتعد - لفترة - عن أنظار هؤلاء العيون، واختار القيروان لنزول بعض أقربائه فيها وتصادف أن رأى فى مقامه لديه فتاة تسمى «أروى» أعجب بها، فطلب يدها فاشترطت عليه أن لا يتخذ معها سرارى أو جوارى، وإن تسرَّى عليها كانت عصمتها بيدها، وانفصلت عنه، كما تجرى بذلك عادة القيروانيات من قديم، وقبل أبو جعفر شرطها، وعاد بها إلى أهله. وتطورت الظروف، وأصبح خليفة، وأنجب منها المهدى الخليفة بعده وأخاه جعفرا والد زبيدة حفيدة أروى وزوجة ابن عمها هرون الرشيد الخليفة بعد أبيه، وورثت عن جدتها حصافتها. وقد برَّ المنصور بوعده لأروى، فلم يتزوج عليها إلى أن توفيت سنة ١٤٦ للهجرة، وكان قد أقطعها ضيعة، فوقفتها - كما يقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب - على ذريتها من الأرامل اللائى يموت عنهن أزواجهن، وكذلك على العوانس اللائى لم يتزوجن، حفظًا لكرامتهن وصيانة لهن،وهى مأثرة وبر رفيع بفلذات الكبد من البنات سجَّلته أروى فى تاريخ المرأة التونسية، كما سجلت شعورها بالكرامة فى صورة نبيلة.

---

(١) انظر فى الموقف الأول القسم الأول من كتاب ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية للأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب وفى الموقف الثانى قطعة من تاريخ إفريقية والمغرب للرقيق القيروانى ص١٢٠ وما بعدها وفى الموقف الثالث ولاية خفاجة بن سفيان فى صقلية.

وموقف كريم ثان لنساء القيروان عامة حين استنفر عبد الواحد بن يزيد الهوارى وعكاشة بن محصن الصفرية فى الجزائر للهجوم على القيروان، وكان الصفرية قد اشتهروا بسفك الدماء وهتك الحريم وسبيهن، وكان عبد الواحد قد اقترب من القيروان فى ثلاثمائة ألف، وأخذ حنظلة بن صفوان والى القيروان يستعد للقائه، وما إن أخذ يعدّ صفوف جيشه لهذا اللقاء حتى فوجىء بنساء القيروان جئن للتحريض على الجهاد والاشتراك فى الحرب، يقول الرقيق القيروانى: «خرج نساء القيروان فعقدن الألوية، وأخذن معهن السلاح، وعزمن على القتال واستبسلن للموت مع الرجال، وحلفن لأزواجهن: لئن انهزم أحد منكم إلينا موليًا عن العدو لنقتلنّه» وحين سمع الناس هذا الوعيد والتحريض الشديد من النساء وطنوا أنفسهم على الاستشهاد، فالموت أولى بهم من عار سِباء زوجاتهم، وانتهاكهنّ وبيعهن فى الأسواق بيع الإماء. والتحم القتال وتداعى الأقران والأبطال، وانتصر حنظلة والجيش ونساء القيروان، وقتل عبد الواحد وقتل من جموعه مائة وثمانون ألفا، وهى مفخرة باقية للمرأة التونسية لاستشعارها - إلى أقصى حد - كرامتها وحميتها للوطن استشعارًا يسجله لها التاريخ فى الأزمنة الإسلامية الماضية.

وموقف كريم ثالث للمرأة التونسية لا فى القطر التونسى بل فى صقلية، فإن واليها خفاجة بن سفيان كان قد شدد الحصار على أهل طرميس سنة ٢٤٨ هـ/٨٦٣م وكانوا ينازلون جيشه نزالا ضاريًا ورأوا أن يقفوا الحرب وطلبوا من خفاجة وفدا للمفاوضة، فأرسل إليهم وفدا على رأسه زوجته لمفاوضتهم، وهى أول سيدة عربية تتولى السفارة بين قومها وأعدائهم، واستقبلوها بحفاوة، ونزلوا على إرادتها فيما وضعته لهم من شروط الصلح، وسلموها مفاتيح المدينة، وبذلك نجحت سفارتها نجاحًا عظيمًا، إذ حقنت دماء المسلمين وسلمتهم مفاتيح مدينة بأكملها ودخلوها صلحًا، وابن هذه السيدة البطل محمد بن خفاجة هو فاتح مالطة سنة ٢٥٥هـ/٨٦٨م إذ أعد لفتحها أسطولا قضى به على حاميتها الرومية، وظلت مالطة تابعة لصقلية إلى أن استولى عليها النورمان بعد نحو مائتين وثلاثين عاما. ومعنى ذلك كله أن للمرأة التونسية تاريخًا مجيدًا فى العصور الإسلامية يصور حصافتها وكياستها وشعورها بكرامتها إلى أقصى حد.

٤

الدين[١]

كان بربر القطر التونسى – مثل بقية البربر فى الأقطار المغربية – وثنيين يعبدون الشمس والقمر والكواكب السيارة ويقدمون لها القرابين، وكانوا يقدسون كثيرًا من الأحجار والأشجار، وكان القرطاجيون وثنيين مثلهم، ويبدو أنهم أخذوا يفسحون لليهود فى النزول بقرطاجة منذ القرن الثالث قبل الميلاد، ولم يلبثوا أن عملوا على نشر اليهودية بين البربر، ولم يعتنقها إلا قليلون من البدو، وأخذ اليهود يفدون على القطر التونسى بعد تحطيم الإمبراطور تيتوس لمعبد بيت المقدس سنة ٧٠ للميلاد حتى إذا كان الفتح العربى أخذوا يتكاثرون – مع السنين –فى القيروان حتى كان لهم فيها حارة – أو كما نقول الآن حَىٌّ – وكان لهم مقبرة خاصة بهم، وأيضا كان لهم سوق يسمى سوق اليهود، وكان لهم معبد يؤدون فيه شعائرهم الدينية، وكل ذلك بفضل الإسلام وما بثه فى المسلمين من روح التسامح مع أهل الكتب السماوية. وصدورًا عن هذه الروح كان علماؤنا المتعمقون فى علوم الأوائل يفسحون لهم فى التلمذة عليهم وفى أخذ ما عندهم من هذه العلوم وما أضافوه إليها، مما جعل نفرًا منهم فى القيروان يتزودون من معارف أطبائها المسلمين ما أتاح لهم أن يصبحوا من كبار الأطباء على نحو ما سنعرف فى فصل الثقافة.

وكانت المسيحية قد أخذت تنتشر منذ القرن الثانى للميلاد فى قرطاجة وبعض بلدان القطر التونسى عن طريق بعض القساوسة من قبط مصر الذين حاولوا الدعوة لها مبكرين، وبذلك عُرفت فيها – أو أسست – كنيسة العقيدة الأرثوذكسية المصرية. وبعد ذلك حين اعتنقت روما العقيدة المسيحية أخذت تعمل على نشرها لا فى إيطاليا وحدها بل أيضا فى الولايات التابعة لها، واتسع العمل على ذلك منذ عهد الإمبراطور قسطنطين واستيلائه فى روما على أزمة الأمور سنة ٣١٢ للميلاد إذ أعلن المسيحية دينا رسميا للدولة وأخذ يعمل على نشرها فى قرطاجة وإفريقيا، وبذلك أصبح للمسيحية فى القطر التونسى كنيستان: الكنيسة الأرثوذكسية القبطية السابقة،

---

(١) انظر فى اليهود والنصارى كتاب ورقات للأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب فى مواضع متفرقة وبرنشفيك ١/٤٢٩ وما بعدها وكتاب تاريخ المغرب الكبير لدبوز وراجع فى الحركة الإسلامية كتب التاريخ وخاصة البيان المغرب لابن عذارى ومعالم الإيمان لابن ناجى ورياض النفوس للمالكى وتاريخ ابن خلدون وخلاصة تاريخ تونس لحسن حسنى عبد الوهاب.

وكنيسة روما الكاثوليكية. وكان فى القطر التونسى - حين الفتح - مسيحيون كثيرون، إذ كانت الجاليات والحاميات الرومانية مسيحية، وكانت روما قد نشرتها قبل الفتح فى بقايا السلالات القرطاجية وبين البربر، واعتنقها كثيرون من الشعب البربرى فى المدن لما رأوا فيها من الدعوة إلى المساواة والعدل الذى لا تصلح حياة الشعوب بدونه، غير أنهم عادوا فوجدوها دين حكامهم من الرومان الذين يظلمونهم ظلما فادحا فى الضرائب وغير الضرائب، فانصرفوا عنها إلا قليلا منهم، ومع ذلك ظل قساوسة الكنيسة الرومانية الكاثوليكية يدعون لها، وتغلغلوا بدعوتهم حتى بلاد الجريد التى كانوا يسمونها قسطيلية. وبعد الفتح العربى أخذ كثيرون من هؤلاء المسيحيين يدخلون فى الدين الحنيف طواعية، وبدون أى إكراه، لبساطته ولتحريره الشعوب من كل عبودية ومن كل ظلم مع محوه لجميع الحواجز الطبقية والاجتماعية بين أفراد الأمة، فهم جميعا متساوون فى كل الحقوق وكل الواجبات، وبذلك نفهم كيف أوشك الإسلام فى القرن الأول الهجرى أن يقضى على المسيحية قضاء مبرما فى القطر التونسى مع أن العرب طوال هذا القرن وبعده رخصوا للمسيحيين التونسيين تجديد كنائسهم وتركوا لهم منتهى الحرية فى إقامة طقوسهم وشعائرهم الدينية. ولولا أن عناصر مسيحية ظلت تنزل البلاد من وقت لآخر لانمحت المسيحية من القطر التونسى - أمام المد الإسلامى - محوا تاما، وأول ما كان من ذلك استقدام حسان بن النعمان (٧١-٨٥هـ) ألف أسرة قبطية للمساعدة فى إنشاء دار الصناعة بتونس، وبذلك ظلت الكنيسة الأورثوذكسية حية فى القطر التونسى. ويجلب إبراهيم بن الأغلب آلافا من الصقالبة لحرسه، وجلب حفيده إبراهيم بن أحمد رهبانا من صقلية للمساعدة فى الترجمة بدار الحكمة التى أسسها، مما أتاح للكنيسة الكاثوليكية أن تظل حية هى الأخرى، ويجلب العبيديون بدورهم صقالبة وصقليين، ويقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب إن المسيحيين وفدوا بكثرة فى عهد الدولة الصنهاجية، وخاصة أن أمهات بعض حكامها كن مسيحيات ويتمتعن بحريتهن الدينية. وكانت فى تونس حارة خاصة بالمسيحيين ومقبرة أيضا خاصة بهم وكنيسة يقيمون فيها شعائرهم، وأخذوا يتكاثرون حين عظم نشاط أمراء البحر العثمانيين وكانوا أسرى حقا، ولكن الدايات كانوا يساعدونهم فى أداء شعائرهم الدينية، ويدل على كثرتهم حينئذ ما يقال من أن مراد باى قبل أن يتولى الولاية سنة ١٠٢٢هـ/١٦١٤م حين كان أميرا للبحر جلب لتونس فى إحدى المرات اثنى عشر ألف أسير أوربى مسيحى.

ويأخذ البربر فى اعتناق الإسلام منذ فتح عبد الله بن سعد بن أبى سرح القطر التونسى سنة ٢٧ للهجرة، واستقر العرب فى بعض مدنه وأنحائه، ولم يكن العرب غزاة فاتحين فقط بل كانوا يعدون أنفسهم - قبل كل شىء - ناشرين للإسلام وهداه فى أطباق الأرض، وما نصل إلى عهد حسان بن النعمان (٧١-٨٥هـ) حتى نجد فى جيشه كتيبة بربرية كبيرة تبلغ اثنى

عشر ألفا كما يقول ابن عذارى تشترك فى فتوحه وجهاده فى سبيل الله. وهى رمز قوى لاندماج البربر فى الإسلام، فإنهم لم يسلموا فحسب بل أصبحوا من دعاة الإسلام وحماته، وقد اشتركوا بقوة فى جيش طارق بن زياد الفاتح لإيبيريا، ونفس القائد: طارق كان بربريا، وولاه موسى بن نصير والى إفريقية بعد حسان على طنجة، ثم كلفه بفتح إيبيريا سنة ٩٢هـ/٧١١م وأخذت انتصاراته تتوالى، واستمد موسى بن نصير، فلحق به على رأس جيش مزيج من العرب والبربر وتم لهما اكتمال الفتح المبين.

ومعنى ذلك أننا لا نصل إلى الربع الأخير من القرن الأول الهجرى، حتى يصبح البربر لا فى القطر التونسى وحده، بل فى جميع بلاد المغرب شعبا إسلاميا لا يؤدى شعائر الإسلام وفروضه الدينية فقط، بل أيضا يعمل على نصرة الإسلام ونشره لا فى ربوع المغرب وجباله الوعرة وصحاريه المترامية فحسب، بل أيضًا فى إيبيريا بأوربا، وهو ما أذهل جماعة المؤرخين والمستشرقين الغربيين، فإن الرومان ظلوا يحتلون البربر قرونا متطاولة وظلوا يحاولون نشر المسيحية فى ديارهم، ولم يجدوا بينهم آذانا صاغية، وما هى إلا أن يغزوهم العرب، وإذا هم يفتحون أذرعتهم وأفئدتهم للإسلام، فيصبحون فى نحو نصف قرن شعبا إسلاميا، إذ وجدوا الإسلام يحررهم من الظلم والاستعباد اللذين طالما ذاقوهما فى حكم البيزنطيين والرومان تحت ظل المسيحية سوى ما تحمله تعاليمه للشعوب من العدالة بين الناس والمساواة ومحو كل الفوارق الطبقية والجنسية. وانضافت إلى ذلك تطبيقات ولاة القرن الأول الهجرى عقبة بن نافع وابن أبى المهاجر وحسان بن النعمان وموسى بن نصير لتعاليم الإسلام ومبادئه فى حكم البربر بحيث أصبح البربرى يشعر أنه عضو عامل - كبقية الأعضاء عربا وغير عرب - فى أسرته الإسلامية الكبرى، فله ما للعرب من الحقوق، وعليه ما عليهم من الواجبات، فهو يتولى حكم هذه المدينة أو تلك، وهو يقود الجيوش الإسلامية فى المغرب وخارج المغرب، لا فرق أى فرق بين بربرى وعربى.

وتُوِّج عمل ولاة القرن الأول الهجرى فى نشر الإسلام بين البربر بالبعثة التعليمية التى أرسلها عمر بن عبدالعزيز إلى القيروان سنة مائة للهجرة على رأسها إسماعيل بن عبدالله بن أبى المهاجر، وأسند إليه ولاية المغرب وكانت البعثة مكوَّنة من عشرة من صفوة الفقهاء فى الأمة أرسلهم عمر لتفقيه البربر والعمل على نشر الإسلام بينهم، وأهمهم بالإضافة إلى إسماعيل عبُدالله بن يزيد المعافرى المعروف بالحُبلى، وعبدالرحمن بن رافع التنوخى وإسماعيل بن عبيد الأنصارى وسعد بن مسعود التجيبى، وكلٌ منهم بنى فى القيروان دارا لمسكنه ومسجدا لصلاته واجتماعه بالبربر يفقههم فى الدين وكتّابا لتعليم الناشئة مبادئ العربية وتحفيظها القرآن الكريم. وبذل كل منهم أقصى ما يستطيع فى نشر الدين الحنيف، يتقدمهم فى ذلك

إسماعيل بن عبدالله بن أبي المهاجر، وفيه يقول ابن عذارى: «مازال إسماعيل حريصا على دعاء البربر إلى الإسلام، حتى أسلمت بقية بربر إفريقية على يديه فى دولة عمر بن عبدالعزيز، وهو الذى علم أهل إفريقية الحلال والحرام».

وعلى هذا النحو أصبح البربر فى نهاية القرن الأول الهجرى شعبا إسلاميا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة فهو يتغلغل فى ذات نفوسهم، ويتعمق قلوبهم وأفئدتهم، وخلف عمر بن عبد العزيز خلفاء أمويون ضلوا السبيل فولّوا على القيروان وإفريقية ولاة طاغين باغين أخذوا يفرّقون بين العرب والبربر فى الخراج، مما جعل البربر يفكرون فى مخرج من هذا الظلم الفادح، وسرعان ما أخذ الخوارج الصفرية والإباضية ينشرون مبادئ عقيدتيهما الآخذة بتعاليم الإسلام فى التسوية بين العرب والبربر فى الخراج وغير الخراج. ونُكب البربر بتولية عبيد الله بن الحبحاب القيروان وإفريقية، وكان هو ونوابه فى إفريقية جميعها بمنتهى الحمق والسفاهة، فتمادوا فى التفرقة بين البربر والعرب، وأخذت جموع كثيرة فى المغربين الأقصى والأوسط تنضم تحت لواء الصفرية، وكانوا متطرفين تطرفا شديدا يستحلون من المسلمين سفك الدماء وسبى النساء واسترقاقهن، وانضمت جموع أخرى تحت لواء الإباضية فى جبل نفوسة ولم يكونوا يستحلون – مثل الصفرية – سفك دماء المسلمين ولا سبى نسائهم. وثار الصفرية بالمغرب الأقصى وتقدم جيشان لهم إلى القيروان سنة ١٢٤هـ/٧٤١م يريدون الاستيلاء عليها وهُزما هزيمة ساحقة. ودخلت قبيلة ورفجومة الصفرية القيروان سنة ١٣٨هـ/٧٥٥م وأخرجها منها أبو الخطاب الإباضى سنة ١٤١هـ/٧٥٨م وولّى عليها عبد الرحمن بن رستم الإباضى، وسرعان ما نازل جيش عباسى أبا الخطاب وقضى عليه، وفر عامله عبد الرحمن بن رستم إلى الجزائر وأسس فى تيهرت دولة إباضية.

وكل هذه الإلمامات للإباضية والصفرية بالقيروان لم تترك بها أى أثر، وكأنها كانت سحابات صيف لم تكد تلم حتى أقلعت، ولا نسمع عن أى أحد من القطر التونسى اعتنق إحدى هاتين العقيدتين. ومعنى ذلك أن القيروان ظلت دارا كبرى للسنة، ولم تأبه بتعاليم الصفرية والإباضية، وقد امتشقت الحسام ونازلت الأولين منازلة ضارية كما مر بنا فى الفصل الماضى، بل لقد دمرت جيشين لهما ومحقتهما محقا ذريعا. وأخذت القيروان فى أواخر القرن الثانى الهجرى وطوال القرن الثالث بمذهبين من مذاهب أهل السنة هما مذهب أبى حنيفة ومذهب مالك، وكان للمذهب الثانى غير قليل من الغلبة لكثرة فقهائه. وما إن تستقر الأمور فى القيروان لبنى عبيد الفاطميين حتى يعلنوا عقيدتهم الشيعية، وحتى يأمر عبيدالله المهدى أول خلفائهم بتعطيل تعليم الشريعة والفقه على مذاهب أهل السنة، ويريد مذهبى مالك وأبى حنيفة، ومنع شيوخ المذهبين من إلقاء دروسهم فى جامع عقبة فكانوا يقرئون تلاميذهم إما فى بيوتهم وإما فى حوانيتهم، وكانوا قد اضطهدوا

محمد بن اللباد رئيس المالكية، وسجنوه، وعادوا فردوا إليه حريته وألزموه الاعتكاف فى بيته، فكان تلاميذه يقصدونه خفية ويقرءون عليه فى بيته، وكان ربيع القطان يقرئ تلاميذه فى حانوته الذى يبيع فيه القطن. وظل العبيديون يحاولون القضاء على مذهبى مالك وأبى حنيفة، وعلماء السنة يقاومونهم مقاومة حادة وينازلون دعاتهم منازلات ضارية، وكان الفقيه سعيدبن الحداد يقود هذه المنازلات فى أيام عبيدالله المهدى، وسمع به وبإسكاته الدعاة وإلزامهم الحجة، فاستدعاه - كما يقول المالكى فى كتابه «رياض النفوس» - وعرض عليه الحديث النبوى: «من كنت مولاه فعلىٌّ مولاه» فقال له سعيد: هو حديث صحيح قد رواه أهل السنة، فالتفت إليه وقال له: فما للناس لا يكونون عبيدنا؟ فقال له سعيد: أعزَّ الله السيد، لم يرد (الرسول) ولاية الرِّق، إنما أراد ولاية الدين، فقال له عبيد الله المهدى: هل من شاهد يؤيد كلامك من كتاب الله عز وجل، فقال له: نعم، قال الله تعالى: ﴿ما كان لبشرٍ أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقولَ للناس كونوا عبادًا لى من دون الله، ولكن كُونوا ربَّانيِّين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون، ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركُم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون﴾ ثم قال سعيد: فما لم يجعله الله لنبى لم يجعله لغير نبى، وعلى لم يكن نبيا إنما كان وزير النبى ﷺ. وبذلك أفحمه، فقال له انصرف. ولم تقف المسألة فى العقيدة العبيدية الفاطمية عند محاولة الخلفاء العبيديين استعباد الناس، فقد حاولوا إقناعهم بأنهم الصورة المجسدة للذات العلية تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا إلى غير ذلك من ضلالاتهم التى صورنا أطرافا منها فى كتابنا - بهذه السلسلة - عن مصر. وظلت القيروان تقاطع عقيدتهم إلى أن انتقلوا إلى القاهرة وعادت لمذاهب أهل السنة نشاطاتها وخاصة مذهب مالك، ولم يلبث المعز الصنهاجى سنة ٤٣٨هـ/١٠٤٦م أن حمل الناس والفقهاء على اتباعه، فظل هو المذهب السنى الأساسى فى القطر التونسى إلى اليوم، وحقا اشترك معه المذهب الحنفى أيام العثمانيين، ولكن ظل هو المذهب السنى للجماهير التونسية.

٥

الزهد والتصوف[١]

هذا القطر أو هذه الدار التونسية الكبيرة للدين الحنيف أخذت تتحول سريعا إلى دار

(١) راجع فى الزهد والتصوف كتاب رياض النفوس فى التراجم وكذلك طبقات علماء إفريقية لأبى العرب ومعالم الإيمان لابن ناجى، وبرنشفيك ٣٣٢/٢ وما بعدها. وانظر فى المنزعين الصوفيين: الفلسفى والسنى ما كتبنا عنها فى الجزء الخاص بمصر من هذا التاريخ للأدب العربى وكذلك انظر فى هذا الجزء ترجمة أبى الحسن الشاذلى.

كبرى لعبادة الله الواحد الأحد، وأخذت المساجد تُبْنَى فى كل بقعة وفى كل بلد، وكان الفاتحون يُقرئون البربر القرآن ويفقهونهم فى الدين وينشرون فيهم تعاليم الإسلام وما يدعو إليه من العبادة والنسك، وقد تميز أفراد البعثة التى أرسل بها عمر بن عبدالعزيز سنة مائة للهجرة بالزهد فى عرض الدنيا الزائل، وكان منهم إسماعيل بن عبيد الذى اشتهر فى القيروان باسم تاجر الله، لأنه كان يتجر ويجعل ثلث كسبه لله، ينفقه فى وجوه الخير، وهو يمثل شخصية زهاد الدين الحنيف الأولين. فهو يعبد الله ويفقِّه الناس فى الدين، ويحفِّظ الناشئة القرآن فى كُتَّاب، وهو لا يعيش كَلًّا أو عبئا على الدولة ولا عالة على الناس، بل يتجر ويكتسب من التجارة ما يقيم به أوده، ثم هو يقوم بالواجب الأكبر عليه للأمة: واجب الجهاد لأعدائها وأعداء دين الله، وبأخرة من حياته فى القيروان حمل سيفه وخرج مجاهدا لإعلاء كلمة الله فى صقلية وغرق فى البحر المتوسط سنة ١٠٧ للهجرة. ونلتقى بعده فى القيروان بزهاد كثيرين تُعْنَى كتب الطبقات بالترجمة لهم والحديث عنهم، ومن أهمهم فى أواسط القرن الثانى الهجرى رَباح بن يزيد اللخمى، وكان زاهدا وعابدا ناسكا، ونوَّه به طويلا أبو العرب فى الطبقات والمالكى فى رياض النفوس. وبالمثل نوَّها بالبُهْلول بن راشد وزهده وورعه، وكان يعاصرهما على بن زياد أول من أدخل كتاب الموطأ لمالك بن أنس إلى إفريقية التونسية، توفى سنة ١٨٣ للهجرة، وله كتاب فى الزهد، وبالمثل لعبد الملك بن أبى كريمة مولى إسماعيل بن عبيد تاجر الله كتاب فى الزهد، وكان من أهل الفضل والورع.

ومن أهم ما سجَّلته كتب الطبقات لهؤلاء الزهاد الورعين أنهم كانوا دائما يخرجون فى وقت من السنة للعبادة فى الرباطات والمحارس التى كانت متخذة على طول الساحل التونسى لإقامة المجاهدين المتربِّصين بالقراصنة الغربيين أعداء الله حين يغيرون فجأة فى موضع على الساحل التونسى الطويل. ومعروف أن زيادة الله الأول الأغلبى حين أعدَّ حملته المشهورة لفتح صقلية فى سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م جعل قائدها أسد بن الفرات قاضى القيروان وكبير فقهائها فى زمنه. وفى ترجمة سحنون أكبر فقهاء القيروان بعده أنه كان يرابط وقتا فى السنة بالقرب من ميناء سوسة، ومع أنه كان على شىء من الثراء كان يتخشَّن فى ملبسه ومطعمه مع الورع الصادق والزهادة فى الدنيا، وكان ابنه محمد الذى خلفه فى حلقته لإقراء الطلبة يخرج وقتا فى السنة – مثل أبيه – للمرابطة وحراسة المسلمين، وتُرْوَى له مَقْتلة فى قراصنة الروم، فقد تصادف أن لقيهم ذات مرة وقد أشرفوا – فى غيبة الرجال – على نهب بعض الأموال وسبى الحريم فتقلد سيفه وأخذ بيده رمحه وامتطى جوادًا له، ورآه بعض المرابطين فأسرعوا إليه، وكبر وكبَّروا معه، واشتبكوا فى حرب مع القراصنة، وأجهزوا على بعضهم، ففرت بقيتهم هاربة إلى البحر المتوسط وما وراءه. وإنما نسوق ذلك لندل على أن الزهاد والنساك فى الحقب الإسلامية الأولى لم يكونوا

يعيشون للزهد وعبادة ربهم فقط، بل كانوا دائما يحملون السلاح ويتقدمون الصفوف فى حرب أعداء الله والوطن، مؤمنين بأن جهاد أعداء الله لا يقل عن عبادته نسكا وقُرْبَى إليه. ولم يكونوا يعيشون عالة على المجتمع، بل كانوا دائما يحترفون حرفا تُدِرّ عليهم أرزاقهم، على نحو ما مرَّ بنا آنفا عند إسماعيل بن عبيد تاجر الله.

وأخذ هؤلاء الزهاد والعباد يتكاثرون فى القيروان أثناء القرن الثالث الهجرى، حتى لنراهم يتخذون مسجدا سموه مسجد السبت، كانوا يقصدونه يوم السبت للذكر والعبادة، وكانوا ينشدون فيه الأشعار بتطريب فرادى وجماعة، وكأن ذلك كان مقدمة لما سيصير إليه ذكر الله فى البلدان المغربية، إذ سيصبح اجتماعات دورية للذكر فى المساجد والزوايا بعد أن كان مرتبطا بجهاد أعداء الدين والوطن ومراقبتهم على الساحل التونسى الطويل فى الرباطات والمحارس الكثيرة التى كانت تُعَدّ بالعشرات. وحاول - مبكرا - يحيى بن عمر الكنانى المتوفى سنة ٢٨٩ للهجرة أن يقاوم الاجتماع المار للذكر فى مسجد السبت، فألف كتابا يردهم عن هذا الطريق الذى ابتدعوه ولم يستجيبوا إليه.

ومن يقرأ التراجم فى كتاب رياض النفوس للمالكى المتوفى سنة ٤٧٢ للهجرة وكتاب معالم الإيمان للدباغ وذيله لابن ناجى المتوفى سنة ٧٣٨ يلقاه كثير من الزهاد النساك وخاصة بين الفقهاء والتقاة. وأخذ التصوف ينشط فى الدولة الحفصية منذ مؤسسها أبى زكريا، وكان ورعا تقيا، وكان كلما بنى مسجدا نهض بأول أذان فيه قُرْبى لربه، وبنى أمراء الدولة كثيرا من المساجد فى تونس وبلدانها. وأخذ التصوف ينشط فى عهد تلك الدولة، وكان بعض أئمته الأندلسيين ينزلون القطر التونسى قبل تلك الدولة فى القرن السادس الهجرى، وممن نزل بها منهم أبو مدين شعيب، وهو من إشبيلية، أجاز البحر إلى المغرب، فاشتهر به خبره فى التصوف والنسك، وتوفى بتلمسان سنة ٥٩٤هـ/١١٩٧م وله فيها زاوية كبيرة، وله أتباع كثيرون، وكان قد نزل بتونس فترة، وتبعه فى طريقته الصوفية غير تونسى، منهم أبو سعيد خلف بن يحيى التميمى المتوفى سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م والمدفون ببلدة جبل المنار بالقرب من قرطاجة، والبلدة مسماة باسمه وفى رأيى أن أبا مدين كان ينزع فى تصوفه المنزع الفلسفى، وهو المنزع الذى بدأه الحلاج والذى كان أصحابه يؤمنون بالاتحاد بين المخلوقات والخالق جلَّ شأنه أو بعبارة أخرى بين الإنسان وربه، واقترن بذلك الإيمان بالفناء فى الذات العلية، والباحثون فى هذا المنزع، منهم من يقف عند الظاهر من عبارات أصحابه وأشعارهم فينسبونهم إلى القول بالاتحاد مع الذات الإلهية وأكثر من ذلك بالحلول وأن الله يحل فى الإنسان وجزئيات الطبيعة، ويُؤثر عن أبى مدين أنه كان يقول: «بى قُلْ، وعلىَّ دُلَّ، فأنا الكلّ» والعبارات قد تفسَّر بأن أبا مدين يؤمن بالاتحاد فى الذات العلية وحلولها فيه وقد تفسَّر بأنه إنما يؤمن بالفناء فى الذات الربانية. وزار تونس بعده من أصحاب

المنزع الصوفى الفلسفى ابن عربى المرسى الأندلسى الناشئ بإشبيلية والمتوفى بدمشق سنة ٦٣٨هـ/١٢٤٠م وهو من أئمة هذا المنزع، وظل فى تونس فترة ألف فيها كتابه: «الدوائر الإحاطية فى مضاهاة الإنسان» ونظن ظنا أنه خلّف بتونس بعض مريديه المعجبين به وبمنزعه.

ومن المؤكد أن هذا المنزع الصوفى الفلسفى لم يكتب له الشيوع والانتشار فى تونس، إنما الذى كُتب له ذلك المنزع الصوفى السنى الذى لا يؤمن أصحابه بحلول الذات العلية فى جزئيات الكون ولا باتحادها معها أو مع الإنسان ولا بالفناء فى الذات الربانية، فحسبهم محبة الله وذكره وتسبيحه، وقد قام على هذا المنزع فى القرن الخامس عبد الكريم القشيرى المتوفى سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٢م والإمام الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥هـ/١١١٢م وسرعان ما أخذت الطرق الصوفية السنية فى الظهور أثناء القرن السادس الهجرى، ومن أهمها طريقتان: القادرية نسبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلانى مولدا الحسينى نسبا نزيل بغداد المتوفى سنة ٥٦١هـ/١١٦٥م والطريقة الأحمدية أو الرفاعية نسبة إلى الشيخ أحمد الرفاعى البغدادى المتوفى سنة ٥٧٨هـ/١١٨٣م. ورحَّبت البلاد الإسلامية بهاتين الطريقتين، وأخذت تضيف إليها طرقا صوفية سنية جديدة، وتجرَّد شيخ تونسى هو الشاذلى أبو الحسن على بن عبد الله الحسينى المنسوب إلى بلدة شاذلة بالقرب من مدينة تونس المولود سنة ٥٩٣هـ/١١٩٧م لإنشاء طريقة صوفية سنية، بجانب الطرق التى عمت وشاعت فى البلدان العربية، وأخذ يحاول نشرها فى تونس، وتبعه مريدون كثيرون رجالا ونساء، منهم على القرجانى وحسن السيجومى وللاّ (السيدة عائشة المنوبية) المتوفاة سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٧م وهى من قرية منوية غربىّ مدينة تونس ولها زاوية كبيرة، ولبعض النساء ببلدتها اعتقاد فيها، ولذلك يزرنها ويتوسلن بها لحاجاتهن: حَمْل وغيره. وفى تونس تعرَّف بتلميذه أبى العباس المرسى، وصحبه مع جمع من مريديه إلى الإسكندرية سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م وسرعان ما أصبحت طريقته أهم الطرق الصوفية السنية بمصر. وظلت طريقته حية بتونس مع طريقة القادرية السابقة لها، ومع طرق أخرى وفدت على تونس من المغربين الأوسط والأقصى مثل طريقة التجانى والطريقة العروسية للشيخ أحمد بن عروس المتوفى سنة ٨٦٨هـ/١٤٦٣م وله فى تونس زاوية كبيرة.

وقد تكاثرت زوايا المتصوفة فى تونس والأقطار المغربية كثرة مفرطة، وتحولت فى الحقب المتأخرة إلى ما يشبه تكايا ينزلها مع الدراويش الجوالين كثير من المشعوذين الدجالين، وكان منهم من يدعى لنفسه الكرامات وأنه من أولياء الله، والله براء منه لانحرافه عن جادة الدين والتصوف السنى الحقيقى.

الفصل الثالث

الثقافة

١

الحركة العلمية[1]

(أ) فاتحون مجاهدون معلمون

خرج عبد الله بن سعد بن أبي سرح والى مصر للخليفة عثمان فى جيش للمسلمين عداده عشرون ألفا للاستيلاء على إفريقية التونسية سنة ٢٧هـ/٦٤٧م والتقى بجيش والى بيزنطة الثائر عليها والمستقل بالبلاد: جريجوريوس وكان فى مائة ألف من الروم والبربر، ونصر الله المسلمين، وقُتل جريجوريوس فى المعركة وسحق جيشه سحقا، وأخذت مدن إفريقية التونسية تفتح أبوابها للمسلمين. وعادة يذكر المؤرخون هذا الفتح المبين ولايتحدثون عن جنوده وأنهم كانوا جنود الدين الحنيف خرجوا وحاربوا جهادا فى سبيل نشره، بقيادة ابن أبي سرح أحد كتاب الوحى ومعه فى المقدمة العبادلة: عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن العباس بن عبد المطلب وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، ويقال أيضا كان معهم عبد الله بن جعفر وعبد الله بن مسعود، ولذلك سمى جيش العبادلة وكلهم من تقاة الأمة الورعين. لم يخرجوا إلى إفريقية التونسية ابتغاء دنيا، إنما خرجوا للجهاد فى سبيل الله ونشر دينه الحنيف فى أرجاء إفريقية، وبضربة من يد عبد الله بن الزبير قتل جريجوريوس وبضربات من أيدى زملائه العبادلة وأيدى جند الدين الحنيف المجاهدين فى سبيله انهزم الجيش الضخم ومن بقى من عساكره أصابهم رعب شديد واعتصموا بالمعاقل

(١) انظر فى الفاتحين المعلمين كتب التاريخ مثل فتوح مصر لابن عبد الحكم وقطعة من تاريخ إفريقية للرقيق القيروانى (طبع فى تونس) ومقدمات الجزء الأول من رياض النفوس وراجع فى النشأة العلمية طبقات أبي العرب والبيان المغرب لابن عذارى والحلة السيراء وأخبار النحويين البصريين للسيرافى وطبقات النحويين واللغويين للزبيدى وانظر فى جامع عقبة والزيتونة معالم الايمان لابن الدباغ وابن ناجى وكتاب ورقات عن الحضارة العربية فى إفريقية للأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب وانظر المؤنس فى أخبار إفريقيا وتونس لابن أبي دينار.

والحصون، ولم يلبثوا أن جاءوا إلى ابن أبى سرح مستسلمين طالبين الصلح فصالحهم، ودانت إفريقية التونسية للدين الحنيف وجنوده.

ونجد عند الفاتحين دائما هذا الشعور بأنهم مجاهدون فى سبيل الله، فابن أبى سرح قبل منازلة جريجوريوس يخطب فى الجيش محرضا على الجهاد، إنه ليس فتحا ولا غزوًا إنما هو جهاد فى سبيل إعلاء كلمة الدين الحنيف، ودائما نجد هذا الشعور ماثلا فى أذهان الفاتحين وكان أول من تعمق فى البلاد المغربية مجاهدا فى سبيل الله حتى المحيط الأطلسى عقبة بن نافع، وقد أدخل فيه قوائم فرسه ورفع وجهه إلى السماء مناجيا ربه بقوله: «اللهم إنى أشهدك أنى وصلت براية الإسلام إلى آخر المعمورة حتى لا يعبد أحد سواك» فهو وجنوده لم يكونوا غزاة للمغرب الأقصى يجمعون منه الغنائم، إنما كانوا جنودًا لله يريدون أن ينشروا دينه إلى أقاصى الأرض المعمورة. وتوفى عقبة وثار كَسيلة، ودخل بجموعه القيروان، وفتك زهير بن قيس القائد بعد عقبة به وبجيشه حتى إذا دان له المغرب أبى أن يظل حاكما له، وعاد إلى المشرق قائلا: «إنى ماقدمت إلا للجهاد، وأخاف أن تميل نفسى بى إلى الدنيا فأهلك». فقادة الجند الفاتحين للمغرب والجند أنفسهم لم يكونوا طلاب دنيا إنما كانوا مجاهدين يبتغون نشر الإسلام طالبين ما عند الله من ثواب الآخرة، وهم لذلك لا يبالون بالموت، فقد باعوا أنفسهم لله، صفقة كلّلت غزواتهم فى الفتوح الإسلامية بالانتصارات الحاسمة.

وتتضح خلال ذلك صفة ثانية لهم هى أنهم ناشرون للإسلام، فليس همهم من فتوحهم تملك الأرض وماعليها من طيبات الرزق، إنما همهم تملك القلوب للدين الحنيف، وهم لذلك يحاولون -كل بقدر إمكانه- تعريف البربر به وبتعاليمه، وأخذ يستجيب لهم البربر، لما وجدوا فى عقيدته من بساطة، إذ لا تعدو الإيمان بوحدانية الله. وليس فيها فكرة التثليث المعقدة عند النصارى، والله رحيم وسعت رحمته كل شىء، وهو عالم قادر شمل علمه - وشملت قدرته - كل ما فى الكون، والمسلمون عربا وبربرا سواسية فى جميع الحقوق والواجبات مع العدل المطلق الذى لا تصلح حياة الشعوب بدونه، ومع محو جميع الفروق الطبقية والاجتماعية بين أفراد الأمة، ومع تحرير الشعوب من كل عبودية. وقد أخذ هذا الجند الفاتح للمغرب المجاهد فى سبيل الله يحاول - بكل ما يستطيع - نشر هذا الدين، فهم يحفّظون البربر شيئا من القرآن، وهم يقفونهم على تعاليم الإسلام وهَدْيه، وبذلك كانوا معلمين للبربر كما كانوا مجاهدين. ونجح تعليمهم سريعا، وأخذت جماعات كثيرة من البربر تعتنق الدين الحنيف لا اعتناقا ظاهريا، بل اعتناقا يتعمق منها القلوب والأفئدة، فإذا هى تخلص له، وإذا هى تحمل السلاح لنشره وحرب أعدائه وأعداء الله، فمن ذلك مايقال فى ولاية أبى المهاجر الإفريقية (٥٥-٦١هـ) من أن قبيلة أوربة اتحدت مع جيشه فى الاستيلاء على الساحل الشمالى للجزائر. ويصبح البربر جزءا

لا يتجزأ من الجيش العربى لعهد حسان بن النعمان (٧١-٨٥هـ) إذ نراه يعين ابنى الكاهنة التى قادت ثورة عنيفة ضد المسلمين قائدين فى الجيش بعد إسلامها، وأدخل فيه كتيبة من البربر عدادها اثنا عشر ألفا، وبذلك لم يعد فى الجيش أى فارق بين العرب والبربر، فهم يجندون فيه ويتولون قيادة بعض فرقه الكبيرة. ويتولى بعده موسى بن نصير (٨٦-٩٦هـ) فيتخذ من البربر ولاة وقوادا مثل طارق بن زياد فقد ولاه طنجة ثم جعله قائدًا للجيش الفاتح لإيبريا وكان جيشه مؤلفا من سبعة عشر ألف جندى عربى واثنى عشر ألف جندى بربرى، وأمر موسى الجنود العرب أن يعلموا إخوانهم جنود البربر القرآن وأن يفقهوهم فى الدين كما يقول ابن عذارى، وفى رواية أخرى: أن موسى ترك سبعين رجلا من العرب يعلمون البربر القرآن وشرائع الإسلام. وهؤلاء السبعون فقيها لا يعدون شيئا بالقياس إلى ما حدث حتى تاريخ ولاية موسى بن نصير من اندماج المغرب فى الأمة الإسلامية. إذ أصبح يدين بدينها القويم ويتكلم كثيرون من أهله بالعربية وهو عمل ضخم لاينهض به سبعون فقيها، إنما نهضت به الجيوش العربية الفاتحة للمغرب التى خرجت إليه للجهاد فى سبيل الله، ولنشر دينه وتعاليمه، مما يجعلنا نزعم أن هؤلاء الجنود كانوا مجاهدين فى نشر الدين الحنيف بالمغرب من جهة ومعلمين لأهله القرآن وتعاليم الإسلام من جهة ثانية.

(ب) النشأة العلمية

أخذ ينشأ فى القيروان وتونس - منذ أواخر القرن الأول الهجرى - جيل من مواليد إفريقية التونسية يكبُّ على حلقات العلماء الوافدين من المشرق ينهل منها مثل عكرمة مولى ابن عباس المفسر المشهور، ويقول المالكى فى رياض النفوس إن مجلسه كان فى مؤخر جامع عقبة فى القيروان حيث كان يلقى دروسه على الناس فى التفسير والحديث ومات سنة ١٠٥ للهجرة. وذكرنا فى غير هذا الموضع أن الخليفة عمر بن عبد العزيز أرسل إلى القيروان بعثة تعليمية مكوَّنة من عشرة فقهاء اختارهم، ليفقهوا الناس فى الدين ومايتصل به من تفسير للذكر الحكيم ومن شرح لبعض الأحاديث النبوية، وهم: إسماعيل بن أبى المهاجر المخزومى، وجعيل بن عمير، وإسماعيل بن عبيدالأنصارى، وعبدالله بن يزيد المعافرى، وسعدبن مسعود التجيبى، وعبدالرحمن بن رافع التنوخى، وحبان بن أبى جبلة القرشى، وبكر بن سوادة الجذامى، وموهب بن حُيَى، وطلق بن جابان الفارسى. وأسند إلى ابن أبى المهاجر - بجانب عمله الدينى - ولاية إفريقية والمغرب كما أسند إلى جعيل بن عمير قضاء الجند، وبمجرد أن نزلوا القيروان اتخذ كل منهم دارًا لسكناه ومسجدا لصلاته وتعليم الناس أمور دينهم وسنة رسولهم. وهؤلاء المعلمون الرسميون للدولة كان يشترك معهم فى تعليم الشباب علماء آخرون من أهمهم يحيى بن سعيد الأنصارى الذى أرسله عمر بن العزيز عاملا على الصدقات،

وكان محدثا كبيرا وممن روى عنه الحديث الأئمة أبو حنيفة ومالك والليث بن سعد فقيه مصر والأوزاعي فقيه الشام. وقد نزل مدينة تونس وأخذ عنه شبابها الحديث يتقدمهم خالد بن أبي عمران التجيبي قاضي القيروان وزميلاه عبدالرحمن بن زياد وعلي بن زياد.

والثلاثة من تلامذة يحيى بن سعيد الأنصاري والمعلمين العشرة الذين أرسلهم إلى القيروان عمر بن عبد العزيز وقد رأوا أن لا يكتفوا بما أخذوا عنهم بل ينبغي أن يضيفوا إلى ذلك رحلة علمية إلى مصر والحجاز والعراق للأخذ عن كبار الفقهاء والمحدثين وحملة العلم في تلك الديار. ولقت خالد بن أبي عمران التجيبي أنظار الليث بن سعد وعبدالله بن لهيعة في مصر ومالك إمام الحجاز، ورووا عنه بعض أحاديث، وهي في موطأ مالك مأخوذة عنه بسند يحيى بن سعيد المذكور آنفا. وعبدالرحمن بن زياد تولى القضاء بالقيروان مرتين كان أبوه من جند حسان بن النعمان ولد له سنة ٧٤ للهجرة وتوفي سنة ١٦١ وحل للقاء العلماء والمحدثين في مصر والشام والعراق والحجاز وعنه روى الحديث الفقيهان المصريان ابن لهيعة وابن وهب كما رواه عنه سفيان الثوري العراقي. وعلي بن زياد التونسي معاصره رحل بدوره إلى المشرق وتتلمذ في مصر لليث بن سعد وابن لهيعة وفي العراق لسفيان الثوري وحمل عنه كتابه المعروف باسم جامع سفيان وفي المدينة تتلمذ لمالك، وهو أول من أدخل كتاب الموطأ في الفقه المالكي إلى المغرب، وكان يعاصره من الشباب العلمي في القيروان عبدالله بن فروخ الذي ثقف الفقه والحديث على شيوخ القيروان، ورحل إلى العراق ولزم أبا حنيفة فترة، ثم رحل إلى الحجاز ولقي مالك بن أنس وكان يكاتبه، وهو أول من نشر فقه أبي حنيفة في القيروان.

وهذه النشأة للعلوم الدينية رافقتها في إفريقية التونسية نشأة العلوم اللغوية لسبب طبيعي، وهو أن من يريد حفظ القرآن ورواية الحديث النبوي لا يمكنه أن يتقن ذلك إلا إذا وقف على سُنَن العربية وكانوا يستعينون على ذلك في أول الأمر برواية الأشعار، وكانت مدينتا البصرة والكوفة جادّتين في القرن الثاني الهجري في وضع قواعد العربية، وولي القيروان والمغرب يزيد بن حاتم المهلبي (١٥٥–١٧٠هـ) وكان بحرا فياضا وصحب معه إلى إمارته المعمَّر بن سنان التَّيمي، وكان – كما يقول ابن الأبار في ترجمته بالحلة السيراء – من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها ووقائعها وأشعارها، وعنه أخذ أهل إفريقية حرب غطفان وغيرها من وقائع العرب» وممن صحبه يزيد كاتم سرِّه أبو علي الحسن بن سعيد البصري، وهو من النحاة البصريين وكتاب الدواوين، وكان يزيد غيثا مدرارا في الجود والعطاء، كما ذكرنا، فأمَّه غير شاعر، كما أمَّه أو وفد عليه غير عالم نحوي ولغوي، وممن أمَّه يونس بن حبيب إمام البصرة في النحو واللغة، وتسامع به شباب القيروان فأكبُّوا عليه يأخذون عنه ما عنده، ووفد على يزيد من الكوفة قتيبة الجعفي وهو من نُحاتها، وقد أفاد منه الشباب القيرواني وانتفعوا به، ووفد عليه

أيضا عياض بن عَوَانة الكلبى النحوى الكوفى سنة ١٥٥ فرحَّب به، وخصَّه بتعليم أولاد أسرته وعنه أخذ أبناء القيروان النحو والعربية. وأخذ ينشأ فى القيروان سريعا جيل يعنى برواية الأشعار والأخبار كما يعنى باللغة والنحو على شاكلة أمان بن الصمصامة بن الطرماح الطائى الشاعر المشهور فى العصر الأموى، وكان الصمصامة هاجر إلى القيروان فى أوائل القرن الثانى، وولد له فيها أمان، وكان راوية للغة والشعر كما يقول ابن حزم، وتتلمذ له كثيرون من شباب القيروان فى النحو واللغة والأدب. وما نصل إلى أواخر القرن الثانى الهجرى حتى يصبح للقيروان نحاة بالمعنى الدقيق لكلمة نحاة من مثل عبد الملك المهرى تلميذ أمان وعياض بن عوانة وغيرهما من النحاة والرواة، ويتكاثر النحاة فى جيله وجيل تلاميذه.

(جـ) دور العلم : الكتاتيب - المساجد - جامعا عقبة والزيتونة - بيت الحكمة - الزوايا - المدارس

منذ استقر العرب فى القيروان والبلدان بإفريقية التونسية أخذت تنشأ كتاتيب لتحفيظ الناشئة القرآن وتعليمهم مبادئ العربية - حتى يحسنوا أداء الآيات القرآنية - والأحاديث النبوية. ويبدو أنها أخذت تتكاثر منذ عهد حسان بن النعمان (٧١-٨٥هـ) وكان يتعلم فيها أبناء البربر والعرب جميعا، وظلت أساس التعلم فى البلاد، مثلها فى ذلك مثل جميع البلدان العربية، وتنبه الفقيه محمد بن سحنون المتوفى سنة ٢٥٦ للهجرة إلى أهمية التعليم فى الكتاتيب وما ينبغى أن يؤخذ به فى هذا التعليم من آداب ومن صفات فى المعلمين وطرائق معاملتهم للناشئة، مما جعله يكتب فيه كتابا بعنوان «آداب المعلمين» وفيه يرسم لهم قواعد التربية للناشئة من أبناء المسلمين، وما ينبغى أن يتصفوا به فى السلوك معهم وواجبات المعلم إزاءهم وأخذه لهم بالنهج السليم، وعُنى بنفس الموضوع بعده أبو الحسن القابسى المتوفى سنة ٤٠٣هـ إذ ألف فيه كتابا باسم «الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين» وهو أوسع من كتاب محمد بن سحنون وأكثر تفصيلا، وفيه تحدث عن آداب معلم الإناث وما يصلح أن يعلَّم للناشئة وما لايصلح وسياسة المعلم فى تعليم الصبية إلى غير ذلك من موضوعات طريفة.

وكانت الدار الثانية للتعليم بعد الكتَّاب المسجد، حيث كان الشيوخ يتحدثون فى التفسير والحديث النبوى والفقه واللغة العربية والناس يتحلقون حولهم كما تتحلق الناشئة والشباب للتعلم وأخذ ما لديهم من تعاليم الدين وعلوم الإسلام والعربية. وقد أخذت تبنى فى القيروان وتونس وغيرها من البلدان مساجد كثيرة، ومرَّ بنا أن جميع أعضاء البعثة التى أرسلها عمر بن عبد العزيز إلى القيروان لتعليم الفقه والتفسير والحديث النبوى بنى كل منهم مسجدا وألحق به كتَّابا. أما الكتاب فلتحفيظ القرآن، وتنعقد الصلاة فى المسجد، ويجلس الشيخ فى جانب منه يلقى بعض دروسه الدينية.

وهناك مسجدان بل جامعان كبيران تحولا مع السنين إلى جامعتين عظميين، وهما جامع عقبة بن نافع فى القيروان وجامع حسان بن النعمان فى تونس المسمى جامع الزيتونة، والجامع الأول بناه عقبة فى تأسيسه للقيروان بين سنتى ٥٠ و٥٥ للهجرة وجدده حسان بن النعمان فى ولايته (٧١-٨٦هـ) وازداد العمران فى القيروان وضاق بأهلها فوسعه عبيدالله بن الحبحاب فى ولايته (١١٦-١٢٢هـ). ومنذ أنشىء هذا الجامع يتخذه الشيوخ من أهل العلم لمدارسة الناس فى علوم الدين وتحول سريعا مركزًا للعلوم الدينية يؤم شيوخه الطلابُ من كل أنحاء المغرب فضلا عن أرجاء إفريقية التونسية، ولم يتأخر ذلك إلى القرن الثانى الهجرى بعد توسعة ابن الحبحاب له، كما قد يظن، إذ بدأ ذلك فيه منذ إنشائه فى القرن الأول، يدل على ذلك ما ذكره أبو العرب فى طبقاته، وأشرنا إليه فى غير هذا الموضع، من أن عكرمة مولى ابن عباس وتلميذه المتوفى فى سنة ١٠٥ كان يجلس فى مؤخره ويلقى على الناس دروسه فى التفسير والحديث النبوى، ولابد أن زَخَر الجامع بحلقات أخرى لشيوخ مماثلين فى الفقه والتشريع الإسلامى، وأيضا لشيوخ يروون الأشعار والأخبار، حتى إذا ظهرت نحل الخوارج أخذ دعاتها يدعون لها، وتكونت حلقات حول بعض هؤلاء الدعاة فى جامع القيروان وخاصة حول عقيدة الإباضية. وحين ازدهرت الدعوة لمبادئ المعتزلة فى القرن الثانى أخذت طريقها إلى جامع عقبة. وكان أهل السنة يضيقون بمناظرات الدعاة لعقائد الخوارج والمعتزلة، حتى إذا ولى سحنون إمام المذهب المالكى السنى القضاء سنة ٢٣٤ للهجرة أمر بوقف مناظراتهم وإلغاء حلقاتهم، حتى لا يفسدوا - فى رأيه - الناس والشباب. وأكبر الظن أنهم عادوا إلى الجامع بعد وفاته سنة ٢٤٠ يتحلقون فيه ويتجادلون. ونمضى إلى قيام الدولة العبيدية فى القيروان، فيحرم خلفاؤها تدريس الشريعة الإسلامية على مذاهب أهل السنة من مالكية وحنفية فى الجامع، ويضطر الشيوخ إلى تدريسها للطلاب فى بيوتهم وحوانيتهم ويظل ذلك إلى مبارحتهم إفريقية التونسية وعاصمتهم المهدية إلى القاهرة، وتعود إلى الجامع حلقات أهل السنة وخاصة المالكية وتظل له مكانته الكبيرة فى الحركة العلمية بالبلاد.

وجامع الزيتونة بتونس ظل مع جامع عقبة فى القيروان يقود الحركة العلمية منذ القرن الأول الهجرى فى إفريقية التونسية، بناه حسان بن النعمان فى ولايته (٧١-٨٥هـ) وجدَّده عبيد الله بن الحبحاب سنة ١١٦هـ/٧٣٤م للهجرة. وأعاد تجديده وزخرفه - كما يقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب - الأمير أحمد بن محمد الأغلبى وأتم بنيانه أخوه زيادة الله سنة ٢٥٠هـ/٨٦٤م. وأضاف إليه بنو خراسان فى إمارتهم لتونس بعض تجديدات، منها زيادة أبوابه إلى اثنى عشر بابا بعد أن كانت ستة، ودخلت عليه تجديدات أخرى فى الحقب التالية. وهو مثل جامع عقبة أخذت الدروس الدينية تعقد فيه منذ تأسيسه، وأخذ شباب تونس يختلفون إلى حلقات شيوخه، وأخذوا يتمون دروسهم فيه ويتخرجون مثل خالد بن أبى عمران التجيبى

قاضى القيروان المتوفى سنة ١٢٥هـ/٧٤٢م وهو أحد من سنُّوا لزملائهم فى تونس والقيروان الرحلة إلى المشرق للتزود من حلقات علمائه، كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع، واقتدى به فى طلب العلم بالمشرق تلميذاه عبدالرحمن بن زياد وعلى بن زياد، والثلاثة فى الذروة من علماء إفريقية التونسية، وأمَّ الطلاب حلقاتهم بتونس من كل فج. وتكثر أسماء فقهاء تونس ومحدثيها فى القرن الثالث الهجرى حتى إذا ولى الفاطميون بأخرة من هذا القرن عطلوا فى جامع الزيتونه دراسات الفقه على أساس مذاهب أهل السنة، حتى إذا انحسر ظلهم عن المهدية وغادروها إلى القاهرة عادت إلى الجامع حلقاته الدينية، وخاصة حلقات المذهب المالكى وشيوخه النابهين. وقد تهيأ له ولجامع عقبة من قديم أئمة فى الفقه، وخاصة الفقه المالكى، وكذلك فى الحديث لايقلون فقها وعلما عن نظرائهم فى البلاد العربية. وقد نال جامع الزيتونة الحظ الأعظم أيام الدولة الحفصية إذ عنيت عناية كبيرة بمبانيه ومكتباته وشيوخه وطلابه.

ومن دور العلم المهمة فى إفريقية التونسية وإن لم تعمر طويلا بيت الحكمة الذى أنشأه إبراهيم الثانى الأغلبى محاكاة لدار الحكمة التى أسسها ببغداد هارون الرشيد ورعاها ابنه المأمون. وكان هذا البيت خاصا بعلوم الأوائل مثل دار الحكمة البغدادية، وللأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب مبحث قيِّم فيه بالقسم الأول من كتابه ورقات عن الحضارة العربية فى إفريقية التونسية، وفيه تحدث عن تأسيس إبراهيم الثانى الأغلبى له، ونظامِه وخزائن كتبه وإمداده سنويا بالعلماء والمخطوطات، إذ كان يرسل سنويا سفارة إلى بغداد لجلب إخصائيين فى علوم الأوائل وشراء مخطوطات الكتب النفيسة فى الطب والفلك والرياضة إلى غير ذلك. ويستظهر الأستاذ عبد الوهاب أن المترجمين فيه ترجموا أحيانا من اللسان اللاتينى بعض الكتب، ويقول إن هذا البيت أوجد النواة لمدرسة الطب القيروانية التى أثرت فى الحركة العلمية بالمغرب، ويذكر أن قسطنطين القسيس المسيحى المولود بقرطاجة سنة ٤٠٦هـ/١٠١٥م والناشىء بالقيروان والمتتلمذ لمشاهير أطبائها نقل كتبهم الطبية المهمة إلى اللسان اللاتينى فى جامعة ساليرنو ومنها انتقلت إلى الجامعات الإيطالية وغير الإيطالية مما كان له أثره العميق فى النهضة الثقافية بالبلاد الأوربية. ونمضى إلى عهد على بنَ يحيى الصنهاجى أمير المهدية (٥٠٩ – ٥١٥ هـ) فنجده ينشىء مدرسة للكيمياء زودها بما تحتاجه من آلات لتحليل المعادن وأدوات مختلفة للتقطير.

وأخذت تونس منذ القرن السابع الهجرى تستكثر – مثل بقية بلدان المغرب – من زوايا المتصوفة،وتبعتها فى ذلك بقية بلدان الإقليم التونسى وهى أشبه بمساجد صغرى تضم مبانى للشيوخ والطلاب وتلقى فيها دروس العلوم الدينية واللغوية، مما جعلها تشارك فى نشر التعليم بمستوياته المختلفة، وكان يلحق بها عادة كتَّاب لتحفيظ القرآن

الكريم . وفى عصر الدولة الحفصية تجد الحركة العلمية تزدهر بفضل رعاية الدولة لها وما أنشأت من مدارس شارك فيها المهاجرون الأندلسيون إلى تونس، وأول مدرسة أسَّسَتْها هذه الدولة مدرسة الشماعية أسسها أبو زكريا أول حكامها، وأسست الأميرة عطف أرملته المدرسة التوفيقية، وأسس أبو زكريا بن السلطان أبى إسحق مدرسة ثالثة هى مدرسة المعرض بسوق الكتبيين، وأسست أخت السلطان أبى بكر مدرسة رابعة، وأسس الوزير ابن تافراكين مدرسة خامسة، وأسس السلطان أبى عبد الله بن أبى فارس المدرسة المنتصرية، وتوفى قبل أن تتم فأتم بناءها أخوه أبو عمرو عثمان على أكمل بناء وأتقنه ووقف عليها وقفا كافيا. ونمضى إلى العهد العثمانى، ويظل للحركة العلمية نشاطها وخاصة حين قدم إلى تونس المهاجرون الأندلسيون سنة١٠١٦هـ/١٦٠٩م ويؤسس مراد باى الثانى مدرسة عرفت بالمرادية فى سوق القماش. وأسس الباى حسين بن على ثلاث مدارس :الحسينية والنخلة والمدرسة الجديدة، وأسس مدارس أخرى بالقيروان وسوسة وصفاقس ونفطة، وأسس ابن أخيه على أربع مدارس: الباشية فى سوق الكتبيين والسليمانية ومدرسة بير الحجار ومدرسة حوانيت عاشور. وبلغت المدارس فى تونس بأخرة من هذا العهد العثمانى عشرين مدرسة.

(د) المكتبات

ومما عمل على أن تظل الحركة العلمية نشيطة فى القيروان وتونس وغيرهما من بلاد إفريقية التونسية على توالى الأزمنة تأسيس المكتبات العامة وفى الجوامع والمدارس والزوايا. وكانت دائما مفتوحة الأبواب للشيوخ والطلاب يفيدون منها، وفى مقدمتها المكتبة العتيقة بجامع عقبة فى القيروان، ولابد أن كان الشيوخ فى القرنين الثانى والثالث للهجرة يهدون إليها نسخة أو أكثر من مؤلفاتهم، واهتم الأغالبة بها ووقفوا عليها كتبا كثيرة، ومثلهم الأعيان وأصحاب اليسار، ولا تزال إلى اليوم تموج بنفائس المصاحف المزخرفة وأمهات الكتب فى الفقه والتفسير والحديث والقراءات واللغة والأدب. ولما أنشأ إبراهيم الأغلبى الثانى بيت الحكمة برقادة أسس فيه مكتبة ضخمة وأخذ يجمع إليها ذخائر الكتب وروائعها فى علوم الأوائل وغيرها من العلوم الدينية واللغوية، وحين بنى عبيد الله المهدى مدينة المهدية نقل إليها كثيرا من روائع الكتب فى هذه المكتبة، وأسس حفيده المنصور مكتبة فى مدينة المنصورية وجلب إليها آلاف المخطوطات، ونقل المعز منها ومن مكتبة جده المهدى كثيرا مما كان بها من المؤلفات معه إلى القاهرة غير أن بقية فيها من الكتب ظل ينتفع بها طلاب العلم والعرفان. ومن المؤكد أن سوق الوراقين الذين ينسخون الكتب كانت رائجة، ويروى عن حمدون بن مجاهد الكلبى أنه قال: «كتبت بيدى ثلاثة آلاف وخمسمائة كتاب» كما يُرْوى عن أبى العرب التميمى صاحب كتاب طبقات علماء إفريقية وتونس أنه قال: «كتبت بيدى أربعة آلاف كتاب» واشتهر كثيرون بتكوينهم لأنفسهم

مكتبات خاصة مثل أحمد بن على بن حميد وكان أبوه من وزراء الأغالبة، وشغف بجمع الكتب، وبيعت مكتبته بعد وفاته بألف ومائتى دينار، وشغف عبد الله بن أبى هاشم التجيبى المتوفى سنة ٣٤٦ للهجرة بنسخ الكتب وجمعها، فلما توفى بلغ وزن ما عنده من الكتب سبعة قناطير جميعها بخطِّه ما عدا كتابين. وكثير من العلماء كانوا يحرصون على جمع الكتب وتكوين مكتبات لهم كبيرة، منهم الطبيب أحمد بن الجزار المتوفى بالقيروان سنة ٣٦٩هـ/٩٧٩م كانت له مكتبة ضخمة، إذ يقول ابن جلجل الأندلسى فى كتابه طبقات الأطباء: إن وزن كتبه التى خلَّفها بلغ عشرين قنطارا. ويروى أن المعز بن باديس (٤٠٦-٤٥٤ هـ) أشفق على أبى بكر عتيق السوسى الفقيه الحافظ الورع حين علم بضيق ذات يده مما لا يمكِّنه من اقتناء الكتب، فأرسل إليه -كما فى كتاب معالم الإيمان- مجموعة كبيرة من أمهات كتب العلوم الدينية حملها إليه عشرون حمَّالا، ومعها رسالة رقيقة يقول له فيها: «هذه كتب فى خزائننا ضائعة. وبقاؤها عندنا مما يزيدها ضياعا، وأنت أولى بامتلاكها للانتفاع بها» فالتمس الشيخ أن يكتب على كل جزء منها أنه موقوف على طلبة العلم، وأودعت جميعا بمكتبة جامع عقبة بالقيروان لينتفع بها الشيوخ والطلاب.

ولم تلبث سيول الأعراب الجارفة من بنى سليم وهلال أن اكتسحت القيروان بأخرة من أيام المعز بن باديس سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٨م وتوقفت بالقيروان الحركة العلمية المزدهرة، وحاول على بن يحيى حفيد المعز الصنهاجى (٥٠٩-٥١٥هـ) أن يستردَّ المجد العلمى لإفريقية التونسية أو شيئا منه، فأنشأ بالمهدية مدرسة للكيمياء، كما مرَّ بنا، وألحق بها مكتبة، غير أنها لم تمكث سوى نحو ربع قرن. وظلت إفريقية التونسية مضطربة نحو قرن نهب فيه-أوضاع-كثير من الكتب النفيسة التى كانت مودعة فى جامعى القيروان والزيتونة، حتى إذا كان عهد الدولة الحفصية وأخذ مؤسسها يستردّ للبلاد ما كان بها من نهضة علمية أسَّس فى القصبة بعاصمة تونس مكتبة ضخمة جمع لها بقايا مكتبات الأغالبة والصنهاجيين، وأضاف إلى ذلك كثيرا من الكتب والمؤلفات ويقال إنها كانت تحتوى ستة وثلاثين ألف مجلد، وظل خلفاؤه يعنون بجمع الكتب لها، وظل الشيوخ والطلاب ينتفعون بكتبها طوال أيام الدولة الحفصية، وكان بها كتب نفيسة كثيرة، حتى لنرى ابن خلدون يذكر أنه بعد تأليفه لمقدمته بقلعة أبى سلامة فى الجزائر احتاج إلى مراجعة بعض أمهات الكتب، فولَّى وجهه إلى تونس ليطلع على ما يريد منها فى المكتبة الحفصية. واشتهر السلطان أبو فارس عبد العزيز أنه حين صار إليه صولجان الحكم سنة ٧٩٦هـ/١٣٠٤م عنى بتأسيس مكتبة تحت الصومعة بجامع الزيتونة وقف كتبها على طلبة العلم، وجعل لها وقتا محدودا للاطلاع فيها كل يوم وجعل عليها قَوَمَةً ومناولين يناولون الكتب للطلبة ويردُّونها إلى مكانها بعد فراغهم منها، واشترط فى وقفيته أن لا يعار منها كتب فى الخارج محافظة عليها وصيانة، وعُنى بعده السلطان أبوعبدالله محمد بن الحسن بتأسيسه لمكتبة بنى لها مقصورة بطرف

صحن جامع الزيتونة، ونقل إليها كتب مكتبة أبى فارس وجعل لها وقتا محددا للاطلاع وقومة ومناولين وسميت نسبة إليه باسم المكتبة العبدلية. وعبث الإسبان حين استولوا على تونس – فى القرن العاشر الهجرى – بهذه المكتبة وعاثوا فيها فسادا، وأنقذ بعضهم منها كتبا أرسل بها إلى مكتبة الفاتيكان بروما، ولا تزال بها إلى اليوم. ولم يكن العثمانيون أصحاب حضارة ولا ثقافة، فلم يعنوا بمكتبات تونس العناية الواجبة، حتى إذا قامت الدولة المرادية أخذ النشاط يعود إلى جامع الزيتونة ومكتبته، واطرد هذا النشاط فى عهد الدولة الحسينية منذ استولى على مقاليد الحكم مؤسسها حسين بن على إذ عين بالجامع أربعين مدرسا فى مختلف العلوم الدينية واللغوية وأجرى لهم رواتب، وانتظم التعليم بالجامع منذ ذلك الحين.

٢

علـوم[١] الأوائل

لا يُذكر أحد من أصحاب علوم الأوائل قبل أيام الدولة الأغلبية إلا ما يتردَّد فى كتب التراجم عن أشخاص يسمونهم فقهاء البدن، ولم يكونوا أطباء بالمعنى الدقيق لكلمة طب، إذ كانوا يعتمدون على بعض المعارف والخبرات البسيطة. وأول ذكر للطب بمعناه الدقيق – وبالمثل لعلوم الأوائل – نلتقى به فى عهد الدولة الأغلبية حينما أنشأ إبراهيم الثانى الأغلبى (٢٦١ – ٢٨٩ هـ) فى عاصمته رقّادة بجوار القيروان بيت الحكمة الذى ألممنا به فيما أسلفنا، إذ استقدم له من بغداد الدارسين للطب ولعلوم الأوائل كى ينهضوا بالدراسة فيه، وكان ممن استجابوا له فى سنة ٢٦٤هـ/٨٧٧م إسحق بن عمران، وكان حاذقا بالطب وعلوم الأوائل، وفيه يقول إبراهيم الرقيق مؤرخ القيروان: «كان إسحق طبيبا حاذقا متميزا بتأليف الأدوية المركبة بصيرا بتفرقة العلل» ويقول ابن جلجل الأندلسى فى كتابه طبقات الأطباء: «به ظهر الطب فى المغرب وعُرفت الفلسفة» ويقول صاعد الأندلسى: «ممن اشتهر بعلم الطب وسائر العلوم المستنبطة من العلم الطبيعى إسحق بن عمران، وكان مقدما فى جودة قريحته وصحة

---

(١) انظر فى علوم الأوائل بإفريقية التونسية كتاب طبقات الأطباء لابن جلجل وطبقات الأمم لصاعد والجزء الأول من البيان المغرب لابن عذارى وأخبار الحكماء للقفطى ومقدمة ابن خلدون، وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ومعالم الإيمان لابن ناجى وبرنشفيك ٢/٣٨٧ وما بعدها. والجزء الخامس من تاريخ الأدب العربى لبروكلمان والقسم الأول من كتاب ورقات عن الحضارة العربية. بإفريقية التونسية والعلم عند العرب لألدومييلى وتاريخ الأدب الجغرافى العربى لكراتشكوفسكى.

علمه، وهو الذى ألف بين الطب والفلسفة بديار المغرب». وواضح أنهم جمعوا له بين الطب والصيدلة والفلسفة وعلوم الطبيعة، وهو - بحق - مؤسس مدرسة الطب وعلوم الأوائل بإفريقية التونسية، وممن تتلمذوا له فى الطب محمد بن الجزار وزياد بن خلفون، وفى الطب والفلسفة إسحق بن سليمان الإسرائيلى، وفى الفلسفة أبو سعيد الصيقلى، وألف مجموعة من الكتب فى الطب وغيره، لم يبق منها إلى اليوم سوى كتابه: الماليخوليا وفى مكتبة ميونخ مخطوطة منه، ويقول ابن جلجل فى هذا الكتاب: «لم يُسْبق إسحق بن عمران إلى مثله، توفى سنة ٢٩٥هـ/٩٠٧م. وكان يعاصره ويعمل معه فى بيت الحكمة فلكى من مواليد القيروان هو إسماعيل بن يوسف، رحل إلى العراق ودرس هناك علم الفلك والتنجيم، ويقول الزبيدى: «كان غاية فى علم النجامة» وحذق فى بغداد صنعة الطلاء المتصلة بتجميل وجوه النساء وأبدانها وتطريتها بصنوف من الطيب والعقاقير، وهو ما يسمى عند الغربيين باسم «الماكياج»، ولعلمه بهذا الطلاء والفلك اشتهر باسم الطلاء المنجم، وكان يشتغل فى بيت الحكمة بالفلك والرياضيات، ولما غلب الفاطميون على القيروان غادرها إلى قرطبة. وهو دليل على أن بيت الحكمة فى رقادة كما كان يعنى بالطب كان يعنى بالرياضيات، ونفس المشرف عليه وهو أبو اليسر رئيس دواوين إبراهيم الثانى الأغلبى كان يعرف بلقب الرياضى مما يدل على علمه بالرياضيات، ولابد أن كان البيت يعنى أيضا بالكيمياء والطبيعيات وأيضا بالفلسفة، فقد وضع إسحق بن عمران فيه أساس الدراسات فى كل ذلك.

ومن الأطباء الذين لمع اسمهم أيام إبراهيم الثانى الأغلبى زياد بن خلفون، وكان طبيبا فى دمنة (مارستان) القيروان، وكان يذهب إليها فى أيام معينة من الأسبوع لزيارة من بها من المرضى، وكان يزور أيضا دار الجُذَماء لرؤية المصابين والكشف عليهم وتتبُّع مسيرة مرضهم، توفى سنة ٣٠٨هـ/٩٢٠م. وفى سنة ٢٩٢هـ/٩٠٤م جلب أحد رسل زيادة الله الأصغر إليه طبيبًا يهوديًّا ناشئًا من مصر يسمى إسحق بن سليمان الإسرائيلى، تتلمذ لإسحق بن عمران فى بيت الحكمة حتى إذا توفى خلفه فيه، وسرعان ما انتهت دولة الأغالبة فخدم العبيديين منذ خليفتهم المهدى إلى المعز، ويقول فيه ابن جلجل: «كان مشهورا بالحذق والمعرفة، جيد التصنيف بالعربية بصيرا بالمنطق يُعْنى بالفلسفة متصرفا فى ضروب المعارف»، وعُمِّر حتى بلغ المائة، وتوفى حول منتصف القرن الرابع، وأسند إليه يهود إفريقية رياستهم الدينية، وله مؤلفات فى الطب بالعربية وتُرجمت سريعا إلى العبرية، ومن مؤلفاته العربية كتاب الحميات وكتاب البول وكتاب النبض وكتاب الترياق وكتاب بستان الحكمة وكتاب الأغذية والأدوية. ويشتهر فى القرن الرابع الهجرى طبيبان يهوديان من تلامذة إسحق بن سليمان الإسرائيلى هما دونش وموسى بن العزار، ودونش من مواليد القيروان بأخرة من القرن الثالث الهجرى تخرَّج على يديه إسحق بن سليمان الإسرائيلى فى الطب والنجوم والحساب والفلسفة، وكان يتقن العربية،

ويقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب إن ابن البيطار ينقل فى كتابه عن الصيدلة أو الأدوية المفردة عن كتاب له يسمى التلخيص وَصْفه فيه لبعض النباتات، مما يدل على أنه كان كتابا فى الأدوية المفردة، ويذكر الأستاذ عبد الوهاب أن له كتابا فى الحساب الهندى وكتابا ثانيا فى الفلك وحركة الكواكب، وموسى بن العزار طبيب إسرائيلى، توفى بعد سنة ٣٦٣هـ/٩٧٣م وقد خدم هو وأبناؤه الدولة العبيدية وخلفاءها فى المهدية وبعد تحولهم إلى القاهرة وله كتاب باسم الأقراباذين أى الصيدلة، مما يدل على اهتمامه بتركيب الأدوية وطرق العلاج بها. ومن أطباء العبيديين الإفريقيين أَعْيُن بن أعين، وكان يحترف فى القيروان طب العيون - ويسميه العرب - الكِحالة، ولما انتقل المعز إلى القاهرة انتقل فى جملته، وكان ماهرا فى معالجة الرمد المزمن، وممن شُفى على يديه شيخ المالكية ابن أبى زيد، وله كُنَّاش فى الطب وكتاب فى أمراض العيون ومداواتها.

وتتوارث الطب فى القيروان -منذ عهد الأغالبة- أسرة بنى الجزار، وأول من اشتهر بالطب فيها أبوبكر بن الجزار تلميذ إسحق بن عمران طبيب بيت الحكمة كما يذكر ابن جلجل، ومثله أخوه إبراهيم وكان يُعْنى بالكحالة أو طب العيون. وابنه أحمد المولود سنة ٢٨٥هـ/٨٩٨م بالقيروان أبرع أطباء الأسرة وقد توفى سنة ٣٦٩هـ/٩٧٩م ومن طريف ما يروى عنه أنه بنى عند باب داره عيادة لاستقبال المرضى، وأفرد فيها قسما خاصا لصيدلية جعل لها فتى يسمى رشيقا، تعدُّ بين يديه جميع الأدوية من معجونات وأشربة ومراهم، وكان إذا فحص المريض ووقف على دائه وصف له فى ورقة ما يناسبه من الأدوية، فيأخذها إلى رشيق ويعطيه دواءه الموصوف، بالضبط كما يحدث فى عصرنا، فللأطباء عياداتهم وللأدوية صيدلياتها. وأحمد بن الجزار يقوم فى الطب بالقيروان مقام ابن سينا فى إيران والزهراوى فى قرطبة. وللأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب ترجمة ضافية له فى القسم الأول من كتابه ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية تحدث فيها عن سيرته ومؤلفاته وفى مقدمتها كتابه: «زاد المسافر وقوت الحاضر» فى علاج الأمراض مجلدان، ويقول عنه إنه «من أهم الكتب الطبية العملية التى وضعها المسلمون»، ويذكر أن قسطنطين المعروف باسم الحكيم الإفريقى عمد - حين رأس كلية ساليرنو فى جنوبى إيطاليا - إلى ترجمة هذا الكتاب إلى اللاتينية ونسبه - كذبا وبهتانا - إلى نفسه، ويلم بما كتب حول الكتاب من بحوث فى العصر الحديث، ويذكر مؤلفات ابن الجزار بأسمائها وقد بلغت سبعة وثلاثين كتابا فى الطب والتاريخ والجغرافيا والأحجار الكريمة، وله بجانب كتبه الطبية الكثيرة كتابان فى الصيدلة بعنوان: «البغية فى الأدوية» و«الاعتماد فى الأدوية المفردة».

وتظل حركة علوم الأوائل التى غرس الأغالبة جذورها نامية فى أرض القيروان الطيبة،

ونلتقى بأبى عبد الله محمد بن يوسف التاريخى القيروانى نزيل الأندلس المتوفى سنة ٣٦٣ فى عصر المستنصر الأموى، وله كتاب عن مسالك إفريقيا وممالكها انتفع به أبو عبيد البكرى فى كتابه «المسالك والممالك»، ويُظِل القيروان عصر الدولة الصنهاجية، وكل كتب القيروان العلمية النفيسة ترجمها القسيس قسطنطين سالف الذكر فى أثناء رياسته لكلية ساليرنو ولِدَيْر جبل كاسينو، ولم يكد يترك كتابا علميا مهما لعلماء القيروان من أمثال إسحق بن عمران وابن الجزار إلا ترجمه هو ورهبان هذا الدير. وانتقلت ترجماته إلى العالم الغربى منذ القرن الحادى عشر الميلادى إذ توفى سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٧م وكان لتلك الترجمات، كما مرَّ بنا، أثر بعيد فى النهضة العلمية الأوربية. وكان يعاصر الرياضى الفلكى الجزائرى ابن أبى الرجال رياضىٌّ قيروانى، هو عبدالمنعم بن محمد الكندى القيروانى المتوفى سنة ٤٦٦هـ/١٠٧٣م وكان إماما فى الرياضيات حاذقا فى فك الأشكال الهندسية لإقليدس. ومرَّ بنا - منذ قليل - أن الأمير على بن يحيى الصنهاجى (٥٠٩-٥١٥هـ) أنشأ مدرسة للكيمياء فى عاصمته المهدية، وقد أشرف عليها كيميائى أندلسى كبير، هو أمية بن أبى الصلت، ولم تدم بعد وفاته طويلا، غير أنها تدل على ما ظلَّ بالمهدية والقيروان من روح علمية حتى مطلع القرن السادس الهجرى.

ونلتقى فى أوائل عهد الدولة الحفصية بعالم تونسى موسوعى كبير هو التيفاشى الكيميائى أحمد بن يوسف المولود بقفصة التونسية سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م وقد ولاه أبوزكريا خطة القضاء ببلدة قفصة وله رحلات كبيرة إلى الشام والعراق وإيران وأيضا مصر واستقرَّ بها حتى توفى بعد سنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م وكان قد تعمق كل فروع الثقافة الإسلامية كما تعمق علوم الأوائل، ورأى أن يضع للدارسين فى وطنه والأوطان العربية موسوعة تضم كل العلوم والفنون والتاريخ، وجعلها فى أربعين كتابا، وأفرد منها كتبًا للطب والطبيعة ومظاهرها وكل ما فيها من نبات وحيوان ومعادن، وفى كل فرع من علم يذكر ما فيه لليونان والفرس وغيرهما من العجم والعرب، ومن كتب هذه الموسوعة كتاب أزهار الأفكار فى جواهر الأحجار وهو فى علم المعادن، وقد نشر فى هولانده بالقرن الماضى مع ترجمة لاتينية، وحققه فى مصر الدكتور محمد يوسف حسن ونشره مع مقدمة تحليلية. وله كتاب عن الغناء والموسيقى وآلات الطرب سماه: «متعة الأسماع فى علم السماع»، وفيه تحدث عن تاريخ الموسيقى عند العرب وفى إفريقية التونسية وفى الأندلس على مر العصور حتى زمنه، وهو طرفة نفيسة، ونلتقى فى عهد المستنصر بطبيبه: ابن أندراس محمد بن أحمد المتوفى سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٦م وكانت له مشاركة فى الرياضيات والمعقولات، ويشتهر حينئذ آل الصقلى الزيات بالطب وابن الكماد الرياضى بوضعه الجداول الفلكية قبل سنة ٦٧٩هـ/١٢٨١م. وكان يلمع من حين إلى حين عالم بعلوم الأوائل وخاصة فى مجال الطب لحاجة الناس والبيمارستانات إليه، ونضرب مثلا لهم عبدالسلام بن ابراهيم الزيات الصقلى المتوفى سنة ٧٢٢هـ/١٣٢٣م وقد ألف ابنه أحمد المتوفى سنة ٨٢٠هـ/١٤١٧م للسلطان

الحفصى أبى فارس عبدالعزيز - كما فى الضوء اللامع للسخاوى - مختصرًا فى الطب بوّبه إلى ثمانين بابا، ونضرب مثلاً ثانيا بطبيب هو عبدالرحمن بن أبى سعيد الصقلى المتوفى سنة ٨٧٢هـ/١٤٦٧م ومثلا ثالثا هو أحمد الخميرى من أطباء تونس فى القرن العاشر الهجرى وله كتاب فى الطب والأطباء يسمى تحفة القادم.

ولم نعرض حتى الآن لعلم الجغرافية فى تونس، وتلقانا فى مقدمة ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٦م فصول مختلفة فى حديثه عن العمران إذ يفرد فصلا للحديث عن العمران فى الأرض وما بها من البحار والأنهار والأقاليم، وهو يعدها كرة، نصفها يابس ونصفه فقط المسكون أو المعمور، ويتحدث عن أقاليمها السبعة وانقسام كل إقليم إلى عشرة أجزاء، ويقول صراحة إنه ينقل عن بطليموس الجغرافى المصرى القديم والإدريسى فى كتابه المشهور: نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق الذى ألفه فى نحو منتصف القرن السادس لروجار الثانى النورمانى ملك صقلية، ويكمل حديثه الجغرافى فى ذلك عن الربع الشمالى من الأرض الأكثر عمرانا من الربع الجنوبى ويذكر مقتطفات من كتاب الإدريسى، ويضيف بعض معلومات عن جزر المحيط الأطلسى والسودان، وينقل عن ابن سعيد الجغرافى الأندلسى. وأهم من هذا الحديث الجغرافى الذى غلب عليه فيه النقل حديثه الذى يعد سابقا فيه تأثير البيئة الجغرافية فى حياة البشر وتأثير الهواء فى ألوانهم والجوع والخصب فى أبدانهم وأخلاقهم، وبجانب هذه الجغرافيا الاجتماعية عنده جغرافيا اقتصادية يصور فيها العمران البدوى والحضرى، ونصف الحضرى والمعاش وألوانه. وهذه الوجوه من الجغرافيا الاقتصادية والاجتماعية تعد الجوانب الجغرافية عنده.

ومعروف أن كثيرين من جغرافيى العرب عُنوا بوضع خريطة للعالم، وكان بطليموس الجغرافى المصرى القديم قد وضع خريطة للعالم تدارسها علماء العرب فى عصر المأمون ووضعوا للعالم خريطة أكثر دقة، ومازال جغرافيو العرب يضعون خرائط على هدى خريطة المأمون حتى جاء الإدريسى المذكور آنفا ووضع خريطته الكبيرة التى تراعى درجات الطول والعرض وقد أهداها إلى روجار الثانى الملك النورمانى. ونجد جيلين فى أسرة الشرفى بصفاقس فى الاقليم التونسى يعنيان بوضع خرائط للعالم ما بين عامى ٩٥٧هـ/١٥٥٠م و١٠٠٩هـ/١٦٠٠م تعد صورًا منقحة لخريطة الإدريسى كما يقول كراتشكوفسلى فى كتابه تاريخ الأدب الجغرافى العربى، وقد وضع أولهم: على بن أحمد الشرفى الصفاقسى سنة ٩٥٨هـ/١٥٥١م أطلسا فى ثمانى ورقات يصور بها سواحل البحر المتوسط وهى محفوظة فى المكتبة الأهلية بباريس. وفيها خريطة للقبلة وُضّحت عليها مواقع جميع البلدان بالنسبة للكعبة، ويليها خريطة عامة للعالم ثم خرائط لسواحل إسبانيا وجزر البليار وسواحل إيطاليا ومعها جزيرتا كورسيكا وسردانيا والساحل

المقابل لإفريقيا ثم خرائط لسواحل البحر الأسود والساحل الجنوبى لآسيا الصغرى والشام ومصر وخريطة لليونان وجزر الأرخبيل وكريت وساحل إفريقيا المقابل لها، وخريطة لبرقة وطرابلس وتونس. وفى أوكسفورد خريطة للعالم رسمها أحد أبناء الأسرة سنة ٩٧٩هـ/١٥٧١م. ويذكر كراتشكوفسكى خريطة للعالم لأحد أبناء الأسرة سنة ٩٨٦هـ/١٥٧٩م. وكان آخرهم محمد بن على الشرفى الصفاقسى وله خريطة للعالم رسمها سنة ١٠٠٩هـ/١٦٠٠م. وتدل هذه الخرائط على أن خريطة الإدريسى تحولت عند هذه الأسرة إلى أطالس وخريطة حائطية، وهو بلا ريب عمل جغرافى جليل لتونس.

٣

علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد(١)

مرَّ بنا حديث عن نشأة علوم اللغة والنحو بالقيروان وأنها اعتمدت على بعض رواة اللغة والشعر مثل أمان بن الصمصامة بن الطرماح، كما اعتمدت على بعض نحاة كوفيين وافدين مثل قتيبة الجعفى وعياض بن عوانة، وسرعان ما ظهر جيل قيروانى خالص يعنى باللغة والشعر مثل أبى محمد عبد الله بن محمود المكفوف المتوفى سنة ٣٠٨هـ/٩٢٠م وأصله من سُرْت بليبيا، ويقول القفطى: «كان من أعلم خلق الله تعالى بالعربية والغريب والشعر وتفسير المشروحات وأيام العرب وأخبارها ووقائعها.. وله كتب كثيرة أملاها فى اللغة والعربية والغريب، وله كتاب فى العروض يفضله أهل العلم على سائر الكتب المؤلفة فيه لما بيَّن فيه وقرَّب، وعليه قرأ الناس المشروحات، وإليه كانت الرحلة من جميع إفريقية والمغرب، وله أشعار فصيحة وأراجيز غريبة، وله كتاب فى شرح صفة أبى زبيد الطائى للأسد جوَّد فيه وحسَّنه. وكان يعاصره عبد الملك بن قَطَن المَهْرىّ القيروانى شيخ أهل اللغة والعربية وراوى القوم وعميدهم ورئيسهم كما يقول القفطى وكان من أحفظ الناس لأنساب العرب وأشعارهم ووقائعهم وأيامهم، وكانت الأشعار المشروحة تُقْرأ عليه مجردة من الشرح فيشرحها ويفسر معانيها، فلما دخلت هذه الأشعار مشروحة إلى القيروان نظر طلبة العلم من العربية فيها فلم يجدوا فى شرحه خلافا لما قال أصحاب الشروح ولا وجدوا عليه فى روايته وشرحه اللغوى شيئا من الخطأ، وهو

(١) راجع فى تراجم هذه الموضوعات طبقات النحويين واللغويين للزبيدى وإنباه الرواة للقفطى ومعجم الأدباء لياقوت وانظر فى عبدالدايم بن مرزوق بغية الملتمس للضبى والصلة لابن شكوال وراجع الأنموذج لابن رشيق فى المنوه بأشعارهم منهم وكذلك ابن الأبار فى الحلة السيراء وابن عذارى فى البيان المغرب وانظر المؤلفات المذكورة للحصرى وابن شرف وابن رشيق فى تراجمهم وراجع كتابنا المدارس النحوية فى ابن عصفور ومراجعه.

تلميذ لأمان بن الصمصامة وعياض بن عوانة وقتيبة الجعفى وكثير من الأعراب مثل أبى المنيع الأعرابى وغيره، غير أنه عُمِّر عمرا طويلا، إذ توفى سنة ٣٥٦هـ/٩٦٦م. ومن معاصريه أحمد بن إبراهيم بن أبى عاصم أبو بكر اللؤلؤى المتوفى سنة ٣١٨هـ/٩٣٠م وكان من العلماء النقّاد فى العربية والغريب والنحو والقيام بأكثر دواوين العرب، وهو تلميذ أبى محمد المكفوف المذكور آنفا، وألَّف كتابا فى الضاد والظاء فحسَّنه وبيَّنه. ولم تلبث القيروان أن أخرجت لغويا كبيرًا طار اسمه فى الآفاق هو القزَّاز محمد بن جعفر التميمى المتوفى سنة ٤١٢هـ/١٠٢١م درس على شيوخ القيروان، ثم رحل إلى العراق فدرس على أئمة اللغة والنحو، ونزل فى القاهرة أيام العزيز نزار (٣٦٥ - ٣٨٦هـ) وعُرف فضله، فعين فى دواوين العزيز، وألف له - استجابة إلى طلب منه - كتابا فى الحروف التى ذكرها النحاة فى قولهم: إن الكلام اسم وفعل وحرف جاء لمعنى على أقصد سبيل وأقرب مأخذ وأوضح طريقة، فيبين معانى الحروف مع ترتيبها على حروف المعجم، فبلغ الكتاب ألف ورقة، وقدم إلى العزيز صورةً منه فأعجبه ورضيه. وتوفى العزيز فعاد إلى القيروان وشُغف به وبمجالسه الطلاب والمتأدبون لعلمه اللغوى الغزير وحسن تذوقه للأدب، ولم يكن ذواقة للأدب والشعر فحسب، بل كان أيضا ناقدًا بصيرًا وشاعرًا مجيدًا، وتخرج على يديه ابن شرف القيروانى الشاعر المبدع وابن رشيق الشاعر والناقد الممتع. وله فى اللغة معجم سماه «جامع اللغة» وهو معجم كبير رتبه على حروف المعجم، ويقول ياقوت فى معجم الأدباء عنه إنه يقارب فى الحجم معجم التهذيب للأزهرى، وله فى الضاد والظاء وتبادلها فى الكلمات مبحث كبير فى ثلاثة أجزاء، وله المثلث فى اللغة، وله كتاب ما أُخِذ على المتنبى من اللحن والغلط، وكتاب العشرات يذكر فيه اللفظ ومعانيه المترادفة، وفى دار الكتب المصرية منه مخطوطة، وله إعراب مقصورة ابن دريد وشرحها، وكتاب الحلى والشيات فى أوصاف الآدميين طُبع فى صيدا بلبنان، وله شرح رسالة البلاغة فى مجلدات، ومن كتبه الطريفة ضرائر الشعر، وهو دراسة تفصيلية لما يجوز للشاعر استعماله من ضرورات الشعر، وهو مطبوع بتونس. ونلتقى بتلميذه الحسن بن محمد التميمى اللغوى النسابة، وكان القزاز قد عنى به محبة له، فبلغ به نهاية الأدب وعلم الخبر والنسب، وكان شاعرًا نابها قوى الكلام خبيرًا باللغة، وكان شديد الشغف بديوان ذى الرمة، وعنه أخذه الناس كما أخذوا دواوين الجاهلية. وكان يعاصره إسماعيل بن إبراهيم القيروانى اللغوى، تقدَّم فى علم الغريب وطلبه وعلو سماعه، وكان يبحث عن الشذوذ اللغوى بحثا شديدًا، وإلى أمَّهات كتبه ترجع - كما يقول القفطى - جميع النسخ وبها تُقابَل وعليها تُصْلح، وهو من مدَّاح المعز بن باديس وفيه يقول:

بَـذَّ الملوك جـلالـةً ومهـابـةً   وعَلا على النُّظَراء والأشكالِ

ونلتقى بعبد الدائم بن مرزوق المتوفى سنة ٤٧٢هـ/١٠٧٩م كما فى بغية الملتمس للضبى،

درس العربية على شيوخ القيروان وارتحل إلى المشرق وتجوَّل فى حلقات شيوخه بالبصرة وبغداد، ودخل الشام والتقى بأبى العلاء المعرى، وأخذ عنه ديوانيه: سقط الزند واللزوميات، وعاد إلى بلده، ولم تلبث هجرة الأعراب أن اكتسحت القيروان فهاجر إلى الأندلس، ونزل المَرِيَّة وإشْبيلية، وهناك أخذ يلقى دروسه، ويروى أشعار أبى العلاء، وممن تتلمذ عليه عالم الأندلس اللغوى ابن السِّيد البطليوسى بشهادة ما يرويه عنه فى كتابه: «الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب» كما لاحظ الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب، ويقول إنه أول من أدخل شعر أبى العلاء إلى إفريقية والأندلس، وأكبر الظن أن نسخة سقط الزند التى شرحها ابن السيد وطبعت مع شروح السقط الأخرى فى القاهرة مأخوذة عن نفس المخطوطة التى حملها ابن مرزوق عن أبى العلاء، وكأنه شرحه بمجرد أن سمعه من ابن مرزوق، وأظن نفس الظن إزاء شرح ابن السيد لطائفة كبيرة من شعر اللزوميات المطبوع فى جزءين فى القاهرة، إذ اعتمد فى هذا الشرح - فيما أظن - على رواية اللزوميات التى سمعها عن ابن مرزوق، والأبيات - فى رواية ابن السيد - تصحح كثيرًا من أبيات اللزوميات المنشورة، ولعل محققا تونسيا محظوظًا يجد فى جامع الزيتونة أوجامع عقبة مخطوطة من اللزوميات مأخوذة - أو مروية - عن نسخة ابن مرزوق قبل مبارحته القيروان إلى الأندلس، ويمكن التأكد من ذلك بمراجعتها على شرح اللزوميات لابن السيد. وله معجم فى اللغة وشرح على ديوان المتنبى.

ويلقانا فى أوائل عهد الدولة الحفصية محمدبن أبى‌الحسين المتوفى سنة ٦٧١هـ/١٢٧٣م حاجب أبى‌زكريا مؤسس الدولة ووزير ابنه المستنصر، وهو من أسرة بنى سعيد الغرناطية، وكان لغويا وشاعرًا وكان ابن سيده الأندلسى قد رتب معجمه «المحكم» على أساس مخارج الحروف طبقا لمعجم العين للخليل بن أحمد، فقلب ترتيبه إلى ترتيب معجم الصحاح للجوهرى، وسمى صنيعه «ترتيب المحكم». وكان يعاصره عالم لغوى من علماء الهجرة الأندلسية فى القرن السابع الهجرى هو أحمد بن يوسف اللَّبْلى الأندلسى المتوفى بتونس سنة ٦٩١هـ/١٢٩٢م وله على كتاب الفصيح لثعلب شرح سماه: «تحفة المجد الصريح فى شرح كتاب الفصيح» ويقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب إنه ينقل فيه مرارًا عن معجم القزَّاز: «جامع اللغة» وعن كتابه: «المثلث» كما ينقل فيه أيضا عن معجم ابن مرزوق، وكأن أعمال ابن مرزوق - وفى ظننا ما رواه من شعر أبى العلاء - كان لا يزال محفوظا فى موطنه حتى نهاية القرن السابع الهجرى.

وكل من نظمناهم فى سلك اللغويين - أو كثرتهم - يوصفون فى كتب التراجم بأنهم كانوا نحاة كما كانوا لغويين غير أننا لاحظنا أنه غلبت عليهم مباحث اللغة، ومرَّ بنا فى الحديث عن النشأة اللغوية أنه كان بين اللغويين نحويان كوفيان استوطنا القيروان وقد خلف بعدهما جيل

قيروانى خالص عُنى بالنحو وتعليمه، منه حمدون محمد بن إسماعيل المتوفى بعد المائتين، وفيه يقول الزبيدى: «كان مقدما فى العربية والنحو وكان يقال إنه أعلم بالنحو خاصة منه باللغة، لأنه كان يحفظ كتاب سيبويه ويستظهره» ويقول القفطى له كتب فى النحو وأوضاع فى اللغة، وكان أحد المتشدِّقين فى كلامه والمتقعِّرين فى خطابه. وكان يعاصره أحمد بن أبى الأسود النحوى القيروانى كان يقرئ النحو واللغة بمسجد قرب داره، يقول الزبيدى عنه: «له تصانيف فى النحو والغريب ومؤلفات حسان، ويقول القفطى: كان غاية فى علم النحو واللغة. ومن معاصريه عبد الله بن أبى حسان اليحصبى المتوفى سنة ٢٢٧هـ/٨٤١م رحل إلى العراق وأخذ النحو عن أعلامه فى البصرة والكوفة، وعاد إلى القيروان فأفاد الطلاب بما حمل من النحو وقواعده. وينشط علماء النحو فى القرنين الثالث والرابع للهجرة بالقيروان، ومنهم السَّبخى أبو على النحوى الضرير المتوفى سنة ٣٤٢هـ/٩٥٣م وينوه المالكى فى كتابه: «رياض النفوس» بمعرفته الواسعة باللغة والنحو وله كتاب أقيسة الأفعال. وكان يعاصره ابن الورّان إبراهيم بن عثمان المتوفى سنة ٣٤٦هـ/٩٥٧م يقول الزبيدى عنه: «إمام الناس فى النحو (بالقيروان) وكبيرهم فى اللغة وعظيمهم فى العربية والعروض، وانتهى فى اللغة العربية إلى ما لعله لم يبلغه أحد قبله، وأما فى زمانه فما يشك فيه أحد، حفظ كتاب سيبويه وكتاب المصنف فى غريب الحديث لأبى عبيدالقاسم بن سلام وإصلاح المنطق لابن السِّكِّيت ومعجم العين للخليل بن أحمد وغير ذلك من كتب اللغة ثم كتب الفرّاء، وكان يميل إلى قول أهل البصرة مع علمه بقول الكوفيين، وكان يفضِّل المازنى فى النحو وابن السِّكِّيت فى اللغة، وكان يستنبط من مسائل العربية والنحو أمورًا لم يتقدمه فيها أحد. واشتهر بعده عبد العزيز بن أبى سهل النحوى اللغوى القيروانى الضرير المتوفى بالقيروان سنة ٤٠٦هـ/١٠١٥م وكان شاعرًا مطبوعا، ويقول ابن رشيق فى وصفه: «كان مشهورًا بالنحو واللغة جدًّا مفتَقَرًا إليه فيهما بصيرًا بغيرهما من العلوم.. ولا غنى لأحد من الشعراء الحذاق عن العرض عليه والجلوس بين يديه، ولم ير ضرير أطيب منه نفسا ولا أكثر حياء. وكان يعاصره عبد العزيز بن خلوف النحوى، نوّه ابن رشيق بشعره وقال له فى سائر العلوم حظوظ وافرة، وحقوق ظاهرة، وأغلبها عليه علم النحو والقراءات وما تعلق بها، وفيه ذكاء يخرج عن الحد المحدود. ونلتقى بعلى بن فضال المتوفى ببغداد سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م وهو من سلالة الفرزدق الشاعر الأموى المشهور ومن أبناء القيروان النابهين فى عصره غادرها مع الهجرة الأعرابية المشهورة إلى الشرق حتى نيسابور وغزنة، وعاد إلى بغداد، فضمّه نظام الملك إلى مدرسته النظامية بها حتى وفاته، وهو مفسر كبير للذكر الحكيم، وله مصنفات مختلفة فى الأدب والتاريخ، وكان إلى ذلك عالما كبيرًا فى النحو واللغة، ومما صنّفه فى النحو «إكسير الذهب فى صناعة الأدب» فى عدة مجلدات وكتاب العوامل والهوامل وكتاب الإشارة إلى تحسين العبارة وشرح عنوان الإعراب والمقدمة وشرح معانى الحروف وغير ذلك وله كتاب فى العروض.

ودرّس مثله فى النظامية ببغداد معاصره ومواطنه عبد الله بن مسلم القيروانى النحوى أبو محمد المتوفى سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م ويقول القفطى: كان له معرفة بالنحو واللغة. وتكاد تتوقف الحركة العلمية فى الدراسات النحوية نحو قرن أو تزيد بسبب الهجرة الأعرابية وماحدث بعدها من حروب قراقوش وابن قراتكين وابنى غانية: على ويحيى.

وتنهض بالبلاد الدولة الحفصية ويعود إلى الحركة العلمية نشاطها، وخاصة فى مدينة تونس عاصمة تلك الدولة، ويمدُّها المهاجرون من الأندلس فى صدر تلك الدولة من كبار العلماء والأدباء بوقود أدبى وعلمى جزل، فتزداد اشتعالا وضياء ونورا. ومن صفوة من هاجر إليها من نحاة الأندلس إمام كبير من أئمة النحو هو ابن عصفور الإشبيلى أبوالحسن على بن مؤمن المولود سنة ٥٩٧هـ/١٢٠٠م والمتوفى سنة ٦٦٩هـ/١٢٧٠م وقد رحَّب به مؤسس الدولة أبو زكريا واتخذه أستاذا ومعلما لابنه وولى عهده المستنصر، وأسند إليه التدريس فى جامع الزيتونة وفى مدرسته الشمَّاعية، وكان يدرس للطلاب كتاب سيبويه وكتاب الجمل للزجاجى والإيضاح لأبى على الفارسى وله عليهما شرحان، كما كان يدرس لهم مصنفيه البديعين: المقرب فى الصناعة النحوية والممتع فى الصناعة الصرفية واتُّخذت أعماله فى عصرنا موضوعات للحصول على الدرجات العلمية فى الجامعات العربية لحسن عرضه لمسائل النحو وأبوابه حدودا وترتيبا وتقسيما، وفى كتابنا المدارس النحوية ترجمة له وبيان لبعض آرائه التى انفرد بها بين النحاة، وأخذ عنه فى تونس النحو تلاميذ كثيرون بحيث أصبحت له فيها مدرسة كبيرة، وتذكر أسماء نحاة فى القرون التالية، ومن أهمهم فى العهد العثمانى محمد فتاتة الفقيه فى القرن الثانى عشر الهجرى كان يقرئ الطلاب فى جامع الزيتونة مغنى ابن هشام فى النحو ولعبد القادر الجبالى شرح على شواهد المغنى فى أربع مجلدات ولمحمد سعادة حاشية على الأشمونى سماها تنوير السالك من شرح منهج السالك إلى ألفية ابن مالك، ولمحمد بن على بن سعيد الحجرى المتوفى سنة ١١٩٩هـ/١٧٨٤م حاشية مطولة على شرح الأشمونى لألفية ابن مالك.

ومنذ نزول العرب واستيطانهم فى إفريقية التونسية كان كثيرون منهم ينشدون الأشعار العربية ويروونها للأجيال الناشئة، وما يتقدم القرن الثانى الهجرى حتى تتردد فى كتب التراجم أسماء رواة للشعر كان يلتف حولهم الشباب فى القيروان وغير القيروان لكتابة الأشعار وتدوينها، نذكر منهم سليمان بن حُميد الغافقى، وله ترجمة فى كتاب الحلة السيراء لابن الأبار، وهو ممن قدموا مع الحملات التى كان يوجهها الأمويون إلى القيروان والمغرب، وله مشاركة فى الأحداث التى مرت بنا أيام عبدالرحمن بن حبيب وقتل أخيه إلياس له وعاش إلى أيام يزيد ابن حاتم المهلبى (١٥٥-١٧٠هـ) ويقول ابن الأبار فى التعريف به: «فارس العرب قاطبة بالمغرب فى عصره وأحسن الناس لسانا وأبلغهم، إلى معرفة بأيام العرب وأخبارها ورواية لوقائعها

وأشعارها.. حُملت عنه نوادر مستطرفة وحكايات مستملحة، وروى له ابن الأبار شعرًا فى أحد مواقفه مع بعض ثوار البربر. ومن هؤلاء الرواة المبكرين للأشعار فى القيروان الحكم بن ثابت السعدى، دخل إفريقية - كما يقول ابن عذارى - سنة ١٤٤هـ/٧٦١م مع جيش محمد بن الأشعث للقضاء على ثورة الإباضيين فى طرابلس وتونس لعهد المنصور، وكان أحد قواد الجيش وبعد القضاء على تلك الثورة سكن القيروان، حتى إذا تولى الأغلب التميمى بعد ابن الأشعث شهد معه حرب بعض الثوار من البربر سنة ١٥٠هـ/٧٦٧م وهو من سلالة سلامة بن جندل الشاعر الجاهلى المشهور، وكان شاعرا وراوية كبيرًا للشعر، روى عنه أبناء القيروان كثيرا من أشعار الجاهليين والمخضرمين. ومن هؤلاء الرواة للأشعار الحسن بن منصور بن نافع المذْحِجِىّ، وفيه يقول ابن الأبار: «كان بصيرا باللغة نافذًا فى النحو عالما بأيام العرب وأخبارها ووقائعها وأشعارها». وحرى أن نضيف إلى هؤلاء الرواة المبكرين للأشعار الجاهلية والإسلامية المعمر بن سنان التيمى القادم مع يزيد بن حاتم المهلبى فى ولايته، وقد ذكرناه فى نشأة العلوم اللغوية، وأيضا لابد أن نضيف كبار الشعراء الوافدين على يزيد بن حاتم لمديحه مثل ربيعة الرَّقِّىّ الشاعر العباسى النابه وبالمثل من وفد عليه من اللغويين والنحاة أمثال يونس بن حبيب عالم البصرة النحوى واللغوى الكبير، فهؤلاء جميعا شاركوا فى رواية الشعر الجاهلى والإسلامى لشباب القيروان.

ومر بنا أن عبد الملك بن قطن كان يشرح أشعار الجاهليين والإسلاميين ويفسِّر معانيها وأنها حين نُقلت إلى القيروان ومعها شروحها وجد طلابه أن هذه الشروح تطابق شروحه. ولم تُنْقَلْ إلى القيروان فى القرن الثالث الهجرى الدواوين القديمة الجاهلية والإسلامية فقط، بل أخذت تنقل أيضا دواوين الشعراء العباسيين ويشهد لذلك ما رُوى عن أبى اليسر الشيبانى رئيس ديوان الإنشاء المتوفى سنة ٢٩٨هـ/٩١٠م من أنه أدخل إلى إفريقية رسائل المحدثين (العباسيين) وأشعارهم، وهو لم يدخل دواوين أمثال بشار وأبى تمام فحسب، بل أدخل أيضا رسائل أمثال عبدالحميد الكاتب وابن المقفع والجاحظ وسهل بن هرون وغيرهم، ومثل ذلك أصبح منذ القرن الثالث الهجرى مدًّ أيدى المتأدبين فى القيروان وتلقاء أبصارهم عن طريق من كانوا يرتحلون إلى المشرق-أويفدون منه-ويحملون نفائسه من الدواوين والرسائل. ومَنْ يقرأ المنتخبات الرائعة من الشعر والنثر التى جمعها أبو إسحق إبراهيم الحصرى المتوفى سنة ٤١٢هـ/١٤٢١م باسم «زهر الآداب وثمر الألباب» و «جمع الجواهر فى الملح والنوادر» يعرف أنه لم يكن فى المشرق ديوان لشاعر عباسى ولا رسائل لكاتب أموى أو عباسى ولا مجموعة فى الشعر أو فى النثر، لم يكن شىء من ذلك كله غائبا عن القيروان وأديبها الحصرى، فقد اختار فى مجموعتيه السالفتين أروع وأبدع ما للمحدثين العباسيين من شعر ونثر وأخبار ونوادر وملح كما يقول، حتى لنجد عنده قطعا من نصوص أدبية مفقودة إذ نراه مثلا يختار لسهل بن هرون قطعا

من قصصه الطريفة التى صاغها محاكاة لقصص كليلة ودمنة، والتى لايوجد منها الآن فى المشرق شيء. وقد ولد بقرية تسمى الحصْر بجوار القيروان فنُسب إليها، وهو أستاذ علمين من أعلام الأدب فى القيروان: ابن رشيق وابن شرف، وكان ودودا ومألفا لشباب القيروان ومتأدبيها، فكانوا يجتمعون عنده ويأخذون عنه كما قال ابن رشيق وقال عنه أيضا: إنه كان شاعرا ناقدًا عالما بتنزيل الكلام، وقد افتتح به كتابه الأنموذج فى شعراء القيروان، وذكره مرارا فى كتابه العمدة، واستشهد فيه ببعض أشعاره، وكان بحق - كما قال ابن رشيق - ناقدًا ذواقة للأدب، فجمع - وخاصة فى زهر الآداب - فرائد بديعة من شعر المحدثين ونثرهم وأخبارهم، وكأنه أراد بذلك أن يكمل كتاب البيان والتبيين للجاحظ، إذ رآه يشغله بكلام الإسلاميين والجاهليين، ولايعنى بالعباسيين العناية الكافية فرأى أن يكمل مختاراته الجاهلية والإسلامية بمختاراته الشعرية والنثرية للعباسيين، ولاحظ ذلك ابن بسام فى ترجمته بالقسم الرابع من كتابه الذخيرة. فقال: «عارض الحصرى أبا بحر الجاحظ بكتابه الذى وسمه بزهر الآداب فلعمرى ما قَصُر عن مداه ولا قصرتْ خُطاه، ولولا أنه شغل أكثر أجزائه وأنحائه بكلام أهل العصر (يريد العباسيين) دون كلام العرب لكان كتاب الأدب، لاينازعه ذلك إلا من ضيَّق عينيه الرمد، وأعمى بصيرته الحسد». وهى شهادة قيمة بروعة الكتاب وروعة ما يحمل من النصوص العباسية شعرًا ونثرًا. وربما كانت أهم مجموعة أدبية بعده فى القطر التونسى مجموعة الحماسة لأبى الحجاج يوسف بن محمد البيَّاسى الأندلسى نزيل تونس المتوفى سنة ٦٥٣هـ/١٢٥٦م وقد كتبها بتونس سنة٦٤٦هـ/١٢٤٨م وقرأها الطلاب عليه، ومنها مخطوطة فى دار الكتب المصرية.

وحاول ابن شرف القيروانى الشاعر المتوفى سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٧م بالأندلس أن يكون له نصيب فى عالم النقد، فكتب مبحثا يسمى تارة أعلام الكلام، وتارة رسائل الانتقاد، وطبع بالعنوانين، تناول فيه الشعر والشعراء منذ الجاهلية إلى زمنه، وهو ملاحظاتٍ مجملة أكثر منه آراءً نقدية، أو هو انطباعات عن الشعراء فى جمل مسجوعة، وكأنه يؤلِّف مقامة - لامبحثا نقديا - عن الشعراء، ومن قوله عن أبى نواس: «أول الناس فى خرم القياس. وذلك أنه ترك السيرة الأولى وتنكَّب عن الطريقة المثْلى، وجعل الجد هزلا صادف الأفهام قد كلَّت.. فتهادى الناس شعره، وأغلوا سعره، وشُغفوا بأسخفه، وكلفوا بأضعفه» ويقول عن ابن الرومى: «شجرة الاختراع، وثمرة الابتداع، وله فى الهجاء ما ليس له من الاطراء، فتح فيه أبوابا، وخلع منه أثوابا، وطوق فيه رقابا، يطول عليها حسابه، ويمحق فيها ثوابه» وكأنه يقيس هجاءه بمقياس خلقى لا بمقياس فنى، ويقول فى المتنبى: «شُغلت به الألسن، وسَهِرتْ فى أشعاره العيون الأعينْ، وكثر الغائص فى بحره، والمفتش فى قعره عن جُمانه (لؤلئه) ودُرِّه، وله شيعة تغلو فى مدحه، وعليه خوارج تتعاون فى جرحه»، وهكذا آراؤه فى الشعر انطباعات لا تحمل تعليلا ولا دليلا.

ولم تعن القيروان بالبلاغة كما عنيت بالنقد، وأكبر نقاد القيروان وبلاغييها المعدودين فى النقاد والبلاغيين الكبار ابن رشيق المتوفى بمازر فى صقلية سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٣م وله كتاب «قراضة الذهب فى صناعة الأدب» وهو فى السرقات الشعرية، وله كتاب «العمدة فى صناعة الشعر ونقده»، وهو يجمع فيه بين النقد والبلاغة، ويقول فيه القفطى: «اشتمل على مالم يشتمل عليه تصنيف من نوعه وأحسن فيه غاية الإحسان» وقال القاضى الفاضل: «هو تاج الكتب المصنفة فى هذا النوع» وقال فيه ابن خلدون فى مقدمته: «هو الكتاب الذى انفرد بهذه الصناعة - يريد صناعة الشعر - وإعطائها حقَّها، ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله». وهي شهادة قيمة. وكل من يقرأ الكتاب يعرف بوضوح أن ابن رشيق وضع بين يديه كل ما أنتج المشرق من مباحث ومؤلفات فى النقد والبلاغة من مثل البيان والتبيين للجاحظ وطبقات فحول الشعراء لابن سلام والشعر والشعراء لابن قتيبة والبديع لابن المعتز ونقد الشعر لقدامة ونقد النثر لابن وهب والموازنة للآمدى والصناعتين لأبى هلال العسكرى وكتابات الحاتمى فى البديع والبلاغة وأضاف إلى ذلك كتاب الممتع فى علم الشعر وعمله لعبد الكريم النهشلى، وسوَّى من ذلك كله - وربما اطلع على كتب أخرى - كتابه الذى ذاع وشاع فى العالم العربى غربًا وشرقًا منذ تأليفه إلى اليوم لدقة منهجه وحسن تبويبه وترتيبه، ولما يحمل من مواد طريفة تحيط بالشعر وصُنعه ونقده وفنون بلاغته، وقد بدأه بالدفاع عن الشعر والشعراء واضعا الشعر فى مرتبة بلاغية أعلى من مرتبة النثر، ويفرد بابا لبلاغة اللفظ والمعنى قائلا إنهما متلازمان، فاللفظ جسم وروحه المعنى، ويقول إن للشعر لغة خاصة به، ويعرض للمكثرين والمقلين من الشعراء وللمطبوعين والمتكلفين ولأصحاب مدرسة البديع وللوزن والقافية وعمل الشعر وشحذ القريحة له ولافتتاح الشعراء قصائدهم بالنسيب وللمبدأ والخروج من فاتحة القصيدة إلى موضوعها وللمخترع فى الشعر والبديع، ويفصِّل القول فى الاستعارة والتشبيه أهم ألوان البيان ويفيض إفاضة واسعة فى ذكر ألوان البديع ومحسناته متأثرا بأبى هلال العسكرى فى كتابه الصناعتين والحاتمى فى كتابه حلية المحاضرة، وقد اعتمد على الكتاب الأخير اعتمادا واسعا فى حديثه عن ألوان البديع وفنونه من مثل الجناس والطباق والمقابلة والتتميم والتسهيم والترصيع وصحة التقسيم إلى غير ذلك من محسنات كثيرة. وكأن القيروانيين لم يجدوا حاجة إلى التأليف فى البلاغة وفنون البديع بعده، وبالمثل فى نقد الشعر وصناعته، وقد تحدث حديثا مستفيضا عن موضوعات الشعر بادئا بالنسيب ومفصلا القول فى كل موضوع تفصيلا دقيقا، وتحدث عن السرقات الشعرية، واتفق مع النقاد فى أن السرقة إنما هى فى البديع المخترع الذى يختص به شاعر ويسرقه أحد الشعراء، لا فى المعانى المشتركة بين الشعراء، ويذكر مايحتاج إليه الشاعر من المعارف والثقافة. والكتاب غنى بالأفكار والآراء النقدية، ومثله فى هذا الغنى كتابه: «أنموذج الزمان فى شعراء القيروان» وقد جمعه من بطون المخطوطات وغيرها من الكتب وحققه

تحقيقا علميا سديدا الأستاذان محمد العروسى المطوى وبشير البكوش وقدما له بمقدمة قيمة. وقد استطاعا بدأبهما العلمى جمعه من مخطوطات مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى والوافى بالوفيات للصفدى وغيرهما من المخطوطات والمصادر، وبذلك ردَّاه إلى الحياة بصورة إن لم تكن طبق الأصل تماما، فهى مقاربة له أشد القرب، وفى الكتاب مائة ترجمة للشعراء من معاصريه، مما يدل على حدوث نهضة شعرية لعصره فى القطر التونسى. وهو يستهل كل ترجمة لشاعر بسطور عنه وعن صفته وشعره ثم يورد ما اختاره من أشعاره مع بعض أحكام نقدية. والكتاب يؤرخ بدقة للحركة الأدبية فى عصر الدولة الصنهاجية، وبعبارة أدق فى عصر المعز بن باديس. ولا يلقانا بعد ابن رشيق ناقد كبير أو بلاغى كبير فى القيروان أو تونس إلا ما كان من حازم القرطاجنى نزيل تونس فى عهد المستنصر بن أبى زكريا مؤسس الدولة الحفصية، وعاش حتى سنة ٦٨٤هـ/١٢٨٦م وله فى النقد والبلاغة كتابه المعروف: «منهاج البلغاء وسراج الأدباء وهو فيه يمزج بين قواعد النقد والبلاغة عند العرب وقواعدهما عند اليونان وبدون ريب أفاد منه المتأدبون بتونس، وأنه أعاد لهم درسه مرارا، وقد تحدثت عنه فى الجزء الخاص من هذه السلسلة بالأندلس.

٤

علوم[(١)] القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

بمجرد أن أُسِّستْ القيروان وتونس كان هناك مقرئون كثيرون يُقْرِئون الناشئة فى الكتاتيب، ودائما أينما وُجد الفاتحون فى صدر الإسلام والعصر الأموى دَوَّوْا بالقرآن الكريم دوىَّ النَّحْل، وكان منهم دائما من يتجرَّدون لتحفيظه للداخلين فى الإسلام وإقرائهم آياته الكريمة، ومن الصعب التعرف عليهم ومعرفة أسمائهم، فهم كالجندىِّ المجهول، يُرَى أثره ولا يُعْرف اسمه، غير أن كتب التراجم أحيانا تذكر بعض الأسماء ممن حَظُوا بإقراء القرآن فى الأزمنة المبكِّرة،

---

(١) راجع فى هذه العلوم طبقات أبى العرب ورياض النفوس للمالكى وطبقات القراء لابن الجزرى ورحلة العبدرى وطبقات المفسرين للسيوطى ومعالم الإيمان لابن الدباغ وابن ناجى ومقدمة ابن خلدون فى العلوم والديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب لابن فرحون والحلل السندسية فى الأخبار التونسية لأبى عبد الله السراج تحقيق الأستاذ محمد الحبيب الهيلة وذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان لحسين خوجة تحقيق وتقديم الأستاذ الطاهر المعمورى وشجرة النور الزكية لمحمد مخلوف وعنوان الأريب عما نشأ بالمملكة التونسية من عالم وأديب وكتاب ورقات للأستاذ حسين حسنى عبد الوهاب والحياة الثقافية بإفريقية صدر الدولة الحفصية (مقال فى مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة).

من ذلك اسم أبى منصور مولى سعد بن أبى وقَّاص، وهو – كما فى كتابى رياض النفوس والمعالم – ممن دخل إفريقية وسكن القيروان، وكان مقرئا للقرآن ومحدِّثا وفقيها مفتيا. واجتماعُ الفقه ورواية الحديث النبوى مع إقراء القرآن الكريم لأبى منصور لا يستغرب، لأن التابعين من أمثاله كانوا يجمعون بين إقراء الناشئة والناس للقرآن وإسماعهم بعض الأحاديث النبوية وتفقيههم فى الدين بمعرفة أحكامه وتعاليمه. وعلى هذه الشاكلة كان الفقهاء العشرة أعضاء وفد عمر بن عبد العزيز لسنة مائة للهجرة، فهم يقرئون الناس الذكر الحكيم ويروون لهم بعض الأحاديث النبوية ويعلمونهم أمور دينهم الحنيف. وعُنى بعض القيروانيين بحمل قراءات القرآن عن نافع قارئ المدينة. وكان ورش المصرى قد حمل قراءته فأخذتها جماعة من القيروان عن تلاميذه المصريين. ومن أهمهم فى القرن الثالث الهجرى محمد بن عمرو بن خيرون المتوفى سنة ٣٠٦هـ/٩١٨م. وقد حمل قراءة ورش، وقدم بها إلى القيروان كما يقول ابن الجزرى فى طبقاته، وكان الغالب على قراءة الناس فيها قراءة حمزة أحد القراء السبعة، ولم يكن يقرأ قراءة نافع إلا خواص الناس، فلما قدم ابن خيرون إلى القيروان اجتمع عليه الناس ورحل إليه القرَّاء من آفاق المغرب، ومن مؤلفاته كتاب الابتداء والتمام وكتاب الألف واللام. وكما أخرجت القيروان إماما لغويا هو القزاز، وإماما ناقدا بلاغيا هو ابن رشيق، أخرجت إماما فى القراءات، هو مكى بن أبى طالب القيسى المولود بالقيروان سنة ٣٥٤هـ/٩٦٥م ولما استكمل القراءات بالقيروان رحل إلى مصر سنة ٣٧٧هـ/٩٨٧م وتتلمذ فى القاهرة لشيخ قرائها ابن غلبون، وكأن يعود إلى بلده ثم يرجع إليه، حتى أخذ كل ما عنده، وهاجر إلى قرطبة سنة ٣٩٣هـ/١٠٠٢م وظل يقرئ بها الناس حتى توفى سنة ٤٣٧هـ/١٠٤٥م وله فى القراءات كتاب التبصرة فى خمسة أجزاء، وكتاب ثان فى أصول قراءة نافع، وكتاب ثالث فى المدِّ لورش، وذكر له ابن خلكان عشرات من الكتب فى القراءات والتفسير والفقه والعربية. وكان يعاصره أحمد بن عمار المهدوى المتوفى سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م وله كتاب الهداية فى القراءات السبع وله عليه شرح كما يقول ابن الجزرى وله كتاب الموضح فى تعليل وجوه القراءات. وظلت قراءة الذكر الحكيم ناشطة فى القيروان على مدار السنين، واشتهرت بها أُسَرٌ توارثتها جيلا بعد جيل، ويصور ذلك – من بعض الوجوه – ما ذكره العبدرى فى رحلته حين زار تونس فى سنتى ٦٨٨هـ/١٢٩٠م و٦٩١هـ/١٢٩٢م والتقى بالرحالة التونسى أبى الحسن على بن إبراهيم التجانى فى مسجد إقرائه، ومما قال له: «أنا الثانى عشر مدرسا من آبائى على نسق كلهم قعدوا هنا» (أى فى هذا المسجد) للإقراء، وهذا يعنى أن بيت التجانى فى تونس توارث الإقراء للقرآن طوال اثنى عشر جيلا متعاقبين، وإذا حسبنا لكل جيل ثلاثين سنة على الأقل كان معنى ذلك أن الأسرة توارثت إقراء القرآن نحو ثلاثة قرون ونصف أى منذ منتصف القرن الرابع الهجرى. ومن كبار القراء فى العهد الحفصى أبو القاسم اللبيدى معاصر التجانى صاحب الرحلة، وكان الطلاب يقرءون

عليه بمسجد إقرائه كتاب التيسير فى القراءات السبع للدانى. وأشهر القراء بعده محمد بن بدّال المتوفى بمنتصف القرن الثامن الهجرى وكان يدرس لطلابه قصيدة الشاطبى فى القراءات: حرز الأمانى ويفسر أبياتها لهم، ولجمال ترتيله وحسن صوته كانت تُشَدّ إليه الرحال لسماعه، وكان السامعون من حوله يُرَوْن بين خاشع وباك وداع. وكان يعاصره محمد بن محمد بن حسين الأنصارى، وكان يقرئ تلاميذه بقراءة الأئمة الثمانية، ومنهم الفقيه الكبير محمد بن عرفة الوَرْغمى الآتى ذكره بين الفقهاء والمتوفى فى أوائل القرن التاسع الهجرى وكان مقرئا كبيرا ومجودا عظيما للقرآن الكريم. ويكثر فى ترجمة العلماء أن يقال عنهم إنهم مجيدون فى قراءة القرآن، ونجد فى العهد العثمانى وظيفة فى جامع الزيتونة مخصَّصة لقراء القرآن العظيم على كرسى الجامع، وممن تولاها الشيخ على السويسى، وأيضا وظيفة أخرى لشيخ القراء وممن تولاها فى القرن الثانى عشر الهجرى مصطفى الأزميرلى، وكان يعاصر قاره باطاق وله كتاب فى القراءات العشر سماه: «الجواهر النضرة والرياض العطرة فى متواتر القراءات العشرة».

وطبيعى أن كانت الأجيال الأولى فى القيروان وتونس التى اعتنقت الدين الحنيف وأخذت تحفظ بعض آيات القرآن تطلبت معرفة تفسير ما تحفظه، فكان المقرئون الأولون هم يحاولون إفهامهم ما يحفظونه، وتنشأ فى المشرق حركة واسعة فى تفسير القرآن، ويشتهر عبد الله بن العباس الصحابى الجليل ابن عم الرسول ﷺ بإتقانه لتفسيره حتى ليصبح إماما كبيرا فيه، ويحمله عنه تلاميذ مختلفون، ويتوزعون بما حملوه فى البلدان الإسلامية وتحظى القيروان بتلميذ بربرىّ له، هو عكرمة مولاه، ويقول أبو العرب فى طبقات علماء إفريقية وتونس: «كان مجلسه فى مؤخّر المسجد الجامع (جامع عقبة بالقيروان) فى غربى المنارة بالموضع الذى يسمى بالركيبيّة». وما من ريب فى أنه كان يلقى فى مجلسه على الناس تفسير مولاه ابن عباس للقرآن الكريم، وسمعه منه خلق كثيرون من أهل القيروان وغيرهم، وقد أدخل الطبرى تفسيره الذى حمله عن ابن عباس فى تفسيره الكبير بحيث يمكن لباحث أن يستخرجه منه وينشره مستقلا، وما زال عكرمة يلقى دروسه حتى توفى سنة ١٠٥هـ/٧٢٣م. ومن المفسرين للذكر الحكيم فى القرن الثانى الهجرى يحيى بن سلام وقد حرَّره بالقيروان سنة ١٧٥هـ/٧٩١م وكان الطلاب يقصدونه من كل فَجٍّ لسماعه منه، ويذكر أبو العرب فى طبقاته أن عيسى بن مسكين سمع تفسير ابن سلام من موسى بن جرير، كما يذكر أن أسد بن الفرات قاضى القيروان وفاتح صقلية المتوفى سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م كان يفسر الذكر الحكيم فى بعض مجالسه أو فى بعض دروسه بجامع القيروان، وللمقرئ الكبير مكى بن أبى طالب المار ذكره كتاب الهداية إلى بلوغ النهاية فى معانى القرآن وتفسيره وأنواع علومه: سبعون جزءًا، وكتاب الإيضاح فى ناسخ القرآن ومنسوخه ثلاثة أجزاء. ويلقانا فى القرن الخامس لعهد الدولة الصنهاجية مفسر كبير هو على بن

فضّال المتوفى سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م وله التفسير المسمى البرهان العميدي فى عشرين مجلدا، وله تفسير ثان باسم الإكسير فى علم التفسير: خمسة وثلاثون مجلدا، وله النكت فى القرآن. وصنف كتابا فى شرح بسم الله الرحمن الرحيم، ومرَّ بنا أن نظام الملك ألحقه بمدرسته النظامية فى بغداد يدرس لطلابها، وله كتب كثيرة فى النحو ذكرنا بعضها فى حديثنا عن النحاة فى القيروان، ولعله كان يدرس فى النظامية التفسير والنحو معا. ومن كبار المفسرين فى أوائل عصر الدولة الحفصية عبد العزيز بن محمد القرشى المعروف بابن بزيزة المتوفى سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٣م وهو من كبار الفقهاء الحفاظ وله تفسير جمع فيه بين طريقة ابن عطية الأندلسى وطريقة الزمخشرى وعليه تخرجت طائفة كبيرة من طلاب تونس فى العلوم الدينية. ومن كبار المفسرين فى القرن الثامن الهجرى محمد بن عبد النور التونسى تلميذ ابن زيتون المتوفى سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٦م وله اختصار تفسير الفخر الرازى. ونلتقى فى القرن التاسع الهجرى بمفسر من كبار الحفاظ هو محمد بن عمر الأُبِّى المتوفى سنة ٨٢٧هـ/١٤٢٣م تلميذ ابن عرفة، وله تفسير كبير للقرآن الكريم كان يقع فى ثمان مجلدات. ولمحمد زيتونة المتوفى بالقرن الثانى عشر الهجرى فى العهد العثمانى حاشية على تفسير أبى السعود. وبدون ريب كان المفسرون للقرآن الكريم يعرضون على الطلاب أمهات كتب التفسير المشرقية للطبرى والزمخشرى والفخر الرازى وغيرهم، وظل ذلك فى العهد العثمانى، إذ نجد الشيخ محمد الفاسى يدرس لطلابه تفسير البيضاوى، ولابد أن غيره من كتب التفسير المهمة كان يعرض على الطلاب.

ويتكاثر المحدثون فى القيروان وتونس كثرة مفرطة، ومن قدمائهم فى القيروان حنش بن عبدالله الصنعانى، دخل إفريقية غازيا مع موسى بن نصير (٨٦ - ٩٦ هـ) وسكن القيروان وحدَّث بها، كما حدَّث بها عكرمة مولى ابن عباس المار ذكره بين المفسرين. ونلتقى ببعثة عمر بن عبدالعزيز التى كانت مؤلفة من عشرة فقهاء، وجميعهم كانوا محدِّثين وقرَّاء وفقهاء كما مرَّ بنا وكان يعاصرهم عبد الله بن المغيرة بن أبى بردة قاضى القيروان لعمر بن عبد العزيز ويحيى بن سعيد الذى أرسله عمر بن عبد العزيز عاملا على الصدقات، وكلاهما حُمل عنه الحديث كما حمل عن معاصرهما أبى غطيف بشر الهذلى، وهو يروى عن جماعة من الصحابة وخاصة عن عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعليه اعتماده فى الرواية. ونلتقى بمحدث تونسى كبير سبقت الإشارة إليه هو عبد الرحمن بن زياد قاضى القيروان فى عهد المنصور وقلنا عنه فى النشأة العلمية إن ابن وهب وابن لهيعة الفقيهين المالكيين المصريين رويا الحديث عنه، وذكرنا معه هناك على بن زياد التونسى، وقلنا إنه أول من أدخل الموطأ لمالك وجامع سفيان الثورى فى الحديث إلى إفريقية التونسية، وكان يعاصره المحدث عبد الرحمن بن الأشرس زميله فى التلمذة على مالك. ونلتقى بالبهلول بن راشد المتوفى بالقيروان سنة ١٨٣هـ/٧٩٩ م وهو تلميذ مالك بن أنس وسفيان الثورى، وتتلمذ لليث بن سعد فقيه مصر، وكان معروفا بالتقوى

والتمسك بالسنة، وتُقَصّ عنه فى ذلك حكايات كثيرة، مما جعل أبا العرب والمالكى والدباغ يطيلون فى الترجمة له. ومن المحدثين بعده يزيد بن محمد الجُمَحى المستشهد فى فتح صقلية سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م وكان ثقة صدوقا كثير الحديث سمع من مالك بن أنس فى المدينة وغيره من كوفيين وبصريين وشاميين. وكان يعاصره موسى بن معاوية الصمادحى المتوفى سنة ٢٢٥هـ/٨٣٩م وأكثر مثل الجمحى من الأخذ عن مالك والكوفيين والبصريين وغيرهم، وكان يرابط بالمُنستير على الساحل قرب القيروان فى شهر رمضان، ويقول عنه سحنون إنه كان أطول رُفقتنا صلاة، وربما أمضى بعض الليالى مصليا. ومن معاصريه عون بن يوسف الخزاعى المتوفى سنة ٢٣٩هـ/٨٥٣م وكان إذا قال فى كتبه «حدَّثنا» فهو سماع، وإذا قال «أخبرنا» فهو إجازة. ويزدهر مذهب مالك فى القيروان منذ القرن الثالث الهجرى، وكان العلَم المنصوب بأعين أصحابه كتابه «الموطأ» وهو كتاب فقه وحديث، مما جعل فقهاءه جميعا محدِّثين، ولذلك من الصعب أن نفرد المحدثين من الفقهاء منذ هذا القرن.

ونكتفى بذكر ألمع المحدثين فى القرون التالية، ومن ألمعهم وأنبههم فى القرن الرابع الهجرى أبوالحسن القابسى على بن محمد بن خلف المار ذكره فى صدر حديثنا عن دور العلم، وإليه انتهى تدريس الحديث النبوى فى القيروان وكان قد رحل إلى المشرق ورجع منه بكنوز نفيسة أهمها ما حمله إلى الطلاب والشيوخ فى جامع الزيتونة من صحيح البخارى، وكان يدرسه للطلاب، وعنيت به إفريقية التونسية بعده كما عنيت بصحيح مسلم، وهما جميعا وكتب السنة الأربعة المشهورة: للترمذى والنسائى وأبى داود وابن ماجة محل إجلال وتوقير فى بلدان العالم الإسلامى جميعه. وللمازرى محمد بن على الصقلى نزيل المهدية وحامل لواء العلوم الدينية فيها وفى البلدان المغربية المدفون بالمُنستير سنة ٥٣٦هـ/١١٤١م شرح نفيس على صحيح مسلم سماه المعلم بفوائد مسلم، وشرحه القاضى عياض باسم إكمال المعلم بفوائد صحيح مسلم، وللأُبِّى التونسى المار ذكره بين المفسرين شرح على صحيح مسلم سماه: «إكمال الإكمال بفوائد مسلم» فى سبع مجلدات جمع فيه بين شرح المازرى، وشرح عياض، وشرح النووى. ومن كبار المحدثين فى القرن الثامن شمس الدين أبو عبد الله محمد بن جابر الوادى آشى الأصل التونسى المولد والموطن المتوفى سنة ٧٤٠هـ/١٣٣٩م. وكان يقرئ تلاميذه فى جامع الزيتونة الصحيحين: صحيح البخارى وصحيح مسلم. ونلتقى فى أوائل العهد العثمانى بالشيخ إبراهيم الرياحى وكان يدرس للطلاب شرح القسطلانى على صحيح البخارى، ويذكر ابن أبى دينار فى أواخر كتابه «المؤنس» طائفة من كبار المحدثين فى القرن الحادى عشر الهجرى بتونس، منهم أبو العباس أحمد الشريف الحنفى وأبو الحسن على الغماد وسعيد المحجوز وأبو عبد الله محمد تاج العارفين العثمانى، وممن يضاف إلى هؤلاء المحدثين من كتاب ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان محمد برناز، ومحمد قويسم، ومحمد فتاتة ومحمد زيتونة.

وكان الفقهاء فى أول الأمر يجمعون كما ذكرنا بين إقراء القرآن ورواية الحديث النبوى والفتوى فيما يجد من أمور الدين، ولذلك من الصعب أن نميز فى القرن الأول الهجرى وغير قليل من القرن الثانى بين الفقيه والمحدث والمقرئ، ونفس بعثة عمر بن عبد العزيز فى سنة مائة للهجرة يقال عن كل منهم فى كتب التراجم إنه يجمع بين هذه الصفات الثلاث أو قل إنها تصف بذلك نفرا منهم وتترك الباقين لأنه معروف أنهم جاءوا لتحفيظ الناس والناشئة القرآن وتفقيههم فى الدين بما يلقنونهم من تعاليمه ومن أحاديث الرسول ﷺ. ونقرأ عن على بن رباح اللخمىّ أنه قدم إفريقيا غازيا فى عهد موسى بن نصير وأنه سكن القيروان واختط بها مسجدا ومنزلا لسكناه وأن أهلها تفقهوا عليه، وهو تابعى روى عن عمرو بن العاص وأبى هريرة وأبى قتادة وغيرهم من الصحابة، وبذلك نستطيع أن نعده أول فقيه قيروانى. وجاء بعده خالد بن أبى عمران التجيبى، قدم أبوه مع جيش حسان بن النعمان واستوطن مدينة تونس، وولد له فيها خالد وحفّظه أبوه القرآن وروى عنه وعن بعض القيروانيين الحديث ورحل إلى المشرق وسمع من القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق ومن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ومن عروة بن الزبير وله كتاب كبير عنهم فى الحديث وروى له مالك فى الموطأ بعض أحاديث نبوية سمعها - كما مر بنا - من يحيى بن سعيد فى القيروان، وكان فقيها بصيرا بالفتوى وتولّى قضاء تونس إلى أن توفى سنة ١٢٣هـ/٧٤٠م. ونلتقى بعده بأبى كريب عبد الرحمن بن كريب قاضى القيروان وفقيهها المستشهد فى حرب الصُّفْرية سنة ١٣٩هـ/٧٥٦م.

وأخذ كثيرون من القيروانيين يرحلون إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ولقاء مالك إمام دار الهجرة: المدينة، وسماع الموطأ منه، ولم يلبث نفر منهم أن تجردوا لحمل الكتاب، وسبق إلى ذلك على بن زياد من أبناء تونس - كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع - فكان أول من جلبه إلى موطنه، وأخذ يدرسه فى جامع الزيتونة، وحمله - أو أخذه عنه - كثيرون من تونس ومن القيروان ومن غيرهما، ويقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب توجد قطعة من روايته للموطأ فى مكتبة القيروان العتيقة، ومر بنا تعريف به فى النشأة العلمية، توفى عن سن عالية سنة ١٨٣هـ/٧٩٩م وذكرنا أنه كان يعاصره عبد الله بن فرّوخ، وكان أبوه خراسانيا قدم إلى القيروان فى جيوش الأمويين وسكنها وولد له فيها عبد الله، وقد حفظ القرآن ثم تتلمذ على شيوخ بلدته، حتى إذا أخذ ما عندهم اتجه إلى العراق، ونزل الكوفة وصحب الإمام أبا حنيفة مدة طويلة مكنته من أن يحمل عنه مذهبه الفقهى الحنفى، ولم يرجع إلى القيروان مباشرة بل عرَّج على المدينة وسمع الإمام مالكا وهو يلقى الموطأ، ورجع إلى القيروان، وأخذ ينشر فى طلابه فقه أبى حنيفة، توفى سنة ١٧٢هـ/٧٨٨م. وكان من أنبه الطلاب فى زمنه وزمن على بن زياد شاب تونسى هو أسد بن الفرات، كان أبوه خراسانيا، دخل تونس مع جيش ابن الأشعث

سنة ١٤٤هـ/٧٦١م واستوطن تونس، وولد له فيها أسد، وفيها نشأ وحفظ القرآن، ثم اختلف إلى على بن زياد وابن فروخ، ورحل إلى الحجاز، فسمع من مالك الموطأ، ثم رحل إلى العراق فاستمع إلى أصحاب أبى حنيفة وخاصة أبا يوسف ومحمد بن الحسن الشيبانى ونزل الفسطاط ولزم دروس عبد الرحمن بن القاسم إمام المذهب المالكى بعد أستاذه مالك ودوّن ما سمعه عليه فى مدوّنة له تسمى الأسدية، وأخذ أسد يدرس فى القيروان مدوّنته عن ابن القاسم لطلابه، وتولّى القضاء لزيادة الله الأغلبى، فكان تارة يأخذ فى قضائه بمذهب مالك وتارة بمذهب أبى حنيفة حسب ما يتراءى له من الوجه الصحيح فى الحكم. ومعروف أنه كان القائد فى فتح صقلية، واستشهد بعد فتحه لبعض بلدانها سنة ٢١٣هـ/٨٢٨م.

ونحن لا نصل إلى أواخر القرن الثانى الهجرى حتى يكون الطلاب فى تونس والقيروان عرفوا - معرفة جيدة - مذهب مالك عن طريق على بن زياد وأسد بن الفرات، كما عرفوا مذهب أبى حنيفة عن طريق عبد الله بن فروخ وأسد بن الفرات أيضا وإن غلب عليه مذهب مالك. ومضى المذهبان يتعايشان فى القرن الثالث الهجرى. ولكل منها فقهاؤه، وكان مما مكّن للمذهب الحنفى فى القرن الثالث أن الأغالبة كانوا يختارون غالبا القاضى من الأحناف، كما كان يصنع العباسيون، وكانت كثرة الفقهاء فى القيروان تؤثر مذهب مالك. ونستطيع أن نميز بين فقهاء الأحناف المهمين حينئذ معمر بن منصور رفيق أسد بن الفرات فى تلمذته على عبد الله بن فروخ، ومثله سليمان بن عمران، وكان يلزم أسد بن الفرات، ومن فقهاء الأحناف أيضا لعهد زيادة الله الأغلبى الأول أبو محرز محمد بن عبد الله الكنانى، وكان هو وأسد بن الفرات شريكين فى القضاء بالقيروان، وتناظرا أمام زيادة الله فى النبيذ، فكان أسد يقول بتحريمه وأبو محرز يخالفه متابعا لرأى الأحناف وهم لا يحلّونه مُسْكِرا وإنما قبل إسكاره. ومن فقهاء الأحناف أيضا لعهد الدولة الأغلبية عبد الله بن محمد بن الأشج، قال الخشنى فى طبقاته: كان مذهبه مذهبَ الكوفيين، توفى سنة ٢٨٦ هـ/٨٩٩م. وكان يعاصره الفقيهان الحنفيان أبو العباس بن القيار، وأبو العباس بن عبدون القاضى، ويقول الخشنى عنه: «كان حافظا لمذهب أبى حنيفة، ولاه إبراهيم بن أحمد (الأغلبى) القضاء ثم عزله» توفى سنة ٢٩٧ هـ/٩٠٩م. ومنذ استولت الدولة العبيدية على القيروان من الأغالبة أخذ المذهب الحنفى يقل فقهاؤه ولما انتهت تلك الدولة أخذ المذهب المالكى فى الغلبة عليه حتى إذا كان المعز بن باديس وحمل الناس والفقهاء على مذهب مالك دون غيره من المذاهب إرضاء للجماهير فى رعيته قلَّ فى القيروان وإفريقية التونسية من يعنى بالمذهب الحنفى، ونستطيع أن نذكر منهم فى أوائل عهد الدولة الحفصية محمد الزناتى إذ يقول صاحب الحلل السندسية إنه كان إماما فى المذهب الحنفى. ويعود المذهب الحنفى إلى ما كان له من الازدهار فى زمن الأغالبة أيام الحكم العثمانى، وبعبارة أدق منذ عهد يوسف داى (١٠٠٨هـ/١٥٩٩م - ١٠٤٧ هـ/١٦٣٧م) إذ

أصبح قاضى القضاة أو رئيسهم حنفيا، وسُمِّى فيها بعد شيخ الإسلام. ولم يكن حكم للقاضى المالكى ينفذ إلا إذا وافق عليه القاضى الحنفى، وتبع ذلك أن أخذ المذهب الحنفى يدرس فى تونس بالمدرسة الشماعية وغيرها. ومن مشايخ الحنفية فى القرن الحادى عشر الهجرى بالعهد العثمانى ممن ذكرهم ابن أبى دينار فى آخر كتابه «المؤنس» محمد بن شعبان إمام جامع يوسف داى، وأبو الحسن كرباصة المدرس بالمدرسة الشماعية، ويتكاثر بتونس فقهاء الأحناف منذ هذا التاريخ، ويضيف حسين خوجة فى كتابه: بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان جعفر كرباصة. وتنقطع أخبار من ينتمون إلى مذهب الشافعى، ويُذْكَرُ عن سعيد بن الحداد الفقيه والمتكلم الكبير المارّ ذكره المتوفى فى مطلع القرن الرابع الهجرى أنه بدأ حياته مالكيا، ثم تحول إلى مذهب الشافعى ثم عاد إلى المذهب المالكى.

وكان المذهب المالكى قد أخذ فى الازدهار بالقيروان وإفريقية التونسية منذ مؤسسه أسد بن الفرات بما كان يلقى على الطلاب من مدوَّنته الأسدية عن عبد الرحمن بن القاسم إمام المالكية بالفسطاط وكان يعاصره سحنون تلميذ على بن زياد، وقد أخذ عن أسد بن الفرات مدوَّنته وحملها معه إلى مُمليها عليه عبد الرحمن بن القاسم، وقرأها عليه، فأصلح له جوانب فيها، وعاد بها سحنون إلى القيروان، وأخذ يملى هذه الصورة الجديدة من المدوَّنة على الطلاب وجاءوه من كل فُجٍّ حتى قالوا إنه تخرج على يديه سبعمائة فقيه. ونسبت المدوَّنة إليه - وكان ينبغى أن تنسب إلى عبد الرحمن بن القاسم - إذ أصبح اسمها مدوَّنة سحنون، وطارت شهرتها فى بلده والبلدان المغربية جميعا. وهو أول من أقام نظام الحسبة فى القيروان حين تولى قضاءها سنة ٢٣٤هـ/٨٤٨م إلى وفاته سنة ٢٤٠ هـ/٨٥٤م وخلفه فى حلقته ابنه محمد المتوفى سنة ٢٥٦ هـ/٨٦٩م ويذكر مترجموه له تآليف مختلفة ومرَّ بنا كتابه: «آداب المعلمين». وكان يعاصره محمد بن إبراهيم بن عبدوس المتوفى سنة ٢٦٠ هـ/٨٧٣م وكان جيد القريحة غزير الاستنباط، وله كتاب فى شرح مسائل مدونة سحنون، ويقال إنه لما تصفَّح محمد بن عبد الله بن عبد الحكم إمام المالكية فى الفسطاط بعد ابن القاسم كتابه وبعض كتب محمد بن سحنون قال فى كتاب ابن عبدوس: هذا كتاب رجل أتى بعلم مالك على وجهه، وقال فى كتاب لابن سحنون هذا كتاب رجل سبح فى العلم سبحا. ونلتقى بعدهما بيحيى بن عمر الكنانى المتوفى سنة ٢٨٩ هـ/٩٠١م وكان فقيها، وله كتاب فى الرد على الإمام الشافعى، وكتاب ثان فى الحسبة بعنوان: «أحكام السوق» وهو منشور.

وحين استولى العبيديون على القيروان اضطهدوا فقهاء المذهب المالكى إذ حاولوا نقلهم من المذهب المالكى السنى إلى مذهبهم الإسماعيلى فعارضوهم، وناظروا دعاتهم مناظرات حادة، وكان من أهم المعارضين لهم والمناظرين المجادلين لدعاتهم محمد بن اللباد رئيس المالكية وإمامهم

بالقيروان، فسجنوه فترة، ثم ردوا إليه حريته على أن يلزم بيته ولا يَلْقَى الطلاب فى جامع عقبة، فكان يلقاهم فى بيته كما مرَّ بنا إلى أن توفى سنة ٣٣٣هـ/٩٤١م وله مصنفات مختلفة منها كتاب فى الطهارة وكتاب فى فضائل مالك. وانحسرت غمة العبيديين عن القيروان سنة ٣٦١هـ/٩٧١م برحيل المعز العبيدى إلى مصر. ولمع سريعا تلميذ لابن اللباد، هو عبدالله بن أبى زيد المتوفى سنة ٣٨٦هـ/٩٩٦م وإليه انتهت رياسة المالكية بالقيروان والبلاد المغربية، وإليه رحل الطلاب من جميع آفاق المغرب، ويقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب إنه يعد المجِّدد للسنة ولمذهب مالك فى المغرب بعد انحسار حركة التشيع، وله الرسالة الجامعة لعقيدة أهل السنة ردًّ بها على الشيعة ولها شروح كثيرة، وله كتاب النوادر والزيادات على مدوَّنة سحنون، ويقول ابن خلدون: «جمع فيها ابن أبى زيد جميع ما فى الأمهات من المسائل والخلاف والأقوال». ومن تلاميذه أبو الحسن القابسى المار ذكره بين المحدثين. ونلتقى بعده بأبى عمران الفاسى المتوفى سنة ٤٣٠ ثم بأبى إسحق إبراهيم التونسى المتوفى بمنتصف القرن الخامس وله شرح على المدونة باسم التعليقة، كما نلتقى بأبى الحسن اللخمى المتوفى سنة ٤٧٨ هـ/١٠٨٥م وله كتاب التبصره. ويلقانا بعده الإمام المالكى الحافظ المازرى محمد بن على الصقلى المذكور بين المحدثين، ويقول ابن فرحون عنه: إمام أهل إفريقية والمغرب، وصار الإمام لقبا له، فلا يعرف بغير الإمام المازرى، درَّس الفقه والأصول وله فيهما كتب قيمة.

وفى أواسط القرن السادس الهجرى استولى عبدالمؤمن على الاقليم التونسى ولم يحاول -فيما يبدو- نشر المذهب الظاهرى مذهب دولته فيه، واكتفى بأن يذكر فى خطبة الجمعة اسمه أو اسم المهد ابن تومرت زعيم دولته ولذلك ظل المذهب المالكى مسيطرًا ولانسمع عمن اتبعوا المذهب الظاهرى فى عهدهم وعهد الدولة الحفصية التى خلفتهم إلا عن بعض أفراد اعتنقوا المذهب الظاهرى من حين إلى حين.

ومن كبار فقهاء المالكية فى القرن السابع الهجرى الحافظ الفقية عبد العزيز القرشى المعرو بابن بزيزة المذكور بين المفسرين ومن أهم تلاميذه أبو القاسم بن أبى بكر المعروف بابن زيتون قاضى تونس فى صدر الدولة الحفصية المالكى المتوفى سنة ٦٩١هـ/١٢٩١م وهو محرر عقد الصلح بين المستنصر والجيش الفرنسى بعد موت لويس التاسع تحت أسوار قرطاجنة سنة ٦٦٩هـ/١٢٧١م. وفى أواخر هذا القرن السابع وصل من القاهرة كتاب مختصر ابن الحاجب فى الفقه المالكى وشغل بشرحه علماء البلدان المغربية. ونلتقى فى القرن الثامن بمحمد بن عبد السلام الهوارى مجدد الحركة الفقهية كما يقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب وشيخ الجيل التالى المتوفى سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٩م المتولى قضاء الجماعة، له شرح لمختصر ابن الحاجب يعد من أهم شروحه، كما يقول ابن فرحون، ومن أنبغ تلاميذه ابن خلدون المؤرخ والفقيه المالكى الكبير، وسنترجم له بأخرة ن هذا الكتاب، ومن أنبغهم أيضا محمد بن عرفة الورغمى

المتوفى سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠م، شيخ شيوخ عصره، كما يقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب، ويفتتح ابن فرحون ترجمته بقوله: «هو الإمام العلامة المقرئ الفروعى الأصولى البيانى المنطقى شيخ الشيوخ، وبقية أهل الرسوخ، وله تآليف منها تقييده الكبير فى المذهب المالكى فى نحو عشرة أسفار، أقبل الناس على تحصيله شرقا وغربا». ومن تلاميذه فى القرن التاسع الهجرى محمد بن عمر الأبى المذكور بين المفسرين والمحدِّثين.، وله فى الفقه شرح على مدوَّنة سحنون.

طبيعى أن يتراجع ازدهار دراسات الفقه المالكى فى العهد العثمانى، وخاصة منذ عد يوسف داى فى النصف الأول من القجن لحادى عشر الهجرى، إذ أصبح رئيس القضاة حنفيا، وأصبح حكم القاضى المالكى لاينفذ إلا بعد مصاده عليه، ويذكر ابن أبى دينار فى آخر كتابه المؤنس من فقهاء المالكية بالقرن الحادى عشر محمد فتاتة المدرس فى جامع الزيتونة، ومثله سعيد الشريف وعبد القادر الجبالى، وتظل دراسة الفقه المالكى ناشطة فى جامع الزيتونة إلى العصر الحديث. ويضيف حسين خوجه فى كتابه ذيل بشائر أهل الايمان بفتوحات آل عثمان: سعيد الشريف ومحمد الحجيِّج وله حاشيتان على مختصر خليل فى الفقه.

ومن يقرأ كتب تراجم العلماء والفقهاء - منذ القرن الثانى الهجرى يشعر كأنما كانت القيروان مرآة للمذاهب الكلامية التى نشأت فى العراق، إذ كانت مبادِئها ونظرياتها تثار فى القيروان، ويتحاور فيها ويتجادل كثيرون، ومن أوائل ما كان من ذلك الجدل فى مبادئ الخوارج، وخاصة مبادئ الإباضية والصُّفْرية التى اعتنقها كثيرون من أهل المغرب - منذ أوائل القرن الثانى الهجرى - وكانت قد اقترنت بهما فى المشرق فكرة المسلم مرتك الكبيرة أما الصفرية فذهبت إلى الحكم عليه بالكفر وغالت فى سفك الدماء كما مر بنا فى الفصل الماضى، وقالت الاباضية إنه كافر نعمة لا كافر ملة وحكمت عليه بأنه مسلم عاصٍ ولم تعدّ دار المسلمين - مثل الصفرية - دار حرب، وذهب أهل السنة من الماكية وغيرهم إلى أنه مسلم فاسق، وذهبت المرجئة إلى إرجاء الحكم عليه لربه يوم القيامة، كما ذهبت إلى أنه يكفى فى الإيمان القول أى التلفظ بالشهادتين، ولا ضرورة فيه للعمل، وهو أداء الفروض الدينية، بينما أهل السنة يرون أن الإيمان قول وعمل، فمن لم يؤدِّ الصلاة والفروض الدينية لا يعد غسلما. ويروى أبو العرب فى ترجمة يحيى بن سلام المتوفى سنة ١٧٥ للهجرة والمذكور بين المفسرين أنه كانت تجرى مناقشات بمجلسه فى الإرجاء. وكان مذهب الاعتزال والمعتزلة قد ازدهر بالمشرق فى القرن الثانى الهجرى وتجادل أهل البصرة وبغداد طويلا ى مبادئه الخمسة المشهورة وهى القول بالوحدانية وبأن مرتكب الكبيرة فى منزلة بين الإيمان والكفر، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والقول بالعدل على الله وأنه يعمل الأصلح لعباده، وأنه منفذ - لابد - وعده ووعيده.

وينتقل هذا المذهب إلى القيروان ويتجادل أهل السنة مع معتنقيه، وفى خبر عند أبى العرب، أنه كان للمعتزلة بالقيروان سقيفة يجتمعون فيها، وتوقف شخص بإزائهم وهم يتجادلون يستمع إليهم.

وإذا مضينا إلى القرن الثالث وجدنا محنة خلق القرآن التى امتُحن بها الفقهاء من أهل السنة فى عصور المأمون والمعتصم والواثق ينتقل الجدل والحوار فيها إلى القيروان، فمنهم من يقول إن القرآن - كما قال أهل السنة - قديم، ومنهم من يقول - كما قال المعتزلة - إنه حادث مخلوق غير قديم. ويذكر أبو العرب فى طبقاته مناظرة حدثت أيام زيادة الله الأغلبى (٢٠١-٢٢٣هـ) عن خلق القرآن كان الجعفرى يقول فيها إنه غير مخلوق، والعنبرى يقول إنه مخلوق. وفى طبقات أبى العرب أنهم كانوا يتجادلون كثيرا فى التشبيه على الذات العلية. واتسع الجدل فى ذلك كله بجامع عقبة، إذ كان لكل فرقة ممن ذكرناهم حلقة يجتمعون فيها ويتجادلون جدلا كثيرا. وكان أهل السنة يضيقون بهذا الجدل وما يحدثه من جلبة وضوضاء فى جامع عقبة حتى إذا تولّى سحنون قضاء القيروان سنة ٢٣٤هـ/٨٤٨م «فرّق - كما يقول مترجموه - حَلَقات أهل البدع منهم فى المسجد الجامع وشرد أهل الأهواء وكانوا فيه حلَقًا: من الخوارج: صُفْريَّة وإباضية ومعهم معتزلة، يتناظرون ويظهرون زيفهم.. وأمرهم أن لا يجتمعوا فيه» وقد أتاح هذا الجدل الواسع للمعتزلة وغيرهم فى القيروان حركة جدلية واسعة، حتى ليصف أبوالعرب والخشنى فى طبقاتها غير واحد بأنه كان من الجدلين المناظرين الذين يعرفون كيف يدفعون الخصوم بالحجج والبراهين الساطعة، ولم يصفا بذلك المعتزلة أو كما يسميانهم أحيانا العراقيين بل يصفان بذلك كثيرين من أهل السنة. ومن كبار متكلميهم المجادلين عن عقيدتهم المفحمين لخصومهم أبو عثمان سعيد بن محمد المشهور بابن الحداد رأس المدرسة الكلامية بالقيروان كما يقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب وقال الخشنى فى طبقاته: غلب عليه الكلام والجدل والمناظرة.. وله مقامات كريمة ومواقف محمودة فى الدفاع عن الاسلام والذَّبِّ عن السنة» ويصفه المالكى فى رياض النفوس بأنه كبير المناضلين عن السنة وكانت له مجالس كثيرة مع أهل العراق (يريد المعتزلة) القائلين بخلق القرآن من أهل القيروان، ويسوق الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب من هذه المجالس مجلسا تحاور فيه مع عبد الله بن الأشج فى خلق القرآن وأسكته وقطعه، ولما سلّط عبيد الله المهدى داعيته أبا العباس المخطوم لجدال فقهاء القيروان ومحاولته إقناعهم بمبادئ دعوتهم الإسماعيلية كان أكبر من تصدَّى من أهل السنة له ولغيره من دعاتهم فى أربعين مجلسا سجل منها الخشنى فى طبقاته أربعة مجالس ونسوق مثالا من هذه المجالس، فقد سأله أبو العباس المخطوم هل يجوز تقديم المفضول (أى أبى بكر وعمر فى الخلافة) على الأفضل (أى على) فأجابه بمقال من القرآن هو قوله تعالى: ﴿وقال لهم نبيهم إن

الله قد بعث لكم طالوتَ ملكا قالوا أنَّى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يُؤتَ سَعةً من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم﴾ يريد أنه فضله على النبى، والنبى أفضل منه، ودليل آخر ذكره من السنة وهو أن الرسول ﷺ أمَّر على جيش عمرو بنَ العاص فكان يقسم الفَيْءَ (الغنائم) ويأمر وينهى فيطاع ويصلى بهم الصلوات. وتحت يديه فى الجيش أبو بكر وعمر وهما جميعا أفضل منه». وعلى هذا النحو كان سعيد بن الحداد يجيب أبا العباس المخطوم ويحاوره حوارا مخرسًا بأدلة قرآنية وأحاديث نبوية، ويضيف إلى ذلك حججا منطقية دامغة مما يجعله من كبار المتكلمين المدافعين عن عقيدة السنة لافى القيروان وحدها. بل فى العالم الإسلامى جميعه. وإذا كانت القيروان عرفت المذاهب المبكرة فى العراق للمعتزلة وغيرهم فإنها عرفت مذهب الأشعرى الذى أخذ فى الانتشار منذ القرن الرابع الهجرى حمله إليها أبو الحسن القابسى المذكوريين المحدثين، والمتوفى سنة ٤٠٣ ومعروف أن للأشعرى نظرات دقيقة فى التوسط بين القائلين بالجبر وأن حرية الإنسان معطلة وبين القائلين من المعتزلة بالاختيار وحرية الإنسان فى إرادته، وأيضا بين أهل السنة من مثل ابن حنبل القائلين بأن القرآن قديم والمعتزلة القائلين بأنه محدث مخلوق وقد أوضحنا مذهبه فى حديثنا عنه فى كتابنا: «العصر العباسى الثانى». ومن كبار الأشعريين القيروانيين محمد بن عتيق التميمى القيروانى أخذ علم الكلام بالقيروان عن أبى عبد الله بن الحسين بن حاتم صاحب أبى بكر بن الباقلانى (الأشعرى) ورحل إلى بغداد ودرس بها علم الكلام بالمدرسة النظامية، وقال السلفى كان مشارًا إليه فى علم الكلام قال لى أنا أدرس علم الكلام منذ سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة توفى سنة ٥١٢ هـ/١١١٨م. ولعل فى كل ما قدمت ما يدل - بوضوح - على أن علماء القيروان استوعبوا جميع المذاهب الكلامية الشرقية، وعمَّ المذهب الأشعرى هناك منذ القرن الخامس الهجرى.

٥

التاريخ[١]

منذ الحقب الأولى فى العهود الإسلامية يعنى أهل إفريقية التونسية بكتابة التاريخ، وأول

(١) راجع فى المؤرخين التالين طبقات أبى العرب ورياض النفوس للمالكى ومجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة فى سيرة المهدى لجعفر الحاجب ومقدمة سيرة الاستاذ جوذر المطبوعة بالقاهرة وكذلك مقدمة افتتاح الدعوة وطبقات الخشنى وقطعة الرقيق القيروانى من كتاب تاريخ إفريقيا والمغرب (طبع تونس) ومقدمة أنموذج الزمان لابن رشيق (طبع تونس) وابن خلدون ومعالم الإيمان لابن الدباغ وابن ناجى ورحلة التجانى والاحاطة للسان الدين بن الخطيب فى يحيى بن خلدون ومقدمة تاريخه والتعريف بابن خلدون بقلمه والأدلة البينة النورانية على مفاخر الدولة الحفصية=

مؤرخ نلتقى به عيسى بن أبى المهاجر، حفيد أبى المهاجر والى إفريقية التونسية والمغرب (٥٥ - ٦١ هـ) توفى بأواخر القرن الثانى الهجرى، وله كتاب مغازى إفريقية، وهو مفقود غير أن المؤرخين بعده ينقلون عنه نقولا مستفيضة على نحو ما نجد فى طبقات علماء إفريقيا وتونس لأبى العرب. والمؤرخ الثانى بعده عبد الله بن أبى حسان اليحصبى المتوفى سنة ٢٢٢٧هـ/٨٤١م وله كتاب فى أخبار إفريقية وحروبها ولمحمد بن زيادة الله الأغلبى المتوفى سنة ٢٨٣ هـ/٨٩٦م كتاب فى دولتهم الأغلبية، ولأبى على بن الوكيل القيروانى المتوفى سنة ٣١٠هـ/٩٢٢م كتاب فى تاريخ إفريقية. وكل هذه الكتب التاريخية مفقودة. ولجعفر بن على الحاجب كتاب فى سيرة المهدى الفاطمى ومن كتب التاريخ التى يظن أنها كتبت قبل انتقال العبيديين الفاطميين إلى مصر أو بعد انتقالهم مباشرة سيرة الأستاذ جوذر وافتتاح الدعوة الفاطمية والمجالس والمسايرات للقاضى النعمان القيروانى العبيدى، ومن الكتب التاريخة العبيدية كتاب لأحمد بن الجزار الطبيب القيروانى المشهور المذكور بين الأطباء وهو كتاب باسم تاريخ الدولة يريد الدولة العبيدية. ومن الكتب المهمة كتاب طبقات علماء إفريقية وتونس لأبى العرب محمد بن تميم القيروانى المتوفى سنة ٣٣٣هـ/٩٤٤م وهو منشور بتونس، ونلتقى بعده بكتاب طبقات علماء إفريقية لمحمد بن الحارث بن أسد الخشنى المتوفى سنة ٣٦١هـ/٩٧١م وهو مكمل لسالفه ومطبوعان معا بدار الكتاب اللبنانى ببيروت، وللرقيق القيروانى صاحب ديوان الرسائل فى عهد باديس الصنهاجى وابنه المعز المتوفى حول سنة ٤٢٠ هـ/١٠٢٩م كتاب مهم فى تاريخ إفريقية والمغرب، وهو مفقود سوى قطعة منه نشرها د. منجى الكعبى بتونس تؤرخ لنحو قرن وربع من ولاية عقبة بن نافع إلى ولاية عبد الله الأغلبى وهو ابن إبراهيم مؤسس الدولة الأغلبية، ويلقانا بعده كتاب أنموذج الزمان فى شعراء القيروانى لابن رشيق المتوفى سنة ٤٥٦ هـ/١٠٦٣م ومر بنا حديث عنه بين النقاد، وكان يعاصره أبو بكر عبد الله بن أبى عبد الله المغلكى المتوفى سنة ٤٤٩ هـ/١٠٥٧م وله الكتاب البديع: رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان و إفريقية وزهادهم وعبادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، ويقدم فى أوائله قصة الفتح العربى فى أفريقية كاملة معتمدا فى الأكثر من رواياته على المؤرخين القيروانيين السابقين له، وفى نهاية كل طبقة من العلماء والفقهاء يفرد فصلا لأهل العبادة والنسك، طبع القسم الأول منه فى القاهرة وطبع القسم الثانى فى تونس. ومن أهم كتب التراجم القيروانية والتونسية بعده كتاب معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان لعبد الرحمن بن محمد الأنصارى المعروف بالدباغ المتوفى سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٦م وهو يعتمد

=لابن الشماع (طبع تونس) والمؤنس لابن أبى دينار والحلل السندسية للسراج، وذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان ومقدمته وفيه ترجمة لمحمد السراج، وشجرة النور الزكية لمحمد مخلوف.

على المالكي إلى حد كبير وأكمله بإضافات وتعليقات أبو الفضل بن عيسى بن ناجي التنوخي المتوفى سنة ٨٣٩هـ/١٤٣٦م والكتاب وإضافات ابن ناجي مطبوعان معا. وللتجاني عبد الله بن محمد المتوفى بعد سنة ٧١٧هـ/١٣١٧م رحلة مشهورة مطبوعة بتونس تجول فيها مع أبي يحيى اللحياني قبل سلطنته في البلاد التونسية حتى أقصى الجنوب وغربا حتى طرابلس وهو فيها يدون أخبار البلاد وأوصافها وعلماءها وعبادها بحيث أصبحت الرحلة تاريخًا علميا وأدبيا واجتماعيا للبلدان التونسية في مطالع القرن الثامن الهجري. ولأبي محمد عبد الله بن عبد البر التنوخي المتوفى سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٧م تاريخ مرتب على السنين مثل الطبري. وليحيى بن خلدون المتوفى سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٨م كتاب بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد بتلمسان حتى زمنه. ولعبد الرحمن بن خلدون أخيه المتوفى سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٥م تاريخه المشهور «العبر» وبه جزءان عن البربر بإفريقية التونسية والبلاد المغربية وبها معلومات تاريخية طريفة عنهم وعن شعوبهم وقبائلهم ودولهم ينفرد بها لأخذه من مصادر مغربية لم يطلع عليها سواه. ولأبي العباس أحمد بن الشماع المعروف بابن الهنتاتي المتوفى في أواخر القرن التاسع الهجري كتاب عن الدولة الحفصية باسم الأدلة البينة النورانية على مفاخر الدولة الحفصية ألفه في أواخر سنة ٨٦١هـ/١٤٥٧م وللزركشي كتاب تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية وينتهي به في تاريخ الدولة الحفصية إلى سنة ٨٨٢هـ/١٤٧٧م، ولابن أبي دينار الذي كان حيا سنة ١١١٠هـ/١٦٩٩م كتابه النفيس: «المؤنس في أخبار أفريقية وتونس» ولحسين خوجه المتوفى سنة ١١٤٥هـ/١٧٣٢م ذيل بشائر أهل الايمان بفتوحات آل عثمان وهو ترجمات لعلماء البلدان الكبيرة: القيروان وصفاقس وجربة وسوسة وتوزر وباجة، وخصّ تونس بالترجمة فيها لاثنين وأربعين عالما دينيا. ولمحمد بن السراج المتوفى سنة ١١٤٩هـ/١٧٣٦م الحلل السندسية في الأخبار التونسية يعنى فيه بالحديث عن المدن التونسية وعلمائها وأدبائها بادئا بمدينة سوسة.

الفصل الرابع

نشاط الشعر والشعراء

١

تعرب القطر التونسى

كان البربر ينتشرون قديما فى جميع الأراضى الممتدة غربى مصر من واحة سيوه إلى المحيط الأطلسى، وكانوا يتكلمون لهجات بربرية شتى ردَّها علماء الأجناس واللغات القديمة إلى أصلين: ليبى فى شرقى تلك الأراضى ونوميدى فى أواسطها وغربيها، وهى لهجات تتحد جنسا وتتفاوت فيما بينها بحيث يصعب التفاهم بين سكان منطقة فى ليبيا كسكان جبل نفوسة وسكان منطقة فى الإقليم التونسى كسكان منطقة الجريد فضلا عن سكان المغرب الأوسط فى الجزائر والمغرب الأقصى فى المملكة المغربية.

ونزل الفينيقيون – كما مرَّ بنا – بساحل تونس، أو بعبارة أدق أخذوا يرودونه منذ أواخر الألف الثانى قبل الميلاد، وكوَّنوا لهم غربى مدينة تونس الحالية مدينة قرطاجة حوالى القرن الثامن قبل الميلاد، ولعبت تلك المدينة فى المنطقة – كما أسلفنا – دورًا حضاريا عظيمًا إلى أن دحرها الرومان واستولوا عليها فى أواسط القرن الثانى قبل الميلاد، ونشروا بالمنطقة لغتهم اللاتينية كما نشروا بها المسيحية حين اعتنقوها، وتُهْديهم إمبراطورًا عظيما هو سبتيموس سيفيروس Septimus Severus وكاتبا بارعا هو آبولى Abulée كما تهديهم بعض القديسين مثل ترتوليان Tertulien. وتظل المنطقة تابعة لروماستة قرون طوال، وكانت تتبعها أيضا بقية الساحل الإفريقى من برقة إلى المحيط الأطلسى، مما جعل اللاتينية تسود فى كل تلك المناطق سواء فى شئون الحكم الرسمية أو فى شئون الدين ولذلك اضطر كثيرون من البربر فى تونس وغيرها من الأقاليم المغربية أن يتعلموا اللاتينية ويتقنوها تحدثا وكتابة. وقد نزلها الواندال الجرمانيون سنة ٤٣٩ وظلوا بها مائة عام يدمرون كل ما بها من مظاهر الحضارة والعمران إلى أن خلعتها منهم بيزنطة، وحاولت تنشر بها اليونانية غير أن اللاتينية ظلت هى اللغة المسيطرة على الألسنة وفى شئون الدين إلى أن فتحها العرب، وظلت فترة غير قليلة متداولة وخاصة فى قرطاجة وما حواليها، ونراها لا تزال حية على بعض الألسنة فى قفصة جنوبى الاقليم التونسى

فى القرنين السادس والسابع الهجريين كما يحدثنا عن ذلك الإدريسى والتجانى فى رحلته، وإن كان من المؤكد أنه أصابها حينئذ غير قليل من التحريف بسبب اختلاط المتكلمين بها بسكان تلك المنطقة البربرية ولغتها.

وعلى الرغم من القرون المتطاولة التى عاشت فيها اللغة الفينيقية المتحضرة بالإقليم التونسي والقرون الأخرى التى عاشت فيها اللاتينية المتحضرة بهذا الإقليم وأتقنها كثير من البربر تكلما وكتابة على الرغم من ذلك لم تتحوّل اللغة البربرية - لا فى تونس ولا فى أى إقليم آخر - إلى لغة متحضرة أيام الفينيقيين بحيث أصبح لها حروف استحدثها البربر يكتبونها بها، ومن ثَمَّ لم يتركوا قبل الإسلام أى أثر كتابى بلغتهم البربرية يمكن منه التعرف الدقيق على تاريخهم القديم، وقد رجع العرب فى معرفته إلى الكتب والكتابات اللاتينية، ومما يؤكد ذلك أننا نجد يامبسال ملك نوميديا البربرى أيام الفينيقيين يحرر كتبه باللغة الفينيقية لغة قرطاجة، كما نجد بين ملوكها أيام الرومان من يحرر كتبه باللاتينية أوالإغريقية،فلم تكن البربرية - قبل الفتح العربى الإسلامى - إذن لغة حضارية وكان كثيرون من البربر يعرفون اللاتينية كما أسلفنا وقد أخذت اللغتان تزايل ألسنة أهلها وتحل محلها العربية فى تونس وغير تونس من أقاليم المغرب مع اعتناق السكان الإسلام واختلاطهم بالعرب عن طريق المصاهرة والمعايشة معهم، وخاصة فى المدن التى نزلوها، إذ كان سكانها - لذلك - أسرع فى التعرب من سكان القرى الريفية والجبال والنجاد والبوادى، وكانوا يعدون فى الإقليم التونسى وغيره بالآلاف، وقد بلغ عدد الجنود الفاتحين فى عهد الأمويين وأوائل عهد العباسيين نحو مائة وخمسين ألفا سوى من كان يرافقهم من النساء والأطفال، ومما يذكر - بالثناء الجم - للفاتحين فى العهود الإسلامية الأولى أنهم لم يكونوا غُزاة يجمعون غنائم الفتوح، كما يحاول المستشرقون أن ينعتوهم، بل كانوا ناشرين للدين الحنيف، وتسلّل منهم - كثيرون من مدن الإقليم التونسى وغيره من الأقاليم المغربية - إلى القرى والجبال والبوادى يدعون إلى دين الله بحمية وحماسة بالغة.

وقد جعلت تعاليم الدين الحنيف السامية وما يدعو من إخاء وتسامح ومعاملة حسنة شعوب البربر تقبل عليه، وخاصة بعدما رأوه يرفع عن كواهلهم ظلم الأمم السالفة التى كانت تعتصر لنفسها خيرات بلادهم وترهقهم بالضرائب الفادحة، مما دفع البربر - وخاصة فى المدن - إلى الدخول فى الدين الحنيف ومرَّ بنا أن قبيلة بربرية - هى قبيلة أوربة - اعتنقت الإسلام فى عهد عقبة بن نافع حوالى سنة ٦٠ للهجرة. وكان البربر الذين أسلموا يقبلون على حفظ كثير من آى الذكر الحكيم واستظهار بعض الأحاديث النبوية، وكانوا يتلقّنون ذلك فى كتاتيب أخذت تنشأ سريعا فى المدن وبعض القرى الكبيرة، كما كانوا يتلقّنونه فى حلقات كثيرين ممن

كانوا يعتلون بالمساجد منصات محاولين أن يعلِّموا الناس بعض تفسير القرآن شارحين لهم بعض الأحاديث النبوية مع التعرُّض لجوانب من تعاليم الدين الحنيف، وأخذ كثيرون فى البوادى وسفوح الجبال يسعون إلى حفظ الذكر الحكيم كما مرَّ بنا فى الحديث عن الثقافة وشغف عمر بن يَمَكْتَنَ بحفظ القرآن ومراجعته فيه الجنود العرب المارِّين بمنطقته حتى حفظه جميعه.

ومن المؤكد أن المدن التونسية - كما أسلفنا - أخذت فى التعرب سريعا عن طريق من نزلها من الجنود العرب طوال القرن الأول الهجرى بعد الفتح وشطرًا من القرن الثانى، فهى لم تنتظر طويلا حتى يتم لها التعرب. ومما لا ريب فيه أن القيروان التى أنشأها عقبة بن نافع فى منتصف القرن الأول الهجرى لتكون معسكرًا لجيشه كانت عربية خالصة منذ إنشائها، وتبعتْها فى التعرب مدن تونس وسوسة وصفاقس وقابس، بحيث لا تمضى طويلاً فى القرن الثانى الهجرى حتى تصبح مدنا عربية خالصة، أما فى الداخل والبوادى والجبال فقد ظل يغلب على الناس التخاطب بالبربرية طوال القرون الأربعة الأولى للهجرة.

وما نكاد نصل إلى منتصف القرن الخامس للهجرة حتى يأخذ الإقليم التونسى فى إكمال تعربه، إذ اكتسحته موجات من قبائل هلال وسليم وزُغْبة ورياح بأمر الخليفة الفاطمى المستنصر بالقاهرة - كما مر - للقضاء على دولة المعز بن باديس الصنهاجى انتقامًا منه لخلعه تبعية بلاده للدولة الفاطمية الإسماعيلية الشيعية وإعلانه استقلاله وعودة الإقليم التونسى إلى مذهب أهل السنة. واستطاعت هذه الموجات البدوية الكثيفة أن تلجئه مع أسرته للمقام بمدينة المهدية وأن تجتاح القيروان وكل الإقليم التونسى بمدنه ووديانه وجباله وبواديه، وكانوا يبلغون نحو نصف مليون نسمة وامتزجوا بالبربر وتكوَّن من الشعبين شعبًا عربيًا تام العروبة فى اللغة والدين والزى والمطعم والعادات والأخلاق والمآتم والأعراس، واجتاحوا البلاد بإبلهم وخيلهم ورَجْلهم ونهبوا خيراتها عشرات من السنين، ومع كل ذلك حملوا إلى كل أنحاء الإقليم التونسى وأطرافه النائية اللغة العربية وفرضوها على البربر فرضا عن طريق الامتزاج بهم ومصاهرتهم، حتى ليقول ابن خلدون - كما مر بنا فى الفصل الماضى - عن قبيلة هوارة البربرية التونسية إنهم «صاروا فى عداد الناجعة (بنى هلال وسليم) فى اللغة وسُكْنَى الخيام وركوب الخيل والإبل وممارسة الحروب وإيلاف الرحلتين فى الشتاء والصيف فى تلالهم، وقد نسوا رطانة البربر واستبدلوا بها فصاحة العرب فلا يكاد يفرِّق بينهم» فهم قد أصبحوا - بفضل هذه الموجات البدوية من بنى سليم وهلال وزغبة - عربا فى العادات وركوب الخيل والإبل وممارسة الحروب وما ينساق فى ذلك من الملبس والمطعم والأفراح والاتراح والسلوك والأخلاق، ويقول ابن خلدون إن رطانة البربر زايلت ألسنتهم وحلت مكانها الفصحى، ونراه يقول فى موضع آخر عن

هوارة إنهم «تبدَّوا – مع الأعراب – ونسوا رطانة الأعاجم وتكلموا بلغات العرب وتحلوا بشعارهم فى جميع أحوالهم».

ولم تتبدَّ هوارة التونسية أو تتعرب وحدها فى الإقليم التونسى، بل تعرب الإقليم جميعه من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ومن أقصى الشرق إلى أقصى الغرب فى خلال قرن بل يزيد، إلى أن استولى على الإقليم زعيم دولة الموحدين المغربية عبد المؤمن بن على، ولكن هل العربية التى حملتها قبائل هلال وسليم وزغبة إلى الإقليم التونسى هى الفصحى أو هى عربية دارجة عامية؟ ونرجح أنها الفصحى، ويدل على صحة رأينا أن القبائل من سليم وهلال وزغبة كانت قد انضوت تحت لواء الأعصم القرمطى حين غزا الشام ومصر سنة ٣٦٠ للهجرة ورأى الخليفة الفاطمى العزيز – حين صالحه – أن ينزلها فى صعيد مصر، وحوَّلهم بعده الخليفة الفاطمى المستنصر إلى تونس لضرب المعز بن باديس كما أسلفنا. وكانت الجزيرة العربية مصدرها لا يزال سكانها يحافظون على الفصحى بشهادة الجوهرى فى مقدمة معجمه الصحاح إذ يقول إنه أخذ اللغة عن أهلها مشافهة، وإنه طوَّف فى بلاد ربيعة ومضر، ونجد الباخرزى فى كتابه دُمْيَة القصر المؤلف فى منتصف القرن الخامس الهجرى يترجم لشعراء كثيرين من قبائل نجدية شتى وينشد من أشعارهم، مما يدل على أن الفصحى كانت لا تزال حية بعد مغادرة بنى سليم وهلال للجزيرة بنحو قرن، ويبدو أنها ظلت حية فى الجزيرة العربية قرونا بعد ذلك، فإن عمارة اليمنى يشهد – كما مر بنا فى الجزء الخامس من هذه السلسلة – بأن تهامة والبوادى وأهل الجبال فى اليمن – لعصره بالقرن السادس الهجرى – كانوا يتكلمون الفصحى ولا يلحنون فى كلامهم.

ومما لا شك فيه –إذن– أن قبائل بنى سليم وهلال التى نزلت مصر وتركتها إلى ليبيا وتونس وماوراءهما من بلاد المغرب لم تكن تنطق عربية مولَّدة أوعربية عامية، إنما كانت تنطق عربية فصيحة، ومن الخطأ أن يتشكك بعض الباحثين فى صفاء عربيتهم مستدلا على رأيه بشعر القصص الهلالية المعروفة التى تحكى مغامرات أبى زيد الهلالى فى شعر شعبى يختلف فى صياغته – قليلا أو كثيرًا – عن صياغة الشعر العربى الكامل الفصاحة فضلا عما يجرى فيه من خلل الإعراب، غير أن هذا القصص نشأ فى عصور متأخرة، حين أخذت لهجات شعبية تشيع فى ألسنة أهل تونس وغيرها، ومما يؤيد رأينا أن نجد ابن خلدون ينشد قصيدة بديعة لأحد رؤساء قبيلة عوف من بنى سليم، وكانت تستولى على ما بين قابس وسوسة، وهو عنان بن جابر، وكان أبو زكريا مؤسس الدولة الحفصية قد أوغر الصدور بين قبيلته وقبيلة علاق، فنشبت بينهما معارك ضارية، وأغضب ذلك من أبى زكريا عنان بن جابر فرحل بقبيلته إلى صحراء المغرب الأوسط (الجزائر) فكتب إليه محمد بن أبى الحسين وزير أبى زكريا قصيدة يعاتبه فيها على هجرته عن وطن آبائه، ويدعوه إلى العودة إليه، ثم كتب إليه قصيدة ثانية، فرد عليه عنان محزونا لما اضطر إليه من فراق موطنه، وفيها يتحدث عن بسالة قبيلته فى الحروب بمثل قوله:

وكُنَّا إذا ما الجيشُ صُفَّتْ جنودُه ترانا على خَيْلٍ عِتاقٍ ضوامرِ
نخوض وَغَاها والقَنَا تَقْرَعُ القَنا بكـل حُسامٍ مَشْـرفيٍّ وبـاترِ

ونَسْجُ القصيدة جزل متين، وهى معربة إعرابا تامًّا، وترجع إلى النصف الأول من القرن السابع الهجرى مما قد يدل - من بعض الوجوه - على أن قبائل سليم - ومثلها غالبًا قبائل هلال - لم تزايل ألسنتها الفصاحة ولا أصابها خلل الإعراب فى النطق حتى عصر عنان بن جابر. وقد يسند رأينا - من بعض الوجوه - ما حكاه العبدرى فى رحلته عن أهل برقة الليبية من أن «كلام عرب برقة من أفصح كلام عربى سمعناه، ويقول: وعرب الحجاز أيضا فصحاء، ولكن عرب برقة لم يكثر ورود الناس عليهم، فلم يختلط كلامهم بغيرهم، وهم الآن (فى أواخر القرن السابع الهجرى) على عربيتهم لم يفسد من كلامهم إلا القليل، ولا يخلُون من الإعراب إلا بما لا قدر له بالإضافة إلى ما يعربون». ويسوق العبدرى أمثلة من كلامهم سمعها كما رواها وفيها يحتفظون حتى زمنه بالإعراب. ومن بقايا هذا الإعراب - فى رأيى - احتفاظ قبائل المحاميد والمرازيق وأولاد يعقوب وغيرهم فى النواحى الجنوبية من الإقليم التونسى - إلى اليوم - بنون النسوة فى كلامهم، فيقولون: «النساوين يشربن ويأكلن ويغزلن» ولا تزال هذه النون تنتشر فى نواحى طرابلس وبرقة الليبيتين كما يقول الأستاذ عبدالوهاب.

وليس معنى كل ما قدمت أن العامية العربية لم تأخذ طريقها إلى ألسنة أهل المدن فى الإقليم التونسى إلا فى وقت متأخر، فالمظنون أن هذه المدن مثلها مثل الفسطاط فى مصر وغيرها من المدن العربية استخدمت مبكرة لغة عامية بها غير قليل من الألفاظ البربرية المحلية، وخالية من الإعراب، متخففة من الحركات وملتمسة التسكين لأواخر الكلمات. ويبدو أن هذه العامية القيروانية أو التونسية أخذت تشيع فى الألسنة منذ أوائل القرن الثالث الهجرى وأن فاتحى صقلية من القيروانيين والتونسيين سنة ٢١٢ للهجرة حملوها إليها، كما حملوها إلى مالطة حين فتحوها سنة ٢٥٥ للهجرة لعهد الأمير الأغلبى أبى الغرانيق، وقد ظلوا يحكمونها حتى سنة ٤٨٥ للهجرة حين انتزعها منهم روجار النورماندى صاحب صقلية، وظل المسلمون بها تحت ولاء النورماند نحو مائة وستين عاما إلى أن أجبرهم على مبارحتها فريدريك الثانى إمبراطور ألمانيا سنة ٦٤٧ لعهد المستنصر الحفصى كما مرَّ بنا، ومن حينئذ أصبحت مالطة مسيحية خالصة، وقد ظلوا إلى اليوم يتداولون فى حياتهم لهجة عربية مالطية مشتقة من اللهجة العربية التى كان يستخدمها آباؤهم وبحق يقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب: «إن بقاء هذه اللهجة فى مالطة لظاهرة عجيبة، بل حجة قوية ومعجزة بالغة فى حيوية اللغة العربية ورسوخها العميق فى قرارة نفوس من يتكلم بها من الأجيال. ألا ترى هذه الجزيرة المسيحية النحلة قد تعاقبت عليها - منذ ثمانية قرون - أمم ودول متعددة، آخرهم الإنجليز وودوا لو يحملون أهلها على

التخاطب بلغتهم، فلم يتهيأ لهم ذلك، وبقى المالطيون محافظين على ما عندهم من العربية خلفا عن سلف، وإن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب».

وظلت العامية شائعة على ألسنة أهل القيروان والمدن الساحلية الشمالية إلى أن خفَّفتْ من حدتها فى منتصف القرن الخامس الهجرى الزحفة الهلالية والسليمية، وقد مضى الزاحفون يعرِّبون المناطق البعيدة والأطراف النائية التى لم يكن لها عهد بالعربية، وكان مما عمل على نشر العربية فى الإقليم التونسى بعد هذه الزحفة هجرة الأندلسيين إليه فى أوائل القرن السابع الهجرى إذ يقول ابن خلدون: «إن ملكة العربية صحَّت فى إفريقية (تونس) بجلاء أهل شرقى الأندلس إليها» ومعروف أن هذا الجلاء كان فى أوائل القرن السابع. على أننا لا نصل إلى أوائل القرن الثامن الهجرى حتى يحدِّثنا التجانى فى رحلته عن شعراء سليميين وهلاليين اشتهروا بأشعارهم الملحونة، ويسمون القوَّالين. وأطال ابن خلدون فى أواخر هذا القرن فى الحديث عن هؤلاء الأعراب القوالين فى تونس والبلاد المغربية، وكأن اللحن شاع على ألسنة الأعراب جميعًا فى القرن السابع الهجرى، وربما سبق هذا التاريخ فى بعض الأنحاء وتأخر فى أنحاء أخرى مثل عرب برقة بشهادة العبدرى كما مر بنا. ويقول ابن خلدون فى الفصل الذى عقده لأشعار الأعراب وأهل الأمصار لعهده: «إنهم يقرضون الشعر لهذا العهد فى سائر الأعاريض على ما كان سلفهم المستعربون يأتون منه بالمطولات مشتملة على مذاهب الشعر وأغراضه من النسيب والمدح والرثاء والهجاء» ثم يقول: «وأساليب الشعر وفنونه موجودة فى أشعارهم هذه ما عدا حركات الإعراب فى أواخر الكلم، فإن غالب كلماتهم (أشعارهم) موقوفة الآخر، ويتميز عندهم الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر بقرائن الكلام لا بحركات الإعراب». وأخذت هذه العامية التونسية تتأثر بعد ابن خلدون بلغة من احتلَّها من الإسبان ومن الترك على نحو ما مر بنا فى حديثنا عن تاريخها، وبذلك احتوت العامية التونسية بعض رطانات فى مقدمتها الرطانة البربرية التى امتزجت بها من قديم.

وإذا كان ابن خلدون لاحظ أن المهاجرين الأندلسيين القدامى فى القرن السابع الهجرى بثُّوا روحا وانتعاشا فى ملكة العربية التونسية فإن ملاحظته تنصبُّ - فيما بعد - على المهاجرين الأندلسيين فى أوائل القرن الحادى عشر الهجرى، إذ بثُّوا نفس الروح والانتعاش، وحالوا بينها وبين الركود الأدبى الذى رافق العثمانيين فى حكمهم للبلاد العربية المشرقية. ومن المؤكد أنه كانت هناك لغة عامية يتداولها الناس - كما مرَّ بنا - وأخذت تشيع فى البوادى والأنحاء البعيدة منذ القرن السابع الهجرى، وربما قبل ذلك فى بعض الجهات، غير أنه من المؤكد أنه كان للفصحى دائما السيادة عليها، لأنها لغة القرآن الكريم والدين الحنيف ولغة الثقافة والعلم بمختلف فروعه، ولغة الأدب وروائعه الشعرية والنثرية.

٢

كثرة[1] الشعراء

طبيعى أن يكون أول شعر ينشد فى الإقليم التونسى بالقيروان وغير القيروان هو ما كان ينشده الجند الفاتحون، ومعروف أن الشعب ظل متصلا فى هذا الإقليم وغيره من أقاليم المغرب، مما جعل الدولتين الأموية والعباسية ترسلان الجيوش إلى القيروان من حين إلى آخر حتى منتصف القرن الثانى الهجرى. وكان فى هذه الجيوش غير شاعر نابه تلقّن عنه الشباب الإفريقى فى القيروان وغيرها الشعر إما هم مما نظموه وإما لغيرهم مما رَوَوْه وأنشدوه، ولم تُعْنَ كتب التراجم منهم إلا بمن اشتهر بينهم بقيادة أوولاية، ومن قدماء مَنْ ترجمت لهم أبو الخطّار الحُسام بن ضِرار الكلبى، وكان شاعرا مفوّها وفارسا نابها بين أقرانه فى القيروان، وولاه حنظلة بن صفوان والى إفريقية لهشام بن عبد الملك الأندلس سنة ١٢٥ للهجرة وعُزل عنها سنة ١٢٨ فعاد إلى القيروان وسرعان ما توفى بها، وأنشد له ابن الأبار فى كتابه الحلّة السِّيَراء أشعارا بديعة. ومن شعراء الجند الذين قدموا فى عهد بنى أمية سليمان بن حُمَيْد الغافقى وفيه يقول ابن الأبار: «فارس العرب قاطبة بالمغرب فى عصره، وأحسن الناس وأبلغهم، إلى معرفة بأيام العرب وأخبارها، ورواية لوقائعها وأشعارها، ويقال إنه توفى سنة ١٦٠ للهجرة وهو القائل:

وإنا إذا ما الحربُ أُسْعِرَ نارُها   لَنَلْقَى المنايا دارعين وحُسَّرَا

ومن شعراء الجند الذين قدموا إلى القيروان فى عهد بنى العباس الحكم بن ثابت السَّعْدى من سلالة سلامة بن جندل الشاعر الجاهلى المشهور، قدم إفريقية فى جيش محمد بن الأشعث الخزاعى سنة ١٤٤ لعهد المنصور إغاثةً وعونا للأغلب التميمى والى القيروان، وأصبح من قواد جيشه، حتى إذا استشهد الأغلب سنة ١٥٠ للهجرة رثاه رثاء حارا، وكان الأغلب شاعرا، وتولى القيروان بعده عمر بن حفص المهلبى، واستشهد فى بعض المعارك، فولاها أبو جعفر

---

(١) انظر فى الشعراء التالين الحلة السيراء لابن الأبار وأنموذج الزمان فى شعراء القيروان لابن رشيق والبيان المغرب لابن عذارى والخريدة (قسم شعراء المغرب – للعماد الأصبهانى) والحلل السندسية للوزير السراج ووفيات الأعيان لابن خلكان فى تراجم حكام الدولة الصنهاجية ومقدمة ابن خلدون وتاريخه.

المنصور يزيد بن حاتم المهلبى وكان غاية فى الجود ممدَّحا، وظل واليا عليها من سنة ١٥٤ إلى وفاته سنة ١٧٠ واستطاع أن يتحول بها إلى بيئة كبيرة من بيئات الشعر والأدب واللغة فى زمنه، وكان شاعرا مجيدا، ومن طريف شعره قوله فى وصف كرم أسرته:

ما يألف الدرهمُ المضروبُ خِرْقتنا إلا لمامًا قليلًا ثم ينطلقُ(١)

وقد جاء القيروان وفى صحبته المعمَّر بن سنان التَّيْمى، من تيم الرباب، اتخذه زميلا له فى طريقة ليؤنسه بطرائف الأخبار، ويقول ابن الأبار: «كان أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها ووقائعها وأشعارها، وعنه أخذ أهل إفريقية حرب غطفان وغيرها من وقائع العرب» ويترجم ابن الأبار لابنه عامر، ويذكر بعض أشعاره، ويقول من أحفاده حمزة بن أحمد بن عامر وكان أديبا ظريفا. وتسابق غير شاعر فى الوفود على يزيد كما توافدوا قديما على جده المهلب فى خراسان، ومنهم ربيعة الرَّقِّى الشاعر العباسى المشهور، وفيه يقول:

هو البحر إن كلَّفتَ نفسَك خَوْضَهُ تهالكتَ فى آذِيِّه المتلاطمِ

وهى قصيدة طارت شهرتها فى العصر العباسى، وله فيه مدائح أخرى بديعة، ومن الشعراء الكبار الذين وفدوا عليه بالقيروان ابن المَوْلَى، وفيه يقول:

وإذا تباع كريمةٌ أو تُشْتَرَى فسواك بائعها وأنت المُشْترى

ويقال إنه أعطاه على هذه القصيدة الرائعة كل ما كان فى بيت ماله، ولابن المولى وربيعة الرقى ترجمتان مفصلتان فى كتاب الأغانى، وقد أقاما عنده فى القيروان طويلا والتف حولهما شبابها يروون عنهما شعرهما وشعر معاصريهما. وذكر ابن خلكان فى ترجمته بين من وفد عليه من الشعراء المشهرَّ التميمى وأنه أغدق عليه مالا جزيلا.

ومرَّ بنا فى الحديث عن اللغويين أن كرم يزيد بن حاتم لم يجلب إلى عاصمته الشعراء فقط بل جلب إليها جلة من النحاة المشهورين مثل يونس بن حبيب وقتيبة الجُعْفى. وكانت قد أخذت تنشأ فى القيروان طائفة من المعلمين الشعراء، منهم أمان بن الصَّمْصامة بن الطرماح ويبدو أن أباه كان قد نزل القيروان فى أوائل القرن الثانى الهجرى واتخذ التعليم مثل أبيه حرفة له، وفيه يقول الزبيدى: «كان شاعرا عالما باللغة». وكان يعاصره معلم، يعكف شباب القيروان على أخذ اللغة والشعر منه، كما يأخذون النحو والعربية والأدب، هو عياض بن عَوَانة، ويقول الزبيدى إنه كان ينظم الشعر ويجوِّد فيه. ولا نكاد نخطو فى النصف الثانى من القرن الثانى

---

(١) خرقتنا: يريد ثيابنا

الهجرى حتى نرى أعمال اللغويين المقيمين والوافدين من أمثال أمان بن الصمصامة ويونس بن حبيب والرواة من أمثال المعمر بن سنان التميمي وسليمان بن حميد الغافقي تثمر ثمارا يانعةً كثيرة فى شباب ترسخ فى نفوسهم فطرة العربية ويطلب كثيرون منهم التخصص فى الفقه لاعلى أساتذته فى القيروان وتونس فحسب، بل أيضا فى الحجاز والعراق، من أمثال عبد الرحمن بن زياد وكان شاعرا وعلى بن زياد الذى أدخل لأول مرة كتاب الموطأ إلى المغرب، وقد توفى سنة ١٨٣ وكان يعاصره عبد الله بن فرّوخ وعبد الله بن غانم الرُّعَيْنى الفقيهان القيروانيان المشهوران.

وعلى الرغم من أن إبراهيم بن الأغلب استقل بالقيروان سنة ١٨٤ وكوَّن بها دولة الأغالبة التى ظلت بها أكثر من قرن وحققت لها نهضة ثقافية كما مر بنا فى الفصل الماضى، على الرغم من ذلك فإن نهضة الشعر بها لا تتراءى لنا واضحة، إذ يظل أصحاب التراجم لا يعنون غالبا طوال هذه الدولة إلا بمن سال الشعر على لسانه من حكامها أو من أفراد الأسرة ومن شاركهم فى هذه الموهبة من الفقهاء واللغويين. وكان إبراهيم بن الأغلب مؤسسها شاعرا، ويسوقون له أشعارا فى الفخر. وكان قد نشأ بمصر وتزوج بها، وكان قد فارق زوجته وسَارَ وحده إلى القيروان وحنَّ إليها فأنشد:

ما سرتُ مِيلا ولا جاوزتُ مرحلةً إلا وذكـرُك يَثْنِى دائـما عُـنقـى
ولا ذكـرتـكِ إلا بتُّ مُـرْتقبًـا أرعى النجوم كأن الموت مُعْتنقى

وكان حفيده الأمير أبو العباس محمد شاعرا (٢٢٦ - ٢٤٢) وهو الذى استولى على رومة فترة من الزمان ثم اضطُرَّ جيشه إلى الانسحاب لتكاثر من جاءها من نجدات المسيحيين، وله أشعار يفخر فيها بنسبه وأسرته، من مثل قوله:

أنا الملك الذى أسمو بنفسى فـأبلغُ بالسموّ بها السَّحـابـا
أُظِـلُّ عشيرتى بِجَنـاح عِـزِّى وأمنحهـا الكرامـةَ والثَّـوابـا

ومن أفراد الأسرة الشعراء أحمد بن سوادة والى صقلية المتوفى سنة ٢٦٠ وله أشعار بديعة فى الحماسة والفخر. ومن أفراد الأسرة أيضا مهريَّة الأغلبية المتوفَّاة سنة ٢٩٥ ولها مرثية بديعة فى رثاء أخ لها مات غريبا. وممن عُرف بالشعر ونظمه فى عهد الأغالبة عيسى بن مسكين القاضى المتوفَّى سنة ٢٩٥ وشعره فى التحسر على الشباب، وكان يعاصره الفقيه أحمد الصواف وشعره فى الحكم والمواعظ. وممن اشتهر بالشعر من اللغويين فى عهد الأغالبة الحسن بن منصور المذحجى، يقول ابن الأبار: «أقل ما تصرَّف فيه الشعر وكان بصيرا باللغة نافذا فى النحو عالما

بأيام العرب وأخبارها ووقائعها وأشعارها» ومن قوله فى رثاء ابن عم له:

لكأنى لما تضمَّنك اللَّحْـ ـدُ يمينٌ قد فارقتْها الشمالُ

وأشعر منه، بل ربما كان أشعر اللغويين عامة فى القيروان حتى نهاية عهد الأغالبة عبد الملك المهرى أستاذ أهل اللغة والنحو والرواية فى عهد الأغالبة، توفى سنة ٢٥٦ للهجرة، وله مرثية بديعة لسحنون، ومن تلاميذه الشعراء حمدون الملقب بالنعجة، وفيه يقول الزبيدى – كما مرَّ بنا – شعره عليه أثر التكلف، أما فى النحو والعربية والغريب فهو الغاية التى لا بعدها.

وننتقل إلى عصر الدولة العبيدية فى القيروان والإقليم التونسى منذ سنة ٢٩٧ إلى سنة ٣٦١ وقد تحول به عبيد الله المهدى أول خلفائها هناك إلى عصر دعاية للمذهب الإسماعيلى الذى جاء يحمله، فكان فقهاؤه ودعاته يجادلون عنه فقهاء المذهب السنى بالقيروان، وكانت القيروان سنية فكانوا يعقدون فيها المناظرات بينهم وبين أبى عثمان سعيد الحداد وغيره من فقهاء السنة القيروانيين العظام. ولأبى عثمان مع دعاتهم أربعون مجلسا حفظ لنا الخشنى فى طبقات علماء إفريقية – كما مر بنا – أربعة منها علا فيها صوته وفكره على دعاتهم. وطبيعى فى هذا الجو المشحون بالجدل فى حقائق المذهب الإسماعيلى أن يطمح خلفاء الدولة الفاطميون التونسيون أن يكون لهم أنصار من الشعراء يعتنقون دعوتهم ويدافعون عنها، وطبيعى أن ينثروا عليهم الأموال نثرا، وكما قال بشار قديما:

يَسْقطُ الطَّيْرُ حيث يَنْتَثِرُ الحَـ ـبُّ وتُغْشَى منازلُ الكرماءِ

وقد أكثر عبيد الله المهدى وخلفاؤه من نثر الحب، وتكاثرت طيور الشعراء من حولهم تلتقط هذا الحب فى القيروان وفى المهدية عاصمتهم الجديدة، وتبارى الشعراء من أمثال خليل بن إسحق الطرابلسى الذى عرضنا له فى ليبيا وأمثال سعدون الورجينى القائل فى مديح المهدى:

هذا الإمامُ الفاطمىُّ ومن بهِ أمنتْ مغاربُها من المَحْذُورِ

ويمضى قائلا إن مدن الشام والعراق لابد أن تستسلم له حتى يسود فيها العدل الذى لا يستطيع الناس الحياة بدونه. وكان المهدى نفسه شاعرا، يُحْسن نظم الشعر، وتتداول الكتب قطعةً طريفة تُنْسَبُ له تارة وتارة أخرى تُنسب إلى داعيته أبى عبد الله الصنعانى، وهى تمضى على هذا النحو:

مَنْ كان مغتبطا بِلين حَشِيَّةٍ فحَشِيَّتى وأَرِيكتى سَرْجى
من كان يُعْجِبُهُ ويُبْهِجه نَقْرُ الدُّفوفِ ورنَّةُ الصَّنْج
فأنا الذى لا شَىْءَ يُعْجِبُنى إلا اقتحامى لُجَّةَ الوَهْج

فهو يعيش حاملا سيفه وممتطيا سرج حصانه مزدريا حياة الترف واللهو والاستماع إلى الغناء ونقر الدفوف ورنات الصُّنوج، وكلّ ذلك يتركه وراءه، إذ لذته جميعها فى قيادة الجيوش واقتحام لجج الحرب ولهيبها المستعر، وهى أخلاقية مُثْلَى لمؤسس دولة، وبحق أسس دولتهم العُبَيْديَّة فى الاقليم التونسى، وكان ابنه القائم شاعرا مثله، وله قصيدة حماسية خاطب بها العباسيين، مفتتحا لها بقوله:

ألا إن حدَّ السيف أَشْفَى لذى الوَصَبْ   وأَحْرَى بنَيْل الحق يوما إذا طُلِبْ

وخلفه ابنه المنصور وكان جوادا ممدَّحا وفارسا مقداما، وقد استطاع فى أول خلافته القضاء المبرم على ثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد كما مرَّ بنا فى القسم التاريخى، وفيه يقول شاعره أيوب بن إبراهيم:

يابنَ الإمامِ المرتضى وابن الوصىِّ (م) المُصْطَفَى وابن النبىِّ المرسلِ
اللّهُ أعطاك الخلافة واهبًا   ورآك للإسلام أَمْنَعَ مَعْقِلِ

ولأبى القاسم الفزارى فيه قصيدة بديعة حين أمَّن أهل القيروان بعد ثورة مخلد بن كيداد سنعرض لها فى غير هذا الموضع، ويتولى الخلافة بعده ابنه المعز، ويأتيه الشعراء من كل فَجٍّ وفى مقدمتهم ابن هانئ الأندلسى وله فيه قصائد طنَّانة، وقد ترجمنا له فى قسم مصر، وحين فتح جوهر الصقلى مصر للمعز أنشده ابن هانئ قصيدة افتتحها بقوله:

يقول بنو العباس هل فُتحتْ مصرُ   فقُلْ لبنى العباس قد قُضِىَ الأَمْرُ

ومن أهم شعرائه على بن الإيادى، وسنخصه بترجمة.

وينتهى عصر الخلافة العُبَيْديَّة فى الإقليم التونسى سنة ٣٦١ بانتقال المعز الفاطمى إلى القاهرة واتخاذها عاصمة لملكه وملك أبنائه وأحفاده من بعده، ووقع اختياره على بُلكيّن بن زيرى الصنهاجى ليخلفه على الإقليم التونسى، فأسس بها دولة صنهاجية أتاحت للإقليم التونسى كل ما كان يحلم به من ازدهار فكرى وأدبى. ومع أن المعز بن باديس غُلب على أمره أمام موجات بنى هلال واضْطُرَّ إلى أن ينسحب إلى المهدية سنة ٤٤٩ فإنه استطاع هو وابنه تميم ومن خَلَفَهما فيها أن يستتموا لهذا الإقليم كل ما كان ينتظره من نهضة أدبية وفكرية، وفى المعز يقول ابن خلكان: «كان محبا لأهل العلم كثير العطاء مدحه الشعراء وانتجعه الأدباء، وكانت حضرته محط بنى الآمال» ويقول فى ابنه تميم: «كان محبا للعلماء، معظما لأرباب الفضائل حتى قصدته الشعراء من الآفاق على بعد الدار كابن السراج الصورى وأنظاره، وكان يجيز الجوائز

السنية ويعطى العطاء الجزيل» واقتدى به ابنه يحيى (٥٠١ - ٥٠٩) فى سيرته، فكانت عنده جماعة من الشعراء - كما يقول ابن خلكان - قصدوه ومدحوه وخلدوا مديحه فى دواوينهم، ومن جملة شعرائه أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسى، وله فيه مدائح كثيرة أجاد فيها وأحسن، وله أيضا مدائح فى ولده أبى الحسن على (٥٠٩ - ٥١٥ هـ). وفى حفيده الحسن، وكان روجار صاحب صقلية قد استولى منه على المهدية سنة ٥٤٣ واستردها منه عبد المؤمن أمير الموحدين سنة ٥٥٥. وسار الحسن سيرة آبائه فى العناية بالعلماء والشعراء.

وعصر هذه الدولة الصنهاجية يعد عصر ازدهار للإقليم التونسى ولشعرائه، إذ أصبحوا يعدون بالعشرات، حتى لنجد ابن رشيق المتوفى سنة ٤٥٦ يؤلف فيهم كتابه: «أنموذج الزمان فى شعراء القيروان» يضمنه مائة ترجمة لشعراء قيروانيين فى زمنه، وبينهم شاعرة مبدعة، وكان الكتاب مفقودا، واستطاع الأستاذان محمد العروسى المطوى وبشير البكوش أن يجمعاه من مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى وغيره من المخطوطات التى احتفظت بترجماته، وأن يعيداه كأنما تركه ابن رشيق بالأمس، وهو عمل علمى جليل فضلا عما قدما له من دراسة وما ملأ به هوامشه من تحقيقات قيمة، وبذلك وضعا تحت يد الدارسين للنهضة الشعرية فى القيروان أروع نص يمكنهم من تصوير هذه النهضة، ولم يَحْظَ الإقليم التونسى بنصٍّ مماثل قبل ابن رشيق ولا بعده له خطورته، ويقال إنه كان له كتاب عن شعراء المهدية سقط من يد الزمن، ولو أنه وصلنا لا تسعت تحت أعيننا صورة النهضة الشعرية فى هذا الإقليم الشقيق لذلك العهد الصنهاجى، إذ الأنموذج لا يصور كلَّ ذلك العهد، فقد كتبه ابن رشيق حوالى سنة ٤٢٥ ويغلب أن يكون كثير من المترجم لهم فيه قد عاشوا إلى منتصف القرن الخامس ورأوا موجات بنى سليم وهلال تأتى على القيروان وكثير من المدن، ومع ذلك فقد انسحب المعز بن باديس إلى المهدية، وخلفه عليها سريعا ابنه تميم من سنة ٤٥٤هـ إلى سنة ٥٠١ ومرت بنا كلمة ابن خلكان عن تميم وكيف كان يُغْدق الأموال على الشعراء والعلماء وكيف قصده الشعراء، من الأقاليم البعيدة فضلا عن إقليمه، ونهج نهجه ابنه يحيى وحفيده على وابنه الحسن فى نثر الأموال على الشعراء، ولابنِ حمديس الصقلى وأمية بن أبى الصلت الأندلسى فى الثلاثة مدائح رائعة، وبالمثل لمن كان يحف بهم من شعراء القيروان، غير أنهم جميعا لم يقيِّض لهم ما قيض للمعز بن باديس من عناية ابن رشيق بالترجمة لشعراء القيروان والإقليم التونسى لزمنه.

وكان الإقليم التونسى منذ زحفة بنى هلال وسليم قد تحول إلى ما يشبه عصر الطوائف المعروف فى اليونان، ففى المهدية أسرة المعز بن باديس وأبنائه، وفى تونس بنو خراسان كانوا عمالا للدولة الصنهاجية واستقلوا عنها منذ سنة ٤٥٨ وفى قفصة والجريد بنو الرُّند، وفى سوسة الهلاليون، ويشتهر آخر أمرائهم جبارة بن كامل بن سرحان البعيد الصيت بالجود وإغداقه

الأموال على الشعراء، ومن يده أخذها روجار الصقلى واستردها منه عبد المؤمن مع البلاد الساحلية. واستولى الهلاليون أيضا على قابس، إذ ظلت لبنى جامع منهم حتى سنة ٥٥٤ واشتهر من أمرائهم بأخرة من أيامهم أبو الحملات مدافع، ومنها استنزله عبد المؤمن أمير الموحدين، وكان جوادا ممدحا، والتفَّ حوله كثير من الشعراء. ومن الغريب أن هذا العصر الذى توزَّع فيه الاقليم التونسى بلدانا وإمارات متعددة لم يضعف فيه الشعر بل ظل مزدهرا، وخاصة حول أمراء المهدية وقابس وسوسة، إذ كان أمراء البلدان فيه يتنافسون فى جَذْب الشعراء إليهم، وكلٌّ يحاول أن يجمع فى بلده العديد منهم، ليتحدثوا عن مناقبه ومفاخره، وكانت تحف بتميم بن المعز فى المهدية كوكبة من الشعراء، منهم – كما فى الخريدة – حميد بن سعيد، وكان من الشعراء المجيدين وهو الذى جمع شعر تميم، ومنهم – كما فى الحلل السندسية – محمد بن حبيب القلانسى وأبو الحسن بن محمد الحداد، ونلتقى بشعراء أمير قابس أبى الحملات مدافع آخر أمراء بنى هلال بها، ومنهم جعفر بن الطيب الكلبى وسلام بن فرحان القابسى وهو من الشعراء المجيدين والسكدلى القفصى ويحيى بن التيفاشى، كما نلتقى فيها بشعراء جبارة بن كامل بن سرحان أمير سوسة المارّ ذكره، ومنهم أبو ساكن عامر بن محمد بن عسكر الهلالى وأبو الحسين بن الصبان المهدوى والتراب السوسى وهو من الشعراء المبدعين، وكان وراء هؤلاء الشعراء الذين سميناهم شعراء بارعون مثل تميم بن المعز صاحب المهدية وعلى الحُصْرِى المهاجر إلى الأندلس وأبى الحسن على بن محمد الخولانى المعروف بالحداد المهدوى المهاجر إلى الاسكندرية وأبى الفضل بن النحوى التوزرى وابن بشير المهدوى وعبد الله الشقراطسى ومحمد بن شرف المهاجر مع ابنه إلى الأندلس.

ويدخل الإقليم التونسى منذ منتصف القرن السادس الهجرى فى حوزة الموحدين، غير أن ابنى غانية وقراقوش يحدثان فيه شغبا – كما مرَّ بنا – ظل فترة طويلة، ويعيد الأمن فيه إلى نصابه والى الموحدين أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد مؤسس الدولة الحفصية بتونس، وقد اتخذها عاصمة له، وظلت عاصمة للدولة بعده حتى سنة ٩٨١ حين انتهت دولة الحفصيين، بل لقد ظلت إلى اليوم عاصمة للإقليم التونسى. وكان أبو زكريا سيوسا حليما منصفا محسنا لتدبير دولته، وكان معدودا فى العلماء وفى الشعراء وله شعر مدون مع إحسانه لاختيار الرجال الذين يديرون معه دقَّة الحكم، مما جعل أيامه خير أيام على الاقليم التونسى وأكثرها أرزاقا وجمعت دولته طائفة من كبار العلماء ونابهى الشعراء لا من الإقليم التونسى وحده، فقد نزل بدياره كثرة غامرة من علماء الأندلس وشعرائه مثل ابن الأبار وأحمد بن عميرة وحازم القرطاجنى وتظل هذه السيول الأندلسية وافدة على تونس فى عصر ابنه المستنصر مثل ابن بُرْطلة رئيس الوفد الذى قدم إلى تونس سنة ٦٥٧ مبايعا المستنصر خليفة وأميرًا، ومثله ابن القصير شاعر المستنصر وله فيه مدائح كثيرة، وعلى شاكلتهما ابن أندراس أهم أطباء المستنصر. وهذه الأسماء

الأندلسية التى ذكرناها إنما هى رموز، فقد كان علماء الأندلس وشعراؤها الذين نزلوا بتونس وماوراءها من المدن لا يُحْصَونَ عدًّا، وقد بعثوا فيها جميعا حركة أدبية عظيمة، اقترنت بما كان فى البلاد من نشاط أدبى، فإذا هى تبدأ - منذ الأيام الأولى للدولة الحفصية - فى نهضة أدبية عظيمة، فإذا التفتنا إلى شعراء تونس وجدناهم كثيرين، مثل أبى طاهر الحميرى المتوفى سنة ٦٣٩ وعنان بن جابر الهلالى المتوفى سنة ٦٤٥ وأحمد اللِّلياقى المتوفى سنة ٦٥٩ وابن عُرَيْبَة المتوفى مثله سنة ٦٥٩ ومحمد بن أبى الحسين وزير المستنصر المتوفى سسنة ٦٧١. ووراء هؤلاء فى القرن السابع الهجرى غير شاعر مبدع مثل ابن الشباط التَّوَزَرِىّ المتوفى سنة ٦٨١ وله شرح وتخميس لقصيدة الشَّقْراطِسِى اللامية فى المديح النبوى، وكان يعاصره ابن السِّماط البكرى المهدوى المتوفى سنة ٦٩٠ وأشعاره جميعها مدائح نبوية رائعة. وتظل هذه النهضة الشعرية أيام الحفصيين مطردة فى القرن الثامن الهجرى، ويلقانا به شاعران من أسرة التجانى هما أبو الفضل وعبد الله صاحب الرحلة، وقد توفيا سنة ٧١٨ للهجرة، ونلتقى بإسحاق بن حُسَينة المتوفى سنة ٧٤٠ وبمحمد الظريف المتوفى سنة ٧٨٧، وما تلبث تونس أن تلقى بدرَّتها اليتيمة ابن خلدون المتوفى بالقاهرة سنة ٨٠٨ وهو ناثرًا أكبر منه شاعرًا. وقلما نلتقى بشاعرمهم فى الحقب المتأخرة للدولة الحفصية، باستثناء الشهاب بن الخلوف المتوفى سنة ٨٩٩ وأبى الفتح بن عبدالسلام المتوفى سنة ٩٧٥. وفى رأيى أن ضعف الشعر لعهد الدولة الحفصية فى القرنين التاسع والعاشر الهجريين يرجع إلى ما أخذ يسود منذ زمن ابن خلدون فى الإقليم التونسى وبجاية بعامة من اللغة العامية التى لاتحتفظ بالإعراب فى أواخر الكلمات، مما جعله يقول بمقدمته فى الفصل الخاص بأشعار العرب وأهل الأمصار لزمنه: «فأما العرب أهل هذا الجيل المستعجمون عن لغة سلفهم من مضر فيقرضون الشعر لهذا العهد فى سائر الأعاريض على ما كان عليه سلفهم المستعربون، ويأتون منه بالمطولات مشتملة على مذاهب الشعر وأغراضه من النسيب والمدح والرثاء والهجاء، ويستطردون بالخروج من فن إلى فن فى الكلام.. وأساليب الشعر وفنونه موجودة فى أشعارهم هذه، ماعدا حركات الإعراب فى أواخر الكلم فإن غالب كلماتهم موقوفة الآخر. ويتميز عندهم الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر بقرائن الكلام لا بحركات الإعراب». ويبدو أن هذه العامية غير المعربة اتسع استخدامها فى الاقليم التونسى، مما جعل الناطقين بالشعر الفصيح المعرب يقلون، وكان زملاؤهم من أصحاب الشعر العامى المسمون بالقوَّالين يظهرون فى العهد الأول للدولة الحفصية على استحياء غير أنهم أخذوا يتكاثرون منذ زمن ابن خلدون والقرن التاسع الهجرى.

وكانت شئون الحكم فى أواخر عصر الدولة الحفصية قد ساءت سوء شديدا واستعان بعض حكامها بالإسبان ونزلوا فى ديارها - كما مرَّ بنا - منذ سنة ٩٤٢ وأخذت البلاد تعانى من ظلم الإسبان وعسف الحفصيين ويستولى العثمانيون سنة ٩٨١ على الإقليم التونسى ويظل يعانى من

سوء الحكم العثمانى إلى أن تتولاه الدولة الحسينية منذ سنة ١١١٧ غير أن لهذا الحكم السيىء حسنة فإن الإسبان أخرجوا من ديارهم من بقى بها من المسلمين سنة ١٠١٦ فاستقبلهم الحاكم التركى للإقليم التونسى: عثمان داى استقبالا كريما، وأوسع لهم فى اقتطاع الأراضى ومزاولة الصناعات، كما أوسع للشخصيات الفكرية والأدبية اللامعة أن تزاول حياتها فى تونس، وبذلك أخذوا يردُّون لها دورها الثقافى فى العصر الصنهاجى وأوائل العهد بالدولة الحفصية غير أنه لم يتح لتونس حينئذ حكام يستطيعون أن يحققوا لتونس هذا الدور، حتى تولت الأسرة الحسينية شئون الإقليم، وكان مؤسسها مثقفا مستنيرا وكان أبناؤه يحسنون العربية، بل كان ولى عهده من بعده: محمد الرشيد شاعرًا وموسيقيًا، وله ديوان شعر، وكما كان مولعا بالشعر كان مولعا بالغناء والموسيقى، وإليه يرجع فضل ترتيب الأغانى الشعبية التونسية والأندلسية. وبحق تفتتح هذه الأسرة الحسينية عصرًا جديدًا بتونس، ظل يواكبها إلى آخر هذا العصر وفترة فى العصر الحديث، وكما أكثروا من إنشاء المدارس والاهتمام بجامعة الزيتونة وعلمائها من كل صنف أكثروا أيضا من الاهتمام بالشعراء والأدباء، وبذلك ظلت بتونس حركة أدبية ترافقها طوال عصر الدولة الحسينية، وممن نلتقى به من شعرائها فى أول العهد بها ابن أبى دينار صاحب كتاب المؤنس فى أخبار إفريقيا وتونس وأحمد برناز ومحمد الوزير السراج صاحب الحلل السندسية ومحمد الخضراوى ومحمد سعادة وإبراهيم بن القاسم الخراط، وأعلى منهم مرتبة فى الشعر على الغراب الصفاقسى وله ديوان منشور ومحمد الورغى والطوير القيروانى ومحمد الشافعى وحمودة ابن عبد العزيز والحجرى، ونلتقى بأخرة من العصر بمحمد ماضور القاضى وكان ينزع فى شعره نزعة صوفية كما نلتقى بمحمد الأصرم والطاهر بن عاشور، ونجد عندهم معارضات كثيرة، والطريف أنهم يعارضون بعض شعراء الأندلس فى قصائدهم مثل ابن زمرك.

٣

أغراض الشعر والشعراء

أخذت الحركة الشعرية تنهض فى القيروان والمهدية منذ عصر الفاطميين أو منذ أوائل القرن الرابع، واتسعت فى عصر الدولة الصنهاجية اتساعا كبيرا أتاح لابن رشيق أن يؤلف فيها كتابه الأنموذج الذى ترجم فيه لمائة شاعر وشاعرة، واتسعت مع تلك الحركة حركة نقدية خصبة، فألف ابن رشيق كتابه البديع: العمدة فى صناعة الشعر ونقده.

ولم تتوقف موجات الحركة الشعرية مع الزحفة الأعرابية لبنى سليم وبنى هلال، فقد ظلت منها – كما أسلفنا – أسراب فى المهدية وفى قابس وسوسة وعادت إلى الانتعاش مع الأزمنة الأولى للدولة الحفصية، وغذتها حينئذ هجرة الأندلسيين إلى تونس وما وراءها من البلدان،

وبالمثل غذتها هجرة مماثلة فى القرن الحادى عشر الهجرى انتشلت الأدب شعرًا ونثرًا مما كان قد صار إليه من الضعف الشديد وغلبة العامية عليه. ولن نستطيع أن نفصل الحديث فى الحركة الشعرية لاتساع جوانبها ومناحى القول فيها، بل سنعمد إلى غير قليل من الاجمال فى عَرْض أغراض الشعر ومن جلّى فى كل غرض، متخذين ممن نذكرهم رموزا لمن عاصرهم - وكذلك لمن خلفهم - من الشعراء، ونستهل ذلك بالحديث عن غرض المديح والنابهين من شعرائه على مر العصور.

شعراء المديح

أخذت سوق المديح تنفق فى الاقليم التونسى مع قيام الدولة العُبَيْدِيَّة التى كان خلفاؤها يتخذون منه منشورات للدعاية لحكمهم، ومرَّ بنا ذكر بعض مادحيهم، ومن أهمهم أبو القاسم الفزارى المتوفى سنة ٣٤٥ وله مدحة بديعة فى المنصور الفاطمى حين انتصر على مخلد بن كيداد الثائر الخارجى سنة ٣٣٦هـ وفيها يذكر من اشتهروا فى الجاهلية والإسلام بالشرف والجود والبأس، ثم يأخذ فى مديح المنصور وأنه لايقل عنهم بأسا وجودا وشرفا بمثل قوله[١]:

كريمُ المساعى والأيادى سمتْ بهِ ... أُبـوَّةُ صِدْقٍ من ذُؤَابـة هاشمِ
شَريفُ الأدانى والأقاصى مهذَّبٌ ... إذا ما عَدَدْنا فَضْلَ أهل المكارمِ

وكان يعاصره على بن الإيادى، وسنخصه بكلمة. ويدور الزمن ونلتقى بحكام الدولة الصنهاجية، وكانوا بحورا فياضة، فجذبوا إليهم الشعراء من كل بلدة ومكان فى الإقليم التونسى، وتجلّت مواهبهم الشعرية الخصبة فى مدائحهم، من ذلك قول ابن سفيان فى المنصور الصنهاجى المتوفى سنة ٣٨٦ للهجرة[٢]:

ومُعْتَرَكٍ ضاقَ الفَضَا فى مُقامِه ... من الطَّعْن والأرضُ العريضة خاتَمُ
تجلَّى لها المنصورُ فانجابَ جُنْحُها ... ولبَّته فى لَثْم التراب الجماجم[٣]
قناتهمُ فى حيث لا السيفُ يُنْتَضَى ... كأن ضياه فى التراقى تمائمُ[٤]
كأن الطُّلَا وسْط العَجاج خناصرُ ... وقد صيغ من بيض الفِرنْد خواتمُ[٥]

---

(١) مجمل تاريخ الأدب التونسى للاستاذ حسن حسنى عبدالوهاب ص٨٦.

(٢) أنموذج الزمان فى شعراء القيروان جمع وتحقيق محمد العروسى المطوى وبشير البكوش ص١٠٠.

(٣) الجنح: الظلام.

(٤) ينتضى: يُسَلُّ من عمده.

(٥) الطلا: الأعناق. الفرند: السيف.

وتصوير الفضا وأنه ضاق بالقتلى تصوير قريب، غير أنه جعل الأرض كأنها تحولت خاتما يختم على قتلى الأعداء، ويستمر فيجعل تناثر جماجمهم ورءوسهم على التراب كأنها تنفذ للمنصور أمرا بلثمها للتراب، ويتصور ضياء سيوف جيشه فى تراقيهم كأنه تمائم، ويتسع به الخيال فيجعل أعناقهم وسط غبار الملحمة كأنها خناصر وقد أحاطت بها من بيض السيوف خواتم. وهى روعات متتابعة من الخيال البديع، وقد عقب ابن رشيق على الأبيات بقوله: «هذا كلام منتقى، ليس فوقه مرتقى». ويقول قرهب الخزاعى فى باديس بن المنصور[١]:

أبنى مَنَادَ سلكتمُ سَنَنَ الهُدَى والعَقْدُ منكم بالوفاء مُعَارُ
وكأنَّ باديسَ المملَّك فيكمُ شمسُ الضحى وكأنكم أقمارُ
راقٍ تِلاعَ العِزِّ يحمى حَوْزَه حَدُّ البواتِرِ والقنا الخَطَّارُ
وحدا بمدحه جازعٌ فى مهمهٍ وشدا به الحضَّارُ والسمَّارُ

والكلمات فى الأبيات رصينة، ولكن المعانى مطروقة فى المديح، فبنو مناد أسرة باديس يسلكون طريق الهدى، وهم أهل الوفاء، وباديس شمس وهم أقمار من حوله، وهو راق تلاع العز أى أعاليه حامٍ لحوز ملكه ونواحيه بالأسلحة الفاتكة، وهو محبوب حتى ليحدو بمدحه فى القفار كل خائف وحتى ليشدو باسمه ويتغنى الحضَّار والسمار. ولإبراهيم بن القاسم القيروانى مدائح متعدِّدة فيه وسنفرده بكلمة. وكان المعز بن باديس غيثا مدرارا، حتى قيل إن الشعراء الذين مدحوه وحَفُّوا به بلغوا المائة عَدًّا، ومن رائع مدائحه قول عبد العزيز بن خلوف الحرورى[٢]:

لو يستطيع لأدخل الأموات من نُعمَاه فيما نالتِ الأحياءُ
سوَّتْ رعاياهُ يدا إنصافهِ حتى الشوامخُ والوهادُ سواءُ
متنوع العزماتِ ماءٌ مُغْدِقٌ فيهم وعنهم صَخْرَةٌ صمَّاءُ
ما أنت بعضُ الناسِ إلا مثلما بعضُ الحصى الياقوتةُ الحمراءُ

فلو يستطيع المعز لنشَر الأموات كى يقاسموا الأحياء من رعيته ما ينثر عليهم من نعماه، وإن يدى إنصافه لتسوى تسوية عادلة بين الأغنياء والفقراء من رعاياه، وإنه لمتنوع العزمات فهو على رعيته غيث مدرار، وهو على أعدائه صخرة صماء، وما يلبث الشاعر أن يأتى بصورة بديعة فالمعز حقا واحد من الناس إلا أنه ينفرد عنهم كما تنفرد من بين الحصى الياقوتة الحمراء.

---

(١) الأنموذج ص ٣٢٥.
(٢) الأنموذج ص ١٦٣.

وفيه يقول ابن شرف القيروان[١]:

شهابُ الحرب مهلكُ كلِّ باغٍ ومحــرقُ كـل شيــطانٍ رَجيمِ
تقـطَّعُ دونـه البِيضُ المــواضى وتُجْفِـل منـه إجفـال الـظليم[٢]
ويَجْلُو عنـه ليـلَ النَّقْـع وَجْـهٌ كبـدر التِّمِّ فى الليل البهيم[٣]

فهو لا يهلك البغاة فحسب، بل يدمرهم ويحرق شياطينهم الملعونين ، كأن لم يكونوا شيئا مذكورا، ومن دونه تقطَّع السيوف الحداد القاطعة، وتنفر منه نفور النعام فى البوادى، حتى إذا أثير بالغبار الكثيف فى الحرب تجلى وجهه كما يتجلَّى البدر فى اكتماله بالظلام المعتم الداجى. وكان يعاصر ابن شرف الحسن بن رشيق القيروانى شاعر المعز وسنفرده بكلمة. وخلف المعز فى المهدية ابنه تميم، وكان محبا للعلماء ومعظما للشعراء وقصدوه من الآفاق البعيدة، وله أشعار جيدة، وفى عهده أغار أسطول النصارى على المهدية وعاثوا فيها فسادا سنة ٤٨٠ هـ إلى أن انسحبوا منها بعد صلحهم مع تميم، ووصف شاعره أبو الحسن الحداد هذه الحادثة فى قصيدة فائية استهلها بقوله[٤]:

أنَّى يـلمُّ الخيــال أو يـقـفُ وبـين أجفـاننـا نَـوًى قُــذُفُ

وخلف تميما ابنه يحيى، وبه نزل أمية بن أبى الصلت الشاعر الأندلسى الكبير فأغدق عليه من إكرامه وكذلك ابنه على وحفيده الحسن وأغدق عليهم من مدائحه، وبنى علىٌّ أسطولا للقاء روجار وحماية المهدية فتبارى الشعراء فى مديحه بسببه من مثل محمد بن بشير المهدوى وغيره، وكان متولى قابس رافع بن جامع الهلالى مدَّ يده إلى روجار ضده وضد العرب فصمَّم على فتحها وتم له ذلك سنة ٥١١ وتبارى الشعراء فى تهنئته بهذا الفتح من مثل قول محمد بن بشير الذى يتهم رافعاً بأنه أصبح نصرانيا[٦]

سَلْ رافِعًا مـا الذى أجـرى تنصّرهُ وهل يَقِى الذلَّ عنه من بهِ وَثِقـا
لو لم ير الرومَ أهلًا والصَّليبَ أبًا لم يَشْكُ من عيشه فى قابسٍ رَنَقًا[٧]

يقول له إن حياته فى قابس كانت صفوا هنيئة لولا ما كدرها من تعاونه مع روجار وأعوانه

---

(١) الأنموذج ص ٣٤٢.
(٢) البيض المواضى: السيوف القاطعة. تجفل: تفر وتفزع.
(٣) النَّقع: غبار الحرب.
(٤) الحلل السندسية ٢/٤٦٨. قذف: بعيدة.
(٥) قذف: بعيدة.
(٦) الحلل ٢/٣٥٥ وقابل بتاريخ الأدب التونسى ص ١٧٦.
(٧) الرنق: الماء الكدر.

من النصارى حتى لكأنما فارق دينه وتنصر بوقوفه مع أعداء الإسلام لا يذكر عهدا ولا ذمة.

وفى أواخر عصر الطوائف يلقانا مدافع بن رشيد من بنى جامع الهلاليين وكان شجاعا حتى لُقِّب بأبى الحملات، كما كان جوادا ممدَّحا، وذكر صاحب الخريدة من مداحه أبا محمد الكلبى والسكدلى القفصى ويحيى بن التيفاشى، وأهم شعرائه جميعا سلام بن فرحان القابسى جليسه ووزيره، وأنشد له العماد فى مديحه ميمية بديعة يقول فيها[١]:

هَنِئٌ مُدافعَ أن الله خَوَّلَهُ ... سَعْدا ينال به كلُّ الذى راما
قُمْ فافتحِ الأرضَ فالأملاكُ كلُّهمُ ... سواك أضحوا عن العلياء نُوَّاما

وكان فى نفس الحقبة أميرا على سوسة جبارة بن كامل بن سرحان البعيد الصيت المشتهر بالجود، وهو هلالى مثل مدافع أمير قابس وشاعره ابن فرحان، ومن مداحه أبو الحسين بن الصبان المهدوى وفيه يقول[٢]:

فتًى للعشيــرة عِـزٌّ لهـا ... غدا لجميع البَرايا ثِمـالا

فهو ثمال وغياث لا للعشيرة وحدها بل لجميع الناس، وأهم منه بين شعراء جبارة التراب السوسى، وسنخصه بترجمة موجزة.

ونمضى إلى عصر الدولة الحفصية وكان مؤسسها أبوزكريا يحيى بن عبدالواحد، وكان شاعرا محسنا، وله أشعار حماسية جيدة وفى موضوعات مختلفة، واهتم بالحركة العلمية والأدبية فى عهده، وفسح فيها وفى دولته للمهاجرين الأندلسيين، ولهم فيه ولمعاصريهم من التونسيين مدائح كثيرة، وهو جدير بها لما امتاز به من بعد النظر وحسن التدبير مع سمو الهمة، وكان يتلقب بالأمير فحسب، وعرَّض له بعض الشعراء بأنه ينبغى أن يتسمى بأمير المؤمنين قائلا[٣]:

ألا صِلْ بالأمير المؤمِنينا ... فأنتَ بها أحقُّ العالمينا

فزجره زجرا شديدا، ولم يقبل منه ذلك. حتى إذا تولى ابنه المستنصر عمل على أن تأتيه البيعة بالخلافة كما مر بنا فى تاريخه، وكان ذلك من أسباب تكاثر العلماء والأدباء والشعراء فى تونس، إذ أصبحت تعدُّ نفسها – من بعض الوجوه – حامية حمى الإسلام. ومن أهم شعرائها ابن عُرَيْبة وسنخصه بكلمة. وحدَّثت نفس لويس التاسع بعد إخفاق حملته على مصر أن يغير على تونس سنة ٦٦٨للهجرة وحاصرها نحو أربعة أشهر، وكان عداد جيشه الذى هاجم به

---

(١) الخريدة (قسم شعراء المغرب) طبع تونس ١٢٤/١.
(٢) الخريدة ١٣٨/١.
(٣) الحلل السندسية ١٠٢٤/٤.

مصر سبعين ألفا فأصبح لا يُرَى فيه إلا قتيل أو أسير أو جريح، وقُيِّد لويس إلى دار تعرف بدار ابن لقمان والأغلال فى يده وحارسه الطواشى صبيح، وافتك نفسه من الأسر بدية كبيرة، فقال للويس بعض التونسيين مشيرا إلى كارثته بمصر(١):

يا فرنسيسُ هذهِ أخت مصرٍ ... فتأَهَّبْ لما إليـه تَصِيرُ
لك فيها دارُ ابنِ لقمان قَبْرٌ ... وطَـواشيـك مُنْكَـرٌ ونكيرُ

وصدَّقت الأقدار قول هذا الشاعر التونسى فإن لويس دُفن تحت سور تونس، وعاد جيشه إلى فرنسا مخذولا مدحورا. ولم يخل حكم المستنصر من عصيان بعض القبائل عليه فى الجهات النائية، وعصت عليه رياح فى جهة بسكرة، ووصلت إليه جماعة منها على غير أمان، فصلب أبدانهم ببسكرة ورءوسهم بتونس، وفى ذلك يقول أبو عبد الله بن أبى تميم الحميرى مادحا للمستنصر(٢):

ويا حُسْنَ ما قرَّت به أعينُ الوَرَى ... رءوسُ رياحٍ فى رءوسِ رماحِ
فهـذِى دماءُ المـارقين مبـاحـةٌ ... وهذا حِمَى الإسلام غيرُ مباحِ
بمستنصـرٍ يَرْمِى العِـدا بكتائبٍ ... تعمُّ نـواحى أَرْضِهـمْ بنُـواحِ

ويظل خلفاء المستنصر معنيين بالحركتين الأدبية والعلمية. ويشتهر بين كتاب دواوينهم وشعرائهم آل التجانى وتنبغ فى الشعر بين نسائهم زينب بنت إبراهيم التجانى، ولهم أثر غير قليل فى الحركة الأدبية حتى زمن الخليفتين أبى عصيدة وأبى ضربة. واشتهر بين مداح الخلفاء فى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى، بل قبل ذلك بفترة عبد الله التجانى صاحب الرحلة المشهورة المتوفى بعد سنة ٧١٨ وسنخصه بكلمة، وكان يصادق كبير مشيخة الدولة أبا يحيى اللحيانى الحفصى وتولى الخلافة حينا. وممن خلفوه أبو بكر المتوكل، وكان شاعرا وفى شعره وشعر معاصريه من أهل تونس يقول ابن فضل الله العمرى فى مسالك الأبصار: «لأهل إفريقية (تونس) لطف أخلاق وشمائل بالنسبة إلى أهل بَرِّ العُدْوة (المغرب) وسائر بلاد المغرب بمجاورتهم مصر وقربهم من أهلها ومخالطتهم إياهم ومخالطة من سكن عندهم من أهل إشبيليَّة من الأندلس وهم مَنْ هم خفةَ روحٍ وحلاوة بادرة، وأهل انطباع، وكرم طباع، وناهيك من بلاد من شعر ملكها السلطان أبى بكر المتوكل قوله:

(١) الحلل ٤/١٠٣٢.

(٢) الفارسية لابن منقذ تقديم وتحقيق محمد الشاذلى النيفر وعبدالمجيد التركى ص١٣٠.

مَـواطِنُنـا فى دهـرهنَّ عجـائبُ   وأزمـانُنـا لم تَعْـدهن الغـرائبُ
مواطنُ لم تَحْك التواريخُ مثلَها   ولا حدَّثَتْ عنها الليالى الذواهبُ

وقوله فى الحماسة:

انظرْ إلينا تجدنا مـا بنا دهَشٌ   وكيف يطرقُ أُسْدَ الغابة الدَّهَشُ
لا تعرفُ الحادثَ المرهوبَ أنفُسُنا   فـإننا بـارتكابِ المـوتِ نَنْتَعِشُ

وقوله فى الغزل:

عَسَى اللَّهُ يُدْنى للمحبِّين أوبةً   فتُشْـفَى قـلوبٌ منـهمُ وصـدورُ
وكم من قَصِيٍّ الدارِ أمسى بِحُزْنِهِ   فـأُعْقَبه عنـد الصبـاحِ سـرورُ

وإذا كان هذا رقةَ طبع السلطان فما ظنك بغيره من العلماء والأدباء[١] !». ولعل هذا الحكم الدقيق لابن فضل الله العمرى خير رد على ابن خلدون المتوفى بعده بستين عاما وما ذهب إليه فى مقدمته من عراقة العجمة فى لغات أهل الأمصار، كما هو واضح - كما يقول - فى لغات أهل إفريقية وأشعارهم، ويتسع بالتهمة فى الإقليم التونسى قائلا: «ولهذا ما كان بإفريقية من مشاهير الشعراء إلا ابن رشيق وابن شرف، وأكثر ما يكون فيها الشعراء طارئين عليها، ولم تزل طبقتهم فى البلاغة حتى الآن مائلة إلى القصور». وابن فضل الله العمرى إنما يتكلم عن شعراء الإقليم التونسى فما بالنا بالقرون التالية لابن رشيق وابن شرف ومن بها من الشعراء التونسيين المجيدين المحسنين، من أمثال على الحصرى وعبد الله الشقراطسى من شعراء القرن الخامس بعد ابن رشيق وابن شرف وأبى الفضل بن النحوى والتراب السوسى من شعراء القرن السادس وابن عُرَيْبة والسِّماط المهدوى من شعراء القرن السابع وعبد الله التجانى وابن حسينة من شعراء القرن الثامن، وجميعهم ممن تباهى بهم تونس، وسنترجم لهم فى الصحف التالية محاولين أن نوضح براعاتهم الشعرية، ونفس ابن خلدون كان شاعرا وله مدائح فى السلطان أحمد معاصره، وهو لا يتفوق فى شعره تفوقه فى نثره، ولذلك سنترجم له بين الكتاب. وفى الحق أنه قسا فى حكمه على شعراء تونس وبالغ فى قسوته. وفى سنة ٨٣٨ تولى أبوعمرو عثمان حتى سنة ٨٩٣ وهو خاتمة خلفائهم الضابطين للحكم وإدارته، وفى الحلل

---

(١) صبح الأعشى ١١٥/٥ وقارن بتاريخ الأدب التونسى ص ١٨٥.

السندسية أنه ممدوح الشهاب ابن خلوف[١] الجزائرى المتوفى سنة ٨٩٩ وله فى مديحه[٢]:

تلقـاه أنَّى حَلَّ يَبْسُطُ للقِـرَى بُسُـطًا يُـظَلِّلُها القَنَـا الـرَّيـانُ
شَرَفٌ أتِيهِ وبَيْتُ مُلْكٍ شـامخٍ فـوق السِّماك غَـدَا له إيـوانُ

فهو جواد لا يزال جوده يفيض فى كل مكان يحل فيه، ولا تزال رماح شجاعته وشجاعة جيشه تظلّه وتظل من حوله من رعاياه، شرف ناله من بيت ملك سامق، إيوانه فوق السماك فى أعلى مكان. ويُخْتَم العصر الحفصى بأبى الفتح بن عبد السلام الذى يكى الدولة الحفصية وتاريخها بكاء حارًا.

ويعود إلى المديح والشعر بعامة غير قليل من الانتعاش فى عصر الدولة الحسينية، العثمانية كما أسلفنا إذ كان حكامها يولدون بتونس ويتربْوَنْ فيها تربية عربية ، وأخذوا يشعرون بأنهم تونسيون وأن واجبهم أن ينهضوا بتونس علميا وأدبيا وهو ما وضعه نصب عينيه مؤسسها حسين بن على، وبالمثل على ابن أخيه حين استولى على الحكم، ودارت الدوائر عليه لابن عمه محمد الرشيد، فاستولى على صولجان الحكم، وكان شاعرا بارعا وموسيقيا ماهرا فبث فى تونس حركة أدبية وموسيقية تخفق بالحياة، وسار سيرة أبيه وابن عمه فى تشجيع العلماء والشعراء، ولم يلبث أن توفى فخلفه أخوه على الثانى، وتعرَّض حكمه لهزات عنيفة كانت له فيها دائما الغلبة، وخلفه ابنه حمودة وكانت أيامه أيام رخاء ويسر، ونعمت فيها الرعية بالأمن والاستقرار ورخاء الأسعار وصلاح البلاد، فكان طبيعيا أن يكون القرنان الحادى عشر والثانى عشر الهجرى قرنى عمران وخصب فى الحياتين العلمية والأدبية، غير أن تونس أصابها حينئذ ما أصاب البلاد العربية من تخلف فى الحياة العلمية، فغدت تعتمد على المتون والشروح وكأن ابن خلدون لم يخلف وراءه فيها من ينهض بالحياة العلمية فى المستوى الذى كتب فيه مقدمته، وأيضا فإن الحياة الأدبية – وحياة الشعر خاصة – أصابها غير قليل من التخلف، إذ أخذ الشعراء يرتضون لأنفسهم الاكتفاء فى كثير من الأحيان بأن يعارضوا هذا الشاعر أو ذاك من شعراء الأسلاف، فإن تركوا المعارضة فإلى تمسك شديد بفنون البديع وخاصة فن التورية، وبذلك ضيَّقوا على أنفسهم القنوات التى ينبغى أن يجرى فيها الشعر وملأوها بما لا يحصى من المحسنات البديعية، وهى محسنات كانت من الكثرة بحيث كادت تخنق الشعر خنقا، ونصبح وكأننا فى حاجة إلى مصباح ديوجين لنجد شاعرا تونسيا يخلص أشعاره من هذه الأعشاب والمعوقات الضارة التى تكاد تفقدها الحياة، ومع ذلك لن نعدم أن نجد بين شعراء المديح من يخفف عن شعره عبء

(١) الحلل ١٠٨٤/٤. ص ١٢٧.
(٢) ديوان شهاب الدين بن الخلوف (طبع تونس)

أعباء هذه المحسنات، من مثل قول السراج صاحب الحلل السندسية مهنئا محمدًا الرشيد بجلوسه على أريكة الولاية[١]:

أميرَ السعادة يهنيكمُ ... شبابُ الولاية بعد المشيبِ
وأيامُ ملكك ألبستها ... على العز ثوب الجمال العجيب
مليكٌ يخال سَنَا وَجْهِه ... ضحى الشمس من فوق غصنٍ رطيب

فقد رُدَّ إلى الولاية شبابها وألبسها ثوب الجمال العجيب، وكأنما سنا وجهه ضحى الشمس من فوق غصن رطيب. وهو مجرد كلام وليس فيه رصانة التعبير ولا دقة المعانى ولا دقة التصوير، إنه مجرد كلام منظوم على وزن وقافية. وبنفس الأسلوب يهنىء حمودة بن عبد العزيز محمدًا الرشيد باى حين استولى على صولجان الحكم قائلا[٢]:

الآن قد وافى الأميرُ وطاب لى ... زمن الحسينى أن أبيت مسهَّرا
الأروعُ الملك الرشيدُ محمد ... أعْلى الملوك ذُرًا وأطيب عنصرا
وأجلّ من جلَّى الخطوب وقد دجتْ ... ليلا وأفضل من يقود العسكرا
بَذل النَّوال كما استهلّت ديمةٌ ... وبكفه سيفٌ يريك تسعُّرَا

والأبيات ليس فيها روح وبعض ألفاظها قلق ولا يكاد يستقر فى موضعه على نحو ما يتضح فى كلمة «مسهرا» فى البيت الأول وكلمة «تسعرا» فى البيت الرابع، وبدلا من أن يبيت هانئا لاعتلاء محمد الرشيد باى منصةَ الحكم يبيت مسهدا. وخير من هذين الشاعرين الطوير القيروانى فى تهنئته لعلى باى الثانى حين انتصر على بعض خصومه وأذاقهم وبال عصيانه مستهلا تهنئته الطويلة بقوله[٣]:

فَتْحٌ ونصرٌ وإسعادٌ وإقبالُ ... لمن له خضعتْ صِيدٌ وأقيالُ[٤]
ومن له همَّةٌ شمّاءُ قد سُحِبَتْ ... لها على الفلك الدوار أذْيالُ[٥]
ومَنْ سريرتُه طابتْ وسيرتُه الـ ... ـغَرَّاء سارت بها فى الفلك أمثال
علىٌّ بن حُسَيْنٍ مَن له فخرٌ ... على الملوك وإعظامٌ وإجلالُ

والقصيدة بها شىء من الرصانة يحول بينها وبين السقوط كسابقتها، وإن كانت لا تستمر فى

---

(١) الأدب التونسى فى العهد الحسينى ص٤٠.
(٢) نفس المصدر ص ٤٥.
(٣) الأدب التونسى فى العهد الحسينى ص٤٥.
(٤) صيد: جمع أصيد: السيد الشريف، أقيال: جمع قيل: ملك.
(٥) شماء: سامية.

هذه الديباجة. وأكثر من هذه القصيدة رصانة وجزالة قصيدة لخليفة المشرق فى نفس الممدوح يحمّسه ويستثيره فيها على منازلة خصومه مستهلا لها بقوله[١]:

قاتل بِسَعْدك فالمعالى تنجدُ ... واعزمْ فجَدُّك لم يزل يتجدَّدُ
والحربُ أنت مُجيدها ومجيلها ... والخَلْقُ تَعْلم والوقائع تشهدُ
سمعتْ خيولُك بالحروب فهزَّها ... طربٌ وباتتْ لِلصَّهيلِ تردَّدُ
ما ذاك إلا أنها عوَّدْتَها ... حُمْرَ الدِّما حيث النَّجيعُ الموردُ[٢]

ويستمر الشاعر طويلا فى وصف معارك على باى وما يخوض فيها من الدماء إلى أعدائه وما يقطف من رءوسهم. والقصيدة حماسية قوية، ولم ننشد شيئا من شعر الشاعرين الرسميين على الغراب الصفاقسى ومحمد الورغى، لأننا سنخصصها بترجمتين مجملتين. ونتوقف الآن لنترجم لبعض من مرّوا بنا من شعراء المديح، وسنحاول الإيجاز قدر المستطاع.

على[٣] بن محمد الإيادى

نشأ وتربى بتونس، وهو من أهم شعراء الدولة العُبْيديَّه بالقيروان والمهدية، وخدم الخلفاء: القائم والمنصور والمعز، وذكره محمد بن شرف فقال: «وأما على بن الإيادى التونسى فشعره المورد العذب، ولفظه اللؤلؤ الرَّطْب، وهو بُحْتُرِىُّ الغرب، يصف الحمام، فيروق الأنام، ويشبِّب فيعشق ويحبِّب». ومن شعره فى وصف أسطول القائم بالمهدية:

اعجبْ لأسطولِ الإمام محمدٍ ... ولِحُسْنِهِ وزمانِه المُسْتَغْربِ
لبستْ به الأمواجُ أحسنَ منظرٍ ... يبدو لعين الناظرِ المستعجب
من كل مُشْرفةٍ على ما قابلتْ ... إشرافَ صدر الأَجدل المُتَنَصِّب[٤]
دهماءَ قد لبستْ ثيابَ تصنُّعٍ ... تَسْبى العقولَ على ثيابِ ترهُّبِ[٥]

وتصويره للسفن بأنها منتصبة الصدر كالصقر ترقَّب ما تنقضُّ عليه تصوير بديع، ويتصور اللون الأبيض فى أعاليها كأنه ثياب ترهب، ويتحدث عن نار النفط التى تقذفها بألسنتها على الأعداء وعما يحفها من مجادف مصفوفة فى الجانبين تطير بها فى عباب البحر المتوسط طيرانا. ويطيل فى وصف الأسطول متنقلا بين تصاوير رائعة وهى قصيدة بديعة، ومثلها قصيدة ثانية

---

(١) الأدب التونسى فى العهد الحسينى، ص٤٥.
(٢) النجيع: دم الجوف.
(٣) انظر ترجمة الإيادى فى تاريخ الأدب التونسى للأستاذ حسن حسنى عبدالوهاب ص٩٦.
(٤) الأجدل: الصقر.
(٥) دهماء: سوداء لطلائها بالقار.

وصف فيها القصر الذى أنشأه المنصور بِصَبْرَة إحدى ضواحى المهدية، وفيه يقول:

بنى قُبَّـةً للملك فى وسط جنةٍ ... لها منظرٌ يُزْهَى به الطَّرْف مُونِقُ
لهـا جدولٌ ينصبُّ فيهـا كـأنـه ... حسامُ جلاه القَيْنُ بالأرض مُلْصَقُ
لها مجلسٌ قد قام فى وسط مائها ... كما قام فى فَيْض الفرات الخَوَرْنَقُ
إذا بثَّ فيها الليلُ أشخاصَ نَجْمِهِ ... رأيتَ وجوه الزَّنج بالنـار تُحْرَقُ

والصور بديعة فالجدول كأنه حسام جلاه القين أو الحداد فهو يَلمع أشد اللمعان بما فيه من مياه، وهو مُلْقًى على الأرض بل ملصق بها لا يتركها أبدا، وقد قام وسط الماء مجلسها، وكأنه قصر الخَوَرْنَق الذى بناه المنذر بن ماء السماء قديما على ضفة الفرات، حتى إذا دجا الليل وانتثرت النجوم على صفحة السماء رأيتَ وجوه الزنج تُحْرَقُ بالنار. وتتكاثر هذه الصور وما يماثلها فى شعر الإيادى مما يدلّ بوضوح على ثراء ملكته الشعرية، وقد توفى سنة ٣٦٥هـ/٩٧٦م.

الكاتب[1] الرقيق إبراهيم بن القاسم القيروانى

نشأ وتربَّى فى القيروان وإليها نُسب، وهو شاعر باديس ورئيس الإنشاء فى الدولة الصنهاجية لمدة خمس وعشرين سنة، وهو مؤرخ إفريقية الكبير، وتاريخه فيها وفى المغرب فى عدة أجزاء، لم تنشر منه حتى الآن سوى قطعة صغيرة، ويقول عنه ابن خلدون فى مقدمته: «الرقيق مؤرخ إفريقية والدول التى كانت بالقيروان ولم يأت من بعده إلا مقلدٌ له» ويقول ابن رشيق: «هو شاعر سهل الكلام محكمه لطيف الطبع قويّه، تلوح الكتابة على ألفاظه، غلب عليه اسم الكتابة وعلم التاريخ وتأليف الأخبار، وهو بذلك أَحْذَقُ الناس، وله فى باديس أشعار مختلفة منها قوله:

ومـا مثلُ بـاديسٍ ظهيرُ خِـلافةٍ ... إذا اختير يومًـا للظهيرة مـوضعُ
نصيـرٌ لهـا من دولـةٍ حـاتميَّـةٍ ... إذا ناب خطبٌ أو تفاقم مطمعُ
حســامُ أميـرِ المؤمنين وسَهْمُـه ... وسمٌّ زُعـافٌ فى أعـاديـه مُنْقَـعُ

فباديس ظهير الخلافة وعَوْنها ونصيرها الأكبر حين تنوب كارثة أو يتفاقم خطب، إنه حسام أمير المؤمنين وسهمه وسمٌّ قاتل لأعاديه. وله قصيدة يصف فيها وقعة حربية استبسل فيها باديس بشَلْف قرب المحمَّدية (المسيلة) سنة ٤٠٥ وكُتب له فيها النصر على أعدائه، يقول:

(١) انظر فى الكاتب الرقيق معجم الأدباء ٢١٦/١ ص٥٥ ومجمل تاريخ الأدب التونسى ص١٢١ وفوات الوفيات ٤١/١ وابن رشيق فى الأنموذج

لم أَنْسَ يومًا بشَلْفٍ راع منظرُهُ ... وقد تضايق فيه ملتقى الحَدَقِ
والبيضُ فى ظلمات النَّقْعِ بارقةٌ ... مثلُ النجوم تهاوتْ فى دُجَى الغَسَقِ
وقد بدا مُعْلِمًا باديسُ مُشْتهرًا ... كالشمس فى الجوِّ لا تخفى عن الحَدقِ
وأىُّ راحته لو فاضَ ناهلُها ... وبأسُها فى الوَرى أَشْفَوْا على الغرق
لو صُوِّر الموتُ شخصًا ثم قِيلَ له ... أبو منادَ تبدَّى ماتَ من فَرَقِ

وهو يصور فى البيت الأول ما أخذ الناس من الفزع فى أول المعركة، ويقول إن السيوف كانت تلمع وتبرق فى ظلمات الغبار وكأنها نجوم تتهاوى فى دجى الليل، ولم يلبث أن بدا باديس وسط ظلام المعركة وكأنه الشمس لا تخفى عن الأبصار، ويتجسَّد له الجود والبأس فى راحته، فلو فاضت على الورى لأشفقوا على أنفسهم من الغرق فى جوده وبأسه، وما يلبث أن ينفذ فى مديحه لباديس إلى صورة طريفة، فلو تجسد الموت شخصا، ثم قيل له هذا أبو مناد باديس لمات من الفَرق والفزع، وقد علق ابن رشيق على بعض أبيات القصيدة بقوله إنها بديعة «حسنا وملاحة وإيجازًا وفصاحة وليس فى ألفاظ الكتابة العذبة مثل ما أتى به ولا مستزاد عليه، ألا ترى كيف تأنق فأغرب، وغَّق فأعجب». وله مدائح رائعة فى محمد بن أبى العرب قائد باديس. وزار القاهرة وله قصيدة يتشوق فيها إلى أهلها ومتنزَّهاتها البديعة، وقد توفى حوالى سنة ٤٢٠هـ/١٠٣٠م.

ابن[(١)] رشيق

هو أبو على الحسن بن رشيق، ولد بمدينة المحمدية المعروفة الآن باسم المسيلة لأب رومى من موالى الأزد سنة ٣٩٠ وكان أبوه يحترف الصياغة فعلَّمه صنعته، وأحسَّ الغلام بنزعة فيه إلى الأدب، فهاجر إلى عاصمة القيروان المشهورة به حينئذ سنة ٤٠٦ وأخذ ينهل من حلقات شيوخها ويختلط بالأدباء والشعراء القيروانيين، وأخذت ملكته الشعرية تتفتَّح، واشتهر بجودة الخاطر وحسن القريحة، حتى إذا كانت سنة ٤١٧ وكان المعز بن باديس قد بنى لنفسه بناء فى صَبْرة: إحدى ضواحى المهدية، رأى أن ينشده قصيدة، ومما قاله فيها:

يا بن الأعزَّة من أكابر حميرٍ ... وسُلالة الأملاك من قَحْطانِ

(١) انظر فى ترجمة ابن رشيق آخر كتابه: أنموذج الزمان فى شعراء القيروان والخريدة للعماد الأصبهانى (قسم المغرب - طبع تونس) ٢/٢٣٠ وإنباه الرواة ١/ ٢٩٨ ومعجم الأدباء ٨/١٩٠ وابن خلكان ٢/٨٥ وشذرات الذهب ٣/٢٩٧ والنتف من أشعار ابن رشيق وابن شرف للميمنى ومجمل تاريخ الأدب التونسى للأستاذ حسن حسنى عبدالوهاب ص١٨٣ وديوانه بتحقيق د. عبد الرحمن ياغى.

من كُـلِّ أَبْلَجَ آمـرٍ بلســانـهِ يضع السيوف مـواضع التيجـان

وأعجب المعز بالقصيدة، وشعر ابن رشيق باستحسانه لها، فحاول أن يتقرب منه بقصيدة لامية أكثر من القصيدة الأولى إبداعًا وافتتانا، فقُيِّد فى ديوانه وأخذ الصلة منه، وحُمل على مركب تمييزًا له بين أقرانه، وفى مديحها يقول:

لُدْنُ الرمـاح لما تُسْقَى أسنَّتهـا من مهجة القَيْل أو من مهجة البطلِ
لو أورقت من دم الأبطال سُمْرُقَنًا لأورقتْ عنده سُمْرُ القَنا الذُّبُلِ
إذا تـوجَّـه فى أولى كتـائبـهِ لم تفرق العين بين السَّهْلِ والجبل
فـالجيشُ يَنْفضُ حـوليــه أسنَّتـه نَفْضَ العُقاب جناحيها من البلل

فرماح المعز لَدْنة لما يسقيها من مهج الملوك والأبطال، ولو أن الرماح تورق من دم الأبطال لأورقت رماحه الدقيقة، وما أعظم كتائبه إنه حين يتوجه فى أولاها لا تستطيع التفرقة بين السهل والجبل وما يلبث ابن رشيق أن ينفذ إلى صورة بديعة، فالجيش ينفض من حول المعز أسنته نفض العقاب جناحيه من البلل ويقول ابن خلكان: هذا البيت من فرائده، وكان كثيرًا ما ينفذ إلى مثل هذه الفرائد، فقد غاب المعز عن حضرته وكان العيد ماطرا، فأنشد:

تجـهَّـم الـعـيــدُ وانهلَّت بــوادرُه وكنت أعهدُ منه البشرَ والضحكا
كأنه جاء يطوى الأرضَ من بُعُدٍ شوقا إليـك فلما لم يجدك بكى

وكان يعرف كيف ينفذ إلى هذه الصور البديعة، وبِدْعُها إنما يرجع إلى ما تحمل من عنصر المفاجأة، ومن ذلك قوله فى تميم بن المعز:

أصحُّ وأَعْلَى ما سمعناه فى النَّدَى من الخَـبَرَ المـأْثـور منـذ قـديمِ
أحاديثُ تَرْوِيها السيولُ عن الحَيَا عن البَحْرَ عن كفِّ الأمير تميمِ

وقد ظل مع المعز يؤلِّف كتبه الرائعة: العمدة وغيره، حتى إذا كانت الهجرة الهلالية وتراجع أمر المعز بكى القيروان طويلا، ورحل إلى جزيرة صقلية واستقرّ بمدينة مازر إلى أن وافاه أجله سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٤م، وله فى بكاء القيروان وما صارت إليه أشعار كثيرة بديعة.

التراب[١] السوسى

هو من شعراء عصر الطوائف ومن أهل سوسة. الثغر المعروف على المتوسط إلى الجنوب

---

(١) انظر فى التراب السوسى الخريدة ١/١٣٠ والحلل السندسية ٢/٣١٠.

الشرقي من تونس ومثلها مثل قابس دخلت فى حوزة العرب الهلالية بعد زحفتهم إلى الإقليم التونسي. وما زال يتوالى أمراء من عرب الهلالية منذ عهد تميم بن المعز، انتزعوها من أيدى الدولة الصنهاجية، وتملكها أخيرًا جبارة بن كامل بن سرحان الهلالى الذى اشتهر بجوده، فأقبل عليه الشعراء يقدمون إليه مدائحهم وفى مقدمتهم شاعره التراب السوسى، وهو سوسى المولد والمربى والحياة والوفاة، وله فيه قصائد بديعة طوال إمارته لسوسه إلى أن استولى عليها روجار صاحب صقلية حين أخذ المهدية من يد الحسن بن على بن يحيى بن تميم الصنهاجى سنة ٥٤٣ واستولى معها على بقية بلاد الساحل التونسي إلى أن خلص عبد المؤمن سوسة والمهدية وبلاد الساحل جميعا من أيدى النورمان النصارى سنة ٥٥٥ ودخل جبارة فى طاعته. وللتراب السوسى قصيدة بديعة فى جبارة على نهج قصيدة مهيار الديلمى: (بكر العارض تحدوه النعامى) ومقدمتها لا تقل عنها وجدا واضطرام الحُبِّ شوقا وغرامًا، كما لا تقل عنها نسقا موسيقيا بديعا، وفى مديحه لجبارة يقول:

مُقْبِلُ القَلْبِ على سُبْلِ الهُدَى ... معرضٌ عن كلِّ ماجرٍّ الأثاما
ليس يَدْرِى ما المزاميرُ ولا ... يسمع الصَّنْجَ ولا ذاقَ المُداما[1]
وإذا استصرختـه فى حادثٍ ... فعلى الحادث جَرَّدْتَ حُسَاما
بيته كعبةُ بِشْرٍ نُصبَتْ ... تَفْصِمُ الغَمّ عن الناس انفصاما
لذوى الحاج زِحامٌ حولها ... زحمةَ الحجاج قد زاروا المقاما[2]

وجبارة، - فى الأبيات - يقبل على طرق الهدى ويعرض عن كل ما يجر إثما، كما يعرض عن كل لهو من مزامير وخمر وضرب للصنج، وإنه ليغيثك غوث السيف القاطع فى أى حادث يعتريك. وما يلبث التراب السوسى أن ينفذ إلى صورة بديعة، فبيت جبارة كأنه كعبة تفصم الغم عن قاصديه من ذوى الحاجات. ويتخيل أنهم يزدحمون حول منزله ازدحام الحجاج حول الكعبة، وله فى جبارة قصيدة ثانية وقف فيها طويلا عند أطلال صاحبته وتحدث عن أيامها الخوالى ومن كان بها من الغانيات الفاتنات وأطال فى وصفهن، وخرج إلى مديح جبارة بمثل قوله:

جبارةُ ابنُ كاملٍ ... كهفُ النَّدَى والكرمِ
العارضُ الذى إذا ... أخْلَفَ صوبُ الدِّيَمِ
سرتْ سحابُ جودِهِ ... من غَيْثِهِ المُنْسَجِمِ
وأمطرتْ من الحَيَا ... نَهْرًا لكل مُعْدِمِ[3]

(١) المدام: الخمر.

(٢) المقام: مقام إبراهيم فى الكعبة.

(٣) الحيا: الغيث.

السفارسُ الـذى إذا أُسرج كلُّ شَيْظم[١]
وسُلَّ كـلُّ مُـرْهَـفٍ وسُـلَّ كـل لَـهْـذم[٢]
تـراه إن صـاح بـهم تحت وطيس قد حَمِى
تـراكَبوا من خَـوْفـهِ بَعْضًا على بعضهم

والأبيات تسيل عذوبة مع صور بديعة، فالعارض أو السحاب الذى يخلف صوب الديم والأمطار لا يزال يهطل بجانبه عارض جوده بغيثه المدرار، حتى ليفيض أنهارًا من الحيا والغيث المتدافع لكل معدم، وحين يسرج كل فرس كأنه أسد ضخم، ويسل كل سيف حاد ولهذم قاطع ترى الأعداء حين يحمى وطيس الحرب ويصيح بهم يتراكبون بعضا على بعض فزعا منه ورعبا ما بعده رعب. والقصيدة تموج بمثل هذه الصور البديعة، مع ما تموج به من خفة فى الموسيقى حتى لكأنما تطير عن الفم طيرانا، مما يرتفع بالتراب السوسى إلى منزلة عليا فى عالم الشعر. وقد ظل الناس فى الإقليم التونسى يغرمون بإنشادها حتى أوائل القرن الثامن الهجرى، إذ يشهد التجانى بذلك فى رحلته قائلا إن أعراب زماننا قد أولعوا بإنشادها وكثرة تردادها حتى عصره. ولعل فى ذلك ما يدل -من بعض الوجوه- على صحة ما زعمناه فى غير هذا الموضع من أن الفصحى كانت لا تزال تجرى فى ألسنة الناس - وخاصة من الأعراب - حتى هذا التاريخ.

ابن[٣] عُرَيْبة

هو أبو عمرو عثمان بن عتيق المهدوى، من شعراء المهدية وفقهائها ومحدِّثيها الأعلام، ولد سنة ٦٠٠ وبها منشؤه ومرباه، وله كثير من المصنفات منها كتاب جوامع الكلم النبوية، وآثار السحابة فى أشعار الصحابة، وله ديوان سماه قصائد المدح ومصائد المنح، وكانت له فى أبى زكريا مؤسس الدولة الحفصية مدائح كثيرة، وقد استدعاه مع جماعة من خواصه وشعرائه لنزهة فى روضه المسمى بأبى فهر، فنظموا فى وصفه قصائد وقدموها إليه، وأجابهم عنها بأبيات تتضمن تفضيل قصيدة ابن عريبة على قصائد من حضره من الشعراء قائلا:

ألا إنَّ مضمارَ القريض لممتدُّ بـه شُعَراءُ السَّبْق أربعـةٌ لُـدُّ
فـأما المجلِّى فَهْـو شاعـر جمَّةٍ أتى أوَّلاً والنـاسُ كلُّهمُ بَعْـدُ

وجمَّة من قرى المهدية، وواضح أنه يريد بشاعرها ابن عريبة، وله شعر طريف فى

---

(١) الشيظم الطويل الضخم ويعنى به الفرس.

(٢) لهذم: سيف قاطع.

(٣) انظر فى ترجمة ابن عريبة الحلل السندسية ٥٠٣/٢ وما بعدها وكتاب الفارسية فى مبادئ الدولة الحفصية ص١١٣ ومجمل تاريخ الأدب التونسى ص١٩٧.

التشوق إلى بلده، وهو ما جعله فى أثناء مدحه لأبى زكريا يطلب إليه أن يوليه قضاء بلدته جمة قائلا:

ذكرت جَمَّةَ والذِّكْرَى تَهيج أسًى ... وأين جَمَّةُ منِّى والمُنَسْتيرُ
وما مناىَ لياليها التى سلفتْ ... وما هواىَ مَحَانيها المعاطيرُ[1]
لكن بها رحِمٌ مجفوَّةٌ يَئِسَتْ ... من أن تقرِّبنى منها المقادير
فإن رأى مَنْ أدام اللهُ نعمتَه ... عليه لى خطَّةً فيها فمأجور

وكأن ابن عريبة خيَّر أبا زكريا بين قضاء جمة أو قضاء المنستير بالقرب منها، وعيَّنه قاضيا بتبرسق وظل بها إلى وفاته سنة ٦٥٩. ولما توفى أبو زكريا وتولى ابنه المستنصر نظم قصيدة رائعة جعل شطرها الأول عزاء فى أبى زكريا وشطرها الثانى تهنئةً للمستنصر، وتمضى على هذه الشاكلة:

ولئنْ طَوَى بَدْرَ الإمارةِ مغربٌ ... فلقد جَلا شمسَ الخلافة مَطْلَعُ
فأضاء بالمرحوم ذلكمُ الثَّرَى ... وأنارَ بالمنصور ذاك المَرْبَعُ
بَسَطُوا لسانَ الشكرِ فيمن بايعوا ... وثَنَوْا عِنانَ الصَّبْرِ عَمَّنْ ودَّعوا
ورأَوْا خلالَ محمدٍ فتباشروا ... وتذكَّروا يَحْيَى الرِّضا فتفجَّعوا

ويقول الرواة إنها قصيدة طويلة، ويدل ما ذكروه من أبياتها السالفة على مهارة ابن عريبة فى الجمع بين التعزية والتهنئة فى كل بيت من أبياتها. ولو وصلتنا القصيدة أو بعبارة أدق لو وصلنا ديوان ابن عريبة لاستطعنا أن نحكم على إبداعه الشعرى بصورة أكثر دقة، ومع ذلك فالأشعار التى أنشدها له الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب تدل على موهبة شعرية فذَّة، وإذا كان التُّراب السُّوسى يدل على خطأ حكم ابن خلدون فى أن الشعر التونسى توقف بعد ابن رشيق وابن شرف، فابنُ عُرَيْبة يدل بدوره على خطأ هذا الحكم.

عبد[2] الله التجانى

هو عبد الله بن محمد التجانى، من أسرة ظلت راعية للأدب والثقافة منذ عهد مؤسس الدولة الحفصية أبى زكريا إلى عهد أبى يحيى زكريا الذى اشتهر باسم ابن اللحيانى (٧١١-٧١٧هـ)

---

(١) محانيها: منعطفاتها.

(٢) انظر فى التجانى الحلل السندسية (راجع الفهرس) والقسم الثالث من كتاب الورقات للأستاذ حسن حسنى عبدالوهاب ص١٦٢ وكتابه المجمل فى تاريخ الأدب التونسى ص٢١٢ وراجع الرحلة طبع تونس.

وقد ولد عبد الله حوالى سنة ٦٧٠هـ/١٢٧٢م ورعاه أبوه محمد خير رعاية، فأخذ ما عند أبيه وأسرته من الأدب والفقه، وانتظم مبكرًا مثله فى ديوان الإنشاء وعُرف بالبراعة فى الشعر والترسل، وكان طموحه أوسع من ذلك، فأخذ يختلف إلى حلقات الفقهاء والمحدثين من أهل تونس والطارئين عليها. وانعقدت صداقة وثقى بينه وبين أبى يحيى زكريا المشهور بابن اللحيانى كبير أمراء الدولة الحفصية، حتى إذا رأى هذا الأمير أن يقوم برحلة واسعة فى شرقى الإقليم التونسى وجنوبيه سنة ٧٠٦هـ/١٣٠٧م اصطحبه معه فى تلك الرحلة التى ظلت سنتين ونصفا، وفى نهايتها تجوَّل معه فى الإقليم الطرابلسى، وأقام به التجانى مدة تحدثنا عنها فى طرابلس وعمن أخذ عنه صحيح البخارى ومسلم، وعاد إلى تونس وأخذ فى تأليف رحلته الطريفة، وفيها يتحدث عن البلدان التى زارها مع ابن اللحيانى جغرافيا ونباتيا وتاريخيا مع عرض أعلامها من الفقهاء والمحدثين وأصحاب العربية والشعراء الأفذاذ على مر العصور حتى عصره، ويذكر أن الأمير ابن اللحيانى فكر سنة فى الحج فجاءتهم الأنباء بمجاعة شديدة فى برقة، ويذكر أن ابن حُسَيْنة نظم قصيدة ينهاه فيها عن الحج حينئذ، وينشد مطلعها، ويقول إنها سقطت من ذاكرته، غير أن له قصيدة جعلها معارضة لقصيدته، وينشدها، وفيها يقول مادحا ابن اللحيانى:

مـولىً زهتِ الأيـامُ بـهِ ... وتحلَّتْ من بعـد العَطَلِ
شـرفٌ بـالإرث تـملَّكـه ... فـتنقَّـل أحسـن منتقـل
بأسٌ كالنـار إذا اضطرمتْ ... ونَـدًى كـالغَيْث المُنْهَمِـل
يُـمْـضـى الآراء مسـدَّدة ... فى قـول أنفذ أو عملِ
فـأقِمْ لـلديـن تُـجـدِّدُه ... فى عـزٍّ بـاقٍ متَّصِـلِ
فشروط الحج قـد ارتفعتْ ... لـزوال القُـدْرة والسُّبـل

والقصيدة طويلة، وهى تدل على قدرة ملكته الشعرية إذ يندفع فيها ولايكاد يتوقف، ويقول لابن اللحيانى أقم فيكفى ما تقدمه للدين من خدمات، وقد ارتفع عنك الحج لفقد شرط الاستطاعة وأمن السبل. وتمتلىء الرحلة بأشعار يتبادلها مع أصدقائه وأبيه وأفراد أسرته، من ذلك محاولة الشاعر ابن حسينة أن يتبادل معه الشعر، فأجابه مادحا:

أمحـرزَ كـلِّ مَنْقَبـةٍ حَمِيـده ... ومن لم نُلْفِ فى الدنيا نَدِيَدهْ
أعنتَ على النِّظام يُحْسن طبعٍ ... وأفـكـارٍ مـؤيَّـدةٍ سـدِيـده
وتسـألنى الجوابَ وإنَّ فكـرى ... ليَقْصُـرُ عن مَجاريك المديـده
فمهِّدْ لى على التقصير عُـذرًا ... وهـوِّنْ من مـطالبك الشـديـده
ودُمْ فى عِـزَّةٍ وبلوغ قَـصْـدٍ ... وسَعْـدٍ دائمٍ وعُـلاً جـديـده

وهو يعلى من شاعرية ابن حسينة ويجعله أكثر منه تفوقا فى عالم الشعر، ولم يكن ابن حسينة يقلّ عنه شاعرية وبراعة فيما يورد من أشعار له.

على[1] الغراب الصفاقسى

منشؤه ومرباه مدينة صفاقس فى القرن الثانى عشر الهجرى، وكان أبوه محمد فى ثراء ونعمة مما أتاح له الاختلاف إلى حلقات العلماء والأدباء فى بلدته والنّهل من ينابيع علمهم وأدبهم وانتقل إلى تونس، فحضر دروس علمائها المختلفين فى المنطق والفلك وأصول الفقه والفقه المالكى والحديث النبوى والبلاغة والعربية، ويقال إن أصل مجيئه إلى تونس قضية شرعية فى إرث أبيه وتعرف على رجالاتها:رجال الدواوين وساستها وقد وضع بين يدى ديوانه مقدمة طريفة ذكر فيها أنه كان فى بدء حياته (بصفاقس على مايظن) لايزال حين تفتحت موهبته الشعرية يتنقل بين الجد والمجون إظهارا لمقدرته، وكثير منها لم يكن مطابقا للواقع بل على حسب مايقتضيه المقام من المفاكهات أو محاكاة للبلغاء فى بعض المطارحات. ويعود الغراب إلى ذكر ذلك فى مقدمته لديوانه لعلى الثانى بن الحسين وقد سماه «ديوان بهجة النفس والعين فى صفات الأمير على بن الحسين». وكان اتصاله برجالات العصر من الساسة وكتبة الدواوين سلما طبيعيا لاتصاله بعلى الأول ابن الأمير محمد الذى استلب أولاد أخيه الحسين الحكم إلى أن استرده محمد الرشيد وإخوته بعد عشرين عاما بفضل جيش جزائرى نصرهم على عمهم، واستقر الحكم من حينئذ فى يد الأسرة الحسينية. وقد أسند على الأول إلى الشاعر خطة العدالة التى كان يرنو إليها، وله فيه ثلاث مدائح، أهمها مدحة رائية، وفيها يقول:

مليـك له فضـلٌ ومجدٌ وسؤددٌ ... وكلُّ مليكٍ عن معـاليه يقصُـر
لــه عِفَّـةٌ مقــرونـةٌ بصيــانـةٍ ... عن الفحْش فى أفعاله وتطهُّرُ
إذا وقعتْ أسيـافُه فى عِـداته ... رأيتَ رءوس المعتـدين تـطيَّـرُ
إذا رفعَ الأعلام فاجزمْ بفتحـه ... لما أمَّ والجمعُ الصحيحُ يُكسَّر

---

(١) انظر فى ترجمة الغراب مقدمته العامة لديوانه والخاصة التى وضعها بين يدى ديوانه الثانى فى مدائح على باى بن الحسين وهو مضمَّن فى ديوانه بتحقيق وتقديم محمد الهادى الطاهر المطوى وعمر ابن سالم (طبع تونس) وقد ضُمِّن الديوان رسائله ومقاماته، ومن الكتب التى اهتمت بالترجمة له كتاب عنوان الأريب عما نشأ بالمملكة التونسية من عالم أديب (طبع تونس) ٣٢/٢ وشجرة النور الزكية فى طبقات المالكية لمحمد مخلوف (طبع القاهرة) ومجمل تاريخ الأدب التونسى للأستاذ حسن حسنى عبدالوهاب ص٢٣٩ وكتاب الأدب التونسى فى العهد الحسينى للهادى الغزى (طبع تونس) ص٩١.

وإنما ذكرت البيت الأخير لأنه كان يتصنع أحيانا لقواعد النحو، فقد ذكر فيه الرفع والجزم والفتح والجمع الصحيح السالم والجمع المكسر، ولكن ذلك كله لم يفسد البيت عنده، وهو لا يكثر من مثل ذلك فى شعره، فقول من قال إنه كان يكثر من التورية فى شعره يريد مثل ذلك من التصنع لبعض مصطلحات العلوم وخاصة النحو وأنه يخرج بذلك عن الحد المحدود فيه مبالغة، إذ تتضح فى شعره قوة شاعريته وأنه يتدفق فيه رغم ما قد يتصنع له من المحسنات وخاصة الجناس، وله مدحة لم يُخْل منه بيتا من أبياتها وقد ذكر فى فاتحتها أن ذلك طُلب منه. والحق أنه يتميز بشاعرية خصبة، وديوانه الثانى أنشأه فى على بن الحسين وقد استولى على صولجان الحكم بعد أخيه الرشيد من سنة ١١٧٢ حتى سنة ١١٩٦ وكان سياسيا محنَّكا وقرب الشاعر منه وعاش فى زمنه حتى توفى سنة ١١٨٣هـ/١٧٦٩م وأهداه أكثر من ثلاثين مدحة مكونا بذلك هذا الديوان الثانى الذى قلنا آنفا إنه سماه: «ديوان بهجة النفس والعين فى صفات الأمير على بن الحسين» وله يقول فى بعض مديحه:

مليكٌ إذا الآمال منك توجَّهت ... إليه فثِقْ أنَّ الإياب مغانمُ
بحلم وعدلٍ خُصَّ، هذا لمن جنَى ... وهذا لجُرْح النائبات مراهم
له وثباتٌ فى وَغَىَ الحرب تنثنى ... - وتجبن عنهن - الكُماةُ الضَّراغم[(١)]
له عفَّةٌ لو أنها فى الورى سرتْ ... لما علقتْ بالعالمين مآثمُ
إذا انبجسَتْ مُزْنُ السماء وكفُّه ... فذاك له كفٌّ وذلك ساجمُ
نَعِمْنا به فى ظلِّ عيشٍ كأنما ... بنا من جِنان الخُلْدِ حُفَّتْ تمائمُ[(٢)]

والقصيدة تتدفق برنات موسيقية بديعة، والألفاظ سلسة عذبة، والتقسيم فى البيت الثانى دقيق، فالعدل لمن جنى والحلم مرهم لجرح النائبات، وله وثباتٌ فى وغى الحرب يتحاشاها ويحيد عنها الشجعان شجاعةً ضارية، ويبالغ فى وصف عفته وأنها لو وزعت على العالمين ما كان فى الدنيا مآثم، ويقول إذا انفجر مزن السماء بالغيث وكفهُّ بالجود وتوقف المزن وكفٌّ فكفُّه تظل هاطلة ولا تتوقف أبدا، ويذكر أنهم نعموا بالأمير على الثانى فى ظل عيش ناعم رافه، حتى لكأنما يعيشون معه فى جنان الخلد، وقد حفت معيشتهم بتمائم وتعويذات حتى لا تتبدل أبدا. ولعل صوت على الغراب الصفاقسى اتضح لنا الآن، وهو صوت فيه غير قليل من جمال العبارة وحسن الصياغة وأحيانا مع المبالغة الشديدة.

---

(١) الكماة الضراغم: الشجعان الأسود. (٢) تمائم: تعاويذ.

محمد[١] الوَرْغيّ

هو محمد بن أحمد الوَرْغى، نسبة إلى قبيلة وَرْغة التى كانت تنزل قرب مدينة الكاف فى الجنوب وقيل بل كانت تنزل على الحدود التونسية الجزائرية، ولا نعرف شيئا عن ميلاده ولا عن نشأته، ويبدو أنه التحق أولا بالكتاتيب، وحفظ فيها القرآن الكريم. ونفاجأ به فى جامع الزيتونة بتونس يدرس على شيوخه الفقه والتاريخ وعلوم الحديث والتفسير والكلام والمنطق وعلوم العربية والبلاغة، ويُبْدى من الذكاء ماجعله يجلس للتدريس بجامع الزيتونة. وجعلته نزعته الأدبية يختار العمل كاتبا فى ديوان الإنشاء لعهد الأمير على الأول، ونال فى عهده من الشهرة والجاه ماجعله كاتبه وشاعره الأول فلا يترك حادثا ولا عيدا إلا ويدبج فيه مدحة، وتدور الدنيا دورات وإذ أولاد أخيه حسين يستردون السلطان المفقود، ويجلس على أريكة الحكم محمد الرشيد لمدة ثلاث سنوات ثم أخوه الأمير على الثانى حتى سنة ١١٩٦ ويوشك نجمه أن يأفل منذ ولاية الرشيد سنة ١١٦٩ فيسجن ويعذب، ومايزال يبعث بمدائحه إلى أخيه الأمير على الثانى، ويتوسط له عند أخيه وترد إليه حريته، حتى إذا أصبح صولجان الحكم بيده قرَّبه منه، ونظن ظنا أن لزوجته ابنة على الأول أثرا فى قربه منه وقرب على الغراب الصفاقسى كما مر بنا، مما جعله ينظمهما بين كتابه وشعرائه، وظل الورغى يحظى بجوائز على الثانى حتى وفاته سنة ١١٩٠ للهجرة. ومدائحه منقسمة بين على الأول وعلى الثانى، ومن بديع ما له من مديح فى على الأول قصيدته فى إيقاعه بقبيلة النمامشة حين نهبت ركب حجيج من فاس وألزمها برد كل مانهبته، وله يقول:

هو العزُّ فى سُمْرِ القَنَا والقَواضبِ ... وإلا فما تُغْنِى صدورُ المراتبِ

وسيَّانِ أغمارُ الرجالِ وصِيدُها ... إذا لم يميَّز فَضْلُها بالتجارب[٢]

هو الملك الداعى إلى الحق وحده ... وإن كثرتْ أهلُ الدواعى الكواذب

ومَنْ عَرف الأيام قصّ غريبها ... وفى قصص الباشا عيون الغرائب

ومن مثله يُدْعَى لكشف ملمَّةٍ ... إذا قال: واغوثاهُ أهلُ المصائب

---

(١) انظر فى الورغى شجرة النور الزكية لمخلوف وعنوان الأريب لمحمد النيفر والجزء الثانى من تاريخ ابن أبى الضياف والورغى للحبيب ابن الخوجة ومجمل تاريخ الأدب التونسى للأستاذ حسن حسنى عبدالوهاب ص٢٤٧ والأدب التونسى فى العهد الحسينى ص١٤٩ وديوانه مطبوع بتونس.

(٢) أغمار الرجال: من ليس لهم خبرة من العامة. الصيد: السادة.

ترى الخيل فى آثارهم مستطيرةً سحائبُ حَتْفٍ أُرْدِفَتْ بسحائب
وما ارتفعت شمسُ الضحى قِيدَ رمحهم عن الأفق حتى أُنشبوا فى المخالبِ(١)

والأبيات حماسية والورغي يقول فيها إن العز فى الرماح والسيوف ولا فضل بين شجاع وجبان إذا لم تميزهما التجارب فى وطيس الحرب، ويصف عليًا الأول بأنه يعيش للدفاع عن الحق وكشف الملمات عند أهل المصائب، ويقول إن خيل على الأول عصفت بأعدائه، ومازالت سحائب حتفها تعقبها سحائب حتف حتى دمرتهم، وما ارتفعت شمس الضحى قدر رمح حتى أنشبوا فى مخالب فرسانه كأن لم يكونوا شيئًا مذكورا. وتختلف مدائحه فى على الثانى عنها فى على الأول فأكثرها استعطافات واعتذارات على شاكلة قوله:

يا أيُّها الملكُ الذى نَظَر السَّنا فى وجهه الأسْنَى فقالَ موفَّقُ
أنت الذى يَنْسىَ الغريبُ بقربِه أوطانه ويجودُ منه المُمْلِقُ
مالى أحاول شَرْبةً من عفوكم فأُذَادُ وهْو على الوَرَى يتدفّق
إن كان لى الذَّنْبُ العظيمُ فحلمكم يَبْلَى به ذاك العظيمُ ويُمْحَقُ
قالت قُتَيْلَةُ للرسول «وربما مَنَّ الفتى وهْو المَغِيظُ المُحنَّقُ»

والقصيدة من نفس الوزن والقافية اللذين اختارتها قتيلة لبكاء أبيها النضر بن الحارث ومقتل رسول الله له بعد غزوة بدر بالصفراء، ويقال إن رسول الله ﷺ حين سمع شعرها قال: أما إنى لو سمعت هذا قبل مقتله لم أقتله، وتمثل الورغى فى البيت الأخير بجزء مؤثر من بيت لقتيلة، وكماله:

ما كان ضرَّك لو مننتَ ورُبَّما مَنَّ الفتى وهو المَغِيظُ المُحْنَقُ

وكأنه يلفت عليا الثانى إلى مدى تأثر الرسول باستعطاف قُتَيْلة، وهو يتخذ وزن قصيدتها وقافيتها وسيلة إلى قلبه، ويتأثر ببعض معانيها، وله قصيدة فى مديح على الثانى تسيل عذوبة وسلاسة بدأها بقوله:

حاجة المدح لحُلْو الغَزلِ حاجةُ الصبِّ لأولى القُبَل

حتى إذا استوفى الغزل فيها أخذ يمدحه بانتصاره على بعض الثائرين مُسْبِغًا عليه كثيرًا من الشمائل مبالغا مبالغات مفرطة. وكان لا يقل عن على الغراب الصفاقسى متانة أسلوب ورصانة صياغة وجزالة ألفاظ، ولم يستكثر مثله فى شعره من مصطلحات العلوم ومحسنات البديع.

---

(١) قيد: قدر.

٤

شعراء الفخر والهجاء

الفخر وما يتصل به من الحماسة من موضوعات الشعر القديمة، حتى لقد سمى أبو تمام مختاراته من الشعر حتى عصره باسم ديوان الحماسة إشارة إلى أنه الموضوع الغالب على الشعراء قديما، ومدَّ مختاراته إلى عصره، ودائما يزدهر فى البيئات الحربية التى تكثر فيها الحروب، ولا نغلو إذا قلنا إن القيروان ظلت تشهد حروبا كثيرة فى القرنين الأول والثانى للهجرة، واتصل شىء من ذلك فى فتح صقلية سنة ٢١٢ ثم فى فتح مالطة سنة ٢٥٥ وهاجمها مخلد بن كيداد الصفرى فى عصر القائم الفاطمى ثم كانت زحفة بنى سليم وهلال فى القرن الخامس، ومنذ غلب روجار النورماندى على صقلية سنة ٤٨٤ كانوا ينازلون الساحل الشمالى للإقليم التونسى واستولوا على المهدية مرارا. وفى القرن السادس الهجرى صَلِىَ الإقليم نار الحرب التى أشعلها فيه قراقوش وابنا غانية، واستولى عليه الموحدون، ثم قامت الدولة الحفصية وكانت القبائل فى الجنوب والجزائر ماتنى تناوئها، ونزلها الإسبان بأخرة من الدولة ثم العثمانيون. وإنما ذكرنا ذلك لندل على أن الإقليم التونسى كان معدا دائما ليزدهر فيه شعر الفخر والحماسة، وأول عصر ازدهر فيه هذا الشعر عصر الدولة الأغلبية إذ نجده على لسان مؤسس الدولة الأغلبية إبراهيم بن الأغلب وحفيده أبى العباس بن الأغلب إذ يقول فى قصيدة بناها على الفخر بالنسب والحسب[١]:

أنا الملكُ الذى أَسْمُـو بنفسى ... فـأبلغُ بـالسموِّ بهـا السَّحـابـا
إذا نقَّبْتَ عنَ كـرمى ومَجْدى ... وجـدْتَنِىَ المُصَـاصَـةَ واللُّبـابـا

فهو يسمو بنفسه مصعدًا فى السماء حتى يبلغ بها السحاب، وهو المصاصة أو الجوهر واللباب من المجد والكرم، ويمضى متحدثا عن سياسته وحسن تدبيره وشجاعته. وكان من بيته أحمد بن سوادة الأغلبى المتوفى سنة ٢٦٠ والى الزاب وطرابلس وصقلية، وكان بطلا فى الحروب وله فى جميعها وقائع مشهورة، وله شعر كثير يفخر فيه ببأسه وبطولته وبلائه فى الحروب من مثل قوله[٢]:

أنـا مَنْ قد جـال ذكرى ... وجَـرَى بـيـن الأنـامِ

---

(١) مجمل تاريخ الأدب الأندلسى ص ٥٩.
(٢) مجمل تاريخ الأدب التونسى ص ٦٣.

أركــب الـهَــولَ بِسكَــرًا تى على الجيش اللُّهام[١]
تـعــرف الأَنسُــر بــأسـى فَهْيَ من فــوقى حَــوَامِى

فقد طار اسمه وطار صيت شجاعته بين الناس بركوبه أهوال الحرب، وإن النسور لتعرف بأسه فهى ما تزال حائمة حول راياته، ولاتزال خلفه وأمامه تنتظر غذاءها من أشلاء أعدائه ممْن يذيقهم كأس المنون. وكان القائم بأمر الله، الفاطمى شاعرا مثل أبيه وله مثله شعر يفتخر فيه، من ذلك قوله، وقد غزا مصر مرارا ولم يكتب له النصر كما كتب فيها بعد لجوهر الصقلى، ومن قوله يذكر هذا الغزو آملا فى النصر[٢]:

فســرتُ بخيــل الله تلقــاء أرضكم وقد لاح وَجْهُ الموتِ من خَلَلِ الحجُبْ
وأردفتهــا خيــلا عتــاقا يقــودهـا رجالٌ كأمثـال الليوث لهـا خَببْ[٣]
فكـان بحمْـد الله مـا قـد عَــرَفْتُم وفزتُ بِسَهْم الفَلْجِ والنصر والغَلبْ[٤]
وذلــك دَأبِـى مــابـقـيـتُ ودَأْبُـكـم فــدونكمُ حَـرْبًـا تضـرمُ كــاللَّهَبْ

وهو يصور سيره بجيشه تلقاء مصر وقد تراءى الموت له ولرجاله، ولم ينكص، بل أردف خيله خيولا أخرى عليها رجال شجعان كأنهم الأسود، يثبون ويسرعون حتى تم له النصر، غير أنه اضطر إلى العودة بجيشه إلى المهدية، وهو يتوعد خصومه بأنه سيظل يعاود الكرة عليهم وسيظل يشعل حربا تضطرم باللهب حتى يحقق مايريد من النصر النهائى. وشاعر الفخر فى الدولة الصنهاجية تميم بن المعز وسنخصه بكلمة، وممن نلتقى بهم فى العصر أبو طاهر التجيبى، ومن طريف ما له فى عزة النفس[٥]:

إلى كم أُقِرُّ النفس فى المَرْتَع المَحْلِ وأقنع من جِدِّ المكاسب بالهزلِ[٦]
أكلِّف أقــلامى مـدًى مُتمــاحــلاً ولم أعتملْ مُهْرِى ورُمْحى ولا نَصْلِى
ومن كلَّف الأقـلامَ لا البِيضَ همَّه أَقَمنَ بــه بين المـذلَّــةِ والقُــلِّ

فهو يرى نفسه بكتاباته وأدبه قد أقام فى المرتع المجدب، إذ الأقلام لا تعود على صاحبها بحياة رافهة إنما الذى يعود عليه بذلك سلاحه، ويقول إن من كانت الأقلام لا السيوف مدى همه فى الحياة أقام فيها بين الذل والفقر، وإنه حرى به أن يحمل سيفه حتى يُعَدَّ بين الأبطال

---

(١) اللهام: العظيم.
(٢) مجمل تاريخ الأدب التونسى ص٨٣.
(٣) خبب: عَدْوٌ سريع.
(٤) الفلج: النصر.
(٥) نفس المصدر ص ١٣٨.
(٦) المحل: المجدب.

الشجعان ويعيش معيشة جديرة به. ويلقانا فى أول الدولة الحفصية مؤسسها أبو زكريا، وله قصيدة حماسية طويلة يقول فى فاتحتها[١]:

أَجِبْ داعيَيْهــا فــالنجيبُ يُجيبُ وشِبَّ لـظاها فـالنَّخِيبُ يَخيبُ[٢]
وشِمْ عزمةً لا يَغْمز العجز مَتْنهـا فذو العَزْم فى اليوم العَصِيب يُصيبُ
ولا تَتْبَـعِ العَلْيَــاء إلا بــأبيضٍ لِغَرْبَيْهِ فى هام الكُماة غروب[٣]

وهو يدعو كل شخص إلى أن يخوض غمار الحرب، إذ لا يُنْكل عنها إلا الجبان. ويتدرَّع بعزم قوى فصاحب العزم هو اللذى يصيب الهدف المأمول، ودائما تتسلح للعلياء بسيف حاد يقطع رءوس شجعان الأعداء قطعا ولا يبقى منها بقية. وتلقانا عند شعراء هذه الدولة الحفصية أشعار حماسية كثيرة، ونجد ابن خلدون يشارك فيها واصفا شجاعة البدو وبطولة فرسانهم، وبالمثل نجد طائفة من هذه الأشعار عند شعراء العصر الحسينى، ومما يمثلها فيه قصيدة على الغراب الصفاقسى فى الأسطول الذى أنشأه على الثانى الحسينى، وفيها يقول[٤]:

بشائرُ فى الإسلام زادَ بها عِزًّا وآياتُ نصرٍ نورُها يُذْهب العَجْزا
ســوابــحُ فُلْكٍ للمغــانم أنشئتْ يسابقُ أفلاكَ السَّما جَرْيُها وَخْزا
يفـوزُ بأجـرٍ مَنْ علاهـا ومَغْنمٍ إذا ضربوا فى البحر أو ركبوا غُزًّا[٥]
إذا لَقِىَ الإسلامُ كُفْرًا ترى بها جميعَ العِدَا أَسْرَى وأعناقَهم حَزًّا

والقصيدة تموج بحماسة ملتهبة، فالأسطول وسفنه بشرى للإسلام وآيات نصر مجيدله، وإن السفن لتسابق أفلاك السماء فى جريها حتى لا يمكن أن يفلت منها العدو، وحتى إذا لقيته أصبح كل أفراده إما أسرى وإما مذبوحين ذبحا، فهم بين أسير وقتيل، وكان يعاصر على الغراب الأمير على الثانى الحسينى وله فى الفخر شعر بديع وسنخصه بكلمة، وممن أنشد لهم الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب أشعارا فى الفخر ابن سعيد الحجرى وحمودة بن عبدالعزيز.

وإذا تركنا الفخر إلى الهجاء لم نجد ابن رشيق ولا من جاءوا بعده يتوسعون فى الكتابة عن هذا الفن، إما لأن أهل الإقليم لم يكونوا يعجبون به، وإما لأن الشعراء أنفسهم لم يكونوا يعيشون له كما كان يعيش بعض الشعراء فى العراق وفى الشام ومصر، ومع ذلك فقد توقف ابن

---

(١) مجمل تاريخ الأدب التونسى ص١٨٨.
(٢) النخيب: الجبان.
(٣) لغربيه: لجانبيه. هام الكماة: رءوس الشجعان.
(٤) مجمل تاريخ الأدب التونسى ص٢٤١. الأدب التونسى فى العهد الحسينى ص١٠٢.
(٥) غزًّا: غزاة.

رشيق عند شاعر يسمى بكر بن على الصابونى، وقال إنه كان صاحب نوادر وهجاء خبيث، ولم يكد يلمّ من هجائه إلا بأمثلة قليلة كان يسف فيها إسفافا شديدا، ونجد عند بعض هجّائيهم هجاء للفقهاء كالشأن فى الأندلس من مثل قول أبى طالب الدِّلائى[1]:

لا تكنْ مثلَ معشرٍ فقهاءٍ جعلوا العِلْمَ للدراهم صَيْدَا
طَلَبُوه فصَيَّرُوه مَعَاشًا ثُمَّ كادوا به البَرِيَّة كَيْدا

وفى ظننا أنَّ أحد الأسباب فى انصراف الناس بتونس وغيرها من البلاد المغربية إلى المتصوفة أنْ وجدوهم زهادا فى كل ما بيد الحكام من أموال فاطمأنوا إليهم، ومما ساقه ابن رشيق فى أنموذجه قول بعض الهجائين فى أحد الكتاب[2]:

وكاتبٍ يَمْسَخُ ما يَنْسَخُ جميعُ ما يكتبه يَفْسَخُ
جِرْتُ فلا أدرى أأثوابهُ أم عِرْضُه أم حِبْرُهُ أوسَخُ

وقد عمم الوساخة فى حبر الكاتب وعِرْضه وأثوابه، وبذلك لسعه لسعا شديدا، وأكثر منه لسعا وإيلاما ما قيل فى مصلوب، وهو قول قرهب الخزاعى، ويبدو أنه صلب معه آخرون بنفس تهمة المروق عن الدين[3]:

ما راقبَ اللّهَ فى عِرْضِ النَّبِيِّ ولا خافَ العقابَ ولا صَلَّى ولا سَجَدا
مَرَدْتُمْ فلقيتمْ بَطْشَ مُقْتدِرٍ وتلك سُنَّتُه فى كلِّ من مَرَدا

فهو - وأصحابه - مارقون ملحدون، يستحقون ما نزل بهم من عقاب أليم. وتخف حدة الهجاء فى زمن الدولة الحفصية ويعود إلى الاشتعال فى عصر الدولة الحسينية، وخير من يمثله محمد الرشيد الحسينى فى هجاء ابن عمه على الأول وبيان عقوقه لعمه ونهبه للحكم منه ومن إخوته، وظل يكرر ذلك طويلا فى مثل قوله[4]:

اسْتَأْصَلَ الناسَ نهبًا واستباحَ دَمًا وما نجا غيرُ من نجَّتْه رِجْلاهُ
بَغَى علينا وأَهْلِينا وشتَّتنا وعمَّ بالجَوْرِ، والخُسرانُ أعماهُ
قد عقَّ والدَه والعمَّ يا عجبًا حتى ابنه بسِهام الحربِ أصلاه

(١) الأنموذج لابن رشيق ص ١١٨.
(٢) الأنموذج ص ٢٤٩.
(٣) الأنموذج ص ٣٢٩.
(٤) ديوان محمد الرشيد ص٦٤ وانظر الأدب التونسى فى العهد الحسينى ص٦٩.

وهو يهجوه بظلمه وعسفه واستباحة أموال الناس ودمائهم وتشتيته له ولأخوته وفرارهم منه إلى الجزائر، مع عقوق ضخم لأبيه ولعمه الحسين وابن عمه، بل لقد ظل يوقد الحرب حتى نصر الله الشاعر وعاد إلى صولجان حكمه. وحرى أن نتوقف الآن قليلا لنخصه ونخص تميم بن المعز بكلمة.

تميم[1] بن المعز الصنهاجي

كانت الدولة الصنهاجية تنسب نفسها وقبيلتها إلى حمير، وهو أثر من آثار التعرب الذى أحدثته الزحفة الهلالية فى قبائل البربر، إذ انتسبت كل قبيلة إلى قبيلة عربية وخاصة القبائل العربية الجنوبية، وولد تميم لأبيه المعز بصبرة (المنصورية) سنة ٤٢٢هـ/١٠٣١م وعنى بتربيته وتثقيفه عناية واسعة، ولما بلغ سن الثالثة والعشرين فوَّض إليه حكم المهدية، ولم تلبث الزحفة الهلالية أن قدمت إلى القيروان بدعوة من المعز لاستعانته بهم فى حرب أبناء عمه بنى حماد أصحاب القلعة المنسوبة إليهم فى الجزائر، ونصحه تميم أن لا يفعل ذلك ولكنه لم يستمع إلى نصحه فقدموا القيروان والإقليم التونسي وخرَّبوا كل ما نزلوا به، ولم يجد المعز بدا من أن يلجأ إلى تميم فى المهدية سنة ٤٤٩ وظل بها إلى أن توفى سنة ٤٥٤ وطالت إمارة تميم فيها وتمهَّد سلطانه بها وظل ينازل بنى هلال مرارًا إلى أن توفى سنة ٥٠١ عن تسع وسبعين سنة. وانتجعه شعراء الأندلس والمغرب والشام فأجزل لهم العطاء سوى من كان ينتجعه من شعراء الإقليم التونسى أمثال أبى الحسين بن خصيب وأبى عبد الله محمد بن على القفصى وأبى الحسن على بن محمد الحداد، وممن مدحه من شعراء أبيه ابن شرف وعبد الكريم بن فضال وابن رشيق ومرَّ بنا مدحه له. وكان مع شاعريته الفذة ناقدا مجيدا للشعر، قال ابن الأبار: كان يعترض الشعراء وينتقد عليهم ألفاظهم، ويذكر أن شاعرا أنشده فى وقت هرج:

تَثَبَّتْ لا يُخَامِرْكَ اضطرابُ ... إليكَ تمدُّ أعينَها الرِّقابُ

فقال له: أرأيتنى – ويحك – طرت خِفَّةً ورميت بنفسى من علو هذا القصر قلقا واضطرابا، وسكَّته ولم يسمع من قصيدته سوى هذا البيت. ورُوى له شعر كثير، من ذلك قوله يحمِّس بعض القبائل لمنازلة الأعداء:

متى كانتْ دماؤكُمُ تُطَلّ ... أما فيكم بِثَأْرٍ مُسْتقِلُّ
أغانِمُ ثم سالمُ إن فشلتم ... فما كانت أوائلكم تُذَلُّ

---

(١) انظر فى ترجمة تميم الحلة السيراء ٢١/٢ وابن خلدون ١٥٩/٦ وابن خلكان ٣٠٤/١ وأعمال الأعلام ٧٣/٣ ومجمل تاريخ الأدب التونسى ص١٦٨.

ونِمْتُمْ عن طِلاب المجد حتى ... كأنَّ العِزَّ فيكم مُضْمَحِلُّ
وما كسَّرتمُ فيه العَوالىِ ... ولا بِيضٌ تُفَلُّ ولاتُسَلُّ[1]

وتميم يستثير حمية القبيلة بذكر الثأر الذى يشتعل له الغضب فى صدر كل عربى، فالعار كل العار عند العرب أن لا يأخذوا بثأرهم وأن تُطَلَّ دماؤهم وتذهب هدرا دون مناضل عنها يقتحم لها الموت اقتحاما. ويضرب للقبيلة على وترثان هو الذل، فالعربى الكريم لا يمكن أن يقبل الذل ولا الضيم، فقبل كل شيء عزة النفس، ومن أجلها تحطِّم الرماح وتفل السيوف. ولابد أن القبيلة امتلأت غيظا وحقدا على أعدائها، واندفعت تطلب ثأرها وتحامى عن كرامتها وعزتها باذلة المهج والأرواح. وينشد متحمسا غاية التحمس:

بكرِّ الخيل دامية النُّحورِ ... وقَرْعِ الهام بالقُضْبِ الذُّكورِ[2]
لأقتحمنَّها حَرْبًا عَوانًا ... يشيب لهولها رأسُ الكبيرِ[3]
فإما المُلْكُ فى شرفٍ وعزٍّ ... علىَّ التاجُ فى أعلى السَّريرِ
وإما الموتُ بين ظُبا العَوالى ... فلست بخالدٍ أبدَ الدهورِ[4]

فسيظل تميم يدفع الخيل فى موقعة بعد موقعة وقد تلطخت نحورها وصدورها بدماء الأعداء، وسيظل يضرب فى رءوسهم وأعناقهم بسيوفها الحادة مشعلا مع أعدائه حروبا ضارية يشيب لهولها كل من يراها، ويقول إنه لن يغادر ساحة هذا الشرف والعز، فإما يحمى التاج على رأسه ويصونه، وإما الموت الزؤام بين الرماح والسيوف، أو بعبارة أخرى إما حياة شريفة عزيزة، وإما موت أيضا شريف عزيز، موت الأبطال الكرام. ومن طريف ما لتميم فى هجاء منافق:

رأيتك قاعدا عن كل خَيْرٍ ... وأنت الشهم فى قالوا وقلتُ
وأطوارٍ لها لطفٌ وحِذْقٌ ... وألفاظٍ تنمِّقها وسَمْتُ
وقد يَعِدُ الوعودَ وليس يُوفى ... وليس بقائلٍ يومًا فعلتُ
كخَزِّ الماء فوق الماء طافٍ ... يروقُ وماله أصلٌ ونَبْتُ[5]
كذلك زَهْرَةُ الدِّفْلَى تراها ... تشوق العَيْنَ حسنا وهى سُحْتُ[6]

---

(١) العوالى: الرماح. بيض: سيوف.
(٢) القضب الذكور: السيوف الحادة القاطعة.
(٣) الحرب العوان: الحرب المكررة مرة بعد أخرى.
(٤) ظبا: جمع ظبة: حد الرمح القاطع.
(٥) خز الماء: الطحلب.
(٦) الدِّفلى: نبت مر زهره أحمر، السحت: الخبيث الكريه.

وهو يصوره يقعد عن كل خير، ويبادر بكلام فيه حذق ولطف وتنميق دون أن تكون فيه فائدة وإذا وعد أخلف ولم يوف بوعده، ولا خير عنده ولا غناء فيه كالخز الذى ينسجه الماء أحيانا على سطحه يروق النظر ولا أصل له، بل كزهرة الدفلى الحمراء تشوق العين ولا رائحة لها ولا عطر تنشره حولها

محمد[١] الرشيد الحسينى

من أهم ما يميز الحكم العثمانى فى عهد الدولة الحسينية التى امتد حكمها منذ سنة ١١١٧ للهجرة/ ١٧٠٥ للميلاد أن حسين بن على مؤسسها مع أنه كان تركى الأصل كان تونسى المولد والنشأة واللغة فأخذ يعنى بتقاليد التونسيين هو وجميع أفراد أسرته كما عنوا بالحركة العلمية فى جامع الزيتونة وفيها أنشئوا من مدارس كثيرة، وعنوا أيضا بالحركة الأدبية فضموا إليهم كثيرا من الشعراء وأغدقوا عليهم الأموال والرواتب، وشاركوا بأنفسهم فى الحركتين العلمية والأدبية، وقد اشتهر علىٌّ الأول بشرح له على كتاب التسهيل لابن مالك كما اشتهر على الثانى بمدارسته صحيح البخارى غير تعمقه فى النحو والفقه وأصول الدين والبيان كما تشهد مدائح الغراب الصفاقسى. واشتهر محمد الرشيد الذى استرد حكم تونس له ولإخوته بأنه كان شاعرا فذا كما كان موسيقارا كبيرا، وإليه يرجع فضل ترتيب الأغانى الشعبية التونسية والأندلسية المسماة باسم المألوف، وله ديوان شعر، ونراه فيه أيام غربته بالجزائر يفتخر بتونس وما نشر فيها أبوه من العلوم والآداب بمثل قوله عن تونس ويسميها باسمها القديم: ترشيش:

أَقَمْنا بِقَدْرِ الجُهْدِ قائمَ شَرْعِنا ... فترشيشُ أضحى عِلْمُها يتدفَّقُ
وجرَّتْ ذيولَ الفخر عن نُظَرَائها ... فلا الشامُ يحكيها وما هىَ جِلَّق
وما فى جميع الأرض مصرٌ يفوقها ... وليس لنا نيلٌ عليها محلِّقُ
أبى اللّهُ أن تُمْحَى ديارُ أعزَّةٌ ... وتَدْرُسَ آثارُ المعانى وتُمْحَقُ[٢]

فهو يفخر بأن أباه أقام فى تونس الشريعة وأحيا بها الآداب حتى غدت تفاخر الشام وعاصمتها جلق أو دمشق، ويرفعها فوق جميع البلدان العربية، رغم أن ليس فيها كمصر نيل يتدفَّق، ويقول إن الله حفظها وصانها عن أن تعفى ديارها ورسومها. وتبتسم له الدنيا ويعود إلى تونس ويجلس على أريكتها ويشعر بفخر لايضاهية فخر وينشد:

(١) انظر فى ترجمة محمد الرشيد المشرع الملكى والتاريخ الباشى والخلاصة النقية للباجى المسعودى ومجمل تاريخ الأدب التونسى ص٢٣٦.
(٢) تدرس: تمحى.

أَيُشْبِهُنَـا فى العـالمين قَبيـلُ ... ونَيْـلُ عُـلانـا مـا إليـه سبيـلُ
أرى العِزَّ لا يأوِى سوى بيتِ مجدنا ... ولا فى حِمـانـا يستـذلُّ ذليـل
وإن نَحْنُ سِرْنا فى كُماة جيوشنا ... فللخيل وقْعٌ فى الثَّرى وصهيلُ
تكاد جبال الأرض من عظم بأسنا ... تذوب على سطح الثَّرَى وتميل

وهو يرفع نفسه وأسرته فوق العالمين، فلم ينل أحد مانالوا من العلاء والمجد والعز، حتى إن أحدا فى حماهم لا يمكن أن يصيبه أى أذى أو أى ذل. ثم يتحدث عن شجاعته وشجاعة جيوشه وكيف إذا سارت هزت الأرض خيولهم وزلزلتها زلزالا، بل إن الجبال لتكاد تميل أمام بأسهم وتذوب ذوبانا. وهو فخر لا يستغرب ممن دحر جيوش ابن عمه واسترد حكم أبيه لأسرته سنة ١١٦٩ للهجرة ولم يتمتع بنصره وحكمه طويلا فقد توفى بعد ثلاث سنين سنة ١١٧٢هـ/١٧٥٩م.

٥

شعراء الغزل

لا يكاد شاعر ينظم الشعر إلا وينظم فى الغزل بعض أبيات له مصورا فيها حبه إزاء المرأة ومعبرا عن هذه العلاقة الإنسانية الخالدة. ويموج كتاب الأنموذج لابن رشيق بأشعار الغزل والحب، منها الطبيعى الذى يتدفق عن نفس صاحبه فى سهولة وطواعية، ومنها المتكلف الذى يصنعه صاحبه صناعة. وأيضا منه المستقل بقطع مفردة، ومنه الذى يوضع تمهيدا لما وراءه من مديح وغير مديح. ولن نستطيع أن نعرض ما فى الأنموذج من طرائف الغزل الكثيرة، ولكننا سنكتفى ببعض ما أنشده لكبار العلماء والشعراء، ممن أعجب بهم ابن رشيق مثل أبى عبدالله بن جعفر التميمى المعروف بالقزاز المتوفى سنة ٤١٢ وكان لا يبارى فى علوم اللغة والنحو والقراءات، ويشيد بجيد شعره وبلوغه فيه بالرفق والدعة أقصى ما يحاوله أهل القدرة على الشعر من توليد المعانى وتوكيد المبانى، ويذكر من بديع غزله[1]:

أمـا ومحل حبِّـكِ من فؤادى ... وقَـدْرِ مكـانِـه فيـه المَكِينِ
لـو انبسطتْ لىَ الآمـالُ حتى ... تصيِّـر لى عِنانَـكِ فى يمينى
لصُنْتكِ فى مكانِ سواد عَيْنى ... وخِطتُ عليكِ من حذرٍ جفونى
فـأبْلُغَ منكِ غـايـاتِ الأمـانى ... وآمَنُ فيـك آفـاتِ الـظنـونِ

(١) الأنموذج ص٣٦٦ وإنباه الرواة ٨٤/٣ ومعجم الأدباء ١٧/ وابن حلكان ٣٧٤/٤.

والقطعة طريفة، فهو يريد أن يضع صاحبته فى سواد عينه ويخيط عليها جفونه، حتى يحفظها ويصونها ويبلغ منها كل أمانيه، ويمضى فى القطعة قائلا إنها يخاف عليها من الخفىِّ وراء ألحاظ العيون، وإنها كل دنياه. ويشيد ابن رشيق بابن البقال عبد العزيز بن أبى سهل الخشنى النحوى اللغوى المتوفى سنة ٤٠٦ ويقول عنه: «كان شاعرا مطبوعا يلقى الكلام إلقاء ويسلك طريق أبى العتاهية فى سهولة الطبع ولطف التركيب وقرب مأخذ الكلام، وينشد من غزله قوله[١]:

يا غُصُنًا غضًّا من الآسِ ... ودرَّةً وهْىَ من الناسِ
صوَّركِ اللهُ على صورةٍ ... كانتْ بها أسباب وَسْواسى
ترديدُ ذكرى لكِ فى خاطرى ... أكثرُ من تَرْديد أنفاسى
نسيتِ وُدِّى وتناسَيْتِنِى ... وليس قلبى لك بالنَّاسِى
وليس لى منكِ سوى حَسْرَةٍ ... تجولُ بين الشوق والياسِ

فغصن صاحبته كغصن الآس يتثنى لينا ونعومة، ويعجب أن تكون درة متلألئة وهى من الناس، وقد صورت صورة جميلة كانت أسباب وسواسه واختلاط عقله، وإن ذكراها لتتردد فى خاطره أكثر من تردد أنفاسه، وقد نسيت وده وتناسته وليس قلبه لها بالناسى، فقد حفرت صورتها فيه حفرا، ولم يبق له منها سوى حسرة تتردد بين الطمع فى اللقاء واليأس. ويقول[٢] محمد بن على الأزدى:

ترنو بأجفانٍ سُكارى بلا ... سُكْرٍ من الحسنِ مِراضٍ صِحاحْ
احمرَّ - لِما استضحكتْ - خَدُّها ... فلاحَ ما بين الشقيق الأَقاحْ
بمهجتى أَفْدِى التى صيَّرتْ ... جسمىَ للأسْقام منها مُباحْ
ومَنْ إذا رُمْتُ سُلوًّا دَعَا ... قلبى ولُبِّى: حبُّها لابراحْ

فهى ترنو بأجفان كأنها سكرى عليلة من الحسن وهى صحاح غاية الصحة، وضحكت واحمرَّ خداها، وكأنما ومض ثغرها المشبه للأقاح فى نصاعة بياضه بين ورد الشقيق المتوهج حمرة على خدودها. وإنه ليفديها بمهجته رغم ما أصابت به جسمه من الأسقام، ويقول إذا أراد سلوا عنها نادى قلبه وعقله حبها لا تبرح أبدا. ويقول الأقلامى محمد بن سلطان شاكيا حبه وآلامه فيه[٣]:

---

(١) الأنموذج ص١٦٠ وإنباه الرواة ٨٤/٢.
(٢) الأنموذج ص٤٠١.
(٣) الأنموذج ص٣٨٤.

مُـقْـلةٌ إنـسـانُـهـا غَـرِقُ حَشْـوُهـا التَّسْهيـدُ والأَرَقُ
وصَـبـابـاتٌ مضـاعـفـةٌ ودمـوعٌ ثَـرَّةٌ دُفُـقُ
وحَشًـا يَسْـطُو بـه لَـهَبٌ عن قليـلٍ سوف يحتـرق
وفتًى أشْفَى عـلى جُـرُفٍ مـن هـلاكٍ مـابـه رَمَقُ
وَيْـحَ أهـلِ الحبِّ ويحهمُ ليتَ أهلَ الحبِّ ما خلقـوا

والشكوى بديعة، ومن شأنها أن تحنو صاحبته عليه لو سمعتها، ويقول ابن رشيق: «هذه هى الألفاظ العذبة الغزلة الرائقة التى تلصق بالقلب وتعلق بالنفس، وتجرى مجرى النفس، وهذه هى طريق الحذاق فى التغزل خاصة لأن المراد منه استدعاء المحبوب واستعطافه برقة الشكوى ولطف العتاب وإظهار الألم والإقرار بالغلبة.

ومرَّ بنا فى حديثنا عن الغزل بالجزء الخاص من الأندلس أن أديبة متظرفة عفيفة تسمى حمدة من مدينة وادى آش كانت تهوى صديقة لها وأنها نظمت فيها مقطوعة غزلية بديعة تصف فيها فتنتها بحسنها وجمالها، وكانت لها أخت تسمى زينب شاعرة مبدعة. ومن الطريف أننا نجد فى أوائل الدولة الحفصية شاعرة من بيت التجانى تسمى زينب بنت إبراهيم التجانى تُفْتَنُ بشَعْر إحدى صواحبها فتقول فى وصف حسنه وجماله[1]:

إذا انْسَدَلَتْ منه عليها ذُؤابةٌ كغُصْنِ أراكٍ عـانقتْـهُ أراقمُ[2]
أثيثٍ طويلٍ فَهوَ يَسترُ جِسْمَها إذا نزعتْ عنه الملابسَ أَسْحَمُ[3]
كأنَّ الصباحَ ارتاع من خوف طالبٍ بثـأرٍ فـألـوَى بـالـدُّجىَ يتكتَّم

وهى تتصور ذوائب صاحبتها أو ضفائرها كأنها أراقم أو حيات تعانق غصن أراك أو بعبارة أخرى تعانق قامتها الهيفاء الرشيقة، وتقول إن شعرها أثيث أو كثيف ملتف، وإذا نزعت عنه ثيابها يبدا سواده على جسدها الأبيض الناصع، حتى لكأنه صباح أخذه الفزع من مطالب بثأر، فاختبأ فى دُجى هذا الشعر، متخفيا ومتسترا ما استطاع.

ونختار ثلاثة من الشعراء الغزلين من العصور المختلفة غلب عليهم الغزل واشتهروا فيه، وهم على الحصرى فى زمن الطوائف وأحمد اللِّليانِى فى زمن الحفصيين ومحمد ماضور فى زمن الحسينيين.

---

(١) ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية ١٥٦/٣.
(٢) أراقم: حيات.
(٣) أسحم: أسود.

على[1] الحصرى

هو علي بن عبد الغنى الفهرى الحصرى ابن أخت الحصرى صاحب زهر الآداب كان كفيفا، وخلّف فيه عُدْوان الزحفة الهلالية على القيروان مرارة شديدة، فولى وجهه نحو الأندلس، وتهاداه أمراء الطوائف وخاصة المقتدر بن هود أمير سرقسطة، وفيه يقول ابن بسام فى كتابه الذخيرة: «كان بحر براعة ورأس صناعة، وزعيم جماعة، طرأ على جزيرة الأندلس منتصف المائة الخامسة من الهجرة بعد خراب وطنه بالقيروان، والأدب يومئذ بأفقنا نافق السوق، معمور الطريق، فتهادته ملوك طوائفها تهادى الرياض النسيم، وتنافسوا فيه تنافس الديار فى الأنس المقيم».ولما خلع يوسف بن تاشفين ملوك الطوائف استقر فى طنجة يقرئ بها القرآن إلى وفاته سنة ٤٨٨ وكان عالما فذا بالقراءات وطرقها، وله منظومة فى قراءة نافع، وكان شاعرًا مبدعا، وله فى الشعر ديوان لم يصلنا، ومن رائع غزله قصيدته المرقصة:

يا ليلَ الصَّبِّ متى غَدُهُ ... أقيامُ الساعة مَوْعِدُهْ
رَقَدَ السُّمَّارُ فأرَّقَهُ ... أسفٌ للْبَيْن يُرَدِّده
فبكاه النَّجْم وَرَقَّ له ... مما يَرْعاه ويَرْصُدُهُ
نصبتْ عَيْنايَ له شَرَكًا ... فى النَّومْ فعزَّ تصيُّدهُ
يا مَنْ سفكتْ عَيْناه دَمِى ... وعلى خَدَّيْهِ تورُّده
خَدَّاك قد اعترفا بدمى ... فعلامَ جفونُك تَجْحَدُهُ
باللّهِ هَبِ المشتاق كَرًى ... فلعلَّ خيالك يُسْعِدُهُ

والقصيدة طويلة، وبلغ من روعتها أنه عارضها من شعراء العرب كثيرون آخرهم شوقى محاولين أن يقتبسوا منها شيئا من حسنها الموسيقى ومن معانيها البديعة، وهو يسأل ليل المحبوب عن غده، وهل سيستمر حتى قيام الساعة. وقد نام السمار، أما هو فيُسهده أسفه على الفراق وإنه ليبكى بدموع غزار، حتى ليبكى النجم له، وينام لمامًا آملا فى رؤيته حلما فلا يراه. ويقول إن عينيها سفكت دمه، وشاهده تورد خديها المعترفين به ففيم جحود جفونها، ويسألها أن تهبه نوما لعل طيفها يسعده. والقصيدة تكتظ برقة بالغة، وهى رقة تشهد له بشاعرية فذة، ومما أنشده له ابن بسام:

---

(١) انظر فى ترجمة على الحصرى معجم الأدباء ٣٩/١٤ وابن خلكان ٣٣١/٣ وجذوة الحميدى: ٢٩٦ وابن بشكوال فى الصلة والذخيرة القسم الرابع ص٢٤٥ ومجمل تاريخ الأدب التونسى ص١٥٨.

رُدِّى حُشاشَةَ عاشقٍ مهجورِ ... بينَ الملومِ عليك والمعذورِ
ذكر الفراقَ فماتَ إلا شوقَه ... وأولُو الهَوَى مَوْتَى بغير قبور
ودَّعتُ مَنْ أهْوى بل استودعتُها ... قَلْبى وسِرٌّ مدامعى وزَفيرى
فبكتْ بِنَرْجِسَتَيْنِ خِفْتُ عليهما ... نَفْسى فلم أَلْثَمْ بغير ضميرى

وهو يسأل صاحبته أن ترد عليه مهجته، بعد أن هجرته وفارقته، ويحس كأنه مات، وما أهل الهوى إلا موتى بغير قبور، ويقول إنه ودَّعها بل لقد استودعها قلبه ودموعه وزفيره وحنت عليه فبكت، وهمّ أن يقبلها وتراجع خوفا عليها من نفسه الحار فاكتفى بأن يقبلها سرا فى ضميره، وكان يميل إلى الجناس والتلاعب به حتى فى الحب وفى القوافى كقوله:

إن كتمتُ الهوى فقد ... صار سِرِّى علانيَه
لسقامٍ أذابنى ... وشحوبٍ علانيه

فلم تعد هناك فائدة من كتمانه، فقد أصبح سره فيه ذائعا ومعروفا لسقامه وشحوبه الذى علاه، وكان يعرف كيف ينفذ إلى مثل هذا الجناس فى قافية البيتين بخفة، مما يدل على قدرة شاعرية بديعة، مع ما يمتاز به شعره من طرافة الأخيلة وحلاوة الموسيقى.

أحمد[(١)] اللُّليانىّ

هو أحمد بن إبراهيم القيسى المشهور باسم اللُّليانى نسبة إلى قرية تسمى للياَّنة بالقرب من المهدية، وقد نهل من حلقات شيوخها وأعلام أدبائها. وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة فغادر المهدية إلى تونس، واختلط برجالات الدولة، وطمحت نفسه إلى الثراء، فعمل فى التجارة وكون بينه وبين تجار جنوة ومرسيلية علاقات تجارية أثرى منها ثراء طائلا. وأوغر حساده صدر المستنصر عليه، فكان ذلك سببا فى مصادرته وإهدار دمه سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م وله أشعار غزلية بديعة، منها قوله:

هذا العُذَيْبُ وهذه نَجْدُ ... أين الذى يَقْضِى به الوَجْدُ
ما هكذا حالُ المحبِّ إذا ... أعلامُ رَبْعِ حبيبه تَبْدُو
سرِّحْ دموعَ العينِ مُبْتَدِرًا ... وبذكرِ ماضى عهدهم فاشْدُ
والْثَمْ على شَغَفٍ مواطئَهم ... إن عاقَ عن مَقْصودك البُعْدُ

---

(١) انظر فى ترجمة اللُّليانى الحلل السندسية ١٢-٥٠٥ ومجمل تاريخ الأدب التونسى ص ١٩٥.

ولعلَّ ما نرجو تجودُ به كفُّ الزمانِ ويُسْعِدُ الجَدُّ

وهو يعجب فهذه ديار المحبوبة: العذيب ونجد، وهو لايزال يبكى، وآن له أن يكف عن بكائه، فتلك أعلام ربع محبوبته تبدو، فحق له أن يسرح دموع العين ويشدو بذكر الماضى من عهد الأحبة، بل إنه ليدعو المحب إلى لثم مواطئ أقدامهم إن عاقه عنهم البعد ولم يستطع سريعا لقاءهم، ويأمل أن تجود له كف الزمان بأمنيته ويساعده الحظ فى نَيْلها. ويقول متغزلا:

خلِّيانى يا صاحبىَّ ونَجْدَا هِجْتُما بالملام شَوقًا ووَجْدا
فلِنَجْدٍ بين الجوانح وُدٌّ مستجدٌّ مادام رَبْعًا لسُعْدَى
لا تقولوا مرامُ سُعْدَى بعيدٌ ربَّ سَعْدٍ أتى فقرَّب بُعْدَا
أهلَ وُدِّى ما حُلْتُ عن حِفْظِ عَهدِى وهوَاكُمْ ماغيَّر النَّأْىُ عهدا[1]

وهو يطلب إلى صاحبيه أن يدعاه ونجدا ويكفّا عن لومها فإنه كالريح تزيد نار وده المستكنة بين جوانحه اشتعالا بتعلقه بسعدى، ولا تقولا إن ربع سعدى بعيد، فرب سعد حدث فقرَّب الربع والديار، ويلتفت إلى سعدى قائلا لها إنه لا يزال على العهد ويقسم لها بحبها ما غيرَّ العباد له عهدا ولاحبا. ويلومه عذول فى تعلقه بمحبوبته تعلقا مسرفا، فيقول له:

رُدَّ لى قلبى لتعذله فهو فى كفَّيْه أَجْمَعُهُ
لفظه دُرٌّ يُساقطُه ونطاق السَّمع يجمعه

فقلبه ليس معه ليعذله، بل هو مع صاحبته، وإنه ليتراءى له جمال لفظها وهى تنثره دررا ونطاق سمعه يجمعها دررا وراء درر. ولعل فى ذلك كله مايصور افتنانه فى غزله ورقته.

محمد[2] ماضور

من أسرة فاضلة من الأسر الأندلسية التى نزلت الإقليم التونسى فى القرن الحادى عشر الهجرى واستقرت ببلدة سليمان، منشئة فيها كثيرا من البساتين وحقول الحبوب المتنوعة، وولد بتلك البلدة محمد لأبيه محمد ماضور أحد علمائها الأفاضل سنة ١١٥٠ هـ/١٧٣٧م وفيها منشؤه ومرباه على أبيه وعلمائها حتى إذا أصبح شابا تحول إلى تونس وجامعتها الزيتونة، فنهل من حلقات علمائها، وأعجبهم فيه ذكاؤه، فأسندوا إليه - حين استكمل دراسته - الدرس للطلاب بتلك الجامعة، وعاد إلى بلدته «سليمان» إماما وخطيبا بجامعها، حتى إذا توفى أبوه حلَّ محله فى

(١) حلت: تغيرت. النأى: البعد.
(٢) انظر فى ترجمة محمد ماضور مجمل تاريخ الأدب التونسى ص٢٦١ والأدب التونسى فى العهد الحسينى للهادى الغزى ص١٠٤.

منصب القضاء ببلدته، وظل يليه إلى وفاته سنة ١٢٢٦هـ/١٨١١م.

وكانت موهبة محمد ماضور الشعرية قد تفتحت مبكرة، فعُرف بين الشعراء والأدباء برقة أشعاره، وقد خلف ديوانا لا يزال مخطوطا، ومعظمه غزل ينبئ عن حس مرهف، من مثل قوله:

إلى كم تجـورُ ولا تنـصفُ ... وتهجُـر تِيهًـا ولا تعـطفُ
وحتى متى الهجرُ لا ينقضى ... وإخـلافُ وعـدك لا يُـخْلَفُ
وقد عِيلَ صَبْرى وشقَّ الهوَى ... علىَّ وبى ريحُـه تَعْصِفُ
وأسْرُ الهوى لجَّ بى للتَّوَى ... وقلبى بنيـرانـه يـرجـف[1]
ولبٌّ سَهَـا واصـطبـارٌ وَهَى ... وشـوْقٌ دَهَى القلبَ لا يُصْرَفُ

وهو يقول إن صاحبته تظلمه ولاتنصفه فدائما تهجره ودائما تخلف وعدها له، حتى نفد صبره، وشوقه يتقد فى فؤاده وإنه لأسير الهوى ويكاد يتلفه، بينما قلبه يتلظى بنيرانه، وقد سها لبّه ووهى منه اصطباره، وشوقه لايريم. ويقول:

يـا ظبيةً أشعلتْ فى القلب نيـرانا ... وخَلَّفَتْنى مـع الأشـواق حَيْـرانـا
صَبْرى ودمعى لما حملتُ من شغفى ... هـذا تلاشَى وهـذا صار غُـدْرانـا
يا شمسَ حُسْنٍ تبدَّتْ فى ملاحتها ... هلا قَرَنْتِ بـذاك الحُسْنِ إحسانـا
ما إن ذكرتُكِ إلا صرتُ من طَرَبٍ ... من طيب ذكراكِ ولهانًـا ونشوانـا

فصاحبته أشعلت فى قلبه نيرانا لاتنطفئ أبدًا، وقد تلاشى صَبره وذرف الدمع مدرارا حتى ليستحيل غدرانا، ويستعطفها بحسنها الفاتن أن تقرن به إحسانا إليه ومودة، ويعترف بأنه أصبح من طيب ذكراها مولَّها منتشيا. ويقول:

يـاظبية الإنسِ رفقًـا بالـذى عَشِقا ... شوقى يزيد على طول المدى حُرقَا
يَغْشَى سَنَا القمر السارى إذا اتسقا ... لله ذاك الـمُحيَّـا نـورُ بهجتـه
كـذاك سمعى وطـرفى كلمـا رَمَقـا ... يهـواك لُبِّى وقلبى مَعْ جـوانحـه

وهو يقول لصاحبته إن قلبه يزداد مع الزمن حرقا ولوعات مضنية، ويتوسل إليها أن ترفق بعاشقها، ويتولاه العجب لجمال وجهها ويتخيل كأنما القمر يستمد سناه وضوءه فى ليلة اكتماله من نوره البهيج. ويقول لها إن كل ما فيه يهواها، يهواها لبه وقلبه وجوانحه وسمعه وبصره.

---

(١) التوى: الهلاك.

الفصل الخامس

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغربة والشكوى والعتاب

كان كثير من سكان الإقليم التونسي يرحلون عن ديارهم إما طلبا للكسب وابتغاء الرزق وإما طلبا للعلم وابتغاء التعمق فيه وإما طلبا للجهاد فى صقلية أو فى الأندلس وابتغاء الاستشهاد فى سبيل الله، وممن غادر القيروان إلى مجاهد صاحب دانية فى شرقى الأندلس (٤٠٥-٤٣٦هـ) للجهاد ضد نصارى الشمال، ابن الصفار السوسى، وحين دخل عليه مدحه بقصيدة يائية حكى فى فاتحتها حوار زوجته معه وقولها له: لمن تتركنى وتترك أطفالك يقول[١]:

بكتْ وشكتْ واسْتَرْجعتَ وتوجَّعتْ ... فَظَلْتُ لها مسترجعًا متباكيا

وقالتْ أما تنهاك أن تذكر النَّوَى ... نُهىً قد نَهَتْ عنك الصِّبا والتصابيا

ومَنْ لصغارٍ من عيالٍ تركتهم ... كزُغْبِ القَطَا يبغون طُعْمًا وساقيا

ولن يجدوا للعيْش بعدك لذَّةً ... ولن يَشْربوا من بعدك الماء صافيا

فقلتُ لها إن الذى ليس غيره ... إلهٌ كفاهم حافظًا ومُراعيا

وهو يصور ساعة الوداع لزوجته وصغاره وهى تبكى وتتوجع، وهو يبكى، وتقول له ألم ينهك عقلك الذى طالما نهاك عن الصبا والتصابى. وتستعطفه بصغار فى المهد كزُغْب القطا لم ينبت بعدُ ريشهم، ولن يطيب لهم عيش بدونه، غير أن نداء الجهاد كان أقوى من نداء الأطفال فقال لها إنى تركتهم لربى الكافى الحافظ الراعى. وكان شباب القيروان وغيرها من مدن تونس لا يزال يعدّ حقائبه للارتحال إلى المشرق للنهل من أساتذته فى مصر والحجاز والشام والعراق ولم يكن آباؤهم يقفون حجر عثرة فى طريقهم بل كانوا يشجعونهم للنهوض بهذه الرحلات العلمية، رغم ما يشعرون به من فقدهم وما يُطْوى فى ذلك من شوق وحنين، ومن خير مايصور ذلك قول على الناسخ يخاطب ابنه وقد سافر إلى مصر وهو صغير السن ابتغاء العلم[٢]:

(١) الأنموذج ص ٢٦٦. (٢) الأنموذج ص ٢٦٢.

يـا دهـرُ مـالـك لاتَـرْثى لمكتئبٍ ... ما باتَ منك خَلِيًّا قطُّ من كُرَبِ
لم يكف صَرْفَك صَرْفى عن ذوى ثقتى ... حتى تعقَّبَ بالتفريق فى عَقِبى[1]
ابنٌ وكـان أبًـا لى فى محبَّتـهِ ... أمسى بأرض الفَلا فَرْدًا بغيرأبِ
أمسيتُ فى وطنى فى مثل غُرْبتهِ ... يـا مَنْ لمغتربٍ بـاكٍ لمُغْتَـرِبِ
والله ياولدى المجذوبَ من كبِدى ... للرَّأْىُ ذاك وإن أمسى به عَطَبى
فمـا الحياةُ إلى نفسى بِمُعْجِبَـةٍ ... إن لم تَجُزْ بىَ أعلى السبعة الشُّهُبِ

وهو يعتب على الدهر أنه لا يبيت يوما خاليا من إحدى كربه وأنه لم يكف نوائبَه صرفهُ عن ثقاته حتى تعقبته فى ابنه البار به فحرمته منه وكأنما ألقت به فى فلاة دون أب يرعاه، ويشعر بفراق ابنه له كأنه أمسى غريبا فى وطنه، وكأن مغتربا يبكى بدموع غزار مغتربا، ويتماسك الأب، أمام فلذة كبده، فيقول له إن رأيك فى الرحلة هو الصواب وإن كان فيه عطبى وتلفى، ويضع نصب عينيه طموحه الهائل، فالحياة لا تعجبه ولا ترضيه إلا إذا تعدَّت به أعلى الشهب السيارة الساطعة. ويعلق ابن رشيق على أبيات هذا الشاعر فيقول: «هذا كلام يظهر عليه التوجع والتفجع، وتشوبه رأفة الإشفاق، ورقة الاشتياق، حتى تدرَّ عليه الجفون بحلب الشئون (الدموع). وليس يخفى على أحد ممن يعرف الكلام حسنُ هذا التخريج والتلطف فى الاعتذار عما فعل الغلام. وإن هذا الشعر ليهوِّن رزيَّة من أصابه مثلُ هذا المصاب فى ولده، حتى يسهل على الآباء فقد الأبناء ويجسِّر الغلمان على مفارقة الأوطان». وممن تلهفوا على وطنهم تلهفا شديدا زمن الدولة الصنهاجية ابن عبدون الوراق السوسى، وسنخصه بكلمة. ولعلى الحصرى الشاعر المبدع قطعة يتشوق فيها إلى القيروان وتونس حين إقامته بالأندلس، وهو فيها محزون حزنا شديدا وفيها يقول[2]:

على العُدْوَة القُصْوَى وإنْ عَفَتِ الدارُ ... سـلامُ غريبٍ لا يئـوبُ فيُـزْدارُ
وحقَّ بكاءُ العين والقلبُ مُسْعِدٌ ... لمن باتَ مثلى لا حبيبٌ ولا جارُ
شَفَى اللَّهُ داءَ القَيْرَوانَيْنِ بعدنا ... فقـد مَرِضَتْ للقيـروانيين أبصارُ
وكيف غناءُ الطَّيْرِ فى غير أيْكها ... وقد بَعُدت منها فِرَاخٌ وأَوْكـارُ
ألا يا بروقًا لُحْنَ من نحو صَبْرَةٍ ... وليس لهـا إلا دموعىَ أمـطارُ
عَسَى فيكِ من ماء الحنيَّات شَرْبَةٌ ... ولو مثلَ ما يُوعى من الماء مِنْقارُ

وهو يحيىِّ العدوة القصوى: القيروان وديارها ويصرِّح بأنه يائس من العودة بعد أن أنزل بها

---

(١) صرفك: نوائبك وحدثانك.
(٢) الذخيرة ٢٦٠/٤.

أعراب سليم وهلال الدمار، وإنه ليبكى بكاء لا ينقطع للوطن وما صار إليه من الوحدة الموحشة فلا حبيب ولا جار، ويدعو للقيروانين: القيروان وتونس أو القيروان وصبرة المذكورة فى الأبيات وكانت بلدة كبيرة قريبة منها، يدعو لها أن يزايلها ما غشى الأبصار فيها من مرض الهدم والتخريب. ويعجب أن تغنى الطير فى غير أيكها وقد بعدت عنها أوكارها وفراخها الصغار، إنه وأمثاله من شعراء العدوة القصوى لا يستطيعون الغناء إلا أن يكون بكاء وأنينا. وتلوح له بروق من نحو صبرة وهى بروق خلب، ليس فيها أمطار إلا دموعه، ويتمنى جرعة ماء من حنيات تونس ولو قدر ما يحمل منقار طير من الماء حتى يشفى به أو صاب نفسه وفؤاده. ويقول الشاعر الحفصى ابن عُرَيْبَة يتشوق إلى المهدية وأهله بها[١]:

أقولُ لركبٍ قافلٍ عن معرَّسٍ ... بِجَمَّةَ تَرْدِى بالحمول مشاحِجُهْ[٢]

لك اللَّهُ أَمْتِعْنا عن البلد الذى ... أكابرُه أسلافنا وأَبالجُه[٣]

وعن وطنٍ لولا العُلا وطِلابُها ... لعزَّ على مثواىَ أنِّى خارجُه

وشاطِئه أنَّى تنوَّع حسنُه ... وخِضْرِمِهِ أنَّى تدفَّع مائجُه

سلامٌ على المَهْدِيَّتَيْنِ ففيهما ... أبٌ بِنْتُ عنه قاصرُ الخطو هادجه[٤]

وهو يقول لركب راجع من منزله آخر الليل بجمة جارة المهدية، وبغاله تضرب الأرض بحوافرها لثقل ما تحمله: لك الله أخبرنا وأمتعنا عن البلد الذى يتميز رجاله ببلج وجوههم وطلاقتها وبشرها، وحدثنا عن هذا الوطن الذى اضطرنا إلى تركه فى طلب العلا وعن شاطئه المتنوع الحسن وخضرمه أو بحره الذى تتدافع أمواجه. ويهدى المهدية وأختها (صبرة) سلامه، ففيهما أبوه الذى تركه واهن العظم قاصر الخطو يتهدج فى مشيه مرتعشا، وإنه ليمتلئ عليه برا وشفقة. ويقول حمودة بن عبد العزيز أحد رجالات الدولة الحسينية المتوفى سنة ١٢٠٢ هـ/١٧٨٨م متشوقا فى الغربة إلى أهله بتونس[٥]:

مللتُ دهرى وملَّتنى حوادثُهُ ... فبعدكم ليس لى فى العَيْشِ من أَرَبِ

لهفى على زَمَن لابل على سَكَنٍ ... عهدتُهمْ منتهى الآمالِ والطَّلبِ

كم ليلةٍ بعدهم قد بتُّ أُسْهَرُها ... أشابتِ الرأسَ منى وهْىَ لم تَشِبِ

كأنَّ أفلاكَها من طول ما انقلبتْ ... ألقتْ عَصَاها لِمَا لاقتْ من التعبِ

(١) الحلل السندسية ٢/٥٠٥ ومجملُ تاريخ الأدب التونسى ص ١٩٧.

(٢) تردى: تضرب الأرض بالحوافر. المشاحج: البغال

(٣) أبالجه جمع أبلج: الناضر وجهه بشرا.

(٤) الهادج: الماشى متثاقلا فى ضعف وارتعاش.

(٥) مجمل تاريخ الأدب التونسى ص ٢٥٨.

وهو يقول إنه ملَّ دهره وما تقلب فيه من أحداث السياسة حتى لم يعد له بعد أهله فى العيش من أرب. ويذكر أيام أن كان يقضى زمنه مع أهله وهم كل مناه من دنياه، وقد أصبح بعدهم يعيش مسهدا مفكرا فيما بلتْهُ به الليالى، ويتخيل كأن أفلاكها من طول ما سارت ألقت عصاها واستراحت لا تبرح ولا تريم لشدة ما عانت من التعب والمشقة. وحرى بى فى ختام حديثى عن الغربة وتشوق القيروانيين والتونسيين فيها إلى ديارهم أن أشير إلى أنهم كثيرا ما تشوقوا إلى الديار التى بارحوها إلى وطنهم، ومن أهم الأقطار التى كانت تملأ نفوسهم بها صبابة بما تمتعوا به فيها وبمناظرها الطبيعية الفاتنة مصر، وكان الكاتب الرقيق الذى مرت ترجمته كثيرا ما يكلفه حكام الدولة الصنهاجية بسفارات إليها، وله رائية يتشوق فيها إليها وإلى ساكنيها أشاد بها ياقوت فى ترجمته، وأهم منها قصيدة لأبى الفضل يوسف بن محمد المعروف باسم ابن النحوى، وكان قد حج، وفى رجوعه افتتن بمصر وبنيلها وطبيعتها فنظم تلك القصيدة يصور تشوقه إلى ديارها ومشاهدها الفاتنة وفيها يقول[١]:

حَدِّثانى عن نيلِ مصرَ فإنى ... منذ فارقتهُ إلى الماء صَادِى
والرياضِ التى على جانبيه ... واجعلاه من الأحاديث زادى
إن مصرًا لها معانٍ لعمرى ... قد تأبَّت على جميع البِلاد
هذه الأرضُ إنما هى نادٍ ... مصرُ من بينها سِراجُ النادى

وهو منذ فارق مصر ونيلها الكوثر - كما يقول شوقى - ظامىء إلى جرعة ماء منها، وقد خلبته رياضها وورودها ورياحينها، ويقول إن مصر حظيت بمعان ومشاهد لم تحظ بها سائر البلاد، ويتصور المعمورة جميعها ناديا ومصر سراج النادى. وهى تحية كريمة لمصر من تونسى يوثق العلاقة بين الشعبين من قديم.

وتكثر الشكوى على ألسنة القيروانيين والتونسيين، مثلهم فى ذلك مثل لِداتهم من شعراء الأقاليم العربية، فهم يشكون مثلهم من الدهر وما يصيبهم من بلائه وأرزائه، ويشكون من الإخوان أنانيتهم وعدم وفائهم، ومن طريف شكواهم من الدهر وصروفه ونوائبه قول إبراهيم الحصرى صاحب «زهر الآداب» وغيره من التآليف الرائعة والتصانيف الفائقة كما يقول ابن[٢] بسام:

تلاحظنى صُروفُ الدَّهْر شزْرَا ... كأنَّ علىَّ للأيام وِتْرَا
وفى عينى دموعٌ ليس تَرْقَا[٣] ... وفى قلبى صُدوعٌ ليس تَبْرَا

---

(١) الخريدة (قسم شعراء المغرب - طبع تونس) ٣٢٥/١.
(٢) الذخيرة القسم الرابع ص٥٩٤
(٣) رقأ الدمع: جفَّ بعد جريانه.

أقلِّبُ فى الدُّجَى طَرْفًا كليلا ... إذا جَيْبُ الظلام علىَّ زُرَّا
ولو نُشِر الذى أُطْوَى عليهِ ... على من تحتويه الأرضُ طُرًّا
أصمَّ مسامعَ الدنيا عويلا ... وهزَّ جوانحَ الأيام ذُعْرا

وهو يشكو شكوى مرة من صروف الدهر وكيف أنها تنظر إليه غاضبة كأن لها عنده ثأرا وما تزال النوائب تنزل به وما تزال دموعه لا تجفّ أبدا، وقد تصدَّع قلبه، ولا يبرأ من صدوعه أبدا، وأفٍّ لليل، فإنه لا يزال مسهدا فيه كلما زُرَّ عليه رداء الظلام، ويقول إن ما يطوى عليه من الهموم لو وزع على جميع من تحتويهم الأرض من الأنام لأصموا مسامع الدنيا عويلا وأنينًا ولهزّوا ضلوع الأيام ذعرا وفزعا ما بعده فزع. ويقول تميم بن المعز شاكيا من الزمان وأرزائه[1]:

وذى عجبٍ من طول صَبْرى على الذى ... ألاقى من الأَرْزاء وهْوَ جليلُ
يقولون ما تشكو فقلتُ متى شَكَا ... شَبَا السَّيْف عَضْبُ الشَّفْرتين صَقيلُ[2]
وإن امرءًا يَشْكو إلى غير نافعٍ ... ويَسْخُو بما فى نفسه لجهولُ
عَذابىَ أن أشكو إلى الناس أننى ... عليلٌ ومَنْ أَشْكو إليه عليلُ

وهو يقول إن الناس يتعجبون من طول صبرى على ما يصيبنى من الرزايا والمصائب العظيمة، ويسألوننى مِمَّ تشكو، وأجبتهم هل يشكو حد السيف القاطع، ولمن أشكو؟ إن من يشكو إلى من لا يستطيع نفعه ويُسِرّ إليه بما فى نفسه دون فائدة لجهول بالناس وحقائقهم، وإنه ليعذبنى أن أشكو إلى الناس أننى عليل ومَنْ أشكو إليه مثلى عليل ويقول ابن خلدون فى شكوى الزمان[3]:

إلى مَ مقامى حيث لم تُرِدِ العُلا ... مُرَادى ولم تُعْطِ القيادَ ذلولُ
ويذهبُ لى ما بين يأسٍ ومطمعٍ ... زمانٌ بِنَيْل المَعْلُواتِ بخيلُ[4]
أمَا لِلَّيالى أن تَرُدَّ خطوبها ... ففى كبدى من وَقْعِهِنَّ فُلولُ
يروعنى عن صرفها كلُّ حادثٍ ... تكاد له صُمُّ الصِّلاد تزولُ[5]

وحتى ابن خلدون يشكو من أن العلا لا تعطيه ما يريد وأنه لا يجد فى دنياه ذلولا تعطيه القيادة، ولا يزال بين يأس وطمع أو أمل، والزمان بخيل عليه بنيل المعالى، ويقول أما آن لليالى

(١) المجمل فى تاريخ الأدب التونسى ص ١٦٩.
(٢) شبا السيف: حدّ طرفه. عضب: قاطع.
(٣) نفس المصدر ص ٢١٨.
(٤) المعلوات: المعالى.
(٥) الصلاد جمع صلد: الصخرة الصلبة.

أن تردّ خطوبها وكوارثها عنه وإن فلولها وشررها ليتضحان فى كبده، وإن كثيرا من الأحداث لينزل به مما تكاد يتشقق له الصخر الصلب. ويقول ابن سعيد الحَجْرىّ فى العهد الحسينى المتوفى سنة ١٧٨٥ للميلاد[١]:

يطول علىَّ الليلُ حتى كأنما ... ليالىَّ من فَرْط الجَوَى ليلةُ الحَشْرِ
ويُزعجنى الإصباحُ حتى كأنما ... نهارىَ سيفٌ سُلَّ من حيث لا أَدْرِى
خليلىَّ إن الدهر أبدى إساءتى ... وأظهرَ ما قد كان أَضْمَرَ من مكْرِ
وما ضرَّ مثلى أن تلظَّى بنارِه ... وهل ضرَّ إبريزًا تلظِّيه بالجَمْرِ

فليله يطول عليه من فرط الوجد حتى كأنه ليلة الحشر، ويزعجه الصباح حتى كأنما سيف نهاره سُلَّ عليه من حيث لا يدرى. ويخاطب صاحبيه، فالدهر قد أظهر ما كان يضمر من مكر وأساء إليه إساءة بالغة، ويتماسك، ويجمع إرادته، ويعلن أنه لن يضره التلظى بناره، وهل يضر الذهب الخالص التلظى بالجمر ولهيبه؟!

وعلى نحو ما أكثر القيروانيون والتونسيون من الشكوى سواء من الدهر أو من الناس أكثروا من العتاب وما قد يجر إليه من الاستعطاف، وهما بابان قديمان فى الشعر العربى، ومن طريف ما للقزاز من عتاب لأحد أصدقائه وكان قد أولم وليمة فى ختان لابنه وابن أخيه ولم يَدْعه سهْوًا[٢]:

واحسْرتا مات أَتْرابى وأقرانى ... وشَتَّت الدهرُ أصحابى وأَخْدانى
وغيَّرتْ غِيَرُ الأيام خالِصَتى ... والمنتضى الحرَّ من أهلى وإخوانى
وصار مَنْ كنت فى السَّراء أذكرهُ ... بل لست أنساه فى الضَّرَّاء ينسانى

وهو يتحسر على أصدقائه جميعا، إذ غيَّرت الحوادث أخلصهم وأصفاهم وأعزهم، وصار من كان يذكره فى السراء ولا ينساه فى الضرَّاء ينساه كأن لم يكن بينهم ودّ ولا صداقة. ومن طريف ما نقرؤه من عتاب فى عصر الدولة الصنهاجية عتاب خديجة بنت أحمد بن كلثوم المعافرى لأخيها، وكانت شاعرة مجيدة وأعجبت بشاعر أندلسى نزل بديارها، وشبَّب بها، فغار لذلك إخوتها فكتبت إلى كبيرهم[٣]:

أأخى الكبيرَ وسيدى ورئيسى ... ما بالُ حظِّى منك حظُّ نَحِيسِ

---

(١) المجمل فى تاريخ الأدب التونسى ص٢٥٦.
(٢) الأنموذج ص ٣٦٨.
(٣) الأنموذج ص ١٢٤ والخريدة ٣٢٧/١.

أبغى رضاك بطاعةٍ مقرونةٍ عندى بطاعة ربِّىَ القُدُّوسِ
فإذا زَلَلْتُ وجدت حلمك ضيِّقا عن زَلَّتى أبدًا لِفَرْط نُحوسى
يا سَيِّدى ما هكذا حُكْمُ النُّهَى حقُّ الرئيس الرفقُ بالمرءوسِ
وإذا رضيتَ لِىَ الهوانَ رضيتُه وجعلتُ ثوبَ الذل خير لَبوسِ

وخديجة تعاتب أخاها عتابا رقيقا فهو أخوها وسيدها ورئيسها وتشكو من حظها السيىء معه، مع أنها تبغى رضاه وتطيعه طاعتها لربها القدوس، فإذا ودَّت شاعرا وجدت حلمه لا يسع ودّها ولايغفرهُ لها لفرط نحوسها، وتستعطفه فليس هذا حكم العقل ولا حق المرءوس على الرئيس من الرفق، وتحاول أن تميل قلبه إليها، فإذا كان قد رضى لها الهوان رضيته ولم تخلع عنها ثوب الذل يوما. والقطعة رقيقة منتهى الرقة. وخديجة بجانب زينب التيجانية الشاعرة التى مر ذكرها فى الحديث عن الغزل رمزان قويان لمشاركة نساء القيروان وتونس فى الحركة الأدبية بالعصور الماضية. ويقول ابن رشيق معاتبا[1]:

أجِدَّك لم أجد للصبر بابًا فتدخله على سعةٍ وضيقِ
وإن أصْبِرْ فعن إفراط جُهْدٍ وإن أَقْلَقْ فحسْبُك من قَلوقِ
سأُعْرِض عنك إعراضا جميلا وأُبْدى صفحةَ الوجه الطَّليقِ
ولا ألقاك إلا عن تلاقٍ بعيدِ العهد بالذكرى سَحيقِ

فقد أعنته صديقه حتى لم يعد يجد للصبر بابا، ومع ذلك إن استطاع يوما الصبر فعن فرط جهد، وحرى به أن يقلق أشد القلق، ويقول له سأعرض عنك إعراضا جميلا، وسألقاك بوجه بشوش حين يتصادف اللقاء، وقد بَعُد العهد بالذكرى بعدا شديدا. ويقول على الحُصْرى معاتبا بعض خلّانه[2]:

بَرِمتُ بما ألقاه ممن أوامقُ وأوذيتُ حتى لاأرى من أُصادقُ[3]
إذا ما امرؤٌ أصفيتُه الودَّ واثقا بِخَلَّته لم تَصْفُ منه الخلائقُ[4]
فيا ليتَ شعرى هل إلى الناس كلهم أنا مذنبٌ أم ليس فيهم موافقُ
فلا أنا مسرورٌ بمن هو واصلى حِذارا ولا آسَى على من أفارق
وإنى لمن يَبْغى انتقاصِى لقامعٌ وإنى لمن يبغى وِدادى لوامقُ

---

(١) الأنموذج ص ٤٤١.
(٢) المجمل فى تاريخ الأدب التونسى ص١٦٠.
(٣) أوامق: أتبادل معه الود.
(٤) خلته: صداقته.

وعلى الحصرى متبرم بأصدقائه لما يلقى من أذاهم، وقد يظن بشخص خيرا فيصفيه الود لما رأى من بعض صفاته، حتى إذا اختبره وجد أخلاقه كدرة غير صافية، ويعجب هل أساء إلى الناس جميعا حتى لا يجد بينهم صديقا موافقا، وجعله ذلك لا يُسَرّ بمن يحاول صداقته ولا يأسى على من ينقضها نقضا، ويعود فيقول إنه يقمع ويقهر كل من يحاول انتقاصه، وأما من يمد له يد الوداد فإنه يصبح وامقا له ومحبا. ويلقانا عتاب عنيف بين وزير المستنصر الحفصى محمد بن أبى الحسين وشيخ قبيلة سليم: عنان بن جابر، وسنخصه بكلمة، ويرسل شاعر العصر الحسينى الأول على الغراب الصفاقسى بمقطوعة شعرية لمحمد بن كمون يعاتبه لإبطائه فى كتابة عقد له[1]:

يـا أبـا عبـد اللّهِ حَتَّامَ أسعى ... لَـكَ فيما أرومُ شهـرا فشهـرًا
هل لهذا الوقوفِ منك وجرْيِى ... غايةٌ ينتهى لها الجَرْىُ أُخْرَى
ما أرى فى قضاءِ ما رُمْتَ عُسْرا ... ولئن كـان، إن للعُسْـر يُسْـرَا
ليت شعـرى أفِى وقوفـك هذا ... طولَ جَرْىٍ تروم أم رُمْتَ أجرا

وهو يعتب على الكمونى أنه دائم السعى له والإلحاح عليه لا يوما بعد يوم بل شهرًا بعد شهر ليكتب له العقد، والكمونى يسوِّف ويماطل، ويقول له ليس فيما أريده عسْر، وإن كان فإن للعسر يسرا، ويسأله هل تريد منى طول جرى لمزيد من الإلحاح أو تريد منى مزيدًا من الأجر. وحرى بنا الآن أن نتوقف لنخص شاعر الغربة ابن عبدون بكلمة، وبالمثل شاعر العتاب الغاضب: ابن أبى الحسين.

ابن[2] عبدون

هو محمد بن عبدون الوراق من أهل مدينة سوسة على ساحل البحر، وينوِّه ابن رشيق بشعره قائلا إنه «شاعر وطىء الكلام، كلف بعذوبة اللفظ والتسلّل إلى المعنى البعيد بلطافة وسكون جأش». وحدث أن توفيت زوجته وابنه فى آن واحد، ففارق بلدته «سوسة» فى سنة ٣٩٣ للهجرة ورحل إلى جزيرة صقلية ونزل على أميرها ثقة الدولة يوسف بن عبد الله ومدحه، وكان قد أناب عنه فى الحكم ابنه جعفرًا منذ سنة ٣٨٨ لإصابته بالفالج، فألحقه بابنه، فأدناه وقربه، غير أنه سرعان ما حنَّ إلى بلده، فرفع إلى جعفر قصيدة يسأله فيها الرجوع إلى وطنه، وصوَّر مدى رغبته فى ذلك من خلال تشوقه إلى رؤية قصر طارق وكان رِباطا بقرب سوسة، له

---

(١) الديوان ص ٣١٠.

(٢) انظر فى ترجمة ابن عبدون الأنموذج ص٣٩٠ والحلل السندسية ٣٠٧/٢ والمجمل فى تاريخ الأدب التونسى ص١٠٨.

برج شديد العلو، ويصور حنينا متأججا فى صدره إلى سكانه قائلا:

يا قَصْرَ طارِقٍ الذى طرقتْ أَحَشْاىَ فيه بلابلُ الصَّدْرِ
واللهِ ما قصَّرتُ عن تلفٍ لكننى قصَّرتُ بِالْقَسْرِ
فسقاك مُنْهَلُّ الحيا وسَقَى عَصْرًا تقضَّى فيك من عصر
أُعْطى عهودَ الله صَفْقَةَ مَنْ أُعْطى العهودَ بجانب الحِجْرِ
لو أستطيع سَبَحْتُ من طربٍ شوقا إليك سوادَ ذا البحر

وهو يهتف بقصر طارق المجاور لمدينته سوسة وما يثير فى صدره من شجون، ويقول إنه لم يُقصِّر إزاءه عن تلف وإنما قَصَّر قَسْرًا وجبرا، ويدعو له ولأيامه الخوالى فيه بالسقيا، ويعاهده عهد حجاج بيت الله الحرام عند الحجر أو الحطيم بجانب الكعبة المقدسةأنه لو استطاع لسبح إليه سواد البحر المتلاطم بين صقلية سوسة. ويقول ابن رشيق تعليقا على هذه المقطوعة: «رقة الشوق ظاهرة على هذا الشعر ولطف الحضارة مع مياه تكاد تنبع من جانبه، فهو أندى من الزهر، غبَّ القطر، وأحلى من الوصل بعد الهجر». ولما سمع جعفر بن ثقة الدولة هذه الأبيات ازداد به إعجابا وفيه ضنانة، فمنعه من السفر، فكتب ابن عبدون إلى أبيه ثقة الدولة يسأله فيما سأل فيه ولده، ويشكر لما ناله لديهما من الجود، ويتشوق إلى وطنه مجسدًا شوقه فى قصر طارق قائلا:

يا قصرَ طارقَ همِّى فيك مقصورُ شوقى طليقٌ وخَطْوى عنك مأسورُ
إن نام جارُك إنى ساهرٌ أبدًا أبكى عليك وباكى البَيْن معذورُ
عندى من الوَجْدِ ما لو فاض من كبدى إليك لاحترقتْ من حولك الدُّورُ
لا هُمَّ إنَّ الجَوَى والوجد قد غلبا صَبْرى فكلُّ اصطبارى فيهما زورُ

وهو يبث قصر طارق همه ويقول له إن شوقى لك حر طليق وخطوى إليك مقيد مأسور، وإن نام جارك نوما هنيئا فإنى أتجرع سهرًا مريرًا أبكى فيه عليك بكاء لا ينقطع. ويذكر أن فى كبده من لواعج الوجد ولهيبه ما لو فاض على ما حول القصر من الدور لاحترقت جميعا، ويفزع إلى ربه فإن ما يحمل من الجوى والوجد الملتاع قد غلبا صبره، ولم يعد يستطيع احتمالاً لهما. ومضى فى القصيدة يمدح ثقة الدولة.ولم يجد عنده - كما لم يجد عند ابنه جعفر - مأموله، فاضطر إلى أن يخرج من صقلية خفية دون علمهما. وعاد إلى سوسة، وبها توفى حوالى سنة ٤٠٠ هـ/١٠١٠م. وينشد له ابن رشيق مقطوعة بديعة فى ملعب سوسة الرومانى وفيها يتحدث عمن شادوه وملكهم وجيوشهم، ويقول إن الأرض ضمتهم جميعًا:

طحنتْهم طَحْنَ الرَّحا فإذا الإنـ ـسانُ والدهرُ صخرةٌ وزجاجُ

فالناس جميعا يطحنون طحن الرحا، بل لكأن الدهر صخرة، وهو يطحنهم بل يفتتهم كأنهم زجاج لا يعاد له سبك.

محمد[1] بن أبي الحسين

هو أبو عبد الله محمد بن أبي الحسين العنسي كان أحد الرجالات دهاء وذكاء، وقربه منه أبو زكريا مؤسس الدولة الحفصية وابنه المستنصر. حتى كان كبير رجالاتهم ووزرائهم، وكان متفننا فى ضروب العلوم ومتعمقا فى اللغة، وله معجم رتب فيه محكم ابن سيدة على نهج الصحاح للجوهرى بحسب أواخر الكلم، واختصره فى معجم سماه الخلاصة. وكان مع ذلك سيوسا يحسن تدبير الدولة الحفصية ويقود جيوشها فى المعارك الحربية، وما زال المستنصر حفيًّا به إلى أن توفى سنة ٦٧١هـ/١٢٧٣م. وكان شاعرًا مجيدًا. وكان أبو زكريا يقرِّب منه شيوخ القبائل ومن بينهم عنان بن جابر زعيم عشائر مرداس من قبيلة بنى سليم النازلين فى قابس، وكانت له مكانة كبيرة عند أبى زكريا وصلات وعوائد. ويبدو أنه ظن به وبعشائر المرداسية بعض الظنون فأوقع بينها وبين قبيلة علاق ونشبت بينهما معارك. وتنبَّه عنان بن جابر لصنيعه، فغضب غضبا شديدًا، ورحل مع عشائره إلى بنى هلال فى الجزائر أو المغرب الأوسط، وعرف أبو زكريا خطأه فسأل وزيره ابن أبى لح ن أن يكتب إليه مسترضيا، وكان مما تبادل معه ابن أبى الحسين قصيدتان رائيتان، وابن أبى الحسين فى قصيدته يعاتبه فى شىء من اللين حينا وفى شىء من الجفاء حينا آخر، لعله يعود إلى صوابه ويرجع إلى موطنه، وله يقول مستطردًا من التشبيب إلى عتابه عتابا رفيقا:

فــدونـكمُ يــا لــلرِّجـال تحيَّـةً يُخَصّ بها عنىَّ عِنانُ بنُ جـابرِ
فتىً مـا دعتْـه زلَّـةٌ فـأجـابهـا فكيف طَوَى كَشْحًا على نفس غادرِ[2]
وقد كان بينى - يا عِنانُ - وبينكم بـواطنُ صُنَّاهـا بحِفْظ الـظواهـرِ
وفى كل عامٍ كان للجيش وقعةٌ نجـرُّ بها أذيـالَنا جـرَّ سـادرِ[3]
تـظلِّلنـا الـرايـاتُ وهى خـوافقٌ على كلِّ رِئْبالٍ بِخَفَّانَ خـادرِ[4]

---

(١) انظر فى ترجمة محمد بن أبى الحسين القسم الثالث من كتاب ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية ص٧٥ وكذلك كتاب المجمل فى تاريخ الأدب التونسى ص١٩٩ ومنها نقتطف بعض أشعار ابن أبى الحسين.

(٢) طوى كشحا: أضمر نية.

(٣) سادر: لايبالى بشىء.

(٤) الرئبال: الأسد والشجاع الجرىء. خفان: مأسدة. خادر: مقيم.

وهو يخص عنان بن جابر بتحية يستحقها. إذ هو فتى عزيز شريف لم يستجب يوما إلى أى زلة تدعوه، ويعجب إذن كيف ولَّى مغاضبا مطويا على الغدر بدولته، ويحاول أن يجذبه إليه، بما كان بينهما من صداقة ومن اشتراك فى حرب أعداء الدولة سنويا جارِّين أذيال الخيلاء بانتصاراتهم غير مبالين بشىء، والرايات تظلِّل متحركة أبطال جيشهم بل ليوثه التى اندفعت من مأسدة خفَّان المقيمة بها تريد أن تلتهم الأعداء التهاما، ويمضى ابن أبى الحسين معاتبًا لعنان:

أذكِّـرك العَهْدَ الـذى كان بيننـا ... وإن كنتَ عنه ساليا غيرَ ذاكرِ
وكنتَ تُجير الناس فى خَيْر دولةٍ ... فأصبحتَ جارا فى هلال بنِ عامرِ
وكنتَ كلَيْثِ الغـاب عزًّا ومَنْعَـةً ... فصرتَ كأمثال الرِّئالِ النَّوافـرِ[1]
وكنتَ نزيل المُلْك تجنى ثمـارهُ ... أفـانينَ من أَفْنان ريَّـانَ نـاضـرِ
وقد كُنْتَ تَلْقَى العزَّ تحت ظلاله ... فها أنتَ تَلْقَى الذلَّ تحت الهواجرِ

وهو يذكره بما كان بينه وبين رجال الدولة الحفصية من عهد وميثاق، وكأنه نسيها نسيانًا تاما، ويقرن حال العز القديمة لجابر بما صار إليه، فقد كان يجير الناس وأصبحت قبيلة هلال تجيره، وكان كالأسد عزا ومنعة فصار مثل النعام المتناثر فى البوادى وكان يجنى ألوانا من ثمار ملك وطيد ناضر، وكأنما يحاول أن يؤنبه، فيقول له إنك طالما تمتعت بالعز فى ظلال الملك الحفصى وها أنت تصطلى بالذل فى هواجر المغرب الأوسط. ويعود إلى اللين مع عنان فيقول:

عزيزٌ علينا - يا عِنانُ - ضَلالةٌ ... حدتْ بك لا تَلْوِى على زَجْرِ زاجرِ
فديتُك لا تَشْرِ الضَّلالةَ بالهُـدَى ... فديتُك لا تَشْرِ العَمى بالبصـائرِ
وما العَرَبُ العَـرْباءُ إلا بعهـدها ... فمن كان أَوْفَى كان أولَ فاخرِ
هَدَتْكَ الهَوادِى - يا عنانُ - وأَمْطَرتْ ... ذَراك الغَوادى بين بادٍ وحاضر[2]

وهو يتلطف له ذاكرًا أن هجرته بعشائره كانت ضلالة لم يستمع فيها إلى نصح ناصح ولا إلى زجر زاجر، ويفدِّيه بنفسه أن لا يشترى الضلالة بالهدى ولا العمى بالبصر وأن يتبع سنن آبائه بالوفاء بالعهد. ويدعو الله له أن يهديه وأن تمطر السحب الغادية أكناف دياره بادية وحاضرة. وقد رد عنان بن جابر عليه عنيفًا بقصيدة تُعَدّ من درر الشعر التونسى، وفيها يذكر أنه لم يبرح موطنه إلا بعد أن ضاقت به الأرض كحلقة خاتم، وبعد أن تبين من أبى زكريا حالا، لا يطيق احتمالها، فهاجر إلى بلد من بلدان بنى هلال بن عامر لا يعرف أهلها الذل، ويذكر أنه إنما غادر

---

(١) الرئال: النعام.

(٢) هدتك الهوادى: يدعو له بالهدى. الغوادى: السحب. الذرا: الكنف والحمى.

موطنه صيانة لنفسه ولقومه من الأذى، ويفتخر بأنه ما من أحد من قومه إلا نال عزا ورفعة ويتحدّى من يعاديهم، إذ يطئون أرضه بحوافر خيلهم ويقضون عليه قضاء مبرما. والقصيدة على لسان هذا البدوى عنان بن جابر السلمى تُعَدّ أحد البراهين القوية - كما مرَّ بنا - على خطأ ابن خلدون فيما زعمه من أن أعراب بنى سليم وهلال زايلت ألسنتهم الفصحى فى أرجاء الإقليم التونسى منذ القرن السابع الهجرى بل ربما قبله بفترة غير قليلة.

٢

شعراء الطبيعة

من قديم يتغنى الشاعر العربى بالطبيعة، ومعروف أن الشاعر الجاهلى لم يترك فى بيئته الصحراوية زهرة ولا شجرة ولا سحابا ولا نجما ولا طائرا ولا حيوانا أليفا ولا وحشيا إلا تغنى به واصفا لجماله أو لسرعته أو لقوته، وتبعه الشعراء فى العصور التالية يصفون الرياض والأنهار وما أودع على ضفافها من جمال، كما يصفون الحيوانات والطير من كل نوع، ويصف إبراهيم الحصرى صاحب زهر الآداب الياسمين قبيل تفتحه قائلا[١]:

لقد راعَ رأسُ الياسمينِ منوِّرًا ... كأقراط دُرٍّ قُمِّعَتْ بعَقِيقِ[٢]
يميلُ على ضعف الغصونِ كأنما ... له حالتا ذى غَشْيَةٍ ومُفيق
إذا الريحُ أدنته إلى الأرض خِلْتَهُ ... نسيمَ جَنُوبٍ ضُمِّختْ بخَلوقِ[٣]

فالياسمين وهو يوشك على التفتح وقد انبثقت فى أعلاه زهرة حمراء يروعك منظره، وكأنه أقراط ذهبية خُضِبَتْ بعقيق أو ياقوت، ومنه ما يميل منحنيا لضعف غصونه، ومنه ما يظل ثابتا فى وقوفه، وكأنما له حالتا مغشىّ عليه ومفيق، وإذا مر به النسيم ظننته تعطر بخلوق أو طيب ذكى الرائحة. ويقول إبراهيم بن غانم الكاتب القيروانى واصفا النيل[٤] وكان قد أقام بمصر فترة وعاد إلى القيروان وتوفى بها سنة ٤٢١هـ/١٠٣٠م.

النيلُ بين الجانبين كأنما ... صُبَّتْ بصفحته صفيحةُ صَيْقَلِ
يأتيك من كَدَرِ الزَّواخر مَدُّهُ ... بممسَّك من مائهِ ومُصَنْدَلِ[٥]

---

(١) المجمل فى تاريخ الأدب التونسى ص ١١٩.
(٢) العقيق: حجر كريم أحمر.
(٣) ضمح: لطّخ. خلوق: ضرب من الطيب.
(٤) الأنموذج ص ٥٠.
(٥) ممسك: مطيب بطيب المسك. مصندل: مطيب بطيب الصندل.

وكأنَّ ضوءَ البدر في تمويجـهِ   برقٌ تموَّج في سحابٍ مُسْبَلِ
وكأن نورَ السُّرْجِ في جنباتِـه   زُهْرُ الكواكب تحت ليلٍ أَلْيَلِ[١]

وهو يصور النيل بين شاطئيه كأنه سيف حدَّاد بالغ فى جلائه لشدة لمعانه، ويقول إن فيضانه يأتيك بلون كدر كأنه اختلط بمسك أو بشجر الصندل الأحمر، يشير بذلك إلى ما كان يختلط به فى فيضانه من الطمى المائل إلى الحمرة، وكأن ضوء البدر على صفحة أمواجه برق يموج فى سحاب يهطل مدرارًا، وكأن نور المصابيح فى جنباته كواكب مشرقة لامعة فى ليل شديد الظلام.

ويقول عبد العزيز بن خلوف المتوفى حوالى سنة ٤٣٠هـ/١٠٣٩م فى وصف سحابة[٢]:

مرتجَّةُ الأرجـاء يَحْبِسُ سَيْرَهـا   ثِقَـلٌ فتعطيـهِ الريـاحُ سَـراحـا
أخفى مسالكها الظَّلامُ فأوقـدتْ   من بَرْقها - كى تهتدى - مِصْباحا
وكأنَّ صوتَ الرَّعْد خلفَ سحابها   حادٍ إذا وَنَتِ الركائبُ صاحـا

وهو يقول إنها سحابة مثقلة بمطر غزير، وكأن ثقل ما تحمله يحبس سيرها، وتطلقه الرياح، فتسير وئيدة فى ليلة داجية وكأن الظلام أخفى مسالكها، فأوقدت من برقها مصباحا كى تهتدى به فى سيرها، ويتصور كأن صوت الرعد فيها حادٍ خلفها إذا توانت الركائب وتباطأت صاح بها كى تمضى فى سيرها مسرعة. وكان يعاصر هذا الشاعر ابن أبى حديدة وكان يعنى بوصفه للسحب والنجوم، وسنخصه بكلمة. ومعروف أن البحر المتوسط يمتد طويلا على شواطىء الإقليم التونسى شرقيه وشماليه من قابس إلى بنزرت، فكان طبيعيًا أن يتعرض الشعراء فى ثغوره المختلفة لوصفه، من مثل الشاعر أبى الحسين الكاتب، وكان حسن البصر بصناعة الشعر- كما يقول ابن رشيق - سالكا لجميع شعابها، داخلاً من جميع أبوابها متقنا لها فى لطافة وحلاوة، وقد توفى سنة ٤٠٨هـ/١٠١٨م وفى البحر يقول[٣]:

انْـظُرْ إلى البحـر وأمـواجـهِ   فقــد عــلاهــا زَبــدٌ متَّسِقْ
تخــالُهــا العينُ إذا أقبـلتْ   خَيْلًا بدتْ فى حَلْبَةٍ تستبقْ
حُمْـرًا ودُهْمًا فـإذا ما دنتْ   من شاطئ البحر علاها بَلَقْ
ظـهـورهــا درٌّ وأَكْـفَــالُـهــا   ألبسها الجرىُ صَبيبَ العَرَقْ

وهو يصور أمواج البحر حين تعانق رمال الشاطئ وما يعلوها من زبد، ويخالها خيلا تستبق

---

(١) ليل أليل: ليل شديد الظلام.
(٢) المجمل فى تاريخ الأدب التونسى ص١٣٣.
(٣) الأنموذج ص٣٦٣.

فى حلبة، ويراها حين تعانق الرمال يعلوها لونان أسود منها وأبيض من الزبد مما يجعلها بلقاء فى مرأى العين، وكأنما الرمال تحيلها درا سائلا بينها أواخرها يتصبب عرقا أو زبدا. وكان على بن حبيب التنوخى شاعرًا عذب اللفظ – كما يقول ابن رشيق – لطيف المعنى قليل التكلف، وقد توفى حوالى سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٩م وله فى تصوير المد والجزر عند صفاقس[١]:

بلدٌ يكاد يقول حيـ ... ـن تزوره أهلا وسَهْلا
وكأنه والبَحْرُ يَحْـ ... ـسِرُ تارةً عنه ويَمْلا
صَبٌّ يُريد زيارةً ... فإذا رأى الرُّقباءَ ولَّى

وهو تعليل طريف للمد والجزر أمام صفاقس التى ترحب دائما بضيوفها، وكأنما أمواج البحر، حين تمتد أمامها وتقترب منها وسرعان ما تتراجع، عاشقٌ يريد زيارتها، ويرى الرقباء فيولّى راجعا من حيث أتى.

ونلتقى بأبى زكريا مؤسس الدولة الحفصية، وكان شاعرًا مجيدًا وناقدًا بصيرًا بالشعر، وله أشعار مختلفة فى الحماسة ووصف آلات الحرب وغير ذلك، ومن شعره يصف حديقة ونهرها وأزهارها من الرياض التى أنشأها قرب عاصمته تونس باسم أبى فهر[٢]:

وسال نميرُ الماء بين اخضرارها ... فجاءَ كمثل الفَرْق بين الذَّوائبِ
وإلا كما شقَّ الكَنَهْوَرَ بارقٌ ... وإلا كمثل الصُّبح بين الغياهبِ[٣]
وللنَّرْجِسِ النَّضْرِ اصفرارٌ تخالُه ... كشمسِ أصيلٍ بين بيض السحائبِ
وللياسمين الغَضِّ فى خُضْرِ بُسْطِها ... نَثائِرُ درٍّ أو سبائكُ ساكبِ
معطرةُ الأرْدانِ يَفْغَمُ نَفْحُها ... يحيِّيك عَرْف الطِّيب من كل جانب[٤]

فماؤها العذب ينساب بين خُضْرتها المائلة إلى السواد وكأنه فَرْق شعر فى أعلى ضفائر أو كأنه برق فى كنهور أو سحاب متراكم أو كأنه ضوء صبح يشق غياهب الليل وظلماته. ويقول إن النرجس النضر المصفر يتهدل بين الأزهار البيضاء كشمس أصيل تنسدل على الطبيعة من خلال سحب بيضاء، وزهر الياسمين يتناثر على بسطها وكأنه نثار درٍّ أو سبائك صانع حاذق، والحديقة جميعها معطرة الجوانب، ونفحها يحمل أفاويه ذكية، ويحيِّيك شذا طيبها من كل منعطف وركن. ويستمر أبو زكريا فى مثل هذا الوصف بقصيدته. وممن وصف جنات «تَوْزر» وحدائقها شاعرها

---

(١) الأنموذج ص٢٨١ والحلل السندسية ٢/٣٢٦.
(٢) المجمل فى تاريخ الأدب التونسى ص١٨٩.
(٣) الكنهور: قطع السحاب الضخمة.
(٤) الأردان: الأكمام يريد أكمام الزهر. يفغم نفحها: تملأ المكان بأفاويه الطيب. عرف: شذا ورائحة.

أبو على بن إبراهيم، وسنفرده بكلمة. وبالقرب من تَوْزر شطّ الجريد وبه سَبخة إذا حاد سالكها عن طريقه غاص فى رمالها ولم يُرَ له أثر، وتسمَّى التاكمرت وماؤها ملح أجاج، وهواؤها شديد الحرارة ملىء بالرمال العاصفة، وقد وصفها ابن حُسينة المتوفى حوالى سنة ٧٤٠هـ/١٣٤٠م قائلا[١]:

قطعنا التاكَمُرْتَ سُرًى وسِرْنا ... صبيحة يومنا حتى الزَّوَال
فلا تسألْ لما قاسيتُ فيه ... من الأهوال والكُرَب الثِّقالِ
فليْلٌ لاتسير به نجومٌ ... كأنْ نِيطتْ إلى بَعْض الجبال
وأرياحٌ تَصُمُّ الأذْنَ منها ... تهبُّ عن اليمين مع الشمال
تصدُّ عن الطريق القَصْدِ قَصْدِى ... وتضربُ حُرَّ وجهى بالرِّمالِ
ولا أسْطيع فَتْحَ العَيْنِ فيها ... لبعض الأمر إلا باحْتيال

يقول ابن حُسَيْنة إنه قطع التاكمرت فى ليلة وصبيحة يوم حتى الظهر وقد قاسى من الأهوال والكرب الثقيلة مايعزّ وصفه، فالليل طويل حتى كأنما علقت نجومه ببعض الجبال فهى لا تتحرك، والرياح تهب ذات اليمين وذات الشمال محملة برمال تصكّ الآذان ضاربة الوجوه بحصبائها وملقية ستارة كثيفة على الأعين حتى لا يمكن فتحها إلا بضروب من الاحتيال.
ويقول محمد الظريف المتوفى سنة ٧٨٧هـ/١٣٨٦م فى وصف روض[٢]:

الروضُ أصبحَ يُجْلَى فى غلائله ... وأنشدَ الطيرُ فوق الغصن وارْتَجَلا
وألْقت القُضْبُ من أوراقها بُسُطًا ... وأُلْبِس الرَّوْضُ من أنواره حُلَلا
وقبَّل الطَّلُّ خَدَّ الأرض فابتسمتْ ... أزهارُها فغدتْ تزهو بحسنِ حُلَى
والوردُ لما اعْتَلى من فوق وَجْنَته ... ماءُ الحياء بدا فى خدِّه خجَلا

فالروض يُجْلَى فى أجمل ثيابه البديعة، والطير يتغنى فوق الغصون، وألقت الأغصان على الثرى بسطا خضراء من أوراقها، ولبس الروض حللا من أنواره وأزهاره وقبَّل الطّل خدود الأغصان فابتسمت أزهارها وافتخرت بأجمل حلى، أما الورد فقد اعتلى فوق وجنته ماء الخفر، فبدت حمرة الخجل فى خدِّه، ويقول الأمير محمد الرشيد الحسينى فى وصف الربيع[٣]:

قَدِمَ الرَّبيعُ ووجْهُه يَتَهلَّلُ ... والطَّلُّ يَلْثَمُ خَدَّهُ ويقبِّلُ
فتدفقت أنهارُه وتفتّقتْ ... أزهارُه والدَّوح خُودٌ تَرْفُلُ

---

(١) الحلل السندسية ٢/٣٩٢.
(٢) المجمل فى تاريخ الأدب التونسى ص ٢١٦.
(٣) المجمل فى تاريخ الأدب التونسى ص ٢٣٨.

بقلائدٍ موشيَّةٍ بزبرجد   تيجانُها بيدِ الرَّذاذِ تكلَّلُ
والرَّعْدُ يضربُ بالطبول وبَرْقُها   كالشَّمع تُطْفيه الرياح فيُشْعَلُ

فالربيع وَفَد بوجهه المتهلل يعانق الطَّلَّ ويقبله مرارا وتكرارا، والأنهار تدفقت والأزهار تفتَّحتْ والأشجار تتبختر بقلائد مزينة بزبرجد، بينما يتوّجها المطر بالأزهار، وكأنما الرعد يضرب بطبول ابتهاجا بالربيع، وأمامه شموع البرق فرحة به، وكلما أطفأتها الرياح عادت أكثر اشتعالا وأوفر ضياء.

وإذا تركنا الطبيعة الصامتة إلى الطبيعة الحية وجدنا الشاعر التونسى يكثر – كما أكثر سلفه المشرقى من قديم – من وصف الحمام والديكة والفرس، وينشد ابن رشيق فيها جميعا أشعارا كثيرة، من ذلك ما أنشده لعنترة التميمى الذى كان مفتونا بالحمام الداجن، وفى صفات أحدها يقول(١):

وأَصْفرَ فاقعٍ لا عيب فيه   يفوت – إذا وَنَى – عَصْفَ الجنوبِ
كأن الشمسَ يوم الصَّحْوِ ألقت   عليه رداءَها عند الغروب
وتنظر شخصَه الألحاظُ عشقا   كما نظر المحبُّ إلى الحبيب

فهو أصفر فاقع لونه لا عيب فيه، يفوت الريح حين يطير حتى لتعجز عن مداه، وكأنما الشمس ألقت عليه رداء أصيلها الذهبى، وإنه ليفتن الأبصار حين تنظر إليه ويخلب لبها كما يخلب المحبوب لب محبِّه. ويقول ابن الغطاس فى وصف طائفة من الحمام(٢):

توسَّدْنَ مَطْوِيَّ الجناح كأنما   لهنَّ حشايا فوقه وَدَرانِكُ(٣)
ومِلْنَ على خُضْر الغُصونِ كأنما   لهنَّ على قُضْبِ الأراكِ أرائك(٤)
ولا شَدْوَ إلا ما تصوغ لحونُها   ولا دمع إلا من جفونىَ سافك

فقد اتخذن من أجنحتهن وسائد، وكأنها لهن كالحشايا والطنافس للإنسان، وقد اتخذن من غصون الأراك أرائك ومقاعد ينزلن عليها للراحة، وما أجمل شدوها وغناءها وما تصوغ منها من لحون تثير فيه الشجن، وإن دموعه لتنزل مدرارا. ويلتفت عبد الرازق بن على النحوى إلى قمرىٍّ من الحمام على غصن شجرة ينوح فيخاطبه قائلا(٥):

---

(١) الأنموذج ص ٣١٧.
(٢) الأنموذج ص ٢٣٤.
(٣) درانك: بسط وطنافس.
(٤) الأراك: شجر. أرائك: مقاعد.
(٥) الأنموذج ص١٥٦.

أقمريَّ أَيْكِ الجزع هل أنت جازع ... وهل لك إلفٌ نازحٌ عنك نازعُ
وفى لحنك المسجوع فى رَوْنق الضُّحى ... دليلُ أسىً لو أنَّ جفنك دامعُ
أثار كمينَ الشوق أنك صادحٌ ... وإن كان لايدرى مرادَك سامع
كأن نسيمًا للشَّمال وللصَّبا ... نَسيبُ الصِّبا طيبًا إذ الشَّمْلُ جامع
وإذْ ليس سِرٌ للمسرَّة ذائعٌ ... وليس ذِمامٌ بالمذمَّة ضائع

وهو يخاطب قمرى أيك الجزع متعجبا ومتسائلا إذ يراه ينوح هل هو جزع لايستطيع صبرا على فراق أليفته وصاحبته التى نزحت بعيدا عنه مثله، ويقول له إن فى نبرات صوتك أسى وحزنا عميقا وإن جفونه لاتريحه بدموع تخففه عنه، ويذكر أنه أثار فى نفسه بصراحة كوامن حبه ولواعجه، وإن كان أحد لايدرى مقصدك من نواحك فقد استعدت لى ذكرى محببة، حتى كأنما تهب علىَّ صَبًا كنسيب الصِّبا طيبا حين كان الشمل ملتئما بالمحبوبة، ونعيش فى سرور دائم وعهد وثيق.

وسنخص عبد الواحد بن فتوح المتغنى بالديكة والحمام بكلمة. وأكثر شعراء القيروان وتونس من وصف الخيل وخاصة الفرس، إذ كانت أمتها أمة حرب ونزال، ومن ذلك أن أبا الحسين الكاتب الذى مرت بنا مقطوعة له فى وصف أمواج البحر يصف فرسا أشقر له قائلا[(١)]:

لى فرسٌ قد حسنتْ حالُهُ ... واستكملَ الإعجابَ إكمالُهُ
أشقرُ كالتِّبْر جَلا لونَه ... عن مَحْضِه بالسَّبْك صَقَّالُه
كأنما البدرُ إذا ما بدا ... غُرَّتُه والشمسُ سِرْبالُه
كأنَّ فى حُلْقومِه جُلْجُلًا ... حرَّكه للسَّمْع تَصْهالُه

وهو فرس بلغ الغاية من الحسن حتى ليعجب به كل من يراه، فرس أشقر شُقْرة ناصعة، جلاه فيها صانعه أتمَّ جلاء، وكأنما البدر غرته البيضاء المشرقة وكأن الشمس رداؤه الذهبى الدرِّىّ، وكأن فى حلقومه جرسا ما يزال يرنُّ بصهيله، ومع هذه الأبيات أبيات أخرى بديعة، ويعلق عليها جميعا ابن رشيق بقوله: «هذا شعر جمع شذور الحسن واشتمل على فنون الملاحة، حتى خُلطت حقيقته بمجازه، وطُوى إسهابه فى إيجازه، واشتبه حَوْكُه بطرازه، ونهضت صدوره بأعجازه، وأما التجنيس والطباق، والمقابلة والاتفاق، فمن حلاه المشهورة، وصفاته المذكورة».

وكان الخليفة الفاطمى بالقاهرة: نزار رأى أن يرسل إلى المنصور بن بلكين الصنهاجى واليه

(١) الأنموذج ص ٣٦١.

على الإقليم التونسى وإفريقية سنة ٣٨٤ هدية سنية ومعها فيل وطائفة من الخيل وحمار مخطط بديع الشكل، فكان يخرج بها جميعا فى مواكبه، ومثله ابنه باديس، وحفيده المعز،ومنذ المنصور يتبارى الشعراء فى وصفها نافذين إلى تصاوير لها رائعة، من ذلك قول التونسى على بن يونس المتوفى سنة ٤١٠ فى قصيدة يمدح بها المنصور واصفا هدية نزار وما كان بها من الخيل والإبل والفيل[١]:

جُرْدٌ سَبَقْنَ البرقَ غيرَ حوافل ... وجَرَيْن أبعدَ شَأْوِهِ والأقربا
يَرْفُلْنَ فى حُلَلِ العراق وحَلْيِهِ ... زَهْوًا فتحسبُهنَّ روضا مُعْشِبا
ونجائبٍ مثل السَّفينِ تَرىَ لها ... تَحْتَ القِباب تَغَطْمُطًا وتغضبا[٢]
يحملن من زِىِّ الملوك هوادجًا ... مثل القصور مُفَضَّضًا ومذهَّبا
والفيلُ يَخْطِرُ بينها وكأنه ... وكأنَّها طودٌ أناف على رُبَى
شَرِسٌ إذا أحْفَظْتَه سهلٌ إذا ... لاطَفْتَه صعبٌ إذا ما صُوعِبا

وهو يقول عن الخيل إنها جُرْدٌ قصيرة الشعر، وهى صفة من صفات الخيل الكريمة، ويقول إنها تسبق البرق غير حافلة به وتجرى شوطيه الأبعد والأقرب، وإنها لتتبختر فى سروج مزركشة ولجم محلاة بالجواهر، حتى لكأنك تنظر منها إلى روض زاهٍ بأزهاره. ويصف الإبل بأنها كالسفن ضخامة، وإنك لترى لها تحت الهوادج هدير الغاضب وزمجرته، وإن هوادجها الضخمة لتزدان بفاخر الرياشِ المفضض والمذهب، والفيل يَخْطِرُ متهاديا بين تلك الإبل والخيل وكأنه جبل أشرف على رُبًى وتلال، ويصفه بأنه شرس إذا أغضبته، سهل إذا لاطفته صعبٌ إذا ما أثرته. وأهديت من السودان فى الجنوب زرافة إلى المعز بن باديس، فصورَّها شاعره ابن رشيق تصويرا بديعا فى قصيدة مديح له جاء فيها[٣]:

واتتْك من كَسْبِ الملوك زرافةٌ ... شَتَّى الصِّفات للونها أَثْناءُ[٤]
تحتثُّها بين الخوافقِ مِشْيةٌ ... بادٍ عليها الكبر والخُيَلاءُ
وتمدُّ جِيدًا فى الهواء يزينها ... فكأنَّه تحت اللواء لواءُ
حُطَّتْ مآخِرُها وأشرفَ صَدْرها ... حتى كأن وقوفها إقْعاءُ[٥]

وهو يقول للمعز أتتك زرافة ذات صفات شتى فى لونها انعطافات أو بقع كثيرة حمراء

---

(١) الأنموذج ص ٣٠٠.
(٢) تغطمطا:
(٣) المجمل فى تاريخ الأدب التونسى ص ١٤٦.
(٤) أثناء: يريد أنها ثنائية اللون.
(٥) الإقعاء: جلوس الرجل على مؤخرته ونصب ساقيه وفخذيه.

وصفراء ودكناء ويميزها بين الخوافق أى الخيل المسرعة مشية خاصة يبدو عليها فيها الكبر والخيلاء والعجب الشديد، كما يميزها جيد طويل جدا ترفعه إلى أعلى، وكأنه لواءان ممتدان، وتُرَى لطول يديها وقصر رجليها وإقبالها عليك بصدرها كأن وقوفها ضرب من الإقعاء أو الجلوس على المآخر مع نصب اليدين وهو تصوير بديع، ومثله تصويره لفحل الإوز، إذ يقول[1]:

نـظرتُ إلى فحـل الإوزِّ فخِلْتُـهُ ... مِن الثُّقل فى وَحْلٍ وما هُوَ فى وَحْلِ
ينقِّـل رِجْلَيْـه على حين فَتْـرةٍ ... كمنتعل لا يحسن المشى فى النَّعْلِ
لـه عنُقٌ كالصَّـوْلجـانِ ومَحْـطِمٌ ... حكى طرَف العُرْجون من يانع النَّخْلِ[2]
يـداخله زَهْـوٌ فيلحظُ من عَـلٍ ... جـوانبَـهُ ألحـاظَ متَّهَمِ العقـلِ

وهو يجسِّد ذكر الإوز فى مشيته المتثاقلة كأنه يخطو فى وحل، فينقِّل رجليه، أو كأنه لابس نعلا لا يحسن المشى فيه. وبعد أن جسَّد مشيته هذا التجسيد الرائع، أخذ يصور خلقته فله عنق طويلة طول عصا الملوك المسماة بالصولجان، وله محطم أو منقار معقوف كعرجون النَّخْل الذى يحمل شماريخه وتمره، ثم صوَّر شموخه فى وقفته فقال: كأنما يداخله زهو فينظر من أعلى إلى جوانبه نظر المشدوه الذى يَظَنُّ أنه متهم العقل لطول نظره وإمعانه فيه. وحرى بنا أن نلم ببعض شعراء الطبيعة ممن ذكرنا أننا سنخص كلا منهم بكلمة مع ترتيبهم ترتيبا تاريخيا وهم عبدالواحد بن فتوح وصَّاف الديكة والحمام وابن أبى حديدة وصَّاف السحب والنجوم وأبو على بن إبراهيم وصَّاف البساتين.

عبد الواحد[3] بن فتوح الزَّوَّاق

نشأته ومرباه بتونس وبها تأدب، ثم استوطن القيروان، وانتظم فى سلك كتاب الدواوين، وفيه يقول ابن رشيق: «شاعر مفلق قوىّ أساس الشعر وأركانه وثيق دعائمه وبنيانه، كأنه أعرابى بدوى يركب ظهر الشعر ويخوض بحر الفكر، يتكلف بعض التكلف، وفى قصائده طول، ويُعَدّ من خيار طبقته» توفى سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٦م. ومن شعره فى وصف الديك:

وهبَّ لـلأطيـار ذو خِبْـرةٍ ... منـه بما يَعْـرفُ من خُبْرهـا
فنَصَّ جيـدًا ورَقَـى مِنْـبَـرًا ... دارَ الذى عُوِّدَ مِنْ خدْرها[4]

---

(١) مجمل تاريخ الأدب التونسى ص ١٤٧.
(٢) الصولجان: عصا الملك الرامزة لسلطانه: محطم: منقار. العرجون مايحمل التمر. العذق.
(٣) انظر فى عبد الواحد بن فتوح الأنموذج ص٢٢٦ والمجمل فى تاريخ الأدب التونسى ص١٣٥.
(٤) نَصَّ: رفع.

واستفتح الصوتَ بتصفيقه اسـ ـتفتاحَ ذات الطَّار فى شِعْرها[١]
فبَلْبَلَ البُلْبُلَ فى غُصنه وأرَّق الوَرْقاء فى وَكْرها[٢]
كأنما تُوِّج ياقوتةً واتخذ الشُّنفَيْن من شطرها[٣]
كأنما يخطِرُ فى حُلَّةٍ من عَدَنٍ الوَشْى لم يَشْرها

وهو يقول إن الديك هبَّ للطير يريد أن ينافسه بما يعرف من خبره وتجربته فَنصَّ جيده ورفعه ورقى منبرا فى دار صاحبته وماعُوِّد من مسكنها، واستفتح الصوت بتصفيق جناحيه وتحريكهما كما تستفتح صاحبة الطار الضرب عليه تقدمة لما توقع عليه من أشعار. وما إن رفع الديك صوته وصياحه حتى اضطرب البلبل فى غصنه وألمت به الوساوس، وحتى أرَّق الحمامة فى وكرها، لحسن مايسمعان من صياحه، ويخيَّل لمن يراه كأنما تُوِّج ياقوتة ناصعة الأحمرار. وسقط منها لأذنيه قرطين بديعين، وإنه ليخطر ويتبختر فى حلة مزركشة كأنها صنعت من وَشْى عدن، غير أنه لم يشرها، إذ هى منحة إلهية مُنحها فى خلقه. ويقول فى وصف حمام:

يجتابُ أَرْدِيةَ السَّحاب بخافقٍ كالبرق أَوْمَضَ فى السحاب فأبرقا
لو سابق الريحَ الجنوبَ لغايةٍ يومًا لجاءَك مثلَها أو أسبقا
يَسْتقرب الأرضَ البسيطةَ مذهبا والأُفْقَ والسُّقُفَ الرفيعةَ مُرْتَقَى
ويظلُّ يَسْتَرْقى السماءَ بخافقٍ فى الجوِّ تحسبهُ الشهابَ المُحْرِقا
يبدو فيُعْجب من يراه لحسنهِ وتكاد آيةُ عِتْقهِ أن تنطقا
مُتَرَقْرِقٌ من حيث دُرْتَ كأنما لبس الزجاجة أو تَجَلْبَبَ زِئْبَقا

وهو يقول إن الحمام لا يزال يقطع بخافقه أو جناحه أردية السحاب رداء وراء رداء، وكأنه برق يومض ويبرق ويلمع للناظرين، ولو سابق الريح لغاية أو مقصد ما تأخر عنها بل ربما سبقها، وهو يعيش فى الأرض ويتخذها مسكنا ومأوى ومع ذلك يرتقى ويصعد إلى الآفاق والسقف العليا، ويظل مصعدا بجناحه فى السماء حتى ليُظَنُّ أنه شهاب فيها سيسقط على الأرض، ويقترب ممن يراه فيعجب بحسنه وتكاد آية عتقه أن تنطق بجمال منظره، ويقول إنه مترقرق متلألئ أينما درت ببصرك حوله ظننت كأنما تدور حول زجاج دُرِّىٍّ أو حول زئبق رجراج بهىّ. ويعلق ابن رشيق على هذه الأبيات بقوله: «لا أعرف أحدا وصف الحمام بمثل هذه الصفة».

(١) تصفيقه: تحريك جناحيه.
(٢) بلبل حيَّر.
(٣) الشنفين: القرطين.

ابن[1] أبي حديدة

هو أبو العباس أحمد بن القاسم اللخمى، أحد الكتاب النابهين فى الدولة الصنهاجية وظل يعمل فيها بديوان الرسائل بجانب ابن رشيق وابن شرف إلى أن توفى حوالى سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م ويبدو أن منشأه ومرباه فى القيروان، ويقول فيه ابن رشيق: «شاعر فكه الشعر رائق التشبيه مولع به قليل التكلف قوى المنهج والظرف، ممن رفض الم والهجاء، وكان يَخْبر التصنيع خبرة جيدة ولا يركبه إلا فى الأماكن التى تصلح له كما شرط حذاق المتقدمين، وله بديهة مرضية. وله فى وصف سحاب:

يـا رُبَّ مُتْـأَقَـةٍ تنوءُ بثِقْلها ... تَسْقِى البلادَ بوابلٍ غَيْداقِ[2]
مرَّتْ فُوَيْقَ الأرض تسحبُ ذَيْلَهَا ... والريحُ تَحْمِلُها على الأعناقِ
ودَنَتْ فكاد التُّرْبُ يَنْهَضُ نحوها ... كنُهوضِ مشتاقٍ إلى مشتاقِ
فكأنما جاءتْ تقبِّل تِرْبَها ... أو حاولتْ منه لذيذَ عِناقِ

وهو يقول: رب سحابة ملآنة مطرا تنوء بثقلها منه تسقى البلاد منه بوابل غزير، ويتخيلها كأنها امرأة جميلة تمر على الأرض تسحب ذيلها من المطر المتدفق والريح يحملها على الأعناق إجلالا لها، ويقول إنها دنت من الأرض فنهض الترب لها نهوض مشتاق إلى مشتاق، وكأنما جاءت محمولة على الريح لتقبِّل تربها، بل لكأنما تحاول منه عناق محب لمحبوبة غابت عنه طويلا. وله فى النجوم:

ولقد حَمَى عن مُقْلتىَّ كَراهما ... وُرْقٌ لهنَّ على الأراكِ حَنِينُ
فى ليلةٍ لبس الحدادَ هواؤُها ... فكأنما هو راهبٌ محزونُ
قد رصَّعتْ زُهْرُ النجوم سماءَها ... فكأنما هى لؤلؤٌ مَوْضونُ[3]
وكأنها خَلَلَ الظلام رَوانِيًا ... أحداقُ رومٍ ما لهنَّ جفونُ[4]
وكأنما الفَلَكُ المُدَارُ على الدُّجَى ... بحرٌ أحاط بها وهنَّ سفينُ

وهو يقول إن حنين حمامات على الأراك ملتاعة نحَّى النوم عن عينيه فى ليلة لبس الهواء فيها ثياب الحداد فى دجاها فكأنما هو راهب محزون أشد الحزن، وقد رصَّعت النجوم المضيئة

---

(١) انظر فى ابن أبي حديدة الأنموذج ص ٧١ والمجمل فى تاريخ الأدب التونسى ص ١٤١.

(٢) متأقة: ممتلئة. غيداق: كثير.

(٣) موضون: متراكم.

(٤) روانيا: ناظرات.

المشرقة السماء وكأنما هى لآلئ تتداخل فى نسيجها المحكم، ولكأنها وهى ترنو خلال الظلام أحداقُ روم ليس لهن جفون فهى ما تنى رانية مديمة نظرها، ولكأنما الفلك المستدبر على الدجى بحر أحاط بتلك النجوم وهن سفنه. كأن لا فارقَ كونيًّ بين البر والبحر والسماء عند ابن أبى حديدة وغيره من الشعراء التونسيين، فهم يتغنون بسفن البر من الإبل، ويتغنى ابن أبى حديدة بسفن السماء من النجوم.

أبو على بن إبراهيم[١]

لم يزد صاحب الحلل السندسية فى التعريف به عن قوله إنه كان كاتبا،ا، وأكبر الظن أنه توزرى الأصل، والتحق بدواوين الدولة الحفصية فى القرن السابع الهجرى. وتوزر هى عاصمة واحات الجنوب التونسى، وكان لها نهر ينقسم إلى ثلاثة أنهار كبار، وكل نهر من الثلاثة ينقسم إلى ستة جداول، وأتاح لها ذلك أن يكثر بها النخيل والبساتين، ولأبى على بن إبراهيم وصف رائع لها ولنخيلها وبساتينها وجداول مياهها ضمَّنه قصيدة له رائعة، ومن قوله فى نخيلها:

النَّخْـلُ مثلُ عـرائسٍ مجلوَّةٍ ... فى سُنْدُسِيَّاتِ اللباس تَبَخْتَرُ[٢]
وكـأنما نُـظم الحُلِيُّ لنَحْـرِهـا ... من لؤلؤ وزَبَــرْجَــدٍ يُتَخَيَّــرُ
وترى الزَّبَرْجد عَسْجَدًا ويَوَاقِتًا ... ذا أحمرٌ قانٍ وهـذا أَصْفَرُ[٣]
أَحْلَى من العَسلِ المصفَّى طَعْمُهُ ... ومَــذاقُــه لا يــدَّعيـه السُّكَّــرُ

وهو يقول كأن حدائق النخل بتوزر فرح كبير يضم ما لا يكاد يحصى من عرائس تُجْلَى فى ثياب سندسية اللون تتبختر فيها، وقد استدارت حول نحورها عقود متخيرة من اللؤلؤ المضيئ فى أول نشأة البلح وإنها لتستحيل إلى زبرجد أخضر، ويستحيل الزبرجد إما عسجدا ذهبيا وإما ياقوتا قانيا، ومنه الرطب وغير الرطب، وإن طعمه لأحلى من العسل، مع مذاقٍ بديع لا يستطيع السكر أن يدَّعيه لنفسه لجماله وحسنه. ويصف بساتين توزر وأشجارها وأزهارها، فيقول:

الدَّوحُ قد لبستْ غلائلَ سُنْدُسٍ ... تَخْتَالُ فى أيدى النسيم وتَخْطِرُ[٤]
حَلَّتْ هَـواديهـا عقـودُ أزاهـرٍ ... فتبرَّجتْ عُجْبًا لمن يتبصَّـرُ[٥]
والطيرُ قد رقيتْ منابرَ قُضْبِها ... خطباؤُهـا تَشْدُو بلحنٍ يَسْحَـرُ

---

(١) انظر فى أبى على بن إبراهيم وقصيدته الحلل السندسية ٤٣٥/٢.

(٢) سندسيات: نسبة إلى السندس وهو الديباج.

(٣) العسجد: الذهب.

(٤) غلائل: جمع غلالة: ثوب رقيق. تخطر: تتبختر.

(٥) هواديها: مقدماتها.

والقضبُ يَثْنِيهـا النَّسيمُ فتَنْثَنِى بعضٌ يقبِّـل بعضهـا ويُقَهْقِـرُ
كَعقائلٍ تبغى السِّـرار فتلتقى لِصَغَا الحديثِ وتارة تتأخَّـر(١)

فالشجر الملتف قد لبس ثيابا رقيقة من السندس الأخضر، وهو يختال فى أيدى النسيم ويتبختر، وقد حلَّتْ مقدماته عقود زهر منمقة تبرَّج فيها لناظريه أيما تبرُّج، والطير قد صعدت إلى منابر غصونها، وخطباؤها تتغنى بلحن ساحر يخلب الألباب، والغصون يثنيها النسيم فتنثنى وكأنما يقبل بعضها بعضا ثم يتقهقر أو كأنهن سيدات يردن المسارَّة ببعض الحديث فتلتقى مصغية إلى الحديث تارة، وتارة تتأخر، ويستمر أبو على قائلا:

الأرضُ عـاطرةٌ تُـزَفّ كـأنمـا غَشَّى نـواحيَهـا عبيـرٌ يُنْشَـرُ
وتـأرَّجَتْ أرجـاؤُهـا فكـأنمـا مِسْكٌ يَضُوعُ خلالها أو عَنْبَرُ(٢)
وكـأنَّ ريحان الحيـاة ورَوْحَها مُسْتَنْشَقٌ من عَرْفِها ومعطَّرُ(٣)
وكأنما كُسِيَتْ بسـاطَ زَبَرْجَـدٍ نُشِرَتْ يواقيتٌ عليـه وجَوْهَـرُ

فالأرض جميعها عاطرة وكأنما تُزَفّ فى عُرْس لها، وكل نواحيها ينتشر فيها عبير ذكى، وكل أرجائها تفوح بصنوف من الطيب والمسك والعنبر، وكأن أريج الحياة ونسيمها العطر مستنشق من شذاها العطر، وكأنما اكتست ببساط من الزبرجد تناثرت عليه جواهر ويواقيت من كل صنف، ويمضى أبو على واصفا جداولها بمثل قوله:

المـاء تَشْعَبُـه إليـك جـداولٌ قد مدَّها النهر الزُّلال الأكبَرُ(٤)
صافٍ على صفة المهَا يجرى على رَمْل النَّقا عذبٌ قَراحٌ كَوْثَرُ(٥)
وكـأنمـا حَصْبـاؤه فى رَوْنَقِ الْـ ـمـاءِ الذى يَجْرِى عليـه جَوْهَـرُ

والماء تشعبه وتتوزعه جداول: ثمانية عشر كما أسلفنا، وقد أمدها النهر الكبير بمائه الزلال العذب البارد السلس، والماء فى منتهى الصفاء، كأنه مَهَا أو بلّور ناصع، وهو يجرى على رمل يشبه رمل النقا الذى يذكره العشاق النجديون، وهو عذب قراح أو خالص، بل هو كوثر كنهر الفردوس وكأنما حصباؤه جوهر تناثر من عقود كثيرة. وأبو على بدون ريب شاعر بارع براعة فائقة.

---

(١) عقائل: جمع عقيلة: السيدة الكريمة. السرار: المناجاة وكتمان الحديث. صغا الحديث: سماعه.
(٢) تأرجت: فاحت. يضوع: يفوح.
(٣) عرفها: شذاها.
(٤) تشعبه: تفرقه. الزلال: العذب الصافى.
(٥) المها: البلّور. قراح: سائغ. كوثر: حلو والكوثر: من أنهار الفردوس.

٣

شعراء الرثاء

(أ) رثاء الأفراد

للعرب - منذ الجاهلية - فى رثاء الأفراد تراث ضخم، وهو يتخذ عندهم ثلاثة ألوان هى الندب والتأبين والعزاء ، والندب هو البكاء على ذوى الرحم من الأهلين والأقارب ممن لبَّوا نداء ربهم وغادروا الفانية إلى الباقية، والتأبين هو بكاء الشخصيات الفذة الحربية أو السياسية أو العلمية أو الأدبية بذكر فضائلهم وخسارة المجتمع والأمة فيهم، والعزاء استرسال فى الحديث عن الحياة والموت وبيان أن الحياة ظل متنقل سرعان ما ينحسر عن صاحبه، فالجميع إلى فناء وعدم، وكثيرا ما يختلط العزاء بالتأبين والندب. وكل هذه الألوان الثلاثة مبثوثة فى مراثى القيروانيين والتونسيين، وتأخذ فى الكثرة منذ عصر الأغالبة، ويتوفى فيه سحنون إمام المذهب المالكى ويؤبنه تلميذه عبد الملك المهرى بمثل قوله[١]:

وَلَّى - لعمرى - بأرض الغَرْبِ قاطبةً ... مَيْتٌ له البَدْوُ والحُضَّارُ قد خَشعا
لِلّهِ أنت إذا ما هابَ فاصِلَةً ... من القضاء كليلُ الحدِّ فارتدعا
هناك برَّزت يا سَحْنونُ منفردًا ... كسابق الخَيْل لما بان فانقطعا
فاذهبْ فَقيدًا حَباك اللّهُ جَنَّتَهُ ... واحْصُدْ من الخير ما قد كنتَ مُزْدرعا

وهو يقول إن أهل البدو والحضر جميعا قد خشعوا حين سمعوا بوفاة فقيه الغرب قاطبة، ويقول ما أعظمك حين كنت قاضيا تقضى بالحق على كل متهم فيرتدع ويزدجر، وينوه بقضائه وأنه سبق فيه مجلِّيا كل عالم فى عصره، وما أعظم الخسارة فى فقده ويدعو الله أن يفسح له فى فراديسه وأن يجزيه الجزاء الأوفى عما غرس وقدم بين يديه. ولما توفى ابنه محمد رثاه أحمد بن أبى سليمان داود الصواف بمرثية بلغت ثلاثمائة بيت، وفيها يقول[٢]:

ألا أيُّها النَّاعى الذى جَلَب الأَسى ... وأورثنا الأحزانَ لا كنتَ ناعيا
نعيتَ إمام العالمين محمَّدًا ... وقلتَ مضَى من كان للدين راعيا
ومن كان حَبْرًا عالمًا ذا فضيلةٍ ... نقيًّا رَضيًّا طاهرَ القلب زاكيا

والشاعر يبكى فى محمد بن سحنون إمامته الدينية وفقهه وعلمه ونقاء صدره وطهارة قلبه

(١) رياض النفوس للمالكى ١/٢٩٠.
(٢) رياض النفوس ١/٣٥٧.

وفضيلته أو فضائله. ويتوفَّى يحيى بن عمر إمام المذهب المالكى فى سوسة سنة ٢٨٧هـ/٩٠٠م ويرثيه سعدون الورجينى بمثل قوله[١]:

عينٌ ألَمَّ بهـا وَجْدٌ فلم تَنَمِ ... تبكى بِدَمْعٍ كقَطْرِ الدُّرِّ مُنْسَجِمِ
عجبتُ أن لم أمُتْ حزنًا وقد دَفَنَتْ ... كفَّاىَ فى التُّرْبِ أَنْقَى العُرْبِ والعَجَمِ
يا موتُ أثْكَلْتنا يَحْيَى وكان فَتًى ... فى بَلْدةِ الغَرْبِ مثلَ البدر فى الظُّلَمِ
منْ كان من بعد سَحْنونٍ لنا خَلَفًا ... من كان فى الحقِّ مثلَ الصارم الخَذِمِ[٢]

وهو يقول إنه بات مسهدا محزونا يبكى بدمع لا ينقطع، ويعجب أن لم يمت حزنا وقد دفنت كفاه فى التراب يحيى بن عمر أنقى العرب والعجم، ويلتفت إلى الموت لائما، فقد أفقدهم يحيى وكان فقيها لا نظير له، وكان مثل البدر يحسر الظلمات عن الناس، إذ كان خلفا لأستاذه سحنون، وكان فى إحقاق الحق وإبطال الباطل مثل السيف الحاد القاطع. وحظيت الأسرة الأغلبية الحاكمة حينذاك بشاعرة تسمى مهرية الأغلبية، توفيت حوالى سنة ٢٩٥هـ/٩٠٧م وكان لها أخ ناسك يسمى أبا عقال هاجر إلى مكة ومات بها غريبا عن وطنه ودياره، وله مواعظ كثيرة أنشدها المالكى فى الرياض وقالت أخته نادبة له باكية[٣]:

ليت شِعْرِى ما الذى عايَنْتَهُ ... بعد طول الصَّوْم مَعْ نَفْىِ الوَسَنْ
مَعْ نُزُوحِ النَّفْسِ عن أوطانها ... والتخلِّى عن حبيبٍ وسَكَنْ
يا شقيقًا ليس فى وَجْدِى به ... عِلّةٌ تمنعنى مِنْ أنْ أُجَنّ
وكما تَبْلَى وجوهٌ فى الثَّرَى ... فكذا يَبْلَى عليهنَّ الحَزَنْ

وهى تتجه بالسؤال إلى شقيقها ماذا رأى فى بلاد الغربة بعد ما عانى من طول الصوم والسهاد ومع حرمانه من وطنه وتخليه عن سكنه وأحبابه، وتحزن عليه حزنا عميقا فلن تراه، وتظل مواجدها معلقة به حتى لتشعر أنها ستُجَنّ، وتعود إلى نفسها، فكما تبلى وجوه فى الثرى يبلى الحزن وتبلى لوعته.

ولكراهية أهل السنة فى القيروان للعبيديين ومذهبهم الإسماعيلى انضموا إلى مخلد بن كيداد الثائر البربرى الصفرى على القائم بأمر الله العبيدى فى حصاره للمهدية سنة ٣٣٣ وقُتل فى هذا الحصار شيخ كبير ن شيوخ أهل السنة هو أبو الفضل المِمَّسى، فرثاه تلميذه أبو القاسم الفزارى، بمثل قوله[٤]:

(١) رياض النفوس ٤٠٥/١.
(٢) الصارم الخذم: السيف القاطع.
(٣) رياض النفوس للمالكى ٤٣٦/١ والمجمل ص ٧١.
(٤) المجمل ص ٨٧.

بنفسى صريعٌ جالتِ الخيلُ حوله ... بمُعْتَـركِ الأبطال أيُّ صـريعِ
ولستُ لـه أبكى ولكنْ لمعشـرٍ ... أُصِيبُوا بـه من فُـرَّدٍ وجميعِ
وللعلمِ والإسـلامِ والدِّينِ والتُّقَى ... وطولِ احتمالٍ واصْطناعِ صَنِيعِ
مضى عَلَمُ العِلْمِ الرفيعِ وطالما ... أصـابتْ قناةُ المـوت كلَّ رفيعِ

وهو يتمنى لو استطاع أن يفدى هذا الشيخ الصريع بروحه، ويتصوره والخيل تجول حوله فى معركة الأبطال، ويقول إنه لا يبكى له ولكن يبكى لخسارة معشر فجعوا فيه، كما يبكيه للعلم والإسلام والدين والتقى وطول ما أدَّىَ واحتمل فى سبيل طلابه وأهل القيروان، وإن كان قد فُقد علم العلم الرفيع فطالما أصابت رماح الموت العلماء من أمثاله. ويؤبِّن ابن الخوَّاص الكفيف أبو القاسم عبد الرحمن بن يحيى إمامَ المالكية ورياستها بالمغرب فى زمنه أبا محمد عبدالله بن أبى زيد القيروانى المتوفى سنة ٣٨٦هـ/٩٩٧م وفى تأبينه يقول[(١)]:

كادتْ تميدُ الأرضُ خاشعةَ الرُّبَى ... وتمورُ أفلاكُ النجـومِ الطُّلَّعِ[(٢)]
عجبًـا أيَدْرِى الحـاملون لنَعْشِهِ ... كيف استطاعوا حملَ بَحْرٍ مُتْرَعِ[(٣)]
عِلْمًـا وحلمـا كـامـلا وبـراعـةً ... وتُقًى وحُسْنَ سكينـةٍ وتـورُّعِ
وسَعَتْ فِجاجُ الأرض سَعْيًا حوله ... من راغبٍ فى سَعْيه متبـرِّعِ
يبكـونـه ولكـلِ بـاكٍ منهمُ ... ذلُّ الأسيـرِ وحُرْقَـةُ المتـوجِّعِ

فالأرض تكاد تضطَّرب وتموج خاشعة الرُّبى لهول موته، وبالمثل أفلاك النجوم الساطعة، ويعجب الشاعر متسائلا أيعرف الحاملون لنعشه أنهم استطاعوا حمل بحر ممتلئ علما وحلما وبراعة وتقى وحسن سكينة وجمال تورع، وقد اكتظت فجاج الأرض وطرقها الواسعة بالمشيعين الذين جاءوه محزونين عليه يبكونه خاشعين متوجعين ملتاعين. ويحكى غير واحد عن أبى طالب الدلائى الشاعر فى الدولة الصنهاجية أنه فقد من أحبَّته نيفا وأربعين غريقا فى البحر - ربما كانوا ذاهبين إلى صقلية - فصار شعره رثاء كله تفجعا عليهم ووفاء لهم[(٤)]، من ذلك قوله فى أحدهم:

نـأى بِسُرورى وصَبْـرى معًـا ... وأَبْقَى فؤادى عليـه صَـديعـا

---

(١) الأنموذج ص١٥٣.
(٢) تمور: تموج.
(٣) مترع: ممتلىء.
(٤) انظر فى هذا الخبر وأبيات الدلائى الأنموذج ص١١٨.

ومـات فمـاتَ سُـروري بـه وصُنْتُ حيـاتى فمتنـا جميعـا
أصـابتـه عـينٌ من الحـادثـات أصاب العَمَى ناظِـرَيْها سـريعا

وهو يقول إنه حين فارقه أخذ سروره وصبره على بعده معه، وكأنما ترك جرحا بفؤاده، ولم يلبث أن مات غريقا فمات سرور الشاعر، وكان قد صان حياته من الرحيل معه، وشعر كأنه مات معه. ويقول كأن عينا من الحادثات أصابته، ويدعو عليها بالعمي جزاء وفاقا لها، ويقول ابن رشيق تعليقا على الأبيات: «هذا هو التفجع والتوجع الذى يقطع القلوب حسرات، ويذهب العيون عبرات». وينشد من مراثيه بيتين، هما:

أَوْدَعْتُه بَطْنَ الثَّرَى وتركته فى رَمْسِهِ والموُت ما لا يُنْكَرُ
قـدَّمتُـه ولـو أننى أَنْصَفْتُـهُ ماكنتُ عنه سـاعةً أتـأَخَّر

فهو قد أودعه فى رمسه أو قبره ببطن الأرض. والموت حق لا أحد ينكره، ويقول كأنه قدَّمه إلى الموت ولو أنه أنصفه لرافقه ولم يتأخر عنه ساعة. ويقول ابن رشيق: «هذه أنفاس مشتعلة عن نفس مشتعلة قد دلَّت على مافى الصدر دلالة الشواظ على الجمر». ويموت لابن عبدون الذى مرت ترجمته بين شعراء الغربة ابن وكانت قد ماتت قبله زوجته ويبكيهما بمثل قوله[١]:

قبرٌ بسوسةَ قد قَبَرْتُ به النُّهَى أدرجتُ قلبى فى مَـدَارِجِ لحـده
صمَّتْ عـلىَّ مسـامعى فى رَجَّـةٍ وصُعِقْتُ من صَعْقِ الصُّراخ وَرعْدِه
وجهدتُ أن أبكى فلم أَجِدِ الْبُكَا فسكَتُّ سَكْتَةَ صـارمٍ فى غمْـدِهِ
هَبْنِى بكيت له وما يُجْدِى البُكا مـاءٌ بخـدِّى والتـرابُ بخـدِّه
هيهـاتَ قد مَنَعَ الهُدُوَّ لنـاظرى قبــران ذا ولـدٌ وذاك لـودِّه[٢]

وهو يقول إنه دفن النُّهَى والعقل السديد فى قبر بسوسة، وكأنما أدخل قلبه فى ثنايا لحده، ويقول كأنما سُدَّت أذناه حين سمع رجَّة موت زوجه وابنه، بل لكأنما أصابته صاعقة من صعق الصراخ ورعده، وكأنما غُشِى عليه فلم يستطع بكاء، وأخلد إلى الصمت إخلاد سيف فى غمده، وماذا يجْدى سَلّ سيف فى الموت؟ وماذا يجدى البكا وعلى خده دموعه والتراب بخد ابنه، ويقول لقد منع النوم لعينى قبران: قبر ابنى الحبيب، وقبر زوجتى المحبوبة. وقال على الحصرى الذى

(١) انظر الأنموذج ص ٣٩٤

(٢) الهدوّ بتشديد الواو: النوم.

مرت ترجمته بين شعراء الغزل يبكي أباه حين ودّع قبره عند رحيله إلى الأندلس[١]:

أبي! نَـيِّرُ الأيامِ بعـدك أَظْلما ... وبُنْيـانُ مَجْدِى يومَ مِتَّ تهدَّما
وجِسْمِى الذى أبلاه فَقْدُك إن أكنْ ... رحلتُ بـهِ فالقلب عنـدك خَيَّـما
وقَى الله عَيْنَىْ منْ تعمَّد وقفةً ... بقبـرك فـاسْتَسْقَى لـه وتَـرحَّمـا
وقـال سلامٌ، والثـواب جزاء مَنْ ... ألمَّ عـلى قَـبْرِ الغـريب فسلَّما

وهو يخاطب أباه محزونا قائلا إن الأيام النيرة بعد فقده أظلمت وتهدم بنيان مجده وعزه يوم موته، وإن كنت راحلا عنك بجسمي الذى أضناه فقدك فإن قلبى عندك مخيم مقيم، ويدعو لمن يقف على قبره مستسقيا مترحِّما مسلما راجيا أن يجزيه الله خير الجزاء.ويقول ابن بسام منشد الأبيات السالفة إن الحصرىّ لم يكتف بها فى وداعه لقبر أبيه، فقد طأطأ رأسه ومدَّ يده إلى التراب حول القبر، قائلا:

رحلتُ وههنـا مَثْـوَى الحبيبِ ... فمن يبكيـك يـا قـبرَ الغـريبِ
سأحملُ من تُـرابك فى رِحـالى ... لكى أُغْنَى بهِ عن كلِّ طِيب

والبيتان مؤثران – كالأبيات السابقة – تأثيرا عميقا لكل من فقد أباه واضطر إلى فراق قبره بعد موته. وكان على الحصرى فى الذروة من شعراء القيروان المبدعين. ومات له ابن فجزع عليه جزعا شديدا، ونظم فيه ديوانا على حروف المعجم سماه «اقتراح القريح واجتراح الجريح» ومن قوله فيه وقد بلغ به الحزن أقصى غايته[٢]:

ذَوَى ريحـانىَ الأرجُ ... وضـاقَ بخِـلِّىَ الفَـرَجُ[٣]
ذبـيـحٌ طُـلَّ منـه دمٌ ... ولم يُـقْـطَع لـه ودَجُ[٤]
عـروقُ النـاس كـلِّهـمِ ... إلى عِرْق الثَّرَى تَشِـجُ[٥]
بـنـو الـدنـيـا كـأنهمُ ... لـقـلة همِّـهـم هَمَـجُ
وهـل هىَ غَـيْرُ دارِ أَذًى ... إذا دَخلوا بهـا خـرجـوا
تـأمَّـلْ كيـف تـأكلُهم ... وهـم ولـدٌ لهـا نُتِـجـوا

---

(١) انظر فى رثاء على الحصرى لأبيه. الذخيرة لابن بسام ٤/٢٧٠
(٢) انظر فى الأبيات التاليةلذخيرة ٤/٢٧٤
(٣) الأرج: العَطر.
(٤) الودج: عرق فى العنق إذا قطع الذابح انتهت الحياة
٥) تشج: تلتف وتعود.

يقول إن ريحانه العطر ذوى فجأة، وضاق بابنه الفرج من سقمه ومرضه، ولا يلبث أن يصرخ، فهو لم يمت حتف أنفه، بل مات ذبيحا وطلَّ دمه وأهدر دون أن يُقْطَع منه عرق العنق الذى لاتبقى مع قطعه حياة، ويعود الحصرى إلى نفسه، فالناس جميعا ميتون وكلهم راجعون إلى عرق الثَّرى الذى يتشابك مع عروقهم، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم فى خلق آدم إذ قال: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كُنْ فيكون﴾. ويعجب لأبناء الدنيا وقلة همهم كأنهم همج لايعون حياتهم، ويقول إنها دار أذى وإنهم لايلبثون حين يدخلون بها أن يخرجوا منها، بل تأمل كيف تأكلهم مع أنهم أبناؤها وكأنها هرة تلد أبناءها وتَقْضمهم. وغضى إلى العاص الحسينى ويتوفى الشيخ محمد زيتونة العالم الجليل سنة ١١٤٤هـ/١٧٣١م ويرثيه الشاعر محمد الخضراوى بمثل قوله(١):

قلب يــذوبُ ومهجـة تتقـطَّعُ ... وأسًى يــزيـدُ ومقلةٌ لاتَهْجَـعُ
ولهيبُ نيـرانٍ تضـرَّم وقْـدُهـا ... يَصْلَى بجَمْرتَهـا الحَشا والأضْلُعُ
وتلهُّفٌ وبُكًـا وَفَـرْطُ كـآبـةٍ ... ومــدامــعٌ مَسْفُـوحــةٌ لاتُقْلِعُ
فعليـه فَلْتَبْـكِ الأنــامُ جميعهم ... وعليــه فَلْيتـوجَّـع المتــوجِّـعُ

وقلب الشاعر يذوب حزنا لموت العالم الكبير ومهجته تتقطع حسرات ويزداد أسًى وحزنا ويبيت مسهَّدا، وكأنما اضطرم لهيب نار فى دخائله احترق حشاه وأضلعه بجمرته الموقدة، ويزيد به التلهف والبكا والكآبه ولاتقلع الدموع بل تنهمر انهمارا لما نعى الناعى إمام العلماء وشيخ الأنام ومفزعهم فى الفتوى ومسائل الدين، وعليه فليبك الناس جميعا ويتوجعوا لفقده ويتفجعوا مرارا وتكرارا.

ويرثى محمد الوَرْغى فى العصر الحسينى الأمير محمد الرشيد، ويجمع فى مرثيته بين التعزية فيه وتهنئة أخيه على خَلَفِه بمثل قوله(٢):

من أين أدركه الحِمامُ ودونـه ... حَزْمُ السِّلاح وحَوْمَةُ الحُـرَّاسِ
أتغافل البَـوَّابُ أم سبقتْ له ... قيل الهجوم يدٌ مع العُسَّاسِ
جَهِدَ الزمانُ ولو دَرَى بمقـامه ... ما ساقه قَسْرًا إلى الأرْماسِ(٣)
كادتْ عُرَا الإسلام تُنْقَضُ بعده ... لولا مقيم الدين بـالقِسْطاسِ
ما أخلق الملك العلىَّ عمـادُهُ ... بعـلىِّ الشهمِ النـزيـه البـاسِ

---

(١) الأدب التونسى فى العهد الحسينى ص٥٧
(٢) الأدب التونسى فى العهد الحسينى ص١٧٠
(٣) الأرماس: جمع رمس: القبر.

وهو يعجب من أن الموت أدرك محمدًا الرشيد وسلاحُه وحرسه من حوله لحمايته، ويتساءل هل تغافل الحِمام أو الموت البوابَ أو سبقت له يد عند الحراس، ويقول إن الزمان لودرى بمقامه ما ساقه قهرًا إلى القبور، وإن عُرَا الإسلام الوثقى لتكاد تنقض بعده لولا قُيِّض لها مقيم الدين بالعدل والقسطاس، عَلِيٌّ أخوه، وما أجدر الملك الرفيع عماده به لخلقه الكريم.

(ب) رثاء المدن والدول

هذا الضرب من الرثاء قديم فى الشعر العربى منذ الجاهلية على نحو ما هو معروف عن الأسود بن يعفر ورثائه لدولة المناذرة فى الحيرة ولما قضى العباسيون على الدولة الأموية بكاها أبو العباس الأعمى المكى. وحين حاصر طاهر بن الحسين قائد المأمون بغداد فى حرب الأمين ورماها بالمجانيق وكثر فيها الحرق والهدم بكاها غير شاعر عباسى بكاء مرًّا ونتقدم مع الزمن إلى سنة ٢٥٧ ويهاجم البصرة الزنج ويحرقون مسجدها الجامع ويحيلونها أنقاضا، وبكاها الشعراء وفى مقدمتهم ابن الرومى الذى تفجع لها وتوجع مستصرخا لها الخليفة وجيوشه والأمة، ولبَّاه الموفق أخو الخليفة، وظل ينازل الزنج نزالا عنيفا حتى قضى نهائيا على ثورتهم سنة ٢٧٠. ويدور الزمن دورات، وإذا أعراب بنى سليم وهلال يزحفون إلى القيروان سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٨م وينازلهم صاحبها المعز بن باديس الصنهاجى، ويلحقون به هزيمة شديدة، ويضطر إلى ترك القيروان لهم وينحاز إلى المهدية عند ابنه حاكمها تميم، ويدخلون القيروان فيحيلونها أنقاضا، ويقضون على حضارتها، ويفرّ منها كثير من علمائها ونابهى شعرائها، وممن غادرها ابن رشيق، ونراه يصف تلك النكبة فى قصيدة طويلة، ومن قوله الحزين فيها[1]:

الْمُسْلِمُونَ مقسَّمُون تنالُهم ... أيدى العُصاة بذلَّةٍ وهوانِ
يَسْتصرخون فلا يُغَاثُ صَرِيخهم ... حتى إذا سَئِموا من الإرنانِ[2]
خرجوا حُفاةً عائذينَ بربِّهم ... من خَوْفهم ومصائب المَلَوان[3]
هربوا بكلِّ وليدةٍ وفَطيمةٍ ... وبكل أرْملةٍ وكل حَصانِ[4]
فتفرَّقوا أيدى سَبا وتشتّتوا ... بعد اجتماعهم على الأوطان[5]

وهو يقول إن المسلمين تقسموا فرقا بينها أيدى العصاة للرحمن تنالهم بغير قليل من الذل والهوان، وهاهم أهل القيروان يستصرخون فلا يغاث صريخهم حتى إذا بُحَّت أصواتهم من

(١) المجمل فى تاريخ الأدب التونسى ص١٤٥
(٢) الإرنان: الصياح والصراخ.
(٣) الملوان: الليل والنهار
(٤) حصان: سيدة عفيفة
(٥) يقال: تفرقوا أيدى سبأ إذا تشتتوا فى أرجاء الأرض

الصراخ ولا مغيث ولا مستجيب خرجوا على وجوههم يَعْدون حفاة عائذين بربهم من القتل والأسر وما يأتى به الملوان أو الليل والنهار من مصائب ونكبات، ويقول إنهم فروا من الأعراب بكل مولودة ومفطومة وبكل أرملة وكل عفيفة رجاء أن يحموهن من السبى والهوان، وتفرقوا وتشتتوا فى البلاد وتشتت معهم العلماء والشعراء. وكان يعاصره ابن شرف، وله بدوره فى القيروان حينئذ بكاء وتفجع مرير، وسنخصه بكلمة. وممن ندبها وتذكر إخوانه بها وقد رحل عنها إلى الأندلس على الحصرى، وفيها يقول[١]:

ألا سَقَى اللّهُ أرض القيروان حَيًا ... كــأنَّــهُ عَبَــراتى المستـهــلَّاتُ
فــإنها لِـدَةُ الجنَّــاتِ تُــرْبَتُهــا ... مِسْكيَّةٌ وحَصَاهــا جَـوْهــرِّيـاتُ
إلا تكن فى رُباها روضةٌ أُنُفٌ ... فإنما أوجـهُ الأحباب رَوْضَـاتُ[٢]
لايَشْمتنَّ بها الأعَداءُ أنْ رُزِئَتْ ... إن الكسوف له فى الشمس أوقاتُ[٣]
هل مطمعٌ أن تُرَدَّ القيروانُ لنا ... وصـبــرةٌ والمُعــلَّى فــالحَـنِيَّــاتُ

وهو يدعو للقيروان بالسقيا الوافرة كدموعه الغزيرة التى لاتزال كلما ذكرها استهلت فإنها رفيقة الجنّات، تربتها مسك وحصاها جواهر لامعة، وإلا يكن فى رباها الآن بعد أن خربها بنوسليم وهلال روضة جديدة بديعة فأوجه الأحباب بها روضات فاتنة، ويذكر ما أصاب القيروان من خراب فيقول: لا يشمت بها الأعداء لأن رُزِئت ونُكبت فإن الشمس الساطعة يلم بها الكسوف أحيانا، فهو رزء إلى أجل، وتعود بعده القيروان إلى حضارتها وازدهارها المعهود. ويتمنى أن تعود سريعا إلى أهلها هى وصبرة وغيرهما من المواضع والمدن.

ومرَّ بنا أن عبدالمؤمن بن على أمير الموحدين استولى على مدينة قابس من يد مدافع بن رشيد الهلالى بعد موقعة هُزم فيها مدافع وفر إلى أعراب طرابلس ثم لحق بعبد المؤمن فى مدينة فاس فأكرمه وأسكنه بها، وكان ممن فرَّ بعد الموقعة أبو ساكن عامر بن محمد من عشيرة مدافع وأبعد فى فراره حتى دمشق وهناك بكى قابس وأيام حكم عشيرته لها. ومن قوله[٤]:

يا حارِ طَرْفى غير هاجعْ ... والدَّمْعُ من عينىَّ هامِعْ[٥]
إنى مـن الـشُّـمِّ الأُلَى ... شادوا العُلا أبناءِ جامع
ولقــد مَلَكنـا قــابِسًــا ... بــالَمشْـرفيَّـات القــواطــع

---

(١) الذخيرة ٢٧٧/٤
(٢) أنف: مزدهرة جديدة
(٣) رزئت: نزل بها رزء: مصيبة
(٤) الخريدة ١٣٩/١ وما بعدها والحلل السندسية ٣٥٧/٢ ومابعدها.
(٥) هامع: سائل

تسعين عاما لم يكن فيها لنا أحدٌ منازعْ
عَبثتْ بنا أيدى الزما ن وأحدثتْ فينا البدائع

وحارِ مرخَّمة أي ياحارث، وهو يشكو من أنه يبيت مسهدا ودموعه تهمي لاتتوقف لسقوط قابس فى أيدى الموحدين وانتهاء حكم دولتهم من بنى جامع الهلاليين، ويقول إنه من الشم العظام الذين شادوا العلا ورفعوها إلى السماء أبناء جامع الهلاليين الذين ملكوا مدينة قابس بسيوفهم الحادة القاطعة تسعين عاما متصلة لم ينازعهم فيها أحد، وأخيرا عبثت بهم أيدى الزمان فأخرجتهم من قابس وتركوها إلى الأبد. ويبكى الدولة الحفصية فى أواخر أيامها وحاضرتها تونس محمد بن عبد السلام وسنخصه بكلمة بعد ابن شرف.

ابن[1] شرف القيروانى

هو أبو عبدالله محمد بن أبى سعيد بن شرف الجذامى الأجدابى المولود بالقيروان حوالى سنة ٣٩٠ ويبدو من نسبته إلى قبيلة جذام أنه من أبنائها إما صلبية وإما ولاء، كما يبدو من تلقيبه بالأجدابى أن أصل أسرته من أجدابية بليبيا ونزلت القيروان وعلى كل حال هو قيروانى المولد والمنشأ والمربى، ويذكر ياقوت فى صدر ترجمته له أنه درس على أبى الحسن القابسى وأبى عمران الفاسى. وكان القابسى شيخا جليلا من شيوخ القيروان فى الفقه والتفسير والحديث، وتوفى سنة٤٠٣ فلزم تلميذه أبا عمران الفاسى يأخذ عنه ما عنده كما لزم القزاز عالم النحو واللغة بالقيروان فى زمنه وأيضا لزم أبا إسحق إبراهيم الحصرى المتوفى سنة ٤١٣ صاحب زهر الآداب، وكان حبيبا إلى نفوس شباب القيروان قريبا إلى قلوبهم، فكان يجتمع معهم عنده وينهل من معارفه الأدبية الكثيرة. وتفتحت ملكته الأدبية مبكرة، وألف فى نقد الشعراء منذ الجاهلية مصنفا موجزا وصف كثيرين فيه وصفا مجملا سماه «رسائل الانتقاد» وهو أشبه بمقامة.

ويبدو أنه أخذ يحظى بمكانة مرموقة فى الشعر مما جعله يتعرف على رئيس ديوان الإنشاء للمعز بن باديس الصنهاجى على بن أبى الرجال المتوفى سنة ٤٢٦هـ/١٠٣٥م وأعجب بمدائحه فيه، فرأى أن يقدمه إلى المعز، ونال استحسانه، وأصبح من شعراء الدولة يتغنى بانتصاراتها على

---

(١) انظر ترجمة ابن شرف فى الذخيرة ١٦٩/٤ وما بعدها والخريدة ٢٢٤/٢ ومعجم الأدباء لياقوت ٩٤/٢ والأنموذج ص٣٤٦ والمجمل فى تاريخ الأدب التونسى ص١٥٠ وابن شرف القيروانى للدكتور طه الحاجرى (طبع بيروت).

قبائل زناتة ولواتة، ويغدو على المعز فى المناسبات المختلفة بمدائحه مع قرينه ورفيقه ابن رشيق، وكان المعز أديبا ويعقد ندوات يحضرانها ويحضرها بعض العلماء والأدباء، وأصبحا شاعرية المقربين، وجَرَّ ما ينظمانه فى مديحه إلى شيء من المنافسة بينهما، وجرَّت المنافسة إلى شيء من الجفوة ثم الخصومة، وفزعا أحيانا إلى التهاجى وأخذ كل منهما يتعقب سقطات صاحبه، ويكتب فى ذلك رسائل وخاصة ابن رشيق. وكثيرا ما كانا يعودان إلى التصافى والمودة - وبينما هم فى ذلك إذا بالزحفة الهلالية تدمر القيروان فيتركها الشاعران مع المعز إلى المهدية، وسرعان ما ينزلان صقلية، ويظل بها ابن رشيق، أما ابن شرف فيرحل عنها مع أسرته إلى الأندلس، ويبدو أنه لقى مع أطفاله الصغار عنتا فى رحلته بحرا وبرًّا، ويصورهم فى بعض شعره حماما ضلَّ أوكاره وكلما أفزعهم شيء تزاحموا على ضلوعه، وحِضْنه لا يسعهم - إذ كانوا تسعة، فهذا يثبت عليه وذاك يُزْلق عنه، وهو حان مشفق عليهم. وينزل المرية فى الأندلس برحاب المعتصم بن صمادح ويمتدحه وينال عطاياه ويرسل ببعض قصائده إلى المعتضد أمير إشبيلية، وظل ينتقل بين أمراء المدن الأندلسية ببلنسية ومرسية وبطليوس وطليطلة والوزير ابن السقاء بقرطبة وينال عطاياهم إلى أن توفى سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٨م. ولم يكن ابن شرف شاعرا فحسب، بل كان أيضا صاحب شعور رقيق رقة مفرطة، كما كان صاحب حس مرهف إلى أبعد حد، ويتضح ذلك فى وصفه لنكبة القيروان سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٨م حين نزل بها الأعراب الهلاليون، وأخذوا يَفْتكون برجالها ويسبون نساءها ويهدمون دورها ويأتون على كل ما كان بها من مظاهر الحضارة والعمران، وله فيها وفيما نزل بها وداهمها من الخراب قصائد رائعة، يقول فى إحداها - وهى رائية - إنه لم يبق بها سراج مضيء سوى النجوم ولم يعد ينطق فيها خليط معاشر ولا عادَ يُرَى فيها أحد من نسائها الجميلات فقد رحلن عنها وأصبحن يبتن على فَرْش الحصا يتغطين بأسمال بالية. ومن رائع تصويره لما حلَّ بالقيروان من عدوان هؤلاء الأعراب الجفاة يوم غزوهم لها ويصور هذا اليوم الأسود قائلا:

بعد يومٍ كأنما حُشِرَ الخلـ ـقُ حُفَاةً به عَوارِىَ رَجْلَى
ولهم زحمةٌ هنالك تَحْكِى زَحْمَةَ الحَشْرِ والصحائفُ تُتْلَى
وعجيجٌ وضجَّةٌ كضجيج الـ ـخَلْقِ يبكون والسرائرُ تُبْلَى[1]
من أيَامَى وراءهن يتامى مُلئوا حسرةً وشَجْوًا وثُكْلًا[2]

(١) فى القرآن فى وصف يوم القيامة أنه ﴿يوم تُبْلَى السرائر﴾ وتختبر.

(٢) أيامى: جمع أيِّم: العزب من الرجال والنساء. ثكلا: فقدا للولد

وَثَكَالَى أراملًا حاملاتٍ طفلةً تحمل الرِّضاعَ وطفلا(١)

لقد كان يوما عصيبا لا كمثله يوم، يوما حُشر فيه أهل القيروان حفاة عراة راجلين، يتدافعون فى زحام رهيب كزحام الحشر يوم البعث حين تُتْلَى الصحائف، وصياح وضجيج وبكاء من كل جانب كأنه يوم الحشر حقا يوم تُبْلَى وتبدو السرائر، ونساء أيامى غير متزوجات اكتظوا حسرة وحزنا وثكالى فاقدات لأزواجهن أرامل مرضعات يحملن طفلات أو أطفالا. ويستمر ابن شرف باكيا ما نزل بالقيروان قائلا:

نادباتٍ، عَفْراءُ تُسْعِدُ سُعْدَى وسعادٌ تجيب بالنَّوْحِ جُمْلا(٢)
ليس منهن من تودِّع جارا لا، ولا حُرْمةٌ تشيِّعُ أهلا
فإذا القَفْرُ ضمَّهم فوَّق الدَّهْـ ـرُ لهم غير ذلك النبل نَبْلَا(٣)
من ثعابينَ حاملين نيوبًا عُصُلا: ذابلًا ونَبْلًا ونَصْلا(٤)
وشياطينَ رامحين يُلاقو ن بِجُونِ الفَلَا مساكين عُزْلا(٥)

وهن نادبات، عفراء تساعد سعدى فى الندب والبكاء وسعاد تجيب جملا بالنواح والعويل، وليس منهن من تقف لتودع جارا ولا سيدة تودِّع أهلا. وإذا الخلاء ضمهم صوَّب الدهر لهم نبلا غير ذلك النبل من ثعابين حاملين نيوبا صلبة: رماحا ونبالا ونصالا، وشياطين تطعن بالرماح فى سود الفلوات، مساكينعزْلًا دون سلاح. ويبكى ابن شرف رجال القيروان الذين ولوا منها فرارا، قائلا:

وإذا نجَّت المقاديرُ منهم راحلا بالخلاص يحمل رَحْلا(٦)
لقىَ الهُونَ والمذلَّة أنىَّ كان من سائر البلاد وحَلَّا
وترى أشرفَ البريّةِ نَفْسًا ناكسًا رأسَهُ يلاطفُ نَذْلا
مُزِّقوا فى البلاد شرقا وغَرْبا يَسْكبون الدموع هَطْلًا ووَبْلا(٧)

والرجال إن نجت المقادير منهم راحلا ومعه رحله وما استصحبه فيه من الأوعية لقى الهوان والذل أنى كان وأين حل، وترى أشرف البرية وأعزها نفسا ناكسا رأسه يلاطف أحد هؤلاء

(١) ثكالى جمع ثاكلة: فاقدة الولد.
(٢) عفراء وسعدى وسعاد وجمل أسماء نساء.
(٣) فوَّق: سدَّد.
(٤) عصلا معوجّة يريد صلبة. ذابلا: رمحا دقيقا.
(٥) رامحين: يحملون الرماح، جون: سود من كثرة الغبار.
(٦) الرحل: ما يحمل على الدابة للركوب أو من متاع وأثاث.
(٧) مزِّقوا: تفرقوا. هطلا: متتابعة، وبلا: منهمرة.

الأنذال، ويا للحسرة لقد مُزِّق وفُرِّق أهل القيروان فى البلاد شرقا وغربا، وإنهم ليسكبون الدموع متتابعة ومدرارا. ولا ريب فى أن ابن شرف استطاع أن يثأر لقومه وأهله من سكان القيروان من هؤلاء الأعراب الجفاة الغلاظ ثأرا خالدا على مر الزمن بفضل شاعريته الفذة النادرة.

محمد[1] بن عبد السلام

هو أبو الفتح محمد بن محمد بن عبد السلام مولده ومنشؤه ومرباه بتونس فى القرن العاشر الهجرى اختلف فى شبابه إلى حلقات العلماء بجامع الزيتونة، وكان ذكيا فحمل عنهم معارفهم وأخذوا ينوِّهون به وخاصة فى الأدب، ولمع اسمه بين أدباء تونس وشعرائها، ولما احتلَّ الإسبان مدينة تونس وأخذت تصدر منهم المظالم التى سجَّلها التاريخ غضب ابن عبد السلام لمدينته وقومه وصمَّم على مغادرة البلاد واتجه إلى الشام واتخذ دمشق مقرا له، وأخذ يقرئ بها للطلاب العلوم المختلفة ونصوصا جيدة من الأدب إلى أن توفى سنة ٩٧٥هـ/١٥٦٧م ودُفن بباب الفراديس، وله قصيدة طويلة أرسل بها من دمشق إلى أهله يتشوق فيها إلى وطنه، ويبكى تونس ودولتها الحفصية، وهو يستهلها ببث أشواقه قائلا:

سلوا البارق النجدىَّ عن سُحْب أجْفانى ... وعمـا بقلبى من لـواعـج نيـرانِ
ولا تسألوا غير الصَّبا عن صبـابتى ... وشـدَّة أشـواقى إليكم وأشجـانى
وكم نحـوكم حَمَّلْتُهـا من رسـالـةٍ ... مـدوَّنةٍ فى شَرْح حالى ووِجْـدانى
ونـاشـدتُـهـا بـالله إلَّا تـفـضَّـلتْ ... بتبليـغ أحْبابى السـلامَ وجِيـرانى
تحيـةَ مشتـاقٍ إلى ذلـك الحِمَى ... وسُكَّـانـهِ والنـازحين بـأظْعـانِ[2]

وهو يطلب إلى أهل بلدته تونس الحبيبة أن يسألوا البرق المقبل من نجد مثوى الحب عما يذرف من دموع حنينا إليهم وعما يضطرم فى قلبه من نيران الشوق ولواعجه، ويقول لهم: لا تسألوا غير الصَّبا - التى طالما ذكرها النجديون المحبّون - عن أشواقى وصبابتى وأشجانى، وكم حملتها إليكم من رسالة مفعمة بمشاعرى الوجدانية، وقد ناشدتها الله واستحلفتها به أن تتفضَّل بتبليغ أحبابى وجيرانى التونسيين سلامى وإنها لتحية مشتاق إلى ذلك الحمى وسكانه وإلى النازحين عنه فى الأظعان والهوادج ويقول.

(١) انظر فى ترجمته وشعره المجمل فى تاريخ الأدب التونسى ص ٢٣٠.

(٢) أظعان جمع ظعينة: الراحلة يرحل عليها، والهودج.

سقى الله هاتيك الديارَ وأهْلَها ... سحائبَ تحكى صَوْبَ مدمعىَ القانى[١]
وحيًّا ربوعَ الحيِّ من خير بلدةٍ ... تخيَّرها قِدْمًا أفاضلُ يونانِ
هى الحضرةُ العُليا مدينةُ تونسٍ ... أنيسةُ إنسانٍ رآها بإنسانِ[٢]
لها الفخرُ والفضلُ المبينُ بما حوتْ ... من الإنِس والحُسْنِ المنوطِ بإحسانِ

وهو يدعو الله أن يسقى تلك الديار وسكانها بسحائب تحكى ما ينهلُّ من مدمعه القانى، ويسأل الله أن يحيى تلك البلدة العظيمة التى تخيرها قديما فضلاء اليونان، إنها المدينة العليا تونس مؤنسة كل إنسان يراها بعينه، وإن لها الفخر والفضل البيِّن بما حوت من رجال الإنس ومن الحسن البارع. ويسترسل باكيا الدولة الحفصية بها قائلا:

لقد حَلَّ منها آلُ حَفْصٍ ملُوكُها ... مراتبَ تسمو فوق هامَةِ كيوانِ[٣]
وسادوا بها عُظْمَ الملوك وشيَّدوا ... بها من مبانى العز أفخرَ بُنْيانِ
وكان لهم فيها بهاءٌ وبهجةٌ ... وحسنُ نظامٍ لا يُعابُ بنُقْصانِ
وكان لهم فيها عساكرُ جمَّةٌ ... تصولُ بأسيافٍ وتَسْطُو بُمرَّانِ[٤]
وكانتْ على الأعداء فى حَوْمة الوَغَى ... تصولُ بأبطالٍ وتَسْطُو بشجعانِ

وهو يبكى الدولة الحفصية مشيدا بملوكها الذين سمت مراتبهم فوق رأس كوكب كيوان أو زُحَل، وسادوا أكثر الملوك وشادوا بها من قصور العز أفخر القصور وكان لهم فيها حسن وبهجة وجمال، وكانت لهم جيوش كثيرة تصول وتقهر بسيوفٍ ورماح صلبة، وكانت تسطو على الأعداء فى ساح لوغى والحرب بأبطال لا يماثلهم أبطال، ويبكى ما كان بتونس من علم وعلماء وأدب وأدباء قائلا:

وكانتْ لطلَّاب المعارف قِبْلةً ... لما فى حِماها من أئمةِ عِرْفانِ
وكان لأهل العلم فيها وجاهةٌ ... وجاهٌ وعزٌّ مجدُه ليس بالفانى
ومن أدباء النَّظْم والنثر معشرٌ ... يفوقُ بناديها بلاغةَ سَحْبانِ
وما برحتْ فيها محاسنُ جَمَّةٌ ... وفى كل نوعٍ أهلُ حِذقٍ وإتقانِ

وهو يبكى حركتها العلمية والأدبية، ويذكر كيف كان الطلاب يؤمون أئمتها من كل فج كما يذكر ما كان لعلمائها عند حكَّامها وأهلها من جاهٍ وعزٍّ مجده لا يفنى، ويشيد بأدبائها من

(١) صوب هنا: سيل.
(٢) إنسان الثانية: إنسان العين وهو الحدقة.
(٣) كيوان: زحل.
(٤) المران: الرماح.

الشعراء والكتّاب وبلاغتهم التى تفوق بلاغة سحبان المشهور بحسن بيانه فى أوائل العصر الأموى، وينوِّه بما كان بها من محاسن حضاريَّة وصناعات بديعة قام عليها أهل حذق وافتنان وإتقان. ويأسى لهذا المصير المحزن الذى أصاب مدينة تونس قائلا:

فَشُتِّتَ ذاك الأُنْسُ من بعد جَمْعِهِ كما انتثرتْ يوما قلائدُ عِقْيانِ
فأعظمْ برُزْءٍ خَصَّ خَيْرَ مدينةٍ وخيرَ أُناسٍ بين عُجْمٍ وعُرْبانِ
لعمرى لقد كادتْ عليها قلوبُنا تَضَرَّمُ من خَطْبٍ عليها بنيرانِ
وما الدَّهْرُ إلا هكذا فاصطبرْ له رزيَّةُ مالٍ أو تفرّقُ خِلّانِ

وهو يقول إن كل هذا الأنس الذى كانت تحظى به مدينة تونس وكل هذا الجاه والمجد تفرَّق وتشتّت كما تتشتت وتنتثر قلائد أو عقود ذهبية بديعة، وما أعظمه من رزء فادح نزل على خير مدينة وخير أناس بين الأعاجم والعرب، وإن قلوبنا لتضطرم عليها نيرانًا ملتهبة. ويعود إلى نفسه فيقول إنه ليس أمامنا إلا الصبر حتى تنجلى عن مدينتنا تلك الغمرة. وهى حقيقة الدهر، فهو دائما يرزأ المدن كما يرزأ الناس إما فى مال وإما فى فراق إخوان وخلان.

٤

شعراء الوعظ والتصوف

(أ) شعراء الوعظ

القرآن الكريم دائمًا يعظ ويدعو الإنسان إلى التفكير المتصل فى ملكوت السموات والأرض ليعلم أن له خالقا أحكم صنعه، ودائما ينبه إلى أعمال وأقوال من العبادات التى تطهر نفسه كما ينبه إلى أنه حرَّم الفواحش ما كبر منها وما صغر وأنه ينبغى أن يسلك طريق الفضيلة والتحلى بالخلق الحسن حتى ينال رضا ربه نابذا كل الرذائل ومراقبا ربه فى كل ما يأتى من قول أو فعل. ويبدئ القرآن ويعيد فى عقيدة المعاد وأن الناس سيبعثون جميعا يوم القيامة وكلٌ يحاسب على أعماله ويُجْزَى عليها فإما إلى نعيم الله ورضوانه وإما إلى جحيمه وعذابه. وشرَعَ الله الخطَابةَ الواعظة فى صلاة يوم الجمعة كل أسبوع وصلاة العيدين، وواعظ الأمة الأول الرسول ﷺ وتلاه الخلفاء الراشدون يعظون الناس، وبالمثل خطباء الأمة فى مشارق العالم الإسلام ومغاربه، وتكاثر الوعاظ - مع مر الزمن - يعظون الناس فى المساجد، وللإقليم التونسى مثل غيره من الأقاليم الإسلامية نشاط واسع فى هذا الجانب، ويكتظ كتاب رياض النفوس للمالكى بأسماء وعاظ كثيرين كانوا يعيشون معيشه تقشف وزهد، رافضين متاع الدنيا

طالبين ما عند الله من ثواب الآخرة. وساعد على انتشار هذه الروح الدينية هناك كثرة المحارس أو الرباطات التى أقيمت على طول الساحل التونسى للعبادة والنسك وحراسة البلاد من القراصنة وأعداء الله الروم وغيرهم. ولم يكن هناك فقيه كبير إلا ويقيم بها بعض أشهر سنويا للدفاع عن الوطن حين يباغته عدوٌّ أو قراصنة، واشتهر سحنون إمام المذهب المالكى فى المغرب جميعه بأنه كان يرابط وقتا فى السنة بالمنستير قرب مدينة سوسة، وكان واعظا وزاهدا كبيرا وكثير من تلاميذه كانوا وعاظا زهادًا واشتهر منهم شاعران فقيهان واعظان، هما أبو العباس بن زرزر وأحمد الصواف، أما ابن زرزر فأكثر من الشعر فى توحيد الله والرد على المارقين والملحدين، وأما أحمد الصواف فله شعر كثير فى المواعظ وسنخصه بترجمة. ويلقانا بعده ابن الرايس الفضل بن نصر المتوفى سنة ٣٤٤هـ/٩٥٥م وهو من أفذاذ الشعراء والعلماء، وله يعظ من قصيدة[(١)]:

ماذا تريك حوادثُ الأزمانِ ... وصروفُها وطوارقُ الحَدَثانِ[(٢)]
والجارياتُ السَّبْعُ فى الفلَكِ الذى ... يجرى بتقدير العظيم الشانِ
من خَفْضِ أَعْلامٍ وَرفْعِ معاشرٍ ... وزوالِ سلطانٍ إلى سلطانِ
أمّا الزمانُ فواعظٌ لك صَرْفُهُ ... لو كنت متَّعظًا بِصَرْفِ زمانِ

وهو يقول: ها هى حوادث الأزمان ونوائبها وحوادث الليل والنهار وما تجرى به الكواكب السيارة فى الفلك بتقدير الله وما يتصل بذلك من الهبوط بأناس والارتفاع بآخرين وزوال سلطان إلى سلطان، كل ذلك هو الزمان، وحرى بك أن تتعظ بصرفه وبما يجرى به من محن وخطوب. ولا ريب فى أن حلقات الوعظ الكثيرة التى كانت منبثة فى القيروان وغيرها منذ القرن الثالث بل قبله هى التى أعدت لكثرة الوعظ على ألسنة الشعراء. ويقول عبد الله بن رشيق المتوفى سنة ١٠٢٩/٤١٩م[(٣)]:

خيرُ أعمالك الرِّضا ... بالمقادير والقَضا
بينما المرءُ ناطقٌ ... قِيلَ قد كان فَانْقَضَى

وهو يدعو إلى الرضا بالقضاء فلن يستطيع أحد أن يبدل حكما له، وإذن لابد أن يقبل كل ما ينزله به، فذلك هو عين العقل والصواب. ويخوِّف عبدالله بن رشيق من الموت إذ ما يلبث أن ينزل بالإنسان، فيقال: قد كان حيا وانقضى أجله وانتهى. ويقول على بن أبى الرجال رئيس

(١) المجمل فى تاريخ الأدب التونسى ص ٨٨.

(٢) صروف جمع صرف: نوائب الحدثان: الليل والنهار.

(٣) الأنموذج ص ١٩٢.

ديوان الإنشاء للدولة الصنهاجية المتوفى سنة ٤٢٦ للهجرة[١]:

أَمْنُ الزمانِ زمانةُ العَقْلِ فَاخْشَ الإلٰه وحُلْ عن الجهلِ[٢]
واعلمْ بأنك فى الحساب غَدًا تُجْزى بما قدَّمتَ من فِعْلِ

وهو يقول إن من يأمن الزمان لا يُعَدّ صحيح العقل، بل لكأنما عقله به آفة، وأى زمان إننا نحيى فيه حياة قصيرة أو طويلة ثم نلقى الله فحرى بكل شخص أن يخشاه وأن يتخلص مما على عقله من غشاوة الجهل فإنه معروض على ربه فى الحساب غدا ويجزى بما قدمت يداه من عمل طيب أو سيئ. ويقول على بن حبيب التنوخى المتوفى سنة٤٤٠هـ/١٠٤٩م واعظا[٣]:

للمرءِ فى أيامِهِ واعظٌ لو فكَّر المغرورُ فى رَمْسِهِ[٤]
كم من قريرِ العين فى غِبْطَةٍ أعراه صَرْفُ الدهر من لِبْسِهِ
ففارقَ الأحباب عن كُرْهِهِ واستبدلَ الوَحْشةَ من أُنسِهِ
ياربِّ غُفْرَانَك يَرْجُو الذى أسرف فى الدنيا على نفسه

وهو يعظ المغرور بأنه لو فكر فى رمسه أو قبره وأنه مدفون به غدا لطأطأ من غروره، وتذكر كم من شخص كان مسرورا فى نعمة وحياة رغدة طيبة جرَّده حادث الدهر من ذلك كله، ففارق الأحباب مكرها مرغما وأصبح فى حفرة مظلمة لا أنيس ولا رفيق . ويتجه الشاعر إلى ربه معترفا بما أسرف على نفسه من الذنوب راجيا منه الغفران. ويقول عبد الله التجانى الذى ترجمنا له بين شعراء المديح من قصيدة وعظية طويلة[٥]:

بادرْ إلى التقوى بِدارَ مُسارِعٍ وانهضْ إلى الطاعات نَهْضَ سِباقِ
واغْنَمْ من الأيام مهلة ساعةٍ قبل التفاف السَّاق منك بساقِ
يا أيُّها الإنسان إنك كادحٌ كَدْحًا وأنت لما كدحت مُلاقى
والمرءُ مجزيٌّ بما هو فاعلٌ وجزاؤهُ جارٍ على استحقاق

وهو ينصح من يخاطبه بالمبادرة إلى التقوى وعبادة الله بدارَ مسارعٍ عجل، وبالنهوض إلى

(١) المجمل ص ١٢٩.
(٢) زمانة: مرض. حُلْ: تحول.
(٣) الأنموذج ص ٢٨١ والحلل السندسية ٣٣٤/٢ والمجمل ص ١٣٤.
(٤) رمس: قبر.
(٥) الحلل السندسية ٥١٦/٢ والمجمل فى تاريخ الأدب التونسى ص ٢١٣.

أداء الطاعات نهوض من يريد الحصول على قصب السبق، وينصحه كذلك أن لاتفلت منه مهلة ساعة أو لحظة دون أن يعبد الله حق عبادته قبل أن يوافيه القدر ويبعث يوم القيامة يوم الهول الأكبر والتفاف الساق بالساق كما جاء فى وصف يوم البعث بسورة القيامة. ويستعين عبد الله فى البيت الثالث بالآية القرآنية فى سورة الانشقاق: ﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه﴾ فالإنسان عامل فى دنياه وسيلقى جزاء ما عمل من خير أو شر فى أخراه، إذ كلٌ يُجزَى بعمله وينال ما يستحقه من ثواب أو عقاب. وحرى بنا أن نتوقف قليلا عند الصواف ومواعظه.

أحمد[١] الصواف

هو أحمد بن أبى سليمان داود الصواف، ولد سنة ٢٠٤هـ/٨١٩م ودخل الكتاب مثل لداته وحفظ فيه القرآن الكريم، واختلف إلى حلقات المحدثين والفقهاء، ولزم حلقة سحنون وكان من أقرب تلاميذه إليه لما عهد فيه من ذكاء، وفى كتاب الحلل السندسية روايات مختلفة له عن أستاذه تتصل ببعض أخباره وببعض الأحاديث النبوية. وكان ثقة فى الفقه والعلوم الإسلامية، وروى كثيرا من الشعر غذّى به ملكته الشعرية، وكان يوصى طلبته بالوقار والتعفف ومجالسة العلماء ومجانبة الأشرار، وكان كثير التأمل فى ملكوت السموات والأرض، ونقش على خاتمه: «أحمد تفكر تعتبر» ويؤثر عنه أنه كان يقول: أنا حُبُسٌ (موقوف) وكتبى حبس على طلبة العلم، فهو محبوس على عبادة ربه ونسكه وكتبه محبوسة على طلاب العلم والمعرفة، وكان شاعرا جيدا وطبيعى أن تكون أكثر أشعاره فى الحكمة والعظة الحسنة، وعاش طويلا حتى وافاه الأجل سنة ٢٩١هـ/٩٠٣م ومن وعظه:

تركتُ تكاليف الحيـاة لأهلها ... وجَانَبْتُها طوْعًا فجانبنى الرَّدَى
أرانى بحمد الله فى المال زاهدًا ... وفى شَرف الدُّنيا وفى العزِّ أزهدا
تخليتُ عن دُنْيايَ إلا ثلاثـةً ... دفاترَ علمٍ ثم بَيْتًـا ومَسْجِدا

وهو يقول إنه لم يتعلق بشىء من تكاليف الحياة ومتاعها، ولذلك بارك الله فى حياته وجانبه الموت، ويصرح بأنه زاهد فى كل ما يطمع فيه الناس من المال ومن الشرف والعز والمجد فكل ذلك لا يعتد به إنما يعتد بثلاثة لا غير: بدفاتر العلم ومدارسته وبالمسجد يتبتل فيه إلى ربِّه وبيت يأوى إليه، فتلك الثلاثة هى غناه وسعادته وكل ما يقتنيه من دنياه. ثم يقول:

---

(١) انظر فى أحمد الصواف رياض النفوس للمالكى ٤٠٧/١ وما بعدها والمجمل ص٦٩ والحلل السندسية (انظر الفهرس).

أَلم تر أنَّ الدهـر يَقْرِى أُهَيْلَهُ   همومًا وأن العيش صار منكَّدا[١]
فمـا حلَّ قـومٌ فيه إلا بِفَجعـةٍ   وأنتَ لأخـرى فيه منتـظرٌ غَـدا
وكم قد رأينا من عزيزٍ مشرَّفٍ   يبيت مَقَـرًّا فى القبـاب مُمَهَّـدا
أتتْه المنايا وهْوَ فى حين غَفْلةٍ   فأضْحَى ذليلا فى التُّراب موسَّدا

وفيم تعلق الناس بالدنيا؟ إن الدهر لايزال فيها يَقْرِى الناس - ويطعمهم - هموما هما من بعد هَمٍّ، وقد صار العيش فيها نكدا كله، وهل أحد فيها إلا أصابته فجعة أو مصيبة موجعة من موت صديق أوقريب، وإن الكأس التى ذاقوها ليذوقها كل شخص بدوره، وكم قد رأينا من عزيز له شرف لايدانيه شرف يترك ذلك كله حين يوافيه القدر إلى قبر ممهد بين القبور، وإنه ليموت على حين غفلة من أهله وأصفيائه، ويدفن فى التراب ويتوسَّده ويصبح فيه أسيرا ذليلا لا شرف ولا طنافس، ولكن تراب بجانبه تراب. وقال مبتهلا إلى ربه فى ختام قصيدة له طويلة:

أَجِرْنى من عذابك واعفُ عنِّى   وكُن لى منك يا أملى مجيرًا
فإنى قد كبرتُ ورقَّ عَظْمى   وجئتُ إلى فِنـائـك مُسْتجيـرا

فهو لا يخاف الموت ولا يرهبه، ولذلك لا يعد المشيب نذيرا له بل بشيرا، إذ سيلقى ربه، وعاش حتى توفى فى السابعة والثمانين من عمره.

(ب) شعراء التصـوف

مر بنا فى الفصل الأول كيف أخذت تنشط حركة الزهاد والنساك فى القيروان وتونس وغيرهما من بلدان الثغور على الساحل التونسى منذ أواخر القرن الثانى للهجرة، إذ بُنِى بجوار هذه الثغور رباطات - وتسمى هناك محارس - للمجاهدين فى سبيل الله ضد القراصنة وكانت أشبه بحصون كبيرة إذ كان بعضها يبلغ نحو ثلاثين غرفة ومعها مسجد وحمامات وأحواض مياه، وكثيرا ما كان يُلْحَقُ بها إسطبل للخيل حتى يتمرن العبَّاد فيها والناسكون على الفروسية ولقاء العدو، وطبيعى أن كان بها بعض الأسلحة. وأعطت هذه المحارس أو الرباطات الفرصة لكى تتكون طبقات من النساك الذين وهبوا نفوسهم للنسك ولجهاد أعداء الله، وكان الفقهاء - حتى كبارهم من أمثال سحنون إمام المذهب المالكى فى الفقه - ينزلونها فترات ويلقون بها محاضرات ودروسا من شأنها أن تزيد النساك نسكا وأن تدلع الحماسة فى قلوبهم لحماية الإقليم التونسى.

---

(١) يقرى: يطعم.

ويهمنا الآن جانب النسك والعبادة، وقد أخذ كثيرون فى تلك المحارس يعيشون للنسك الخالص وحاكاهم فى ذلك بعض سكان القيروان وغيرها من المدن. وكان التصوف قد أخذ يشيع فى المشرق وانبثق عنه ضرب فلسفى آمن بالحلول على نحو ما هو معروف عن الحلاج المتوفى سنة ٣٠٩ للهجرة، وظلت القيروان ومحارس الساحل التونسى بعيدة عن هذا التصوف الفلسفى، غير أنه مع الزمن أخذ يظهر فيها من استغرقوا فى الزهد والنسك، حتى ليمكن أن نسميهم متصوفة، غير أنهم متصوفة سنيون، وهو تصوف فردى فلا طريقة صوفية للمتصوف ولا مبادئ خاصة يتخذها لطريقته الصوفية مثل أبى عقال المار ذكره غلبون بن الحسن بن غلبون من أسرة الدولة الأغلبية من أبناء مدينة رقّادة بالقرب من القيروان، وكان عابدا ناسكا، وهاجر إلى مكة واختارها دار مقام له إلى أن توفى، وله أشعار زاهدة كثيرة عليها مسحة من التصوف أنشد منها المالكى فى رياض النفوس مقطوعات متعددة[1].

ومن متصوفة هذا الدور محرز بن خلف المتوفى سنة ٤١٣ وأبو الفضل بن النحوى المتوفى بعده بقرن. وسنخص كلا منهما بكلمة. ومعنى ذلك أن القيروان ظلت لا تعرف التصوف الفلسفى ولا الطرق الصوفية حتى منتصف القرن السادس الهجرى إلا ما كانت تقرؤه فى الكتابات المشرقية، وتنتشر موجة التصوف الفلسفى غربى الاقليم التونسى بمدينة بجاية إذ ينزلها أبومدين شعيب المتوفى بتلمسان سنة ٥٩٤هـ/١١٩٨م وكان يشوب تصوفه شىء من النزعة الفلسفية، وتبعه كثيرون فى الجزائر والمغرب وزار تونس، وتبعه فيها غير تلميذ مثل أبى سعيد خلف بن يحيى التميمى المولود سنة ٥٥١ والمتوفى سنة ٦٢٨هـ/١٢٣١م. ويبدو أن عقيدته الصوفية لم ترسخ فى القيروان، وزار تونس - بعده - محيى الدين بن عربى المتصوف الأندلسى المتوفى سنة ٦٣٨ وأقام بها مدة التف فيها حوله بعض الأتباع، وأهم منه ومن أبى مدين تأثيرا فى الإقليم التونسى أبوالحسن الشاذلى المولود سنة ٥٩٣هـ/١١٩٧م والناشئ فيه بشاذلة إحدى بلدانه واتجه إلى التصوف مبكرا، ورحل إلى المشرق وتعرف فيه على أحد معتنقى الطريقة الرفاعية، وهى إحدى الطرق الصوفية السنية التى ظهرت بالمشرق فى القرن السادس الهجرى، وعاد إلى المغرب واتجه غربا إلى فاس ولقى فيها عبد السلام بن مشيش أحد أتباع طريقة أبى مدين، فلزمه مدة، ثم تركه إلى شاذلة وعاش بها فترة، وكان يتركها، أحيانا إلى تونس وينشر فيها دعوته، وتبعه فيها أصحاب كثيرون وكان يهاجم الخانقاهات والتسول بقوة، وتعرف على تلميذه أبى العباس المرسى وأعجب كل منهما بصاحبه. ويبدو أنه رأى أن يتسع بدعوته إلى طريقته، فصمم على مغادرة تونس إلى الاسكندرية وصحب معه

---

(١) رياض النفوس للمالكى ٤٣٧/١ - ٤٤٢

أبا العباس المرسى وجمعا من مريديه ونزلها سنة ٦٤٢هـ، ويقال إنه ترك فى تونس خمسين تلميذا متصوفا من أتباعه مثل على القرجانى وعائشة المنوبية[١] وطريقته أقرب إلى الطرق الصوفية السنية منها إلى الطرق الصوفية الفلسفية، وشاعت طريقته لا فى الاسكندرية وحدها، بل أيضا فى القاهرة والمدن المصرية المختلفة، بفضل تلميذه السكندرى ابن عطاء الله، وقد تولى مشيخة الطريقة بعد وفاة أبى العباس المرسى سنة ٦٨٥هـ وله فيه وفى الشاذلى كتابه الرائع لطائف المنن فى مناقب أبى العباس المرسى وشيخه أبى الحسن» وقد ساق فيه أربعة أوراد للشاذلى، وأخذت تتولد من هذه الطريقة بمصر طرق جديدة مثل الطريقة الوفائية، وكلها تنزع منزعا سنيا. وظلت الطريقة الشاذلية تشيع فى عصر الدولة الحفصية، وأخذت تشيع معها طرق صوفية مختلفة. ولابد أن نشير إلى اهتمام هذه الدولة ببناء الزوايا فى تونس لكبار المتصوفة، حتى اكتظت بها المدينة كما لابد أن نشير إلى ماذكرناه فى الفصل الأول من أن المتصوفة فى العهد الحفصى انحرفوا عن واجبهم من الجهاد ضد أعداء الله وعاشوا عالة على الدولة والأمة مرددين للعامة كلمات القطب والأبدال والكرامات. ونتوقف قليلا لنتحدث عن صوفيين سنيين مبكرين هما محرز بن خلف وأبو الفضل بن النحوى.

محرز[٢] بن خلف

هو محرز بن خلف بن رزين من ذرية أبى بكر الصديق رضى الله عنه، نشأته ومرباه بتونس، ولابد أن كان والده من فضلائها، وقد عكف على حلقات الشيوخ بها ينهل من معينهم فى الفقه والتفسير والحديث النبوى، وأيضا فى علوم العربية. ولم يحاول بعد أن فرغ من تعلمه وأخذ ماعند الشيوخ أن يجلس إلى حلقة يعلم فيها الطلاب الناضجين من الشباب، بل رأى أن يعنى بتعليم الناشئة العربية وأصول الدين الحنيف وتعاليمه، وكان يسلك فى ذلك طرقا تعليمية حميدة مما جعل الناس يطلقون عليه اسم المربى محرز. وكانت مدرسته فى مدينة تونس معروفه باسمه، دفن فيها، وكان تقيا صالحا يتوفر على عبادة ربه والنسك له، مما لفت إليه أنظار مواطنيه، وجعلهم يحسنون الاعتقاد فيه، حتى أطلقوا عليه اسم الولى الصالح، وظل هذا الاعتقاد يلازم التونسيين بعد وفاته عن سبعين عاما ونيف سنة ٤١٣ حتى لقبوه بسلطان المدينة، لقب خصوه به دون غيره من الصوفية أصحاب الزوايا الكثيرين فى البلدة. ونسوق بعضا من كلام صاحب الحلل السندسية فى ترجمته له إذ يقول عنه: «الشيخ الأستاذ الذى شحن بنفحات عوارفه الألباب، وتغذّى من الإخلاص بخالص اللباب، وفتح له بحضرة اللطائف أعرضُ باب.. ألا وهو الحجاب الإحاطى بقصور العرفان والكوكب الذى قصُر عن مشاهدته العيان، والكهف

---

(١) من قرية منوبة بالقرب من تونس. والمجمل فى تاريخ الأدب التونسى ص١١٦.

(٢) انظر فى محرز الحلل السندسية ٨٧٤/٤.

الذى استظل تحت جناح مدده الملوان (الليل والنهار).. المالكى مذهبا الصوفى دأبا البكرى (نسبة إلى جده) نسبا». وهى مبالغة واضحة، غير أنها تدل - من بعض الوجوه - على مدى اعتقاد التونسيين فيه. ومن قوله فى الدنيا وتصاريفها وتقلباتها:

أبدتْ لنا الدنيا زخارف حُسْنها ... مكرًا بنا وخَديعةً ما فتَّرَتْ
وهى التى لم تَحْلُ قَطُّ لذائق ... إلا تكدَّر طَعْمُها فتَمَرَّرَتْ
خدَّاعةٌ بجمالها إن أقبلتْ ... فجاعةٌ بزوالها إن أدْبرتْ
وهَّابةٌ سَلَّابةٌ لِهِباتها ... طلَّابةٌ لخراب ما قد عَمَّرتْ
فإذا بَنَتْ أمرا وتمَّ بِناؤها ... نصبتْ مجانقَها عليه فدمَّرتْ

وهى عظة بديعة، يقول: لاتغتر بما تبديه لك الدنيا من زخارفها وزينتها، فذلك مكر منها وخديعة لا تقصِّر فيها، إنها لم تَصْفُ وتَحْلُ قط لذائق إلا تغير طعمها وتمرَّر مرا شديدا، وحذار من إقبالها بحسنها عليك فإنها لاتلبث أن تدبر عنك وتفجعك فيما أعطتك، إنها وهابة غير أنها سرعان ماتسلب ماوهبتك، وإنها لتخرِّب ما عمرته لك، وإذا شادت أمرا ورفعته عاليا سرعان ما تنصب مجانيقها عليه وتدمره تدميرا كأن لم يكن شيئا مذكورا. ويحاول أن يعزى المظلومين قائلا:

إذا ظالمٌ قد عاهد الظُّلْمَ مذهبًا ... وجار غُلُوًّا فى عُلُوِّ اكتسابِهِ
فكِلْهُ إلى رَيْبِ الزمان وجَوْرِه ... سيُبْدى له ما لم يكن فى حِسابِهِ
فكم ذا رأينا ظالمًا متجبِّراً ... يَرَى النَّجم تِيهًا تحت ظلِّ ركابِه
فلما تمادى واستطال بجوْرِهِ ... أناختْ صروفُ الحادثات ببابِهِ
وعوقب بالذنب الذى كان يَجْتَنِى ... وصبَّ عليه اللّهُ سَوْطَ عذابِه

وهو يقول للمظلوم إذا رأيت ظالما باغيا غلا وجار فى بغيه وعدوانه فاصبر ودعه إلى صرف الزمان وتقلبه فإنه سيريه مالم يكن يخطر على باله، وكم رأينا ظالما عاتيا بلغ من عتوه وتجبره أن كان يرى النجم كأنه يمشى فى ركابه، ولما تمادى فى عتوه وبغيه وظلمه نزلت النكبات ببابه وأقامت به لا تبرحه فعوقب عقابا أليما بذنبه الذى جناه بعمى بصيرته وصبَّ الله عليه سوط عذابه جزاء وفاقا لظلمه وبغيه. وله موعظة جعل موضوعها مدينة قرطاجة عاصمة الفينيقيين، ومن بعدهم الرومان والبيزنطيون، وتحدث عن عظمة الأولين البحرية وبناء الثانين للطياطرو (للتياترو) وبناء حناياها لتوصيل مياهها وتشييدهم للقصور، ويقول إن كل ما عاشت فيه كل تلك الدول المختلفة أصبح أطلالا دوارس، ويختمها بقوله عن حكامها جميعا واعظا ومنبها إلى أنه لابقاء لشىء فى الحياة:

لقد وُسِّدوا بعد الحريـر جَنَادِلاً ولم يستـطيعوا للحـوادث مـدْفعَـا
ولم يُغْنِ عنهم مـابَنَوْهُ وشيَّـدُوا وما مُتِّعوا فى الدهر مَعْ من تمتَّعا
ولنْ تَسْمعوا إلا الصَّدى بعد هاتفٍ مجيبًا له ثُمَّ الرياحَ الزَّعازَعا[١]

وهو يقول إن حكامها بعد معيشتهم فى القصور الباذخة وما كانوا يتوسدونه من الحرير والإستبرق والطنافس أصبحوا يتوسدون الصخور والتراب،وعبثا حاولوا أن يدفعوا عنهم حوادث الدهر إذ خَرُّوا صرعى جميعا، ويلتفت الشيخ محرز إلى صاحبيه هاتفا إن جزتما بربوعها الدارسة نادياني وتسمَّعا فإنكما لن تسمعا إلا صدى ندائكما ورياحا عاصفة، إذ أصبحت تلك المدينة ذات التاريخ العريق والأبنية الشامخة أطلالا عافية ورسوما دائرة، وهذه هى الدنيا كل شىء فيها إلى بِلَى وفناء

أبو الفضل[١] بن النحوى

هو أبو الفضل يوسف بن محمد الذى عُرف باسم ابن النحوى، مولده ومرباه بمدينة توزر قاعدة بلاد الجريد فى الإقليم التونسى وتركها شابا إلى القيروان لينهل من حلقات شيوخها وصحب اللخمى وأخذ عنه صحيح البخارى، ولما توفى لزم تلميذه المازرى حامل لواء الفقه المالكى، وحمل عنه مصنفاته الفقهية وأماليه فى الحديث النبوى، ونزل قلعة بنى حماد وأقرأ أو درس بها للطلاب وجال فى أنحاء المغرب، وأقرأ فى سجلماسة وفى فاس، وعاد إلى قلعة بنى حماد وتصدر فيها للتدريس بقية حياته إلى أن توفى عن ثمانين عاما سنة ٥١٣هـ/١١٢٠م، وكان لا يقبل من أحد عطاء ولا من حاكم راتبا، وظل يعيش طوال حياته من دخل مزرعة له بتوزر. وكان مثالا رفيعا للعلماء وعلى سنن الصالحين، قال عياض: «كان من أهل العلم والفضل، شديد الخوف من الله، غالب حاله الحضور معه تعالى». وله قصيدة استغاثية بديعة تسمى «المنفرجة» طارت شهرتها فى الآفاق وفيها يقول:

اشتـدِّى أزمـةُ تَنْفَـرِجِى قـد آذنَ ليلُكِ بالبَلَجِ[٣]

---

(١) الزعازع: الشديدة

(٢) انظر فى أبى الفضل بن النحوى الخريدة ٣٢٥/١ وعنوان الدراية للغبرينى ص١٩٤ والفارسية فى مبادىء الدولة الحفصية لابن منقذ ص٢٦٨ وكتاب تعريف الخلف برجال السلف للحفناوى ١٩٥/١ وما به من مصادر والمجمل فى تاريخ الأدب التونسى ص١٧٢ وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان (طبع دار المعارف) ١٠٩/٥ وذكر لقصيدته المنفرجة شروحا كثيرة منها شرح للنقاوسى البجائى وشرح لشيخ الإسلام زكريا الأنصارى كما ذكر لها تشطيرات وتخميسات مختلفة.

(٣) البلج: ضوء الصباح.

وظــلامُ الليــل لــه سُــرُجٌ   حتى يغشـاه أبو السُّـرُجِ[١]
وسحـابُ الخيـر لـه مطرٌ   فـإذا جـاء الإِبَّـان يجى[٢]
وفـوائـدُ مـولانـا جُمَـلٌ   لســرورِ الأنفس والمهـج
ولهـا أرجٌ مُحْيٍ أبـدا   فـاقصد مَحْيـا ذاك الأَرَجِ[٣]
والخلق جميعـا فى يَـدِهِ   فَذَوُو سَعةٍ وذَوُو حَـرَجِ[٤]

وهو يسلم أمره إلى ربه مؤمنا بأن أى أزمة أو كارثة مهما اشتدت لابد أن تنفرج، وأن ليلها ليوشك أن يتلوه البلج أو ضوء الصباح، ونفس ظلام الليل الداجى له سرج من النجوم حتى يغمره ضوء الشمس أبو السرج، وإن كل شيء له أوان، وما أسرع أن يهطل سحاب الخير حين يأتى إبَّانه وأوانه، وإن نعم الله لتأتى جُمَلا تترى لتضيء النفوس والأرواح ولها شذًى عطر محي دائمًا فاقصده واحرص عليه حتى تحيا حياة هنيئة، وارض بقضاء الله فى قسمته الخلق بين موسَّع - ومضيَّق - عليه فى الرزق، فلذلك حكمته. وفيها أيضا يقول:

وإذا انفتحتْ أبـوابُ هُـدًى   فـاعجـلْ لخـزائنها وَلِـجِ[٥]
ولـطاعتـه وصَبَـاحَـتِـهـا   أنـوارُ صبـاحٍ مُنْبَلِجِ[٦]
من يخطبْ حورَ العِين بها   يـظفـرْ بـالحـور وبـالغَنَجِ[٧]
وكن المـرضىَّ لهـا بتُقىً   تـرضـاه غَـدًا وتكـون نَجِى

وهو ينصح مخاطبه إذا انفتحت أمامه أبواب الهدى أن يسارع إلى ولوجها ودخولها ليهنأ بطاعة ربه وأنوارها المضيئة المشرقة، وليكون من أهل الجنة ويحظى بالحور ودلالهن وجمالهن، وهولن ينالهن إلا بتقى الله حق تقاته وعبادته له حق عبادته. ويوصيه بتلاوة القرآن الكريم والتهجد قربى لرضوان ربه. والمنفرجة فى أربعين بيتا،كلها بهذه اللغة السلسة العذبة وهذه الموسيقى ذات الألحان البديعة. وكان أبو الفضل صوفيا بحق، يأخذ نفسه بالتقشف ويلبس خشن الصوف، ويعبد الله كأنه يراه أو كما قال عياض كأنه حاضر معه، وله يضرع إلى الله تعالى فى بعض تهجده:

---

(١) سرج: يقصد النجوم. أبوالسرج: ضوء الشمس.
(٢) الإبان: الأوان.
(٣) أرج: عطر.
(٤) حرج: ضيق.
(٥) ولج: ادخل.
(٦) صباحة: إشراق. منبلج: مضيء.
(٧) الحور العين: نساء الجنان كما فى القرآن. الغنج: الدلال.

لبستُ ثوبَ الرَّجَا والناسُ قد رقدوا وقمتُ أشكو إلى مولاىَ ما أجِدُ
وقلتُ يـا سيِّـدى يـــاَمُنْتَهى أملى يا مَنْ عليه بكشف الضرِّ أعتمدُ
أشكـو إليك أمـورًا أنت تعلمها مالى على حَمْلها صَبْرٌ ولا جَلَدُ
وقد مددت يـدى للضُّرِّ مُشْتكيًـا إليك يا خير من مُدَّتْ إليه يَدُ

وهو يضرع إلى ربه لابسا ثوب الرجاء والأمل والناس نيام قائما بين يديه يشكو متضرعا متذللا إلى سيد الكون ومنتهى أمله فى دنياه أن يكشف عنه الضر وكل ما يعلمه مما لا طاقة له ولا صبر ولا جلد على حمله، ويقول ضارعا شاكيا لقد مددت يدى إلى خير من تمد له الأيدى فلا تردنى عن بابك خائبًا. واكشف عنى ما أصابنى من ضر بفضلك وإحسانك وإنعامك.

٥

شعراء المدائح النبوية

الرسول ﷺ المثل الأعلى الكامل للمسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها، وهم حين يحجون يقصدون إليه فى المدينة لزيارة قبره العطر، وما من مسلم إلا وهو يتمنى هذه الزيارة الشريفة، فإن أقعدته -أو منعته- الضرورة وكان شاعرًا دبج قصيدة يتشوق فيها إلى اكتحال عينيه برؤية قبر حبيب الله وصفيه: الرحمة المهداة والنعمة المسداة إلى أمته المخصوص بالإسراء ليلا إلى بيت المقدس ومعراجه أو رقيه إلى السموات السبع، الذى خُصَّ بالقرآن الكريم معجزته الكبرى التى ليس لها سابقة مماثلة ولا لاحقة، مع ما اتصف به من خلق رفيع يعجز البيان عن وصفه، ومع رسالته الإلـــهية الهادية التى تحقق للناس السعادة فى الدارين. وقد دبج حسان وكعب بن زهير وغيرهما فى حياته قصائد بديعة فى مديحه، وتكاثرت سيول هذا المديح بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى إلى اليوم على ألسنة شعراء العالم الإسلامى شرقا وغربًا بحيث تكوَّن نهرًا عظيمًا لكل بلد أو قطر إسلامى جدوله المتدفق فيه. والإقليم التونسى كغيره من الأقطار الإسلامية له جدول تترقرق فيه المدائح النبوية. ولن نستطيع أن نعرض ما فاض على ألسنة شعراء القيروان وتونس من هذه المدائح، وخاصة فى العصر الحسينى - لكثرتها، ولذلك ستكتفى باثنين من العصور المختلفة اشتهرت مدائحها النبوية، وهما عبدالله الشقراطسى وابن السِّماط المهدوى.

عبد[١] الله الشَّقْراطِسِي

هو عبد الله بن يحيى بن على الشَّقْراطِسِى نسبة إلى قلعة رومية أقيمت قديما بالقرب من قفصة تسمى «شَقْراطس». ومولده ومرباه فى «توزر» مثل أبى الفضل بن النحوى، وهو يسبقه بنحو خمسين عاما إذ توفى سنة ٤٦٦هـ/١٠٧٤م. ولما بلغ مبلغ الشباب رأى أن يكمل دراسته فى القيروان، فاختلف إلى شيوخها، وأخذ ما استطاع منهم حتى غدا فقيها محدثا، وحجَّ، وعاد فعين قاضيا فى بلده توزر إلى وفاته، وكان مع قيامه فيها بالقضاء يدرس للطلاب وينشر العلم ما استطاع، ويقال إن ابن النحوى درس عليه. وقد طار صيته فى أنحاء العالم العربى بقصيدة فريدة فى ١٣٣ بيتا نظمها فى مديح الرسول ﷺ، استهلها بقوله:

الحمدُ لله منا باعثِ الرُّسُلِ ... هَدَى بأحمدَ منا أحمدَ السُّبُلِ
خَيْرِ البريَّة من بدوٍ ومن حَضَرٍ ... وأكرمِ الخَلْق من حافٍ ومُنْتَعِلِ
تَوْراةُ موسى أتتْ عنه فصدَّقها ... إنجيلُ عيسى بحقٍّ غير مفتَعلِ
ضاءت لمولده الآفاقُ واتَّصلتْ ... بُشْرَى الهَوَاتِفِ فى الإشراقِ والطَّفَلِ[٢]

وهو يحمد الله باعث الرسل إلى الأمم أن بعث الرسول إلى أمته المحمدية هاديا لها إلى خير السُّبل أو الطرق وإنه لأفضل البرية جمعاء متبدية ومتحضرة وأكرم الخلق جميعا حفاة ومنتعلين، ويقول إن توراة موسى بشرت به وصدقها الإنجيل، مشيرًا بذلك إلى آية سورة الأعراف وأنه ممن تشملهم رحمة الله ﴿الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر﴾ ويقول إن الآفاق أضاءت لمولده ودُقت البشائر فى الإشراق والظلام. ويمضى فى ذكر معجزات مولده ومعجزاته فى حياته وفى الهجرة وما خصه الله به من عروجه إلى السماء. ويعود إلى تفصيل القول فى معجزاته ومعجزته الكبرى القرآن، ويلم بأذى قريش لمن اتبعوه وهو لا يزال بمكة وخاصة بلالا، ويذكر انتصاره على قريش ببدر إذ حطم جيشهم حطما، وأسر نفرًا من أشرافهم، وبكى أهل مكة من رجال ونساء بدموع غزار، ويذكر يوم فتح مكة، وقد جاءها الرسول فى عديد من الجنود من يثرب

---

(١) انظر فى الشقراطسى الوفيات لابن منقذ طبع بيروت) ص٢٥٢ وعنوان الأريب ١/٤٢، ومجمل تاريخ الأدب التونسى ص١٦٣ وبروكلمان ٥/١٠٨ وذكر أن للشقراطسية شرحا لابن الشباط التوزرى مواطنه المتوفى سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م، كما ذكر لها تخميسات لابن الشباط وغيره.

(٢) الطفل: الظلام.

ومختلف القبائل، ورأت قريش أن لا قبل لها بلقائه، فاستسلمت ودخلت فى دين الله، يقول:

ويومَ مكةَ إذ أشرفتَ فى أُمَمٍ يضيقُ عنها فِجاجُ الوَعْثِ والسَّهَلِ (١)
خوافقٌ ضاق ذَرْعُ الخافقين بها فى قاتمٍ من عَجاج الخَيْل والإبلِ (٢)
وجَحْفَلٍ قُذُفِ الأرجاء ذى لَجبٍ عَرَمْرَمٍ كزُهاء الليـل مُنْسجلِ (٣)
وأنت صلَّى عليـك الله تَقْـدُمهم فى بهوِ إشراقِ نورٍ منك مكتملِ
والخَيْلُ تختال زَهْـوًا فى أعِنَّتها والعِيسُ تنثال رَهْوًا فى ثُنَى الجُدُلِ (٤)
أهلَّ ثهلان بالتهليل من طـربٍ وذاب يذبل تهليلا من الذُّبُلِ (٥)
الملك لله هذا عِزُّ من عُقِـدتْ له النبوة قبل العرش فى الأزلِ

وهو يتحدث عن يوم فتح مكة ومع الرسول أمم من يثرب والقبائل تضيق عنها فجاج الأرض العَسِرة والممهدة السهلة، خوافق متحركة ضاقت بها لكثرتها طاقة المشرق والمغرب، وقد عقدت حركة الخيل والإبل عليها غبارًا كثيفًا، وإنه لجيش ضخم متسع الأرجاء له لجب وصخب عرمرم أو شديد، كزهاء الليل ومقداره، تنصب قطعه انصبابا، والرسول - ﷺ - على رأس هذا الجحفل، يحف به بهاء ونور منه مكتملان والخيل تختال فى أعنتها ومسيرتها زهوا، والعيس أو الإبل تتابع سائرة فى مضاعف من جُدلها أو أزمتها، وأهلَّ ثهلان رافعا صوته بذكر الله من طرب وفرح، وذاب يذبل خوفا من الرماح وكثرة السلاح، وهذا عز لا يماثله عز، عز من كتبت له النبوة فى الأزل البعيد قبل خلق العرش وتكوينه. ويتحدث عن الانتصارات فى الفتوح الإسلامية فى أنحاء المعمورة فى العراق وديار الفرس والترك والصين وبلاد النوبة والزنج ومصر والمغرب، كما يتحدث عن منزلة الرسول ﷺ عند الله واختصاصه بالشفاعة للعباد خلاصا من هول المحشر، ويطلب منه الشفاعة ومن الله الغفران.

---

(١) فجاج الوعث: الطرق العسرة.

(٢) ضاق ذرع الخافقين: ضاق وسع المشرق والمغرب. عجاج الحرب: غبارها.

(٣) جحفل: جيش ضخم. قذف: بعيد. لجب: صياح. عرمرمٍ: شديد. زهاء الليل: مقداره. منسجل: منصبٌ ومصبوب.

(٤) العيس: الإبل. تنثال: تسيل وتنصبّ. رهوا: بطيئة أو متئدة. ثنى الجدل: الأزمّة المزدوجة الطاقات.

(٥) ثهلان ويذبل: جبلان عند مكة. الذبل: الرماح.

ابن[1] السماط المهدوى

هو أبو يعقوب يوسف بن على بن عبد الملك بن السماط البكرى، ولد بالمهدية سنة ٦١٣ وبها منشؤه ومرباه، من بيت علم وفضل وثراء، وتفتحت شاعريته مبكرة، وكان من نعم الله عليه أن قصر شعره على مدح الرسول ﷺ، فلا يوجد له فى غير هذا المديح شعر إلا التافه النَّزر مما قاله فى صباه، ويقول صاحب الحلل السندسية: «هو عالى الطبقة فى الشعر جدا، وشعره مدوَّن مشهور». وظل يحيا فى المهدية يمدح الحضرة النبوية حتى وافاه الأجل سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م واحتفظ له صاحب الحلل السندسية بخمس قصائد نبوية باهرة، وفى ثانيتها يقول متشوقا إلى يثرب وزيارتها الشريفة:

رَعْىُ الحقوق - كما علمتَ - حقيقُ والصبر عن وادى العَقيقِ عُقوقُ[2]
ولأهــل ذيّــاك الحِمَى بقلوبنــا شغفٌ يسوق نفوسنــا ويشوقُ
ولـذكرهم بَـرْدٌ على طىِّ الحَشَا تُشْفَـى بـه مـرضـاهمُ وتُـفيـقُ
قـومٌ بهم طـاب النسيمُ بـطَيْبَـةٍ حتى انثنى كالمسك وهو فتيقُ[3]
وغَـدَا ثـراهـا للشِّفـاه مَـراشِفًـا وبقـاعُهـا كـلَّ البقـاعِ تفـوقُ
ومــزارهـا أشْهَى إلى عُشّــاقهـا من شـاطىءٍ يأْوِى إليـه غـريقُ

وهو يقول إن للزيارة النبوية حقوقا ينبغى أن تؤدى، وإن الصبر عن زيارة وادى العقيق بالمدينة المنورة ليعد عقوقا، وإن لأهل هذا الحمى بقلوبنا شغفًا وشوقًا شديدًا ولذكرهم بَرْدًا على الأحشاء حتى لكأنه دواء يشفى المرضى من عللها الدفينة، قوم بهم ذكا النسيم وطاب بطيبة أو يثرب، حتى أصبح كالمسك حين يسطع شذاه، وإن ثراها ليود الناس حبا فى الرسول أن يرشفوه بشفاههم رشفا، وإن عشاقها فى المعمورة ليتمنون زيارتها يطلبون بها النجاة كما يتمنى الغريق شاطئا يأوى إليه من الهلاك. ويقول فى القصيدة الرابعة:

أعِـدِ الحـديثَ فليس بـالمملولِ عن خَيْرِ مبعوثٍ وخَيْـرِ رسولِ
وامْـلأ مسـامعَنـا بـطيبِ حـديثـهِ فهو الشفاءُ لحـرِّ كل غَلِيـلِ[4]
وادْأَبْ عليــه مصلِّيًــا ومسـلِّمــا فكـذا أتى فى محكم التَّنزيـلِ

---

(١) انظر فى ابن السماط المهدوى الحلل السندسية ٥٠٨/٢ وما بعدها وشجرة النور الزكية ١٩٢/١ ومجمل تاريخ الأدب التونسى ص٢٠٨.

(٢) وادى العقيق: واد بالمدينة.

(٣) طيبة: المدينة. فتيق: ساطع الرائحة.

(٤) غليل: شدة العطش وحرارته.

واخْصُصْ بتَرْدَادِ السلام ضَرِيحَهُ   فى كلِّ شارقةٍ وكلِّ أصيلِ[1]
قمرٌ له هضباتُ مكةَ مطلعٌ   والروضةُ الفَيْحاءُ أُفْقُ أفولِ[2]
جاءتْ نعوتُ كمالِهِ منصوصةً   فى الذِّكْرِ والتوراةِ والإنجيلِ
هذا الفَخارُ ومن يكنْ ذا وصْفَهُ   فالمدحُ فيه كقطرةٍ فى النِّيلِ

وهو يطلب من صاحبه أن يعيد الحديث مرارًا وتكرارًا عن خير رسول ومبعوث أهدى إلى البشرية، وأن يملأ المسامع بحديثه الطيب الذكيّ فإن فيه شفاء من حرارة كل ظمأ شديد، وأن يدأب ويجد فى الصلاة والسلام على الرسول اتباعا لهدى القرآن القائل: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلِّموا تسليما﴾، ويقول لصاحبه خُصَّ بترداد السلام وتكراره قبرَه كل صباح وكل مساء، وإنه لقمر بدر طلع من هضبات مكة وأفقها، وأفل أو غرب فى أفق يثرب فى الروضة الفيحاء ذات الشذى العطر، ويذكر أن نعوت كماله نصَّ عليها التنزيل كما جاء بآية سورة القلم فى خطابه ﷺ: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ كما نصَّت عليها التوراة والإنجيل وكما جاء بآية سورة الأعراف السالفة فى تعليقنا على بعض أبيات عبدالله الشقراطسى. ومضى ابن السماط فى القصيدة يعدد شمائله الرفيعة وبعض معجزاته، وقال هذا هو الفخر الحقيقى ومن يكن هذا وصفه فالمدح فيه كقطرة -حقا- فى نهر النيل. ونبويات ابن السماط تتميز بلغة سلسة عذبة منتهى العذوبة والسلاسة.

---

(١) الأصيل: وقت اصفرار الشمس قبيل الغروب.

(٢) الروضة الفيحاء: لعله يشير إلى قول الرسول ﷺ ما بين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة.

الفصل السادس

النثر وكتّابه

١

الخطب والوصايا

معروف أن الإسلام فرض فى صلاة الجمعة الأسبوعية والعيدين: الفطر والأضحى خطبتين للوعظ والنصح للمسلمين، وظل يتولى ذلك فى تونس وإقليمها كبار الفقهاء الوعاظ من علمائها الأبرار، غير أنه لم يصلنا من هذه الخطب ما نستطيع به الحديث عنها وعرض بعض نصوصها. وطبيعى أن يكون لولاتها فى القيروان وقادتها فى الحروب أو على الأقل لبعضهم خطب من حين إلى آخر، وأقدم خطبة وصلتنا عن ولاتها خطبة موسى بن نصير التى خطبها بجامع القيروان حين دخلها سنة ٨٥ فى أول ولايته على إفريقية وفيها يقول[١]:

«أيها الناس! إنما كان قبلى على إفريقية أحد رجلين: سالم يحب العافية ويرضى بالدون من العطية، ويكره أن يُكْلَم[٢] ويحب أن يَسْلم، أو رجل قليل المعرفة راض بالهُونى، وليس أخو الحرب إلا من اكتحل السَّهر، وأحسن النظر، وخاض الغُمَر[٣] وسمتْ همته، ولم يرض بالدون من المَغنم، لينجو ويسلم، دونَ أنْ يَكْلَم أو يُكْلم.. إن ظفر لم يزده الظفر إلا حذرا، وإن نُكب أظهر جلادة وصبرا.. وبعد فإن من كان قبلى كان يعمد إلى العدو الأقصى ويترك عدوًّا منه أدنى، ينتهز منه الفرصة، ويُدَلّ منه على العَوْرة، ويكون عونا عليه عند النكبة، وأيْمُ الله لا أريم[٤] هذه القلاع والجبال الممتنعة حتى يضع الله أرفعها، ويُذلّ أمنعها، ويفتحها على المسلمين بعضها أو أجمعها، أو يحكم الله لى، وهو خير الحاكمين».

وبدأ موسى بن نصير بالجيوب فى الإقليم التونسى مثل جبل زغوان، ثم أخذ يمتد بفتوحه العظيمة حتى دان له المغرب جميعه، وكان شديد الطموح فمدَّ بصره وراء المغرب إلى شبه جزيرة

---

(١) تاريخ الأدب التونسى للأستاذ حسن حسنى عبدالوهاب ص٢٦.

(٢) يكلم: يجرح.

(٣) الغُمر: الشدائد.

(٤) أريم: أترك.

إيبيريا وأرسل إليها طارق بن زياد وتبعه، وأتم فتحها ناشرا فيها الإسلام، كما عمل على نشره فى ديار المغرب من برقة إلى المحيط، وافتتح له إقليما كبيرا فى أوربا، ولم يترك قلعة ولا حصنا لا فى المغرب وحدها كما قال فى خطبته بل أيضا فى إيبيريا مما جعله بحق من أكبر قواد العرب على مر التاريخ. ومن كبار القواد فى الإقليم التونسى بعده أسدبن الفرات أمير الجيش الفاتح لصقلية سنة٢١٢هـ/٨٢٧م وحين دقت الطبول والبوقات ونشرت الألوية واستعدت السفن لمغادرة ميناء سوسة للفتح تلفت حوله وخطب الجنود، وكان من قوله[١]: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له أيها الناس! ماوَلِيَ لى أب ولا جد ولايةً قط، ولا رأى أحد من سلفى هذا قط، وما رأيتُ ما ترون إلا بالأقلام، فأَجْهِدوا أنفسكم، وأَتْعبوا أبدانكم فى طلب العلم وتدوينه، وثابروا عليه تنالوا به الدنيا والآخرة».

وكان أسد شيخ فقهاء المالكية فى القيروان، واختاره الأمير زيادة الله الأغلبى لقيادة الجيش، وهو ينصح بالمثابرة فى العلم وتدوينه، فإن من يثابر فى تحصيله ويسهر الليالى يحظى بكل ما يتمناه، وقد مضى حين أرسى أسطوله على شواطىء صقلية يفتح المدن والقلاع واتجه إلى قاعدتها الكبرى: «سرقوسة» فى شرقيها، وحاصرها واستشهد فى حصارها ودُفن تحت أسوارها، وتَمَّ فتح جميع مدنها بعده.

ومن المؤكد أن خطبا كثيرة ألقاها حكام الإقليم التونسى فى أول حكمهم -وربما فى أثنائه- ولكن الكتب التاريخية والأدبية لم تحتفظ بها، وأيضا لابد أن كثيرا من الوصايا فى الدول التى حكمت الإقليم التونسى أوصى بها الآباء الأبناء من بعدهم سقطت من يد الزمن فيما عدا وصية أبى زكريا مؤسس الدولة الحفصية لابنه وولى عهده المستنصر، وفيها يقول[٢]:

«اعلمْ - سدَّدك الله وأرشدك، وهَداك لما يُرْضيك وأسعدك، وجعلك محمود السيرة، مأمونَ السَّريرة - أن أول ما يجب على من استَرْعاه الله فى خلقه، وجعله مسئولا عن رعيَّته فى جُلِّ أمرهم ودُقِّه[٣] أن يقدِّم رضا الله فى كل أمر يحاوله.. واعلم أن الأمر إذا ضاق مجاله، وقَصُر عن مقاومته رِجالُه، فمفتاحه الصبر والحَزَامة[٤] وأخذ الرأى من عقلاء الدولة ورؤسائها، وذوى التجارب من نُبهائها، ثم الإقدام عليه، والتوكل على الله فيما لديه.. ولا تسمع أقوال الغالطين المغلِّطين بأنك أعظم الناس قدرا، وأكثرهم بَذْلا، وأحسنهم سيرا، وأجملهم صبرا، فذاك غرور وبُهْتان وزُور.. وعليك بتفقد أحوال رعيَّتك، ولا تنم عن مصالحهم، ولا تسامح أحدا فيهم، ومهما دعيتَ لكشف ملمَّةٍ فاكشفها عنهم، ولا تراعِ فيهم كبيرا ولا صغيرا إذا عُدل عن الحق،

---

(١) الحلل السندسية ٧٥٣/٣.

(٢) مجمل تاريخ الأدب التونسى ص١٨٧.

(٣) دقه: دقيقه.

(٤) الحزامة: الحزم.

ولا تقتصر على شخص واحد فى رَفْع مسائل الرعيَّة والمتظلمين، ولا تقفْ عند مُراده فيهم، واتخذ ثقاتٍ صادقين مصدَّقين لهم فى جانب الله أوفر نصيب».

والوصية طويلة، وهى أشبه بدستور يضعه لولى عهده، ليتمسَّك به فى حكمه من بعده، وواضح أنه يطلب إليه أن يكون محمود السيرة وأن يجعل رضا الله نصب عينيه فى تدبير أمور رعيته وإذا نزلت به شدةٌ استعان بالصبر والحزم وبرؤساء الدولة ونبهائها المجربين وعمل بمشورتهم ونصيحتهم، ويحذِّره من الاستماع إلى من يتملقونه فى حاشيته زورا وبهتانا ابتغاء القربى إليه والزلفى لديه، والحاكم الحصيف يبعد عنه هؤلاء المنافقين المرائين. ويوصيه بتفقد أحوال الرعية وأن لا يغفل عن مصالحها ولا يتسامح مع من يعتدى عليها ويسارع إلى كشف كل ملمة تتعرض لها، ويأخذ على يد كل ظالم، ولا يقتصر فى رفع مسائل الرعية إليه على شخص بعينه خشية أن يكون مغرضا فيما يعرض عليه، لذلك ينبغى أن يشرك معه آخر أو آخرين، حتى لا يتعرض فى فهم هذه المسائل لغش أو خديعة، وينبغى أن تكون حاشيته مؤلفة من ثقات صادقين لا يحوم حولهم شك أو ريبة.

ونرى ابن خلدون حين نزل القاهرة سنة ٧٨٥هـ/١٣٨٤م يجلس للتدريس بالجامع الأزهر ويتصل بالسلطان المملوكى برقوق فيكرمه ويوفر له الراتب شأنه مع أهل العلم، ويتوفى البساطى أستاذ المدرسة القمحية المالكية، فيعينه مكانه فى شهر المحرم سنة ٧٨٦هـ/١٣٨٥م ونراه فى يوم جلوسه للتدريس بها يخطب خطبة طويلة يستهلها بالحمد لله مطيلا فى نعوته القدسية كما يطيل فى الصلاة على الرسول والرضا عن آله وصحبه، ويتحدث عن الملة الإسلامية وانتصار أهلها على الفرس والروم وفتوحهم العظيمة، ويشيد طويلا بملوكها وبدولة المماليك ونصرتهم للإسلام وإنشائهم للمدارس وتعميرهم للمساجد وعنايتهم بالعلم والعلماء ويشيد بالسلطان برقوق وأعماله وأفضاله عليه. وخلت وظيفة أستاذ الحديث فى مدرسة صرغتمش بجوار جامع ابن طولون، فولاه برقوق تلك الوظيفة فاختار كتاب الموطأ للإمام مالك ليحدث به للطلاب فى شهر المحرم سنة ٧٩١هـ/١٣٨٩م وحين جلس للتدريس بها ألقى خطبة طويلة، وبعد حمد الله فيها والصلاة على رسوله والثناء على السلطان برقوق قال إنه قرَّر للقراءة فى دروسه كتاب الموطأ للإمام مالك بن أنس لأنه من أصول السنن وأمهات كتب الحديث، وأفاض فى الحديث عن مالك ونشأته وسيرته وتأليفه لكتابه الموطأ، ثم أخذ يعدِّد الطرق لرواية تلامذة مالك عنه الكتاب، وانتقل إلى بيان سنده للكتاب والشيوخ الذين أخذه عنهم بتونس والأندلس والمغرب فى بلدانه المختلفة، ويذكر مع كل طائفة منهم شيوخهم وسندهم فى الرواية، ويضيف طرقا أخرى، مما جعل سامعيه فى هذا المجلس يرمقونه بالتجلة إلى أبعد مدى. وإنما أطلت فى بيان ذلك لأدل على أن علماء تونس – فيما يبدو – كانوا يأخذون فى

درسهم الأول بجامع الزيتونة بهذا التقليد من الخطبة الطويلة عن الكتاب الذى سيدرسونه للطلاب، وإن لم تصلنا خطبهم العلمية كما وصلتنا خطب ابن خلدون، إذ سجلها بنفسه فى ترجمته[١] عن حياته، ويقول إنه أعدَّها، وهى مكتوبة بأسلوب أدبى مسجوع بليغ.

٢

الرسائل الديوانية

عرفت القيروان الدواوين منذ أنشأها فيها واليها حسان بن النعمان (٧١-٨٥هـ) إذ أقام بجانب دار الإمارة ديوانا للجند وديوانا للخراج وديوانا للرسائل على شاكلة دواوين الخلافة فى دمشق، غير أنا لا نسمع عن كاتب كبير تولى ديوان الرسائل قبل خالد بن ربيعة كاتب عبد الرحمن بن حبيب الوالى فى القيروان من قبل مروان بن محمد، ويذكر البلاذرى أنه كانت بينه وبين عبد الحميد الكاتب المشهور كاتب مروان بن محمد مودة ومكاتبة، وأنه - بفضل هذه المودة - أقرَّ الخليفة عبد الرحمن بن حبيب على ولاية القيروان[٢]، ويذكر ابن النديم فى الفهرست خالدا بين الكتّاب قائلا: «خالد بن ربيعة الإفريقى مترسل بليغ نشأ فى الدواوين، وله رسائل مجموعة فى الأدب نحو مائتى ورقة[٣]».

وجميع رسائل خالد بن ربيعة سقطت من يد الزمن وسقط معها جميع الرسائل الديوانية فى القيروان إلى أن نلتقى بإبراهيم بن الأغلب مؤسس الدولة الأغلبية ونراه يتبادل مع خُرَيْش الكندى أحد قواد الجند الثائر عليه بتونس سنة ١٨٦هـ/٨٠٢م رسالتين أولاهما لخريش يتهدَّده فيها ويطلب منه طاعته له، ويرد عليه إبراهيم بن الأغلب برسالة يقول فيها[٤]:

«من إبراهيم بن الأغلب إلى خُرَيْش رأس الضلال سلامٌ على من اتبع الهُدَى أما بعد فإن مثلك مثل البعوضة التى قالت للنخلة وسقطت عليها: استمسكى فإنى أريد الطَّيران، فقالت النخلة: ما شعرت بسقوطك فيَكْرُبنى طيرانك».

ولا نعرف هل كتب إبراهيم بن الأغلب هذه الرسالة بنفسه أو كتبها له أحد كتاب دواوينه وتُعْنَى الدولة الأغلبية (١٨٤ - ٢٩٦ هـ) بكتاب دواوينها وتأخذ فى النهوض بها، وممن اشتهروا

---

(١) التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ص٢٤٠.
(٢) فتوح البلدان للبلاذرى (طبع القاهرة) ص٢٨٠ وما بعدها.
(٣) الفهرست (طبع القاهرة) ص١٧٧.
(٤) مجمل تاريخ الأدب التونسى ص٤٢.

من كتَّابها أبو العباس البريدى محمد بن حيون رئيس ديوان الإنشاء لعهد إبراهيم الأغلبى الثانى (٢٦١ - ٢٨٩ هـ). وقدم على إبراهيم من بغداد أبو اليُسْر الشيبانى إبراهيم بن محمد، وكان قد غضب على البريدى فأقامه مقامه على ديوان الإنشاء بعاصمته «رقَّادة» وهو أهم كتاب هذه الدولة وسنخصه بكلمة. وكانت الدولة الصنهاجية تعنى بدواوينها ورأس ديوان الإنشاء بها لمدة ربع قرن الكاتب الرقيق القيروانى، كما رأسه على بن أبى الرجال، وهما من الكتاب البلغاء، غير أن كتب الأدب والتاريخ لم تحتفظ ببعض ما دبجاه من الرسائل. ومع ذلك فإن أمير المهدية الحسن حفيد تميم بن المعز حين هزم أسطول الملك روجار الثانى أمام عاصمته سنة ٥١٧ كتب إلى سائر الجهات كتبا منها كتاب يقول فى بعض فصوله[١]: «إن صاحب صقلية لَجَّ فى طغيان غَيِّه، واستمر على عدوانه وبَغْيه، وحمله سوءُ تدبيره، وفسادُ تقديره، على اهتضام جانب الإسلام، وتوهَّم أن ذلك سهلُ الملتمس قريبُ المرام، فاستجاشَ وحشَدَ، واستغزر واستمدَّ، ولما استتبَّتْ فى ظنه أموره، وكمل تدبيره، الذى كان فيه تدميره، سيَّر أسطولَه نحو المهديَّة - حماها الله - فى نحو ثلاثمائة مركب، حُمل على ظهرها ثلاثون ألف راكبٍ، وزُهاءَ ألف فارس وكان إقلاعه فى طالعٍ مقارن للنحوس، قاضٍ عليه بإتلاف الأموال والنفوس، فمن أول ما أنشأه اللَّهُ فيه من صنعه الجميل، وأظهره من عنايته التى لا يُؤدَّى حقُّها بغير الشكر الجزيل، أنْ أرسل عليهم ريحا صيَّرت جميعهم إلى التَّبار[٢]، ونابت فى إهلاكهم مناب زُرْق الأسنَّة وبيض الشِّفار.. واستظهرنا باستقدام قبائل العرب المطيفة بنا فأقبلوا أفواجا أفواجا، وجاءوا مجىء السيل يعتلج[٣] اعتلاجا، ويتدفق أمواجا، وكلهم على نيأت فى الجهاد خالصة، وعزائم غير راهبة من مواقف الموت ولا ناكصة، ووصل الأسطول المخذول بمن أسلمه السَّوْقُ إلى حد الحسام، وتخطَّاه الغرق من الحِمام إلى الحِمام[٤]، ونزلوا على عشرة أميال من المهدية بجزيرة هنالك فتسرَّع إليهم من جُنْدنا ومن انضاف إليهم من العرب المنجدة لنا طائفة أوسعت أعداء الله طعنا وضربا، وملأت قلوبهم خَوْفا ورُعْبا. فلما عاينوا ما نزل بهم، أنزلوا عن ظهور مراكبهم، ما كان أبقاه الغرق من أفراسهم، وكانت نحو خمسمائة فرس.. فأكذب الله ظنونهم، وخيَّبَ آمالهم، وجعل الدائرة عليهم لا لهم.. فولوا أدبارهم يرون الهزيمة غنيمة، والهرب غلبة، وتركوا كثيرا من خيلهم وأسلحتهم نهبا مقتسما، وفَيْئًا[٥] مغتنما»

ومضى الكتاب يذكر أن الجيش النورمانى كان قد استولى فى أول نزوله على قصر الديماس بين المنستير والمهدية، وكانوا قد أنزلوا به مائة منهم فاستؤصلوا عن آخرهم. والكتاب يتميز

(١) الحلل السندسية ٤٧٢/٢.
(٢) التبار: الهلاك.
(٣) يعتلج: يجتمع.
(٤) الحمام: الموت.
(٥) فيئا: مغنما.

بألفاظ منتخبة مختارة، وليس فيها غريب مهجور، والأسلوب فيه مسجوع، ويطرد فى يسر، مما يدل على ما حازته كتابة الرسائل الديوانية فى العهد الصنهاجى من تقدم ورقى.

ونمضى إلى عصر الدولة الحفصية وتحدث نهضة حقيقية فى ديوان الإنشاء بفضل من عمل فيه من كبار الكتاب الأندلسيين المهاجرين إلى تونس من أمثال ابن الأبَّار ومحمد بن الحسين بن أبى الحسين وزير مؤسس الدولة أبى زكريا وابنه المستنصر وأيضا بفضل طبقة بارعة من الكتاب التونسيين أمثال أبى العباس أحمد بن إبراهيم الغسانى المتوفى سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م وقد جُمعت له خِطَّة العلامة وخطة الإنشاء وابن الحبَاب محمد بن يحيى المُعافرى وأبى بكر بن خلدون وله كتاب فى النظم الحفصية لا يزال مخطوطا وفى معهد الدراسات الإسلامية بمدريد مخطوطة منه، وفى الورقة رقم ٥٣ يتحدث عن طريقة المخاطبات الصادرة عن الخليفة الحفصى قائلا: «فى مخاطبة من الأمير الأعظم إلى غيره تقول: من فلان باللقب: أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين وتعدُّ آباءه الخلفاء إذا لم تذكر اللقب، فإن ذكرته جعلته جملة، وذكرُ اللقبِ أحسن فى الحالتين، ثم تقول أيدَّهم الله بنصره وأمدَّهم بمعونته إلى الشيخ أبى فلان أو إلى أبى فلان أو إلى الأشياخ والأعيان والكافة من بنى فلان أدام الله كرامتهم وتوفيقهم بتقواه سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته أما بعد حمد الله. وبعد تمام الصَّدْر تكون الوصية بتقوى الله وبما يجب. هذا إذا كان كتابا، وإذا كان صَكًّا، ويسمى الآن ظهيرا فلا يكون فيه صدر ولا وصية ولا اسم المكان الذى كُتب منه»

وكان أبو بكر بن خلدون يعمل فى دواوين أبى زكريا مؤسس الدولة الحفصية، ونرى القلقشندى المتوفى سنة ٨٢١ يؤكد استمرار هذا التقليد فى الكتابة الديوانية التونسية حتى عصره إذ يقول فى كتابه صبح الأعشى عن رسم المكاتبة الواردة إلى القاهرة عن صاحب تونس: «عادة مكاتبته أن تفتتح بلفظ من عبد الله الفلانى مع ذكر لقب الخلافة: أمير المؤمنين بن فلان، ويقال فى كل أب من آبائه: أمير المؤمنين إن كان قد وَلِىَ الخلافة ويدعى له. إلى أخينا فلان، ويُؤْتىَ بالسلام والتحية، ثم يتخلَّص بالبعديَّة إلى المقصد ويختم الكتاب[1]». ويورد القلقشندى عقب ذلك مباشرة رسالة من الخليفة الحفصى المتوكل على الله أحمد بن أبى عبد الله الحفصى (٧٧٢ - ٧٩٦ هـ) إلى السلطان برقوق يهنئه فيها باسترداده عرش سلطنته سنة ٧٩١ وهى تستهل بهذه الصورة:

«من عبد الله المتوكل على الله أمير المؤمنين أحمد ابن مولانا الأمير أبى عبد الله ابن مولانا الأمير أبى يحيى أبى بكر ابن الأمراء الراشدين أعلى الله به كلمة الإسلام، وضاعف نوافل سيفه من عبدة الأصنام، وغضَّ عن جانب عِزِّه عيونَ حوادث الأيام، إلى أخينا الذى لم نزل

---

(١) صبح الأعشى ٧٩/٨.

نشاهد من إخائه الكريم، فى ذات الربِّ الرحيم، قبلةَ صفاء لم تغيِّرها يَدُ بِعاد ولا انتزاح، ونثابر من حفظ عهده، والقيام بحق ودِّه، على ما يؤكد معرفة الخلوص من لدن تعارف الأرواح، ونبادر لما يبعث القلوبَ على الائتلاف، والأمن بفضل الله من عوائق الاختلاف، وإن شحطت الدارُ وتناءت الصور والأشباح، ونعترف بما له من مزيد الإعظام بمجاورة البيت الحرام، والقيام بما هنالك من مطالع الوحى الكريم ومشاعر الصلاح، ونَجْتَلِى من أنوائه الكريمة الشريفة، ومطالعه العالية المنيفة، وجوه البشائر رائعة الغرر والأوضاح.. ونبتهل إلى الله بالدعاء أن يخبرنا عنه، ويطلعنا منه على ما يقرُّ عيون الفوز ويشرح صدور النجاح، السلطان الجليل الطاهر، الملك الأعظم الظاهر... أبى سعيد برقوق»

وواضح أن الكاتب الحَفْصِىّ لم يكتف فى مستهل رسالته بالأسجاع الحائية، فقد ضمن كل سجعة سجعتين داخليتين، وكأن السجع فى الرسائل الحفصية أصابه ما أصاب السجع فى الرسائل الديوانية - منذ القاضى الفاضل وزير صلاح الدين الأيوبى - من تطويل لتضم السجعة تحت جناحيها سجعتين داخليتين كما فى هذه القطعة من الرسالة. ويمضى فى الرسالة فيحمد الله ناظم الشمل وجابر الصَّدْع الذى قرن بالعُسْرِ يُسْرًا. ثم يصلى ويسلِّم على الرسول الذى صَدعت بالحقِّ آياته، وقامت بحجة دعواه معجزاته.. ويضيف الصلاة على آله وأصحابه أولياء دينه الكريم وولاته، وأنصار حزبه المفلح وحُماته، ولُيوثُ دفاعه فى صدور الأعداء وكُماته. ويدعو الكاتب لخليفته، ويذكر للسلطان برقوق أنهم ظلوا حين عُزل عن السلطنة يدعون له أن يُرَدَّ الأمر إلى نصابه، ويُطيل فى تهنئته بنصره، ويُشيد برسالة السلطان برقوق إليه بأنه استعاد سلطانه، ويذكر انتصارًا لأسطوله أذ أغار على بعض جزر البحر المتوسط وكان صاحبها أغار على الساحل التونسى، يقول:

فلم نزل نبيح لأساطيلنا المنصورة حَرَمَهُ وحِماه، ونَطْرق طروقَ الغارة الشَّعْواء بلادَه وقُراه، ونكتسح بأيدى الاستلاب ما جمعت بها يداه إلى أن ذاقوا من ذلك وَبال أمرهم، وتعرَّفوا عاقبة مكرهم. وكان من جرائرهم المعترضة شَجًا فى حلوق الخُطَّار[١]، ومتجشِّمى الأخطار، ورُكَّاب البحار، من الحجاج والتجّار، جزيرة غودش[٢] وبها من أعداء الله جَمٌّ كثير، وجمع كبير، فأرسلنا عليهم متن أسطولنا المنصور غِرْبانًا[٣] نَعَقَتْ عليهم بالمنون، وعرَّفت المسلمين بركة هذا الطائر الميمون.. وسارت تحت أجنحة النجاح إليها، إلى أن رمتْ مخالبَ مَرَاسِيها عليها، فلما نزلوا بساحتها، وكبرَّوا تكبيرة الإسلام لإباحتها، بُهِتَ الذى كفر، وودَّ الفرارَ والحَيْنُ (الموت) يناديه

---

(١) الخطار: المتحركين بحرا.

(٢) لعلها جزيرة رودس.

(٣) غربانا: سفنا مطلية بالقار.

أين المفَرّ، فلما قضى السيفُ منهم أو طاره، وشَفى الدينُ من دمائهم أُوارَه(١) : جمعوا منهم عددا يُنيف بعد الأربعمائة على الأربعين، وجاءوا بهم فى الأصفاد مقرَّنين، وامتلأتْ بغنائمهم - والحمد لله - أيدى المسلمين، وانقلبوا فرحين بما آتاهم الله مستبشرين». وإنما ذكرنا هذه القطعة الطويلة فى ختام الرسالة لندل على براعة كاتبها وأنه لم يكن يقلّ عن كتّاب المشرق بيانًا وبلاغة. وفى ذلك ما يدل على أن الكتابة الديوانية فى العهد الحفصى رقيت رقيا بعيدا وأن كتّابها لم يكونوا يقلّون عن نظرائهم فى المشرق فصاحةَ لفظٍ ورصانةً مع اصطفاء الكلام والملاءمة بين الكلمة والكلمة والسجعة والسجعة بحيث يجد القارئ لرسائلهم لذة ومتعة مع ما يجد فيها من الحقائق التاريخية كهذه الغارة على جزيرة غودش، غير أن الزمن لم يحتفظ بها جميعا، فضاعت فيما ضاع من نصوص أدبية تونسية.

٣

الرسائل الشخصية

إذا كان جمهور الرسائل الديوانية القيروانية والتونسية سقط من يد الزمن فإنه احتفظ بكثير من الرسائل الشخصية، ومن أوائل ما يلقانا منها رسالة استعطاف لداود القيروانى المتوفى حوالى سنة ٢١٠هـ/٨٢٥م وكان قد تقلد ديوان الرسائل لمحمد بن مقاتل العكّىّ فلما عزل وتولى على القيروان وإفريقية مكانه إبراهيم بن الأغلب سنة ١٨٤هـ/٨٠٠م اختفى داود أياما وكتب - من مخبئه يستعطف ابن الأغلب - رسالة يقول فيها(٢) : «ذنبى عظيم، وخناقى ضيق، وحجتى ضعيفة، وعفوُ الأمير وطَوْلُه(٣) أعظمُ من ذلك كله، فإن تداركنى الأميرُ - أعزَّه الله - بما أؤمِّل فذلك الذى يشبهه ويُنْسَبُ إليه وأرجوه منه، وإن يعاقبْ فبالذنب الذى اجْتَرَمْتُه(٤) وهو أحقُّ بانتشالى من زَلَّتى، وإقالتى(٥) عن عَثْرتى.. والأميرُ أولى فىَّ، وأَنْظَرُ منى لنفسى، وأعلى بما سألتهُ ورغبتُ إليه فيه عَيْنا ويَدًا، والله ولىُّ توفيقه فيما عزم عليه من ذلك. أتمَّ الله على الأمير نعمته» فعفا عنه الأمير إبراهيم بن الأغلب وقرَّبه منه، واستكتبه، وعهد إليه فى مهماته واتخذه مستشارا فى أموره، وكان نعم الناصح له الأمين. واشتهر ابنه إبراهيم بإتقان الكتابة وعُيِّن مثل أبيه فى الدواوين الأغلبية. وإذا مضينا إلى عهد إبراهيم الأغلبى الثانى (٢٦١-٢٨٩) وجدناه يسخط على كاتبه الخاص البريدى محمد بن أحمد بن حيُّون المتوفى سنة ٢٧٦هـ/٨٨٩م ويزج

(١) أواره: ناره.
(٢) المجمل فى تاريخ الأدب التونسى ص ٤٥.
(٣) طوله: فضله.
(٤) اجترمته: اقترفته.
(٥) إقالتى: الصفح.

به فى غياهب السجون، فيرسل إليه رسالة طويلة مستعطفا، وفيها يقول[١]:

«لكرم العَفْو وعلوّ قدره وجليل خَطَره تسمَّى الله عز وجلَّ به فسمَّى نفسه: ﴿العفوّ الغفور﴾ والطَّبْع البشريّ مركّبٌ على النَّقص، مقرونٌ بالزَّلل.. ولستُ - أيَّد الله الأمير - ممن يدَّعى العِصْمَة والبراءةَ من الهَفْوة، ولست أُمُتُّ[٢] إليك إلا بفضلك عليّ، وإحسانك إليّ.. وإن من غَرَس غَرْسًا فواجبٌ أن لا يجتثّه (يقطعه) وإن أبطأ بُسُوقُه[٣] بل يمدّه بمَدَدِ مواردِه العذبة حتى تمتدَّ خيطانه[٤] وتورقُ أغصانه. أعاذك الله - بما أودعك من معالى الأخلاق - من ترك العفو عن مقرٍّ مُعْترف لا يعرف إلا فضلك، ولا يرجو إلا عدلك.. فالْحَظْنِى بعين عَفْوك، وأَضْفِ[٥] (أَسْبِغْ) علىَّ سِتْرَ نعمتك».

ويبدو أن ذنب البريدى كان كبيرا فلم يلنْ له قلب إبراهيم الثانى الأغلبى ولا صفح عنه، بل أمر بقتله وسَفْك دمه. وتكثر الرسائل الشخصية فى عصر الدولة الصنهاجية، وسنخص إبراهيم الحصرى صاحب زهر الآداب بكلمة عنه وعن رسائله. ونلتقى بابن شرف القيروانى المترجم له بين أصحاب المراثى للمدن والدول، وكما كان شاعرا مبدعا كان ناثرا مبدعا، وقد رحل إلى الأندلس بعد ما نزل بالقيروان من طوفان الأعراب الهلاليين، كما أسلفنا، وترجم له ابن بسام فى ذخيرته ترجمة ضافية، وذكر له فصلا من رسالة خاطب بها المظفر بن الأفطس أمير بطليوس، وفيها يقول[٦]:

«كتبت وشوقى إلى شرف لُقياه، وشَبِم[٧] سقياه، شَوْقُ القارظين[٨] إلى سكون وسُكْنى، والقَيْسَيْن إلى لَيْلى ولُبْنى.. والله ببلوغ الأمل خير كفيل، والشيخ يهدمه الشتاء وقد رأيتُ طوفان قرطبة يقيم دهرا، وإنما أقام طوفان نوحٍ شهرا». ويذكر له ابن بسام فصولا نثرية يبدو أنه حبَّرها للكتّاب كى ينتفعوا بها فى رسائلهم المختلفة فى مديح أمير أو وزير أو قائد أو قاض أو كاتب أو فقيه زاهد، من ذلك فصل يصلح أن يكتب به إلى حاكم أو وزير، وفيه يقول[٩]:

«يقدِّم الحزم، ويثنِّى بالعزم، يشاور ذوى الألباب على أن رأيه لُباب، يَثِبُ وثوبَ اللَّيْث،

---

(١) أعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب (طبع الدار البيضاء) القسم الثالث ص٣٠ وقارن بابن عذارى ١/١١٥ ومجمل تاريخ الأدب التونسى ص ٦٥.
(٢) أمت: أنتسب.
(٣) بسوقه: ارتفاعه.
(٤) خيطانه: فروعه.
(٥) أضف: أسبغ.
(٦) الذخيرة ٤/١٩٣.
(٧) شبم: بارد.
(٨) القارظان: جاهليان خرجا فى طلب القرظ (شجر) ولم يعودا.
(٩) الذخيرة ٤/١٨٤.

ويتدفّق دُفوقَ الغيث، ويُراوح بين العَجَل والرَّيْث، نومه غِرار[١] واضطرار، وحاجاته سِرار[٢] ثم اقتدار، لا تثبِّطه الظُّلل ولا الظِّلال، ولا تطَّبيه[٣] الكِلل ولا يَثنيه الكلال (التعب). رأيه قَبَسُه (مصباحه) وعزمه فرسه، وبصيرته بَصَرُه، وصَدْرُهُ وِرْده وصَدَره[٤]».

وبهذه المقدرة الأدبية البديعة تتوالى هذه الفصول النثرية فى المديح للحكام والوزراء ورجال الدولة من قواد وقضاة وكتّاب، ويورد له ابن بسام فصولا أخرى فى الذم لا تقل عن الفصول السابقة فى روعتها الأدبية، وفى أول فصولها يقول[٥].

«فلان غَوْره أقرب قريب، وقلبه مورود القَليب[٦]، فسرائره مكشوفة، ودَخيلتُه معروفة، كتمانُه إخبار، وتدبيره إدْبار، رأيه وراء، وساحته عَراء، حِسُّه هامد، وفهمه جامد، لا يعرف الرّشدَ من الغَيِّ، ولا يفرِّق بين التَّقبيل والكَيّ، طللٌ بالٍ، لا يخطر على بال، الشمس عنده سُها[٧] والحُمْق نُهَى[٨]. لا يعلم راسُه، من أين أنفاسه، ولا يدرى دِماغه، أين أصْداغه».

والفصل يموج كسابقه بالسجع المختار والألفاظ المنتخبة والطباقات والجناسات وناهيك بما يحمل الفصل فى سجعه من روعة، مما يزين وقعه فى الأذن والنفس، إذ ما تزال الإرنانات متصلة فى الكلام، وما يزال جرسها يمتع الأسماع والأفئدة، مع ما يبهر من الألفاظ الثلاثية التى تطير عن الأفواه فى خفة. ويلقانا بعد ابن شرف علىٌّ الحصرى الذى مرت ترجمته بين شعراء الغزل، وقد ترجم له ابن بسام فى ذخيرته، وأورد له فصولا من بعض رسائل، استهلها بالفصل التالى له من رسالة[٩].

«السلام عليك أيها القلب الثانى، والبعيد الدانى، الراقى فى سماء المعالى، الواقى من داء الليالى، أول مَنْ عَدَدْتُ، وأفضل من أعْددت، ومَنْ لازال النسيمُ فى البُكَر والعَشِيّات، يُهْدى إليه أطيب التحيات، ومَنْ جُعِلْتُ وِقاءه، ولا عدمتُ لِقاءه، وإذا كان الكريم سالما، كان الزمان مسالما».

وفى سجعه نفس العذوبة التى مرت فى سجع ابن شرف، وفيه الطباقات وكثير من الجناسات، ومع كثرتها لا يشوبها أى تكلف، وكأنه يستمدها من نبع فيَّاض لا ينضب، وكانت قد نشبت بينه وبين ابن الطراوة النحوى الأندلسى المشهور المتوفى سَنة ٥٢٨هـ/١١٣٣م خصومة

---

(١) غرار: قليل.

(٢) سرار: كتمان.

(٣) لا تثبطه الظلل ولا الظلال أى حياة الدعة، ومثله لا يَطَّبيه أى لا تستميله الكلل /الأستار/ أى أنه لايستنيم لحياة الدعة والخمول بل يقتحم المخاطر والمهالك، ويجد فى هذا الاقتحام متاعه.

(٤) صدره ورده وصدره كأنه النبع الذى يَرِده ويَصْدر عنه دون التماس رأى من أحد.

(٥) الذخيرة ١٨٨/٤.

(٦) القليب: البئر.

(٧) سها: نجم صغير أى أنه لا يميز.

(٨) نهى: عقل.

(٩) الذخيرة ٢٤٧/٤.

ومخاطبات نال كل منها فيها من صاحبه، ويذكر ابن بسام له فصلا من إحدى مخاطباته ورسائله إلى ابن الطراوة، وفيه يقول[١]:

«ما حياتى بين الحيَّات، وثباتى فى الجميع أو الثُّبات[٢] وقد حانت وفاة الوفاء، وخانتْ صِفاتُ الصفاء، وأَرْدانى[٣] الزمانُ بأردانه[٤] وأعيانى بتقلب أعْيانه. الجاهل هو الحاظى[٥] والعالم مبخوس الأحاظى[٦].. ومما أضحكنى ملءَ فِىًّ، وأطاشنى وليس الطَّيْشُ فىًّ، هذا المُتَنَحْوِىّ[٧] المُتَنخوِىّ[٨] نظمت قصيدة سميتها سهم الشهم، وضمَّنتها مسائل لا تخفى على أولى الفهم، فما بلغَتْه حتى دَمغتْه[٩] وألقاها كأنها حية لدغته. أيها المموّه بجهله، والمدعى العلم وليس من أهله، سكرتَ فصحُوك لا يجديك.. وكأنى بمن ضمَّك قد ضامك (ظلمك)، وبمن لُمَّك قد لامك. وزعم هذا الأهوج الأعوج أنه لم يعرف رَسْمى، ولا سمع باسمى، كأنما وُلد بالأمس، أو بُعث من الرَّمْس (القبر)، أو عَمِىَ عن الشمس».

وكأنما بلغت القيروان فى القرن الخامس عند ابن شرف وعلى الحصرى كل ما كانت تحلم به من روعة وإبداع فى الكتابة الأدبية وأسجاعها القصيرة وألفاظها المنتخبة الرشيقة، ونمضى إلى عصر الدولة الحفصية، ويُرْسل أبو الفضل التجَّانى المتوفى سنة ٧١٨ رسالة إخوانية يتودد فيها إلى ابن عمه عبد الله التجانى صاحب الرحلة المشهورة فى أثناء رحلته بالقسم الجنوبى من الإقليم التونسى آملا فى لقاء قريب به، وفيها يقول[١٠]:

«هذا الزمن الذى أوقع رَيْبا واشتعل الرأس به شَيْبا، سرعان ما تتقهقر القواطع منهُ مْقصرة، وتمحو ليلةَ آيةُ النهار مبصرةً، وتُلْقى حُبْلاه من سقط الفرقة مُضْغَة، ويرجع راجعُ الشباب صبغة الله (ومَنْ أحسنُ من الله صِبْغة) وإذ كان يعيده حاملُ كلام، ويردّه واصلُ سلام، فما ظنُّك به حين يلتقى المقيم والآيب، وتُقْبل الركائب، وتُراح من جَذْب البُرَى[١٢]، ويُراح[١٣] إلى جنَّة القُرْب ونار القِرىَ[١٣] وحينئذ تتصل الأفراح، وأنْشد:

مَنْ صَدَّ عن نيرانها فأنا ابن قيسٍ لا بَرَاحْ[١٤]»

والقطعة مسجوعة وتحمل كثيرا من الصور وبها طباقات وجناسات واقتباس من الذكر

---

(١) الذخيرة ٢٤٩/٤.
(٢) الثبات: الجماعات.
(٣) أردانى: أهلكنى.
(٤) أردانه: أكمامه.
(٥) الحاظى: المحظوظ.
(٦) الأحاظى: الحظوظ.
(٧) المتنحوى: من النحو.
(٨) المتنخوى: المتعاظم.
(٩) دمغته: آلمت دماغه.
(١٠) مجمل تاريخ الأدب التونسى ص ٢١١.
(١١) تراح: تستريح. البرى جمع برة وهى حلقة من نحاس ونحوه توضع فى إحدى فتحتى أنف البعير لجذبه بزمام منها لتذليله.
(١٢) يراح: يرجع.
(١٣) القرى: الطعام يقدم إلى الضيف.
(١٤) براح: فراق.

الحكيم واستشهاد ببيت سعد بن مالك فى حرب بكر وتغلب معرِّضا فيه بالحارث بن عباد حين اعتزل هذه الحرب، وهى تصوِّر براعة كاتبها الأدبية، وكان يتقلد رياسة ديوان الإنشاء أيام الخليفة الحفصى أبى يحيى زكريا المشهور باللحيانى وابنه محمد الملقَّب بأبى ضربة. ومن كتاب الرسائل الشخصية فى هذا العصر ابن خلدون، وسنخصه بكلمة. وتتكاثر الرسائل فى العصر العثمانى، من ذلك رسالة تعزية لعلى الغراب الصفاقسى يعزى صديقا له فى أمه ومن قوله فيها[١]:

«ترك القلبَ بعد المسرَّة أسيفا، وقرع الأسماعَ قَرْعًا عنيفا، ذكرُ ما أصبت به فى مبدأ لَوْحَتِك[٢]، ومَنْبت دَوْحتك، ومنبع مَشْربك، ومطلع كوكبك، حيث أجابت الدواعى العُلْوِيَّة، إذ قالت لها ﴿ارْجِعى إلى ربك راضيةً مرضيَّة﴾.. فعزَّ علينا - والله - هذا المصاب، وبلغنا من الحزن بهذا الرُّزْء[٣] النِّصاب (الغاية).. فتأسَّ يا أخى بصبر ذوى الألباب، وادَّخر ما أُصبت به عند الله ليوم الحساب، فلا يخفاكم ما أُعِدّ للصابرين من الأجر والثواب ﴿إنما يوفَّى الصابرون أَجْرَهم بغير حساب﴾ أحسنَ الله لك بها العزاء، وجازاك الله أفضلَ الجزاء».

والتكلف واضح فى هذه الرسالة، وعلى الغراب يكثر فى كتاباته من صور التصنع المختلفة، وسنعود إلى بيان ذلك فى الحديث عن مقاماته، ولمحمد ماضور المترجم له بين شعراء الغزل رسائل شخصية متعددة، من ذلك رسالة فى تهنئة صديق بالإبلال من مرض، وفيها يقول[٤]:

«سلام أعلى وأغلى، وأَجْلَى وأحْلى، وأبقى وأَنْقَى، من سلام شائق لمشوق، ووامق لموموق، أخصُّ به حضرة الموسوم بصدق الإخاء، فى الشدة والرخاء، لازالت عيون السعادة تلاحظه، وأيادى الإيادة (التأييد) تفاوضه بمِنة الله تعالى، أما بعد فإنى أحمد الله لى ولك على العافية الكافية، والنعمة الضافية الوافية، أمدَّها الله علينا امتداد رحمته، وأبقاها لدينا بقاء كرامته ومِنته».

ولغه ماضور سهلة وليس فيها لفظ غريب ولا تكلف، وهى مسجوعة، مثلها فى ذلك مثل الرسائل الشخصية فى عصرها وقبل عصرها، إذ لم يستجب الكتاب إلى دعوة ابن خلدون بتخليص الرسائل من السجع، وكأنها كانت صرخة فى فلاة، والرسالة مكتظة بالجناسات زينة الكتابات الأدبية هى وأخواتها من المحسنات البديعية. وله من رسالة يعزِّى صديقا فى رُزْء أصابه[٥]:

«كتابى هذا عن نَفْسٍ مستطارة بلوعتها، وكبد مذابة بروعتها، وعن قلب شعاره بُرَحاء (شدة) الجوى تفجعا لما فجعك، واشتراكا فى عظيم المصاب معك، وأسفا على من فقدناه فقدان

---

(١) انظر ديوان على الغراب الصفاقسى ص ٣٩٣.

(٢) لوحتك: خلقتك ووجودك.

(٣) الرزء: المصيبة.

(٤) مجمل تاريخ الأدب التونسى ص٢٦٣.

(٥) نفس المصدر ص٢٦٤.

السمع والبصر، ورُمينا فيه بأعظم الحوادث والغِيَرَ، وأى رُزْء ما أفظعه فى القلوب، وأى خطب ما أشنعه فى الخطوب.. وقد رمانى ساعد الزمان حين رماك، وأَصْمانى سهمُه كما أصماك.. لا أعاد الله عليك بعد هذا الخطب خطبا، ولا أرجف لك قلبا».

والاستعارات فى التعزية والجناسات تخلو من التكلف،والسجع ينزلق فى الرسالة - كسابقتها - عن اللسان بخفة، والألفاظ فيه متآخية كأنما بينها رحم وقرابة، لما بينها من تلاؤم فى الجرس ييسِّرها فى النطق على اللسان، ويزيِّنها فى السمع للآذان.

٤

المقامات

فن المقامة فن عربى عباسى ابتكره بديع الزمان عارضا فيه حِيَل الأدباء السيارين المحترفين للكُدْية أو الشحاذة الأدبية عن طريق مايخلبون به الناس من فصاحتهم، وقد كتب مقاماته بأسلوب قصصى، واتخذها جميعا راوية هو عيسى بن هشام وبطلا هو أبو الفتح الإسكندرى، وعيسى يروى فى كل مقامة حيلة لأبى الفتح مع شىء من حواره معه فى أساليب أدبية مسجوعة بديعة. وتلقانا فى القيروان وتونس رسائل أدبية يسميها أصحابها مقامات، وهى لا تقوم - كما قامت عند بديع الزمان والحريرى بعده- على الكدية أو الشحاذة الأدبية، مما يجعل فى تسميتها مقامات ضربا من التجوز. ومن أقدمها فى القيروان رسالة نقدية لابن شرف سماها «رسائل الانتقاد» عرض فيها نحو أربعين شاعرا منذ العصر الجاهلى حتى عصره، وأتبع ذلك ببحث فى سقطات عدد من الشعراء وعيوبهم. وأحكامُه على الشعراء مجملة وغير معللة غالبا. وهى بذلك ليست مقامة وإنما هى رسالة نقدية ولانسمع بعد ذلك عن عمل لقيروانى حاكى به قصص الشحاذة الأدبية عند بديع الزمان والحريرى، حتى إذا كنا فى العصر العثمانى وجدنا غير شاعر ينسب إليه بعض المقامات، وأول ما يلقانا من ذلك ثلاث[1] مقامات للشاعر على الغراب الصفاقسى المترجم له بين شعراء المديح، وأولاها تسمى المقامة الباهية نسبة إلى الشيخ أبى العباس أحمد الباهى فى إتمامه مدرسة أحدثها لعهد الأمير على باى الأول، وقد حدثه بها أبو الصلاح مسعود عن أبى الثناء محمود الذى روى له أخبار تونس مفيضا فى مديحها ومديح الأمير على باى الأول. ثم يفيض فى وصف المدرسة ومبانيها وغرفها وصفا مسهبا، ثم يطنب فى تهنئة الشيخ الباهى وابنه بإتمام المدرسة ويختم المقامة بقصيدة فى مديح الشيخ. وواضح أن هذه المقامة ليس لها من فن المقامة شىء، أما فى حقيقتها فإنها رسالة تهنئة للشيخ الباهى المسماة باسمه. وسمى مقامته الثانية باسم المقامة الهندية نسبة إلى الهندى وهو التين الشوكى، وكان شخص ذمه فأخذ يبدئ ويعيد فى وصفه ووصف نموه على شجره قبل قطفه والالتذاذ

---

(١) انظر المقامات فى ديوانه ص٣٣١ وما بعدها.

بطعامه،وحاكي المقامة أبوسنان الهندى عن أبي عاصم الهندى، وليست مقامة إنما هي رسالة فى وصف التين الشوكي، ومقامته الثالثة اتخذ موضوعها عباءة كان كلّف حمودة بن عطاء الله بحملها وغسلها فأبطأ بها عليه، فكتب إليه هذه المقامة مداعبا، وفيها يقول:

«المسئولُ من عليٍّ همتكم وشريف حُرْمتكم أن العَباءة إذا كانت فى دائرة الوجود وعلى الوجود مشتملة، فأسِرْعَ إنفاذَها على الحال اللازمة لها أو المنتقلة، وإلا فأخبرنا لنعرض عنها ونقول: ﴿عَسَىَ رَبُّنا أن يبدلنا خَيْرًا منها﴾ فإن الشتاء أرسل يخبرنا بموافاته.. وهذه العباءة غاشيةٌ[١] لجميع أهل بيتنا فى البرد، كافية للجمع منهم والفَرد، ومنذ فقدت زمن ذلك الحر الكثير، لم يسألنى عنها منهم صغير ولا كبير، بل كلما أمال النوم رقابهم غلّقوا أبوابهم ﴿واسْتَغْشَوْا ثيابهم﴾ ولما أن قطّب وجه الشتاء وعَبَس، وقد أصبح أنفه يتنفّس، صاروا كلما أقبلت ليلة شاتية، تتقلّب جنوبهم فى المضاجع كلَّ ناحية، وقاموا قبل الفجر يسألوننى ﴿هل أتاك حديث الغاشية﴾ وجعلوا يتأسفون على فقرهم إليها ويقولون: ﴿يا حَسْرَتنا على ما فرَّطْنا فيها﴾.

وليس الحديث عن هذه العباءة مقامة إنما هو رسالة أراد بها إلى الدعابة، ونراه فى هذه القطعة من الرسالة يقتبس مرارا من القرآن الكريم آيات يزين بها أسلوبه، وهو يكثر من ذلك فى مقاماته كما يكثر من التصنع لمصطلحات العروض والعلوم وخاصة النحو. وفى هذه القطعة من مصطلحاته الحالُ اللازمة والمُنتقِلة، وأيضا فإنه يكثر من التوريات، ويتكلف لذلك كله فى صور مختلفة.

وللشاعر محمد الورغى ثلاث[٢] مقامات أيضا، سمى أولاها الباهية، وهى تتطابق مع المقامة الباهية لعلى الغراب فى أنها تتخذ موضوعها مديح الشيخ الباهى وابنه اسماعيل وهى بذلك مثل مقامة الغراب رسالة لا مقامة. وسمّى مقامته الثانية الورغية كتبها حين ختن على باى الثانى أولاده وأولاد أخيه محمد الرشيد، وفيها يفتخر بشعره ويضع نفسه فوق شعراء عصره، ويعارض قصيدة أحدهم ويتناولها بالنقد، وهى أيضا لا تشبه فن المقامة فى شىء إلا فى نسبتها إليه. وسمى المقامة الثالثة المقامة الخمرية كتبها حين هدم الأمير على باى الثانى الحانات فى عاصمته تونس، وجعل بطلها سعد السعود مكنيا به عن نفسه، وحاور فيها فتاة رامزا بها عن تونس، ويستهلها بقوله[٢]:

«يارواة الأخبار، وحملة القول المختار، شمل الله جمعكم بسلام، وجمع شملكم فى دار السلام[٣]. خَيْرُ المتكلمين مَنْ حدَّث بما نفع، وخير السامعين من أحرز وجمع، وخير ما قيل من

(١) الغاشية: الغطاء.

(٢) انظر فى هذه المقامات كتاب الأدب التونسى فى العهد الحسينى ص١٥٤ وما بعدها.

(٣) دار السلام: الجنة.

الكلم، ما يقال لقائله: سَلِمَ، فاسمعوا الآن لحديث حسن، تخيرته فى سالف الزمن: كنت ممن حُبِّب إليه معاناة الأسفار، وخُفِّف عنه مفارقة الأوكار، ورأى أن من العجز تفضيل داره على دار، وأن من الأسْر اتخاذ خليلة أو جار، وأن يقعد عن كَسْبٍ يحويه ليوم تظهر فيه مساويه، فشددتُ على وسطى أطمارى[1]، وشمَّرت لقطع المفاوز بإزارى» ويقول إنه رأى من البلاد ألوفا، وخالط من أهلها صنوفا، حتى ألقى عصاه بتونس ويسمى فتاة فيها أعجب بها «تونس» ويجرى على لسانها بعض أحوالها ويستطرد إلى مديح حاكمها على باى الثانى ويصفها لعهده على لسان فتاته، مشيدا بها وبه قائلا إنها:

«محط الرحال، ومطمح الآمال، تجارتها نافقة، مبانيها رائقة، وسِلَعُها ثمينة، ومياهها التى عمَّت بها مَعينة، ومساجدها معمورة، وبركاتها منشورة، ومرتبَّاتها لمدرسيها جارية.. وأما خراج بلاده، فقد زاد على معتاده، لكثرة العمارة، بحسن سياسة الإمارة».

وتطلب إليه الفتاة أن ينشئ قصيدة فى مديح الأمير على باى الثانى لهدمه حانات العاصمة، وينظم فيه قصيدة.وواضح أن هذه المقامة مثل أختيها أشبه برسالة منها بمقامة، ونلاحظ أن لغته فى مقاماته أخف وأعذب من لغة على الغراب فى مقاماته. ومثل مقاماتها مقامة لحمودة بن عبد العزيز المتوفى سنة ١٢٠٢هـ/١٧٨٨م. ولعل فيما قدمته مايدل على أن فن المقامة لم يزدهر لا فى تونس ولا فى القيروان. بينما ازدهرت فنون النثر الأخرى وخاصة الرسائل الديوانية والشخصية، وحرى بنا أن نترجم لأشهر الكتاب ممن سميناهم، وهم أبو اليسر الشيبانى وإبراهيم الحصرى وابن خلدون.

٥

كبار الكتاب

أبو اليسر[2] الشيبانى

هو إبراهيم بن محمد الشيبانى ولد سنة ٢٢٣هـ/٨٣٧م ببغداد وبها المنشأ والمربى واختلف إلى حلقات شيوخها من المحدِّثين والفقهاء واللغويين أمثال المبرد والأدباء أمثال الجاحظ وابن قتيبة، وبدا فيه ميل مبكر إلى الأدب جعله يلقى كبار الشعراء بها من أمثال البحترى وابن الرومى

(١) أطمار جمع طمر: الثوب البالى.

(٢) انظر فى ترجمة أبى اليسر الشيبانى التكملة لابن الآبار (طبع مدريد) ١٩٠/١ والبيان المغرب لابن عذارى (طبع مكتبة صادر ببيروت) ٢٥٤/١ ونفح الطيب للمقرى وورقات عن الحضارة العربية بإفريقية ٢٤٤/١.

ويحمل عنهم دواوينهم، ويبدو أنه عمل فى دواوين الدولة العباسية فترة مع سعيد بن حميد وسليمان بن وهب وأمثالهما. وكان فيه ميل إلى الرحلة ولعله عرف ارتحال زرياب إلى الأندلس وماحقق لنفسه من النجاح العظيم لعهد عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦-٢٣٨ هـ) فرأى أن يؤم بدوره قرطبة، وقدمها فى زمن الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨-٢٧٣هـ) وطوَّف فى أنحاء الأندلس، ثم رأى أن يغادرها، ولا نعرف أسباب ذلك، وركب البحر إلى إفريقية، وقصد الأمير الأغلبى إبراهيم الثانى (٢٦١-٢٨٩ هـ) فلقيه لقاء حسنا، وعمل بدواوينه ولم يلبث أن اتخذه رئيسا لديوان الرسائل لم وجد عنده من الأدب الرفيع والترسل البليغ والشعر الرائق مع حصافة الفكر ومكارم الأخلاق، ويبدو أنه هو الذى دفع إبراهيم الثانى إلى تأسيس بيت الحكمة فى عاصمته رقادة، حتى إذا تولى زيادة الله الثالث عهد به إليه مع رياسته لديوان الانشاء، ويقول الكاتب الرقيق مؤرخ القيروان المشهور إنه هو الذى أدخل إلى إفريقية رسائل المحدثين وأشعارهم وأخبارهم، واستمرت له منزلته الرفيعة عند الأغالبة حتى إذا انتهت دولتهم سنة ٢٩٦ وخلفتها فى إفريقية الدولة الفاطمية أقرَّه عبيد الله المهدى فى عمله مستعينا به فى توطيد حكمه، ولم يلبث أن توفى سنة ٢٩٨هـ/٩١١م بعد أن لقن ابنه وعددا من أبناء رقادة والقيروان أصول الكتابة الديوانية، ويذكر من ترجموا له مؤلفات لغوية وأدبية مختلفة، منها: سراج الهدى فى معانى القرآن وإعرابه ومشكله، ومسند فى الحديث، وكتاب لقط المرجان على شاكلة كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة، ويقال إنه كان أكبر منه حجما. وخلَّف بجانب ذلك مجموعة من الرسائل النثرية البليغة، واتخذ لبعضها أسماء مثل المرصَّعة والمدبَّجة والوحيدة والمؤنسة. وهو صاحب الرسالة العذراء التى نسبها محمد كرد على إلى إبراهيم بن المدبر فى كتاب رسائل البلغاء خطأ، وفى كتاب صبح الأعشى نصوص منها منسوبة إلى أبى اليسر مما يؤكد نسبتها إليه كما فى كتاب العصر العباسى الثانى ص٥٢١ وأشار إلى هذه النسبة الدكتور محمد طه الحاجرى فى كتابه دراسات وصور من تاريخ الحياة الأدبية فى المغرب ص١٠٧ ووثق نسبتها إلى أبى اليسر الدكتور محمود مكى فى بحث قدمه إلى المجمع اللغوى.

والرسالة طويلة وتعرض بدقة موازين البلاغة وأدوات الكتابة، وهى - فى رأينا - أول رسالة عرضت فى تفصيل صناعة الكتابة الديوانية، ويذكر فى مطلعها أن شخصا طلب إليه أن يعرفه بآداب الكتَّاب، ويطلب ممن يريد حذقها طول الاختلاف إلى العلماء ودراسة كتب الحكماء ورسائل المتقدمين والمتأخرين والوقوف على الأشعار والأخبار والسير والأسمار والخطب ومحاورات العرب ومعانى العجم وأمثالهم ورسائلهم وعهودهم، مع التزود بالنحو والصرف واللغة والفقه. ويقول إن من يريد التفوق فى صناعة الكتابة ينبغى أن يحسن اقتباس آى القرآن الكريم ووضعها بدقة فى مواضعها وكذلك الأمثال والأشعار. ونشعر أنه يستمد من الجاحظ

كثيرا من أفكاره عن الكتابة الأدبية، وقد طالب – كما طالب الجاحظ من قبله – بالملاءمة الدقيقة بين الكلام وطبقات الناس، وبالمشاكلة بين الألفاظ والمعانى حتى توضع الألفاظ فى مواضعها. ونراه لا يرتضى – مستضيئا بابن قتيبة – عبارات فى الدعاء مثل: «أبقاك الله طويلا» فخير منها «أطال الله بقاءك» إذ العبارة الثانية فى رأيه أرجح وزنا وأنبه قدرا. ويطلب إلى الكاتب أن لا يستعمل الدعاء: «جُعلت فداك» لأنه ابتذل حتى مجّته الأفواه، كما يطلب إليه أن يعرف لكل كلمة مكانها، ويضرب مثلا لتوضيح رأيه هو أن شخصا كتب إلى داود بن خلف الأصفهانى صاحب مذهب الظاهرية عن شخص آخر هذه العبارة: «وإن قال كذا فقد خرج عن الملة، والحمد لله» فقال له داود متعجبا من وضع الحمد فى عبارته: وتحمد الله على أن تخرج امرءا مسلما من الإسلام، هذا موضع استرجاع وللحمد مكان يليق به، وإنما يقال فى المصيبة: إنا لله وإنا إليه راجعون. ويقول أبو اليسر إنه يوضع مع ذكر الشكوى مثل: «والله المستعان» ومع ذكر البلوى: «نسأل الله صرف السوء» ومع ذكر النعم: «الحمد لله».

ويستضىء بالجاحظ فى النهى عن الايجاز المفرط فى الرسائل والألفاظ المشتركة والمبهمة، ويدعو إلى الاستهلال فى مقدمات الرسائل بحيث يشير الكاتب فى صدرها إلى المراد منها. ويفيض فى أوصاف القلم واختيار مادته وطريقة بريه، ويتحدث عن القراطيس والكتابة فيها وطيّها ويلفت إلى كتابة التاريخ بالقياس إلى الشهر، فإن كان الماضى أقل من نصف الشهر قيل: لكذا ليلة مضت من شهر كذا وإن كان الباقى أقل من النصف قيل: لكذا ليلة بقيت. ويعود إلى الحديث عن وضع الألفاظ فى مواطنها بكل دقة وينهى من ليست له موهبة فى الكتابة عن الانتظام فى هذه الصناعة.

وينقل عن الجاحظ إعجابه بالكتاب إذ التمسوا من الالفاظ ما ليس متوعرا وحشيا ولا ساقطا سوقيا، ويبين أهمية الرسائل المحبرة تحبيرا جيدا فى استنزال الجبابرة وأنها قد تصنع مالاتصنعه الجيوش اللجبة، وينقل عن البيان والتبيين للجاحظ نقولا كثيرة مثل تعريف اليونان والروم والفرس للبلاغة والصحيفة التى دوَّنها عن الهنود فى البلاغة، وأيضا ما سجله الجاحظ عن بعض بلغاء العرب والمتكلمين. وتأثير الجاحظ وابن قتيبة واضح فى الرسالة، وللجاحظ النصيب الأوفر. ولعل فى هذا التلخيص المجمل إجمالا شديدا للرسالة العذراء لأبى اليسر الشيبانى ما يوضح كيف أنه عنى عناية واسعة بنقل تقاليد الكتابة فى بغداد إلى إفريقية كما عنى زرياب قبله بنقل تقاليد الغناء البغدادى إلى الأندلس، وبدون ريب يفتتح أبو اليسر الشيبانى فى إفريقية للكتابة الديوانية عصرا جديدا بأكمله.

إبراهيم[1] الحُصْرى

هو أبو إسحق إبراهيم بن على المشهور بالحُصْرىّ نسبة إلى قرية بحذاء القيروان اسمها الحُصْر، قال ابن رشيق فى التعريف به إنه «نشأ على الوراقة والنسخ لجودة خطه، وكان منزله لزيق جامع القيروان فكان الجامع بيته وخزانته، وفيه اجتماع الناس إليه ومعه. ونظر فى النحو والعروض. ولزمه شبان القيروان، وأخذ فى تأليف الأخبار وصنعة الأشعار، مما قرّبه إلى قلوبهم، فرأس عندهم، وشَرُف لديهم. ووصلت تأليفاته صقلية وغيرها وانثالت (انهالت) الصلات عليه، مات بالمنصورة (بالقرب من القيروان) سنة ٤١٣ وقد جاوز الأشدّ. وكان شاعرا نقادا عالما بتنزيل الكلام وتفصيل النظام، يحب المجانسة والمطابقة ويرغب فى الاستعارة تشبّها بأبى تمام فى أشعاره، وتتبعا لآثاره، وعنده من الطبع مالو أرسله على سجيته لجرى جَرْىَ الماء، ورقّ رقة الهواء». ويتبع ابن رشيق فى الثناء عليه ابنُ بسام فى الذخيرة قائلا إنه كان صدر النّدىّ ونكتة الخبر الجلىّ، وديوان اللسان العربى، راضَ صعابه، وسلك أوديته وشعابه، وجمع أشتاته وأحيا مواته». وللحصرى مؤلفات أدبية بديعة، أهمها زهر الآداب وثمر الألباب المنشور فى أربع مجلدات، عارض به كتاب البيان والتبيين للجاحظ كما يقول ابن بسام «وما يقصر عنه مداه، ولا قصّرت خطاه، ولم يورد فيه كلام العرب كما صنع الجاحظ، وإنما أورد روائع العباسيين من الشعراء والكتاب حتى عصره، وكاد لا يترك لهم مقطوعة شعرية بديعة ولا رسالة أدبية رائعة إلا دوّنها، يسعفه ذوق مصفى وحس دقيق وشعور رقيق، وأكثر من الاختيار لبديع الزمان فلم يترك له رسالة بليغة ولا مقامة باهرة فى رأيه إلا دونها فى كتابه، ونعجب أن يقدم لشباب الأدباء فى الإقليم التونسى مقامات بديع الزمان، ولا يصدرون عنها فى صنع مقاماتهم، غير أنهم إن كانوا عزفوا عما فى مقاماته من الكدية والشحاذة الأدبية فمما لاشك فيه أنهم مضوا يستوعبون ويتمثلون ما قدمه لهم من غذاء الشعر والنثر العباسى الرفيع، وهو غذاء ظل يحيا حياة متصلة فى جيله والأجيال بعده، ومن أجله كان الشباب فى إفريقية التونسية يلزمونه فى حياته ويلزمون آثاره بعد مماته، إذ كان له من التآليف بجانب زهر الآداب كتاب الجواهر فى الملح والنوادر وكتاب المصون والدرر المكنون وكتاب النورين أو نور الظَّرف ونور الطرف، وجميعها مختارات من رسائل وأشعار «أندى - كما يقول ابن بسام - من نسيم الأسحار، وأذكى من شميم الأزهار» وقد عرض منها فصولا بديعة. وتهمنا الفصول التى اختارها من رسائله، ومما اختاره له من رسالة إخوانية قوله:

---

(١) انظر فى ترجمة الحصرى الأنموذج ص٤٥ والذخيرة ٥٨٤/٤ ومعجم الأدباء ٩٤/٢ وابن خلكان ٥٤/١ والوافى للصفدى ٦١/٦.

«قد تقاربت الصفات، وتوازنت الذوات، وتكاشَفْنا لما تعارفنا، ورفعت الخلوة حجاب الاحتجاب، وحطَّت الخلطة لثام الاكتتام، وكنا مع طول الامتحان والاختبار ومدة الالتباس والاختيار، نقنع من ارتفاع القناع بلمحة، ومن اتقاد الزِّناد بقدحة، ونُبْرِز العبارات، من معارض الإشارات، وغوامض الاستعارات، فى طِراز يدق عن مَسْرى السِّحْر، ويرقّ عن مجرى الخمر.. ونختلس حركات البيان، فى سكنات الزمان، كما اختلس اللفظَ المحبُّ الكتوم، فهَلُمَّ الآن إلى التصريح دون التعريض، والتصحيح دون التَّمْريض، وتعال نتلاطفْ، ونتكاشف، إذ قد لبسنا ثوب الأمان من الزمان».

والجناسات كثيرة فى الرسالة، وبالمثل الطباقات فى السطور الأخيرة، والاستعارات كثيرة كثرة مفرطة، وكأنه لم يكن يكثر من هذه المحسنات البديعية فى الشعر فحسب، كما قال ابن رشيق، بل كان أيضا يكثر منها فى النثر. ومن فصل فى الإشادة بكتابة كاتب يقول:

«إذا بَدَا القلمُ الأعلى براحتِهِ ... مطرِّزًا لرداء الفخر بالظُّلَم
رأيتَ ما اسودَّ فى الأبصارِ أبيضَ فى ... بصائرٍ لحظُها للفهم غيرُ عَمِ
كروضةٍ خطرتْ فى وَشْىِ زَهْرتها ... وافترَّ نُوَّارُها عن ثغر مبتسمِ

وتبرَّجت فى حُلَلها وحليِّها، وابتهجتِ بوَسْمِيِّها[١] وَوَلِيِّها[١]، فاجتنبتُ ما اشتهيتُ من خُزَاماها وعَرارها[٢]، واجتليتُ ما رأيتُ من خِيريِّها وبَهارها[٣]، ولثمتُ خدود وَرْدِها وسوسانها[٤]، ورشفتُ ثغور أقاحِها وحَوْذانها[٥]، والتقطتُ مالا تُخْلِقُ[٦] الأيام بَهْجته، ولا تغيِّر الأعوامُ جِدَّته، من نَوْرٍ[٧] يُقْطَفُ بالأسماع والأبصار، وزهرٍ يُتناوَلُ بالخواطر والأفكار، وسرَّحت الطَّرْف، فيما يفوت الوصف، من غرائب إبداع، وعجائب اختراع، لم تفترعها[٨] الأسماع».

والفصل ملىء بالاستعارات فسطور كتابة هذا الكاتب تطرِّزَ بسوادها أو ظلمها رداء فخره، وما أشبه كتاباته بروضة تتمايل أغصانها بوشى زهرها، وتتلألأ البسمات على ثغور نوارها. ويمضى فى وصف الروضة طويلا مصورًا بأزهارها كلماته، وكأنما أكبَّ على خدود وردها يلثمه

---

(١) الوسمى: أول المطر. الولى: المطر بعد المطر.

(٢) الخزامى والعرار: نباتات طيبة الرائحة.

(٣) الخيرى: زهر أصفر، والبهار: زهر أبيض وهما عَطِران.

(٤) السُّوْسن: زهر متعدد الألوان جذاب عطر.

(٥) أقاح جمع أقحوان: زهر عطر يشبه الثغر، والحوذان: نبات عشبى زهره طيب الرائحة.

(٦) تخلق: تبلى.

(٧) نور: زهر.

(٨) تفترعها: تتعود عليها.

وعلى ثغور أقحوانها يرشفه، وظل يقطف من زهر خواطر هذا الكاتب وأفكاره العبقة، مسرِّحا الطرف فيما يفوت الوصف. ويقول الحصرى من فصل مقذع فى الهجاء:

«هو كليل الخاطرِ سقيم النفس، صدئ القريحة عديم الحس، ذو طبع جاسٍ[1]، وفهم قاسٍ.. قد تعوَّد لَيَّ الألسن بالسِّباب، وغَمْزَ الأعين على الصِّحاب، واستعمل الملقَ والكذابِ، فهو بين جاهل متغافل، قد حُشِي قلبه رَيْنا، ومُلِىء لسانه مَيْنا[2]، وبين مَنْ سمائمٌ نمائمه تلذع، وعقارب مكايده تلْسع.. قد أسكرته خمرةُ الكبر، فخيِّل إليه أن كسرى حامل غاشيته، وأن قارون وكيل نفقته، وبلْقيس إحدى داياته».

وذمٌّ هذا الأديب المتعالى الدَّعِيّ شديد الإيلام، إذ لم يترك فيه الحصرى شيئا من نفس أو حسٍّ أو طبع أو ذهن أو خلق إلا وجرَّحه، وكأنما يريد أن يمزقه تمزيقا، ووصَفَه بالكبر والتعالى حتى ليخال أن كسرى ملك الفرس من حشمه الذين يحملون من ورائه غاشيته وأن قارون صاحب الكنوز المشهور وكيل على نفقته، وأن بلقيس ملكة اليمن من حواضنه. ومضى يذكر له أنه يخال شعراء الجاهلية الكبار امرأ القيس والنابغة وزهيرا ليسوا شيئا مذكورًا بجانبه. والرسالة طويلة ونظن ظنا أن ابن زيدون استضاء بها فى رسالته الهزلية. ولعل فيما قدمت من هذه الفصول ما يشهد له بأنه كان كاتبا مبدعا إبداعا رائعًا لا بما كان يزين به كتاباته من محسنات البديع فحسب، بل أيضا بما كان ينتخب من الألفاظ مسوِّيا منها دُرَرًا متلاحقة.

ابن[3] خلدون

هو ولى الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي التونسي، ولد بتونس سنة ٧٣٢هـ/١٣٣٢م حتى إذا أيفع قرأ القرآن العظيم على أبى عبد الله بن بُرَّال، وبعد أن استظهره قرأه عليه بالقراءات السبع المشهورة وبقراءة يعقوب أحد العشرة، وعرض عليه الشاطبيتين فى القراءات وكتاب التقصِّى لأحاديث الموطَّأ لابن عبد البر وكتاب التسسهيل فى النحو لابن مالك ومختصر ابن الحاجب فى الفقه، وفى خلال ذلك تعلَّم صناعة العربية على والده

---

(١) جاس: غليظ.

(٢) رينا: دنسا. مينا: كذبا.

(٣) انظر فى ترجمة ابن خلدون كتابه: التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، وهو سيرته بقلمه (طبع القاهرة) والضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوى ١٤٦/٤ والحلل السندسية ٦٦٥/٣ وفلسفة ابن خلدون الاجتماعية لطه حسين ترجمة محمد عبد الله عنان وبرتشفيك ٤٠٥/٢ ومابعدها ودائرة المعارف الإسلامية فى ابن خلدون، وكتاب ابن خلدون: حياته وتراثه الفكرى (طبع القاهرة) وأعمال مهرجان ابن خلدون فى يناير سنة ١٩٦٢ بالقاهرة ودراسات عن مقدمة ابن خلدون لساطع الحصرى (طبع القاهرة) وعبد الرحمن بن خلدون للدكتور على عبد الواحد وافى (طبع القاهرة) ومجمل تاريخ الأدب التونسى ص٢١٨.

وعلى الشيخين الحصائرى والزرْزالى، وعلى إمام العربية والأدب بتونس أبى عبد الله بن بحر وأشار عليه بحفظ الشعر فحفظ كتاب الأشعار الستة للأعلم وكتاب الحماسة وشعر أبى تمام وطائفة من أشعار المتنبى وسقط الزند للمعرى ولازم مجلس الحافظ ابن جابر الوادى آشىّ وسمع عليه صحيح مسلم، وكتاب الموطَّأ، وأجازه إجازة عامة. وأخذ الفقه عن جماعة منهم أبو القاسم محمد بن القصير قرأ عليه كتاب التهذيب للبرادعى ومختصر المدوَّنة وتفقه عليه، وفى خلال ذلك كان يحضر مجلس الإمام محمد بن عبد السلام، وعليه سمع كتاب الموطأ. ولما ملك السلطان أبو الحسن المرينى تونس سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٨م أحضر معه جماعة كبيرة من علماء فاس، فاستمع إليهم وانتفع بهم، وبخاصة من الشيخ أبى عبد الله الأبلى التلمسانى تلميذ ابن البناء المراكشى، وعنه أخذ الأصلين والمنطق وسائر الفنون الحكمية والتعليمية.

وواضح من ذلك أن ابن خلدون كان - منذ نشأ - يكبُّ على تحصيل العلوم بل يلتهمها التهاما، وقد لفت إليه معاصريه منذ حداثته، مما جعل أبا محمد بن تافراكين المستبد بالدولة بعد رحيل السلطان أبى الحسن المرينى عن تونس يستدعيه سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٩م لكتابة العلامة عن الخليفة الحفصى أبى إسحق وهى وضع كلمة «الحمد لله والشكر لله» بقلم غليظ بين البسملة وما بعدها من مخاطبة أو مكاتبة. وفى سنة ٧٥٣هـ/١٣٥٢م استدعاه السلطان المرينى أبو عنان فارس لينتظم فى سلك رجال دولته، ولبَّاه، فأكرم وفادته عليه، وعهد إليه سنة ٧٥٦هـ/١٣٥٦م بالكتابة والتوقيع بين يديه، ونفِس عليه بعض من حوله هذه المكانة عند السلطان وأخذوا يدسّون عليه فاعتقله السلطان سنة ٧٥٨هـ/١٣٥٧م وظل فى معتقله حتى توفى سنة ٧٦٠هـ/١٣٥٩م ورُدَّت إليه حريته بعد وفاته، ولحق بالسلطان أبى سالم وولاه كتابة السر والإنشاء حتى توفى سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٣م ودخل بعده إلى غرناطة بالأندلس واحتفى به سلطانها ابن الأحمر ووزيره لسان الدين بن الخطيب، وتوثقت الصلة بينه وبين الوزير، وأرسله السلطان سنة ٧٦٥هـ/١٣٦٤م فى سفارة إلى ملك قشتالة، ونجح فى سفارته وسرعان ما أخذ أهل السعايات يفسدون ابن الخطيب عليه، وأحسَّ منه شيئا من الانقباض لم يكن عَهِده فيه، وكانت قد وردت عليه كتب من الأمير أبى عبد الله صاحب بجاية يستدعيه، فصمم على مغادرة غرناطة وركب البحر سنة ٧٦٦هـ/١٣٦٥م إلى بجاية، واحتفل أميرها ورجال دولته به، وخَلع عليه، وأخذ يستعين به فى تدبير حكمه، وأسند إليه خطابة الجامع، ودرَّس للطلاب، وقُتل وخلفه أخوه، وأحسَّ بالسعايات تكثر ضده، وجاءه كتاب من السلطان أبى حمو صاحب تلمسان فى الجزائر سنة ٧٦٩هـ/١٣٦٨م يستدعيه - وهو بمدينة بَسْكرة - لحجابته، فلبَّاه، وظل عنده حتى سنة ٧٧٤هـ/١٣٧٢م إذ استدعاه السلطان المرينى عبدالعزيز ليعمل معه، وارتحل إليه، غير أنه توفى قبيل قدومه عليه، ولقيه الوزير أبو بكر بن غازى لقاء كريما، وأحسَّ بدسائس تُحاك ضده من

حوله، فرحل إلى غرناطة سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٥م رحلته الثانية، وسرعان ما أخذ أهل الدولة بفاس يدسون ضده عند سلطانها ويحثونه على إعادته إلى تلمسان، وعاد إليها وأحسَّ ريبة من أبى حمو سلطانها لتركه له وعمله مع الدولة المرينية، فخرج من تلمسان واتجه إلى أحياء أولاد عريف فى البادية فأكرموه، ومكث بينهم مع أسرته أربعة أعوام، نزل فيها مع أهله بقلعة ابن سلامة فى جبل بنى راشد وأسكنوه فيها قصرا، اختلى فيه لوضع أصول كتابه العبر ومقدمته. وأحسَّ أنه محتاج إلى مطالعة أمهات الكتب فى مكتبات الدولة الحفصية فى تونس ليستعين بها فى تاريخه منقحا ومصححا وارتحل فى سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٩م يريد تونس ولقى فى سوسة سلطانها. فراجعه وذكر له أنه يريد الرجوع إلى تونس مسكن آبائه، فجهزه إليها، وعاد إلى عُشه الذى درج منه، وكان السلطان قد أمر نائبه فيها أن يهيىء له منزلا كريما مع راتب كاف. وعاد السلطان الحفصي إلى عاصمته، وأخذ يستشيره فى شئون الدولة، وطلب إليه الإكباب على تكملة تاريخه، وأكمله وأهدى الخزانة الحفصية الكبيرة منه نسخة، وأحسَّ بسعايات ضده عند السلطان الحفصى فقرر مغادرة تونس متعللا بالحج وركب البحر إلى الإسكندرية سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٣م ودخل القاهرة وانهال عليه طلابها يريدون الاستماع إليه، فانتصب للتدريس بالجامع الأزهر، يقرأ لهم كتاب الأصول للإمام المصرى المالكى ابن الحاجب، وأخذت شهرته تتسع فى أروقة العلماء والأمراء، ولقى السلطان المملوكى برقوق فآنسه ووفَّر راتبه، وولاَّه التدريس فى المدرسة القمحية بجوار جامع عمرو أهم مدارس الفقهاء المالكية بمصر. والتمس منه ابن خلدون أن يرسل إلى الخليفة الحفصى بتونس رسالة يرجوه فيها أن يرسل إليه أسرته بحرًا، وأرسلها، غير أنه لم يكتب له أن يرى أحدًا من أهله، فقد غرقت السفينة بكل من كان فيها، وحزن حزنًا شديدًا. وكان برقوق قلَّده قضاء القضاة المالكية سنة ٧٨٦هـ/١٣٨٥م بالإضافة إلى تدريسه فى المدرسة القمحية وكثر الشغب عليه وأظلم الجو بينه وبين أهل الدولة، ووافق ذلك مصابه فى أهله وولده، وعظم جزعه، فاعتزم الخروج من منصب القضاء والخلوص للعبادة والتدريس، وظل مترددا، حتى إذا عرف برقوق رغبته أخلاه من هذا المنصب سنة ٧٨٧هـ/١٣٨٦م. ومكث بعد عزله منه نحو سنتين فى حال رفعة وعز من تردد الطلاب والعلماء ووجوه القاهرة إليه، وتوجه إلى أداء فريضة الحج سنة ٧٨٩هـ/١٣٨٨م فقضى النسك وعاد إلى القاهرة محفوفا بمحبة الناس وتجلّتهم له إلى أن رأى السلطان أن يقلّده القضاء ثانية فى سنة ٨٠١هـ/١٣٩٨م وصُرِف عنه فى سنة ٨٠٣. ولم يلبث أن خرج مع السلطان فرج للقاء تيمور لنك وإعصاره التتارِى، وهزم فرج وجيشه بالقرب من دمشق وخرج ابن خلدون مع وفد للقاء تيمور لنك والتفاوض معه فى تسليم دمشق ووعظه وعظا طويلا استطاع به أن يفديها من النهب والسلب وما كان يأتى جيش تيمور لنك من الفظائع، وعُقد صلح بين السلطان فرج وتيمور لنك. وعاد ابن خلدون إلى القاهرة واستقبل بحفاوة بالغة، وأعيد إلى القضاء فى نفس السنة، وصُرف فى السنة التالية، وأعيد فيها،

وصرف سنة ٨٠٦هـ/١٤٠٣م وأعيد سنة ٨٠٧هـ/١٤٠٤م ولبّى نداء ربه - وهو قاض - فى السنة التالية.

وقد بهر ابن خلدون معاصريه ومَنْ جاءوا بعدهم إلى اليوم بتاريخه الذى سماه: «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر» وهو ثلاثة أقسام فى سبعة كتب، والكتاب الأول مقدمة فى الفلسفة الاجتماعية فى مجلد كبير، والكتاب الثانى فى أربعة مجلدات تتناول أخبار العرب فى المشرق، والكتاب الثالث فى مجلدين يتناولان تاريخ البربر، وهو حجة فى تاريخهم، وأيضا فيما كتبه عن تونس وصقلية والأندلس. والدافع الذى دفعه إلى كتابة مقدمة مسهبة لتاريخه ما لاحظه عند المؤرخين قبله من قبولهم كثيرًا من الأخبار الزائفةاوالخرافية وخضوعهم للأهواء وبعض النّحل دون تصور واضح للقوانين الاقتصادية التى تحكم المجتمعات الإنسانية، فأراد أن يقفهم على هذه القوانين ومدى سيطرتها على الظواهر الاجتماعية والسياسية، وبذلك فسر التاريخ على أسس تطور الأوضاع الاقتصادية لا على أسس تطور الأوضاع السياسية كما تصوره اليونان. والمقدمة فى ستة أبواب، أولها يتحدث عن العمران البشرى وضرورة الاجتماع الإنسانى ومن قوله فى ذلك.

«إن الاجتماع الإنسانى ضرورىٌّ، ويعبِّر الحكماء عن هذا بقولهم: الإنسان مدنىٌّ بالطبع أى لابد له من الاجتماع الذى هو المدنية فى اصطلاحهم، وهو معنى العمران، وبيانه أن الله سبحانه خلق الإنسان وركّبه على صورة لا تصح حياتها وبقاؤها إلا بالغذاء، وهداه إلى التماسه بفطرته وبما رُكِّب فيه من القدرة على تحصيله، إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرةٌ عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء، غير موفية له بمادة حياته منه، ولو فرضنا منه أقل ما يمكن فَرْضُه، وهو قوت يوم من الحنطة مثلا فلا يحصل إلا بعلاج كثير من الطحن والعَجْن والطبخ، وكل واحد من هذه الأعمال الثلاثة يحتاج إلى مواعين وآلات لا تتم إلا بصناعات متعددة من حداد ونجّار وفاخورى. هَبْ أنه يأكله حَبًّا من غير علاج فهو أيضا يحتاج فى تحصيله إلى أعمال أخرى أكثر من هذه: من الزراعة والحصاد والدِّراس الذى يخرج الحب من غلاف السُّنْبل، ويحتاج كل واحد من هذه إلى آلات متعددة وصنائع كثيرة أكثر من الأولى بكثير، ويستحيل أن توفى بذلك كله أو ببعضه قدرةُ الواحد فلابُدَّ من اجتماع القُدَر الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل القوتُ له ولهم، فيحصل بالتعاون قدرُ الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف، وكذلك يحتاج كل واحد منهم أيضا فى الدفاع عن نفسه إلى الاستعانة بأبناء جنسه».

ويقول إنه إذا حصل للبشر هذا الاجتماع أو المجتمع وتم لهم العمران كان لابد لهم من وازع يدفع بعضهم عن بعض لما فى طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم، وهذا الوازع إما يكون بواحد منهم له عليهم الغلبة والسلطان، وإما بشرع مفروض من عند الله يأتى به واحد

منهم متميز بما يودع الله فيه من خواص هدايته ليقع التسليم له والقبول منه، حتى يتم له الحكم فيهم من غير إنكار. ويفيض فى الحديث عن العمران بالأرض وأقاليمها ومدى تأثير البيئة فى السكان سواء فى الألوان أو فى الأخلاق.

والباب الثانى يتناول العمران البدوى مع مقارنات بالعمران الحضارى وبيان أن الأمم الوحشية تتغلب على مالا يبلغها فى الوحشية من الأمم، ويقول إن الانغماس فى الترف من عوائق الملك، وإن المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب، وإن تغلب العرب على الأوطان يسرع إليها بالخراب وإنهم أبعد الناس عن سياسة الملك. وظن بعض الباحثين أنه يريد العرب عامة، وهو إنما يريد الأعراب المتبدين الجفاة من أمثال بنى هلال وبنى سليم الذين سبق أن تحدثنا عنهم وعن سيولهم التى قدمت إلى إفريقية وخرَّبت القيروان وغيرها من المدن فى القرن الخامس الهجرى.

والباب الثالث عن الملك وأصنافه وأنه يحصل بالعصبية وحين يسود فيه الترف يفضى إلى الهرم، ويقول إن الدول تنتقل من البداوة إلى الحضارة وإن لها أعمارًا مثل الأشخاص، ويتحدث عن الخلافة وانتقالها إلى الملك كما يتحدث عمن تستعين بهم الدول من الوزراء والحجاب والعمال والكتاب ورجال الشرطة وقواد الجيش، وعن الحروب والجباية والمكوس، ويقول إن التجارة من السلطان مفسدة للرعية، وبالمثل تفرده هو وحاشيته بأكبر نصيب من دخل الدولة. وليس شىء يؤذن بخراب العمران مثل الظلم، ولابد للعمران البشرى من سياسة عادلة ينتظم بها أمره. والباب الرابع عن البلدان والأمصار وما يجب مراعاته فى أوضاع المدن، ويقول إن الحضارة غاية العمران غير أنها تعدّ لفساده. والباب الخامس عن المعاش (الاقتصاد) ووجوه من الكسب ويقول إنه: «إما أن يكون بالاستيلاء عليه من يد الغير على قانون متعارف ويسمى مَغْرَمًا وجباية وإما أن يكون باقتناص الحيوان الوحشى وأخذه بِرُمَّته ويسمى ذلك اصطيادًا، وإما أن يكون من نتاج الحيوان الداجن كاللبن من الأنعام والحرير من دوده والعسل من نحله، وإما أن يكون من الزَّرع نباتا أو شجرًا ويسمى ذلك فلاحة أو فَلْحًا، وإما أن يكون من الأعمال الإنسانية فى مواد معينة وتسمى الصنائع من كتابة ونجارة وخياطة وحياكة وفروسية وأمثال ذلك، وإما أن يكون من البضائع وأعدادها للأعواض[1]، ويسمَّى ذلك تجارة». ويفصِّل القول عن الفلاحة وعن التجارة وأصنافها وما يحدث فيها من الاحتكار، ويقول إنه يعود على صاحبه بالتلف والخسران، وإنه هو الذى اعتبره الشارع أَخْذَ أموال الناس بالباطل، ويُفيض فى الحديث عن أمهات الصنائع ويذكر من بينها صناعة التوليد وصناعة الطب ويفصِّل القول فيهما كما يفصله فى صناعة الغناء وأنغامه وآلاته وتطوره من الجاهلية إلى زمنه.

(١) الأعواض جمع عوض: البدل فى التجارة.

والباب السادس مقصور على العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه، ويتحدث عن العقل التجريبى وعلوم الأنبياء وأن الإنسان جاهل بالذات عالم بالكسب وأن العلم والتعليم طبيعيان فى العمران البشرى وأن العلوم إنما تكثر حين يكثر العمران وتعظم الحضارة، ويُفيض فى الحديث عن أصناف العلوم بادئًا بالعلوم الإسلامية: علوم القرآن من التفسير والقراءات وعلوم الحديث وعلوم الفقه وأصوله وعلم الكلام وعلم التصوف ومذاهب الوحدة والحلول فيه، ويتسع بالحديث فى علوم الأوائل من الحساب والهيئة والمنطق والطبيعيات والطب والفلاحة وعلم الإلهيات وعلم الكيمياء والفلسفة عارضا فى كل علم تاريخه وأشهر أعلامه. وينتقل إلى علوم اللسان العربى: علم النحو وعلم اللغة وعلم البيان وعلم الأدب ويقول «إنه لا موضوع له يُنْظَرُ فى إثبات عوارضه أو نفيها وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته وهى الإجادة فى فنى المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم، ويقول إن لغة العرب من أهل الحضر والأمصار لزمنه مغايرةٌ أو مخالفة للغة مضر الفصحى، إذ اتخذ كل مِصْرٍ وكل بلد لنفسه لغة عامية عربية مستقلة به، ويتحدث عن صناعة الشعر والنثر وأشعار العرب والأمصار لزمنه والموشحات والأزجال وغيرهما من فنون الشعر المستحدثة كالمواليا. وبذلك كله وضع ابن خلدون فى مقدمة تاريخه لأول مرة فى تاريخ الفكر الإنسانى علم الاجتماع بأركانه وقواعده وقوانينه أو كما يسميه علم العمران البشرى سابقا بذلك علماء الغرب الذين لم يعنوا به بعده إلا بنحو أربعة قرون، وهو بحق عبقريٌّ فَذٌّ لا لتونس وحدها بل للعرب جميعا فى كل مكان وزمان.

وواضح من حياة ابن خلدون أنه عمل بدواوين حكام مختلفين، وهو بذلك يُعَدّ من كتَّاب الدواوين، وكان السجع قد شاع فى كتاباتهم بحيث لا يكتبون رسالة ديوانية إلا مسجوعة سجعا تاما، وليس ذلك فحسب، بل كانوا يضيفون إلى السجع المحسنات البديعية، ورأى أن ينحى هذه الطريقة عن كتابته الديوانية، وأن يكتب بالأسلوب المرسل محاكيا عبد الحميد الكاتب والجاحظ وأضرابهما من قدماء الكتاب البلغاء، ويصرح بذلك فى كتابه: «التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، إذ يقول فيه: «لما استعملنى السلطان أبو سالم [المرينى] فى كتابة سِرِّه والترسيل عنه والإنشاء لمخاطباته كان أكثرها يصدر عنى بالكلام المرسل دون الأسجاع لضعف انتحالها وخفاء العالى منها على أكثر الناس بخلاف الكلام المرسل، فانفردت به يومئذ، وكان مستغربا بين أهل الصناعة». ونراه فى المقدمة يهاجم الكتابة الديوانية المسجوعة بعنف فى الفصل الذى عقده لانقسام الكلام إلى فنى النظم والنثر، ويقول: «استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه فى المنثور من كثرة الأسجاع والتزام التقفية.. واستمروا على هذه الطريقة واستعملوها فى المخاطبات السلطانية.. وهجروا المرسل وتناسوه.. ووجب أن تنزَّه المخاطبات السلطانية عنه.. والمحمود فيها الترسل، وأما إجراؤها على هذا النحو المقفى فمذموم، وما حملهم عليه إلا استيلاء العجمة على ألسنتهم وقصورهم لذلك عن إعطائهم الكلام حقَّه فى

مطابقته لمقتضى الحال، فعجزوا عن الكلام المرسل، وجبروه بذلك القدر من التزيين بالأسجاع والألقاب (المحسنات) البديعية». وهو يضم إلى مهاجمة الأسجاع فى المكاتبات السلطانية مهاجمة المحسنات البديعية التى أكثر منها المتأخرون، وعاد إلى هذه المهاجمة فى الفصل الذى عقده فى المقدمة بعد ذلك للمطبوع والمصنوع من الكلام، وقال إن تلك المحسنات تغلب اليوم على أهل العصر، وأصحاب الأذواق فى البلاغة يسخرون من كلفهم بهذه الفنون ويعدون ذلك من القصور عن سواه وليس بين أيدينا رسائل ديوانية لابن خلدون إلا ما ذكره فى كتابه: «التعريف» من فصل فى رسالة أرسل بها إلى ملك المغرب أبى سعيد عثمان بن أحمد المرينى يخبره فيه بأحوال تيمور والتتار منذ جنكيزخان وفيه يقول:

«كنت فى العام الفارط توجهت صحبة الرِّكاب السُّلْطانى (الناصر فرج) إلى الشام عندما زحف الطَّطر إليه من بلاد الروم (آسية الصغرى) والعراق مع مَلِكهم تمُرْو استولى على حلب وحماة وحمص وبَعْلبك وخرَّبها جميعا، وعاثت عساكره فيها بما لَم يُسْمَع أشنع منه، ونهض السلطان فى عساكره لاستنقاذها، وسبق إلى دمشق وأقام فى مقابلته نحوا من شهر، ثم قفل راجعا إلى مصر، وتخلَّف الكثيرُ من أمرائه وقضاته، وكنت فى المخلَّفين، وسمعت أن سلطانهم تمرُ سأل عنى، فلم يَسعْنى إلا لقاؤه، فخرجت إليه من دمشق، وحضرت مجلسه، وقابلنى بخير، واقتضيت منه الأمان لأهل دمشق، وأقمتُ عنده خمسة وثلاثين يوما، أباكره وأراوحه، ثم صَرَفنى وودَّعنى على أحسن حال، ورجعتُ إلى مصر.. ثم رجع آخِرًا إلى بلاده، والأخبارُ تتصل بأنه قصد سَمَرْقَنْد، وهى كرسيُّه (عاصمة ملكه) - والقومُ فى عددٍ لا يسعه الإحصاء، إن قدَّرتُ ألفَ ألفٍ (مليون) فغير كثير، ولا تقول أنقص، وإن خيَّموا فى الأرض ملأوا السَّاح (الساحات) وإن سارت كتائبهم فى الأرض العريضة ضاق بهم الفضاء، وهم فى الغارة والنهب والفتك بأهل العمران وابتلائهم بأنواع العذاب على ما يحصلونه من فئاتهم آية عجب، وعلى عادة بوادى الأعراب».

والفصل - على هذه الشاكلة - مكتوب بأسلوب مرسل دون أى تكلف لسجع أو لمحسن بديعى. وكان يستخدم هذا الأسلوب فى رسائله الشخصية على نحو ما يتضح فى رسالة أرسل بها إلى لسان الدين بن الخطيب ردًا على رسائله الموشاة بالسجع والبديع، وقد دون الرسالة ورسائل ابن الخطيب فى كتابه: «التعريف» ويقول ابن خلدون إنه تفادى فى رسالته السجع خشية القصور عن مساجلة ابن الخطيب فى رسالاته المسجوعة، وهى مجاملة لابن الخطيب، والحقيقة أنه نحىَّ السجع عن كتاباته فى الرسائل الشخصية والديوانية جميعا، ودعا الكتَّاب - إلى ذلك - كما أسلفنا - فى مقدمته غير أنهم ظلوا لا يستمعون إليه فى جميع البلدان العربية، إلى أن تحررت الكتابات ديوانية وغير ديوانية من السجع والمحسنات البديعية بمصر فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وتبعتها البلدان العربية.

القسم الثالث

صَقَلّيَة

الفصل الأول

الجغرافية والتاريخ

١

الجغرافية[١]

صقلية جزيرة كبيرة تقع فى منتصف البحر المتوسط، فتقسمه إلى شطرين شرقى وغربى، ويكاد يتلاقى شماليها الشرقى بإيطاليا فبينهما مضيق مسِّينى الذى لا يكاد يتجاوز عرضه ثلاثة كيلو مترات. بينما يتسع البحر المتوسط بينها وبين تونس وطرابلس حتى ليبلغ عرضه نحو مائة وعشرين كيلو متر تقريبا أو يزيد وبخاصة أمام طرابلس. وهى فى الداخل مرتفعات وهضاب ووديان، وعلى مرتفعاتها أقيمت مدنها الداخلية لتكون حصينة. وفى جنوبيها إلى الغرب مدينة جرجنت، والشاطئ الغربى والجنوبى الغربى موانيها لا تصلح للملاحة، وإذا تغلغلنا نحو الشمال الغربى وجدنا مروجا ومراعى متسعة، ونمضى نحو الشمال فنجد ثغر أومرفأ طرابنش، ونتجه غربا فى الساحل الشمالى وهو ساحل صخرى جبلى، ونلتقى بخليج تام الاستدارة، ويلقانا بعده خليج مدينة بلرْم (Palermo) عاصمة صقلية الإسلامية ولا تزال عاصمتها إلى اليوم، ووراءها تنحسر الجبال ويلقانا سهل من أخصب السهول، ونستمر فى السير على الساحل الصخرى الجبلى حتى تلقانا مسينى على مضيقها. ونسير من مدينة سينى متجهين إلى الجنوب شرقى صقلية فى ساحل جبلى صخرى ونلتقى بثغر أو مدينة طبرمين، ونمضى حتى قرب ثغر أو ميناء قطانية حيث يصبح الساحل رمليا، ويصبُّ فيه بعض الجداول. وإذا مضينا فى اتجاهنا نحو الجنوب لقينا ثغر سرقوسة الذى أنشأه اليونان، وبه ولد العالم الإغريقى الفيزيقى المشهور أرشميدس، وبها قتل سنة ٢١٢ ق.م.

وأعلى جبال صقلية جبل إتنا فى أقصى الشمال، ويبلغ ارتفاعه ثلاثة آلاف وثلاثمائة متر

---

(١) انظر فى جغرافية صقلية صورة الأرض لابن حوقل ومعجم البلدان لياقوت ونزهة المشتاق فى اختراق الآفاق للإدريسى وكتاب المسلمون فى جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا للأستاذ أحمد توفيق المدنى (طبع الجزائر) وكتاب العرب فى صقلية للدكتور إحسان عباس (طبع دار المعارف – القاهرة).

تقريبا، ويجلِّل هامته شيب أوثلج أزلى، بينما يَغْلى جوفه بنار لا تخمد أبدا، وكأنه شيخ رحيم قاس فى آن واحد، وقسوته لا توصف، إذ يظل يُلْقى بحممه مغيظا محنقا أياما، وتغطِّى حُمَمُهُ الأرض بطبقة خصبة. وتمتد شمالى الجزيرة سلسلة جبال من الشرق إلى الغرب، أكبر الظن أنها امتداد لجبال الأبنين فى إيطاليا وجبال الأطلس فى شمالى إفريقيا، وهى جبال صخرية جرداء عارية مما كانُ يُنْتَظَر لها من زينة النباتات الخضراء، وطبقتها الخارجية تتكون من حجارة كلسية وبعض أنواع الرُّخام الرفيع، ومنها تتكون بعض جبال فرعية، تنحدر صوب الجنوب ومن أهمها الجبال التى أنشئت فوقها مدينة قصريانة وسط الجزيرة، والجبال التى تتجه نحو مدينة جرجنت. وهذه الجبال غنية بالخزف والرخام والملح المعدنى والجص، وكل ذلك يكوِّن ثروة طبيعية مهمة لصقلية، ويوجد الكبريت قرب جرجنت وحول قطانية وبلِرْم.

ومناخ صقلية فى جملته معتدل، وفصل الشتاء فيها ليس قارس البرد بفضل الجبال الشمالية التى تحميها منه، وهو يمتدّ فيها من شهر نوفمبر حتى شهر مارس، وفصل الصيف معتدل الطقس إلا ما يهب عليها فيه من رياح السموم التى تأتيها من إفرتقية. ويكفى لنتصور اعتدال المنجخ فيها أن درجة الحرارة فى بلرم لا ترتفع عن ٢٦ درجة صيفا ولا تهبط عن ١١ درجة شتاء، ولذلك سميت بلاد الربيع الأبدى.

واعتدال مناخها هيَّأها لأن تنمو فيها مختلف الزروع والغروس، وتكثر الأمطار فى ساحلها الغربى والشمالى وقد نقل إليها القرطاجيون القمح والزيتون والإغريق الكَرْمة، ونقل إليها العرب النخيل والليمون واللوز والفستق والتين ومختلف الأزهار، وأيضا الموز والبرتقال،، وبها بعض مراع فى سهولها هيأت لكثير من قطعان الغنم والماعز والخنازير. ويكثر فى سواحلها صيد البحر بمختلف أنواعه.

٢

التاريخ[١] القديم

استوطن صقلية فى أقدم عصورها شعب الصيقول (Les Sicules) ومنه اشتق اسمها، ومنذ أكثر من ألف سنة قبل الميلاد أخذ يفد عليها غزاة من الشرق أوالجنوب أوالشمال، فكانت

(١) انظر فى التاريخ القديم لصقلية كتاب تاريخ مسلمى صقلية لميخائيل أمارى: Amari: Storia Dei Musulmani Di Sicilia وكتاب المسلمون فى جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا ص١٩ وما بعدها وكتاب العرب فى صقلية ص ٢٥ وما بعدها وتاريخ صقلية الإسلامية فى القسم الثالث من كتاب ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية للأستاذ حسن حسنى عبدالوهاب ٤٣٥/٣ وما بعدها.

تخضع لهم بحكم أنها جزيرة صغيرة لا يمكنها مقاومة هؤلاء الغزاة. ولها قبل الفتح الإسلامى تاريخ قديم، وبعده تاريخ نورمانى سنلم بأحوال المسلمين فيه. وأول من سكنها - كما قلنا آنفا - شعب الصيقول، وكان الفينيقيون - منذ نشأتهم على صفحات التاريخ - شعبا تجاريا يجوب سواحل البحر المتوسط، ويؤسس له عليها قواعد تجارية، وقد نزلوا سواحل صقلية وأسسوا لهم فى شماليها قاعدة هى بَلِرْم. ومضت على ذلك قرون، وإذا اليونان يتبعونهم فى الاستيلاء على ساحلها الشرقى ويؤسسون‌هم به قاعدتين فى القرن الثامن قبل الميلاد هما سرقوسة وقطانية، وسرعان ما تحولتا مدينتين كبيرتين، وصعدوا إلى الشمال وأسسوا مدينة مسِّينى. وفى هذه الأثناء كانت دولة قرطاجة فى الشمال التونسى آخذة فى القوة ومددت ذراعها إلى صقلية تريد أن تستولى عليها من الإغريق وظلت الحرب بينهما فى مدٍّ وجزر وانتصار وانهزام إلى أن استطاعت قرطاجة أن تفرض سيادتها على الجزيرة سنة ٢٦٤ قبل الميلاد. غير أن القرطاجيين لم يكادوا يحوزونها لأنفسهم حتى نشبت حروب عاتية بينهم وبين الرومان، وعبثا حاولوا إنقاذها، فغادروها سنة ٢٤٢ قبل الميلاد، وأصبحت جزءا من الإمبراطورية الرومانية، وأصابها ما أصاب أهل روما منذ القرن الثالث الميلادى من التدهور والفتن والفساد الأخلاقى. ولما سقطت روما تحت أقدام المغيرين الشماليين لم تلبث أن سقطت بدورها تحت ضربات الواندال الذين استولوا على إفريقية التونسية، وقد أرهقوهم لمدة نحو قرن بالضرائب الفادحة، وأذاقوهم ضروبا من العَسْف والظلم والاستبداد لا تطاق.

وتسترجع بيزنطة فى عهد جستنيان صقلية، إذ كلَّف قائده بلزاريوس بالاستيلاء على الجزيرة من الواندال كما استولى على إفريقية الشمالية وكانت المدن خالية من حاميات واندالية، ما عدا بلرم، فقد كان بها حامية لهم، وكانت أسوارها منيعة، فقاومته فترة ثم استسلمت مثل أخواتها الصقليات، وفرحت جميعها بنزول الجيش البيزنطى فيها واستبشرت لخلاصها من ظلم الواندال وتعسفهم فى جمع الضرائب، غير أنهم لم يلبثوا أن شعروا بأنهم تخلَّصوا من ربقة عَسْف إلى ربقة عسف جديد، إذ أَصْلاهم ولاه بيزنطة طوال ثلاثة قرون عبئا ثقيلا من الضرائب الفادحة، فقد فرضوا عليهم ضريبة على الأملاك وضريبة على الرءوس وضريبة على التجارة أو الصناعة وضريبة للجيش أو ضريبة دفاع وضريبة للملاحين وضريبة للموظفين. ولم تكن الدولة البيزنطية وحدها هى التى تجنى الضرائب من صقلية، فقد كانت تجنيها معها الكنيسة: كنيسة روما وميلانو وراڤنا، وكان للكنيسة الأولى الحظ الأوفر، إذ كان لها إقطاعات كثيرة موزعة حول بلرْم وقطانية وسرقوسة وجرجنت، وكان يديرها قسِّيسان أحدهما فى بلرم والثانى فى سرقوسة. وكان همُّ كل منهما أن يجمع أكثر ما يمكن من الضرائب، وبالمثل كان وكلاء كنيستى ميلانو وراڤنا، وكان يُرْسَلُ إلى روما سنويا أسطولان محمَّلان بالقمح فى الربيع وفى الخريف، وكانت تُرْسَلُ إلى راڤنا سفن محملة بمئات القناطير من القمح والفواكه والخضراوات والجلود المدبوغة والحرير

والمواد الصوفية، والفلاح الصقلي يتصبب عرقا، ويجمع الضرائب وكلاء الكنائس المذكورة مرة ويجمعها وكلاء الدولة البيزنطية مرة، دون رحمة أو إشفاق. وكانت روما فى أثناء ذلك تُرْسِل إلى صقلية بكثير من العبيد، وأضافت إليهم من كانت تنفيهم من المذنبين ومقترفى الجرائم والجنود المتمردين. وكل ذلك عمل على إضعاف شخصية صقلية فى العهد البيزنطى - كما يقول أمارى - وأزهق فيها الشعور بالكرامة الإنسانية ولم يبق فيها منه بقية.

٣

الفتح[١] العربى وعهد الدولة الأغلبية

بينما هذا الظلام يطبق على صقلية ويطبق معه الضنك والضيق والإعس إذا بالعرب يفتحون ديار إفريقية التونسية المواجهة لصقلية ويستولون على جميع بلاد المغرب، وكان طبيعيا أن يفكروا فى السيطرة على البحر المتوسط وعلى جزره: صقلية وغيرها، وتبعا لخطتهم الحربية فى التعرف على أحوال البلاد قبل غزوها نراهم يرسلون سنة ٤٥ هـ/٦٦٥ م حملة استطلاعية إلى صقلية بقيادة عبد الله بن قيس، وبعد تعرفه على سواحلها الجنوبية عاد إلى إفريقية التونسية، وأرسلت بعد ذلك حملات بحرية مماثلة بقيادة محمد بن أوس الأنصارى وبشر بن صفوان الكلبى، وتبعهم جميعا فى تلك الحملات سنة ١٢٢هـ/٧٤٠م حبيب بن أبى عبيدة حفيد عقبة بن نافع مؤسس القيروان، واضطر إلى العودة سريعا لاضطراب الأحوال فى إفريقية التونسية ويقول ابن عذارى إن ابنه عبد الرحمن غزا بعده صقلية ثم سردانية وقاتل بها حتى صالحه أهلها. وهذه الحملات المبكرة نبَّهت الدولة البيزنطية إلى أن تحسب حساب الغزو العربى المفاجىء، فأحالت صقلية إلى قاعدة حربية تمتلئ ثغورها ومدنها وقلاعها وحصونها بالعتاد الحربى الوافر.

وكان من أهم الأسباب التى أسرعت بفتح صقلية أن قائدا بيزنطيا يسمى أوفيموس (Euphemius) وتسميه المصادر العربية فيمى ثار على قسطنطين بطريق صقلية، فأمرته حكومة

---

(١) انظر فى الفتح والعهد الأغلبى البيان المغرب لابن عذارى وتاريخ ابن الأثير وتاريخ ابن خلدون وأعمال الأعلام لابن الخطيب والمؤنس لابن أبى دينار والجزء الثالث من كتاب ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية والمسلمون فى جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا للأستاذ أحمد توفيق المدنى والعرب فى صقلية للدكتور إحسان عباس.

القسطنطينية بالقبض عليه وتعذيبه، وعلم فيمي بذلك الأمر، فرأى أن يستنجد بالأمير زيادة الله الأغلبي حاكم إفريقية التونسية ضد البطريق وحكومته، واستجاب إليه زيادة الله إذ رأى فى ذلك فرصة لا تعوَّض للاستيلاء على صقلية، فأعدَّ سريعا جيشا لفتحها، ورأى بكياسته أن يسند قيادته إلى أسد بن الفرات القاضى وشيخ فقهاء المالكية بالقيروان.

وأقلع الأسطول الأغلبى بقيادة أسد بن الفرات من ميناء سوسة فى منيصف ربيع الأول من سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م وكان يحمل عشرة آلاف مقاتل، وأرسى بعد ثلاثة أيام على ساحل صقلية عند مدينة مازَر فى الجنوب الغربى، واستطاعوا فى وقت قصير الاستيلاء على بعض المدن والحصون الجنوبية، وتقدموا إلى الساحل الشرقى حتى حاصروا مدينة سرقوسة قاطعين نحو مائتى كيلو متر إليها، وتعززوا بمددٍ جديد إليهم من إفريقية. وكان أسد يباشر الحصار بنفسه ويضيِّق على المدينة، وانتشر مرض بين صفوف الجند العرى أَوْدَى بحياته العظيمة، فلبَّى داعى ربه فى ربيع الثانى سنة ٢١٣هـ/٨٢٨م ودُفن تحت أسوار سرقوسة. وخلفه على قيادة الجيش محمد بن أبى الجوارى، واستولى على جرجنت فى الجنوب بالإضافة إلى مازر، وأخذ يستعد للهجوم على مدينة قصريانَّة، وكانت الحملة قد أصابها عناء شديد بسبب المعارك المتصلة، وأوشكت على الانسحاب إلى إفريقية، غير أن ما نذروا أنفسهم له من الجهاد فى سبيل الله ونشر الإسلام تحت راية الشيخ أسد بن الفرات كان يطرد اليأس من نفوسهم ويشدّ أزرهم إلى أبعد حد، ولم يلبث الأمل أن ملأ نفوسهم إذ رفدهم مددٌ جديد من إفريقية ومن أسطول لشرصان المجاهدتن الأندلسيين سمع بحملتهم، فجاء يؤيدهم، وتوفى قائدهم محمد بن أبى الجوارى سنة ٢١٦هـ/٨٣١م فأرسل إليهم الأمير زيادة الله الأغلبى قائدا جديدًا هو زهير بن عوف، فصمم على الاتجاه إلى الشمال وغَزْو بَلِرْم وحاصرها برا وبحرا وضيَّق الخناق عليها، وفى أثناء ذلك استولى على ماسينى سنة ٢١٩هـ/٨٣٤م ومازال يزداد شدة فى تضييق الحصار على بلرم إلى أن استيأس منها الروم، فغادروها بحرا وبرًّا، تاركين المدينة مفتوحة أمامجيش المسلمين فدخلها فى رجب سنة ٢٢٠هـ/٨٣٥م وكان بها سبعون ألفا قبل الحصار فلم يجد الجيش بها سوى ثلاثة آلاف كما يقول ابن الأثير فى تاريخه. واتخذها المسلمون هناك عاصمة لحكمهم فى الجزيرة كما كانت عاصمة لمن قبلهم، وظلت كذلك لمن يعدهم، وأخذوا فى تشييد القصور بها والمساجد والحمامات والفنادق وإقامة الأسواق بها والحدائق حولها، وحوَّلوها مركزا علميا يبث إشعاعات نوره إلى ظلمات القرون الوسطى فى أوربا.

وتوفِّى هذا القائد المجاهد العظيم زهير بن عوف سنة ٢٢١هـ/٨٣٥م ووَلِى صقلية بعده أبو الأغلب إبراهيم بن عبد الله بن الأغلب واهتم بالحرب البحرية ونازل سفن البيزنطيين غير مرة وانتصر عليها، بل حطمها حطما، وبذلك أصبحت للأسطول الإسلامى الصقلى سمعة كانت

تُدْخل الرعب والفزع فى قلوب الأعداء، وكانت مطامح المسلمين المجاهدين تتجه صَوْبَ إيطاليا القريبة ديارها من مسِّينى فجهز أسطولا أرسل به صوب قَلَوْرِيَّة بجنوبى إيطاليا فنزل بها الجند المسلمون ووصلوا إلى نهر البو سنة ٢٢٣هـ/٨٣٨م. ويتوفى أبو الأغلب سنة ٢٣٦هـ/٨٥٠م ويتولى صقلية العباس بن الفضل ويجهز أسطولا لغزو قَلَوْرِيَّة سنة ٢٣٩هـ/٨٥٣م. ويقيم بها بعض الحاميات، وخرجت مسِّينى بعون من الروم عليه فأعادها سنة ٢٤٢ وأخذ يفتح الحصون فى الداخل الواحد بعد الآخر، وفتح جفلود (شفلودى) على البحر بالشمال فى نفس السنة، وشدَّد الحصار على قصريانَّة المنيعة فى وسط الجزيرة، واستسلمت سنة ٢٤٤هـ/٨٥٨م بعد جهاد عنيف، وبنى العباس فيها تَوًّا مسجدا، ونَصَب فيه منبرا وخطب فيه الجمعة. ولعل فى ذلك دلالة واضحة على أن قواد الفتوح فى صقلية وجنودها المسلمين كانوا يعدون غزو مدنها وحصونها جهادا فى سبيل الله. وأزعج أَخْذُه لمدينة قصريانة الكبيرة المحصنة بيزنطة فأرسلت أسطولا يحمل مددا كبيرا من الرجال والمؤن إلى سرقوسة، والتقى به الأسطول الإسلامى الصقلى ونشبت بينهما معركة عنيفة انتصر فيها الأسطول الإسلامى، واستولى على مائة من سفن الأسطول البيزنطى، ولاذ الباقون بالفرار، ويقول ابن الأثير إن المسلمين لم يستشهد من جنودهم فى هذه المعركة البحرية سوى ثلاثة، وكأن الجنود البيزنطيين لم يلبثوا حين رأوا أسطول المسلمين وجنوده البُسَلاء أن ألقوا سلاحهم وسفنهم وفروا من المعركة منهزمين.

ولم يلبث هذا القائد المجاهد أن لبَّى نداء ربه سنة٢٤٧هـ/٨٦٢م ويتولاها خفاجة بن سفيان سنة ٢٤٨هـ/٨٦٣م ويحتل مدينة نُوطِس فى شرقى الجزيرة إلى الجنوب، وكان أهل طبرمين ينازلون المسلمين نزالا مستميتا، ورأوا أن يجنحوا إلى السلم بعد أن أعياهم القتال وطلبوا إلى القائد خفاجة أن يرسل إليهم وفدا للصلح فأرسل إليهم وفدا يفاوضهم وعلى رأسه زوجته، ومرًّ بنا فى إفريقية التونسية إلى أى حد كانت المرأة التونسية تحافظ على كرامتها ومدى ما كان لها من منزلة فى نفوس التونسيين بالقيروان وغير القيروان، وهذه إحدى نسائهم تتولى السفارة لأول مرة بين قومها وأعدائهم لتضع شروط الصلح، وهى بذلك تعد أول سفيرة عربية، واستقبلها الأعداء بحفاوة واستجابوا لما وضعته من شروط الصلح، وسلموها مفاتيح المدينة، وبذلك نجحت السفارة نجاحا عظيما، فدخلها المسلمون صلحا. ولابن هذه السيدة محمد الذى كان يناضل نصارى صقلية نضالا عنيفا الفضل فى استيلاء المسلمين على مالطة سنة ٢٥٥هـ/٨٦٩م فإنه جهز أسطولا لفتحها ونزلها، وقضى على الحامية الرومية فيها واستولى عليها وجعلها تابعة لصقلية. ونزلتها جالية تونسية أشاعت بها لهجتها العربية، ودارت السنة فأرسلت بيزنطة أسطولا تبغى استردادها، ولم يكد يظهر له فى مياهها الأسطول الإسلامى الصقلى حتى ألقى الرعب والفزع فى قلب كلٍّ من فيه، فولَّوا على وجوههم فرارا دون أن يخوضوا معركة، وظلت مالطة تابعة لصقلية نحو مائتين وعشرين عاما إلى أن استولى عليها

النورمان مع استيلائهم على صقلّية، ولغتها إلى اليوم لهجة عربية تونسية محرفة حُرِّفَت بمر الزمن، وعبثا حاولت الدول التى استولت عليها - ومعها إنجلترا - أن تترك لغتها كما تركت الإسلام وتتخذ فى ألسنتها مكانها اللغة الإيطالية أو اللغة الإنجليزية، وباءت كل هذه المحاولات فى القرون الثمانية الماضية بالفشل، مما يدل على قوة العربية وحيويتها، وأن قوما إذا اتخذوها لا يمكن أن يتحولوا عنها - مهما دخل عليها من التصحيف والتحريف خلال قرون متطاولة - إلى لغة أخرى لسلاستها وعذوبة جريانها فى الألسنة.

ويتوفَّى خفاجة وابنه محمد، وتؤول ولاية صقلية إلى أحمد بن عبد الله الأغلبى، وكان بطلا مقداما فصمم على فتح سرقوسة، وكانت بيزنطة لا تزال ترسل إليها بالنجدة تلو النجدة، وكلما انهزم لهم أسطول جهزوا لها أسطولا آخر، وحاصرها أحمد، واستمر الحصار تسعة أشهر من أوائل المحرم إلى أواخر رمضان سنة ٢٦٤ هـ/٨٧٧ م ثم اقتحمها بمجانيقه وخَيْله وجُنْده، فاضطرت إلى التسليم بعد أن ذاقت الأمرَّيْن من الجوع ودَكِّ الأسوار وسقوط القلاع، وبعد أن لقى حتفه من المدافعين عنها أكثر من أربعة آلاف جندى بيزنطى. ووَلِىَ صقلية سنة ٢٦٨ هـ/٨٨١ م محمد بن الفضل فجعل همه القضاء على معقل مهم للروم هو قلعة الملك وكان مَنْ فيه يُكثرون من الإغارة على المسلمين ويقضُّون مضاجعهم، والتقى الجمعان بقرب المعقل وحمى وطيس الحرب وانجلت عن انتصار عظيم للمسلمين واندحار شديد لأعدائهم إذ قتلوا منهم ما يزيد عن ثلاثة آلاف ودخلوا القلعة تخفق على رءوسهم رايات النصر.

وولَّى إبراهيم بن الأغلب ابنه عبد الله على صقلية، وفى أيامه سنة ٢٧٥ نشبت معركة عنيفة برًّا وبحرا بين الروم والعرب، فإن الدولة البيزنطية أرسلت بأسطول ضخم إلى صقلية، ولقيه الأسطول الإسلامى الصقلى واحتدمت المعركة، وكانت كارثة الروم هائلة وإذ قتل منهم سبعة آلاف وغرق خمسة آلاف ولاذ من كتبت له الحياة بالفرار. وانتهز المسلمون هذه الفرصة من النصر على الأسطول البيزنطى، وهاجموا قَلَوْريَّة فى جنوب إيطاليا تأديبا لمن يحشدهم الروم فيها لإمداد حاميات المدن والحصون التى لم يستسلم من فيها للمسلمين.

وفى سنة ٢٨٩هـ/٩٠١م استدعى الأمير إبراهيم بن الأغلب ابنه عبدالله والى صقلية وتنازل له عن صولجان الحكم فى القيروان وإفريقية التونسية، وصمم على أن يقضى بقية أيامه مجاهدا فى صقلية، واتجه إلى سوسة فى ثوب مرقَّع علامة الزهاد، وأبحر منها على رأس جيش قوى إلى بلرم، وكان قد أعِدَّ إعدادا قويا بالأسلحة والعتاد، وسار على رأسه لغزو مدينة طبرمين شرقى الجزيرة إلى الشمال أمنع المراكز التى لا تزال باقية للروم فى الجزيرة، وكانوا لا يزالون يرسلون إليها بالإمدادات. وهاجمها ودارت رَحَى الحرب عنيفة بين الفريقين. وأحسَّ شيئا من التخاذل فى صفوف جيشه لاشتداد وطيس الحرب فجمعهم، وأمر قارئا أن يقرأ عليهم بصوت مرتفع

قوله تعالى: ﴿هذان خصمان اختصموا فى ربهم فالذين كفروا قُطِّعت لهم ثيابٌ من نارٍ يُصَبّ من فوق رءوسهم الحَمِيم، يُصْهَرُ به ما فى بطونهم والجلود ولهم مقامعُ من حديد كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غَمٍّ أعيدوا فيها وذُوقوا عذابَ الحريق، إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناتٍ تجرى من تحتها الأنهار يُحَلَّوْنَ فيها من أساورَ من ذهبٍ ولؤلؤًا ولباسُهم فيها حرير وهُدُوا إلى الطيِّب من القَوْل وهُدُوا إلى صِراط الحميد﴾. ولعلَّ فى ذلك ما يؤكد مرة أخرى أن غَزْوَ صقلية وفتح بلدانها إنما كان جهادا فى سبيل الله ونشر دينه الحنيف. وبمجرد أن استمع الجند إلى هذه الآيات الكريمة وارتسم أمامهم الفردوس وما أُعِدَّ فيه للمجاهدين امتلئوا حماسة وانقضُّوا على أعداء الله ودينه الحنيف، فانهزموا انهزاما ساحقا، وأصبحت مدينة طبرمين أمام جيش المسلمين مفتَّحة الأبواب ولا حامىَ ولا مدافع، وارتعدت فرائص إمبراطور بيزنطة كما رَوَى ذلك ابن الأثير وابن خلدون وأُعْلن فى القسطنطينية الحدادَ سبعة أيام لم يضع فيها على رأسه تاج الملك. وسار إبراهيم بن الأغلب توا إلى مدينة رمطة آخر معاقل الروم شرقى الجزيرة جنوبى طبرمين، ففتحوا له أبوابها سريعا واستولى عليها دون قتال. ولم تكف إبراهيم بن الأغلب هذه الانتصارات، فقد ركب البحر مع جنده من مسينى إلى شبه جزيرة قَلَوْرِيّة جنوبى إيطاليا، واخترقها بجنده مستوليا فيها على كثير من الحصون، ونصب الحصارَ على قلعة كشنتة (Consenza) المنيعة شمالى قلورية وضيق عليها الحصار، غير أن مرضا ألم به فى أثناء ذلك، فأسلم روحه إلى بارئها تحت أسوار هذه القلعة، ونُقل رفاته إلى بلرم ثم نقله ابنه أبو العباس إلى القيروان.

ولعل فى كل ما قدمت ما يصوِّر الدور التاريخى المجيد الذى نهضت به الدولة الأغلبية فى القرن الثالث الهجرى الذى ظلَّ فيه صولجان الحكم بإفريقية التونسية فى يدها، فقد أضافت إلى البقاع الإسلامية جزيرتين كبيرتين: صقلية ومالطة، وظلت تجاهد فى سبيل الله بصقلية وتُعِدّ الأساطيل لمنازلة الأسطول البيزنطى وتنكِّل به وتمزِّق سفنه شر ممزق. وبدأت تلك الحرب بشارةٍ تميزها وأنها حرب جهاد ونشر للإسلام، إذ كان قائد الحملة شَيْخَ الإسلام وإمام المالكية وقاضى قضاتها أسد بن الفرات، وكان يشترك فى هذا الجهاد غير واحد من أمراء الدولة الأغلبية، حتى إذا أوشكت شمس دولتهم على الغروب خلع إبراهيم بن الأغلب زىَّ الإمارة والسلطان ولبس زِىَّ الزهاد المجاهدين فى سبيل الله، وأبْلَى فى الجهاد بصقلية وقَلَوْرِيّة بلاء عظيما.

٤

العهد[١] العبيدى - عهد بنى أبى الحسين الكلبيين

(أ) العهد العبيدى

انتهى عهد الدولة الأغلبية فى القيروان وإفريقية التونسية سنة ٢٩٦ وانتقلت البلاد إلى عهد جديد هو عهد الدولة العبيدية وانقسم الناس بين راضين عن العهد الشيعى الجديد وساخطين على هذا العهد وهم فقهاء أهل السنة ومن كان يجلّهم من العامة، وكان لذلك تأثيره فى صقلية، وانضاف إليه أنه برزت فى نفوس كثيرين هناك فكرة الاستقلال والانفلات من التبعية الإفريقية، وأيضا فإن بعض الولاة كان يَعُدُّ صقلية كأنها كنز أُلْقِىَ إليه، وينبغى أن يأخذ لنفسه منه كلَّ ما يريد من مال وثروة، وقد تفاعلت هذه العوامل بعضها مع بعض وأدت إلى اضطراب وفتن كثيرة فى السنوات الثلاثين الأولى من حكم العبيديين لإفريقية التونسية، وأسرع عبيد الله المهدى بإرساله إلى صقلية واليا وقاضيا يحكمانها بمبادئ الفقه الشيعى ويحاولان أن ينشرا فيها الدعوة العبيدية الشيعية ، وثاروا على أول ولاته وثانيهم، وولوا عليهم من أنفسهم واليا هو أحمد بن زيادة الله ابن قَرهْب، فاشترط عليهم أن يعلن ولاءه للدولة العباسية، وكانت عامتهم سُنِّيَّة فارتضوا ذلك وأرسل إلى الخليفة المقتدر بالله يضع إمارة صقلية تحت سلطانه، وخطب له وقطع خطبة المهدى الفاطمى. وأرسل إليه المقتدر بألوية سود وخلَعٍ سود وطَوْق ذهب، وكان للمهدى العبيدى أسطول بمرسى لمطة فأحرقه وقتل قائده. وثار عليه أهل جرجنت وصقلية جميعها فحاول الهروب إلى الأندلس فأسره أهل صقلية هو وابنه وقاضيه وبعثوا بهم إلى المهدى سنة ٣٠٤ فصلبهم وانتهت بذلك حركة ابن قرهب. وأرسلت صقلية تطلب من المهدى واليا وقاضيا وأنهم فى غير حاجة إلى جند، فتنبَّه إلى ما يريدون من الاستقلال فأرسل إليهم من الكتاميين حملة تؤدِّبهم، وولَّى عليهم فى سنة ٣٠٥ سالم بن أبى راشد، وكان جبَّارا عاتيا وظالما عَسُوفًا، فأخذ يُنْزِل صُوَرًا شديدة من التنكيل لا بالأفراد فحسب، بل أيضا بالمدن، وهو تنكيل أدَّى بأهل صقلية إلى الإمعان فى مقاومته فثارت عليه جرجنت، وتبعتها بلرم،

---

(١) انظر فى العهد العبيدى وعهد بنى أبى الحسين المراجع المذكورة فى عهد الأغالبة والحلة السيراء لابن الأبار فى الخلفاء العبيديين وخليل بن إسحق واتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا للمقريزى وكتابه الخطط والنويرى فى المكتبة الصقلية وأبا الفدا فى حوادث سنة ٣٣٦ وسفرنامه لناصر خسرو،ورياض النفوس للمالكى.

فأرسل إلى الخليفة العبيدى القائم يهوِّل عليه الأمر ويقول إن أهل صقلية خرجوا عن طاعته، فأرسل إليه سنة ٣٢٥ جندا جديدا يقوده خليل بن إسحق، واستقبلوه بالشكوى من سياسة سالم وبطشه، يظنون أنه سيَرْتُق الفتق ويُصْلح الأمر، وسرعان ما خيَّب ظنونهم إذ رأوه يهدم أسوار بلرم ويَبْنى عند المرسى مدينة جديدة لخاصته وجنده وسلاحه ويحصِّنها مسمِّيا لها باسم: «الخالصة» وأرهق أهل بلرم إرهاقا شديدا فى بنائها. وثارت عليه جرجنت واستعدت لحربه، فسار إليها سنة ٣٢٦ وحاصرها ثمانية أشهر، ودخل الشتاء ففكَّ عنها الحصار. وفى سنة ٣٢٧ ثارت عليه جميع القلاع وسكان مازر، وكاتب أهل جرجنت إمبراطور بيزنطة يستنجدون به، فأمدَّهم بالرجال والطعام. واستنجد خليل بالقائم فأمدَّه بجيش ضخم أخذ يحاصر به المدن والقلاع سنة ٣٢٨ وحاصر جرجنت وضيَّق عليها الخناق حتى سنة ٣٢٩ وفرَّ كثير من أهلها إلى بلاد الروم وتنصَّر كثير منهم وهو لا يرعوى ولا يزدجر، بل يزداد ظلما وإرْهاقا للأرواح إلى درجة لم يُسْمَعْ بها من والٍ مسلم لا قبله ولا بعده. وبعد أربعة أعوام عاد إلى إفريقية، فحمل معه جماعة كبيرة من كبراء الجزيرة وأعيانها وعلمائها، وبين أمواج البحر أمر بثقب مراكبهم، فغرقوا جميعا فيه غير مراع عهدًا لهم ولا لآبائهم الذين فتحوا صقلية وجاهدوا فى سبيل نشر الإسلام فيها بدمائهم وأرواحهم، وإنها لصفحة سوداء له وعار فى جَبِينه لا يمكن أن تطمسه الأيام.

(ب) عهد بنى أبى الحسين الكلبيين

ولَّى الخليفة العبيدى القائم على صقلية بعد خليل بن إسحق واليا جديدا هو عطاف الأزدى فاستمر فى سياسة الظلم والقمع، وطَفَح الغضب بالمدن الصقلية وفى مقدمتها بلرم، وثارت جميعا فى سنة ٣٣٥ ثورة كبرى عامة، والتجأ عطاف إلى قلعة الخالصة وامتنع فيها، واجتمع رأى وجوه بلرم وغيرها من المدن على أن يذهب وفدٌ إلى الخليفة الفاطمى الجديد المنصور ويطلب إليه أن يقوم الحكم فى صقلية على أسس راسخة من العدل الذى لا تصلح حياة الشعوب بدونه ومن الحرية فى العقيدة فلا يتعرض حاكم وزبانيته لأهل السنة وأيضا الحرية فى المعاملات فلا يُغْتَصَب من أى تاجر ولا من أى شخص ماله. وكان الخليفة المنصور حصيفا، فرأى أن سياسة الخليفتين قبله وما أرسلا لهم من ولاة جبارين كانت سياسة جائرة باطشة إلى أقصى حد، ورأى أن يقنع بالسيادة الاسمية على صقلية إرضاء لأهلها، وعهد بالولاية عليها لقائد من خيرة قواده سنة ٣٣٦ هو الحسن بن على بن أبى الحسين الكلبى. ومنذ هذا التاريخ أصبح حكم صقلية وراثيا فى أسرته، وأخذ يحكمها حكما عادلا رشيدا، وتصادف فى أول حكمه أن غلاما من غلمانه اغتصب إحدى جواريه، فأمر بقتله حتى لا تسوِّل لأحد من جنده وغلمانه نفسَه بالاعتداء على الحرمات، وأكْبَر الناس ذلك منه واستبشروا به. ولما رسخت قدمه فى بلرم

قبض على مدبرى الفتنة فيها من بنى الطبرى وصادر أموالهم. واطمأن له الناس والتفوا حوله، وحاول إمبراطور بيزنطة فى أول حكمه أن يسترد ما استولى عليه الصقليون من شبه جزيرة قَلَوْرِيَّة، وأرسل لذلك أسطولا فردَّه على أعقابه مخذولا. وشيَّد مسجدا بها بمدينة رجيو (Reggio) ترسيخًا لحكم المسلمين لها وتثبيتا، وأجبر الروم فى مدينة تارنته Tarente على أداء الجزية. وجمع هذا الوالى وقيل بل ابنه أحمد ثلاثين رجلا من وجوه صقلية وسار بهم إلى الخليفة العبيدىّ فى المهدية بإفريقية وبايعوه وخلع عليهم الخليفة. وهو رمز لدخول الجزيرة فى المذهب العبيدى، ونرى ابن حوقل – وهو من دعاة الفاطميين – يذم الصقليين ذما شديدا، مما قد يدل على أن العامة فيها لم تعتنق هذا المذهب.

ويتوفى الحسن سنة ٣٤١ ويخلفه فى حكم صقلية ابنه أحمد، وكان يشاركه فى الحكم والتدبير فاتبع سياسته العادلة الرشيدة وكانت رمطة قد خرجت على الدولة فاسترجعها، وركب البحر إلى قَلَوْرِيَّة وأحرق أسطول بيزنطة وأسر قائده وأرسل به مع عدد كبير من الروم إلى المعز، وشعرت بيزنطة بأن أملها فى صقلية أصبح من إحدى المستحيلات فأرسلت إلى المعز وفدا يطلب الصلح حاملا إليه هدايا ثمينة، وتعاقد الوفد معه على ترك الجزيرة له، فى مقابل إخلاء المسلمين مدينتى طبرمين ورمطة لنصارى الجزيرة، وارتضى ذلك المعز، وكانت غلطة كبيرة من أغلاطه. وأخذ المسلمون يتلكئون فى تسليم المدينتين وعُزل أحمد بن الحسن سنة ٣٥٨ وكان حسن السيرة كما يقول ابن خلدون ووُلِّىَ الجزيرة سنة ٣٥٩ أخوه أبو القاسم على بن الحسن، وكانت مسِّينى خرجت على الدولة واتخذها العدو مركزًا لأعماله ضد المسلمين، فنازلها وحاصرها حتى أعلنت الطاعة، واستعاد مدينة رمطة وأمر بتجديد بنائها، ونازل الروم بقَلَوْرِيَّة ومن عاونهم من الألمان والنُّرْمان، واستشهد فى إحدى المعارك الطاحنة سنة ٣٧٢ ونقل المسلمون رفاته إلى صقلية. وولى بعده من الأسرة الكلبية أحد أبنائها: جعفر بن محمد وكان من أصحاب الرأى والتدبير، فأخذ يحكم صقلية حكما عادلا نزيها. وحدث فى عهده أن جارية صقلية للخليفة الفاطمى العزيز وكانت محبَّبة عنده وكان لها أخ راهب بصقلية فتوسلت إليه أن يرجع إلى النصارى فيها قلاعَ طبرمين ورمطة وأجابها إلى مطلبها وكتب إلى واليه جعفر يأمره بإخلائها لنصارى الجزيزة، فراجع الخليفة بدهائه حتى عدلل ن مطلبه. وتوفِّى سريعا سنة ٣٧٥ وتولَّى الجزيرة بعده ثقة الدولة أبو الفتوح يوسف بن عبد الله سنة ٣٧٧ وهو من خيرة الولاة الكلبيين، وفيه يقول ابن خلدون: «أَنْسَى بجلائله وفضائله من كان قبله منهم» ويقول لسان الدين بن الخطيب فى أعمال الأعلام: «كانت أيام الناس فى مدته على أفضل ما يشتهون، وقد ضبط الجزيرة ضبطا محكما وظهر من كرمه وجوده على سائر الناس ما لا يحيط به وصف. وعمَّ العدل والرخاء والأمن كل جهات الجزيرة» ولم يتحرك فى وجهه عدو من داخل البلاد ولا من خارجها، وزار القاهرة، واستقامت الأمور فى عهده أعظم ما يكون من الاستقامة، وكانت دار

ولايته أو إمارته فى بلرم مقصد الشعراء والأدباء والعلماء، وهو ممدوح الشاعر الجزائرى المشهور ابن قاضى ميلة، وما زال يسوس الجزيرة وأهلها خير سياسة حتى أصابه الفالج سنة ٣٨٨ وعطّل جانبه الأيسر، واتفق الناس معه على تسليم صولجان الحكم لابنه جعفر، وثار عليه أخوه على وانضمّ إليه البربر والعبيد، وانتصر عليه جعفر فقتله، وأمر بقتل العبيد ونَفْى الجند البربرى من صقلية، وجعل جنده جميعا من أهل صقلية المسلمين، فقلّ بذلك جنده - كما يقول البكرى - وأعدَّ لانهيار ملكه. وسخط عليه أهل صقلية لتغاضيه عن كاتبه حسن الباغانى فى عسفه فى جباية الضرائب، وزادهم سخطا عليه استخفافه بشيوخ بلرم: فحاصروه وشَدَّدوا الحصار عليه، فخرج إليهم أبوه فى محفّة، وكانت له عندهم منزلة رفيعة، فاحتفوا به، وطلبوا إليه أن ينصفهم منه، واتفق معهم على أن يعزله من ولايته عليهم ويولِّى أخاه الأكحل، وارتضوه أميرا بعد أخيه، ولم يلبث الأكحل أن أشرك ابنه جعفرا معه فى الحكم، وكان غِرًّا تنقصه الخبرة، فاتبع سياسة حمقاء هى التفرقة بين الإفريقيين والصقليين فى المعاملة المالية، واستجار الصقليون من ظلمه بالمعز بن باديس حاكم إفريقية التونسية سنة ٤٢٧ فأرسل معهم ابنه عبد الله فى جيش عداده ستة آلاف نصفه من الفرسان، وانضم إليه أهل الجزيرة، وسرعان ما ندموا وتنكروا لعبد الله بن المعز، فعاد مع جيشه إلى إفريقية، وولّوا عليهم صمصام الدولة شقيق الأكحل. ولم تطل مدته، إذ ثار عليه أهل بلرم، وخلعوه.

وتدخل صقلية بعد خلع الصمصام فى عهد يمكن أن يسمى عهد أمراء الطوائف، وفيه ضاعت كل ممتلكاتها فى قَلَوْرِيَّة بإيطاليا، وأخذ قواد الثورة على الصمصام يستقلون ببلدانهم مكونين فيها إمارات، وكانت بلرم من نصيب محمد بن الثمنة أحد القواد، وضمَّ إليه مدينة سرقوسة، واستقل ابن متكود من قواد الثورة بمدن: مازر وطرابنش والشاقة ومرسى على فى الغرب والجنوب الغربى، واستقل ابن الحواس على بن نعمة من قواد الثورة أيضا بمدينتى قصريانّة وجرجنت، وتفاقمت الفتن وسوء الأحوال فى الجزيرة، ونشبت الحروب بين هؤلاء الأمراء، وأشدُّها ما كان بين ابن الثمنة وعلى بن نعمة. وهُزم ابن الثمنة هزيمة ساحقة سنة ٤٤٤هـ/١٠٥٢م فاستغاث بالنورمان، وكان ذلك إيذانا قويا بضياع الجزيرة من أيدى المسلمين.

٥

التاريخ النورمانى - أحوال المسلمين

(أ) التاريخ[1] النورمانى

النورمان قبائل متبربرة سقطت من شمالى أوربا على شرقيها وغربيها مهاجمة ومكتسحة، وقد اكتسحت الشمال الغربى لفرنسا. واضطر ملك فرنسا إلى إقطاعهم الإقليم المشتق من اسمهم «نورمانديا» فتأقلموا فيه وانتهى عدوانهم. واتجهت جماعات منهم إلى إيطاليا واستولت على أجزائها الجنوبية، وتواتى الفرصة أحد ملوكهم المسمى روجار الأول كى يستولى على صقلية بخيانة أحد أبنائها: «ابن الثمنة»، إذ ساومه فى عونه ضد على بن نعمة على أن يفتح له أبواب مدينة مسِّينى واحتلَّها واتخذها قاعدة لأعماله الحربية فى الجزيرة، غير أن ابن الثمنة توفى فى العام التالى، وكان جيش روجار قليلا فلم يسارع إلى فتح مدن صقلية. واستصرخ المسلمون فى صقلية تميم بن المعز أمير المهدية فى إفريقية التونسية لينقذهم من براثن روجار والنورمان فأنجدهم بأسطول يقوده ابناه: أيوب وعلى، ونزل أيوب فى الجنوب بمدينة جرجنت ولقيه على بن نعمة لقاء حسنا، بينما نزل أخوه على فى بلرم، واستبشر الناس واستعدوا مع عسكريها لجنود النورمان، غير أن على بن نعمة صاحب جرجنت عاد فظن الظنون بهذا الجيش الغريب، وانضمَّ الأخوان إلى حربه، وسقط فى المعركة. وقامت فتنة بين أهل جرجنت والجيش الإفريقى، وكان النورمان قد جمعوا جموعهم ولقوا هذا الجيش وهزموه، واضطُر أيوب وعلى أن يعودا إلى إفريقية التونسية بمن بقى من جيشها سنة ٤٦١ للهجرة، واندفع روجار والنورمان يحتلون المدن فى الجزيرة، وبدءوا بمدينة بلرم وحاصروها بحرا وبرا خمسة أشهر وأهلها يقاومون، وخنقهم الجوع، وظلوا لا يبالون به إلى أن فشا بينهم وباء، ودخلها النورمان سنة ٤٦٤هـ/١٠٧٢م ينهبون ويفتكون بشبابها الباسل ويتوزعون بينهم الصبية ليبيعوهم عبيدا، وأحال روجَّار مسجدها كنيسة. وسلَّمت مازر سريعا خوفا من أن يصيبها ما أصاب بلرم وتبعتها قطانية فى الشرق، غير أن بقية مدن صقلية ظلت تقاوم النورمان عشرين عاما طوالا، وكان من أشدِّها

---

(١) انظر فى التاريخ النورمانى بصقلية ابن الأثير ورحلة ابن جبير والمكتبة الصقلية لأمارى وكتابه تاريخ مسلمى صقلية المار ذكره وكتاب Freeman Edward, History of Sicily, Oxford, 1891 وتاريخ ابن خلدون والعرب فى صقلية للدكتور إحسان عباس والجزء الثالث من كتاب ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية ص ٤٥٧ والمسلمون فى جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا للأستاذ أحمد توفيق المدنى.

مقاومة لهم سرقوسة بفضل بطلها ابن عباد الذى نظَّم المقاومة فيها وفى ولاية نوطس. وبعد خمس سنوات من الاستيلاء على بلرم استولى روجَّار على ثغر أو مدينة طرابنش فى الغرب وهدم سورها ووزَّع أرضها على أتباعه. وبعد سنتين من استيلائه عليها استولى على طبرمين فى الشرق. وكان ابن عباد بطل سرقوسة استطاع الاستيلاء على مدينته وجهَّز روجار الأول أسطولا ضخما هاجم به سرقوسة بعد أربعة عشر عاما من استيلائه على بلرم وظلت الجبهة الشرقية تقاومه مقاومة عنيفة مع سرقوسة غير أن كفة الأسطول النورمانى علت أخيرا على سفن ابن عباد، وكان يقودها بنفسه وكلما غرقت سفينة من سفنه انتقل إلى أخرى، وزلَّت به القدم فى إحدى قفزاته، فتلقَّته موجات البحر منحنية لبطولته، وشيَّعته إلى قرارها شهيدا، ولولا ذلك لظلت سرقوسة تقاوم النورمان طويلا. وحاصر النورمان مدينة جرجنت ثلاث سنوات طوال إلى أن اضطرتها المخمصة والجوع إلى الاستسلام، وظلوا بعدها يحاصرون مدينة قصريانَّة وهى تضرب أروع الأمثلة فى مقاومتهم مقاومة باسلة حادة إلى أن سلَّمها لهم سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م أميرها ابن حمود، وخشى على نفسه من أهلها أن يفتكوا به فلجأ إلى روجَّار وتنصَّر فيما يقال خاسرا بذلك بلده ودينه. واستسلمت مدينتا نوطس فى الجنوب الشرقى وبثيرة فى الجنوب. وبذلك استولى روجار على الجزيرة جميعها وأفل نجم الإسلام بها سنة ٤٨٤هـ/١٠٩٢م وبالمثل استولى على مالطة سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٣م، وظل ملكا عليهما وعلى بعض أجزاء فى جنوبى إيطاليا نحو عشرين عاما حتى سنة ٤٩٤هـ/١١٠١م. وخلفه على حكم صقلية روجار الثانى وطال حكمه خمسين عاما ونيفا (٤٩٤هـ/١١٠٢م - ٥٤٨هـ/١١٥٤م) وبينما كان حكم أبيه يعد دورا من أدوار الفتح الحربى وتثبيت الحكم النورمانى فى الجزيرة كان حكمه يعد دورا حضاريا للنورمان -عن طريق العرب- إذ تحضروا فى الجزيرة وامتدت آثار ذلك فى الغرب، وبالمثل حكم ابنه غليوم الأول حتى سنة ٥٦١هـ/١١٦٦م وحفيده غليوم الثانى حتى سنة ٥٨٤هـ/١١٨٩م. وتولى بعد ذلك ابن عمه طانكرد لمدة أربع سنوات ثم ابنه غليوم الثالث، وتطورت الظروف واستولى أباطرة ألمانيا على صقلية وأصبح فردريك الثانى ملكا عليها (١١٩٤-١٢٥٠م).

وحرىّ بنا قبل أن نترك الحديث عن الحكم النورمانى بصقلية أن نذكر أنه ظلَّ لأسطول صقلية الإسلامية طويلا استعلاء فى البحر المتوسط بحيث كان يُعَدُّ من شمالى مصر إلى الأندلس بحيرة عربية، ومرَّ بنا أنه حطم الأسطول البيزنطى مرارا حتى اضطروا أن يرسلوا وفدهم خانعين مستذلين إلى المهدية يطلبون الصلح. وهذه المكانة للأسطول الإسلامى الصقلى ضاعت بضياع صقلية، واستحالت إلى مكانة للأسطول النورمانى الصقلى بحيث أصبح البحر المتوسط بين صقلية ومصر بحيرة نورمانية، وساعدت على ذلك هجرة القبائل العربية من بنى سليم وهلال إلى أفريقية التونسية وقضاؤها على الدولة الصنهاجية بالقيروان وانحيازها إلى

المهدية، فلم يعد عندها من المال ما تستطيع أن تُعِدَّ به أسطولا ضخما يقف لأسطول النورمان، وكان للدولة العبيدية أسطول قوى أيام مقامها بالمهدية حتى إذا بارحها المعز الفاطمى إلى مصر لم تعد تلك الدولة تُعْنَى بأسطولها إلا بعض سفن تحرس سواحلها، ويدل على مدى ما كان يشعر الخلفاء الفاطميون تجاه النورمان الصقليين وأسطولهم من خزى أن نجد الخليفة الفاطمى الحافظ (٥٢٤-٥٤٤هـ) حين يستولى روجار الثانى على جزيرة جربة التونسية لا يكتب إليه مهدِّدا متوعدا، بل يكتب إليه متخاذلا ردًّا على رسالة له كما سجل ذلك القلقشندى فى الجزء السادس من صبحه ص ٤٥٨ قائلا: «وأما ما ذكرته من افتتاحك الجزيرة المعروفة بجِرْبة لما شرحته من عدوان أهلها.. واجترائهم فى الطغيان على أسباب لا يجوز التغافل عن مثلها.. فإن من كانت هذه حالته حقيق أن تكون الرحمة عنه نائية، وخليق أن يأخذه الله من مأمنه أخذة رابية[١]». وبدلا من أن يعد أسطولا لإخراج النورمان على وجوههم من صقلية التى طالما طعم هو وآباؤه من خيراتها وطيباتها أرسل إليه هذا الخطاب المخزى. ومن الغريب أن الحملات الصليبية بدأت بعد تمام استيلاء النورمان على صقلية بسبع سنوات، وقد ظللنا ننازلها نزالا عنيفا قرنين من الزمان والبحر المتوسط بحيرة نورمانية، وهم يغدون فيه ويروحون، ولو أن أسطول صقلية الإسلامية كان لا يزال قائما لفلَّ من قوتهم بل لأغرق كثيرا من سفنهم المتجهة إلى ساحل الشام ومصر، بل أيضا إلى ساحل تونس على نحو ما هو معروف من حملة لويس التاسع عليها وموته تحت أسوارها سنة ٦٦٩هـ/١٢٧١م. ويتضح من ذلك أن صقلية لم تكن جزيرة إسلامية فقدها المسلمون فحسب بل كانت درعا كبيرا لهم يحمى ثغورهم على سواحل المتوسط، حتى إذا سقط هذا الدرع أخذ الصليبيون يجوبون المتوسط وأخذ النورمان الصقليون يغيرون على سواحل إفريقية التونسية، وكانت آخر غاراتهم وأشدها على تلك السواحل غارتهم سنة ٥٤٣هـ/١١٤٩م فى عهد روجَّار الثانى وابنه غليوم واغتصابهم لمدينة المهدية وغالب المدن الساحلية الشرقية: قابس وصفاقس وسوسة، وكان ذلك بعد احتلال جربة التى هنأهم بها الخليفة الفاطمى بقليل. وكان ذلك بسبب ما حدث فى إفريقية التونسية من قيام عصر أمراء الطوائف بعد الهجرة الهلالية السليمية وتنابذِ هؤلاء الأمراء وتحاربِهم ومحاولةِ بعضهم الاستعانة بصاحب صقلية ضد إخوته وأهله. ولولا أن قيَّض الله لإفريقية التونسية عبد المؤمن أمير الموحدين بالمغرب، فقضى فيها على هؤلاء الأمراء المتنازعين وقهر نصارى النورمان المستولين على الساحل التونسى ومدنه وعلى جربة وطرابلس لظلوا بها طويلا إذ أخرجهم على وجوههم، وسحقهم سحقا ذريعا بحيث لم يعد النورمان بعده يحاولون احتلال الساحل التونسى.

---

(١) صبح الأعشى ٤٥٩/٦.

(ب) أحوال المسلمين

لما فتح النورمان صقلية الإسلامية ظلوا طوال فتحهم لها يشعرون أنهم دخلاء غرباء على من فيها من المسلمين والعناصر الأخرى الصقلية الأصيلة والإغريقية والرومية وغير الرومية، وعمَّق هذا الشعور فى نفوسهم أنهم لم يكونوا متحضرين وواجهتهم مدن إسلامية متحضرة فى سكانها وفى نظمها فلم يكن أمامهم إلا أن يحاولوا الانتفاع بحضارتها، غير أنهم كانوا مشبَّعين بدعوات وإيحاءات من بابا روما ضد الإسلام والمسلمين لتمكين سلطان المسيحية فيها واستئصال جذور الإسلام منها، وهو ما يلاحظ على تصرفات روجَّار الأول فيها، إذ أنزل بالمسلمين بها فى حكمه الذى امتد نحو ثلاثين عاما صورا مختلفة من التنكيل، وأول ما يلاحظ من ذلك أنه عمَّم نظام الإقطاع فى الجزيرة، فكان يُقْطِع أنصاره وجنوده والأساقفة والقساوسة ما يفتحه من البلدان، ويَعُدُّ مَنْ يَفْلح أو يزرع تلك الممتلكات من المسلمين عبيدا يهدون مع الأرض إلى صاحب الإقطاع، على نحو ما صنع بمدينة قطانية حين فتحها، إذ جعل أهلها المسلمين عبيدًا مسترقِّين ومنحها إقطاعا للأسقف هناك. وكانت هذه أول ضَرْبة أنزلها بأعدائه المسلمين. والضربة الثانية أنه قرَّر على المسلمين عامةً دفْع جزية، وظلوا يدفعونها حتى نهاية الحكم النورمانى. والضَّرْبة الثالثة أنه أسكن الروم والفرنج مع المسلمين ولم يترك لأحد منهم - كما يقول ابن الأثير - حَمَّاما خاصا به - ولا دُكانا ولا طاحونا ولا فُرنًا. ويقول بعض الباحثين المعاصرين إن هذا إنما يصدق على جماعات الفلاحين أو من أحالهم الفتح مسترقين، وهو تخصيص لا يقتضيه كلام ابن الأثير. ويقول آخرون دفاعا عن الملك النورمانى روجَّار الأول إنه لم يشرِّد المسلمين عن مدن صقلية ولو كان يريد التنكيل بهم حقا لشَّردهم، ويَنْسَون أنه كان لا يستطيع تشريدهم وإخراجهم من البلاد، لأنهم كانوا الأداة التى تزرع فيها وتصنع وتنتج ولو شَرَّدهم لأصبحت خرابا ولجفَّت ضروعها ولم يَعُدْ يجد فيها ما يحميه هو وجنده وشعبه من الجوع والمسغبة.

ومع أن ابنه الملك روجَّار الثانى (٤٩٤-٥٤٨هـ) وحفيده غليوم الأول (٥٤٨-٥٦١هـ) كانا لا يقسوان على المسلمين قسوته ظلت فى عهدهما آثار من هذه المعاملة الظالمة للمسلمين صوَّرها فى رحلته ابن جبير الذى زار صقلية فى أيام الملك غليوم الأول، إذ يقول عن مدينة مسِّينى إنها: «معمورة بعبدة الصلبان، يمشون فى مناكبها ويرتعون فى أكنافها، والمسلمون معهم على أملاكهم وضياعهم، قد حسَّنوا السيرة فى استعمالهم واصطناعهم، وضربوا عليهم إتاوة (جزية) فى فصلين من العام يؤدونها وحالوا بينهم وبين سعة فى الأرض كانوا يجدونها» فتملك الأرض فى مسِّينى - مع سعتها - كان محرَّما على المسلمين، فهم يشتغلون فى مسِّينى عُمَّالا ولا يتحولون بحال مُلاكا.

ويقول ابن جبير عن مسلمي بلرم إن لهم أرباضا (ضواحى) انفردوا بسكناها عن النصارى، ولا جمعة لهم بسبب الخطبة المحظورة عليهم إلا فى الأعياد، فهم ممنوعون من صلاة الجمعة. ويحدثنا عن فتىً بمسِّينى كان يُخفى إسلامه متسميا باسم عبد المسيح وأنه احْتفى به وبمن كان معه حتى إذا لم يجد حوله من يتهمه بإفشاء سره محافظة على نفسه من النصارى سألهم عن مكة ومشاهدها المعظمة ومشاهد المدينة المقدسة ومشاهد الشام فأخبروه وهو يذوب شوقا وتحرقا إلى مشاهدة تلك الأماكن، وغبطهم على رحلتهم إلى مشاهدتها، وقال: أما نحن فكاتمون إيماننا خائفون على أنفسنا متمسكون بعبادة الله وأداء فرائضه سرا. ومما يذكره ابن جبير مما يدل على اضطهاد المسلمين وإدخالهم فى النصرانية قسرا أن فقيها حدثًه فى مدينة طرابنش أنهم ظلوا يطاردونه بمطالبته بأموال يكتنزها فى رأيهم حتى أظهر لهم أنه فارق دينه الحنيف، ولكى يقنعهم بذلك حول مسجدا له بجوار داره إلى كنيسة، فكفوا عنه وقال إنه يكتم إيمانه!. وذكر أنه لقى زعيم المسلمين المعروف فى تلك الديار باسم ابن حجر ممدوح ابن فلاقس الشاعر الإسكندرى. فقال له إنهم ظلوا يوالون عليه مصادرات بلغت ثلاثين ألف دينار، وما زال يتخلى عن جميع ممتلكاته وعقاراته حتى أصبح بدون مال، ومما قال له: «كنت أودُّ لو أباعُ أنا وأهلِ بيتى لعل البيع يخلِّصنا مما نحن فيه ونصبح فى بلاد المسلمين». ويَرْوِى ابن جبير قصة تقطِّع نياط القلوب حسرة إذ يقول إن أحد أعيان الجزيرة وجَّه ابنه إلى حاجٍّ من أصحابنا الحجاج راغبا إليه فى أن يَقْبَل منه بنتا له عذراء صغيرة السن قد راهقت الإدراك، فإن رضيها تزوَّجها، وإن لم يرضها زوَّجها، ممن يرضاه لها من أهل بلده. طمعا فى التخلص من هذه الفتنة. وطاب الأب وإخوتها بذلك نفسا لعلهم يجدون يوما السبيل إلى التخلص إلى بلاد المسلمين. وتأجَّر (طلبَ الثواب) هذا الحاج المرغوب إليه بقبول ذلك، وأعانه ابن جبير ومن معه على اغتنام هذه الفرصة المؤدية إلى خير الدنيا والآخرة، يقول ابن جبير: «وطال عجبنا من حالٍ تؤدى بإنسان إلى السماح بمثل هذه الوديعة المعلقة فى القلب وإسلامها إلى يد مَنْ يُغَرِّبها واحتمال الصبر عنها ومكابدة الشوق إليها والوحشة دونها، كما استغربنا حال الصبيَّة، صانها الله، ورِضاها بفراق أهلها رغبة فى الإسلام واستمساكا بعروته الوثقى».

وهل بعد ذلك من دليل على أن النورمان عاملوا المسلمين فى صقلية بمنتهى الظلم والقسوة والعتو والبغى حتى يفارقوا دينهم الحنيف كرها، ومن عجب أن يكتب المؤرخون الغربيون أبناء عمومتهم أنهم عاملوا المسلمين بتسامح لا حد له وبعدلٍ مابعده عدل، فنصدقهم، وهم قد عاملوهم بوحشية مامثلها وحشية واستذلوهم ونهبوا حريتهم التى خلقهم الله بها وأحالوهم – أو أحالوا الشطر الأكبر منهم – عبيدا مسترقين.

وازدادت هذه الوحشية ضراوة فى عهد أباطرة الألمان حين استولوا على صقلية سنة

٥٩١هـ/١١٩٤م فإنهم أخذوا ينزلون بأهلها من المسلمين - بتأثير الكنيسة - صورا فظيعة من الاضطهاد والتنكيل، ومنعوهم منعا باتا من حمل السلاح، وفرضوا عليهم - كما يقول الأستاذ الجليل حسن حسنى عبد الوهاب - أن يُعَمَّد أبناؤهم مثل أبناء النصارى: أمرٌ لا رادَّ له من البابا دون استحياء، كما فرضوا عليهم أن يضعوا على صدورهم قطعة من النسيج الأحمر طولها شبر وعرضها إصبعان للتمييز بينهم وبين النصارى، وهاجرت كثرة من مسلمى صقلية - وخاصة من التجار والصناع - إلى الساحل التونسى والبلاد الإفريقية، فرارا من هذا الظلم الذى لايطاق، وبقيت قلة مستضعفة - وخاصة من أهل الأرياف - تتحمل هدا العذاب والهوان، وتعامل معاملة العبيد الأرقاء. وحين صارت إفريقية التونسية إلى إبى زكريا الحفصى وعلم بما يقع على تلك القلة من الظلم فى أبشع صوره كاتب فردريك الثانى إمبراطور المانيا وملك صقلية ليرفع هذا الظلم عن مسلمى الجزيرة، وعقد معه معاهدة تضمن لهم الحرية الدينية، حتى إذا توفى أبو زكريا سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٥م رجع الظلم والعدوان الذى لايطاق، واستغاثوا بالمستنصر بن أبى زكريا، فاتفق مع فردريك الثانى إمبراطور ألمانيا وملك صقلية سنة ٦٤٧ على إجلائهم إلى إفريقية التونسية، وبالمثل إخلاء مالطة من كل من بقى فيها من المسلمين.

الفصل الثانى

المجتمع الصقلى والثقافة

١

المجتمع الصقلى[١] فى العهد العربى

ظل المسلمون فى صقلية – طوال حكمهم بها – لايزيدون عن نصف سكانها وكانت مجمعا لعناصر شتى مسيحيين من سكانها الأصليين الصيقول ومن النورمان والإغريق والصقالبة ومن بقايا الفينيقيين والقرطاجيين مع قلة من اليهود وكانت لهم حارة فى بلرم وقلة من الزنوج ونزل أكثر البربر.. نواحى مازَر وجرجنت. وكان فى كل بلد مَنْ يملكون الإقطاعات الكبيرة ومَنْ يملكون القطع الصغيرة، وكان الولاة يكتنزون لأنفسهم كثيرًا من الذهب والفضة، ويقال إن واليها ثقة الدولة حين ارتحل إلى مصر كان معه ٦٧٠ ألف دينار سوى آلاف الخيل والبغال، ويبالغ ابن حوقل فيقول إن أهلها فقراء بينما نجد الإصطخرى يقول: «فى صقلية من الخصب والزروع والمواشى والرقيق ما يفضل سائر الموانى المتاخمة للبحر» ونفس ابن حوقل يعدِّد الأسواق فى بلرم ويبلغ بها نحو الثلاثين إذ كان بها سوق الزياتين والدقاقين والصيارفة والحدادين والصياقلة وبائعى القمح والطرازين والسماكين والأبزاريين وباعة البقل وأصحاب الفاكهة وباعة الريحان والجزارين والخبازين والعطارين والأساكفة والدباغين والنجارين والغضائريين والخشابين، وكان بها للقصابين نحو مائتى حانوت لبيع اللحم ويجاورهم القطانون والحلاجون والحذّاءون». وفى ذلك مايدل على انتعاش الحركة التجارية فى بلرم وأن سكانها لم يكن يعمهم الفقر كما يقول ابن حوقل، وبالمثل بقية المدن فى صقلية.

---

(١) انظر فى المجتمع الصقلى فى العهد العربى صورة الأرض لابن حوقل ومسالك الممالك للإصطخرى ونزهة المشتاق والنويرى والمكتبة الصقلية وإنباه الرواة فى ترجمة ابن البر ٢/١٤٦ ورياض النفوس للمالكى وسفر نامه لناصر خسرو والعرب فى صقلية للدكتور إحسان عباس: الفصل الثانى من الكتاب الأول، وكتاب ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية، الفصل الخاص فى الجزء الثالث بتاريخ صقلية الإسلامية.

وكانت الجزيرة موزعة قبل فتح المسلمين لها إلى ولايتين كبيرتين: ولاية بلرم وولاية سِرْقوسة، ووزعها المسلمون بعد الفتح إلى ثلاث ولايات كبيرة: شرقية وجنوبية غربية ثم غربية وتضم الشمال. وجعل المسلمون لكل ولاية واليا يدير أعمالها ومعه عدد من العمال يساعدونه فى تصريف هذه الأعمال، وكان كل وال يسمى قائدا، ربما لكثرة ما كان ينهض به من الحروب ضد الحصون فى إقليمه. وكان فى كل ناحية وكل بلد قاضٍ ومعه كاتب لتقييد الأحكام. وكان قاضى بلرم يفصل فى القضايا المهمة، ولذلك كان يسمى المفتى. وكان السكان المسيحيون فى الجزيرة يمثلون ما يقرب من نصف سكانها وعاملهم الولاة المسلمون ونوابهم بمنتهى العدل والتسامح طبقا لتعاليم الإسلام فكان الثرى يدفع سنويا للدولة ٤٨ دينارا والفرد فى الطبقة الوسطى يدفع ٢٤ دينارا، بينما يدفع من يكسب عيشه بعرق جبينه ١٢ دينارا فحسب. ولم تكن تؤخذ ضريبة من الرهبان والقسس والنساء والعجزة والأطفال، فهم جميعا مُعْفَوْن من الضرائب إعفاء تاما. وكانت الضريبة السالفة تسمى خراجا وهى فى حقيقتها ضريبة دفاع. وحافظ المسلمون فى صقلية - كما حافظوا فى كل ديارهم - على مؤسسات المسيحيين الدينية من كنائس وغير كنائس، كما حافظوا لهم على قوانينهم الدينية والمدنية وعلى محاكمهم الخاصة، وأتاحوا لهم الحرية التامة فى أداء شعائرهم الدينية.

وطبيعى أن تكون بصقلية مجموعة من الدواوين للإشراف على نظام الحكم وتدبير شئونه، فكان بها ديوان المحاسبة الذى يقوم بأعمال وزارة المالية فى عصرنا، فيه خزانة الدولة، وفيه موظفون يراجعون ما يجمعه المحتسبون فى المدن والأعمال المختلفة من الضرائب. ويقول ابن حوقل إن الضرائب فيها كانت تضم: «خمسها ومستغلاتها ومال اللطف والجوالى المرسومة على الجماجم ومال البحر والهدية الواجبة فى كل سنة على أهالى قَلَوْرِيَّة وقبالة الصيود وجميع المرافق». ولم يسمِّ ابن حوقل. الدواوين التى كانت تشرف على جمع هذه الضرائب الكثيرة، ومن الممكن بالمقابلة على النصوص الصقلية أن نعرف بعضها على الأقل فكان عندهم ديوان الخمس المشرف على مايجمع من غنائم الحرب، فإن للدولة - كما هو معروف - خمس مايجمع من الغنائم كما تقرر ذلك سورة الأنفال. وكان عندهم ديوان الممتلكات العقارية المستغلة. وديوان اللطف وهو ديوان الهدايا التى كانت ترسل سنويا للخليفة الفاطمى فى المهدية والقاهرة، وديوان الجوالى وهو ديوان الجزية التى كانت تؤخذ على الرءوس أو على الجماجم كما يقول ابن حوقل. وكانت تُفرض ضريبة على الوارد من البحر، وإما كان لها ديوان خاص وإما كانت تضم إلى ديوان المستغلات، وقبالة الصيود أى ضمانها بمبلغ معين ولعلها كانت تضم أيضا إلى ديوان المستغلات، ولعله هو المسمى فى بعض النصوص باسم ديوان التحقيق. وكلمة: جميع المرافق عند ابن حوقل تدل على أنهم كانوا يأخذون ضريبة على كل المنتجات وخاصة الصناعية إذ كان للصناعة ديوان خاص وقد يسمى ديوان الطراز. وكان من أهم الدواوين عندهم ديوان الإنشاء

ويتولاه أبلغ الكتاب مثل ابن الطوبى فى عهد ثقة الدولة وأبنائه. ويبدو أنه كانت فى بلرم طبقة من الشيوخ وبعض الأعيان يرجع إليها الوالى للمشورة فى بعض القضايا العامة أو بعض الأحكام، وكانت تبرز حين يُؤْخَذُ الرأى فى والى صقلية الجديد، وكثيرا ما كان يؤخذ برأيها فيه كما كان يؤخذ برأيها فى ضبط أموال الدولة.

وكانت الزراعة فى صقلية تُغِلُّ محصولا كبيرا من القمح الذى أدخله فيها القرطاجيون وكان يغطى أجزاء كبيرة فيها بردائه الذهبى كل عام، وكانوا قد أدخلوا فيها غَرْس شجر الزيتون كما أدخل الإغريق غرس الكروم، وعِنَبُها يَفْضل عِنَبَ اليونان، ونقل العربُ إليها كثيرا من الزروع مثل القصب والأرز والقطن والبصل وكثيرا من الأشجار مثل النخيل والليمون واللوز والفستق وكثيرا من الفواكه مثل التين والبرتقال والتوت وكثيرا من الخضروات ومن الرياحين. وفى سبيل خدمة الزراعة والحصول على إنتاج وافر حفروا القنوات والترع التى ماتزال موجودة بها إلى اليوم، واستعملوا طواحين الماء والخزانات لتوزيع المياه على الزرع والبساتين كما استعملوا النواعير والمواسير المعقوفة التى توجه مجارى المياه كما يشاءون. وبذلك أحالٍ العرب صقلية إلى مزرعة كبيرة، تتخللها الحدائق والبساتين البديعة. وكان بها مراع واسعة يربى بها الماعز والأغنام والمواشى، وكانت بها خيول مشهورة فى عهد البيزنطيين، وأدخل فيها العرب خيولهم، وتفوقت على الخيول البيزنطية.

وكانت فى صقلية بعض صناعات قبل نزول المسلمين بها، ولكن صناعاتها ازدهرت فى أيامهم ازدهارًا واسعا بما ألقته الأرض إليهم من مناجمها فى حجورهم من الذهب والفضة والنحاس والكبريت سوى منتوجات الثروة المعدنية من الشَّبِّ والقَطْران ومنتوجات البحر المتوسط حولها من التنّ والمرجان ومختلف الأسماك. وأدخل المسلمون إليها صناعة الحرير وتطريزالمنسوجات وتزيين السجاجيد بالنقوش البديعة وزركشة الثياب والجلود المصبوغة وإتقان صناعة الحلىِّ. واشتهر ما كان ينتجه المسلمون من الكتّان فى الجزيرة شهرة واسعة، ويشيد بكتانها ابن حوقل جودة ورخصا، ويقول إن نسيجه مما يقطع قطعين وكان يباع بمصر من خمسين رباعيا إلى ستين، ويقول ناصر خسرو: يُجْلَبُ من صقلية كتان رقيق وثياب منقوشة يساوى الثوب منها فى مصر عشرة دنانير مغربية، وفى خطط المقريزى أنه وجد لعزَّة بنت المعز فى خزائنها ثلاثون ألف شقة صقلية. وكان قَطْعُ الأخشاب فى غابات جبل إتنا والغابات الشمالية يعود بغير قليل من الربح، وكانت صناعة السفن رائجة، وكان يُجْلَبُ لها الخشب من جفلود والحديد من بلهرا. وكانت بالجزيرة بقاع يكثر فيها البربير، وهو البردى، وكانت مصر من قديم تصنع منه الورق للكتابة عليه، ونقل العرب عنها هذه الصناعة وكان الورق المتخذ منه لكتابة المنشورات والوثائق يسمى باسم الكاغد، ونقلت الدولة الأغلبية صناعته عن مصر إلى إفريقية

التونسية وأدخلتها إلى صقلية، فكان يصنع لها فيها الكاغد أو الطوامير لكتاباتها الرسمية، وما فضل عن حاجتها يَفْتِله صنَّاعٌ حِبالاً للمراكب ولغيرها. واجتازت صناعة الطوامير من مضيق مسِّينى إلى سالرنو Salerno بإيطاليا وتغلغلت - فى عهد النورمان - إلى الشمال ومدينة نابولى، واجتازتها إلى أوربا الوسطى وألمانيا وهو فضل كبير لمسلمى صقلية على الحضارة الإنسانية، فلولاهم ما عرفت ألمانيا الورق ولا صناعته، ولا أتيح فيها بعد - لعالمها الفذ «جوتنبرج» - اختراع الطباعة.

ولا ريب فى أن صناعة صقلية الإسلامية المزدهرة وازدهار إنتاجها الزراعى أهَّلها لأن تزدهر بها التجارة، وقد مرت بنا كثرة الأسواق فى بلرم حتى لتبلغ نحو ثلاثين سوقا، وكان بسوق القصابين أو الجزارين وحدهم - كما مرَّ بنا - نحو مائتى محل أو دكان. وأتاح ذلك لصقلية ثراء واسعا، أما ما يقوله ابن حوقل من فَقْر أهلها فكان داعية للفاطميين ووجد عامَّة الناس هناك تنفر من العقيدة الفاطمية وتتعلق بمذاهب أهل السنَّة فحمل عليهم، ولم يحمل عليهم من ناحية ما وصمهم به من الفقر المادى فحسب فقد حمل عليهم أيضا من ناحية الفقر الخلقى، فوصفهم بالخبث واللؤم وقلة الذكاء ونقص المروءة وشدة الجهل، وهو متهم فى كل ما وصفهم به من الناحية الخلقية وأيضا من الناحية الدينية فقد رماهم بضعف دينهم لأنهم - فى رأينا - لايدينون بالمذهب الفاطمى الإسماعيلى، بينما يصفهم غيره بنظافة الثياب وحسن الصور إلى مروءات ظاهرة وعشرة حسنة. والحق أن ابن حوقل فى ذلك كله مغرض، ومن يقرأ وصف مدنها عند الإدريسى يراه يشيد بقصورها وبساتينها وأسواقها مبهورًا بما فيها من حركة تجارية واسعة لا فى بلرم وحدها بل فى كل المدن التى زارها وخاصة مسينى وقطانية وسرقوسة ونوطس وجرجنت ومازر وأطرابنش، وإذا كان الإدريسى زارها فى العصر النورمانى فإننا نجد أمارى ينقل فى المكتبة الصقلية عن الراهب تيودوسيوس - وكان قد أسر فى سرقوسة بالقرن التاسع الميلادى سنة ٢٦٥هـ/٨٧٨م زمن الأغالبة ونُقل منها إلى بلرم - أنه تحدث بإعجاب عما شاهده من القصور فى المدينتين كما تحدث عن أسواق بلرم وكثرة مَنْ فيها من جميع الأجناس الأوربية والإفريقية والآسيوية، ويقول نوبل دى فرجى فى كتابه «العالم» إن تجارة صقلية بلغت أيام المسلمين ازدهارًا عظيمًا لم تدركه فى تاريخها لا قبلهم ولا بعدهم. وعلى الرغم من عوادى الأيام على قصور المسلمين ومساجدهم ومبانيهم فيها لا تزال فى بقاياها وأروقتها الباقية ما يشهد بأن شعبا عظيما سكن تلك الجزيرة وشاد فيها روائع من القصور والأبنية الفخمة برخامها وفسيفسائها ونقوشها البديعة، مما بهر فون شاك وتجرد له سنوات طوالا يصفه فى كتابه: الفن العربى فى إسبانيا وصقلية. ومن القصور المشيدة التى خلفها المسلمون ببلرم قصر العزيز الذى بناه الأمراء الكلبيون وقصر القبة وقصر المنصورية وقصر الفوارة شرقىّ بلرم، وسنذكر طرفا مما نظمه فيها بعض الشعراء فى غير هذا الموضع.

وطبيعى أن يكون للزهد والتصوف مسارب فى الحياة بصقلية الإسلامية، وكان القضاة والفقهاء فى طليعة من يمثلون الزهد والتقشف والانصراف عن متاع الحياة طلبا لما عند الله من ثواب الآخرة، ونلتقى فى أول نزول المسلمين فى صقلية بقاضيها ابن أبى محرز، وكانت تُضْرَبُ بعدله ونزاهته وتقواه الأمثال، وكان قد عاد إلى القيروان قبيل وفاته، فأوصى عمر أخاه أن يكتم خبر موته حين ينزل به القضاء، خوفا من أن يكفِّنه ويدفنه الأمير الأغلبى وينفق ثمن ذلك عليه من بيت مال المسلمين، فيلقى الله وعليه من مال المسلمين شىء، وأنفذ أخوه وصيته، وتعجب الناس من ورعه حتى فى موته. ويذكر صاحب رياض النفوس عن القاضى أبى عمرو ميمون بن عمر المتوفى سنة ٣١٦هـ/٩٢٩م أنه ولى قضاء صقلية، فاجتاز بمدينة سوسة، فقال: يا أهل سوسة انظروا هذا كسائى وهذه فروتى وهذا خُرْج فيه كتبى وهذه الجارية السوداء تخدمنى ومعها جُبَّة وكساء، فبهذا رحلت عنكم، فانظروا بأى شىء أرجع. فلما وصل إلى بلرم قالوا له: هذه دار القضاء (وكانت واسعة) تنزل فيها، فتركها ونزل فى دُوَيْرة (صغيرة) لطيفة، وكانت الجارية السوداء تغزل وتبيع غزلها وتنفق عليه من فَضْل ذلك. ومرض ولم يخرج ثلاثة أيام فدخلوا عليه لعيادته فوجدوا عند رأسه وسادتين محشوَّتين تبْنًا وتحته حصيرة من البردى. وعاد إلى بلده عن طريق سوسة فاستقبله بعض أهلها، فقال: يا أهل سوسة كما غادرناكم نعود إليكم: هذه جُبَّتى وكسائى وخُرْجى فيه كتبى، وهذه السوداء تخدمنى.

والقاضيان: ميمون وابن أبى محرز مثلان رائعان لمن كان يزهد من أهل صقلية وقضاتها وفقهائها فى متاع الحياة مكتفيا بأقل القليل من عيشته راضيا بحياة التقشف بل واجدًا فيها متاعه فليس له مأرب سواها، وممن يمثل ذلك من أهل صقلية ما رواه المالكى فى رياض النفوس عن أبى الحسن الصقلى الحريرى من أنه قضى عمره - أو شطرًا كبيرًا منه - صامتا لا ينطق إلا بذكر الله تعالى أو بما يعنيه، فإذا أقيمت الصلاة تأوَّه وتواجد وقال: «وا ذَهابَ عمرى فى خسارة». وقد ظل الزهد فى صقلية الإسلامية فرديا، ولم يتحول إلى حركة واسعة بحيث تنشأ عنه حركة صوفية، وحقا قد يوصف بعض الصقليين بأنه صوفى دون أن يَعْنى الوصف بذلك الحقيقة الصوفية إنما يعنى العبادة، وربما كان الشخص الوحيد الذى يمكن أن يسلك هناك فى عداد الصوفية هو أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله البكرى الذى حجَّ وسمع العلماء بمكة سنة ٣٥٠هـ/٩٦١م ويوصف بأنه «إمام الحقيقة وشيخ أهل الطريقة» وله مؤلفات مختلفة تدل على أنه كان ينزع نزعة صوفية، منها: «الأنوار فى علم الأسرار ومقامات الأبرار وصفة الأولياء ومراتب أحوال الصفاء والشرح والبيان لما أشكل من كلام سهل التسترى». وبدار الكتب المصرية منه مخطوطة فى ستة أجزاء وعبد الرحمن فيه فقيه يتمسك بمذهب أهل السنة مستشعرًا دائمًا القرآن الكريم والسنة النبوية، والكتاب إلى أن يكون زهدًا وتقشفا فى الحياة أقرب منه إلى أن يكون تصوفًا بالمعنى الدقيق. وظل التصوف بعد البكرى فى صقلية

لا ينفك عن الفقه والحديث ومذهب أهل السنة غير متخذ منهجًا عمليا من التصوف، على نحو ما يلقانا عند الفقيه الحافظ السمنطارى، فقد صنف فى الرقائق وأخبار الصالحين كتابًا كبيرًا، كان فى عشرة مجلدات، سماه: «دليل القاصدين» كما ذكر ذلك ياقوت عند ذكره بلدته «سمنطار». وبذلك لم يكن - فى رأينا - للتصوف حياة فى صقلية الإسلامية إلا هذه الحياة السنية الملتزمة بالقرآن الكريم والسنة النبوية والتى تدفع الفقهاء إلى التأليف النظرى فى التصوف بمعناه العام أكثر مما تدفع إلى التطبيق العملى.

٢

المجتمع[١] الصقلى فى العهد النورمانى

من قديم كان يقال إذا كانت روما فتحت أثينا حربيا فإن أثينا فتحتها حضاريا بأدبها وفلسفتها وروعة فنونها، وهو ما نستطيع أن نقوله عن النورمان وصقلية الإسلامية فإن النورمان فتحوا صقلية الإسلامية حربيا، وفتحتهم صقلية الإسلامية حضاريًّا، إذ كانوا شعبا متبربرًا ليس له حضارة ولا عهد له بأى حضارة، فلما نزلوا صقلية بهرتهم الحضارة الإسلامية فيها، واجتمعت أسباب كثيرة لكى يَحْنوا رءوسهم أمام من بها من المسلمين، فقد كانوا قلة ضئيلة بالنسبة إلى سكانها، وكانوا لا يعرفون شيئا من نظمها الإدارية ومن تراتيب أهلها فى الزراعة والصناعة وأسباب العمران، فاضطروا إلى استبقائهم لينتفعوا بهم فى شئون الصناعة والزراعة وتشييد القصور والمبانى الباذخة. ومع ذلك فإن الملك روجّار الأول الفاتح لم يحسن معاملتهم بتأثير الكنيسة كما أسلفنا فإذا هو يحيل كثيرين منهم فى المدن والقلاع والحصون المفتوحة عَنْوةً إلى عبيد مسترَقّين، وإذا هو يطبِّق عليهم نظام الإقطاع مسرفًا فى تطبيقه، وإذا هو لا يترك لأحد منهم لا أرضا متسعة فحسب، بل أيضا لا حَمّاما - كما يقول ابن الأثير كما مرَّ - ولا دُكّانا ولا طاحونا ولا فُرْنا، وأسكن معهم فى الحقول الروم والفرنج - كما يقول ابن الأثير - حتى يتعلموا منهم طرق الفلاحة والقيامَ على الزروع والغروس كما حدث فى قطانية وغيرها من المدن ومن الحصون والقلاع التى بلغت ثلاثمائة وعشرين عَدًّا. ويبدو أنه أخذ يثوب إلى رشده، فخفف من هذه المعاملة الصارمة للمسلمين وخاصة فى بلرم وفيمن اتخذه منهم جندا فى

(١) راجع ابن الأثير فى الجزءين العاشر والحادى عشر، وتاريخ ابن خلدون وأمارى فى المكتبة الصقلية وتاريخ مسلمى صقلية وفريمان فى كتابه السالف: تاريخ صقلية ورحلة ابن جبير ونزهة المشتاق للإدريسى والعرب فى صقلية للدكتور إحسان عباس والمسلمون فى جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا للأستاذ أحمد توفيق المدنى.

جيشه وأسطوله، ومع ذلك فقد فرض عليهم - كما فرض على مسلمى الجزيرة عامة - أن يدفعوا جزية، ولم يتنبَّه إلى أن المسلمين لم يكونوا يفرضونها ضريبة عامة على الرءوس من حيث هى ضريبة، وإنما كانوا يفرضونها على غير المحاربين ضريبة دفاع عنهم، ولذلك لم يكونوا يفرضونها على القساوسة والرهبان والعجزة والنساء والأطفال، فهى ليست عندهم ضريبة اضطهاد، إنما هى ضريبة دفاع لجيش المسلمين الذى يحمى النصارى ويحارب دونهم، نصيبا مما يحتاج إليه فى حربه من المؤن وعُدَّة السلاح، أما هو فجعلها ضريبة اضطهاد عامة، مع استخدامهم فى الجيش والأسطول والدفاع عن الجزيرة. وكان ابنه الملك روجَّار الثانى قد نشأ نشأة صقلية عربية، فإن اللغة النورمانية لم يكن بها علم ولا فلسفة ولا فكر ولا أدب، فاضطر أبوه إلى تعليمه العربية اللغة المتحضرة، وتنفَّس فى الحضارة الإسلامية التى كانت مسيطرة على الجزيرة بروحها وتقاليدها، وأخذت هذه الحضارة تؤثر فى حياة النورمان الغالبين كما أخذوا يُفيدون من نُظُمها وتراتيبها الإدارية، وبالمثل من شئون الزراعة والصناعة والجيش، وفيه يقول ابن الأثير: «سلك طريق ملوك المسلمين من الجنائب (ما يركبه) والحجاب والسِّلاحية والجاندارية وغير ذلك، وخالف عادات الفرنج فى ذلك كله فإنهم لا يعرفون شيئا منه، واتخذ الملك روجَّار الثانى ديوان المظالم الذى كان شائعًا عند الحكومات الإسلامية الصقلية فنقله عنهم كما نقل عنها ديوان التحقيق وديوان الجزية وديوان الصناعة، ومنه يتفرع ديوان الطراز الخاص بالمنسوجات المطرزة بالذهب وغيرها، وأيضا ديوان المستغلات من تجارة الموانى الصادرة والواردة وصيد البحر. وكان فى بلاطه نفر من علماء العرب ومفكريهم وأرباب الأدب والصناعة، وكان هناك ديوان عام ينظر فى أمور الدولة اشترك فيه بعض العرب. وخلفه ابنه الملك غليوم الأول، وكان قد تعلم العربية وحذقها مثل أبيه، ويقال إنه كان يعتمد فى كثير من المهمات على مسلمى صقلية، وإنه فتح فى وجوهم مناصب الدولة يتولونها وقرب منه بعض العلماء المسلمين وبعض رجال الأدب والفكر. وقد دفع هو وأبوه النورمان إلى اقتباس الفنون والعلوم والعناصر الأساسية للحضارة الإسلامية، فتحضروا بعد أن كانوا قوما متبدِّين ونقلوا حضارتهم إلى إيطاليا فكانت بذلك من أسباب انبعاث النهضة الإيطالية بها فى القرن الخامس عشر قبل غيرها من الأمم الغربية، وهو تأثير عميق لصقلية الإسلامية فى النهضة الأوربية الوسيطة، وينقل الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب عن دى سلان وصف البلاط النورمانى فى عهد غليوم الأول وأبيه روجار الثانى إذ يقول: «إن كل شىء فى البلاط النورمانى أصبح يذكِّر بالعادات والتقاليد الشرقية من حجَّاب وغلمان وعبيد إلى خصيان (سود وبيض) وقيان وعازفين، ومن حريم إلى مراسم وتشريفات». ولم تكن اللغة العربية لغة التخاطب فحسب، بل كانت أيضا لغة الثقافة، وكانت المراسيم تصدر عن الديوان الملكى باللغة العربية ثم تنقل إلى اللاتينية أو اليونانية، كما كانت النقود منقوشة بالخط الكوفى» ومرَّ ابن جبير بالجزيرة بعد عودته من الحج فى أيام غليوم

الأول حوالى سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م فنوَّه بأنه يتخذ من فتيان مسلمين مجابيب حُجَّابَه ووزراءه وعيون دولته وعمالته فى الجزيرة، ويقول إنه كثير الثقة بالمسلمين وساكن إليهم فى أحواله والمهم من أشغاله وله جملة من العبيد السود المسلمين وعليهم قائد منهم. ويقول إن أهل دولته من المسلمين يلوح عليهم رونق ملكه، لاتساعهم فى الملابس الفاخرة والمراكب الفارهة، وما منهم إلا من له الحاشية والعبيد والأتباع، ويقول عن غليوم الأول: «ليس فى ملوك النصارى أترف فى الملك ولا أنعم ولا أرفه منه، وهو يتشبه بملوك المسلمين فى الانغماس فى نعيم الملك وترتيب قوانينه ووضع أساليبه وتقسيم مراتب رجاله وتفخيم أبهة الملك وإظهار زينته، ويذكر ابن جبير حين مرَّ ببلده أنه كان فى نحو الثلاثين سنة من عمره وأنه يتقن العربية قراءة وكتابة، والعلامة التى يضعها على رأس مناشيره ورسائله: «الحمد لله حق حمده» وكانت علامة أبيه روجَّار الثانى: «الحمد لله شكرًا لأنعمه». ومما يدل على مدى انغماس النورمان فى الحضارة الإسلامية التى كانت منبثَّة فى الجزيرة أن زىّ النساء النصرانيات فى بلرم كان نفس زى النساء المسلمات، ويقول ابن جبير إنهن فصيحات الألسن بالعربية الشريفة طبعا (اللغة الأولى فى الجزيرة حينذاك) وإنه رآهن فى عيد الفطر قد خرجن فيه ولبِسْن ثياب الحرير المذهب والتحفن اللحف (الملاءات وما يشبهها) الرائقة وانتقبن بالنُّقَب الملونة (أى أنهن كن محجبات تماما مثل المسلمات) وانْتَعَلْنَ الأخفاف المذهبة، وبرزن لكنائسهن حاملات جميع زينة نساء المسلمين من التحلى والتخضب والتعطر».

ومن دلائل الانغماس الواضح فى الحضارة الإسلامية لعهد غليوم الأول ما يذكره ابن جبير من أن جواريه وحظاياه فى قصره كنَّ مسلمات جميعهن، وأن الجارية النصرانية من الفرنجيات إذا وقعت فى قصره أصبحت مسلمة بفضل مَنْ فيه من الجوارى المسلمات. ولم يكن غليوم ولا أبوه يتعرضان - فيما يظن - لأداء شعائر مَنْ فى بلاطهما وبلدتهما أو عاصمتهما بلرم من المسلمين، وربما كان تسامح غليوم فى هذا الجانب أقوى وأوسع من تسامح أبيه فقد كان مَنْ فى بلاطه من الفتيان يصوم الأشهر تطوعا وطلبا للأجر والثواب، وكان إذا دخل وقت الصلاة يخرجون من مجلسه فرادى فيؤدونها، وهو لا يتعرض لهم أى تعرض. ويقول ابن جبير إن بلرم كانت غاصة بالمسلمين ولهم فيها أرباض أو ضواح ينفردون فيها بسكناهم عن النصارى، والأسواق معمورة بهم، ويقول إن لهم مساجد يعمرونها ويقيمون الصلاة فيها بأذان مسموع، وإن لهم قاضيا يتقاضون أمامه، ويذكر أن المساجد كثيرة، وكان يحفَّظ فى أكثرها القرآن. على أنه يعود فيذكر أن صلاة الجمعة كانت محرَّمة على سكان بلرم - كما مرَّ بنا - بسبب الخُطْبَة الدينية التى تسبقها إذ كانت محظورة عليهم.

وحرى بنا أن نتوقف لنعود إلى المقالة الشائعة بين المؤرخين، من أن النورمان عاملوا مسلمى

صقلية معاملة حسنة وأنهم سمحوا لهم بحرية العقيدة مستدلين على ذلك بما يقول ابن جبير وغيره عن بلاط روجار الثانى وغليوم الأول من أنه كان بلاطا عربيا إسلاميا فى نظر أمراء المسيحية، وهو إنما كان كذلك بحكم تبدِّى النورمان وشعور هذين الملكين بحاجتهما وحاجة شعبهما إلى تشرب الحضارة الإسلامية العربية، ولذلك أحسنا معاملة المسلمين وسمحا لهم - على الأقل فى بلرم - بإقامة شعائرهم الدينية والأذان والصلاة فى المساجد، وبالمثل سمحا بذلك لمن شعرا بحاجتهما إليه فى بلاطهما وحياتهما من الفتيان ومن الجوارى والحظايا. أما بعد ذلك فكانت المسألة تتوقف على كثرة المسلمين فى البقاع والمدن، فقد اتجه ابن جبير بعد زيارته لبلرم إلى زيارة مدينة طرابنش، ولاحظ أن جميع سكان الطريق بين المدينتين مسلمون يفلحون الأرض فى ضياع ومحارث ومزارع متصلة، واقترب من مدينة ثرمة فى الشمال، وكان الإعياء قد أخذ منه فبات بقصر قريب منها داخله مساكن وعلالى مشرفة، وهو كامل مرافق السكنى، وفى أعلاه مسجد من أحسن مساجد الدنيا بهاء، وبات فيه أحسن مبيت وأطيبه وسمع أذان الفجر - وكان قد طال عهده بسماعه كما يقول - وأكرمه القائمون عليه وصلى به الفريضة والتراويح إذ كان فى رمضان، وأكبر الظن أنه كان محرسا للمدينة وبُنى على شاكلة المحارس فى الساحل التونسى، وانتهى إلى طرابنش ورأى ما للمسلمين والنصارى فيها من مساجد وكنائس، ورأى المسلمين يصلون يوم العيد بالطبول والبوقات وعجب من ذلك.

وقبل أن نستمع إلى ابن جبير فيما ذكره بتلك البلدة من الفتنة فى الدين الحنيف نتوقف قليلا عند سياسة الملك، روجار الثانى، فقد ظل معتمدًا لإجراءات الإقطاع التى فرضها أبوه روجار الأول فى البلاد والحصون التى فُتحت عَنْوةً، ولما هاجم أسطوله الساحل التونسى واستولى على مدينة بونة (عنابة) ترك أميره فيليب جماعة من العلماء والنسَّاك يخرجون منها إلى القرى المجاورة بأهليهم وأموالهم، فلما عاد قُبض عليه لِرفْقه وحسن صنيعه بجماعة من المسلمين وجعل الأساقفة والقسس والرهبان يحاكمونه فحكموا عليه حكما ظالما بحرقه، كما نص على ذلك التجانى فى رحلته. فلم يكن روجار الثانى يؤمن بحرية العقيدة كما يحلو لمؤرخى الغرب - وتابعهم مؤرخو العرب - القول بذلك. ونفس غليوم الأول الذى أشاد ابن جبير بمعاملته لمن فى بلاطه من المسلمين ومن فى قصره من الجوارى والحظايا المسلمات حدثت مذبحة للمسلمين ببلرم فى أيامه، إذ أمر وزيره مايون بنزع السلاح من أيدى المسلمين سنة ٥٥٦/١١٦٠م فثار المسلمون ضد هذا الأمر، وانتهز المسيحيون الفرصة فسفكوا دماء كثيرين منهم فى شوارع بلرم وفى الدواوين والحوانيت والفنادق كما سفكوا دماء جماعة ممن كانوا فى القصر، وقتل فى هذه الواقعة الشاعر القفصى يحيى بن التيفاشى كما قتل - فى ظن أمارى - الإدريسى الجغرافى، وهو ما يؤكد أن استخدام غليوم الأول للمسلمين فى القصر إنما كان ضرورة حضارية، اضطرته إليها الحضارة الإسلامية التى قهرته وقهرت شعبه. ومرت بنا - منذ قليل - أخبار عن ابن جبير

تدل على أن حرية المسلمين فى إقامة شعائرهم الدينية لم تكن مكفولة تماما على نحو ما أوضح ذلك على لسان عبد المسيح فى مسِّينى وفقيه مدينة طرابنش وزعيم المسلمين بها ابن حجر والمسلم الصقلى الذى اختار أن يُحْرَم من ابنته وأهداها زوجة إلى أحد الحجاج مع ابن جبير حتى لا تذوق ما يذوقه مع إخوتها من العذاب الأليم.

ويتضاعف الظلم الغاشم مع استيلاء أباطرة الألمان على صقلية - كما مرَّ بنا فى الفصل الأول - ويفر من صقلية آلاف من المسلمين إلى إفريقية التونسية، ولا يبقى بها إلا من عجزوا عن الفرار والرحيل ويصبحون بها مستعبدين يفلحون الأرض ويرعون الأغنام للسادة الفرنجة ولا يكفل لهم شىء من الحرية الدينية، واستغاثوا بأبى زكريا مؤسس دولة الموحدين فعقد معاهدة مع فردريك الثانى الإمبراطور الألمانى، وتعهد له فردريك فيها بضمان تلك الحرية، ولم يطبَّق هذا التعهد، وازداد العسف والظلم الغاشم، واستغاث المسلمون هناك بالمستنصر ابن أبى زكريا، فعقد معاهدة مع فردريك على إجلاء المسلمين نهائيا من صقلية، وحلُّوا بتونس فى سواحلها ورحَّبت بهم المدن الساحلية وعاشوا فى أمان، ويقال إن فردريك أجْلى من بقى بجزيرة مالطة من المسلمين إلى أمالفى Amalfi جنوبى إيطاليا، وبمر الزمن تنصرت ذراريهم.

٣

الثقافة[١] فى العهد العربى

دائما تتحرك الثقافة الإسلامية مع الجيوش العربية الفاتحة، فبمجرد أن يفتح جيش عربى بلدا يقيم فيه مسجدا تُخْطَبُ فيه خطبة الجمعة وتُؤدَّى الصلوات الخمس، ويدخل أهل البلد المفتوح فى الإسلام أو كثيرون منهم، وتنشأ كتاتيب لتحفيظ الداخلين فى الإسلام شيئا من سور القرآن وتعليمهم وتعليم ناشئتهم مبادئ الكتابة العربية وشيئا من الشعر العربى لتستقيم العربية فى ألسنتهم. وكان هؤلاء المسلمون الجدد والجند العربى يتحلَّقون حول الشيوخ فى المساجد يأخذون عنهم تعاليم الإسلام، وكان من هؤلاء الشيوخ من يعرض الأسدية لأسد بن

---

(١) انظر فى الثقافة بالعهد العربى البيان المغرب لابن عذارى ومعجم الأدباء ومعجم البلدان فى سمنطار لياقوت وتثقيف اللسان لابن مكى وتاريخ الحكماء للقفطى وصورة الأرض لابن حوقل وطبقات الأطباء لابن جلجل وطبقات الأمم لصاعد والخريدة للعماد الأصبهانى: الجزء الأول وإنباه الرواة للقفطى وبغية الوعاة للسيوطى وطبقات القراء لابن الجزرى والديباج المذهب لابن فرحون والصلة لابن بشكوال والحلة السيراء لابن الأبار والقسم الثالث من كتاب ورقات عن الحضارة العربية فى إفريقية التونسية والعرب فى صقلية للدكتور إحسان عباس.

الفرات قائد الحملة الذى قضى نحبه فى حصاره لسرقوسة وهى تصور مذهب مالك من إملاءات أستاذه عبد الرحمن بن القاسم بمصر، حتى إذا شاعت مدوَّنة سحنون - وهى أيضا من إملاءات ابن القاسم - فى القيروان والبلاد المغربية أخذ الشيوخ فى صقلية يلقنونها الناس والطلاب هناك.

ومع أن المسلمين فى صقلية ظلوا أشبه بمعسكر حربى لا يزالون ينتظرون النداء للحرب صباح مساء، ولا يزالون يُشهرون سيوفهم مع أول صارخ، ومع أن الصرخات كانت لاتنى ترتفع، ومع أنهم ظلوا يفتحون الحصون طوال عهدهم بها ولا يكادون ينتهون من حرب حتى يبدءوا حربا جديدة، مع ذلك كله استقروا بالمدن التى فتحوها، وكوَّنوا لأنفسهم فيها ولايات إسلامية، ونقلوا إليها الحضارة العربية وكل ما اتصل بها من عمران وبناء منازل وقصور فخمه، ونهضوا بالزراعة والصناعة والتجارة، كما نهضوا بالثقافة فى مختلف فروعها وعلومها وفنونها. ولم يكتف الشباب المسلم الصقلى بما كان يحصِّله من ذلك على علماء سرقوسة وجرجنت ومازر وبلرم وغيرها من المدن فقد كانوا يرحلون إلى القيروان للتزود من حلقات علمائها، وكان كثيرون من علماء القيروان وشيوخها يعبرون البحر لتزويد الطلاب هناك بما أحرزوا من العلوم وصاغوا من المؤلفات. وكأنما كانت صقلية - طوال العهد الإسلامى - بلدا تونسيا، فكل ما فى القيروان من كتب ومصنفات وعلوم وآداب يرحل مع التونسيين المهاجرين إليها ومع أبنائها فى حقائبهم حين عودتهم إلى بلدانهم. وليست المسألة إذن أن كتابا نعثر على اسمه فى النصوص الصقلية مثل كتاب الملخص للقابسى الذى لخص فيه ما اتصل إسناده من أحاديث كتاب الموطأ لمالك، حتى إذا وجدناه هو أو غيره من الكتب سجلنا به وبها ما نُقل إلى صقلية من المصنفات العلمية، والمسألة كانت أوسع من ذلك إذ لم يؤلف فى القيروان كتاب مهم إلا حُمل إلى صقلية، وقد يحمله نفس مؤلفه على نحو ما هو معروف عن كتاب العمدة فى صناعة الشعر ونقده لابن رشيق القيروانى، فقد ارتحل إليها بعد الهجرة الهلالية إلى موطنه، وحمل إليها معه هذا الكتابَ النفيس الذى يُعَدّ أروع ما وضعت المغرب والأندلس فى النقد الأدبى والبلاغة ومحسناتها من كتب، ولا ريب فى أنه كان له أثر بعيد فى نهضة صقلية الأدبية.

وعلى نحو ما تبادل العلماء والأدباء فى صقلية الرحلة مع علماء وأدباء القيروان كذلك تبادلوها مع علماء وأدباء المشرق والأندلس، بل كان بعض الشباب الأندلسى يقصد إلى صقلية للاستماع إلى هذا العالم أو ذاك ممن بلغت شهرتهم العلمية الأندلس، وكثيرا ما كان يقصد بعض علماء صقلية الأندلس فيجد شهرته سبقته إليها. وكانت رحلة الطلاب الصقليين إلى مصر والمشرق كثيرة، ونزلها غير عالم وأديب من المشرق من مثل أبى محمد إسماعيل بن محمد النيسابورى، وأخذ عنه - كما يقول ابن ظافر فى كتابه بدائع البدائه - غير واحد كتاب

اليتيمة للثعالبى، ومثل على بن حمزة اللغوى فقد ذكر ياقوت فى ترجمته أنه كان راوية لديوان المتنبى وأنه رحل إلى بلرم فى صقلية وظل فيها يروى للطلاب ديوان المتنبى ويشرحه إلى أن توفى سنة ٣٧٥هـ/٩٨٦م ويبدو أن دواوين أخرى كثيرة دخلت إلى صقلية، فابن مكى يذكر فى الباب الأربعين من كتابه «تثقيف اللسان ما كان يخطئ فيه المغنون من أشعار كثيرٍ وذى الرمة وجرير وابن الرومى والشريف الرضى. ويقول القفطى بكتابه تاريخ الحكماء فى ترجمة أبى سليمان المنطقى عن كتاب الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى: إنه خاض كل بحر وغاص كلَّ لُجَّة، وما أحسن ما رأيته على ظهر نسخة منه بخطٍّ بعض أهل جزيرة صقلية، وهو قوله: «ابتدأ أبو حيان كتابه الإمتاع صوفيا وتوسطه محدِّثا وختمه سائلا ملحفًا». وفى ذلك ما يدل على أن كتب الفكر العميق المشرقية - مثل كتب أبى حيان - كانت تحت أعين الصقليين. وما ذكرناه أو أشرنا إليه من ذلك إنما هو رموز لما نُقل إلى صقلية من نفائس الكتب الأدبية والفكرية، ولابد أن كانت نفائس الكتب التونسية والمشرقية فى التفسير والحديث النبوى والفقه تَنْقَلُ بدورها إليها.

ومن المؤكد أن الحركة العلمية كانت نشيطة بها، ويدل على ذلك - من بعض الوجوه - ما يقوله ابن حوقل فى كتابه صورة الأرض من أنه كان بها ما يزيد على مائتى مسجد، ويقول أيضا - ونقل ذلك عنه ياقوت فى معجم البلدان - إن فى بلرم ما لا يقل عن ثلاثمائة معلم، ولابد أن كانت لهم حلقات كثيرة فى المساجد يحاضرون بها الناس فى مختلف فروع الثقافة الإسلامية. ومن طريف ما يذكره ابن حوقل أنه رأى بها كُتَّابا به خمسة من المعلمين لهم من بينهم رئيس هو مدير الكُتَّاب أو مدير هذه المدرسة، ويقول إن صبيان الكتاتيب كثيرون وإنهم يبلغون أحيانا ثمانين طالبا فى الحلقة الواحدة أو الفصل الواحد، وهى بذلك ليست كتاتيب - كما يقول - إنما هى مدارس، وقد أهَّلت لنشاط علمى واسع فى بلرم، وعلى شاكلتها كانت المدن الأخرى فى صقلية.

وحرىٌّ بنا أن نستعرض النشاط فى العلوم المختلفة بصقلية الإسلامية، ونبدأ بعلوم الأوائل، وكانت - فى رأينا - نشيطة بصقلية، إذ كان ما يقرب من نصف سكانها من الإغريق والرومان وكان لهم تراث قديم بلغتيها الإغريقية واللاتينية، وحذق كثيرون منهم العربية وحذق بعض العرب لغتيها بحكم الامتزاج والاختلاط والتعامل اليومى بين السكان، ودفع ذلك إلى التبادل عن طريق الترجمة بين التراث الإغريقى اللاتينى والتراث العربى، ومن أهم من عنوا بذلك الرهبان الصقليون، فكانوا ينقلون عن العربية بعض نفائس تراثها كما كانوا ينقلون إليها بعض نفائس التراث الإغريقى اللاتينى ويدل على ذلك - من بعض الوجوه - ما ذكره الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب فى الجزء الأول من كتابه ورقات عن الحضارة العربية

بإفريقية التونسية من أن الأمير الأغلبي إبراهيم بن أحمد (٢٧١ - ٢٨٩ هـ) مؤسس بيت الحكمة فى عاصمته رقادة تخير بعض المصنفات اللاتينية فى العلوم الرياضية التى اطلع عليها، وكلف بترجمتها بعض الرهبان الصقليين المتكلمين باللغة العربية وألحق بهم بعض علماء اللغة من الإفريقيين، وعهد إليهم بمهمة تنقيح عباراتهم وسبكها فى قالب عربى صحيح» ويستظهر أن يكونوا قد نقلوا إلى العربية كتاب بلينوس (Plinius) فى علم النبات، ويذكر ابن جلجل فى كتابه طبقات الأطباء أنه هاجر إلى قرطبة فى عهد عبد الرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ) من صقلية طبيب يدعى أبا عبد الله كان يتكلم اليونانية ويعرف أسماء العقاقير والأدوية، فضمّه الناصر إلى علماء قرطبة وأطبائها ليكون عونا لهم فى ترجمة كتاب ديوسقوريدس المؤلف بالإغريقية عن الأدوية والنباتات. وقد مضت صقلية تعنى بعلوم الأوائل من طب وغير طب فى الترجمة. وكما كان التراث اللاتينى الإغريقى العلمى يترجم إلى العربية كان التراث العربى العلمى يترجم بدوره إلى اللاتينية. وكان الأطباء قد أخذوا يتكاثرون فى القيروان منذ أيام الأغالبة، فتكاثروا بصقلية مجاراة لأختها القيروان واطرد ذلك فى القرون التالية، ومما يدل عليه الفصل الذى عقده ابن مكى فى كتابه: «تثقيف اللسان» لبيان أغلاط الأطباء فى صقلية، واشتهرت فى القرن الرابع الهجرى بأنها بيئة فلسفية، مما جعل سعيد بن فرحون التجيبى الملقب بلقب الحمار السرقسطى يلجأ إليها حين أصابته محنة أيام المنصور بن أبى عامر فى أواخر هذا القرن كما يقول صاعد فى كتابه طبقات الأمم وظل بها إلى وفاته، وكان يحسن الفلسفة والموسيقى جميعا وله فى علوم الفلسفة رسالة بديعة سماها شجرة الحكمة. وبجانب فلاسفة أو متفلسفة صقلية كان هناك مهندسون ورياضيون من مثل العالم الرياضى عبد العزيز المعافرى وله ترجمة فى الخريدة، وتؤكد القصور الباذخة فى بلرم التى تغنّى بها شعراء صقلية واصفين فخامتها وزخارفها وحدائقها النضرة وفواراتها البديعة مهارة مهندسيها البارعين، وبهرت قصور بلرم وغيرها من مدن صقلية فون شاك بفسيفسائها ورخامها وأبهائها وغرفها ونقوشها، وظل يدرسها سنوات طوالا كما مر بنا فى غير هذا الموضع وسجل ما بهره من مشاهدها فى كتابه الفن العربى فى إسبانيا وصقلية.

وتنشط صقلية الإسلامية فى الدراسات اللغوية والنحوية، وتمدها فى تلك الدراسات روافد من الخارج، فقد نزلها موسى بن أصبغ المرادى القرطبى الذى رحل فى طلب التعمق فى اللغة إلى المشرق، ودخل العراق وتتلمذ لعلمائه اللغويين وخاصة ابن دريد صاحب معجم الجمهرة، ولم يعد إلى وطنه وإنما عاد إلى صقلية واتخذها موطنا له كما يقول السيوطى فى البغية، وتلاه صاعد اللغوى الأندلسى المشهور بكثرة تلاميذه الأندلسيين رحل إليها فى أوائل الفتنة التى نشبت بقرطبة سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م ورجع إلى الأندلس ولم يلبث أن عاد إلى صقلية وتوفى بها سنة ٤١٠هـ/١٠١٩م كما ذكر القفطى فى إنباه الرواة. ومن علمائها فى اللغة والنحو على بن

حبيب اللغوى الصقلى أحد رجال اللغة المعدودين والعلماء بها المبرزين، ومنهم طاهر بن محمد الرقبانى الصقلى اللغوى، ويقول القفطى عنه: لم يكن فى زمانه أعلم منه بلغة العرب وكلامها، ونثرها ونظامها، وقصدته العلماء من كل مكان فلقوا منه بحرا خِضْرِما (واسعا) وعلى شاكلته ابنه على بن طاهر الرقبانى، وكان حافظا للغة وأيام العرب، جامعا لأدوات الأدب. وما نلبث فى القرن الخامس أن نلتقى قبل الغزو النورمانى بعلم كبير من أعلام اللغة والنحو تكونت له بها مدرسة لغوية كبيرة هو محمد بن على بن الحسين بن البِرِّ التميمى، وُلد بصقلية فى أواخر القرن الرابع الهجرى، حتى إذا أخذ ما لدى شيوخها من اللغة والنحو رحل عنها إلى المشرق للتزود منها، وألقى عصاه بالقاهرة، وتتلمذ فيها ليوسف النجيرمى المتوفى سنة ٤٢٣هـ/١٠٣١م وهو أهم من روى عنه المصريون كتب اللغة ودواوين الشعراء، يقول ابن خلكان: «أكثر ما تُرْوَى الكتب القديمة فى اللغة والأشعار العربية وأيام العرب فى الديار المصرية من طريقه» وكان ما يزال يراجع الروايات المختلفة للكتاب أو للديوان ويقابل بينها حتى يخرجه فى أوثق صورة ممكنة. وبجانب الدواوين التى أخذها عن النجيرمى وفى مقدمتها ديوان ذى الرمة أخذ فى القاهرة عن صالح بن رشدين ديوان المتنبى الذى سمعه مباشرة من المتنبى وشرحه له، وأخذ أيضا فى القاهرة عن ابن بابشاذ مقدمته المشهورة فى النحو، وعاد إلى موطنه، واتخذ مدينة مازَر مقاما له، وأكرمه صاحبها ابن متكود وقرَّبه منه، وتحوَّل إلى مدينة بلرم سنة ٤٥٠ واتسعت شهرته وجاءه الطلاب من كل فج صقليين وغير صقليين، ومن الصقليين على بن جعفر السعدى المعروف بابن القطاع وسنعود إلى الحديث عنه فى أيام النورمان، ومن تلاميذه غير الصقليين عبد الله بن إبراهيم الصيرفى ومنه سمع ديوان المتنبى سنة ٤٥٩، ومنهم عبد المنعم بن منّ الله القروى المعروف بابن الكماد وقد ألممنا به فى كتابنا عن الأندلس وردِّه المفحم على رسالة ابن غرسية، وحرى بنا أن نذكر أن من تلاميذه الصقليين عمر بن خلف المشهور باسم ابن مكى الصقلى مصنف كتاب تثقيف اللسان الذى سجل فيه الأغلاط التى سمعها من أفواه العلماء وغيرهم ونراه يقول فى مقدمته إنه عرضه على أستاذه ابن البِرِّ «الإمام الأوحد والعلم الفَرْد، فأثبت ما عرفه وارتضاه، ومحا ما أنكره وأباه». وقد وزَّع ابن مكى كتابه على خمسين بابا تحدث فيها عن التصحيف والتبديل والزيادة والنقص فى الأسماء وكذلك الزيادة والنقص فى الأفعال وتأنيث المذكر، وتذكير المؤنث إلى غير ذلك من صور الغلط على ألسنة الخاصة والعامة، وأضاف إلى ذلك فصولا طريفة عن أخطاء القرَّاء والمحدِّثين والفقهاء والأطباء. والكتاب يدل على أنه كان فى صقلية حينئذ حركة لغوية خصبة بثَّها ابن البر فى تلاميذه كى يخلِّصوا الألسنة من أغلاطها وخاصة ألسنة العلماء. وما توافى سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٧م حتى يبارح ابن البر صقلية إلى الأندلس، ويبارحها تلميذه ابن مكى إلى تونس، ويقول العماد الأصبهانى عنه فى ترجمته بالخريدة: «ولى قضاء تونس وهو فقيه محدث خطيب لغوى، وفضله بالألسنة فى جميع الأمكنة

مأثور مروى، وله خطب لا تقصّر عن خطب ابن نباتة». وابن نباتة أكبر خطيب أنتجه المشرق، وكان خطيب سيف الدولة فى حربه لبيزنطة. ولعل فى هذه الشهادة لخطيب من صقلية ما يمحو محوا ما زعمه ابن حوقل عن خطيب شاهده ببلرم يوم جمعة يجزم الأسماء مع الوصل ويجرُّ الأفعال من أول خطبته إلى آخرها، وليس فى المستمعين له من مسلمى بلرم مَنْ يعترض عليه، مع أنه ظل يخطبهم نحو عامين! وذكرنا –فيما أسلفنا– أنه كان مغرضا فى كل ما وصف به صقلية لأنها كانت ترفض المذهب الشيعى الإسماعيلى مذهب الدولة الفاطمية، فاتهاماته لها ولخطبائها اتهامات زائفة، وسنراها تنتج فى مجال الدراسات الدينية والأدب شعرا ونثرا ما يؤكد بطلان اتهاماته.

ويدل ما قدمنا على أنه وصلت الشباب الصقلى مجموعة اليتيمة للثعالبى وديوان ذى الرمة وغيره من شعراء الجاهلية والإسلام، كما وصلتهم دواوين عباسية مختلفة لأبى تمام وابن الرومى والمتنبى وأضرابهم، ولابد أن وصلهم كتاب البيان والتبيين للجاحظ وما به من خطب ومجموعة زهر الآداب للحصرى، وما من شك فى أن أكثر مجاميع الأدب المؤلفة فى المشرق وصلتهم ومرَّ بنا أن ابن البرِّ كان يروى بين ما يروى من الكتب والدواوين كتاب أدب الكاتب لابن قتيبة، وكل ذلك كان له تأثيره فى نشوء ذوق أدبى عام فى صقلية بين الشباب والشيوخ، ولابد أن اطلعوا على بعض الكتابات البلاغية والنقدية فى المشرق بدليل استخدام شعرائهم وكتّابهم لمحسنات البديع، وبدليل ما فى أشعارهم من عذوبة وسلاسة، وكان حظ الشباب فى صقلية عظيما إذ نزل ابن رشيق فى أواخر أيامه بمازَر واتخذها مقاما له إلى وفاته سنة ٤٥٦ هـ/١٠٦٣ م وظل هناك سنوات يدرس للطلاب كتابه العمدة فى صناعة الشعر ونقده ويعد من أروع كتب الأسلاف فى النقد وفى بيان المحسنات البلاغية إن لم يكن أروعها كما يقول ابن خلدون، وقرأه عليه ابن متكود والى مازر بشهادة نسخة من الكتاب وقعت للقفطى كما يقول فى ترجمته بكتابه إنباه الرواة وأخذ الطلاب فى صقلية بمازر وغير مازر يتدارسونه فى حياته وبعد وفاته. ومعنى ذلك أن صقلية أتيح لها من المختارات الشعرية والنثرية ما أتاح لأدبائها ملكات أدبية خصبة كما أتيح لها من كتب البلاغة والنقد، وفى مقدمتها كتاب العمدة ما أتاح لأدبائها جمال الصياغة ودقة الذوق الأدبى ورهافته.

وإذا تركنا الدراسات النقدية واللغوية فى صقلية الإسلامية إلى الدراسات الدينية وجدنا من كبار قرائها فى القرن الرابع الهجرى محمد بن خراسان كما فى طبقات القراء لابن الجزرى، طلب العلم بمصر وفيها درس القراءات والحديث النبوى وتتلمذ لأبى جعفر النحاس وكتب عنه مصنفاته وقرأها عليه وكان بينها كتابه إعراب القرآن، وظل مقرئا متصدرا بصقلية إلى أن توفى سنة ٣٨٦هـ/٩٩٦م وقد بلغ ستا وتسعين، وممن روى القراءة عنه يوسف بن حبيب وغيلان بن

تميم. وطبيعى أن تزدهر قراءة القرآن فى صقلية مثلها فى ذلك مثل جميع البلاد الإسلامية، وكانت مثل تونس والبلاد المغربية - تقْرأ بقراءة ورش المصرى عن نافع وعادة يوصَف المقرئ بأنه مفسر للقرآن مما يدل على أن المقرئين للذكر الحكيم فى صقلية كانوا كثيرا ما يعنون بتفسيره حتى تفهم الناشئة ما تحفظه منه، ونجد حَمْلَ محمد بن خراسان المار آنفا لكتاب إعراب القرآن للنحاس يحدث فى صقلية نشاطا فى هذا الموضوع فإذا أبو طاهر إسماعيل بن خلف الصقلى المتوفى سنة٤٥٥ هـ/١٠٦٣م يؤلف كتابا فى إعراب القرآن كان فى تسع مجلدات، وسنترجم - فيما بعد - لابن ظفر الصقلى وله فى التفسير ثلاثة كتب.

وعلى نحو ما كان إقراءالذكر الحكيم وإعرابه وتفسيره ناشطا فى صقلية كانت - بالمثل - رواية الحديث النبوى، إذ كان حُفّاظه النابهون كثيرين من مثل أبى بكر الحصائرى، ومن أهم حفاظها عتيق السمنطارى وقد نوه به ياقوت فى الحديث عن بلدته «سمنطار» فى كتابه «معجم البلدان» وكان قد لزم حلقات الشيوخ فى بلرم حتى أخذ ما عندهم، وارتحل إلى لقاء الشيوخ ونزل مدينة الرسول ﷺ، واتسع فى رحلته فأخذ عن شيوخ اليمن وفارس وخراسان والشام ومصر، وكان يلقى فى تلك البلدان بجانب شيوخ الحديث وحفاظه العبّاد والنساك ويكتب ما يسمعه من الفئتين، وصنف كل ما جمعه عنهم، كما صنفً فى الفقه تأليفًا كان فى غاية الترتيب والبيان. وكان يدرس لتلاميذه فى صقلية الحديث النبوى وكتاب الموطأ فى الفقه المالكى، وتوفى سنة ٤٦٤هـ/١٠٧١م حين احتل روجّار الأول ملك النورمان بلرم.

وأكثر فقهاء المالكية بصقلية كانوا محدِّثين لأن الموطأ لمالك كتاب فقه وحديث وكان نشاط الفقه بصقلية واسعًا جدًا، وهَّيأ لذلك أن كان قضاة صقلية - منذ أول الأمر - يحاضرون الناس فى الفقه المالكى عمدتهم فى القضاء يتقدمهم فى ذلك سالم بن سليمان الكندى الذى ولى القضاء فى صقلية سنة ٢٨١ هـ/٨٩٤م وقد عمل بكل جهده على نشر مذهب مالك فى صقلية كما فى كتاب رياض النفوس. ونزلها تلميذ من كبار تلامذة الإمام ابن أبى زيد فقيه القيروان المتوفى سنة ٣٨٦هـ/٩٩٦م هو البراذعى خلف بن أبى القاسم وكان زملاؤه من فقهاء القيروان يزورّون عنه، فلم تحصل له بها رياسة، فرحل إلى صقلية، وقصد أميرها فى بلرم، فحصلت له عنده مكانة طيبة، وعنده ألف كتابه التهذيب فى اختصار مدونة سحنون فى الفقه المالكى يقول ابن فرحون وعليه معول الناس فى صقلية والمغرب والأندلس، وطارت شهرته فى العالم الإسلامى وكتبت له شروح مختلفة، وألف بصقلية أيضا كتابا فى التمهيد لمسائل المدونة وكتاب الشرح والتتمات لمسائل المدونة، وله أيضا اختصار الواضحة من كتب الفقه المالكى يقول ابن فرحون: وعليه اعتماد طلبة العلم للمذاكرة وكان ابن أبى زيد قد جمع ما فى الأمهات من المسائل والخلاف والأقوال فى كتابه النوادر فنقل البراذعى معظمه فى كتابه على المدونة. ويبدو أنه توفى بصقلية فى أوائل القرن الخامس الهجرى.

ومن فقهاء صقلية بعده محمد بن يونس التميمى من مدينة مازر المتوفى سنة ٤٥١ وقد لقب بالإمام الأكبر لتبحره فى الفقه المالكى وجاءه الناس للفتوى، وله مؤلف جيد فى مسائل كتاب الموطأ للإمام مالك، وله إضافات مفيدة وتعليقات علمية جيدة على مدونة سحنون. وكان يعاصره عبد الحق بن محمد القرشى الصقلى، لزم حلقات الشيوخ فى بلده حتى ارتوى منها، ورحل للحج ولقاء الشيوخ والفقهاء الكبار والتقى بأبى ذر الهروى شيخ المالكية فى هراة وبالقاضى عبد الوهاب المالكى شيخهم فى العراق كما التقى فى حجة ثانية بإمام الحرمين الجوينى وسأله عن مسائل أجابه عنها وسجل ذلك فى أحد كتبه، وكان يدرس لطلابه فى بلرم مدوّنة سحنون التى جمعت أصول المذهب المالكى، يقول ابن فرحون أيضا عنه: «كان مليح التأليف، ومن مؤلفاته كتابه «النكت والفروق لمسائل المدونه» ويقول ابن فرحون أيضا إنه «عاد إليه بالتغيير والتبديل ورجع عن كثير من اختياراته وتعليلاته» وله كتاب فى الفقه المالكى كبير باسم «تهذيب الطالب» وله استدراك على تهذيب المدونة للبراذعى وله كتاب فى بسط ألفاظ المدونة، وكأن أعماله الفقهية انحصرت فى خدمة مدونة سحنون. وحاز شهرة كبيرة فى حياته وكان كثير الارتحال، فدرس عليه فى القيروان - كما فى الصلة لابن بشكوال - ابن الخياط ومحمد بن نعمة الأسدى، ودرس عليه فى صقلية من الأندلسيين أبوبكر بن الحصار، وهاجر إلى الأندلس من تلامذته الصقليين - ثابت الفقيه الصقلى، وتوفى بالاسكندرية سنة ٤٦٦هـ/١٠٧٣م ويبدو أنه رحل عن بلرم بمجرد استيلاء روجار الأول ملك النورمان عليها سنة ٤٦٤هـ/١٠٧١م.

٤

الثقافة(١) فى العهد النورمانى

دخل النورمان صقلية والحركة العلمية بها مزدهرة، وهالهم ما رأوا فيها من حضارة ومدنية إسلاميتين، وشعروا بوضوح أنهم فى حاجة، بل فى أشد الحاجة إلى أن يجلسوا من سكانها العرب مجلس التلامذة من أساتذتهم فى الزراعة والصناعة والتجارة وفى الثقافة والعلوم والفنون المختلفة، ودفع روجّار الأول ابنه روجار الثانى إلى تعلم العربية وإلى الإكباب على علومها وفنونها، وبالمثل دفع روجار الثانى ابنه غليوم الأول إلى التزود من هذه العلوم والفنون ما وسعه

(١) انظر فى الثقافة بالعهد النورمانى نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق للإدريسى ورحلة ابن جبير، وخطط المقريزى، والخريدة للعماد الإصبهانى، وإنباه الرواة للقفطى، وطبقات القراء لابن الجزرى، وابن خلكان، ومقدمة ابن خلدون، والقسم الثالث من ورقات عن الحضارة فى إفريقيا التونسية، والعلم عند العرب لألدوميلى ترجمة الدكتور عبدالحليم النجار، والعرب فى صقلية للدكتور إحسان عباس.

التزود وحث بدوره ابنه غليوم الثانى على استيعابها ما أمكنه، ويحدثنا الإدرسى فى فواتح كتابه «نزهة المشتاق» عن مدى ما أحرز روجار الثانى من هذه الفنون والعلوم قائلا: «أما معرفته بالعلوم الرياضيات والعمليات فلا تُدركُ بِعَدٍّ، ولا تُحْصَرُ بِحَدٍّ، لكونه قد أخذ بكل فَنٍّ منها بالحظ الأوفر، وضرب فيه بالقدْح المعلَّى» ويقول ابن جبير - كما مرَّ بنا - عن غليوم الثانى: «له الأطباء المنجمون، وهو كثير الاعتناء بهم شديد الحرص عليهم حتى إنه متى ذُكر له طبيب أو منجم اجتاز ببلده أمر بإمساكه، وأدرَّ له أرزاق معيشته، حتى يسلِّيه عن وطنه.

وأحسَّ روجار الأول - منذ أول الأمر - بالحاجة إلى ترجمة الكنوز العلمية النفيسة من العربية إلى اللاتينية، حتى يحوز النورمان لأنفسهم هذه الثروات العلمية، ولم يلبث أن أتاح له ذلك نصرانى يسمى قسطنطين الإفريقى ولد بمدينة قرطاجة التونسية سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩م وثقف العربية وأتقنها، واختلف فى القيروان إلى أصحاب علوم الأوائل فى الطب والرياضة والفلك، ورحل إلى القاهرة وفيها استكمل معرفته بالعلوم المذكورة، وعاد إلى بلده: قرطاجة وتركها إلى صقلية فى عهد روجار الأول وعرف منه حاجته إلى ترجمة كل ما كتبه العرب عن الطب، فرجع إلى القيروان، وجمع منها أنفس ما كتبه أطباؤها العظام، وعاد إلى روجار الأول يبشره بأنه اصطفى له أفضل وأنفس ما لأطباء القيروان والعرب عامة من كتب طبية وغير طبية، فأسَّس له دَيْر جبل كاسينو بالقرب من مدينة سالرنو فى جنوبى إيطاليا فتولى رياسته وأخذ يُغْرى رهبانه بتعلم العربية حتى إذا تعلموها أغراهم بترجمة مصنفاتها الرياضية والفلكية والطبية إلى اللاتينية، ودُرِسَ ما ترجموه فى كلية سالرنو ومنها نقل إلى الجامعات الأوربية، ومما يدل على ذلك أبلغ الدلالة فى المجال الطبى أن نجد فردريك الثانى ملك صقلية وإمبراطور ألمانيا يسنُّ لائحة خاصة لمزاولة العمل الطبى فى مملكته يفرض فيها على كل طبيب يعمل بها أن يحصل على إجازة الطب من كلية سالرنو، وكان ذلك قبيل عصر النهضة الأوربية، فكان له تأثير بالغ فيها. ويقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب فى القسم الأول من كتابه: «ورقات عن الحضارة العربية فى إفريقية التونسية»: «جدير بالملاحظة أن جُلَّ ماترجمه قسطنطين من الكتب العربية إلى اللاتينية أو حاول تقليده والوضع على غراره إنما كان مستمدا من مصنفات أطباء قيروانيين مثل إسحق بن عمران وأحمد بن الجزار، كما أنه اعتمد فى الفلك وعلم الهيئة على كتاب البارع فى الفلك والنجوم لعلى بن أبى الرجال القيروانى». وكل ذلك كان يصب فى صقلية أخت القيروان، ويبدو أنها اشتهرت فى الفلك والهندسة بعلماء ومهندسين أفذاذ، يدل على ذلك - من بعض الوجوه - أننا نجد الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله (٣٨٦هـ/٩٩٦م -٤١١هـ/١٠٢٠م) حين ينشىء مرصده فى القاهرة يرسل إلى صقلية، فى طلب حذَّاقها فى الهندسة والتنجيم، ويوافيه أبو محمد عبد الكريم المهندس الصقلى، ويتوقف العماد الأصبهانى فى القسم الخاص بصقلية ليقول عن هذا الشاعر أو ذاك إنه رياضى أو منجم فلكى أو مهندس

مثل عبد العزيز المعافرى وكان من علماء الرياضيات ومثل ابن القرنى وكان منجما حاسبا، ومثل محمد بن عيسى الفقيه وكان مهندسا منجما وشاعرا بارعا.

ومعروف أن روجار الثانى ملك صقلية النورمانى استدعى الشريف الإدريسى إلى «بلرم» عاصمته، وطلب إليه أن يؤلف له كتابا فى الجغرافيا، فألَّف له كتابه الرائع: «نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق» وهو أكمل كتاب جغرافى ألفه العرب، وظل عند الأوربيين أهم مرجع فى علم الجغرافيا إلى القرن السادس عشر، وقد أتم الإدريسى تأليفه سنة ٥٤٥هـ/١١٥٠م وترجمت قطع كبيرة منه إلى مختلف لغات العالم. وطلب منه روجَّار الثانى خريطة للعالم فنقشها على كرة من الفضة تزن ثمانمائة أوقية، ورسم عليها جميع الأقاليم التى كانت معروفة لعصره، وهما عملان باهران من أعمال العبقرية العربية. وكان حريا بالإدريسى أن يقدمها إلى حاكم عربى فى عصره لا لحاكم نورمانى نهب هو وأبوه صقلية العربية وقد وجه إلى المهدية بالإقليم التونسى اسطولا مكونا من ثلاثمائة سفينة سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م واستولى عليها وظل بها اثنى عشر عاما حتى خلصها عبد المؤمن سلطان الموحدين. وظل الإدريسى فى بلرم أيام غليوم الأول وله ألف كتابا سماه «روض الأنس ونزهة النفس، وقد وضع فيه الإدريسى - كما يقول الدومبيلى - خرائط أصغر سعة ومقياسا، وخرائطه جميعا تقوم على تحديد درجات الطول والعرض، ويقال إنه توفى سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م والمظنون أنه قتل فى ثورة للنورمان حينئذ على العرب فى بلرم.

ويلقانا فى العهد النورمانى غير عالم لغوى ونحوى، ومن نحاتها ولغوييها الذين ظلوا بها ولم يبرحوها على بن بشرى اللغوى الصقلى ويقول القفطى: «كان فى النظم والنثر سابقا لا يجارَى، وفى اللغة والإعراب لا يبارى» ومنهم عمر بن حسن النحوى الصقلى يقول القفطى: «شيخ فى اللغة والنحو طويل الباع فيهما، أُخِذا ورُوِيا عنه تصدر للإفاده ببلرم» ومنهم محمد بن زيد الطَّرْطانى الصقلى «آخذ من كل العلوم بالحظ الوافى، متقدم فى علم الأوزان والقوافى». وممن بارحوا صقلية - فى العهد النورمانى من كبار اللغويين والنحاة على بن عبدالرحمن الصقلى العروضى، يقول عنه القفطى: «نزيل الإسكندرية عالم بعلمى النحو والعروض قيم بهما. بليغ فيهما، مشارك فى جميع الأنواع الأدبية، متصدر لإفادة الطلاب». ومنهم ابن القطاع على بن جعفر التميمى المولود سنة ٤٣٣هـ/١٠٤١م تلميذ ابن البر، وكان مثل أستاذه عالما لغويا كبيرا، ومازال بصقلية يدرس ويؤلف لطلابه حتى إذا كانت سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م انتقل إلى مصر فاحْتفى به أهلها، وتصدر للتدريس والافادة إلى أن توفى سنة ٥١٥هـ/١١٢١م ومن تصانيفه كتاب تهذيب أفعال ابن القوطية فى اللغة وهو خير من كتاب ابن القوطية وكتاب أبنية الأسماء يقول ابن خلكان جمع فيه فأوعى. وكان كتاب الصحاح للجوهرى بمصر - كما يقول القفطى - لا يرْوَى إلا عن طريقه عن ابن البر، وكان له كتاب نفيس فى

شعراء صقلية سماه : «الدرة الخطيرة فى المختار من شعراء الجزيرة» وفى دار الكتب المصرية مختصر له، ونقل عنه العماد الأصبهانى فى الخريدة : قسم صقلية طائفة كبيرة من شعرائها البارعين. ومن هؤلاء النازحين عن صقلية فى العهد النورمانى على بن ابراهيم النحوى الصقلى المعروف بابن المعلم، كان مجيدا للغة والنحو وتصدر للإفادة فيها، بارح صقلية واستوطن مصر إلى أن توفى بها سنة ٥٣٢ هـ/١١٣٧م. ومنهم عثمان بن على السَّرقوسى الصقلى النحوى، كان عالما نحويا مقرئا للقرآن الكريم، وله حاشية على كتاب الإيضاح لأبى على الفارسى، وكانت له فى جامع الفسطاط حلقة للإقراء وانتفع به الناس ونقلوا كلامه وكتبوا تصانيفه، وله مختصر كتاب العمدة لابن رشيق زاد به أبوابا أخَلَّ بها مؤلفه وهى واقعة موقعا جيدا من التصنيف. وحقا كان النشاط العلمى لهؤلاء النحاة واللغويين الصقليين خارج جزيرتهم، ولكنى ذكرتهم لأدل على مدى ما حدث بالحركة العلمية فى صقلية من خمود وقف ما كان ينتظر لها من ازدهار عظيم بسبب استيلاء النورمان عليها.

وإذا انتقلنا إلى الحركة الدينية وبدأنا بالقراءات القرآنية وجدنا لصقلية إماما كبيرا من أئمتها هو عبد الرحمن بن عتيق المقرئ المعروف بابن الفحام المولود بسرقوسة سنة ٤٢٢هـ/١٠٣٠م وقد رحل من صقلية إلى مصر سنة ٤٣٨هـ/١٠٤٦م فى طلب القراءة القرآنية على أئمتها المصريين وظل يأخذها عنهم حتى سنة ٤٥٤ هـ/١٠٦٢م ومن شيوخه فيها ابن نفيس تلميذ عبد المنعم بن غلبون شيخ القراءات بمصر، وتتلمذ لابن بابشاذ وأملى عليه شرح مقدمته المشهورة فى النحو، وعاد إلى بلده، ولم يلبث أن نزلها النورمان فبارحها إلى الإسكندرية واتخذها موطنا له، وكان من أعلم القراء بالقراءات ووجوهها، ولم يلبث أن أصبح شيخ القراء بالاسكندرية علما ودراية، وألف فيها كتابه «التجريد فى بغية المريد» وبها توفى سنة ٥١٦ هـ/١١٢٢م.

وكان كثير من القرَّاء لايزالون يلقون على طلاب صقلية دروسا فى التفسير، ويلقانا فى منتصف القرن السادس الهجرى مفسر صقلى كبير هو ابن ظفر ويهاجر منها إلى الشام وسنترجم له فى حديثنا عن النثر الصقلى، وتظل رواية الحديث النبوى ناشطة فى العهد النورمانى، ويلقانا فيه إمام من أئمته، هو الحافظ محمد بن على بن عمر التميمى المعروف باسم المازرى نسبة إلى مسقط رأسه فى مدينة مازر بصقلية، وقد لزم حلقات شيوخها حتى اكتمل مرباه العلمى، وهاجر منها إلى الإقليم التونسى، وتولى القضاء فى القيروان ثم فى المهدية، وبها ألقى عصاه إلى أن توفى سنة ٥٣٦ هـ/١١٤١م عن ثلاث وثمانين سنة ودُفن برباط المُنَسْتِير وفيه يقول ابن خلكان هو أحد الأعلام المشار إليهم فى حفظ الحديث، ويقول المقرى فى أزهار الرياض ناعتا له : «الإمام المجتهد أبو عبد الله المازرى عمدة النظار، ومحور الأمصار، المشهور

فى الآفاق والأقطار حتى عُدَّ فى المذهب المالكى إماما». وله فى الحديث النبوى شرح جيد على صحيح مسلم سمَّاه كتاب «المعلم بفوائد مسلم» وفيه يقول ابن خلدون فى المقدمة: «أما صحيح مسلم فكثرت عناية علماء المغرب به.. وأملى الإمام المازرى من كبار فقهاء المالكية عليه شرحا سماه المعلم بفوائد مسلم اشتمل على عيون من علم الحديث وفنون من الفقه. وكان العلماء فى عصره يتسابقون إلى أخذ الإجازة عنه برواية هذا الشرح وبقية كتبه، ومنهم القاضى عياض الإمام المشهور وقد بنى على شرحه لصحيح مسلم شرحا سماه «إكمال المعلم بفوائد مسلم». وللمازرى بجانب هذا الشرح مصنفات فى الفقه المالكى وعلم الأصول، من ذلك شرحه لكتاب التلقين للقاضى المالكى عبد الوهاب ويقال إنه ليس للمالكية كتاب مثل شرح كتاب هذا القاضى وشرح البرهان فى الأصول لإمام الحرمين الجوينى. وهو بحق يعد خاتمة الفقهاء والمحدثين بصقلية.

الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

١

نشاط الشعر

كانت صقلية جَنَّة من جِنان العالم الإسلامى بما كانت تحمل فوق حقولها من رداء القمح الذهبى وردِاءات الكروم والبرتقال ومزارع القطن الزمردية وبساتين النخيل والموز والفواكه والزهور الأرِجة، والخيل الكريمة، ومعادن الذهب والفضة والكبريت والنحاس ومصانع الأقمشة والحرير المزركش. لقد كانت حديقة كبيرة فى البحر المتوسط لم يحسن الخلفاء العبيديون بعد الدولة الأغلبية القيام عليها فضلا عما تبعها من شبه جزيرة قَلَوْرِيَّة فى إيطاليا.

وطبيعى أن يتغنَّى بهذه الحديقة الفاتنة كثير من الشعراء، ونلاحظ أن هذا التغنى تأخر نحو قرن فقد تأخر طوال حكم الدولة الأغلبية، إذ كانت فى صراع مستمر مع كثير من المدن والحصون، ومع ذلك مدَّت ذراعها إلى جنوبى إيطاليا واستولت على قَلَوْرِيَّة. وتستولى الدولة العبيديَّة على مقاليد الأمور بإفريقية التونسية وتخمد حركة الفتوح فى الجزيرة وكأنما لم تكن تعنيها فى قليل ولا كثير، حتى إذا تركتْ شئونَها السياسية والإدارية إلى بنى أبى الحسين الكلبيين أخذت الجزيرة تشعر معهم بشىء من الاستقلال، كما أخذت تشعر بشىء من شخصيتها، وعادت لها الحماسة الإسلامية، وأخذت هذه الدولة تعنى بفتح ما تبقى من البلدان والحصون فى صقلِّية وفى قلوريَّة.

وتزدهر الحركة الشعرية فى صقلية لعهد هذه الدولة، وخير كتاب كنا نطلع منه على هذا الازدهار لو أنه لم يسقط من يد الزمن هو كتاب «الدرة الخطيرة فى المختار من شعراء الجزيرة» لابن القطاع على بن جعفر السعدى الذى توفى بمصر سنة ٥١٥هـ/١١٢١م، فقد كان يشتمل على مائة وسبعين شاعرا، وكأنه أراد أن ينافس بكتابه كتاب الأنموذج لابن رشيق الذى اشتمل على مائة شاعر فحسب، صوَّر بهم الحركة الأدبية فى إفريقية التونسية، ولو أن كتاب ابن القطاع وصلنا لاستبانت الحركة الشعرية بصقلية الإسلامية تمام الاستبانة إذ قصره على تلك الحركة وحدها، ولم يدخل عليه أحدا من العصر النورمانى. وفى المكتبة التيمورية مختصر للكتاب اختيار أبى إسحق بن أغلب، قال فى مقدمته له إنه ذكر فيه سبعة وستين شاعرا فقط،

ولا يوضِّح على أى أساس اختار من اختار وأهمل من أهمل، والنسخة بها نقص فى تضاعيفها وفى آخرها، بحيث لم يبق فيها سوى ٤٣ شاعرا، وحَذَفَ ما وضعه ابن القطاع مع الشاعر من مقدمات كانت حريَّة أن تفيد الباحثين فى دراستهم لشعراء صقلية الإسلامية فى عصر الكلبيين. وهناك اختيار ثان لعلى بن منجب الصيرفى المصرى المتوفى سنة ٥٤٢ للهجرة من كتاب الدرة الخطيرة ضمنه تسعة عشر شاعرا، وهو منشور فى عنوان الأريب المطبوع بتونس للشيخ الجليل محمد النيفر التونسى. وبجانب اختيارات ابن منجب الصيرفى وأبى إسحق بن أغلب من الدرة الخطيرة تلقانا اختيارات العماد الأصبهانى منها فى كتابه الخريدة، وبلغ ما اختاره منها ٤٤ شاعرا مجموعة فى الجزء الأول المنشور وبعدها فى نفس الجزء شاعر من الدرة الخطيرة ص ٣٢٧ من طبعة تونس ثم شاعران آخران ص ٣٣٥، ٣٣٦ وربما كانا أيضا من شعراء الدرة. ويبدأ العماد الحديث عن شعراء الخريدة بشاعر يقول إن أبا الصلت أمية بن أبى الصلت الأندلسى سماه فى رسالته المصرية، البلَّنوبى أبا الحسن على بن عبدالرحمن بن أبى البشر الكاتب الصقلى الأنصارى، ويفيض فى ذكر غزلياته، ثم ينقل عن ابن بشرون المهدوى من كتابه المختار من النظم والنثر لأفاضل أهل العصر أحد عشر شاعرا كلهم من العصر النورمانى، ويضيف إليهم فى ص ٢٧٣ ترجمة لأبى الضوء سراج بن أحمد بن رجاء الكاتب اعتمد فيها على كتاب ابن بشرون فيكون مجموع ما ساقه عن ابن بشرون اثنى عشر شاعرا من العصر النورمانى، وبذلك يبلغ من ذكرهم العماد فى الخريدة من شعراء صقلية نحو ستين شاعرا وإذا حاولنا أن نرصد بينهم أول من له صلة بالولاة الكلبيين لقينا القاسم بن نزار الكلبى يعاتب ابن عمه الأمير أحمد بن الحسن بن أبى الحسين الكلبى (٣٥٤-٣٥٨هـ) على جفائه له وهو عتاب فيه مرارة شديدة إذ يقول[(١)]:

إنِّى متى يجفـو الحبيـ ـبُ وصلْت جَفْوته ببيْنِ
ومنعتُ عيـنى أن تـرا هُ ولو رأته فقأْتُ عَيْنى
ووضعتُــه دون الحضيـ ـض لو أنَّه فى الفَرْقدينِ
وقـطعتُـه لـو كـان يُشْـ ـبِه أحمد بن أبى الحسين

وأكبر الظن أن الأمير أحمد بن الحسن بن أبى الحسين لم يكن فظا فقد كان قائد أسطول صقلية قبل توليه زمام الأمور بها، وكان يتعامل مع الناس تعاملا كريما، ونرى المعز يستقدمه إلى المهدية، ويوليه قيادة أساطيل الدولة، ويولى مكانه أخاه على بن الحسن (٣٥٩ - ٣٧٢ هـ)

---

(١) الخريدة للعماد الأصبهانى (طبع تونس) ٨٦/١.

ومن مادحيه سهل بن مهران، وعُرف بأنه كان ممن يطيلون فيجيدون. وولى - بعد على - صقلية جعفر بن محمد فحسنت به الأحوال واستقامت الأمور إلى أن توفى سنة ٣٧٥ وخلفه أخوه عبد الله ولم تطل مدته إذ توفى بعد عامين، وولى بعده ابنه يوسف، وكان عادلا حسن السيرة فأحبه الناس ولقَّبه الخليفة الفاطمى بلقب ثقة الدولة وعمَّ الرخاء والأمن فى أنحاء الجزيرة وفى عهده وصل حكم الكلبيين فيها إلى القمة المبتغاة من المجد والعزة، ووفد عليه الشعراء من إفريقية التونسية ومن الجزائر يمدحونه وفى مقدمتهم محمد بن عبدون السوسى الذى ترجمنا له بين شعراء تونس وأطلنا فى بيان صلته بثقة الدولة وابنه جعفر، وعلى شاكلته شاعر الجزائر أبو محمد عبد الله بن محمد التنوخى المعروف بابن قاضى ميلة، وله فى ثقة الدولة مدحة ضافية، ومن شعراء صقلية الذين دبَّجوا فيه المدائح الطوالَ ابن القرقورى وهاشم بن يونس ولهما فى الخريدة مدحتان فى ثقة الدولة نوَّها فيهما بشجاعته وبأسه، وعلى شاكلتهما شعر مشرف بن راشد، وإن لم يسم ممدوحه، ومن شعرائه الحسن بن محمد الطوبى، وله مدحة فى المعز بن باديس، ومنهم محمد بن أحمد أبو عبد الله الصقلى صاحب ديوان الإنشاء، وله فى ثقة الدولة مرثية استهلها بقوله: (حنانيك ما حىٌّ على الدهر يسلم). وأخذت الولاية الصقلية تتضعضع فى عهد ابنه جعفر ثم فى عهد أخيه أحمد الأكحل، ومن شعرائها المشرف بن راشد وابن الخياط، وثار عليه الصقليون كما أسلفنا واستغاثوا بالمعز بن باديس صاحب القيروان وإفريقية التونسية، ثم عادوا فولَّوا عليهم صمصام الدولة وسرعان ما يثور به الصقليون وتدخل صقلية فى عصر أمراء الطوائف، وأصبح لكل أمير شاعره أو شعراؤه، فمحمد بن القاسم بن زيد ينحاز إلى على بن نعمة صاحب جرجنت وقصريانة، وعبد الحليم الصقلى إلى ابن متكود فى مازر وابن الخياط إلى ابن الثمنة فى بلرم، ونلتقى بعد ذلك بالشعراء الذين بكوا صقلية ومدنها حين سقطت فى حجر النورمان من أمثال أبى محمد القاسم بن عبد الله التميمى وابن حمديس. وحرى بنا أن نتوقف الآن لنتحدث عن شعراء الشعر الصقلى موزعين على موضوعاته.

٢

شعراء المديح

ظل المديح يدبَّج فى أمراء الأسرة الكلبية طوال حكمها لصقلية، غير أن كتب المختارات لم تعرض علينا منه إلا شظايا: بيتا أو بيتين من القصيدة مع عرضها فى الغالب لمقدمتها من الغزل وغير الغزل، وكانت صقلية قد أخذت تكتظ بالشعراء منذ عصر ثقة الدولة يوسف بن عبدالله الكلبى (٣٧٧-٣٨٨هـ) وجاءه من يمدحونه من الجزائر وإفريقية التونسية كما أسلفنا وكثر من يمدحونه فى صقلية نفسها من أبنائها الشعراء مثل أبى الفتح محمد بن الحسين بن القرقورى

الكاتب، وله يعتز به وبما ينال من عطاياه فى التخلص إلى المدح من قصيدة[١]:

وماذا عليهمْ أن أجودَ بتالدى وأُفْنِى طَرِيفى قبل يومى وأُتْلِفُ[٢]
لهم ما اقْتَنَوْا فَلْيَحْرِصوا فى ادِّخارِه ولى كنزُ شعرٍ لا يَبِيدُ ويوسفُ

ويوسف هو يوسف بن عبد الله ثقة الدولة، وهو يقول لخصومه الذين يعنفونه لتبذيره أمواله إنه لا يخشى شيئا من هذا التبذير طالما ينظم مدائحه المطولة فى يوسف ويسبغ عليه عطاياه. وأكبر الظن أن ما ساقه العماد للمشرف بن راشد وهاشم بن يونس من مديح لقائد بشجاعته إنما يريدان به ثقة الدولة، وهى أبيات محدودة. ومن شعراء ثقة الدولة على بن الحسن الطوبى، وكان يلازمه ونراه بعد وفاته يعبر البحر إلى المعز بن باديس صاحب إفريقية التونسية، وله يقول من مدحة رصَّع بها ديوانه كما يقول العماد[٣]:

إليك مُعِزَّ الدينِ وابنَ نَصيرِه حملتُ عقودَ المدحِ بعد انْتخابِها
وأثوابَ حمدٍ حُكْتُ أثوابَ وَشْيِها على ثِقَةٍ منى بِعُظْمِ ثَوابِها

وكان الشعراء فى صقلية وإفريقية التونسية كثيرا ما يتبادلون ممدوحيهم، فالشاعر القيروانى يعبر البحر لمدح الوالى أو الأمير الكلبى كما عبَره محمد بن عبدون السوسى، والشاعر الصقلى يجتاز بدوره البحر ليمدح الأمير القيروانى أو الأمير المشهور فى عصر أمراء الطوائف ويلقانا بأخرة من عصر الكلبيين ابن الخياط، وسنخصه بكلمة، ونلتقى بعده بجعفر بن الطيب الكلبى، وكان شاعرا مجيدا، وله قصيدة بديعة يمدح بها مُدافع بن رشيد الهلالى أمير قابس فى آخر عهد أمراء الطوائف، وله يخاطب ناقته فيها[٤]:

سأنزل عنكِ فى مَرْعىً خَصيبٍ وماءٍ باردٍ عَذْبٍ فُراتِ
بأرض مُدافعٍ مأوى الأمانى وقتَّالِ السنين المُجْدِباتِ
فيحملُ عنك هَمِّى فوق طِرْفٍ سَبُوقٍ من خيول سابقاتِ[٥]
أغرُّ تخاله ريحًا أُعيرتْ قوائمَ باللُّجَيْن محجَّلاتِ[٦]
لقد أطمعتَ فى جَدْواك حتى سباعُ الطَّيْر من بعض العُفاةِ[٧]

وهو يقول لناقته إنه سينزل عنها فى مرعى مدافع الخصيب حصن الأمانى وقتَّال السنين

(١) الخريدة ١/٩٦.
(٢) تالدى: مالى القديم. طريفى: مالى الجديد.
(٣) الخريدة ١/٧٣.
(٤) الخريدة ١/١١٣.
(٥) طرف: فرس كريم.
(٦) أغر: له غرة بيضاء. قوائم محجلة: بيضاء أو بها بعض بياض. اللجين: الفضة.
(٧) جدواك: عطائك، والعفاة: طلاب المعروف.

العجاف المجدبات، فيحمله فوق حصان سبوق أغرّ قوائمه محجلة بلجين يخطف الأبصار، ويقول له لقد أطمعت فى كرمك الفيّاض حتى إن سباع الطير لتلزمك وتلزم جيشك لما تعرف من كرمك وفتكك المستمر بالأعداء، حتى لكأنها من طلاب النوال.

ويُظِلُّ العهد النورمانى صقلية، وكان المظنون أن لا يجد الشعراء المسلمون الذين ظلوا هناك ملوك النورمان، ويبدو أنهم كانوا يفرضون على الشعراء تمجيدهم، وكانوا يضطرون إليه أحيانا لأنهم أسرى فى أيديهم ويريدون أن يفكوا عن أقدامهم أغلال الأسر، على نحو ما نجد عند أبى حفص عمر بن حسن النحوى فى مديحه لروجار الثانى وهو فى قبضة سجنه قصيدة له وفيها يقول(١):

يهتزُّ للجَـدْوَىَ اهتـزاز مُهنَّـد يهتـزُّ فى كفِّيه يـوم جِـلادهِ
ويضيءُ فى الدَّيْجور ضوءُ جبينهِ فتخالُ ضوءَ الشمس من حُسَّادهِ

وأظنها كانت فدية لتحريره وأنه ردَّ إليه حريته. ويدل على ما نقول من أن الشعراء المسلمين كانوا يضطرون أحيانا إلى مديح روجار أن نجد شاعرا يسمى عبد الرحمن بن رمضان المالطى استنفد معظم شعره - كما يقول ابن بشرون - فى مدح روجار الإفرنجى المستولى على صقلية يسأله العودة إلى مدينة مالطة، ولا يحصل منه إلا على المغالطة(٢). غير أننا نجد ثلاثة شعراء يشيدون لروجار الثانى بقصوره - وفى قصريه: القبة والمنصورية يقول عبد الرحمن بن محمد البثيرى(٣):

وقصـورِ منـصوريَّـةٍ حطَّ السرورُ بها مَطِيَّه
أعجبْ بمنـزلها الـذى قـد أكمل الرحمنُ زِيَّهْ
وريـاضِـه الأُنُفِ التـى عادتْ بها الدنيا زَهِيَّهْ(٤)
وأسـودُ شـاذَرْوَانـهِ تَهْمِى مياها كوثريَّـهْ(٥)

وهو يقول إن السرور ألقى عصا تسياره بهذه القصور لجمالها وينوه بمكانها وما حولها من الرياض وأزهارها العطرة وحللها البهية، وما بها من الأسود التى تمج المياه من أفواهها فى شكل بديع وكنا نؤثر له أن لا يزجَّ باسم الرحمن ومياه الكوثر نهر الجنة فى قصيدة يقدمها لملك نصرانى. وحين قدَّم قصيدته إلى ابن بشرون ليسجلها فى كتابه: «المختار من النظم والنثر لأفاضل العصر» سأله أن يعارضه بقصيدة على وزنها ورويِّها فقال(٦):

(١) الخريدة ٤٥/١ وإنباه الرواة ٣٢٨/٤ والجدوى: العطية والمهند: السيف.
(٢) الخريدة ٢١٠/٢.
(٣) الخريدة ٢٣/١.
(٤) الأنف: الجديدة.
(٥) الشاذروان: مقدم البيت. تهمى: تصب. كوثرية: كأنها من مياه نهر الفردوس: الكوثر.
(٦) الخريدة ٢٤/١.

لِـلَّهِ مـنـصـوريَّـةٌ راقتْ ببهجتهـا البهيَّـه
ويقَصْـرِها الحسنِ البِنـا والشكل والغُرَفِ العَلِيَّـه
وبـوحشِيها ومِيـاهها الـ ـغُزْرِ العُيُونِ الكـوثريَّـه
وقـد اكتست جنَّـاتُهـا من نَبْتِهـا حُلَلًا بَهِيَّـهْ

ويقول العماد: اقتصرت من القصيدتين على ما أوردته، لأنهما فى مدح الكفار فما أثبتُّه، ونحن بدورنا إنما اقتطفنا بعضا مما أنشده من قصيدتى الشاعرين، وقصر ثالث هو قصر الفوّارة شرقى بلرم، وقد عنى روجار الثانى – فيما نظن – ببركة بجواره أمر أن يوضع فيها السمك من كل نوع وأن تحف بها الأشجار والأزهار بحيث تصبح متنزَّها بديعا وفى الفوارة ورياضها يقول عبد الرحمن بن أبى العباس الأطرابنشى[1]:

فَـوَّارةَ البَحْـرين جمَّعْتِ المُنَى عيشٌ يـطيبُ ومنـظرٌ يُسْتَعْـظَمُ
وكأنَّ أغصانَ الرياضِ تطاولتْ تَرْنُو إلى سمـك المياه وتَبْسِمُ
وكـأنَّ نازيـجَ الجزيـرةِ إذ زَهَـا نارٌ على قُضُبِ الزَّبَرْجَدِ تُضْرَمُ
وكـأنما اللَّيْمـونُ صفرةُ عـاشقٍ قد بات من ألمِ النَّوىَ يتألَّم
والنَّخْلتـان كعـاشقين استخلصـا حَـذَرَ العِدَا حِصْنًا مَنيعا مِنْهُمُ
يـا نَخْلَتىْ بَحْرَىْ بَلِرْمَ سُقِيتُمـا صَوْبَ الحَيَا بتواصلٍ لا يُصْرَمِ[2]
هنِّيتمـا مَـرَّ الـزمـانِ ونِلْتمـا كـلَّ الأمـانى والحـوادثُ نُـوَّمُ

والبحرين يريد بهما بحر البركة وبحر خليج بلرم، وهو يشيد بالبركة وما عليها من أشجار تطاولت أغصانها بأزهارها لترسل ببسماتها إلى سمك البركة، ويتخيل النارنج نارا مضرمة على قضب زبرجدية، والليمون يحيط بها وقد علا وجهه صفرة العشاق، وتسترعيه النخلتان المغروستان على حافة البركة وكأنما هما بقية للعرب وصحرائهم فى الجزيرة ويتخيلها كعاشقين، استخلصا لهما حصنا منيعا فى عنان السماء ولا يستطيع الأعداء الوصول إليه، ويستمر فى الدعاء لهما أن يرعاهما المطر بتواصل لا ينقطع أبدا، وأن تظللهما الهناءة على طول الزمان وكل ما تصبوان إليه، وتظل الحوادث نائمة عنهما لا تنالهما أى نيل. ويبدو أن الشاعر لم يتماد فى مديح روجار كما تمادى عبد الرحمن البثيرى وابن بشرون المهدوى، ولذلك لم يعلق عليه العماد بتعليق مماثل، ونعجب أن لا يستنكف هؤلاء الشعراء المسلمون من مديح ملوك النصارى الذين نهبوا منهم الأرض وأحالوها أنهارًا من دماء أهليهم، ولكن ربما ألجأتهم إلى ذلك ضرورة من أسر أو تعذيب أو معاملة سيئة، ولن نستطيع بحال الاعتذار عن الشريف الأدريسى وذهابه إلى

(١) الخريدة ١/٢٥.

(٢) الحيا: الغيث. يصرم: يقطع.

روجار الثانى حين استدعاه وتأليفه له – أو إهدائه إليه – كتابه المشهور فى الجغرافيا الذى مر حديثنا عنه ووضعه له خريطة العالم. ونتوقف قليلا للحديث عن ابن الخياط شاعر المديح فى زمن الكلبيين.

ابن[1] الخياط

شاعر من شعراء الكلبيين فى عهدهم الأخير، ولا نعرف شيئا عن نشأته كأكثر شعراء صقلية الإسلامية، ونراه يمدح من أمرائهم الأكحل الملقب بمؤيد الدولة (٤١٠ – ٤٢٧ هـ) كما يمدح أخاه صمصام الدولة (٤٢٧ – ٤٣١ هـ) وفى مدحهما معا يقول:

كـلاهــا زِيـن أخــوهُ بــهِ   كـما يَزين الفَـرْقَدَ الفَـرْقـدُ[2]
مَـنْ تــرَهُ مـنـفــردا مـنهــا   فى مجلسٍ قلتَ هــو السَّيِّدُ

فهما فرقدان أو كوكبان لا يتميز أحدهما عن صاحبه وكل منهما عليه سيماء السيادة والشرف، ونراه حين شغبت صقلية على الأكحل فى سنة ٤٢٧ يعزيه عن شغبهم بمثل قوله:

أرى كــلَّ شىءٍ لــه دولـةٌ   لحكم التعــاقبِ فيهـا عَمَـلْ
فــلا تــفــرحــنَّ ولا تحــزنــنَّ   لشىءٍ إذا مـا تناهى انتقــل

فالدول لا تظل لأحد، بل تتعاقب كما يتعاقب الليل والنهار والحاكم العاقل لا يحزن إن عبس له القدر، كما لا يفرح له حين يبتسم، إذ لا شىء من عبوسه ولا من ابتسامه باق، بل الكل إلى زوال. ونراه يتعلق بمديح قائد من قواد الدولة كانت لقبته بلقب انتصار الدولة، ويصور شجاعته وبأسه فى الحروب منشدا:

ويــارب يــومٍ لــه مِسْعَـرٌ   إذا خمــدتْ نــاره أوقــدا[3]
تخاف به الرِّجْلُ من أختهـا   ولا تـأمن اليَـدُ فيــه اليَـدَا
ترى السَّيْفَ عُرْيانَ من غِمْدِهِ   وتـحسبــهُ من دَمٍ مُغْمَــدَا

فهو مسعر حرب يوقدها كلما خمدت أو خبت، ويكاد الخوف والفزع يخنقان محاربيه حتى لتتخوف الرجل من أختها واليد من شقيقتها لما يأخذ الناس من الهول، وترى السيف فتخاله

---

(١) انظر فى أشعار ابن الخياط شرح صديقه التجيبى القيروانى للمختار من شعر بشار، وراجع ترجمة إحسان عباس له فى كتابه: العرب فى صقلية ص ٢٠٧.

(٢) الفرقد: نجم قريب من القطب الشمالى.

(٣) مسعر: موقد.

عريان من غمده بينما هو مغمد ومغمور من دم الأعداء. ويصور أحد أعدائه وقد أخذه الهلع من كل جانب:

ظنَّ الإمارةَ ظُلَّةً فإذا بها … حربٌ يكاد أُوَارُها يتأجَّجُ[١]
ومهنَّداتٍ كالعقائق ماؤها … مترقرقٌ ولهيبُها متأجِّج
لا تستقرُّ العينُ فوق مُتونها … فكأنما هى زئبقٌ مُتَرَجْرِجُ
فى موطنٍ سلب الحليمَ وقارَه … فكأنما هو مستطارٌ أَهْوَجُ

فهذا الخارج ظن الإمارة ظلة يستظل بها ويستريح عندها فإذا هى نار حرب متأججة. وإذا السيوف يلمع عليها ما يشبه الماء بل ما يشبه النار المضطرمة، والعين لا تستطيع استقرارًا فوق متونها لأنها زئبق مترجرج، فى ساحة حرب تسلب الحليم وقاره حتى ليغدو كأنه مستطارٌ أهوج من شدة الهول والفزع. وتولى الحكم بعد الأكحل صمصام الدولة لمدة أربع سنوات وضاعت الجزيرة من يده ودخلت فى عصر أمراء الطوائف وأخذ ابن الخياط يعزى أمراء بنى أبى الحسين الكلبيين بمثل قوله:

لِيُسْلِكُمُ أنَّ الجزيرةَ بعدكم … كما قيلَ فى الأمثال لحمٌ على وَضَمْ[٢]
تركتُمْ بقايا حسْنكم فى خَرَابها … كما ذَبَل النُّوَّارُ فى خَلل الحُمَمْ[٣]
وجوهٌ كأن اللّهَ قال لمائها … ترقرقْ حَيَاءً وامزج الحُسْنَ بالكرمْ
كأنهمُ فوقَ الأسِرَّة أنْجُمٌ … سعودٌ وفى الهيجا ضراغمةٌ بُهَمْ[٤]

فالجزيرة قد تعرَّت بعد الكلبيين من بهجتها وأصبحت عارية من حسنها لحما على وضم، وإن شعبها لا يزال يكنّ لكم حبا وكأنى به ذبل كما يذبل النوار فى أثناء الحمم الملتهبة، ويقول ما أروع وجوه الكلبيين، لقد كان الحياء يترقرق فيها، وكان الحسن يمتزج بالكرم، وكانوا فوق الأسرة والعروش وبأيديهم صولجان الحكم كأنهم نجوم ساطعة فى السلم، وفى الهيجاء أسود لا يماثلها أسود. ولا نعرف شيئا عن مولد ابن الخياط ولا عن وفاته، ويبدو أنه عاش فى عصر أمراء الطوائف حتى زمن محمد بن الثمنة حاكم بلرم، غير أنه لم يلحق عصر روجّار وأبنائه، وربما كان قد ترك صقلية إلى القيروان قبل هذا التاريخ.

---

(١) أوارها: نارها.

(٢) لحم على وضم: الوضم: ما يوضع عليه اللحم. مثل للدلالة على أنه لم يعد لها واق.

(٣) الحمم: الفحم والرماد.

(٤) بهم، جمع بهمة: الشجاع.

٣

شعراء الغزل

هذا هو الموضوع الأساسى لشعر صقلية الإسلامية سواء فيما اختاره لها ابن القطاع أو ابن بشرون المهدوى أو العماد الأصبهانى، وهو موضوع إنسانى نجده دائما فى جميع البيئات الإسلامية، إذ يتغنى الشعراء بحبهم للمرأة ويتفننون فى هذا التغنى بصور مختلفة، لعلها تُعيرهم التفاتة أوتذكر لهم عهدا أو تفى لهم بوصل أو بوعد. من ذلك قول أبى الحسن على بن الحسن بن الطوبى أحد شعراء ثقة الدولة[١]:

ما أحسبُ السحرَ غَيْرَ مَعْنَاها ... والعنبرَ الجَوْنَ غير ريَّاها[٢]
إنا جهلنا ديارها فَبَدَا ... من عَرْفها ما به عَرَفْناها[٣]
كأنما خلَّفتْ بساحتها ... منه دليلا لكل مَنْ تاها
وأغبط الماء حين تَرْشفه ... إذ كان دونى مقبِّلا فاها
وما ثنائى على قلائدها ... إلا بأن أشبهتْ ثناياها

وكان ابن الطوبى قد عبر البحر إلى القيروان فى أيام المعز بن باديس فاصطفاه لنفسه، ومرَّت بنا إحدى مدائحه له، وكان المعز كثيرًا ما ينشد البيت الرابع من هذه المقطوعة لرقته وعذوبته وهى جميعها فى غاية النعومة والسلاسة، حتى لتكاد ألفاظها تطير عن الفم طيرانا لما فلا الجن تنفعه ولا الإنس ويذرف الدموع مدرارًا، فذلك نصيبه وحظه فى دنياه.

وهذه الصورة الطبيعية من الغزل نصادفها عند غير شاعر صقلى، من ذلك قول مستخلص الدولة عبد الرحمن بن الحسن الكلبى ممدوح ابن الخياط[٤]:

قلتُ يومًا لها - وقد أحرجتْنى - ... قولةً ما قدرت أنفكُّ عنها
أشتهى لو ملكتُ أمركِ حتى ... آمر الآن فيكِ قَهْرًا وأنْهَى
فبكتْ - ثم أعرضتْ - ثم قالتْ ... خُنْتَنى فى محبَّةٍ لم أخُنْها

وهى رقة شعور واضحة، فإنها لم ترتض منه أن يملك أمرها ويأمر فيها قهرًا وينهى، وأين الحب؟ لقد خانه، ولذلك بكت بكاء مرا، إنه لم يعد عاشقًا بل أصبح سيدًا يريد أن يسترقها ويستذلها. ويقول أبو محمد جعفر بن الطيب الكلبى[٥]:

---

(١) الخريدة ٧٤/١.
(٢) رياها: شذاها العطر.
(٣) عرفها: شذاها وعطرها.
(٤) الخريدة ٨٥/١.
(٥) الخريدة ١١٤/١.

فــارقتكم لا عن قِـلىً وتــركتكم ... رَغْـمًا عـلى حكم الـزمـان الجـائـرِ
وفقـدتكم من ناظـرى فـوجـدتُكم ... - لما أردت لقاءكم - فى خـاطرى

فقد فارق صاحبته لا عن بغض ولكن نزولا على حكم الزمان الظالم، وفقدها من ناظره وأمام عينيه ووجدها بطلعتها السنيـة فى خاطـره، وهى فكرة رقيقـة ودقيقة. ويقـول الفقيه عبد الرحمن بن أبى بكر السرقوسى(١):

أســارقــه اللحظ الخفىَّ مخــافــةً ... عليــه من الـواشـين والـرقبــاءِ
وأجهــد أن أشكـو إليــه صبـابتى ... فيمنعـنى من ذاك فَــرْطُ حيــائى
سـأكتم ما ألقـاه من حُرَق الأسَى ... عليــه ولــو أنى أمــوت بــدائى

فهو يسارق صاحبته اللحظ خشية أن يتنبَّه بعض الواشين والرقباء، ويجهد فى أن يشكو إليها صبابته فيمنعه فرط حيائه، وسيظل يكتم ما ينطوى عليه قلبه من حرق الأسى ولوعاته مؤثرًا أن يموت بدائه. ومثل هذه القطعة اليائسة قطعة لابن الخياط يقول فيها.

لـيس إلا تـنـفسُ الـصــعــداءِ ... وبكــائى ومــا غَنــاءُ بكــائـى
مَنْ رســولى إلى الســاء يـؤدى ... لى كتــابــا إلى هــلال الســاء
كيف يَــرْقَى إلى الســاءِ كثيفٌ ... يـسلك الجـسمَ فى رقـيق الهــواءِ
عجـز الإنس أن شـوقى إليهــا ... فعسى الجن أن تكــون شفــائى
أم تــرى الجن تتَّقى شُهُبَ الـرَّجْـمِ ... فـدعـنى كـذا أمــوت بــدائى

وصاحبته فى السماء فكيف يرقى إليها فى الهواء جسم كثيف لإنسان فيفكر فى الجن، غير أن الجن حرِّم عليها الصعود فى السماء، وشهب الرجم لها بالمرصاد وستتلقاها بالموت الزؤام، وييأس فلا الجن تنفعه ولا الإنس ويذرف الدموع مدرارًا، فذلك نصيبه وحظه فى دنياه.

وإذا تحولنا إلى العهـد النورمـانى لقينا عبـد الحليم بن عبد الـواحد الـسوسى الأصل الإفريقى المنشأ الصقلى الدار، وهو من سكان مدينة بَلِرْم، وله مقطوعتان غزليتان طريفتان، يقول فى أولاهما(٢):

قــالتْ لأتـرابٍ لهــا يشفَعْنَ لى ... قـولَ امرىءٍ يُـزْهَى على أتـرابـهِ
وحـيــاةِ حــاجتــه إلـىَّ وفَقْــرهِ ... لأواصــلنَّ عَــذابــه بــعــذابــهِ

---

(١) الخريدة ١١٦/١.
(٢) الخريدة ٢٢/١.

ولأمنعنَّ جُفونَهُ طَعْمَ الكَرَى ولأمزجنَّ دموعَه بشرابِهِ[١]
لِمَ باح باسمي بعد ما كتم الهَوَى دَهْرًا، وكان صِيانتى أولى به

وهى تعلم مدى حبه لها وشغفه بها، وكان يكتم حبه ولا يصرِّح باسمها، فلما صرَّح به وأعلن حبه لها غضبت غضبا شديدا وصممت على الانتقام منه أشد الانتقام، إذ ستواصل عذابه بعذابه وستمنعه النوم وتمزج دموعه بأى شراب يشربه، حتى تأخذ بثأرها من بَوْحه باسمها بعد كتمانه دهرا، وكان أولى أن لا يصرح به أبدا. ويقول فى الأخرى[٢]:

شكوتُ فقالت كل هذا تبرُّمًا بحبِّى أراح اللّهُ قلبَك من حُبِّى
فلما كتمتُ الحبَّ قالتْ: لشَدَّ ما صبرتَ وما هذا بفعلِ شَجِى القَلْبِ
فأدنو فتُقْصينى فأبعدُ طالبًا رِضاها فتعتدُّ التباعد من ذنبى
فشكوايَ تُؤْذيها وصبرى يسوءُها وتَحْرَجُ من بُعْدِى وتنفر من قربى[٣]
فيا قوم هل من حيلةٍ تعلمونها أشيروا بها واستوجبوا الأجر من رَبِّى

وهو لا يعرف كيف يرضى صاحبته، فإنه إذا شكا من حبها عدَّت ذلك تبرما ودعت له أن يريحه الله من حبه، وإذا كتم شكواه وحبه قالت له: ما أشد صبرك وليس هذا من ديدن المحب العاشق. ويقول إنه يدنو فتقصيه، فيبعد آملا فى رضاها، فتعد بعده أو تباعده من ذنوبه عندها، وهو حائر فشكواه تؤذيها وصبره يسوؤها، ويؤلمها بعده وتنفر من قربه، ويسأل من حوله هل من حيلة له فى إرضائها ويدعو لمن دلَّه على حيلة أن ينال جزاءه من ربه. وله بيتان بديعان يصور فيهما حال صقلية وقد نهكتها حروب النورمان[٤]:

عشقتُ صِقِلِّيَّةً يافِعًا وكانتْ كبعض جنان الخلودِ
فما قُدِّر الوَصْلُ حتى اكتهلتُ وصارت جهنَّمَ ذاتَ الوقودِ

فصقلية الجنة البديعة بقصورها وحقولها وزروعها وثمارها وأزهارها الزاهية أصبحت فى عهد النورمان بحروبهم وفتكهم برجالها وشبابها جهنَّم المتقدة المشتعلة التى تلتهم كل سكانها، ولمحمد بن عيسى بن عبد المنعم من غزلية رائعة كان يغنًّى بها هناك[٥]:

مولايَ يا نورَ قلبى ونورَ كلِّ القلوبِ
أما تَرَى ما بجسمى من رِقَّةٍ وشُحوبِ

(١) الكرى: النوم.
(٢) الخريدة ١/٢٢.
(٣) تحرج: تضيق.
(٤) الخريدة ١/٢٢.
(٥) الخريدة ١/٣٦.

فِلمْ بخلت بوصلى ... وليس لى من ذنوبِ
ومَا لِسُقْمى شفاءٌ ... ولاَ لَه من طبيبِ
ولاَ لدائى دواءٌ ... إلا وصالُ الحبيبِ

والقطعة جديرة بأن يغنَّى بها، لخفتها فى السمع وعذوبتها وتعبيرها عن الحب الذى أضناه ببساطة، وفيم هذا البخل بالوصل، وليس له من ذنوب، والبيتان الأخيران فى غاية الرشاقة مع النعومة ومع الحلاوة فى السمع التى تشيع فى كل الأبيات. ونتوقف قليلا للحديث عن الشاعر البلَّنوبى وغزلياته.

البلَّنُّوبى[1]

هو أبو الحسن على بن عبد الرحمن بن أبى البشر الأنصارى، ولد بمدينة بَلَّنوبة Villanova فى صقلية، فنسب إليها، وعلى شاكلة لداته اختلف إلى الكتاب لحفظ القرآن الكريم، ولزم الشيوخ حتى ثقف ما عندهم فى اللغة والنحو، وهاجر إلى مصر وعنى فيها بتدريس العروض والنحو فى كتبها المشهورة حتى توفى سنة ٤٤٢ للهجرة ويبدو أن ملكته الشعرية تفتحت بصقلية مبكرة ونشر رزِّيتانو قطعة من شعره باسم ديوان البلَّنوبى، وافتتح العماد تراجم الشعراء فى صقلية بترجمته، وبها مختارات كثيرة من غزلياته، وهو فى غزله يصور ما يتسم به الغزل عند شعراء صقلية من التجافى عن الغزل المادى الحسى وما يتصل به من وصف الجسم إلى الغزل المعنوى وما يتصل به من رقة الحس والشكوى من عذاب الحب والسهر وبعد الحبيب وهجره وما يجره ذلك على المحب من الضنا والنحول والسقم الذى لا شفاء منه، ومن طريف غزله:

إليكِ أشكو عيونا أنتِ قلتِ لها ... فِيضِى فقد فضحتْنى بين جُلَّاسى
وما تركتِ عَدُوًّا لى علمتِ به ... إلا وقد رقَّ لى من قَلْبك القاسى
فإن رضيتِ بأن ألقى الحِمام فيا ... أهْلًا بذاك على العينين والراسِ

فهى التى أمرت عيونه أن تظل تذرف الدمع شوقا إلى لقائها، حتى فضحته بين جلاسه من صديق وعدو فالكل يرقّ له من قلبها المتناهى فى القسوة، وهو بذلك راض أن يظل مستجيبا لها ويظل الدمع يترقرق فى عيونه، حتى لو رضيت بأن يموت فى سبيلها، فسيتقبل الموت بمنتهى

---

(١) انظر فى البلنوبى إنباه الرواة ٢/٢٩٠ والخريدة للعماد الأصبهانى ١/٥ والعرب فى صقلية ونشر رزيتانو ديوانه بالقاهرة سنة ١٩٦٨.

الرضا. ويقول :

أتـرانـى أحيـا إلـى أن يعـودا ... نـازحٌ لـم يَـدَعْ لعينـى هُجـودا
كيف أرجـو الحيـاة بعـد حبيبٍ ... كـان يـومى بـه من الـدهـر عِيدا
أشتهى أن أبـوحَ بـاسمـك لـكن ... لقَّنَتْنى الـوشـاةُ فيـك الجُحـودا

وهو يظن أنه لن يحيا حتى يعود حبيبه لطول سهاده وما يعانى منه، حتى ليتصور أنه ميت لا محالة، فقد ذهبت أيام لقائه به التي كان يعدها أعيادًا. وإنه ليشتهى أن يبوح باسمه أو اسمها ولكنه يخاف الوشاة، وكأنما علَّموه الجحود ونكران الحب. ويقول:

أمـا تـعـطِفِـنَّ عـلـى خـاضـعٍ ... لـديـكِ يُنـاجيـك مُسْتعـطفـا
إذا كـتـبـتْ يَـدُهُ أَحْـرُفًـا ... إلـيـكِ مَحَـا دَمْـعُـهُ أَحْـرُفـا
ولـو كنت أملك غَـرْبَ الـدموعِ ... مـنعـتُ جُـفـونـىَ أن تَـذْرِفـا[1]

وهو يشكو لصاحبته حبَّه متذللا مستعطفا، ويقول إنه كلما كتب لها سطرًا فى رسالة محت الدموع سطرًا سابقا له، ولو كان يملك مصدر دموعه لمنع جفونه أن تذرف الدمع مدرارًا، وصورة السطر الذى يكتب والسطر الذى تمحوه دموعه فى الرسالة بديعة. ويقول:

هجـرتـكِ يـا سُـؤْلَ نفسى ولى ... فـؤادٌ متـى تُـذْكَـرِى يَخْـفُـقِ
ومـا ذاك منى اطِّـراحُ الملولِ ... ولـكـنـه نـظرُ الـمشـفـقِ
كمـا تتـركين بَـرُودَ الشـرا ... بِ ظمـأى مخـافَـة أنْ تَشْرَقى

وهو يقول إنه هجر سُؤْل نفسه حُبَّ قلبه لا مللا ولكن إشفاقا عليها أشد الإشفاق، كما تترك وهى شاعرة بحرقة العطش كوبا من الماء البارد الذى يطفىء غلة ظمئها خوفا من أن تشرق بها وتغص غصة مؤذية شديدة. وكان يدرس العروض لطلابه، فرأى أن ينظم لهم مقطوعة غزلية ثلاثية الشطور، والشطر الأول فيها من مجزوء الخفيف والثانى من مجزوء الرمل والثالث من مجزوء المجتث بحيث إذا ضُمَّ شطر إلى أخويه أو إلى أخيه نتج وزن جديد، وهى تجرى على هذه الشاكلة[4]:

وغـزالٍ مـشـنَّـفٍ[2] ... قـد رَثَى لى بعـد بُعْـدى
لمـا رأى مـا لقيـتُ

---

(١) تذرف: تسيل.

(٢) مشنف: متخذ قرطا.

مــثــل روض مـفــوَّفٍ[١] لا أبــالى وهــو عــنْــدى
فى حبِّـــه إذْ ضنيـــتُ

وهى غزلية للتدريس، وإن شكا فيها بعد المحبوبة وجفائها وامتناعها، ومن هذا الباب عنده مقطوعات يجمع فيها حروف المعجم أويلغز فيها. وفى الحق أنه يصور الغزل الصقلى المعنوى تصويرًا بديعًا بما نجد عنده من الصبابة واللهفة على لقاء المحبوبة وكثـرة الشجى لهجرهـا والحزن حتى ليكاد يموت المحب فى إثر محبوبته ضنا وسقما وبكاء متصلا.

٤

شعراء الفخر

من موضوعات الشعر العربى القديمة الفخر، وكان كثيرًا جدًا فى الجاهلية، لأن القوم كانوا يقتتلون، وكان الشعراء من ورائهم يحمِّسونهم فى القتال، وكـان من المقتتلين أنفسهم شجعان يذودون عن القبيلة ويفتخرون بشجاعتهم ومآثر قبائلهم، فكثر شعر الفخر والحماسة حينئذ، وكان المظنون، والسيوف فى صقلية دائمًا مشرعة وقلما توضع فى أغمادها أن يكون شعر الفخر والحماسة فيها كثيرًا، غير أن ماروى منه قليل، وقد يرجع ذلك إلى ابن القطاع الصقلى وابن بشرون المهدوى، فإنهما لم يرويا منه إلا القليل وخاصة ابن بشرون فإنه كاد أن لا يروى منه شيئا فى العهد النورمانى، وقد يكون ذلك راجعًا إلى أن العرب كانوا مهزومين، ففيم الفخر وفيم الحماسة، أما فى العهد السابق لذلك فإن نفسيتهم كانت قوية، ونجد ابن القطاع يسوق لهم فخرًا وحماسة من حين إلى آخـر، من ذلك قـول أبى عبد الله محمـد بن على بن الصبـاغ الكاتب[٢]:

قَوْمِى الذين إذا السنـابكُ أنشـأتْ دون السحاب سحائبـا من عِثْيَرِ[٣]
بـرقتْ صوارمهم وأمـطرت الـطُّلَى علقًـا كثـرثـار الحَيَـا المتفجِّـرِ[٤]
الـــواتـرين فــلا يُقَــاد وتيـــرُهُمْ والفــاتكين بِحِمْيَــرٍ وبقَـيْصَــرِ[٥]
والمــانعين حِمَــاهمُ أن يُــرْتَـعى والحـــاسمين لكــلِّ داءٍ يَعْتَــرِى

فقـومه حـين يشتد وطيس الحـرب وتنشىء سنابك الخيل سحـابا من غبـارهـا تبـرق

(١) مفوَّف هنا: جميل.

(٢) الخريدة ٨٤/١.

(٣) السنابك جمع سنبك: طـرف الحافـر. عثير: غبار.

(٤) علقا: دما غليظا. ثرثار الحيا غـزير الغيث. الطلى: الأعناق.

(٥) الواترين: القاتلين. لا يقاد وتيرهم: لا تؤدى دية قتيلهم.

سيوفهم وتمطر أعناق الأعداء سيولا من دم متفجر أنهارا، وإنهم ليَترون أعداءهم ويفتكون بهم دون أن يُطْلَب منهم - لبأسهم - وتر أوثأر، وطالما فتكوا بأقيال حمير وفرسان قيصر، وقد اشتهروا بأنهم المانعون حِماهم فلا تستطيع قبيلة أن تقترب منه وترعاه، وإنهم ليحسمون كل شر ويقضون عليه قضاء مبرما. وسنخص معاصره أبا الحسن على بن الحسن بن الطوبى بكلمة. ويقول أبو على أحمد بن محمد بن القاف الكاتب[١]:

سـأكـرم نفسى جـاهـدا وأصـونُها   وإن قَـرَّحَتْ من نـاظَـرىَّ جفـونَها
ولـسـت بـزوَّارٍ لمـن لا يـزورنى   ولا طـارحًـا نفسى عـلى من يُهِينُها

فهو سيكرم نفسه إلى أقصى حد ويصونها عن أن تتعرض لإهانة مهما كلفه ذلك من السهاد، ولن يزور من لا يزوره إكراما لنفسه أن تمسها إهانة بأى صورة من الصور. ويقول الفقيه المحدث أبو محمد عمار بن المنصور الكلبى وكان من أفاضل العلماء وسادات الأمراء[٢]:

تقـول: لقـد رأيتُ رجـال نَجْـدٍ   ومـا أبـصـرتُ مثـلك مـن يَمـانِ
ألـفتَ وقـائـعَ الغَمـرات حـتى   كـأنـك مـن رَدَاهـا فى أمـانِ[٣]
إلى كم ذا الهجـومُ عـلى المنـايـا   وكـم هـذا الـتعـرُّض للطِّعـانِ
فقلت لهـا: سـمعتُ بكـل شىءٍ   ولم أسـمـع بكـلبـىٍّ جَـبَـانِ

وهى ترفعه فوق رجال نجد واليمن جميعا، فليس مثله بينهم شجاع، وتقول إنه ألف وقائع الحرب حتى كأنه من موتها فى أمان، بل إنه ليهجم على الموت هجوما ضاريا متعرضا للطعان غير جزع ولا وجل، وردَّ عليها قائلا إنه سمع بكل شىء إلا أنه لم يسمع بكلبى يمانى جبان. ونقف عند ابن الطوبى قليلا.

أبو الحسن[٤] الطوبى

هو أبو الحسن على بن الحسن بن الطوبى الذى تقدم ذكره فى المديح والغزل، وفيه يقول العماد الأصبهانى نقلا عن ابن القطاع: «إمام البلغاء وزمام الشعراء مؤلف دفاتر، ومصنف جواهر، ومقلد دواوين، ومعتمد سلاطين» يقول فى قصيدته التى مدح بها المعز بن باديس ومرَّ ذكرها:

---

(١) الخريدة ٨٧/١.

(٢) الخريدة ١٠١/١.

(٣) الغمرات: الشدائد ويريد شدائد الحروب. الردى: الهلاك.

(٤) انظر فى أبى الحسن الطوبى الخريدة ٧٢/١.

وإمــا المــنى أو فــالمــنــيَّــةُ إنها حيــاةُ لبيب لم ينــل من لُبــابهــا
وهــل نـعمــةٌ إلا بـبؤسـى وإنمــا عـذوبـةُ دنيـا المـرء عنـد عَـذابهـا

فإما تحقيق المنى والحصول عليها وإما الموت الزؤام، وهل نعمة إلا مصحوبة ببؤس وشقاء، وإنما عذوبة دنيا الإنسان فى عذابها، وهو بذلك صاحب نفس كبيرة، ويصورها فى الأبيات التالية:

أعـددتُ للدهـر إن أرْدَتْ حـوادثـه عـزمـا يَحُـلُّ عليـه كـلَّ مـاعَقَـدا
وصـارمًـا تتخـطَّى العينَ هِـزَّتُـهَ كـأنما ارتـاعَ من حَـدَّيْـهِ فـارتعـدا
وذابـلًا تـوضـح العليـا ذُبـالتــه كــأنهـا نَجْمُ سعـدٍ لاح منفـردا[١]
ونَثْـرةً ليس للريـح المضىُّ بـهـا إلا كمـا عرضتْ للنِّهْىِ فـاطَّـرَدا[٢]

وهو يقول إنه أعدَّ للدهر حين تنزل به حوادثه عزما يحل كل شدائده، وسيفا قاطعا تتخطى هزته العيون، وكأنما أخذه وجلٌ من حَدَّيْه القاطعين فارتعد، ورمحا يوضح العلياءَ حده القاطع وكأنه نجم سعد يكتب له دائما النصر والظفر، ودرعا تشبه طيَّاتها موجات مياه الغدير حين تحركها الرياح ويقول.

سَل الليل عَنى هل أنامُ إذا سَجَى وهـل ملَّ جَنْبى مضجعى ومكـانى
على أننى جَلْدٌ إذا الضـرُّ مَسَّـنى صبـورٌ على مـانـابنى وعَـرانى

وهو يقول لصاحبه: سل الليل عنى فإنى دائما يقظ، ودائما يجفو جنبى المضجع والمكان، وإننى لجلد أحتمل كل ضر يمسنى، صبور على كل ماينوبنى، أحتمل من ذلك ما يطاق وما لا يطاق، حتى يأتى الله بالفرج.

٥

شعراء الوصف

الشاعر العربى - من قديم - يصف كل ما حوله من الإنسان وغير الإنسان من الحيوانات والنباتات والأزهار، وقد مر بنا فى المديح وصف قصور روجار: القبة والمنصورية والفوارة عند البثيرى والطرابنشى وما حف بالأولين من بركة وبها جميعا من رياض، ولأبى الحسن بن الطوبى فى وصف الثريا[٣]:

---

(١) ذابلا: رمحا. ذبالته: حده القاطع.
(٢) نثرة هنا: درعا. النهى: الغدير.
(٣) الخريدة ١/٨٠.

انـظرْ إلى الأفْق كيف بَهْجَتُـه ولـلثـريَّـا عليـه تـنـكـتُـه
كـأنهـا وهْيَ فيـه طـالعـةٌ قميصُ وَشْيٍ وتلك عُـرْوتُـهُ

فالسماء بنجومها كأنها قميص وشيٍ بديع والثريا عروته المضيئة الجميلة، وسنخص أخاه أبا عبد الله بن الطوبى بكلمة لإكثاره من الأوصاف والتشبيهات فى الطبيعة وغير الطبيعة. ويقول مشرف بن راشد[١]:

وروضـةٍ بـالحَـزْنِ ممـطورةٍ لم تنتهبهـا أعْـيُنُ النـاسِ
بكى عليها الغيث فاسْتَضْحَكتْ عن نَـرجْسٍ غضٍّ وعن آسِ

وكان يكثر من استخدام الطباق كما فى البيت الثانى، وجعل الروضة تضحك أو تبتسم عن نرجس غضٍّ وعن آسٍ، ويقول ابن متكود صاحب مازر فى عهد أمراء الطوائف واصفا النيلوفر[٢]:

كئـوسٌ من يـواقيـتٍ تـفتَّـح عـن دنـانـيرِ
وفى جـنَبـاتهـا زَهْـرٌ كـألسنـة العصـافـيرِ

والنيلوفر هو اللوتس عند المصريين القدماء والبشنين عند أهل الريف المصرى، وحين تتفتح تتدلى من جنباتها أزهار - كما يقول ابن متكود - مثل ألسنة العصافير. ويقول ابن القطاع فى وصف رُمانةٍ[٣]:

كـأنها حُقَّـةٌ من عَـسْجَـدٍ مـلئتْ من اليـواقيت نَثْرًا غـير منـظومِ

وهى صورة بديعة، ويفتح ابن القطاع صحفا غير قليلة لمديح المغنين والمغنيات والراقصين والراقصات وذمهم، من ذلك ذم البلّنوبى لمغن فى قوله[٤]:

ولـنـا مغـنٍّ لايـزا ل يَغيـظنا مـا يفعَـل
غَـنَّى ثـقـيـلًا أوَّلًا وهــوَ الثقيـلُ الأوَّلُ

والثقيل الأول نغمة موسيقية معروفة عند العرب، وهى مكررة مئات المرات فى كتاب الأغانى واستغلها البلنوبى فى هجاء هذا المغنى، والتورية واضحة ونراه يمدح راقصة من راقصات صقلية قائلا[٥]:

---

(١) الخريدة ٩٣/١
(٢) الخريدة ١٠٣/١.
(٣) الخريدة ٥٣/١.
(٤) الخريدة ١٣/١.
(٥) الخريدة ٦/١.

هَيفَــاءُ إنْ رقــصتْ فى مجـلسٍ رقـصـتْ قلوبُ مَنْ حـولها مِنْ حِــذقها طَـرَبَا
خفيفــةُ الـوَطْء لــو جـالتْ بِخَــطوتها فى جَفْن ذى رَمَــدٍ لم يَشْتَــكِ الــوَصَبَــا

فالقلوب ترقص مع رقصها، وهى خفيفة الوطء للأرض فى رقصاتها حتى لو جالتْ بخطوتها الخفيفة فى جفن أرمد لم يحس بها فحسب، بل أيضا أزالتْ عنه مايشكو من وصب الرمد - ويقول أبو بكر محمد بن على الكمونى فى وصف راقص[1]:

مــا إن رأيــت كــراقصٍ مُــسْتَـظْرفٍ فى كـل فَـنِّ
يحـكى الـغـنــاءَ بــرقـصــهِ كـمــراقصٍ يحكى المغـنى
رجــلاه مــزمــارٌ وعــو دٌ فى نهايــة كـلِّ حُــسْـنِ
فهــو الســرور لـكــل عَيـ نٍ والــنـعــيـمُ لــكــل أُذْنِ

وتدل المقطوعة دلالة قاطعة على أن الغناء كان قد ارتقى فى مصاحبة الرقص فنونا من الرقى، حتى ليقول ابن الكمونى عن هذاالراقص أن رجليه كانتا مزمارا له وعودا فهو يوقع على ضرباتها غناءه ويلحنه تلحينا دقيقا، فهو سرور برقصه لكل عين، وهو نعيم بغنائه لكل أذن. ونتوقف لنتحدث عن أبى عبد الله بن الطوبى وبراعته فى الوصف.

أبو عبد الله[2] بن الطوبى

هو أبو عبد الله محمد بن الحسن بن الطوبى، كان صاحب ديوان الإنشاء فى عهد ثقة الدولة وأبنائه - كما يقول العماد - ومن ذوى الفضائل البلغاء، طبيبــا، مترســلا، شاعــرا. ويقول القفطى: «مقيم بصقلية يتولى الإنشاء نحوى أَرْبَى فى النحو على نفطويه وفى الطب على ابن ما سويه، وكلامه فى نهاية الفصاحة وشعره فى غاية الملاحة وله مقامات تزرى بمقامات البديع وإخوانيات كأنها زهر الربيع. كان بصقلية سنة خمسين وأربعمائة وأظنه عاش بعد ذلك مدة، وأورد ابن القطاع من نظمه كل مليح الحوك، صحيح السبك، فمن ذلك قوله فى نرجس:

أريـد لَأَشْفِى سُقْم قلبى بنـرجسٍ فيــذبــل إن صــافحتــه بتنفُّسى
لــه مقلةٌ كـالتِّــبْرِ، والجَفْنُ فضّــةٌ وقَدٌّ كغُصْنِ البانِ فى ثوب سُنْدُسِ

ويدل العماد على براعته فى هذا الوصف للنرجس بأنه أتى فيه بأربع تشبيهات، كما يتضح فى

---

(١) الخريدة ١/١٠٤.
(٢) انظر فى ترجمة أبى عبدالله بن الطوبى الخريدة ١/٥٥ وإنباه الرواه للقفطى ٣/١٠٧ والمكتبة الصقلية ٥٨٩.

البيت الثانى، وهى تشبيهات دقيقة. ويقول فى نار فحم والشرار يتطاير من حولها:

وَنارِ فحمٍ ذى منظرٍ عجبٍ ... يطرد عنه الشَّرارَ باللهب
كأنما النارُ مبردٌ جعلَتْ ... تبْرِدُ منه بُرَادةَ الذهبِ

فلهب النار يطرد الشرار من حولها، كأنما النار مبرد يبرد من الفحم برادة ذهبية، وقد راعى النظير فى البيت الثانى، فالنار مبرد وهى تبرد من الفحم برادة الذهب، ويقول فى مديح مغنٍّ:

إذا غنَّى يُزيل الهمَّ عنَّا ... ويأتينا بما نَهواه منهُ
له وَتَرٌ يطالب كلَّ هَمٍّ ... بوِتْرٍ فالهموم تَفِرُّ عنه

فهو مغن حاذق يعرف ما تهواه النفوس ويعرضه على سامعيه، وكأنما لعوده وتر يطالب كل هم فى نفوس الناس بوتره أو ثأره، فالهموم تفر عنه منطلقة إلى غير مآب. ويذم فى مقابل هذا المغنى مغنين آخرين من بَرْد غنائهم يجعلون الصيف شتاء ويحولون الأعراس مآتم، وفى أحدهم يقول، وهو أخف ما قال:

لنا مغنٍّ غِناهُ ... يعود شَرًّا عليه
لم يأت منزلَ قومٍ ... فعاد قطُّ إليه

فبمجرد أن يسمعه أهل منزل يزورّون عنه ولا يعودون إلى طلبه مرة أخرى. وكان يُغرب أحيانا فى أوصافه مدحا وذما، وقد وجد الناس يمدحون البياض فى المرأة ويذمون السواد، فرأى أن يعكس عليهم القضية قائلا:

شبيهاتِ المشيب تعافُ نفسى ... وأشباهُ الشبيبة هنَّ حورُ
سواد العين نورُ العين فيهِ ... وما لبياضها فى العين نورُ

فهو يرى بسواد عينيه لابياضهما، ولذلك يعاف البياض رمز المشيب والشيخوخة، كما يعاف معه المرأة البيضاء، بينما يحب السواد رمز الشبيبة ونضرة الحياة ويحب المرأة السوداء. وكانت لديه قدرة فى حسن التعليل كقوله فى فص أحمر:

حمْرتى من دم قلبى ... أين مَنْ يَنْدُبُ أينا
أنا مِنْ أحجار أرضٍ ... قتلوا فيها الحُسَيْنَا

وربما كان فى ذلك مايدل على أنه كان متشيعا يعتنق المذهب الإسماعيلى الفاطمى. ومن حسن تأتيه فى التصوير قوله فى لحية كبيرة غطت وجه صاحبها:

مــا إن رأيتُ ولا سمعتُ بلحيــةٍ ... عَــرُضَتْ كلحيـة جعفــر بن محمَّدِ
ســدَّتْ عليــه وَجْهَــهُ فكــأنما ... عَيْنــاه فى ثُقْبَىْ كِســاءٍ أســود

فهى قد سترت وجه صاحبها حتى لم يعد يبدو منها إلا العينان، وكأنهما ثقبان فى كساء أسود. وكما كانت لحية جعفر بن محمد تؤذيه كذلك كانت لحية حمدون، وفيها يقول:

لِــحْيــةُ حــمــدون دِثــارٌ لــه ... تُــكِـنُّــه مــن شَــدَّة الــبَــرْدِ
كـأنها - إذ غـاب فى وَسْطها - ... قــطيــفــةُ لُـفَّــتَ عــلى قِــرْدِ

فلحية حمدون كأنها دثار أو ثوب تكنّه من قسوة البرد، وكأنها إذ غاب فى وسطها ولم يعد أحد يرى له أثرا قطيفة لفت لا على إنسان بل على قرد. ونختم تصاويره بتصويره لراقصة صقلية:

راقصــةُ كــالغصْنِ من فــوقــه ... بــدرٌ مـنـيــرٌ تـحت ظَـلْمــاءِ
تُلْهِبُ مثــل النــار فى رقصهــا ... وهْـىَ من الـنِّعْـمــة كــالـمــاء
كــأنمـا فى رجلهــا عــودُهــا ... وزامــرٌ يَــتْــبَـعُ بــالــنَّــاءِ
ســاحــرةُ الــرَّقص غُــلاميَّــةٌ ... منـهــا دوائــى وبـهــا دائــى
إذا بــدت تــرقص مــابَيْنـنــا ... يــرقص قـلبى بـين أحـشــائى

وهى راقصة قوامها كغصن البان ووجهها كالبدر المنير، وكأنما تجمع النار والماء فى رقصها،تجمعهما بحركاتها وتثنياتها وكأنما توقع حركات أرجلها على عودها وزامر يتبعها بالناى وإنها لساحرة فى رقصها، وبإحدى يديها داؤه، وبالثانية دواؤه. وإن القلوب لترقص مع رقصها وإيقاعاتها المبدعة فيه.

الفصل الرابع
طوائف من الشعراء
١

شعراء الرثاء

من موضوعات الشعر القديمة الرثاء، وهو يتخذ ثلاثة اتجاهات: اتجاه الندب والتوجع لفقد المصاب، وعادة يكون من الأهل وخاصة الأخ والولد، واتجاه التأبين وهو ذكر فضائل الموت وبيان خسارة القبيلة أو الأمة فيه، والعزاء وهو التعزى عن المصاب فى الميت بأن الموت كأس دائر على الجميع لا يفلت منه أحد. ويقول الحسن بن إبراهيم الشامى الكتانى[١]:

فلا البؤسُ مدفوعٌ بما أنت جازِعٌ ... ولا الخيرُ مجلوبٌ بعلمٍ ولا فَهْمِ
وإن الحريصَ العمرَ يُلقيه حِرْصُهُ ... إلى حُفْرةٍ جَوْفاء واهية الرَّضْمِ[٢]
تعلَّمْ بأن الموت أَزْيَنُ للفتى ... وأهونُ من عيشٍ يَشينُ ومن وَصْمِ

وهو يقول إن الحزن لا يدفعه الجزع والمرء لا يعرف ماكتبه القدر ولا أحد يستطيع أن يحمى نفسه من الموت، فالحريص كغير الحريص لابد أن يُلْقَى يوما فى حفرة واهية الرضم أو واهية الصخور والحجارة، وإن الموت لأزين للفتى من عيش نكد يعيشه ووصم يشينه - ويقول عمر بن الحسن بن الفونى الكاتب فى مطلع مرثية[٣] له:

للموتِ ما يولدُ لا للحياةْ ... وإنما المرءُ رهينُ الوفاه
كأنما يَنْشره عمره ... حتى إذا الموت أتاه طَواه
من تَرْمِ أيدِى الدَّهْر لاتُخْطِه ... والدَّهْرُ لا يخطىءُ من قد رماه
نَفْسُ الفتى عاريةٌ عنده ... ما بُخْلُهُ بالردِّ إلا سَفَاه[٤]

وهو يستهل مرثيته بالعزاء وأن الموت مكتوب على الإنسان منذ مولده، وكأنه يولد للموت

---

(١) الخريدة ٩٩/١.
(٢) الرضم: انضمام الحجارة بعضها إلى بعض.
(٣) الخريدة ١٠٣/١.
(٤) سفاه: سفاهة.

لا للحياة، ويظل منذ خطواته الأولى فى دنياه رهين الوفاة، وما أشبهه بثوب ينشره عمره حتى إذا الموت أتاه طواه إلى الأبد، ومَنْ ترمه أيدى الدهر تصبه ولا تخطئه أبدا، فإن الدهر لايخطئ البتة فيمن قد رماه، وكأنما نفس الفتى عارية عنده ولا بد أن تسترد وما بخله بردها إلا حمق، لأنها لابد أن تعود إلى بارئها. ويظل الرثاء فى عهد النورمان. وسنخص محمد بن عيسى بكلمة فيه، ويلقانا به عثمان بن عبد الرحمن المعروف بابن السوسى، ومالطة مسقط رأسه وبها تهذب وقرأ على أبيه الأدب، ثم سكن بلرم واتخذها دارا، ووجد بها قرارا، وله مرثية فى بعض رؤساء المسلمين بصقلية تدل على ماحواه من فضائل، وهى مرثية طويلة، استهلها[١] بقوله:

ركـابُ المعـالى بـالأسَى رحلَه حـطَّا ... وطَـوْدُ العُلَى العـالى تـهـدَّم وانحـطَّا
وكيف لنـور الشَّمْسِ والبَـدْرِ عـودةٌ ... وهـذا منـارُ المجـدِ والعِزِّ قـد قُـطَّا[٢]
أُصِيبَ فـمـا ردَّ الـرَّدَى عنـه رَهْـطُه ... بلى أَوْدَعَ الأحـزانَ إذ ودَّع الـرَّهْـطا[٣]
فيـا رُزْءُ مـا أنكى ويـا حُـزْنُ مـا أبكى ... ويـا دَهْرُ مـا أعْدَى ويـاموتُ مـا أسْطا[٤]

وهو يقول إن ركاب المعالى حط رحله بالحزن الطويل، وقد تهدَّم طود العلا السامى ولن يعود أبدا، وكيف يعود نور الشمس والبدر وهذا منار المجد والعز قد استؤصل استئصالا، أصابه الموت فما ردته عنه عشيرته ولا أهله، ودَّعهم وأودع فى قلب كل منهم جمرة حزن لاتنطفئ أبدا، فيارزء ما أشد نكايتك، وياحزن ما أشد ما تثير من البكاء، ويادهر ما أشد عدوانك، وياموت ما أشد سطوتك، وكأنما كان يبكى فيه رؤساء صقلية المسلمين بصقلية جميعا. ونعجب إذ نجد أبا الضوء سراج بن أحمد بن رجاء يعزِّى روجَّار الثانى عن ابنه روجار بمرثية باكية، وفيها يقول[٥]:

خَبَـا القَمَـرُ الأسْنَى فـأظلمتِ الـدُّنَـا ... ومـادَ من العليـاء والمجـد أركـانُ[٦]
تخـطَّفَـه رَيْـبُ المنـونِ مُخَـاتِـلا ... عـلى غِـرَّةٍ إن المنـون لخـوَّانُ[٧]
فيـالـك من رُزْءٍ عـظيمٍ وحـادثٍ ... يَعِـزُّ لـه صـبر ويُعْـوِزُ سُـلْوَانُ

وقد ذهب يقيم الدنيا ويقعدها لموت ابن روجار الثانى وأنـه حرى أن تهمى لـه العيون وتحترق الأكباد وتعظم الأشجان وأن تبكى عليه خيماته وقصوره وسيوفه ورماحه وأن تعاف

(١) الخريدة ٤٦/١.
(٢) قُطَّ هنا: انطفأ.
(٣) الردى: الهلاك. الرهط: الجماعة والعشيرة.
(٤) ما أسْطا: ما أشَد بطشك.
(٥) الخريدة ٢٧٧/١.
(٦) خبا: خفت. الأسنى: عالى الضوء. الدنى: جمع دنيا. ماد: مال.
(٧) مخاتلا: مخادعا.

خيله اللجم والأرسان، وما نواح الحمام إلا له، وما كان أفظع يومه، لكأنه كان يوم الحشر. كل ذلك ولا يرجع أبو الضوء إلى نفسه ويستنكف من تقديم هذا العزاء لملك نصرانى. ونتوقف قليلا لنتحدث عن محمد بن عيسى ومراثيه.

محمد[١] بن عيسى

هو أبو عبد الله محمد بن عيسى بن عبد المنعم يقول القفطى عنه: «من أهل صقلية من أصحاب العلم بعلمى الهندسة والنجوم ماهر فيهما قيمٌ بهما مذكور بين الحكماء هناك بأحكامهما»، ويقول العماد نقلا عن ابن بشرون: «كاتب شاعر، بارع ماهر، مهندس، منجم، لغارب (لكاهل) الفصاحة متسنم، فى ملتقى أولى العلم كميٌّ (شجاع) مُعْلم (معروف). ويقول إن ابن بشرون أورد من شعره ما يهز أعطاف القلوب مراحا (مرحا) ويدير على الأسماع من الرحيق المختوم راحا. ويعجب العماد بمراثيه وينقل قطعة طويلة من إحداها، وفيها يقول:

عزَّ العَزاءُ وجَلَّ البَيْنُ والجَزَعُ ... وحلَّ بالنفسِ منه فوقَ ما تَسَعُ
مَنْ لليتامى وأبناءِ السبيل وهم ... قد ارْتَوَوْا من أياديهِ وقد شَبعوا
بكتْه شَمْسُ ضُحاهُ واختفتْ جَزعًا ... وأُلْفِيَتْ تحت سِتْرٍ للغيم تَطَّلِعُ
سعوا مشاةً وهم فى الزِّىِّ أغْربةً ... مسودَّةً من وراء النَّعْشِ تَتَّبِعُ
ولم يكن لهُم بالعيدِ منْ فَرَحٍ ... ولا لهم فى التسلِّى بعده طمعُ

فالعزاء فى موت هذا الشخص صعب إذ عظم فيه الجزع وحلَّ بالنفس حزن لا تطيقه. ويبكى فيه الشاعر مواساته لليتامى وأبناء السبيل والبؤساء الذين طالما أسبغ عليهم من أفضاله، ويقول إن الشمس توارت باكية وراء سحاب لتطلع على جنازته الضخمة، وقد سعت الجموع وراء نعشه تلبس السواد بعد أن كانت تلبس البياض وكأنما كانت حمائم وانقلبت غربانا، وجاء العيد سريعا فلم يفرحوا فيه ولا فزعوا إلى شىء يتسلون به، إذ غمرهم لموته حزن شديد. ويقول إن أعماله الطيبة ستفسح له فى الفردوس الأعلى:

جاءت ملائكةُ الرِّضوانِ مُعْلِمَةً ... بأنه لجِنانِ الخُلْدِ مرتفعُ

---

(١) انظر فى ترجمة محمد بن عيسى إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطى (طبع ليبزج) ص٢٨٩ والخريدة ٣٤/١ وما بعدها

وقــد أعــدَّتْ لــه أعمالــهُ غُـرَفًــا فيهـا لأنفُسِ أهْلِ الفضـل مُرتَبَعُ[١]
يـا فجعةً لم تَـدَعْ فى العيش من أَرَبٍ وغُـصَّـةً فى لَهـاه لـيس تُـبْتَـلَعُ[٢]
أضـرمتِ نارا عـلى الأحْشاء مُـوصَـدةً أكبــادُنـا فى لــظى أنفـاسهـا قِـطَعُ

فملائكة الرضوان نزلت لتستقبله وتأخذه إلى الرفيق الأعلى وجنان الخلد، إذ أعدت له أعماله الخيِّرة بها غرفا فى عليين. ويعود على بن عيسى إلى التفجع على الميت قائلا إن الفجيعة فيه لم تدع فى الحياة من أمل فقد ماتت معه كل الآمال، وأودع موته غصصا لا يطيق أحد ابتلاعها، وقد أضرم فى الأحشاء نارا متقدة تتقطع فى لظاها الأكباد حسرة عليه. ويختار العماد من مرثية ثانية لمحمد بن عيسى مقاطع، وفيها يقول:

شهابُ المنايـا من سماء الـرَّدى انقضَّا ورُكْنُ المعــالى والجـلال قــد انفضَّــا
بكتْــه المـذاكي المُقْــرَبـاتُ وقــطِّعتْ شكـائمهَا إذ منـه أُعدمتِ الـرَّكضا[٣]
وكـادتْ سيـوفُ الهنـد تنـدقُّ حَسْـرةً وأجفــانها تنشقُّ عنهــا لكى تُنْضَى[٤]
شهـدنـا عـلى قـربٍ بمشهــد مـوتــهِ مشـاهـد لم تُخْط القيـامـة والعَــرْضـا
أعـادَ سـرورَ العيــدِ حُـزْنًـا ممـاتُــه ومُبْــرَمُ أمــرٍ فيــه حــوَّلــه نَقْضـا

فشهاب الموت قد انقض على هذا الميت من سماء الهلاك، وانهدم بذلك ركن المعالى والجلال، وإن الخيل الكريمة أو المكرمة لتبكى فروسيته، وقد قطعت الشكائم، إذ لم يعد يركض عليها لقتال أعدائه، وإن سيوف الهند لتندق حسرة عليه، وإن أغمادها لتنشقُّ عنها لكى ينتضيها فارسها المغوار. ويصف الشاعر جنازته ويقول كأنها كانت يوم الحشر ازدحاما وهولا، وأعقب موته العيد فلم يعرف الناس فيه سرورا ولا استطاعوا أن يبرموا أمرًا من أمورهم، إذ انتابهم حزن عميق. ويصور الشاعر مدى الخسارة فيه قائلا:

لـقــد مــات فيــه عُــدَّةٌ أىُّ عــدَّةٍ لنـا فَعـدِمْنـا كـل عيشٍ بــه يُـرْضَى
وأبصـارُنـا كــانت تسـامى لــه وقــد غدا الكلُّ منا طرفَه اليوم قـد غَضَّا[٥]
وقد كان طرفى ليس يُغْضى على القَذَى فأضحى على أقذائهِ اليوم قد أغضى[٦]

فقد ماتت فى هذا الفقيد عدَّة ضخمة للمسلمين فى صقلية النورمانية، إذ عدم الشاعر وغيره

(١) مرتبع: مقام طيب.
(٢) لَهاةُ كل ذى حلق: الجزء المشرف عليه فى أقصى سقف الفم.
(٣) المذاكي: الخيل. المقربات: المعدة للركوب
(٤) أجفانها: أغمادها. تنضى: تُسَلّ
(٥) غضَّ الطرف: خفضه
(٦) أغضى يغضى: أغمض

من المسلمين هناك كل عيش كانوا يقنعون به وبعد أن كانت أبصارهم تتطلّع إلى الفقيد معلّقة به أمانيها أخذت اليوم تغضّ منها خشوعا، وكان طرف الشاعر لايغضى على القذى فأصبح اليوم يغضى على أقذاء كثيرة.

٢

شعراء الزهد والوعظ

زاهد الأمة الأول وواعظها الرسول ﷺ وتلته طبقات من الزهاد والوعاظ كانت تقرن وعظها وزهدها بالعبادة والنسك، ونجدهم فى جميع البيئات الإسلامية، وفى كل زمن. وتموج بمواعظهم وكلماتهم الزاهدة الكتب من مثل البيان والتبيين للجاحظ وعيون الأخبار لابن قتيبة والعقد الفريد لابن عبد ربه وزهر الآداب للحصرى، وتجرى على ألسنة الشعراء فى صقلية الإسلامية أبيات تتصل بالوعظ والزهد، من ذلك قول أبى القاسم عبد الرحمن بن عبد الغنى المقرئ الواعظ(١):

أيا من نال فى الدنيا مُناهُ ... تأهبْ للفراق وللرحيلِ
ولا تفرحْ بشىءٍ قد تناهى ... فما بعد الطلوع سوى النزولِ

وهو ينصح من نال فى الدنيا كل آماله أن يتأهب لفراقها بالصلاة والنسك، ويقول له لا تفرح بشىء بلغ نهايته، فلم يعد أمامك بعد المنزلة التى صعدت إليها إلا النزول إلى قبرك الموحش. ويقول جعفر(٢) ابن الطيب الكلبى:

ومغتبطٍ بعيشٍ غير باقٍ ... يروم سلامةً تحت الهلاكِ
ألا ياحارِ قد حارتْ عقولٌ ... وعُلّت بالقليل عن الحراكِ
وقد نصبتْ لك الدنيا شباكا ... فإياك الدنوَّ من الشِّباكِ

وهو يعجب لمن يفرح بعيش لا يدوم وكأنه يروم سلامة تحت هلاك محقق، ويعجب لأناس غرهم ما حصلوا عليه من قليل فى الدنيا فسكنوا إليه ولم يتحركوا لقضاء ما عليهم من الحقوق لربهم، وينصحهم أن لا يقتربوا من شباك اللذات والشهوات التى نصبتها لهم الدنيا، حتى لا يقعوا فيها عن غير بصيرة. ويقول أبو عبدالله محمد بن قاسم بن زيد اللخمى الكاتب القاضى مناجيا ربه(٤):

---

(١) الخريدة ١/١١٠

(٢) الخريدة ١/١١٤

(٣) حار: مرخم حارث

(٤) الخريدة ١/١١٨

يــاربِّ صفحـا وغفــرانـا ومعــذرةً ‏ ‏ ‏ لــذنبٍ كثــرتْ مـنــه المعــاذيــرُ
يُبْكيـه إجْـرامُــه طـورا ويُضْحكــه ‏ ‏ ‏ رجــاؤه فَـهْــوَ محــزونٌ ومســرورُ

وهو يطلب من الله الصفح والعفو والغفران لما ارتكب من الذنوب، ويفكر فى أمره فيراه يبكى لكثرة ذنوبه ويضحك لرجائه لربه، وكأنه يجمع بين نقيضين، فهو دائما محزون لمعاصيه ومسرور لما يأمل عند الله من العفو والمغفرة، ولأبى حفص عمر بن حسن بن الطبرق، وكان من أهل الدين والورع والعفاف[1]:

سيلقـى العَبْـدُ مــا كسبتْ يــداهُ ‏ ‏ ‏ ويـقــرأُ فى الصحيفــة مــا جنــاهُ
ويُسْــألُ عـن ذنــوبٍ ســالـفــاتٍ ‏ ‏ ‏ فـيـبـقـى حــائــرا فــيــما دَهــاهُ
فيــاذا الجهــل مــالــك والتمــادى ‏ ‏ ‏ ونــارُ الله تحــرقُ مَــنْ عــصــاهُ
فـعــوِّل فى الأمــور عــلى كــريـمٍ ‏ ‏ ‏ تــوحَّــدَ فى الجَــلالــة فى عُــلاهُ
وأمِّــلْ عَــفْــوَهُ وافْــزَعْ إلــيــه ‏ ‏ ‏ ولــيس يخــيــبُ مخــلوقٌ رجــاه

وهو يقول إن كل إنسان سيحاسب يوم القيامة وتعرض عليه صحيفة حاملة إليه ما كسبت يداه فى دنياه، ويسأل عما ارتكب من ذنوب وآثام فيُرْتج عليه، ويحتار فيما اقترفه، وواجب أن لا يتمادى الإنسان فى غيه ويذكر الجحيم المعدة للعاصين، ولا ييأس من رحمة ربه الكريم قابل الذنب والتوب الذى يعفو عن عباده الآثمين، ولا يخيب مخلوق رجاه. ويقول أبو عبدالله بن الطوبى[2]:

يحــبُّ بــنــو آدمٍ ربَّهــم ‏ ‏ ‏ ولـكـنـهـم بـعــدُ يــعـصُــونَــهُ
وإبليسُ قــد شَــرِبــوا بُغْضَــهُ ‏ ‏ ‏ وهــمْ بـعــد ذاك يُــطـيعــونــه
فـهــذا الـتـنــاقى فــما بــالُهــم ‏ ‏ ‏ يــرون الـضــلالَ ويــأتــونَــهُ

وهو يعجب لمن حوله، فهم يعلنون حبهم لربهم ويعصونـه، كما يعلنـون بغضهم لإبليس ويطيعونه، وإنه لتناقض ما بعده تناقض، فما بالهم يرون الضلال وانحرافه بهم عن الطريق المستقيم ويأتونه. ويقول فى مقطوعة ثانية[3]:

لــو قـلتَ لى أىَّ شَىءٍ ‏ ‏ ‏ تَهْـوَى؟ لقلتُ خـلاصى
النــاسُ طــرًّا أفــاعٍ ‏ ‏ ‏ فـلاتَ حـين منـاصٍ[4]

(١) الخريدة ١/١٠٦
(٢) الخريدة ١/٦٤
(٣) الخريدة ١/٧٢
(٤) مناص: ملجأ

نَسُوا الشريعةَ حتى تغامزوا بالمعاصى
ياويحهم لو أعَدّوا لهول يوم القِصاصِ

وهو يقول إن المجتمع فسد، والناس فيه جميعا أفاع ويتمنى منهم الخلاص، إذ نسوا الشريعة وأوامر الدين وإنهم ليتغامزون على ارتكاب المعاصى فى غير خوف من الله ولا من يوم القيامة يوم يؤخذ العاصون بالنواصى والأقدام ويقول: ياويحهم لقد كان حريا بهم أن يُعِدّوا ليوم القصاص، يوم يُسْأل كل شخص عما قدمت يداه. ويبدو أن ظاهرا من التصوف كان قد دخل صقلية الإسلامية فى زمنه، فأناس يلبسون مرقّعات الصوف، وأناس يغنون على صفوف الذكر، وآخرون يصيحون ويرقصون، فقال[١]:

ليس التصوفُ لبسَ الصُّوفِ ترقعه ولا بكاؤك إن غنّى المغنونا
ولا صياحٌ ولا رقصٌ ولا طَربٌ ولا تغاشٍ كأن قد صرتَ مجنونا
بل التصوفُ أن تصفو بلا كدَرٍ وتتبع الحق والقرآن والدِّينا
وأن تُرَى خائفا لله ذا نَدَمٍ على ذنوبك طولَ الدهر محزونا

فالتصوف ليس لبس مرقعات الصوف والبكاء حين سماع المغنين والرقص والطرب وأن يقع المتصوف مغشيا عليه أو كالمغشى كأنه صار مجنونا، بل التصوف الصفاء الدينى واتباع الكتاب والسنة والخوف من الله والندم على الذنوب. ومن الوعاظ قبل العهد النورمانى عمر بن خلف بن مكى، وسنفرده بكلمة، ويقول ابن القطاع[٢]:

تنبَّه أيها الرجلُ النَّؤومُ فقد نجمتْ بعارِضِكَ النجومُ
وقد أبدى ضياءُ الصبح عما أجنَّ ظلامَه الليلُ البهيمُ[٣]
فلا تَغْرُرْك يا مغرورُ دُنْيا غَرورٌ لا يدومُ بها نعيمُ[٤]
ولا تخبْط بمعوجٍّ غَموضٍ فقد وضح الطريق المستقيم

وهو يقول تنبه أيها الرجل الذى اعتاد النوم عن أداء فروض دينه وعبادة ربه، فقد ظهرت نجوم الشيب بعارضيك. وأبدى ضياء الرشاد عما أجنَّ ليل الشباب البهيم من ظلام الغى، فلا تغتر يا مغرور بدنيا خادعة لا يدوم بها نعيم ولا تخبط - كالأعمى - فى طريق معوج غامض، فقد وضح أمام عينيك الطريق المستقيم. ونلم بعمر بن خلف بن مكى وماله من مواعظ.

---

(١) الخريدة ١/٧٢
(٢) الخريدة ١/٥٥
(٣) البهيم: المعتم
(٤) غرور: خادعة

ابن[1] مكى

هو أبو حفص عمر بن خلف بن مكى، منشؤه ومرباه وشيوخه فى صقلية وفى مقدمتهم ابن البر اللغوى، وعليه تخرج ويذكر فى مقدمة كتابه اللغوى النفيس: «تثقيف اللسان» أنه عرضه عليه فما أقرَّه أبقاه وما أنكره أخلا الكتاب منه، وأدى به فقهه وعلمه إلى تولى منصب القضاء فى بلده، وقد خرج منها إلى تونس قبيل استيلاء النورمان عليها، واستوطنها وولى قضاءها وخطابة جامعها، وينقل العماد عن ابن القطاع تقديمه له بقوله: «انتقل إلى تونس، وولى قضاءها، وهو فقيه محدث، خطيب، لغوى، وفضله بالألسنة فى جميع الأمكنة مأثور مروى، وله خطب لا تقصر عن خطب ابن نباتة، تُعْجب رواته، ومن قوله:

يا حريصًا قطعَ الأيَّام فى ... بؤسِ عيشٍ وعناءٍ وتعبْ
ليس يَعْدوك من الرزق الذى ... قسمَ اللَّهُ فأجملْ فى الطَّلبْ

وهو يدعو إلى القناعة والزهد والرضا بما قسمه الله للإنسان، فإن أحدا لن يصيبه ضياع، بل الكل سيكفل له رزقه، ولا داعى للعناء الشديد فى طلبه ولا للحرص أكثر مما ينبغى، فما قدِّر لك سيأتيك. ويقول مذكرا بالموت داعيا إلى التقوى والعمل الصالح:

عجبًا للموت يُنْسَى ... وهْو ما لابُدَّ مِنْهُ
كيف تنساه وقدجا ... ءتْك رُسْلٌ من لَدُنْه
سوف تلقى الوَيْلَ إن جئـ ... ـتَ بعذرٍ لم تُبِنْه
وترى جسمَك فى النا ... ر غدا إن لم تَصُنْه
والذى ينجو من النا ... ر أخو التقوى فَكُنْه

وهو يعجب لمن ينسى الموت وهو مكتوب على الإنسان، وقد جاءته رسل من لدن الله تهديه إلى الرشاد، ويقول إن من لا يستطيع أن يقدم عذرا عن سيئاته سيلقى الويل والعذاب الشديد،اومن لا يصون جسمه بالعمل الصالح ستكون النار مصيره، إذ لا ينجو منها إلا أخو التقوى والعمل الصالح، وحرى بك أن تسلك مسالك التقوى والهدى، فإن فى ذلك الفوز الكبير. ويدعو إلى العزلة عن الناس والاكتفاء بأقل ما يمكن من العيش وبمصاحبة الكتب، ولا تعلق رجاءك بأحد، يقول:

---

(١) انظر فى ابن مكى الخريدة ١/١٠٦ وإنباه الرواة للقفطى٢/٣٢٩ والمكتبة الصقلية ٥٩٧، ٦٤٦ وكتابه تثقيف اللسان مطبوع بالقاهرة بتحقيق الدكتور رمضان عبد التواب

اجعلْ صديقَك نَفْسَكْ ... وجوفَ بيتك حِلْسَكْ[١]
واقْنَعْ بخُبْزٍ ومِلْحٍ ... واجعلْ كتابك أُنْسَكْ
واقطعْ رجاءَك إلا ... ممن يصرِّف نَفْسَكْ
تَعِشْ سليماً كريماً ... حتى توافِىَ رَمْسَكْ[٢]

وهو ينصح الإنسان أن لا يتخذ صديقا له إلا نفسه، فليس من صديق حقيقى تستطيع الاستعانة به حين يلم بك خطب من الخطوب، بل إنه ليدعوه إلى اعتزال الناس جميعا ولزوم بيته، حتى لا يصيبه أذاهم، وينصحه بالزهد فى متاع الحياة والرضا بأقل القليل: بخبز وملح فهما حسبه، وهما يكفيانه أن يريق ماء وجهه فى طلب ما فوقهما من طيبات الدنيا. ويقول له: اكتف بالكتاب، واتخذه صديقك وأنيسك فإنه سيضيف إليك معرفة، ولن يؤذيك أى أذى ولن يضرك أى ضرر، وينصحه أن يقطع رجاءه من الناس، فليس بينهم من يحقق له رجاء إلا إذا ألجأته الضرورة لمن يصرِّف أمره، ويقول له إذا اتبعت هذه النصيحة من الزهد فى متع الحياة وعشت متقشفا ترضى بكسرة أو قطعة من الخبز واكتفيت بإدامها من الملح، ولم تتخذ لك صديقا سوى الكتاب، ولا أملت من أحد شيئا عشت أسعد السعداء حتى وفاتك. ويقول:

مَنْ كان منفردا فى ذا الزمان فقد ... نجا من الذلِّ والأحزان والقَلَقِ
تزويجنا كركوب البحر ثم إذا ... صرنا إلى ولدٍ صرنا إلى الغَرَقِ

وهو يمتدح العزلة والانفراد عن الناس حتى عن تكوين الأسرة، ويتمثل الزواج كركوب البحر ومخاطره من العواصف، ويتصور الأولاد ومطالبهم ومتاعبهم فى الحياة عواصف ماتنى تتناول راكب البحر وسفينته، حتى يغرق.

٣

شعراء التفجع والحنين واللوعة

استحالت صقلية فى العهد الإسلامى إلى جنة فيحاء من جنات المسلمين بمدنها وحصونها التى تُعَد بالعشرات، بل بالمئات، وبحقولها وزروعها من كل صنف، وبحدائقها وثمارها من كل لون، وبأزهارها الأرجة التى تعطر جميع الأنحاء فيها والأرجاء. وبينما كانت تعيش فى أمن ورفاهية إذا أمراء الطوائف يقيمون لهم فيها عروشا وإمارات ويدب بينهم الشقاق وتتكاثر الفتن. ويشهر الإخوة المسلمون السلاح بعضهم على بعض، ويتسلل ابن الثمنة حاكم بلرم الخائن إلى روجار وروبرت ابنى طنكراد (Tancrede) أميرى قَلَوريّة وأنكبَردة فى جنوبى إيطاليا مستنجدا بهما ضد

---

(١) حلسك: مكان إقامتك لا تبرحه ... (٢) رمسك: قبرك

حاكم مدينة قصريانَّة وينجده روجار، ويستولى على مسينى ثم على بلرم سنة ٤٦٤هـ/١٠٧٢م وكان ذلك إنذارًا باحتلال الجزيرة وضياعها، فلم يمر عشرون عاما حتى أخذت مدنها فيها تتساقط فى حجر روجار، وأصبح المسلمون يقلبون أكفهم على ما أنفقوا فيها وأنشئوا بها من حضارة وقصور وزروع وحدائق ذات بهجة، وأخذ كثير من علمائها وشعرائها يودِّعونها، منهم من يتماسك مثل أبى العرب[1] الصقلى الذى رحل عنها إلى الأندلس منشدا:

أهمُّ ولى عَـزْمان عَـزْمٌ مشـرِّقٌ ... وآخَـر يُغْـرِى همَّتى بـالمغـاربِ
ويـا وطنى إن بِنْـتَ عنِّى فـإننى ... سـأوطَنُ أكْوارَ العِتـاق النجائبِ[2]
إذا كـان أصـلى من تـرابٍ فكلُّها ... بـلادى وكـلٌّ العـالمين أقـاربى

وكان لا يدرى حين فراقه للجزيرة هل يتجه شرقا أو يتجه غربا إلى الأندلس، واختار الاتجاه إلى الغرب. ويتخيل كأن الوطن هو الذى بان عنه بكثرة ما فيه من الفتن والحروب مما اضطره إلى مفارقته وتوطنه فى رحال الإبل النجيبة باحثا عن وطن جديد، ويخفف الأمر على نفسه، فإذا كان أصله من تراب وكل البلاد تحمل التراب فهى جميعا بلاده، وكل من فيها من العالمين من أقاربه وذوى رحمه، وإذا كان أبو العرب متماسكا هذا التماسك فى اضطراره إلى النزوح عن وطنه فقد كان هناك من لا يزال يحن إليه مثل عمر بن رحيق الذى نشأ وتربى فى بلرم، حتى إذا استولى عليها روجار والنورمان رحل عنها، ولا تزال ماثلة نصب عينيه، ولايزال يحن لها ولأهله، ولا يزال حبها يضطرم فى حنايا فؤاده ويهتف[3]:

نـفسـى تحنّ إلى أهـلى وأوطـانى ... وهـل رأيـتم محبًّـا غـير حنَّـانِ
كـانـوا بقلبىَ أحيـاءً وفى كَبِـدِى ... نـارٌ تـأجَّـج من شجـوى وأحـزانى
عـزَّ اصـطبـارى لـرُزْءٍ قـد دُهِيتُ بـه ... وبـانَ عنى لَـوشْـكِ البَـيْنِ سُلْوانى

فهو يحن إلى أهله ووطنه حنين ملتاع فقد هما، وكانوا ماثلين تحت بصره وفى قلبه، فغابوا عنه وتأججت نار بكبده من شجوه وأحزانه التى يكتوى بها فؤاده، ويقول إنه رزء ومحنة دهته، وعزَّ عليه أن يتحمَّلها وكيف يتحملها؟ لقد نفد صبره، وفارقه سلوانه، ولم يبق له إلا الحزن الممض والشَّجى الموجع، وأكبر شاعر توجع وتفجع على فقدان صقلية ابن حمديس، وهو جدير بأن نفرده بترجمة.

(١) الخريدة ٢/٢٢٢
(٢) بنت: بعدت. أكوار جمع كور: الرَّحْل
(٣) الخريدة ٢/٢٨٩

ابن[١] حمديس

هو عبدالجبار بن حمديس، ولد بمدينة سرقُوسَة الواقعة بِشرقى صقلية سنة ٤٤٧ هـ/١٠٥٦م لأسرة على شيء من الثراء والعلم والفضل، واختلف مثل لداته إلى الكتاب فحفظ القرآن الكريم، وتحوَّل منه إلى حلقات الشيوخ، ونزعت به ميوله إلى الأدب والشعر، ولم تلبث موهبته الشعرية أن تفتحت، وتكونت له رفقة كانت تأخذ بنصيب غير قليل من اللهو والذهاب إلى الحانات والأديرة لشرب الخمر والمتاع بالغناء. وكانت بلرم قد سقطت فى يد روجار والنورمان، وبدا فى الأفق أنهم يتأهبون للاستيلاء على سرقوسة وغيرها من بلاد الجزيرة، وأخذ يعدُّ نفسه - مثل أقرانه - للقائهم برا وبحرا، ونفاجأ به فى نحو الرابعة والعشرين من عمره يُصِرّ على أن يغادر بلده إلى الأندلس مارا بإفريقية وتميم بن المعز مرورا سريعا وربما كان السبب الحقيقى فى مغادرته بلده لا فرارا من معركة صقلية وسرقوسة مسقط رأسه ضد النورمان، ولكن طلبا للشهرة فى عالم شعرى مزدهر، يأمل أن يتحقق له فيه ما يتمناه لنفسه من مكانة أدبية مرموقة بين شعراء الأندلس الذين كانت أسماؤهم تدوِّى فى العالم العربى، ولعله من أجل ذلك اختار النزول بأهم بيئة شعرية فى الأندلس، إذ كان بها أكبر راع للشعر بين أمراء الطوائف، ونقصد المعتمد بن عباد. وحط رحاله فى بلدته إشبيلية سنة ٤٧١ هـ/١٠٧٨م ولزم باب قصره فترة، وبعث إليه ببطاقة شعرية يقول فيها:

أيا مُولِىَ الصُّنْعِ الجميلِ إذا انْتَشَى ... ويا مُسْدِىَ النَّيْلِ الجزيلِ إذا صَحَا

وفى كلِّ أرضٍ من نَدَاهُ حديقةٌ ... تضوَّعَ مسكا نَوْرُها وتفتَّحا[٢]

أأُفْرَدُ بالحرمان من كلِّ عاطلٍ ... تطوَّقَ من نُعْماك ثم توشَّحا[٣]

وما إن قرأ المعتمد البطاقة حتى أعجب به واستدعاه محتفلا باستقباله ومنحه جائزة سنية، وطلب إليه أن يظل فى حضرته، وظل بها يمدحه بقصائد طوال فى مناسبات مختلفة، وكانت إشبيلية فى عهد المعتمد تعيش عيشة لاهية فشارك فى هذه المعيشة وتمتع بمناظرها الطبيعية البديعة، وأتاه نعى أبيه فحزن لوفاته ورثاه بقصيدة باكية استهلها بقوله:

---

(١) انظر فى ابن حمديس الخريدة ١٩٤/٢ والذخيرة ٣٢٠/٤ وابن خلكان ٢١٢/٣ والجزء الأول من عنوان الأريب لمحمد النيفر (طبع تونس) بتحقيقه وتقديمه له ودراسة الدكتور إحسان عباس فى كتابه العرب فى صقلية ص٢٣٥ وديوانه بتحقيقه وتقديمه له.

(٢) تضوع: ذكت رائحته

(٣) تطوق من الطوق وتوشح من الوشاح كناية عن إسباغ نعمه عليه

أتـانى بـدار النَّـوَى نَعْيُـهُ فيا روعة السمع بالداهيه

وكان يسمع أخبار مسقط رأسه سرقوسة ومقاومتها العنيفة للنورمان بقيادة بطلها ابن عباد فيهتز طربا ويكبر عنده الأمل فى ضرب النورمان الضربة القاضية، وبالمثل كانت تأتيه أخبار ابن حمودة فى قصريانة ومنازلته للنورمان منازلة ضارية، فيعظم عنده الأمل فى طرد النورمان من صقلية، ويرسل إلى قومه يحضهم على جهاد العدو الغاشم ويحثهم على منازلة العدو منازلة حاسمة، فلها عليهم جميعا حقوق، وواجب أن ينصروها ولا يخذلوها حتى الدِّماء الأخير:

ولله أرضٌ إن عَـدِمْتم هـواءَهـا فأهواؤُكم فى الأرض منثورةُ النظمِ
وعـزُّكُم يُفْضِى إلى الذلِّ والنَّـوىَ من البيْن ترمى الشملَ منكم بما ترمى
أعَنْ أرضِكِم يُغْنيكُمُ أرضُ غيركم وكم خالةٍ جَدَّاء لم تُغْنِ عن أمٍّ(١)
تَقَيَّـدْ من القـطر العـزيـز بموطنٍ ومُتْ عند رَبْعٍ من ربوعك أو رسْم
وإيـاك يـومـا أن تجـرِّب غُـرْبَـةً فلن يَسْتجيـز العقلُ تجـربـةَ السُّمِّ

وهو ينصح الباقين بعده فى سرقوسة وغير سرقوسة أن لا يفكروا فى مبارحتها حتى لا يعدموا هواءها الذى يتنفسونه ويحيون به ولا عزَّهم الذى يعيشون فيه وإلا تحولت حياتهم إلى ذل وهوان، وهل تغنى أرض عن أرض الوطن، ويهيب بكل صقلى مسلم أن يقيد نفسه بموطنه، وأن يظل يدافع عنه حتى يموت عند ربع من ربوعه أو عند رسم من رسومه، ويحذره من الهجرة عنه والإفضاء إلى غربة، هى سم قاتل. ويعتذر لنفسه مرارا عن مبارحته الوطن فى وقت محنته وأنه لا يستطيع العودة إليه، لما يُغْدق عليه المعتمد بن عباد من أفضال متصلة. وفى رأينا أن العائق الأهم عن عودته لوطنه إنما كان المجد الأدبى الذى أخذ شعره يحققه له فى الأندلس، وبذلك تحققت أمنيته الكبرى من مبارحة الوطن. وكأنما قيَّده هذا المجد بإشبيلية فلا يستطيع منها خلاصا وحراكا. وتسقط فى أيدى النورمان سرقوسة مسقط رأسه سنة ٤٨٢ وتسقط بعدها قصريانة سنة ٤٨٤ ويتلاشى من نفسه ونفس كل صقلى الأمل فى استرداد صقليـة، وينظم قصيدة جنائزية يودعها بها قائلا:

أعـاذلُ دَعْـنى أُطْـلقِ العَبْـرةَ الـتى عـدمت لها من أجْمـل الصبر حـابِسَـا
لقـدَّرْتُ أَرْضِى أن تعـودَ لقـومـهـا فسـاءتْ ظنـونى ثم أصبحتُ يـائِسَـا
وكيف وقـد سِيمَتْ هَـوانًـا وصيَّـرتْ مسـاجـدَهـا أيـدى النصـارى كنـائسـا
إذا شـاءتِ الرهبـانُ بالضَّـرب أنـطقت مـع الصبـح والإمسـاء فيهـا النَّـواقِسـا

(١) جداء: قليلة اللبن.

أرى بلدى قد سامَهُ الرومُ ذِلَّةً وكان بقومى عِزُّهُ مُتَقاعِسا[١]
وكانتْ بلادُ الكفر تَلْبَسُ خوفَهُ فأضحى لذاك الخوفِ منهن لابسا

وهو يقول لصاحبه دعنى أذرف الدموع التى لم يعد لها حابس من الصبر، إذ ظل سنين طويلة يظن أن صقلية ستعود إلى أهلها، فخاب ظنه، بل لقد أصبح يائسا يأسا مرا، فقد صهلت خيل النورمان فى كل أنحائها، وسيمت هوانا ما بعده هوان، وأى هوان أعظم على نفس المسلم من أن يرى بلده تسقط فى حجر النصارى ويحيلوا مساجدها كنائس، ويضرب الرهبان فيها النواقيس صباح مساء، لقد سام الروم صقلية الإسلامية ذلة ماتماثلها ذلة، صقلية التى كانت تعتز بمسلميها عزة لا تدانيها عزة. وكان النورمان فى جنوبى إيطاليا إذا سمعوا اسمها ارتعدت فرائصهم خوفا ورعبا، فإذا الأمر ينعكس ويصبحون هم مصدر الخوف لأهل صقلية الإسلامية.

ويفيض ابن حمديس فى الحديث عن بأس أهل صقلية المهيضة وجهادهم اليائس حين كانوا يسوقون أمامهم فرائس قَلَوْريَّة وبطارقتها وأشاوسها أسارى منكَّسين ومعهم نساؤهم حواسر. وليتأنَّ الجيش النورمانى فى خَطْوه، فإنه يمشى فى بلاد تحت أرضها شجعانها الذين طالما أذلوا أهل قلوريه،ولو شقت القبور عنهم لخرج إليهم منها أسد كاسرة غاضبة، غير أن الغيل غابت ليوثه فتبخترت فى أرجائه الذئاب.

ويحدث عقب ذلك أن يخلع يوسف بن تاشفين المعتمد بن عباد سنة ٤٨٥ من إمارته فى إشبيلية وينفيه إلى أغمات فى مراكش ونرى ابن حمديس يزوره بها ويحاول أن يخفف عنه مادهاه، منشدا ردا على شعر كتب به إليه مستيئسًا:

أتيأسُ فى يومٍ يناقضُ أمْسَهُ وزهرُ الدَّرارِى فى البروج تَدورُ[٢]
ولما رحلتم بالنَّدَى فى أكفِّكم وقُلْقِلَ رَضْوَى منكُم وثَبِيرُ
رفعتُ لسانى بالقيامة قد دَنَتْ فهذى الجبالُ الراسياتُ تَسِيرُ

ورضوى جبل بالمدينة، وثبير: جبل بمكة، وهو يقول له ينبغى أن لاتيأس من أن يتغير الحال، فالكواكب الساطعة لا تثبت بل تدور فى بروج متعددة، ولما رحلتم بالجود الفياض فى أكفكم وكأنما تحرك جبلا المدينة ومكة المقدسان صحت إن القيامة قد دنت فها هى الجبال الراسيات تسير كما جاء فى الذكر الحكيم نعتا ليوم البعث.

ويتصل بأبى القاسم بن عشرة قاضى «سلا» على المحيط ويتجه إلى بجاية بالجزائر ويمدح المنصور بن الناصر بن علنَّاس (٤٨٣ - ٤٩٨ هـ) ويولى وجهه نحو المهدية وتميم بن المعز بن

---

(١) متقاعسا: متخلفا. (٢) الدرارى: الكواكب.

باديس ويلقاه لقاء حسنا، ويظل يتردد بين البلدتين ويضفى مدائحه على يحيى بن تميم بن المعز وابنه من بعده على وحفيده من بعدهما الحسن ويكتظ الديوان بمديحهم جميعا، ويمدح بنى خراسان فى تونس ويظل يتردد على بجاية يمدح بعض رجالاتها من بنى حماد. ومنذ أن هاجر من صقلية لم ينسها يوما وظلت لا تبرح ذاكرته حتى أنفاسه الأخيرة، ويخصّها بعد سقوطها بأشعار مؤثرة يبكيها ويبكى أيام مجدها، من ذلك قصيدة بائية فى مديح تميم بن المعز وفيها يقول:

تـدرَّعْتُ صبرى جُنَّـةً للنـوائبِ ... فـإن لم تُسالم يـازمانُ فحـاربِ

وهو إنما يتدرع صبره ويحتمى به استسلاما، فإن الزمان أدار معه معركة حامية الوطيس فقد فيها كثيرا من أهله وحماة بلده، بل لقد فقد بلده نفسها غير مبق له على أى شىء، إلا أن يتنقل فى صحارى إفريقيا وسهوبها ولا أليف ولا أنيس:

ولا سـكـنٌ إلا مـنـاجـاة فـكـرةٍ ... كـأنى بهـا مستحضـرٌ كـلَّ غـائبِ
ولمـا رأيتُ النـاس يُـرْهَبُ شَـرُّهم ... تجنَّبْتُـهم واختـرتُ وَحْـدَة راهبِ
وحتى خيـالٌ كنت أَحْـظَى بَـوصْلهِ ... له فى الكَرَى عن مضجعى صَدُّ عاتبِ
فهل حالَ من شَكْلى عليه - فلم يَزُرْ - ... قضَـافةُ جسمى وابْيِضـاضُ ذوائبى(١)

فلم يعد له سكن يسكن إليه إلا أن يناجى فكره مستحضرا ما غاب عنه خاليا بنفسه ومعتزلا للناس، بل لكأن كل شىء من حوله يعتزله حتى الطيف الذى كان يسعده وصله فى نومه وأحلامه انقطع عن مضجعه صادًّا عنه لا يزوره، فهل تغير شكله عليه وماحدث له من نحافة جسمه وابيضاض شعره، فلم يعد يعرفه ولم يعد يلقاه، ويذكر إخوان الصفاء وليالى الأنس بصقلية. وكان يتمنى لو استطاع الرجوع، غير أنها أصبحت مسترقة للأعداء:

ولـو أن أَرْضى حُـرَّةٌ لأتيتُهـا ... بعـزمٍ يَعُدُّ السَّيْرَ ضـربةَ لازبِ
ولكنَّ أَرْضى كيف لى بِفِكـاكهـا ... من الأسْرِ فى أيدى العلوج الغواصب
لئنْ ظفـرتْ تلك الكلابُ بـأكلها ... فبعـد سكونٍ للعـروق الضوارب(٢)

فعائقه إلى أرضه أنها استُعبدت وأصبحت ملكا لغير أهلها، بل لقد أسرت ووضعت الأغلال فى أيديها وأرجلها، ولم تعد تستطيع خلاصا ولا فكاكا ولا تحررا، وقد ظفرت بها كلاب الأعداء تنهشها بعد جهاد أهلها لهم جهادا عنيفا، ويمر بفتنتهم قبل غزو النورمان مرورا خاطفا ويفيض

(١) قضافة: نحافة.
(٢) كنى ابن حمديس بسكون العروق الضوارب عن همود مقاومة أهل صقلية بعد الجهاد العنيف.

فى الحديث عن بطولتهم فى حروب الروم وكيف كانوا يموتون موت البسلاء الشجعان:

يموتون موت العِزِّ فى حَوْمة الوَغَى ... إذا مات أهلُ الجبن بين الكواعبِ(١)
حَشوا من عَجاجات الجهاد وسائدًا ... أُعِدَّتْ لهم فى الدَّفن تحت المناكب(٢)
فغاروا أفولَ الشهب فى حُفَر البِلَى ... وأبقوا على الدنيا سوادَ الغياهب(٣)

لقد أبلوا بلاء عظيما فى حرب الروم قديما بِقَلَوْرِيَّة وحديثا بصقلية، وما منهم إلا من يقدم نفسه فداء لوطنه، وما منهم إلا من واقع الروم مرارا وتكرارا حتى اجتمعت له وسادة من غبار وقائعه أُعِدَّتْ له ليتوسدها فى قبره، ومازالت بهم البطولة المتناهية حتى أفلوا - أفول النجوم - فى حفر البلى مخلِّفين وراءهم على آفاق الدنيا سواد حزن وثكل لا يشبهه سواد. ويلتفت إلى داره الغريقة بنوطس وسرقوسة، ويستودعها الله ويستمطر لها السحاب الممطر، ويهتف:

ألا فى ضمـانِ الله دار بِنُـوطَسٍ ... ودرَّتْ عليها مُعْصِراتُ الهواضب(٤)
أمثِّلها فى خاطـرى كلَّ سـاعةٍ ... وأَمْرِى لها قَطْرَ الدموع السواكب(٥)
أحنُّ حنـين النِّيب للموطن الـذى ... مغـانى غـوانيه إلىَّ جـواذبى(٦)

وهى تَمَثَّل له ليل نهار وصباح مساء فى خواطره، بل إنها لتمثل له كل ساعة وكل لحظة، ويذرف لها الدموع السواكب مدرارا، ويحن - حنين الإبل - للموطن الذى نبتت فيه، وإن مغانيه ومنازله لتجذبه إليها جذبا، وكأنما أودعها فؤاده ويريد أن يستردَّه، حتى لايحيا جسمه بدونه ودون خفقاته. وله فى صقلية قصيدة ثانية هائية يستهلها بقوله:

قضتْ فى الصِّبا النفْسُ أوطـارَهـا ... وأبْـلغهـا الـشيـبُ إنـذارَهـا(٧)

وهى أشبه بشريط لذكريات صباه وشبابه فى سرقوسة، ويذكر مجالس لهوه بها ويتذكر ليلة ساهرة والندامى من حوله وساقية تزرِّرُ بكفِّها أزرارها:

تـديـر بيـاقـوتـةٍ درَّةً ... فتغمسُ فى مـائها نـارَها

ويشربها رفاقه، ويمعنون فى الشرب، ويذهبون إلى دير، يحتسون الخمر، ويطيل فى وصف

(١) حومة الوغى: أشد موضع فى الحرب.
(٢) عجاجات جمع عجاج: غبار.
(٣) الغياهب جمع غيهب: الظلام الشديد.
(٤) المعصرات: السحب الممطرة والهواضب: السحب يدوم مطرها أياما ولا يقلع.
(٥) أمرى: أسكب وأذرف.
(٦) النيب: النوق. مغانى: منازل.
(٧) أوطارها جمع وطر: البغية والحاجة.

مجلس الطرب، ويذكر ما فيه من الغناء والرقص والشموع المتقدة قائلا:

لقد سكَّنتْ حركاتِ الأسى   قيانٌ تُحرِّك أوتارها
فهذى تعانق عُودًا لها   وتلك تقبِّل مِزْمارها
وراقصةٍ لقطتْ رِجْلُها   حسابَ يدٍ نَقرتْ طَارها
وقُضْبٍ من الشمع مصفرةٍ   تريك من النار نُوَّارَها
كأنَّا نُسلِّطُ آجالَها   عليها فتَمْحَقُ أعمارها

وإن للغناء هناك من القيان لنشوة تسكن حركات الأسى فى النفس أو تارها بما تصب فى الآذان من نغم بديع، والعود مسند إلى صدر قينة كأنه يعانقها، وقينة أخرى كأنها تقبِّل مزمارها، وراقصة كأنما تلقط قدمها نقر صاحبتها بيدها على طارها، متفننة فى حركاتها، والشموع متقدة طول هذا المجلس اللاهى، وكأنما آجالها تنقص أعمارها تدريجا حتى تنمحق. وينتهى شريط الذكريات ويحَنُّ إلى صقلية مستودع صباه وشبابه وليالى أنسه ومرحه، ويهتف.

ذكرتُ صَقَلِّيَّةً والأسَى   يهيِّج للنفس تذْكارَها
ومنزلةً للتصابى خَلَتْ   وكان بَنُو اللَّهْو عُمَّارها
فإن كنتُ أُخْرِجْتُ من جنَّةٍ   فإنى أحدِّث أخبارها
ولولا ملوحةُ ماء البُكا   حسبتُ دموعِىَ أنهارَها

وهو يذكر صقلية ومنازل صابيه وشبابه فيها والحزن يقطِّع نياط قلبه عليها حسرة ولوعة، ويقول إنها لجنة عظيمة أخرجت منها، وحرى بى أن أحدِّث أخبارها وأبكيها بدموع غزار، ويذكر أنه سيبكيها عشرات السنين بأنهار من الدموع لا تتوقف سيولها. ولعلها توقفت قليلا حين أبهجه انتصار جيش الحسن بن على بن يحيى بن تميم سنة ٥١٧ هـ/١١٣٧م على جيش الملك روجار الثانى فى وقعة الديماس بمنتصف الطريق بين المنستير والمهدية على الساحل التونسى، وكان روجار يبغى الاستيلاء على المهدية، فردَّ جيشه مدحورا إلى صقلية، وأشاد ابن حمديس بهذا الانتصار إشادة رائعة فى قصيدة له رائية يمدح بها الحسن بن على بن تميم مهنئا له بالنصر على الأعداء من النورمان:

ليهْنك فتحٌ أولغَ السيفَ فيهمُ   ولاح بوجه الدِّين من ذكره بِشْرُ[1]

---

(١) أولغ السيف فيهم: جعله يلغ ويشرب من دمائهم.

ودون مَرامِ الرُّوم فيما سَموْا له ... قلائدُ أعناقٍ هي القُضُبُ البُتْرُ[1]
وكم من فريق منهمُ إذ تمزَّقوا ... له غَرَقٌ فى زَخْرةِ الموج أو أَسْرُ
فَسَلْ عنهمُ الديماسَ تسمَعْ حديثَهم ... فهم بالمواضى فى جزيرته جُزْرُ[2]
هنــاك شفى الإســلام منهم غَليلَهُ ... بـطعنٍ له بَتْـرٌ وضربٍ لـه هَبْرُ[3]
أعـاربُ جَـدُّوا فى جهـادِ أعـاجمٍ ... خنازيرَ شَبَّتْ حَرْبَها أُسُدٌ هُصْرُ[4]

وهو يهنئه بهذا الانتصار المروِّع الذى جعل السيوف تلغ فى دمائهم وتشرب منها مرتوية، وكأنما ابن حمديس نفسه هو الذى يشرب منها محاولا أن يشفى غليله من النورمان وقد استبشر وجه الدين بشرا لا يماثله بشر. ويقول إن فيما تطلعوا إليه من استيلائهم على الساحل التونسى قلائد من الرماح استأصلت أعناقهم وتمزقوا كل ممزق، ووقع منهم فريق فى قبضة الأسر وفريق غرق فى زخرة الموج، وسَلْ عنهم حصن الديماس الكبير يجبك أن عيدا كبيرا نُصب لِنحرهم وذَبْحهم فى جزيرته بالسيوف المواضى. وهناك شفى الإسلام غليله وغيظه بطعن وضرب يقطعان أجسادهم تقطيعا، ويحيِّى الجيش الباسل إنه جيش أعارب صدقوا فى حملتهم العنيفة على الروم الخنازير، وإنها لحملة أُسْدٍ افترستهم، أسد أعز الله بها الدين الحنيف. والقصيدة من أروع القصائد فى جهاد أعداء الإسلام وتدمير جيوشهم تدميرا لا يكاد يبقى منهم باقية.

ولم يلبث أن عاد إلى حزنه على وطنه الضائع، وعاد إلى شعوره بغربته، وهو شعور لازمه طول حياته، وطالما ردده فى قصائده وجاءه وهو فى سن الثمانين نعى ابنته، ولم تكن تظن أنه على قيد الحياة فبكاها بقوله:

أرانى غـريبا قـد بكيت غريبـةً ... كـلانا مشـوقٌ للمـواطن والأهـل
بكتْنى وظنَّتْ أننى مـتُّ قبـلهـا ... فعشتُ وماتت - وهْىَ محزونةٌ - قَبْلى

واجتمع عليه حزنه فى فلذة كبده بحزنه فى وطنه أو فردوسه المفقود، ودار به العام فلبى نداء ربه سنة ٥٢٧ هـ/١١٣٣م فى بجاية، وما تعرف العربية شاعرا عاش يتفجع على وطنه ويحنّ إليه كما تعرف فى ابن حمديس، إذ كان يشعر شعورا عميقا بأنه كان كل شىء فى دنياه، بل كان فردوسه الذى أخرج منه كما أخرج أبوه آدم قديما من الفردوس، ويشعر كأنما أتى ذنبا كبيرا كذنب أبيه آدم، بل لكأنما غربته المستمرة وتطوافه فى الآفاق إصرار منه على ارتكاب هذا الذنب:

---

(١) القضب البتر: السيوف القاطعة.
(٢) المواضى: السيوف. جزر جمع جزور: الذبيح.
(٣) هبر: قطع، واستئصال.
(٤) هصر جمع هصور: مفترس.

ألم تــر أنّــا فى نَــوًى مستمــرَّةٍ نروح ونغدو كالمصرِّ على الذَّنْبِ

وديوان ابن حمديس ديوان ضخم وقد حققه تحقيقا دقيقا الدكتور إحسان عباس وهو يموج بقصائد المديح كما يموج بقصائد الغزل ووصف الطبيعة والخمر ومجالسها، وكأنما يريد أن يغرق فيها لوعاته على ضياع صقلية وظلت تشتعل فى دخائله إلى آخر أنفاسه، وللصيد أراجيز بديعة فى الديوان وبالمثل للرثاء وخاصة لمن فقدهم من أسرته وذوى رحمه، ونلمح من حين إلى آخر مقطوعات فى الزهد لعله نظمها بأخرة من حياته، وغرض وحيد من أغراض الشعر العربى لم ينظم فيه بيتا هو الهجاء، إذ كان يترفع عن الشتم والبذاءة، يقول:

إنى امـرؤٌ -وطبـاع الحق تعضـدنى- مـطهَّر العِـرْضِ لا أدنو من الـدَّنَسِ
فــما أحـــرِّك فى فَـكَّىَّ عـن غـضـبٍ لســانَ منتهش الأعْــراض منتــهسِ

فهو طاهر النفس يسمو عن كل دنس فضلا عن دنس الهجاء، وهو حليم لايغضب غضبا يخرجه عن طوره، فينتهك أعْراض الناس ويمضغ لحومهم موجدةً وغلًّا، وليس ذلك عن ضعف فى شاعريته، بل هو العفو والصفح عن مقدرة، يقول:

إنى امــرؤٌ لا تــرى لســانى منــظًّا مــا حييــتُ هَـجْــوا
كم شــاتم لى عـفــوتُ عنــه مـصـمًّــا فى الـلســان نهوا
لــو شئتُ صيَّـرت بــالقـوافى غــارةَ هَجْـوى عليــه شَعْــوَا
ومــزَّق القـولُ منــه عِـرْضًــا لا يجـد المـدح فـيــه رَفْـوَا

فقد عاهد نفسه أن لا ينظم هجاء طوال حياته، وأن يعفو عمن يشتمه، ولو أراد لتتابعت على خصمه حملات شعواء من هجائه ولمزَّق عرضه وهتكه هتكا لا يمكن أن يرفوه مديح أو يرتق فتوقه صنيع. وفى ذلك دلالة واضحة على نبل خلقه وسمو نفسه.

وكان خياله خصبا إلى أبعد حد مما جعله ينفذ إلى كثير من الصور المبتكرة الفريدة، وهى تلقانا فى جميع أغراض شعره مفاجئة لنا، مما يحدث تأثيرا بعيدا فى نفس قارئه كقوله فى الغزل:

زادتْ عـلى كُحْل الجفـون تكحُّلاً فيُسَمُّ نَصْـلُ السَّهْم وهـو قَتُــولُ

والشعراء قبله كانوا يتحدثون عن سهام العيون وأنها قاتلة، وزاد ابن حمديس أن سهام عيون صاحبته أشد قتلا وفتكا بما أضافت إليها من تكحل جعلها سهامًا مسمومة، ما إن تصيب شخصا حتى تفقده حياته، ويقول فى نهر لعله نهر إشبيلية مصورا خرير مياهه:

جـريحٌ بـأطراف الحَصَـا كلما جَـرى عليهــا شَكَـا أوجــاعَـهُ بِخَــريــرِهِ

وهو خيال بديع، فأطراف الحصا كأنما تجرح النهر وكلما جرى عليها شكا جاعه بخريره، وكأنما هى أوجاع ابن حمديس لفراقه وطنه إلى الأبد، ومن تلك الصور الفريدة قوله فى البَرَد:

نَـشَـرَ الجـوُّ عـلى الأرضِ بَـرَدْ أيُّ درٍّ لـنـحـورٍ لـو جَمَـدْ

وكأن السماء لا تمطر بَردًا وإنما تمطر دررا تطوِّق عقودها جيد الطبيعة بلآلئها المتساقطة من أصداف السحب. ويطول بنا القول لو أردنا أن نعرض فرائد ابن حمدييس ما يفجأ به قارئه من الصور والمعانى المبتكرة. وهو بحق يعد فى الذروة الرفيعة لا من شعراء صقلية وحدها، بل أيضا من شعراء العرب والأندلس قاطبة.

الفصل الخامس
النثر وكتابه

نشاط النثر

من المؤكد أن النثر الفنى من رسائل وغير رسائل نهض فى صقلية كما نهض الشعر، وكما نهضت العلوم الدينية، ومن يرجع إلى الخريدة ومن ترجم لهم من الشعراء هناك يجده يذكر فى عنوانات الشعراء أنهم كتاب، ذكر ذلك مع خمسة عشر شاعرًا، ونوّه فى غير كاتب بإحسانه فى الكتابة كأن يقول فى البشيرى الشاعر الكاتب: «باعُه فى الترسل أمدّ، وخاطره فى النثر أحدّ» ويقول فى على بن الحسن بن الطوبى: «مؤلف دفاتر، ومصنف جواهر، ومقلد دواوين» يشير بذلك إلى أنه من كتاب الدواوين، ويصف نثره بأنه جواهر، ويقول عن ابن القرقورى إن ابن القطاع أثنى على نظمه ونثره كثيرا، كما يقول إن ابن القطاع ذكر عن هاشم بن يونس الكاتب أنه صاحب ترسل ومقامات وعن محمد بن الحسن الطوبى أنه كان صاحب ديوان الرسائل والإنشاء مترسلا شاعرا، ويقول القفطى عنه: عالم بالرسائل، وكلامه فى نهاية الفصاحة، وشعره فى غاية الملاحة، وله مقامات تُزْرى بمقامات البديع، وإخوانيات كأنها زهر الربيع».

وكل ذلك يدل على أن صقلية حازت لنفسها فى النثر نشاطا واسعا، بل إن من كتابها – كما يقول القفطى – من كانت مقاماته تزرى بمقامات البديع، وسقطت تلك المقامات من يد الزمن كما سقطت معها الرسائل البديعة شخصية ورسمية مما دبَّجه الكتّاب هناك قبل العصر النورمانى وأيضا ما كتبوا ودبَّجوا من أعمال أدبية متنوعة، ولولا أن ابن بسام ترجم لبعض من غادروا صقلية من الكتاب البارعين قبيل العهد النورمانى مثل ابن الصباغ، وسنخصه بكلمة. وأيضا لولا أن ابن بشرون المهدوى زارها فى عهد روجار الثانى واحتفظ فى ترجمته لبعض شعرائها – وأقصد عيسى بن عبد المنعم وابنه محمد – ببعض رسائلهما ما استطعنا التعرف بوضوح على ما حظى به النثر هناك من نهضة ورقى، وسنراهما واضحين عند كاتبها المتأخر ابن ظفر، وسنفرده بترجمة قصيرة.

أما عيسى بن عبد المنعم فيذكر العماد عن ابن بشرون أنه: «كان كبير الشان، ذا الحجة والبرهان، فقيه الأمة، وأمثل الأئمة، له المعانى الأبكار البعيدةُ مرامى مرامها، والألفاظ التى هى

كالرياض جادها هامى رِهامها (غيثها)» ويقول العماد إنه أورد من كلامه ما يأسو سماعُه الكلوم (الجروح)، ويجلو سَنَا إحسانهَ العلوم، ويحكى درر الأصداف ودَرارى (كواكب) النجوم.. ويذكر له العماد فصولا من ثلاث رسائل، أولاها فى براعة صديق له فى خطه الرائع وبلاغته البديعة، ومن قوله فيها:

«نظرت من الكتاب إلى خط موصوف، معتدل الحروف، أملس المتون، مفتَّح العيون، لطيف الإشارات، دقيق الحركات، لين المعاطف والأرداف، متناسب الأوائل والأطراف، يروق العيون حسنه وشكله، ويعجز المحاولَ صنعه، متضمنا معانى كأنها رُقْية الزمان، وصُمْتَة (أُلْهية) الأمان.. وقلت سبحان ربى القيوم: ﴿أفسحرٌ هذا أم أنتم لا تبصرون﴾ أكل هذا الإحسان، فى طاقة الإنسان.. ثم رجعت إلى نفسى، وثاب إلىَّ حِسِّى، فقلت عند سكون جاشى (نفسى) وثبوت طيشى، وإفراخ روعى وذهاب دهَشى، إن من دبَّ فى الفصاحة ودرج فى وكرها، ورضع بلِبانها، وجرَع من دَرِّها (لبنها الكثير) وصحب السادات مقتبلا (شابا) والأمجاد مكتهلا لخليق أن يحل من الفضل وسائطه ويجمع قطريه، بل يستولى على غواربه (أعاليه) ويملك شطريه».

وانتخاب الألفاظ واضح فى الرسالة مع المقدرة البينة على وصف الخط البديع وما يحسن عيسى بن عبد المنعم من وصف بلاغة صاحبه، مع ما يزين وصفه من سجع أحيانا وهو سجع طبيعى لا تكلف فيه، إذ يأتى به فى تضاعيف الكلام دون محاولة التعمل له، وليس ذلك كل ما يزين به وصفه فهو يزينه بعبارات تصويرية كوصفه المعانى فى رسالة صاحبه بأنها «رقية الزمان وصمتة الأمان» وكوصف صاحبه بصور متلاحقة إذ يقول إنه «دبَّ فى الفصاحة ودرج فى وَكْرها، ورضع بلِبانها، وجرع من دَرِّها. ويقتبس العماد فصلا من رسالة ثانية لعيسى بن عبد المنعم أسقط فيها حرف الألف واللام مشيدًا فى مطالعها:

«رقعتى نحوك سيدى وسندى، وذُخْرى وعَضُدى، ومن بَذَّ[1] وبَزَّ.. فَذُّدهره، ووحيد عصره، وغريب زمنه، ونسيج وحده، مدَّ ربىِّ مُدَّتك فى مربوب (دائم) نعمته، ومدد نُصْرَته، وكبَت من نكب[2] عن ودك بعظيم ذُخْره (المدَّخرلك) ومخوف زجره.. وسوَّغك من ضَرَب[3] نعمه بهنيِّه، ومَرِيِّه[4]، ومتعك من موفور قَسْمه[5] بحميده، ومزيده».

ولا يحسُّ القارئ للرسالة بما تكلفه عيسى بن عبد المنعم من إسقاط الكلمات ذات الألف واللام لمقدرته البيانية، وكأن كتاب صقلية لم يتأثروا فى كتابة رسائلهم بأسلوب السجع الذى عمَّ فى المشرق منذ أواسط القرن الرابع الهجرى، بل تأثروا أيضا بما شاع فى كتابة الرسائل من

---

(١) بذ: سبق. بز: غلب.

(٢) نكب: انحرف.

(٣) الضرب: عسل النحل.

(٤) مريه: سائغه.

(٥) قسمه: مايقسمه للناس.

ضروب تصنع مختلفة كأن تخلو الرسالة من حرف معين كهذه الرسالة أو يطَّرد حرف معين فى جميع ألفاظها على نحو ما صورنا ذلك مرارا فى عرضنا للكتابة الأدبية بالمشرق وفى الأندلس. وأحكم عيسى بن عبدالمنعم فى هذه الرسالة انتخاب الألفاظ والأسجاع، ولم يكتف بالسجع من حيث هو، بل طلب فيه القصر حتى تكون الرسالة وافرة النغم، وعُنى فى السجع بتصاوير كثيرة. ورسالة عيسى بن عبدالمنعم الثالثة فى العتاب وفيها يقول:

«لولا أن ذنوب الحبيب، تصغر عن التأنيب.. لكان لنا وللرئيس مجال واسع ومتسع بالغ فيما أتاه، إن لم نقل جناه، وفيما وعد فأخلف، إن لم نقل الذنب الذى اقترف، ومهما أجللنا قدره عن أن ينسب إليه خلف الوعد وإن كان جليلا، ما عذره إذ لم يكتب بوجه العذر أنه ما وجد سبيلا، وقد كنا نتوقع تدانى العناق، فصرنا نقنع بأمانى التلاق».

والعناية بانتخاب الألفاظ والأسجاع واضحة فى الرسالة، مع رهافة الشعور فى مثل قوله: «ذنوب الحبيب، تصغر عن التأنيب» وقوله: «كنا نتوقع تدانى العناق، فصرنا نقنع بأمانى التلاق».

وقد ترجمنا لابنه محمد بين الشعراء وعرضنا هناك إشادة ابن بشرون به فى الفصاحة والقفطى به فى علوم الأوائل، وألممنا ببعض مراثيه البديعة، وساق له العماد عن ابن بشرون فصولا من ثلاث رسائل، مثل أبيه، وأولاها فى التشوق إلى صديق عزيز، ومن قوله فى صدرها:

«أخى ومولاىَ علَّ الدهرَ يَجْمَعُنا ... بمنزلٍ عن جميع الشرِّ مُبْتَعِدِ

شوقى إلى لقائك شوق الظمآن إلى الماء الزُّلال (العذب الصافى) وارتياحى إلى ما يرد من تلقائك ارتياح السقيم إلى الصِّحَّة والإبلال، وتلهفى على فراقك تلهف الحيران، وتأسفى على بعدك تأسف الولهان، لكننى إذا رجعت إلى شاهد العقل، وعدلت إلى طريق العدل، يمازج قلبى سرورا، ويخالط شوقى بهجة وحبورا.. فأفزع إلى الدعاء لمقدر الأمور، الذى (يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور) أن يحسن لنا العُقْبَى، ويقضى لنا بالحُسْنَى، ويُسْبل علينا من العافية سترا سابغا ضافيا، ويوردنا من السلامة موردا سائغا صافيا، وأن يقرِّب بك الاجتماع، حيث يوجد الاستمتاع، بما تَقَرّبه الأعين ويلذ الأسماع».

ومحمد لا يقل عن أبيه عيسى بن عبد المنعم فى براعة اختياره للألفاظ وروعة انتخابه للتصاوير، مع حسن الأسجاع وكأنه يريد أن يرضى الأذن بما تجد فى الألفاظ من جمال الجرس، وفى المعانى والتصاوير من الحسن الفائق، وربما تفوق فى ذلك كله على أبيه. وله من رسالة فى عتاب بعض خُلَصائه:

«قد عاملنى فى مشاهد هذه الأيام، التى قَمعت (قهرت) الخاص والعام، بأشياء لو جرت بينى وبينه على خلوة لعددتها من لذيذ الأنس، لكنها أتت فى الملأ (أشراف الجماعة) بما آلم النفس، واحتملتُ ذلك منه، رجاء أن يقلع عنه، فازداد لَجاجة، وازددت حراجة (ضيقا) حتى استفحل

الثُّغاة (التافهون) علىّ بسبب ذلك المِزاح، واستنسر البغاث إلىّ وهزَّ الجناح.. وأعرضت عن أشياء لو شئت قلتها، ولو قلتها لم أُبْقِ للصلح موضعا، وأنا أحرص على صحبته وممن يرعاها حق رعايتها.. فأحب أن يحسن الظن بى، والذكر عنى، فإن فعل ذلك فعل الأشكل (الأشبه) به، والأليق بأدبه، والأولى بجميل مذهبه. وقد أطفأت هذه المعاتبة نارا مُؤْصَدة (مطبقة) وبرَّدتْ من صدرى غُلَّة موقدة».

والرسالة عتاب لشخص لا يعرف متى يمازحه، إذ يمازحه بما قد يقبله منه فى الخلوة، أما أمام الناس فإن المزاح يصبح كأنه هزء به وسخرية منه، ولذلك يؤلمه، ومع ذلك يقول إنه يحتمله رجاء أن يكف عنه ولكنه لا يكف، حتى تعاظم من لا وزن لهم عليه، وحتى «استنسر البغاث» وهو مثل يضرب لمن استشعر العزة بعد الهوان، إذ البغاث من أضأل الطير فشعر كأنه أصبح نسرا. وأضاف محمد بن عيسى إلى ذلك إضافة بديعة، إذ قال إنه استنسر وهز الجناح كناية عن شعوره الشديد بالعزة إزاءه. ومع ذلك كله يصفح محمد بن عيسى عن هذا الصديق الثقيل، إذ التزم له التجلة أمام الناس. والرسالة تتخفف من السجع أحيانا، مما يدل على أن محمد بن عيسى لم يكن يتكلفه دائما، وكأنما كان يجرى على لسانه عفوا. وله من رسالة فى الشكر لشخصية مهمة يثنى على حضرتها قائلا:

«إن غَرْس فضلها السابق إليه أثمر عنده شكرا وحمدا، وأنبت لديه محبة وودا، وإنه من موالاتها لعلى صراط مستقيم، ومن الإقرار بفضلها لعلى منهج قويم، ومن الدعاء لها لعلى حال مقيم، وكيف لا يكون كذلك وقد صيَّره سالفُ إحسانها فى الرِّقّ، ومَلَّكه فارطُ امتنانها ملك المستحق، فهو لا يفتر من جميل شكرها لسانا، ولا يُخْلِى من خلوص وُدِّها جَنانا».

والفصل -على شاكلة فصلية السالفين- فى دقة اختياره للألفاظ والأسجاع حتى تنزلق عن الألسنة فى يسر، وحتى يحسن وقعها فى الأسماع، وهو لذلك لايزال يلائم بين اللفظ واللفظ، وبين المعنى والمعنى وبين الصورة والصورة، حتى يلذ الآذان والألسنة والأذهان حين تقرؤه أوتصغى إليه. وحرى بنا أن نتوقف قليلا بإزاء الكاتبين الصقليين: ابن الصباغ وابن ظفر.

ابن[1] الصبَّاغ الصقلى

هو أبو عبدالله محمد بن الصباغ، من أدباء صقلية وكتابها البارعين، تألق اسمه فيها لأواخر عهد بنى أبى الحسين الكلبيين بالقرن الخامس الهجرى، وحين اضطربت صقلية بعدهم واستقل

(١) انظر فى ترجمة ابن الصباغ الذخيرة ٣٠٨/٤ ولعله هو نفسه الذى نقل ترجمته العماد عن الدرة الخطيرة لابن القطاع ص٨٣ باسم أبى عبدالله محمدبن على بن الصباغ الكاتب وقال عنه: كان فى عهد ابن رشيق المتوفى سنة٤٥٦ وقال كانت بينهما مراسلات.

كل قائد فيها بمنطقته غادرها إلى الأندلس، واستوطنها، وفيه يقول ابن بسام: «أحد أدباء وقته المشاهير، وكلامه يعرب عن أدب كثير وحفظ غزير». ويعرض طائفة من فصول رقاعه ورسائله، من ذلك فصل من رقعة وجّه بها إلى ابنِ الشامى متولى الأرض التى كانت تتملكها الدولة فى المدن التى افتتحت عنوة، راغبا فى أن يكلِّم له أمير صقلية صمصام الدولة آخر الأمراء الكلبيين الذى تولى الجزيرة بعد أخيه الأكحل سنة ٤٢٧ كى يحرِّر له أرضا للدولة كان اشتراها مما عليه من ضريبتها، وربما من دين للدولة كان لا يزال مدينا به، ويمضى صدر الرسالة على هذا النمط:

«إذا الحاجاتُ عَيَّ بها رجالٌ ... وكان قضاؤها صعبَ المرامِ
وقلَّتْ حيلةُ الشُّفَعاءِ فيها ... فحاولْ نُجْحَها ببَنِى الشآمى
دراريُّ العُلا حَفَّتْ ببدرٍ ... منيرٍ فى سماء المجد سامى

ويعلم – أدام الله تمكينه – مذهبى فى التخفيف، وحَمْل مئونة التكليف، إلا فيما تلجىء الضرورة إليه، ويحمل الاضطهاد عليه، وكنت من ترفيه النفس عن الامتهان، والقناعة بما تسمح به نفسُ الزمان، فى حالةٍ يعلم – حرس الله مجده – تقلُّبى فى أثْنائها، ومَقيلى (قيلولتى) فى أفيائها (ظلالها) حتى عرض لي من سوء القضاء، ما أجار بالنار من الرَّمْضاء (شدة الحر) فسوَّل لى الحِرْص الذى ما شِمْتُ (رأيت) له بارقا، والطمع الذى ما ركبتُ قط له عاتقا (منكبا) النظر فى إحداث بستان فى خرائب أخْربت مالى، وشغلتني عن كثير من أشغالى، وصرتُ منفقا ما جمعت فى الغربة والوطن، وكسبتُ فى الإقامة والظَّعن (الارتحال) بين جدار فيها أهدمه، وغارٍ أرْدِمه، وأرضٍ أرفع مرة وهادها، وأخفض تارة نِجادها (مرتفعاتها) حتى استوت ساحاتها وتوطَّدتْ (تمهدت) وغابتْ مغاراتُها وتغطَّتْ، وانكشطت أسنمتها وانحطَّتْ،.. ولا يُقْدَرُ على سَقْى دوحاته، ولا يتوصَّل إلى إحياء مواته، إلا بدولاب (ساقية) وجابية (حوض) يأخذان الماء أخذة رابية (شديدة).. ومتى أعْلم الأمير أن هذه الخرائب التى عانى وليُّه غِراسها لا يُرْتَجى لها عمارة تعود بفائد، ولا ينتفع الديوان منها بدرهم واحد، وساكنوها منذ أعوام ما أدَّى واحد منهم خراجا، ولا صنع لبيته بابا ولارَتاجا (بابا كبيرا) فهم بين قوم يأكلون الشجر قبل الثمر، ويرعون الأبَّ (الحشائش) قبل الحب».

والرسالة قطعة أدبية بديعة، وهى مكتوبة بأسلوب السجع الذى يمتع اللسان بنطقه والآذان بسماعه، وتكتظ بصور تتعاقب فيها ومشاهد بديعة كمشهد إصلاح ابن الصباغ للأرض وإعدادها للزرع بين جدار يهدمه وغار يردمه ونجاد يخفضها ووهاد يرفعها حتى غابت مغاراتها وانكشطت أسنمتها وانحطت. فهو ليس حائك أسجاع وراسم تصاوير فحسب، بل هو أيضا

مصور يعرف كيف يعرض عليك مشهدا بأكمله كأنك تبصره وتراه. وهو إلى ذلك خفيف الظل يعرف كيف يسرك بالكلم، وكيف يورد عليك ما يضحك سنك على نحو ما صور ساكنى أرضه وبستانه، فمنذ أعوام لم يؤد واحد منهم خراجا، ولا صنع لبيته بابا ولارتاجا، وإنهم - لفقرهم المدقع - ليأكلون الشجر والأبَّ ومراعيه كالأنعام قبل الثمر والحب. ولابد أن ابن الشامى وصمصام الدولة ضحكا ضحكا طويلا حين وصلا فى الرسالة إلى هذا المشهد المضحك . وهذا الجانب الفكه فى ابن الصباغ اتضح بصورة أوسع فى رسائل ساقها له ابن بسام حين استوطن الأندلس وصحب هناك الأديب أبا حفص القعينى، وكانت فيه بدوره دعابة، وحدث أن ماتت له هرة، فجلس للعزاء عنها تماجنا، فما كان من ابن الصباغ إلا أن كتب له رسالة عزاء فيها، ومن قوله فى بعض فصولها:

«الحياةُ لبنى الدنيا مراحل، والمنايا لجميعهم مناهل، والأعمار، كالأسفار، منها القريب الوصول، العاجل الحلول، ومنها البعيد الشُّقَّة، الشديد المشقَّة، أنفاس معدودة، وآجال محدودة، وليس يناج من محتومها أحد، ولا لمخلوق منها مُلْتحد (ملجأ). وانتهى إلىَّ - جعل الله الصبر الجميل سبيلك، وأطفأ ببرَدْ السُّلْوان غليلك - نَبَأٌ جَلَل، وخطب معضل، وهو مصابك بشقيقة نَفْسك، وموضع راحتك وأُنْسك، وربيبة حِجْرك وحجرتك، وآلة حيطتك على حِنْطتك (قمحك) وكالئة (حافظة) ذخائرك وقُنْيَتك (ما تقتنيه) واستحواذ فجيعتها على لُبِّك، وما عالجتها به من ذَرور (ما يُذَر من العطور على الميت) وحَنوط (ما يخلط من الطيب بأكفان الموتى وأجسادهم) وإشفاقك من إسلامها إلى التراب، وإبقائك إياها طويلا فى المحراب، وأليَّتك (حَلِفُك) عليها لتدعونَّ إلى جنازتها مأتما، يَشْقُقْنَ (أى النساء) عليها جُيوب المدارع (فتحات الثياب) ويُفضنَ من الوجد بها غُروبَ (دلاء) المدامع، ويُعَوِّلن عليها بالصراخ والنِّياح، ويُذْرين (يرسلن) لمصرعها شعورهن مع الرياح».

وابن الصباغ عزَّى أباحفص القعينى فى هرَّته، وكأنها كانت شقيقة نفسه وموضع راحته وأنسه، كما يقول، أو كأنها كانت محبوبة عزيزة، وهو يبدأ رسالته بأن هذه حالة الدنيا فهى دائما إلى فناء، أنفاس معدودة وآجال محدودة، ويدعو الله له أن يلهمه الصبر الجميل على فجيعته ويطفئ ببرد السلوان غليله، ويعزِّيه فى ربيبة حجره وحجرته، وإضافة حجرته إلى حجره بديعة. وتتراءى لنا فى الرسالة روح الفكاهة والسخرية مجسدة، وخاصة حين يحدثنا أن القعينى أقسم ليعقدنَّ لها مأتما كبيرا تُشَقّ فيه جيوب النساء على محبوبته ويفضن الدمع ويرسلنه وجدا على هرته. ويُعَوِّلن عليها بالصراخ والنواح. ولا نصل إلى هذه القطعة من الرسالة حتى نغرق فى الضحك، ويستمر قائلا للقعينى:

«ولستُ بناسٍ ذكر تلك المُلَح التى كتبت لى تصف من أخلاقها وآدابها، والمِدَح التى أوردت

فى أعراقها وأنسابها، والغرائب التى ذكرت عن قوَّتها وأيْدها، وحِيَلها وكيدها، ومكرها بالفار وصيدها.. ذات ناب مطلول (عجيب) وساعد مفتول، وخصر مجدول (صلب) ريَّانة (ممتلئة) الكاهل، ظمآنة الأسافل، تستضيىء من عينيها بأنور من المصباح، وتعتدُّ من مخالبها بأمضى من السلاح».

وابن الصباغ يستمر فى روحه الفكهة، فيزعم أن القعينى طالما حدَّثه عن أخلاقها وآدابها وأعراقها وأنسابها ومكرها بالفار وصَيدها له فى لمحة، ويشيد بجمال تكوينها وقوة بصرها ومخالبها. وهى روح فكهة بديعة لابن الصباغ، مع القدرة البارعة على انتخاب اللفظة وأختها والسجعة وشقيقتها مع إحكام التصاوير والمشاهد. وحدث أن كانت لصديقه القعينى جارية سوداء كَلِف بها ثم باعها، وندم فحاول استرجاعها، فزعم مشتريها أنها حامل، وتولاَّه الأسف، ونظم فى ذلك أشعارًا كثيرة، فكتب إليه ابن الصباغ رسالة فكهة يقول فيها:

«نقل إلىَّ بعضُ من يعرف أحوالك، ويشارف فعالك خبرًا يُصِمّ السَّمْع، ويضيِّق الذَّرْع (الطاقة الواسعة) وذلك أنك أخرجتَ عن ملكك ضِفْدعتَك المريعة (المفزعة) فتناولها من استحسنتْ غُدْرانه، وبلغك من إقبالها عليه، وانصرافها بكليِّتها إليه، ما أضرم قلبك شوقا لا تخبو ناره، وسلَّ الوَجْد بها عَضْبًا (سيفا) لا ينبو غِراره (حدُّه) فأنشرتَ (بعثت) للناس من نفسك (تَوْبَةَ) الأخْيلية، وأحييتَ لهم منك مجنون (قَيس) العامرية، وعضضتَ على بَيْعها أناملك، وأنضيت (أهزلت) فى طلبها زواملك (إبلك) وأطلت فى وصف شوقك لها وأوجزت، وقصَّدت (نظمت القصائد) فى ذكر الأسف عليها ورجزت (نظمت الأراجيز) وجمعت لها من المحاسن ما افترق، وفتحت من البدائع فيها ما انغلق.. فأصبحتَ والظنون بك مرجِّمة (متكلمة) والألسنة عنك مترجِمة، والأقوال فيك كثيرة، والأيدى إليك مشيرة، فَنَهْنِه (ازْجُرْ) قلبك، وراجع لُبَّك. واذكر خَلْقها وخُلُقَها، وتأمَّلْ وجهها وعنقها، وانظر خَدَّها وقدَّها، وهل شىء مما يُسْتَمْلَحُ عندها؟! فهنيئا أبا حفص راحةَ بصرك من شخصها المقيت، وفراغ قلبك من الكبَد بخلقها المميت.. وكأنى بك قد أنشدت بيت ابن الرومى فيمن لا يشبهها إلا فى سواد الجلد، ولا يشركها إلا فى النسبة إلى الجد، إذ يقول:

أكسبها الحبَّ أنها صُبِغَتْ ... صِبْغَةَ حبِّ القلوب والحَدقِ

هيهات.. ما كل بيضاء شحمة، ولا كل سوداء تمرة».

وابن الصباغ يتهكم بصديقه القعينى مرارًا وتكرارًا، إذ يصور عشقه لجاريته وما يضرم فى قلبه من نار لا تخبو، حتى لكأنما بعث من نفسه توبة بن الحُمَيِّر عاشق ليلى الأخيلية وقَيْسًا عاشق ليلى العامرية، ويذم الجارية ذمًّا شديدًا ترويحا عن صاحبه حتى يسلوها ويمسك عن ذكرها

وينساها كما نسيته. وهو يسوق ذلك فى لغة عذبة صافية وفى عبارات مسجوعة مصورة منمقة بالغة الروعة، وراجعه القعينى برقعة انتصر فيها لنفسه، فأجابه الصقلى برقعة على شاكلة رقعته السابقة، وإن ما دوَّنه ابن بسام من رقعه ورسائله ليصور للنثر الأدبى فى صقلية نهضة وازدهارًا.

ابن(١) ظفر الصقلى

هو حجَّة الدين أبوعبدالله محمدبن أبى محمدبن محمدبن ظفـر المشهور بـاسم ابن ظفر الصقلى، وُلد بصقلية سنة٤٩٧فى أيام ملكها النورمانى روجار الثانى، رحل من بلده صغيرًا فى طلب العلم، ويقال إنه نشأ فى مكة، ولا نعرف كيف انتقل إليها، وبارحها إلى مصر ثم إلى إفريقية، وأقام بالمهدية مدة فى زمن الحسن بن على بن تميم آخر ملوكها الصنهاجيين، وشهد بها الحروب بين روجَّار الثانى ملك صقلية والحسن المذكور، كما شهد أخذها منه واستيلاء النورمان عليها سنة ٥٤٣ ورحل إلى صقلية وفيها تعرف على قائد مسلم من قوادها يسمى محمد بن أبى القاسم القرشى، وبقى عنده فترة أكرمه فيها غاية الكرم، مما دفعه إلى تصنيف أربع مؤلفات أهداها إليه جميعا، ولم يحتفظ الزمن باثنين منها، وهما أساليب الغاية فى إحكام آية ومثنى الاستئناف للمعونة والإشراف، واحتفظ باثنين طُبعا ونشرا هما: أنباء نجباء الأبناء، وسلوان المطاع فى عدوان الأتباع، وسنلم بهما عما قليل، وعاد من صقلية إلى مصر، ورحل منها إلى حلب وأقام فيها بمدرسة ابن أبى عصرون، ووقعت فيها فتنة بين الشيعة وأهل السنة نُهبت فيها كتبه، فخرج منها إلى مدينة حَماة فصادف من أهلها وطلابها قبولا فسكن بها، ويقول العماد الأصبهانى: «كان إمام وقته فى التفسير والأدب، رأيته بحماة مقيما، ونفوس طلبة العلم إليه هيما (عَطْشَى) وأُجرى له راتب فى ديوان حماة، غير أنه كان دون الكفاف»، فلم يزل يكابد الفقر إلى أن لبَّى نداء ربه سنة ٥٦٧ للهجرة. وكان قصير القامة تقتحمه العين، غير أنه كان علامة فى التفسير واللغة والأدب غزير التأليف والتصنيف، وإن كانت أكثر مصنفاته ومؤلفاته سقطت من يد الزمن، ومنها فى التفسير ثلاثة كتب: التفسير الكبير وينبوع الحياة وإكسير كيمياء التفسير، وحاشية على كتاب درة الغواص للحريرى ردَّ فيها عليه، والمطول شرح مقامات الحريرى، والمختصر شرحها أيضا، والتنقيب على ما فى المقامات من الغريب، وخير البُشَر بخير البشر ذكر فيه الإرهاصات التى كانت بين يدى ظهور الرسول ﷺ، وأرجوزة فى الفرائض، وكتاب الاشتراك اللغوى، وكتاب ملح اللغة فيما اتفق لفظه واختلف معناه وكتاب القواعد والبيان فى

(١) انظر فى ترجمة ابن ظفر الخريدة قسم الشام ٤٩/٣ وابن خلكان ٣٩٥/٤ ومعجم الأدباء ٤٨/١٩ وإنباه الرواة ٧٤/٣ والوافى للصفدى ١٤١/١ والعقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين للفاسى (طبع القاهرة) ٣٤٤/٢ وبغية الوعاة للسيوطى ٥٩ والمكتبة الصقلية لأمارى ٦٠٥، ٦٥٩، ٦٦٥، ٦٧١.

النحو. وتلم بكتابيه البارعين فى الأدب وهما أنباء نجباء الأبناء، وسلوان المطاع فى عدوان الأتباع.

أنباء نجباء الأبناء

كتاب تربوى عرض فيه نجابة الصفوة من أبناء الأمة العربية فى حداثتهم، وأضاف إليهم بعض من عرفوا بنجابتهم فى الصغر من الفرس وزراء للعباسيين أو ملوكا فى القديم، واستهله بأخبار الفريدة اليتيمة المهداة إلى الأمة الإسلامية محمد ﷺ وبعض ما ذُكر عنه قبل بعثته، تيمنا بذكره العطر، ثم وزع الكتاب على أربعة أصناف ممن رُويت الأخبار عن نجابتهم فى صغرهم، والصنف الأول عشرة ممن كرَّمهم الله بصحابة رسوله، وهم أبو بكر الصديق وعلى بن أبى طالب والعباس عم الرسول والحسن والحسين حفيداه والنفس الزكية محمد بن على ومعاوية وعمرو بن العاص وعبد الله بن العباس وعبد الله بن جعفر الطيار وعبد الله بن الزبير، والصنف الثانى فى ذكر طائفة من أبناء الصحابة النجباء وغيرهم مثل عبد الملك بن مروان ويزيد بن المهلب والمأمون، والصنف الثالث للنجباء فى الصغر من الزهاد والمتصوفة، والصنف الرابع للنجباء من عرب الجاهلية فى الحداثة مثل لبيد ومن ملوك الفرس مثل بهرام جور. ويقول ابن ظفر فى مقدمة الكتاب: «وبعد فهذا كتاب أودعته من أنباء نجباء الأبناء ما هو كشررة من ضرام (نار مضطرمة) بل كقطرة من رِهام (غيث منهمر) لأنى قصدت به تلقيح همة غلام، وتنقيح فطنة كَهام (بليد). فغرضه من الكتاب تعليمى، ليبعث الهمة فى الناشئة بما يعرض عليهم من هِمم نظرائهم، وليشحذ أذهانهم بما يعرض عليهم من فِطَن قرنائهم. وأيضا ليتخذوا من خلقهم وحسن سلوكهم أمثلة رفيعة يقتدون بها فى حياتهم، ونضرب لذلك مثلا بما ساقه فى الصنف الثانى مما يدل على نجابة الفضل وجعفر ابنى يحيى البرمكى ووزيرى هرون الرشيد فيما بعد. وعادة إذا كان الحديث عن شخص يجعل له عنوانا: دُرَّة زين لقُرَّة عين، وإذا كان عن شخصين مثل الفضل وأخيه جعفر يجعل العنوان: درتازين لقرتى عين أى لمسرتى الأب والأم، ويذكر أن ابن صاحبة لأمهما سألها عن ابنيها أيهما يفضل صاحبه قائلا إن الناس يختلفون فيهما منهم من يقدم الفضل ومنهم من يقدم جعفرا، فقالت له: أحدثك عنهما واقض أنت.

«إنهما كانا يوما يلعبان فى دارى، فدخل أبوهما يحيى، فدعا بالغداء وأحضرهما، فطعما معه ثم آنسهما بحديثه، فقال لهما أتلعبان بالشطرنج، فقال جعفر وكان أجرأهما: نعم، قال فهل لا عبت أخاك بها قال جعفر: لا، قال: فالعبا بها بين يدىّ لأرى لمن الغلب، فقال جعفر: نعم – وكان الفضل أبصر منه بها – فجىء بالشطرنج، فصُفَّت بينهما، وأقبل عليها جعفر، وأعرض عنها الفضل، فقال له أبوه: مالك لا تلاعب أخاك، فقال: لا أحب ذلك، فقال جعفر

إنه يرى أنه أعلم بها فيأنف من ملاعبتى، وأنا ألاعبه مخاطرة (قمارا) فقال الفضل: لا أفعل، فقال أبوه: لاعبه وأنا معك، فقال جعفر: رضيت، وأبَى الفضل، واستعفى أباه فأعفاه. ثم قالت الأم للسائل: قد حدثتك عنهما فاقض، فقال: قد قضيت لجعفر بالفضل على أخيه، فقالت له: لو علمت أنك لا تحسن القضاء ما حكَّمتك أفلا ترى أن جعفرا قد سقط أربع سقطات تنزَّه الفضل عنهن، فسقط حين اعترف على نفسه بأنه يلعب بالشطرنج وكان أبوه صاحب جِدّ، وسقط على التزام ملاعبة أخيه وإظهار الشهوة لغَلَبه والتعرض لغضبه، وسقط فى طلب المقامرة وإظهار الحرص على مال أخيه. والرابعة قاصمة الظَّهر حين قال أبوه لأخيه: لاعبه وأنا معك، فقال أخوه: لا، وقال هو: نعم، فناصب (عادى) صفًّا فيه أبوه وأخوه، فقال السائل [حين سمع منها ذلك] أحسنتِ والله. ثم قال لها: عزمت عليك أخبرينى هل خفى مثل هذا على جعفر وقد فطن له أخوه، فقالت له: لولا العَزْمة ما أخبرتك، إن أباهما لما خرج قلت للفضل خالية به: ما منعك من إدخال السرور على أبيك بملاعبة أخيك؟ فقال أمران: أحدهما لو أنى لاعبته لغلبته فأخجلته، والثانى قول أبى: لاعبه وأنا معك، فما يسرنى أن يكون أبى معى على أخى. ثم خلوت بجعفر فقلت له: يسأل أبوك عن اللعب بالشطرنج فيصمت أخوك وتعترف، وأبوك صاحب جد، فقال: إنى سمعت أبى يقول: نعم لهو البال المكدود، وقد علم ما نلقاه من كد التعلم والتأدب، ولم آمن أن يكون بلغه أنا نلعب بها، ولا أن يبادر فنُنْكر، فبادرت بالإقرار إشفاقا على نفسى وعليه، وقلت إن كان توبيخ فديته من المواجهة به. فقلت له: يا بنىّ فلِمَ تقول: ألاعبه مخاطرة، كأنك تقامر أخاك وتستكثر ماله؟ فقال: كلا، ولكنه يستحسن الدواة التى وهبها لى أمير المؤمنين (الرشيد) فعرضتها عليه، فأبى قبولها، وطمعت أن يلاعبنى فأخاطره عليها وهو يغلبنى، فتطيب نفسه. فقال لها السائل: ما كانت هذه الدواة؟ فقالت إن جعفرا دخل على أمير المؤمنين، فرأى بين يديه دواة من العقيق الأحمر محلاة بالياقوت الأزرق والأصفر، فرآه ينظر إليها، فوهبها له. ثم قالت: قلت لجعفر: هبك اعتذرت بما سمعت، فما عذرك من الرضا بمغاضبة أبيك حين قال: لاعبه وأنا معك، فقلت أنت: نعم، وقال هو: لا. فقال: عرفت أنه غالبى ولو فتر لعبه لتغالبت له مع ماله من الشرف والسرور بتحيز أبيه إليه. فقال لها السائل مادحا للأخوين ومعجبا: بَخٍ بَخٍ هذه والله السيادة، ثم قال لها: أكان منهما من بلغ الرشد، فقالت له: يا بُنَىَّ أين يُذْهَبُ بك؟! أخبرك عن صبيَّيْنِ يلعبان، فتقول أكان منهما من بلغ الرشد، لقد كنا ننهى الصبىّ - إذا بلغ العشر وحضر من يُسْتَحَيى منه - أن يبتسم».

وهذه الدرة - كما يسميها ابن ظفر - أو هذا الخبر عن الفضل بن يحيى البرمكى وأخيه جعفر بلسانْ أمهما يصور مدى براعة ابن ظفر الأدبية فى السرد الأسلوبى لأخبار نجباء الأبناء بحيث لاتجد عنده أى غرابة ى لفظة ولا أى التواء فى عبارة، بل تجد أسلوبا مطردًا متسقا

يروع بحسن اتساقه، فإذا أنت تركت ذلك إلى ما يشتمل عليه هذا الخبر من تربية وجدته يصور إلى أبعد حد الفطنة التى ينبغى أن يتحلى بها الناشئة إزاء إخوتهم ورفقائهم بحيث لا يبدر منهم لهم ما قد يؤذيهم، والخبر بحق يجسِّد آداب الأخوَّة كما يجسِّد التربية الرشيدة للأم وما أروع قول الأم: لقد كنا ننهى الصبى - إذا بلغ العشر وحضر من يُسْتحيَى منه - أن لا يبتسم». وهى صحيفة تربوية بديعية فى آداب الأخوة خاصة وآداب السلوك عامة.

سلوان المطاع فى عدوان الأتباع

كتاب نفيس فى التربية السياسية ترجمة المستشرقون إلى الإنجليزية والإيطالية، وقد استهله ابن ظفر بشكر القائد الصقلى محمد بن أبى القاسم القرشى الذى صنعه له سنة ٥٤٥ ويقول فى خطبته أو مقدمته إنه عمد فيه إلى أمثلة استأثر خواص الملوك ببضاعتها، ومنعتهم الغيرة عليها من إذاعتها، فتوسع فى التعبير بألفاظه عنها والتفنن بقوى فطنته فيها، وكسا جسومها حلل الآداب الملوكية، وقلَّد عواتقها بسيوف المكايد الحربية. فالكتاب إذن ليس رواية عن كتب غيره السابقة، بل هو من تأليفه وصنعه نثرا وشعرا وحكما وأمثالا وقصصا، وهو فيه يكثر من ضرب الأمثال تارة على ألسنة بعض الحيوانات مثل كليلة ودمنة، وتارة على ألسنة شيوخ حكماء ووزراء دهاة من الفرس والعرب، وقد يتوسع بذكر قصص عن ملوك اليونان وبالمثل عن ملوك الفرس. وقد يستطرد من قصة إلى قصة أو من مثل إلى مثل على طريقة كتاب كليلة ودمنة. وإذا كان كتاب أنباء نجباء الأبناء فى السلوك الاجتماعى والخلقى وآدابها فإن هذا الكتاب فى آداب السياسة وما ينبغى أن يكون عليه الحاكم من الرفق بالرعية والعدل والإنصاف وما ينبغى أن يتخلَّى عنه من البغى والطغيان والعسف والظلم. والكتاب موزع على خمس سلوانات: السلوانة الأولى فى التفويض، والثانية فى التأسى، والثالثة فى الصبر، والرابعة فى الرضا، والخامسة فى الزهد. وعادة يبدأ السلوانه بآى من القرآن الكريم وبأحاديث نبوية، ويعلق عليها تعليقات طريفة، ثم يفضى إلى غرضه فى الكتاب من ضرب الأمثلة والقصص الحيوانية والإنسانية تبصرة وعظة للحكام، حتى يتبعوا الصراط السوىّ فى تدبير حكمهم وشئونه مع سياسة الرعية سياسة حكيمة محكمة.

وابن ظفر يذكر فى مستهل سلوانة التفويض لأحكام الله قوله تعالى: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شَرٌّ لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾. ثم يذكر قصة مؤمن آل فرعون التى وردت فى الذكر الحكيم وكيف أن الله تقدس اسمه وقاه سيآت ما مكروا، ويذكر بعض أسجاع وأبيات حكمية، فمن النثر قوله:

معارضة العليل طبيبه، توجب تعذيبه... إنما الكيِّس (العاقل) الماهر، من استسلم فى قبضة القاهر - إذا التبست الموارد بالمصادر، ففوِّض إلى الواحد القادر.

ومن الشعر قوله:

يـا ربَّ مـغـتـبطٍ ومـغـ ـبوط برأيٍ فيه هُلْكه
عـلمُ العـواقـب دونــه سِتْرٌ وليس يرام هتكه
ومعـارضُ الأقـدار بـالـ آراء سَيِّءُ الحال ضَنْكه

ويذكر مأزقين لخليفتين: أموى وعباسى، هما الوليد بن يزيد بن عبد الملك، والمأمون وكيف أن لقاءهما بشخصين محنكين بصَّراهما بما ينبغى أن يتخذا من سياسة إزاء باغيين عليهما، أما شيخ الوليد فقد عرض عليه مأزقا مماثلا لجده عبدالملك بن مروان وكيف أن شيخا كبير السن لقيه وهداه إلى ما ينبغى اتخاذه من السياسة والتدبير حتى ينتصر على عدوه الباغى، وضرب له مثلا أو قصة عن ثعلبين وحية وكيف أن الباغى تدور عليه الدوائر، وأما شيخ المأمون فضرب له مثلا من بَغْى فيروز الملك الفارسى على ملك الهياطلة الذى كان قد أسره فى بعض الحروب ورد إليه حريته بعد أن عاهده على أن لا يغزو بلده ولا يقصدها بسوء، ودارت الأيام بعد رجوعه إلى دار ملكه فصمم على غزو ملك الهياطلة وبلاده، وفى طريقة بغى أحد فرسانه على مسكين فقتله، وتصدَّى له أخوه يريد مصارعته، وخوَّفه الناس منه، فقال لهم: دعونى وإياه فإنه على فرس الغرور وأنا على فرس البصيرة، وهو لابس درع الشك وأنا لابس درع الثقة، وهو مقاتل بسيف البغى وأنا مقاتل بسيف الحق، وانتصر الحق على البغى وقتل أخو المسكين الفارس أو الإسوار العظيم من أساورة فيروز. ويقول الشيخ للمأمون إن فيروز لم يتعظ من هذا الحادث ومضى حتى وطىء كثيرًا من أرض ملك الهياطلة، والتقيا ودارت الدوائر على فيروز وجنده ثمرة بغيه وعدوانه. ولقيت مقالة الشيخ قبولا لدى المأمون على إرسال الجيوش للباغى عليه، وكان أخاه الأمين الذى نكث عهد أبيه أن يكون المأمون ولى عهده والخليفة بعده، فنكث العهد ونشبت بينهما الحرب ضارية وانتصر جيش المأمون وقتل الأمين الذى لم يرع لأبيه عهده ولا خاف تبعة نكثه.

وخلال هذه الأمثال أو القصص التى ضربها الشيخان للمأمون والوليد تتعاقب حكم كثيرة طريفة لتوعية الحكام بآداب الحكم وما ينبغى أن يأخذوا به أنفسهم من السياسة الحكيمة للرعية ومع الأعداء. من ذلك قول ابن ظفر: «الرأى سيف العقل - كل رأى لم تتمخض به الفكرة ليلة كاملة فهو مولود لغير تمام - من دلائل الوفاء بر الآباء والأمهات وصلة ذوى القرابات - الباغى باحث عن مدية حتفه بظِلفه ومتردٍّ فى مهاوى تدميره بمساوئ تدبيره - الهوى طاغية فمن ملكه أهلكه - الهوى كالنار إذا تحكم اتقادها عسر إخمادها، وكالسيل إذا اتصل مده تعسَّر صده».

ودائمًا تلقانا مثل هذه الحكم فى الكتاب، وننتقل معه إلى سلوانة التأسى، وقد أدارها على قصة طويلة لسابور الملك ووزيره وحيله واستطرد فى أثنائها لقصتى فتى وفتاة وفرس وخنزير وينثر فى تضاعيفها كثيرًا من الحكم السياسية والاجتماعية مثل قوله: مَنْ غرس العلم اجتنى النباهة، ومن غرس الزهد اجتنى العزة، ومَنْ غرس الإحسان اجتنى المحبة، ومن غرس الحلم اجتنى الحكمة، ومن غرس الوقار اجتنى المهابة، ومن غرس المداراة اجتنى السلامة، ومن غرس الكبر اجتنى المَقْت، ومن غرس الحرص اجتنى الذل، ومن غرس الطمع اجتنى الخزى، ومن غرس الحسد اجتنى الكمد. ويقول: تتميز الملوك على السوقة بفضيلة الذات لا بفضيلة الآلات، وفضيلة ذات الملك تتميز بخمس خصال: رحمة تشمل الرعية، وتغطية تحوطهم، وصولة تذبُّ عنهم، وفطنة يكيد بها الأعداء، وحزم ينتهز به الفرص. ويقول فى سلوانة الصبر التالية:

صبر الملوك ثلاثة قوى: قوة الحلم وثمرتها العفو، وقوة الكلاءة (الرعاية) والحفظ وثمرتها عمارة المملكة، وقوة الشجاعة وثمرتها فى الملوك الثبات وفى حُماة المملكة الإقدام فى المعارك، ولا يراد من الملك الإقدام فى المكافحة، فإن ذلك من الملك تهوروطيش وتغرير، وإنما شجاعته ثباته حتى يكون قُطْبا للمحاربين ومعقلا للمنهزمين، وهذا ما دام بحضرته من يثق بذبِّه عنه، ودفاعه دونه، وحمايته له. ومما قاله فى هذه السلوانة: صلاح الملك: الرفق بالرعية، وأخذ الحق منها بغير عنف، والتودد بالعدل، وأمن السبل، وإنصاف المظلوم.

وتلى ذلك سلوانة الرضا، ومن حِكمه فيها الرياء سراب يخدع الفطن القاصرة، ولا يخفى عن البصائر الباصرة – أمران يسلبان الحر كمال الحرية: قبول البرِّ، وإفشاء السر – كثرة النوم تجلب الدمار وتسلب الأعمار – مَنْ لزم الرقاد عدم المراد – كن من عينك على حذر، فرب جنوح حَيْن (هلاك) جناه جموح عين – السآمة من أخلاق العامة – ما أحرى الملولَ بأن يحرم المأمول. ومن قوله فى سلوانة الزهدالأخيرة:

يا متعبًا كدَّه الحِرْ ... صُ فى الفضول وكاده
لو حزتَ ما حاز كسرى ... وما حوى وأفاده
ما كنت إلا معنىًّ ... ومغرما بالزِّياده
لم يَصْفُ فى الأرض عَيْشٌ ... إلا لأهل الزهاده

ودائما يضع مثل هذه الأبيات فى صدر كل سلوانة، مما يصور شاعرية خصبة لديه بجانب ما يسوق من حكم مسجوعة فى عبارات محكمة، وأيضا ما يسوق من أمثال وقصص فى أساليب متناسقة، تصور حسا دقيقا وذوقا مصفى وقدرة على الحوار الأدبى البارع.

ملحـــق

ابن قلاقس الإسكندرى[1] فى صِقلِّية

لعهد غليوم الثانى

مرَّت بنا ترجمة ابن قلاقس الإسكندرى فى الحديث عن تاريخ الأدب العربى بمصر، وهناك ألممنا برحلته إلى صقلية فى إيجاز، وحرىّ بنا الآن أن نفصِّل الحديث فيها بعض الشىء تتمة للكلام عن صقلية، وقد رحل إليها فى سنة ٥٦٣ للهجرة، وهو فى نحو الثلاثين من عمره وظل بها نحو سنتين، وحار الدارسون له فى تبين أسباب تلك الرحلة ودوافعها، غير أن من يتعقب أشعاره وأخباره يعرف أنه كان على صلة وثيقة بالرشيد بن الزبير أحد أعلام الثقافة والأدب والشعر فى عصره حين ولى النظر بثغر الإسكندرية فى الدواوين السلطانية سنة ٥٥٩ للهجرة وكان قد وضع يده فى يد صلاح الدين الأيوبى حين ولاه عمه أسد الدين شيركوه الإسكندرية فى أثناء حربه مع شاوَر وزير الفاطميين وأعوانه من الصليبيين سنة ٥٦٢ وتطورت الظروف حينئذ وعاد صلاح الدين مع عمه شيركوه إلى الشام وتركا مصر. ولم يكن هم شاوَر بعد خروجها من مصر فى تلك المرة إلا طلب من انضموا إلى صلاح الدين من رجال الدولة فى الإسكندرية وفى مقدمتهم الرشيد بن الزبير، وسارع الرشيد فاختبأ فى إحدى الدور بالمدينة فترة، وقُبض عليه وقُتل فى شهر المحرم سنة ٥٦٣ ونرى ابن قلاقس يرسل إليه فى مخبئه قصائد يستهل إحداها بقوله:

تدانيتَ دارًا والوُصُـولُ شُسُوعُ   فخِلُّك ذو الودِّ الوَصول قَطوعُ

وهو يقول له إن دار مَخْبَئِك قريبة، غير أن الوصول بعيد، وكأنه يخشى أن يزور الرشيد فيتنبه رجال شاوور إلى مخبئه، ويقول له: خلكَ الودود الوَصول يُرَى كأنه لم يثبت على ودك وإخائك، ولعله يريد نفسه، وفى رأينا أن هذه الصلة بين ابن قلاقس والرشيد الذى كان فى مقدمة الثائرين على شاور وانحاز إلى صلاح الدين وما حدث من طلب شاوَر له، ومقتله هذه الصلة هى التى جعلت ابن قلاقس - فى رأينا - يفكر فى الرحيل عن الإسكندرية خشية أن يلقى نفس المصير على يد رجال شاور، إما لصداقته للرشيد وإما لأنه كان ممن التفّوا حول

---

(١) انظر فى رحلة ابن قلاقس إلى صقلية كتاب خريدة القصر: قسم شعراء مصر (طبع القاهرة) ١٤٦/١ وما بعدها وكتاب الزهر الباسم والعَرْف الناسم فى مديح الأجلّ أبى القاسم لابن قلاقس تحقيق الدكتور عبدالعزيز المانع (نشر جامعة الملك سعود) والنصوص الصقلية من شعر ابن قلاقس الإسكندرى وآثاره النثرية للدكتور محمد زكريا عنانى (طبع دار المعارف) وترسل ابن قلاقس الإسكندرى تحقيق الدكتور عبد العزيز بن ناصر المانع (طبع الرياض) وكتاب العرب فى صقلية للدكتور إحسان عباس ص ٢٨٧ وما بعدها.

صلاح الدين فى مقامه بالإسكندرية حينئذاك. وأخذ يفكر إلى أَيْنَ يرحل ورأى أن يرحل بعيدا عن مصر وديارها، وصمَّم على الرحيل إلى صقلية، وكان قد سمع ممن يلمون بمجالس شيخه السلفى أحيانا من أهل صقلية فى ذهابهم إلى الحج أو فى عودتهم منه - بزعيم المسلمين بجزيرتهم أبى القاسم ابن الحجَر بن حمود بن محمد القرشى وكرمه الفياض وفى كتابه الرائع: الزهر الباسم والعرف الباسم فى مديح الأجل أبى القاسم الذى وصف فيه رحلته إلى صقلية وسجل مدائحه فى أبى القاسم بن الحجر نراه يذكر أنه كان قد أرسل إليه مدحة سنة ٥٦١ فكان طبيعيا أن يفكر فى النزول بجزيرته فرارا من شاور ورجاله. ونزل فى غُرَّة شعبان من سنة ٥٦٣ فى مدينة مَسِّينى فى الشمال الشرقى من صقلية، وأعجب بموقعها من البحر المتوسط وبمشاهدها الطبيعية ومبانيها الرائقة، مما جعله ينشد فى وصفها قوله:

بلدٌ أعـارتْـه الحمـامـةُ طَـوْقَهـا ... وكـسـاهُ حُـلَّةَ رِيـشـهِ الـطاووسُ
فكـأنمـا الأزهـارُ منـه سُـلافـةٌ ... وكـأنَّ سـاحـاتِ الـديـارِ كئـوسُ

ومكث بها فترة قليلة، واتجه غربا إلى العاصمة «بلرم» على الساحل الشمالى للجزيرة، وأحسن استقباله أبوالقاسم بن الحجر بن حمود القرشى وظل حفيا به طوال مقامه بالجزيرة، وكان زعيم المسلمين فى الجزيرة، كما أسلفنا، ومن كبار رجالات الدولة لعهد الملك غليولم (غليوم) الثانى وأخذ ابن قلاقس يتعرف عن طريقه إلى بعض رجال الدولة النورمانية، وكأنما كان من واجب من ينزل صقلية من الشعراء المسلمين أن يمتدح مليكها النورمانى وبعض رجال دولته، ومر بنا أن عبد الرحمن بن رمضان المالطى استنفد أكثر شعره فى مديح روجَّار وأن ابن بشرون المهدوى التونسى مَدَحَ روجار الثانى، وقد مدح ابن قلاقس غليولم (غليوم) الثانى بقصيدة ميمية روتها إحدى مخطوطات الديوان، وله يقول:

كـذا فـليكـنْ عـزمُ الملوكِ وقـلما ... تـرى ملكـا يـأتى بمـالَـكَ من عَـزْمِ

وفى القصيدة مبالغات مفرطة فى مديح غليوم، وكان حريا بابن قلاقس أن يأنف من أن يسبغها على ملك مسيحى نهب هو وآباؤه الجزيرة من أهلها المسلمين، ولكن ربما دفعته إلى ذلك ضرورة لبقائه فى الجزيرة دون تعرض له أوللإذن برحيله، ولعل نفس الضرورة هى التى دفعته لمديح جُرْدنًّا أحد رجال الدولة النورمانية ويصفه بأنه وزير، وربما كان قائما على شئون الأمن، وفيه يقول:

وجـرَّدْنـا المـدائـحَ فـاستقـرَّتْ ... على أوصـاف جُـرْدَنّـا(١) الـوزيـرِ
فنـظَّمنـا المفـاخـرَ كـالـلآلى ... وحلَّيْنـا المعـالـىَ كـالنُّحـورِ

(١) فى الزهر الباسم: يزجُرْدَ.

وأعجبُ ما جرى أنا أمِنّا ... ونحن بجانب اللَّيْثِ الهصورِ[1]
رأى منه المليكُ حِلَى أمينٍ ... بَرِيءِ النُّصْحِ من سَقم الضميرِ
فصدَّره على الديوان سَطْرًا ... هو البَسْمُ الذى فوق السطورِ
ومدَّ على الرعيَّة ظِلَّ عدلٍ ... وقاهم لَفْحَ ألسنةِ الهَجِيرِ

والقصيدة تطفح بالمبالغات المسرفة مثل قصيدة غليولم (غليوم) الثانى. وشخصية ثالثة من شخصيات الدولة النورمانية هى شخصية غارات بن جوش، ولم ينظم فيه قصيدة إنما كتب إليه رسالة شكر، يقول فيها إنه فارق حضرته: «ممتلىء اليد نعمة، والفم نغمة، والخاطر آمالا، والناظر أموالا، اصطناعا منها (أى الحضرة) وتفضلا أبى الله أن يصدر إلا عنها».

وإذا رجعنا إلى راعيه أبى القاسم بن الحجر الذى قصد الجزيرة من أجله وجدناه يلقَّب بالقائد، وكان من الأثرياء ذوى الإقطاعات الواسعة، ويذكر ابن جبير فى رحلته أنه رأى له ولأهل بيته قصورا أنيقة فى بلرم، وقد أضفى على ابن قلاقس من الإكرام والأموال مما جعله يلهج بالثناء عليه فى قصائد كثيرة بل ما جعله يؤلف فيه كتابه الزهر الباسم من أوصاف أبى القاسم» ويشيد فى مطلع الكتاب به إشادة رائعة، ثم يصف ركوبه البحر المتوسط نثرا مسجوعا بديعا وشعرا رائعا من مثل قوله:

الناس كُثْرٌ ولكن لا يقدَّر لى ... إلا مرافقةُ الملَّاحِ والحادى
أقلعتُ والبحر قد لانتْ شكائمُه ... جدًّا وأقلعَ عن موجٍ وإزْبادِ
فعاد - لاعاد - ذاريحٍ مدمِّرةٍ ... كأنها أختُ تلك الرِّيحِ فى عادِ
ونحن فى منزلٍ يَسْرِى بساكنِه ... فاسْمَعْ حديثَ مقيمٍ بيْتُه غادى
لا يستقرُّ لنا جَنْبٌ بمضجعِه ... كأن حالاتنا حالاتُ عُبَّادِ

وهو يقول إن كثيرين من الناس مقيمون لا يبرحون ديارهم وأوطانهم، أما هو فُقدِّر له أن يرافق الملاحين فى لجج البحار وحُداة الإبل فى فيافى الصحارى، ثم يقول إن السفينة أقلعت رافعة شراعها وقد سكن البحر وكفَّ عن موجه وإزباده، وسارت السفينة فى عرض البحر المتوسط، وما هى إلا ساعات حتى هبَّت ريح عاصفة أشد العصف، كأنها أخت ريح عاد الموصوفة فى الذكر الحكيم بأنها صَرْصر شديدة البرد عاتية ويتصور السفينة منزلا غير أنه منزل لا يستقر، وكأنه ساكن مقيم وبيته منطلق به، وهو ومن حوله لا يستقر لهم جنب فى مضاجعهم بهذا المنزل لكثرة تمايله، وكأنما هم عُبَّاد فهم بين راكع وساجد منكفىء على جبينه. ومازالت تلك

(١) الهصور: المفترس.

حال السفينة وسكانها والبحر المتوسط وجنونه حتى اقتربتْ السفينة من الجزيرة وثغر مِسِّينى فى أقصى الشمال الشرقى، وحينئذ كست البحرَ الرُّخاءُ (الريح الليِّنة) ثوب وقارها، وأمسكت الزَّعْزَعُ (الريح العاصفة) عنه كأسَ عُقارها (خمرها) وصحا بعد جنونه وسكره» كما يقول ابن قلاقس.

ومضى العماد فى الخريدة يقتبس من كتاب الزهر الباسم بعض المدائح التى نظمها ابن قلاقس فى أبى القاسم بن الحجر، ويتضح منها ومما تحدث به عن أبى القاسم فى الكتاب أنه لم يكن قائدا أو مساعدا من مساعدى الدولة فحسب، بل كان أيضا على رأس دواوين الدولة، ومعروف أن تلك الدولة كانت تتخذ العربية لغة رسمية لها أو على الأقل كانت مكانتها فى الدواوين لا تقل عن مكانة اللغة النورمانية، ونرى ابن قلاقس يشيد ببراعة أبى القاسم الكتابية حتى ليقول: «إن ألبس قلمه المداد عَرِى من الفصاحة قُسُّ إياد، وإن أنطق طِرْسَه الرسائل، أخْرسَ عن الخطابة سحبان وائل، يلزم لديه ابن العميد، سَمْتَ العبيد، ويغدو عليه عبد الحميد غير حميد، ويقول له الصاحب أنا عبد لا صاحب ونهاية الصابئ أنه بألفاظه صابئ». وهو بذلك يرفع بلاغته الكتابية فوق بلاغة قس الإيادى خطيب الجاهلية وسحبان وائل خطيب العصر الأموى وعبد الحميد الكاتب المشهور فى الدولة الأموية وابن العميد والصاحب بن عباد الكاتبين الفذين للدولة البويهية والصابئ الكاتب البغدادى المعروف فى القرن الرابع، وكان من الصابئة ويستغل اسمه فى أنه إزاء بلاغة أبى القاسم يصبأ أو يكفر ببلاغته. ومن قوله فيه بأولى مدائحه، وفيها يصف البحر وركوبه وصفا بديعا:

أنت فى الفضل فى بنى الحجَر السَّا	دةِ مثلُ الياقوت فى الأحجار
وبيُمْناك طَيْرُ يُمْنٍ وسَعْدٍ	أَصْفَرُ الظَّهْرِ أسودُ المنقارِ
قلمٌ دبَّر الأقاليم فالكُتْـ	ـبُ به من كتائب الأقدارِ
يا طرازَ الديوان والمُلْك أصبحـ	ـتَ طرازَ الديوانِ فى الأشعارِ

والبيت الأول بديع، فبنو الحجر السادة أحجار كريمة، وهو بينهم ياقوت متوهج، وبيمناه قلم كأنه طير يمن وسعد، جلده - أو كما يقول ظهره - أصفر ومنقاره أسود، وهى إشارة بديعة إلى أنه يُغْمَسُ فى مداد أسود، ويقول: إن هذا القلم يدبرٌ أقاليم الجزيرة بما يكتب من رسائل ديوانية مختلفة، سياسية وغير سياسية يصرِّف بها أمور سكان الجزيرة المسلمين، ويهنئه بأنه زخرفُ الديوانِ والملك النورمانى، وانضاف إليه أنه أصبح زخرفَ ديوانه وأشعاره. ويقول فى قصيدة أخرى:

قد أقسم الحمدُ لا يُشِيرُ إلى	غير أبى القاسم بن حمُّودِ

فـي يـده للنـوال مـعـركـةٌ ... أَرْدَى بها البُخْلَ صارمُ الجودِ[١]
وتلتقى كُتْبُهُ الكتائب فى ... جيشٍ من الخَطِّ صائدِ الصِّيدِ[٢]
بكل لفظٍ كأنه نَفَسٌ ... غيرِ مملٍّ بطول ترديد
صَحَّتْ معانيه فانْقَسَمن إلى ... فضلِ ابتكارٍ وحُسْنِ توليد
وربما استضحك الخميسُ به ... عن أَهْرَتِ الماضغين صِنْديدِ[٣]

فالحمد لا يعرف طريقا إلى أحد يستحقه سوى ابن حمود أو ابن الحجر الذى أقام للجود معركة تلمع فيها السيوف القاطعة للرقاب: رقاب البخل والشحِّ البغيض، وإن رسائله لتخضع لها كتائب الجيوش المسلحة، وبعبارة أخرى تخضع لجيش من الخط والكتابة البليغة التى تستنزل العصاة العتاة، بكل لفظ يلذ اللسان والآذان بحسن جرسه وروعة معانيه المولدة والمبتكرة. وليس ذلك كل ما يميز ابن حمود فإنه يتميز أيضا بالبأس والشجاعة حتى لكأنه أسد يمزق فرائسه بماضغيه أو أنيابه، أسد صنديد، شديد غاية الشدة. ولابن قلاقس مدائح وأشعار كثيرة بديعة فى ابن الحجر، من ذلك قوله:

إن ابنَ حمودٍ له راحةٌ ... تستجلب الحمدَ من المِرْزَمِ[٤]
فى كلِّ يومٍ لوفود النَّدى ... ببابه مُجْتَمعُ المَوْسِمِ
للمال من راحته عندهم ... أضعافُ ما للماء من زَمْزَمِ
ولو أعار الليلَ آراءه ... ما احتاج ساريه إلى الأنجمِ
فضائلٌ كادتْ لإفراطها ... تُنْطِقُ بالشكر فَمَ الأَبْكَمِ

وهو يقول إن راحة ابن حمود ما تزال تهطل بالجود، حتى لكأنما تريد أن تجلب لنفسها الحمد من نوء المطر وغيثه المدرار، ويبالغ فى مديحه فيقول كل يوم تجتمع الوفود ببابه وتأخذ من ماله أضعاف ما يأخذ الناس من ماء زمزم، ولو أنه أقرض الليل آراءه ما احتاج ساريه إلى نجوم تهديه فى جنح الظلام. فضائل ليس لها مثيل تكاد تنطق فم الأبكم بالشكر والامتنان. ونراه يقوم برحلة بحرية إلى سرقوسة فى شرقى صقلية، ويبدأ فيها بمدينة ثرمة فى الشمال شرقى بلرم، وغادرها سريعا لحرارتها الشديدة حتى لكأنه شرب فيها ماء المُهْلِ أو شراب الكفار فى جهنم أو كأنما طَعِمَ شجرة الزقوم طعام الكفار فى النار الحامية، واتجه شرقا إلى جَفلود، وشاهد رياضها

(١) صارم: سيف.
(٢) الصيد جمع أصيد: السيد.
(٣) الخميس: الجيش. أهرت الماضغين: واسع الشدقين. صنديد: شجاع.
(٤) المرزم: نوء كثير المطر.

وما يحفّ بالعيون فيها من حورعين، غير أنه أسرع فى مغادرتها إسراع من يُطْلب بالدَّين أو كمن يُطْلب فى صقلية بالدِّين مشيرا بذلك إلى اضطهاد المسلمين فيها، ويقول إنه نزل ثغر مسِّينى وظل فيها تسعين يوما عند جلف ثقيل الظل لا يخفّ أبدا حتى لو طار بجناحى جبريل، وركب السفينة أو المجنونة كما يسميها على ماء مجنون حتى ليظن أنه سيكون طعاما للحيتان، وينزل سرقوسة أخيرا ويجد فيها الملجأ الأمين. والقصيدة وصف بديع لرحلة بحرية فى صقلية، وقد أتبعها بوصفه لرحلة برية من سرقوسة إلى بلرم حيث راعيه الأمين أبو القاسم بن الحجر، ولا يتضح سبب رحلته إلى سرقوسة وعودته، وفى رأيى أنه كان يبحث فى الثغور التى مرَّ بها عمن يحدثه عن مصر وأحوالها وهل لا يزال شاور وأعوانه متسلطين فيها على الحكم، وكان أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين قد عادا إلى مصر سنة ٥٦٤ فى قدمتهما الثالثة، وسرعان ما قُبض على شاور وقُتل وتولى أسد الدين الوزارة لمدة شهرين وتوفى، وتولاها صلاح الدين. وأكبر الظن أن كل ذلك علم به ابن قلاقس، فاطمأن وصمَّم على العودة إلى وطنه بعد وداع راعيه أبى القاسم وأصدقائه فى بلرم من مثل هبة الله السديد الحصْرى وله فيه مدائح بديعة ومثل الفقيه أبى الحسن على بن أبى الفتح بن خلف الأموى، ويقول عنه فى كتابه الزهر الباسم: «هو حَدَقة العلم الناظرة، وحديقة الأدب الناضرة» ويسوق ابن قلاقس فى الكتاب ما كان بينهما من مكاتبات شعرية قبيل رحيله، وله يقول مودعا:

تَخِذْتُكَ من صَقَلِّيَةٍ خليلا ... فكنتَ الوَرْدَ يُقْطَفُ من قَتَادِ
وشِمْتُكَ بينَ أهليها صَفِيًّا ... فكنتَ الجَمْرَ يُقْبَسُ من زِنادِ

وابن قلاقس لا يريد أن يهجو صقلية وأهلها بأنهم شوك وابن خلف وحده هو الورد، ولا أنهم زناد صَلْد لا يخرج منه شرر وهو وحده الجمر، وكل ما فى الأمر أنه مدحه مودعا وبالغ فى مدحه. ولابن قلاقس أشعار متعددة فى وصف مجالس الشراب بصقلية ووصف المغنين بها والراقصات من مثل قوله:

ومغنٍّ تناولتْ يدُهِ العو ... دَ فعادتْ بنا إلى الأفراحِ
بين ريحٍ من المزامير أَسْرَى ... بين أَجْسامنا من الأرْواحِ
وصِباحٍ قد عقدوا طُرَرَ اللَّيْـ ... ـل جمالا على الوجوه الصِّباحِ
يبعث الرقْصُ منهمُ حركاتٍ ... سرقتْ بعضَها طِوالُ الرِّماحِ

وهو يقول إن صوت المغنى وهو يضرب على العود صوت مفرح ونسيم أنغام المزامير من حولهم تسرى فى أجسامهم سريان الأرواح، وراقصات فاتنات تنهدل خصل الشعر على جباههنَّ وهن يتثنين ويتحركن حركات رشيقة، وكأنما سرقت الرماح فى أيدى المحاربين بعض

حركاتهن ورَشَاقتهن. وقد رحل عن صقلية والصلة بين أبى القاسم والدولة صلة طيبة، وبتأثير من الوشايات صُودرتْ أمواله بعد رحيل ابن قلاقس وإقطاعاته وأُغْرم ما يزيد على ثلاثين ألف دينار، وزار ابن جبير الجزيرة وقد عُفِى عِنه وعاد إلى سابق العهد به، ولذلك يقول ابن جبير عنه حينئذ إنه زعيم أهل الجزيرة من المسلمين وسيدهم. وعاد ابن قلاقس إلى القاهرة سنة ٣٦٥ قبل تولِّى صلاح الدين وزارة العاضد الفاطمى فمدحه ومدح رئيس الدواوين، القاضى الفاضل، وكأنما ظن أن الأحوال فى مصر لاتزال غير مستقرة فرأى أن يزور اليمن، وربما كان الذى حبَّبه فى زيارتها صديقه الرشيد بن الزبير الذى كان قد زارها وتقلَّد أحكامها وقضاءها فترة كما يقول ياقوت، وفى أثناء عودة ابن قلاقس منها سنة ٥٦٧ أسلم روحه إلى بارئها بثغر عيذاب على الساحل المصرى للبحر الأحمر وهو ابن خمس وثلاثين سنة.

خاتمة

١

تحدثت - فى الصحف الماضية - عن ليبيا فى القسم الأول من هذا الجزء الخاص بتاريخ الأدب العربى فيها وفى تونس وصقلية من الفتح العربى إلى العصر الحديث. وعرضت جغرافيتها وتاريخها القديم وأنها ظلت تستقبل الحضارات الفينيقية والقرطاجية واليونانية والرومانية والبيزنطية دون أن تضيف إليها شيئا، وألممت بفتح العرب لها فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب وتعاقب الولاة عليها فى العصرين الأموى والعباسى، وتبعية طرابلس للدولة الأغلبية فى القيروان منذ سنة ١٨٤هـ/٨٠٠م إلى ٢٩٦هـ/٩٠٨م بينما كانت برقة تتبع مصر. ويتبعان جميعا الدولة العبيدية، ويسترد بلكين الصنهاجى تبعية طرابلس إلى القيروان ويؤسس بها بنو خزرون دولة ظلت خمسين عاما، وتعمها هى وبرقة الهجرة الأعرابية الكبرى فى منتصف القرن الخامس الهجرى، وقد أحالوا معظم ليبيا إلى مشيخات بدوية، ويعيث فيها فسادا قراقوش وابن قراتكين وابنا غانية فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى، وتتبع برقة مصر فى عصر الأيوبيين والمماليك، ويوكلون عنهم بنى عزاز فى حكمها وجبايتها، وتتبع طرابلس الدولة الحفصية فى تونس، ويؤسس بها بنو عمار دولة لهم من سنة ٧٢٤هـ/١٣٢٤م إلى ٨٠١هـ/١٣٩٨م وتعود للحفصيين ويستولى عليها شارل الخامس ملك إسبانيا سنة ٩١٦هـ/١٥١١م ويتركها سنة ٩٣٢هـ/١٥٢٦م لفرسان مالطة، ويخرجهم منها الأسطول العثمانى سنة ٩٥٨هـ/١٥٥١م وتظل للعثمانيين، ويتولاها منهم أحمد القرمانلى سنة ١١٢٣هـ/١٧١١م ويجعلها وراثية فى أبنائه إلى أن استردها العثمانيون منهم سنة ١٢٥١هـ/١٨٣٥م وبذلك تبدأ ليبيا عصرها الحديث.

وسكان ليبيا - من قديم - ينقسمون إلى حضر فى المدن على الساحل وما وراءه من بساتين وزروع، وإلى بدو رُحَّل فى منطقتى شبه الصحراء والصحراء الليبية المترامية الأطراف. وقد نزلتها عناصر جنسية كثيرة بجانب سكانها البربر من فينيقيين وإغريق ويهود ورومان وزنوج وعرب وترك وجَلَبِهم المسيحى الأوربى من القرصنة. وبجانب النشاطين الزراعى والرعوى وصيد الأسماك والإسفنج على السواحل نمت بليبيا صناعات يدوية كثيرة مثل عصر الزيت ونسيج الملابس والأبسطة ودبغ الجلود واستخراج الملح من السواحل. وكان البربر وثنيين،

ونزل بديارهم اليهود، وحاول الرومان وكنيسة الإسكندرية نشر المسيحية بها وخاصة فى المدن الشمالية واكتسحها الإسلام، ودخل فيه سكانها أفواجا، حتى أصبح دينَهم فى كل مكان كما أصبحت العربية لسانهم، وشاع المذهب الإباضى فى جبل نفوسة وطرابلس، وحاول العبيديون -حين أقاموا دولتهم فى القيروان- نشر عقيدتهم الإسماعيلية الشيعية فى ليبيا، ورفضها سكانها، وعلى مر العصور آثرت ليبيا مذهب مالك السنى، وتبع بعض أهلها فى العهد العثمانى المذهب الحنفى غير أن مذهب مالك ظل هو المذهب الغالب على الليبيين. ونرى كثيرين من الليبيين - على مر العصور - يؤثرون الزهد فى متاع الحياة والتقشف طلبا لما عند الله من الثواب ونعيم الفردوس، وشاعت بينهم فى الحقب المتأخرة الطرق الصوفية السنية.

ومنذ الفتح العربى ودخول ليبيا فى الإسلام كان فاتحوها يعملون - بكل ما وسعهم - على نشر الدين الحنيف بها، وسرعان ما شاعت فيها الكتاتيب لتحفيظ القرآن الكريم، كما استدارت فى المساجد حلقات الشيوخ يلقّنون الناس شيئا من تفسير الذكر الحكيم ومن الحديث النبوى وقواعد الفقه وتعاليم الإسلام، وأخذ بعض أبناء ليبيا يطلبون السعة فى الزاد العلمى، فرحلوا إلى المشرق للتزود من حلقات علماء العربية وعلماء الفقه والدراسات الدينية، وعُنوا خاصة بالأخذ عن الإمام مالك فقيه المدينة وتلاميذه المصريين. وأخذت تنمو العلوم الإسلامية واللغوية فى ليبيا على مر الزمن وازدهرت فى عهد الدولة الحفصية بما أنشأت من مدارس وما نشأ من زوايا كانت تُعْنَى بدراسة العلوم، وأصاب الحركة العلمية غير قليل من الخمود والركود فى عهد الدولة العثمانية.

وإذا تعقبنا العلوم والعلماء فى ليبيا على مر القرون لاحظنا أنه لم ينشأ فيها نشاط فى علوم الأوائل، بخلاف العلوم اللغوية والدينية فقد اشتهر فيها كثيرون فى مقدمتهم الأجدابى اللغوى فى القرن الخامس الهجرى والمقرئ مؤمن بن فرج فى القرن الخامس الهجرى أيضا والحافظ المحدث الكبير أحمد بن نصر الداودى فى القرن الرابع الهجرى وعلى شاكلته ابن عبيد فى القرن السابع، ويتكاثر الفقهاء السنيون مثل ابن المنمر فى القرن الخامس وعمران بن موسى فى القرن السابع، وبالمثل فقهاء الإباضية، ومنهم عمروس بن فتح النفوسى فى القرن الثالث والجيطالى فى القرن الثامن.

وأسرعت ليبيا فى التعرب لسببين : كثرة من نزل بها من القبائل وكثرة من استقر بها من الجند، وأتمت تعربها هجرة الأعراب الكبرى من بنى سليم وبنى هلال وامتزج الشعبان: البربرى والأعرابى وأصبحا شعبا واحدا فى الأخلاق والعادات والفروسية والنجدة والزِّى والمآكل والأفراح والأحزان، وسرعان ما انتصرت العربية على البربرية. ويشهد الرحالة العبدرى فى أواخر القرن السابع لأهل برقة بالفصاحة ولا تزال لغتهم فى التخاطب إلى اليوم

أقرب إلى الفصحى من لغة أى بلد عربى. ولم تحدث فى ليبيا قبل عصرها الحديث نهضة أدبية واسعة، ومرجع ذلك إلى أنها لم تنشأ بها دولة ترعى الأدب والأدباء ولا أنشئ فيها ديوان يبعث فيها حركة نثرية أدبية، وأول شاعر بها ينال شيئا من الشهرة خليل بن إسحق فى القرن الثالث الهجرى، ويتكاثر شعراؤها فى القرن السابع من أمثال فتح بن نوح الإباضى وابن أبى الدنيا وابن معمر، وأهم شعرائها فى العهد العثمانى البُهلول الطرابلسى، وله ديوان كله مدائح نبوية، ومن الشعراء بعده أحمد بن عبد الدائم. وتشير كتب التراجم بأن لهذا الكاتب الليبى أو ذاك رسالة أو مقامة، وتكتفى بمثل هذه الإشارة ولا تذكر منها شيئا، ولفتح بن نوح الإباضى الشاعر كتاب كله وعظ على شاكلة كتاب ملتقى السبيل لأبى العلاء المعرى.

٢

وانتقلت فى القسم الثانى من هذا الجزء إلى تونس فتحدثت عن جغرافيتها وتاريخها القديم وفتح العرب لها ودخول أهلها فى الإسلام أفواجا وظل مدة يتعاظم فيها وفيما وراءها من بلاد المغرب. ومن ولاتها الأولين وولاة المغرب جميعه عقبة بن نافع مؤسس مدينة القيروان وحسان بن النعمان مؤسس مدينة تونس وموسى بن نصير فاتح الأندلس وناشر الإسلام فيه وفى المغرب جميعه حتى المحيط، ووليها للعباسيين يزيد بن حاتم المهلبى وأحدث بها حركة أدبية خصبة، وتولاها إبراهيم بن الأغلب للرشيد سنة ١٨٤ هـ/٨٠٠م ويجعلها الرشيد وراثية فى أبنائه، وتظل تلك الدولة الأغلبية حتى سنة ٢٩٦ هـ/٩٠٨م ومن أعمالها الجليلة فتح صقلية سنة ٢١٢ هـ/٨٢٧م وفتح مالطة سنة ٢٥٥ هـ/٨٦٨م ونشر الدين الحنيف واللغة العربية بها، وتخلف الدولة العبيدية تلك الدولة إلى أن انتقل الخليفة العبيدى المعز إلى القاهرة سنة ٣٦١ هـ/٩٧١م وجعل حكم إفريقية التونسية بعده لقبيلة صنهاجة وزعيمها بلكين، وظلت تلك الدولة الصنهاجية موالية للخلفاء الفاطميين فى القاهرة إلى أن أعلن المعز بن باديس الصنهاجى استقلاله عن خلافتهم سنة ٤٣٨ هـ/١٠٤٦م وقيل بل فى سنة ٤٣٩ أو ٤٤٠ وغضب الخليفة الفاطمى المستنصر، فسلَّط عليه أعراب بنى سليم وبنى هلال النازلين شرقى الصعيد، وكانوا نحو نصف مليون، فاكتسحوا ليبيا وإفريقية التونسية، وحاربوا المعز فى القيروان وهزموه، واضطروه إلى الانزواء فى مدينة المهدية، واستقل بعض الولاة فى مدن إفريقية التونسية وأنحائها بالحكم، وقام فيها نظام أمراء الطوائف إلى نحو قرن. ونزل روجار الثانى النورمانى ساحل تونس سنة ٥٤٣ هـ/١١٤٨م واستولى على المهدية وطرده منها عبد المؤمن أمير دولة الموحدين المغربية سنة ٥٥٥ هـ/١١٦٠م وعاث بها فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى قراقوش وابن قراتكين وابنا غانية، وخلصها منهم الموحدون والدولة الحفصية، وازدهرت الحياة بها فى أيام

الحفصيين، وحاصر لويس التاسع تونس، وقُبر تحت أسوارها، ونهضت البلاد طوال ثلاثة قرون، وأغار عليها شارل الخامس ملك إسبانيا سنة ٩٤٣ هـ/١٥٣٦ م وخلصها من الإسبان الأسطول العثمانى سنة ٩٨١ هـ/١٥٧٤ م وأصبحت تابعة للدولة العثمانية وتوالى عليها البايات، ومن خيرهم مراد باى وتوارثها أبناؤه وحسين بن على وبالمثل توارثتها أسرته حتى العصر الحديث.

ونزل إفريقية التونسية - بجانب سلالات البربر العريقة بها - عناصر جنسية كثيرة: فينيقية وقرطاجنية ويهودية وزنجية ورومانية وألمانية من الوانداال وبيزنطية وعربية ومن كان فى جيوش العرب من الشعوب الإسلامية ونزلتها عناصر أندلسية وتركية وأوربية مسيحية ممن كان يأسرهم القراصنة، ومع كل هذه العناصر ظلت للعنصر البربرى الغلبة، وظل يفرض عليها شخصيته وهويته. وتموج إفريقية التونسية - من قديم - بطيبات الرزق من الزروع وأشجار الزيتون والفاكهة والنخيل، وتموج مراعيها بقطعان الغنم والأبقار والخيل والإبل. وتكثر بها الصناعات اليدوية مثل عصر الزيتون ودبغ الجلود وصناعة الزجاج والبلور والخزف والمنسوجات على اختلاف أنواعها والورق وكل ما تحتاج إليه المنشآت العمرانية. وأهلتها هذه المنتجات الصناعية والزراعية وما كان يرد إليها من إفريقيا السوداء لتكون سوقا تجاريا عالميا. وهيَّأها كل ذلك لرفه واسع فى المطعم والملبس وما يتصل بذلك من كثرة الاحتفالات والأعياد والعناية بالموسيقى وآلات الطرب. وحَظِيَتْ المرأة فى هذا المجتمع بمكانة كريمة.

وكان البربر قديما وثنيين، ونزلت بينهم جماعات من اليهود، وحاولت نشر دينها اليهودى فيهم واستجابت لها أقلية، واستولى الرومان على ديارهم وأخذوا يحاولون - كما حاولت كنيسة الإسكندرية - نشر الدين المسيحى بها وتأسست بعض الكنائس والأسقفيات، واعتنقه بعض البربر - وخاصة فى المدن الشمالية، وظلت فى العهود الإسلامية عناصر صقلية مسيحية تنزل بالبلاد، وعناصر أخرى ممن كان يأسرهم القراصنة من البحر المتوسط. والإسلام هو الدين السماوى الوحيد الذى عمَّ - بعد الفتح - إفريقية التونسية وجميع البلدان المغربية لتحريره الشعوب من الظلم والاستعباد ولبساطته ومحوه الفوارق الطبقية بين أفراد الأمة. واختارت إفريقية التونسية مذهب مالك الفقهى السنى، وعاش بجانبه المذهب الحنفى حتى نهاية القرن الثالث الهجرى، وعاد إلى الظهور أيام العثمانيين. ولم تنجح فى إفريقية التونسية مبادئ الإباضيين ولا مبادئ العبيديين الإسماعيلية الشيعية، ومن قديم يتكاثر بها الزهاد وكثرت فيها - منذ القرن السابع - الطحق الصوفية.

ونشطت الحركة العلمية فى إفريقية التونسية منذ الفتح، وكان يقودها فى أول الأمر الفاتحون بنشرهم للدين الحنيف وتعاليمه، وما نكاد نقبل على القرن الثانى الهجرى حتى ينشأ جيل من أبناء البربر والعرب يطلب المزيد من العلم ويرحل فى طلبه إلى المشرق للقاء أبى حنيفة ومالك

ويحمل مذهبيها إلى مدينتى القيروان وتونس، ويساعد فى ازدهار الحركة العلمية - على مر العصور - جامع أو جامعة عقبة فى القيروان وجامع أو جامعة الزيتونة فى تونس وما أنشأ الحفصيون من مدارس ومكتبات. وتعنى إفريقية التونسية بعلوم الأوائل ويؤسس فيها الأمير إبراهيم بن أحمد الأغلبى (٢٧١-٤٨٩هـ) بيت الحكمة للعناية بتلك العلوم، وتشتهر القيروان بأطباء كبار كان لهم تأثير عظيم فى النهضة الغربية كما تشتهر بفلكى جزائرى كبير هو على بن أبى الرجال كان له تأثير قليل فى علم الفلك الأوربى. وتؤسس الدولة الصنهاجية مدرسة فى الكيمياء، وينبغ فى الدولة الحفصية كيميائى هو التيفاشى، ونلتقى فيها بأطباء ورياضيين متعددين وببعض الجغرافيين. ويكثر علماء اللغة والنحو فى العهد الصنهاجى من مثل القزاز والحصرى، ويضع ابن عصفور أسس مدرسة نحوية تونسية، ويقود ابن رشيق بكتابه «العمدة فى صناعة الشعر ونقده» حركة نقدية واسعة، ويشتهر فى القراءات ابن خيرون حامل قراءة ورش عن نافع إلى موطنه، ولا يلبث أن يظهر إمام كبير من أئمة القراءات هو مكى بن أبى طالب. ومن أوائل المفسرين عكرمة مولى ابن عباس ومن كبارهم فى القيروان على بن فضال وابن بزيزة ويكثر الحفاظ المحدثون ومن كبارهم القابسى فى القرن الرابع والمازرى فى القرن السادس، ويتعايش فى الفقه المذهبان: المالكى والحنفى وفقهاؤهما فى القرنين الثانى والثالث من أمثال سحنون المالكى وعبد الله بن فروخ الحنفى، ثم تصبح الغلبة للمذهب المالكى منذ أخذ المعز بن باديس الناس والفقهاء به، ويعود المذهب الحنفى إلى الظهور فى عهد العثمانيين، وتكون له الكلمة العليا فى الفتوى والقضاء. وكل ما كان موضعا للمناظرة والجدل من المذاهب الكلامية فى المشرق انتقل إلى المغرب سواء فى ذلك مذاهب الخوارج والمرجئة والمعتزلة، وأخذ المذهب الأشعرى يعم منذ القرن الخامس الهجرى. ونشطت الكتابات التاريخية فى القيروان عن مغازى إفريقية والدولة الأغلبية وأمرائها والدولة العبيدية وخلفائها وعن علماء إفريقية وتاريخهم وتاريخ المغرب وعن شعرائها وعمن كان بها من الزهاد وكبار العلماء وعن دولة بنى عبدالواد بتلمسان، ولابن خلدون تاريخه العظيم ومقدمته النفيسة، ويلقانا بعده كتاب الهنتاتى عن الدولة الحفصية وكتاب ابن أبى دينار: المؤنس فى أخبار إفريقيا وتونس، وكتاب السراج: الحلل السندسية وكتاب حسين خوجه: ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان، وفيه ترجمات لفقهاء البلدان الكبيرة.

وعلى الرغم من أن اللغة البربرية ظلت تعايش لغتين متحضرتين هما الفينيقية واللاتينية فإنها لم تتحول قديما إلى لغة متحضرة لها أبجديتها وكتاباتها التاريخية، وكان من يتحضر من البربر أيام الفينيقيين يكتب بلغتهم، وبالمثل أيام الرومان، وكثيرون منهم كانوا يتقنون اللاتينية نطقا وكتابة، وظلت من ذلك بقية بعد الفتح، وسريعا أخذت البربرية لغة الشعب واللاتينية لغة بعض الخاصة تزايلان الألسنة وتحل محلها العربية حتى إذا كانت الهجرة الأعرابية الكبرى فى منتصف

القرن الخامس الهجرى اختلط البربر بالأعراب وكوّنوا شعبا عربيا واحدا فى حياته ولغته ودينه. وظلت الكثرة من الأعراب تنطق بالفصحى نطقا سليما حتى القرن السابع الهجرى، وسرت إليهم عدوى العامية فهجروا الإعراب،ومع ذلك ظلت الفصحى لغة العلم والأدب الرفيع، وغذاها المهاجرون الأندلسيون فى القرن السابع ثم فى القرن التاسع والحادى عشر بغذاء قويم بثَّ فيها روحًا وغير قليل من الانتعاش. ويكثر الشعراء فى إفريقية التونسية منذ ولاية يزيد بن حاتم المهلبى فى أواسط القرن الثانى الهجرى، وكان أمراء الدولة الأغلبية وخلفاء الدولة العبيدية شعراء وأجزلوا العطايا لمادحيهم، وينهض الشعر فى زمن الدولة الصنهاجية، ويقال إن مادحى المعز بن باديس بلغوا المائة عَدًّا، وكان ابنه تميم شاعرا ومقصدا للشعراء من كل بلد مغربى ومشرقى وكان ابنه يحيى وحفيده على وابنه الحسن غاية فى الجود، فقصدهم غير شاعر، ولابن حمديس وأمية بن أبى الصلت الأندلسى فيهم مدائح رائعة، ويتكاثر الشعراء حول أمراء الطوائف مثل سلامة بن فرحان شاعر أبى الحملات أمير مدينة قابس والتراب السوسى شاعر جبارة بن كامل أمير مدينة سوسة. ومن شعراء هذا العهد على الحصرى وعبد الله الشقراطسى. ويزدهر الشعر فى العهد الحفصى ويرفده جدول أندلسى، ومن شعرائه جابر بن عنان وابن عُرَيبة وابن حُسَيْنَة وابن السماط المهدوى واللِّليانى وغيرهم كثير، ومنذ القرن الثامن الهجرى يزاحم الشعر الشعبى الملحون الشعر، ويهاجر كثير من الأندلسيين إلى إفريقية التونسية فى القرن الحادى عشر ويسترد الشعر شيئا من حيويته ونشاطه فى العصر العثمانى، وخاصة منذ عهد الأسرة الحسينية.

وتظهر فى كل غرض من أغراض الشعر طائفة من الشعراء المبدعين، ودائما كانت سوق المديح نافقة، ومن أعلامه الذين ترجمنا لهم على بن محمد الإيادى، والكاتب الرقيقَ وابن رشيق والتراب السوسى وابن عُرَيبة وعبد الله التجانى وعلى الغراب والورغى. ومن أعلام الفخر المهمين تميم بن المعز ومحمد الرشيد الحسينى. ومن أعلام الغزل على الحصرىّ وأحمد اللِّليانى ومحمد ماضور. ومن أعلام شعر الغربة والشكوى والعتاب ابن عبدون ومحمد بن أبى الحسين. ومن أعلام شعر الطبيعة عبد الواحد بن فتوح وابن أبى حديدة وأبو على بن إبراهيم. ومن أعلام شعر الرثاء للأفراد والمدن والدول ابن شرف القيروانى ومحمد بن عبد السلام. ومن أعلام الوعظ أحمد الصواف، ومن أعلام التصوف محرز بن خلف، ومن أعلام المديح النبوى الشقراطسى والسماط المهدوى. وكل هؤلاء الشعراء حاولت تبين شخصياتهم، مع عرض أهم روائعهم الشعرية.

ونهض النثر فى تونس على لسان الولاة والقواد، وتأسست بها – مبكرة – الدواوين، ونهض أبو اليسر الشيبانى رئيس ديوان الانشاء فى عهد الأغالبة بالكتابة الديوانية وكون فيها

مدرسة كانت لها تقاليد متبعة، وفى صبح الأعشى رسالة ديوانية بليغة من العهد الحفصى. وكثرت الرسائل الشخصية، وهى مسجوعة، وبها - فى الحقب المتأخرة - كثير من التكلف. وتلقانا بعض مقامات، وهى لا تتناول حياة أديب متسول وخُدَعه الكثيرة لجذب السامعين، إنما هى موضوعات أدبية لبيان التفنن فى الكتابة الأدبية، وترجمت لثلاثة من الكتاب البارعين أبى اليسر الشيبانى رئيس ديوان الإنشاء فى عهد الأغالبة وإبراهيم الحصرى صاحب زهر الآداب، وابن خلدون الكاتب التونسى الفذ.

٣

وتحدثت - فى القسم الثالث من هذا الجزء - عن جزيرة صقلية وجغرافيتها وتاريخها القديم إلى أن فتحها العرب أيام الأمير زيادة الله الأغلبى سنة ٢١٢ هـ/٨٢٧م وظلوا طويلا يفتحون مدنها وحصونها وينشرون العربية والدين الحنيف فى ربوعها. واستولوا على مالطة سنة ٢٥٥ هـ/٨٦٨م ونشروا بها - مثل صقلية - الإسلام والعربية، ولا يزال أهلها - حتى اليوم - يتكلمون لكنة عربية تونسية دخلها - مع طول الزمن - كثير من التحريف - وغزوا قَلَوْرِيَّة فى جنوبى إيطاليا، وظل للدولة الأغلبية فيها شطر بل أشطار طوال مدة حكمهم. وولى على صقلية للدولة العبيدية ولاة أساءوا السيرة إلى أن وليها للخليفة العبيدى المنصور قائد من خيرة قواده هو الحسن بن على بن أبى الحسين الكلبى سنة ٣٣٦هـ/٩٤٧م فجعلها وراثية فى أبنائه، وساء حكمهم فى القرن الخامس الهجرى، وثارت صقلية عليهم، واستحالت إلى إمارات طوائف لكل بلدة أمير، واختارت بلرم قائدا من قواد الثورة هو ابن الثمنة، وكان شؤما على الجزيرة كلها فإنه تحارب مع أمير قصريانَّة وهُزم، فاستغاث بالنورمان فى قلوريَّة بجنوب إيطاليا، وأغاثه روجار الأول، وسرعان ما استولى على بلرم سنة ٤٦٤ هـ/١٠٧٢م ويحاول الاستيلاء على بقية مدن صقلية وتم له ذلك فى سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م ويدور العام فيستولى على مالطة سنة ٤٨٥ هـ/١٠٩٢م. ورأى شعب صقلية العربى يفوق شعبه مدنية وحضارة واتقانا للزراعة ولكثير من الصناعات اليدوية فأخذ يصانعه للإفادة منه مع التنكيل به فى صور شتى، وحاول ابنه روجار الثانى وحفيده غليوم الأول التخفيف من هذا التنكيل الغاشم، ولكن ظل الاضطهاد قائما كما يصور ذلك ابن جبير فى رحلته حين زار صقلية أيام غليوم الأول. وازداد الاضطهاد ضراوة حين استولى على الجزيرة أباطرة الألمان منذ سنة ٥٩١ هـ/١١٩٤م واستغاث أهلها بالمستنصر الحفصى سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م فراسل فردريك الثانى واتفق معه على إجلائهم إلى إفريقية التونسية. وأجبر فردريك من بقى بمالطة من المسلمين على مبارحتها إلى مدينة أمالفى Amalfi جنوبى إيطاليا وكانت صقلية موزعة بعد الفتح العربى إلى ثلاث ولايات كبيرة، ولكل ولاية وال

يديرها ومعه مساعدون وكل منهم يسمى قائدا ولكل ولاية قاض أو قضاة، وعامل المسلمون المسيحيين معاملة سمحة إلى أبعد الحدود، وحافظوا لهم على كنائسهم وقوانينهم الدينية والمدنية ومحاكمهم الخاصة. وكان بكل ولاية مجموعة من الدواوين للإشراف على نظام الحكم، ومن أهمها ديوان المحاسبة القائم على جمع الضرائب. وكانت صقلية مَلْأى بالزروع وأشجار الزيتون والفاكهة وبالغنم والخيول، وكانت الصناعات مزدهرة بها وخاصة صناعة المنسوجات وصناعة الورق التى انتقلت إليها من القيروان ونقلتها إلى أوربا لتلهم - فيما بعد - جوتنبرج - اختراع الطباعة. ونلتقى فيها ببعض الزهاد مثل القاضيين ميمون وابن أبى محرز وببعض من ينزعون فى نسكهم منزع التصوف مثل أبى القاسم عبد الرحمن البكرى.

وقد فتح النورمان صقلية الإسلامية حربيا وفتحتهم حضاريا، مما جعل ملوكها يكبّون على تعلم العربية ليقرءوا ذخائرها العلمية، وتعلموا من المسلمين شئون الزراعة والصناعة ونظمهم الادارية والديوانية، واتخذوا العربية فى مراسيمهم الحكومية، ومع ذلك لم تكن إقامة المسلمين لشعائرهم الدينية مكفولة وساموهم غير قليل من الخسف والاضطهاد بشهادة ابن جبير لما شاهده فى الجزيرة. ودائما تنزل الثقافة الإسلامية البلدان المفتوحة مع الجيوش العربية، وهو ما حدث سريعا فى صقلية، وكان بعض أبنائها لايكتفون بما يأخذون عن شيوخها، فكانوا يرحلون -استزادة فى العلم- إلى القيروان ومدّوا رحلتهم أحيانا إلى المشرق، ورحل إليهم بعض العلماء القيروانيين والمشارقة، ويقول ابن حوقل إنه كان فى بلرم وحدها مائتا مسجد وثلاثمائة معلم. وعنيت صقلية بعلوم الأوائل، وكان نصف سكانها مسيحيين وكانوا فئتين: فئة تتكلم اللاتينية وفئة تتكلم الإغريقية، وكان بين قساوستها من يستطيع الترجمة من اللاتينية والإغريقية إلى العربية مما جعل الأمير إبراهيم بن أحمد الأغلبى حين أسس بيت الحكمة فى عاصمته رقادة وعنى فيه بعلوم الأوائل يستعين ببعض الرهبان الصقليين فى ترجمة بعض المصنفات اللاتينية فى العلوم الرياضية إلى العربية، ونظل نسمع عن إتقان بعض أطبائها من العرب للغة الإغريقية وعن نزول بعض متفلسفة الأندلس بها، وتتردد فى الكتب أسماء لبعض من كانوا فيها من الأطباء والرياضيين والمهندسين والفلكيين.

وعُنيت صقلية برواية الدواوين وأمهات الكتب الأدبية كما عنيت بالعلوم اللغوية واشتهر من لغوييها ابن البِرّ الذى رحل إلى مصر وحمل منها كثيرا من دواوين الشعراء وأسس بها مدرسة لغوية خصبة، ومن أهم تلاميذه ابن مكى صاحب كتاب تثقيف اللسان، ونزلها ابن رشيق، وقاد فيها بكتابه العمدة فى صناعة الشعر ونقده حركة أدبية نقدية مثمرة. ونشطت بصقلية الدراسات الدينية ومن كبار قرائها فى القرن الرابع محمد بن خراسان، ومن كبار مفسريها ابن ظفر، ومن كبار محدثيها عتيق السمنطارى ومن فقهائها المهمين البراذعى

ومحمد بن يونس التميمي وعبد الحق بن محمد القرشي. وظلت الحياة العلمية مطردة النمو في عهد النورمان، وكانوا يهتمون خاصة بعلوم الأوائل، ويتكاثر في عهدهم من ينعت بأنه رياضي أو فلكي أو طبيب، واستدعى روجّار الثاني الجغرافي العربي الإدريسي ليصنف له كتابا في الجغرافيا، فألّف له كتابين جغرافيين: كبيرًا وصغيرًا وضمنهما بعض الخرائط، ورسم له خريطة كبرى للعالم على كرة ضخمة من الفضة، وكان أولى للإدريسي أن يقدم هذه الأعمال الجغرافية البديعة لحاكم عربي في عصره لا لحاكم نورماني. وتظل العلوم اللغوية والإسلامية ناشطة في العهد النورماني، غير أن علماء أعلاما كبارا بارحوا صقلية فرارا من الظلم النورماني مثل ابن القطاع الصقلي نزيل القاهرة وإليها حمل عن أستاذه ابن البر معجم الصحاح للجوهري، ومثل ابن الفحام أحد أئمة القراءات نزيل الإسكندرية، ومثل ابن ظفر مفسر القرآن الكريم نزيل حماة بالشام ومثل الإمام الفقيه والحافظ الكبير المازري نزيل القيروان والمهدية.

ويزدهر الشعر بصقلية في عهد بني أبي الحسين الكلبيين: ويسجل لها ابن القطاع مائة وسبعين شاعرا في كتابه: «الدرة الخطيرة في المختار من شعراء الجزيرة»، غير أن الكتاب سقط من يد الزمن فلم يصلنا، ونقل عنه العماد في الخريدة تراجم لسبعة وأربعين شاعرًا، وأضاف إليهم البلّنوبي بن أبي البشر، كما أضاف إليهم اثني عشر شاعرًا من كتاب ابن بشرون المهدوي: «المختار من النظم والنثر لأفاضل أهل العصر». ونظم شعراء صقلية في مختلف أغراض الشعر العربي، وعرضت ذلك مفصلا مع الترجمة في كل غرض لأهم شعرائه، وقد ترجمت في المديح لابن الخياط وفي الغزل للبلّنوبي وفي الفخر لأبي الحسن الطوبي وفي الوصف لأبي عبد الله بن الطوبي وفي الرثاء لمحمد بن عيسى ولغيرهم في الزهد والوعظ وفي التفجع والحنين واللوعة ولابن حمديس وأشعاره الرائعة.

وتحدثت عن النثر وكتّابه بصقلية، ويدل تنويه كتب التراجم بما لكتابها من مقامات ورسائل على أنها حظيت فيها بأعمال قيمة، غير أن الزمن أضاعها، واحتفظ ابن بشرون في ترجمته لشعرائها ببعض رسائلهم الشخصية وعرضتها مع التعليق عليها، وترجمت لكاتبين من كتابها المبدعين هما ابن الصباغ وابن ظفر. وأضفت ملحقا عن زيارة ابن قلاقس الإسكندري لصقلية وأشعاره هناك.

كتب للمؤلف مطبوعة بالدار

فى الدراسات القرآنية

● سورة الرحمن وسور قصار
عرض ودراسة
الطبعة الثالثة ٤٠٤ صفحات

فى تاريخ الأدب العربى

● العصر الجاهلى
الطبعة الرابعة عشرة ٤٣٦ صفحة

● العصر الإسلامى
الطبعة الثانية عشرة ٤٦١ صفحة

● العصر العباسى الأول
الطبعة الحادية عشرة ٥٧٦ صفحة

● العصر العباسى الثانى
الطبعة السابعة ٦٥٧ صفحة

● عصر الدول والإمارات
الجزيرة العربية-العراق-إيران
الطبعة الثالثة ٦٨٨ صفحة

● عصر الدول والإمارات
الشام
الطبعة الثانية ٣٥٦ صفحة

● عصر الدول والإمارات
مصر
الطبعة الثانية ٥٠٠ صفحة

● عصر الدول والإمارات
الأندلس
الطبعة الأولى ٥٥٢ صفحة

فى مكتبة الدراسات الأدبية

● الفن ومذاهبه فى الشعر العربى
الطبعة الحادية عشرة ٥٢٤ صفحة

● الفن ومذاهبه فى النثر العربى
الطبعة الحادية عشرة ٤٠٠ صفحة

● التطور والتجديد فى الشعر الأموى
الطبعة التاسعة ٣٤٠ صفحة

● دراسات فى الشعر العربى المعاصر
الطبعة الثامنة ٢٩٢ صفحة

● شوقى شاعر العصر الحديث
الطبعة الثالثة عشرة ٢٨٦ صفحة

● الأدب العربى المعاصر فى مصر
الطبعة التاسعة ٣٠٨ صفحات

● البارودى رائد الشعر الحديث
الطبعة الخامسة ٢٣٢ صفحة

● الشعر والغناء فى المدينة ومكة لعصر بنى أمية
الطبعة الرابعة ٣٣٦ صفحة

● البحث الأدبى:
طبيعته- مناهجه-أصوله-مصادره
الطبعة السادسة ٢٧٨ صفحة

● الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور
الطبعة الثانية ٢٥٦ صفحة

● فى التراث والشعر واللغة
الطبعة الأولى ٢٧٦ صفحة

فى الدراسات النقدية

● فى النقد الأدبى
الطبعة السابعة ٢٥٠ صفحة

● فصول فى الشعر ونقده
الطبعة الثالثة ٣٦٨ صفحة

فى الدراسات البلاغية واللغوية

● البلاغة: تطور وتاريخ
الطبعة الثامنة ٣٨٠ صفحة

● المدارس النحوية
الطبعة السادسة ٣٧٦ صفحة

● تجديد النحو

الطبعة الثالثة ٢٨٢ صفحة

● تيسير النحو التعليمي قديمًا وحديثًا مع نهج تجديده

الطبعة الأولى ٢٠٨ صفحات

● تيسيرات لغوية

الطبعة الأولى ٢٠٠ صفحة

فى مجموعة نوابغ الفكر العربي

● ابن زيدون

الطبعة الثانية عشرة ١٢٤ صفحة

فى مجموعة فنون الأدب العربي

● الرثاء

الطبعة الرابعة ١١٢ صفحة

● المقامة

الطبعة الخامسة ١٠٨ صفحات

● النقد

الطبعة الخامسة ١١٢ صفحة

● الترجمة الشخصية

الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة

● الرحلات

الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة

فى التراث المحقق

● المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد

الجزء الأول – الطبعة الثالثة ٤٦٨ صفحة

الجزء الثانى – الطبعة الثالثة ٥٧٢ صفحة

● كتاب السبعة فى القراءات لابن مجاهد

الطبعة الثالثة ٧٨٨ صفحة

● كتاب الرد على النحاة

الطبعة الثالثة ١٥٢ صفحة

● الدرر فى اختصار المغازى والسير لابن عبد البر

الطبعة الثالثة ٣٥٦ صفحة

فى سلسلة «اقرأ»

● العقاد — الطبعة الخامسة

● البطولة فى الشعر العربي — الطبعة الثانية

● معى (١) — الطبعة الثانية

● معى (٢) — الطبعة الأولى

● الفكاهة فى مصر — الطبعة الثالثة

فهرس

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

رقم الإيداع	١٩٩٢ / ٣٧٨٣
الترقيم الدولى	ISBN 977 – 02 – 3678 – 0

١ / ٩٠ / ١٦٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

تاريخ
الأدب العربى
١٠

عصر
الدول والإمارات

الجزائر - المغرب الأقصى - موريتانيا - السودان

تأليف
الدكتور شوقى ضيف

الطبعة الأولى

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج . م . ع .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

١

هذا الجزء الأخير من تاريخ الأدب العربي خاص بالجزائر والمغرب الأقصى وموريتانيا والسودان بدأته بالحديث عن الجزائر وجغرافيتها وتاريخها القديم أيام الفينقيين والرومان والوندال والبيزنطيين وولاتها أيام الدولتين الأموية والعباسية وتبعية القسم الشرقي منها لتونس أيام الدولة الأغلبية وتأسيس الخوارج الإباضيين للدولة الرستمية فى تاهرت ، وأسس إدريس الحسنى دولة الأدارسة فى فاس ، وقضت الدولة العبيدية على الدول الثلاث : الأدارسة والرستمية والأغلبية ، واتخذت القيروان عاصمة لها ثم المهدية . ويتحول المعز العبيدى بتلك الدولة إلى القاهرة وتشتهر باسم الدولة الفاطمية وينيب عنه فى تونس والبلاد المغربية بلكين الصنهاجى ، وجعلها وراثية فى أبنائه ، وتتطور الظروف ويعلن المعز بن باديس حفيده استقلاله بالمغرب وتونس وإسقاط الدعوة العبيدية من بلاده ، فيسلط عليه الخليفة الفاطمى المستنصر أعراب بنى هلال وبنى سُلَيْم النازلين بشرقى الصعيد ، وكانوا نصف مليون أو يزيدون ، فزحفوا على ليبيا وتونس ، واستولوا على القيروان وغيرها من المدن ، وأهلكوا الحرث والنسل . وكان حماد بن بلكين عم المعز بن باديس استقل فى بجاية شرقى الجزائر واستطاع أبناؤه أن يداوروا بنى هلال وتَسْلم لهم دولتهم إلى أن قضى عليها عبد المؤمن زعيم الموحدين ، وأسس أحد ولاة دولته الدولةَ الحفصيةَ فى تونس وشرقى الجزائر . وفى نفس التاريخ قامت دولة بنى عبد الواد أو بنى زيان فى تلمسان وغربى الجزائر ، وتتدهور الدولتان منذ أوائل القرن العاشر الهجرى ويستولى الإسبان على مدن متعددة، فى الساحل الجزائرى، شرقية وغربية ، ويغضب للجزائر بطلان تركيان من رجال البحر هما عروج وخير الدين . وتحرَّر الساحل الجزائرى فيما عدا مدينتى المرسى الكبير ووهران ، وتتحرر مدينة المرسى الكبير سريعا ، وتبعت الجزائر الدولة العثمانيّة وظلت تابعة لها إلى أن احتلتها فرنسا سنة ١٢٤٦هـ/١٨٣٠م.

وتنزل الجزائر – مع أهلها من البربر – عناصر من أجناس آسيوية وإفريقية وأوربية : فينيقية وقرطاجية ورومانية ويهودية وألمانية من الوندال وبيزنطية ثم حملة مشاعل الدين الحنيف من

جنود العرب والشعوب الإسلامية التي انتظمت في جيوشهم . وظل ينزلها في المدن الساحلية بعض اليهود، وهاجر إليها جمهور السكان في صقلية حين استولى عليها النورمان وكتلة كبيرة من مسلمي الأندلس حين استولى عليها نصارى الإسبان ، وجلب إليها قراصنتها كثيرا من نصارى أوربا كما جلب إليها ولاتها العثمانيون حاميات من الإنكشارية: ترك وغير ترك ، وكل هذه العناصر ذابت في الجزائر لما تمتاز به من قوة الشخصية .

وأساس المعيشة في الجزائر زراعة القمح والشعير ورعي الأنعام ، وتكثر بها أشجار النُّقْل والفواكه من كل صنف ، كما تكثر الصناعات اليدوية وصناعة الحلي وأواني الخزف والمنسوجات الكتانية والقطنية والصوفية والحريرية ، ومعاصرُ الزيتون كانت منتشرة في بلدان مختلفة ، ومواد البناء كانت متوفرة ، ولذلك كثرت إقامة المدن الجديدة ، وكثر على السواحل صيد السمك والحيتان . وازدهرت التجارة واتسع الثراء وجرَّ إلى رفه في الملبس والمأكل والمسكن ، حتى لنشعر إزاء تلمسان وبعض المدن أنها متحضرة حضارة حقيقية . ويتمم هذه الحضارة وما طُوى فيها من رفَهٍ عناية الجزائريين بالموسيقى . وعرفت الجزائر الديانتين النصرانية واليهودية ، ولا يكاد يمر نصف قرن - بعد الفتح - حتى يصبح شعبها إسلاميا عربيا ، وكانوا سنية على مذهب مالك إلا ما كان من تاهرت وقيام دولة الإباضية فيها لنحو قرن ونصف . وتكاثر في محيط تلك الدولة المعتزلة وحملوا السلاح ضد الإباضية ولم يكتب لهم النصر . ونشط المذهب الحنفي في عهد العثمانيين، ولكن عامة الجزائريين ظلت مالكية إلى اليوم . وشاعت في الجزائر نَزْعة صوفية : ونزلها بعض أصحاب التصوف الفلسفي الأندلسي وفي مقدمتهم أبو مدين شعيب ، غير أن التصوف السني هو الذى ساد في الجزائر وانتشرت طريقتاه القادرية والشاذلية .

وكان أول من قام على الحركة العلمية بالجزائر الفاتحون الناشرون للإسلام ، إذ كان الجندى الفاتح بمجرد أن يضع قدمه في بلدة أو قبيلة يأخذ في تحفيظ معتنقي الإسلام القرآن الكريم أو بعض سوره وبعضَ كلم العربية في التخاطب وفروضَ الإسلام ونوافله . وأخذت الحركة العلمية في الجزائر تنمو سريعا بفضل الكتاتيب والمساجد وما بها من حلقات الشيوخ حيث تُلْقَى محاضرات في مختلف العلوم الشرعية واللغوية . وزاد الحركة سرعة في النمو تأسيسُ المدارس والزوايا وإنشاء المكتبات فيهما وفي المساجد ، وكانت ترعى الحركة العلمية الدول التي نشأت في الجزائر ، الدولة الإباضية في تاهرت ودولة بني حماد في بجاية وقلعتها ودولة بني زيان أو بني عبد الواد في تلمسان ، وكان من العوامل القوية في نشاط الحركة العلمية بالجزائر نزوح الأندلسيين إليها بالآلاف في القرن السابع الهجرى والحادى عشر . وعرضتُ عنماءها الأعلام في علوم الأوائل الرياضية والفلكية والطبية وفي الفلسفة وعلم المنطق ، وبالمثل

فى علوم اللغة والنحو والعروض والبلاغة ، وفى علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام والتاريخ . ومع كل عَلَمٍ من عشرات هؤلاء الأعلام فى الميادين العلمية أهم كتبه ، ومع كل عِلْمٍ ما يصور تطوره فى مختلف العصور ،

وكانت اللاتينية منتشرة فى الساحل الشمالى للجزائر قبل الإسلام ، وكان الشعب الجزائرى يتكلم البربرية لغة آبائه وقومه ، وأخذت العربية تقهر اللغتين فى ألسنة البربر ، لأنها لغة دينهم الحنيف ، وبدون ريب تعربت المدن الكبيرة منذ القرن الثانى للهجرة ، وخاصة المدن الشمالية أما فى الداخل والجبال فيظل يغلب على الناس التخاطب بالبربرية فى حياتهم اليومية. وأتمت الزحفة الأعرابية فى منتصف القرن الخامس الهجرى تعرب الجزائر ، والمظنون أن لغة الأعراب الفصيحة أخذت تفسد منذ القرن السابع وأخذ ينشأ شعر شعبى على نحو ما نعرف فى قصة الهلالية ، غير أن الشعر الفصيح ظل هو المسيطر ، وله الكلمة العليا ، وقد أخذ يكثر شعراؤه ، وذكرتُ أعلامهم فى الدول والعصور المختلفة . ثم أخذت أفصِّل الحديث عن شعراء المديح وأهمهم على مر الزمن والدول ، وترجمت منهم لعبد الكريم النهشلى وعبد الله بن محمد التنوخى (قاضى ميلة) ولابن خميس ومحمد بن يوسف القيسى الثغرى التلمسانى والشهاب بن الخلوف ومحمد القوجيلى . وعرضت شعراء الفخر ، ومن أعلامه أبو حمو موسى الثانى ، وبالمثل شعراء الهجاء ، ومن كبار الهجائين بكر بن حماد التاهرتى وسعيد المنداسى ، كما عرضت أصحاب الشعر التعليمى ومن أفذاذهم عبد الرحمن الأخضرى ناظم السلم المرونق فى علم المنطق. وتحدثت عن شعراء الغزل على مر العصور وترجمت لأهم أعلامه : محمد بن أحمد الأريسى وابن على ، وعرضت شعراء وصف الطبيعة مع الترجمة لإبراهيم بن عبد الجبار الفجيجى التلمسانى وتحليل ملحمته فى الصيد . وتناولت شعراء الرثاء على مر الزمن ، وترجمت لعلَمه : محمد بن على بن حماد القلعى . وعرضت شعر الزهد والتصوف وترجمت لعلمين هما أبو العيش بن عبد الرحيم الخزرجى وإبراهيم التازى . وتحدثت عن شعراء المدائح النبوية على مر التاريخ الجزائرى ، وترجمت لمحمد بن عبد الله العطار ، وله ديوان فى المديح النبوى الشريف .

وتحدثت عن الخطب والوصايا فى عهد الدولة الرستمية وفى بجاية وتلمسان مع الإلمام بكتاب واسطة السلوك فى سياسة الملوك ، وهو وصية كبيرة قدمها أبو حمو موسى الثانى لابنه : أبى تاشفين . وعرضت الرسائل الديوانية فى عهد الدولة الإباضية والدولة الحمادية ودولة بنى زيان أو بنى عبد الواد فى تلمسان ، وبالمثل فى العهد العثمانى ، كما عرضت الرسائل الشخصية ، وحلّلت رسالة ابن الربيب المشهورة ملاحظا شيوع السجع فى الرسائل الشخصية حتى نهاية العهد العثمانى . ويكتب الأدباء مقامات أشبه برسائل أدبية يتناولون فيها بعض الموضوعات دون أى اهتمام بتقاليد مقامات الهمذانى والحريرى القائمة على الكدية والشحاذة الأدبية .

وترجمت بعد ذلك لأعلام الكتاب الجزائريين ، وهم أبو القاسم عبد الرحمن القالمي والوهراني وأبو الفضل بن محشرة .

٢

وانتقلت إلى المغرب الأقصى وتحدثت عن جغرافيته وتاريخه القديم زمن الفينيقيين والرومان والبيزنطيين والقوط ، وأتمَّ العرب فتح المغرب الأقصى ونشر الإسلام به فى الأعوام السبعين المتممة للقرن الأول الهجرى وجنّد الولاة العظام حينئذ بعض الشباب المغربى فى الجيش العربى فأصبحوا رفقاء سلاح للعرب واختاروا منهم بعض الولاة والقواد ، غير أن ولاة بنى أمية فى القرن الثانى الهجرى انحرفوا عن هذه السياسة التى يأمر الدين الحنيف باتباعها فى الشعوب الإسلامية الجديدة ، فأذاقوا أهل المغرب خسفا وظلما ، وانتهز الفرصة الصفرية من الخوارج وأرسلوا دعاتهم إلى المغرب الأقصى ، وتبعهم كثيرون ونشبت حروب متعددة بين صفرية المغرب وولاة بنى أمية إلى أن قُضِىَ على ثورتهم فى الشمال وانسحبوا إلى سجلماسة وقامت بها حكومة بنى مدرار الصفرية ، وقضى عليها أمويو الأندلس . واستطاع إدريس سليل الحسن بن على بن أبى طالب أن يكوِّن فى فاس دولة الأدارسة ، وهى أول دولة إسلامية عربية فى المغرب الأقصى ونشرت به الإسلام والعلوم الإسلامية والعربية، وقُضِىَ عليها فى القرن الرابع الهجرى . وتُظِلُّ دولة المرابطين المغرب الأقصى فى أواسط القرن الخامس الهجرى ، وتحدث به نهضة علمية وأدبية، وتنقذ الأندلس من براثن نصارى الإسبان وتنشر الإسلام فى ربوع إفريقيا المدارية ، وتخلفها دولة الموحدين محاولة أن تنشر لزعيمها ابن تومرت عقيدة متأثرة ببعض مبادىء الشيعة والمعتزلة ، وتبلو هذه الدولة بلاء حسنا فى إنقاذ ساحل ليبيا وإفريقيا التونسية من النورمان والتنكيل بنصارى الإسبان فى غير موقعة وخاصة موقعة الأرك التى سُحقوا فيها سحقا . وتخلفها دولة بنى مرين ولها دور عظيم فى منازلة نصارى الأندلس والدفاع عن غرناطة ، غير أنها تخاذلت فى أواخر أيامها إزاء الاحتلال البرتغالى لبعض الموانى على المحيط والزقاق . ونوهتُ بشابين مغربيين قاوما البرتغاليين مقاومة عنيفة . وقاومهم الوطاسيون فرع من بنى مرين بقدر استطاعتهم ، وخلفهم السعديون ومحقوا البرتغاليين محقا فى معركة وادى المخازن وقتل ملكهم وأخذوا ينسحبون من الموانى التى استولوا عليها . وقاومهم الصوفية ومن أهمهم أبو عبد الله محمد العياشى محرر العرائش وآزمور والجديدة وإن كانوا عادوا إليها بعده . وقامت الدولة العلوية ومن أهم حكامها إسماعيل محرر طنجة والعرائش وحفيده محمد بن عبد الله محرر الجديدة ، ويعتلى عرش تلك الدولة الحسن بن محمد سنة ١٨٧٣ ويقود نهضة حضارية وفكرية ، وفى رأينا أن عهده يعد بدء العصر الحديث فى المغرب الأقصى .

وعناصر السكان فى المغرب الأقصى هم البربر سكانه منذ العصور السحيقة ومن استقر بديارهم من الفينيقيين والرومان والبيزنطيين والقوط ثم العرب ومن انتظم فى جيوشهم من الشعوب الإسلامية الآسيوية والإفريقية ، والأندلسيون المهاجرون إلى المغرب الأقصى فى عهد الحكم الربضى بالقرن الثانى الهجرى ومن هاجر بعدهم فى القرنين السابع الهجرى والحادى عشر ، واليهود ومن نزل منهم بالمغرب فى عهد الفينيقيين والرومان والعهود الإسلامية ، والنصارى وظلت منهم بقايا فى المغرب من الرومان والبيزنطيين ، واتخذ المنصور الموحدى حرسا من الروم عداده خمسمائة ، وجلب القراصنة من البحر المتوسط كثيرا من نصارى أوربا . وكان أهل المغرب الأقصى يعيشون على زراعة القمح والشعير والذرة والبقول والخضر ويكثر الصيد على سواحل البحر المتوسط والمحيط والبحيرات والأنهار كما يكثر صيد البر من الحيوانات الوحشية : النعام والوعول والبقر الوحشى ، وتكثر أشجار الفواكه من جميع الأصناف والنخيل والنقل وأشجار النيلة للصباغة ، وتكثر المعادن وخاصة الحديد ، وصنعوا فى بنى يازغة « تلفريك » للعبور من ضفة نهر إلى أخرى ، وتكثر مواد البناء مما هيأ لبناء بعض المدن والمنشآت العمرانية الكثيرة ، وتكثر المنسوجات القطنية والصوفية والكتانية والحريرية . وكان بمراكش حديقة للحيوان الوحشى . وازدهرت التجارة ازدهارا عظيما وكثر ثراء الناس فى المدن الكبيرة والموانى ، وكان بفاس مائة حمام ومائتا فندق ، وعظم الرفه فى الملبس والمآكل ولعب التسلية وأقام سلاطين فاس مسرحا لصراع الرجال والثيران مع الأسود ، وعنوا بالموسيقى عناية واسعة . وكانت المرأة فى المجتمع المغربى تحظى بمكانة عظيمة ، وكانت كثيرات منهن عالمات وأديبات وطبيبات ، وكان لبعض فضلياتهن ندوات أسبوعية يلقين فيها الشعراء ويحاورنهم وينقدن بعض أشعارهم ويمنحنهم جوائز نفيسة ، وكان منهن من تحاضر النساء فى الفقه كما يحاضر العلماء فيه الطلاب ، وألممت بشيوع المذهب المالكى الفقهى . وفصلت القول فى عقيدتى الصفرية والمعتزلة اللتين انتشرتا فترة فى المغرب الأقصى وفى مذهب الظاهرية وازدهاره فى عصر دولة الموحدين ، وألممت بحركتى الزهد والتصوف وانتشاره . وتناولت الحركة العلمية وكيف أن الفاتحين كانوا ناشرين للإسلام ومعلمين ، وتحدثت عن دور العلم من الكتاتيب والمساجد والمدارس والزوايا والمكتبات وعن إنماء الدول المختلفة للحركة العلمية وما كان لنزول الأندلسيين فى المغرب الأقصى من عمل فى هذا الإنماء وبعث حركة تعليمية واسعة فيه . وعرضتُ علوم الأوائل وأعلامها فى الرياضيات والطب والفلسفة وعلم المنطق ، وتحدثت عن أعلام علوم اللغة والنحو والعروض والبلاغة وبالمثل تحدثت عن أعلام علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام والتاريخ ، ومع كل عِلْم من هذه العلوم جميعا بيان واضح عن تطوره على مر العصور ، ومع كل عالم أهم أعماله .

وكان المغرب الأقصى قد أخذ فى التعرب منذ دخول جماهيره فى الإسلام ، وأسّست دولة

الأدارسة في فاس سنة ١٧٢هـ/٧٨٩م وكانت دولة عربية إسلامية ، فعملت – بقوة – على تعريب المغرب الأقصى ، وعُنيت بفتح الكتاتيب في المدن وتحفيظ الناشئة بها القرآن الكريم وأنشأتْ في المساجد حلقات المفسرين والمحدثين والفقهاء ومَنْ يعلمون الناس العربية ، وبذلك رسخت العروبة ورسخ الإسلام في المغرب الأقصى . وتحدث الهجرة الأعرابية الكبرى في منتصف القرن الخامس الهجرى غير أن عشائر قليلة منها تسربت إلى المغرب الأقصى . ويدور الزمن ، ويدخل المرابطون المغرب الأقصى ويطهرونه من الروافض ومن نحلة برغواطة الضالة وأخذ الأندلسيون في عهد تلك الدولة يندمجون في سكان المغرب الأقصى وكان لذلك أثره في تعريبهم إذ كانت الأندلس عربية خالصة . وينقل عبد المؤمن إلى المغرب الأقصى ألفا من قبائل الأعراب في الجزائر : من قبائل الأثبج وزغبة ورياح وقرة ، امتزجوا بسكانه ، وفي سنة ٥٥٨هـ/١١٦٣م استصرخ عبد المؤمن أعراب بجاية والجزائر للجهاد في الأندلس ولبَّاه كثيرون ، ولنفس الغاية دعا ابنه يوسف قبيلة رياح فلباه حشد ضخم منهم ، ونقل ابنه يعقوب بقايا قبائل الأثبج ورياح وجشم إلى المغرب الأقصى: أنزل قبيلة رياح منطقتى الهبط في الشمال وأزغار في الغرب وأنزل قبيلة جشم منطقة تامسنة في الغرب والأثبج في منطقى دكالة وتادلة ، وانساح كثيرون من هؤلاء الأعراب في ديار المغرب الأقصى ، وبذلك كله تعرب المغرب الأقصى نهائيا .

ويكثر الشعراء منذ عصر الدولة الإدريسية ويتكاثرون كثرة مفرطة في عصر دولة المرابطين وما تلاها من عصور ، وعرضت أعلامهم المهمين في كل تلك العصور وما كان بها من دول ، وتحدثت عن شعراء الموشحات وتلمذة شعراء المغرب الأقصى لشعراء الأندلس في فن التوشيح وظهور وشاحين مغاربة نابهين ، وترجمت منهم لابن غُزْلة وابن الصباغ وابن زاكور ، كما تحدثت عن شعراء الأزجال ، وترجمت من بينهم لابن عمير وابن شجاع التازى . وعرضت شعراء المديح وترجمت من بينهم لابن زنباع وابن حبوس والجراوى وابن عبد المنَّان والهوزالى وأحمد بن القاضى والدغوغى والبوعنانى ، كما عرضت شعراء الفخر والهجاء وترجمت للشاذلى ولأصحاب الشعر التعليمى وترجمت لعبد العزيز الملزوزى وابن الونان . وتحدثت عن شعراء الغزل وترجمت لأبى الربيع الموحدى ولعمر السلمى ، وبالمثل تحدثت عن شعراء الوصف وترجمت لعبد العزيز الفشتالى ، وعرضت شعراء الرثاء وترجمت لابن شعيب الجزنائى وأبى على اليوسى الحسن بن مسعود ، وشعراء الزهد والتصوف وترجمت لابن المحلى ، وشعراء المدائح النبوية وترجمت لميمون بن خبازة ومالك بن المرحل .

وتركت الشعر إلى النثر وكتَّابه ، وبدأت بالخطب والمواعظ مع بيان أهم الخطباء والوعاظ ، وتحدثت عن الرسائل الديوانية وأهم كتابها مع عرض بعض الرسائل في مختلف العصور والدول ، وبالمثل تحدثت عن الرسائل الشخصية وعن المقامات وأهم نماذجها وكتابها ، وعرضت

الرحلات المهمة وفي مقدمتها ر- ابن رشيد ورحلة العبدريّ ورحلة العياشي ، وألممت برحلات أخرى مختلفة مثل رحلة الوزير الغساني ورحلة محمد بن عثمان المكناسي ثم ترجمت لكبار الكتاب ، وهم : القاضي عياض وأبو جعفر أحمد بن عطية وابن بطوطة ومحمد بن على الفشتالى ومحمد بن الطيب العلمى .

٣

وتحولت إلى موريتانيا فعرضت جغرافيتها وسكانها من قبائل صنهاجة الصحراوية ونفوذ الإسلام إليهم منذ عقبة بن نافع وقيام إمارة لهم في أَوْدغشت حتى منتصف القرن الرابع الهجرى ونزول الشيخ عبد الله بن ياسين بينهم وتسميته لهم باسم المرابطين ودفعه لهم للجهاد في السودان الغربي وتطهير قائدهم أبي بكر بن عمر للمغرب الأقصى من دعوة الروافض ودعوة قبيلة برغواطة الضالة ، ورجوعه إلى السودان المدارى لنشر الإسلام وتركه المغرب الأقصى لابن عمه يوسف بن تاشفين . وأنقذت دولة المرابطين أو دولة صنهاجة الموريتانية بقيادته الأندلس حين استصرخه أمراؤها ضد نصارى الإسبان. وضمَّها إلى دولته . وبذلك يكون لصنهاجة موريتانيا ثلاثة أعمال كبرى : تطهير المغرب الأقصى من الدعوات الضالة وإنقاذ الأندلس من براثن نصارى الإسبان ، ونشر الإسلام في شعوب السودان بإفريقيا المدارية . ويبدو أن دولة المرابطين في موريتانيا تفككت بعد وفاة البطل المغوار المجاهد أبي بكر بن عمر ، وتتبع بعض مدنها غانة ، ويفر بعض الفقهاء من عاصمتها كومبي صالح إلى مدينة ولاته حين غزتها قبيلة الصوصو ، وبالمثل من تنبكتو حين غزتها مالى . ويمر بها جيش أحمد المنصور السعدى في غزوه للسودان المدارى ، وينقل إلى موريتانيا كثيرا من قبائل المعقل العربية : حسان وغيرها، ويكون لذلك تأثير واسع في موريتانيا وتعريبها نهائيا ، وتنشب بين قبائلها وعشائرها حروب متصلة ولا تقوم فيها حكومة منظمة حتى العصر الحديث .

وكان سكان موريتانيا يتألفون من قبائل صنهاجة وعبيدها ، ونزلها كثيرون من قبائل المعقل العربية وخاصة قبائل حسان والبرابيش وأوداية ، ويعيش السكان على زراعة الشعير والدخن والقمح ورعى الأنعام متنقلين بها وراء الكلأ ، ومن أهم ما يزرعون النخيل ليقتاتوا بتمورها ، وأهل المدن والزروع أحسن حالا من أهل المراعى . ولهم مع أهل السودان المدارى تجارة واسعة بالملح ويبيعونه لهم بأثمان مرتفعة ، ذُهل لها ابن بطوطة في رحلته إلى السودان الغربي في إفريقيا وكأنه لم يكن يعرف مدى حاجتهم إليه بسبب الحرارة القاسية في ديارهم ، وأنه هو الشيء الوحيد الذى يحفظ الماء في الجسم فلا يتبخّر سريعا . وتلى تجارة الملح في الأهمية تجارة الصمغ . وليس لهم نقود ، وإذا لم يكن معهم ملح أو صمغ يشترون بهما ما يريدون قدموا

للبائع الثمن أغناما . وصناعاتهم أولية ، ومعيشتهم بدوية ، ولهم سادة وشيوخ وقد تعيّن القرية أو البلدة قاضيا ، والزواج شرعيّ مالكى ، والصداق والجهاز بحسب العرف .

ولم يدخل الإسلام بلدا إلا رافقه التعليم والعلم ، إذ كان المسلمون لا ينزلون بلدا أو يفتحونه إلا أقاموا فيه مسجدا وأخذوا يدعون للإسلام ويحفظون الناس القرآن وينشئون لهم الكتاتيب ، وتتحول الناشئة بعد حفظ القرآن إلى حلقات العلماء فى المساجد يدرسون عليهم شيئا من تفسير القرآن الكريم والحديث النبوى والفقه كما يدرسون عليهم العربية ، وكل ذلك حدث فى موريتانيا مثلها فى ذلك مثل بقية البيئات الإسلامية ، وقد تحول أهلها إلى مجاهدين فى سبيل الله ينشرون الدين الحنيف ويعلمونه فى السودان الغربى . وكانت تلك حركة دينية تعليمية كبرى لصنهاجة فى القرن الخامس الهجرى وبعده ، وحاولت أن أتعرف إلى علماء موريتانيا قبل القرن العاشر الهجرى الذى استكملت فيه تعريبها بفضل قبائل المعقل العربية : حسان وغيرها ، وكانت النساء هن اللائى يقمن على تحفيظ الصبية القرآن الكريم إلى الثانية عشرة من عمرهن ، وبعد هذه الدورة فى الكتاتيب ينتقلون إلى حلقات الشيوخ . والبلدان تختلف فيما يدرسه الصبى بعد ذلك مباشرة فبلاد تبدأ بالفقه وكتبه ، وبلاد تبدأ بالعربية ودواوين الشعر والعقيدة الأشعرية . ولم تكن هناك حكومة تنفق على التعليم ، فكان العلماء مثل الطلاب يعملون لكسب عيشهم . وذكرت أهم الكتب التى كانوا يتدارسونها فى مختلف العلوم والآداب ، وعرضت أعلام العلماء فى قراءة القرآن الكريم وتفسيره وفى الحديث النبوى والفقه وفى العربية وعلم الكلام .

وتحدثت عن تعرب موريتانيا وأنه بدأ بطيئا ، وأخذ فى النمو مع حركة الشيخ عبد الله ياسين ويبدو أن ولاته سبقت غيرها من المدن إلى هذا التعرب بفضل ما قام بها من حركة علمية غير أن الكثرة فى موريتانيا – وربما أيضا فى ولاته – كانت تستخدم اللغة البربرية فى حياتها اليومية حتى إذا انتشرت القبائل الحسانية وأخواتها من قبائل المعقل العربية تم تعربها ولكنها لم تنطق العربية ، إنما نطقت العامية العربية التى كانت شائعة على ألسنة عرب المعقل . وأخذت فى استعراض شعراء الموضوعات المختلفة ، وبدأت بشعراء المديح ، وترجمت لابن رازكه ومحمد اليدالى الديمانى وحرم بن عبد الجليل العلوى ، وعرضت شعراء الفخر والهجاء ، وترجمت للمختار بن بون ومحمد بن سيدىّ الأبْييْرى ، وبالمثل شعراء الرثاء ، وترجمت لباب بن أحمد بيب العلوى . وتحدثت عن شعراء الغزل ، وترجمت للأحول الحسنى ومحمد بن الطلبة اليعقوبى ويقوى الفاضلى ، كما تحدثت عن شعراء التصوف وترجمت للمختار الكنتى والشيخ سيديًّا ، وعن شعراء المدائح النبوية ، وترجمت لمولود بن أحمد الجواد اليعقوبى ولمحمد بن محمد العلوى ومحمد بن حنبل الحسنى ، وبالمثل تحدثت عن الشعراء والشعر التعليمى ومنظوماتهم العلمية .

٤

ومضيت إلى السودان وتحدثت عن جغرافيته وتاريخه القديم وعلاقته بمصر الفرعونية منذ عهد الأسرة الأولى ، وكانت أراضى السودان فى حوض النيل تسمى أرض النوبة ، وبها تكونت ثلاث دول : نوبية شمالية ووسطى باسم مقرة وجنوبية تحت الخرطوم باسم علوة ، وتنصرت هذه الدول معتنقة المذهب اليعقوبى المصرى . وفى سنة ٣١هـ/٦٥٢م أرسل إلى النوبة عبد الله بن سعد بن أبى سرح والى مصر لعثمان حملة توغلت حتى دنقلة . وأخذت تنزل إقليم البجّة شرقى السودان قبائل وعشائر عربية سيطرت على معدن الذهب بوادى العلاقى الممتد من أسوان إلى ميناء عيذاب ، وتغلغل المسلمون فى أرض النوبة لعهد الفاطميين حتى علوة فى الجنوب . وتنشب حروب بين النوبة والمماليك وتقوم فى دنقلة أول دولة إسلامية سنة٧١٦هـ/١٣١٧م وتأخذ المسيحية فى التضاؤل بإقليمها وإقليم علوة . وكان انتشار الإسلام فى غربى السودان أسرع منه فى بلاد النوبة ، نشره هناك تجار الكانم والبرنو وكتلة ضخمة من قبيلة زواوة البربرية وعرب الشاوية، وتكونت فى إقليمى واداى ودارفور مملكة إسلامية منذ القرن الخامس الهجرى . وتقوم دولة الفونج الإسلامية فى سنار أوائل القرن العاشر الهجرى/السادس عشر الميلادى لمدة ثلاثة قرون ، وتتخذ العربية لغة رسمية لها وتحدث فى البلاد نهضة علمية وأدبية وتضعف فى أواخر أيامها . ويفتح محمد على السودان سنة ١٨٢٠م ويضم إليه مينائى مصوّع وسواكن على البحر الأحمر ، وأهم من خلفه الخديوى إسماعيل ، وينشىء خمس مدارس فى العواصم الكبرى ويُشْرِك السودانيين فى الحكم ويستولى على مرتفعات إريتريا ، وأخطأ بتعيينه صموئيل بيكر ثم غردون الإنجليزيين حاكمين لإقليم منطقة البحيرات فى أعالى النيل . ويقوم المهدى بحركته الدينية الإصلاحية ويدين له السودان بجميع أرجائه ، ويخرج منه الجيش المصرى ، ويتوفى المهدى سريعا ويخلفه عبد الله التعايشى وينتصر على الحبشة مرارا ، ويمد المصريون خطا حديديا من وادى حلفا إلى أبى حمد ليساعد جيشهم فى تحركاته ضد التعايشى ، وكان يقوده كتشنر الإنجليزى ، وانتصر على جيش التعايشى نصرا حاسما فى أم درمان، وتوفى التعايشى وقام فى البلاد الحكم الثنائى المصرى الإنجليزى فى أول سنة ١٨٩٩ للميلاد، وبمقتضى وثيقة سياسية جُمعت مقاليد الحكم فى السودان لحاكم إنجليزى كان أشبه بحاكم مستقل، ووضعت للسودان نظم جديدة للشئون المالية والإدارية والتعليم والقضاء والمصالح الحكومية، وأنشئت كلية غردون حتى إذا كانت سنة ١٩٢٤ للميلاد قامت فى السودان ثورة ضخمة تعد بدءًا لعصره الحديث .

ولا نصل إلى القرن العاشر الهجرى حتى يصبح السودان بلدا إسلاميا ، وإن بقيت بعض جيوب مسيحية ووثنية ، وفسحت دول الفونج الإسلامية للتصوف والصوفية وانتشرت الطريقتان القادرية والشاذلية وعمت النزعة الصوفية فى جميع أرجاء السودان . وكانت للمرأة السودانية

مكانة مهمة اجتماعية وروحية ، فكانت تحضر دروس العلماء وحلقات الصوفية وتنتظم بين مريديهم وتنشد أحيانا فى حلقات الذكر . وكان بعض الصوفية يتشدد فى العهد الذى يلزم به أتباعه كعهد أحمد ود مريم الذى يدل على ما أتاح التصوف لأهل السودان من تربية خلقية قويمة . وشجع محمد على الطرق الصوفية المصرية على أن ترسل بعض دعاتها إلى السودان . وأرسل الشيخ أحمد بن إدريس الصوفى المكى أحد دعاته إلى السودان وهو محمد عثمان الأميرغنى ، فنشر طريقته من وادى حلفا إلى دنقلة وفى كردفان . ونزلت السودان طرق صوفية كالطريقة السمانية ، وهى فرع من القادرية . وظهر المهدى بطريقة جديدة دعا فيها إلى ستة مبادىء هى : الزهد ، والعمل بالشريعة المحمدية ، والأخذ بالبساطة فى الحياة ومتاعها ، ونبذ جميع الطرق الصوفية ، ونبذ كتب النحل الدينية وكتب فقهاء المذاهب الأربعة ، والهجرة إلى مراكز دعوته . وظلت هذه المبادىء حية فى عهد خليفته التعايشى وانتهت الدعوة بوفاته . وعادت الطرق الصوفية إلى نشاطها القديم .

وكانت الناشئة فى السودان تحفظ القرآن الكريم فى الكتاتيب والخلوات ، وتنتقل بعد ذلك إلى دراسة العلوم بالمساجد والزوايا على شيوخ بلغت حلقات بعضهم ألف طالب أو تزيد ، وظلت الحركة العلمية فى عهد دولة الفونج نشيطة بل مزدهرة وأرّخ لها ود ضيف الله فى كتابه الطبقات ، وفيه ترجم لنحو مائتين من أعلام الشريعة والعربية والتصوف ، وأفاض فى ذكر من درسوا من علماء السودان فى الأزهر والمدينة بالحجاز كما أفاض فى ذكر علماء الأزهر الذين رحلوا إلى السودان لتعليم أبنائه شريعة الإسلام وعلوم العربية والكلام والأصول والمنطق . ولما فتح محمد على السودان شجّع علماء الأزهر على الهجرة إليه ، ويقال إنه شجّع بعض الطلاب السودانيين على الالتحاق بمدرسة المبتديان ، وأنشأ الجامع العتيق بالخرطوم ليكون معهدا دينيا كبيرا على غرار الأزهر ، وأنشأ خليفته وحفيده عباس الأول مدرسة بالخرطوم جعل ناظرها رفاعة الطهطاوى ، وأغلق المدرسة سعيد خليفته ، غير أن إسماعيل أمر بإنشاء خمس مدارس فى عواصم المديريات ومدرسة سادسة فى مدينة سواكن . ووقف المهدى هذا النشاط التعليمى حتى إذا قام الحكم الثنائى المصرى الإنجليزى عاد وازداد إذ أنشئت كلية غردون وكثرت المدارس الحكومية وغير الحكومية وأنشئت مدارس أولية ووسطى فنية ، وأنشئت مدرسة للبنات ثم أربع أخرى ، وتعددت مدارس الإرساليات الدينية ، وأنشىء معهد دينى فى أم درمان ، ونما التعرف على الثقافة الغربية الحديثة وتعلم اللغات الأجنبية وخاصة الإنجليزية ، وأنشىء نادٍ للخريجين تبارى فيه الخطباء ، ينادون بالإصلاح الاجتماعى والسياسى .

وكان أول نزول للعرب المسلمين بالسودان فى حملة وجّه بها عبد الله بن سعد بن أبى سرح والى الخليفة عثمان على مصر ، وتوغلت الحملة – كما ذكرنا – حتى دنقلة وأخذ كثير من قبائل

العرب وعشائرها ينزل بين قبائل البجّة فى شرقى السودان وأسلمت منها قبيلة الحدارب كما ذكر ذلك المسعودى فى القرن الرابع الهجرى ، وظل الإسلام – ومعه العربية – ينتشر فى قبائل البجّة ببطء ، وبالمثل فى بلاد النوبة . أما فى الغرب فكان التعرب سريعا بفضل الكتلة الضخمة من قبائل زواوة البربرية وشاوة العربية النازلة فى دارفور بالقرن الخامس الهجرى. ونشرت دولةُ الفونج العربيةَ فى ربوعها ، وبالمثل مملكةُ تقلى فى جبال النوبا وسلطنةُ دارفور وفى كردفان . ولا نصل إلى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى حتى يكون السودان تعرَّب ما عدا بعض الجبال الشاهقة فى أقصى الغرب ومنطقة الغابة فى الجنوب وقبيلة الأمرأر البجاوية . وعرضت شعراء المديح وترجمت للشيخ حسين زهراء والشيخ محمد عمر البنا ، وشعراء الفخر والحماسة وترجمت للشيخ يحيى السلاوى السودانى ولعثمان هاشم ، كما عرضت شعراء رثاء الأفراد وترجمت للشيخ محمد سعيد العباسى وبالمثل شعراء رثاء المدن . وتحدثت عن شعراء الغزل وترجمت للشيخ أبى القاسم أحمد هاشم ، وعن شعراء النقد العنيف والشكوى من الزمن ، وترجمت للشيخ عبد الله البنا وصالح عبد القادر ، وعرضت شعراء التصوف وشعراء المدائح النبوية ، وترجمت للشيخ عمر الأزهرى والشيخ عبد الله الرحمن . ولم أُوَرِّخ للنثر الأدبى السودانى قبل العصر الحديث إذ تكثر فيه الألفاظ العامية فى عصر الفونج ، وكُتبت بعض رسائل فصيحة فى القرن التاسع عشر ، ولكنها من القلة بحيث لا تتيح لباحث دراسة خصبة فيها . وقد تأخرت نهضة النثر السودانى حتى عصر السودان الحديث إذ نشأت فيه المقالة الأدبية والأقصوصة والقصة والمسرحية .

ومصادر ومراجع كثيرة قديمة وحديثة أفدت منها فوائد شتى فى تأليف هذا الجزء، وخاصة ما كتبه الأعلام المعاصرون فى كل بلدة من البلدان عن الحياة الأدبية فيه، إذ كان لى منارات تهدينى الطريق . وبذلك انتهت هذه السلسلة المستوعبة بأجزائها العشرة دراسة تاريخ الأدب العربى وأعلامه من الشعراء والكتاب قبل العصر الحديث ، وعنيت بأن أعرض لكل أديب روائع أدبه . وذكرت بجانب ذلكّ أعلام الفلسفة والعلوم المتنوعة من علوم الأوائل والعلوم الإسلامية وعلوم العربية والتاريخ فى كل بلد عربى على مر الزمن . وبذلك تحمل هذه الموسوعة تاريخ الأمة العربية الأدبى والفلسفى والعلمى والحضارى قبل العصر الحديث ، مبتغيا بذلك خدمة العروبة والإسلام ، والله ولى الهدى والتوفيق .

القاهرة فى أول سبتمبر سنة ١٩٩٥م

شوقى ضيف

القسم الأول

الجزائر

الفصل الأول

الجغرافية والتاريخ

١

الجغرافية[1]

تتوسط الجزائر فى الشمال الإفريقى بين المغرب الأدنى : تونس شرقا والمغرب الأقصى : مراكش غربا ، ولذلك سماها جغرافيو العرب المغرب الأوسط . ويحدها شمالا البحر المتوسط ويمتد عليه ساحلها نحو ١٢٠٠ كيلو مترًا ، وهو ساحل صخرى حجرى ، ولذلك تقل عليه – بل تنعدم – الخلجان العريضة ، وعلى منعطفات فيه أو خلجان صغيرة نشأت موانى الجزائر ، وأهمها من الشرق إلى الغرب عنابة (بونة قديما) فإسكيكدة ، فجيجل ، فبجاية ، فدلس ، فالجزائر (المدينة) فشرشال ، فتنس ، فأزرو ، فوهران ، فالمرسى الكبير .

وتلى الساحل من الشرق إلى الغرب جبال أيدوغ المشرفة على عنابة ، ثم زكار والظهرة بين مدينة الجزائر وميناء أزرو ، ثم الطرارة إلى الغرب . وجنوبى تلك الجبال تمتد من الشرق إلى الغرب سلسلة جبال الأطلس التلى بادئة بجبال مجردة ، فجبال البابور ، فجبال الجرجرة شمالا والبيبان جنوبا ، فجبال تيطرى وشماليها جبال مدينة البليدة ، ثم جبال الونشريش ، فجبال سعيدة ، فجبال الضاية ، فجبال تلمسان . وتكتظ مناطق تلك الجبال بسهول واسعة وعيون ونهيرات وبعض أنهار ، مما جعلها أوسع مناطق الجزائر عمرانا ، وإذا كان ساحل الجزائر يتميز بكثرة حدائقه وبساتينه فإن تلك المناطق التلية تتميز بغاباتها وزروعها وأشجارها المثمرة ومن أهم مدنها قالمة وقسنطينة فى الشرق ، ومليانة جنوبى شرشال وتلمسان فى الغرب .

وتمتد جنوب هذا الأطلس التلى هضبة كبيرة ، وهى قفار واسعة ينبت بها شجر الحلفا وعشب كثير فى الربيع فتؤمها قطعان الأغنام والماشية من الجنوب للرعى حتى اقتراب زمن الشتاء ، فتنسحب إلى ديارها ومواطنها جنوبا . وتطوّق الهضبة سلسلة جبال الأطلس الصحراوى ، ومن أهم أجزائها شرقا جبال أوراس ، وإلى الشمال من تلك الجبال جبال

---

(١) انظر فى جغرافية الجزائر كتاب المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب لأبى عبيد البكرى وصفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس (مقتبس من نزهة المشتاق للإدريسى) طبع ليدن ، وكتاب صورة الأرض لابن حوقل وكتاب الجزائر للأستاذ أحمد توفيق المدنى (طبع الجزائر) وكتاب تاريخ الجزائر لمبارك الميلى (طبع الجزائر) ص٢٧ وما بعدها ومادة الجزائر فى دائرة المعارف الإسلامية .

الحضنة ، وأنشأ في أحد سهوله الخليفة الفاطمي المهدى مدينة المَسيلة (المحمدية قديما) وشرقى سهلها خرائب مدينة طُبْنة عاصمة الزاب أيام الدولة الأغلبية التونسية ، وإلى الجنوب من المسيلة قلعة بنى حماد عاصمة دولتهم . وإذا مضينا بعد جبال الأوراس غربا فى سلسلة جبال الأطلس الصحراوية لقيتنا جبال الجلفة ، فجبال عمور ، فجبال القصور . وجبال هذه السلسلة أعلى وأضخم من جبال الأطلس التلِّى وكثير منها جبال جرداء .

وإذا انحدرنا من هذه الجبال نحو الجنوب لقيتنا الصحراء الكبرى ، ويسمى القسم الشرقى منها أرض تُقْرت ، وبه واحات متناثرة تكتظ بالنخيل وبعض الأشجار المثمرة ، وإلى الغرب من هذه القسم الصحراوى الشرقى أرض ميزاب وعاصمتها غرداية ، وهى أكثر جدبا من القسم الشرقى ، وإليها هاجر الإباضيون حين دالت دولتهم فى تاهرت ، وقد حفروا بها آلاف الآبار ، وأحالوا بقاعا منها كثيرة إلى واحات غنية بالنخيل والحدائق والبساتين ، وبذلك بثوا فيها غير قليل من الحياة والحضارة والعمران .

والأمطار تبدأ فى الجزائر منذ شهر أكتوبر وتغزر فى شهر يناير بالمنطقة الساحلية ومنطقة الأطلس التلِّى ، وتأخذ فى القلة بالهضبة الوسطى بين سلسلتى جبال الأطلس التلية والصحراوية ، وتكاد تنعدم فى أكثر أجزاء الأطلس الصحراوى وجنوبيه فى الصحراء الكبرى . ولقلة الأمطار داخل الجزائر لم تتكون بها أنهار كبيرة ، إنما تكونت غالبا نهيرات ومجار للمياه قصيرة ، وهى جميعا لا تجرى إلا فى الشتاء فصل الأمطار ، ومنها ما يتجه إلى البحر المتوسط ، وقد تتجه إلى البحيرات المالحة فى الهضبة أو إلى الصحراء حيث تغيب فى طبقات الرمال . وأهم أنهارها مجردة فى الشرق ، وينبع من الجبال المتاخمة لإقليم الزاب ، وهو كثير المنعرجات فى مجراه الجبلى ، ويخترق شرقى الجزائر متجها إلى الديار التونسية حتى مصبه بالقرب من قرطاجة فى البحر المتوسط ، ويعد نهرا تونسيا أكثر منه جزائريا لمسيرته الطويلة فى الديار التونسية . وأطول أنهار الجزائر الداخلية نهر شلف وينبع من جبال عمور فى الأطلس الصحراوى ، ويتجه إلى الشمال ، وترفده نهيرات كثيرة ، ويخترق منطقة الأطلس التلِّى ، ويتجه شرقا ثم يغير اتجاهه إلى الشمال ، وعند مدينة مليانة جنوبى شرشال يتجه إلى الغرب حتى مدينة مستغانم ويصب فى خليج أرزو . ووراء هذين النهرين الكبيرين نهيرات كثيرة أو أنهار ومجار صغيرة منها نهير سيبوز النابع من الجبال المتاخمة لقسنطينة ويصب فى البحر المتوسط بالقرب من عنابة ، ونهير العروش ومصبه بالقرب من إسكيكدة ، ونهير الرمل أو الوادى الكبير ويرفده بومرزوق المخترق لقسنطينة ويصب شرقىَّ جيجل ، ونهير الصمام ومصبه بالقرب من بجاية ، ونهير حميز ومصبه فى خليج مدينة الجزائر ، ونهير الحراش ويخترق سهول المتيجة ومصبه قريب من مدينة الجزائر إلى غير ذلك من نهيرات ، كلها غير صالحة للملاحة. والنهيرات الداخلية ، منها

نهير جدى الذى يمر بمدينة الأغواط ويصب فى بحيرة ميغليغ، ونهير ميا ومصبه سبخة ورقلة إلى غير ذلك من نهيرات داخلية ، وتتجه إلى الصحراء الكبرى نهيرات كثيرة، تغيب فى الرمال ومنها تنبع فى الصحراء الآبار الفوارة الارتوازية.

ووراء المواني على الساحل سهول تُعِد لنمو أشجار النارنج والليمون والفواكه ، وفى الأطلس التلى سهول واسعة متقطعة ، تزرع بها الحبوب والغروس ، وأكثر سكان الجزائر يعيشون من خيراتها . وتتسع السهول جنوبى عنابة ومدينة الجزائر وفى تلمسان ، وتزرع الحبوب فى وديان الأطلس التلى ، ومن أهم مناطق زراعتها شرقى الهضبة بين ذراعى الأطلس التلى والأطلس الصحراوى ، وبالمثل منطقة وهران والقسم الغربى من الجزائر . ولاختلاف الطقس فى الجزائر تلقاك على جبالها وسفوحها أشجار مختلفات ، ففى السفوح النخيل ، وفوقها أشجار الفواكه من مثل التين والخوخ ، وفى أعلاها أشجار الزيتون والنقل . وتشغل الغابات مساحات شتى فى الأطلس التلى وجبال أوراس الصحراوية ، وعليها جميعا فى أماكن مختلفة تتراءى أشجار القرو والأرز والصنوبر وخاصة فى جبال الأوراس والونشريس . ويكثر النخيل فى الواحات ومعه بعض الفواكه وخاصة فى بِسْكرة . وفى الهضبة بين ذراعى الجبال التلية والأطلسية الصحراوية بحيرات عدة ، من أهمها بحيرة الحضنة .

والطقس على الساحل الجزائرى معتدل مثل سواحل البحر المتوسط عامة ، والسهول الداخلية وراء وهران حارّة جافّة . وجبال الأطلس التلى معتدلة صيفا باردة شتاء ، والثلوج تتوج الجبال أحيانا فى الشتاء ، وتتجمد المياه فى قسنطينة نحو شهرين كل عام . ومناخ الهضبة بين ذراعى الجبال التلّية والصحراوية قارّى ، شديد البرد شتاء شديد الحر صيفا . ومناخ جبال الأطلس الصحراوية والنواحى الجنوبية المنحدرة منها والمترامية فى الصحراء شديدة البرد شتاء ، وتشتد الحرارة فى الصحراء بالصيف شدة لا تطاق .

٢

التاريخ[١] القديم

يتوغل تاريخ الجزائر فى العصور القديمة السحيقة إلى آماد بعيدة ، ويأخذ هذا التاريخ فى الجلاء والوضوح مع ارتياد الفينيقيين الشاميين لسواحل إفريقيا فى القرن العاشر قبل الميلاد وقبله وبعده بحثا عن مواقع تصلح لرسو سفنهم التجارية ونزولهم بها لتبادل سلع التجارة مع

(١) انظر فى تاريخ الجزائر القديم والحديث تاريخ المغرب الكبير لمحمد على دبوز (طبع القاهرة) وكتاب الجزائر لأحمد توفيق المدنى (طبع دار المعارف بالقاهرة) وتاريخ الجزائر القديم والحديث لمبارك الميلى : الكتاب الأول فيه وأبوابه الثمانية .

السكان . وكانوا شعبا ملاحيا متحضرا عريقا يحترف التجارة ، ومضوا طويلا يتعرّفون على المواقع التى تلائمهم فى سواحل إفريقيا ، وبمرور الزمن ودوراته المتعاقبة أقاموا مدينة قرطاجة بالقرب من مدينة تونس الحالية ، ونزلت فيها منهم جالية فينيقية كبيرة ، وأداهم البحث عن أماكن صالحة مماثلة فى شمالى الجزائر لتبادل السلع مع السكان إلى موقعين مهمين هما بونة (عنابة الحالية) وجيجل ، وأضافوا إليهما - فيما بعد - مواقع أو مدنا جديدة هى إسكيكدة وبجاية وشرشال ، واتخذوا من سكانها جميعا إدارات تدين لهم بالولاء ، واختلطوا بهم وبثوا فيهم حضارتهم الفينيقية ، ونقلوا إليهم - كما نقلوا إلى قرطاجة وإقليمها - من ديارهم الأصلية فى الشام أشجارا متنوعة من الفاكهة والنقل ، وعلّموا كثيرين من أهل الجزائر لغتهم وما استحدثوه من حروف الكتابة الفينيقية التى نشروها فى العالم القديم .

ولما نشبت الحرب بين قرطاجة وروما وظلت طويلا من سنة ٢٦٤ حتى سنة ١٤٦ قبل الميلاد استطاعت روما أن تستميل سكان الجزائر وملكهم ماصينصا ، حتى إذا علت كفّتهم فى الحرب وتغلبوا نهائيا على القرطاجيين فرضوا على الجزائر وماصينصا ملكها الولاء لهم ، ورضخ إلى أن قضى نحبه ، وخلفه ابن أخته يوغورطة وكان بطلا مغوارا ، فأنف من التبعية للرومان ونازلهم مرارا ، غير أن صهره ملك موريتانيا خانه وسلمه إليهم سنة ١٠٦ قبل الميلاد . وحكم بعده ملوك أو أمراء جزائريون كانوا يعدون موظفين رومانيين أكثر منهم حكاما جزائريين ، ومن أهمهم يوبا الأول وابنه يوبا الثانى الذى نشأ فى روما حتى أصبح كأنه مواطن رومانى ، وجعلوه ملكا على نوميديا أخذا من اسم كان يطلقه الجزائريون على القسم الشرقى من ديارهم أو لعله اشتق من لفظة نوماد الإغريقية وتعنى الرعاة الرحل ، واتخذ شرشال عاصمة له ، وضموا إليه - فيما بعد - موريتانيا الشرقية والغربية من وهران فى غربى الجزائر إلى أقصى بلاد المغرب على المحيط الأطلسى ، ولم يلبث الرومان بعده أن ضمّوها إلى إمبراطوريتهم ، وأخذوا يولون عليها حكاما رومانيين تابعين لروما أو لحاكم قرطاجة الكبير . وتوغلوا فى ديارها جنوبا ، يدل على ذلك أكبر الدلالة ما أسسوه من مدن فى الداخل إلى مسافات بعيدة عن الساحل مثل تبسة الواقعة على بعد ١٥٠ ميلا جنوبى جيجل وبها أطلال لمبنى كان يقوم على أعمدة رخامية ، ويقول الحسن الوزان : على تلك الأعمدة كتابات لاتينية ، وكان اسمها الرومانى نيفسته ، وفى شماليها الشرقى واحة بِسْكرة ، واسمها الرومانى فيسيكرا وهى قرية جزائرية عتيقة . وجنوبى بسكرة نفطة وبها آثار وأطلال رومانية ، وإلى الجنوب من جيجل فى الداخل قسنطينة وكان اسمها أيام الفينيقيين سرتا ، وكانت بها أسرة سيفاكس التى أسست لها مملكة فى الجزائر ، ومنها انحدر ماصينصا الذى وضع يده فى يد الرومان - كما أسلفنا - للقضاء على القرطاجيين ، وخرُبت سرتا فى بعض ثورات الجزائريين على الرومان ، وأعاد الرومان بناءها فى عهد الإمبراطور قسطنطين (٣٠٦ - ٣٣٧ م) . وسموها قسطنطينة وسماها العرب قسنطينة ،

والأطلال والآثار الرومانية كثيرة فى مدن الجزائر الداخلية . وأرهق الرومان الجزائريين طوال حكمهم بصور شتّى من العسف والظلم والضرائب الفادحة مع نهب طيبات الأرض من الحبوب والزيتون . ولما اعتنقت روما الديانة المسيحية واتخذتها دينها الرسمى أخذت فى نشرها بإمبراطوريتها والجزائر ، وساعد على انتشارها فيها الجاليات والأسر الرومانية التى استوطنت المدن الجزائرية ، فبُنيت الكنائس والأسقفيات فى غير مدينة لا فى المدن الساحلية فحسب ، بل أيضا فى المدن الداخلية مثل قالمة جنوبى عنابة (بونة قديما) وبها آثار رومانية ، ومثل بسكرة وكان بها أسقفية ، واشتهر فى تلك المدن بعض القديسيين مثل أوغسطين قديس بونة فى القرن الرابع الميلادى ، ويُعَدُّ بمواعظه ومؤلفاته من أكبر آباء الكنيسة ووعاظها البارعين .

ومع نهاية العقد الثالث للقرن الخامس الميلادى تكتسح البلاد موجات الوندال التى قضت على الدولة الرومانية الغربية ، وتظل نحو مائة عام تخرب فى الجزائر وتدمر كل ما أسسه بها الفينيقيون والرومان من منشئات العمران والحضارة إلى أن خلصتها منهم الدولة البيزنطية سنة ٥٣٤ للميلاد على يد القائد البيزنطى المشهور بليزير ، وأصبحت الجزائر – من حينئذ – تابعة لتلك الدولة ، ولم تحاول أن تنشر بها لغتها اليونانية على نحو ما نشر بها الرومان لغتهم اللاتينية وظلت هى المسيطرة فى البلاد طوال العهد البيزنطى . وكان عهدهم لا يقل عسفا وظلما عن عهد الوندال ومن قبلهم الرومان ، وكانوا يحكمون الجزائر بولاة تابعين لحاكم قرطاجة الكبير الملقب بالبطريق ، وكان اسمه بأخرة من عهدهم جريجوريوس ، وسماه العرب جرجير ، وحين رأى ضعف الدولة البيزنطية واستيلاء العرب منها على أكبر دُرّتين فى تاجها : الشام ومصر صمّم على الاستقلال عنها بما تحت يده من إفريقية التونسية والجزائر وقامت خصومة عنيفة بينه وبين الدولة البيزنطية وخلع طاعتها وضرب الدنانير باسمه .

٣

الفتح والولاة – الأغالبة – الإباضية – تلمسان

(أ) الفتح[١] والولاة

بينما جريجوريوس غارق فى حلمه بتكوين دولة له مستقلة فى البلاد المغربية إذا عمرو بن العاص والى مصر لعمر بن الخطاب يقدم على رأس جيش عربى مجاهد فى سبيل الله لتعقب الروم فى برقة وديار المغرب تأمينًا لحدود مصر فى أواخر سنة ٢١ للهجرة ، وسرعان ما يستولى على برقة وزويلة حاضرة فزان سنة ٢٢ هـ / ٦٤٢م وبعد أن رتب شئون الحكم فيهما تقدم غربًا

(١) انظر فى الفتح والولاة: فتوح مصر والمغرب لابن عبدالحكم والكامل فى التاريخ لابن الأثير، والبيان المغرب لابن عذارى، وتاريخ ابن خلدون، وفتوح البلدان للبلاذرى ومقدمات كتاب رياض النفوس للمالكى، والجزء الثانى من تاريخ المغرب الكبير لمحمد على دبوز وتاريخ الجزائر فى القديم والحديث لمبارك بن محمد الميلى.

ففتح طرابلس سنة ٢٣ هـ/٦٤٣م . ويعود عمرو إلى مصر ويتوفى الخليفة عمر ويخلفه عثمان فيولى على مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح ويستأذن عثمان في غزو إفريقية التونسية ، وأذن له ، وانضم إلى جيشه بعض أبناء كبار الصحابة ، ودق الجيش أبواب إفريقية التونسية سنة ٢٧هـ/ ٦٤٧م واستولى على مدينة قابس . وكان جريجوريوس قد عرف أن العرب لابد أن يغزوا دياره وكان قد ترك عاصمته قرطاجة واحتمى بحصن أنشأه الروم في الداخل جنوبي القيروان يسمى سبيطلة خوفًا من أن يهاجمه بقرطاجة أسطول الروم ، وجمع إليه جيشًا ضخمًا من الروم وغيرهم استعدادا لمنازلة العرب وسرعان ما أداروا معه معركة حامية ، ودارت عليه وعلى جيشه الدوائر وقتل في المعركة ، قتله عبد الله بن الزبير ، وكانت معركة حاسمة ، قضت على الروم في إفريقية التونسية وفتحت بلدانها أبوابها للجيش العربي إلا ما كان من قرطاجة فقد ظلت بها حامية رومية ، ورجع ابن أبي سرح إلى مصر وترك عليها نافع بن عبد القيس الفهري ، ويولى عليها عثمان سنة ٣٤ للهجرة معاوية بن حُديج ، ويبدو أنه عاد منها أيام فتنة عثمان ، وأعاده إليها معاوية بن أبي سفيان ، فنازل الروم في بنزرت وركبوا البحر فارّين ، وولاها بعده معاوية عقبة بن نافع سنة ٥٠هـ /٦٧١م وكان قد شهد فتح برقة وطرابلس وقابس والديار التونسية ، وكان قائدا حربيًا ممتازًا بعيد النظر ، فرأى أن يتخذ لجيشه العربي مدينة تكون مستقرا له ودارًا لا يبرحها ، وأخذ توا في بناء مدينة القيروان أي المعسكر وأتمها سنة ٥٥هـ /٦٧٦م وبنى بها المسجد الجامع ودار الإمارة ودورًا لقواده وجنوده ، وبنى حولها سورًا منيعًا ، وأصبحت عاصمة للمغرب . غير أنه لم يلبث أن عُزل ووّلى المغرب بعده أو بعبارة أدق إفريقية التونسية أبو المهاجر ، وصمم على فتح نوميديا أو القسم الشرقي من الجزائر ، وتقدم فيه بجيشه حتى بجاية ، وواصل سيره إلى موريتانيا الشرقية حتى تلمسان ، وهو ينشر الإسلام ، وسكان الجزائر يقبلون عليه .

ومضى يتغلغل فيها وكانت الزعامة بها حينئذ لقبيلة أوربة ورئيسها كسيلة ، وكان قد جمع الجموع من البربر والروم ، والتقى به أبو المهاجر في تلمسان ودارت بينهما معركة حامية الوطيس انهزم فيها جيش كسيلة ، ووقع في الأسر ، فعامله أبو المهاجر معاملة كريمة جعلته يعتنق الإسلام ، وأخذت أفواج من قبيلته الكبيرة تدخل فيه . وعُزل أبو المهاجر سنة ٦٢هـ/٦٨٣م وتولّى مكانه عقبة بن نافع ، وكان قائدا حربيًا باسلا ، غير أنه لم يكن سيوسا ، فأساء إلى كسيلة مما جعله يصرُّ على الانتقام منه ، واستخلف عقبة على القيروان زهير بن قيس البلوى وخرج إلى الجهاد في سبيل الله ، فاقتحم بلاد الزاب في وسط الجزائر يحالفه النصر ، ومضى يفتح بقية الجزائر والمغرب الأقصى حتى طنجة قاعدته ، وفتح السوس الأدنى والأقصى واتجه إلى المحيط فبلَّ قوائم فرسه منه ، ونادى ربه قائلا : « اللهم إني أشهدك أني وصلت براية الإسلام إلى آخر المعمورة حتى لا يُعْبَد أحد سواك » وفي عودته رصده كسيلة وقومه ، حتى

إذا تقدم جيشَه وبقي في جمع قليل حاصره واستشهد البطل المغوار هو ومن معه سنة ٦٣هـ . ومضى كسيلة بجموعه حتى استولى على القيروان ونصب نفسه ملكًا على البلاد ، وتراجع زهير بن قيس إلى برقة منتظرًا لمدد ضخم ، وكان قد توفي يزيد بن معاوية واضطربت الأمور حتى إذا أصبح زمام الخلافة بيد عبد الملك بن مروان أرسل إليه جيشًا وولاه على المغرب سنة ٦٩هـ/٦٩٠م وواقع كسيلة ، وأنزل الله نصره عليه وعلى المسلمين وقُتِلَ في الواقعة كسيلة المرتد الباغي الأثيم . ورأى زهير بعد هذا النصر العظيم أن يعود إلى المشرق ، وبينما هو في نفر قليل من أصحابه عند برقة – وقيل عند طرابلس – إذ هو يرى بعض سفن للروم وهم يسوقون أمامهم بعض المسلمين فنازلهم وكتبت له عند ربه الشهادة .

وفي سنة ٧١ يرسل عبد الملك بن مروان إلى المغرب حسان بن النعمان أحد ولاة القيروان العظام في القرن الأول الهجري ورأى في بدء حكمه بثاقب بصيرته أن البلاد لن تهدأ ما دامت قرطاجة لم تستسلم وما دامت بها الجالية الرومية الكبيرة التي تنزلها ، والتي تتجسس منها لحساب بيزنطة والتي تعيث وتفسد في البلاد موغرة صدور البربر على العرب بكل وسيلة ، فحاصرها وافتتحها وفرَّت كثرة الروم إلى البحر المتوسط وما وراءه ، وهدم أسوارها حتى لا يتجمعوا فيها مختبئين مرة ثانية ، وطهَّر ميناء بنزرت وشمال إفريقية التونسية من الروم ،وفرض الجزية على من بقي على دينه المسيحي منهم ومن البربر . ومنذ أوائل عهده اشتعلت فتنة كبرى بقبيلة جراوة من قبائل زناتة بجبال أوراس في الجزائر بزعامة كاهنة هناك ، ونازلها بجيش جرار قرب باغاية شمالي جبال الأوراس وانهزم المسلمون وطاردتهم حتى قابس ، ومكث بمدينة سرت في ليبيا خمس سنوات ينتظر المدد من الخليفة عبد الملك ، وجاءه مدد ضخم سنة ٨٠ واشتبك مع الكاهنة في حرب ضروس بجبال الأوراس ، حتى كانت الموقعة الفاصلة فانهزمت الكاهنة مع جيشها ، وولَّت وجهها نحو تبسَّة هاربة ولحقتها كتيبة فتكت بها ، واستأمن إليه من بقي من جيشها على الإسلام فأمَّنهم وأمَّن سكان أوراس الجزائريين جميعًا على أن يكون منهم اثنا عشر ألفًا مجاهدين معه ، فأجابوا وأسلموا وحسن إسلامهم وولَّى أكبر أبناء الكاهنة على قومه من جراوة وعلى جبل أوراس ، وأكرمهم وأكرم أبناء الكاهنة ، فملك قلوب الجزائريين وساد الأمن والهدوء . وكان حسان سيوسا ، فنظم البلاد تنظيما إداريًا وماليًا محكمًا إذ دوَّن الدواوين : ديوان الجند وديوان الخراج وديوان الرسائل . وأصلح القنوات للريّ ، وأقام لإفريقية التونسية ميناء جديدًا ليكون قاعدة لأسطول لها يحمي السواحل من غزوات الروم ، مما جعله ينشيء مدينة تونس ، ويلحق بها دار صناعة كبرى ، وسرعان ما أنشأ أسطولا ضخمًا وضرب للبلاد سكة جديدة .

وخلفه موسى بن نصير سنة ٨٦ فعمل على استكمال نشر الإسلام في ربوع المغرب ، وأرسل حملات إلى أنحاء كثيرة ثم قام بحملته الكبرى فاكتسح بلاد المغرب حتى طنجة وإقليم

السوس ، وولى على طنجة طارق بن زياد مولاه البربرى . وكان يترك فى النواحى التى لم يتم إسلامها من يعلمون أهلها فرائض الإسلام ويحفظونهم القرآن الكريم ، وأسلم كثير من البربر فى أيامه . وأتم التنظيم الإدارى لبلدان المغرب ، فقسمه إلى ولايات ولكل ولاية قاعدتها وحاكمها ، فالمغرب الأقصى عاصمته طنجة ، وغربى المغرب الأوسط (الجزائر) عاصمته تلمسان ، وشرقى المغرب الأوسط (إفريقية التونسية ونوميديا الجزائرية وطرابلس) عاصمته القيروان ، وجعل لبلاد السوس جنوبى المغرب الأقصى ولاية مستقلة عاصمتها سجلماسة ، وجعل إقليم برقة ولاية مستقلة عاصمته برقة . وقام بعمل عظيم مع مولاه طارق والى طنجة إذ فتحا إسبانيا ونشرا الإسلام بها فى إقليمها الجنوبى والأوسط المسمى – فيما بعد – باسم الأندلس ، وهو شرف للبطلين لا يماثله شرف .

وعزل الخليفة سليمان بن عبد الملك قصير النظر موسى بن نصير . ويعد عهد موسى بن نصير نهاية الفتح العربى للربوع المغربية ونشر الإسلام فى جميع أرجائها . وقد خلفه محمد بن يزيد مولى قريش سنة ٩٧ للهجرة وكان حسن السيرة – كما يقول الرقيق القيروانى – عادلا رفيقا كل الرفق بالرعية . ويصبح عمر بن عبد العزيز خليفة المسلمين سنة ٩٩ فيصلح أداة الحكم فى الدولة ، ويرسل إلى إفريقية والقيروان بعثة من عشرة فقهاء ليعملوا على نشر الدين الحنيف فى الديار المغربية واختار أحدهم وهو إسماعيل بن عبيد الله حفيد أبى المهاجر والى القيروان بين فترتى عقبة بن نافع الذى فتح المغرب الأقصى ونشر به الدين الحنيف ، وكان الحفيد مثل جده تقوى وسياسة حكيمة ، فأصلح الجباية بالمغرب وسوّى فيها – كما أمر عمر بن عبد العزيز – بين البربر والعرب ، وعمل بقوة – مع زملائه الفقهاء التسعة الذين أرسلهم معه عمر – على نشر الدين الحنيف فى المغرب ، ودخله منهم أفواج لا تكاد تحصى . وتوفى الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز سنة ١٠١ للهجرة ، وخلفه يزيد بن عبد الملك ، فعاد ولاته إلى الخسف والظلم فى جمع الضرائب والأموال من الولايات المغربية ، وقد اختار للمغرب يزيد بن أبى مسلم صاحب شرطة الحجاج سنة ١٠٢ فساس المغرب بسياسة الحجاج الغاشمة التى قامت على التفرقة بين العرب والموالى المسلمين فى العراق ، غير ملاحظ أن أهل المغرب من البربر انتظموا فى سلك الجيوش التى أتمت فتح المغربين الأوسط والأقصى وأنهم كانوا الأكثرية فى الجيش الذى فتح إيبيريا وأدخل الشطر الأعظم منها فى الدين الحنيف ، وبذلك أصبحوا – بالقياس إلى العرب – رفقاء سلاح وجهاد ، ولم يلبث البربر أن أجمعوا على قتله ، فقتلوه سنة ١٠٣ للهجرة ، وكان ذلك درسا ليزيد بن عبد الملك ، فولّى على المغرب فى نفس السنة بشر بن صفوان الكلبى ، وكان رءوفا بالرعية ، وأرسل حملة من العرب وإخوانهم البربر لغزو صقلية سنة ١٠٧ وعادت الحملة بغنائم وفيرة ، وتوفى سنة ١٠٩ للهجرة ، فولى هشام بن عبد الملك عبيدة بن عبد الرحمن السلمى سنة ١١٠ وأخذ البربر بالرفق والمعاملة الحسنة ، وأرسلت

حملة إلى صقلية وعادت في ريح عاصفة فغرقت كثرة منها . وتولّى بعده عبيدالله بن الحبحاب سنة ١١٤ للهجرة ، فأعاد بناء جامع الزيتونة بتونس الذى بناه حسان ، ولم يلبث أن أساء السيرة هو وعماله في جميع أنحاء المغرب ، إذ تشددوا في جمع الخراج وجباية الأموال من البربر ، ورفضوا – في إصرار غريب – التسوية بين العرب والبربر في الشئون المالية كما تقضى بذلك شريعة الإسلام ، وبلغ من تهور عامل طنجة عمر بن عبيد الله المرادى وسفهه أن أعلن أنه عازم على تخميس أراضى البربر زاعما زعما آثما أنها فَيْءٌ للعرب وغنائم حرب لهم .

وكان طبيعيًا أن يثور البربر على هذه السياسة الغاشمة الظالمة ، وكان دعاة الخوارجُ صُفْرِيَّة وإباضيَّة قد أخذوا ينشرون في المغرب مبادئهم التى تحتّم التسوية بين العرب والموالى المسلمين في جميع الشئون المالية وفي الخلافة فهى حق لجميع المسلمين بحيث يتولاها أكفأهم جميعا عربًا وموالى . واعتنق البربر في جبل نفوسة بليبيا العقيدة الإباضية المعتدلة التى لا يكفّر أصحابها إخوانهم المسلمين ولا يقاتلونهم إلا إذا بادروهم بالقتال ، بينما اعتنق المغرب الأقصى عقيدة الصُّفْرِيَّة الذين يكفّرون غيرهم من المسلمين ويوجبون على أنفسهم حربهم ، وتزعّم الدعوة لتلك العقيدة بالقرب من طنجة على المحيط بربرى من قبيلة مضغرة البُتْرِيَّة يدعى ميسرة ، وبايعه البربر واتخذوه إمامًا لهم ، وكوّن منهم جيشا ضخما احتلّ به طنجة سنة ١٢٢هـ/٧٣٦م وقتل عاملها الغشوم عمر بن عبيد الله المرادى . ولم يلبث أن هزم في بعض معاركه مع جيوش ابن الحبحاب فظن به بعض أنصاره الخيانة فقتلوه ،وولت الصفرية في المغرب الأقصى عليها خالد بن حميد الزناتي سنة ١٢٣ إمامًا لها وقائدًا ، وأخذ يعدّ العدة للقاء جيش ابن الحبحاب ، والتقى به في الجزائر على نهر شلف شمالى تيهرت ، ونشبت بين الطرفين معركة عنيفة كان النصر فيها حليف الصفرية وقُتل فيها كثيرون من أشراف العرب ، ولذلك سُمِّيت معركة الأشراف . ويعزل هشام بن عبد الملك ابن الحبحاب ، ويولّى المغرب كلثوم بن عياض القشيرى وشدّ أزره بابن أخيه بلج بن بشر ، ويقدمان إلى المغرب الأقصى في جيش ضخم ، ويديران مع خالد بن حميد إمام الصفرية جنوبى طنجة معركة ضارية ، ويهزمان ويتوفّى كلثوم ، فينسحب بلج ببقية جيشه إلى مدينة سبتة ، وتحاصره الصفرية فيها وتشدد الحصار ويضطر إلى العبور بجيشه إلى الأندلس ، ويثور البربر في المغرب بجميع دياره . ويولى هشام عليه حنظلة بن صفوان سنة ١٢٤هـ/٧٤١م وأمدّه بجيش جرّار . وعرف أن قائدين صُفْريين هما عكاشة بن محصن الفزارى وعبد الواحد بن يزيد الهوارى حشدا جموع الصفرية في الزاب بالجزائر لحربه ، واتفقا أن يسيرا في طريقين لمهاجمة القيروان : عبد الواحد من الشمال وعكاشة من الجنوب ، وعلم حنظلة بخطتهما فأسرع بلقاء عكاشة ومزّق جيشه ، وأخذ يستعد في القيروان لمنازلة عبد الواحد ، واستثار الفقهاء لحربه ، فانضموا إلى جيشه ووزّع عليهم السلاح ، وبرزت النساء مع الجيش حاملات السلاح وامتلأ الجيش حمية ، ودارت المعركة فسُحق جيش عبد الواحد

وحُملت رأسه إلى حنظلة فخرَّ لله ساجدًا . وقُتل الوليد بن يزيد الخليفة الأموى سنة ١٢٦ فأحسَّ عبد الرحمن بن حبيب حفيد عقبة بدنوِّ أجل الدولة الأموية فأعلن الثورة سنة ١٢٧هـ/٧٤٤م وكان حنظلة تقيا فكره أن يتقاتل المسلمون وعاد إلى المشرق . ولما أصبح صولجان الخلافة بيد مروان بن محمد سنة ١٢٩هـ/٧٤٦م أقر ولاية عبد الرحمن بن حبيب على المغرب دَرْءًا للفتن هناك ، ولأنه أعلم من غيره بشئونها إذ هى داره ودار جده عقبة بن نافع ، وثارت الإباضية بطرابلس سنة ١٣٠ بقيادة عبد الله بن مسعود التجيبى وأُخمد الثورة ، وبايع الإباضيةُ هناك الحارث بن تليد بالإمامة واتخذ عبد الجبار بن قيس المرادى وزيرًا له ومستشارا ، وأدارا الحرب مع جيوش عبد الرحمن واغتيلا سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م . وفى نفس السنة تحولت الخلافة إلى العباسيين فأقروا عبد الرحمن بن حبيب فى ولايته ، وسمع بتجمع للصفرية بتلمسان فى الجزائر سنة ١٣٥ ففاجأهم وكُتب له النصر عليهم . وأرسل حملة إلى صقلية رجعت بكثير من الغنائم ، واستولى على جزيرة قوصرة التى تبعد عن الشاطىء التونسى نحو ثلاثين ميلا ، وتنازل عنها – فيما بعد – أبو زكريا مؤسس الدولة الحفصية بتونس لفردريك الثانى إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة « ملك صقلية » سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م . وتآمر على عبد الرحمن أخواه إلياس وعبد الوارث فقتلاه سنة ١٣٧ وتولى بعده إلياس ، وقتله ابن أخيه : حبيب بن عبد الرحمن وتولَّى مكانه ، ولم تلبث قبيلة وَرْفجومة النفزاوية الصفرية الغالية أن هاجمته واستولت على القيروان واستباحتها سنة ١٣٨هـ/٧٥٥م وحاول حبيب أن يستردها سنة ١٤٠هـ/٧٥٧م ففتكت به ورفجومة . وكانت قد استحلت المحارم فى القيروان فغضب لأهلها أبو الخطاب عبد الأعلى إمام الإباضية بطرابلس وجبل نفوسة ، فهاجم ورفجومة وخلَّص منها القيروان سنة ١٤١هـ/٧٥٨م وولَّى عليها عبد الرحمن بن رستم أحد قواده ، ولم يلبث محمد بن الأشعث والى مصر أن قدم على رأس جيش ضخم ، فاشتبك مع أبى الخطاب فى معركة ضارية قتل فيها أبو الخطاب ، وفرَّ واليه على القيروان عبد الرحمن بن رستم إلى الزاب فى الجزائر وأسس فى شماليه دولة للإباضية بمدينة تاهرت ظلت بعده حتى سنة ٢٩٦ . وولَّى ابن الأشعث على الزاب الأغلب بن سالم التميمى ولم يلبث أن تولَّى على المغرب الأدنى سنة ١٤٨هـ/٧٦٢م ويقتل فى بعض حروبه سنة ١٥٠هـ/٧٦٧م ويتولى على المغرب عمرو بن حفص المهلبى (هزارمرد) بانى طُبْنة بالزاب ، ونازل فى الجزائر الصفرية والإباضية بتاهرت ، وثارت عليه إباضية طرابلس وحاصرت القيروان وخرج إليها واستشهد فى المعركة سنة ١٥٣هـ/٧٧٠م . وخلفه ابن عمه يزيد بن حاتم المهلبى سنة ١٥٤ ويقول عنه الرقيق القيروانى : « كان كثير الشَّبه بجدِّه المهلب فى حروبه ودهائه وكرمه وسخائه وكان خبيرًا بشئون الإدارة فرتَّب القيروان وسوقها ، كما كان خبيرًا بشئون السياسة والحرب ، فقلم أظفار الصفرية فى الجزائر ولم يعد لهم نشاط إلا فى ديار زناتة بالصحراء ، وقلَّم بالمثل أظفار الإباضية ، فلم يعد لهم نشاط إلا فى تاهرت وجبل نفوسة ،

وهدأت الأمور بإفريقية واستقرت طوال عهده ، وكان أديبا ، وأسبغ عطاياه على الشعراء ووفدوا عليه من المشرق ، وأحدث فى القيروان حركة أدبية واسعة ، وجدَّد جامع عقبة الأعظم بها ، وازدهر فى عهده العمران . وظل واليا على إفريقية التونسية ونوميديا أو شرقى الجزائر حتى قسنطينة والزاب ستة عشر عامًا كانت أعوام رخاء وهدوء بالمغرب إلى أن توفى سنة ١٧١هـ/٧٨٧م وتولى بعده أخوه روح بن حاتم ، وكان لا يقل عن أخيه شجاعة وبطولة وحنكة سياسية ، ونعمت إفريقية التونسية والزاب فى أيامه باطراد الهدوء والرخاء وفى عهده تأسست الدولة الإدريسية الحسنية فى وَليلى جنوبى طنجة بالمغرب الأقصى ، وتوفى سنة ١٧٤هـ/٧٩١م وخلفه ابنه الفضل حتى سنة ١٧٩ وخلفه هرثمة بن أعين أحد قواد الدولة العباسية العظام ، ونشر فى الاقليم التونسى والطرابلسى الأمن والنظام ، وبنى مدينة المنستير وقصرها الكبير سنة ١٨٠ واختار للزاب واليًا إبراهيم بن الأغلب التميمى ، وأعجب بشجاعته وحسن سياسته ودهائه ، وعاد إلى بغداد سنة ١٨١هـ/٧٩٧م وخلفه محمد بن مقاتل العكِّى إلى سنة ١٨٤ وكان ضعيفًا سيىء السياسة . واستشار هرون الرشيد هرثمة فيمن يوليه المغرب ويحسن القيام عليه وقمع ثوراته ، فأشار عليه بإبراهيم بن الأغلب وامتدحه له طويلا ، فارتضى ولايته عليه منذ سنة ١٨٤هـ/٨٠٠م وجعله له ولأبنائه من بعده آملا أن يكوِّن به أسرةً حاكمة له حكما سديدا كحكم المهالبة المذكورين آنفا .

(ب) الأغالبة[1]

كانت الجزائر تحظى حينئذ فى شرقيها (نوميديا القديمة) بدولة الأغالبة المستقلة ، وكان منذ الفتح تابعا للقيروان ، وكان يمتد غربى الإقليم التونسى إلى بجاية على البحر المتوسط ومنها إلى الصحراء جنوبا شاملا قسنطينة وإقليم الزاب وعاصمته طُبْنة . ونعم هذا القسم من الجزائر فى عصر الدولة الأغلبية بنهضة عمرانية وحضارية وعلمية شأنه فى ذلك شأن عاصمته الكبرى القيروان وما تحقق لحكامها الأغالبة من مجد حربى عظيم باستيلاء الأمير زيادة الله الأغلبى على صقلية سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م ونقله هو وخلفائه من أسرته إليها الدين الحنيف العظيم والحضارة العربية المزدهرة وكل ما ارتبط بها من العلوم والصناعات . وكان ذلك فتحا عظيما للدولة الأغلبية ورعاياها فى الإقليمين التونسى والجزائرى ، فرحل منهم كثيرون إليها ينعمون بما فيها من طيبات الأرض ، مما عاد على التونسيين والجزائريين بخير وفير ، مع شعورهم بغير قليل من العزة . وظل هذا الشعور يزداد قوة طوال أيام الأغالبة بفضل أسطولهم العظيم وغزواته

---

(١) انظر فى الأغالبة المصادر السابقة والجزء الثالث من كتاب أعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب والحلة السيراء لابن الأبار ، وتاريخ الجزائر فى القديم والحديث لمبارك بن محمد الميلى والجزء الأول من كتاب ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية للأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب وما كتبه فيه عن أمرائها .

لبارى فى شرقى إيطاليا ولروما نفسها ، ولحصون وبقاع إيطالية كثيرة جنوبيها ، واستولى على مالطة سنة ٢٥٥هـ/٨٦٨م ونشر بها الإسلام وحضارته الباهرة . وتبلغ هذه الدولة التونسية الجزائرية أعظم قسط من الحضارة والمدنية فى عهد إبراهيم بن أحمد الأغلبى (٢٦١هـ/٨٧٤م - ٢٨٩هـ/٩٠١م) إذ يؤسس فى مدينته رقادة التى بناها بجوار القيروان بيت حكمة على غرار بيت الحكمة للرشيد والمأمون ببغداد ، وهو أول جامعة للعلوم نشأت فى البلاد المغربية ، وكان يدرس بها الطب والفلك وتقويم البلدان والفلسفة ، وقاد إبراهيم الأسطول بنفسه إلى جنوبى إيطاليا ، واستولى فيه على طائفة كبيرة من الحصون . وكل ذلك كان يملأ الرعية فى الإقليم التونسى وشرقى الجزائر بالبهجة . وكان الأغالبة على وعى كبير بالسياسة وتدبير شئون الحكم ، فكانوا يولون على شرقى الجزائر فى طُبْنة ولاة يحسنون إدارة الحكم ، وكانوا يمنحونهم سلطة إدارية واسعة ، وكان قاضى القيروان يولى على البلاد قضاة نزهين تقاة يحكمون بين الناس بالعدل والإنصاف لافرق بين عربى وبربرى ، بل مساواة تامة فى الحقوق والواجبات ، فازدهرت الحياة فى شرقى الجزائر - لعهد الأغالبة - وازدهرت الحضارة الإسلامية ازدهارا رائعا .

(جـ) الإباضيون[1]

تأسست الدولة الإباضية فى القسم الغربى من الجزائر الداخل قديما فى موريتانيا الشرقية ، أسَّسَها عبد الرحمن بن رستم فى منطقة جبلية وعرة متخذاً مدينة تاهرت عاصمة لها ، ولما أ. كثر أتباعه من الإباضية أعلنها سنة ١٦٠هـ/٧٧٦م وقد أقامها على أسس مبادىء الإباضية المثالية إذ جعلها ديمقراطية يولِّى الإمام فيها بمشورة ستة من وجوه القوم ورؤساء القبائل على نحو ما صنع عمر بن الخطاب واشترط فى الإمام أن يكون عادلا منتهى العدل عالما بالإسلام وتعاليمه حق العلم عاملا بمبادئه التى تكفل بدقة مصلحة الجماعة فى الدنيا وسعادتها فى الآخرة ، ويُبايَعُ الإمام بيعة عامة بعد انتخاب الشورى له ، ويستشير فى الأمور المهمة « الشراة » وهم عظماء المذهب الإباضى وعلماؤه ، كما يستشير فى الأمور العامة سادة القوم والقبائل ، ويعيِّن القضاة بعد استشارة الشراة ، ويضبط الحكم عن طريق نوعين من الشرطة : شرطة تقوم بالحراسة والمحافظة على الأمن ، وشرطة تسمى شرطة الحسبة تشرف على الأسواق وتحكم فى خصوماتها وتطوف فى المدينة أوالقبيلة ، آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر . وتداول الإمامة فى تاهرت ستة أئمة ، أولهم عبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة حتى سنة ١٧١ وكان يتميز

---

(١) انظر فى الدولة الإباضية بتاهرت كتاب أخبار الأئمة الرستميين لابن الصغير بتحقيق الدكتور ناصر والأستاذ النجار والبيان المغرب لابن عذارى وكتاب السير للشماخى وتاريخ الجزائر لأحمد توفيق المدنى والجزء الثالث من تاريخ المغرب الكبير لمحمد على دبوز والأزهار الرياضية فى أئمة وملوك الإباضية لسليمان البارونى وتاريخ الجزائر فى القديم والحديث للميلى ص٤٣٦ وما بعدها .

بالعدالة والتقوى وسعة العلم ، واختارت شورى الإباضية بعده ابنه عبد الوهاب وظل إماما للإباضية حتى سنة ٢١١هـ/٨٢٧م غير ملاحظين أن ذلك يفضى بالإمامة إلى أن تكون وراثية ، مما يناقض إنكارهم لنظام الخلافة الوراثي ، وأدّى ذلك إلى انشقاق فى صفوف الإباضية هناك إذ نشأت بينهم طائفة تسمى النكارية أنكرت إمامة عبد الوهاب الوراثية . وتمرّدت عليه فى شمالى الدولة فرقة الواصلية المعتزلة نسبةإلى زعيم المعتزلة فى البصرة واصل بن عطاء وحاربها وقضى على فتنتها ، وانضم إلى مذهبه الإباضى جبل أوراس أو بعضا منه ، وخلفه ابنه أفلح حتى سنة ٢٤٠هـ/٨٥٤م وكانت النكارية لا تزال تشاقّ جماعة الإباضية شاهرة السلاح فأدار معها حربا انتهت بمقتل قائدها وتشتت أنصاره فى البلاد والقبائل ، وخلفه ابنه أبواليقظان حتى سنة ٢٨١هـ/٨٩٤م وأخذت الدولة فى الضعف وتفاقم فى عهد ابنيه أبى حاتم وأبى اليقظان . وكان أبو عبد الله الشيعى داعية المهدى الفاطمى قد نشر الدعوة الفاطمية فى قبيلة كتامة وأيدته فى القضاء على الدولة الرستمية نهائيا سنة ٢٩٦هـ/٩٠٩م .ومما يذكر لهذه الدولة تنشيطها التجارة إلى الصحراء الإفريقية المدارية فى بلاد تشاد والنيجر ومالى وفولتا وإلى السودان النيلى فى مناطق كردفان ووادای . وقد عنيت الدولة عناية واسعة بحراسة السبل وإقامة الفنادق والمحطات وحفر الآبار للقوافل وحراستها ، وأهم من ذلك أنها أقامت فى الواحات وفى كثير من الجهات زوايا بها مساجد لنشر الإسلام فى كل البقاع التى كانت تنزلها القوافل ، وهى خدمة دينية وحضارية كبرى . ولما قُضى على الدولة الإباضية فى تاهرت انحاز الإباضيون فى الجزائر إلى الجنوب – حتى اليوم – فى أرض ميزاب والواحات مثل بسكرة والأغواط وغرداية وورجلان . وتبع سقوط الدولة الرستمية سيطرة المذهب السنى – وخاصة مذهب مالك – على البلاد وعلى مراكز التجارة والزوايا فى الصحراء الإفريقية المدارية والسودان النيلى .

(د) تلمسان

فى أقصى الغرب من الجزائر تقع تلمسان وإقليمها ، وكان بها من قديم بنو يفرن الزناتيون مؤسسوها وكانوا يعتنقون مذهب الصفرية الخوارج ، وشدوا أزر ميسرة فى حربه ضد جيش ابن الحبحاب كما شدوا أزر الإمام الصفرى بعده خالد بن حميد . وتراهم فى سنة ١٤٨ يبايعون بالإمامة الصفرية رجلا منهم هو أبو قرة اليفرنى الزناتى ، ويُعِدّ فى سنة ١٥٠هـ/٧٦٧م جيشا كبيرا لمنازلة الأغلب بن سالم التميمى فى ولايته على المغرب الأدنى (الإقليم التونسى وشرقى الجزائر) ويبلغ النبأ الأغلب فيقدم إليه بجيش جرار ، حتى إذا اقترب منه هرب وتفرّقت عنه جموعه . ويتولى المغرب الأدنى سنة ١٥١هـ/٨٦٨م عمر بن حفص المهلبى ويأخذ فى إعداد جيش لمنازلة أبى قرة ويحصن طبنة عاصمة الزاب ، وكان أبو قرة أعد جيشا كثيفا لملاقاته ، وتقدم إلى طبنة ، غير أن خلافا دبّ فى جيشه ، وتفرّق عنه جنوده . واضطر عمر بن حفص

إلى العودة إلى القيروان لبلوغه نبأ ثورة قبيلة هوارة بطرابلس عليه ، وانتهز أبوقرة غيابه عن طَبنة فهاجمها ، وكان عمر بن حفص ترك بها المهنا مع قطعة من جيشه ، فاشتبك مع أبي قرة فهزمه وولّى الأدبار وأخذ المهنا عسكره بكل ما فيه . ولا نعود نسمع بثورة لأبي قرة ، وتظل تلمسان خاضعة لقبيلة بنى يفرن الزناتية حتى تأخذها منهم قبيلة مغراوة سنة ١٧٠هـ/٧٨٦م . ولما أسس إدريس الأول الحسنى دولة الأدارسة فى وَليلى بإقليم فاس سنة ١٧٢هـ/٧٨٨م ودار العام واشتدت شوكته رأى الزحف على تلمسان وما جاورها من قبيلة مغراوة ، وعلم بزحفه محمد بن خزر المغراوى فخرج إليه حين اقترب من البلدة ، وبايعه هو وجميع وجوه تلمسان ، وعيَّنه إدريس واليا عليها وأمره ببناء مسجدها وعاد إلى وليلى وتوفى سنة ١٧٥هـ/٧٩١م وخلفه ابنه إدريس الثانى حتى سنة ٢١٣هـ/٨٢٨م وكان فقيها وراويا للحديث وشجاعا مقداما فى مهام الأمور ، وهو الذى بنى مدينة فاس واتخذها عاصمة للدولة ، ونزل تلمسان وأقام بها ثلاث سنوات نظّم فيها شئونها الإدارية والمالية ومحا منها دعوة الصفرية . ونزلها – كما يقول ابن خلدون وبعض المؤرخين – عمه سليمان بن عبد الله ، ويبدو إن إدريس الثانى أو ابنه محمد تركها له فتملكها وبايعه أهلها ، وتوارثها هى وإقليمها فى الجزائر عنه أبناؤه وأحفاده إلى أن أخذها منهم موسى بن أبي العافية فى القرن الرابع ثم تصير للدولة العبيدية .

٤

الدولة العبيدية – الدولة الصنهاجية – بنو حماد

(أ) الدولة العبيدية[1]

لم يلبث أبو عبد الله الشيعى أن دخل القيروان وقضى على الدولة الأغلبية ، وبذلك يكون قد قضى فى عام واحد على الدول الثلاث التى كانت تتقاسم الجزائر : دولة الأغالبة فى شرقيها ودولة الإباضيين بتاهرت فى وسطها ودولة الأدارسة من أبناء سليمان بن عبد الله فى غربيها ، وبذلك دانت الجزائر للدولة العبيدية منذ أواخر القرن الثالث للهجرة فكان يديرها المهدى الفاطمى من القيروان ثم من مدينة المهدية التى بناها بجوارها عاصمة له ولمن بعده ، ونالت الجزائر فى أيامه رخاء وأمنا وانتعشت التجارة بينها وبين الصحراء المدارية والسودان ، وأيضا بينها وبين أوربا ، وبنى عامله على الزاب على بن حمدون الزناتى بسهل الحضنة مدينة المسيلة (المحمدية) سنة ٣١٥ ، ويتوفى سنة ٣٢٢هـ/٩٣٣م . ويخلفه ابنه القائم وفى أيامه أخذ ثائر بربرى من الخوارج يُعِدّ العدة فى الجزائر للانتقاض عليه والثورة يُدْعَى أبا يزيد مخلد بن كيداد ،

(١) انظر فى الدولة العبيدية اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا للمقريزى وكتابه الخطط والبيان المغرب لابن عذارى وأعمال الأعلام لابن الخطيب وأخبار بنى عبيد وسيرتهم لابن حماد وافتتاح الدعوة للقاضى النعمان وكتابه المجالس والمسايرات وتاريخ الجزائر فى القديم والحديث لمبارك بن محمد الميلى ص٥٠٢ وما بعدها .

أصله من مدينة توزر التونسية فى بلاد الجريد ، وكان فى أوائل حياته يحفظ الصبية والغلمان القرآن الكريم فى مدن مختلفة بتونس والجزائر ، ونزل تاهرت فى أواخر أيام الرستميين ، ويقول المؤرخون إنه اعتنق عقيدة الإباضية النكّارية ، وأخذ يجتمع إليه كثيرون من قبيلته زناتة ومن البربر الخوارج إباضيين وصفريين ، وكوّن منهم جيشا لقى به قبيلة كتامة فى الأربس وغير الأربس وهزمها مرارا . وكان يبيح لجيشه نهب البلاد وحرقها وسَبى النساء وقتل الأطفال مما يؤكد أنه لم يكن إباضىّ العقيدة كما يذكر المؤرخون ، إذ الإباضية لا يستحلون شيئا من ذلك كله ، ومن أجل ذلك نرى أنه كان على مذهب الصفرية من الخوارج لا الإباضية ، ويبدو أنه قرأ عن الخوارج الأزارقة المتطرفين الذين كانوا يستحلون سَبى النساء وقتل الأطفال ، فاقتدى بهم ، وبئس القدوة . وماتوافى سنة ٣٣٣ هـ/٩٤٤م حتى يحشد جيشًا ضخمًا يستولى به على كثير من البلدان فى الجزائر والإقليم التونسى ، ويتقدم بجيشه حتى مدينة رقادة بالقرب من القيروان وينهبها ، ويقتل واليها العبيدى خليل بن إسحق . ويقصد القيروان ويستولى عليها وينضم إلى جيشه أهل السنة من سكانها يريدون الانتقام من العبيدين لمحاولتهم فرض عقيدتهم الإسماعيلية عليهم ومحو مذاهب السنة من مثل مذهب مالك ، وزحفوا معه إلى أسوار مدينة المهدية عاصمة العبيديين وحاصرها . وتوفى الخليفة العبيدى القائم فى أثناء حصاره لها سنة ٣٣٤ هـ/٩٤٥م وخلفه ابنه الخليفة المنصور، وظلت الحرب بينه وبين ابن كيداد سجالا، واستصرخ زيرى زعيمَ صنهاجة فى الجزائر، فلبى صراخه ، وانهزم ابن كيداد هزيمة ساحقة ، وولَّى الأدبار إلى الجزائر، والخليفة المنصور من ورائه يتعقبه فى باغاية بجبال الأوراس وغير باغاية إلى أن جاءوه به مكبلا بالأغلال ، ففتك به سنة ٣٣٦ هـ/٩٤٧م وبالقضاء على ثورته انتهت ثورات الخوارج فى الجزائر .

(ب) الدولة[١] الصنهاجية

إذا كانت قبيلة كتامة الجزائرية هى التى لعبت الدور الأول فى نصرة أبى عبد الله الشيعى على دول الجزائر الثلاث : الأدارسة فى تلمسان والإباضيين فى تاهرت والأغالبة فى القسم الشرقى من الجزائر فإن قبيلة صنهاجة هى التى كان لها الدور الأول فى القضاء على ثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد الصفرى ، والقبيلتان جميعا كانتا تحتلان شمالى الجزائر : كتامة إلى الشرق وصنهاجة إلى الغرب ، وكانتا تأخذان بحظ من الحضارة ، وهما من قبائل البرانس المتحضرة . وكانت قبيلة زناتة تحتل الجنوب الجزائرى ، وهى من قبائل البُتْر المتبدِّية ، وكانت شعبها

(١) انظر فى الدولة الصنهاجية الكامل لابن الأثير والبيان المغرب لابن عذارى وأعمال الأعلام لابن الخطيب والجزء السادس من تاريخ ابن خلدون وابن خلكان فى تراجم باديس والمعز وتميم وتاريخ الجزائر فى القديم والحديث لمبارك بن محمد الميلى ص ٥٢٩ وما بعدها .

وفروعها تمتد إلى تلمسان والمغرب الأقصى غربا وإلى جنوبى الإقليم التونسى وطرابلس شرقا . وولّى الخليفة الفاطمى المنصور زيرى الصنهاجى على المنطقة الغربية فى الجزائر وحين تولى المعز الخلافة العبيدية سنة ٣٤١ هـ/٩٥٢م أبقاه عليها ، وكان مثل قبيلته على حظ من الحضارة ويتضح ذلك فى بنائه مدينة أشير إلى الشمال الشرقى من تاهرت سنة ٣٢٤ هـ/٩٣٥م واتخاذها عاصمة له ولقبيلته ، ودفع ابنه بلكين – فيما بعد – لتأسيس مدينة الجزائر على البحر المتوسط ومدينة مليانة جنوبى شرشال على الضفة الشرقية لنهر شلف ومدينة المدية إلى الجنوب الشرقى من مليانة . وساعد زيرى جوهرا الصقلى فى سنة ٣٤٧ هـ/٩٥٨م فى حملته التى استولى بها على جميع بلدان المغرب الأقصى ما عدا سبتة وطنجة اللتين كانتا تدينان بالولاء لعبد الرحمن الناصر الخليفة الأموى فى قرطبة . وكان جوهر الصقلى قد استولى على مصر للمعز سنة ٣٥٩ هـ/٩٦٨م وشاع عقب ذلك أن الخليفة العبيدى المعز سيترك عاصمته المهديّة فى إفريقية التونسية إلى مصر ، وسيولّى زيرى على المغرب جميعه نائبا عنه ، فامتعض لذلك جعفر بن على بن حمدون الزناتى والى الزاب للمعز سنة ٣٦٠ هـ/٩٧٠م وكانت بينه وبين زيرى ضغائن وأحقاد وعداوة ، ولم يلبث أن جمع عسكره وسلاحه وأمواله وخرج من مدينة المسيلة عاصمة ولايته التى بناها أبوه فى ولايته عليها كما مرّ بنا ، واتجه إلى قبيلته : زناتة خالعا طاعة المعز ، واحتفت به قبيلته وملّكته عليها ، واستطاع فى سنة ٣٦١ أن يجمع منها جيشا ضخما وزحف به على أراضى صنهاجة ، وعلم زيرى فجمع رجاله بسرعة ، والتقى به ، واشتبك الخصمان ورجحت كفة جعفر بن على وزناتة وقتل زيرى فى المعركة . وكان ابنه بلكين فى أشير وجاءه نبأ مصرع أبيه ، فأعدّ العدة سريعا للأخذ بثأر أبيه ، والتقى بزناتة ومزّق جموعها ونكّل بها تنكيلاً شديدًا ، وبلغ انتصاره عليها المعز ، فأقرّه على ولاية أبيه وأضاف إليه الزاب وتاهرت وسائر أعمال المغرب . وقبل مبارحة المعز المهدية إلى مصر ولاه على إفريقية التونسية والمغرب جميعه فى ذى الحجة لسنة ٣٦١ هـ/٩٧٢م مع استثناء طرابلس وصقلية ، وكان ينبغى أن يترك له صقلية لأنها بعيدة عن مصر ، ولن تستطيع حمايتها عند الضرورة .

وأخذ بلكين ينهض بمسئوليات الحكم فى المغرب ويرتّب شئونه ، وهو بربرى مغربى من صنهاجة ، وقد مضى يعمل على تأسيس دولة صنهاجية مغربية يتوارثها أبناؤه ، وهى أول مرة فى التاريخ الإسلامى تنشأ دولة مغربية إسلامية فيه ، وتتوالى بعدها دول مغربية كبيرة ، مما يجعل حكم بلكين للمغرب فاتحة انتقال الملك والسلطان فيه من العرب إلى البربر وبعبارة أدق إلى زعماء البربر ورؤساء قبائلهم ، وهو تطور طبيعى إذ ظل البربر ، وبعبارة أخرى أبناء المغرب ، يتدربون قرونا – طوال الحكم العربى – على النظم الإسلامية فى إدارة الدولة وأخذوا يحكمون أقاليمها المختلفة . وآن أن تنشأ لهم دولة مغربية أو دول من ذات أنفسهم ، أما ما يقوله مارسيه فى كتابه : « البربر المسلمون فى العصور الوسطى » وكتابه : « بلاد المغرب الشرقية » من أن

هذا التحول فى المغرب من حكم العرب إلى البربر كان نفورا من العرب وكرها لهم وتحقيقا لآمال البربر فى الاستقلال عن العرب ودولهم فإن ذلك كله ليس بصحيح ، إنما الصحيح أنه تطور طبيعى لتمرُّن البربر على أساليب الحكم وبناء الدول ، وأيضا بناءً المدن ، ومرَّ بنا آنفا بناء على بن حمدون لمدينة المسيلة وبناء زيرى لمدينة أشير وبناء بلكين لمدينتى الجزائر ومليانة .

واتخذ بلكين القيروان عاصمة له ، وتوفى الخليفة العبيدى المعز سنة ٣٦٥ هـ/٩٧٥ م وتولّى ابنه العزيز وثبّته فى ولايته وأضاف إليه طرابلس وإقليمها . وثارت فى أوائل عهده بالجزائر تاهرت وباغاية وتلمسان واستسلمت له سريعا ، وكانت الخلافة الأموية بقرطبة لا تزال توعز لزناتة وتلمسان وسجلماسة وفاس بالثورة على الخلافة العبيدية وبلكين ، وقاد فى سنة ٣٦٨ هـ/٩٧٩ م جيشا كثيفا إلى تلك الأنحاء ، واستسلمت له جميعا . وتوفى فى أثناء عودته من المغرب الأقصى سنة ٣٧٣ للهجرة ، وخلفه ابنه المنصور فى أوائل سنة ٣٧٤ هـ/٩٨٤ م فعقد لأخيه يطوفت على أشير عاصمة صنهاجة . وكان المنصور بن أبى عامر المستبد بحكم الأندلس باسم خليفته الشرعى المؤيد قد أعان زيرى ابن عطية زعيم زناتة على بسط سلطانه على سجلماسة ، وبالمثل على فاس واتخذها عاصمة له ، فأمر المنصور أخاه يطوفت أن يقود جيشا إلى المغرب الأقصى ليسترجعه من زيرى ، وصدع بأمره ، غير أن زيرى هزمه وعاد إلى أشير يجر أذيال الهزيمة . وكان المنصور رجل سلم فصمم أن تضع الحرب أوزارها بين قبيلته صنهاجة وقبيلة زيرى زناتة فلا يعودوا إلى القتال ، وأعلن أن تلك آخر حرب بين القبيلتين حتى ينهى الحروب العقيمة التى أنهكت قواهما طويلا . وعرف العزيز الفاطمى فى القاهرة هذا النبأ فغضب لما يؤدى إليه من ضياع المغرب الأقصى نهائيا ، فأرسل إلى كتامة فى الجزائر داعية يسمى أبا الفهم الخراسانى سنة ٣٧٦ لتأليبها على المنصور ، وظل سنة يثير الكتاميين ويجمعهم حوله ، ولقيه المنصور هو وجموعه فى سطيف شرقى تاهرت وقضى عليه . وأدت سياسته الحكيمة مع زناتة إلى أن تنضم إليه جماعة منها سنة ٣٧٩ بزعامة سعيد بن خزرون فولاّه على طبنة ، وتوفى سنة ٣٨٢ فولّى ابنه فلفلا مكانه . وعم الجزائر الأمن والهدوء فى بقية أيامه وتوفى سنة ٣٨٦ هـ/٩٩٦ م وخلفه ابنه باديس فى الثالثة عشرة من عمره فدبّر له أمور الدولة فى إفريقية التونسية والجزائر أعمامه ، وخاصة يطوفت فى تاهرت وحمادا وقد ولاه على أشير سنة ٣٨٧ . وماتوافى سنة ٣٨٩ حتى يُعِد زيرى بن عطية صاحب فاس جيشا ضخما ويحاصر يطوفت فى تاهرت ، وينجده سريعا حماد كما ينجده باديس بجيش يقوده محمد بن أبى العرب ، ويضع القادة الثلاثة الخطط ويشنون هجوما على زناتة ، وتدور عليهم الدوائر ، ويولى جيشهم الأدبار تاركين وراءهم مضاربهم وما فيها من الأموال والسلاح غنيمة لزناتة وزيرى . وبلغ باديس الخبر فخرج على رأس جيش للقاء زيرى ، وعلم به فعاد إلى فاس ، وخرج عليه فلفل بن سعيد فظلت فرق من الجيش تطارده ، وفرَّ إلى طرابلس سنة ٣٩١ واستوطنها . وجاءه خبر

فى نفس السنة من عمه حماد أنه قضى على الثائرين من أعمامه عليه بقتله ماكسن وأولاده ورحيل زاوى بن زيرى وإخوته إلى الأندلس ، وكان لهم فى الفتنة التى نشبت بقرطبة وقضت على الخلافة الأموية دور فى غاية السوء . وفى نفس السنة توفى زيرى بن عطية صاحب فاس والمغرب الأقصى وتنفست صنهاجة وحماد الصعداء ، وعادت زناتة فى سنة ٣٩٢ إلى مهاجمة صنهاجة فى أشير ولكن بطلها زيرى كان قد توفى فهزمها حماد هزيمة ساحقة .

(جـ) بنو حماد(١)

كان حماد – كما يقول لسان الدين بن الخطيب – نسيج وحده وفريد دهره شجاعا حصيفا ، قرأ الفقه بالقيروان ونظر فى كتب « الجدال » وفكر جاداً فى الاستقلال عن ابن أخيه : باديس وتكوين دولة له ولأبنائه فى الجزائر ، وكان أول ما فكر فيه بناء قلعة تكون عاصمة للدولة ، ولم يلبث أن بنى فى سنة ٣٩٨ قلعة بنى حماد على منحدر وعر فوق سفوح جبال كيانة على الحدود الشمالية لسهول الحضنة على بعد ٢٦ كيلومترا من المسيلة (المحمدية) وأحالها سريعا إلى مدينة تكتظ بالأحياء والفنادق والمساجد تتوسطها قصبة أو بعبارة أخرى حصن منيع ، ولا تزال خرائبها وأطلالها قائمة إلى اليوم . وصمّم حماد على إعلان استقلاله . وماتوافى سنة ٤٠٥ هـ/١٠١٤ م حتى يعلن استقلاله عن باديس فى القيروان وعن الدولة العبيدية وعقيدتها الشيعية المتطرفة ويدعو للعباسيين على المنابر معتنقا لمذهب أهل السنة . وصمم باديس على حربه ، وأعد جيشًا ضخمًا لمنازلته سنة ٤٠٦ واتجه به إلى القلعة وهزمه بجوارها ، وفر حماد إلى القلعة تاركا خيامه ومضاربه . وتوفّى باديس فى نفس السنة وخلفه ابنه المعز فى الثامنة من عمره ، ودبّر له شئون الحكم أعمامه ورجال دولته ، وانتهز حماد الفرصة واستولى على مدينتى المسيلة وأشير عاصمة صنهاجة وحاصر باغاية ، فزحف إليه جيش للمعز سنة ٤٠٨ للهجرة وهزمه فى معركة عنيفة ، وفرّ على وجهه إلى القلعة محتميا بها ، ولم يجد بدا من طلب الصلح ، وتمّ ، وبمقتضاه يستقل حماد وأبناؤه بأشير والمسيلة وطبنة والقلعة وتاهرت وبلاد الزاب وكل ما يفتحونه فى المغرب الأقصى . وانقسمت دولة الصنهاجيين بذلك إلى دولتين : دولة آل المنصور بن بلكين فى القيروان بإفريقية التونسية ، ودولة آل حماد بن بلكين بالقلعة فى الجزائر .

وتُعَدّ دولة حماد وأبنائه فى القلعة أول دولة جزائرية فى العصور الإسلامية بأدق معنى لهذه الكلمة ، وحقا سبقتها الدولة الرستمية فى تاهرت ، كما مرّ بنا ، ولكن مؤسسها كان فارسى الأصل ، وحكمها هو وأبناؤه من بعده . وكانت اللغة البربرية تشارك اللغة العربية فى أيامهم

(١) انظر فى بنى حماد الكامل لابن الأثير والجزء الثالث من أعمال الأعلام لابن الخطيب والبيان المغرب لابن عذارى وتاريخ ابن خلدون وكتاب دولة بنى حماد ملوك القلعة وبجاية لإسماعيل العربى وتاريخ الجزائر فى القديم والحديث لمبارك الميلى ص ٦٠٢ وما بعدها وراجع مادة : « بنو حماد » فى دائرة المعارف الإسلامية.

وألّف بها كثير من الكتب وخاصة فى الدعوة الإباضية ، أما الدولة الحمادية فكانت لأسرة من صميم البربر وبيوتهم العريقة فى صنهاجة ، وبذلك كانت دولة بربرية بحتة ، وأيضا فإنها اتخذت العربية لسانها ولغة رسمية لها ، وعملت - بكل وسيلة - على نشرها لا فى العاصمة فحسب ، بل أيضا بين القبائل ، وعملت أيضا - بكل ما استطاعت - على ازدهار نهضة فى بلادها أدبية وعلمية وحضارية .

وعاش حماد هانئا بقلعته ودولته حتى سنة ٤١٩ وخلفه ابنه المسمى بالقائد ، ووسّع حدوده فى المناطق الشرقية للمغرب الأقصى ، ونشب نزاع وبينه وبين ابن عمه المعز سنة ٤٣٢ وزحف إليه بجيش ، ولم تقع بينهما حرب ، وعادت العلاقات بينهما طيبة كما يقول ابن خلدون ، وتوفى القائد سنة ٤٤٦ هـ/١٠٥٤ م وخلفه ابنه محسن وخرج عليه بعض أعمامه وتغلب عليهم ، وكانت مدة ولايته قصيرة : تسعة أشهر ، وتولى بعده بُلُكِّين بن محمد بن حماد سنة ٤٤٧ هـ/١٠٥٥ م . وكان المعز بن باديس فى القيروان قد خلع سنة ٤٣٨ هـ/١٠٤٦ م طاعة الفاطميين العبيديين وقطع اسمهم من خطبة الجمعة وجعل مكانهم فيها اسم الخليفة العباسى وحمل الناس على الرجوع إلى مذهب مالك الذى يرتضيه فقهاؤهم ، وبذلك تطهر المغرب من عقيدة الإسماعيلية الفاطمية ، وجُنَّ جنون المستنصر الخليفة الفاطمى العبيدى بمصر فأشار عليه أحد وزرائه المسمى اليازورى أن يتخلص من جموع كبيرة من بنى هلال وسليم كانت نزلت بشرقى النيل فى الصعيد بدفعها إلى إفريقية التونسية وبلاد المغرب ، وكانوا يعدون بمئات الألوف ، فاكتسحوا برقة وطرابلس وإفريقية التونسية ، ولم يستطع المعز بن باديس دفع هذه السيول الجارفة فانحاز إلى المهدية سنة ٤٤٩ وبقى بها إلى نهاية حكمه ووفاته سنة ٤٥٤ هـ/١٠٦٢ م . وكانوا بدوا غير متحضرين ينهبون ويخربون المدن ويفسدون الزروع ، وانصبَّ منهم إلى الجزائر لعهد بلكين سيل هلالى جارف على رأسه قبائل أثبج وعدى وعامر ، وحاولت زناتة فى تلمسان بزعامة أبى سعيد الخزرى أو الخزرونى أن تكبح جماح هذا السيل فقتل زعيمها وتشتت جيشه ، أما بلكين فى القلعة فرأى من الخير أن يترك للأثبج وعدىّ الأريافَ ينهبون فيها ، وتحالف معهم لحرب المغرب الأقصى وزحف عليه بجيش ضخم ودخل مدينة فاس . وفى عودته فاجأه ابن عمه الناصر بن علناس جنوبى وهران وقتله ثأرًا لأخت له كان بلكين ظن أنها هى القاتلة لزوجها ، وكان شقيقا له ، وأعلن نفسه حاكما للقلعة وصنهاجة مكانه سنة ٤٥٤ هـ/١٠٦٢ م .

والناصر بن علناس أعظم ملوك هذه الدولة وأكثرها دهاء وحنكة سياسية ، وقد دام حكمه سبعا وعشرين سنة ، ولم يشمل الجزائر جميعها فحسب ، فإن انحياز المعز بن باديس وابنه تميم إلى المهدية وأحوازها جعل حكمه يمتد من حدود المغرب الأقصى إلى القيروان

وصفاقس ، ولعل ذلك ما أوغر عليه صدر تميم ، فأوعز إلى أمراء بنى رياح أن يهاجموا الناصر قبل أن يفتك بهم ، ونازلهم فى سبيبة شرقى الجزائر ودارت عليه الدوائر ، غير أن الناصر استطاع أن يسترد ما كان معه من البلدان فى الاقليم التونسى حتى القيروان . وكان يحدث شغب فى كثير من البلدان ويستطيع الناصر القضاء عليه ، وصافته زناتة ، وعادت العلاقات حسنة بينه وبين تميم بن المعز . وكان بعيد النظر فعمل على التسامح مع المسيحيين ببلاده حتى يشعروا بالأمان ، ويعظم إنتاجهم وعملهم فيها ، وأرسل إلى البابا جريجورى السابع بتكريس قسيس يسمى سرفاند أسقفا لأبرشية بونة وافتدى جميع الأسرى المسيحيين فى بلاده أو مملكته . وكان لذلك أثر طيب فى نفس البابا فأجابه إلى تكريس سرفاند ورد عليه سنة ٤٦٩ هـ/١٠٧٦ م برسالة لطيفة قال فيها إن المسلمين والمسيحيين جميعا يؤمنون بإله واحد خالد . وخوفا على القلعة عاصمة الدولة من أن يصيبها من التخريب على أيدى العربان من بنى هلال ما أصاب القيروان وغيرها من مدن إفريقية التونسية بَنَى بجاية على البحر المتوسط فى الشمال سنة ٤٦١ هـ لتكون عاصمة جديدة للدولة ، وعُنى بتخطيطها وتشييد قصور شامخة فيها وظلت بعده تشتهر بما فيها من مساجد ومدارس وفنادق وحمامات ومستشفيات .

وخلفه ابنه المنصور سنة ٤٨١ هـ/١٠٨٨ م وفى أول حكمه ازداد ضغط القبائل الهلالية عليه واضطرته إلى أن تتقاسم معه نصف غلة الأرض ، مما جعله يصمم على هجران القلعة إلى مدينة بجاية سنة ٤٧٣ هـ/١٠٨٠ م . وخلال السنتين اللتين قضاهما فى القلعة شيَّد عددا من القصور ، حتى إذا اتخذ بجاية عاصمة له شاد بها طائفة من القصور أهمها قصر اللؤلؤ ، وخرج عليه بعض الثوار فى بونة وقسنطينة ، وعادتا إليه ، واشتبك مع زناتة فى الجنوب الغربى وردَّ المرابطين إلى المغرب الأقصى بعد أن استولوا على تلمسان وتقدموا إلى مدينة الجزائر . وظل سيد الجزائر دون منازع إلى وفاته سنة ٤٩٨ هـ/١١٠٤ م . وتولى الدولة بعده ابنه باديس ، وكان فظا سريع الغضب ، وتوفى بعد ستة أشهر من حكمه ، وولى بعده أخوه العزيز ، وعمل على عودة السلام بين قبيلته صنهاجة وقبيلة وامانو الزناتية وتزوج بنت زعيمها ماخوخ ، وكانت أيامه هادئة وآمنة . وعنى بتشجيع الحركة العلمية والأدبية وإعداد بجاية لإيواء اللاجئين من الأدباء والعلماء الذين غادروا القلعة إلى عاصمته حين تدهورت وأصبحت نهبا للأعراب ، وكانوا قد أخذوا يتوغلون من جبال البابور إلى بونة . وتوفى العزيز سنة ٥١٨ هـ/١١٢٤ م وخلفه ابنه يحيى ولم يستطع إعادة الدولة إلى ما كانت عليه إذ اتسعت زغبة وغيرها من القبائل الهلالية فى التخريب والقضاء على العمران فى الجزائر وخوفا على ما فى القلعة من ذخائر وطرف ومن أدوات ترف وبذخ نقلها يحيى إلى بجاية سنة ٥٤٣ للهجرة .

٥

دولة الموحدين – الدولة الحفصية – بنو عبد الواد

(أ) دولة[1] الموحدين

لم يلبث عبد المؤمن بن على خليفة الموحدين بالمغرب الأقصى أن دخل بجاية سنة ٥٤٧ هـ/١١٥٢ م واصطحب يحيى معه إلى عاصمته مراكش ، واتسع فى إكرامه . وبذلك انتهت دولة بنى حماد فى الجزائر ، وكان حكامها يأخذون بأسباب من الحضارة ، وكانوا بصيرين بشئون الحكم ، وعاملوا رعاياهم معاملة حسنة ، وأحدثوا فى القلعة وبجاية عاصمتيهما نهضة فى الآداب والعلوم والتحضر بلغت شأوا عظيما ، وعنوا بالصناعة والزراعة والتجارة مع إفريقيا والسودان فى الجنوب ومع أوربا فى الشمال ، وكان أسطولهم التجارى يمخر عباب البحر المتوسط إلى مدن إيطاليا والأندلس، وأقاموا له ببجاية دار صناعة بحرية كبرى تمده بالسفن ، وقد عقدوا مع الدول البحرية الأوربية معاهدات تجارية . وبدون ريب كان لهجرة الأعراب البدو من بنى هلال واكتساحهم للزاب بإبلهم وخيلهم ورجلهم فى القرن الخامس الهجرى أثر غير قليل فى إفساد الزاب ، وحدثت الطامة فى القرن السادس الهجرى إذ أخذوا يتقدمون إلى الأطلس التلى وجبال البابور وامتدوا شرقا حتى سهول بونة (عنابة) وأصبح بنو حماد وبجاية فى حاجة إلى من ينقذهم ، وأنقذهم عبد المؤمن خليفة الموحدين فى مراكش . وكان يعرف خطورة الهلاليين على البلاد، فأدار معهم معركة حاسمة بالقرب من سطيف جنوبى بجاية ومزقهم تمزيقا وطارد فلولهم حتى تبسة جنوبى باغاية . وتعد هذه المعركة نهاية المعارك الكبرى للهلاليين فى الجزائر ، وأخذوا بعدها يتأقلمون ويتغربون أو يصبحون جزءا من الشعب المغربى ، وانتفع بهم عبد المؤمن فى حروبه بالأندلس وكذلك ابنه يوسف وحفيده يعقوب وخاصة فى معركة الأرك المشهورة . وكان نورمان صقلية قد استولوا على المهدية سنة ٥٤٣ وبالمثل على طرابلس وطلب أهلهما من عبد المؤمن النجدة ، فسار سنة ٥٥٣ بجيش ضخم وأسطول كبير إليهم ، وقلم فى الجزائر وإفريقية التونسية أظفار الأمراء المستبدين بالبلاد ، وحاصر المهدية ثم طرابلس برا وبحرا سنة ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠ م وفر النورمان خاسئين مدحورين ، ويطبق فى الأقليمين التونسي والجزائرى ما اتخذه فى المغرب من التراتيب المخزنية فى إدارة الحكم ، وظلت قائمة إلى نهاية الدولة الحفصية . وتظل الجزائر هادئة فى عهده وعهد ابنه يوسف الذى خلفه سنة ٥٥٨ هـ / ١١٦٢م وتوفى يوسف ويخلفه ابنه يعقوب

(١) انظر فى دولة الموحدين البيان المغرب لابن عذارى وكتاب المعجب للمراكشى والجزء الرابع من تاريخ ابن خلدون وكتاب المن بالإمامة لابن صاحب الصلاة وتاريخ الدولتين الموحدية والحفصية للزركشى وتاريخ الجزائر فى القديم والحديث لمبارك الميلى وعصر المرابطين والموحدين لمحمد عبد الله عنان .

سنة ٥٨٠ هـ/١١٨٤م. وفي عهده ثار عليه بنو غانية ولاة المرابطين في جزيرة ميورقة، ونزل منهم علي وأخوه في الجزائر والإقليم التونسي يحاولان أن يقيما فيهما دولة لمقاومة دولة الموحدين بالمغرب الأقصى ويعدا جيشا لحربهم. وأحدث علي قلاقل كثيرة في الساحل الجزائري بين بجاية ومليانة وكذلك في الساحل التونسي، فخرج إليه يعقوب بجيش جرار سنة ٥٨٣ وظل طوال مسيرته إليه في بلدان الجزائر وتونس يبني المساجد كما يبني المستشفيات، وعلي بن غانية يفر أمامه إلى أن لقي مصرعه، وعاد يعقوب إلى عاصمته. وخلف علي في شغبه على الموحدين أخوه يحيى وظل يستعين بالعصابات الهلالية، ومرة ينتصر ومرة ينهزم حتى توفي في برية تلمسان سنة ٦٣١.

(ب) الدولة[1] الحفصية بتونس

في هذه الأثناء قامت الدولة الحفصية، وكان مؤسسها أبو زكريا بن عبد الواحد بن يحيى بن أبي حفص واليا للموحدين على إفريقية التونسية، واستطاع أن يخضع الجزائر، أو بعبارة أدق أن يضمها إلى ولايته، إذ كانت دولة الموحدين قد ضعفت ضعفًا شديدًا، فاستقام له حكم البلدين حكمًا رشيدًا يقوم على نشر العدل والأمن في البلاد، وحين نشأت الدولة المرينية ظلت تعلن البيعة والولاء له حتى وفاته سنة ٦٤٧ هـ/١٢٥٨ م وكذلك لابنه محمد، وكان التتار قد قضوا على الخلافة العباسية في بغداد سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م وأصبح المسلمون بدون خلافة، فانتسب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعمل بعض أتباعه على أن تبايعه مكة بالخلافة وبايعته، وتسمى باسم أمير المؤمنين وتلقب بلقب المستنصر بالله، وكان عهده في الجزائر شرقًا وغربًا – كعهد أبيه – عهد رخاء واستقرار إلى وفاته سنة ٦٧٥ هـ/١٢٥٨ م. وقامت منافسات على الحكم بين أبنائه واقتتلوا وأخذ حكم الدولة ينحسر عن غربي الجزائر كما أخذ المرينيون يتخلصون من الولاء لهم، واقتحم الجزائر أبو يحيى أخو السلطان يوسف بن يعقوب المريني سنة ٧٠١ هـ/١٣٠١ م ودخل بجاية وخرَّب بستانها المسمَّى بالبديع وعاد أدراجه. وانتهى من حينئذ حكم الدولة الحفصية بالجزائر، فلم تعد تمد سلطانها على تاهرت وشرشال ومدينة الجزائر، إذ تراجع حكمها – حتى نهاية أيامها في القرن العاشر الهجري – إلى بجاية وسطيف وبسكرة وقسنطينة والزاب. وفي الأكثر كانت تفرض تلمسان في عهد بني زيان سلطانها على الجزائر الغربية وأحيانا كان يفرضه عليها بنو مرين وقلما كانت تفرضه الدولة الحفصية. وحاول الخليفة الحفصي أبو عصيدة تلافي هذه الخصومة سريعا، فأرسل في سنة ٧٠٣ وفدا

---

(١) انظر في الدولة الحفصية البيان المغرب لابن عذاري وتاريخ ابن خلدون والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوي وتاريخ الدولتين الموحدية والحفصية للزركشي والأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية لابن الشماع والفارسية في مبادئ الدولة الحفصية لابن قنفذ وتاريخ الجزائر في القديم والحديث لمبارك بن محمد الميلي.

إلى السلطان المريني لتحسين العلاقات بينهما ، وتحسنت وتعددت بينهما السفارات . وأخذت الدولة الحفصية تزداد ضعفا فى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى ، مما جعل السلطان المرينى أبا الحسن يجتاح تلمسان والجزائر ويدخل تونس سنة ٧٤٨ هـ/١٣٤٧ م ويظل بها سنتين ، ويعلم بثورة أبي عنان ابنه عليه في المغرب الأقصى فيعود إلى بلاده . وتعود للحفصيين دولتهم فى طرابلس وتونس والجزائر الشرقية حتى بجاية ، ويحاول أبو عنان – بعد توليه الحكم – الاستيلاء من جديد على تونس ويكتسح الجزائر سنة ٧٥٣ هـ/١٣٥٢ م ويوجه إلى تونس حملة بحرية لمعاونة القوات البرية . ويستولى عليها لمدة شهرين ، إذ يضطر إلى مبارحتها لثورة قبيلة رياح عليه ويهدم حصونها فى الزاب ، ويعود إلى فاس عاصمته . وتستعيد الدولة الحفصية مدنها فى الجزائر الشرقية وتتحسن العلاقات بينها وبين الدولة المرينية . وتعود إليها قوتها فى عهد السلطان الحفصى أبى فارس عبد العزيز فيعدُّ سنة ٨٢٧ هـ/١٤٢٣ م جيشا جرارا يفتح به غربى الجزائر وتلمسان حتى إذا اقترب من فاس يريد غزوها أرسل إليه صاحبها أبو سعيد عثمان المرينى رسالة يقول فيها : « إن البلاد بلادكم والسلطنة سلطنتكم وجميع ما تأمروننا به نمتثله » وكانت الرعية شكت من ظلمه فأمره أبو فارس بالعدل الذى لا تصلح حياة الرعية بدونه ، وعاد إلى عاصمته تونس . ويتولى الحكم بعده حفيده أبو عمرو عثمان سنة ٨٣٨ هـ/١٤٣٤ م وامتد حكمه إلى خمسة وخمسين عاما نعمت فيها تونس والجزائر الشرقية بالأمن والعدل والرخاء ، وثارت عليه تلمسان فاستردَّ ولاءها لدولته وهو خاتمة الخلفاء الحفصيين المهمين ، وتوفى سنة ٨٩٣ هـ/١٤٨٧ م وأخذت الدولة بعده فى التدهور وأخذت تستقل عنها بعض البلاد فى إقليم الجزائر الشرقية .

(جـ) بنو عبد[1] الواد بتلمسان

لم نفصل القول حتى الآن عن تلمسان ، وكان بنو زناتة يسيطرون عليها ، ومر بنا أن الأدارسة استولوا عليها ، وأن الفاطميين أخضعوها لهم بعدهم ، وانحسرت عنهم دولتهم ، أو ثاروا عليها ، مما جعل صنهاجة بزعامة بلكين تغزوهم سنة ٣٦٨ للهجرة ويثأرون لأنفسهم بزعامة زيرى بن عطية سنة ٣٨٩ وتهزمهم صنهاجة سنة ٣٩٥ وتظل زناتة مسيطرة على تلمسان إلى أن يستولى عليها يوسف بن تاشفين المؤسس الحقيقى لدولة المرابطين بمراكش سنة ٤٧٤هـ/١٠٨١م وتظل تابعة للمرابطين إلى انتهاء دولتهم ، وتتبع بعدهم دولة الموحدين . وقرَّبوا منهم بنى عبد الواد الزناتيين . وفى سنة ٦٢٧هـ/١٢٢٩م ولوا منهم جابر بن يوسف

(١) انظر فى بنى عبد الواد أوبنى زيان كتاب تاريخ بنى زيان ملوك تلمسان لمحمد بن عبد الله التنسى تحقيق د.محمود بو عياد وكتاب بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبدالواد ليحيى بن خلدون تحقيق د. عبد الحميد حاجيات وكتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى وتاريخ ابن خلدون وكتاب أبو حمو موسى الزيانى للدكتور عبد الحميد حاجيات وتاريخ الجزائر فى القديم والحديث لمبارك بن محمد الميلى

على تلمسان فأخذ يعمل على الاستقلال ببلده عن الموحدين ، غير أنه توفى سريعا ، وخلفه بعض أفراد من أسرته ، وصارت سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٦م إلى يَغْمُراسن فأعلن استقلاله عن الموحدين ، ونصَّب نفسه أميرًا للمسلمين ، وسيَّر إليه أبو زكريا الحفصى أمير إفريقية التونسية والجزائر الشرقية جنده فأعلن له الولاء ، وعاد بجنده . وزحف إليه السعيد الموحدى سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م وانتصر عليه يغمراسن . ونشبت بينه وبين قبيلة المعقل وغيرها من القبائل الصحراوية حروب كثيرة ، وجعل بينه وبينها قبيلة بنى عامر لتدرأ خطرها ، وواقع مرارا بعض أعمال تلمسان فى غربى الجزائر ، وتوفى سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م بعد أن ثبَّت فى تلمسان دعائم الملك لأبنائه . وخلفه ابنه أبو سعيد عثمان ، وقد وسَّع أطراف مملكته فى غربى الجزائر حتى جبال ونشريس ومدينة المدية فى الأطلس التلى جنوبى مدينة الجزائر ومدينة تنس على الساحل غربى شرشال . وغزا تلمسان لعهده سلطان الدولة المرينية يوسف خمس مرات هزم فى أربع منها وفى الخامسة حاصر تلمسان سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م وظل محاصرا لها ثمانى سنوات وثلاثة أشهر ، ومات أبو سعيد فى الحصار كمدا سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣م وأعقبه ابنه أبو زيان وتوفى كمدا مثله سنة ٧٠٧هـ/١٣٠٧م وفى نفس السنة توفى السلطان المرينى يوسف وفكَّ المرينيون الحصار عن تلمسان ، وكان وليها أبو حمو موسى الأول فاشتغل بتثبيت ملكه وغزا غربى الجزائر واستولى على مليانة ومدينة الجزائر وسهل متيجة جنوبيها وكاد يستولى على بجاية وقسنطينة واغتيل سنة ٧١٨هـ/١٣١٨م وخلفه ابنه أبو تاشفين ، وكان مولعا بتشييد القصور ونزل قسنطينة وأفسد الزرع ، واستولى على بجاية من الدولة الحفصية مما جعل سلطانها يطلب العون من بنى مرين أصهاره فتشفَّع له سلطانهم أبو الحسن ، فرد أبو تاشفين رسله إليه أسوأ رد . فحاصر تلمسان ، وبنى أمامها مدينة غربيها لسكناه سماها المنصورة وضيَّق عليها الحصار وشدَّ الخناق سنتين حتى دخلها عنوة سنة ٧٣٧هـ وقاتل أبو تاشفين وأبناؤه دونها وقتلوا جميعا ، وبذلك انتهت دولة بنى عبد الواد الأولى بتلمسان بعد أن حكمتها مائة عام ونيفا .

وأخذ أبو الحسن المرينى يستولى على بعض البلدان فى غربى الجزائر . وفى سنة ٧٤٨ عين ابنه أبا عنان على تلمسان وما صار إليه من بلدان الجزائر ، وزحف شرقا إلى تونس واستولى عليها من السلطان الحفصى وظل بها ما يقرب من سنتين ، وعصته القبائل العربية فى تونس ونازلته وهزمته ، وجاءته أخبار بأن أبا عنان ابنه غادر تلمسان إلى فاس العاصمة ودعا لنفسه فيها فبارح تونس سريعا إلى فاس ، وفى هذه الأثناء انتهز أميران من الأسرة الزيانية الفرصة هما : أبو سعيد وأبو ثابت واستوليا على تلمسان سنة ٧٤٩ واشتركا فى حكمها ، حتى إذا كانت سنة ٧٥٣ نازلهما السلطان المرينى أبو عنان واستولى منهما على تلمسان ، ونرى الشاب الزيانى أبا حمو موسى الثانى يفر إلى تونس ويكرمه سلطانها ووزيره ابن تافراكين . وفى سنة ٧٦٠هـ/١٣٥٨م جهَّز أبو حمو موسى الثانى جيشا من تونس والجزائر وفتح تلمسان وأخرج

منها المرينيين وأعادها إلى أسرته . ولم تتسمَّ الدولة حينئذ دولة بنى عبد الواد ، بل تسمت باسم دولة بنى زيان نسبة إلى أحد الجدود الأولين ، وهو أبو يغمراسن مؤسس الدولة الأولى ودبَّر أبو حمو أمور الدولة تدبيرا سديدا ونهض بتلمسان نهضة علمية وأدبية ، وكان شاعرا ، واتخذ هو وخلفاؤه لقب أمير المؤمنين واصطنعوا بها لها نظاما شبيها بنظم الخلافة فى الشرق فصَّل القول فيه الحسن الوزان فى كتابه وصف إفريقيا قائلا إنهم اتخذوا مراسم دقيقة إذ قسموا الإدارة قسمين إدارة عسكرية وإدارة مدنية ، وعلى رأس الأولى القائد ، وعلى رأس الثانية الكاتب الأول ، ومن ورائهما خازن المال أو الصراف الذى يأمر بصرفه إلى مناصب ووظائف عديدة . وتوفى أبو حمو موسى الثانى سنة ٧٩١ وتنازع أبناؤه وتقاتلوا فى سبيل الاستيلاء على الحكم ، ومن أهمهم أبو زيان استولى على مقاليد الحكم سنة ٧٩٦ وكان عالما شاعرا وتهادى مع السلطان المملوكى برقوق وقتل سنة ٨٠١هـ/١٣٩٨م بيد أخيه أبى محمد عبد الله وحكم تلمسان حتى سنة ٨٠٤ وخلفه أخوه أبو عبد الله محمد المعروف بابن خولة إلى سنة ٨١٣هـ/١٤١٠م وأخذ يكثر فى الأسرة القتل والخلع ، وتتدخل الدولة الحفصية لنصرة الأخ على أخيه أو القريب عما أو غير عم على القريب . وفى سنة ٨٢٧ استولى السلطان أبو فارس الحفصى على تلمسان ، واتسع من حينئذ تدخل الدولة الحفصية فى تولية حكام الدولة الزيانية، وقد ولّى عليها أبو فارس الحفصى أبا مالك عبد الواحد وقتل سنة ٨٣٣ وتولاها أحمد العاقل ابن أبى حمو ويتولاها المتوكل بعده سنة ٨٦٦هـ/١٤٦١م وثار عليه محمد بن غالية وقضى على ثورته وتاريخ وفاته شديد الغموض .

وأخذت دولة بنى زيان بتلمسان وغربى الجزائر تتدهور سريعا منذ نهاية القرن التاسع الهجرى ، وبالمثل تدهورت الدولة الحفصية فى شرقى الجزائر وتونس وطرابلس ، وكان فرديناند ملك إسبانيا قد أخرج العرب من غرناطة آخر قلعة بالأندلس ، فنزلوا سواحل الجزائر وتونس وطرابلس ، فرأى أن يستأنف الحروب الصليبية بتعقبهم فى تلك السواحل ، وأطمعه أنه لم يجد للدولة الزيانية ولا للدولة الحفصية أسطولا يحمى ثغورها على البحر المتوسط ، واستولى فى الساحل الغربى للجزائر على المرسى الكبير إلى الشمال الغربى من وهران سنة ٩١٠هـ / ١٥٠٥م وعلى وهران سنة ٩١٤هـ / ١٥٠٩م وأيضا على مستغانم ومدينة الجزائر إلى الشرق من وهران ، واستولى فى الساحل الشرقى للجزائر التابع للدولة الحفصية على بجاية سنة ٩١٧هـ / ١٥١١م وأيضا على ثغرى جيجل وعنابة ، وكأنما أصبح الساحل الجزائرى جميعه غربا وشرقا فى قبضته ، إذ أهمل التلمسانيون والحفصيون الرباطات والمحارس الساحلية التى أكثرَ الأسلاف من إقامتها على البحر المتوسط حماية للبلاد من قراصنة الغرب .

٦

العهد[1] العثمانى

وفى هذه الأثناء كان يجوب البحر المتوسط بطلان تركيان من رجال البحر هما عرّوج وخير الدين (بربروس) وكانا قد تطوعا بنقل الأندلسيين المطرودين من غرناطة وإقليمها إلى سواحل البلاد المغربية ، وغضبا غضبا شديدًا لاستيلاء النصارى الإسبان على سواحل الجزائر الإسلامية والبلدان المغربية وصمما على إنقاذها منهم ، واتفقا مع الخليفة أبى عبد الله الحفصى أن يتخذا جزيرة جربة فى تونس قاعدة لضرب الأسطول الإسبانى وتحرير الساحل الجزائرى . ولم يلبثا أن استوليا من الإسبان على مدينة الجزائر سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م وأخذا يديران منها معارك حامية مع الإسبان ، اشترك معهم فيها الجزائريون والأندلسيون المهاجرون الموتورون من فرديناند والإسبان ، وحميت المعارك وأخذت بعض الموانى الساحلية تسقط فى حجر البطلين ، وتوفى عروج قبل الأوان ، ومضى خير الدين فى حملاته ، ورأى – بثاقب نظره – أنه لا يستطيع إقامة ملك تركى مستقل بالجزائر ، فأرسل إلى السلطان العثمانى بولائه له هو وفتوحاته فى الساحل الجزائرى ، وقبل منه ذلك ، وسماه : « بايلاريك » أى أمير الأمراء ، وأمده بجند وأسطول ، وبذلك دخل الأتراك الحرب ضد الإسبان المعتدين ، واستطاع خير الدين (بربروس) حتى سنة ٩٤٢هـ/١٥٣٦م أن يحرر الساحل الشرقى والغربى من الجزائر ما عدا المرسى الكبير ووهران ، ودمَّر الأسطول الإسبانى فى مواقع عديدة . وبذلك وقف هذه الحرب الإسبانية الصليبية ، وأنقذ الإسلام فى إفريقيا ، وأسس بقوة السلاح – فى الجزائر – دولة إسلامية عثمانية . وظلت الملحمة الحربية دائرة فى الجزائر بين النصرانية تمثلها إسبانيا والإسلام يمثله الترك . ويخلف خير الدين (بربروس) ابنه حسن ، وتمنحه الدولة العثمانية لقب بايلاريك مثل أبيه ، وكان على شاكلته بطلا مقداما . وشَنَّ شارل الخامس ملك إسبانيا سنة ٩٤٨هـ/١٥٤١م حملة بحرية على مدينة الجزائر ظل يستعد لها طويلا ، وما إن ألم أسطوله بها حتى سُحق سحقا أمام المدينة ، وغنم البايلاريك حسن والجزائريون والأندلسيون المهاجرون كل ما كان بالأسطول من سلاح وآلات وعُدَد . واستولى البايلاريك حسن على المرسى الكبير وهدمه ، كما استولى عنوة على كل المواضع التى كان يحتلُّها الإسبان هناك ما عدا وهران ، فقد بقيت فى يد الإسبان حتى سنة ١١١٩هـ/١٧٠٧م إذ استطاع القائد أوزن حسن فى عهد الباشا محمد بكداش فتْحها وطَرْدَ الإسبان منها ، وعادت إليهم سنة ١١٤٤هـ/١٧٣٢م إلى أن طُردوا

(١) انظر فى العهد العثمانى بالجزائر كتاب الجزائر لأحمد توفيق المدنى وكتاب تاريخ الجزائر لعبد الرحمن الجيلالى وكتاب تاريخ الجزائر الثقافى من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر الهجرى للدكتور أبى القاسم سعد الله ومادة الجزائر فى دائرة المعارف الإسلامية .

منها نهائيا فى عهد الباى محمد الكبير سنة ١٢٠٥هـ/١٧٩١م . وفى عهد البايلاريك حسن عاد الإسبان بعد هزيمة شارل الخامس بقيادة الكونت دالكادوت سنة ٩٦٥هـ/١٥٥٧م وأداروا معركة عند مدينة مستغانم شرقى المرسى الكبير وسرعان ما اندحروا وقُتل قائدهم وفروا إلى البحر وما وراءه ، وهو ما حدث للأسطول الدانماركى سنة ١١٨٤هـ/١٧٧٠م والحملة أدريلى الإسبانية آخر القرن الثانى عشر الهجرى .

ويذكر للبايلاريك حسن بن خير الدين أنه بسط الحكم التركى أو العثمانى على الجزائر جميعها على الساحل والجبل التلى والداخل ، وكان ملوك تلمسان الزناتيون يناورونه — كما ناوروا أباه خير الدين — فتارة معه وتارة مع الإسبان ، وسئم أهلها من هذا الصنيع ، وأفتى مجلس علماء تلمسان بخلع الحسن آخر ملوكهم سنة ٩٦٢ فالتجأ إلى إسبانيا وبها قضى نحبه ، وأظلّ الحكم العثمانى تلمسان منذ هذا التاريخ مثل أخواتها من المدن الجزائرية . وكانت تحدث أحيانا مناوشات حربية بين الجزائر والدولة العلوية فى المغرب الأقصى ، ولعل أهمها ما حدث زمن إسماعيل العلوى فى سنتى ١١٠٢هـ/١٦٩١م و ١١١٤هـ/١٧٠٣م إذ باءت بالإخفاق الذريع محاولاته فى نزع إقليم تلمسان من الجزائر العثمانية .

وقد وضع البايلاريك خير الدين للجزائر العثمانية ناموس الحكم وقوانينه ورتب الدواوين وقدّر الرواتب ، وخلّف حامية عسكرية عثمانية من الإنكشارية ، وهم جند الدولة العثمانية الذين كانت تعنى بتربيتهم تربية عسكرية إسلامية ، وكانوا من الأناضول أو من رعاياها . وفى الأكثرية كانوا من سباياها فى أوربا ، وكان على كل مائة منهم رئيسا يسمى الداى . وخطب الخطباءُ فى بلدان الجزائر باسم السلطان العثمانى وضُربت السكة باسمه ، وتولى أربعة بلقب البايلاريك (أمير الأمراء) حتى سنة ٩٩٥هـ/١٥٨٧م ، وكانوا أشبه بحكام مستقلين يديرون شئون البلاد مع الاعتراف بسيادة السلطان العثمانى الأعظم ، وحاولوا الحد من سلطان الإنكشارية بتكوين فرق مجندة من العرب ، وخاصة من قبائل التل وزواوة .. وأقلق استقلالهم الدولة العثمانية فى الآستانة ، فرأت أن يتحول الحكم فى الجزائر من البايلاريك إلى الباشا وظل عهد الباشوات حتى سنة ١٠٦٩هـ/١٦٥٩م وكان الباشا يولّى لمدة ثلاث سنوات ، وقد تجبره الإنكشارية ورؤساؤها إلى العودة قبل ذلك ، مما جعل مددهم قصيرة وحاولوا لذلك جمع ثروات طائلة ، وثار عليهم الأغوات من قادة الإنكشارية فاستولوا على أزمة الحكم ولم يعد للباشوات إلا بعض المهام التشريفية حتى سنة ١٠٨١هـ/١٦٧١م واختل الأمن فى هذا العهد ، واغتيل الأغوات جميعا ، واغتصب السلطة رؤساء الإنكشارية المعروفين باسم الدايات حتى الاحتلال الفرنسى سنة ١٢٤٥هـ/١٨٣٠م واختفت الباشوات فلم يعد الباب العالى العثمانى يولى منهم أحدا ، إذ أصبح الداى الذى ينتخبه رؤساء الإنكشارية الحاكم المطلق فى الجزائر ،

وكانوا يولونه ويخلعونه وفقا لأهوائهم ، ويستجيب لهم الباب العالى ، وبلغوا حتى الاحتلال الفرنسي ثمانية وعشرين دايا ، اغتيل نصفهم . وأخذ الحكم يفسد ، وزاد فى فساده أن القرصنة التى كانت مصدر دخل كبير للدولة فى القرنين السادس عشر الميلادى والسابع عشر ضعفت وتضاءلت لسيطرة الدول الأوربية العظمى على البحر المتوسط ، وعوّض ذلك الدايات بكثرة السلب والنهب من الجزائريين مما أدى إلى فساد الحكم العثمانى فى هذا العهد - وخاصة فى أواخره - فسادا شديدا . وكانت سلطة الداى - كما قلنا - مطلقة ، وكان يعاونه فى الحكم مجلس يعرف بالديوان لا يقطع أمرا دون مشورته ، وهو أشبه بمجلس وزراء ، وكان يتألف من ستة : الأغا وهو القائد الأعلى للقوات البرية ، ووكيل الخرج وهو وزير البحرية ويشرف على القرصنة ، والقبودان وهو القائد للأسطول وجند البحر ، والخزنجى وهو وزير المالية ، وخوجة الخَيْل وهو جابى الضرائب وشيخ المدينة المشرف على القضاء والشرطة ، والباش كاتب وهو رئيس الديوان ومعهم بعض كبار رجال الدين ونقيب الأشراف . وبجانب هذا الديوان أو المجلس مجلس الديوان العسكرى ويتألف من رؤساء الجنود ، ومجلس الرياس البحرى ويتألف من قواد البحر ، وكان لهذين المجلسين نفوذ كبير . وكان هناك مجلس أعلى للقضاء يرأسه القاضى الحنفى ، وكان فى أول الأمر يأتى من الآستانة مع الوالى ، ويعاونه فى المجلس قضاة مذهبى الحنفية والمالكية . وكانت تعرض على المجلس بعض أحكام القضاة مما يستوجب إعادة النظر ، وهو أشبه بمجلس استئناف شرعى . وكانت الجزائر مقسمة إلى ثلاث ولايات كبرى : ولاية قسنطينة فى الشرق ، وولاية تيطرى فى الوسط وعاصمتها مدينة المدية ، وولاية غربية وكانت عاصمتها مدينة مزونة ثم معسكر منذ سنة ١١٢٢هـ/١٧١٠م ثم وهران منذ سنة ١٢٠٧هـ/١٧٩٢م وقسمت هذه الولايات - أو كما كانت تسمى البكويات نسبة إلى البك حاكمها من قبل البايلاريك أو الباشا أو الأغا أو الداى ، وكان لكل بك سلطة واسعة فى ولايته . وكانت صلته بالحاكم العثمانى فى مدينة الجزائر تنحصر فى شيئين أساسيين هما : جباية الأموال فى ولايته وأداؤها للخزينة العامة ، وجمع الجند الذين ينبغى أن يرسل بهم للخدمة فى الجيش ، وكانوا جندا معاونا يعاونون فى الأزمات تحت قيادة الضباط العثمانيين . وكانت بالجزائر قبائل كثيرة فى الأطلس التلى ووراءه وبالمثل فى الأطلس الصحراوى ووراءه فى الصحراء الجنوبية ، وكانت هذه القبائل قسمين : قسما تتفاوت تبعيته للداى أو للعثمانيين قوة وضعفا ويدفع العشور وضريبته تسمى لازمة ، وقسما مواليا للدولة معفىً من الضرائب ما عدا الرسوم القانونية ، وتسمى قبائله باسم قبائل المخزن ، وكانت تمد الدولة العثمانية فى الجزائر بالمحاربين وجباة الضرائب وموظفى الشرطة المحافظين على الأرض فى البلاد . ودعموا دائما شيوخ القبائل ، فكانوا يقطعونهم الأراضى ويمدونهم ، - إذا شاءوا - بالحاميات العسكرية ،

وفرضوا على أنفسهم تجلة علماء الدين ، وأشركوا بعض كبارهم فى ديوان الحكم ، كما مرّ بنا ، وبالمثل كانوا يجلّون المتصوفة ويحمون طرقهم ويطلبون منهم البركات والعون على الرعية .

وكان العثمانيون طوال حكمهم للجزائر يستأثرون بكل مناصب الدولة ، مع أنهم دخلوها بطلب من أهلها لعونهم ضد الغزو الإسبانى ، وهم إخوانهم فى الدين ، والعدو عدو لدينهم معا ، فكان ينبغى أن يطبقوا تعاليم الإسلام وأن يوثقوا الأخوة بينهم وبين الجزائريين وأن يشاوروهم فى الحكم وأن يفسحوا لهم فى تولى مناصب الدولة الرفيعة . ونعجب إذ نراهم يعاملون الجزائريين معاملة المنتصر للمهزوم . وكثيرون من القوة الإنكشارية ورؤسائها تزوجوا من جزائريات ، ومع الزمن نشأت طبقة من الأبناء آباؤهم عثمانيون وأمهاتهم جزائريات ، وكان العثمانيون يسمونهم كراغلة جمعا لكرغلى ، وجعلوهم أدنى منهم مرتبة فلا يولون منصبا رفيعا من مناصب الدولة ، فضلا عن منصب الداى الحاكم للبلاد باستثناء البايلاربك حسن بن خير الدين ، فقد كانت أمه جزائرية . وفى أواسط القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) تمرد الكراغلة فقبضوا على رؤسائهم ونكّلوا بهم ، وبذلك أوصدوا الأبواب فى وجوههم ، فلم يتولوا المناصب العليا فى الدولة مثلهم فى ذلك مثل الجزائريين . وكان الجزائريون يثورون أحيانا على العثمانيين ، غير أن لهب الثورة كان ينطفىء سريعا ، ومن أهم ثوراتهم ثورة زواوة سنة ١١٥٨هـ/١٧٤٥م بسبب ضرائب جديدة فُرضت عليها وظلت الثورة نحو عام وقُضى عليها حين جنّدت لها الدولة جيشا جرارا .

وكانت الجزائر قد مُنيت – منذ أواخر القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) بعهد الدايات وفى عهدهم أخذت تشيع الرشوة ويشيع الظلم واغتصاب الجنود الإنكشاريين من المواطنين الأموالَ عسفا دون أى مراعاة لدين أو خلق . وظل الدايات بعيدين عن الشعب الجزائرى لا يعرفون لغته ولا عاداته وتقاليده وطرق معيشته ، ولم يحاول أحد منهم أن يجعل حكم الجزائر وراثيا فى أبنائه كما فعل بايات تونس وباشوات طرابلس ، ولو حدث ذلك لأصبح الحكم العثمانى فى الجزائر شيئا فشيئا وطنيا على نحو ما حدث فى تونس وطرابلس . وما نصل إلى أواخر القرن الثانى عشر الهجرى (الثامن عشر الميلادى) حتى يهبط الدخل العام للدولة بسبب ضعف القرصنة كما أسلفنا وما تَجْبى الدولة منها من أموال . ولم تكن القرصنة فى نظر الجزائريين والترك لصوصية بحرية كما قد يظن ، بل كانت فريضة جهاد إزاء دار الحرب الأوربية النصرانية ، وظلت موردا مهما للجزائر منذ القرن العاشر إلى القرن الثانى عشر . وكان القراصنة الجزائريون والترك والمهاجرون من الأندلس يغيرون على سواحل إسبانيا وجنوب فرنسا وإيطاليا ويعودون بغنائم وأموال وافرة . ومنذ أواسط القرن الثانى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) كانت تقاومهم أساطيل إنجلترا وفرنسا ، غير أن الدول والإمارات الأوربية الصغيرة مثل السويد والدانمارك وهولندة ونابولى ظلت طويلا تدفع لدولة الجزائر العثمانية إتاوة سنوية نظير ضمان

قراصنتها لسلامة رعاياها ، وكان القراصنة يجلبون إلى الجزائر مئات بل آلافا من الأسرى الأوربيين المسيحيين ، وكثيرا ما كانت تكتظ موانى الساحل الجزائرى بأفواج منهم ، وكانوا يعاملون – حسب تعاليم الإسلام – معاملة كريمة ويؤدون شعائرهم الدينية فى حرية تامة ، فى الوقت الذى كانت فيه إسبانيا تخير الأندلسيين فيها بين التنصر أو الموت ، راكلة بأقدامها حقوقهم الإنسانية المشروعة . واعتنق كثيرون من هؤلاء الأسرى الدين الحنيف ، وآثروا البقاء فى الجزائر ولم يقبلوا الرجوع إلى أوطانهم وبلدانهم الأوربية .

وبينما كانت الجزائر العثمانية تعانى من أزمة اقتصادية خانقة فى أواخر القرن الثانى عشر الهجرى وأوائل الثالث عشر (أواخر القرن الثامن عشر الميلادى) بسبب تضاؤل موارد القرصنة إذا شركتان يهوديتان ليهودى يسمى نفتالى تسيطران على اقتصاد البلاد وتمتصان خيراتها منذ سنة ١١٩٥هـ/١٧٨٠م وما يزال سخط الجماهير والإنكشارية العسكرية يزداد على هذا الرجل حتى إذا كانت سنة ١٢٢٠هـ/١٨٠٥م ثاروا عليه وعلى اليهود ثورة عنيفة فقتلوه مع كثيرين من إخوانه فى الدين . وفى سنة ١٢٣٢هـ/١٨١٦م حطم الداى على خوجه النفوذ التركى باعتماده على الجند الزواوى الجزائرى الوطنى ، وبذلك أخذت الحكومة العثمانية فى الجزائر شكلا وطنيا كان له فرحة عميقة فى نفوس الجماهير ، ولم تبق للعثمانيين فى الجزائر إلا سلطة اسمية ، وتوفى على خوجة سنة ١٢٣٤هـ/١٨١٨م . وولى الجزائر بعده وزيره حسين دايًا ، وفى هذه السنة اتخذ مؤتمر لاشابيل قرارا بإلغاء القرصنة ، وذهب إلى الجزائر وفد إنجليزى فرنسى لإقناع الداى بإلغائها نهائيا ، غير أنه أصرَّ على إبقائها مع كل دولة لا تؤدِّى للجزائر إتاوة لسلامة سفنها ورعاياها . وكانت الشركتان اليهوديتان المذكورتان آنفا مدينتين للداى والجزائر بنحو مليونين ونصف من الفرنكات ، وكانتا تدينان فرنسا بنحو سبعة ملايين لصفقات من القمح اشترتها ، وقررت فى سنة ١٢٣٥هـ/١٨١٩م أن تدفع للشركتين مبلغ أربعة ملايين ونصف ، وكان الداى أبلغها ماله على الشركتين من دين حتى تحتفظ عندها بدينه عليهما ، ولم تعره التفاتا مما أثار غضبه ، وفى استقبال الداى لرجال السلك السياسى بأبريل سنة ١٢٤٣هـ/١٩٢٧م تحاور مع القنصل الفرنسى ويقال إنه أثار حفيظته فصاح به مشيرا بمروحة فى يده مسَّها طرفه وطرده . وعدَّت فرنسا تلك إهانة وطلبت من الداى اعتذارا علنيا ، فلم يعتذر . وفى يونية من هذه السنة أعلنت الحرب على الجزائر وحاصرتها لمدة ثلاث سنوات وأخذت فى الإعداد لحملة عسكرية ، وفى مارس سنة ١٨٣٠هـ/١٢٤٥م قال شارل العاشر ملك فرنسا فى خطاب العرش : إنه سيقوم بعمل لترضية الشرف الفرنسى فيه فائدة للمسيحية ، وكأنه عدَّ حربه للجزائر حربا دينية بين المسيحية والإسلام . وفى آخر مايو سنة ١٨٣٠م أقلع وزير الحرب الفرنسى دى بورمون بأسطول حربى ضخم أرسى بسيدى فرج بالقرب من مدينة الجزائر ، ودارت معارك ضارية لمدة شهر اضطر الداى بعدها إلى الاستسلام فى الخامس من

شهر يوليه وأُجْبر هو والإنكشارية على الرحيل عن البلاد . وبذلك انتهت مدة العثمانيين في الجزائر بعد أن استمرت أكثر من ثلاثمائة عام وبدأ الاحتلال الفرنسى الآثم وظل الجزائريون يجاهدون الفرنسيين جهادا عنيفا أبلوا فيه بلاء عظيما تحت راية البطل المغوار الأمير عبد القادر حتى سنة ١٢٦٤هـ/١٨٤٧م ولم تسقط الراية من أيدى المجاهدين فقد تسلمتها لالا فاطمة فى شرقى الجزائر سنة ١٢٧٤هـ/١٨٥٧م وحملها سى سليمان ويته من عشيرة سيدى شيخ لمدة عشرين عاما منذ سنة ١٢٨١هـ/١٨٦٤م كما حملها مُقْرانى وأخوه فى منطقة قسنطينة لمدة عامين . وهذه الحركات التحررية جميعها مكانها فى صحف تاريخ الأدب الجزائرى فى العصر الحديث .

الفصل الثانى

المجتمع الجزائرى

١

عناصر[١] السكان

البربر هم العنصر الأول الذى ملأ بقبائله وشعوبه وبطونه السواحل والسهول والتلال والجبال والهضاب من إقليم الجزائر ، مثله فى ذلك مثل بقية أقاليم المغرب ، واختلف المؤرخون طويلا فى نسب البربر من الأمم القديمة ، فقيل إنهم أخلاط من اليمن فى آسيا ، وقيل إنهم من لخم وجذام كانت منازلهم بفلسطين وأخرجهم منها بعض ملوك فارس ، فلما وصلوا إلى مصر منعهم ملوكها من المقام بها ، فعبروا النيل إلى ديار المغرب وانتشروا فى أرجائها ، وقيل إنهم من ولد القبط المصريين ، وقيل هم من ولد جالوت ولما قتل رحل بهم إفريقش من ساحل الشام إلى ديار المغرب وأسكنهم إفريقيا ، وقيل هم قبائل شتى من حمير اليمنية ومضر العدنانية والقبط والعمالقة والكنعانيين ، وقيل إنهم أبناء مازيغ بن كنعان بن حام بن نوح ، وكان مازيغ أخا لفلسطين ، وبارح أبناؤه الشام إلى ديار المغرب فهم حاميون . ويعلق ابن خلدون على هذه الأقوال فى أنساب البربر وما يماثلها بقوله : إنها « أحاديث خرافة » ، إذ مثل هذه الأمة (البربرية) المشتملة على أمم وعوالم ملأت جانب الأرض لا تكون منتقلة من جانب آخر وقطر محصور ، والبربر معروفون فى بلادهم وأقاليمهم متميزون بشعارهم من الأمم منذ الأحقاب المتطاولة قبل الإسلام ، فما الذى يحوجنا إلى التعلق بهذه الترهات فى شأن أوليتهم ، ولا يُحتاج إلى مثله فى كل جيل وأمة من العجم والعرب » . ويذكر ابن خلدون أن من النسابين البربر من يزعم فى بعض قبائلهم وشعوبهم أنهم من حمير اليمنية مثل لواته وهوارة وزناتة ، ثم يقول : الحق الذى شهدت به الرطانة والعجمة (فى ألسنة البربر) أنهم بمعزل عن العرب » . وابن خلدون محق فى قوله إن ذلك كله خرافة وترهات ومزاعم باطلة ، ولا حاجة — أى حاجة — للبربر به ، إذ هم شعب عريق لا يقل عراقة عن العرب والمصريين والفرس والروم ، عاشت

---

(١) انظر فى تلك العناصر الجزء السادس من تاريخ ابن خلدون ووصف إفريقيا للحسن الوزان والبيان المغرب لابن عذارى والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى وتاريخ المغرب الكبير لدبوز والجزء الأول من تاريخ المغرب لرشيد الناضورى وتاريخ المغرب فى القديم والحديث لمبارك الميلى وكتاب الجزائر لأحمد توفيق المدنى وكلمة الجزائر فى دائرة المعارف الإسلامية .

قبائله في ديار المغرب : جزائر وغير جزائر من عصور سحيقة ، وهم لا يمتون إلى الساميين عربا وغير عرب بأى عرق ، وأولى أن يُعَدّوا حاميين إفريقيين ، ولعل ذلك ما جعل ابن خلدون يقول عن اقتناع : « والحق الذى لا ينبغى التعويل على غيره فى شأن البربر أنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح ـ وأن اسم أبيهم مازيغ بن كنعان » ويؤيد رأى ابن خلدون ما ترجحه الدراسات اللغوية المقارنة بين اللغتين البربرية والمصرية القديمة الحامية من أن بينهما تشابها فى النظام الفعلى وفى بعض الصيغ مما يؤكد أن البربر من الحاميين .

وكما أن فى نسب البربر اختلافا فى الآراء كذلك كلمة البربر نفسها ، فمن قائل إن البربر هم الذين سموا أنفسهم بهذا الاسم من قديم ، ومن قائل إن العرب هم الذين أطلقوا هذا الاسم على سكان البلاد المغربية لعدم فهمهم للغتهم ، ومنه قالوا « بربر » الشخص إذا تمتم بالكلام ولم يعرف السامع المراد ، ومن قائل إن الكلمة من أصل لاتينى هو بربروس Barbarus وهو من لا يفهم كلامه ، وأطلق الرومان الكلمة على شعوب البربر ، لأنهم يتكلمون بلغة لا يفهمونها ، ولعل هذا القول أكثر الأقوال سدادا ، لنزول الرومان فى المغرب من قديم ، وعنهم أخذها العرب وأطلقوها على سكان المغرب جميعا .

وما زال البربر بعيدين عن الشعوب القديمة لا يتصلون بها حتى إذا كان القرن العاشر قبل الميلاد – وربما قبله أو بعده بقليل – أخذ الشعب الفينيقى اللبنانى – وكان شعبا يحترف الملاحة – تجوب أسراب منه سواحل البلدان المغربية بحثا عن أماكن صالحة لرسو سفنهم وتبادل السلع مع السكان من البربر ، واختاروا قرطاجة فى الإقليم التونسى فنزلوا بها أو قل اختاروا موقعها فأسسوا به أول موطن إفريقى لهم ، وأخذوا يبحثون سريعا عن مواطن لهم فى ساحل الجزائر ، فاختاروا بونة (عنابة) وجيجل وبجاية وشرشال وإسكيكدة غربيها وأخذوا يختلطون بسكان تلك المدن وينشرون بينهم حضارتهم الفينيقية ، ويعلمونهم الزراعة وغراسة الأشجار . ويُظَنّ أنهم نقلوا إلى الجزائر أشجار الزيتون والنخل والفاكهة ، وعلموا الجزائريين أيضا الملاحة والتجارة وكانت قوافلهم تجوب الجنوب وتحمل منه بعض الزنوج ، وسمحوا لليهود منذ القرن الثالث قبل الميلاد بالنزول فى مدنهم . وبذلك كانت تعيش فى الجزائر لعهد الفينيقيين عناصر من اليهود والزنوج بالإضافة إليهم وإلى البربر .

وينشب صراع هائل بين قرطاجة وروما وينتهى سنة ١٤٦ قبل الميلاد باستيلاء روما على المدن الفينيقية فى الإقليمين الجزائرى والتونسى ، ويستوطن هذه المدن كثير من الأسر الرومانية ، وتكثر روما من قوافلها إلى الجنوب ، وتعود محملة بكثير من الزنوج الذين يستخدمون فى الزراعة والرعى . ومنذ سنة ٧٠ للميلاد يفد على المدن الفينيقية بعض الأسر اليهودية بعد تدمير الإمبراطور تيتوس لمعبد بيت المقدس . وتستولى جموع الوندال الألمان من روما على الإقليمين

الجزائرى والتونسى فى سنة ٣٩: للميلاد ، وتظل بها نحو مائة عام إلى أن يخرجهم منها قائد بيزنطي سنة ٥٣٤ للميلاد ، ويخلفهم البيزنطيون وجنودهم وموظفوهم الإغريقيون . ومعنى ذلك أنه كان يعيش فى الجزائر بالقرن السادس الميلادى سبع سلالات : سلالة أساسية من البربر أصحاب البلاد ثم سلالات من الفينيقيين والزنوج واليهود والرومان والوندال الألمان واليونان .

ويقتحم العرب أسوار الجزائر حاملين مشاعل الدين الحنيف ، وتظل تقتحمها جيوش عربية لإكمال الفتح وللقضاء على ما ينشب بها من ثورات طوال القرن الأول الهجرى ، وتستجيب الجزائر لدعاة الدين الحنيف ولولاتها العظام فى هذا القرن الذين سوّوا فيه بمنتهى العدل بين الجنود المسلمين الفاتحين وبين من يسلم من البربر فى جميع الحقوق والواجبات : فى الضرائب وفى دخول الجيش والجهاد . ويتولى المغرب مع فواتح القرن الثانى الهجرى ولاة طغاة بغاة أخذوا يحرمون البربر من حقوقهم التى شرعها الإسلام ، مما جعل بعض البربر يعتنقون مذهبى الإباضية والصفرية اللذين يريان التسوية المطلقة بين البربر والعرب فى الخراج وغير الخراج وحتى فى الخلافة فلا يصح أن تقتصر على قريش وحدها ، وهبّت ثورات متعاقبة منذ سنة ١٢٢ هـ/٧٣٩م يقوم بها أتباع الصفرية أو أتباع الإباضية حتى عهد يزيد بن حاتم المهلبى (١٥٤ - ١٧٠ هـ) . وإنما نذكر ذلك لندل على أن الجيوش العربية ظلت تقدم إلى الجزائر منذ الفتح ، وكان كثير من جنودها جميعا يقيمون فى الجزائر وغيرها من الأقاليم المغربية ، ولم يكونوا جميعا عربا بل كان بينهم كثيرون من أهل الرافدين والشام ومصر وإيران ، ومن كل هذه العناصر استقرت سلالات فى الجزائر وعاشت مع أهلها وامتزجت بهم امتزاجا سريعا بحكم ما يجمع بين الجانبين من الدين واللغة . وأخذ ينزل فى المدن الساحلية بعض المسيحيين واليهود لما رأوا فى الإسلام وأصحابه من المعاملة السمحة .

وحول منتصف القرن الخامس الهجرى تحدث هجرة قبيلتى بنى هلال وسليم إلى الإقليمين التونسى والجزائرى انتقاما من المعز بن باديس حين وقف الدعوة العبيدية الفاطمية وخلع طاعة الخليفة وانضوى تحت لواء الخليفة العباسى ، وكان آباء هاتين القبيلتين قد وضعوا أيديهم فى أيدى القرامطة ضد الدولة الفاطمية ، فلما استسلموا لها أنزلتهم فى القفار بين النيل والبحر الأحمر ، ورأى وزير خبيث للمستنصر أن يستخدمهم ضد المعز بن باديس ووعدهم بامتلاك دياره ، فانقضّوا عليها واكتسحتها سيولهم اكتساحا حول منتصف القرن الخامس ، مما اضطره إلى الانسحاب من القيروان إلى المهدية ، وتدافعت سيول من هلال وبطونها : أثبج ورياح وعامر ومعقل وعدى ، وكذلك من سليم وعشائرها : دياب وزغبة وعوف ومرداس والطرود ، وكانوا بدوا رعاة غير متحضرين فمضوا ينهبون ويتلفون الزروع ، ورأى صاحب قلعة بنى

حماد أن يترك لهم الريف . وبدون ريب أحدثت هذه الهجرة الأعرابية كثيرا من الاضطراب في الجزائر ، غير أنها أفادتها فائدة كبرى إذ أكملت تعريبها وكانت قد أخذت في التعرب منذ القرن الأول الهجرى واستيطان كثير من الجنود المسلمين لها ، وقد تحولوا ينشرون الإسلام ومبادىء العربية وأخذ ذلك يتسع مع الزمن . غير أن تعرب الجزائريين كان لا يزال محدودا ، حتى إذا حدثت هذه الهجرة الأعرابية الكبيرة لمئات الألوف من العرب ، إذ لم يلتق بذلك بضعة آلاف من الأعراب بالشعب الجزائرى ، بل التقت به مئات الألوف ، بل التقى شعبان : الشعب البربرى صاحب الديار والشعب العربى المهاجر ، ولم يلبث الشعبان أن اندمجا وأصبحا شعبا واحدا دينه واحد ولغته فى الغالب واحدة ، إذ ظل هناك من يحافظون على لغتهم البربرية وخاصة فى أوعار الجبال ، ومع ذلك كانوا يستخدمون مع قومهم اللغة التى تكونت فيما بعد ، ونقصد العامية المشتقة من العربية . وقد أصبحت الكثرة الكاثرة من الجزائريين عربا فى اللغة والزىّ وعادات المآتم والأفراح ، بل لقد أصبحت الجزائر جميعها شعبا عربيا ضخما بفضل هذه الهجرة الأعرابية .

وما نصل إلى سنة ٤٨٤ هـ/١٠٩٢ م حتى يستولى النورمان نهائيا على جزيرة صقلية وفى العام التالى يستولون على جزيرة مالطة ، وينزح إلى الجزائر وتونس كثير من المسلمين فى الجزيرتين فرارا بدينهم من اضطهاد النورمان ، وكانت كثرتهم — إن لم يكن جمهورهم — من أبناء إفريقية التونسية من سلالات الفاتحين للجزيرتين وكان بينهم بعض أبناء الجزيرتين ممن اعتنق آباؤهم الدين الحنيف . ونمضى إلى القرن السابع الهجرى وتسقط بلدان أندلسية كثيرة فى حجر نصارى الإسبان الشماليين ، وينزح كثيرون من مسلمى الأندلس إلى الجزائر وبلدانها. وإذا كانت الهجرة الأعرابية أفادت الجزائر اكتمالا فى التعرب فإن الوفود المسلمة التى نزحت إليها من الأندلس أفادتها فى الزراعة والصناعات المختلفة : صناعة النسيج وغيره ، وأفادتها فوائد كثيرة فى حياتها العلمية والأدبية ، إذ نزح إليها كثير من العلماء وشاركوها فى حياتها العلمية كما شاركها فى حياتها الأدبية كثير من أدباء الأندلس الذين هاجروا إليها واتخذوها دارا ومقاما . واتسع نزوح من بقى بالأندلس من المسلمين منذ سنة ١٠١٦ هـ/١٦٠٩ م حين نفى الإسبان من كان لا يزال بالأندلس من المسلمين إلا من أعلن تنصره أو تظاهر بأنه نصرانى وتضاعفت إفادة الجزائر من هؤلاء النازحين — كإخوانهم السالفين — فى العلوم والآداب والزراعة والصناعات وما حملوا من الأندلس إلى الجزائر من مدنيتهم الأندلسية العظيمة . وقد نزح معهم كثيرون من اليهود فرارا من عسف الإسبان وبطشهم .

وكان الولاة فى العهد العثمانى يحيطون أنفسهم بحاميات عسكرية من الإنكشارية ، ومعروف أنها كانت تتكون من الترك فى الأناضول ومن أجناس شتى من أنحاء الدولة العثمانية ومن

أسرى جيوشها الغازية فى البلاد الأوربية ، وكانت تعنى بتربيتهم تربية عسكرية إسلامية ، وترسل إلى الجزائر – كما ترسل إلى ولاياتها الأخرى – بضعة آلاف منهم ، وكانوا يتزوَّجون من جزائريات أحيانا مما جعلهم يرتبطون بأسرهن وبالجزائر ارتباطا وثيقا . والمجتمع الجزائرى لا تتداخل فيه سلالات هذه العناصر الكثيرة فحسب ، فإن القرصنة جلبت إليه كثيرا من العناصر الأوربية ، ومرَّ بنا أنها أخذت تتسع اتساعا شديدا منذ استطاع خير الدين وعروج أن يجعلا من البحر المتوسط فى القرن العاشر الهجرى بحرا عثمانيا ، وكان النازحون المسلمون من إسبانيا يملئون قلوب البحارة الترك حماسة ليتسعوا ما استطاعوا بالقرصنة انتقاما من الإسبان والأوربيين ، وكانوا يسحبونهم على وجوههم من البحر المتوسط بالآلاف إسبانًا وفرنسيين وإيطاليين ويونانيين وكريتيين ، وكان كثيرون منهم يعتنقون الإسلام وتُرَدّ إليهم حرياتهم ويصبحون جزائريين دينا ولغة ، ويندمجون فى أهل البلاد اندماجا تاما .

وواضح أن الجزائر دخلتها من قديم عناصر كثيرة إفريقية وآسيوية وأوربية بجانب سكانها الأصليين من البربر ، وقد فتحتها وعاشت فيها أمم كثيرة : فينيقيون ورومان ووندال وبيزنطيون وعرب وترك ، وقد أفادت منها جميعا فى نظمها وطرق معيشتها وزراعتها وصناعتها . وكان كل من ينزلها من هذه الأمم ويستوطنها لا يلبث أن ينفصل عن موطنه ويزايل صبغته الأولى ويذوب فى الجزائر لما تتميز به من قوة الشخصية والهويَّة الراسخة .

٢

المعيشة(١)

كان أساس المعيشة فى الجزائر الزراعة ورعى الأنعام ، وتأتى بعد ذلك الصناعات اليدوية والملاحة وما ارتبط دائما بها من الصيد فى البحر ومما تحولت إليه فى أواسط العصر من القرصنة . والإقليم يموج بطيبات الرزق ، ونستطيع أن نتمثل ذلك بوقوفنا أولا عند النواحى الزراعية فى مدن الساحل الشمالى ثم فى المدن الداخلية وما وراءها من المدن الصحراوية . وإذا سرنا فى الساحل من الشرق إلى الغرب لقيتنا مدينة القالة ، وكانت تسمى قديما مرسى الخزر ، وتليها مدينة بونة ومرَّ بنا أن القديس أوغسطين كان أسقفا لها فى عهد الرومان ، وهى تقع وسط سهل زيرجدى بالقرب من مصب نهر سيبوز وبها صهاريج رومانية قديمة . وكان الرومان

(١) راجع فى المعيشة كتاب لأبى عبيد البكرى : المسالك والممالك وابن حوقل بنفس العنوان (وصفة المغرب وأرض السودان ومصر – مقتبس من كتاب نزهة المشتاق) وكتاب الجغرافيا لابن سعيد بتحقيق إسماعيل العربى ومعجم البلدان لياقوت وتاريخ بنى زيان للتنسى تحقيق الأستاذ محمود بو عياد وكتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان ترجمة د . عبد الرحمن حميدة (نشر جامعة الإمام محمد بن سعود) وكتاب الجزائر لأحمد توفيق المدنى .

يسمونها هيبون ثم أصبحت بونة العربية . وسميت فيما بعد عنابة لكثرة ثمر العناب بها ويجفّف ويصدّر ، ويقول ابن حوقل : إنها ذات أسواق حسنة ، والأرض المحيطة بها ذات تربة خصبة ، وتنتج القمح والشعير والكتان والفواكه والعسل بكثرة ، ويقول الحسن الوزان : « الأرض المزروعة خارجها تبلغ أربعين ميلا طولاً وخمسة وعشرين ميلا عرضا ، وكل الأراضي ممتازة لزراعة القمح ، ويملك أهلها من قبيلة مرداس العربية أعداد كبيرة من الأبقار والثيران والأغنام » . وإلى الغرب منها ميناء جيجل وأرضها وعرة ، كما يقول الحسن الوزان غير صالحة إلا لزراعة الشعير والكتان والقنب ، وبها كثير من شجر الجوز والتين . وغربها بجاية وكانت أكبر ميناء في الساحل الجزائري ، ويقول الإدريسي : الحنطة والشعير موجودان فيها بكثرة والتين وسائر الفواكه . وإلى الغرب منها مدينة الجزائر ، وهي ثغر روماني جدَّد بناءه بنو مزغنّة ، ثم زيرى بن مناد سنة ٣٥٦ للهجرة ويقول الحسن الوزان : « حولها الكثير من البساتين والأراضي المزروعة بأشجار مثمرة ويمر بجوارها من الجانب الشرقي نهر نُصبت عليه طواحين ، وسهول منطقتها جميلة جدا ولاسيما سهل المتيجة ويبلغ طوله حوالى خمسة وأربعين ميلا بعرض مقداره ستة وثلاثون ميلا حيث ينمو قمح وفير للغاية من أجود الأنواع » . وغربيها مدينة شرشال وهي ميناء فينيقي روماني ويقول الإدريسي : بها مياه جارية وآبار عذبة وفواكه حسنة كثيرة وسفرجل كبير الجرم ذو أعناق كأعناق القرع الصغار وبها كروم وبعض أشجار التين . ويقول الحسن الوزان إنها كانت قد هُجرت في أعقاب الحروب بين ملوك تلمسان وفاس وظلت خاوية خلال مدة تقارب ثلاثمائة عام حتى سقوط غرناطة بأيدي النصارى في عام ٨٩٧هـ/١٤٩٢م فقصدها كثير من الغرناطيين (الأندلسيين المسلمين) فأعادوا بناء قلعتها وقسم كبير من منازلها وزرعوا أراضيها . وإلى غربيها مدينة تنيس ، وهي ميناء فينيقي قديم ، ويقول الإدريسي : بها من الفواكه كل طريفة ومن السفرجل الطيب المعنق ما يفوق الوصف في صفته وكبره وحسنه ؛ ويقول الحسن الوزان تنتج أرضها الكثير من القمح والكثير من العسل . وكانت قد خُرِّبت فأعاد إليها مهاجرو الأندلس الغرناطيون العمران والزراعة مثل أختها شرشال . وغربيها مدينة وهران ويقول الإدريسي : « على مقربة منها نهر عليه بساتين وجنات ، وبها فواكه كثيرة وأهلها في خصب ، والعسل بها موجود وكذلك السمن والزبدة والبقر والغنم فيها رخيصة وبالثمن اليسير » . وكانت وهران قرية صغيرة حتى إذا كانت الهجرة الأندلسية نزلها كثيرون من الغرناطيين وأسسوا وهران الحديثة .

وإذا تركنا مدن الساحل الشمالي إلى ما وراءه وسرنا فيه من الشرق إلى الغرب لقيتنا قالمة جنوبي بونة أو عنابة وهي مدينة فينيقية قديمة ، ويقول الأستاذ أحمد توفيق المدني إنها اشتهرت بتربية نوع من البقر يعد من أجمل أنواع البقر الموجود في الجزائر ، وبه صفات لا توجد في غيره ، ويذكر أنه يوجد بقربها حمام بديع يدعى حمام المسخوطين وبه مياه معدنية تفور من

عشرة عيون شديدة الحرارة وهى تتراوح بين ٩٤ و ٩٨ درجة ، ولها قيمة طبية عالية » . ونلتقى بعدها بمدينة نقاوس ويقول الحسن الوزان إنه يمر بجوارها نهر تقع مزارع التين والجوز على ضفافه ، ويشتهر تين المنطقة بأنه أفضل أنواع التين وينقل منها إلى قسنطينة ، وحول نقاوس سهول جيدة صالحة لزراعة القمح . وتلقانا مدينة قسنطينة وهى مدينة فينيقية رومية ، جدد بناءها الإمبراطور قسطنطين فنسبت إليه ، وهى - كما يقول الأستاذ المدنى - أم المدن بالناحية الشرقية الجزائرية ، وكانت تتبع صاحب القيروان وتونس ، وكان ينزل بها نائبه ، وكانت لذلك مركزا كبيرا للإدارة ، ويقول الحسن الوزان : جميع الأراضى الزراعية الواقعة حول المدينة طيبة وخصبة ويبلغ محصولها ثلاثين ضعفا لما يبذر فيها ، وتوجد بساتين جميلة جدا فى السهل على طول النهر الذى يمر بأسفلها وبجوارها نبعان : نبع ساخن ونبع بارد بجانبه بناء من الرخام . وعلى بعد ٥٠ كيلومترا منها مدينة ميلة وهى مدينة رومانية ، ويقول الحسن الوزان إن منطقتها ذات إنتاج غزير من التفاح والكمثرى والثمار الأخرى . وغربيها جنوبا مدينة المسيلة (المحمدية) وهى مدينة رومانية وسهولها مشهورة بإنتاج القمح والشعير والفواكه ، كما تشتهر بتربية الحيوانات : البقر والغنم والخيل ، وبنهرها سمك صغير مزدان بخطوط حمراء ، ويقول الإدريسى إنه لم ير فى المعمورة سمكا على صفته . وإلى الشرق منها طبنة عاصمة الزاب الأعلى شرقى شط الحضنة المالح وتقع على نهير يسقى بساتينها وزروعها وحقول الحنطة والكتان ومختلف أنواع الفواكه . وشمالى طبنة والمسيلة مدينة سطيف وهى مدينة رومانية وتتوسط منطقة من أغنى مناطق الجزائر الزراعية . وإلى الجنوب من قسنطينة باغاية وبجوارها نهر يسقى بساتينها وحقولها الواسعة المنتجة للحبوب من القمح والشعير ، وسكانها إباضيون انحازوا إليها بعد سقوط تاهرت فى آخر القرن الثالث الميلادى . وإلى الجنوب شرقا من باغاية تبسّة ، وتشتهر بكثرة الفواكه وبالجوز ، وينوّه أبو عبيد البكرى بكبر حجمه وطيبه . وإلى الجنوب الغربى منها مدينة بسكرة وتقع فى أشهر الواحات الجزائرية ، وكان الرومان يسمونها فيسيكرا وكان بها قديما أسقفية ، وعلى مقربة منها استشهد عقبة بن نافع وأصحابه كما مر بنا فى الفصل الماضى ويكثر بها النخل والزيتون ومختلف الثمار ويشيد البكرى بآبارها الكثيرة . وإذا اتجهنا إلى الشمال الغربى التقينا بتاهرت عاصمة الدولة الرستمية الإباضية ، وهى على سفح جبل يسمى جزول وكان يجرى بجوارها نهر يروى زروعها وبساتينها التى وصفها البكرى بقوله : « فيها جميع الثمار وسفرجلها يفوق سفرجل الآفاق حسنا وطعما ومشمًّا » وينوه الإدريسى بمزارعها وحقولها وما اشتهرت به من تربية الأنعام والخيل ، ويقول إنها وافرة العسل والسمن . وإلى الشمال منها مدينة مليانة وهى مدينة رومانية قديمة تشرف على نهر شلف وحولها بساتين زاخرة بالفواكه وقرى عامرة ومزارع واسعة ، ويقول الإدريسى عنها : حسنة البقعة كريمة المزارع وتقع على نهر يسقى مزارعها وحدائقها وجناتها ولها أرحاء على نهرها » . وعلى بعد

مائة وأربعة وسبعين كيلومترا من وهران تقع مدينة تلمسان الكبيرة بين جبال تزدان بالخضرة والخمائل النضرة وسهول مكتظة بالزروع والبساتين الخلابة ، يقول ابن حوقل فيها : مدينة لطيفة قديمة ولها أنهار جارية وعليها أرْحية وفيها فواكه كثيرة وغلاتها عظيمة ومزارعها كثيرة ، ويقول الحسن الوزان : « توجد فى خارج تلمسان عدة كور بديعة بها منازل غاية فى الأناقة ، ومن عادة سكان المدينة قضاء الصيف فيها حيث ينعمون بأكبر متعة ، فلهم فيها بساتين فاخرة تنتج أعنابا من كل الألوان وذات نكهة رائعة ، وكرزا من كل نوع تبلغ وفرته حدا لم أر له مثيلا فى أى مكان آخر ، وتينا شديد الحلاوة أسود اللون كبير الحجم يجفَّف ليؤكل فى الشتاء ، ودرَّاقا ، وجوزا ولوزا وبطيخا وخيارا وثمارا أخرى مختلفة » وعلى نهرها العديد من طواحين القمح . وإذا توغلنا جنوبى تاهرت لقيتنا واحة الأغواط بنخيلها الكثير ، وإلى الجنوب منها منطقة ميزاب ومدنها وأهمها غرداية ويكثر بها النخيل والحدائق والبساتين ، ومن ورائها ست قرى وافرة النخيل والفواكه ، وأهلها جميعا إباضيون وكان آباؤهم حين قضى على الدولة الرستمية فى تاهرت انسحبت كثرة منهم إلى ورقلة (ورجلان) فى الجنوب الشرقى من الجزائر ، ولما غادروها إلى بلاد ميزاب بقيت منهم بقية قليلة وحل محلهم فى تلك الواحة كثير من الزنوج . وشرقى بلاد ميزاب وادى سوف وهو بلاد واحات شاسعة تمتد من أراضى ميزاب إلى أراضى الجريد فى تونس ، وتنتج واحاته تمرا بديعا . وطبيعى أن تغطى الهضاب الصحراوية الكثيرة فى جنوبى الجزائر أثناء الربيع أعشاب ونباتات ، وينتقل البدو فيها لرعى أغنامهم وإبلهم ، وينقسمون إلى بدو أو رعاة شبه مقيمين إذ يقل ظعنهم وهم المجاورون لتخوم جبال أطلس والجبل التلى ، وبدو أو رعاة رحَّل وهم المتنقلون فى الهضاب والصحارى ، وهم جميعا يمدون مدن الجزائر بكثير من قطعان مواشيهم .

ومن قديم تعنى مدن الجزائر بالصناعات اليدوية كالحدادة والنجارة والحياكة واستخراج المعادن وتصنيعها وخاصة الحديد ، وكانت بونة (عنابة) تشتهر بمصانعه ، ومنها الرصاص والزنك فى جبال الونشريس ونواحى سطيف ، وكان ببجاية دار صناعة كبرى لإنشاء الأساطيل والسفن وكانت تلك الدار تستمد الخشب من أوديتها وجبالها ، كما كان بها معدن الحديد اللازم لتلك الصناعة وكان الزفت والقطران البالغا الجودة يجلبان إليها من أقاليمها كما يقول الإدريسى ، وكان بها من الصناعات طرائف كثيرة ، واشتهر ميناء دليس غربى بجاية بأن أكثر سكانه — كما يقول الحسن الوزان — من الصباغين لكثرة ما فيها من الينابيع والجداول ومثلها فى ذلك ضاحية تلمسان المسماة مدينة عباد . ويتوقف الحسن الوزان مرارا عند بعض المدن ليقول إن كثيرين — أو الكثرة — من سكانها صناع ، ويذكر عن صناع تلمسان أنهم يحيون حياة هادئة ممتعة ويتمتعون بأوقات لراحتهم ويلبسون ثيابا لائقة وقليل منهم الذين يضعون عمامة على الرأس ، فيستخدمون قلنسوة دون ثنيات ويلبسون أحذية تصعد حتى أواسط سيقانهم ، وكانت

تلمسان تشتهر بصناعة الجلد ، ويقول ابن سعيد الأندلسى : « منها تُحْمَل ألجم الخيل والسروج وما يتبع ذلك » مما يدل على ما كان بها من مصنع للحديد .

وكانت تنتشر فى أنحاء الجزائر المنسوجات الكتانية والصوفية والقطنية والحريرية ، واشتهرت بونة (عنابة) بمنسوجاتها الكتانية ، ويقول الحسن الوزان إن أكثر سكان وهران من الصناع والحاكة . ولما سكن الأندلسيون الغرناطيون فى هجرتهم الكبرى إلى الجزائر مدينة شرشال نهضوا فيها بصناعة الحرير إذ وجدوا بجوارها كمية لا تحصى من أشجار التوت الأبيض والأسود فربوا فيها دود القز ، واتسع إنتاجهم من المنسوجات الحريرية . ويذكر الحسن الوزان كثرة ما بمدينة قسنطينة من الأقمشة الصوفية المصنوعة محليا وكذلك الكتانية ، ويقول الحسن الوزان : فى مدينة ميلة عدد كبير من الصناع ولاسيما الذين يعملون فى نسج الأقمشة من الصوف التى تصنع منها أغطية الأسرَّة . ويطيل الحسن الوزان فى تلمسان من وصف أكسية الصوف والجلد والقطن ووصف المعاطف . وقد اشتهرت نساء المدن الجزائرية بصناعة التطريز على الأقمشة الحريرية والجلدية ، وتحتفظ المتاحف الجزائرية بمجموعات منها لا تزال أسلاكها الذهبية والحريرية والقطنية تومض كأنما وضعت عليها بالأمس .

ويكثر الحسن الوزان وغيره من المتحدثين عن المدن الجزائرية عن كثرة من بها من الصناع والحاكة ، وقلما يذكرون مايقومون به من الصناعات والحياكات ، ويذكر الوزان عن أهل مليانة أنهم جميعا من الصناع ومن الحاكة ومن الخراطين الذين يصنعون أوانى جميلة من الخشب . وكان أهل الجزائر يصنعون بجانبها أوانى جميلة من الخزف الملون والجص المجزَّع ، ولابد أن تفننوا طويلا فى صناعة الحلى إرضاء للمرأة ، وبالمثل فى صناعة أحذيتها وأحذية الرجال . وكانت معاصر الزيتون منتشرة فى بلدان كثيرة ، وكان الزيت لذلك يصدر بكثرة من الجزائر . ولابد أن صناعة الورق من الكتان كانت منتشرة وخاصة فى المدن الكبرى وفاء بحاجة العلماء والطلاب وبما انبثَّ فى الجزائر من نهضة علمية وأدبية واسعة .

ومنذ القرون الإسلامية الأولى تشاد فى الجزائر المنشآت العمرانية ، ولا يشاد بناء مفرد أو أبنية مفردة فحسب بل تشاد مدن بمساجدها وقصورها وفنادقها وحماماتها ومارستاناتها فقد بنى فيها الخليفة العبيدى المهدى سنة ٣١٣ مدينة المحمدية أو المسيلة . وبنى زيرى الصنهاجى والى الجزائر من قبل الخليفة العبيدى المنصور « أشير » إلى الشمال الشرقى من تاهرت ، وبنى ابنه بلكين مدينة الجزائر ومدينة مليانة جنوبى شرشال ومدينة المدية إلى الجنوب الشرقى منها ، وبنى حماد بن زيرى قلعة ضخمة شمالى المسيلة عاصمة لدولته وجدَّد الناصر الحمادى مدينة بجاية وأحضر لها العمال والمهندسين ومواد البناء واتخذها عاصمة للدولة . وكل حاكم منهم كان يعنى بإنشاء قصور كثيرة فى عاصمته على نحو ما نقرأ فى دولة بنى زيان ملوك تلمسان ،

وبخاصة فى تاريخ عبد الرحمن أبى تاشفين (٧١٨-٧٣٧هـ) فقد كان مولعا بتشييد القصور - كما يقول يحيى بن خلدون - مستظهرا على ذلك بآلاف عديدة من فعلة الأسارى الأجانب وغيرهم من نجارين وبناءين ومبلّطين للخزف وزوّاقين ، وشاد قصورا عدة : دار الملك ودار السرور وأبا فهر وغيرها والصهريج الأعظم الذى لا يزال موجودا - كما يقول الأستاذ محمود أبو عياد - غربى المدينة . وإذا كان بناء ثلاث قصور استلزم آلافا من العمال فما بالنا بمن بنوا مدنا بقصورها ومساجدها وكل منشآتها العمرانية . وكل هذه القصور والمدن استلزمت صناعات كثيرة من نجارة وحدادة ونقاشة وقدرة على استخدام الفسيفساء (الموزاييكو) فى الحيطان والسقوف والأروقة مع رسوم مختلفة من الرياحين والأزهار ، ونضرب مثلا لروعة العمارة فى مدن الجزائر بقول الحسن الوزان عن مدينة بجاية المبنية فوق سفح جبل شديد الارتفاع على ساحل البحر المتوسط إنها تمتد من حيث العرض على خاصرة الجبل امتدادا كبيرا خارقا للعادة ، وسائر بيوتها جميلة ، وهى مجهَّزة بالجوامع بشكل طيب وبالمدارس التى يكثر فيها الطلاب وكذلك أساتذة الشريعة والعلوم ، كما تحوى أيضا زوايا للمتعبدين المسلمين ، وحمامات وفنادق ومارستانات وكلها عمارات حسنة البنيان وأسواقها جميلة حسنة التنسيق ، وتقوم المدينة كلها على تلال صغيرة حتى إنه ليتعذر السير بضع خطوات بدون صعود أو نزول . وإلى جانب الجبل - أو جانبها - توجد قلعة كبيرة ذات جدران متينة ، وتزدان بالكثير من الفسيفساء وبالجص المجزّع وبالأخشاب المحفورة بالنقوش التى تعلوها رسومات عجيبة بلون أزرق سماوى ، حتى لتساوى هذه الأشغال الفنية من حيث القيمة أكثر من البنيان ذاته » . وإنما نقلنا هذا النص الطويل لندل بوضوح على ارتقاء صناعة المدن والقصور فى الجزائر وكيف أنه رافقها ارتقاء فى الحفر والنقش والزينة بالفسيفساء والرسومات العجيبة باللون الأزرق البهيج ، وقد خلبت بروعتها وحسنها لبَّ الحسن الوزان كما خلبه جمال البيوت وعمارتها وعمارة جميع المؤسسات وحتى الأسواق . وكل ذلك إنما نهض به فى بجاية وغيرها من مدن الجزائر أيد بالغة المهارة فى العمارة وكل ما يتصل بها من زخرف وزينة .

وهيَّأ هذا الإنتاج الصناعى الوافر وما سبقه من الإنتاج الزراعى القطر الجزائرى لأن تصبح موانيه أسواقا عالمية ، فكانت تصدر منتجاتها شمالا إلى الغرب وشرقا إلى تركيا والشام ومصر ، ومنذ عصر الفينيقيين كانت قوافلها تعبر فلوات الصحراء الكبرى إلى السودان الأوسط والغربى محملة بالسلع الجزائرية من المنسوجات على اختلاف أنواعها صوفية وكتانية وقطنية ومن النقل جوزا وغير جوز ومن الزيتون والزيت ومن السروج واللبود والمفاتيح وأقفال الحديد ، وتعود محملة بالعاج وريش النعام والتبر والجلود والرقيق السودانى . ونستطيع تصور الحركة التجارية ومدى نشاطها إذا رجعنا إلى ما كتبه الحسن الوزان وغيره عنها فى الموانى والمدن الكبرى ، فمن ذلك ما يقوله عن ميناء القالة ، وكانت تعرف باسم مرسى الخزر : « إن أهلها يقومون

بتجارة طيبة لأنهم يستمدون من جبلهم الكثير من الشمع ولديهم كمية كبيرة من الجلود ويقايضون هذه المنتجات بالسلع التي يجلبها الجنويون (تجار جنوة) الذين يترددون على مينائهم » . ويقول الوزان عن أهل بونة إنهم يبيعون كمية كبيرة من أقمشتهم الكتانية ، ويقول عن أهل سكيكدة إن سكانها يزاولون التجارة بكثرة مع الجنويين فيقدمون لهم القمح ويأخذون منهم بالمقابل أقمشة ومنتجات أوربية أخرى . ويذكر عن ميناء جيجل غربيُّها أنه يوجد به الكثير من شجر الجوز والتين وتنقل ثمار هذا الشجر إلى تونس . وكانت بجاية سوقا تجاريا كبرى ، وفيها يقول الإدريسي : « السفن إليها مقلعة ، ولها القوافل متجهة ، والأمتعة إليها برا وبحرا مجلوبة ، والبضائع بها نافقة ، وأهلها يجالسون تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء ، وبها تباع البضائع بالأموال المقنطرة » . ومن أجل هذه الحركة التجارية الواسعة فيها عقدت الدول البحرية الأوربية مع بجاية فى عصر الدولة الحمادية قديما معاهدات تجارية . ويقول الإدريسي عن ميناء تينس : « به فواكه وخصب وإقلاع وحطٌّ ، وبه الحنطة وسائر الحبوب تخرج منه إلى كل الآفاق فى المراكب » . وكان ميناء وهران سوقا كبيرة . ويقول الوزان : كانت وهران مقصد التجار القطالونيين (الإسبان) والجنويين (الطليان) ولا زال فيها - لعصره فى القرن العاشر الهجرى - بيت يُدْعى بيت الجنويين لأنهم كانوا يسكنون فيه . وكانت قسنطينة فى الداخل مركزا تجاريا كبيرا ، ويقول الوزان : « فيها عدد كبير من الباعة الذين يزاولون تجارة الأقمشة الصوفية المصنوعة محليا ، ويصدر بعض التجار الزيت والحرير وكذلك الأقمشة الكتانية ، ويباع كل ذلك بالمقايضة مقابل التمور والعبيد . ويجتمع أهل قسنطينة مرتين فى العام فى قافلة تجارية ، ونظرًا لكثرة تعرضهم لهجمات الأعراب يصطحبون معهم بعض رماة البنادق من الأتراك الذين ينالون أجرا طيبا على ذلك . ولا يدفع تجار قسنطينة رسم دخول إلى تونس (إذ كانت جزءا من مملكتها) ولكنهم يدفعون عند خروجهم من قسنطينة مقدار اثنين ونصف بالمئة من قيمة بضائعهم » . ويقول الحسن الوزان عن تجار تلمسان إن مَتجرهم إنما هو الرحلة إلى السودان وجلب منتجاته ، وبها كما يقول بضعة فنادق من بينها اثنان لسكنى التجار البنادقة والجنويين .

ولإتمام بيان وجوه المعيشة والكسب فى الجزائر كان كثير من سكان المدن الشمالية الساحلية يشغلون أنفسهم بصيد السمك والحيتان من البحر المتوسط ويقول الحسن الوزان عن أهل دليس إنهم يصيدون بالشباك الكثير منه وينطبق ذلك على أهل الموانى الشمالية جميعا . واشتهرت مدينة القالة المسماة قديما بمرسى الخزر بكثرة ما بساحلها من المرجان ، وهو شجر فى البحر لين أبيض اللون ، وإذا ضربه الهواء احمرَّ وصلب ، ويقول الحسن الوزان : ليس لأحد من أهل القالة الحق فى صيده أو التقاطه من الساحل حين تقذف به الأمواج إلى البر لأن سلطان تونس أعطى هذا الساحل بالتأجير إلى أهل جنوة الإيطاليين . وهو تصرف مخطىء لأن ذلك

من شأنه أن يطمع الجنويين أو غيرهم في احتلال ذلك الجزء من البلاد ثم في احتلال البلاد جميعها حين تحين الفرصة ، على نحو ما سوّل الشيطان ذلك لفرنسا بالأمس .

٣

الثراء(١) – الرفه – الموسيقى

(أ) الثراء

طبيعي أن أهلّت التجارة الواسعة في موانى الجزائر الساحلية أهلها ليكونوا أثرياء ، وكلٌّ ثراؤه حسب قدرته في التجارة وحسب نشاطه ، ونضرب مثلا لذلك مدينة القالة التي كان يتجر أهلها مع الجنويين في الشمع والجلود كما مر بنا ، ويقايضونهم عليهما بما يحملون من السلع ويقول الحسن الوزان : « لا يوجد على الساحل مدينة أكثر غنى من هذه المدينة ، فهي تربح من تجارتها مع الجنويين (تجارجنوة) ضعف قيمة ما تعطيه لهم ، ثم تبيع بالقطاعي في الجبال المجاورة لها البضائع التي جلبها الجنويون وتجنى من ذلك كسبا ضخما . ومثلها في هذا الاتجار والغنى بقية الموانى الشمالية ، ويعبر المؤرخون عن ذلك بعبارات كثيرة كأن يقول البكري عن بونة (عنابة) إنها كثيرة اللحم واللبن والعسل ويقول الوزان إن أهلها يبيعون كمية كبيرة من الأقمشة الكتانية وكل أراضيها ممتازة لزراعة القمح ويمتلك أهلها عددًا كبيرًا من الأبقار والثيران والأغنام ، وتنتج المواشي كمية ضخمة من السمن . وكل تلك مؤهلات كبيرة للثراء . ويقول الوزان عن أهل بجاية إنهم مياسير وعلى قدر كبير من الغنى ومرّ بنا أنها كانت مركزا تجاريا ضخمًا وأن السلع كانت تباع فيها بالأموال المقنطرة . ولم يكن أهل مدينة الجزائر يقلون ثراء عن أهل بجاية ، واتسع ثراؤهم في العهد العثماني اتساعًا كبيرًا ، وبالمثل أهل وهران . وينوه الوزان بثراء قسنطينة وكثير من المدن الداخلية ويقول عن تجار تلمسان إنهم أغنياء جدًا بما يملكون من عقار ومتاع ونقود وهم ذوو هندام جيد ، وينوّه – كما مر بنا – بالصناع وثيابهم اللائقة ، ويقول أفضل الناس كساء في تلمسان الأساتذة والقضاة والأئمة والموظفون لما كانوا يتقاضون من رواتب عالية ، ويذكر أن العساكر يتقاضون أجورا مرتفعة . ويذكر عن أهل ميزاب أنهم أغنياء لأنها كانت مركز التلاقي التجاري بين تجار مدينتي بجاية والجزائر وتجار بلاد السودان ، ويقول عن مدينة وَرْقلة (ورجلان) الداخلة في الصحراء

(١) انظر في الثراء المصادر السالفة في للعيشة وخاصة كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان ، ونفس المصادر تراجع في الرفه ويراجع معها كتاب بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد في وصف الكتانة أو الساعة ٢/٤٠ ونقلها عنه التنسي في تاريخ بني زيان ملوك تلمسان ونقلها عن التنسي المقري في نفح الطيب وأزهار الرياض . وراجع في الموسيقى وصف إفريقيا للحسن الوزان وكتاب الجزائر لأحمد توفيق المدني .

الكبرى إن أهلها من كبار الأغنياء لأنها مركز تجارى يتبادل فيه تجار البربر من قسنطينة وتونس منتجات بلادهم بالسلع التى جلبها تجار بلاد السودان .

وزاد فى ثراء سكان المدن الشمالية الساحلية – على مر العصور – تحول بعضها إلى ما يشبه قاعدة للقرصنة فى البحر المتوسط ، ونقرأ أخبار هذه القرصنة منذ أيام الدولة الحمادية ، فقد كان من قراصنة الجزائر من يتخذ بونة (عنابة) فى عهدهم مركزًا ينطلق منه للقرصنة ، ومثلها بجاية عاصمة الحماديين وظل ذلك دأب أهلها طويلا ، ويقول الحسن الوزان : «كان أهل بجاية على قدر كبير من الغنى ، فكانوا يسلحون مراكب وسفنا حربية ويرسلونها لغزو إسبانيا ولجلب غنائم البحر من السلع والرقيق رجالا ونساء» وكثير منهم كانوا يسلمون ويصبح لهم ما للمسلمين من الحقوق ، واتسعت هذه القرصنة فى الموانى الشمالية حين استقر بها الغرناطيون والأندلسيون فى هجرتهم الكبرى أواخر القرن التاسع الهجرى وكان يحفزهم عليها محاولتهم الانتقام من نصارى إسبانيا الذين أخرجوهم من ديارهم ومواطنهم فى الأندلس ، ولم يلبث أن ظهر خير الدين (بربروس) وعروج القائدان التركيان البحريان العظيمان واستوليا على الجزائر ، وأخذ خير الدين يطرد الإسبان من الموانى التى كانوا قد استولوا عليها واستطاع خلال عشرين عاما أن يطهر الساحل الجزائرى منهم واستدار بالبحارة الترك ومن انضم إليهم من المهاجرين الأندلسيين يتوغل فى البحر المتوسط ، وظل ذلك طوال هذا العصر حتى العقد الثانى من القرن التاسع عشر ، وظلت بجاية والجزائر ووهران تستقبل جميعا غنائم البحر من السلع والرقيق وبالمثل غنائم ميورقة ومنورقة والساحل الإسبانى . ولكى يتضح لنا مدى هذه الغنائم ينبغى أن نعرف أنه كان يُجْلَبُ أحيانا فى الغزوة البحرية الواحدة مئات من رقيق النصارى رجالا ونساء سوى ما كان يجلب من الغنائم ، وكان ذلك مصدر ثروة واسعة لقراصنة الساحل الجزائرى من جهة وللدولة نفسها من جهة ثانية ، مع ما كانت تموج به الجزائر من طيبات الرزق فى الزراعة والصناعات اليدوية والتجارة الواسعة .

(ب) الرَّفه

معروف أن الغنى الواسع يجر إلى الرَّفه ورغد العيش ، ولم يكن هذا الغنى أو الثراء خاصا بفرد أو أفراد قليلين فى المدن الجزائرية ، بل كثيرا ما كان يشمل كل أفراد المدينة فالجميع فى يسار وبُلَهنية وسعة من العيش تتيح لسكان المدينة رفاهية واسعة ، ومن خير المدن التى تصور ذلك مدينة نِقاوس ، وفيها يقول الحسن الوزان : « مدينة رومانية على مسافة نحو ثلاثين ميلا من مدينة المسيلة ، وسكانها أغنياء شرفاء كرماء ويلبسون ثيابا لائقة مثل سكان بجاية ، وبالبلدة بيت معد لسكنى الغرباء وفيها مدرسة للطلاب الذين جرت العادة أن يعفوا من نفقات الكساء والغذاء ، كما أن فيها جامعا جميلا فسيحًا جدا ومجهزا بكل ما تمسُّ الحاجة إليه ،

والنساء هنا جميلات ، لون بشرتهنّ أبيض ، وشعورهن فاحمة ولامعة ، لأنهن يكثرن من التردد على الحمامات ويعتنين بأنفسهن كثيرا ، وبيوتها جميعا من طابق أرضى واحد ، ومع ذلك أنيقة جدا وبهيجة المنظر ، لأن لكل بيت منها حديقة مليئة بالزهور المتنوعة لاسيما من الورود والرَّيحان والبنفسج والقرنفل وأزهار أخرى لا تقل عنها بهاء ، ولجميع البيوت عيون ماء تُسْقَى منها . وعلى الجانب الآخر من الحديقة تكعيبة بديعة تعطى فى الصيف ظلاًّ ظليلا ومنعشا . ولذلك فإن من ينزل فى نقاوس يود لو يبقى فيا حينا طويلا من الدهر ويأسف لاضطراره إلى مغادرتها لما لقيه من أهلها المضيافين من حفاوة وترحاب » . ونقاوس لم تكن ميناء تتوسط حقول عناب مثل بونة مثلا ولا كانت تتلقى غنائم البحر مثل بونة وموانى الساحل الشمالى ، إنما هى مدينة عادية فى البقاع الداخلية تعيش على ماتنتجه سهولها من قمح ومزارعها من تين وجوز ، مثلها فى ذلك مثل بلدان عادية كثيرة فى الجزائر ، ومع ذلك فيها دار ضيافة لإكرام الغرباء ومدرسة مجانية تكفل لطلابها الكساء والغذاء وجامع فسيح جميل مجهز بكل متطلباته ونساء جميلات ، والبيوت جميعا من طابق أرضى واحد ، فليس بينها قصر أوقصور ، بل الجميع سواء فى المسكن والمعيشة ، ولكل بيت حديقته المكتظة بالأزهار العطرة وتكعيبته التى تتيح لساكنيه فى الصيف ظلا ظليلا منعشا . ولكأن الحسن الوزان يصف فردوسًا من فراديس الجنان امتلأ برفاهية لا حدّ لها ولا نهاية ، وإنه لآسف أشد الأسف لمبارحته لها . وتلك كانت مدن الجزائر وقراها قبل أن يحتلها الفرنسيون ، وبون بعيد بين نقاوس الأمس ونقاوس أيام الفرنسيين ومانزل عليها من بلاء حين وطئتها هى وأمثالها أقدام المحتلين الباغين . وبدون ريب كانت مدن — أوعلى الأقل بعض المدن وخاصة الساحلية بل أيضًا الداخلية يغمرها مثل هذا الرفه الرائع . ويتوقف الحسن الوزان مرارا أمام بعض المدن التى بهرته مبانيها ليقول إنها بديعة ، ومن قوله عن بجاية : « سائر بيوتها جميلة » ويذكر جوامعها ومدارسها وحماماتها وفنادقها ومارستاناتها ويقول : « كلها عمارات حسنة البنيان » ويقول عن وهران : إنها مجهزة بكل العمارات والمؤسسات التى تميز مدينة حضرية كالجوامع والمدارس والمارستانات والحمامات والفنادق . ويفيض فى الحديث عن رفه أهل تلمسان ، ومما يذكره بها خمس مدارس بديعة حسنة البنيان جدا ومزدانة بالبلاط الملون وسواه من الأعمال الفنية » . ومرّ بنا ماذكره من أن سكانها يقضون الصيف فى كور بديعة لهم فيها منازل غاية فى الأناقة ومن حولها بساتين فاخرة تنتج كرزا وأعنابا من كل الألوان ودرّاقا وجوزا ولوزا وثمارا مختلفة ، وينوه بملابس أهلها من صناع وغير صناع ومن أساتذة مدرسين وقضاة ، ويتسع فى الحديث عن البلاط الملكى بها وموظفى الدولة ورئيس التشريعات ، وكأننا بإزاء عاصمة دولة حديثة متحضرة غاية التحضر ناعمة بغير قليل من الرفاهية .

ويدل أبلغ الدلالة على ما نعمت به تلمسان من رفه أيام دولة بنى زيان ما نفذ إليه عالم

رياضي عظيم بها يسمى أبا الحسن علي بن أحمد الملقب بابن الفحام من صنع منكانة أو ساعة كانت دقاقة ، وقد وضعها في خزانة كبرى ذات تماثيل فضية محكمة الصنع ، وبأعلاها أيكة — أو شجرة ملتفة — تحمل طائرا فرخاه تحت جناحيه ويخاتله فيهما ثعبان نافذ من كوّة بجذر الأيكة يحاول الصعود ينتظر غفلته ، وبصدر الخزانة أبواب موصدة بعدد ساعات الليل الزمانية — إذ كانت توضع في الاحتفال الكبير بليلة المولد النبوي زمن أبي حمو موسى الثاني (٧٦٠هـ/١٣٥٩م -٧٩١هـ/١٣٨٩م) — ويصاقب (يجاور) طرفي هذه الأبواب بابان مغلقان أطول من الأبواب الأولى وأعرض ، وفوقها جميعا دون رأس الخزانة قمر مكتمل يسير على خط استواء سير نظيره في الفلك ويسامت (يوازي) أول كل ساعة بابها المُرْتج (المغلق) فينقضُّ من البابين الكبيرين عُقابان بظفري كل واحد منهما صنجة من الصُّفْر يلقيها إلى طست مجوف من النحاس بوسطه ثقب يفضي بها إلى داخل الخزانة فيرنّ وينقضُّ الثعبان على أحد الفرخين فيَصفِر له أبوه ، وهنالك يفتح باب الساعة الراهنة (الحالية) وتبرز منه دمية على هيئة جارية بخصرها حزام كأظرف ما أنت راء ، بيمناها صحيفة فيها رقم ساعتها (العاشرة مثلا) منظوما ، ويسراها موضوعة على فمها ، وكأنها تعلن عن الساعة على استحياء . ومن يزور مدينة بيرن عاصمة سويسرا سيأخذه مرافقه السويسري قبيل الساعة الثانية عشرة إلى مشهد ساعة كبيرة مثبتة على برج شاهق وفي الجزء العلوي منها مهرج يدق جرسين قبيل دق الساعة لجرسها معلنة الثانية عشرة ، وفي الحال يصيح ديك على اليسار ويحرك أحد جناحيه ، ويواجهه تمثال أسد مايزال يحرك رأسه وتمثال عمدة يحرك عصاه وتدور مجموعة من الدببة ، وفي الساعة الثانية عشرة تمامًا تدق الساعة ويصيح الديك ويحرك أحد جناحيه كأنه يهم بالطيران . وهذه الساعة السويسرية التي يفتخر السويسريون باختراع أحد مواطنيهم لها سنة ١٥٣٠ للميلاد ليست أروع ولا أبدع من ساعة ابن الفحام التي اخترعها قبلها بقرن ونصف مما يدل على ذكائه الوقاد من جهة وعلى ما أصابه الجزائريون في تلمسان من رفه من جهة ثانية .

(جـ) الموسيقى

ليس بين أيدينا أخبار عن تعلق أهل الجزائر بالموسيقى والغناء في الحقب الأولى من هذا العصر ، وإذا رجعنا إلى كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان وجدناه يصف أهل بجاية بأنهم « ميالون إلى المرح وإلى الموسيقى والرقص ولاسيما الأمراء » . ويقول عن سكان ميناء دلس الواقعة غربي مدينة بجاية إنهم « لطفاء ويحيون حياة مرحة ويجيدون كلهم تقريبا الضرب على العود وعلى القانون » . ولم يصور لنا الوزان حياة المرح ومختلف وسائله عند أهل بجاية كما لم يصور رقصهم وأوقاته ، ومع أنه ذكر آلتي العود والقانون الموسيقيتين اللتين كان يضرب عليهما جميع أهل دلس لم يذكر هل كانوا يصحبون هذا الضرب بتلاحين لأشعار ينشدونها أو يغنونها دائما أو في بعض الأحوال .

وأكبر الظن أن الجزائر ظلت طويلا تعتمد على موسيقاها والضرب على العود والقانون على ألحان بسيطة ، حتى إذا كانت هجرة الغرناطيين الكبرى إليها بعد سقوط عاصمتهم غرناطة فى أيدى فردناند وإيزابيلا نقلوا معهم إلى مدنهم التى استوطنوها وخاصة على الساحل الشمالى موسيقاهم الأندلسية ، ولا نعرف إلى أى حد امتزجت هذه الموسيقى بموسيقى الجزائر المحلية ، وكانت الموسيقى الأندلسية موسيقى راقية ذات قواعد وقوانين فى تلاحينها وذات رُقُم مضبوطة (أى نُوَت جمع نوتة) وكانت تصحبها أغان أندلسية بهيجة أو شجية من الغزل وغير الغزل . ولم تلبث الموسيقى التركية أن انتقلت بدورها إلى الجزائر فى العهد العثمانى عن طريق الطاقم الموسيقى العسكرى الذى كان يلازم الوالى وما يحمل من آلات النفخ والدق . وأخذت تتسع معرفة الجزائريين بالموسيقى التركية وآلاتها وقواعدها فى التنغيم والتلحين . وهذه الموسيقى التركية وأختها الأندلسية التحمتا بما كان فى الجزائر من موسيقى أولية ، وتألفت من ذلك كله منذ القرن الحادى عشر الهجرى الموسيقى الجزائرية بطوابعها وخصائصها الموسيقية ، وقد أدخل الجزائريون في ديوان موسيقاهم مصطلح البشرف وهى كلمة تركية معناها الافتتاحية ولا ينشد معها أو يغنى كلام ثم تتوالى الأدوار فى الموسيقى ، وكل دور يسمى نوبة ، ولكل نوبة اسمها الخاص وتلاحينها . وتعتمد الموسيقى الجزائرية على الآلات الموسيقية التالية : الناى والعود والرباب والقانون والكمنجة والطبل والدربكة والطار والمزمار .

وبجانب هذه الموسيقى الجزائرية التى كانت تشيع بين الحضر فى المدن الجزائرية كان للبدو من الأعراب أغانيهم البدوية التى توارثوا طرائق التغنى بها وإنشاءها من آبائهم فى الجزيرة العربية، وقد أخذوا يستعيدون تلك الطرائق فى هضاب الجزائر ومراعيها الواسعة التى كانوا يتنقلون فيها، وأخذها عنهم جيرانهم من البربر المتبدين مثلهم، وكانوا ينشدونها مع طبل وزمر أحيانًا فى أسمارهم وحفلات اعراسهم وأفراحهم واستقبالاتهم للحجاج بلهجاتهم البدوية الدارجة.

٤

الدين — المالكية والحنفية — الإباضية — المعتزلة

(أ) الدين(١)

كان البربر فى القطر الجزائرى — مثل إخوانهم من البربر فى الأقطار المغربية — وثنيين

(١) راجع فى الدين قديما الجزء السادس من تاريخ ابن خلدون ووصف إفريقيا للحسن الوزان وفى اليهود والنصارى تاريخ الجزائر فى القديم والحديث لمبارك الميلى وكتاب الجزائر لأحمد توفيق المدنى وفى علاقة الناصر بن علناس الحمادى بالبابا جريجوار السابع كتاب دولة بنى حماد لإسماعيل العربى وفى نشاط القرصنة وصف إفريقيا لدابرDapper وكلمة الجزائر فى دائرة المعارف الإسلامية وفى اعتناق البربر للإسلام وتحولهم إلى شعب عربى مسلم مواضع مختلفة فى كتاب البيان المغرب لابن عذارى وغيره من كتب التاريخ السابقة .

يعبدون الشمس والقمر والكواكب السيارة ويقيمون لها المعابد ويقدمون إليها القرابين ويوقدون لها النار لحراستها ويقدسون كثيرا من الأحجار . ونزل بديارهم الفينيقيون وكانوا مثلهم وثنيين وكذلك القرطاجيون . وأخذ اليهود يهاجرون إلى بلدان الجزائر بعد استيلاء الملك الكلدانى بختنصر على بيت المقدس ، ولهم هجرة إليها ثانية حين هدم الإمبراطور تيتوس هيكلهم ببيت المقدس سنة ٧٠ للميلاد . وحاول يهود الهجرة الأولى والثانية أن ينشروا دينهم اليهودى بين البربر ، واستجاب لهم بربر مختلفون فى جبال الأوراس ، وما زالت توجد آثار للقبائل البربرية التى اعتنقت اليهودية وتمسكت بها إلى اليوم . وفى ذلك ما يفسر وجود بعض اليهود البدو الذين يلبسون ملابس البربر المسلمين ويعيشون معيشتهم . ولهم هجرة ثالثة إلى الجزائر وغيرها من البلاد المغربية ، حين أنزل الإسبان بهم بعد سقوط غرناطة أهوالاً من العذاب وأوصدت أوربا أبوابها دونهم فلم يجدوا لهم ملاذا سوى الجزائر وشقيقاتها العربيات المسلمات وعاملوهم معاملة الإسلام السمحة ولم يشعروهم أنهم عنصر غير مرغوب فيه ، بل فسحوا لهم فى المعيشة وكانوا يعدون بالآلاف فى قسنطينة والجزائر وغيرهما من المدن الكبرى مثل تلمسان ، ويقول الحسن الوزان : كان بها خمسمائة بيت من اليهود ، ومازالت المدن الجزائرية تفسح لهم فى المعيشة بها ، حتى إذا كانوا فى أواخر هذا العصر احتكروا التجارة والأعمال المالية وثار الشعب الجزائرى فخففوا قليلا من وطأة احتكارهم وسرعان ما استعادوا احتكارهم ونفوذهم المالى على نحو ما عرضنا ذلك فى الفصل الماضى .

وأخذت المسيحية تنتشر فى الجزائر منذ القرن الثانى للميلاد ، وأخذ انتشارها يتسع منذ عهد الإمبراطور قسطنطين واستيلائه فى روما على صولجان الحكم سنة ٣١٢ للميلاد إذ أعلن المسيحية دينًا رسميا للدولة وأخذ يعمل على نشرها فى إفريقيا والبلاد التابعة لروما ، وتكاثرت الأسقفيات والكنائس فى المدن الساحلية وفى الداخل فقد كان لهم أسقفية فى بونة (عنابة) وكان القديس أوغسطين أسقفها وكانت فى قسنطينة أسقفية ثانية وكذلك فى باغاية ، وكانت هى وأمثالها تتبع كنيسة روما . ويظن أن المسيحية سقط منها بعض التأثير إلى القبائل الرحل فى الجنوب إذ توجد بعض كلمات فى لغة الطوارق ترجع إلى أصل مسيحى مثل اسم ميسى ومعناه عندهم إله وأنجلوس ومعناه عندهم ملاك . ولكن من المؤكد أن البربر ظلوا — قبل الإسلام — لا يقبلون على المسيحية لصعوبة تصورهم لعقيدة التثليث المسيحية المعقدة ولأن حملتها من الرومان كانوا يذيقونهم قهرا وبطشا شديدا ، فظلوا منصرفين عنها ، ومن اعتنقها منهم ظل يعتنقها اعتناقا ظاهريا دون أن تحتل قلبه وفؤاده ، وظل يشعر أنها ديانة رومانية أوربية غريبة عليه . ومع ذلك فإن الجاليات والأسر والحاميات الرومانية ومن تنصَّر من القرطاجيين كانوا كثيرين مما أتاح لتأسيس بعض الأسقفيات والكنائس وبدون ريب حاول بعض القساوسة الدعوة للمسيحية جاهدين فى أرجاء البلاد حتى صحاريها . وبعد الفتح العربى أخذ كثيرون من

اعتنقوها يعتنقون الدين الحنيف ، وأقبلت عليه جموع البربر وجماهيرها ، لبساطته ولتحريره الشعوب من كل عبودية واسترقاق وظلم مع محوه لجميع الفوارق الطبقية والاجتماعية بين رعيته فهم جميعا سواء فى الحقوق والواجبات ، وهذا هو التفسير الصحيح لقضاء الإسلام على المسيحية فى االقطر الجزائرى وغيره من الأقطار المغربية ، مع ملاحظة أن العرب عاملوا من ظلوا على مسيحيتهم من الروم وغيرهم معاملة سمحة كما يقضى بذلك دينهم وجعلوا لهم حقا مفروضا إقامتهم لشعائر دينهم المسيحى وتجديد كنائسهم ولم يمسوا أى مس حريتهم الدينية . وظل ذلك لا فى القرون الأولى بعد الفتح فحسب ، بل أيضا فى جميع القرون ، حتى لنجد الناصر بن علناس أمير دولة بنى حماد فى بجاية والقلعة يرسل – كما أشرنا إلى ذلك فى الفصل الماضى – خطابا رقيقا إلى البابا جريجوار السابع الذى تولى البابوية بين سنتى ١٠٧٣ و ١٠٨٥ خطابا رقيقا يطلب إليه فيه تكريس القديس سرفاند أسقفا على أبرشية بونة (عنابة) وأرسل إليه معه بهدايا نفيسة ، وأهم من ذلك أنه افتدى جميع الأسرى المسيحيين الذين جلبهم القراصنة إلى مملكته وأرسل بهم إليه . وكان لذلك أجمل وقع فى نفس البابا وكبار رجال الكنيسة فى روما ، وأرسل إليه مع الأسقف الجديد لبونة برسالة تفيض بشكره وشكر القسيسين وأشراف روما لهذا العمل النبيل محييا عقيدة المسلمين التى تشترك مع عقيدة المسيحيين – كما يقول – فى الاعتقاد بإله واحد خالد . وإنما سقت ذلك لأدل على مدى المعاملة الطيبة للمسيحيين فى الجزائر ، وكانت لهم فى مدنها الكبيرة بعض الأحياء ، كما كان لهم – مثل اليهود – مقابر خاصة . ومرَّ بنا أن القرصنة اتسعت منذ القرن العاشر إلى نهاية هذا العصر ، مما أدّى إلى وفود آلاف من الأسرى المسيحيين على الجزائر من مختلف مناطق البحر المتوسط (إسبان وفرنسيين وإيطاليين وكريتيين وصقليين ويونان) وكانوا يعدون رقيقا فى خدمة الدولة أو فى خدمة بعض الأعيان ، وكانوا يزاولون الزراعة وحرف الصناعة والبناء ويزعم دابر Dapper فى وصف إفريقية أنه كان بمدينة الجزائر ستة آلاف أسرة من هؤلاء المسيحيين الأسرى ممن جلبهم القراصنة ، وكان كثيرون من هذا الرقيق المسيحى الأسير يسلمون وتُرَدّ إليهم حرياتهم ويكونون أسَرًا ما زال بعضها يحمل اسم بلدهم الأصلى ، وعمل بعضهم فى الدولة وارتقى إلى المناصب الرفيعة .

ومنذ فتح المسلمون المغرب الأوسط أو إقليم الجزائر ، والبربر يسارعون إلى الدين الحنيف واعتناقه ، ويبدو ذلك واضحا فى عهد أبى المهاجر دينار (٥٥ هـ/٦٧٤م – ٦٢ هـ/٦٨١ م) إذ يرجع إليه الفضل فى فتح جميع الجزائر ونشر الدين الحنيف فيها وكانت قد فتحت بعض أرجائها وأخذ أهلها يتعرفون على الإسلام ويدخلون فيه ، فأتم ذلك كله ، متخذا له جيشًا جرارًا من العرب والبربر المسلمين . وسمع أن الروم وبعض البربر يتجمعون لحربه فى مدينة ميلة إلى الجنوب الشرقى من بجاية ، فنازلهم واحتل البلدة واتخذها مركزًا لأعماله الحربية وظل

فيها عامين ، تخرج فيهما سراياه للفتح بعد الفتح . وكانت الزعامة فى الجزائر حينئذ لقبيلة أوربة البرنسية ورئيسها أو زعيمها كسيلة وكان نصرانيا وأخذ يستعد استعدادًا واسعًا للقاء أبى المهاجر ، ولقيه بجيش كثيف من الروم والبربر بالقرب من تلمسان ودارت عليه وعلى جيشه – كما مرَّ بنا فى الفصل الماضى –الدوائر ، ووقع أسيرًا فعامله أبو المهاجر معاملة سمحة ، جعلته يدخل – وتدخل معه قبيلته أوربة – فى الدين الحنيف . وخلف أبا المهاجر فى ولاية القيروان والبلاد المغربية عقبة بن نافع سنة ٦٢ هـ/٦٨٣م فرأى أن يقتحم الجزائر والمغرب الأقصى جميعا ، وأعدَّ جيشًا ضخمًا أخذ يهزم به البربر ومن اجتمع إليه من الروم حتى أوطأ حافر حصانه مياه الأطلسى . ومنذ هذا التاريخ أصبحت البلاد المغربية جميعها من أدناها إلى أقصاها بلادا إسلامية . غير أن عقبة كان قد عامل كسيلة الأوربى معاملة أغضبته وصمم على الانتقام ، حتى إذا كان عائدا بالجيش فى المغرب الأوسط وتخلف عنه مع فرقة صغيرة بالقرب من طبنة هجم عليه كسيلة مع جنود من الروم والبربر كان قد أعدهم لمثل هذه الفرصة ، واستشهد البطل العظيم عقبة . وانتقم له خليفته زهير بن قيس فنازل كسيلة فى موقعة ضارية خرَّ صريعا فيها وتفرَّق من معه فى البلاد والجبال . وعاد زهير فتولَّى البلاد المغربية بعده حسان بن النعمان فرأى أن يفتتح قرطاجة التى كان ينزل فيها الروم ويحاولون الاتصال بالبربر للحرب والإفساد ، وفر كثير من الروم إلى البحر ومن بقى منهم فُرضت عليه الجزية . وكانت كاهنة بربرية تتزعم البربر فى جبال أوراس بالجزائر قد أعلنت الحرب على حسان والعرب ، ولقيها حسان ولم يكتب له النصر فانسحب انتظارا لمدد يأتيه من الخليفة عبد الملك بن مروان وأتاه المدد سنة ٨١ هـ/٧٠٠م فنازلها وسحق جيشها سحقًا ذريعًا وأمَّن من بقى منه وأمَّن سكان أوراس فى الجزائر جميعا وولَّى أكبر أبناء الكاهنة على قبيلته جراوة وجبل أوراس ، واتخذ من قومه كتيبة فى جيشه عدادها اثنا عشر ألفا . ومن حينئذ أصبحت الجزائر عربية إسلامية تعتنق الدين الحنيف وتجاهد فى سبيله عن إيمان وإخلاص . ويخلف حسانا على القيروان والبلاد المغربية موسى بن نصير سنة ٨٦ هـ/٧٠٥م فيمكن لهذا الامتزاج التام بين العرب والبربر فى الجيش وحكم المدن وفى جميع الحقوق والواجبات ، ويعمل بكل ما استطاع على نشر الدين الحنيف بين البربر ، ويتوِّج ذلك بالبعثة التى أرسلها الخليفة عمر بن عبد العزيز لنشر الدين الحنيف وتعاليمه فى البلاد المغربية .

وبذلك أصبحت الجزائر – مثل بقية البلاد المغربية – عربية إسلامية ، وحقا ولى على البلاد المغربية منذ أوائل القرن الثانى الهجرى ولاة أمويون باغون أساءوا حكم البربر سوءا شديدًا فلم يسوُّوا بينهم وبين العرب فى الحقوق وظلموهم فى الخراج والضرائب ظلمًا شديدًا ، وعرفوا دعوة الخوارج وما يدعون إليه من المساواة التامة بين جميع المسلمين عربا وغير عرب فى كل الحقوق حتى فى ولاية الأمة وخلافتها أو إمامتها ، فليس من الحتم أن يكون الخليفة قرشيا بل

يتولى الخلافة أكفأ المسلمين ولو كان عبدًا جشيا ، وسارع إليهم دعاة مذهبى الإباضية والصفرية ، وكان المذهب الأول معتدلا وقريبا من مذاهب أهل السنة ، وتبع دعاته جبل نفوسة فى طرابلس واستطاعوا أن يكونوا لهم دولة فى تاهرت ، وبذلك كثر أتباع هذه الفرقة الخارجية وسنخصها فيما يلى بحديث مستقل ، أما فرقة الصفرية فكانت فرقة متشددة غاية التشدد وكانت تستبيح دماء المسلمين ، وتأسست فى سجلماسة والمغرب الأقصى ، فلم يتبعها جزائريون إلا ما كان يحدث أحيانا من مرور جيوشها بأراضى الجزائر فى ذهابها لحرب ولاة المغرب أو لحرب الدولة العبيدية ، فكان ينضم إليها بعض الجزائريين . وبقاع محدودة فى الجزائر هى التى شاعت فيها الدعوة الإباضية ، ومعنى ذلك أن الجمهور فى الجزائر ظل سنيا وظلت الجزائر دارا كبيرة للمذاهب السنية .

(ب) المالكية[1] والحنفية

ظل شرقى الجزائر طويلا جزءا لا يتجزأ من ولاية القيروان ، وكانت قد سبقت – كما مرَّ فى القسم الخاص بالإقليم التونسى – إلى الاعتماد فى الفقه على مذهب مالك ، وفتحت أبوابها للمذهب الحنفى وخاصة فى عهد الأغالبة الذين تابعوا بغداد فى اتخاذ القضاة غالبا من بين فقهاء الأحناف حتى نهاية القرن الثالث الهجرى ، إذ خيمّت – حينئذ – العقيدة الشيعية على الإقليمين الجزائرى والتونسى ، وكادت تتوقف فيهما دراسة الفقه السنى المالكى والحنفى حتى إذا فارقوا المهدية إلى القاهرة فى أواخر العقد السادس من القرن الرابع عادت إلى الفقهاء السنيين حريتهم ، وأخذوا يعنون بدراسة الفقه المالكى ، وتولى المعز بن باديس شئون القيروان وشرقى الجزائر سنة ٤٠٦ واشتد فى عهده تذمر أهل القيروان من ذكر الخطباء على المنابر أسماء الخلفاء العبيديين والدعاء لهم فى خطب الجمعة ، وبلغ بهم الأمر أن قطعوا صلاة الجمعة احتجاجًا على الدعوة والدعاء لهم فيها ، ويقول ابن عذارى إن بعضهم كان إذا بلغ إلى المسجد قال سرا : اللهم اشهد ، اللهم اشهد ، وانصرف ، فصلى الظهر . وانتهى الحال إلى تعطيل الجمعة فى القيروان زمنا ، وأخذت تقوم مشادات عنيفة بين أنصار السنة وأنصار الدعوة العبيدية الشيعية منذ سنة ٤٠٧ هـ/١٠١٦م وفى نفس هذه السنة قتلت العامة من أنصار العبيديين خلقا كثيرا رجالا ونساء ونهبوا دور قوم منهم وأموالهم . ومن حين إلى حين كانت تثور بهم العامة فى القيروان وأيضا فى المهدية عاصمة العبيديين ومدينتهم المنصورية حتى إذا كانت

(١) انظر فى المالكية الجزائريين كتاب رياض النفوس للمالكى والديباج المذهب لابن فرحون وفى المالكية المصريين الكبار المذكورين كتاب حسن المحاضرة للسيوطى وراجع فى قرار المعز بن باديس بقطع الدعوة العبيدية وحمل أهل المغرب على مذهب مالك البيان المغرب لابن عذارى والجزء السادس من تاريخ ابن خلدون وانظر فى تعليله لاتباع أهل المغرب مذهب مالك مقدمته فى الحديث عن علم الفقه وراجع المذهب الحنفى فى العهد العثمانى بالجزء الأول من كتاب تاريخ الجزائر الثقافى فى العهد العثمانى لأبى القاسم سعد الله .

تقصر الفتوى والقضاء على فقهاء المذهب الحنفى ، وكان كبير المفتين أو أصحاب الفتوى عندهم يلقب بلقب شيخ الإسلام وما إن استقر الحكم العثمانى حتى أشرك الولاة العثمانيون مع القاضى المالكى قاضيا حنفيا ، وكان يأتى فى أول العهد من إستانبول . وكان حكم القاضى المالكى لا يصبح نافذا إلا إذا وقّع عليه القاضى الحنفى ، وتبعت هذا القضاء الحنفى مدارس تعنى بالفقه الحنفى ، وأخذت تنشأ فئة كبيرة من فقهائه ومدرسيه ، وبعد أن كان القاضى الحنفى يأتى فى صدر العهد العثمانى من إستانبول أخذ أولو الأمر يعينون القضاة من أسر حنفية توارثت المذهب فى الجزائر .

(جـ) الإباضية[1] والصفرية

الإباضية – قديما – من فرق الخوارج الذين أنكروا التحكيم الذى ارتضاه على بن أبى طالب فى الحرب الدائرة بينه وبين معاوية فى صفين ، وقالوا إن الخلافة – أو إمامة المسلمين – لا يصح أن تقصر على قريش ، إذ ليست حقا لها ، بل هى حق لله ، وينبغى أن يتولاها خير المسلمين تقوى وإقامة للعدل ولو لم يكن قرشيا بل لو كان عبدًا حبشيا ، وحاربهم على بن أبى طالب وهزمهم ، وظلوا بعده يقاومون الخلافة الأموية ثم الخلافة العباسية ، وانقسموا فرقا كان من أكثرهم غلوا فرقتا الصفرية والأزارقة الذين عدُّوا دار المسلمين دار حرب ينبغى حربهم وجهادهم ماداموا يستسلمون لحكام الأمويين والعباسيين القرشيين الجائرين ، وتبع فرقة الصفرية كثيرون فى سجلماسة والمغرب الأقصى وحملوا السلاح ضد حكامهم من العرب وخاضوا معهم حربا طاحنة ، وكانت جيوشهم تمر أحيانا بالجزائر قاصدة القيروان مقر الحاكم الأموى والعباسى ومن بعدهما الحاكم العبيدى لحربه ، وكان يتبعهم بعض العامة من الجزائر ، ولكن جماهير الجزائر ظلت بعيدة عن اعتناق هذه العقيدة الخارجية الغالية .

وإذا كانت الجزائر لم تعتنق العقيدة الصفرية فإن جماعات فيها اعتنقت العقيدة الإباضية ، وتأسست لها دولة فى مدينة تاهرت ، حتى إذا قضى عليها أبو عبيدالله الشيعى داعية المهدى العبيدى انسحب منها الإباضيون إلى باغاية وورقلة ، ثم تجمعوا فى غرداية وقرى ميزاب ، ولايزالون إلى اليوم فى كل هذه الأنحاء . وفرقة الإباضية لم تكن تغلو – من قديم – غلو فرقة الصفرية ، فهى لا تعدّ دار المسلمين دار حرب ولا تحمل السلاح لقتالهم وسفك دمائهم مثل الصفرية ، إلا أن يضطروها إلى ذلك ، وهى لا تعد – مثل الصفرية والأزارقة – مرتكب الكبيرة كافر ملة يجب قتله ، إنما هو كافر نعمة فلا ينبغى قتله ، وهم يتوارثون مع إخوانهم السنيين

---

(١) انظر فى الإباضية والصفرية كتاب الملل والنحل للشهرستانى وراجع فى الإباضية السير للشماخى والأزهار الرياضية لسليمان الباروني وكتاب الجزائر لأحمد توفيق المدنى والجزء الثانى من تايخ المغرب الكبير لدبوز .

سنة ٤٣٥ هـ/١٠٤٣م ثارت بهم العامة ثورة دامية سفك فيها كثير من الدماء في الحواضر والبوادي ، ولم يتمكن المعز من إيقافها ، فرأى نزولا على إرادة شعبه نبذ الدعوة العبيدية أو الفاطمية علانيةً وخلع طاعة خلفائها في القاهرة ، وأمر بأن يحمل جميع أهل المغرب على اتباع مذهب الإمام مالك سنة ٤٣٨ هـ/١٠٤٦م وقيل بل في السنة التالية ، وأمر أن يخطب على المنابر باسم الخليفة العباسي القائم بأمر الله وجاءه منه تقليد يعترف له فيه باستقلاله . ومن حينئذ أصبح مذهب مالك هو المذهب الفقهي السني الذي تتبعه البلدان المغربية وجماهيرها لا في الإقليم التونسي وشرقي الجزائر فحسب ، بل في جميع بلدان الجزائر والمغرب الأقصى وأيضا في طرابلس وبرقة وأخذ يدرس في كل بلد مغربي وكثر فقهاؤه كثرة مفرطة .

ويقول ابن خلدون – في المقدمة – إن أهل المغرب اختاروا مذهب مالك دون غيره من المذاهب السنية كالمذهب الحنفي والمذهب الشافعي لأنه مذهب أهل الحجاز الذين تجمعهم بهم البداوة ، وفي رأينا أن هذا التعليل غير دقيق ، لما سنرى عما قليل من شيوع مذهب الاعتزال في الجزائر – ومثلها المغرب الأقصى – ومعروف أن البصرة هي التي وضعته دون الكوفة لأن عقلها – كما قلت في كتاب المدارس النحوية – كان أدق وأعمق من عقل الكوفة لاتصالها بالثقافات الأجنبية وبالفكر اليوناني ، ولذلك وضعت أصول الاعتزال . فالتعليل لاختيار أهل المغرب مذهب مالك بالبداوة تعليل لا يستقيم ، وأولى من ذلك أن يعلّل إيثارهم لمذهب مالك من قديم ، لأنهم كانوا يقصدون إلى المسجد الحرام للحج ويزورون المدينة دار الهجرة وكان مالك إمام المدينتين غير مدافع وإمام أهل الحجاز ، فجلسوا إلى محاضراته في المدينة دار الرسول ﷺ منذ أواسط القرن الثاني للهجرة وحملوا عنه موطّأه إلى القيروان وتدارسوه فيها كما تدارسوه على تلاميذه المصريين النابهين يتقدمهم عبد الرحمن بن القاسم ، وكان قد فرّع على المذهب فروعا في مدوّنة له حملها عنه أحد تلاميذه القيروانيين : سحنون ، وأذاعها في طلابه ، وأصبحت في البلاد المغربية : الجزائر وغير الجزائر أمًّا للمذهب المالكي مثل كتاب إمامه الموطأ ، وظل المغاربة بعد سحنون يلتمسون المذهب المالكي عند أئمته المصريين الذين خلفوا عليه ابن القاسم المتوفى سنة ١٩١ هـ/٨٠٦م وخلفه على إمامة المذهب المالكي بالفسطاط أشهب بن عبد العزيز المتوفى سنة ٢٠٤ هـ/٨١٩م وتولاها بعده عبد الله بن عبد الحكم المتوفى سنة ٢١٤ هـ/٨٢٩م وإمام المالكية بعده في الفسطاط أصبغ بن الفرج المتوفى سنة ٢٢٥ هـ/٨٣٩م فكل هؤلاء الأئمة كان يرحل إليهم شباب المالكية المغاربة للتزود في المذهب من حلقاتهم العلمية ، كما كانوا يتزودون من تلامذة سحنون في ديارهم المغربية ، وتوالت طبقات فقهاء المالكية في الجزائر إلى اليوم .

وقد أخذ المذهب الحنفي وفقهاؤه ينشطون في العهد العثماني إذ كانت الدولة العثمانية

ويصهرون إليهم ، ولذلك يرى بعض الباحثين المعاصرين منهم أنهم ليسوا خوارج إذ لا يخرجون على الدين الحنيف وتعاليمه إنماهم فرقة إسلامية كانت – ولاتزال – ترى أن تكون الخلافة – أو إمامة المسلمين – جمهورية ، فالمسلمون يختارون لها أكفأهم وأولاهم بحكمهم وتحقيق العدل بينهم ، وهم – إلى ذلك يختلفون مع أهل السنة مالكية وغير مالكية وجوها من الاختلاف ، من ذلك أنهم – مثل المعتزلة – ينفون تشبيه الله بالمخلوقين نفيا مطلقا ، والآيات القرآنية التى قد يفيد ظاهرها ذلك تؤوَّل كما أوَّلها المعتزلة ، وهم مثلهم يرون أن صفات الله عين ذاته الكاملة كمالا مطلقًا ويرون أن مرتكب الكبيرة إن مات على غير توبة خُلد فى النار ، بينما يذهب أهل السنة إلى أن أمره مفوَّض إلى مشيئة ربه إن شاء عذَّبه وإن شاء غفر له لقوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفرما دون ذلك لمن يشاء﴾ . ويذهبون إلى أن الإيمان لا يكفى فيه القول وحده ، بل لابد من العمل معه بحيث لا يعد المسلم مؤمنًا إلا إذا أدَّى جميع الفروض الدينية . وكان أهل السنة يرون أن تظل الخلافة فى قريش ، بينما يرى الإباضية – كما أسلفنا – أنها حق للمسلمين جميعا يتولاها أصلحهم لها. وكلها خلافات يمكن عدّها خلافات فرعية لفرقة إسلامية .

(د) المعتزلة[1]

أخذ واصل بن عطاء إمام المعتزلة بل مؤسس مذهب الاعتزال يتألق – فى أواخر العصر الأموى – فى عملين كبيرين : وعظه المؤثر فى الناس ودعوته لهم أن يعتنقوا مذهبه فى الاعتزال ومبادئه التى كان يدعولها ، وفى مقدمتها مسألة مرتكب الكبيرة وهل يعد مؤمنًا أو كافرًا ، وكانت المرجئة تعده مؤمنًا وكان الخوارج من الصفرية والأزارقة يعدونه كافرا وكان أهل السنة يعدونه مؤمنا فاسقا ، وعدَّه الإباضية كافر نعمة لا كافر ملة ، ونفذ واصل إلى القول بأنه فى منزلة وسطى بين منزلتى الإيمان والكفر ، وأضاف إلى هذا المبدأ فى الاعتزال أربعة مبادىء أخرى هى وحدانية الله وتنزيهه عن الشبه بالمخلوقات ، ومرَّ بنا أن الإباضية يأخذون بهذا المبدأ الاعتزالى ، ومبدأ ثان هو العدل على الله وتترتب عليه حرية الإرادة عند الإنسان بحيث يحاسب على عمله فلا جبر ولا قدر مقدور كما يرى ذلك أهل السنة والإباضية ، ومبدأ ثالث انفاذ الوعد بثواب المتقين المؤمنين والوعيد بعذاب العاصين الكافرين ، ومبدأ رابع هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وكان واصل ينفذ إلى القلوب بوعظه المؤثر وإلى العقول ببراهينه الساطعة لمبادئه الاعتزالية ، وأعجب به فى المجالين شباب موطنه البصرة إعجابًا شديدًا ، واتخذهم دعاة يدعون إلى نحلته الاعتزالية ، فى أطراف الأرض ويصور ذلك صفوان الأنصارى فى مدحته له التى أنشدها الجاحظ فى أوائل الجزء الأول من بيانه قائلا :

---

(١) انظر فى مبادىء المعتزلة الملل والنحل للشهرستانى وكتابنا عن العصر العباسى الأول ، وراجع فى قصيدة صفوان الجزء الأول من البيان والتبين ، وانظر فى مجادلاتهم للإمام الإباضى عبد الوهاب وعلماء الإباضية وثورة جموعهم عليه الجزء الثالث من تاريخ المغرب الكبير للعبوز .

لـه خلفَ شَعْب الصِّين في كلِّ ثُغْرَةٍ　　　إلى سوسِها الأقصى وخلفَ البرابِرِ
رجـــالٌ دعـــاةٌ لا يفلُّ عزيمَهم　　　تهكُّمُ جبَّـــارٍ ولا كيـــدُ مـــاكـر
وأوتـــادُ أرضِ الله في كلِّ بلـــدةٍ　　　ومو ضع فتياها وعلـمِ التشـــاجُرِ

ويصفهم صفوان بالقدرة على التشاجر والجدال وقرع الحجة بالحجة البيِّنة ، ويصفهم فى أبيات تالية بروعة البيان والخطابة ويقول إنهم رسله ودعاته وحاملو مبادئة الاعتزالية إلى أطراف الأرض فى أقصى الشرق حتى الصين وفى أقصى الغرب حتى بلاد السوس وقد استطاع هؤلاء الدعاة لواصل أن يجذبوا إلى نحلته الاعتزالية جماعات فى الجزائر شمالا بين ميناءى مستغانم و وهران وجنوبا فى وادى ميزاب بمدينة العطفا ، ولاتزال لهم مقبرة بها ، ونجد المناظرات محتدمة فى تاهرت بين الإباضية والمعتزلة المقيمين شماليها وكانوا يبلغون ثلاثين ألفاً ، وهو عدد ضخم ، واشتعلت هذه المناظرات فى عهد إمام الإباضية عبد الوهاب (١٧١ – ٢١١هـ) ونازله هو وعلماء دعوته أحد علماء هؤلاء المعتزلة وهزمهم جميعا ، واستنجد عبد الوهاب بعلماء نفوسة فى طرابلس وأرسلوا إليه شيخا منهم يسمى مهدًى ، وتناظر مع عالم المعتزلة مناظرات حادة ، ولم تلبث المعتزلة أن حملت السيوف لقتال الإباضية ، ولم يكتب لهم النصر كما يقول مؤرخو الإباضية ، ولو كُتب لهم لتكونت فى الجزائر دولة اعتزالية لأول مرة فى التاريخ العربى . ويبدو أن الدعوة الشيعية التى قضت على الدولة الإباضية فى تاهرت لأواخر القرن الثالث الهجرى قضت أيضا هناك على الدعوة الاعتزالية لا فى الجزائر وحدها بل أيضا فى المغرب الأقصى .

٥

الزهد[(١)] والتصوف

أخذت تشيع فى الجزائر نزعة مبكرة للزهد فى متاع الحياة العاجل والإقبال على العبادة والنسك طلبا للثواب عند الله فى الآجل . وكان مما عمل على إشاعة الزهد والتقوى فى نفوس الجزائريين الوعَّاظ فى أيام الجمع بالمساجد وفى غير أيام الجمع إذ كانوا مايزالون ينفِّرون الناس من ملذات الدنيا مذكِّرين لهم بيوم القيامة وما ينتظر العصاة فيه من العذاب الأليم والتقاة من النعيم المقيم ، مستشهدين لهم بآيات الذكر الحكيم والأحاديث النبوية التى تصور عذاب الجحيم ونعيم الفردوس ، حاثين لهم على القناعة بالكفاف من العيش وطيباته فتلك هى الوجهة المفلحة

---

(١) تقيض تراجم الفقهاء والمحدثين الجزائريين فى كتاب عنوان الدراية للغبرينى والديباج المذهب لابن فرحون بأخبار زهد الزهاد . وفى كتاب التشوف إلى معرفة رجال التصوف لابن الزيات التادلى وكتاب البستان فى ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لابن مريم تراجم عن أعلام الصوفية ، وانظر فى صوفية الأندلس المذكورين كتابنا عن الأندلس وما فيه لهم من مراجع .

والصفقة الرابحة . لذلك لا نعجب أن يتكاثر الزهاد فى البلاد المغربية بالجزائر وغير الجزائر وأن ينعت العديد من الفقهاء والمحدثين بالزهد فى خيرات الحياة وإيثار التقشف والرضا بالقليل .

وتظل موجة الزهد حادة فى الجزائر ، وتتدافع معها موجة تصوف منذ ولاية يزيد بن حاتم المهلبى (١٥٤ – ١٧٠هـ) وبنائه على الساحل التونسى لرباط المنستير الذى آوى إليه كثرة من العُبّاد لحراسة الساحل التونسى ، وأخذت تبنى رباطات أخرى على سواحل البلاد لحمايتها من قراصنة أمم البحر المتوسط الأوربية . وكان ينزلها كثير من النسّاك والفقهاء للإسهام فى هذه الحماية قيامًا بحقوق الدين والوطن ، واستحالت هذه الرباطات قرونًا إلى دور عبادة ونسك كبرى . ومنذ القرن السادس الهجرى يتخذ بعض النساك لهم فى المدن مراكز يتابعون فيها نسكهم وما قد يُلقون من دروس إن كانوا فقهاء أو محدّثين ، وسميت هذه المراكز رباطات وزوايا ، ويتبرع كثيرون لبعض هذه المراكز ، فيتضاعف حجمها ويتضاعف مريدو الشيخ الناسك وقصّاده . وأخذت هذه الزوايا والرباطات تتكاثر مع الزمن لا فى المدن فحسب ، بل أيضا فى سفوح الجبال وفى الهضاب والصحارى البعيدة القاحلة .

وكانت الطرق الصوفية قد شاعت فى المشرق على نحو ما هو معروف عن الطريقة القادرية المنسوبة إلى عبد القادر الجيلانى المتوفى ببغداد سنة ٥٦١هـ /١١٦٥م والطريقة الرفاعية المنسوبة إلى أحمد بن على الرفاعى العراقى المتوفى سنة ٥٨٧هـ/١١٨٢م . وأخذت هاتان الطريقتان تشيعان فى جميع البلاد الإسلامية ، وكان أتباع الطريقة القادرية فى الجزائر أكثر عددًا . وتصوف الطريقتين جميعا تصوف سنى . وكان يجرى بجانبهما فى المشرق تيار من التصوف الفلسفى الذى يفسح لفكرة الحلول الإلهى فى الكائنات كما يفسح لفكرة الاتحاد الصوفى مع الذات العلية ، وهو تيار قديم فى التصوف منذ الحلاج مؤسسة المتوفى سنة ٣٠٩هـ/٩٢١م وأخذ أتباع هذا التصوف الفلسفى يتكاثرون فى الأندلس منذ القرن السادس الهجرى على نحو ما بسطنا ذلك فى كتابنا عن الأندلس ، وقد تحدثنا هناك عن أبى عبد الله الشوذى الإشبيلى وتلميذه إبراهيم بن دهاق المتوفى سنة ٦١١هـ/١٢١٤م كما تحدثنا عن ابن عربى المتوفى سنة ٦٣٨هـ/١٢٤١م بدمشق وابن سبعين المتوفى سنة ٦٦٩هـ/١٢٧١م بمكة . وهم جميعا من أصحاب التصوف الفلسفى ونزلوا جميعا فى تلمسان ، وبها تتلمذ ابن دهاق على أبى عبد الله الشوذى ونزل بها فترة ابن عربى وابن سبعين وتجولا فى بعض مدن الجزائر ، ونزلها قبلهم جميعا الصوفى المشهور وبخاصة فى الجزائر أبو مدين شعيب وسنترجم له بين شعراء التصوف وتصوفه فلسفى ، وقد استوطن بجاية وتوفى بتلمسان سنة ٥٩٤هـ/١١٩٧م .

وهذا التصوف الفلسفى لم تتكون حول أئمته طرق صوفية ، فقد ظلت تلك الطرق تخص التصوف السنى وتكونت معها فى القرن السابع الهجرى طريقة صوفية سنية مغربية هى طريقة

أبى الحسن على بن عبدالله الحسنى الشاذلى المتوفى سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٩م ولم يكد يدعو إليها فى شاذلة بالقرب من تونس وفى تونس نفسها حتى تكاثر أتباعه فى البلاد المغربية ونزل القاهرة مع تلميذه أبى العباس المرسى ، وكُتب لطريقته أن تصبح أهم الطرق الصوفية السنية لا فى مصر وحدها ، بل أيضا فى الجزائر وجميع البلاد المغربية . ويتكاثر شيوخ الصوفية وزواياهم فى الجزائر منذ القرن الثامن الهجرى ويعنى بعض المؤرخين بالترجمة لهم وفى مقدمتهم يحيى بن خلدون إذ نراه فى كتابه « بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد » يسوق ترجمات لمائة وتسعة من العلماء وأهل التقوى والصلاح ، ويتكاثر رجال التصوف فى القرن التاسع الهجرى ويزدادون زيادة مفرطة فى العهد العثمانى ، لعنايته بالتصوف وتقريبه لهم وإغداقه الأموال على زواياهم وكان الولاة العثمانيون يزورونهم ويتبركون بهم ويزورون أضرحة المتوفَّين منهم ، ودخلت معهم إلى الجزائر الطرق الصوفية التى اشتهرت ببلادهم مثل البكداشية والنقشبندية والمولوية أتباع جلال الدين الرومى ، ولكن الطريقتين الشاذلية والقادرية ظلتا تجذبان إليهما كثرة من الأتباع . وأخذ بعض أتباع الشاذلية يؤسس لنفسه فيها طريقة فرعية جديدة ، بحيث أصبحت هى والطرق التى اشتقت منها مثل المليانية والزيانية والرحمانية والدرقاوية أهم الطرق التى استوعبت جماهير الجزائر فى المدن والقرى والهضاب والصحارى . ولابد أن نشير إلى أن هذه الفئة من المتصوفة اندس بينها كثيرون فى الحقب الأخيرة من هذا العصر يدَّعون لأنفسهم التقوى وهى منهم براء ، بل لقد كانوا يدعون أنهم أولياء يكشفون الغيب وينسبون لأنفسهم الكرامات ، واندس معهم كثيرون من الدراويش الجوالين والمشعوذين الدجالين ، مما جعل عبدالكريم الفكون يؤلف كتابه : « منشور الهداية فى كشف حال من ادعى العلم والولاية » وهو فى ثلاثة فصول أولها فيمن لقيه من العلماء والصلحاء المقتدى بهم ومن كانوا قبل زمنهم ممن نقلت إليه أحوالهم وصفاتهم . والفصل الثانى فى المتشبهين بالعلماء والصلحاء ، والفصل الثالث فى المبتدعة « الدجاجلة » الكذابين على طريقة الصوفية . والفصلان الثانى والثالث مليئان بنقد متصوفة عصره من أدعياء العلم ودجاجلة الشعوذة الصوفية الذين يتخذون الرقص الصوفى أو ما يسمى بالذكر والتغنى عليه بضاعة لهم يستغلون بها العامة مع تحالفهم عليها مع أصحاب الحكم والسلطان ، ويصيح ضد البدع والخرافات ، ويدعو إلى الاجتهاد واستخدام العقل والعمل بالكتاب والسنة .

الفصل الثالث

الثقافة

١

الحركة العلمية

(أ) فاتحون ناشرون للإسلام ومعلمون

عجب كثير من المستشرقين في السرعة التي انتشر بها الإسلام في الجزائر وغيرها من أقطار المغرب ، إذ لم يمض نحو قرن أو بعبارة أدق لم يمض القرن الأول الهجرى ، حتى أصبحت الأقطار المغربية أقطارًا إسلامية ، ومبعث العجب عندهم أن الفينيقيين ظلوا – وحدهم – فى البلاد أكثر من ستة قرون ولم يستطيعوا أن ينقلوهم إلى لغتهم وحضارتهم ودياناتهم وعاداتهم ، وخلفهم الرومان نحو ستة قرون أخرى وظل تأثيرهم لا يكاد يعدو مدن الساحل الشمالى ، وحاولوا نشر المسيحية فى تلك المدن ، ولم يعتنقها فيها من البربر إلا قليلون . ونزلتها بيزنطة وشعبها الإغريقى ، وكان تأثيرهم فى المدن الشمالية محدودا . وظل البربر بعامة محافظين على دينهم الوثنى ولغتهم وعاداتهم ، حتى إذا فتح العرب الجزائر وغيرها من بلاد المغرب أخذت جماهير البربر تعتنق الإسلام وتحاول النطق بلغته ، وكان لذلك عاملان : عامل الإسلام نفسه وتعاليمه الدينية البسيطة وما فرضه على الفاتحين من العرب والمسلمين أن يعاملوا الأمم المفتوحة معاملة سمحة وأن يصبح للمسلمين منها أو بعبارة أدق من يسلمون منها كل ما للفاتحين من حقوق ، فلا عبودية ولا استعمار ولا استنزاف لخيرات البلاد ولا استعباد لفرد فضلا عن شعب ، فالجميع متساوون ، وقد محيت بين المسلمين الجدد من البربر والفاتحين كل الفوارق الجنسية والاجتماعية . والعامل الثانى هو الفاتحون أنفسهم ، إذ لم يكونوا يفتحون للغنائم والسلب والنهب ، ولم تكن تلك أمنيتهم حينما خرجوا من ديارهم للفتوح فى الأقطار المغربية وغيرها ، إنما كانت أمنيتهم أن ينتظموا فى جيوش المجاهدين فى سبيل الله ابتغاء نشر دينه الحنيف فى أرجاء الأرض .

كان الجندى فى الجيش العربى الفاتح بمجرد أن يضع قدمه فى بلدة جزائرية أو مغربية أو فى أى قبيلة جبلية أو صحراوية يحاول أن يُدْخل فى الدين الحنيف من يأنسون إليه من البربر ، فيحفّظهم فاتحة الكتاب وبعض كلم العربية فى التخاطب . وأخذت الكتاتيب تنشأ

سريعا فى كل مكان لتعليم البربر فروض الإسلام وتحفيظهم بعض سور القرآن . وأخذ الولاة يسندون نشر الدين الحنيف بوسائل كثيرة ، ومن أهمهم فى هذا الجانب حسان بن النعمان (٧١-٨٦هـ) وكان قد ثار عليه شطر كبير من الجزائر فى جبل أوراس قادته قبيلة جراوة وزعيمتها الكاهنة : « داهية » وأشعلت جميع الجزائر نارا ، وامتدت نار ثورتها حتى طنجة فى أقصى المغرب ، وساعدها الروم ، وواقعت حسان بن النعمان سنة ٧٧ للهجرة وهزمته ، وظل ينتظر المدد من الخليفة عبد الملك بن مروان سنوات ، وبمجرد أن جاءه نازل الكاهنة وجموعها ودارت عليها الدوائر . وبإلهام من الإسلام وتعاليمه فى معاملة البلاد المفتوحة جنّد حسان من هذا الجيش الجزائرى المنهزم اثنى عشر ألفا أدخلهم فى الجيش العربى للمشاركة معه فى الجهاد بنفس الأعطيات والرواتب والحقوق للجند العربى وليس ذلك فحسب ، فقد عدَّ أرض الجزائر - والمغرب عامة - فُتحت صلحا لا عَنْوة ، وهى بذلك تظل لأهلها مع ما يؤدون عنها من خراج أو زكاة ، وأيضا ليس ذلك فحسب ، فإنه ولّى على قبيلة جراوة وجبل أوراس واليا بربريا هو أكبر أبناء الكاهنة « داهية » . وكل تلك كانت بواعث فعالة لدخول الجزائريين والمغاربة فى دين الله أفواجا ، فلم يعودوا مستعبدين لفاتحين فينيقيين أو رومان أو بيزنطيين يظلمونهم ويرهقونهم بالضرائب المتنوعة ، بل أصبحوا أحرارا فى ديارهم ولهم ما للفاتحين من الحقوق ، فهم إخوة دين حنيف وهم زملاء سلاح وهم حكام أنفسهم . وبهذه السياسة الحصيفة الرشيدة انفتحت قلوب البربر فى الجزائر وغير الجزائر لدين الله القويم . وخلف حسانا موسى بن نصير (٨٦-٩٦هـ) فوثّق هذه السياسة وزادها ضبطا وإحكاما ، إذ جاس خلال الديار المغربية حتى أقصاها فى الغرب ، وفى كل بلد وفى كل قبيلة خلّف معلمين يحفّظون الناس القرآن ويعلّمونهم فروض دينهم وتعاليمه ، واتخذ للبربر ولاة من ذات أنفسهم ، ومن أهمهم طارق بن زياد والى طنجة الذى عهد إليه بفتح الأندلس وعبر إليها بجيش من العرب والبربر ، وتبعه موسى بن نصير بجيش مماثل ، مما يدل بوضوح على اندماج البربر فى العرب دينا وجهادا فى سبيل الله ونشر دينه الحنيف .

ولا نبلغ سنة مائة للهجرة فى خلافة عمر بن عبد العزيز ، حتى نجده يكلف عشرة من الصفوة فى فقهاء التابعين بالذهاب إلى إفريقيا لاستكمال نشر الإسلام فيها وتعليم البربر شريعة الإسلام وما تقوم عليه من الإيمان بوحدانية الله وغير ذلك من أصول العقيدة الإسلامية وأيضا ما تقوم عليه من العبادات والفرائض ، واختار أحدهم ، وهو إسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر ليكون الوالى على جميع البلاد المغربية جزائر وغير جزائر ، ويقول عنه ابن عذارى : « ما زال حريصا على دعاء البربر إلى الإسلام حتى أسلمت بقيتهم على يديه » وعلى أيدى معاونيه من الفقهاء التسعة الذين اصطفاهم عمر بن عبد العزيز لهذه المهمة ، وهم عبد الرحمن بن رافع التنوخى وعبد الله بن يزيد المعافرى الحُبُلى وإسماعيل بن عبيد الأنصارى وحبان بن أبى جبلة وبكر بن سوادة

الجذامى وجعثل بن عمير وموهد بن حى المعافرى وطلق بن حابان وسعيد بن مسعود التجيبى وكل منهم كان فقيها يتقن معرفة الشريعة ويروى الحديث النبوى عن الصحابة من أمثال عبد الله بن عمر بن الخطاب وأبى أيوب الأنصارى وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وكانوا يحسنون تفسير القرآن الكريم ، وقد تحولوا جميعا مع إسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر فى إفريقية إلى معلمين يفقهون البربر أمور شريعتهم ، وأتاهم البربر من كل فج من الجزائر وغير الجزائر يدرسون عليهم الشريعة الإسلامية ، وعنوا بتحفيظهم القرآن الكريم . واتخذ كل منهم بجانب المسجد الذى بناه كتّابا لتحفيظ الناشئة القرآن . فأسلمت وتفقهت على أيديهم جموع كبيرة من البربر ، وهم يُعَدّون - بحق - المعلمين الأولين للبربر تعاليم الشريعة الإسلامية ، وبهم تمّ العمل الكبير من نشر الجيوش العربية وولاة المغرب من أمثال حسان بن النعمان وموسى بن نصير الدينَ الحنيف فى ربوع المغرب جزائر وغير جزائر ، وانضمت الأمة البربرية إلى الأمة العربية فى دين واحد وعقيدة واحدة .

(ب) دور العلم : الكتاتيب - المساجد - المدارس - الزوايا - المكتبات

الكتاتيب

أخذت تتأسس عقب الفتوح الإسلامية فى بلدان الجزائر كتاتيب لتعليم الناشئة والناس القراءة والكتابة العربيتين وتحفيظهم القرآن الكريم وبعض الأحاديث النبوية وتعريفهم بما ينبغى أن يعلموه من فروض الإسلام وتعاليمه . وكانت هذه الكتاتيب تُبْنَى مستقلة أو ملحقة ببعض المساجد ، وأخذت المعارف فى هذه الكتاتيب تتسع بمر الزمن ، فشملت مبادىء الحساب وسيرة الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين ولكن العناية الكبرى إنما كانت تنصب على تحفيظ القرآن وبعض الأحاديث حتى يرسخ الإيمان فى نفوس الناشئة ، وتأتى بعد ذلك مدارسة الحساب وغيره من مبادىء العلوم ، وكانت الكتاتيب منبثة فى المدن والقرى وفى كل تجمع للقبائل الجزائرية الجبلية والصحراوية وتكاثرت فى المدن كثرة مفرطة ، حتى كانت تعد بالعشرات فى طبنة وقسنطينة وبونة وبجاية وتاهرت والجزائر وتلمسان والميزاب فى بسكرة وغير بسكرة .

المساجد

كانت الناشئة حين تنهى حفظها للقرآن الكريم وبعض متون الحديث وتتعرف على مبادىء العربية والعلوم فى الكتاتيب تتجه إلى حلقات المساجد وما يلقى فيها الشيوخ من الدروس فى موضوعات كثيرة ، فى مقدمتها تفسير الذكر الحكيم ، ورواية الحديث النبوى ، والفقه

ومايصور من تعاليم الشريعة ، وتاريخ الرسول والخلفاء الراشدين والفتوح الإسلامية والأمة العربية ، وكان من هؤلاء الشيوخ من يقدِّم في دروسه أوليات المواد والعلوم في الدراسات الدينية والدراسات النحوية واللغوية وكأنه هو ومن يماثلونه يشبهون معلمى التعليم الثانوى فى عصرنا ، حتى إذا أتقنها الناشيء وفقهها حق الفقه انتقل إلى حلقات شيوخ أعلى فى المستوى العلمى ، يلقون محاضرات متعمقة فى تفسير الذكر الحكيم ، ويقرءون - ويشرحون - بعض كتب الحديث النبوى المهمة ، ويلقون على الطلاب كتاب الموطأ لمالك أو ما يماثله حتى يتسع فهمهم وفقههم لتعاليم الإسلام فى فروض الدين ووجوه المعاملات ، ويحاضرونهم فى قواعد العربية ، ويقرءون لهم بعض كتبها المهمة مع الشرح والتفسير ، كما يقرءون لهم بعض كتب الشعر والنثر محاولين أن يغرسوا فى نفوسهم السليقة العربية وأن يصبحوا قادرين على نظم الشعر والكتابة الأدبية . ومع مر الزمن أخذت تلك الحلقات الكبرى وخاصة فى الجامع الأعظم أو الكبير بالمدينة تدرس علوم أصول الفقه والكلام والمنطق والطب والفلسفة ، وبذلك كان الجامع الأعظم فى كل مدينة جزائرية يعد جامعة كبرى لدراسة العلوم النقلية والعقلية . وكانت تلحق به وببعض المساجد أبنية أو زاوية بها غرف معدة بالأثاث والفُرش اللازمة لسكنى الطلاب من خارج المدينة وبعض الشيوخ ، ويقوم عليها من يعدّ لهم الطعام ومن يخدمهم . وكان يُنْفَقُ على الجوامع والمساجد من أوقاف محبوسة وكان أهل الثراء والسعة فى الرزق يتنافسون فيما يحبسون عليها من عقارات . ومن التوابع الضرورية للجوامع والمساجد الثريات والمصابيح المضيئة والميضات للوضوء والطهارة .

المدارس

بجانب الجوامع والمساجد أخذت تنشأ منذ عصر الحفصيين فى القرن السابع الهجرى المدارس فى القسم الشرقى من الجزائر الذى كان تابعا لهم ، أسوة بما أسسوا من مدارس فى عاصمتهم تونس ، حتى إذا استولت دولة بنى زيان على مقاليد الحكم عُنى بعض حكامها بتشييد المدارس فى عاصمتهم تلمسان ، وأوقفوا عليها الأوقاف الكثيرة . وأول مدرسة أسسوها مدرسة أولاد الإمام أسسها أبو حمو موسى الأول (٧٠١-٧١٨هـ) للفقيهين أبى زيد وأبى موسى ابنى الإمام الخطيب أبى عبد الله ، وأسس بعده ابنه أبو تاشفين عبد الرحمن الأول (٧١٨-٧٣١هـ) المدرسة التاشفينية ، وأسس أبو حمو موسى الثانى (٧٦٠-٧٩١هـ) المدرسة اليعقوبية ، وأسس أحمد العاقل مدرسته الجديدة ووقف عليها أوقافا جليلة ، وأسس أبو الحسن مدرسة خامسة بالعباد ضاحية تلمسان . ويذكر الحسن الوزان فى كتابه : وصف إفريقيا أنه شاهد بتلمسان حين زيارته لها حوالى سنة ٩٢٠ للهجرة خمس مدارس بديعة حسنة البنيان جدا (لعلها المدارس السابقة) ومزدانة بالبلاط الملَّون وسواه من الأعمال الفنية . وأخذت

المدارس تتكاثر فى العهد العثمانى بالجزائر لا فى العاصمة : مدينة الجزائر وحدها بل أيضا فى المدن المختلفة مثل قسنطينة ، وكان بها وحدها سبع مدارس . وكان يقوم على التدريس فى مدارس الجزائر جميعا علماء مهرة فى العلوم الدينية واللغوية والأدب والفلسفة والطب والمنطق ، وكانت تنفق عليها الدولة أحيانا . وفى أكثر الأحيان كانت تعتمد على أوقاف حبسها ذوو اليسار عليها ، وكانت تلحق بها مبان لسكنى الطلبة الغرباء وكانت تزود بكل ما يلزمهم من مطعم وملبس وأثاث وبمن يخدمهم ويوفر لهم النظافة والراحة .

الزوايا

أخذت تتكاثر منذ القرن الثامن الهجرى الزوايا فى أنحاء البلاد المغربية جميعها جزائر وغير جزائر ، وكانت الزاوية تشتمل على مسجد تؤدّى فيه فروض الصلاة ، وأبنية لسكنى الطلبة الغرباء والفقراء (الزهاد) ، وكانت تحبس عليها أوقاف كثيرة ينفق منها على شيوخها الذين ينهضون فيها بدروس العلوم الدينية واللغوية وعلى طلابها الغرباء والنازلين بها من الفقراء ، وكانت بذلك دار تعليم ودار عبادة ، وكثيرا ما كان يدفن فيها الشيخ الصالح الذى أقامها ، فينصب له ضريح فيها وتقام عليه قبة ، ويقصده الناس للزيارة والتبرك به ، ويعد مؤسس الزاوية المسئول الأول عنها ، وترث ذريته القيام عليها ، ويتبعها موظفون للقيام بالخدمات المختلفة . وكانت الزوايا بجانب أنها دور عبادة تعنى بإلقاء المحاضرات فى الموضوعات والعلوم الدينية المختلفة ، فهى دور عبادة وتعليم ، وتحول كثير منها - وخاصة فى المدن الجزائرية - إلى ما يشبه مدارس عالية . وكان كثير من التلامذة يقصدها من الأماكن القريبة والبعيدة ، وكما كانت تعنى بتعليم الناشئة كانت تعنى بتنوير العامة ، وكثرت كثرة مفرطة منذ القرن العاشر فى منطقة زواوة وبجاية وعنابة أو بونة ، ويقال إنها بلغت فى مدينة الجزائر نحو ١٥ زاوية ، وبلغت فى قسنطينة نحو ١٦ زاوية ، أما فى تلمسان فبلغت نحو عشرين زاوية .

المكتبات

فى كل مسجد - من قديم - كانت الزوايا تتخذ المكتبات ، وكانت تجمع إليها بجانب المصاحف وكتب الحديث النبوى أمهات الكتب فى الفقه وغير الفقه ، وكانت الدولة تساعد فى شرائها ويساعد ذوو اليسار ، وكثيرا ما كانت توقف أو تُحبَّسُ لطلاب العلم وشيوخه ، واشتهر إبراهيم الثانى الأغلبى باتخاذه فى عاصمة رقادة بقرب القيروان بينا أو مؤسسة سماها بيت الحكمة جلب إليها أصحاب علوم الأوائل وغيرهم من العلماء وأقام بها مكتبة ضخمة تتبعها قاعات للجلوس والمطالعة . وكأنما أراد بها أن ينافس الدولة الرستمية فى تاهرت التى عنيت منذ إمامها عبد الرحمن بن رستم (١٦٠-١٧١هـ) بإنشاء مكتبة كبيرة فى عاصمتها وتبعه خلفاؤه يعنون بها ، ويذكر عن ابنه عبد الوهاب (١٧١-٢١١هـ) أنه أرسل إلى بعض

الإباضيين في البصرة بألف دينار ليشتروا له كتبا بها ، فاشتروا له كثيرا من الكتب وأرسلوها إليه على أربعين بعيرا كما يقول البارونى فى الأزهار الرياضية . وما زال خلفاؤه يجمعون لتلك المكتبة الكتب مسمين لها باسم المعصومة حتى بلغت ثلاثمائة ألف كتاب في الدراسات الدينية واللغوية والرياضية وغير الرياضية من علوم الأوائل ، وهالت أبا عبيد الله داعية العبيديين حين استولى على تاهرت سنة ٢٩٦ للهجرة ، فأمر بإحراقها ما عدا الكتب الخاصة بعلوم الأوائل من طب وغير طب .

وظل الاهتمام بجمع الكتب لمكتبات المساجد مطردا فى عهد الدولة الحمادية ، ولها وللمدارس والزوايا فى عهد الدولة الزيانية . وينوه المؤرخون بما كان فى زاوية إبراهيم التازى بالقرن التاسع الهجرى من خزائن متعددة مكتظة بالكتب العلمية . وظلت – طوال القرون المختلفة فى العصر – الكتب تهاجر مع طلبة العلم الوافدين على المشرق إلى الجزائر ، وظلت تودع فى المكتبات المختلفة للزوايا والمدارس والمساجد . ومن يقرأ تراجم العلماء فى كتاب مثل عنوان الدراية يشعر أنه لم يؤلف فى المشرق ولا فى تونس والأندلس كتاب مهم إلا نقل إلى الجزائر : فى القراءات والتفسير أو الحديث النبوى أو الفقه المالكى أو النحو أو الأصول أو المنطق أو علوم الأوائل وخاصة كتب الشفاء والنجاة والإشارات والتنبيهات لابن سينا ، وبالمثل كتب ابن رشد الأندلسى . فالتيار العلمى فى الأقطار العربية كان جارفا ، وكانت كتبه شرقا وغربا تصبُّ فى مكتبات كل بلد عربى جزائر وغير جزائر ، فيما بها من مساجد وزوايا ومدارس . وكثير من الأسر التى كانت تتوارث العلم اشتهرت باقتنائها مكتبات كبيرة مثل أسرة الفكون فى قسنطينة ، وكان بالجزائر هواة للكتب ينفقون فى جمعها أموالا طائلة ، وكانوا منبثين لا فى المدن فحسب بل أيضا فى الواحات والصحارى ، ويذكر العياشى فى القرن الحادى عشر الهجرى برحلته أن مكتبة شيخ يسمى محمد بن إسماعيل تيكوران كانت تضم نحو ألف وخمسمائة كتاب ، فما بالنا بما ضمته مكتبات المساجد والمدارس والزوايا .

(جـ) نمو الحركة العلمية

أخذت الحركة العلمية تنمو فى الجزائر منذ القرن الثانى الهجرى ، وخاصة منذ عهد الدولة الأغلبية إذ كانت ترعاها فى شرقىّ الجزائر فى بونة (عنابة) وقسنطينية وطبنة وغيرها من البلدان . وتأسست منذ سنة ١٦٠ للهجرة فى غربى الجزائر بمدينة تاهرت الدولة الرستمية الإباضية ، وظلت طوال قيامها حتى سنة ٢٩٦ للهجرة ترعى العلم والعلماء ، ويعدُّ الأستاذ محمد على دبوز فى الجزء الثالث من كتابه : تاريخ المغرب الكبير عشرات منهم قائلا إن الدولة الرستمية كانت دولة العلم والمعرفة وإن العلماء كثروا فيها ، وزخرت بهم مدنها وقراها ، حتى

ليعدون بالمئات . وخلفت الدولة الرستمية دولة بنى حماد واتسع سلطانها ، فشمل الجزائر أو أكثرها ، وقد بنى حماد مؤسسها قلعة سنة ٣٩٨ على منحدر جبلى بالقرب من المسيلة (المحمدية) وسرعان ما أصبحت مدينة عربية ضخمة ، يقول ابن خلدون فى الجزء السادس من تاريخه إن « حمادا استكثر فى القلعة من المساجد والفنادق فاستبحرت فى العمارة واتسعت فى التمدن ورحل إليها من الثغور القاصية والبلدان البعيدة طلاب العلوم وأرباب الصنائع لرواج أسواق المعارف والحرف والصنائع بها » وظلت - من حينئذ - مركزا كبيرًا للدراسات الدينية واللغوية ، حتى بعد انتقال الناصر الحمادى منها سنة ٤٧٣هـ/١٠٨٠م إلى عاصمته الجديدة : بجاية وكان كثير من أبنائه وأحفاده يكرمون العلماء ويعقدون لهم مناظرات فى مجالسهم وبعثوا فى القلعة ثم فى بجاية نهضة علمية وأدبية ، وأمَّ حاضرتيهما بعض العلماء والشعراء المرموقين من أمثال ابن حمديس مادح المنصور بن الناصر بن علناس (٤٨١ - ٤٩٨) بالقصائد الطنانة فى مدحه ووصف قصوره ، واشتهر ابنه العزيز (٤٩٨ - ٥١٨هـ) بأن بلاده كانت سلاما وأمنا وأن العلماء - كما يقول ابن خلدون - كانوا يتناظرون فى مجالسه وقد بذل جهودا خصبة فى إنماء الحركة العلمية ببجاية ، حتى أصبحت مركزا علميا ضخمًا لا بعلمائها المحليين فحسب ، بل أيضا بوفود العلماء المنتقلين إليها من القلعة ووفودهم اللاجئة إليها من الأندلس والبلاد المغربية ، واطردت هذه المكانة العلمية لبجاية بعد سقوط دولة بنى حماد سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م إذ اشتهرت بها طائفة أو طوائف من العلماء والأدباء وظل يفد عليها غير عالم وأديب وخاصة من الأندلس ، ويوضح ذلك كتاب عنوان الدراية فى علماء بجاية للغُبْرينى إذ ترجم فيه لأكثر من مائة عالم من علماء بجاية فى القرنين السادس والسابع للهجرة ، وهؤلاء هم المشهورون ووراءهم كثيرون لم يبلغوا مبلغهم فى الشهرة . ويدل على كثرة غير المشهورين ما رواه الغبرينى عن أبى على المسيلى المتوفى سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م من أنه قال : « أدركت ببجاية ما ينيف على تسعين مفتيا » ويعلق الغبرينى على كلمته بقوله : وإذا كان من المفتين ببجاية تسعون فكم يكون من المحدثين ومن النحاة والأدباء وغيرهم ممن تقدم عصرهم ممن لم يدركهم . وظلت النهضة العلمية بها مزدهرة فى القرون التالية وزارها الحسن الوزان حوالى سنة ٩٢٥هـ/١٥١٩م وقال إنها « مجهزة بالجوامع بشكل طيب وبالمدارس التى يكثر فيها الطلاب وأساتذة الشريعة والعلوم سوى الزوايا للنساك المتعبدين » .

ومنذ سنة ٦٣٣هـ/١٢٤٠م تنشأ فى تلمسان دولة بنى زيان ، وقد بثَّتْ فيها نهضة علمية وأدبية رائعة ، ويقول التنسى فى كتابه تاريخ بنى زيان ملوك تلمسان عن مؤسس الدولة : يَغْمُراسن (٦٣٣ - ٦٨١هـ) إنه كان له فى أهل العلم رغبة عالية يبحث عنهم أينما كانوا ويستقدمهم إلى بلده ويقابلهم بما هم أهله ، وممن استقدمهم إبراهيم بن يخلف

التنسى وأقطعه إقطاعات واسعة ، ولما اشتهرت عنايته بأهل العلم والأدب وفد عليه من الأندلس أبوبكربن خطاب الكاتب، فأكرمه، وجعله رئيس ديوانه . ويقول التنسى عن حفيده أبى حمو موسى الأول (٧٠١-٧١٨هـ) إنه كان محبا للعلم وأهله معتنيا به قائما بحقه، ولما وفد عليه الفقيهان أبو زيد وأبو عيسى ابنا الإمام محمدبن عبدالله من أهل برشك بالقرب من تنس على الساحل الشمالى للجزائر احتفل بهما، وبنى لهما المدرسة التى سميت مدرسة أولاد الإمام فنشرا بتلمسان كثيرا من العلوم، وكان ابنه أبو تاشفين حفيًّا مثله بالعلم وأهله ولما وفد عليه الفقيه أبوموسى عمران المشدالى الزواوى احتفى به وولاه التدريس بمدرسته التاشفينية الجديدة. وكان على شاكلته أبوحمو موسى الثانى (٧٦٠-٧٩١هـ) فى رعاية العلم والعلماء، وكان أديبا وشاعرًا بارعًا وله كتاب نظم السلوك فى سياسة الملوك ضمنه بعض أشعاره، وهو أول من احتفل من ملوك الدولة بليلة المولد النبوى، وبلغ من احتفائه بالفقيه أبى عبدالله محمد بن أحمد الإدريسى أن بَنَى له مدرسة ليلقى فيها دروسه. ويشيد التنسى بأبى زيان محمدبن أبى حمو (٧٩٦-٨٠١هـ) قائلا إنه « كلف بالعلم حتى صار منهج لسانه وروضة أجفانه، فلم تَخْلُ حضرته من مناظرة ولا عمرت إلابمذاكرة ومحاضرة، وكتب بيده نسخًا من القرآن الكريم ونسخة من صحيح البخارى ونسخًا من كتاب الشـــفا بتعريف حقــوق المصطفى للقاضى عياض ، ووقفها جميعا بخزانته فى مقدم الجامع الأعظم أو الكبير بتلمسان ، وألف كتابا نحا فيه نحو التصوف ، سماه « كتاب الإشارة فى حكم العقل بين النفس المطمئنة والنفس الأمارة » ووجه هدية إلى برقوق سلطان مصر ومعها قصيدة بديعة . ويتوه التنسى بأبى مالك عبد الواحد (٨١٤-٨٣٣هـ) قائلا: «فى أيامه نفق (راج) سوق الأدب ، وجاء بنوه إلى بابه ينسلون (يسرعون) من كل حَدَب (موضع) فينقلبون بُجْرَ (مملوئى) الحقائب ظافرين بجزيل الرغائب (بوافر العطايا). ونرى يحيى بن خلدون فى كتابه «بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبدالواد يعدُّد من أنجبته تلمسان أو استقر بها من العلماء ا لصالحين ويبلغ بهم مائة وتسعة وجمهورهم من العلماء الذين دوّى صيتهم، وإذا كان عددهم قد بلغ ذلك فى عهد يحيى بن خلدون المتوفى فى أواسط عصر الدولة الزيانية حول سنة ٧٨٠هـ / ١٣٧٨م فإن عددهم – لاشــك – تضاعف بعده ، وبلغ بعددهم بعده ابن مريم فى أوائل القرن الحادى عشر الهجرى فى كتابه : « البستان فى ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان » مائة واثنين وخمسين عالما . وأخذت تلمسان – كما أخذت بجاية – تتراجع علميا وثقافيا فى العهد العثمانى ، إذ أصبحت مدينة الجزائر العاصمة ، وأخذت تجذب إليها العلماء والأدباء وإن ظلوا مبثوثين فى عاصمتى بنى حماد وبنى زيان وبونة وبسكره وغيرها ، وخاصة قسنطينية إذ ظل بها فى العهد العثمانى نشاط علمى غزير .

ولم أتحدث – حتى الآن – عن هجرات الأندلسيين إلى الجزائر منذ هزيمة دولة الموحدين في واقعة العقاب بالأندلس سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م فقد بدا لكثيرين منهم أن المستقبل ينذر برجحان كفة الإسبان وقرب استيلائهم على البلدان الأندلسية، وأخذ نفر منهم غير قليل يهاجر إلى البلاد المغربية باحثا له عن وطن جديد يلتجيء إليه، وأخذت مدنهم تتساقط في حجر الإسبان منذ العقد الرابع من القرن السابع الهجرى، وسقطت جوهرتهم الكبرى قرطبة، وتبعتها في السقوط دانية وشاطبة وإشبيلية عروس الأندلس وبلنسية ثم مرسية. وكانت كل مدينة أندلسية تسقط ينزح منها إلى مدن الجزائر وغيرها من المدن المغربية أندلسيون كثيرون، وكان الأثرياء منهم والعلماء ينزلون مدن الساحل الشمالي في الجزائر وينزل معهم بعض أصحاب الحرف والصناعات. أما أهل القرى الأندلسية فكانوا ينزلون في السهول والوديان – وربما نزلوا في سفوح الجبال كما كانوا ينزلون في الأندلس – وكانوا يعنون بالزراعة وغرس الأشجار وإنشاء الحدائق والبساتين. وأخذت تكتظ بهم المدن الشمالية مثل وهران ومستغانم وبونة (عنابة) وبجاية، ومن يرجع إلى كتاب عنوان الدراية في علماء بجاية بالقرن السابع الهجرى سيجد من بينهم أكثر من عشرين عالما وأديبا نزحوا من الأندلس إلى بجاية حينذاك وملئوها علما وأدبًا، وكانوا من العوامل الفعالة في نهضتها العلمية والأدبية. وتهبط إلى الجزائر من الأندلس موجة ثانية كبيرة بعد سقوط غرناطة سنة ٨٩٧هـ/١٤٩٢م ويستوطنون المدن الساحلية المذكورة آنفا وأخواتها على الساحل الشمالي مثل شرشال ويقول الحسن الوزان «إن كثيرًا من الغرناطيين قصدوها وأعادوا بناء قسم كبير من منازلها وكذلك قلعتها وزرعوا أراضيها، وزاولوا فيها أعمال صناعة الحرير لأنهم وجدوا بها كمية لا تحصى من أشجار التوت الأبيض والأسود وتحسنت أحوالهم يومًا بعد يوم حتى أصبحوا يسكنون ألفا ومائتين من البيوت وتوطنوها مثل إخوانهم في المدن الجزائرية الأخرى، وبنوا كثيرا من سفن الملاحة لمطاردة السفن الإسبانية في البحر المتوسط والاستيلاء على ما فيها من غنائم انتقامًا من فرديناند واستيلائه على غرناطة.

ويدور الزمن دورة حتى سنتى ١٠١٦ – ١٠١٧هـ/١٦٠٨ – ١٦٠٩م فينفى ملك إسبانيا كل من بقى في إسبانيا من المسلمين، وتتجه أفواج كبيرة منهم إلى المدن الجزائرية، ويتخذوها وطنا ثانيا لهم، وقد نقلوا معهم كل حضارتهم ومدنيتهم مما كان له تأثير واسع في الجزائر أثناء العهد العثماني. وقد بعثوا فيها حركة تعليمية واسعة منذ جاءت أعدادهم الكبيرة بعد سقوط غرناطة، وكانوا يؤسسون جمعيات خيرية للإنفاق على فقرائهم ولإنشاء المدارس كمدرسة مازونة ومدرسة الأندلسيين في مدينة الجزائر، ولابد أن كانت لهم مدارس في المدن الأخرى، وكانوا يحبسون عليها أموالا أو عقارات للإنفاق منها على الأساتذة والطلاب. وتنبه العثمانيون لقدرة الأندلسيين التعليمية، فكانوا يعينون منهم كبار المعلمين في المدارس ويفرضون لهم رواتب مجزية.

٢

علوم[1] الأوائل

اهتمت الجزائر – كما اهتمت البلدان العربية المختلفة – بمدارسة علوم الأوائل من فلسفة وطب وغير طب، وانصبت عناية علمائها خاصة على ما سموه علوم التعاليم ، يقصدون بها علوم الرياضيات ومايتصل بها من حساب وجبر وهندسة وفلك . ولم يحدث بين الفقهاء وهذه العلوم وما يتصل بها من الفلسفة والطب أى تخاصم أو تقاطع طوال هذا العصر ، بل إن من يرجع إلى تراجمهم سيجد كثيرين من كبارهم ينعتون بأنهم سادوا أهل عصرهم فى العلوم العقلية أويقال إن فلانا بذَّ فقهاء عصره فى علوم التعاليم أو كان مستبحرا فى فنونها إلى غير ذلك من نعوت تدل على أخذهم منها بحظ وافر، وكثيرا مايجمع الفقيه المشهور بين الفقه والطب.

وأول رياضى فلكى نلتقى به فى الجزائر على بن أبى الرجال التاهرتى الذى هاجر من بلدته تاهرت إلى القيروان وأصبح معلما ومربيا لحاكمها الصنهاجى المعز بن باديس ثم وزيرا له ورئيسًا لديوان الإنشاء حتى وفاته سنة ٤٢٦هـ/١٠٣٤م وباسمه ألف ابن رشيق بعض مؤلفاته الأدبية مثل كتاب « العمدة فى صناعة الشعر ونقده » . وهو أول مغربى تعمق علم الفلك والتنجيم وألف فيه كتابه : البارع فى علم الفلك الذى ترجمه قسطنطين الإفريقى إلى اللاتينية فى القرن الحادى عشر الميلادى وتناقلته اللغات الأوربية المختلفة وانتفع به العلماء الغربيون الفلكيون أيما نفع . وظل الجزائريون يعنون بعلم الفلك وغيره من العلوم الرياضية مثل محمد بن يحيى النجار التلمسانى المتوفى سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م وكان إماما فى النجوم وأحكامها ، وكان يعاصره محمد بن إبراهيم الآبلى المتوفى سنة ٧٥٧هـ/١٣٥٦م الذى فاق أهل زمانه فى جميع العلوم العقلية ، وهو شيخ ابن خلدون وأحد معلميه . وكتب عالم قسنطينة المشهور ابن قنفذ المتوفى سنة ٨٠٩هـ/١٤٠٨م شرحًا على أرجوزة فلكية لابن أبى الرجال ضمنه جداول فلكية . ومن أهم الفلكيين فى القرن التاسع بعده الحباك محمد بن أحمد المتوفى سنة ٨٦٧هـ/١٤٦٣م وله منظومة فى الإسطرلاب الفلكى عُدَّت – منذ زمنه – ألفيَّة لعلم الإسطرلاب كألفية ابن مالك فى النحو . وقد شرحت مرارًا وممن شرحها الفقيه الكبير محمد السنوسى المتوفى سنة ٨٩٥هـ/١٤٩٠م وظلت تتدارس حتى نهاية هذا العصر . ومن الأعمال الفلكية بعده

---

(١) انظر فى ابن أبى الرجال دائرة المعارف الإسلامية وراجع فى غيره عنوان الدراية للغبرينى وتعريف الخلف برجال السلف للحفناوى ومقدمة عبد الرحمن بن خلدون فى علمى الهيئة والعدد وبغية الرواد لأخيه يحيى وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ووفيات ابن قنفذ والبستان فى ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لابن مريم وتاريخ الجزائر الثقافى من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر لأبى القاسم سعد الله ومعجم الأعلام الجزائريين لعادل نويهض .

منظومة السراج لعبد الرحمن الأخضرى التى الفها سنة ٩٣٩هـ/١٥٣٢م وقد شرحت مرارًا وطبعت فى مصر مع شرح لها من تأليف سحنون الراشدى . وفى العهد العثمانى ألف محمد الصخرى الجزائرى سنة ١٠٤٣هـ/١٦٣٣م كتابًا فى علم الإسطرلاب سماه : « القلادة الجوهرية فى العمل بالصفيحة العجمية» جعله فى مقدمة وخمسة عشر بابا وخاتمة ، ولعبدالرزاق بن حمادوش المتوفى حوالى سنة ١١٧٠هـ/١٧٥٦م مؤلف فى علم الفلك وآخر فى علم الإسطرلاب .

ومنذ نظم عبد الله بن الحجاج بن الياسمين المغربى المتوفى سنة ٦٠١هـ/١٢٠٤م منظومة الياسمينية فى الجبر والمقابلة وكذلك منذ ألف أبو العباس بن البناء المراكشى المتوفى سنة ٧٢١هـ/١٣٢٦م كتابه : « تلخيص أعمال الحساب » وعلماء الجزائر يتدارسون العملين للطلاب ويشرحونهما ، وللفقيه سعيد العقبانى التلمسانى المتوفى سنة ٨١١هـ/١٤٠٨م شرح على كل منهما ، ولمعاصره ابن قنفذ القسنطينى شرحان على تلخيص ابن البناء سمى أحدهما شرح التلخيص ويقال « التمحيص فى شرح التلخيص » وسمىّ الثانى : « حطّ النقاب عن وجوه أعمال الحساب ». وممن شرح التلخيص معاصرهما على بن موسى البجائى المتوفى سنة ٨١٦هـ/١٤١٤م ونظم ابن مرزوق الحفيد المتوفى سنة ٨٤٢هـ/١٤٣٨م كتاب التلخيص شعرا . ونزل البلاد المغربية القَلَصَادى على بن محمد القرشى الغرناطى المتوفى ببجاية سنة ٨٩١هـ/١٤٨٦م وكان رياضيا كبيرًا وظل المغاربة يتداولون كتبه وخاصة كتابه : « كشف الجلباب عن علم الحساب » . وفى أواخر النصف الأول من القرن العاشر الهجرى عُنى عبدالرحمن الأخضرى القسنطينى بعلمى الحساب والفرائض وألف فيهما منظومة سماها «الدرة البيضاء» طبعت مع شرحها بمصر .

ويبدو أنه كان للهندسة حظ غير قليل من الجزائريين . وقد مر بنا فى الفصل الماضى كيف أن عالما تلمسانيا رياضيا ومهندسًا كبيرا فى زمن أبى حمو موسى الثانى (٧٦٠ - ٧٩١هـ) هو أبو الحسن على المعروف بابن الفحام اخترع ساعة دقاقة عجيبة فى أعلاها أيكة تحمل طائرا معه فرخاه احتضنهما تحت جناحية وثعبان خارج من كوة يخاتله فيهما ، وقمر تكتمل دورته كل تمام ساعة أمام باب مغلق فيفتح وينقضُّ منه عقابان وينهش الثعبان أحد الفرخين فيصفر الطائر أبوه . ويفتح باب الساعة الذهبية ، وتتراءى جارية جميلة بيدها صحيفة تعلن رقم الساعة ، والساعة تدق. ومن المهندسين المهمين فى القرن التاسع الهجرى الفلكى المار ذكره الحباك ، وله كتاب فى شكل من الأشكال الهندسية هو الربع المجيب يقول فى مقدمته : « لما كان الربع المجيب أحسن الآلات شكلا وأحقها عملا وأخفها حملا ، مع استخراج الأعمال منه لجميع العروض للوقت المفروض هجس فى خاطرى أن أقيد عليه رسالة تذكرة لنفسى ولمن شاء الله من جنسى » وقد جعله - كما يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله - فى مقدمة وعشرة أبواب تناول فيها الجيب وجيب التمام والسهم والقوس والقطر والدائرة والارتفاع

الذى لاسمت له إلى غير ذلك من مباحث هندسية مع بيان حركات الشمس والقمر ومعرفة مواقيت الصلاة .

ورأينا فى القسم الخاص بتونس أنه كان بها نهضة كبيرة فى دراسة الطب منذ أواخر القرن الثالث الهجرى وامتدت إلى القرن العاشر ، وكان القسم الشرقى من الجزائر حتى قسنطينة وبجاية مندمجا فى الإقليم التونسى إلى نهاية القرن الرابع ، وقامت فيه دولة بنى حماد ، وتكاد تستولى على أكثر الجزائر ، وعنيت بتشجيع العلوم والآداب ، فكان طبيعيا أن تعنى بالطب ، ويلقانا من أطبائها فى القرن الخامس الهجرى ابن النباش محمد بن عبدالله البجائى، وكان يعنى بعلم الطب وعلاج مرضاه عناية شديدة ، ومن أطباء هذه الدولة فى القرن السادس ابن أبى المليح ويقول العماد الأصبهانى فى الخريدة إنه كان طبيبا ماهرا وشاعرا مجيدا ، غير أن اشتهاره إنما هو فى الطب. ونلتقى فى قلعة بنى حماد بصيدلى هو أبوجعفر القلعى عمر بن اليدوخ وكان خبيرا بمعرفة الأدوية المفردة والمركبة، ومن مؤلفاته حواشٍ على كتاب القانون فى الطب لابن سينا. ومن أطباء بجاية فى القرن السابع ابن أندراس محمد بن أحمد الأموى أندلسى من مدينة مرسية هاجر منها إلى بجاية فى عشر الستين وستمائة مستوطنا وكان يدرس للطلاب الطب ويقرئهم كتبه ويقول الغبرينى إنه قرأ عليه أرجوزة ابن سينا فى الطب وجملة من كليات القانون، وكان يحضر دروسه نبهاء الطلبة ويثير فيها من الأبحاث الطبية ماتعجز الكتب عن بيانه، وكان متوليًا لطب الولاة ببجاية مع بعض خواص الأطباء بها ، وله رجز نظم فيه بعض الأدواء، واستدعاه المستنصر الحفصى إلى تونس ولم يلبث أن توفى سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٥م . وكان يعاصره محمد بن يحيى بن عبد السلام وكان له حظ من الطب علمى وعملى ، وكان مزاولا له يعالج المرضى . وننتقل إلى تلمسان فى عهد الدولة الزيانية ، ومن أطبائها المهمين محمد بن أبى جمعة التلالسى أحد أطباء أبى حمو موسى الثانى (٧٦٠-٧٩١هـ) وكان شاعرا مجيدا. ويذكر عبدالباسط بن خليل المصرى الذى زار تلمسان فى أواخر القرن الثامن الهجرى وسجل زيارته لها فى رحلته أنه رأى فيها طبيبين :طبيبًا مسلمًا هو محمد بن على بن فشوش وهو أحد أطبائها فى تدريس الطب ومزاولة المهنة، وطبيبًا يهوديا وفد على تلمسان من الأندلس يسمى موسى بن صمويل ويعرف بابن الأشقر اليهودى ويقول إنه كان ملازمًا لسلطان تلمسان محمد بن أبى ثابت (٧٩٦-٨٠١هـ) . ومن تلاميذ ابن فشوش فى القرن التاسع الهجرى أبو الفضل محمد المشدالى، وكان يعاصره إبراهيم بن أحمد الثغرى وله معجم صغير فى الطب. ونلتقى فى العهد العثمانى بعبد الرزاق بن حمادوش المتوفى حوالى سنة ١١٧٠هـ/١٧٦٥م وله كتاب الجوهر المكنون من بحر القانون فى الطب وفروعه ، وقد طبع منه قسم خاص بالصيدلة يسمى كشف الرموز.

وإذا تركنا العلوم الطبية والرياضية إلى الفلسفة وبدأنا ببجاية التى كانت عاصمة للدولة الحمادية التقينا فيها بنزيلها الأندلسى الحرالى على بن أحمد من قرية من قرى مدينة مُرْسية المتوفى

سنة ٦٣٨هـ/١٢٤١م ويقول الغبريني إنه كان أعلم الناس بالطبيعيات والإلهيات ، وإنه كان يقرأ عليه مع بعض الطلاب كتاب النجاة لابن سينا فيوضح منه ما يليق ويقرره بأحسن طريق ثم ينقضه ويوهنه . ونزل بجاية بعده من مالقة أحمد بن خالد المتوفى حوالى سنة ٦٦٠هـ/١٢٦٢م وكانت له مشاركة فى الفلسفة فى الطبيعيات والإلهيات ، وكان طلاب بجاية يقرءون عليه كتاب الإشارات والتنبيهات لابن سينا من فاتحته إلى خاتمته . وكان يعاصره ابن أساطير على بن عمران المليانى المتوفى سنة ٦٧٠هـ/١٢٧١م وهو من تلامذة الحرالى ومن خواصهم ، وكان الطلاب يقرءون عليه أيضًا كتاب الإشارات والتنبيهات لابن سينا . ونمضى إلى تلمسان فنلتقى بالشريف الحسنى التلمسانى المتوفى سنة ٧٧١هـ/١٣٦٩م والذى انتهت إليه إمامة المالكية بالمغرب ، ويقول يحيى بن خلدون إنه لم يكن يعزب عن علمه فن عقلى ولا نقلى ، وكانت تقرأ عليه كتب ابن سينا من مثل الإشارات والتنبيهات وكتاب الشفاء كما كانت تُقْرَأ عليه تلاخيص ابن رشد لفلسفة أرسطو وبعض كتب التعاليم الرياضية فضلا عما كان يُقْرأ عليه من كتب الدراسات الدينية وما كان يلقيه من محاضرات فى تفسير الذكر الحكيم .

ومنذ القرن التاسع الهجرى يقل القول بأن هذا الفقيه أوذاك درس الحكمة أو درس معقولات الحكماء أو له مشاركة فى الحكمة أو كان حاذقا فى الطبيعيات والإلهيات أو كان يقرأ عليه كتاب النجاة أو كتاب الشفاء لابن سينا فقد أخذ يحل محل ذلك أنه من أهل الورع والنسك أو من أهل التصوف أو أنه من المتصوفة أو الأولياء الكبار مكاشف يتبرَّك به أو أنه متصوف من أهل العرفان أو أنه من العلماء الصالحين الأولياء أو زاهد ورع ذو كرامات أو من أهل الخلوة ترك الدنيا وما فيها أو سالك طرق المتصوفة أو سنن الفضلاء الصلحاء الأمجاد إلى غير ذلك من نعوت تدل على انغماس الفقهاء مع الشعب فى التصوف وطرقه الكثيرة التى عمت الجزائر وخاصة الطريقة الشاذلية وفروعها المتعدده ، وكلما قطعنا شوطًا أو شطرًا من الزمن فى العهد العثمانى ازدادت موجة التصوف – كما مر بنا فى الفصل الماضى – حدة ، وازدادت المؤلفات فيه وفى شيوخه وأقطابه وفرة .

على أن فرعًا من فروع الفلسفة ظل مزدهرًا فى حلقات الشيوخ بالجزائر حتى نهاية هذا العصر ونقصد علم المنطق ، وقد ألف فيه الحرالى المار ذكره كتابًا سماه « المعقولات الأُوَل » . وألف الخَونجى المتوفى سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م كتابًا فى المنطق سماه : « الجمل فى المنطق » تداوله علماء الجزائر سريعا يدرسونه للطلاب ويشرحونه . ويقال إنه لم يكن يوجد ببجاية فى القرن السابع الهجرى أعلم بكتاب الجمل للخونجى من عبد الوهاب بن يوسف المتوفى سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م . وللشريف الحسنى التلمسانى المار آنفا شرح للجمل ، يقول ابن مريم فى كتابه البستان إن العلماء انتفعوا به وأكبّوا عليه قراءة ونسخا . ولابن قنفذ القسنطينى شرح

له ، ولسعيد العقباني معاصره شرح له كان يتداوله العلماء والطلاب ، وشرحه محمد بن مرزوق الحفيد المار ذكره وسمى شرحه : « نهاية الأمل في شرح الجمل للخونجي . ولمحمد بن يوسف السنوسي المحدث المتوفى سنة ٨٩٥هـ/١٤٨٩م ثلاثة أعمال في المنطق : مختصر له فيه شرح مرارا ، وشرح على الجمل للخُونَجي ، وحاشية على شرح إيساغوجي في المنطق للبقاعي . وللفقيه محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني المتوفى سنة ٩٠٩هـ/١٥٠٣م ثلاثة أعمال أيضا في المنطق : مختصر فيه وشرح الجمل للخونجي ومنظومة فيه سماها فتح « الوهاب » وكتب لها ثلاثة شروح . وكان عبد الرحمن السيوطي المصري المشهور معاصره كتب كتابا نهى فيه عن الاشتغال بعلم المنطق وذكر فيه بعض ما قاله العلماء في ذمه ، فكتب إليه قصيدة بديعة يدافع فيها عن علم المنطق وأنه الحق أو يهدى إلى الحق بدلالاته وأشكاله المنطقية السديدة . وقد ظل علم المنطق يدرس في الأزهر كما يدرس في الجزائر وشُغف الأزهريون والجزائريون بمنظومة فيه لعبد الرحمن الأخضري القسنطيني الجزائري المتوفى سنة ٩٥٣هـ/١٥٤٦م وسماها السلَّم وشرحها وهي في مائة وثلاثة وأربعين بيتا ، ويقال إنه نظمها في الحادية والعشرين من عمره ، ووضعت عليها شروح كثيرة لجزائريين ومصريين كما وضعت حواش كثيرة من أهمها حاشية الفقيه الكبير سعيد قدورة المتوفى سنة ١٠٦٦هـ/١٦٥٥م ويقول في مقدمته لها إنها « إضافة لشرح الأخضري على منظومته كالتذييل لما أغفله في شرحه ، مظهرًا لمقاصده ومستخرجًا بعض فوائده » . وظلّ يدرس مع السلم في الجزائر مختصر السنوسي في المنطق وتوضع له بعض الشروح مثل شرح عبد الرزاق بن حمادوش ، المار ذكره سماه « الدرر على المختصر » . وظلت لسلم الأخضري وشروحه وحواشيه الشهرة المدوية .

٣

علوم[١] اللغة والنحو والعروض والبلاغة والنقد

أخذت الجزائر تعنى بعلم اللغة منذ ألمَّ بها أبو علي القالي في طريقه إلى الأندلس زمن عبد الرحمن الناصر ، ونرى بين تلاميذه تلميذا جزائريا هو إبراهيم بن عبد الرحمن التنسي وقد حمل عنه كتابه الأمالي ومحاضراته في اللغة ، ونجد مدينة طبنة عاصمة الزاب تعنى بمادة اللغة ومدارستها ، وينبغ فيها زيادة الله بن علي الطبني نزيل قرطبة في عهد المنصور بن أبي عامر وزير

(١) انظر في علماء اللغة والنحو والعروض والبلاغة إنباه الرواة للقفطي وبغية الوعاة للسيوطي وعنوان الدراية للغبريني وبغية الرواد ليحيى بن خلدون والبستان لابن مريم ومعجم الأعلام الجزائريين لعادل نويهض ، وتاريخ الجزائر الثقافي لأبي القاسم سعد الله ، وتعريف الخلف برجال السلف للحفناوي . وكتاب الجزائر لأحمد توفيق المدني وراجع في النهشلي الأنموذج لابن رشيق ص ١٧٠ وكتابه العمدة في مواضع متعددة . ونشر الدكتور المنجي الكعبي كتابه الممتع .

الخليفة المؤيد منذ سنة ٣٦٦ إلى ٣٩٢ فاحتفى به . يقول ابن بسام فى الذخيرة إنه اتخذه نديمه إذكان من أمتع الناس حديثا وأنصعهم ظرفا ، وأحذقهم بالملاطفة وآخذهم بالقلوب ، وكان عالما لغويا يقول القفطى : « كان من أهل العلم بالآداب واللغات والأشعار ، روى الناس عنه علما كثيرا ، وكان كثير الإغراب » توفى سنة ٤١٥هـ/١٠٢٤م ونشأ ابنه عبد الملك - وكان محدثا - تنشئة لغوية جيدة حتى ليقول السيوطى فى البغية إنه كان إماما فى اللغة له رواية وسماع . وتنهض الدولة الحمادية بالقلعة عاصمتها الأولى وبجاية عاصمتها الثانية نهضة علمية خصبة حتى نهاية مدتها سنة ٥٤٧ وتظل النهضة مطردة فى العاصمتين وتجتذبان كثيرا من علماء الأندلس ، كما مر بنا ، فضلا عن علماء المدن والأصقاع الجزائرية . وينزل بجاية المحدث الأندلسى الكبير عبد الحق الإشبيلى المتوفى سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م ويتولى بجامعها الأعظم الخطبة وصلاة الجمعة كما يتولى بها القضاء ، ويؤلف فى غريب القرآن الكريم والحديث النبوى كتابا ضخما فى ثمانية عشر مجلدا سماه الحاوى ضاهى به كتاب الغريبين فى القرآن والحديث للهروى . وللفقيه التلمسانى محمد بن عبد الحق المتوفى سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٧م كتاب فى غريب الموطأ للإمام مالك . وكان يعاصره يحيى بن عبد المعطى الزواوى المتوفى سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م من كبار علماء العربية ، وكان قد أخذ يكثر فى الجزائر نظم العلوم والمعارف ، وقد نظم معجم الجمهرة فى اللغة لابن دريد ، وحاول نظم معجم الصحاح للجوهرى ولم يكتب له أن يتمه .

وكان محمد بن الحسن بن ميمون القلعى المتوفى سنة ٦٧٣هـ/١٢٧٤م يقرأ للطلاب ببجاية كتاب الأمالى للقالى وكتاب زهر الآداب للحصرى ومقامات الحريرى ومنتخبات من شعر أبى تمام والمتنبى ، وكان شاعرا ونحويا كبيرا مثل ابن عبد المعطى . وكان يعاصره أحمد بن يوسف اللَّبْلى نزيل بجاية المتوفى بها سنة ٦٩١هـ/١٢٩٢م وله شرح على كتاب الفصيح لثعلب وكتاب فى التصريف ضاهى به كتاب الممتع لابن عصفور . ومن لغويى القرن السابع الهجرى ونحاته الكبار يوسف بن يخلف الجزائرى وكان يدرس لطلابه فى بجاية شعر أبى تمام والمتنبى والأشعار الستة برواية الشنتمرى المسندة إلى الأصمعى ، وهى دواوين امرىء القيس وزهير والنابغة وطرفة وعنترة وعلقمة ودواوين أبى العلاء : سقط الزند واللزوميات والحماسة للتبريزى والمرزوقى وإصلاح المنطق لابن السكيت والأمالى لأبى على القالى والمقامات وغير ذلك من الكتب الأدبية .

ولعل فى عمل ابن يخلف اللغوى ببجاية ما يدل بوضوح على مدى العناية الواسعة فيها بمدارسة كتب اللغة والأدب ودواوين الشعر الجاهلية وغير الجاهلية . ولابن مالك كتاب لامية الأفعال عُنى به غير جزائرى ، ولابن العباس محمد التلمسانى المتوفى سنة ٨٧١هـ/١٤٦٧م شرح عليها نوَّه به معاصروه . وتكثر الشروح للأشعار وخاصة قصيدة البردة النبوية للبوصيرى ، ومن أهم شروحها شرح سعيد العقبانى المتوفى سنة ٨١١ وشرح ابن مرزوق الحفيد

المتوفى سنة ٨٤٢ وشرح القلصادى المتوفى سنة ٨٩١ . وتتكاثر الشروح اللغوية فى العهد العثمانى ومن أهمها شرْح عبد الكريم الفكون على أرجوزة المكودى الفاسى فى التصريف ألفه سنة ١٠٤٨ للهجرة ، وكتب محمد بن بدوى الجزائرى سنة ١١٢٧ رسالة الارتضاء فى الفرق بين الضاد والظاء . وبأخرة من العصر كتب محمد بن أحمد الجليلى الملقب بأبى راس المتوفى سنة ١٢٣٨هـ/ ١٨٢٣م كتابا لغويا فى نقد القاموس المحيط سماه : إضاءة القابوس على كتاب القاموس .

وعلى شاكلة ازدهار الدراسات اللغوية فى الجزائر منذ القرن السابع الهجرى تزدهر الدراسات النحوية وحامل لوائها فى هذا القرن يحيى بن عبد المعطى الزواوى المار ذكره بين اللغويين والمتوفى بالقاهرة بعد أن تصدَّر لتدريس النحو واللغة بها فى الجامع العتيق : جامع عمرو ، وله فى النحو ألفية على غرارها نظم ابن مالك ألفيته ، ومن مؤلفاته النحوية شرح لكتاب الجمل للزجاجى وحواشٍ على كتاب أصول النحو لابن السراج ، وكتاب فى النحو سماه العقود والقوانين ، وله كتاب فى شرح أبيات سيبويه . ولعبيد الله النفزى الشاطبى نزيل بجاية المتوفى بها سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م شرح على كتاب المفصل للزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨ للهجرة وكان يتقن شرحه ودرسه للطلاب .

ومن كبار نحاة بجاية فى القرن السابع لغويها المار ذكره يوسف بن يخلف الجزائرى وكان يشرح لطلابه الكتب التالية : كتاب الجمل للزجاجى وكتاب الإيضاح لأبى على الفارسى وكتاب المفصل للزمخشرى ومقدمة ابن بابشاذ النحوى المصرى وقانون أبى موسى الجزولى المتوفى سنة ٦٠٧هـ/١٢١١م أو متنه النحوى المقتضب الذى أخذه عن ابن بُرى المصرى المتوفى سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م . وكان يعاصره محمد بن الحسن بن ميمون القلعى المار ذكره آنفا بين اللغويين وهو من قلعة بنى حماد ، وكان لغويا ونحويا كبيرا مثل ابن يخلف ، استوطن بجاية ، وعاش يدرس لطلابها ويقول تلميذه الغبرينى فى ترجمته : « كان له درس يحضره من الطلبة فضلاؤهم ونبهاؤهم ، وتجرى فيه المذاكرات المختلفة فى التفسير والحديث وأبيات الغريب من الأشعار ، ويعرض من المعانى والأفكار ما لا يكاد يوجد مثله فى نوادر الكتب ، وكان قويا فى علم التصريف ومحبا للتعليل ، جاريا فى ذلك على سنن أبى الفتح بن جنى ، وكان كثير التلامذة والأصحاب ، وتُقْرَأ عليه جميع الكتب النحوية واللغوية والأدبية ، ويقوم على جميعها أحسن قيام ، وهو أفضل من لقيت فى علم العربية » . ويذكر الغبرينى من كتب النحو التى كان يدرسها ابن ميمون القلعى للطلاب كتاب الإيضاح لأبى على الفارسى وكتاب سيبويه والمفصل للزمخشرى وقانون أبى موسى الجزولى المسمى بالجزولية . ومن نحاة بجاية فى القرن السابع عبد الله بن محمد الأغماتى نزيل بجاية ، وكان فى علم العربية بارعا ، وكان يفقه كتاب سيبويه فقها حسنا ، إذ كان من أعلم الناس به ، وكان يقرن مسائله بعضها إلى بعض ويدرك مقاصده

إدراكا دقيقا ، ويقول عنه الغبريني ناقلا عن بعض تلاميذه : « أما كتاب مفصل الزمخشرى وقانون أبى موسى الجزولى فكانا عنده من المبادىء دالا بذلك على تعمقه لكتب النحو ومسائله وقواعده » . ولمحمد بن عبد الرحمن الخزرجى قاضى بجاية المتوفى سنة ٦٩١هـ/١٢٩٢م شرح محكم على الجزولية ، وكان يدرسها للطلاب دراسة جيدة . وللفقيه الكبير ابن قنفذ أحمد بن حسن القسنطينى المتوفى سنة ٨١١هـ/١٤٠٩م الإبراهيمية فى مبادىء علم العربية ، وله على ألفيه ابن مالك شرح سماه « آية السالك إلى ألفية ابن مالك » . وكان ابن مرزوق الحفيد يقرأ لطلابه - أو يُقْرأ عليه - كتاب سيبويه وكتاب الإيضاح لأبى على الفارسى والألفية وكتاب التسهيل لابن مالك والكافية لابن الحاجب وكتاب المغنى وأوضح المسالك لابن هشام . ولمعاصره إبراهيم بن فائد القسنطينى المتوفى سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م شرح على ألفية ابن مالك ، ومنذ ألّف ابن آجُرُّوم الصنهاجى الفاسى المتوفى سنة ٧٢٣هـ/١٣٢٣م متنه البديع فى النحو المسمّى الآجُرُّومية . والعلماء فى الجزائر وغير الجزائر يتناولونه بالدرس والشرح ، ومن شروحه فى الجزائر شرح المحدث الكبير محمد السنوسى المتوفى سنة ٨٩٥هـ/١٤٩٠م وشرح معاصره القلصادى الأندلسى نزيل تلسمان وبجاية المتوفى سنة ٨٩١هـ/١٤٨٦م .

ويظل علماء النحو فى العهد العثمانى يعنون بشرح متن الأجرومية وألفية ابن مالك ، ومن شروح الأجرومية حينئذ شرح محمد بن محمد الصباغ القلعى من نحاة القرن العاشر الهجرى ، ونظمها فى القرن الثانى عشر خليفة بن حسن القمارى فى أرجوزة قيل إنه « يرقص لها المبتدى لسلاسة نظمها وعذوبة موسيقاها » . ومن نحاة الجزائر المهمين فى القرن الحادى عشر يحيى الشاوى المتوفى سنة ١٠٩٦هـ/١٦٨٥م ومن مصنفاته حاشية على شرح المرادى لألفية ابن مالك ، وله شرح على كتاب التسهيل لابن مالك ، ومختصر فى أصول النحو استضاء فيه بكتاب الاقتراح للسيوطى . ويكثر الشارحون لشواهد كتب النحو ، ولأبى القاسم بن محمد البجائى من نحاة القرن الحادى عشر الهجرى شروح لشواهد ثلاثة من كتب ابن هشام ، هى القطر وشذور الذهب والقواعد الصغرى .

وبعض النحاة كان يدرس العروض لطلابه ، ولذلك يُنْعَتُ بالعروضى مثل عبد الله بن محمد القسنطينى المتوفى بأخرة من القرن السادس الهجرى ، وليحيى بن عبد المعطى المذكور بين النحاة واللغويين منظومة فى العروض بجانب ألفيته فى النحو ونظمه اللغوى لمعجم الجمهرة . وينظم ضياء الدين الخزرجى السبتى فى عصر الموحدين قصيدة فى العروض فى نحو مائة بيت ضمّنها قواعد علم العروض والقوافى ، وطارت شهرتها وسميت الخزرجية نسبة إليه ، وينسبها بعض الباحثين المعاصرين خطأ لابن أبى الجيش وليس هو صاحب الخزرجية . وشغف بها الجزائريون وتناولها كثير من أعلامهم بالشرح مثل ابن قنفذ المذكور بين النحاة وسمى شرحه :

« بسط الرموز الخفية فى شرح عروض الخزرجية » وشرحها ابن مرزوق الحفيد وسمى شرحه : « المفاتيح المرزوقية فى استخراج رموز الخزرجية » وشرحها القلصادى ، وله بجانب شرحها مختصر فى العروض . ومن شروح العهد العثمانى على الخزرجية شرح لسعيد قدورة الحفيد المتوفى سنة ١٠٦٦هـ/١٦٥٥م وشرح ثان لبركات بن باديس المتوفى فى أوائل القرن الثانى عشر الهجرى .

وكانت الجزائر – فيما يبدو – تعتمد فى دراسة البلاغة على ما كتبه ابن رشيق المتوفى سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٣م فى كتابه « العمدة فى صناعة الشعر ونقده » وكان قد طار صيته لا فى القيروان وحدها بل فى جميع البلدان المغربية والمشرقية . وأخذت تشيع شرقا وغربا دراسة المتون البلاغية وشروحها فى القرن السابع وما بعده منذ وضع السكاكى مصنفه أو كتابه المفتاح وعرض فيه علمى المعانى والبيان ، وألحق بهما دراسة للمحسنات اللفظية والمعنوية ، وخلفه الخطيب القزوينى وصنع لعرض السكاكى هذه العلوم فى القسم الثالث من كتابه المفتاح تلخيصا ، ولم يلبث أن بسط قضاياه فى كتاب ثان سماه الإيضاح ، منذ ذلك وداروسو البلاغة العربية فى الجزائر وغير الجزائر يُعْنَوْنَ عناية واسعة بكتابيه المذكورين ، وخاصة بالتلخيص إذ أخذ يتجرد غير عالم فى كثير من البلدان العربية لشرحه . وكان الفقيهان الكبيران التلمسانيان ابنا الإمام أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الشريف التلمسانى وأخوه أبو موسى عيسى رحلا إلى المشرق فى شبابهما لأوائل القرن الثامن الهجرى للتزود من حلقات علمائه ولقيا فى رحلتهما بدمشق أو فى القاهرة الخطيب القزوينى قاضى القضاة بهما فى عهد الناصر بن قلاوون ، فحضرا دروسه وحملا عنه مصنفيه البلاغيين : متن التلخيص وكتاب الإيضاح ، وأذاعاهما فى موطنهما ، وكأن الجزائر اشتغلت بهما عقب تأليفهما سريعا مثل مصر والبلدان المشرقية ، ونرى الشريف الحسنى التلمسانى محمد بن أحمد المتوفى سنة ٧٧١ كما مر بنا يعنى بالتلخيص والإيضاح جميعا ويأخذهما عنه الطلاب ، وبالمثل كان يدرسهما للطلاب بتلمسان الحافظ الكبير ابن مرزوق الحفيد المتوفى سنة ٨٤٢ وضم إليهما كتاب المصباح فى علوم المعانى والبيان والبديع لبدر الدين ابن النحوى الكبير ابن مالك المتوفى سنة ٦٨٦هـ/١٢٨٧م . ولمعاصره إبراهيم بن فائد شرح وضعه على متن التلخيص ، وشرحه أيضا محمد بن عبد الكريم المغيلى . ويضع عبد الرحمن الأخضرى فى أوائل العهد العثمانى صاحب متن السلم فى المنطق كتابا مختصرا فى علوم البلاغة سماه : « الجوهر المكنون فى الثلاثة فنون : المعانى والبيان والبديع » وشُرح مرارا ، ومن شروحه شرح محمد بن يوسف الثغرى المتوفى سنة ١١١٥هـ/١٧٠٣م سماه : « موضح السر المدفون فى الجوهر المكنون » ويضع على بن عبد القادر المشهور باسم ابن الأمين حاشية على شرح السعد التفتازانى لمتن التلخيص .

وتُهدى مدينة المسيلة (المحمدية) فى الجزائر إلى القيروان ناقدًا مبكرًا فى أواخر عهد المنصور بن بلكين (٣٦٨ - ٣٨٦ هـ) هو عبد الكريم النهشلى ، وكان شاعرا يحسن الكتابة كما كان شاعرًا مجيدًا فألحقته الدولة بدواوينها وظل بها إلى أن توفى سنة ٤٠٣ هـ/١٠١٢ م . وله فى النقد كتاب يعد باكورة الكتابات النقدية فى البلاد المغربية هو كتاب الممتع فى علم الشعر وعمله . ونشر الدكتور منجى الكعبى اختيارا منه لأحد الأدباء السابقين يقع فى خمسمائة صفحة حققها تحقيقًا علميًا جيدا . ويدل هذا الاختيار على أن النهشلى بنى الكتاب على منتخبات شعرية ونثرية تتخللها نظرات نقدية ، ووزّع المنتخبات على أبواب متعاقبة انتفع بها ابن رشيق فى تأليفه لكتابه : « العمدة فى صناعة الشعر ونقده » كما أوضح ذلك الدكتور منجى فى هوامش التحقيق ببيان ما يلتقى فيه الكتابان من أبواب ونصوص مختلفة منذ الصفحة الثالثة من الممتع إذ نقل ابن رشيق عن عبد الكريم ما قاله من أن « أصل الكلام منثور ثم تعقبت العرب ذلك واحتاجت إلى الغناء بأفعالها وذكر سابقتها ووقائعها وتضمين مآثرها ، إذ كان المنطق هو المؤدى عن عقولهم ، وألسنتهم خدم أفئدتهم » وتبعه ابن رشيق فقال : « وكان الكلام كله منثورا ، فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها وطيب أعراقها وذكر أيامها الصالحة » . ويعقد عبد الكريم ص ٢٤ فصلا فى فضل الشعر ، ويتابعه ابن رشيق بفصل مماثل يردد فيه ما يقوله (انظر صفحتى ٢٤ و ٢٥) . ومن الحق أنه قد يصرح به ولكن فى مواطن معدودة من العمدة ، وقد يأخذ عنه أبوابا مثل باب ألقاب الشعراء ص ١٩٢ وهو فى العمدة (تحقيق محيى الدين عبد الحميد) ٣٣/١ وباب احتماء العرب بالشعر وذبهم به عن الأعراض ص ٢٢٠ وهو عند ابن رشيق فى ٤٩/١ وباب الأنفة من السؤال ص ٢٤٩ وهو عند ابن رشيق باب التكسب بالشعر والأنفة منه ص ٦٣ ويقول الدكتور منجى فى الهامش : « وتجد عند ابن رشيق فصولا كثيرة من هذا الباب ضمن أبواب أخرى لها علاقة به مثل باب الاقتضاء والاستنجاز فى الجزء الثانى من العمدة . ومن ذلك باب فيمن نوه به المدح وحطّه الهجاء ص٢٤٣ وهو عند ابن رشيق ٢٩/١ . ومن ذلك باب فيه النهى عن تعرض الشعراء ص ٢٧٩ وهو عند ابن رشيق ٥٩/١ . والكتاب يحمل فى كل باب وفى كل موضوع نصوصا أدبية : شعرية ونثرية بديعة تدل - دلالة واضحة -على ما كان يمتلكه عبد الكريم النهشلى من ذوق أدبى مرهف مع حسن العرض . ويبدو أن أصل الكتاب كان يحمل بعض نظرات نقدية بارعة لم يعن صانع المختار من الكتاب بإثباتها ، بدليل ما سجل ابن رشيق منها ، إذ عقد فى الجزء الأول من العمدة فصلا للقدماء والمحدثين ذهب فيه مذهب ابن قتيبة فى أنه ينبغى أن لا يقدَّم فى الشعر القديم لقدمه ولا الحديث لحداثته ، إذ المعوَّل فى ذلك على جودة الشعر لا على قدمه أو حداثته ، ولا يلبث أن يقول : « ولم أر فى هذا النوع أحسن من فصل أتى به عبد الكريم (النهشلى) فإنه قال :

« قد تختلف المقامات والأزمنة والبلاد ، فيحسن فى وقت ما لا يحسن فى آخر ، ويُستَحْسَنُ عند أهل بلد ما لا يستحسن عند أهل غيره ، ونجد الشعراء الحذاق تقابل كل زمان بما استُجيد فيه وكثر استعماله عند أهله ، بعد أن لا تخرج من حسن الاستواء وحدِّ الاعتدال وجودة الصنعة ، وربما استعملت فى بلد ألفاظ لا تستعمل كثيرا فى غيره كاستعمال أهل البصرة بعض كلام أهل فارس فى أشعارهم ونوادر حكاياتهم . قال : والذى أختاره أنا التجويد والتحسين الذى يختاره علماء الناس بالشعر ، ويبقى غابره على الدهر ، ويبعد عن الوحشىِّ المستكره ، ويرتفع عن المولد المنتحل ، ويتضمن المثل السائر والتشبيه المصيب والاستعارة الحسنة » .

فعبد الكريم يرى أن الجودة فى الشعر تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة وأن المدار فيها ليس على القدم والحداثة ولا على بلد شرقا دون بلد غربا إنما المدار فيها على حسن النسق وجمال الصياغة بحيث لا يكون الكلام حوشيا جافيا ولا مولَّدا سفسافا غثًّا بل يكون رصينا جزلا أو رقيقا سلسا مع ما يحمل من تلاوين التشبيهات والاستعارات البارعة . ونمضى مع ابن رشيق فى الجزء الأول من كتابه العمدة فنجده يعقد بابا فى الشعراء والشعر يذكر فيه عن عبد الكريم قوله : « الشعر أصناف ، فشعر هو خير كله ، وذلك ما كان فى باب الزهد والمواعظ الحسنة والمثل العائد على من تمثَّل به بالخير وما أشبه ذلك ، وشعر هو ظرف كله ، وذلك القول فى الأوصاف والنعوت والتشبيه وما يفتنّ به من المعانى والآداب ، وشعر هو شر كله ، وذلك الهجاء وما تسرَّع به الشاعر إلى أعراض الناس ، وشعر يتكسَّب به ، وذلك أن يحْمل إلى كل سوق ما يَنْفُق فيها ويخاطب كل إنسان من حيث هو ويأتى إليه من جهة فهمه » .

وهى أنواع تستقصى أغراض الشعر ، فمنه الخيِّر الذى يهدى إلى السَّنن القويم من الزهد والسلوك المستقيم إيثارا لما عند الله من الثواب على متاع الحياة الفانى، ومنه ما تستريح إليه النفس من وصف الطبيعة ومن الحكم والمعانى الطريفة، ومنه ماهو شر خالص وهو الهجاء المقذع الذى ينتهك الأعراض، ومنه ما يتكسب به ، وهو شعر المديح الذى يعود على صاحبه بالنفع فى كل سوق. ويعقد ابن رشيق عقب هذا الباب بابا لحد الشعر وبنيته، ويذكر فيه لعبدالكريم قوله :

« يجمع أصناف الشعر أربعة : المديح والهجاء والحكمة واللهو ، ثم يتفرَّع من كل صنف من ذلك فنون فيكون من المديح المراثى والافتخار والشكر ، ويكون من الهجاء الذم والعتاب والاستبطاء ، ويكون من الحكمة الأمثال والتزهيد والمواعظ ، ويكون من اللهو الغزل والطرد والخمر والمخمور » . وفنون الشعر الأربعة التى ذكرها عبدالكريم نقلها عن ابن وهب فى كتابه نقد النثر ، وقد عرف كيف يرد إليها كل أغراض الشعر ، فالمديح منه الرثاء إذ هو مديح لميت ، ومنه الفخر إذ هو مديح للشاعر الذى نظمه ، مديح لنفسه ، وكذلك الشكر مديح لمن يقدم إليه وعرفان بفضله ، ومن السهل إدخال الذم فى الهجاء أما العقاب والاستبطاء فيدخلان فيه بشىء من التوسع إذ قد ينقلبان هجاء . وبحق تدخل الأمثال فى الحكمة كما يدخل فيها

التزهيد والوعظ لأنهما يقومان على ضرب الأمثال والتأمل فى مصير الإنسان وما ينتظر من السعادة أو الشقاء فى الآخرة ، ويدخل فى اللهو الانشغال عن الحياة الجادة بالغزل أو بالصيد أو بالخمر أسوأ صور اللهو الماجن » .

وواضح أننا عرفنا عن طريق الفِقَر الثلاث السالفة التى نقلها ابن رشيق عن كتاب الممتع فى علم الشعر وعمله لعبد الكريم النهشلى جانبا من نظراته النقدية التى ضمنها كتابه ، ونظن ظنا أنه كان فى الكتاب نظرات نقدية أخرى مماثلة أهملها - كما ذكرنا - صانع هذا الاختيار الذى حققه ونشره الدكتور منجى الكعبى . ولم يظهر بعد عبد الكريم فى الجزائر ناقد على شاكلته إلا ما كان من ظهور ابن رشيق الناقد الفذ مواطنه الذى ولد مثله بالمسيلة الجزائرية ونشأ بها وعلمه أبوه صنعته وهى الصياغة وهاجر فى سن السادسة عشرة إلى القيروان فتأدب بها ونضجت فيها موهبته الأدبية والنقدية وظل مستوطننا لها بقية حياته بحيث عُدَّ من أهلها وأدبائها ، ولذلك تحدثنا فى القسم الخاص بالإقليم التونسى عنه وعن كتابه العمدة فى صناعة الشعر ونقده الذى يُعَد بحق أروع عمل نقدى أنتجته البلدان المغربية طوال هذا العصر .

٤

علوم(١) القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

يعكف المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها على حفظ القرآن الكريم وتلاوته ، وحين نشأت فيه القراءات أخذ يحملها عن أئمتها فى المشرق مقرئون كثيرون فى المغرب ولا بدأن

---

(١) راجع فى القراء غاية النهاية فى طبقات القراء لابن الجزرى وعنوان الدراية فى علماء بجاية للغبرينى وبغية الرواد ليحيى بن خلدون والبستان فى ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لابن مريم وتعريف الخلف برجال السلف للحفناوى وتاريخ الجزائر الثقافى للدكتور سعد الله . وانظر فى المفسرين عنوان الدراية وبغية الرواد والبستان وتعريف الخلف برجال السلف وكتاب الجزائر لأحمد توفيق المدنى فى الحالة العلمية فى الجزائر وتاريخ الجزائر الثقافى من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر لسعد الله . وراجع فى المحدثين طبقات أبى العرب والديباج المذهب لابن فرحون والجزء الأول من الذخيرة لابن بسام فى أسرة بنى الطبنى وعنوان الدراية وبغية الرواد والوفيات لابن قنفذ والبستان وتعريف الخلف وكتاب الجزائر للمدنى وتاريخ الجزائر الثقافى لسعد الله . وانظر فى الفقهاء طبقات أبى العرب والخشنى والرياض للمالكى وما ذكر من مصادر الإباضية والديباج المذهب لابن فرحون وعنوان الدراية وما ذكر معه من المصادر فى المحدثين ، وعلم الفقه فى مقدمة ابن خلدون . وراجع فى المذاهب الكلامية وخاصة الاعتزال والأشعرى ما كتبناه عنهما فى العصرين العباسيين الأول والثانى وكذلك ما كتبناه فى تونس وانظر فى مبادىء الإباضية دبوز فى تاريخ المغرب الكبير ، وراجع فى الاعتزال ونشره فى المغرب والجزائر لمهد واصل مؤسسه كتاب فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة بتحقيق فؤاد سيد . وانظر فى المناظرة بين إباضية تاهرت والمعتزلة ونشوب الحرب بينهما أخبار الأئمة الرستميين لابن الصغير ، وانظر فى تآليف علم الكلام وكثرتها البستان وتعريف الخلف ، وتاريخ الجزائر الثقافى ، وراجع فى كتابات الإباضيين فى علم الكلام كتاب الجزائر لأحمد توفيق المدنى .

كان للجزائر حظ كبير من هؤلاء المقرئين مثل بقية البلاد الإسلامية ، ويذكر ابن الجزرى من كبار قرائها فى القرن الرابع الهجرى عبد الحكم بن إبراهيم نزيل بجاية تلميذ ابن خيرون كبير القراء فى القيروان وقد حمل عنه قراءة ورش المصرى عن نافع وهى القراءة التى لا تزال فى البلاد المغربية إلى اليوم . ومن كبار القراء فى القرن الخامس الهجرى يوسف بن على بن جبارة من بسكرة عاصمة الزاب ، وله كتاب الكامل فى القراءات العشر ، ويقول ابن الجزرى إنه طاف البلاد فى طلب القراءات ، ويذكر فى كتابه الكامل إنه لقى ثلاثمائة وخمسة وستين مقرئا من شيوخ القراء وذكر منهم فى كتابه مائة واثنين وعشرين شيخا . ومن قراء القرن السادس ابن عفراء محمد بن عبد العزيز وعنه حمل القراءات محمد بن عبد الله القلعى المتوفى سنة ٦١١هـ/١٢١٤م ويقول الغبرينى إنه جلس للأستاذية ببجاية وأقرأ الناس وانتفعوا به . وكان يعاصره ببجاية المقرىء أحمد بن محمد المعافرى قرأ عليه عالَمٌ واستفاد منه خلق كثير ، وله مختصر كتاب التيسير للدانى فى القراءات السبع ، وبالمثل أحمد بن محمد الصدفى المتوفى سنة ٦٧٤ وله كتابان فى قراءة ورش . ومن قراء القرن السابع الذين ذكرهم ابن الجزرى فى غاية النهاية سعيد بن على بن زاهر المتوفى سنة ٦٥٤ هـ/١٢٥٦م استوطن بجاية وأقرأ بها الطلاب ، ومثله محمد بن صالح الكنانى المتوفى سنة ٦٩٩ هـ/١٢٩٧م ولى إقامة الفريضة والخطبة بجامع بجاية الأعظم ما ينيف على ثلاثين عاما ، وكان مع إملائه القراءات يقرأ للطلاب مفصل الزمخشرى ودواوين الأشعار الستة وأبى تمام والمتنبى . ومن مقرئى القرن الثامن الهجرى محمد بن محمد بن غريون البجائى تلميذ محمد بن صالح الكنانى وأستاذ محمد بن محمد البلفيقى ببجاية ، وكان يقرىء القراءات الثمان . ومن المقرئين فى منتصف القرن الثامن أحمد بن محمد الزواوى مقرىء قسنطينة ، ومن مقرئى النصف الثانى من هذا القرن يحيى بن موسى الغمارى مقرىء بجاية . وكان يعاصره يعقوب بن على الصنهاجى شيخ أهل تلمسان فى القراءات .

ومن كبار القراء فى القرن التاسع ابن مرزوق الحفيد ، وله فى القراءات أرجوزة فى محاذاة الشاطبية المشهورة ، وتلاه فى العناية بالقراءات بأخرة من القرن محمد بن يوسف السنوسى وله شرح كبير على الشاطبية ومختصر فى القراءات السبع ، وكان يعاصره محمد بن أحمد المصمودى وله فى القراءات رجز باسم : « المنحة المحكية لمبتدىء القراءة المكية » عرض فيها الخلاف بين قراءة ابن كثير المكى ونافع المدنى ، ومن معاصريه محمد بن شقرون الوهرانى وله كتاب تقريب النافع فى الطرق العشر (طرق الروايات) لنافع ، وهى أكثر من ذلك فى حديث ابن مجاهد عن أسانيد قراءة نافع فى مقدمته لكتابه : « السبعة » . واشتهرت زواوة فى العهد العثمانى بكثرة المقرئين فيها ، ومن أشهرهم فى أواخر القرن الحادى عشر وأوائل الثانى عشر محمد بن صولة وكان الطلاب يأخذون عنه القراءات السبع . ولابد أن كان بالجزائر مقرئون آخرون فى

زواوة وغيرها يتجاوزون القراءات السبع إلى ما بعدها من القراءات العشر ، وربما إلى ما وراءها من القراءات .

وللجزائر نشاط في التفسير مماثل لنشاطها في القراءات ، وخاصة منذ القرن السادس الهجرى ، وفيه نلتقى بيوسف بن إبراهيم الورجلانى الإباضى المتوفى ببلدته : ورجلان سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٥ م ويذكر أحمد توفيق المدنى فى كتاب الجزائر أنه كان له فى التفسير كتاب كبير فى ٧٠ جزءًا . ويتكاثر المفسرون بالجزائر منذ القرن السابع ، ومنهم على بن أحمد الحرالى نزيل بجاية المار ذكره ، ويقول الغبرينى : « له تفسير على كتاب الله تعالى سلك فيه سبيل التحرير فتكلم عليه لفظة لفظة وحرفا حرفا » ومن مفسرى القرن السابع بتلمسان ابن أبى العيش الخزرجى محمد بن عبد الرحيم وفيه يقول يحيى بن خلدون فى كتابه بغية الرواد : له مشاركات فى فنون العلم وكان مؤلفا متقنا فسَّر الكتاب العزيز . ومن مفسرى القرن الثامن الهجرى الشريف الحسنى التلمسانى محمد بن أحمد إمام المغرب قاطبة ، وفيه يقول ابن مريم : « فسَّر القرآن فى خمس وعشرين سنة أتى فيه بالعجب العجاب ، وكان عالما بحروفه ونحوه وقراءاته وبيانه وبلاغته وأحكامه ومعانيه » . ومن مفسرى القرن التاسع سعيد العقبانى المتوفى سنة ٨١١ هـ/١٤٠٨م وله تفسير لسورة الأنعام والفتح والفاتحة أتى فيه بفوائد جليلة ، ولإبراهيم بن فائد المتوفى سنة ٨٥٧ هـ/١٤٥٣م تفسير للقرآن الكريم . ونلتقى بالمفسر الكبير عبد الرحمن الثعالبى التلمسانى المتوفى سنة ٨٧٥ هـ/١٤٧٠م وله تفسير دوَّت شهرته فى عصره والعصور التالية اختصر فيه تفسير عبد الحق بن عطيه الأندلسى ورجع فيه إلى عشرات من كتب التفسير ، يقول فى مقدمته : « ضمنته — بحمد الله — المهم مما اشتمل عليه تفسير ابن عطية ، وزدته فوائد جمة من غيره من كتب الأئمة وثقات أعلام هذه الأمة حسبما رأيته ورويته عن الأثبات ، وذلك قريب من مائة تأليف ، وما منها تأليف إلا وهو منسوب لإمام مشهور بالدين ومعدود فى المحققين ، وكل من نقلت عنه من المفسرين شيئا فمن تأليفه نقلت وعلى لفظ صاحبه عوَّلت ، ولم أنقل شيئا من ذلك بالمعنى خوف الوقوع فى الزلل » وقد سمى تفسيره : « الجواهر الحسان فى تفسير القرآن » . وقوله إنه رجع فى التأليف إلى مائة تفسير يدل — بوضوح — على أن المشرق لم يؤلف تفسيرا مهما إلا نقله الشيوخ إلى الجزائر . ولا يختص هذا العمل من نقل التراث العلمى المشرقى إلى الجزائر بالتفسير وحده ، فقد عم هذا التراث فى القراءات والحديث النبوى والفقه وعلم الكلام والتاريخ وكتب النحو ومعاجم اللغة ، بفضل طلاب العلم الجزائريين وشيوخه البررة الذين ظلوا يحملونه طوال القرون الماضية إلى بلدان الجزائر وغير الجزائر من الأقاليم المغربية . ولمحمد السنوسى مختصر حاشية التفتازانى على تفسير الزمخشرى المسمى بالكشاف . ومن تلاميذ الثعالبى محمد بن عبد الكريم المغيلى المار ذكره ، ومن مصنفاته : « البدر المنير فى علوم التفسير » . ونلتقى فى العهد العثمانى بيحيى الشاوى المار ذكره المتوفى سنة ١٠٩٦ هـ/١٦٨٥م وله فى

التفسير كتاب في أجوبته على اعتراضات أبي حيان الأندلسي في تفسيره المحيط على عبد الحق بن عطية والزمخشري . وبأخرة من هذا العصر نلتقي بمحمد بن أحمد بن عبد القادر الملقب بأبي راس ، وله تفسير في ثلاثة مجلدات .

وزخرت الجزائر بالنشاط في دراسات الحديث النبوي مثلها في ذلك مثل بقية البلاد الإسلامية فكثر بها المحدثون من أبنائها والنازحين إليها من الأندلس والبلدان المغربية والمشرقية ، ومن أوائل الوافدين عليها من المحدثين أبو معمر عباد بن عبد الصمد التميمي من أهل البصرة كان قد لقى الصحابي أنس بن مالك وعليه معتمده وكذلك لقى الحسن البصري وعطاء بن أبي رباح التابعيين وروى عنهم جميعا الحديث وقدم البلاد المغربية فأخذ الحديث عنه أناس كثيرون في طرابلس والقيروان وقسنطينة وبها توفي ، ويقول أبو العرب في طبقاته إنه روى مناكير في الحديث عن أنس لم يروها غيره ولكنه مشهور بكثرة من أخذ الحديث عنه . وممن بكروا في النزوح إليها من الأندلس سعيد بن فحلون نزيل بجاية المتوفى بها سنة ٣٤٦هـ/٩٥٨م عن ثلاث وتسعين سنة ، وكان قد رحل إلى المشرق وحمل عن النسائي كتابه السُّنن أحد كتب الصحاح الستة المشهورة ، وكانت إليه الرحلة للسماع من البلدان الأندلسية . وفي نفس هذا القرن الرابع استوطن أحمد بن نصر الداودي تلمسان حتى وفاته سنة ٤٠٢هـ/١٠١٢م ، وكان فقيها كبيرا وله شرح على صحيح البخاري سماه النصيحة . واشتهرت في طبنة عاصمة الزاب في القرون الأولى أسرة بني الطبني برواية الحديث النبوي ، ومنها عبد الملك بن زيادة الله الطبني نزيل قرطبة المتوفى سنة ٤٥٧ . ومن محدثي القرن السادس بتلمسان يعقوب بن أحمد ، لقى بمرسية في الأندلس أبا علي الصدفي سنة ٥١١ وعاد إلى تلمسان فحدَّث الطلاب بها إلى وفاته . ومن كبار المحدثين في نفس القرن عبد الحق الإشبيلي نزيل بجاية المتوفى بها المار ذكره ، وله الأحكام الكبرى في الحديث ست مجلدات والأحكام الصغرى والأحكام الوسطى والجمع بين الصحيحين : صحيح البخاري وصحيح مسلم . وكان يعاصره مواطنه أبو بكر بن سعادة الإشبيلي نزيل تلمسان المتوفى سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٤م ويقول ابن مريم : « كان ضابطا نقادا محدثا عالي الرواية » ومن تلاميذه ابن أبي العيش الخزرجي . ومن محدثي الإباضيين يوسف بن إبراهيم الورجلاني المار ذكره بين المفسرين وله ترتيب مسند الربيع بن حبيب الإباضي البصري المتوفى سنة ١٧٠هـ/٧٨٧م . ومن محدثي القرن السابع أبو زكريا الزواوي استوطن بجاية وتوفي بها سنة ٦١١هـ/١٢١٤م وكان يُقْرأ عليه صحيح البخاري إلى وفاته عن سنٍّ عالية . ومن محدثي هذا القرن في مدينة الجزائر محمد بن قاسم بن منداس المتوفى بها سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٦م وكان يعكف على تدريس علوم الحديث . وكان يعاصره في بجاية علي بن فتح بن عبد الله المتوفى بها سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٥م واشتهر بسنده العالي لصحيح البخاري الذي أخذه في رحلته إلى المشرق ، إذ أخذه عن أبي محمد بن يونس عن أبي الوقت وروايته إحدى الروايات الأساسية

التى اعتمد عليها اليونينى فى إخراج صحيح البخارى وتحقيق نصوصه ، وسمع أبو الوقت روايته عن أبى الحسن الداودى عن ابن حموية عن محمد بن يوسف الفَرَبْرى عن الإمام محمد بن إسماعيل البخارى . وهو سند عال لصحيح البخارى ، تسامع به الأندلسيون فرحلوا إلى بجاية لأخذ رواية صحيح البخارى عنه لقصور سندهم له عن هذا السند . وكان يعاصره أحمد بن محمد بن السراج الإشبيلى نزيل بجاية المتوفى سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٨م وكانت له فى الحديث رواية عالية . وكان يعاصرهما حسن بن على بن قنفذ محدث بلده : قسنطينة المتوفى بها سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م . وتوفى بمطلع القرن الثامن المحدث الفقيه قاضى الجماعة ببجاية أحمد بن محمد الغبرينى صاحب كتاب عنوان الدراية فى علماء بجاية .

ومن محدثى القرن الثامن الهجرى محمد بن يحيى الباهلى البجائى المتوفى سنة ٧٤٤ ومحمد بن أحمد بن مرزوق الخطيب التلمسانى المتوفى سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٨م ويقول ابن قنفذ فى كتابه الوفيات : كان له طريق واضح فى الحديث وأسْمَعَنا حديث البخارى وغيره ، وله شرح جليل على كتاب عمدة الأحكام فى الحديث ، وأيضا شرح على كتاب الشفاء للقاضى عياض . وفى سنة ٧٨٤هـ توفى محدث قسنطينة وقاضيها حسن بن ميمون بن باديس . ومن كبار المحدثين فى القرن التاسع الهجرى محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن مرزوق الملقب بالحفيد إشارة إلى أنه حفيد ابن مرزوق الخطيب ، الحافظ المحدث الثقة جامع أشتات العلوم الشرعية والعقلية ، وكان لا يترك علما عقليا ولا نقليا إلا ألف فيه ، فهو يؤلف فى المنطق كما مر بنا وفى النحو وفى الفقه وينظم فى علوم الحديث أرجوزتين كبرى باسم الروضة وصغرى باسم الحديقة ويدرس للطلاب الصحيحين : صحيح البخارى وصحيح مسلم وجامع الترمذى وسنن أبى داود وعمدة الأحكام فى الحديث سوى الأمهات فى الفقه المالكى والنحو والعربية والبلاغة . وكان يعاصره أحمد بن زاغو المتوفى سنة ٨٤٥هـ/١٤٤٢م وله شرح على صحيح البخارى وشرح على صحيح مسلم . ونلتقى بأخرة من هذا القرن بالإمام محمد السنوسى ، وله مختصر لشرح الأُبّى على مسلم ، وشرح خصه بمشكلات البخارى ومختصر لشرح الزركشى عليه . ونلتقى فى العهد العثمانى بأسماء علماء كثيرين يدرسون للطلاب بعض أمهات كتب الحديث وخاصة صحيح البخارى ، وكانت تقام المهرجانات لختمه فى رمضان . وكان ابن أبى جمرة قد عُنى بوضع مختصر لصحيح البخارى فشرحه عبد القادر المجاجى . ويضع بأخرة من العصر عبد العزيز الثمينى الإباضى مختصرا لحاشية مسند الربيع بن حبيب فى ثلاثة أجزاء ، ويضع معاصره أحمد بن عمار حاشية على صحيح البخارى .

ومنذ الفتح الإسلامى يتجرد كثيرون من الجيوش الفاتحة لنشر الإسلام فى الجزائر وغيرها من البلاد المغربية وتعليم أهلها الشريعة الإسلامية وتحفيظهم القرآن الكريم . ومرَّ بنا فى هذا

الفصل كيف أن موسى بن نصير (٨٦-٩٦هـ) ظل خلال مسيرة جيشه حتى المحيط يترك فى كل بلد مغربى فى الجزائر وغير الجزائر معلمين يحفظون أهله القرآن ويفقهونهم على تعاليم الإسلام وعلى قواعد العربية . ويظل معلمون قائمين بذلك طوال القرن الأول الهجرى ، وكان عمر بن عبد العزيز فى آخر هذا القرن قد أرسل إلى القيروان عشرة من الفقهاء ليعلموا الناس فروض الشريعة ، ومنذ هذا الحين أخذت تزدهر فى القيروان - عاصمة المغرب جميعه حينذاك - الدراسات الفقهية ، وأخذ كثيرون من أهل الجزائر يؤمونها ليحسنوا معرفة الفقه ويبثوها فى بلدانهم ، وكان منهم - من يقتدى بشباب القيروان فيرحل إلى المشرق للنهل من حلقات فقهائه الكبار فى الحجاز والعراق وخاصة حلقة الإمام مالك بن أنس (٩٣-١٧٩هـ) . ومن أوائل الجزائريين الراحلين إلى المدينة للاستماع إليه والتلمذة عليه أبو القاسم عبد الله الزواوى . ونلتقى مع أواخر القرن الثانى وأوائل الثالث للهجرة بفقيه جزائرى هو إبراهيم الطبنى الذى كان يشارك أسد بن الفرات فى القضاء .

وكانت الدولة الرستمية الإباضية قد نشأت منذ أواسط القرن الثانى وتولى أمورها الإمام عبد الوهاب ، وهو من أوائل الفقهاء الإباضيين إذ ينسب إليه الأستاذ دبوز فى تاريخ المغرب الكبير كتابًا يجمع فتاويه الشرعية لأتباعه يسمى نوازل نفوسة . واشتهر قضاة مالكية فى أواسط القرن الثالث ولأهم سحنون فى بعض مدن الجزائر حين أصبح قاضى القيروان : عاصمة الإقليم التونسى وشرقى الجزائر حينذاك منهم حمدون قاضى طبنة وعلى بن منصور قاضى ميلة ويحيى بن خالد السهمى قاضى الزاب ، وكانوا جميعا يعنون بنشر الفقه المالكى الذى درسوه على أستاذهم سحنون . ومن الفقهاء الجزائريين فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى عبد الملك بن سيانح أستاذ فضل بن سلمة البجائى المتوفى سنة ٣١٩هـ/٩٣٢م وكان من أعرف الفقهاء باختلاف أصحاب مالك ، وكان يُرْحَلُ إليه للسَّماع منه ، أقرأ - ودرَّس - بالمسجد الجامع فى بجاية ، وله مختصر لمدوَّنة سحنون فقيه القيروان ومختصر ثان لكتاب الواضحة لعبد الملك بن حبيب فقيه قرطبة المعاصر لسحنون والمتوفى سنة ٢٣٨هـ/٨٥٢م وقد زاد فيه من فقهه كثيرا ، وله مختصر ثالث لكتاب الفقيه المالكى المصرى ابن المواز . ونلتقى فى القرن الخامس بمروان بن على نزيل بونة (عنابة) المتوفى قبل سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م وله شرح على الموطأ لمالك نوَّه به ابن فرحون .

وفى نفس القرن الخامس يلمع بين الإباضيين فقيه يسمى أحمد بن محمد بن بكر ولد لأبيه القادم إلى وادى ميزاب من جبل نفوسة بليبيا . ويقال إن أباه هو الذى أسس هيئة العزابة فى بلدان قرى ومدن ميزاب ، ويقال بل مؤسسها هناك ابنه أحمد المذكور المتوفى سنة ٥٠٤هـ/١١١١م كما يذكر معمر فى كتابه الإباضية فى موكب التاريخ ، وهى هيئة دينية عليا تشرف على جميع شئون المجتمع الإباضى فى كل مدينة وقرية ومنها يختار شيخ البلد والمفتى

وناظر الأوقاف ومؤدِّب الناشئة والمؤذن والإمام . وكان أحمد فقيها وله من المصنفات كتاب أحكام الحرب وكتاب القسمة وكتاب أصول الأرضين فى كل ما يتصل بها من شئون الملكية والاستثمار والضرائب وهو فى ستة أجزاء ، وله أيضا كتاب الألواح وكتاب تبين أفعال العباد .

ومن كبار فقهاء المالكية فى القرن السادس أبو الحسن على بن عبد الرحمن بن أبى قنون المتوفى سنة ٥٥٧هـ/١١٦٢م وله المقتضب الأشفى فى اختصار المستصفى للغزالى . ومن فقهاء الظاهرية عبد الله بن جبل الوهرانى الظاهرى المذهب قاضى عبد المؤمن مؤسس دولة الموحدين . ومنهم ميمون بن جبارة المتوفى سنة ٥٨٤هـ/١١٨٩م قاضى بجاية ، وكان الطلاب يقرءون عليه معيار المعالم والمقاصد للغزالى ، ومنهم محمد بن على بن مروان بن جبل قاضى الناصر الموحدى المتوفى سنة ٦٠١هـ/١٢٠٤م .

ومن فقهاء الإباضية فى هذا القرن يوسف بن إبراهيم الورجلانى المتوفى سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م ، وهو تلميذ أحمد بن محمد بن بكر السابق ذكره بين المفسرين – المحدثين ، وله كتاب العدل فى أصول الفقه فى ثلاثة أجزاء وكتاب مرج البحرين . ومن كبار فقهاء المالكية فى القرن السابع الهجرى أبو زكريا الزواوى البجائى المتوفى سنة ٦١١هـ/١٢١٥م ومنهم محمد بن عبد الحق التلمسانى المتوفى سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٨م وله فى الفقه : المختار فى الجمع بين المنتقى للباجى والاستذكار ، وكتاب غريب الموطأ ، ومنهم أبو الحسن على المشهور بابن الزيات مستوطن بجاية ، وكان الطلاب يقرءون عليه تهذيب مدوَّنة سحنون وكتاب التلقين لعبد الوهاب إمام المالكية وكتاب التفريع لابن الجلاب وكتاب الرسالة لابن أبى زيد . ومنهم إبراهيم بن أبى بكر التلمسانى المتوفى بأخرة من سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٧م وكان فقيها نابها ، وله فى الفرائض أرجوزة لُقِّبت بلقب « التلمسانية » وهى ضابطة للفرائض محكمة عجيبة الوضع كما يقول ابن فرحون ، وشرحها غير فقيه جزائرى مثل ابن زاغو والحباك .

ومن فقهاء بجاية المهمين أبو على ناصر الدين الزواوى وهو الذى جلب إلى بجاية والمغرب مختصر ابن الحاجب فى الفقه المالكى آخر المائة السابعة ومن هذا التاريخ عكف عليه أهل بجاية والمغرب يدرسونه ويشرحونه . ومن كبار الفقهاء فى القرن الثامن الهجرى أبو زيد بن الإمام المتوفى سنة ٧٤٣هـ/١٣٤٣م وأبو موسى بن الإمام المتوفى سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٩م نزلا تلمسان أيام أبى حمو موسى الأول (٧٠١–٧١٨هـ) فبنى لهما المدرسة المعروفة باسم مدرسة أبناء الإمام كما مر ، وكان يعاصرهما عمران المشدالى المتوفى سنة ٧٤٥هـ/١٣٤٥م ويقول يحيى بن خلدون : « لم يكن فى معاصريه أحد مثله علما بمذهب مالك وحفظا لأقوال الصحابة وعرفانا بنوازل الأحكام وصوابا فى الفتيا » وفى كتاب تعريف الخلف برجال السلف مناظرة بينه وبين أبى زيد الإمام موضوعها الفقيه المصرى عبد الرحمن بن القاسم الذى حمل عنه سحنون المدوَّنة المنسوبة إليه خطأ وهى من إملاء أستاذه عبد الرحمن .

وقد تناظر الفقيهان في عبد الرحمن بن القاسم هل هو مقلد أو هو مجتهد . وقال عمران إنه مجتهد اجتهادا مطلقا بدليل مخالفته لمالك في كثير من المسائل . ونلتقي في القرن الثامن بالإمام العالم الفذ فارس المعقول والمنقول محمد بن أحمد الشريف الحسني التلمساني المتوفى سنة ٧٧١هـ/١٣٧٠م ومرَّ ذكره في علوم الأوائل وبين المفسرين وإليه انتهت إمامة المذهب الفقهي المالكي في عصره ، وكان مع علمه الواسع بالفقه عالما بأصوله ، ومن مصنفاته مفتاح الوصول في بناء الفروع على الأصول طبَّق فيه الأصول على مسائل الفقه ، ويقول ابن خلدون إنه ملأ المغرب معارف وتلاميذ . ومن فقهاء هذا القرن عبد الرحمن الوغليسي المتوفى سنة ٧٨٦هـ/١٣٨٥م شيخ العلماء في بجاية وعالمها ومفتيها ، وله « الجامعة في الأحكام الفقهية على مذهب الإمام مالك » ، وتسمى : « الوغليسية » نسبة إليه .

ومن كبار فقهاء القرن التاسع الهجري أحمد بن حسن المشهور باسم ابن قنفذ قاضي قسنطينة المتوفى سنة ٨٠٩هـ/١٤٠٦م ، وله شرح على رسالة ابن أبي زيد في الفقه المالكي وشرح ثان على كتاب التفريع لابن الجلاب المالكي وشرح ثالث على الأرجوزة التلمسانية باسم معونة الرائض في مبادىء الفرائض . ومن فقهاء القرن الكبار محمد بن مرزوق الحفيد المار ذكره في علوم الأوائل وبين العروضيين والبلاغيين والمحدثين ، وله : شرح على باب الطهارة بمختصر خليل بن إسحق الفقيه المصري المتوفى سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م . ومنذ ألف خليل هذا الكتاب الموجز وشروحه تتكاثر في الجزائر كما تتكاثر شروح مختصر ابن الحاجب الفقيه المصري المالكي المتوفى قبله بنحو قرن . ومن الفقهاء أحمد بن زاغو التلمساني المتوفى سنة ٨٤٥هـ/١٤٤١م ، ومن تآليفه شرح التلمسانية في الفرائض .

ونلتقي بعبد الرحمن الثعالبي كبير المفسرين في العصر ، ومن مصنفاته الفقهية شرح ابن الحاجب الفرعي في سفرين ، وجواهر المدوَّنة وعيون مسائلها في سفرين ، وجامع الأمهات في أحكام العبادات . ويلقانا بعده تلميذه وتلميذ ابن زاغو الفقيه يحيى المازوني المتوفى سنة ٨٨٣هـ/١٤٧٩م وله الدرر المكنونة في نوازل مازونة ، جمع فيه فتاوى الفقهاء المتأخرين من أهل تونس وبجاية والجزائر وتلمسان وغيرهم في سفرين . ونلتقي في أواخر القرن التاسع الهجري وأوائل العاشر بالفقيه أحمد بن يحيى الونشريسي المتوفى سنة ٩١٤هـ/١٥٠٨م حامل لواء المذهب المالكي في أيامه ، وكان يدرس لطلابه مدونة ابن سحنون وابن الحاجب الفرعي ومن مؤلفاته : تعليق على ابن الحاجب الفرعي والقواعد في الفقه والفروق ، وأهم مؤلفاته المعيار المعرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب في ستة أسفار ، وهو موزع على أبواب الفقه في العبادات والمعاملات والأحوال الشخصية .

ونمضي إلى العهد العثماني في الجزائر وكان سلاطين آل عثمان يرسلون مع ولاتهم قضاة

أحنافا ، وعادة كانوا يعودون مع الولاة بعد حكمهم نحو سنتين ، ويأتى الوالى الذى خلفه ومعه قاض جديد ، وبعد عدة أجيال كان يدرس لهم الفقه الحنفى فى بعض المدارس والجوامع أخذ ينشأ فى الجزائر علماء أحناف من أبناء العثمانيين المولودين فيها . وأخذ الولاة يولون منهم القضاة دون حاجة إلى جلب قضاة من العاصمة : إستانبول ، وأول قاض حنفى جزائرى هو الحسين بن رجب الذى تولى القضاء سنة ١١٠٢هـ/١٦٩١م وكان القاضى الحنفى يسمى المفتى وشيخ الإسلام ودائما كان بجواره فى المدن قاض مالكى ، إذ كانت جماهير الشعب مالكية ، وله بدوره حق الفتوى ، وإذا اختلف مع القاضى الحنفى عُقد لهما مجلس من العلماء للمناظرة ومن انتصر منهما أُخِذَ بفتواه وقد يعزلان معا ويولَّى غيرهما .

وعلى الرغم من كثرة الدروس فى المذهب الحنفى لم ينشط أصحابه فى التأليف إذ ظلوا طويلا يمكثون سنتين فى الجزائر ويعودون إلى استانبول فلم تهيَّأ لهم الفرصة حينئذ للتأليف طوال القرن الحادى عشر الهجرى إنما تهيأ ذلك حين أصبح القضاة يختارون من أبناء العثمانيين الجزائريين ، ويوضح ثبت فى كتاب تعريف الخلف برجال السلف مدد توليهم فى القرن الثانى عشر الهجرى وكيف كانت تتوارث وظيفة القضاء الحنفى بعضُ الأسر مثل أسرة العنابى ولها نشاط محمود فى التأليف ، وعلى شاكلتهم عبد القادر الراشدى القاضى الحنفى فى أوائل القرن الثانى عشر ولكنه عُنى بمباحث علم الكلام . أما الفقه المالكى فظل التأليف بالعهد العثمانى متصلا فيه وخاصة فى وضع الشروح والحواشى ونظم المتون ، ولمصطفى الرماصى المتوفى فى أوائل القرن الثانى عشر حاشية على شرح لمختصر خليل بن إسحق ، ونظمه أحمد البونى المتوفى سنة ١١٣٩هـ/١٧٢٧م تيسيرًا لحفظه على الناشئة ، ولعبد الرحمن الأخضرى صاحب متن السلم فى المنطق مختصر فى العبادات شرحه عبد الكريم الفكون (الحفيد) المتوفى سنة ١١٧٣هـ/١٧٦٠م ولعبد الرحمن البيدرى التلمسانى ياقوتة الحواشى على شرح الإمام الخراشى لمختصر خليل فى أربعة أسفار فرغ منه سنة ١١٧٩هـ/١٧٦٦م ونظم المختصر خليفة بن حسن القمارى فقيه بسكرة وفرغ من نظمه سنة ١١٩٢هـ/١٧٧٩م .

ومن كبار فقهاء الإباضية فى العهد العثمانى عبد العزيز الثمينى المتوفى سنة ١٢٢٣هـ/١٨٠٨م وله كتاب النيل فى ثلاثة أجزاء وهو مرجع أساسى فى الفقه الإباضى وفروعه فى العبادات والمعاملات ، وهو يقوم عند الإباضيين مقام مختصر خليل بن إسحق المصرى فى الفقه المالكى وشروحه وحواشيه . وأكمله بكتابه : الورد البسام فى رياض الأحكام ، وله مختصر المنهاج فى علوم الشريعة فى أربعة أجزاء وكتاب الألواح فى الفقه وكتاب التاج فى حقوق الأزواج وفيه يعرض الحقوق الزوجية وقضايا الأسرة إلى غير ذلك من كتب فى المنطق وعلم الكلام وأصول الدين .

ومرّ بنا فى القسم الخاص بالإقليم التونسى وما كان يتبعه من شرقى الجزائر أن كل ما كان يتحاور فيه علماء الكلام من مرجئة وجبرية ومعتزلة انتقل هناك مبكرا ، وكان المعتزلة قد انضموا قديمًا فى البصرة إلى جيش إبراهيم بن عبد الله الحسنى فى حربه لأبى جعفر المنصور الخليفة العباسى سنة ١٤٥ ولم يكتب له الظفر بل دارت عليه وعلى أخيه محمد النفس الزكية فى المدينة الدوائر ، وأخذ المنصور يتعقب أبناء الأسرة هو وخلفاؤه ، فهرب إدريس أخوهما إلى المغرب ، وغلب على مدينة فاس وأنحائها وأسس هناك دولة الأدارسة . وكان دعاة واصل بن عطاء رأس المعتزلة وصلوا إلى هذه الأنحاء وأصبح لهم فى كورتى طنجة والبيضاء أتباع كثيرون ، فوضعوا أيديهم فى أيدى إدريس ، وأعانوه فى تأسيس دولته كما أعان – من قبل – معتزلة البصرة أخاه إبراهيم فى ثورته على المنصور ،ونراهم يتكاثرون فى شمال الجزائر الغربى لعهد عبد الوهاب أمير الدولة الرستمية (١٧١ – ٢١١هـ) ، وعقدت مناظرات طويلة بينهم وبين علماء دولته الإباضية ، وأعلن الحرب عليه منهم نحو ثلاثين ألفا ولم يقدَّر لهم النصر فهزموا ولم تقم لهم بعد ذلك فى الجزائر قائمة . وطبيعى أنهم كانوا يعتنقون مبادىء المعتزلة الخمسة المشهورة ، وهى التوحيد بمعنى تنزيه الله عن التشبيه بالمخلوقين فهو ليس جسمًا ولا ما يشبه الجسم ، والعدل مما يترتب عليه نفى سيطرة القدر على إرادة الإنسان حتى يكون مسئولا عن أعماله مما يستوجب له الثواب والعقاب ، وحتمية وعد الله – جَلَّ شأنه – بالثواب ووعيده بالعقاب فلا تبدل لهما ، مما يترتب عليه عقاب مرتكب الكبيرة إلا إذا تاب وأناب ، ونفذوا فى مناقشة الحكم عليه إلى مبدئهم الرابع وهو أن مرتكب الكبيرة فى منزلة بين الكفر والإيمان بينما قال أهل السنة إنه مؤمن فاسق ، وقالت الإباضية إنه كافر لكن لا كفر ملَّة بل كفر نعمة ، والمبدأ الخامس الذى اعتنقته المعتزلة هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . ويبدو أن أبا عبيد الله الصنعانى الداعية الإسماعيلى العبيدى كما قضى على الدولة الرستمية فى تاهرت لأواخر القرن الثالث الهجرى قضى أيضا على الدعوة الاعتزالية ، فلم نعد نسمع عن جماهير تعتنقها فى الجزائر والمغرب ، إنما يلقانا من حين لآخر بعض أفراد من العلماء يعتنقونها .

وكان أبو الحسن القابسى المتوفى بالقيروان سنة ١٠١٢/٤٠٣ قد حمل مذهب أبى الحسن الأشعرى الكلامى إلى القيروان وأشاعه فيها وشاع فى الجزائر بعده إلى نهاية هذا العصر ، ومذهبه يقوم على التوفيق بين آراء المعتزلة وأهل السنة ، فإذا قال أهل السنة بالقضاء والقدر فى أفعال الإنسان وقال المعتزلة بل الإنسان هو الذى يخلق أفعاله قال إنها لله خلقا وتقديرا وللإنسان كسبًا وإرادة ، وإذا قال أهل السنة القرآن أزلى غير مخلوق وقال المعتزلة إنه محدث مخلوق قال إنه قديم وحادث فألفاظه دلالات على كلام الله الأزلى والدلالات مخلوقة محدثة والمدلولات قديمة أزلية ، إلى غير ذلك من آراء مثل تفضيل الأنبياء على الملائكة .

وكان يعاصر الأشعرى الماتريدى السمرقندى المتكلم ، ومذهبه مثل مذهب الأشعرى فى التوفيق بين آراء المعتزلة وآراء أهل السنة ، ولم يشع مذهبه فى العالم العربى إنما الذى شاع مذهب الأشعرى حتى فى بيئة الماتريدى فى خراسان ، ومن أكبر مؤيديه هناك إمام الحرمين الجوينى المتوفى سنة ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م الذى رأس المدرسة النظامية فى نيسابور ، ويتردد اسم كتابيه البرهان والإرشاد فى أصول الدين فى تراجم عنوان الدراية للغبرينى فى القرنين السادس والسابع وتراجم الكتب التالية . وحاول جزائريون كثيرون أن يكتبوا فى علم الكلام – أو كما يسمى أحيانًا علم التوحيد – وخاصة منذ القرن التاسع الهجرى ، وكانت تكتب فيه قصائد وتشرح ، ولعل أحدا لم تنل أعماله من الشهرة فيه ما ناله الحافظ محمد بن يوسف السنوسى المتوفى سنة ٨٩٥ هـ / ١٤٩٠م كما مر بنا فى علوم الأوائل وهو من كبار المفسرين والمحدثين ، ويعد كبير علماء الجزائر فى زمنه ، وقدم له أحمد بن عبد الله الجزائرى قصيدته فى علم التوحيد المسماة باسم « القصيد فى علم التوحيد » فشرحها وشاعت باسم الجزائرية وأيضا شرح لتلميذه أحمد بن عبد الرحمن الحوضى فى نفس الموضوع أرجوزته : « واسطة السلوك ، ثم رأى أن يؤلف فى نفس الموضوع فألف فيه ثلاثة أعمال : العقيدة الكبرى وشرحها ، والعقيدة الوسطى وشرحها ، ثم العقيدة الصغرى وشرحها .

وهذه الأعمال سيطرت فى مباحث علم الكلام على الدارسين منذ وَضْعِها وطوال العهد العثمانى لا فى الجزائر وحدها بل فى بلدان المغرب والعالم الإسلامى ، وقد وضعت على العقيدة الصغرى شروح لا تكاد تحصى ، يتقدمها شرح تلميذه محمد بن عمر الملالى وشرح عمر الوزان فى قسنطينة وتلميذه عبد الرحمن الأخضرى صاحب متن السلم فى المنطق وشرح ابن مريم صاحب كتاب البستان المتوفى سنة ١٠١٤هـ / ١٦٠٥م وشرح سعيد قدورة المتوفى سنة ١٠٦٦هـ / ١٦٥٦م وشرح مصطفى الرماصى فى أوائل القرن الثانى عشر الهجرى وشرح خليفة القمارى بأخرة من هذا القرن إلى غير ذلك من شروح للعقيدة الصغرى ، سوى ما وراءها من شروح للعقيدتين الأخريين ومن كتب أخرى فى علم الكلام أو علم التوحيد .

وللإباضيين نشاط واضح فى هذا العلم من قديم ، على نحو ما نجد عند عبد الكافى الورجلانى فى القرن الخامس الهجرى ، إذ له « الموجز فى علم الكلام » كتاب فى جزءين ، ولتلميذه يوسف بن إبراهيم الورجلانى « الدليل والبرهان » فى علم الكلام ، ولعمرو بن جميع فيه مختصر باسم « متن عقيدة التوحيد » عُنى به علماء الإباضية وشرحوه مرارًا ، ولعبد العزيز الثمينى كتاب « معالم الدين » فى علم الكلام وأصول الدين .

٥

التاريخ[1]

نلتقي في التاريخ بكتب مختلفة ومن أوائلها كتاب « أخبار الأئمة الرستميين » لابن الصغير ومعروف أنها دولة إباضية أقامها عبد الرحمن بن رستم وأبناؤه من سنة ١٦٠ للهجرة إلى سنة ٢٩٦ للهجرة ، وقد ألممنا بها في حديثنا عن تاريخ الجزائر ، وكتاب ابن الصغير ينتهي حول سنة ٢٩٠ في حكم أبي حاتم يوسف (٢٨١ - ٢٩٤هـ) . ولم يكن ابن الصغير إباضيا غير أنه يعرض أخبار الدولة وأئمتها عرضا حياديا ويصور ما كان يأخذ به أئمتها الرعية من العدل وما كانوا يحاولونه من ازدهار الأحوال الاقتصادية والفكرية ، كما يصور ما حدث من مناظرات بين المذهب الإباضي ومذهب المعتزلة مما عرضنا له في غير هذا الموضع . وكان المظنون أن يعنى بعض الجزائريين بتاريخ دولة بني حماد في القلعة وبجاية ، فيكتب تاريخها مفصلا ، غير أنه تكفل بذلك البيان المغرب لابن عذارى وتاريخ ابن خلدون وأعمال الأعلام لابن الخطيب .

أما تاريخ دولة بني عبد الواد أو بني زيان في تلمسان فقد عُني بتاريخها وعرض حكّامها وأعمالهم مؤرخان : يحيى بن خلدون ومحمد بن عبد الله التنسي ويتوسط بينهما ابن قنفذ ولكن لا يكتب عن الدولة الزيانية وإنما يكتب عن الدولة الحفصية بتونس . أما يحيى بن خلدون المتوفى سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٩م فيؤلف كتابا عن دولة بني زيان باسم « بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد » حققه وقدم له وعلق عليه الدكتور عبد الحميد حاجيات ، والكتاب في القسم الأول يتحدث عن أصل قبيلة بني عبد الواد وماضيها والبلاد التي حكموها وعاصمتهم تلمسان ويستطرد إلى ذكر علمائها وصلحائها ويترجم لمائة وتسعة منهم ثم يتحدث عن الدول التي ملكت تلمسان قبل بني عبد الواد واستقرارهم بنواحيها . وفي القسم الثاني يترجم لمؤسس الدولة يغمراسن وخلفائه حتى استيلاء أبي الحسن المريني على تلمسان وعودة الحكم إلى بني عبد الواد . ويخص القسم الثالث بالحديث عن عهد أبي حمو الثاني حتى سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٥م .

وكتب ابن قنفذ القسنطيني المتوفى سنة ٨٠٩هـ/١٤٠٧م كتابا مجملا عن الدولة الحفصية في تونس بعنوان : الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية . ثم يكتب محمد بن عبد الله التنسي المتوفى سنة ٨٩٩هـ/١٤٩٩م كتابا تاريخيا أدبيا بعنوان « نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان » وجعله في خمسة أقسام كبيرة وزعها على أبواب ، والقسم الأول في سبعة أبواب قدّم في ستة أبواب منها لتاريخهم بحديث طويل عن أسلافهم ونسبتهم إلى قريش وآل البيت وتاريخ الأدارسة في المغرب . وهي أبواب تسبق الباب السابع الخاص بتاريخ بني زيان ملوك

(١) انظر في التاريخ الكتب المذكورة خلال هذا الحديث .

تلمسان ، وينتهي القسم الأول في الكتاب ، ويتبعه بأربعة أقسام في السياسة وفي طرف من الأخبار والنوادر من النثر والشعر . ونشر الباب السابع من القسم الأول الخاص بتاريخ ملوك بني زيان حتى عصر المتوكل (٨٦٦-٨٧٣هـ) الدكتور محمود بوعياد محققًا له ومعلقا عليه ومقدما له .

ونمضي إلى العهد العثماني فيكتب إبراهيم المريني البجائي كتاب عنوان الأخبار فيما مر على بجاية من الأخبار في القرن العاشر الهجري مؤرخًا ما مرَّ بها من الأحداث في استيلاء العثمانيين عليها بعد استيلاء الإسبان ، ويكتب معاصر له يسمى بركات الشريف كتابا يصور فيه هزيمة شارل الخامس أمام مدينة الجزائر واستيلاء خير الدين (برباروس) عليها ويتحدث عنه وعمن خلفه من ولاة العثمانيين في القرن العاشر الهجري . والكتابان المذكوران لم ينشرا حتى الآن . ويستولي محمد بكداش على مدينة وهران من يد الإسبان سنة ١١١٩ هـ / ١٧٠٨ م فيكتب محمد ميمون عنه وعن هذا الفتح كتابا باسم : التحفة المرضية في الدولة البكداشية ، ويستعيدها الإسبان سنة ١١٤٥هـ / ١٧٣٣ م ويستردها الباي محمد الكبير سنة ١٢٠٥هـ/١٧٩١ وتُنظم في فتحه لها قصائد كثيرة .

وتكتب في السيرة النبوية مؤلفات كثيرة في العصور المتأخرة وربما كان أهمها عنوان الأنوار في آيات النبي المختار لعبد الرحمن الثعالبي المتوفى سنة ٨٧٥هـ/١٤٧٠م وتنظم في الرسول مدائح كثيرة تتناول سيرته وتشرح شروحا مطولة ، ولأحمد البوني في العصر العثماني سيرة نبوية بديعة باسم تنوير السريرة بذكر أعظم سيرة .

ومنذ القرن السابع الهجري تتكاثر كتب التراجم عن العلماء في البلدان الكبرى بالجزائر ، ومما نشر منها كتاب « عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية » لأحمد الغبريني المتوفى سنة ٧٠٤هـ/١٣٠٥م وبينهم كثيرون من علماء المائة السادسة .

ويكتب محمد بن مرزوق جد المرازقة المتوفى سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٩م كتابا عن السلطان أبي الحسن المريني باسم « المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن » انتهى منه سنة ٧٧٢هـ/١٣٧١م لخص فيه تاريخ الدولة المرينية ثم أرَّخ لأبي الحسن تاريخا مفصلا . ولا نبالغ إذا قلنا إن أروع ما خلفه الجزائريون في التراث العربي التاريخي والحضاري كتاب تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله ﷺ من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية لأبي الحسن على الخزاعي التلمساني المتوفى سنة ٧٨٩هـ/١٣٨٨م والكتاب نفيس إلى أبعد حد ، إذ يصور تاريخ الحضارة الإسلامية في أقدم عهودها وما يتصل بها في عهد الرسول وصدر الإسلام من الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، والكتاب بحق مفخرة من مفاخر علماء الجزائر في العصور الماضية .

ويؤلف ابن القنفذ المار ذكره كتاب الوفيات لأعلام الصحابة والعلماء والمحدثين والمؤلفين استهله بانتقال سيد الأولين والآخرين محمد ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، ثم رتبه على العقود أو على العشرات فى كل مائة يذكر أشهر من توفوا فيها حتى العشرة الأولى أو العقد الأول من المائة التاسعة أو بعبارة أدق إلى قبيل وفاته سنة ٨٠٩ وقيل بل سنة ٨١١ للهجرة وكان له كتاب فى طبقات علماء قسنطينة وهو مفقود ، وحقق له الأستاذ محمد الفاسى وأدولف فور كتابه أنس الفقير وعز الحقير فى رجال من أهل التصوف كأبى مدين شعيب وأصحابه . ومن حينئذ يتكاثر تأليف الجزائريين فى المتصوفة كثرة مفرطة ، من ذلك ترجمة ابن مرزوق الحفيد المتوفى سنة ٨٤٢هـ/١٤٣٢م للشيخ إبراهيم بن موسى الصنهاجى . وكان الشيخ محمد السنوسى المتوفى سنة ٨٩٥هـ/١٤٩٠م محدثا وفقيها كبيرا وكان فيه نزوع قوى إلى التصوف وترجم له غير واحد من تلاميذه وممن ترجم له منهم أحمد العبادى ومحمد بن عمر الملاتى وسمى ترجمته : « المواهب القدسية فى المناقب السنوسية » ولابن صعد المتوفى سنة ٩٠١هـ/١٤٩٥م كتاب النجم الثاقب فى الصلحاء والمتصوفة بعامة ، وله كتاب روضة النسرين فى مناقب الأربعة المتأخرين : محمد الهوارى وإبراهيم التازى والحسن أبركان وأحمد الغمارى .

ويكبُّ العلماء فى العهد العثمانى على الترجمة لمشايخ الطرق . ومن أهم كتب التراجم التى تجمع فى هذا العهد بين العلماء والمتصوفة كتاب البستان فى ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لابن مريم وهو كتاب نفيس انتهى من تأليفه ابن مريم سنة ١٠١١هـ/١٦٠٢م . وهناك كتابان لا يقلان نفاسة عن كتاب البستان بل يتفوقان عليه تفوقا واضحا ، هما أزهار الرياض فى أخبار عياض وما يناسبها مما يحصل به ارتياح وارتباض » وكتاب نفح الطيب فى أخبار الأندلس وابن الخطيب لأحمد بن محمد المقرى المتوفى سنة ١٠٤١هـ/١٦٣٢م وهو يترجم فى القسم الثانى من أزهار الرياض لحافظ سبتة وفقيهها : عياض كما يترجم فى القسم الثانى من نفح الطيب لابن الخطيب أما فى القسم الأول فى الكتابين فيفيض فى أخبار الأندلس وتراجمها بحيث يصبح الكتابان موسوعتين تاريخيتين حضاريتين للأندلس على مر التاريخ ، وقد نقل فيهما عن كتب فقدت أو فقد الكثير منها مع مر الزمن وقد أشرت فى سنة ١٩٥٣ حين نشرت ما بقى من أوراق كتاب المغرب فى حُلى المغرب من أخبار الأندلس لابن سعيد فى مجلدين أنه كاد ينقلهما إلى نفح الطيب ، ومع ذلك تظل له أهمية كبيرة فى التعريف بالأندلس وتاريخها الحضارى . ونلتقى بعده فى العهد العثمانى بكثيرين يترجمون لكبار المتصوفة وخاصة أصحاب الزوايا فى كتب وأراجيز على نحو ما يلقانا لأحمد بن قاسم البونى بأوائل القرن الثانى عشر الهجرى فى أرجوزته : الدرة المصونة فى علماء وصلحاء بونة (عنابة) وهى أرجوزة طويلة . وللبونى كتاب فى تراجم مشاهير النحاة سماه « فتح المستبين فى تراجم بعض مشاهير النحاة واللغويين » .

الفصل الرابع

نشاط الشعر والشعراء

١

تعرب[١] الجزائر

ذكرنا – فيما أسلفنا – أنه كان بالجزائر قبل الفتوح العربية الإسلامية عناصر جنسية مختلفة ، جمهورها من البربر ومن نزلوا بديارهم من الفينيقيين والقرطاجيين واليهود والرومان والوندال الألمان والإغريق البيزنطيين ، ثم نزلها العرب ومن انتظم فى جيوشهم من أهل البلاد الإسلامية : من إيران والعراق والشام ومصر ، وظلت جيوش متعاقبة تنزلها فى العهدين الأموى والعباسى ، كما ظلت جموع متفاوتة من هذه الجيوش تستقر فى البلاد المغربية من برقة إلى المحيط الأطلسى مختلطة بالسكان وناشرة للإسلام ولغته العربية . وعاملان أساسيان ساعدا بسرعة على نشر الإسلام ولغته هناك ، هما تعاليم الإسلام السمحة التى حررت البربر من ظلم الدول السابقة التى احتلت ديارهم قرونا متطاولة وأرهقتهم بضرائب باهظة مع العسف والبغى الشديد ، وليس ذلك فحسب ، فقد رأوه دينا قويما يسوّى بين أتباعه فى جميع الحقوق ، والعامل الثانى سياسة ولاته وخاصة فى القرن الأول الهجرى وما كفلوا للبربر من العدل والمساواة بينهم وبين العرب فى جميع الحقوق : فى الجهاد وفى غنائم الحرب وفى الولاية على القبائل والمدن . وعُنى موسى بن نصير الوالى هناك (٨٦–٩٦هـ) بأن يعهد فى الأنحاء التى لم يتم إسلامها حتى عهده إلى فقهاء ومعلمين يعلمون أهلها فرائض الإسلام ويحفظونهم القرآن الكريم ، ودخلت جماعات بربرية كثيرة لعهده فى الدين الحنيف ، وانضم كثيرون من البربر إلى جيوشه فى فتوح المغرب ، وفتح الأندلس بقيادة قائد منهم هو طارق بن زياد على نحو ما هو معروف . وعُنى عمر بن عبد العزيز بإرسال بعثة – كما مر بنا – لنشر الإسلام هناك بأُخرة من القرن الأول الهجرى . وينحرف حكام بنى أمية – منذ أوائل القرن الثانى – عن جادة الإسلام الرشيدة فى حكم الشعوب التى اعتنقته ، ويثور البربر فى الجزائر وغير الجزائر ، وتَقْدُم إليهم جيوش مختلفة وتظل منها بقايا كثيرة فى ديارهم . ويحدث ذلك نفسه فى أوائل عهد العباسيين ، حتى إذا ولى يزيد بن حاتم المهلبى (١٥٤–١٧٠هـ) هدأت المغرب فى الجزائر وغير الجزائر وعمَّ الأمن والرخاء فى البلاد ، ويؤسس إبراهيم بن الأغلب الدولة الأغلبية منذ سنة ١٨٤

(١) راجع النصوص عن ابن خلدون فى الجزء السادس من تاريخه .

ويقول ابن خلدون : « في أيامه انخضدت شوكة البربر واستكانوا للغلب وأطاعوا الدين ، فضرب الإسلام بجرانه » أي ثبت واستقر نهائيا في الديار المغربية .

ونمضي إلى القرن الخامس الهجري ، ويحدث حدث كبير أتمّ تعرب البربر في الجزائر وغير الجزائر ، فإن المعز بن باديس الصنهاجي حاكم برقة وإفريقية التونسية وشرقي الجزائر للدولة العبيدية الفاطمية في القاهرة نقض طاعته لتلك الدولة ، وحوّل الدعوة في ولايته إلى الخلافة العباسية وأرسل إلى الخليفة العباسي القائم أبي جعفر بن القادر ببيعته له ودعا له على منابر القيروان وغير القيروان سنة ٤٣٨ وأرسل إليه القائم بالتقليد وبالخِلَع ، وعرف ذلك الخليفة العبيدي الفاطمي المستنصر وصمم على الانتقام منه . وكان القرامطة قد اشتبكوا في حرب سنة ٣٥٩ مع الخليفة الفاطمي العزيز نزار في فلسطين ومدخل مصر ، وكانت تؤازرهم قبيلتا سليم وهلال اللتان كانتا تزعجان قوافل الحجاج حول المدينة ، فلما انتصر عليهم العزيز أنزل هاتين القبيلتين في الصحراء الشرقية بالصعيد بين النيل والبحر الأحمر ، وكانتا تحدثان غير قليل من الإضرار بسكانه ، فأشار على الخليفة الفاطمي العزيز وزيره اليازوري أن يصطنع مشايخ هاتين القبيلتين وأن يغريهم بالهجرة إلى المغرب مع من يوالونهم من البدو وقال له إن ظفروا بالمعز بن باديس الصنهاجي صاروا أولياء للدولة وعمالا لها بتلك الأنحاء النائية ، وإلا دبرنا له ما يقضي عليه ، وأعجبت المستنصر الفاطمي تلك الفكرة ، فاستقدم شيوخ القبيلتين وعرضها عليهم سنة ٤٤١ للهجرة فقبلوها ، وفرض لكل بدوي مهاجر بعيرا ودينارا . وعبرت سيولهم النيل سنة ٤٤٢ واندفعت إلى برقة وما وراءها من البلاد المغربية كالجراد المنتشر لا يمرون بشيء إلا أتوا عليه كما يقول ابن خلدون ، واستولت سليم على برقة جميعها وبعض البلدان الشرقية لإفريقية التونسية ، واتجه بنو هلال إلى إفريقية ووصلوا القيروان سنة ٤٤٣ للهجرة ونازلوا المعز بن باديس ، وتمت لهم الغلبة واحتلوا القيروان وغيرها من البلدان التونسية وخرّبوا المباني وطمسوا معالم الحسن والرونق فيها ، وأهلكوا كثيرا من الزروع في الريف ، حتى أصبحت يباب ومفاوز كما يقول ابن خلدون . ولما تمّ استيلاؤهم على البلاد التونسية اكتسحت سيولهم الجزائر واقتسمتها القبائل الهلالية وبعض عشائر من سليم ، وظلت تتقاتل مع القبائل البربرية هناك في السهول وخاصة زناتة وصنهاجة وعشائرهما حتى عجزوا عن مدافعتهم ، ونازلوا الناصر بن علناس الحمادي صاحب القلعة وخربوا جنباتها وجنبات طبنة والمسيلة (المحمدية) وغيرهما . ويقول ابن خلدون إنهم أزعجوا ساكني هذه البلدان وكل ما يتصل بها من المنازل والقرى والضياع حتى أصبحت قاعا صفصفا ، ولم يزل ذلك دأبهم حتى هجر الناصر بن علناس سكنى القلعة واختط بساحل مدينة بجاية ونقل إليها ذخيرته وأعدّها لسكنه ، ونزلها بعده ابنه المنصور فرارا من ضيم هؤلاء الأعراب ، واتخذ كثيرون من البربر الجبال والمرتفعات الوعرة حصونا منيعة لهم . أما هم فتقسموا السهول الخصبة التي احتلوها واستقروا فيها شمالي

البلاد وأواسطها ، وبمرور الزمن اختلطوا بالبربر وصاهروهم . وتنبه عبد المؤمن مؤسس دولة الموحدين لهم فنازلهم فى الأربعينيات من القرن السادس حتى إذا تغلب عليهم أخذ يصانعهم هو وابنه يوسف وحفيده المنصور وجندوا منهم كثيرين أشركوهم فى حرب نصارى الأندلس وأبلوا فيها بلاء عظيما ، وأنزلوا عشائر كثيرة منهم فى الشمال الغربى لمراكش ، واستوطن كثيرون منهم إقليم وهران وكان لهم فيما بعد أثر عظيم فى مجاهدة الإسبان مع بنى زيان .

وهذه الهجرة الأعرابية الضخمة التى يقول المؤرخون إن عددها كان يزيد عن نصف مليون أعرابى والتى انتشرت فى الجزائر وغيرها من الأقاليم المغربية كان لها فضل عظيم فى إتمام تعرب المغرب واصطباغه بصبغة عربية كاملة ، ويصور ذلك ابن خلدون فى حديثه عن بعض القبائل البربرية مثل بنى يَفرن إذ يقول إنهم « نسوا رطانة الأعاجم وتكلموا بلغات العرب وتحلوا بشعائرهم فى جميع أحوالهم » ويقول عن قبيلة هوارة إنهم صاروا فى عداد الناجعة (طلاب المراعى) من عرب بنى سليم فى اللغة والزىّ وسُكنى الخيام وركوب الخيل والإبل وممارسة الحروب وإيلاف الرحلتين فى الشتاء والصيف فى تلالهم قد نسوا رطانة البربر واستبدلوا منها فصاحة العرب فلا يكاد يفرَّق بينهم » . وهو قول يعم جميع البربر فى سهول الجزائر ومدنها إلا من اعتصم بالجبال والأنجاد الوعرة ، أما عامة البربر فقد أصبحوا عربا فى اللغة والدين والزى والعادات وأساليب الحياة والخصال الكريمة من المروءة والفروسية ، أو بعبارة أخرى أصبح المغرب جميعه فى الجزائر وغير الجزائر شعبا عربيا عظيما وتغلغل الشعور بعروبته فى أعماقه ، مما جعل قبائل البربر فى جميع الأنحاء المغربية شرقا وغربا تصطنع لها أنسابا إلى القبائل اليمنية والمضرية وتتكلم العربية إلا فى أنحاء من الجبال لتوعر مسالكها وفى بعض جهات نائية اعتنقوا الإسلام وظلوا يتكلمون لغتهم البربرية مع غيرتهم وحميتهم للدين الحنيف .

ولا نبالغ إذا قلنا إن الجزائر – منذ هذه الهجرة الأعرابية الكبرى – أخذت تصطنع العربية لغة هؤلاء الأعراب فى لسانها ، وعمت بين جماهيرها فى الزاب وقسنطينة وبونة (عنابة) والمدن الساحلية التى سكنها هؤلاء الأعراب . والمظنون أنها ظلتَ فصيحة سليمة طوال قرنين على الأقل ، ثم أخذت تتحول حتى فى ألسنة الأعراب أنفسهم إلى لغة عامية تفتقد الإعراب وكانت كثرتهم فى الجزائر من القبائل الهلالية ، ونزلت منها الأثبج فى الشمال ومنها دريد ، وقد نزلوا بين بونة (عنابة) وقسنطينة ، وانتشرت بطونهم غربى قسنطينة ونواحى جبال أوراس ، ونزلت زغبة فى القفار من نواحى تلمسان ، ونزل بنو رياح الهلاليون فى قسنطينة بينما نزل بنو عامر فى وهران وأنحائها . ويسهب ابن خلدون فى الجزء السادس من تاريخه فى توزيع القبائل الهلالية فى الجزائر من بونة إلى تلمسان ، وفى أثناء ذلك يقول : ولهؤلاء الهلاليين فى الحكاية عن دخولهم إلى إفريقية طرق فى الخبر يزعمون أن الشريف ابن هاشم

كان صاحب الحجاز ويسمونه شكر بن أبي الفتوح أصهر إلى أحد رجالات وشيوخ بنى هلال الحسن بن سرحان فى أخته الجازية ، وولدت منه ولدا سمته محمدا . ثم حدث بينهم وبين الشريف مغاضبة ، فأجمعوا على الرحلة من نجد إلى إفريقية ، واحتالوا عليه فى استرجاع الجازية ، وطالبته بزيارة أبويها ، فأزارها إياهم ، ولم يلبثوا أن ارتحلوا به وبها وكتموا عنه مقصودهم من رحلتهم مموِّهين عليه بأنهم يباكرون به للصيد والقنص ثم يعودون إلى منازلهم ، ورآهم يبعدون فى ارتحالهم ، ولما تبين له أنهم مكروا به فارقهم إلى دار ملكه فى مكة وبين جوانحه من حب الجازية داء دفين ، وكلفت بحبه على الرغم من اقترانها ببعض أبناء عمومتها فى مسيرتها معهم إلى إفريقية ، إذ ظلت تذكره إلى أن ماتت . يقول ابن خلدون إنهم يتناقلون من أخبارها فى ذلك ما يعفِّى على أخبار قيس (صاحب ليلى) ويروون كثيرا من أشعار الحكاية محكمة المبانى متقنة الأطراف ، وفيها المطبوع والمنتحل والمصنوع ، لم يفقد فيها من البلاغة شيء ، وإنما أخلُّوا فيها بالإعراب فقط .. والخاصة من أهل العلم بالمدن يزهدون فى روايتها ويستنكفون عنها لما فيها من خلل الإعراب .. وفى هذه الأشعار كثير دخلته الصنعة وفُقدت فيه صحة الرواية ، ولذلك لا يوثق به ، ولو صحت روايته لكانت فيه شواهد بأيامهم ووقائعهم وحروبهم مع زناتة (فى المغرب) وضبط لأسماء رجالاتهم وكثير من أحوالهم ، لكنا لا نثق بروايتها . وربما يشعر البصير بالبلاغة بالمصنوع منها ويتهمه ، وهذا قصارى الأمر فيه ، وهم متفقون على الخبر عن حال هذه الجازية والشريف خلفا عن سلف وجيلا عن جيل » . والحكاية التى يتحدث عنها ابن خلدون هى حكاية الهلالية المعروفة فى الملحمة المشهورة باسم « سيرة بنى هلال » وتعرف أيضا باسم قصة أبى زيد الهلالى ، وكانت إلى عهد قريب ينشدها شخص يسميه المصريون باسم الشاعر على ربابة فى مقاهى مصر وبلدانها المختلفة . والتاريخ الحقيقى للرحلة الهلالية إلى إفريقية وسببها ذكرناه فيما أسلفنا ، غير أن ما وضع للحكاية أو الملحمة من قصة زواج الجازية الهلالية بشكر بن أبى الفتوح أمير مكة الحسنى (٤٣٠-٤٥٣هـ) يبدو أنه صحيح وقد أنجب منها ابنه محمدًا الذى خلفه فى الحكم ، ويبدو أيضا أنها زارت أبويها وعشيرتها حين كانوا ينوون الرحلة مع القرامطة لحرب الفاطميين ، وارتحلت معهم . والحكاية أو القصة تجعلها بطلتها ، وتَرْوِى على لسانها أشعارًا بديعة ، من ذلك قولها لولدها أو غلامها الصغير ناصحة مُرْشدة :

ولا خير فى الطفل الصغير إذا نَشَا وكانــهُ رَقّــادًا كثير هَمائدُهْ
وإما يمت يرتـاح من عيشــة الرَّدَى وإلا يَعُدْ كالصَّقر مـالى مخالبـــه

وهى تقول لطفلها لا خير ولا نفع فيمن ينشأ نواما كسولا ، يرضى بالجلوس ولا يخرج فى طلب الرزق ، وحرى بالشخص أن يمضى شرقا وغربا طالبا معاشه مقطعا فى ذلك أوعية زاده غير مبق منه شيئا . وإما أن يموت فيرتاح من المعيشة التعسة الضنك ، وإما أن يعود كالصقر

الجارح بصيده وقد ملأ مخالبه . وينشد ابن خلدون لبعض بنى دريد الهلاليين من عشيرة الجازية مفاخرًا بساداتها مع حنينه إلى القيروان حين نزلوا بها فى أول قدومهم إلى الإقليم رامزا لها بصبرة التى بناها فى جنوبيها المنصور العبيدى :

دريدٌ سَراةُ البــدو للجـود مَنْقَعٌ — كما كلُّ أرضٍ منقعُ المـا خِيارُهـا
وهم غَرَّبوا الأعـراب حتى تعرَّفتْ — بطُرْقِ المعـالى مـا يوفِّى قصارها
وطرَّوا طريـق البـارمين ثنيَّةً — وقد كان ما تقوى المطايا حِجارها

والشاعر يقول دريد الراحلة أشراف البدو ومنقع الجود ينهل منه كل ظامىء ، وهم أصحاب الفضل فى قيادة الهلاليين إلى ديار المغرب حتى تعرفوا طرق المعالى المفرطة الطول الشاقة وقد طرّوا أى مهّدوا طريق البارمين إلى الجزائر وأنحاء بونة وما بها من ثنيات وممرات فى الجبال وكانت المطايا والإبل لا تستطيع السير فيه لكثرة ما به من الحجارة والصخور ، فأصبح ممهدا ذَلولا . والأبيات فصيحة وتجرى على سنن العربية فى الإعراب ، ولا ندرى هل أشعار القصص فى الهلالية بدأت معربة ثم فقدت الإعراب مع الزمن أو أنها وُضعت غير معربة ، ومن المؤكد أنها لم توضع عقب الرحلة والاستقرار فى المغرب مباشرة ، بل وضعت بعد ذلك حين أخذت تسود العامية فى الأفواه بالقرن السادس وما بعده ، وبها كثير من الأشعار البليغة بما تحوى من العبارات الرصينة والمشاعر الرقيقة والصور البديعة . ومن هذا الميراث عن الأعراب ما دخل على اللغة البربرية من ألفاظ عربية سليمة اقترضوها من الفصحى وتبلغ فى بعض الأنحاء نحو ثلث اللغة البربرية المتداولة .

ويعقد ابن خلدون فى مقدمته فصلا فى أشعار العرب المستعجمة أو المستحدثة بالعامية لعهده فى القرن الثامن الهجرى فيقول : « فأما العرب أهل هذا الجيل المستعجمون عن لغة سلفهم من مضر فيقرضون الشعر لهذا العهد فى سائر الأعاريض على ما كان عليه سلفهم المستعربون ويأتون منه بالمطولات مشتملة على مذاهب الشعر وأغراضه من النسيب والمدح والرثاء والهجاء ، ويستطردون فى الخروج من فن إلى فن فى الكلام ، وربما هجموا على المقصود لأول كلامهم ، وأكثر ابتدائهم فى قصائدهم باسم الشاعر ؛ ثم بعد ذلك ينسبون ، وأهل أمصار المغرب من العرب يسمون هذه القصائد باسم الأصمعيات نسبة إلى الأصمعى راوية العرب لأشعارهم . ولهم فن آخر فى كلامهم كثير التداول فى نظمهم يجيئون به معصَّبا على أربعة أجزاء يخالف آخرها الثلاثة قبله فى رويه ويلتزمون القافية الرابعة فى كل بيت (دور) إلى آخر القصيدة شبيها بالمربعات والمخمسات التى أحدثها المتأخرون من المولدين . ولهؤلاء العرب (البدو) فى هذا الشعر بلاغة فائقة ، وفيهم الفحول والمتأخرون

(المتخلفون) . والكثيرون من المتحلين للعلوم لهذا العهد – وخصوصا علم اللسان – يستنكرون هذه الفنون التى لهم إذا سمعوها ، ويمجّون نظمهم إذا أُنشِد ، ونعتقد أن ذوقهم إنما نبا عنها واستهجنها لفقدان الإعراب منها .. وأساليب الشعر وفنونه موجودة فى أشعارهم هذه ما عدا حركات الإعراب فى أواخر الكلم ، فإن غالب كلماتهم موقوفة الآخر (ساكنة) ويتميز عندهم الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر بقرائن الكلام لا بحركات الإعراب » . وينشد ابن خلدون طائفة من أشعار الملحمة الهلالية على لسان الشريف ابن هاشم يبكى الجازية أخت الحسن بن سرحان ، ويذكر ارتحالها مع قومها إلى المغرب وعتابها منه لزوجها ماضى بن مقرب ورثاء بعض شعرائهم للزناتى خليفة ، ويسوق أشعارا أخرى لشعرائهم . ومن الصعب التمثل بأبيات منها لأنها غير مضبوطة بالشكل ، ولأن كثيرا من الكلم فيها أصابه غير قليل من التحريف ، بحيث يصعب فهمها ونطقها نطقا سليما . وكلما تقدمنا فى الزمن بعد عصر ابن خلدون فى القرن التاسع الهجرى يتكاثر هذا الشعر العامى أو الشعبى . ويزداد طغيانه على الشعر الفصيح فى العهد العثمانى ، وكان ينظم فى المولد النبوى وفى الجهاد الحربى للأجانب وفى الأزمات الاقتصادية والأحوال المعيشية . ولسعيد المنداسى مدحة نبوية عامية سماها « العقيقة » عُنى بها غير شارح ، وممن شرحها ابن سحنون . واشتهر بتلمسان فى القرن الثانى عشر الهجرى ثلاثة شعراء شعبيون هم : محمد بن مسائب وابن التريكى والزناقى ، ولهم أشعار دينية مختلفة ، سوى ما لكل منهم – كما فى كتاب تاريخ الجزائر الثقافى – من رحلة حجازية منظومة

ومن الحق أن الشعر العامى الشعبى فى الجزائر سواء نظم على لسان البدو من الأعراب أو على لسان أهل الحضر والمدن لم ترجح يوما كفّته على كفّة الشعر الفصيح ، والجزائر فى ذلك مثل بقية البلاد المغربية والعربية عامة إنما كانت تُعْنَى الطبقات المثقفة فيها عناية أكبر وأوسع بالشعر الفصيح . ومن الحق أيضا أن الهجرة الأعرابية الكبرى إلى الجزائر استطاعت – منذ القرن الخامس الهجرى – أن تفرض لغتها العربية على سكان البوادى وسفوح الجبال والسهول والحواضر بفضل امتزاج هؤلاء الأعراب بالبربر فى المعاش وعن طريق المصاهرة ودَفْعهم إلى التخاطب بالعربية مما جعل اللغة البربرية تتقهقر وتتراجع أمامها إلى الجبال والمعاقل النائية المنيعة ، ومع ذلك لحقتها العربية هناك واستولت على ألسنة كثيرين من أهلها ، بل لقد استولت على اللغة البربرية هناك فأشاعت فيها كثيرا من ألفاظها ، مما جعل سكان الجزائر – منذ أواسط القرن الخامس الهجرى أو بعد ذلك بقليل – يعدون شعبا عربيا تاما فى دينه الحنيف ولغته وثقافته وآدابه وأشعاره ، مع ما اقتبسوه من معيشة هؤلاء الأعراب ومن تقاليدهم وعاداتهم فى حياتهم الاجتماعية ، وكل ذلك استقر وثبت ثبوت الراسيات .

٢

كثرة الشعراء

طبيعى أن لا نلتقى بشعراء كثيرين فى الجزائر طوال القرن الأول الهجرى وشطر غير قليل من القرن الثانى إلا ما كان يجرى على ألسنة بعض نزلائها من العرب ، حتى إذا تأسست الدولة الرستمية فى تاهرت (١٦٠-٢٩٦هـ) وأخذت تعنى بتعليم العربية ونشرها بين الجزائريين ، حينئذ أخذ جيل ناشىء يتقنها ويتقن نظم الشعر ، وكان من حكام هذه الدولة من أحسن نظمه ، مثل الإمام أفلح بن عبد الوهاب الرستمى (٢١١-٢٤٠هـ) وله قصيدة طويلة فى الدعوة إلى العلم والتعلم وبيان منزلة العلماء . وكانت الأسرة الرستمية جميعا تهتم بالحركتين العلمية والأدبية ، وأخذ الشعر يتدفق على بعض الألسنة ، وأنتجت الجزائر فى عهدها أكبر شاعر عرفته فى القرن الثالث الهجرى ، ونقصد بكر بن حماد المتوفى سنة ٢٩٦هـ/٩٠٨م وكان له ديوان شعر كبير ، وعاصره شاعر يسمى ابن حزاز التاهرتى .

وكان القسم الشرقى من الجزائر - حينئذ - تابعا للدولة الأغلبية فى القيروان ، ثم تبع الدولة العبيدية مع الجزائر جميعها ثم أصبح تابعا للدولة الصنهاجية وحكامها فى القيروان ، ولذلك كان شعراؤه يرحلون إلى العاصمة المذكورة حين تتفتح ملكاتهم الشعرية ، إذ كانت مركز الحركة الأدبية فى الدولة ، وقد يظلون بها ويتخذونها موطنا لهم ، كما حدث لابن رشيق ، وهو ما جعلنا نسلكه بين شعراء القيروان لأن مرباه الأدبى تكامل فيها . ومنهم من نظن أن مرباه الأدبى تكامل فى الجزائر ثم هاجر منها إلى القيروان أو غيرها ، مثل محمد بن الحسين الطبنى الذى هاجر بأسرته الطبنية إلى قرطبة فى الأندلس واستقر بها . وممن نزل القيروان بعد نضجه الأدبى فى موطنه بالجزائر عبد الكريم النهشلى المتوفى سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م وهو من المسيلة (المحمدية) ومنهم ابن قاضى ميلة المعاصر للنهشلى ، والحسن بن محمد التميمى المعروف باسم ابن الربيب المتوفى سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٩م وهو من تاهرت ومثله على بن أبى الرجال الفلكى المشهور المتوفى سنة ٤٢٥هـ/١٠٣٣م فهو أيضا تاهرتى .

وكان حماد بن بلكين قد عقد له أخوه المنصور على مدينتى أشير والمسيلة (المحمدية) وضم إليهما أيام ابن أخيه باديس المغرب الأوسط وأخذ يفكر فى الاستقلال عن باديس والقيروان واختط مدينة القلعة سنة ٣٩٨هـ/١٠٠٧م وتمَّ له استقلاله سنة ٤٠٨هـ/١٠١٧م كما مرَّ بنا فى الفصل الأول ، واستكثر حماد فى القلعة من المساجد والفنادق ، واتسعت فى التمدن ، وكان مثقفا قرأ الفقه بالقيروان ونظر فى كتب الجدل ، وعُنى فى قلعته بالحركة العلمية ، ورحل إليها من الثغور القاصية - كما يقول ابن خلدون - طلاب العلوم . وتبعه أبناؤه وأحفاده فى الدولة الحمادية بالقلعة ثم ببجاية منذ نقل إليها المنصور بن علناس (عَلاء الناس) عاصمة الدولة

سنة ٤٨٣ ومع ذلك ظل للقلعة نشاطها العلمي والأدبي حتى الحقب المتأخرة من هذا العصر ، كما ظل نفس النشاط لبجاية بعد قضاء دولة الموحدين على الدولة الحمادية سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م . ومن المؤكد أن القلعة وبجاية أنتجتا كثيرا من الشعراء والعلماء فى عهد الدولة الحمادية ، وذاعت للحركتين العلمية والأدبية شهرة غير قليلة مما جعل غير عالم وشاعر يرحل إليها مثل ابن حمديس الصقلي الذى أقام فى بجاية فترة لعهد المنصور الحمادى (٤٨١-٤٩٨هـ) وله فيه وفى وصف قصوره مدائح بديعة . وإلى المنصور التجأ عز الدولة بن صمادح بعد قضاء يوسف بن تاشفين المرابطى على دولة أسرته فى مدينة المرية ، فأكرمه وقلده ولاية دلس على البحر المتوسط غربى بجاية وظل بها إلى وفاته ، وكان شاعرا وله شعر يشكو فيه من الدهر وأحداثه . ومن كبار الشعراء الذين نزلوا بقلعة بنى حماد واستوطنوها أبو الفضل يوسف بن محمد التوزرى التونسى ، وبها تصدَّر للتدريس حتى وفاته سنة ٥١٣هـ/١١١٩م وهو صاحب قصيدة الاستغاثة المشهورة باسم المنفرجة السائرة فى الآفاق . ومعروف أن العماد الأصبهانى ترجم فى كتابه « الخريدة » لشعراء العالم الإسلامى فى عصره بالقرن السادس الهجرى ، وممن ترجم له من شعراء الدولة الحمادية فى عهدها الأخير يوسف بن المبارك وله مدحة جيدة فى أمراء تلك الدولة ، وابن أبى المليح الطبيب شاعر الأمير الحمادى : العزيز (٤٩٨-٥١٥هـ) وطبيبه الخاص ، وعلى بن الزيتونى وأنشد له مقطوعة فى مديح قاض ، والفقيه عمر بن فلفول كاتب الأمير الحمادى يحيى بن عبد العزيز (٥١٨ - ٥٤٧هـ) وأنشد له مقطوعة غزلية .

وفى السنة المذكورة سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م قوَّضت دولة الموحدين بقيادة أميرها عبد المؤمن دولة بنى حماد نهائيا فى بجاية والقلعة وإقليميهما ، وظلت الحركتان الأدبية والعلمية مزدهرة بهما على الرغم مما أحدث على بن غانيَّة من اضطراب فى الجزائر ، إذ فاجأ أسطوله الذى جلبه معه من ميورقة سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م بقيادته مدينة بجاية واستولى عليها . وطوال النصف الثانى من القرن السادس أخذ بعض متصوفة الأندلس ينزلون مدن الجزائر ، وأخذت تشيع فيها منذ هذا التاريخ حركات صوفية واسعة ، ونمتها عند الجزائريين الطرق الصوفية السنية التى شاعت بديارهم : شاذلية وغير شاذلية ، ومن كبار نزلائها من صوفية الأندلس أبو مدين شعيب نزيل بجاية ، وسمع به المنصور أمير الموحدين أو خليفتهم ، فطلبه ، وفى طريقه إليه توفى بتلمسان سنة ٥٩٤ ومنهم أبو عبد الله الشوذى الصوفى نزيل تلمسان ، ومنهم أيضا محيى الدين بن عربى وقد قام بسياحات متعددة فى بلدان المغرب والجزائر ، ونزل بجاية ولزم أبا مدين شعيب الصوفى فترة معجبا به وبطريقته الصوفية ، ثم ولَّى وجهه نحو المشرق : مصر والحجاز والشام . ومن شعراء الجزائر فى عهد الموحدين الحسن بن الفكون القسنطينى الشاعر المبدع المتوفى بأوائل القرن السابع الهجرى ، ومعاصره محمد بن على بن جبل الوهرانى قاضى تلمسان ثم قاضى الجماعة بمراكش توفى سنة ٦٠١ وله مدائح فى الخليفة المنصور الموحدى ، ومنهم أبو عبد الله بن الحجام

التلمسانى المتصوف المتوفى سنة ٦١٤ ومحمد بن على بن حماد القلعى المشهور بمراثيه للدولة الحمادية المتوفى سنة ٦٢٨ .

وتتقاسم الجزائر – منذ العقد الثالث فى القرن السابع الهجرى – الدولة الحفصية فى الشرق : قسنطينة وبجاية وما إليهما ، ودولة بنى زيان أو بنى عبد الواد فى الغرب : تلمسان وما إليها . وينزلها من صوفية الأندلس ابن سبعين نزيل بجاية ، كما ينزلها أبو الحسن الششترى ، ويقال إنه تتلمذ لأصحاب أبى مدين شعيب ومريديه واعتنق طريقته الصوفية ، ولقى ببجاية ابن سبعين وأعجب به ولزمه فترة ، ورحلا إلى المشرق . وكان لهما ولمن سبقهما من صوفية الأندلس إلى النزول بالجزائر وكذلك لشيوع الطرق الصوفية وانتشارها بها أثر عميق فى موجات التصوف التى عمت فى البلاد المغربية جزائر وغير جزائر ، ونلتقى – منذ هذا القرن – بشعر صوفى كثير على ألسنة الجزائريين . وظلت الدولتان : الحفصية والزيانية تتقابلان فى الجزائر طوال ثلاثة قرون ، ومن الشعراء لعهدهما فى القرن السابع الهجرى عبد الله بن نعيم الشاعر الصوفى المتوفى سنة ٦٣٦ ومحمد بن أحمد الأريسى وله غزليات وخمريات ، وعبد الله بن محمد بن علوان وهو من شعراء المديح النبوى ومحمد بن يحيى بن عبد السلام وهو من شعراء المديح ، ومحمد بن الحسن القلعى المتوفى سنة ٦٧٣ وهو من شعراء الزهد والمديح النبوى وعبد الحق بن ربيع الصوفى المتوفى سنة ٦٧٥ . وكل هؤلاء الشعراء بجائيون ، ومثلهم عبد المنعم بن محمد الغسانى نزيل بجاية وهو من أهل مدينة الجزائر وله مشاركة فى المديح النبوى توفى سنة ٦٨٠ وإبراهيم بن أحمد بن الخطيب الشاعر الصوفى وعبد الرحمن بن أبى دلال وهو من شعراء المديح . ومن شعراء تلمسان عفيف الدين التلمسانى الصوفى المتوفى بدمشق سنة ٦٩١ وأبو العيش الخزرجى محمد بن عبد الرحيم وله فى التصوف شعر كثير .

ويفتتح القرن الثامن بمحمد بن محمد العطار ودواوينه النبوية المتوفى سنة ٧٠٧ وهو من مدينة الجزائر ، وكان يعاصره فى تلمسان ابن خميس المتوفى سنة ٧٠٨ وله شعر تصوف وزهد ومديح كثير ، وعاصره فى مليانة أحمد بن على المليانى المتوفى سنة ٧١٤ وله فخر بديع ، ومن شعراء هذا القرن محمد بن عمر المليكشى من مدينة الجزائر المتوفى سنة ٧٤٠ وله غزليات متنوعة ، وابن مرزوق الخطيب المتوفى سنة ٧٧٠ وله مدائح نبوية وغير نبوية وابن أبى حجلة التلمسانى نزيل القاهرة المتوفى سنة ٧٨٠ ومعاصره يحيى بن خلدون شاعر أبى حمو موسى الثانى ومؤرخ الدولة الزناتية المتوفى فى نفس السنة . ويزدهر شعر المولديات الذى ينشد فى مولد الرسول ﷺ ومن كبار ناظميه شاعرا الدولة محمد بن يوسف الثغرى ومحمد بن أبى جمعة التلالسى . ومن شعراء القرن أيضا الأمير الزيانى أبو حمو موسى الثانى (٧٦٠–٧٩١هـ) وله شعر فخر كثير وكان ابنه أبو زيان محمد شاعرا ، توفى سنة ٨٠١ . ونلتقى فى القرن التاسع

وبعده حتى العهد العثماني بشعراء كثيرين ، ومن كبارهم ابن قنفذ القسنطيني المتوفى سنة ٨٠٩ وله أشعار دينية ، وابنُ مرزوق الحفيد التلمساني المتوفى سنة ٨٤٢ وله منظومات تعليمية كثيرة ، والصوفى الكبير إبراهيم التازى المتوفى سنة ٨٦٦ وله أشعار صوفية بديعة ، والرياضى المشهور محمد بن أحمد الحباك المتوفى سنة ٨٦٧ وله منظومة فلكية فى الإسطرلاب ، وأبو عبد الله بن البنا وله غزل بديع . وأحمد بن عبد الله الجزائرى المتوفى سنة ٨٨٤ وله منظومة فى علم التوحيد ومرثية بديعة لأستاذه عبد الرحمن الثعالبى ، ومحمد بن يوسف السنوسى المتوفى سنة ٨٩٥ وله منظومتان فى علم التوحيد باسم السنوسية الكبرى والسنوسية الصغرى ، ومحمد بن عبد الجليل التنسى مؤرخ دولة بنى زيان المتوفى سنة ٨٩٩ وله مدحة طويلة فى الأمير الزيانى المتوكل وأبنائه ختم بها تاريخه ، وكان يعاصره الشهاب بن الخلوف القسنطينى المتوفى أيضا سنة ٨٩٩ شاعر السلطان الحفصى أبى عمرو عثمان ، وعاصرهما محمد بن عبد الرحمن الحوضى المتوفى سنة ٩٠٠ ويشتهر بمرثية له فى أستاذه السنوسى ، وله غزل ومديح نبوى وغير نبوى ، وكان يعاصره محمد بن عبد الكريم المغيلى المتوفى سنة ٩٠٩ وله – كما أسلفنا – قصيدة مشهورة أرسل بها إلى السيوطى فى الدفاع عن علم المنطق وضرورة تعلمه . ومن معاصريه إبراهيم بن أحمد الفجيجى صاحب قصيدة فى الصيد مشهورة ، وعنى ابن أخيه بشرحها سنة ٩٨٦ وسمى شرحه : « الفريد فى تقييد الشريد » وسنعرض للقصيدة وشرحها فى غير هذا الموضع . ونمضى إلى العهد العثمانى ونلتقى فى القرن العاشر الهجرى بمحمد بن على بهلول المجاجى المتوفى سنة ١٠٠٢ وله شعر صوفى كثير ومنظومات علمية ، ولتلميذه أحمد المانجلاتى مرثية بديعة فيه وتنسب خطأ إلى سعيد قدورة ، وللمانجلاتى مديح نبوى كثير وديوانان وموشحات . ونلتقى بعبد الرحمن بن موسى المتوفى سنة ١٠١١ وله قصائد متوسطة فى الحث على الجهاد وفى الاستغاثة بالله ورسوله . وكان يعاصره محمد بن عبد الرحمن البونى المتوفى سنة ١٠١٨ وله شعر كثير فى الخمر ، وتلاهم أحمد المقرى صاحب نفح الطيب المتوفى سنة ١٠٤١ وكان يعاصره يحيى بن أبى راشد وله أشعار فى الجهاد وفى وصف مدينة تلمسان ، ومحمد بن رأس العين المتوفى حوالى سنة ١٠٦٠ وهو من شعراء الموشحات والهزل والمجون . وجاء فى إثره عبد الكريم الفكون صاحب منشور الهداية فى نقد المتصوفة المتوفى سنة ١٠٧٣ وله ديوان فى المديح النبوى . وكان يعاصره محمد التوجيلى المتوفى سنة ١٠٨٠ وله مديح ورثاء وغزل . ويلقانا فى القرن الثانى عشر الهجرى محمد بن أحمد البونى المتوفى سنة ١١١٦ وله منظومات علمية كثيرة كثرة مفرطة ، ومحمد بن محمد بن على مفتى الجزائر الحنفى وله شعر كثير فى جهاد الإسبان وانتصار بكداش عليهم وفتحه لوهران سنة ١١١٩هـ/١٧٠٨م وقد قيلت فيه وفى هذا الفتح مدائح لشعراء جزائريين كثيرين سجلها ابن ميمون فى كتاب له سماه « التحفة المرضية » . ومن شعراء هذا القرن أيضا أحمد بن عمار المفتى المالكى المتوفى فى أوائل

القرن الثالث عشر الهجرى ، وله موشحات نبوية بديعة ، ومنهم أحمد بن سحنون شاعر الباى محمد الكبير صاحب الفتح الثانى لوهران بعد أن استردّها الإسبان سنة ١٢٠٥هـ/١٧٩٠م وتغنى بهذا الفتح النهائى لوهران كثير من الشعراء الجزائريين وسجل أشعارهم ابن سحنون فى كتابه « الثغر الجمانى » .

٣

شعراء المديح

يُعَدّ المديح أهم موضوع استغرق صفحات الشعر العربى على مر العصور ، وقد نشأ أول ما نشأ عند العرب حول التغنى ببطولات فرسانهم وشجعانهم فى الحروب ومكارم سادتهم وخصالهم الحميدة فى السلم والحرب ، وظل لكل عصر أبطاله وسادته وأمراؤه وحكامه ، وتفنن الشعراء فى وصف البطولات الحربية والخصال الكريمة وحكم الخلفاء والحكام العادل الرشيد على مدى العصور الإسلامية المتعاقبة . وطبيعى أن يكون للجزائر حظ فى هذا الوصف منذ تكونت فى تاهرت الدولة الرستمية الإباضية ، وكان من أمرائها مَنْ يجرى الشعر على ألسنتهم مثل أفلح بن عبد الوهاب (٢١١ - ٢٤٠هـ) وله قصيدة - كما مرَّ بنا - فى العلم والتعليم والترغيب فيهما ، وهى رمز لعناية تلك الدولة بالحركتين العلمية والأدبية فى تاهرت ، ويلقانا من مبكرى شعرائها أحمد بن فتح التاهرتى وابن حزاز ، وأهم شعرائها - حينئذ - بكر بن حماد ، وتصبح تاهرت - ومثلها الجزائر جميعها - تابعة للدولة العبيدية فى المهدية ، ويأمر المهدى العبيدى قائده على بن حمدون الزناتى بتأسيس مدينة المسيلة (المحمدية) واتخاذها عاصمة لإقليم الزاب فى الجزائر بدلا من طبنة سنة ٣١٣هـ/٩٢٥م . وكان قد نشأ تنافس بين عبد الرحمن الناصر الخليفة الأموى فى الأندلس وبين المهدى العبيدى وخلفائه العبيديين فى البلدان المغربية . ونرى أسرة طبنية تهاجر من موطنها إلى قرطبة سنة ٣٣١ بزعامة مؤسسها بالأندلس محمد بن الحسين الطبنى ويرحِّب عبد الرحمن الناصر به وبمن قدم معه من أهله ، ويصبح من شعرائه وبطانته ، ويكثر من مديحه ، حتى ليقول ابن حيان إن مدائحه فيه تملأ ديوانا كاملا ، ويقرِّبه بعده ابنه الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٥هـ) حين استولى على صولجان الخلافة بعد أبيه ، وكان كلما قدم على المستنصر عيد مدحه بقصيدة طويلة ، ونراه فى عيد الفطر لسنة ٣٦١ ينشده قصيدة جيمية مهيئا الناس لما كان يريده المستنصر من تولية ابنه هشام - وكان لا يزال طفلا - ولاية العهد قائلا له[1] :

(١) نظر المقتبس لابن حيان (تحقيق د . عبد الرحمن الحجى) ص ٨٣ .

حَصَّنْ بــه ديــنَ النبيِّ محمــدٍ وأقِمْ بـه أَوَدَ الزمـانِ الأعـوجِ
لهجتْ ببيعته النفـوسُ فأخـذُهـا من واجـب الأشياء لو لم تَلْهَجِ
عــودُ النبوَّة والخـلافـة أصلـهُ والفَرْعِ من تلك العروق الوُشَّجِ[1]
وارْمِ المشـارق باسـمه فَلْيَفْتَحنْ ما بين مصرَ إلى بـلاد الرُخَّجِ[2]

وواضح أنه كان يضع نفسه فى خدمة الخلافة الأموية بالأندلس ومناصرتها والاحتطاب فى حبلها إلى أن توفى سنة ٣٩٤هـ/١٠٠٣م . وكان قد هاجر معه إلى قرطبة أخوه على وأنجب ابنا له هو أبو مضر زيادة الله ، وعُنى بتربيته وأصبح — فيما بعد — نديما للمنصور بن أبى عامر حاجب هشام المؤيد ثم لولديه من بعده عبد الملك المظفر وأخيه عبد الرحمن الملقب بشنجول ، وحين قام بالحجابة بعد وفاة أخيه أرغم الخليفة هشاما المؤيد على أن يعهد إليه بولاية العهد ، ولما دخلت الوفود عليه للتهنئة كان مما هنأه به[3] :

تخيَّر الله والسلطـان للأمـمِ وليَّ عَهْدٍ بَراه الله من كرمِ
اختاره الله للإسلام يحفظه وخصَّه بعلوِّ القـدر والهمم

وكان صنيع شنجول المذكور سببا فى القضاء عليه وفى فتنة قضت على الدولة الأموية فى الأندلس، وكان حريا بالشاعر أن يتريث وأن لايكيل الثناء لشنجول، إذ مضى يمدحه بقصائد أخرى. وكان لزيادة الله ابن يسمى عبد الملك عنى بتأديبه ويقول ابن سعيد بترجمته له فى كتابه المغرب إنه كان إماما فى علم الحديث وكان شاعرا وأشعر منه ابن أخيه على بن عبدالعزيز، وفيه يقول الحجارى إنه أشعر بنى الطبنى وأنشد له ابن سعيد أشعارا فى الخمر والغزل.

وإذا كانت طبنة عاصمة الزاب القديمة أهدت إلى قرطبة أسرة بنى الطبنى فى القرن الرابع الهجرى وكل ما نظمه أفرادها من الشعر فإن قرطبة بدورها لم تلبث بعد نزول تلك الأسرة فيها بقليل أن أهدت إلى المسيلة عاصمة الزاب الحديثة وواليها من قبل العبيديين منذ سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م جعفر بن على بن حمدون وكان قد خلف فيها أباه الذى أسسها — كما مرَّ بنا — وكانا قد اتسعا فيها بالعمران وأصبحت مدينة شامخة وقصدها الشعراء والعلماء ، وممن اختارته قرطبة لقصد جعفر فيها شاعرها الفذ ابن هانىء ، وله فيه مدائح رائعة خلدت اسمه ، ومن قوله فيه[4] :

المشرقـاتُ النيِّرات ثـلاثـةٌ الشمسُ والقمرُ المنيرُ وجَعْفَرُ

---

(١) الوشج : الملتفة المتشابكة .
(٢) بلاد الرخج : بلاد بالقرب من مدينة كابل فى أفغانستان .
(٣) انظر البيتين التالين وأبياتا أخرى فى تهنئة شنجول بولاية العهد فى أعمال الأعلام لابن الخطيب ٩٤/٢ وما بعدها ولقب الشاعر محرف .
(٤) راجع أشعار ابن هانىء فى ديوانه المطبوع بالهند .

ويقول مخاطبًا له في إحدى مدائحه :

لم تُدْنني أرضٌ إليك وإنما ... جئتُ السماءَ ففتّحَتْ أبوابا
ورأيت حولي وفدَ كلِّ قبيلةٍ ... حتى توهمتُ العراقَ الزّابا[1]
أرضٌ وطئتُ الدرَّ من حَصْبائها ... والمسكَ تُربًا والرِّياضَ جنابا

وسمع بالشاعر ومدائحه في جعفر الخليفةُ المعز العبيدى الفاطمى فطلبه منه ، ولم يستطع مخالفته فجهزه إليه ، وأحسَّ حينما بعد عن المسيلة والزاب كأنما فارق فردوسه ، وصوَّر ذلك في إحدى قصائده منشدا :

خليليَّ أين الزّابُ مني وجعفرٌ ... وجنَّاتُ عَدْنٍ بِنْتُ عنها وكَوْثَرُ
وقبلي نأى عن جَنَّة الخلد آدمٌ ... فما راقه من جانب الأرض مَنْظر

وهو يتحسَّر على فراقه للزاب وجعفر ، فقد فارق جنَّة الخلد ونهرها « الكوثر » كما فارقهما أبوه آدم قبله ، ولم ينفعه ندمه ولا أسفه ولا تحسره ، ولا راقه بعدهما مشهد في الأرض ولا منظر .

وإذا كانت الجزائر أهدت إلى الشعر العربى شاعرا كبيرا في القرن الثالث الهجرى هو بكر بن حماد فإنها أهدت إليه في النصف الثانى من القرن الرابع شاعرين كبيرين هما عبد الله بن محمد التنوخى المعروف باسم ابن قاضى مدينة ميلة الواقعة إلى الشمال الغربى من مدينة قسنطينة ، واشتهر بمدحةٍ فائية مدح بها والى صقلية يوسف ثقة الدولة وسنخصه بترجمة . والثانى عبد الكريم النهشلى المسيلى شاعر المنصور الصنهاجى وابنه باديس ، وسنفرد له ترجمة . وقادت الدولة الحمادية في القلعة وبجاية طوال القرن الخامس الهجرى حركة أدبية وعلمية نشيطة ، وارتحل إلى أمرائها الشعراء ليمنحوهم الجوائز والصلات من أمثال ابن الفكاه أبى القاسم عبد الخالق القرشى القيروانى مادح الناصر بن علناس (٤٥٤ -٤٨١هـ) وفيه أنشد[2] :

قالت سعاد وقد زُمَّتْ ركائبُنا ... مهلا عليك فأنت الرائحُ الغادى
فقلتُ تالله لا أنفكُّ ذا سفرٍ ... تجرى بىَ الفُلْكُ أو يحدو بىَ الحادى
حتى أُقَبِّل تُرْب العزِّ منتصرًا ... بالناصر بن علنَّاس بن حمَّاد

وكان ابنه المنصور (٤٨١ - ٤٩٨هـ) كاتبا شاعرا وفيه يقول ابن خلدون : « هو الذى حضَّر ملك بنى حماد وصيَّر بجاية دار المملكة وجدَّد قصورها وشيَّد جامعها وتأنق في اختطاط المبانى وتشييد المصانع واتخاذ القصور وإجراء المياه في الرياض والبساتين ، فبنى في القلعة قصر المنار والملك والكوكب وقصر السلام وبنى في بجاية قصر اللؤلؤة وقصر أميميون » . ونزل به عبد الجبار بن حمديس شاعر صقلية الفذ فقلده صلات سنية وقلده ابن حمديس قصائد باهرة ،

(١) الزاب : أرض سهول في وسط الجزائر وراء جبال الأوراس شرقا .

(٢) أعمال الأعلام لابن الخطيب (طبع الدار البيضاء) ٩٦/٣ زمت ركائبنا : شدت بالزمام استعدادًا للرحيل .

منها رائية بديعة يصف فيها أحد قصوره وما امتد أمامه من بهو يتوسطه حوض كبير به نافورة تحملها مجموعة من الأسْد المذهبة تمج المياه البلورية من أفواهها إلى بركة محيطة بها ، وفوقها شجرة ذهبية ترصّع أغصانها طيور بمناقيرها مياه كمتناثر اللآلىء الصافية ، يقول[1] :

قصرٌ لو انَّك قد كحلتَ بنــورهِ ... أعمى لعــاد إلى المقــام بصيرا
أذكرْتنــا الفــردوسَ حين أريتنا ... غرفا رفعتَ بناءهــا وقصــورا
فلكٌ مــن الأفــلاك إلا أنــه ... حقَر البـدورَ فأطلـع المنصـورا
وضراغـمٍ سكنتْ عَرينَ رئاسـةٍ ... تركتْ خريرَ المـاء فيـه زئيرا[2]
وكأنمـا غَشّىَ النضارُ جسـومَهـا ... وأذاب في أفواههــا البلّــورا[3]
وبديعــة الثمرات تعبر نحوهــا ... عيناىَ بحرَ عجــائب مَسْجورا[4]
قد صوفحتْ أغصانُها فكأنمــا ... قبضَتْ بهنَّ من الفضــاء طيورا
خُرْسٌ تُعَدُّ من الفِصاح فإنْ شَدَتْ ... جعلتْ تغــرّدُ بالميــاهِ صَفيرا

وأبيات القصيدة جميعها درر نفيسة على هذه الشاكلة ، حتى ليقول المقّرى بعد إنشاده لها فى كتابه « نفح الطيب » : « لم أر لهذه القصيدة فى لفظها ومعناها من نظير » . ومعروف أن العماد الأصبهانى ترجم فى كتابه الخريدة لشعراء العالم العربى فى القرن السادس الهجرى ، وقد ترجم لنفر[5] من شعراء الدولة الحمادية نقل ترجماتهم عن كتاب المختار من النظم والنثر لابن بشرون المهدوى القيروانى مع نعته لهم بأنهم من المقلين ، وهم ثلاثة : على بن الزيتونى الشاعر ويوسف بن المبارك وابن أبى المليح الطبيب ، وقال عن على بن الزيتونى إنه شاعر المغرب الأوسط (الجزائر) وأديبه ، وألمعيُّه وأريبه ، وهو صاحب توشيح وتوشيع وتقصيد وتقطيع ، وأنشد له قطعة من قصيدة فى مديح قاض ، وفيها يقول :

نَهــاهُ عــنْ محارمِــه نُهاهُ ... وقرّبه لخالقــــه تُقــاه[6]
وشدَّ به عُرَى الإســلام حتى ... رأينا النُّجْحَ وانعقدتْ عُراه[7]
أمــينٌ عـدلُــه غَمَرَ البَرايــا ... فمـا يُخْشَى على أحـدٍ قضاه
لقـــد ظفرتْ يـدٌ عَلِقَتْ نَداه ... ومــن نـاواه قد تَبَّتْ يداه[8]

(١) ديوان ابن حمديس (تحقيق د. إحسان عباس) .
(٢) عرين الأسد : مأواه .
(٣) النضار : الذهب
(٤) مسجورا : مملوءا .
(٥) انظر فيهم وفى الأشعار التالية الخريدة (قسم المغرب) طبع تونس ١٨٠/١ وما بعدها .
(٦) النهى : العقل .
(٧) عرى الإسلام : مواثيقة التى لا تنفصل عنه .
(٨) تبّت : خسرت خسرانا كبيرا .

وكان يوسف بن المبارك من موالى بنى حماد ، وله فيهم مدائح مختلفة ، من ذلك قوله فى بعض قصائده يخاطب الأسرة :

ما منكمُ إلا همــامٌ حَــوَى ... مناقبًــا جُلَّى ومجــدا صُرَاحْ[1]

وتبذلــون الرِّفْدَ يــوم النَّـدى ... وتَسْعرون الحرب يوم الكفــاح[2]

وترفعــون الجــار فــوق السُّـهَا ... وتكرمون الضيف مهما استماح[3]

لا زلتــمُ تجنــون زهــرَ العُــلا ... فى معرضِ العزِّ بحـدِّ الصِّفاح[4]

أما ابن أبى المليح فكان اشتهاره بالطب أكثر من اشتهاره بالشعر إذ كان طبيبا ماهرا ، ويقول العماد إن له مقطعات فى الغزل جالبة للحب سالبة للبِّ ولم يرو منها شيئا له، إنما روى قطعة من قصيدة يهنىء بها الأمير عبدالله بن العزيز الحمادى فى أحد الأعياد واصفا فيها خيله، يقول:

وجالتْ به جُرْدُ المَذاكى كأنها ... عذارَى ولكنْ نُطْقهنَّ تَحَمْحُمُ[5]

وصفــراءَ كالتِّبرِ العتيقِ صقيلـةٍ ... ودهمــاء يتلوهــا كُمَيْتٌ وأَدْهَمُ[6]

وأشـقرَ لو يجْرِى مع البَرْق جُهْدَه ... لكان له يوم الرِّهــان التقــدم

وحــامَ لــواءُ النَّصْرِ يتبع رايــةً ... بها العِزُّ معقــودٌ عليهــا متمَّم[7]

ويترجم العماد فى نفس الجزء السالف من خريدته لشاعرين من شعراء القلعة الحمادية قدما إلى مصر فى أواخر عهد تلك الدولة هما محمد بن عبدالله بن زكريا القلعى الأصم وعلى بن إسماعيل القلعى، أما محمد فينقل عن كتاب جنان الجنان ورياض الأذهان للرشيد بن الزبير المؤلف حول منتصف القرن السادس الهجرى أنه قال عنه: «كان جيد الشعر، وارى[8] زناد الفكر» وأنشد له قطعة فى وصف فوارة من قصيدة فى مديح كرامة بن المنصور بن الناصر بن علناس وفيها يقول:

وحــاكيــةٍ بالمــاءِ لــونَ اضطرابـــهِ ... قوامًــا وحُسْنا حين يبدو ويُوبِص[9]

قضيــبَ لُجَيْنٍ ألمــع الصَّقْلُ مَتْنَــه ... وأخلصه فى السَّبْكِ من قبلُ مخلِص[10]

تســامى قليــلا ثم عــاد كأنــه ... جمانٌ حواليها على المــاء يَرْقُص[11]

كأنَّ نــوالا مـن يمــين « كرامــةٍ » ... يمــدُّ بـهِ إذ لا تـرى المــاء يَنْقص

---

(١) جلى : عظيمة ، صراح : خالصا .

(٢) الرفد : العطاء . تسعرون : توقدون .

(٣) السها : كوكب صغير خفي الضوء . استماح : اتسع فى الطلب .

(٤) الصفاح : السيوف .

(٥) المذاكى : الخيل المدربة . التحمحم : صوت الخيل دون العالى .

(٦) التبر : الذهب . صقيلة : مدربة . دهماء : سوداء . كميت : أحمر ضارب إلى السواد .

(٧) حام : دلو .

(٨) ولرى : متقد .

(٩) يوبص : يبرق ويلمع

(١٠) لجين : فضة .

(١١) جمان : لؤلؤ .

وينقل العماد عن ابن الزبير أنه كان ميخوس الجَدّ[1] وأنه ورد إلى الإسكندرية ومصر (الفسطاط) وأقام بهما زمانا لا يجد من يُرْوِى ظَمْأته ويسدّ خلّته[2] ، وعاد إلى المغرب ونزل ببنى الأشقر فى طرابلس الغرب ، وامتدحهم بقصيدة ميمية فأحسنوا صلته وعظموا جائزته ، ومن قوله فى مديحهم :

وفى ذا الحِمَى للمأمول يأمنُ خائفٌ ... وفى ذا النَّدى للمعسول يَنْقَعُ حائم[3]
عَضَدْتم على أحسابكم بفعالكم ... كما عضدتْ أسَّ البناء الدعائم[4]
على كلّ أرضٍ من نَداكم ميـاسمٌ ... وفى كل نادٍ من ثناكم مواسم[5]

وأما على بن إسماعيل القلعى فينقل العماد عن الرشيد بن الزبير أنه كان من الواردين أيضا على مصر وأن الخليفة الفاطمى الحافظ (٥٢٤ - ٥٤٤ هـ) استوزر أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالى ، وكان هو وأبوه وجده سنيين ، ويبدو أنه أراد أن يزيل الخلافة الفاطمية من مصر ، فأمر خطباء المساجد أن لا يدعوا فى خطب يوم الجمعة للحافظ وأن يسقطوا من أذانهم للصلاة : « حَيَّ على خير العمل » شعار الفاطميين ، وتنبه أنصار الفاطميين وشيعتهم فقتلوه ، ويقول ابن الزبير إن على بن إسماعيل القلعى نظم فى هذا الحادث قصيدة مدح بها الحافظ ومن قوله فيها :

وليلٍ صحبتُ السيف يَرْعَد حَدّهُ ... وقد شابَ فيه مفرقُ الصَّعْدَة السَّمْرا[6]
إلى أن بدا وجه الصَّباح كأنه ... لحافظِ دينِ اللهِ آيتُهُ الكبرى

ويعلق العماد على وصف الخليفة الحافظ بأنه حافظ لدين الله قائلا : « أستغفر الله من ذلك فإنه لم يكن حافظا وإنما كان مضيِّعا » .

وتقضى دولة الموحدين وزعيمها عبد المؤمن على الدولة الحمادية فى بجاية وتصبح الجزائر تابعة لها ، ويشتهر بها حينئذ شاعران : الحسن بن على بن عمر القسنطينى المعروف باسم ابن الفكون وسنخصه بترجمة ، ومحمد[7] « بن على بن مروان بن جبل الهمدانى الوهرانى الأصل الناشىء بتلمسان ، وكان فقيها نابها تولى قضاء تلمسان ثم استدعاه المنصور الموحدى (٥٨٠-٥٩٥ هـ) لقضاء الجماعة بمراكش وظل حميد السيرة مشهورا بالعدل فى أحكامه ، وعزله المنصور بعد فترة ، وأعاده ابنه الناصر إلى أن توفى سنة ٦٠١ هـ/١٢٠٤ م ومن مدائحه للمنصور قوله :

---

(١) الجد : الحظ .
(٢) خلته : حاجته .
(٣) ينقع حائم : يروى ظامىء .
(٤) عضدتم : أعنتم .
(٥) مياسم : جمع ميسم : علامة وأثر .
(٦) الصعدة : القناة .
(٧) انظره فى بغية الرواد ليحيى بن خلدون ١١٣/١ والمعجب للمراكشى ص ٢٦٤ و٣١٢ والتكملة لابن الأبار رقم ١٠٦٣ .

أسيّدنا يا بن الإمامين أمركم منوطٌ بأمر الله ما عنه معدلُ
نُصِرتم لأن الحقَّ آن ظهورُه وناصره فى الله ما كان يُخْذَل
ملأتم بِساط الأرض عدلا وما بَقِى فأخباركم فيه تسيرُ وتُنْقَل

ويؤسس أبو زكريا منذ سنة ٦٢٥ بتونس الدولة الحفصية وتتبعها بجاية وقسنطينة وشرقى الجزائر إلى ما بعد مليانة ، بل حتى أحيانا إلى مدينة الجزائر شمالا وحتى مدينة ورقلة جنوبا ، وكانوا يتخذون للمدن الكبرى : قسنطينة وبجاية وبونة ولاة حفصيين . وظلت لبجاية أهمية كبيرة طوال القرن السابع الهجرى ثم خلفتها قسنطينة أو بعبارة أدق نازعتها الأهمية ، فقد ظلت فى كليهما حركة أدبية وعلمية نشيطة ، على الرغم من أنه لم تنشأ فيهما ولا فى شرقى الجزائر عامة دولة كبيرة كدولة بنى حماد فى بجاية التى قضى عليها عبد المؤمن مؤسس دولة الموحدين ولا كدولة الزيانيين فى تلمسان التى سنلم بها بعد قليل ، ولا يلقانا فى بجاية وقسنطينة وشرقى الجزائر شعر مديح فى حاكم كبير ، وحقا يلقانا شعر مديح يتعلق بصداقات مثل قول محمد بن يحيى بن عبد السلام فى صديقه على بن سيد الناس وعشيرته[1] :

شمسُ السعادة لاسَنا النِّبراسِ حلَّتْ بأُفْقِ عَلِى بن سيد النَّاسِ
من معشرٍ بذلُ النوالِ شِعارهم وهم الأسود لدى احتدام الباس
فالبَسْ رداء الفخر جرِّرْ ذيلَهُ وانعم بطيب العيش والإيناسِ

وأهم شاعر مديح أنتجه شرقى الجزائر فى عهد الدولة الحفصية شهاب الدين بن الخلوف القسنطينى شاعر السلطان أبى عمرو عثمان ، وسنخصه بترجمة عما قليل .

وتؤسَّس بتلمسان الدولة الزيانية منذ سنة ٦٣٣ ويقود يَغْمُراسن مؤسسها وأبناؤه وأحفاده نهضة علمية وأدبية عظيمة فينشئون المدارس ويكثرون فى مجالسهم من مناظرات العلماء بين أيديهم ، ويتخذون المفتين من كبار الفقهاء كما يتخذون الأطباء ويتغنى بمديحهم الشعراء ويجزلون لهم فى العطاء ، ومن أول ما يلقانا من ذلك قصيدة لشاعر يَغْمُراسَن حين هاجمه السعيد الموحدى صاحب مراكش سنة ٦٤٦ وانتصر عليه يغمراسن ، وفيها يقول مهنئا له بالانتصار[2] :

بُشْرَى بعاجل فتحٍ أوجب العُرُسا وأسفر الدَّهرُ عنه بعد ما عَبَسَا[3]
فتحٌ تبجَّست الأنواءُ صادقةً بِوَدْقه ومحتْ أنوارُه الغَلَسا[4]
فتحٌ تفتَّح بابُ السعد عن كَثَبٍ عنه وأنجز فيه اليُمْنُ ما التمسا[5]
فتحٌ جَرَى فى الوَرَى مجرى الحياة فقد سَرَى فمازج منَّا النَّفْسَ والنَّفَسا

---

(١) عنوان الدراية ص ٣٤٣ .
(٢) انظر تاريخ بنى زيان ملوك تلمسان للتنسى (تحقيق محمود بوعياد) ص ١١٩ .
(٣) أسفر : انكشف . عبس : قطَّب وجهه وتجهَّم
(٤) تبجست : تفجرت . الأنواء : الأمطار ، ودق المطر : شديده . الغلس : ظلمة آخر الليل .
(٥) كثب : قرب .

والقصيدة جيدة وفيها يشير الشاعر إلى تطور الأحداث فى الحروب ومقتل السعيد الموحدى ويشيد بشجاعة الجيش التلمسانى وبأس فرسانه ، وكان من جملة الذخائر التى استولى عليها يَغْمُراسن من محلة الأمير الموحدى السعيد والتى بعد بها صيته وضخم ملكه كما يقول التنسى العقدُ اليتيم المشتمل على عشرات من خرزات الياقوت والدرر الثمينة بل على مئات كما يقول ابن خلدون فى تاريخه، وعضاد[1] الزمرد ، وأنفس من ذلك وأعظم مصحف عثمان بن عفان الذى خطّه بيمينه ، وكان قد صار إلى بنى أمية ، ونقل إلى عبد الرحمن الداخل فى قرطبة فوقفه بجامعها وغشاه بصفائح الذهب ونظم فى مواضع منها لآلىء نفيسة وأحجار ياقوت وزمرد . وكان أبناؤه يقدمونه أمامهم فى أسفارهم قائمين بحقه إلى أن كان من نعم الله على يغمراسن أن حظى به ، إن صحَّ ما قاله يحيى بن خلدون وغيره من المؤرخين . ولا تلبث تلمسان أن تنجب الشاعر البارع ابن خميس كاتب أبى سعيد عثمان الأول ابن يغمراسن (٦٨١- ٧٠٣ هـ) وشاعره ، وسنفرد له ترجمة . وكان يعاصره ابن أبى حجلة الذى ترجمنا له فى الجزء الخاص بمصر من هذه السلسلة ، وكان قد رحل فى بواكير حياته إلى الحج واستوطن مصر وولى إحدى مشيخات الصوفية وكان يزرى على أصحاب الوحدة من الصوفية ، وله مدائح نبوية متعددة وكتب أدبية متنوعة ، منها سكردان السلطان أى إناء السكر ، وديوان الصبابة أهداهما للسلطان حسن المملوكى ، مضمنا فيهما بعض مدائحه فيه من مثل قوله فى الكتاب الأخير :

مليكٌ أســودُ الغاب تحذر بأسَهُ ... لأن ملوك الأرض طرًّا تحـاذرُهْ
وأىُّ كمـاةٍ لم يرعْهـم نزالُــهُ ... وأى مكانٍ ما علتْـه منابـره

ولعل حاكما من حكام الدولة الزيانية لم يمدح كما مدح أبو حمو موسى الثانى (٧٦٠ - ٧٩١ هـ) الذى خلّص تلمسان من حكم المرينيين واستعادها لأسرته ، وكان أديبًا فذًّا وشاعرًا ماهرًا ونهضت تلمسان فى عهده نهضة علمية وأدبية عظيمة وأحاطت به كوكبة من الشعراء ألم بها وبمدائحها فيه التنسى فى كتابه : « راح الأرواح فيما قاله أبو حمو وقيل فيه من الأمداح » وسنخصه بترجمة بين شعراء الفخر ، ومن مداحه وكتّابه محمد بن صالح شقرون وأبو الفضل العصامى ومحمد بن قاسم ، ومن مداحه أيضا محمد بن أبى جمعة التلالسى أحد أطبائه ، وفيه يقول فى قصيدة[2] :

مطــاع شـجاعٌ فى الوَغى ذو مهابةٍ ... حسامٌ على الباغين فى الأرض قد سُلاَّ
لـه راحــةٌ كالغيث ينهــلُّ وَدْقُهــا ... وصــــارمُ نَصْرٍ مرهـفُ الحـدِّ لافُلاَّ
إمــامٌ حَبــــاهُ اللّـهُ ملـكا مـــؤزَّرًا ... فلا مَــلِكٌ إلا لعـــزَّتـــــــه ذَلاَّ
من الــزَّاب وافانــا عــزيزا مظفَّــرا ... يجرُّ من النَّصْر المنــوط بــه ذَيْـــلاَّ

(١) العضاد : الحلية توضع فى العضد .

(٢) بغية الرواد ١/ ٩٠ .

لطاعتـــه كلُّ الأنـــــام تبــادرتْ   فيا سَـــعْد من وافى ويا وَيْحَ مَنْ وَلّى
لقــد جـــبر اللّــهُ البلادَ بملكــه   به مُلئتْ أمْنًا بــه ملئــتْ عَــدْلا

والقصيدة بديعة وقد استهلها التلالسى بوصف طبيعة تلمسان الجميلة ، ونوه بوجود قبر الصوفى الكبير أبى مدين شعيب فيها ، وعاد إلى الإشادة بحسنها وأنها جنة الدنيا ثم أخذ فى مديح أبى حمو واستيلائه على تلمسان من يد الدولة المرينية قهرا ومبادرتها إلى عقد الصلح . وله موشحة أنشدها المقرى فى أزهار الرياض يجمع فيها بين مديحه ومديح الرسول الكريم ، ومن مديحه له فيها(١) :

مَنْ لم يـزل يسـمو   إلى المعالى كلَّ حينْ
ذاك أبوحَمُّـــو   المولى أميرُ المسلمين
طاعتــهُ غُنْـــمُ   نِلْنا بها دنيا وديـن

وكان أبو حموّ استنّ فى تلمسان الاحتفال بليلة مولد سيد المرسلين ، وكان المنشد يستهلّ الحفلَ بإنشاد مدحته النبوية ، ثم يظل ينشد طويلا ما رُفع إليه من مدائح شعراء البلاط فى أبى حمو وفى الرسول الكريم ، وتسمى تلك القصائد باسم المولديات ، وظل ذلك تقليدا بعده ، وسنترجم لشاعرين من شعرائه عما قليل ، هما يحيى بن خلدون ومحمد بن يوسف الثغرى .
وممن تولى مقاليد الحكم بعده ابنه أبو زيان محمد الثانى (٧٩٦ - ٨٠١ هـ) وكان كلفا بالعلم والأدب - كما مر بنا فى غير هذا الموضع - وراجت سوقهما فى عهده ، وكان شاعرا كما كان عالما ، وتهادى مع السلطان المملوكى برقوق (٧٨٤ - ٨٠١ هـ) والطريف أنه وجَّه إلى برقوق مع هديته قصيدة من نظمه استهلّها بتصوير أشواقه وحنينه إلى زيارة المصطفى والبقاع المقدسة ، ومن قوله بها فى مديح السلطان برقوق(٢) :

مــلكٌ بــه نــام الأنـــامُ وأُمِّنَتْ   سُبْلُ المخـاوف، لا يُخَـافُ سبيلُ
والملك ضَخْـمٌ والجنـــاب مؤمَّلٌ   والفضـــل جَمٌّ والعطـــاء جزيلُ
والصُّنْعُ أجمــلُ والفخـــار مؤثَّلٌ   والمجــد أكملُ والوفـاء أصيلُ(٣)
ياخـــادمَ الحرمين حـــقٌّ لك الهنَا   وحبّــاك من روح الإلــــه قَبول

وممن انتعش الأدب فى أيامه بعده أبو مالك عبد الواحد الزيانى (٨١٤ - ٨٢٧ هـ) ويقول التنسى إن الأدباء جاءوا إلى بابه يَنْسلون من كل حَدَب(٤) فينقلبون بُجْر(٥) الحقائب ، ظافرين

(١) أزهار الرياض ١/٢٤٧ .
(٢) تاريخ بني زيان للتنسى ص ٢٢٥ .
(٣) مؤثل : أصيل .
(٤) ينسلون من كل حدب : يسرعون من كل طريق .
(٥) بجر الحقائب : مملوئى الحقائب ، كناية عن كثرة العطاء .

بجزيل الرغائب ، ويضرب مثلا لمادحيه من غير التلمسانيين قصيدة لشاعر فاسيّ يسمى على العَشّاب يهنئه فيها ببعض فتوحه قائلا(1) :

ملكٌ تجلَّل بالمهابة وارتدى ... وسما فدانَ له الزمانُ الأسْعَدُ
كم بيَّنتْ آراؤه من مشكلٍ ... واللّهُ يكفلُ ملكه ويؤيِّد
ملك لأبى الرحمنُ إلا نَصْره ... فمن الذى يُخفى سَناهُ ويخمد

وربما كان أهم حاكم زيانى بتلمسان بعده المتوكل (٨٦٦ - ٨ هـ) ويعنى الفقيه التنسى بوضع كتاب أرَّخ فيه له ولأسرته - كما مرَّ بنا - سماه نظم الدر والعقيان فى بيان شرف بنى زيان ، وأنهى حديثه فيه عنه بقصيدة فى مديحه ومديح أبنائه الستة ، وفيه يقول(2) :

حَوَى فى صباه من وثاقة رأيه ... مع الحزم ما لم تحوه اللِّمَمُ الشُّمْطُ(3)
هو البحر جودًا من جميع جهاته ... فمعروفه لُجٌ وإحسانه الشَّطُّ
وكلُّ بَنى الآمال ساعون نحوه ... كذا كلُّ من أضناه من دهره قَسْطُ(4)
وبرَّز من بين الملوك مجليا ... وأعطاه ربُّ العرش فوق الذى أعْطوا

وتضعف الدولتان الزيانية والحفصية مع أوائل القرن العاشر الهجرى ويستولى فرديناند ملك إسبانيا من الدولتين على الثغور الشمالية المهمة للجزائر . ويتصدى له خير الدين (بربروس) وعروج ويستخلصان منه مدينة الجزائر سنة ٩٢٢ هـ/١٥١٦ م وما يزال خير الدين ينازله مستوليا منه على الثغور الشمالية ما عدا المرسى الكبير ووهران ، ويضيف إقليم الجزائر إلى الدولة العثمانية ، ويخلفه عليه ابنه حسن ، ولا يزال الجزائريون يستحثونه على منازلة الإسبان ، ويسترجع منهم فى سنة ٩٤٨ هـ/١٥٤١ م المرسى الكبير والجزء الأعلى من وهران ، ويهنئه الشاعر عبد الرحمن بن موسى بمثل قوله(5) :

هنيئا لكم باشا الجزائر والغربِ ... بفتحِ أساس الكفر مرسى قُرَى الكلبِ
وأبقاك ربى فاتحا لحصونهم ... وكهفا منيعا ذا عتوٍّ وذا ضَرْب

ويريد بالكلب شارل الخامس ملك إسبانيا وكان قد ساق إلى الجزائر حملة كبيرة ، فسحقها البايلاريك حسن . وتظل وهران مع الإسبان ، وما يزال الشعراء يستحثون الولاة العثمانيين فى فتحها من مثل محمد بن عبد المؤمن الذى يستحث الداى « باب حسن » على فتحها فى حماسية طويلة منشدا :

---

(1) التنسى ص ٢٣٨ .
(2) التنسى ص ٢٦٥ .
(3) اللمم الشمط : المختلط فيها سواد الشعر ببياضه .
(4) قسط : جور وظلم ، وهى من ألفاظ الأضداد .
(5) البستان فى ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لابن مريم ص ١٣٢ .

نادتك وهـرانٌ فَلَـبِّ نِداهـا وانزلْ بها لا تقصدنّ سـواها
واسـتدع طائفةَ العساكر نحوها يغزونهـا ولينزلـوا بفنـاهـا
أضحى الصَّليب مؤيدا والدينُ قد درسـتْ معالمُهُ فلسـت تراهـا
فادْعُ الغـزاةَ لغزوهـا مستنجدا وانهض إليها وانزلنْ مرسـاها

وعلى شاكلته محمد القوجيلي ـ وسنخصه بكلمة . ويتولى محمد بكداش مقاليد الولاية سنة ١١١٨ هـ/١٧٠٦ م فيعظم الأمل فى نفوس الجزائريين أن يحقق لهم أمنيتهم فى فتح وهران ، ويهنئه يحيى بن أبى راشد مشيدا به فى مثل قوله :

ملك تفرَّد بالكمـال ولم يكن لكماله فى السـالفين مثـالُ
دانتْ له الأيَّـام طرًّا مثلمـا دانتْ لليثِ الغابة الأشبـالُ
خضعتْ لسطوته الملوكُ وسلَّمت لجلاله الأمـراء والأقيـال(١)

ويكثر الشعراء من استثارة بكداش . ويدور العام الأول من حكمه ، ويفتح وهران عنوة سنة ١١١٩ هـ/١٧٠٧ م وكان أديبا يجمع النثر والخطابة والشعر ، وتبارى شعراء الجزائر والمغرب فى تهنئته بهذا النصر العظيم ، وجمع محمد بن ميمون ما نظم فيه من شعر منذ ولايته فى كتابه « التحفة المرضية فى الدولة البكداشية » وجعله فى ست عشرة مقامة . ومن شعرائه أحمد بن قاسم البونى ومحمد القوجيلى والمستغانمى ولبن على الذى هنَّأه تهنئه حارة مصورا كيف يسحقهم سحقا لا يبقى ولا يذر بمثل قوله :

إمـامٌ سقى الكفـار كأس منيَّةٍ لهم شبَّةٌ بالنَّمْل والسيفُ حاطمُ
ومزَّقهـم فى الأرض كلَّ ممـزَّقٍ فربعهمُ-بعد العمارة-طاسِم(٢)
وعـاد لوهـران السنيَّةِ فخرُهـا وعـاد إليها عهدُهـا المتقـادم

ويتوفى بكداش سريعا سنة ١١٢٢ هـ/١٧١٠ م . ويسترد الإسبان وهران وتظل فى حوزتهم حتى سنة ١٢٠٥ هـ/١٧٩٠ لعهد الباى محمد الكبير ، فيفتتحها نهائيا ، وكانت الحياة الأدبية نشطت لعهده والتف حوله غير شاعر مثل أحمد القرومى ومحمد بن الطيب المازرى وأحمد بن عمار ، ومن أهمهم أحمد بن سحنون كاتبه ، وله فى فتحه لوهران أرجوزة طويلة افتتحها بقوله :

حمـدًا لمن آزر نصرَ الدِّين ودان ناصريه أسنى الدِّين
وفتَّح الأقطار بالجهـاد حتى غـدت ليِّنة المهـادِ

وشرح الأرجوزة شرحًا أدبيًّا تاريخيًّا سماه : « الثغر الجُمانى فى ابتسام الثغر الوهرانى » وصف فيه الفتح وسيرة الباى والشعراء الذين مجَّدوه وبعض أشعارهم فى تهنئته بالفتح ،

(١) الأقيال : جمع قيل : ملوك اليمن . (٢) طاسم : دارس .

ووصف منشئاته العمرانية وخاصة الجامع الكبير الذى شاد
أحمد القرومى :

وترى المدرِّسَ قد علا كرسيَّه
تَحْويه مدرسةٌ غدتْ آثارُ

وكانت عقيدة الأشعرى قد شاعت
منذ القرن الخامس الهجرى . ويعترف ابن
فى زمنه لغلبة العجمة على الألسنة ، فصا
ويمدحون » ويضيف أن الشعر الفصيح شاع
والمعانى .

ويكثر فى العهد العثمانى مديح التلامذة لشيوخهم على نحو ما يلقانا عند محمد القوجيل
فى مديحه لأستاذه على بن عبد الواحد الأنصارى
الشعر المتبادل بين العلماء فى الجزائر وبينهم وبين علماء تونس
أن نتوقف لنترجم لبعض شعراء المديح .

عبد[2] الكريم النهشلى

ولد ونشأ فى مدينة المسيلة (المحمدية) بالجزائر الشرقية فى أرض الزاب . وبها
مرباه وتلمذته لشيوخها فى الأدب وتفتحت ملكته الشعرية مبكرة ، مما جعله يترك بلدته إلى القيروان العاصمة ، ولا يلبث أن ينتظم فى دواوين الدولة الصنهاجية ، ويقال إنه كتب لتميم بن باديس بن المنصور ، غير أنه كتب للمنصور بن بلكين من قبله ثم لباديس من بعده وأصبح شاعرهما . ومر بنا أن له فى الشعر والنقد كتابا سماه الممتع وأن ابن رشيق نقل عنه فى كتاب العمدة فى « صناعة الشعر ونقده » وذكره مرارا وترجم له فى كتابه الأنموذج ومما قاله عنه أنه : « كان شاعرا مقدما عارفا باللغة خبيرا بأيام العرب وأشعارها بصيرا بوقائعها وآثارها » ويدل كتابه الممتع على ثقافة واسعة بالشعر سعة لا حدود لها كما يدل على ذوق أدبى مرهف مع البصر بنقد الشعر وأحكام النقاد عليه . ويقول ابن رشيق إنه توفى بالقيروان أو مدينة المهدية سنة ٤٠٥هـ/١٠١٤م وأنشد له أبياتا من قصيدة فى مديح المنصور بن بلكين وما ذكر فيها من هدية أرسلت إليه من الخليفة الفاطمى العزيز نزار سنة ٣٨٤هـ/٩٩٤م وكان بها طائفة من

(١) انظر تاريخ الجزائر الثقافى للدكتور أبى القاسم سعد الله ٢٧١/٢ .

(٢) انظر فى ترجمة عبد الكريم النهشلى المراجع التى سبق ذكرها فى هامش ص ٨٩ .

الخيل الكريمة والإبل البخاتيّ النجيبة وحمارا مخططا من حمر الوحش وفيلا ضخما ، ووصفها النهشلى جميعا وصفا بارعا ، استهله بقوله :

هنّتْك أميرَ الجود خيرُ هديّةٍ　　تقدَّمها الإيمانُ واليُمْنُ والفَخْرُ

ومضى يصف الهدية ، وكان حريا بابن رشيق أن ينشد شيئا من مديحه الذى كان يبرع فيه براعة فائقة كما تشهد بذلك بائية له فى المنصور بن بلكين أنشد منها طائفة كبيرة فى كتابه الممتع ، وفيها يصور هيبة مجلسه منشدا :

ومجلسِ موقـورِ الجلالـة تَنْثنى　　عيونُ الـورى عنه وينبـو خِطابُها
ترى فيه رفع الطَّرْف خَفْضًا كأنما　　لحـاظ الرجـال ريبةٌ تستريبُها
إذا حُكْتُها ظلَّتْ نـواسـجُ عبقـرٍ　　حواسـدَ مدسوسـا إلىَّ عتـابُها
عـلى مـلكٍ تُهْدَى إلى مَكْرُماتِـهِ　　عقائلُ أشـعارٍ يـرفُّ شبابُهـا
همـامٌ دعـت كفَّاه قاصيـةَ العُلا　　فلبَّاه منهـا صَفْوهـا ولُبابُها

فهو مجلس محفوف بالجلال حتى لتنثنى عنه العيون مهابة ويتعثر الكلام فى الأفواه وينخفض الطرف ريبة يستشعرها . وإذا حاك قصيدته الرائعة فيه ظلت نواسج عبقر تحسده على إحسانه فيها إحسانا يفوق كل وصف ، وما تزال نفائس الأشعار تزفّ إليه ، وإنه لهمام تستجيب إليه ذروة العلا فينال منها صفوها ولبابها الخالص ويقول :

إذا ورد المنصـور أرضـًا تهلَّلتْ　　وجـوه رُبـاها واستهلَّ رَبابُها[1]
إذا اغبرَّت الآفـاقُ بلَّتْ سمـاؤُهُ　　ثَـراهـا بأيدٍ مـا يجفُّ رَغابُها[2]
كأن العـوالى الزُّرْق عنه مَضاؤُها　　وخُضْر السحاب من نداه عُبابُها[3]
فمـن يُولـهِ سعـدا يَنَلْه ومَنْ يُرِد　　بـه شِقْوةً تُخْلَعْ عليـه ثيابُها
يحـلُّ بنـا - مـا حلَّها - البِرُّ والتُّقَى　　ويخضرُّ من بعـد اصفرارٍ جنابُها

فما ينزل المنصور أرضا حتى تمتلىء رباها بشرا ويسقط بها الغيث مدرارا ، وما إن تغبرّ الآفاق وتجف الديار حتى يهطل عليها من سمائه ما يرويها ويحيلها أرضا سهلة خصبة . ويقول كأن أسنة العوالى أو الرماح الزرق من مضائه وعزمه ، وكأن غيث السحاب المنهمر من نداه وكرمه الفياض ، وإن من يمنحه سعدا ينله ومن ينزل به شقاء يصبه ، وإن أى أرض يحلّ بها يحلّ فيها التقى والرحمة والربيع الزاهى ، ويمضى قائلا :

ومـا بلدٌ لم يؤتك الطَّوْعَ أهلُها　　بآمنـةٍ أن لاتُـدَكَّ هضابُهـا
تحطُّ بها الأُسْدُ الضوارى خواضِعًا　　لديـك ولـو أن الكواكـب غابُها

---

(١) الرباب : السحاب .
(٢) الرُّغاب بفتح الراء : الأرض اللينة السهلة .
(٣) العوالى : الرماح . عباب السحاب : الأمطار المنهمرة .

ولو أنهـا عاصتْكَ غيـر مجيبـةٍ أجابتْكَ من تحت السيوف رقابُها
تهابُكَ آفـاتُ الخطـوب فتنتهى ولاتنتهـى عـن خُطَّـةٍ تهابُهـا
ورماحُكَ أحتـاءُ الضلوع ثِقافها وخيلك تامورُ النفوسِ شرابُها[1]

وهو يقول للمنصور إن بلدا لم تستسلم لك ولم تأتك طاعة أهلها لا تأمن أن تدكَّ هضابها دكًّا كأن لم تكن شيئا مذكورا ، وإن الأسد الضارية المفترسة بها لتحطّ لديكَ خواضع مهما كان غابها وغيلها بعيدا ولو أنها أعلنت عصيانك لأجابتك رقابها من تحت السيوف ذليلة خانعة ، وإن الخطوب – مهما عظمت – لتهابك ، بينما أنت لا تهاب خطة ، إذ لا تزال تيرم الخطط ، وتلك رماحك لا تزال تضرب فى أحناء الضلوع ، ولا يزال شراب خيلك دم الأعداء . والقصيدة مكتوبة بلغة جزلة رصينة وكأنها تقرع الآذان قرعا بموسيقاها اللجبة ، وكأنما تمتلىء برعد قاصف . وبدون ريب كان عبد الكريم النهشلى شاعرا مبدعا .

عبد[2] الله بن محمد التنوخى (ابن قاضى ميلة)

تقع ميلة فى الشمال الغربى لقسنطينة والجنوب الشرقى من بجاية ، وبها نشأ عبد الله بن محمد التنوخى فى بيت علم إذ كان أبوه قاضيها ، ولذلك اشتهر باسم ابن قاضى ميلة ، ويقول ابن رشيق إنه صحب أباه إلى جزيرة صقلية ، فاتصل عن طريقه بواليها ثقة الدولة (٣٧٩–٣٨٨هـ) وكان حسن السيرة ، ضبط صقلية وساس رعيتها سياسة عادلة حببته إليها ، ودوّخ الروم واستقامت له فيها الأمور ، وكان كريما كرما فياضا فقصده كثيرون من كل فَجٍّ ، فأكرمهم وفى مقدمتهم قاضى ميلة . وكان ابنه عبد الله شاعرا محسنا ، فمدحه بقصيدة فائية بارعة ، فقرب منزلته ومنزلة أبيه وأجزل صلته ، ويبدو أنهما لم يمكثا طويلا بصقلية . وأشاد بابن قاضى ميلة من ترجموا له ، فابن رشيق يقول فيه : « شاعر لَسِنٌ مقتدر يؤثر الاستعارة ويسلك طريق ابن أبى ربيعة وأصحابه فى نظم الأنوال والحكايات ، وله فى الشعر قدم سابقة ومجال متسع ، وربما بلغ فى الإغراق والتعمق إلى فوق الواجب ، وهو لهجٌ بذلك طالبٌ له » . ويقول ابن بسام فيه : « ضرب فى الأدب بأعلى قِدْح وافترّ عنه على أوضح صبح » . ونوه ابن خلكان بفائيته فى ثقة الدولة ، ويقول أحببت إثباتها لحسنها وغرابتها ، وأنشدها . وهو يستهلها بغزل حوارى لصاحبة له التقى بها محرمين فى الحج ، وهو غزل بديع سنذكر طرفا منه فى غير هذا الموضع ، وخرج منه إلى مديح ثقة الدولة والى صقلية فى يوم عيد من أعيادهم ، وفيه يقول :

---

(١) الثقاف : مضرب الرماح . تامور : دم .
(٢) انظر فى ابن قاضى ميلة أنموذج الزمان لابن رشيق ص٢٠٩ وابن خلكان ١٥٩/٦ وراجع ٨٤٣/٥ والذخيرة لابن بسام ٥٢٩/٤ .

أغـرُّ قُضـاعيٌّ يـكاد نَوالُـهُ لكثرة مايدعو إلى الشُّكْر يجحف[1]
سَعَى وسَعَى الأمـلاكُ فى طلب العُلا ففـاز وأكْدَوا إذ أخفَّ وأقْطفوا[2]
ويقظـان شـاب البطش بالبِرِّ والتُّقَى بكفَّيـه ما يُرْجَى وما يُتخَـوَّف
حسـامٌ على من ناصب الدين مصلتٌ وسـترٌ على من راقب الله مُغْدِفُ[3]
يسـايـرُه جيشـان : رأىٌ وفَيْلَقٌ ويصحبـه سـيفان: عـزمٌ ومُرْهَفُ
مطـلٌّ عـلى مـن شـاءَه فكأنمـا على حكمـه صَرْفُ الرَّدى يتصرَّفُ

وهو يقول إن كثرة نواله وعطائه تُكلِّف من الشكر ما لا يكاد يطاق لعظم ما ينثر من أمواله على الناس ، وقد سعى وسعى الملوك من حوله فى طلب العلا ففاز وخابوا إذ أسرع فسبقهم وأبطئوا فتخلفوا ، وإنه ليقظان دائما يجمع بين البر والتقوى والبطش الشديد ، ففى كفيه ما يرجى من الجود ويخشى من البأس العنيف ، وإنه لحسام مسلول على أعداء الدين وستر مسبل على أوليائه ، يرافقه جيشان من حزمه وجنده ، وسيفان : سيف مرهف وسيف من عزمه ، وكأنما ينزل صرف الهلاك على رأيه ويتصرف على حكمه ، ويدعو له الله أن يرعاه :

رَعَى اللَّـه مَنْ تَرْعى حِمَى الدين عَيْنُه ويحمى حِمى الإسلام والليلُ أغْضَف[4]
ومَنْ وَعْدُهُ فى مسـرح الحمـد مطلقٌ وإيعـاده فى ذمَّـة الحِلْـم موقَـفُ
ومـن يضـربُ الأعـداء هَـبْرًا فتنثنى صناديدُهم والبيضُ بالهـام تقذف[5]
رماهـم بِمَجْرٍ ضَعْضَـعَ الأرضَ رَزُّهُ كأن الروابى منه بالنُّبْـل تَدْلُـف[6]
كأن الرُّدَيْنِيَّـات فى رونـق الضُّحَى أراقمُ فى طـامٍ من الآل تزحـف[7]
يعـود الدُّجَى من بِيضـه وهْو أبيـضٌ ويبدو الضحى من نَقْعه وهْو أكْلَفُ[8]

وهو يدعو الله أن يحمى حامى الدين والإسلام والليل أشد ما يكون ظلاما ، الوافى بوعده والممسك بوعيده يمسك به حلمه ، وإنه ليضرب الأعداء ضربات متوالية والسيوف تقذف بالرءوس إذ رماهم بجيش كثيف تهتز الأرض تحت أقدام خيله حتى لكأن الروابى تقدم إليها ، وكأن الرماح أراقم تزحف فى أمواج من السراب ، وشاب الدجى ، وبدا الضحى كلفا مغبرا فى احمرار لكثرة النقع وغبار الحرب ، ويقول :

(١) أى يكلفهم ما لا يطيقون .
(٢) أكدوا : خابوا . أخف : أسرع . أقطفوا : أبطئوا
(٣) مصلت : مسلول . مغدف : مسبل .
(٤) أغضف : مظلم شديد الإظلام .
(٥) هبرا : ضربا . البيض : السيوف .
(٦) مجر : جيش كثيف . رزه : أصواته . تدلف : تسير مبطئة .
(٧) الردينيات : الرماح . أراقم : حيات . الآل : السراب .
(٨) النقع : غبار الحرب . أكلف : كدر .

فيا ثقةَ الملكِ الذى الملكِ سَهمُه ... يُراشُ لأكبادِ الأعادى ويُرصَفُ[1]
هنيئًا لك العيدُ الذى منكَ حُسْنُه ... يروقُ ومن أوصافك الغُرِّ يوصف
بدا مُعْلَمَ الأرجاءِ يُزْهى كأنما ... على عِطْفه وَشْيُ العراقِ المشفَّف[2]
أتى بعد حولٍ زائرا عن تشوّفٍ ... وقد كان ذا طَرْفٍ للقياكَ يَطْرِف
نطوَّقتَه عِزًّا وشنَّفتَه بِهِ ... فلاحَ لنا وهو المحلَّى المشنَّف[3]
ولا زلتَ تُستَجدَى فتُولى وتُرتجَى ... فتكفى وتُستدعَى لخطبٍ فتكشف

وهو يقول له يا ثقة الملك لا زال سهم ملكك يُسَدَّدُ إلى أكباد الأعادى فينفذ فيها ويُصميها وهنيئا لك العيد الذى يستمد منك حسنه وأوصافه البديعة ، وإنه ليمتلىء زهوا بما على جوانبه من وشى العراق الشفاف الرقيق ، وقد ظل حولا يتطلع إليك ويتمنى زيارتك ، فحليته بطوق رائع وقُرْطٍ بديع ، فلا زلت تستجدَى فتنعم وترتجَى فتُلَبِّى وتستدعى لخطب فتكشف نوازله .

وأنشد ابن رشيق من مديحه قوله :

طَبٌّ بأدواء الجهاد إذا ... صدَم العَجاجُ قوادمَ النَّسْرِ
وإذا احْتَبى فى شَمْلَةٍ ضربتْ ... بِيضُ النَّوال جماجمَ الفَقْرِ
يَنْدَى وأيدى المُزْنِ جامدةٌ ... ويلينُ عند قساوة الدهر

فصاحبه يعرف كيف يشفى أدواء الجهاد حين تشتد الحرب وتحتدم ويصدم عجاجها وغبارها الكثيف قوادم النسور وأجنحتها المحلقة . هذا شأنه فى الحرب أما فى السلم فلا تزال سيوف نواله وعطائه تضرب جماجم الفقر ، وإن يديه لتجودان جودا متصلا حين تشح أيدى السحاب ، وإن جانبه ليلين لوارديه عند قساوة الدهر وشدته . وواضح ما يتميز به ابن قاضى ميلة من التعمق والبعد فى التصاوير .

ابن[4] خميس

هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن خميس الحميرى الحَجْرى الرُّعينى التلمسانى ، ويتضح من نسبه أنه ينمى إلى حمير من عرب اليمن فى الجنوب ، وبالذات من حَجْر ذى رُعَين ، وذكر ذلك فى شعره مفاخرا به قائلا :

(١) يراش ويرصف : يسدَّد .
(٢) المشفَّف : الرقيق .
(٣) شنفته به : زينته بقرط .
(٤) انظر فى شعر ابن خميس وترجمته ديوانه باسم المنتخب النفيس من شعر أبى عبد الله بن خميس من عمل الأستاذ عبد الوهاب بن منصور وتقديمه له عن حياته وشعره . وراجع ما ذكره من مصادر بحثه وخاصة الإحاطة للسان الدين بن الخطيب ونفح الطيب وأزهار الرياض للمقرى ٢/٣٠١ وما بعدها .

وإن انتسبتُ فإنَّني مـن دوحـةٍ ... تتفيَّأُ الأنسـابُ بَرْدَ ظلالهـا
من حِمْيَرٍ من ذى رُعَيْنٍ من ذُرَا ... حجْرٍ من العظماء من أقْيالِهـا[1]

ولد بتلمسان سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٣م أو قبلها بقليل ، وبها كان منشؤه ومرباه ، ولا نعلم شيئا عن أسرته وأكبر الظن أنه كان من أسرة متواضعة ، وقد أقبل على حلقات العلماء ينهل منها ، وسرعان ما عُرف بين أقرانه بذكائه . وتتفتح موهبته الأدبية ، ويصبح من كتاب ديوان الإنشاء فى عهد السلطان التلمسانى يَغْمُراسَن ثم فى عهد ابنه أبى سعيد عثمان (٦٨١-٧٠٣هـ) وقد التقى بالعبدرى الرحالة وأكثر العبدرى من مجالسته ورواية أشعاره فى رحلته وأثنى عليه . وحدث فى أواخر عهد هذا السلطان سنة ٦٩٨ أن حاصر السلطان يوسف بن عبد الحق المرينى تلمسان ومات سلطانها أبو سعيد فى أثناء الحصار كمدا سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٤م . ونجد ابن خميس يغادر تلمسان فى نفس السنة إلى سبتة على مضيق جبل طارق ، ويستظهر ناشر الديوان ومحققه المقدم له الأستاذ عبد الوهاب بن منصور أن يكون ذلك بسبب نصيحة قدمها ابن خميس إلى أولى الأمر التلمسانيين بالدخول فى طاعة المرينيين مما أوغر صدورهم عليه وجعلهم يفكرون فى قتله ، وأحس بذلك ففر عن تلمسان ، وهو ينشد :

وأغـروا بنفسىَ طُلاَّبهـا ... سِرارًا فجاءوا لقتلى صُراحا
فشـاورتُ نفسىَ فى ذا فمـا ... رأتْ لى بغير الفَلاةِ فلاحا

وقد فَرَّ ابن خميس إلى الفلاة ثم إلى سبتة وأمرائها من أسرة بنى العَزَفى فرحبوا به وأغدقوا عليه من نوالهم وأغدق عليهم من مدائحه ، وكان قد عزم على الإقامة بها وإقراء طلابها ، غير أن بعض الماكرين من شيوخها دسُّوا عليه أسئلة نحوية على لسان الطلاب فلم يعجبه المقام بها ، وجاز الزقاق إلى مالقة بالأندلس فغرناطة أواخر سنة ٧٠٣ وكان يحكمها حينئذ الأمير محمد الثالث (٧٠١ - ٧٠٨هـ) ووزيره أبو عبدالله بن الحكيم وكان أديبا وراعيا للأدباء من أمثال عبد المهيمن الحضرمى وأبى العباس العزفى فما إن وفد عليه ابن خميس حتى ألحقه بمجلسه وأسبغ عليه عطاياه ، وأخذ ابن خميس يضفى عليه مدائحه ،وجال فى المرية وغير المرية بعض جولات غير أن استقراره كان فى غرناطه بجوار راعيه ابن الحكيم ، ويقال إنه كان يقرىء فيها العربية مع ملازمته لمجالس ابن الحكيم ، وحين دبَّر خصوم الوزير لمقتله وقتلوه قتلوا معه شاعره ابن خميس يوم عيد الفطر مستهل شوال سنة ٧٠٨هـ/١٣٠٩م .

ويعد ابن خميس أهم شعراء المائة السابعة فى الجزائر بل فى المغرب عامة ، وفيه يقول لسان الدين بن الخطيب إنه « فحل الأوان فى المطول وأقدر الناس على اجتلاب الغريب » ويقول ابن خاتمة : « كان - رحمه الله - من فحول الشعراء وأعلام البلغاء ، يصرِّف العويص ،

(١) حجر ذى رعين : قبيلة يمنية . أقيالها : أمراؤها وملوكها .

ويرتكب مستصعبات القوافي ، ويطير في القريض مطارَ ذوى القوادم الباسقة والخوافي » ولقبه يحيى بن خلدون بشاعر المائة السابعة الدَّباج الذى لانظير له، ويقول محققه إنه « يمتاز في شعره على الخصوص بظاهرتين : الجانب القصصي وغرابة الألفاظ ، وقلَّ من شعراء القرن السابع من يضارعه في قوة العارضة وخصب القريحة وفيض الخاطر وطول النفس ، وندر من يماثله في سلاسة المباني وسلاسة المعاني». والقصص عنده قصص تاريخي ولذلك يحتاج قارؤه في فهم بعض اشعاره إلى الرجوع للمصادر التاريخية ، وكان يكلف بالغريب قائلا في بعض شعره :

مـا ذاق طعـــمَ بلاغـــةٍ من ليس للوحشيِّ ماضغْ

ولم يكن يعممه في أشعاره ، وكأنما كان يريد باستظهاره أحيانا العودة إلى الصياغة الشعرية القديمة إمعانًا في العروبة . ولم يكن يفزع إلى الغريب دائما إنما كان يفزع إليه في مخاطبة بني العزفي ولبن الحكيم لما عرفوا به هم ومجالسوهم من اتساع الثقافة اللغوية . ومن أشعاره في بني العزفي خائية طنانة استهلها برثاء تلمسان وما أصابها من حصار السلطان يوسف المريني منذ سنة ٦٩٨ وتعطل معاهد أنسه بها ، ويلوم بني زيان لتشتيتهم له ولأمثاله ممن نصحوهم بالدخول في طاعة المرينيين حتى يفكوا عنهم هذا الحصار الذى طال أمده ، ويخرج إلى مدح سبتة وبني العَزَفي منشدا :

تركــتُ لِمينـــا سَبْتَةٍ كلَّ نُجْعَــةٍ كما تُرِكَتْ للعِزِّ أَهْضَابُهـا الشُّمَّخُ(١)
وآليـت أن لا أرْتَـــوِى غيرَ مائهــا ولـو حلَّ لى فـى غَيْرِه المَنُّ والمَذْخُ(٢)
فأملاكهـا الصِّيدُ المقاولـــةُ الأُلَى لعزِّهـمُ تَعْنُو الطَّراخمـــة البُلَّـخُ(٣)
كواكب هَدْيٍ فـى سمـــاء رياسةٍ تضىء فما يَدْجُو ضلالٌ ولا يَطْخو(٤)
بنو العَزَفِيِّين الأُلَى من صـدورهـمْ وأيديهمُ تُمْلا القراطيسُ والطُّـرْخُ(٥)
رياســـةُ أخيـــارٍ وملكُ أفاضـــلٍ كرامٍ لهم فـى كلِّ صالحـةٍ رَضْخُ(٦)

وهو يقول إنه ترك لميناء سبتة كل ما يرجى من نجعة ومعروف ، كما تُركتْ للعز وديانها الشامخة ، وآلى أن لا يرتوى بغير مائها حتى لو عرض له في غيرها عسل المن المذكور في القرآن وعسل الرمان ، فحسبه أن ينعم بلقاء ملوكها العظام الذين يخضع لهم الأشراف المزهوون ، وإنهم لكواكب هدى فما يظلم ضلال ولا يعتم ، علماء أجلاء تمتلىء القراطيس والطوامير

(١) النجعة: المعروف والكلأ . أهضابها : هضباتها . الشمخ : العالية .
(٢) المن والمذخ : نوعان من العسل .
(٣) الصيد المقاولة : السادة العظام . تعنو : تذل . الطراخمة البلخ : الأشراف المتكبرون .
(٤) يطخو : يظلم .
(٥) الطرخ : القطعة من الخوص ، ويريد الطوامير لأنها كانت تصنع من ورق البردى .
(٦) رَضْخ : عطاء .

بعلمهم ، أخيار أفاضل كرام ، لهم في كل صالحة من عمل رضخ أو عطاء جليل ، ويقول لهم :

بَنِي العَزَفِيِّين ابْلُغُــوا ما أردتمُ | فمادون ما تبغــون وَحْلٌ ولازَلْخُ(1)
ولا تقعــدوا عمــن أراد سِجالكـــم | فما غَرْبُكم جُفٌّ ولا غَرْفكم وَضْخُ(2)
وخلُّــوا وراءً كلَّ طالـــبِ غايـــة | وتيهوا على من رام شأوكُمُ وانخُوا(3)
ولا تــذروا الجَــوْزاءَ تَعْلُو عليكـــمُ | ففي رأسِها من وَطْءِ أسلافكم شَدْخ(4)

وهو يقول لهم إن الدنيا تبلغكم كل ما أردتم من منى وآمال فخذوا منها ما تشاءون فما عائق يحول بينكم وبين ما تتمنون وتأملون ولا تلتفتوا إلى من ابتغى مفاخرتكم بأعماله ،فما دَلْوكم خال ولا غَرْفكم قليل ، وخلُّوا وراءكم كل طالب غاية وتيهوا وامتلئوا افتخارًا على من يروم أن يبلغ شأوكم من المجد والفخار ، ولا تدعوا الجوزاء تشعر بأنها تعلو عليكم ففي رأسها من وطء أسلافكم شدوخ وشروخ . ويمدح ابن الحكيم الوزير الغرناطي في شعبان سنة ٧٠٦ للهجرة بقصيدة همزية يستهلها بحنين وشوق ظامىء إلى تلمسان ويخلص إلى مديح الوزير منشدا :

ولـولا جِــوارُ ابْنِ الحكيـــم محمـــدٍ | لفاتت نفسي مسن بني الدهر إقمـاءُ(5)
حمـــاني فلــم تَنْشَبْ محلِّي نوائـــبٌ | بســوءٍ ولــم تَــرْزَأْ فــؤادىَ أرْزَاءُ(6)
دعـــاني إلى المجـــد الذي كنت آمـــلا | فلم يَكُ لـيَ عن دعـــوة المجد إبطـاءُ
وبوأني مــن هَضْبَـــة المجـــد تَلْعَـــةً | يناجي السُّهَا منها صُعُـودٌ وطَأْطَاءُ(7)
يشيِّعني منهـــا إذا ســـرتُ حافـــظٌ | ويَكْلَـؤُني فيهـــا إذا نمـتُ كـلاَّءُ(8)
ولا مثــــل نـومي في كفالـــة غـــيره | وللذئــب إلمــامٌ وللصِّـــل إلمـــاءُ(9)
إذا كان لي من نائـــب المُلْكِ كافـــلٌ | ففي حيثمـــا هوَّمْتُ كِــنٌّ وإدْفـــاءُ

وهو يعترف بما للوزير ابن الحكيم الغرناطي عليه من منة مشكورة، فلولاه لساق إليه الناس ما يشعره بالذل فقد حماه منهم ومن نوائب الدهر ومحنه ، بل لقد دعاه إلى ما كان يتمنى من مجد وأنزله من هضبته مكانا عليا يناجي منه نجم السُّها صعودا وهبوطا ، وحافظ يشيِّعه إذا سار وحافظ يكلؤه ويسهر عليه إذا نام ، لا كمثل من لا يرعون من يحمونهم من الذئاب والأفاعي ، بل رعاية وكفالة تامة وكِنّ مريح يرد البرد ودفء ما بعده دفء . وله وراء ذلك في ابن الحكيم مدائح تموج بالغريب وبالصور البديعة ، فقد كان مصورا بارعا ، وكان يخف عليه الجناس

(1) زلخ : تزحلق .
(2) السجال : المفاخرة . الغرب : الدلو الكبير . جف : خال . وَضْخ : قليل .
(3) شأوكم : مداكم وغايتكم . انخوا : تيهوا وتكبروا .
(4) الجوزاء: كوكب معروف. شدخ : شرخ وجرح .
(5) إقماء : إذلال .
(6) لم ترزأه أرزاء : لم تصبه مصائب .
(7) تلعة : ربوة . طأطاء : هبوط .
(8) يكلؤني : يرعاني ويحفظني . كلاَّء : حافظ .
(9) إلماء : انقضاض .

والطباق حين يريدهما ، وهو يعد فى الذروة من شعراء المغرب عامة والجزائر خاصة وسننشد له أشعارا فى الطبيعة وفى النزعة الصوفية إذ كان فنانا كبيرا فى كل ما ألم به من موضوعات .

محمد[1] بن يوسف القيسى الثغرى التلمسانى

أهم شعراء الجزائر فى المائة الثامنة لعهد أبى حمو موسى الثانى، وكان يعاصر كوكبة من الشعراء المبدعين أمثال ابن أبى جمعة التلالسى وعبد المؤمن بن يوسف المديونى ومحمد بن صالح الشقرونى وابن ميمون السنوسى ومحمد بن على العصامى ويحيى بن خلدون وغيرهم كثير. وليس بين أيدينا ما يشير إلى التكوين الأدبى للثغرى ، غير أن بيئته كانت تكتظ بالعلماء والأدباء ، وكان من ترى فيه مخايل النبوغ الأدبى يختار للعمل فى دواوين الدولة ، واختير الثغرى وأصبح كاتب الإنشاء لأبى حمو الثانى، كما أصبح شاعره الفذ الأول، وكان أبو حمو الثانى (٧٦٠-٧٩١هـ) يرعى الأدباء ويجزل لهم العطاء ، وكان أديبا كما كان شاعرا كبيرا فطبيعى أن يعنى بالأدباء والشعراء لعهده وأن يكون لشاعره محمد بن يوسف الثغرى حظ كبير من هذه العناية . وكان قد استنَّ الاحتفال بالمولد النبوى منذ استولى على صولجان الحكم فكان ينظم فيه مدحة مولدية وكذلك شعراؤه وفى مقدمتهم الثغرى ، وكانوا يستطردون فيها من مديح الرسول ﷺ إلى مديحه ، وسنلم بذلك فى حديثنا عن المديح النبوى إنما تهمنا الآن مدائح الثغرى فى أبى حمو موسى الثانى وابنيه أبى ناشفين وأبى زيان، ومن قصيدة يمدح فيها أبا حمو :

يا إمــامَ الهدى وشمسَ المعالى ... وغمــام النَّدَى وبدرَ النَّوَادِى
لك بين الملــوك سِــرٌّ خَفِيٌّ ... ليس معناه للعقــول ببادِى
وكأنَّ البــلادَ كفُّك مهمــا ... كان فيهــا من ينتمى لعِنَــادِ
لم تــزل دائمــا تحنُّ إليكــم ... كحنــين السَّقيم للعُــوَّادِ
قــد أطاعتكــمُ البلادُ جميعًا ... طاعةً أُرغمتْ أنوفَ الأعادى
فأريحُوا الجيــادَ أتعبتموهــا ... وأقِرُّوا السُّيُوفَ فى الأغمــادِ

وهو يشيد به ، فيجعله إمام الهدى وشمس المعالى وسحاب الكرم والبدر المضيء الهادى ويقول إن له سر اخفيا بين الملوك جعله محبوبا من شعبه ، وكأنما يقبض على البلاد بكفه ، بل هى كفه ، حتى لو كان فيها خارج عليكم ،وإنها لاتزال تحن إليكم حنين السقيم للعواد ،

(١) انظر فى محمد بن يوسف الثغرى التلمسانى كتاب نيل الابتهاج لأحمد بابا ص٢٩٤ وبغية الرواد ليحيى بن خلدون وتاريخ بنى زيان لمحمد بن عبد الله التنسى (انظر فهارسهما) وكذلك فهارس الجزء الثامن من نفح الطيب وأزهار الرياض ٣٢٩/٢ وما بعدها .

فأنت بلسمها المداوى الشافى . ويقول إن البلاد جميعا تطيعك فأرح الجياد التى طالما أتعبتها وأقِرَّ السيوف فى أغمادها وعش قرير العين مطمئن البال . وله فيه من أخرى أشاد فيها بتلمسان ومشاهدها إشادة بديعة ، وفيه وفى قبيلته بنى عبد الواد يقول :

فُرْســانُ عبدالـوادِ آســادُ الوَغَـى ... حاموا الذِّمارِ أولو الفَخار الأطولِ
وإذا أمـــير المؤمنـــين رأيتـــه ... فالثَمْ ثَرى ذاك البِســـاط وقَبِّل
بُشْــرَى لعبدالــوادِ بالملك الـذى ... خلصـوا به من كل خطبٍ مُعْضِلِ
وكفاهــمُ سعـدًا أبوحمّـــو الـذى ... يحمى حِماهم بالحســـام الفَيْصَلِ
وبحســـن نِيَّتــه لهـــم وبجــدِّه ... وبســـعده وبســـعْيه المتقبَّــل
ذُو الهمَّـــة العَلْيــا التى آثارهـــا ... حلَّت به فــوق السِّماك الأعـزلِ

وهو يشيد بفرسان قبيلة عبد الواد أسد الحروب أصحاب الفخار العظيم الذين يحمون الحمى ، وإذا رأيت أمير المؤمنين فقدم له كل ما يمكن من تجلة ، وبشرى لعبد الواد ملكهم الذى خلصهم من كل ما ألم بهم من خطوب خطيرة ، ويكفيهم سعدا أنه أبو حمو حامى حماهم بشجاعته الباسلة وهمته القعساء التى حلَّت به فوق نجم السماك المصعد فى السماء . وكان مايزال ينظم مولديات فى احتفال أبى حمو بليلة المولد النبوى وكان يستطرد فيها إلى مديحه دائما بمثل قوله فى إحداها :

ظفر التُّقَى والعَدْلُ من موسى الرِّضا ... بالجوهـــر الفـــرد الـذى لا يُتْـأمُ
يـاأيهـــا الملك التقــىّ ومن لــــه ... شـرفٌ على سَمْك السِّماك مخيِّم
أعطيتَ بالعــدل الخلافـة حقَّهـا ... فملوكهـا فى حقهـــا لك سلَّموا
جـودٌ وإحسـانٌ وقصدٌ فى الهـدى ... حســنٌ و عقد فى التقى مستحكم
وتواضـــعٌ يعــلى وقـــدرٌ يحتــلى ... ونَدَى يدٍ تَهْمِى وبشــرٌ يبســـم
والحلمُ أوســع والجنـــاب مؤمَّلٌ ... والعـــزُّ أمنـــع والسجيَّـــة أكـــرم

وهو يقول إن التقى والعدل جميعا ظفرا من أبى حمو بالجوهر الفرد الذى لا نظير له ، وإن تقاه ليخلع عليه شرفا يسمو به فوق نجم السماك الأعلى ، وبالمثل عدله الذى يسبغ على الخلافة جميع حقوقها مما جعل ملوكها يسلِّمون لك عن يد ، وهذا أنت جود وإحسان وهدى وتقى وتواضع ومكانة كبيرة وكرم يهمى ويهطل وبشر يبسم وحلم أوسع وكنف مؤمَّل وعز منيع وسجايا كريمة . ويظل يرصف له فضائل كريمة كثيرة . ويتحول الثغرى بعد أبى حمو الثانى شاعرًا لابنه أبى تاشفين (٧٩١-٧٩٥هـ) وينشده مولديات يستطرد فيها إلى مديحه من مثل قوله فى الاحتفال بليلة سابقة لليلة المولد الشريف :

إمـامٌ تولَّـى اللَّـهُ تشييدَ فخـرِهِ ... فمـا شئت من مجدٍ ومن كـرمٍ عِدِّ
يعـدُّ إلى الأعـداء كلَّ كتيبـةٍ ... بهـا الجُرْدُ تَرْدِى والفوارسُ كالأسْدِ
يُهـاب ويُرْجَى فى جـلال جمالـهِ ... كليثٍ وغيثٍ فى وعيدٍ وفى وَعْدِ
فيا مالـكا يحمى الرعيَّـة رَعْيُـهُ ... ويحييهمُ بالبـذل والعيشة الرَّغْـد
ويكفلهم بالعـدل والفضل والنَّـدَى ... ويشملهم بالجـود والرفق والرِّفْدِ

وهو يمدح أبا تاشفين بما أسبغ الله عليه من مجد ومن كرم فياض ، ويقول إنه يعد إلى الأعداء كتائب تضرب خيلها الأرض بحوافرها الصلبة ويضرب فرسانها الأعداء ضربات مصمية ، وإنه ليهاب كليث فى وعيده ويرجى كغيث فى وعده ، ودائما يحمى الرعية برعايته ويحييهم بما يسبغ عليهم من عطاء ورخاء مع ما يكلفهم به من العدل والفضل ويشملهم به من الرفق والجود والكرم المدرار . ويلحق الشاعر عصر أبى زيان (٧٩٦ - ٨٠١هـ) وفيه يقول من ميلادية طويلة :

لئن كان بحـرا فى العلـوم فإن فى ... بَنـان يديـه للنَّدَى أبحـرا عَشْـرا
ومـاهمُّـه إلاكتـابٌ وسـنّةٌ ... ينسخهما قد أحرز الفخر والأجْرا
فنَسْخُ كتـاب الله جَـلَّ جـلالهُ ... ونَسْخُ البخـارى ضامنان له النَّصْرَا
ومَنْ كان يعتـدّ الشفـاءَ شفاءَهُ ... فمـن عـلل الأوزار فى نَسْخه يَبْرا
ولم أدر والأوراقُ راقـتْ بخطّـه ... أمسـكا على الـكافور يُنثَرُ أم حِبْرا
ألاهـكذا فلْيَسْمُ للمجد مَنْ سَمَا ... ويُجْرِىْ لآمـاد الفضائل من أجْرَى

وكان أبو زيان كلفا بالعلم كما وصفه التنسى ولم يخل مجلسا له من مناظرة أو مذاكرة ومحاضرة ، وكان غيثا مدرارا فى الجود والكرم ، وجعل همه - كما يقول الثغرى والتنسى - كتابة نسخ من المصحف الشريف ، وتحتفظ الخزانة العامة للرباط بإحدى هذه النسخ النفيسة ، وهى على رق غزال ومحلاة بالذهب وجميع ما فيها من أسماء الله الحسنى مكتوب بالذهب .وكتب نسخة من صحيح البخارى ونسخا من كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ للقاضى عياض . وبحق ما يقوله الثغرى من أن من يعتد شفاء القاضى عياض شفاء له يبرأ به من جميع الأوزار فما بالك بمن يعتد بالبخارى وأهم من ذلك وأعظم بالقرآن الكريم . ويقول الثغرى إن من يرى المداد على تلك الأوراق إنما يرى مسكا منثورًا على الكافور ، وما أعظمه من مجد حققه لنفسه أبو زيان ، وهو مجد خليق بأن يتسابق إليه المتسابقون ويتنافس فيه المتنافسون . ولم تذكر المراجع متى توفى الثغرى ، وأكبر الظن أنه توفى فى آخر القرن الثامن أو فى أوائل التاسع الهجرى .

الشهاب[1] بن الخلوف

هو شهاب الدين أحمد بن أبي القاسم بن عبد الرحمن بن الخلوف لقبا الحميرى نسبا ، ولد لأبيه في قسنطينة سنة ٨٢٩ هـ/١٤٢٥ م وقصد بابنه بعد ولادته توًّا لأداء فريضة الحج ، وظل مجاورا بمكة أربع سنوات ، وبارحها إلى مدينة بيت المقدس واستقر بها حتى توفى سنة ٨٥٩ هـ/١٤٥٥ م . وفيها نشأ ابنه الشهاب ، فحفظ القرآن واختلف - بعد حفظه - إلى حلقات الفقهاء واللغويين والقراء وغيرهم من العلماء ، واستوعب كثيرا مما عندهم ، وشُغف - منذ صباه - بالأدب شعرا ونثرا كما يحكى الدكتور هشام بوقمرة محقق ديوانه فى مقدمته له ، إذ ذكر أن الشاعر قال فى إحدى مخطوطات ديوانه : « كنت مُجِنٍ ولع بعصفورى النظم والنثر فى الصبا ، مستوهبا من دوحتيهما نسمتي القبول والصّبا ، مقتطفا لزهرتيهما من رياض الآداب ، ملتقطا لدرتيهما من أصداف الطّلاب[2] ، لا أسلك واديا لم يترنم فيه حمامهما ، ولا أعكف على حديقة لم يمطر فيها غمامهما ، ولا أرقب سماء لم تلح فيها زواهرهما[3] ولا أخوض بحرا لم تتكون فيه جواهرهما إلى أن ظفرت من المطلوب بأوفى نصيب ، واحتويت من كنانتيهما[4] على كل سهم مصيب » . وسرعان ما تفتحت موهبته الشعرية ، وأعجب بشعره أبوه ، فأمّل أن يكون له شأن بين شعراء تونس ، فنصحه بالهجرة إليها فى تاريخ غير معروف ، ويظن أنه هاجر إليها فى نحو الخامسة والعشرين من عمره ، وأخذ يظفر بغير قليل من إعجاب الأدباء ، مما أتاح له وهو فى السادسة والعشرين أن يكون فى مقدمة المهنئين لسلطان تونس عثمان الحفصى (٨٣٨ - ٨٩٣ هـ) باقتران ابنه وولى عهده المسعود من ابنة عمه سنة ٨٥٥ هـ/١٤٥١ م وأعجب به السلطان وابنه المسعود فعاش فى حاشيتهما واتخذه المسعود كاتبا له ، وكان يحسن الكتابة كما يحسن الشعر ، ولذلك كان يلقب فى حياته بصاحب الصناعتين . ويشكو مرارا وتكرارا فى مدائحه للسلطان عثمان وابنه المسعود من حساده ومنافسيه ، ومن أهمهم زميله فى الكتابة بديوان المسعود الشاعر محمد الخيِّر المالقى الذى كان يكثر من معارضة أشعاره . وظل ابن مخلوف يلازم المسعود حتى سنة ٨٧٧ هـ/١٤٧٣ م إذ يعزم فيها على أداء فريضة الحج ، ويؤديها ويظل فى القاهرة نحو أربع سنوات تنعقد فيها الصداقة بينه وبين مؤرخ مصر الكبير السخاوى صاحب كتاب الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع ، وقد ترجم له فيه ، ويقول عنه إنه : « حسن الشكل والأبهة ظاهر النعمة طلق العبارة بليغ بارع فى الأدب ومتعلقاته »

---

(١) انظر فى ترجمة الشهاب بن الخلوف رحلة عبد الباسط بن خليل المصرى إلى المغرب ودرة الحجال لابن القاضى والضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع للسخاوى وشذرات الذهب لابن العماد ونيل الابتهاج للتنبكتى وإتحاف أهل الزمان لابن أبى الضياف وتاريخ الأدب التونسى لحسن حسنى عبد الوهاب ومقدمة محقق الديوان الدكتور هشام بوقمرة (طبع تونس) وله طبعة قديمة فى القرن الماضى غير محققة .

(٢) الطلاب : المطلوب .

(٣) زواهر : جمع زاهر : النجم المضىء .

(٤) الكنانة : جعبة السهام .

ويصفه بالظرف وحسن الهيئة . وعاد إلى تونس سنة ٨٨١ هـ/١٤٧٧م ويعود إلى الكتابة عند المسعود ، ويقول الدكتور هشام بوقرة إن المسعود جفاه سنة ٨٨٨ هـ/١٤٨٤م ولم يلبث أن رضي عنه سنة ٨٩٠ هـ/١٤٨٦م وظل كاتبا له حتى وفاته سنة ٨٩٣ هـ/١٤٨٨م وفي نفس السنة توفي السلطان عثمان الحفصي ، وخلفه حفيده يحيى بن المسعود بوصية منه ، ولم يدر العام حتى قتل في معركة مع ابن عمه عبد المؤمن والى بجاية ، واستولى عبد المؤمن على صولجان الحكم في تونس ، ولم يهنأ به طويلا فقد ثأر منه زكريا بن السلطان يحيى المقتول في أوائل خريف العام التالي سنة ٨٩٥ هـ/١٤٩٠م واستولى على أزمة الحكم ، وصوَّر ذلك ابن الخلوف في رائية له يمدحه بها قائلا :

حُزْتَ الخلافة عاصبا لا غاصبا والحـق ورثّك النفيسَ المدَّخَرْ

وهو يقول له إنك حزت الخلافة أو السلطنة عاصبا أى عن طريق الإرث عن الآباء لا غاصبا عن طريق الظلم والعدوان ، واجتاح تونس سنة ٨٩٩ هـ/١٤٩٤م طاعون توفي فيه السلطان زكريا وأيضا توفي فيه الشهاب بن الخلوف ، وربما توفي قبله بقليل . ونجده لا يكتفي بما ينظم من الشعر في أغراضه المعروفة من المديح والرثاء والغزل والخمريات والوصف وغير ذلك من الأغراض التى رتّب عليها الدكتور هشام بوقرة ديوانه ، إذ نظم كثيراً من الشعر التعليمي وله فيه منظومات كثيرة ، فقد نظم كتاب المغنى لابن هشام كما يقول مترجموه وله في النحو أيضا منظومة في صيغ الأفعال ، ونظم كتاب التلخيص في علوم البلاغة للقزويني ، وله بديعية صوَّر فيها ألوان البديع ومحسناته لعصره ، وله أرجوزة في علم الفرائض ، وله في العروض تحرير الميزان لتصحيح الأوزان . وله بجانب ديوانه المذكور آنفا ديوان في المدائح النبوية سماه « جَنا الجنتين » ويشيد مترجموه به إشادة رائعة . ونراه يستهل ديوانه العام قبل أغراضه المختلفة ببعض قصائد وأزجال وموشح في المديح النبوى ، ويبدو أن له كثيرا من الأزجال في أغراض مختلفة ، وبالمثل له موشحات متعددة . وهو مداح كبير ، وقد ظل طوال أربعين عاما يمدح السلطان عثمان الحفصي وابنه المسعود في الأعياد والمناسبات المختلفة ، ويلزمهما ملازمة المتنبى لسيف الدولة ، ومن قوله في السلطان عثمان :

إمـامٌ بَـراه اللّهُ أولى عبـاده بحـقٍّ وأهداهـم لأوضح حُجَّةِ
تؤمِّل نُعمـاه ويُخْشَى انتقامُه لطالـب سِلْمٍ أولطالـب فتنـةِ
يصـولُ ويحمى شِرْعـةً نبويَّةً بِسُمْرٍ رِشاقٍ أو بِبيضٍ جَلِيَّةِ[1]
له دولةٌ أربَـتْ على كل دولـةٍ بتأييـدِآراءٍ وتأييـد نُصْرَةِ
يحنُّ إلى المعـروف حتى يُنيلـه كما حنَّ مشتاقٌ لوصل الأحبَّة

(١) السمر : الرماح . البيض : السيوف .

وهو يقول إنه إمام اختاره الله لرعيته لأنه أولاهم بحق الخلافة وأهداهم لأوضح حجة دامغة ، وإنه ليوزع نعماه وعطاياه على طلاب السلم المطيعين بينما ينزل نقمه على طلاب الفتن العاصين ، وإنه ليحمي الشريعة النبوية ويذود عنها بالرماح والسيوف المصمية ، وإن دولته لتسمو على كل الدول بالآراء الصائبة والانتصار الساحق ، وإنه يصبو دائما إلى بذل المعروف والأعمال الخيِّرة كما يصبو المحب إلى وصل محبوبته ، ويقول فيه من أخرى :

تملَّكَ رِقَّ الجـود واستخدم الغِنَى ... فلم يبق عـانٍ يشتكى أَلَمَ الفقْرِ(1)
إذا مادعـاه العُسْرُ يا محيىَ الوَفـا ... بدا فدعـاه اليُسْرُ يا قاتـل العُسْرِ
رَوَى الفَضْلُ أخبـارَ التُّقَى عن كمالِـه ... كما نمَّ عن طِيب الرُّبى طيِّبُ النَّشْرِ(2)
لقـد ذُكـرتْ للأوَّلـين فضـائلٌ ... ولكنَّ هذا الفضـل لم يَجْرِ فى ذِكْرِ
سخـاءُ يدٍ تَرْوِى الجـداولُ ماءهـا ... عن السَّيْل عن قَطْر الغمـام عن البَحْرِ
ومجـدٌ كما تـرْوِى الأشـعَّةُ نـورها ... عن البَرْق عن زهـر النجوم عن البَدْرِ
وحَسْبُكَ يافَـرْعَ المـكارم والعُـلا ... أصولٌ زكتْ فى رَوْضة المجد والفَخْرِ

وهو يصفه بأنه استرقَّ الجود وامتلكه وأصبح الغنى أو الثراء له خادما يرسله ويوزعه كيف شاء حتى لم يبق بائس يشتكى ألم البؤس والفقر ، ويتخيل أن العسر ناداه يا محيى الوفاء ، ولم يكد يبدو ويظهر حتى ناداه اليسر يا قاتل العسر : كناية عن كرمه الفياض ، ويقول إن الفضل والتقوى ينمان عن كماله ونبل خلقه وشمائله كما ينم الشَّذَى العطر عن طيب الرُّبى وأزهارها الأرجة ، وينوه بفضله ويقول إنه يفوق فضائل الأولين ، فلم تنطق الألسنة بفضل يماثله ، ويشيد بسخائه وكرمه ، ويقول إن مياهه لتغمر أنحاء تونس وكأنما تفيض عن سيل ، عن غمام منهمر ، عن بحر تتدفق أمواجه ، وهى مبالغة شديدة . ومثل ذلك قوله إن مجده كما تروى الأشعة نورها الساطع عن البرق عن النجوم المضيئة عن البدر ، ويقول له حسبك الأصول التى نمت فى روضة المجد والفخر الذى ليس مثلهما فخر ولا مجد . وله ينشد فى إحدى مدائحه :

ملكٌ إذا هـزَّ الحسـامَ بكفِّـهِ ... خرَّتْ لبارق رَعْده الخُرْصانُ(3)
لـو فُرِّقَـتْ عزماتـه وهباتُـه ... فى الناس لم يكُ باخلٌ وجبـانُ
ويرى العواقبَ فى صحيفة فكره ... فكأنمـا أفكـاره كُهَّـانُ
تُعْزَى إلى الغيثِ السكوبِ هباتُه ... هيهـات أين الغيث والطوفانُ
يُصْغِى الزمـانُ لأمرِهِ ولَنَهْيِـه ... وتطيع الانسُ لحكمه والجـانُ

(1) عان : بائس فقير .
(2) النشر : الرائحة الذكية الساطعة .
(3) الخرصان : السيوف يريد سيوف الأعداء .

وتـراه ما بين الأسنَّــة ســـافرا كالبدر دارتْ حولـه الشُّهْبانُ[1]
أنتَ الإمـــام ومَنْ عـداك رعيَّةٌ أنت المقدَّم والـوَرَى أعـــوانُ

وهو يقول له إنه مفرط الشجاعة حتى إذا صال فى ميادين الحروب وهزّ حسامه سقطت السيوف من أيدى أعدائه هيبة ورهبة ، ويمضى الشاعر فى مبالغاته فلو وزّعت هباته وعزماته فى الناس لم يبق بخيل ولا جبان ، ويبلغ من نفاذ بصيرته أن يتنبأ بعواقب الأمور وأن تحدث طبق تنبؤه ، حتى لكأن تنبؤاته أفكار كهان يبصرون الغيب ويخبرون به ، وإن هباته لتعزى إلى الغيث المنهمر ، بل أين الغيث منها والطوفان ، وقد بلغ من عظم السلطان أن أصبح الزمان يصدر عن أمره ونهيه وأصبحت الإنس تطيع حكمه والجان ، وإنه ليخوض الحروب بين السيوف والرماح بوجه مشرق كالبدر تحفّ به النجوم الساطعة ، ويقول له إنك الإمام والرعية من حولك أعوان ونصراء . وله فى مديحه موشحة بديعة ، يقول فى تضاعيفها :

قابل النـــورُ ظلمة الحَلَكِ بمصبـــاحٍ منـــيرْ[2]
ورقا النجـــمُ ذروةَ الفلَكِ خائفًـــا مستجـــيرْ
بأبى عمرو الرضـــا الملكِ من سَعـير الهجـــيرْ[3]
مَنْ رَوَى المجد عن علا عُمرِ بطـــريق الصِّحــــاحْ
وسَرَى فى النُّهَى على قـدرِ بمَطـــايا الفـــلاح
لو رأى البـدر وجهه الطَّلْقا لاعـتراه السجــــودْ
لـو رأى الغيث جوده الغَدْقا لاستَحَى أن يجــــود
فاق خَلْقًا وقد حـوى خُلُقا قارنتْــــــه السـعود
بَوَّأ الملكَ رتبـــة الظَّفَـرِ بعـــوالى الرِّمـــاحْ
ومَحى عَزْمُــه دُجَى الغِيَرِ بصبـــاحِ الصِّفـــاحْ[4]

والموشحة طريفة ، وهو يستهلها بوصف الطبيعة وصفا بديعا ويخرج منه إلى مديح أبى عمرو عثمان الحفصى وكأنما يتخذ من نور الفجر رمزا لحكمه الرشيد ، وكان الوقت صيفا والقيظ شديد الحرارة ، فقال إن النجم علا ذروة الفلك مستجيرا بالسلطان أبى عمرو المحبوب من نار الهجير ، ويقول إنه روى مجده عن آبائه المنتسبين إلى عمر بن الخطاب نسبة صحيحة أو بطريق الآثار الصحاح كما يقول ، ويمضى فى مبالغاته فلو رأى البدر وجهه المستبشر لخرّ ساجدا ولو رأى الغيث جوده المدرار لعلاه الخجل والاستحياء ونوّه به خَلْقًا وخُلُقا ، ويدعو

---

(1) الشهبان جمع شهاب : النجم المضىء والشعلة الساطعة .

(2) الحلك : سواد الليل

(3) الهجير : نصف النهار فى القيظ .

(4) الصفاح : السيوف . الغير : الأحداث .

له أن يقترن هو وحكمه بالسعود . ولعل صوت الشهاب بن الخلوف اتضح لنا اتضاحا تاما ، وهو صوت يكتظ بالعذوبة والسلاسة وصفاء التعبير ويجمع بين الرقة والمتانة ، وكأنما يستمد من معين لا ينضب ، معين زلال ممتع دون أن يكلفك أى عناء فى فهم لفظة أو عبارة ، إذ كان يشغف بالوضوح التام كل الوضوح .

محمد[1] القوجيلى

من كبار شعراء مدينة الجزائر فى القرن الحادى عشر الهجرى لعهدها العثمانى ، ولا نعرف شيئا واضحا عن نشأته ، غير أن من المؤكد أنه عكف على حفظ القرآن الكريم فى صباه مثل لداته ، حتى إذا أتقن حفظه وجوَّده على قرائه أخذ يختلف إلى حلقات الشيوخ يأخذ عنهم علوم الفقه والحديث النبوى والعربية والأصول والتوحيد والبيان والبلاغة ، وتميز فى علمه بالفقه والشريعة ، مما أعدَّه ليصبح قاضيا من قضاة الدولة . وشغف مبكرا بالشعر ، وأخذ ينهل من دواوينه حتى استقامت له ملكته الشعرية . وسرعان ما أصبحت ملكته خصبة ، واتجه بها أول ما اتجه إلى المشاركة فى الشئون السياسية والتعبير عن أمانى أمته الجزائرية ، وكان من أهم أمانيها فى بواكير شبابه تخليص وهران من أيدى الإسبان الذين طال احتلالهم لها منذ أوائل القرن العاشر الهجرى ، ونراه حين ولى الجزائر أحمد باشا سنة ١٠٠٧هـ/١٥٩٩م يهنئه بولايته ويحضه على الجهاد ضد الإسبان حتى ينهزم جمعهم فى وهران ويولون عنها فرارا ، بل حتى يسحقهم سحقا لا يبقى منهم باقية ، يقول :

فرِحتْ جزائرُنا بكم وتأنَّستْ ... بمقامكم فيها بحال حُبورِ[2]
فَلْتَلْتفتْ نحو الجهاد بقوةٍ ... والكفرِ فاقطعْ أصله بذكورِ[3]
وبغَرْبِنا وهرانُ ضِرْسٌ مؤلمٌ ... سهلُ اقتلاعٍ فى اعتناءٍ يسيرِ
فانهضْ بعزمك نحوها مستنصرا ... باللّه فى جِدٍّ وفى تَشْميرِ
بعساكرٍ مثل السيول تزاحمتْ ... للسبق تحت لوائك المنصورِ

ونرى القوجيلى يتحول من دعوة الوالى لجهاد الإسبان وفتح وهران إلى نصحه بأن يصرف للعلماء والأدباء شعراءَ وكتابا إعانات تعينهم على العيش الكريم ، إذ كان ولاة العثمانيين على الجزائر لا يفهمون العربية ، فكانوا لا يعنون برجال الدين فضلا عن الشعراء والكتاب وساعد على ذلك أن ديوانهم — حينئذ — كان تركيا خالصا ، فلم يعد للأدب ولا للعلم سوق رائجة فى عهدهم ، مما جعل القوجيلى يدعو الوالى الجديد إلى تلافى ذلك حتى لا تنتكس الحركة العلمية والأدبية ، وإنه ليهتف بالوالى العثمانى :

---

(١) انظر فى ترجمة محمد القوجيلى كتاب أشعار جزائرية تحقيق د . أبو القاسم سعد الله وما ذكره عنه فى كتابه تاريخ الجزائر الثقافى (انظر الفهرس) .

(٢) حبور : سرور .

(٣) الذكور جمع ذكر : السيف الصلب القاطع .

العلـــمُ مـيراث النبـوَّة نالـه | قـومٌ لهم حــظٌ من التنويـرِ
كم في بلادك من نجيبٍ حافظٍ | ومشـــاركٍ فى النظـم والمنثور
ومحقّـقٍ ومـدقق ومناظـــر | من كل درَّاك الحِجَى نِحْريـر
لكنهم فقـدوا الإعانة واغتدوا | ما إن يراعيهـم ذوو التأمـيرِ
ضاعوا وجاعوا لا محالة وابتُلوا | فى ذا الزمـان الصعب بالتقتير

وهو يقول له إن العلماء ورثة الأنبياء ، وكم فى البلاد من حافظ محدث وشاعر وكاتب وفقيه محقق وعالم مدقق ومناظر يدرك براهين الحجى والعقل نحرير حاذق فى عمله كل الحذق ، غير أنهم فقدوا ما يسد رمقهم ، وابتلوا فى العصر بالتقتير والتضييق عليهم فى النفقة ، إذ لا يراعيهم أمراؤهم أو ذوو التأمير .

ويصبح القوجيلى قاضيا فى تاريخ غير معروف ، وتدل تلك الوظيفة على ما حاز لنفسه من الدراسات الدينية وخاصة الفقه وما عرف به من القدرة على الفتوى السديدة ، وأكبَّ على دراسة الحديث مما جعله ينظم عملا شعريا حول الجامع الصحيح للبخارى سماه : « عقد الجمان اللامع المنتقى من قعر بحر الجامع » وهو منظومة فى مخرجى أحاديث البخارى وعدد الأحاديث التى لكل منهم مع بيان المكثر منهم والمقل فى السند على ما أورده ابن حجر المصرى وزاد عليه تراجم الرواة . ويبدو أنه كان يضيف إلى اشتغاله بالقضاء اشتغاله بتدريس الفقه والحديث للطلاب . ويتولى صديق له الفتيا يسمى أبا عبد الله محمد بن قرواش ، ويتصادف حدوث زلزال عند توليه ، فيتطير من ذلك ، فيمدحه بقصيدة محاولا فيها أن يجعل الزلزال بشرى لفرح الأرض بتوليه هذا المنصب الدينى الجليل قائلا :

إهنَـأْ أبـا عـبد الإلــــه بخِطَّةٍ | جاءتْك وهْى لدى الزمان جمالُ(۱)
والأرض قـد فرحــتْ بمـــا خُوِّلْتمُ | مرحتْ بسائطُها ومــال جبــال(۲)
وتحـرَّكتْ أرجـاؤهـا طربًا بكـــم | مـا مسَّهـا رَجْفٌ ولا زلْــــزالُ
بل إنمـــا ماستْ لذلك نخـــوةً | حتى لقد رقصتْ بنــا الأطلالُ(۳)

والأبيات تدل على أن ملكته الخيالية كانت خصبة ، وأنه كان يعرف بها كيف يجعل ما قد يظن أنه نحس أو شؤم فألا حسنا لفرح وسرور وحياة هنيئة طيبة . وانعقدت صداقة متينة بينه وبين الفقيه الحافظ على بن عبد الواحد الأنصارى السجلماسى الذى هاجر بأسرته من مدينته سجلماسة بالمغرب الأقصى إلى مدينة الجزائر حوالى سنة ۱۰٤۰هـ/۱٦۳۱م واتخذها وطنا ثانيا له حتى وفاته سنة ۱۰٥۷هـ/۱٦٤۸م وكان عالما متبحرا فى جميع العلوم الدينية

---

(۱) يريد بالخطة منصب الفتوى .
(۲) خولتم : أعطيتم . ويريد بسائطها : المنبسط من الأرض .
(۳) ماست : اختالت .

واللغوية والبلاغية ، وطارت شهرته فى إقليم الجزائر والمغرب الأقصى وقصده الطلاب من كل فج ، ونرى القوجيلى يمدحه بقصائد متعددة . وهى ظاهرة كبرى فى العهد العثمانى بالجزائر أن نرى الشعراء منصرفين بمدائحهم عن الولاة العثمانيين إلا قليلا ، لأنهم كانوا تركا ولم تكن كثرتهم تفهم العربية فضلا عن إحسانها ، فقلَّ منهم من فتح أبوابه للشعراء إلا نفرا محدودا لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة ، ولذلك انحاز الشعراء الجزائريون بمدائحهم عن الولاة العثمانيين وأخذوا يسبغونها على الشيوخ من العلماء الأجلاء ، على نحو ما نرى عند القوجيلى فى إكثاره من مديح الحافظ الفقيه على بن عبد الواحد الأنصارى ، يمدحه – كما يمدح أمثاله من الشيوخ – لا طلبا لنوال أو عطاء ، وإنما تجلّة وعرفانا لهم بالفضل وما أوتوا من العلم النافع . ومن مديح القوجيلى للشيخ الأنصارى قوله فى إحدى مدائحه :

أبو الصلاح علىٌّ فى الكـرام عَلا … من لا يماثلـه فى الناس من أحَدِ
بحـرٌ طَمَى فرمى دُرًّا لملتقـطٍ … غيثٌ هَمَى فنَما نفعًا لمجتهـد(١)
أكرمْ بمجلسه السامى فقد ظهرتْ … لنـا به نفحـاتُ العَوْن والمـددِ
تلاطمتْ فيه أنـواع العلـوم كما … تلاطم البحـر بالأمـواج والزَّبَدِ
من يُحْرم الرِّىَّ من صافى مشاربه … يعضُّ من نـدمٍ فى شفـةٍ ويـدِ

وهو ينعت الشيخ الأنصارى بالصلاح حتى ليجعله أباه ويرفعه درجات فوق الناس قائلا إنه لا يماثله أحد من العلماء ، يريد من نظرائه الفقهاء ، ويشيد بمجلسه العلمى وما يعرض فيه من نفحات العلوم ، بل يقول إنه تتلاطم فيه تلاطم الأمواج والزبد فى البحر المتوسط ، ويقول إن من لا ينهل من صافى علومه يندم ندما شديدا . وله يقول فى مدحة ثانية :

علاَّمةٌ أحيا العلوم وقـد … خفيتْ معانيهـا على الكُثْرِ
يا طالبًا للعلـم هـل لك فى … رُشْدٍ وفى الإكثار من خَيْر
اقصـد لمجلسـه تَنَلْ شرفًا … وتحوز فخـرًا أيَّما فَخْر(٢)
إن جئت مجلسَه تجدْ عجبا … منه العلـوم تفيض كالبحـر
بدرايـةٍ وروايـةٍ ثبتـتْ … بصحيح إسـنادٍ عن الغُرِّ(٣)

وهو يشيد بعلمه وتناهيه فيه أو بلوغه منتهاه ، حتى ليعدّه محييا له ، وينصح طالب العلم أن يقصد إلى مجلسه لينال شرف العلم وفخره ، إذ سيجده يفيض على طلابه بسيول من علومه وسيجده يجمع بين الدراية والرواية ، وبعبارة أخرى بين المعقول والمنقول ، فهو من أهل الاجتهاد والرواية الوثيقة بأسانيد صحيحة عن رواة أعلام . وكانت قد حدثت اضطرابات فى

---

(١) طما : امتلأ . همى : سال .
(٢) رفع تحوز ولم يجزمها عطفا على فعل تنل فى جواب الأمر لضرورة الشعر .
(٣) الغر : الثقات .

العقد الحادى عشر الهجرى وظُنَّ أن الباب العا
ونرى القوجيلى يذهب إلى إسطانبول على
من السلطان –وكان حينئذ محمد خان الرابع– موافقته على إصدار فرمان بتولية يوسف با
وما إن يضع القوجيلى قدمه فى تلك المدينة حتى يتجه بقصيدة إلى مفتى إسطانبول أبى سعيا
يمدحه بها ويسأله أن يكون شفيع وفده
فيها :

سعدتَ فدُمْ فى العِزِّ واستكمل العَليا
وكُنْ ملجــأً للوافديــن فمــن يُعِنْ
شــكايتنــا ممــا دهانــا بقُطْرنــا
وكم من أميرٍ ظُـــنَّ يكشـــف ضُرَّه
وأولاهمُ فى العـــزم والحزم والوفـا — سمى الذى فى السجن قد عبّر الرّؤيا
فكــن عَوْنَنــا عنــد الخليفة وامْضِيَنْ — بنــا بين أيدينـــا لحضرتــه العليـــا

وهو يدعو للمفتى أبى سعيد بدوام العز واقتناء الرفعة والشرف ويرجوه أن يكون ملجأ للوفد الجزائرى وعونا فى إنجاز مهمته عند الخليفة مشيرا إلى الحديث النبوى : « إن الله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه » ويقول إن شكايتنا مما نزل بقطرنا الجزائرى مشيرا إلى المنازعات فى السلطة وصراع الإنكشارية العثمانية ، وكل والٍ يظن أنه سيتلافى الاضطرابات بها حتى إذا تولاها عجز عن إصلاحها . وقال إن أصلح أمير لحكمها سمىّ الذى أول الرؤيا فى السجن لصاحبيه أى أنه يوسف باشا سمى يوسف الصديق عليه السلام . ويطلب إلى المفتى أن يتقدم وفدهم لدى الخليفة شافعا لهم عنده فى تحقيق ما يأملون . ولا نعرف شيئا عن القوجيلى بعد هذه الوفادة ، وقد نجح فى مهمته ، وتولى يوسف باشا أمر الجزائر . وعاد إلى موطنه ، وظل به حتى وفاته سنة ١٠٨٠هـ/١٦٧٠م وهو يعد من أنبه شعراء العهد العثمانى .

٤

شعراء الفخر والهجاء

(أ) شعراء الفخر

الفخر غرض قديم من أغراض الشعر العربى فمنذ الجاهلية يتغنى به الشعراء طوال العصور التالية إلى اليوم مثاليتهم وأخلاقهم الرفيعة من مثل المروءة والكرامة والجود والشجاعة إلى غير ذلك من شيمهم وخصالهم الحميدة ، كما يتغنون عصبياتهم ومشاعرهم القومية ، ومن طريف

(١) المعلوات جمع معلوة : الرفعة والشرف .
(٢) الغى : الضلال .
(٣) يلفى من ألفى : وجد . وهى : ضعف .

مما يلقانا في الجزائر من فخر قول شاعرها ابن أبي الرجال الشيباني وزير المعز بن باديس مفتخرًا بقومه[1] :

يا آل شيبانَ لا غـارتْ نجومكـمُ ولا خبَتْ نـارُكم مـن بعد توقيدِ
أنتم دعـائمُ هذا الملك مذ ركضتْ قبْلُ الخيولُ لإبـرامٍ وتوكيـد
المنعمـون إذا ما أزمـةٌ أزمـتْ والواهبـون عتيقات المزاويـد[2]
سيوفُكم أفقدتْ كسـرى مرازِبَه في يوم ذى قارَ إذ جـاءوا لموعود

وهو يفتخر بقومه من آل شيبان ويدعو أن تظل نجومهم مضيئة في سماء العروبة وأن تظل نيرانهم متقدة لا تنطفىء أبدا ، إذهم دعائم الملك العربي منذ نشبت الحروب وصهلت فيها خيول الفرسان لفرض المعاهدات وعقد المواثيق ، وقد اشتهروا بما ينعمون في الأزمات ويهبون من العطايا الجزيلة ، ويرفع أمام الأعين بطولتهم العظيمة يوم ذي قار الذي نكّلوا فيه بالفرس تنكيلا شديدا : منقبة عظيمة لقبيلته شيبان في الجاهلية لا ينساها العرب ولا ينساها التاريخ .

ونرى الحسن بن الفكون القسنطيني المتوفى بأوائل القرن السابع الهجري يفتخر ببلدته « بجاية » ومسقط رأسه قائلا[3] :

دَعِ العـراق وبغـدادًا وشامَهمُ فالناصريّـةُ ما من مثْلِهـا بلَـدُ
بَرٌّ وبَحْرٌ ومَـرْجٌ للعيـون بـه مسـارحٌ بان عنهـا الهمُّ والنكَدُ
حيث الهوى والهواءُ الطلقُ مجتمعٌ حيث الغِنى والمُنَى والعيشة الرَّغَدُ
والنَّهْرُ كالصِّلِّ والجنّـاتُ مشرفةٌ والنهـر والبحـر كالمرآة وهْوَ يَدُ
إن تنظـر البرَّ فالأزهـارُ يانعـةٌ أو تنظر البحـر فالأمـواجُ تطَّردُ
يا طالبا وَصْفَها إن كنت ذا نَصَفٍ قُلْ جنّةُ الخُلْد فيها الأهـلُ والولد

وهو يفضل الناصرية أو بجاية على بغداد ودمشق ، ويقول إنه ليس مثلها بلد جمعت بين البر والبحر ومشاهد مَرْج بأشجاره ونباتاته البديعة التي تزيل الهم والنكد حيث مجتمع الحب والهواء الطلق الذي يستروحه المحبون ، وحيث الثراء والمنى والعيشة الطيبة ، والنهر يجري كصِلٍّ أو أفعوان ، والجنات تحفهُ من كل جانب ، وكأنما البحر مرآة والنهر يدها الثابتة . إن تنظر إلى البر راعتك أزهاره ، وإن نظرت إلى البحر راعتك أمواجه المطردة ، وهي – بإنصاف – جنة الخلد ، وفيها الأهل وفلذات الكبد من الولد أو الأولاد . ويقول أحمد[4] بن علي المليانى المتوفى سنة ٧١٥ هـ/١٣١٦ م :

---

(١) المنتخبات لحسن حسني عبد الوهاب ص ٧٦ .
(٢) المزاويد جمع مزود : وعاء الزاد .
(٣) تعريف الخلف ١٣٥/٢ .
(٤) تعريف الخلف ٦٨/٢ .

العزُّ ما ضُرِبَتْ عليه قِبابى		والفضلُ ما اشتملتْ عليه ثيابى
والزهرُ ما أهداه غُصْنُ يراعتى		والمسكُ ما أبداهُ نَقْشُ كتابى
فالمجد يمنع أن يزاحَمَ مَوْردى		والعَزْم يأبى أن يُسامَ جنابى
وإذا بلوتُ صنيعةً جازيتها		بجزيل شكرى أوجزيل ثوابى
وإذا عقدتُ مودةً أجريتها		مجرى طعامى من دمى وشرابى

وهو يفخر فخرا مسرفا ، فالعز ما ضُربت عليه خيامه ، والفضل ما اشتملت عليه ثيابه ، والزهر كلماته مما كتبه قلمه ، والمسك نقش كتابته ، وبلغ من المجد أن لا يزاحمه أحد فى مورده كما بلغ من العزم أن لا يُرْعى جنابه ، فحماه لا يسام ولا يضام ، وإذا اختبر صنيعة أو معروفا بادر بالشكر وجزيل الثواب ، وإذا عقد مع شخص مودة كانت غذاء لروحه وجرت مجرى الطعام من دمه وشرابه . ويفتخر ابن خميس شاعر تلمسان بعروبته ودينه الحنيف ، منشدا :

إنا - بنى قحطانَ - لم تُخلَقْ لغـ		ـيرْ غياثِ ملهوفٍ ومَنْعة لاجى
بسيوفنا البيض اليمانيّة التى		طُبِعتْ لحزّ غَلاصمٍ ووِداجِ(١)
تأبى لنا الإحجامَ عن أعدائنا		يوم اللقاء طهارةُ الأمْشاجِ(٢)
أنصارُ دين الهاشمىُّ وحزبُه		وحُماتُه فى الجَحْفل الرَّجْراجِ(٣)
وحُماتُه بنفوسهم ونفيسهم		من غدر مغتالٍ وسَوْرة هاجِ(٤)
منا التبابعةُ الذين ببابهم		كانت تُنيخ جُباةُ كلِّ خراجِ(٥)
ولأمرهم كانت تدينُ ممالك الـ		ـدُّنيا بلا جَبْرٍ ولا إخْراجِ
أبوابهم مفتوحةٌ لضيوفهم		أبدا بلا قُفْلٍ ولا مِزْلاجِ

وهو يفخر بأصوله من بنى قحطان اليمنيين الذين إنما خلقوا لغياث الملهوف وحماية اللاجىء لهم بسيوفهم اليمانية التى صيغت لقطع الرقاب ، وإن أنسابهم لتأبى لهم الإحجام عن لقاء أعدائهم وسحقهم ، ومعروف أن أنصار الرسول ﷺ من أهل المدينة كانوا يمنيين أو من أصول يمنية ، وهو لذلك يفخر بنصرتهم للرسول وأنهم كانوا حماته حين تنشب الحروب حموه بنفوسهم وبكل ما يملكون من غدر مغتال ومن حدة هاج إذ كان منهم حسان بن ثابت وغيره من شعرائهم الذين كانوا يذودون عن الرسول وصحبه ضد شعراء قريش وأهاجيهم . ويفخر بأن منهم قديما التبابعة ملوك اليمن وأمراؤها فى الجاهلية الذين كان يُجبَى لهم الخراج من أنحاء دولتهم ، وكانت ممالك الدنيا تدين لهم طوعا لا قسرا ، وبلغوا من جودهم أن كانت

---

(١) طبعت : صيغت. الغلاصم جمع غلصمة : الحلق . الوداج : عرق فى العنق إذا قطع انتهت حياة المذبوح .
(٢) الأمشاج جمع مشج : النطفة .
(٣) الجحفل الرجراج : الجيش الذى لا يكاد يسير لكثرته
(٤) سورة : حدة .
(٥) تنيخ : تنزل .

أبوابهم مفتوحة لضيوفهم دائما لا تغلق أبدا . ويعتلي عرش دولة بني عبد الواد أو الدولة الزيانية أكبر شعراء الفخر في الجزائر على مر العصور ، وأقصد أبا حمو موسى الثاني ، وحرى أن أقف قليلا لأترجم له وأعرض أطرافا من فخره .

أبو حمو[1] موسى الثاني

ولد أبو حمو موسى لأبيه يوسف بن عبد الرحمن بن يغمراسن في أواخر مقامه بغرناطة في بلاط سلطانها أبي الوليد بن فرج سنة ٧٢٣ هـ/١٣٢٣م وفي تلك السنة استدعى يوسف وإخوته إلى تلمسان سلطانها أبو تاشفين الأول (٧١٨ - ٧٣٧ هـ) ولبّوه وأكرمهم وأعلى مكانتهم بين أمراء الأسرة ، وبذلك كان منشأ أبي حمو موسى ومرباه الأول في تلمسان حتى إذا بلغ الرابعة عشرة من عمره استولى السلطان أبو الحسن المريني على تلمسان وأرغم أباه وبعض أمراء الأسرة على الاستقرار بفاس ، وعلى شيوخها أتم أبو حمو موسى تعلمه ، وظل بها مع أبيه إلى بداية إمارة عميه أبي سعيد وأبي ثابت سنة ٧٤٩ هـ/١٣٤٩م حتى إذا فتك بهما السلطان أبو عنان المريني سنة ٧٥٣ هـ/١٣٥٣م رأينا أبا حمو موسى يقصد تونس وسلطانها أبا إسحق فأكرمه غاية الإكرام ، حتى إذا كانت سنة ٧٥٨ هـ/١٣٥٧م واستولى فيها السلطان المريني أبو عنان على تونس ارتحل أبو حمو مع السلطان الحفصي إلى إقليم الجريد جنوبي الإقليم التونسي ، واضطرت الظروف أبا عنان بالعودة إلى فاس مع جيشه في السنة التالية ، وعاد السلطان الحفصي وأبو حمو موسى إلى تونس ، والتف حوله عرب الدواودة وأخذ يستعين بهم في مطاردة المرينيين ، وسارعت إليه قبيلة بني عامر شيعة أسرته ووطنه وتوجه بهم إلى الزاب ثم ورقلة ، ونازل أولاد عريف من قبيلة سويد الهلالية وهزمهم هزيمة ساحقة ، وجاءه عقبها نبأ وفاة السلطان أبي عنان المريني في أواخر ذى الحجة سنة ٧٥٩ هـ/١٣٥٨م فصمم على أخذ تلمسان ، وبايعه جميع من كان معه في الخامس من محرم سنة ٧٦٠ هـ/١٣٥٩م وجدَّ في السير مع جموعه من العرب وغيرهم ، وتسامع به كل من كان في طريقه إلى تلمسان ، وكان أبو عنان ولّى عليها ابنه محمدًا وترك معه حامية ، فحاصره أبو حمو مدة كانت فيها مناوشات ، وتيقن المرينيون أنه لا طاقة لهم بمنازلة أبي حمو ، فطلبوا الأمان ، وأسلموا تلمسان إليه وبايعه أهلها حين دخلها في غرة شهر ربيع الأول ، ويقول التنسي إنه « ساس أهل مملكته بالسيرة الحسنى وغمر الرعية قسطاسُ عدله الأسنى ، وقسم أوقاته بين حكم يقضيه وحق يمضيه ، وعاقٌ يرضيه ، وسيف لحماية الدين يُنْضيه ، وسبيل إلى رضاء الله تعالى ورسوله يفضيه » . وقد غيَّر اسم الدولة ، إذ

(١) انظر في ترجمة أبي حمو موسى الثاني تاريخ ابن خلدون والجزء الثاني من بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ليحيى بن خلدون وتاريخ بني زيان ملوك تلمسان لمحمد بن عبد الله التنسي ص١٥٧ وما بعدها وكتاب أبو حمو موسى الزياني : حياته وآثاره للدكتور عبد الحميد حاجيات .

كان اسمها بنى عبد الواد نسبة إلى قبيلتهم ، فرأى أن تسمى باسم الدولة الزيانية نسبة إلى زيان والديغمراسن مؤسس الدولة . وقد أعاد لها عزّها وسلطانها واستردّ لها بلدانها فى الجزائر : وهران والجزائر وتدلس ، وكثرت الحروب فى أيامه بينه وبين بعض القبائل العربية والدولة المرينية . وثار عليه ابن عمه أبو زيان بن السلطان أبى سعيد وانصاعت له قبيلة عامر واستولى على مدينتى المدية ومليانة ، ونشبت بينه وبين أبى حمو وقائع ، واستطاع أبو حمو القضاء على ثورته فى أواخر سنة ٧٦٩ هـ/١٣٦٨ م وانتهز السلطان عبد العزيز المرينى فرصة تضعضع جيشه من كثرة الحروب واستولى على تلمسان سنة ٧٧٢ هـ/١٣٧١ م وظل أبو حمو يتنقل فى الصحراء حتى علم بوفاة السلطان المرينى سنة ٧٧٤ هـ/١٣٧٣ م فعاد إلى عاصمته تلمسان ، وتبدأ منافسات بين ابنه وولى عهده أبى تاشفين وإخوته ويُقتال يحيى بن خلدون كاتب أبى حمو ومؤرخه فى مؤامرة دبّرها ولى العهد سنة ٧٨٠ هـ/١٣٧٩ م حتى إذا كانت سنة ٧٨٦ هـ/١٣٨٥ م أغار السلطان أبو العباس المرينى – واستولى – على تلمسان ، غير أن الأحداث فى عاصمته فاس اضطرته إلى العودة إليها سريعا ، وعاد أبو حمو إلى تلمسان . وتسوء العلاقات سوءا شديدًا بين ولى العهد أبى تاشفين وإخوته ، مما جعل أبو حمو يخلع نفسه إرضاء لأبى تاشفين سنة ٧٩١ هـ/١٣٨٩ م ويتجه إلى الحج . وما إن نزل بجاية حتى غيّر رأيه ، واتّجه إلى تلمسان ، واستثار كل من كان فى طريقه وأقبل إليها بجموعه ، وعلم ابنه أبو تاشفين ، فلحق بفاس واستعان بسلطانها المرينى ، وأعانه بجيش كثيف والتقى مع أبيه وجموعه واقتتلوا قتالا شديدا وكبا الفرس بأبى حمو وتوفىّ . وهو من خيرة سلاطين الأسرة الزيانية وقد نهض بالعلم فى دولته واشتهر بها كثير من العلماء فى مقدمتهم أبو عبد الله الشريف الذى بنى له مدرسة كبيرة أكثر عليها من الأوقاف ورتب فيها الجرايات للشيوخ والطلاب. وكما نهض بالعلم نهض بالأدب ، ومن كتّابه وشعرائه محمد بن يوسف الثغرى الذى مرت ترجمته ، ومنهم محمد بن على العصامى ومحمد بن صالح شقرون ، ومن مآثره احتفاله بالمولد النبوى احتفالا عظيما ، كان يُبدأ فيه بمدحة نبوية له ثم تتوالى مدائح نبوية أخرى شطرا كبيرا من الليل وكان يُدْعَى إليه الناس من العامة والخاصة ، وتقام قبيل الصباح مأدبة ضخمة ، وسنعرض لذلك فى حديثنا عن شعراء المدائح النبوية . وكان أديبًا بارعًا وله كتاب واسطة السلوك فى سياسة الملوك ، وسنلم به فى حديثنا عن النثر فى الجزائر . وكان يحسن نظم الشعر ، واحتفظ يحيى بن خلدون بكثير منه فى الجزء الثانى من كتابه بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد ، وجمع منه كثيرًا الدكتور عبد الحميد حاجيات فى كتابه عن أبى حمو موسى ، وهو موزع بين فخر ونبويات مع مرثيتين لأبيه . ونراه عقب استقراره فى تلمسان وتمام الملك له ينظم ميمية طويلة يصور فيها حركته من تونس إلى تلمسان لاسترداد ملك آبائه وكيف أخذ يعد جيشا لمنازلة المرينيين من قبيلة عامر واقتحامه للزاب وريغ وورقلة والحمادى

والتقائه بالجنود المرينيين وبطشه بهم وتقدمه إلى وادى يسر ودخوله تلمسان عنوة ، وينهى القصيدة منشدا :

نظمنـا شتيتَ الملك بعد افتراقـهِ ... وكم بـات نهبـا شمله دون ناظمِ
شـدَدْنا له أزرا وشِـدْنا بنـاءه ... بأوثـق أركانٍ وأقـوى دعائـم
فصارتْ ملوكُ الأرض تأتى مطيعة ... إلى بابنـا تَبْغى التمـاس المكارم
وجاءت لنا من كُلِّ أوبٍ ووجهةٍ ... تبابعنـا طوعـا وفـودُ العمـائم
وقمنـا بأمـر الله فى نَصْرِ دينـهِ ... وفى كفِّ ماقد أُحْدِثَتْ من مظالم

وهو يفتخر بأنه أعاد للملك الزيانى المنهوب نظامه وسلطانه ، وشدَّ أزره وقوته وشاد بناءه وأعلاه أقوى ما يكون الإعلاء بأركان وثيقة ودعائم متينة ، مما جعل ملوك الأرض يقصدون بابه معلنين طاعتهم زلفى إليه والتماسا لمكارمه ، وإن قبائل العرب ليفدون عليه من كل ناحية وجهة تبايعه طوعا ، وإنه ليقوم بنصر دين الله ونشر العدل فى ربوع بلاده والقضاء على ما أحدث المرينيُّون من مظالم ، ويفتخر فى قصيدة ثانية من وزن المتدارك بسياسته الرشيدة فى الحكم قائلا :

أنزلتُ النـاس منازلهـم ... وتركت الظـالم فى وَجلِ
أحمى المظلـوم وأنصـرُه ... وأقيم الحـق على عجـلِ
وأنا للحـرب كَعَنْترهـا ... وأنا فى السلم أخو جَذَلِ
وأنا موسـى وأبو حمـو ... أصلحُ للملك ويصلح لى
سـيفى إن صُلْت بقائمِـه ... أدْنـى المُرَّاقَ إلى الأجـل
وكذا كفَّاىَ إذا انبسطتْ ... من كـان مقلاً عادَ مَلِى

فهو يسوس رعيته سياسة حميدة ينزل الناس فيها منازلهم دون خفض أو رفع ، وهى سياسة تقوم على العدل الذى لا تصلح حياة الرعية بدونه ، وإنه ليحمى المظلوم من ظالمه وينصره عليه ، ويقيم الحق سريعا لا يخشى فيه ملامة لائم ، وإنه شجاع شجاعة عنتر بن شداد فى الحرب ، أما فى السلم فإنه صاحب دعة وحياة آمنة رافهة ، ويقول أنا أبو حمو موسى أصلح للملك بعدلى وحكمى القويم ويصلح لى ، وإنه لبطل فى الحرب يقطع رقاب المارقين والثائرين ، أما فى السلم فغيث مِدْرار وإن كفيه لتنثران الأموال نثرا ، حتى ليصبح المقل الفقير مليئا ثريا ، ويقول مفاخرا :

وما يسوى العَلْياء هِمْنا جلالـةً ... إذا هـام قومٌ بالحسـان النَّواعم
بروقُ السيـوف المشرفيَّاتِ والقَنا ... أحبُّ إلينـا من بروق المباسـم

وأحسنُ من قَدِّ الفتـــاة وخَدِّها قـدودُ العوالى أوخدود الصوارم(١)
وأما صَهيل السابحات لدى الوَغَى فأشْجَى لدينا من غِنـــاء الحمائم
إذا نحن جرَّدنـا الصـوارم لم تَعُدْ لأغمادهـا إلا بجزِّ الغـلاصم(٢)

وهو يقول عن نفسه وقومه إذا كان الناس يهيمون بالحسان الجميلات فإننا لا نهيم إلا بالعلياء والمجد والشرف ، وإن بروق السيوف المشرفيات والرماح لأحب إلينا من بروق المباسم الفاتنة ، وأحسنُ عندنا من قَدِّ الفتاة وقوامها وخدها الجميل قدود الرماح وخدود السيوف الصوارم القاطعة ، وإن صهيل الخيل فى الحرب لأشجى عندنا من غناء الحمائم الذى طالما تغنى به الشعراء ، وترانا فى الحرب إن نحن شهرنا السيوف لم تعد لأغمادها إلا بجزِّ الغلاصم والرقاب ، ويمضى فى القصيدة قائلا :

ألا أيهـا الآتى لظِــلِّ جَنابنـا نزلتَ برَحْبٍ فى عِراص المكارم(٣)
وقوبلــتَ منـا بالذى أنت أهلُـهُ وفاض عليك الجود فيضَ الغمائم
بهمَّتنا العليـــا سمونا إلى العُـــلا وكم دون إدراك العلا من ملاحـم

وهو يبشر من ينزل بجنابهم وفى كنفهم أنه ينزل برحب أو واسع فى عرصات أو ساحات المكارم ويقابَلُ بما يليق به ، ويفيض عليه الجود فيض السحاب الهاطل . ويقول إنهم لذوو همم عالية سمت بهم إلى العلا وكم دون إدراكها والحصول عليها من ملاحم وحروب طاحنة ، ويقول مفاخرا فى انتصار له على الدولة المرينية :

لقـد نهضــتُ بعـون الله متَّـكلا على الإلـه ومن يرجـوه لم يَخبِ
بعسكرٍ لَجبٍ ضــاق الفضـــاء به كالبحر أعظمْ به من عسـكرٍ لجبِ
مـن كل لَيْثٍ شجاعٍ فـارسٍ بطـلٍ حامى الذِّمار من الأعجام والعَرب(٤)
عـلى سـوابق خَيْلٍ ضُمَّرٍ عُـرُبٍ تَزْهَى بحليتها كالخـرَّد العُرُبِ(٥)
بهـا وَطِئْنا بـلادًا لاسبيـل لهـا ومـا أردنـا تناولنـــاهُ من كَثَبِ(٦)

وهو يقول إنه نهض لحرب المرينيين مستعينا بربه متكلا عليه راجيا النصر منه ، ومن يرجوه لا يخيب رجاؤه ، وقد نازلهم بعسكر كثير ضاق الفضاء به ، وكأنه بحر زاخر بالليوث الشجعان والفرسان الأبطال حماة الذمار من العجم والعرب ، يركبون إلى الحرب خيولا ضامرة نجيبة

(١) العوالى : الرماح . الصوارم : السيوف .
(٢) الغلاصم جمع غلصمة : ملتقى اللهاة والمرىء . وهى تقطع مع الرقبة .
(٣) عراص جمع عرصة : الساحة .
(٤) الذمار : الحمى وما يحميه الإنسان من الأهل والولد .
(٥) الخرد جمع خريدة: الجميلة.عرب: معجبة بنفسها.
(٦) كثب : قريب .

تزهي بجمالها زهو الجميلات المعجبات بحسنهن. ويقول إنهم يطئون بحوافرها بلادا بعيدة يذللونها تذليلا ، ولا بلدا ولا ناحية أردناها إلا انتصرنا فيها وانقادت إلينا انقيادا . وجمع الحافظ التنسي فيه كتابا سماه: «راح الأرواح فيما قاله المولى أبو حمو من الشعر وما قيل فيه من الأمداح».

(ب) شعراء الهجاء

الهجاء قديم في الشعر العربي ، وكان في الأصل لعنات يصبها الشاعر على القبيلة المعادية أو على سيدها راجيا أن تنزل بهم المقادير هزائم متوالية ، وتحول من هذه اللعنات إلى ذم شديد على لسان الشاعر الجاهلي ، فما يرجعون من حروبهم حتى يسلّ شعراؤهم على أعدائهم ألسنتهم ملحقين بهم مثالب شتى . ومعروف ما كان بين مكة والمدينة لعهد الرسول ﷺ من أهاج ينظمها شعراؤهما عقب كل معركة . واستحال الهجاء في العصر الأموي على لسان الفرزدق وجرير إلى ما يشبه مناظرة حادة في بيان فضائل ومساوىء عشيرتيهما وقبيلة تميم التي كان يدافع عنها الفرزدق وقيس التي كان يدافع عنها جرير . وظل الشعراء لعصرهما يكثرون هم وشعراء العصر العباسي الأول من الهجاء ، وتحول عند الأخيرين إلى بيان المساوىء الفردية والاجتماعية في المهجو مع التهوين منه والإيلام إيلاما شديدا ، وطار شرر كثير من هذا الهجاء إلى الأقاليم العربية . وكان قد بارح المغرب إلى بغداد الشاعر الجزائري بكر بن حماد التاهرتي وهو أول شاعر جزائري له أهاج مختلفة ، وسنترجم له عما قليل ، وكان يعاصره ابن خزاز التاهرتي في القرن الثالث الهجري ، وكان قد نزل مدينة تنس شمالي تاهرت على البحر المتوسط ، فقال يأسى على بعده عن مسقط رأسه هاجيا تنس ومقامه فيها[1] :

نأى النوم عنّي واضمحلّت عُرَى الصَّبْرِ ... وأصبحتُ عن دار الأحبّةِ في أسْرِ
وأصبحت عن تاهرتَ في دار غُرْبَةٍ ... وأسلمني مرُّ القضاء من العُذْرِ
إلى تنس ذات النحوس فإنها ... يُساقُ إليها كلُّ منتقص العُمْرِ
بلادٌ بها البرغوثُ يحمل راجلا ... ويأوي إليها الذئب في زمن الحرّ
ترى أهلها صَرْعى ومن أمِّ مِلْدَمٍ ... يروحون في سكرٍ ويغدون في سكرِ

فالنوم بَعُد عن عينه لا يلم بها وفرغ منه الصبر ، حتى ليشعر كأنه في أسر بعيد عن دار الأحبة : تاهرت ، إذ أسلمه مر القضاء إلى دار غربة إلى تنس ذات النحوس التي لا يدفع إليها إلا منتقص العمر ليشقى بما فيها من براغيث ، وإن الذئاب لتملأ عرصاتها صيفا ، أما أم مِلْدم أي الحمى ، فكل أهلها من صرعاها ، وإنها لتخدر عقولهم وكأنهم في سكر دائم . ولمحمد بن الحسيني الطبني في أحد خصومه[2] :

(١) الأزهار الرياضية للباروني ص ٤٧ .

(٢) الجذوة للحميدي ص ٥٠ .

ووغــدٍ إن أردت لــه عقابًــا عَفَى عن ذَنْبِه حَسَبى ودينى
يؤنّبنى بغيبــةِ مستطيـــلٍ ويلقــانى بصفحةٍ مستكينِ
وقالوا قد هجاك فقلت كلبٌ عَوَى جَهْلا إلى لَيْثِ العَرينِ

وهو يقول عن خصمه إنه رَذْل دنىء إن فكرت فى عقابه عفا عن ذنبه شرفى ودينى ، يأكل لحمه غائبا ويلقاه خاضعا ذليلا ، وما مثله إلا مثل كلب يعوى إلى أسد فى عرينه ومأواه . وكانت أسرة هذا الشاعر قد هاجرت إلى قرطبة فى أوائل القرن الرابع ، ومنها عبد الملك الطبنى المحدث جليس المنصور بن أبى عامر ، ويروى أن المنصور عدا على شخص يسمى الحَذْلمىّ فى مجلسه وضربه ضربا موجعا ، فقال عبد الملك متشفيا فيه وهاجيا[1] :

شــكرتُ للعامــرىِّ ما صنعــا ولم أقــل للحُذَيْلَمىّ لَعَـــا
ليــثُ عَــرينٍ عــــدا لعزّتــه مفترسًـــا فى وِجــارِه ضبُعا
وَدِدتُ لو كنت شــاهدًا لهمـــا حتى ترى العين ذُلَّ مَنْ خضعا
إن طـــال منه سجودُه فلقـــد طـــال لغير السجـود ماركعا

وهو يشكر العامرى ولا يقول للحذلمى : لعا أى أقال الله عثرتك ، ويصور العامرى ليث عرين افترس ضبعا فى وجاره أو بيته ومأواه ، ويقول ليته كان حاضرا ليرى ما ركب الحذلمى من الذل والهوان ، ويرميه بأنه كثيرا ما ركع فى غير الصلاة ، يريد أنه عاهر الخلوة ، وهو هجاء مقذع . وكانت الجزائر وغير الجزائر من البلاد المغربية تعتنق مذهب الأشعرى غالبا ، ويبلغ من تغلغل عقيدته فى نفوسهم أن نرى ابن مرزوق الخطيب الجزائرى المتوفى سنة ٧٧١هـ/ ١٣٧٠م يغضب حين سمع قول الزمخشرى فى كشّافه معرضا بأهل السنة بل هاجيا هجاء قبيحا قائلا :

وجماعــةٍ سمّوا هواهـــم سنّةً وأراهـــمُ حُمُرًا لعمرى موكَفَهْ
قــد شبَّهوه بخَلْقِه وتخوَّفــوا شُنَــع الــوَرَى فتستَّروا بالبَلْكفه

وهو يقول إن جماعة سمت هواها الذى تعتنقه سنة ، وهم حُمر ، عليها وُكُفُها أو براذعها ، إذ شبهوا الله بخلقه ، فقالوا إنه يُرَى متسترين بالبلكفة أو بقولهم إنه يرى بلاكيفية حتى ينفوا عنه التشبيه بالآدميين ، وردَّ على الزمخشرى كثيرون من أهل الجزائر وغيرهم ، وردَّ ابن مرزوقٍ الخطيب معنفًا له ولأصحابه من المعتزلة جميعا قائلا :

(١) الذخيرة لابن بسام تحقيق د.إحسان عباس ٥٤٣/١ .

وجمـــاعةٍ عُرِفَتْ لعمـرى بالسَّفَه ... وتمسَّكتْ بضــلال أهل الفلسفه
عدَلتْ عن النهج القويــم فلُقِّبَتْ ... عَدْلِيَّةً وعـــدولُها عن معرفـــه
ضَلَّتْ وقـالت لن يُرَى ربُّ الورَى ... يوم الجــزاء وألزمتْ نَفْى الصِّفه
وكذاك أَسْلمت الأمــورَ لنفسها ... هيهــات تنقذ نفسهـا من مَتْلفه
كيف السبيــلُ لصرفها عن غيِّها ... والعــدلُ يمنع صَرْفها والمعرفــه

وابن مرزوق الخطيب يرمى المعتزلة بالسفه ، وأنهم ضلوا ضلال الفلاسفة الملحدين إذ عدلوا عن النهج القويم وسموا أنفسهم عدلية ، لأن من مبادئهم وجوب العدل على الله جَلَّ شأنه ، ويقول إنهم ضلوا حين نفوا رؤية الله يوم القيامة بينما أثبتها أهل السنة وقالوا إنها رؤية بلا كيفية . وينعى على المعتزلة قولهم بنفى الصفة عن الله وقولهم إن صفته هى عين ذاته . ويستبعد أن يستطيع المعتزلة إنقاذ أنفسهم من تلف العقيدة ويتمنى لو وجد سبيلا أو طريقا لهداهم ، ولكن كيف ذلك وهم يؤمنون بالعدل على الله وغير ذلك من مبادئهم المخالفة لمبادىء أهل السنة . ونمضى إلى العهد العثمانى ونلتقى فيه بابن على المفتى الحنفى فى القرن الثانى عشر الهجرى ، وكان شاعرا بارعا ونراه يهجو خصومه وحساده قائلا :

نَصبوا حبــائلَ مكرهم وتعرَّضوا ... بسهامهـــم للنَّجْم فى كيوانِــهْ
من كل أهوجَ أرْعَنِ الأخلاق قد ... أرْبَى على فرعــون معْ هامانه
أجلافُ هذا العصر حقـا لو رأوا ... حسَّانَ ما جنحــوا إلى إحسانه
إن أنكروا فضلى لخُبْـثِ طباعهم ... فالدرُّ ليس يعـــزُّ فى أوطانــه

وهو يقول إنهم نصبوا حبالات مكرهم وأرسلوا علىَّ سهام هجائهم ولكن أنَّى لهم ، إنهم يحاولون أن يصيبوا نجما لا يستطيعون الوصول إليه ، نجما شديد البعد هو كيوان أو زحل وهل منهم إلا أهوج أو أحمق قد زاد على فرعون ووزيره هامان فى بهتانه ، إنهم أجلاف لا يقدرون الشعر ولا الشاعر حتى لو كان حسان بن ثابت شاعر الرسول فى روعة بيانه ، ويقول إنهم إن أنكروا فضلى لخبث طباعهم وضمائرهم ، فالدر لا يُعْرف فضله فى وطنه . وكان ولاة العثمانيين يبطشون أحيانا بالجزائريين ، وكان الشعراء يوجهون إليهم سهام هجاء كثيرة من شعرهم الفصيح والشعبى على نحو ما كان يصنع سعيد المنداسى ، وهو حرى بالترجمة له مع بكر بن حماد التاهرتى الذى مر بنا ذكره .

بكر(١) بن حماد التاهرتى

تقع تاهرت مسقط رأس حماد فى الجنوب الغربى من مدينة الجزائر ، ومرَّ بنا فى غير هذا

(١) انظر فى ترجمة بكر رياض النفوس للمالكى ومعالم الإيمان للدباغ ٢/٩٢ والأزهار الرياضية لسليمان البارونى ٢/٧١ وما بعدها وتاريخ الجزائر فى القديم والحديث لمبارك الميلى ٢/٤٥٣ . وقد جمع ديوانه وشرحه وقدَّم له محمد بن رمضان شاوش باسم الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد التاهرتى .

الموضع أن عبد الرحمن بن رستم أقام بها الدولة الرستمية ، وكان يعتنق مذهب الخوارج الإباضية ، وأتته جموع الخوارج من كل مكان في المغرب . وكان أئمة هذه الدولة – على شاكلته – يفسحون لأهل السنة والمعتزلة فى مدينتهم ، وفيها ولد بكر بن حماد سنة مائتين للهجرة ، وكان من قبيلة زناتة البربرية الضخمة ، ولا نعرف شيئا عن أسرته . ويبدو أن أباه لم يكن إباضيا ، وكانت بتاهرت حركة علمية خصبة بثتها فيها الدولة الرستمية ، ووجهه أبوه إلى العلم ، فحفظ القرآن ، وأخذ يختلف إلى حلقات العلماء وشُغف بالشعر وتفتحت ملكته مبكرة ، كما شغف بحلقات المحدثين ، ونراه يرحل فى سن السابعة عشرة إلى القيروان فالبلاد المشرقية ، يأخذ الحديث واللغة ، وأوغل فى رحلته حتى البصرة وفيها تتلمذ على مسدَّد بن مسرهد وأخذ عنه مسنده فى الحديث النبوى ، وسيعنى فيما بعد بإذاعته فى الديار المغربية . وتتلمذ على شيوخ البصرة فى اللغة حينذاك من أمثال ابن الأعرابى ، ودفعه طموحه إلى أن يذهب إلى بغداد ، وفيها لفت أبا تمام وغيره من شعرائها الكبار بمهارته فى الشعر ، ففسحوا له فى مجالسهم ، وتعرَّف على دعبل هجَّاء الخلفاء : المعتصم العباسى وغيره ، ويبدو أن الفتى الجزائرى مدح المعتصم وأجزل له فى العطاء مما جعله يخاصم دعبلا ، وربما خاصمه غضبا لخليفة المسلمين ، ونراه يحرِّضه على عقابه والقصاص منه قائلا :

أيهجو أمير المؤمنين وَرَهطَهُ ... ويَمْشى على الأرض العريضة دِعْبِلُ
أما والذى أرسى ثَبيرا مكانه ... لقد كادت الدنيا لذاك تُزَلْزَلُ
ولكنْ أميرُ المؤمنين بفضله ... يهمُّ فيعفو أويقول فيفعل

وكأنه فى الكلمة الأخيرة من أبياته يحرِّض المعتصم على الفتك بدعبل ، ويقال إن أبا تمام حين سمع منه هذه الأبيات قال له : لقد قتلته يا بكر ، وكأنما أعجبته كلمة أبى تمام – حبيب بن أوس – فألحق بالأبيات بيتين إشارة إلى كلمة أبى تمام قائلا :

وعاتبنى فيه حبيبٌ وقال لى ... لسانك محذور وسمُّك يقتلُ
وإنى – وإن صرَّفت فى الشعر منطقى– ... لأنْصف فيما قلتُ فيه وأعدل

ولم يطل ببكر المقام فى بغداد ، فقد عاد إلى الديار المغربية سريعا واستقر فى القيروان عاصمة المغرب الأدنى (الإقليم التونسى) واختلف إلى حلقات شيخين كبيرين فيها هما سحنون صاحب المدونة فى فقه مالك الذى كانت شهرته تدوى فى المغرب ، والثانى محدث كبير هو عون بن يوسف الخزاعى وكان قد تتلمذ لعبدالله بن وهب المحدث المصرى صاحب كتاب الجامع فى الحديث ، وعنه أخذه بكر بن حماد ، كما أخذ فى البصرة مسند مسدَّد بن مسرهد . ويبدو أنه أخذ يعنى بعد وفاة شيخيه الكبيرين : عون وسحنون برواية مسند مسدَّد وجامع ابن وهب وإملائهما على الطلاب فى القيروان ، وقد نال فى دراسته للحديث النبوى شيئا من

الشهرة في زمنه ، إذ يقال إنّ الحافظ الأندلسى الكبير قاسم بن أصبغ (٢٤٤ - ٣٤٠هـ) حضر دروسه وأخذ عنه أحد الكتابين المذكورين آنفا أو هما معا .

وكان بكر مع تدريسه الحديث النبوى يمدح أمراء الأغالبة حكام القيروان ، ويسبغون عليه بعض عطائهم ، ويروى أنه قصد يوما الأمير الأغلبى إبراهيم بن أحمد (٢٦١ - ٢٩٠هـ) فى قصره حاملا إليه بعض مديحه حسب عادته ، فمنعه الحاجب وقال إن الأمير مشغول الآن بجواريه ، وأمر أن لا يصل إليه أحد ، فكتب بكر أبياتا فى رقعة ، وتلطف إلى الحاجب فى إيصالها إليه ، وفيها :

خُلقن الغــوانى للرجــال بَلِيَّةً   فهــنَّ موالينـا ونحن عبيدُها
إذا ما أردنا الوِرْدَ فى غير حِينه   أُتتنا به فى كل حين خدودُهـا

وبمجرد أن قرأ الأمير الرقعة أرسل إليه بصُرَّة بها مائة دينار ، وإنما روينا هذا الخبر لندل به على أن بكرا كان دائم الصلة بأمراء الأغالبة بمدحهم ويثيبونه على مديحه . وكان يزور تاهرت أحيانا للقاء أهله ومعارفه فيها ونراه بها فى عهد أميرها الرستمى الإباضى أبى حاتم يوسف بن محمد بن الأفلح (٢٨١- ٢٩٤هـ) ويبدو أنه عاتبه على مديحه للأغالبة دون حكام بلده ، فقال له فى مدحه :

أبا حاتمٍ مـا كان ما كان بِغْضةً   ولكنْ أتتْ بعد الأمـور أمورُ
فأكرهنى قومٌ خشيتُ عقابهم   فداريتهم والدائــراتُ تـدور

وكان يزور بعض الأمراء الأدارسة فى المغرب الأقصى وينال جوائزهم، والمظنون أنه بأخرة من أيامه اختار المقام بتاهرت إلى أن لبىَّ نداء ربه سنة ٢٩٦للهجرة .

وديوان بكر بن حماد سقط من يد الزمن غير أن الأستاذ محمد بن رمضان شاوش استطاع أن يجمع طائفة كبيرة من أشعاره تتناول من أغراض الشعر العربى الهجاء والوصف والمدح والزهد مع الوعظ والاعتذار والرثاء ، وذكر فى الهجاء المقطوعة السالفة فى دعبل التى يحرض فيها الخليفة المعتصم على الفتك به. ويبدو أنه لم يكن يسلم من لسانه أحد، حتى المحدِّثون، إذ نراه يسلق شيخا جليلا من شيوخهم وحفاظهم هو يحيى بن معين المتوفى سنة ٢٣٣هـ/٨٤٧م قائلا :

لقــد جفَّت الأقلامُ بالخلق كلهم   فمنهــم شقىٌّ خــائبٌ وسعيدُ
أرى الخيرَ فى الدنيـا يقلّ كثيرهُ   وينقص نقصا والحــديثُ يزيد
ولابنِ معينٍ فى الرجـال مقــالةٌ   سيُسْأل عنهــا والمليكُ شهيــد
فإن يك حقــا قولُــه فَهْو غَيْبَةٌ   وإن يك زورا فالقِصاص شديد
وكل شياطــين العبـــاد ضعيفةٌ   وشيطانُ أصحاب الحديث مَرِيدُ

وهو يقول إن أقلام القضاء أحاطت بالخلق فمنهم شقى خاسر وسعيد فائز ، وإن الخير في الدنيا آخذ في القلة والنقص ، والحديث في ذلك يطول . ويتعرض ليحيى بن معين مؤسس نقد رجال الحديث مما هيأ بقوة لنشوء علم الرجال أو علم الجرح والتعديل ، وهو علم محَّص رواية الحديث النبوى الشريف ، ونفى عنها الزيف والكذب والتدليس ، وهل من يوثق راويا للحديث يكون مغتابا له أو يكون قد أولاه شرفا رفيعا ؟ ومعاذ الله أن يكون يحيى بن معين قد زوَّر على راو صدوق للحديث تجريحا أو اتهاما بسوء ، ومعاذ الله ثانية أن يذكر بكر الشياطين وأن يلقب يحيى بأنه شيطان مريد أو خبيث للمحدِّثين ، نضَّر الله وجه يحيى بن معين وجزاه الجزاء الأوفى عن الحديث النبوى والمحدثين . وكان عمران بن حِطَّان الخارجى قد أشاد بشقى الخوارج عبد الرحمن بن ملجم المرادى قاتل على بن أبى طالب ، وفى طعنته له يقول[1] :

يا ضربةً من تقىٍّ ما أراد بهــا ... إلا ليبلغ من ذى العَرْش رضوانا
إنى لأذكـره حينًا فأحسبُــــه ... أوْفَى البريَّة عنـد الله مـيزانا

وسمع -أو قرأ- البيتين بكر بن حماد السُّنِّىّ فاستشاط غضبا وحمية للإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه، وعارض البيتين بقصيدة هجا فيها ابن ملجم هجاء مريرا مع بيان ما للإمام على من فضل عظيم فى الإسلام ليبين مدى جناية ابن ملجم وما ارتكب من إثم شنيع ، وفيها يقول:

قل لابن ملجـمَ والأقـدارُ غالبـةٌ ... هدمتَ - ويلك- للإسلام أركانا
قتلتَ أفضلَ من يمشى على قَـدمٍ ... وأوَّلَ النـاسِ إيمانـا وإسلامـا
وأعلـمَ النـاس بالقرآن ثم بما ... سَنَّ الرســول لنا شرعا وتبيانا
صهــرُ النبىِّ ومـولاه وناصــرُه ... أضحتْ مناقبـه نـورا وبرهانـا
وكان منه -على رغم الحسود له- ... مكانَ هرون من موسى بن عِمْرانا
ذكـرتُ قاتلــه والدمـع منحـدرٌ ... فقلت سبحان ربِّ الناس سبحانا
أشقى مُرادٍ إذا عُدَّت عشائرهـــا ... وأخســرُ النـاس عند الله ميزانا
يـا ضَرْبـةً من شقـىٍّ أورثته لظـىً ... مخلَّدا وأتـى الرحمـن غضبانـا

وبكر يصوِّر فضائل الإمام على ليجسد جريمة ابن ملجم وفداحة ما اقترفه إذ هدم ركنا ضخما من أركان الإسلام ، وكان على أول الناس إيمانا وأعلمهم بكتاب الله وسنة رسوله ، وكان صهره وسيفه المسلول على أعدائه وأعداء الدين فى جميع غزواته . ويشير إلى الحديث النبوى : « على منى بمنزلة هرون من موسى » . وإنه ليذرف عليه الدمع مدرارًا ، ويقول إن ابن ملجم أشقى قبيلته مراد وأخسر البرية ميزانا عند ربه ، ويا لهـا ضربة أو طعنة ستصليه نار جهنم خالدا فيها مع غضب الله عليه غضبا شديدا . وواضح أنها أهجية مريرة لسُنِّى ضد قاتل

(١) انظر كتابنا : العصر الإسلامى فى ترجمة ابن حطان ص ٣٠٧ .

الإمام علي . ولعل في كل ما أسلفت ما يصور شعر بكر بن حماد ، وهو استهلال مبكر في القرن الثالث الهجري لما ينتظر الجزائر في الشعر من مستقبل خصب .

سعيد[1] المنداسي

هو سعيد بن عبد الله المنداسي الأصل التلمساني موطنا ومنشأ ، عاش في القرن الحادي عشر الهجري ، ولا يعرف تاريخ مولده كما لا يعرف شيء عن أسرته ونشأته ، ولابد أن نشأ مثل لداته يعنى بحفظ القرآن الكريم ، حتى إذا حفظه أخذ ينهل من حلقات علماء اللغة والبلاغة والأدب والعلوم الدينية . وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة واستطاع أن يجمع بين الشعر الشعبي والشعر الفصيح ، ونظم كثيرا من النوع الأول وشهره فيه قصيدة نبوية سماها « العقيقة » في نحو ثلاثمائة بيت . وكانت تلمسان في شبابه تغلي دائما بفتن واضطرابات ضد العثمانيين وظلمهم ، وكان أهلها يثورون ضدهم ويثور معهم الشاب سعيد المنداسي ، وكثيرا ما كان يذكي ثورة التلمسانيين بشظايا من شعره الشعبي ، وأحيانا يفزع إلى سهام من الشعر الفصيح ، وخوفه كثيرون مغبة ذلك . وحدث أن أغار على تلمسان صاحب سجلماسة محمد بن الشريف رأس الدولة العلوية بالمغرب الأقصى في الخمسينيات من القرن الحادي عشر الهجري ، وأقام بها فترة قصيرة التحق فيها سعيد المنداسي بحاشيته ، وعاد معه إلى عاصمته ، ويقول صاحب الاستقصا إن المنداسي مدحه بقصائد شعبية كثيرة وإنه أغدق عليه كثيرا من نواله ، وخلفه أخوه الرشيد، وظل سعيد يقدم إليه مدائحه الشعبية ، والرشيد يقربه ويجزل له في العطاء حتى قال صاحب الاستقصا إنه منحه خمسة وعشرين رطلا من الذهب جائزة على بعض مدائحه فيه ، وتوفي وخلفه أخوه السلطان إسماعيل العلوي سنة ١٠٧٩هـ/١٦٦٨م واتسع في الاستيلاء على بلدان المغرب الأقصى وخلص كثيرا مما كان منها شمالا بيد الإسبان . وكان عهده عهد عدل وأمن ورخاء ، وشيد كثيرا من الآثار ، مما جعل سعيدًا المنداسي يتغنى طويلا بمديحه في شعره الشعبي ، وكان السلطان إسماعيل بدوره يسبغ عليه كثيرا من عطاياه ، حتى ليقال إنه أعطاه خمسة وعشرين رطلا من الذهب الخالص جائزة على بعض مدائحه فيه . وقد توفي الشاعر في عهده بسجلماسة ، ويقال بل إنه عاد إلى بلده وتوفي فيها ولا يعرف تاريخ وفاته ، واستظهر بعض الباحثين أنها كانت سنة ١٠٨٨هـ/ وربما كانت بعد ذلك بسنوات معدودة .

وشعر سعيد المنداسي سواء الشعر الشعبي والشعر الفصيح يتناول المديح كما أسلفنا والغزل

(١) انظر في ترجمة سعيد المنداسي وشعره ديوانه تحقيق وتقديم الأستاذ رابح بونار (طبع الجزائر) . وراجع ديوان المنداسي في الأدب الشعبي لمحمد بخوشة . وانظر في الدولة العلوية وعلاقة المنداسي بها الاستقصا في مواضع مختلفة .

والمدائح النبوية والموعظة والوصف ، وكان يكثر من الهجاء - قبل مبارحته تلمسان - للعثمانيين ، ومن قوله فى وصف أهاجيه :

كأن قــوافى الشعر منّى جنادلٌ   وكفُّ الزمان منجنيقٌ بها يرمى

وهو يقول إنه كان يرسلها جنادل على العثمانيين وغيرهم ، واضطرته إلى مبارحة تلمسان خشية أن ينزل به العثمانيون عقابا أليما ، ومن أشد أهاجيه فيهم أهجية طويلة سماها : « الإعلام فيما وقع للإسلام » نظمها عقب مذبحة لحاكم تلمسان العثمانى ، إذ سلط جنده على بعض أعلامها وعلمائها ، فسفكوا دماءهم بغيا وظلما وهدموا مبانيهم وسبوا نساءهم وذراريهم . وكان أحد الفقهاء المسمى ابن زاغو سوَّغ لهم ذلك فى فتوى جائرة ، فصبَّ عليه وعلى العثمانيين فى أهجيته سياط هجائه غاضبا غضبا شديدا ، وهو يستهلها بهجائهم بمثل قوله :

وأكــبرُ شىءٍ أفسدتْــه أكفُّهــم   تلمسانُ عَيْنُ الغرب علما وإيمانا
وكانت لهــم لما أرادوا فسادهــا   أراذلُ منهم كالبطــارق أعوانــا

وهو يقول إن أكبر شىء أو مدينة أفسدوها تلمسان حاضرة الدولة الزيانية أم مدائن الجزائر علما ودراسات دينية ، أفسدها منهم أراذل كبطارقة النصارى العتاة ، ويلتفت للفقيه ابن زاغو الذى قدم لهم فتوى سوَّلت للحاكم العثمانى جريمته الآثمة فيقول :

فقــل لابن زاغــو للضلال أئمــةٌ   تدبَّرْ - لحاك الله - ما قال مولانا
ولا تركنوا - والرُّكْنُ منك سجيَّةٌ -   كأنــك لم تسمــع من الله قرآنــا
قتلتَ فُحــولَ العلم صَبْرًا ولم تزل   على عهدك المعلوم فى الزَّيْغ هَيْمانا
فأيَّمتَ بالفتــوى نســاءً كريمــةً   ويتَّمتَ بالقــول المضلِّل ولدانــا

وهو يقول إن ابن زاغو الفقيه إمام لا من أئمة التقوى بل من أئمة الضلال والفساد فى الأرض ، ويتجه إليه قائلا : تدبَّر - قبَّحك الله - ما قال الله فى كتابه : ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار﴾ أى لا تميلوا ، ويقول إنه دائما من المائلين إلى العثمانيين الظالمين ، وبئس الميل لقد أفتيتهم بقتل العلماء العظام وما زلت على عهدك غارقا فى الزيغ والضلال ، لقد أيمت نساء وجعلتهن ثكلى فاقدات لأزواجهن الذين يعولونهن باكيات عليهم نادبات ويتمت أطفالا صغارا لا تخاف الله ولا تخشاه . ويصور بعد ذلك فى الأهجية سفك العثمانيين لدماء العلماء وما حملوا من رءوس كم باتت ساجدة لله وكم ظلت تدرس الدين وكتب التوحيد من مثل السنوسية الكبرى سوى من قيدوهم بالأغلال وزجوا بهم فى السجون ، ويعود إلى تصوير فتوى ابن زاغو ويكويه بمثل قوله :

وقال اقتلوا فالقتلُ يَرْدَعُ غيرهم ... ولا رَقَّ ذاك القلبُ منه ولا لانا
تعالوا تروا ضِلِّيلَ فى زىِّ ناسكٍ ... يطوِّل من ثوب الضلالة أَرْدانا
وقد قُدَّ ذاك الثوبُ من كل موضعٍ ... ومزِّقَ بأبصار الخلائق عُرْيانا
إذا شِيم منه الخيرُ فالبرق كاذبٌ ... وإن صال منه الرعدُ يهلك بُلْدانا

ويقول إنه أفتى بقتل من سفكت دماؤهم لزجر غيرهم وردعهم لا يرعى فيهم عهدا ولا ذمة ، وكأنما قسا قلبه وخلا منه كل شعور حتى غدا كالحجر الصلد أو أشد قسوة ، ويعجب أن يتظاهر بالنسك وعبادة ربه وهو يطوِّل من ثوب الضلالة أردانه أو أكمامه ، ويقول إن هذا الثوب قُدَّ وشقِّق ومزِّق حتى أصبح – رغم لبسه له – عريانا ، وحتى لو رُؤى منه برق خير فالبرق كاذب ، أما إذا أرعد فهلاك للبلاد والعباد . ويهيب الشاعر بأهل تلمسان أن يثوروا بالعثمانيين ثورة عنيفة ، ويتوعد ابن زاغو بما سيلقى عند ربه قائلا :

أيا آلَ دين اللّـه مالى أراكمُ ... نيامًا وكان الطِّرْفُ من قبلُ يقظانا
أما تذكرون الأهل والزمن الذى ... عهدتم فذاك الوصلُ قد صار هجرانا
وهلا سألتم عن يتامى تفرَّقتْ ... أيادى سبًا فى الغَرْب أنثى وذُكرانا
فقُل لابن زاغو رأس كلِّ خطيئةٍ ... قِلًى تحسبون الفتك بالأهل سُلْوانا
ألا إنك الدَّجَّال للناس فتنةً ... تأهَّبْ لرَوْحِ الله فالحَيْنُ قد حانا

وهو يستصرخ أهل تلمسان ليهبوا من نومهم الطويل ويذودوا عن أهلهم وحريمهم الذين قتل العثمانيون أزواجهن ويتَّموا أبناءهن وتفرقوا فى البلدان مِزَقا أناثا وذكورا ، ويقول لابن زاغو رأس هذه الخطيئة قِلًى وبغضا لك حين تتخذ الفتك بالأهل سلوانا ، إلا إنك الدجال الذى يموه الحق ويزين الباطل ويوقد الفتن ، فتأهب واستعد لإزاحة الله لك من على وجه الأرض ، فقد آن موتك ولم يعد لك مفر منه . وواضح أن سعيدًا المنداسى كان شاعرا بارعا ، ولم يكن يعيش بمعزل عن قومه ، فقد كان يشاركهم فى ثوراتهم على ظلم الحكام العثمانيين فى أيام شبابه ، وإن فاته أن يحمل السلاح فى وجوههم فإنه لم يفته أن يجعل من أبيات شعره الفصيح والعامى سهاما يسلطها على جباه العثمانيين ويقذفها على رءوسهم وصدورهم محاولا – بكل جهده – أن يستثير مواطنيه من أهل تلمسان ضدهم حتى يذيقوهم نكالا ووبالا .

٥

الشعراء والشعر التعليمى

مرَّ بنا فى الجزء الخاص بالعصر العباسى الأول أن رقى الحياة العقلية فيه هيأ لاستحداث الشعر التعليمى الذى يعنى بنظم التاريخ والعلوم والقصص التعليمية ، وكان من السابقين إلى

ذلك أبان بن عبد الحميد ناظم قصص كليلة ودمنة شعرا ، وله منظومات سقطت من يد الزمن في تاريخ ملوك الفرس وأيضا له منظومة فى الفقه وأحكام الصلاة ، ونظم فى هذا الفن التعليمى الأصمعى فى الملوك والأمم البائدة كما نظم إبراهيم الفزارى منظومة طويلة فى الفلك يقال إنها استوعبت عشر مجلدات .

ومنذ العصر العباسى الأول رسخ هذا الفن فى الشعر العربى وأصبح أحد موضوعاته ، وقد اصطلح أبان وأصحابه فى العصر المذكور على أن يُنْظَمَ من وزن الرجز ، لأنه من أوفر أوزان الشعر العربى أنغاما ومن أكثرها قبولا للتغير فى تفاعيله ، وهو بذلك أكثرها مرونة لحمل المعارف العلمية. وأخذت الأقاليم العربية تسهم فى هذا الفن كلما اتسعت فيها الحركات العلمية وكثر علماؤها ، إذ يرون أن يضعوا فى علومهم منظومات لمساعدة الناشئة على حفظ قواعدها .

وأقاليم عربية تسرع فى هذا الصنيع ، وأقاليم أخرى تتأخر قليلا أو كثيرا ، ونلتقى فى القرن الخامس الهجرى بابن أبى الرجال المتوفى سنة ٤٢٦ هـ/١٠٣٤ م وله أرجوزة فى الفلك والتنجيم ، ويلقانا فى القرن السابع يحيى[1] بن عبد المعطى المولود سنة ٥٦٤ هـ/١١٦٩ م وهو من قبيلة زواوة البجائية ، وقد نشأ فى بجاية ، وأتقن فيها علم النحو كما أتقن نظم الشعر ، غير أنه اتجه به نحو التمرن على نظم بعض المعارف ، ورحل إلى دمشق وسكنها وانتفع به خلق كثير ، ورغبه السلطان الكامل الأيوبى فى الانتقال إلى مصر وانتقل إليها وتصدّر لإقراء الطلاب فى الجامع العتيق (جامع عمرو بن العاص) وكان يقرأ لهم ألفيته التى نظمها فى النحو ويفسر أبياتها لهم ، ولا يعرف متى نظمها ؟ هل نظمها قبل رحيله إلى دمشق أو بعد ذلك وما زال يقرئها الطلاب المصريين حتى توفى سنة ٦٢٨ هـ/١٢٣١ م وعلى غرارها نظم ابن مالك ألفيته المشهورة فى النحو . ونمضى فى القرن السابع ونلتقى بأبى إسحق[2] إبراهيم بن أبى بكر الأنصارى التلمسانى المتوفى سنة ٦٩٧ هـ/١٢٩٨ م وقد نظم فى الفرائض (علم الميراث) وهو ابن عشرين سنة أرجوزة اشتهرت باسم التلمسانية ، وهى أرجوزة محكمة ضابطة لعلم الميراث عجيبة الوضع لم يصنَّف فى فنها مثلها وقد طارت شهرتها فى الجزائر وغير الجزائر وشرحت مرارا . وممن كثر نظمهم فى الشعر التعليمى ابن[3] مرزوق الحفيد وله ألفية فى القراءات فى محاذاة ألفية الشاطبى : حرز الأمانى ، وأرجوزتان فى علم الحديث : كبرى باسم الروضة وصغرى باسم الحديقة ، وأرجوزة فى تلخيص كتاب المفتاح فى علوم البلاغة للقزوينى ، وأرجوزة فى الميقات أو الفلك

(١) انظر ترجمته فى معجم الأدباء ٣٥/٢٠ وابن خلكان ١٩٣/٦ .

(٢) راجع ترجمته فى الديباج المذهب لابن فرحون (طبع القاهرة) بتحقيق د. محمد الأحمدى أبو النور ٢٧٤/١ وبغية الرواد ليحيى بن خلدون ١٠٩/١ .

(٣) انظر ترجمته فى البستان ٢٠١ - ٢١٤ وراجع تعريف الخلف برجال السلف للحفناوى ١٢٨/١ ونيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا ص ٣٠٥ .

فى ألف وسبعمائة بيت سماها المقنع الشافى ، وله أرجوزة فى تلخيص أعمال الحساب لابن البناء ، وأرجوزة فى نظم كتاب الجمل فى المنطق للخونجى . ومن ناظمى الشعر التعليمى فى القرن التاسع بين أصحاب علوم الأوائل الحباك[1] محمد بن أحمد المتوفى سنة ٨٦٧ هـ / ١٤٦٣ م وله أرجوزة فى الإسطرلاب كانت ألفية هذا العلم فى العهد العثمانى ، ومن أجل ذلك كثرت شروحها وقد سماها : « بغية الطلاب فى علم الإسطرلاب » وفيها تحدث عن رسوم الإسطرلاب وأجزائه ومطالع البروج والجهات الأربع إلى غير ذلك من موضوعات علم الفلك . ومن ناظمى هذا القرن أحمد[2] بن عبد الله الجزائرى المتوفى سنة ٨٨٤ هـ / ١٤٧٩ م وله منظومة فى علم التوحيد أو علم الكلام استهلّها بقوله :

الحمد لله وهْو الواحــدُ الأزلى   سبحانه جلَّ عن شِبْهٍ وعن مَثَلِ

نظمها فى مقتبل عمره وسماها الجزائرية وأرسلها إلى العلامة محمد السنوسى فأعجب بها وشرحها ، وقد دوَّت شهرتها فى الجزائر وغير الجزائر ، وبالمثل شرح السنوسى أرجوزة فى نفس العلم لتلميذه محمد[3] بن عبد الرحمن الحوضى، سماها واسطة السلوك افتتحها بقوله :

الحمــدُ لله الذى دَلَّ عليــــه   إيجادُنا ثـم افتقارُنــا إليــــه

وبعد فالتوحيدُ أشرفُ العلومْ   وهْو أساسها الذى بــه تقومْ

ولابن[4] زكرى معاصرهما المتوفى سنة ٩٠٠ هـ/١٤٩٤ م أرجوزة فى نفس الموضوع شرحها الورتلانى . وحرى بنا أن نعرف أن الجزائر وكل بلاد المغرب — كما قلنا فى غير هذا الموضع — كانت تعتنق مذهب الأشعرى فى قضايا العقيدة وعلم التوحيد . ونمضى فى القرن العاشر الهجرى ونلتقى بالفقيه أحمد[5] بن الحاج البجائى المتوفى سنة ٩٣٠ هـ/١٥٢٤ م وقد رأى للشيخ السنوسى كتابين فى علم التوحيد باسم العقيدة الكبرى والعقيدة الصغرى ، فنظم الصغرى فى أرجوزة له ابتدأها بقوله :

الحمــد لله الــذى عرَّفنــا   بنفسِــه وبالهــدى شرَّفنـا

وبعد فالمقصود من هـذا النظامْ   نظمُ عقيدة السَّنوسىِّ الإمــامْ

من غَـيْرِ تبديـلٍ ولا تغـييرِ   سوى اختلاف اللفظ والتعبيرِ

وله منظومات فى مسائل فقهية متعددة . ولكثيرين منظومات أو أراجيز فى علوم مختلفة ، على نحو ما نرى عند عبد الرحمن الأخضرى وسنخصه بكلمة أو ترجمة ، وكثيرا ما كانوا

(١) انظره فى البستان ص ٢١٩ وتاريخ الجزائر الثقافى لسعد الله ١/١٠٩ وما بعدها .
(٢) راجع تعريف الخلف ١/٣٨ وسعد الله ١/٨٤ .
(٣) انظره فى البستان ص ٢٥٢ وعند سعد الله ١/٩٠ .
(٤) انظر فى ابن زكرى البستان ص ٣٨ وعند سعد الله ١/٨٥ .
(٥) راجع ابن الحاج فى البستان ص ٨ — ٢٤ .

ينظمون في بعض مسائل العلوم الدينية واللغوية ، ومحمد بن علي بهلول المجاجي في ألقاب الإعراب والبناء[1] :

مَـنْ يَبْتـغ العِـزَّ يرفعـنْ هِمَّتَـهُ	بالضـمِّ عـن كل مَخْلوقٍ يَرَى عَجَبا
وبيـن عينيـه يَنْصِبَنْ منيَّتَـه	بفتـح بـابِ لَيَّثٍ المـوتُ قد نُصبا
ويَخفض النَّفْسَ لا يَبْغِي لهـا شَرفـًا	بكسـرِ شهوتهـا ينـالُ مـا طلبًا
بـذا يجـرُّ لهـا النَّفعَ مجاهدُهـا	فإن عصتْـه رمى بسهمـه عَطَبا
واجْزم على اللَّهْو نَفْسًا طالما اضطربتْ	وبالسكون يكـون الجَـزْمُ خُذْ أدبا

وواضح أن ألقاب الإعراب تتوالى في الأبيات ، وهي الرفع والنصب والجر والجزم ، وبالمثل تتوالى ألقاب البناء ، وهي الضم والفتح والكسر والسكون . ونظم خليفة بن حسن القماري الأجرومية في قصيدة تسمى اللامية في نظم الأجرومية في النحو لابن آجروم الصنهاجي. ونلتقي بأحمد[2] البوني المولود سنة ١٠٦٣ هـ/١٦٥٣ م والمتوفى سنة ١١٤٠ هـ/١٧٢٨ م وذكر له الحفناوي في تعريف الخلف برجال السلف نحو ستين منظومة نقلها عن رسالته : « التعريف بما للفقير من التأليف » منها نظم السيرة المحمدية ، ومما يتعلق بالقرآن الكريم نَظَم غريب القرآن في تفسير ابن عباس ، ونظم غريب العزيزي للقرآن العظيم المسمى تحفة الأريب بأشرف غريب ، ونظم الخصائص الكبرى للسيوطي وأكبر الظن أنها شمائل رسول الله ، ونظم تحفة الفكر لابن حجر ، ونظم الفرائض (علم الميراث) في رسالة ابن أبي زيد القيرواني ، ونظم الوغليسية في الفقه لعبد الرحمن الوغليسي المتوفى ببجاية سنة ٧٨٦ هـ/١٣٨٥ م ونظم مختصر الشيخ خليل بن إسحق المصري حامل لواء المذهب المالكي المتوفى سنة ٧٦٩ هـ/١٣٦٨ م في عشرة آلاف بيت ، ونظم كتابه الجامع في ألف بيت ونظم الأجرومية في تسعين بيتا ، أما علم الكلام أو كما يسمى علم العقيدة في الجزائر فكاد لا يترك فيه كلاما لإمام مشرقي أو مغربي إلا نظمه ، فله نظم في عقيدة الماتريدي والطحاوي والغزالي وعبد القادر الجيلاني وابن عربي وأبي الحسن الشاذلي والعز بن عبد السلام والتفتازاني والنسفي وابن الحاجب وعبد الكريم الفكون ، ونظم العقيدة الوسطى والصغرى للسنوسي وعقيدة أبي مدين ، وكاد لا يترك كلاما لإمام من الأئمة الماضين سنيين أو صوفيين إلا وضع فيه منظومة . وحرىٌ بنا الآن أن نخص عبد الرحمن الأخضري أحد أصحاب هذا الشعر التعليمي بكلمة .

عبد[3] الرحمن الأخضري

ولُد عبد الرحمن الأخضري في بنطيوس من قرى بسكرة في الزاب حوالي سنة

---

(١) تعريف الخلف ٤٤٨/٢ .

(٢) انظر في ترجمته تعريف الخلف برجال السلف ٥٢٢/٢ .

(٣) راجع ترجمته عند سعد الله ٥٠٧/١ وما بعد و ١٥٩/٢ ، ٤١٧ وما بعدها .

١٠٢٠ هـ/١٦١١ م .وبها حفظ القرآن الكريم ، وبعد حفظه تتلمذ لشيوخها ولأبيه محمد وله حاشية على مختصر الشيخ خليل بن إسحق المصرى فى الفقه المالكى . وبعد أن أخذ كل ما عند أبيه وأقرانه من فقه ولغة ارتحل إلى قسنطينة ، فأكبَّ على حلقات شيوخها ، واستوعب كل ما أخذه عنهم من علوم أوائل وآداب تصوف وعلوم بلاغة ومنطق ، وعاد إلى موطنه يدرس لطلابه كل ما فقهه وتمثله من علوم مختلفة ، ويشيد مترجموه برسوخه فى المعقول والمنقول ، وظل يرعى طلابه إلى أن توفى سنة ١٠٥٣ هـ/١٦٤٣ م . وشغف بنظم العلوم ، فألّف مجموعة من المتون يتدارسها الطلاب والعلماء شرقا وغربا ، منها فى الفلك منظومة السراج وقد شرحها سحنون بن عثمان معاصره ، ومنها الدرة البيضاء فى الحساب وعلم الفرائض وجعلها فى ثلاثة أقسام : قسم خاص بالحساب ، وقسم خاص بالفرائض (علم الميراث) وقسم خاص بقسمة التركات . وطبعت مع شرحها فى القاهرة ونُصَّ فى الطبعة على أن شرح قسم الفرائض من عمل المؤلف الأخضرى . وله فى التصوف منظومة سماها القدسية ، وهى فى آداب السلوك ونكران البدع ، وشرحها حسين الورتلانى المتوفى سنة ١٢١٠ هـ/١٧٩٥ م وسمى شرحه الكواكب العرفانية والشوارق الإنسية فى شرح ألفاظ القدسية ، ونظم الأخضرى تلخيص المفتاح فى علوم البلاغة للقزوينى وسمى منظومته الجوهر المكنون فى الثلاثة فنون : المعانى والبيان والبديع ، وشرحها فى القاهرة الشيخ أحمد الدمنهورى فى القرن الماضى .

وأهم منظومات الأخضرى فى العلوم منظومته فى علم المنطق ، وقد سماها : « السلم المرونق فى علم المنطق » وهى أرجوزة فى مائة وثلاثة وأربعين بيتا ، ويقول فى آخرها أنه نظمها وهو فى الحادية والعشرين من عمره ، وشرحها ، وطارت شهرتها ووُضعت عليها شروح كثيرة ، ويستهلها بقوله :

الحمـد لله الذى قد أخرجـا	نتائجَ الفكر لأربـاب الحِجـا
وحـطَّ عنهـم من سماء العَقْلِ	كلَّ حجابٍ من سحاب الجهلِ
حتى بدتْ لهـم شموس المعرفـه	رأوا مخدَّراتهـا منكشفـه
نحمـده جـلَّ علـى الإنعـامِ	بنعمـة الإيمـان والإسـلامِ
من خَصَّنا بخيرِ من قد أرسـلا	وخيرِ من حـاز المقامات العُلا
محمـدٌ سيِّـدُ كل مقتـفَى	العـربى الهـاشمى المصطفى

وقد بدأ أرجوزته بالحمد لله والثناء عليه . والحجا : العقل ، وفى البيت الأول براعة استهلال إذ أشار بنتائج الفكر لأرباب العقل إلى موضوع الأرجوزة وهو علم المنطق ، ومضى فى البيتين الثانى والثالث يكمل معنى البيت الأول بما رفع الله من الحجاب عن قلوب أولى الألباب حتى ظهرت لهم شموس المعرفة ورأوا مخدراتها وعرائسها المستورة منكشفة . ويحمد الله

على إنعامه بنعمة الإيمان والإسلام ، وأن جعله من أمة محمد سيد المرسلين العربى القرشى المصطفى من بنى هاشم لرسالته العظمى . ويمضى فى هذه المقدمة قائلا إن المنطق زمام للعقل كما أن النحو زمام للسان ، ويوزع الأرجوزة على فصول متوالية ، وأولها فصل عن جواز الاشتغال بالمنطق كما قال الغزالى خلافا لابن الصلاح والنواوى ، إذ به تصحَّح الأفكار ويُهْتَدى فيها إلى الصواب . ويضع عنوانا : أنواع العلم الحادث أى العلم الإنسانى لا العلم الربانى وينشد :

إدراكُ مفــردٍ تصــورا عُلِمْ   ودَرْكُ نسبةٍ بتصديــقٍ وُسِمْ
وقدِّم الأول عـند الوضــع   لأنــه مقــدَّم بالطَّبْــع
والنظرى مـا احتــاج للتأمل   وعكسُه هـو الضرورىّ الجَلى

وهو يقول إن العلم قسمان : إدراك مفرد ويسمى تصورا كإدراكنا معنى الحيوان أو الإنسان أو الإخلاص ، وإدراك نسبة ويسمى تصديقا مثل « العالم حادث » فنسبة الحدوث إلى العالم تصديق وإدراك العالم فى نفسه وكذلك الحدوث تصور ، فالتصور يسبق دائما التصديق على وجه الإثبات كما فى المثال السالف أو على وجه النفى كقولنا : « العالم غير حادث » . والتصديق إما جازم وهو التصديق اليقينى مثل « الشمس تطلع كل يوم » وهو حكم لا يتغير ، وإما غير جازم مثل : « السماء تمطر غَدًا » وهو حكم يقارنه احتمال : ظن أووهم . والعلم الحادث قسمان : ضرورى ونظرى ، والضرورى ما يدرك بداهة بلا تأمل كقولنا : « الكل أعظم من الجزء » و « الواحد نصف الاثنين » والنظرى ما يحتاج إلى نظر واستدلال كقولنا : « الأرض كروية » و « الصبر مفتاح الفرج » . ويجمل الأخضرى الدلالة الوضعية أو اللفظية بقوله :

دلالةُ اللفظ على ما وافقه   يدعونها دلالـةَ المطابقه
وجزئهِ تضمنا وما لــزمْ   فَهْو التزامٌ إن بعقلٍ التزمْ

وهو يقول إن الدلالة إما دلالة مطابقة كدلالة الحيوان المفترس على الأسد . وإما دلالة جزئية أى دلالة الجزء فى ضمن الكل كدلالة الأسد على الحيوان لأنه من أفراده . وإما دلالة التزام كدلالة العمى على البصر ودلالة الدخان على النار . ويوجز بيان الكل والكلية والجزء والجزئية فى فصل على هذا النمط :

الكلُّ حكمُنا على المجمــوعِ   ككل ذاك ليس ذا وقــوعِ
وحيثما لكل فــردٍ حُكِمــا   فإنه كليَّــةٌ قـد عُلمــا
والحكم للبعض هـو الجزئيه   والجــزء معرفتــه جَليَّه

وهو يذكر أن الكل هو المجموع المحكوم عليه كقولك « طلاب الجامعة مجتهدون ،

ففيهم من ليس مجتهدا ، والكلية الحكم الشامل لكل فرد فى المجموع كقولك : « كل إنسان يقابل للعمل » . والجزئية الحكم على بعض الأفراد كقولك : « بعض طلاب الجامعة مجتهدون » والجزء ما تركب منه ومن غيره كالسمار والخيط للحصير والمبتدأ والخبر للجملة الاسمية . ويعقد فصلا للتعريفات والحدود قائلا :

معــرِّفٌ إلى ثلاثــةٍ قُسِــمْ حــدٌّ ورسمىٌّ ولفظىٌّ عُلِــمْ
فالحدُّ بالجنس وفَصْلٍ وقعــا والرسم بالجنس وخاصةٍ معا
وناقص الحــدِّ بفصلٍ أو معًا جنسٌ بعيــد لاقريبٌ وقعــا
وناقص الرســم بخاصة فقط أو مع جنسٍ أُبعِدنْ قد ارتبط
وما بلفظىٌّ لديهـــم شُهِــرا تبديل لفــظ برديفٍ أشْهَـرا

والأخضرى يقول إن التعريفات خمسة أقسام : حدٌّ تام وهو التعريف بالجنس والفصل وهو الصفة الملازمة التى لا يشترك فيها أحد مع المعرف مثل : « الإنسان حيوان ناطق » أى ذو عقل مفكر . والحد الناقص هو التعريف بالفصل وحده مثل ناطق أو بالفصل مع الجنس البعيد مثل : « الإنسان جسم ناطق » . والرسم التام التعريف بالجنس القريب والخاصة وهى صفة غالبة غير ملازمة وقد تكون مشتركة كتعريف الإنسان بأنه حيوان ضاحك لأن من النسانيس والقردة ما قد يضحك . والرسم الناقص إما بالخاصة فقط مثل ضاحك أو مع جنس بعيد مثل الإنسان جسم ضاحك . والتعريف اللفظى أو باللفظ التعريف بالمرادف الأشهر مثل تعريف الغضنفر بأنه الأسد . وواضح مدى إحكام عبد الرحمن الأخضرى للتعبير عن مسائل علم المنطق وقواعده بمنتهى الوضوح ومنتهى الدقة فى الإيجاز والاختصار . وهو - بحق - يعد فى طليعة المجيدين لنظم العلوم لا فى الجزائر وحدها بل فى العالم العربى جميعه . وقد أكب كثيرون على شرح هذا المتن البديع فى علم المنطق فشرحه سعيد قدورة فى الجزائر وشرحه فى مصر الملوى شرحين كبيرًا وصغيرًا ووضع عليه حاشية الشيخ إبراهيم الباجورى سنة ١٢٢٦ هـ/١٨١٦م وطبعت مع تقرير عليها للشيخ محمد الإنبابى سنة ١٢٩٧ هـ/١٨٨٠م . وشرحه الشيخ أحمد الدمنهورى وطبع شرحه مع شرح الناظم الأخضرى سنة ١٣١٤ هـ/١٨٩٧م وهى صورة من التواصل العلمى بين مصر والجزائر . ومرَّ بنا أن الجزائر ظلت تعنى طويلا بكتابات ابن الحاجب وخليل بن إسحاق المصريين فى الفقه المالكى .

الفصل الخامس
طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل

يُعَدّ الغزل من أهم الموضوعات التى شغلت شعراء العرب من الجاهلية إلى العصر الحديث ، فمن قديم يتغنون بعاطفة الحب الخالدة ، ويصورون مشاعرهم وأحاسيسهم إزاء المرأة وما يكون بينهم وبينها من لقاء ووداع ووصال وهجران ، وهم تارة سعداء بوصالها وتارة أشقياء يشكون الهجران والحرمان ، ويتمنون ولو نظرة من بعيد ، وكأنها الفردوس الذى حرموا منه ، وهم يألمون لذلك أشد الألم مع الإكثار من الاستعطاف . والغزل من قديم نوعان : نوع مادى يعنى فيه الشاعر بتصوير المرأة تصويرا حسيا صادرا فيه عن الغريزة النوعية وما تتطلب من المتاع المادى ، ونوع عذرى طاهر يتسامى فيه الشاعر إلى بث الوجد الذى يَصْلَى بناره فى دخائله وبلوعاته لوعات لا تنتهى ، وهو يتغنى فيه بمحبوبته ظامئا إلى رؤيتها ظمأ متصلا متضرعا ، وكأنها ملاك من عالم غير عالمه ، ودائما يبكى بدموع غزار . وهذا النوع الثانى من الغزل القائم على الحرمان وعلى السمو فى الحب هو الغالب على غزل شعراء الجزائر ، وما من شاعر جزائرى مشهور إلا نجد عنده من هذا الغزل إشعاعات كقول عبد الكريم النهشلى[1] :

يشكو هـواك إلى الدموع متيَّمٌ ... لم يبـق فيه للعــزاء نَسِيسُ
لولا الدموع تحرَّقتْ من شوقه ... يوم الوداع قِبابُكم والعيسُ

وهو يقول إنه ودَّع صاحبته ولم يعد يستطيع أن يقدم شكواه إلا دموعه ، وقد أضناه الحب ، ولم يعد فيه إلا نسيس أو بقية من الروح ، ولولا الدموع وطوفانها لتحرقت بنار حبه قبابُها وخيامها وهوادجها والعيس أو الإبل الظاعنة عليها . والتفت ذات يوم إلى شجرة فرأى عليها حمائم وسمعها تترنم وتنوح ، فتأثر وأنشد[2] :

(١) أنموذج الزمان لابن رشيق ص ١٧٦ .
(٢) نفس المصدر والصفحة .

أواجــدةٌ وجــدى حمــائمُ أيكةٍ ... تميــل بها مَيْلَ النّزيف غصونُها
نشــاوَى وما مالــتْ بخمرٍ رقابُها ... بــواكٍ وما فاضــتْ بدمعٍ عيونُها
أعيــدِى حمامــاتِ اللِّوَى إنّ عندنا ... لشَجْوِك أمثالا يعــود حنينُها[1]

ويتساءل النهشلى أهذه الحمائم تداخلها مواجد مثل مواجده، وإن غصون الأيكة لتمايل بها ميل النزيف أو السكران المنتشى، وإن الحمائم نفسها لنشاوى سكارى وما شربت خمرا، وإنها لبواك تثير الشجون وما بكت عيونها، وإنه ليلتمس منها أن تعيد بكاءها ونواحها فإنها تثير فيه نفس الشجْو وما يعتاده من الحنين والشوق. ونلتقى بابن قاضى ميلة وقصيدته الفائية التى نوه بها ابن خلكان والتى مدح بها ثقة الدولة أمير صقيلة، وقد استهلها بغزل حوارى على طريقة عمر بن أبى ربيعة أبدع فيه كل الإبداع، ونقتطف منه الأبيات التالية[2] :

ولمــا التقينــا محرمــين وسَيْرُنــا ... بلبَّيْك ربَّــا والركائــبُ تَعْسِف[3]
نظــرتُ إليهــا والمطىُّ كأنمــا ... غواربُها منهــا معاطِسُ رُعَّــفُ[4]
فقالــتْ أما منكــنَّ مَنْ يَعْرِفُ الفتَى ... فقــد رابنى من طــول ما يتشوَّفُ[5]
أراه إذا سِــرْنا يســيرُ حِــذاءَنا ... ونوقفُ أخفــافَ المَطِىِّ فيوقــفُ[6]
فقلــت لتِرْبَيْهــا ابلغاهــا بأنَّنى ... بهــا مستهــامٌ قالتــا نتلطّــفُ[7]
وقــولا لهــا يــا أمَّ عمرو أليــس ذا ... مِنًى والمُنَى فى خيْفه ليس تُخْلَفُ[8]
وفى عَرَفــاتٍ ما يخــبِّرُ أننى ... بعارفةٍ من عطــف قلبك أُسْعَفُ[9]
فأوصَلَتــا ما قلتــه فتبسَّمــتْ ... وقالت: أحاديث العِيافة زُخْرُفُ[10]
وقد أُنــذر الإحــرامُ أنَّ وِصالنــا ... حرامٌ وإنا عن مزارِكَ نَصْدِفُ[11]

وابن قاضى ميلة يذكر التقاءه بصاحبته وهما محرمان يلبيان ربهما قائلين لبيك اللهم لبيك، وكل منهما يركب مطية مجهدة كبقية مطايا الحج والعرق يسيل منها مدرارا، وهو ما يزال ينظر إلى صاحبته، سائرا بجوارها، وكلما توقفت مطاياها وصحبها توقَّف، فقال لصاحبتيها وقد دنا منهما أبلغاها بأننى هائم بها، وقولا لها إننا سننزل منى، وينبغى أن تحقق لى فى خيف

(١) اللوى : ما التوى من الرمل أو منقطعه .
(٢) انظر فى القصيدة ابن خلكان ١٥٩/٦ والأنموذج ص ٢١١ والذخيرة، القسم الرابع ص٥٣٣ .
(٣) الركائب جمع ركوبة من الدواب والإبل . تعسف : تسير فى الطريق على غير هدى .
(٤) معاطس جمع معطس : الأنف . رُعَّف جمع راعف : تسيل . الغارب فى البعير : ما بين السنام والعنق .
(٥) يتشوف : يشرف وينظر .
(٦) أخفاف : جمع خف وهو للبعير كالحافر للفرس .
(٧) لتربيها : المماثلتين لها فى السن . مستهام : هائم أى مشغوف حبا .
(٨) منى بكسر الميم : ينزل بها الحجاج فى أيام التشريق . خيف منى : منحدرها .
(٩) عارفة : الجميل والإحسان . عرفات : جبل به موضع وقوف الحجاج .
(١٠) العيافة هنا : التفاؤل .
(١١) نصدف : نعرض ونميل .

منى اللقاء ، وسنقف بعدها فى عرفات ، فهل تجود على بملاقاة ، وحدَّثاها عنه فابتسمت وقالت تلك أحاديث عيانة وكهانة وتفاؤل مزخرف . وإننا محرمان والإحرام يحرم وصالنا ، وإنى لصادفة عنه مزورة ، ولن ألقاه ، وتمضى قائلة إن قذفنا للجمرات ليخبرك بأن كلامنا سيقذفه البعد والنوى إلى ديار متباعدة . ويسوق الغبرينى فى كتابه « عنوان الدراية » غزليات طريفة لشعراء بجاية ، منها قول[1] محمد بن يحيى بن عبد السلام :

ألا بأبى من لا أرى فى الهـوى سوى ... محيـَّاه شمسًا أو سَنًا ثغْـره بَرْقَـا
ولا خمـرَ إلا مِنْ لَمـاه ولحظـهِ ... ولا غُصْنَ إلا القدُّ لا ما ارتقتْ وَرْقا
لئن لدغـتْ قلبى عقـاربُ صُدْغهِ ... فريقتـه التِّرْيـاقُ لى وبهـا أُرْقَى
تعلَّمت مـن عينيـه عشقى لحسنـهِ ... فَلِلَّهِ ألحـاظٌ تعلِّمنى العِشْقـا
ولـو أن هاروتـا رأى سـحْرَ طَرْفـهِ ... أَقَـرَّ بأن السحـر من لحظه اشْتُقّا
فيا طامعًـا فى الوَصْلِ منـه تسلْ هَلْ ... سمعتَ بأشـراك تُصـاد بهـا العَنْقا

وهو ينوه فى أول الأبيات بجمال صاحبته التى يرى
ولا خمر مسكرة إلا من سمرة شفتيها ولحظ عينيها . و«
لا ما ارتقت الوَرْقاء من قدود الأغصان الجميلة . ويقول لم
على صدغها فإن ريقتها الترياق والبلسم الذى يُرْقَى به لشفا . ر
الذى ألقى فى فؤاده عشقها ، وما أبدعه ، فلو أن هاروت الساحر المذكور فى الق
رأى سحر عينيها لأقرَّ بأن السحر مشتق منه . ثم يُلْقى اليأس فى قلوب من يطمعون فى وصلها ، فيقول هل يمكن لأحد أن يصيد العنقاء الطائر الخرافى بشباكه وأشراكه . وكان يعاصر هذا الشاعر فى بجاية محمد بن أحمد الأريسى وله غزليات رقيقة ، وسنترجم له عما قليل .

ونهضت الدولة الزيانية : دولة بنى عبد الواد بالأدب شعرا ونثرا وسرعان ما أنتجت النهضة الأدبية فى زمنها شاعرا كبيرا هو ابن خميس وله غزليات رقيقة بديعة كثيرة ، من ذلك قوله[2] :

نظـرتْ إليـك بمثـل عَيْنَىْ جُؤْذرٍ ... وتبسَّمتْ عن مثل سِمْطَىْ جَوْهَرِ[3]
عن ناصـعٍ كالـدرِّ أو كالـبرق أو ... كالطَّلْع أو كالأقحـوان مُؤَشَّـر[4]
تجـرى عليـهِ من لَماهَـا نُطفَةٌ ... بـل خمـرةٌ لكنهـا لم تُعْصَرِ[5]

(١) عنوان الدراية للغبرينى ص ٣٤٢ .
(٢) الديوان ص ١١٠ وانظر بغية الرواد ليحيى بن خلدون ص ١١١ .
(٣) الجؤذر : ولد البقرة الوحشية . السمط : العقد والقلادة .
(٤) مؤشر : مفلج .
(٥) اللمى : الشفتان . نطفة : ماء صاف .

لو لم يكـــن خمـــرا سُلافًـــا رِيقُها تُــزرى وتلعب بالنُّهَى لم تُحْظَرِ[1]
وكـذاك ســاجى جَفْنها لو لم يكــن فيـــه مهنَّـــدُ لَحْظِهـا لم يُحْذَرِ[2]
لو عُجْتَ طَرْفك فى حديقـة خَدِّهـا وأمِنْتَ سطـوة صُدْغهـا المُتَنَمِّرِ[3]
لرتَعْـتَ من ذاك الجِمّى فى جنَّـــةٍ وكرعـتَ من ذاك الَّلما فى كَوْثَرِ[4]

وابن خميس يشبِّه عينى صاحبته بعينى جؤذر وأسنانها فى ثغرها بعقدى جوهر ويقول إنه ثغر ناصع البياض كالدرِّ أى اللؤلؤ أو كضوء البرق أو كطلع النخل أو كزهر الأقحوان الأبيض المفلَّج الأوراق كأسنان هذا الثغر المفلَّجة ، وهو ثغر يجرى عليه من شفتى صاحبته نطفة (قطرات) سائغة من الريق بل خمر ، وإن لم يعصرها خمار ، خمرة تلعب بالعقول ، غير محرمة ، ولو لم يكن فى فاتر جَفْنها سيف لحظها يحميها ما حُذِرت ، ولو أتيح لك أن تعطف طرفك فى خدها وجماله المتنوع ، وكأنه حديقة باهرة ، وأُمنت بطش عقرب صدغها المتنمر لنعمتَ بجنَّة رائعة ، ونهلت من لماها أو شفتيها من الكوثر نهر الفردوس . ويمضى ابن خميس فى هذا الغزل قائلا :

طرقتْك وَهْنًا والنجـــومُ كأنهـــا حَصْبــاءُ دُرٍّ فى بســاطٍ أخْضَرِ[5]
بَيْضا إذا اعتكرتْ ذوائبُ شعرهـــا سَفَرَتْ فأَزْرَتْ بالصباحِ المسفرِ[6]
طرحــت غِلالتهـا فقلــت سبيكةٌ من فضــةٍ أو دميــةٌ من مَرْمَرِ[7]
منَحتْــك ما منَعتْك يقظانًــا فلــم تُخْلـف مواعدَهــا ولم تتغــيَّر
هاجــتْ بلابــلُ نــازحٍ عـن إلْفهِ متشوِّقٍ ذاكى الحشـــا متسعِّرِ[8]

وهو يقول إن صاحبته طرقته أو زارته فى منتصف الليل والسماء تنتثر لآلىء نجومها فى بساطها الأخضر ، ويقول إنها إذا أحسَّتْ بكثافة شعرها وكشفت عن وجهها أزرتْ بالصباح المضيىء الجميل ، أما إذا خلعتْ غلالتها فإنها تبدو كأنها سبيكة من فضَّة أو دمية من مرمر ، ويقول إنه لم ير شيئا منها يقظان وإنما ذلك حلم رآه فهاج شجون مغترب عن إلفه متشوق تتقد أحشاؤه وتشتعل حبا وهياما . ولابن خميس غزل كثير فى مطالع مدائحه يصف فيه لوعات حبه وما تكنُّ ضلوعه من مواجعه ، وقد يحيله غزلا صوفيا بديعا . ولمحمد[9] بن عمر المليكشى البجائى المنتسب إلى مدينة الجزائر والمتولى خطة الإنشاء بتونس والمتوفى بها سنة ٧٤٠ للهجرة قوله :

---

(١) سلافا : خمرا خالصة . تحظر : تحرم .
(٢) ساجى : فاتر . المهند : السيف .
(٣) عجت : عطفت .
(٤) رتعت : نعمت . كرعت : نهلت .
(٥) وهنا : نحو نصف الليل .
(٦) اعتكرت : تكاثرت . ذوائب : ضفائر . سفرت : كشفت وجهها .
(٧) الغلالة : ثوب رقيق .
(٨) بلابل : هموم وشجون . متسعر : متقد .
(٩) تعريف الخلف برجال السلف ١٧٦/١ .

رِضًا نلــتِ ما تَرْضَيْنَ من كل ما يُهْوَى ... فلا توقفيني موقف الذلِّ والشكوى
وصفحًا عن الجــانى المسيء لنفســهِ ... كفــاه الذى يلقاه من شدة البَلْوَى
قفى أتشــكَّى لوعــةَ البَيْنِ ساعــةً ... ولا يك هــذا آخــرَ العهـد بالنَّجْوَى
قفــى ساعــةً فى عَرْصــة الدار وانظرى ... إلى عاشــقٍ مــا يستفيق من البَلْوَى[1]
وكم قد سألــتُ الرِّيح شوقــا إليكــمُ ... فمـــا حنَّ مَسْراها علىَّ ولا أَلْوى[2]
فيــا ريحُ حتى أنــتِ ممــن يغــارُ بى ... ويانَجْدُ حتى أَنت تَهْوَى الذى أَهْوَى
خلقــتُ ولى قلب جليــدٌ على النَّوَى ... ولكــن عــلى فقــد الأحبّة لا يَقْوَى

وهو يلتمس رضا صاحبته وأن لا تقفه شاكيا من حبه متذللا ، وأن تصفح عما قد تظن من تجنِّيه فكفاه ما يلقى من محنة الحب ، ويسألها أن تقف ليشكو لها لوعة البين والبعد ساعة أو بعض ساعة آملا أن لا يكون هذا آخر العهد بلقائها ونجواها ، بل إنه يسألها أن تقف لحظة فى ساحة الدار وتنظر إلى ما اعتراه فى محنة الحب وبلواه ، ويقول إنه ليسأل الريح المقبل من دارها عنها فلا تحن عليه ولا تعطف ، فحتى الريح تغار منه ، ويخال كأنها أخت ليلى معشوقة المجنون ساكنة نجد ، وحتى نجد تهواها وتهيم بها ، ويقول إن قلبه يتحمل النوى والفراق ، ولكنه لا يتحمل فقد الأحبة . وكان يعاصره بتلمسان أبو عبد الله محمد بن البناء ويقول يحيى بن خلدون عنه إنه « كاتب شاعر متخلق ظريف » وينشد من غزله[3] :

عيدٌ وغِيدٌ وعــودٌ وابنــةُ العــودِ ... ياليلةً جمعتْ شَمْلِى بها عودى[4]
وشادنٍ خَنِثِ الأعطــاف من ترفٍ ... عُلِّقْتُهُ بَدْرَتَــمٌ فــوق أُمْلــودِ[5]
يَجْنِى فتمحـــو جنايــاه محاسنُهُ ... وللجمـــال شفيعٌ غيرُ مــردود
لما سألنـــاه عن خمـــرِ بريقتــهِ ... يحميه بالبِيض من أجفانه السود[6]
وسَالِفَيْه وصُدغَيْــه فقـــال لنـــا ... هذى المدامةُ من تلك العناقيـد[7]

وهو يذكر ليلة عيد اجتمع له فيها فتيات حسان والعود يترنم وابنة العود يريد الخمر بنت شجرة العنب وفتاة جميلة ناعمة الأعطاف تعيش فى ترف ونعيم شغف بها وبقدها الرشيق وكأنها بدر فوق غصن ناعم ، وكم جنت عليه ومحاسنها تشفع لجناياتها شفاعة لا ترد ، ويتمنى لو ارتشف من خمر ريقها ولا يستطيع إذ تحميه سيوف مسلولة من أجفانها السود وعقربى

(١) عرصة الدار : ساحتها .
(٢) ألوى : عطف .
(٣) بغية الرواد ليحيى بن خلدون ص ١٢٤ .
(٤) غيد جمع غادة : الفتاة الناعمة .
(٥) شادن: ولد الظبية. خنث: لين وناعم. الأعطاف: الجوانب. بدرتم: بدر كامل. أملود: غصن ناعم لين .
(٦) البيض : السيوف .
(٧) السالف والسالفة : صفحة الجيد وجانبه .

صدغيها وصفحتى جيدها الجميلتين ، ويقول إنهم لما سألوها عن خمر ريقها قالت لهم مدلة إن هذى المدامة من تلك العناقيد . وينشد يحيى بن خلدون للشاعر موشحة محكمة الصنعة مثل مقطوعته السالفة وفيها يقول :

بدرٌ أزراره تبــدّت فلــكا قلبى ملــكا
عينــاه مع الهــوى دمى سفكا فيــه اشــتركا
قــد أشبهت المهــا لحظا فتكا والخال حكى
مسكًا مستمسكا على سُوسان غَضٍّ عَبِـقِ[1]
يُهْدَى كنسيم جنّة الرضــوان للمُنْتَشِـــقِ

هو يقول كأنها بدر وأزرارها الفلك ملكت قلبه واشتركت عيناها مع الهوى فى سفك دمه وقد أشبه لحظها الفاتك لحظ البقر الوحشى حسنا وجمالا ، وحكى الخال مسكا على سوسان أبيض غضٍّ عَطِرٍ ، يُهْدَى كنسيم الفردوس الذكىّ للمنتشق . وللشهاب بن الخلوف غزليات كثيرة وهى تشغل فى ديوانه نحو مائة وعشرين صفحة سوى ما يودعه مقدمات مدائحه من غزل رقيق ، ومن طريف غزله قوله[2] :

إذا القُمْرِىُّ غــرَّد فى الغصــونِ أعــانَ المستهــامَ على الشُّجونِ
وإن نــاحَ الحمــامُ بكيتُ وجدًا بُمزْنِ سحائبِ الدَّمــع الهُتُونِ[3]
وقــاكَ اللهُ هــل أبصرتَ صبًّا حزينَ القلب مقروح الجفــون
تطارحــه الصبابةُ بالتّصابى وتُسْلمه الأمــانى للمَنــونِ[4]
ينــوحُ على الديــار وساكنيها إذا مــا النُّوقُ ســارتْ بالظُّعونِ
ويكتــم فى حَشاه الوَجْدَ سِرًّا فتظهرُه المدامعُ فــى العيـــون

وهو يقول إن قمرىَّ الحمام يترنم فى الغصون بتغاريده يثير الشجون فى قلوب المحبين ، وحين ينوح الحمام يبكى وجدا ويذرف الدموع مدرارا . ويدعو لمخاطبه أن يقيه الله من الحب وأوصابه ، ويسأله أرأيت مغرما حزين القلب قريح الجفون من كثرة البكاء ، يمنيه الشوق أن سيُصْبى صاحبته ، وما يزال يتمنى ذلك حتى الموت . وترحل صاحبته مع أهلها وتسير النوق بالظعون أو الهوادج ، ويكتم نار وجده وحبه فى صدره وأحشائه ، وتعلن سره دموعه المنهلة الغزيرة. ونمضى إلى العهد العثمانى وممن نقرأ له غزلا طريفا فيه محمد القوجيلى من مثل قوله[5] :

---

(١) غض : حديث . عبق : عطر .
(٢) الديوان ص ٣٥٧ .
(٣) مزن جمع مزنة : مطرة . الهتون : الغزير .
(٤) الصبابة : الحب والشوق .
(٥) أشعار جزائرية ص ١٣٠ .

الحبُّ صعبٌ والرقيبُ أعانَهُ ... والدمعُ باحَ بِذَا الهوى وأبانَه
والحبُّ يستدعي القلوبَ إلى الهَوَى ... فتجيبُه منقادةً وَلْهانَة
وبجسميَ المُضْنَى فتاةٌ غازلتْ ... قلبَ الكئيب بأعينٍ فتّانَه
خرجتْ مع الأتراب بين أزاهرٍ ... فكأنها بدرٌ تكلّل بانَه[1]

وهو يقول إن الحب صعب والرقيب يعين جذوته اشتعالا ، وهو لا يخفى فالدمع دائما يبوح به ويعلنه إعلانا ، ويذكر أن الحب يستدعى القلوب إلى العشق فتلبيه خاضعة ولهانة وقد غازلته فتاة جميلة أضنته وشغفته حبا بسحر عيونها حين رآها مع أترابها الفاتنات وكأنما وجهها بدر يتوّج قامتها الرشيقة . ولسعيد المنداسى معاصره قصيدة نبوية يستهلها بغزل ويطيل فيه طولا شديدا . وهى منسوبة فى كتاب تعريف الخلف برجال السلف لمحمد بن عبد الرحمن الحوضى وبالمثل فى تاريخ الجزائر الثقافى والغالب أنها للمنداسى لوجودها فى ديوانه، وفيها يقول[2]:

أرَذاذُ المُزْنِ من عيني نزَلْ ... أم دموعُ الشوق إذ رَقَّ الغزل[3]
أبعيني ديمةٌ وَكَّافَةٌ ... أم شَعيبٌ للنَّوَى منها انْبَزل[4]
دَعْ - عَذولي - اللومَ إنِّى شائقٌ ... رقَّ طبعى حين صُنْعى فى الأزل[5]
ما الهوى إلا عذابٌ للفتى ... أو يَخْفى إنْ بقلب المرء حَلّ
لا تلمنى دون علمٍ - عاذلى - ... فبِسَمْعى صمَمٌ عمن عَذَل
كم دموعٍ من عيونى انهمرتْ ... لعيونٍ من عذاب لا تملّ
منذ دعانى البينُ والدمعُ على ... صَحْن خَدِّى وابلٌ يَهْمِى وَطَلّ

ويستمر هذا الغزل إلى نحو ستين بيتا كلها بهذه الموسيقى العذبة وهذه اللغة المنتخبة الصافية ، والشاعر يتساءل عن الدموع المنهمرة من عينيه أهى قطرات سحاب هاطل أم دموع شوقه تتقاطر متوالية ، وهل حقا بعينه سحابة سائلة أو مسيل للنوى انشقّ ، ويقول لعاذله لا تلمنى فإنى رقيق الطبع منذ صُنْعى فى الأزل ، وهل الهوى والحب إلا ألم للفتى وعذاب متصل إن حل بقلب لا يخفى ، فلا تكرر علىّ لومك دون علم بحقيقة الحب ، فبأذنى وَقْرٌ لا أسمعك ، وكأنما تخاطب حجرا أصم ، وكم أسراب دموع سالت من عيونى وصاحبتى لا تمل هذا

---

(١) البانة : مفرد البان وهو شجر لين القوام كالصفصاف تشبّه به الجميلات فى الطول واللين .

(٢) الديوان الشعبى للمنداسى نشر محمد نجوشه ص٨٣ . وديوانه الفصيح تحقيق رابح بونار ص ٣١ .

(٣) رذاذ : قطرات .

(٤) ديمة : مطر . وكافة : سائلة . شعيب : مسيل . انبزل : انشق .

(٥) الأزل : القدم ، أول الزمان .

العذاب . ومذ دعاه الفراق والدمع يجرى على خدَّيه وكأنه مطر منصبٌّ وظلّ ماينى يتقاطر ويتساقط . ومن أهم شعراء الغزل فى الجزائر الأريسى وابن على وحرى أن نخصّ كلا منهما بترجمة مفردة .

محمد[1] بن أحمد الأريسى

من شعراء بجاية فى القرن السابع الهجرى ، ولا نعرف شيئًا عن تاريخ مولده ولا عن نشأته وتعلمه ، غير أنه من بيت علم وفقه فقد كان جده الأريسى فقيها ببجاية وكان اعتماد قاضيها أبى محمد بن حجاج المتوفى بعد سنة ٦٤٠ للهجرة عليه وعلى الفقيه أبى على بن عزون وبينهما كان جلوسه إذ كانا المشاورين له . وعكف الحفيد فى كتّاب على حفظ القرآن ثم أخذ ينهل من حلقات الشيوخ فى موطنه دارسًا عليهم الفقه حتى برع فيه ، وبالمثل درس عليهم الأدب . وتفتحت موهبته مبكرة فى الشعر والنثر ، مما سلكه بين الكتّاب ، ولمع اسمه بينهم حتى أصبح رئيس كتبة الديوان ببجاية ، وكما كان يتقن الكتابة والنثر كان يتقن الشعر ، وكان يسلك فيه طريقة المتنبى بينما كان صاحبه أبو عبدالله محمد بن الحسن التميمى القلعى يسلك طريقة أبى تمام ، كما يقول الغبرينى ، وكانا يتراسلان بالأشعار وكل منهما يجاوب صاحبه على طريقته ، ويقول الغبرينى عن الأريسى : « كان سهل الشعر كثير التجنيس يأتيه من غير تكلف .. وله شعر كثير فى كل فن من فنون الشعر » وأنشد له الغبرينى مطلع مدحة وقصيدتين غزليتين ، وفى المطلع يقول :

ونادى خطيبُ الوُرْق يدعــو هَديلــه ... وغنَّى فأغنى عن ضـروب التَّلاحين[2]
وذكَّـر أيـــام الصبَّابـة والصِّبـــا ... ولذَّةَ عيشٍ كان لى غير مَمْنُـــون[3]
فيـا سـاكنى نَجْدٍ أأطـرقُ حيَّكـــم ... وأرجـعَ مغلوبـا بصَفْقة مغبـــون
ويـا سـاكنى الجَرْعـاء إنْ كان عندكم ... نصيبٌ من الصبر الجميل فواسونى[4]
تـركتُ فـــؤادى عنـد خيَّمة زَيْنَب ... وما سحـرُ عينيهـا عـلىَّ بمأمـونِ
أغـــارتْ عليـــه حين لـم يُلفِ ناصرًا ... وأغرتـه بى حـتى تعلَّـم يجفـونى

فخطيب الحمام دعا الهديل ليتغنى بصوته الجميل فتأثر به الشاعر وذكَّره أيام الصبا والحب ولذة عيش هنئ متصل ، وثار منه كمين الوجد ، فنادى أهل صاحبته من ساكنى نجد متذللا ، أيطرق حيهم ويرجع مغلوبا مغبونا ، وبالمثل نادى ساكنى حيِّها فى الجرعاء بنجد هل عندهم

---

(١) انظر فى محمد الأريسى ترجمته فى عنوان الدراية ص ٢٣٧ وترجمة جده ص ٢٤٩ وترجمة أبى عبدالله محمد بن الحسن التميمى فى ص ٧٢ وراجع فى الشاعر تعريف الخلف ٣٥٦/٢ .

(٢) الورق جمع أورق وورقاء : الحمام . هديله : قرينه من الحمام .

(٣) ممنون : منقطع .

(٤) الجرعاء : من مواضع نجد .

له نصيب من الصبر يواسونه به ، ويقول إن فؤاده تخلف عنه عند خيمة زينب الساحرة العينين ، وقد أغارت عليه ولا ناصر له ، وأغرته به حتى جفاه وأبى الرحيل معه . ويقول الأريسى فى قصيدته الغزلية الأولى :

لعلك بعد الهجر تسمحُ يا بدرُ ... بوصلٍ فقد أوْدَى بمهجتيَ الهَجْرُ(١)
أبيتُ كما ترضى الكآبةُ والأسى ... وأُضْحى كما تهوى الصبابةُ والفكرُ
إذا قنطتْ نفسى ينادى بها الرَّجا ... رويدكِ كم عُسْرٍ على إثْره يُسْرُ(٢)
ولا أنْسَ يومًا للسرور وبيننا ... عتابٌ كبَرْد الماء لكنه الجَمْرُ
ووالله ما أدرى لطيب حديثها ... أضُمِّن سحرًا لفظُها أم هو السحرُ
خليلىَّ قولا إنْ بدا لكما الحِمَى ... أهَيْلَ الحِمىَ مشغوفكم مسَّه الضُّرُّ
علىمَ تناسيتم حديث عهودكم ... وليس له ذنبٌ وليس لكم عُذْرُ

والأريسى يتذلل لمحبوبته أن تسمح له بالوصل فقد كادت مهجته أو روحه أن تزهق وإنه ليبيت كئيبا محزونا ويضحى مفكرا مهموما ، وينادى الرجاء عليه لابد بعد العسر من اليسر . ولا ينسى يوم لقاء مع صاحبته كان يوم سرور لا حد له ، مع ما شابه من شظايا عتاب كالجمر أو أشد ، ومع ذلك لا يدرى لجمال حديثها أضُمِّن سحرا أو هو السحر نفسه ، وينادى صاحبيه إن ألمّا بالحمى أن يقولا لأهلها إن المشغوف بفتاتكم مسَّه الضر وأصابه الضّنا ، وقد نسيتم عهودكم دون عذر لكم ودون ذنب جناه . ويستهل قصيدته الغزلية الثانية بقوله :

أهلَ الحمى هل لكم عن قصتى خَبَرُ ... وإنَّ لَيْلى بِلَيْلَى كلّه سَهرُ
وفى ضلوعىَ نيرانٌ يضرِّمها ... دَمْعٌ على صفحات الخدِّ يَنْهَمِرُ
لما رأيت بدورَ الحىِّ سافرةً ... عن النقاب بدا لى أنه السَّفَرُ
ولا عواملُ إلا من قُدودهمُ ... ولا صوارمَ إلا ما انتضىَ الحَوَرُ(٣)
سألتك الله يا حادىَ المطىِّ بهم ... رِفقا علىَّ لعل الصَّدْعَ يَنْجَبِرُ
عَرِّجْ علىَّ فلى قلبٌ يميلُ إلى ... حديثِ من قتلوا منا ومن أسروا
وأنت – يا سعد – إنْ غنَّتْ ظِباؤُهُمُ ... فقِفْ تعاينْ فؤادى كيف يَنْفطر(٤)

والشاعر يعرض قصته على أهل الحمى وأن حبه لليلى يشغف قلبه حتى ليبيت مسهَّدا ، وفى ضلوعه نار ما تزال توقد جذوتها دموعه المنهمرة على صفحات خده . ورأى بدور الحى سافرة فعرف أنها تستعد للسفر ، وتراءت له قدودهن كأنها أسنَّة رماح تصيب قلوب الرجال ،

---

(١) أودى به : أهلكه وذهب به .
(٢) قنطت : يئست .
(٣) العوامل : أسنة الرماح . انتضى الصارم : سلَّ السيف .
(٤) ينفطر : يتشقق .

وكأنما حَوَرُ عيونهن يسلّ سيوف مصمية ، ويسأل حادى المطى يرفق به لعل الصَّدْع الذى أحدثته صاحبته فى فؤاده ينجبر ، كما يسأله أن يميل بالركب عليه فقلبه يتمنى لو سمع حديث من قتلن منهم ومن أسرن ، وإن تغنين فقف ليرى فؤاده كيف ينفطر ويتصدّع ألما . ويعرض حوارا لصاحبته معه منشدا :

تقول والحسنُ يُطغيها فتظلمنى ... ولا موازرَ إلا صارمٌ ذَكَرُ[1]

دَع الحسامَ وضَعْ حمل السلاح فما ... فى كل وقتٍ يفيد الحزم والحذَرُ

ما للمهنّد حكمٌ فى محلَّتنا ... بل للمنهّد فيها الحكمُ والنَّظَرُ[2]

فإنْ طمعتَ بلينٍ فى لواحظنا ... فنحن أهلُ قلوبٍ مثلها الحجر

وإن حلتْ لك ألفاظٌ نرددها ... ما بيننا فهناك الصَّابُ والصَّبِرُ[3]

فارْحَمْ شبابك وارحَلْ دون مَغْلبةٍ ... واقْبلْ من الحسن ما أعطاكه النظر

حدّثته صاحبته كما يقول وهى شاعرة بحسنها حتى ليجعلها طاغية ، وكان يحمل سيفا فقالت له ليس للسيف حكم فى منازلنا وإنما الحكم والرأى القاطع للفتاة ، وإن أطمعك لين فى نواظرنا فنحن أهل قلوبٍ كالحجارة أو أشد صلادة وصلابة ، وإن أطمعتك ألفاظ حلوة نرددها بيننا فوراءها الصّاب والصبر شديدا المرارة مرارة لا تطاق ، فارْحَمْ شبابك وارحل دون قهر ، واكتف من الحسن بالنظر إليه . وهذه الأبيات التى أجراها الأريسى على لسان صاحبته لتملأ نفس قارئه إعجابا بخصب شاعريته .

ابن[4] على

هو محمد بن محمد المهدى بن رمضان بن يوسف العلج ، وذكرُ العلج فى آبائه يدل على أن أسرته عثمانية وأن جده يوسف العلج من أوائل العثمانيين النازلين بالجزائر حين أصبحت ولاية عثمانية . وغلب عليه اسم ابن على مما يدل على أن أحد آبائه كان يسمى عليا ، ويؤكد ذلك أن شاعرا هو محمد الشباح سمى أباه فى مدحة له كما جاء فى مجموعة أشعار جزائرية محمد بن على قائلا :

وسميّ غوث الغَرْب من مجّاجةٍ ... وافاك من ربِّ العُلا إقبالُ

ويريد الشباح بسميِّ غوث الغرب من مجّاجة محمد بن على المجّاجى ، فاسمه إذن بشهادة هذا الشاعر ابن على ، وإما أن يكون على أباه أو أحد أجداده ، وسقط من سلسلة نسب الشاعر .

---

(١) الصارم الذكر : السيف الشديد .

(٢) المهند : السيف . المنهد :الناهد : الفتاة .

(٣) الصاب : شجر شديد المرارة . الصبر : عصارة شجر مر .

(٤) انظر فى ترجمة ابن على ما كتبه د . أبو القاسم سعد الله فى مجموعة أشعار جزائرية ص ٢١ وما بعدها وكتابه تاريخ الجزائر الثقافى ٣١١/٢ وفى مواضع متفرقة . وقد حقق ونشر مجموعة كبيرة من أشعاره فى مجموعة أشعار جزائرية .

واشتهرت هذه الأسرة بنظمها للشعر منذ رمضان بن يوسف ففى مجموعة أشعار جزائرية أبيات له في الحث على طلب العلم، وكذلك لمحمد المهدى قصيدة ضمنها شكوى إلى علماء إسطانبول وأبيات لوالد الشاعر، فهو من بيت شعر وأدب، وأيضا فإن بيته كان بيت فقه حنفى وقضاء وفتوى، يدل على ذلك بوضوح أن جده محمد المهدى عُيِّن مفتيا للحنفية سنة ١٠٤٥هـ/١٦٣٥م ولُقِّب بشيخ الإسلام وهو لقب كان يتلقب به المفتى الحنفى فى الجزائر طوال العهد العثمانى وظل فى هذا المنصب حتى وفاته فى أواخر العقد السابع من القرن الحادى عشر الهجرى. وطبيعى أن يكون والد الشاعر فقيها على غرار أبيه، إذ نرى الشباح ينوه فى مدحته له بقوله:

العالم العلامة القطب الذى ... ضُرِبت بحسن صنيعهِ الأمثالُ

ولا نعرف متى ولد الشاعر ، ويبدو أنه ولد فى أواخر القرن الحادى عشر ، كما قال الدكتور أبو القاسم سعدالله ، مستدلا على ذلك بأنه كان أحد من هنأوا محمد بكداش والى الجزائر بفتحه لوهران وانتصاره فيه على الإسبان سنة ١١١٩هـ/١٧٠٧

وعهدى بحور الشعر عنى أذودُها ... زمـانا

وكأنه قد عالج الشعر قبل عامِ فتح وهران مما يدل على أن
من عمره على الأقلِ . وكان يكبُّ على حلقات فقهاء المذهـ
الذكر الحكيم مما أهَّله فيما بعد ليدرس للطلاب التفسير ،
خطيب المسجد الكبير يعظ الناس كل جمعة مواعظ مؤثرة .
مفتيا حنفيا للجزائر ويلقب بشيخ الإسلام ، ويظل شاغلا هذا المنصب حتى وفاته سنة ١١٦٩هـ/١٧٥٦م . ويعد ابن على فى الذروة من شعراء الجزائر فى القرن الثانى عشر الهجرى ، وكان ينظم فى المديح والمنشئات ووصف الطبيعة والرثاء ، وأكثر من شعر الغزل إكثارًا يسبق فيه شعراء عصره ، وجمع لنفسه ديوانا ضم أشعاره وأشعار بعض معاصريه وأشعار آبائه ومعاصريهم فى القرن الحادى عشر الهجرى . وسقط هذا الديوان من يد الزمن غير أن أكثره – أو كثيرا منه – مبثوث فى المجموعة التى أشرنا إليها المنشورة باسم أشعار جزائرية . ويبدو أنه أخذ ينصرف عن نظم الغزل حين وُلِّى الخطابة والتدريس فى المسجد الكبير ، ووُلِّى منصب الإفتاء الجليل ، ويصرح بذلك قائلا :

لولا – وحقِّـك – خطَّةٌ قُلِّدْتُها ... زهـرتْ بها فى الخافقين شموعى
ومنـابرٌ فيهـا رقيتُ إلى العُـلا ... وقـد اسـتدار بهـا كثيفُ جُموعِ
لنحـوتُ منْحَى العامـرىِّ صبابـةً ... ولكان مـن حُرَقِ الجَوَى مشفوعى

وهو يقول لولا خطَّة الفتوى – على المذهب الحنفى – التى تقلدتها وتلألأت وتألقت بها شموعى فى الجزائر ، ولولا منابرُ فيها صعدت بها إلى العلا بوعظى الجموع الكثيفة من أهل

الجزائر لظللتُ أنظم غزلا عذريا عفيفا مثل غزل قيسٍ العامرى مجنون ليلى كله صبابة وهيام وحرق من الحب والوجد تضطرم اضطراما ، وله يتغزّل :

يمينًا لقد عزّتْ علىَّ المطالبُ ... ولى أبدا من سحر عينيكِ طالبُ
فسبحان من سَوّاكِ فى الحسن صورةً ... لها اعترفتْ بالحسن حورٌ كواعبُ[1]
مراشفُ من شكل العقيقِ مصوغة ... ومبسم درٌّ للعقيق مناسبُ[2]
وصدرٌ بدت رمّانتاه كحقّتَىْ ... لُجَيْنٍ ونحرٌ مشرقٌ وترائبُ[3]
تحوم عليها الشمس غَيْرَى كئيبة ... تجاذب ثوبًا للسّنا وتجانبُ[4]
وقد حاولوا منى التسلّى بغيرها ... لقد أخفقتْ تلك الظنون الكواذبُ
وهل يستوى المصباح والشمسُ فى السّنا ... وهل يستوى بدرُ السما والكواكب

وهو يعجب بسحر عينى صاحبته فى البيت الأول وبجمالها فى البيت الثانى الذى تعترف به الحور الجميلات الشابات ، وكأن مراشفها مصوغة من فصوص العقيق ، ويلتئم بها مبسم اللآلىء البديعة ، وينوه بجمال صدرها ونحرها وترائبها ، ويقول إن الشمس تغار من جمالها وتشعر بغير قليل من الحزن حين تراها وتجاذبها ثوب ضوئها ، وتحاول تجنّبها شعورا منها بأنها أروع وأبهج . ويظن غير واحد أننى أستطيع التسلّى عنها بغيرها وخابت ظنونهم جميعا ، وهل يمكن أن يتساوى المصباح والشمس أو يمكن أن يتساوى البدر فى تمّه وكماله بالكواكب والنجوم ؟ ! . ومن غزلياته قوله :

أغصونٌ تأوّدتْ أم قدودُ ... أم ورودٌ تفتّحتْ أم خدودُ[5]
أم وجوه بدتْ لنا أم بدورٌ ... طالعاتٌ يحفُّهُنّ السُّعُودُ
فى سماء الجمال تَسْطَعُ نورًا ... وبقلبى منها – الزمانَ – وَقود
كم لها فى الأسود من فتكاتٍ ... وبروقٌ – من صدّها – ورعودُ
سحرُ تلك العيون فيه تناهتْ ... وتفانت زيانبٌ وهنودُ
جَنّتًا وَجْنَتيه عذْ بَتانى ... وجَنَا الجنّتين عنى بعيدُ[6]

وهو لا يدرى أيرى قدودا وقامات لهؤلاء الحسان أم يرى غصونا تتثنى دلالا ، وهل يرى خدودا فاتنة بحمرتها أم ورودا تتفتح جمالا ، وهل يرى وجوها فاتنة أم بدورًا يحفها السعد بل سعد السعود ، وكأنها كواكب تسطع فى سماء الجمال نورا ، ولقلبه منها وقود ماينى مشتعلا ، وكم لها فى الأسْد من فتكات وكم لها بروق ورعود ، وإن سحر عيونها ما بعده سحر ، ذاب

---

(١) كواعب ، جمع كاعب : للفتاة الشابة .
(٢) العقيق : حجر كريم أحمر تتخذ منه الفصوص .
(٣) لجين : فضة .
(٤) السنا : الضوء .
(٥) تأودت : تثنت .
(٦) الجنا : كل ما يجنى من الشجر .

فيه سحر العيون جميعا وسحر كل زينب وهند ، ويقول إنه لا يستطيع الدنوّ أو القرب من وجنتيها فضلا عن أن يقتطف منهما شيئا ، وهو لذلك يتعذب عذابا شديدا ، وربما كان أهم الغزلين فى عصره .

٢

شعراء وصف الطبيعة

وصف الطبيعة غرض مهم من أغراض الشعر العربى فى كل عصر وفى كل إقليم ، فدائما الشعراء يتغنون بماتقع عليه أبصارهم من مشاهد الطبيعة الصامتة: من الرياض والأزهار والحدائق والجبال والأنهار والبحار ، وما يروعهم من مشاهدها الحية المتحركة فى الطير والحيوان الوحشى والأليف . ونلتقى ببكر بن حماد المتوفى سنة ٢٩٦ هـ/٩٠٨م ومقطوعة له فى الطبيعة الصامتة إذ يصف البرد فى بلدته تاهرت عاصمة الدولة الرستمية قائلا[١] :

ما أخشــنَ الـبردَ وريعـانَهُ ... وأطــرفَ الشمسَ بتاهِــرْتِ
تبــدو من الغَيْـــم إذا ما بدتْ ... كأنـمـــا تُنْشَرُ مــن تَخْــتِ
فنحــن فى بحــرٍ بلا لُجَّــةٍ ... تجـرى بنا الرِّيحُ على السَّمْتِ
نفـــرح بالشمس إذا ما بــدتْ ... كفرحـــة الـــذمىِّ بالسَّبْت

وهو يقول ما أشد خشونة البرد وصعوبته فى تاهرت وما أطرف طلوع الشمس بها إذ تبدو محجبة دائما من وراء الغيم وكأنما تنشر من وراء تخت أو ستر صفيق ، وإنا لنشعر لشدة البرد كأننا فى بحر بلا لجة ، وما أشد فرحتنا بالشمس حين تبدو كفرحة اليهودى بيوم السبت يوم عيده الأسبوعى . ولبكر مقطوعة حزينة يبكى بها بلدته تاهرت حين خرّبها فى سنة ٢٩٦ أبا عبيد الله داعية العبيديين وقضى على الدولة الرستمية بها ، وفيها يقول[٢] :

زُرْنــا منــازلَ قــومٍ لم يزورونــا ... إنا لفى غفلـــةٍ عمـا يقاسونـا
لو ينطقــون لقالوا الـزادُ ويحكمُ ... حلَّ الرحيلُ فما يرجـو المقيمونا
الموتُ أجحفَ بالدنيــا فخرَّبها ... وفعْلُنا فعـلُ قــومٍ لا يموتونـــا
فالآن فابكوا فقد حقَّ البكاء لكم ... فالحاملــون لعـــرش الله يبكونا
ماذا عسى تنفع الدنيــا بأجمعها ... لــو كان جُمِّعَ فيهـا كنزُ قارونا

وهو يقول إننا زرنا منازل قوم فى قبورهم قضى عليهم أباعبيدالله ولانعرف مايقاسون ولو نطقوا لقالوا لنا تزودوا للآخرة فقد حلَّ بالمقيمين الرحيل عماقليل، وقد استأصل الموت أهل

---

(١) ديوان بكر بن حماد : نسخة مصورة طبع الجزائر ص ٦١ .
(٢) الديوان ص ٩٠ .

تاهرت وخربها، ونحن لانتعظ كأننا لن نموت، والآن فابكوا فالحاملون لعرش الله يبكون عليكم ومن أجلكم، وماذا ينفع الدنيا لو أن حكام تاهرت جمعوا فيها كنز قارون فكل شيء فيها صائر إلى فناء. ولابن قاضي ميلة المترجم له بين شعراء المديح في وصف عود وماصار إليه من التغني عليه[1]:

جـــاءتْ بعودٍ يُناغيها ويُسْعدها انظرْ بدائعَ ما يأتي به الشَّجَرُ
غنَّتْ عليه ضروبُ الطير ساجعةً حينًا فلما ذَوَى غنَّى بـه البَشَر
فلا يزال عليــه – أو بـه – طربٌ يَهيجُه الأَعْجَمان: الطَّيْرُ والوَتَرُ

فقد كانت ضروب الطير وصنوفه تغني على هذا العود ، وهو موصول بشجرته ، فلما قُطع منها وذَوَى غنى عليه البشر بما شدُّوا عليه من أوتار ، وكأنما يهيجه طوال حياته أعجمان : الطير قديما والوتر حديثا . ويبدو أن سمك القرش المفترس كان يتراءى أحيانا في مياه تونس فقال ابن قاضي ميلة يصفه[2] :

وأَشْغَى بفكَّيْه مثـلُ المُـــدَى طـويلُ القَرَا مُدْمجُ الأَعْظُمِ[3]
تصرُّفُـه في ضمـــان الميـــاهِ ومهجتُـــه في يَدِ الخِضْرِمِ[4]
يخاف الهواء و يخشى الضياء وإن كانَ أجْرَأَ مِــنْ ضَيْغَمِ[5]
له داخلَ اليَـمِّ بَطْشُ الأسـودِ وتصحبُـــه مِشْيةُ الأَرْقَـــمِ

وقد وصف ابن قاضي ميلة القرش وصفا دقيقا فقال إنه مختلف الأسنان وإن بفكيه مثل المدى أو السكاكين وإنه طويل الظهر مدمج العظم واللحم ، ولا يعيش إلا في الماء يخاف الهواء والضياء ، وإن كان أجرأ من أسد فاتك ، غير أنه لا يعلو على سطح الماء بل يظل في داخله متلويا في مشيته كالأفعوان . وكان يعاصر ابن قاضي ميلة عبد الله بن محمد الجراوى وسنخصه بترجمة. وأهدى نزار الخليفة الفاطمي في القاهرة المنصور بن بلكين سنة ٣٨٤ هدية فيها خيل وإبل وحمار وحشي مخطط وفيل ، ووصفها جميعا عبد الكريم النهشلي، وفي الخيل يقول[6] :

وبُلْقٌ تقــاسَمْنَ الدُجُنَّـــةَ والضُّحَى فمــن هـذه شَطْرٌ ومن هــذه شَطْرُ
وصُفْرٌ كأن الزعفـــرانَ خِضابُهـــا وإلا فمـــن مـــاء العقيق لها قِشْرُ
وشُهْبٌ مــن اللُّجِّ استُعيرتْ متونُهــا ومن صور الأقمـار أوجهها قُمْرُ[7]
عليها السروجُ المحكماتُ إذا مشتْ بها خُيَـــلاء الخــيل رنَّحها كِبْرُ

والخيل بينها بلق يلتقى فيها السواد بالبياض ، وكأن الظلمة والضحى اقتسما لونها فلكل

(١) ابن خلكان د/ ٣٤٨ .
(٢) الأنموذج ص ٢١٣ .
(٣) أشغى : متخالف الأسنان . القرا : الظهر .
(٤) الخضرم : البحر : متعاظم الموج ومتلاطمه .
(٥) ضيغم : الأسد الواسع الشدق .
(٦) الأنموذج ص ١٧٣ .
(٧) قمر : مشرقة كالقمر .

منهما نصيب ، ومنها صفر كأنما خُضبتْ بالزعفران وإلا بقشر من ماء العقيق ، ومنها شهب يختلط فيها بياض الشعر بسواده ، وكأنما استعيرت ظهورها من لجّ الليل وظلمته الشديدة السواد أما أوجهها فمضيئة ضياء الأقمار الساطعة ، وتمشى مزهوّة مشية خيلاء متعالية ، ويقول فى الفيل الذى كان مصاحبا للمهدية[1] :

وأضخـــمُ هنــدىُّ النِّجــار تُعِدُّهُ ... ملــوكُ بنى ساســانَ إنْ رَابها أمْرُ
يجىءُ كَطَــوْدٍ جائــلٍ فـوق أربعٍ ... مضبَّرةٍ لُمَّتْ كما لُمَّت الصَّخْرُ[2]
لـه فَخِـــذان كالكثيبين لُبِّـــدا ... وصـدرٌ كما أوفى من الهَضْبة الصَّدْرُ
ووجـــهٌ بـــه أنفٌ كراووقِ خمرةٍ ... ينـــال به ما تُدْرك الأنْمُلُ العَشْرُ[3]

والنهشلى يقول عن الفيل إنه ضخم هندى الأصل ، كانت تعده ملوك الفرس حين يريبها أمر . ويشبهه بجبل يتحرَّك فوق أربع مكتنزة اللحم والعظم تضامَّت أجزاؤها تضامّ أجزاء الصخر ، وله فخذان كأنهما كثيبان متراكان وصدر عريض متسع ، ووجه به أنف طويل طول عنق إبريق الخمر ينال به ما يناله الإنسان بأنامله العشرة . ونلتقى فى بلاط بنى حماد ببجاية بالطبيب ابن أبى المليح شاعر الأمير العزيز الحمادى (٤٩٨ - ٥١٥هـ) وله يصف خيوله وموكبه فى قصيدة عيديّة منشدا[4] :

وجــالتْ بهِ جُرْدُ المذاكى كأنَّها ... عــذارَى ولكن نُطْقهُنَّ تَحَمْحُمُ
بصفراء كالتِّبْرِ العتيــقِ صقيلةٍ ... ودهــاء يتلوهـا كُمَيْتٌ وأدهـمُ
وأشقرَ لو يجرى وللبرق جُهْدُه ... لكان لـه يـوم الرِّهــان التقدُّمُ
وجاء لـواءُ النَّصْرِ يتبـع رايـةً ... بهـا العــزُّ معقــودٌ عليها متمَّمُ

وهو يقول : جالت بالأمير خيل كريمة مدربة كأنها لم تركب لأول مرة : صفراء كالتبر ودهماء كالليل يتلوها كميتٌ وأسود وأشقر ، ولو أن الأشقر سابق البرق لسبقه ، وجاء موكب الأمير تقدمه راية العز والنصر .

وإذا اتجهنا إلى تلمسان التقينا بشاعرها فى القرن السابع الهجرى ابنَ خميس، وكان قد بارحها إلى الأندلس، وله قصيدة بديعة يتشوق فيها لرؤية مشاهدها ومتنزهاتها فى مثل قوله[5] :

---

(١) الأنموذج ص ٧٥ .
(٢) مضبَّرة : مكتنزة اللحم
(٣) الراووق : إبريق الخمر .
(٤) الخريدة ١/ ١٨٤ .
(٥) الديوان : النسخة المصورة ص ٨٥ .

تلمســانُ جادتْها السحابُ الدَّوَالِحُ وأَرْسَتْ بواديهــا الرياحُ اللواقحُ[1]
فَفــي كل شُفْـرٍ من جفــونىَ ماتــحٌ وفى كل شطرٍ من فؤادىَ قــادحُ[2]
كتمــتُ هواهـا ثم بـرَّح بى الأسَى وكيف أُطيق الكتمَ والدمْعُ فاضح
لساقيــة الـرومىِّ عنــدى مزيَّــةٌ وإن رغمتْ تلك الرَّوابى السَّوانحُ[3]
وكم لى عليهـــا من غــدوٌ وروحـةٍ تســاعدنى فيهــا المنى والمنــائح[4]
ظبــاءٌ مغانيهـــا عــواطٍ عواطفٌ وطيرٌ مجانيها شــوادٍ صــوادحُ[5]
تقتلهــم فيهــا عيــونٌ نــواظرٌ وتُبكيهمُ منهــا عيــونٌ نواضحُ[6]
وإن أَنسَ لا أَنْسَ الوَريــطَ ووقفةً أنافح فيهــا روضــه وأفــاوحُ[7]
مُطِلاً على ذاك الغديـر وقـد بـدتْ لإنسان عينى من صَفَــاه صفائحُ[8]
أمــاؤك أم دمعى عشيَّــة صدَّقــتْ عُلَيَّةُ ما قــال العَذول المكاشحُ[9]
لئن كنــت مــلآنا بدمعىَ طافحًــا فإنِّىَ ســكرانٌ بحبِّـــك طــافح

وابن خميس يخلط مشاهد تلمسان بالغزل بها وبفتياتها الحسان ، وهو يستهل قصيدته بالدعاء لتلمسان أن تجود عليها السحب دائما وتظل بواديها الرياح الملقحة المنتجة ، ويقول إن فى كل حرف من جفونه ماتح يملأ دلاءه بدموعه شوقا إليها وفى كل شطر من فؤاده قادح لنيران الوجد والحب ، وكم كتم حبه ووجده غير أن دموعه تفضحه ، فلم يعد بُدٌّ من إعلانه ، ويذكر مشهد القناة المسماة بساقية الرومى وإن عتبت عليه الروابى من حولها ، ويذكر كم له فيها من غدو وروحة وأبواب المنى والآمال مفتوحة فى وجهه وحسانها يبدين له العطف ، والطير من حوله ترقص وتصدح وتغنى ، وهنَّ يقتلن بجمالهن من يطيل النظر إليهن ، وينصرفون عنهن بعيون باكية ذرفت كل ما كان بها من دموع ، ولا ينسى متنزه الوريط وما كان ينافحه فيه ويفاوحه من نسيم عطر ، ولا ينسى جناح الغدير به ، وقد بدت لرصد مياهه الصافية صفائح الدروع ، ويسأله أبك ماؤك أم دمع عينى عشيَّة صدَّقتْ عُلَيَّة ما قال العذول المعادى ، ولئن كنت ملآنا بدمعى طافحا به فإنى سكران طافح بحبى . ويقول الشهاب الخلوف شاعر قسنطينة فى أواخر عصر الدولة الحفصية يصف الطبيعة فى يوم ممطر[10] :

(١) الدوالح : المثقلة بالأمطار . اللواقح : الملقحة بما تحمل من أمطار وغير أمطار .
(٢) الشفر : حرف الجفن . ماتح : نازع للدلو من البئر . قادح : أى للنار .
(٣) ساقية الرومى : قناة جميلة بمشاهد الزروع حولها . السوانحُ : المعترضة .
(٤) المنائح جمع منيحة : العطية .
(٥) مغانيها : منازلها . عواط : لا تستصعب .
(٦) نواضح : جمع ناضح تنزف كل ما بها من دموع .
(٧) الوريط : متنزه . أنافح : أستخرج نفحه وشذاه وكذلك أفاوح .
(٨) صفاه : يريد ماءه الصافى .
(٩) المكاشح : البغيض .
(١٠) مجمل تاريخ الأدب التونسى ص ٢٢٧ .

لقــد بَلَّ أردانَ الثَّرى دمــعُ مُزْنَةٍ   تنــاثر فى أسلاكهــا فتنظَّمـا[1]
وجــرَّ علـى هــام الرُّبى ذيْلَ وَبْلهِ   فدبَّج أثــواب الربــوع وسهَّمـا[2]
وخــطَّ بطِرْس الجوِّ ســطرا مذهبًا   فنقَّطه قَطْرُ الغمـــام وأعجمـا[3]
وشــاب لَجَيْنَ الطَّلِّ عسجدُ بارقٍ   فدنَّر أزهــارَ الربيـــع ودَرْهمـا
ودار بساق الغصن خلخالُ جَدْوَلٍ   كما ســوَّر التجعيدُ للنهر مِعْصَما

وهو يقول إن دموع السحابة بلَّت أكام الربى وتناثرت فى أسلاكها وانتظمت ، وسحَب المطر على رءوس الربى ذيل وبله فزيَّن ثيابها وخطَّطها تخطيطا بديعا ، وخط على صفحة الجو سطرا مذهبا نقَّطه قطر الغمام ، وشاب لجينَ الطل المتلألئ عسجدُ البرق ، فاستحالت أزهار الربيع دنانير ودراهم ، واستحال ما فى الجدول من تجعدات للرياح خلاخيل لسيقان الغصون على نحو ما جعلت تجعداتها للنهر أساور تزين معصمه . واشتهر إبراهيم بن عبد الجبار الفجيجى التلمسانى بأخرة من عصر الدول الحفصية بقصيدة طويلة فى مائتى بيت وأربعة عشر وصف فيها صيد الصقر ، وسنخصه بكلمة . ونمضى إلى العهد العثمانى ، ومن طريف ما نقرأ فيه وصف ابن أبى راشد لمدينة الجزائر فى الربيع ، وفيه يقول[4] :

سقى المطــرُ الهطــال أرضًا تشرَّفتْ   بمصرٍ غدتْ للفضل والفخر جامعهْ
بمَزْغَنَّة الفيحــاء تظهــر من مَدًى   تُرَى كسقيط الثَّلْج بيضاءَ ناصعهْ[5]
وحيــث الربيـــع الغَضُّ تم شبابُه   ترى أرضهــا تبــدى النضارة يانعه
تريك احمــرارا فى ابيضاضٍ كأنهــا   دمــاءٌ على أرضٍ من الثلــج واقعه
دواليبُهــا تسقى الغصـــونَ فتنثنى   حمائمُها تشدو على القُضْبِ ساجعه
فتبصر أغصــانَ الحــدائق سُجَّدًا   تميد من الصوت الحنــون وراكعـه
وما هى إلا جنَّـــة قد تأرَّجـــتْ   مباخرُها بالطيب والمســك ساطعه

وابن أبى راشد يدعو بالسُّقْيا لمدينة الجزائر التى أصبحت مصرا وعاصمة لقطرها فى عهد العثمانيين وغدت جامعة للفضل والفخر ، ويظل المطر يهطل على مزغنَّة الفيحاء ، وكأنه يسميها باسمها القديم ، ويقول إن مبانيها جميعا بيضاء بياض الثلج المتساقط الناصع ، وإنها لُترى فى الربيع وقد لبست ثوبا من رفاهة العيش والنضارة ، وترى ورودها الحمراء تكسو ورودها البيضاء ، وسواقيها تروى بساتينها والحمام يشدو على الغصون مبتهجا ، وكأنما الأغصان تستمع إلى صوتها الحنون الشجى ، فما تزال بفعل الرياح ساجدة راكعة ، وما مدينة الجزائر

(1) أردان جمع ردن : كم .
(2) دبج : زين ونقش . سهَّم : خطط .
(3) طرس : صفحة . أعجمه : أزال عجمته بنقطه .
(4) تاريخ الجزائر الثقافى للدكتور أبى القاسم سعدالله ٣٠٧/٢.
(5) مزغنة: القبيلة التى بنت مدينة الجزائر وقد تسمى باسمها .

إلاجنة ، قد فاحت مباخرها بالطيب والمسك وسطع شذاها سطوعا عظيما . وحرى أن نفرد ترجمة لكل من عبد الله بن محمد الجراوى وإبراهيم بن عبد الجبار الفجيجى .

عبد الله بن محمد الجراوى(١)

شاعرجزائرى من جراوة بين مدينة قسنطينة وقلعة بنى حماد ، تأدب فى مسقط رأسه جراوة داخل الجزائر ، وقدم إلى القيروان –كمايقول ابن رشيق– فى أوائل العقد الرابع من حياته، وتعلق بخدمة المعز بن باديس. ويقول ابن رشيق: كان شاعرا فحلا وصافا جيد الفكر والخاطر، تحسب بديهته رويَّته، يتحدَّر كلامه كالسيل ، وكان حسن الخلق جميل العشرة مزاحا ، سأله أيوب بن يطوفت أحد رجالات صنهاجة: أى بروج السماء لك؟ فقال : واعجبا منك مالى فى الأرض بيت فكيف يكون لى برج فى السماء، فضحك، وأمر له بدار جواره . ويذكر ابن رشيق أنه: توفى سنة خمس عشرة وأربعمائة وقد بلغت سنه نيفا وأربعين سنة، وكانوا قد أغروا به القائد حماد بن سيف (العزيز بالله) فدسَّ عليه من قتله ليلا، وعرف خطأه فأسف عليه. وقد أشاد به ابن رشيق كمارأينا فى الشعر إشادة رائعة، ومماأنشد له قوله البديع فى وصف ديك :

وكائنْ نَفَى النــومَ عن عُتْرفـانٍ ... بديـع الملاحــة حلوِ المعانى(٢)
بأجفــانِ عينيــه يا قوتتـــانِ ... كـأن وميضهمــا جمرتـــانِ
على رأســه التـــاجُ مستشرفًـا ... كتاج ابن هرمزَ فى المِهْرجــانِ
وقُرْطــانِ من جوهــرٍ أحمــرٍ ... يزينانـه زَيْـنَ قُـرْط الحَصَـانِ
لــه عُنُـــقٌ حولهـــا رونقٌ ... كما حوتِ الخمرَ إحدى القَنانى
ودارَ بُرائِلُـــهُ حولهـــــا ... كما نَوَّرَتْ شُعْـرَةُ الزعْفَرانِ(٣)

والجراوى يقول إن النوم انتفى عن الديك وظل مسهدًا طوال الليل بديع الجمال حلو المعانى وبأجفانه ياقوتتان تومضان كأنهما جمرتان وعلى رأسه تاج عُرْفه كتاج ابن هرمز فى احتفال يوم المهرجان، وله قرطان من ياقوت أحمر يزينانه كما يزينان المرأة العفيفة الطاهرة، ويستدير حول جيده رونق من الجمال الرائع: وله ريش بديع زاهٍ زهو الزعفران، ويستتم وصفه للديك قائلا:

ودارتْ بجُؤْجُئِــهِ حُلَّــةٌ ... تروقُ كما راقك الخُسْروانى(٤)
وقــام به ذَنَــبٌ معجــبٌ ... كباقةِ زهــــرٍ بدتْ من بنان
وقــاس جنـاحًا على ساقهِ ... قِيـــس سِـــترٌ على خَيْزُران

(١) انظر ترجمة الجراوى فى الأنموذج ص ٢١٦ .
(٢) العترفان : الديك .
(٣) برائله : ريش يستدير حول عنقه .
(٤) الجؤجؤ : الصدر . الخسروانى : الطيلسان .

وصفَّــق تصفيــقَ مستهترٍ بمخمرةٍ من بنــات الدِّنانِ
وغـــرَّد تغريــدَ ذى لوعـةٍ يبــوح بأشواقه للغــوانى

يقول الجراوى : قد استدارت حلة بصدره كما يروق الطيلسان الخسروانى ، وبدا له ذيل زاه كباقة زهر ، ورفرف بجناحه على ساقه وكأنه مقيسٌ عليه كستر يُسْدَلُ على خيزران ، وصفَّق به تصفيق مخمور ، وغرد تغريد ملتاع يبوح للغوانى بأشواقه الحارَّة .

إبراهيم[1] بن عبد الجبار الفجيجى التلمسانى

فجيج المنسوب إليها إبراهيم بن عبد الجبار هو وأبوه وأسرته فى أقصى الجنوب من تلمسان ، وكان أبوه فقيها ومفسرا وله تفسير للقرآن الكريم فى اثنى عشر جزءا ومختصر لحياة الحيوان ، ونشأ ابنه إبراهيم على غراره يعنى بتحصيل العلوم ، ورحل فى سبيل العناية بها إلى فاس وتلمسان ولقى علماءهما وأخذ عنهم ، ويقال إنه رحل إلى مصر وأخذ عن علمائها . وعاد إلى موطنه ، وله منظومتان : منظومة فى علم الصيد بالصقر سماها روضة السلوان وهى فى مائتى بيت وأربعة عشر ، ومنظومة ثانية فى الفقه سماها مفيدة الولدان . وكان حيا سنة ٩٢٠ وتوفى بمدينة جى ببلاد السودان الغربى القديم . وشرح قصيدة الصيد ابن أخيه أبو القاسم بن محمد بن عبد الجبار سنة ٩٨٦ . ويستهل أبو إسحق إبراهيم الفجيجى مطولته ببيان منافع الصيد فى عشرين بيتا ويتلوها بصفات الصائد فى اثنى عشر بيتا ، ومنها العفة والنزاهة وعدم الاختلاط بأهل اللؤم والغيبة ، فلا سوء عشرة ولا هتك هيبة . ويصف الصقر بمثل قوله :

طويــلُ ثــلاثٍ لا كطــول بُغاثها جنــاحٌ وعُنْقٌ ثمَّ طـالت أصابعُ[2]
رحيــبُ ثــلاثٍ وهْىَ ما هىَ كفُّه وما بين منكبيه والصــدر واسع[3]
عظيــم ثـلاث : رأسُــه ثم فَخْذُهُ ومِنْسَرُهُ لجــزرٍ ما هو صــارعُ[4]
له عُدَّةٌ من نفســه فى مخــالبٍ شديدٍ سوادهـا ، حِدادٍ ، لواسعُ[5]
بيُمنــاه بــارقٌ محيــطٌ بزَنْــدِهِ من الفضة البيضاء كالسيف لامعُ[6]
كذلك فى يُسْــراهُ ثــانٍ وجُلْجُلٌ تلــوَّن بالإبريــز أصفــرُ فاقعُ[7]

(١) انظر فى إبراهيم الفجيجى وترجمته شرح ابن أخيه أبى القاسم محمد بن عبد الجبار لقصيدته المسمى الفريد فى تقييد الشريد وتوصيد الوبيد بتحقيق الدكتور عبد الهادى التازى، وراجع تعريف الخلف ٧/٢ ولأبى راس شرح عليها باسم الشقائق النعمانية فى شرح الروضة السلوانية.
(٢) البغاث : من ضعاف الطير .
(٣) رحيب : متسع .
(٤) المنسر من الطير كالشفة من الإنسان . جزر : نحر . صارع : فاتك .
(٥) حداد : قاطعة . لواسع : تلسع كالعقرب .
(٦) بارق : خلخال لامع .
(٧) الجلجل : الجرس الصغير . الإبريز : الذهب الخالص .

إذا انقضَّ خلتَ البرقَ والريحَ عاصفًا ورعدًا به رِجْزٌ على الصيد واقــع[1]
دويٌّ جلاجــلٍ ولمــعُ خلاخــلٍ وخَفْقُ جنــاحٍ كلُّ ذلك فاجــع

والفجيجى يقول إن صقره يحوز صفات الصقر الحميد فهو طويل الجناح والعنق والأصابع ، وهو واسع الكف والصدر بعيد ما بين المنكبين عظيم الهامة ممتلىء الفخذين صلب المنقار لجَزر ما يفتك به ، وعُدَّته مخالبه الشديدة السواد القاطعة التى تلسع لسع العقارب ، وفى يمناه خلخال لامع من الفضة بزنده ، وفى يسراه خلخال وجرس صغير أصفر مموه بذهب فاقع ، وإذا انقض على فريسته من الطير ظننت البرق والريح والرعد كل ذلك هجم عليه ، ولا تسمع سوى دوى جلاجل ولمع خلاخل وخفق أجنحة ، كل ذلك ينقض على الفريسة . ويصور الفجيجى انقضاضه على طائر الحبارَى منشدا :

ويلجــأُ لاتَ حــين يأويــه ملجــأٌ فلا الأرضُ تنجيــه ولا الجوّ مانعُ
ذؤابَتُه فى كفٍّ مــن لا يُقيلـــه يساق بها للمــوت وهْو يــوادعُ
وتندبُـــه حُبارِيَـــاتٌ أَلِفْنَـــهُ بفيفاء مَجْهــلٍ وهنَّ جوازع[2]
نواتــحُ أعرابٍ على الطُّبْل حَلْقةً يحاجِلْنَ مجنونا لحــن تواجــع
شَقَقْنَ جيوبًا ناشراتِ الرءوس قد جرحْــنَ خــدودا ما لهنَّ براقع

والفجيجى يقول إن الحبارى كان يطلب ملجأ حين رأى الصقر ، وضاق عليه الجو بأعاليه وضاقت عليه الأرض بجبالها الشاهقة وما رَحُبت ، وأخذ الصقر بذؤابة رأسه وريشه الطويل ، ولم يعد يجد مناصا ولا خلاصا منه فهو يوادعه موادعة اليائس من الحياة ، وتندبه حباريات ألفنه متجرعات عليه غصص الجزع . وشبههن الفجيجى بنوائح الأعراب حين يتحلقن على الطبل بحرقة الحزن ، ويحاجلن نَدَّابهن الذى يزيد فى حزنهن ويشعله فى نفوسهن ، ويشققن جيوبهن وينشرن شعورهن ويخمشن وجوههن السافرة حزنا على فقيدهن . ويمضى الفجيجى متمنيا لو عادت أيام الصغر أو أيام الشباب ويذكر مواضع كثيرة فى الربيع والشتاء كان يرودها للصيد ويندد بمن كانوا يتلومونه لاهتمامه به ، ويقول إن مثلهم مثل من لا تحركه بهجة الربيع ولا متعة العود والموسيقى وكأنهم لم يشعروا يوما بالحب والهوى . ويفيض فى عرض فقه الصيد وما أحلَّه الشارع منه وما حرَّمه وواجبات القانص إزاء ذلك وأجناس صيده فى البر ، ويتجه إلى قارىء قصيدته بعد نحو مائتى بيت قائلا :

أتيتــك بالتحقيــق نظمــا فخُذْ بــهِ ودَعْ عنــك ما سِواه فهْوَ جَعاجــعُ
فدونكهــا مــن بحــر فكــرىَ دُرَّةً تفجَّــر منهــا للعلــوم يَنابِــعُ
فمــن كان ذا جِدٍّ وَعَى خِصْبَ حكمةٍ ومن يبتغ الإحمــاضَ فالمَرْجُ واســع

---

(1) رجز : شدة فى الصوت .
(2) فيفاء : صحراء واسعة .

فقل روضةُ السلوان إن شئت في اسمها وقل رَحِمَ الرحمن من هو ساجع
ولا تَعْدُوَنْ عيناك عنها لكونها بدت بدويَّةً وأَنّى واضع
وكم رميةٍ لغير رامٍ فقرطست وأخرى لرامٍ أخطأتْ هل تنازع ؟
فأَغْضُوا على ما كان واعْفُوا وسامحوا وإن كان خَرْقٌ فليداركْهُ رافع

وهو يقول لقارىء قصيدته إنه أتاه من وصف الصقر وأحواله وأحكام صيده وفقهه وأحكامه بمالا مزيد عليه في التحقيق ، ودع سواه من الجعاجع التي لا فائدة فيها ولا طائل وراءها ، وقد غُصْتُ عليها في بحر فكري واستخرجتها لك درة تتفجر بكثير من المعارف عن الصيد وفقهه ، فمن كان صاحب جِدٍّ وَعَى منها حكمة، ومن كان صاحب لهو وجَد فيها مبتغاه ، وسمِّها باسمها : « روضة السلوان » وقل رحم الله ناظمها رحمة واسعة ، ولا تحقرها لأنها تتناول موضوع الصيد البدوي وأنى ناظمها ، وكم رمية قرطست وأصابت الهدف وكم رميات أخرى انحرفت عن الهدف والغرض المقصود ، وذلك فضل الله يمنُّ به على من يشاء . ويطلب من قارئه في تواضع أن يغض الطرف عن هفواته ويعفو، وإن كانت في قصيدته زلة فليتداركها بلطفه .

٣

شعراء الرثاء

الرثاء من أغراض الشعر القديمة ، والشاعر فيه إما أن يتفجع على الميت ويبكيه ويتوجع لفقده ويسمى ذلك ندبا ، وإما أن يبكي فيه خلاله ومناقبه التي حرم منها المجتمع ويسمى ذلك تأبينا ، وإما أن يفضي إلى ذكر الموت وأنه حوض لابد للحي من وروده ، ويسمى ذلك عزاء ، وقد يمزج الشاعر بين نوعين من هذه الأنواع وقد يمزج بين الثلاثة . ويلقانا الرثاء مبكرا في الشعر الجزائري على لسان بكر بن حماد شاعر تاهرت في القرن الثالث الهجري ، وكان قد مات له ابن فندبه طويلا بمثل قوله يخاطب نفسه وقد وقف على قبره[1] :

قِفْ بالقبور فنادِ الهامدين بها من أعظمٍ بَليتْ فيها وأجسادِ
قومٌ تقطَّعت الأسباب بينهمُ من الوصال وصاروا تحت أطْوادِ
كيف البقاءُ وهذا الموتُ يطلبنا هيهات هيهات يا بكر بن حمّادِ
بينا ترى المرءَ في لهوٍ وفي لعبٍ حتى تراه على نَعْشٍ وأعوادِ

وهو يقول قف بالقبور ونادِ بأعلى صوتك فلن يرد عليك أحد فقد تقطعت أسباب الوصال بينك وبين من فيها ولا سميع ولا مجيب ، ويقول كيف البقاء والموت يطلبنا في كل لحظة ،

---

(١) الديوان ص ٨١ .

وبينما المرء لاهٍ عنه فى لهو وفى لعب إذا هو محمول على نعش وأعواد وآلة حدباء تقذف به فى مهاوى القبور . ويبكى ابنه طويلا بمثل قوله[1] :

بكيتُ على الأحبَّـة إذ تـولَّوْا ... ولـو أنىِّ هلكتُ بكـوا عليًّا
فيا وَلَـدى بقـاؤك كان ذُخرًا ... وفقدُك قد كَوى الأكبـاد كيًّا
كفى حَزَنًا بأنـى منك خِلْوٌ ... وأنـك مَيِّتٌ وبقيتُ حَيًّـا
ولـم أكُ يائسـا فيئستُ لمـا ... رميتُ التُّرْب فوقك من يديَّـا

وهو يبكى أحبته وفلذة كبده بكاء حارا ، وقد كان بقاء ابنه ذخرا لا يماثله ذخر له وقد كوى فقده كبده كيًّا مؤلما أشد الألم ، ويقول إنه يكفيه حزنا أن مات ابنه وأنه عاش بعده يتلظى موجدة وحزنا ، ولم يك يعرف اليأس إلا حين فقده ، ورمت يداه عليه التراب فأظلمت الدنيا فى عينيه . ولابن الرَّبيب يرثى خمسة من القواد فى عهد باديس (٣٨٦ - ٤٠٦ هـ) غامروا بأنفسهم فى معركة خاسرة بالزَّاب ، وفيهم يقول مصورا بأسهم[2] :

أبتْ لهـمُ أن يرتضـوا الضَّيْمَ أنْفُسٌ ... كرامٌ رأتْ رَمْيًا بها المـوتَ أحْزَمَا
فهبُّوا ومـا هـابوا الرَّدَى فتدرَّعوا ... على خَطَرٍ قِطْعًا من الليـل مُظْلِما[3]
وهوَّنَ وَجْدِى أنهم خمسةٌ مضوا ... وقد أقْعَصُوا خمسين قَرْمًا مسوَّما[4]
وكان عظيما لـو نَجَوْا غير أنهم ... رأوا حُسْنَ ما أبقوا من الذكر أعظما
أبـوا أن يَفِرُّوا والقنا فى نحورهم ... وأن يرتقوا من خشية الموت سُلَّما
ولـو أنهـم فـرُّوا لفرُّوا أعِـزَّةً ... ولكـنْ رأوا صبرا على المـوت أكرما

وهو يقول إن أنفس هؤلاء القواد الخمسة كانت من الشعور بالعزة والكرامة بحيث أبت لهم أن يفروا بها عن الحرب فرموا بها فى أتونها وضرامها غير هائبين وتدرعوا طائفة من الليل ومضوا يتقدمون حتى لم يجدوا متقدَّما وحتى تقطعت السيوف فى أيديهم . خمسة أبطال قتلوا خمسين شجاعا معلما من الأعداء ، وكانوا يستطيعون النجاة ولكنهم رأوا الضرب فى الأعداء حتى النفس الأخير فإن فى ذلك ذكرا عاطرا باقيا لهم . وتكاثر عليهم الأعداء وأخذتهم الرماح من كل جانب وأبوا أن يفروا خشية الموت ، ولو فروا لفروا أعزة بما أذاقوا أعداءهم من كثرة القتل والطعن ، غير أنهم رأوا أن يصبروا وأن يموتوا فى ميدان الحرب ، لينالوا شرف التضحية بالنفس . ويقول ابن قاضى ميلة فى وصف غريق بالبحر[5] :

ومـا زلتُ أستسقى له القَطْرَ دائبًا ... وأستودع الـريحَ السـلام المجـدَّدَا

---

(١) الديوان ص ٨٥ .
(٢) الأنموذج لابن رشيق ص ١١٣ وما بعدها
(٣) الردى : الموت . قطعا : طائفة .
(٤) أقعصوا : قتلوا . قرما : شجاعا . مسوَّما : معلما
(٥) الأنموذج ص ٢١٥ .

فكان الذى استسقيتُ أولَ خاتلٍ له والذى استودعتُ من أعظم العِدَى[1]
فتى فاظَ بين المساء والريح روحُه وما زاره أهلٌ ولا زارَ مُلْحدا[2]

وهو يقول إن الذى كان يستسقى القطر له ويستودع له الريح السلام حين تمر بدياره كان الماء أول خاتل غادر له إذ أتاه من حيث لا يشعر ، وكان الريح من أعظم أعدائه ، وقد فاظت روحه بين الماء والريح وصعدت إلى بارئها ، وما زاره أهل ، ولا زار لحدا ، فقد ذهب أدراج أمواج البحر ولم يَبِنْ له أثر . ونلتقى فى بجاية بمحمد بن على بن حماد فى القرن السابع ومراثيه للدولة الحمادية ، وسنخصه بترجمة . وكان السلطان أبو حمو موسى (٧٦٠ — ٧٩١ هـ) شاعرًا ومرت له ترجمة فى الفصل الماضى ، ومن قوله يرثى أباه[3] :

قد كان لى فى الدُّنَى أبٌ يساعدنى فصار تحت الثرى فى لحده اكتنفا[4]
مدَدْتُ فى ظل نُعْماه يدى زمنا ونلت من رِفْده فى دهرىَ التُّحَفَا
يا فقدَ يوسفَ ما أبقيت لى جلدًا يا فقدَ يوسف إنَّ الصبر عنك غَفَا
ما مثل يوسفَ مفقودٌ لفاقدِه ولا كموسى أخو فَقْدٍ إذا وُصِفا
يا قبرَ يوسفَ لا تعدوك هاميةٌ من الغمام ولا زال الثرى وَجِفَا[5]

وأبو حمو موسى يبكى أباه ويذكر كثرة ما كان يساعده به فى الدنيا حربا وسلما ، ويذكر كم مدَّله يده فيملؤها له نعما وتحفا ، وقد أصبح تحت الثرى يكتنفه اللحد من جميع جوانبه ، وقد أفقده موت أبيه الصبر والجلد ، ويشيد به أبا مثاليا ويدعو لقبره أن تظل السحب وافدة عليه تهمى وتهطل ، ولا يزال الثرى أو القبر خافقا . ويقول محمد بن يوسف الثغرى فى تأبينه مواسيا أبا حمو موسى[6] :

أسفًا لمن فاق الملوك جلالةً وديانةً وبكلِّ فَضْلٍ حُوِبى
أَعْظِمْ به من زاهدٍ ومجاهدٍ ومنيلِ رِفْدٍ تارةً ومنيبِ
هوتِ النجومُ الزاهراتُ لفقدهِ وذَوَى من الأزهار كلُّ رطيبِ
وتغيَّرتْ شمسُ النهار له أسىً وتبدَّلتْ من نورِها بشحوب
وبكت سيوفُ الهند فى أغمادها بدمٍ ، بماء فِرِنْدِها مخضوبِ
ولقد بكتْه جيادُه بصهيلها وغدتْ تحنُّ له حنينَ النِّيبِ[7]
مَنْ للوفود إذا أوَتْ لجنابهِ يلقاهمُ بالبشر والترحيب

والثغرى يجعله فوق الملوك جلالة ومهابة وديانة وبكل ضروب الفضل من زهد وجهاد

(١) خاتل : غادر .
(٢) فاظ : مات . ملحدا : لحدا .
(٣) كتاب أبوحمو موسى لعبدالحميد حاجيات ص٢٣٦.
(٤) الدنى: جمع دنيا. اكتنفه اللحد: أحاطه من كل جانب.
(٥) وجفا : خافقا .
(٦) انظر الجزء الثانى من بغية الرواد ليحيى بن خلدون .
(٧) النيب : الإبل المعروفة بحنينها إلى أولادها .

وكرم وإنابة لله ، وكأنما هوت النجوم المتلألئة لفقده وذوت الأزهار الغضة ، وحتى شمس النهار تغيرت حزنا وتبدلت من نورها بشحوب . وإن سيوف الهند التى طالما شهرها على أعدائه لتبكيه بدم مخضوب بما يلمع على صفحاتها من تموجات الضوء ، وإن جياده لتنتظره مؤملة بصهيلها التى تعبر به عن حنينها له أن يمتطيها للقاء الأعداء . ويتساءل الشاعر من سيلقى الوفود الكثيرة التى كانت تفد على بابه بالبشر والترحيب وقضاء حاجاتها الكثيرة . ويقول الشهاب الخلوف شاعر السلطان عثمان الحفصى يبكى ابنا له مات صغيرا[1] :

أصبتَ عينَ المها يا موتُ بالرَّمَدِ	وقد أهضتَ جناحَ المجــد فاتَّئِدِ[2]
ناجزتَ فى صَرْفِ آجالٍ قد اقتربتْ	إذ لا تسلِّمُهــا إلا يــدًا بِيَـــدِ[3]
كم زدتَ فى نَقْصك العَلْيَا جَوَى كبدٍ	حَرَّى فيا ليت لم تنقص ولم تزد
وكـم تركتَ أبًا يبكى على ولــدٍ	أذقتــه طعـــمَ ثُكْلِ الأمِّ للولـــدِ
بُنَىَّ ليتك لـم تُخلق لِـوَرْى بِلىً	يا ليتنى لـم أُسَمْ بالصبر عن شَهَد[4]
سقى الحَيــا قبرك الـزاكى وواصله	سحابُ عفـوٍ وغفرانٍ مدى الأبـد[5]

وهو يخاطب الموت محزونا ويقول له اتئد ، فقد أصبت عين الأم بالرمد لكثرة البكاء على من تفقدهم وحطمت جناح المجد وناجزت فى حدث الموت وأبيت إلا أن تستلم ابنى يدا بيد ، وكم نقصتَ العليا وزدت الكبد حزنا وحرارة ، وكم أذقت أبا فقده لابنه فذاق طعم حزن الأم حين تفقد ابنها . ويخاطب ابنه فليته لم يخلق لبلى جسده وعظامه حتى لايسام أبوه ولا يكلف الصبر على ما نزل به ، ويستسقى له السحاب وأن يمنحه الله عفوه وغفرانه .

ويكثر منذ أواخر عصر الدولة الحفصية رثاء التلامذة لشيوخهم الأعلام فى تلمسان وغيرها من مدن الجزائر ، وكان من كبار علماء تلمسان فى القرن التاسع الهجرى محمد بن يوسف السنوسى نسبة إلى قبيلة مغربية وهو حَسَنى من ذرية الحسن بن على بن أبى طالب ، وفيه ألف تلميذه الملالى كتابا سماه « المواهب القدسية فى المناقب السنوسية » وكان فقيها ، بل كان إماما فى الفقه وفى علم التوحيد وله فيه الكتاب المشهور عقيدة أهل التوحيد وشُرح مرارا ، ورثاه تلميذه الشاعر محمد بن عبد الرحمن الحوضى حين توفى سنة ٨٩٥ هـ/١٤٨٩ م بقصيدة بديعة ، وفيها يقول[6] :

---

(١) الديوان ص ٢٥٠ .
(٢) أهضت : حطمت .
(٣) صرف : حدث . آجال : أعمار .
(٤) ورى بلى : اكتنام بلى . أسم : أكلف .
(٥) الحيا : الغيث . الزاكى الطاهر .
(٦) تعريف الخلف برجال السلف ص ٤٠٤ .

ما للمنـــازلِ أظلمتْ أرجـــاؤها ... والأرضُ رُجَّتْ حين خاب رجاؤها
هـذا الـذى ورث النبيَّ فأصبحتْ ... عِلَلُ الضـلال بـه استُفيد دواؤها
ودعا إلى التوحـيد دعوةَ مخلصٍ ... وإلى الشريعـة فاستنـار ضيـاؤها
يـا أوحـــد العلمــاء يا علمًا بهِ ... كلُّ العلـــوم بدتْ لنـا أنحاؤها
مَـنْ للتــــآليف التـــى ألَّفتَهـا ... يُبْدِى بهـا مـا استشكلتْ قُرّاؤها
مَنْ للعلـــوم على اختلاف فنـونها ... يـبدى لهـا نُكتًا يروقُ سَناؤها
يـارَبِّ قَدِّسْ روحَـــــهُ وضَرِيَحهُ ... ومِنَ الجنــــان تحفُّـــه نَعْمـاؤها

والحوضى يقول إن الديار أظلمت والأرض كأنما زلزلت زلزالا عظيما بموت السنوسى الذى ورث الهدى عن الرسول الكريم فكأنما علل الضلال وجدت عنده أدواءها جميعا . وعملان عظيمان له الدعوة إلى عقيدة التوحيد والشريعة وفقهها المضيىء ، بل لقد أضاء للطلاب كثيرا من أنحاء العلوم التى درسها لهم لا فى الفقه والتوحيد فحسب بل أيضا فى المنطق والقراءات والفرائض وغير ذلك مما درسه وألف فيه . ويتكاثر رثاء التلاميذ لشيوخهم فى العهد العثمانى ، ونسوق من ذلك رثاء : شاعر مدينة الجزائر سعيد قدورة الذى اشتهر بشرحه لمتن السلم فى المنطق والمتوفى سنة ١٠٦٦ هـ/١٦٥٥ م فقد رثى أستاذه محمد بن على المجاجى وكان قد توفى مقتولا وفيه يقول(١) :

مصابٌ جسيمٌ كاد يُضْنِى مقاتِلِى ... ورُزْءٌ عظيـــمٌ قاطـعٌ للمفاصلِ
ومَنْ لفنـون العلـم نحـوا ومنطقًا ... وفقها وتوحـيدا وفتـوى لسائلِ
لمنزلـــــهِ كانتْ تُشَدُّ رِحـالُنا ... فمن راكبٍ يَسْعَى إليـــهِ وراجلِ
أحقًّــا قتلتَ الألمعىَّ محمَّـــدا ... على قول حقٍّ لا على قول باطلِ
قتلتَ امرءًا من شأنه العلمُ والتُّقَى ... فيــا خيرَ مقتـــولٍ ويا شرَّ قاتلِ
ومالَك يـــوم العَرْض إلا جهنَّمٌ ... تقــادُ إليهـا صـاغرا بالسلاسلِ
عليــه مـن الرحمــــنِ أوسعُ رحمةٍ ... وأزكى سلامٍ فى الضُّحَى والأصائلِ

وسعيد قدورة يقول إنه مصاب جسيم ورزء عظيم أن يقتل هذا العالم الجليل دون ذنب جناه ، ويقول إلى أين يذهب طلاب العلم نحوا ومنطقا وفقها وتفسيرا وتوحيدا ، وإلى من يرجعون فى الفتوى . وكانت تشد إليه الرحال من فجاج الأرض بين راكب وراجل ، ويعجب أن يقتله شخص وهو لا يصدر إلا عن حق لعلمه وتقاه ، وإنه لخير مقتول ، أما قاتله فشر قاتل ، ويتوعده أن يكون مصيره إلى جهنم يقاد إليها بالسلاسل والأغلال ، أما الشيخ المقتول

(١) تعريف الخلف ص ٤٤٢ .

فعليه من ربه أوسع رحمة وأطهر سلام وأعطره . ونتوقف قليلا لنترجم لشاعر بجاية محمد بن علي بن حماد .

محمد[1] بن علي بن حماد القلعي

من أهل قلعة بني حماد وفضلائها ، قرأ بها وتفقه على علمائها ، ثم طلب المزيد فقرأ على علماء بجاية وكان بها أبو مدين شعيب فأخذ عنه كتابه : « المقصد الأسنى في أسماء الله الحسنى » وشرحه من فاتحته إلى خاتمته ، ولزم دروس عبد الحق الإشبيلي وأخذ عنه كتاب الموطأ لمالك وغيره من الكتب ، وحضر على جلة الشيوخ في بجاية وغيرها ، وكان له برنامج يشتمل على مائتين واثنين وعشرين كتابا مسندة إلى مؤلفيها ، ويبدو أنه كان ينزع نحو المذهب الظاهري مذهب دولة الموحدين ، ولذلك عيّنوه — في رأينا — قاضيا بالأندلس في مدينة الجزيرة الخضراء ، ثم نقلوه منها سنة ثلاث عشرة وستمائة إلى سَلا في المغرب على المحيط وظل بها إلى أن توفي سنة ٦٢٨ هـ/١٢٣٠ م . وكان شاعرًا بارعًا ، وله قصائد أو مراث مختلفة يرثي بها دولة بني حماد التي أزالها الموحدون عن موطنه سنة ٥٤٧ هـ/١١٥٢ م ، وفي إحداها يقول[2] :

أين العروسان لا رَسْمٌ ولا طَلَلُ ... فانظر ترى ليس إلا السهلُ والجبلُ
وقصر بلارةٍ أوْدَى الزمانُ بهِ ... فأين ما شادَ منه السادةُ الأُوَلُ
وما ورا الكوكبِ العُلْويِّ معتصمٌ ... وقد عَرَا الكوكبَ التغييرُ والبَدَلُ
وقد عَفَا قصر حمادٍ فليس له ... رَسْمٌ ولا أثرٌ باقٍ ولا طَلَلُ
وإنّ في القَصْر قَصْرِ الملك معتبرًا ... لمن تغرُّه الأيـــام والـدولُ
وما رسومُ المنار الآن ماثلةٌ ... لكنها نُبَذٌ يَجْري بها المثَلُ
حتى المصلَّى امَّحَتْ آياتُهُ وعَفَتْ ... إلا جدارا وما طلَّت بهِ الطُّلَلُ[3]
كرجعك الطَّرْفَ كانت كلُّ آبدةٍ ... مما تراه كذاك العمرُ والأجـــلُ

وهو يقول أين القصران العروسان المبهجان ، لم يعد حتى رسم ولا طلل ولم يعد إلا الفضاء ، وقد امَّحى قصر بلارة المجيد وما شاده فيه ملوكه الأول ، وامحى قصر الكوكب العلوي وقصر حماد إذ لم يبق منه رسم ولا أثر ولا طلل ، وإن في ذلك لعبرة أي عبرة لمن يغتر بالأيام والدول ، وأين قصر المنار ؟ إنه لم يبق منه إلا آثار يتمثل بها الناس ، وحتى المصلى الذي كان يلحق بالقصور لم يبق منه إلا جدار وبقايا أطلال إذ سرعان ما زايلته النعمة سريعا وزايلت كل آبدة

(1) انظر في ترجمة محمد بن علي بن حماد عنوان الدراية ص ٢١٨ وتعريف الخلف ص ٤٨٧ وتاريخ الجزائر في القديم والحديث للميلي ص ٦٣٤ وتاريخ الأدب الجزائري للأستاذ محمد الطمار ص ١٢٣ .
(2) الميلي ص ٦٣٤ والطمار ص ١٢٣ .
(3) الطُّلل : جمع طَلَل .

وغريبة مما كان في القصور من عجائب ونقوش ، فكل ذلك ذهب كرجعك الطرف إلى غير مآب كما تذهب الأعمار والآجال ، ويقول[1]

ألا ليت شعرى هل أبيتنَّ ليلةً ... بوادى الهوى ما بين تلك الجداولِ
وهل أسْمَعَنْ تلك الطيور عشيَّةً ... تُجاوب فى تلك الغصون البلابل
وهل أرِدَنْ عين السلام على الصَّدَى ... فأُبرِدَ من حَرِّ الضلوع النواهل[2]
وأنظر طيقان « المنار » مُطِلَّةً ... على الوجنات الزاهرات الخمائل[3]
كأن القباب المشرفات بأفْقِهِ ... نجومٌ تبدَّتْ فى سعود المنازلِ
فإنْ ثنتِ الأيامُ عنها أعِنَّتى ... وأنزلْتنى فى غير تلك المنازل
فصبرٌ جميلٌ غير أنَّ صَبَابتى ... ستبقى بقاء الطالعاتِ الأوافلِ

وابن حماد يتمنى فى غربته الطويلة ببلاد المغرب والأندلس لو بات ليلة بوادى بجاية : وادى الهوى والحبِّ بين جداولها يتسمع إلى الطيور وهى تجاوب البلابل فى المساء ، ويتمنى أن يرد على عين السلام ليبرد صداه ويشفى ظمأه الطويل وحر ضلوعه ، وينظر طيقان المنار وهى مطلّة على الخمائل المزهرة فوق الأرض الصخرية حول بجاية ، ويتصور كأن قباب هذا القصر التى كانت تشرف على ما حوله نجومٌ مُسْعِدة . ويمتلىء شوقا وحنانا لبلدته بجاية فيقول إن ثنت الأيام أعنّتى عنها إلى سَلا وغير سلا من مدن المغرب والأندلس فسأفزع إلى الصبر الجميل ولكن صبابتى ببلدى وموطنى ستظل جاثمة فى فؤادى ما حييت ، وستظل باقية بقاء النجوم الطالعات الأوافل ، ويقول فى عين السلام[4] :

على عَيْنِ السلام سلامُ صَبٍّ ... غَذاه ماؤها العَذْبُ النَّميرُ
تأوَّد أيْكُها وجَرَتْ صَبَاها ... وشَمٌّ لها كما فُتِقَ العَبِيرُ
وأبردُ ما يكون الجوُّ فيها ... وأنْدَى حين يحتدم الهجيرُ
وقد قام المنارُ على ذُراها ... كما قام العروس أو الأمير
بناءٌ يُزْدَرَى إيوانُ كِسْرَى ... لديه والخَوَرْنَقُ والسَّديرُ

وهو يرسل بالتحية إلى عين السلام التى طالما نهل من مائها العذب الصافى الزاكى ، وإن أيكها أو شجرها ليتثنى بفعل الرياح ويهب صَبَاها عليلا حاملا منها شذى عطرا ، وحين تشتد حرارة الهاجرة وراء بجاية فى الصحراء تصبح بجاية أبرد وأندى ما تكون ، وإن قصر المنار ليقف فى أعاليها وكأنه عروس ينتظر الزفاف أو أمير ينتظر الموكب الحافل ، وإنه

(١) المرجعين السالفين .
(٢) الصدى : العطش .
(٣) الوجنات : مرتفعات الأرض .
(٤) انظر فى الأبيات التالية الميلى ص٦٣٤ والطمار ص١٢٣ .

لقصر مشيد يُزْدَرَى بجانبه إيوان كسرى ، والخورنق والسدير : قصران كانا لملوك الحيرة فى الجاهلية .

٤

شعراء الزهد والتصوف

(أ) شعراء الزهد

الزهد قديم فى الأمة منذ العصر الإسلامى وزاهد الأمة الأول محمد ﷺ وكان كثيرون فى أيامه يأتسون بزهده وتقشفه ، ويفرد الجاحظ للزهاد صحفا كثيرة فى البيان والتبين حتى عصره ، ويتوالى مَنْ بعده فى الكتابة عنهم ، ويلقانا منهم فى المغرب كثيرون فى كتاب رياض النفوس للمالكى ، يقبلون على ما عند الله من ثواب الآخرة ويرفضون الدنيا ، ودائما يذكرون الموت وأنه مقبل لا محالة وأن من واجب الإنسان أن يتدبر أمره وغده وأنه عما قريب محمول على آلة حدباء وسيلقى ربه ، وحرى بالإنسان أن يعمل لآخرته قبل أن يفجأه الموت ويأتيه على حين غِرَّة أو غفلة ، وفى ذلك يقول بكر بن حماد متحدثا عن الموت[1] :

لقد جمحتْ نفسي فصدَّتْ وأعرضتْ ... وقد مَرقتْ نفسى فطـال مروقُها[2]
فيا أسفى من جُنْح ليـلٍ يقودها ... وضـوءِ نهـارٍ لا يزال يسوقها[3]
إلى مشهدٍ لابدَّ لى من شهودهِ ... ومن جُرَعٍ للموت سوف أذوقُها
سحاب المنـايا كلَّ يـومٍ مظلّةٌ ... فقـد هطلتْ حولى ولاحَ بُروقها
تجهّمتُ خمسًا بعـد سبعين حِجَّةً ... ودام غروبُ الشمس لى وطلوعها
وأيدى المنـايا كلَّ يـومٍ وليلـةٍ ... إذا فَتَقتْ لا يستطـاع رُتوقهـا
تُصَبِّح أقوامـا على حينِ غَفْلَـةٍ ... ويأتيك فى حين البَيَـاتِ طروقُها

وهو يقول إن نفسه جمحت منه وركبت هواها وعصته عصيانا شديدا ، إذ لا تسمع إلى نصحه وإرشاده ، وكأنما زمامها بليل مظلم مما يؤسفه وإنها لا تتطلع إلى ضوء نهار مشرق يريها المشهد الحقيقى من الموت وجُرَعه وما سيَحْسُو منه ، وإن سحاب الموت ليظلّه ، وإنه ليهطل من حوله وتلمع بروقه ، وقد احتمل خمسا وسبعين سنة ، وطالما أشرقت عليه الشمس وغربت وأيدى الموت من حوله إذا فتقت فتقا لا يستطيع أحد رتقه ، وتصبِّح أقواما فجأة بمن تختطفه منهم وبالمثل تمسّيهم ، وما أحرانا أن نعمل لآخرتنا قبل فوات الأوان . ويحدثنا صاحب

(١) الديوان ص ٧٨ .
(٢) جمحت : نفرت . مرقت : خرجت وعصت .
(٣) جنح الليل : ظلامه .
(٤) عنوان الدراية ص ٧١ .

عنوان الدراية عن الشيخ الفقيه النحوى اللغوى محمد بن الحسن بن ميمون القلعى البجائى ، وكان كثير التلامذة والطلاب وتقرأ عليه جميع الكتب النحوية واللغوية والأدبية ، وكان يسلك فى شعره طريقة أبى تمام ، وتوفى سنة ٦٧٣ هـ/١٢٧٤ م وله منظومات فى الزهد والمديح النبوى ، ومن قوله في الزهد[٤] :

الخُبْرُ أصدقُ فى المَرْأى من الخبَرِ فمهِّد العُذْرَ ليس العَيْنُ كالأثرِ
واعملْ لأخرى ولا تبخلْ بمكرُمَةٍ فكلُّ شيء على حَدٍّ إلى قَدَرِ
وكل حَيٍّ وإن طـالتْ سلامتُهُ يغتاله المـوتُ بين الوِرْدِ والصَّدَرِ
هـو الحِمام فلا تُبعِدْ زيـارتَهُ ولا تقل ليتني منه على حَذَرِ
ياويحَ من غَرَّه دَهْرٌ فَسُرَّ به لم يخلص الصَّفْوُ إلا شِيبَ بالكدرِ
تنافس الناسُ فى الدنيا وقد علموا أن المقـام بهـا كاللَّمْح بالبَصَرِ
انظُـرْ لمـن باد تنظرْ آيـةً عجَبًا وعبرةً لأولـى الألبـاب والعِبَرِ

وهو يقول إن التجربة أصدق من الخبر إذ ما يُرَى بالعين ليس كالأثر ، واعمل لآخرتك ولا تبخل بصالحة ، فكل شىء مقدر ، وكل حى وإن طالت سلامته سيغتاله الموت فجأة بين ورده لشىء وصَدَره عنه ، إنه الموت فلا تظن أن زيارته ستبطىء عنك ، ولا تظن أنك تستطيع أن تكون على حذر منه ، وياويح من غرَّه زمن سرَّه ، فإن الصفو دائما يشاب بالكدر ، وياويح الناس فإنهم يتنافسون فى الدنيا وأمانيها ومظاهرها وهم يعلمون أنهم راحلون عنها سريعا سرعة اللمح بالبصر ، وانظر لمن باد من السالفين فإن فى ذلك عبرة لأولى الألباب . ويذكر ابن ميمون البجائى الملوك الهالكين : دارا الفارسى وذايزن اليمنى وهرقل البيزنطى وغيرهم فكلهم أفناهم الدهر ولم تبق منهم إلا الأسماء والسير .

وتكثر الابتهالات إلى الله والاستغاثات والتوسلات على ألسنة الزهاد ، ويتسع ذلك فى العهد العثمانى ويتسع معه وضع الأذكار والأوراد ، ومن أطول الاستغاثات استغاثه[١] محمد بن حواء المستغانمى بربه ، وسميت الغوثية الكبرى فى الكرب والشدائد إذ تقع فى أربعمائة بيت ، بدأها بالحمد لله والصلاة على رسوله روح الوجود ومطلع الأنوار وقدوة الأقطاب ويخرج إلى دعاء ربه والاستغاثة به إلى أن قال[٢] :

يا سامعَ الدُّعاءِ يا قديرُ يا من إليه تَرْجِعُ الأمورُ
يا مالك الملوك يا جبَّارُ انْصُرْ ذليلا مـاله أنصارُ

(١) تعريف الخلف ٣٧٣/٢ .
(٢) نفس المرجع السابق .
(٣) سعد الله ١٤٨/٢ .

ولعبد الكريم الفكون ، صاحب رسالة فى التصوف ونقد رجاله وما صار إليه ؛ قصيدة يتوسل فيها إلى ربه جعل مطلعها[3] :

بأسمائك اللهم أُبدى توسلا ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ فحقِّقْ رجـائى يا إلهى تفضُّلا

وكثر التوسل فى هذا العهد بين الفقهاء والشعراء جميعا ، وللمفتى المالكى محمد بن الشاهد صاحب القصائد المولدية : توسلٌ مطلعه[1] :

بأسمائك الحسنى فتحتُ توسلى ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ومنك رجوتُ العفوَ أسمى مطالبى

(ب) شعراء التصوف

نزل الجزائر أئمة التصوف الأندلسيون منذ القرن السادس الهجرى يتقدمهم أبو مدين شعيب[2] المتوفى سنة ٥٩٤ هـ/١١٩٧ م ويقال إنه من تلامذة الشيخ ابن حرزهم بفاس المتوفى سنة ٥٥٩ ولبس الخرقة على يد الشيخ أبى عبد الله الدقاق وسلك طريقته على يد أبى يعزى المتوفى سنة ٥٧٢ واستوطن بجاية وانتشرت بها طريقته الصوفية ، وأرسل فى طلبه سلطان الموحدين المنصور يعقوب فمضى إليه عن طريق تلمسان وتوفى بها وقبره بالعباد فى جوارها ، ومن قوله : « بى قُلْ ، وعلىَّ دُلَّ ، فأنا الكل » وهى عبارة قد تفيد أنه كان يؤمن بالاتحاد بالله ، وربما كانت شطحة من شطحاته وكان تصوفه فلسفيا . وممن نزل تلمسان فى القرن السادس أبو عبد الله[3] الشوذى الإشبيلى من كبار العبَّاد العارفين ، ويروى تلميذه ابن دهاق المتوفى سنة ٦١١ أنه رآه بتلمسان فى يده طبق به حلوى يبيعها للصبيان الصغار وهم ينقرون له ويدور ويشطح ، وكان يمزج التصوف بالفلسفة ويقول بوحدة الوجود[4] . ومن هؤلاء الأئمة النازلين بالجزائر محيى[5] الدين بن عربى المولود سنة ٥٦٠ والناشىء فى إشبيلية ، وعلى متصوفيها تلقن التصوف وفى سنة ٥٩٠ بارحها متجولا فى الأرض ونزل بجاية ولزم أبا مدين الصوفى فترة ثم اتجه إلى المشرق . وممن نزل بجاية ابن[6] سبعين عبد الحق وأبو[7] الحسن الششترى ، ويروى أنهما التقيا وأراد الششترى أن يتركه إلى أصحاب أبى مدين فقال له : إن كنت تريد الجنة فسر إليهم ، وإن كنت تريد ربَّ الجنة فهلمَّ إلىَّ . وكأنه لم يبق فى القرنين السادس

---

(١) سعد الله ٢/١٥٧ .

(٢) افتتح الغبرينى كتابه عنوان الدراية بترجمة ضافية لأبى مدين وانظر أنس الفقير لابن منقذ والبستان ١٠٨ والتشوف للتادلى رقم ١٦٢ .

(٣) انظر فيه البستان ص ٦٨ وبغية الرواد ليحيى بن خلدون ص ١٢٧ وكتابنا عن تاريخ الأدب العربى فى الأندلس ص ٣٥٨ .

(٤) راجع كتابنا عن الأندلس وكتاب ابن سبعين للتفتازانى ٧١ – ٧٥ .

(٥) انظر فى ابن عربى عنوان الدراية ص ١٥٦ وكتابنا عن الأندلس ص ٣٦٣ وما به من مراجع .

(٦) راجع فى ابن سبعين عنوان الدراية ص ٢٣٧ وكتابنا عن الأندلس ص ٣٥٩ وما به من مراجع .

(٧) انظر عنوان الدراية ص ٢٣٩ وكتابنا عن الأندلس ص ٣٦٧ وما به من مراجع .

والسابع إمام من أئمة التصوف الأندلسيين المتفلسفين إلا نزل الجزائر والبلاد المغربية واستمعوا أشعاره . وهو ما جعل كثيرين من الجزائريين منذ القرن السابع الهجرى ينظمون أشعارا صوفية أو تنزع نحو التصوف كثيرًا ، وكانوا هم أنفسهم يشعرون بهذه الصلة إذ يترجم الغبرينى فى عنوان الدراية لكل من ذكرتهم من أئمة التصوف الأندلسيين ماعدا الشوذى نزيل تلمسان وقد كتب عنه يحيى بن خلدون فى تعداد من أنجبته تلمسان أو استقر بها من العلماء والصالحين . وطبيعى أن يكون أكثر المتأثرين بهؤلاء الأئمة من أهل بجاية التى نزل بها أبو مدين فى القرن السادس ونزلتها بعده كثرة من هؤلاء الأئمة . ونبدأ بعلى بن أحمد الحرالى المتوفى سنة ٦٣٨ هـ/١٢٤١ م وفيه يقول الغبرينى : « العالم المطلق الزاهد الورع ، ممن جمع العلم والعمل ، أما علمه فإنه قد جمع فنون العلم بجملتها ، واستولى على كليتها : أما علم الأصول فأصول الدين وأصول الفقه وأما معقولات الحكماء فهو أعلم الناس بالمنطق ، وله فيه تصنيف سماه بالمعقولات الأول ،وأما علم الطبيعيات والإلهيات فكان أعلم الناس بها ، وكنا نقرأ عليه كتاب النجاة لابن سينا فيقرِّره ، ثم يوهنه ، وله تفسير على كتاب الله تعالى ، تكلم عليه لفظة لفظةوحرفا حرفا . وله فى التحقيق أو التصوف[1] :

ما لنا منا سوى الحـــال العَدَمْ ... ولبارينا وجـــودٌ وقِـــدَمْ[2]
نحـــنُ بنيـــانٌ بَنَتْهُ حكمـــةٌ ... وخليقٌ بالبَنـــا أنْ ينهـــدمْ
أشـرقتْ أنفُسنا من نـــوره ... فوجودُ الكلِّ عن فَيْض الكـــرمْ
فترقُّ النفـــسَ عـن عـالمهـــا ... باختباءٍ ليس تدنيـــه الهـــمم
ليس يـدرى مـن أنـا إلا أنـــا ... ها هنا الفهمُ عن العقـــل انبهم
كلمـــا رُمْتُ بذاتـــى وُصْلَةً ... صار لى العقـــلُ مع العلم جَلَم[3]
يَقْطعانى بخيـــالاتِ الفَنـــا ... عن وجـــودٍ لـم يقُيدْ بِعَدَمْ

وهو يقول ما لنا إلا العدم منه جئنا وإليه نمضى ، ولبارينا وجود أزلى وقدم سرمدى ، وهل نحن إلا بنيان ، بنته حكمة عليا ، وكل بنيان مصيره أن ينهدم ، وهاهى أنفسنا قد أشرقت من نور رب العزة ، وهل وجودنا إلا بفيض كرمه ، وإن النفس لترقى يوما عن عالمها الأرضى باختباء ما بعده اختباء ، وليس أحد سواى يدرى حقيقتى حتى ليغمض الفهم وتحار العقول ، وكلما رمت وصلة بذاتى تصلنى بربى وقف العقل مع العلم فى طريقى يمزقانى بخيالات الفناء دون وجودى المأمول مع ربى الذى لم يقيد بفناء ولا بعدم . وكان يعاصره أبو العيش الخزرجى محمد بن أبى زيد المتصوف التلمسانى وسنخصه بترجمة . ومن تلامذة الحرالى أبو زكريا

(١) عنوان الدراية ص ١٥٥ .
(٢) بارينا : خالقنا .
(٣) الجلم :المقص يقص به الصوف .

يحيى بن زكريا المتوفى سنة ٦٧٧ هـ/١٢٧٨ م ومازال به الحرالى حتى ظهر له بعض التحقيق، واعتمد - كما يقول الغبريني - جادة الطريق، وأنشده أبو زكريا - في معنى ما ظهر له وبيّن له الحالَ فيما لم يظهر له - هذه الأبيات[1] :

جلتْ لك لَيْلَى من مثنىٍّ نِقابِها ... طريقا وأبدت لمعةً من جمالها[2]
فطيبَ بها عيشا وتِهْتَ لـذاذةً ... وفَيَّأكَ الإلماعُ بردَ ظلالها[3]
فكيف ترى ليلى إذا هي أسْفَرَتْ ... ضَحاءً وأبدتْ وارفًا من دلالها
وكيف بها إن لم يَغِبْ عنك شخْصُها ... ولم تُخْلِ وقتًا من منال وصالها
وكيف يكون الأمر إن أنت كُنْتَها ... وكانتك تحقيقا فَحُلْتَ لحالها

وهو يكنى عن الذات الإلهية باسم ليلى، ويقول إنها كشفت قليلا من مثنى نقابها وأبدت لمعة من جمالها فطاب بها عيشا وتاه لذة وكأنما أظله الإلماع بجمالها برد ظلالها فكيف إذا أسفرت ضحى وأبدت ناضرا من دلالها ولم يغب عنا شخصها ومنال وصالها، واتحدتْ بها وأصبحت كأنني هي وتبدلت حالى. ويدون ريب تصوف أستاذه الحرالى أروع من تصوفه، إذ تغيب فيه المادة والجس، ولا تصبح الذات العلية ليلى ولا غير ليلى ممن يهيم بهن الشعراء ويتخذهن بعض المتصوفة رمزًا للذات الربانية. وكان يعاصر يحيى بن زكريا في بجاية عبد الحق بن ربيع العالم المحقق الصوفى المجتهد المتوفى سنة ٦٧٥ هـ/١٢٨٥ م وكان نقيها وعالما بأصول الدين وأصول الفقه والمنطق، وله قصيدة صوفية طويلة أعجب بها أستاذه الحرالى، وانتقى منها طائفة من أبياتها من مثل قوله[4] :

سفرتْ على وجه الجميل فأسْفَرا ... وبدا هلالُ الحسن منها مُقْمِرا
ودنتْ فكاشفتِ القلوبَ بسرِّها ... وسقت شرابَ الأُنسِ منها كوثرا
ورأيتها في كلِّ شيءٍ أبصرتْ ... عينـايَ حتى عُدْتُ كُلِّي مُبْصِرا
وسمعتُ نطقَ الناطقين فكلُّهم ... بالحمد والتَّسْبيح عنها أخبرا
وبها فَنِيتُ عن الفناء وغصْتُ في ... ماء الحياة مُسَرْمَدا ومدهَرا
إفصاحُ قولى لا يفي بمواجدى ... وبيانُه لا يستقلُّ بما جَرَى
لو كان سرُّ الله يكْشَفُ لم يكن ... سرًّا ولكن لم يكن ليذكَرا

وهو يقول إن الذات العلية سفرت وأشرقت فأشرقت الدنيا وبدا هلال الحسن منها كأنه البدر في تِمهِ واكتماله، ودنت فعرفت القلوب سرها وسقتها كوثرا من شراب الأنس. وأحسَّ كأنه يراها في كل شيء من حوله (فكرة الحلول التي يرددها بعض متفلسفة الصوفية) وكأن

---

(١) عنوان الدراية ص ١٠٣ .
(٢) مثنى : منعطف .
(٣) فيأك : أظلك .
(٤) عنوان الدراية ص ٥٩ .

كل شيء فيه أصبح مبصرا ، وسمع حمد كل ما فى الكون لربه وتسبيحه ، ويقول إنه فنى عن الفناء ، وهو بذلك يردد فكرة الفناء فى الذات الإلهية التى يرددها بعض متفلسفة المتصوفة . ويصرِّح بأن إفصاحه لا يفي بمواجده وكذلك بيانه ، ويقول إن سرالله فى الوجود لا يكشف ، ولو كشف لم يكن سرا غير أنه لا يكشف ولا يذكر . وعبد الحق بن ربيع بذلك كله أقرب إلى روح أستاذه الحرالى وتصوفه من زميله يحيى بن زكريا . ويقرب من روح الحرالى أيضا تصوف إبراهيم بن أحمد بن الخطيب ، ومن نظمه قوله[1] :

رَوْضُ المعارفِ حَضْرةُ العُرفاءِ | وجَنَا التفكرِ جنَّةُ العقلاءِ
ونعيمُ أهلِ الحقِ دَرْكُ حقائقٍ | لاحتْ بأُفْقِ القلب حالَ صفاءِ
فاقرأْ سطورَ الكونِ فى منشورها | بِعيانِ عَيْنٍ أو بِفَرْطِ ذكاءِ
وانظر إلى الأكوان كيف تمايلتْ | طَربا لِسرٍّ لاح عند خفاءِ
وأفاض عن بحر الجمال أهلَّةً | بهرتْ محاسنُهنَّ بدرَ سماءِ
وتذكَّرتْ نجدا فهاج لذكره | وَجْدٌ ونادى الشوق بالبُرَحَاءِ[2]
ورأتْ به كلُّ العوالم أُحْكِمَتْ | فتَزيَّنتْ وتَوَشَّحَتْ بضياءِ

وهو يقول إن حضرة المعلمين روض المعارف وجَنَا الفكر جنة العقلاء ، أما أهل الحق من المتصوفة فنعيمهم إدراك الحقائق التى تلوح بالقلب فى حال الصفاء . وتأمل فى الكون ، بل تأمل فى الأكوان وما تحمل من سر بل أسرار لرب الكون وما أفاض عن بحر جماله من أهلة تترى بهرت بدر السماء ، وتذكرت نفسه نجدا فهاج به وجد ملتاعٌ وشوق مضطرم ورأت كل العوالم أحكمت وتزينت بلمعة من ضياء الله ونوره .

وإذا تركنا بجاية ومتصوفتها إلى تلمسان وجدنا المتصوفة بها فى القرن السابع قليلين بالقياس إلى بجاية ، ومن متصوفتها أبو عبد[3] الله بن الحجام محمد بن أحمد بن محمد اللخمى واعظ أهل زمانه، حسن صوت وغزارة حفظ من سمعة واحدة لكل مايطرق أذنه، استقدمه المنصور الموحدى يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن إلى مراكش فاستوطنها وحظى عند المنصور والناصر والمستنصر ، وكان يتصدق براتبه ، ويجهِّز منه ضعيفات البنات ، وله فى الوعظ كتاب أسماه حجة الحافظين ومحجة الواعظين ، توفى سنة ٦١٤ هـ/١٢١٨ م ، ومما يؤثر من نظمه فى التصوف قوله :

غريبُ الوصف ذو علمٍ غريبٍ | عليلُ القلب من حُبِّ الحبيبِ
إذا ما الليل أظلم قام يبكى | ويشكو ما يكنُّ من الوَجِيب[4]
يقطِّع ليله فكرا وذكرًا | وينطق فيه بالعجب العَجيب

---

(١) عنوان الدراية ص ٢٣١ .
(٢) البرحاء هنا : شدة الحب ولواعجه .
(٣) انظر فيه بغية الرواد ليحيى بن خلدون ١٠٢/١ وتعريف الخلف ٣٦١/٢ وفيه أنه ابن اللحام لا الحجام .
(٤) الوجيب : الخفقان .

بــهِ مــن حُبُّ سيدهِ غَـرَامٌ   يجـــلُّ عن التطبُّبِ والطبيبِ
ومــن يكُ هكذا عبدا محبّــًا   تطيب ثيـــابه مــن غير طيب

وهو يصف نفسه بغرابة الوصف والعلم واعتلال القلب من حب الحبيب ، ويقول إنه يتهجد ليلا وهو يبكى ويشكو ما يكنٍ من خفقان قلبه ، ومايزال يقطع ليله فكرًا وذكرا لربه مسبحا مستغفرا وبه من حبه غرام يعز على التطبب والطبيب ، ومن يكن مثله عبدا محبا لائذًا بربه تطيب ثيابه من غير أن يمسه طيب . ونلتقى بعد ابن الحجام فى تلمسان بالنصف الأول من القرن السابع الهجرى بابن أبى العيش وسنترجم له . وتضن علينا كتب التراجم بشعر صوفى فى القرن الثامن حتى إذا كنا فى القرن التاسع الهجرى التقينا بصوفى كبير هو إبراهيم التازى نزيل وهران وسنترجم له ، وينظم عبد الرحمن الأخضرى قصيدة فى التصوف وآدابه يسميها القدسية .

ونمضى إلى العهد العثمانى فتكثر المنظومات فى الطرق الصوفية المشهورة وأصحابها وتكثر معها الشروح ونمثل لذلك بسينية ابن باديس فى طريقة عبد القادر الجيلانى البغدادى المتوفى سنة٥٦١ هـ/١١٦٦ م ومطلعها[1] :

أَلا سِرْ إلى بغدادَ فَهْيَ مُنَى النَّفْسِ   وحدِّثْ بها عمن ثَوَى باطنَ الرَّمْسِ

وشرحها أحمد بن محمد الحاج البجائى التلمسانى قاضى بجاية وسمى شرحه : « أنس الجليس فى جَلْو الحناديس عن سينية ابن باديس » . وشُرحت أيضا المنظومات فى التصوف وأحواله وفى مقدمتها منظومة « القدسية » لعبد الرحمن الأخضرى ، شرحها الورتلانى وسمى شرحه : « الكواكب العرفانية والشوارق الإنسية فى شرح ألفاظ القدسية » . ويتكاثر فى العصر التصوف الشعبى والدراويش وتدخل عليه شعوذات هو منها براء . ونقف للترجمة لابن أبى العيش وإبراهيم التازى .

أبو العيش[2]بن عبد الرحيم الخزرجى

هو محمد بن أبى زيد عبد الرحيم (وفى بعض الروايات عبد الرحمن وفى بعضها عبد الحق) بن محمد بن أبى العيش التلمسانى إشبيلى الأصل وكان فقيها جليلا ، روى ببلده تلمسان عن أبى بكر محمد بن يوسف بن مفرج بن سعادة المتوفى سنة ٦٠٠ هـ/١٢٠٤ م وعن أبى عبد الله بن عبد الرحمن التجيبى المتوفى سنة ٦١٠ هـ/١٢١٤ م وعن أبى محمد بن حوط الله

---

(١) سعد الله ١٣٦/٢ ـ والرمس : القبر .

(٢) انظر فى أبى العيش الخزرجى وشعره بغية الرواد ص ١٠٣ وتعريف الخلف ٣٤٢/٢ ونيل الابتهاج ص ٢٣٢ والقسم الأول من السفر الثامن من كتاب الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة لمحمد بن عبد الملك المراكشى (طبع المغرب) ص ٣١٣ .

المتوفى سنة ٦١٢ هـ/١٢١٦ م وعن أبي عبد الله بن عبد الحق المتوفى سنة ٦٢٥ هـ/١٢٢٨ م وكان عالما وأديبا بارع الكتابة وشاعرا جيد الشعر ، صنّف كتبا فى أصول الفقه وعقائد أصولية فى الدين ، وفسر القرآن الكريم وشرح الأسماء الحسنى ، وله فى التصوف نظم كثير وكذلك فى الزهد وسبل الخير والوعظ وتنزيه البارى جَلَّ شأنه . ولم تنص كتب التراجم على تاريخ وفاته ولكن كثرة أساتذته الذين عاشوا بين سنتى ٦٠٠ و ٦١٢ يدلون بحياتهم على أنه عاش فى القرنين السادس والسابع للهجرة . ومن قوله فى التصوف :

اللّهَ قُلْ ودَعِ الوجـــودَ وما حَوَى ... إن كنت مرتـــادا بلوغَ كمـــالِ
فالكلُّ دونَ الله إنْ حَقّقْتَـــهُ ... عدمٌ على التفصيل والإجمـــالِ
والعارفـــون فَنُوا ولمّـــا يَشْهَدُوا ... شيئـــا سوى المتكـــبِّر المتعـــالى
ورأوا ســـواه على الحقيقة هالكـــا ... فى الحـــال والمـــاضى والاستقبالِ
من لا وجـــود لذاتـــه من ذاتِهِ ... فوجـــوده لـــولاه عَيْنُ مُحـــالِ
فالْمَحْ بطَرْفك أو بعقلك هل ترى ... شيئا سوى فعلٍ من الأفعـــال
وانظر إلى أعلى الوجـــود وسُفْلِهِ ... نظـــرا تـــؤيِّده بالاستـــدلال
تجد الجميعَ يشير نحـــو جلالِهِ ... بلسان حـــالٍ أو لســـان مقـــالِ
وجب الوجـــودُ لذاتـــه وصفاتِهِ ... فَـــرْدًا عن الأكْفاءِ والأمثـــال
يبقى وكلٌّ يضمحلُّ وجـــودُهُ ... مـــا واجـــبٌ كمقيَّدٍ بزوال

والأبيات من أول بيت إلى آخر بيت تقول ليس فى الوجود سوى الله فتعلَّق به ودع ماسواه ، فالكل - كما يقول فى البيت الثانى - عدم ، والعارفون من المتصوفة فنوا فى ربهم ، ولم يشهدوا فى الوجود سواه ، ويقول إن من لا وجود لذاته من ذاته كربُّ العزة فوجوده لولاه ضرب من المحال ، وانظر بعينك أو بعقلك هل ترى إلا فعلا من أفعاله : أعلى الوجود وسفله ، والجميع يشير نحو جلاله بلسان مقال معترف أو بلسان حال شبه معترف بأنه واجب الوجود لذاته وصفاته الإلهية ، متفردا بذلك عن الأشباه والأمثال ، فليس كمثله شىء فى الوجود ، إذ يبقى وحده ويفنى الكل ، فهو وحده واجب الوجود وكل ما عليها فان . ويستمر منشدا :

هو مُمْسِكُ الأشياء من عُلْوٍ إلى ... سُفْلٍ ومُبْدِعُها بغير مثـــالِ
فاسكـــنْ إليـــه بهمَّـــةٍ عُلْوِيَّةٍ ... متنزهـــا عما سوى الفعَّـــالِ
وهو الذى يُرْجَى ويُخْشَى لا تَلُذْ ... بسواه فى حـــالٍ من الأحـــوال
فالشَّرعُ جاء بذا وأنـــوارُ الهدى ... قد أيَّدَتْـــهُ فَعِشْ خَلِيَّ البـــال

وابن أبى العيش يقول إن الله هو الذى يمسك السموات وغير السموات أن تزول وهو الذى يبدعها على غير مثال مرسوم ، فاطمئن إليه بهمة روحية فإنه الفعّال لما يريد ، وهو موضع الخوف والرجاء فلا تَلُذْ بسواه . جاء بذلك الشرع والحديث النبوى ، وتمسَّك بذلك تعش رضىَّ النفس خلىَّ البال . وله أبيات يصور فيها اعتزاله الخلق وانقطاعه إلى الحق رب الخلق يقول :

قنعتُ بما رُزِقْتُ فلستُ أَسْعَى	لــدارِ أبى فــلانٍ أو فــلانِ
وآثرتُ المقـــامَ بِكِسْرِ بيتى	ولا أحــــدٌ أراهُ أو يرانــى
ولا أَلْقَى خليـــلاً غيرَ صَبْرٍ	مُعِينٍ فى المعـــارفِ أو معانى
وقد أيقنت أن الــــرِّزْقَ آتٍ	وإنْ لــم آتـــه سَعْيًا أتانى
وقد حققتـُـه فهمـا وعلمًا	وقد شاهدتـــه رأىَ العِيـــانِ
فلازمْ ذا بإخـــلاصٍ تُمَكَّــنْ	هنـا وهنـــاك من أسْنَى مكانِ

والقطعة مع ما تصور من الانقطاع إلى عبادة الله تصور مبدأ التوكل المعروف عند المتصوفة بحيث لا يفكرون فى رزقِ الغد وأن ما سيرزقون به آت لا ريب فيه ، وهو يقول إننى قانع برزقى ، ولست أحاول أن أتسول من فلان أو أبى فلان ، إذ تكفينى كِسْرَة بيتى ولا أحد يرانى متذللا لأحد ، ولا أبحث عن خليل يعيننى ، غير صبر أستعين به فى دراسة المعارف أو بعض المعانى ، وقد أيقنت أن رزقى آتٍ سعيت إليه أو لم أسع ، عرفت ذلك وتحققت منه فهما وعلما وخبرة . واعمل بذلك تَحْظَ بأرفع مكان .

إبراهيم[1] التازى

هو إبراهيم بن محمد بن على التازى حفظ القرآن وأكبَّ على دراسة العلوم ، وحج وحضر دروس الشيوخ فى مكة والمدينة وتونس وتلمسان ، وبدت فيه ميول قوية للتصوف ولبس الخرقة من الشيخ صالح الزواوى بسنده إلى أبى مدين ، واشتهر بالتازى لولادته فى بربر تازا بالمغرب الأقصى ، وانتهى به المطاف إلى وهران ولقيه شيخها الصالح محمد بن عمر الهوارى لقاء حسنا ، وعنه ورث زاويته وطلابها بعد وفاته ، واشتهر ذكره ، وممن تتلمذ له الإمام السنوسى ، ويقال إنه هو الذى ألبسه الخرقة الصوفية . ويقول القلصادى إنه أقام معه فى زاويته ، ووجده معتنيا بكلام شيخه الهوارى ، وكان يقول : العالم لا تعاديه – والجاهل لا تصافيه – والأحمق لا تواخيه . وتوفى إبراهيم التازى سنة ٨٦٦ هـ/١٤٦١ م ذكر ذلك

---

(١) انظر فى ترجمة التازى تعريف الخلف ١١/٢ والبستان ص ٥٨ .

غير واحد ممن ترجموا له . وشعره الصوفي والنبوي كثير ويموج الأول بالدعوة إلى المحبة الربانية من مثل قوله :

أبعد الأربعين تروم هزلاً ... وهل بعد العشيّة من عرارِ
فخلّ حظوظَ نفسك والهُ عنها ... وعن ذكر المنازل والديار
فما الدُّنيا وزُخرفها بشيء ... وما أيّامُها إلا عواري
فتُبْ واخلَعْ عِذارك في هوى مَنْ ... له دارُ النعيم ودارُ نارِ(١)
جمالُ الله أكملُ كلِّ حُسْنٍ ... فَلِلّهِ الكمالُ ولا مُمارى
وذكرُ الله مرهمُ كلِّ جُرحٍ ... وأنقَعُ من زُلالٍ للأُوار(٢)
ولا موجودَ إلا اللهُ حقًّا ... فدَعْ عنك التعلقَ بالشَّنار(٣)

وهو يقول لصاحبه أتروم هزلا بعد سن الأربعين ، والشطر الثاني شطر بيت للصِّمَّة القشيرى ، والعرار نرجس برى ، يقول الصمة لصاحبه والإبل تسرع بهم إنه لن يتمتع بعد العشية بعرار فقد فات وقته ، كما فات وقت الهزل بعد الأربعين كما يقول التازى ، ويقول دع ما أنت فيه من غزل وتعلق بجمال المرأة ، فالدنيا ليست باقية ، وتعلق بمن لديه دار النعيم ودار الجحيم ، فجماله أعظم وأكمل من كل جمال ، وإن ذكره لشفاء لكل جرح ، وزلال بارد لكل عطش متقد ، إنه لا موجود سواه ، فدع عنك التعلق بما تعاب به ، ويُعَد قبيحا منك أي قبح . وله :

حسامي ومنهاجي القويمُ وشِرْعتي ... ومنجايَ في الدّارَيْن من كل فتنةِ
محبّةُ ربِّ العالمين وذكرُه ... على كلِّ أحْيانى بقلبي ومهجتي
وأفضلُ أعمالِ الفتى ذكرُ ربِّه ... فكُنْ ذاكرا يذكرْك بارى البَرِيَّة
وما من حسامٍ للمريدين غيرُهُ ... وكم حَسموا ظهرًا لـزارٍ وباهتِ(٤)
وكم بَدَّدوا شملا لذى جُرْءةٍ وكم ... أبادوا عدوًّا مسَّهم بِمضَرَّةِ
وكم دافع اللهُ الكريمُ بذكرهمْ ... عن الخلق من مكروهةٍ ومُبيرة(٥)
وأفضلُ ذكرٍ دعوةُ الحيِّ فلتكن ... بها لَهِجًا في كل وقتٍ وحالةِ
فكثرةُ ذكر الشيء آيةُ حبِّهِ ... وحَسْبُ الفتى تشريفُه بالمحبّةِ

هو يقول إن شجاعتي ومنهاجي القويم في الحياة وشريعتي ومنجاى في الدارين من كل

---

(١) خلع العذار : أراد به الشاعر الانهماك في الحب .
(٢) الأوار : حرارة العطش .
(٣) الشنار : العيب والقبيح والعار .
(٤) زار : عائب . باهت : مندهش .
(٥) مبيرة :فاسدة ، مهلكة .

فتنة كل ذلك فى محبة رب العالمين وإنى لأذكره فى كل حين بقلبى ومهجتى ، وهل فى الدنيا عمل أفضل من ذكر الإنسان لربه ، فاذكره دائما ، اذكرْ خالق الخلق ومنشئهم ، وهل للمريدين تلامذة المتصوفة حسام سواه ، وكم قضوا على زار هازىءٍ وباهت متعجب وكم بدَّدوا جمعا جريئا وكم أبادوا عدوا لهم حاول أن يؤذيهم ، وكم دفع الله الكريم بذكرهم له عن الخلق من مهالك . وإن أفضل ذكرٍ دعوة الله فكرِّرها فى كل وقت وإن كثرة ذكر الشىء لأكبر دليل على حبه ، وإن محبة الله لشرف للإنسان أى شرف . وله قصيدة صوفية ذاعت وشاعت فى الجزائر باسم المرادية ، وتسمى أيضا باللامية ، استهلها بقوله :

مُرادى من المــولى وغايةُ آمــالى ... دوامُ الرِّضا والعَفْوُ عن سوء حالى
وإسقــاطُ تدبيرى وحــولى وقــوَّتى ... وصدقىَ فى الأحوال والفعل والقالِ

والتازى يقول إنه يطلب من ربه دوام الرضا والعفو ، وإنه ليأمل منه أن يسقط عنه التدبير شأن الصوفية العظام فلا يفكر فى شأن من أمور معاشه وحياته ، ولا حول ولا قوة حتى ولا صدق له فى حال ولا فى فعل أو قول . وقد شرحها محمد الصباغ القلعى فى القرن العاشر الهجرى بشرح سماه : « شفاء الغليل والفؤاد فى شرح النظم الشهير بالمراد » سماها المراد استكمالا للسجعة ولابن مريم عليها شرح كما ذكر فى ترجمته له . ومنها فى وصف المريد تلميذ الشيخ الصوفى وتابعه :

وغُنْمُ مريدٍ فى انقيــادٍ لكاملٍ ... له خبرةٌ بالوقتِ والعلـم والحالِ
هو السرُّ والإكسيرُ والكيميا لمن ... أراد وصــولا أو بَغَى نَيْلَ آمالِ
وقد عَدِمَ النـاسُ الشيوخَ بِقُطْرنا ... وآخرهـم شيخى وموضعُ إجلالى
وقد قال لى : لـم يبق شيخٌ بغَرْبنا ... وذا منذ أعـوامٍ خلونَ وأحوالِ(1)
يشير إلى أهـل الكمــال كمثلهِ ... عليه من اللهِ الرِّضـا ما تَلاَ تالى

وهو يجعل المريد كأنه آلة مسخرة فى يد شيخه الخبير بزمنه وبالعلم وبأحوال التصوف ، إذ ينقاد له بكليته ولا يخرج بأى صورة عن إرادته . ويعظِّم الشيخ الصوفى إذ يجعله السر الإلهى والإكسير والكيمياء اللذين يحوِّلان المعدن ذهبا ، وبيده الأصول ومفتاح كل الآمال . وكنا نؤثر أن يترفع الشيخ التازى عن مثل هذه الدعاوى فى شيوخ الصوفية ، التى جعلت الناس يبالغون فيهم ويقولون بالقطب وما إلى القطب من الأبدال ، بل لقد أعدَّ ذلك لظهور دجاجلة المتصوفة ومن يرتزقون باسم صوفى سنى كبير . والتازى يستمر فيقول إن الناس عدموا

---

(1) خلون : مضين . أحوال : سنوات .

فى الجزائر شيوخ المتصوفة الحقيقيين وآخرهم كان شيخه محمد بن عمر الهوارى الذى كان يقول له ذلك قاصدا به أهل الكمال من الصوفية أو الصوفية الحقيقيين .

٥

شعراء المدائح النبوية

يأخذ شعراء المدائح النبوية فى الكثرة بالجزائر والبلاد المغربية منذ القرن السابع الهجرى، وخاصة منذ النصف الثانى منه، وفى مقدمتهم محمد بن الحسن بن ميمون القلعى البجائى الذى أنشدنا له مقطوعة طريفة فى التصوف وكان يكثر من النظم فيه وفى المديح النبوى مثل قوله(١) :

أمن أجْلِ أن باتوا فؤادُك مُغْرَمُ ... وقلبُك خفّاقٌ ودَمْعُك يَسْجُمُ(٢)
وما ذاك إلا أنَّ جسمك منجِدٌ ... وقلبُك مَعْ من سار فى الركب مُتْهِمُ(٣)
وما ضرَّهم لو ودَّعوا يوم أودعوا ... فؤادى بتذكار الصَّبابةِ يُضْرَم
وإنى لأدعو الله دعوةَ مذنبٍ ... عسى أنظرُ البيت العتيق وألْثِمُ
فيا طول شوقى للنبيِّ وصَحْبِهِ ... ويا شدَّ ما يلقى الفؤادُ ويكتُم
إليك رسولَ الله أرفعُ حاجتى ... فأنت شفيع الخلق والخلقُ هُيَّمُ(٤)
وقد أثقلتْ ظهرى ذنوبٌ عظيمةٌ ... ولكنَّ عفو الله أعلى وأعظمُ

وهو لايخفى صبابته بأصحابه الذين فارقه موكبهم العظيم إلى الحج وزيارة الأراضى المقدسة وقلبه يخفق ودمعه يسجم ، فقد أنجد جسمه وفارق قلبه متهما مع من يرودون تهامة إلى مكة والمدينة ، ويقول ما ضر رفاقى الذين ستكتحل عيونهم بنور هذه البقاع الطاهرة لو ودعونى يوم رحيلهم حين أودعوا فى فؤادى نار الصبابة مضطرمة ملتهبة ، وإنى لأدعو الله دعوة خاشع بل دعوة مذنب أن يتاح لنظرى أن يكتحل بنور البيت العتيق وأقبِّل الحجر الأسود كما قبله الرسول الكريم ، وما أشد شوقى للرسول وصحبه ، وما أشد ما يلقى فؤادى وأكظم . وإنى يا رسول الله أتمنى عليك أن تشفع لى كما تشفع لجميع الخلق يوم القيامة ، وهم جميعا عطاش عطشا شديدا والحر من الزحام آخذ بخناقهم ، وقد أثقلتْ ظهرى ذنوبى ، ولكن أملى فى عفو الله أكبر وأعظم . وكان عبد المنعم الغسانى فقيه مدينة الجزائر وأديبها وشاعرها فصاحةَ لسان وإحكامَ بيان وتولى القضاء فى بجاية مدة طويلة ، وتوفى فى عشر الثمانين وستمائة ، ومن نبوياته قوله(٥) :

(١) عنوان الدراية ص ٧٠ .
(٢) يسجم : يسيل .
(٣) منجد : فى نجد . متهم : فى تهامة .
(٤) هيم : عطاش .
(٥) عنوان الدراية ص ١١٢ .

لكـــل نبيٍّ دعـــــوةٌ مُسْتجابةٌ   وسَيِّدُهُمْ طُـــرًّا خبَاهَـا لأمَّتِهْ
إلى يـــومَ لا يُغْنِي عن المرء منطقٌ   فصيحٌ ولا يُدْلـــي البليغُ بحجتـــه
ويـــوم يفرّ المَرْءُ من ولـــدٍ له   حبيبٍ ولا يُجْزَى أبٌ بأبوَّتـــــه
وكـــل نبيٍّ يسـألُ الله نَفْسَـــهُ   ويَضْرِبُ صَفْحًا عن سؤالٍ لأمَّته[1]
خلا شافـع فينـا كريـــم مشفَّعٍ   بـه يشملِ الله العبـــادَ برحمتـه
فيا ربَّه بَلِّـــغْ عُبَيْدَك قـــبره   ليحظى بتقبيـــلٍ لطاهـــر تربتـه
وجـــازِهِ عنا بالذى أنت أهلُـــه   أعـــزَّ الـــورى أنت الكفيلُ بمِنَّته

وهو يقول إن لكل نبى دعوة مستجابة ، وسيد الأنبياء جميعا محمد ﷺ خبأ دعوته إلى يوم القيامة الموصوف فى سورة عبس بقوله جل شأنه : إنه يوم الصاخة التى تصخ الآذان وتصمها ، فلا يستطيع أحد نطقا ولا كلاما (يوم يفرّ المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه) وحتى الأنبياء يشغلون بأنفسهم عن أممهم إلا سيد الخلق جميعا رسول الأمة الإسلامية فيدعو الله متشفعا لأفرادها فى هذا اليوم يوم المحشر الرهيب ، ويقبل الله شفاعته ، ويشمل بها العباد برحمته . ويتوسل الشاعر إلى ربه أن يبلغه المدينة ليحظى بتقبيل قبره الطاهر ، ويسأله أن يجزيه عن أمته بما هو أهله ، إنه خير الورى وهو الكفيل بإعطائه ما يتكافأ مع حقه وجزائه . ونلتقى بإبراهيم[2] بن أبى بكر التلمسانى المتوفى سنة ٦٩٧ هـ/١٢٩٨ م والذى افتتح به أبو القاسم الحفناوى كتابه : « تعريف الخلف » وله أمداح نبوية منها – كما ذكر من ترجموا له – المعشرات على أوزان العرب ، وكانت كل قافية تشتمل على عشرة أدوار ، وله مدحة فى المولد النبوى ، ولم يذكر من ترجموا له شيئا من شعره فى مدح الرسول ﷺ . ويلقانا بأخرة من القرن السابع ومطالع القرن الثامن محمد بن عبد الله بن محمد العطار وسنخصه بترجمة.

وكان المشرق قد استنّ الاحتفال بالمولد النبوى فى ليلة الثانى عشر من ربيع الأول فى القرن الحادى عشر الميلادى بمصر أيام الفاطميين بطريقة رسمية ، وأول احتفال به بطريقة جماهيرية شعبية كان فى إربل لأوائل القرن الثانى عشر الميلادى إذ احتشد له الحاكم الأيوبى والعلماء والشعراء والمتصوفة من مختلف البلاد العراقية وذبحت فيه ذبائح كثيرة وطاف الناس ليلا فى مواكب بمشاعل متوهجة وشاع ذلك فى البلدان . ونقله أبو العباس[3] العزفى الشريف إلى سبتة مدينته ، وعنها شاع فى تلمسان وغيرها من البلاد المغربية . وكان الذى أشاعه فى

(١) يضرب صفحا : يعرض .
(٢) له ترجمة فى بغية الرواد ليحيى بن خلدون ١٠٩ والإحاطة ٣٢٦/١ والبستان ص ٥٥ وتعريف الخلف ١٣/١ .
(٣) أزهار الرياض ٣٩/١ .

تلمسان والجزائر وجعله تقليدا للدولة الزيانية أبا حمو موسى (٧٦٠ - ٧٩١هـ) . يقول أبو عبد الله التنسى فى كتابيه[1] : « راح الأرواح فيما قاله أبو حمو من الشعر وقيل فيه من الأمداح » ونظم الدر والعقيان فى بيان شرف بنى زيان : إن أبا حمو موسى كان يقيم ليلة مولد المصطفى ﷺ ويدعو لها فى احتفال كبير يحشد فيه الناس خاصة وعامة ، وما شئت من نمارق (وسائد) مصفوفة ومجالس مبثوثة وبُسطٍ موشّاة ، ووسائد بالذهب مغشّاة ، وشمع كالأسطوانات وموائد كالهالات ، وتُفاض على الجميع أنواع الأطعمة ، رُتِّبَ فيها الناس على مراتبهم ، تطوف عليهم ولدان لبسوا أقبية الخزِّ الملون ، بأيديهم مباخر ومرشات ، ينال كل منها بحظه . ويعقب ذلك يبدأ المنشدون بأمداح المصطفى ﷺ ، وبمكفِّرات ترغِّب فى الإقلاع عن الآثام ، يخرجون فى كل ذلك من فن إلى فن ومن أسلوب إلى أسلوب ، ويأتون من ذلك بما تطرب له النفوس وترتاح إلى سماعه القلوب . وبالقرب من السلطان خزانة المنجانة « الساعة الدقاقة » الموصوفة فى الحديث عن الرفه بفصل المجتمع ، وقد زُخرفت ، ولها أبواب مغلقة على عدد ساعات الليل الزمانية، وكلما مضت ساعة وقع النقر بقدر حسابها ، ويفتح عند ذلك باب من أبوابها ، وتبرز منه جارية بديعة وبيدها اليمنى رقعة تشتمل على نظم فيه تلك الساعة ، ونسوق ما تقوله بعد انقضاء ثلاث ساعات من الليل ، وجميع ما تقوله مديح فى أبى حمو[2] :

أمولاى يا بن الملــوك الألى ... لهم فى المعـــالى سنىُّ الرُّتَبْ
تولَّتْ ثلاثٌ من الليل أبْقَتْ ... لك الفخرَ فى عُجْمها والعرب
فدُمْ حُجَّـةَ الله فى أرضــهِ ... تنــالُ الذى شئته مـن أرَب

ولايزالون فى هذا الحفل النبوى إلى انبلاج عمود الفجر ونداء المؤذن حىَّ على الفلاح يبشِّر بصلاة الصباح. وكانت كل ليلة فى المولد النبوى لكل عام تبدأ بمدحة نبوية، وتسمى المدحة فى مولده ﷺ مولدية نسبة إلى أنها نظمت فى مولده، ومن قول أبى حمو فى إحدى مولدياته[3] :

حيــاتى ومـوتى فى هواكـم وإننى ... أعلِّل نفسى فيكــمُ بالأمــانىً
فيا أهل نجدٍ أنجدونى على الهــوى ... فإنِّىَ فى بَحْرٍ من الشَّــوق لُجِّىٍّ[4]
مقيمٌ بأقصى الغرب أشكو به الجَوَى ... وحالى على حكم النَّـوى غيرُ مخفىٍّ

(١) أزهار الرياض ٢٤٣/١ ومابعدها وقارن بتاريخ بنى زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر والعقيان لأبى عبدالله التنسى ص١٦٢.
(٢) انظر فى أبيات المنجانة طوال ساعات الليل أزهار الرياض ٢٤٦/١ .
(٣) تاريخ بنى زيان ملوك تلمسان لأبى عبد الله التنسى ص١٦٦ .
(٤) لجى : متراكم الأمواج .

تناسيتـــمُ عهـدى وحفظَ مـودَّتى ‌‌ وحُبُّكُمُ فـى القلـــب لـيس بمنسىّ
ومـا أرتجـى إلا شفاعـةَ خيْرِ مَنْ ‌‌ أتى بالهُـــدّى يهـدى بدينٍ حَنيفىّ[1]
بهِ يَرْتجى العاصــون غُفـران ذنبهم ‌‌ وما عملوا فى الدَّهر من عملٍ سَىّ[2]
بمولـده قد أشرق الكـــونُ كلُّه ‌‌ وكـــلُّ سَنَا شمسٍ وبَـــدْرٍ ودُرِّىّ

فحياة « أبو حمو » وموته فى هوى الرسول ﷺ ، وإن نفسه لتمتلىء إزاءه بما لا يحصى من الآمال ، ويستغيث بأهل نجد أن ينجدوه على الهوى فإنه غارق من الشوق فى بحر لجى كثير اللجج لا أول له ولا آخر ، مقيم بأقصى الغرب فى تلمسان يشكو الوجد ، وحاله من البعد غير خاف . وتنتابه لحظة شك ، فيقول : تناسيتم عهدى ومودتى ونار حبكم فى قلبى لا تخمد ولا تنطفىء ، وإن كلى رجاء أن يشفع لى خير مشفع أتى بالهدى وبدين حنيفى مستقيم لا عوج فيه ، وإن العاصين ليقفون ببابه آملين فى شفاعته وأن يغفر لهم ربهم ما اقترفوا من آثام أو أعمال بالغة السوء ، وإنه لنور الوجود فمنه أشرق الكون كله ، ومنه ضوء كل شمس وبدر وكوكب درىّ . وللثغرى مولدية فى نفس السنة التى قال فيها أبو حمو مولديته السالفة وفيها يقول[3] :

شمسُ الرسـالة والنبـوة والهـدى ‌‌ بـدرُ الجلالـــة نـورُها المتجسِّمُ
هـو رحمـــةُ الله التى يهمى بهـا ‌‌ فى الخلق بالحـق المبين ويحكم[4]
يا من لـــه قبـل الـولادِ وبعده ‌‌ آيـــاتُ إرشادٍ لمـــن يتوسَّمُ[5]
أسْرَيتَ للسبع الطِّبـــاق فأقبلتْ ‌‌ أملاكُها طُـــرًّا عليك تسلِّـمُ
وتبرَّكتْ بصـــلاتك الأرســـالُ إذْ ‌‌ صلَّتْ وأنت إمامُهـــا المتقـدمُ
رُفِعَتْ لك الحجُبُ العظيمة فاعتلى ‌‌ بك للعُلَى ذاك المقـــامُ الأعظم
حتى سمـعتَ صَريرَ أقـلامٍ بمـا ‌‌ فى اللَّوحِ محفوظـــا تَخُطُّ وتَرْسمُ
تلك المـراتبُ لـم يكن لينالهـــا ‌‌ إلا النبىُّ الهـــاشمىُّ الأكـــرم

والثغرى يقول إن الرسول شمس الرسالة الساطعة وبدر الجلالة المنير ونورها الدرىّ المتجسِّد ، إنه رحمة الله التى لا تزال تنصبّ فى الخلق بالحق وتحكم ، يا أيها الرسول العظيم الذى سبقته وجاءت معه آيات ومعجزات لمن يتوسم الخير ويأمله . وهل معجزة أعظم من معجزة المعراج واختراق السموات السبع والملائكة حافون به يسلمون عليه ، وهبط إلى بيت المقدس فأمَّ به الرسل ، إنه إمامهم المقدم الأعظم ، ورفعت له الحجب حتى سمع صرير الأقلام وهى تكتب فى اللوح المحفوظ ما خُطَّ للناس ورسم لهم . وتلك المراتب العليا لم يكن ليظفر

(١) حنيفى : مستقيم لا عوج فيه
(٢) سىّ : سىء وخفف للقافية .
(٣) انظر تاريخ بنى زيان ملوك تلمسان ص ١٧١ .
(٤) يهمى بها : يصبّ بها وينشر .
(٥) يتوسم : يتفرس ويتأمل .

بها أحد إلا النبي العربي الهاشمي العظيم. ويذكر لنا يحيى بن خلدون في الجزء الثاني من كتابه بغية الرواد مولدية له ألقاها بين يدي أبي حمو موسى سنة ٧٧٨ وفيها يقول مادحا الرسول الكريم:

سيِّدُ العالمـــين دُنيا وأُخْرَى ... أشرفُ الخَلْق في العُلا والسماحِ
صفوة الخلق أَرْفَعُ الرُّسْلِ قَدْرًا ... وسراجُ الهدى وشمسُ الفـلاحِ
من رَقَى في السَّماء سَبْعًا طباقًا ... ورأى آيَ ربِّه في اتضــاحِ(١)
ودنا منـــه قـابَ قوسَيْن قُرْبًا ... ظـافـرا في العـلا بكل اقتراحِ
مَنْ يُجير الوَرَى غَدًا يوم يُجْزَى ... كلُّ عاصٍ وطائـعٍ باجْتراحِ(٢)
مَنْ إلى حَوْضِه وظـــلِّ لِـواهُ ... يلجـأُ الناسُ بين ظامٍ وضاحِ(٣)

ويحيى بن خلدون يقول إن الرسول سيد العالمين طرا دنيا وأخرى، وأشرف الخلق وصفوتهم وأرفع الرسل قدرا ومنزلة عند ربه، وسراج الهدى وشمس الفلاح، من منحه الله معجزة المعراج الكبرى، فصعد به سبع سموات طبقة بعد طبقة و (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) كما جاء في سورة النجم ودنا منه أي من جبريل (قاب قوسين أو أدنى) أي قدر ذراعين تقريبا ظافرا من ربه بكل ما توسل به إليه، منزلة لم يحظ بها رسول قبله. وحسبه من محبة الله له أنه سيكون المجير لا للطائعين فحسب بل أيضا للعصاة يوم الفزع الأكبر: يوم الحشر الموعود، وسيقف على حوضه ويمتد عليه لواء معلم ويسقى منه أمته يوم القيامة. وعلى عادة أصحاب المولديات التي تلقى في الاحتفالات الكبرى بليلة المولد النبوى يستطرد يحيى بن خلدون في مولديته - كما استطرد الثغرى أيضا في مولديته - لمديح أبي حمو موسى. وعادة يتقدم المديح النبوى في المولدية نسيب يكتظ بالوجد والصبابة وأحيانا يمزج ببعض الوعظ.

وكانت المدائح النبوية لا تزال تنظم بجوار هذه المولديات، واشتهر بالنظم فيها غير شاعر مثل عبد الله البسكرى الصوفى معاصر يحيى بن خلدون، فهو من شعراء النصف الثاني من القرن الثامن الهجرى، وله في مديح المدينة قوله(٤):

دارُ الحبيـــب أحقُّ أَنْ تهواهـــا ... وتَحِنَّ من طـربٍ إلى ذِكْراهـــا
وعلى الجفون متى هممتَ بزَوْرةٍ ... يا بنَ الكرام عليك أن تغشـاها
فـلأنـتَ أنتَ إذا حـللتَ بطَيْبَةٍ ... وظَلِلْتَ تَرْتَعُ في ظلال رُباهـا(٥)
معنى الجمـالِ مُنَى الخواطر والتي ... سلبتْ عقـولَ العاشقين حُلاها

(١) رقى: صعد. طباقا: طبقة فوق طبقة.
(٢) اجتراح: اكتساب السيئات والحسنات.
(٣) ظام: في أشد العطش. ضاح: أصابته حرارة الشمس.
(٤) تعريف الخلف ٢/٢٤٠.
(٥) طيبة: المدينة.

لا تَحْسَبِ المِسْكَ الذَّكِيَّ كتُرْبِها هيهات! أين المسكُ من رَيَّاها[1]؟!
طابتْ فإن تَبْغِ التطيُّب يا فتى فأَدِمْ على الساعاتِ لَثْمَ ثَرَاهـا

والبسكرى يقول إن دار الحبيب أحق دار بأن تهواها ويملأك الحنين شوقا إلى ذكراها ومتى هممت بزيارة أصبح واجبا عليك أن تغشى تلك الدار وتكتحل جفونك بمرآها وما أعظمك إذا حللت بها وتنقلت فيها ، إنها معنى الجمال وبها جميع منى الخواطر ، وطالما سلبت حُلاها عقول عاشقيها الهائمين بها وجدا وصبابة . وإن ترابها ليفوق المسك العاطر وهيهات ؟ أين المسك من شذاها الطيب ، لقد طابت فإن تبغ التطيب والتعطر فأدم تقبيل ثراها الذكى العطر .

وتلقانا شروح كثيرة لبردة البوصيرى فى المديح النبوى ، من ذلك شرح لسعيد[2] العقبانى المتوفى سنة ٨١١ للهجرة وثلاثة[3] شروح لابن مرزوق الحفيد أكبر وأوسط وأصغر ، وسمى الأكبر إظهار صدق المودة فى شرح البردة ، وسمى الأصغر الاستيعاب لما فى البردة من البيان والإعراب ، وشرحَ قصيدة الشقراطسى التونسى النبوية بشرح سماه المفاتيح القرطاسية فى شرح الشقراطسية . ونلتقى بالشهاب بن الخلوف بأخرة من القرن التاسع الهجرى ، وله ديوان جميعه مديح نبوى ، ولم يُتَحْ لى أن أراه ، غير أن ديوانه الكبير المنشور بتونس به مجموعة من المدائح النبوية ، ونذكر منها توسلا بديعا بالرسول كى يغفر الله له ذنوبه ، وفيه يقول[4] :

يا أرحمَ الراحمين ارْحَمْ وجُدْ كرمًا فأنتَ أنتَ أمانُ الخائفِ الوَجِلِ
واغفرْ بطَه ذنوبًا ليس يغفرُها إلاَّك يا غافرَ الأوزار والخطَلِ[5]
ونَجِّنى واعفُ عنى وَأْتِنِى مِنَحًا تنيلنى الفوزَ فى حِلٍّ ومُرْتَحَلِ
وصَلِّ ربٍّ على المختار من مُضَرٍ خير النبيين والأملاك والرُّسُلِ
روحُ العوالم سِرُّ الكون أجمعهِ إكسيرُ كنزِ المعالى عِلَّةُ العللِ[6]
عليه صَلَّى إلـهُ العَرْشِ ما اتضحتْ آياتُ شمس الضحى فى دارة الحَمَلِ[7]
وآلهِ الغُرِّ والأصحاب ما خطرتْ معاطفُ البان فى أثوابها الخُضُلِ[8]

وهو يدعو ربه أن يجود عليه بالرحمة ، فإنه أمان الخائف الفزع ، ويتوسل إليه بالرسول أن يغفر ذنوبه وآثامه ، وهل يغفرها سواه ؟ إنه الرحيم الغفار ، ويسأل رب العزة النجاة والفوز مقيما وراحلا ، كما يسأله أن يصلى على رسوله العربى خير النبيين والملائكة والرسل ، ويقول إنه روح الوجود وسر الكون ، وإكسير المعالى الذى يرفعها إلى الذرى وعلة العلل فى الوجود

(١) ريّاها : رائحتها الذكية الطيبة .
(٢) البستان ص ١٠٦ .
(٣) البستان ص ٢١٠ .
(٤) الديوان ص ٦٦ .
(٥) الأوزار : الآثام .
(٦) الإكسير : مادة تحول المعدن ذهبا .
(٧) الدارة : الهالة . الحمل : برج الشهر الأول فى الربيع .
(٨) الخضل : الخضراء الندية .

جميعه . وهذا البيت يجمع كل ما قاله البوصيرى وغيره عن الحقيقة المحمدية وأنها سر الكون وعلته ، ومنها يستمد نوره وضياءه . ويقول صلى عليه إله العرش طالما اتضحت شمس الضحى فى أزمنة الربيع أى طوال الدهر ، وصلى أيضا على آله الأشراف وأصحابه ما ظلت أغصان البان ريّانة ندية أى على مر الزمن .

ونمضى إلى العهد العثمانى ، وفيه يكثر المديح النبوى كثرة مفرطة حتى لينظم فيه كل شاعر مدحة أو أكثر ، وقد ينظم فيه ديوانا مثل عبد الكريم الفكون المتوفى سنة ١٠٧٣ هـ/١٦٦٢ م إذله ديوان فى المديح النبوى وقد رتبه على حروف المعجم ، وجعل مبدأ كل مجموعة من أبيات كل قافية حرفا من حروف : « اللهم اشفنى بجاه محمد آمين » وجملة حروف هذه الصيغة خمسة وعشرون حرفا ، فى كل حرف مثلها أبياتا ففى قافية الهمزة خمسة وعشرون بيتا ، وهكذا إلى آخر الحروف ، وانتهى الفكون من نظم الديوان سنة ١٠٣١ هـ/١٦٢١ م وكان قد أصيب بشلل فى هذه السنة ألزمه الفراش ، فشفاه الله منه ، وله قصائد مختلفة فى التوسل إلى ربه . وكان يعاصره سعيد المنداسى التلمسانى الذى ترجمنا له فى شعراء الهجاء وكان يجمع بين الشعر الشعبى والشعر الفصيح ، ونظم كثيرا من الشعر الأول ، واشتهر فيه بقصيدة نبوية فى نحو ثلاثمائة بيت سماها « العقيقة » وشاعت بين أهل الجزائر شيوعا كبيرا ، ولأبى راس عليها شرح سماه الدرة الأنيقة ، ويقال له عليها سبعة شروح ، ولكل شرح عنوانه الخاص . وفى الديوان الذى نشره له الأستاذ رابح بونار أربع قصائد نبوية ، وقد أنشدنا قطعة من غزل أولاها فى باب الغزل ، ومن قوله فى مديحها النبوى[1]

هل رأيتم أو سمعتم حَسَنـًا ... فى الْورى من حُسْنه الحسنُ اكْتَمَلْ
أحمدُ المبعوث فينا رحمةً ... خَيْرُ من قام بحقٍّ وكَفَلْ
آيةُ الله أمينٌ صادقٌ ... وحبيبُ الله برٌّ مُتَفضِّلْ[2]
قد تجلَّى - إذ تجلَّى - بَدْرُهُ ... بالبَها من ربِّه عزَّ وجَلّ
فامتطى مَتْنَ جوادٍ للعلا ... خافقٍ كالبَرْق للوصل رَفَلْ[3]
أمَّ رُسْلَ اللهِ ليلاً وارْتقى ... للمنى يطوى من السَّاح الكِلَلْ[4]
آدمُ المبرور صلَّى خلفَهُ ... وأولو العزم مصابيحُ المِلَلْ
قد رأى من ربِّه مالا رأى ... قبله طَرْفُ نَبِىٍّ مُرْتَسَل

والمنداسى يقول : هل رأيتم أو سمعتم حسنا فى الورى ، كل حسن يستمد من أشعته النورانية ؟ إنه أحمد المبعوث رحمة هدية للعالمين ، أعظمُ من رعى الحقوق وأداها ، آيةُ الله الأمين

(١) ديوان سعيد المنداسى تحقيق الأستاذ رابح بونار ص ٤٠.
(٢) متفضل : شجاع .
(٣) رفل : زها وتبختر فى سيره
(٤) الساح : يريد السموات . الكلل : يريد الطباق .

الصادق وحبيبه البر المجاهد فى سبيله ، وقد حفَّه الله بهالة من البهاء ، فسخَّر البُراق له يعرج به إلى السموات السبع ، وأمَّ الرسل ليلا تكريما له . ويفيض سعيد المنداسى فى بيان معجزاته ، ثم يعود إلى معجزة المعراج ويقول إن الله خص به رسولنا من دون الرسل جميعا تكريما لا يماثله تكريم . ويتحدث المنداسى عن مولد الرسول فى مدحة نبوية ثانية قائلا[1] :

طَهَ الأمـــين الذى تُرْجى شفاعتهُ ... يومَ التلاقى وطىُّ الخلـق منشورُ[2]
مَنْ سَبَق الرُّسْلَ عند الله فى أزَلٍ ... فَضْلا وللخلق بعد الرسْـل تأخير
وانقضَّ إيــوانُ كسرى عند مولدهِ ... وغابَ من نارِ وَسْطِ الفُرْس تسعير[3]
وجَلَّل الأفْقَ منه النــورُ فى سحَرٍ ... كأنَّ فى الفَجْر هَدْىُ الصبح منحورُ[4]
وفى السمـاء خيول الشُّهْبِ راكضةٌ ... كأنها فى وغى الجـــو الزنـابيرُ[5]
وفى المنازل تحت العرش إذ علمتْ ... بمولد المصطفى الولـدان والحـورُ
تزينتْ وازدهـتْ وسـاغ مَشْرَبُهـا ... وطرَّبتها من الطـير الزمـاميرُ[6]
حول الخيـام الغصونُ اللُّدْنُ ساجدةٌ ... وللمـلائك تهليـــلٌ وتكبـير

وهو يقول إن طه الرسول الأمين الذى تُرجَّى شفاعته يوم الحشر الأكبر يوم كل إنسان يرى عمله المطوى منشورا تحت بصره . قد سبق الرسل فى الخلق والقدم الأزلى كما أن الرسل سابقون فيه بقية الخلق . ولقد حدثت معجزات شتى يوم مولده ، فقد انقض إيوان كسرى وانطفأت نار الفرس المجوس بعد أن ظلت مشتعلة متوهجة قرونا ، وعم الأفق منه نور فى السحر ، حتى ظُن أن هَدْى الإبل وغيرها إلى الكعبة ذبح فى فجر هذا النور استبشارا به . أما فى السماء فإن الشهب - ملأتها - زنابير . ويقول إن الولدان والحور العين فرحت بمولد الرسول وتزينت وامتلأت زهوا وسرورا وغنتها الطيور بمختلف الأغانى ، وحتى الغصون اللينة الناعمة حول الخيام سجدت لربها شكرًا . وهللت الملائكة وكبرت تكبيرا .

وينقل أبو القاسم الحفناوى فى كتابه تعريف الخلف عن أحمد[7] بن عمار بترجمته أن مجلِّى حلبة المولديات ومقدَّم الجماعة فيها وإمام الصناعة وركاب صعابها ومذللها عاشق الجناب المحمدى ومادحه بلا معارض ، ومثلِّث طريقتى البوصيرى وابن الفارض ، الشيخ أبو العباس أحمد المانجلاتى ، أتحفه الله بمنفهق رضوانه ، وألحفه مطارف (حلل) التكريم فى

(١) ديوان سعيد المنداسى التلمسانى ص ٦٩ .
(٢) طى الخلق : الكتاب الذى كان مطويا عن الخلق .
(٣) تسعير : اشتعال وتوهج .
(٤) الهدى : ما يضحى به من الإبل وغيرها نسكا .
(٥) الزنابير جمع زنبور : حشرة تلسع .
(٦) الزمامير : يريد أصوات الطير وألحانها .
(٧) انظر تعريف الخلف ٨٩/٢ .

أعالى جنانه ، ويقول الحفناوى أثبتّ من مولدياته ما يطرب ويروق ، ويبهر الشمس عند الشروق ، فمن ذلك قوله من موشحه[1] :

باللّهِ حادى القِطارْ قِفْ لى بتلك الديارْ واقْرَ السَّلامْ
سَلِّم على عُرْب نَجدِ واذكُرْ صبابةَ وَجْدِى كيف يُلامْ
مَنْ بادرتْه الدُّموعْ شوقًا لتلك الربوعْ مع المقامْ

وهو ينادى بالله على حادى القطار أى القافلة أن يقف بديار الحبيب ويقرئه السلام ، ويسلم على عرب نجد ، أصحاب الصبابة والوجد ، ويتساءل كيف يلام من ابتدرته الدموع شوقا لتلك الربوع وساكنها ومقامه العظيم . والمانجلاتى من شعراء القرن الحادى عشر الهجرى وذكر ابن عمار أنه كان له ديوان نبوى جميعه قصائد مولدية تُزْرى بالأزهار الندية ، ويقول : وجاء مصليا خلفه (تاليا له) سحبان البلاغة وقُسُّ البراعة شيخنا أبو عبد الله محمد بن محمد المشهور باسم ابن على . وأنشد له موشحًا نبويًا على غرار موشح المانجلاتى وفيه يقول :

باللّهِ طاوى القفارْ عرِّج بذاك المزارْ حيث الكرامْ
عرِّجْ بِرَبْع المعالْ وابرد بذاك الوصالْ حَرَّ الغرامْ
حسبُ المشوق الكئيبْ أنْ شَمْلُه بالحبيبْ لـه التئامْ
نأتْ علينا الديارْ وفى الفؤادِ جِمارْ لها انْضِرامْ

وابن على يقول : بالله يا قاطع القفار عرِّج نحو مزار الأحبة الكرام ، عرج نحو منزل المعالى وبَرِّد بهذا الوصال النار المضطربة فى الفؤاد وحسبى أن اجتمع شملى بالحبيب . ولقد بعدت عنا الديار ، وفى الفؤاد قطع من الوجد الملتهب تضطرم نارا حامية . ولأحمد بن عمار نفسه فى موشحة :

يا نسيما بات من زهر الرُّبى يقتفى الركبانْ
احملنْ منى سلامًا طيِّبًا لأُهَيْل البان
اقرأنْ منى سلاما عَبِقًا إن بدت نَجْدُ
إن لى قلبًا إليها شيِّقًا شَفَّه وَجْدُ

وموشحته يهبط أسلوبها درجة عن الموشحين السابقين ، ومع ذلك كان يعد من كبار الشعراء فى القرن الثانى عشر الهجرى ، وله شعر كثير فى الوصف وغيره من الموضوعات ، ويقال كان له ديوان فى المديح النبوى ، يشتمل على منظومات من القصائد والموشحات . ونتحدث الآن عن أبى عبد الله محمد بن عبد الله العطار أهم شعراء المديح النبوى الجزائريين .

(١) انظر فى المقطوعة التالية وتاليتها تعريف الخلف ٢/٩٠ وما بعدها .

محمد[1] بن عبد الله العطار

هو محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد بن العطار ، هكذا نقلا عنه في آخر ديوانه النبوي الذي سماه : « نظم الدرر في مدح سيد البشر » وسماه أيضا : « الورد العذب المعين في مولد سيد الخلق أجمعين » والاسم الأول هو الذي اشتهر به الديوان لأنه أخف وأظرف ، وجاء في ختامه : « كان الفراغ منه ضحوة يوم الجمعة الثاني من شعبان سنة ست وتسعين وستمائة ما عدا أربع قصائد ، فإنها تقدمت على إنشائه أودعتها فيه ، وذلك بمدينة الجزائر ، جزائر بني مزغنة من أقصى إفريقية من أرض متيجة » . ومتيجة هي الإقليم الذي تقع فيه مدينة الجزائر . وبذلك يكون قد فرغ من نظم هذا الديوان النفيس بمدينة الجزائر سنة ٦٩٦ هـ/١٢٩٧ م ويقول المقرى : « ليس هو بابن العطار المشرقي الذي كان معاصرا لابن حجة الحموى [المتوفى سنة ٨٣٧ هـ/١٤٣٣ م] فإن ذلك متأخر عن هذا .. وهذا مغربي وذلك مشرقي فلم يتفقا لا في زمان ولا في مكان سوى في اشتراكهما بابن العطار » . ويذكر المقرى - وتبعه في ذلك الحفناوى - أن محمد بن أحمد بن الأمين الأقشهرى روى الديوان عن ناظمه ابن العطار وأنه قرأه عليه قراءة ضبط وتصحيح ورواية مقابلة بأصله بموضع الحكم في مدينة الجزائر في ذى القعدة أواخر عام سبعة وسبعمائة . ويدل هذا النص على أن ابن العطار كان في سنة ٧٠٧ هـ/١٣٠٨ م قاضيا بمدينة الجزائر . وقد اطلع المقرى على ديوانه ، وجاءنا منه ببعض روائعه ، بادئا بتسديس ، وقوافيه تكون عادة بعدد الحروف الهجائية ، ولكل حرف أربع شطور ، يليهما شطران ينتهيان بحرف يُلْتزم فيهما بكل دور كقوله في تسديس له[2] :

صَلُّوا على البَدْرِ المنيرِ الأكمـلِ ... صَلُّوا على الرَّوْض البهيِّ الأجْمَلِ
صلوا على الهادى النبيِّ الأَحْفَلِ ... المصطفى الأرقى لأنزه محفِلِ
فيـه تقدَّم وحـده تقديمـا ... صَلُّوا عليـه وسلِّمـوا تسليما

وهو يقول صلوا على البدر المنير الكامل والروض البهيِّ العاطر الهادى لأمته الحانى عليها والمحتفى بهداها ، المصطفى الذي صعد به ربه لأنزه وأروع مقام ـ تقدم فيه وحده دون الرسل جميعا يناجى ربه ، صلُّوا عليه وسلِّموا تسليما . والشطر الأخير يكرر في كل دور مع شطر منته بالميم محدثا رنينًا صوتيًّا بديعًا للتسديس . ويذكر المقرى للعطار تسديسًا ثانيًا ، نذكر منه هذا الدور :

(١) انظر في ترجمة العطار نفح الطيب للمقرى (طبعة د. إحسان عباس) ٧/٤٨٠ وما بعدها وكتاب تعريف الخلف لأبي القاسم الحفناوى ٢/٥٥٠ .

(٢) نفس المرجعين السابقين .

صَلُّوا على مَنْ قد تنامى فَخْرُهُ　　صَلُّوا على من قد تعاظم قَدْرُهُ
صَلُّوا على مَنْ قد تأرَّج نَشْرُهُ　　صَلُّوا على مَنْ قد تناسق دُرُّهُ
عَقَدَ السَّنـاءُ لمجـده إكْليلا　　صلـوا عليـه بُكْرَةً وأصيـلا

وهو يقول صلوا على من فخره لا يقف عند حد بل كل يوم فى نمو وازدياد لمحبة الخلق له ومحبة ربه . صلوا على من يتعاظم قدره عند الناس وعند الذات العلية . صلوا على من عطره يفوح من كل جانب ، ومَنْ لآلىء تعاليمه تطرد لأتباعه في أنساق محكمة ، وقد عقد له الشرف والمجد تاجًا عظيمًا ، صلوا عليه بكرة وأصيلا . ويختم بهذا الشطر كل دور مع شطر لامى قبله . ويبثُّ العطار فى قصيدة له حنينا ظامئا إلى زيارة يثرب والرسول الكريم منشدا :

أهدتْ لنا طيبَ الروائح يَثْرِبُ　　فهبوبُهـا عند التنسُّم يُطْـرِبُ
رقَّت فرقَّ من الصبابة والأسى　　قلبٌ بنيـران البعـاد يعذَّبُ
شَوْقًا إلى أَسْنَى نَبِيٍّ حُبُّـه　　يحلـو على مَرِّ الزمـان ويعذبُ
فُزْنا بـه بين الأنـام بديمةٍ　　أَبـدا علينا بالأمـانى تَسْكُبُ
حـاز السيادةَ والكمـال محمَّدٌ　　فإليـه أشتاتُ المحامد تُنْسَبُ
محبـوبُنا ونبيُّنـا وشفيعُنـا　　يُدْنِى إلى وِرْد الرضـا ويقرِّب
إن طابت الأنفاسُ من زهـر الرُّبَى　　ريَّـاه أذكى فى النفـوس وأطيب

والعطار يقول إن يثرب أهدت لنا مع الرياح طيبا ، واختلاطها فى هبوبها بالأرج يملأ قلوبنا طربا ، ويقول إنها رقَّت ورق معها قلبى المعذب بالصبابة والوله شوقا إلى أعظم نبى حبه دائما عذب مستحب مهما كان الزمان مُرًّا كريها ، ويقول إننا فزنا منه بسحابة لا تزال تسكب علينا بكل ما نريد من الأمانى . وقد حاز السيادة والكمال ، إنه محبوبنا ونبينا وشفيعنا يوم الفزع الأكبر ، وإن حبه ليدنى من رضا الله ، وحسبك بذلك نعمة كبرى . ويقول إن أريج زهر الربى لا يقاس فى شيء إلى شذاه العطر ، إنه أذكى فى النفوس وأطيب فى القلوب . ومن قوله متشوقا إلى طيبة وزيارة الرسول الكريم :

أبدا تَشَوُّقُك أو تروقُك يثربُ　　فإلى متى يُقْصيك عنها المغربُ
هى جَنَّةٌ فى النَّفْس يعذبُ ذكْرُها　　والقـرب منهـا والتـدانى أعذب
والشَّوْقُ يثنينـا إليهـا كلمـا　　وقف الحمام على الأراكة يخطبُ
يـا حبَّذا فـى رَبْع طَيْبَةَ وقفةٌ　　بين الركائب والمدامـع تُسْكَبُ
حتى يرقَّ للـوعتى وصبـابتى　　ودموع عينى كلُّ من يتغرَّبُ
شوقًا لمـن زانَ الوجـودَ وحبُّه　　يدنى إلى ربِّ الرِّضـا ويقرِّبُ
خـيرُ الـوَرى محبـوبنا ونبيُّنـا　　حزنا به الجـاه الذى لا يُسْلَب

فدائما تشرق العطارَ يثرب ودائما يقصيه عنها المغرب ، إنها الجنة التى يحلو له ذكرها ، والقرب منها والدنو أكثر حلاوة وعذوبة . وإنه ليحن إليها كلما سمع الحمام يشدو ويترنم على أغصان الأراك والأشجار . ويتمنى وقفة فى ربع الأحبة ودموعه تهطل صبًّا ملتاعا حتى ليعطف عليه المحبون مثله ، شوقا للرسول الكريم الذى زان الوجود بطلعته السنية ، والذى يدنى حبه من رضا رب العباد ، خير الورى ، محبوب أمته ، ونبيها الذى حازت به جاهها ومكانتها العالية . ويشيد بالرسول ويحمِّل السلام إليه من يزورونه من جيرانه وصحبه ، منشدا :

أسْنَى النبيِّين قَدْرًا نـــورُهُ أبدا | يزيد حُسْنًا على الأقمــار باهرُهُ
وأفضلُ الخلق من عُرْبٍ ومن عجمٍ | أربتْ على الرَّمْل أضعافا مآثــره
رَوْضٌ من الحلم غَضٌّ رَاقَ منظرُه | بحرٌ من العلم عذبٌ فاض زاخره
إن جادَ صاحِ بلقياه الزمانُ فمِلْ | إلى مقـــام حبيب أنت زائـــــرهُ
وصِفْ له حالَ صَبٍّ مُغْرَمٍ دَنِفٍ | رام الدنـــوَّ فأقصتْــــه جرائرُهُ[1]
واذْكرْ هناك بعيدَ الـــدار غربُهُ | غَرْبٌ فما غائبٌ من أنت ذاكره
أهْدِى السلامَ بلا حَـــدٍّ ولا أمــدٍ | إلى محـــلٍّ رســـولُ الله عامــرُهُ

وهو يصف الرسول بأنه أعظم النبيين قدرا ، ونوره يزيد حسنا على نور الأقمار حين تكون بدورا كاملة ، وهو أفضل الخلق عامة من عرب ومن عجم ، ومآثره أضعاف الرمل إحصاء وعدًّا ، وإنه لروض زاه من الحلم يروق منظره ، وبحر عذب من العلم يفيض زاخره . ويتجه إلى بعض من أسعدته الظروف بالرحلة إلى زيارته ، فيطلب إليه أن يصف له صبابته بزيارته وغرامه ، وكيف حاول الاقتراب منه وأبعدته ذنوبه ، ويقول له اذكر حال بعيد الدار عاجز عن الوصول إليه . وإنه ليهدى السلام إلى يثرب بلا حد ولا غاية ولا نهاية . ويتخيل نفسه وقد اكتحلت عيناه بطيبة وترابها ، فينشد مبتهجا :

ولمـــا بدتْ أعلام طَيْبَةَ قصَّرتْ | من الشـــوق ما قد طوَّلته السباسِبُ[2]
وقفنا وسلَّمنا وفاضتْ دموعُنا | وحنَّت إلى ذاك الجَنَـــابِ الـــركائبُ
نزلنـــا وقبَّلنـــا مـــن الشـــوق تُربَها | وطـــابتْ بذاك التُّربِ منـــا الترائبُ[3]
فللعـــين من تلك المعـــاهد نزهـــةٌ | وللقلب فى تلك الرســـوم مآربُ
حَوَتْ سَيِّد الرُّسْل الذى جَلَّ قدرهُ | له فى مقام القرب تُقْضَى المطالبُ
ترقىَّ إلى السبْع الطبـــاق وما بـــدا | له فى ترقِّيه مـــن الحُجْـــــب حاجبُ

(١) مغرم دنف : أشفى على الهلاك . جرائره : ذنوبه .
(٢) السباسب جمع سبسب : المفازة والفلاة .
(٣) الترائب : عظام الصدر .

لقد أشرقتْ شمسُ النهــار بنورهِ   وبدرُ الدُّجَى لمـا بدا والكـواكبُ
أعلِّل قلبـى بالوصــــولِ لقبـرهِ   وإنْ غبتُ ما قلبى - وحقِّك - غائبُ
وإنى أناديـــه وإن كنتُ نازحـــًا   نداءَ غـريبٍ غرَّبتـــه المغـــاربُ

والعطار يقول إنه حين بدت علامات طيبة أى المدينة قصَّرت خطا الشوق التى كانت قد طوَّلتها مفازات الطريق فى إفريقيا وجزيرة العرب ، وما أعظم فرحته - كما يقول - فقد وقفوا وسلموا على ربوع طيبة أو ربوع الحبيب ، وحنت معهم الركائب لهذه المنازل . ويقول إنهم نزلوا وقبّلوا تراب طيبة العطر وطابت به صدورهم وأفئدتهم ، ونَعِمَت العيون بمشاهد تلك المعاهد ونعمت القلوب ، إذ حوت تلك المعاهد سيد الرسل الذى تجاب عنده المطالب ، والذى صعد به جبريل إلى السموات السبع طبقة بعد طبقة ورُفعت من دونه الحجب . وإنه لنور خالص ، نور أزلى ، ومن نوره تستمد الشمس والقمر والكواكب . وكأنما يفيق العطار من حلمه ، فيرى نفسه لا يزال فى مدينة الجزائر لم يبرحها ، ويقول إنه يمنّى نفسه بزيارة الرسول ، وإن غبت عنه فإن قلبى ليس غائبا ، وإنى أناديه ، وسأظل أناديه نداء غريب ظامىء أشد الظمأ لرؤية قبره العطر الشريف .

الفصل السادس

النثر وكتّابه

١

الخطب والوصايا

طبيعى أن تكثر الخطب والوصايا مع الدولة الرستمية منذ تأسيسها سنة ١٦٠ هـ/٧٧٦ م إلى انتهاء مدة حكمها سنة ٢٩٦ هـ/٩٠٨ م إذ كانت دولة إباضية ، وكان أئمتها لايزالون يدعون رعيتهم فى محيطها بتاهرت وخارج محيطها إلى امتثال دعوتهم مع تقوى الله وخشيته والقيام بفروضه الدينية ، وقد يطلبون إليهم فى بعض خطبهم طاعة من يولونهم عليهم من ولاتهم ، كما يلقانا عند إمامهم عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم (١٧١ – ٢١١ هـ) حين ولّى على تاهرت فى غيبته عنها السمح بن أبى الخطاب نائبا عنه ، فقد جمع زعماء تاهرت وأهلها وخطبهم قائلا[1] :

« قد علمتم – معشر المسلمين – أن السمح وزيرى وأخص الناس بى وأحبهم إلىّ وأنصحهم لدولتى وأنى لا أصبر على فراقه ، وقد آثرتكم على نفسى ، تتميما لرغبتكم ، وها أنذا قد وليته عليكم فأحسنوا الطاعة والانقياد لأمره ما سار فيكم سيرة المسلمين ، ولم يحد عن جادّة العدل والإنصاف ، ولم يرتكب ما يؤذن بسخط الرب أو بمخالفتنا » .

وهذا المأثور من الخطبة ليس فيه تكلف لضروب السجع ولا لألوان البديع ، وهو بلغة جزلة مقبولة كلغة الخطب فى الصدر الإسلامى الأول . وعلى شاكلة هذه الخطبة كانت الوصايا فى أيام هذه الدولة كوصية عبدالله اللواتى وزير أفلح بن عبد الوهاب (٢١١ – ٢٤٠هـ) وهى تطرد على هذه الصورة[2] :

« إنى موصيكم إخوانى ونفسى بتقوى الله العظيم فى السر والإعلان ، وباتباع آثار أهل دعوة المسلمين ، فإن الاتباع أولى من الابتداع وعليكم بالائتمار لما أمر الله به من طاعته ، والانتهاء عما نهى عنه من معصيته ، فاقتفوا آثار المسلمين فإن الله أوعد بالنار من خالفهم ، كما أوعد بها من خالفه وخالف رسوله ، إذ قال تبارك وتعالى : ﴿ومَنْ يُشاقق الرسولَ من بعد

---

(١) انظر المغرب العربى : تاريخه وثقافته للأستاذ رابح بونارص ٥٥ .

(٢) النشاط الثقافى فى ليبيا للدكتور أحمد مختار عمر ص ١٨١ .

ما تبين له الهدى ويتبعْ غير سبيل المؤمنين نُوَلِّه ما تولَّى ونُصْلِه جهنَّم وساءت مصيرا﴾ . فاتقوا الله إخوانى واحذروا مخالفة آثار أئمتكم فى القليل والجليل .. وعليكم بالحذر من الانهماك فى الشر والخلاف بعد الزجر عنه فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن ذلك وغضب منه وقال : أمنهمكون أنتم فيها (أى الدنيا) بعد ماجئتكم بها (أى الرسالة) بيضاء نقية حنيفية سمحة سهلة » .

وهو يوصى بالتقوى واتباع أهل الدعوة من أئمة الإباضية ، فإن الاتباع كما يقول أولى من الابتداع ، ولغته رصينة قوية ، يحتج بالقرآن والحديث النبوى ملوحا بهما من بعيد على صحة معتقده . ويذكر صاحب الأزهار الرياضية عظة عامة للإمام أبى اليقظان محمد بن أفلح بن عبد الوهاب (٢٤١ – ٢٨١ هـ) وجَّهها إلى جميع رعاياه فى تاهرت وجبل نفوسة ، وفيها يقول[1] :

« إن أفضل ما تواصى به العباد ويتحاضُّون عليه تقوى الله ولزوم طاعته ، والزَّجْر عن معصيته ، والترغيب فيما يورث الثواب من القول الطيب والعمل الصالح . وعليكم معاشر المسلمين بالتهيؤ للقدوم على الله والتأهب والاستعداد ليوم تشخصُ فيه الأبصار وتتغير فيه الألوان ، ويشيب فيه الولدان ، و ﴿تذهل كلُّ مرضعةٍ عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سُكارى وما هم بسُكارى ولكن عذاب الله شديد﴾ . واعلموا – رحمكم الله – أن أهل العلم القائمين بهذه الدعوة قد انقرضوا وقلَّت الخلوف منهم ، فرحم الله امرءًا مسلما احتسب نفسه ، وأرصدها لله فى طلب العلم والنقض على من ضادَّ الله وعدل عن منهاج رسول الله صلى الله عليه وسلم وضادَّ المحققين من عباده ، حتى تكون كلمة رسول الله صلى الله عليه وسلم هى العليا والباطل زهوقا . وعليكم معاشر المسلمين اتباع الماضين من أسلافكم والمتقدمين من أئمتكم الصالحين من أهل دعوتكم ، فاقتفوا آثارهم ، واهتدوا بهداهم ، واحذرو الزيغ عن طريقهم والميل عن مناهجم » .

وواضح أن الإمام أبا اليقظان محمد بن أفلح يدعو فى عظته صراحة أهل دعوته من الإباضية أن يرصدوا انفسهم ويحتسبوها للدفاع عنها ، ضد خصومها الذين عدلوا فى رأيه عن منهاج رسول الله ومنهاج أهل الحق من أئمتهم ، ويدعوهم إلى اتباع ما تواضع عليه هؤلاء الأئمة من مبادىء آمنوا بها مخالفين الجماعة . ولابنه أبى حاتم يوسف (٢٨١ – ٢٩٤ هـ) عظة بديعة كان يخطب بها الخوارج الإباضية فى عهده أيام الجمعة وفيها يقول[2] :

(١) الأزهار الرياضية للبارونى ص ٢٤٠ .

(٢) النشــاط الثقــافى فى ليبيــا للدكتور أحمــد مختار عمر ص ١٧٩ .

« الحمدلله الذى ابتدأ الخلق بنعمائه ، وتغمَّدهم جميعا بحسن بلائه ، لا يشتمل عليه زمان ولا يحيط به مكان ، خلق الأماكن والأزمان ﴿ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائْتِيَا طَوْعًا أو كرها قالتا أتينا طائعين﴾ فقدَّرها أحسن تقدير ، واخترعها من غير نظير ، لم يرفعها بأعمدةٍ تُدْرَكُ بالمعاينة ، ولم يستعن عليها بأحد استكبارا عن الشركة والمعاونة ، وزيَّنها للناظرين ، وجعل فيها رجوما للشياطين (فتبارك الله أحسنُ الخالقين) جعل القرآن إمامًا للمتقين ، وهدى للمؤمنين ، وملجأ للمتنازعين ، وحكما بين المتخالفين ، ودعا أولياءه المؤمنين إلى اتباع تنزيله ، وأمرهم عند التنازع فى تأويله بالرجوع إلى قول رسوله ، فقال الله عز وجَلَّ : ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم﴾ .

وهذه الخطبة أو العظة تصور نهاية تطور كبير حدث فى كتابة النثر الأدبى ، فقد بدأ بسيطا عند الإمام أبى اليقظان محمد بن أفلح ، واتسع هذا الرقى عند ابنه الإمام أبى حاتم يوسف لا من حيث انتخاب الألفاظ فحسب ، بل أيضا من حيث ما يشيع فيها من السجع ومن التوازن فى العبارات والمقابلات الدقيقة . وتمضى بجاية وشرقى الجزائر فى عصر الحماديين والموحدين ثم الحفصيين بالعناية فى الخطابة والعظات ، وتتردد فى الكتب أسماء خطباء فى الجامع الأعظم ببجاية أو بقسنطينة ولكن الكتب لا تحتفظ حتى بشظايا من خطبهم ، سوى أن يقال مثلا إن فلانا ولى خطابة الجامع الأعظم ببجاية أو جامع القصبة بها أو جامع الموحدين وكان فصيح القلم واللسان . ويكتفون بذلك دون أن يذكروا شيئا من خطبه الفصيحة أو البليغة ، أو يقولون مثلا إن أبا تمام الواعظ الوهرانى سكن بجاية واشتغل فيها بالتذكير واستدعاء الخلق لباب الله تعالى ، ولا تذكر لنا كلمة من مواعظه . ويمكن أن نجد صورا من العظات فى نثر الأذكار والأوراد التى كان يرددها المتصوفة عقب الصلوات ، ونقتطف كلمات مما كان يردده على بن أحمد الحرالى عقب صلاة الصبح إذ كان يجلس فى مصلاَّه متربعا ويردد بعض أقوال له منها[1] :

« سبحان من سبقت رحمته غضبه ، سبحان من لا منجى ولا ملجأ إلا إليه ، يا مثبِّت القلوب ثبِّت قلبى . العقل أصل دينى ، الحب أساسى ، ذكر الله أنسى ، الثقة كنزى ، العلم سراجى ، الصبر ردائى ، الرضا غنيمتى ، الزهد حرفتى ، اليقين قوتى ، الطاعة حسبى ، الجهاد خلقى ، قرة عينى فى الصلاة » .

والمئات بل الآلاف من مواعظ الخطباء والأوراد والأذكار كانت تقرع أسماع الناس كل يوم فى بجاية وقسنطينة وغيرهما من بلاد الجزائر . وكان النساك وأهل الصلاح يكتبون أحيانا

(١) عنوان الدراية ص ١٥٢ .

وصية لربهم أن يرعى ذريتهم وأهليهم وما استودعوه من أموالهم صيانة للورثة والمال، من ذلك وصية رواها صاحب عنوان الدراية لابن نعيم الحَضْرميّ المتوفى بقسنطينة سنة٦٣٦ وفيها يقول[1] :

« هذا ما أودع العبد الله الذى خلق الأشياء ، ورزق الأحياء ، وملك العالمين ، وحفظ السموات والأرضين ، أودعه جميع ولد أبيه وأهله وأهل أخيه وجميع ما خوَّلهم من نعمه ظاهرا وباطنا ، وصيَّر ذلك إلى أمانته ، وأسلمه إلى رعايته ، واستحفظه فى ذلك كله ، وتبرأ إليه من حوله وقوته ، ولم يرج سوى فضله وطَوْله (أفضاله) هو الحفيظ الذى لا يهمل ، الوكيل الذى لايغفل ، الجواد الذى لايبخل ، الأول الذى ينعم ويتطول ، والأخير الذى لايزال ولا يتحول » .

وألفاظ الوصية مثل ألفاظ الحرالى ألفاظ منتخبة مصفَّاة ، وقد يجىء فيها السجع عفوا دون قصد ، وهى تدل على أن النثر كان قد أخذ يتطور ، وأخذ أصحابه يعنون بالملاءمة بين اللفظة واللفظة إرضاء للسمع وإمتاعا للسامع بما يسمع أو يقرأ من الكلم .

وإذا تركنا بجاية والقسم الشرقى من الجزائر إلى قسمها الغربى وتلمسان خاصة رأينا صاحب بغية الرواد يسوق فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد بجزئها الأول طائفة من مشاهير خطبائها ووعاظها مثل أبى عبدالله محمد بن أحمد الحجام المار ذكره بين شعراء المتصوفة والمتوفى سنة ٦١٤ ويسميه يحيى بن خلدون فى البغية : واعظ أهل زمانه ، ويذكر له – كما مر بنا – كتابا فى الوعظ اسمه « حجة الحافظين ومحجة الواعظين » . ومن كبار الخطباء الوعاظ الذين يذكرهم صاحب بغية الرواد عبد الرحيم بن أبى العيش الخزرجى المترجم لأبيه بين شعراء الصوفية ، وكان خطيب الجامع الأعظم بتلمسان وإمامه ، وكان يعاصره أبو محمد عبد الله المجاصى المتوفى سنة ٦٤١ هـ/١٢٤٣ م وكان كثير البكاء فى وعظه حتى اشتهر بذلك ، وكان لا يرفع طرفه إلى السماء حياء من الله تعالى وخشية منه ، وكانت له مواعظ قيمة . ومن الوعاظ بعده سعيد العقبانى المتوفى سنة ٨١١ هـ/١٤٠٨ م خطيب الجامع الأعظم بتلمسان . ونقرأ أخبارا عن روعة مواعظ هؤلاء الخطباء وأن منهم من كانت تقشعر من وعظه الجلود لما يعرض له من عذاب الآخرة وكأنه يرى الجحيم تحت بصره ، ومنهم من كان يبكى سامعيه بمواعظه وما يورد من زواجره . ومع ذلك لم تحتفظ العصور السالفة بشظايا – ولو قليلة – من خطبهم ومواعظهم .

ولم تصلنا وصايا عن تلمسان لا من حكام الدولة الزيانية لأبنائهم ولا من شيوخ تلمسان

(١) عنوان الدراية ص ٣٣٢ .

لتلاميذهم فيما عدا وصية كبيرة استحالت إلى كتاب أوصى بها السلطان أبو حمو موسى الثانى (٧٦٠ — ٧٩١ هـ) ابنه أبا تاشفين وسماها « واسطة السلوك فى سياسة الملوك » وقد جعلها فى أربعة أبواب بين يديها مقدمة عن السياسة العملية ، والباب الأول نصائح فيما ينبغى على المالك أو الحاكم من العدل والتقوى وصيانة المال والعناية بالجيش ، والباب الثانى خاص بقواعد الملك أو الحكم وأركانه ، وهى العقل والعدل وحسن السياسة والعناية بالمال والجيش ، والباب الثالث خاص بالصفات التى تزين الملك والحكم ، وهى الشجاعة والكرم والحلم والعفو ، ويصرِّح فى خاتمة الكتاب بأنه وضعه لابنه أبى تاشفين ليتبع نصائحه فيه ، ويستقيم حكمه وملكه ، ونقتطف من هذه الوصية الكبرى بعض وصاياه لابنه عن الشجاعة[1] فى الحروب .

« يا بُنَىَّ إذا كان الملك شجاعا ، كان منصورا مطاعا ، ترهبه الأعداء ، وتطمئن إليه الأولياء ، يعتد به جيشه فى مواقع الحروب ، ويخاف سطوته الطالب والمطلوب . وإذا اقتحمت القتال ، واختلطت الأبطال بالأبطال ، فغايتك أن تكون حاكما على نفسك ، صابرا ثابتا فى جأشك[2] ، ناظرًا إلى ساقتك التى هى قلب جيشك ، فلتلزمْ بها الثباتَ ، ولا تتزحزح إلى جهة من الجهات ، ولتشدّ بثباتك الأنجاد[3] والحماة ، والمقاتلين الكُماة[4] ، وإن انكسر أحد الجناحين من جيشك فلا تهتم به ، ولا تنتقل بسببه ، فإن انكسار الجناحين مع ثبات القلب لا يضر ، والصبر فى مثل هذا عائد عليك بما يسرّ ، لأنه إذا كانت رايات القلب تخفق وطبوله تزأر كان ذلك حصنا للجناحين ، وأمانا للعسكر من الحَين[5] ، وأرجى للظفر بالعدو عند رجوع الجانبين » .

وهو ينصح ابنه حين تلتحم المعركة أن يثبت فى قلب جيشه ، وإذا رأى فى أحد الجناحين انكسارا لا يميل إليه بمن معه من العساكر ، حتى لا يتشوش الموقف ويُظَنَّ أنه منهزم ، وحتى لو انكسر الجناحان فإن ثبات القلب يردهما إلى المعركة ويكتب للجيش النصر . ويوصى ابنه ان تظل رايات الجيش فى قلبه تخفق وطبوله تزأر ليكون قدوة لقواد الجناحين ويعودوا إلى مواقعهم من المعركة . ويستمر أبو حمو موضحا لابنه أن الشجاعة لا تكون صحيحة إلا مع الرأى السديد ، أما بدونه فتكون مذمومة بل قد تصبح تهورا يؤدى إلى الهلك وإلى زوال الملك . ولا يلفتنا فى هذه الوصية الطويلة ما تحمل من فكر دقيق ولفظ منتخب رشيق فحسب ، بل يلفتنا فيها أيضا أنها مسجوعة سجعا محكما ، وهى شهادة قوية بأن النثر الأدبى رقى بالجزائر فى القرن الثامن الهجرى ، بحيث أصبح الكاتب يفكر فى جرس كلامه الذى يخلب به سامعه ،

(١) انظر قاعدة الشجاعة من الباب الثالث من كتاب واسطة السلوك .
(٢) جأشك : قلبك .
(٣) الأنجاد جمع نجد : الشجاع .
(٤) الكماة جمع كمى : المقدام المسلح .
(٥) الحين : الهلاك .

وأيضا ليس ذلك فحسب ، فإن الكاتب يلائم بين الكلمات فى السياق بحيث يأتى مع الكلمة بشقيقتها ورفيقتها التى يحسن أن تصاحبها والتى تؤلف معها لونا من التجانس أو الجناس ، حتى يروق السامع أو القارئ ويجذبه إليه .

وإذا مضينا إلى العهد العثمانى سمعنا — كما سمعنا فى الحقب السابقة له — عن خطباء كانوا بارعين فى الوعظ ، وكان الناس يجتمعون لهم فى خطبة الجمعة وينبهرون بما يسمعون منهم من وعظ مؤثر ، غير أننا لا نجد شواهد من هذا الوعظ ، وقد أشاد الكاتب محمد بن ميمون فى القرن الحادى عشر الهجرى بخطابة الشيخ مصطفى بن عبدالله البونى قائلا : « له فى الخطب الساعد المشتد ، والإلقاء الذى تميل إليه الهوادى (الأعناق) وتمتد ، والسكينة (الوقار) التى تجذب إليها الأبصار فلا ترتد ، ولم أرَ منذ عقلتُ بسنىٍّ ، وعلقت خطابته بذهنى ، أحق منه فى طريقة الوعظ والخطابة والإمامه ، ولا رأيت من شيوخنا من تقدم أمامى لا جرم أنه استحوذ عليها ، صناعة استوفى شرطها واستكمل أسبابها .. وكذلك هو فى وعظه آية من آيات فاطره ، زعم من رآه أنه لم يسمع من حضرة الجزائر إلى أم القرى أخطب منه ، ولا من يدانيه إلا واحد من الأفاضل لم يكن بمماثل »[1] . وهذا الخطيب الممتاز الذى ليس له نظير فى وعظه من مدينة الجزائر إلى أم القرى : مكة لم يؤثر عنه شىء من خطابته ، فما بالنا بمن لا يبلغون مبلغه من روعة الخطابة . ومن المحقق أن الأسلاف من الجزائريين أضاعوا تراثا مهما من مواعظ أدبية لو أنها وصلتنا لأمكننا أن نؤرخ للأدب الجزائرى تاريخا أكثر دقة .

٢

الرسائل الديوانية

طبيعى أن لا توجد الرسائل الديوانية فى أمة إلا إذا وجدت فيها دولة ، واتخذت لها كتّابا يكتبون عنها الرسائل الديوانية ، وكان قيام الدولة الرستمية فى تاهرت مبشرا بأن تصدر عن حكامها رسائل ديوانية مختلفة ، وقد توجد الدولة وتوجد الرسائل الديوانية ولا يوجد من يهتم بتسجيلها ، غير أننا نجد رسائل الدولة الرستمية تدوّن ويتناقلها كتاب متأخرون مثل الشماخى فى السير والبارونى فى الأزهار الرياضية ، فمن ذلك رسالة للإمام عبد الوهاب (١٧١ — ٢١١ هـ) كتب بها إلى أهل طرابلس وكانوا يوالونه ، وكان واليه السمح بن أبى الخطاب توفى ، واستخلف بعضهم غيره وراجعوه ، فكتب إليهم الرسالة التالية[2] :

« أما بعد فإنى آمركم بتقوى الله ، والاتباع لما أمركم به ، والانتهاء عما نهاكم عنه ، وقد

(١) تاريخ الجزائر الثقافى للدكتور سعدالله ٢/٢١٣ . (٢) السير للشماخى (طبع قسنطينة بالجزائر) ص١٨٠ .

بلغنى ما كتبتم إلىّ به من وفاة السمح واستخلاف بعض الناس « خلفا » له وردّ أهل الخير ذلك ، فإن مَنْ ولّى « خلفا » من غير رضا إمامه فقد أخطأ سيرة المسلمين، ومن أبى توليته فقد أصاب، فإذا اتاكم كتابى هذا فليرجع كل عامل استعمله منكم السمح على عمالته التى ولى عليها إلا خلف بن السمح ، فحتى يأتيه أمرى ، وتوبوا إلى بارئكم ، وراجعوا التوبة ، لعلكم تفلحون » .

والرسالة مع إيجازها تؤدى الغاية المطلوبة منها ، إذ تبين حق الإمام وما جرى عليه عرف الإباضيين ويسميهم المسلمين ، وتصف فعل من ولى خلفا بعد السمح بالخطأ لا ضد الإمام وحده بل أيضا ضد المسلمين وعُرْفهم ، وتحرمه من أن تكون له صفة الشرعية فلا تصح له ولاية الناس بحال ، ويطلب إليهم التوبة مما وقعوا فيه من إثم . وكان عهد ابنه أفلح طويلا (٢١١ - ٢٤٠ هـ) ، وخرج عليه بعض الثوار ، منهم نفاث بن نصر من جبل نفوسة إذ كان يطعن فى إمامته ويكثر من نقده ، فتبادل معه عددا من الرسائل كان آخرها الرسالة التالية ، وهى طويلة ، ولذلك سنختصرها شيئا من الاختصار ، وفيها يقول[1] :

« أما بعد فالحمد لله المنعم علينا ، المحسن إلينا ، الذى بنعمته تتم الصالحات ، ولا يهتدى مهتد إلا بعونه وتوفيقه ، فله المنة علينا ، وهو المحسن إلينا إذ هدانا لدينه ، وجعلنا خلفا من بعد أسلافنا الصالحين ، وأئمتنا المهتدين .. قد كتبت إليك غير كتاب ، أنصح لك فيه ، وأدعوك إلى رشدك ، وفى كل ذلك لا يبلغنى من عمّالنا فيك إلا ما أكره ، ولا أرضاه لك فى دين ولا دنيا ، حتى حررتُ كتابا منشورا إلى عمالنا ، أمرتهم فيه بخلع كل مَنْ خالف سيرة المسلمين . وابتدع غير طريقتهم ، وسار بغير سيرتهم .. فكتبت إلىّ كتابا كأنك تسخط ذلك . أترى أنى أؤازر من ابتدع فى ديننا ؟ ما كنت بالذى يفعل ذلك ، ولا أؤازر من يسعى فى خلافنا ما كنا على الهدى . ثم قلتَ إنا أمرنا فى كتابنا بالبراءة منك ، فإن كنت كما كتب به إلينا عمّالنا فأنت محقوق بالبراءة (منك) ومقصىّ من جماعتنا ، لأننا ما كتبنا كتابنا ذلك إلا على أن كل من ابتدع فى ديننا خلاف أسلافنا .. فهو محقوق بالبراءة (منه) ومقصىّ من جماعة المسلمين ، فإن تكن أنت منهم فأنت الذى أبحت لنا البراءة منك ، وأحللت بنفسك ما لابد أن نفعله بك وبغيرك ، وإن لم تكن كذلك فأظهر الانتفاء منه ، وكذّب عن نفسك ما قيل عنك لتكون عندنا بالحالة التى تستحقها وتستوجبها ... وإنى غير كاتب إليك كتابا بعد هذا إلا إذا انتهى إلينا ما نحبّه ، فنتنزلك من أنفسنا بحيث تحب ، والله المستعان » .

وأفلح متمكن من لغته بأروع مما تمكن أبوه عبد الوهاب ، إذ هى فى يده سلسة القيادة ،

---

(١) الأزهار الرياضية ٢/ ١٩٥ .

وهو يصرِّفها كما يشاء ، ويجعل الله هو الذى اختاره خلفا لأسلافه الصالحين وإماما لأهل دعوته حتى يجعل خروج نفاث عليه خروجا على طاعة الله وعصيانا لمشيئته وإرادته . وقد بنى الرسالة على الملاينة والترغيب تارة والتهديد والترهيب تارة ثانية ، مما يدل على حنكته السياسية وخاصة أن جعل باب الترغيب والتقريب مفتوحا على مصاريعه حتى يدخل إليه نفاث منه راضيا إذ ينزلَ منه بحيث الود والحب . ولأفلح رسالة عامة كتب بها إلى جميع رعاياه بهذه الصورة[1] :

« الحمد لله الذى هدانا إلى الإسلام ، وأكرمنا بمحمد عليه السلام ، وأبقانا بعد تناسخ الأمم ، حتى أخرجنا فى الأمة المكرَّمة التى جعلها الله أمةً وسطا شاهدة لنبيِّها بالتبليغ ، ومصدِّقة لجميع الأنبياء ، وشاهدة على جميع الأمم بالبلاغ من الأنبياء عليهم السلام منًّا من الله ورحمته ، وأرسل إلينا نبيَّه محمدا ﷺ بالهدى ، ووعده بالنصر على الأعداء ، وضمن له الفلاح والغلبة ، ووعده بالعصمة ، قال الله عز وجل : ﴿يا أيها الرسوُل بلِّغْ ما أُنْزِلَ إليك من ربِّك وإن لم تفعل فما بلَّغتَ رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدى القوم الكافرين﴾ فأدّى – عليه السلام – ما أمره الله به ، ونصح لأمته ، ودعا إلى سبيل ربِّه ، وجاهد عدوَّه ، وغَلُظ على الكفار ، ولان للمؤمنين ، فكان لهم – كما وصفه الله – رءوفًا رحيمًا ، حتى انقضتْ مدته ، وفنيت أيامه ، واختار له ربُّه ما عنده ، فقبضه محمودَ السَّعْى مشكورَ العمل ﷺ ، فلم تبقَ خصلة من خصال الشر الداعية إلى الهلكة إلا وزجر عنها ، وأمر باجتنابها ، رحمة من الله بعباده ، فله الحمد على ذلك كثيرا . ثم أمر تعالى بالجهاد فى سبيله والقيام بحقه ، والأخذ بأمره ، والانتهاء عما نهى عنه ، وفرض الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإغاثة الملهوف ، والقيام مع المظلوم ، والقمع للظالمين ، لكى لا تقوم للشيطان دعوة ، ولا تثبت لأهل حزبه قدم ، ولا ينفذ لهم حكم ، فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عماد الدين وإعزازه ، وهو الجهاد وتأدية الحقوق الواجبة له تعالى . فعليكم معشر المسلمين بتقوى الله العظيم والقيام بحقه فيما وافق هواكم أو خالفه ، وتقرَّبوا إلى الله بالقيام بطاعته وطلب مرضاته ، لتنالوا بذلك ما وعد من جزيل الثواب وكرم المآب » .

وأفلح يقول فى عظته إن الرسول ﷺ بلَّغ الرسالة كما أمره ربه على خير وجه فبين لأمته الأوامر والنواهى الإلهية وجاهد الكفار ، وزجر عن كل خصال الشر ودواعيه وكان رحمة لأمته وفرض الله عليها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وقمع الظالمين . ويردد الدعوة إلى تقوى الله وطاعته وطلب مرضاته ، مما ينال به التقى المطيع جزيل الثواب وحسن المآب .

وقضى أبو عبيد الله الشيعى داعية المهدى على الدولة الرستمية سنة ٢[illegible]م ولم

---

(١) الأزهار الرياضية ٢/ ٢١٤ .

تقم في الجزائر دولة حتى إذا أصبحنا في أواخر القرن الرابع الهجرى وتولى حماد بن بلكين شأن المغرب الأوسط عمل على الاستقلال وأسس دولة بنى حماد فى قلعة بجاية (٤٠٦-٥٤٧) وظلت يرثها الأبناء عن الآباء نحو قرن ونصف ، وكان آخر حكامها يحيى بن العزيز (٥١٨-٥٤٧هـ) ومنه استولى عبد المؤمن على دولته وبلاده وضمها مع الجزائر وتونس وطرابلس إلى دولته . وكانت هذه الدولة تتخذ دواوين للإشراف على شئون الدولة ، وكان لها ديوان إنشاء نبغ فيه بعض الكتاب ، نذكر منهم أبا عبد الله محمدا الكاتب المعروف بابن دفرير ، ذكره صاحب الخريدة ، وقال عنه : أحد كتاب الدولة الحمادية المتصرفين فى الكتابة السلطانية ، وذكر له رسالة كتبها عن سلطانها يحيى بن العزيز الحمادى وقد فرَّ من مدينة بجاية أمام عسكر عبد المؤمن يستنجد فيها ببعض أمراء العرب القريبين من دولته ، وفيها يقول[1] :

« كتابنا ونحن نحمد الله على ما شاء وسرَّ ، رِضًا وتسليما للقدر ، وتعويلا على جزائه الذى يجزى به من شكر ، ونصلّى على النبى محمد خير البشر ، وعلى آله وصحبه ما لاحَ نجم بسحر ، وبعد فإنه لما أراد الله أن يقع ما وقع ، لقبح آثار مَنْ خان فى دولتنا وضيَّع ، استفز أهل موالاتنا الشنآن[2] ، وأغرَى من اصطنعناه وأنعمنا عليه الكفران[3] ، فأتوا من حيث لا يحذرون ، ورموا من حيث لا يبصرون ، فكنَّا فى الاستعانة بهم والتعويل عليهم كمن يستشفى من داء بداء ، ويفرُّ من صِلٍّ[4] خبيث إلى حيَّة صمَّاء ، حتى بُغِتَ مكرهم ، وأُعْجِل عن التلافى أمرهم ، وردُّ وبال أمرهم إليهم . فعند ذلك اعتزلنا محلة الفتنة ، وملنا إلى مظنَّة الأَمَنَة ، وبعثنا فى أحياء هلال نستنجد منهم أهل النجدة ، ونستنفر مَنْ كنا نراه للمهم عُدَّة ، وأنتم فى هذا الأمر أول مَنْ يُلْهم الخاطر ، وتُثنَى عليه الخناصر » .

وابن دفرير فى رسالته لا يهمل الأسجاع لا قليلا ولا كثيرا ، إذ يوفر لها ما يستطيع من السجع وجرس الكلام لا بين عبارة وتاليتها فحسب ، بل بين عبارة وتواليها من العبارات ، حتى يلذ الأسماع حين تصغى إليه والألسنة حين تنطق به ، مع العناية باصطفاء الألفاظ والملاءمة بين الكلمات . وذكر العماد فى الخريدة من كتاب هذه الدولة الحمادية أبا القاسم عبد الرحمن الكاتب المعروف بالقالمى الذى اتخذه عبد المؤمن سنة ٥٤٧ كاتبا له ، وظل يكتب له ولابنه يوسف من بعده إلى أن توفى وسنخصه بترجمة ، وكان يخدمه فى عمله الكتابى عند الموحدين ببجائى مثله هو ابن محشرة جعفر بن أحمد فلما توفى كتب مكانه لسلطان الموحدين يوسف ثم لابنه يعقوب حتى وفاته ، وسنفرد له ترجمة ، وكان يعاصرهما ابن محرز الوهرانى ، وسنفرد

(١) الخريدة للعماد الأصبهانى (نشر الدار التونسية) ١/ ١٧٩ .

(٢) الشنآن : الحقد والضغينة .

(٣) الكفران : الجحود وإنكار المعروف

(٤) صِلٌّ : أفعى .

له أيضا ترجمة . وظل بعض الولاة فى بجاية يهتمون باتخاذ بعض الكتاب المجيدين ، ويذكر من بينهم صاحب عنوان الدراية محمد الوغليسى فى القرن السابع ، ويقول : عليه كان المعتمد فى وقته فى المخاطبات السلطانية إنشاء وجوابا[1] .

وإذا تركنا بجاية إلى تلمسان وجدنا بنى عبد الواد يؤسسون فيها الدولة الزيانية بزعامة يَغْمُرَّاسن منذ سنة ٦٣٣ هـ/ ١٢٣٥ م وتظل تلك الدولة نحو ثلاثة قرون ونصف ، وبمجرد أن أسس يغمراسن ملك أسرته أسس فيها الدواوين واتخذ أديبا من أبرع الأدباء الأندلسيين كاتبا له هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن خطاب الغافقى من أهل مرسية ، كتب قبله لأمراء غرناطة ونزل تلمسان فاتخذه كاتبا[2] له ، غير أنه توفى سريعا سنة ٦٣٦ هـ/ ١٢٣٨ م ، ولم يعن المؤرخون بذكر كُتّابه بعده إلا ما أشار إليه يحيى بن خلدون من أن الشاعر الكبير ابن خميس التلمسانى المترجم له بين شعراء المديح كان يكتب له ، وظل - كما يبدو - يكتب لابنه عثمان الأول (٦٨١ - ٧٠٣ هـ) ونراه يترك تلمسان وعمله الكتابى بها فجأة سنة ٧٠٢ ويولى وجهه نحو سبتة ثم الأندلس ويتوفى فجأة . ومن أهم من خلفوه فى عمله الكتابى بتلمسان أبو عبد الله محمد بن منصور بن هدية المتوفى بأواسط[3] سنة ٧٣٥ . وينزل مصر أديب تلمسانى هو ابن أبى حجلة المتوفى بها سنة ٧٧٦ هـ/ ١٣٧٥ م وفى كتابنا عن مصر دراسة عنه وتحليل لكتابه « ديوان الصبابة » . ويذكر صاحب بغية الرواد أن أباحمو موسى الثانى (٧٦٠ - ٧٩١ هـ) اختار لكتابة العلامة المميزة لرسائل دولته أبا عبد الله محمد بن[4] محمد بن المشوش ، وغالبا كانت تسند إلى صاحبها رياسة الدواوين . ونحن إنما نقف فى كتاب الدولة الزيانية على أسماء ، ولا نقف على كتاباتهم بحيث نستطيع أن نصفها وصفا دقيقا . وإذا كنا لاحظنا على كتاب بجاية فى عصر الدولة الحمادية شيوع السجع فى كتاباتهم فإن ذلك سيستمر عند أبى القاسم القالمى والوهرانى وابن محشرة ، وقد لاحظناه عند أبى حمو موسى فى وصيته الطويلة لابنه ، وحتى المؤرخون من أمثال محمد بن عبد الله التنسى فى كتابه تاريخ بنى زيان ويحيى بن خلدون لا يخلون كتابتهم التاريخية من السجع أحيانا وخاصة فى تقديمهم للأمراء الزيانيين فإنهم يعنون فيه بجمال الجرس والملاءمة بين نهايات العبارات بحيث تزدان بالسجع حلية الأدب فى زمنهم .

ونمضى إلى العهد العثمانى ، وفيه ضعفت كتابة الرسائل الديوانية بالعربية لأن الدولة الحاكمة كانت تركية وكانت تعتمد على اللغة التركية فى رسائلها ومنشوراتها الديوانية إلا فى عهود باشوات أو ولاة معدودين هم : محمد بكداش ومحمد الكبير والحاج أحمد فى قسنطينة ،

(١) عنوان الدراية ص ٢٨٢ .

(٢) بغية الرواد ١/ ١٢٩ والإحاطة ٢/ ٢٧٥ .

(٣) بغية الرواد ١/ ١١٦ والبستان ص ٢٢٥ .

(٤) بغية الرواد ١/ ١٢٣ .

فإنهم اتخذوا لهم كتابا يحذقون العربية . أما من عداهم فظل يتخذ التركية فى المعاملات الرسمية ، وبدون ريب أضعف ذلك من شأن الكتابة الديوانية العربية التى كانت تلتفُّ حولها طبقة من الكتاب الممتازين المتنافسين ، وكل منهم يحاول الامتياز على زملائه فى براعته الأدبية ، أما فى هذا العهد فلا تنافس ، وحسب الكاتب أن يكتب بلغة مسجوعة لا تخلو من ضعف وركاكة أحيانا . ومن رسالة لكاتب يسمى محمدًا القالى قدمها إلى محمد بكداش طالبا منه بعض العون ، وفيها يقول[1] :

« جَلَّ الله تعالى مالك الملك ومقيم قسطاس العدل بما أراده من إعزاز السادات الترك ، جمع سبحانه وتعالى بهم كلمة الدين الحنيف ، وآثرهم بهذا الملك الكبير وهذا العز المنيف ، وشرفهم بما وهبهم من الرتب العالية وهم أصل للرفعة والتشريف ، وخصهم بمكارم الأخلاق ونزاهة الأقدار ، وجعلهم بهذا القطر رحمة للعباد ، وأخمد بشوكتهم نار الفتنة والعناد ، فسُلكت بهم السُّبُل وأمنت بهم البلاد ، لطفا منه سبحانه بهذه الأقطار ، نسأل الله أن يبقى جنابهم السعيد عاليا على كل جناب ، وأن يخلّد الملك فيهم على مرور الدهور وانقضاء الأعمار .. وبعد فإن الله تعالى مَنَّ على المسلمين بسيدنا مولانا سلطان الملوك والأكابر ، المخصوص بأفضل الشمائل والمآثر ، الإمام العادل ، السلطان الفاضل ، العالم العامل ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، الذى أطلعه الله فى سماء الجلالة بدرا ، ورفع له فى درجات الأمراء قدرا ، وأجرى له على ألسنة الخلق ثناء جميلا وذكرا ، فأصبح الدين مبتهجا بكريم دولته ، وجناب الكفر مهتضما بعظيم صولته » .

وواضح ما يجرى فى الرسالة من التكلف الشديد ، فالترك أهل الرتب العالية ولكن الصيغة لا تتم من حيث السجع فيضيف إليها قوله : « وهم أصل للرفعة والتشريف . ويطيل العبارة بعدها حتى يقع على سجعة : « للعباد » واستعصت عليه سجعة الراء بعدها فأطال العبارة حتى تمكن من إيرادها بقوله : « الأقطار » . وقد أكثر من ألقاب محمد بكداش وأوصافه وبالغ ما شاءت له المبالغة مع كثرة الأدعية . وكل ذلك تكلف وتمحل فى الرسالة ، وكأنما أصبح من الصعب أن تعود إلى الرسالة الديوانية حيويتها ونضرتها القديمة .

٣

الرسائل الشخصية

يبدو أنه لم يكن بالجزائر اهتمام مبكر بتسجيل الرسائل الشخصية ، ولولا أن الإباضية

---

(١) تاريخ الجزائر الثقافى ٢/ ١٩٦ .

اهتموا بتدوين الرسائل الديوانية لحكام الدولة الرستمية لضاعت أو سقطت من يد الزمن وأول رسالة شخصية جزائرية مهمة وصلتنا عن الحقب الأولى رسالة أبي على ابن الربيب الحسن بن محمد التميمي التاهرتي الذي ترجم له ابن رشيق في كتابه : « الأنموذج » وقال إنه تولى القضاء طويلا في بلدته تاهرت وإنه توفي سنة ٤٢٠ هـ/١٠٣٠ م ولم يذكر الرسالة ولا أشار إليها ، وإنما ذكرها ابن بسام في كتابه الذخيرة ، إذ قال في ترجمة أبي المغيرة عبد الوهاب بن حزم : كتب إليه أبو على بن الربيب رقعة يقول فيها(١) :

« إني فكَّرتُ في بلدكم أهلَ الأندلس ، إذ كان قرارةَ كل فَضْل ، ومقصد كل طُرْفة ، وموردَ كلِّ تحفة ، إن بارت تجارة أو صناعة فإليكم تُجْلَبُ ، وإن كسَدتْ بضاعة فعندكم تَنْفُق(٢) ، مع كثرة علمائه ، ووفور أدبائه ، وجلالة ملوكه ، ومحبتهم للعلم وأهله ، ورَفْعهم مَنْ رفعه أدبهُ ، وكذلك سيرتهُم في رجال الحرب ، يقدِّمون مَنْ قَدَّمْتْه شجاعتهُ ، وعظمتْ في الحروب نِكايتُه ، فشجُع عندكم بذلك الجبان ، وأقدم الهَيَّبان(٣) ، ونَبُه الخامل ، وعلم الجاهل ، ونطق العَيِيّ ، وشعر البَكيّ .. وتنافس الناس في العلوم ، ثم هم مع ذلك في غاية التقصير ، ونهاية التفريط من أجل أن علماء الأمصار دَّونوا فضائل أعيانهم ، وقلَّدوا الكتب مآثرَ أقطارهم وأخبار الملوك والأمراء ، والكتاب والوزراء ، والقضاة والعلماء ، فأبقوا لهم ذكرا في الغابرين ، و (لسانَ(٤) صِدْقٍ في الآخرين) . وعلماؤكم مع استظهارهم على العلوم ، كل امرىء منهم قائم في ظله لا يبرح ، وثابتٌ على كعبه لا يتزحزح ، يخاف إن صنَّف ، أن يعنَّف ، أو (تخطفه(٥) الطَّيرُ أو تَهْوِي به الرِّيحُ في مكانٍ سحيق) لم يتعب أحد منهم نفسا في [جمع] مفاخر[أهل] بلده ولم يستعمل نقْسا (مدادا) في فضائل ملوكه ، ولا بَلَّ قلما بمناقب كتَّابه ووزرائه ، ولا سوَّدَ قرطاسًا بمحاسن قضاته وعلمائه . على أنه لو أُطلقَ ما عقل الإغفالُ من لسانه ، وبسط ما قبض الإهمالُ من بيانه ، لوجد للقول مساغا ، ولم تَضِقْ عليه المسالك هنالك .

ولكن همُّ كل أحد منهم أن يطلب شأْوَ(٦) من تقدَّمه من رؤساء العلماء ، ليحوز قصَب السَّبْق ، ويفوز بقِدْح(٧) ابن مقبل ، ويأخذ بكَظْم(٨) دَغْفل ، ويصير شَجًى في حَلْق

(١) الذخيرة ١٣٣/١ .

(٢) تنفق : تروج .

(٣) الهيبان : الهائب الخائف .

(٤) اقتباس من سورة الشعراء .

(٥) اقتباس من سورة الحج .

(٦) شأو : غاية .

(٧) ابن مقبل شاعر يتمثل بقدحه في الفوز والظفر .

(٨) دغفل : نسابة كبير عند العرب ، يأخذ بكظمه : يماثله في علم النسب ، وأصل الكلمة : يأخذ بكظمه الإمساك على ما عند المرء من العلم وغيره .

أبى العَمَيْثل[1] ، فإذا أدرك بغيته ، واخترمتْه – بعد – منيته ، دُفن علمه معه ، ومات ذكره ، وانقطع خبره . ومَنْ قَدَّمنا ذكره من علماء الأمصار احتالوا لبقاء ذكرهم ، فألَّفوا دواوين يبقى لهم بها ذكر يتجدَّد طول الأبد . فإن قلت إنه كان مثل ذلك من علمائكم ، وألفوا كتبا لكنها لم تصل إلينا ، فهذه دعوى لم يصحبها تحقيق ، لأنه ليس بيننا وبينكم إلا روحة راكب ، أو رحلة قارب ، لو نفث[2] ببلدكم مصدور ، لأسمع ببلدنا مَنْ فى القبور ، فضلا عَمَّنْ فى الدور والقصور ، وتلقَّوا قوله بالقبول ، كما تلقوا ديوان ابن عبد ربه منكم الذى سمَّاه بالعقد[3] . على أنه يلحقه فيه بعض اللَّوْم ، إذ لم يجعل فضائل بلده واسطة[4] عِقْده ، ومناقبَ ملوكه يتيمة سلكه ، لكنه أكثر وطوَّل ، وأخطأ المِفْصل[5] ، وأطال الهزَّ بسيف غيرمِقْصل[6] ، وقعد به ما قعد بأصحابه من ترك ما يعنيهم ، وإغفال ما يهمهُّم . فأرْشِدْ أخاك – أرشدك الله – إن كان عندك فى ذلك الجليَّة ، وبيدك فَصْلُ القضية ، إن شاء الله» .

وقد ذكرت الرسالة بتمامها لأدل على ما أصابه نثر الرسائل الشخصية من إحكام فى الصياغة ، حتى ليقترب أسلوب الرسالة من أسلوب الجاحظ وما اشتهر به من المزاوجة وكثرة الترادف ، فالعبارات تتقابل دون أن تتحد نهاياتها بأسجاع متعاقبة ، وإن حدثت سجعة عفوا سرعان ما يعدل ابن الربيب عن مثيلة لها إلى التعادل والترادف فى العبارات . ونشعر بجانب ذلك أن الصياغة محكمة ، فالألفاظ جزلة مصقولة ، أُحكم ترتيبها كما أُحكم وضع الاقتباسين القرآنيين فيها ، مع الإطراف فى الكنايات والاستعارات ، كتعبيره فى تكاسل الأندلسيين عن الكتابة عن أعلام بلدهم ، إذ يقول : « كل امرىء منهم قائم فى ظله لا يبرح ، وثابت على كعبه لا يتزحزح » ويقول عمن أهمل الكتابة عن الكتاب والوزراء : إنه « لم يبلّ قلما بمناقبهم » يقصد أنه لم يغمس قلمه فى مداد للكتابة عنهم . ويترك الكناية إلى الاستعارة قائلا : « على أنه لو أطلقَ ما عقل الإغفال من لسانه ، وبسط ما قبض الإهمال من بيانه » . ويستغل ثقافته فى التعبير عن الفوز والظفر ، إذ يقول : وليستغل قَصَب السَّبْق ، ويفوز بقدح ابن مقبل الذى تغنى فى شعره بفوزه ، ويأخذ بكظم دَغْفَل كأنما يساويه فى قدرته المشهورة بعلم الأنساب ، ويصبح شَجًى وغُصَّة فى حلق أبى العميثل على نحو ما أصابه أبو تمام بغصة مريرة حين ردَّ عليه ردًّا مفحما . وتلطَّف ابن الربيب لمخاطبه أبى المغيرة بن حزم الأندلسى حين قال له :

(١) أبو العميثل هو الذى تعرض لأبى تمام يقول له لماذا لا تقول من الشعر ما يفهم فقال له : وأنت لماذا لا تفهم ما يقال .

(٢) نفث : نفخ .

(٣) هو كتاب العقد الفريد المشهور .

(٤) واسطة العقد : الجوهرة الكبيرة فى وسط العقد .

(٥) المفصل : كل ملتقى عظمين فى الجسد ويضرب التعبير مثلا للخطأ الجسيم .

(٦) المقصل من السيوف : القاطع .

« لو نفث ببلدكم مصدور (مريض بصدره) لأسمع ببلدنا مَنْ فى القبور فضلا عمن فى الدور والقصور » . ثم أورد عليه إشكالا ربما كان هو السبب المهم فى الرسالة ، ذلك أن ابن عبد ربه الأندلسى ألف كتابًا أدبيًا فى مجلدات سماه العقد الفريد ، وهو مطبوع بمصر مرارا فى أربع مجلدات كبار ، وفيه يعرض الثقافة الأدبية فى المشرق ، ولم يعن فيه بالحديث عن أدباء بلده وشعرائه إلا ما كان من تمثله ببعض شعرهم وذكره للشاعر الأندلسى يحيى الغزال ، أما بعد ذلك فالكتاب مشرقى خالص بما فيه من أخبار وشعر ونثر مما جعل الصاحب بن عباد حين اطلع عليه يقول : « هذه بضاعتنا رُدَّت إلينا » . وابن الربيب محق فى اعتراضه على كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ، لأنه لم يعرض فضائل بلده وما أنتج من نثر وكتّاب وشعر وشعراء ، غير أن ابن عبد ربه قصد بكتابه العقد إلى ذلك وأن يعرض على مواطنيه الأدب المشرقى . على أن ابن الربيب بالغ ، فإن وراء ابن عبد ربه كثيرين من الأندلسيين عنوا بعرض أخبار ولاتهم وحكامهم ، نذكر منهم عبد الملك بن حبيب المتوفى سنة ٢٣٨ وفى كتابه تحدث عن تاريخ الأندلس حتى أيام معاصره : عبد الرحمن الأوسط ، ولأحمد بن محمد الرازى المتوفى سنة ٣٤٤ للهجرة كتاب أخبار ملوك الأندلس ، ولابن القوطية المتوفى سنة ٣٦٧ كتاب تاريخ افتتاح الأندلس يتحدث فيه من الفتح حتى نهاية أيام الأمير عبد الله سنة ٣٠٠ وفى أخبار الفقهاء والقضاة والعلماء من كل صنف تلقانا كتب مثل كتاب الفقهاء لابن عبد البر أحمد بن محمد وتاريخ قضاة قرطبة للخشنى المتوفى سنة ٣٦١ ومن كتب الأطباء والصيادلة طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل المتوفى سنة ٣٧٧ ومن كتب اللغويين كتاب طبقات النحويين واللغويين للزبيدى المتوفى سنة ٣٧٩ ومن كتب العلماء الأندلسيين عامة تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى المتوفى سنة ٤٠٣ . فالأندلسيون لم يقصروا فى حق ملوكهم وعلمائهم كما تبادر إلى ظن ابن الربيب ، وسيكثرون بعد زمن ابن الربيب من كتابة المجلدات الضخام فيهم وفى الشعراء كما نعرف مثلا عن المقتبس لأبى حيان والذخيرة لابن بسام .

ولا تسجّل كتب التراجم والأدب فى الحقب التالية رسائل شخصية جزائرية أدبية طريفة من طراز رسالة ابن الربيب ، بل تظل مغفلة هذا النوع من الرسائل ، ومن المؤكد أنها أخذت تزدان بالسجع منذ ازدانت به الرسائل الديوانية الحمادية ، وكان مما عمل على ذلك أن الأندلس أخذت تُلقى بطائفة من صفوة كتابها منذ القرن السابع الهجرى إلى بجاية وشقيقاتها من مدن الجزائر ، وكان لبجاية منهم الحظ الأوفر ، فقد نزلها واستوطنها - على الأقل فترة طويلة - غير كاتب منهم ، وقد عرضنا فى غير هذا الموضع لمن نزلها من المتصوفة وكيف كان لهم تأثير كبير فى أهلها وفى شيوع الشعر الصوفى بينهم واستقرار كثير منه فى صدورهم وأفئدتهم . ونلاحظ نفس الملاحظة على من نزلها من كبار الكتاب الأندلسيين واستوطنها إلى آخر حياته أو أقام فيها شطرًا كبيرًا من حياته ثم رحل عنها إلى تونس ، ومن يرجع إلى كتاب عنوان

الدراية للغبريني الذى ترجم فيه للعلماء والأدباء ببجاية فى القرن السابع وشطر من القرن السادس يحسُّ أن تراجم الكتاب مقسومة بين تراجم بجائية وتراجم أندلسية . وكان البجائيون أخذوا يتأنقون فى كتابتهم الأدبية واندمج ذوقهم فى الذوق الأندلسى الأنيق وأصبحنا بإزاء كتابة أنيقة عامة فى الرسائل الشخصية والديوانية ، وحتى فى كتب التراجم كما نجد فى صدر كثير من تراجم الغبرينى فى كتابه عنوان الدراية ، وفى التعريف بملوك الدولة الزيانية عند يحيى بن خلدون ومحمد بن عبد الله التنسى .

فإذا قلنا إن الرسائل الشخصية أخذت تطبع فى الجزائر — منذ القرن السادس الهجرى — بطوابع السجع ، بل لقد كانت تضيف إلى ذلك حُلى من المحسنات البديعية لم نكن مبالغين . ونمضى إلى العهد العثمانى وتظل للرسائل الشخصية هذه السمات مع ما يداخلها من التكلف ، وكان أحمد المقّرى صاحب نفح الطيب راسل عبد الكريم الفكّون شيخ الإسلام بقسنطينة ، وظل حكامُ الجزائر العثمانيون يعينونه أميرًا للحج عن بلده والجزائر عامةً ، وكان المقرى أرسل إليه بمنظومة فى علم الكلام يتمنى أن يتلطف بصنع شرح لها ، فردَّ عليه برسالة أثبتها المقرى فى نفح الطيب قائلا فى ديباجتها إنها كتاب وافاه من عالم قسنطينة وصالحها وكبيرها وفقيهها ، سلالة العلماء والأكابر ، وارث المجد كابرا عن كابر ، المؤلف العلامة الشيخ عبد الكريم الفكون حفظه الله . وبعد البسملة والصلاة على الرسول الكريم يقول الفكون[1] :

« إنى أحمد الله إليك وأصلى على نبيه سيدنا محمد ، ولا أريد إلا صالح الدعاء وطلبه منكم ، فإنى أحوجُ الناسِ إليه ، وأشدهم فى ظنى إلحاحا عليه ، لما تحققت من أحوال نفسى الأمّارة ، واستبطنت من دخيلاتها المثابرة على حب الدنيا الغرّارة ، كأنما عميت عن الأهوال التى أشابت رءوس الأطفال ، وقطعت أعناق كُمَّل الرجال ، فتراها فى لُجج هواها خائضة ، وفى ميدان شهواتها راكضة ، طغت فى غَيِّها وما لانت ، وجمحت فما انقادت ولا استقامت ... والله أسأل حُسْنَ الألطاف ، والسَّتر عما ارتكبناه من التعدى والإسراف ، وأن يجعلنا من أهل الحِمى العظيم ، وممن يحشر تحت لواء خلاصته الكريم : سندنا سيدنا ومولانا وشفيعنا النبى الرءوف الرحيم .. وقد اتصل بيدى جوابكم ، أطال الله فى العلم بقاءكم ، فرأيت من عذوبة ألفاظكم وبلاغة خطابكم ، ما يذهل من العلماء فحولها ، وينيلها لدى الجثو[2] لسماعه سُؤْلها ومأمولها .. وقد ذيَّلتموه بأبيات أنا أقل من أن أوصف بمثلها ، على أنى غير قائم بفرضها ونَفْلها ، فالله تعالى يمدكم بمعونته ، ويجعلكم من أهل مناجاته بحضرته .. وظنُّنا لكم أن نجعل على منظومتكم الكلامية يعنى : « إضاءة الدجنَّة » تقييدا

(١) نفح الطيب ٢٣٨/٣ وانظر تعريف الخلف ١٣٢/٢ .

(٢) الجثو : الجلوس على الركبتين .

أرجو من الله فيه توفيقًا وتسديدًا بحسب قدرى لا على قدركم ، وعلى مثل فكرى القاصر لا على عظيم فكركم .. »

ويختم الرسالة بالصلاة على سيد الخلق ويذكر أنها كتبت فى سابع أو ثامن رجب من عام ١٠٣٨ للهجرة . وواضح ما يجرى فى الرسالة من سجع متكلف وأنها تقوم على المبالغة المسرفة حتى لينسب الشيخ إلى نفسه الإسراف فى الشهوات والآثام ، لا لأن ذلك حقيقة ولكن لأنه يريد صنع سجعات ، ويقول إن نفسه عميت عن الأهوال التى أشابت رءوس الأطفال وقطعت أعناق كُمَّل الرجال ، والمبالغات فى الرسالة أكثر من أن نحصيها أو نقف عندها ، وقد اجتُلبت من أجل السجعات ورصفها .

ودائما نلتقى فى رسائل العهد العثمانى بمثل هذه المبالغات حتى فى رسائل التعزية ، على نحو ما نجد فى تعزية للمفتى محمد بن حسين عزّى بها عبد الرزّاق بن حمادوش فى ابن له توفاه الله ، فكتب إليه[1] :

« بلغنا ما أحار الأذهان وأشجاها[2]، وأطار النوم من الأجفان وأبلاها، وأضرم لواعج الأشواق، وأذكى[3] زواعج الاحتراق ، بالذى صَدّع أعشار[4] القلوب ، وأفاض على صحن الخدّ الدموع من الغروب[5].. حتى أدركتنى محنتك وموت ولدك فأخذتنى الصدمة، وهيجت لى المحنة، فلقد رمانا الدهر بسهام صروفه فأصمانا[6]، وتعهدنا خَطْبه فهدّ عروشا وأركانا .

والرسالة مبنية على المبالغة الشديدة فقد بلغه ما أشجاه وأغصّه ، وأطار النوم من جفونه وجعلها بالية خلقة ، وهى مبالغة شديدة أتبعها بلواعج الأشواق ، ومكانها فى التعزية قلق وأشد منها قلقا السجعة التالية لها . وقد بلغه ما صدع وشقق قِطَعَ قلبه . والمجىء بصحن الخد شديد التكلف . ويبدو أنه كان فقد عزيزًا قبل ذلك فتكسر النصل على النصل فى فؤاده ، وأصابته سهام الدهر فى الصميم كما أصابت ابن حمادوش ، وقد بالغ مبالغات شتى فى تصوير حزنه . ولعله حشدها من أجل السجع .

٤

المقامات

يبدو أن الجزائر – مثل بقية البلدان العربية – عرفت المقامات مبكرة ، إذ كانت فنا جديدا أعجب به أدباء العرب فى كل مكان وأخذوا يتدارسونه ، ونلتقى فى القرن السادس الهجرى

---

(١) تاريخ الجزائر الثقافى ٢/٢٠٥ .
(٢) أشجاها : أغصّها .
(٣) أذكى : أوقد .
(٤) أعشار : قطع .
(٥) الغروب : المآقى .
(٦) فأصمانا : أصابنا فى الصميم.

بجزائرى يكتب فى هذا الفن هو الوهرانى المتوفى سنة ٥٧٥ هـ وسنفرد له ترجمة ، ويذكر الغبرينى فى كتابه عنوان الدراية طائفة من الأساتذة كانوا يدرسون مقامات الحريرى للطلاب طوال القرن السابع الهجرى مثل عبد الله بن نعيم الحضرمى ويوسف بن يخلف ومحمد بن الحسن بن ميمون القلعى ، غير أن أدباء الجزائر قبل العهد العثمانى لم يحاولوا محاكاة الوهرانى فى مقاماته ولا محاكاة كتابها الأصليين من أمثال بديع الزمان الهمذانى والحريرى . أما فى عهد العثمانيين فنجد غير أديب يحاول كتابتها على نحو ما نجد عند أحمد البونى ، إذ كتب سنة ١١٠٦ هـ/١٦٩٤ م مقامة[1] فى أربع صفحات بعنوان: «إعلام الأخيار بغرائب الوقائع والأخبار» وهى فى بيان علاقة العلماء بالسلطة والشكوى من وشايات أهل العصر ، ويستهلها بقوله :

« الحمد لله الذى جعل المصائب وسائل لمغفرة الذنوب ، والنوائب فضائل لذوى الأقدار والخطوب ، وسلط – سبحانه وتعالى – على الأشراف أرباب الزور والفجور والإسراف ... وبعد أيها العلماء والفضلاء النبلاء الكملاء فرّغوا أذهانكم وألقوا آذانكم ، وتأملوا ما يلقى إليكم من الخبر الغريب ، وما يرسله الله تعالى على كل عاقل أريب ، فقد ارتفعت الأشرار ، واتضعت أرباب المعارف والأسرار ، وانقلبت الأعيان ، وفشا فى الناس الزور والبهتان ، وأُهملت أحكام الشريعة ، وتصدّى لها كل ذى نفس للشر سريعة . بينما نحن فى عيش ظله وريف ، وفى أهنأ لذة بقراءة العلم الشريف ، إذ سعى فى تشتيت أحوالنا وقلوبنا ، وهتك أستارنا وعيوبنا ، من لا يخاف الله ولا يتقيه ، فرمى كل صالح وفقيه ، بما هو لاقيه ، واعتدّ فى ذلك بقوم يظنون أنهم أفاضل ، وهم – والله – أوباش أراذل . وما كفاه بثّ ذلك فى كل ميدان .. حتى أوصله لمسامع السلطان ، فلم نشعر إلا ومكاتبات واردة علينا من جانب الأمير ، بعزل صديقنا الشهير .. من خطة الفتوى ، مع أنه ذو علم وتقوى ، وتحيرنا من ذلك أشد التحير ، وتغيرنا بسببه أعظم التغير » .

ومن التجوز تسمية ذلك مقامة إذ لا تقوم على الكدية والشحاذة الأدبية وأقاصيص الأدباء السيارين الذين يجولون فى البلاد متفاصحين بأدبهم ، محتالين على الناس حيلا شتى فى أخذ دراهمهم ودنانيرهم ، على نحو ما نعرف عند بديع الزمان والحريرى ، إنما ذلك أشبه برسالة تتناول موضوعا هو وشاية الناس النمامين لذوى السلطان للوقيعة بينهم وبين بعض العلماء ، ولا مقامة ، ولا ما يشبه المقامة .

وبعد نحو عشر سنوات أو تزيد قليلا ألف محمد بن ميمون ترجمة لوالى الجزائر محمد بكداش سماها التحفة المرضية فى الدولة البكداشية فى بلاد الجزائر المحمية » ، وجعلها فى ستة

---

(١) انظر فى هذه المقامة تاريخ الجزائر الثقافى ٢/٢١٨ .

عشر فصلا ، وسمىَّ كل فصل مقامة تحكى جانبا من سيرة الوالى العثمانى محمد بكداش (١١١٧-١١٢١ هـ) والمقامة الأولى أو الفصل الأول فى نبذة من أخلاق محمد بكداش ، ثم تتوالى المقامات أو الفصول عن أعماله . والصلة الوحيدة بين الفصول وبين المقامة هو تسمية فصولها مقامات ، أما بعد ذلك فهى ترجمة متكاملة لسيرة والٍ عثمانى وكل ما يمكن أن يكون بينها وبين المقامة من شبه هو كتابتها سجعا ، وقديما كتب العتبى المتوفى سنة ٤٢٧ هـ/١٠٣٥ م سيرة محمود الغزنوى سجعا فى كتابه عنه الذى سماه اليمينى نسبة إلى لقب محمود الذى لقبه به الخليفة العباسى : يمين الدولة ، ونسج على منواله العماد الأصبهانى فى كتابه : « الفيح القُسِّى فى الفتح القدسى » وفيه يصف بإسهاب فتح صلاح الدين لبيت المقدس سجعا . ولم يقتبس محمد بن ميمون فى كتابه من أسلوب المقامات السجع وحده ، فقد اقتبس أيضا ألفاظا لغوية وأنواعا بديعية كما قال فى مقدمته .

ويقدم ابن حمادوش الجزائرى المتوفى بأخرة من القرن الثانى عشر الهجرى ثلاث مقامات فى رحلته المنشورة بالجزائر بتحقيق د . أبى القاسم سعد الله ، وأولاها تصف الطريق من تطوان إلى مكناس وما رآه فيها من غرائب ، يقول[1] :

« ومن غريب ما رأيت فى مرج طويل أنى رأيت غُرَّتين ، كل واحدة فى أفحوصها[2] فوق الماء ، تحضن بيضها ، وشهد أهل الحى كبيرهم وصغيرهم أن الغر وأبا غطاس وطيورًا أخرى لا تلد إلا فوق الماء فى الموضع الذى يكون عليه كقطعة حصير من الكلأ[3] ، يبنون به أفحوصهم ويبيضون ويفرخون ، ولا يمسّ بيضهم الماء ، وإن مسَّه الماء فسد ، وهو يُبْنَى بناء صحيحا جدا . وأتونا ببيض الغُرّ ، معظمه كبيض الدجاج ، ولونه كلون بيض الحجل[4] ، إلا أنه أشد بياضا من بيض الحجل ، وفيه نقط سود . والغر طائر قدر الدجاج أسود اللون وبين عينيه غرة بيضاء .. ومن غرائب ما رأيت أن فى هذا المرج قوارب يصطادون بها السمك والطير وبيضه ، ويعدُّون (يجتازون) عليها من ناحية إلى أخرى ، ويحملون عليها أحمال الزرع وغيره ، وهى من حزَمِ البردى[5] ، يعقدون حزمة بحبال الدوم الرقاق ويجعلونها وُسْطَى ، ويعقدون حزمتين ، يجعلون من كل ناحية واحدة عالية يمينا وشمالا ، ووسطها منخفض ، ويجمعون بينها بالربط من مقدمها ، ويشدّون الكل بالربط بينها . ويركب فيها ، ويمسك الراكب فى يده عودا طويلا يكتدُّ[6] به ولا يقذف » .

---

(١) رحلة ابن حمادوش الجزائرى (طبع المكتبة الوطنية بالجزائر) ص ٧٣ .

(٢) أفحوص الطائر : مكان بيضه ورقاده عليه – والغرُّ نفس الطائر المعروف فى مصر .

(٣) الكلأ : العشب .

(٤) الحجل : طير فى حجم الحمام .

(٥) قوارب النيل والبحيرات فى الدلتا كانت تصنع أيضا من البردى أيام الفراعنة .

(٦) يكتد بالعود : يدفع القارب بعود فى يده وعلى صدره كما فى مصر حين يقترب من البر .

وابن حمادوش يقول إن أغرب ما رآه في طريقه من تطوان إلى مكناسة طائرات من الغر في بركة بأحد المروج ، والغر معروف في مصر بنفس الاسم ويُرَى كثيرا شتاء في الإسكندرية ودمياط وبورسعيد أو بعبارة أدق في البرك والبحيرات هناك . ويذكر للناس هناك قصة عنه : أنه يبني أفحوصه أو مرقده للبيض على قطعة من حصير الكلأ ، وإنه ما يزال يتعهد بيضه حتى لا يمسه الماء فيفسد ، وحتى يفرخ ، ويصف بيضه وصفا دقيقا ، ثم يذكر ما رآه في نفس المرج وبركته من قوارب صيد السمك والطير وبيضه ، وكيف أنها كانت تصنع من نبات البردى ، وتُضَمُّ حزمه بعضها إلى بعض بحبال الدوم الرقاق ، وهي بذلك تشبه أدق الشبه قوارب الصيد أيام الفراعنة ، وتطورت هذه القوارب عند المصريين حتى أصبحت سفنا كبيرة تجري في المياه بمجاديف متعددة ، ولم تكن أعواد القوارب التي رآها ابن حمادوش تقذف بمياه أي أنها لم تكن مجاديف ، إنما كانت ما يسمى في مصر عند صياديها وملاحيها باسم مِدْرَى ، وهي عود طويل من خشب يدفع به النُّوتِيّ القارب ، ممسكا به بيديه ودافعا له بصدره بمنتهى ما يملك من قوة ، ليندفع القارب كما يريد . وليس في المقامة كدية ولا شحاذة أدبية بل هي وصف لطريق ومشاهده وصفا أدبيا . ولا يلبث ابن حمادوش أن يورد في رحلته مقامة ثانية باسم المقامة الهركلية ، ويستهلها قائلا[1] :

« الحمد لله حدا بي حادي الرحلة إلى أن دخلت في بعض أسفاري هركلة[2] ، فنزلت بها في خان[3] كأنه من أبيات النيران ، أو كنائس الرهبان ، بل لا شك أنه من أبيات العِصْيان ، فلذلك لا يُسَرُّ به الناظر ، ولا ينشرح له الخاطر ، فاختصصت منه بحجرة ، أو نقرة في حجرة ، وكأني وقعت من السماء في حفرة ، أو تبعت أفعوانا فدخلت جُحْره ، فغلّقت بابي ، لأحفظ حيائي وأؤمّن جنابي ، من شدة أتعابي .. حتى مدَّ الليلُ جناحه ، وأوقد في السماء مصباحه ، وهدأت الأصوات ، وصرنا كالأموات ، وتوغلت في حبائل النوم ، ولم أدر ما هنالك من القوم ، ولم توقظني إلا جلبة الأصوات ... وشددت الرحال ، وتهيأت للترحال » .

والمقامة ليس فيها إلا هذا الوصف للخان ، فهي أضعف من صاحبتها أدبيا أو من حيث المشاهد الأدبية ، وسمى البلد هركلة ولعله يريد هرجلة لما سمع في الفندق من هرج وصياح وجلبة هنا وهناك ، مما جعله يشد الرحال ويعزم على الترحال . ويورد في رحلته مقامة ثالثة لكن لا في وصف بعض المشاهد أو المدن أو الفنادق ، وإنما في وصف زوجته التي كانت تمتلئ عليه سخطا كما يقول في رحلته حين تجده يخسر أمواله في التجارة ، وكذلك حين

(١) رحلة ابن حمادوش الجزائري ص ٧٨ .
(٢) هركلة : بلدة .
(٣) خان : فندق .

تجد علمه لا يروج ولا يردّ عليه ما يخسره ، مما كان يجعلها تعمد إلى مغاضبته ، وفيها يقول فى مقامته الثالثة التى سماها المقامة الحالية واصفا لها[1] :

« قُرِنتُ بجارة غِرَّة[2] ، عيشتها مرة ، آمالها ظنون ورغبتها فيما لا يكون ، الدهر كله ساخطة ، ومطالبها شائطة[3] ، تخزيك أو تحرجك أو تحزنك ، لا تطلب إلا العنقاء[4] ، ولا ترغب إلا فى الرُّخّ[5] ، ولا تتغذى إلا بَيْض[6] الأَنُوقِ ، ولا تجنى إلا ثمرةَ الخلاف ، ولا تركن إلا لعدمِ الإسعاف .. غذتها أُمُّها لبن القرود ، فشبَّتْ لا تألف المقصود .. بيد أنها تسرُّ الناظرين ، وتُصْبِى السّامعين ، يصبو إليها الحليم ، ويرنو إليها الكريم .. أُشبهت فى القَدِّ الغُصْنَ القويم ، والسَّمْهَرِىّ[7] المستقيم ، وقد صدق عليها قول الشاعر :

أُسيلات أَبدانٍ رِقاقٌ خُصورها وَثيراتُ ما التاثتْ عليه المآزرُ[8]

كأنها درَّة مصونة ، أو جوهرة مكنونة .. فلذا اخترتها أما لأولادى ، ومنفقة[9] لطارفى وتلادى علما منى أن الدنيا دار كدر ، وقليل فيها ما يسرّ ، نظرا لقول الصادق الصدوق : « اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة » .

وهو قضاؤه وقضاء كثيرين مثل ابن حمادوش يسيئون اختيار زوجاتهم ، لما قد يُصْبِيهم فيهنّ من حسن وجمال كما أصبى ابن حمادوش ، ومع ذلك فهناك زوجات كثيرات جميلات خلقة وخلقا لأنهن من أصل كريم . وقد صوّر ابن حمادوش زوجته غرة يسهل انخداعها ، بل جمعت السوء كله إذ عيشتها مرة ، ودائما غاضبة ساخطة تطلب ما لا يتأتّى ولا يكون ، ولا تترك وسيلة لخزى زوجها وإحراجه إلا تقترفها ، ودائما تطلب منه المستحيل من مثل طير العنقاء والرخ الأسطوريين وبيض النوق الذى لا يمكن أن يوجد . ودأبها دائما الخلاف بل لكأنما تجد فيه لذتها فهى تجنيه وتقطفه من كل واد ومن كل طريق ، ولكأنما غذَّتها أُمها بلبن القرود فهى ما تنى تقفز من خلاف إلى خلاف ومن نكد وغمّ إلى نكد وغم . وقد يكون ابن حمادوش أراد أن أن يداعب زوجته ، فجرته المداعبة إلى هذه المبالغات التى استخدم فيها محفوظاته من مثل العنقاء وطائر الرخ وبيض الأنوق وثمر الخلاف أو شجره . وقد يدل على ذلك أنه عاد يصفها بصفات جمال مختلفة ، ويجعلها درة مصونة أو جوهرة مكنونة . وواضح

(1) رحلة ابن حمادوش ص ١٦٤ .
(2) غرة : يسهل أن تخدع .
(3) شائطة : متجاوزة الحد .
(4) العنقاء : طائر خرافى لا وجود له .
(5) طائر الرخ : طائر خرافى .
(6) بيض الأنوق : بيض وهمى لأن النوق لا تبيض .
(7) السمهرى : السيف .
(8) أُسيلات : ناعمات . وثيرات : ممتلئات . التاثت : التفت .
(9) فى الأصل : نافقة .

أن هذه المقامة الثالثة تبعد بدورها عن فن المقامة كما رسمه بديع الزمان والحريرى ، وكان حريا بابن حمادوش أن لايسمى تلك الأعمال الثلاثة مقامات . وكأن الجزائر لم تعرف فن المقامة برسومه وتقاليده وخصائصه ، ولذلك يكون من الصعب أن يقال إنها شاركت فيه ، لأن أديبا سمى عملا له مقامة أو سمّاه له آخرون ، بينما هو لا يمت إلى فن المقامة بصلة حقيقية .

٥

كبار الكتاب

أبو القاسم عبد[1] الرحمن القالمى

أغفلت كتب التراجم الحديث المفصَّل عن سيرة هذا الكاتب الفذ الذى تنبَّه إليه عبد المؤمن سلطان دولة الموحدين حين استولى على بجاية سنة ٥٤٧ هـ/١١٥٢ م وقضى فيها على الدولة الحمادية ، فألحقه بكتَّابه كما يقول عبد الواحد المراكشى ، ويذكرأنه من ضيعة من أعمالها تعرف بقالم ، وكان من كتاب الدولة الحمادية وربما قرأ له عبد المؤمن رسالة عن يحيى بن العزيز آخر ولاة هذه الدولة إليه فأعجب بكتابته ، وكان قد استسلم له يحيى وصحبه معه إلى مراكش ، فربما هو الذى أشار عليه به . على كل حال صحبه معه عبد المؤمن -كما صحب يحيى - إلى مراكش ،وألحقه بكتاب الإنشاء فى ديوانه ، وكان يكتب معه فيه أبو جعفر أحمد بن عطية وأخوه أبو عقيل وعبد الملك بن عياش ، ولما توفى عبد المؤمن سنة ٥٥٨ هـ/١١٦٢ م وخلفه ابنه يوسف ظل يكتب له مع عبد الملك بن عياش ، ويبدو أنه لم يعمر طويلا فى عهده ، وأنه ظل فيه سنوات معدودة ، إذ لم تؤثر له رسالة عنه دُوِّنت فى مجموع رسائل موحدية المنشور بالرباط ، وكل ما له فيه رسالتان عن عبد المؤمن ، يتحدث فى إحداهما عن تنكيله بالنصارى فى ضواحى قرطبة ، حين حاولوا الإغارة على الجيش العربى وولوا على وجوههم مدحورين ، وفى الثانية يتحدث عن هزيمة الأعراب الهلاليين واستسلام الكثرة من القبائل للموحدين ودخولهم فى طاعتهم ، بحيث لم تدخل سنة خمس وخمسين وخمسمائة حتى اندمجوا فى دعوة الموحدين والشعب المغربى بعد أن ظلوا يعيثون فسادا فى ديار المغرب نحو قرن كامل ، وهو يستهل الرسالة الثانية بقوله[2] :

« من أمير المؤمنين - أيَّده الله بنصره ، وأمدَّه بمعونته - إلى الطلبة والشيوخ والأعيان

(١) انظر فى القالمى كتاب الخريدة ١/١٨٠ وكتاب المعجب فى تلخيص أخبار المغرب للمراكشى (طبع القاهرة) ص ٢٦٦ ، ٢٦٩ ، ٣١٧ وله فى مجموع رسائل موحدية (طبع الرباط) رسالتان .

(٢) انظر مجموع رسائل موحدية ص ١١٣ .

والكافَّة من الموحدين من أهل فاس ، أعزَّهم الله بتقواه ، وأدام كرامتهم بحسناه – سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته .

أما بعد فالحمد لله الذى تمَّم مقاصد أوليائه فيما اعتمدوه من إقامة أمره الواجب ، وأناف[1] بأغراضهم المقصورة على مرضاته على مطامح المطالب ومدارك الرغائب . وبلَّغهم فى أعدائهم – الذين ولَّوا أمر الله – وقد استقبلهم – جانبَ الإعراض والإدبار ، و ﴿ بدَّلوا[2] نعمة الله كفرا وأحلُّوا قومهم دار البَوار﴾ – أمانىَّ الظافر الغالب . ووكَّل بهم أيَّةً وَلجوا ، وعلى أى مدرج درجوا من النَّصر المحالف المصاحب ما يكون لعامَّة أكنافهم ، وجنبات أوساطهم وأطرافهم ، عَيْنَ الحافظ المراقب . ومكن لهم إنقاذا لمقدوره ، وإفاضة لأشعة نوره ، أسباب التقلب فى أفياء[3] الأمنة وظلال السكون من جانب إلى جانب ، وأحظاهم[4] نعمةً منه وفضلا وقد فاءوا[5] بشرف الفتح الجسيم[6] ، واحتقاب[7] الحظ العميم ، وابتغوا ﴿ رضوان[8] الله والله ذو فضل عظيم﴾ وجعل أمرهم الذى هو أمره ناظما إلى قيام الساعة بين أطراف المشارق والمغارب . والصلاة على محمد عبده ورسوله الحاشر[9] العاقب[10] ، الصادع[11] بنوره الثاقب[12] ، لبابة[13] الانتخاب وسلالة الانتجاب من لؤى بن غالب ، المنبعث لتتميم مكارم الأخلاق بما خصَّه من الضرائب[14] المقدسة والمناقب ، وعلى آله وصحبه أولى العزم العاكف الدائب ، والجَدُّ الثابت اللازب[15] والأثرة (المنزلة) المشتملة على شرف المناسب ، وزُلْفو المناصب . وأسأل الله الرضا عن الإمام المعصوم ، المهدىُّ المعلوم ، القائم بأمر الله وقد التفَّت حُجبُ الغياهب ، وتفرَّقت سبل المذاهب ، وخُبِط من ليل الحيرة فى حيث لا منقذ لجاءٍ ولا مخلِّص لذاهب ، فهدى الله بهداه إلى الواضح اللاحب[16] ، وأنقذ به من هوة العاثر وشَفَا العاطب » .

وهذه فاتحة الرسالة وهو يطيل فى تحميدها وشكر الله على ما أتاح للموحدين من نصر عظيم ،وكأنه يجعل ذلك استهلالا وإرهاصا لموضوع الرسالة ، وهو هزيمة العرب الهلالية هزيمة ساحقة . ولا نكاد نقرأ فى التحميد حتى نلاحظ طول السجعة البائية التى بناها عليها ، بل لقد بنى عليها سجعات المقدمة جميعها فى التحميد والصلاة على الرسول الكريم والدعاء

(1) أناف : أشرف .
(2) الآية رقم ٢٨ فى سورة إبراهيم .
(3) أفياء : ظلال .
(4) أحظاهم : أتاح لهم حظوة .
(5) فاءوا : رجعوا .
(6) الجسيم : العظيم .
(7) احتقاب : ادخار .
(8) الآية ١٧٤ فى آل عمران .
(9) الحاشر : اسم من أسماء الرسول ومعناه الحاشد .
(10) العاقب: اسم من أسماء الرسول ومعناه خاتم الرسل
(11) الصادع : مبلغ الرسالة .
(12) الثاقب : المصيب .
(13) لبابة : خلاصة .
(14) الضرائب : الطبائع والشمائل .
(15) اللازب : المتماسك .
(16) اللاحب : البيِّن .

لابن تومرت مهدى الموحدين . وهذا الطول فى السجعات قصد إليه قصدا ، لكى يضمّن كل سجعة فى داخلها سجعتين أو أكثر . وهو يتدىء ذلك منذ السجعة الثالثة : « وبلّغهم فى أعدائهم الذين ولوا أمر الله وقد استقبلهم جانبَ الإعراض والإدبار ، و (بدّلو نعمة الله كفرا وأحلّوا قومهم دار البوار) أمانيَّ الظافر الغالب . والسجعة بائية وفى داخلها سجعتان رائيتان حتى تتشابك الكلمات فى داخلها وتتعانق ، فيتم بذلك تناسق صوتي بديع . وهو تناسق تضيئه آية قرآنية وتزينه وتضيف إليه روعة . وتليها هذه السجعة : ووكلٌ بهم أيّةٌ ولجوا وعلى أى مدرج درجوا ، من النصر المحالف المصاحب ، ما يكون لعامةٌ أكتافهم ، وجنبات أوساطهم وأطرافهم ، عَيْن المحافظ المراقب » . وفى داخل السجعة البائية سجعة جيمبية فى أولها ثم سجعة ميمية ، وكأن الكلمات داخل السجعة تريد أن تتعانق عن طريق هذه الإرنانات المتلاحقة . وتكثر بجانب ذلك الصور والاستعارات ، ويكثر تلاحم الألفاظ لدقة انتخابها واختيارها مما يدل على أن القالمى كان كاتبا بارعا حقا .

والرسالة طويلة ، غير أنها – بجانب بلاغتها – ذات أهمية تاريخية فإن القالمى يذكر أنه لم يعد للقبيل الرياحى من بنى هلال المستولى على أنحاء كثيرة فى الجزائر ذكر يسمع ولا حديث يرفع ، ولا أثر يتقصّى ويتتبّع ، إذ لحقوا بقبيل العدم وأصبحوا كهشيم ألهبته نفحة ضَرَم (شرر) ولم يجدوا إلى مستخلص سبيلا ويتمثل بالذكر الحكيم : (أينما ثُقفوا أُخذوا وقُتّلوا تقتيلا) إلا ما كان من قبيلة بنى محمد الرياحية ، إذ ألقوا بمقاليد الانقياد ، وانخرطوا فى سلك أهل التوحيد بجميع الأنفس والأموال والأولاد ، وربطوا أنفسهم مدى أعمارهم على مضافرة[1] الغزو ومصابرة الجهاد . وأما قبيلة جُشَم فهم بمحلات أهل التوحيد معسكرون وعلى أعدل طريق المطاوعة والمتابعة مستمرون ، وهم عدد لا يحمله إلا البساط الفيّاح[2] ، وكل من هذين الحيّين : الجشمى والفخذ المحمّدى الرُّياحى عَزَم – وعُزم به – على أن تُختَطّ إن شاء الله بالمغرب دارهم ، ويبوأ هنا لك قرارهم ويُقصر على خدمة هذا الأمر العزيز (يقصد دعوة الموحدين) جوارهم . فالحيان الأعرابيان الكبيران : فخذ بنى محمد الرياحى الهلالى وفخذ جشم سيختط لهما منازل فى الديار المغربية يكون فيها مستقرهم . وأما قبائل الأثبج وزغبة فيقول القالمى عنهم إن أعيانهم وصلوا مراكش عاصمة الموحدين يمدون يد الاستتابة ، ويطلقون ألسنة الإنابة والعودة إلى الطاعة . يقول القالمي : « وعلى الجملة فقد أظهر الله تعالى من بركة هذه الحركة الميمونة السعيدة ما لم يكن ينشأ بسماء الوهم والإحساس ، ولا يجرى على أساليب القياس » . فإن من درس القرن السابق لتلك الحركة وتسلط الأعراب فيه على المغرب الأوسط وتونس يظن أنهم لن يغلبوا على ما فى أيديهم ، حتى كانت هذه الحركة لعبد المؤمن بعد أن

(١) مضافرة : معاونة .

(٢) الفياح : المتداح ، الواسع .

استولى على بجاية سنة ٥٤٧ ، فإذا هو لا يصل إلى سنة ٥٥٥ هـ/١١٦٠ م حتى جرى فيها القالمى هذه الرسالة كما يقول فى نهايتها حتى يكون قد قلَّم أظفار أعراب الهلالية فى المغرب الأوسط ، وانسحبت منهم عشيرة المحمدية كما انسحبت قبيلة جشم وانضمتا إلى جيشه وخطط لهما منازل فى الديار المغربية . وجاءته قبائل الأثبج وزغبة معلنة طاعتها . واندمج الأعراب الذين عاشوا قرنا كاملا فى المغرب الأوسط وتونس وبعض ديار المغرب يسلبون وينهبون ، اندمجوا فى البربر وأصبحوا شعبا واحدًا بفضلِ هذه الحركة المباركة لعبد المؤمن كما يقول القالمى . ورسالته لذلك بجانب أنها وثيقة أدبية تُعَدّ وثيقة تاريخية فى غاية الأهمية .

الوَهرانى (١)

هو أبو عبد الله محمدبن محرز الوهرانى ، منشؤه ومرباه فى وهران الواقعة على البحر المتوسط غربى مدينة الجزائر ، وكانت فيها – مثل بقية بلدان الجزائر – حركة علمية وأدبية أنتجت غير فقيه وأديب . وتفتحت موهبة الوهرانى الأدبية مبكرة ، ورأى – بعد نضجه وشهرته بالأدب – أن يرحل إلى مصر لعل أدبه يروج فيها ، فرحل إليها فى عهد السلطان صلاح الدين ، ولقى وزيره الكاتب المشهور القاضى الفاضل ومَنْ حوله من نبهاء الكتاب ، وأحسَّ أن بضاعته لا تروج عنده ، فانصرف عنه وعن الكتابة الأدبية الجادة إلى الكتابة الأدبية الهزلية . وعرف القاضى الفاضل فيه قدرته على الخطابة ، وكان كثير النزول بالشام مع صلاح الدين فى حروبه للصليبيين ويبدو أنه استدعاه هناك – أو لعله هو الذى رحل إليها – فعمل على تعيينه خطيبا فى جامع داريا بضواحى دمشق ،وظل فى تلك الوظيفة حتى توفى سنة ٥٧٥ هـ/١١٨٠ م . ويقول ابن خلكان أنه لما علم قصوره عن طبقة القاضى الفاضل عدل عن طريق الجد وسلك طريق الهزل وعمل المنامات والرسائل المشهورة به والمنسوبة إليه ، وهى كثيرة الوجود بأيدى الناس ، وفيها دلالة على خفة روحه ورقة حاشيته وكمال ظرفه ، ولو لم يكن له فيها إلا المنام الكبير لكفاه ، فإنه أتى فيه بكل حلاوة ، ولولا طوله لذكرته » .

والمنام الذى يشيد به ابن خلكان فى نحو أربعين صفحة من القطع الكبير ضمنه رسالة يرد بها على بعض أصحابه متماجنا بما ساقه من ألقابه العلمية والأدبية ومن كلام هزلى غلبه النوم فى أثنائه ، فرأى فى حلمه أن القيامة قامت وأن مناديا ينادى الناس هلموا إلى العرض على الله ويلبيه كثيرون بين قدماء ومعاصرين منهم الملوك والحكام والسلاطين والأدباء والشعراء والعلماء من العرب والعجم والفسّاق والصلحاء ، وهو دائما يهذى ويهزل فى لقاء كل من يلم به أو يمر

---

(١) انظر ترجمة الوهرانى عند ابن خلكان ٣٨٥/٤ وتعريف الخلف ٤٩٤/٢ . وحقق أعماله وطبعها فى القاهرة إبراهيم شعلان ومحمد نغش باسم : منامات الوهرانى ومقاماته ورسائله نشر دار الكاتب العربى للطباعة والنشر .

عليه . ويرى بعض عظماء أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، كما يرى مالك خازن النار ويحاوره ، ويرى الرسول مقبلا فى موكب عظيم من المقام المحمود يومْ مورد الحوض الذى يسقى منه أمته . يقول[1] :

« لما انتهى إلى شاطىء المشرعة[2] تقدمت إليه الصوفية من كل مكان وفى أيديهم الأمشاط وأخلّة الأسنان ، وقدموها بين يديه ، فقال : صلّى الله عليه ، مَنْ هؤلاء ؟ فقيل له : قوم من أمتك غلب العجز والكسل على طباعهم ، فتركوا المعايش وانقطعوا إلى المساجد ، يأكلون وينامون فقال : فبماذا كانوا ينفعون الناس ويعينون بنى آدم ؟ فقيل له :والله ولا بشىء البتة ، ولا كانوا إلا كمثل شجر[3] الخِرْوع فى البستان ، يَشْرَبُ الماء ويضيق المكان » .

وهو نقد مغربى مبكر للصوفية وما يحملون من أمشاط لشعرهم وخلال لأسنانهم ولا عمل لهم ينفعون به الأمة ، إلا ما كان من البطالة والكسل والتمويه على العامة بما يؤدون لهم من أطعمة وأكسية متظاهرين بالعبادة والنسك فى المساجد . وعلى نحو هذا النقد للصوفية ينقد كثيرين من معاصريه علماء وغير علماء كما ينقد كثيرين من القدماء ومواقفهم من على بن أبى طالب فى حرب صفين ومن الحسين فى مقتله بكربلاء ، بينما نراه ينوّه بالأيوبيين : أسد الدين شيركوه وأخيه أيوب وابنه صلاح الدين ، ولعله كان يحاول بذلك أن يتقرب من دولتهم . وربما كانت مقامته البغدادية الجادة أروع من هذا المنام الهزلى ، وهو يستهلها بقوله[4] :

« لما تعذرت مآربى ، واضطربت مغاربى ، ألقيت حبلى على غاربى[5] ، وجعلت مذهَّبات الشعر بضاعتى ،ومن أخلاف الأدب رضاعتى ، فما مررت بأمير إلا حللت ساحته ، واستمطرت راحته ، ولا وزير إلا قرعت بابه ، وطلبت ثوابه ،ولا بقاض إلا أخذت سَيْبه[6] ، وأفرغت جيبه ، فتقلبت بى الأعصار ، وتقاذفتنى الأمصار ، حتى قربت من العراق وسئمت من الفراق ، فقصدت مدينة السلام[7] ، لأقضى حجّة الإسلام ، فدخلتها بعد مقاساة الضرّ ، و مكابدة العيش المر .. وتاقت نفسى إلى محادثة العقلاء ، واشتاقت إلى معاشرة الفضلاء ، فدلّنى بعض السادة الموالى ، إلى دُكّان الشيخ أبى المعالى ، فقال هو بستان الأدب ، وديوان العرب ، يرجع إلى رأى مصيب ، ويضرب فى كل علم بنصيب ، فقصدت قصده ، حتى جلست عنده ، فحين نظر إلىّ ، ورأى أثر السفر علىّ ، بدأنى بالسلام ، وبسطنى بالكلام ، وقال : من أى البلاد خرجت وعن أيها درجت ! فقلت : من المغرب الأقصى .. وقال كيف معرفتك بدهرك ؟

(١) انظر منامات الوهرانى ومقاماته ورسائله ٤٩ .
(٢) المشرعة : المورد .
(٣) شجر ورقه كورق التين ثمره مر .
(٤) مقامات الوهرانى ومقاماته ص ١ .
(٥) الغارب : الكاهل : ألقى حبله على غاربه :ذهب حيث شاء .
(٦) سيبه : عطاءه .
(٧) مدينة السلام : بغداد .

ومن تركته وراء ظهرك » . وسأله عن دولة الملثمين ثم عن دولة الموحدين قائلا :ما تقول فى عبد المؤمن (أول ملوك الموحدين) وأولاده ، وسيرته فى بلاده ؟ فقلت : مؤيد من السماء ، مسلَّط على من فوق الماء ، خضع له ذوو التيجان ،وخدمه الإنس والجان ، ولو أن للقلم لسانا ، وللورقة إنسانا[1] ، لتألمت ، وتظلمت ، ولأنشدتك فى الملا[2] قول الشيخ أبى العلا[3]

جَلَوْا صارمًا وتَلَوْا باطلا وقالوا صدقنا فقلنا نَعَمْ[4]

ولكن السكوت عن هذا أنجح ، ومسالمة الأفاعى أصلح »

وأول المقامة شبيه بمقامات الحريرى وبديع الزمان فى تصوير حيلهم على الناس واستخراجهم لدراهمهم ودنانيرهم . ولكنها لا تلبث أن تتحول إلى حديث عن الدول المعاصرة ورجالها ، وصاحب الدكان يسأل وهو يجيب ، وقد سأله بعد الملثمين والموحدين من ملوك المغرب الأقصى عن حاكم صقلية النورماندى ، وعن الدولة الفاطمية وزوال الحكم منها فى مصر إلى الدولة الأيوبية . ويشيد بغير أمير منها وخاصة صلاح الدين واستقدامه لأبيه وأهله ونقله الخلافة بمصر من الفاطميين إلى بنى العباس ببغداد ، ويمتدح المستضيىء الخليفة حينئذ وبعض وزرائه وصاحب ديوانه . ولعل أسلوبه اتضح من خلال ما ذكرته من هذه المقامة ، إذ يتميز سجعه بالقصر مما يشيع فيه عذوبة بديعة ، وقد مزج مديحه لعبد المؤمن بنقد لاذع لحكمه وأنه يقوم على البطش والقهر الشديد . وتلك طريقته العامة فى رسائله الكثيرة ، إذ يخلط السم بالعسل ، وقد تصبح سما خالصا . وله أكثر من ثلاثين رسالة موجهة إلى القاضى الفاضل وغيره من رجال الدولة محملة بكثير من هذه السموم . ويدل منامه الكبير ومقاماته ورسائله على ثقافة واسعة ، وحياته وتحليل أعماله خليقان بدراسة مفصَّلة .

(جـ) أبو الفضل[5] بن محشرة

هو أبو الفضل جعفر بن محمد بن على القيسى المشهور باسم ابن محشرة ، من أهل مدينة بجاية ، كان أبوه قاضيا بها وعنى بتربيته علميا وأدبيا ، مما جعل الغبرينى ينعته فى عنوان الدراية بأنه الفقيه الجليل العالم الصدر النبيل النبيه الذكى السنِّى القَدْر الكاتب البارع . وينعته عبد الواحد المراكشى فى كتابه : « المعجب » : ببراعة الكتابة وسعة الرواية وغزارة الحفظ وذكاء النفس . ويقول الغبرينى : « استدعاه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨ – ٥٨٠ هـ) إلى حاضرتهم بمراكش وكان يجله لحسن سمته ورُوائه ووقاره ، وفى المعجب أنه كان يخدم أبا القاسم القالى

(١) إنسانا : إنسان عين .

(٢) الملأ : الجماعة .

(٣) أبى العلا : أبى العلاء المعرى .

(٤) جلوا صارما : صقلوا سيفا وشحذوه .

(٥) انظر فى ابن محشرة عنوان الدراية ص ٥٣ والمعجب للمراكشى ص ٣١٧ ، ٣٣٨ ومجموع رسائل موحدية ص ١٤٩ – ٢٢٨ .

إلى أن مات ، فكتب للخليفة يوسف بن عبد المؤمن مكانه ، وقد يدل ذلك على أن القالمى – لا الخليفة يوسف – هو الذى استدعاه – ربما لمعرفته المظنونة بأبيه القاضى مواطنه أو لمعرفته بفضله . ويقول الغبرينى إنه ولد سنة ٥٤٠ هـ/١١٤٥ م أو قبلها بقليل ، وتوفى سنة ٥٩٨ هـ/١٢٠١ م غير أن المراكشى فى المعجب يقول إنه كتب للخليفة يعقوب الموحدى بعد كتابته لأبيه يوسف ، ولم يزل كاتبا له إلى أن توفى . ويقول أيضا إنه كتب ليعقوب بعد وفاته أبو عبد الله بن عياش ، وفى التكملة[١] أن يعقوب استكتب ابن عياش فى سنة ٥٨٦هـ/١١٤٠م وكأن هذه هى السنة التى توفى فيها ابن محشرة لا سنة ٥٩٨ كما توهم الغبرينى .

ولابن محشرة فى مجموع رسائل موحدية تسع رسائل : رسالة على لسان الخليفة يوسف الموحدى سنة ٥٧٦ هـ/١١٨٠ م وثمان على لسان الخليفة يعقوب الموحدى تبدأ فى سنة ٥٨٠ وهى السنة التى توفى فيها أبوه واستولى على صولجان الحكم ، والرسالة الأولى موجهة من الخليفة يوسف الموحدى إلى الطلبة والموحدين والشيوخ والأعيان والكافّة بقرطبة يخبرهم فيها بأنه قام بحركة مباركة فى سنة ٥٧٥ إلى إفريقية التونسية استولى فيها على قفصة جنوبى تونس وقضى على ثائر بها وأنه اجتمع إلى سادة قبائل رياح وشيوخها فى تلك الرحلة وأنه أغراهم بارتحال قبائلهم إلى الأندلس لجهاد نصارى الإسبان مذكرا لهم بجهاد آبائهم فى الفتوح الإسلامية ، وأنهم لبُّوا دعوته ، يقول ابن محشرة على لسانه[٢] :

« جُمع أشياخ العرب وأعيانهم والمشار إليهم من رؤسائهم ووجوههم وكبرائهم من جميع قبائل رياح (الهلالية) فذُكّروا بحقوق هذا الأمر العظيم وآلائه الجزيلة ومِنَنه الجسام ، ونُبّهوا إلى ما كان لسلفهم من العرب من كريم السوابق فى أول الإسلام ، وعُرِّفوا أن الغرض منهم إنما هو غزو الروم الذين بجزيرة الأندلس ، فقد طال استشراؤهم[٣] ، وأملى الله لهم فزاد عليه اجتراؤهم . ونُدبوا إلى أن ينفروا إلى ذلك بقضّهم وقَضيضهم[٤] ، نفرة من انبتّ[٥] عن الوطن ، ونَبَذ عُلَق المسكن والسكن ، وإن كانت هذه البلاد هى التربة التى مسَّت أولا جلودَهم ، وقضوا فيها من الشباب عهودهم ، فالذى ينتقلون إليه من الرِّباط فى سبيل الله يجمع لهم الخير فى الدين والدنيا ، والشرف بالكون فى عداد كلمة الله العليا .. وذاكرنا الجماعة المذكورة فى ذلك ذكرى أفضت إلى قلوبهم ، وخلصت إلى نفوسهم ، وتغلغلت[٦] فى بواطنهم ، فتحركت إلى ذلك حفائظهم[٧] ، ومارت[٨] لنصر دين الله عزائمهم .. وقد سالت بهم

---

(١) التكملة (طبع مدريد) رقم ٩٥٢ .
(٢) مجموع رسائل موحدية ص ١٥٢ وما بعدها .
(٣) استشراؤهم : اشتداد شرهم وتفاقمه .
(٤) بقضهم وقضيضهم : بجميعهم ينقض آخرهم على أولهم ويندفع .
(٥) انبت : انقطع ، وفى الأصل : أبنت .
(٦) تغلغلت : تعمقت ، وفى الأصل : تقلقلت .
(٧) حفائظ جمع حفيظة : الحمية والغضب .
(٨) مارت : تحركت ، وفى الأصل : ثارت .

الأباطح[١] ، وامتلأت بجموعهم الموامى[٢] الفسائح .. وإن جموعهم لتكاثر الحصى[٣] ، وتعادُّ[٤] الدَّبى ، وتملأ الغيطان[٥] والرُّبى » .

ولغة الرسالة جزلة مختارة ، اختارها كاتب حاذق يعرف كيف يسوِّى من اللغة أساليب تروق القارئ بسجعها ورصانة ألفاظها عامدا فى أحيان كثيرة إلى تأكيد معنى العبارة التى يوردها بجملة أو جمل ترادفها ، فتزيدها إيضاحا وبيانا كقوله فى أواخر ما اقتبس من رسالته : « وذاكرنا الجماعة المذكورة فى ذلك ذكرى أفضت إلى قلوبهم ، وخلصت إلى نفوسهم ، وتغلغلت فى بواطنهم ، فتحركت إلى ذلك حفائظهم ، ومارت لنصر دين الله عزائمهم » . والرسالة وثيقة تاريخية مهمة لأنها ترينا سياسة الموحدين الحصيفة ، إذ لم يكتفوا بأن يستشعر أعراب الجزائر وإفريقية التونسية الولاء لهم فحسب ، فقد رأوا أن ينقلوا جماهير غفيرة منهم إلى الأندلس للاستعانة بهم فى الحرب الدائرة هناك بين دولة الموحدين ونصارى الأندلس وكان لهم أثر كبير فى رجحان كفة الموحدين على أولئك النصارى فى وقائعهم معهم ، واستنَّ تلك السنة الخليفة يعقوب الموحدى مثل أبيه يوسف ، وبذلك انتصر فى موقعة الأرك المشهورة سنة ٥٩١ هـ/ ١١٩٤ م . ولم تُفض هذه السياسة إلى انتصار الموحدين فى الأندلس لعهد يوسف ويعقوب فقط فقد أفضت أيضا إلى كفِّ أيدى الأعراب عن العبث لمدة قرن فى بلاد المغرب وخاصة فى الجزائر . وآخر رسالة لابن محشرة احتفظ بها مجموع رسائل موحدية كتبها — كما مر بنا — سنة ٥٨٦ على لسان يعقوب الموحدى إلى الطلبة — الموحدين — الأعيان والأشياخ والكافة بسبتة يخبرهم فيها بغزوة جيشه لابن الريق النصرانى فى غربى الأندلس وتنكيله بمن معه واستيلائه على حصن عظيم من حصونهم يسمى طُرُّش . وهو يستهل الرسالة بقوله[٦] :

« الحمد لله الذى أرغم لهذا الأمر العزيز شُمَّ المعاطس[٧] ، وألان بأيده قِباح[٨] الجامح الشامس ، وأخضع لعزَّته وسطوته كل جيدٍ متطاول ، وأخشع كل لحظ مشاوس[٩] ، وحكم بظهور أمره ، واستيلاء غلبته وقهره على ما توقَّل[١٠] فى الشُّمِّ الشوامخ وتوغَّل فى البيد البسابس[١١] ويسَّر له من الفتوح الخارقة للعادة ، المقودة بزمامى البركة والسعادة ، ما تجاوز[١٢]

---

(١) الأباطح جمع أبطح : المكان المتسع يمر به السيل ويترك فيه التراب والحصى .
(٢) الموامى جمع موماة : المفازة الواسعة ، وفى الأصل : المواهى .
(٣) الحصى : صغار الحجارة ، وفى الأصل : الحصر .
(٤) تعاد : تفاخر فى كثرة العدد ، والدَّبى : الجراد وفى الأصل : مُعاد الرُّبى .
(٥) الغيطان جمع غيط : المطمئن الواسع من الأرض . الربى جمع ربوة : ما ارتفع من الأرض .
(٦) مجموع رسائل موحدية ص ٢١٨ .
(٧) المعاطس جمع معطس : الأنف والمراد بشم المعاطس الأعداء المستعلون .
(٨) قباح : عضد . الشامس : الجامح المستعصى .
(٩) مشاوس : متكبر .
(١٠) توقل : صعَّد .
(١١) البسابس : القفر الخالية .
(١٢) تجاوز : واد عن .

تقدير المقدَّر وقياس القائس ، والصلاة على محمد نبيِّه المصطفى ، ورسوله الأكرم المُجْتَبَى ، المختار من أشرف المحاتد[1] وأطيب المغارس ، المسكت بُفرقانه المعجز ، وبيانه الموجز ، كلَّ نافس ، والماحى بنور نبوته الخاتمة للملل ، وشريعته الناسخة للأديان والنحل ، مظلمات الغياهب[2] ومدلهمات الحنادس » .

وابن محشرة فى هذا التحميد وما تلاه من الصلاة على الرسول الكريم يختار حرف السين لسجعاته فيهما ، وبَدْءًا من السجعة الرابعة أخذ يطيل السجعة لتتوازن العبارات أو التعبيرات داخلها بحيث تتشابك ألفاظها وتتعانق فى سجعات داخلية ، ليدل على مدى قدرته فى السجع وصياغته ، وهو يضيف إلى ذلك عناية واضحة بالتصوير كما فى قوله « ألان بأيده قباح أو عضد الجامح الشامس » وتتوالى كنايات وتصاوير مختلفة كقوله عن الرسول إنه من أطيب المغارس ومحا بنور نبوته مظلمات الغياهب ومدلهمات الحنادس . ويقول — على لسان يعقوب — إن صاحب قشتالة المسيحى فى الشمال حين علم بهذا الجيش سارع إلى إعلان تمسكه بعهده مع الموحدين وأنه مستعد من أجلهم لمحاربة أهل ملته ، فأمضى له يعقوب السلم . وبالمثل سارع صاحب ليون يطلب تجديد مهادنته ، وهادنه يعقوب ليفرغ لابن الريق النصرانى فى الغرب . ويصف ابن محشرة انتساف الجيش لزروعه فى شنترين وإحراقه وتخريبه لمنازله وربوعه ، ويصور استيلاء جنوده على قلعة طُرُّش المنيعة ، بقوله[3] :

« نهدوا[4] إلى قلعة للأعداء تسمى « طُرُّش » على هضبة منيفة[5] المراقب ، مسامية للكواكب ، قد انقطعت حافاتها ، وبعدت قُذفاتها[6] من كل الأرجاء والجوانب ، ولعظمها ومكانها من نفوسهم أشبُّوها[7] بالبناء الشامخ وحصَّنوها ، وألقوا بها جموعهم المؤتشبة[8] ووثقوا بها على حفظ نفوسهم وأموالهم وائتمنوها ، واعتدوها[9] قُفْل بلادهم ، فخانتهم — بحمد الله — آمالهم التى أمَّلوها[10] ، وكذبتهم ظنونهم التى ظنوها . ولقد كانت من المنعة بحيث لا تُرام ، ولا يُهْتَضم[11] المتوقل فيها ولا يستضام ، ولا تثبت لمحاربها — لوعورة مراقيها[12] وجوانبها — الأقدام . لولا سعود هذا الأمر[13] الذى تؤيده الأقدار وتنجده الأيام ، والحمد لله

(1) المحاتد جمع محتد : الأصل .

(2) الغياهب جمع غيهب والحنادس جمع حندس وهما الظلمة .

(3) انظر مجموع رسائل موحدية ص ٢٢٣ .

(4) نهد : نهض .

(5) منيفة المراقب : عالية مواضع المراقبة .

(6) قذفات جمع قذفة : جانب بعيد .

(7) أشبوها هنا : حموها .

(8) المؤتشبة : الملتفة .

(9) اعتدوها : عدوها وفى الأصل : اعتدوا .

(10) بعد أملوها كلمة زائدة: «فى استقصاله» حُذِفت .

(11) يهتضم المتوقل : يقهر المقيم فيها . يستضام : يظلم .

(12) مراقيها : أماكن الصعود فيها وفى الأصل : مراقبها .

(13) هذا الأمر : هذه الدعوة دعوة الموحدين .

على ذلك حمدا تُستُنْجز به المنن وتستدام ، لا ربَّ سواه . فنازلها الموحدون – أعزهم الله – أصدق نزال ، وصالوا على كفرتهم أعظم صيّال[1] .. وعندما عضّتهم الحرب الضروس[2] بنابها[3] ، وجرَّعتهم أكْؤس مُرِّها[4] وصابها .. رُغموا[5] فى أن يخرجوا بحشاشتهم ، ومن معهم من نسائهم وذرياتهم ، ويفرجوا للموحدين –أعزّهم الله – عن كل ما اشتمل عليه حصنهم من أموالهم وأقواتهم » .

والسجع مرصوف بإحكام والكلمات منتخبة بدقة والصور تتوالى بكثرة ، فقد ائتمنوا هذا الحصن وعدوه قفل بلادهم ، فخانتهم آمالهم وكذبتهم ظنونهم ، بفضل دعوة الموحدين التى تؤيدها الأقدار وتنجدها الأيام ، وعضّتهم الحروب الضروس بنابها وجرّعتهم أكؤس مرها وصابها ، فولّوا على وجوههم خاسئين مدحورين إلى غير مآب .

(١) فى الأصل : مصال .
(٢) الضروس : العضوض المهلكة ..
(٣) فى الأصل : بها .
(٤) فى الأصل : مقرها .
(٥) فى الأصل : رغبوا .

القسم الثانى

المغرب الأقصى

الفصل الأول

الجغرافية والتاريخ

١

الجغرافيـة(١)

المغرب الأقصى أبعد أجزاء المغرب عن بلدان المشرق ، فهو نهايته الواقعة على المحيط الأطلسى غربا والبحر المتوسط شمالا ، وتحدُّه الجزائر شرقا والصحراء الكبرى جنوبا ، وسطحه فى الجملة جبلى إذ تمتد فيه سلسلتان من الجبال تتصلان جيولوجيا بجبال الألب الأوربية ، وهما تمتدان فيه من الغرب إلى الشرق ، وأولاهما شمالية ، ويتفرع منها فى الشمال الغربى فرع جبال الريف الذى يتخذ شكل قوس يحتضن الساحل الشمالى من مدينة سبتة جنوبى جبل طارق إلى مدينة مليلة غربى مصب نهر الملوية . ويمتد فرع محاذ له يسمى أطلس التل ، بينه وبين سلسلة جبال الأطلس الصحراوى هضبة وتكثر فى هذا السطح الجبلى أنهار ونهيرات وسهول . وسلسلة الجبال فى الأطلس الصحراوى شديدة الارتفاع وتتميز بكثرة المنحدرات الوعرة ، وتتفرع منها سلسلة جبال صغيرة يسميها ابن خلدون جبال درن ، وكثير من جبال الأطلس الصحراوى تكسوه الغابات وتتوجه الثلوج .

ولكى نتصور المغرب الأقصى جغرافيا ينبغى أن نعرض مناطقه ، وأول ما يلقانا منها فى الشمال الغربى منطقة الهبط ، وتنتهى شمالا على مضيق جبل طارق وشرقا على البحر المتوسط وغربا على المحيط الأطلسى ، ومن أهم مدنها سبتة وطنجة شمالا وتطوان على البحر المتوسط شرقا وأصيلا على المحيط الأطلسى غربا ومنطقة أزغار جنوبا ، ويبلغ طول الهبط نحو مائة ميل وعرضها نحو ثمانين ميلا ، وتكثر فيها المجارى والنهيرات المائية وأرضها خصبة جدا ووافرة الإنتاج ، وسهولها وجبالها مأهولة بالسكان . ولعب سكانها دورا مهما فى الدفاع عن غرناطة وإقليمها حين ظلت قرنين ونصفا تقاوم نصارى الإسبان الشماليين ، وخاصة سكان جبل ودراس البواسل ، وقد ظلوا يتداولون قصصا كثيرة فى عبارات نثرية وقصائد شعرية عن

---

(١) انظر فى جغرافية المغرب الأقصى كتابات أبى عبيد البكرى والإدريسى (انظر جغرافية الجزائر) وجغرافية الوطن العربى للدكتور محمد محمود الصياد وصورة الأرض لابن حوقل وملامح المغرب العربى للدكتورين محمد عبد المنعم الشرقاوى ومحمد محمود الصياد وكتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان طبع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

بطولات بطل شعبي من أبطالهم يسمى « هلّولا » وبطولته في المغرب الأقصى تماثل البطولات التي تحكى في فرنسا عن بطلهم رولان في ملحمته المشهورة ، وحرى بنا أن تكون لنا ملحمة مماثلة عن « هلولا » . وجنوبي هذه المنطقة على المحيط منطقة أزغار ، وهي سهل خصب وتكثر بها المدن والقرى والسكان ، وتمتد على المحيط نحو ثمانين ميلا ومن مدنها القصر الكبير وميناء العرايش ، ولكثرة زروعها تموِّن مدينة فاس ، ويؤلف شبابها زهرة الجيش الفاسي . وإلى الجنوب منها منطقة فاس ، وهي مدينة متحضرة من قديم أو بعبارة أدق منذ بناها إدريس مؤسس الدولة الإدريسية سنة ١٩٢ هـ/٨٠٧ م وخطت في الحضارة خطوات واسعة منذ الدولة المرينية ، وهي تتوسط سهلا خصبا أتاح لسكان منطقتها معيشة طيبة لكثرة حقولها وبساتينها ومن مدنها مكناس وتنتج أرضها مختلف الفواكه والثمار ، ومن مدنها أيضا سَلا وهي ميناء على المحيط ونشأت بجانبها مدينة الرباط ، ومدن كل هذه المنطقة تتميز بحضارة رفيعة . وجنوبي هذه المنطقة منطقة تامسنة وهي منطقة غنية وبها كثير من المدن والقرى ، تُعَدُّ بالعشرات . وتنتهي في الجنوب بجبال أطلس التل ، ومن أهم مدنها أنفة وخلفتها حديثا الدار البيضاء ، وكانت أنفة مزدانة بجوامع وفنادق جميلة ، وهي ميناء على المحيط في وسط سهل كثير الزروع والحبوب . وإلى الجنوب منها منطقة دكالة ، وكان أهلها في العصور الوسطى متأخرين لا يعرفون طرق الزراعة وغرس البساتين ومن أهم مدنها آسفي . وتليها على المحيط منطقة حاحة وتعد امتدادا لمنطقة مراكش الداخلية ، وهي منطقة وعرة مليئة بالغابات والجبال والأودية المائية الصغيرة وتزدحم بالسكان ، وأكثر مدنها القديمة أصبحت أطلالا ، وتنتهي هذه المنطقة عند الأطلس الصحراوي . وتليها إلى الجنوب على المحيط منطقة السوس آخر المناطق الغربية للمغرب الأقصى ، وتقع وراء الأطلس الصحراوي جنوبا ، ويكثر فيها النخيل ، ومن أهم مدنها أغادير عند نهاية جبال الأطلس وقرب مصب نهر السوس ، ومنها أيضا ماسة على المحيط وتيوت في الشمال ، وأرض هذه المنطقة خصبة وتنتج كمية وافرة من الحبوب والفاكهة وخاصة من التين والعنب .

ونعود إلى أقصى الشمال على البحر المتوسط ، فنلتقي بمنطقة الريف متاخمة لمنطقة الهبط ، وتمتد شرقا نحو مائة وأربعين ميلا حتى نهر النكور وجنوبا نحو أربعين ميلا حتى الجبال التي تحاذي نهر الورغة الواقع في منطقة فاس ، وهي منطقة مليئة بالجبال والغابات شديدة البرودة ، وبها كثير من أشجار البرتقال والتين ، ولكن القمح قليل . وليس في الجبال سوى مدن قليلة ، وأكثر السكان في مدن الساحل صيادون وملاحون ، وتنتج الجبال أو كثير منها الأعناب والزيتون والتين والكتان والسفرجل والليمون . وإلى الشرق على البحر المتوسط من هذه المنطقة منطقة غارت ، وتبدأ من نهر النيكور وتنتهي عند مصب نهر الملوية ، وتمتد جنوبا حتى محاذاة جبال منطقة الحوز شرقي فاس وطولها نحو خمسين ميلا في أربعين ميلا عرضا ، وهي منطقة

شديدة الجفاف قليلة السكان وأهم مدنها مليلة على البحر المتوسط . وإلى الجنوب من إقليم غارت إقليم الحوز وهو يمتد شرقى منطقة فاس فى نحو مائة وتسعين ميلا طولا ومائة وأربعين ميلا عرضا ويشتمل على كثير من السهول والجبال الصحراوية أو جبال أطلس ، ومن أهم مدنها تازه وهى تعد ثالثة المدن فى ولاية فاس من حيث الحضارة والثقافة ، ولها أراض خصبة شديدة الاتساع ، والحياة مزدهرة فى كثير من مدن وجبال هذه المنطقة . وجنوبى الحوز منطقة تادلة ، وتشمل الإقليم من جنوبى نهر العبيد إلى نهر أم الربيع فى الشمال ، ولأهلها مهارة فى دبغ الجلود ونسج الصوف ، وأكثر السكان بالمدن والجبال فى رخاء ومن مدنها تفزة وأفزة . وغربى هذه المنطقة منطقة هسكورة وتبدأ من التلال الغربية فى دُكّالة وتمتد شرقى منطقة مراكش وتتجه إلى الجنوب ، ويعنى سكانها بصناعة الجلود لكثرة المعز بديارهم وأيضا محصول الزيت ، ومن مدنها المدينة وتاغوداست وتغطى بعض جبالها الثلوج على مدار السنة . وإلى الجنوب منها منطقة جزولة شرقى السوس وغربى منطقة الدرعة ، وتوجد بهاعدة مناجم للنحاس والحديد ، أهلت السكان لصناعة كثير من الأوعية ويزرعون الشعير وعندهم الكثير من الماشية . وإلى الشرق من هذه المنطقة منطقة الدرعة وتمتد جنوبا إلى مسافة مائتين وخمسين ميلا . أما السكان فيقيمون فى حوض نهرها وتمتد فيه حدائق النخيل . وفى الجنوب الشرقى من منطقة هسكورة منطقة سجلماسة ، وتمتد على طول نهر زيز ، وتتغلغل جنوبا إلى مسافة مائة وعشرين ميلا حتى حدود الصحراء ، وأهل مدينة سجلماسة أغنياء لتبادلهم التجارة مع بلاد السودان ، وتكثر بمنطقتها التمور .

ولعل فى كل ما قدمت ما يصور من بعض الوجوه أن جغرافية المغرب الأقصى معقدة لكثرة مناطقه واتساع أقاليمه التى تبلغ نحو خمسمائة ألف كيلو متر مربع ، وجباله فى الشمال وفى أطلس التل والأطلس عالية علوا شاهقا ، وهو علو هيأ من جهة لتكوُّن الثلج على قممها وذراها الشامخة ، كما هيأ من جهة ثانية لكثرة نزول الأمطار بها ، وهى تنزل بها منذ شهر أكتوبر وتغزر فى الشتاء. وكثرة الجبال على سطحها هيأها لأن تكثر فيها الأنهار والنهيرات والمجارى المائية، ومعظمها تجرى طوال العام ، ومن أهمها نهر الملوية ، وينبع من منطقة فاس ويجرى إلى الشمال الشرقى ويصب فى البحر المتوسط شرقى مليلة ، ونهر سبو ويجرى من الشرق إلى الغرب ويصب فى المحيط الأطلسى مخترقا منطقة فاس وحوضه يعد أغنى أحواض المغرب الأقصى وأكثرها سكانا ، ويبلغ إنتاجه أربعين فى المائة من إنتاج المغرب الأقصى ، ونهر أم الربيع وينبع من منطقة الحوز، ويتجه جنوبا ثم غربا حتى المحيط ويغذى مناطق تادلة وتامسنة ودُكّالة، ونهر تنسيفت ويتجه من الشرق إلى الغرب ويخترق منطقتى مراكش وحاحة، ونهر السوس ويتجه إلى الغرب مخترقا شمالى جزولة والسوس ويصب فى المحيط بقرب أغادير .

والمغرب الأقصى كما يعتمد على الأنهار يعتمد على الأمطار ، وعلى الرغم من كثرة الجبال

على سطحه الأجزاءُ المهيَّأة للزراعة كثيرة ، وهى أولا سهول ساحلية على البحر المتوسط والمحيط الأطلسى ، والأولى محدودة المساحة وكأنها فى بعض الأنحاء أشرطة ضيقة ، والثانية أكثر اتساعا ، ويتراوح عرضها بين ثلاثين وتسعين كيلومترا . وتبعد الموانى على المحيط عن مصبات الأنهار لكثرة ما تحمل من الرواسب . وثانيا سهول نهرية وهى سهول كونتها الأنهار بكثرة ما حملت من الرواسب ، مثل سهول الأنهار المذكورة آنفا . وهى تصلح لإنتاج جميع الغلات الزراعية وغرس الأشجار وإقامة الحدائق والبساتين . وثالثا سفوح منحدرات الجبال . ورابعا تربة الأطلس التلى وبه سهول واسعة لزراعة الحبوب وغرس الأشجار . ولاختلاف الطقس بين الوديان والسهول والجبال ومنحدراتها تلقاك فى المغرب مختلف أشجار الفواكه والنُّقل ، ويكثر النخيل فى المناطق الجنوبية . والمناخ فى جملته معتدل على السواحل وأحواض الأنهار إلا ما قد يميز بعض الجبال من البرودة الشديدة حتى لتتوجها الثلوج طول العام .

٢

التاريخ[1] القديم

تاريخ المغرب الأقصى موغل فى العصور السحيقة ، وأخذ يتراءى على صفحات التاريخ مع ارتياد الفينيقيين لسواحل إفريقيا الشمالية أو بعبارة أخرى لسواحل البلاد المغربية منذ القرن التاسع قبل الميلاد وقبله وبعده للبحث عن مواقع غنية بطيبات الخيرات والسلع يُرْسون بها سفنهم ليتبادلوا مع أهلها وجوه التبادل التجارى المختلفة . وكانوا شعبًا ملاحيًّا متحضرا يحترف التجارة ، وظلوا طويلا يحاولون التعرف على المواقع الملائمة لهم فى الساحل الإفريقى الشمالى : وبمرور الزمن ومع كثرة البحث أعجبهم موقع بالقرب من مدينة تونس الحالية أقاموا فيه مدينة قرطاجة ، وسكنتها منهم جالية فينيقية كبيرة ، أقامت بها دولة ظلت قرونا طويلة ، وأخذوا يبحثون لتجارتهم عن أماكن أخرى صالحة لتبادل السلع ، واختاروا فى الجزائر بونة وجيجل وإسكيكدة وبجاية وشرشال ، ونشروا فيها جميعا حضارتهم الفينيقية ، وعلموهم غرس الأشجار وبعض شئون الزراعة والرى ، ونقلوا إليهم من موطنهم القديم فى الشام حول صور فى لبنان بعض أشجار الفاكهة والنقل . واتسعوا فى اتخاذ المواقع على سواحل البحر المتوسط الغربية لتكون مراكز لتجارتهم الواسعة ، فاتخذوا موقعا على الساحل الجنوبى الشرقى لإسبانيا سموه « قرطاجنة » واتخذوا موقعا مماثلا فى الجنوب الغربى لإسبانيا سموه « قادس » ونما الموقعان وأصبحا مدينتين فينيقيتين كبيرتين ، وكان طبيعيا أن يبحثوا عن مواقع مماثلة فى سواحل

(١) انظر فى التاريخ القديم للمغرب الأقصى كتاب تاريخ المغرب الكبير – الجزء الأول لمحمد على دبوز – (طبع القاهرة) وكتاب مدنية المغرب العربى للأستاذ أحمد صقر .

المغرب الأقصى ، وأعجبهم موقع غربي مصب نهر الملوية سموه « روسادير » وهو نفس موقع مليلة الحالية وهو فى صدر خليج يساعد على رسو السفن فيه ، وكأنما اختاروه للاتصال عن طريقه بسلع منطقة فاس الغنية. واختاروا فى آخر ساحل المغرب الأقصى الشمالى موقعا مطلا على المحيط الأطلسى ويطل من الشمال الشرقى على مضيق جبل طارق ، سموه « طنجة » والسهل من ورائها خصب ومتسع ووافر الغلات . وكما مدوا ذراعهم شمالا فى إسبانيا إلى « قادس » مدوه جنوبا فى المغرب الأقصى إلى أصيلا نحو سبعين ميلا من طنجة ، وهى فى نفس إقليمها الخصب . وفى كل المواقع التى أقام الفينيقيون لهم فيها مدنا بالساحل المغربى جميعه استقرت حضارتهم الفينيقية قرونا وأجيالا متعاقبة منذ القرن الثامن قبل الميلاد على الأقل وفى القرون التالية . وكانوا شعبًا عريقًا فى الحضارة لا فى شئون الملاحة البحرية وبناء السفن فحسب ، بل أيضا فى كثير من شئون الزراعة والصناعة : صناعة الزجاج الملون وغيره ، وبثوا ذلك كله بين كثيرين من سكان المغرب ، ولابد أن بثوا بينهم أبجديتهم التى وضعوها على هدى الأبجدية الهيروغليفية المصرية ، بعد أن أدخلوا فيها غير قليل من التعديل بحيث صارت أساس الأبجديات العالمية ، وتعلم بعض المغاربة أبجديتهم ولغتهم ، ومعروف أنها لغة سامية . والتقى دين الفينيقيين الوثنى بدين المغاربة الوثنى فى كل مكان ، وكان سكان المغرب الأقصى – مثل بقية سكان المغرب والفينيقيين – يعبدون الشمس والقمر ، ويعتقدون بوجود أرواح مقدسة فى بعض الأشجار والأحجار والطير والحيوان .

ولا نبالغ إذا قلنا إن الفينيقيين فى عصرهم الممتد قرونا نقلوا المغرب الأقصى وغيره من البلدان المغربية من حياة البداوة إلى حياة جديدة من التحضر، فقد تعلم المغاربة على أيديهم كثيرا من شئون التجارة وزراعة الحبوب والبقول والخضر وغَرْس بساتين الفواكه وأشجار الزيتون وتربية المواشى وصناعة السفن واستخراج المعادن من الحديد والنحاس وغيرهما وصنع الأوانى وحلىّ الزينة وحياكة الملابس والدباغة، وعرفوا منهم–فيمايظن– صناعة العطور والعقاقير .

ومن المراكز التى أسسها الفينيقيون لتجارتهم مراكز فى شمالى صقلية من أهمها بالرم ، وتبعهم اليونان – فيما بعد – وأسسوا لهم مراكز فى شرقى صقلية بمسينا وسرقوسة وقطانية ، وكان ذلك فى نشوب الحرب بالقرن السادس قبل الميلاد بين الشعبين أو الفئتين ، وظلت طويلا بينهما دون أن ترجح كفة إحداهما رجحانا نهائيا ومنذ أواسط القرن الثالث قبل الميلاد تتدخل روما وتحاول إزالة القرطاجيين الفينيقيين من صقلية ومن الساحل الإفريقى ونشبت الحرب بين الفئتين لمدة نحو مائة وعشرين عاما (٢٦٤ – ١٤٦ ق .م) ويكتب النصر أخيرا لروما وجيشها ، فيقضى على قرطاجة قضاء مبرما ، ويهدم مبانيها الشاهقة ، ويبنى بجوارها قرطاجة جديدة ، وتستولى روما على كل ما كان بيد القرطاجيين الفينيقيين من بلدان وأقاليم فى إفريقية

التونسية والبلاد المغربية ، وبذلك تبعتهم نوميديا بما تشمله من الصحارى فى غربى الجزائر وشرقى المغرب الأقصى حتى نهر الملوية وإلى الجنوب حتى سجلماسة ويقال إن قائدا رومانيا بناها وسماها سيجيللوم ماسة ، وحُرِّف الاسم مع الزمن إلى سجلماسة ، وبنى قواد آخرون مدنا فى نوميديا الجزائرية على نحو ما صورنا ذلك فى حديثنا عن تاريخها القديم .

وكما مدت روما ولاءها على المدن الجزائرية الفينيقية مدَّته أيضا على مدن الفينيقيين فى المغرب الأقصى : مليلة وطنجة وأصيلا ، وكان حكامها من البربر سكانها يتخذون عاصمة لهم طنجة . وكان المغرب الأقصى شرقى نهر الملوية يسمى موريتانيا الغربية ، أما موريتانيا الشرقية فكانت تتداخل مع نوميديا . وربما كان أهم حاكم قديم لموريتانيا الغربية هو بوكوس الأول ، وإليه أصهر يوغورطة حاكم نوميديا ، ودخل يوغورطة فى حروب مع الرومان فأعانهم فى القبض عليه سنة ١٠٦ قبل الميلاد صهره بوكوس ، وخلفه ابنه بوغيد سنة ٨٠ قبل الميلاد وظل قائما عليها حتى سنة ٤٤ قبل الميلاد فخلفه ابنه بوكوس الثانى حتى سنة ٣٣ قبل الميلاد . واستولى عليها الرومان بعده ، وفى سنة ١٧ قبل الميلاد جعلوا عليها بوبا الثانى صاحب نوميديا ، وخلفه عليها ابنه بطليموس حتى سنة ٤٠ للميلاد ، ثم جثم الرومان على المغرب جميعه . ونرى الرومان ينشئون فى المغرب الأقصى مدنا على ساحل البحر المتوسط مثل سبتة القريبة من جبل طارق وكانوا يسمونها «سيفيتاس» واتخذوها مقرا لحكومتهم الرومانية فى المغرب الأقصى ، فهى متحضرة من قديم ، وعمالها مهرة فى صناعة النحاس والشمعدانات ، وخارجها بساتين وحدائق بديعة . ولم يكتف الرومان بما كان على المحيط للفينيقيين من مدن مثل طنجة وأصيلا ، فقد توغلوا على ساحله إلى موقع سَلا وبنوا فيه مدينتها قرب نهر أبى الرقراق على مسافة ميلين من المحيط ، بل توغلوا أكثر من ذلك إلى إقليم تامسنة، وبنوا على ساحل المحيط مدينة أنفة مدينة الدار البيضاء الآن، وهى فى سهل خصب صالح لزراعة كل أنواع الحبوب. وجاس الرومان خلال ديار المغرب الأقصى، بدليل أننا نجدهم يتفرجون على منطقة فاس وما بها من زروع مزدهرة ، وأعجبهم بجوارها جبل زرهون الذى يمتد نحو الغرب ثلاثين ميلا ويمتد عرضه إلى عشرة أميال، وهو مغطى بأشجار الزيتون ، وقد بنوا فوق قمته مدينة وَليلى ، والأرض حولها مزدانة بمزارع وبساتين بديعة ، وكان الوالى الرومانى يقيم إما فى هذه المدينة وإما فى مدينة سبتة. وأرهق الرومان سكان المغرب الأقصى بكثير من العسف والضرائب الباهظة، وكانوا ينهبون خيرات الأرض من الحبوب والزيتون وعصيره . ولما اعتنقت روما الديانة المسيحية واتخذتها دينها الرسمى حاولت نشرها فى أرجاء إمبراطوريتها والبلاد المغربية، غير أن من اعتنقوها من المغرب الأقصى كانوا قلة شديدة فى المدن الساحلية، وأكثرهم كان من الجاليات الرومانية والأجنبية.

وظل البربر يقومون بفتن وثورات كثيرة فى أيام الرومان لكثرة مظالمهم وفداحة ما كانوا يفرضونه من الضرائب على الشعب البربرى وأبنائه ، وأخذت دولتهم تضعف منذ القرن الثالث

الميلادى وأخذت تسود الفوضى وتعم الثورات فى الإمبراطورية الرومانية والبلاد المغربية ، وتفاقم ذلك فى القرن الرابع الميلادى . وطمعت شعوب أوربا الشمالية فى اقتسام أراضى الإمبراطورية الرومانية الغربية ، وأخذت تكتسح أجزاء أوربية منها حتى إذا كانت سنة ٤٣٤ للميلاد اكتسح الوندال كل ما تملكه روما فى إفريقية التونسية والجزائر ونوميديا ورحب بهم المغاربة وأعانوهم ضد الرومان ومكنوهم من الانتصار عليهم ، لما ظنوا فيهم من وقف الظلم الرومانى ورفعه عن كواهلهم غير أنهم لم يلبثوا أن ذاقوا الأمرّين فى عهدهم الذى امتد نحو مائة عام إلى أن قضى على جموعهم القائد البيزنطى : « بليزير » سنة ٥٣٩ للميلاد . وكانوا شعبًا حربيًا فلم يخلفوا في المغرب علما ولا فنا ولا صناعة ولا أخلاقا ولا نظما . وخلفتهم فيه بيزنطة لنحو مائة عام أخرى ، واتسم عهدهم بالعسف والظلم كعهد الوندال والرومان . على أن الرومان حاولوا نشر المسيحية فى البلاد المغربية ونجحوا فى بعض المدن الساحلية كما مر بنا فى الجزائر وتونس ، كما نجحوا فى نشر لغتهم اللاتينية وخاصة فى المدن الساحلية ، أما بيزنطة فلم تحاول نشر لغتها ولا شيء من ثقافتها فى البلاد المغربية . وكانت تمد ذراعها على بعض المدن مثل سبتة على ساحل البحر المتوسط وربما مدته أيضا على بعض المدن على ساحل الأطلسى . وأكبر الظن أن الوندال لم يستطيعوا وضع أيديهم على المغرب الأقصى لبعده الشديد عن مراكز انتشارهم فى تونس والجزائر، ونظن ظنا أن قوط إسبانيا انتهزوا الفرصة فى أيامهم وأيام بيزنطة فاستولوا على أجزاء من ساحل البحر المتوسط ، وبنوا عليها مدينتى باديس وترغة بجانب مليلة الفينيقية التى كانت خاضعة لهم قبل الفتح العربى ، وبجانب سبتة وطنجة فى الشمال ومدن الساحل الغربى الفينيقية والرومانية مثل أصيلا – سلا – أنفة بنوا مدينة كونتى جنوبى مدينة آسفى فى منطقة دكّاله كما بنوا مدينة مرامر فى الداخل على مسافة نحو عشرين ميلا من كونتى . والقوط مثل الواندال لم يكونوا أصحاب حضارة ينشرونها فى البلاد التى نزلوها أو بنوا لهم فيها بعض المدن .

٣

الفتح والولاة – ثورة الصفرية – بنو مدرار – الأدارسة – بعد الأدارسة والمدراريين

(أ) فتح[١] المغرب الأقصى وعصر الولاة

بدأت أولى محاولات فتح البلاد المغربية فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، إذ رأى عمرو بن العاص واليه على مصر فى أواخر سنة ٢١ للهجرة تأمينا لحدود مصر الغربية أن يتعقب الروم

(١) انظر فى فتح المغرب الأقصى : فتوح البلدان للبلاذرى وفتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم والاستقصا فى أخبار دول المغرب الأقصى والكامل لابن الأثير وتاريخ ابن خلدون والبيان المغرب لابن عذارى .

فى برقة وديار المغرب ، واستولى سريعا على برقة وزويلة عاصمة فزان سنة ٢٢ هـ/٦٤٢ م ودار العام ففتحت له طرابلس أبوابها سنة ٢٣ هـ/٦٤٣ م . وتوفى الخليفة عمر بن الخطاب وخلفه عثمان بن عفان فعزل عن مصر عمرو بن العاص ، وولى مكانه عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، فاستأذنه فى معاودة فتح ديار المغرب ، وأمدَّه بجيش كبير كان به عدد من الصحابة ، فاقتحم به ديار المغرب سنة ٢٧ هـ/٦٤٧ م ونازل والى بيزنطة جريجوريوس فى حصن داخل الإقليم التونسى يسمى « سبطلة » وسحق جيشه سحقا ، وقُتل جريجوريوس فى ساحة المعركة ، وفتحت جميع البلاد التونسية أبوابها لابن أبى سرح ما عدا قرطاجة إذ ظلت بها حامية رومية . وتتبع إفريقية التونسية الخلافة الأموية ويتعاقب عليها الولاة ، حتى إذا وليها عقبة بن نافع سنة ٥٠ هـ/٦٧١ م أنشأ مدينة القيروان أى المعسكر وأتمها سنة ٥٥ هـ/٦٧٤ م واتخذها قاعدة للجيوش العربية الفاتحة للمغرب ودارًا لحكومته وتدبير شئونها ، وبعبارة أخرى اتخذها عاصمة للمغرب وبنى فيها جامعا كبيرا ودارا للحكومة وسرعان ما أصبحت مدينة كبرى ، وعُزل ، وخلفه أبو المهاجر سنة ٥٥ هـ/٦٧٤ م فصمم على فتح نوميديا فى المغرب الأوسط وما وراءها من الصحارى وظل يفتح البلدان حتى انتهى إلى موريتانيا الشرقية وتلمسان ، ولقيته قبيلة أوربة ورئيسها كسيلة ، فهزمها وأسر كسيلة واعتنق الإسلام واعتنقه معه كثيرون من قبيلته . وعُزل أبو المهاجرين سنة ٦٢ هـ/٦٨١ م وولى مكانه عقبة بن نافع ثانية ، وهو يعد الفاتح الحقيقى لديار المغرب الأقصى ونشر الإسلام فيه ، إذ قام بعمليات عسكرية واسعة النطاق ، وبدأ بالمغرب الأوسط فانتزع ما كان لا يزال بأيدى البيزنطيين من الحصون فى إقليم الزاب ، وأوغل غربا ، وأعلنتْ له قبيلة غمارة فى شمالى المغرب الأقصى بالريف والهبط ولاءها وهادنته وسالمته ، وأخضع وليلى فى منطقة فاس ، وسار إلى قبيلة مصمودة فى مناطق مراكش وحاحة وجزولة ونازلها واستسلمت . ثم سار إلى السوس آخر معاقل البربر فى المغرب الأقصى ، والنصر يواكبه حتى بلغ ماسة على المحيط ، وأدخل فرسه فيه حتى بلغ الماء تلابيب (طوق) الفرس وهتف قائلا : « اللهم إنى أشهدك أنى وصلت براية الإسلام إلى آخر المعمورة حتى لا يُعْبَدَ رب سواك » . وكان قد أوغر صدر كسيلة فرصده فى طريق عودته ، حتى إذا سبقه الجيش فى الزاب بالجزائر وكان فى فئة قليلة حاصره ، واستشهد البطل العظيم هو ومن كانوا معه سنة ٦٤ هـ/٦٨٣ م واستولى كسيلة بجموعه على القيروان ، وتراجع زهير بن قيس خليفة عقبة عليها إلى برقة انتظارًا لمدد يأتيه ، وأتاه المدد مع توليته على المغرب سنة ٦٩ هـ/٦٨٨ م وينازل كسيلة ويهزمه ويقتل فى المعركة . ويتولى القيروان والبلاد المغربية بعده حسان بن النعمان سنة ٧١ هـ/٦٩٠ م وكان سياسيا قديرا يحسن تدبير الحكم فدوَّن دواوين للجند وللخراج وللرسائل ، وافتتح قرطاجة وطرد منها جالية الروم التى كانت تتجسس لحساب بيزنطة وبذلك أصبحت إفريقية التونسية خالصة للعرب ، وأنشأ مدينة تونس لتكون قاعدة لأسطوله ، وبنى بها دار صناعة تمد الأسطول

بما يلزمه من السفن ، ونشبت فى أيامه ثورة عنيفة لقبيلة جراوة الزناتية بجبال أوراس ، وكانت تقودها كاهنة ، فنازلها ولم يكتب له النصر ، واضطر إلى الإنسحاب إلى « سرت » انتظارًا لمدد ، وجاءه جيش جرار فهزمها وقتلت فى أثناء فرارها ، وصالحهم على أن يكون ابنها الأكبر الوالى عليهم وأن يجنّدوا منهم اثنى عشر ألفا ليكونوا جزءا لا يتجزأ من جيشه ، وكانت سياسة حكيمة فقد أصبح أهل المغرب رفقاء سلاح وأصبح منهم ولاة لا فرق بينهم وبين العرب فى شيء . وبذلك ملك قلوب المغاربة ، وأخذ انتشار الإسلام يتسع فى المغرب الأقصى وفى كل مكان بالديار المغربية . وخلفه على القيروان وبلاد المغرب موسى بن نصير سنة ٨٦ هـ/٧٠٥ م فوضع نصب عينيه استكمال نشر الإسلام فى ربوع المغرب الأوسط والأقصى وأرسل حملات إلى أنحاء كثيرة ومعها فقهاء يعلمون الناس قواعد الإسلام وشريعته ثم نهض على رأس حملة كبرى اكتسحت البلاد المغربية حتى أقصى الغرب شمالا فى طنجة وجنوبا فى إقليم السوس ، وخلّف فى النواحى التى لم يتم إسلامها فقهاء يعلمونهم شئون دينهم وفروضه ويحفظونهم القرآن الكريم ، وأسلم فى أيامه كثيرون من البربر وأتم التنظيم الإدارى للديار المغربية ، فولاية لبرقة هى عاصمتها ، وولاية ثانية لإفريقية التونسية وشرقى المغرب الأوسط عاصمتها القيروان ، وولاية لغربى المغرب الأوسط عاصمتها تلمسان ، وولاية لبلاد السوس فى المغرب الأقصى عاصمتها سجلماسة ، وولاية لبقية المغرب الأقصى حتى شماليّه عاصمتها طنجة، ولكل ولاية حاكمها من العرب أو البربر ، وجعل حاكم طنجة بربريا هو طارق بن زياد، وأكثر من ذلك جعله قائدًا لفتح الأندلس ، وكان أكثر جيشه من البربر ، ومعنى ذلك أنه ألغيت كل تفرقة بين العرب والبربر بحيث أصبحوا سواسية فى حكم المدن وفى قيادة الجيوش وفى الجهاد نصرة لدين الله وابتغاء نشره فى أطباق الأرض طلبا لما عند الله من الثواب. وبذلك لم يعد هناك أى فارق بين العربى والبربرى ، فهما أخوان مسلمان يعملان على إعلاء كلمة الله . ونستطيع أن نقول إن فتح العرب للمغرب الأقصى والديار المغربية تم فى القرن الأول الهجرى وكان تمامه على يد موسى بن نصير والفاتحين العظيمين اللذين سبقاه حسان بن النعمان وعقبة بن نافع ولم يجعلوه فتحا حربيا بل جعلوه فتحا عقائديا أخويا لأمة وثنية أصبحت تدين بوحدانية الله ، وأصبحت تستشعر أخوة للعرب أصحاب هذا الدين، فهى تشاركهم فى العمل تحت لوائه جهادا فى سبيله ونصرة لعقيدته وتعاليمه.

وتوفى الخليفة الوليد بن عبد الملك سنة ٩٦ هـ/٧١٤ م وخلفه أخوه سليمان بن عبد الملك وكان قصير النظر فعزل البطلين العظيمين : موسى بن نصير وطارق بن زياد عن عملهما فى الأندلس وغير الأندلس ، وتوقف الفتح العربى فى شمال إسبانيا وجنوبى فرنسا ، وخلفه عمر بن عبد العزيز الخليفة الصالح ، فحاول أن يصلح أداة الحكم فى الدولة ، وولّى على القيروان وديار المغرب فقيها هو إسماعيل بن عبيد الله حفيد أبى المهاجر الوالى فى فترتى عقبة

وأرسل معه تسعة من الفقهاء ، وكلفهم بالعمل جميعا على نشر الدين الحنيف ، ودخله مغاربة كثيرون من كل أنحاء المغرب . وتوفى الخليفة عمر بن عبد العزيز سريعا ، وتولى الخلافة يزيد بن عبد الملك ، فأرسل إلى القيروان يزيد بن أبي مسلم صاحب شرطة الحجاج سنة ١٠٢ هـ/٧٢٠ م . ويبدأ عهد جديد فى المغرب لولاة بنى أمية ، عهد يقوم على الخسف والظلم للبربر فى جمع الضرائب والأموال ، ولم يطق البربر الصبر على سياسة هذا الوالى الجائرة فقتلوه فى السنة التالية ، وكان ذلك عبرة وعظة ليزيد بن عبد الملك فولّى عليهم بشر بن صفوان وخلفه سنة ١١٠ هـ/٧٢٨ م عبيدة بن عبد الرحمن السلمى ، ولا تؤثر لأحدهما أعمال جليلة يؤلف بها قلوب الرعية المغربية . ويتولى عبيد الله بن الحبحاب سنة ١١٤ هـ/٧٣٢ م ويذكر له إعادة بناء جامع الزيتونة الذى بناه قبله حسان بن النعمان ، وقد ساس الرعية هو وعماله سياسة متعسفة ظالمة أشد الظلم ، إذ أرهقوا البربر بضرائب فادحة ، وأبوا أن يسووا بينهم وبين العرب فى الخراج وجميع الشئون المالية ، كما تقضى بذلك شريعة الإسلام ، متعامين عن أنهم أصبحوا للعرب رفقاء سلاح وجهاد فى الأندلس وفى المغرب نفسها ، وبلغ من سفه عامل طنجة القائم على شئونها المالية أن أعلن للمغاربة هناك أنه عازم على تخميس أراضى البربر زاعما زعما كله إثم وكذب وبهتان أنهم فَيْءٌ للعرب وغنائم حرب لهم .

(ب) ثورة الصفرية

لم يتنبه حكام بنى أمية وعمالهم فى القرن الثانى الهجرى إلى أن من الخطأ بل من أكبر الخطأ هذه المعاملة الظالمة للمغاربة بعدم التسوية بينهم وبين العرب فى الشئون المالية ، مع أنهم أصبحوا رفقاء سلاح وجهاد وأسهموا معهم فى فتح الأندلس ونشر دين الله ، بل كان لهم فى ذلك النصيب الأوفر ، وكان الإسلام قد استقر فى ديارهم وأصبح لهم فيه شيوخ كثيرون يفقهون تعاليمه وما يفرضه من العدل والتسوية بين أتباعه ، لذلك انطوت نفوس كثيرين منهم على سخط شديد لحكام بنى أمية وعمالهم . وانضاف إلى ذلك أن كثيرين من أتباع فرقتى الصفرية والإباضية نزلوا المغرب فرارا من اضطهاد الأمويين ، واختار الأولون المغرب الأقصى واختار الثانون جبل نفوسة بجوار طرابلس ، ووجدت كل فئة منهما الجو مهيئا لترويج دعوتها القائلة برفع الظلم عن أبناء الأمة الإسلامية والتسوية بينهم جميعا فى الشئون المالية ، وكأنما وجد مغاربة جبل نفوسة فى الدعوة الإباضية مخلصا لهم من ظلم حكام بنى أمية وبغى عمالهم ، وأحسَّ مغاربة المغرب الأقصى فى دعوة الصفرية نفس الإحساس . وملأ نفوسهما جميعا إيمانا بدعوتيهما ما تقرران من التسوية حتى فى تولى الخلافة فلا يصح أن تقصر على قريش ، بل هى حق للمسلمين جميعا عربا وغير عرب يتولاها أكفؤهم . ولم يعد فى المغرب الأقصى شخص يسمع بدعوة الصفرية إلا ويستجيب إليها ضد من يسومونهم العذاب فى سلب أموالهم

باسم الخراج سوى ما يكلفونهم من المغارم والجبايات مما كثر معه – كما يقول ابن خلدون – عَيْثهم فى أموال البربر وجورهم عليهم ، بحيث أصبح لا مفر من ثورتهم على هؤلاء الحكام الباغين الظالمين المعطلين لتعاليم الإسلام . لذلك كان طبيعيا أن ينتشر فى المغرب الأقصى مذهب الصفرية وأن تعتنقه القبائل هناك ، تعتنقه قبيلة مضغرة وشيخها ميسرة وقبيلة مكناسة وشيخها سمكو بن واسول وقبيلة برغواطة وبعض قبائل زناتة وتغلغل فى بعض المدن فى جماعات السودان القاطنين جنوبى الصحراء وجميع أرجاء المغرب الأقصى . وأجمع دعاة الصفرية فيه على زعامة ميسرة شيخ قبيلة مضغرة ، وبويع بالإمامة ، وزحف بجموع الصفرية إلى طنجة ، فاستولى عليها وقتل عاملها عمر بن عبيد الله المرادى ، وعين عليها واليا من قبله ، واتجه بجموعه إلى السوس فقتل واليها إسماعيل بن عبيد الله بن الحبحاب ودانت له ، وتمت له بذلك السيطرة على جميع المغرب الأقصى .

وعرف ذلك عبيد الله بن الحبحاب ، فبادر بإرسال جيش بقيادة خالد بن حبيب الفهرى فالتقى بميسرة وجيشه قرب طنجة ، ودارت بينهما معركة حامية الوطيس ، رجحت فيها كفة خالد ، فانسحب ميسرة إلى طنجة ، ولم يعجب ذلك أتباعه من الصفرية ، فنحَّوه عن قيادتهم وولوها خالد بن حميد الزناتى كما ولوه الإمامة سنة ١٢٣ هـ/٧٤٠ م وأخذ يعد جيشا للقاء خالد الفهرى ، ونصب له ولجيشه كمينا على نهر شلف شمالى تاهرت ، ودارت معركة حامية انتهت بالقضاء على جيش خالد الفهرى قضاء مبرما وكان فيه كثير من أشراف العرب فسميت معركة الأشراف لكثرة من مات فيها من حماة العرب وفرسانهم وكماتهم وأبطالهم . وغضب هشام بن عبد الملك لهذه الهزيمة الساحقة ونحَّى عبيد الله بن الحبحاب عن ولاية المغرب ، وولَّى عليه كلثوم بن عياض القشيرى ، وأعانه بابن أخيه بلج بن بشر ، وبعث معه جيشا ضخما عداده ثلاثون ألفا ، وزحف بابن أخيه وهذا الجيش إلى خالد بن حميد الصفرى بطنجة ، والتقيا جنوبيها ، ودارت معركة ضارية انهزم فيها كلثوم وتوفى ، فلجأ بلج إلى سبتة بعشرة آلاف من جنده ، وحاصره خالد بن حميد والصفرية ، واضطر إلى العبور بجيشه إلى الأندلس .

ونشبت ثورات للبربر فى جميع الديار المغربية ، وولَّى هشام بن عبد الملك عليه حنظلة بن صفوان سنة ١٢٤ هـ/٧٤١ م ، وتطاير شرر كثير من دعوة الصفرية إلى المغربين الأوسط والأدنى ، وأخذ يعتنقها كثيرون فى المغرب الأوسط بين قبائل نفزة وزناتة ، ويفاجأ حنظلة بقائدين صفريين كبيرين هما عكاشة بن محصن الفزارى وعبد الواحد بن يزيد الهوارى يحشدان جموع الصفرية فى الزاب بالجزائر لحربه ، واتفقا على أن يتخذا طريقين لمهاجمة القيروان : عكاشة من الجنوب ، وعبد الواحد من الشمال ، وعلم حنظلة بخطتهما فأسرع بلقاء عكاشة وسحق جيشه ، وعاد إلى القيروان وأخذ يستعد للقاء عبد الواحد ، ونجح فى استمالة أهل القيروان وفى مقدمتهم الفقهاء ، ووزَّع عليهم جميعا السلاح ، وبثَّ القصاص والقراء يحرضون

على الجهاد ، وبرز نساء القيروان فعقدن الألوية وأخذن معهن السلاح ، وعزمن على القتال واستبسلن للموت مع الرجال ، وحلفن لأزواجهن لئن انهزم أحد منكم إلينا موليا عن العدو لنقتلنه ، فلمتلأ الجيش حماسة وحمية ، ودارت المعركة وهزمت الصفرية هزيمة ساحقة قتل منهم فيها مائة وثمانون ألفا .

وكان المغرب الأقصى حينئذ هادئا بإمامة خالد بن حميد الزناتي ، وخلفه على إمامة الصفرية وزعامتهم أبو قرة المغيلي ، ويقال إنه حضر مع عبد الواحد الهوارى معركة القيروان وفر حين تراءت له الهزيمة . ونفاجأ سنة ١٣٩ هـ/٧٥٦ م بقبيلة ورفجومة الصفرية أشد قبائل نفزة بأسا بأوراس تستولى على القيروان وتستحل المحارم وترتكب العظائم كما يقول الرقيق القيروانى إذ ربطوا دوابهم فى المسجد وهتكوا عرض بعض النساء . وكل ذلك غريب على دعوة الصفرية فهى فقط تكفر مرتكب الكبيرة وتستحل قتال المسلمين ولكنها لا تستحل ارتكاب العظائم ، ولعل ذلك ما جعل أهل المغرب الأقصى فيما بعد ينصرفون عنها وعن دعاتها بينهم كما جعل أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى زعيم الإباضية فى طرابلس وجبل نفوسة حين علم بمايرتكبون من المآثم فى القيروان ينازلهم ويقاتلهم حتى يقضى عليهم سنة ١٤١ هـ/٧٥٨ م وولّى عليها عبدالرحمن بن رستم أحد قواده . وسرعان ما يهزم والى القيروان العباسى الجديد محمد بن الأشعث أبا الخطاب المعافرى فى موقعة فاصلة، وينسحب عبدالرحمن بن رستم من القيروان إلى الزاب ويؤسس به دولته الرستمية الإباضية فى تاهرت. وعلى أثر ماحدث من هزيمة الصفرية فى القيروان نجد أبا قرة الصفرى يكوّن له إمارة مستقلة بنواحى تلمسان. وفى الوقت نفسه نجد أحد زعماء الصفرية منذ التفافهم حول ميسرة، وهو أبوالقاسم سمكو بن واسول ينشىء للصفرية دولة فى سجلماسة، ولم ينشئها فى طنجة ولا فى المناطق الساحلية والداخلية للمغرب الأقصى ممايدل على انصراف الناس فيهما عن تلك الدعوة ، وخاصة بعد ماشاع عنهم فى احتلالهم للقيروان من استحلال المحارم وارتكاب العظائم وربط دوابهم فى المساجد.

وعلم ابن الأشعث أن أبا قرة يعدّ العدة فى تلمسان لمهاجمة الزاب والقيروان ، فأرسل فى سنة ١٤٨ هـ/٧٦٥ م الأغلب بن سالم التميمى على رأس جيش لمواجهة قواته ، والتقى به وجموعه فى الزاب ، واضطر أبو قرة إلى الإنسحاب . وتولى المغرب عمرو بن حفص المهلبى سنة ١٥٠ هـ/٧٦٧ م ونازل الصفرية فى الزاب ونكّل بهم ، وخلفه ابن عمه يزيد بن حاتم المهلبى سنة ١٥٤ هـ/٧٧٠ م وكان بطلا مغوارا فقضى على الصفرية فى المغرب الأوسط (الجزائر) قضاء نهائيا ، وحاولت ورفجومة الثورة فقمع حركتها سنة ١٥٧ هـ/٧٧٤ م ويقال إنهم تفرقوا فى القبائل بعد هذه الحركة ولم يعد لهم كيان قبلى مستقل . ونشعر بوضوح أنه لم يعد للصفرية شأن يذكر فى المغربين الأوسط والأقصى بعد عهد يزيد بن حاتم المهلبى (١٥٤ - ١٧٠هـ) فإن من بقى منهم انسحب إلى سجلماسة وحكامها الصفرية من بنى مدرار .

(جـ) بنو[1] مدرار

استقر فى أذهان كثيرين من الصفرية – وخاصة صفرية مكناسة – بعد إخفاق حملتى عكاشة وعبد الواحد على القيروان وكثرة من قتل فيهما من الصفرية حتى لقد بلغوا أكثر من مائة ألف صفرى أنه ينبغى أن يبحثوا لهم عن مدينة نائية يصعب وصول الجيوش القيروانية العباسية إليها يتخذونها مأوى لهم ويعيشون فيها شبه منعزلين عن مسالك تلك الجيوش ، واختاروا سجلماسة لذلك سنة ١٤٠ هـ/٧٥٧ م لأنها تقع فى أقصى مكان بالجنوب الشرقى من المغرب الأقصى على نهر زيز والطرق المؤدية إليها شديدة الوعورة ، وتكتنفها متاهات من القفار . وكان الذى اختارها زعيم من زعماء الصفرية ممن أسهموا فى حروب ميسرة وخالد بن يزيد إمامى الصفرية ، وهو أبو القاسم سمكو بن واسول الملقب بمدرار زعيم صفرية مكناسة ، وكان من حملة العلم وارتحل فى سبيله إلى المدينة وإلى تونس ، وفيها تتلمذ على عكرمة المفسر مولى ابن عباس وتلميذه ، وكان يعتنق دعوة الصفرية فحملها عنه تلميذه سمكو ، ورجع إلى قومه فى مكناسة يبشر بها ويدعوهم إليها ، فاستجاب له كثيرون وشاركوا فى حروب ميسرة وخالد بن يزيد كما أسلفنا . وكان حصيفا ، وكان قد درس مذهب الصفرية أو عقيدتهم ، ورأى من أسسها الأخذ بالتقية وأن من حق الصفرى أن يعلن أنه مع الجماعة فى الظاهر ويبطن الدعوة الصفرية ، وكان لا يعد دار المسلمين أو دار الجماعة دار حرب ، بل يتعايش معهم ، والصفرى لذلك من حقه القعود عن الحرب وأن لا يحمل السلاح فى وجه المسلمين ، وهو ما آمن به ، وكأنه كره الحروب التى خاضها ميسرة وخالد بن يزيد ضد جيوش القيروان وأن يسلّ المسلم السيف فى وجه أخيه المسلم ، لذلك رأى أن ينحاز عن معاركهما الطاحنة إلى سجلماسة وتبعته كثرة من صفرية قومه أهل مكناسة ، وجاءته عناصر صفرية مختلفة من صنهاجة وزناتة وزنوج السودان من سكان الفيافى والصحراء بين سجلماسة وغانة ، وسرعان ما أصبحت مدينة كبيرة .

وكان سمكو الملقب بمدرار صالحًا تقيا متواضعا ، فرأى أن يكون أول إمام فى هذه الدولة سودانيا من رءوس الخوارج ، وهو عيسى بن يزيد ، وارتضته الصفرية وبايعته ، فقام بأمر سجلماسة وشق القنوات واستكثر من غرس النخيل والزروع . واتسع ثراء أهل سجلماسة لكثرة ما كانوا يتبادلونه – ويتجرون فيه – من السلع مع السودان . وظلت الصفرية – مع السنين – تنقم على عيسى بن يزيد – بعض تصرفاته ، حتى إذا كانت سنة ١٥٥ هـ/٧٧١ م

(١) انظر فى دولة بنى مدرار بسجلماسة كتاب المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب (طبع باريس) للبكرى ص ١٤٨ وما بعدها والبيان المغرب لابن عذارى (طبع بيروت) ص ٢١٥ وما بعدها وصفة المغرب للإدريسى (طبع ليدن) ص ٦٠ وفى مواضع مختلفة وأعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب (طبع الدار البيضاء) ١٣٧/٣ وما بعدها وتاريخ ابن خلدون (طبعة بولاق) ١٣٠/٦ وما بعدها .

نحته عن الإمامة ، ونصّبت مكانه أبا القاسم سمكو الملقب بمدرار حتى سنة ١٦٧ هـ/٧٨٣ م وظلت الدولة فى أسرته ، ولذلك قيل لها دولة بنى مدرار ، وقد عمل على إرساء قواعد الدولة على أساس المبدأين اللذين أشرنا إليهما : مبدأ التقية ومبدأ القعود عن الثورة على حكام الجماعة الإسلامية وعمالهم عباسيين وغير عباسيين ، وبذلك ضمن لسكان سجلماسة الصفريين أن يعيشوا معيشة هادئة آمنة لا يعكر صفوها حرب مع ولاة العباسيين ودولة بنى الأغلب التى قامت باسمهم فى القيروان . وبهذا الموقف الذى وضع فيه سمكو الملقب بمدرار سجلماسة وسكانها من الصفريين نفهم ما يقوله ابن خلدون من أن سمكو مدرارا كان يخطب فى عمله لأبى جعفر المنصور الخليفة العباسى (١٣٦-١٥٨هـ) وابنه المهدى (١٥٨-١٦٩هـ) . وتوالى أبناؤه وأحفاده من بنى مدرار يدعون فى خطبهم لخلفاء بنى العباس ، وبذلك كفوا شر حروبهم وجيوشهم .

واتخذت الصفرية فى سجلماسة ابنه إلياس إماما بعده ، وتظل تنقم عليه وجوها من سياسته وتصرفاته ، وتُجْمع أمرها فى سنة ١٩٤ هـ/٨٠٩ م على خلعه وتولية أخيه اليسع مكانه ، ويذكر البكرىّ أنه هو الذى دبّر أمر خلع أخيه ، وكان حازما يحسن تدبير الملك ، فأعدّ جيشًا قويا وسّع به أطناب إمارته ، واستطاع احتلال درعة وضمّها إلى إمارته وأخذ الخمس من مناجم الفضة فيها ومعدن الذهب ، وبنى بجانب سجلماسة مدينة شيّد قصورها واختط مصانع بها وأقام حول سجلماسة سورا لتحصينها جعل فيه اثنى عشر بابا ، وأصهر بابنه مدرار للحاكم الرستمى عبد الوهاب (١٧١ - ٢١١ هـ) فى ابنته أروى توثيقا للعلاقة بين دولته الخارجية الصفرية والدولة الخارجية الرستمية الإباضية فى الجزائر ، وتوفى سنة ٢٠٨ هـ/٨٢٣ م فولى إمامة الصفرية بعده ابنه مدرار ، وطالت ولايته ورزق بابنين من الرستمية وقرينة لها صفرية ، وسمى كلا منهما ميمونا ، وكان يؤثر ابن الرستمية على أخيه ، وحاول أن يوليه مكانه سنة ٢٢٤ هـ/٨٣٨ م فأرغمته الصفرية على التنازل عن الإمامة لأخيه ميمون بن الصفرية ، فنفى أباه إلى بعض قرى سجلماسة حتى وفاته سنة ٢٥٣ هـ/٨٦٧ م وظل هو يلى الإمامة حتى وفاته سنة ٢٦٣ هـ/٨٧٧ م وخلفه عليها ابنه محمد حتى سنة ٢٧٠ هـ/٨٨٤م وخلفه ابنه اليسع ، وفى عهده نزل أبو عبد الله الشيعى داعية المهدى الإمام العبيدى كتامة فى الجزائر وظل فيها سنوات يبث دعوته ، ونجح فى بثها واستطاع تكوين جيش منها لمنازلة الدولة الأغلبية فى القيروان ، وشعر بأنه يوشك أن ينجز مهمته لصالح المهدى ، فأرسل إليه يستقدمه ليشارك فى الأحداث الأخيرة ، ولبّاه المهدى واصطحب معه رفقة من رجاله سنة ٢٩٣ هـ/٩٠٥ م والتزم التخفى من عمال الدولة العباسية فى طريقه وسلك طرقا غير معهودة أدته إلى سجلماسة ، فأكرمه اليسع ، وبعد فترة ارتاب فيه ، فسجنه هو ورفقاءه . وعلم بذلك أبو عبد الله الداعية العبيدى الشيعى ، فانتظر حتى انتصر على الأغالبة سنة ٢٩٦ هـ/٩٠٨ م وزحف إلى سجلماسة لإخراج عبيد الله المهدى من السجن وردّ حريته إليه ، وعلم اليسع بقدومه إلى سجلماسة ،

فخرج إليه بجيشه من مكناسة ودارت معركة كتب فيها النصر لأبي عبد الله الشيعي وجيشه ، وقتل اليسع في المعركة واستولت كتامة على سجلماسة ، وخرج المهدى ورفاقه من محبسهم ، وبايعه أبو عبد الله الشيعي ، وبايعه الناس وولى على سجلماسة واليا من كتامة ، وانصرف مع داعيته إلى إفريقية التونسية .

ولم تلبث صفرية سجلماسة أن انتقضت على والى المهدى الكتامي وقتلته هو ومن معه من كتامة سنة ٢٩٨ هـ/٩١٠ م وبايعت الفتح بن ميمون بن الرستمية ، وتوفى سريعا فخلفه أخوه أحمد ، واستقام أمره وحكمه إلى أن زحفت إليه كتامة بقيادة مصالة بن حبوس سنة ٣٠٩ هـ/٩٢١ م فافتتح سجلماسة وقبض على أحمد وولاها ابن عمه المعتز ، وتوفى سنة ٣٢١ هـ/٩٣٣ م وبايعت الصفرية ابنه سمكو ، وكان لا يزال في المهد ، فثار عليه ابن عمه محمد بن الفتح بن ميمون ، وتلقب بالشاكر لله ، ورفض الدعوة الصفرية ، وأعلن الأخذ بمذاهب أهل السنة ، وكان عادلا منتهى العدل كما يقول ابن خلدون ، ويقال إنه دعا لنفسه بالخلافة ، ويقول ابن خلدون إنه دعا لبنى العباس ، وإنه ضرب العملة باسمه . وظل يحكم سجلماسة حكمًا عادلاً رشيدا إلى أن اكتسح جوهر الصقلي بجموعه الشيعية من كتامة وصنهاجة المغرب الأقصى ، واستولى – فيما استولى – على سجلماسة ، وأخذ حاكمها السنى محمد بن الفتح أسيرا إلى رقّادة بإفريقية التونسية ، وتوفى بها سنة ٣٥٤ هـ/٩٦٥ م . وثارت الصفرية على والى جوهر الصقلّى سريعا ، وبايعت أحد أبناء الشاكر لله ، وارتضى ذلك المعز العبيدى ، غير أن أخاه ثار عليه وقتله سنة ٣٥٢ هـ/٩٦٣ م . وأخذ نجم قبيلة مكناسة في الأفول بينما أخذ نجم قبيلة زناتة في التألق والسطوع. وكان أمويو الأندلس قد استطاعوا جذب مغراوة الزناتية إليهم ، وبمساعدتهم زحف حزرون بن فلفول من أمرائها إلى سجلماسة سنة ٣٦٦ هـ/٩٧٦ م وبرز له المعتز مع قومه الصفريين من مكناسة ، وقتل وهزم قومه هزيمة ساحقة لم تقم لهم بعدها في سجلماسة قائمة ، وأقام حزرون بها دعوة الأمويين الأندلسيين ، وكانت أول دعوة أقيمت لهم في المغرب الأقصى .

(د) الأدارسة[1]

معروف أن الحسين بن على سليل الحسن بن على بن أبى طالب ثار على العباسيين بمكة أيام الخليفة العباسي المهدى في ذى القعدة سنة ١٦٩ هـ/٧٨٥ م وثار معه أهله وفي مقدمتهم

(١) انظر في دولة الأدارسة كتاب المغرب للبكرى وصفة المغرب للإدريسي وروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس لابن أبي زرع (طبعة الرباط) ص ١٩ وما بعدها والبيان المغرب لابن عذارى ٢٩٩/١ وما بعدها وأعلام الأعلام للسان الدين بن الخطيب ١٨٨/٣ وتاريخ ابن خلدون ١٢/٤ وما بعدها والاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى ودولة الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة لإسماعيل العربي (طبع بيروت) .

عماه : يحيى وإدريس ، وسرعان ما نازله جيش عباسي في مكان على بعد ثلاثة أميال من مكة يقال له : « فخ » ودارت الدوائر على الحسين ومَنْ معه فقُتل فى المعركة مع جماعة من أهل بيته ، وفر عمه يحيى إلى الدَّيلم ، أما عمه إدريس ففر إلى مصر ، وكان على بريدها يومئذ شخص اسمه واضح ، وكان يتشيع ، فأتاه إلى مخبئه ، ووجد معه مولاه راشدًا فنصحهما أن يحملهما على البريد إلى المغرب الأقصى بعيدا عن المهدى وعيونه ، وأخذا بنصيحته ، ونزلا فى ربيع الأول سنة ١٧٢ هـ/٧٨٨م في مدينة وليلى بجبل نزهون على إسحق بن محمد بن عبد الحميد المعتزلى شيخ قبيلة أوربة ، وعرَّفه أمره ، فأجاره ، فبايعه وبايعته معه قبيلته ، وجمع على الدعوة إليه أيضا قبائل زواغة ولواتة وغمارة ونفزة ومكناسة وكافة البرابز بالمغرب فبايعوه . ولما تمت دعوته زحف إلى جموع البربر الذين كانوا لا يزالون على دين المجوسية وإخوانهم المتهوِّدين والمتنصِّرين فدانوا له وأسلموا على يديه . وفى سنة ١٧٣ هـ/٧٨٩ م زحف إلى تلمسان ومن بها من قبائل مغراوة الزناتية وأميرها محمد بن خزر فأعلن إليه الطاعة وبايعه هو وقبيلته مغراوة فأمَّنه وأمَّن سائر زناتة وبنى مسجدا بتلمسان ونظم شئونها ورجع إلى عاصمته « وَليلى » ولم يلبث أن توفى سنة ١٧٥ هـ/٧٩١ م ويقال إن الرشيد أرسل إليه شخصا أظهر له الولاء ، فقربه منه ، وانتهز فرصة فدسَّ إليه السم وكان فيه حتفه .

وكانت زوج إدريس حاملا فاتفق أنصاره على انتظار وضعها ، وأنجبت ولدا سمته باسم أبيه إدريس فقام على تربيته خير قيام مولاه راشد ، وتوفى راشد سنة ١٨٦ هـ/٨٠٢ م فجعلوا مكانه فى الوصاية عليه ولإشرافه على تربيته يزيد بن إلياس ، حتى إذا بلغ الصبى الحادية عشرة بايعوه فى جامع وَليلى ، وشبّ ودان له المغرب الأقصى واستوزر مصعب بن عيسى الأزدى وأخذ يستكثر فى بطانته من العرب حتى بلغوا نحو خمسمائة وبهم عظم سلطانه . وقتل إسحق بن محمد بن عبد الحميد كبير أوربة لما علم من اتصاله بخصومه الأغالبة حكام تونس وشرقى الجزائر . ورأى أن مدينة وليلى تضيق بحاشيته وأنصاره ، فصمم على بناء مدينة تسعهم ، وكلف باختيار موضعها بضعة من المهندسين ، وأشاروا عليه بموضع على مقربة من عاصمته ، فأخذ توًّا فى بناء مدينته : فاس سنة ١٩٢ هـ/٨٠٧ م وتصادف أن كان فقهاء قرطبة حينئذ ثائرين على الحكم الربضى لانهماكه فى ملذاته وفى اللهو والملاهى فاجتمع أهل العلم والورع من الفقهاء وحصَروه سنة ١٩٠ هـ/٨٠٥ م وقاتلهم فتغلب عليهم وهدم دورهم ومساجدهم ولحقوا بفاس والإسكندرية . ولا ندرى هل لحقوا بفاس فى أول بناء إدريس الثانى لها أو فى أثناء بنائها ، إذ نراه يتمم شطرا منها سنة ١٩٢ ويسمِّى العُدْوَة الأندلسية ، إما لأن الأندلسيين ساعدوا فى بنائه وسكنوه أو لأنهم سكنوه فحسب . وفى العام التالى بنى شطرا ثانيا مقابلا للشطر الأول وسُمِّى عدوة القرويين أى المغاربة ، وجعل فيه مسكنه وإدارة حكومته ، وسُمِّى الشطران جميعا باسم فاس وظل يفصل بينهما طريق طويلا . وغزا إدريس الثانى قبيلة مصمودة

ودانت لطاعته واستولى على أغمات سنة ١٩٧ هـ/٨١٢ م ثم غزا تلمسان وجدد مسجدها ومنبره وأقام بها ثلاث سنوات يدبر شئونها ، ومحا منها دعوة الصفرية ، واقتطع غرب الجزائر حتى نهر شلف عن دعوة الأغالبة والعباسيين ، ولم يستطع الأغالبة منازلة الأدارسة بعد هذا التاريخ وتوفى سنة ٢١٣ هـ/٨٢٨ م .

وخلف إدريس الثانى ابنه محمد بعهد منه ، فرأى تقسيم مملكة أبيه بينه وبين إخوته واختص نفسه بفاس وأعمالها ، وأعطى القاسم إقليم الريف والهبط بما فيه من سبتة وتطوان وطنجة ، وأعطى عمر بلاد صنهاجة وغمارة ، وداود هوارة وتازة ومكناس ، وعبد الله أغمات وبلاد المصامدة والسوس ، ويحيى أصيلا والعرائش وبلاد ورغة ، وحمزة وليلى وأعمالها ، وعيسى أزمور وتامسنة ، وأبقى تلمسان لأولاد سليمان بن عبد الله أخى جده إدريس . وخرج عيسى على أخيه محمد وطلب من القاسم حربه فامتنع وطلب ذلك من عمر فهزمه وأخذ ما فى يده وطلب إليه محمد حرب أخيهما القاسم لامتناعه عن حرب عيسى فحاربه وأخذ ما فى يده ، وبذلك اتسعت ولايته فشملت إقليم الريف والهبط وتامسنة وهو جد الحموديين الإدريسيين المتملكين لقرطبة فى أوائل القرن الخامس بالأندلس ، وتوفى سنة ٢٢٠ هـ/٨٣٤ م ولم يلبث الأمير محمد أن توفى سنة ٢٢١ هـ/٨٣٥ م وخلفه ابنه على فى التاسعة من عمره ، فقامت على تربيته الحاشية وظل حتى سنة ٢٣٤ هـ/٨٤٨ م وكانت أيامه أيام رخاء . وعهد لأخيه يحيى فاتسع سلطانه وعظمت فاس فى العمران وبُنى بها كثير من الفنادق والحمامات ورحل إليها الناس من البلاد ، وهاجرت إليها سيدة ثرية فاضلة من القيروان من قبيلة هوارة – هى أم البنين الفهرية – ومعها أموال كثيرة أفادتها من ذويها ، واعتزمت إنفاقها فى وجوه الخير ، فاختطت سنة ٢٤٥ هـ/٨٥٩ م المسجد الجامع المشهور بعدوة القرويين وهو المسمى باسم جامع القرويين ، وتحول فيما بعد إلى اليوم جامعة كبرى فى فاس كجامعة الأزهر فى القاهرة ، ويذكر لأحمد بن سعيد اليفرنى أنه بنى مئذنته على رأس قرن من اختطاطه . وولى بعد يحيى ابنه يحيى المسمى باسمه فأساء السيرة وكثر عبثه ، فثارت عليه العامة ، واضطر إلى الانسحاب إلى العدوة الأندلسية ، وبعد ليلتين من نزوله بها وافاه أجله ، وبذلك انقطع الملك فى الدولة من ذرية محمد بن إدريس الثانى .

وثارت الصفرية بجبال مديونة ودخلت عدوة الأندلس بفاس وقاومتها عدوة القرويين بقيادة يحيى بن القاسم بن إدريس وهزمتها وأخرجتها منها ، وتطورت الظروف فقام بالأمر فى فاس يحيى بن إدريس ابن عمر ، فملك جميع أعمال الأدارسة فى المغرب ، وخُطب له فى سائرها ، وفيه يقول ابن خلدون : « كان أعلى بنى إدريس ملكا وأعظمهم سلطانا ولم يبلغ أحد من الأدارسة مبلغه فى السلطان والدولة » . وكانت الدعوة العبيدية قد نجحت واستطاعت

تقويض الدولة الأغلبية ، واستولى على صولجان الحكم فى طرابلس وتونس والجزائر عبيد الله المهدى وطمح إلى ملك المغرب الأقصى ، فعقد لمصالة بن حبوس كبير مكناسة على رأس جيش ضخم لمنازلة حكامه سنة ٣٠٥ هـ/٩١٧ م ونازل مصالة يحيى بن إدريس ، وارتضى إعلانه الطاعة للمهدى وخلْع نفسه وإنفاذ البيعة فأبقى له مصالحه فى فاس وعقد له عمله عليها وحدها دون بقية بلاد المغرب ، وعقد مصالة لابن عمه موسى بن أبى العافية أمير مكناسة يومئذ على بقية المغرب الأقصى ، وعاد مصالة إلى المغرب سنة ٣٠٩ هـ/٩٢١ م فأغراه ابن أبى العافية بيحيى فاستصفى أمواله ، وأجلى الأدارسة إلى الريف فنزلوا مدينة البصرة واختطوا بها حصن النسر سنة ٣١٧ هـ/٩٢٩ م . وبذلك انتهت دولة الأدارسة فى فاس وانتهى معهم سلطان أوربة . وتجدد لهم ملك فى سبتة وأصيلا وإقليم أو منطقة الهبط ، وكانوا يختارون شخصا يقدمونه عليهم مثل قنون بن محمد بن القاسم بن إدريس ، وتوفى سنة ٣٣٧ هـ/٩٤٨ م فاتفقوا على تقديم أبى العيش أحمد بن قنون وكان يخطب لعبد الرحمن الناصر الأموى ، وارتأى أن يخرج إلى الأندلس مجاهدا سنة ٣٤٦ هـ/٩٥٧ م واستخلف أخاه الحسن بن قنون واتصلت مشايعته للأمويين الأندلسيين إلى أن غزا المغرب بلقين ، فدخل فى دعوة العبيديين مما جعل المستنصر الأموى يعدُّ جيشا لحربه ، ونازله فى عهد هشام المؤيد الأموى جيش كثيف من الأندلس اضطره إلى طلب الأمان سنة ٣٧٥ هـ/٩٨٥ م . وبذلك انتهت دولة الأدارسة فى إقليم الهبط كما انتهت فى فاس .

وأما سليمان أخو إدريس بن عبد الله مؤسس دولة الأدارسة فى المغرب الأقصى فإنه نزل تلمسان وتملكها من زناتة ودانت له وتركها له إدريس الثانى ، وتملك أنحاء من المغرب الأوسط ، وورث ملكه ابنه محمد واقتسمه أبناؤه ، وظلوا يتوارثون تلمسان وأرشكول وجراوة وتنس واستشعر بعضهم الولاء لبنى أمية ، وأخيرا ضاع ما بيدهم ، جزء أخذه ابن أبى العافية وجزء استولى عليه أولياء الدعوة العبيدية .

وقبل أن نترك الدولة الإدريسية لابد أن نشير إلى أنها أول دولة أُسست فى المغرب الأقصى ، وكانت دولة إسلامية عربية ، وقد أسهمت بقوة فى نشر الإسلام السنى فى المغرب الأقصى وتلمسان وتطهيرهما من الصفرية والرافضة وعنيت بتحفيظ القرآن الكريم وتفسيره ورواية الحديث النبوى وتفقيه الناس أمور دينهم ، وأخذت تتكون فى مساجد المدن حلقات القراء والمفسرين والمحدثين والفقهاء وعنى علماؤها بتعليم المغاربة العربية وأصبح فى المغرب مؤدبون ومعلمون مختلفون . وكانت الدولة عربية وفتحت أبوابها لشخصيات عربية كثيرة جاءتها من القيروان ومن المشرق ، حتى قالوا إنه كان فى بطانة إدريس الثانى – كما أسلفنا – خمسمائة عربى . وأخذوا يتكاثرون مع الزمن ، ولما ثار كثيرون من الفقهاء وأهل العلم والورع بقرطبة

على الحكم الربضى – كما أسلفنا – سنة ١٩٠ للهجرة وقاتلهم وانتصر عليهم ، هدم دورهم ومساجدهم ، فلحق كثيرون منهم بفاس ، وكل ذلك أسرع بعروبة المغرب الأقصى .

(هـ) فاس[1] وسجلماسة[2] بعد الأدارسة والمدراريين

انتهى حكم الأدارسة فى فاس سنة ٣٠٩ هـ/٩٢١ م وتطورت بها ظروف مختلفة وجعلها العبيديون لموسى بن أبى العافية كبير مكناسة ، فظل مواليا لهم حتى سنة ٣٢٢ هـ/٩٣٤ م إذ رأى أن يعلن ولاءه للخليفة الأموى بقرطبة عبد الرحمن الناصر . ودانت فاس بالطاعة للعبيديين سنة ٣٣٣هـ/٩٤٥م وعادت إلى الناصر سنة ٣٤١ هـ/٩٥٣ م فولّى عليها محمد بن الخير المغراوى ، واستدار العام فرأى أن يرحل إلى الأندلس للجهاد واستخلف عليها ابن عمه أحمد بن سعيد ، وهو الذى شاد مئذنة جامع القرويين بفاس سنة ٣٤٤ هـ/٩٥٥ م وافتتحها جوهر الصقلى باسم المعز العبيدى سنة ٣٤٩ هـ/٩٦٠ م وظلت الدعوة العبيدية قائمة له فيها حتى سنة ٣٦٢ هـ/٩٧٣ م إذ أرسل الحكم المستنصر الخليفة الأموى فى قرطبة قائده غالبا إلى المغرب فدخل مدينة فاس وأعاد فيها الخطبة للأمويين . وفى سنة ٣٦٩ هـ/٩٧٩ م عادت للعبيديين ، ولم تلبث أن عادت للأمويين سنة ٣٧٥ هـ/٩٨٥ م وولى عليها المنصور بن أبى عامر زيرى بن عطية الخزرى المغراوى الزناتى وجعلها سنة ٣٧٧ هـ/٩٨٨ م دار ملكه ، فعلا قدره وارتفع شأنه ، وملك مدينة تلمسان وبسط سلطانه على المغرب من السوس الأقصى إلى الزاب فى الجزائر ، وأسكن قبيلته أنحاء فاس وبالقرب منها ورفع عن أحوازها بنى يفرن سنة ٣٨٢ هـ/٩٩٢ م فثاروا عليه وهزمهم وأسكنهم مدينة سَلا على المحيط ، وابتنى سنة ٣٨٤ هـ/٩٩٤ م مدينة وجدة . وفسدت العلاقات بينه وبين المنصور بن أبى عامر ، ونازله ودارت الدوائر على جيشه ، فأرسل إليه جيشا ثانيا بقيادة المظفر ، وتغلب المظفر عليه . وفى سنة ٣٩٣ هـ/١٠٠٢ م أصبح المظفر حاجبا للمؤيد هشام بعد أبيه المنصور بن أبى عامر فكتب للمعز بن زيرى بالولاية على فاس وسائر أعمال المغرب ، وظل المعز واليا للأمويين على فاس والمغرب حتى سنة ٤٢٢ هـ/١٠٣٠ م . وكانت الخلافة الأموية قد سقطت فى قرطبة فاستقل المعز بن زيرى بالمغرب وفاس حتى وفاته سنة ٤٤٠ هـ/١٠٤٨ م وعاشت فاس أيامه فى رخاء ، وكان ممدَّحا يقدر الشعر والشعراء فقصدوه من مملكته ومن الأندلس . وخلفه ابنه دوناس إلى وفاته سنة ٤٥٢ هـ/١٠٦٠ م وفى عهده ازدهرت الحياة فى فاس ونما بها العمران وأصبحت مدينة واحدة بعد أن كانت عدوتين متقابلتين وكثر فيها بناء المساجد والحمامات والفنادق .

---

(١) انظر فاس فى هذه الحقبة بكتاب البيان المغرب لابن عذارى ٢٩٩/١ وما بعدها والأعلام لابن الخطيب ١٥٣/٣ وما بعدها وروض القرطاس ص ٨٣ وما بعدها .

(٢) راجع فى هذه الحقبة لسجلماسة كتاب الأعلام لابن الخطيب ١٥٠/٣ .

وخلفه ابنه فتوح ، وفى أيامه ظهرت لمتونة فى أطراف البلاد بقيادة عبد الله بن ياسين ، وخافها فترك مدينة فاس عاصمته لمعنصر بن حماد المغراوى سنة ٤٥٤ هـ/١٠٦٢ م وافتتحها يوسف بن تاشفين سلما ، وعاد معنصر فتغلب عليها وخلفه ابنه تميم ، وزحف إليها يوسف بن تاشفين وافتتحها نهائيا سنة ٤٦٢ هـ/١٠٦٩ م .

وأما سجلماسة فإن جوهرًا الصقلى حين افتتحها ولّى عليها مبادر بن زيرى إلى أن توفى فى سنة ٣٥٧ هـ/٩٦٧ م فتولاها ابنه يصليتن الزناتى ، واستطاع الأمويون فى قرطبة أن يجذبوا إليهم قبيلة مغراوة وكبيرها خزرون بن فلفول ، فزحف إليها باسمهم سنة ٣٦٦ هـ/٩٧٦ م واستولى عليها وأقام بها الدعوة لهم ، وعقد له المنصور بن أبى عامر حاجب الخليفة الأموى المؤيد ومدبّر دولته عليها وعلى جميع أعمالها هى ومدينة درعة ، وظلت فى أسرته المغراوية ، وتملكها ابنه مسعود سنة ٤٠٠ هـ/١٠٠٩ م وغلب على جميع أعمالها هى ودرعة حتى توفى سنة ٤١٣ هـ/١٠٢٢ م وخلفه ابنه محمد لمدة قصيرة إذ توفى سنة ٤١٧ هـ/١٠٢٦ م ووليها بعده ابنه مسعود . وكان أمر لمتونة وشيخها الكبير عبد الله بن ياسين قد شاع فى البلاد ودانت له جميع الصحراء وبلاد السودان فكتب إليه فقهاء سجلماسة أن يغزوها ليرفع عنها العسف والجور ويطهرها مما بها من المنكرات ، ولبّاهم والتقى بمسعود وجموعه وهزم وقتل فى المعركة سنة ٤٤٧ هـ/١٠٥٥ م ودانت سجلماسة ودرعة للشيخ ابن ياسين بالولاء والطاعة ، فجعل عليها عاملا من لمتونة وانصرف إلى الصحراء .

٤

المرابطون — الموحدون — بنو مرين

(أ) المرابطون(١)

المرابطون صنهاجيون بدو كانوا يتنقلون وراء أنعامهم فى الرمال الصحراوية المترامية بين جنوبى المغرب الأقصى وقبائل إفريقية المدارية السوداء حتى السنغال وغيرها من بلاد السودان ونفس كلمة السنغال خير شاهد على ذلك إذ هى تحريف لكلمة صنهاجة على لسان البرتغاليين ، حين وصلوا إلى سواحلها فسموها Senhagal ثم أصبحت Senagal وظلوا دهورًا متبذين العمران يعيشون على الأنعام وألبانها ولحومها ، واتخذوا اللثام على وجوههم شعارًا لهم بين

(١) انظر فى دولة المرابطين روض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ص ١١٩ وما بعدها ولابن عذارى فى الثالث (طبع باريس) والرابع طبع بيروت وأعمال الأعلام لابن الخطيب ٢٢٥/٣ وتاريخ ابن خلدون ١٨١/٦ وما بعدها والاستقصا فى أخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى وتاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ليوسف إشباخ ترجمة محمد عبد الله عنان . وقيام دولة المرابطين للدكتور حسن محمود (طبع القاهرة) وكتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان .

الأمم ، وكثروا في منطقتهم وتعددت قبائلهم ومنها كدالة ومسوفة ولمطة وجزولة ولمتونة وهي أهمها جميعا . وكان دينهم في جاهليتهم المجوسية مثل سائر البربر ، وأخذوا يدخلون في دين الله متأخرين في القرنين الثاني والثالث للهجرة ، وتحمسوا له ، وجاهدوا في سبيله أمم السودان ودوَّخوهم وحملوهم على اعتناقه فدانت به كثرتهم ، وأدَّى الجزية منهم من لم يعتنقه . وكان لهم – بسبب اتساع منطقتهم – ملك ضخم توارثه ملوكهم ، وكان ملكهم في النصف الأول من القرن الخامس الهجري يحيى بن إبراهيم الكدالي ، وكان على شيء من التقوى فتجهز لأداء فريضة الحج سنة ٤٢٧ هـ/١٠٣٥ م وفي عودته منه لقي بالقيروان أبا عمران الفاسي شيخ المذهب المالكي ، فاستمع إلى دروسه ، ولزمه فترة فأعجب به الشيخ وسأله عن موطنه ، فقال له إن الجهل فاش في الناس هناك وحبذا لو أرسلت معنا تلميذا لك يفقههم في الدين ، فعرض الشيخ رغبته على تلاميذه فلم يقبل أحد منهم الذهاب معه لتلك الغاية ، فكتب له رسالة إلى تلميذ له في سجلماسة هو وجاج بن زولو اللمطي لعله يقبل تلك المهمة ،فانتدب له وجاج تلميذا تقيا نابها من تلاميذه هو عبد الله بن ياسين الجزولي ، وما إن نزل في قبائل صنهاجة المتبدية حتى أعجبوا به ، والتفوا حوله أول الأمر ، وعادوا فأنكروا عليه ما نهاهم عنه من بعض المحرمات ، وشعر باليأس فصمم على أن يتركهم وشأنهم ويقصر نفسه على النسك وعبادة ربه . وأشار عليه يحيى بن عمر أحد رؤساء لمتونة أن يتنسَّك معه في جزيرة قرب مصب نهر السنغال ، ونزلها معه وأقام فيها رباطا ، وتسامع بنسكه الناس فأخذ يفد عليه كثيرون ممن في قلوبهم مثقال حبة من إيمان لينسكوا معه في رباطه بتلك الجزيرة ، فلما بلغت عدَّتهم ألفا قال لهم : « اخرجوا فأنتم المرابطون » أي المجاهدون في سبيل الحق وحَمْل كافة الناس عليه ، ولذلك سموا بهذا الاسم : المرابطون ، وغلب على تسميتهم بالملثمين ، وبحق ظلت هذه الدولة – طوال عهدها – دولة رباط وجهاد في سبيل الله .

وخرج عبد الله بن ياسين معهم ومع يحيى بن عمر اللمتوني ، وأخذ يُعِدّ العدة للجهاد في سبيل الله ، وجاءته من صنهاجة البدوية قبائل كثيرة انضمت إلى دعوته ، وظل زعيمها الديني بينما كان يحيى بن عمر زعيمها الحربي واتجه شمالا فاستولى – كما مر بنا – على درعة وسجلماسة وإقليمها سنة ٤٤٧ هـ/١٠٥٥ م وأصلح من أحوال هذه المنطقة وغيرَّ ما بها من المنكرات وأسقط عن الناس المغارم والمكوس . وكان استيلاؤه على هذه المنطقة حطما للحصار الشمالي الذي كان مضروبا على قبائل صنهاجة البدوية أو الصحراوية ، وعاد إلى الصحراء وتوغل في الجنوب فهاجم أهل السودان الغربي في حوض السنغال وانتصر عليهم ، وكان ذلك حطما للحصار الجنوبي الذي كان مضروبا على صنهاجة الصحراوية ، فوصلوا إلى شعوب إفريقيا السوداء وأخذوا ينشرون فيها الدين الحنيف . ولم يلبث يحيى بن عمر أن توفي في نفس السنة ، فخلفه أخوه أبو بكر أحد كبار رجال العالم الإسلام المجاهدين في سبيل الله ، وبدأ

فندب المرابطين للجهاد فى بلاد المغرب الأقصى فغزا بلاد منطقة السوس سنة ٤٤٨ هـ/١٠٥٦ م واستدار العام ففتح من بلدانها ماسة على المحيط وتارودنت على نهر السوس ومحا أبو بكر منها دعوة الروافض وصعد إلى الشمال فاستولى على أغمات ، وخَمَّس أنصاره من المرابطين لجهاد برغواطة الفاسقة ، وكانت مواطنها فى ساحل المحيط فى سلا بإقليم فاس وآنفة وآزمور فى تامسنه وآسفى فى إقليم دكالة ، وكانوا صفرية ، وكان كبيرهم طريف بن صبيح من قواد ميسرة الصفرى ، ويقال إنه تنبأ ، وتوالى أبناؤه يتنبّؤون ويشرّعون لقومهم الشرائع ، وقاومهم الأدارسة والعبيديون والأمويون ، ولكن أحدا منهم لم يقض عليهم قضاء مبرما حتى نازلهم أبو بكر بن عمر بجموعه من المرابطين فى وقائع سحقهم فيها سحقًا ، واستشهد عبد الله بن ياسين فى بعض تلك الوقائع سنة ٤٥١ هـ/١٠٥٩ م ومازال أبو بكر يواقعهم حتى استأصل شأفتهم كما يقول ابن خلدون ومحاهم من الأرض محوا . وبلغه خلاف عنيف بين قبيلته ومسوفة فى موطنهم بالصحراء ، فخشى مغبة ذلك وارتحل إليهم سنة ٤٥٣ هـ/١٠٦١ م ليصلح ذات بينهم ، واستعمل على المغرب الأقصى ابن عمه يوسف بن تاشفين . ومن ذلك الحين انقسمت حركة المرابطين العظيمة قسمين : قسم جنوبى يجاهد فى إفريقية المدارية بقيادة أبى بكر بن عمر وخلفائه من بعده ، واستطاع هذا المجاهد العظيم الاستيلاء من بلاد السودان على ٩٠ مرحلة فى رواية وعلى مسيرة ثلاثة أشهر فى بلدانها وأراضيها برواية أخرى . ومازال يجاهدهم هذا البطل المقدام حتى استشهد فى إحدى غزواته سنة ٤٨٠ هـ/١٠٨٧ م بعد أن ضرب أروع الأمثلة فى نشر الإسلام والجهاد فى سبيله . وأما القسم الشمالى من حركة المرابطين فكان بقيادة يوسف بن تاشفين وقد شمل ما استولى عليه المرابطون – قبل يوسف – وما سيستولون عليه بقيادته من المغرب الأقصى وغير المغرب الأقصى من مثل تلمسان والأندلس .

وكان يوسف بن تاشفين بطلا شجاعًا حازمًا مدبرًا لملكه على خير وجه ، مجاهدا فى سبيل الله طوال حكمه ابتغاء الثواب من ربه ، وكان بحق من كبار الشخصيات الإسلامية المؤسسة للدول والمدن ، ولم يكد يستدير العام بعد توليه الحكم حتى رأى أن يبتنى فى السهل الواسع شمالى أغمات وجنوبى تهرتنسيفت مدينة لتكون حاضرة لحكمه . وسرعان ما أخذ فى بنائها سنة ٤٥٤ هـ/١٠٦٢ م وهى مدينة مراكش ، وقد شُيِّدت وفق مخططات رسمتها طائفة من مهرة المهندسين وقامت على بنائها طائفة من العمال الحاذقين كما بنى بها المسجد الجامع وإدارة الحكم ، وسرعان ما تكاثرت بها الجوامع والمدارس والفنادق والحمامات ، وأصبحت إحدى مدن العالم الإسلامى الكبرى . وفى نفس السنة جنّد يوسف الأجناد حتى اكتمل له ما يزيد عن مئة ألف فارس من صنهاجة وغيرها من قبائل المغرب الأقصى ، وقصد مدينة فاس فحارب القبائل حولها وانتصر عليها وافتتحها الفتح الأول ، ومضى يهزم القبائل ويفتح البلاد ، وفى سنة ٤٦٠ هـ/١٠٦٧ م استولى على بلاد غمارة فى منطقة الريف إلى

طنجة ، وفتح مدينة فاس الفتح الثانى سنة ٤٦٢ هـ/١٠٦٩ م وعاد إليها فى السنة التالية فافتتحها عنوة وافتتح حصون نهر ملوية ، وأخذ كثير من البلدان يفتح له أبوابه دون حرب ، وفى سنة ٤٦٧ هـ/١٠٧٤ م فرّق عماله على بلاد المغرب وفى سنة ٤٧٠ هـ/١٠٧٧ م استولى على طنجة ، وفى سنة ٤٧٢ أرسل قائده مزدلى إلى تلمسان فاستولى عليها ، وفى سنة ٤٧٣ هـ/١٠٨٠ م ضرب السكة أو العملة باسمه ، وفى السنة التالية فتح مدينة وجدة وتنس ووهران ومدينة الجزائر وجميع أعمال نهر شلف ، وبذلك ضم إلى المغرب الأقصى الشطر الغربى من الجزائر ، وفى سنة ٤٧٧ هـ/١٠٨٤ م فتح مدينة سبتة . وبذلك وحّد المغرب الأقصى جميعه جنوبا حتى الصحراء الكبرى وغربا حتى المحيط وشمالا حتى البحر المتوسط ، ولم يكفه الاستيلاء على حدوده الشرقية غربى نهر الملوية حتى مدينة وجدة ، فقد مدّه شرقا واستولى على شطر كبير من الجزائر كما أسلفنا . وكان واسع الأفق مؤمنا بأن العالم الإسلامى ينبغى أن يتوحّد تحت راية واحدة هى راية الخليفة العباسى ببغداد ولذلك كتب إليه معلنا دخوله فى طاعته ، وكتب إليه الخليفة مرحبا ومباركا له فى مملكته ، واكتفى يوسف بأن لقب نفسه بلقب أمير المسلمين . ومما يدل على حسن إدارته وسياسته أنه كان يختار الولاة على ولايات مملكته الواسعة من خيرة رجال قبيلته الصنهاجية المعروفين بالأمانة والعدالة والنزاهة ، وضمّ إلى كل والٍ فقيها أو أكثر ليكون مستشاره فى أحكامه بحيث تتمشى مع الشريعة الإسلامية ، ورفع عن كاهل الرعية المكوس والمغارم التى كان يتقاضاها منهم حكامهم السابقون .

وكانت الأندلس – فى القرن الخامس الهجرى – قد أصبحت أندلسات وإمارات متعددة وأخذت تتنافس وتتحارب فى هذا العهد الذى سمى عهد أمراء الطوائف ، ونشط أعداؤهم النصارى الإسبان فى الشمال للانقضاض عليهم ، وأخذوا يؤدون إليهم – قهرا – إتاوات ومغارم شتى ، وخاصة لألفونس السادس ملك ليون وقشتالة ، واستطاع سنة ٤٧٨ هـ/١٠٨٥م أن يلتقم طليطلة أكبر إماراتهم دون حرب ، مع مساعدة أميرها القادر بن ذى النون على أخذ بلنسية . وشعر المعتمد أمير إشبيلية والمتوكل أمير بطليوس بهذا الخطر الداهم وكذلك غيرهما من الأمراء ، فاستصرخوا البطل المغوار يوسف بن تاشفين أن ينجدهم ضد ألفونس السادس قبل أن يبتلعهم كما ابتلع طليطلة ، وأرسلوا إليه – مستغيثين – نفرا من قضاة المدن الكبرى ، فأطلعوه على جلية الأمر ، فثارت حميته للإسلام والمسلمين فى الأندلس ، كما ثارت حمية قومه المرابطين المجاهدين الذين نذروا أنفسهم للجهاد فى سبيل الله ودينه الحنيف ، وأعد سريعا جيشا جرارا لمنازلة نصارى إسبانيا وأعد له أسطولا ضخما عَبَر الزقاق سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م وأخلى له المعتمد صاحب إشبيلية مدينة الجزيرة الخضراء لتكون رباطا لجيشه ، واتجه لحرب عدو الله فى طليطلة وانضم إليه المعتمد والمتوكل أمير بطليوس وعبدالله بن بلقين أمير غرناطة بجيوشهم ، وعلم ألفونس بمقدمه وأنه منازله فاستغاث بملوك النصارى فى إسبانيا وفرنسا

وإيطاليا وبالبابا فى روما وجاءته حشود من الفرسان ،والتقت الفئتان فى موضع يُدْعَى الزلاَّقة شمالى بطليوس ، ودارت معركة حامية الوطيس مُزِّق فيها جيش ألفونس شر ممزَّق ، ويقال إنه كان مائة وثمانين ألف فارس ومئتى ألف راجل ، فنكَّل جيش يوسف بن تاشفين بهذا الجيش وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وفرَّ ألفونس على وجهه إلى طليطلة فى شرذمة قليلة من الفرسان مثخنا بالجراح . وبلغت يوسف وفاة ابن له ، فاضطر إلى العودة إلى مراكش بعد هذا النصر المبين ، ولو أنه تابع بعده زحفه إلى طليطلة لاستولى عليها . وفى سنة ٤٨١ هـ/١٠٨٨ م أخذ ألفونس يغير على إمارة المعتمد بن عباد عن طريق حصن لبيط ، واستغاث بابن تاشفين ، فاجتاز الزقاق إليه وكتب إلى من سواه من أمراء الطوائف ليلتقوا للجهاد ضد ألفونس ، ولم يلبِّه سوى أمير مرسية وأسرَّها فى نفسه ، وانتصر أمير المسلمين وعاد إلى عاصمته مراكش . ودبَّ الخلاف والشقاق بين أمراء الطوائف ومدّوا أيديهم إلى ألفونس يدفعون له المغارم ويطلبون منه العون وخاصة عبد الله بن زيرى أمير غرناطة فعَبَر يوسف الزقاق إلى الأندلس للمرة الثالثة ، وفيها خلع عبد الله بن زيرى وأسرته عن غرناطة وأرسل بهم إلى مراكش . وترك وراءه صهره سير بن أبى بكر ليخلع أمراء الطوائف جميعا ومن أبى قاتله أو أخذه أسيرا ، وقاتله المتوكل أمير بطليوس وقتله ، ونازله المعتمد أمير إشبيلية وأسره ونفاه مع أسرته إلى أغمات . واستولى المرابطون على المرية وفر ابن صمادح إلى إفريقية كما استولوا على دانية وشاطبة وبلنسية سنة ٤٨٥ هـ/١٠٩٢ م وبذلك دانت لهم الأندلس ماعدا سرقسطة فإن ابن تاشفين – بنظره الثاقب – رأى أن تظل مع أمرائها من بنى هود ، لتكون ثغرا حربيا حاجزا بين نصارى الشمال والأندلس . وفى سنة ٤٩٠ هـ/١٠٩٦ م وقيل بل فى سنة ٤٩٦ هـ/١١٠٢ م عبر ابن تاشفين إلى الأندلس مرة رابعة لأخذ البيعة لابنه على . وفى سنة ٥٠٠ هـ/١١٠٦ م توفى البطل العظيم يوسف بن تاشفين وبويع لابنه على بمراكش .

وكان على مجاهدا كبيرا مثل أبيه وفى سنة ٥٠١ هـ/١١٠٧ م وجَّه أخاه تميما الوالى على غرناطة بجيش إلى إقليش شرقى طليطلة ، ولقيه ألفونس وهزمه تميم هزيمة منكرة ، قُتل فيها ابنه الوحيد ولى عهده ، ومات بعد الموقعة بعشرين يوما متحسرًا على هزيمته وفقد ابنه ، واستولى تميم على حصن إقليش وشَنْتبريَّة . وفى سنة ٥٠٣ هـ/١١٠٩ م عبر على بن يوسف إلى الأندلس بجيش كثيف هاجم به طُلَيْطلة وفتح من أحوازها سبعة وعشرين حصنا وفتح مجريط ووادى الحجارة . وفى السنة التالية فتح سير بن أبى بكر مدن شريش وبطليوس وبرتغال ويابرة وأشبونه وجميع بلاد الغرب . وفى سنة ٥٠٧ هـ/١١١٣ م توفى سير بن أبى بكر بإشبيلية وخلفه عليها محمد بن فاطمة حتى سنة ٥١٠ هـ . وفى السنة التالية ٥٠٨ هـ/١١١٤ م توفى القائد مزدلى غازيا ببلاد النصارى . وفى سنة ٥٠٩ هـ/١١١٥ م تملك المرابطون جزائر البليار : ميورقة وأختيها . وأخطأ على بن يوسف فأخذ سرقسطة من حماتها بنى هود ، وسرعان

ما وقعت فريسة للنصارى سنة ٥١٢ هـ/١١١٨ م . وفى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة عبر على بن يوسف إلى الأندلس ، ودوَّخ بلاد الغرب وفتح شنتمريَّة . وفى سنة ٥١٩ هـ/١١٢٥ م استدعى المعاهدون من نصارى غرناطة ألفونس الأول ملك أراجون للاستيلاء على مدينتهم ، فزحف إلى الجنوب ، وعلم المرابطون فردوه على أعقابه . وأُجْلَوْا عن غرناطة كل من كانوا سببا فى استدعائه من النصارى إلى مدينة سَلا على المحيط فى المغرب وبالمثل إلى مكناسة . وفى سنة ٥٢٠ هـ/١١٢٧ م هاجم تاشفين بن على النصارى وفتح ثلاثين حصنا فى الغرب . وفى سنة ٥٢٨ هـ/١١٣٤ م وجَّه على بن يوسف جيشا كثيفا بقيادة على بن غانية والى بلنسية ومرسية شرقى الأندلس إلى مدينة إفراغة شرقى سرقسطة ، فلقى جيشا لألفونس الأول ملك أراجون فنازله وهزمه هزيمة منكرة . وفى سنة ٥٣٣ هـ/١١٣٨ م أخذ البيعة بمراكش لابنه تاشفين ، وتوفى على سنة ٥٣٧ هـ/١١٤٢ م .

وخلف تاشفين أباه عليا ، ولم يلبث الموحدون أن نازلوه سنة ٥٣٩ هـ/١١٤٤ م ودارت عليه الدوائر وتوفى برمضان من نفس السنة . وكانت دولة المرابطين دولة عظيمة عملت على نشر الإسلام فى السودان الغربى بالسنغال وغير السنغال ، وقضت على الصفرية والنحل الضالة نحلة البجلية من السوس ونحلة برغواطة المارقة فى إقليم تامسنا وجعلت الإسلام فى المغرب الأقصى كله سنيا ، ووحدته بحدوده المعروف بها إلى اليوم ، وصانت الأندلس من الضياع ، فقد كانت سفينة توشك على الغرق ، فأنقذتها وردتها إلى مواصلة الحياة الأدبية والفلسفية والعلمية لأربعة قرون تالية . وقد شملت دولتهم – على اتساع أرجائها – عدالة وأمن لم يحظ بهما قطر فى أزمنتهم ، إذ كانت تمتد من ممالك النصارى فى شمال إسبانيا إلى السنغال فى الجنوب ، ولا مكس ولا مغرم ولا معونة فى بادية أو حاضرة إلا ما كان من الزكاة والعشر مما فرضه الإسلام ، والأسعار فى غاية الرخص ، والناس فى دعة ورخاء ورفاهية إلى أن ثار على الدولة مهدى الموحدين واستولى خليفته عبد المؤمن على صولجان الحكم من المرابطين .

(ب) الموحدون[1]

أنشأ هذه الدولة بالمغرب الأقصى محمد بن تومرت فقيه من هرغة إحدى بطون مصمودة ، وهى إحدى القبائل الأربع الكبرى التى كانت تعيش فى مناطق هذا المغرب ، وهى غمارة

(١) انظر فى الموحدين كتاب المن بالإمامة لابن صاحب الصلاة (طبع دار الغرب الإسلامى) والمعجب للمراكشى (طبع القاهرة) والجزء الثانى من البيان المغرب (طبع باريس) وروض القرطاس لابن أبى زرع وتاريخ ابن خلدون ٦/٢٢٥ وما بعدها وتاريخ الدولتين الموحدية والحفصية للزركشى (طبع القاهرة) والاستقصا فى أخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى وعصر المرابطين والموحدين ليوسف إشباخ ترجمة عنان ومعالم تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس .

وكانت تنتشر فى منطقة ، الهبط والريف ، وزناتة وكانت تنتشر فى كثير من المناطق وخاصة حول حوض نهر ملوية من منبعه إلى مصبه ، ومن فروعها مغراوة التى قضت على الأدارسة وبنى مدرار ، وصنهاجة فى مناطق مختلفة ، ومعها صنهاجة الملثمون أصحاب دولة المرابطين ، ثم مصمودة وكانت تنزل فى السفح الجنوبى لجبال الأطلس وسهوله ، وهى الجبال المسماة جبل درن ، وكانت تنتشر من آسفى فى منطقة دكالة إلى حاحه على ساحل المحيط ومراكش والسوس وجزولة . وكانت تطمح إلى الملك كما ملكت قبلها صنهاجة وبعض فروع زناتة مثل بنى مدرار فى سجلماسة . ومن فروع مصمودة هرغة وهنتانة وتينملل ودكالة وهيلانة وغيرهم حتى ليصبحون معظم سكان المغرب الأقصى .

وولد لهذه القبيلة الكبرى محمد بن تومرت الهرغى حول سنة ٤٨٠ هـ/١٠٨٧ م ونشأ كما ينشأ لداته فحفظ القرآن الكريم ، ثم أخذ يختلف إلى حلقات العلماء فى بلدته ثم فى مراكش حتى إذا بلغ نحو العشرين من عمره رحل إلى المشرق على رأس المائة الخامسة ، كما يقول ابن خلدون ، ومرَّ بالأندلس ودخل قرطبة وهى دار علم ، ورحل إلى الإسكندرية وحجَّ ودخل العراق ولقى جملة من العلماء . وكانت عقيدة الإمامية الاثنى عشرية شائعة فى بغداد ، فدرسها وعرف أنها تقوم على الإمامية أو فكرة إمامة أحد أحفاد على عن طريق الوصية المتسلسلة إليه ، وأن المسلم لا يكون مسلما حقا إلا إذا فوَّض أمره للإمام وبذل نفسه فى سبيله ، فرأى أن يكون ذلك ركنا أساسيا فى دعوته ، فهو إمام ، وهو يتصف بالصفات القدسية التى يتصف بها الإمام عند فرقة الإمامية الشيعية . ولكن كيف تكون إمامته والإمامة خاصة بالبيت النبوى ؟ فأكد أنه علوى فاطمى وذكر له سلسلة نسب تصله بسليمان بن عبد الله أخى إدريس الأول مؤسس دولة الأدارسة ، وكان قد ترك لأخيه سليمان وذريته تلمسان .

ولم يأخذ محمد بن تومرت عن الإمامية عقيدة الإمام الفاطمى أو العلوى وحدها ، بل أخذ معها فرعيها من المهدية والعصمة ، أما المهدية فيريدون بها الإمام الذى ينقذ العالم من الشرور والآثام ، فلقب نفسه بالمهدى أى الإمام الذى اختاره الله لتخليص العالم مما فيه من الموبقات والمعاصى ، وأما العصمة فيراد بها أن الأئمة معصومون عن الخطأ وعن ارتكاب أى إثم أو اقتراف أى ذنب ؛ مع الإيمان بأن الله أضفى عليهم صفات روحية قدسية ، وهى صفات تجعل طاعتهم فريضة على كل مسلم وأن عقيدته لا تتكامل إلا إذا فوَّض أمره إلى الإمام وبذل نفسه فى سبيله . ولكل ذلك سمى نفسه – وسماه أتباعه – الإمام المهدى المعصوم . كلمات ثلاث ولكنها كلمات فى غاية الخطورة ، فهو الشخص الذى اختاره الله لعباده ليكون حاكمهم دينا ودنيا : حاكم مهدى ينقذ الناس من الظلم والمآثم ، وكلمته لا ترد فهو معصوم ولا يجرى على لسانه إلا الحق ، والحق وحده . وألف ابن تومرت فى هذه الصفات التى خلعها على نفسه مستمدا لها من الإمامية الشيعية كتابا فى الإمامية افتتحه بقوله : « أعز ما يطلب » .

وبجانب هذه الأسس الثلاثة وهى أنه إمام مهدى معصوم يأخذ عن الفاطميين لعقيدته أساسا رابعا هو تنظيم دولته بحيث يكون على رئاستها إمام وتتبعه طبقتان : طبقة الصحابة وهم عشرة مستشارون وطبقة الأنصار وهم خمسون وبجانب هاتين الطبقتين الطلبة وهم دعاتهم وكانوا يتعلمون أسس العقيدة ونشرها فى القبائل . ودرس وهو فى بغداد – مذهبى المعتزلة والأشعرية ، وعرف الأصول الخمسة التى يدين بها المعتزلة ، وهى التوحيد ، والعدل ، والوعد والوعيد ، وأن منزلة مرتكب الكبيرة بين منزلتين ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأعجبه المبدأ الأول وهو التوحيد ، وهو يعنى عند المعتزلة تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين ، فهو ليس بجسم ولا عرض ولا جوهر ولا يحصره المكان ولا الزمان ، وكل آية فى القرآن الكريم يفهم منها مشابهة الله للمخلوقات مثل : (يد الله فوق أيديهم) تؤوّل ، فاليد فى الآية معناها القدرة ، وبالمثل الآيات الأخرى المماثلة . والأشعرية يلتقون مع المعتزلة فى هذا المبدأ وهو تنزيه الله عن التشبيه وكل ما يتعلق بالجسمية والتجسيد ، ومع أن ابن خلدون يقول إنه أخذ بمذاهب الأشعرية فى كافة العقائد ، وألف فى العقائد على رأيهم رسالته المرشدة فى التوحيد ، مع ذلك نرى أنه ربما صرح باسم الأشعرية لأنه كان لهم شعبية بالمغرب كله لعصره وقبل عصره . وإنما دعانا إلى الزعم بأن ابن تومرت أخذ فكرة أو مبدأ التوحيد وما يتصل به من تنزيه الله عن مشابهة المخلوقات عن المعتزلة أنه استخدمها بنفس المعنى للدلالة على أتباعه ، فهم موحدون أى يؤمنون بأن الله لا يشبه المخلوقات بوجه من الوجوه وينفون عنه التجسيد بكل صوره . وكان يتهم المرابطين وشيوخهم بالقول على الذات العلية بالتجسيم وأنهم لذلك كافرون مارقون عن الدين ويجب نقض طاعتهم وقتالهم ، ومعاذ الله أن يكون المرابطون كفارا أو مجسمة وقد أدوا للإسلام خدمات كبرى إذ قضوا فى منتصف القرن الخامس الهجرى على مجوس برغواطة فى إقليم تامسنا بالمغرب الأقصى واستنجد بهم أمراء الطوائف فى الأندلس ضد غارات الإسبان عليهم فعبروا إليهم وهزموا الإسبان هزيمة ساحقة فى موقعة الزلاّقه وكان لهم جيش فى موريتانيا نشر الإسلام بقوة فى غرب إفريقيا ووسطها ، وبفضلهم تحولت غانة بلدا إسلاميا إلى اليوم ، وظلم ما قاله ابن تومرت عنهم من أنهم كفار مجسمة وكل ما هناك أن فقهاءهم كانوا سلفيين يتركون التأويل للآيات التى قد يفيد ظاهرها التشبيه على الله مع تنزيهه ونفى التجسيد عنه ، وبذلك يتبين أن ابن تومرت لم يسم أتباعه باسم الموحدين عفوا بلا قصد مما جعل مؤرخا يقول : « كان لقب الموحدين الذى أطلقه ابن تومرت على أتباعه غير ذى معنى لأن كل المسلمين موحدون ، ولم يكن المرابطون أقل توحيدا من الموحدين » . فهى كلمة – كما رأينا – تؤدى معنى واضحا عنده وعند أتباعه . وفى رأيى أن الذى وصل ابن تومرت بمذهب المعتزلة هم الإمامية لأنهم كانوا موصولين بهم من قديم ، وأحكم هذا الاتصال فى القرن الخامس الهجرى الطبرسى المتوفى سنة ٤٦٠ هـ/١٠٦٧ م وقد فسح فيه – كما ذكرت فى الحديث عن التفسير

فى القسم الخاص بالعراق فى هذه السلسلة - للتأثر بالمعتزلة فى نفى التشبيه عن الذات العلية . ومبدأ ثان من مبادىء المعتزلة الخمسة أخذ به ابن تومرت وجعله جزءًا لا يتجزأ من دعوته ، وهو مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهو ما ينبغى على كل مسلم أن يصدر عنه بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، وإلا فبقلبه ، وهو أضعف الإيمان ، وجعل ابن تومرت ذلك شعارًا للدعوة . ويقول صاحب المعجب إنه أخذ عن المعتزلة القول بأن صفات الذات العلية من مثل قدير سميع عليم هى عين الذات الإلهية ، وقال الأشعرية إنها زائدة على الذات .

ويعود ابن تومرت إلى المغرب وينزل طرابلس ويحاول أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويلقى مقاومة ، ويتركها إلى بجاية ، ويلقى نفس المقاومة ، ويزداد أتباعه ويلتقى بعبد المؤمن بن على الكومى من قبيلة كومية ، ويقال إنها زناتية ويقال بل مصمودية ، وصحبه إلى تلمسان ، والتف حوله كثيرون . وسار موكبه إلى فاس والمغرب الأقصى ، ونراه يظن أن أدوات الموسيقى منكر ، فيأمر أتباعه بتحطيمها . وينزل مكناسة ويلقى بها مقاومة فيتركها إلى مراكش ويلتقى فى المسجد بأمير المسلمين على بن يوسف ويعظه . وأخذ ينكر على الفقهاء أخذهم بالظاهر فى تفسير الآيات التى قد يفهم منها التجسيد قائلين إن علم ذلك عند الله مع تنزيهه ونفى التشبيه عنه ، وهو قول أهل السنة ورماهم بالكفر كما رماهم بالجمود لتمسكهم بمذهب مالك وفروعه ، وكأن ذلك كان تمهيدا لتأخذ هذه الدعوة بمذهب داود الظاهرى الذى يأخذ بالكتاب والسنة فحسب ، وناظره الفقهاء وانتصر عليهم ، ولحق بأغمات ثم بقبيلة هنتانة المصمودية وشيخها أبى حفص ، ونزل على قبيلته هرغة سنة ٥١٥ هـ/١١٢١ م وبنى بها رباطا للعبادة ، وانثالت عليه القبائل وخاصة من مصمودة ، وانتقل إلى جبل تينملل جنوبى منطقة مراكش ، وأخذ ينظم أتباعه فى طبقات ، فأول طبقة إيت عشرة أو أهل عشرة وهم صحابته كصحابة الرسول ، وتليهم طبقة الأنصار إيت خمسين أو أهل خمسين . وكان يسمى حفطة المذهب وفقهاءه الطلبة أى الدعاة ويسمى أهل دعوته الموحدين بالمعنى الذى أوضحناه . وأعدّ جيشا عداده ٤٠,٠٠٠ مقاتل من الموحدين وجعل عليه عبد المؤمن بن على ، ولقيتهم جيوش المرابطين فهزموهم ، وتبعوهم إلى بحيرة بمراكش ، ودفعوهم إليها وأثخنوا فيهم قتلا وسبيا وسميت هذه المعركة معركة البحيرة . ولم يلبث المهدى أن توفى بعدها بأربعة أشهر سنة ٥٢٢ هـ/١١٢٨ م ، وكتم عبد المؤمن وأصحابه موته ثلاث سنوات يموّهون بمرضه حتى استحكم أمرهم ، فأظهروا للناس موته وعهده لعبد المؤمن بن على بخلافته .

وأجمع أصحاب ابن تومرت العشرة وأنصاره الخمسين والدعاة أو الطلبة وكافة الموحدين على البيعة لعبد المؤمن بن على بمدينة تينملل سنة ٥٢٤ هـ/١١٢٩ م باسم خليفة ابن تومرت ، ولم يلبث أن أبعد فى الغزوات فى منطقة تادلة ، واستولى سنة ٥٢٦ هـ/١١٣١ م على درعة ،

وتسابق الناس فى المغرب الأقصى إلى دعوته وانتقض البربر فى سائر أنحاء المغرب على المرابطين . ويتحاشى عبد المؤمن مقابلتهم فى مراكش بعد هزيمة البحيرة المشهورة المارة ، ويقوم منذ سنة ٥٣٤ هـ/١١٣٩ م إلى سنة ٥٤١ هـ/١١٤٦ م بحملة كبرى يخترق فيها ممر تازا إلى تلمسان ويستولى على شطر كبير من المغرب الأوسط . وكان تاشفين بن على بن يوسف يحاذيه ولا ينازله ، وفى هذه الأثناء توفى أبوه على بن يوسف وولى الخلافة تاشفين ، وهاجم عبد المؤمن سبتة وامتنعت عليه ، وكان القاضى عياض هو الذى دافع عنها بقوة ، ولذلك سخط عليه الموحدون ، وظل عبد المؤمن يتابع تاشفين حتى حصره فى مدينة وهران بالجزائر وبها توفى سنة ٥٣٩ هـ/١١٤٥ م وبموته سقطت وهران ، وأخذت مدن المرابطين تسقط فى حجر الموحدين مع ما أبدى المرابطون فيها من بسالة عظيمة ، وخاصة مدينتى فاس ومراكش . وقد ظل عبد المؤمن محاصرا لمراكش تسعة أشهر وهى تقاوم بزعامة أميرها إسحق بن على بن يوسف وطال عليها الحصار وأجهد أهلها الجوع فاستسلموا فى شوال سنة ٥٤١ هـ/١١٤٦ م ولم يبق الموحدون على أحد من المرابطين وقتلوا إسحق بن على بن يوسف ، وانمحى – كما يقول ابن خلدون – أثر المرابطين من البلاد واستولى عليها الموحدون كما استولوا على تلمسان وعلى شطر كبير من المغرب الأوسط . ولن يقف ملك عبد المؤمن فى بلاد المغرب عند هذا الحد ، إذ كان قد حدث منذ أواسط القرن الخامس أن اكتسحت أمواج الهلالية وبنى سليم طرابلس وإفريقية التونسية وشطرًا كبيرًا من المغرب ، وأعدت لظهور ما يشبه أمراء الطوائف فى إفريقية التونسية مثل بنى خراسان فى تونس وبنى جبارة فى سوسة وبنى جامع فى قابس وبنى الرند فى قفصة . وكان بنو حماد فى بجاية ، وكان المعز بن باديس وابنه تميم انحازا إلى المهدية على البحر المتوسط بين سوسة وصفاقس ، وحمل ملوك صقلية النورمانديون بأساطيلهم على سواحل طرابلس واستولوا عليها كما استولوا على جزيرة جربة المقابلة لقابس ، وسرعان ما استولوا فى سنة ٥٤٣ هـ/١١٤٨ م على المهدية وكثير من مدن إفريقية التونسية الشرقية مثل قابس وصفاقس والمنستير وسوسة ، وعلم عبد المؤمن ذلك كله فصمم على أن يجمع ديار المغرب كلها فى قبضة واحدة ، حتى لا تسول لملوك صقلية نفوسهم الاستيلاء عليها ، فخرج من مراكش سنة ٥٥٣ هـ/١١٥٨ م فى جيش جرار استولى به على بجاية عاصمة بنى حماد وخلعهم عن إمارتها واستسلمت له إمارات الطوائف الصغرى فى إفريقية التونسية ، واستولى من النورمان على كل ما كان بأيديهم من مدن الساحل فى طرابلس وإفريقية التونسية ، وبذلك تحققت على يده وحدة المغرب السياسية من طرابلس إلى المحيط .

وبمجرد أن توفى تاشفين بن على بن يوسف وانتقل صولجان الحكم فى المغرب الأقصى إلى الموحدين اختلَّت أحوال الأندلس ، بل لعلها اختلت من قبل ذلك فى عهد على بن يوسف منذ شُغل المرابطون عن الأندلس بحرب الموحدين ، فاستولى النصارى على كثير من الثغور

المجاورة لبلدانهم . ورأى بعض أعيان البلاد فى الأندلس إخراج بلدانهم من ولاة المرابطين وإعلان استقلالهم بها ، وبذلك بدا فى الأندلس ما يمكن أن نسميه عصر الطوائف الثانى ، وفى سنة ٥٤٣ هـ/١١٤٨ م استولى صاحب برشلونة : ريموند على طرطوشة وجميع قلاعها وعلى لارِدة وإفراغة ، واتفق أهل بلنسية ومرسية وشرقى الأندلس على تولية عبد الله بن عياض وخلَفه محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش ، ودانت له جيان وولى عليها صهره إبراهيم بن همشك ، وظل ابن مردنيش يقاوم الموحدين إلى أن توفى سنة ٥٦٨ هـ/١١٧٢ م ودخلت بلاده فى طاعة الموحدين وبالمثل جيان وابن همشك . وكان الموحدون يرسلون جنودهم منذ سنة ٥٤١ هـ/١١٤٦ م إلى الأندلس واهتموا بالغرب فيها ، فدانت لهم إشبيلية وغرناطة . وكان ألفونس السابع قد استولى على المرية سنة ٥٥٢ هـ/١١٥٧ م فنازله عثمان بن عبد المؤمن والى إشبيلية ، وحاول ألفونس الدفاع بكل ما يستطيع ، ولم يغنه دفاعه ولا جنوده فقد هزم هزيمة ساحقة توفى على أثرها ، وهو ثانى ملك نصرانى يقضى عليه المسلمون بعد قضائهم على جده ألفونس السادس بعد هزيمته فى أقليش وقتل ابنه فى معركتها الطاحنة . وعبر عبد المؤمن إلى الأندلس ، ونزل بجبل طارق وسماه جبل الفتح وبنى به مدينة ، ووفد عليه وجوه الأندلس من مالقة وغرناطة وقرطبة وإشبيلية للبيعة سنة ٥٥٦ هـ/١١٦١ م وقدم له الشعراء مدائح رائعة وتوفى سنة ٥٥٨ هـ/١١٦٣ م . وبحق استطاع إنشاء أكبر دولة عربية فى عصره إذ امتدت من المحيط الأطلسى إلى أنحاء طرابلس فى إفريقيا ومن ديار النصارى فى الأندلس إلى درعة والسوس فى المغرب الأقصى .

وخلفه ابنه يوسف وكان مثقفا ثقافة واسعة ، ثقفها فى أثناء ولايته لأبيه على الأندلس واتخاذه إشبيلية عاصمة له هناك ، وكان مثل أبيه وإمامه ابن تومرت ثائرا على كتب المذاهب الفقهية وما بها من كثرة الفروع والعلل مؤمنا بمذهب أهل الظاهر الذين يرجعون فى فقههم إلى الكتاب والسنة فحسب كما هو معروف عن داود الظاهرى فى المشرق وابن حزم فى الأندلس . ومرَّ بنا أن من مبادئهم التوحيد وسموا به أنفسهم الموحدين أى الجماعة التى تنفى مشابهة الذات العلية للمخلوقين نفيا باتا ، ومبدأ ثالث هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كما مر بنا ، مع الإيمان بأن ابن تومرت كان إماما مهديا معصوما . ومع ذلك كله يزعم بعض المؤرخين المعاصرين أن دعوة الموحدين لم تقم على أساس مذهب دينى أو سياسى واضح لأنه غابت عنهم معرفة المبادىء التى قامت عليها هذه الدعوة .

وانتهت فى عهد يوسف فتنة ابن مردنيش وكذلك فتنة ابن همشك ودانت له الأندلس شرقا وغربا . وكان ألفونس إنريك Alfonso Enrique ويسميه مؤرخو العرب ابن الريق وهو صاحب قلمرية شمالى نهر تاجه بالقرب من المحيط ، استولى على أشبونة وشترين وقصر

أبى دانس منذ سنة ٥٤١ هـ/١١٤٦ م وعبر يوسف إلى الأندلس فى سنتى ٥٦٦ هـ/١١٧٠ م و ٥٨٠ هـ/١١٨٤ م لمجاهدته ومجاهدة النصارى واستولى على بعض الحصون .

وتوفى يوسف سنة ٥٨٠ وخلفه ابنه يعقوب ، وفى عهده بلغت ثورة الموحدين على أصحاب المذاهب الأربعة فى المشرق وكتبهم ذروتها إذ كان قصده محو مذهب مالك من المغرب وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث . وكان الأيوبيون قد أرسلوا قراقوش لإحداث قلاقل فى طرابلس وتونس علهما يتبعان مصر ويعينانها فى حروبها مع الصليبيين ، وفى الوقت نفسه نزل إفريقية التونسية بعض بنى غانيَة (أمهم من غانة) ولاة المرابطين على جزائر البليار لمحاولة تأليب أهلها وثورتهم على الموحدين ، واستطاع يعقوب القضاء على هذه القلاقل والفتن بحملة كبيرة اتجه بها إلى تلك الديار سنة ٥٨٣ وأتمَّ القضاء عليها نهائيا الولاة بعده . ووضع نصب عينيه الاستعانة بالهلاليين وغيرهم من الأعراب فى إعداد جيش ضخم لمنازلة نصارى الإسبان من جهة ، وليفيد فى جيشه من بسالتهم المشهورة وليبعد عيثهم وغاراتهم عن المغرب من جهة ثانية . وتوفى ابن الرنق ملك البرتغال سنة ٥٨١ هـ/١١٨٥ م وخلفه ابنه : سانشو فتمكن سنة ٥٨٥ هـ/١١٨٩ م بمساعدة صليبيين هولنديين وإنجليز من الاستيلاء على مدينة شلب ، فاستردها يعقوب سنة ٥٨٧ هـ/١١٩١ م واستولى على عدد من الحصون ، وأخذ يعدُّ لمعركة كبرى ، واستنفر العرب الهلالية والمغاربة وأهل الأندلس ، وسمع بذلك ألفونس الثامن صاحب قشتالة ، فاستعان بالبابا وملوك أوربا وحشد جموعه النصرانية فى سهل حول حصن يسمى الأرَك بين قرطبة وطليطلة ومزَّقهم جيش المسلمين كل ممزق ، ولاذ ألفونس الثامن بالفرار نحو طليطلة مع عدد من فرسانه ، ولو أن يعقوب تبعه إلى طليطلة لاستولى عليها ، ولكنه صنع ما صنعه يوسف بن تاشفين بعد موقعة الزلاقة ، إذ اكتفى بعقد معاهدة بينه وبين ألفونس بعدم الاعتداء لمدة عشر سنوات . ومما يؤثر له أنه أصلح مسجد إشبيلية وبنى مئذنته المعروفة باسم الخيرالدا . وتوفى سنة ٥٩٥هـ/١١٩٨م .

وتولى بعده ابنه عبد الله الناصر وشغله أمر بنى غانية ، واستولى على جزائر البليار سنة ٦٠٠ هـ/١٢٠٣ م وتتابعت هزائمهم فى طرابلس والمهدية وتونس وعند تبسة فى إقليم الزاب ، وانسحب من بقى منهم إلى الصحراء . وبينما كان الناصر مشغولا بالقضاء على بنى غانية كان ألفونس الثامن يعد لمعركة فاصلة بينه وبين الموحدين وأعانه البابا وملوك النصارى وجاءه عبَّاد الصليب سيولا وراء سيول ، والتقى النصارى بجيش الموحدين عند حصن العقاب إلى الجنوب الشرقى من حصن الأرك سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م ، ودارت الدوائر على الموحدين . وتوفى الناصر بعد الموقعة بشهور قليلة ، وكان ذلك إيذانا بانهيار الجبهة الإسلامية فى الأندلس . وخلف الناصر ابنه يوسف الذى تلقب بالمستنصر ، وثار عليه أهله وذوو رحمه فى الأندلس والمغرب

واضطرمت في الأسرة منافسات وحروب أهلية إلى أن قضى المرينيون على دولة الموحدين سنة ٦٦٨هـ/١٢٧٠م وفقدت في أثناء ذلك مدن الأندلس حراسها وحماتها، فبين سنة ٦٣٣ هـ/ ١٢٣٦ م وسنة ٦٤٦ هـ/١٢٤٩ م سقطت في حجور نصارى الإسبان مدن الأندلس الكبرى : قرطبة وبلنسية ودانية وشاطبة وإشبيلية عروس الأندلس، وسقطت مرسية سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٦م .

(جـ) بنو[1] مرين

بنو مرين قبيلة بربرية زناتية كانت تستوطن المغرب الأوسط ودفعها العرب الهلاليون غربا فاستقرت في حوض مُلُوية حتى منابعه وحوض نهر زيز شمالي سجلماسة ، وكانوا موالين للموحدين وأسهمت منهم طائفة كبيرة بقيادة أميرها « محيو » في موقعة الأرك المشهورة ، وقدّمه المنصور الموحدى على جميع المتطوعين من زناتة للاشتراك في المعركة ، وأصابته في الموقعة جراحة مات منها شهيدا . وخلفه على الإمارة في قومه المرينيين ابنه عبد الحق ، وكان يطمح أن تصبح لقبيلته دولة مثل دولة لمتونة الصنهاجية أو دولة المرابطين ودولة هرغة المصمودية : دولة الموحدين . ودخل بجموعه لعهد المستنصر في وادى تازا وشرقى وادى سبو ، وواقعه الموحدون سنة ٦١٣ هـ/١٢١٦ م وهزمهم ، وتوفى فخلفه ابنه عثمان وأخضع بنى رياح الهلالية وتوفى فخلفه أخوه محمد ونازله الموحدون في مكناسة فهزمهم ، وتوفى سنة ٦٤٣ هـ/١٢٤٩ م وتلاه أبو يحيى بن عبد الحق أخوه ، وهو المحقق لأمانى بنى مرين في تأسيس دولة لهم بالمغرب الأقصى ، إذ ناصب الموحدين العداء ، واستولى منهم على مكناسة ، وهى أول قاعدة ملكها بنو مرين ، وقصد إلى مدينة فاس فبايعه أهلها طواعية راضين ، وعادوا فنقضوا بيعتهم ، وتحداه يَغْمُراسَن أمير بنى عبد الواد ، والتقيا ، وانتصر بنو مرين ، وعاد ابن عبد الحق سريعا إلى فاس ، فطلب أهلها منه الأمان وأعطوه العهود فقبل منهم وصفح عنهم ، ورحل إلى سلا ونازل جيشا للموحدين وهزمه واستولى عليها ، ونازل جيشا لبنى عبد الواد في طريقه إلى درعة وهزمه ، ودخل أهل درعة في طاعته ، وعاد إلى عاصمته فاس ، وتوفى سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م ويعد – بحق – المؤسس لدولة المرينيين في المغرب الأقصى .

وولى إمارة المرينيين بعده أخوه يعقوب بن عبد الحق وكان مجاهدا كبيرا يرى فرضا عليه أن يجاهد نصارى الإسبان ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وبدأ جهاده لهم على رأس قوة مرينية

---

(١) انظر في دولة بنى مرين روضة النسرين في أخبار دولة بنى مرين لابن الأحمر (طبع الرباط) والذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية (نشر ابن أبي شنب) والسادس من تاريخ ابن خلدون والمسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن لابن مرزوق الخطيب التلمساني (طبع الجزائر) وزهرة الآس في بناء مدينة فاس لأبي الحسن الجزنائي (طبع الجزائر) وروض القرطاس لابن أبي زرع والاستقصا لأخبار دولة المغرب الأقصى للسلاوى .

سنة ٦٦٤ هـ/١٢٦٦ م وفى سنة ٦٦٨ هـ/١٢٦٩ م افتتح مدينة مراكش عاصمة الموحدين ، وبذلك قضى نهائيا على دولتهم ، وبسطت الدولة المرينية سلطانها على المغرب الأقصى جميعه جنوبيه وشماليه حتى سبتة وطنجة . وابتهج الفقهاء بالدولة الجديدة ، لأنها خلصتهم من إجبارهم على مدارسة المذهب الظاهرى ورفضهم لمذهب مالك فقيه المدينة والحجاز الذى كان يعتنقه الفقهاء فى المغرب منذ حياة صاحبه فى القرن الثانى . وقد عادوا إليه وإلى مدارسة كتابه الموطأ ومدوَّنة سحنون التى أملاها عليه عبد الرحمن بن القاسم تلميذ مالك وكتاب التهذيب للبراذعى الصقلى والنوادر والزيادات لابن أبى زيد القيروانى وغير ذلك من كتب الفقه المالكى ومطولاته التى كان يجمع منها يعقوب الموحدى الأحمال ويحرقها يريد محو مذهب مالك وإزالته من المغرب . وسرعان ما عاد إليه المغرب جميعه بعد انتهاء عصر الموحدين وابتداء عصر المرينيين ، وتنادى الفقهاء بأن عقيدة ابن تومرت إنما هى انشقاق على الجماعة ، وبذلك كان فقهاء المذهب المالكى من العوامل فى تثبيت حكم المرينيين وعلى رأسهم يعقوب بن عبد الحق . ومنذ عهده بل قبله تلتحم الحروب بين بنى مرين وبنى عبد الواد وستظل تلتحم على مر السنين ، وكانت بين يعقوب ويغمراسن سلطان بنى عبد الواد واقعة بأسلى قرب وَجْدة فى الشمال سنة ٦٧٠ هـ/١٢٧٢ م انتصر فيها يعقوب وحاصر تلمسان ثلاثة أشهر ثم رفع الحصار وعاد إلى فاس ، وفى سنة ٦٧٢ هاجم سجلماسة واستخدم فى حصارها البارود لأول مرة فى المغرب الأقصى وأذعنت له ، وفى سنة ٦٧٤ هـ/١٢٧٦ م بنى مدينة فاس الجديدة على مسافة ميل غربى المدينة القديمة إلى الجنوب قليلا ، ويمر بين سوريهما ذراع من النهر يتجه نحو الشمال وعليه تقع الطواحين ، والذراع الثانى للنهر يتفرَّع فرعين يمر أحدهما بين فاس القديمة وفاس الجديدة ويتابع الفرع الثانى سيره وسط المزارع ، وجعلها مقر الحكومة الجديدة ، وسماها يعقوب المدينة البيضاء ولكن الشعب سمَّاها باسم فاس الجديدة ، وجعلها ثلاثة أقسام ، قسم فيه قصوره وقصور أسرته ومعه حدائقه وبنى فيه جامعا بديعا ، وقسم ثان به قصور قواده وشخصيات دولته ، وقسم ثالث خاص بسكنى الحرس مع جوامع وحمامات ، وبنى فى عدوة القرويين بفاس مدرسة كبيرة ، وبنى مارستانا وزوايا ، وبنى بجوار القصر الملكى دارسّك العملة واختط سوقا للمدينة ونظمه تنظيما حسنا وجعل لدكاكين الصاغة أمينا يدمغ كل ما يُصنَعُ من فضة أو ذهب فى فاس بمنقاش ، وكأن أهل فاس عرفوا — منذ هذا التاريخ على الأقل — نظام الدمغة . وتجهز يعقوب فى سنة ٦٧٧ هـ/١٢٧٩ م لعبوره الثانى للزقاق على رأس جيش مرينى لجهاد النصارى فى إسبانيا وأبلى بلاء حسنا وعاد إلى عاصمته فاس . وفى سنة ٦٨٠ هـ/١٢٨٢ م نازل يغمراسن فى ملعب الخيل بأحواز تلمسان وهزمه وعاد إلى فاس . ولم يلبث أن أخذ يستعد لجوازه الثالث إلى الأندلس سنة ٦٨١ هـ/١٢٨٣ م ليجاهد نصارى الإسبان واستولى على بعض حصونهم . وفى سنة ٦٨٥ عبر الزقاق للجهاد مع صفوة مستبسلة

من بنى مرين وأحرز نصرا مجيدا على نونيو جونذالث دى لارا nuno gonzsalez de lara جنوبى قرطبة فى ربيع الثانى سنة ٦٨٥ هـ/سبتمبر سنة ١٢٨٦ م . وتوفى بأوبته فى الجزيرة الخضراء . وكل ما استولى عليه من الحصون والبلاد كان يتركه لبنى الأحمر أصحاب غرناطة، فهو لم يجاهد لغنيمة إنما كان يجاهد لنصرة المسلمين ضد أعداء الإسلام نصارى الإسبان، وظل ذلك مبدأ ثابتا لحكام بنى مرين فى جهادهم لأولئك النصارى، فهم لايبغون بجهادهم غنما. إنما يبغون الدفاع عن الإسلام ضد خصومه إرضاء لله ورسوله وتلك منة ليعقوب وخلفائه المرينيين .

وخلف يعقوب – بعهد منه – ابنه يوسف ، وسار سيرته فى الجهاد فعبر الزقاق إلى الأندلس مرارا ، كما سار سيرته فى العدل الذى لا تصلح حياة الشعوب بدونه ، ونازل عثمان سلطان تلمسان مرارا ، وفى سنة ٦٩٨ هـ/١٢٩٩ م حاصرها وظل محاصرا لها ثمانى سنوات ، وفى سنة ٧٠٠ هـ/١٣٠١ م أسس أمامها مدينة المنصورة لمعسكره ، وشاد بها قصره وبنى بجواره جامعا عظيما ومنارة على رأسها تفاحات من ذهب ، وبنى الناس حول قصره المنازل والقصور ، وغرسوا البساتين وأجروا المياه وأداروا على المدينة سورا ، وبنيت بها حمامات وفنادق ومارستان ، حتى إذا عادت لبنى عبد الواد هدموها وخربوها وطمسوا معالمها ، وتوفى عثمان بن يغمراسن سنة ٧٠٣ هـ/١٣٠٤ م حزنا وكمدا ، وتوفى ابنه أبو زيان مثله كمدا سنة ٧٠٧ هـ/١٣٠٨ م . ولم يلبث أن توفى يوسف بن يعقوب ، ففك المرينيون الحصار عن تلمسان ، ولابد أن نذكر أن المرينيين حين حاصروا تلمسان استولوا على كل ما كان بيدها من مدن فى المغرب الأوسط بل ربما أضافوا إليها مدنا جديدة ، فقد استولوا على وجدة ووهران ومستغانم وتنس ومليانة وشرشال والمدية وبجاية . وبعد يوسف رغب فى الاستيلاء على صولجان الحكم أخوه أبو يحيى وابنه أبو سالم وحفيده أبو ثابت عامر ، وأرسل عامر إلى بنى عبد الواد أن يؤيدوه نظير رد ممالكهم عليهم فى المغرب الأوسط فأيدوه ، وتم له الأمر ، ووفى لهم بالعهد ، وخلفه عثمان بن يعقوب فأغار على تلمسان سنة ٧١٤هـ/١٣١٥م .

وتوفى عثمان سنة ٧٣١ هـ/١٣٣١ م وخلفه ابنه أبو الحسن على ، ويفكر فى الاستيلاء على تلمسان ويستولى على ندرومة ويحاصر وجدة سنة ٧٣٥ هـ/١٣٣٥ م ويستولى على وهران وتنس ومدينة الجزائر ومليانة سنة ٧٣٦ هـ/١٣٣٦ م ويحاصر تلمسان ، ويعيد بناء المنصورة لسكناه وسكنى جيوشه . ويفتح تلمسان سنة ٧٣٧ ويأخذ بنى عبد الواد وأهلها بالرفق ويأخذ فى الاستيلاء على مدن الجزائر ، ويدخل بجاية ويضع عن أهلها ربع المغرم وتذعن قسنطينة لطاعته ، ويقدم إلى تونس ومعه حشد من العلماء الأجلاء اجتمعوا له من المغرب الأقصى والمدن التى نزلها ، وظل بها من سنة ٧٤٨ هـ/١٣٤٨ م إلى سنة ٧٥٠ هـ/١٣٥٠ م . وفى شهر محرم سنة ٧٤٩ للهجرة هزم العرب أبا الحسن على القيروان هزيمة شديدة وربما كان من أسبابها

أنه كان في جيشه بنو عبد الواد ومغراوة وتوجين ، وجميعهم سلب منهم ديارهم ، فعملوا على هزيمته وانتصار العرب . وشاع في المغرب الأقصى خبر بموته . فدعا ابنه أبو عنان لنفسه وبايعه الناس . وفي شهر شوال من سنة ٧٥٠ أبحر في أسطول ضخم إلى الجزائر ، وتحطم أسطوله بساحل زواوة في الجزائر ولم ينج إلا نفر قليل منهم ، وغرق من كان معه من العلماء مفخرة المغرب الأقصى والجزائر . ولم يتنازل ابنه أبو عنان له عن الملك بعد أن تحقق من حياته خشية أن يحرمه من ولاية عهده ، وشُغل الابن بأبيه حتى توفى سنة ٧٥٢ هـ/١٣٥٢ م وتم له الأمر . وزحف إلى تلمسان سنة ٧٥٣ هـ/١٣٥٣ م وكان يليها عثمان الثاني وأبو ثابت فاستولى عليها وقتل عثمان وفرّ أخوه أبو ثابت إلى شلف فأرسل إليه أحد قواده فاستولى على معسكره بكل ما كان فيه ، وفرّ أبو ثابت ثانيا وقتل في فراره ، واستولى أبو عنان على كثير من مدن الجزائر بما فيها بجاية وقسنطينة .

وتوفي أبو عنان سنة ٧٥٨ هـ/١٣٥٧ م وهو آخر حكام بني مرين العظام ، وبويع لابنه أبي بكر السعيد وكان طفلا فظل في الحكم سنة ، وخلفه عمه إبراهيم لمدة سنتين . وطبيعي وقد اضطربت الأمور أن تعود تلمسان لأهلها بني عبد الواد ، ويتولى أخوه لمدة سنة ، ويتولى بعده سلاطين ضعاف ، واختلت الأحوال وظلت الدولة تزداد اختلالا بتولي أناس غير أكفاء ، وازدادت الفتن الداخلية وظلت الحروب مشتعلة بين بني مرين وبني عبد الواد وكثيرا ما تغلب الوزراء على الحكم فقدموا له الصبية والضعاف من ذرية عبد الحق ليخلو لهم الجو . وأخذ بعض الحكام في سجلماسة ومراكش وأطراف الدولة يحاولون الاستقلال عنها . وتفقد الدولة المرينية المغرب الأوسط وتعود إلى حدودها الأولى ، ففيم كان كل هذا الصراع بين المرينيين والتلمسانيين وحكامهم من بني عبد الواد . ولو فكر هؤلاء الحكام المسلمون في الأمر ومصلحة الأمة لأغمدوا السيف ولم يسلّوه على إخوانهم ، وإنما يسلونه على عدوهم من نصارى الإسبان الذين ينازلون المسلمين في الأندلس نزالا ضاريا . ومن الحق أن بني مرين أدوا دورا عظيما في الدفاع عن غرناطة . فقد ظلوا حتى أيامها الأخيرة يخوضون معها أو منفردين معارك طاحنة بذلوا فيها كل ما يستطيعون غير طامعين في غنم أو أي كسب مادي . ولا نمضي طويلا في القرن التاسع الهجري حتى نشعر بضعف المرينيين فقد استولى البرتغاليون منهم على سبتة سنة ٨١٨ هـ/١٤١٥ م إذ تحولت الحرب المقدسة إلى أرض المغرب . واستولى البرتغاليون على الدار البيضاء أو آنفه سنة ٨٧٤ وعلى طنجة ومدينتي أصيلا والعرائش سنة ٨٧٦ هـ /١٤٧١ م . وخرجت عن طاعة الدولة مراكش ومنطقة الريف في الشمال وسجلماسة ودرعة والسوس في الجنوب ، ولابد أن نذكر أنه إذا كانت الدولة المرينية ضعفت وتخاذلت إزاء هذا الاحتلال البرتغالي الواسع لموانئ المغرب على الزقاق والمحيط فإنه كان هناك من الشباب العربي دائما من يستبسلون في مقاومتهم وينزلون بهم خسائر فادحة في الأرواح، من مثل

أبي الحسن[1] على المنذرى، وكان قد قام بأعمال بطولية فى حروب غرناطة مع النصارى ، وعزّ عليه أن لاتجد مدن سبتة والقصر الصغير وطنجة من يدافع عنها ضد أعدائهم ، فانسحب إلى تطوان جنوبى سبتة على البحر المتوسط . وأخذ فى تحصينها واجتمع له ثلاثمائة فارس ، وأخذ بهذه الكتيبة الصغيرة يغزو منطقة المدن الثلاث السابقة ويأسر كثيرين من نصارى البرتغاليين وينهك قواهم فى أشغال التحصينات . ويقول الحسن الوزان فى حديثه عن تطوان إنه زارها ورأى بها ثلاثة آلاف من عبيد النصارى ويقول إنهم كانوا يلبسون جميعا سترة من الصوف وينامون ليلا مقيدين بالأصفاد فى سراديب تحت الأرض . ومثله شاب[2] إدريسى ذهب إلى غرناطة وانخرط لفترة من الزمن فى خدمة الغرناطيين حتى أصبح محاربا مجربا ، وعاد ليستقر فى جبل بنى حسن بالقرب من مدينة تطوان ، واجتمع إليه عدد من الفرسان ، وأخذ ينازل البرتغاليين فى المنطقة ويفتك بهم ، ويقول الحسن الوزان فى حديثه عن جبل بنى حسن إن البرتغاليين يعرفونه جيدا ويعرفون بطولته ويسمونه باسمه على بن راش (راشد) وهو الشريف الإدريسى على بن موسى بن الرشيد . ولابد أنه كان لشبان مغاربة أعمال كثيرة كأعمال الإدريسى والمنذرى غير أن المؤرخين قلما يثبتونها . ومرّ بنا الحديث عن بهلول وبطولاته العظيمة فى عصر الموحدين . وتبلغ الدولة المرينية غاية الضعف فيتولى الأمر الوطاسيون وهم فرع من بنى مرين ولم يكن بيدهم شيء من السلطان الحقيقى. وكان أولهم محمدا الشيخ منذ سنة ٨٧٦ هـ/ ١٤٧٢ م حتى سنة ٩١٠ هـ/١٥٠٤ م وخلفه ابنه محمد البرتغالى حتى سنة ٩٣١ هـ/١٥٢٤ م فأخوه بوحسون لمدة سنة فأحمد بن محمد البرتغالى حتى سنة ٩٥٦ هـ/١٥٤٩ م . وكان الكابوس البرتغالى يزداد فى عهدهم جثوما على ساحل المحيط ، وقد استولوا على ماسة فى منطقة السوس سنة ٨٩٤ هـ/١٤٨٩ م وأختها أغادير فى منطقة السوس أيضا سنة ٩١١ هـ/١٥٠٥ م وعلى آسفى فى منطقة دكالة سنة ٩١٤ هـ/١٥٠٨ م وعلى آزمور سنة ٩١٩ وكانوا ينشئون فى كل مدينة حصونا للدفاع عنها ويقيمون فى كل مدينة حاكمًا عسكريا ، وكانوا كثيرا ما يغيرون على البلاد وراء الساحل فى الداخل وينهبون خيراتها . ولابد أن نذكر أن الوطاسيين لم يقفوا مكتوفى الأيدى إزاء هذا السيل البرتغالى فقد أبلو فى جهادهم بقدر ما استطاعو ولكن قدرتهم كانت محدودة ، إذ خرجت مراكش وأكثر أجزاء المغرب الأقصى عن نفوذهم ، وشغلتهم واستنفدت كثيرًا من طاقتهم الفتن الداخلية الكثيرة ، حتى لم يعد لهم حول ولا قوة ، ولذلك كان طبيعيا أن تسقط فاس فى أيدى الأشراف السعديين سنة ٩٥٦ هـ/١٥٥٠ م وسلطانها – فى الواقع – انتهى قبل ذلك بسنوات طويلة .

---

(١) انظره فى كتاب وصف إفريقيا فى مدينة تطوان ص٣٢٠.

(٢) راجعه فى نفس المصدر فى بنى حسن ص ٣٢٣ .

٥

السعديون - الطرق الصوفية - العلويون

(أ) السعديون[1]

السعديون ثانى دولة عربية علوية تقوم فى المغرب الأقصى بعد دولة الأدارسة ، وكانوا ينتسبون إلى محمد النفس الزكية سليل الحسن بن على بن أبى طالب . وكان السبب فى قيام هذه الدولة أن البرتغاليين أخذوا منذ أوائل القرن التاسع الهجرى المقابل للخامس عشر الميلادى يكثرون من حملاتهم على سواحل المغرب الأقصى فى الشمال على الزقاق وفى الغرب على المحيط الأطلسى واستولوا على كثير من الموانى المغربية خلال هذا القرن ، وتمادوا يستولون على مدن فى القرن العاشر الهجرى كما أسلفنا ، وكانوا كلما استولوا على ميناء ازداد غضب الشعب وازدادت حميته اضطراما لمقاومة البرتغاليين وإخراجهم من أرض الوطن الغالى . وآلم الشعب دائما أن لا يجد عند الوطاسيين قوة يستطيعون بها إنقاذ البلاد ، وظل يبحث عمن يقوده لحرب البرتغاليين وإخراجهم من أرض الوطن ، وأخيرا عثروا على بغيتهم فى شخص من أصل حسنى شريف كان يقيم مع أسرته بالقرب من تارودنت على نهر السوس يسمى أبا عبد الله محمدا فأخذ الناس يبايعونه مستبشرين بنسبه الشريف . وحين تمت له البيعة تلقب بلقب القائم بأمر الله ، ونهض توا لجهاد البرتغاليين ونودى به سلطانا فى منطقة السوس سنة ٩١٥ هـ / ١٥٠٩ م وأخذ فى محاربة البرتغاليين ورافقه النصر عليهم مرارا وتوفى سنة ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م وخلفه ابنه أحمد الأعرج ، وتابع سياسة أبيه فى جهاد البرتغاليين واسترد منهم أغادير وماسة وسواحل السوس جميعها ، ودخل مراكش سنة ٩٣٠ هـ / ١٥٢٤ م وبايعه المسيطرون عليها من قبيلة هنتانة المصمودية واتخذها عاصمة ولم تكد طلائع جيشه ترى فى آسفى وآزمور بمنطقة دكالة حتى أخلاهما له البرتغاليون خوفا من القتل والسبى وفروا على وجوههم لا يلوون كما أخلوا مدينة أصيلا لضغط أهل منطقة الهبط عليهم ، وتوفى سنة ٩٤٦هـ/١٥٣٩م وخلفه أخوه محمد المهدى وطرد البرتغاليين من آسفى وآزمور بعد عودتهم إليهما واستولى على مكناس ثم على فاس سنة ٩٥٢ إذ حاصرها ودخلها واعتقل الوطاسيين وأرسل بهم إلى ترودنت فى السوس ، غير أن

---

(١) انظر فى دولة السعديين كتاب المغرب فى عهد الدولة السعدية لعبد الكريم كريم وكتاب تاريخ الدولة السعدية لمجهول تحقيق كولان طبع الرباط ومناهل الصفا فى أخبار الملوك الشرفا للفشتالى (تحقيق عبد الله كنون) والمغرب عبر التاريخ لإبراهيم حركات (طبع بيروت) وتاريخ الأسرة السعدية للأفرانى والمنتقى المقصور على مآثر الخليفة أبى العباس المنصور لأحمد بن القاضى (تحقيق محمد رزوق) طبع الرباط ، ولابن القاضى أيضا جذوة الاقتباس (طبع الرباط) وكتاب نشر المثانى لأهل القرن الحادى عشر والثانى (تحقيق محمد حجى وأحمد التوفيق) (طبع دار الغرب) والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى .

واحدا منهم هو بوحسون كان قد لجأ إلى الترك فى الجزائر واستعان بهم فى الاستيلاء على مدينة فاس فأعانوه واستولى عليها ونودى به سلطانا ، فحاصره محمد المهدى واستولى منه على فاس وقتله . وأدّى صنيع بوحسون بمحمد المهدى إلى تخلصه من الوطاسيين جميعا فى ترودنت وبذلك أصبح المغرب الأقصى جميعه خالصا له . وكان فقيها وعلى معرفة بالأدب ، وكان واسع الأفق فأحسن تدبير الدولة ونظم شئونها ، وجعل لها موارد من الضرائب على الزراعة والصناعات تُعين حكامها السعديين على مقاومة البرتغاليين ، وهو بذلك يعد المؤسس الحقيقى لدولة السعديين. ويقول خصومهم إن هذا اللقب دليل على أنهم ليسوا شرفاء من البيت النبوى ، إنما هم من بنى سعد بن بكر القبيلة القيسية التى شرفت بحليمة السعدية مرضعة الرسول ﷺ ، والصحيح أنهم علويون من سلالة الحسن بن على بن أبى طالب ، أما تلقيبهم بلقب السعديين فتعبير من المغاربة معاصريهم بأنهم سعدوا بهم ، كما يقول مؤرخهم الفشتالى فى كتابه مناهل الصفا ، وأى سعد كان ينتظره المغرب فى القرن العاشر الهجرى أكبر من سعده بهم فى تطهيرهم لسواحله من البرتغاليين ما عداه طنجة فى الشمال . وخلف محمدا المهدى ابنه عبد الله الملقب بالغالب بالله ، وظل يدافع البرتغاليين من جهة والترك فى الجزائر من جهة ثانية ، وكانت أيامه أيام أمن ورخاء كثر فيها البنيان والعمران وتوفى سنة ٩٨٢ هـ/١٥٧٤ م . وتولى بعده ابنه محمد الملقب بالمتوكل ، وكان لأبيه أخوان تغرَّبا فى الجزائر لدى الترك العثمانيين مدة ، وهما عبد الملك وأحمد ، وصمَّما أن لا يتنازلا عن صولجان الحكم والملك لابن أخيهما ، وكان عبد الملك شخصية نابهة ، وكان يحسن الإيطالية والإسبانية ، وسافر إلى الآستانة ، وأخذ يلح فى أن يرسل الترك معه جيشا للاستيلاء على فاس من يد ابن أخيه وعاد إلى الجزائر ، فأمده واليها بكتيبة من الجيش التركى استعان بها على استرجاع فاس ، وبمجرد دخوله فيها فرَّ ابن أخيه المتوكل وبايعه الناس وتلقب بالمعتصم سنة ٩٨٤ هـ/١٥٧٧ م .

وكان عبد الملك المعتصم يحسن تدبير الملك ، فنظم أمور الدولة ولم يلبث أن نظَّم الجيش على طريقة الجيش التركى وما يتّبع فيه من أساليب ، أما ابن أخيه محمد الذى لُقِّب بالمتوكل فإنه حاول عبثا أن يشاغب عمه فى منطقة السوس ، ولما أعياه ذلك لجأ إلى طنجة ، ولقى بها ملك البرتغال سباستيان ، فوضع يده فى يده معاهدا له على حرب عمه عبد الملك ، وانتهز الفرصة ملك البرتغال وجهز جيشًا قاده بنفسه ، يقال إن عدده بلغ ثمانين ألفا ، وانضمَّ إليه محمد المتوكل مع من أغواهم ، ونزل البرتغاليون فى ميناء أصيلا ، ورأى عبدالملك أن يطاولهم حتى يتوغلوا فى داخل البلاد ، وتغلغلوا إلى الجنوب حتى وصلوا إلى وادى المخازن بقرب مدينة القصر الكبير ، وتركهم حتى إذا عبروا جسر الوادى أمر بهدمه ، ثم لقيهم فى جمادى الأولى سنة ٩٨٦ هـ/١٥٧٨ م ودارت معركة حاسمة سحق فيها الجيش البرتغالى سحقا ذريعا وقُتل ملكه سباستيان ونصيره محمد المتوكل . وأثناء المعركة توفى عبد الملك المعتصم وفاة طبيعية

لأنه كان مريضا وصمم على أن يحضر المعركة، وكان أخوه أحمد هو الذى يدبِّرها، وكتم خبر وفاة أخيه عن الناس حتى لايعكر عليهم فرحتهم بهذه المعركة الفاصلة : معركة وادى المخازن التى أعطت البرتغاليين درسا أن لايفكروا مرة ثانية فى إنزال جيش لهم بالمغرب الأقصى، وأخذوا ينسحبون من المواقع التى استولوا عليها بشواطىء المحيط وأحيانا كانوا يتركونها لجارتهم إسبانيا .

وتولى بعده أخوه أحمد الذى اكتسب لنفسه فخرَ النصر المجيد فى معركة وادى المخازن ، إذ كان هو الذى أدارها ، وبايعه الناس مبتهجين به وتلقب بالمنصور ، وكان حاكمًا عظيمًا كبير الهمة بصيرا بشئون السياسة ، ومن أعماله إنشاء ما أسماه الديوان وهو مجلس شورى ينعقد كل يوم أربعاء من الأسبوع – ويضم بعض رجال الدولة وبعض الشخصيات – للنظر فى الشئون السياسية والمصالح العامة ، وأعاد تنظيم الجيش تنظيمًا جديدًا جامعًا فيه بين النظام المغربى والنظام التركى ، وكانت بعض أقاليم الصحراء فى الجنوب قد خرجت عن طاعته ، وخاصة إقليمى تُوَات وتيكورارين فأرسل إليهما جيشًا قويًا أعادهما إلى طاعته . وكانت مملكته تتاخم فى الجنوب أقطار السودان فانتشر فيها الحديث عنه ، ودخل ملك بُرْنو فى طاعته مما جعله يطمح للاستيلاء على السودان الغربى جميعه فأرسل إليه جيشًا ضخمًا فى نهاية القرن العاشر الهجرى واستطاع الاستيلاء عليه ، وبذلك امتد نفوذه جنوبا إلى أقاليم سودانية لم يصل إليها نفوذ المغرب فى أى عصر قبله . ووضع يده على منابع الثروة الضخمة فى هذه البلاد ، حتى كان الذهب يُجْبَى إليه منها بالأحمال ولذلك لقب بالمنصور الذهبى ، ويقال إن عدد من كانوا يضربون السكة أو العملة الذهبية فى عهده بلغ ألفا وأربعمائة . وهذا الغنى الطائل للدولة وتجارها وأهلها هيَّأ لها ازدهارا فى الحضارة وما يتصل بها من الصناعات وضروب الحياة ، وكثر حينئذ إنشاء القصور ومن أهمها قصر المنصور الذى سماه باسم البديع ، وقد استغرق بناؤه ثمانى سنوات ، وأنفق عليه أموالا طائلة . وتوفى سنة ١٠١٢ هـ/١٦٠٣ م .

وبعد وفاة المنصور تنازع أولاده الثلاثة : زيدان وأبو فارس ومحمد الملقب بالمأمون ، ونودى بزيدان سلطانا فى فاس وبأبى فارس سلطانا فى مراكش ، وتحاربا وانتصر أبو فارس ، غير أن أهل فاس فضلوا الخضوع للمأمون ، فنودى به سلطانا سنة ١٠١٣ هـ/١٦٠٤ م واغتيل أبو فارس ، وحدثت طامة كبرى بتنازل المأمون للإسبان عن مدينة العرائش على ساحل المحيط جنوبى منطقة الهبط سنة ١٠١٨ هـ/١٦١٠ م وبذلك عادت الاستعانة بالعدو الأجنبى ، ونشبت فتن واضطرابات ، ونودى بالابن الثالث للمنصور : زيدان سلطانا ، وظلت الاضطرابات وتوفى سنة ١٠٣٨ هـ/١٦٢٨ م وتنازع الملك أولاده الثلاثة عبد الملك والوليد ومحمد شيخ وتوفى الأخير سنة ١٠٦٥ هـ/١٦٥٤ م . وبوفاته ينتهى حكم هذه الأسرة ، وهو فى الواقع قد انتهى منذ تسليم المأمون ميناء العرائش للإسبان ، إذ اتسع نفوذ الطرق الصوفية وأصبحت هى التى

تدير الحكم فى أكثر أجزاء المغرب الأقصى .

(ب) الطرق[1] الصوفية

أخذت الطرق الصوفية تكثر فى المغرب الأقصى منذ القرن الثامن الهجرى ، مثله فى ذلك مثل بقية البلاد المغربية ، وأخذت تكثر معها الزوايا ، وعادة يكون بها ضريح لمؤسسها الصوفى أو لصوفى كبير ومصلًّى ومساكن لبعض العلماء والطلاب الغرباء ، وكان أهل اليسار يقفون على هذه الزوايا أوقافا كثيرة ، وتتلى فيها الأوراد وتقام الأذكار ، وقد تنعقد فيها بعض الدروس ، فتكون دارا للتعليم والوعظ والنسك . ولما فسدت الحياة السياسية فى أواخر عهد الدولة المرينية وَضُعف الحكام عن مواجهة أعداء الوطن البرتغاليين فى القرن التاسع الهجرى أخذ أهل المغرب الأقصى يلوذون ببعض أصحاب هذه الطرق آملين أن يجدوا عندهم الحمية للذود عن دار الإسلام وإنقاذ الوطن من هذا البلاء المستطير ، والتفَّ كثيرون منهم حول صوفى شاذلى صالح هو الشيخ محمد بن سليمان الجزولى صاحب كتاب دلائل الخيرات المتوفى سنة ٨٧٠ هـ/١٤٦٥ م متوسمين فيه أن يستجيب لهم ، واستجاب ، وتقدم مع جموع كثيرة من مريديه الصوفية وغيرهم يتصدى للبرتغاليين وينازلهم منازلة ضارية . وبذلك حوَّل الصوفية من جماعة تعيش للنسك وحده إلى جماعة مجاهدة فى سبيل الله تجاهد أعداء الدين والوطن من البرتغاليين النصارى ، وانتصر عليهم بمن آزروه من الصوفية وغيرهم مرارا ، غير أن خائنا اغتاله ، ليقف جهاده . ولم تلبث الدولة السعدية أن قامت واستطاع حكامها البواسل أن يستردوا كل ما أخذه البرتغاليون واستولوا عليه من موانى المحيط الأطلسى ومدنه كما أسلفنا وقد نازلوهم فى معركة وادى المخازن كما مر بنا ولم تلبث المعركة أن استحالت إلى ما يشبه مذبحة كبرى للبرتغاليين ، فرُدُّوا إلى صوابهم ولم يعد يمر بخاطرهم أن يستولوا على أى ميناء مغربى على المحيط ، بعد أن كادوا يستولون على الساحل جميعه بمدنه وموانيه . وخاب الأمل فى أبناء المنصور الثلاثة كما مر بنا فقد تنازعوا على العرش ، وتنازل أحدهم – وهو المأمون – لإسبانيا عن مدينة العرائش جنوبى منطقة الهبط ولم يلبث الإسبان أن أسسوا لهم فى العام التالى بالقرب من مصب نهر سبو فى المحيط مدينة سميت المعمورة واسمها الآن المهدية وتنازل لهم البرتغاليون عن سبتة وطنجة فى الشمال وكذلك عن الجديدة فى منطقة دكالة وأزمّور . وشقَّ ذلك على المغاربة . ولاذوا – من جديد – بالمتصوفة يأملون أن يرفع أحدهم لواء الجهاد للعدو الإسبانى فينضوا تحت لوائه ، واتسعت الفتن واتسع اضطراب الأمور ،وطمح كثيرون – حتى بين المتصوفة أصحاب الزوايا – أن يأخذوا بلادا أو أجزاء واسعة من الدولة التى توشك على

---

(١) انظر فى الطرق الصوفية ونشاطها السياسى ما كتبه الدكتور محمد حجى عن الزاوية الدلائية ودورها الدينى والعلمى والسياسى (طبع الدار البيضاء) والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للسخاوى ونشر المثانى لأهل القرن الحادى عشر والثانى للقادرى تحقيق محمد حجى وأحمد التوفيق (طبع دار الغرب) .

الاحتضار . ونكتفى بالحديث عن أحدهم وهو الشيخ محمد بن أبى بكر الدلائى مؤسس الزاوية الدلائية بتادلة سنة ٩٧٤ هـ/١٥٦٧ م وقد اتسعت حتى شملت مبانى كثيرة ، وتكاثر بها العلماء المدرسون والطلاب ، وقد ثار الشيخ محمد الحاج على الدولة السعدية فى جبال الأطلس الوسطى سنة ١٠٤٢ هـ/١٦٣٣ م وتبعه كثيرون من البربر واستولى على سلا سنة ١٠٤٥ هـ/١٦٣٦ م وزحف إلى مكناس وفاس سنة ١٠٥٠ هـ/١٦٤١ م وتملكهما وأقام الدولة الدلائية ، وقاومه محمد بن الشريف رأس الدولة التالية ، وسنتم فيها الحديث عنه ، وعلى شاكلته صوفية من زوايا أخرى ثاروا على السعديين . وخير منهم جميعا وأعظم الشيخ الصوفى المجاهد البطل أبو عبد الله محمد العياشى الذى لجأ إليه أهل منطقة الهبط ، فتصدّى للإسبان حتى خلّص منهم مدينة العرائش ، كما خلّص منهم مدينة آزمّور فى جنوبى تامسنة وخلّص منهم الجديدة سنة ١٠٤٩ هـ/١٦٣٩ م ، ومع هذه الأعمال المجيدة امتدت إليه يد آثمة سنة ١٠٥١ هـ/١٦٤٢ م فقتلت البطل المنعدم النظير . ومن أهم رجاله وأعوانه الخضر غيلان الذى أرسله إلى منطقة الهبط لجهاد أعداء الله ، واستطاع الاستيلاء على مدينة القصر الكبير سنة ١٠٦٣هـ/١٦٥٢م .

(جـ) العلويون[1]

هذه ثالث دولة علوية فى المغرب الأقصى بعد دولتى الأدارسة والسعديين ، ومؤسسوها مثل مؤسسى هاتين الدولتين من سلالة الحسن بن على بن أبى طالب ، وكانت أسرتهم تعيش من قديم فى منطقة سجلماسة ، وكان أهل المنطقة يرحبون بهم ويوسعون لهم فى العيش معهم لنسبهم الشريف . وعندما ثار أبو الحسن (بوحسون) السملالى فى مناطق الصحراء الجنوبية بالمغرب الأقصى واستولى على سجلماسة ودرعة والسوس أذعن له بالطاعة أبرز أفراد الأسرة حينئذ الشريف ابن على ولم يلبث ابنه محمد أن رفض هذه الطاعة ، وحاربه السملالى فأسره وظل فى أسره حتى افتكّه ابنه محمد المسمى باسمه . وعاد الأب فى سنة ١٠٥٠ هـ/١٦٤٠ م إلى حرب السملالى واستطاع هزيمته فى سجلماسة وتعقبه فى درعة وإقليم السوس حتى قضى على شره وشغبه . ولم يلبث الأب محمد بن الشريف أن هاجم محمدًا الحاج رئيس زاوية الدلاء ورجاله ، وكان مستوليا على فاس ومكناس وحوض نهر سبو ، واستطاع محمد الحاج هزيمته سنة ١٠٥٦ هـ/١٦٤٦ م وعقد بينهما صلح على أن تكون منطقة الصحراء (سجلماسة ودرعة) إلى جبل بنى عياش لمحمد بن الشريف ، وما يقع إلى الشمال من ذلك إلى حوض نهر أم الربيع إلى الغرب يكون لزاوية الدلاء ورئيسها محمد الحاج الدلائى . وحاول محمد بن الشريف

---

(١) انظر فى العلويين أو الدولة العلوية الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة لابن زيدان ونزهة الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى للأفرانى وتاريخ الدولة العلوية بالمغرب لكرول وكولان (طبع باريس) ونشر المثانى لأهل القرن الحادى عشر والثانى ، والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى .

الاستيلاء على تلمسان ، وسرعان ماردة الأتراك العثمانيون حكام الجزائر . وتوفى سنة ١٠٦٩ هـ/١٦٥٩ م وخلفه ابنه محمد ، وحدث شقاق بينه وبين أخيه الرشيد ، وتحاربا وتوفى محمد فى أثناء الحرب ، فخلص الأمر للرشيد وتمت بيعته سنة ١٠٧٥ هـ/١٦٦٥ م وكان قد تولى لابيه وأخيه على مكناس فاتخذها عاصمته واستولى على سجلماسة ، ولم يلبث أن استولى على فاس ومنطقتها فى سنة ١٠٧٦ هـ/١٦٦٦ م من يد محمد الحاج رئيس الزاوية الدلائية وحلفائه من أعراب الأثبج ، وفتح منطقى الهبط ونودى به سلطانا على المغرب جميعه فى السنة التالية . وصمم على هدم الزاوية الدلائية فى منطقة فازاز شرقى ممر تازا ودخلتها جنوده سنة ١٠٧٨ هـ/١٦٦٧ م وهدموها ولم يبقوا منها باقية ، واستسلم له محمد بن الحاج الدلائى فأرسل به مع أسرته إلى فاس حيث عاشوا فى رعايته ، وتلطف مع شيوخ الزاوية فأرسل بهم إلى معاهد فاس وغيرها ليزاولوا نشاطهم العلمى . واستولى سنة ١٠٧٩ هـ/١٦٦٨ م على مراكش من يد أعراب الشبانات ، ولم يلبث أن فتح مدينة ترودنت وبقية مدن السوس ، وأذعن بالطاعة له أعراب المغرب الأقصى جميعهم من الهلالية فى الشرق وقبائل حسان والمعقل فى منطقة درعة ، وأعلنت منطقة الريف فى الشمال طاعتها له ، ماعدا مليلة وسبتة اللتين كانتا قد استولى عليهما الإسبان ، وماعدا طنجة التى انتقلت إلى الإنجليز وبذلك أعاد الرشيد إلى المغرب الأقصى وحدته ، وهو يعد المؤسس الحقيقى لتلك الدولة العلوية .

وتوفى الرشيد سنة ١٠٨٢ هـ/١٦٧٢ م وخلفه أخوه إسماعيل وهو من أعظم سلاطين العلويين وطال حكمه نحو سبعة وخمسين عاما حتى سنة ١١٣٩ هـ/١٧٢٧ م وكانت سنوات رخاء وخير وبركة للمغرب الأقصى ، وقد مدَّ حدوده شرقى نهر المُلوية حتى مدينة وجدة ، وثبتت تلك الحدود إلى اليوم ، كما مدَّ حدوده جنوبا متوغلا فى بلاد السودان الغربى . وكوَّن للمغرب الأقصى جيشا ضخما من البربر والأعراب والسود وكان يأتى بهم من فتوحه فى السودان الغربى وحوض النِّيجر ، واتخذ لهم معسكرا يدربونَ فيه تدريبا عسكريا متقنا وبلغوا فى حياته مائة وخمسين ألفا ، ووزعهم على القلاع بجميع أنحاء المغرب الأقصى للحراسة وأمن الطرق . وعاشت البلاد لعهده فى رخاء وطمأنينة وأمان وسخت الأرض بالخيرات . وأخذ إسماعيل يستكمل عدته لمنازلة الأجانب المحتلين لشواطىء المغرب الأقصى فى الشمال والغرب ، وكانت كاترينا وارثة عرش البرتغال قدمت مدينة طنجة صداقا إلى زوجها شارل الثانى ملك إنجلترا سنة ١٠٧٢ هـ/١٦٦١ م فانتقلت طنجة من أيدى الإسبان إلى أيدى الإنجليز ، واستطاع طرد الإنجليز منها سنة ١٠٩٥ هـ/١٦٨٤ م كما استطاع طرد الإسبان من المعمورة (المهدية) شمالى مدينة سلا ، حتى إذا كانت سنة ١١٠١ هـ/١٦٨٩ م طردهم من مدينة العرائش ، وكان قد خلصها منهم العياشى ، وعادوا فاستولوا عليها ، ودق الشعب فى المغرب الأقصى الطبول ابتهاجا بعودتها ، إذ كان قد أعلن من أجلها الحداد ، واتخذ لذلك شعارا أن يلبس

أحذية سوداء فلما استردّها إسماعيل نزعوا تلك الأحذية من أقدامهم وعادوا إلى لبس نعالهم الصفراء المغربية . وفي سنة ١١٠٤ هـ/١٦٩٢ م طرد إسماعيل الإسبان من مدينتي أصيلا والعرائش ، وبذلك استرد للمغرب الأقصى ساحل المحيط جميعه وصدقت فراسة المغاربة للالتفاف حول أسرة علوية شريفة لإنقاذ المغرب الأقصى مما دهاه من كوارث مفجعة . وحاول السلطان إسماعيل فتح سبتة ومليلة وحاصر سبتة طويلا يريد أخذها من يد الإسبان ولكنهم ثبتوا فيها يعاونهم أسطولهم في البحر وقربها من ديارهم .

وتوفي – كما أسلفنا – سنة ١١٣٩ هـ/١٧٢٧ م وتلاه عهد اضطرابات وفتن لتنازع أبنائه على الحكم وتدخل الجيش وأخذ يختل الأمن وينتشر الفساد وتشيع الفوضى وتسوء حالة البلاد الاقتصادية واستمر ذلك نحو ثلاثين عاما إلى أن أنقذ البلاد حفيد للسلطان إسماعيل ، هو محمد بن عبدالله الذى خلف أباه سنة ١١٧١ هـ/١٧٥٧ م وكان قد أظهر في عهد أبيه قدرة سياسية حين عينه حاكما لمنطقتي مراكش وآسفي في دكالة ، ثم عينه قائدا فنظم الجيش وأقرّ الأمن في السوس ، وتابع بعد استيلائه على صولجان الحكم نشر الأمن في ربوع البلاد ، وتجوّل فيها متفقدا لشئونها وحصّن المدن الكبرى والثغور وشيّد بهما الأبراج والحصون وزوّدهما بالمدافع والقوات العسكرية لحفظ الأمن والنظام في أنحاء البلاد ، وعنى بالأسطول فأمدّه بكل ما يلزمه من عتاد حربي ، وأضاف إليه طائفة من السفن ، وأمر أن يواصل البحارة والجنود فيه تدريبات ومناورات منتظمة على المتوسط والزقاق والمحيط . وكان البرتغاليون قد نزلوا في ميناء الجديدة (المعمورة) شمالى سلا سنة ١١٨٢ هـ/١٧٦٩ م فطردهم منها وابتنى ميناء الصويرة في منطقة حاحة غربى مراكش . ووثق علاقات دولته بالدولة العثمانية وتبادل معها الهدايا تأكيدا للمودة .

وتوفي سنة ١٢٠٤ هـ/١٧٨٩ م وعادت البلاد إلى الاضطراب والفوضى في عهد ابنه اليزيد ولم يلبث أن توفي سنة ١٢٠٦هـ/١٧٩٢م وتولاها أخوه سليمان لنحو ثلاثين عاما ، ومُنى في أوائل عهده بحروب متصلة بينه وبين أخويه هشام ومسلمة ، وخرج منها بعد طول عناء ، ليظل بقية أيامه ينازل بربر الأطلس التلى أو الأطلس المتوسط ،وولى بعده ابن أخيه عبد الرحمن بن هشام حتى سنة ١٢٧٦ هـ/١٨٥٩ م وشغل بثورات داخلية واحتل تلمسان حين احتلت فرنسا الجزائر ، وهزم في موقعة إيسلى . وخلفه ابنه محمد حتى سنة ١٢٩٠ هـ/١٨٧٤ م وقضى على ثورة الجيلالى الزرهونى واحتلت إسبانيا تطوان ثم انسحبت منها بمقتضى معاهدة . وتلاه ابنه الحسن وهو من أهم سلاطين الدولة العلوية وقد نشر الأمن في ربوع البلاد ، وأخذ يفتحها على الغرب فأرسل البعوث إلى أوربا وأخذ يرقى بالبلاد حضاريا وفكريا ، وعهده الزاهر يعد – في رأينا – افتتاح العصر الحديث في المغرب الأقصى .

الفصل الثانى

المجتمع المغربى

١

عناصر السكان

البربر هم العنصر الأصيل الذى عاشت قبائله وبطونه وعشائره – منذ آماد سحيقه – فى المغرب وسواحله وسهوله وجباله وهضابه ووديانه من برقة إلى المحيط الأطلسى واختلف مؤرخو العرب ونسابة البربر فى الأصل الذى انحدروا منه اختلافات شتى استقصاها ابن خلدون فى الجزء السادس[1] من تاريخه ، فقيل إنهم ساميون من ولد عملاق بن لاوذ بن إرم بن سام ، وقيل بل من ولد إبراهيم عليه السلام ، وقيل هم ساميون حقا ولكنهم عرب يمنيون من ولد النعمان بن حمير بن سبأ ، وقيل من لخم وجذام وقيل بل هم مضريون من ولد بر بن قيس بن عيلان ، وقيل إنهم حاميون من مصرايم بن حام ، وقيل : بل من مازيغ بن كنعان بن حام . وكما اختلف المؤرخون والنسابة فى أصلهم اختلفوا فى موطنهم الأصلى وهجرتهم منه ، هل هو الجزيرة العربية أو اليمن أو الشام أو فلسطين ، واختلفوا فيمن أخرجهم منه ، قيل أخرجهم داود – بوحى نزل عليه – إلى ديار المغرب ، وقيل خرجوا بعد قتل داود لجالوت فارّين إلى إفريقيا ، وحاولوا النزول بمصر فمنعهم القبط فاتجهوا إلى برقة وما وراءها وانساحوا فى المغرب إلى المحيط ، وقيل بل الذى أخرجهم من الشام إلى إفريقيا يوشع بن نون ، وقيل : بل إفريقش أحد ملوك التبابعة اليمنيين ، وقيل إنه ارتحل معهم فى هجرتهم إلى المغرب حيان يمنيان : كتامة وصنهاجة . ويعلق ابن خلدون على كل هذه الأقوال وما يماثلها بقوله[1] : « إنها تكاد تكون من أحاديث الخرافة ، إذ مثل هذه الأمة (الضخمة) المشتملة على أمم وعوالم ملأت جانبا من الأرض لا تكون منتقلة من جانب آخر وقطر محصور (مثل الشام) . والبربر معروفون فى بلادهم وأقاليمهم متميزون بشعارهم من الأمم منذ الأحقاب المتطاولة قبل الإسلام فما الذى يحوجنا إلى التعلق بهذه الترهات فى شأن أوليتهم » . وابن خلدون محق فى عدّ كل تلك الأقاويل من باب الخرافة سواء فى ارتحال البربر من الشام أو غيرها إلى ديار المغرب أو فى محاولة التعرف على الأصل الذى نشأت منه وتناسلت ذريتهم . والذى يؤكده المنطق والواقع أن البربر نشأوا بالمغرب وليسوا منقولين إليه من آسيا ، وليسوا ساميين إنما هم إفريقيون حاميون مما جعل

(١) انظر تاريخ ابن خلدون ٨٩/٦ وما بعدها .

ابن خلدون يقول : « والحق الذى لا ينبغى التعويل على غيره فى شأن البربر أنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح .. وأن اسم أبيهم مازيغ بن كنعان » . ويقول ابن خلدون إن إفريقش – فيما يقال – هو الذى سماهم بالبربر لما سمع رطانتهم واختلاط أصواتهم . وأولى من ذلك ما يقال من أن الكلمة ترجع إلى أصل لاتينى هو Barbarus وهو عند الرومان من لا يُفْهَمُ كلامه ، وربما وجدوا الكلمة على لسان المغاربة أنفسهم فأخذوها عنهم ، إذ سموا بها أنفسهم وشعوبهم ، أماالقول بأن العرب هم الذين سموا بها الشعوب المغربية لعدم فهمهم لغتهم وأن من ذلك قولهم بربر الأسد إذا زأر بأصوات غير مفهومة فبعيد الاحتمال .

ويقول ابن خلدون إن شعوب البربر ترجع إلى مجموعتين ضخمتين هما شعوب البرانس وشعوب مادغيس الأبتر أو البُتر ، وتجمع شعوب البرانس عند النسابين عشرة شعوب أو قبائل كبرى هى مصمودة ، وصنهاجة ، وأوربة ، وعجيسة ، وكتامة ، وإزداجة ، وأوريغة ، ولمطة ، وهسكورة ، وجزولة . والقبائل التى اشتهرت منها بسكنى المغرب الأقصى هى مصمودة وكانت تسكن أربع مناطق هى : حاحة – السوس – مراكش – جزولة ، ومن بطونها غمارة وكانت تسكن منطقتى الريف والهبط وبرغواطة وكانت تسكن منطقتى تامسنة ودكالة . وصنهاجة ، ويقال إنها ثلث البربر وموطنها المغرب الأقصى والصحراء وراءه إلى السودان الغربى ، ومن بطونها لمتونة ومنها عشيرة يوسف بن تاشفين أمير المرابطين ، ومن بطونها أيضا بنو مزغنة منشئو مدينة الجزائر . وشعوب لمطة وهسكورة وجزولة كانت مواطنها جميعا المغرب الأقصى ، وكان للشعوب الأخرى بعض بطون فى المغرب مثل هوارة من أوريغة . أما شعوب البتر فأربعة : نفوسة فى طرابلس ، وإداسة وتختلط بطونها بهوارة ، وضريسة ، ولوا . ومن البطون الكبرى لهذه الشعوب من سكان المغرب الأقصى ورفجومة بأوراس ومضغرة ويسكُنون ما بين فاس وتلمسان ، ومكناسة على نهر ملوية من سجلماسة إلى مصبِّه ، ومغراوة فى فاس وسجلماسة وهى فرع من زناتة وكانت تسكن المغرب الأوسط وشطرا من المغرب الأقصى ومن بطونها يفرن وواسين ومنها بنومرين حكام المغرب الأقصى .

وظل البربر بعيدين عن الأمم القديمة لا يتصلون بهم أى اتصال حتى نزل بديارهم الفينيقيون فى القرن التاسع قبل الميلاد – وربما قبله أو بعده – وكانوا شعبًا ملاحيًّا يحترف التجارة ، وأخذوا يبحثون فى سواحل البلاد المغربية عن مواضع صالحة لرسوِّ سفنهم كى يتبادلوا السلع مع أهلها ونزلوا قرطاجة فى تونس ، وأخذوا يبحثون عن مواطن أخرى على طول الساحل فى الجزائر ثم فى المغرب الأقصى على البحر المتوسط والمحيط وأنشأوا عليهما مدنا فينيقية هى مليلة على المتوسط وطنجة وأصيلا على المحيط ، ولابد أن أثَّروا بحضارتهم الفينيقية فى تلك المدن وأنحائها المختلفة فى أثناء القرون المتصلة التى خالطوا فيها السكان المغاربة ، ولابد أن عرف المغاربة كثيرا من طرقهم فى الزراعة والصناعة وخاصة فى التعدين ، كما عرفوا أبجديتهم ولغتهم

وربما أتقنها منهم كثيرون . وتنشب منذ أواسط القرن الثالث قبل الميلاد حتى أواسط القرن الثانى حروب بين قرطاجة عاصمة الفينيقيين وروما ويكتب النصر لروما ، وتؤول إليها ديار المغرب بما فيها من المدن الفينيقية ، وتصبح مليلة وطنجة وأصيلا تابعة لهم ، وينشئون على ساحل البحر المتوسط بقرب الزقاق مدينة سَبْتة وتوغلوا على المحيط ، وأنشأوا لهم موقعا أو مدينة هى سَلا ، ومدينة ثانية أو موقعا هو أنفه (الدار البيضاء) ويتوغلون فى الداخل وينشئون مدينة وَليلى . وظلوا فى المغرب نحو ستة قرون إلا قليلا ، وطبيعى أن يؤثروا فيه بحضارتهم الرومانية وخاصة فى المدن التى كان لهم فيها جاليات ولما اعتنقوا الدين المسيحى حاولوا نشره فى البلاد المغربية وخاصة الساحلية . غير أن من دخلوا فيه من البربر – وخاصة فى المغرب الأقصى – كانوا قلة ، فقد ظلت جماهير المغرب وثنية . واكتسح الوندال ما ملكته روما من البلدان المغربية ، وكانوا شعبًا حربيا غير متحضر فلم يتركوا فيها أثرا ، وخلفهم البيزنطيون ، ولم يحاولوا نشر شيء من ثقافتهم ولا حضارتهم فى البلاد المغربية .

والعرب هم العنصر الثانى فى المغرب الأقصى بعد البربر ، وقد جاءوا إلى المغرب فى خلافتى عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان لا طلبا للاستيلاء على ما فيه من طيبات الأرض وثمارها وإنما طلبا لنشر دين الله حتى لا يعبد فى الأرض إله سواه وحتى تعم تعاليمه الداعية إلى العدل والمساواة بين الناس ، وأخذ ولاة القرن الأول الهجرى أنفسهم بتطبيق هذه التعاليم ، مما جعل المغاربة يدخلون فى الدين الحنيف أفواجا . حتى إذا تكاثر المسلمون منهم فى عهد واليهم حسان بن النعمان كوَّن منهم كتيبة عدادها اثنا عشر ألفا وولَّى على قبيلة جراوة فى الجزائر واليا منها . وهو رمز لما كان يأخذ به ولاة القرن الأول الهجرى فى المغرب من المساواة بين العرب والبربر فى الجهاد والحكم . ويتسع ذلك فى عهد خلفه موسى بن نصير ، إذ يولِّى على طنجة واليا بربريا هو طارق بن زياد ، ويعهد إليه بفتح الأندلس ، فيغزوها على رأس حملة أكثر جنودها من البربر ، ويلحق به على رأس حملة ثانية فيكمل الفتح معه . ويتقاسم شرف هذا الفتح عربى هو موسى بن نصير وبربرى هو طارق بن زياد ، وجيش مؤلف من العرب والبربر . وبذلك لم يعد فى ديار المغرب أى فارق بين عربى وبربرى ، غير أننا لا نكاد نمضى فى القرن الثانى الهجرى حتى تنكب البلاد العربية بخلفاء أمويين لا يحسنون تدبير الملك فيولون على ديار المغرب ولاة جبارين يظلمون أهلها فى الخراج وغير الخراج غير واعين لتعاليم الإسلام فى المساواة والعدالة بين المسلمين ، ويبلغ السفه والعته بوالى طنجة أن يصرِّح بأنه عازم على تخميس أراضى البربر زاعما زعما مخطئا أنها غنائم حرب . وتنادى كثيرون من المغاربة كيف الخلاص من هذا الظلم الفادح ، وسرعان ما أخذ دعاة الخوارج من الصفرية والإباضية يوضحون لهم أن الخلاص الحقيقى إنما هو فى اعتناق دعوتهما التى تسوِّيه بين المسلمين فى جميع الحقوق . واعتنق مذهب الصفرية فى المغرب الأقصى كثيرون وكوَّنوا جيشا استولى على

طنجة وقتل واليها ، ونازلته جيوش الدولة الأموية مرارا ، وكان النصر حليفه ، ومرَّ بنا – فى الفصل الماضى – أن قائدين صفريين هاجما القيروان سنة ١٢٤ هـ/٧٤١ م وباءا بهزيمة ساحقة . وفى سنة ١٣٨ هـ/٧٥٥ م هاجمت ورفجومة القيروان واستباحتها وخلَّصها منها أبو الخطاب عبد الأعلى إمام الإباضية فى طرابلس . وتدور الأعوام وتنشأ الدولة الإدريسية ، وتأخذ فى القضاء على الصفرية فى شمالى المغرب الأقصى وينسحبون إلى سجلماسة ودولة بنى مدرار . وأخذ إدريس الثانى (١٧٥ – ٢١٣ هـ) يستكثر من العرب فى حاشيته حتى بلغوا خمسمائة . وهى أول دولة عربية إسلامية تنشأ فى المغرب الأقصى وقد عملت على تحفيظ القرآن الكريم ونشر حلقات القراء والمحدثين والمفسرين والفقهاء فى جميع مدنها والعناية بتعليم المغاربة العربية . وجاءها كثيرون من فقهاء تونس والمشرق ولاذ بها أربعمائة أسرة من أسر الأندلس الفقهية ، وجُعلت عاصمتهاعدوتين : عدوة للمغاربة سمتها عدوة القرويين وعدوة للأندلسيين . ونمضى إلى منتصف القرن الخامس الهجرى وتحدث الهجرة الأعرابية الكبرى لبنى هلال وبنى سليم إلى ديار المغرب ، ويقال إنهم كانوانحو نصف مليون من الأعراب ، ويقال بل كانوا مليونا أو يزيدون ،ولم يكونوا طلاب حكم وملك ، ولذلك لم يقيموا لهم دولة فى المغرب ، إنما كانوا طلاب مواطن يقيمون فيها ، وانساحوا كسيلٍ عَرِم فىبرقة وطرابلس وإفريقية التونسية والجزائر ، وكأنما وجدوا فى كل ذلك ما يغنيهم عن الانسياح فى المغرب الأقصى واكتساحه .ولا يمضى على هذا الطوفان للهلاليين وبنى سليم نحو قرن حتى يستنجد أهل طرابلس وإفريقية التونسية بعبد المؤمن بن على سلطان الموحدين لاستيلاء النورمانديِّين بأساطيلهم على سواحل طرابلس وجزيرة جربة وميناء المهدية وغيرها من موانى إفريقية التونسية ورأى واجبا عليه أن ينقذ تلك البلدان وخرج بجيش ضخم إليهم وأخذ يستولى به على مدن الجزائر . وعلم وهو ببجاية أن القبائل الهلالية ، وهى الأثبج وزغبة ورياح وقرة تتجمع مع صنهاجة لحربه ، وأرسل إليها جيشا نازلها ثلاثة أيام وانتصر عليها فى اليوم الرابع وفر الأعراب تاركين وراءهم الأهل والمال ، فأمر بنقل النساء والأولاد إلى مراكش والعناية بهم . ولما أتم رحلته واسترد طرابلس والمهدية وغيرها من موانى إفريقية التونسية وعاد إلى عاصمته مراكش أمر أن يكتب إلى سادة بنى هلال أن نساءهم وأولادهم فى الحفظ والصيانة ، فوفدوا عليه وأكرمهم وردَّ عليهم نساءهم وأولادهم وأسبغ عليهم أموالا وافرة ، ونقل منهم إلى المغرب الأقصى ألفا من كل قبيلة بأسرهم ، ولما عزم على زيارة الأندلس سنة ٥٥٨ هـ/١١٦٣ م دعا عرب بجاية إلى العبور معه للأندلس للجهاد برسالة تلتهب حماسة ختمها بأبيات من نظمه استهلها بقوله :

أقيموا إلى العَلْيــاء هُوجَ الرَّواحلِ ... وقــودوا إلى الهيجــاء جُرْدَ الصَّواهلِ

واستجاب له جمع ضخم كما يقول صاحب المعجب[1] فأنزل طائفة بنواحي قرطبة وطائفة بنواحي إشبيلية ، وأقاموا هنالك . وفي سنة ٥٧٧ هـ/١١٨٢ م وفَد على الخليفة بعده ابنه يوسف حشدٌ كبير من قبيلة رياح وضعوا أنفسهم تحت تصرُّفه وعبر كثيرون منهم معه إلى الأندلس . ولما خرج ابنه يعقوب المنصور لاسترجاع قفصة وقابس واستعادهما خرجت عليه في هذه الأثناء بقايا من قبائل رياح الهلاليه وأخواتها من قبائل جُشَم والأثبج ، فردهم إلى طاعته ، ولاذوا بدعوته ، فأمر بنقلهم إلى المغرب الأقصى لكفِّ عدوانهم عن المغرب الأوسط ، وصدعوا لأمره ، فأنزل بني رياح في مناطق الهبط وأزغار وفاس مما يلي سواحل طنجة إلى سلا ، وأنزل بني جشم في تامسنة وما وراءها من الأراضي ، وأنزل الأثبج في منطقتي دكّالة وتادلة . ويبدو أن بطون بعض هذه القبائل تحركت من منازلها بعد عصر الموحدين إلى منازل جديدة استقرت فيها إذ يذكر الحسن[2] الوزان في القرن العاشر الهجري أن بعض فروع رياح سكنوا منطقة دكالة وضواحي مينائها آسفي على المحيط وأن فروعا أخرى سكنت منطقة حاحة وسهولها ، كما يذكر أن فرع المنتفق من أثبج تحول شمالا وسكن أزغار ، وأن فرع صبيح منها تحرك جنوبا وسكن السهول الواقعة بين سلا ومكناس . ويقول إن يعقوب فتح لعامة العرب نوميديا أي الصحراء في جنوبي الجزائر متداخلة مع شطر من الصحراء في المغرب الأقصى ، ولعل ذلك ما جعل بعض بطون القبائل العربية أو الأعرابية في نوميديا ينزح إلى موريتانيا الشرقية ويتغلغل إلى وادي ملوية شمالا ووادي أو نهر درعة جنوبا . ومن أهم هذه القبائل المعقل ، يقول ابن خلدون : « هذا القبيل لهذا العهد (في القرن الثامن الهجري) من أوفر قبائل العرب ، ومواطنهم بقفار المغرب الأقصى وينتهون إلى البحر المحيط من الغرب » وبطونهم كثيرة ، وتستولي على ملوية كلها إلى سجلماسة ، وتصعد إلى ممر تازا وأنحاء تادله وتلال مكناسة ، واستولت على السوس الأقصى وانتجعت في الرمال إلى مواطن الملثمين[3] ، ونلتقي بسليم قرب وادي درعة ، وتشتغل بالتجارة[4] وتذهب مع سلعها في قوافل إلى تمبكتو ، وأهلها أثرياء ولهم أملاك وأراض زراعية كثيرة في درعة . وكل القبائل التي ذكرناها أخذت بطونها تمتزج بأهل المغرب الأقصى بحيث أصبح عربيا دينا ولغة .

والعنصر الثالث في المغرب الأقصى هو الأندلسيون الذين أخذوا في الهجرة إليه منذ عهد الحكم الربضي في أواخر القرن الثاني الهجري وأوائل الثالث إذ أوقع بفقهاء قرطبة وقعة الربض المشهورة وأمر بطردهم من الأندلس ، وكانوا مع من اشتركوا معهم في الوقعة ألوفا ، وذهب

(١) انظر في استنفار عبدالمؤمن للأعراب المعجب ص ٢٩٤ وانظر في استنفار يوسف ويعقوب لهم وإسكان يعقوب لقبائلهم المغرب الأقصى ابن خلدون ٢٠/٦ ، ٢١ ، ٢٤.

(٢) انظر كتابه وصف إفريقيا ص ٥٦ وما بعدها .

(٣) راجع ابن خلدون ٥٨/٦ .

(٤) وصف إفريقيا ص ٦٢ .

كثيرون منهم إلى الإسكندرية ثم تركوها إلى جزيرة كريت وانتزعوها من أيدى البيزنطيين وأنشأوا فيها دولة إسلامية سنة ٢١٢ هـ/٨٢٧ م ظلت بها أكثر من قرن إلى أن استعادها البيزنطيون سنة ٣٥٠ هـ/٩٦١ م وحشدٌ كبير اتجه إلى فاس فى المغرب الأقصى وكان إدريس الثانى ينيها فجعلها عدوتين : عُدْوة للمغاربة وعُدْوة للأندلسيين ، ويقال إنه نزلها منهم أربعمائة أسرة سوى من نزلوا فى بلاد المغرب الأقصى الأخرى . ونمضى إلى القرن السابع الهجرى فتسقط – كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع – قرطبة وبلنسية ودانية وإشبيلية فى حجر الإسبان ، ثم تسقط مرسية ، وتهاجر منها جميعا إلى المغرب الأقصى أفواج من الأندلسيين باحثة لها عن موطن جديد فى فاس وفى غير فاس ، ويرحب بهم المغاربة ويفسحون لهم فى أسباب العيش . وأخذت هذه الهجرة الأندلسية تتسع بعد سقوط غرناطة سنة ٨٩٧ هـ/١٤٩٢ م وخروج العرب من الجزيرة الأندلسية فإن كثيرين منهم نزلوا المغرب الأقصى واتخذوه وطنا ثانيا لهم ، حتى إذا اتخذ فيليب الثالث ملك إسبانيا سنة ١٠١٨ هـ/١٦٠٩ م قرارا بطرد كل المسلمين من إسبانيا التجأت منهم أفواج كثيرة إلى المغرب الأقصى متخذة منه شاطىء نجاة ، ورحب بهم المغاربة كما رحبوا – من قديم – بمن نزل بينهم لعهد الحكم الربضى ثم لعهد سقوط المدن الكبرى فى القرن السابع الهجرى ، ثم لعهد سقوط غرناطة . ودائما كان الحضريون من الأندلسيين فقهاء وعلماء وأصحاب صناعات ينزلون المدن ويستقرون فيها وكان الفلاحون والزراع منهم ينزلون سهول المغرب الأقصى ووديانه وتلاله ، وارتقوا فيه بطرق الرى والزراعة والغرس التى ألفوها فى الأندلس سواء فى السهول والوديان أو فى التلال أو فى مرتفعات الجبال، واختار كثيرون منهم – منذ سقوط غرناطة – منطقتى الريف والهبط فى الشمال . وتحول غير قليلين منهم إلى قراصنة يغيرون على سفن إسبانيا وشواطئها والسفن الأوربية انتقاما من إخراجهم كرها من وطنهم الأندلسى . وكانت هذه الأفواج الأندلسية أكثر حضارة وثقافة من المغاربة ، فأفادوا منهم حضاريا وثقافيا فوائد كثيرة بجانب الفوائد المادية والاقتصادية من الحرف والصناعات وأساليب الزراعة ، وبمرور الزمن اندمجوا فى الشعب المغربى اندماجا تاما.

والعنصر الرابع اليهود وكان أول نزول لهم فى المغرب بالقرن الثالث ق .م على عهد الفينيقيين وكثر نزولهم فيه بعد تحطيم القيصر تيتوس لمعبد بيت المقدس سنة ٧٠ للميلاد ويبدو أنهم اختلطوا بالبربر إذ حاولوا نشر دينهم فيهم واعتنقه بعض البربر ، ولابد أن دخل منهم كثيرون المغرب الأقصى فى أثناءالمدّ الفينيقى والرومانى ، وظلوا بالمغرب بعد الفتح الإسلامى ناعمين بما يعطيه الإسلام لأهل الذمة : اليهود والنصارى من الحرية فى إقامة شعائرهم مع المعاملة الحسنة ، وربما نزح إليهم فى العهود الإسلامية يهود من فلسطين ، حتى إذا سقطت غرناطة أخذينزح إلى المغرب عامة والمغرب الأقصى خاصة يهود كثيرون ممن كان يضطهدهم نصارى الإسبان كما اضطهدوا المسلمين ، وشملهم قرارفيليب الثالث المار ذكره بطردهم من إسبانيا مثل

المسلمين ،ولاحقوهم بأنواع من التعذيب الشديد ، فالتجأ كثيرون منهم إلىالمغرب الأقصى وانتشروا فى مدنه وقراه من تخوم البحر المتوسط والمحيط إلى تخوم الصحراء . وفى كتاب وصف إفريقيا وحديث الحسن الوزان فيه عن المدن ما يصور مدى انتشارهم بعد سقوط غرناطة إذ يذكر أن فى مدينة بادس على البحر المتوسط شارع طويل يسكنه اليهود يباع فيه الخمر ، ويقول الوزان إن لهم فى منطقة حاحةبمدينة تدنست مائة بيت يهودى وبمدينة آيت دوّاد كثير من الصناع اليهود يمارسون الحدادة وصنع الأحذية والصباغة والصياغة ، وفىدرعة وسجلماسة كثير من صناعهم وتجارهم . ويقول الوزان لهم فى تازه خمسمائة بيت ويعنون بصناعة الخمور من كروم البساتين فيها والمزارع . ويبدو أنهم كانوا كثيرين فى فاس منذ القرن الثامن الهجرى ، إذ يذكر الحسن الوزان فى حديثه عن فاس أنهم كانوا يسكنون فى فاس القديمة ونقلهم السلطان المرينى أبو سعيد عثمان الذى تولى الدولة بين سنتى ٨٠١هـ/١٣٩٨م و ٨٢٥هـ/١٤٢١م إلى مدينة فاس الجديدة التى بناها مؤسس دولة بنى مرين سنة ٦٧٤ هـ/١٢٧٦ م وهم يشغلون فيها – كما يقول – شارعا طويلا جدا وعريضا للغاية حيث تقع دكاكينهم وكنائسهم أو معابدهم ، ويذكر أن عددهم تزايد زيادة كبيرة حتى لم يعد من الممكن معرفة عددهم ، كما يذكر أن معظم الصاغة منهم . وإذا كان الوزان يلاحظ ازديادهم المفرط فى زمنه لأوائل القرن العاشر الهجرى بعد سقوط غرناطة فلابد أن أعدادهم فى فاس والمغرب الأقصى تضاعفت بعد طرد فيليب الثالث لهم من إسبانيا فى القرن الحادى عشر الهجرى ونراهم – منذ الدولة المرينية – يحاولون أن يكون لهم شيء من النفوذ عند بعض حكامها ، وبلغوا من ذلك أن اتخذ آخر سلاطينها عبد الحق وزيرا منهم يسمى هرون فثارت عليه العامة ومعهم الفقهاء والخطباء ، وعادوا فى الدولة السعدية يتصلون بحكامها ، ونجحوا فى أن تتخذ منهم سفراء إلى أوربا وبعض من يمثلونها فى الصفقات التجارية الكبرى . ولابد أن نذكر أن المغاربة لم يلتحموا بهذا العنصر أى التحام ، فقد كان عنصرا دخيلا عليهم لغة ودينا ويقول الوزان فى حديثه عنهم بفاس إنهم كانوا محتقرين من كل الناس .

أما النصارى فلم يكونوا يوما عنصرا من عناصر السكان فى المغرب الأقصى إذ كانوا دائما وافدين عليه ، وفدوا أيام الدولتين الرومانية والبيزنطية ، ويبدو أنه كانت لهم جاليات فى مدينة سبتة وغيرها ، يدل على ذلك من بعض الوجوه قول الوزان فى حديثه عن فاس : « نجد بعض أسماء الأعياد التى اعتاد النصارى الاحتفال بها والتى لا يزال الناس يعملون بها اليوم (فى زمنه) ولا يدرى أحدشيئا عن سبب التمسك بهذه الأعياد ، ففى كل مدينة مغربية يُحْتَفل ببعض الأعياد والعادات التى خلفها النصارى منذ الزمن الذى كانوا يحكمون فيه إفريقيا ، يريد زمن الدولتين الرومانية والبيزنطية .ويدخل المغرب الأقصى فى الإسلام ويجلو عنه نصارى الدولتين إلا قليلا . ونمضى إلى عصر الموحدين فيذكر الحسن الوزان فىحديثه عن مراكش أن

المنصور الموحدى بنى فى القصبة قصرا للحرس من الرماة النصارى ، وكان عددهم عادة خمسمائة ، وكانوا يسيرون أمام موكب الخليفة حين ينتقل من مكان إلى مكان . وبعد خروج العرب من الأندلس نقل الإسبان والبرتغاليون الحرب الصليبية إلى سواحل البحر المتوسط والمحيط ، وكانوا يظلون فيها - كما أسلفنا - سنوات تطول أو تقصر ، ثم يغادرونها قسرا أو جبرا ، وقد يستولون منهم على مئات يستخدمونهم عبيدا أو رقيقا ويكلفونهم بمختلف الأعمال من أبنية وتحصينات وغير تحصينات على نحو ما مرَّ بنا من صنيع بطل تطوان فى ثلاثة آلاف أسير منهم كان ينهكهم فى أعمل التحصينات . وأخذ كثيرون من المسلمين المنفيين عن الأندلس بعد سقوط غرناطة وقرار فيليب الثالث المار يشتغلون بالقرصنة فى عرض البحر المتوسط وعلى سواحل إسبانيا انتقاما من ملوكها وكانوا يجلبون كثيرا من رقيق النصارى فى قرصنتهم ويستحيلون عبيدا ، وكان كثير منهم يسلم ، فينتهى رقه ويستحيل مسلما مواطنا .

٢

المعيشة

مر بنا فى الحديث عن جغرافية المغرب الأقصى أن أراضيه خصبة ، ومن قديم كان أهله يعيشون على الزراعة ورعى الأنعام ، وإذا أخذنا نسير فيه من الشمال إلى الغرب على المحيط وبدأنا بمنطقة الهبط وجدناها وافرة الإنتاج من الحبوب ومختلف الثمار من الفواكه وخاصة البرتقال والكرز . وتليها منطقة أزغار ، وبها كثير من الحبوب والأقوات ، ويزرع بها القطن ، وبها كثير من الماشية والخيل والغزلان وأنواع ممتازة من الفواكه . وتجاورها منطقة فاس ، ويقول الحسن الوزان بحديثه عنها : فى القسم الجنوبى من المدينة كثير من الحدائق المليئة بأشجار مثمرة متنوعة وممتازة مثل أشجار البرتقال والليمون والأترج والزهور الجميلة من بينها الياسمين والورود والرتم الذى استورده الأندلسيون من أوربا . وتحفل البساتين بقصور جميلة وبرك ماء وحنفيات ، وتحاط البرك بالياسمين وبالورود وبأشجار البرتقال ، وعندما يمر الإنسان فى فصل الربيع بجوار هذه الرياض يشم أعطر شذى ينبعث من كل جانب ، ولا يكاد يشبع نظر الإنسان من متعة جمالها وملاحتها ، وتشبه كل روضة من هذه الرياض جنة أرضية . وكان من عادة الوجهاء الإقامة فيها ابتداء من مطلع شهر نيسان (أبريل) حتى آخر أيلول (سبتمبر) . ويقول الوزان عن زروعها فى الشمال والشرق والجنوب : بها مزارع جميلة مليئة بالأشجار المثمرة من كل صنف ، وتخترق هذه المزارع بعض تفرعات النهر ، ولكثرة الأشجار يخيَّل للناظر إليها من بعد أنها غابة حقيقية ، وتنتج منها الثمار بوفرة ، وثمارها من نوع جيد ، ويقدر ما يباع فى اليوم بكل موسم خمسمائة حمل من الثمار فيما عدا العنب الذى لا يدخل فى هذا

الرقم . وإلى الغرب من فاس أرض واسعة عرضها خمسة عشر ميلا وطولها ثلاثون تكثر فيها العيون والجداول وهي خاصة بالجامع الكبير (جامع القرويين) ويزرع فيها الكتان والبطيخ والقرع والخيار والجزر واللفت والقنّبيط وسوى ذلك من الخضر ، وتنتج هذه الأرض مقادير كبيرة ، وحتى لتقدر كمية إنتاجها بخمسة عشر ألف حمل في الصيف ومثلها في الشتاء . وتوجد في حضيض الجبال أشجار الزيتون والفواكه والأعناب وهي شديدة الحلاوة . ومن مدن منطقة فاس مكناس ، ويقول عنها الوزان إنها تقع في سهل بديع وعلى مسافة ثلاثة أميال منها مزارع أشجار عديدة ثمارها ممتازة ولاسيما السفرجل وثماره فخمة جدا وزكية الرائحة ، وكذلك ثمار الرمان التي تبدو عجيبة في حجمها ونوعهالأنها تخلو تماما من البذور ، والخوخ الأبيض والأخضر إنتاجهماغزير جدا ، ويُجْنَى العنّاب بمقادير وفيرة ، ويوجد الكثير من التين وعنب التكعيبات ، وتجنى مقادير كبيرة من المشمش والخوخ ومقادير لا تحصى من الزيتون ، والأراضي المحيطة بالمدينة خصبة جدا ، وتنتج كمية كبيرة من الكتان . وتنمو ببعض الأنحاء أشجار التوت وينتفع بها لتغذية دود القز . وأراضي منطقة تامسنة صالحة لزراعة كل أنواع الحبوب والبقول ، وبها كثير من البساتين . وتنتج الكثير من العنب والكرز والشمام ويزرع بها القطن بمقادير وفيرة ، وينمو بها نوع من البلوط ثماره حلوة . ومنطقة دكالة كمنطقة تامسنة خصبة ، وتنتج كميات وافرة من القمح والعسل والزيتون وبعض الفواكه مثل التين وبها كثير من الأبقار . وبجوارها منطقة حاحة ، وتنتج القمح والذرة البيضاء والشعير ، ويكثر فيها التين والدراق ، وإنتاج العسل بها وافر جدا ، وبها الكثير من المعز وقليل من الضأن والبقر والخيل . وتليها إلى الداخل منطقة مراكش وسط سهل خصب ، وكان في المدينة (عاصمة المرابطين والموحدين) بستان جميل واسع جدا مليء بكل أنواع الأشجار والزهور ، كما يقول الوزان ، وكان به حوض ماء مربع من المرمر في وسطه عمود يحمل أسدًا من رخام منحوتا نحتا دقيقا يتدفق من فمه ماء صاف غزير ، وفي كل زاوية من زوايا الحوض الأربع فهد من رخام أبيض منقوش ببقع خضراء مستديرة . وبالقرب من البستان كانت توجد حديقة للحيوان تضم العديد من الحيوانات الوحشية كالزرافات والفيلة والأسود والتيوس الجبلية . وكان للأسود خاصة حديقة حيوان منفصلة عن بقية الحيوانات الأخرى . ومنطقة هذه المدينة تكتظ بالكثير من المياه والأنهار والعيون ، ولذلك تنتج القمح والحبوب بمقادير وافرة وتكتظ بالبساتين وثمارها كالعنب والتين والتفاح والكمثرى ، وبها كثرة من المعز والأنعام ، ويزرع بها الكتان والقنب ، وينمو في سفوح الجبال السفرجل وأشجار الزيتون والجوز ، وجنوبي حاحة على المحيط منطقة السوس ، ويكثر في أنحائها إنتاج القمح والشعير وقصب السكر كما يكثر النخيل والتمر والتين والعنب ، كما تكثر النيلة . والماشية — وخاصة في بعض الأنحاء — وافرة جدا وبالتالي يكثر فيها الصوف . ونصعد إلى الشمال على البحر المتوسط في أقصى الشرق إقليم غارت وتكثر فيه

الكروم والعسل والمعز والأغنام ، ولذلك يكثر فيه الصوف ، كما تكثر في بعض الأنحاء – مثل أزغار على المحيط – أشجار التوت وما يتغذى عليها من دود القز . وبجوار منطقة غارت إلى الغرب منطقة الريف على البحر المتوسط وتكثر فيها الفواكه وخاصة البرتقال والعنب والسفرجل والليمون ، كما يكثر العسل وأشجار الزيتون . وجنوبي غارت منطقة الحوز وتنتج القمح والشعير والذرة وكميات وافرة من الكروم والدراق والتين والسفرجل المعطر والليمون وأيضا من الكتان والقنب ، وتكثر أشجار التوت في بعض المناطق ويتغذى عليها دود القز ، وبها كثير من الماشية وخاصة المعز والخيول والبغال . وجنوبي الحوز منطقة تادلة وتكثر بها بساتين الكروم والتين وأشجار الجوز والزيتون الباسقة ، وتتكاثر فيها الأنعام والماشية والأغنام ولذلك إنتاج الصوف فيها وافر جدا وسفوح الجبال جيدة لرعي الماشية وإنتاج الشعير . وشرقي منطقة مراكش منطقة هسكورة وتكثر بها أشجار النخيل والزيتون والجوز والنيلة وبساتين الفاكهة الجيدة : مشمش وغير مشمش وخاصة الكروم وتنتج عنبا أحمر كبير الحجم كبيض الدجاج ، ويكثر فيها العسل ، ومن عسلها نوع أبيض كاللبن وهو ممتاز ونوع أصفر كالذهب ، كما يكثر فيها الزيت وطعمه طيب . ويكثر الغنم والمعز ، ويقول الوزان : لبعض أغنيائهم مائة ألف رأس من الغنم والمعز ، ويبيعون صوفها ويتركون للرعاة الحليب والجبن . وشرقي السوس منطقة جزولة وتنتج كميات وافرة من الشعير وبها مراع واسعة هيأت لوفرة من الماشية والأنعام والأغنام . وإلى الجنوب الشرقي منها منطقة درعة ، وشماليها على نهر زيز سجلماسة ، والمنطقتان تهتمان بتربية المعز والأغنام وتنتجان كميات وافرة من التمر لكثرة ما بهما من النخيل ، وللتمر فيهما أنواع كثيرة فاخرة ، وكانت تنمو بهما الكروم والدراق .

ومن وجوه العيش والكسب في المغرب الصيد على سواحل البحر المتوسط والمحيط والأنهار ، ولا يكاد الوزان يترك مدينة كبرى أو صغرى على البحر المتوسط إلا يذكر أن بها صيادين أو أن أهلها جميعا صيادون ، من ذلك ما يذكره عن أهل ميناء بادس من أن صياديها يحرصون على أن يحصلوا على كميات كبيرة من السردين وأسماك أخرى ، وعادة يحتاجون لمساعدة بعض الأشخاص لهم في سحب الشباك ، ويتركون لهم وللأشخاص الذين يوجدون هناك قسما طيبا من السمك الذي يصيدونه . ويقول عن أهل مدينة صغيرة تسمى تاغسّة إنهم صيادون وملاّحون . ولابد أن كان كثير من سكان الريف والهبط يحترفون القرصنة زمن ازدهارها في المغرب الأقصى بالقرون التاسع والعاشر والحادي عشر ، وكانت كثرة القراصنة من الأندلسيين الذين اضطهدهم ملوك الإسبان واضطروهم إلى الخروج من موطنهم في الأندلس . وضعفت القرصنة بعد ذلك وظل صيد السمك غالبا على منطقة الريف ، وكان يزاوله بعض السكان على المحيط ، كما كانوا يزاولونه في بعض الأنهار والبحيرات ، وأهم نهر كانوا ينزلون للصيد فيه نهر أم الربيع عند مصبه قرب مدينة آزمّور بمنطقة دكالة ، وكان يكثر في مياهه نوع من السمك

يسمى – كما يقول الوزان – الألوز وكان موسم صيده يبدأ في تشرين الأول (أكتوبر) وينتهي في أواخر نيسان (أبريل) ويقول الوزان إنه كان يحوى من الدهن أكثر مما يحوى من اللحم . أما البحيرات فنمثل لها ببحيرة كانت بمنطقة دكَّالة أيضا في حضن الجبل الأخضر ، وكانت تحوى كمية كبيرة من الأسماك مثل سمك الحنكليس ، وسمك الشبوط وأسماكا أخرى ، وكلها ممتازة للغاية ، ويقول الوزان إن أحدًا لم يكن يصيد بها وإن السلطان محمد بن محمد البرتغالي توقف بجوارها ثمانية أيام وأمر بالصيد فيها . وكما كانوا يجلبون صيد البحر كانوا يجلبون صيد البر بواسطة الأشراك ، وخاصة في منطقة درعة حيث كانوا يصيدون الحيوانات الوحشية مثل النعام والوعول ويسمونها اللمت والبقر الوحشي ويسمونه ودَّان .

ومنذ القدم يعني المغرب الأقصى بالصناعات اليدوية كالحدادة والنجارة واستخراج المعادن وتصنيعها وبخاصة الحديد ، وتنتشر مناجمه في مناطق كثيرة ، وبخاصة في منطقة غارت بالشمال ، فالوزان يقول إن مليلة كانت تنتج كمية كبيرة من الحديد ، وإن في جميع الجبال المجاورة لجبل مدينة آمجَّاو مناجم حديد ، ويسكن المشتغلون بشئون هذه المناجم كثيرا من الدساكر والقرى في المنطقة ، ويقول عن جبل بني سعيد : تستخرج من الأرض كمية كبيرة من الحديد ، ولكل رئيس من رؤساء المشتغلين بالمنجم وشئونه بيته بجوار المنجم ومصنعه الذى يصفِّي فيه الحديد ، وينقل الحديد إلى فاس على شكل سبائك ، وما لا يمكن بيعه يستخدم لصناعة أدوات من نوع الفئوس والمناجل والبلطات التي يقطع بها الخشب . وفي منطقة الحوز بجبل بني يستيتن عدة مناجم حديد على سفحه ، ويصنِّع الحديد ، وتعمل منه سبائك تُحْذَى بها الخيل ، ونفس السبائك تستعمل نقودا ، ويجني هؤلاء الجبليون من هذا الحديد دخلا كبيرا لأنهم يبيعون منه كمية كبيرة . ولكثرة الحديد في المنطقة استطاع سكان جبل بني يازغة صنع ما يشبه « تلفريك » للعبور من ضفة نهر إلى أخرى ، وسنصفه في موضع آخر . وفي منطقة جزولة عدة مناجم للحديد والنحاس ويصنعون من النحاس أوعية عديدة يحملونها إلى مختلف الأنحاء . ويكثر صناع آنية النحاس بأفران في منطقة درعة لأنها من السلع التي يحملونها إلى السودان ، وفيها عمال مهرة جدا في الصناعات كصنع الشمعدانات والصحاف والمحابر والأشياء الأخرى ، وجميعها تباع كما لو كانت من فضة . ونعود إلى منطقة الحوز ففي بلدة مزدغة تربة صلصالية يصنعون منها عددا لا يحصى من الأواني الخزفية ويبيعونها في فاس وبسهل سهب المرجة الذى يبلغ حوالى ثلاثين ميلا عرضا وأربعين ميلا طولا بين جبال الأطلس المحاطة بغابات ضخمة ينتج الفحامون هناك مائة حمل من الفحم ، ونلتقي بمثل هذا الفحم في مدينة العرائش . وفي قصر المزاليق بسجلماسة منجم للرصاص وآخر للإثمد (الكحل) وتلقاه في مدن كثيرة صناعة الشمع لكثرة إنتاج العسل في غير بلدة ، ومعاصر الزيت لكثرة أشجار الزيتون في معظم أنحاء البلاد ، وبالمثل دباغة الجلود ، وتوجد أشجار النيلة في أماكن مختلفة

وخاصة السوس وهسكورة ، وكان يصنع الصابون فى بلدان متعددة وخاصة فى منطقة الريف ، وفى أماكن مختلفة وخاصة فى منطقة الهبط خشب البقص فى جبل بنى واغرافت وتصنع منه الأمشاط فى فاس وسلا . وفى بعض المناطق تكثر أشجار التوت لتغذية دود القز ، كما فى مكناس وأزغار بمنطقة الحوز ، ويجمع منه الحرير . وفى منطقة الريف يشيع تمليح السردين إعدادًا لبيعه ، كما يشيع فيها وفى المغرب قطع الأشجار الضخمة وإعدادها للتصدير أعمدة وألواحا ، وبجانب ذلك يشيع صنع القوارب والطرّادات فى هذه المنطقة ومنطقتى الهبط وأزغار وكان لهما فى ميناء بادس دار صناعة . وفى كل مدينة نجد الإسكافيين أو الحذائين والدباغين والسراجين .

وفى مدن كثيرة تنسج الملابس ، ينسجها عادة النساء ، وحيث تكثر زراعة القطن تكثر الأقمشة القطنية كما فى أزغار وتامسنة وسلا ، وحيث تكثر الأغنام والمعز يكثر الصوف كما فى منطقة السوس ، وتشتهر بنسيج نوع ناعم من الصوف كالجوخ وبالأقمشة الصوفية . وأيضا حيث تكثر زراعة الكتان تكثر الأقمشة الكتانية كما فى السوس أيضا ، وبالمثل تجنى منطقة الحوز من الكتان كمية كبيرة ، ولذلك يحيك السكان - وخاصة فى جبل مغسّة الأقمشة الكتانية ، ويحصلون من أغنامهم فى جبل بنى يازغة على صوف شديد النعومة تصنع منه نساؤهم أقمشة كالحرير ، وبمدينتى تفزة وأفزة من منطقة تادلة أغنام مماثلة ، ونساؤهما ماهرات - كما يقول الوزان - فى شغل الصوف ، ويصنعْن منه برانس وخِمارات جميلة جدا ، وبذلك يربحن من المال أكثر من رجالهن إلى حد ما . وبالمثل بمنطقة هسكورة كمية كبيرة من الأغنام وتصنع من صوفها أقمشة جميلة جدا . ولكى نتصور مدى نشاط صناعة النسيج فى المغرب الأقصى أسوق ما ذكره الحسن الوزان عنها فى فاس ، فقد ذكر أن بها مائة وعشرين مؤسسة للنساجين وهذه المؤسسات أو المصانع أبنية كبيرة كل منها مؤلف من عدة أدوار مع قاعات فسيحة كقاعات القصور ، وتحوى كل قاعة عددا كبيرا من عمال نسج الكتان والقنّب . وتلك هى الصناعة الرئيسية فى فاس ويقال إنها تكفل العمل لعشرين ألف عامل .. ومن جهة أخرى كان يوجد مائة وخمسون مصنعا لقصّارى (مبيِّضى) الخيوط ، ويقوم معظمها قرب النهر لبلِّ الخيوط ودَقِّها . وتتجهز هذه المصانع بالكثير من المراجل والخوابى المبنية لغلى الخيوط ولحاجات مهنية أخرى . والقنب هو الذى يتخذ منه الحبال . ولابد أن كانت هناك مصانع أخرى لنسج الأقمشة القطنية والصوفية والحريرية إلا إذا كانت تضمنتها المصانع السابقة .

ومنذ القرن الثانى الهجرى تُبْنَى فى المغرب الأقصى المنشآت العمرانية التى لا تقتصر على بناء مفرد ، أو أبنية محدودة ، بل تتجاوز ذلك إلى بناء مدن بمساجدها وقصورها وحماماتها وفنادقها ومارستاناتها وأسواقها ، فقد بنى إدريس الثانى مدينة فاس أو بعبارة أدق ابتدأ بناءها

سنة ١٩٢ وجعلها عدوتين أو شطرين : شطرا على الحافة الشرقية للنهر وشطرا إلى الغرب منه ، ويفيض الحسن الوزان فى وصف جمال بيوتها وزينة حجارتها بالفسيفساء وطلاء سقوفها بطلاء لازوردى وذهبى وما فى الطوابق من شرفات كثيرة الزخرف ، ويسترسل فى الحديث عن دهاليزها وما بها من أعمدة رخام ودعائم مقوسة وسقوف مزينة بنقوش متنوعة الألوان ، ويتحدث عن مساجدها التى تبلغ ٦٠٠ مسجد وجامعها الكبير المسمى جامع القرويين وكان يوقد فيه كل ليلة ستمائة مصباح ، وكانت تلقى فيه الدروس على الطلاب ، وبذلك تحول – مثل الأزهر – إلى جامعة ضخمة . ويبسط القول فى المدارس والمعاهد والمارستانات والحمامات والفنادق بفاس وسوقها الضخم وصناعه ودكاكينه ، ويطوف بنا فى أرجاء فاس القديمة وأختها الجديدة التى بناها بجوارها أول السلاطين المرينيين يعقوب بن عبد الحق ، وكيف استدار من حول المدينتين سور جعلهما مدينة واحدة . وقد بنى ابن هذا السلطان مدينة البصرة على مسافة ٨٠ ميلا من فاس إلى الشمال الغربى وعلى مسافة ١٥ ميلا جنوبى مدينة القصر الكبير فى منطقة أزغار وكان الأدارسة – فى أثناء حكمهم – يتخذونها مقرهم الصيفى . ونمضى إلى زمن المرابطين فيؤسس يوسف بن تاشفين أمير المسلمين مدينة مراكش الكبرى وهى مثل فاس تعد من المدن الرئيسية فى العالم ، شيَّدها يوسف وفق مخططات وضعها مهندسون مهرة ، وكان لها أربعة وعشرون بابا وجدار سور غاية فى الجمال والمناعة كما يقول الوزان . ويصف جامعها الكبير وتزيين يعقوب المنصور الموحدى له بأعمدة جلبها من إسبانيا ، ويطيل فى وصف منارته التى شيدها له يعقوب ، وقد باعت زوجته حُلِيَّها الذهبية الخاصة والفضية وما تملك من أحجار كريمة وما قدمه لها يعقوب عند زواجه منها لصنع ثلاث تفاحات ذهبية توضع فوق قمة المنارة زينة لها ، ويطيل الوزان فى وصف قصبة مراكش . ويذكر أن الخليفة يعقوب المنصور بنى فيها اثنا عشر قصرا متقنة البنيان والزخرفة لحرسه وحاشيته ولحفظ السلاح ولأبنائه ولتعليمهم ، وكان بجانب هذه القصور – كما مر بنا – بستان وحديقة حيوان . وبنى يعقوب المنصور أيضا ثلاثة مدن ، هى القصر الكبير والقصر الصغير فى منطقة أزغار ومدينة الرباط العاصمة الحالية للمغرب الأقصى . وبناء هذه المدن وما دخل عليها من إضافات كان يستلزم آلافا من العمال والمهندسين والبنائين والحدادين والنجارين والزواقين المزينين للمبانى بالفسيفساء وبأعمدة الرخام والدعائم المقوسة والخشب المزخرف بالنقوش والأصباغ والألوان البديعة .

وهذه الأعمال المعمارية الضخمة وما استلزمت من صناعات وصناع وما سبقها مما اقتبسته عن الحسن الوزان من الصناعات اليدوية التى كانت منبثة فى أرجاء المغرب الأقصى والصيد والإنتاج الزراعى المتنوع الوافر ، كل ذلك أعدَّ لتجارة نشيطة واسعة منذ القدم ، فقد كان الفينيقيون يتبادلون سلعهم مع المغرب الأقصى فى المدن التى أنشأوها على سواحله الشمالية والغربية ، وخلفهم الرومان يصنعون نفس الصنيع ، وربما عبرت قوافل تجارهما إلى السودان .

واستمر المغرب الأقصى يتبادل سلعه مع شعوب البحر المتوسط في العصور الإسلامية ، وكانت سفن البنادقة والجنويين ماتنى ذاهبة إلى موانى البحر المتوسط آيبة منه محملة بحبوب المغرب الأقصى وبالجلود وبالشمع وبخيوط الصوف ، كما كانت تحمل كثيرا من الأخشاب المعدة للتصدير بين أعمدة وألواح . وكثيرا ما كانت سفن البنادقة والجنويين تعبر الزقاق إلى موانى المغرب الأقصى على المحيط لتتبادل مع أهلها السلع ، وكان الجنويون والبنادقة جميعا يأتون بأقمشة ومنتوجات أوربية مختلفة ويأخذون بدلها عن طريق المقايضة سلع المغرب الأقصى من القمح والشمع والجلود والصوف وغير ذلك . ويقول الحسن الوزان عن مدينة سَلا على المحيط « إن الكثير من التجار الجنويين يقصدونها ويعقدون فيها صفقات مهمة ولهؤلاء التجار مستودعاتهم في كل من فاس وسَلا ، وكانوا يُبقون مع هذه المستودعات بعض أصحابها أو بعض مندوبي شركاتها لجمع ما يريدون من المحاصيل ، ويذكر الوزان أن جنويا ثريا من تجار جنوة مكث مع أسرته في فاس ثلاثين سنة حتى توفي . ولابد أن كان للجنويين والبنادقة مستودعات مماثلة في موانى المحيط والبحر المتوسط ، وقد انضم إليهم بعد خروج العرب من الأندلس البرتغاليون والإنجليز والفلمنك وخاصة في الموانى التى احتلها الأولون . وثلاث مناطق كانت تتجر مع السودان ، هى السوس وكانت تحمل إلى أهله الأقمشة الصوفية والكتانية والسكر الذى كانت تنتجه ، ودرعة وكانت تحمل إليهم أوانى النحاس من أفران والتمور وبعض الأقمشة ، وسجلماسة وكانت تحمل إليهم التمور والأقمشة المختلفة والزيت والمفاتيح والأقفال وتعود قوافلها محملة بالتبر والعاج وريش النعام والرقيق . وكان تلك التجارة مع السودان تعود على تجار هذه المناطق الثلاث ، بثراء طائل . وكان إنتاج المناطق يختلف من منطقة إلى أخرى ، فتمور سجلماسة مثلا تقايض بالقمح وأوانى النحاس وفى منطقة جزولة تقايض أوعية النحاس بالأقمشة والتوابل والخيول ، وبالمثل جلود الثيران والشمع بجبل بنى زكار ، وكان لكل بلد سوق ، ونسوق أسماء الدكاكين في سوق فاس .. لنتعرف من خلالها على ألوان التجارات ، وهى تتوالى عند الوزان على هذا النمط : ثلاثون دكانا للمكتبات ، مائة وخمسون لباعة الأحذية ثم باعة الأوانى النحاسية ، خمسون دكانا لباعة الفواكه ، وبعدهم باعة الشمع وباعة الخيطان ، وعشرون دكانا لباعة الزهور ، وباعة الحليب ، وثلاثون دكانا لباعة القطن ، .فدكاكين الأشياء المصنوعة من القنَّب : الحبال والخيوط وأرسان الخيل فصناع النطاقات الجلدية المطرزة بالحرير ، فصناع أغمدة السيوف والسكاكين فباعة الأوانى الخزفية ذات الألوان الجميلة ولها مائة دكان فباعة الملح فباعة اللجامات والأعنَّة والسروج ولهم ثمانون دكانا فحظيرة يباع فيها الجزر واللفت فباعة الفول الأخضر ، فدكاكين لبيع اللحم المفروم ، فسوق العشابين للقنبيط وأنواع الخضر الأخرى وبه أربعون دكانا ، فباعة الزلابية ، فباعة اللحم المقلى والسمك المقلى ، فباعة الزيت والسمن والعسل والجبن والزيتون ، فالأطعمة المحفوظة ، فأربعون دكانا للجزارين وتُذْبَحُ

الحيوانات فى مسلخ خاص ويفحصها المحتسب ويصنع لسعرها نشرة يُباع اللحم بموجبها . وبعد الجزارين سوق الأقمشة الصوفية الغليظة ولها مائة دكان ، فشاحذو الأسلحة من سيوف وخناجر . فصيادو الأسماك من نهر فاس ونهر سبو القريب منها ، وهى ممتازة ، فصناع أقفاص الدجاج ولا تترك طليقة بل تحبس فى أقفاص حرصا على النظافة ، فباعة الصابون فباعة الدقيق فباعة القش فباعة خيوط الكتان ، ولصناعة الدلاء الجلدية أربعة عشر دكانا ، فصناع التروس والمجنّات ، فصناع سروج الخيل واللجامات ، فالحدادون الذين يعدون كسوة الخيل فصناع السروج . وبجانب هذه السوق سوق أخرى للتجار فى مدينة صغيرة بها اثنا عشر بابا وهى خمسة عشر حيًّا ، حيّان للإسكافيين أو الحذائين ، وحيان لتجار الأقمشة الحريرية وحيّ لباعة النطاقات النسائية ، وحيان لباعة الأقمشة الصوفية ، وثلاثة أحياء للخياطين وحيان لباعة الأقمشة الكتانية والأقمشة النسائية ، وحى لما يوضع على حواشى البرانس وأزرارها المضفورة من زخرفة وزينة . وإلى الشمال سوق العطارين والصيادلة وبه نحو مائة وخمسين دكانا ، ودكاكين العطارين غاية فى الزينة ، ويقول الحسن الوزان : لا أعتقد أن فى العالم كله سوق عطارين تماثل هذه السوق . وإلى جانبها دكاكين باعة الإبر ولهم خمسون دكانا ثم دكاكين الطحّانين والصبّانين فباعة الأقمشة القطنية ، فباعة الطيور الصالحة للأكل والعصافير المغرِّدة فباعة القباقيب التى تلبس حين تكون الطرق موحلة ، فصناع السهام ، فخمسون دكانا لباعة المكانس ، فباعة صوف الخراف ، فصناع القفاف وقيود الخيل ، فصناع النحاس ودكاكينهم ، فباعة المكاييل وآلات الحلج والبرادة ، وباعة المحاريث والدواليب وعرائش العربات ، فسوق الصباغين . وهذا كله لخصته من وصف الحسن الوزان لسوق فاس بكتابه وصف إفريقيا لأدل على ما كان بالمغرب الأقصى من سلع لا تكاد تحصى وفّرتها له أرضه الطيبة ، مما أتاح له فى التجارة من قديم نشاطا تجاريا واسعًا داخليا وخارجيًّا .

٣

الثراء – الرَّفه – الموسيقى – المرأة

(أ) الثراء

كان المغرب الأقصى كثير الخيرات والطيبات من الرزق ، فكثر فيه الأثرياء من الأفراد والأقاليم ، وأما الأفراد فنستطيع أن نمثل لهم بمثالين ذكرهما الحسن الوزان ، أولهما وجيه رآه فى مدينة تاكوليت بإقليم حاحة كانت منزلته كمنزلة رئيس وزارة ، وكان يملك موارد ضخمة ، وكان ينفقها على الناس ليكسب ودهم ويظل أثيرا لديهم ، وكان كريما ينفق الكثير – كما يقول الوزان – من الصدقات ، ويساعد أهل بلدته بماله لقضاء حاجاتهم ، ولم يكن فى بلدته إنسان

واحد لا يحبه ولا ينزله منزلة والده . والثانى فى مدينة تاغوداست بمنطقة هسكورة وكان بها عدد من الشخصيات النبيلة ، ربما كان أنبلهم أميرها ، وهو – كما يقول الوزان – وجيه أعمى سخى سخاء كبيرا ، وكان لديه أكثر من مائة ألف رأس من الغنم والمعز ، يستمد منها دخلا كبيرًا من شعرها وصوفها ، ويترك للرعاة الحليب والجبن ، ويقدمون له قدرا من السمن .

وبجوار ثراء الأفراد كانت هناك مدن وأقاليم أو مناطق ثرية ثراء طائلا ، أما المدن فنستطيع أن نميز بينها مدن الموانى ، إذ كان تجارها يثرون من تجاراتهم وحتى المدن التى كانت تقترب منها أو تجاورها كان ينالها نصيب من هذا الثراء مثل مدينة تاكوليت المذكورة آنفا فقد كانت تجاور ميناء آفور بمصب نهر التانسفت بقرب المحيط فعاد ذلك على أهلها بثراء كبير . وقد لا تكون للبلدة ميناء ولكن أهلها يزاولون التجارة مثل هادكيس جنوبى تاكوليت بنحو ثمانية أميال ، فإن أهلها كانوا تجارا ولذلك كانوا على غير قليل من الثراء ، ويقول الوزان كان لديهم خيول حسان وكانوا يتأنقون كل التأنق فى ملابسهم . وما بالك بكبار التجار وأصحاب المصانع الضخمة فى فاس عروس المغرب الأقصى وعاصمة الأدارسة والمرينيين ، وبدون ريب كان الأغنياء الموسرون فيها يعدون بالعشرات ، وذكر الوزان أنه كان بها مارستان جميل فى الداخل والخارج ، وكان بها بعض غرف مخصصة للمجانين المخبولين ، وكان بها مائة حمام جيدة البنيان ، وللنساء حماماتهن الخاصة ، أما الحمامات المشتركة فتخصص فيها ساعات للرجال وساعات للنساء ، وحينما يغسل خدم الحمام شخصا يستلقى على ظهره أو بطنه ويقومون بتدليكه بنوع من المراهم منشطة وأحيانا بأدوات مثل كيس صوفى ينزع الأدران . وكان بفاس مائتا فندق يقول الوزان إنها كانت فخمة للغاية ويتألف الفندق من ثلاثة طوابق ، وبعضها فسيح جدا إذ يحوى مائة وعشرين غرفة أو أكثر ، وتتجهز جميعا ببرك ماء وكل ما يلزمها ، ويقول الوزان إنه لم ير فى إيطاليا أبنية تماثلها إلا فى قصر الكردينال فى دَيْر الحضر بروما ، ويقول إن أبواب الغرف كلها تُطلُّ على ممشى ، ويشيد بالقصور التى بناها يعقوب بن عبد الحق مؤسس الدولة المرينية ، وليست قصورا بل مدينة أضافها إلى فاس كما مرَّ بنا فى حديثنا عن المرينيين فى الفصل الماضى ، وقد أنفق سلطانها المرينى أبو عنان على إنشاء معهد – كما يذكر الوزان – أربعمائة وثمانين ألف دينار ، مما يدل على ثراء واسع كانت تتمتع به الدولة المرينية . ومثل فاس مدينة مراكش عاصمة المرابطين والموحدين والدولة السعدية ، ويتحدث الوزان عن جامعها ، ومازينه به المنصور الموحدى صاحب موقعة الأرك من أعمدة جلبها من إسبانيا ومن منارة كانت إحدى عجائب الدنيا وبنى بالقصبة اثنى عشر قصرا ، ويقول إن إمبراطوريته من ماسة فى السوس إلى طرابلس يحتاج اختراقها طولا إلى تسعين يوما وعرضا إلى خمسة عشر يوما ، ولم تكن الدولة فى عهد المنصور السعدى تقل إثراء عنها فى عهد المنصور الموحدى فقد توسع فى فتح بلاد السودان الغربى وكان الذهب يُجَبّى إليه منها بالأحمال ، مما جعل العمال

فى دارسكته يتزايدون ، حتى قيل إنه كان فيها ١٤٠٠ عامل بيد كل عامل مطرقة لضرب الدنانير الذهبية ، ولذلك لُقِّب بالمنصور الذهبى .

ويتوقف الوزان مرارا ليحدثنا عن ثراء المناطق فى المغرب الأقصى ، من ذلك ما يقوله عن منطقة بولوان فى منطقة دكّالة من أنه كان يسكنها عديد من النبلاء الكرام . وقد بنوا عمارة فيها غرف عديدة على نفقتهم لتكون دار ضيافة فاخرة ، وأرضهم خصبة وتنتج مقادير وافرة من القمح وعندهم ماشية لا عداد لها ، إذ لدى كل فرد منهم نحو مائة زوج من الأبقار ويحصد الفرد العادى مائة حمل من القمح ومنهم من يحصد منه ثلاثة آلاف حمل . ومثل منطقة دكالة فى ثرائها منطقة هسكورة بأغنامها وما يُصْنع منها من الأقمشة الصوفية الجميلة ومن الجلود المغربية وبها كثرة من محصول الزيت وتعنى بصناعة سروج الخيل . ويشمل الثراء كثيرا من نواحى منطقة تادلة ، وتشتهر مدينتا تفزة وأفزة بصنع البرانس وهى نوع من العباءات أو الثياب تنسج قطعة واحدة مع قلنسوتها ويسلك فى العنق ويترك من أمام مفتوحا ، ولا يخاط منه إلا ما يقابل الصدر . ومنطقة فاس غنية جدا لوفرة حبوبها وثمارها وماشيتها . وبالمثل منطقة مكناس لثمارها العجيبة من سفرجل زكىّ الرائحة ورمان يخلو من البذور وعنّاب بديع مع وجود مختلف الثمار من الخوخ والمشمش والعنب والتين ، ومنطقة الهبط غنية لكثرة موانيها التجارية ، ولكثرة ما تنتجه كورها من الحبوب والثمار . وتتميز ثلاث مناطق هى : السوس وسجلماسة ودرعة بتجاراتها الواسعة مع السودان الغربى ، وتجار السوس يحملون إليه ما ينتجون من السكر والتمور وما يصنعون من الجوخ وأقمشة الكتان ، ويحمل تجار سجلماسة تمورهم والأقمشة القطنية والصوفية والمنتجات المغربية ، ويحمل إليهم تجار درعة تمورهم الفاخرة والمنتجات المغربية وما يصنعون من أوانى النحاس ، ويعودون جميعا محملين بالعاج والذهب وريش النعام والرقيق ، ويدرّ ذلك على تجار هذه المناطق ثراء واسعا .

(ب) الرّفه

هذا الثراء الطائل لبعض مدن المغرب الأقصى ومناطقها ودولها وبعض أفرادها من التجار وغير التجار يجرّ بطبيعته إلى غير قليل من الرفه . ومن يرجع إلى الحسن الوزان فى حديثه عن ملابس سكان فاس ويريد أعيانها ونبلاءها يجده يقول إنهم أناس محترمون يلبسون فى الشتاء ثيابا من جوخ أوربية المنشأ ، ويتألف ما يلبسون من سترة (جاكيت) ضيقة ملتصقة بالجسم لها نصف أكمام ، تمرَّر من فوق القميص ، ويلبسون فوق تلك السترة ثوبا عريضا مخاطا من الأمام (لعله المعروف عند المغاربة بالقشابية ، وهى ثوب له أكمام يسلك فى العنق ويخاط من أمام ولا يترك منه إلا فتحة العنق) ويصنعون فوق هذا الثوب البرنس الذى وصفناه منذ قليل ، وقلنا إنه ينسج قطعة واحدة مع قلنسوته ولا تغطى الأذنين ، ويلفون فوق تلك القلنسوة عمامة

من قماش تُطْوَى مرتين حول الرأس وتمر من تحت اللحية ، ويلبسون سروالا من كتان ، ويضعون في أقدامهم خفًا عندما يمتطون جيادهم شتاء . ويقول الوزان إن عامة الشعب يلبسون سترة ويُرْنُسًا بدون الثوب (القشابية) الذي تكلمنا عنه .وربما كان أدق من ذلك ما ذكره في بلدان مغربية أخرى من أن أهلها يلبسون كساء من صوف غير مخيط يشتمل به الرجال والنساء على نحو ما نرى عند قدماء المصريين . يقول الوزان : « وللنساء هندامٌ حسن جدا ، ويلبسن في الشتاء ثيابا عريضة الأكمام مخيطة من الأمام كأثواب الرجال ، ويلبسن في الصيف قميصا يطوِّقنه بزنار ، وعندمايخرجن من بيوتهن يلبسن سراويل طويلة تغطى كل أرجلهن وخِمارا يغطى الرأس وسائر الجسم ، ويتغطَّى الوجه بقطعة قماش كتانى ، ويضعن في آذانهن حلقات ذهبية كبيرة مرصَّعة بحجارة كريمة بديعة جدا ، ويضعن أساور ذهبية في معاصمهن . أما النساء من غير الشريفات فيلبسن أساور من فضة ويضعن مثلها في أرجلهن . ودائما يشير الوزان في البلدان المختلفة بأن المرأة كانت تتزين بحلى فضية ، وكأنها كانت هي الحلى الشعبية الشائعة ، ومرَّ بنا في الحديث عن سوق فاس ما كان به من دكاكين كثيرة لبيع الأقمشة الصوفية والكتانية والحريرية النسائية وما كان هناك من دكاكين لبيع النطاقات النسائية وكل فنون الزخرف من الزينة لملابسهن وكل أنواع العطارة والروائح الفائحة .

ويتحدث الحسن الوزان عن الغذاء فيقول إن عامة الشعب تتناول اللحم مرتين في الأسبوع أما الأعيان والأغنياء فيتناولونه مرتين في اليوم حسب شهيتهم . ولهم ثلاث وجبات يومية : وجبة الصباح وتتكون من خبز وحِساء من دقيق القمح وبعض الفواكه ، ووجبة الظهيرة وتتألف من خبز وجبن وزيتون وسلطة ، ووجبة المساء وتتألف من بعض الأطعمة ومن اللحم المسلوق ، والكسكسى وهم يواظبون عليه في العشاء ، وقد يأكلونه في الغداء ، وهو عجينة تحول إلى حبيبات ، وتطبخ بالبخار وعند نضجها تسقىَ بالسمن وبمواد مغلية مع اللحم .

وكان لابد للمرفهين في المغرب الأقصى من لعب يقطعون بها أوقاتهم ، وقد اختاروا لعبتى الشطرنج والنرد يتسلَّون بهما ، ومعروف أن لعبة الشطرنج تمثل صورة الحرب ، فهى حرب بين جبهتين وفي كل جبهة ملك ووزير وبعض القواد وبياذق أو عسكر وطبية للدفاع عنها ، وتحاول كل جبهة التغلب على مقابلتها ، ويكتب النصر لإحداهما كما في الحرب تماما . أما النرد فتدل خطوطه الأربعة والعشرون على عدد ساعات اليوم ونصف الخطوط تدل على عدد شهور السنة ، وحجارته السود والبيض هي الليالى والأيام ، وتدل قطعتا الزهر على حظوظ الناس في دنياهم . وأنشأ ملوك فاس وسلاطينها لأهلها مسرحا لصراع الأسود ، وكان يصيدهم للسلطان قنّاصو جبل زرهون . وكان المسرح ساحة واسعة يصطف حولها أهل فاس للفرجة ، وكانت تُصَفّ في الساحة عدة صناديق كبيرة يتسع داخل كل منها لرجل يقف فيه ويتحرك بسهولة ، ولكل صندوق باب صغير ويجلس فيه رجل مسلح ، وعندئذ يطلق الأسد – كما يقول الوزان –

حرًّا فى الساحة ، ويقوم أحد الرجال بفتح صندوقه وينطلق إليه الأسد حين يراه ، حتى إذا دنا منه أغلق الباب ، وكل رجل يصنع نفس الصنيع مثله ، حتى يغضب الأسد بل حتى يمتلىء غضبا ويَشْتد به غضبه وثورته ، وحينئذ يدخل ثور إلى الساحة ، وتنشب بينه وبين الأسد معركة دامية شديدة العنف ، والجمهور يهرِّج ويصفق ، وإذا قتل الثور الأسد انتهى المشهد المسرحى عند ذلك ، وإذا قتل الأسد الثور يخرج إليه الرجال المسلحون من صناديقهم لمبارزته ، وهم عادة اثنا عشر رجلا ، ومع كل رجل حربة تنتهى بنصل من حديد طوله ذراع ونصف ، وإذا بدا تفوُّقهم على الأسد واضحا نقص السلطان عددهم ، وإذا بدا أن الأسد يتفوق على الرجال عمد السلطان ومن معه إلى تسديد سهام إليه من أعلى شرفاتهم خشية أن يفتك بأحد المصارعين ، فيموت . وبذلك تنتهى اللعبة بين تصفيق الجماهير وما يتصل به من هرجٍ ومرجٍ ، ويمنح السلطان جائزة لكل مصارع : عشرة دنانير وكسوة جديدة .

(جـ) الموسيقى[1]

أول زمن للنهضة الموسيقية فى المغرب الأقصى كان زمن الدولة السعدية ، إذ لا نلتقى بأخبار عن الموسيقى وأصحابها قبل هذا الزمن فى القرن العاشر الهجرى المقابل للسادس عشر الميلادى ، ومن المعروف أنه كان بالأندلس نهضة موسيقية مبكرة ، غير أنها ظلت بعيدة عن المغرب الأقصى وظل لا يعرف عنها شيئا إلا حين نزل بعض أهله هناك واستمعوا إليها ، وكأنما انتظر المغرب الأقصى حتى اكتسحه الأندلسيون وهاجروا إليه هجرتهم الكبرى بعد سقوط غرناطة بأخرة من القرن التاسع الهجرى واتسعت هذه الهجرة – كما مر بنا – فى عهد فيليب الثالث لأوائل القرن الحادى عشر الهجرى ، على أن النهضة الموسيقية أخذت تزدهر منذ عهد السلطان عبد الله الوطاسى المرينى الملقب بالغالب (٩٦٤ – ٩٨١ هـ/ ١٥٥٧ – ١٥٧٤ م) إذ نجد الموسيقيين المغاربة يحافظون على إيقاعات الموسيقى الأندلسية بكل نوبها أو قطعها الموسيقية الكبيرة العشر ، وهى رمل الماية –الماية – رصد الذيل – الأصبهان – الرصد – غريبة الحسين – الحجاز الكبير – الحجاز الشرقى – عراق العجم – العشاق . ويتألق حينئذ اسم موسيقار كبير هو الحاج على البطلة من أهل فاس وحاشية السلطان عبد الله الوطاسى ، ويقال إنه أضاف إلى النوبات الكبيرة النوبة الحادية عشرة المسماة بالاستهلال ، وبذلك أصبحت إحدى عشرة ، وتبدأ النوبة بمقدمة موسيقية للجوقة يليها افتتاح على إحدى الآلات لرئيس الجوقة ثم توشية موسيقية للجوقة ، ثم تبدأ أنغام ميازين النوبة ، ولكل نوبة خمسة ميازين أوأقسام، وهى

(١) انظر كتاب الموسيقى الأندلسية المغربية للأستاذ عبد العزيز بن عبد الجليل (نشر المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب بالكويت) وراجع كناش الحائك لمحمد بن الحسين الحائك (طبعة مصورة لورثة الحاج عبد السلام الرقيراق . طنجة ١٩٨١ م) .

البسيط والقائم والبطائحي والقدام والدرج. وتتخلل هذه الميازين بعض الإنشادات ينشدها موسيقار منفرد، وبخاصة في الموسيقى المصاحبة لقصائد المولد النبوى وهى فيها تكون من رقيق أشعار المتصوفة مثل الششترى، وفي غيرها تشيد بإيقاعات الميزان المسماة بالطبوع وأحيانا تكون غزلا. والغرض من هده الإنشادات الترويح عن المستمعين . والطبوع مفردها طبع وتقابل فى الموسيقى الأندلسية المغربية كلمة مقام المعروفة فى موسيقى المشرق العربى ، ومنها مفرد وهو العشاق والحسين والحصار والزوركند والأصبهان والمزموم والرمل والرصد والعجم والمجنب ، ومنها ممزوج ، وهو عراق العرب وعراق العجم والحجاز المشرقى والصيكة أو سلم الرست .

وحاول الموسيقيون المغاربة منذ عهد الوطاسيين المرينيين تكملة النوب كما رأينا عند الموسيقار الحاج على البطلة بإضافته نوبة الاستهلال المغربية الجديدة . ومنذ زمنه أضاف المغاربة إلى الميازين – وكانت أربعة – ميزانا جديدا هو الدرج نشأ عن الغناء الشعبى المردد فى حلقات الذكر بالزوايا . وأضافوا إلى ذلك بعض الآلات الموسيقية ، من ذلك الآلات النحاسية فى بعض الجوق العسكرية بالموكب السلطانى . واستمرت الآلات الوترية وفى مقدمتها العود والقانون ، والآلات النقرية وفى مقدمتها الدف والرق وأضيفت إليهما الدربوكة المغربية، وآلات النفخ وفى مقدمتها الناى والمزامير . والفضل الأول فى تسجيل هذه الموسيقى الأندلسية المغربية يرجع إلى محمد بن الحسين الحائك الذى أثارته الحمية لما يخشى على تلك الموسيقى من الضياع لألحانها وأنغامها فانبرى سنة ١٢١٤ هـ/١٨٠٠ م لتأليفه فيها « كناش الحائك » مسجلا فيه نوبات تلك الموسيقى البالغة بنوبة الحاج على البطلة إحدى عشرة نوبة والميازين الخمسة التى تتألف منها أجزاء النوبة ، وطبوع هذه الميازين أو مقاماتها النغمية ، ويذكر مع كل طبع أو مقام شواهد من عدة موشحات أندلسية ومغربية ، وبذلك حافظت هذه الموسيقى على تلك الموشحات أو بعبارة أدق حافظ عليها الحائك ، وبذلك كان عمله فى كناشه مزدوجا فقد رسم فيه النظام الدقيق للموسيقى الأندلسية المغربية وحماه من الضياع كما أثبت فيه طائفة كبيرة من نصوص غنائية للموشحات الأندلسية والمغربية .

(د) المرأة[1]

كانت المرأة المغربية تحظى بشعور كريم بكرامتها ، كما كانت تحظى بغير قليل من الحرية ، وهى حرية قلما حظيت بها أختها فى المشرق ، وكان لذلك أثره فى الحياة السياسية والثقافية ، ومن أوائل ما يلقانا من ذلك ما ذكرناه عن أم البنين الفهرية التونسية وتبرعها العظيم لبناء جامع

---

(١) انظر فى المرأة المغربية مواضع مختلفة فى الجزء الأول من كتاب النبوغ المغربى فى الأدب العربى للأستاذ عبد الله كنون ، والقسم الثانى من السفر الثامن من كتاب الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة لمحمد بن عبد الملك المراكشى (طبع الرباط) .

القرويين بفاس الذى سرعان ما تحول إلى جامعة كبرى بفاس إلى اليوم . وكانت زوجة يوسف بن تاشفين سيدة حصيفة وكانت تدبر معه دفّة السياسة والحكم ، وكان رأيها دائما صائبا وانتفع بها فى حياتها فى تثبيت حكمه وملكه . وكانت لا تقل عنها حصافة وشعورا بالعزة زينب بنت إبراهيم بن تافلويت زوجة تميم بن يوسف بن تاشفين حاكم غرناطة والأندلس ، وكانت تجيز الشعراء ، ولابن خفاجة الشاعر الأندلسى فيها قصيدة طنانة ، ولها أعمال برٍّ كثيرة . وعلى شاكلتهما تميمة بنت سيد المرابطين يوسف بن تاشفين كانت من أهل الخير والصدقات . ومن فضلياتهن حواء بنت أخى يوسف بن تاشفين ، زوجة سير بن أبى بكر الذى ظل واليا على إشبيلية سبعا وعشرين سنة حتى سنة ٥٠٧ وكانت تقيم فى قصرها ندوة أسبوعية تحاضر فيها شعراء إشبيلية وتنقد بعض أشعارهم ، وتسبغ عليهم جوائز وعطايا كثيرة ، وللأعمى التطيلى فى مدحها قصيدة بديعة مذكورة بترجمته فى كتابنا عن الأندلس . ومن السيدات الفضليات فى عهد الموحدين زينب بنت يوسف بن عبد المؤمن سلطان الموحدين زوجة ابن عمها أبى زيد بن أبى حفص تتلمذت فى علم الكلام لأبى عبد الله بن إبراهيم الأصولى وكانت عالمة نابهة الشأن . ومنهن من سيدات الشعب خيرونة الأشعرية ولها فضل فى نشر المذهب الأشعرى بين نساء مراكش ، ومنهن فى علم الحديث مريم بنت أبى الحسن صاحب المدرسة بسبتة ، ومن المتصوفات – وهن كثيرات – منية بنت ميمون الدكالية ، ومن الأديبات من بيت الحكام الموحدين رُمَيْلة ، ومن سيدات الشعب أمة العزيز بنت أبى محمد بن الحسن السبتية وحفصة بنت القاضى أبى حفص بن عمر وأم النساء بنت التاجر الفاسى وكانت أديبة شاعرة . ومن السيدات الفضليات النابغات زمن المرينيين فى العلوم الدينية الفقيهة أم هانىء بنت محمد العبدوسى والفقيهة أم البنين جدة الشيخ زروق ورحمة بنت الجنّان والدة الشيخ ابن غازى وغيرهن كثيرات فى الفقه والحديث النبوى ، ومن الأديبات أم الحسن بنت أحمد الطنجالى وصفية العزفية من بيت العزفيين وصبيح زوجة أحمد بن شعيب الجزنائى ، واشتهرت فى الطب عائشة بنت الجيار السبتية . وبذلك لم يعد الطب خاصا بنساء بنى زهر كما كان الشأن فى عصر الموحدين ، فقد انتقلت معرفته والحذق فيه إلى النساء المغربيات فى العصر المرينى . ويذكر الوزان الذى زار منطقة درعة فى عصر الوطاسيين المرينيين نحو سنة ٩٢٠ هـ/١٥١٤ م أن نساءها يتعلمن ويقمن بدور معلمات المدارس للفتيات والفتيان . وحرى بنا أن نذكر فى عهد الوطاسيين السيدة عائشة بنت على ابن راشد مختطّ مدينة شفشاون لتحصين ناحيتها من نصارى سبتة ، وقد تزوجت حاكم مدينة تطوان وتوفىَ فحكمت تطوان بعده وضبطتها خير ضبط وتصدّت لنصارى سبتة بذكاء ودهاء وحسن سياسة وأعجب بشجاعتها السلطان أحمد الوطاسى فاقترن بها سنة ٩٤٨ هـ/١٥٤١ م .

ونلتقى فى عصر السعديين بسيدات فضليات كثيرات ، منهن سحابة الرحمانية السفيرة

إلى الآستانة ببشرى فتح تونس للدولة العثمانية طالبة جزاء حمل تلك البشارة مساعدة ابنها عبد الملك بكتيبة عثمانية من الجزائر فى استعادة ملك والده وأجابتها الدولة العثمانية ، واستولى على صولجان الملك . وأبدت أخته مريم بسالة عظيمة فى قيادتها بقصبة مراكش لثلاثة آلاف جندى من الرماة تحقق بهم النصر لأخيها عبد الملك . واشتهرت مسعودة الوزكيتية والدة المنصور الذهبى بأعمال خيرية كثيرة ، ومن منشآتها الخالدة بمراكش المسجد الجامع بباب دُكالة ، واشتهرت بالعلم والتقوى عائشة بنت أحمد بن عمران والدة ابن عسكر المؤرخ المعروف . ومن السيدات الفضليات فى عهد السعديين العريفة بنت خجوّ ولها فضل فى تعليم الأسرة السعدية الصورة الحضارية للملابس والطعام والتعامل مع النساء إذ كانوا قد جاءوا إلى فاس من البدو . ومن السيدات الفضليات فى عصر العلويين السيدة خناثة بنت بكار زوجة السلطان إسماعيل ، وكانت فقيهة عالمة وأديبة بارعة ، وكانت حصيفة تحسن إبداء الرأى وعرضه ، وكانت نعم الوزير لزوجها تشير عليه دائما بالرأى الصائب ، وحجت وأكثرت فى حجها من الصدقات وأعمال البر والخير ، توفيت سنة ١١٥٩ هـ/١٧٤٦ م . ومن السيدات الفقيهات العالمات زوجة المختار الكنتى المتوفاة سنة ١٢٢٤ هـ/١٨١٠ م وكانت تدرس للنساء مختصر خليل بن إسحق المصرى فى الفقه المالكى بينما كان زوجها المختار بن أبى بكر الكنتى يدرسه للرجال ، وترجم لهما فى كتاب واحد ابنهما محمد ، وسمى كتابه : الطارفة والتالدة فى مناقب الشيخ الوالد والشيخة الوالدة . ويذكر الأستاذ عبد الله كنون أنه كان هناك دائما معلمات فى مجال التعليم الأولى يعلمن البنات والأولاد الصغار الكتابة والقراءة والقرآن الكريم ومبادىء العلوم الضرورية ، ولم يكن يخلو حى فى المدن من دار فقيهة تنهض بهذا التعليم مما يدل على الدور العظيم الذى كانت تقوم به المرأة المغربية فى تعليم النَّشء ونشر المعرفة .

٤

المالكية – الصفرية – المعتزلة – الظاهرية

(أ) المالكية

كان المغرب الأقصى يقتدى بإفريقية التونسية طوال القرون الإسلامية الثلاثة الأولى ، إذ كانت تعتبر الرائد للمغرب جميعه ، وكان علماؤها فى القرن الهجرى الثانى يرحلون فى كل عام لأداء فريضة الحج ، وكانت المدينة حتى زمن مالك تُعَد دار الفقه ، وكان مالك نفسه إماما كبيرا من أئمته ، يلقى فيه دروسه ويؤلف فيه كتابه الموطأ ، فكان علماء إفريقية يقصدونه لأخذ الفقه عنه وأخذ كتابه الموطأ ، وخلفه تلاميذه المصريون – وفى مقدمتهم عبد الرحمن

ابن القاسم – فكان الطلاب يرحلون إليه ويتلمذون عليه كما رحلوا وتلمذوا على أئمة الفقه المالكى بعده فى مصر . فكان ذلك سبب ازدهار المذهب المالكى فى إفريقية التونسية ، وكان كتاب الموطأ قد حُمل إليها فكان يدرس فيها ويدرس معه كتاب فى المذهب لتلميذه عبد الرحمن بن القاسم الذى فرّع فيه فروعا كثيرة . سماه المدونة وحملها عنه سحنون إلى تلاميذه فى موطنه ونسبت إليه باسم مدوّنة سحنون . وأخذ التلامذة من تونس إلى المحيط الأطلسى يقدمون إلى القيروان للتلمذة على سحنون وأضرابه من حملة الفقه المالكى بعد وفاته سنة ٢٤٠ هـ/٨٥٤ م . وكانوا يعودون إلى مواطنهم فى المغرب الأقصى فيدرسون للطلاب المذهب المالكى ويشيعونه بين الناس فى بلدانهم ، وأظن ظنا أن إدريس منشىء الدولة الإدريسية ومَنْ خلفه من أبنائه وأحفاده كانوا يدفعون رعاياهم فى المغرب الأقصى بفاس وغير فاس إلى التفقه بمذهب مالك دون غيره من المذاهب لموقفه المعروف مع محمد النفس الزكية حين أعلن بمكة الثورة على المنصور ، إذ أفتى الناس بالتحلل من بيعة الخليفة المنصور ومبايعة النفس الزكية محمد بن عبد الله سليل الحسن بن على بن أبى طالب سنة ١٤٥ هـ/٧٦٢ م وفى السنة التالية بعد القضاء على ثورة النفس الزكية استدعى جعفر بن سليمان والى المدينة مالكا وجرّده من ثيابه ، وضربه بالسياط عقابا على فتواه . وفرّ عقب إخفاق ثورة النفس الزكية عمه إدريس إلى المغرب الأقصى واستطاع تأسيس الدولة الإدريسية ، فكان طبيعيا أن يرعى لمالك الفقيه الكبير فتواه لابن أخيه ، وأن يدفع الناس والعلماء والطلاب إلى التفقه بمذهبه ، مما جعل المذهب المالكى يشيع هناك بقوة منذ القرن الثالث الهجرى .

ونحن لا نصل إلى القرن الرابع الهجرى حتى يصبح للمغرب الأقصى أعلامه فى الفقه المالكى الذى يدرسونه فى المدن وفى القبائل المختلفة ، ومنهم أبو هرون البصرى الذى أدخل كتاب ابن المواز الفقيه المالكى المصرى إلى المغرب الأقصى لأول مرة وأيوب بن محمد فقيه المصامدة وأبى القاسم بن محرز فقيه الملثمين وعثمان بن مالك فقيه فاس ، وله تعليق على مدونة سحنون ، ودراس بن إسماعيل الفاسى تلميذ أبى بكر بن اللباد شيخ فقهاء المالكية بالقيروان فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى ، وله رحلة إلى المشرق حمل فيها من الإسكندرية كتاب ابن المواز ، وعبد الرحيم الكتامى تلميذ فقيه القيروان فى النصف الثانى من القرن الرابع : ابن أبى زيد وأخذ عنه كتابيه : النوادر والمختصر . وينشط المغرب الأقصى فى دارسة الفقه المالكى لعهد المرابطين ، وكانوا يعينون فقيها مالكيا مع كل والٍ لملاءمة الأحكام فى عهده للشرع . وسنعود للحديث عن نشاط الفقه المالكى لهذا العهد فى الفصل المقبل ، ويضعف هذا النشاط فى عصر الموحدين لعنايتهم بنشر المذهب الظاهرى ، وسنخص هذه العناية بحديث فى غير هذا الموضع ، ويعود إلى المذهب المالكى نشاطه وازدهاره فى العصور التالية حتى العصر الحديث .

(ب) الصفرية[1]

معروف أنه تولى المغرب من طرابلس إلى المحيط فى القرن الأول الهجرى ولاة عظام طبقوا فيه تعاليم الإسلام القاضية بالمساواة بين العرب وغيرهم من الشعوب التى دخلت فى الإسلام ، وقد رأينا حسان بن النعمان (٧١ هـ/ ٦٩٠ م – ٨٦ هـ/ ٧٠٥ م) بعد انتصاره الحاسم على الكاهنة يُدْخِل من قومها فى جيشه كتيبة من اثنى عشر ألف رجل تجاهد مع العرب فى سبيل الله ، وليس ذلك فحسب ، فإنه ولَّى أكبر أبناء الكاهنة على قومه فى جبل أوراس وبذلك ملك قلوب المغاربة ودانوا له بالطاعة حتى المحيط ، وخلفه موسى بن نصير (٨٦ هـ/ ٧٠٥ م – ٩٦ هـ/ ٧١٤ م) فوضع التنظيم الإدارى للمغرب وجعله خمس ولايات وخامستها هى المغرب الأقصى ماعدا السوس وجعل عليها واليا بربريا هو طارق بن زياد وعاصمتها طنجة ، فلم يعد هناك فارق بين أن يكون الوالى لأى ولاية عربيا أو بربريا مغربيا ، وكلفه بأن يفتح إيبريا ، فأعدَّ جيشا أكثره من البربر نحو اثنى عشر ألف جندى ، وفتح الله له الجزء الجنوبى من إيبيريا ولحقه موسى بن نصير وأتما الفتوح معا . ومعنى ذلك أنه تم فى عهد موسى بن نصير رفع جميع الفوارق بين العرب والبربر ، فقد أصبحوا جميعا متساوين فى حكم الولايات وقيادة الجيوش والجهاد فى سبيل الله ، وبذلك لم يصبح فتح الديار المغربية من برقة إلى المحيط فتحا حربيا ابتغاء المكاسب الدنيوية ، بل أصبح فتحا عقائديا لنشر الدين الحنيف وما ينبغى أن يستشعره أتباعه عربا وغير عرب من الأخوة فى إعلاء كلمة الله .

ومُنيت الأمة الإسلامية بعد الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز بخلفاء أمويين منذ السنة الأولى فى القرن الثانى الهجرى ليسوا فى مستوى أمانة الحكم التى ينبغى أن يتحملوها ، فقد ولى الخلافة يزيد بن عبد الملك ، وسرعان ما ولَّى على المغرب يزيد بن أبى مسلم صاحب شرطة الحجاج فتعسف مع البربر فى جمع الضرائب ناسيا أن البربر أصبحوا رفقاء سلاح مع العرب ، فقتلوه . وتوالى فى عهد أخيه هشام بن عبد الملك (١٠٥هـ/٧٢٣م – ١٢٥ هـ/ ٧٤٢م) ولاة ليسوا فى مستوى المهمة ، كان آخر المتعسفين منهم عبيد الله بن الحبحاب فأرهق المغاربة هو وعماله بالضرائب وبلغ من سفه عامله على طنجة أن أعلن أنه عازم على تخميس أراضى المغرب الأقصى أى أخذ خمسها للدولة . وبينما صَبْرُ المغاربة يكاد ينفد إذا بدعاة مذهبى الصفرية والإباضية ينتشرون بينهم يدعونهم إلى الدخول فى عقيدتهم التى تناقض عقيدة حكام بنى أمية وترى فى استيلائهم على الخلافة عدوانا على الأمة ، إذ ينبغى أن يكون اختيار الخليفة متحررا من كل قيد فلا يقصر على قريش ، بل يتولاها أشد الناس خوفا من الله وأكثرهم طاعة له وأحرصهم على الاستمساك بالدين وطاعة الله واتباع أحكام الإسلام ، ولو كان

(١) انظر فى مذهب الصفرية الملل والنحل للشهرستانى.

بربريا بل لو كان عبدا حبشيا . وأخذوا يحضونهم على كفاح بنى أمية وعمالهم ووصفوهم بالفسق والمعصية ، واستجاب جبل نفوسة فى طرابلس للإباضية ، بينما استجاب المغرب الأقصى للصفرية وكانوا أكثر تطرفا من الإباضية إذ كانوا يكفرون مرتكب الكبيرة ويوجبون قتله ، وعدّوا دار المسلمين دار حرب واستحلوا دماءهم وأموالهم وقتل نسائهم وذراريهم . ومرَّ بنا حديث عن ثورتهم فى شمالى المغرب الأقصى بقيادة ميسرة رئيس مضغرة ثم خالد بن حميد الزناتى وانتصارهم على جيوش عبيد الله بن الحبحاب والوالى الأموى بعده كلثوم بن عياض القشيرى ، ثم ما كان من انتصار الوالى الأموى حنظلة بن صفوان على جيشين صفريين ، وأخيرا انتصار أبى الخطاب عبد الأعلى إمام الإباضية على قبيلة ورفجومة الصفرية حين استولت على القيروان ونكلت بأهلها ، وفى أثناء ذلك ينسحب سمكو بن واسول إلى سجلماسة وينشىء بها دولة صفرية كما مر بنا . ويبدو أن بقية المغرب الأقصى أخذت تنفر من عقيدة الصفرية ، وساعدت دولة الأدارسة الناس هناك فى القضاء عليها بتلك الأنحاء .

(جـ) المعتزلة(١)

كان واصل بن عطاء مؤسس مذهب الاعتزال فى البصرة من أكبر الوعاظ فى عصره إن لم يكن أكبرهم ، وقد جعل للاعتزال أسسا خمسة ظلت قائمة فيه بعده ، وهى الوحدانية صفة ثابتة لله ، بحيث لا يشبه المخلوقات بأى صورة فليس كمثله شىء ، وما جاء فى القرآن الكريم والحديث النبوى مما قد يفيد تشبيها يجب تأويله ، مثل (يد الله فوق أيديهم) فمعناها قدرة الله فوق قدرتهم ، ثم هو واحد فصفاته مثل السميع ، البصير هى نفس ذاته . وأساس ثان أو مبدأ ثان هو العدل على الله ، ولذلك ينبغى أن يكفل لعباده ما هو أصلح لهم تحقيقا لسعادتهم . وأساس ثالث هو إنفاذ وعده للمؤمنين بأن لهم الثواب والنعيم المقيم والوعيد للكفار الآثمين بالعقاب وعذاب النار ، وأساس رابع هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، إذ لا يحل لمسلم أن يسكت على جرم أو إثم ، وواجب عليه أن يأمر بكل ما هو خير . وأساس خامس هو أن مرتكب الكبيرة فى منزلة بين منزلتى الإيمان والكفر ، واختلفت فى ذلك الجماعة الإسلامية اختلافا كبيرا ، فكانت المرجئة تعده مؤمنا وأهل السنة يعدونه مؤمنا فاسقا والخوارج : الصفرية والأزارقة يعدونه كافرا إذ يرون العمل جزءا لا يتجزأ من الإيمان ، أما واصل فكان يجعله فى منزلة وسطى بين الإيمان والكفر . وكان ماينى يخطب فى شباب البصرة واعظا ومؤيدا آراءه بالحجج والأدلة العقلية ، وفُتن به الشباب وأصبح له بينهم أتباع وأنصار كثيرون امتلأوا حماسة لدعوته الاعتزالية ، فرأى أن يتخذ منهم نفرا يتميز باللسن والفصاحة والخطابة والوعظ كما يتميز بالقدرة الجدلية على الدعوة للمبادىء الاعتزالية ، وفرّقهم

(١) انظر فى المعتزلة الملل والنحل للشهرستانى ص ٣١ وطبقات المعتزلة بتحقيق الأستاذ فؤاد سيد ص ٦٧ ، وكتابنا العصر العباسى الأول ص ١٣٤ وفضل الاعتزال ١١٠ ، ٢٢٧ ، ٢٣٧ .

على بلدان مختلفة من العالم الإسلامى ، وإلى ذلك يشير تلميذه صفوان الأنصارى فى مدحه له قائلا :

له خَلْفَ شعبِ الصِّينِ فى كل ثُغْرَةٍ إلى سوسها الأقصى وخلفَ البرابرِ
رجالٌ دعاةٌ لا يَفُلُّ عزيمَهم تهكُّمُ جبارٍ ولا كيدُ ماكرِ
وأوتادُ أرضِ الله فى كل بلدةٍ وموضعُ فُتْياها وعلمِ التشاجرِ

فهو قد أرسل دعاته الذين يفحمون خصومهم بالبراهين السديدة ويَعْلون عليهم كلما ناظروهم أو جادلوهم ويقول إن منهم دعاة تغلغلوا فى بلاد البربر إلى منطقة السوس . وفى كتاب فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة أن واصلا أنفذ إلى المغرب تلميذه عبد الله بن الحارث فتبعه الخلق ، وفيه أن المعتزلة حاربت مع إبراهيم بن عبد الله أخى النفس الزكية حين ثار على أبى جعفر المنصور وأن بشيرا الرحال المعتزلى قتل معه فى موقعة باخمرا سنة ١٤٥ هـ وأن أبناءه لحقوا بالمغرب وغلبوا على مدن فيه أظهروا فيها دعوة الاعتزال . وفى الكتاب نفسه أن للمعتزلة فى بلد تدعى البيضاء مائة ألف يحملون السلاح يُعْرَفون بالواصلية ، وفيه أيضا أنهم كثيرون فى طنجة ، وأن رئيسهم هناك إسحق بن محمود بن عبد الحميد هو الذى أيد إدريس بن عبد الله مؤسس الدولة الإدريسية حين ورد عليه وأنه أدخله فى الاعتزال وكأن الدولة كانت دولة معتزلة ، وأظن فى ذلك ضربا من المبالغة وكانوا كثيرين فى بلاد إدريس الثانى ، ولعله كان يعطف عليهم لنصرة أسلافهم لإبراهيم بن عبد الله أخى النفس الزكية ، ونجد ابنه محمدا يبنى جنوبى مدينة القصر الكبير مدينة يسميها البصرة ، ولعله بناها لهم ذكرى لمدينة أستاذهم واصل بن عطاء ومرَّ بنا فى الجزائر حديث مماثل عن المعتزلة ، ولم يفكروا هنا ولا هناك فى دولة أو ما يشبه الدولة .

(د) الظاهرية[1]

الظاهرية أو أصحاب المذهب الظاهرى ينسبون إلى أبى سليمان داود بن على بن خلف الأصبهانى الظاهرى المتوفى سنة ٢٧٠ للهجرة وكان فى أول أمره فقيها شافعيا يتعصب لمذهب الإمام الشافعى تعصبا شديدا ، ثم استقل عنه وأسس له مذهبا سمى مذهب أهل الظاهر ، وهو مذهب أساسه إنكار القياس فى الفقه ومسائل التشريع ، لأن القياس عقلى والدين إلهى ولا يحتكم فى الإلهى أو ما هو إلهى إلى العقل أو ما هو عقلى ، ويكتفى لبيان الأحكام التشريعية ما فى القرآن الكريم والحديث النبوى من عموم ، وتأسيسا على ذلك ينبغى الوقوف عند ظاهر الكتاب

(١) انظر النصوص الواردة فى المعيار للونشريسى (طبعة حجرية بفاس) ٣٦١/٢ وروض القرطاس لابن أبى زرع ١٩٥ والمعجب للمراكشى (طبعة القاهرة) ص ٣٥٤ وما بعدها ووفيات الأعيان لابن خلكان : ترجمة يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن .

والسنة وإغلاق الأبواب أمام القياس وجميع الآراء التى تُبْنَى عليه . وكُتِبَ لهذا المذهب أن يتحمس له عقل أندلسى هو عقل على بن أحمد بن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ/١٠٦٣ م وكان قد بدأ حياته الفقهية بدراسة مذهب مالك ثم تركه إلى مذهب الإمام الشافعى ثم آثر على مذهبيهما مذهب داود الظاهرى ، ولابن حزم فى الاحتجاج له ضد الأحناف والشافعية كتاب الإبطال للأصول الخمسة التى يأخذون بها ، وهى القياس والرأى والاستحسان والتقليد والتعليل ، فكل ذلك يجب إبطاله والاكتفاء بالكتاب والسنة .

وقد ازدهر هذا المذهب الظاهرى فى عصر دولة الموحدين ، إذ كانت تتخذه مذهبا فقهيا لها من دون المذاهب الفقهية الأربعة المشهورة لمالك وأبى حنيفة والشافعى وابن حنبل ، وحاول الأستاذ عبد الله كنون فى الجزء الأول من كتابه : « النبوغ المغربى فى الأدب العربى » الاستدلال بأن خلفاءهم أو حكامهم كانوا يدعون إلى الاجتهاد كأنه بذلك يريد نفى اعتناقهم لعقيدة الظاهرية ، ولا نستطيع أن نبطل شهادات القدماء الكثيرة بأن الموحدين كانوا ظاهرية ، من ذلك أن الونشريسى فى كتابه المعيار نعت ابن تومرت بأنه ظاهرى وأن ابن أبى زرع فى روض القرطاس فى سنة خمسين وخمسمائة يقول إن عبد المؤمن أمر بتحريق كتب الفروع ورد الناس إلى قراءة كتب الحديث أى أنه أمر بتحريق كتب المذاهب الفقهية الأربعة والاكتفاء بكتب الحديث ومعها القرآن طبعا وهى نفس نظرية المذهب الظاهرى ، وفى المعجب يقول الحافظ أبو بكر بن الجد : « لما دخلت على أمير المؤمنين أبى يعقوب (يوسف) أول دخلة دخلت عليه وجدت بين يديه كتاب ابن يونس (فى الفقه المالكى) فقال لى : يا أبا بكر أنا أنظر فى هذه الآراء المتشعبة التى أُحْدثت فى دين الله ، أرأيت يا أبا بكر المسألة فيها أربعة أقوال أو خمسة أقوال أو أكثر من هذا فأى هذه الأقوال هو الحق ؟ وأيها يجب أن يأخذ به المقلد ؟ فافتتحت أبين له ما أشكل عليه من ذلك ، فقال لى — وقطع كلامى : يا أبا بكر : ليس إلا هذا وأشار إلى المصحف أو هذا وأشار إلى كتاب سنن أبى داود وكان عن يمينه ، أو السيف » . ويذكر صاحب المعجب أن ابنه يعقوب المنصور أمر بحرق كتب المذاهب الأربعة لمالك وأبى حنيفة والشافعى وابن حنبل بعد أن يجرَّد ما فيها من حديث رسول الله ﷺ والقرآن ففُعل ذلك ، فأحرق منها جملة فى سائر البلاد كمدوَّنة سحنون وكتاب ابن يونس ونوادر ابن أبى زيد ومختصره وكتاب التهذيب للبراذعى وواضحة ابن حبيب وماجانس هذه الكتب ونحا نحوها . ولقد شاهدت — أنا يومئذ بمدينة فاس — يؤتى منها الأحمال فتوضع وتطلق فيها النار » ويعلق صاحب المعجب على ذلك بقوله : « كان قصده فى الجملة محو مذهب مالك من المغرب مرة واحدة وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث » ويقول ابن خلكان : « إنه أمر

برفض فروع الفقه كما أمر الفقهاء بأن لا يفتوا إلا بالكتاب والسنة النبوية ولا يقلدوا أحدا من الأئمة المجتهدين القدماء بل تكون أحكامهم بما يؤدى إليه اجتهادهم » . ولعل فى ذلك كله ما يثبت ثبوتا قاطعا أن دولة الموحدين كانت تعمل على نشر المذهب الظاهرى وتأمر العلماء برفض ماعداه من المذاهب ، وبحق يقول عبد الرحمن الفاسى فى كتابه بيوتات فاس : « إن ملوك الموحدين قد تحلوا بالمذهب المعروف لهم من إنكار الرأى فى الفروع الفقهية والعمل شرعا على محض الظاهرية ، وجرَوْا على ذلك سنين بطول إيالتهم (حكمهم) إلى أن انقرضوا ، أولهم فى ذلك مهديهم (ابن تومرت) أول ملوكهم» . وبمجرد أن انتهت دولة الموحدين عاد المذهب المالكى فى المغرب الأقصى إلى النشاط والازدهار حتى اليوم .

٥

الزهاد – المتصوفة

(أ) الزهاد

المسلمون من قديم – يستشعرون الزهد فى حطام الدنيا ومتاعها الفانى أملا فى السعادة بالدار الآخرة يوم القيامة ، يوم يحاسب كل امرىء على ما قدمت يداه ، فإن كان عمله صالحا وازدرى الدنيا وأقبل فيها على الزهد والتقشف كان جزاؤه من ثواب الله موفورا وسعد فى آخرته السعادة الكبرى . وكان ذلك شعار الصحابة فى الفتوح ، فهم لا يفتحون البلاد طلبا للمغانم وإنما لإعلاء دين الله ، ودائما نسمع بينهم عن كثير من الأتقياء ، فالآخرة هى التى تهمهم ، ولم يكونوا زاهدين زهدا متطرفا ينسيهم الدنيا والعمل فيها ، بل كان غالبا زهدا معتدلا يعتد بالمصالح الدنيوية مع الاتجاه إلى الله ، مما جعلهم ينفقون أموالهم فى أعمال البر وعَوْن الفقراء . ونجد هذا الزهد شائعا فى العالم الإسلامى . وقليلا قليلا أخذ أناس يستشعرون الزهد الخالص ، ويعيشون له منقطعين لعبادة ربهم ، ويمكن أن نجد أمثلة منهم فى جبال المغرب الأقصى الكثيرة حيث يعيشون على ما بها من ماء وثمار . وكان بين فقهاء المدن وأهلها أيضا كثيرون من هؤلاء الصلحاء الزهاد ، ونضرب مثلا لهم القاضى ابن محسود[1] الهوارى وكان من قضاة العدل وأئمة الفضل زاهدا فى الدنيا مقبلا على الله تعالى على قدم التجريد ، ولما مات لم يترك غير سجادة مصلاه وقَعْب يتوضأ فيه ومصحفه الذى كان يتلو فيه كتاب الله . ونضرب مثلا ثانيا بالتاجر محمد بن إبراهيم المهدوى الفاسى الزاهد صاحب كتاب الهداية الذى أقام بجامع القرويين أربعين سنة لم تفته فيها صلاة جماعة ، وكان يملك أربعين ألف

(١) انظر فيه وفيمن يليه من الزهاد القرطاس لابن أبى زرع ص ١١٧ ، ١٧٠ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٧٠-٢٧٢ وفى هامش القرطاس مع ابن محسود وأبى جبل وابن حرزهم وعثمان السلالجى ويسكر . ومن مراجع تراجمهم التشوف وجذوة الاقتباس وسلوة الأنفاس .

دينار أنفقها كلها في سبيل الخير ، وأصابت أهلَ مدينته : فاس مجاعة وكان عنده ألف وَسْق (حمل بعير) من تمر فباعه كله للمحتاجين الضعاف بوثائق وأخرهم بالثمن إلى أجل ، فلمّا حل الأجل استدعاهم إلى منزله ، فرمى بالوثائق جميعا في الماء ، وقال لهم : أنتم منها الآن في حِلٍّ ، فإني ما بعت لكم ولا أعطيتكم إلا مال الله تعالى . وينتعش الزهد في عصر المرابطين ، ونشعر إزاء كثيرين من زهاد هذا العصر أنهم كانوا مقدمات لانتشار نزعة التصوف في المغرب الأقصى مثل أبي جبل المتوفى سنة ٥٠٣ هـ/ ١١١٠ م وكان كثير السياحة في الأرض . ويتكاثر الزهاد في عصر الموحدين مثل ابن حرزهم المتوفى سنة ٥٥٩ هـ وأبي عبد الله السلالجي الأصولي المتوفى سنة ٥٦٤ هـ/١١٦٨ م ومثل يسكر الغفجومي المتوفى سنة ٥٩٨ وكان ورعا فاضلا ومثل أبي عبد الله المعروف بابن تخميست المتوفى سنة ٦٠٨ هـ/١٢١١ م وكان كثير الورع شديد الانقباض عن الناس . ويكتظ كتاب التشوف إلى معرفة رجال التصوف لابن الزيات يوسف بن يحيى المتوفى سنة ٦٢٨ هـ/١٢٣٠ م بكثيرين من الزهاد ، ألفه سنة ٦١٧ هـ/ ١٢٢٠ م وهو يشتمل على مائتين وسبع وسبعين ترجمة أكثرهم من أهل مراكش ، غير أنه لم يترك بلدا في المغرب الأقصى إلا ذكر منها رجالا ، ويسميهم في مقدمته صلحاء ، وهم في جمهورهم زهاد ونساك المغرب الأقصى حتى زمنه . وحرى بنا أن نذكر أن الشعراء أخذوا يفردون للزهد بابا في دواوينهم على نحو ما نجد عند أبي الربيع الموحدى . وكما يقفنا كتاب التشوف على الزهاد في عصر الموحدين نجد عبد الحق بن إسماعيل يؤلف في العهد المريني بأخرة من القرن السابع كتابا عن صلحاء أو زهاد الريف ، وفي الجزء الثاني من كتاب الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى للأستاذ محمد بن تاويت تحليل له ، وهو يرمز إلى اطراد الزهد في عصر المرينيين ، وظل مطردا في عصر السعديين ويذكر الأستاذ كنون منهم الهبطي الطنجي عبد الله بن محمد المتوفى سنة ٩٦٣ هـ/١٥٥٦ م وينقل عن الدوحة أنه كان آية من آيات الله تعالى في الزهد واتباع السنة والانزواء عن الدنيا وتعليم العلم ، ومثله ابن خجو المتوفى سنة ٩٥٦هـ/١٥٤٩م ويظل للزهد رجاله المشهورون في عصر العلويين .

(ب) المتصوفة

من قديم أخذ كثيرون من زهاد الأمة وأتقيائها يبالغون في نسكهم فارضين على أنفسهم تلاوة القرآن وذكر الله وتسبيحه ، كما فرضوا على أنفسهم المبالغة في التوكل على الله والثقة به ، ثقة تملأ النفس طمأنينة . ومع مرور الزمن أخذ كثيرون من هؤلاء الواثقين المتوكلين يهملون أمور الدنيا ومعاشهم ، فهم لا يهتمون بكسب القوت ، لأن السعي له يفضي إلى فقدان التوكل والثقة في الله ، ومع الزمن أخذوا ينبذون طيبات الدنيا ومباهجها مرددين قول الرسول ﷺ : « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا (جائعة) وتروح بطانا (ممتلئة) » . وأخذ هذا التعمق في التوكل والثقة بالله يتحول تدريجا إلى نزعة التصوف ،

ويقال إن مؤسسها هو الحارث بن أسد المحاسبي البغدادي المتوفى سنة ٢٤٣ هـ/٨٥٧ م ويقال بل مؤسسها الذي أودع فيها فكرة الحب الإلهي ذو النون المصري المتوفى سنة ٢٤٥هـ/٨٥٩م . ولم يلبث أن ظهر الحلاج في مطلع القرن الرابع الهجري وظهر معه التصوف الفلسفي وكل ما يتصل به من أفكار الحلول والاتحاد مع الله ، وتظل أفكاره تشيع بين المتصوفة وتكون سببا في القطيعة بين الفقهاء والمتصوفة إذ يرمونهم بالكفر إلى أن ظهر القشيري والغزالي في القرن الخامس الهجري ، وأصلحا ما بين الفئتين ، وانقسم التصوف منذ هذا التاريخ إلى تصوف فلسفي به إشعاعات من أفكار الحلاج ، وتصوف سني أخذت تتكون فيه وتشيع طرق صوفية سنية مثل طريقة عبد القادر الجيلاني وأحمد الرفاعي . وأخذت الأندلس تتأثر بالتصوف على نحو ما هو معروف عن ابن مسرة ، وبعده عند ابن برجان وابن العريف ، ثم عند الشوذي وابن عربي وابن سبعين والششتري على ما نحو ما أوضحنا ذلك في كتابنا عن الأندلس . أما المغرب الأقصى فإنما شاع فيه التصوف السني وما يمثله من مثل طريقة أبي الحسن الشاذلي .

وأول ذكر لمتصوفة المغرب نجده عند بعض من ترجموا لنساكه ، وكان جمهورهم — في رأيي — نساكا يقصرون حياتهم على النسك والعبادة ، ومنهم كما جاء في كتاب النبوغ المغربي ابن حرزهم علي بن إسماعيل المذكور بين الزهاد . وقد تعلم على يديه أبو مدين الصوفي المشهور وقرأ عليه كتاب الرعاية للمحاسبي . ونظن أنه كان عابدا ناسكا فحسب ، إذ يقول مترجمو أبي مدين أنه أخذ التصوف عن أبي عبد الله الدقاق الصوفي لا عنه . ومنهم أبو العباس السبتي المتوفى سنة ٦٠١ هـ/١٢٠٤ م ، وكان لا يترك لنفسه شيئا إلا قدر ما يقوته هو وأسرته في يومه والباقي يتصدق به ، وكان ناسكا وِرْده القرآن يتلوه آناء الليل وأطراف النهار ، وكان بارًّا باليتامى والمساكين . وهي حياة زاهد في رأيي لا صوفي . ومثله عبد السلام بن مشيش الحسني وكان تقيا صالحا عالما ، وسأله سائل عن أوراد يعمل بها ظانا أن له وردا مثل الصوفية ، فقال مستنكرا أرسول أنا ؟ الفرائض مشهورة ، والمحرمات معلومة ، فكن للفرائض حافظا وللمعاصي رافضا واحفظ نفسك من ابتغاء الدنيا وحب النساء وحب الجاه وإيثار الشهوات واقنع بما قسم الله لك ، وهي إجابة زاهد لا صوفي ، وإن كان قد درس على يديه الشاذلي صاحب الطريقة الصوفية المشهورة . ومثله أبو الحسن المسفِّر معاصره وإن كان قد ذكر ابن عربي أنه لقيه في كتابه « محاضرات الأبرار » لأن مجرد لقاء ابن عربي له لا يدل حتما على أنه صوفي ، إنما هو ناسك . وربما كان الصوفي الحقيقي في عصر الموحدين يلنور بن ميمون أبو يعزى[1] المتوفى سنة ٥٧٢ هـ/١١٧٦ م عن مائة وثلاثين سنة ، أمضى منها عشرين سنة سائحا في الجبال بمنطقة مراكش ، ثم رحل إلى ساحل المحيط فأقام به ثماني عشرة سنة لا يأكل إلا من نبات

(١) انظر في أبي يعزى روض القرطاس ص ٢٦٧ وجذوة الاقتباس لابن القاضي ص ٣٥٤ .

الأرض . وإنما نرجح أنه كان صوفيا لأن مترجمى أبى مدين الصوفى المشهور يقولون إنه سلك الطريقة الصوفية على شيخ المشايخ أبى يعزى إلى أن وصل وحقق وأدرك ، ومن الصوفيين المشهورين فى عصر المرينيين الشيخ زرّوق[1] المتوفى سنة ٨٦٩ هـ/١٤٦٤ م وله نحو عشرين مؤلفا فى التصوف منها قواعد التصوف وعدة المريد وعلى شاكلته أحمد الصومعى فى عصر السعديين وله فى أبى يعزى كتاب بعنوان : المعزا فى مناقب الشيخ أبى يعزى وعدة مؤلفات أخرى فى التصوف .

ونحن لا نصل إلى القرن التاسع الهجرى فى التصوف حتى يصيبه فى المغرب الأقصى ما أصابه فى البلاد الإسلامية الأخرى من كثرة المدَّعين الجهلاء له ، وزعمهم أنه لا يحتاج إلى دراسة إذ تكفى فيه المعرفة الروحية الربانية ، وتخلى كثيرون منهم عن فروض الإسلام ونوافله ، فحسبهم العبارات والشعائر التى يأخذونها عن شيوخهم ، وأباحوا لأنفسهم كل المتع مقيمين لأنفسهم حفلات ذكر يتواجدون فيها وقد يشقّون ثيابهم ويمزقونها بتأثير ما يسمعون من أغان على الذكر تصور الوجد الملتاع . وكان الناس يكبرونهم إذ يزعمون لهم أن بينهم القطب الذى اختاره الله ، كما يزعمون أن بينهم أربعين واصلين مثله يسمونهم الأوتاد ، وإذا مات القطب حل أحد الأوتاد محله . ومما زاد فى خروج الصوفية عن الجادَّة وتجاوزهم لحدود الشرع انتشار مذهب الملامتيَّة[2] الإيرانى بينهم وهو مذهب كان معتنقوه يصنعون كل ما يوجب اللوم لهم مما يعد محرما ومخجلا لأقصى درجة ، إذ يرون أن يشتهروا بين الناس أنهم لا يؤدون شعائر الدين وفروضه ، وإن أدوها فعلا ، كما يريدون أن ينعتوهم بأنهم لا يتمسكون بنواهيه ، حتى يذمهم الناس أشنع ذم ، وحتى يحتقروهم إلى أقصى حد ، وهم بذلك ملامتية أى أهل الملامة ، تأخذ بهم من كل وجه ، ولذلك حاربت الدولة العثمانية هذه الجماعة بالجزائر فى عهد الدولة السعدية أشد حرب حتى كادوا يقضون عليها . وللمنصور الذهبى رسالة إلى السلطان مرادخان العثمانى يهنئه بالقضاء على تلك الفئة ، وحاربها هو فى المغرب الأقصى ومن خلفوه من السعديين ولكن يظهر أنهم لم يستطيعوا القضاء عليها قضاء مبرما .

على كل حال كان انتشار مذهب الملامتية فى المغرب الأقصى من أسباب انحراف التصوف والصوفية ، مما جعل كثيرين من العلماء يذمون ما آل إليه من تخطى الشريعة والخلق الحميد ، ويدعون إلى محاربة البدع التى شاعت فيه ، ويدعو إلى ذلك بعض الصوفية والنساك المتمسكين بأوامر الدين ونواهيه مثل الهبطى الطنجى المار ذكره فإن له ألفية بناها على النصح والإرشاد وحمل فيها حملة شديدة على متصوفة عصره وما يرتكبون من المنكرات .

---

(١) راجع فى الشيخ زروق كتاب النبوغ المغربى ص٢١٧ ، ٢٢٨ .

(٢) انظر فى الملامتية كتاب الوافى بالأدب العربى فى المغرب الأقصى ٣/٦٩٠ وما بعدها وراجع تاريخ الأدب العربى فى إيران بالجزء الخامس من هذه السلسلة ص٥١٧ ..

الفصل الثالث

الثقافة

١

الحركة العلمية

(أ) فاتحون ناشرون للإسلام ومعلمون

مرَّ بنا – فى الحديث عن الثقافة بالجزائر – أن فتوح العرب للمغرب حوّلته بعد قرن واحد إلى شعب عربى ، وقد نزل الفينيقيون دياره وظلوا به نحو ستة قرون أو تزيد ، ولم يستطيعوا تحويله إلى لغتهم وحضارتهم ، وبالمثل ظل به الرومان ستة قرون أخرى – وخلفهم البيزنطيون نحو قرن – ولم يستطيعوا أن يحولوه إلى لغتهم ودينهم المسيحى وحضارتهم . وكأنما كانت هناك معجزة هيأت للمغرب – مهما اختلفت أقطاره وتباينت – هذا التحول إلى العرب والعروبة ، وليست المعجزة إلا أن العرب الفاتحين لم يكونوا يبتغون النهب والسلب لخيرات الأرض المفتوحة ، إنما كانوا يبتغون نشر الدين الحنيف ، مما جعل جماهيرهم تستحيل إلى معلمين يحفّظون المغاربة بعض آيات القرآن الكريم وسوره وبعض مبادىء العربية وبعض تعاليم الإسلام . ومن تمام هذه المعجزة أن المغاربة وجدوا هذا الدين السمح يسوّى بين حملته الفاتحين وبين الشعوب المفتوحة ، فلا سيد ولا مسود ولا استنزاف لخيرات البلاد ، والجميع عربا وبربرا متساوون فى الحقوق والواجبات فأخذوا يدخلون فيه أفواجا : فوجا وراء فوج .

وكان هذا الدين الحنيف يدعو بقوة إلى العلم والتعليم ، ومعروف أن أول ما أُنزل منه على الرسول ﷺ : ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من عَلق ، اقرأ وربُّك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم﴾ فالدعوة إلى العلم والتعليم تقترن بأول ما نزل من الذكر الحكيم . ويشيد القرآن بالعلم والعلماء مرارا فى مثل : ﴿وقل ربِّ زدنى علمًا﴾ ومثل : ﴿قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ . ولذلك لا نعجب إذا رأينا الفاتحين فى الأقطار المغربية يتحولون إلى معلمين للشعوب البربرية ، يعلمونها مبادىء الإسلام والعربية ، ويتجرد منهم كثيرون للجلوس فى غرف ملحقة بالمساجد أو فى المساجد نفسها لتعليم القرآن وسموها الكتاتيب ، وكانوا يلقون عليهم فيها بعض الأحاديث النبوية وبعض الأشعار .

وأخذ كثيرون يتجردون لإلقاء المواعظ فى المساجد وتفسير بعض السور والآيات الكريمة وذكر بعض الأحاديث النبوية مع شىء من التعليق عليها وبعض الأحكام الفقهية . وبذلك نشأ

التعليم فى الأقطار المغربية – مثل بقية الأقطار العربية – معتمدا على الكتاتيب لتعليم الناشئة وعلى المساجد ليتلقى فيه من يكبرونهم دروسًا فى التفسير والحديث والفقه والعربية ، وتمضى هاتان الصورتان من التعليم ، حتى إذا كنا فى القرن الخامس أخذت تنضم إلى الكتاتيب والمساجد مؤسسة جديدة هى المدارس والمعاهد ، ويتنافس معلموها أو شيوخها وشيوخ المساجد ، مما أثرى الحركة العلمية ،حتى إذا كنا فى القرن الثامن الهجرى أخذت تظهر مؤسسة ينافس شيوخها شيوخ المدارس والمساجد ، وهى مؤسسة الزوايا ، وحرى أن نخص كل دار من هذه الدور العلمية بكلمة .

(ب) دور العلم : الكتاتيب – المساجد – المدارس – الزوايا – المكتبات

الكتاتيب

انتشرت الكتاتيب – منذ القرن الأول الهجرى – فى كل بلد وقرية كبيرة أو صغيرة فى الوديان وعلى سفوح الجبال ، ويقول ابن خلدون بمقدمته فى الفصل الخاص بتعليم الناشئة فى الكتاتيب « إن هذا التعليم شعار من شعائر الدين أخذ به المسلمون ودرجوا عليه فى جميع أمصارهم ، لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده عن طريق آيات القرآن وبعض متون الأحاديث ، وصار القرآن أصل التعليم الذى ينبنى عليه ما يحصل بعد من الملكات » . ثم يقول :« إن مذهب أهل المغرب (الأقصى) الاقتصار على تعليم القرآن فقط وأخْذ الناشئة فى أثناء دراسته برسم ألفاظه ، ويقول إنهم لا يخلطون ذلك بتعليم شىء من حديث أو فقه أو شعر حتى تجاوز الناشئة حد البلوغ إلى الشبيبة (الشباب) ، بخلاف أهل إفريقية التونسية فإنهم يخلطون فى تعليمهم للناشئة القرآن بالحديث فى الغالب ومدارسة قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها .

فالكتاتيب فى المغرب الأقصى إذن لم تكن تعنى بشىء سوى تحفيظ القرآن وتعليم رسم الآيات وما يتصل بذلك من الخط ، ويقول الحسن الوزان فى حديثه عن الكتاتيب بفاس إن بها مائتى كتَّاب ، ويشتمل كل كتاب على قاعة كبيرة مع درجات تستخدم كمقاعد للأطفال ، والمعلم يعلمهم القراءة والكتابة لا فى كتاب معين ، وإنما يستعين بألواح خشب كبيرة تكتب عليها الناشئة ما تحفظه من الآيات . ويختم الناشىء القرآن فى نحو سبع سنوات ، ويعلمه المعلم الخط ، وحينما يصل إلى إجادة جزء لا بأس به من القرآن يقدِّم أبوه هدية لمعلمه ، وحينما يختمه يصنع أبوه وليمة فاخرة لكل زملائه فى الكتَّاب ، ويقدم لمعلمه كسوة جديدة . ويقول الوزان إن للناشئة – مثل طلاب المعاهد – يومين فى الأسبوع للراحة لا يختلفون فيهما إلى الكتاتيب .

ويذكر الأستاذ كنون – كما أشرنا إلى ذلك فى غير هذا الموضع – أن المرأة المغربية هى التى كانت تقوم فى ميدان التعليم الأولى بتعليم الناشئة ذكورا وإناثا ، وأنه لم يكن يخلو حَىّ من دار معلمة وتسمى فقيهة ، ويذكر الحسن الوزان عن مدينة فى إقليم نوميديا أن النساء فيها هن اللائى يعلمن الأولاد ذكورا وإناثا حتى سن الثالثة عشرة ، ويبدو أن ذلك كان سنة متبعة فى المغرب الأقصى جميعه من قديم .

المساجد

كانت الناشئة حين تنجز حفظها للقرآن الكريم تتجه إلى حلقات الشيوخ فى المساجد لتتلقّى ما يُلقى بها من تفسير للذكر الحكيم ورواية للحديث النبوى وتعاليم للشريعة ودراسات للعربية وتاريخ للرسول والأمة العربية . وكان القائمون على الدروس فى هذه الموضوعات يختلفون ، فمنهم من يعطى مبادىء فى هذه الدراسات ، ومنهم من يعطى دروسا متعمقة لمن ثقفوا المبادىء واستوعبوها وخاصة فى الجوامع الكبيرة بكل بلدة . وكانت هذه الجوامع تعد مراكز الإشعاع الفكرى فى كل مكان ، ونلتقى بها فى كل بلدان المغرب الأقصى الكبرى مثل سبتة وطنجة وأصيلا وتازه وسجلماسة . ويذكر الحسن الوزان أن فى فاس ستمائة مسجد منها خمسون كبيرة جميلة البنيان مزدانه بالأعمدة والفسيفساء والخشب المنقوش مع تبليطها بالرخام أو ما يشبهه من الميورقى .

ويفصّل الحسن الوزان الحديث عن جامع القرويين بفاس الذى بُنى فى عهد الدولة الإدريسية سنة ٢٤٥ هـ/٨٦٠ م ويُعَدّ أقدم جامعة علمية فى العالم العربى . وعلى نحو ما أحدث الأزهر فى القاهرة من نهضة علمية فى مختلف العصور كذلك أحدث جامع القرويين نهضة مماثلة لا فى فاس وحدها بل فى المغرب الأقصى جميعه . ويذكر الوزان أن محيط هذا الجامع يبلغ ميلا ونصفا وأن له واحدا وثلاثين بابا كبيرا عاليا ومنارته عالية جدا ويوقد فيه كل ليلة ستمائة سراج ، وعلى طول الجدران كراسى من مختلف الأنواع ، يلقى منها طائفة من الأساتذة على الشعب محاضرات روحية فى أمور دينه وشريعته . وكانت تبدأ هذه المحاضرات بعد صلاة الصبح وتنتهى بعد شروق الشمس بساعة . وقد ألف الدكتور عبد الهادى التازى عن هذا الجامع موسوعة كبيرة تحدث فيها بالتفصيل عن جوانبه المعمارية والثقافية ومكانته فى العلم والفكر المغربيين فى مختلف الأزمنه . وعلى نحو ما ذكر الحسن الوزان من تفصيلات عن جامع القرويين دوَّن تفصيلات مماثلة عن جامع على بن يوسف بن تاشفين أمير المسلمين بمراكش وقد هدمه عبد المؤمن مؤسس دولة الموحدين وشيَّد مكانه جامعا آملا أن يشيع عليه اسمه محل اسم على بن يوسف ولكن الناس ظلوا يسمونه باسمه القديم ، وبنى عبد المؤمن جامعا بجوار قصبة مراكش ، وقد اعتنى به حفيده يعقوب وزينه بأعمدة جلبها من الأندلس ، وشيَّد له منارة فى منتهى

الروعة كمنارة الخيرالدا التى شيدها فى جامع إشبيلية ،وترى زوجته بعد أن شيَّدها أن تبيع حليها الذهبية الخاصة وما تملك من أحجار كريمة وكل ما قدمه لها زوجها عند اقترانه بها ، وتأمر – كما ذكرنا فى غير هذا الموضع – أن يصنع بثمنها جميعا ثلاث تفاحات ذهبية تعلو قمة المنارة ليكتمل رونقها . وطبيعى أن تزدهر الدراسات الدينية واللغوية بهذين الجامعين فى عصر الموحدين وبعدهم وأن ينافسا جامع القرويين فى الحركة العلمية ، وتنافسه معهما الجوامع الكبرى فى سجلماسة وتارودنت ومكناس وتازة وسبتة وطنجة وأصيلا وسلا . وكانت لهذه الجوامع أوقاف تدرُّ عليها ما يفى بالنفقة على شيوخها وتلاميذها .

المدارس

معروف أن أول من أشاع نظام المدارس فى المشرق نظام الملك وزير السلطان السلجوقى ألب أرسلان (٤٥٥ – ٤٦٥ هـ) إذ شيدَّ طائفة منها فى بلدان مختلفة بالعراق وإيران ، ووقف على كل مدرسة أوقافًا كثيرة تفى بنفقات أساتذتها وطلابها ومكتباتها وعيَّن فى كل مدرسة أساتذة فى مختلف العلوم الدينية واللغوية والرياضية وكانت كل مدرسة من هذه المدارس تسمى بالنظامية ، وأشهرها نظامية بغداد ، وقد زارها ابن بطوطة سنة ٧٢٧ ووصف ما بها من الحياة العلمية . وطارت شهرة هذه المدارس النظامية فى العالم الإسلامى منذ تأسيسها ، ونرى يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين الحصيف (٤٥٣ – ٥٠٠ هـ) يؤسس بمدينة فاس مدرسة عُرفت – كما يقول الأستاذ كنون فى النبوغ المغربى – باسم مدرسة الصابرين .

ونظن ظنا أنه لابد أن شيدَّ مدرسة ثانية فى عاصمته مراكش .فإذا تحولنا إلى عصر الموحدين وجدنا الأستاذ المنونى يذكر فى كتابه : « حضارة الموحدين » : أن عبد المؤمن مؤسس الدولة أسس فى مراكش مدارس ، منها مدرسة لإعداد الموظفين فى الدولة ، ومدرسة خاصة بتعليم أمراء الموحدين ، وأسَّس مدرسة بالرباط لتعليم فن الملاحة ، وعُنى حفيده يعقوب الموحدى بتأسيس المدارس لا فى المغرب الأقصى فحسب ، بل أيضا فى إفريقية التونسية والأندلس . ويتحدث الحسن الوزان عن مدرسة شيُدت فى عهد الموحدين – ولعلها شيدت فى عهد يعقوب – بقصبة مراكش ويقول إنها أشبه بمؤسسة ، إذ يلحق بها مساكن للطلاب ، وفى رأيى أنه كان بها مساكن أيضا للأساتذة . ويقول إنها تشتمل على ثلاثين غرفة وفى الطابق الأرضى قاعة كانت تُلْقَى فيها الدروس فى الماضى ، وكان التلميذ فى هذه المدرسة يُعْفَى من المصاريف ، ويُعْطَى كسوة ، وكان الأساتذة يتقاضون راتبًا شهريا فيها بين مائة ومائتى دينار حسب طبيعة الدروس التى يقومون بها . ويذكر أن مبنى المدرسة كان مزينا بالفسيفساء البديعة وزخارف متنوعة . ويقول الوزان إنه كان بها فى الماضى عدد كبير من الطلاب ، وقلوّا الآن أى فى القرن العاشر الهجرى قلة شديدة ، ويقول فى القصبة قصر مزخرف كان مدرسة لأبناء الخليفة

وأبناء أسرته . وبأخرة من عهد هذه الدولة نجد المحدث الكبير أبا الحسن الشارى السبتى المتوفى فى سنة ٦٤٩ يشيد مدرسة بسبتة ويقف عليها من خيار أملاكه وعقاراته ما يفى بالإنفاق عليها ، ويلحق بها مكتبة نفيسة .

واتسع تشييد المدارس وتأسيسها فى عهد الدولة المرينية ، ويقول ابن مرزوق فى كتابه عن السلطان أبى الحسن المرينى المسمى بالمسند الصحيح أن السلطان عثمان أبا سعيد والد أبى الحسن أنشأ بفاس مدرستى العطارين والمدينة البيضاء الملحقة بفاس وأن أبا الحسن ابنه أنشأ مدرسة الصهريج فى الشطر الأندلسى ومدرسة داخل جامع القرويين فى الشطر المقابل وتعرف باسم مدرسة مصباح أول أساتذتها ، وأنشأ مدرسة ثالثة فى الوادى كما أنشأ فى كل بلد من بلدان المغرب الأقصى وما تبعه من بلدان المغرب الأوسط (الجزائر) مدرسة : فى مكناس وتازة وسبتة وأنفة وأزمّور وأسفى وأغمات ومراكش ووقف عليها أوقافًا كثيرة وألحق بها مكتبات نفيسة . ويقول الحسن الوزان بأخرة من عهد المرينيين إن فى فاس وحدها إحدى عشرة مدرسة ، وقد تحوى المدرسة مائة غرفة أو أكثر ، ولجميع الأساتذة رواتب ممتازة ، ويذكر أن بمكناس ثلاث مدارس وكذلك بتازة ، ويذكر طريقة التعليم فى تلك المدارس لعهده ، فيقول إن الأستاذ يكلف تلميذا فى بدء الدرس بقراءة النص ، ثم يأخذ فى تفسيره وبيان دلالات كلمه مضيفا إليه بعض آرائه مع بيان ما يوجَّه إلى النص من اعتراضات ، ويتحاور الطلاب ويتناقشون فى معانى النص ودلالاته ، ويشترك الأستاذ معهم فى المناقشة والحوار .

وواضح أنه لم ينته العصرالمرينى إلا وكان المغرب الأقصى فى أواخر هذا العصر قداكتظ بالمدارس وبما تخرَّج من شباب العلماء فى كل فن وعلم ، ولعل هذا ما جعل المؤرخين لا يعنون بالحديث عما أنشأ السعديون والعلويون فيما بعد من مدارس إذ كانت سُنَّة أوفريضة متبعة .

الزوايا

لم يكن المغرب الأقصى يعرف الزوايا المتعلقة بالمتصوفة والنساك قبل القرن السابع الهجرى إذ كان يطلق عليها اسم أربطة جمع رباط مثل رباط عبدالله بن ياسين الذى تنسك فيه مع بعض رفاقه كما مرَّ فى حديثنا عن قيام دولة المرابطين . وربما كانت أول زاوية عرفها المغرب الأقصى زاوية أبى محمد صالح التى أقيمت فى منتصف القرن السابع الهجرى بمدينة آسفى على المحيط : ويقال بل كانت تسمى رباطا وأن الزوايا إنما أخذت تعرف بالمغرب الأقصى فى القرن الثامن الهجرى على نحو ما يذكر ذلك ابن مرزوق فى كتابه عن السلطان المرينى أبى الحسن وإنشائه الزوايا ، ومع ذلك لم يذكر له زاوية أنشأها ، وذكر زاوية أبى زكريا يحيى بن عمر بسلا .

وفى كتاب الشعر الدلائى للسيد عبد الجواد السقاط زاوية أسست بدرعة فى القرن الثامن

الهجرى باسم زاوية سيد الناس محمد ﷺ . وأخذت الزوايا تتكاثر فى المغرب الأقصى منذ القرن العاشر الهجرى حينما ضعفت الدولة المرينية وأخذ البرتغاليون والإسبان يستولون على أطراف المغرب الأقصى على المحيط والبحر المتوسط وكأنما المغاربة يئسوا من الدولة وحكامها ، فأخذوا يلتفون حول شيوخ المتصوفة آملين أن يجدوا بينهم من يصلح أحوال البلاد ومن يحسن قيادتهم ضد أعدائها الخاسئين ، وأسهموا بقوة فى بناء الزوايا بكل بلدة ، وكانت الزاوية تضم الشيخ ومريديه ، وأخذت سريعا لا تقتصر على مكان للعبادة بل أصبحت أشبه بمسجد وتضم إليها مبانى لسكنى شيخها أو شيوخها ومريديهم . وأيضا فإنها لم تعد مكانا للنسك فحسب بل أصبحت مكانا للتعليم ومدرسة يتخرج فيها كثيرون ، وكانت تلقى بها خطب حماسية لإلهاب حمية الشباب فى مقاومة الأعداء المحتلين للديار والانقضاض عليهم والعصف بهم حتى لا تبقى منهم باقية ، ومرَّ بنا مدى جهاد هذه الزوايا وأصحابها فى طرد المحتلين والتنكيل بهم ، وطبيعى أن يُعَدّ فى كل زاوية طعام لمن بها ولقصَّادها . وعدَّ الأستاذ عبد الجواد السقاط فى مقدماته للزاوية الدلائية أربعين زاوية منتشرة فى بلدان المغرب الأقصى وصحاريه ، وفى رأينا أنها تزيد عن ذلك كثيرا . وتحول بعضها إلى ما يشبه مؤسسة كبيرة ، بل مدينة تامة على نحو ما يلقانا فى الزاوية الدلائية وقد أفرد الأستاذ السقاط مجلدًا كبيرًا للحديث عن الحركة الشعرية بها وقدم لها بمقدمة عن تاريخها والجوانب الثقافية إذ كانت تدرس فيها العلوم الدينية واللغوية وعلوم الأوائل وكأنها جامعة صغرى مما يدل بوضوح على إسهام الزوايا بالمغرب الأقصى فى الحركة العلمية بجانب العناية بالأدب والشعر .

المكتبات

لا ريب فى أن المكتبات تعد أعظم المؤسسات العلمية ، إذ تحمل التراث العلمى والأدبى جميعه للأمة وتفتح أبوابها يوميًّا وتقدم كنوزها لطلاب العلم والأدب وشيوخهما ، ولن أستطيع تصوير أهميتها فى سطور معدودة ومعروف أنه كان بكل جامع فى كل بلد مكتبة ، وقد أحصى الدكتور محمد حجى فى كتابه : الحركة الفكرية فى المغرب لعهد السعديين اثنتى عشرة مكتبة عامة بفاس منها اثنتان إحداهما مكتبة القرويين المليئة بالنفائس والكنوز من مثل تاريخ ابن خلدون بخطه ، وعدَّ بمراكش أربع مكتبات وبزاوية الدلاء مكتبة وبالمثل فى بعض المدن الكبرى . وعدَّ من المكتبات الخاصة خمس عشرة مكتبة ، منها مكتبة آل الغرديس بفاس استعان بها فقيه الجزائر الكبير أحمد بن يحيى الونشريسى المتوفى سنة ٩١٤ فى تأليف موسوعته الفقهية الكبرى : « المعيار » المنشورة فى ستة مجلدات . وكان قد أورثهم جدهم فى القرن الرابع الهجرى بكار بن عيسى الغرديسى شرفًا عظيما إذ كان أول من حمل صحيح البخارى إلى المغرب الأقصى وعنه حمله كثيرون .

(جـ) نمو الحركة العلمية

تأخذ الحركة العلمية بالنمو فى المغرب الأقصى منذ قامت الدولة الإدريسية ، فإنه نزل بفاس فى عهد إدريس الثانى كثيرون من أهل الأندلس الذين قادوا الثورة ضد الحكم الربضى ويقال إنهم كانوا نحو أربعمائة أسرة وكان بينهم كثيرون من الفقهاء ، إذ كانوا هم أصل تلك الثورة ، وشغلوا شطرا من فاس سمى بالعدوة الأندلسية ، وسرعان ما أخذ فقهاء الجامع يلقون فيه دروسهم منذ أواخر القرن الثانى وأوائل الثالث للهجرة ،حتى إذا كنا فى منتصف هذا القرن-وبنت السيدة الجليلة فاطمة أم البنين الفهريَّة جامع القرويين فى عدوة فاس المغربية المقابلة أخذ شيوخ الجامعين يتنافسون فى تعليم الشباب الفاسى ، ويظل لهذا النشاط العلمى آثاره فى المغرب الأقصى بعد القضاء على الدولة الإدريسية بفاس فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، ويعود هذا النشاط بقوة فى عهد المرابطين الذين قاموا لإنقاذ المغرب الأقصى مما كان فيه من فئات ضالة كبقايا الصفرية فى سجلماسة وبعض الأنحاء وكالمعتزلة فى البصرة والشمال الغربى وكالبرغواطية فى تامسنة وكالبجلية الشيعية الروافض فى ترودنت بالسوس وبذلك وحَّدوا المغرب الأقصى وأخذوا يردونه إلى أحضان السنة باعثين فيه حركة علمية ناشطة ، وما إن توافى سنة ٤٧٩ هـ/١٠٨٦ م وحتى ينزل أمير المرابطين يوسف بن تاشفين على رأس جيش ديارَ الأندلس ويهزم ألفونس أمير قشتالة ونصارى الإسبان وأوربا معه هزيمة ساحقة فى الزلاقة ، ويضم الأندلس إلى دولته المغربية . ومن حينئذ تنمو الحركة العلمية فى المغرب الأقصى نموا واسعًا ، إذ أخذت تلتحم تدريجا بالحركة العلمية الأندلسية ، فقد أخذ علماء الأندلس يفدون عليه ، كما أخذ طلابه وعلماؤه يفدون على الأندلس ، وكان يوسف بن تاشفين بعيد النظر ، فعمل على جلب علماء الأندلس إلى عاصمته مراكش حتى ليقول صاحب المعجب : « انقطع إليه من جزيرة الأندلس من أهل كل علم فحوله حتى أشبهت حضرته حضرة بنى العباس فى صدر دولتهم ، واجتمع له ولابنه على (٥٠١ هـ/ ١١٠٨ م - ٥٣٧ هـ/ ١١٤٣م) من أعيان الكُتَّاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه فى عصر من الأعصار » وفى موضع آخر يقول : « لم يزل أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين من أول إمارته يستدعى أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس ، وصرف عنايته إلى ذلك ، حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك » .

ومنذ هذا التاريخ يصبح المغرب الأقصى والأندلس دار علم وأدب واحدة ، وكثير من العلماء والأدباء فى القطرين قضوا شطرا من حياتهم فى وطنهم والشطر الآخر فى الوطن الثانى . وتنبه إلى ذلك مؤلفو كتب التراجم كما سنرى عما قليل . ويتحول الحكم إلى الموحدين ، ويقول صاحب المعجب عن عبد المؤمن المؤسس الحقيقى لدولتهم : « كان مؤثرا لأهل العلم محبا لهم محسنا إليهم يستدعيهم من البلاد إلى الكون عنده والجوار بحضرته ، ويجرى عليهم

الأرزاق الواسعة ، ويظهر التنويه بهم والإعظام لهم » . واتخذ – حسب تعليمات أستاذه ابن تومرت – عشرة مع خمسين من الأشياخ بينهم رؤساء القبائل وطائفة كبيرة من الدعاة كانوا يسمون باسم الطلبة ، وكانوا يعدُّون للدعوة إعدادًا علميا . ويقول صاحب المعجب عن ابنه يوسف سلطان الموحدين إنه كان يحفظ أحد الصحيحين – الشك منه كما يقول – إما البخارى وإما مسلم .. مع ذكر جمل من الفقه ، وكان له مشاركة فى علم الأدب واتساع فى حفظ اللغة وتبحر فى علم النحو ، وتعلم الفلسفة وجمع كثيرا من أجزائها وكتبها واجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر الأموى ، ولم يزل يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب ويبحث عن العلماء ، وخاصة أهل علم النظر إلى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك قبله ممن ملك المغرب ، وكان ممن صحبه من العلماء المتقنين أبو بكر محمد بن طفيل أحد فلاسفة المسلمين ، ولم يزل أبو بكر هذا يجلب إليه العلماء من جميع الأقطار وينبِّهه عليهم ويحضه على إكرامهم ، وهو الذى نبهه على أبى الوليد بن رشد » . وفى أيام ابنه يعقوب بلغت دعوة الموحدين ضد أصحاب المذاهب الأربعة الذروة إذ أمر بإحراق كتب الفروع عامة سواء للمالكية أو الحنفية أو الشافعية أو الحنبلية ، وكان قصده محو مذهب مالك وحَمْل الناس على الظاهر من القرآن والحديث ، وهذا المقصد بعينه كان مقصد أبيه وجده ، وأمر المحدثين بجمع أحاديث من كتب الصحاح الستة وسُنن البزار وأبى شيبة والدارقطنى والبيهقى فى الصلاة وما يتعلق بها ، وكان يمليه بنفسه على الطلبة ويأخذهم بحفظه . ولابد أن نذكر ما أسلفناه من أنه تم فى عهد الموحدين الامتزاج العلمى والأدبى بين القطرين المغربى والأندلسى حتى لنرى كتاب التراجم الأندلسيين حين يؤلفون كتابا يمزجون فيه بين علماء القطرين إذ يجعلونه لهما جميعا على نحو ما يلاحظ فى كتاب الصلة لابن بشكوال المتوفى سنة ٥٧٨ هـ/١١٨٢ م وكانت عناية المرينيين بالعلم وأهل الأدب لا تقل عن عناية الموحدين ومر بنا ما حكاه ابن مرزوق والوزان عن عنايتهم بتشييد المدارس وفرض الرواتب فيها للأساتذة والإنفاق على الطلاب وكسوتهم ، ويطيل الوزان الوصف لمعهد بناه السلطان المرينى أبو عنان (٧٤٩هـ/١٣٤٩ م – ٧٥٨ هـ/ ١٣٥٨م) ويذكر أن فيه ثلاثة أروقة مسقوفة تتحلى بجمال لا يتصوره عقل ، والأعمدةمنمقة بألوان متباينة والقناطر بين الأعمدة مكسوة بالفسيفساءوبالذهب الصافى وباللازورد ، والسقف من خشب مجزع ، ويختم وصفه الطويل للمدرسة بأن نفقاتها ارتفعت إلى أربعمائةوثمانين ألف دينار .

ومنذ أوائل هذه الدولة يشعر المغاربة بتعمق أنهم والأندلسيين الذين هاجروا إليهم بعد سقوط مدنهم الكبرى فىحجر الإسبان إخوة تجمعهم أواصر كثيرة ، بل لقد كان هذا الشعوريتعمقهم منذ عصر دولة المرابطين غير أنه ازداد عمقا بكثرة من هاجر إليهم من إخوانهم الأندلسيين فى القرن السابع الهجرى ، وهو ما جعل المغربى من أمثال محمد بن عبد الملك

المراكشى حين يؤلف كتابه الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة يجعله قسمة بين الأندلسيين والمغاربة ، وللأندلسيين الشطر الأكبر . وأخذت تتسع الهجرة من الأندلس ، حتى إذا كانت سنة ٨٩٧ هـ وسقطت غرناطة بدأت هجرة أندلسية كبرى إلى مدن المغرب الأقصى . وتلتها الهجرة أيام فيليب الثالث حين أمر سنة ١٠١٨ هـ/١٦٠٩ م بطرد الموريسكيين من جزيرة الأندلس . وكان لهذه الهجرات الأندلسية الجماعية فى أواخر أيام المرينيين وزمن السعديين أثر بعيد فى نمو الحركة العلمية بالمغرب الأقصى ، ولذلك نرى خطأً كبيرا فى قياس المغرب الأقصى على بلدان الدولة العثمانية فى المشرق العربى وخمود الحركة العلمية بتلك البلدان لأن فوارق كانت تفرق بين المغرب الأقصى وبينها ، أهمها ما ظل ينزله من جموع الأندلسيين بعد سقوط غرناطة على مدى سنوات طويلة متعاقبة . وينوه ابن القاضى فى كتابه عن المنصور الذهبى السعدى (٩٨٦ هـ/ ١٥٧٨ م - ١٠١٢ هـ/ ١٦٠٣ م) بشغفه الشديد بالعلوم على اختلافها ورعايته للعلماء والأدباء . وينوه الأستاذ عبدالله كنون فى الجزء الأول من كتابه النبوغ المغربى بالخلفاء العلويين : الرشيد (١٠٧٥ هـ/ ١٦٦٤ م - ١٠٨٤ هـ/ ١٦٧٢ م) وإسماعيل (١٠٨٢ هـ/ ١٦٧٢ م - ١١٣٩ هـ/ ١٧٢٧ م) ومحمد بن عبد الله (١١٧١ هـ/ ١٧٥٧ م - ١٢٠٤ هـ/ ١٧٨٩ م) ونهضتهم العلمية بالمغرب الأقصى . وفى كل ما قدمناه ما يدل - بوضوح - على أن الحركة العلمية المغربية كانت دائما بأعين الحكام المغاربة ، فهم يتعهدونها ويقدمون لها كل ما يستطيعون من عون مادى ومعنوى .

٢

علوم الأوائل

ليس بين أيدينا معلومات واضحة عن علوم الأوائل ونشاط علماء المغرب الأقصى فيها زمن المرابطين إلا ما ذكر من أن بعض الأطباء الأندلسيين نزلوا مراكش لرعاية يوسف بن تاشفين وابنه على رعاية طبية ، ومنهم أبو العلاء[1] بن عبد الملك بن زهر ، وله فى الطب تصانيف متعددة وقد أمر السلطان على بن يوسف حين توفى سنة ٥٢٥ هـ/١١٣٠ م بجمع كتبه الطبية ونسخها فى السنة التالية لوفاته ، ومن أهمها كتاب التذكرة ونشره جبرييل كولان بالعربية والفرنسية فى باريس سنة ١٩١١ للميلاد ، ونظن ظنا أن بعض المغاربة تتلمذ عليه حين نزوله فى مراكش وربما تبعه إلى بلدته إشبيلية ليكمل تعلمه عليه .

ولا يلبث الموحدون أن يستولوا من المرابطين على صولجان الحكم وتزدهر علوم الأوائل

(١) انظر فيه كتابنا عن الأندلس ص ٧٩ .

فى عهدهم ، مما يدل على أن المغاربة كانوا قد أخذوا يدرسونها منذ عهد المرابطين ، وقاد حركة ازدهار هذه العلوم فى المغرب الأقصى يوسف[1] بن عبد المؤمن الموحدى (٥٥٨هـ/١١٦٢م - ٥٨٠هـ/ ١١٨٥ م) ، إذ تعلم الفلسفة منذ أن كان حاكما لإشبيلية فى عهد أبيه عبد المؤمن ، واصطفى لنفسه حينذاك طبيبه الفيلسوف أبا بكر بن طفيل واصطحبه معه إلى مراكش حين استولى على صولجان الحكم ، وكان لا يكاد يفارقه ، ورغّبه فى جمع كتب الفلسفة فاجتمع له منها - كما يقول صاحب المعجب - ما يقرب مما جمعه الخليفة الأموى المستنصر (٣٥٠ هـ/ ٩٦١ م - ٣٦٥ هـ/ ٩٧٥ م) فى الأندلس ، وكانت مكتبته تعد أغنى مكتبة فى زمنه تحوى كتب الفلسفة . وكما كان ابن طفيل يجلب إليه الكتب الفلسفية وما يتصل بها من علوم الأوائل كان يجلب إليه العلماء من جميع الأقطار وينبّه عليهم - كما يقول صاحب المعجب - ويحضه على إكرامهم والتنويه بهم ، وله فى الفلسفة والطب والفلك كتب مختلفة . وشكا إليه يوسف قلق عبارات أرسطو فى كتبه وحاجتها إلى الشرح والتلخيص وسأله أن يقوم بذلك فاعتذر بعلو سنه ، وأشار عليه أن يطلب ذلك من ابن رشد- وكان قاضى إشبيلية حينذاك - فاستدعاه وطلب إليه أن ينهض بهذا العمل ، فنهض به على خير صورة ممكنة ، إذ وضع شروحا مطولة ومتوسطة ومختصرة لكثير من مؤلفات أرسطو .

وكل هذه الشروح تُرْجمت إلى اللاتينية وترجمت معها مؤلفاته الفلسفية مثل تهافت التهافت الذى ردّ فيه على تهافت الفلاسفة للغزالى ، والكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة ، وفصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال .وأخذت كتبه تدرس فى الجامعات الأوربية منذ القرن الثالث عشر الميلادى ، ولولاها لما فهم الغرب فلسفة أرسطو بالإضافة إلى ما كان لمؤلفيه الأخيرين من أثر عميق فى حركة التحرر الدينى الأوربى . وهى يَدٌ لابن رشد لا على الفكر الأوربى وحده بل على الفكر العالمى جميعه .

وكل آثار ابن رشد وابن طفيل وغيرهما من فلاسفة الأندلس مثل ابن باجة أستاذ ابن طفيل أحدثت فى المغرب الأقصى نهضة علمية فى مختلف علوم الأوائل وخاصة فى الرياضيات التى شغف بها المغاربة ،وفى مقدمتهم عبدالله بن محمد بن حجاج المشهور باسم ابن الياسمين[2] المتوفى سنة ٦٠١ هـ/١٢٠٥ م وله منظومة فى الجبر والمقابلة وأخرى فى أعمال الجذور ، وكان يعاصره على بن محمد بن فَرّجون القيسى القرطبى نزيل فاس المتوفى مثله سنة ٦٠١ وله كتاب[3] لباب اللباب فى بيان مسائل الحساب . وتدل القصور المختلفة التى بناها المنصور

(١) انظر فى يوسف وأخباره مع ابن طفيل وابن رشد المعجب فى مواضع متفرقة (راجع الفهرس) .

(٢) انظر حضارة الموحدين للمنونى ص ٧٤ .

(٣) راجع الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى ٣٧٥/٥ .

يعقوب الموحدى فى قصبة مراكش والمسجد الذى بدأه جده عبد المؤمن وأضاف إليه زينات وإضافات وعُمُدٍ وغير عمد ومأذنته البديعة على أنه كان بمدينة مراكش حينئذ كثير من المهندسين المواطنين والمجلوبين من الأندلس المستوطنين فيها ، ومما أحدثوه فى المسجدالكبير مقصورة يجلس فيها الخليفة وحواشيه يوم الجمعة وكانت ميكانيكية مثبتة بعجلات فى أسفلها ولها ست أذرع وتمتد بفواصل متحركة[1] .

ومن كبار الرياضيين الفلكيين حينئذ أبو على الحسن المراكشى مؤلف كتاب المبادىء والغايات فى علم الميقات ويذكر صاحب كشف الظنون أنه أعظم ما ألف في هذا الفن ، وينقل عنه الأستاذعبد الله كنون أن أبا على المراكشى رتب هذا الكتاب على أربعةفنون هى الحسابيات فى نحو ثمانين فصلا ، ووضع آلات الإسطرلاب ولها سبعة أقسام ، وللعمل بها خمسة عشر فصلا ، والدربة عليها فى أربعة أبواب أو فصول[2] .

ونمضى إلى عصر المرينيين ونلتقى فى علم الفرائض أو المواريث – وكانوا يلحقونه بالرياضيات – بإبراهيم بن أبى بكر التلمسانى نزيل سبتة الذى مر بنا فى الجزائر وله فى الفرائض أرجوزة سميت التلمسانية شرحت فى سبتة وغير سبتة مرارا ، ولابن الشاط المتوفى سنة ٧٢٣ هـ/١٣٢٣ م « غنية الرائض فى علم الفرائض » . ونلتقى بمفخرة المغرب فى الرياضيات ابن البناء[3] أبى العباس أحمد بن محمد بن عثمان الأزدى المراكشى المولود بمراكش سنة ٦٥٣ هـ/١٢٥٦ م والمتوفى سنة ٧٢١ هـ/١٣٢٢ م وقدبلغ الغاية فى مختلف العلوم الدينية واللغوية والبلاغية وبرع إلى الغاية فى العلوم الفلسفية ولاسيما فى الرياضيات والفلك ،وله فى الحساب والجبر التلخيص فى أعمال الحساب وعليه يعتمد الطلاب فى جامع أو جامعة القرويين بفاس إلى اليوم ، وشرحه بكتاب سماه رفع الحجاب . وطارت شهرته فى حياته وقصده الطلاب من كل فج ،وتخرج رياضيون ماهرون على يديه مغاربة وجزائريون مثل الآبلى محمد بن إبراهيم التلمسانى ، المتوفى سنة ٧٥٧ هـ/١٣٥٦ م . ولابن البناء فى الفلك كتاب اشتهر فى عصره وبعد عصره سماه اليسارة فى تعديل السيارة وله المدخل إلى علم النجوم . ويلمع اسم اللجائى الفاسى عبد[4] الرحمن بن أبى الربيع المتوفى سنة ٧٧٣ هـ/١٣٧٢ م فى الرياضيات والهيئة أو الفلك وقد ابتكر إسطرلابا يلصق فى جدار ، والماء يدير شبكته على الصفيحة بحيث يعرف منه مدى ارتفاع الشمس وما مضى من النهار كما يعرف مدى ارتفاع أى كوكب ليلا .

---

(١) انظر المنونى ص ٧٦ ، ٨٠ .

(٢) راجع الجزء الأول من النبوغ المغربى لكنون ص ١٦٦ .

(٣) لابن البناء ترجمات كثيرة فى الكتب السالفة مثل جذوة الاقتباس ونيل الابتهاج ودرةالحجال وأزهار الرياض . وانظر فى مؤلفاته النبوغ المغربى ٢٣١/١ .

(٤) انظره فى الدرة لابن القاضى ٨٢/٣ والجذوة ٤٠٢/٢ وكنون ٢٢٤/١ .

ويلقانا بعده عبد[1] الرحمن الجادرى المتوفى سنة ٨٣٩ هـ/١٤٣٥ م مؤقت جامع القرويين بفاس ، وله روضة الأزهار فى علم الليل والنهار ، وكتاب ثان جمع فيه بين العمل بآلة الإسطرلاب وبالصفيحة الشكازية وبربع الدائرة وطريقة العمل بالحساب والجداول . ومن علماء الهندسة فى العصر المرينى ابن لبون التجيبى المتوفى سنة ٧٥٠ هـ/١٣٥٠ م وله كتاب الإكسير فى الأشكال الهندسية .

وكان الخليفة المنصور الذهبى السعدى مكبًّا على كتاب إقليدس يحل أشكاله ، ولأحمد بن القاضى المتوفى سنة ١٠٢٥ هـ/١٦١٦ م شرح باسم فتح الخبير بحسن التدبير لفك رموز الإكسير لابن لبون السالف[2] . وللبعقيلى[3] أبى زيد عبد الرحمن الجزولى المتوفى سنة ١٠٠٦ هـ/١٥٩٧ م شروح فلكية على اليسارة فى تعديل السيارة لابن البناء وروضة الأزهار للجادرى وهو الذى أحدث الساعة الرخامية بجامع تارودنت . ولمحمد[4] بن قاسم بن القاضى المتوفى سنة ١٠٤٠ هـ/١٦٣٠ م كتاب البرق الوامض فى الحساب والفرائض . وأهم الرياضيين فى عصر العلويين الروداني محمد بن سليمان المتوفى سنة ١٠٩٤ هـ/١٦٨٣ م وله إسطرلاب مبتكر مكون من كرتين ، وفى كتاب النبوغ المغربى وصف[5] مفصل له . ولعل فى كل ما قدمت ما يدل على أن المغرب الأقصى ظل ناشطا فى الدراسات الرياضية والفلكية والهندسية طوال الحقب الماضية .

وطبيعى أن ينشط المغرب الأقصى فى الطب والصيدلة لضرورتهما فى العناية بحياة الناس ، ومرَّ بنا أن أبا العلاء[6] بن زهر الطبيب كان طبيبا ليوسف بن تاشفين وخليفته من بعده ابنه على ، مما يؤكد نزوله فى مراكش لرعايتهما الصحية ، ونزلها بعده ابنه عبد الملك الذى كان طبيبا للمرابطين ثم للموحدين إذ توفى سنة ٥٥٧ هـ/١١٦٢ م وهو أهم طبيب عربى كلينيكى أو عملى بعد الرازى .

واتخذ الخليفة يوسف بن عبد المؤمن الموحدى الفيلسوف ابن طفيل طبيبا بينما اتخذ ابنه يعقوب أبا بكر بن زهر طبيبه الخاص ، وكانت أخته أم عمرو طبيبة ماهرة وكانت تعنى صحيا بزوجة يعقوب ونساء الأسرة الموحدية ، وكان ابنه عبد الله طبيب الناصر بن يعقوب الموحدى . وأحصى الأستاذ المنونى فى كتابه « حضارة الموحدين » نحو عشرين[7] طبيبا وصيدليا أندلسيا

(١) انظر مظاهر الثقافة المغربية للدكتور ابن شقرون ص٢٢٠.
(٢) راجع الحركة الفكرية بالمغرب فى عهد السعديين ١٥٧/١ .
(٣) نفس المصدر ١٥٨/١ وانظر النبوغ المغربى للأستاذ عبد الله كنون ٢٦٤/١ .
(٤) النبوغ ٢٧٠/١ .
(٥) انظر وصف هذا الإسطرلاب عند الأستاذ كنون ٢٩٤/١ .
(٦) انظر فى أطباء أسرة بنى زهر كتابنا عن الأندلس ص ٧٩ .
(٧) راجع حضارة الموحدين للأستاذ المنونى ص ٨٨ وما بعدها .

نزلوا مراكش لخدمة الخلفاء الموحدين . ويذكر بالمثل الأطباء المغاربة الذين أتقنوا الطب والصيدلة فى عصر الموحدين ، ومنهم يحيى بن محمد السلوى المتوفى سنة ٥٦٣ هـ/١١٦٧ م ، والشريف الإدريسى المتوفى حوالى سنة ٥٧٠ هـ/١١٧٤ م وله كتاب فى الصيدلة أو مفردات الأدوية، وأحمد بن عبد الملك الجذامى الناشىء بسبتة والمتوفى بمراكش سنة ٦٥٠ هـ/١٢٥٣ م. وقد أفاض المراكشى فى كتابه المعجب فى وصف البيمارستان الذى شيَّده المنصور ، ويقول إنه أجرى عليه ثلاثين دينارًا كل يوم للإنفاق ، وإنه كان به قسم للصيدلة وعمل الأشربة والأدهان والأكحال ، ويذكر أن يعقوب كان يعود مرضى المارستان كل أسبوع بعد صلاة الجمعة . ويبدو أن أبا إسحق إبراهيم الدانى البجائى كان أول رئيس للبيمارستان كما يفهم من ترجمة ابن أبى أصيبعة له فى كتابه طبقات الأطباء وأن رياسته ظلت فى بيته فترة .

ويذكر الدكتور شقرون فى كتابه مظاهر الثقافة المغربية ستة[1] من الأطباء المشهورين فى العصر المرينى ربما كان أهمهم أبو العباس أحمد بن شعيب الفاسى الذى اشتهر بتعمقه فى الفلسفة والرياضيات وعلوم الأوائل ، وكان طبيبا فى البلاط المرينى زمن السلطان أبى سعيد عثمان وابنه أبى الحسن وقد اصطحبه معه حين غزا تونس ، وبها توفى بالطاعون سنة ٧٤٩ هـ/١٣٤٩ م وكان طبيبا بارعا كما كان شاعرا بارعا . ومن أكبر الدلالة على كثرة الأطباء فى العصر المرينى أن نجد مؤلفا مجهولا لكتاب « بلغة الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبتة فى الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب » الذى نشره الأستاذ محمد بن تاويت فى العدد التاسع من مجلة تطوان يذكر سبعة من الأطباء بمدينة سبتة ، بينهم طبيبة بارعة هى عائشة[2] بنت الجيار ، ويقول :

« قد كان بسبتة فى هذه الطبقة جماعة من الأطباء والشجَّارين - يريد الصيادلة العشَّابين - سوى من ذكرناه لم يبلغوا فى العلم والمكانة مبلغ هؤلاء (السبعة) تركت ذكرهم » ، وإذا كان هذا العدد من الأطباء بإحدى مدن المغرب الأقصى فما بالنا بمن كان بفاس من الأطباء والصيادلة ، ولابد أن كانوا كثيرين ، إذ يذكر الحسن الوزان أنه كان بفاس فى الداخل أو فى داخلها مارستانات بديعة وعدة مارستانات أخرى خارج أبوابها ، وعلى الأقل كان يحتاج كل مارستان إلى صيدلى وطبيب إن لم يكن يحتاج إلى عدد من الأطباء والصيادلة .

ويعرض الدكتور محمد حجى مؤلفات[3] الأطباء والصيادلة ، ويبدأ بالوزير الغسانى المتوفى سنة ١٠١٩ هـ/١٦١٠ م ومما يذكر له حديقة الأزهار فى شرح ماهية العشب والعقار وهو

(١) مظاهر الثقافة المغربية : دراسة فى الأدب المغربى فى العصر المرينى ص ٢٢٧ .

(٢) النبوغ المغربى ١/٢٢٥ .

(٣) الحركة الفكرية بالمغرب فى عهد السعديين ١/١٦٠ وما بعدها .

معجم صيدلى نباتى ، ويذكر للطبيب عبد الغنى بن مسعود الزمورى كتابا فى الطب بعنوان : القول المفيد فى علاج الحصى بقول سديد ، وكتابا فى الصيدلة بعنوان خواصّ النباتات ، شرحَ فيه الأدوية باللسان اليونانى والسريانى والفارسى والعجمى ، كما يذكر للطبيب أبى الغول الفشتالى أرجوزة طبية فى ألف بيت وأربعمائة وعشرة ، ويذكر أيضا للطبيب على بن إبراهيم أرجوزة فى علاج العيون وأدوائها وأخرى فى الأعشاب وخواصها فى شفاء الأمراض .

ونبغ فى عصر العلويين غير صيدلى وطبيب ، منهم عبد[1] القادر بن شقرون المتوفى بعد سنة ١١٤٠ هـ/١٧٢٨م وله فى الصيدلة مؤلفات متعددة سوى منظومة سميت بالشقرونية فى ٧٠٠ بيت فى الأغذية والأدوية ، ومنهم عبد[2] الوهاب أدرَّاق المتوفى سنة ١١٥٩ هـ/١٧٤٦ م وهو من أسرة فاسية اشتغلت بالطب ، وإليه انتهت رياسة الطب فى زمنه ، وله مؤلفات ومنظومات طبية مختلفة ، ومنهم عبد[3] الله بن عزوز المراكشى المتوفى سنة ١٢٠٤ هـ/١٧٨٩ م وله فى الصيدلة كتاب باسم كشف الرموز فى الأعشاب الطبية وكتاب فى الطب باسم ذهاب الكسوف . ولعل فى كل ما ذكرت ما يصور — بوضوح — عناية المغاربة ببحوث الطب والصيدلة طوال العصور السالفة .

ويلحق بعلوم الأوائل علم المنطق الذى يعرف به الصحيح من الفاسد فى التعاريف والبراهين والأقيسة ، وهو يشترك فى العلوم كلها ، فليس هناك علم لا يأخذ منه بحظ . والمنطق علم يونانى الأصل وضعه أرسطو ورتب فصوله وقضاياه ترتيبا محكما ، ونقله العرب منذ القرن الثانى الهجرى وتداوله علماؤهم وأقطارهم ، وأصبح يدرس فى جوامعها الكبيرة أو جامعاتها ، حتى إذا نشأت المدارس فى القرن الخامس الهجرى أخذت تتدارسه ويضع فيه أفضل الدين الخونجى المتوفى سنة ٦٤٨ هـ/١٢٥١ م كتابا موجزا باسم الجمل وتطير شهرته فى العالم العربى بجميع أقطاره شرقا وغربا ويأخذ علماء المغرب — كعلماء المشرق — فى مدارسته وشرحه لطلابهم . وممن عرفوا بدراسة المنطق بأخرة من عصر الموحدين ، وربما لحق عصر المرينيين ، عبد[4] الله بن محمد الأغماتى من أهل أغمات من المغرب الأقصى من علماء القرن السابع الهجرى ، وينعته الغبرينى بأنه المنطقى النحوى ويقول عنه : كان أعلم الناس بكتاب سيبويه ومقاصده ، وله تحصيل لعلم المنطق .

ونلتقى فى أوائل عهد المرينيين بمحمد[5] بن على بن يحيى المدعو بالشريف قاضى الجماعة

---

(١) النبوغ المغربى ٢٩٩/١ والحياة الأدبية بالمغرب فى عهد الدولة العلوية للدكتور الأخضر ص ٢٠٧ .

(٢) النبوغ المغربى ٣٠٠/١ والأخضر ص ٢٣٩ .

(٣) الأخضر ص ٣٦٦ .

(٤) انظر الأغماتى فى عنوان الدراية للغبرينى ص ٢٢٣ .

(٥) الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام ٢٨١/٤ وانظره فى بغية الوعاة للسيوطى .

بها المتوفى بمراكش سنة ٦٨٢ واشتهر بأنه كانت له مشاركة فى علوم الأصول والكلام والمنطق والحساب ، وتتردد هذه الشهرة فى ترجمة كثيرين بالعصر المرينى . ويذكر الدكتور محمد[1] حجى فى العصر السعدى لعبد العزيز المكناسى المتوفى حوالى سنة ٩٨٠ هـ/١٥٧٢ م أرجوزة فى المنطق فى مائة وستة عشر بيتا وأرجوزة أخرى لعبد الرحمن البعقيلى المار ذكره ، ولعلهما أرادا مضاهاة عبد الرحمن الأخضرى الجزائرى المتوفى سنة ٩٥٣ هـ/١٥٤٦ م فى أرجوزته المنطقية المسماة باسم السلم وقد نالت شهرة واسعة فى العالم العربى ووضعت لها شروح كثيرة ، ويذكر الدكتور حجى لمحمد بن عبد الله الهبطى مباحث الكلية والجزئية .

ويعرض الأستاذ عبدالله كنون طائفة[2] كبيرة من المنظومات والشروح والحواشى والدراسات المنطقية فى عصر العلويين ، نذكر منها أرجوزتى القادرية لعبد السلام القادرى المتوفى سنة ١١١٠ هـ/ ١٦٩٩ م والخريدة لحمدون بن الحاج المتوفى سنة ١٢٣٢ هـ/ ١٨١٧ م . وشَرْح سلم الأخضرى الجزائرى اليوسى المتوفى سنة ١١٠٢ هـ/ ١٦٩١ م وشَرح السلم أيضا بنانى . ومن الحواشى حاشية على شرح سعيد قدورة الجزائرى لسلم الأخضرى لابن منصور الشفشاوى المتوفى سنة ١٢٣٢ هـ/ ١٨١٧ م وحاشية أخرى له على شرح البنانى للسلم . وكل ما تقدم دليل على أن المغرب الأقصى ظل يعنى بعلوم الأوائل من طب وغير طب على مر السنين .

٣

علوم اللغة والنحو والعروض والبلاغة

أخذ المغرب الأقصى يُعْنَى بعلوم اللغة والنحو منذ القرن الخامس الهجرى ، بل ربما بدأت العناية بهما منذ قيام الدولة الإدريسية وَبعْثها بفاس والمغرب الأقصى عامة حركة علمية قوامها العلوم الدينية وما يتبعها من علوم اللغة والنحو ومدارسة ما ألف فيهما مما هيَّأ لنشوء طائفة مبكرة من الكتاب والشعراء . ولاشك أن لمعلمى الكتاتيب ومقرئى القرآن فضلا كبيرًا فى هذا الجانب إذ كانوا يأخذون الناشئة بتعلم العربية ومعرفة بعض الألفاظ القرآنية ودلالاتها اللغوية وكذلك ألفاظ بعض ما يلقون عليهم من الأشعار . ولا نغلو إذا قلنا إن قراء الذكر الحكيم كانوا دائما لغويين ونحاة ونرمز إلى ذلك فى عصر المرابطين بمروان بن عبد الملك بن سَمَجون المتوفى بطنجة سنة ٤٩١هـ/١٠٩٧م فقد ذكر عنه ابن عبد الملك المراكشى أنه تصدَّر قديما لإقراء القرآن ،وكان مقرئًا مجودا ذا حظ من الشعر يذهب فيه إلى التقعير[3] وكان لغويا يستظهر الغريب فى أشعاره إلى حد التعمق اللغوى البعيد .

(١) راجع حجى ١/١٥٩ .
(٢) النبوغ المغربى ١/٣١٤ .
(٣) الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى ٣٧٢/٢/٨ .

ونمضى فى عصر الموحدين ونلتقى بمحمد[1] بن أحمد بن هشام المشهور باسم ابن هشام اللخمى مستوطن سبتة المتوفى سنة ٥٧٧ هـ/١١٨١ م وكتابه فى لحن العوام الذى سماه « المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان » كتاب نفيس ، حققه الدكتور خورسيه بيريث لاثار تحقيقا علميا قيما وطبعه معهد التعاون مع العالم العربى بالمجلس الأعلى للأبحاث العلمية فى مدريد . ومن قوله فى مقدمته : « أول ما يجب على طالب اللغة تصحيح الألفاظ العربية المستعملة التى حرَّفتها العامة عن موضعها وتكلمت بها على غير ما تكلمت بها العرب فى ناديها ومجتمعها » وبدأ الكتاب بمراجعة الزبيدى الأندلسى فى كتابه لحن عامة زمانه وتخطئته لها فى ألفاظ للعرب فيها لغتان وبين ما وقع فيه من السهو والغلط ، وذكر بعده أوهام ابن مكى الصقلى فى كتاب تثقيف اللسان . ثم عقد بابا لما جاء فيه عند العرب لغتان أو أكثر ، واستعملت منهما العامة لغة ضعيفة ، وربما عدلت إلى اللحن . وأتبعه بباب لما تلحن فيه العامة ولا دليل عليه من لسان العرب وبباب لما جاء لشيئين أو لأشياء فقصروه على واحد وبباب لما تمثلت به العامة محرفا فى صيغته عن صيغته الأصلية عند الشعراء . والكتاب فى نحو ٤٣٠ صفحة رجع فيها مؤلفه إلى أبيات شعرية وأراجيز شغلت قوافيها فى فهارسه خمس عشرة صفحة من امرىء القيس إلى الشريف الرضى فى آخر القرن الرابع الهجرى . ولا يشك قارؤه فى أن المؤلف رجع فى هذه الدراسة إلى أمهات الكتب اللغوية ، وقد وضع لها المحقق فهرسا تضمن نحو خمسين كتابا كما وضع فهرسًا لمن ذكر فى الكتاب من اللغويين حتى ليبلغون فيه نحو تسعين . ولابن هشام اللخمى بجانب هذا العمل اللغوى القيم كتاب ما وقع فى أبيات كتاب سيبويه وشرحها للأعلم من الوهم والخلل ، وله شرح فصيح ثعلب وهو كتاب لغوى ملىء بالألفاظ الغريبة ، وله أيضا شرح مقصورة ابن دريد ، وهما من مراجعه فى كتابه عن لحن العامة . ويلقانا بعده من اللغويين فى عصر الموحدين أبو ذر مصعب[2] بن محمد بن مسعود الخشنى الجيَّانى الأصل المستوطن لفاس وكان عالما لا يبارى فى اللغة ونحويا أديبا وكفاه شرفًا شرحه لغريب السيرة النبوية العطرة ، وعليه اعتمد كل من نشرها فى العصر الحديث . ومن لغويى هذا العصر محمد[3] بن عيسى بن أصبغ المشهور باسم أبى عبد الله بن المناصف المتوفى بمراكش خطيبا بجامع بنى عبد المؤمن لسنة ٦٢٠ هـ/١٢٢٣ م وكان فقيها نظارًا جانحا إلى الاجتهاد مائلا إلى القول بمذهب الشافعى مناظرا عليه ، وكان حافظا للغات مليئًا من الآداب شاعرًا مجيدًا مرجِّزا مطبوعا ، وله أرجوزتان لغويتان : « المذهبة فى نظم الصفات من الحِلَى والشيات » وهى أرجوزة ألفية نظمها بمراكش ، وتلاها بأجوزة ثانية سماها المعقبة لكتاب المذهبة فى الأنعام والظباء وحمر الوحش والنعام وما يتعلق

---

(١) انظر فى ابن هشام اللخمى التكملة ٢٧٠ وبغية الوعاة ٤٨/١ .

(٢) انظر ترجمته فى التكملة : ٧٠٠ وجذوة الإقتباس ٦٣٦ .

(٣) انظر فى ابن المناصف ابن عبد الملك المراكشى ٣٤٥/٢/٨ .

بها » . ومن لغويى عصر الموحدين يوسف[1] بن موسى الهوارى المتوفى بمراكش سنة ٦٤٩ هـ/١٢٥٢ م وفيه يقول ابن عبد الملك إنه كان ماهرا فى علوم اللسان أدبا ولغة ونحوا ويذكر له أبياتا فى ترتيب حروف معجم العين للخليل وأبياتا أخرى فى ترتيب حروف الصحاح للجوهرى .

ونمضى إلى العصر المرينى ونلتقى بالشاعر مالك[2] بن المرحل المتوفى سنة ٦٩٩ هـ/١٣٠٠ م ونظمه لغريب القرآن الكريم ولفصيح ثعلب ،ولا تلبث أن تلتقى بأبى القاسم محمد بن أحمد الشريف الحسنى المتوفى سنة ٧٦٠ هـ/١٣٥٩ م وله شرح على مقصورة حازم القرطاجنى سماه : « رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة » وهو منشور ، ونلتقى بأبى زيد المكودى الفاسى المتوفى سنة ٨٠٧هـ/١٤٠٤م وله البسط والتعريف فى علم التصريف ونظم المعرَّب من الألفاظ وشرح كتاب المقصور والممدود لابن مالك . وأخذت منذ العصر المرينى تؤلف كتب مختلفة فى غريب الحديث مثل « تحفة الناظر فى غريب الحديث » للرعينى الفاسى ، ومثل شرح غريب الموطأ لمالك وصحيح البخارى وكتاب الشهاب لابن منصور المغراوى السجلماسى . وتتكاثر الشروح والحواشى فى العصر السعدى للقصائد النبوية مثل البردة والهمزية للبوصيرى ومقصورة المكودى فى المديح النبوى ولبعض كتب اللغة مثل الصحاح للجوهرى ولبعض القصائد المشهورة مثل لامية العرب ولامية العجم وبعض الدواوين وخاصة ديوان المتنبى ، وشُرحت لامية الأفعال لابن مالك والشافية لابن الحاجب . وتظل هذه الاتجاهات فى التأليف اللغوى طوال عصر العلويين ، ويؤلف ابن زاكور[3] المتوفى سنة ١١٢٠ هـ/١٧٠٨ م شرحًا على حماسة أبى تمام باسم عنوان النفاسة فى شرح الحماسة وشرحا على قلائد العقيان للفتح بن خاقان باسم مقياس الفوائد فى شرح ما خفى من القلائد ، وشرحا على لامية العرب باسم تفريج الكرب بشرح لامية العرب ، ويؤلف محمد بن الطيب الشرقى المتوفى سنة ١١٧٠ هـ/١٧٥٦ م شرحا على كتاب المزهر للسيوطى باسم المسفر عن خبايا المزهر ، وحاشية على القاموس المحيط للفيروزابادى باسم إضاءة الراموس حاشية على القاموس وشرح على لامية الأفعال وضوء القابوس فى زوائد الصحاح على القاموس وحاشية على درة الغواص للحريرى ويعدِّد الأستاذ عبد الله كنون شروحا وحواشى أخرى فى اللغة لكثيرين[4] .

وكان النشاط فى النحو لا يقل عن النشاط فى اللغة إن لم يزد عليه زيادة كبيرة ، وأول نحوى كبير نلتقى به فى عصر المرابطين الحسن[5] بن على بن طريف المتوفى سنة ٥٠١ هـ/١١٠٧ م

(١) راجع فى يوسف ابن عبد الملك المراكشى ٤٣٧/٢/٨ .

(٢) انظر فى أعمال مالك والشريف الحسنى والمكودى والرعينى والمغراوى النبوغ المغربى فى مواضع متفرقة بالجزء الأول ص ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٣٠ .

(٣) انظر النبوغ المغربى ٣٢٣/١ .

(٤) راجع النبوغ المغربى ٣١٥/١ .

(٥) النبوغ المغربى ١٠٠/١ .

ظلَّ يدرس النحو طوال عمره بسبتة ،وهو أستاذ القاضي عياض وغيره من علمائها في عصر المرابطين ، ونلتقى بعده بعلى[1] بن محمد الجذامي المالقى الذى سكن سبتة واستوطنها إلى وفاته سنة ٥٣٠ هـ/١١٣٥ م وكان يقرىء بها الذكر الحكيم لطلابه ويدرس لهم قواعد العربية ، ومثله أحمد[2] بن الحطيئة الفاسى المتوفى زمن الموحدين سنة ٥٦٠هـ/١١٦٥م إذ كان مقرئا للذكر الحكيم كما كان نحويا . ولا نبالغ إذا قلنا إن جميع المقرئين يعدون نحاة ، إذ كانوا يحفظون الصبيان ويقفونهم على حدود العربية كي ينطقوا بآى الذكر الحكيم نطقا سليما .

ولا يلبث أن يظهر فى المغرب الأقصى نحوى مهم هو عيسى[3] الجزولى المتوفى سنة ٦٠٧ هـ/١٢١٠ م وهو خريج ابن برى العالم النحوى اللغوى المصرى المتوفى سنة ٥٨٢ هـ/١١٨٦ م فقد حج ومرَّ بالقاهرة وأعجب فيها بمحاضرات ابن برى فى النحو وكان يدرس للطلاب كتاب الجمل للزجاجي ويناقش مسائل النحو فيه وقضاياه وانتظم الجزولى بين طلابه ، وسأله عن مسائل نحوية فأجابه عليها ، وأثبت كل ما دار فى محاضراته وكل ما أدلى به ابن برى من أفكار أو بعبارة أدق أثبت ما أدلى به فى « مقدمة » عاد بها إلى بلده وأخذ يدرسها للطلاب فى المغرب والأندلس ، ويعرِّف به ابن عبد الملك فى الذيل والتكملة بقوله : جالب الكراسة المشهورة فى العربية عن أبى محمد بن برى نحوىّ الديار المصرية قدم عليه ولازمه ، ومن كلام ابن برى المذكور على الجمل « للزجاجي » كتب ذلك التأليف المنسوب عند كثير من الناس إلى جالبه أبى موسى الجزولى باسم « الجزولية » ، ويقول القفطى إنه كان إذا سئل هل هى من تأليفك أجاب : لا ، لأنها فى واقع الأمر من تأليف ابن برى الذى كان يلقيه على طلابه فى محاضراته ودروسه ، ويقول القفطى أيضا : فيها كلام غامض وعقود لطيفة وإشارات إلى أصول صناعة النحو غريبة . وفى هذا كله ما يدل على أن المقدمة إنما هى محاضرات لابن برى ، وعلى عادة التلامذة حين يكتبون ما يسمعونه من أساتذتهم فى المحاضرة ويتركون بعض قطع منها وبعض عبارات حدث ذلك نفسه فى المقدمة التى حملها الجزولى عن أستاذه ابن برى ، ولو كان مؤلفا لها لخلت مما فى بعض عباراتها من غموض وما فيها من رموز وإشارات . على أن فى ذلك ما يدل بوضوح على أن عيسى الجزولى كان تلميذا بارا لأستاذه ابن برى ،فرأى أن يحتفظ فى المقدمة بنصوص كلامه ولا يضيف إليها شيئا ، فبدت فيها بوضوح هذه العيوب التى ذكرها القفطى . ومهما يكن فإنها هدية من مصر عن طريق ابن برى للمغرب الأقصى وقد عنى بها وشرحها كثيرون فى المغرب والأندلس وفى مقدمتهم الشلوبينى الأندلسى . وينزل المغرب الأقصى ابن خروف إمام النحو الأندلسى المشهور ، ويترك

---

(١) انظر ابن عبد الملك المراكشى ٢٨١/٥ .

(٢) راجعه فى إنباه الرواة فى طبقات النحاة ٣٩/١ .

(٣) انظر الجزولى فى إنباه الرواة ٣٧٨/٢ وكتابنا المدارس النحوية ص ٣٠٠ والذيل والتكملة لابن عبد الملك ٥٤٧/٢/٨ .

فيه تلامذة حملوا عنه كتاب سيبويه وشرحه له ،منهم ابن رحمون عبد الرحمن بن محمد المصمودى ، وكان من حِلْية شيوخ سبتة ، توفى سنة ٦٤٨ هـ/١٢٥١ م ومنهم محمد بن يحيى العبدرى الفاسى المتوفى شهيدا بجبل الفتح سنة ٦٥١ هـ/١٢٥٤ م .

ونلتقى فى أوائل عصر المرينيين بمحمد[1] بن الحسن الفهرى المعروف بابن المحلى وكلمة المحلى فى المغرب الأقصى تعنى – كما يقول ابن عبد الملك المراكشى – أنَّ أباه كان قوالا يغنى فى المحافل والأسواق . وكان محمد من تلاميذ ابن خروف وله تقييدات على كتاب سيبويه توفى سنة ٦٦١ هـ/١٢٦١ م . وما تلبث فاس أن تخرج إماما نحويا مهما هو ابن آجروم[2] محمد بن محمد بن داود الصنهاجى المتوفى بفاس سنة ٧٢٣ هـ/١٣٢٣ م وآجروم كلمة بربرية معناها الفقير الصوفى . وليس بين أيدينا شىء واضح عن نشأته وشيوخه ، ويقال إنه لقى أبا حيان النحوى الأندلسى بمصر وأخذ عنه فى طريقه إلى الحج . وقد طارت شهرته فى العالم العربى بمتن أو مختصر فى تعليم النحو للناشئة ، ويقال إنه وضعه لابنه أبى عبد الله ، وظلت طويلا الجوامع الكبرى والمدارس تفتتح تعليم النحو بهذا المختصر الذى يجمع المعالم الأساسية للنحو فيما لا يزيد عن خمس وعشرين صفحة بقطع الكف وكان الأزهر – إلى عهد قريب – يجعله أول ما يدرس لطلابه فى علم النحو لإلمامه بقواعد النحو فى ترتيب بديع ، ويقول السيوطى فى ترجمته له بكتابه بغية الوعاة : إنه كان على مذهب الكوفيين فى النحو لأنه عبَّر عن الجر قسيم الرفع والنصب بالخفض ، كما عبرَّ الكوفيون وقال مثلهم فعل الأمر مجزوم لا مبنىّ كما يقول البصريون ، وذكر بين الأسماء الجازمة « كيفما » وهى لا تجزم فى رأى البصريين . وأولى من رأى السيوطى أن يقال إنه بغدادى مثل الزجاجى وأبى على الفارسى يختار من آراء المدرستين البصرية والكوفية ما يراه الأدق والأوفق ، فقد قال مع البصريين إن المنصوب بعد كان خبر لا حال كما يقول الكوفيون ، وقال فى التوابع البدل لا الترجمة ولا التبيين كما يقول الكوفيون ، وقال المنادى فى مثل يازيد مبنى على الضم لا معرب بغير تنوين كما يقول الكوفيون . ومن طريف تيسيراته للنحو أنه قال إن المضارع بعد كى ولامها ولام الجحود وحتى والفاء والواو منصوب بهذه الأدوات لا بأن مضمرة بعدها ، وبذلكَ أخذت فى وجوه تيسير النحو التى قدمتها إلى مجمع اللغة العربية وأقرَّها .ولم يهتم بمتن الأجرومية العالم العربى وحده فقد اهتم بها العالم الغربى أيضا ، فطبعها المستشرقون مرارا وترجموها إلى لغاتهم : اللاتينية والإنجليزية والفرنسية وكانت أولى طبعاتها عندهم فى روما سنة ١٥٩٢ للميلاد . ولابن العددى معاصر ابن آجروم فى قواعد العربية كتاب الكليأت النحوية ، وكان ابن[3] هانىء اللخمى السبتى معاصرهما المتوفى سنة ٧٣٣ هـ/١٣٣٣ م من أئمة العربية ، وكان يدرس النحو للطلاب ، ومن

(١) الذيل والتكملة ٥٢٠/٢/٨ .
(٢) انظره فى النبوغ المغربى ٢٢٠/١ .

مؤلفاته النحوية شرح كتاب التسهيل لابن مالك . ولأبى القاسم الشريف الحسنى السبتى المار ذكره بين اللغويين شرح أيضا على التسهيل ، وكان يدرس لطلابه ألفية ابن مالك .

ومن كبار النحاة فى عصر السعديين أحمد[1] بن قاسم القدومى المتوفى سنة ٩٩٢ هـ/١٥٨٤ م أستاذ الخليفة المنصور الذهبى السعدى ووُصف بأنه نحوى زمانه غير مدافع وقال ابن القاضى إليه انتهت رياسة النحو فى عصره ، وله حاشية على شرح الألفية للمرادى فى أربعة أجزاء . ومن أهم النحاة بعده قاسم[2] بن محمد بن القاضى المكناسى المتوفى سنة ١٠٢٢ هـ/١٦١٣ م وله شرح على ألفية ابن مالك انتفع به طلبته وشرح آخر على الأجرومية انتفعوا أيضا به ، وله أبيات فى الأفعال التى على حرف واحد يعلمها طلابه ، منها قوله فى الفعلين : قى وعى[3] :

إنى أقــول لمــن ترجى وقايتُه ... قِ المستجيرَ قيــاهُ قوه قِيْ قينا
وإن هُمُ لـم يَعُوا قولى أقول لهم ... عِ القول وَيك عِياه عوه عىْ عينا

ويكثر النحاة فى العصر العلوى ، ومنهم ابن الطيب الشرقى المار ذكره فى اللغويين ، وله شرح[4] الكافية لابن الحاجب ، وشرح لامية الأفعال لابن مالك وحاشية على التسهيل لابن مالك ، وحاشية على شرح المرادى لألفية ابن مالك ، وحاشية على المغنى لابن هشام ، وشرح الاقتراح فى أصول النحو للسيوطى ، وعنى بشرح كثير من الشواهد مثل شواهد الكشاف للزمخشرى وشواهد البيضاوى المفسر وشواهد التوضيح لابن هشام وشواهد التلخيص للقزوينى ، ويفيض الأستاذ عبدالله كنون فى ذكر كتب النحو المؤلفة والشروح والحواشى ومؤلفيها فى العصر بجانب ما ذكره من أعمال ابن الطيب الشرقى ، مما يدل على اتصال النشاط فى الدراسات النحوية بالمغرب الأقصى طوال الأزمنة الماضية .

وكان الدارسون للنحو فى كل تلك الأزمنة يعرضون – أو يعرض كثير منهم – على طلابهم عروض الشعر العربى كى يحسنوا النطق به إذا أنشدوه ، ولكى يعرفوا بدقة موازينه وقواعدها إذا أرادوا صنع شىء منه أو نظمه ، وأول ما نلتقى به من كتب هذا العلم كتاب فى عصر الموحدين لأبى ذر مصعب الخشنى الذى مر ذكره فى أول الحديث عن اللغويين . ونلتقى فى أوائل العصر المرينى بمالك بن المرحل الذى مرَّ ذكره فى الحديث عن اللغويين ، وله أرجوزه

(١) انظر فى القدومى درة الحجال ١/١٥٦ وروضة الآس للمقرى ص ٣٤ .
(٢) راجع فى قاسم بن محمد روضة الآس ص ٢٢٥ والصفوة لليفرنى ص ٩٥ والمنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور لابن القاضى (طبع الرباط) ص ٧٩٠ .
(٣) المنتقى ص ٧٩١ .
(٤) راجع النبوغ المغربى فى مؤلفات ابن الطيب الشرقى وغيرها من مؤلفات العصر .

فى علم العروض ورسالتان[1] فى وزن الرباعيات وهما تعرضان وزنين للرباعيات أو الدوبيت كما سماها الإيرانيون ومعنى دو عندهم اثنان ، والوزن الأول فعلن متفاعلن فعولن فَعْلن والوزن الثانى فَعْلن فعلن مستفعلن مستفعلن . وكان ضياء الدين الخزرجى قد ألف متنا أو منظومة فى هذا العلم فشرحها أبو القاسم الشريف المار بين اللغويين وسمى شرحه باسم رياضة الأبىّ فى شرح قصيدة الخزرجى ، وهو أول من شرحها شرحا وافيا . ولابن رشيد محمد بن عمر الفهرى السبتى الرحالة المتوفى سنة ٧٢١ هـ/١٣٢٢ م كتاب فى القوافى سماه : وصل القوادم بالخوافى فى ذكر أسماء القوافى ، وكتاب ثان سماه باسم كتاب فى العروض . ويذكر الدكتور حجى للعصر السعدى كتابين[2] فى علم العروض : كتابا لابن غازى باسم « إمداد بحر القصيد ببحرى أهل التوليد » ويقصد بأهل التوليد المولدين من الشعراء ، وببحريهما أو بوزنيهما بحر أو وزن المتدارك ، وهو وزن محدث فى العصر العباسى ، وبحر أو وزن الدوبيت أو بعبارة أخرى الرباعية ووزنها أيضا محدث . وقد ذكرت فى العصر العباسى الأول أنها بدأت مع بشار وأنها كثرت عند أبى نواس وأبى العتاهية وضربت لها بعض الأمثلة ومنذ القرن الخامس الهجرى يتّخذ لها وزنان كما أسلفنا وبيَّن ذلك غاية التبيين مالك بن المرحل فى الرسالتين اللتين ذكرناهما آنفا . والكتاب الثانى الذى ذكره الدكتور حجى كتاب كافية النهوض فى صناعة العروض لعبد العزيز الرّسْموكى . ونلتقى فى العصر العلوى بمحمد بن زاكور المذكور بين اللغويين ، وله شرح على منظومة الخزرجية باسم : « النفحات الأرجية والنسمات البنفسجية بنشر ما راق من مقاصد الخزرجية » كما نلتقى بحمدون بن الحاج المتوفى سنة ١٢٣٢ هـ/١٨١٧ م وله مقصورة فى العروض والقوافى .

وظل المغرب الأقصى يتدارس ما أنتجه المشرق فى علوم البلاغة والبديع من أعمال قيمة عند أمثال ابن المعتز وقدامة وابن وهب والحاتمى والآمدى والعسكرى والباقلانى وابن سنان الخفاجى وعبد القاهر الجرجانى والزمخشرى والسكاكى وابن أبى الإصبع ، مضيفين إلى ذلك مدارسة بعض أعمال مغربية وخاصة كتاب العمدة لابن رشيق ، وقد يتناولون أعمالا سابقة بالشرح على نحو ما صنع ابن رشيد بشرحه لكتاب فى التجنيس أو الجناس . ولم يلبث المغرب الأقصى أن أهدى إلى علوم البلاغة والبديع علمين فذين ، هما ابن البناء أحمد بن محمد بن عثمان الأزدى المولود بمراكش سنة ٦٥٣ هـ/١٢٥٦ م العالم الرياضى البارع الذى لا تزال كتبه أو بعضها تدرس إلى اليوم فى المغرب الأقصى المتوفى سنة ٧٢١ هـ/١٣٢٢ م ، وأبو محمد القاسم بن محمد الأنصارى السجلماسى ، ولا نعرف شيئا

(١) انظر تعريفا بالرسالتين فى الجزء الخاص بالعراق فى المجلد الخامس من تاريخ الأدب العربى ص ٣٢٨ وهما منشورتان فى العدد الرابع من المجلد الثالث من مجلة المورد ببغداد .

(٢) انظر الحركة الفكرية ١/١٥١ .

عن تاريخ مولده ووفاته سوى أنه أملى كتابه فى البديع أو أنهى تأليفه سنة ٧٠٤ هـ/١٣٠٥م مما يؤكد أنه كان معاصرًا لابن البناء .

ومر ذكر ابن البناء فى حديثنا عن علوم الأوائل ، وقلنا هناك إنه بلغ الغاية فى مختلف العلوم الدينية واللغوية والبلاغية وفى العلوم الفلسفية ولاسيما فى الرياضيات والفلك . وعلى نحو ضبطه لقوانين الرياضة ضبط قواعد النحو فى كتاب سماه الكليات النحوية ، وأكبر الظن أنه وزع قواعد النحو فيه على كليات عامة تستقصى كل كلية مجموعة من قواعده . وبالمثل صنع بالبديع فى كتابه : « الروض[1] المَرِيع فى صناعة البديع » والمريع أى الخصب وكلمة البديع عنده تعنى بالضبط ما عناه بها ابن المعتز فى كتابه « البديع » إذ ساق فيه الصور البيانية من تشبيه وغير تشبيه والألوان البديعية من طباق وغير طباق والأصباغ البلاغية فى علم المعانى ، إذ ذكر بين محسنات الكلام الالتفات ورد الأعجاز على الصدور وتجاهل العارف وتأكيد المدح بما يشبه الذم والعكس والخروج من معنى إلى معنى ويشمل الاستطراد . وبذلك تضمن كتاب ابن المعتز علوم البلاغة جميعا وكان الزمخشرى أول من ميَّز بين علمى البيان والمعانى كما جاء فى مقدمة تفسيره : « الكشاف » وجعل علم البديع ذيلا لهما كما يقول السيد الجرجانى فى شرحه لكتاب المفتاح للسكاكى . وبهذا التصور كتب السكاكى وتوالت بعده الكتب البلاغية تجمع بين هذه العلوم لثلاثة : البيان والمعانى والبديع ، غير أن بعض علماء البلاغة رأى أن يعود إلى التعبير بكلمة البديع عن كل هذه العلوم على نحو ما يلاحظ عند ابن أبى الإصبع المصرى المتوفى سنة ٦٥٤ هـ/١٢٥٧ م فى كتابه « بديع القرآن » . فكلمة البديع عنده — كما عند ابن البناء — تعنى علوم البلاغة من بيان ومعان وبديع ، وقد بلغ تعداد محاسنها وقواعدها عند ابن أبى الإصبع فى كتابه : « بديع القرآن » مائة قاعدة ونيِّفا ، وبلغت فى كتاب ثان له باسم : « تحرير التحبير فى صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن » مائة وخمسا وعشرين قاعدة . وكأنما رأى ابن البناء بعقله المنطقى أن ييسر تصورها على الدارسين بوضع كل مجموعة من القواعد الجزئية الكثيرة عند البلاغيين فى قاعدة كلية تجمعها أو قل تجمع ما رآه حريا ببيانه وتوضيحه ، وهو يقدم لكتابه بتوطئة — أو كما نقول الآن بتمهيد — يتحدث فيها عن تأليفه للكتاب وغرضه منه قائلا :« غرضى أن أقرر فى هذا الكتاب من أصول صناعة البديع ومن أساليبها البلاغية ووجوه التفريع [فيها] تعريفا غير مخلٍّ ، وتأليفًا غير ممل ، يصغر جرمه ويكثر علمه .. ومنفعته فى زيادة المُنّة ، وفهم الكتاب والسنّة » ويريد بزيادة المنة زيادة القدرة على فهم البلاغة القرآنية والنبوية وتلى ذلك ثلاثة أبواب : والباب الأول مقدمات فى الدلالة والكلام والبديع وهو فى ثلاثة فصول أولها يتناول الدلالة وارتباطها باللفظ والمعنى فى أقسامها ،

(١) حقق هذا الكتاب ونشره الأستاذ رضوان بنشقرون فى الدار البيضاء بالمغرب الأقصى .

والفصل الثانى فى أقسام الكلام من حيث الصياغة إلى منظوم ومنثور ومن حيث المخاطبات إلى برهان وجدل وخطابة وشعر ومغالطة ، ومن حيث الواقع إلى حقيقة ومجاز ، ومن حيث مواجهة المعنى للغرض إلى القواعد الكلية الأربع التى سيعرض لها فى الباب الثانى ، ومن حيث دلالته على المعنى إلى القواعد الكلية الثلاث التى يذكرها فى الباب الثانى . والفصل الثالث فى صناعة البديع ، وفيه يذكر أن البلاغة قد تكون فى الإيجاز أو فى المساواة أو فى التطويل ، أما الفصاحة فصفة للفظ وسهولة مخارجه وعذوبته فى السمع ، والصناعة المتكفلة بذلك هى صناعة البديع التى تعرض القوانين الكلية وما يندرج تحتها من الجزئيات . ويحاول أن يصل بين البديع وبين البلاغة والبيان . وفى الباب الثانى يتحدث عن أقسام اللفظ من جهة مواجهة المعنى ، ويجعله فى أربعة فصول أو أربع كليات عامة الفصل الأول أو الكلية الأولى فى الخروج من شيء إلى شيء وتشمل ما يسمى بالتخلص من موضوع إلى موضوع كما تشمل الإدماج وهو أن يدمج المتكلم غرضا فى غرض والتفريع والاستطراد والخروج من إثبات شيء إلى نفيه أو العكس والاعتراض والالتفات . والفصل الثانى أو الكلية الثانية تشبيه شيء بشيء ، وتشمل صور التشبيه التشابه فى النسب ويدخل فيها مراعاة النظير والمقابلة والطباق . والفصل الثالث أو الكلية الثالثة تبديل شيء بشيء وتشمل الاستعارة والتمثيل وتبادل الكلى مع الجزئى والعكس وتبادل الحقيقة مع المجاز والواجب مع الممكن وإبدال المدح بصورة الذم والعكس والخبر مع الطلب والعكس وما كان مع ما يكون والعكس . ويفسح لمسألة لغوية هى وصف المؤنث بصيغة المذكر والعكس مثل امرأة صبور ورجل علامة . والفصل الرابع أو الكلية الرابعة تفصيل شيء بشيء ويدخل فيه التقسيم والتشكيك والتضمين أو الإيحاء ثم الاتساع بدلالة البيت دلالات مختلفة ، والتوضيح ، وهو مصطلح غير واضح فى التعبير عن مراده ، وهو عند الرمانى حسن البيان . والباب الثالث أقسام اللفظ من جهة الدلالة على المعنى وهو فى ثلاثة فصول ، الفصل الأول أوالكلية الأولى عن الإيجاز وأدخل فيه الحذف اللغوى كحذف العائد والمضاف والصفة والموصوف . والفصل الثانى أوالكلية الثانية عن الإكثار ومنه الاستظهاروهو استغناء القول عن تكملته ومجيء الصفات أوالنعوت للتخصيص بعد النكرات وللتعيين بعد المعارف ، ومنه التذييل والتتميم أو التكميل والتسوير وهو التعميم بعد التخصيص أوالعكس ، ومنه الترادف . والفصل الثالث أوالكلية الثالثة التكرير ومنه قبيح ومفيد ، ويكون للتقرير أوللتأكيد أو للمقايضة أو للتصدير أو للترديد ، ومنه المشترك اللغوى والبيانى ، ومنه التجنيس وفرّعه نحو اثنى عشر فرعا . وإنما أطلت فى عرض هذا الكتاب لأدل بوضوح على أن ابن البناء استطاع أن يخضع البديع أوالبلاغة للمنطق ، وان يجعل لها سبع كليات تضمنت أبواب علم البديع أو علوم البلاغة كما كان يتصورها عصره منذ ابن أبى الإصبع مع إضافة بعض مسائل لغوية وأظهر فى ذلك ذكاء وبراعة فائقين وقد حقق الكتاب تحقيقا سديدا وقدم له بدراسة

قيمة الأستاذ رضوان بنشقرون رادًا كثيرا من مسائله إلى كتب المشارقة البلاغية والعمدة لابن رشق .

وعلى ضوء هذا الكتاب وإخضاع علم البديع فيه للمنطق مع إدخال بعض المسائل اللغوية على المصطلحات البديعية ألف معاصرلابن البناء هو أبو محمد القاسم السجلماسى كتابه : « المنزع البديع فى تجنيس أساليب البديع[1] وكلمة البديع عنده – كما عند ابن البناء وابن أبى الإصبع وابن المعتز – تشمل كل صور البيان وألوان البديع ومحسنات المعانى ووجوهها البلاغية المختلفة ، وواضح من اسم الكتاب أنه أراد أن يجارى ابن البناء فى وضع جنس كلى لكل مجموعة من قواعد البديع الجزئية الكثيرة ، ورأى أن يخالفه فى الأجناس التى جعلها كليات وعنوانا للفصول السبعة فى البابين الثانى والثالث فى كتابه ، وهى عنده عشرة هى : الإيجاز – التخييل – الإشارة – المبالغة – الرصف – المظاهرة – التوضيح – الاتساع – الانثناء – التكرير . وهو يلتقى مع ابن البناء فى الإيجاز ويُدْخل فيه الحذف اللغوى مثله ، غير أن ابن البناء يستنبط منه أربع صيغ بلاغية بينما يستنبط السجلماسى أكثر من عشر صيغ بلاغية ، وتقسَّم فى أثناء ذلك الصيغ تقسيمات كثيرة ، إذ ينقسم الجنس إلى فروع والفرع ينقسم إلى فريعات أو غصون ، والغصون تنقسم إلى غصينات دون أن تميزٌ هذه الأقسام المتولدة والمتنوعة بأسماء تعيِّنها ، فمثلا عنده المفاضلة ويعنى بها النقص عن المضمون فى الكلم : نوع من الإيجاز ، وهى نوعان وكأنها جنس متوسط ، والنوع الأول من نوعيها الاختزال ، والاختزال بدوره نوعان: اصطلام أى قطع وبتر ، وحذف وهو بدوره نوعان : إطلاق وانتهاك، والانتهاك أنواع . وهى صعوبة واضحة فى الكتاب ،غير أن فيه ذكاء بارعا وقدرة منطقية إلى أقصى حد ممكن . ونترك جنس الإيجاز إلى جنس التخييل وما يتصل به من التشبيه والاستعارة والمجاز وهو يقابل عنده الفصل الأول من الباب الثانى عند ابن البناء الخاص بكلية التشبيه ، والتعبير بالتخييل أدق غير أنه لم يضع فيه الكناية ، إذ عقد لها الجنس الثالث فى كتابه ، ولكن لا باسمها وإنما باسم الإشارة ، والبلاغيون قبله يدخلون فى أنواعها كل ما سماه من أنواعها وفروعها ما عدا حذف الحروف من الكلمة المذكور فى آخر جنسها أوحذف بعض الجمل ويسمونه باسم الاكتفاء . والجنس الرابع عنده المبالغة ، وأحسن حين جعل لها جنسا خاصا وقدبدأها بالصيغ اللغوية المستعملة فى المبالغة مثل حَسَّان – طُوال – رَحْمن – شرِّير غير أنه استكثر من أنواعها حتى بلغت نحو المائة واستغرقت اللغة – فيما بعد صفحات كثيرة كما فى ٣٠٦ إلى ٣٠٨ وأيضا فإنه أدخل فيها كثيرا من صيغ المجاز المرسل كتسمية السبب باسم المسبب وعكسه وتسمية الشىء بأولاه وبعقباه . والجنس الخامس الرصف ويعنى به نَسق الكلام وترتيبه ، ويدخل فيه التسهيم ،

---

(١) حقق هذا الكتاب ونشره الأستاذ علال الغازى فى مكتبة المعارف بالرباط .

وهو أن يشهد أول الكلام بآخره كما يدخل فيه التقسيم والمقابلة والالتفات أو مراجعة المعنى الماضي . والجنس السادس المظاهرة ويدخل فيها المطابقة وهي الجناس باللفظ المماثل ، والمكافأة وهي الطباق وتشمل المقابلة ، كما تدخل المقايضة في مثل قوله عز وجل : ﴿تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل﴾ ويسميه ابن أبى الإصبع فى كتابه بديع القرآن : « العكس والتبديل » وتدخل المزاوجة وهى بنفس الاسم عند ابن أبى الإصبع (ص ٢٨ من بديع القرآن) كما يدخل التصدير وهو رد الأعجاز على الصدور عند ابن أبى الإصبع فى كتابه تحرير التحبير ص ١١٦ ، ويقول إن المتأخرين سموه التصدير ، ويدخل الترديد وهو بنفس الاسم عند ابن أبى الإصبع (ص ٩٦ من بديع القرآن) . والجنس السابع التوضيح ، وكان ينبغى أن يسميه حسن التوضيح لأن التوضيح من حيث هو لا يعد بديعا ، ولذلك سماه الرمانى حسن البيان وفى رأيى أن السجلماسى تابع فى ذلك ابن البناء غير أنه تحدث عنه كنوع فى الفصل الرابع أوالكلية الرابعة الخاصةبتفصيل شىء بشىء وجعل منه التفسير كما صنع السجلماسى ، وكان حريا به أن يجعله فرعا لأحد الأجناس كجنس الرصف . والجنس الثامن الاتساع وهو أن يحتمل القول أو البيت معنيين أو أكثر ، وذكره ابن أبى الإصبع (ص ١٧٣ من بديع القرآن) كما ذكره ابن البناء فى الفصل الرابع أو الكلية الرابعة من الباب الثانى فى كتابه ، ولم يتسع السجلماسى بالحديث فيه ، وكان حريا أن لا يعقد له جنسا مستقلا . والجنس التاسع الانثناء ، وهو بأنواعه الأصلية والفرعية يقابل الفصل الأول أو الكلية الأولى من الباب الثانى عند ابن البناء وهى الخروج من شىء إلى شىء . وربما كانت تسمية الكلية على هذا النحو أدق من تسمية الجنس عند السجلماسى .

والجنس العاشر التكرير وهو نفس الكلية الأخيرة عند ابن البناء ، والتجنيس مفرع عنده إلى نفس فروعه عند ابن البناء ، وهما يلتقيان فيها مع ابن أبى الإصبع (ص ٢٧ من بديع القرآن وص ١٠٢ من تحرير التحبير) . ومواضع الالتقاء بين ابن أبى الإصبع والسجلماسى كثيرة ، وبيانها يحتاج إلى مقابلات وتفصيلات لاتسعها هذه الدراسة . وإنما ذهبت إلى أن ابن البناء هو الذى ألف كتابه أولا ثم ألف السجلماسى كتابه لأنه أخذ منه فكرة الجنس الكلى للقواعد البديعية ، وفكرة إدخال مسائل لغوية كثيرة فى دراسة البديع ، مع الاشتراك فى أسماء بعض الأجناس والكليات والمصطلحات وفى كثير من التعريفات والأمثلة والشواهد ، وكأن ابن البناء هو الذى بدأ فكرة الكليات التى صدر عنها فى كتابه الكليات النحوية وفى هذا الكتاب الخاص بالبديع . والسجلماسى هو الذى انتهى بها إلى الغاية – على هدى علم المنطق – إذ استحالت فكرة الكلية عنده إلى فكرة الجنس وأنواعه ، ومضى فى الكتاب يطبق المنطق بقضاياه ومقولاته وأقيسته ولا يخفى ذلك بل يصرح به مرارا ، حتى لينقل كلامه بنصه مرارا (انظر الفهرس) ومما لاريب فيه أن السجلماسى حاول جاهدا أن يمنطق البديع ، وتم له ذلك ، غير أنه توسع

فى التفريعات على نحو ما يتضح فى تفريعاته على الإيجاز والمبالغة والمظاهرة والتكرير ، ولعل ذلك كان أهم سبب فى أن الكتاب لم يكتب له ولا لمنهجه الذيوع والانتشار فى حلقات دراسة البلاغة والبديع فى البيئات العربية حتى فى بيئة المغرب الأقصى نفسها مع أن فيه أمثلة وشواهد بديعية رائعة تشهد للسجلماسى بحسن ذوقه ورهافة حسّه البديعى أو البلاغى . وقد بذل الأستاذ علال الغازى جهدا واضحا فى تحقيقه لهذا الكتاب ودراسته وما صنع له من فهارس مختلفة .

ونعجب أن ينصرف المغرب الأقصى – بعد السجلماسى – عن الإكباب على كتابه بالدرس والشرح وأن يعنى – مثل مصر والشام – بدراسة كتاب التلخيص للقزوينى المتوفى سنة ٧٣٩ هـ/١٣٨٩ م ولعلى الياصلاتى فى العصر السعدى حاشية على شرح السعد لتلخيص القزوينى وهو تلخيص لعلوم البلاغة الثلاثة : البيان والمعانى والبديع ، ولحمدون بن الحاج فى العصر العلوى المتوفى سنة ١٢٣٢ هـ/١٨١٧ م حاشية على الشرح المختصر لسعد الدين التفتازانى لتلخيص القزوينى .ومن يرجع إلى الفصل الذى عقده حاجى خليفة فى كتابه : « كشف الظنون » لتلخيص القزوينى يشعر أنه أصبح المسيطر على كل الأبحاث البلاغية فى العالم العربى ، وقد أقبل عليه الشراح يشرحونه يشرحه المغربى والمصرى والعراقى وغيرهم وقد يضعون على الشروح شروحا ، ويسمونها حواشى ، بحيث أصبح هو وتلك الشروح والحواشى المادة الأساسية لتعليم البلاغة بفروعها المختلفة من بيان ومعان وبديع فى جميع الأقطار والبلدان العربية .

٤

علوم[1] القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

يعنى المغرب الأقصى – من قديم – بقراءات القرآن الكريم ، ومن أهم قرائه – قبل عصر المرابطين – أبو عمران موسى بن عيسى الفاسى ، أخذ القراءات عن أئمتها فى القيروان ومصر ومكة وبغداد ، وأقرأ الناس بالقيروان مدة . وكان يعاصره سليمان بن أحمد الطنجى المتوفى سنة ٤٤٠ هـ/١٠٤٨ م رحل إلى مصر وبرع فى القراءات كما يقول ابن الجزرى . ونزل سبتة

(١) انظر فى تراجم القراء والمفسرين والمحدثين والفقهاء والمتكلمين طبقات القراء لابن الجزرى والذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى والديباج لابن فرحون والمنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور السعدى وما وضع محققه فى هوامشه من مصادر لبعض الأعلام وكتاب النبوغ المغربى لعبد الله كنون وحضارة الموحدين لمحمد المنونى ومظاهر الثقافة المغربية فى الأدب المغربى بالعصر المرينى لمحمد بن شقرون والحركة الفكرية بالمغرب لمحمد حجى والحياة الأدبية فى المغرب على عهد الدولة المغربية للأخضر .

قبل عصر المرابطين على بن عبد الغنى الحصرى المتوفى بطنجة سنة ٤٦٨ هـ/١٠٧٥ م وله قصيدة رائية مشهورة فى قراءة نافع . ونلتقى فى عصر المرابطين بالمقرئين : مروان بن سَمْجون المتوفى سنة ٤٩١ هـ/١٠٩٧ م وَلِىَ الصلاة والخطبة بسبتة وتصدَّر قديما لإقراء القرآن وكان — كما يقول ابن الجزرى — مقرئا مجودًا لغويا ، وعلى بن محمد الجذامى نزيل سبتة المتوفى سنة ٥٣٠ أقرأ بها القرآن ودرَّس العربية زمانا ، وأبو بكر محمد الفَلَنْقى نزيل فاس المتوفى بها سنة ٥٥٣ هـ/١١٥٨ م وكان إماما فى صناعة الإقراء ، وله كتاب فى القراءات سماه : الإيماء . ومن القراء فى عصر الموحدين علىبن محمدبن هذيل المتوفى سنة ٥٦٤ هـ/١١٦٨ م وإليه انتهت رياسة الإقراء فى شرقى الأندلس ، وعلى بن أحمد الكنانى المستوطن لفاس المتوفى بها سنة ٥٦٩ هـ/١١٧٣ م التزم الإمامة بمسجده فى فاس والإقراء فيه ستا وستين سنة ، وابن خير محمد المتوفى سنة ٥٧٥ هـ/١١٧٩ م وهو من أئمة المقرئين والمحدثين ، ولد ونشأ بفاس واستوطن إشبيلية ، وله فهرسة مشهورة ومنشورة بشيوخه وما اطلع عليه من كتب ، وكانت له أسانيد فى القراءات متواترها وشاذها فى مجلد خاص . ومن القراء فى هذا العصر عبد الرحمن الجذامى المتوفى سنة ٥٨١ هـ/١١٨٥ م تصدَّر للإقراء بسبتة فى مسجد زقاق الخشابين نحوا من ستين سنة ، وابن الصقر محمد بن أحمد الأنصارى المراكشى المتوفى سنة ٥٩٠ هـ/١١٩٣ م وكان مقرئا مجوِّدا محدثا متسع السماع ، ويحيى بن محمد الهوزنى المتوفى سنة ٦٠٢ هـ/١٢٠٥ م تصدر للإقراء بسبتة وله أرجوزة فى غريب القرآن ، وعلى بن محمد بن يوسف الفهمى المتوفى سنة ٦١٧ هـ/١٢٢٠ م سكن سَلا ثم مراكش وكان قائما على القراءات آية من آيات الله — كما يقول المراكشى — فى حسن الصوت ضريرا وسمعه المنصور يعقوب صاحب موقعة الأرك فأخذ بلُبِّه طيب نغمته ، فقربه واستخلصه لتعليم أبنائه وبناته ، وأبو عبد الله محمد بن الحسن الفاسى المتوفى سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م ويقول ابن الجزرى إن له شرحا على الشاطبية .

ومن القراء فى عصر المرينيين ابن رشيد صاحب الرحلة المشهورة المتوفى سنة ٧٢١ هـ/١٣٢٢ م بمراكش وكان يروى قصيدة حرز الأمانى المعروفة باسم الشاطبية . وابن آجروم معاصره المار ذكره بين النحاة وله شرح على الشاطبية ، وابن برى التازى على بن محمد المتوفى بفاس سنة ٧٣٠ هـ/١٣٣٠ م وله منظومة فى قراءة نافع أحد القراء السبعة سماها الدرر اللوامع . وابن هانىء محمد بن على اللخمى السبتى المتوفى شهيدا بجبل الفتح سنة ٧٣٤ هـ/١٣٣٤ م وكان أستاذا فى القراءات والنحو ، وأبو القاسم بن عمران الحضرمى السبتى المتوفى سنة ٧٥٠ هـ/١٣٥٠ م وله كتاب الكافى فى القراءات ، ومحمد بن محمد بن إبراهيم الخراز المتوفى سنة ٨١٨ هـ/١٤١٦ م صاحب كتاب مورد الظمآن فى حكم رسم أحرف القرآن أتى فيه بزوائد على سابقيه ، وله شرح على قصيدة الحصرى فى القراءات . ومن القراء فى عصر السعديين محمد بن أبى جمعة الهبطى الصماتى المتوفى سنة ٩٣٠ هـ/١٥٢٤ م مؤلف

كتاب وقف القرآن ذكر فيه الكلمات القرآنية التي يوقف عليها من سورة الفاتحة إلى سورة الناس ، ولا يزال العمل جاريا في المغرب الأقصى إلى الآن في كتابة المصاحف على ما وضعه ودوّنه في هذا الكتاب . ولأحمد بن شعيب المتوفى سنة ١٠١٥ هـ/١٦٠٧ م إتقان الصنعة في قراءة السبعة ، ولعبد الواحد بن عاشر أستاذ القراءات المتوفى سنة ١٠٤٠ هـ/١٦٣١ م شرح على مورد الظمآن في حكم رسم أحرف القرآن للخراز . ومن القراء في عصر العلويين عبد الرحمن بن القاضي المتوفى سنة ١٠٨٢ هـ/١٦٧٢ م وله منظومة في القراءات السبع ، ومنظومة ثانية في رسم المكي في القرآن ، وكتاب في قراءة ابن كثير عالم أم القرى (مكة) وكتاب بيان الخلاف والشهير والاستحسان وما أغفله مورد الظمآن لابن الخراز . وعبد الرحمن المنجرة الصغير المتوفى سنة ١١٧٩ هـ/١٧٦٦ م وله حاشية على شرح التونسي المسمى الطراز في شرح ضبط الخراز في رسم أحرف القرآن ، وله أيضا حاشية على شرح عبد الواحد بن عاشر المسمى فتح المنان على مورد الظمآن للخراز ، ولمحمد بن عبد السلام الفاسي حاشية على شرح الجعبري على الشاطبية المسماة حرز الأماني ، وله كتاب في تجويد القرآن ، وكتاب ثان في طبقات المقرئين وكتاب ثالث في مخارج الحروف .

وظل المغرب الأقصى يعتمد في تفسير القرآن الكريم على ما ألفه المشرق فيه من كتب حتى إذا كنا في عصر المرابطين أخذ يظهر فيه بعض المفسرين مثل أبي بكر السبتي محمد بن يعلى المعافري خال القاضي عياض ، وله تفسير لم يتم . وينشط غير عالم مغربي لتفسير الذكر الحكيم في عصر الموحدين مثل عبد الجليل القصري من أهل مدينة القصر الكبير المتوفى بسبتة سنة ٦٠٨ هـ/١٢١١ م وله تفسير للقرآن كان يقع – فيما يقال – في ستين مجلدا ، وابن مصالة الفازازي المكناسي المستوطن بأخرة « فاس » المتوفى بعد سنة ٦١١ هـ/١٢١٤ م وكان طوال حياته معتنيا بتفسير القرآن ، وأبي الحسن بن الحصار علي بن محمد الأنصاري الفاسي المتوفى سنة ٦٢٠ هـ/١٢٢٣ م سكن سبتة ومراكش وغيرهما وله الناسخ والمنسوخ في القرآن ثلاث نسخ : الأكبر والأوسط والأصغر ومقالة في إعجاز القرآن وأنشد له ابن عبد الملك المراكشي قصيدة رائية في اثنين وعشرين بيتا نظمها في المدني والمكي من سور القرآن ، ومحمد بن يوسف المزدغي المتوفى سنة ٦٥٥ هـ/١٢٥٨ م أقرأ بسبتة وفاس وَوليَ الخطبة والصلاة بجامع القرويين فيها إلى وفاته ، وله تفسير حفيل مفيد انتهى فيه إلى سورة الفتح . ومن المفسرين في عصر الدولة المرينية أحمد بن فرتون السلمي الفاسي المتوفى سنة ٦٦٠ هـ/١٢٦٢ م وهو تلميذ ابن مصالة المار ذكره وله كتاب الاستدراك والإتمام بما في كتاب السهيلي : التعريف والإعلام بما أبهم في القرآن العزيز من الأسماء والأعلام ، ومحمد بن علي بن العابد الأنصاري الفاسي نزيل غرناطة وبها كتب لابن الأحمر ، وله اختصار الكشاف للزمخشري مع تجريده من آرائه الاعتزالية توفي سنة ٦٦٢ هـ/١٢٦٤ م ولابن البناء المار ذكره

فى الرياضيين والبلاغيين الباء فى البسملة ، وتفسير الاسم فيها ، وتفسير سورة الكوثر ، وتفسير سورة العصر ومتشابه اللفظ فى القرآن ، وتسمية الحروف وخاصية وجودها فى أوائل السور ، وحاشية على الكشاف للزمخشرى . ونلتقى فى القرن التاسع الهجرى بأبى القاسم السلوى وله تفسير للقرآن الكريم .

ومن المفسرين فى العصر السعدى ابن الحاج الشطيبى المتوفى سنة ٩٦٠ هـ/١٥٥٣م وله اللباب فى مشكلات الكتاب ، وللمنصور الذهبى المتوفى سنة ١٠١٤ هـ/١٦٠٦م حاشية على الكشاف للزمخشرى وبالمثل لمحمد بن عبد الله الرجراجى قاضى تادلة تلميذ أبى العباس المنجور ، ومن مفسرى العصر عبد الله بن طاهر الشريف المتوفى سنة ١٠٤٥ هـ/١٦٣٦م وله الدر الأزهر فى مناسبات الآيات والسور ، وعبد الرحمن العارف المتوفى سنة ١٠٤٦ هـ/١٦٣٧م وله حاشية على تفسير الجلالين ، وعلى بن عبد الواحد الأنصارى السجلماسى ، وله تفسير للقرآن الكريم ، وتوفى سنة ١٠٥٤ هـ/١٦٤٥م .

ومن المفسرين فى عصر العلويين إدريس العراقى المتوفى سنة ١١٨٣ هـ/١٧٦٩م وله حاشية على تفسير الثعلبى ، وابن عجيبة المتوفى سنة ١٢٢٤ هـ/١٨٠٩م وله البحر المديد فى تفسير القرآن المجيد ، وكان يعاصره الطيب ابن كيران المتوفى سنة ١٢٢٧ هـ/١٨١٢م وله تفسير سورة الفاتحة ، وتفسير جزء من سورة البقرة ، وتفسير من سورة النساء إلى سورة غافر . وكان يعاصرهما حمدون بن الحاج المتوفى سنة ١٢٣٢ هـ/١٨١٧م وله تفسير بعض سور القرآن الكريم وحاشية على تفسير أبى السعود وحاشية أخرى على تفسير البيضاوى ، ولعبد الرحمن الحائك المتوفى سنة ١٢٣٧ هـ/١٨٢١م حاشية على تفسير الجلالين .

وينشط المغرب الأقصى فى رواية الحديث النبوى ويشتهر فيها بالقرن الرابع الهجرى أبو محمد الأصيلى عبد الله بن إبراهيم المتوفى سنة ٣٩٢ هـ/١٠٠١م وهو منسوب إلى مدينة أصيلا على المحيط الأطلسى وبها نشأ وارتحل فى طلب الحديث إلى الأندلس . ثم رحل إلى المشرق فلقى شيوخ القيروان ومصر وحجَّ فلقى بمكة سنة ٣٥٣ أبا زيد المروزى وحمل عنه البخارى ، وكان يعد من كبار رواته ، ولقى بها الأبهرى رئيس المالكية ، وروى كل منهما عن صاحبه كما لقى الدارقطنى المحدث الكبير ، وروى كل منهما أيضا عن صاحبه ، وسمع منه البخارى ، ثم سمعه من أبى أحمد الجرجانى ، وعاد يحمل نسخة وثيقة صحيحة من البخارى أدق صحة ، ونزل الأندلس وأمَّه العلماء والطلاب من كل بلد ، يحملون عنه صحيح البخارى ، ويدل بوضوح على مدى صحتها أن اليونينى الدمشقى فى القرن السابع الهجرى حين أخرج نسخة من صحيح البخارى صحيحة كل الصحة جلب أصل الأصيلى ، وكان أحد أربعة أصول

اعتمد عليها فى المقابلة واتخذ حرف (ص) رمزا له طوال مقابلاته على نحو ما يتضح فى طبعة مصر لصحيح البخارى منذ القرن الماضى .

ونلتقى بعده ببكار بن برهون بن عيسى الغرديس السجلماسى ، وكان قد حجَّ ولقى بمكة أباذر الهروى وسمع منه صحيح البخارى ، وعاد إلى المغرب يملى رواية البخارى عنه . ورواية أبى ذر كانت أحد الأصول الأربعة التى اعتمدها اليونينى فى مقابلاته لإخراج نسخته من صحيح البخارى على أدق صورة علمية ممكنة ، وتسامع العلماء والطلاب فى المغرب الأقصى بروايته ، فرحل إليه كثيرون من المغاربة والأندلسيين يأخذونها عنه وبذلك حظيت المغرب من قديم بروايتين أصيلتين من روايات صحيح البخارى ، وكان ابن الغرديس لا يزال على قيد الحياة سنة ٤٨٦ مما يجعله أول محدث كبير يلقانا فى عصر المرابطين . ومن تلامذته يوسف بن عيسى بن الملجوم المتوفى سنة ٤٩٢ هـ/١٠٩٨م وقد أجاز له سنة ٤٨٦ هـ/١٠٩٣ م وحضر ابن الملجوم مع يوسف بن تاشفين موقعة الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ/١٠٨٦ م . وكان ابنه عيسى محدثا على مثاله ، وسمع منه ومن شيوخ عصره ورحل إلى سجلماسة .وسمع ابن الغرديس وأخذ عنه . وتُهْدى سبتة فى عصر المرابطين القاضى عياض إلى علوم الحديث ورواياته وقد توفى سنة ٥٤٤ هـ/١١٤٩ م وبذلك يكون قد لحق عصر الموحدين إذ عاش فى عصرهم بقية قليلة نحو خمس سنوات ، ومولده بسبتة سنة ٤٩٦ هـ/١١٠٢ م وله فى الحديث النبوى كتب مختلفة ، منها كتاب الشفا فى التعريف بحقوق المصطفى ﷺ ، وشرِّق هذا الكتاب وغرِّب ، وكُتبت له شروح كثيرة ، ومنها إكمال المعلم بصحيح مسلم ، والمعلم لشيخه المازرى الصقلى المتوفى بالمهدية سنة ٥٣٦ هـ/١١٤١ م وقد أضاف إلى شرحه لمسلم زيادات وإضافات ، ومنها مشارق الأنوار فى تفسير غريب الحديث بكتبه الصحاح الثلاثة : الموطأ وصحيح البخارى وصحيح مسلم ، ويشمل ضبط ألفاظها وتفسيرها مع التنبيه على مواضع الأوهام والتصحيفات .

ومضت رواية الحديث النبوى والتأليف فيه يزدهران فى عصر الموحدين ، إذ كان خلفاؤهم يعنون به بل كان منهم من يكثر من مدارسته ، حتى نُسب إلى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن أنه كان يحفظ أحد الصحيحين : صحيح البخارى أو صحيح مسلم كما يقول صاحب المعجب ، وكان ابنه يعقوب على غراره ، ونال عنده طلبة الحديث ما لم ينالوه فى أيام أبيه وجده كما يقول صاحب المعجب . ويقول ابن أبى زرع فى كتابه روض القرطاس عن ابنه المأمون إدريس (٦٢٤ هـ/ ١٢٢٧ م – ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٣ م) إنه كان إماما فى الحديث ولم يزل أيام خلافته يقرأ كتاب الموطأ وكتاب صحيح البخارى وسنن أبى داود . ومن كبار المحدثين فى عصرهم أبو عبد الله بن الغازى السبتى محمد بن الحسن ، وكان راوية للحديث واستُقضى ببلده سبتة ، توفى سنة ٥٩١ هـ/١١٠٤ م ومنهم على بن عتيق المتوفى سنة ٥٩٨ هـ/١٢٠١ م وكان محدثا

راوية مكثرا عنى بالحديث طويلا ، ومنهم محمد بن قاسم بن عبد الكريم التميمى الفاسى المتوفى سنة ٦٠٤ هـ/١٢٠٧ م رحل فى طلب الحديث النبوى إلى بلاد إفريقية التونسية والبلاد المصرية ودمشق وكان محدثا حافظا ذاكرا للحديث ورجاله وطبقاتهم وتواريخهم ، ومن مصنفاته « اللمعة فى ذكر أزواج النبى ﷺ وأولاده السبعة » ومنها الأغذية مما جاء فى الحديث ، ومنها تحفة الطالب ومنية الراغب فى الأحاديث النبوية العلية السنية ، ومنهم أبو عبد الله بن الصيقل محمد بن عبد الله الحسينى القاضى المتوفى سنة ٦٠٨ هـ/١٢١١ م كان راوية للحديث حافظا لمتونه بصيرا بعلله عارفا برجاله وطبقاتهم وتواريخهم ، عُنى بذلك أتم عناية ودرس الحديث ببلده فاس واستدرك على عبد الحق فى كتابه الأحكام الكبرى أحاديث كثيرة ، ومنهم أبو الحسن ابن القطان على بن محمد بن عبد الملك المتوفى سنة ٦٢٨ هـ/ ١٢٣٠ م كان مستبحرافى علوم الحديث بصيرا بطرقه عارفا برجاله مميزا صحيحه من سقيمه ، وله فى الحديث مصنفات نافعة ، منها نقع الغلل فى الكلام على أحاديث السنن لأبى داود فى ثلاثة أسفار ضخمة ، ومنها كتاب فى الرد على ابن حزم فى كتابه المحلى مما يتعلق به من علم الحديث ، ومنها كتاب حافل جمع فيه الحديث الصحيح محذوف السند ، كمل منه كتاب الطهارة والصلاة والجنائز والزكاة فى نحو عشرة مجلدات ، وله أحاديث فى فضل التلاوة والذكر ، ومقالة فى نعت المحدِّثين الحديث بأنه حسن . ومن محدثى عصر الموحدين عمرو بن دحية الكلبى السبتى المتوفى بالقاهرة سنة ٦٣٣ هـ/١٢٣٥ م تجوَّل كثيرا فى بلاد الأندلس والشمال الإفريقى والمشرق واستقر أخيرا فى القاهرة وأسند إليه السلطان الكامل رياسة دار الحديث وكانت له عنده حظوة عظيمة ، ومن مصنفاته الآيات البينات فى ذكر ما فى أعضاء رسول الله ﷺ من المعجزات ، والمستوفَى فى أسماء المصطفى ، ومنهم أبو عبد الله بن المواق المراكشى قديما الفاسى حديثا المتوفى سنة ٦٤٢ هـ/١٢٤٤ م وله شرح الموطأ وشرح مقدمة صحيح مسلم وتعقيب على كتاب شيخه أبى الحسن بن القطان فى نقده لكتاب الأحكام الكبرى لعبد الحق أظهر فيه دقة معرفته بصناعة الحديث وعلله مع براعة تعقيباته . ومنهم أبو الحسن الشارى على بن محمد المتوفى سنة ٦٤٩ هـ/١٢٥٢ م وكان محدثا راوية مكثرا ثقة عاكفا على العلم جماعة لنفائس الكتب انتقى منها جملة وافرة وقفها على مدرسة شيدها بسبتة ، ووقف عليها من أملاكه ما يفى بنفقاتها ونفقات المدرسين فيها والطلاب ، وهى مَنْقبة عظيمة له . ومنهم أبو الحسن بن قطرال قاضى الموحدين فى بلدان أندلسية ومغربية كثيرة المتوفى سنة ٦٥١ هـ/١٢٥٤ م وكان محدثا راوية ثقة فيما يحدِّث به صحيح السماع .

ومن أهم المحدثين فى عصر المرينيين أبو عبد الله الأزدى محمد بن عبد الله السبتى المتوفى سنة ٦٦٠ هـ/١٢٦٢ م روى عن علماء بلدته ، ورحل إلى الأندلس وأخذ عن شيوخها ثم رحل إلى المشرق فأخذ عن جماعة وافرة من شيوخ مصر والإسكندرية ودمشق وحرَّان والموصل

وبغداد وواسط ، وعاد إلى بلدته سبتة فروى عنه كثيرون من أهلها ونزلائها ، وكان راوية مكثرا ثقة ، وكثير من مروياته عن أستاذه ابن الغازى السبتى المار ذكره . ومنهم ابن رشيد المار ذكره بين القراء ، وله السُّنن الأَبْيَنْ فى السند المُعَنْعَن والمحاكمة بين مسلم والبخارى ، ومنهم ابن الشاط قاسم بن عبد الله السبتى المتوفى سنة ٧٢٣ هـ/١٣٢٣ م أقرأ - عمره - بمدينة سبتة ، وله حاشية على صحيح مسلم . وشرَحَ كتاب الشفا للقاضى عياض غير محدَّث ، ومنهم فى القرن التاسع الهجرى الزمورى وابن السكاك المتوفى سنة ٨١٨ هـ/١٤١٥ م . ولابن هلال المتوفى سنة ٩٠٣ هـ/١٤٩٧ م اختصار فتح البارى على صحيح البخارى لابن حجر .

ومن المحدثين الكبار فى العصر السعدى سُقَّين العاصمى السفيانى عبد الرحمن بن على القصرى المتوفى سنة ٩٥٦ هـ/١٥٤٩ م رحل إلى المشرق فى طلب الحديث سنة ٩٠٩ هـ/١٥٠٣ م وأخذ عن تلامذة ابن حجر : زكريا الأنصارى وغيره من الشيوخ المصريين ، وتجول فى السودان الغربى ورجع إلى فاس سنة ٩٢٤ هـ/١٥١٨ م وأخذ فى إقراء الحديث على الطلاب حتى وفاته . ومن أهم تلاميذه أحمد المنجور المتوفى سنة ٩٩٥ هـ/١٥٨٧م ويذكر فى فهرست شيوخه أنه قرأ عليه أو سمع منه كتب الصحاح الستة سوى مصنفات فى الحديث أخرى مما حمله عن المشارقة والمغاربة ، مما يدل على اتساعه فى الرواية . ومن محدثى العصر محمد بن قاسم القصار المتوفى سنة ١٠١٢ هـ/١٦٠٤ م ، وكان إماما فى رواية الحديث وكان يقرىء تلاميذه صحيحى البخارى ومسلم والشفا لعياض ، ومنهم عبد الرحمن العارف المار ذكره بين المفسرين وله حاشية على صحيح البخارى .

ومن المحدثين المهمين فى عصر العلويين محمد بن سليمان الروداني المتوفى سنة ١٠٩٤ هـ/١٦٨٣ م وله الجمع بين الكتب الخمسة والموطأ ، ويقصد بالكتب الخمسة صحيح البخارى وصحيح مسلم وسنن أبى داود وجامع الترمذى وسنن النسائى ، وله كتاب ثان جمع فيه بين أربعة عشر كتابا من كتب الحديث سماه جمع الفوائد لجامع الأصول ومجمع الزوائد ضم فيه إلى الأصول الستة السابقة مسند الدارمى ومسند ابن حنبل ومسند أبى يعلى الموصلى ومسند البزار ومعاجم الطبرانى الثلاثة : الكبير والأوسط والصغير . ومن محدثى العصر إدريس بن محمد الحسينى الفاسى المتوفى سنة ١١٨٣ هـ/١٧٦٩ م وله شرح شمائل الترمذى ، وشرح الأحاديث المائة الأولى من الجامع الصغير للسيوطى وتخريج أحاديث الشهاب القضاعى والدرر اللوامع فى الكلام على أحاديث جمع الجوامع . ومنهم التاودى بن سودة المتوفى سنة ١٢٠٩ هـ/١٧٩٥ م وله زاد المجد السارى لمطالع البخارى ، وشرح الأربعين النووية .

ونشط المغرب الأقصى - منذ القرن الرابع الهجرى - فى الفقه نشاطا عظيما ، ودائما إذا أطلقنا الفقه فى أى بلد مغربى ولم نخصصه فإنه يراد به الفقه المالكى ، إذ عملت أسباب

مختلفة فى أن يصبح مذهب مالك هو المذهب الفقهى المنتشر بالمغرب فى كل البيئات وكل الأوساط وكل البلدان ، وقد يلقانا من حين إلى آخر فقيه شافعى ، إذ كان شباب العلماء يرحلون إلى مصر ، وكان المذهبان المالكى والشافعى يتنافسان فيها ، فربما اختلف بعض هؤلاء الشباب إلى حلقات الشافعية وأعجبهم مذهب الشافعى ، وقليل جدا من كانوا يعتنقون هذا المذهب على مر الحقب . وأهم فقيه مالكى نلتقى به فى المغرب الأقصى بالقرن الرابع الهجرى دراس بن إسماعيل الفاسى المتوفى سنة ٣٦٢ هـ/٩٧٢ م ، ويقال إن الفقيهين القيروانيين المشهورين أبا الحسن القابسى وابن أبى زيد تتلمذا له ، كما يقال إنه هو الذى أدخل مذهب مالك إلى المغرب الأقصى وأنهم كانوا قبل ذلك على مذهب أبى حنيفة الذى كان يدعو إلى اعتناقه الأغالبة فى القيروان . وبعد دراس يلقانا تلميذه عبد الرحيم بن أحمد الكتامى المعروف باسم ابن العجوز السبتى المتوفى سنة ٤١٣ هـ/١٠٢٢ م لازم ابن أبى زيد القيروانى مدة وسمع منه كتابيه : النوادر والمختصر ، ونلتقى بأبى عمران الفاسى المار ذكره بين القراء ، وإليه انتهت رياسة الفقهاء فى القيروان ، وكان يعاصره عبد الله بن غالب المتوفى سنة ٤٣٤ هـ/١٠٤٢ م صحب ابن أبى زيد بالقيروان وتفقه عليه ، وكان يعاصرهما عثمان بن مالك الفاسى المتوفى سنة ٤٤٤ هـ/١٠٥٢ م زعيم فقهاء المغرب الأقصى فى وقته ، وله تعاليق على مدونة سحنون .

ويدخل عصر المرابطين ومن فقهائه مروان بن سمجون المار ذكره بين القراء ، وكان فقيها محدثا مفتيا . ويلقانا بعده على بن القاسم رأس أسرة بنى القاسم بن عشرة بسَلا المتوفى سنة ٥٠٢ هـ/١١٠٨ م وكان فقيها حافظا ومحدثا ووجيه أهل بلدته استُقضى بها وأورث عقبه سؤددا وشرفا . وكان يعاصره أبو عبد الله التميمى الفاسى المتوفى سنة ٥٠٥ هـ/١١١١ م وهو شيخ القاضى عياض الذى افتتح به فهرسته . ومن فقهاء عصر المرابطين عبد الرحمن بن محمد بن العجوز المتوفى سنة ٥١٠ هـ/١١١٦ م كان يدرس لطلابه المدونة واستقضى للمرابطين فى عدة بلدان بالأندلس والمغرب . ومنهم عبد الله بن على بن سمجون المتوفى سنة ٥٢٤ هـ/١١٢٩ م وكان فقيها حافظا للفروع عارفا بإقرائها وتدريسها والفقه فيها ، ولاه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين قضاء الجزيرة ونُقل منها إلى غرناطة سنة ٥٠٨ وظل بها إلى وفاته . ومنهم موسى بن عبد الرحمن الصنهاجى المتوفى بمراكش وهو قاضيها سنة ٥٣٥ هـ/١١٤٠م وكان عالما بالأحكام مقدما فى معرفتها حافظا للرأى ورعا .

ومع أن دولة الموحدين كانت تعتنق فى الفقه المذهب الظاهرى وتدعو إليه ، كما مرَّ بنا فى الفصل الماضى . فقد ظل المذهب المالكى حيًّا طوال العصر ، غير أن كتب التراجم لا توضح مدى حياته ولا مدى حياة المذهب الظاهرى ، إذ تترجم لفقهاء العصر ترجمات عامة ، ولا نعرف أيهم كان ظاهريا وأيهم كان مالكيا . وأومن بأن الكثرة من القضاة كانت ظاهرية

فضلا عمن كان منهم يتولى منصب قاضى القضاة ، إذ الناس على دين ملوكهم ، ولعل خير مثال لقاضى القضاة الظاهرى يوضح ما نزعم أحمد بن عبد الرحمن بن مضاء قاضى القضاة أو رئيسهم فى عهد المنصور يعقوب ، فإنه فجَّر – على هدى المذهب الظاهرى فى الفقه – أكبر ثورة على سيبويه ونحاة المشرق بكتابه : « الرد على النحاة » إذ صوَّب فيها سهامه على نظرية العامل التى تعد الأساس الذى أقام عليه النحاة بناء النحو مقدِّرين أن العامل هو الذى يصنع الظواهر النحوية من رفع ونصب وجر وهو الذى يترتب عليه ما لا يكاد يُحْصَى من تقديرات وتعليلات وأقيسة مع ما يضاف إلى ذلك من تمرينات افتراضية . وابن مضاء فى هذه الثورة على النحو وقواعده متأثر فى ذلك كله – كما قلت فى تحقيق الكتاب – بالفقه الظاهرى وما ينكره على المذاهب الفقهية المشهورة من الاعتماد على الأقيسة والتعليلات مما أدى فى التشريع – كما أدى فى النحو – إلى ركام هائل من الافتراضات .

وإنما سقت ذلك لأدل على أن دولة الموحدين كانت جادة فى اعتناق المذهب الظاهرى وكان قضاة القضاة جادين معها فى هذا الاعتناق حتى أن قاضيا منهم يريد أن يطبقه على علم النحو وقواعده . وبالمثل كان كثير من القضاة أنفسهم يعتنقون هذا المذهب ، غير أن كتب التراجم – كما قلت – لا توضح ذلك ، وأنا أعرض طائفة من فقهاء العصر ، محاولا أن أتبين الظاهريين بينهم ، وأول من نقف عنده ابن الرمامة المتوفى سنة ٥٦٧ هـ/١١٧١ م وهو من قلعة بنى حماد استوطن مدينة فاس ، واشتهر فضله فاستخلصه على بن يوسف بن تاشفين لنفسه ، واستخدمه قاضيا لنفسه وطالت حياته حتى لحق عصر الموحدين ، وكان شافعى المذهب فلم يكن ظاهريا ولا مالكيا . ونلتقى بعبد الرحيم بن عمر الحضرمى الفاسى المتوفى سنة ٥٨٠ هـ/١١٨٤ م وكان فقيها مالكيا كما ينص على ذلك ابن عبد الملك المراكشى ، وكان من أهل التقوى وألف كتابا فى المذهب المالكى .

ويلقانا بعده عمربن عبدالله‌بن صمع القرشى المتوفى سنة ٥٩٨ هـ/١٢٠١ م ، روى عن كثيرين من بينهم ابن مضاء قاضى القضاة الظاهرى ، ويقول ابن عبد الملك إنه صنف فى شواذ المذهب المالكى مصنفا ، ولا ندرى هل كان مالكيا أو كان ظاهريا ينتقد مذهب مالك . وكان يعاصره على بن خيار الفاسى المتوفى سنة ٦٠٥ هـ/١٢٠٨ م وكان فقيها محدثا مشاورا (أى مما يرجع إليه القضاة فى الفتوى) ويقول ابن عبد الملك إنه كان رافضا التقليد ميالا إلى النظر والاجتهاد متفننا أى أنه كان متصفا بنفس الصفات التى يدعو إليها المذهب الظاهرى وأنصاره مما يؤكد أنه كان ظاهريا .

ونلتقى بعده بأبى عبدالله‌بن الصيقل المار ذكره بين المحدثين وقد تقلد منصب قاضى القضاة بعد ابن مضاء إلى أن توفى سنة ٦٠٨ هـ/١٢١١ م وخلفه فى منصبه الفقيه ابن دافال موسى بن

عيسى بن عمران حتى وفاته سنة ٦٢١ هـ/١٢٢٤ م وتقلد المنصب بعده الفقيه على بن محمد بن أبي عشرة ، ونفس منصبهم يؤذن بأنهم كانوا جميعا ظاهرية . ويختم فقهاء الظاهرية فى عهد الموحدين بأبي الحسن بن القطان المار ذكره بين المحدثين ، ولا نستدل على ذلك فقط بما ذكره ابن عبد الملك المراكشي فى ترجمته من أنه كان معظما عند الخاصة والعامة من آل دولة بنى عبد المؤمن وأنه حظى كثيرا · المنصور فابنه الناصر فالمستنصر بن الناصر فعبد الواحد أخى المنصور فالمعتصم بن الناصر ، بل نستدل بما هو أهم . فإن من ترجموا له ذكروا أنه رأس طلبة العلم بمراكش ونال بخدمة السلطان دنيا عريضة وما ذلك ، إلا لأنه سخَّر نفسه للدعوة بل ليصبح شيخ طلبتها ، وكانوا يطلقون اسم الطلبة على دعاتهم . وكان لا يزال يقرأ لهم كتب ابن تومرت ويفسر لهم ما فيها من مبادىء الدعوة . وأيضا مما يؤكد ظاهريته وانتصاره للمذهب الظاهرى ما ذكر من أن أبا على بن الطوير المراكشي عمر بن محمد الصنهاجي معاصره الفقيه المالكى ألف كتابا فى إثبات القياس الذى ينكره الظاهرية على المذاهب الفقهية الأربعة المشهورة : مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعى وابن حنبل ، فردَّ عليه باسم الظاهرية منكرا القياس بكتاب سماه المنزع فى القياس لمناضلة من سلك غير المَهْيع (الطريق الواضح السديد) فى إثبات القياس .

وانتهى عصر الموحدين وبدأ عصر المرينيين وفيه توقَّف فى القضاء العمل بالمذهب الظاهرى وعاد للمذهب المالكى سلطانه كاملا فى القضاء والفقه ، ومن فقهائه حينئذ محمد بن إبراهيم الغسانى التاجر بمدينة آسفى المتوفى سنة ٦٦٣ هـ/١٢٦٥ م كان بعد الفراغ من مجلس تدريسه الموطأ والسِّيَر والنحو يقعد فى حانوته لإدارته وكسب عيشه . ومنهم أبو الحسن الصُّغَيِّر الزرويلى على بن عبد الحق المتوفى سنة ٧١٩ هـ/١٣٢٠ م القاضى بتازه ثم بفاس وله تقييد على المدونة . ومنهم تلميذه الشطى محمد بن على بن سليمان المتوفى غريقا فى أسطول أبى الحسن المرينى سنة ٧٤٩ هـ/١٣٤٩ م وكانت له حظوة عنده وكان يقرأ عليه . ومنهم تلميذه القباب أحمد بن قاسم المتوفى سنة ٧٧٩ هـ/١٣٧٨ م قال فيه ابن الخطيب فى الإحاطة : « صدر من صدور عدول الحضرة الفاسية ، فقيه نبيل مدرك جيد النظر شديد الفهم ، وله شرح مسائل الفقيه ابن جماعة المصرى فى البيوع ويقول ابن فرحون فى الديباج إنه شرح مفيد ، وله أيضا شرح قواعد الإسلام للقاضى عياض ، وفتاوى مجموعة نقل عنها الونشريسى فى كتابه المعيار . ومنهم محمد بن الفتوح المتوفى سنة ٨١٨ هـ/١٤١٥ م وهو الذى أدخل مختصر خليل بن إسحق إلى المغرب الأقصى . ومنهم محمد بن أحمد بن غازى المتوفى سنة ٩١٧ هـ/١٥١١ م وله شفاء الغليل فى حل مقفل خليل ، بيَّن فيه - كما يقول الأستاذ كنون - هفوات بهرام ، والمواضع المشكلة فى مختصر خليل ، وله أيضا تكميل التقييد أكمل به تقييد أبى الحسن الصغير على المدونة .

ومن أهم الفقهاء في عصر السعديين اليسيثني الفاسي محمد بن أحمد المتوفى سنة ٩٥٩ هـ/١٥٥١ م وهو منسوب إلى قبيلة بربرية تسمى يسيثن بالثاء أو بالتاء وكان فقيه فاس ومفتيها ، ومنهم مبارك بن على الجزولي المتوفى سنة ٩٨٢ هـ/١٥٧٤ م ويقول أحمد بن القاضي إن قراءته لمختصر خليل في الفقه المالكي بصورة تحرير المسائل فقط كعادة أهل مصر والمشرق . ومنهم المنجور أحمد بن على المار ذكره بين المحدثين وهو أستاذ المنصور الذهبي وأجازه إجازة عامة في فهرسه ، وله في الفقه شرح المنهج المنتخب للزقاق . ومنهم عبد الواحد الحميدى المتوفى سنة ١٠٠٣ هـ/١٥٩٤ م وكان عالما بالفقه مستحضرا لمسائل خليل دءوبا على الإقراء والتدريس ، ومنهم يحيى بن محمد السراج الفاسي المتوفى سنة ١٠٠٨ هـ/١٥٩٩ م وكان يدرس لطلابه مختصر خليل بن إسحق المالكي المصرى وشيئا من ألفية ابن مالك والمغنى .

ومن الفقهاء المهمين في عصر العلويين عبد القادر الفاسي المتوفى سنة ١٠٩١ هـ/١٦٨٠ م وله كتاب باسم المسائل الفقهية عرض فيه العبادات الدينية ، وأجوبة فقهية عن طائفة من النوازل . ومنهم المسناوى الدلائي محمد بن أحمد المتوفى سنة ١١٣٦ هـ/١٧٢٤ م وله رسالة نصرة القبض في الرد على من أنكر مشروعيته في صلاتي النفل والفرض ، وصرف الهمة إلى تحقيق معنى الذمة . ومنهم أبو على الحسن بن رحال المتوفى سنة ١١٤٠ هـ/١٧٢٨ م وله حاشية كبيرة على مختصر خليل وحاشية أخرى على شرح الخرشي عليه ، وله أيضا حاشية على شرح ميارة لتحفة ابن عاصم ، ومنهم التاودى بن سودة المذكور بين المحدثين وله حاشية على شرح الزرقاني المصرى لموطأ مالك ، وإتحاف الناظر والسامع بشرح مسائل الجامع لخليل وشرح تحفة ابن عاصم وشرح الأربعين النووية ، وشرح الزقاقية لأبي الحسن على بن قاسم الزقاق الفاسي المتوفى سنة ٩١٢ هـ/١٥٠٦ م .

ولابد أن نشير — وقد أنهينا الكلام عن الحركة الفقهية — إلى ظاهرة مهمة كان لها تأثير في ازدهار الفقه وفتاويه ، ونقصد ظاهرة المحاماة والمحامين بجانب القضاة ، وهي التي استتبعت في المغرب كما في الأندلس ظاهرة التوثيق فكان هناك موثقون وكانت هناك كتب للتوثيق يؤلفها الفقهاء الخبراء بالقضاء والفتوى وهي توضح كيفية كتابة العقود في المعاملات وغيرها كالمزارعات واستئجارات العقار . ويكرر الحسن الوزان في كتابه وصف إفريقيا الحديث عنهم في عهده لأوائل القرن العاشر الهجرى(١) .

وآن أن نتحدث عن أصحاب علم الكلام أو علم العقيدة كما يسميه المغاربة ، وقد مر بنا في الفصل الماضي حديث عن المعتزلة : الفرقة الكلامية المشهورة في القرن الثاني الهجرى وأن

(١) وصف إفريقيا ص ٣٤٠ .

داعيا لواصل بن عطاء رأس الاعتزال أو دعاة هاجروا إلى المغرب الأقصى واستطاعوا أن يدخلوا فى عقيدة الاعتزال جموعا كبيرة منه ببلدة عُرفت بهم تسمى البيضاء وأنهم أيضا استطاعوا – فيما يقال – إدخال إدريس مؤسس الدولة الإدريسية فى عقيدتهم ، وأن محمد ابن إدريس الثانى بنى لهم بلدة بالقرب من مدينة أصيلا سماها البصرة إحياء لذكرى واصل البصرى مؤسس الاعتزال فى البصرة بالعراق .

ويبدو أن الاعتزال فى المغرب الأقصى أخذ – فيما بعد – يتلاشى وتلاشت مدينتهم « البصرة » معهم فلم يعدلها أثر . والمهم أن المغرب الأقصى عرف عقيدة الاعتزال الكلامية مبكرا ، ومعروف أنها تقوم على خمسة مبادىء هى – كما مر بنا فى الفصل الماضى – وحدانية الله بحيث لا يشبه المخلوقات ، وأيضا وحدانيته فى صفاته بحيث تُعَدُّ نفسَ ذاته ، والعدل على الله فهو لا يظلم بحال ، وإنفاذه وعده فى النعيم ووعيده فى الجحيم ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأن مرتكب الكبيرة فى منزلة بين الإيمان والكفر .

ودارت معارك عنيفة بين أهل السنة والمعتزلة القائلين بأن الإنسان حر مختار فى إرادته وأعماله وأن ما جاء فى القرآن الكريم من آيات تفيد التجسيد على الذات العلية تؤوَّل فمثل ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ تعنى أن قدرته فوق ما لهم من قدرة ، وأهل السنة القائلين بأن إرادة الإنسان وأعماله بقضاء الله وقدره يقولون إن مثل قوله تعالى : ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ نؤمن بها حسب الظاهر ولا نعرف كيفية هذه اليد ، حتى إذا ظهر أبو الحسن الأشعرى المتوفى سنة ٣٢٤ هـ/٩٣٥ م نفذ إلى تأسيس مذهب كلامى جديد متوسطا فيه بين المعتزلة وأهل السنة إذ ذهب فى مسألة أفعال الإنسان إلى أنها لله خلقا وصُنْعا وللإنسان كسبا وإرادة ، ووافق المعتزلة فى تأويل الآيات التى تفيد التجسيد على الذات العلية . ومر بنا أن المعتزلة كانوا يرون أن صفات الله مثل السميع البصير هى عين ذاته بينما كان أهل السنة يرون أنها زائدة على الذات قائمة بها وأخذ الأشعرى فيها برأى أهل السنة . وحاول التوفيق بين الطرفين المتعارضين فى مسائل أخرى (انظرها فى كتاب العصر العباسى الثانى ص ١٧٧) . وعمَّ مذهبه فى العراق والشام ومصر ، وحمله إلى إفريقية التونسية أبو الحسن القابسى وأبو عمران الفاسى ، وأصبح هذا المذهب : مذهبُ الأشاعرة المذهبَ الكلامى السائدَ فى البلدان المغربية .

ونجد فى عصر المرابطين علماء يعرضون هذا العلم : علم الكلام أو العقيدة على طلابهم مثل أبى القاسم المعافرى السبتى المتوفى سنة ٥٠٢ هـ/١١٠٨ م ومثل أبى بكر السبتى المار ذكره بين المفسرين . وندخل فى عصر الموحدين ومر بنا أن ابن تومرت مؤسس دعوتهم زار العراق وجلب منه إلى عقيدته مبادىء من الشيعة والمعتزلة ، فمن الشيعة أخذ ثلاثة مبادئ : مبدأ الإمام ومبدأ ظهور المهدى الذى يصلح العالم فى آخر الزمان ويسمَّى الإمام المهدى ومبدأ

العصمة من الوقوع فى الآثام وقد أطلقها جميعا على نفسه ، فتلقب بلقب الإمام المهدى المعصوم ، وكان يرفع لذلك نسبه إلى الرسول ﷺ كما فى المعجب للمراكشى . وأخذ من المعتزلة مبدأ توحيد الله أو وحدانيته بحيث لا يشبه المخلوقات ولا يجوز عليه التجسيد بأى صورة من الصور وما جاء فى القرآن من آيات يفهم من ظاهرها التجسيد تؤوّل على نحو ما صنع ذلك المعتزلة . وشركت الأشعرية المعتزلة فى اعتناق مبدأ عدم التشبيه على الله ، وكانت المعتزلة تمد هذه الوحدانية إلى الصفات – كما مر بنا – فهى عين ذاته لا قائمة بها كما يقول أهل السنة والأشعرى فمثلا الله عليم سميع بصير أى أن ذلك عين ذاته . وأخذ ابن تومرت بذلك كله ، أى أنه أخذ مبدأ الوحدانية عن المعتزلة بحذافيره ، كما أخذ عنهم فكرة أن مرتكب الكبيرة فى منزلة بين الإيمان والكفر ، وأيضا فإنه أقام دعوته – كما يقول صاحب المعجب – على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهو أحد مبادىء المعتزلة المذكورة آنفا . وله فى الدعوة إلى نحلته مصنفات هى : أعز ما يطلب ، الإمامة ، العقيدة المرشدة . ومن أكبر الدعاة لعقيدة ابن تومرت البيذق وله مصنف فيه ومصنف ثان فى دولة الموحدين حتى نهاية عصر عبد المؤمن بناهما على الدعوة للموحدين ، ومن كبار دعاتهم عبد الله بن حماد بن زغبوش المكناسى وله مصنف فى إثبات الهداية الموحدية بالاستقراء من الكتاب العزيز . ومن أهم دعاتهم أبو الحسن بن الإشبيلى على بن محمد بن خليد اللخمى نزيل مراكش ، وكان متحققا بعلم الكلام كما يقول ابن عبد الملك المراكشى ، ويقول إنه صنف كتابا سماه « المعراج » قدم به على الخليفة عبد المؤمن الموحدى سنة ٥٤١ للهجرة ، فحظى عنده ورقاه إلى رتب عليَّة نال بسببها دنيا عريضة[١] ، ولعل الكتاب كان فى الدعاية لعقيدة الموحدين ، إذ نراهم يسندون إليه القيام على إرشاد دعاتهم المسمَّين بالطلبة ، وكان يقرأ لهم كتب ابن تومرت صاحب الدعوة ، ويقول ابن صاحب الصلاة فى كتابه المن بالإمامة أنه سمع عليه مع هؤلاء الطلبة كتب ابن تومرت : عقيدة التوحيد ، وهى المسماة العقيدة المرشدة ، وكتاب العقيدة المباركة المسماة بالطهارة ، وكتاب أعز ما يطلب بقراءة أبى عبد الله بن عميرة . ويقول ابن صاحب الصلاة إن القارىء كان إذا قرأ فصلا مما ذكرته هذه الكتب من عقيدة الموحدين شرح أبو الحسن بن الإشبيلى غامضها وفتح أقفالها على الطلبة حتى يذللها ويبينها أتم بيان[٢] .

وممن خلفوا أبا الحسن بن الإشبيلى وقاموا على بث تعاليم دعوة الموحدين فى طلبتهم أو بعبارة أدق فى دعاتهم أبو الحسن[٣] بن القطان المار ذكره بين المحدثين وقد ذكرنا هناك أن من ترجموا له قالوا إنه : « رأس طلبة العلم بمراكش » ويعنى هذا أنه كان يقوم على إرشادهم – فكان

---

(١) الذيل والتكملة ٣٠٤/١/٥ وما بعدها .

(٢) المن بالإمامة تحقيق د . عبد الهادى التازى ص ١٦٠

(٣) نظر ترجمته فى الذيل والتكملة ١٦٥/١/٨ .

يشرح لهم كتب ابن تومرت ويفسرها لهم ، كما كان يشرح لهم مذهب الظاهرية ، ويحتج كما أسلفنا لما يذهبون إليه من إبطال القياس فى الأحكام الفقهية والاقتصار على الكتاب والسنة .

ومن علماء الكلام فى عصر الموحدين عثمان السلالجي المتوفى سنة ٥٦٤ هـ/١١٦٨ م وله فى عقيدة الأشعرية منظومة سماها البرهانية فى العقيدة الأشعرية ، ومنهم محمد بن عبد الكريم الفندلاوى الفاسى المتوفى سنة ٥٩٦ هـ/١١٩٩ م وكان ماهرا فى علم الكلام ، ومثله معاصره على بن عتيق الأنصارى المتوفى سنة ٥٩٨ هـ/١٢٠١ م ومنهم أبو الحجاج تموى الفاسى المتوفى سنة ٦١٤ هـ/١٢١٧ م روى عن السلالجي البرهانية . وكان مبرزا فى علم الكلام ، ومنهم أبو الحسن بن الحصار المار ذكره بين المفسرين وله فى علم الكلام مصنف مفيد ومقالة فى الإيمان والإسلام وعقيدة سماها تلقين الوليد وخاتمة السعيد ، ومنهم يوسف بن محمد المكلاتى الفاسى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ/١٢٢٨ م وكان مبرزا فى علم الكلام .

ومن أصحاب علم الكلام فى عصر المرينيين أبو الحسن الطنجي اليفرنى المتوفى سنة ٧٣٤ هـ/١٣٣٤ م وله شرح على البرهانية للسلالجي سماه : « المباحث العقلية فى شرح معانى العقيدة البرهانية » . ومنهم أحمد زروق المتوفى سنة ٨٩٩ هـ/١٤٩٤ م وله شرح العقيدة القدسية . ومن المتكلمين فى العصر السعدى اليسيثنى محمد بن عبد الرحمن الفاسى المار ذكره بين الفقهاء وله رسالة فى خلف الوعيد . ولأحمد المنجور المار ذكره بين المحدثين شرحان على العقيدة الصغرى والكبرى للسنوسى وله شرح مقاصد ابن زكرى فى التوحيد . وللحفصى المتوفى سنة ١٠٣٧ هـ/١٦٢٧ م شرح العقيدتين الكبرى والصغرى فى التوحيد للسنوسى ، وتتكاثر شروحهما فى العصر كثرة مفرطة . ومن أصحاب علم الكلام فى عصر العلويين عبد القادر الفاسى المار ذكره بين الفقهاء وله كتاب العقيدة . ومنهم أبو على الحسن اليوسى المار ذكره بين علماء المنطق ، وله شرح على السنوسية الصغرى وحاشية على شرح السنوسى للعقيدة الكبرى ولمحمد المهدى الفاسى المتوفى سنة ١١٠٩ هـ/١٦٩٨ م النبذة اليسيرة واللمعة الخطيرة فى مسألة خلق أفعال العباد الشهيرة ومرّ بنا توفيق الأشعرى فيها بين المعتزلة وأهل السنة . ولعمر الفاسى المتوفى سنة ١١٨٨ هـ/١٧٧٤ م حاشية على شرح السنوسى لعقيدته الكبرى .

٥

التاريخ

نشط المغرب الأقصى فى كتابة التاريخ منذ عصر المرابطين ، ومن أهم من كتب عن دولتهم يحيى بن الصيرفى المؤرخ الغرناطى ، فقد ألف عنهم كتابا باسم دولة لمتونة ، وهو -

وإن كان غرناطيا — نزل مراكش طويلا ، إذ يذكر فى ترجمته أنه كان من موظفى أمرائها ، وتوفى سنة ٥٥٧ عن تسعين سنة . ومنذ عصر الدولة اللمتونية أو دولة المرابطين يصبح تاريخ الأندلس جزءا متمما لتاريخ المغرب الأقصى . وكان يعاصر ابن الصيرفى القاضى عياض السبتى المار ذكره بين المحدثين وله ترجمة للرسول ﷺ باسم كتاب الشفا كما مر بنا ، وكتاب فى أعلام مذهب مالك باسم المدارك وكتاب فى شيوخه باسم الغنية .

وتتكاثر فى عصر الموحدين كتب السيرة النبوية العطرة وكتب تاريخ دولة الموحدين وكتب التراجم والفهرسة ، أما السيرة فيكتب فيها محمد بن قاسم بن عبد الكريم المتوفى سنة ٦٠٤ هـ/١٢٠٧ م كتاب اللمعة فى ذكر أزواج النبى ﷺ وأبنائه السبعة . ولأبى العباس العزفى المتوفى سنة ٦٣٣ هـ/١٢٣٥ م الدر المنظم فى مولد النبى المعظم ، ولابن دحية المار ذكره بين المحدثين كتاب التنوير فى مولد السراج المنير ، وكتاب سلسلة الذهب فى نسب سيد العجم والعرب وكتاب المستوفَى من أسماء المصطفَى ، والابتهاج فى المعراج ، وله التحقيق فى مناقب أبى بكر الصديق ، وله فى التاريخ العام النبراس فى تاريخ خلفاء بنى العباس ، وتاريخ الأمم فى أنساب العرب والعجم ، وأعلام النصر المبين فى المفاضلة بين أهل صفين .

ونلتقى فى تاريخ دولة الموحدين بثلاثة من مؤرخى الدولة الرسميين بجانب اثنين من المؤرخين غير الرسميين ، وأول المؤرخين الرسميين البيذق وله كتاب عن ابن تومرت ودعوته وكتاب ثان عن دولة الموحدين حتى نهاية عصر عبد المؤمن المؤسس الحقيقى للدولة . ويكتب مؤرخ رسمى ثان من حواشى الدولة ورجالها المقربين هو عبد الملك بن صاحب الصلاة المتوفى أواخر القرن السادس الهجرى كتابا عن دولة الموحدين حتى عصره باسم : « المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين » مشيرا بذلك إلى الآية القرآنية : ﴿ونريد أن نَمُنَّ على الذين استُضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾ ويدل عنوان الكتاب أنه شديد التعصب لتلك الدولة كما هو واضح فى قسمه الثانى الذى بقى لعصرنا من تاريخه والذى تحتفظ به مكتبة البودليانا فى أوكسفورد ، ويشمل تاريخ دولة الموحدين من سنة ٥٥٤ هـ/١١٦٠ م إلى سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م وحقق هذا القسم الدكتور عبد الهادى التازى مع مقدمة قيمة ونشره فى دار الغرب الإسلامى . وهو تفصيل لأحداث السنوات الأربع الأخيرة من حياة عبد المؤمن المؤسس الحقيقى للدولة وعشر سنوات لأحداث السنوات العشر الأولى من حياة ابنه يوسف . ونلتقى بمؤرخ غير رسمى هو عبد الواحد المراكشى الذى كان حيا فى العقد الثالث من القرن السابع الهجرى ، وله كتاب « المعجب فى تلخيص أخبار المغرب » من لدن فتح الأندلس حتى

سنة ٦٢١ هـ/١٢٢٤ م وهو يعرض فيه تاريخ الأندلس ودولة المرابطين ، ويفصّل القول فى دولة الموحدين بقلم مؤرخ حصيف محايد دون المبالغة التى نلمسها عند البيذق وابن صاحب الصلاة .

وما نلبث أن نلتقى بالمؤرخ الرسمى الثالث لدولة الموحدين وهو أبو محمد حسن بن أبى الحسن على بن القطان المتوفى حوالى منتصف القرن السابع الهجرى وكان من رجال الدولة ، ومر بنا ذكر أبيه أبى الحسن بين المحدثين وبين دعاة الموحدين إذ كان من كبار دعاتهم . وأكبر الظن أن ابنه كان مثله من دعاتهم كما سيتضح عما قليل فقد صنف كتابا باسم نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان ، وسقط الكتاب من يد الزمن إلا قطعة من سنة ٥٠٠ هـ/١١٠٦ م إلى سنة ٥٣٣ هـ/١١٣٨ م وحققها تحقيقا سديدا مع مقدمة قيمة الدكتور محمود مكى وقد كان متحاملا على دولة المرابطين تحاملا شديدا حتى جعل حكامها مجسمين للذات العلية وكفارا مع ما لهم من خدمات عظيمة للإسلام وانتصارات كبرى على النصارى فى الأندلس ، ولكنه التعصب البغيض . وعرض فى كتابه ترجمة ضافية لابن تومرت أشاد فيها به وبدعوته ، حتى ليرفع نسبه إلى رسول الله ﷺ ويطيل الحديث عن أنه معصوم وعن كرامات عبد المؤمن ، ويذكر أن ابن تومرت فرض على أصحابه أن يقرأوا بعد صلاة الصبح كل يوم حزبا من القرآن الكريم ، وحزبا له ضمنه حديثا عن القدر والإيمان وأنه الإمام المهدى الواجب اتباعه وكفّر من لم يطعه ولم يصلّ عليه هكذا يقول أبو محمد بن القطان .

والترجمة دعاية سافرة لابن تومرت ودعوته ، ولابد أن بقية الكتاب المفقودة كانت على هذه الشاكلة من المبالغة المفرطة فى الدعاية للموحدين . ونضم إلى هذه الكتب التاريخية كتاب البيان المغرب لابن عذارى المراكشى ، وهو تاريخ للمغرب والأندلس منذ الفتح إلى آخر أيام الموحدين . وهو أهم مصدر تاريخي لهما ، ونشرت منه أولا أجزاء متفرقة ، وأمكن أخيرا نشر أربعة أجزاء منه فى بيروت . ونُشر القسم الخاص منه بالمرابطين والموحدين فى طبعة جديدة بدار الغرب الإسلامى فى بيروت وهو أوسع وأدق مصدر للدولتين . ونضم أيضا إلى الكتب السالفة كتاب الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية لمؤلف مجهول طبع الدار البيضاء وهو عن دولتى المرابطين والموحدين . ومن كتب التراجم فى هذا العصر كتاب المستفاد فى مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد لمحمد بن قاسم بن عبد الكريم وله أيضا بستان العابدين وريحان العارفين فى ذكر أهل الصفوة والانقطاع إلى الله بالخلوة . ومنها التشوف إلى رجال التصوف لابن الزيات يوسف بن يحيى التادلى المتوفى سنة ٦٢٨ هـ/١٢٣٠ م ولابن المواق المار ذكره بين المحدثين شيوخُ الدارقطنى ، ولأحمد بن يوسف ابن فرتون الفاسى المتوفى سنة ٦٦٠ هـ/١٢٦٢ م ذيل كتاب الصلة لابن بشكوال وهو مصدر أساسى لابن الزبير فى كتابه

صلة الصلة ، وتكثر الكتب المسماة بالفهارس والبرامج عن الشيوخ لمؤلفيها وما حملوا عنهم من الكتب .

ونمضي إلى عصر المرينيين ونلتقى بأبى عبد الله محمد بن عبد الملك الأوسى الأنصارى المراكشى المتوفى سنة ٧٠٣ هـ/١٣٠٤ م وموسوعته : الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة ، وهى موسوعة كبرى طبع منها بعض أجزائها بتحقيق د . إحسان عباس والجزء الثامن فى مجلدين بتحقيق د . محمد بنشريفة ، وهو من أهم مراجعى فى الحركة الثقافية حتى نهاية القرن السابع الهجرى . وما نلبث أن نلتقى بابن أبى زرع الفاسى المتوفى سنة ٧٢٧ هـ/١٣٢٧ م وقيل بل توفى سنة ٧٤١ وهو صاحب كتاب « روض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس » وهو أجمع تاريخ للمغرب من قيام الدولة الإدريسية إلى سنة ٧٢٦ من سنوات عهد السلطان المرينى أبى سعيد عثمان بن يعقوب ، وكان يعاصره ابن هانىء اللخمى السبتى المار ذكره بين النحاة صاحب كتاب الغرة الطالعة فى شعراء المائة السابعة ، وكان فى عصرهما أبو الحسن الجزنائى صاحب زهرة الآس فى بناء مدينة فاس . ونلتقى فى القرن التاسع الهجرى بالحضرمى وكتاب الكوكب الوقاد فيمن حل بسبتة من العلماء والصلحاء والعباد ، وله بلوغ الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبتة من مدرس وأستاذ وطبيب فرغ منه سنة ٨٢٤ هـ/١٤٢١ م ويلقانا محمد بن غازى المكناسى المار ذكره بين الفقهاء وله الروض الهتون فى أخبار مكناسة الزيتون ، ولمجهول كتاب الذخيرة السنية فى أخبار الدولة المرينية والموجود منهُ ينتهى عند سنة ٦٧٩ للهجرة .

ونلتقى فى عصر السعديين بابن عسكر المتوفى سنة ٩٨٦ هـ/١٥٧٩ م وله كتاب دوحة الناشر فى علماء القرن العاشر وهو منشور بتحقيق الدكتور محمد حجى . ويلقانا أحمد بن القاضى المتوفى سنة ١٠٢٥ هـ/١٦١٧ م وله ترجمة للخليفة المنصور الذهبى باسم المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور ، وله درة الحجال فى أسماء الرجال ، وجذوة الاقتباس فيمن حلَّ من الأعلام بمدينة فاس ، وغنية الرائض فى طبقات أهل الحساب والفرائض . كما يلقانا عبد العزيز الفشتالى المتوفى سنة ١٠٣١ هـ/١٦٢٢ م وله كتابه مناهل الصفا فى أخبار الملوك الشرفا بتحقيق الأستاذ عبد الله كنون . وينبغى أن نضم إليهم أحمد بابا التنبوكتى السودانى نزيل مراكش المتوفى سنة ١٠٣٢ هـ/١٦٢٣ م وفيها ألف نيل الابتهاج وهو تذييل لكتاب الديباج لابن فرحون وألف أيضا كتاب كفاية المحتاج اختصارا لكتابه السابق . ويختم مؤرخو العصر بأحمد المقرى المتوفى سنة ١٠٤١ هـ/١٦٣٢ م وله أزهار الرياض فى أخبار عياض ، والموسوعة الأندلسية : « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها

لسان الدين بن الخطيب » ألفه بالقاهرة ، وله أيضا روضة الآس العاطرة الأنفاس فى ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس . ودائما تؤلف فى المغرب الأقصى كتب برامج وفهارس كثيرة .

ومن أهم المؤرخين فى عصر العلويين أبو عبد الله محمد الإفرانى المراكشى المتوفى بعد سنة ١١٥٣ هـ/١٧٤٠ م وله « نزهة الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى » فى تاريخ الدولة السعدية وصدر الدولة العلوية ، وأيضا « صفوة ما انتشر من أخبار أهل القرن الحادى عشر » ومثله فى الأهمية ابن الطيب القادرى المتوفى سنة ١١٨٧ هـ/١٧٧٣ م وله نشر المثانى فى أخبار أهل القرن الحادى عشر والثانى ، وتذييل على كفاية المحتاج لأحمد بابا .

الفصل الرابع

نشاط الشعر والشعراء

١

تعرب المغرب الأقصى – كثرة الشعراء

(أ) تعرب المغرب الأقصى

مرَّ بنا . في الفصل الثاني – أنه كانت تعيش في بلاد المغرب – من قديم – سكان من قبائل البربر الكثيرة ، وأنه نزلتها قبل الفتح العربي الإسلامي عناصر جنسية مختلفة ، منها الآسيوى مثل الفينيقيين والقرطاجيين واليهود ، ومنها الأوربي مثل الإغريق والرومان والفندال . وفي الفتح نزلها عرب من آسيا قحطانيون يمانيون وعدنانيون مضريون ، ونزلها معهم من كان في جيوشهم من إيران والعراق والشام ومصر ، ممن تم تعربهم وحسن إسلامهم . ولم يفتحوا جميعا المغرب ابتغاء الاستيلاء على طيِّباته وخيراته ، وإنما فتحوه ابتغاء نشر الدين الحنيف ، فهم فاتحون ومجاهدون في سبيل الله وسبيل دينه القويم يريدون أن ينشروه في أطباق الأرض . وسرعان ما أخذ المغاربة يدخلون فيه أفواجا ، لما رأوا في تعاليمه من تسوية مطلقة بين أتباعه ، بحيث يصبح لمن يعتنقه من البربر وغيرهم جميع ما للعربي الفاتح من الحقوق في شئون المال وغير شئون المال ، وبحيث يعم العدل المطلق الذى لا تصلح حياة الشعوب بدونه . وقد حُكموا قبل العرب بالفينيقيين والرومان والإغريق ، وجميعهم كانوا يرهقونهم بضرائب فادحة ، وكانوا يسومونهم صورا مقيتة من الظلم التعس والقهر البشع ، وما إن فتح العرب البلاد المغربية حتى ارتفع عنها القهر والظلم والضرائب الباهظة وحلَّ مكان ذلك كله العدل التام الذى يكفل للناس حقوقهم دون أي ظلم أو حيف ويسوِّى بينهم في مواجهة الحياة بقسطاس سليم . وليس ذلك كل ما راعهم في الدين الحنيف فقد راعتهم فيه أيضا بساطته الروحية بالقياس إلى المسيحية التى ظل الرومان والإغريق يحاولون نشرها في ديارهم ، إذ ليس فيه فكرة التثليث المعقدة في المسيحية ، إنما هو إله واحد يدير الكون ، ولا معبود سواه من أوثان وأحجار وكواكب مما كانت تعبده جماهير البربر قبل الفتح العربي . لذلك لا نعجب إذا رأينا البربر في القرن الهجرى الأول يقبلون جماعات ووحدانا على اعتناق الإسلام ، بفضل حملته من الفاتحين الذين تحولت كثرتهم إلى ما يشبه معلمين يعلمون إخوانهم من البربر تعاليم دينهم الحنيف .

وصَدَر ولاة القرن الأول الهجرى عن تلك التعاليم فى معاملتهم لهم معاملة تقوم على الإخاء والعدل والمساواة ، فقد مر بنا أن حسان بن النعمان (٧١ – ٨٦ هـ) اتخذ من قبيلة جراوة الزناتية كتيبة عدادها اثنا عشر ألفا ألحقها بجيشه ، وبذلك أصبح البربر المسلمون رفقاء سلاح للعرب ، يقتسمون معهم بالسوية غنائم الحرب ، وليس ذلك فحسب فإنه ولَّى على تلك القبيلة ابنا للكاهنة التى هزمها فى معركة ضارية ، وبذلك أصبح البربر يقودون الكتائب فى الجيش العربى ويتولون بعض الولايات مثل إخوانهم من العرب تماما ، وكان من تدبيره السياسى الحكيم أن وزّع على صغار الفلاحين من البربر مساحات كبيرة من الأراضى الزراعية التى كانت تمتلكها الحكومة البيزنطية ، مما جذب إليه وإلى الإسلام قلوب البربر ، ووضع الخراج على الأرض بعدالة تامة وبدون أدنى ظلم أو عسف . ودعَم العربية إذ دوَّن الدواوين وجعلها اللغة الرسمية ، فأضاف حاجة البربر إليها فى تخاطبهم مع الحكومة العربية وولاتها الكثيرين إلى حاجتهم إليها فى أداء شعائر الإسلام وتلاوة كتابه التى تعد جزءًا لا يتجزء من اعتناق البربرى للدين الحنيف . وخلف حسانا موسى بن نصير على ولاية المغرب (٨٦ – ٩٦ هـ) فأحكم مثله المساواة التامة بين العرب والبربر فى جميع الحقوق وجميع الشئون الخاصة بالحكومة ، وقد فتح منطقة زغوان وصار على رأس جيش عربى بربرى حتى المغرب الأقصى يرتب شئون الولايات التى قسم إليها المغرب ، وقد جعل منها للمغرب الأقصى ولايتين : ولاية السوس أو سجلماسة فى الجنوب وولاية طنجة فى الشمال ، وجعل على طنجة واليا بربريا هو طارق بن زياد الورفجومى ، وأبقى معه – فى قول بعض المؤرخين – تسعة وعشرين ألف جندى : سبعة عشر ألفا من العرب واثنى عشر ألفا من البربر ، وأمر العرب أن يعلموا إخوانهم البربر ما يتيسر من القرآن الكريم وتعاليم الإسلام . وفى سنة ٩٢ هـ/٧١١ م كتب موسى إلى طارق أن يغزو الأندلس – أو بعبارة أدق –إيبيريا ، فجهَّز جيشا عداده اثنا عشر ألفا اجتاز الزقاق إلى إيبيريا ، ونزل فى مكان سُمِّى باسمه جبل طارق ، وفتح طارق فى برهة قصيرة شطرا كبيرا من إيبيريا ، واستمدَّ موسى ، فتبعه موسى بجيش ، وأتما معا فتح إيبيريا .

وإنما سقنا ذلك كله لندل على أن البربر أصبحوا سريعا منذ القرن الهجرى الأول أمة عربية تدين بالإسلام وتنطق جماهير كبيرة منها العربية ، وما نكاد نتقدم فى العقد الثانى للهجرة حتى يتولى على المغرب يزيد بن أبى مسلم صاحب شرطة الحجاج سنة ١٠٢ هـ/٧٢٠ م فينقض سياسة ولاة المغرب قبله ويأخذ فى فرض الضرائب الباهظة على البربر ، فما يستدير عام ولايته الأول حتى يقتلوه ، وما هى إلا سنوات حتى تولى على المغرب فى سنة ١١٤ هـ/٧٣٢ م عبيد الله بن الحبحاب ، فأوحى إلى عماله فى جميع أنحاء المغرب أن يفرِّقوا بين البربر والعرب فى الخراج وجميع الشئون المالية ، واستشعر البربر فى ذلك عَسْفا لا يطاق ، وكان قد نزل بديارهم كثيرون من الخوارج وخاصة من فرقتى الصفرية والإباضية ، وكثر الأولون فى المغرب

الأقصى والثانون فى جبل نفوسة بليبيا وأعجب البربر بمادئهما وما تقرُّر من التسوية المطلقة بين العرب والموالى بربرا وغير بربر فى شئون المال والضرائب وشئون الحكم حتى فى تولى الخلافة ، فينبغى أن يتولاها أكفأ المسلمين عربيا أو بربريا أو عبدا حبشيًّا . واعتنق المذهب الصفرى كثيرون من أهل المغرب الأقصى ، وتولَّى زعامتهم ميسرة ثم خالد بن حميد الزناتى ، وواقعوا جيوش الدولة وانتصروا عليها مرارا ، وانسحب منهم سمكو بن واسول فكون دولة صفرية فى سجلماسة ظلت حتى أواخر القرن الثالث الهجرى ، أما صفرية الشمال فى طنجة وإقليمها فقد ظلت تنازل الولاة فى عهد بنى العباس حتى قضى عليهم يزيد بن حاتم المهلبى (١٥٤ – ١٧٠ هـ) . ويطيب لبعض المستشرقين أن يجعلوا من اعتناق البربر لمبادىء الخوارج فى النصف الأول من القرن الثانى الهجرى دليلا على أن المغاربة أو البربر حاولوا أن يرفضوا الإسلام حينئذ والعروبة معه ، وهو رأى مخطىء أشد الخطأ ، لأن البربر لم يفكروا يوما فى رفض دينهم الحنيف الذى اعتنقوه ولا فى رفض العربية التى تغلغلت فى أعماقهم وعبروا بها عن مشاعرهم وعواطفهم وأهوائهم ، إنما كل ما هناك أنهم ثاروا على الظلم والعسف فى جمع الضرائب المجحفة التى ينكرها الإسلام كما ينكر التفرقة بين العربى المسلم والبربرى المسلم فى الحقوق المالية وغير المالية ، فثورتهم إنما كانت مطالبةً شرعية بتطبيق مبادىء دينهم وما ابتغاه من العدل المطلق بين أتباعه عربا وبربرا وغير بربر . ومن أكبر الدلالة على مدى ما حدث بين البربر من شعور عميق بالتعرب أن نجد قبائلهم جميعا تحاول كل منهم – منذ القرن الثانى الهجرى – أن تلفق لها نسبا يصلها بالعرب ، ومر بنا فى الفصل الثانى أن قبائلهم كانت ترجع إلى جذمين أو أصلين كبيرين هما البرانس والبُتْر ، وكانت البرانس تحاول الانتماء إلى العرب القحطانيين ، بينما كانت القبائل البتر تحاول الانتماء إلى القبائل العدنانية .

وما نتقدم فى المغرب الأقصى إلى سنة ١٧٢ هـ/٧٨٨ م حتى نجد إدريس بن عبد الله الحسنى يصل بفراره من وجه العباسيين إلى مدينة وَليلى وينزل على إسحق بن محمد زعيم قبيلة أوربة ويعرفه بنفسه فيكرمه إكراما لا مزيد عليه ويطلعه على سره وأنه يريد أن يؤسس للعلويين بالمغرب الأقصى دولة ، فجمع له عشائر قبيلته وبايعته ، وسمعت به قبائل زواغة ومكناسة وغمارة وعشائر من زناتة فوفدت عليه وبايعته ولم يلبث أن جهز جيشا نازل به تادلة جنوبى وليلى وتامسنة على المحيط ، وكان بعض أهلهما لا يزال وثنيا أو يؤمن باليهودية أو المسيحية ، ففتح حصونهم وأسلموا جميعا . وبذلك تأسست دولة الأدارسة فى وليلى وسرعان ما أسس إدريس الثانى خليفة أبيه إدريس مدينة فاس فى سنة ١٩٢ هـ/٨٠٧ م .

وكانت تلك الدولة الإدريسية أول دولة إسلامية عربية تأسست فى المغرب الأقصى ، ومضى إدريس الثانى وأبناؤه وأحفاده إلى نهاية دولتهم سنة ٣٠٤ هـ/٩١٦م ينشرون الإسلام السنى فى تلك الديار ويطهرونها من الصفرية والرافضة ، وفتح إدريس الثانى أبواب دولته لوفود شخصيات

عربية من القيروان والمشرق ، ووفد عليه مئات أسكنهم فى أحد شطرى مدينة فاس وسمى لذلك باسم العدوة القروية ، ولما أخفقت ثورة الفقهاء فى قرطبة على الحكم الربضى وطردهم منها ولّى مئات منهم وجوههم نحو مدينة فاس فأسكنهم إدريس الثانى الشطر المقابل لعدوة القرويين، وسمى لذلك العدوة الأندلسية . وأخذ الأدارسة منذ أيامهم الأولى يعنون بفتح الكتاتيب فى المدن وتحفيظ الناشئة القرآن الكريم ، وأُخذت تنشأ فى المساجد سريعا حلقات المفسرين والمحدثين والفقهاء ومن يعلمون الناس العربية والنطق السديد بها ، وبذلك كله رسخ الإسلام ورسخت العروبة فى المغرب الأقصى إلى الأبد . وأخذت الدراسات الدينية واللغوية تنشط فيه لعهد الأدارسة وبعد عهدهم ، ولايلبث كثيرون من طلاب العلم فيه يريدون أن يتزودوا بأكبر حظ فيفدوا على القيروان ومصر وبلاد المشرق للاستماع إلى كبار العلماء فيها مالكية وغير مالكية ويعودوا بما حملوه من العلم إلى بلدانهم يعلمونه فيها ، وما يكاد ينتصف القرن الرابع حتى يصبح للمغرب الأقصى علماؤه وفقهاؤه ومحدثوه الذين تعنى كتب التراجم بإعطاء معلومات عن حياتهم مثل دراس بن إسماعيل الفاسى ومعاصره أبى جيدة وغيرهما كثيرون .

وتحدث الهجرة الأعرابية الكبرى حول منتصف القرن الخامس الهجرى وتنزل قبائلها وعشائرها فى برقة وتونس والجزائر شرقا وغربا وقلما تسقط عشائر منها إلى المغرب الأقصى ، وكان مستمرا فى نشاطه العلمى والأدبى بفضل جامع القرويين أو جامعته الكبرى التى أنشئت سنة ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م وكانت سيدة فاضلة من مهاجرة القيروان تسمى أم البنين الفهرية بنَتْ هذا الجامع فاستحال – من حينئذ – سريعا إلى جامعة ، وهى تعد أقدم جامعة إسلامية عربية فى العالم العربى ، ومضى العلماء فيها يعنون بالعلوم الدينية واللغوية ونَشَرها تلاميذهم فى أرجاء المغرب الأقصى . ونمضى مع التاريخ حتى القرن الخامس الهجرى ، فيدخل الفقيه الجليل عبد الله بن ياسين بلاد صنهاجة فى جنوبى المغرب الأقصى ليحفظهم القرآن الكريم وكان حصيفا سيوسا بعيد النظر فعمل على تثبيت دعائم الإسلام فى السوس ودرعة وسجلماسة وما وراء تلك البلدان فى الصحراء المترامية ، وكوّن من صنهاجة جيشا لردع ما انتشر فى بعض بلدان المغرب الأقصى من الزيغ والفساد ، وبدأ بمدينة تارودنت ومن بها من روافض سُمّوا باسم البجلية نسبة إلى عبد الله البجلى الرافضى الذى نزلها فى القرن الرابع الهجرى وأشاع فيها نحلته المارقة ، فحاربهم عبد الله بن ياسين وانتصر عليهم وردهم إلى الإسلام السنى ، ومضى إلى تامسنة ونازل فيها برغواطة التى كانت قد اعتنقت نحلة زائغة ضالة ، وأنزل الله عليه النصر المبين ، غير أنه استشهد فى المعركة لسنة ٤٥١ هـ/١٠٥٩ م وله فضل تطهير البلاد من الفرق والنحل الضالة وفضل تأسيس دولة المرابطين . وكان يلى أمرها – حين وفاته – أبو بكر بن عمر اللمتونى ، فأسلمها إلى ابن عمه يوسف بن تاشفين ، فاستولى على مدينة فاس وبنى مراكش سنة ٤٥٤ هـ/١٠٦٢ م وجعلها عاصمة للدولة ، أما أبو بكر بن عمر فمضى

إلى الجنوب فى الصحراء يجاهد فى سبيل الله ونشر دينه حتى بلغ السودان ونهر النيجر ، وتوفى سنة ٤٨٠ ، وصار كل ما فتحه يدين بالولاء ليوسف فعظم أمره وشأنه . ومن سياسته الرشيدة أنه كتب إلى الخليفة العباسى ببغداد يبايعه ويطلب منه تقليدا بولايته على ما بيده من البلدان وخاطبه الخليفة بلقب أمير المسلمين ، وثبت له هذا اللقب من حينئذ ، وبذلك أدخل المغرب الأقصى فى إطار الجامعة الإسلامية العربية ، واستصرخه أمراء الأندلس ضد نصارى الإسبان الشماليين ، فعبر الزقاق بجنوده ، وسحق أعداء الإسلام فى وقعة الزلاقة المشهورة فى سنة ٤٧٩ هـ/١٠٨٦ م . وأخذ الأندلسيون من حينئذ يندمجون فى سكان المغرب الأقصى بالزيارة والمصاهرة وخدمة دولة المرابطين والعمل فيها كتابا وقضاة وموظفين وعلماء يفدون على جامعة القرويين ومساجد مراكش وسبتة وطنجة وأصيلا وغيرهما من بلدان المغرب مما كان له أثر بعيد فى استكمال تعربها .

وتتحول مقاليد الحكم فى المغرب الأقصى إلى دولة الموحدين ، ومر بنا فى الفصل الثانى — أن القبائل الهلالية بالجزائر : الأثبج وزغبة ورياحا وقرة وضعت يدها فى يد صنهاجة لحرب عبد المؤمن فأرسل إليها جيشا هزمها وولت على وجوهها لا تلوى على شىء تاركة وراءها نساءها وأولادها ، فأمر بحملهم إلى مراكش وأجرى عليهم نفقات واسعة ، وكتب إلى أمراء تلك القبائل المنهزمة بأن أبناءهم فى الحفظ والصون . وبذل لهم الأمان والكرامة ووفدوا عليه ، فرد عليهم نساءهم وأولادهم وأجزل لهم فى العطاء ، واحتفى بهم ، فملك قلوبهم ، ويقال إنه أحلفهم على السمع والطاعة له وعونه على الجهاد فى الأندلس مع القبائل المغربية ، وفى عودته من فتح المهدية سنة ٥٥٥ هـ/١١٦٠ م نقل من تلك القبائل الهلالية ألفا من كل قبيلة وأسكنهم البلاد المغربية منتويا بنظره الصائب أن يبعدهم عن الجزائر حتى تتخلص من عَيْثهم فيها وأن يشغلهم بالجهاد فى الأندلس . وأتاح ذلك للمغرب الأقصى جمهورا كبيرا منهم امتزج بسكانه وأنسى كثيرين منهم الرطانة البربرية وأبدلهم منها الفصاحة العربية . وفى سنة ٥٥٨ عزم عبد المؤمن على الجواز إلى الأندلس فأرسل إلى الأعراب فى بجاية وإقليمها يستصرخهم إلى الجهاد فى سبيل الله بالأندلس فاستجاب له منهم — كما يقول صاحب المعجب — جمع ضخم ، فأنزل بعضهم نواحى قرطبة وبعضهم نواحى إشبيلية ، وأقاموا هنالك . ودعا ابنه يوسف الخليفة بعده قبيلة رياح بالجزائر لنفس الغاية ، فوفد عليه منهم حشد ضخم وضعوا أنفسهم — كما مر بنا — تحت تصرفه ، وعبر كثير منهم معه الزقاق للجهاد فى الأندلس . وخرجت بقايا رياح وجشم والأثبج فى الجزائر على ابنه يعقوب وردها إلى طاعته ، ونقلها إلى المغرب الأقصى فأنزل قبيلة رياح منطقتى الهبط وأزغار ، وأنزل قبيلة جشم منطقة تامسنة وقبيلة الأثبج منطقتى دكالة وتادلة . وأخذ كثير من عشائر هذه القبائل ينساح داخل البلاد وعلى المحيط وفى السهول الواقعة بين سلا ومكناس . ومنح يعقوب نوميديا أى الصحراء جنوبى

الجزائر والمغرب الأقصى لعامة العرب ، وتغلغلوا إلى وادى مُلوية ودرعة ، وتغلغلت قبيلة المعقل فى زمن ابن خلدون بقفار المغرب حتى المحيط . ومعنى ذلك كله أن بربر المغرب الأقصى اختلطوا اختلاطا واسعا بأعراب الجزائر عن طريق التعايش والمصاهرة والسكنى واتصل ذلك قرونا بحيث استحال سكان المغرب الأقصى شعبا عربيا لغة ودينا وتناولا للحياة إلا فى بعض الجهات النائية فى شواهق الجبال بأوراس والصحراء . وبكل ما قدمت يتضح أن لدولة الموحدين فضلا عظيما فى تعرب المغرب الأقصى بما نقلت إلى أقاليمه من جموع العرب النازلين فى الجزائر وأكبر الظن أنها لم تكن غايتها نقلهم إعدادًا لجهاد الإسبان النصارى فحسب ، بل كانت غايتها أيضا تعريب المغرب الأقصى نهائيا بما أنزلت فيه من جموعهم الهائلة . أما ما يقال من أن ابن تومرت كان يؤلف كتبه بالعربية والبربرية وأنه كان يحاضر الجماهير باللغتين وأن الدولة – فى بدء عهدها – بدلت الخطباء والأئمة فى جميع البلاد ، وأنها اشترطت أن لا يؤم الناس ولا يخطبهم إلا من يحفظ عقيدة التوحيد لابن تومرت باللسان البربرى . فلم يكن ذلك منها سياسة رجعية كما يقول بعض المعاصرين إنما كان ذلك منها حرصا – والبربرية لا تزال منتشرة فى المغرب الأقصى – على إيصال عقيدة الدولة إلى العامية المغربية ، وكان لا يزال فيها جماهير بربرية لا تحسن العربية .

(ب) كثرة الشعراء

تبدأ الحركة الأدبية فى المغرب الأقصى مع نشأة الدولة الإدريسية أواخر القرن الثانى الهجرى إذ كان بين أمرائها شعراء متعددون يتقدمهم إدريس الثانى (١٨٦ – ٢١٣ هـ) وتلاه من أبنائه وأحفاده وأسرته غير شاعر ، وأخذ الشعر يجرى على ألسنة بعض الشعراء المغاربة يمدحون به الأدارسة على نحو ما نجد عند إبراهيم بن أيوب النكورى ، وكانوا يهجون به خصومهم من البرغواطيين وغيرهم . ويظل الشعر يسيل على ألسنة بعض الشعراء فى القرنين الثالث والرابع الهجريين ، حتى إذا كان القرن الخامس الهجرى طارت شهرة بعض الشعراء إلى البلدان العربية وخاصة الأندلس ، إذ نجد ابن بسام يترجم فى الذخيرة لابن القابلة السبتى ويحيى بن الزيتونى الفاسى وللفقيه أبى بكر المرادى ويذكر أنهم وفدوا على الأندلس مادحين لأمراء الطوائف ، وأن آخرهم انتجع أمراء المرابطين بالمغرب الأقصى فى أوائل دولتهم ، وولاه محمد بن يحيى بن عمر اللمتونى قضاء معسكره المجاهد فى بلاد السودان ، ويقول : « أخرجت مما وجدت من شعره ونثره ما يستخفُّ رواسى الجبال ، ويستوفى ضروب السحر الحلال » . وينزل طنجة فى الربع الأخير من القرن الخامس الهجرى الشاعر القيروانى على بن عبد الغنى الحصرى المبدع فى شعره ، وتكوَّنت حوله سريعا ندوة أدبية . ونمضى إلى عصر المرابطين ، فيشتهر لعهدهم ابن زنباع والقاضى عياض المتوفى سنة ٥٤٤ هـ/ ١١٤٩ م ويترجم عماد الدين الأصفهانى

فى كتابه الخريدة لنفر من شعراء المغرب الأقصى لعهد المرابطين ، هم اليمان بن فاطمة وعبد الله بن حماد المراكشى وعبد المؤمن بن يحيى السجلماسى ومحمد المكناسى المعروف بلقب ينطلق وحماد بن الرفا الفاسى وعلى بن يقظان السبتى القائل :

أحــــنُّ إلى مصرٍ حــنينَ متيَّمٍ بها مستهــامَ القـلب محترقَ الكبْدِ

وهو حب قديم بين مصر وشعراء المغرب الأقصى .

ويأخذ الشعراء هناك فى التكاثر منذ عصر الموحدين وكانت الدولة حفية بهم وبالحركتين العلمية والأدبية ، وكان عبد المؤمن المؤسس للدولة وحفيده يعقوب شاعرين ، وكان ينظم الشعر غير أمير موحدى ، ومن شعراء تلك الدولة عثمان بن عبد الله السلالجى المتوفى سنة ٥٦٤ هـ/ ١١٦٨ م ومحمد بن حبوس المتوفى سنة ٥٧٠ هـ/ ١١٧٤ م وأبو الربيع الموحدى المتوفى سنة ٦٠٠ هـ/ ١٢٠٣ م وابن الياسمين المتوفى سنة ٦٠١ هـ/ ١٢٠٤ م وأبو حفص عمر السلمى المتوفى سنة ٦٠٤ هـ/ ١٢٠٧ م وابن تولو القرشى التينمللى المتوفى بمصر سنة ٦٠٥ هـ/ ١٢٠٨ م وفى نفس السنة محمد بن على السلالقى ، وأبو العباس الجراوى المتوفى سنة ٦٠٩ هـ/ ١٢١٢ م وعبد الواحد المراكشى المتوفى سنة ٦٢٢ هـ/ ١٢٢٥ م وابن دحية المتوفى بالقاهرة سنة ٦٣٣ هـ/ ١٢٣٦ م وابن الخبازة ميمون الخطابى المتوفى سنة ٦٣٧ هـ/ ١٢٤٠ م وابن العابد الفاسى المتوفى حوالى سنة ٦٥٠ هـ/ ١٢٥٣ م وابن عبدون المكناسى المتوفى سنة ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠ م وابن المحلى المتوفى سنة ٦٦١ هـ/ ١٢٦٣ م والخليفة المرتضى الموحدى المتوفى سنة ٦٦٥ هـ/ ١٢٦٧ م .

ورعت الدولة المرينية الحركتين الأدبية والعلمية وكثر الشعراء فى عهدها وفى مقدمتهم شعراء البيت المرينى من أمثال عبد الواحد بن يعقوب وعمر بن عثمان والسلطانين أبى الحسن وأبى عنان وأخيه عبد العزيز ، ونلتقى بعشرات من الشعراء من أمثال محمد بن عمر الدراج المتوفى سنة ٦٩٣ هـ/ ١٢٩٤ م وعبد العزيز الملزوزى المتوفى سنة ٦٩٧ هـ/ ١٢٩٨ م ومالك بن المرحَّل المتوفى سنة ٦٩٩ هـ/ ١٣٠٠ م وابن عبد الملك المراكشى صاحب كتاب الذيل والتكملة المتوفى سنة ٧٠٣ هـ/ ١٣٠٤ م وأبى العباس العزفى المتوفى سنة ٧٠٧ هـ/ ١٣٠٨ م ومحمد بن عمر بن رشيد المتوفى سنة ٧٢١ هـ/ ١٣٢٢ م والرحالة القاسم بن يوسف السبتى المتوفى سنة ٧٣٠ هـ/ ١٣٣٠ م وابن شبرين المتوفى سنة ٧٤٧ هـ/ ١٣٤٧ م وابن شعيب الطبيب الأديب المتوفى سنة ٧٤٩ هـ/ ١٣٤٩ م مثل عبد المهيمن الحضرمى ، ومحمد بن عبد الرحمن المكودى المتوفى سنة ٧٥٣ هـ/ ١٣٥٣ م ومعاصره منديل بن آجُرُّوم وأبو القاسم الشريف المتوفى سنة ٧٦٠ هـ/ ١٣٥٩ م وأبو عبد الله الزناتى المتوفى سنة ٧٧٣ هـ/ ١٣٧٢ م ومحمد بن مصادف المتوفى سنة ٧٩٢ وفى نفس السنة أحمد بن عبد المنان ، وعبد الرحمن

المكودى المتوفى سنة ٨٠٧ هـ/ ١٤٠٤ م ومحمد بن جابر المكناسى المتوفى سنة ٨٢٧ هـ/١٤٢٣ م وأحمد الحباك المتصوف المتوفى سنة ٨٦٨ هـ/ ١٤٦٣ م والبهلول الوطاسى وإبراهيم بن هلال المتوفى سنة ٩٠٣ هـ/ ١٤٩٧ م ومحمد بن أحمد بن غازى المتوفى سنة ٩١٩ هـ/ ١٥١٣ م وابن يجبش المتوفى سنة ٩٢٠ هـ/ ١٥١٤ م وفى نفس السنة الغزالى الفاسى وأحمد الدقون المتوفى سنة ٩٢١ هـ/ ١٥١٥ م وعلى بن موسى بن هرون المتوفى سنة ٩٥١ هـ/ ١٥٤٤ م وعبد الواحد الوانشريسى المتوفى سنة ٩٥٥ هـ/ ١٥٤٨ م ومحمد بن عبد الرحمن الكراسى المتوفى سنة ٩٦٤ هـ/ ١٥٥٧ م وغير هؤلاء كثير .

وخلفت الدولة السعدية الدولة المرينية ومضت ترعى العلماء والأدباء ، وبلغ السلطان المنصور الذهبى الغاية فى ذلك ، إذ فتح السودان وجاءته منه كنوز الذهب فألقى بكثير منها فى حجور الفقهاء والشعراء الذين كان يجمعهم إلى مجالسه ، وكانت مجالس علمية أدبية يتناظر فيها العلماء فى الفقه وفى الحديث والتفسير ومختلف فروع العلم إذ كان — كما يقول ابن القاضى فى كتابه درة الحجال — له قدم راسخة فى كل فن من معرفة الشعر والخبر والمنطق والمعانى والبيان والأصلين والفقه واللغة والتفسير والحديث وعلومه والحساب والهيئة والهندسة والنحو وغير ذلك وكان شاعرا كما كان عالما وعمّ بنواله الشعراء والعلماء ، فازدهرت لعهده الحياتان العلمية والأدبية ازدهارا لعل المغرب الأقصى لم يعرفه من قبله . ونلتقى فى عصره وعصر الدولة السعدية عامة بكثير من الشعراء مثل القصرى الفاسى المتوفى سنة ٩٥٥هـ/١٥٤٩ م ومعاصره سعيد الحامدى المتوفى بعده بقليل وأحمد المنجور المتوفى سنة ٩٩٥ هـ/١٥٨٦ م ومحمد بن عيسى المتوفى سنة ٩٩٩ هـ/ ١٥٩٠ م ومعاصره داوود الدغوغى ، والزمورى المتوفى سنة١٠٠١هـ/ ١٥٩٢ م ومحمد بن عبد الواحد الحسنى وأخيه أحمد المتوفيين سنة ١٠٠٩هـ/ ١٦٠٠م وعلى بن منصور الشيظمى المتوفى سنة ١٠١٢ هـ/ ١٦٠٣ م والزرهونى المتوفى سنة ١٠١٨ هـ/ ١٦٠٩ م ومحمد بن على الفشتالى المتوفى سنة ١٠٢١ هـ/ ١٦١٢ م وأحمد بن القاضى صاحب درة الحجال المتوفى سنة ١٠٢٥ هـ/ ١٦١٦م وعبد العزيز الفشتالى وعلى بن أحمد الشامى المتوفيين سنة ١٠٣٢ هـ/ ١٦٢٢ م ومحمد الوجدى الغماد المتوفى سنة ١٠٣٣ هـ/ ١٦٢٣ م وابن عاشر المتوفى سنة ١٠٤٠ هـ/ ١٦٣٠ م وأبى عبد الله المكلاتى المتوفى بعد سنة ١٠٤٩ هـ/ ١٦٣٩ م ومحمد المسناوى الدلائى المتوفى سنة ١٠٥٩ هـ/١٦٤٩ م والطيب بن المسناوى المتوفى سنة ١٠٧٧ هـ/ ١٦٦٦ م . وممن ذكر أيضا فى عصر الدولة السعدية عبد الواحد الحميدى سنة ٩٣٠ هـ/ ١٥٢٤ م وعبد الواحد السجلماسى مفتى الحضرة أيام المنصور سنة ٩٣٣ هـ/ ١٥٢٧ م ومحمد بن عمر الشاوى سنة ٩٤٣ هـ/١٥٣٧ م وإدريس بن راشد الحسنى سنة ٩٦٠ هـ/ ١٥٥٢ م ومحمد بن يعقوب الآيسى سنة ٩٦٦ هـ/١٥٥٩ م

وأبى على المسفيوى سنة ٩٦٨ هـ/ ١٥٦٠ م ويسوق المقرى أسماء طائفة كبيرة من الشعراء فى كتابه : روضة الآس العاطرة الأنفاس فى ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس ، ومنهم من تقدم ذكره آنفا مثل عبد العزيز الفشتالى والهوزالى وابن القاضى ، وممن لم يتقدم ذكره أحمد بن الغرديس التغلبى وأحمد بن محمد الآيسى ومحمد بن عبد العزيز الفشتالى وأحمد المريد المراكشى وأبو القاسم الوزير الغسانى وعلى بن عمران السلاسى ومحمد بن رضوان النجارى وعبد العزيز الجيار والحسن بن يوسف الزيانى .

وترعى الدولة العلوية بدورها الحركتين العلمية والأدبية ، ومن الشعراء لعهدها محمد بن محمد بن أبى بكر الدلائى المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ/ ١٦٧٨ م وأحمد الدغوغى معاصره ، وعبد الرحمن بن القاضى المتوفى سنة ١٠٨٢ هـ/ ١٦٧٢ م وأبو سالم العياشى المتوفى سنة ١٠٩٠ هـ/ ١٠٧٩ م والروداني المتوفى سنة ١٠٩٤ هـ/ ١٦٨٣ م وعبد الرحمن الفاسى المتوفى سنة ١٠٩٦ هـ/ ١٦٨٥ م والحسن اليوسى الصوفى المتوفى سنة ١١٠٢ هـ/ ١٦٩٢ م ومحمد البوعنانى المتوفى بعد سنة ١١٠١ هـ/ ١٦٨٩ م وأحمد بن الحاج المتوفى سنة ١١٠٩ هـ/١٦٩٧ م وعبد السلام القادرى النسَّابة المتوفى سنة ١١١٠ هـ/ ١٦٩٨ م ومحمد بن زاكور المتوفى سنة ١١٢٠ هـ/ ١٧٠٨ م وأحمد بن عبد القادر التاستاوى المتوفى سنة ١١٢٧ هـ/ ١٧١٥م ومحمد بن الطيب العلمى المتوفى سنة ١١٣٤ هـ/ ١٧٢١ م والحسن بن رحال المعدانى المتوفى سنة ١١٤٠ هـ/ ١٧٢٨ م وعبد القادر بن شقرون المتوفى بعد سنة ١١٤٠ هـ ومحمد الحاج الدلائى المتوفى سنة ١١٤١ هـ/ ١٧٢٩ م ومحمد بن زكرى المتوفى سنة ١١٤٤هـ/١٧٣١م وعلى مصباح الزرويلى المتوفى سنة ١١٥٠هـ/١٧٣٧م وعبد الوهاب أدرّاق المتوفى سنة ١١٥٩هـ/١٧٤٦م وعبد المجيد الزبادى المتوفى سنة ١١٦٣هـ/١٧٥٠م ومحمد بن الطيب الشرقى المتوفى سنة ١١٧٠هـ/١٧٥٦م وأحمد الهلالى السجلماسى المتوفى سنة ١١٧٥ هـ/١٧٦١ م وأبو مدين الفاسى المتوفى سنة ١١٨١هـ/ ١٧٦٧ م وابن الونان المتوفى سنة ١١٨٧ هـ/١٧٧٣ م ومحمد بن الطيب القادرى المتوفى بنفس السنة وأبو حفص عمر الفاسى المتوفى سنة ١١٨٨ هـ/ ١٧٧٤ م والتهامى بن الطيب أمغار وأحمد بن المهدى الغزال المتوفيان سنة ١١٩١ هـ/ ١٧٧٧ م والتاودى بن سودة المتوفى سنة ١٢٠٩هـ/١٧٩٥م ومحمد بن عثمان المكناسى المتوفى سنة ١٢١٣ هـ/ ١٧٩٩ م ومحمد الطيب بن كيران المتوفى سنة ١٢٢٧هـ/١٨١٢ م ومحمد الرهونى المتوفى سنة ١٢٣٠هـ/١٨١٥ م وحمدون بن الحاج المتوفى سنة ١٢٣٢هـ/١٨١٧م ومحمد بن عبد السلام ابن ناصر المتوفى سنة ١٢٣٩هـ/١٨٢٤م والعربى المسارى المتوفى سنة ١٢٤٠هـ/١٨٢٥م وابن عمرو الرباطى المتوفى سنة ١٢٤٣ هـ/١٨٢٧ م .

٢

شعراء الموشحات والأزجال

(أ) شعراء الموشحات

أخذت تنشأ – منذ عصر دولة المرابطين – علاقات أدبية بين الأندلس وبين المغرب الأقصى وقدم من الأندلس إلى دياره بعض شعراء الأندلس بحثا عن رعاة لشعرهم ، وكان بينهم غير وشاح ، وأول وشاح أمَّ تلك الديار على بن عبد الغنى الحصرى القيروانى الكفيف المهاجر إلى الأندلس منذ سنة ٤٥٠ للهجرة فقد عبر الزقاق ثانية إلى طنجة سنة ٤٨٣ وأمضى بها الشطر الأخير من حياته وكان وشَّاحا وشاعرا بارعا فالتف حوله كثيرون من شباب طنجة ينشدهم أشعاره وموشحاته وقد أنشد الصفدى إحداها فى كتابه : « توشيع التوشيح » . وأوغل بعده ابن اللبانة الوشاح المشهور المتوفى سنة ٥٠٧ للهجرة فى ديار المغرب حتى بجاية فى الجزائر ونزل على أميرها باديس الحمادى (٤٩٨ هـ) ومدحه بموشحة بديعة أنشدها صاحب فوات الوفيات فى ترجمته . وأهم منه ابن بقى الوشاح الأندلسى نزيل سَلا – بجوار الرباط على المحيط – على بنى عشرة قضاتها ، وكانوا بحورا فياضة فى الجود فغمروه بعطاياهم وخاصة يحيى بن على بن القاسم وأخويه أحمد ويوسف ، وله فيهم موشحات كثيرة ، إذ أقام لديهم مددا متطاولة . وظل وراء هؤلاء الوشاحين الراحلين أو المهاجرين وشاحون كثيرون فى الأندلس يهدون موشحاتهم إلى حكامها من الأمراء المرابطين مثل ابن باجة المتفلسف وموشحاته البديعة فى أبى بكر بن تيفلويت المرابطى والى سرقسطة .

وعلى هذا النحو أخذت تتوثق الصلة بين الوشاحين الأندلسيين والشباب المغربى ، فإذا من هؤلاء الشباب من يعكف على موشحات الحصرى وابن بقى وابن باجة وأضرابهم حتى تمثل عذوبة النغم فيها وحُسْن اختيار الألفاظ وأخذ ينشىء على غرارها موشحات مغربية تفيض نعومة وسلاسة وحلاوة جرس ، ولم يتحقق ذلك توًّا فى عصر المرابطين القصير ، إنما حدث منذ أول عصر الموحدين التالى لعصرهم على لسان ابن غُزْلة ، وسنفرد له ترجمة ، وتلاه غير وشاح مثل أبى حفص عمر السلمى المتوفى سنة ٦٠٢ غير أنه لم تؤثر له موشحة . وجاء بعده فى العصر أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الصباغ الجذامى وجميع موشحاته نبوية فى مديح الرسول ﷺ ، وسنخصه بترجمة – ونلتقى أواخر عصر المرينيين زمن الوطاسيين بوشاح بارع هو ابن سعيد عثمان المكناسى ، وله موشحة نبوية بديعة أنشدها ابن القاضى فى كتابه عن الخليفة المنصور والمقرى فى الجزء الثانى من أزهار الرياض ، يستهلها بقوله[1] :

(١) انظر المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور ص ٨٢١ وأزهار الرياض ٢/٢٢٩ .

يا عُرَيْبَ الحيِّ مِن حَيِّ الحِمَى   أنتمُ عِيدِى وأنتمْ عُرُسِى

وهو استهلال رائع لما سيتلوه من المديح النبوى وقد عارض بها موشحتين قبلهما سينى لابن سهل وابن الخطيب ، وهما بالترتيب : هل درى ظبى الحمى – وجادك الغيث . وفى نهاية الموشحة يقول :

هِمْتُ فى أطلال لَيْلَى وأنا   ليس فى الأطلال لى من أَرَبِ
ما مرادى رامةٌ والمُنْحَنَى   لا ولا لَيْلَى وسُعْدَى مَطْلَبِى
إنما سُؤْلِى وقَصْدِى والمُنَى   سَيِّدُ العُجْمِ وتاجُ العَرَبِ
أحمدُ المختارُ طَه مَنْ سَمَا   الشريفُ بنُ الشريفِ الكَيِّسِ
خاتمُ الرُّسْلِ الكريمُ المُنْتَمَى   طاهرُ الأصْلِ زَكِيُّ النَّفَسِ

فهو إن هام صبابة بأطلال ليلى ليس له من مأربٍ فيها ولا فى تغنيه برامة والمنحنى حيث اللقاء المأمول ولا مطلبه ليلى ولا سعدى ولا غيرهما ممن يذكرهن إنما سؤله وقصده وكل مناه رسول الله سيد العجم وتاج العرب . والموشح بالغ الروعة ، ويذكر له الأستاذ ابن تاويت موشحا على غراره ختمه بهذا الابتهال لربه :

طامعٌ فى رحمةِ اللهِ وما   خاب عَبْدٌ طامعٌ لم يَيْأَسِ
يا إلهى جُدْ علينا كرمًا   يا كريما قبل أخذ الأنفسِ

وما من مسلم إلا ويطمع فى رحمة الله الغفور الرحيم .

ويكثر الوشاحون فى عصر السعديين ، وفى مقدمتهم الخليفة المنصور الذهبى ، وكان واسع الثقافة عالما مؤلفا ، كما كان أديبًا شاعرًا ، وازدهر العلم والأدب فى المغرب الأقصى بأيامه ، واستحالت مجالسه إلى مناظرات علمية متعمقة ومساجلات شعرية مع وفرة جوائزه وعطاياه ، وينوه المؤرخون غربًا وشرقًا به ، وعليه قصر ابن القاضى كتابه : المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور تحدث فيه عن نسبه وحسبه وشيوخه وخلافته وسياسته وشمائله الحميدة وتعظيمه الميلاد النبوى وغزواته وعلو همته ، ويلم من حين إلى حين ببعض أشعاره ، ويذكر أن له موشحات كثيرة ، وينشد له موشحة ، يقول المنصور الذهبى فى غصنها الأخير[1] :

قلتُ لـه وقد نَهَدْ   وجَدَّ فى حَرْبِى[2]
وغَلَبَ الظَّبْيُ الأَسَدْ   ففـاز بالغَلْبِ
الشمسُ بُرْجُها الأَسَدْ   فاسْعَ إلى قلبى

وهو يستغلّ ما يقوله الفلكيون من أن برج الشمس الأسد ، فيقول لصاحبته وقد اكتمل

(١) المنتقى ص ٦٦٣ .   (٢) نهدت الجارية : اكتمل شبابها .

لها شبابها وجدت فى حربه غلب الظبى الأسد ، إذ الظبى شمس سنًا جمالا ، ولابد أن تحل الشمس فى برجها برج الأسد ، وواضح أنه يكنى عنها بالظبى وعنه بالأسد تظرفا . وكان أحمد بن القاضى وشّاحا ، أنشد له المقرى فى ترجمته بكتابه : « روضة الآس العاطرة الأنفاس » موشحا نبويا ، استهلّه بقوله[1] :

لاهتزاز البانِ وقتَ السَّحَرِ هــامــتِ الأرواحْ
وقيانُ الطير فــوق الشَّجَرِ تجلب الأفــــراحْ
يا شقيقَ الروح هاتِ القَدَحا من دنــان الحــانْ
قهوةً تُكسِبُ قَلْبى الفَرَحَا تطــربُ النَّشْــوَانْ
كلُّ من دارتْ عليــه شَطَحا مِــنْ يَـدَىْ وَسْنَانْ[2]

وواضح أنه استهلّ المدحة النبوية بالحديث عن الطبيعة الفاتنة وقت السحر وقد هامت بها الأرواح ، والطير فوق الشجر تصدح بأغانٍ تجلب الأفراح . ويلتفت إلى ساقى الخمر الصوفية فى السحر يطلب إليه أن يناوله قدحا دهاقا منها يشيع فى قلبه الفرح والبهجة ، وكل من دارت عليه كأنما يغيب عن نفسه فيشطح شطحات متوالية . ويتجه فى الغصن الأخير من الموشح للرسول منشدا :

يا رســول الله غَوْثٌ ومدَدْ يا منيع الجــارْ
أنت – والله – الكريمُ المعتمَدْ لنزيح الـــدار
كُنْ شفيعى يا نبيًّا لا يُــرَدّ إنَّك المختـــار

وهو يسأل الرسول استغاثة ومددا لا ينقطع ، إذ هو الغيث المدرار ، ويضرع أن يكون شفيعه ، ويشير إلى أن شفاعته فى أمته يوم الحشر لا ترد . ونمضى إلى عصر العلويين فنلتقى بوشاح بارع هو ابن زاكور وسنفرد له ترجمة ، ويلقانا بعده محمد بن الطيب العلمى تلميذه ، وموشحاته تموج بالعذوبة ، غير أنه اتجه بها نحو الخمر والمجون . وحرى بنا أن نتوقف قليلا للحديث عن ابن غرلة وابن الصباغ وابن زاكور .

ابن[3] غُرْلَة

لسنا نعرف شيئا عن نشأته ، إنما نفاجأ به فى عصر عبد المؤمن (٥٢٤هـ/ ١١٣٠م – ٥٥٨ هـ/ ١١٦٣ م) ، وأغلب الظن أنه عاش شطرا من حياته فى عصر المرابطين ، وهو أول مغربى تمثل الموشحات والأزجال ، ويقول صفى الدين الحلى فى كتابه : « العاطل الحالى » إنه

---

(١) روضة الآس ص ٢٦٣ .

(٢) وسنان : فاتر الطرف .

(٣) انظر فى ابن غرلة كتاب العاطل الحالى لصفى الدين الحلى تحقيق د . حسين نصار ، نشر هيئة الكتاب (راجع الفهرس) . وانظر موشحته فى النبوغ المغربى ٣٢٠/٣

كان ينظم الموشح والزجل والمزنم فى القَنَّين أى أنه كان يلحن أحيانا فى الموشح ويعرب فى الزجل ، والمزنم من الزنمة وهو المستلحق بالقوم ، فالموشح والزجل المزنمان كل منهما مستلحق بأصله . ويقول صفى الدين إنه كان يلحن أحيانا فى الموشح ويعرب فى الزجل قصدا منه واستهتارا ، ويقول : إذ القصد من الجميع عذوبة اللفظ وسهولة السبك . وكان ابن سناء الملك يعيب عليه ذلك ، ولهذالم يثبت شيئا من موشحاته فى كتابه : « دار الطراز » . ويقول صفى الدين مسترسلا : ومن موشحاته المزنمة الموشَّحة الطنانة الموسومة باسم « العروس » وفيها يصور عشقه لرُمَيْلة أخت عبد المؤمن الموحدى خليفة الموحدين ، وقد قتله بسببها لما وقع فى نفسه من مطلعها وما يليه من اجتماعه بها . ويقال إنه كان حسن الصورة جليل القدر ذا عشيرة ، وكانت هى أيضا جليلة القدر جميلة الخلق فصيحة تنظم الأزجال الرائقة الفائقة ، وينشد صفى الدين مطلع الموشحة وما يليه على هذه الشاكلة :

مَنْ يصيد صَيْدا فليكن كما صَيْدى
صَيْدِى الغَزَالَهْ من مراتع الأُسْدِ
كيف لاَ أصولُ واقْتَنصْتُ وَحْشِيَّهْ
ظبيـةٌ تجـولُ فى رِدا سوسيَّـهْ
صاغهـا الجليـلُ فهى شِبْـه حـوريَّهْ
تَنْثَنِى رُويدا إذ تميسُ فى البُرْدِ
تَعْجِنُ الغِلالِهْ والرِّدا مـع النَّهْدِ
رُبَّ ذاتِ لَيْلَـهْ زُرْتُها وقد نامتْ
والرَّقِيبُ فى غَفْلَهْ والنجومُ قد مالتْ
رُمْتُ منهـا قُبْلـه عند ضَمِّها قـالتْ
قِرٌ قِرٌ وإهْـدَا لا تكـنْ مُتَعَدِّى
تكسير النِّبالا[١] وتَفْرُط العقـدِ

وواضح فى الموشح العذوبة والسلاسة وصفاء الألفاظ وحسن انتخابها .

وواضح أيضا ما فى القفل الأخير من لحن فى شطريه الثانى والرابع : « لا تكن متعدى — وتفرط العقدِ » والأصل : « لا تكن متعديا — وتفرط العقدَ » بفتح الدال ، وهو لذلك موشح مزنَّم ملحق بالموشحات المعربة . ويقال إن ابن غرله حين قدم ليقتل نظر فى الناس من حوله وارتجل فقرة أنشدها من نفس وزن هذا الموشح يستنجد بعشيرته لتأخذ بثأره قائلا :

(١) النبالا : الأساور بالمغربية الدارجة .

خدُّها الأسيــلُ　　بدتْ منـه أنوار
طَرْفُها الكحيلُ　　سُلَّ منـه بتّار
ها أنا القتيــلُ　　فهل يُؤْخذ الثار

قد أُسِرْتُ عَبْدًا　　ولم أُكُنْ بالعبــدِ
مُتُّ لا محــاله　　فاطلبوا دمى بعدى

وفى كتاب العذارى المائسات فى الأزجال والموشحات لفيليب الخازن موشح لابن نباتة ص٧ وقيل إنه لابن غرلة وموشح ثان لابن غرلة ص٢٣ وقيل إنه لصدر الدين بن الوكيل وموشح ثالث لأحمد بن حسن الموصلى ص٦١ وقيل إنه لابن غرلة . والإجماع منعقد على أن له موشح العروس السالف ، وهو يصور مهارته فى اصطفاء اللفظ العذب والملاءمة بينه وبين غيره فى حسن الجرس وحلاوة النغم .

ابن[1] الصباغ

يقول المقرى فى الجزء الثانى من أزهار الرياض : « هو الشيخ الإمام الصالح الزكى الصوفى أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الصبَّاغ الجذامى » ويذكر المقرى أنه قرأ له موشحات فى كتاب ألفه بعض الأئمة ورفعه للسلطان المرتضى الموحدى (٦٤٦ هـ/ ١٢٤٩ م – ٦٦٥ هـ/ ١٢٦٧ م) وأكثر المؤلف فيه من موشحاته وأشعاره فانتخب المقرى منها غررًا من الموشحات وهى اثنتا عشرة موشحة وقصيدتين ومخمسا وجميعها فى المديح النبوى وآخر ما أورد له قوله :

تركتُ امتداحَ العالمين ولُذْتُ مِنْ　　مدائحِ خيرِ الخلق بالعُرْوة الوُثْقَى
سأجعلُهـا كَهْفِى وحِصْنِى ومَلْجئى　　لعلىَ بالأمــداح أستوجب العِتْقــا

وموشحاته وقصائده فى الذروة من المديح النبوى ، وهو يبث فيها هياما ملتاعا لأنه لا يستطيع المثول فى حضرة الرسول ﷺ وزيارة قبره الشريف واكتحال عينيه بنوره . ويشكو شكوى مرة من البعد عن محبوبه ويأمل دائما أملا حارا فى القرب منه ولقائه كما يأمل فى شفاعته من عذاب النار التى لا تطاق . ودائما يتمنى وقفة فى ذلك الحمى وتلك الربوع ، ودائما يتجدد شوقه وتتجدد صبابته ويتجدد هيامه ، ويرسل أناته وزفراته ولوعاته ودموعه المنهمرة ، يقول فى مطلع أولى موشحاته :

أَلفَ المُضْنَى الشُّجونا　　وارتضى الأحـزانَ دِينا
فوق صَفْحِ الوَجْنَتَيْنِ　　أرسـل الدَّمْـعَ الهَتُـونـا

---

(١) انظر فى ابن الصباغ وموشحاته أزهار الرياض ٢٣٠/٢ وما بعدها .

يَقْطَعُ الأيـــامَ حُـزْنـًا وبُكـــــاءً وعَـوِيلا
فـارحمــــوا صَبًّا مُعَنَّى قلبـــه يُذْكِى غَلِيـلا
مُلْهَبَ الأحْشــاءِ مُضْنَّى بالنَّـوَى أضحى عليلا
ذاب شَوْقًا وحنينا وسَقَامـــًا وأنينـــــا
وشُئــونُ المُقْلَتَيْنِ تسكبُ الـدَّمــع المَعِينا[1]

ومنذ ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد اعتاد بعض الشعراء الذين نظموا فى الخمر والمجون أن ينظموا بعض زهديات مكفرة عن أشعارهم الماجنة ، وصنع ذلك بعض الوشاحين ، ونرى ابن الصباغ ومعاصره ابن عربى يختمان بعض موشحاتهما الدينية بخرجات لموشحات ماجنة نظمها بعض الوشاحين ، ونفس هذه الموشحة الأولى لابن الصباغ ختمها بقوله :

وبَلينا وابتُلينا واشْ يقول الناس فينا
قُمْ بنا يا نورَ عينى نجْعَل الشكَّ يقينـــا

وهذه الخرجة لموشح ابن الصباغ هى نفس خرجة ابن بقى للموشحة الثامنة فى جيش التوشيح وهى موشحة ماجنة وفيها يقول ابن بقى فى أول أغصانها :

قم بنا نجلو الكئوسا تحت أظلال السحابِ
نتعاطـاها عروسـًا حَلْيها دُرُّ الحَبـــابِ
قهـوةً تُعْطى النفوسـا عزَّ أيــــام الشبابِ

وكأن ابن الصباغ يريد أن يكفر لابن بقى عن موشحته باستعارته لخرجتها ، ولعله يريد أيضا أن يلفت عنها الشباب وقد دارت فى أفواههم إلى موشحة نبوية لعلها تدور مثلها على شفاههم . وموشحته الثانية فى التشوق إلى مكة وطيبة على ساكنها الصلاة والسلام . ختمها بخرجة استعارها من موشحة لابن خزر البجائى منشدا كما يقول عند المقام النبوى :

ثَغْرُ الزَّمــانِ الموافق حيَّاكَ منـــه بِابْتِسَامْ

وكأن نزول ابن اللبانة الوشاح الأندلسى ببجاية لم يذهب هدرا ، فقد نشأ بها – فيما بعد – ابن خزر على غراره . وكما أن ابن خزر نشأ على غرار ابن اللبانة فإن ابن الصباغ نشأ – فى رأينا – على غرار ابن بقى الذى أقام طويلا فى سَلا والمغرب الأقصى ، وسنراه ينظم موشحات مكفرة عن بعض موشحات أخرى . ولم يوضح المقرى هل ابن الصباغ مغربى أو أندلسى ويؤكد أنه مغربى أن كتب التراجم والموشحات الأندلسية لم تذكره ، ونفس تكفيره عن موشحة لابن خزر البجائى يدل أو يؤكد أنه مغربى ، وموشحاته إنما عُرفت فى مراكش بتقديمها للمرتضى الموحدى . وتدل خاتمة موشحته الثالثة أنها مكفرة عن موشحة لابن بقى فى التغنى

(١) شئون العين : مجارى الدمع . المعين : السائل الغزير .

بمديح بنى عشرة قضاتها وخاصة يوسف بن القاسم بن عشرة . والموشحة الخامسة مكفرة أيضا لموشحة لابن بقى جعل خرجتها خاتمة لموشحة له على هذا النمط :

ليتنى رَمْلَه على شَطّ البَحَرْ   يا ابنى أو أطومْ[1]
وترى عينىّ مذ تقلعْ سَحَر   لبـلاد الـــرومْ

والخرجة ذكر أولها فى نهاية موشحة ابن الصباغ ، وكأن كاتب النسخة لم يعن باستكمالها وهى كاملة فى موشحة دينية مكفرة عند ابن عربى[2] – وبالمثل الموشحة السادسة خاتمتها مشتركة عند ابن الصباغ وابن عربى[3] وتجرى على هذه الصورة :

جَنَّانْ يا جنَّانْ   اِجْنِ مِنَ البُسْتَانْ   اليَاسَمِينْ
وخَلِّ الرَّيْحانْ   بحرمــــة الرَّحْمــنْ   للعاشقين

وقال الدكتور سيد غازى إنها خرجة لابن بقى فى إحدى موشحاته[4] . واجتماع ابن الصباغ وابن عربى فى اقتباس هاتين الخرجتين من ابن بقى قد يدل على أن أحدهما حاكى صاحبه . وخاتمة الموشح التاسع عند ابن الصباغ فاتحة لموشحة ابن باجة فى مديح أبى بكر بن تيفلويت حاكم سرقسطة المرابطى :

جَــرِّرِ الذَّيْــلِ أيَّما جَــرّ   وصِـلِ الشُّكْرَ منك بالشكْرِ

والشطر الثانى فى الأصل : « وصل السكر منك بالسكر » وعدَّله ابن الصباغ ليتلاءم مع موشحه النبوى . واستعار ابن الصباغ خاتمة الموشحة الثانية عشرة الأخيرة من مطلع زجل للزجال المشهور البعبع مع شىء من التعديل على هذه الشاكلة :

يا فلانْ إن زُرْتَ حِبِّى   اِفْتِل اذْنو بالرُّسيلا
ليشْ أخـذ عُنْق الخُشَيْفْ   وسَرَقْ فَمّ الحُجيلا

وأصل المطلع عند البعبع :

يا ليتني إن ريتْ حبيبى   افْتِلِ اذْنو بالرُّسيلا
ليشْ أخذ عنق الغزيِّل   وسَرَقْ فَمّ الحُجيلا

والرُّسَيْلا هى الرُّسَيْلة تصغير رِسْلة أى تؤدة وتمهل ، يريد أن يعر. . حبيبه فى ترفق معاتبا له ، والخشف ولد الظبية والحجلة طائر فى حجم الحمام . والموشحات حب وهيام

(1) أطوم : سلحفاة .
(2) انظر ديوان ابن عربى ص ١٢١ وكتاب فى أصول التوشيح للدكتور سيد غازى ص ١٠٨ .
(3) راجع ديوان ابن عربى ص ٨٦ .
(4) انظر فى أصول التوشيح ص ١١٠ .

بالرسول صلى الله عليه وسلم وصبابة استحالت عند ابن الصباغ تراتيل بديعة ، إذ استقر حب الرسول في قلبه واستأثر بكل ما فيه من شعور وعاطفة وهوى .

ابن[1] زاكور

هو أبو عبد الله محمد بن زاكور الفاسي ، ولد حوالى منتصف القرن الحادى عشر الهجرى وتوفى سنة ١١٢٠ هـ/١٧٠٨ م وأكبَّ على الأدب والعلوم العربية منذ نعومة أظفاره ، وتفتحت شاعريته ومواهبه الأدبية مبكرة ، ولم يلبث أن أصبح إمام الشعراء والكتاب فى عصره ، ولم يقف بشعره عند القصيد فقد نظم كثيرا من الموشحات ، ولذلك سمى ديوانه : « الروض الأريض فى بديع التوشيح ومنتقى القريض » ، وله أعمال أدبية متعددة منها شرح على ديوان الحماسة سماه عنوان النفاسة ، وشرح على قلائد العقيان للفتح بن خاقان باسم شرح ما خفى من القلائد وشرح على لامية العرب . ومن موشحاته موشح غزلى مطلعه :

مَنْ علَّم الغِزْلانْ　　الفَتْكَ بالَّليْثِ الجَرِى
وسلَّط العينــانْ　　على قلـــوب البشَــرِ
يــا ضرَّةَ الشمسِ　　اللّهَ فى الصَّبِّ الكئيب
يــا منيةَ النَّفْسِ　　هَجْـرُكِ للنَّفْسِ مـذيب
حـدَّثنى حَـدْسى　　أنـكِ لِلُّــبِّ سليب[2]

عارض بهذا الموشح الغزلى موشحا لابن سهل ، وقد جعل مطلعه : « ليل الهوى يقظان » خرجة لموشحه ، وهو فى الموشح جميعه كما فى هذا المطلع يختار اللفظ السهل الذى يعجب ويروق دون تكلف أو تصنع . ويقول متغزلا فى مطلع موشحة أخرى :

أدر الكاساتِ من خَمْر اللَّعَس　　يا لهــا من راح　　تحكى الجُلَّنارْ[3]
واسقنيها خمرةً تجلــو النفس　　علَّنى أرتـــاح　　من حرِّ الأوارْ[4]
بأبى ظَبْىٌ رمانى بسهامَ　　ريشها الأهدابْ　　تَبْرى الأفئـده[5]
مُزِّق القلبُ الكليم المستهام　　إذ رنا وانسابْ　　سَيْفٌ جـرَّدَه[6]
عنبرىُّ الخال مسكىُّ الخيام　　يذهل الألبــابْ　　درٌّ نضَّـــــده

(١) راجع فى ترجمة ابن زاكور النبوغ المغربى فى الأدب العربى ٣٢٥/١ وقد نشر الأستاذ عبد الله كنون منتخبا من ديوانه وانظر فيه وفى موشحاته الوافى بالأدب العربى فى المغرب الأقصى للأستاذ محمد بن تاويت ٧٧٩/٣ وكنون فى النبوغ المغربى ٣٢٥/٣ وما بعدها .

(٢) حدسى : ظنى وفراستى .

(٣) اللعس : سمرة جميلة فى باطن الشفة . الجلنار : زهر الرمان .

(٤) أوار الحب والنار : شدتهما .

(٥) تبرى : تنحت .

(٦) الكليم : الجريح .

همتُ وجدا من سناه المقتبسْ　　من سَنا الإصباح　　أو بـدر أنـارْ
لاح حين افتـرَّ ثَغْرٌ كالقَبَسْ　　أزهرٌ وضـاح　　أذكى زَنْد نارْ[1]

والكلمات سلسة حلوة تلذ الألسنة حين تنطق بها والآذان حين تصيخ إليها لرشاقتها من جهة ولما تشتمل عليه من تصاوير ممتعة من جهة ثانية . وله فى مطلع موشحة يصف فيها الربيع :

قد اكتسى العريان　　من مائس الأغْصانْ　　بـالسُّندس
وطـرَّز البستان　　بالـوَرْدِ والرَّيحـانْ　　والنَّرجس
هبَّتْ بـه الأزهار　　بنسمة الأسحـار　　من الوَسَن
وهاجت الأطيـار　　برائق الأشعـار　　أم الحسُن
تسبِّح الجبَّـارْ　　الواحـد القهـار　　مـولى المِنَن

والشطور قصيرة وقصرها يزيد سلاسة ألفاظها ونعومتها جمالا وحسنا ، ودائما تلقانا فى موشحاته هذه اللغة العذبة المصفاة المنتقاة ، إذ كان يعرف كيف ينتخب ألفاظه وكيف يلائم بينها فى الجرس الموسيقى ملاءمات ممتعة .

(ب) شعراء الأزجال

الأزجال جمع زجل وهو فى اللغة التطريب وسمى به الأندلسيون الفن الشعرى العامى المقابل للموشحة ، وقد نشأ بعدها فى الأندلس بنحو قرنين ، حتى إذا كان عصر المرابطين كان الزجل قد استوى على سوقه وأصبح له زجالوه المشهورون كما للموشحات وشاحوها المشهورون ، ويبدو أنه دخل المغرب الأقصى مع الموشحات ، إذ يذكر صفى الدين الحلى عن أول وشاح مغربى مشهور ، وهو ابن غُزْله ، أنه كان ينظم الموشح والزجل كما مر بنا ، ويقول عن رُمَيْلة محبوبته أخت عبد المؤمن إنها كانت تنظم الزجل ، ويذكر لها مطلعا فى زجل نظمته فى ابن غزلة قائلة :

مَشَى السَّهَـرْ حـيرانْ　　حتى رأى إنسانْ عينى وَقَفْ

ويتحدث ابن خلدون[2] فى مقدمته عن الزجل فى الأندلس وأعلامه ، ويستطرد إلى الحديث عنه فى المغرب الأقصى فيقول إن أهله استحدثوا فنا منه كالموشح نظموا فيه بلغتهم الحضرية (يريد العامية) وسموه عروض البلد ويذكر أن أول من أشاعه فيهم رجل من أهل الأندلس نزل بفاس يعرف بابن عمير ، وسنفرد له ترجمة ، ويقول ابن خلدون إن المغاربة ولعوا به وجعلوه أنواعا ، منها المزدوج والملعبة والغزل ، ويذكر من كبار زجاليهم ابن شجاع التازى

(1) أزهر : مضىء . وضاح : مشرق . أذكى : أوقد . الزند : الحجر أو العود الذى يقدح به النار .

(2) مقدمة ابن خلدون (طبع دار المعارف) ص ١٣٥٧ .

وسنترجم له ، ويذكر منهم أيضا الكفيف الزرهوني المكناسي ويقول إنه أبدع في مذاهب هذا الفن ، ويذكر له زجلا في رحلة السلطان أبي الحسن المريني بجيشه إلى فتح إفريقية يريد أن يضم المغرب بعضه إلى بعض في وحدة مغربية ، وفتحها ونزل تونس ولم يلبث أعراب بني سليم وإخوتهم من بني هلال أن نصبوا لجيشه شركا في القيروان ودارت عليه الدوائر وعُمِّي أمره على شعبه ، وانبرى الكفيف الزرهوني يعيب عليه في زجله غزوته إلى إفريقية التونسية وما كان من هزيمة الجيش في القيروان ، ويعزّي الشعب عنها بما وقع لغيرهم من الشعوب ، وفيه يقول[1] :

عسكرُ فاس المنيرةِ الغَـــرَّا	وينْ سارتْ بُو عزايمُ السلطانْ
أحُجَّاجـــًا تخلَّلوا الصحـــرا	ودُّوا سَرْح البلاد مع السُّكان[2]
عن جيشِ الغربِ جيتْ نِسْأَلْكم	المتلـوف في افريقيـا السودا
لـو كانْ ما بين تونس الغَرْبـا	وبلاد الغـــرب سدُّ الاسكَنْدرْ
لابد للطـير كانْ يَجِي بِنَبَا	أو يأتي الرِّيحْ عنهـم بفـــردْ خَبَرْ
ما اعْوَصْها من أمورْ وما شرَّا	لـو تُقْرا كل يـوم علي الويدان[3]
لجـرتْ بالـدَّم وانصـدع حَجْرَا	وهوت الاجْرافْ وجفَّت الغُدْران

وهو يبكي عسكر فاس الغراء وتغرير السلطان ويسأل الحجاج الذين جابوا الصحارى عن الجيش التالف في إفريقية التونسية السوداء ويقول لو كان بين تونس وبلاد المغرب الأقصى سدٌّ الإسكندر أو سد يأجوج ومأجوج لحمل الطير الخبر عن هذا الجيش المريني الذي انبهم أمره ، وما أصعبها وشرَّها من أمور لو تقرأ على الآذان لجرت العيون بالدم وتشققت الأحجار وهوت أجراف الهضاب والجبال وجفت الغدران فياهول المصاب ويا لفداحة الفاجعة المؤلمة . ولم يرزق المغرب الأقصى في هذا العصر الوسيط الذي نعني بدرسه بزجال كبير بعد الكفيف الزرهوني ، وحرى بنا أن نترجم لابن عمير وابن شجاع التازي .

ابن[4] عمير

ليس بين أيدينا عن حياة ابن عمير إلا ما ذكره ابن خلدون في مقدمته إذ قال : إنه رجل من أهل الأندلس نزل بفاس واستحدث لهم فنا من الشعر في أعاريض مزدوجة كالموشح نظموا فيه بلغتهم الحضرية واستحسنه أهل فاس وولعوا به ونظموا على طريقته وتركوا الإعراب الذي ليس من شأنهم وكثر شيوعه بينهم واستفحل فيه كثير منهم ، ونظموا بجانب المزدوج أنواعا

(١) المقدمة ص ١٣٦٠ وانظر النبوغ المغربي ٣/٣٣٧ .
(٢) رَدُّوا : أرسلوا . السرح : الزروع ودوابها .
(٣) الويدان : يريد الآذان .
(٤) انظر في ابن عمير العاطل الحالي (راجع الفهرس) ومقدمة ابن خلدون ص ١٣٥٧ وما بعدها .

أخرى ، وكلها صور من الأزجال وأشكال . ونجد المصادر التاريخية والأدبية لا تعنى بابن عمير إلا ما كان من صفى الدين الحلى فقد ذكره مرارا فى كتابه العاطل الحالى ، وذكر مطالع خمسة أزجال له وجزءا من زجل ليس مطلعا ونعتقد أنه كان أمامه ديوان ابن عمير الزجلى وأخذ منه الأمثلة التى ضمنها كتابه ، ومن مطالعه التى ذكرها فى ص ٣٢ :

أنكرتْ شيبى مَنْ بُليتْ بيها ... كلٍ من عاش يشيبْ
إنمـا هى ملاحـة البستانْ ... بالنُّـــوّار العجيبْ

ولاحظ صفى الدين أنه خفف الواو فى كلمة « النُّوار » فلم ينطقها مشددة كما فى أصلها ، بل نطقها مفتوحة مخففة . ومن مطالع أزجاله التى أنشدها له فى ص ٥٦ قوله :

يا حبيبْ قلبى تعطَّفْ ... بعض هذا الهجر يِكْفَا
دموعْ عينى ما تْرْقا ... ولهيبْ قلبى مـا يِطْفَا

ولاحظ صفيّ الدين أن كلمة يِكْفَا محرَّفة عن « يكفى » بقلب الياء ألفا لتماثل الألف فى كلمة « يطفا » . وأنشد ابن خلدون له زجلا طويلا لعله مما سماه عروض البلد يقول فى مطلعه :

أبكانى بشاطى النَّهْر نَوح الحمامْ ... على الغُصْنِ فى البُسْتانْ قريب الصباحْ
وكفّ السَّحَرْ تمحو مِداد الظلامْ ... وماء النَّدَى يَجْرِى بِثَغْرِ الأقـاحْ
باكرتُ الرِّياضْ والطَّلّ فِيهِ افتراقْ ... سَرّ الجـواهرْ فى نُحـورِ الجوَارْ
ودَمْع النَّواعِرْ يَنْهَرِقْ انْهراقْ ... يحـاكى ثعـابينْ حلَّقَتْ بالثِّمـارْ
لَوُوا بالغُصونْ خَلْخال على كل ساقْ ... ودار الجميع بالروض دَوْر السُّوارْ
وأيدى النَّدَى تِخْرق جيوب الكِمامْ ... وتِحْمِلْ نسيم المسك عنها رياحْ
وعـاج الضِّيـا يُطْلَى بمِسْكِ الغمـــامْ ... وجَـــرّ النسيم ذِيلُو عليهـا وفـاحْ

والزجل مكتظ بصور فريدة من ابتكار ابن عمير ، فمداد الظلام الأسود يمحوه كف السحر الأبيض ، ويشبه الشعراء الأقحوان بالثغر فيضيف ابن عمير أن ماء الندى يجرى فيه ، ويقول باكرت الرياض والطل يتساقط والجواهر كأنها مسرورة بمكانتها من نحور الجوارى الفاتنات ، والسواقى تذرف الدمع مدرارا وكأنما يحاكى الماء فى قنواته أفاعى تريد أن تحلق بالثمار وقد استوت الغصون خلاخيل على سيقان الأشجار ، ودار كل ذلك فى الروض دور السوار ، وينفذ إلى تصوير مبتكر فأيدى النَّدى فى الصباح الباكر كأنما تخرق كِمام الزهر بل جيوبه ، وتحمل عنها الرياح نسيم المسك العاطر ، وأخذ الضياء يعمه الغمام ، أو كما يقول ، يطلى بمسك الغمام ، وجرَّ النسيم ذيل ردائه عليه وفاح وسطعت رائحته سطوعًا شديدًا . وتمتلىء بقية الزجل بمثل هذه الصور البديعة فى حوار رائع بين ابن عمير والحمام . ويحق

كما يقول ابن خلدون استحسن أهل فاس أزجال ابن عمير وشغفوا بها وفتنوا فتنة شديدة ومضوا ينظمون على نهجه وطريقته .

ابن[1] شجاع التازى

لم يذكر عنه ابن خلدون شيئا إلا أنه من فحول الزجالين بالمغرب الأقصى وقال إنه من أهل تازا ثم أنشد له زجلين ، والزجل الأول أشبه بنقد اجتماعي ، وفيه يقول :

المالْ زينةِ الدُّنيـــا وعِزّ النفـوسْ ... يبَهِي وجوهـــًا ليستْ هي باهْيَا
فها كلّ من هُوْ كثير الفلــوسْ ... وَلُوهُ الكــلامْ والرُّتْبَة العالْيــا
يكبَّروا مَنْ كثّرْ مالو ولو كانْ صغيرْ ... ويْصغّرُوا عزيـز القـــومْ إذا يفتِقِرْ
حتى يلْتِقِي مَنْ هُو في قُومُهْ كَبيرْ ... بمن لا أصْل عِندو ولا لُو خطَرْ
أدِى صارت الأذناب أمام الرءوس ... وصــار يستمدّ الســوادِ من الساقيا
ضَعْف الناس عمل ذا أو فساد الزمانْ ... ما يدْريو على مَنْ يَكثِرُوا ذا العتاب
أدِى صار فلانْ اليــوم يصَبّحْ بوفلانْ ... ولَوْ ريتْ وكيفْ حتى يرُدّ الجـواب

وواضح أنه يقول إن الموازين الاجتماعية اختلت ، فأصبح المال هو كل شيء : زينة الدنيا وعز النفوس حتى ليضفى البهاء على الوجوه غير البهية ، وها أنت ترى الناس يقدمون الثرىّ في الكلام ويولونه الرتبة العليا ويكبرونه ولو كان صغيرًا ويصغرون عزيز القوم إذا افتقر ، حتى اختلطت المقاييس وأصبح كبير القوم يقرن بمن لا أصل له ولا خطر من الأثرياء ، وبذلك تقدمت الأذناب الرءوس وتُرَى هل هذا من ضعف الناس أمام الثراء أم من فساد الزمان ، لقد أصبح من لم يكن له لقبا يمنح الألقاب ويقال له أبو فلان إجلالا وتوقيرا ، وقد امتلأ غرورا حتى إنه لا يرد الجواب . والزجل الثاني الذى ذكره ابن خلدون موضوعه الغزل ، ويستهله على هذه الصورة :

تعبْ مَنْ تبّع قَلْبُو مِلاح ذا الزمانْ ... اهمل يا فْلان لا يلْعَب الحسن بيكْ
ما منهم مليحْ عاهدْ إلا وخانْ ... قليـل مَنْ عليه تحبِسْ ويحبِسْ عليك
يتيهوا على العُشّاقْ ويتمنّعوا ... يتعمّدوا تَقْطيعْ قلوب الرجال
وانْ واصْلوا من حِينهم يقْطعوا ... وان عاهْدوا خانوا على كلّ حال
ومهّدت لُـــو من وسْط قلبي مكان ... وقلت لقلبي اكرمْ لمنْ حلّ فيك
وهَوّنْ عليكْ مــا يعتريكْ من هـوانْ ... فلابـد من هـــول الهـــوى يعتريك

(١) انظر فى ابن شجاع مقدمة ابن خلدون ص ١٣٥٨ وما بعدها والنبوغ المغربى ص ٣٣٥ وما بعدها .

وهو يدعو فى أول زجله إلى البعد عن الحسان الملاح لأنهن يَخُنَّ من يعاهدنه ولا يحبسن أنفسهن على من يصفيهنَّ الودَّ ، ودائما يَتِهْنَ على عشاقهن ويتمنعن ويجدن متاعا فى تقطيع قلوبهم ، وإن واصلوا لم يلبثن أن يهجرن ، ولا عهد لهن ولا أمان . ومع كل هذه النصائح يقول إن واحدة منهن صبته وملأت قلبه حبا وهياما وأوصى بها قلبه حتى لو أذاقته هوانا بعد هوان !

٣

شعراء المديح

المديح من أقدم موضوعات الشعر العربى ، وهو يحمل أمجاد الأمة على مر التاريخ ، ونراه دائما على ألسنة الشعراء فى كل قطر وعصر يتغنون بالأمجاد التى يحققها الخلفاء والحكام ، ونراه فى المغرب الأقصى منذ نشأت دولة الأدارسة ، وفيهم يقول – كما عند أبى عبيد البكرى – إبراهيم بن أيوب من نكور فى الشمال الشرقى للمغرب الأقصى على المتوسط ، ولعلها فى إدريس الثانى :

أيـا أملى الذى أَبْغِى وسُـولِى ... ودُنْيـــاىَ التى أرجـــو ودِينى
أأحْرَمُ من يمينك رِىَّ نَفْسِى ... ورزقُ الخلــق مـن تلك اليمينِ
ويُحْجَبُ عن جَبينك طَرْفُ لَحْظى ... ونـــورُ الأرض من ذاك الجبـــين
وقد جبتُ المهامــةَ من نكـــورٍ ... إليك بكل ناجيـــةٍ أمُـــونِ(١)

وابن أيوب لا يمدح فحسب ، بل يبالغ فى مديحه ، إذ يجعل نور الأرض – فى المشارق والمغارب – يستمد من جبين ممدوحه الإدريسى . ونمضى بعد الأدارسة فى عصر أمراء الطوائف ولا نجد إلا شظايا متناثرة من بعض المدائح ، ونجد ابن القابلة السبتى يمتدح قائدا ولعله من قواد المرابطين فى أول دولتهم ، ولم يبق من مدحته إلا ما أنشده ابن بسام فى الذخيرة من قوله فى بعض انتصاراته ووصفه لقتلاه(٢) :

تركتهمُ نهبَ الفلاة ووَحْشِها ... شعورهمُ شُعْثٌ وأَوْجُهُهم غُبْرُ
تظلُّ سِباعُ الطير عاكفةً بهم ... على جُثَثٍ قد سَلَّ أنفُسَها الذُّعْرُ
وقد عوَّضْتَهم من قبورٍ حَواصلا ... فيــا من رأى مَيْتا يطيرُ بــه قَبْر

وهو يقول إن أرواحهم لم تسلُّها السيوف ، وإنما سلها الذعر من الممدوح وجيشه قبل السيوف ويقــول إن الطير عاكفة على أجسادهم تأكلهم أكلا لَمًّا ، وكأنما لم يعد التراب

(١) المهامه : القفار والفلوات . ناجية : ناقة سريعة . أمون : لا تعثر ولا تفتر .
(٢) الذخيرة ٣٨١/١/٤ .

قبورهم ، بل أصبحت قبورهم حواصل الطير. ويقول الحصرى نزيل سبتة يصف بأس المرابطين وشجاعتهم :

بنو الحَرْبِ غذَّتهم لبانَ ثُديِّها ... وما استعذبوا منهن إلا العلاقما[1]
يحثُّون للهيجـــاء جُرْدًا سَلاهِبا ... ويَنْضون في البيداء بُزْلا صَلادما[2]
إذا طعنـــوا بالسمهريَّـــة خِلْتهم ... ضراغم تُغْرِى بالقلـــوب أراقمـــا[3]
وإن كرَّ منهم ذو لثـــامٍ مصمِّمٌ ... غدا لفم الهيجـــاء بالسيف لاثما[4]

والحصرى يقول عن المرابطين إنهم بنو الحرب رضعوا لبان ثديها ، مستعذبين منها العلاقم وأشدها مرارة كناية عن حسن بلائهم فى الحروب الضارية ، وإنهم ليحثون لها خيلا جردا مقدمة ويُضْنُون فى البوادى إبلا متينة صلبة ، وإنك لترى الرماح فى أيديهم يدسونها - كأنها أفاع - فى قلوب أعدائهم ، وإنك لترى الملثم منهم إذا صمم وكرَّ كأنما يريد أن يقبِّل الحرب بسيفه ، الذى يستأثر منه بكل مشاعره . وأنشد المقرى فى الجزء الرابع من أزهار الرياض للقاضى عياض السبتى مقطوعة بديعة يهنىء بها - كما نظن - على بن يوسف بن تاشفين بزفاف ولى عهده تاشفين على عروسه منشدا :

لِيَهْنِ العُلا أنْ زُفَّتِ الشمسُ للبدرِ ... وحُلِّىَ جيد المُلْك بالأنجم الزُّهْرِ
وقرَّتْ عيونُ المجدِ أيَّةَ قِرَّةٍ ... بيومٍ تعالَى أن يكونَ من الدَّهْرِ
لَدُنْ ساعةٌ أفضتْ إلى كل بغيةٍ ... كما اعتلق الغوَّاصُ بالدرَّة البِكْرِ
قرانٌ كلا السَّعْدَين فيه تلاقيا ... كما يلتقى فى المُقْلـــة الشُّفْرُ بالشُّفْرِ
لِتَجْرِ المُنَى فى حَلْبَتَيْهِ مُغِذَّةً ... فحقٌ لها فى مثل ذلك أن تجرى[5]
بِسَعْدِ أميرِ المسلمين تَطلَّعَتْ ... أساريرُه تَنْدَى بمـــائيَّة البِشـــر[6]
تمنَّـــاهُ نَجْلُ الملك حظـــا ممتَّعًا ... بعِـــزٍّ إلى عِـــزٍّ وقَـــدْرٍ إلى قَـــدْرِ

وهو يقول : لتهنأ العلا فقد زُفَّت الشمس الساطعة إلى البدر المنير ، وزُيِّن جيد الملك بالأنجم المتلألئة ، وأصبح المجد قرير العين بيوم زفاف تسامى على الدهر ، حين أتيحت لولى العهد كل أمنية ، وظفر بها ظفر الغواص بالدرة اليتيمة ، وإنه لقران تلاقى فيه سعدان كما يتلاقى فى العين الجفنان ، ولْتَجْرِ المنى فى حلبتيه وتمرح ما شاء لها المرح ، فذلك سعد أمير المسلمين ، وتلك أساريره يترقرق فيها رونق البشر ، وهو كل ما كان يتمناه نجله حظا سعيدا هانئا بعزٍّ

---

(١) العلاقم : جمع علقم : شديد المرارة .
(٢) جردا : قوية . سلاهب : طويلة . ينضون : يهزلون . بزلا : إبلا ناضجة متينة . صلادم : صلبة .
(٣) السمهرية جمع سمهرى : الرمح . ضراغم : أسد . أراقم : جمع أرقم : أخبث الحيات والأفاعى .
(٤) ذو لثام : كان المرابطون يضعون لثاما على وجوههم ، ولذلك سموا الملثمين . لاثما : مقبِّلا .
(٥) مغذة من أغذ السير إذا أسرع فيه .
(٦) أسارير الوجه : محاسنه . مائية : رونق .

إلى عز وتجلة إلى تجلة . وترمز هذه المقطوعة إلى ما أصاب الشعر المغربي من نهضة منذ عصر المرابطين ، وسنترجم لابن زنباع أحد شعرائه . ونمضى إلى عصر الموحدين ونلتقى بابن حبوس شاعر عبد المؤمن والجراوى شاعر يوسف بن عبد المؤمن وابنه يعقوب المنصور وحفيده الناصر ، وسنفرد لكل منهما ترجمة . وكان عبد المؤمن قد استوزر أبا جعفر بن عطية واستكتبه ، ثم جرت له محنة معه فزجّ به فى سجون السجون وقتله ، وأرسل إليه ، وهو سجين يستعطفه ، أبياتا شعرية افتتحها بقوله[1] :

عطفا علينا أميـــرَ المؤمنين فقد	بان العـــزاءُ لفرط البثِّ والحَزَنِ
قد صادفَتْنا سهامٌ كلها غرضٌ	ورحمـــــةٌ منكمُ أوْقَى من الجُنَنِ[2]
مَنْ جـــاء عندكُمْ يَسْعَى على ثقةٍ	بنصره لم يخفْ بَطْشًا من الزَّمَنِ
أنتم بذلتـــم حيـــاةَ الخلق كلِّهمِ	من دون مَنٍّ عليهم لا ولا ثَمَنِ
ونحن من بعض مَنْ أحيتْ مكارمُكم	كلتا الحيـــاتين من نَفْسٍ ومن بـــدنِ
وصبيةٍ كفراخ الوُرْقِ من صغَرٍ	لم يألفوا النَّوْحَ فى فَرْعٍ ولا فَنَنِ[3]
قد أوجدتْهم أيـــادٍ منك سابغـــةٌ	والكلُّ لـــولاك لـــم يوجد ولم يكُنِ

وهى أبيات تلين القلوب القاسية وتملؤها رحمة وبرا وإشفاقا ، ولكن قلب عبد المؤمن لم يلن له ولا أخذته فيه رأفة ولا رحمة ، وظل غاضبًا عليه حتى أذاقه حتفه . وكان ابنه يوسف محبوبا من شعبه وكان عالما واسع المعرفة وقرَّب المتفلسفة والشعراء منه ، ولأبى حفص عمر السلمى مدحة طويلة فيه أنشدها المقرى فى أزهار الرياض استهلها بقوله[4] :

اللّهُ حسبُك والسبعُ الحواميمُ	تغزو بها سبعةً وَهْى الأقاليمُ
سبعُ المثانى التى لله نمتَ بها	عليك من سِرِّها نَصْرٌ وتقديمُ
وأنت بالسُّوَرِ السبع الطوال على	كل الـــوَرَى حاكمٌ بالله محكـــوم

ولعل يوسف كان أمضى من حكمه سبع سنوات ، فخال الله يرعاه والسور الحواميم السبع كأنما يغزو بها العالم وأقاليمه السبعة كما كان يظن الجغرافيون حينئذ ، والسبع المثانى وهى سورة الفاتحة التى لا يزال يقوم بها مصليا لربه وداعيا تحفظه وتكفل له النصر والتأييد . وتؤكد السور السبع الطوال : البقرة ، وتالياتها حتى التوبة أنك محكوم وحاكم بكتاب الله وما جاء فيه من الإخاء بين المسلمين والمساواة والعدل الذى لا تصلح حياة الشعوب بدونه . ومضى عمر السلمى فى قصيدته يسترسل فى بيان تعمق يوسف فى العلم وتدفق الخير على رعيته من يده ، ويقول مبالغا إن الشرق والغرب والبحر والبر من سهل وجبل يدين له ، ويشيد بعلمه وكرمه

---

(١) النبوغ المغربى ٢/١٦٦ .
(٢) الجنن جمع جنة : الوقاية .
(٣) الورق : الحمام . فنن : غصن .
(٤) أزهار الرياض ٢/٣٦٢ .

وإقدامه فى الحرب وشدته على العصاة ، ويختم القصيدة بمبالغات طالبا إلى سامعيه أن يجثوا على الركب إعظاما ليوسف . وبحق يمجِّد انتصار يعقوب بن يوسف فى موقعة الأرَك التى سحق فيها نصارى الإسبان ومزق جموعهم تمزيقا ، وكان حريا بابن سعيد أن ينشد القصيدة كاملة فى كتابه الغصون اليانعة ، ومما أنشده قوله ليعقوب[1] :

أطاعتْك الذَّوابـــل والشِّفــارُ ... ولبىَّ أمــرَك الفلكُ المــدارُ[2]
بِبشرى مثل ما ابتهجتْ رياضٌ ... وسَعْدٍ مثلمـــا وضح النهـــارُ
وفتحٍ مثلما انفتحتْ كِمامٌ ... وشُقَّت عن صدور مَهًا صِدارُ[3]
وآمـــالٍ كما مُدَّتْ ظـــلالٌ ... وأفعـــالٍ كما مدَّتْ بِحـــارُ
وأعــلامٍ بنصـرك خافقــاتٍ ... لهـا فى كل جـــوٍّ مستطـارُ
ليَهْنِىءْ أرضَ أندلسٍ بـــدورٌ ... من السـرَّاء ليس لهـا سِرارُ[4]

وهو نصر عظيم فى الأرك طوَّق يعقوب بمجد وفخر لا يماثلهما فخر ومجد . وكانت دولة الموحدين دولة ظاهرية كما مر بنا فى الفصل الثانى ، وكانوا يدعون إلى المذهب الظاهرى وإلى نبذ كتب الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية ، ويسمونها كتب الفروع . ولا نصل إلى عصر يعقوب حتى تبلغ هذه الثورة على كتب المذاهب الأربعة الكبرى غايتها فيأمر بإحراقها بعد أن يجرِّد ما فيها من آى القرآن والأحاديث النبوية وأن يُحمَل الناس على الظاهر من الذكر الحكيم والحديث الشريف ، وينوه بذلك غير شاعر فى مديحه ، من ذلك قول قاضى قضاته أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن مروان كما جاء فى الغصون اليانعة لابن سعيد[5] :

نُصِرْتُمْ لأن الحق آن ظهورُه ... وناصِرُه فى الله ما كان يُخْذَلُ
قطعتم فروعًا قد أضرَّتْ بأصلها ... ألا هكذا من كان بالعدل يَشْمَلُ

والأصل الذى يقصده هو القرآن والحديث النبوى الذى يأخذ بهما الظاهرية . ويقول ابن سعيد فى الغصون اليانعة إن لابن الياسمين قصيدة منصورية يذكر فيها قَطْع المنصور الاشتغال بكتب الفروع أى كتب المذاهب الفقهية الأربعة الكبرى والاقتصار على ما ثبت من الأحاديث النبوية ؛ وينشد منها قوله[6] :

أسيِّدَنا قد وردتـمْ بنـــا ... مـــواردَ كنا عليهـــا نحـومْ
نبذتـم مقـالةَ هـذا وذا ... فزال المِراء وقلَّ الخصـــومْ

(١) الغصون اليانعة فى محاسن شعراء المائة السابعة ص٩٦ .
(٢) الذوابل والشفار : الرماح والسيوف .
(٣) الصدار : ما تلبسه المرأة على صدرها .
(٤) السرار : آخر ليلة فى الشهر يريد أنها بدور منيرة من المسرة والرخاء لا يعقبها أى ظلام .
(٥) الغصون اليانعة ص ٣٠ .
(٦) الغصون اليانعة ص ٤٧ .

وأثبتمْ قــــولَ مَنْ لفظُه هو الشَّرْعُ والحق منه يقومْ
فلازلتمْ لكمــــال الهُـــدَى وإحياء دارسِ درسِ العلــومْ

وهو يشير إلى ما كان قد أمر به يعقوب الفقهاء فى أيامه من جمع الأحاديث الصحيحة من مصنفات عشرة ، هى كتب الصحاح ماعدا ابن ماجة والموطأ وسنن البزار ومسند ابن أبى شيبة وسنن الدارقطنى وسنن البيهقى ، فجمعوها له فكان يمليها بنفسه على الطلبة ويجعل لمن حفظها مكافأة سنية .

ونمضى إلى عصر المرينيين وأول شاعر كبير نلتقى به فى عهدهم مالك بن المرحَّل ، وهو شاعر أهم سلاطينها فى أوائل عهدها يعقوب بن عبد الحق (٦٥٧ هـ/١٢٥٩ م – ٦٨٥ هـ/١٢٨٧ م) وله يهنئه بافتتاحه مدينة مراكش[1] سنة ٦٦٨ هـ/١٢٧٠ م :

فَتْحٌ تبسَّمتِ الأكــــوانُ عنه فما رأيتَ أملحَ منــــه مَبْسِمًا وفَمَــا
فَتْحٌ كما فتـــح البستــانُ زهــرتَهُ ورجَّـــع الطيرُ فى أفنـــانه نَغَمَا
فَتْحٌ كما انشقَّ صُبْحٌ فى قميصِ دُجىً وطَـــرَّف البَرْقُ فى أردانــــه علما
أضحتْ له جَنَّةُ الرِّضوان قد فُتحتْ أبوابُهـــا وفـــؤادُ الدِّينِ قَدْ نَعِما
الحمدُ للهِ هــذا مــا وُعِدْتَ بهِ يا خيرَ مَنْ وَلِىَ الدُّنيا ومَنْ حَكَما
لن يُخْلف اللّهُ وَعْدًا كان واعَدَهُ فاشكرْ يضاعفْ لك الحظَّ الذى قُسِمَا
سبحـــانَ مَنْ بجميع الفضــــل أفــردَهُ ومَنْ حَبَـا ه السَّجــايا الغُــرَّ والشِّيَمَا

وهو يمجد فتح يعقوب المرينى لمراكش مدينة المغرب الأقصى الكبرى أعظم تمجيد ، فقد ابتسمت لفتحه الأكوان ، كما يتفتح البستان المونق عن زهراته ، والطير تصدح مبتهجة على أغصانه وكأنما فُتحت له أبواب الفردوس ، ونعم فؤاد الدِّين بهذا النعيم العظيم . والشاعر يحمد الله أن تحقق ليعقوب كل مأموله من ربه ، مما لا يسعه معه إلا مضاعفة الشكر ، والله جلَّ فى علاه جدير بكل حمد إذ أفرده بكل فضل وحباه بكل سجية وشيمة شريفة . ويعقوب من سلاطين المسلمين الذين يستحقون هذا الثناء لا بفتحه مراكش ، ولكن لأنه رصد نفسه وجيشه المغربى لجهاد نصارى الإسبان ، وقد جاز لهم بجيشه الزقاق أربع مرات : سنة أربع وستين وسبع وسبعين وإحدى وثمانين وأربع وثمانين قبل وفاته بعام واحد ، وفى كل مرة كان يسحقهم سحقا ، وبذلك أعز الإسلام والمسلمين فى غرناطة والعُدْوة الأندلسية ، وكان كل ما يغنمه يقدِّمه لسلاطينها من بنى الأحمر بنفس راضية . وكان يسمى بالسلطان المجاهد والملك العابد لربه . وللقاضى أبى عبد الله القَشْتالى يستمنح[2] أبا عنان (٧٤٩ – ٧٥٩ هـ) :

(١) انظر النبوغ المغربى ٢١٢/٣ .
(٢) النبوغ المغربى ٢٢٠/٣

أيا إمامًا ندى كفَّيه قد وَكَفَا ... حَسْبى اعتصامى بحبلٍ منكمُ وكَفَى
وكيف أصرفُ وَجْه القَصْد عن ملكٍ ... ما صدَّ عنى سَنَا بِشْرٍ ولا صَرَفا
ما إن شكوتُ بما أضْنَى تطلُّبهُ ... إلا وجـدت بـه لى من ضَنَـاىَ شِفا
ولا وقفتُ عليــه منتهـى أملى ... إلا قضى وطــرا منــه ومـا وقفا[1]
فى كل يــومٍ له تجديدُ عارفةٍ ... مهمـا انقضتْ هذه لهذه ائتَنفا[2]
وليس ممـن يــرى أن لا يُتِيح يَـدًا ... حتى يقـام لــه بشكرٍ مـا سلفا

وهو يقول لأبى عنان إن ندى كفيك قد سال وفاض على جميع الناس ، وحسبى أننى أعتصم منك بعهد ومودة باقية ، ولن أنصرف عن قصدك وكيف أنصرف وأنت دائما تلقانى ببشر وترحاب وما شكوت ضنا إلا شفيتنى منه ، ولا أملت فيك أملا إلا حققت لى شطرا منه ، وفى كل يوم يتجدد منك عارفة وإحسان وما ينقضى إحسان حتى تستأنف إحسانا آخر ، وإنك لتقدم أفضالك غير منتظر على فضل شكرا .وسنفرد لأحمد بن عبد المنان شاعر أبى عنان ترجمة . ولمحمد بن أحمد الشَّبُوكى يمدح أبا فارس المرينى قائلا[3] :

هو الإمامُ الذى من أمَّ ساحتَه ... جادتْ عليهـا بجدواها أناملهُ[4]
ومَنْ تخلَّف جهلاً عن إجابتِه ... سارتْ إليـه على علـمٍ صَواهلهُ[5]
قل للذى عنه أقصتْه جرائمُه ... وعقَّلته عن العَلْيــا معــاقلُه[6]
زُرْ حضرةَ الملك الميمون طالعُه ... تحظى بما أنت فى دُنْياك آملُهُ
فطبْعه الصَّفْح والمعـروف شيمتُه ... والحلم والصَّوْن والتقوى شمائلُه

فهو الإمام الذى يغمر من يقصده بعطاياه ، والجاهل هو الذى يتخلف عن إجابته فتغزوه خيوله وجيوشه ، وما أحرى من أبعدته عنه جرائمه وحبسته عن العلياء من الصلة به معاقله أن تبتسم له الدنيا وتتحقق له آماله إذ طبعه الصفح والغفران وشيمته زَرْعُ المعروف والحلم والصيانة والتقوى ومخافة الله .

وإذا انتقلنا إلى عصر السعديين التقينا بمعركة كبرى بينهم وبين البرتغاليين فى وادى المخازن بقرب مدينة القصر الكبير سنة ٩٨٦ هـ/١٥٧٨ م وكان يقود جيش البرتغاليين ملكهم سباستيان وكان السلطان عبد الملك السعدى مريضا وحضر المعركة أخوه أحمد ، ومن قائل كان الجيش البرتغالى ثمانين ألفا ومن قائل كان مائة ألف ، أُسِر أكثرهم ، وقتل ملكهم فى المعركة وتوفى السلطان عبدالملك وتولى أخوه أحمد الملقب بالمنصور الذهبى.

---

(١) وطرا : مأربا .
(٢) عارفة : مكرمة . ائتنف : استأنف .
(٣) النبوغ المغربى ٣/٢٢١ .
(٤) أم : قصد . جدواها : عطاياها .
(٥) صواهله : خيله .
(٦) عقلته : حبسته .

وللشعراء فى هذه المعركة والإشادة بطولة المنصور فيها قصائد كثيرة ، منها قصيدة داود بن عبد المنعم الدُّغوغى ، وفيها يقول[1] :

جَنَا النَّصْرِ ما بين الظُّبا والكنائنِ ... على سابقات المذكيات الصَّوَافنِ[2]
وماذا يفيد الجيش إن كان ربُّه ... كسِبِيَسْطِيانَ عند وادى المخـازنِ
يُسَرِّبُ نحو المَغْرِبَيْن جنودَهُ ... كمثل الدَّبا عن ماخرات السفائن[3]
وخيَّم فى تلك الجهات وعَيْنُهُ ... لمرَّاكُشَ الحمراءِ لا لتطاونِ
وشَبَّتْ لظى الهَيْجاء ليسَ وقودُها ... سوى أنْفُسِ الشجعان وسْطَ الميادنِ
وذلك يومٌ مثل بَدْرٍ وصِنْوِه ... حُنَيْنٍ بأيدى المؤمنين الميامن
لقد ذاق فيه البُرْدُقِيزُ من الرَّدَى ... جـزاءَ مناحيس خَزايا ملاعن[4]

وهو يقول إن ثمار النصر دائما تجلبها السيوف وكنائن السهام على سابقات الخيل الفتية القارحة ، ولكن ماذا يفيد الجيش إن كان قائده مثل سباستيان عند وادى المخازن ، وقد ظل يدفع بجنود مثل الدبا أو الجراد من السفن ماخرات المحيط ، وخيَّم فى تلك الجهات وعينه على المدينة الكبرى مراكش لا على تطوان أوغيرها . وشبت المعركة وقودها البرتغاليون وإنه ليوم نصر عظيم للمسلمين كيوم بدر وصنوه يوم حنين ، وذاق البرتغاليون فيه من الموت أصنافا عقابا وتنكيلا لمناحيس مستخزين . ومعركة ثانية كبرى خاضتها جيوش المنصور الذهبى لكن لا فى الشمال، وإنما فى الجنوب ببلاد السودان ، فقد أمر سنة تسعمائة وثمان وتسعين بتجهيز جيش لغزو بلاد السودان ، ففتحها واستولى على إقليم توات فى الجنوب الشرقى للمغرب وإقليم تيجوورارين شمالى إقليم توات، وغير ذلك من البلاد ، وتوغل فى السودان وألقى فى حجره بذهب كثير أثرت به الدولة، وفى هذا الفتح يقول الشيظمى[5] أحد قواد المنصور :

سهمٌ من الغرب قد أَصْمَى الأساودَ إذ ... صَمُّوا وهم حيث بحرُ النيل موروُد[6]
وحين صَمُّوا عن الإنـذار أسمعهم ... صواعقًا بنداها المـوتُ معقـودُ
تـراه ينفث من أفواههـا بَرُدًا ... ينقضّ حيث فـؤاد القِرْنِ مرصودُ[7]
مدافـعٌ أبطلتْ للسـود حِكْمَتَها ... فلم يُفِد معهـا نَفْثٌ وتعقيـد[8]
ومـا استقاموا إلى أن جُرِّدَتْ لهـمُ ... بيضٌ وأشْرِعتِ السُّمْرُ الأمـاليد[9]

(1) النبوغ المغربى ٤٣/٣ .
(2) جنا : ثمرة . الظبا : السيوف . الكنائن جمع كنانة : وعاء السهام . المذكيات : الخيل القارحة . الصوافن جمع صافن : يريد المتأهبة للحرب .
(3) الدبا : الجراد . مخرت السفينة : شقت الماء .
(4) البردقيز : البرتغاليون .
(5) الوافى بالأدب العربى لابن تاويت الطنجى ٦٧٨/٣.
(6) أصمى : أصاب إصابة قاتلة . صموا : لم يسمعوا .
(7) بردا : يريد الشاعر بارودا .
(8) النفث والتعقيد يراد بهما تعاويذ السحر .
(9) بيض : سيوف . سمر أماليد : رماح لينة فاتكة .

والشيظمي يتصور كأن سهما انصبَّ من المغرب فقضى على السودانيين إذ أصابهم – وهم حاشدون على نهر النيل – ما يشبه الصمم ، فلم يسمعوا إنذار المدافع المدوى وما تنفث من أفواهها من قذائف قاتلة ، مدافع أبطلت للسود حكمتهم فلم ينفعهم نفث ولا تعويذات ، وسرعان ما قوَّمتهم السيوف والرماح واستلموا خانعين . وشعراء المنصور كثيرون وسنترجم لشاعريه الهوزالى وأحمد بن القاضى .

واستولى المنصور على مدينة أصيلا من أيدى البرتغاليين ، وهنأه بذلك الشعراء ، ويتوفى ويتنازع أولاده بعده على الحكم ، ويتنازل أحدهم – وهو المأمون – عن مدينة العرائش ، للإسبان وأسسوا لهم بالقرب منها مدينة المهدية . واستولوا على سبتة وطنجة من أيدى البرتغاليين كما استولوا على الجديدة وأزمور ، وتعلق أمل الناس بالمتصوفة فى مقاومة البرتغاليين والإسبان ، وانتعشت الزاوية الدلائية فى تادلة إلى أن دمَّرها السلطان العلوى الرشيد سنة ١٠٧٩ هـ/١٦٦٩ م ونقل شيوخها وفى مقدمتهم شاعرها الكبير اليوسى إلى فاس . وأهم من هذه الزاوية وشيوخها فى مقاومة الإسبان الشيخ الصوفى أبو عبد الله محمد العياشى الذى تصدَّى – ومعه جماعات الفدائيين المجاهدين – للإسبان ، فخلص منهم مدن العرائش وأزمور والجديدة وتوفى سنة ١٠٥١ هـ/١٦٤٢ م واستولى الخضر غيلان أحد رجاله – فيما بعد – على مدينة القصر الكبير . وفى العياشى يقول أبو عبد الله محمد بن أحمد المكلاتى مصورا محبة الشعب له لجهاد أعدائه وأعداء الدين الحنيف[1] :

حديثُ العلا عنكم يسيرُ بهِ الرَّكْبُ ... وينقله فى صُحْفِهِ الشَّرْقُ والغَرْبُ
وحُبُّكُمُ فَرضٌ على كلِّ مسلمٍ ... تُنـــال بـــهِ الزُّلْفَى من الله والقُرْبُ
وأنت رفيعٌ من أصــولٍ رفيعةٍ ... نجومُ الدياجى فى الأنام لها سِرْبُ[2]
سميُّ رســـولِ اللّهِ نـاصــرُ دينــهِ ... تجلَّى بكـم عن أفْقهِ الشكُّ والرَّيْبُ

وكما تغنى الشعراء طويلا فى العهد السعدى بانتصارات المنصور الذهبى كذلك تغنوا فى العصر العلوى بانتصارات السلطان إسماعيل العلوى (١٠٨٤هـ/١٦٧٢م – ١١٣٩ هـ/١٧٢٧ م) فقد استرد المهدية من الإسبان سنة ١٠٩١هـ/١٦٨١م وطنجة من الإنجليز سنة ١٠٩٥هـ/١٦٨٤م والعرائش من الإسبان سنة ١١١١هـ/١٦٩٩م وأصيلا سنة ١١١٢هـ/١٧٠٠م . وكان لاسترداد العرائش فرحة كبيرة فى قلوب الشعب إذ كانوا من شدة الحزن والأسى لاستيلاء الإسبان عليها أن لبسوا الأحذية السود ، ولم يخلعوها من أرجلهم إلى أن استردها السلطان إسماعيل فلبسوا الأحذية الصفر . واتُّخذت مدينة العرائش وما تم من استعادتها على يد السلطان إسماعيل محورا

(١) الوافى لابن تاويت ٧٢٩/٣ .
(٢) سرب : جماعة .

تدور من حوله مدائحه وتهنئاته ، من ذلك تهنئة لمفتي فاس عبد الواحد البوعناني وسنخصه بكلمة . واستثاره عبد السلام جسوس إسماعيل حتى يسترد سبتة من يد الإسبان كما استرد العرائش ، يقول[1] :

رفعتْ منــازلُ سَبْتةٍ أقوالها   تشكو إليكم بالذى قد هالها
فلقد قضيتم للعرائش حاجــةً   مع طَنْجةٍ فاقضوا لذى آمالها
إن لم تكونوا آخذين بثارها   من ذا يفكُّ من الوَثاق حِبالها
فابعَثْ لها أهلَ الشجاعة عاجلا   حتى تراهم نازلـين حِيالهـــا

وليوسف بن محمد الشوذرى أرجوزة صور فيها معركة العرائش مشيدا فيها ببطولات المجاهدين ، ومن قوله فى وصف الخطة الحربية[2] :

قد حلَّ نصفُ الجيشِ أرضَ الساحلِ   مقــابل المَرْسَى لمنــع الداخــلِ
ونصفُــه حــلَّ على سُورِ البلادْ   طوَّقها بأسْرِها طــوقَ القِلادْ
لمـــا رأى الكفَّـــارُ ما أذهلهم   وشدَّة الأمـــرِ العظيـــم هالهـــم
وكان بالمَــرْسَى مراكبٌ لهـــم   موثوقــة دارتْ بهـــا حبالهم
ارْتقبـــوا الليل وقد جــنَّ الظـــلام   واختلسوا فى زورقٍ مثــل السهـــام

وهو يقول إنهم فرُّوا ليلةً خلسة فى زوارق حملتهم فى الظلام الدامس المعتم إلى سفنهم ، فطاروا بها إلى المحيط فارين من وجه الموت المرعب المخيف . وحرى بنا أن نترجم لمن وعدنا بالترجمة لهم .

ابن[3] زنباع

من أهل طنجة كما يقول القلقشندى ، اختلف إلى الكتاب حتى حفظ القرآن ، ثم شغف بحلقات العلماء حتى أتقن العلوم الدينية والعربية وعلومها البيانية واللغوية ، وترجم له الفتح بن خاقان فى القلائد ، ومن قوله فى التعريف به : « حوى العلوم وحازها ، وتحقق حقائق العرب ومجازها ، وروى قصائدها وأرجازها » وأضاف أنه عالم بالطب « موفق العلاج ، واضح المنهاج » . وقد يفهم من ذلك أنه توسع فى الاطلاع على علوم الأوائل واختار منها الطب فتعمقه كما تعمق الفقه والدراسات الدينية مما جعل دولة المرابطين تختاره قاضيا بطنجة كما اختارت

(1) الوافى ٣/٨٤١ .
(2) الوافى ٣/٨٤٥ .
(3) انظر فى ترجمة ابن زنباع وشعره القلائد (طبع تونس) ص ٢٥٩ وصبح الأعشى والوافى للأستاذ ابن تاويت ٣١/١ وما بعدها والنبوغ المغربى للأستاذ عبد الله كنون ١٠١/١ والتعريف بالقاضى عياض لابنه محمد ، تحقيق د . بنشريفة (طبع الرباط) .

صديقه عياضا قاضيا فى سبتة . ويحكى ابن القاضى عياض فى كتابه الذى قصره على التعريف بأبيه أن أبا الحسن بن زنباع كان بينه وبين أبيه فى الشبيبة إخاء كبير ، وفى الكبر وقع بينهما تقاطع إذ بلغ عياضا عنه كلام ساءه ، فعاتبه واعترف ابن زنباع بالفضل له . وفى ذلك ما يدل - من بعض الوجوه - على حسن خلقه . وربما نقله المرابطون قاضيا فى بعض المدن الأندلسية مما جعله يقترب من المعارك التى سجل فيها قوادهم انتصارات ضخمة على نصارى الإسبان ، ومن قوادهم العظام : سير بن أبى بكر وابن عائشة أخو أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين وأخوه تميم ومحمد بن الحاج وابن فاطمة أبو محمد عبد الله ومزدلى ، ولكل منهم جهاد وفتوحات عظيمة ، ويقول ابن زنباع ممجدا بطلا من هؤلاء الأبطال لدولة المرابطين منوِّها بفتح تمَّ على يده :

لذا تُصان السيوفُ فى الخِلَلِ	ويفخر الخَطُّ بالقَنا الذُّبُلِ[1]
وتُكْرَمُ الخيل فى مرَابضها	بِرَّ الفتاة العَروب بالرجلِ[2]
ويُقْطَفُ النَّبْعُ كالحواجب أو	أَحْنَى وتُمْهَى السهامُ كالمقل[3]
ويؤثر الشِّرَّةَ الكمىُّ إذا	خُيِّر بين الدروع والحُلَلِ[4]
فَتْحٌ به أثأرتَ البلاد كما	أشرفت المُقْرِباتُ بالنَّهَلِ[5]
هُدَّت له الروم هَدَّة مَلأتْ	قلوبَ أبطالهم من الوَجَلِ[6]
فما أطاقوا الولوجَ فى نفقٍ	وما أطاقوا الصعود فى جبل[7]
كأنهم والرماحُ تحفزهم	جَزْىُ فصالٍ سلكنَ فى الوَحَلِ[8]

وهو يقول لمثل هذا النصر تصان السيوف فى أغمدتها ، ويفخر الخط برماحه الفاتكة ، وتكرم الخيل فى مرابطها ، بر الفتاة الكريمة بالرجل المحتاج لمعروفها وبرها ، وتُقْطف أعواد شجر النبع اللينة حتى تصبح قِسِيًّا كأقواس الحواجب ، وترقق السهام وتسدد إلى صدور الأعداء كما تسدد سهام الأعين الفاتنة إلى القلوب ، ولمثل هذا النصر يؤثر الشجاع حميَّة الحرب وهولها إذا خُيِّر بين الدرع والحلة الفاخرة ، فإن الدرع فى نظره أكثر نفاسة ، وإنه لفتح مبين أدركتَ

(١) الخلل جمع خلة : غمد السيف . الخط : أرض كانت تنسب إليها الرماح الخطية . القنا : الرماح . الذبل : الحادة .

(٢) مرابضها : أماكن مقامها . العروب : الجميلة الأصيلة .

(٣) النبع : شجر تقطف غصون منه لينة كالحواجب. تمهى: ترقق منها السهام وتسدد.

(٤) الشرة : شدة الحرب وشدة القتال . الكمى : الشجاع .

(٥) أثأرت البلاد : أدركت لها ثأرها . المقربات : الخيل العطشى طوال ليلةٍ . النهل : الشرب الأول .

(٦) الوجل : الفزع .

(٧) الولوج : الدخول .

(٨) فصال جمع فصيل : ولد الناقة أو البقرة .

به للبلاد ثأرها من أعدائها ، وإنها لتستشرف به فتوحا متوالية كما تستشرف الخيل الكريمة التي ظلت تعدو ليلة طويلة ظامئة إلى الماء أنها ستنهل منه إذ تراه فجأة أمامها ، ولقد سُحِق الروم سحقا ملأ قلوب أبطالهم بالوجل والفزع فما استطاعوا الدخول في نفق ولا الصعود في جبل حتى لكأنهم فصال أو أولاد نوق يسيرون في وحل ، ولا يستطيعون السير ، بل يتعثرون ويقعون بالعشرات في شباك الأسر . وبطولة ثانية صورها لمعركة أخرى من معارك المرابطين ، وفيها يقول :

سَلِ الحرب عنهم والسيوفُ جداولٌ ... تدفَّق والأرماح رُقْطٌ تَنَضْنَضُ[1]
وبالأرض – من وقع الجياد – تمدُّدٌ ... ولكنه – فيما تروم – تَقَبُّضُ
وبالأفق للنَّقْع المثار سحائبٌ ... مَوَاخِضُ لكنْ بالصواعق تَمْخَضُ[2]
وقد سَهِكَتْ تحت الحديد من الصَّدَا ... جسومٌ بما عُلَّتْ من المسك تُرْحَضُ[3]
وأشرفتِ البيضُ الرِّقاقُ على الطُّلَى ... لتكرع فيها والرءوسُ تخفَّضُ[4]
فلستَ ترى إلا دماءً مراقةً ... تخاض إلى أكباد قوم تَخَضْخَضُ[5]

وابن زنباع يقول سل الحرب عن شجاعة المرابطين وبأسهم ، والسيوف في أيديهم كأنها جداول تتدفق بالدماء ، والرماح تلوكها وتستحيل رقطا ملطخة بها ، والأرض تحت حوافر خيلهم كأنها تتمدد ، وهي في الواقع تُطْوَى طيا ، وبالأفق للغبار المثار سحائب حوامل صواعق مهلكة من الأسلحة والعتاد الحربي وقد تغيرت أجسام الأبطال تحت الحديد من الصدأ بما تُغْسل به من المسك مرارا ، وفي أيديهم السيوف وقد سلت على أعناق الأعداء كأنما تريد أن ترتوى منها بينما تهوى الرءوس إلى الحضيض ، فلست ترى إلا أنهارا من الدماء تُقْتَحَمُ إلى أكباد الأعداء .

وكان حريا بالفتح بن خاقان صاحب قلائد العقيان أن يضيف في ترجمة ابن زنباع إلى هاتين البطولتين للمرابطين ما وصفه من بطولات أخرى لهم في الأندلس ، وعلى الأقل كان ينبغي أن يورد قصيدتي البطولتين اللتين ذكرهما كاملتين وأن يذكر القائدين اللذين يمدحهما ابن زنباع بقصيدتيه وموقعتيهما الحربيتين ، وسنلتقي بابن زنباع في عرضنا لأشعار الغزل والطبيعة لتتضح شخصيته الشعرية .

---

(١) رقط : جمع أرقط : ما كان بلونه بقع مثل النمر . تضنض : تلوك .
(٢) النقع : غبار الحرب . مواخض : حوامل . تمخض : تحمل .
(٣) سهك الشيء : تغيرت رائحته . علت : الشرب الثاني بعد النهل . ترحض : تغسل .
(٤) البيض الرقاق : السيوف . الطلى : الأعناق . كرع : شرب .
(٥) مراقة : سائلة . تخاض : تقتحم . تخضخض : تخوض في أكبادهم

ابن[1] حبُّوس

هو أبو عبد الله محمد بن حسين بن عبد الله بن حبُّوس ، ولد بفاس سنة ٥٠٠ هـ/ ١١٠٧م وبها منشؤه ومرباه في الكتاتيب وحلقات العلماء ومجالس الأدباء ، حتى أصبح متفننا فى الكلام واللغة والبيان ، وتفتحت شاعريته مبكرة فى صباه ، ورحل إلى تلمسان وظل بها فترة ، وعاد إلى مراكش فى عهد المرابطين وأصبح فى طليعة شعرائهم ، وندَّتْ منه تُرَّهات جعلته يبرح مراكش إلى الأندلس ويظل بها إلى أن علا نجم عبد المؤمن مؤسس دولة الموحدين واستولى على مراكش سنة ٥٤١ هـ/١١٤٦ م فعاد إليها واستوطنها ، ولزم الدروس التى كان يلقيها عبد المؤمن على طلابه وأتباعه ، وألقى بين يديه قصيدة أنشدها صاحب نظم الجمان لعلها أولى مدائحه له ، وفيها يقول :

بخليفة المهـــدىُّ سيِّدنا اغتدى ... نَهْجُ العلـــوم ممهَّدًا ومـذلَّلا
وافيتُ حضرتَه المقـدَّس تُرْبُها ... فإذا الذى أبصــرتُ لن يُتَخيَّلا
وسمعتُ كلَّ مذاهـــب الحـــق التى ... مـا إنْ تَرَى عـن مُقْتَضاهـا مَعْـدِلا
وبَصُرْتُ بالطوسىِّ يَفْهَقُ حولـــه ... وأبى المعـــالى مُجْمِلا ومفصِّلا
فالحـــقْ بحضرته السنيَّة واستمعْ ... للقول واحذر – وَيْكَ – أن تتقوَّلا
فيها كمالُ الديـن والدنيـــا مَعـًا ... وسعـــادةُ الأرواح فـى أن تكمـــلا

وهو يقول إن نهج العلوم أصبح ممهدا ومذللا بفضل عبد المؤمن خليفة المهدى ، ويصف حضرته بأن ترابها مقدس ، وأن ما رآه بها من علم عبد المؤمن أوسع من أن يحيط به خيال ، ويقول إنه سمع منه كل مذاهب الحق من دعوة الموحدين التى لا يجوز العدول عن مذاهبها ومبادئها ، وكأنما بصر بالغزالى الطوسى وبيانه الغزير الرائع وبأبى المعالى الجوينى إمام الحرمين وفكره الثاقب ، فالحقْ به وبحضرته ودعوته التى تحقق لك كمال الدين والدنيا معًا .

وبذلك لم يكن مادحا لعبد المؤمن فحسب ، بل كان أيضا داعية لمبادىء الموحدين ودعوتهم ، فهو شاعره ، وهو داعيته ، وكان عبد المؤمن يشغف بشعره ، فلزمه فى حركاته وسكناته ، وإن سار كان فى ركابه ، على نحو ما نراه معه فى فتحه لبجاية سنة ٥٤٧ هـ/١١٥٢ م وله فى حصار عبد المؤمن لها جيمية يقول فى مطلعها مخاطبا حاكمها الحمادى يحيى بن العزيز :

---

(١) انظر فى ترجمة ابن حبوس وأشعاره الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى ٢٩٣/١/٨ ، وزاد المسافر لصفوان ونظم الجمان لابن القطان تحقيق د . محمود مكى (طبع بيروت) ص ١٧٤ والمعجب للمراكشى (طبع القاهرة) ص ٢٨٢ والتكملة لابن الأبار (طبعة كوديرا) رقم ١٠٥٥ والمطرب لابن دحية ص١٩٩ والمنّ بالإمامة لابن صاحب الصلاة (طبع بيروت) ص٧١ والوافى بالأدب العربى فى المغرب الأقصى للأستاذ ابن تاويت ٩١/١ – ١١٥ والنبوغ المغربى للأستاذ كنون ١٧٦/١ ، ٢٣/٣ ، ١٩٦ .

شُدَّتْ إليك على الرِّياحِ سروجُ أين الفـــرارُ بأهلكـم ياجوجُ

ثم اتجه بالخطاب إلى عبد المؤمن فقال :

عصفتْ بدعوتك الرياح الهوجُ وسَطا بأمرك ذابلٌ ووشيجُ[1]
وتقدّمتْك إلى العـــدوِّ مهابةٌ يَشْقَى بها فى سَدِّه ماجـوج

وهو يشير بياجوج وماجوج إلى ما جاء فى سورة الكهف عن يأجوج ومأجوج وأنهما مفسدون فى الأرض وأن قومهم لجئو إلى ذى القرنين ليرفع عنهم فسادهم ، يقول جلَّ شأنه : ﴿قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لك خَرْجا على أن تجعل بيننا وبينهم سَدًّا﴾ وكأن إفسادا كبيرا حَلَّ ببجاية جعل أهلها يستغيثون بعبد المؤمن ليرفع عنهم هذا الإفساد الذميم ، ويسمى الشاعر يحيى بن العزيز تارة باسم يأجوج وتارة باسم مأجوج . ويفتح عبد المؤمن بجاية ، ويعود إلى عاصمته مراكش ، ويستقبل فى شهر شوال سنة ٥٥٢ مصحف عثمان الذى أمر بنقله من قرطبة إلى مراكش ، ويمتدحه ابن حَبُّوس بهذه المناسبة منشدا من قصيدة :

سيشكر المصحـفُ إكبابَكـــم عليـــه إذ أوجـــده الفَقْدُ
مصحف ذى النُّورَيْن عثمانَ مـا كان لكـــم عن صـونِهِ بُدُّ
مـا اختـــار شيئا مؤنسًا غـيره حـين أتى - واقترب - الوَعْدُ
أوسعتُم الدنيـــا اطِّراحــًا وما كان لكــــم إلا بــهِ وَجْدُ
يحنو عليــه العطف منكـم ولا يُغِبُّـه الإشفـــاقُ والـــوُدُّ
ألبستمـوه حِلْيَةً لـــم يكـــن يسمح للكفِّ بهـــا الـزَّنْدُ

وهو يبالغ إذ يقول إن المصحف سيشكر له عنايته به ونقله إلى مراكش لصونه خشية فقده ، وهو مصحف عثمان الذى استشهد وهو بين يديه يتلو فيه ، وقد اتخذه مؤنسه فى اللحظات الأخيرة من حياته وإنكم لتشغفون به أكبر الشغف . ودفعته مبالغاته فى مديح عبد المؤمن إلى أن يقول إنه يحنو على المصحف بعطفه ، ودائما يودّه ويشفق عليه . وله فى المصحف أخرى زاد فيها من مثل هذه المبالغات وأفرط ، وأشار ابن حبوس فى البيت الأخير إلى تجديد عبد المؤمن لدفتى المصحف وتحليتهما بالجواهر النفيسة بحيث لم تعد الكف الواحدة تستطيع حمله . وكان النورمان قد استولوا على المهدية وطرابلس واستغاث

(١) ذابل : سيف . وشيج : رمح .

أهلهما بعبد المؤمن فلبّاهم بجيش جرار قلّم به أظفار أمراء الجزائر وإفريقية التونسية الخارجين عليه وفتح المهدية سنة ٥٥٥ هـ/١١٦٠ م وطرد النورمان منها ومن سواحل إفريقية التونسية وطرابلس . ويهنئه ابن حبوس بفتح المهدية مقارنا فى مطالعها بين المهدى العبيدى الذى بناها واختار لها لوقت بنائها برج الأسد وبين عبد المؤمن الذى خلصها من النورمان :

بطالع الأسَدِ اختطَّ البنــاءَ بها　　　لكنك الأسَدُ الدّامى الأظــافيرِ

ويقول ابن عبد الملك فى الذيل والتكملة : « بعد انصراف عبد المؤمن من فتح المهدية سنة ٥٥٤ هـ/١١٥٩ م فارقه ابن حبوس وعاد إلى مسقط رأسه فاس فاستوطنها » ويبدو أنه كان يرحل إليه من فاس مادحا بمثل قوله فى إحدى مدائحه :

أميرَ المؤمنين لقد أضاء الـ　　　ـزّمانُ بنور عَدْلك واستنارا
لكم شرْقا البلاد ومَغْرباها　　　وأمركمُ مع الفلك استدارا
ومَنْ قد فرَّ عنكم من عدوٍّ　　　فنحوَكُمُ إذا يبغى الفرارا
ولــو خوَّفْتمُ أعلام رَضْوَى　　　لما سكنتْ ولا وجدتْ قرارا

والمبالغة واضحة فى الأبيات ، فالفلك يجرى طوع أمره ، ومن فرَّ عنكم لابد أن يفر إليكم إذ تملكون عليه جميع مسالكه ، وحتى لو خوَّف عبد المؤمن جبال رضوى الراسخة فى المدينة من قديم ما استقرت ولا وجدت لها قرارا . وصاحب المعجب محق حين يرى عنده هذه المبالغات المفرطة فيشبِّهه بابن هانىء فى مديح المعز الفاطمى وما يضمِّنه من تهويلات وقعقعات . ونراه يرافق عبد المؤمن فى أواخر سنة ٥٥٥ حين عبر الزقاق من سبتة إلى مرفأ جبل طارق ، واحتفل الناس بقدوم عبد المؤمن احتفالا عظيما ، ولما أذن للشعراء بالإنشاد بين يديه أنشده شعراء كثيرون أندلسيون ومغاربة وفى مقدمتهم ابن حبوس : ومن قوله فى قصيدته :

بلغ الزمانُ بهديكم ما أمَّلا　　　وتعلَّمتْ أيامُــه أن تَعْدِلا
وبحسبه أن كان شيئا قابلاً　　　وجد الهداية صورةً فتشكَّلا
ولأنتمُ الحقُّ الذى لا يُمْتَرى　　　فيه وليس بجائزٍ أن يُجْهَلا
ولأنتمُ سِرُّ الإلــه وأمركم　　　ملأ العوالــمَ مجملا ومفصَّلا
عُزِلَتْ ولاةُ الحِسِّ عن إدراكهِ　　　فهــو المنزَّه حسبــه أن يعقــلا

ولو أننا لم نعرف ناظم هذا الشعر وممدوحه وسمعناه لظننا أنه لابن هانىء يمدح المعز الفاطمى لهدايته للزمان وتشكيله له مع العدالة ، وإنه للحق الذى لا شك فيه بل سر الإله ، وأمره يملأ العالم وإنه ليعز على الحسِّ أن يدرك كنهه إنما يدركه العقل . وأنشد له ابن عبد الملك قصيدة فى دعوة الموحدين والزهد والتمسك به ، وفيها هاجم الفلسفة والمتفلسفة ، وله أشعار بديعة فى الوصايا والأمثال وذم الزمان والاعتبار ، وعاش حتى سنة ٥٧٠ هـ/١١٧٤ م .

الجَراوى[1]

هو أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوى ، من قبيلة جراوة بتادلة ، سكن مدينة فاس ، وبها منشؤه ومرباه ، ويقول ابن خلكان : كان نهاية فى حفظ الأشعار القديمة والمحدثة ، وجمع كتابا يشتمل على فنون الشعر سماه صفوة الأدب وديوان العرب ، وهو عند أهل المغرب كحماسة أبى تمام عند أهل المشرق ، وكان شاعرا نابها مدح بشعره عبد المؤمن وابنه يوسف وحفيده يعقوب وابنه الناصر ، توفى سنة ٦٠٨ هـ/١٢١١ م . وقد اتصل بعبد المؤمن منذ سنة ٥٥٣ هـ/١١٥٩ م إذ نراه يكتب على لسانه قصيدة يحثُّ فيها الأعراب الهلالية لتلبية دعوة عبد المؤمن لجهاد نصارى الأندلس استهلها بقوله :

أحاطتْ بغايات العُلا والمفاخرِ ... على قدم الدنيا هلالُ بن عامرِ

وشارك الأعراب فى حروب الأندلس وجاءت عبد المؤمن البشرى بتحرير بطليوس واستردادها من ابن الرنك وهنأه الجراوى بقصيدة طويلة مطلعها :

نصرٌ بكل سعـــادةٍ مقرونُ ... نالتْ به الدُّنيـــا الهَنا والدينُ

ويفتح عبد المؤمن المهدية مستردا لها من أيدى النورمان بعد أن ظلوا فيها وفى ساحلها اثنى عشر عاما طوالا ، ويهنئه الجراوى بتائية يقول فيها :

اهنأْ إمامَ الهُدَى فالعدلُ منبسطٌ ... والدِّينِ منتظمٌ والكفـر أشتـاتُ

وينتصر جيش عبد المؤمن ومن معه من كتائب الأعراب فى السنة التالية على نصارى الإسبان فى موقعة فحص بلقون ، ويهنئه الجراوى برائية وفيها يقول :

أعليتَ ديـن الواحـد القهَّارِ ... بالمَشْرِفيَّة والقَنــا الخطَّـارِ[2]
لوراء موسى ما فعلتَ وطارقٌ ... زَرَيَا بما لهما من الآثــــارِ[3]
أتممتَ ما قد أمَّلوه ففاتهم ... من نَصْر دينِ الواحد القهارِ
بعِرابِ خيـــلٍ فوقهـن أعاربٌ ... من كل مقتحمٍ على الأخطــارِ

وهو يبالغ مبالغة مفرطة حين يعلى عبد المؤمن على موسى بن نصير وطارق بن زياد فاتحى الأندلس العظيمين ، وإنما سقنا الأبيات لنثبت معها البيت الرابع الشاهد على اشتراك الهلالية فى حرب الأندلس المظفرة أيام عبد المؤمن وابنه يوسف وحفيده يعقوب كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع . ويصبح الجراوى شاعر يوسف بن عبد المؤمن الحظىَّ لديه ، وكان لا يبرح مجلسه ،

---

(١) انظر فى الجراوى وترجمته وشعره البيان المغرب لابن عذارى وابن خلكان ١٢/٧ ، ١٣٦ وزاد المسافر والغصون اليانعة والمنّ بالإمامة لابن صاحب الصلاة ، وراجع الوافى بالأدب العربى فى المغرب الأقصى للأستاذ ابن تاويت١/١١٦ ومابعدها والنبوغ المغربى ١/١٧٩ ، ٣/٢٢ ، ١٩٨ وما بعدها ، ٢٥٣ .

(٢) القناالخطار : الرماح شديدة الطعن. المشرفية: السيوف.

(٣) راء : رأى .

ونراه فى ركبه حين جاز إلى الأندلس سنة ٥٦٣ هـ/١١٦٩ م وكان قد جمع جموعه يريد منازلة محمد بن سعد بن مردنيش ، ونازله أخوه عثمان صاحب غرناطة وتوفى ، فبايع أبناؤه يوسف وانتهت ثورته . ونرى الجرّاوى يمدحه فى هذه الأثناء بقصيدتين يقول فى إحداهما مشيرًا إلى المتمردين عليه :

تنــــالُ المــــارقين بكــلّ أرضٍ ولا طــارتْ – ولا نقلتْ – خُطاها

ويقول فى الثانية :

لو كانت الجوزاءُ من أعدائهِ لـم تنجُ من غاراتـه الجوزاءُ

وكانت آخر معارك جيش الموحدين فى الأندلس لعهد يوسف معركة البيبوج فرناندو بن ألفونس سنة ٥٦٩ وفيها كان النصر حليف الموحدين ووقف الجراوى بين يدى يوسف ينشده مدحة طنانة ، وفيها يقول :

عن أمركـم يتصرَّف الثقلانِ وبنَصْركـم يتعاقب الملَــوانِ(١)
وبمــا يسوء عدوَّكم ويسرُّكم تتحرَّكُ الأفلاكُ فى الدَّوَرانِ
جاهدتمُ فى الله حقَّ جهادهِ ونَهَضْتُمُ بحماية الإيمــانِ
وتركتمُ أرضَ العِدَى وقلوبُهم فى غاية الرَّجفانِ والخفقانِ
وغزاهمُ الديــنُ الحنيفىّ الذى كُتِب الظُّهورُ لـه على الأديانِ

والبيتان الأولان من نوع مغالاة ابن هانىء فى المعز الفاطمى ومديح ابن حبوس فى عبد المؤمن مما مرَّ بنا وأشرنا إليه . وهو يضفى على يعقوب – كما أضفى على أبيه يوسف وجده عبد المؤمن – غير قليل من القدسية وقد مدحه مرارا حين انتصر أسطوله على ابن غانية فى بجاية ، وحين واقعه جيشه وهزمه ، وحين فتح قفصة جنوبى إفريقية التونسية ، وحين قضى على بعض الثوار . وفى سنة ٥٨٧ هـ/١١٩١ م استرد يعقوب مدينة شلب بغربى الأندلس ، وعاد يعقوب إلى عاصمته مراكش ، وهنأه الشعراء بهذا النصر المبين ، وأنشده الجراوى قصيدة يقول فيها :

إيــابُ الإمــام حيــاةُ الأُمَمْ تــوالَى السـرورُ بــهِ وانتظَمْ
وجادَ به الأرضَ صَوْبُ الحَيا وجَلَّى الظُّــلامَ بــهِ بَدْرُ تِمّ(٢)
فشكرًا لخيــلٍ وفُلْكٍ دَنَتْ بمُسْتأصــلِ الظُّلم ماحى الظُّلَمْ
إذا حــلَّ فى بلدةٍ أمْرَعتْ فطــاب جَناها وفــاح المَشَمّ(٣)
وقـــام بأقطــارها عَدْلُهُ وصَوْبُ نَــداه مقــام الدِّيَمْ(٤)
سَلِ الدَّهرَ عن بطشــه بالعِدَا تُجِبْ من وراء الدروب العجم

(١) الثقلان : الإنس والجن . الملوان : الليل والنهار .
(٢) صوب الحيا : انسكاب الغيث . بدرتم : البدر فى اكتماله .
(٣) أمرعت: أخصبت. جناها: ثمرها. المشم : الشذا.
(٤) نداه : كرمه . الديم جمع ديمة : المطر يطول فى سكون .

وإياب يعقوب – فى رأى الجراوى – ليس حياة لشعبه فقط ، بل هو حياة الأمم جميعا ، إذ يجود الأرضَ غيث منهمر ، ويضيىء الظلامَ بدر فى اكتماله ، فشكرا للسفن التى عبرت بها المجاز وللخيل التى حملت لا مستأصل الظلم وناشر العدل فحسب ، بل أيضا من يمحو الظلامَ بنوره ، وإن البلاد لتخصب وتطيب ويفوح شذاها حين يحل فيها ، وينتشر العدل الذى لا تطيب حياة الناس بدونه ويعمُّ الكرم الفياض . وسل الدهر عن قهره للأعداء تجبك من وراء الدروب جموع إسبانيا متوجعة مما يذيقها من البطش الشديد . ولم يلبث نصارى الإسبان أن توجعوا توجعا أليما سنة ٥٩١ هـ/١١٩٥ م فإن ألفونس الثامن ملك قشتالة علم أن يعقوب يعد لمعركة كبرى استنفر فيها المغاربة وأعراب الهلالية وأهل الأندلس فاستصرخ البابا وملوك أوربا وحشد جموعه عند حصن يسمى الأرَك بين قرطبة وطليطلة . وسحق جيش يعقوب تلك الجموع سحقًا ذريعا ، وفرَّ ألفونس على وجهه لا يلوى حتى طليطلة ، وكان نصرا عظيما أعاد للذاكرة موقعة الزلاقة وبطلها يوسف بن تاشفين وتغنى الشعراء بها وبطلها يعقوب طويلا ، وللجراوى فيها قصيدتان يقول فى أولاهما :

هو الفتحُ أعْيَا وَصْفُه النَّظْمَ والنثرا ... وعمَّتْ جميعَ المسلمين به البُشْرَى

وأنجدَ فى الدنيا وغارَ حديثُه ... فراقت بهِ حُسْنًا وطابتْ به نَشْرا(١)

تميَّزَ بالأحْجالِ والغُرَرِ التى ... أقلُّ سَناها يَبْهرُ الشمسَ والبدرا(٢)

لقد أورد الأذفونش شيعتَه الرَّدَى ... وساقهمُ جهلا إلى البَطْشة الكبرى(٣)

حكى فعل إبليسٍ بأصحابه الأُلى ... تبرَّأ منهم حين أوردهم بَدْرا

فدارتْ رَحَى الهيجا عليهم فأصبحوا ... هشيما طحينًا فى مهبِّ الصَّبا يُذْرَى(٤)

يطير بأشلاءٍ لهم كلُّ قَشْعَمٍ ... فما شئتَ من نَسْرٍ غدا بَطْنُهُ قَبْرا(٥)

بِيُمْنِ الإمامِ الصالحِ المصلحِ الرِّضا ... نضا سيفَه الإسلامُ فاستأصَلَ الكفرَا(٦)

والجراوى يقول إنه فتحٌ أعظم من أن يحيط بوصفه شعر ونثر وقد عمت به البشرى والفرحة جميع المسلمين وملأت تباشيره الدنيا بهضابها وسهولها فازدانت به حسنا وطابت نشرا وعطرا ، وإنه لفتح محجَّل أغر يبهر ضوؤه الشمس والقمر ، فقد أورد ألفونس ملك قشتالة وطليطلة أنصاره مورد الردى والهلاك ، ودفعهم دفعا إلى البطشة الكبرى ، فذاقوا ما ذاقته قريش يوم بدر ، إذ دارت رحى الحرب على جثثهم وأصبحوا أشلاء وطحينا تذروه الرياح ، وشبعت منهم الضباع والسباع ، وغدت بطون النسور لأشلائهم قبورا طائرة . وكل ذلك بيمن طالع

(١) أنجد وغار : ملأ المرتفعات والسهول . نشرا : رائحة عطرة .

(٢) الأحجال: بياض فى السيقان. الغرر: بياض فى الجباه.

(٣) الردى : الهلاك .

(٤) الهيجاء : الحرب . يذرى : يطير فى الهواء .

(٥) قشعم : نسر مسنّ .

(٦) نضا : سلَّ .

الإمام يعقوب الصالح المصلح الرضا المرضى الذى سلّ الإسلامُ سيفه فاستأصل به الكفر من جذوره وكاد لا يبقى منه باقية .

ويتوفى البطل المغوار يعقوب سنة ٥٩٥ هـ/١١٩٩ م ويخلفه ابنه الناصر لدين الله ، وتؤخذ له البيعة فيهنئه الجراوى بقصيدة طويلة ، يقول فيها :

هيَ بيعةٌ أحيا الإلهُ بها الوَرى ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ وحَمَا بهـا دينَ النبيِّ المصطفى

وهو دائمًا يردِّد فيه وفى آبائه أن الله اختارهم ليتكامل للدنيا وجودها وللناس حياتهم بما يشيعون فيها من العدل والكرم الفياض ، ودائما يردِّد أنهم حماة الدين الحنيف وأن الدهر يصدع لمشيئتهم . ويستولى الناصر على ميورقة من يد ابن غانية فيهنئه بقصيدة مطلعها :

لكَ النصرُ حزبٌ والمقادير أعوانُ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ فحسبُ أعاديك انقيـادٌ وإذعانُ

كما يهنئه بقصيدة أخرى حين استولى على منورقة ، وظل يمدحه إلى وفاته سنة ٦٠٨هـ/ ١٢١١م .

ابن عبد[1] المنّان

هو أبو العباس أحمد بن يحيى بن عبد المنان الأنصارى الخزرجى ، من أهل مكناس ، تفتحت مواهبه الأدبية مبكرة ، فجرى الشعر على لسانه ، واستخلصه لنفسه السلطان أبو عنان المرينى (٧٤٩ هـ/ ١٣٤٨ م - ٧٥٩ هـ/ ١٣٥٨ م) فاتخذه كاتبه فى الدواوين كما اتخذه شاعره ، وله فيه مدائح بديعة ، وكتب بعده للسلاطين : أبى بكر السعيد لمدة عام فعمه أبى سالم إبراهيم بن أبى الحسن فأخيه تاشفين سنة ٧٦٢ هـ/ ١٣٦١ م فأبى زيان سنة ٧٦٣ فعمه عبد العزيز سنة ٧٦٨ هـ/ ١٣٦٧ م وابنه أبى زيان سنة ٧٧٤ فأبى العباس أحمد المستنصر سنة ٧٧٦ هـ/ ١٣٧٥ م وظل يعمل مع السلاطين حتى وفاته سنة ٧٩٢ هـ/ ١٣٩٠ م . ونوه به وبشعره ونثره كل من ترجموا له ، من ذلك ما نقله الأستاذ ابن تاويت من وصف تلميذه ابن جابر الغسانى له بقوله : « رافع راية الأدب والشعر فى عصره ، القدوة الأحفل ، المتفنن الأكمل ، كاتب الخلافة العلية ، المخصوص لديها بالمزايا السنية » . ويبدو أن أهم مدائحه إنما كانت فى السلطان أبى عنان ، ونراه حين قضى على أحد الثوار وثورته قضاء مبرما ، يقول من قصيدة طويلة يهنئه فيها بالنصر وعيد الأضحى معا :

---

(١) انظر فى ابن عبد المنان وترجمته وشعره كتاب نثير فرائد الجمان لابن الأحمر (طبع دمشق) ص٣٤٨ وجذوة الاقتباس فيمن حلّ من الأعلام مدينة فاس لابن القاضى ١٢٤/١ وأيضا درة الحجال ٥٣/١ والنبوغ المغربى ٢٣٨/١ و١١٤/٣ ، ١١٥ ، ٢١٦ والوافى بالأدب العربى فى المغرب الأقصى ٤٩٣/٢ .

مليكُ ملوكِ الأرضِ أوحدُها الذى ... بهِ عَلَتِ العلياءُ وافتخرِ الفَخْرُ
غمامُ النَّدَى الهطَّالِ والجوُّ أغبرٌ ... وليثُ الفِدَا والبيضُ قانيةٌ حُمْرُ
إذا ما تراءى البدرُ يومًا ووَجْهُه ... تحيَّرت الأبصارُ أيُّهما البَدْرُ
لعمرى لقد زِنْتَ الخلافةَ فاغتدتْ ... يقصِّر عن أوصافها النظمُ والنثر
وراقتْ بك الدنيا جمالاً وبهجةً ... فإظلامُها صُبْحٌ وإصباحها بِشْرُ
وهنِّئتَ عيدَ النَّحْرِ والفتحَ إنَّه ... لك العيدُ منه والعِدا لهم النَّحْرُ
بقيتَ لدين الله رِدْءًا وعصمةً ... فما غيرُ عَلْياك الزمانُ له ذُخْرُ

وهو يجعل أبا عنان ملك الملوك الذى سمت به العلياء وافتخر الفخر ، إنه غمام الكرم المنهمر فى الأيام المجدبة ، والليث المفدى والسيوف ملطخة بالدم القانى . وحين يطلع على الناس هو والبدر تحار الأبصار أيهما البدر الساطع ، وقد زان الخلافة حتى أصبح كل مديح شعرا ونثرا يقصر عن وصفه لها . وحسنت بك الدنيا وازدانت حتى غدا ظلامها صبحا وصبحها طيبا ذكيا ، وإن الله ليزف لك الفتح والنصر المبين بينما يقدم لأعدائك النحر والذبح ، ويدعو له أن يظل معينا وعصمة للدين الحنيف ، ويظل الزمان له ذخرا مطيعا . وفى إحدى مدائحه يصف الساعة التى نصبها أبو عنان على واجهة مدرسته بفاس . وأهم منها قصيدته التى مدحه بها ووصف فيها صراع الأسد مع ثور أمامه ، وكان يُعْقَدُ لذلك حفل كبير ، وفيه ينازل الأسد ثورا حتى إذا خيف على الثور منه أن يصرعه تصدى له مخاتل فى أكرة مستديرة من خشب معدة لذلك يحركهاشخص فى وسطها ، وفى يمناه حديدة يطعن بها الأسد حين يهجم عليه طعنات متوالية ، ويتعلق بها الأسد يريد أن يظفر بهذا المخاتل، فتدور به مع الأكرة وتجهز عليه . والقصيدة طويلة ويصف فيها ابن عبد المنان صيد الأسد فى الفلاة وإحضاره لمنازلة الثور ، وهو يكثر فيها من الألفاظ الغريبة على عادة شعراء المقصورات منذ منشئها ابن دريد ، وخاصة فى وصفه للثور والأسد والمختال وأكرته وما نشب حينئذ من عراك عنيف ، ونذكر بعض أبياته فى المنازلة بين الثور والأسد إذ يقول :

ومُدرَّبُ الرَّوْقين أصفرُ فاقعٌ ... راق النواظرَ نضرةً لما بَدَا(١)
ما زال يدعو للنزال أسامةً ... ولقد أشار بظِلْفِهِ لما دعا(٢)
ولقد أراه مكانَ مَصْرعِهِ وقد ... أوْمَى بساحِ القصرِ ينكتُ فى الثرى(٣)
وعَدَا له والظنُّ يقضى أن يُرَى ... وقد اعتلاه فكان عكسًا ما قضى
جالتْ عليه صَدْمةٌ من حارثٍ ... تنسيك صدمةَ حارثٍ يوم الوغَى(٤)

(١) الروقين : القرنين .
(٢) أسامة : من أسماء الأسد وألقابه .
(٣) ينكت : ينقض الثرى بحافره .
(٤) حارث : من أسماء الأسد — الوغى : الحرب .

أعجبْ بهـا من صدمـةٍ قد عفَّـرتْ ... لِبَد الِهزَبْرِ وأوهنَتْ منـه القـوى[1]

وهو يشيد بقرني الثور المدرَّبين على الطعن وشدته ، ويقول إنه راق النواظر بلونه الأصفر الفاقع وما إن رأى الأسد حتى أخذ ينكت الأرض بظلفه استعدادا للنزال . ويخال الشاعر كأنما يشير بذلك إلى المكان الذى سيُصْرَعُ فيه الأسد فى ساحة المعركة أمام قصر أبى عنان ، ويصدم الأسد الثور صدمة شديدة تنسيك صدمة البطل حارث يوم الحرب الضارية ، وما أعجبها من صدمة ، فقد عفرت لشدتها لِبَد الأسد وأوهنت قواه لصلابة الثور ومتانة بنيانه . ويعرض علينا نزال المخاتل فى أكرته للأسد ، قائلا :

وضُبـارمٍ رَحْـب اللَّبـان تُقِلُّه ... صُهبٌ متينٌ خَلْقُها عَبْلِ الشَّوَى[2]
يفترُّ عـن نـابٍ كأطـراف القَنَا ... بَيْضا ويَنْضُو مِخْلبًا حـادَّ الشَّبـا[3]
ومُخـاتلٍ فى جوفِ دائـرةٍ طوت ... أضْلاعَهـا منـه على شَهْمٍ فَتَى
يحكـى بهـا رَأْلاً ببيضةِ سَبْسَبٍ ... لـم تنفرج عنـه فأنفذها كُوَى[4]
يمشى الهُوَيْنَى وسطها فتقلُّه ... عَدْوا ومـا إن تشتكى أَلَمَ الوَجَى[5]
حسِبَ الغَضَنْفَرُ مُرْتقاهـا كعبةً ... فَدَنَا يطيل بها الطوافَ وقد سَعَى[6]
أمسى صريعًا والدمـاءُ سلافـةٌ ... أتُراه سكرا مـال من تلك الطِّلا[7]

وهو يصور الأسد بأنه واسع الصدر تحمله قوائم صهباء مفتولة الأطراف متينة ، ويفترّ فمه عن ناب كأطراف القنا فى شدة الطعن ويسلّ مخلبا حادَّ الشباة كأطراف السيوف وأسّلها الفاتك . وينازله فتى شجاع داخل أكرة يحكى بها ولد نعام فى بيضة بفلاة لم تفرج عنه ، فأنفذ بها كوى وثقوبا – ويظل يمشى بها فى تؤدة – وهى تحمله فى قوة لا تشتكى عرجا ولا ألما ، وكأنما يحسبها الأسد كعبة يريد أن يطوف بها ويسعى ، ويَعْلَق بحديدة فتاها . وما تزال تمزق جسده حتى تصرعه ، ويغرق فى دمائه . ونقد القصيدة الأستاذ محمد بن تاويت ، وأعلى عليها مدائح أخرى لابن عبد المنان، وربما كان موضوع القصيدة ، وهو وصف المصارعة بين الثور والأسد، هو الذى أدَّى إلى وجوه النقد التى لاحظها الأستاذ ابن تاويت . على أنه يذكر لابن عبد المنّان أنه الشاعر المغربى الوحيد الذى وصف لنا هذه المنازلة بين الثور والأسد ، والتى تعد هى وأخواتها فى غرناطة أُما لمصارعة الثيران المعروفة لهذا العصر فى إسبانيا . ولابن عبد المنان وراء مدائحه الرائعة غزليات ومولديات بديعة .

---

(١) الهزبر : أيضا من أسماء الأسد .
(٢) ضبارم : من أسماء الأسد – رحب اللبان : واسع الصدر . عبل الشوى : مفتول الأطراف .
(٣) ينضو : يسلّ . الشبا : الطرف .
(٤) الرأل : ولد النعام . السبسب : الفلاة .
(٥) تقله : تحمله . الوجى : العرج .
(٦) الغضنفر : من أسماء الأسد .
(٧) الطلا : الخمر.

الهوزالى[1]

هو محمد بن على الهوزالى شارح ديوان المتنبى الملقب بالنابغة ، ترجم المقرى فى كتابه « روضة الآس » لأبيه على وقال إنه من كتاب الإنشاء بالحضرة الفاسية وبيته بيت صلاح ودين ، وأنشد نبذة من أشعاره ، وكأنه ورَّث ابنه محمدا الشعر ، وقد أكبَّ فى شبابه على كتب الفقه والشعر ، ولم يلبث أن أصبح من قضاة الدولة السعدية كما أصبح شاعر خليفتها المنصور ، ومن تعريف درة الحجال به : « الأديب الناظم الناثر نابغة زمانه ، أخذ عن أبى العباس المنجور ، وله معرفة بالبيان والنحو وله نظم رائق ، وهو قاضى سكتانة » وذكره عبد العزيز الفشتالى فى كتابه المناهل مرارا ، ويقول عنه : « صاحبنا الفقيه القاضى شاعر الدولة مفتى الحضرة » ويقول عنه محمد بن عيسى الصنهاجى فى مقامته التى عرف فيها بأدباء عصره : « أخو علقمة ولبيد ، وذو المقول المحيي المبيد ، جزالته فى وصف المهامه والقفار وذكر المَرْخ والعَفار ، وعلى ذلك فرمحه فى المدح مقوَّم الأنابيب ، لا يقصر فيه عن ابن الحسين (المتنبى) وحبيب (أبى تمام) » . وابن عيسى يرفعه إلى مرتبة علية فى الشعر ، فهو أخو علقمة الشاعر الجاهلى الفحل ولبيد أحد شعراء المعلقات ، وشعره يرفع ويضع أو كما يقول يحيى ويبيد ، وأساليبه فيه جزلة رصينة ويتعلق بوصف الفيافى والقفار ، ورمحه لذلك فى الشعر رمح متين لا يقصر فيه عن شاعرى العصر العباسى الكبيرين المتنبِّى وحبيب . وجمهور شعره فى مديح المنصور ، ويستهله بوصف بطولته فى واقعة وادى المخازن المشهورة ضد البرتغاليين التى مرت بنا وكانوا نحو مائة ألف – فيما يقال – فسحقهم جيشه المغربى بين قتيل وأسير بحيث كاد أن لا ينجو منهم أحد ، ويصور المنصور فى المعركة وهو يصول ويجول مجندلاً للبرتغاليين ومنظما لكتائب جيشه قائلاً :

لعمرُكَ لا أنساه يوما شهدتُه ... وقد سَفَرَتْ بين الكُماة المداعسُ[2]

يربِّس للإقدام كلَّ كتيبةٍ ... كما ربَّس المرجانَ فى السلك رابسُ[3]

وحسْبك فى وادى المخازن وقعةٌ ... بها الشِّرْكُ حتى آخر الدهر تاعسُ

بها عرفتْ أبناءُ عيصٍ بأنهم ... عبيدُ العَصَا ما ناسَ فى الأرض نائس[4]

فدانوا له حتى توقَّع بطشَه ... برمَّتهم صُلْبانُهم والكنائسُ

فلا زالت التثليثُ تُقْرَعُ باسمه ... فتخرس فى الأديار تلك النواقس[5]

(١) انظر فى ترجمة الهوزالى وأشعاره كتاب الدرة لابن القاضى ٢٣٣/٢ وكتابه المنتقى ص٦٧٢ وما بعدها والمناهل للفشتالى نشر كنون فى صفحات مختلفة (انظر الفهرس) والنبوغ المغربى لكنون ٢٦٣/١ و٢٢٣/٣ والوافى لابن تاويت ٦٥٥/٣ ، ٦٧٢/٣ والحركة الفكرية فى عهد السعديين لحجى ٤٠٨/٢ .

(٢) الكماة : الشجعان . المداعس جمع مدعس . الرمح الغليظ الحاد

(٣) يربس : ينظم ويرتب .

(٤) أبناء عيص : يريد البرتغاليين . عبيد العصا : مسترقون أزلاء . نائس : متحرك .

(٥) التثليث : يريد عقيدة التثليث عند النصارى .

وللهوزالى فى هذه الموقعة التى أذاعت وأشاعت بطولة المنصور فى حرب البرتغاليين غير قصيدة يمجد فيها تلك البطولة من مثل قوله فى قصيدة عينية :

لـم يألُ بِستيّانُ فى استصراخهِ   صُهْبَ الأعاجـم من بلادٍ شُسَّعِ[1]
فتجشموا البحر المحيط وما دَرَوْا   بمحيـطِ بحـرٍ من عَوَالٍ شُرَّعِ[2]
وكتـائب حَفَّتْـــه مَنْصُــوريّةٍ   تنقـــاد بالأُسْد الغضـاب الجوَّعِ
صبَّتْ على الكفار - صبًّا - عارضا   هَطِلا ولكــنْ بالسُّموم النُّقَّعِ[3]
فتركن عُبَّــادَ المسيح كأنهم   أعجـــازُ نَخْلٍ بالسيول مقلَّعِ
لا زِلْتَ فى أُفُـــق الخـلافةِ نيِّرًا   تختـــال بين كواكـبٍ لك خُضَّعِ

والهوزالى يذكر أن ملك البرتغال « بستيان » ما زال يستصرخ الأعاجم من البلاد الأوربية الشاسعة ، ولبُّوه متجشمين المحيط الأطلسى إلى وادى المخازن ، وما دروا أنهم سقطوا فى محيط من رماح شُرَّع مسدَّدة ، تحفُّه كتائب المنصور يقودها أُسْدٌ غضاب جوَّع تريد أن تقضمهم قضما ، صبَّت عليهم سحابا هطلا من الرماح والسيوف ، شربوا منه سما ناقعا قاتلا ، وإن ساحة الحرب لتمتلىء بقتلى عبَّاد المسيح ، وكأنهم أعجاز نخل رمت بها سيول غزيرة ، ويدعو للخليفة أن لا يزال بدرا ساطعا تحفَّ به الكواكب من قواده وكماته . وبعد هذه الموقعة باثنتى عشرة سنة عام ٦٩٨ جهز المنصور السعدى جيشا ضخما - كما مرَّ بنا - لغزو السودان ، واستولى على إقليم توات وأقاليم أخرى وجاءته سيول من الذهب كان لها أثر بعيد فى انتعاش البلاد اقتصاديا لعهده ، ويهنىء الهوزالى المنصور بهذا الفتح العظيم منشدا فى وصف كتائبه :

غدتْ تحمل الموتَ الزؤامَ يحوطها   ويكنُفها يُمْـنٌ يشيِّعـــه نَصْـرُ[4]
فحلَّتْ بأرض السود لم يَثْنِ عزمَها   مهـالكُ صَدٌّ عن مسالكهـا الذُّعْرُ
لقد ذكر الحُبْشانُ من وَقْعها بهم   وقيعةَ يــومِ الفيل لـو ينفع الذكر
هنيئا أميرَ المؤمنين فقد قضى   على كل من ناواك أسيافُك البُتْرُ[5]
ودُمْ لفتـــوحٍ يُسْتَحَثُّ لِنَيْلِهـــــا   إلى كل قُطْرٍ منك ذو لَجَبٍ مَجْرُ[6]

وهو يصور الكتائب تحمل إلى السودان الموت العاجل السريع يحوطها اليمن ويشيعها النصر ، وقد مضت فى هذه البلاد السودانية ومسالكها الوعرة المخيفة لا يصد عزمها أى مهالك أو معوقات ، وهى وقائع لا شك أن السودانيين - أو الأحباش كما يقول - يذكرون وقعة الفيلة حين وجهها أبرهة إلى مكة والكعبة ، فأرسل الله عليهم طيرا ترميهم بحجارة من سجيل قضت

(١) بستيان : سبياستيان : ملك البرتغاليين .
(٢) عوال : رماح . شرع : مسددة .
(٣) عارضا : سحابا . السموم النقع : المهلكة .
(٤) الموت الزؤام : العاجل السريع .
(٥) البتر : الحادة القاطعة .
(٦) ذو لجب مجر : جيش كثيف ذو ضجيج .

عليهم قضاء مبرما ، وبالمثل قضى جيش المنصور على كل ما التقى به من جيوش السودانيين . ويهنىء المنصور بانتصار كُماته وفرسانه ، ويدعو له أن تدوم مثل هذه الفتوح العظيمة بما يوجه إليها من جيوشه الباسلة . وما يترك الهوزالى حادثة فى عهد المنصور إلا وينشده فيها قصيدة غرّاء ، كما لا ينزل به مرض ويشفى منه إلا ويسارع بتهنئته ، وهو بحق يعد شاعر المنصور السعدى فى عصره إلى وفاته سنة ١٠١٢ هـ/١٦٠٤ م .

أحمد[1] بن القاضى

هو أحمد بن محمد بن أبى العافية المشهور بابن القاضى ، من بيت علم وأدب ، ولد سنة ٩٦٠ للهجرة ، وحفظ القرآن الكريم مثل لداته ، وأكب على حلقات العلماء ببلدته فاس ينهل من حلقاتهم العلوم المختلفة من فقه ونحو ولغة وعروض وأدب وتاريخ وحساب وهندسة ومنطق وبلاغة ، ولما بلغ السادسة والعشرين من عمره رحل إلى المشرق لأداء فريضة الحج ولقاء مشيخة العلوم والتلقى عن أئمتها ، ونزل مصر وأقام بها فترة يأخذ عن علمائها ويحمل إجازاتهم ، وعاد إلى المغرب ورجع إلى مستقره بفاس ، ثم وفد على مراكش ، وأثنى عليه للمنصور الذهبى عبد العزيز الفشتالى وغيره من حاشيته فألحقه بحضرته . وفى سنة ٩٩٤ عاودته فكرة الرحلة إلى المشرق لينشر به مآثر المنصور ومفاخره وفتوحه ، واستأذنه فى ذلك فأذن له ، ورأى أن يسلك طريق البحر المتوسط من تطوان ، ولم يلبث أن اعترضه هو ومن معه قراصنة الإسبان فأسروهم ، ونقلوه إلى مالطة وظل بها أسيرا نحو عام فى بلاء عظيم من الجوع والبرد والتكليف بما لا يطاق . وعلم بأسره المنصور » . فكتب إلى حاكم تطوان كى يعمل على فدائه ، وافتداه بمال كثير ، وعاد إلى حضرة المنصور وهو يحمل له هذا الجميل العظيم ، وأداه نبله إلى أن يكتب عنه كتابه : « المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور » وهو سيرة له رائعة ، نشرت فى مجلدين بتحقيق الأستاذ محمد زرّوق ولم يكتف بذلك ، فقد ألف لخزانته كتاب درة الحجال فى أسماء الرجال ذيل به على كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان حتى زمنه ، وأيضا كتاب جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام بمدينة فاس . وقد استقصى الأستاذ زروق مؤلفاته فى مختلف العلوم والفنون وبدأها بمجموعة كتب التاريخ والتراجم وتلاها بمجموعة ثانية فى مؤلفاته فى الفقه ومجموعة ثالثة فى مؤلفاته فى الحساب والهندسة ومجموعة رابعة بمؤلفاته فى المنطق . وجعله بصره بالفقه يتولى القضاء ملازما حضرة المنصور طوال حكمه حتى سنة ١٠١٢ للهجرة ، وتفرغ بعد ذلك للتدريس حتى وفاته سنة ١٠٢٥ هـ/١٦١٦ م وكما كان

(١) انظر فى ترجمة ابن القاضى وأشعاره روضة الآس للمقرى ص ٢٣٩ ونشر المثانى ٢١٣/١ وصفوة من انتشر ص ٧٧ ومناهل الصفا للفشتالى بتحقيق كنون وراجع المصادر الكثيرة التى ذكرها الأستاذ زروق فى دراسته له التى قدم بها تحقيقه للمنتقى وانظر الوافى بالأدب العربى فى المغرب الأقصى ٧٠٦/٣ .

عالما بفنون كثيرة كان شاعرا ، وخصّ المنصور الذهبي بكثير من شعره منذ أن كان في الأسر ، إذ أرسل إليه قصيدة حينئذ ، يستعطفه بها لتخليصه من أسره ، وفيها يقول :

بحق الذى أولاك ملكا فنَجِّنى ... من المُلْك يا قَصْد الأسير المكبَّلِ
وكنْ يا إمامَ العدل فى عونِ خائرٍ ... أسيرٍ كسيرٍ ذى جنـــاحٍ مذلَّلِ

ومنذ عاد ابن القاضى إلى حضرة المنصور الذهبى ، وهو يلزمه ويقدم له مدائحه فى كل نصر لجيوشه وكل مناسبة . وكانت وقعة وادى المخازن لا تبرح ذاكرة البرتغاليين وكانوا لا يزالون يحتلون مدينة أصيلا على المحيط ، وأحسوا أن المنصور يريد الاستيلاء عليها ، فخشوا أن يواقعوه فيحدث لهم ما حدث فى وادى المخازن من تمزيقهم كل ممزق ، فرأوا أن ينسحبوا منها ويتركوها للمنصور . ويهنئه ابن القاضى بهذا الفتح الذى أتاه دون أى حرب ودون أن يُسَلَّ سيف وتراق الدماء ، يقول :

يا أيها المنصـــورُ أبشِرْ بالعلا ... اللّهُ بلّغ فى العِدا المأمولا
أنضاكمُ سيفا لحتف عِداتِهِ ... وبكم غَدا سيفُ الرَّدَى مفلولا
وهزمتمُ الشــركَ المبيــين بعزمكم ... من غير ما سيفٍ يُرَى مسلولا
وأذبتمُ كَيْدَ الخبيث مهابةً ... وفتحتـــمُ آرامـــه آصـــيلا
وغدتْ من الناقوس صِفْرا بَلْقَعًا ... يُتْلَى بهـــا قرآنُنـــا ترتيـــلا
أبشرْ لـــواءُ الفتح معقـــودٌ لكم ... واشكرْ إلهك بُكْـــرةً وأصيلا

وهو يبشر المنصور بمعالٍ لا تنتهى ، فالله حافظه ويبلغه فى عِداه كل ما يأمل من نصر وفتح ، وقد منحكم سيفا لحتف الأعداء ، وفلّ لكم سيف الردى والهلاك فهزمتم الشرك بعزمكم دون سيف سللتموه ، وذاب كيد الخبيث الصليبى مهابة ، ففتحتم عقر داره : أصيلا وأصبحتْ خلاء من ناقوس النصارى ترتّل فيها آى القرآن ترتيلا . ويفتح المنصور فتحه العظيم فى السودان سنة ٩٩٨ للهجرة ، ويهنئه بهذا الفتح فى قصيدة طويلة ، وفيها ينشد :

بشراك بالفَتْحِ المبين المتاحْ ... قَطَفْتَه بين القَنـــا والصِّفاحْ
ولْيَهْنِكَ النَّصْرُ الذى حُزْتَهَ ... دون الملوك فى مغانى الكفاح
واسْعَدْ فقد دانتْ ملوك الورَى ... لما رأتْ فى الانقياد النجاح
والطاهرُ المنصـــور من هاشمٍ ... واسطةُ العقد وبحرُ السماحْ
رُجّت بلادُ السود من جُنْدِه ... وافْتُتِحَتْ بالسيف أىَّ افتتاح
فتـــحٌ مبينٌ هـــو تاريخُـــه ... ينمو على الأرض مديدَ الجَناح
لا زالتِ الأقطـــارُ تَعْنو لكــم ... من سَعْدِكم طـــولَ المَدَا تُسْتَباح

وهو يهنىء المنصور بالنصر الذى قطفه بأسلحته من الرماح والسيوف وحازه من دون الملوك فى منازل الكفاح ، وإنه لحرى أن يسعد فقد دانت له الملوك وألقت له عن يد صاغرة ، وإنه للطاهر المنصور من ذرية هاشم وبيته النبوى ، وإنه لجوهرة العقد الفريدة وبحر السماح وغيثه المدرار ، وإنه لفتح سيظل ينمو ويمد جناحه فيشمل كل ما حول المغرب الأقصى من الديار ، ويدعو له أن تظل الأقطار تفتح أبوابها لجيوشه طوال الدهر لسعده العظيم الذى لا يحد . وقد أشار فى الأبيات إلى أن المنصور من بيت بنى هاشم بيت النبوة ، وهو يردد ذلك فى مدائحه مرارا وتكرارا بمثل قوله :

الملكُ أصبح ثابتَ الآساسِ ... بابن النبيِّ الطـــاهر الأنفاسِ
يروى أحاديثَ العـلا عن مُرْسَلٍ ... طهـرتْ خـلائقه من الأدنـــاسِ

وكانت الأسرة السعدية تنتسب إلى الرسول الطاهر ، فمضى يبدىء فى هذا النسب الشريف ويعيد منوها ومشيدا بصور مختلفة .

الدغوغى (١)

هو أبو العباس أحمد الدغوغى ، من شعراء الزاوية الدلائية فى القرن الحادى عشر الهجرى ، ومرَّ بنا فى الفصل الأول أنه أسس هذه الزاوية فى بادية تادلة أبو بكر الدلائى سنة ٩٧٤ هـ/١٥٦٧ م وأن محمدا ابنه نهض بها إذا استكثر فيها من عمارة الدور والدكاكين وسائر المرافق ووقف على شيوخها وطلابها ما يكفيهم من مئونة . وأمَّها كثيرون من علماء المغرب يدرسون فيها ويتحلق من حولهم الطلاب ، وسرعان ما أصبحت مركزا كبيرا من مراكز الثقافة والأدب ، ولولا تعرضها لمسائل السياسة لظل لها فى الأدب وشئون الثقافة دور مهم ، إذ قضى عليها المولى رشيد وهدم عمارتها سنة ١٠٧٩ للهجرة ونقل شيوخها وعلماءها إلى فاس . والمهم أن محمد بن أبى بكر الدلائى مؤسسها الحقيقى كان يحفُّ به كثيرون من الشعراء فى مقدمتهم أحمد الدغوغى الذى قصر عليه جمهور أشعاره ، حتى ليصبح شاعره الرسمى الذى ينطق باسمه فى مواقفه العلمية وجهاده نصرة للدين الحنيف ، ويصوره زعيمًا دينيا آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر ، وكان لوعظه أصداء بعيدة فى القبائل المتبدِّية إذ تستجيب له مذعنة مستشعرة له الولاء ، ولدعاته الذين ينهونهم عن اقتراف الآثام والتوبة منها والعمل الصالح . وللدغوغى يمدحه :

---

(١) انظر فى الدغوغى وترجمته وأشعاره كتاب الشعر الدلائى لعبد الجواد السقاط « طبع الرباط » وراجع فى الزاوية الدلائية كتاب الدكتور حجى عنها (طبع الرباط) .

يا أحلمَ الحلماء أحزمَهم إذا ما الرأىُ رُدَّ إلى مشورةِ حازمِ
صُلْ واغلُظَنْ فى الله واسْطُ مجاهدا بحسام عزمك ذى الذؤاب الحاسمِ
واقطعْ حِبالَ خبالِ كلِّ معارضٍ ومعـانِدٍ للحـــق غيرِ مـوائمِ
فإلامَ تبرح فى الضـلال قبائلٌ من عُرْبِ مغربنا سُدًى وأعاجمِ
وإلى سيـادتك السنيَّة ينتهى نصحُ الورَى ولأنت أعلم عالمِ
والديـــنُ أنت إمامـــه ورئيسُهُ والدهر عَبْدك وهْـو أطـوعُ خادمِ

والدغوغى يصور محمد بن أبى بكر حليما فهو لا يأخذ أتباعه والقبائل من حوله بالشدة ، ويقول له لك أن تصول وتجول وتغلظ فى الدعوة لله وتقهر خصومها بحسام عزمك الحاد ولتَقْضِ على كل معارض لك ومعاند للحق لا يذعن له . ويحمل على القبائل الخارجة عن ولائه التى لا تبرح مهالكَ الضلال ، الأعجمية منها والمهملة التى لا يصلها دعاته ، وينوه بسيادته السنية وعلمه وإمامته وطاعة الدهر له كيفما أمره . وثار فى الصحراء أبو الحسن السملالى وعاث فيها فسادًا ، ففزع إليه كبراؤها وسادتها يستنجدون به لإحباط ثورته ، ففكر فى جمع جيش لحربه ثم عدل عن ذلك إلى طريق الوعظ والإرشاد حتى لاتراق دماء المسلمين ، واستجاب لدعاته السملالى وحُقنت الدماء ، فأنشده الدغوغى قصيدة منوها بصنيعه ، وفيها يقول :

كم وِلْدةٍ لولاكمُ فى بلدةٍ يَتِمَتْ وغودرتِ المواطن عافيَهْ
ولكم بكم عمرتْ مواطنُ طالما أقوتْ وتألفها الذئابُ العاويَهْ
هذا لسان الحق ينشد إنما شمسُ الهدى للمهتدين دِلائيه
بكريَّةُ الأبـراج مشرقُ سعدها بمحمدىُّ الرشد غربًا باقيَهْ
ولعلمهِ ولحلمـــه ولحكمـــهِ حِكَمٌ تفـوق الحصر لا متناهيه

وهو يصف محمدبن أبى بكر الدلائى بأنه دائما يحمى الصغار الأبرياء من حرب آبائهم ولولاه لتيتّموا وأصبحت المواطن خالية من آبائهم ، وكم به عمرت بلاد ومواطن كانت تُقفر فى عهد غيره وتسكنها الذئاب العاوية ، وإن لسان الحق لينشد إن شمس الهدى للناس جميعا دلائية الموطن بكرية الأبراج ، مشرقها دائما فى المغرب أو الغرب بمحمد بن أبى بكر ، وينوه بعلمه وحلمه وعدالة حكمه . خلال وشمائل تفوق الحصر لا متناهية . ودائما ينوه بكرمه وجوده وأنه غيث مدرار بمثل قوله :

يا مَنْ إذا تربتْ يمينىَ كان لى تَتْرٌ ثناه غِنىً فلست أعـولُ[1]
ما المالُ من أملى إليك أمالنى حَسْبى رضاك فهل إليه وصـول
فرضـــاك كل غنيمةٍ فى ضمنِه حتى الثراءُ بـه رضـــاك كفيلُ

(١) أعول : أفتقر .

ولقد أفادنيَ الفصاحةَ جودُكم ... وأنا امرؤٌ حَصِرُ اللسان كَليلُ
فعجزتُ عن نطقٍ بحسنِ كَمالِكُمْ ... وكذا سواى فما عساه يقول

والقطعة تصوره مريدا وتلميذا لشيخه محمد بن أبي بكر ، وإنه ليشعر في عمق حين يعول ويفتقر أن ثناءه على شيخه غنى ما بعده غنى ولا ثراء ، ويعلن أنه يمدحه لا لعطاياه ، وإنما طلبا لرضاه ، فرضاه كل ما يريد من غنمه ، وإنه ليحمل إليه ثراء ما بعده ثراء ، كما يعلن أن جود ابن أبي بكر هو الذي حل عقدة لسانه وكان عَيِيًّا كليلا فأصبح فصيحا ، ومع ذلك فإنه يعجز عن بيان كمال أستاذه ، بل إنه كمال لا يستطيع هو ولا غيره تصويره . وكان ابن أبي بكر يختم صحيح البخارى مرة كل عام ، ويحتفل بهذه المناسبة ، وينشده الشعراء مدائح مختلفة ، وينشده الدغوغى في أحد احتفالاته :

نال البخاريُّ منه ... سَبْحا وغَوْصا مرامَهْ
فناب في السَّبح عنه ... وقام غَوْصًا مقامَهْ
أكرِمْ بسوقٍ بديعٍ ... للمكرمات أقامه
فيه الثناءُ عليه ... وَقْفًا إذا الغيرُ سامَهْ
فجوهرُ الفضل فردٌ ... تأبى المعالى اقتسامه

وهو يقول إن صحيح البخارى حظى منه بسبح في أحاديثه وغَوْصٍ ما يماثلهما سبح وغوص ، ويقول إنه أقام للمكرمات سوقا عظيمة ، جعلت الثناء وَقْفًا عليه دون غيره ممن قد يبتغيه ، إذ جوهر الفضل فرد ، وتأبى المعالى أن يكون قسمة بينه وبين سواه . وعلى هذا النحو كان الدغوغى شاعر محمد بن أبي بكر وداعيته ولسانه الناطق عن ميوله وأهوائه .

البوعناني(1)

هو عبد الواحد بن محمد البوعناني مفتى فاس في عهد المولى إسماعيل العلوى (١٠٨٤ هـ/١٦٧٢ م - ١١٣٩ هـ/١٧٢٧ م) وهو يعد أهم حكام الدولة العلوية ، وفي عهده نهض المغرب الأقصى نهضة ثقافية وأدبية ، واستعادت البلاد ذكرى واقعة وادى المخازن ضد البرتغاليين في أوائل العهد السعدى إذ آذنَ المحتلين الأوربيين للبلدان المغربية بحرب تسحق ضلوعهم سحقا . وأخذت تلك البلاد تسقط في حجره وحجر المغاربة واحدة تلو أخرى ، وكان أول ما حازه منها - كما تقدّم - المهدية سنة ١٠٩١هـ/١٦٨١م وتلتها طنجة سنة ١٠٩٥ هـ/١٦٨٤ م ثم حاز العرائش سنة ١١١١ هـ/١٦٩٩ م واستدار العام فحاز أصيلا ، وكان حريًّا أن يواكب هذه الفتوح قصائد حماسية وملحمية كثيرة . وربما

(1) انظر في البوعناني وقصيدته كتاب الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى ٨٣٩/٣ . والنبوغ المغربي ٢٣٢/٣ .

كان خير ما نظم فيها مدحة للبوعنانى يشيد فيها بفتح المولى إسماعيل لمدينة العرائش ، وهو يفتتحها بقوله :

ألا أبشرْ فهذا الفتْحُ نورُ ... قد انتظمت بحزمكمُ الأمورْ
وطيرُ السَّعْد نادى حيث غنّى ... قد انشرحتْ بفتحكمُ الصدورُ
وقد وافتكمُ الخيراتُ طرًّا ... وطابَ العيش واتصل السرور
وجاهَدْتُمْ وقاتلتم فأنتم ... لدين الله أقمارٌ تُنيرُ
وأطلعتم صوارمكم نجومًا ... لدى هيجاءَ صاحبُها كَفور
وأنت البدرُ يوم السِّلْم حُسْنًا ... وفى يوم الوَغَى الأسدُ المصورُ[1]

والشاعر فرح بهذا الفتح المبين ، حتى ليراه نورا يغمر سَناه البلاد والعباد ، وكل شىء من حوله فرح ، فالطير تتغنى ، وقد انشرحت الصدور بما وضع عنها إسماعيل من أثقال كانت تعانى منها عناء شديدا ، وأى أثقال أشد من احتلال الوطن واعتصار طيبات الرزق فيه ، وقد رُدَّتْ إلى أهلها وطاب العيش واتصل السرور بفتح العرائش وفتح طنجة والمهدية قبلها ، وقد جاهدتم أصحاب الصليب ، وانتصرتم لدين الله الحنيف ، وكأنكم أقمار تشع من حولها أضواء منيرة ، وكأنما سيوفكم نجوم تحف بكم ، وإنك للبدر المنير فى السلم حسنا وفى الحرب الأسد المصور ، ويمضى منشدا :

وفى ثَغْر العرائش قد تبدَّى ... لقدركُمُ على الشِّعْرى الظُّهورُ
قهَرْتهمُ بأبطالٍ عظامٍ ... على الهيجاء كلُّهمُ جَسورُ
وكم رَأْسٍ من الكفار أمسى ... قطيعَ الرأس مجرورا يَخُور[2]
وكم أسرى وكم قَتْلَى بأرضٍ ... وكم جَرْحَى دماؤهمُ تفورُ[3]
تمرُّ بها الطيورُ فتنتقيها ... وبات الذئب وهو لها شكور
وأضحى الناسُ كلُّهمُ نشاوَى ... على طربٍ وما شُرِبتْ خمورُ

وهو يقول للمولى إسماعيل لقد بدا واتضح لقدركم فى ثغر العرائش النصر المبين ، فقد قهرتم العدو بالمغاربة الأبطال ممن تدربوا على الحروب ، فكلهم جسور على القتال لا يتخاذل أبدا ، وكم رئيس من الكفار أمسى مقطوع الرأس أو مجرورا يتخبط فى دمه صائحا ، وإن الأسرى والقتلى لأكثر من أن تُحْصَى سوى الجرحى ودمائهم المتدفقة ، ولكأنك أقمت للطير مأدبة تتخيرُّ منها غذاءها ، وقد تجمعت عليها الذئاب ، وهى تعوى كأنها تشكرك ، وأضحى الناس

---

(١) المصور : المفترس .
(٢) رأس : يريد رئيسا . يخور : يصيح .
(٣) تفور : تتدفق .

نشاوى من الفرحة بهذا النصر لا من خمر ذاقوها ، ولكن من نصر تفوق نشوته نشوة الخمر فرحا وسرورا . ويقول :

فَبُشْراكم بهذا الفتح نورٌ ... وبشراكم بِمـا منَّ الغفـورُ
به زادتْ مآثِرُكم علـوًّا ... وقد عظمتْ به لكمُ الأجور
ألا يا أهل سبتةَ قد أتاكم ... بسيف الله سلطــانٌ وَقـورُ
إذا ما جاء سبتةَ في عَشيٍّ ... تُزَفُّ له إذا كان البكـورُ
ووَهْرانٌ تنـادى كل يـومٍ ... متى يأتى الإمام متى يزورُ
فيهزمكـم ويقتلكم ويَسْبِي ... وسيفُ الحق فى يده ينـور[1]

وهو يبشر المولى إسماعيل بأن هذا الفتح نور منَّ عليكم به الله الغفور فزاد مآثركم وأمجادكم سموا ، وعظم لكم به الأجر والثواب ، وكانت سبتة لما تفتح ، فشعر بها تهبُّ فى وجه الإسبان مهددة لهم بالمولى إسماعيل وما يحمل من سيف الله الذى لا يفلُّ أبدا ، وكأنما حين يأتيها مساء تزفّ إليه بكورًا منكلا بالمحتلين لها من الإسبان وبالمثل وهران وكانوا قد استولوا عليها ، تناديه صباح مساء كى يهزمهم ويقتلهم بسيف الله الذى لا يزال يضيىء فى يده ، ويختم قصيدته بقوله :

أيا مولاىَ قُمْ وانهضْ وشَمِّرْ ... لأندلسٍ فأنت لهـا الأميرُ
وجاهدْهم وحاربْهم وفرِّقْ ... جموعهـمُ فرَبُّكـمُ النَّصير
ولا يمنعْ بفضل الله منها ... كما قد قيل بَرٌّ أو بحورُ
بقُرْطُبَةٍ تنـال المجـد طُرًّا ... ويأتى العـزّ والملكُ الكبيـر

وتصور هذه الأبيات مدى طموح البوعنانى حين رأى فتوح المولى إسماعيل تتوالى فيحثه لا على أخذ سبتة ووهران فحسب ، بل أيضا على استرداد الأندلس حيث ينال العز والمجد طرا بعودة قرطبة إلى حمى العرب والعروبة .

٤

شعراء الفخر والهجاء

(أ) الفخر

الفخر من أغراض الشعر العربى القديمة منذ الجاهلية ، وقد ظل حيًّا فيه على توالى العصور ، والشاعر يفخر فيه بشمائله الرفيعة الفردية من المروءة والكرم والوفاء وما يماثل ذلك وبعصبيته القبلية والقومية وبشجاعته وبسالته الحربية . ونراه على ألسنة شعراء المغرب الأقصى منذ ابن زنباع

---

(١) ينور : يضيىء وينير .

في عصر المرابطين ، وهو يفتخر في بعض غزله لصاحبته بأنه يمنيّ من حمير وأنهم سيأخذون منها بثأره ويصور لها بأسهم في الحرب . ويأخذ الفخر عند شاعر الموحدين : ابن حبُّوس شكل نصائح يوصي بها الشعراء بل معاصريه جميعا أن يتمثّلوها ليصونوا بها مروءتهم ، ويتخذوها شعارات ترسم لهم مثالية خلقية كريمة من مثل قوله[1] :

رِدِ الطَّرْقَ حتى توافي النَّميرا ... فـربَّ عسيرٍ أتــاح اليَسيرا[2]
وأرسلْ قَلُوصَكَ طورا شمالا ... وطــورا جَنوبـا وطـورا دَبورا[3]
وطِرْ حيث أنت قويُّ الجنـا ... ح لا عـذرَ عـندك أن لا تَطيرا
ولا تقنعــنَّ وأنـت السَّليـ ... ـمُ حيث تضاهي المَهيضَ الكسيرا
وذو العجز يَرْضَعُ ثَدْيـًا حَذُورًا ... وذو العــزم يَرْضَعُ ثَدْيا دَرُورا[4]

وأول شعار رسمه للشخص كي يحصل على ما يريد مهما يكن عسيرا صعبا أن يتحمَّل شرب الماء العكر حتى يصل إلى ما يريد من الماء العذب الصافي وشعار ثان أن يرسل ناقته شمالا وجنوبا وفي كل اتجاه حتى يتحقق له أمله ، فلابد له من العناء ولابد له من الضرب على أبواب الآمال حتى تنفتح على مصاريعها ، ولابد له من الطيران بعيدا في آفاق الدنيا حتى يقع على ما يتمناه ، وعيب أن تكون أجنحته قوية ولا يطير شأن المهيض الكسير ، فالآمال إنما تؤخذ مغالبة وعزما مضطرما ، وكأنما العاجز في الدنيا يرضع ثديا شحيحا ، بينما القادر المملوء إرادة وعزيمة يرضع ثديا دارًّا له بكل ما يريده من دنياه . ويقول القاضي أبو حفص عمر بن عمر السُّلَمي المتوفى سنة ٦٠٤ للهجرة[5] :

نهـانيَ حِلْمي فلا أظلمُ ... وعزُّ مكاني فـلا أُظْلَمُ
ولابدَّ مـن حـاسدٍ قلبُه ... بنــور مآثـرنا مُظْلِمُ
رحمتُ حسودي على أنه ... يقاسي العذابَ وما يُرْحَمُ
هجـانا افتراءً ولسنا كمـا ... يقــول ولكنْ كما يعلـمُ

والقطعة ردَّ بها على بعض من آذاه بهجائه ، وكان كبير النفس ، فردَّ عليه بما يتفق مع شخصيته وسمو نفسه ، فقال إن مروءته وحلمه يمنعانه من أن يظلم أحدا وإن ما له من سمو المكانة يمنع أن يتعرض شخص له بظلم أو هجاء ، ولا يسلم مثله من حاسد يحسده على مآثره ومكارمه ، وإنه ليرحم حاسديه لما يقاسون من عذاب الحسد وما يصيبهم به من الكمد ، ويقول إن حاسده يهجوه افتراء . وضمَّن ذلك سخرية لاذعة إذ قال إنه ليس كما يقول حاسده

(١) النبوغ المغربي ٧١٧/٣ والوافي ١١١/١ .
(٢) الطرق : الماء العكر . النمير : الماء الصافي .
(٣) الدبور : ريح تهب من الغرب . القلوص : الناقة .
(٤) حذورا : شحيحا .
(٥) النبوغ المغربي ٧١٨/٣ .

ولكنه كما يعلم من منزلته الرفيعة . ويقول أبو العباس أحمد بن علي المَلْيانى رئيس ديوان الإنشاء في عهد السلطان أبى يعقوب المرينى[1] :

العِزُّ ما ضُرِبتْ عليه قِبابى والفضلُ ما اشتملتْ عليـه ثيابى
والزَّهْرُ ما أهداه غُصْنُ يراعتى والمسْكُ ما أهداه نِقْسُ كتابى[2]
والمجد يمنع أن يزاحَم موردى والعـــزم يأبى أن يُضـام جَنابى
وإذا حمدتُ صنيعةً جازيتها بجميل شكرى أو جزيل ثوابى
وإذا عقدتُ مـــودَّةً أجريتها مجرى طعامى من دمى وشرابى
وإذا طلبت من الفَراقد والسُّهــا ثــأرا فأَوْشِكْ أن أنـــال طِلابى

وهو فخر يصور نفسا نبيلة إلى أقصى حد ، نفسا تستشعر العز كأنما ضرب الشاعر عليه قبابه فأصبح ملازما له لا يغادره ، ومثله الفضل الجاثم فى ثيابه ، أما الزهر وشذاه فما تكتبه يراعته أو قلمه من الشعر ، وأما المسك وعطره فما يكتبه من رسائله البليغة ، وإن المجد ليقف حائلا لمن يريد أن يزاحمه فى مورده العذب ، ويأبى العزم أن يصاب جنابه بأى ضيم وإذا قدم له شخص صنيعة أو جميلا جازاه بشكره أو بثوابه الجزيل ، وإذا عقد مودة لشخص جرت فى دمه مجرى طعامه وشرابه . وهى صورة بديعة . وإذا طلب من الكواكب ثأرا نال مطلبه سريعا . ويقول أبو على اليوسى الدلائى المتوفى سنة ١١٠٢ للهجرة[3] :

إنا أُنــاسٌ لست تُبْصرنا نتحيَّن االطُّعَـــمَ التى تُزْرِى[4]
يَعْرَى الفتى ويجوعُ وهْو يُرَى متجمِّـلا بالصَّبـــر والبِشـــر
والحـــرَّةُ الشمَّـــاءُ ربَّتما جاعتْ ولم تُرْضِع على أجْر[5]
والحـرُّ ليس حياتُه بسوى عِزِّ الجَنـــاب ورفعـــة القَدْر
لا بالطعـــام ولا الشراب ولا اسْتلقائـــــهِ بأرائكٍ وُثْرِ[6]

فهو من قوم لا يتحينون المطاعم التى تزرى بمن يطعمها، وإن الفتى منهم ليعرى ويجوع ومع عُرْيه وجوعه يُرَى مُزْدانا بالصبر متحليا بالبشر ، ومثله الحرة ترى شمَّاء متسامية وتجوع ولاتأكل بثدييها فذلك موت زؤام ، والحر مثلها يستشعر العزة ورفعة القدر فهما متاعه من دنياه لا الطعام ولا الشراب ولا المقاعد الوثيرة .ولعمر[7] الفاسى المتوفى سنة ١١٨٨ هـ/ ١٧٧٥ م :

---

(١) النبوغ المغربى ٣/٤٢ .
(٢) نقس : مداد .
(٣) النبوغ ٣/١٦٧ .
(٤) الطعم جمع طعمة : ما يطعم .
(٥) الشماء : المترفعة المتسامية .
(٦) أرائك وثر : مقاعد مترفة .
(٧) النبوغ المغربى ٣/٤٩ والحياة الأدبية فى المغرب للدكتور محمد الأخضر ص ٣١١ .

قل لمن يَعْلُو على النا ... س بآباءٍ سَراةِ
ليس من شئٍ فَخارٌ ... بعظامٍ ناخراتِ
ما فخـارُ المرء إلا ... بعلومٍ زاخراتِ
وسجايـا ومزايـا ... وهباتٍ وافراتِ

وهو يقول إن الفخر الحقيقي لا يكون بالانتساب إلى الآباء والأجداد الرؤساء والعظام البالية فى المقابر ، وإنما يكون بما وعى المرء وتعمقه من العلوم وبخصاله الحميدة وما منحه الله من الهبات الوافرة ، ويقول ابن زكرى الولتى حاثا على اقتحام الصعاب فى طلب المجد[1] :

المجدُ حيث مدارُ السبعة الشُّهُبِ ... هيهات يدركه مَنْ لم يكن بأبى
وهمَّة المـرء لا تعدو بصيرتَه ... بقدر نظرته يسمو إلى الطلبِ
كلٌّ له أربٌ لكنْ أخو قِصَرٍ ... فى الهمِّ ليس له فى الجِدِّ من أربِ
إن كان لابد للإنسـان من أمـلٍ ... فليأمل المجدَ فـوق السبعة الشُّهب

وهو يقول إن المجد ليس شيئا هينا ، بل هو شيء فى منتهى الصعوبة ، وعلى طالبه أن يعرف أنه لابد له من الطيران فيه والصعود حتى يبلغ الكواكب السيَّارة السبعة ، ويقول الشاعر إنه لا يدركها من لا يشعر بشمم وإباء لا حد لهما . ويذكر أن كل شخص يحصل فى دنياه على ما يطلبه بقدر همته ، ويقول إن مَنْ همته قصيرة لا ينال مأربا كبيرا ، وإذا كان كل إنسان له أمل لا يزال يتمناه ، فَلْتَسْمُ نفسه ويأمل المجد لا فى الأرض ولكن فوق السبعة الشهب . وحرى بنا أن نتوقف قليلا عند الشاذلى الدلائى وقصيدة بديعة له فى الفخر .

الشاذلى[2]

هو محمد بن أحمد بن الشاذلى المتوفى سنة ١١٣٧ هـ/١٧٢٥ م . لم يولد لأبيه فى عهد الزاوية الدلائية ، وإنما ولد له بعد خروج أهله وآبائه منها . حفظ القرآن الكريم ، وأُكبَّ بعد حفظه له على علوم اللغة من نحو وصرف وعلوم البلاغة المختلفة ، ومضى يتزود بالأدب ، ولم تلبث شاعريته أن استيقظت فيه ، فأخذ ينظم الشعر فى أغراضه المختلفة ، واشتهرت له قصيدة فى الفخر يستهلها بحوار بينه وبين سيدة يمضى على هذه الشاكلة :

مـا إنْ يَعيبكَ فَقْدُ الحَلْى والحُلَلِ ... إن أنت بالهِمم الشمّـاء كنت مَلِى
وربَّ جاهلـةٍ هبَّتْ تعـاتبنى ... أن كنتُ- عن غَمْرِ عيشٍ- مؤثِرَ الوشَلِ[3]
قالـتْ رأيتك ذا قـولٍ محبَّـرُهُ ... أزهى من الـرَّوض غِبَّ الواكف الهَطِلِ[4]

(١) الوافى ٣/٨٥٦ .
(٢) انظر فى الشاذلى كتاب الشعر الدلائى (راجع الفهرس) والنبوغ المغربى ٣/٤٧ .
(٣) غمر العيش: رافهه وواسعه. الوشل: الماء الضحل القليل.
(٤) محبّرة : منمقه . غب الواكف المطل : عقب السحاب الممطر .

وفي الملـــوك لـــــه كُفءٌ فأُمَّهُمُ حتى يعيدوك ذا خَيْــلٍ وذا خَـــوَلِ(١)
ولستُ أُصْغِي وإن لجَّتْ لتعدلَ بي عن منهج الصَّـوْن بالتَّعْتاب والعـذَلِ
وإن مـن كـرمي يُخْلِي بشعـريَ عـن تقـريظِ ذي كـرمٍ أو ذمِّ ذي بَخَـــلِ

وهو يقول إن الشخص لا يعيبه فقد الحلى والحلل أو بعبارة أخرى فقد الثراء إذا كان مليئا بالهمم السامية الرفيعة ، ويقول : رب جاهلة عاتبتني لانصرافي عن رافه العيش واكتفائي بالوشل القليل منه ، بينما أملك بيانا بليغا أزهى من أزهار الروض عقب السحاب الهاطل ، وتقول في الملوك من يستحقه ، فاقصدهم حتى يثروك ويصبح لك خيل وخدم كثيرون . ويقول إنه لا يصغى لمثل هذه العاتبة مهما لجت وألحت إذ تريد أن تعدل به عن منهج الاحتفاظ بمروءته ، وإن خلاله الكريمة لترفعه عن مديح الملوك والكرماء وعن هجاء البخلاء الأشحاء ، وما يلبث أن يعلن لعاذلته قوله :

ولن تَرَيْني مُذيلا – ما حييتُ – له في غير ذكر الوَغَى والأَعْيُن النُّجُلِ(٢)
يَأْبَيَ إبائي وآبـــائي ويأنف لي مجدٌ أناف – ولم يقنع– على زُحَلِ(٣)
نفسُ الكريم تعاف الوِرْدَ يصحبه ذلٌّ على ظمأٍ في الجـــوف مُشْتَعِلِ
لـــو كنت سـائلَ غيرِ الله لـــم أسَلِ غَيْرَ المَذاكي وغيرِ البيض والأسَـلِ(٤)

وهو يقول لصاحبته إنه لن يبتذل شعره إلا في الحماسة والحرب الضارية وإلا في الغزل بالحسان ذوات الأعين النجل الفاتنة ، وإن آبائي وإبائي يأبيان أن أمتهن شعري وأهينه في مديح أو هجاء ، وبالمثل مجدي الذي بلغ عنان السماء ، وظل في ارتفاعه حتى أشرف على الكوكب البعيد : زحل . ويقول إن نفس الكريم تعاف أن يرد على ماء فيه ذل أو ما يشبهه ، مهما كان ظامئا ومهما كان الظمأ يشتعل في جوفه . وما يلبث أن يقول إنه لو سأل غير الله لم يسأله نوالا ولا عطاء ، وإنما يسأله خيلا وسلاحا وسيوفا . ويمضي في قصيدته منشدا :

لا تَرْضَ بالعيش في ظلِّ الهوان وخُضْ لنَيْل عزٍّ غِمـــار المـــوت والثُّكَلِ(٥)
فليس يُدْرَك بالجُبْـــن البقـــاءُ ولا الإقدامُ يَقْضِي بما لم يُقْضَ في الأزلِ

وهو يوصي كل من حوله أن لا يرضوا بعيش في ظل هوان وذل ، وأن يخوضوا في سبيل العز غمار الموت وفقد الأهل ، فالبقاء لا يدرك بالجبن ، ونفس الإقدام لا يغير قضاء كُتب في الأزل وقُدِّر على الإنسان . ويستمر قائلا :

(١) أمهم : اقصدهم .خول : خدم وعبيد .
(٢) مذيلا : مبتذلا ومهينا . النجل : الواسعة الجميلة .
(٣) أناف : أشرف .
(٤) المذاكي: الخيل. البيض والأسل: السيوف والرماح.
(٥) الثكل : فقد الأهل والأحبة .

حَلَبْتُ شَطْرَيْ صروفِ الدهر من عدمٍ ... ومن يســارٍ ومن صـابٍ ومن عَسَلِ
فما بطِرتُ لإثـراءٍ ولا حسبى ... بدتْ به خلَّـــةٌ تنتــابُ من خَلَلِ[1]
وكنت إما بدا لى من حِلىً عَطَلٌ ... أُلفيتُ من حَلْى فضلى غيرَ ذى عَطَلِ
وَشْىُ المهنَّـــد يبدو فـــوق صفحتِهِ ... يغنيــــه عن شِيَةِ الأغمــــادِ والحُلَلِ

وهو يقول إنه طالما جرَّب صروف الدهر وأحداثه من فقر وغنى ومن مرٍّ وحلو فلم يلحقه بطر ولا استخفاف لإثراء ولا بدا خلل فى حسبه وشرفه ، وكان إذا أصابه عطل من حُلِىّ الغنى شعر أن حُلِىَّ فضله يزينه . ويضرب مثلا لذلك السيف فإن الوشى الذى يزينه يبدو على صفحته مما يلمع عليها ويبرق لا على غمده وما يزدان به من بعض النقوش . والقصيدة بديعة فى كل ما يتصل بها من الألفاظ والصور والمعانى .

(ب) الهجاء

الهجاء من موضوعات الشعر العربى ، الموغلة فى القدم ، وكان أصله لعنات يستنزلها الجاهلى من آلهته على من يعاديهم من الأفراد أو من يعاديهم مع قبيلته من القبائل والعشائر . وتطور من اللعنات إلى الذم بالصفات المرذولة من مثل البخل والجبن والغدر ، واستحال عند جرير والفرزدق إلى مناظرات واسعة فى أمجاد قيس وتميم وسادتهما ، مما أوضحناه فى كتابنا : « التطور والتجديد فى الشعر الأموى » . ومنذ العصر العباسى الأول أخذ الشعراء يتفننون فى وصف المهجو بالدناءة والقذارة ، مع ما قد يذكره عنه الشاعر من فساد الأخلاق والمروق من الدين . وظل كثيرون من الشعراء – على مر العصور – يكثرون منه بحيث يمكن تلقيبهم بجماعة الهجَّائين ، وقد يفرضونه على حياتهم ويعيشون له ، وهو ما نفتقده عند شعراء المغرب الأقصى ، إذ كان الشاعر المغربى يلم به فى لحظة من لحظات غضبه ثم ينصرف عنه إما رعيا للذمام والمواطنة وإما تساميا بنفسه عنه . ويلقانا منه فى أول الأمر أهاج لبعض من كانوا يتنبئون ويثيرون مع بعض أتباعهم حروبا تدور فيها عليهم الدوائر ، من ذلك قول سعيد بن هشام المصمودى فى هزيمة برغواطة مع متنبئها أبى عفير[2] :

قِفى قبل التفرُّق فاخبرينا ... بقــولٍ صــــادقٍ لا تَكْذبينا
بأمر برابرٍ خَسِروا وضَلُّوا ... وخابوا لا سُقوا مـاءً مَعينا[3]
يقولون النَّبِىُّ أبو عُفَيرٍ ... فأخزَى اللهُ أمَّ الكاذبينــــــا
ألم تسمع ولم تَرَ يوم «بَهْتٍ» ... على آثـار خيلهمُ رَنِينــــا[4]

(١) بطرت من البطر ، وهو الاستخفاف بالشيء .
(٢) النبوغ المغربى ٣/٢٥١ .
(٣) ماء معينا: من مياه الجنة أولعل الشاعر يريد كل مياه عذبة.
(٤) بهت : مكان المعركة .

رنينَ الباكيـــات بهم ثُكالى وعاويـــةٍ ومسقْطةٍ جنينا(١)

وهو يعيرهم بيوم «بهت» الذى هزموا فيه مع نبيهم أبى عفير، ويقول لأهل برغواطة إنهم خسروا وخابوا وضلوا ضلالا مبينا إذ تبعوا متنبئًا كذابا من أعداء الله ورسوله ودينه الحنيف، فأخزاهم الله، وحرمهم مياه الجنة المعين الصافى العذب. ولقد كتب الله عليهم هزيمة ساحقة لهم ولنبيهم يوم بهت، وفرت خيلهم لا بفرسانهم إذ قتلوا شر قتل وإنما بنسائهم يعولن ويبكين ويندبن من فَقَدْنهم من الأزواج والأبناء، وبلغ من حزنهن أن الحوامل منهم لكثرة عويلهن كن يسقطن أجنتهن فزعا ورعبا. وكثيرا ما كان يعدل الهاجى عن هجاء شخص بعينه إلى هجاء قومه أو هجاء بلدته من مثل هجاء الجراوى - وقيل إنها لغيره - بنى غَفْجوم قومه متوسلا بذلك إلى هجاء أهل فاس وخاصة عشيرة بنى ملجوم إذ يقول(٢):

يا بنَ السبيل إذا مررتَ بتادِلا لا تنزلنَّ على بنى غَفْجُومِ
أرضٌ أغارَ بها العدوُّ فلن ترى إلا مجـــاوبةَ الصَّدَى للبُومِ
قـــومٌ طوَوْا ذكرَ السماحة بينهم لكنهم نشروا لـــواء اللُّـــومِ
لاحظٌ فى أموالهـــم ونوالهـــم للسائل العافى ولا المحـــرومِ(٣)
لا يملكون إذا استبيح حريمهم إلا الصُّراخَ بدعـــوة المظلومِ
يا ليتنى من غيرهم ولـــو اننى من أهـــل فـــاسٍ من بنى المَلْجُومِ

وهو يقول للضيف الطارق المار بمدينة تادلة لا تفكر فى النزول على بنى غفجوم لبخلهم وشحهم، وإنها لأرض كريهة خرَّبها الأعداء حتى لا تجد فيها إلا صياح البوم وأصداءه، ولقد طووا راية السماحة والخلق الكريم بينهم ونشروا لواء اللؤم والدناءة غير مستجيبين لطالب معروف ولا لفقير محروم. وهم فى غاية الجبن، حتى إنهم لو استبيح حريمهم ما ثاروا ولا فزعوا إلى حمل السلاح، بل فزعوا إلى الصراخ يدعون فعلَ النساء والمظلومين. ويقول ليته لم يكن منهم لما يحملون من هذه المساوىء الذميمة حتى لو كان من أهل فاس وبنى الملجوم اللؤماء، وهى سخرية لاذعة. وكاد الهجّاءون لا يتركون بلدة دون هجاء، فهم يهجون مراكش ويهجون مدينة القصر الكبير وغيرهما من مدن المغرب الأقصى الجميلة. ولهم فى الهجاء طرائف، فمن ذلك هجاء ابن حبُّوس شاعر الموحدين لفنه الشعرى قائلا(٤):

يـا غـرابَ الشعـــر لاطِرْ تَ ومُنِّيت الـوقـوعـــا
فـــإذا استيقظ شَهْـــمٌ قَـــرِمٌ زدتَ هجـوعـــا
هَبْكَ لا تَقْنِـــصُ عـــزًّا لِمْ تقنَّصْتَ الخضـوعـــا

(١) ثكالى جمع ثاكل: فاقدة الزوج أو الولد.
(٢) النبوغ المغربى ٢٥٣/٣.
(٣) السائل العافى: طالب المعروف.
(٤) الوافى ١١٠/١.

ومت أن ترقى سريعا فترديتَ صريعا[1]
ربما اصطاد بُغاثٌ شيئًا واصطدتَ جوعا[2]
ولقد غال حَبيبا منك ما غال صريعا

وهو يختار للشعر من الطير الغراب الذى كان يتشاءم به العرب ، وكأنه مصدر شؤم كبير ، ولذلك يتمنى له أن تقصر به أجنحته ، فيقع ويطيل الهجوع حتى لو استقبله سيد شهم ويعجب أنه لا يقتنص عزا فلماذا يقتنص الخضوع ، مهما أمَّل معه الرقى السريع إذ سرعان ما يهوى صريعا . وقد يصيد شويعر ، بينما لا يصيد الشاعر الكبير سوى الجوع والحرمان ، بل لقد يغتاله المديح كما اغتال أبا تمام الملقب بحبيب ومسلم بن الوليد الملقب بصريع الغوانى الشاعرين المبدعين اللذين أضاعا شعرهما فى الثناء على ممدوحيهم . وكان ابن حبوس ظريفا فلم يتعرض لشخص بعينه ، وإنما تعرض بعامة للحاسدين والهجائين والعيَّابين الذين يكثرون بين الناس منشدا[3] :

أعِدَّ لنابحيك عصًا وأقْضِم ما ضِغيك حَصًا[4]
وغمِّضْ عينك النَّجْلا ءَ حتى تُنْعَتَ الحَوِصا[5]
وهُزَّ لمعشرٍ سَيْفا وهزَّ لآخرين عَصا
لقد رَخُصَ الإخاءُ وأهْـ ـوَنُ الأعْلاق ما رَخُصا
وقد ذهب الوفاءُ فلا يقول مخالطٌ نقصا

وهو ينصح الشخص أن يعد عصًا لكثرة النابحين حوله الذين ينكرون فضله ، ويقول أطعمْ من يمضغون لحمك هاجين وذامين حصا ، وغمض عينك البصيرة عن أخلاق الناس الذميمة حتى تنعت بالحوص وضيق العين وأنك لاتكاد تبصر شيئا . والناس صنفان : صنف يلقى بالسيف وصنف يلقى بالعصا . ولقد رخص الإخاء حتى ابتذل ولم يعد موجودا وذهب معه الوفاء كاملا دون أوبة . ولمالك بن المرحل المرينى المتوفى سنة ٦٩٩ للهجرة قصيدة تصور زواجه بمدينة سبتة من امرأة وصفت له بالجمال والحسن البارع ووجدها قبيحة بالغة القبح ، ويطيل فى وصف ما قيل له من جمالها الساحر ، وبالمثل فى وصف قبحها وأنها قرعاء حولاء فطساء صماء بَكْماء عرجاء ، ويقول إنه ولَّى هاربا منها حين لاح الصباح ، وهى قصة أراد بها إلى الهزل والمجانة .

---

(١) ترديت : سقطة .
(٢) البغاث : طير صغير .
(٣) النبوغ المغربى ٢٥٢/٣ .
(٤) أقضم : أطعم . ماضغيك : الذين يمضغونك ذامين .
(٥) الحَوص : الأحوص وهو ضيِّق مؤخر العين .

٥

الشعراء والشعر التعليمي

الشعر التعليمي من الموضوعات الشعرية التي ابتكرها الشعراء في العصر العباسي الأول بتأثير اتساع الثقافة ورقي الفكر العربي ، إذ أخذ بعض الشعراء ينظم في التاريخ وبعض العلوم ، وفي مقدمتهم أبان بن عبد الحميد الذي ترجم عن الفارسية قصص كليلة ودمنة ، وقد اقترح له هو ومعاصروه نمطا مستحدثا من الشعر هو نمط الشعر المزدوج الذي ينظم مو وزن الرجز ، وتتحد القافية به في شطري كل بيت . وأخذ هذا النمط من الشعر التعليمي يشيع في البلدان العربية منذ القرن السادس ، فنُظم به كثير من المتون العلمية ، وأُلفت لها شروح كثيرة . ولم تبق بلدة عربية إلا وشارك علماؤها في نظم هذه المتون وفي وضع شروحها ، وأكثروا من نظم مسائل الفقه والنحو والتصريف . وكان للمغرب الأقصى في ذلك مشاركة خصبة ، ومن كبار الناظمين به لهذا الشعر التعليمي محمد بن أحمد بن غازي من العصر المريني ، وله فيه منظومات تعليمية في التاريخ ومختلف العلوم ، ومنها منظومته المنية في علم الحساب . وكثر هذا الشعر في العصر السعدي ، ونجد المقرى في كتابه روضة الآس ينشد للشعراء من معاصريه أشعارا تعليمية متنوعة في مسائل العلوم . ولشعراء المغرب الأقصى – في مختلف العصور – شعر كثير في الوصايا والحكم ، ولعمر الفاسي المتوفى سنة ١١٨٨ للهجرة قصيدة في الأمثال والحكم نظمها على مثال لامية العجم ، غير أنه وقف بها عند نحو ستين بيتا ويهمنا في العرض الأدبي لهذا الشعر أن نقف عند منظوماته التاريخية والعامة في الأدب ، ونختار لذلك شاعرين هما عبد العزيز الملزوزي وابن الونان .

عبد(١) العزيز الملزوزي

مكناسي الأصل وأكبَّ منذ نعومة أظفاره على التثقف بالعلوم اللغوية والشعر العربي حتى تفتحت موهبة الشعر فيه ، وقدم إلى المنصور يعقوب المريني فأعجب به وأصبح شاعره ، وهو لا يكتفي بمديحه العام له ، بل ينظم فيه وفي أسرته ملاحم تاريخية بارعة ، من ذلك ملحمته الكبرى : « نظم السلوك في الأنبياء والخلفاء والملوك » وهي منظومة تاريخية يعرض فيها التاريخ من أعتق الأزمنه ، حتى زمن يعقوب المريني ، وفي فاتحتها يقول :

الحمـــد لله مغيث الدين   بالملك المنصور من مَرين

ولا يلبث أن يقول :

---

(١) انظر في ترجمة الملزوزي وشعره التاريخي الإحاطة لابن الخطيب ٤/٢٠ والوافي ٢/٣٦٥ والنبوغ المغربي ١/٢٣٦، ٣/٢٩ .

سميتها من حسنها نظمَ السلوكْ في الأنبيا والخلفاءِ والملوكْ
وأذكــرُ الأمــر على الترتيبِ مختصرا بأحسن التقريبِ
من عهـد آدم إلى زمـانـنــــا أختمها بالغُـــرّ من أملاكنـا

وهو يمضى فى سرد التاريخ منذ أقدم العصور ، حتى إذا وصل إلى دولة بنى مرين ومليكها يعقوب المنصور أخذ يفصِّل الحديث فى تاريخه وأحداثه ومجالسه ، وكأنما هو الغاية المبتغاة من تأليف منظومته ، وفيه يقول :

قد أُلْبِس الوقار والسَّكينه وحَلَّ فى مكانةٍ مَكينه
حتى إذا ما حانَ وقتُ الظهرِ قام إلى بيت النَّدَى والفَخْرِ
يبقى إلى وقت صلاة العصر يأتى بقصدِ نهيِــــه والأمــر
فينصف المظلوم ممن ظلمه ولم يزل إلى صلاة العَتَمه(١)
وأمَّن الغرب من الفسادِ ونشر العدلَ على العبـادِ
وخضعتْ مرينُ تحت قهرِهِ وأذعنوا لنهيــــه وأمـــرِهِ
ورفَع الظلـم عن الرَّعيَّــــه وقمَع الطغـــــاة فى البَرِيَّه

وهو يصور يعقوب المنصور المرينى يحفّ به الوقار والجلال والسكينه ، ويحلّ فى مرتبة رفيعة ، حتى إذا حانت صلاة الظهر أسرع إلى مسجده يؤديها ، ويأتى بعد صلاة العصر لإبرام أوامره ونواهيه وإنصاف المظلومين ، ويظل حتى صلاة المغرب ، وقد نشر الأمن فى البلاد وأخلاها من الفساد ، ونشر العدل فى الناس ، وخضعت له قبائل مرين وأذعنت له ، ورفع عن الرعية كل ظلم عاثت منه وقمع الطغاة الذين ظلموها ظلما فادحا .

وينظم الملزوزى قصيدة تاريخية ثانية فى المنصور يعقوب وجهاده للإسبان فى ديارهم نصرة لبنى الأحمر أمراء غرناطة ، وقد بدأ هذا الجهاد سنة ٦٦٤ للهجرة إذ عبر الزقاق على رأس قوة مرينية كما مر بنا فى الفصل الأول ونكل بالإسبان ، وعاد إلى هذا الجهاد مرارا سنة ٦٧٧ وسنة ٦٨١ واستولى على بعض حصونهم وسنة ٦٨٥ وكان كل ما يحوزه من حصونهم وبلداتهم ، يقدمه إلى بنى الأحمر فى غرناطة متنازلا عنه لهم . فهو لا يجاهد نصارى الإسبان بقصد تكوين دولة عربية جديدة فى الأندلس ، وإنما يجاهدهم انتصارا لدينه ، إذ رأى بنى الأحمر يتخاذلون عن جهادهم وخشى عليهم عواقب هذا التخاذل ، فامتعض للإسلام وأخذ ينازل الإسبان بجيوشه المرينية ، وينزل بهم ضربات متوالية . والملزوزى يبدأ قصيدته بحمد الله جلّ فى علاه وتمجيده ، ويستغرق ذلك أربعة عشر بيتا يختمها بنعمته الكبرى على المسلمين بإرساله فيهم الرسول ﷺ وما خصَّه به من الإسراء والمعراج ، ويلم بتحريضه لأتباعه على جهاد الكفار ،

(١) العتمة : الظلام .

وبنوه بخلفائه الراشدين وبقية العشرة المبشرين بالجنة ومن اقتفوا سيرتهم حين كان الإسلام شامخا ويقول إنه انسحق بعدهم مشيرا إلى إخراج الإسبان للمسلمين من الأندلس ، حتى صار بالمغرب الأقصى غريبا ، إذ استكان سكانه – كما يقول – إلى القعود عن الجهاد ، إلى أن استولى على صولجان الحكم يعقوب المنصور المرينى ، فإذا هو ينازل الإسبان بقواته المرينية وقواده من أبنائه وأبناء رعيّته نزالا ضاريا طوال عشرين سنة والنصر يواكبه . وهذه القصيدة التاريخية الثانية للملزوزى تتغنى بهذه الانتصارات ليعقوب على الإسبان ، وتفصّل أحداثها وما غنم يعقوب من الحصون الإسبانية هو وأبناؤه وقواده وما أنزلوه بهم من هزائم ساحقة فى نحو مائة بيت ، يستهلها الملزوزى بقوله فى يعقوب ونزاله المتكرر للأعداء :

ولم يُعْلَمْ جهادٌ للأعادى ... بِهذى الأرض يُحْتَسَبُ احتسابا
إلى أن فتّح الرحمنُ فيه ... ليعقوبَ بن عبد الحقِّ بابا
لمولانا أميرِ العدل ملكٌ ... به انسلبتْ يَدُ الكفر انسلابا
ولم نر قبله فى العصر مَلْكا ... أرانا فى العِدا العجَبَ العُجابا
دعا لله دعوةَ مطمئنٍّ ... لمولاه دعاءً مستجابا
فلبّى الله دعوته وسَنَّى ... له الحُسْنى وجنَّبه الصِّعابا[1]
فجاز البحر مجتهدا مرارا ... يقودُ إلى العِدا الخيلَ العِرابا[2]

وكأنى بالملزوزى حين نفى أن يكون قد سبق يعقوب جهاد من المغرب الأقصى لنصارى الإسبان إنما يريد أنه لم يحدث جهاد لهم فى عهد الدولة المرينية قبله ، إذ نحن نعرف جهاد الموحدين لهم قبل تلك الدولة وما أنزلوا بهم فى الأرَك وغير الأرك من هزائم ساحقة . ويقول إن الله فتح له فى الجهاد بابا بل أبوابا ، ويشيد بعدله ومحقه لجيوش الإسبان محقا ، وكأنما دعا الله أن ينصره واستجاب دعاءه ، فيسّر له الحسنى من الفتوح حين جاز الزقاق مرارا للجهاد ، يقود إلى الأعداء الخيل العربية الأصيلة فألبسهم هو وبنوه وقواده ذلا مابعده ذل . ويسترسل فى ذكر الوقائع وقوادها وكيف أوسعوا بعض بلاد الإسبان حرقا وانتهابا ، ويتحدث عما ساقوه من الغنائم والأسلاب مع الإشادة بيعقوب وبلائه البلاء المستطاب ، ويختم قصيدته مخاطبا بنى مرين بقوله :

هنيئا يا مرينُ لقد علوتم ... على الأملاك بأسًا وانتجابا[3]
وفاخرتم بمولانا البرايا ... فأعطوكم قيادا وانغلابا
أبعد الفُنْش وابنِ الفونس يبغى ... رضاكم لا يخاف به العتابا[4]

(١) سنى : يسّر
(٢) العراب : الكريمة الأصيلة .
(٣) انتجابا : نجابة واصطفاء .
(٤) يريد ألفونس العاشر وابنه شانجو .

فحزبُ مرينَ حزبُ الله يحمى حمى الإسلام لا يخشى عقابا
إذا سَلّوا السيوف ترى الأعادى وقد حَلّوا الرُّبىَ مَدَّتْ رقابــا

وهو يهنىء مرين بهذا المجد الحربى الذى سمت به على الأملاك شجاعة وانتجابا ، وقد فاخرتموهم بسلطانكم يعقوب فاستسلموا لكم مغلوبين على أمرهم ، وهذا ألفونس العاشر وابنه يمدان يديهما للصلح . وإن حزبكم لحزب الله الذى يحمى ديار الإسلام ، وبمجرد أن ينازل أعداء الدين يلتمسون الربى هلعا ، ويستسلمون بين قتيل وأسير . وفى شعر الملزوزى - كما رأينا - غير قليل من النصاعة والسلاسة ، وقد لبىَّ نداء ربه سنة ٦٩٧ للهجرة .

ابن(١) الونان

هو أبو العباس أحمد بن محمد الونان الحميرى الفاسى من نابهى شعراء العصر العلوى ، تألق اسمه فى عصر السلطان محمد بن عبد الله (١١٧١ - ١٢٠٤ هـ) وهو من صفوة السلاطين العلويين نهض بالمغرب الأقصى وطرد البرتغاليين من الجديدة سنة ١١٨٢ هـ/١٧٦٩ م وعنى بالحياة الثقافية والأدبية . ولابن الونان فيه مدائح متعددة ، وكان أبوه مقربا إلى السلطان ، وكان ظريفا فسماه أبا الشمقمق . وأول منظومات ابن الونان فيه أرجوزة سماها الشمقمقية ، ويقال إنه حاول أن يصل إلى السلطان لينشدها ، ولم يتح له ذلك ، فترصد موكبه يوما وصعد على ربوة ، ونادى بأعلى صوته عليه :

يا سيِّدى سِبْطَ النبى أبـو الشمقمق أبى

فطلبه السلطان ، وصحبه معه إلى القصر وأصبح من حاشيته . والشمقمقية أرجوزة فى ٢٧٥ بيتا ، للسلطان محمد منها ٢٧ بيتا ، وبقيتها موسوعة أدبية ، استهلها بالرحلة فى مجاهل الصحراء واصفا رَكْبَ النوق الذى كان فيه ، وظل فى أكثر من أربعين بيتا يحاور حاديها طالبا إليه أن لا يكلفها فى السير بما لا تطيق جامعا لها فى وصفها كثيرا من أوابد اللغة . ويصف صاحبة له فى ٢٥ بيتا ويورد فى وصفها المادى طائفة من الألفاظ الغريبة ويقول إن لم يظفر بها فسيشنّ على قومها غارة بفرسان من خير يعرب . ويسترسل فى فخره بآبائه وقبيلته اليمنية فى نحو خمسة وثلاثين بيتا ، ويفضى إلى طائفة كبيرة من الأمثال والحكم فى نحو تسعين بيتا ، وهى لب الأرجوزة ، ولذلك جعلناها من الشعر التعليمى ، ويمدح الشعر وشاعرية أبى الشمقمق ، وكأنما الأرجوزة كانت منتهية فى هذا الجزء منها ، ورأى أن يضيف إليها مديحا للسلطان محمد بن عبد الله .

ولا تلاحظ كثرة الألفاظ الغريبة فى الأرجوزة فحسب ، فإنها تحمل كثيرا من أمثال العرب

(١) انظر فى ترجمة ابن الونان وشعره الوافى ٨٦٢/٣ وما ذكره من مراجع ، مع شرح الشمقمقية لكنون ، والحياة الأدبية فى المغرب عند الدكتور الأخضر ص٢٩٨ وانظرها فى النبوغ المغربى ١٧٨/٣ .

القدماء ومن شخصياتهم وشعرائهم وأدبائهم منذ الجاهلية حتى العصر العباسي يكمل بهم المعاني في أبياته . وهو ما جعل أدباء المغرب يهتمون بكتابة شروح لها متعددة ومن أهمها شرح السلاوي وشرح عبد الله كنون ، ونقتبس منها أبياتا سهلة لتدل بها على خصب شاعريته فمن ذلك قوله فيمن سماها لُبنى :

تَسْبى بثغــرٍ أشنبٍ ومَرْشِفٍ قــد ارتــوى مِن قَرْقَفٍ معتّقِ[1]
وزاد مسكُ الخال وردَ خدِّها حُسْنا وقد عمَّ بطيبٍ عَبِقَ
وقبَّلتْ أقدامَهـــا ذوائــبٌ سودٌ كقلب العــاشقِ المحترقِ
كم أودعتْ في مقلتي من سَهَرٍ وأضرمتْ في مهجتي من حُرَقِ
ولا يــزال فــي ريـــاض حُسْنها يَسْرح فكـــرى ويجـــولُ رمقى

فهي تخلب من يراها بفمها الجميل وريقها الذى كأنه من خمر معتقة ، وقد زاد مسك الخال ورد خدودها حسنا بشذاه العبق ، وقبلت ضفائرها أقدامها وهي شديدة السواد كقلب عاشقها المحترق ، وقد أودعت مقلته سهرا متصلا ، وأضرمت في مهجته حرقا متقدة ، وإن فكره ليسرح دائما في رياض حسنها ويجول معه ما بقي من شعوره بالحياة . والقطعة تموج بالصور والأخيلة . ومن قوله في الأرجوزة مفاخرا :

سَلِ ابنَ خلدونٍ علينــا فلنــا يَمنٍ مآثـــرٌ لـــم تُمْحَقِ
بهم فخرتُ ثم زدتُ مَفْخَـــرا بأدَبى الغَضِّ وحُسْن منطقــى
وزانَ علمى أدبــى فلــن ترى مَنْ شِعْــرُه كشعــرىَ المنمَّقِ
فــإن مدحــتُ فمديحى يُشْتَفَى بــهِ كمثل العَسَــل المــروَّقِ
وإن هجــوتُ فهجائى كالشَّجَا يقفُ في الحلق ومثل الشَّرَقِ[2]

وهو يقول سل ابن خلدون عنا ويريد سل تاريخه وما اشتمل عليه من أسماء آبائه ومآثرهم وأمجادهم ، ويذكر أنه يفخر بهم ويزداد فخرا بأدبه وحسن بيانه ومنطقه ، وقد زان علمه أدبه ، ولن ترى لأحد شعرا كشعرى المنمق ، فإن مدحت فمد يحى مثل العسل المصفى ، وإن هجوت فهجائى غصص تعترض في الحلق ويشرق أو يغص بها المهجوُّون . وتوفى ابن الونان سنة ١١٨٧ هـ/١٧٧٣ م . وحسبنا من الشمقمقية هذه الأشعار الواضحة البينة ، أما ما وراءها من أشعار أخرى فيكتظ بالألفاظ الحوشية ، وبالأسماء والأمثال من جاهلية وإسلامية مما يكدُّ القارىء ويحوجه فيها إلى كثير من الشرح والبيان .

---

(١) ثغر : فم . أشنب : رقيق . مرشف : الفم وما به من ريق . قرقف : خمر .

(٢) الشجا : ما يعترض في الحلق . الشرق : الغُصَّة .

الفصل الخامس
طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل

الغزل من أهم موضوعات الشعر العربى ، وقد نظمه شعراؤهم فى جميع عصورهم وأقاليمهم مصوِّرين فيه عاطفة الحب الإنسانى وما تثير فيهم من المشاعر والخواطر . والشاعر تارة سعيد بحبه فى وصاله ووداعه ، وتارة شقى محروم يتضرع ويستعطف ويتمنى ولو نظرة من بعيد . وقلما لا يتغنى شاعر عربى بالحب ، فالشعراء جميعا يتغنون به حتى الفقهاء ومثلهم العلماء من كل صنف . ولكل وطن عربى مجلداته فى هذه العاطفة الخالدة وللمغرب الأقصى بدوره مجلداته ، إذ نجده على ألسنة كثيرين من الشعراء والأدباء والعلماء معبرين فيه عن لحظاته الهنيئة من لقاءات صواحبهم ولحظاته المرة من هجرهن وانصرافهن عنهم دون وداع أو ما يشبه الوداع . وأول ما نلتقى به منهم فى عصر المرابطين بالمائة الخامسة للهجرة ابن القابلة السبتى إذ يقول[1] :

ووجه غزالٍ راق حُسْنًا أديمهُ ... يَرَى الصبُّ فيه وجهه حين يُبْصِرُ
تعرَّض لى عند اللقاء به رشًا ... تكاد الحميَّا من محيَّاه تَقْطر
ولـم يتعـرَّض كى أراه وإنمـا ... أراد يُرِينـى أن وجهىَ أصفـر

وهو يقول : بلغ وجه صاحبته من الجمال وشفافيته أن يظن مبصره أنه يرى فيه وجهه ، وهى غزال أو رشا يكاد محياها يقطر خمرا ينتشى به مبصر وجهها كما ينتشى بشرب الخمر . ويتلطف فيقول إنها لم تتعرض له ليرى ما فى وجهها من بدائع الحسن ، وإنما ليشعر بما حدث له فى قلبه من شدة الخفقان وفى وجهه من شدة الاصفرار حياء منها وانبهارا . ويقول ابن زنباع شاعر هذا العصر[2] :

لهَوَاكِ فى قلبى كريقكِ فى فمى ... غَيْرى يقـول الحبُّ مرُّ المَطْعَمِ
فـأَدِرْ علىَّ بمُقْلَتَيْك كئوسَـه ... حتى يدبَّ خُمارُه فى أعظمى[3]

(١) الذخيرة لابن بسام ٣٨١/١/٤ .
(٢) قلائد العقيان ص ٢٦٤ .
(٣) الخمار : الانتشاء بالخمر .

إن التلدُّد في هـواكِ تلذُّذ   لو كان أقتلَ من زُعاف الأرقم[1]
يا أيهـــا القمــر الذى إنسانُه   يَرْمِي أُناسـًا للعيـــون بأسهم
لم أُبدِ حُبَّك غير أن جَوانحي   فاضَتْ به فيضَ الإناء المفعم
لا ذنبَ لى عَلِمَ الذى أسررتُه   نظرا ولم أرمُزْ ولم أتكلم
فتلافَنى قبـــل التَّــلافِ فـإننى   من حِمْيَرٍ وسيأخذونك فى دمى

وهو يخاطب صاحبته فيقول لها : غيرى يقول الحب مر ، أما أنا فأقول حبك فى قلبى حلو كريقك فى فمى ، ويتمنى عليها أن تدير كئوسه بعينيها الفاتنتين ، حتى ينتشى بخماره الممتع . ويقول لها إن التلدد أو العذاب فى حبها له فى نفسه لذة لا تماثلها لذة ، حتى لو كان قاتلا مثل سم الأفعوان . وإنها لقمر يرمى إنسان عينها بأسهم تصيب أفئدة الرجال ، ويقول لها إننى لم أُفش حبك غير أن جوانحى اكتظت به حتى فاضت به فَيْضَ الإناء المملوء إلى حوافيه ، ولا ذنب لى كما تعلمين فإننى أسررت إليك نظرا لم يره أحد ، ولم أُنبِئْ به أحدا . ويترسل إليها أن تتلافاه فتصله وتلقاه قبل هلاكه . ويقول إنه من حمير ، وإن لم تستجب له وتركته يهلك فسيدركون فيها ثأر الأسد الضرغام . ويقول القاضى عياض[2] :

يا راحلين وبالفـؤاد تحمَّلوا   أيُرَى لكم قبـل الممات قفولُ
أما الفؤادُ فعندكم أنباؤهُ   ولـواعجٌ تتنابـــه وغليـــلُ[3]
أتُرى لكم علمٌ بمنتزح الكَرَى   عن جفن صَبٍّ ليلُــه موصولُ
أودى بعزمـــةِ صبره وإبائه   طَرْفٌ أحمُّ ومبسمٌ مصقول[4]
ما ضرَّكم ، وأضنَّكم بتحيَّةٍ   يحيى بها عند الـوداع قتيلُ
إن البخيـــلَ بلحظةٍ أو لفظة   أو عطفـــةٍ أو وقفـــةٍ لبخيل

والقاضى عياض يقول إنهم رحلوا بصاحبته ورحل فؤاده معها ، ويتمنى لو عادوا به مماته ويقول إن عندهم أنباء فؤاده وما يضطرب فيه من آلام الحب وحرقه ، ويسألهم ألهم علم بالنوم الذى نزح عن جفون محب ، ليله موصول بالسهر والسهاد ، ولقد ذهب بصبره وإبائه عين ذات سواد جميل وفم يَرْتسم عليه ابتسام لطيف ، ويقول : ما ضرَّهم لو تولوه ما طلب وما أبخلهم بتحية ترد الحياة إلى قتيل ، ويقول إن من لا تنيل صاحبها لحظة لقاء أو لفظة وداع أو عطفة أو وقفة لشديدة البخل على من يكتون لها حيا يستأثر بأفئدتهم وقلوبهم . ويتكاثر الغزل فى عصر الموحدين ويبرز فيه أو يشتهر شاعران هما أبو الربيع سليمان الموحدى وأبو حفص

(١) التلدد هنا : العناء . زعاف الأرقم : سم الثعبان .
(٢) انظر التعريف بالقاضى عياض لابنه محمد ، تحقيق د . بنشريفة .
(٣) لواعج : آلام .
(٤) أحم : أسود .

عمر بن عمر السلمى ، وسنخص كلا منهما بترجمة . ومن شعراء العصر ابن عبدون المكناسى المتوفى سنة ٦٥٨ للهجرة ، ومن غزلياته قوله[1] :

يا جيرتى ومَن استجرتُ بهم … مِن جَـوْرِ عِزِّهِمُ عـلى ذُلِّى
عوَّضْتمـونى بالـودادِ قِلًى … وأبدلتمُ الإنصـافَ بالمَطْلِ[2]
ما هكذا فعلُ الكرام بمن … منهم تعوَّد أجمل الفِعْلِ
علَّقت حبـلَ محبَّتى بكـمُ … بَحياتِكـم لا تقطعـوا حَبْلى
ما كان أنْدَى ظلَّ عيشتنا … إذ كان منتظما بكم شمْلى
عودوا إلى عادات وَصْلكمُ … لا تَحْرِمونى لذَّة الوصلِ
وإذا أُبيتم غير جَـوْرِكمُ … فالجَـوْرُ منكم غايـةُ العَدْلِ
إن شئتمُ قتلى فهـا أنـا ذا … لا تحذروا من طالبٍ ذَحْلى[3]

وهو يقول إنه يستجير من جور صاحبته وشعورها بالعزة على ذلّه وهوانه فقد أبدلته بالمودة بغضا وبإنصاف اللقاء ونعيمه مطلا ، وليس ذلك بفعل الكرام ومن عوَّدته أجمل الفعل ويذكر أنه علَّق محبته بها أو بهم – كما يقول – فلا تقطعوا حبلى ، وما كان أجمل عيشتنا حين كنا ننتظم معكم فى جماعة واحدة . ويضرع إليها – أو إليهم – أن لا يحرموه لذة الوصل ، وحاشاكم أن تعقبوا الإخصاب والود بالجدب والبغض . وحتى إذا أبوا غير ظلمه فإنه يعده غاية العدل ، وإن أرادوا قتله فليقتلوه غير حذرين فليس وراءه من يطلب ثأره . ونلتقى فى أوائل العصر المرينى بالشاعر الفذ مالك بن المرحل المتوفى سنة ٦٩٩ للهجرة ، ومرَّ بنا أن الأستاذ هلال ناجى نشر له فى المجلد الثالث من مجلة المورد ببغداد رسالتين فى عروض الدوبيت أو الرباعيات ، عُنى فى أولاهما بوزنه على فَعْلن متفاعلن فعولن فعلن ، وفى ثانيتهما بوزنه الثانى فعلن فعلن مستفعلن مستفعلن ، وأنشد له الأستاذ عبد الله كنون فى عروض الوزن الأول للدوبيت مجزوءًا غزلية يقول فيها[4] :

يـا عاذلتـى إليك عنى … لا تقربُ ساحتى العواذلْ
مهلا فدمى لـه حلالٌ … مـا أقبلُ فيـه قـولَ قائلْ
قد نمَّ به شَذَا الغَـوالى … إذ هبَّ ونمَّت الغلائل[5]
والسِّحْرُ رسول مُقْلَتَيْهِ … ما أقرب عهدَه ببابل
والـروضُ يُعير وَجْنَتيه … وَرْدًا كهواى غيرَ حائل
يَسْبيك برقَّة الحـواشى … عشقـا ولطافـةِ الشمائل

(١) الوافى ١/٢٣٢ والنبوغ المغربى ٦٨/٣ .
(٢) قلى : بغضا .
(٣) ذحل : ثأر .
(٤) النبوغ المغربى ٦٩/٣
(٥) الغوالى جمع غالية : الطيب . الغلائل : الثياب .

وهو يقول لعاذلته ابتعدى عنى، فساحتى لاتقربها العواذل، وإن دمى لصاحبتى حلال ولا أقبل فيه قول قائل. وإن روائح الغوالى أو الطيب لترافقها وتنم عنها ثيابها ، وإن عينيها لترسلان سحرا كأنه مجلوب توا من بابل بلدة الساحرين هاروت وماروت ، وكأنى بالروض يعير وجنتيها وردا بديعا لا يذبل أبدا كحبها ، وإنها لتسبيك بلطفها ورقتها ولطف شمائلها ، مما يجعلك تعشقها عشقا متصلا . ويقول عبد المهيمن الحضرمى الوزير المرينى المتوفى سنة ٧٤٩ للهجرة[١] :

كانوا نعيمَ فؤادى والحيـــاةَ له ... فالآن كلُّ وجـــودٍ بعدهم عَدَمُ

بانوا فعـــاد نهـــارى كلُّه ظُلَمًا ... وكان قُرْبُهـــمُ تُمْحَى بـــه الظُّلَمُ

والعـــينُ منىَ لا تَرْقـا مدامعُهـا ... كأنهـــا سحبٌ تَهْمِى وتنسجـمُ

تبكى عهـــودَ وصالٍ منهمُ سلفتْ ... كأنمـــا هـــنَّ فى إنسانهـا حُلُمُ

لئن ضحكتُ سرورًا بالوصال لقد ... بكيت حزنا عليهم والدمـــوعُ دَمُ

هم علَّمونى البُكا ما كنت أعرفـه ... يا ليتهـــم علَّمـــونى كيف أبتسمُ

وهو يفدى بنفسه عهدا جميلا استطاب له العيش فيه وجيرةً كان يأنس بوصلهم ، وكانوا نعيم فؤاده وحياته ، ورحلوا فأصبح كل وجود بعدهم كأنه عدم ، وأصبح النهار كله ظلمات بعضها فوق بعض وكان يمحى بقربهم كل ظلمة وكل ظلام ، وإنه ليبكيهم ولا تجف دموعه كأنها سحب تهمى مدرارا ، وعينه تبكى عهدا يبدو فى إنسانها وكأنما كان حلما ، ولئن ضحك سرورا بهم قديما لقد أصبح يبكيهم بدموع قانية كأنها دماء مسفوحة ، ويقول إنهم علموه البكا ولم يكن يعرفه ، ويتمنى لو كانوا علموه كيف يبتسم إذا نزلت به المحن والخطوب . ونمضى إلى العصر السعدى ونلتقى فى كتاب روضة الآس للمقرى بمحمد الوجدى الغماد المتوفى سنة ١٠٢٢ للهجرة ، وله من قصيدة غزلية[٢] :

إن الرشـاقة واللطـافة والصَّبـــا ... حةَ والحلاوة والمـــلاحةَ والحَوَرْ

صيغتْ لمن أهـــوى وأُلبس سُندسًا ... منها وديباجـــًا عليـــهِ قد ظهـــر

وإذا نظـــرتَ لوجهه ولعينـــه ... قلت الجمال من الخدود قد انفجر

عينى وأذنـــى فى النعيـــم بنظرةٍ ... وبلفظـــةٍ منـــه وقلبـــى فى سَقَرْ

هـــل عطفـــةٌ أو زورة أو وقفـــةٌ ... أو لفظـــة تقضى بإدراك الوطـــر

وهو يجمع لصاحبته فنون الحسن من الرشاقة واللطافة والصباحة والحلاوة والملاحة وحور العين الفاتنة ، وكأنما صيغ لها من كل ذلك سندسا وديباجا لبسته ، وإنك لتخال كأنما الجمال اجتمع بكل فِتنَه فى وجهها ، وإنه ليخال كأنما عينه حين تنظر إليها وأذنه حين تصغى لها ، كأنما هما فى نعيم الفردوس ، بينما قلبه فى جحيم من الحب ولوعاته ، ويتمنى عطفة منها إليه

(١) النبوغ ٧٢/٣ والوافى ٣٣٢/١ .

(٢) روضة الآس ص ٧٤ .

أوزورة أو وقفة ، أو حتى لفظة يدرك بها مناه . ويقول أبو سالم العياشى المتوفى سنة ١٠٥١ للهجرة فى وداعه الرائع[1] لزوجته :

ولم أنسها يقظانةَ الهمُّ فى الحَشا ... مبلبلةَ الأشجـــان وَسْنانةَ الطَّـرْفِ
تقول وقد حَلَّ الرحيـــلُ أهكذا ... تحمِّلنى ثِقْــــل الفـــراق على ضعفى
أتترك أفراخـــًا كزُغْب القَطَـا ومـــا ... رحمتَ بنيـــك إذ سلوتَ عن الإلْف[2]
فقلتُ لها كُفِّى المـــلامَ فأعرضتْ ... كخِشْفِ النَّقَا تَسْتَعْرِضُ الدمعَ بالكف[3]
فودَّعتُهـــا والقلبُ منطبـــقٌ على ... أســـاه ودمعى لا يمـــلّ من الوَكْفِ[4]
عليكِ ســـلامٌ لا زيـــــارةَ بيننـــا ... مـع البعـــد إلا أن أزور مـع الطَّيْف

وهو يقول إنه ودعها صباحا وأشجانها تملأ صدرها ، ولا تزال سنة من النوم عالقة بطرفها ، وتقول له وقد أزف الرحيل : أتتركنى أتحمَّل أثقال الفراق على ضعفى . أتترك أبناء صغارا كأولاد القطا لم يطل ريشهم ، فهلا رحمتهم حين سلوتنى ولم ترحل ؟ فقلت لها كفى عن الملام ، وظلتْ تذرف الدمع . وودعها وقلبه يكتظ بالأسى والحزن ، ودمعه يتقاطر ولا يكف ، وسلَّم عليها ، وهو يقول فى نفسه لن أزورك مع البعد إلا أن أزورك فى الحلم مع الطيف . ويتكاثر الغزل فى العصر العلوى ، ومن مختاره قول أبى عبد الله الشرقى المتوفى سنة ١١٧٠ للهجرة[5] :

مَنْ لى بها تَخْتال فى حَلْيِها ... كروضةٍ تختـــالُ فى زَهْرِهـــا
فبِشْرُها أرحبُ من بِشْرِها ... ونَشْرُها أطيب من نشْرِها[6]
وخدُّهـــا أبهجُ من وَرْدِهـــا ... ونُورُها ألطف من نَـــوْرِها[7]
وَقدُّهـــــا أرْفَـــعُ من غُصْنِها ... ووجهها أبيضُ من فَجْرِها
العيش والجنَّـــــة فى وَصْلِها ... والمـــوت والنيران فى هجرهـــا

وهو محب لصاحبته أشد الحب ، وتتراءى له فى حليها تختال كروضة فى زهرها ، ويستمر فى المقارنة ، فبشرها وتهلّل وجهها أرحب من بشر الروضة وتهللها ، وعطرها أطيب من عطرها وخدها يفوق وردها فيما يبعث فى نفس الناظر إليها من البهجة والسرور . ونورها يفوق زهر الروض لطفا وحسنا ، وقدها نخيل ممشوق أرفع من غصن الروضة ، ووجهها يفوق فى بياضه بياض فجرها ، وما وصلها إلا الحياة والفردوس وما هجرها إلا الموت والجحيم .

(١) النبوغ المغربى ٨٧/٣ .
(٢) زغب القطا : أولاده الصغار قبل أن يطول ريشهم .
(٣) خشف النقا : ظبية الرمل .
(٤) الوكف : تقاطر الدمع .
(٥) النبوغ المغربى ٩٢/٣ .
(٦) نشرها : شذاها وعطرها .
(٧) النور بفتح النون : الزهر .

وحرى بنا أن نتوقف قليلا بإزاء شاعرين غزلين كبيرين من شعراء عصر الموحدين ، هما أبو الربيع الموحدى وعمر السلمى .

أبو الربيع[1] الموحدى

هو أبو الربيع سليمان بن عبدالله بن عبدالمؤمن، فهو من أسرة الموحدين الحاكمة، وقد عنى أبوه بتربيته، فنشأ أديبا شاعرا ، ولا يُعْرَفُ تاريخ ميلاده ، والمظنون أنه ولد حوالى منتصف القرن السادس ، وعاش حتى أوائل القرن السابع إذ توفى سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٨م ونرى العلاقة سيئة بينه وبين ابن عمه الخليفة يعقوب فى أوائل توليه الحكم (٥٨١ - ٥٩٥ هـ) ومازال يستعطفه حتى عفا عنه وأصبح من كبار رجال دولته ، وأخذ يعقوب يكلفه بكثير من الأعمال المدنية والحربية فأدَّاها على خير وجه ، وجعلته هذه الصلة بابن عمه والدولة يعيش فى رفاهية من العيش ، مما جعله يكثر من الخَمريات كما جعله يعيش لعواطفه الشخصية وخاصة فى الحب والغزل ، وهما يستغرقان الشطر الأكبر من ديوانه من مثل قوله :

حَسْبُ الهوى من قتيل الحب مَصْرَعهُ وحَسْبه منه ما تحـويه أضلعهُ
قالوا تعزَّ وقد بانوا فقلت لهم كيف العزاءُ وأدنى البينِ أوجعه
لا عذَّب الله قلبا بالفراق ولا سقاه من صابهِ ما بتُّ أجْرَعُه
لا تعذلونى فمـا أُصغى لعذلكـمُ صمَّتْ عن العـذل أُذْنى ليس تسمعه

وهو يقول يكفى المحب مصرعه وماتحويه منه أضلعه، وهو يحاول كتمان أساه وضناه، وعبثا يستطيع ذلك ويقول الناس له تعزَّ عن صاحبتك حين رحلتْ ، ويجيبهم كيف أتعزى ومواجع البين آخذة بتلابيبى، ويدعو الله أن لايعذب بالبين والفراق قلبا ولا يسقيه ما يتجرعه من المرِّ والعذاب، ويقول لعذاله لاتعذلونى فلست أصغى إلى عذلكم إذ أصاب أذنى صمم فلاتسمعه.

ويقول:

كيف التصبُّرُ والأشـواقُ تـزدادُ والدارُ تَنْأى وما للوصل ميعادُ
وكلما قربتْ منى ديـاركـمُ ينأى المـزار كأنَّ القـرب إبعـاد
والقلب فى حُرَقٍ والجفنُ فى أرقٍ وللبـلابـل إصدارٌ وإيـراد[2]
إنى وإن فـاتنى عيـدٌ بربْعكـمُ حسبى بلقيـاكِ أعراسٌ وأعيـاد

إنه لا يستطيع صبرا عن رؤية صاحبته ، فالأشواق تزداد ، ودارهم تبتعد ، وليس للوصل ميعاد . ويقول إن ديارهم كلما قربت منه نأت الزيارة ، وكأن القرب تحول نوعا من الإبعاد ، وقلبه فى حرق من الحب ، وجفنه فى أرق والبلابل أو الشجون تقلقه ، ويقول إنه إن فاته العيد فى ديارهم ، فلقاؤها أعراس وأعياد تنتظره . ويقول :

---

(١) انظر فى ترجمة أبى الربيع الموحدى وأشعاره الوافى ص ١٨٤ - ٢٢٧ ودراسة للدكتور عباس الجرارى ، وديوانه منشور .

(٢) البلابل: الشجون. إصدار وإيراد : رواح ورجوع .

الشوقُ يزداد إذ تدنو بك الدارُ فهل على الشوق أعوانٌ وأنصارُ
ما باختيارى نأتْ بى الدارُ يا أملى وليس غير دُنُوّى منك أختار
ما سرتُ ميلا ولا جاوزتُ مرحلةً إلا وفى النفس من تذكاركم نارُ
ولا نظرتُ إلى شىءٍ فأعجبنى مذ فارقتْ وجهكِ المحبوبَ أبصارُ
الله يعلم أن القلب عندكمُ وإن تناءت به عن إلفه الدارُ
ما ضر طَيْفكمُ لو زارنى بدلا منكم وطيف حبيب النفس زوّارُ
الذنبُ للنوم لا للطّيْف يا سَكنى وكيف يطرقنى والنـــوم فــرّارُ

وشوقه يزداد كلما دنت منه دارها وكأنما له أنصار وأعوان يساعدونه ، ويقول إنه ليس باختياره بعد دارها عنه، إذ يختار دائما دنوها وقربها، ويقول إنه لم يسر ميلا ولامرحلة إلاوتشتعل ذكراها فى نفسه ، ولم يشغل نظره بشىء بعد رؤية وجهها المحبوب ، ولكأنما رحل عنه قلبه معها ، ويعجب أن طيفها لايزوره بينما طيف الأحبة دائما زوار للمحبين، ويعتذر عنه، فالذنب للنوم لاللطيف، لأنه لاينام إذ يبيت دائمًا مسهدًا لايفكر فى شىء سواها . ويقول:

يا مزمع البَيْن فى تَرْحالك الأجَلُ وأنت لاهٍ بحبُ البَيْن مُشْتغلُ
إنى لأعْظم أن تمضى وتتركنى والدمع يَهْمى ونـارُ الوجد تشتعل
فلا تروعُ فـؤادا أنت ساكنُه بالبين منك فإنى والـهٌ خَبِلُ
لم يدر قومكِ ما ذا فى ترحُّلهم من الذنوب ولو يدرون ما رحلوا
سَرَوْا — يزعمهمُ — ليلا وما علموا بأنهم فى فـؤادى حيثمـا نزلـــوا

وهو يخاطب صاحبته المصممة على الرحيل ، ففى رحيلها موته إذ سترحل بحبيبة قلبه ، وهو يعظم أن ترحل وتتركه لعذابه ، والدمع يهطل ونار الحب والوجد تشتعل ، ويقول لها لا تروّعي فؤادى بالبين فإننى فى غاية الحزن وأكاد أجن ، ولم يدر قومك ما فى ترحلهم من الذنوب والآثام بسببى ولو عرفوا ذلك ما رحلوا ، وقد ساروا ليلا وما علموا أنهم دائما فى فؤادى أذكرهم وأذكرك ذكرى متصلة . ويقول :

أقول لركبٍ أدْلجوا بِسُحَيْرةٍ قفوا ساعةً حتى أزورَ رِكابها
وأملأَ عينى من محاسنِ وجهها وأشكو إليها أن أطالتْ عِتابها
فإنْ هى جادتْ بالوصال وأنعمتْ وإلا فحسبى أن رأيتُ قِبابها
وقفتُ بها أشكو وأسكبُ عَبْرَةً على غير بَيْنٍ ما عرفتُ انسكابها
فأومتْ برَخْصٍ من بنانٍ مخضَّبٍ وحطّت على البدر المنير نِقابها
وقالــتْ أيبكى البينَ من قد أراده ويشكو النّوَى من قد أثـار غُرابها

وهو يضرع إلى ركب صاحبته الذى سار بها سحرا أن يتوقف ساعة ليزور ركابها ويملأ عينه من محاسن وجهها ، ويشكو إليها طول عتابها ، فإن هى نعمت بالوصال فبها وإلا فحسبه أن رأى قبابها وخيامها ، ويقول إنه وقف بها يشكو ويسكب عبراته التى لا يسكبها فى غير بين ، وكأنما عطفت عليه فأومت ببنان غضٍّ مخضب وقد وضعت نقابها على وجهها المنير كالبدر فى اكتماله ، وعاتبته قائلة أتبكى من البين وأنت الذى أردته وتشكو النوى والفراق وأنت الذى أثرت غرابه . وواضح أنه يتميز بموسيقى عذبة وقلما يَضْنَى فى شعره أو فى حبه ، لأنه أمير مترف ، وشعره لذلك ليس فيه تعمق فى وصف دقائق الحب ومعانيه .

عمر[1] السلمى

هو أبو حفص عمر بن عمر السلمى ، ولد بأغمات سنة ٥٣٠ هـ/١١٣٦ م ، وعنى به أبوه ، وصَحِبه معه وهو قاض بفاس فأكبَّ بها على حلقات الفقهاء والأدباء ، وأعدَّه إكبابه على الفقه والحديث النبوى ليتولى منصب القضاء فى تلمسان وفاس وإشبيلية . وكان مع إحسانه للفقه والفتاوى الدينية شاعرا مجيدا ، وله مدائح فى يوسف بن عبد المؤمن وابنه يعقوب ، واشتهر فى البيئتين : المغربية والأندلسية بشعره فى الغزل ، وأخذه عليه بعض المتزمتين ولم يُصْغِ لهم ، ويقول مترجموه إنه كان يعنى بمسكنه وملبسه وزينته عناية الشعراء الفنانين من أمثاله ، ومن غزلياته قوله :

أعيذُك يا سُلَيمى من سُلَيْمٍ ... قتلتِ فتاهمُ وهْو الزعيمُ
قتيلُ الحبِّ لا يُودَى وعانيـ ... ـه لا يُفْدَى ولا فيه الخصومُ[2]
ومالى طالبٌ بِتِراتِ قتلى ... إذا قتَل الغرامُ فلا غريمُ
فؤادى سار نحوكِ عن ضلوعٍ ... بها يا ريمُ حُبُّك لا يَريمُ[3]
ودادُك صحَّ فى قلبٍ سقيمٍ ... كطَرْفك صحَّ ناظرُه السقيمُ
إذا أعرضْتِ تسودُّ الأمانى ... وإن أقبلتِ تبيضُّ الهمومُ
وما حُبِّى لها إلا عذابٌ ... عليهِ مِن نضارتها نعيمُ

وقد اختار لصاحبته اسم سليمى ليجانس بينها وبين اسم قبيلته سليم وفى ذلك تكلف واضح ، ويلقب نفسه بالزعيم فخرا لا يستحب فى الغزل ، ويقول لها إن قتيل الحب لا يؤخذ بثأره ولا يفدَّى ، وإنه ليس له طالب بثأره إذا قتله الغرام ، وحبها مستقر بين ضلوعه لا يبرحها .

---

(١) انظر فى ترجمة السلمى وأشعاره أزهار الرياض ٣٦١/٢ وما بعدها والذيل والتكملة لابن عبد الملك فى ٢٢٢/١/٨ والغصون اليانعة لابن سعيد والوافى بالأدب العربى فى المغرب الأقصى ١٦٨/١ وما بعدها والنبوغ المغربى ٦٢/٣ وما بعدها .

(٢) لا يودى : لا يؤخذ بثأره .

(٣) لا يريم : لا يبرح .

وإنما سماها في البيت الرابع ريمًا ليجانس بين اسمها والفعل في آخر البيت ، ويقول إن قلبه سقيم مثل طرفها ، ويعنى في البيت السادس بالطباق بين اسوداد الأمانى وابيضاض الهموم ، ويقول إن عذابه في حبها عليه أثارة من نضارتها . وفي رأيى أن السلمى لم يكن على طبيعته حين نظم هذه المقطوعة ، ولذلك تكلف فيها ألوانا من التكلف . ويقول :

أغارَ على الصبِّ مَنْ أَنَّبَهْ ... هو الحبُّ مَنْ يُطْفِهِ أَلهَبَهْ
نأى القلبُ عنى وشوقى معى ... فِللَّه أمــرىَ مــا أعجبَه
يحــنُّ فـؤادى إلى قــاتلى ... كذاك الهــوى عند من جَرَّبَه
يجــود لُمسْخطه بالرضا ... ويطلبُ راحــةَ مــن أتعبَــهْ
إذا شفَّ قلبى غـرامُ الهــوى ... دعــا بالنعيــم لمــن عذَّبَــهْ

وهو يقول إن شخصا نزل بالمحب أنَّبه ، وكأنه لا يعرف أن من يريد أن يطفىء الحب بالتأنيب أو باللوم يُشْعله ، ويعجب أن قلبه رحل مع صاحبته ولا يزال ما كان يختلج فيه من أشواقه معه ، وإن فؤاده يحنُّ دائما إلى رؤية صاحبته قاتلته شأن المحبِّين جميعا . ويجود المحبوب بالرضا لمن أسخطه ، ويطلب الراحة لمن أتعبه ، ويقول إن الغرام كلما أَضْنَى قلبه وشفَّه دعا بالنعيم لمن عذبه . وهي رقة واضحة في الغزل . ومن قوله في جمال الأعرابيات بالقياس إلى الحضريات مستلهما المتنبى وإعجابه المعروف بالبدويات :

مَها القَفْرِ لا دُمْيةُ المرمــرِ ... وفى العُرْب لا فى بنى الأصْفَرِ(١)
بنفسى يَعافيرُ تلك الخيــامِ ... ومَسْرَحُها فى النَّقــا الأعْفَــرِ(٢)
ملاعبُ يَصْبُو إليها الحكيــم ... ويُسْلَب فيهــا فـؤادُ الجَـرِى
وفيها الظبــاء بنـاتُ الأسـودِ ... غَيــارَى متى بَغَمَتْ تَـزْأَرُ(٣)
فخِيسُ الهِزَبْرِ كِنــاسُ الغـزال ... بــهِ الشِّبْلُ نـاشٍ مـع الجُؤْذَرِ(٤)
يُخالِسُهــا نظــرا تحتَــهُ ... غــرامٌ بـــه الحىُّ لــم يشْعُرِ
وباللحظ يُقْدَحُ زَنْــدُ الهــوى ... فطَــرْفٌ غَــرٍ وفــؤادٌ بَــرِى

وهو يفضل جميلة القفر البدوية على دمية المرمر الحضرية ، ويكفى أن يسميها دمية فليس فيها حيوية البدوية ولا نضرتها ، ويقول إنه يفدى بنفسه وروحه ظباء تلك الخيام وملاعبها في الرمل المغبر . ويقول إنها ملاعب تجذب الرجل الحكيم وتسلب فؤاد الجرىء الشجاع ، فيها الظباء كريمات الرجال الأسود اللائى إذا صحن ظننت أنهن يزأرن ، وكأنما بيت هذا

(١) بنو الأصفر : الروم وأمثالهم من الإسبان .
(٢) اليعافير جمع يعفور : الظبى وولد البقرة الوحشية . النقا : الرمل . الأعفر : المشوب بالعفر والتراب .
(٣) بغمت : صاحت .
(٤) خيس الهزبر : أجمة الأسد . الكناس : بيت الغزال . الجؤذر : ولد البقرة الوحشية .

الغزال أجمة أسود ، به الشبل ناشىء مع بنت عمه التى تشبه ابنة البقرة الوحشية ، وكل منهما يختلس النظر إلى الآخر تعبيرا عن غرام مكتنٍّ لايشعر به الحى ، وباللحظ وحده يضطرم الهوى ، وطرف يغرى به وفؤاد لايزال طاهرا بريئا . وهى لوحة بديعة لفتيات البادية . ومن قوله متغزلا :

هذا فـؤادى أَقْصَدَتْــه الأسهمُ   من ذا يرى تلك الجفـونَ ويَسْلَمُ[1]
يا غُرَّةً حكمَ الجمالُ لها على   شمس الضحى وأصـابَ فيما يحكم
يُضْحِى الخلىُّ إذا رآها عاشقا   والعقـل توقظـه اللحـاظُ النُّـوَّمُ
وكأن قامتهـا ونَغْمـــةَ لفظِهـا   غصـنٌ عليـــه بُلْبُـلٌ يَترنَّـــمُ

فقد أصابت فؤاده الأسهم المصوبة من عينى صاحبته ، ويقول إن أحدا لا يسلم من تلك السهام إذا نظر إلى جفونها الجميلة ، ويقول إنها غرة شديدة البياض حتى ليحكم الجمال لها على شمس الضحى ، وهو مصيب فى حكمه ، وإن الخلىّ الذى لم يتعود الحب حين يراها يصبح عاشقا للحاظها الفاترة الجميلة ، ويشطح به الخيال ، فيقول إنه يخيل إليك وقد رأيت قامتها المشوقة تصدح بالغناء أنك ترى غصنا يتغنى فوقه بلبل جميل - ويقول :

همُ نظروا لواحظَها فهاموا   وتشربُ عَقْلَ شاربها المُدامُ
يخاف الناسُ مُقْلَتها سواها   أَيَذْعَرُ قلبَ حاملِـهِ الحُسام
سما طَرْفى إليها وهْو بـاكٍ   وتحت الشمسِ ينسكبُ الغمام
وأذكر قَدَّها فأنوحُ وَجْدا   على الأغصان تَنْتدبُ الحمام
وأعقب بَيْنُها فى الصَّدْر غمًّا   إذا غَربتْ ذُكاءُ أتى الظـلام

وهى قطعة بديعة بتصاويرها الرائعة ، فحين نظروا إلى لواحظها سكروا وهاموا كشارب للخمر لم تُبْق له من عقله شيئا ، والناس لفتنة عينيها يخافون من النظر إليها وطبيعى أن لا تخاف لأن الحسام لا يخيف حامله . وقد نظر إليها طرفه باكيا ، وكأنها الشمس ينسكب تحتها الغمام ، ويقول إنه يذكر قدها المشوق فينوح كما ينوح الحمام على الأغصان ، وإن بينها وبعدها أنشأ فى صدره غما كما ينشأ الظلام حين تغرب الشمس . وهى مقابلات فى غاية الطرافة وتدل على شاعرية خصبة . وقبيل وفاته سنة ٦٠٤هـ/ ١٢٠٨م نظم أشعارا زاهدة كثيرة .

٢

شعراء الوصف

الوصف قديم فى الشعر العربى يصف فيه الشعراء الطبيعة برياضها وأزهارها وحيوانها وصحرائها وزروعها حتى إذا تحضروا وصفوا القصور وأدوات الحضارة وملاهيهم المختلفة ،

---

(١) أقصدته : أصابته .

ولم تقع أعينهم على شيء من أرض أو سماء إلا سجلوه ووصفوه ، يصفون الأنهار والبحار والسفن كما يصفون النجوم والشمس والقمر والسحب والأمطار والطير . وكما وصفوا السهول والوديان وصفوا الجبال والكثبان والأشجار والغابات . ونجد الوصف على كل لسان منذ عصر المرابطين ، من مثل قول القاضي ابن زنباع في وصف الربيع[1] :

أبدتْ لنا الأيامُ زهرةَ طِيبِها ... وتَسَرْبلتْ بنضيرِهــا وقَشيبِها
واهتزَّ عِطْفُ الأرض بعد خُشوعِها ... وبدتْ بها النعماءُ بعد شُحوبِها
وتطلَّعت في عنفـوان شبابهــا ... من بعد ما بلغتْ عِتِيًّ مَشيبِها
وقفتْ عليها السُّحْبُ وقفة راحمٍ ... فبكتْ لهــا بعيـونها وقلوبها
فعجبتُ للأزهار كيف تضاحكتْ ... ببكائهــا وتباشـرتْ بقُطوبِهـــا
وتسربلتْ حُللا تجـــرُّ ذُيولهــا ... من لَدْمِها فيهــا وشقَّ جيوبِهـــا[2]

وهو يقول إن الأيام أبدت لنا أروع طيب لديها : طيب الربيع ، ولبست أروع حللها وأجدَّها ، واهتزت جوانب الأرض خصبا بعد جَدْبها ، وتراءت النعماء فتية بعد شحوبها ، وتطلعت لمفاتنها في عنفوان شبابها بعد أن كانت شابت وبلغت من شيخوخة الجدب عِتِيًّا ، فقد وقفت عليها السحب راحمة لها عاطفة وبكت لها بكاء حارًّا ، ويقول إنه عجب للأزهار تضحك وتبتهج لبكائها وعبوسها ، وسرعان ما لبست حللا سابغة بما حدث لها من ضرب الأمطار لها وشق مداخلها . ولما جاء الموحدون بالقاضي عياض مغلولا من سبتة إلى مراكش ومر بواد يقال له « داى » سمع قمرية تسجع ، فقال[3] :

أقُمْرِيَّةَ الأدْواح بالله طَرِّبِي ... أخـــا شجنٍ بالنَّوْحِ أو بغناءِ[4]
فقد أرَّقْتِني من هَديلكِ رَنَّةٌ ... تهيِّج من بَرْحِى ومن بُرَحائى[5]
لعلكِ مثلى يـا حمـامُ فإننى ... غـريبٌ بداءٍ قد بُليتُ بــداءِ
فكم من فلاةٍ بين داىٍ وسَبْتةٍ ... وخَرْقٍ بعيد الخـافقين قَوَاءِ[6]
يذكِّرنى سَحُّ المياه بأرضها ... دموعا أُريقَتْ يـوم بنتُ ورائى
ويعجبنى فى سهلها وحُزونها ... خمائلُ أشجـــارٍ تـرفُّ رُوَاءِ[7]
لعـل الذى كان التفـرُّقُ حكمه ... سيجمع منـا الشملَ بعـد تَنـاءِ

وهو يقول لقمرية الأشجار طَرِّبى أخاهمٌّ وشجن بالنوح أو بالغناء فقد أسهرتنى من غنائك رنَّةٌ هيجت من شدائدى ، لعلك مثلى غريبة تنوحين على قرينك وأولادك ، وكم من فلاة بين

---

(١) قلائد العقيان ص ٢٥٩ .
(٢) لدم : ضرب .
(٣) المنتقى لأحمد بن القاضى ٥٤٧/١ .
(٤) الأدواح جمع دوحة : الشجرة العظيمة .
(٥) برحى وبرحائى : شدائدى .
(٦) خرق : مفازة . قواء : مقفر .
(٧) ترف : ناضرة . رواء : منظرها جميل .

داى وسبتة وكم من مفازة متباعدة الجانبين مقفرة ، وإن سحَّ المياه بأرضها ليذكرنى دموع زوجتى وأولادى ورائى يوم رحلت ، وإنى لتعجبنى خمائل داى الناضرة ذات المنظر الجميل ، ولعل الله الذى حكم بالتفرق بينى وبين أهلى يجمع الشمل بعد فراق وبُعدٍ بعيد . ويقول أبو الربيع الموحدى فى وصف الربيع[1] :

حَيِّ الربيعَ بمـا وشَّتْ أزاهِرُهُ ... ونظَّمتْ من أكاليلٍ على الشَّجَرِ
ودبَّجتْ فوق مَتْن الروض من حُلَلٍ ... ونمَّقتْه بألـوانٍ من الزَّهَـرِ
من نرجسٍ ساحر الألحاظ ذى غُنجٍ ... ومن أقـاحٍ نقيِّ الثَّغرِ ذى أشَرِ[2]
بما تضوَّع روضُ الزهر غِبَّ حَيًا ... تأكَّد الشكرُ للنُّعمَى على البشرِ
لا يحسب الناسُ أن الروضَ فاح لهم ... طوعا ولكنَّـه يُثنى على المطـرِ

وهو يطلب من كل قارىء له أن يحيى الربيع بما وشت ونقشت أزاهره وبما نسقت من تيجان الزهر على الشجر وبما زينت الروض من حلل نمَّقتها بألوان من الزهر : من نرجس مدلٍّ ساحر الألحاظ ومن أقاحٍ ذى حزوز نقى الثغر ، وقد وجب الشكر على الناس لهذه النعمة العظيمه مما ينشر روض الزهر عقب الحيا أو المطر من عطر زكى ، ولا يظن الناس أن الروض فاح به لهم ، وإنما فاح به ثناء وشكرًا للمطر . ويقول أبو القاسم الشريف السبتى المشهور بالغرناطى المتوفى سنة ٧٦٠ فى ناعورة[3] (ساقية) :

وذاتِ سيرٍ إذا حُثَّتْ ركائبُها ... حنَّت فراقتْك فى مَرْأًى ومُستَمعِ
كأنهـا فلكٌ دارتْ كواكبُـه ... على الريـاض بنَـوْءٍ غير مُنقشِعِ
تماثل السُّحْبَ صَوْبًا بل تخالفها ... إذا استهـلَّ حَيًا المثَّـانة الهَمِعِ[4]
هذى من المـاء تعلو كلَّ منخفضٍ ... وتلك تنـزل منـه كلَّ مرتفـعِ

يقول إنها إذا أسرعت دواليبها سمعتَ صوتا فيه حنان فراقتك فى منظرها وصوتها ، وكأنها فلك دارت كواكبه أو دواليبه على الرياض بمطر مستمر لا ينقشع . ويقول إنها تماثل السحب فيما تسقط من مطرها ، ويعود ، فيقول بل تخالفها إذا انهمرت أمطارها ، فالناعورة تسقى كل منخفض بينما السحب تسقى المرتفعات من الجبال والتلال . ويقول فى وصف سفينة تمخر به البحر :

وغريبةِ الإنشـاء سِرْنا فوقهـا ... والبحرُ يسكنُ تـارة ويموجُ
عُجْنا نؤُمُّ بهـا معاهـدَ طالما ... كرمتْ فعاجَ الأنسُ حيث تعوج
وامتدَّ من شمس الأصيل أمامنا ... نـورٌ لـه مَرْأًى هنـاك بهيج

---

(١) الوافى ١/٢٠٥ .

(٢) أشر : حزوز . والشعراء يشبهون الثغور بالأقاح .

(٣) انظر فى هذه الأبيات وتاليتها الوافى ٢/٤٣٥ .

(٤) المثانة الهمع : السحابة الهاطلة .

فكأن مـاء البحــر ذائبُ فضَّةٍ قد سال فيه من النُضــار خليجُ

وهو يقول إنها سفينة بديعة الصنع سرنا عليها والبحر تارة يسكن وتارة يموج ، وعرجنا نؤمُّ أماكن طيبة وعرَّج معها الأنس ، وامتد أمامنا من شمس الأصيل نور بهيج ، وكأن ماء البحر فضة ذائبة امتدت فوقه شمس الأصيل فاستحال خليجا من النضار أوالذهب . ويقول عبدالمهيمن الحضرمى المتوفى سنة ٧٤٩ للهجرة فى وصف السَّحَر وانبثاق أضواء الفجر[1] :

ترآءى سُحَيْرٌ والنسيمُ عليلُ وللنَّجْم طَرْفٌ بالصبـــاح كليلُ
وللفجر نهرٌ خاضَـه الليلُ فاعتلتْ شَوَى أدهمِ الظلماء منه حُجولُ[2]
فمزَّق ساجى الليل منه شرارةٌ وخَرَّق سِتْرَ الغيــم منــه نُصــول
تبسَّم ثغرُ الروض عنه ابتسامةً وفاضتْ عيونٌ للغمـــام هَمول[3]
ومالتْ غصونُ البان نَشْوىَ كأنها يُدار عليهـا من صَبَـاه شَمولُ[4]
وغنَّت على تلك الغصون حمائمٌ لهـن حفيفٌ دونهـا وهَديــل[5]
إذا سجعتْ فى لحنهـا ثم قَرْقَرتْ يَطيح خفيفٌ دونهـــا وثقيــل[6]

وهو يقول إن السحر ترآءى ومعه نسيمٌ رقيق وأصاب طرف النجم ببعض الكلال ، وكأنما الفجر نهر خاضه الليل فاعتلى أطراف حصان الظلماء بياض فى قوائمه ، ومزقت منه شرارة سكون الليل وخرَّق ستار الغيم منه ما يشبه نصول الرماح ، وتبسم ثغر الروض ، وفاض الغمام بسيول من المطر ، وانتشت غصون البان وكأنما يدار عليها كئوس من ريح الصبا الجميلة ، وأخذ الحمام يغنى على الغصون ، ويُسْمَعُ حفيفه وهو يسقط على الأغصان وترانيمه ، ويقول إن الحمائم إذا ترنمت وردَّدت صوتها فاق لجماله الخفيف والثقيل مما يلحِّنه المغنون . وينشد أحمد بن يحيى الشَّفْشَاوْى المتوفى أيام المنصور السعدى سنة ١٠٠١ للهجرة فى روض[7] :

أما ترى الطيرَ بالأدْواح ساجعةً أدْمَتْ أناملَهـــا أوتــــارُ عِيــدانِ
تحكى مزاميرَ مَنْ لانَ الحديدُ له تشدو بالاجْـزال فى رَصْدٍ وزيدان[8]
تنفى عنِ الصبِّ ما بالقلب من كُرَبٍ بل تترك الصبَّ فى تِيهِ الهوى عانى
والبـانُ يَرْقُص من تَرْجيعها طربا والزهـــر يفترّ عن أثغـــار مَرْجان
والمـــاء مُنْسكبٌ والظـلُّ منسحبٌ وللنسيـم هبـــوبٌ يُنْعش الفـــانى

وهو يقول إن الطير يترنم فى الأشجار وقد أدمت أناملَها الحمراء ما تقف عليه متغنية من

(١) الوافى ٢/٤٤٦ .
(٢) شوى : أطراف ويريد القوائم . حجول : بياض .
(٣) همول : دافقة .
(٤) شمول : خمر .
(٥) هديل : صوت الحمام .
(٦) قرقرت : رددت . يطيح : يسقط .
(٧) النبوغ المغربى ٣/١٣٧ .
(٨) الرصد والزيدان : من ألحان الغناء .

أوتار العيدان تحكى بغنائها مزامير داود الذى ألان له الله الحديد ، وتشدو بأنغام الرصد والزيدان ، وتنحّى عن المحب ما بقلبه من كُرب الحب بل تجعله كأنه أسير لحبه يردد صبابته فيه ، والبان يرقص من ترديد صوتها وترنمها طربا ، والزهر يضحك عن ثغور لؤلؤية ، والأمطار تنسكب والظل ينسحب ، ويهب نسيم منعش . ونمضى إلى بواكير العصر العلوى ، ويقول أبو على اليوسى المتوفى سنة ١١٠٢ للهجرة فيما بين الزهر والمطر من علاقة قديمة[١] :

إن بين الغمام والزَّهَرِ الغَـ ـضّ لَرِحْما قديمةً وإخاءَ
بان إلفٌ عن ألفه فتوارى فى الثَّرى ذا وذاك حلَّ السماءَ
فإذا ما الغمامُ زارتْ جَنابًا آذنتْ فيه بالحبيب اللقـاءَ
ذكرتْ عهده القديمَ فحنّتْ عند لقياه فاستهلَّتْ بُكاءَ
فترى الزَّهْرَ بارزا من خبايا هُ يحيِّى الوفـودَ والأصدقاءَ
راقصـًا والصَّبا تهنيِّه والـوُرْ قُ غوانى القيـان تشدو غناء

وهو يقول إن بين الغمام والزهر مودة قديمة وإخاء ، وقد بان كل عن صاحبه فالزهر توارى فى الثرى والغيم تعالى فى السماء ، فإذا ما الغمام زار ناحية آذنت حبيبها فيه باللقاء ويذكر الغمام عهده القديم فيبكى بمطر منهمر ، وترى الزهر بارزا من كل مكان يحيى وفود أصدقائه من الأمطار ، وكأنه يرقص وريح الصبا تهنيه ، والحمام قيان الرياض يشدو غناء . ويقول ابن زاكور المتوفى سنة ١١٢٠ للهجرة يصف روضا[٢] :

مُـدَّ للسُّلوان أشْراكَ النَّظَرْ فى ابتهاج الروض من وَجْد المطرْ
وتلقَّ الأنسَ عن آسِ الرُّبـى وارْوِ طىَّ النَّوْر عن نَشْر السَّحَر
وارْتَشِفْ ثَغْـرَ أقـاحٍ باسـمـا واصْطبح بالطلِّ من كأس الزَّهَرْ
والْثِمْ وجــهَ المنـى مستبشـرا حيث رامَ الغصنُ تقبيلَ النَّهَرْ
وجلا الـورد خدودًا أُشْرِبتْ حمرةَ العِقْيانِ من فرْط الخَفَر
وحَبا الخِيرِىُّ أنفـاسَ الصَّبا نفحاتٍ أنشرتْ مَيْتَ الفِكَرْ
وانبرى النِّسريـنُ يُهْـدى ذهبـا فى صحاف مُتْرَعَاتٍ من درر
نظِّمتْ فى جيــده أنـــداؤهُ عقــدَ دُرٍّ كلمـا مــاسَ انتثرْ

وهو معجب بروض بديع ، ويقول : مُدَّ فيه حِبالات النظر لعلك تجلب لنفسك شيئا من ابتهاج الروض بما سقط عليه من المطر ، وتلقَّ الأنس فيه عن آس الربى البديع ، وتمتع بروائح النور أو الزهر التى نشرها فى السحر ، وارتشف السرور من ثغر الأقاح الباسم .

(١) النبوغ المغربى ١٤١/٣ .

(٢) النبوغ المغربى ١٣٩/٣ .

وليكن صبوحك بالطل تنعم برؤيته في كئوس الزهر ، ولتلثم وتقبِّلْ وجه الأماني مستبشرا ، حيث كل شيء من حولك ينعم بالقُبَل كما تقبِّل الأغصان النهر ، وأبدى الورد خدودا مشربة بحمرة الذهب من فرط الحياء والخفر ، وآثر زهر الخيريّ أنفاس الصبا بنفحات تُحيي ميت الفِكَرْ ، وأخذ زهر النسرين يهدى ذهبا في صحاف مليئة بالدرر ، ونظمت الأنداء في جيد الروض عقد لآلىء كلما تحرك انتثر . وحريٌ بنا أن نتحدث عن وصاف كبير في العهد السعدى .

عبد[1] العزيز الفشتالى

هو أبو فارس عبد العزيز بن محمد الفشتالى ، آباؤه من قبيلة فشتالة في الشمال الغربى لفاس ، ولذلك نسب إليها ، وقد ولد سنة ٩٥٦ هـ/١٥٤٩ م وتوفى سنة ١٠٣١ هـ/١٦٢٢ م ، وتتلمذ لأئمة عصره من الفقهاء والنحاة واللغويين ، وأقبل على حفظ الشعر والنثر حتى نضجت ملكته الأدبية ، مما جعله يلتحق بدواوين الدولة السعدية ، وأعجب به المنصور الذهبى ، فجعله على رأس دواوينه ، وأخلص له أشد الإخلاص ، فعاش يقدِّم له مدائحه ، ويؤرخ لدولته المنصورية السعدية ، ووصفه المقرى في كتابه : روضة الآس بقوله : « وزير القلم الأعلى ، الوارد من البلاغة والبراعة المنهل الأحلى ، نشأة الدولة المنصورية (دولة المنصور الذهبى) وكاتم أسرارها ، ومنزل القوافى من قُنَنِها ومستعبد أحرارها ، المقدم في الفضائل والمحاسن » . ويقول أحمد بن القاضى عنه في كتابه درّة الحجال : « فقيه أديب ، ناثر ناظم ، عليّ الهمة ، متين الحرمة ، فصيح القلم ، زكى الشِّيَم ، ركن البلاغة والبراعة ، وفارس الدواوين واليراعة » . وكما كان رئيسا لدواوين المنصور كان شاعره الرسمى ، وكما كان شاعرا كاتبا أو أديبا كان عالما مؤرخا لدولة المنصور وترجم لمعاصريه في كتابه « مناهل الصفا » وهو أحد المصادر التى نرجع إليها في العصر . وله ميلاديات نبوية كثيرة سوى الغزليات والمراثى ، وله أمداح سياسية كثيرة للمنصور ، وبجانب ذلك له أشعار في وصف قصر المنصور المسمى بالبديع ومبانيه وقببه وما ازدان به من التماثيل والنقوش ، مما يدلّ - بوضوح - على مدى الحضارة المترفة التى اتصف بها عصر المنصور الذهبى . وفي الإشادة بقصر البديع يقول عنه في كتابه : « المناهل » : إنه من الآثار التى لم يخلق مثلها في البلاد .. وإنه المثل المضروب في الأرض عظمة وضخامة ، وجلالة وفخامة ، وتفننا وتأنقا ، وفي وصف مبانيه يقول :

(١) انظر في ترجمة الفشتالى وأشعاره روضة الآس ص ١١٢ ودرة الحجال ١٣٠/٢ والمنتقى (انظر الفهرس) ونشر المثانى ٢٤١/١ وخلاصة الأثر للمحبى ٤٢٥/٢ والنبوغ المغربى ٤١٢/١ ، ١٢٨/٣ وما بعدها والوافى ٦٨١/٣ وما بعدها . وراجع ديوانه مع دراسة له بتحقيق السيدة نجاة المرينى .

سَلبتْ تَماثِلُها الحِجا لما اغتدتْ ... تزهــو بحسن طرازهـا تذهيبا[1]
ولقد تشامخَ فى العلوِّ سِماكُها ... فجرى على الفَلَكِ المنـير جَنيبا[2]
وسَما إلى الشُّهْب الزواهرِ فاغتدى الـ ... إكليلُ منهـا تاجَها المَعْصُوبا[3]
أَضْنَى الغزالةَ حُسْنُه حسدًا لـذا ... أَبْدَى عليها للأصيـل شحوبا[4]
وانقضَّت الزُّهْــرُ المنيرةُ إذ رأتْ ... زَهْرَ الريـاض بـه ينـورُ عجيبا[5]

وهو يقول إن تماثلها (تماثيلها والصور المنقوشة فى القصر) سلبت العقول بما تزهو به من طُرُزها المذهبة ، وقد تمادى فى الارتفاع سماكها حتى غدا القصر كأنه مجنوب تابع للفلك العلوى ، وظل فى ارتفاعه حتى استقر بين النجوم ، وأصبح كأنه المجموعة النجمية المسماة بالإكليل ، بل غدا كأنه تاجها المعصوب . وناهيك بحسنه ، فقد أضنى الشمس وبدا شحوبها واضحا فى وقت الأصيل ، أما النجوم المنيرة فانقضَّت إذ شاهدت أنوار زهر رياضه تضىء ضياء عجيبا . وله مما كُتب على بَهْو فى القصر بمرمر أسود فى مرمر أبيض :

لِلَّهِ بَهْوٌ عزَّ منــه نظيرُ ... لمـا زَها كالـروض وهْو نضيرُ
رُصِفَتْ نقوشٌ بِناه رَصْفَ قلائدٍ ... قد نضَّدتها فى النُّحور الحورُ[6]
فكأنهـا والتِّبْرُ سال خِلالَها ... وَشْىٌ وفضةٌ تُرْبِهـا كافـورُ[7]
شَأْوُ القصـور قصـورُها عن وصفِه ... سِيَّـان فيــه خَوَرْنَقٌ وسَديرُ
فإذا أجلْتَ اللحظ فى جَنَباته ... يرتدُّ وهْــو بحسنه محسـورُ[8]
صُفَّتْ بضِفَّتها تمـاثِلُ فضَّةٍ ... ملكَ النفـوسَ بحسنها تصويرُ[9]
مـا بين آسادٍ يَهيجُ زئيرُهـــا ... وأســاودٍ تُسْلِى لهـنَّ صَفيرُ

وهو يقول ما أروعه بهوا يعز نظيره لما يجرى فيه من نضرة وجمال ، وقد صُفِّفت نقوش بنائه تصفيف قلائد سوَّتها على النحور فاتنة أو فاتنات ، وكأن هذه النقوش والتبر يسيل خلالها وشى بديع ونقوش على فضة شديدة البياض كزهر الكافور . إن البديع ليسمو على كل القصور حتى على قصرى الخورنق والسدير اللذين كانا بقرب الحيرة فى الجاهلية ، وحين تجيل البصر فى جوانبه يرتد حسيرا كليلا لروعة ما تشاهد ، وقد صفت بضفة هذه النقوش صور فضية تخلب الألباب بجمال تصويرها سوى ما تراه هناك من آساد يخيل إليك أنها حية تزأر وجماعات

---

(١) تماثلها : تماثيلها المنقوشة فى القصر . الحجا : العقل .
(٢) جنيبا : محاذيا له .
(٣) الشهب : النجوم . المعصوب : المعقود .
(٤) الغزالة : الشمس .
(٥) ينور : يضىء .
(٦) نضدتها : نسقتها .
(٧) التبر : الذهب .
(٨) محسور : كليل ضعيف .
(٩) تماثل : تماثيل ونقوش .

من الطير كأنها تصفر صفيرا متصلا . ويتسع في وصف قبة القصر ، وما تشرف عليه من النهر والأزهار ، ويستهل وصفه بقوله على لسانها :

سموتُ فخرَّ البدرُ دونيَ وانحطَّا ... وأصبح قُرْصُ الشمس في أذني قُرْطا
وصُغْتُ من الإكليل تاجـا لمفرقي ... ونيطت بيَ الجوزاء في عنقي سِمْطا(1)
ولاحت بأطـواقي الثريَّا كأنها ... نثيرُ جُمـانٍ قد تتبَّعتـه لَقْطـا
وعدَّيتُ عن زُهْر النجـوم لأنني ... جعلتُ على كيـوانَ رَحْليَ منحطًّا(2)
وأجريتُ من فيض السماحة والنَّدى ... خليجا على نهـر المجـرَّة قد غطَّى

والقبة تقول إنني سموت وتعاليت في السماء ، فسقط البدر دوني وأصبح قرص الشمس في أذني قرطا ، وجعلتُ من نجوم الإكليل تاجا لمفرق رأسي ، وتعلقت نجوم الجوزاء في جيدي عقدا ثمينا ، ولاحت في الأعالي الثريا ونجومها وكأنها فتات فضة تعقَّبته لقطا ، وتجاوزتُ النجوم إلى كيوان (زحل) ووضعت عليه رَحْلي ، وأجريت من السماحة والندى خليجا غطى على نهر المجرة في السماء وفاقه . ويستمر في وصف النهر الذى تشرف عليه القبة :

تَنَضْنَضَ مـا بين الغُـروسِ كأنـه ... وقد رقرقـتْ حصبـاؤه حيَّـةٌ رَقْطا(3)
حواليـه من دَوْحِ الريـاض خرائدٌ ... وغِيدٌ تجـرُّ من خمائلهـا مِرْطـا(4)
إذا أرسلتْ لُدْنَ الفروع وفُتِّحت ... جَنَى الزهـر لاح فـي ذوائبها وَخْطا(5)
يرنِّحهـا مـرُّ النسيـم إذا سَرَى ... كمـا مـال نشـوانٌ تشـرَّب إسْفَنْطا(6)
يشقُّ رياضًا جادَها الجـودُ والنَّدَى ... سـواءٌ لديهـا الغيـثُ أسكبَ أم أبطـا
وسـالتْ بِسَلْسال اللُّجَيْن حياضُـه ... بحارا غدا عرضُ البسيط لهـا شَطًّا(7)
تطلَّعُ منهـا وَسْط وُسْطـاه دميـةٌ ... هي الشمس لا تخشى كسوفا ولا غَمْطا(8)
حكتْ وحبـابُ المـاء في جَنَباتهـا ... سَنا البدر حلَّ من نجـوم السما وَسْطا

وهو يقول إن النهر تجرى مياهه بين الغروس كأنه وقد تبدت حصباؤه حيَّة رقطاء ، وحواليه شجر بض ناعم كالخرائد والغيد الحسناوات اللائى يتأنقن في ثيابهن ، ويخيل إليك إذا تفتح الزهر في أعالي فروعها اللدنة كأنه وخط شيب يجتمع فيه السواد والبياض ، ويميلها النسيم مترنحة إذا مر بها كما مال مخمور شرب خمرة الإسفنط المعتَّقة ، وإنه ليشق رياضا يهطل

---

(1) نيطت : علقت . سمطا : عقدا .
(2) كيوان : كوكب زحل .
(3) تنضنض: سال. رقرقت: لمعت. رقطاء: بلونها نقط.
(4) خمائلها : حللها . مرط : ذيل طويل للثوب .
(5) ذوائبها : نواصيها . وخطا : شيبا .
(6) الإسفنط : خمر معتقة .
(7) اللجين : الفضة. البسيط: المنبسط من الأرض .
(8) الغمط : الانتقاص .

عليها جود المنصور الذهبى وعطاياه . ولذلك سواء لديها أُسرع الغيث الحقيقى فى انسكابه أو أبطأ ، وتلك حياضه تسيل بأسراب الفضة بحارا تسقى الزروع ، وتزين تلك الحياض دمية جميلة كأنها الشمس لا تخشى كسوفا ولا غمطا (انتقاصًا) ، ويقول إن هذه الدمية وما يتناثر حولها من حباب الماء كالبدر ومن حوله النجوم وسط السماء . ويعود إلى وصف القبة منشدا :

إذا غازلتْها الشمسُ ألقى شعاعُها ... على جسمها الفضىُّ نهـرا بها لُطًّا[1]
توسَّمتُ فيها من صفـاء أديمها ... نقوشـا كـأن المسك يَنْقُطها نَقْطا
إذا اتسقتْ بيضُ القِباب قلادةً ... فإنى لها فى الحسن دُرَّتُها الوُسْطَى
تكنَّفنى بيـض الـدُّمَى فكأنهـا ... عَذارَى نَضَتْ عنها القلائدَ والرَّيْطا[2]
قدودٌ ولكن زادهـا الحسنَ عُرْيُها ... وأجمـلَ فى تَنعيمها النحتَ والخَرْطا
نَمَتْ صُعُدًا تيجانُهـا فتكسَّرتْ ... قواريـرُ أفـلاكِ السمـاء بهـا ضَغْطا
فيـالكِ شـأْوًا بالسعـادة آهـلاً ... بأكنافه رَحْلُ العـلا والهـدى حُطًّا[3]

وهو يقول إذا انعكست على القبة أشعة الشمس خلتَ كأن نهرا من الضياء والنور التصق بها مقابلا للنهر الذى يجرى بجوارها ، وخُيِّل إلىَّ من صفاء بياضها وما عليه من النقوش كأنما نقطها المسك ، ويقول إذا تحولت القباب البيضاء فى أعالى القصور العظيمة قلادة كانت دُرَّتها الوسطى وقبتها الفريدة التىَ لا تماثلها قبة . ويقول على لسانها إن الدمى البيضاء أحاطت بى عارية ، وكأنها عذارى خلعت عنها القلائد والثِّياب وكل زينة ، قدود ممشوقة وقد زادها العرى حسنا ، والنحت والخرط نعومة ورشاقة ، وتعالت تيجانها صاعدة فى السماء حتى حطمت قوارير أفلاكها من النجوم والكواكب ، وما أعظمها قُبَّة شامخة آهلةً بالسعادة وقد هبط فى أكنافها وجوانبها رَحْل العلا والهدى ، ويمضى منشدا :

وكعبةَ مجدٍ شادها العزُّ فانبرتْ ... تطـوف بمغناها أمـانى الوَرى شَوْطا
ومسرحِ غزلان الصَّريم كِناسُها ... حنايا قبـاب لا الكثيبَ ولا السِّقْطا[4]
فَلُكْنَ به ما طـاب لا الأَثلَ والخَمْطا ... ووُسِّدْن فيه الوَشْىَ لا السِّدْرَ والأَرْطى
ثَـراه من المسك الفتيت مدبَّـرٌ ... إذا ما زجتْه السحبُ عاد بها خِلْطا
وإن باكرتْه نسمةٌ سحرًا سَرَى ... إلى كل أنفٍ عَرْفُ عَنْبره قِسْطا
أقـرَّتْ له الزهـراءُ والخُلْد وانثنتْ ... أواوينُ كسرى الفـرسِ تغبطه غَبْطا

وهو يقول يالك قبة كأنها كعبة رفعها العز فى عنان السماء وإن أمانى الناس لتطوف بها

(1) لُطَّ بها : التصق .
(2) الريط : ملاءة .
(3) الشأو : الهمة العظيمة ويريد بناء القبة الشامخة .
(4) الصريم : القطيع . كناسها : بيتها . السِّقط : منقطع الرمل .

شوطا وأشواطا رجاء أن تتحقق على يد المنصور ، ويقول يا لها مسرحا أو كناسا أو بيوتا للغزلان من الدمى والتماثيل القائمة فيها . وإنها لتلوك ما طاب لها لا ما تلوكه غزلان البوادى من شجر الأثل والخمط ، وإنها لتتوسَّد الوشى المنمق لا شجر البوادى من السدر والأرطى ، وأما الثرى فإنه من فتات المسك وإن المطر ليختلط به حين يسقط فيصبح خِلْطا أو أخلاطا من الطيب ، وحين تباكره نسمة سحرا تضوع رائحته ، ويأخذ كل أنف منها قسطا أو حظا ممتعا ، ويقول إن قصر الخلد ببغداد وقصور الزهراء بقرطبة لتعترف بعظمة هذا القصر وأن أواوين كسرى لتغبطه . ولعل فى كل ما قدمت ما يصور شاعرية الفشتالى وأنه كان يعنى بالجزالة والرصانة فى أسلوبه كما كان يعنى بالصور البيانية .

٣

شعراء الرثاء

الرثاء قديم فى الشعر العربى ، ونجده – منذ الجاهلية – يتخذ صورا ثلاثة هى الندب لبكاء ذوى القربى من الآباء والأبناء والإخوة ، والتأبين لذكر فضائل الميت تصويرا لخسارة المجتمع فيه ، والعزاء بذكر الموت وأنه سنة من سنن الحياة ، لا مفر لإنسان منه ، ونجد هذه الصور الثلاثة فى شعر المغرب الأقصى بمختلف عصوره . ومن أوائل ما يلقانا من صور الندب بكاء أبى الربيع الموحدى لأخيه ، وفى بعضه يقول[1] :

أتانى نعىٌّ ضـــاقَ صدرى بحملــه وصدرى – كما قد تعلمان – رحيبُ
فمـــرَّ بقلبٍ لـــم تُدَمَّل قُروحـــهُ كما مــرَّ بالجمــر الدَّفين هبوبُ
فحتى متى تَبْرِى الرزايا سهامَها وتقصــدنى عمـدا بهـــا فتُصيبُ
وحتى متى ألقى رزايــا ممضَّةً يكـــاد لإحداهــا الحديدُ يذوب
ولكنَّ قضاءُ الله حَتْمٌ فليس لى ســواه على حمـل الخطوب حسيبُ
يقولـــون لى صَبْرًا ونـــارُ تلهفى لهـــا بين أحنـــاء الضلوع وَجِيبُ

وهو يقول لصاحبيه إن نعىَّ أخيه أتاه فضاق به صدره الرحيب ، وقد أثار الجمر الدفين من أحزانه وكأنه ريح عاصفة ، وأصاب قروحه التى لم تبرأ ، فعاودت تألمه ، ويقول إلى متى تقصدنى الرزايا بسهامها فتصيبنى فى الصميم ، وحتى متى توجعنى ، ولو أن إحداها نزلت بحديد صلب لأذابته غير أنه قضاء الله المحتم وينبغى للإنسان أن يتقبله راضيا بما قضى به ربه حسيبه ، ويقولون لى صبرا ونار تلهفى على أخى تضطرم وتلذع فى أحناء ضلوعى . ويعزى ميمون الخطابى (ابن خبازة) المتوفى سنة ٦٣٧ للهجرة ابن الجَدّ عظيم إشبيلية فى ابنه ، ويستهل عزاءه بقوله[2] :

(١) الوافى ١/١٩١ .
(٢) النبوغ المغربى ٣/٢٧٣ .

أرَجّةُ الصّعْقِ يوم النّفخ فى الصُّور ... أم دكّةُ الطُّور يوم الصّعْق فى الطورِ
أم هدَّةُ الأرض إظهارًا لما زجرتْ ... بــه الخليقةَ من إيقــاعِ محذورِ
أم الكواكبُ فى آفاقها انتثرتْ ... وباتت الشمسُ فى طيٍّ وتكْويرِ
ما للنهار تعرَّى من ثياب سَنًا ... وشابَة الليلَ فى أثواب دَيْجور
أصِخْ لتسمــع مــن أنبائهــــا نبَــأً ... يَطْــــوِى من الأنسِ فيها كلَّ منشورِ
وافَى مع العيد لاعادتْ مَضاضتُه ... فشاب سَلْسالَه الأصفــى بتكديــر[1]
نــــوّارةٌ عندما راقتْ بِدَوْحتها ... أهوتْ إلى التُّرْب من بين النواوير
جـارَ الذبــولُ عليهــا عند ما ملأتْ ... معاطسَ الدَّهْـــــر من طِيبٍ وتَعْطير

وهو يتصور كأن موت هذا الشاب رجَّة الصعق يوم ينفخ فى الصور ، فيصعق من فى السموات والأرض ويهبّون من مراقدهم ليوم القيامة ، أو كأنه دكة الطور حين طلب موسى من ربه رؤيته ، أو كأنما الأرض هُدَّت وتناثرت الكواكب وكُوِّرت الشمس ، كما جاء فى الذكر الحكيم عن يوم القيامة . وهى مبالغات يتحملها الشعر وحتى النهار تعرَّى من ثياب ضيائه وغطاه الليل بظلامه . ويقول لمخاطبه : أرهف سمعك لنبأ طوى كل أنس وكل سرور ، نبأ وافى فى أواخر رمضان مع العيد ، فكدَّر كل صاف فيه ، وما النبأ ؟ زهرة حينما زهت وتفتحت على شجرتها وراقت الأعين والأنفس سقطت إلى الترب من بين أخواتها من الزهرات والنواوير ، وجارَ الذبول عليها فهوت عندما ملأت أنوف الدهر من أريج طيبها وعطره . ويفضى إلى عزاء ابن الجد بأن كل ما على وجه الأرض فانٍ ، فينبغى أن يسلم الأمر لربه ، إذ كل شيء يفنى بتدبير محكم ، وما الكون إلا صحيفة كبرى والناس فيها أحرفه بين ممحوٍّ ومبتور ، فلا تخدعك الليالى ، ويورد عليه أسماء بعض الملوك والأنبياء ، ممن طواهم الدهر وبادوا ، ويقول له فى خاتمة قصيدته : سلِّم للقضاء تسليم مأجور مثاب على تسليمه .
ولابن رشيد المتوفى حول سنة ٧٢٠ للهجرة قصيدة بكى فيها ابنه محمدا بكاء مؤثرا يقول فيه[2] :

شبابٌ تَوَى شابتْ عليه المفارقُ ... وغُصْنٌ ذَوَى تاقتْ إليه الحدائقُ[3]
على حين راق الناظرين بُسوقُه ... رمتْــه سهامٌ للعيــون رواشق[4]
محمدُ إنَّ الصبر فيــك مُصــارمٌ ... محمد إن الوجــد فيك مصادق[5]

---

(١) مضاضته : ألمه .
(٢) الوافى ٢/٣٩١ .
(٣) توى : هلك .
(٤) بسوقه : ارتفاع شأنه
(٥) مصارم : مقاطع .

وتالله مالي بعد عيشك لذةٌ ولا راقني مَرْأًى لعينيَ رائقُ
فإن أَلتفتْ فالشخص للعين ماثلٌ وإن أستمع فالصوتُ للأُذْن طارق
وإن تَقْرع الأبوابَ راحةُ قارعٍ يَطِرْ عندهـا قلبٌ لذكـرك خافقُ
فيا واحـداً قد كان للعـين نورَها وكلُّ ضياءٍ بَعْـد بُعْدك غاسق[1]

وهو يبكي ابنه ، يقول شباب هلك شابت عليه الرءوس وغصن ذبل كانت الحدائق النضرة تتوق إليه ، وكان الناظرون قد راقهم شبابه وذكاؤه ، وكأنما رمته سهام للعيون سريعة النَّبل ممن ترميه ويقول له إنني لا أستطيع فيك صبرا ، وإن الحزن فيك لا يفارقني ، ولم أعد أجد في عيش بعدك لذة ولا عاد يروقني شيء يعجب العين . وإنك لتملأ كل ما حولي ، فإن أَلتفت أشعر كأن شخصك ماثل أمامي ، وإن أستمع أشعر كأنني أستمع صوتك ، وإن يقرع الأبواب أحد أشعر كأنك أنت الذي يقرعها فيخفق قلبي ويطير ، كأنه يريد أن يلقاك . ويقول إنه كان نور عينه ، فأصبح كل شيء بعده مظلما لا يراه . ويقول أبو بكر بن شبرين السبتي المتوفى سنة ٧٤٧ للهجرة يؤبن العالم الجليل مواطنه ابن هانيء وقد استشهد في حصار جبل طارق سنة ٧٣٣ هـ/١٣٣٣ م[2] :

قد كان ما قال البريد فاصبرْ فحزنك لا يفيد
أَوْدَى ابنُ هانيءِ الرِّضا فاعتادني للثُّكل عيد
بَحْرُ العلوم وصدرُها وعميدُها إذ لا عميد
قد كان زَيْنًا للوجـو دِ ففيه قد جُمِعَ الوجود
العلـم والتحقيق والـ ـتوثيق والحسب التَّليد
أَوْدَى شهيـدا باذلاً مجهـودَه نعم الشهيد
فلئن بَليتَ فإنَّ ذِكْـ ـرَك في الدُّنا غَضٌّ جديد
وتعهَّـدتْك مـن المهيـ ـمن رحمـةٌ أبدا وجود

وهو يخاطب نفسه قائلا : قد كان حقا ما قال البريد من استشهاد ابن هانيء ، فلتصبر ، فالحزن لا يفيد فقد استشهد ابن هانيء الذي كان تمثالا للرضا والقناعة ، فنزل بي من فقده ما يعتادني من فقد الإخوان والأحباب من حزن ، ولقد كان للعلوم بحرا لا يُسْبَرُ غَوْره وإماما أو عميدا لا يماثله عميد ، بل لقد كان زينا للوجود جميعه ، وكأنما جمع فيه الوجود ما شئت منْ علم وتحقيق وكتابة للوثائق الشرعية مع الحسب القديم الأصيل ، وقد توفي شهيدا باذلاً

(١) غاسق : مظلم .
(٢) النبوغ المغربي ٣/٢٧٧ والوافي ٢/٤٥٨ .

روحه فى جهاد أعداء الدين ، فنعمت الوفاة ونعمت الشهادة ، ولئن بلى جسده فإن ذكراه ستظل تتجدد خالدة . ويدعو له ربه أن يتعهده برحمته وكرمه ، إنه نعم الرحيم الكريم . وفى النبوغ المغربى للشيخ القصار فى رثاء أبويه مرثية ، يقول فيها[1] :

زُرْ والديك وقفْ على قَبْريهما ... فكأننى بك قد نُقلتَ إليهما
كانا إذا ما أبصرا بك علّةً ... جَزِعا لما تشكو وشقَّ عليهما
كانا إذا سمعا أنِينَك أسْبلا ... دَمْعيهما أسفًا على خدّيهما
وتمنّيا لو صادفا لك راحةً ... بجميع ما يحويه مُلْكُ يديهما
بُشْراك إن قدّمتَ فعلا صالحا ... وقضيتَ بعض الحق من حَقّيهما
وقرأتَ من آى الكتاب بقدر ما ... تسْطيعُــه وبعثتَ ذاك إليهمــا

وهى مرثية للأبوين فريدة فى العربية ووصية لكل ابن توفى أبواه أن يزور قبريهما فإنه موشك على اللحاق بهما ، ويقول لكل ابن إنهما كانا عطوفين عليك عطفا لا حدَّ له ، فكانا إذا رأوك مريضا تشكو جَزِعا لشكواك جزعا ما مثله جزع ، وإذا سمعا أنينك من علة ذرفا دموعهما على خدّيهما مدرارا ، وتمنيا لو أتيحت لك راحتك بجميع ما يملكون فى دنياهم . وبُشْراك بما سينالك من جزاء ربك إن عملت فعلا صالحا وقضيت بعض ما لوالديك من حقوق ، وأول حق لهما أن تقرأ ما تستطيع من آيات القرآن الكريم وتهديه إلى روحهما ، ليتقبّلهما الله قبولا حسنا . ويقول ابن زاكور المتوفى سنة ١١٢٠ هـ/١٧٠٩ م فى العصر العلوى يرثى سيدة فاضلة من أهله[2] :

سَقَى الرحمنُ قَبْرًا ضَمَّ شخْصًا ... تَسَرْبل بالمكــارم وارْتَداهــا
ونضَّر مَضْجَعًا لفتاةِ صِدْقٍ ... حَوَى غُرَر الفضائل إذ حواها
لقد كانتْ تحضُّ على المعالى ... وتَنْدب للمكارم مَنْ أباها
وألبسها المُنونُ حُلَى كسوفٍ ... فهلاً فَضْلُها الــوافى حَمَاها
فكم أحيتْ مواهبُها كئيبًا ... أحلَّته النوائبُ فى حِماهــا
وكم ربَّتْ بأنْعُمِها يتيمًا ... فَلَتْه أمُّــــه حتى سَلاهــا
لئن ماتت فمــا ماتتْ حُلاهــا ... وإن أرْدَتْ فمــا أودى عُلاهــا

وابن زاكور يدعو الرحمن لقبر هذه السيدة بل الفتاة الكريمة التى لبست حلل المكارم أن ينزل عليه غيث الرحمة ، وينضِّر مضجعها ويملأه رونقا ، إذ هى فتاة صدق وفضائل عظيمة ، ولقد كانت تحض كل من حولها على المعالى والأعمال السامية ، وقد طوى الموت شمسها

(١) النبوغ المغربى ٣/٢٨٠ .
(٢) النبوغ المغربى ٣/٢٩٩ .

الساطعة ، ولم يحمها فضلها ولا كرمها مما نزل بها من كسوف ، ولئن ماتت فكم أحيت مواهبها وعطاياها تَعِسًا وأنقذته مما يغمره من كآبة وهم ، وكم حَنَتْ على يتيم ورعته حين نبذته أمه ، وحقا إن ماتت فما مات ما كان يزينها من أفضال وسمو لا نظير له . وفى زيارة مقبرة يقول الطيب بن مسعود المريني المتوفى سنة ١١٤٥ هـ/١٧٣٣ م[1] :

أتيتُ القبورَ أداوِى بهـا قسـاوةَ قلبى التى أجِـدُ
وقمتُ أسائلُ عن أهلهـا وهيهاتَ لا خَبَرٌ يوجد
رأيتُ مَصارعَهـم عِـبْرةً تُذيب حُشاشةَ مَنْ يَشْهَدُ
أقامـوا قليـــلا وقـد رحَلُوا وغابـوا وبالعَوْدِ مـا وَعَدُوا
دعاهم على الرَّغْم داعى الرَّدَى فلبَّـوْه حين انقضى الأمَدُ
وقد هدم المـوتُ لذَّاتهم وغيَّر عَيْشَهـمُ الأرْغَـدُ
وحلُّوا بُطـونَ الثَّرى تحتهـم تـرابٌ وفوقهـمُ جَلْمَـدُ

وهو يقول إنه أتى القبور يداوى بها قساوة قلبه ، وأخذ يسائل عن أهلها ، ولا نبأ ولا خبر عنهم ، ويقول إن مصارعهم عبرة لمن يفكر فيهم حتى لتذوب روحه أسىً ، فقد أقاموا فى دنياهم ورحلوا عنها وغابوا دون وعد بالرجوع أو الإياب ، وقد دعاهم داعى الهلاك فلبُّوه حين انقضى الأجل ، وقد أتى الموت على لذاتهم ، وبُدِّل عيشهم الرغد المنىء وحلوا بطون الثرى ، تحتهم تراب وفوقهم صخور ، فحرىٌّ بالإنسان أن يعتبر ويتعظ . ولعلى مصباح الزَّرْويلى المتوفى سنة ١١٥٠ للهجرة فى تأبين الفقيه جسُّوس الشهيد[2] .

حلَّ بالدين يا لقومى بلاءُ أحجمتْ دون وصفه الشعراءُ
قُتل اليوم أعلمُ الأرض ظلما فَبِه لِلإسلام حقَّ العـزاءُ
قتلوه من أجل أنْ كان أستا ذًا أعزَّته السُّنَّـة السَّمْحاء
قتلوه من أجل أن كان للشَّرْ ع حُسامًا تهابُه الأمـراء
قتلوه أن كان للحـق قَـوَّا لاً وما إنْ تضلُّه الأهواء
يا لها من مصيبةٍ سار فى الأر ضِ وفوق السَّما بها الأنباء
عَمَّت المسلمين رُزْءًا فأضحتْ كلُّ عينٍ منهـم عَراها البكـاء

والزرويلى يجعل موت الفقيه جسوس بلاء حلَّ بالدين الحنيف ، فقد قتل ظلما أفْقهُ الأرض وأعلمها ، وإن الإسلام ليعزَّى فيه . ويقول إنهم قتلوه ، إذ رأوه يحمى الشرع والسنة النبوية ، وكان يقول الحق ولا يخشى فيه أحدا . ويقول ما أعظمها مصيبة سارت بها الأنباء وطارت

---

(١) النبوغ المغربى ٣/٢٩٨ .

(٢) النبوغ المغربى ٣/٢٨٤ .

كل مطار فى الأرض وفى السماء ، ويقول إنها فاجعة عمت المسلمين وملأت عيونهم بالدموع مدرارا . ونتوقف قليلا لنتحدث عن شاعرى الرثاء : ابن شعيب الجزنائى وأبى على اليوسى .

ابن[1] شعيب الجزنّائى

هو أحمد بن محمد بن شعيب الجزنّائى ، منشؤه ومرباه فى مدينة تازا ، ووفد على مدينة فاس فعُرف فضله ، والتحق بدواوين أبى سعيد المرينى ثم ابنه أبى الحسن ، وكان بين العلماء الذين رافقوه فى فتحه لتونس ، وبها توفى سنة ٧٤٩ هـ/١٣٤٩ م ، وكان مثقفا ثقافة واسعة بعلوم الأوائل ، وحذق الطب والفلك والكيمياء والصيدلة ، وفيه يقول ابن مرزوق : « أبو العباس أحمد بن شعيب الفقيه المشارك التعاليمى الفاضل الطبيب الأديب النباتى النخبة ، أحد فضلاء وقته ونبلاء زمانه ، طبقة عالية فى قرض الشعر وإمام فى التعاليم (علوم الأوائل) وواحد فى المعرفة بالأشجار والنبات » . وفى الإحاطة أنه كان يحفظ عشرين ألف بيت للمحدثين وإنه تسرّى جارية رومية اسمها صبح من أجمل الجوارى حسنا فأدبها حتى أحسنت العربية ونظمت الشعر وكان شديد الحبِّ لها وتوفيت وكان بعد وفاتها لا يُرَى إلا فى تأوه دائم ، وله أشعار بديعة فى رثائها ، ومن قوله فيها :

أعلمتَ ما صنع الفرا ... قُ غداةَ جَدَّ بها الرِّفاق
ووقفتُ منهم حيث للـ ... ـنظرات والدمعِ اتساق
سبقتْ مطاياهم فما ... أبطا بنفسك فى السباق
أولى بجسْمـك أنْ يسـ ... ـقَ ودمـعِ عينك أن يُراق
أما الفـؤادُ فعندهم ... دَعْه ودَعْوَى الاشتياق
واهـًا لسالفـة الشبا ... بِ مضتْ بأيَّامى الرِّقاق
أبقتْ حرارةَ لوعـــةٍ ... بين التـــرائب والتَّـــراق

وهو يقول لمخاطبه أعلمت ما صنع فراق « صبح » بى غداة أسرع بى الرفاق ، لقد وقفت منهم أفكر فى صاحبتى وأطيل النظر وعيناى تترقرقان بالدموع ، وعرفت أنها تركتنى إلى غير أياب فأولى بجسمى أن يَضْنَى صبابة بها وأولى لعينى أن تسيل دموعها سيلا لا ينقطع ، أما الفؤاد فعندهم ، ودعه ، وما أشد حسرتى على أيام الشباب السالفة التى ذهبت بما كنت فيه من متاع ولم تبق لى إلا حرارة لوعة فى صدرى بين الترائب والتراقى لا تبرحنى ، ويبكى صبحا فى مرثية أخرى قائلا :

---

(١) انظر فى ترجمة ابن شعيب الإحاطة للسان الدين بن الخطيب ٢٧٢/١ ونيل الابتهاج للتنبكتى ص ٦٨ والمسند فى ترجمة أبى الحسن المرينى لابن مرزوق ص ٣٧٥ والوافى ٤٢٤/٢ والنبوغ المغربى ٢٣٧/١ ، ٧٤/٣ ، ٢٧٧/٣ .

يا صاحبَ القبْرِ الذى أعلامُه درستْ ولكنْ حبُّه لم يَدْرُسِ
ما اليأسُ منكِ على التصبر حاملى أيأستِنِى فكأنّنى لـم أيْأسِ
لما ذهبتِ بكلِّ حُسْنٍ أصبحتْ نفْسي تعانى شَجْوَ كلِّ الأنفسِ
يا صبحُ أيامى لبـــالٍ كلُّهـــا لا تنجلـى عن صُبْحكِ المتنفّسِ

وهو يخاطب صاحبته قائلا إن ما حول قبرك من معالم درست وامّحت ولم يدرس حبك ولم ينمح فى قلبى ، وإن اليأس منك ومن لقائك لا يحملنى على التصبر ، وقد أيأستنى من لقائك وكأننى لم أيأس ، ولما ذهبتِ بكل حسن وجمال أصبحت كأننى أحمل أحزان كل المحبين الذين غادرتهم كل محبوباتهم الحسناوات ، ويقول لها إن أيامى كلها بعدك أصبحت كأنها ليل متصل لا يتنفّس ولا يشرق فيه صباح . ويخاطب قبرها منشدا :

يا قبْرَ صبحٍ حـــلَّ فيــ ـــك لمُهْجتى أسْنَى الأمانى
وغدوتَ بعـــد عِيانهـــا أشهى البقاع إلى العِيانِ
أخْشَى المنيـــة إنّهـــا تُقْصِى مكانَكِ عن مكانى
، كــم بين مقبـــورٍ بفـــا سَ وقابـــرٍ بالقـــيروان

وهو يذكر لقبر صبح إنه حلَّ فيه أجمل الأمانى - كانت - لمهجته وروحه ، ولقد أصبحت بعد عيانها أشهى البقاع إلى العيان والمشاهدة ، وإنى لأخشى الموت أن يباعد بين مكانك ومكانى ، ويقول إنها توفيت بفاس وكان فى القيروان مع أبى الحسن المرينى فى رحلته ، ومن رثائه لصاحبته قوله :

يا غائبا فى الضمير ما بَرِحا دانى محلِّ الهوى إذا نَزَحا
لم تضمر الصَّبْرَ عنك جارحةٌ ولا فؤادى لسلوةٍ جَنَحا
مُسْتَغْبِرُ المُزْن فيكِ أدمعُه يظلُّ يَبْكيك كلما سَفَحا
ولا أرى البرق عاد مبتسما بعدكِ بل زَنْدُ شوقه قدحا
وما تغنىٍّ الحمـــام من طربٍ بل يُعلن النَّوْحَ كلَّما صدَحا

وهو يقول لصاحبته إذا غبت ونزحت لا تزالين دانية منى ولا يزال محل هواك قريبا من نفسى ، ومعاذ الله أن تضمر الصبر عنك جارحة أو أن يجنح فؤادى إلى سلوان أو عزاء . وإنه ليطلب إلى المزن أن تسبل حتى تفيض أدمعه ويظل يبكيك غيثها ، وإنه ليرى البرق فيه كأنه زند شوقه يقدح نارا وشرارا ، ويقول إن الحمام لا يتغنى من طرب أو فرح وإنما ينوح كلما صدح نوحا متصلا . وظل مأتم صاحبته صبح قائما وهو ينوح فيه ويندبها حتى أنفاسه الأخيرة .

أبو علي[1] اليوسي : الحسن بن مسعود

أهم شعراء الزاوية الدلائية ، ولد سنة ١٠٤٠ هـ/١٦٣١ م ، ونشأ نشأة متواضعة ، وشغف بالعلوم الإسلامية واللغوية ، ورحل في طلبها وتعددت رحلاته إلى مراكش وسوس ودرعة وسجلماسة . وفي نحو العشرين من عمره استقر في الزاوية الدلائية واختلف إلى حلقات علمائها يتزود منهم ، حتى إذا شهدوا له بنبوغه وتفوقه تصدر للتدريس ، وظل ناعما فيها بالتدريس إلى سنة ١٠٧٨ هـ/١٦٦٨ م، وهي السنة التي استولى فيها السلطان الرشيد العلوي على الزاوية الدلائية بعد هزيمة أهلها أمامه ، وقد أخذ كل ما كان فيها من مال وسلاح وكل ما في الخزائن من الكتب، وأمر شيوخها: اليوسي وغيره بالرحيل إلى فاس ، وهدمها ولم يبق منها باقية . وأخذ اليوسي يحاول استعادة مكانته العلمية في فاس، وأخذ يناله غير قليل من الشهرة ، وأقبل على دروسه الطلاب وشاعت مؤلفاته . ونزل مراكش بأخرة من حياته وتصدر فيها للتدريس ، وحظي برضا حكام الدولة العلوية وخاصة السلطان إسماعيل . وأدى فريضة الحج وعاد منه ليسلم روحه إلى بارئه سنة ١١٠٢هـ/١٦٩١م . وكان شاعرا بارعا ، وله ديوان شعر مطبوع يشهد له - كما يقول الأستاذ ابن تاويت - بمكانة ممتازة في قرض الشعر الجزل وفي أسلوبه الأخاذ بسحر بيانه الباهر بطول نفسه . ومن أهم قصائده رائية طويلة رثى بها الزاوية الدلائية ، وهو يستهلها بقوله :

أُكلِّفُ جَفْنَيَ العين أن ينثر الدرَّا ... فيأبى ويعتاضُ العقيقَ بها جَمْرا[2]
وأسأله أن يكتم الوجدَ ساعةً ... فيُفْشي وإن اللَّوم آونةً أغرى
وكانتْ عيونُ الحادثات غوافلا ... زمانًا وخَطْبُ الدهر كان بنا غِرًّا[3]
عَدَتْ غُدْوَةً أيدي الحوادثِ فاختلَتْ ... خَلاها فعادتْ بعد نَضْرتِها غُبْرا[4]
وأبْدَلْنَ مأنوسَ الديار وأهلها ... بوحش وحوَّلن الأهيلَ بها قَفْرا[5]
فلا جَفْنَ إلا وهْو مُغْضٍ على القَذَى ... ولا عَيْنَ إلا من تَجيعِ الشَّجا حَمْرا[6]

وهو يقول إنه كلف عينيه أن تنثر لآلىء الدموع على الزاوية الدلائية فأبتا إلا أن تنثرا دموعا كالعقيق الأحمر بل لكأن العقيق استعاض بها جمرا مشتعلا ، ويسألهما أن يكتما الوجد والحزن لحظة أو لحظات فيفشيان همه وغمه ، وكأن اللوم يغري على الإفشاء أكثر فأكثر . وكأن الأحداث كانت غافلة عنها ، وكأن خطب الدهر كان غافلا بدوره ، وإذ أيدي الحادثات تأتي

(١) انظر في ترجمة اليوسي وشعره : عبقرية اليوسي للدكتور عباس الجراري والزاوية الدلائية للدكتور محمد حجي ص٩٧ وكتاب الشعر الدلائي لعبد الجواد السقاط (انظر الفهرس) والنبوغ المغربي ٢٨٥/٣ والوافي ٧٤٠/٣.

(٢) العقيق : حجر كريم أحمر .

(٣) غرًّا : غافلا

(٤) اختلت : قطعت . الخلا : النبات الرطب .

(٥) الأهيل : المأهول بالسكان .

(٦) التجيع : الدم . الشجا : الهم والحزن .

عليها وعلى ما حولها من الكلأ والنبات فإذا هى أرض جرداء بل لقد أصبحت قفرا ، وأبدلت بأهلها الناعمين وحوشا ، ولا جفن إلا وهو ملىء بالقذى ولا عين إلا وهى من الحزن حمراء كالدم . ويبكى ما كان فيها من رياض وغير رياض منشدا :

رياضٌ إذا أبصرتهَا ونَشَقْتهَا فلا تذكُرَنْ نَجْدًا ولا تذكرنْ شَحْرا[1]
فمن لى بواديها إذا فاحَ رَنْدهُ ومَنْ لى بمرعاها إذا أطلعَ المَشْرَا[2]
ومَنْ لى بروضاتٍ يفوق ضياؤها على الشمس حسنا كلما ابتهجتْ زَهْرا
وهل نفحةٌ تكفينيَ المسكَ فائحا وهل شربةٌ تكفينيَ الشهدَ مُسْتَمْرا[3]
وهل وقفةٌ بين الطُّلول التى قضتْ صروفُ الليالى فى معالمها نَذْرَا
هنالك إخوانُ الفؤادِ وفِتْيَةٌ همُ للحَشا خمرٌ فما يَطْلُب الخمرا
وتنأى عِجالا عنهمُ مثلما نأى أبو صِبْيَةٍ عنهم إذا يمَّم القبرا
بها هامت الأرواح من قبل خلقنا ومن بعد ما كنا وإذ نبلغ الحَشْرا

وهى رياض إذا أبصرتها ونعمت بشذاها الذكى لم تعد تذكر ديار نجد الحبيبة ولا ديار الشحر بجوار حضرموت ، ومَنْ لى بواديها إذا سطعت رائحة شجر الرند فيه ، ومن لى بمراعيها حين تنبت نباتها الأخضر الجميل ، ومن لى بروضات بهيجة الزهر بها وإن ضياءها ليفوق ضياء الشمس بهاء وحسنا ، وهل نفحة منها كالمسك فائحا وهل شربة فيها كالشهد أستطيع أن أنعم بها ؟ . لقد أصبحت طلولا ، ويتمنى وقفة بطلولها حيث كان إخوان ، حديثهم كأنه الخمر فى لذتها ونشوتها ، ولقد بعدنا عنهم سريعا كأب فارق صبيته عجلا قاصدا قبره ، ويقول إن أرواحهم بها هامت قبل خلقهم وبعده ، وسيظلون يهيمون بها إلى يوم الحشر . ويفضى إلى حشود من الحكم يبدؤها بأن الدهر لا يبقى على أحد ، وكم من عظيم كان يحتل حصنا شامخا هوى به وكم من مليك أصابه بالأرزاء وقهره وأذله . وقديما دارت صروفه على دارا ملك الفرس وأذلَّ بنى ساسان بعد عزٍّ لا يماثله عز ، وجرَّ ذيله على الغساسنة وملوك الحيرة وخلفاء بنى أمية وبنى العباس والمعتمد بن عباد المنفى إلى أغمات بمراكش ، فهل يشكّ أحد فى صَوْلات الدهر ؟ . إنه دائما يصول حتى على المحبين إذ يحيل الوصل بينهما هجرًا . ويقول :

فلا تَرْكِنَنْ للدَّهر إن نعيمَه ظلالُ سحابٍ يَمْسح السَّهْلَ والوَعْرَا
ملولٌ فما باقٍ على عهد خلَّةٍ ولا مستديمٌ فيك يُسْرا ولا عُسْرَا
ولا تأْمَنَنْ أبناءه إن تحببَّوا إليك فمن يشبهْ أباه فقد بَرَّا
متى ما ارتجَوْا رغباءَ منك تقرَّبوا إليك وأبدوا خالصَ الودِّ والبِرَّا[4]

(١) الشحر : إقليم على المحيط بجانب عمان .
(٢) المشر : النبات الأخضر .
(٣) مُستمرا : مريئا سائغا .
(٤) رغباء : أمنية .

وأخفوا ذميمًا كان فيك وأظهروا جميلا وقالـوا ذو محـاسنَ لا تُمْرَى[1]
وإن لم يرجُّوا منك خيرا رأيتهم جفــاءً وإعراضــا يولُّونك الظَّهرا
إذا ما رأوا ذا الوفر لاذوا بذيلهِ وإن لــم ينالــوا مـن سحائبــه قَطْرا
وإن بَصُــروا بالمملـق اهتزأوا بــــهِ ومـدُّوا إليـــه طَرْفهم نَظــرا شَزْرا[2]

وهو ينصح من يقرؤه أن لا يعوِّل على الدهر ويركن إليه . فإن نعيمه كظل سحاب لا يلبث أن يزول ويمحى ، وهو ملول الطبع لا يبقى على شيمة ، ولا يستديم فيك ما يمنحك من يسر ، وحتى العسر أيضا لا يديمه ، فكم من معسر فتح عليه أبواب اليسر . ويقول إن أبناءه من الناس لا يُؤْمَنُون حتى لو تحبَّبوا إليك وأظهروا المودة ، فهم جميعا غادرون ، ويذكر أنهم إذا رجوا منك جميلا تقربوا إليك وتظاهروا لك بالود والبر الصافى ، ونفوا عيوبك وأظهروا محامدك وقالوا إن محاسنك لا تجحد ، وإن لم يرجوا منك صنع جميل رأيت منهم جفاء وإعراضا عريضا ، أما الغنىّ ذو الوفر فإنهم يلوذون به حتى لو لم يصيبوا منه قطرة من خير ، وأما المملق الفقير فإنهم يهزءون به ويعرضون عنه مغاضبين . ويستمر ناصحا قائلا :

وإن الفتى بالنفسِ لا اللُّبْسِ مجـدُه فمـا شان دُرًّا كَوْنُ أصدافــه كُدْرا
وإن الغِنىَ مـا أورثَ المرءَ فى الْوَرَى محامدَ فى الدنيا وعَلْياء فى الأخرى
وإن تُعْوِزِ النُّعْمى فجُـدْ ببشاشــةٍ فخيرُ القِرَى أن تبذل الرُّحْبَ والبِشْرا
ومَنْ للهوى أَلْقَى القيــادَ فقـد هوَى ولو أنه فى المجد قد وَطِيءَ النَّسْرَا[3]
ومَنْ يصطنعْ عُرْفًا إلى غير أهلـــهِ فليس بلاقٍ من جـزاءٍ ولا شكـــرا
ومَنْ لا يُجَنِّبْ قولـــه دَنَسَ الخَنَا فـلا يمتعضْ يومـا إذا سمع الهُجْرا[4]
ومَنْ يَدَّخِرْ تقوى الإلــه وذكـــرَه على كل حــالٍ يحمد السَّعْىَ والذُّخْرَا
ومَنْ يَغْنَ بالمولى فلـن يَعْـدم الغنى إذا لـم يَجِدْ يومـا لُجَيْنا ولا نَضْرا[5]

وهو يقول إن مجد الشخص بنفسه لا بلبسه وزيه ، ويضرب مثلا بأن الدر أو اللؤلؤ لا تشينه كدورةُ أصدافه ويذكر أن الغنى الحقيقى للمرءهو الذى يكسبه المحامد فى الدنيا والعلياء فى الآخرة ، وينصح قارئه إن لم يجد ما يبذل لضيوفه من القِرى ، فخير منه أن يلقى ضيوفه بالبشر والبشاشة والترحيب وحسن اللقاء ، كما ينصحه أن لا يلقى قياده للحب ويخضع له فإنه يهوى به مهما بلغ من المجد والسؤدد ، ويقول إن من يقدم صنيعا أو جميلا إلى غير أهله فلن يقدموا له جزاء ولا شكورا ، ويذكر أن من لا يخلو كلامه من الألفاظ السيئة الذميمة لا يمتعض .

(1) لا تمرى : لا تجحد .
(2) النظر الشزر : النظر بمؤخر العين كناية عن الازدراء والغضب .
(3) النسر : كوكب . وطىء النسر : كناية عن بلوغ الغاية .
(4) الهجر : الكلام البذىء اللميم .
(5) اللجين : الفضة . النضر : يريد الذهب .

ولا يضق صدره بما يسمع من الألفاظ القبيحة . وأعظم ما يدخره الإنسان لنفسه تقوى الله ، إذ يحمد الناس تقواه ويؤجر عليها خير أجر ، ويقول إن الغنى الحقيقى هو الغنى بحمد الله لا الغنى بالفضة والذهب . وإنما سقنا بعض أبيات من هذه القصيدة ، وهى تشهد لصاحبها ببراعة فائقة فى الشعر ونظمه .

٤

شعراء الزهد والتصوف

(أ) شعراء الزهد

الزهد أساس كبير فى الدين الحنيف ، وزاهد الأمة الأول الرسول ﷺ ، إذ عاش عيشة تقشف وزهد فى متاع الحياة الدنيا ، وتبعه فى هذه المعيشة كثيرون من الصحابة ، وهم مع ذلك يكسبون ما يعولهم هم وأسرهم ، حتى لا يكونوا عالة وعبئا على المجتمع . وأخذ كثيرون من التابعين يؤثرون هذا الزهد وما يتبعه من التقشف . وكان – ولا يزال – مما أضرم جذوته وَعْظُ الوعاظ الكثيرين الذين لم يخل منهم بلد إسلامى ، فهم ينذرون ويخوّفون من عذاب الجحيم ، ويبشرون الأتقياء والصالحين بأن لهم عند ربهم الفردوس جزاء لرفضهم المتاع الدنيوى وإقبالهم على العبادة والنسك ابتغاء لما عند الله من الثواب والرضوان الأكبر .

والمغرب الأقصى مثله مثل البلاد الإسلامية كثر فيه الزهاد والعبّاد ، وكان مما عمل على كثرة الزهاد فيه والنساك الجبال الكثيرة التى كانت تتيح لهم العزلة عن الناس للعبادة كما تتيح لهم كثيرا من الثمار التى يقتاتون بها ، ويحدثنا الحسن الوزان عن كثيرين منهم ، رآهم منهمكين فى العبادة لربهم على رءوس الجبال كالجبل[1] الأخضر قرب آزمور ، ورأى فى قلعة أغمات ناسكا ومعه مائة من تلاميذه ، ويقول إنه نزل بضيافته ثمانية أيام . وأيضا مما ساعد على كثرة الزهاد هناك كثرة الملاجىء للعبادة ، تبنيها لهم الدول المختلفة ، مع كثرة ما كانت تبنى لهم من الزوايا ، ومع كثرة ما كانت تبنى من مؤسسات المدارس مُلْحقة بها مبانى للشيوخ والطلاب وتكفيهم مئونتهم ، فكان كثيرون منهم يتحولون زهاد ونساكا .

وذكرنا فى حديثنا عن الزهد فى فصل المجتمع المغربى أسماء طائفة من الزهاد الأولين قبل عصر المرابطين ، وفيه وبعده . ويهمنا الآن أن نعرض لشعرائهم ، وربما كان أهمهم فى عصر المرابطين السلالجى عبد الله بن عثمان المتوفى – كما فى روض القرطاس – سنة ٥٦٤ للهجرة وهو إمام أهل المغرب فى علوم الاعتقاد ، وأنشد له صاحب الوافى هذه الأبيات[2] :

---

(١) وصف إفريقيا للوزان ص ١٦٩ .

(٢) الوافى ١/ ٣١٥ .

إذا العلمُ لا تَغْشَى غرائبُه قلبى ... ولا شاقنى منه إلى المنهل العذبِ
ولا أنا ممن جاوز الدَّرْبَ ناهضا ... إليه ، ولا أُرضى مقامىَ من رَبِّى
ولا كان حظىَّ منــه إلا حكايةً ... على الناس أتلوها فحسبى إذن حسبى
ولا تَرْضَ بالحظِّ الخسيسِ سفاهة ... فمثلُك مَنْ قد حلَّ فى المنزل الرَّحْب
تجافوا عن الدار التى أصبحوا بها ... على غُرْبَةٍ واستوطنوا حضرة القرب
وإن كــان لا ينجيك إلا ركوبُهـــا ... فماذا التجـــافى عن مجـاورة الـرَّبِّ

وهو يقول إن العلم الذى يلوكه لطلابه من الفقه وغير الفقه لا يتغلغل فى قلبه ولا يدفعه إلى منهل النسك العذب ، ويقول إننى بعيد عن درب النساك وإنه لا يرضى مقامه من ربه وما العلم الذى يلقيه الشيوخ على الطلاب إلا روايات عن الأسلاف ، فلا ترض بهذا العلم وحده واطلب العلم – أو بعبارة أدق – النسك الذى يحياه العباد النساك الذين انصرفوا عن الدار الأولى : الدنيا إلى حضرة القرب من الرب . ولعل فى هذه الأبيات ما يدل على أن حركة الزهد فى المغرب الأقصى كانت إرهاصا لما سيشيع فيه من الحركة الصوفية . وممن كان ينزع إلى الزهد فى عصر المرابطين القاضى عياض ، وله يقول مبتهلا إلى ربه[1] :

إليك بَــوْتُ بذنبى ... فاغفرْ خطـاياىَ ربِّى
وامْنُنْ علىَّ بلطــفٍ ... تَجبُرْ بهِ صَدْعَ قلبى
فقد ركبتُ ذنــوبًا ... سوَّدتُ منهنَّ كُتْبى
وجئتُ أطلبُ تَوبًا ... إذْ ضَاق بالذنب رَحْبى
فاقْبَلْ بفضلك تَوْبى ... واغفرْ برُحْماك ذنبى
وعـافِنى واعــفُ عنِّى ... فأنتَ يـــاربُّ حسبى

وهو يعترف لربه بأنه يرجع إليه مذنبا آملا فى أن يغفر له خطاياه ، إنه غفار الذنوب ، ويدعو أن يمنَّ عليه بلطفه المعهود حتى يجبر به ما حدث فى قلبه من صدع ، فقد ارتكب ذنوبا كثيرة ، سوَّدت كتبه التى سيتلقاها يوم القيامة . ويقول إنه جاء ضارعا إلى ربه يطلب منه أن يقبل توبته ، ويغفر ذنبه برحماه ، فهو أرحم الراحمين . ويسأله العافية والعفو عنه ، فإنه ربه قابل التوب وغافر الذنب . ونمضى إلى عصر الموحدين ، ونقرأ أعند القاضى عمر الفاسى المار ذكره فى الغزليين[2] :

أيُّهــا المغـتر بالزمــنِ ... فى هواه خالعَ الرَّسَنِ
حبُّك الدنيـا وزينَتها ... فتنةٌ عمَّتْك بالفِتَنِ
ظلْتَ والحــالة شاهدةٌ ... عاكفا منهـا على وَثَنِ

(١) التعريف بالقاضى عياض ص ٩٧ .
(٢) الوافى ١ / ١٧٩ .

فاهْجُرَنْها إن زينتهـا زينةٌ شانتْ ولـم تَزِنِ
خدعتنا إنهـا قبحتْ باطنا فى ظاهرٍ حسَنِ
ولتقدِّم مـا تُسَرُّ بـهِ قبل طول البثِّ والحزَنِ
فكأنْ أخراك ملبرحَتْ وكأنْ دنيـاك لم تكـن

وهو يخاطب الذى غره الزمن وغرته الأيام ، فأكبَّ - غير مُرْعوٍ ولا مزدجر - على اللهو والمجون خالعَ الرسن ، والكلمة كناية عن إكبابه عليهما ، ويقول له إن حبك الدنيا ومتاعها وزينتها وكل ما يعجبك فيها فتنة أصابتك بما لا يحصى من فتن الدنيا ، ويذكر له أنه ظل عاكفا على الدنيا عكوف عابد الوثن عليه ، وينصحه أن يهجرها وأن لا تغرّه زينتها ، فهى زينة قبيحة تشين صاحبها ، وقد خدعتنا ظاهرها البرّاق ، وهى فى غاية القبح ، وإن واجبك أن تقدم إلى ربك ما تُسَرُّ به في المستقبل لا ما يحزنك ويملؤك هما فى آخرتك ، فتلاف شأنك قبل مبارحتك دنياك إلى الدار الآخرة . ويقول أبو الربيع الموحدى المترجم له بين الغزلين يخاطب نفسه[1] :

يا نفسُ حسْبكِ ما فرَّطتِ فازْدَجِرى عن الذنوب فإن القبْرَ مَثْواكِ
خافى الإلهَ لما قدَّمتِ من زَلَلٍ واعْصى هواكِ فإن الله يرعاكِ
إنّ الهوى قلما تُجْدِى هوادتُه وهو الذى عن سبيل الرشد أقصاكِ
لشدَّ ما تعلمين الفـرق بينهما مـا كان أخـراكِ بالأجـدى وأولاكِ
إلى مَ تلهين عن قولى مغالطةً وتوقنـين بأنـى غيرُ أفّـاكِ[2]
أصْغِى إلىَّ فما فى الأرض من أحدٍ ألقى إليـه صريحَ النُصْح إلّاكِ
تـوبى إلى الله إن الله يقبلهـا واسْعَىْ بجهـدك فـى تحسـين عُقْباكِ

وهو يقول لنفسه : يكفيك ما فرَّطت من الذنوب ، وينبغى أن تقلعى عنها فإن مثواك الأخير القبر ، وخافى ربك لما قدمت من عثرات ، واعصى هواك فإن الله يراقبك ويعلم ما ارتكبت من الخطيئات ، وإياك وطاعة هواك لما يقدم لك من متاع ، فإنه هو الذى أضلك وأبعدك عن طريق الرشاد ، وما أعظم الفرق بين الضلال والهدى ، وما أحراك أن تتمسكى بالهدى ، وحتى متى لا تسمعين لنصحى وأنى لا أكذبك ، إنه جدير بك أن تصغى إلىَّ وإلى نصحى ، فإنك أقرب شىء إلىّ وليس فى الأرض من أُسدى إليه النصح سواك ، فتوبى إلى الله توبة حقة حتى يقبلها منك ، واعملى بجهدك على أن تحسنى عُقْباك وترضى ربك . ومن كبار الزهاد عمر بن محمد القيسى المراكشى الفاسى الأصل المتوفى سنة ٦٢٦ للهجرة وكان أديبا

(١) الوافى ١/ ٢٤٩ .
(٢) أفاك : كذّاب .

بارع الكتابة طيب النفس نفاعا بجاهه وذات يده ، وكان شاعرا مجيدا ، وجمع دفترا فيما نظم في التهجد وقيام الليل أجاد فيه الاختيار ، ومن نظمه فيه قوله[1] :

ذهب الظلامُ وأنت جِذْعٌ راقدُ ... وأتى الصباحُ وأنتَ صَخْرٌ جامدُ
وخَلتْ على الإظلام منك مناسكٌ ... وخلتْ على الإصباح منك مساجد
وأُولوا التهجُّدِ ليلهم ما منهمُ ... لله إلا راكـعٌ أو ساجد
وهجعتَ – يا مغرورُ – ليلَك كلَّه ... وعليك من عين الإله شواهدُ
فانظرْ لنفسك قبلَ حين مماتها ... إن المماتَ على البريَّـة وافِـدُ
وتذكَّر السَّفَرَ البعيدَ وطولـه ... من غير زادٍ والمجـالُ فَدافِـدُ[2]
واذكَر نُشـورك بعد موتك فجـأةً ... وصحائفُ الأعمال منك تشاهـد[3]

وهو يُهيب بالغافل عن نسك التهجد أن يقوم شطرا من الليل مصليا لربه مسبحا له ذاكرا ، ويقول له إنك تنام طوال الليل كجذع راقد ممدود حتى الصباح ، وكأنك صخر جامد لا حس ولا حركة ، وتلك المناسك : مناسك التهجد خالية منك مساء ، وتلك المساجد خالية منك صباحا ، وأصحاب التهجد يُحْيون ليلهم بالركوع والسجود لربهم بينما أنت هاجع فى فراشك أيها المغرور المذموم ، وإنه لحريٌّ بك أن تنظر لنفسك وتتعهدها بالتقوى قبل مماتك ، إذ كل من عليها فانٍ ، وتذكر سفرك البعيد إلى يوم القيامة ورحلتك فيه دون زاد ، فى مجال مقفر : واذكر بعثك بعد موتك وعرض صحائف أعمالك على ربك العلى القدير . وكان يعاصره وتوفى بعده بعام واحد عام ٦٢٧ للهجرة ابن الزيات يوسف بن يحيى التادلى صاحب أول كتاب تحدث عن زهاد المغرب الأقصى ومتصوفته وهو كتاب « التشوف لمعرفة أهل التصوف » وقد اتسع فى تصوره لأهل التصوف ، إذ جعل كتابه – كما يقول فى مقدمته « يشتمل على أضراب من أفاضل العلماء والفقهاء والعباد والزهاد والورعين وغير ذلك من ضروب أهل الفضل » مما جعل تراجم الكتاب تتسع لتشمل الزهاد والمتصوفة وأهل الصلاح من العلماء والفقهاء ، وبذلك نفهم كثرة التراجم فيه ، إذ بلغوا كما يقول مائتين وسبعة وسبعين شخصا ، ويقول إنه سيخصه بمراكش وأعمالها ، غير أنه حين مضى فيه رأى أن يضم فيه كثيرين من بلدان المغرب المختلفة . والكتاب مهم لأنه يعطى صورة واضحة عن أوائل زهاد المغرب ومتصوفته حتى نهاية القرن السادس الهجرى مثل من سميناهم فى حديثنا عن الزهد فى المجتمع المغربى ، مثل أبى الحسن بن حرزهم وأبى يعزى بلنور بن ميمون ، ويذكر بعض أشعارهم كهذه الأبيات التى ذكرها لابن تاخميست المتوفى سنة ٦٠٨ للهجرة .

(١) الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى ٢٣٦/١/٨ .
(٢) فدافد جمع فدفد : الفلاة .
(٣) نشورك : بعثك .

ولما ركبت البحرَ نحوك قاصدا ... ولم أر غير الله مالاً ولا أهلا
دعوتك بالإخلاص والموجُ طامحٌ ... بصدقِ ودادٍ لم يكن قبل معتلاً
أيا منقذ الغَرْقى ويا مُلْهِمَ التُقَى ... ويا صَمَدًا يبقى إذا أذهب الكُلاَّ
لوجهك ذلَّ البَرّ والبحرُ خاضعٌ ... وحقٌّ لهذا الخلق أن يألف الذلاَّ

وهو يبتهل لربه ذاكرًا أنه حين ركب البحر أسلم نفسه له ولم يعد يذكر أهلا ولا مالاً سواه ، وحين هاج البحر وهاجت أمواجه دعا ربه مخلصا صادق الوداد أن ينجيه ضارعا إليه قائلا : يا منقذ الغرقى ليس سواك ينجي يا ملهم المتقين تقواهم ، ويا مقصودًا يبقى بعد أن يفنى كل من على الأرض ، لوجهك يا ذا الجلال ذلت الأرض وخضع البحر ، وحق للناس أن يتذللوا لك تذللا ما بعده تذلل فأنت المنجي والمنقذ ومغيث المستغيثين .

ونلتقي في أواخر القرن السابع بعبد الحق بن إسماعيل وكتابه عن صلحاء منطقة الريف المحاذية للبحر المتوسط شمالى المغرب الأقصى ، وكأن كتابه عنهم يكمل كتاب التشوف لمعرفة أهل التصوف الذى عُنى - فى الأعم الأغلب - بمنطقة مراكش كما أسلفنا ، وقد جعله فى ثلاثة أقسام قسم عن المقامات الصوفية ، وقسم عن الخضر عليه السلام ، وقسم عرَّف فيه بصلحاء الريف ، وهم عنده ستة وأربعون ترجم لهم ، وأتبع كل شيخ بأبيات يصف فيها زهده أو تصوفه ، ومن قوله فى ترجمة سعيد المسطاسى يصف زهده وزهد أمثاله[1] :

زهدوا يريدون النجاةَ وأصبحوا ... وطعامُهم فى الأرض نبتٌ يابسُ
مالوا عن الشهوات فى الدنيا فما ... لهمُ سوى التوفيق شيءٌ حابِسُ
فجَنانُهــم من كلِّ سَهْوٍ سالــمٌ ... ولسانهــم عن كل عيبٍ نابِـسُ

فهم قد زهدوا فى الدنيا ومتاعها يريدون النجاة فى الآخرة من عذاب النار ، وطعامهم مما تنبت الأرض من النباتات ، لا يفكرون فى لحوم ولا فى طعام مطبوخ ، فحسبهم ما يجدونه على وجه الأرض من النَّبات ، وقد رفضوا الشهوات جميعا فى دنياهم ، ولا شيء يحبسهم سوى عبادة ربهم ، وأذهانهم بريئة من كل سهو ولسانهم لا ينبس بعيب . وبجانب هذه المقطوعة من نظم عبد الحق بن إسماعيل مقطوعات تبدو فيها الروح الصوفية سنعود إليها فى حديثنا عن التصوف ويلقانا أبو العباس الشريف السبتى المتوفى سنة ٧٧٦ للهجرة وقوله فى ثقته بربه[2] :

وثقتُ بالله ربِّــــى ... وحَسْبِيَ اللهُ حَسْبِى
واللهُ كــــافٍ وواقٍ ... دافــعٌ كــلَّ خَطْبِ
ولستُ أخشى إذا ما ... وثقت بالله ربــــى
بلغتُ فيهـــا مُرَادى ... مهنَّـــأً مــعَ صَحْبِى

(١) الوافى ٢/٥٠٦ .

(٢) الوافى ٢/٤٨٤ .

وهو يقول إنه وثق بالله ربه ، وحسبه هذه الثقة فليس فوقها ولا بعدها ثقة والله كافينى وحامينى وواقينى ودافع عنى كل خطب وكل بلاء أتعرض له ، ولذا لا أخشى أحدا ولا أخشى شيئا ، فقد وثقت بالله ثقة لا حدَّ لها ، ثقة بلغتُ فيها كل مرادى وكل ما أؤمله فى حياتى ، مما يحق لى أن أهنأ بها مع صحبى الذين يثقون فى ربهم . ونلتقى بأبى عبد الله محمد بن عبد الرحمن المعروف بابن يجبش المتوفى سنة ٩٢٠ للهجرة ، وله فى معارضة قصيدة ابن النحوى المذكور فى تونس(١) :

اشتدِّى أزمـــةُ تَنْفَرِجى ... قد أُبدل ضيقُك بالفرجِ
مهما اشتدتْ بكَ نازلةٌ ... فاصبِرْ فَعَسَى التفريج يجى
مولاك ارغبْ فإجابتــهُ ... للمضطريــن على درج
وألِحَّ عليـــه بمسألــةٍ ... فهو الجواد فسَلْ وهِجِ
أخلصْ فيما تدعوه وقُلْ ... يسِّرْ عُسْرِى وأزِلْ حرَجى
لا حيلةَ لى لا قـــوَّةَ لى ... إلا بك يـا محيى المُهَـــج

وهو مؤمل فى رأيه ولا ييأس أبدا ، ولذلك يقول أيتها الأزمة المارة بى اشتدى ومهما اشتددت فلابد من الفرج وانحسارك عنى ، ويتجه إلى قارئه ، فمهما اشتد بك خطب أو حادثة فادحة فلتصبر فعسى الفرج يأتيك سريعا . واقصد مولاك بالسؤال أن يلطف بك فإجابته للمضطرين قريبة المنال ، ولتدعه ولتلح عليه فى الدعاء ، إذ هو الكريم الذى لا حد لكرمه ، فسَلْه وكرر السؤال ، فإنه يجيب المضطر إذا دعاه ، وأخلص فى دعائك والزلفى إليه ، وقل رب يسِّر عسرى وأزل ما أنا فيه من حرج وضيق واكشف غمتى ، إنه لا حيلة لى ولا قدرة إلا بك يا محيى المهج والأرواح ومغيث المضطرين المكروبين . ويقول أحمد دادوش مناجيا ربه(٢) :

تسترُ العَيْبَ تغفرُ الذنبَ تعطى ... تمنع العبدَ ، كلُّ حكمك عَدْلُ
تَجْبر الكسرَ تبدل العُسْرَ يُسْرًا ... تكشف الضرَّ كلُّ ذلك بَذْلُ
لم تزل محسنًا غنيًّا كريما ... أنت هُوَ الخالق المعزُّ المذلُّ
فقــراءٌ وأغنيـــاءٌ على البـــا ... ب وقـوفٌ لهـم خضـوعٌ وذلُّ

وهو يذكر لله صفاته الربانية ، فهو يستر العيب ويغفر الذنب ويعطى من غير حساب ويمنع لا رادّ له ، وكل أفعاله عدل مطلق ، إنه يجبر الكسر الذى لا يمكن جبره ، ويبدل العسر يسرا ويكشف الضر ، وكل ذلك كرم ليس وراءه كرم ، وسبحانك ما أعظم شأنك لم

---

(١) الوافى ٦٠٥/٢ .

(٢) الوافى ٨٣٥/٣ .

تزل محسنا لعبادك غنيا جوادا ، فأنت الخالق المعز المذل ، وقد عم امتنانك وعمت عطاياك كل الخلق ، وها همَ فقراء وأغنياء يقفون ببابك خاضعين . ولأحمد بن عبد العزيز الهلالى فى العصر العلوى المتوفى سنة ١١٧٥ هـ/١٧٦١ م هذا الدعاء[١] :

لك الحمدُ كلٌّ الحمد يا راحمَ الضُّعْفِ ... ويا دائمَ الإحسان والرفق واللُّطْفِ
لك الحمد ثم الشكرُ دون نهايةٍ ... على نعمٍ جلَّتْ عن العَدِّ والوصفِ
إليك مَدَدْنا الكفَّ كيما تُمِدَّنا ... بما نرتجى يا مالك البَسْط والكفِّ
فعافِ ودافعْ واحْمِ يارَبِّ واكْفِنا ... بحفظك ما نخشى فغيرُك لا يكفى
وأبْقِ علينا السِّتْرَ فى كلِّ حالةٍ ... بفضلك فى الدنيا والاخرَى بلا كَشْفِ
وأعظمْ وأعززْ - يا عزيزُ - جَنابنا ... وحُطْنا من الخذلان والضَّيْمْ والخَسْفِ
وزِدْنا من الخَيْرات فوق مَرامنا . ... بفضلك - يامولَى - تعالَى عن الكَيْفِ

وهو يضرع إلى ربه قائلا لك الحمد يا راحم الضعفاء ويا دائم الإحسان وما يطوى فيه من الرفق واللطف ، لك الحمد والشكر الذى لا نهاية له على نعم أسبغتها علىَّ ، وهى تجلُّ عن أن تعدّ أو توصف ، وإليك مددنا الكف داعين كى تعطينا ما نأمل يا مالك الإعطاء والمنع فامنحنا العافية وادفع عنا كل بلاء واحمنا منه يارب واحفظنا من كل ما نخشى وأدمْ علينا الستر فى الدنيا والآخرة ، وأعظم وأعزز حمانا وحطنا برعايتك من الخذلان والضيم والخسف وزدنا من طيبات الرزق فوق ما نريد بفضلك يا مولانا يا من تعاليت عن كل كيف وكل شبه بالمخلوقات . وأشعار الزهاد فى المغرب الأقصى طوال عصوره لا تكاد تحصى .

(ب) شعراء التصوف

التصوف - فى حقيقته - مبالغة فى الزهد والنسك وعبادة الله ، ولذلك يعدُّ كل ما ذكرناه من شعر الزهد مقدمة للتصوف ، فالمتصوف مَنْ بالغ فى زهده وأخذ بركنين أساسيين من أركان التصوف وهما التوكل على الله والثقة فيه توكلا وثقة لا حد لهما حتى ليهمل أمر معاشه وكسب قوته . ومن قديم أو بعبارة أدق منذ القرن الرابع أخذت تشيع فيه طريقتان : طريقة فلسفية يتعمق الصوفى بها فى الحب الإلهى حتى ليفنى فيه شاعرا بضرب من الاتحاد مع سيد المخلوقات على نحو ما هو معروف عن الحلاج فى القرن الرابع الهجرى ثم من تابعوه أمثال ابن عربى . ومن حين إلى حين يلقانا بعض هؤلاء الصوفية المتفلسفين على نحو ما أوضحنا ذلك فى الجزء الخاص بالأندلس ، وكان كثيرون من أصحاب هذا المنزع الأندلسيين ينزلون فى المغرب ، وهو ما هيأ لظهور أمثال أبى مدين . غير أن هؤلاء فى رأيى كانوا شذوذا على الطريقة السنية

---

(١) النبوغ المغربى ٣٠٨/٣ .

التي اعتنقها صوفية المغرب الأقصى ، إذ شاعت فيه منذ القرن السابع الهجرى الطريقة السنية الصوفية المعروفة لأبي الحسن الشاذلي . ونحن نجد مقدمات هذا التصوف السنى القائم على محبة الله دون فناء فيها مع التوكل والثقة فيه المفرطين على ألسنة كثيرين من الشعراء . ولعل ذلك ما جعل ابن الزيات يتوسّع فى كتابه « التشوف لمعرفة أهل التصوف » فيسلك فيه صلحاء المغرب وزهاده من العلماء والفقهاء الورعين ناظما لهم بين من سماهم أهل التصوف . وكانت كثرة الوعظ فى المساجد لأيام الجمع وغير أيام الجمع من أهم العوامل – كما أسلفنا – فى ازدهار الزهد ونزعة التصوف السنى فى المغرب ، ولذلك كثر فى كتب التراجم نعت كثيرين بأنهم صوفية ونضرب مثلا للوعاظ بابن الحجام محمد بن أحمد اللخمى المكناسى وفيه يقول ابن عبد الملك المراكشي : « كان فاضلا صالحا زاهدا ذاحظ من الأدب وقرض الشعر مال إلى طريقة الوعظ والتذكير فرأس فيه أهل عصره بحسن الصوت وغزارة الحفظ وإتقان الإيراد والصدق والإخلاص فى وصاياه وتذكيره ، فنفع الله به خلقا كثيرا فى بلاد شتى .. وله كتاب حفيل فى الوعظ سماه حجة الحافظين ومحجة الواعظين فى مجلدين ضخمين ، وله يصف نفسه ومحبته لربه التى تعد أس التصوف وجوهره[1] :

غريبُ الوصف ذو علمٍ غريبِ ... عليلُ القلب من حبِّ الحبيبِ

إذا ما الليلُ أظلم قام يبكى ... ويشكو ما يُكِنُّ من الوَجيبِ

يقطِّع ليلــه فكرا وذكرًا ... وينطق فيه بالعجب العجيبِ

به من حبِّ سيِّده غرامٌ ... يجــلُّ عن التطبُّب والطبيب

ومن يك هكذا عبــدا محبــًّا ... يطيب ترابــه من غير طِيب[2]

وهو يقول إن وصفه وعلمه فى حبه لربه غريب ، ويشكو فى حبه من علة قلبه كما يشكو المحبون ، ويقول إنه يظل طوال الليل قائما يبكى ويشكو من شدة حبه ولهيبه ، وإنه لا يزال طوال ليله يفكر ويذكر ربه ، ويقول إن غرامه بربه لا ينفع فيه تطبب ولا طبيب ، كما يقول إن من يحب ربه هذا الحب المفرط يطيب مكانه فى حياته وفى قبره من غير طيب . ووعظ بإشبيلية فى الأندلس ، ويذكر بعض مستمعيه هناك أنه كان من استحكام تأثيره فى الناس وانفعال القلوب لتذكيره بمقام تكلُّ العبارة عن وصفه ، ويقول : شاهدته فى إشبيلية ، وقد ندبَ الناس إلى افتكاك أسارى لدى النصارى ، فتسارع الناس إلى بذل ما حضرهم ، وخلع كثيرون بعض ما كان عليهم من الثياب ، فعهدى بها قد تراكمت أمام منبره حتى كادت تحجبه عن الأبصار ، سوى ما وُعد به من الحاضرين ، وتجمَّع من أثمان تلك الثياب مال جسيم .

---

(١) الذيل والتكملة ٢٦٧/١/٨ وما بعدها .

(٢) لاحظ ابن عبد الملك أن فعل الشرط فى البيت « يك » مجزوما وجوابه « يطيب » مرفوعا ولو قال ، « تطب أثوابه » أو ما هو على وزنه لتفادى هذا الخطأ .

ويعقوب المنصور للموحدى المتوفى سنة ٥٩٥ للهجرة هو الذى جلبه إلى أهل حاضرته مراكش ليستمعوا إلى وعظه ، وظل هو وخلفاؤه يوالونه بعطاياهم الجزيلة ، ولم يكن يدخر منها شيئا إذ كان ينفقها على الفقراء والمحتاجين وفى تجهيز الفقيرات إلى أزواجهن حتى وفاته بمراكش سنة ٦١٤ للهجرة . وإنما استطردت فى الحديث عنه لأوضح سيرة واعظ زاهد بل صوفى مبكر من صوفية المغرب الأقصى ومدى إخلاصه فى وعظه وزهده وتصوفه . وكان الوعاظ من حوله كثيرين فى كل بلد مغربى . ونلتقى فى أواخر عصر الموحدين بصوفى كبير هو ابن المحلى وسنخصه بترجمة مفردة . ومر بنا فى الزهد حديث عن عبد الحق بن إسماعيل فى العصر المرينى وكتابه - المارّ ذكره - عن صلحاء الريف الشمالى وترجمته فيه لستة وأربعين من صلحائهم ويصفهم بأنهم أولياء وكأنه يعدهم جميعا من المتصوفة ، وعادة يتبع الترجمة بأبيات من إنشائه وقد استشهدنا فى الزهد بمثال منها ، وكثرتها تعمها الروح الصوفية على نحو ما يبدو من المقطوعات التى اقتبسها منه الأستاذ محمد بن تاويت فى كتابه الوافى[1] ، من ذلك قوله من قصيدة فى ترجمة أبى القاسم بن الصيان الفاسى :

الأُنسُ بالله العظيم وذكرُهُ ... مما يزيد أولى التُّقى إيمانا
من كان نورُ الحق أيّده غَدَا ... ولهانَ من شغفٍ به هَيْمانا
سرُّ الحقيقة لا يفوز بنيلهِ ... غير امرئٍ مستترلٍ كتمانا
لا يحرز الفضلَ المبين سوى الذى ... ملَكَ العلومَ مطهَّرًا جثمانا

وهو يقول إن الأنس بالله والخلوة به وتسبيحه وذكره مما يزيد المتقين إيمانا بربهم ، ويصف الصوفى الذى يؤيده نور الحق جلَّ جلاله فإنه يصبح به شغوفا ولهان هائما ، غير أن ذلك إنما يفوز به وبسر الحقيقة فيه مَنْ يكتمه مخافة أن يعلن حبه لربه للناس ، وما شأنهم ؟ فيضيع منه ما حباه به . ويقول إنه لا يحرز هذا الفضل الصوفى إلا العالم الطاهر النقى الورع . وينعت المتصوفة ويعرِّف بهم فى قوله بترجمة محمد اليستثنى البطيوى :

علمُ اليقين أتاهم ما أمَّلوا ... فدَرَوْا به عينَ اليقين وحَقَّهُ
سُلبوا فغابوا عن وجود نفوسهم ... فوجودهم محوٌ يلازم مَحْقَهُ
لم يعرفوا هَجْرا ولا وَصْلاً ولا ... معنىً يبيِّن قربه أو سُحْقَه
وكأنما أسرارهم بقلوبهم ... درٌّ مصونٌ لا يفارق حُقَّه

ويقول إن الصوفيه هم الصفوة التى منحها الله علم اليقين ، فعرفته حق المعرفة ، ويذكر أنهم سُلبوا الشعور بالمحسوسات من حولهم ، فغابوا حتى عن الشعور بوجودهم ، وكأنما

---

(١) انظر فى أشعار عبد الحق بكتابه صلحاء الريف ٢/٥٠٥-٥١٢ .
كتاب الوافى بالأدب العربى فى المغرب الأقصى

وجودهم امحى امحاء تاما ، فلم يعودوا يشعرون بشيء سوى ربهم الذى استغرقهم وفنوا في جلاله ، وهم بذلك محبون حبًّا من نوع خاص حبا إلهيا ، لا هجر فيه ولا وصل ولا شيء سوى النعيم بالفناء في الذات العلية ، وهم لا يذيعون أسرار هذا الفناء ولا ذلك الحب إذ يكتمونها في حِقاق صدورهم وقلوبهم . ويصفهم مرة أخرى في ترجمة إبراهيم بن صالح من وجوه المرية منشدا :

أهلَ الحقيقة إن نظرتَ وجدتهم ... متسربلين بكلِّ فَضْلٍ باهرِ
قهروا نفوسهمُ ففازوا بالمنى ... من جود ربٍّ ذى جلالٍ قاهرِ
وتجوهـروا بلطـائفٍ فتكلَّلتْ ... تيجانُهـم بزبرجـدٍ وجواهـرِ

فهم أهل الحقيقة الربانية إن تأملتهم وعرفتهم حق المعرفة وجدتهم مزدانين بحلل من كل فضل باهر ، وقد استطاعوا أن يقهروا نفوسهم ويردعوها عن كل متاع دنيوى ففازوا بأمانيهم من عطايا رب جواد ذى جلال وإكرام لا حد له ، وكأنما بثَّ فيهم ما جعلهم يستحيلون جواهر متألقة ، بل كأنما نظم على تيجانهم الصوفية الإلهية روائع الزبرجد والدرر النفيسة . وينعت أحدهم بحسن توكله على ربه ، وهو مبدأ أساسى في التصوف قائلا :

حسنُ التوكّل في القفار أناله ... حالاً بها قد سرَّه ما نالهُ
جعل الالهَ لـه سبيلا في الفَلا ... سَبَبا فحقَّق في الخلاص منالَهُ

فهو قد أحسن التوكل على ربه ، فرزقه في القفر بما سدَّ رمقه وسرَّه في حياته الإلهية ، وحقق له الخلاص من الدنيا وترهاتها . ويدور الزمن دورات ونلتقى بابن جابر محمد بن يحيى المتوفى سنة ٨٢٧ للهجرة وكان له نزوع نحو الزهد والتصوف ، ومن قوله[1] :

نظرت إلى الوجود بعين قلبى ... فلم أرَ فيه غيرَ الله وَحْدَهْ
فَثِقْ بالله وارجُ الله واعمـلْ ... للقيا الله تأمَـنْ كلَّ شِـدَّه

وقد يظن من البيت الأول أنه ممن يؤمنون بالحلول وأن الذات الإلهية تحلّ في كل مظاهر الوجود ، لذلك لا يرى فيه سواه ، ويطلب إلى مخاطبه أن يكون دائما واثقا في الله لا يرجو ولا يأمل في أحد سواه ، ويعمل لآخرته حتى يأمن عذابه ويدخل جناته ، وله في التوكل على الله حق التوكل :

على قَدْر نِيَّةِ أهلِ التوكُّـ ... ـلِ يعطيهم اللهُ منه المعونه
فإن صَحَّح العـبدُ إيقـانَهُ ... كفاه المهيمنُ همَّ المئـونه

وهو يقول : بمقدار توكل العبد على ربه يمنحه العون والرعاية ، وإن صحح يقينه وأخلص

(١) انظر في هذه المقطوعة وتاليتها كتاب المنتقى لابن القاضى ٤٠٥/١ .

فى توكله عليه كفاه هم العيش ، إذ هو المهيمن على كل عيش وكل شىء . ويقول عمر الفاسى المتوفى سنة ١١٨٨ للهجرة(١) .

الْجَأْ إلى الله فى أمرٍ تحاولُهُ   وابْرَأْ إلى الله من حَوْلٍ ومن حِيَلِ
وكِلْ إلى الله كلَّ الأمر واغْنَ بِهِ   عَمَّن سواه فإنَّ الله خَيْرُ وَلِى

وهو يدعو قارئه إلى اللجوء لله فى كل أمر يحاوله ويبرأ إليه من كل قوة وكل حيلة ، ويتكل عليه اتكالا صادقا مخلصا فى كل أمر ، وليكتف به عمن سواه ، فإنه خير المعينين على تحقيق الآمال ، وهو فى ذلك يصدر عن مبدأ التوكل الصوفى . ونرى محمد بن عبد السلام بن ناصر الرحالة يصدر عن مبدأ الثقة فى الله الصوفى بمقطوعة فى أحد عشر بيتا ختمها جميعا بلفظ الجلالة ، وفيها يقول(٢) :

لله فى الخَلْقِ ما اختارتْ مشيئتهُ   ما الخير إلا الذى يختاره اللهُ
إذا قَضَى اللَّهُ فاستسلمْ لقدرتـهِ   ما لامرىءٍ حيلةٌ فيما قضى الله
تجرى الأمورُ بأسبابٍ لها عِلَلٌ   تجرى الأمور على ما قدَّر اللهُ
إذا ابْتُليتَ فثِقْ بالله وارضَ بـهِ   إن الذى يَكْشف البلوى هو الله
إن الأمور إذا ضاقتْ لها فرجٌ   كم من أمورٍ شدادٍ فرَّجَ الله
الله لى عُــدَّةٌ فى كلِّ نائبــةٍ   أقــول فى كل حــالٍ حَسْبِىَ الله

فهو يسلم أمره لربه مؤمنا بأن الخير ما اختارته المشيئة الإلهية له ، ويقول إنه ينبغى الاستسلام لقضاء الله ، فليس لشخص حيلة فيما قضى الله وقدَّره على عبده ، ويذكر أن الأمور تجرى بأسباب ولها علل قد تغيب معرفتها عن الإنسان فيما قُدِّر له ، وينصح المرء إذا نزل به بلاء أن يثق فى الله ويرضى به ، فإنه هو الذى يكشف غُمَّة البلوى عنه ، ولا ييأس أبدا فإن الأمور مهما ضاقت ومهما اشتدت لابد أن يزيحها من لدن الله فرج ، ويقول إنه يتخذ الله عدة له فى كل نائبة وكل كارثة معلنا دائما فى صدق وإخلاص أن الله حسبه . ونقف قليلا لنتحدث عن صوفى مبكر فى عصر الموحدين هو ابن المحلى .

ابن(٣) المحلى

هو محمد بن حسن بن عمر الفهرى ، من أهل سبتة ، كان أبوه قوّالاً يغنى فى المحافل والأسواق — والمتلبِّس بذلك يعرف فى المغرب بالمحلى — وقد ولد له محمد سنة ٥٨٣ هـ/١١٨٧ م ونشأ نشأة ادبية وعلمية ممتازة أصبح بها من كبار أساتذة سبتة ، وكان أديبا بليغا ناظما وناثرا ، فقيها عاقدا للشروط نحويا ماهرا برع فى الأدب ودرَّسه للطلاب عمره مع الفقه ومسائل

(١) الحياة الأدبية فى المغرب على عهد الدولة العلوية للدكتور محمد الأخضر ص ٣١٠ .
(٢) انظر د . محمد الأخضر ص ٣٧١ .
(٣) راجع فى ترجمة ابن المحلى وشعره الصوفى كتاب صلة الصلة لابن الزبير ، كتاب الذيل والتكملة ٢٨٩/١/٨ والوافى ٣٤٩/١ .

الشريعة ، وكان حسن القيام على تفسير القرآن مذكرا ، وعقد له حلقات مدة فانتفع به خلق كثير ، وكان واعظا ولوعظه تأثير كبير فى سامعيه . وظل يعظ الناس طويلا بمسجد مقبرة زقلو فى سبتة ، وولى القضاء بها سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٧م وظل يليه محمود السيرة مشهورا بالعدل إلى نهاية عمره سنة ٦٦١ هـ/١٢٦٣ م . وكان شاعرا ، وتعمقته النزعة الصوفية ، وله فيها غير قصيدة ، من ذلك قوله فى إحدى قصائده :

[هل يبرح] العشقُ قلبـا أنت مطلَبُـه ... أو يُذهب الشوقُ روحا أنت مذهبهُ
وكيف يرجو وصـالاً من تبعُّدهُ ... أو كيف يخشى بِعادًا من تقرُّبه
يا مَنْ أناجيهِ والأشـواقُ توهمنى ... نَيْلَ الوصالِ كأنَّ الشوق يوجبه
كم طيِّبٍ لك بالألطـاف توجدهـا ... عند اللقـا وفنـائى فيك أطيبـه
ومِنْـةُ الجـود تُدْنيـه فتُؤْنِسه ... وخَشْية الـردِّ تُقْصيه فتَحْجُبه
مناى أنت وحسبى أن تكون مُنًى ... يـا واهبـا رغَباتى قبلَ أرغبه
كُنْ كيف شئت فما لى عنك منصَرفٌ ... فالعبـد ليس سوى مـولاه مَطْلبـه

وهو يقول إن حبه للذات العلية لن يبرح فؤاده لأنه مطلب قلبه وأمنيته . ولن يذهب الشوق روحا ، الله مذهبه وعقيدته . فحبه لربه لن يفارقه أبدا ، ويتجه إليه مخاطبا كيف يرجو الوصل من تبعُّده ، بل كيف يخشى البعد من تقرُّبه . ويقول إنه يناجيه ، وتوهمه أشواقه أنه سينيله الوصل كأن مجرد الشوق يوجبه ، ويعترف بأنه ينثر عليه كثيرا من الأشياء الطيبة ، ويقول إن أطيب ما تفضل به ربه عليه فناؤه فيه ، فهو يفنى بحبه فى الذات الإلهية ، ودائما تقرِّبه من ربه منحة الجود ، فيشعر بأنس لا حد له ، وفى الوقت نفسه يخشى الرد وأن يقصيه فيحجبه عنه ، ويقول إن ربه مُناه وحسبه أن يكون أمنيته أو مطلبه . ويذكر أن الله دائما يحقق له رغباته حتى قبل أن يفكر فيها ، ويقول سواء قبله أو رفضه فليس له منصرف عنه ، إذ هو عبده الذى يطلب القرب من مولاه دائما أبدا . ويقول فى قصيدة أخرى :

فـؤادىَ منقـادٌ إليكـم مذلَّلٌ ... ومالى – إذا لجَّ العذول – جِماحُ
وهـل من سبيـلٍ أن أطيرَ إليكمُ ... وقد حُصَّ بى ريشٌ وقُصَّ جَناح(1)
وأوحشتمُ فالكلُّ فى الأذن نائـحٌ ... لدىَّ وآفـاق الوجـود فِسـاح
خرِسْتُ عن الشكوى إليكم مهابةً ... وألسنُ حـالى بالغـرام فِصاح
ويـا عجبـًا أنـى أسيرٌ وأننـى ... أناشدكـم أن لا يُتـاح سَـرَاح
إذا هزَّ أربـابَ السماع تواجـدٌ ... فحظىَ منـه زَفْـرةٌ وصيـاح
وها أنا عند البـاب مُنُّوا أو اطـردوا ... فما لىَ عنـه – كيف كان – بَراحُ

(1) حُصّ : حُلق ونُتف .

وهو يقول إن فؤاده منقاد إلى ربه مذلَّل لحبه ، وليس له – إذا لجَّ العذول اللائم – جماح عنه ولا انفكاك منه ، بل إنه ليتمنى أن يطير طيرانا إلى الذات العلية غير أن ريشه حُصٌّ وجناحه قُصٌّ ، يكنى بذلك عن أنه مقصر فى نسكه ، ويقول إنه طال نأىُ الله عنه وينوح ويسمع نواح الكون وصياحه من كل جانب مشاركة له فى وجده وما يجد فى غرامه بربه . ويذكر أنه خرس عن الشكوى لمحبوبه مهابة وحياء ، وهو يذوب حبا وغراما ، ويعجب أنه أسير ، ويناشد ربه أن لا يسرِّحه ولا يرد إليه حريته ، بل يظل فى أسره . ويذكر أنه حين يهز أرباب السماع للشعر الصوفى تواجد ، فإنه يظل من بينهم يرسل الزفرات والصيحات هائما بحب ربه ، ويقول إننى سأظل واقفا بعتبة الباب سواء منَّ الله عليه بالقبول أو حرمه وطرده ، ولن يبرحها أبدا . ومن قوله فى إحدى قصائده :

غرامى دَعـانى والعَذُولُ نهـانى فوَجْدٌ وعَذْلٌ كيف يجتمعـانِ
أما عَلما أنى على الشَّحْط والنَّوَى مقيـمٌ وأنى والهـوى أخـوانِ
يقولان لى : مَنْ ذا دعاك لما نرى ؟ فقلت دعـانى حُبُّـه فدَعانى
أعلِّـل نفسـى بالسلـوِّ تعلُّـلاً وتلك أمـانٍ مـا بهـنَّ أمـانى
إذا خفَق البَرْقُ اليمانى بأُفْقكم أقابـل ذاك الخَفْقَ بالخفقـانِ
رَعَى الله جيران العُذَيْب وأهله وإن أتْرعونى من هَوًى وهوانِ
لئن حُجِبوا عن ناظـرى فكأنهـم لقلبى يراهـم فيـه رأىَ عِيـانِ

وهو يقول إن غرامه بحب الذات العلية يدعوه للاستغراق فيه ، بينما يلومنى عذول ، والعذول والوجد أو الهيام لا يجتمعان ، ويقول إنه ملازم للحب فى النأى والبعد ، وإنه والهوى أخوان فكيف يظن أحد أنهما سيفترقان ، ويقول له صاحباه : ما الذى دعاك لما نرى ؟ فأجابهم دعانى حبه ودعانى أو اتركانى ، ويذكر أنه يعلل نفسه أحيانا بالسلو ، ولكن أنَّى له . ويتحدث كشاعر عذرى فيقول إنى إذا خفق البرق اليمانى بأفقكم خفق قلبى معه ، ويدعو لجيران العُذَيب فى نجد وأهله أن يرعاهم الله وإن ملأوه من شراب الهوى والهوان ما ملأوه ، ويقول إنهم إن غابوا عن ناظرى فإن قلبى يراهم متجسدين فيه رأى عيان . ويستمر منشدا :

أورِّى بسَلْعٍ والعُذَيْبِ وحاجرٍ وتلك مغانٍ ما لهن معانى
وأذكر سكان العُذَيْب تَستُّرًا وما ذكرُ سكانِ العذيب بشانى
ولكنْ بقلبى من هـو الحبُّ كله ومَنْ ذكره فى خاطـرى ولسانى
حبيبٌ إذا لاحظتُ لم أر غيره على أنه إذ لا أراه يرانى
ومِنْ فضله وجدى به وتولُّهى ومن جوده ما أشتكى وأعانى
وطرْتُ على حبِّى لـه وكأنمـا يَرانى لمعنى الحـب حين يرانى

وهو يقول إن مثله مثل شعراء الصوفية يذكر أماكن المحبوبات التى يذكرها أصحاب الغزل العذرى ، وهى فى واقع الأمر منازل وأماكن ليس لها معنى عند الصوفية إلا معنى التواجد والشوق للمحبوب ، ويقول إنه إنما يذكر سكان العذيب تسترا وتواجدا وليس ذكرهم من شأنه ، وإنما هو إعلان لحبه وهيامه بربه ، وإنه ليحل هواه فى قلبه حتى ليصبح هو الحب كله ، وإنه ليذكره دائما فى خاطره وعلى لسانه ، وإنه لحبيب لا أرى غيره فى الوجود إذا نظرت من حولى ، ومع أنى لا أراه يرانى ، ومن فضله علىَّ هيامى به وتولهى ، ومن كرمه ما أشتكى منه فى حبه وأعانى . ويشعر فى هيامه كأنما يطير إلى ربه طيرانا ، وكأنه براه أو خلقه ربه لحبه ، وهو حب صوفى سنى وليس فيه أى أثر للنزعة الفلسفية عند المتصوفة .

٥

شعراء المدائح النبوية

يشغف المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها بسيرة رسول الله ﷺ ، ومنذ أرسل وبُعث وهو مهوى أفئدتهم ، يمدحونه ويتغنون بمحبته ومناقبه ومعجزاته، ويتوسلون به إلى ربهم ويتشفعون مؤمنين بأنه المثل الكامل فى الورع والنسك والعمل بتعاليم رسالته. وإذا كان قد تغنى بمديحه أفراد فى حياته، فإن الأقاليم الإسلامية تغنت به وبسيرته وبشمائله فى كل بلد وكل عصر. والمغرب الأقصى مثله مثل الأقاليم العربية جميعا أكثرَ من التغنى بمديحه ورسالته منذ عصر المرابطين الذى أخذ فيه الشعر المغربى يزدهر ويتكاثر ويشترك فيه كثيرون، على نحو ما يلقانا فى أرجوزة تشتمل على نحو سبعة آلاف بيت لمحمدبن عيسىبن المناصف القرطبى الأصل المتوفَّى بمراكش سنة ٦٢٠ . ومن أوائل من نجده شغوفا بالسيرة النبوية الكريمة وبفضائل رسول الله القاضى عياض وكتابه «الشفاء» فى السيرة النبوية العطرة مشهور. وله فى زيارة الرسول ﷺ[(١)]:

قِفْ بالرِّكاب فهذا الرَّبْعُ والدارُ ... لاحتْ علينا من الأحبـاب أنوارُ
بُشْراكَ بشراكَ قد لاحتْ قِبابُهمُ ... فانزلْ فقد نلتَ ما تَهْوَى وتختارُ
هذا النبىُّ الحجازىَّ الذى شهدتْ ... لــه بتقديمــه رُسْلٌ وأخبــارُ
هذا الشفيعُ الذى تُرْجى شفاعتُــه ... للمذنبين إذا ما اسودَّت النــارُ
بادرْ وسلِّم على أنوار روضتِه ... قبـل الممـات ولا تشغلْك أعذارُ
يا خِيرةَ الرسْل يا أعلى الورى شرفًا ... قـد أثقلَتْنِىَ آثـــامٌ وأوزارُ
فكــن شفيعى لمــا قدمتُ من زَلَلٍ ... ومن خطـايا فإن الـربَّ غفَّـارُ

وهو يستوقف الرَّكب أو القافلة فقد وصلوا إلى دار المصطفى ﷺ ولاحت أنوار من قبله

(١) الوافى ١/٥٦ .

عليهم ، ويقول لنفسه بشراك فقد لاحت قباب الضريح النبوى ومسجده ، وينبغى أن أنزل من فوق بعيرى ، فقد نلت ما أهوى وأوثر ، فهذا النبى الحجازى الذى تهفو إليه القلوب والذى بشرت به الرسل وأخبار الكتب السماوية ، وهو الشفيع للمذنبين من أمته حين تتأجج نار الجحيم وتقول هل من مزيد . ويقول لكل مسلم : بادر وسلم على أنوار روضته التى قال فيها النبى ﷺ : ما بين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة ، وينبغى أن يزورها ويكتحل بأنوارها قبل مماته ، ولا تشغله عن الزيارة القدسية أعذار . ويتجه بالخطاب إلى الرسول : يا خيرة الرسل وصفوتهم وأسمى الورى شرفا أثقلتنىَ آثام وأوزار كثيرة ، فكن شفيعى لما قدمت من عثرات وخطيئات عند ربى ، وإنه للغفار العظيم . ومن توسلات القاضى عياض الطريفة قوله متوسلا بالرسول الكريم[1] :

إليك مددتُ الكفَّ أستمطرُ الفَضْلا ... وأستكشف البَلْوَى وأستعطف الطَّوْلا
دعـوتك مضطـرًّا فعجِّـلْ إجـابتى ... بتفريج كَرْبٍ طالمــا واصـل الهَوْلا
وأنت مَلاذى يــا مرادى وسيِّدى ... فسامحْ مسيئا قد جَنَى الجدَّ والهزلا
نداءٌ من الأعمــاق يـا فـالقَ النَّوَى ... ويا سامع النَّجْوَى ويا مَنْ هو الأَعْلَى
يتيـمٌ من الطـاعات عفــوَك يرتجى ... قِهِ الفقرَ والإفـلاسَ والفقـدَ والذُّلاَّ
بجــاهِ رسولِ اللّهِ فارحَمْ تضرُّعى ... ونَفِّسْ همومى كلَّها الفَرْعَ والأصْلا
لجـأتُ إلى بـاب الكريــم لفاقتى ... فليس لنا مُغْنٍ سواه ولا مَوْلَى
وصَـــلِّ على قُطْب الوجـــود محمَّـدٍ ... صلاةً تعمُّ الرُّسْلَ والصَّحْبَ والأهلا

وهو يتوسل ضارعا إلى الرسول الكريم قائلا : إليك مددت كفى أستمطر وأستنزل الفضل طالبا كشف ما نزل بى من البلوى مستعطفا التفضلَ الكريم ، ويقول قد دعوتك مضطرا فأجب دعائى عاجلا بتفريج كرب طالما شقيت به وبلغ بى هولا ما مثله هول ، وأنت يا سيدى رسول الله ملاذى وملجئى ومقصدى ، فسامحنى : سامح مسيئا طالما تجنَّى فى جده وهزله . ويستغيث بربه قائلا : إنه نداء من أعمق الأعماق فى نفسى يا فالق الحب عن النبات والنوى عن النخيل وسامع النجوى الخفية يا ربى الأعلى إننى يتيم من الطاعات ، والذنوب تثقل ظهرى ، فارحم تضرعى تجاه رسول الله ، وفَرِّجْ همومى جميعا الفرع منها والأصل وقد لجأت إلى بابك أيها الكريم لفاقتى وإنك وحدك المغنى وليس لنا مولى سواك . ربِّى صَلِّ على قطب الوجود ومداره وسيده صلاة تعم الرسل وصحبه وآله .

---

[1] الوافى ٥٧/١ .

ونمضى إلى عصر الموحدين ونلتقى بميمون بن على الصنهاجى الفاسى المشهور باسم ميمون بن خبازة نسبة إلى خاله الشاعر الشهير بابن خبازة ، لملازمته إياه وله مدحة نبوية طويلة . وسنترجم له عما قليل . وندخل فى عصر المرينيين ويلقانا فى أوائله مالك بن المرحل ومدائحه النبوية وسنخصه بترجمة ، ونلتقى بأبى العباس العَزَفى المتوفى سنة ٦٣٣ من أهل سَبْتة الذى أنشأ فى بلدته – وبالتالى فى المغرب الأقصى – الاحتفال بالمولد النبوى وكان قد سبقه إلى ذلك أبو سعيد كوكبورى صاحب مدينة إربل . وأكبر الظن أن الذى ألهمهما ذلك احتفال المسيحيين بميلاد عيسى فى الحروب الصليبية بالمشرق واحتفال المسيحيين به فى الأندلس . واستنّ أبو العباس العَزَفِيّ أن ينشد الشعراء فيه مدائحهم النبوية وتسمى الميلاديات ، وكان لمالك بن المرحل غير ميلادية أنشدها فى احتفال أبى العباس العزفى . وتعنى الدولة المرينية – طوال القرن الثامن – بهذا الاحتفال ، إذ يقول الحسن الوزان فى كتابه : وصف إفريقيا : « كان من عادة الحاكم فى أزهى أيام الدولة المرينية أن يحتفل بالمولد النبوى فيدعو إلى قصره العلماء وأهل الأدب فى مدينته : فاس ، وكان الشعراء المجلّون يُلْقون فى هذه المناسبة قصائدهم بحضور الحاكم ، وكان المنشدون يقفون فوق مصطبة عالية . وفى نهاية الحفل استنادا إلى حكم أشخاص من ذوى الخبرة كان الملك المرينى يمنح لأكثر الشعراء نبوغا وتفوقا مائة دينار وحصانا وجارية وكسوة ، ويعطى كل شاعر من الشعراء الآخرين خمسين دينارا فينصرف الجميع وقد حصل كل منهم على جائزته أو مكافأته » .ويقول الوزان تتمة لذلك إنه كان ينادى فى أيامه أوائل القرن العاشر الهجرى على الشاعر الذى ترى لجنة التحكيم أنه الأفضل شعرا بأنه أمير الشعراء لذلك العام[1] . ولا ريب فى أن هذا الصنيع كان يحدث تنافسا حميدا بين شعراء فاس عاصمة المرينيين . ويشير الأستاذ ابن تاويت إلى مدحة نبوية للرحالة العبدرى فى أواخر القرن السابع الهجرى وميلادية لمحمد بن يحيى العزفى أنشدها فى احتفال لأبى سالم المرينى ، ويذكر لعبد الرحمن المكودى المتوفى سنة ٨٠٧ للهجرة مقصورة ويأخذ فى تحليلها . وفن المقصورات قديم بدأه ابن دريد بمقصورة فى مديح أمير سامانى ملأها باللفظ الغريب واختار لها وزن الرجز . ونظم حازم القرطاجنى مقصورة فى مديح أبى زكريا الحفصى .. غير أن المكودى أول مغربى نظم مقصورة من الرجز فى مديح المصطفى وضمنها طائفة من الألفاظ الغريبة ، ووصف فى مطالعها الرحلة إلى الحجاز وألمَّ بذكريات شبابه فى موطنه وضمنها كثيرا من الحكم ومن الحديث عن غزوات الرسول وعن مصير بعض الدول الإسلامية والدول التى أدال الله منها للإسلام مثل دولتى الأكاسرة والقياصرة وعرَّج على بعض الدول العربية البائدة القديمة ، ومن قوله فى مديح الرسول ﷺ :

---

(١) وصف إفريقيا (طبع السعودية) ص ٢٦٣ .

وليس ذُخْرى غير مدح أحمدٍ — سيّدِ أهل الأرض طُرًّا والسَّما
وأصبح الديـن القويـم قيِّمًا — سما على الأديان طُرًّا وعلا
وكـم لـه من آيـةٍ بيِّنَةٍ — ومعجزاتٍ مثل إشراق الضحى

ويغلب على المقصورة السرد مما يفقدها في كثير من جوانبها الجمال الشعرى . وكما مُدح الرسول فى العصر المرينى بالمدائح الشعرية مُدح بالموشحات ، ومن أطرفها موشحة ابن سعيد المكناسى المذكورة فى الحديث عن الموشحات ص ٣٨٣ .

وتعنى الدولة السعدية باحتفالات المولد النبوى وخاصة حاكمها المنصور الذهبى ، وتكثر فيها المدائح النبوية المسماة بالميلاديات ، وعادة يستطرد الشاعر فيها إلى مديح الحاكم ، ويقول المقرى فى كتابه : « روضة الآس » : « ما قيل فى الموالد النبوية التى احتفل لها هذا الخليفة المنصور لا يمكن حصره » ثم يذكر أنه كانت تصنع شموع أعظم من الأسطوانات يطاف بها فى فاس ،حتى إذا وصلوا إلى قصر الخليفة أدخلوها فى ساحة كبيرة متخذين لها آلات عظيمة من النحاس المحكم الصنعة فتوضع فوقها وترى صاعدة فى السماء كالمنارة ، ويحشر الناس إلى ذلك ، ويُدْعَى المنشدون للأشعار وتنثر عليهم الفضة ، ويأمر لكل شخص منهم بكُسوة وجوائز قد تبلغ الآلاف[1] . ويضيف عبد العزيز الفشتالى فى كتابه مناهل الصفا إضافات كثيرة فى هذا الاحتفال الذى كان أشبه بعيد ضخم يمتد طوال الليل ، وكان المنصور يبدأ الاحتفال الرسمى به بعد صلاة الفجر وقد اصطفت جذوع الشموع أمام قبة قصره منافسة للنخيل والمآذن فى الضخامة مختلفة الألوان من بيض لؤلؤية وحمر أرجوانية وخضر سندسية ، ويغصّ السرادق المنصوب للناس بالشرفاء والقضاة والفقهاء والكتاب والشعراء والقراء وبعد فراغ الواعظ من فضائل الرسول ﷺ وسرد معجزاته يقدَّم أهل الذكر والإنشاد ، ثم تتعالى الأصوات بمدائح الرسول المسماة بالمولديات أو الميلاديات نسبة إلى مولده أو ميلاده الشريف ، ثم يتبعهم أهل الذكر بالرقيق من كلام الشيخ الصوفى الأندلسى أبى الحسن الششترى ، ثم يُنْشَدُ الشعر . والمتبع فى الإنشاد أن يقف بإزاء الشاعر مسمع ينيبه الشاعر عنه فى إنشاد قصيدته ، ويعود الشاعر إلى مكانه . ويذكر الفشتالى الوليمة المهيأة للعيد ، ويقول بعد أيامها توزع صلات الشعراءوعليها توقيعات الخليفة المنصور . ويسوق عبد العزيز الفشتالى بعض ما كان ينشد فى هذا العيد لعهد هذا الخليفة[2] . وبكتاب روضة الآس للمقرى نحو عشرين ميلادية لشعراء مختلفين أُنشدت فى هذا العيد أيام المنصور منها خمس لعبد العزيز الفشتالى شاعره وكاتبه ،

---

(١) روضة الآس ص ١٣ .
(٢) انظر مناهل الصفا تحقيق الأستاذ كنون ص ٢٢١ وما بعدها .

وأهم ميلادياته نونية ، يستهلها باستيقاف ركب متجه إلى الأرض الطيبة : أرض الحجاز ، ويتمنى زورة للرسول الكريم تشفي جفونه القريحة بنظرة يغمرها النور النبوى ويحيّى ربوع مكة والمدينة القدسية التى تلت بها الملائكة أفانين ذكر وقرآن ، ثم يقول[1] :

مُحَمَّدٌ خَيْرُ العالمين بأسرها ... وسيدُ أهل الأرض مِ الإنس والجانِ
ومَنْ بَشَّرَتْ ببعثه قبل كونه ... نواميسُ كهَّانٍ وأحبارُ رُهْبانِ
وإن كتابَ الله أعظمُ آيةٍ ... بها افتضَح المَيَّانُ وابتأسَ الشانى[2]
نبىُّ الهدى مَنْ أطلعَ الحقَّ أنجمًا ... محا نورُها أسدافَ إفكٍ وبهتانِ[3]
لعزتهِ ذلَّ الأكاسرة الألى ... هُمُ سَلبوا تيجانهم آلُ ساسانِ
وأحرزَ للدِّين الحنيفىِّ بالظُّبا ... تراثَ الملوك الصُّيدِ من عهد يونانِ[4]

وهو يقول محمد خير العالمين وسيد أهل الأرض من الإنس والجن ، إنه صفوة خلق الله ومن بشرتْ بأنه مبعوثٌ شرائع الكهان وأحبار الرهبان ، فقد كان العالم ينتظره لينقذه مما يعانيه من هوان وظلم وضلال . فأرسله الله رحمة وهداية للعالمين ، وللإنس والجن يحمل فى يده وصدره معجزته الكبرى : القرآن الكريم الذى لا تماثله معجزة سابقة ولا لاحقة ، وبها افتضح الكذابون المفترون والحاقدون الشانئون . نبى الهدى الهادى الذى أطلع الله به نور الحق ليمحو به كل كذب وبهتان . ولعزته ذل الأكاسرة السَّاسانيون وألقوا عن يد وهم صاغرون ، وتملَّك الدين الحنيف بالظبا والسيوف تراث سادة الملوك القياصرة من عهد يونان والزمن القديم .

وللتاساوتى المتوفى سنة ١١٢٧ للهجرة مدحة نبوية فى أربعمائة بيت ، يجعل مقدماتها لمديح موطنه وتاريخ الإسلام وبعض دوله ، ويخص المديح النبوى بثلاثمائة بيت من ذلك قوله[5] :

أيخاطِبُ العبدُ الذى لعبتْ به ... شهواتُه صَدْرَ الصدورِ الأوحدِ
نكن تحقَّق بالأدلَّة عندنا ... لا شخصَ أحلمَ فى الوَرَى من أحمدِ
أنت المؤمَّل فى الشدائد كلها ... أنت الجواد الغيثُ للمُسْتَرفدِ
أنت الذى من أمَّ بيتَك راغبًا ... ولو اقتضى أمرا عظيما يَسْعد
أنت الذى سعدتْ بك الأشياء قا ... طبةً ومن يقصد سعيدا يَسْعَدِ

وهو يعجب – لكثرة ذنوبه – من جرأته على مخاطبة أعظم مخلوق بشرى ، ويعود إلى نفسه فيقول إنه تحقق لديه بالأدلة أن رسول الله أحلم مَنْ على وجه الأرض ، ولذلك تصده وهو يعلم أنه حليم كريم آملا فى ذرة من حلمه وكرمه ، ويتجه له بالخطاب قائلا : إنك

(١) شعر عبد العزيز الفشتالى تحقيق نجاة المرينى ص ٤٢٠ وما بعدها .
(٢) الميّان : الكاذب . الشانىء : المبغض .
(٣) إفك : كذب .
(٤) الصيد : ذوى السلطان .
(٥) الوافى ٧٧٢/٣ .

المؤمل المرجو فى الشدائد والكوارث كلها ، وإنك الغيث المدرار الذى يجزل العطاء لمسترفده وطالب البر منه . ويقول له إن من قصد بيتك تنيله ما طلب مهما كان جسيما ، وأنت مصدر السعادة البشرية فليس غريبا أن من يقصدك يسعد فى الدنيا والآخرة . وتتكاثر المدائح النبوية والتوسلات بالرسول ﷺ فى العصر العلوى . ومن أجمل التوسلات توسل أنشده الأستاذ ابن تاويت للشاعر محمد البوعصامى ، وفيه يقول[1] :

سُحِّى بدمعٍ كالعقيق مَحاجرى   شوقا لطيبةَ والعَقيق وحاجرِ[2]
تلك المعاهدُ حين أظهرَ دينه   ربُّ البريَّة بالرسول الطاهرِ
سرُّ الوجود محمدٌ خيرُ الورى   والمنتقَى من كلِّ أصلٍ طاهرِ
مَنْ قد تجلَّت طَيْبَةُ الزَّهْرا بهِ   وزهتْ ففاقت كلَّ روضٍ زاهرِ
وسمتْ على الفردوس حقًّا واكتَستْ   حُلَل السَّنا من شأنه المتواتر
وتواضعتْ لمعالم الهادى بها الـ   آفاقُ كالفلك المحيطِ الدائرِ

وهو يقول لعينيه اذرفا دمعا أحمر كالعقيق شوقا لطيبة ومنازلها مثل العقيق وحاجر التى كانت قائمة حين بعثه الله برسالته الكبرى ، وإنه لسر الوجود خير الورَى المختار من كل أصل شريف طاهر ، وقد تجلَّت به طيبة : المدينة وسبقت جميع المدن ، وزهت حتى فاقت كل روض ناضر ، وحقٌّ لها ، بل لقد سمت على الفردوس ، واكتست حلل الشرف بفضائله المتواترة ، وتواضعت لها الآفاق كالفلك المحيط بقطب الدائرة . وحرى بنا أن نتوقف قليلا لنترجم لميمون بن خبازة ومالك بن المرحل .

ميمون[3] بن خبازة

هو ميمون بن على الصنهاجى الفاسى الساكن بأخرة فى مراكش ، ويسمى ابن خبازة نسبة إلى خاله الشاعر المشهور بابن خبازة لملازمته إياه . من شعراء عصر الموحدين ، ويقول ابن عبد الملك المراكشى فى كتابه « الذيل والتكملة » : كان أديبا شاعرا مفلقا من أكبر أعاجيب الدهر فى سرعة البديهة ، ناظما أو ناثرا ، مع الإجادة التى لا يجارَى فيها والتفنن فى أساليب الكلام معربه وهزله .. ذا مشاركة حسنة فى علم الكلام وأصول الفقه ، وتنسك وتصوف وقتا ، ووعظ .. وعارض ابن الجوزى فى بعض فصوله فأجاد » . وعبر إلى الأندلس وظل فى رعاية والى إشبيلية أبى العلاء بن المنصور زمنا ، وله فيه مدائح كثيرة وله فى غيره مدائح مختلفة

---

(١) الوافى ٨٢٣/٣ .
(٢) طيبة : المدينة . العقيق : موضع فى المدينة . والحاجر : منزل فى طريق مكة .
(٣) انظر فى ترجمة ابن خبازة وشعره كتاب الذيل والتكملة ٣٨٨/٢/٨ وما بعدها وأزهار الرياض ٣٧٨/٢ وتحفة القادم ١٥٤ ودرة الحجال رقم ٣٧٢ والنبوغ المغربى ١٨٠/١ ، ٢٠٢/٣ والوافى ٣٢٢/١ .

وكان يأتى فى مدائحه بما لم يسمع قبله ولا يُطمع فى لحاقه ، سرعةَ ارتجال وحسنَ افتنان وبراعة إنشاء ، وتولى حسبة السوق فى مراكش لعهد الخليفة المأمون الموحدى ووقف معه فى ثورته على دعوة ابن تومرت كما أسلفنا وله يهجو ابن تومرت :

وجد النبوَّة حُلَّةً مطويَّةً لا يستطيع الخلقُ نَسْجَ مثالها
فأسرَّ حَسْوًا فى ارتغاءٍ يبتغى بمحاله نَسْجًا على مِنوالها

وأسرَّ حَسْوًا فى ارتغاء مثل يضرب للشخص يظهر أنه يشرب الرغوة ، وهو ينال من اللبن . وتوفى ابن خبازة فى أوائل سنة ٦٣٧ هـ/١٢٤٠ م ، وله مدحة نبويةرائعة دوَّت شهرتها فى عصره وبعد عصره ، يقول فى مطلعها :

حقيقٌ علينا أن نُجيبَ المعاليا لنُفْنِىَ فى مَدْحِ الحبيبِ المعانيا
ونجمعَ أشتاتَ الأعاريضِ حِسْبةً ونحشُدَ فى ذات الإلـه القوافيا[1]
ونقتادَ للأشعـار كلَّ كتيبةٍ لنَصْرِ الهدى والدين تُرْدِى الأعاديا[2]
لِنُطْلِع من أمداح أحمدَ أنجمًا تلوح فتجلو من سَنـاهُ الدَّياجيا
سهوتُ بمدح الخلق دهرا فهذه سجودى لجَبْرى كلَّ ما قُلْتُ ساهيا
رسولٌ بَراه الله من صَفْوِ نورِهِ وألْبسَهُ بُرْدًا من النـور ضافيا[3]
وما زال ذاك النـورُ من عهد آدمٍ ينيرُ بـه اللهُ العصـورَ الخواليا

وهو يقول إنه ينبغى أن أستجيب للمعالى فأفنى فى مديح الرسول الكريم سيد الوجود المعانىَ وأجمع أشتات الأشعار احتسابا لله وأحشد القوافى إخلاصا له ، وأقتاد كتائب الشعر لنصرة الدين وتدمير أعاديه ، ولنبدى من أمداحه نجوما تجلو من نوره الدياجى المظلمة . ويعتذر عن تمضية عمره فى مديح الحكام والأمراء ساهيا عن مديح الرسول الكريم ، وهو يقدم تلك المدحة بأخرة من حياته جبرا لما سها عنه قديما . ويقول إنه رسول عظيم خلقه الله من صَفْو نوره وألبسه من النور حلة سابغة ، وظل هذا النور المحمدى الباهر ينير العصور الخوالى . وتُطِلُّ من الأبيات التالية فكرة الحقيقة المحمدية التى تغنَّى بها الحلاج والمتصوفة بعده ، وهى حقيقة تؤذن بأن الرسول أقدم فى خلقه المعنوى أو الروحى من خلق الأنبياء . ويقول ميمون فى قصيدته : بفضله تاب الله على آدم وأنقذ نوحا وخلصه من الموج العاتى وحمى إبراهيم الخليل من النار حين ألقاه أعداؤه فيها ، ومن أجله افتُدى إسماعيل الذبيح . وحين وضَعَ أمُّه له حفَّت به الأملاك وأعول إبليس اللعين وتنبَّأت به الأحبار والكهان وتداعى إيوان كسرى . ثم يمضى فى الحديث عن سيرته منذ كان فى المهد ، وحملتْهُ السيدة حليمة لترضعه ويذكر

(١) حسبة : احتسابًا لله .
(٢) تردى : تهلك .
(٣) ضافيا : غامرا .

ما رُوِىَ من شق جبريل وميكائيل لصدره وإيداعهما فيه النور الهادى ، ويتحدث عن رحلته إلى الشام ولقائه لبحيرا الراهب ونسطور راهب بُصْرَى الذى بشره ببعثته ، وما كان من تحنُّثه فى حِراء واختيار الله له كى يبلِّغ رسالته ، ويذكر إسراءه ومعراجه إلى السموات ومناجاته لربه . ويأخذ فى سرد معجزاته منذ بدء هجرته ونسج العنكبوت لبيوته على غار حراء حتى لا تظن قريش أن به الرسول وصاحبه الصديق ، ويستطرد إلى بعض ما تذكره كتب السيرة النبوية من الآيات والمعجزات ، ويعرض فى نهاية مدحته معجزة الرسول الكبرى : القرآن الكريم ، منشدا :

وآياتُـــه جلَّتْ عن العَدِّ كثرةً	فما تبلغ الأقوالُ منها تناهيا
وأعظمُها الوَحْىُ الذى خَصَّه بِهِ	فبلَّغ عنه آمـــرا فيهِ ناهيا
تحدَّى به أهلَ البيان بأسرهم	فكلُّهمُ أُلفـــاه بالعجز وانيـــا
وجاء به وَحْيًا صريحًا يَزِيدُهُ	مرورُ الليـــالى جِدَّةً وتعاليـــا
تضمَّنَ أحكامَ الوجـودِ بأسرها	وحُكْمَ القضاءِ مثبتا فيه نافيا
وأخبر عما كان أوهو كائنٌ	يُرَى ماضيًا أو مـا يُرَى بعدُ آتيا
وما كتبتْ يُمناه قطُّ صحيفةً	ولا رِىءَ يوما للصحائف تاليًا[1]
عليه سلامُ الله لازال رائحـــًا	عليه مدى الأيـــام حقًّا وغاديا

وهو يقول إن معجزات الرسول ﷺ أكثر من أن تُعَدَّ وتحصى ، وإن الأقوال مهما تكاثرت لا تستطيع أن تحيط بها ، وأعظمها القرآن المعجزة الكبرى التى ليس لها مثال سابق ولا مثال لا حق وإنه ليحمل أوامر الله ونواهيه وقد تحدى الرسول به أهل البيان من العرب فكلهم أعلن عجزه عن الإتيان بما يماثله ، بلاغة تأخذ بالألباب . وقد تضمن أحكام الوجود جميعها ، وشمل حكم القضاء نفيا وإثباتا ، وأخبر الله فيه عن الأحداث الماضية والمستقبلة . وكل هذا البيان المعجز حمله الرسول ، وهو لم يخطَّ صحيفة بيمينه ، ولا شوهد يوما تاليا للصحف أو الصحائف ، إنه النبى الأمى العظيم ، سلام الله عليه سلاما دائما من أمته ومحبيه .

مالك[2] بن المرحِّل

سَبْتِىٌّ النشأة والمربى ولد سنة ٦٠٤ هـ/١٢٠٧ م وتوفى سنة ٦٩٩ هـ/١٣٠٠ م ، وقال ابن عبد الملك المراكشى فى الجزء الأول من الذيل والتكملة إنه مالقى ، ولعله يريد أنه ولد

(١) رىءَ : رُئِىَ .

(٢) انظر فى مالك بن المرحل وحياته وأشعاره الجزء الأول من الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى والصلة لابن الزبير والإحاطة لابن الخطيب ٣٠٣/٣ والجذوة لابن القاضى ٣٢٧/١ ونفح الطيب (انظر الفهرس) والنبوغ المغربى لكنون ٢٢٥/١ والجزء الثالث فى مواضع مختلفة والوافى ٣٣٨/١ وما بعدها .

بمالقة . وكان مثقفا ثقافة واسعة بمختلف العلوم مما جعله ينظم غزوات السيرة النبوية وفصيح ثعلب ، وله نظم فى الفرائض والقراءات وغير ذلك ، ومدح أمراء الأندلس والمغرب الأقصى واشتغل فى بلدته سبتة مدة بالتوثيق وولى القضاء لبنى مرين مرات فى غرناطة وغيرها ، ومُدَّ له فى حياته إذ توفى سنة ٦٩٩ للهجرة ، ويقول ابن عبد الملك : « إنه كان مكثرا من النظم مجيدا سريع البديهة مستغرق الفكرة فى قرضه ، لا يفتر عنه حينا من ليل أو نهار ، شاهدت ذلك معه ، ويقول إنه لا يقدر على صرفه عن خاطره وإخلاء باله من الخوض فيه ، واشتهر نظمه وذاع شعره ، فكلفت به ألسنة الخاصة والعامة وصار رأس مال المسمعين (المنشدين) والمغنين وهِجِّيرا (ملازم) الصادرين والواردين ووسيلة المُكْدين (السائلين) وطراز أوراد المؤذنين » . وذكر له ابن عبد الملك فى الجزء الأول من كتابه « الذيل والتكملة » قصيدتين فى مثال النَّعْل النبوى . وله فى مديح الرسول ﷺ غير قصيدة ، وتتخذ أنماطا ثلاثة : النمط المعروف فى القصائد العربية ، ونمط يسمى العشرى لأن وحداته تتألف من عشرة أبيات ، ونمط ثالث يسمى العشرينى لأن وحداته تتألف من عشرين بيتا ، والأبيات فى النمطين الأخيرين تنتهى بقافية واحدة وتبتدىء بحرف القافية . ومن أهم مدائحه النبوية : « الوسيلة الكبرى المرجوّ نفعها فى الدنيا والأخرى » وقد رتبها على حروف المعجم ، ولكل حرف عشرون بيتا ، وهى بذلك مكونة من عشرينيات ، ويقول فى العشرينية الهمزية الأولى :

إلى المصطفى أهديتُ غُرَّ ثنائى ... فيا طِيبَ إهدائى وحُسْنَ هِدائى(١)
أضفتُ إلى ميلاده غزواتِهِ ... وما عَنَّ لى من آيــةٍ وأيــائى(٢)
أردتُ رضا ربِّى بها فهْو أرتجى ... وربِّى كريمٌ لا يُضيع رجائى
إمامُ هُدًى صَلَّى النبيُّون خلْفه ... وصلَّى عليهِ أهلُ كلِّ سماء
أضاءتْ به الدنيا فمن وَجْههِ سَرَى ... إلى الشمس والأقمار كلُّ ضياء
أتانا بقــرآنٍ كريــمٍ مفصَّلٍ ... جَلا صَدَأَ الأذهان أىَّ جلاء
أترجون فى يــوم القيامــة غيرَه ... إذا قيــل هـل للنــاس من شُفَعاءِ
إليــه يشير ابنُ البَتُــولِ إذا رأى ... ضجيجَ الــوَرَى فى حيرةٍ وعناء(٣)

وهو يقول أهديت إلى النبى الذى اصطفاه الله أجمل ثناء فياطيبه ويا طيب هداى وطريقتى ، وقد أضفت إلى ميلاده غزواته وما عرض لى وألهمته من معجزاته ، وأردت بذلك رضا ربِّى راجيا أن يتقبل منى هذه المدحة لرسوله ، وهو كريم لا يخيب رجاء راج من عباده . ويقول إن الرسول إمام هداية كبرى للبشرية وقد صلى الأنبياء خلفه ليلة الإسراء ،

(١) هدائى : هداى وطريقتى .
(٢) أيائى : جمع آية أى معجزة .
(٣) البتول : السيدة مريم أم عيسى الرسول .

والملائكة فى كل سماء يرددون الصلاة عليه مشيرا إلى الآية الكريمة : ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلُّوا عليه وسلِّموا تسليما﴾ ويقول إن الدنيا أضاءت بنوره ، ومنه نور الشمس والقمر وكل نور ، والبيت يشير إلى فكرة الحقيقة المحمدية المعروفة ، وهى أن كل نور فى الكون يستمد من نوره ، وكل وجود يستمد من وجوده ، إذ هو سابق فى خلقه المعنوى أو الروحى لكل وجود وكل نور . ويذكر معجزته الكبرى التى جاء بها معجزة القرآن الكريم وما يحمل من أروع صور البيان والبلاغة التى تجلو – بحق – صدأ الأذهان ، ويذكر يوم القيامة وموقف الناس فيه وقد طال بهم انتظار الحساب ، وكلما سألوا رسولا أن يشفع لهم عند الله فى بدء الحساب اعتذر ، واعتذر معهم المسيح ابن مريم البتول مع إشارته لهم أن يسألوا الرسول الشفاعة عند ربهم ، ويتقبل الله شفاعته . ويقول فى عشرية همزية :

أمـا لى إلـى قَـبْر النبـىِّ مبلِّـغٌ ... ثنـاءً فقـد أفنى الزمـان ذَمـائى[1]
أمـانىَّ كانتْ لى زيـارةُ قبرِه ... وأرْضِـىَ روضٌ يانـعٌ وسمـائى
إمـامُ جميـع المسلمـين محمدٌ ... وأكـرمُ مبعـوثٍ مـن الكرمـاءِ
أمـانُ الوَرَى ممـا يخافون حبُّه ... فيـا حـبُّ شَعْشِعْ أدمعى بدمـائى
أمـاهَ الأسى عينى وسعَّـر أضْلُعِى ... فخذ بيدى يـا راحـمَ الرُّحمـاءِ[2]

وهو يقول : أمالى من مبلغ ثنائى إلى الرسول ، وقد فنى عمرى حتى الذماء الأخير ، وقد كان من أمانى فى شبابى أن تكتحل عيناى بزيارة القبر الذكى ، إنه إمام المسلمين وهاديهم إلى رضوان الله وجناته ، وأكرم رسولٍ بعثه الله للخلق رحمة بهم، وإن حبه لأمان للمسلمين من كل ما يخافون ، فيا أيها الحب المقدس امزج أدمعى بدمائى شوقا إليه وشغفا به ، فقد ملأ الحزن عينىَّ بالدموع واتقدت نيران الحب النبوى فى أضلعى ، فخذ بيدى وأعِنّى يا أرحم الرحماء . ومالك – مثل ابن خبازة – فى الذروة من شعراء عصره .

(١) الذماء : قوة القلب وبقية الروح .
(٢) أماه الأسى عينى : ملأها دموعا كالسيل . سعَّر أضلعى : أوقدها نارا .

الفصل السادس
النثر وكتّابه

١

الخطب والمواعظ

طبيعى أن تكثر الخطب والمواعظ في المغرب الأقصى كثرتها في بلدان العالم الإسلامى جميعا ، إذ كانت تكرَّر فى كل مسجد أسبوعيا فى صلاة الجمعة وبالمثل فى صلاة العيدين ، وربما كانت كثرة تكرارها هى السبب فى أنه لم يتجرد أحد من القدماء لتدوينها تدوينا عاما ، ومع ذلك فقد أثرت بعض خطب قالها بعض الحكام أو بعض كبار الوعَّاظ . ومن أوائل ما نلتقى به منها خطبة إدريس الثانى فى دولة الأدارسة سنة ١٩٣ هـ/٨٠٨ م حين فرغ من بناء مدينة فاس وحضر صلاة الجمعة فقد صعد المنبر وخطب الناس الخطبة الأولى قائلاً[١] :

« اللهم إنك تعلم أنى ما أردت ببناء هذه المدينة مباهاة ولا مفاخرة ولا سُمْعة ولا مكابرة ، وإنما أردت أن تُعْبَد فيها ، ويُتْلَى كتابك ، وتقام حدودك وشرائع دينك وسنَّة نبيِّك محمد ﷺ ما بقيت الدنيا . اللهم وفِّق سُكَّانها وقُطَّانها للخير وأعنهم عليه ، واكْفهم مئونة أعدائهم ، وأدِرَّ عليهم الرِّزْق ، وأغْمد عنهم سيف الفتنة والشقاق ، إنك على كل شيء قدير » .

وهذه الخطبة المأثورة عن إدريس الثانى إنما هى قطعة من خطبته ، وفيها يعلن أنه لم يبن فاسا مباهاة ولا ابتغاءًا لشهرة ، إنما بناها ابتغاء لوجه الله وثوابه حتى يعبد فيها ويتلى كتابه وتقام حدوده وسنة رسوله الكريم ، وتحققت سريعا نيَّته ، فقد أقامها مدينتين متقابلتين : مدينة القرويين من أهل المغرب ومدينة الأندلسيين الذين لجئوا إليه زمن الحكم الربضى فى الأندلس وثورة الفقهاء عليه ونفيه لطائفة كبيرة منهم ، فنزلت كثرتهم المدينة الغربية ولم يلبث أن شُيِّد فى مدينة القرويين الجامع المشهور باسمها : جامع القرويين وأصبح أقدم جامع فى إفريقيا للدراسات الدينية إذ بُنى الجامع الأزهر بعده بنحو مائة عام . وازدهرت فى جامع فاس هذه الدراسات حتى العصر الحديث . ودعا إدريس لسكان فاس دعوات كريمة . أن يوفق الله أهلها للخير ويمدهم بعونه ويكفيهم مئونة أعدائهم ، ويوفِّر الرزق لهم ويقيهم الفتنة والشقاق .

---

(١) النبوغ المغربى ٣٣/٢ .

وكان حكمه حكما عادلا رشيدا . وهدم يوسف بن تاشفين أمير المرابطين ما كان بين مدينتي فاس من أسوار وجعلهما مدينة واحدة ، وأقام على النهر الفاصل بينهما جسورا يمكن الانتقال من إحداها إلى الأخرى بسهولة .

ومرَّ بنا في نشأة دولة المرابطين أن أصلهم من قبيلة صنهاجة التي كانت تشغل الصحراء جنوبي المغرب وبعض بقاع إفريقيا المدارية السوداء حتى السنغال ، وكانوا يعيشون معيشة بدوية واتخذوا اللثام على وجوههم شعارًا لهم ، ولذلك يسمون الملثَّمين ، ولم يكونوا يعرفون تعاليم الإسلام معرفة قويمة ، فجلب لهم رئيسهم يحيى بن إبراهيم الكدالي - كما مرَّ بنا - الشيخ عبد الله بن ياسين ليفقههم بدقة على تعاليم الإسلام وسرعان ما أصبح زعيمَهم الديني بجانب يحيى الكدالي الزعيم الحربي ، ودفعهم الشيخ ابن ياسين جنوبا لنشر الإسلام وشمالا لجمع كلمة المسلمين في تلك الأراضي النائية . واستولت صنهاجة بزعامته الدينية على إقليمي سجلماسة والسوس ، ودفعها شمالا على المحيط لقتال برغواطة وكانت قد ظلت - منذ الأيام الأولى لدولة الأدارسة - خارجة على الإسلام ، وتنبأ فيها متنبئون وآمنوا بهم ، واتجهت إليهم جيوش صنهاجة .. وتوفي يحيى الكدالي فخلفه في القيادة الحربية لصنهاجة أخوه أبو بكر واستطاع استئصال شأفة البرغواطيين سنة ٥٥٣ غير أن عبد الله بن ياسين طُعن طعنة قاتلة في إحدى المعارك سنة ٥٥١ فخطب في صنهاجة وهو مشرف على الموت ، ومما قال في خطبته ، وكان قد سماهم المرابطين أي للجهاد في سبيل الله ونصرة دينه[1] :

« يا معشر المرابطين ! إنكم في بلاد أعدائكم ، وإني ميِّت في يومي هذا لا محالة ، فإياكم أن تجبنوا أو تفشلوا فتذهب ريحكم ، وكونوا أُلْفَةً وأعوانا على الحق وإخوانا في ذات الله تعالى . وإياكم والمخالفة والتحاسد على طلب الرياسة فإن الله يُؤْتي ملكه مَنْ يشاء ويَسْتخلف في أرضه مَنْ أحبَّ من عباده . ولقد ذهبتُ عنكم فانظروا من تقدِّمونه منكم يقوم بأمركم : يقود جيوشكم ويغزو عدوكم ويقسم بينكم فَيْئكم ، ويأخذ زكاتكم وأعشاركم » .

وهو يناديهم باسم المرابطين حثا على جهاد برغواطة المارقة ، ويقول لهم إنكم تواجهون أعداءكم فاحذروا أن تجبنوا في حربهم ، فيقضوا عليكم القضاء المبرم ، وينصحهم أن يتعاونوا على نصرة الحق وأن يكونوا إخوانا في ذات الله ينشرون دينه الحنيف ، كما ينصحهم أن يبتعدوا عن هذا المرض الخبيث : مرض التحاسد على طلب الرياسة ، فإنه لم يهلك الدول العربية مرض مثله ، ويقول إن الله يؤتي ملكه من يشاء فلا داعي للتحاسد والتباغض . ويقول : لقد انتهيت وذهبت عنكم فاختاروا لكم زعيما عادلا ذا بأس وقوة يقود جيوشكم ويغزو عدوكم ويقسم

(١) البوغ المغربي ٢/٣٤ .

قسمة عادلة ما تغنمون من عدوكم وتؤدون إليه زكاتكم . وهكذا ظل الشيخ عبد الله بن ياسين ينصح للمرابطين حتى الأنفاس الأخيرة من حياته .

ومر بنا أن محمد بن تومرت المصمودى مؤسس دعوة الموحدين قد اقترض لنفسه من دعوة الشيعة الإمامية التى تعرَّف على مبادئها أثناء مقامه بالعراق ثلاثة مبادىء هى أنه إمام ومهدى ومعصوم ، واقترض من مبادىء المعتزلة التى تعرف عليها هناك مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومبدأ التوحيد ، وهو عند المعتزلة يعنى نفىّ التشبيه بالمخلوقات عن الذات العلية نفيا باتًا معارضين بذلك أهل السنة الذين يرون عدم تأويل الآيات القرآنية التى يفهم منها التشبيه مع الإيمان بترك ذلك لله جلَّ شأنه . ومن خطبة لابن تومرت قوله[1] :

« إن الله – سبحانه وله الحمد – مَنَّ عليكم أيتها الطائفة بتأييده ، وخصَّكم من بين أهل العصر بحقيقة توحيده ، وقيَّض لكم مَنْ ألفاكم ضُلَّالًا لا تهتدون ، وعُمْيًا لا تبصرون ، لا تعرفون معروفا ولا تُنكرون منكرا ، قد فشتْ فيكم البِدع ، واستهوتكم الأباطيل وزيَّن لكم الشيطان أضاليل ، وتُرَّهاتٍ ، أنزه لسانى عن النطق بها ، وأربأ بلفظى عن ذكرها ، فهداكم الله بعد الضلالة ، وبصَّركم بعد العمى ، وجمعكم بعد الفرقة ، وأعزكم بعد الذلَّة ، ورفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين ، وسيورثكم أرضهم وديارهم . ذلك بما كسبته أيديكم وأضمرته قلوبهم ، وما ربُّك بظلام للعبيد » .

وابن تومرت فى هذه القطعة من خطبته يشير إلى مبدأين تعتنقهما جماعته هما المبدآن الاعتزاليان اللذان أشرنا إليهما : مبدأ التوحيد ، ويقول إن الله خصَّهم من بين أهل العصر بحقيقة توحيده ، ويقصد – كما قلنا آنفا – أنه منزَّه عن التشْبيه بالمخلوقات ، ويقول إن الله خصَّهم بذلك من بين أهل العصر ويريد المرابطين وفقهاءهم من أهل السنة الذين لا يتأولون آيات التشبيه المذكور فى القرآن الكريم من مثل (يد الله فوق أيديهم) ويقولون علم ذلك عند الله بينما يتأول المعتزلة اليد بمعنى القدرة . والمبدأ الاعتزالى الثانى الذى أشار إليه ابن تومرت هو ما يزعمه دائما من أن خصوم جماعته من المرابطين لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكرا ، أما أتباعه الموحدون فهم – فى رأيه دائما – يأمرون بالمعروف وينكرون المنكر ، ولا يلبث أن يسميهم – لعدم أخذهم بهذين المبدأين – مارقين عن الدين خارجين عليه ، ينبغى حربهم ومحو سلطانهم ، وَيعِدُ أصحابه بأنهم سيزيلون هذا السلطان ويرثون أرضهم وديارهم .

وكان الموحدون يدعون للأخذ فى الفقه بمذهب داود الظاهرى القائل بإلغاء الإجماع

(١) النبوغ المغربى ٣٦/٢ .

والقياس أو الاجتهاد العقلي في الأحكام الفقهية والاكتفاء بالكتاب أى القرآن والسنة أى الحديث النبوى . وأخذ بهذا المذهب في كتبه ابن حزم الفقيه الأندلسى وأخذ به الموحدون كما مرَّ بنا في غير هذا الموضع ، وانتصر للموحدين كثيرون من الشعراء والكتاب والفقهاء والخطباء . وللقاضى أبى حفص عمر السلمى خطبة ينتصر فيها للمذهب الظاهرى ضد المذاهب الأخرى ، وفيها يقول[1] :

« إياكم والقدماء وما أحدثوا فإنهم عن عقولهم حدَّثوا ، أتَوْا من الافتراء بكل أعجوبة ، وقلوبهم عن الأسرار محجوبة . الأنبياء ونورهم – لا الأغبياء وغرورهم – عنهم يُتَلَقَّى ، وبهم يُدْرَك السؤل : (عالم الغيب فلا يُظْهِر على غَيْبه أحدًا إلا مَن ارتضى من رسولٍ) الدين عند الله الإسلام ، والعلم كتابُ الله وسنة محمد ﷺ ، ما ضَرَّ مَنْ وقف عندهما ما جهل بعدهما » .

وظن بعض من قرأ في هذه الخطبة كلمة القدماء أنه يريد الفلاسفة وهو إنما يريد الأسلاف من الفقهاء الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة ، فهو يدعو دعوة الموحدين من إهمال فقههم وفتاويهم جميعا ، والرجوع إلى الكتاب والسنة كما يقول الموحدون وأهل الظاهر فى عصره ، وهو لا يخفى ذلك بل يعلنه إعلانا ، إذ يقول « العلم كتاب الله وسنة محمد ﷺ » ويقول فى موعظة له[2] : « لا علم إلا علم الكتاب والسنة ، هما أفضل العطايا والمنة » .

ونلتقى بالمنصورالمرينى يعقوب بن عبد الحق ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠ م –٦٨٥ هـ/ ١٢٨٧ م وكان بطلا مغوارا وكأنما نذر نفسه لحرب نصارى الإسبان مساعدة للمسلمين وبنى الأحمر فى إقليم غرناطة . وكان لا يزال يعد العدة من الخيل والسلاح ويعبر الزقاق مع جنوده الأشداء لغزو حصون النصارى بإسبانيا ومدنهم ، وكان ما يأخذه منهم يعطيه لبنى الأحمر ، أمراء غرناطة فهو لا يحاربهم طلبا لمغنم ، وإنما لما عند الله من ثواب المجاهدين فى سبيل دينه ونصرته . وأول سنة عبر فيها الزقاق بجنوده سنة ٦٦٤ هـ/١٢٦٦ م وعاد إلى عبوره بجيش كثيف سنة ٦٧٧ وأبلى فى الحرب حينئذ بلاء عظيما ، وبالمثل فى سنة ٦٨١ هـ/١٢٨٢ م واستولى على بعض حصونهم وتركها لبنى الأحمر ، وفى سنة ٦٨٥ هـ/١٢٨٦ م عبر الزقاق لجهاد النصارى وهزم نونيو جونذالث دى لارا جنوبى قرطبة هزيمة ساحقة . وفى أوبته أدركته المنية بالجزيرة الخضراء ، وله من خطبة يحث فيها جيشه على الجهاد[3] :

« يا معشرَ المسلمين وعصابةَ المجاهدين : إن هذا يوم عظيم ، ومشهد جسيم ، ألا إن الجنة قد فُتحت لكم أبوابها ، فخذوا فى طلابها ، فإن الله (اشترى من المؤمنين أنفسهم

---

(١) النبوغ المغربى ٣٧/٢ .
(٢) أزهار الرياض للمقرى ٣٥٩/٢ .
(٣) النبوغ المغربى ٣٨/٢ .

وأموالهم بأن لهم الجنة) فشمّروا عن ساعد الجدّ ، معاشر المسلمين ، في جهاد المشركين . فمن مات منكم مات شريدا ، ومَنْ عاش عاش غانما مأجورا حميدا ﴿اصْبِروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ .

وهي كلمة فَصلتْ من قلب مجاهد صادق أبلى في سبيل دينه ونصرته بلاء عظيما ، ويبشر جيشه بأن الجنة قد فتحت أبوابها لاستقبال الشهداء المبرورين ، كما وعد الله عباده المجاهدين المؤمنين ، ويدعوهم إلى الجهاد بكل ما يملكون من قوة ، فإن من قُتل منهم شهيدا فاز برضوان ربه ، ومن عاش غنم من العدو غنما كبيرًا ، وأثابه الله ثوابا عظيما . ويذكرهم بآية كريمة تدعو إلى الصبر في الحرب والمرابطة للعدو حتى النصر العظيم .

ومما أُثر من خطب يوم الجمعة ومواعظها لأبي عبد الله محمد الرُّهوني الفقيه المالكي الكبير المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ/١٨١٥ م وكان قد اشتغل بالخطابة الدينية والموعظة ، وله مجموعة في خطب الجمعة ، ومن خطبة له في التذكير والترغيب[(١)] :

« أيها الناس : حَصْحص[(٢)] لكم الحق فتبصَّروا ، وتبين لكم الرشد من الغَيِّ فالزموا الطاعة وتذكروا ، وحُمِلْتم على سلوك الطريق المستقيم فاستقدموا ولا تتأخَّروا ، وحُذِّرْتم من العدول عنه فخافوا الله واحذروا ، وأُسبغت عليكم النعم ظاهرة وباطنة فاعرفوا حقَّها واشكروا ، واعلموا أن الله لا يغيِّر ما بقوم حتى يغيِّروا ، وإياكم والتقصير في العمل فلن تَسْعَدُوا مع التقصير أو تُعْذَروا ، وكونوا من قوم أشرقت لهم أنوار الهداية فأبصروا ، وتُليت عليهم آيات الله فتدبَّروا ، ولا تكونوا ممن استعبدتهم الدنيا فشربوا من كئوس حبِّها حتى سَكِروا ، وقطعوا أعمارهم في اتباع شهواتها فخابوا وخسروا ، وانْهَجُوا سبيل الذين استعدوا لمواطن القيامة كأنهم شاهدوا أهوالها وحضروا ، ورأوا عذاب النار فكفُّوا أنفسهم عن السوء وانزجروا ، وسمعوا ما أُعدّ الله لأوليائه في الجنة فاجتهدوا بالطاعة وبادروا » .

وواضح أن الرهوني يحسن رَصْفَ السجع في خطبه ، ويحاول أن يستتم جرسها بما التزم في نهاية عباراتها من حرف الراء المضمومة ، فهو يريد أن يخلب الأسماع بحسن بيانه وإحكام التقابل في نهايات الأسجاع ، وليس ذلك فحسب ، فهو يعنى بلغته فيختار لها ألفاظا رصينة جزلة تحسُن وقعها في آذان المستمعين . وهو بجانب عنايته باختيار ألفاظه وانتخابها يوفر فيها ألوانا من الطباق المستحسن مثل : « بيِّن لكم الرشد من الغي » وقوله : « فاستقدموا ولا تتأخروا » وقوله : « وأُسبغت عليكم النعم ظاهرة وباطنة » . ولا ريب في أن الرهوني كان خطيبا فذا

(١) النبوغ المغربي ٤١/٢ .

(٢) حصحص الحق : ظهر .

وكان يؤثر بخطابته ووعظه فى سامعيه تأثيرا بعيدا ، وهو خطيب مغربى من خطباء كثيرين كانت لهم نفس هذه الروعة فى الخطابة والوعظ .

٢

الرسائل الديوانية

أخذت الرسائل الديوانية تزدهر فى المغرب الأقصى منذ عهد يوسف بن تاشفين أمير دولة المرابطين واستدعائه أبا بكر بن القصيرة رئيس ديوان المعتمد بن عباد وتكليفه برياسة ديوانه فى مراكش عاصمته ، وكان آية فى البيان والبلاغة ، فأرسى فى الديوان المراكشى تقاليد الكتابة الديوانية الأندلسية ، وظل رئيسا لهذا الديوان حتى وفاة يوسف بن تاشفين سنة ٥٠٠ للهجرة ، وظلت له رياسته فى عهد ابنه على حتى وفاته سنة ٥٠٨ للهجرة . واحتفظت الذخيرة لابن بسام برسالتين[١] له كتبهما على لسان يوسف بن تاشفين ، أولاهما موجهة إلى صاحب قلعة بنى حمادِ فى الجزائر ، والثانية موجهة إلى ابن حمدين محمد بن على حين وَلِىَ القضاء بقرطبة سنة ٤٩٠ هـ/١٠٩٦ م ، وله يقول فيها :

« استَهْدِ الله يَهْدِك ، واستعنْ بالله يُعِنْك فى صدَرِك ووِرْدك[٢] وتولَّ القضاء الذى ولاكه الله بجِدٍّ وحَزْم ، وجَلَدٍ وعزم ، وأمْضِ القضايا على ما أمضاها الله تعالى فى كتابه وسنّة نبيّه ، ولا تُبالِ بَرغْم راغم ، ولا تشفق من ملامة لائم ، وآسِ[٣] بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك ، حتى لا يطمع قوىٌّ فى حَيْفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك . ولا يكنْ عندك أقوى من الضعيف حتى تأخذ الحق له ، ولا أضعف من القوى حتى تأخذ الحق منه ، وانصحْ لله تعالى ولرسوله عليه السلام ولنا ولجماعة المسلمين . وقد عهدنا إلى جماعة المرابطين أن يُسلِّموا لك فى كل حق تُمْضيه ، ولا يعترضوا عليك فى قضاء تَقْضيه . ونحن أولا وكلهم آخرا مذ صرت قاضيا سامعون منك غير معترضين عليك فى حق . والعمال والرعية كافة سواء فى الحق » .

وواضح أن ابن القصيرة يتأثر فى رسالته إلى القاضى ابن حمدين برسالة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى حين يدعوه إلى المساواة بين الناس فى وجهه وعدله ومجلسه حتى لا يطمع قوى فى حيفه ولا ييأس ضعيف من عدله ، وحين يقول له : « لا يكن عندك أقوى من الضعيف حتى تأخذ الحق له ، ولا أضعف من القوى حتى تأخذ الحق منه » . ومن الطريف فى الرسالة أن يوسف بن تاشفين يجعل القاضى فوقه وفوق الجنود والولاة المرابطين

---

(١) الذخيرة : القسم الثانى ص ٢٥٧ وما بعدها .
(٢) صدرك : ما تصدر عنه . وردك : ما ترد إليه .
(٣) آسِ : سَوِّ .

وفوق الرعية ، فليس لأحد من كل هؤلاء الحق فى أى اعتراض على القاضى فى حكم من الأحكام ، فمنذ صار ابن حمدين قاضى الجماعة فى قرطبة أصبحوا جميعا خاضعين له . وهو جانب مشرق فى القضاء الإسلامى ، نجده فى كل بلد وكل دولة ، إذ كانت مكانة القاضى فوق مكانة الحاكم مهما بلغ من النفوذ والسلطان . وعُنى الدكتور محمود مكى فى المجلد السابع من صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد بتحقيق مجموعة من رسائل كتاب الديوان المرابطى فى عهد على بن يوسف بن تاشفين (٥٠٠ - ٥٣٧ هـ) بينها تسع رسائل لابن القصيرة من الرسالة الخامسة فى المجموعة إلى الرسالة الثالثة عشرة . والرسالة السابعة فى المجموعة أشبه بمنشور وجهَّه على بن يوسف إلى أهل الأندلس بطاعة الوالى وأن لا يخالفوا عليه أو يعصوه فى أمر ، إذ يقول فيها[1] :

« إن الوالى النائبُ عنا فى تدبيركم وإقامة أموركم ، وسياسة صغيركم وكبيركم ، وقد فوَّضْنا إليه ذلك وأفردناه بالنظر فى دِقَّه وجُلّه ، وقُلّه[2] وكُثره ، وما فعل من ذلك كله فنحن فعلناه ، وما قال فيه فكأننا نحن قلناه ، ولا نوقف ما أمضاه ، ولا نُمْضى ما وقَّعه وأباه ، ولا نرى فى أحد منكم إلا ما يراه ، ولا نتولاَّه كائنا ما كان إلا أن يتولاَّه ، ولا نَرْضَى من أحواله ما لا يرضاه : بلساننا يتكلم ، وعمَّا فى جَناننا يترجم ، وعلى ما يوافقنا يُسْدِى ويُلْحِم »[3] .

وهذا التفويض للوالى فى الأحكام من حسن السياسة ، فالحاكم الكبير - مثل على بن يوسف - يتضامن مع ولاته فى كل ما يفعلونه ويقولونه ، حتى تنتظم أمور الرعية ، ولا يتخذ الشذاذ الفرصة للخلاف مع الوالى مما قد يؤدى إلى الثورة . غير أنه كان ينبغى أن ينصح الولاة - مع ذلك - بالعدل مع الرعية ونصفة المظلوم والضعيف ، وأن يفتحوا أبوابهم للرعية حتى يسمعوا شكوى كل مظلوم أو متظلم . ويقول عبد الواحد المراكشى فى حديثه عن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إنه اجتمع له ولابنه على من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه فى عصر من الأعصار[4] ، وفى حديثه عن أمير المسلمين على بن يوسف يقول : « لم يزل من أول إمارته يستدعى أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس ، وصَرَف عنايته إلى ذلك حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك كأبى القاسم بن الجد المعروف بالأحدب أحد رجال البلاغة وأبى بكر محمد بن محمد المعروف بابن القَبْطُرْنة وأبى عبد الله بن أبى الخصال وأخيه أبى مروان وأبى محمد عبد المجيد بن عبدون فى جماعة يكثر ذكرهم ، وكان من أنبههم عنده وأكبرهم مكانة لديه أبو عبد الله محمد بن أبى الخصال ، وحقَّ له ذلك إذ هو أحد من انتهى إليه علم

(١) المجلد السابع من صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد .

(٢) الدق والقل : القليل . الجل : الكثير .

(٣) يُسْدى ويلحم : ينسج .

(٤) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٢٢٧ .

الآداب ، وله مع ذلك فى علم القرآن والحديث والأثر وما يتعلق بهذه العلوم الباع الأرحب واليد الطولى[1] ، وله ديوان رسائل يدور بأيدى أدباء أهل الأندلس قد جعلوه مثالا يحتذونه ونصبوه إماما يقتفونه . وبمعهد المخطوطات بالقاهرة التابع للجامعة العربية نسخة من هذا الديوان ، وله أربع رسائل ديوانية فى مقال د . محمود مكى فى المجلدين السابع والثامن من صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد بعنوان : « وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين » ونذكر قطعة من إحدى هذه الرسائل كتبها سنة ٥٠٧ للهجرة على لسان على بن يوسف بن تاشفين ، وهى موجهة إلى أهل الأندلس لحثهم على جهاد النصارى الإسبان وتعريفهم بأنه عَزَم على خوض معركة حامية الوطيس معهم ، وفى أولها يقول :

« كتابنا - أعزكم الله بتقواه ، وكنفكم بظل ذُراه ، ووفرَّ حظوظكم من حُسْناه - من حضرة مراكش - حرسها الله - يوم الاثنين من منتصف شوال من سنة سبع وخمسمائة بين يَدَىْ حركتنا يمَّنَ اللّهُ فاتحتها وعقباها . وقد قرعنا الظنابيب[2] ، وأشرعنا الأنابيب[3] ، وضمَّرنا اليعاسيب[4] ، واستنفرنا البعيد والقريب ، مستشعرين إخلاص نيَّة ، وصِدْقَ حَميَّة ، فى نَصْر دين الإسلام ، ومنع جانبه أن يُضام ، أو يناله من عدوه اهتضام[5] . ونحن - وإن كنا قد بالغنا فى الاحتشاد والاستعداد ، واستنهضنا من الأجناد ، ما يُرْبِى على الحصر والتعداد ، فإنا نعتقد اعتقاد يقين بقول ربُّ العالمين ، فى كتابه المبين : ﴿قُلْ ما يعبؤ بكم ربى لولا دعاؤكم﴾ : إن استنفار الدعاء ، واستفتاح أبواب السماء ، بخالص الثناء ، من أنفع الأشياء ، وأنجح الدعاء ، فيما أعضل[6] من الأدواء » .

ولعل فيما سبق من قيام كبار الكتاب فى الأندلس على الكتابة فى ديوان المرابطين بمراكش عشرات السنين ما يدل على أنهم وضعوا تقاليد الكتابة فى هذا الديوان وأرسوها فيه وظلت راسخة بعد عهدهم فى عهد الموحدين ومن جاء بعدهم ، ويتوقف القلقشندى فى كتابه : « صبح الأعشى » ليذكر التقاليد المتبعة فى الكتب الصادرة عن الخلفاء الموحدين ، ولا ريب فى أنها موروثة عن العهد السابق لهم عهد المرابطين ، ويقول القلقشندى إنها كانت تتخذ أحد أسلوبين[7] : إما أن تفتتح بلفظ من فلان إلى فلان ، وكان الرسم فيها أن يقال : « من أمير المؤمنين فلان » ويُدْعَى له بما يليق به ، ثم يؤتى بالسلام ، ثم يؤتى بالبعدية والتحميد والصلاة على النبى ﷺ والترضية عن الصحابة ثم عن إمامهم المهدىّ ، ثم يؤتى على المقصود ، ويختم

(١) المعجب ص ٢٣٧ .
(٢) قرع الظنابيب كناية عن الإسراع إلى الحرب .
(٣) أشرعنا الأنابيب : سدَّدنا الرماح .
(٤) ضمَّرنا اليعاسيب : ذللنا الخيل للحرب .
(٥) اهتضام : ظلم .
(٦) أعضل : أعجز . الأدواء : الأمراض .
(٧) صبح الأعشى ٤٤٣/٦ .

بالسلام . والخطاب فيه بنون الجمع عن الخليفة وميم الجمع عن المكتوب إليه » . ويمثّل القلقشندى لهذا الأسلوب برسالة عن عبد المؤمن بقلم أبى جعفر بن عطية إلى محمد بن سعد المشهور باسم ابن مردنيش ، وسنعود إليها عما قليل . والأسلوب الثانى فى المكاتبة لعهد الموحدين – كما يقول القلقشندى – أن تفتتح المكاتبة بلفظ أما بعد ، والأمر فيه على نحو ما تقدم فى الأسلوب قبله بعد البعدية . ويمثل لهذا الأسلوب الثانى برسالة عن المستنصر بالله (٦٠٩ – ٦٢٠هـ) إلى بعض نوابه ، ومثلها رسالة عن يوسف ابن عبد المؤمن بقلم أبى الحسن بن عياض ، وسنعرض لها عما قليل .

ويذكر عبد الواحد المراكشى فى كتابه : « المعجب » كتّاب الإنشاء لعبد المؤمن المؤسس الحقيقى لدولة الموحدين ، وهم : أبو جعفر أحمد بن عطية ، وسنخصه بترجمة ، وكتب له بعده – كما يقول – أبو القاسم عبد الرحمن القالمى من أهل مدينة بجاية من ضيعة من أعمالها تعرف بقالم ، وكتب له معه أبو محمد عياش بن عبد الملك بن عياش من أهل مدينة قرطبة[1] . وكتاب الإنشاء فى عهد ابنه يوسف – كما يقول المراكشى – هم أبو محمد عياش بن عبد الملك بن عياش كاتب أبيه وأبو القاسم المعروف بالقالمى كاتب أبيه أيضا وأبو الفضل جعفر بن أحمد المعروف بابن محشرة ، من أهل مدينة بجاية كان يخدم أبا القاسم القالمى إلى أن مات فكتب مكانه[2] . وواضح أن ابن محشرة والقالمى من بجاية ، ولذلك ترجمنا لهما فى الجزء الخاص بالجزائر . وكتّاب ابنه يعقوب – كما يقول المراكشى – أبو الفضل جعفر بن محشرة ، وكتب له بعده أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عياش من أهل بُرْشانة من أعمال مدينة المرية ، ولم يزل كاتبا له ولابنه محمد (الناصر) ولابن ابنه يوسف[3] (المستنصر) إلى أن توفى سنة ٦١٨ هـ/١٢٢٠ م . وهؤلاء هم كتاب الدولة المهمين حتى العقد الثالث من القرن السابع قبل نشوب الخلاف والفتن والحروب بين أبناء أسرة عبد المؤمن وقبل خروج الأندلس من طاعتهم .

ونشر المستشرق بروفنصال مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية ، وهو مملوء بالتصحيف ويحتاج إلى تحقيق ويشتمل على سبع وثلاثين رسالة ، منها ست عشرة لأبى جعفر أحمد بن عطية على لسان عبد المؤمن ، وستفرد له ترجمة ، ومنها ثلاث لأخيه أبى عقيل عن عبد المؤمن ، ولم يذكره المراكشى بين كتابه ، وثلاث أخرى لأبى الحسن بن عياش أولاها عن عبد المؤمن والاثنتان الأخريان عن ابنه يوسف ، ورسالة لأبى الحكم بن المرخى عن عبد المؤمن ولم يذكره المراكشى أيضا بين كتاب عبد المؤمن ، وثمان رسائل لابن محشرة عن يوسف بن عبد المؤمن وابنه يعقوب ، وثلاث رسائل لأبى عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن

(١) المعجب للمراكشى ص ٢٦٧ وما بعدها .
(٢) المعجب للمراكشى ص ٣١٦ وما بعدها .
(٣) المعجب ص ٣٣٨ .

عياش من أهل بُرْشانة كما أسلفنا : رسالة عن يعقوب واثنتان عن ابنه الناصر ، ويقول ابن الأبار في ترجمته له بكتابة التكملة إن السلطان (يعقوب) بالمغرب استكتبه في سنة ٥٨٦ فنال دنيا عريضة[1] إذ كان صاحب القلم الأعلى – كما يقول ابن الخطيب في الإحاطة – على عهد المنصور وابنه الناصر ونضيف أيضا على عهد المستنصر حتى سنة ٦١٨ كما مرَّ بنا ، ويقول ابن الخطيب إنه كان لا يكلم أحدا من الناس إلا بكلام معرب . ويقول المراكشي في المعجب : جرى الكتاب بعده على أسلوبه ، وسلكوا مسلكه لما رأوا من استحسان خلفاء الموحدين لطريقته[2] : وفي رأينا أنهم اتبعوا طريقته في الكتابة هو وكبار الكتاب الأندلسيين المذكورين منذ عصر المرابطين كما قلنا آنفا . وذكرنا أن أبا الحسن بن عياش له في مجموع الرسائل الموحدية ثلاث إحداها على لسان عبد المؤمن وهي تتبع الأسلوب الثاني الذي ذكره القلقشندي مبتدئة بالبعدية على هذا النحو[3] :

« أما بعد حمد الله الذي عَمَّ بنواله ، وخصَّ أهل ولايته بقبوله وإقباله ، والصلاة على محمد عبده ورسوله ، وعلى صحبه الأكرمين وآله ، والرضا عن الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، القائم بإتمام أمر الله وإكماله ، المؤيد بالآيات العصمية ، والبيِّنات الحكمية ، في كافَّة أقواله وأعماله ، فإنا كتبناه إليكم – كتب الله لكم أعمالا زاكية نامية ، وآمالا في بلوغ مرضاته مساعفة موآتية – من حضرة مراكش – حرسها الله – وكوافل العصمة لهذا الأمر العزيز تضرب بقدحها الأعلى[4] ، وتوجب على [أهل][5] الاتصال حظوة الامتثال[6] لأهل كلمة الله العليا ، وتجمع لهم [وعدا[7]] حتما مقضيا ، ووعدا [حتما[7]]مأتيًا بين خير الآخرة وخير الدنيا . وبثبوت هذه القاعدة تستوثق[8] أحوال هذا الأمر الكريم على مقتضى الأقدار المساعدة ، وتستنُّ اطرادا واتساقا على طريقة واحدة » .

وفي جميع الرسائل في هذه المجموعة الموَّحدية نجد الصلاة على ابن تومرت والإشادة به وأنه الإمام المهدي المعصوم مستعيرة هذه الألقاب كما مرَّ بنا من الشيعة الإمامية ، ويضيف أبو الحسن عبد الملك (بن عياش أنه قام بإتمام أمر الله وإكماله) يشير بذلك إلى المبدأين المتممين لدعوته : مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومبدأ التوحيد بمعنى تنزيه الله عن التشبيه بالمخلوقات . ويجعل أبو الحسن كوافل العصمة شاملة لعهد عبد المؤمن ، ويسميه مع شيوخ الموحدين أهل كلمة الله العليا ، وكلمته – في رأيه – إنما هي دعوة الموحدين بمبادئها التي ذكرناها . والرسالة

(١) التكملة لابن الأبار (طبع مدريد) رقم ٩٥٢ .
(٢) المعجب ص ٣٣٩ .
(٣) مجموع رسائل موحدية (طبع الرباط) ص ٩٣ .
(٤) القدح الأعلى : الحظ الأوفر ، وأصله أعلى قداح الميسر .
(٥) زيادة للسياق .
(٦) في الأصل : الاحتصال .
(٧) زيادة بدلالة السياق .
(٨) في الأصل : تستوسق .

موجهة من عبد المؤمن إلى طلبة (دعاة) بعض مدن الأندلس يخبرهم بوصول رسالتهم فى غزواتهم للروم ويحرضهم على حربهم واستئصال شأفتهم وجذورهم . ولأبى الحسن عبد الملك بن عياش رسالة[1] عن يوسف بن عبد المؤمن إلى محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش الثائر فى شرقى الأندلس يدعوه سنة ٦٦٤ هـ/١٢٦٤ م إلى الدخول فى طاعة الموحدين ، وهى فى فاتحتها تتبع الأسلوب الأول الذى ذكره القلقشندى ، وتستهل بهذه الصورة :

« من أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين – أيَّده الله بنصره ، وأمدَّه بمعونته – إلى أمير شرق الأندلس أبى عبد الله محمد بن سعد – أمدَّه الله بتوفيقه ، وأعزَّه بطاعته وتقواه – سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته ، أما بعد فإنا نحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، ونشكره على آلائه ونعمه ، ونصلِّى على سيدنا محمد نبيِّه ورسوله ، والحمد لله الذى أقام لأمره الذى هو سفينة النجاة ، وعصمة المحيا والممات ، دعاةً يأخذون بالحجز عن النار ، ويقيمون لمن ضَلَّ السبيل ، وعدم الدليل ، من معالم الهداية إلى صراطه الواضح ، ومنهجه اللائح ، أهدى علم وأرفع منار ، ويتقدمون فى إبلاغ حجته ، وإيضاح محجَّته[2] ، ببوالغ الإنذار والإعذار ، ويصرِّفون بما أودعوا من سرِّه المكنون ، لبثِّه فى الظهور والبطون ، والسهول والحزون ، وجوه العناية الآخذة بمجامع الأقطار ، الموجهة بالإعراض عن الأعراض إلى ما يقضى بهذه الخليقة ، من ركوب هذه الطريقة ، إلى سعادة هذه الدار ، وسعادة تلك الدار (الآخرة) وصلَّى الله على محمد عبده ورسوله مشكاة الأضواء والأنوار ، ولباب الاجتباء والاختيار ، المخبوء[3] بمعدن بيته الأشرف ، ونسبه الأشهر الأعرف ، سرُّ هذا النبأ السيار وارث ذلك المقام الذى هبَّتْ تباشيره بأسماع ذوى الإصاخة[4] لمواقع الاستبشار ، ورضى الله عن الإمام المعصوم ، المهدى المعلوم ، القائم بأمر الله على أوفى الاعتقاد بتأييد الله وأتم الاستظهار ، الماضى قُدُمًا فى التصميم وإنفاذ العزيم[5] على أمر طلق وأبعد مضمار ، المعان فيما دعا إليه ، ونبَّه عليه ، بالعصمة التى لا تضرُّه معها إباءة أُباة[6] ولا كفر كفار . وعن خليفته وصاحبه الإمام أمير المؤمنين ، ممشِّى أمره العزيز على ما له[7] من المراسم المحفوظة والآثار ، ومقيمه على حدوده المكلوءة الملحوظة دون ونية ولا إقصار ، والناصر له بكل معنى تتوجَّه إليه داعية الاستبصار » .

وهو يحمد الله فى فاتحة الرسالة لإسناده الأمر إلى يوسف بن عبد المؤمن وشيوخ الموحدين ، ويسميهم دعاة ، ويقول إنهم يحجزون بدعوتهم الناس عن النار ويقيمون لهم أهدى علم وأرفع

---

(١) تنظر مجموع رسائل موحدية ص١٤١ ومابعدها .
(٢) فى الأصل : محجته .
(٣) فى الأصل : المخبوء .
(٤) فى الأصل : الإضاحة .
(٥) فى الأصل : العريم .
(٦) فى الأصل : أباه .
(٧) فى الأصل ماله .

منار حتى لا يضلُّوا الطريق السوى المستقيم عن الهداية الراشدة الصحيحة ، وسرها المكنون ، لنشرها فى السهول والحزون وكل مكان حتى يسعد الناس فى الدنيا والآخرة ، ويشيد بالرسول الكريم ثم يدعو لابن تومرت الله ليرضى عنه ، ويسميه الإمام المعصوم المهدى المعلوم . والرسائل الموحدية جميعا تذكره فى فاتحتها وتضفى عليه هذه الصفات التى أضفاها على نفسه مقترضا لها من بيئة الشيعة الإمامية ، ويقول إنه قام بدعوته ونشرها فى الناس بتأييد الله ، وإن عبد المؤمن خليفته سار على هداه وما وضع للدعوة من المبادىء والمراسم المحفوظة . ونراه يقول فى وصف ابن تومرت فى الرسالة : « إن رسول الله ﷺ بَشَّر بعلامات المهدى وأخبر عن أماراته الشاهدة له الدالة عليه من الاسم والنسب والزمان والمكان والفعل » وكان ابن تومرت لفّق له نسبا - كما يقول المؤرخون - يصله بالرسول ﷺ ويقول أيضا عنه : « القائم فى آخر الزمان بعد شمول الضلالة وتلدد (تلبث) الحيرة وتموُّج الفتنة وارتفاع العلم وفشوّ الظلم . فظهر لما خصَّه الله به من الهداية ، وعلَّمه من الحكمة ، وأحلَّه مقام العصمة ونوّله[1] من معقل الإمامة ، وخرق له من العادات ، وأجرى على يديه من الآيات ، ما صدَّق ما نطقت به الآثار ، وتضمنته الأخبار ، واحتوت عليه الصحف وتداولته النقلة ، مما أعطى القلوب العارفة الطمأنينة » . ويشيد بدعوته وأنها ستظل قائمة إلى قيام الساعة ، كما يشيد بيوسف خليفة أبيه عبد المؤمن الناشر لدعوة ابن تومرت والحامل العباد على طريقته المنصور المظفر دائما .

وتظل الرسائل الموحدية تبدىء وتعيد فى فواتحها بالإشادة بابن تومرت وأنه الإمام المهدى المعصوم إلى أن تولَّى المأمون إدريس الخلافة سنة ٦٢٦ هـ/١٢٢٩ م ، فأعلن إلغاء هذه الألقاب لابن تومرت وأزال اسمه من السكة وخطبة الجمعة ، وأذاع فى الدولة رسالةً بذلك من إنشائه ، يقول فيها[2] :

« من عبد الله إدريس أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين إلى الطلبة (دعاة الموحدين) والأعيان والكافَّة ومَنْ معهم من المؤمنين والمسلمين ، أوزعهم[3] الله شكر نعمه الجسام ، ولا أعدمهم طلاقة أوجه الأيام الوِسام[4] ، وإنا كتبناه إليكم - كتب الله لكم عملا منقادا ، وسعدا وقَّادا - وللحقِّ لسان ساطع وحكم قاطع ، وقضاء لا يُرَدّ ، وباب لا يُسَدّ ، وظلال على الآفاق ، تمحو النفاق ، والذى نوصيكم به تقوى الله والاستعانةَ به ، والتوكُّل عليه ، ولتعلموا أننا نبذنا الباطل وأظهرنا الحق ، وأن لا مهدى إلا عيسى بن مريم (يقصد أنه تكلم فى المهد) الناطق بالصدق ، وتلك بدعة قد أزلناها .. كما أزلنا لفظ العصمة عمن لا تثبت له عصمة ، وأسقطنا عنه وصفه ورسمه .. وإذا كانت العصمة لم تثبت عند العلماء للصحابة ،

---

(١) فى الأصل : نواه .
(٢) النبوغ المغربى ١١١/٢ .
(٣) أوزعهم : ألهمهم .
(٤) الوسام : الحسان .

فما الظن بمن لا يدرى بأى يد يأخذ كتابه ، أفٍّ لهم قد ضلوا وأضلُّوا ، وسقطوا فى ذلك وزلُّوا ، اللهم اشهد أننا تبرَّأنا منهم تبرؤ أهل الجنة من أهل النار » .

غير أن عهد المأمون سرعان ما انقضى وعاد الخلفاء وشيوخ الموحدين إلى أن ابن تومرت هو الإمام المهدى المعصوم ، وظلت دعوته حية إلى أن قضت عليها الدولة المرينية . ويقول القلقشندى بعد عرضه لأسلوبى الرسائل المستخدمين أيام الموحدين : « ثم طرأ بعد ذلك الإكثار من الألقاب لخلفائهم فى المكاتبات الصادرة عنهم والمبالغة فى مدحهم وإطرائهم[1] » وفات القلقشندى أن يذكر أيضا الإكثار من ألقاب المرسل إليه إذا كان حاكما كبيرا ، ويوضح ذلك فى عصر الدولة المرينية رسالة للسلطان أبى الحسن المرينى كتبها إلى السلطان المصرى الناصر محمد بن قلاوون خادم الحرمين حينذاك فى شأن رَكْب الحجاج المغاربة ومصحفٍ خطَّه بيده ووقفه على الحرم النبوى الشريف ، والرسالة تستهل على هذه الصورة[2] :

« من عبد الله على أمير المسلمين ناصر الدين ، المجاهد فى سبيل رب العالمين ، ملك البَرَّين ، مالك العُدْوتين (المغرب والأندلس) ابن مولانا أمير المسلمين ، المجاهد فى سبيل رب العالمين ، ملك البَرَّين ، وسلطان العُدْوَتَين أبى سعيد بن مولانا أمير المسلمين ، المجاهد فى سبيل رب العالمين ، ملك البَرَّين وسلطان العُدْوَتين أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق ، منح الله التأييد مقامه ، وفسح – لفتح معاقل الكفر ، وكسر جحَافل الصُّفْر – أيامه . إلى السلطان الجليل الكبير الشهير العادل الفاضل الكامل الكافل الملك الناصر المجاهد المرابط المؤيَّد المنصور الأسعد الأصعد الأرقى الأوفى الأمجد الأنجد الأفخم الأضخم الأوحد ناصر الدين عاضد كلمة المسلمين ، محيى العدل فى العالمين ، فاتح الأمصار ، حائز ملك الأقطار ، مفيد الأوطار ، مبيد الكفار ، هازم جيوش الأرمن والفرَنج والكُرْج والتتار » .

ويستمر طويلا فى إضفاء مثل هذه الألقاب عليه مع ما يطوى فيها من مبالغات ، ويذكر أن أباه قلاوون العظيم ويكيل له هو الآخر الألقاب . ويدعو له ويسلم عليه قائلا : « أبقى الله ملكه موصول الصولة والاقتدار ، محمىَّ الحَوْزة حاميا للديار ، حميد المآثر المأثورة والآثار ، عزيز الأولياء فى كل موطن والأنصار ، سلام كريم ، زاك عميم ، تُشْرق إشراق النهار صفحاته ، وتعبَق عن شذا الروض المعطار نفحاته ، يَخُصُّ إخاءكم العلىَّ ، ورحمة الله وبركاته » . وتمضى الرسالة بعد ذلك مسجوعة من أولها إلى نهايتها ، والسجع فى الرسائل بالمغرب قديم منذ عصر الموحدين .

ويظل فن الرسائل مزدهرا فى عصر السعديين ، ويجمع الأستاذ عبد الله كنون طائفة كبيرة

(١) صبح الأعشى ٦/٤٤٦ .   (٢) النبوغ المغربى ٢/١١٥ .

منها وينشرها باسم رسائل سعدية ، ومنها رسالة بقلم عبد العزيز الفشتالى صاحب القلم الأعلى ورئيس ديوان الإنشاء فى عهد المنصور الذهبى وهى موجَّهة على لسانه إلى « سكية » أمير كاغو عاصمة السودان الغربى الذى تولى الحكم هناك سنة ٩٩٦ هـ/ ١٥٨٨ م قبل غزو المنصور لبلاده واستيلائه عليها وخلعه سنة ٩٩٩ للهجرة ، وفيها يقول[1] :

« إلى كبير كاغو وأميرها ، ومالك زمام أمورها وتدبيرها ، والمرجوع إليه – عند خاصتها وجمهورها ، الأمير الأجل ، الأثيل[2] الأحفل – الأمر – سكيَّة ، وصل الله كرامته ، وجعل التقى سمته وعلامته ، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته ، أما بعد حمد الله مسهِّل المرام ، وميسِّر أسباب الكمال والتمام ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد شفيع الأنام ، المبعوث بالحنيفية السمحاء إلى الخاص والعام ، والرضا عن آله الأئمة الأعلام ، وخلفاء الإسلام ، وعن أصحابه الذَّابِّين عن كلمته بالسنان والحسام ، ومواصلة الدعاء لهذا الجناب الكريم (جناب المنصور الذهبى) بالعزِّ السامى المقام ، والنصر المنشور الرايات والأعلام ، فإنا كتبناه إليكم من حضرة فاس المحروسة بالله ، وعناية الله وارفة الظلال ، ونواسم النصر والإقبال دائمة الهبوب بالبُكَرِ والآصال ، ولله المنَّة » .

ويذكر الفشتالى بعد ذلك الغرض من رسالته ، وهو أن معدن الملح فى بتغازى (بين تمبوكتو ودرعة فى جنوبى المغرب الأقصى من إيالة المنصور الذهبى وفى حكم إمامته وأنه يختص ببيت مال المسلمين ، ولذلك رأى المنصور أن يضع عليه خراجا ينفع المسلمين ويضر أعداء الله الكافرين ، ويذكر له أنه جعل الخراج مثقالا على كل جمل من سائر الإبل التى تحمل هذا المعدن ، ويقول له إن ما سنحصل عليه من الأموال سيصرف فى سبيل الغزو والجهاد وفى أرزاق العساكر الأجناد ، التى جعلناها لنكاية عدو الدين بالمرصاد ، واعتددناها لحياطة البلاد والعباد . ثم يقول محببا له فى الرضا عن دفع بتغازى لهذا الخراج : إن هؤلاء الجنود الذين سيأخذون أرزاقهم أو بعبارة أخرى رواتبهم من هذا الخراج هم « جنود الله التى لولاها – وما حجزت بينكم وبين طواغيت الشرك سيوفُها القاصمة ، وضربت فى وجه الكفر دونكم بأسوارها العاصمة ، وخضدت من شوكة الشرك باستئصال حماته وأنصاره ، ومنازلته على الدوام فى عُقْر داره – لفاض عليكم طوفانه السائل ، وسال على أرضكم منه شؤبوبٌ[3] هاطل ، وكبحت عنكم عنان الكفر حتى نمتم فى كفالتها آمنين ، وفى حياطتها وادعين ومطمئنين » . ويطلب إلى سكيَّة الإسعاف والإسعاد وأن لا يسعى فيما يبطل هذه الفريضة من الخراج التى تعود بالنفع على الإسلام وتؤيد حزب الله فى مواصلته لقتال عبدة الأصنام .

(١) راجع الرسالة فى كتاب رسائل سعدية لكنون ص١٣٦ .
(٢) الأثيل : الأصيل .
(٣) الشؤبوب : الدفعة من المطر .

والرسالة مسجوعة في لغة رصينة امتاز بها الفشتالى - في شعره كما مرَّ بنا - وفي رسائله ونثره .

وتظل في العصر العلوى الرسالة الديوانية محبَّرة يسجع فيها الكتاب ويتأنقون صورا مختلفة من التأنق . ويشير من كتبوا عن التاريخ الأدبى لأيام العلويين إلى رسائل دينية كتبها السلاطين العلويون ، وقلما استشهدوا بشيء منها ، وينوهون برسالة كتبها محمد بن إدريس العمراوى المتوفى سنة ١٢٦٤ هـ/١٨٤٧ م بلسان السلطان العلوى عبد الرحمن بن هشام إلى ابنه الأمير محمد بشأن الحملة التأديبية الموجهة إلى قبيلة زمور وفيها يقول(١) :

« كنا أردنا الإبقاء على قبيلة زمور رحمة وإشفاقا ، وحَمْلَهم على الاستقامة بالإرهاب بالشدة في بعض الأمور هداية وإرفاقا ، فلم يرد الله بهم خيرا لفساد نيتهم ، وخبث طوِّيتهم ، واتكالهم على حَوْلهم وقوتهم ، وما رأوا منا لينًا وسدادًا ، إلا ازدادوا شدة وفسادا ، ولا أظهرنا لهم عظة وإرشادا ، إلا أظهروا تطاولا وعنادا ، وما أخَّرنا الفئة المنصورة عن الركوب إليهم إبقاء وإلفا ، إلا ظنوا ذلك عجزا وضعفا ، قد طَمَسَ الإعجاب منهم بصرا وسمعا ، ولم يروا أن الله قد أهلك قبلهم من القرون من هو أشد منهم قوة وأكثر جمعا » .

٣

الرسائل الشخصية

طبيعى أن تكثر الرسائل الشخصية في المغرب الأقصى منذ القرن السادس الهجرى لاكتظاظه بالكتَّاب منذ ذلك الحين ، ومن طريف ما نلتقى به في القرن السادس رسالة للقاضى أبى موسى بن عمران المتوفى سنة ٥٧٨ هـ/١١٨٢ م كتب بها إلى ابن له بفاس في طلب العلم ، وهى تمضى على هذه الصورة(٢) :

« إلى ولدى .. هداه الله وصانه ، وجمَّله بالعلم والتَّقْوى وزانه . كتبته إليكم عن اشتياق كثير ، وبمشيئة الله - تعالى - تتيسَّر الأمور ، ويتكاثف السرور ، وإذا وجدتكم - على ما أحبه من أدوات الحفظ والأداء ، ولزام آداب العقلاء - جازيتكم بما يُرْضيكم ، وبما يزيد على أقصى تمنّيكم ، وقد أجمعت الأئمة على أن الراحة لا تُنال بالراحة ، وأن العلم ، لا يُنال براحة الجسم ، فادرُسْ تَرْؤس ، واحفظ تُحْفظ ، واقرأ تَرْقَ . ومهما ركنتَ إلى الدَّعة كنت في

(١) الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية للدكتور الأخضر ص ٤١٢ .
(٢) النبوغ المغربى ١٦٥/٢ .

أهل الضَّعَة . وما رأيت الناس مجتمعين على حَمْده فاجتلبْه ، وما رأيتهم مجتمعين على ذَمّه فاجْتَنِبْهُ ، والأعدل الأقسط ، أن تسلك السبيل الأوسط :

وما المـــرءُ إلا حيث يجعل نفسَه ففى صالح الأعمال نفسَك فاجعلِ »

والرسالة من والد فقيه قاض يأمل لابنه مستقبلا علميا يرفعه بين العلماء ، وهو يدعو له أن يتجمَّل بالعلم والتقوى ويزدان بهما ، فهما الزينة الحقيقية للإنسان ، ويقول له إنه سيكافئه مكافأة ترضيه ، إذا وجده على ما يتمناه له من حسن الحفظ والأداء اللغوى للكلام ، ويذكر له أن ما يتمناه الشاب فى المستقبل من الراحة والطمأنينة لا ينال براحة الجسم والكسل ، ويقول له : ادرس وتعمق فى الدرس حتى يأتى يوم تروس فيه أقرانك واحفظ المتون والعلوم تُحْفَظِ ، وأكبَّ على القراءة يرقَ فكرك وترق بين الناس ،أماإذا ركنت إلى الكسل والدعة كنت من أهل الضَّعة والانحطاط والخسَّة . وإذا رأيت الناس يجمعون على مدح شيء وحمده فاجتلبه واكتسبه ، وإذا رأيتهم يجمعون على ذم شيء فاجتنبه وابتعد عنه . ويقول له إنه ينبغى لك دائما أن تتخذ لنفسك فى الحياة السبيل الأوسط ، حتى لا يتلوَّمك أحد على الإفراط والمبالغة فى شيء ولا على التفريط والتقصير فى شيء ، فخير الأمور الوسط . ويذكر له أن كل شخص يضع نفسه فى المنزلة التى يختارها لنفسه ، وينبغى أن تضع نفسك دائما فى خدمة الأعمال الطيبة الصالحة . ويرسل أبو القاسم الحسنى الشريف فى العهد المرينى قصيدة مع رسالة فى شبابه إلى ابن هانىء السبتى الذى مر بنا أنه توفى شهيدا فى جبل طارق سنة ٧٣٧ هـ/١٧٣٧ م ويرد عليه ابن هانىء برسالة طويلة جاء فيها[١] :

« هذا - بُنَيَّ - واصل الله لى ولك علوَّ المقدار ، وأجرى - وَفْقَ أو - فوق إرادتك وإرادتى لك جارياتِ الأقدار ، ما سنح به الذهن الكليل ، واللسان الفليل ، فى مراجعة قصيدتك الغرَّاء ، الجالبة السرَّاء ، الآخذة بمجامع القلوب ، الموفِّية بجوامع المطلوب ، الحسنة المهيع[٢] والأسلوب ، المتحلية بالحلى السنيَّة ، العريقة المتنسب فى العُلا الحسنية .. وإنك واحد حلبةِ البيان ، والسابق فى ذلك الميدان يوم الرهان ، فكان لك القِدَم ، وأقرَّ لك مع التأخر السابق الأقدم ، فوَحَقُّ فصاحة ألفاظٍ أجدتها حين أوردتها ، وأسلتها حين أرسلتها ، وزِنْتها حين وزنتها ، وبراعة معانٍ سلكتها حين ملكتها ، وأصَّلْتها[٣] حين فصَّلتها ، ونظامِ جعلته بجسد البيان قلبا ولمِعصمه قُلْبا[٤] ، وهَصَرْتَ حدائقه غُلْبا[٥] ، وارتكبت رويَّه صَعْبًا .. بُنىَّ ! كيف رأيت للبيان هذا الطَّوْع ، والخروج فيه من نوع إلى نوع ، أين صفوان بن إدريس ، ومحلّ

(١) النبوغ المغربى ٢/١٥١ .
(٢) المهيع : الطريق البين .
(٣) أصلت : أبرز .
(٤) القلب : السوار يكون نظما واحدا .
(٥) هصر : جذب وأمال . غلبا : كثيرة الأشجار .

دعواه بين رحلة وتعريس[1] ، كم بين ثُغاء بقر الفلاة وزئير ليث الفَرِيس[2] ، كما أنى أعلم قطعا وأقطع علما ، وأحكم قضاء وأقضى حكما ، أنه لو نظر إلى قصيدتك الرائعة ، وفريدتك الحالية الفائقة ، المعارَضة بها قصيدته ، المنتسخة بها فريدتُه لذهب عرضا وطولا ، ثم اعتقدلك اليَدَ الطُّولى ، وأقرَّ فارتفع النزاع ، وذهبت له تلك الغايات والأطماع ، ونَسِيَ كلمته اللؤلؤية ، ورجع عن دعواه الأدبية ، واستغفر ربَّه من الألْهية » .

ويبدو أن أبا القاسم الحسنى الشريف نظم قصيدته معارضة لقصيدة بديعة لصفوان بن إدريس الذى شهد له أقرانه ومعاصروه الأندلسيون بالبراعة الشعرية الفائقة ، وسموا قصيدته القصيدة اللؤلؤية ، ولعله أرسل بها مع قصيدته المعارضة إلى ابن هانىء السبتى ليشهد له بتفوقه . وهو يستهل رسالته لأبى القاسم بأن قصيدته تأخذ بمجامع القلوب ، ويشيد ببلاغته وأنه واحد حلبة البيان ، والسابق يوم الرهان ، إذ هو الأرسخ قدما مما يجعل صفوان بن إدريس السابق الأقدم يشهد له بروعة بلاغته . وينوه ابن هانىء بفصاحة ألفاظه وبراعة معانيه ، ويقول أين بيان صفوان بن إدريس من بيانك ، ويبالغ فى ذلك قائلا إن بيانه كثغاء أو صياح بقر الفلاة بينما بيانك كزئير الأسد وهو ينهش فريسته . وزعم له أن صفوان لو استمع إلى قصيدته البارعة وفريدته التى عارضه بها لنسخت قصيدته كما تنسخ الريح آثار الديار ولأقرَّ لك بالبراعة الشعرية وأن قصيدتك تفوق قصيدته اللؤلؤية ، واستغفر ربه من دعواه .

وكان ابن الخطيب أديب غرناطة المشهور فى القرن الثامن الهجرى يكاتب أدباء المغرب الأقصى المشهورين ويساجلهم بالشعر تارة ، وبالرسائل تارة أخرى ، وممن أرسل إليهم إحدى رسائله ليساجله أبو جعفر الجنَّان المكناسى محاولا أن يحرِّك قريحته الأدبية ، فرد عليه برسالة استهلها بثلاثة أبيات مشيدا فيها ببيانه ، وفيها يقول منوِّها برسالته إليه[3] :

« جلوتَ علىَّ من بنات فكرك عقائلَ نواهد ، وأقمتَ بها على معارفك الجمَّة دلائلَ وشواهد ، واقتنصتَ بشوارد بديهتك من المعالى أوابد شوارد ، وفجَّرت من بلاغتك وبراعتك حياضا عذبة الموارد ، ثم كلفتنى من إجراء ظالعى فى ميدان ضليعها[4] ، مقابلةَ الشمس النيرَّة بالسِّراج عند طلوعها ، فأخلدتُ[5] إخلاد مهيض الجناح ، وفررت فرارَ الأعزل عن شاكى[6] السلاح ، وعلمت أننى إن أخذت نفسى بالمقابلة ، وأدليت دَلْوَ قريحتى للمساجلة ، كنت كمن كلَّف الأيام رجوع أمسها ، أو طلب ممن علته السماء محاولة لمسها .. ثم إن أمرك – يا سيدى –

(1) تعريس : إقامة .
(2) الفريس : ما يفترس من الحيوانات .
(3) النبوغ المغربى ٢/١٥٥ .
(4) الظالع : الأعرج . الضليع : القوى المتين .
(5) أخلد : سكن وفكر .
(6) شاكى السلاح : كامل السلاح .

لا يُحَلّ وثيقُ مُبْرمه ، ولا يَحلُّ نَسْخُ محكمه ، فامتثلت امتثال من لم يجد فى نفسه حرجا من قضائك ، ورجوت حُسْنَ تجاوزك وإغضائك ، أبقاك الله قطبا لفلك المكارم والمآثر ، وفَصًّا لخاتم المحامد والمفاخر » .

وهو يشيد ببيان ابن الخطيب فى رسالته ، ومعروف أنه أحد بلغاء الأندلس بل العرب قاطبة ، وأبو جعفر يحكم اختيار ألفاظه وسجعاته ، ويضيف إلى ذلك تشبيهات واستعارات بارعة ، من ذلك تشبيهه فى جذبه له لمساجلته بمن يحاول أن يجرى فرسا ظالعا أعرج مع فرس ضليع قوى متين أو بمن يحاول مقابلة الشمس المنيرة عند طلوعها بسراج لا يكاد ضوءه فى نورها يبين ، وسكن محسًّا كأنه مهيض الجناح ، بل لقد جمع نفسه وقرر الفرار من المساجلة فرار الأعزل من حامل السلاح وشاهره ، ويخال نفسه إن أدلى دلو قريحته عازما على المساجلة كان كمن يكلف الأيام أن ترد أمسها عليه ، بل كمن يطلب من شخص لمس السماء بيديه . ثم يعود إلى نفسه فيرى أن ليس من حقه أن ينقض أمرا لابن الخطيب أو ينسخ حكما له ، فامتثل راجيا منه تجاوزه وإغضاءه عن ضعفه فى البيان ، ويدعو الله أن يبقى ابن الخطيب قطبا للمحامد والمآثر وفَصًّا نفيسا لخاتم المكارم والمفاخر . وكان ابن الخطيب فى عصره يُعَدّ زعيم الأدب والأدباء ، وأهدى إليه أبو القاسم الشريف الحسنى ديوانا له سماه جهد المقل ، ومعه الرسالة التالية[1] :

« الحمد لله الكبير المتعال المسئول أن يعصمنا من خطل القول وزَلَل الأعمال ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأرسال . هذه أوراق ضمَّنتها جملة من بنات فكرى ، وقطَعًا مما يجيش به بعض الأحيان صدرى ، ولو حزمت لأضربتُ عن كَتْبها كلَّ الإضراب ، ولزمت فى دَفْنها وإخفائها دِينَ الأعراب ، ولكنى آثرت على المَحْوِ الإثبات ، وتمثّلت بقولهم : « إن أحسن ما أُوتيته العرب الأبيات . وإذا هى عُرِضتْ على ذلك المجد ، وسألها كيف نجتْ من الوَأْدِ ، فقد آويتها من حرمكم إلى ظل ظليل ، وأحللتها من فِنائكم إلى معرَّسٍ ومَقِيل[2] ، وأهديتها علما بأن كرمكم بالإغضاء عن عيوبها كفيل ، فاغتنمْ قليل الهدية منى إن جهد المقلِّ غير قليل ، فحسبها شرفًا أن تبوأتْ فى جنابك كنفا ودارًا ، وكفاها فخرا ومجدا أن عقدتْ بينها وبين فكرك عقدا وجِوارا » .

وهو يقول إن أوراق الديوان تضمنت طائفة من بنات فكره ، ولو أخذ نفسه بالحزم لا متنع عن كتابتها كل الامتناع ، بل لمحاها محوا ، غير أنه عاد فآثر على المحو الإثبات وتمثل بقولهم إن أحسن ما أُوتيته العرب أبيات يقدمها الشاعر بين يديه . ثم يذكر أنها إن عُرِضت

---

(١) النبوغ المغربى ١٧٦/٢ .

(٢) معرس : مبيت . مقيل : مكان فى القيلولة بنصف النهار .

عليه ، وسألها كيف نجت من الوأد عرف أنها آوت من حرمه إلى ظل ظليل ، وحلَّت من فِناءِ داره وساحتها إلى خير معرَّس ومقيل ، ويقول إن كرمه سيجعله يغضى عن عيوبها ، وحسبها شرفا أنها نزلت من جنابه دارا ، وكفاها مجد وفخرا أن انعقد بينها وبين فكرك جوار حميد وعقد وثيق . ولابن شبرين المتوفى سنة ٧٤٧ هـ/١٣٤٧ م رسالة فكهة كتب بها إلى أبى الحكم بن مسعود الشاهد بالمواريث ، ويفتتحها بقوله[١] :

« أطال الله بقاء أخى وسيدى لأهل الفرائض بحسن الاحتيال فى مُداراتهم ، وللمنتقلين إلى الدار الآخرة يأمر بالاحتياط فى أمواتهم ، ودامت أقلامه مُشْرَعَة[٢] لصرم[٣] الأجل المُنْسأ[٤] ، معَدة لتحليل هذا الصنف المنشأ ، من الصَّلْصال والحَمأ ، فمن ميِّت يُغسَّل وآخر يُقبَّر ، ومن أجل يُطْوَى وكفَنٍ يُنْشر .. وكلما خربتْ ساحة ، نشأت فى الحانوت راحة ، وكلما قامتْ فى شِعْب[٥] مناحة ، اتسعت للرزق مساحة » .

وتمضى الرسالة فى مثل هذه الفكاهة وشاهد المواريث يسأل عن العقار والأملاك ، ويقول عن المتوفَّى إنه ذكر فى الأسماء الخمسة مع ذو فقيل ذو مال ، وأُرْجُل أعوانه تَدِبّ إلى الأسفاط دبيب الصَّقْر إلى الحجل[٦] ، وحضر الموروث والمكسوب ، ووُزن بالأرطال ، وكيل بالأقداح ، والشاهد يصيح فتعلو صيحته ، والمشرف يشرف فتسقط سُبْحته ، وتقسَّم التركة ويحضر الورثة . وكل ذلك فى أسلوب فكه بديع .

وتظل الرسائل الشخصية فى العهدين السعدى والعلوى تكتب بهذا الأسلوب المسجع البديع ، والكتاب يتبارون فى انتخاب ألفاظهم وصياغاتهم انتخابا يروق ويروع .

٤

المقامات والرحلات

(أ) المقامات

المقامات جمع مقامة ، وهى من أهم فنون النثر العربى ، ابتكرها بديع الزمان الهمذانى فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، عارضا أقاصيص على لسان أديب سيار ممن كانوا يسمون فى

(١) النبوغ المغربى ٢/١٧٧ .
(٢) مشرعة : مصوَّبة .
(٣) صرم : قطع .
(٤) المنسأ : المؤجل .
(٥) شعب : طريق .
(٦) الحجل : جمع حجلة : طائر فى حجم الحمام .

عصره بالساسانيين الذين كانوا يحترفون الكُدْية أو الشحاذة الأدبية فى الحصول على أموال الناس بفصاحتهم وحيلهم فى أسلوب قصصى يشيع فيه الحوار ، واتخذ بديع الزمان لمقـاماته أديبا متسولا كبيرا ، هو أبو الفتح الإسكندرى وراوية يروى أقاصيصه وحيله يسمى عيسى بن هشام ، وشاعت مقاماته فى العالم العربى . وأوفى بهذا الفن على الغاية الحريرى التى تداولت مقاماته المغرب والبلدان العربية . وكان كثير من العلماء والأدباء يعقدون لإملائها وشرحها للطلاب مجالس متعاقبة ، وحاولت كل بلدة أن تُدْلى بدلوها فى هذا الفن ، غير أن كثيرين من البلدان العربية رأوا أن يعدلوا بها عن صورتها الأصلية إلى موضوعات أدبية فيها قصص وحوار . وأول ما يلقانا من ذلك فى المغرب الأقصى مقامة لعبد المهيمن الحضرمى الوزير وصاحب القلم الأعلى فى عهد أبى سعيد المرينى ثم فى عهد ابنه أبى الحسن المتوفى سنة ٧٤٩ هـ/١٣٤٩ م ، وقد سماها « مقامة الافتخار بين العشر الجوار » وهن بيضاء وسمراء ، وطويلة وقصيرة ، وسمينة ونحيفة ، وعربية بدوية وحضرية ، وعجوز وصبية . وكل واحدة منهن تناظر نقيضتها فى حسنها . وقد لقيهن – كما يقول فى مفتتح مقامته بوادى الجوهر فى إحدى المدن ، وأجرى على ألسنتهن هذه المناظرة الطريفة . وكانت أول جارية تكلمت وطلبت المناظرة جارية يفوق ضياءُ وجهها ضياء الشمس فقد وقفت بين الصفوف وتقدمت وقالت[١] :

« الحمد لله الذى جعل البياض طرازَ كلِّ جمال ، وشرَّف أهله بالحياء والكمال ، وأعطاهم عزّة لا تبيد ، وصيَّر السُّمْر لهم عبيد ، ألا وإن على قلبى جمرة ، من معاتبتك يا ذات السُّمْرة ، أعندك يا سَمْراء ما عندى ، وليس قدُّكِ كقدِّى ، ولا خدُّكِ كخدِّى ، جبينى ذو ابتهاج ، وذوائبى[٢] كقطع الزَّاج[٣] ، ورَشْح عَرَقى كمسكٍ أذْفَرَ ، يرشح من تحت البرد والمِغْفر ، وثغرى أقحوان[٤] ، وديباج وجهى أرْجوان[٥] ، وإن أسبلت[٦] شعرى المضفور ، فظلام ليل على بياض كافور ، ثم أنشدتْ :

قُلْ للذى أزْرَى بأهل البياض ... ما أنت إلا باطلُ الإعتراضْ
فـوردُ خَدِّى أبـدا زاهِـرٌ ... فى كل فصلٍ فـوق خَدِّى ريـاضْ
يا حاسدى مُتْ كمـدا إنمـا ... تُجْنَى المُنَى من الخدود الغِضاضْ[٧]

وتقدَّمت السمراء ، وحطت اللِّثام ، عن وجهٍ شهىِّ الالتثام[٨] ، وأبلغت فى السلام ، وأفصحت فى الكلام ، وقالت :

(١) النبوغ المغربى ٢/١٩٥ والوافى ٢/٤٤٩ .
(٢) ذوائبى : ضفائرى .
(٣) الزاج : عقار أسود يصنع منه المداد .
(٤) يشبه الشعراء الثغر بالأقحوان ، وكأن تلك الزهرة تشبيهه .
(٥) أرجوان : شجر له زهر شديد الحمرة .
(٦) أسبلت : أسدلت .
(٧) الغضاض : الناضرة .
(٨) لالتثام : يريد القُبل .

الحمد لله الذى خلق الإنسان فى أحسن تقويم وجعله أفضل الحيوان ، وفرّق بين الصور والألسنة والألوان ، وزيّن الأبيض بشَعَرٍ كالغسق[1] ، وباسوداد الحاجبين وسواد الحَدق . وأجلُّ ما يقف له العاشقون إجلالا ، ويرتجلون فيه الأشعار ارتجالا : مِسْكة الخال ، وعقرب الدلال .ثم التفتت إلى البيضاء وقالت : يا أشبه شيء بجبن الروم .. ما زال طعامك قليل المِلْح ، وجَفْنك كثير الرَّشح ، ولبنُك أذى ، وعسلى أنا غِذا ، ولونى لون الخمر ، وطعمى طعم التمر ، ثم أنشدت :

الحمـد لله ليس التِّبر كالوَرِقِ   قد أحسن الله فى خَلْقى وفى خُلُقى[2]
فالجسم منى نُضارٌ صيغ منظره   بمسكةٍ فغَــدا طيبــًا لمنتشِقِ
يا من يعيرُنا باللون إن لكم   جهــلا يقــود إلى الطُّغْيانِ والحُمقِ
كم أسمرٍ قلبــه كافــورةٌ ولــه   من السَّعـادة نجمٌ لاح فى الأفــق

فلما فرغت من كلامها ، وما أبدعته من حسن نظامها تبرقعت بنقابها ، وسلَّمت على الصفَّين ، وقبَّلتْ أساريرَ الكفَّيْن » .

وواضح أن عبد المهيمن الحضرمى أجرى على لسان الجارية البيضاء النعوت التى تزينها فى الخلق والأخلاق مثل الحياء والكمال ، وتوسع فى وصف جمالها بذكر جمال القَدِّ والخدِّ والجبين والضفائر المغرقة فى السواد ، وذكر أن ثغرها أقحوان ووجهها أرجوان ، وأشاد بورد خدها وأنه يحيل خدودها رياضا ناضرة . ويُظَنْ كأنها ضيقت طرق الكلام على صاحبتها السمراء . غير أن عبد المهيمن ما يلبث أن يفتح لها الأبواب على مصاريعها ، لتجد مجموعة من الأدلة البينة والبراهين الواضحة على روعة السواد وجماله بشهادة قولهم : شعر كغسق الليل وإعجابهم بسواد الحاجبين وحدق العينين ، وبدليل إشادة الشعراء بالخال المشبه للمسك ، والشعر المتدلى إلى الخدود كأنه العقرب ، وتقول صاحبتها إن اللبن الأبيض المشبه لك كثير ، أماالعسل الأسمر المشبه لى فكثير الغذا ، وتفخر عليها بأن لونها لون الخمر التى طالما تغنى بها الشعراء ، ثم أنشدتها شعرا يرفع التبر أو الذهب الذى يشبه لونها على الورق أو الفضة البيضاء التى تشبه لون صاحبتها ، فجسمها هى نضار ، وصيغ – كالمسك – سوادا وعطرا ، وتقول لها ما أكثر السُّمْر الذين تشبه قلوبهم ما يتخذ من شجر الكافور من مادة بيضاء بلورية ، بينما نجمه نجم سعيد كل السعادة . وتليهما جاريتان طويلة كاملة وقصيرة ، ومما تقوله الطويلة للقصيرة : « يا زريعة يأجوج ومأجوج ، إن الحلىّ على القصار كالدر فى نحور القرود ، وتقول لها القصيرة : « يا شقيقة الزرافة ، يا ناقة العشير (الزوج) وقصبة النّشير (حبل الغسيل) .

---

(١) الغسق : ظلمة الليل .   (٢) الورق : الفضة .

ويلي ذلك مشهد السمينة والنحيفة أو بعبارة أدق مناظرتهما ، وتقول السمينة لصاحبتها إنك منقوضة اللحم إذ حُرِّم عليك كما حرِّم على بنى إسرائيل الشحم ، وتقول لها النحيفة إن قلبها بالعلف هائم ، كما تفعل البهائم . ونقرأ مناظرة العربية البدوية والجارية الحضرية ومما تقوله الجارية العربية : نحن ربَّات القلوب ، ومنتهى غاية كل مطلوب ، جمالنا أبدع جمال ، ولساننا أفصح لسان . ومما تقوله الحضرية : إن رُعْيان الجِمال لا يفتخرون بحسن ولا جمال .

إلا إنما الحسنُ حسنُ الحَضَرْ　　　علينـــا ومنـــا وفينـــا ظَهرْ

وتناظرت العجوز والصبية ، وكانت العجوز مخضوبة البنان ، وليس لها أسنان ، وبدأت كلامها بقولها : « الحمد لله راحم الشيب ، وساتر العيب » ومما قالته الصبية للعجوز : « أما رأيت شعرى الفاحم ، وثغرى الباسم ، وغصنى الناعم » . وقالت لها العجوز : « بورك فيك من صبية ، وفى ألفاظك الزكية » . واستدار الجوارى حول العجوز ، فقالت لهن : « سأقول بينكن مقالة إنصاف ، يقتضيها الحق وجميل الأوصاف » وقالت لكل منهنّ كلمة أرضتْها ، وبذلك ارتفع بينهن العتاب واللوم . وإذا كان عبد المهيمن الحضرمى لم يحاول أن يحاكى بديع الزمان ولا الحريرى فى مقاماتهما فإن مقامته تُعَدّ طرفة أدبية بديعة .

ونلتقى فى العصر السعدى بمحمد بن عيسى المتوفى سنة ٩٩٩ هـ/١٥٩١ م ، وله مقامة نقدية عرض فيها طائفة من أدباء زمنه ، وعادة يسأل أين الأديب فلان ؟ ويجيب بسطور مسجوعة منوها بأدبه ، وقد يكون السؤال عن مفتٍ أو فقيه ويجيب ، ونذكر لذلك مثلا إذ يقول[١] :

« قلت : وأين الكاتب الأديب أبو العباس الغرديس ، فقال : الدر النفيس .. ووارث المجد الذى له التهويم[٢] والتعريس ، فعلٌ سؤدده غير مَقيس ، فهو والسيادة سليمان وبلقيس ، وإنه اليوم بفاس دار قراره ، ومشرق أنواره ، ومنبت رَنْده وعَراره[٣] ، فلا تسل عن النبيه والنباهة . والفضل هناك الحب الوضَّاح ، والمجد الصُّراح ، والأدب المزرى بالراح ، ممزوجا بالماء القراح ، ينظم وينثر ، وعلى كل ما يشاء الخاطر عنده يعثر » .

وعلى هذا النمط نعوت دائما مسجوعة تضاف للشخص تنويها به وثناء عليه ، وهى بذلك لا تعد مقامة إنما هى مقال عن بعض أدباء عصره وعلمائه . وأسلوب عبد المهيمن الحضرمى السابق فى مقامته القائم على المناظرة والمفاخرة شاع بين الكتاب المصريين فى زمن المماليك وشاع معه المفاخرة والمناظرة بين الأزهار فى ضروب من السفسطة والمغالطة وقلب المحاسن

(١) انظر فى هذه المقامة كتاب الوافى بالأدب العربى فى المغرب الأقصى ٣/٦٩٩ .

(٢) التهويم : النوم الخفيف ولعله يريد الارتحال . التعريس : الإقامة .

(٣) الرند والعرار : من أزهار البوادى .

مساوىء لغرض الإفحام والغلبة . ويمكن أن نعد من هذا النوع مقامة محمد بن أحمد المِكْلاتى التى كتبها فى أواخر العصر السعدى تحية لمحمد بن أبى بكر صاحب الزاوية الدلائية ، وسماها : « المقامة[1] الزهرية فى مدح المكارم البكرية » ويجعلها على لسان شخص يسمى « بَسَّام » يقول إنهم نزلوا روضا بهيا وأمطرتهم السماء مطرا باتوا فيه ، واستيقظ فى السحر بين الضياء والغبش ، وخال كأن وجوه الروض تسيل دما ، وتوهمه من بقايا الشفق أسفر عنه ضوء الصباح ، وناداه أنا أخو الرياض الشقيق كم كسوته جمالا . يقصد أن ما يراه ويظنه دما إنما هو زهر شقائق النعمان . ويأخذ فى الافتخار بحسنه ، ويجاذبه الفخر زهر النمام فعود البان الذى طالما وصف الشعراء بقَدِّه قدود محبوباتهن الحسان ، والنرجس يقول لغصن البان مفاخرا وواصفا نفسه :

« أما راقك الياقوت الأصفر ، وسَط الدر الأبيض ، على الزمرد الأخضر .. شموا النرجس ، ولو يوما فى السنة ، فأنا غذاء الروح ، لمن يغدو عنى ويروح ، لطيف المزاج ، أصلح للعلاج ، ولْزيل من الدماغ مضرَّة دخان السراج ، وأخِفُّ على العشَّاق ، يوم التلاق ، وينشد قول بعض الشعراء :

وإذا قضيت لنـــا بعيْنِ مراقبٍ ... يـاربِّ فَلْتكُ من عيـون النرجسِ

ويعترض زهر البنفسج ثائرا مفاخرا ، وقائلا له : لا يسلم لك فخر إلا على الورد فما لأمرك عليه من ردّ ، وينشد قول ابن الرومى فى تفضيل النرجس على الورد :

خجلتْ خدودُ الورد من تفضيلهِ ... خجلاً توردُّها عليــه شاهــدُ
للنَّرجِس الفضـــل المبينُ وإنْ أبى ... آبٍ وحـــاد عن الحقيقـة جاحدُ

وما يلبث أن يدخل الورد فى المعركة للرد على ابن الرومى ومن فضلوا عليه النرجس ، يقول المكلاتى :

وتدخَّل البنفسج « فأقبل الورد فى جنوده ، ناشرا لراياته وبنوده ، محمرَّ الوجنات ، منكرا على البنفسج ما جاء به من التُرهات :

ولقد رأيت الوردَ يلطم خَدَّه ... ويقول وهْوَ على البَنَفْسَج يَحْنَقُ
لا تقربـوه وإن تضوَّع نَشْرُه ... من بينكم فهو العدوُّ الأزرق[2]

وكيف يفخر النَّرْجِسُ من بين الرياحين ، على نخبة الملوك والسلاطين :

إن كنت تنكر ما ذكرنا بعدما ... وضَحَتْ عليه دلائلٌ وشواهدُ
فانظـــر إلى المصفرِّ لونا منهما ... وافهم فمــا يصفرُّ إلا الحـــاسد

(1) انظر فى هذه المقامة النبوغ المغربى ٢٠٨/٢ . (2) تضوَّع نشره : فاحت رائحته .

ألم تسمع ما قيل ، مما سيلقى عليك القول الثقيل :

من فضَّل النرجسَ فَهْو الذى ... يرضى بحكم الورد إذ يَرْأَسُ
أما ترى الــورد غدا قاعدًا ... وقــام فى خدمتــه النَّرجِسُ

أنا مشرَّف الربيع . ومُظهر ما له من البديع ، أُنعِشُ الأرواح ، وأنا عروس الأفراح ، نوافح ذكية[1] ، وروائح شذية[2] ، أبديتُ ألوانا لأهل الأدب ، يقضون لها بالعجب ، فمنىٍّ الأبيض والأسود الحالك ، ومنى وراء ذلك : أصفر فاقع ، وما نصفه قانٍ[3] ونصفه ناصع ، وبالهند منى شجر يُخْرِج وردا عليه مكتوب : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فأنا للرياحين ملك ملوكها ، ووسطَ عقودها وسلوكها :

فمن ذا يضاهينى بوصف فضيلةٍ ... وفضلى على كل الرياحين ظاهرُ
زمانى على الأزمـان بى متشرِّفٌ ... وفخرى لمـن يبغى التفاخر قاهرُ

وفخر الورد بديع ، وقد أنشد فيه المكلاتى مأثر من الأشعار التى تثنى على الورد وتفضله على النرجس بل على جميع الأزهار . ونثر الفخر بل نثر المقامة جميعها بديع إذ كان يعرف المكلاتى كيف ينتخب ألفاظه وكيف يقابل بين سجعاته بألفاظ مألوفة ليس فيها غريب ولا شاذ نادر . وكانت تستمع إلى هذا الحوار حمامة مطوَّقة ، فأقبلت على الأزهار مفاخرة بدورها ، تقول :

« فناحت بشجنها ، وتكلمت على فَنَنِها ، وقالتْ : كلٌّ يحاول جهده ، ويقول بما عنده ، إلىَّ لا لكم الفخار ، وأنتم لنا أعشاش وأوكار ، وفروعكم لخطبائنا منابر ، ولقيانا ستائر ، أليس رءوسكم لأقدامنا خاضعة ، ولنا كلما نزلنا ساجدة وراكعة ، وإنا على ما زعمتم بنا من الجَوَى[4] وتباريحه ، آخذون فى ذكر الله وتسبيحه ، شُغْلنا بذلك فى الأسحار ، والعشىّ والإبكار ... ونشأت غمامة تصافح أهدابها الأرض ، وتسد الآفاق على الطول والعرض ، يَحْدوها الرعد ، ويستنجز منها الوعد (وينشد) :

وكأن صوت الرعد خلف سحابةٍ ... حادٍ إذا وَنَت الركائبُ صاحا
أخفى مسالكَها الظلامُ فأوقدتْ ... من برْقهـا كى تهتدى مصبـاحا
جادتْ على التَّلعات فاكتست الرُّبى ... حُللا أقـام لهـا الربيـعُ وشاحا[5]

فنثرتْ بالأرض جواهرَ تغار منها البحور ، وتزدان بها من أجياد الأزهار اللبّات والنحور ،

(١) ذكية : ساطعة .
(٢) شذية : عطرة نسبة إلى الشذى .
(٣) قانٍ : شديد الاحمرار .
(٤) الجوى : الوجد .
(٥) التلعات جمع تلعة : ما ارتفع من الأرض .
الوشاح : شريط عريض مرصع بالجوهر .

واختفت بعدما تجلّتْ ، وألقت على البطاح ما فيها وتخلّت ، ثم قالت : يا ذوات الأطواق ، البائحات بالأشواق ، المفتخرات على الأدواح ، بالغدو والرواح ، بكاؤكن كذب ، ونوحكن لعب .. ما الفضل إلا لمن أحْيا الأرض بعد أن كاد زرعها يهيج فـ(اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج) فقلائدها مدبَّجة ، ورءوس أشجارها متوَّجة ، ولولاى لم يكن لكن مَرْعى ، ولا مسرحَ فى الأرض ولا مسعًى .. وطلعت الغزالة ، وهى فى مشيها مختالة . وقالتْ : أعمال كسراب ، وعارض منجاب ، إذا طلعت عليه الشمس ذاب ، ألم تعلموا أنى يوح[1] ، أغدو فى مصالح العالم وأروح ، ولولاى ما جرت الأنهار ، ولا تفتّقت الأزهار » . ويقول الراوى : إن جامع هذه الفضائل وإمامها عالم المسلمين .. محمد بن أبى بكر صاحب الدلاء الكريم الجواد ، ويقول بعد التنويه بفضائله إنه وقع التسليم بمناقبه ومناقب أبيه البكرية ، فطاف بالروض طواف الوداع عازما على أن يخدم جنابه بهذه الفكاهة .

وإنما أكثرت الاقتباس من هذه المقامة لأدل بوضوح على روعة ما جلبه فيها المكلاتى من أشعار وإبداعه فى نثرها المسجوع سجعا يكتظ بالعذوبة مع مابثه فيه من ألفاظ قرآنية بديعة من مثل آية آل عمران : ﴿واذكر ربك كثيرا وسبِّح بالعشىِّ والإبكار﴾ وآية سورة الانشقاق فى وصف الأرض : ﴿وألقتْ ما فيها وتخلّت﴾ وآية سورة الحج : ﴿وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزتْ وربَتْ وأنبتتْ من كل زوج بهيج﴾ .

ونمضى إلى عصر الدولة العلوية وعهد سلطانها إسماعيل وما كان فيه من نهضة أدبية واشتهر بين الأدباء حينئذ محمد بن الطيب العلمى المتوفى سنة ١١٣٤ للهجرة وسنفرد له ترجمة بين كبار الكتاب ، وكان يعاصره محمد المسناوى الدلائى المتوفى بعده بعامين سنة ١١٣٦ هـ/ ١٧٢٤ م وله مقامة سماها المقامة الفكرية يحكى فيها زاوية الدلاء حين هاجمها وخرّبها السلطان إسماعيل العلوى ، وهو يطيل الحديث عن متنزهاتها ورياضها وأنهارها التى كانت تملأ بطاحها وتلالها ، ويشعر بحزن عميق حين يراها تحولت أطلالا عافية ، يقول[2] :

« منازلها خاوية ، والذئاب فى أرجائها عاوية ، وليس بها إلا الغربان واليوم ، والحمائم تنوح فى أطلالها وتحوم ، فخرجت منها ودموعى نهر غزير ، بقلب كسير » .

ونلتقى أخيرا بمحمد بن إدريس وزير السلطان عبد الرحمن العلوى المتوفى سنة ١٢٦٤هـ/١٨٤٧ م وله مقامة يصف فيها حملة لتأديب إحدى القبائل ، ويصور مسيرتها بين الزروع والرياض ، وينسب الحديث فيها إلى نصر بن كرامة ، وفيها يقول[3] :

(١) يوح : اسم للشمس .

(٢) انظر الحياة الأدبية فى المغرب على عهد الدولة العلوية للدكتور محمد الأخضر ص ١٩٩ .

(٣) انظر المقامة فى النبوغ المغربى ٢٤٣/٢ .

« مطارف السندس بالآفاق قد نَشِرتْ ، وجيوش النَّوْر (الزهر) حُشِدت ألوانها وحُشِرت :

والأرض تُجْلَى عروسًا فى ملابسها　　وشَتْ حُلاها يَدُ الأنواء بالزَّهَرِ(1)

والنسيم قد عَطَّر بنشره الأندية ، وغازل الأغصان فنازعها المطارف والأردية ، وجرَّ ذيل دلاله فى الآكام والأودية :

والريح تَلطِمُ فيه أردافَ الرُّبى　　مرحًا وتلثمُ أوجُهَ الأزهارِ
ومنابرُ الأغصان قد قامتْ بها　　خطباءُ مفصحةٌ من الأطيار

.. والناظر الأديب المتأمل ، ينشد قول المجنِّس الممثِّل .

إن هذا الربيع شيء عجيبٌ　　تضحك الأرض من بكاء السماءِ
ذهبٌ حيثما ذهبنا ودرٌّ　　حيث دُرْنا وفضّةٌ فى الفضاءِ

والجيش المنصور بحر متلاطم الأمواج ، يسير فيملأ الفضاء ويُغِصُّ الفِجاج ، ويقيم فيكون هالةً على بدر سعودٍ وشرف ، وسُورَ حفظٍ لا يُعْرَف له طرف ، قد رُصَّتْ صفوفه ، وتعدَّدت ألوفه ، وتنوعت أجناسه وصفوفه » .

والألفاظ والأسجاع والأبيات مختارة ، بحيث تغمرها السلاسة ورونق العذوبة ، مع حسن البيان ، مما يكسب العبارات بهاء . وبدون ريب تدل مقامات ابن إدريس والمكلاتى والحضرمى – كما دلت الرسائل والخطب السابقة – على نهضة النثر فى المغرب الأقصى .

(ب) الرحلات

أعدت فريضة الحج وزيارة القبر النبوى – من قديم – لمسيرة القوافل سنويا من المغرب الأقصى إلى مكة والمدينة ، مما جعل كثيرين هناك يشغفون بتلك الرحلة والكتابة عنها ، وأيضا فإن مراكز الثقافة تعددت ، فكان كثير من شباب المغاربة يودون لو تزودوا من هذه المراكز بما يأملون فيها من لقاء شيوخها بتنوع ثقافاتهم ، وكانوا يشعرون أن من واجبهم التحدث عن هذه المراكز ومن التقوا بهم من شيوخها واستمعوا إليه وإلى ما دار أحيانا فى بعض المجالس من حوار علمى أو أسئلة علمية . وبهذين الدافعين أخذ كثير يرحلون فى هذه القوافل عبر البلاد المغربية ومصر والشام من أهل المغرب الأقصى ، وعُنى بعضهم بوصف رحلته ووصف البلدان التى نزلها وحلقات الشيوخ الذين استمع إليهم .

(1) الأنواء : الأمطار .

رحلة[1] ابن رُشيد

من أقدم الرحلات المغربية وأهمها رحلة ابن رشيد محمد بن عمر الفهرى ، وحدثنا عنها وعن مؤلفها الأستاذ محمد بن تاويت فى الجزء الثانى من كتابه « الوافى » ونقل عن ابن خلدون أنه كبير مشيخة المغرب وسيد أهله كما نقل عن أبى البركات البلفيقى أنه من أهل المعرفة بعلم القراءات السبع وصناعة العربية وعلم البيان والآداب والعروض والقوافى مشاركا فى غير ذلك من الفنون أديبًا خطيبًا بليغًا ، ينظم الشعر على تكلفه ويجوِّد النثر ، ولد سنة ٦٥٧ هـ/١٢٥٩ م وتوفى حوالى سنة ٧٢١ هـ/١٣٢٢ م بدأ رحلته فى الخامسة والعشرين من عمره ، سنة ٦٨٣ وسجل فيها كل ما شاهده من البلدان والشيوخ ومجالسهم وأخْذِه عنهم ، وسماها : « ملء العَيْبة (الحقيبة) فيما جُمع بطول الغيبة ، فى الوجهة الوجيهة إلى الحرمين : مكة والمدينة » . وتعد مرجعا مهما لعلماء مصر والبلدان المغربية فى أواخر القرن السابع الهجرى ، إذ امتدت رحلته أربع سنوات ، وهى فى خمس مجلدات ولا تزال مخطوطة وربما كان طولها هو الذى منع حتى الآن من طبعها ، وأسلوبه فيها – كما يقول الأستاذ ابن تاويت – مرسل إلا فى وصفه لبعض الشخصيات العلمية أو لبقعة طيبة فإنه يصوغها سجعا خالصا كقوله عن حازم القرطاجنى :

« حبر البلغاء ، وبحر الأدباء ، ذو اختيارات فائقة ، واختراعات رائقة ، لا نعلم أحدا ممن لقيناهم جمع ، من علم اللسان ما جمع ، ولا أحكم من معاقل البيان ما أحكم من منقول ومبتدَع ، وأما البلاغة فهو بحرها العذب ، والمنفرد بحمل رايتها أميرا فى الشرق والغرب ، وأما حفظ لغات العرب وأشعارها وأخبارها ، فهو حمَّاد[2] راويتها وحمَّال أوقارها »[3] .

ويخص مصر بالجزء الثالث من رحلته ، ونسوق منه وصفه لمجلس لعالم مصر فى العربية لزمنه : بهاء الدين بن النحاس الحلبى الأصل تلميذ ابن مالك وأستاذ أبى حيان ، يقول :

إنه « حضر درسا له ، فسأله ابن النحاس بعد تدخله فى مسألة نحوية : من أين قدومك ، قال ابن رشيد : قلت : من المغرب . قال : من الإسكندرية ؟ قلت : من أبعد ؟ قال : من تونس ؟ قلت : من أبعد ، قال : إذن من جُوًّا (من داخل) المغرب ؟ قلت : نعم ، فقال من أى بلاده ؟ قلت : من « سَبْتة » فكان أول ما فاتحنى به أن قال : أيعيش سيدنا أبو الحسين بن أبى الربيع قلت : نعم ، فقال : ذاك شيخنا ، إفادة بوصول كتابه اليتيم إلىّ ، يريد شرحه

(١) انظرها فى الوافى ٢/٣٨٥ وما بعدها . وتوسع المقرى فى الحديث عنه وعن رحلته وشمائله وشيوخه غربا وشرقا وتآليفه ويقول إنه كان ظاهريا ثم يعلق على ذلك بأن المعروف أنه كان مالكيا ويذكر عنايته بالحديث النبوى . انظر أزهار الرياض ٢/٣٤٧ .

(٢) حماد هو حماد راوية الكوفة المشهور .

(٣) أوقار جمع وقر : حمل .

لكتاب الإيضاح للفارسي - ثم قال لى : أقرأت عليه ، قلت نعم قرأت : الجُمَل (للزجاجى) والإيضاح والكتاب (لسيبويه) فلما ذكرت الكتاب قال : فاعبر (أى الحلقة يريد انتقاله إلى جواره) وتلكأت فى هذا العبور واستحييتُ منه ، ولكنه أصرَّ على أن أعبر إليه ، وعبرت ، فأقعدنى إلى جانبه ، فجلست مُغْضيا (منكمشا) حياء منه ، فقال : اجلس متسعا ، فجلست وتمادى فى الإقراء ، فاختلست الكلام - أثناء إقباله على من بين يديه من التلاميذ للإلقاء عليهم - مع الذى كان عن يمينى اختلاسا ، وسألته من الشيخ ؟ فقال : بهاء الدين بن النحاس ، والتفت الشيخ إذ رآنى وثبت بين يديه ، فقال : لم ؟ ارجع إلى موضعك ، فقلت : يا مولانا لم يعرف المملوك مَنْ أنت ؟ ولو علم ما جلس هذا المجلس (أى بجوارك) وما تكلم ، فعزم علىَّ فى العَود إلى مجلسى ، فعُدْت ، وأشار بالاطمئنان فاطمأننت » .

ولوصف ابن رشيد لهذا المجلس دلالات ، فقد كان شابا فى نحو الخامسة والعشرين من عمره ، وابن النحاس شيخ كبير ، بل عَلم النحاة فى عصره ، وحين عرف فيه بعض الفضل العلمى فى العلم الذى يلقيه : علم العربية ، طلب إليه أن يعبر الحلقة ويجلس بجواره رغم صغر سنه . وكان علماء القاهرة والإسكندرية دائما يكرمون من يفد على مجالسهم من المغرب الأقصى شبانا أو شيوخا ، وكانوا يتتلمذون لهم ، ويطلبون منهم إجازات فى قراءة بعض مؤلفاتهم . ومن يرجع إلى ما كان يقرأ هناك من هذه المؤلفات سيجد كثرة غامرة من كتابات العلماء المصريين ومؤلفاتهم تقرأ هناك وقد تشرح مرارا ، وممن يتردد اسمه هناك فى الفقه المالكى والأصول ابن الحاجب وابن دقيق العيد والشيخ خليل والقرافى وغيرهم من جلة العلماء المصريين فى كل علم وفن . وبالمثل كانت مصر تتداول بعض المتون والمؤلفات المغربية . وهذا بهاء الدين بن النحاس يقرأ لمعاصره ابن أبى الربيع عبيد الله بن أحمد العالم النحوى الكبير الذى هاجر من إشبيلية حين استولى عليها الإسبان سنة ٦٤٦ للهجرة إلى سبتة وأقرأ بها العربية طوال حياته إلى أن توفى سنة ٦٨٨ للهجرة . ونرى ابن النحاس وقد قرأ له شرحه على كتاب الإيضاح لأبى على الفارسى يتلطف فى السؤال عنه فيقول : « أيعيش سيدنا » ثم يعود فيقول لابن رشيد : ذلك شيخنا ، وقد جعله شيخه ، لا لأنه تتلمذ عليه مثل ابن رشيد ، ولكن لأنه قرأ له شرحه للإيضاح ، وفى ذلك ما يدل على مقدار إجلال أسلافنا من العلماء لمن يقرءون لهم بعض مؤلفاتهم فينعتونهم بأنهم شيوخهم ، وإن لم يلقوهم ، ولا حضروا لهم درسا فى مجالسهم العلمية . ويذكر الأستاذ ابن تاويت لابن رشيد نادرة حدثت له فى مدينة رابغ بالحجاز ، يقول :

« غريبة عنَّت لنا فى رابغ ، بل أغنت فى معنى قوله تعالى وأقنت : ﴿يا أيها الذين آمنوا ليبلونَّكم الله بشىء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب﴾ وذلك أنه

صحبنى فى الطريق من المدينة ، على ساكنها الصلاة والسلام ، إلى البيت الحرام ، أحد الشيوخ من شرفاء المدينة ، فلما وافينا رابغ ، رأيت عجبا من تخلل الوحوش والغزال والأرانب ، بين الجمال والرحال ، بحيث ينالها الناس بأيديهم ، والناس ينادون : حرام ، حرام ، والجوارح قد سلست .. فقال لى ذلك الشيخ تأمل تر عجبا ! هكذا جرت عادتنا فى هذا الطريق ، إذا مررنا به ونحن محرمون نجد به من الوحش ما ترى ، فإذا عُدْنا محلِّين لم نجد شيئا . فلما عدنا كان كما قال ، فبان لى من معنى الآية ما لم يكن عندى بالمشاهدة .

وينثر ابن رشيد فى رحلته ، بعض أبيات له ، تدل على أنه كان ينظم الشعر ، وهو شعر متوسط ، أما نثره سواء سجع أو استرسل طليقا من السجع نثر جيد . والرحلة تكتظ بمعارف كثيرة عن الحركة العلمية فى البلدان العربية وشيوخها لزمنه .

(ب) رحلة[1] العَبْدرى

هو أبو عبد الله بن محمد العبدرى ، أصله من منطقة حاحة إحدى مناطق إقليم مراكش ، وهى منطقة وعرة تمتلىء - كما يقول الحسن الوزان - بالجبال العالية الصخرية وبالغابات والأودية المائية الصغيرة . ويبدو أنه نشأ فى حاحة وأكمل تعلمه على شيوخ مراكش ، وكان أديبا يحسن نظم الشعر وصوغ النثر ، ولم يلتزم السجع دائما فى رحلته ، وقد بدأها - كما يظن - فى العقد الثالث من حياته سنة ٦٨٨ هـ/ ١٢٩٠ م وقد استغرقت منه عامين طويلين ، وبدأها من حاحة موليا وجهه نحو شمالى الجزائر حتى مدينة مليانة ، ومرَّ منها بالمدن فى الشمال حتى تونس ، ومنها إلى طرابلس فالقطر المصرى بادئا منه بالإسكندرية وأعجبته فأقام بها فترة ، ثم تركها إلى القاهرة وحمل عليها ، كما حمل على طرابلس من قبل ، واتجه منها إلى العقبة فإقليم الحجاز حيث أدَّى فريضة الحج ، وزار قبر الرسول العطر ، وعاد من طريق فلسطين إلى مصر فالبلدان الإفريقية حتى بلدته ، ونراه أحيانا فى وصفه للبلدان يبالغ فى الثناء تارة ، وتارة ثانية يبالغ فى الذم والقدح ، وقد أضفى ثناءه على مدينة مليانة فى الجزائر ، وفيها يقول :

« مدينة مجموعة مختصرة ، وليست بذلك عن أمهات المدن مقصِّرة ، أشرفت من كثب على وادى (نهر) شلف ، واستشرفت نسيم طرفها من شرف ، فى روضة جمة الأزهار والطُّرف . فَرعت (امتدت) فى سفح جبل حمى حِماها أن يرام ، وشُرِعت فى أصل نهر يشفى المقيم من الهيام ، شاق منظرا ، وراق مخبرا ، وشفى الظمأ موردا ومصدرا ، يشتهى الناظر إليه وهو ريان الشروع ، ويقول : لورْشٌ به - لأفاق - المصروع ، وكأن حصباءه

(١) انظر فى رحلة العبدرى كتاب الوافى ٣٩٣/٢ وقد نشر الرحلة وحققها الأستاذ محمد الفاسى وهى مطبوعة فى الرباط .

جُمان والماء من فوقه دموع » . ومليانة من المدن التى بناها الرومان قديما ، وهى على قمة جبل ، وبينها وبين شرشال على البحر المتوسط أربعون ميلا ، والجبل المشيدة عليه ملىء بالينابيع ومغطى بأشجار الجوز » . ويقول الحسن الوزان إن بيوتها متقنة وبداخلها فستقيات جميلة ، وسكانها فى زمنه من الصناع والحاكة والخراطين ، وتشتهر بصنع أوان لطيفة من الخشب ، وكثيرون من أهلها يزرعون الأرض . وإذا كانت القاهرة لم تعجب العبدرى فإن الإسكندرية أعجبته وفيها يقول :

« مدينة الحصانة والوثاقة ، وبلد الإشراق اللامع والطلاقة ، وطلاوة النظر وحلاوة المذاقة ، كلَّ عنها ظُفْر الزمان ونابه ، وفُلَّ منها جيش الحِدْثان وأحزابه ، فلم تبد عليها للزمان ضراعة ، ولا وُكست لها فى معاملاته سلعة ولا بضاعة ، ولا وقفت له موقف ذل يوما ولا ساعة ، بل ثبتت لحزبه ثبوت البطل ، وصابرتْ كيده حتى اضمحلَّ سحره وبطل ، فلم تصغ أذنا إلى ما يوعد به من الخنا والخطل ، فهى واقفة وقوف الأطواد سامية بطرف غير كليل وجيد غير منآد[1] ، آخذة من الكفر وأهله بالمخنّق[2] ، حتى أبدلتهم من الصافى المروَّق الكدر المرنّق[3] ، فسامروا الأسف مسامرة الندى للمحلّق[4] ، ودجا عليهم ليل هم ادلهمَّ بعد نهار سرور تألق ، واضطرم عليهم الأسى واحتدم ، فحالفوا الندم .. مدينة فسيحة الميدان ، صحيحة الأركان ، مليحة البنيان ، تُسْفر عن مُحَيًّا جميل المنظر ، وترنو بطرف ساج[5] أحور ، تبسم عن ثغر كالأقحوان إذا نوَّر ، كأنه لم يغب عنها شخص الإسكندر[6] ، بما ساس فيها من عجائب مبانيها ودبَّر ، ناهيك بمدينة كلها عجب ، قد ستر حسنها حسن غيرها وحجب ، ووفَّى فيها الإتقان حقه كما وجب ، وقد أغنى عن تسطير وصفها ما سطَّره الأعلام ، وصرَّت[7] به على المهرق الأقلام » .

وكان العبدرى يتخفف أحيانا من السجع ويرسل الكلام إرسالا ، ويمثل الأستاذ ابن تاويت لذلك بقوله فى عمود السوارى بالإسكندرية :

« هو حجر واحد مستدير عال جدا ، على قدر الصومعة (المأذنة) المرتفعة ، وهو يبدو من بعيد بارزا فى غابة النخيل مرتفعا عنها ، وقد أقيم على حجارة منحوتة مرتفعة ، على قدر الدكاكين العظام ، علوها أزيد من قامتين ، ولا يعلم كيف أقيم عليها ، ولا كيف ثبت هنالك مع الرياح والعواصف ، وهو مما لا يمكن تحريكه البتة ، فضلا عن إقامته هنالك » .

(١) غير منآد : مستقيم .
(٢) المخنق : موضع الحبل فى العنق للخنق .
(٣) المرنق : المزداد الكدر .
(٤) كريم جاهلى مدحه الأعشى بأن الكرم يبيت معه .
(٥) ساج : ساكن .
(٦) الإسكندر هو الإسكندر المقدونى مؤسس الإسكندرية .
(٧) صرَّت : صوتت . المهرق : الصحيفة يكتب فيها .

ولعله لم يظلم بلدا كما ظلم طرابلس ، فقد ذمها ذما بالغ فيه : ذم موقعها وبيئتها وذم أهلها ، وربما كان ذمه لطرابلس وغيرها مثل القاهرة يرجع إلى أنه لم يكن يخالط ذوى المروءة فيهما ومن يحمله على المدح لا على القدح ، أو كان يتعرف على أشخاص مذمومين فذم – دون ريث وتأن – البلد التى تأوى أمثالهم ، وقد نالت تونس منه الحظ الأوفر فى الثناء ، ومن قوله على لسانها :

أنا الغـادةُ الحسنـاءُ فـاق جمالُهـا فقـالتْ يمينـا لا خُطبتُ على زَوْجِ
إذا الغانيات ارْتَدْنَ وصفَ بعولـةٍ فما بى ولا فخرٌ – إلى الزَّوْج – من حَوْج
وفىٌّ لمكـدودى الحجيجِ استراحةٌ فهم يَردونى الدَّهر فوجًا على فَوْج
وإنـى – إلى البيت العتيـق – كسُلَّمٍ بـه يرتقى مَنْ فى الحضيضِ إلى الأَوْج

رحلة[1] العياشى

هو أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبى بكر العياشي المولود سنة ١٠٣٧/١٦٢٨ م ، كان أبوه من شيوخ الزاوية الناصرية ، وعنى به فحفّظه القرآن الكريم وثقّفه بما يعرف من العلوم الدينية واللغوية ، وأرسل به إلى مدينة فاس ليتزود من حلقات علمائها ، وأخذ يبرع فى بعض العلوم ، وألف فى كثير من المسائل النحوية والفقهية وفى الحديث النبوى وفى التصوف ، وكان شاعرًا وله مدائح نبوية كثيرة ، توفى سنة ١٠٩٠ هـ/١٦٧٩ م واشتهر برحلته إلى أداء فريضة الحج ، وهى رحلة موسوعية يعطينا فيها معلومات كثيرة عن البلدان التى نزل فيها والحركات العلمية بها ، ومن قوله فى حديثه عن إقامته بالمدينة المنوّرة :

« كانت مدة إقامتنا بالمدينة سبعة أشهر ونصف لأنا دخلناها – كما تقدم – فى الليلة الثانية من محرم ، وكان خروجنا منها إلى مكة فى السابع عشر من شعبان ، وكنا نسكن أولا فى محل نزولنا بجوار مشهد سيدنا إسماعيل ، كما تقدم ، وكان أفسح الأمكنة وأوسعها وأبعدها عن زحام الناس ، به أخلية للوضوء ، وبئران – كما تقدم – وكان قيِّم المشهد أحد أصحابنا المغاربة المجاورين ، وهو الذى أنزلنا به ، وكان يتولَّى إصباحه وكنسه وإغلاق أبوابه ، ويقبض ما يؤتى به من الصدقة إليه ، ولاَّه ذلك مفتى المالكية بالمدينة صاحبنا الخطيب أحمد وأخوه الخطيب عبد الرحمن لأن ولاية المشهد لهما . فإذا اجتمع من الصدقات ما له بال دفع لهما حصة منه ، وانتفع بالباقى ، كما هو شأن سائر المشاهد بالمدينة وبغيرها » .

وهكذا يجرى الأسلوب مرسلا حرا طليقا فى أكثر جوانب الرحلة ، وكأنما أخذ العياشى

(١) انظر فى رحلة العياشى الوافى ٧٦٣/٣ والحياة الأدبية فى المغرب على عهد الدولة العلوية ص ٩٠ . وطبعت الرحلة قديما بفاس ، وعنى بطبعها وتحقيقها الدكتور محمد حجى وألحق بها فهارس مهمة .

فى القرن الحادى عشر يردّ على ما كتبه العبدرى عن طرابلس فى القرن السابع وذمه لها وقدحه فيها فقد زارها فى رحلته سنة ١٠٥٩ هـ/١٦٥٠ م ويصفها قائلا :

« كان دخولنا لمدينة طرابلس قرب الظهر يوم الأربعاء سابع عشر رجب الفرد ، وهى مدينة مساحتها صغيرة ، وخيراتها كثيرة . ونكايتها للعدو شهيرة ، ومآثرها جليلة ، ومعايبها قليلة ، أنيقة البناء ، فسيحة الفِناء ، عالية الأسوار ، متناسبة الأدوار ، واسعة طرقها ، سهل طروقها ، إلى ما جُمع لأهلها من زكاء الأوصاف ، وجميل الإنصاف ، وسماحة على المعتاد زائدة ، وعلى المتعافين بأنواع الميرة عائدة ، لا تكاد تسمع من واحد من أهلها لغوا إلا سلاما ، ولو لمن استحقّ ملاما ، سيما مع الحجاج الواردين ، ومن انتسب إلى الخير من الفقراء العابدين ، فإنهم يبالغون فى إكرامهم ، ولا يألون جهدا فى إفضالهم عليهم . ولهذه المدينة بابان : باب إلى البر ، وباب إلى البحر ، لأن البحر يحيط بكثير من جهاتها ، والحصن الذى فيه الأمير متصل بالمدينة من ناحية البر بينه وبين البحر . ولأمير هذه المدينة نكاية فى العدو – دمَّرهم الله – وله مراكب قلَّ نظيرها معدَّة للجهاد فى البحر ، قلما تسافر وترجع بغير غنيمة . وقلما أُسرت لهم سفينة إلا أن تكون من سفن التجارة ، لا من سفن الجهاد ، فجزاهم الله خيرا ، وأعانهم على ما أولاهم من ذلك وسائر بلاد المسلمين » .

رحلة[١] ابن ناصر

هو أحمد بن محمد بن ناصر رئيس الطريقة الناصرية بتمكروت (قرية بوادى درعة جنوبى مراكش) وقد ولد بها لأبيه شيخ الطريقة سنة ١٠٥٧ هـ/١٦٤٧ م وعنى بتربيته وتثقيفه ، واختلف إلى حلقات العلماء بفاس ، وحج مرارا وكانت آخر حجة له سنة ١١٢١ هـ/١٧٠٩ م وبعد هذه الحجة كتب رحلته ، وفيها سجل كثيرا عن الحركات العلمية فى البلدان العربية ، ولذلك ، تعد مصدرا مهما للتعرف على النشاط العلمى بها وشيوخها حينذاك . ومن قوله فى وصف موجة للحرارة عاناها مع رفاقه فى أحد شعاب الحجاز :

« نزلنا غربى الأكرة بين العشاءين ، وفى هذه المسافة لما توجهنا عام تسعة (١١٠٩ هـ) هبَّت على الناس ريح السموم ، من نضيج اليَحْموم ، واشتد الحر وتوالى الكرب على الناس ، وضاعت الحيل والإيناس ، واشتد العطش على الرجال والجمال ، يشرب كلٌّ ، ولا يُغْنى شربه ، بل يتزايد بتناول الماء كربه ، لا يبين القدح والماء عن فيه إلا وتزايدت حرارة العطش له . فبركت الإبل وفرَّت لظلال الأشجار ، وتدخل رأسها فى أدنى ظل يبدو لها وإذا بركت لا تكاد

(١) انظر فى رحلة ابن ناصر والنص المقتبس منها كتاب الحياة الأدبية فى المغرب على عهد الدولة العلوية ص١٧٢ وما بعدها .

تقوم ولو قُطِّعت إربا إربا . واشتدت الحال وبلغت القلوب الحناجر ، وكلحت الوجوه ، واغبرَّت الغرر وتغيرت ، واسودَّ أبيضها وتنكرت ، فترى الرجل لا باس به (سليما) فإذا به يُخْشَى عليه الفوت ، فإذا أوتى بالماء سبقه إليه الموت . وهلك من الناس كثيرون ومن الإبل أكثر ، وترك الناس بضائعهم وأحمالهم مشحونة بأزوادهم وما به قوامهم ، فتاهت فى الفلوات ، وذهبوا بأنفسهم فى طلب النجاة . يومٌ يذكِّر بالموقف والعرض ، (فى يوم القيامة) وضاقت الدنيا على سعتها فى الطول والعرض ، يود الإنسان لو يجد السبيل إلى باطن الأرض ، الناس فيه حيارى ، وتراهم سكارى وما هم بسكارى . مات من المغاربة زهاء الستين بالعطش من نساء وصبيان ورجال وولدان » .

وهذا اليوم الشديد الحرارة لم يحدث له فى حجته الأخيرة إنما حدث له فى حجته الثالثة سنة ١١٠٩ ورحلته بذلك تتضمن أهم المشاهد التى رآها أو صادفها فى رحلاته المختلفة إلى الحج . والرحلة بأسلوب مرسل غير أنه يسجع فيها أحيانا على نحو سجعه فى مشهد هذا اليوم الحار وهى طرفة من طرف الرحلات المغربية . وتوفى سنة ١١٢٩هـ/١٧١٧م .

رحلة[1] الوزير الغسانى

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الوهاب الملقب بالوزير الغسانى وزير السلطان إسماعيل العلوى المتوفى سنة ١١١٩ هـ/١٧٠٨ م وقد أرسله السلطان فى سفارة إلى ملك إسبانيا للتفاوض فى افتداء الأسرى المسلمين ولمحاولة استرجاع الكتب العربية الباقية عندهم فى المساجد الأندلسية القديمة ، ولما عاد إلى وطنه فى المغرب الأقصى كتب رحلة وصف فيها إسبانيا سماها : « رحلة الوزير فى افتكاك الأسير » وكان دقيق الملاحظة ، فحملت رحلته ملاحظات مهمة عن إسبانيا فى الفترة التى زارها فيها ، وهى مكتوبة بأسلوب مرسل طليق لا أثر للصنعة فيه ، ومن قوله فى استقبال الملك الإسبانى له :

« حين قربنا من باب القصر لقينا وكيل الميوردوم .. فسلَّم ورحَّب ودخل بنا الدار .. فجعلنا نمرّ بجماعات من الأعيان والأكابر ، فيسلمون ويقف كلٌّ عند حدِّه ، إلى أن دخلنا قبة كبيرة ببابها كاتب الديوان الكبير ، وهو رجل كبير السن بلغ منه الكبر إلى أن انحنى فلقينا أحسن الملاقاة .. ودخل بناقبة أخرى لها باب ، وفى هذه القبة وجدنا الطاغية واقفا على قدميه ، وقد جعل فى عنقه سلسلة من ذهب ، وتلك هى عوائد ملوك العجم ، إذ هى عندهم بمثابة

(١) انظر فى هذه الرحلة الحياة الأدبية فى المغرب على عهد الدولة العلوية ص ١٥٦ وما بعدها . وهى مطبوعة بطنجة .

التاج ، وعن يمينه طبلة من ذهب مرصّعه أعدّها – وصنعها – أيام مقامنا بعد وصولنا ، ليجعل عليها البراءة السلطانية إجلالا وتعظيما لمرسلها أعزه الله تعالى » .

رحلة[1] محمد بن عثمان المكناسي

ولد محمد بن عثمان بمكناس فى أواسط القرن الثانى عشر الهجرى وتوفى سنة ١٢١٣ هـ/ ١٧٩٩ م وكان أديبا ، فعينه السلطان محمد بن عبد الله العلوى كاتبا فى دواوينه ، ثم اختاره حاكما لتطوان ، ثم عينه وزيرا ، وله رحلات متعددة ، طبعت جامعة الرباط منها رحلته إلى كارلوس الثالث ملك إسبانيا بدعوة من حكومة الجزائر سنة ١١٩٣ هـ/١٧٧٩ م لافتكاك الأسرى الجزائريين ورد حريتهم إليهم ، وقد سماها : « الإكسير فى فكاك الأسير » ونشرتها أخيرا جامعة محمد الخامس بالرباط ، وكان أديبا شاعرا وكاتبا ومن قوله فى وصف مَدْريد :

« هذه المدينة كبيرة غاية فى الكبر وضخامة البناء حاضرة الحواضر ببلاد إسبانيا ، بنيت على ربوة ببابها وادى (نهر) مانسنارس زادها حسنا وبهاء ، وبهجة وسناء ، وقد غرسوا على جانب الوادى الذى من ناحية المدينة أشجارا كثيرة مثل النشم وما أشبهه فى غاية العلو بصفوف معتدلة يتفيئون ظلالها عشية وقت خروجهم ، يترددون على حاشية الوادى المذكور على أكداشهم (دوابهم) ومن لم يكن عنده كدش يخرج على رجليه . ولما دخلنا المدينة المذكورة وجدنا بها من الخلائق أضعاف من تلقّانا بخارجها ، فسرنا فى سكك متسعة وديار مرتفعة ، فجلُّ ديارها لها ست طبقات وخمس طبقات ، لكل دارٍ شراجيب مفتحة للأزقة ، مغلقة بالزاج عليها شبابيك الحديد ، وأسواقها عامرة ، مشحونة بأهل الحرف والصنائع ، والتجارة والبضائع ، وجلُّ باعتها من النساء » . وحسبنا ما تقدم عن الرحلات الحجازية والأوربية .

٥
كبار الكتّاب

(أ) القاضى عياض[2]

هو أبو الفضل عياض بن موسى اليحصُبى السَّبتى علاّمة عصره ، استقرّ أجداده قديما فى مدينة بَسْطة من أعمال غرناطة ، وانتقلوا إلى فاس أيام الأدارسة ، وبارحوها إلى مدينة سبتة بعد دخول بنى عبيد الفاطميين المغرب فى القرن الرابع الهجرى ، وكان أول من نزلها من أجداد

(١) انظر الحياة الأدبية فى المغرب على عهد الدولة العلوية ص ٣٣٤ وما بعدها .

(٢) انظر فى سيرة عياض وأعماله كتاب ابنه محمد : التعريف بالقاضى عياض تحقيق الدكتور محمد بن شريفة (طبع الرباط) وكتاب أزهار الرياض فى أخبار عياض للمقرى (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ، والنبوغ المغربى ١١/٢ وفى مواضع متعددة والوافى ٥٢/١ .

القاضى عياض جده عمرون ، وكان موسرا ، فاشترى بها أرضا وهى المعروفة باسم المنارة وبنى بها مسجدا وديارا وقفها على المسجد ، ووقف بقيتها مقبرة للدفن ، ووُلد له ابنه عياض ، وولد لعياض ابنه موسى وولد لموسى ابنه عياض سنة ٤٧٦ هـ/١٠٨٣ م ونشأ طالبا للعلم حريصا عليه مجتهدا فيه - كما يقول ابنه - معظما عند شيوخه لما لاحظوا من ذكائه وإكبابه على الدرس إلى أن برع فى زمانه ، وتفوق على أقرانه ، وكان من حفاظ القرآن الكريم ، لا يترك تلاوته والقيام على معانيه وإعرابه وشواهده وأحكامه كما يقول ابنه ، وكان - كما يقول - من أئمة زمنه فى الحديث وفقهه وغريبه ومشكله ومختلفه حاذقا بتخريجه ، كما كان فقيها حافظا لمسائل مدوَّنة سحنون ومختصر ابن أبى زيد القيروانى ، وكان نحويا ريَّانا من الأدب شاعرا مجيدا من أكتب أهل زمانه خطيبا مفوَّها ، مقداما على الأمراء فى استقضاء حوائج الرعية عندهم ، محبَّبا فى قلوب العامة والخاصة . ويضيف ابنه أنه أخذ عن أشياخ بلده ، ثم رحل إلى قرطبة بالأندلس سنة ٥٠٧ للهجرة ، وأخذ عن شيوخها ، وخرج إلى مُرْسية فى أوائل سنة ٥٠٨ ولزم الحافظ الحسين بن محمد الصدفى فترة ، وأجازته جماعة كثيرة من أعلام[1] الأندلس وتونس ومصر والحجاز . وولى القضاء فى بلدته سبتة سنة ٥١٥ للهجرة ونُقل إلى غرناطة قاضيا بها سنة ٥٣١ هـ/١١٣٦ م وصُرف عنها سنة ٥٣٢ وعاد إلى قضاء سبتة سنة ٥٣٩ هـ/١١٤٤ م . وفى بدء دولة الموحدين غزا عبد المؤمن سبتة فردَّ جيشه أهل سبتة ومعهم القاضى عياض ، ولما قُتل تاشفين وقضى الموحدون على دولة المرابطين وفتحوا مدينتى فاس وتلمسان بايع أهل سبتة عبد المؤمن ، ولقيه القاضى عياض فى مدينة سَلا وهو يستعد لفتح مراكش فأجزل صلته ، ولما انتفضت الأندلس على عبد المؤمن بسبب ثورة محمد ابن هود ثارت سبتة - برأى القاضى عياض كما قيل - وحاربها عبد المؤمن وعادت إلى الطاعة ، واستدعى عبد المؤمن القاضى عياضا ، فأخذ من سبتة إلى مراكش مغلولا سنة ٥٤٢ للهجرة حتى إذا اجتمع بعبد المؤمن فى مراكش واستعطفه ببعض منظومه ومنثوره عفا عنه على أبرِّ وجه وأكمله ، وأمره بلزوم مجلسه ، كما يقول ابنه ، ومنزلته عنده تزداد كل يوم سموا ورفعة إلى أن توفى بمراكش سنة ٥٤٤ هـ/١١٤٩ م . وكتب ابنه محمد فصلا عن مؤلفاته وأهمها : كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ ودوت شهرة هذا الكتاب فى العالم الإسلامى إلى اليوم ، وكتاب ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك فى خمسة أسفار ، وكتاب إكمال المعلم على صحيح مسلم ، وهو زيادة فى الشرح على شرح المعلم بفوائد مسلم للإمام المالكى الصقلى محمد المازرى دفين المنستير بتونس إلى غير ذلك من كتب نفيسة من أهمها كتاب له فى النقد والبلاغة سماه « بغية الرائد » كتب عنه الأستاذ محمد بن تاويت فصلا فى ترجمته

(١) راجع فى هؤلاء الشيوخ كتاب ابنه السابق ص١١٩ وما بعدها والجزء الثانى من أزهار الرياض فى مواضع متعددة .

بالجزء الأول من كتابه الوافي بالأدب في المغرب الأقصى وهو يعرض فيه بعض صور النقد والمحسنات البديعية من مثل الجناس والطباق والترصيع . وكان له كتاب خطب ومواعظ دينية ، وهو مفقود ، وفي أزهار الرياض عن ابن خاتمة أن هذا الكتاب يشتمل على خمسين خطبة من خطب الجمعات ، وروى له ابنه في التعريف به خطبتين ، يقول في إحداهما حاضا على التقوى :

« أيها السامع قد أيقظك صَرْف[1] القدر من سِنة[2] الهوى وسكراته ، ووعظك كتاب الله بزواجره وعظاته ، فتأمَّلْ حدوده وتدبر محكم آياته ﴿واتْلُ ما أُوحِيَ إليك من كتاب ربك لا مبدِّل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا[3]﴾ أين الذين عَتَوْا على الله وتعظموا ، واستطالوا[4] على عباده وتحكموا ، وظنوا أن لن يُقْدَرَ عليهم حتى اصطُلِمُوا[5] ، ﴿وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا﴾ غرَّهم الأمل وكواذب الظنون ، وذَهِلوا عن طوارق الغِيَر[6] ورَيْب المَنون ﴿وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون – حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعفُ ناصرًا وأقل عددا﴾ فهذِّبوا – رحمكم الله – سرائركم بتقوى الله وأخلصوا واشكروا نعمته ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تُحْصُوها﴾ واحذروا نقمته ولا تَعْصوا واعتبروا بوعيده ﴿قُلْ كلٌّ متربِّصٌ فتربَّصوا ، فستعلمون من أصحابُ الصِّراط السَّوِيِّ ومن اهتدى﴾ وانْهضوا لطاعته بهذه الهمم العاجزة ، واركُضوا في ميدان التقوى تحوزوا قصب خَصْله[7] الفائزة ، وادَّخِروا ما يخلِّصكم يوم المحاسبة والمناجزة ، وانتظروا قوله : ﴿ويوم نُسَيِّر الجبالَ وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا﴾ ذلك يوم تذهل فيه الألباب وتَرْجُفُ القلوب رَجْفا ، وتبدَّل الأرض وتُنْسَفُ الجبال نِسْفا ولا يقبل الله فيه من الظالمين عدلا ولا حرفا وحُشِر المجرمون يومئذ زُرْقًا ﴿وعُرِضوا على ربِّك صَفًّا لقد جئتمونا﴾ فُرادى ﴿كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا﴾ إن أحسن الهَدْى هَدْىُ محمدٍ نبيِّنا وأصحابه ، وأفضل الذكر ذكر الله وتلاوة كتابه ، جعلنا الله وإياكم ممن اهتدى بهدْيه ، وتأدَّب بآدابه ومن الذين قالوا : ﴿سَمِعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرُّشد فآمنَّا به ولن نُشْرك بربِّنا أحدا﴾ اللهم انفعنا بالكتاب والحكمة ، وارحمنا بالهداية والعصمة وأوزِعْنا[8] شكر ما أوليتَ من نعمة ﴿ربَّنا آتنا من لدنك رحمةً وهيِّئْ لنا من أمرنا رشداً﴾ » .

والعظة رائعة بما فيها من دعوة للتقوى وتحذير من وعيد الله ونقمته ، ومن غرور بالأماني

---

(١) صرف : أحداث .
(٢) سنة : غفلة .
(٣) ملتحدا : ملجأ .
(٤) استطالوا : تطاولوا واعتدوا .
(٥) اصطلموا : استأصلوا .
(٦) الغير : الأحداث .
(٧) خَصله : فضله .
(٨) أوزعنا : ألهمنا .

والظنون الكاذبة والذهول عن يوم القيامة مع ما فى ذلك من كفران بنعمة الله ونعمه لا تحصى . وتتخلل العظة أو الخطبة الآيات القرآنية مؤكدة معانى عظته . ولغة العظة لغة جزلة مصقولة تشيع فيها مع الآيات ألفاظ قرآنية كثيرة . ويأسى من يقرأ هذه الخطبة وأختها الموجودتين فى كتاب التعريف بالقاضى عياض لضياع كتاب خطبه . والخطبة مسجوعة وكان يؤثر السجع فى خطبه وأيضا فى رسائله على نحو ما نرى فيما أثبته وسجَّله منها ابنه محمد ، من ذلك رسالة يعاتب فيها صديقين له :

« ليت شعرى أَأُعْتِبُ أم أُعتِب ، وأعترف بالذنب أم أُذْنب ، لا جرم لو علمت لنفسى جُرْمًا لجعلتُ عليها بَرْدَ الشراب حراما ، ولسلبتها لذيذ المنام غراما[1] ، حتى يَفِيء إليها من وجدَ عليها[2] ، ويرضى عنها المتظلِّم منها ، بعلائكما ما هذا الجفاء ؟ وأين ما تدَّعيانه من الوفاء ؟ أحين جدَّت بنا الحال وشُدَّتْ للنَّوى الرِّحال ، ودعا بنا داعى الزِّماع ، ومَجَلت[3] عين ويَدٌ للوداع ، اتخذتمانى ظِهْرِيًّا ، وصرت عندكما نَسْيًا منسيًّا ، لا أُعلم لكما علما ، ولا أَلقاكم إلا حُلْمًا ، كأن شَمْلنا لم يزل مُتَصَدِّعا ، وكأنا لطول افتراقٍ لم نَبِتْ ليلةً معا ، ماذا يُريب الغريب فى إغباب[4] الأحباب أمجالسة السلطان أو مؤانسة الأوطان ، أَنِّى المجد من ذلك وأُبِيت ، ولنا يا بَيْتُ بالعلياء بيت ، أم صدودٌ وملالٌ ينافيه ذلك الجلال ،أم قلة احتمال ، لما تشاهدانه من غلظ تلك الخلال ، وقيتما ! من الذى يُعْطَى الكمال ؟ أم ثَمَّ ذَنب يوجب الصدود ، ويُودِى بودِّ الوَدود ، أسمعاه ، لأرجع إلى المتاب ، عن العتاب ، وأبادر بنفسى عِوضَ الكتاب ، فأَعْذِر ولا أَعذل[5] وأنصف من نفسى وأُعدل والسلام » .

ونسيج الرسالة نسيج جيد من الألفاظ والأسجاع مع ما يزينها من الجناسات والاستعارات والكنايات ، مما يدل — بوضوح — على أن القاضى عياضا كان يحبِّر أعماله الأدبية من رسائل وغير رسائل . والرسالة تحمل بجانب ذلك حسًّا مرهفًا ، لا بما يورد فيها من سجع قصير يطير عن الأفواه بخفة ، بل بما يصور من حسه الدقيق ، بمثل تعقيبه على ما يظن صاحباه به من غلظ الخلال بقوله وقيتما ، ويستمر هذا الحس الدقيق فى بناء الكلم ببقية الرسالة ، وبدون ريب كان القاضى عياض أديبا كبيرا . ومن طريف ما نقرأ له فى مقدمة كتاب الشفاء تحميده لربه وتمجيده لرسوله إذ يقول :

« الحمد لله المتفرد باسمه الأسمى ، المختص بالملك الأعز الأحمى[6] ، الذى ليس دونه منتهى

(١) غراما : عذابا وفى الأصل : عزما .

(٢) وجد عليها : غضب منها .

(٣) الزماع : المضىّ فى الأمر . مجلت : كلَّت كناية عن الشيخوخة وفى الأصل : خجلت .

(٤) الإغباب : البعد فى الزيارة .

(٥) أعذل :ألوم .

(٦) الأحمى : الأمنع .

ولا وراءه مَرْمَى ، الظاهر لا تخيُّلا ولا وهما ، الباطن تقدُّسًا لا عُدْما وَسِعَ كل شيء رحمةً وعلما وأسبغ على أوليائه نعما عُمًّا[1] ، وبعث فيهم رسولا من أنفسهم أنْفَسَهم عربا وعُجْما ، وأزكاهم محتدًا ومَنْمى ، وأرجحهم عقلا وحلما ، وأوفرهم علما وفهما ، وأقواهم يقينا وعزما ، وأشدهم بهم رأفة وَرُحْمَى ، زكّاه روحا وجسما ، وحاشاه عيبا ووصَمًا ، وآتاه حكمة وحُكْما ، وفتح به أعْيُنا عُمْيا وقلوبًا غُلْفا[2] وآذانا صُمًّا ، فآمن به وعزّره ونصره من جعل الله له في مغنم السعادة قسما ، وكذّب به وصدف[3] عن آياته مَنْ كتب الله عليه الشقاء حَتْما ، ﴿ومَنْ كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى﴾ صلّى الله عليه صلاة تَنْمو وتُنْمى ، وعلى آله وسلّم تسليما » .

والتحميد والتمجيد في لغة عذبة سلسة ، سواء في الألفاظ أو في الأسْجاع القصار مع ما يزينها من الألفاظ والآيات القرآنية ، وقد افتتح بهما كما أسلفنا كتابه الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ﷺ .

(ب) أبو جعفر[4] أحمد بن عطية

أول كتّاب المغرب الأقصى النابهين في ديوان علي بن يوسف بن تاشفين وابنه تاشفين ، ويقال إنه ولد سنة ٥١٧ هـ/١١٢٣ م وكأنه كتب في هذا الديوان قبل العشرين من عمره ، وفيه تعرّف على تقاليد الكتابة الديوانية التي أرساها في الديوان المغربي كتّاب الأندلس أبو بكر بن القصيرة وابن أبي الخصال وعبد المجيد بن عبدون وأضرابهم ، ولما قضى الموحدون على دولة المرابطين فرَّ وغيَّر هيئته ، وكان محسنا لرمي السهام ، فانتظم في الجيش الموحديّ الذي خرج إلى مدينة سوس في الجنوب لقتال ثائر هناك ، وانتصر الجيش الموحدي وقُتل الثائر وانهزم أنصاره ، فطلب القائد أبو حفص عمر إينتي كاتبا يحسن عرض المعركة ليخبر بها رئيس الدولة عبد المؤمن ومن معه من الموحدين ، فدُلَّ على أبي جعفر ، وكتب له رسالة طويلة أعجبت عبد المؤمن ، فاستدعاه ، واستكتبه وزاده الوزارة إلى الكتابة ، لما رأى عنده من شجاعة قلبه وحصافة رأيه ، كما يقول المراكشي . ولم يزل وزيره إلى أن أغضبه فقتله ، وفي كتاب المعجب أن سبب قتله أنه كان قد تزوج بنت أبي بكر بن يوسف بن تاشفين ، وكان أخوها يحيى فارسا وأبلى بلاء شديدًا في مقاومة الموحدين ، وانقاد لهم حين تمَّ نصرهم وانضوى تحت لوائهم ،

(١) نعما عما : نعما كثيرة .
(٢) غلفا : جمع أغلف : كأن على القلب غلافا .
(٣) صدف : أعرض .
(٤) انظر في ترجمة أبي جعفر أحمد بن عطية كتاب المعجب لعبد الواحد المراكشي ص ٢٦٦ - ٢٦٩ والإحاطة لابن الخطيب ١٣٢/١ - ١٣٩ والنبوغ المغربي ١٦٦/٢ والوافي ٢٥١/١ - وانظر في رسائله مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية (طبع الرباط) .

فجعله عبد المؤمن قائدا على من دخل فى عقيدة الموحدين من لمتونة قومه ، ولم يزل مكرما عند عبد المؤمن إلى أن بلغته عنه أفعال وأقوال أحنقته عليه . وتحدث عبد المؤمن بذلك فى مجلسه فخشى أبو جعفر أحمد بن عطية على صهره يحيى من فتك عبد المؤمن به ، فقال لزوجته قولى لأخيك يتحفَّظ ، وإذا دعزناه غدا فليظهر المرض ، وإذا استطاع الفرار واللحاق بجزيرة ميورقة فليفعل (وكان صاحبها خارجا على الموحدين) . وتمارض يحيى وزاره بعض أصحابه فأسرَّ إليه ما بلغه عن صهره أبى جعفر ، فنقل الرجل ذلك إلى شخص من أبناء عبد المؤمن ، فأمر بالقبض على أبى جعفر وأخيه أبى عقيل الكاتب ولم يلبث أن أمر بقتلهما سنة ٥٥٣ هـ/١١٥٨ م ، واعتُقل يحيى وظل فى سجنه إلى أن مات ، ولم تأخذ عبد المؤمن فى أبى جعفر وصاحبيه رأفة ولا شفقة ولا رحمة .

وأبو جعفر أحمد بن عطية يُعَدّ فى الذروة من كتّاب عبد المؤمن ، ويشهد لذلك أن « مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية » يشتمل على سبع وثلاثين رسالة ، له فيها سبع عشرة رسالة ، ولو أنه ظل حتى نهاية عبد المؤمن لتكاثرت رسائله فى تلك المجموعة ، ومن رسائله خمس موجهة إلى طلبة سبتة من دعاة الموحدين بها ، وهو دائما يبلغ أهلها فى تلك الرسائل انتصارات عبد المؤمن تلويحا لها بعد أن قامت بثورتها سنة ٥٤٣ أن تلتزم بطاعة عبد المؤمن وعقيدة الموحدين وإلا أنزل بها عقابا أليما . وتبدأ هذه المجموعة للرسائل برسالة بقلم أبى جعفر بن عطية موجهة على لسان عبد المؤمن إلى طلبة سبتة كى يبلغوها أهلها ، وفاتحتها على هذه الصورة :

« من أمير المؤمنين – أيَّده الله بنصره وأمدَّه بمعونته – إلى الطلبة (الدعاة) الذين بسبتة وجميع مَنْ فيها من الموحدين خاصة وعامَّة – وفَّقهم الله وسدَّدهم – سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته . أما بعد فالحمد لله مُولى الرَّغائب ، ومُسَنِّي[1] الآمال والمطالب ، وقابل توبة التائب ، نحمده بما يتعيَّن من حمده الواجب ، ونصلِّى على محمد نبيِّه العاقب[2] ، وعلى آله وصحبه أولى المفاخر السنيَّة والمناقب . ونصل [بذلك] الرضا عن الإمام المعصوم ، المهدى المعلوم ، المحرز شرفَ المبادىء والعواقب ، المجلِّى بنوره الثاقب حُجُبَ الظلام الواقب[3] .. وقد وصلنا بحمد الله إلى مرَّاكش على أتمِّ أحوال الظفر واليمن ، وعُدْنا إليها تحت ظل السلامة التامة والأمن ، بعد كمال الغزوة المباركة وتمامها ، وإطفاء نار الفتنة ببَرْد الهدنة وسلامها ، وإلصاق أنوف الكفرة المرتدين برَغامها وقُطِع دابر القوم المجرمين .. وإن النعمة – وفقكم الله – بهذه الفتوح العميمة العامة شاملة على من أخذ بهذا الأمر العزيز (يريد دعوة الموحدين) ودان ، وتزيىٌّ بحلته البهية

---

(١) مسنى : ميسر .

(٢) العاقب : خاتم الرسل .

(٣) الواقب : الشامل .

فازدان ، فهى الفتوح التى ظهر بها من آيات المهدىّ – رضى الله عنه – العجب العُجاب ،وفاض فيها من بركاته الفيض المنساب ، ودرَّت بها الأرزاق وانتشر الأمن وكرم المآب ، وكان أمرها مخصوصا بالمرتدين الخاسرين ، فمحقهم وطيسُها الشديد الغلاَّب ، وليس لله على ذلك إلا الحمد والشكر والمتاب » . ويقول عبد المؤمن فى الرسالة لأهل سبتة : حافظوا على القرآن والتوحيد .

وواضح أن عبدالمؤمن ينعت الخارجين عليه بأنهم كفرة مرتدون ، إذ ارتدوا عن دعوة الموحدين ، وكأنما أصبحت هى الإسلام ، فمن ارتد عنها ارتد عن الدين الحنيف . والرسالة فى أوائلها تدعو بالرضا عن الإمام المعصوم المهدى ابن تومرت الذى أخرج بدعوته الناس من الظلمات . وما تلبث الرسالة أن تذكر أن هذا الفتح وغيره من الفتوح إنما هو من بركاته .

وفى الرسالة الرابعة المكتوبة بقلم ابن عطية والموجهة إلى يحيى بن غانيَّة صاحب جزر منورقة الرافض لدعوة الموحدين قطعة يصُور عبد المؤمن له فيها ابن تومرت داعية الموحدين بهذه الصورة التالية :

« هذا الأمر (يريد دعوة الموحدين) – وفّقكم الله – هو أمر المهدى – رضى الله عنه – حقٌ فتأمَّل ، ومع معالمه الجلاء فلاظنٌّ ولا تخيل . والمهدى – رضى الله عنه – قد بشَّر به النبى – صلى الله عليه وسلم – فى غير ما حديث ، وظهرت علاماته وآياته فى قديم من أمره وحديث ، ودلَّ على اسمه وزمانه وفعله ومكانه بأدلة رفعت الإشكال والتعسف ، فأتى – رضى الله عنه – كما نعت النبى عليه السلام – ووصف ، وقال – صلى الله عليه وسلم –فيه وفى طائفته العزيزة ما قد ظهر ظهورَ الإشاعة والإذاعة ، وقضى بوجوب الائتمار والائتمام والطاعة ، وأخبر فى جملة ما أخبر به عنهم أنهم يقاتلون على الحق إلى قيام الساعة .. وقد تبيَّن الصبح لذى عينين ، وجَدع الحق أنفَ الكذب والمَين ، وتجلت[1] الهداية ضد الضلال والرَّين[2] » .

وعبد المؤمن فى هذه الرسالة ينعت ابن تومرت بما كان ينعت به عنده وعند دعاة الموحدين من تبشير النبى به ووصفه ، وما أوجب للمهدى من اتباع دعوته ، ومن لم يتبعها حُكم عليه بالكفر والارتداد عن الدين الحنيف ، ويقول إنهم مأمورون بالقتال عليها إلى قيام الساعة . ورسائل ابن عطية فى « مجموع رسائل موحدية » مكتوبة بلغة مروَّقة صافية مع السهولة والسلاسة وقصر الأسجاع فى جوانب كثيرة من الرسائل ، مع تضمينها صورا من الاستعارات ومن المحسنات البلاغية . واحتفظ له ابن القطان فى كتابه نظم الجمان برسالة كتبها على لسان عبد المؤمن من تينملل حين زار قبر المهدى فيها لشهر ربيع الأول سنة ٥٤٦ وهى أشبه

(١) فى الأصل : جلت .
(٢) الرين : الدنس .

بدستور لحكم أمراء الولايات المختلفة وأنه ينبغي أن يقوم على العدل والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقد أرسلت نسخ منها إلى جميع الولاة . وحين زجَّ به عبد المؤمن فى السجن أرسل إليه يستعطفه برسالة مشهورة استهلها بأبيات يسترحمه فيها وتلتها الرسالة على هذه الصورة[1] :

« تالله لو أحاطت بى كلُّ خطيئة ، ولم تنفك نفسى عن الخيرات بطيئة ، حتى سخرتَ بمن فى الوجود ، وأنفتُ لآدم من السجود ، وقلت إن الله لم يوحِ ، فى الفُلْك إلى نوح ، وأبرمت لاحتطاب نار الخليل حَبْلا ، وبَرَيْتُ لقُدار ثمود نَبْلا ، وحططت عن يونس شجرة اليَقْطين ، وأوقدتُ مع هامان على الطين ، وقبضتُ قبضة من أثر الرسول فنبذتها ، وافتريت على العذراء البَتُول فقذفتها ، وكتبت صحيفة القطيعة بدار النَّدوة ، وظاهرت الأحزاب بالقُصْوَى من العُدْوة ، وأبغضت كل قرشى ، وأحببت لأجل وَحْشىّ كل حبشى ، وقلت إن بيعة السقيفة لا توجب إمامة خليفة ، وشحَذْت شَفْرة غلام المغيرة بن شُعْبة ، واعتلقتُ من حصار الدار وقتْل أشْمَطِها بشُعْبَة ، وقلت تقاتلوا رغبة فى الأبيض والأصفر ، وسفكوا الدماء على الثَّريد الأعْفَر ، وغادرت الوجه من الهامة خَضيبا ، وناولتُ مَنْ قَرَع سَنَّ الحسين قضيبا ، ثم كنت بحُفْرة المعصوم لائذا ، وبقبر المهدى – رضى الله عنه عائذا ، لقد آن لمقالتى أن تُسْمَع ، وأن تُغْفَر لى هذه الخطيئات أجمع ، مع أنى مقترف ، وبالذنب معترف :

وعفوا أميرَ المؤمنين فمَنْ لنا   بردُّ قلـــوبٍ هدَّها الخفقانُ

والسلام على المقام الكريم ورحمة الله وبركاته » .

وهو يقول لعبد المؤمن لو أنى سخرت بكل من فى الوجود من خلق الله ، واستنكفت لإبليس من سجوده لآدم وأنكرت أن الله أوحى إلى نوح فى فلكه ما أوحى ، وأبرمت حبلا للمحتطبين لنار إبراهيم الخليل ، وبريت لقدارٍ ثمود عاقر الناقة نبلا ، وحططت عن يونس شجرة اليقطين التى أنبتها الله لتظله ، وأوقدت مع هامان لفرعون على الطين ليبنى له صرحا حتى يرى ربه كما زعم ، ولو أنى السامرى الذى قبض على شىء من دين موسى ثم كفر به ونبذه ودفع بنى إسراءيل لعبادة العجل فى غيبة موسى ، وكذبت على السيدة مريم العذراء البتول فقذفتها ، وكتبت صحيفة المقاطعة بين قريش وبين الرسول وصحبه قبل هجرته ، وظاهرت الأحزاب وعاونتهم فى حصار المدينة ، وأبغضت كل قرشى وأحببت لأجل وَحْشى

(١) انظر فى هذه الرسالة كتاب روض القرطاس لابن أبى زرع (طبع الرباط) ص ١٩٦ وكتاب النبوغ المغربى للأستاذ كنون ٢/١٦٦ وراجع ترجمة ابن عطية فى الإحاطة.

الحبشى قاتل حمزة بن عبد المطلب فى غزوة أحد كلَّ حبشى ، وقلت إن بيعة السقيفة لا توجب إمامة أبى بكر وخلافته ، ولو أنى شحذت شفرة خنجر غلام المغيرة بن شُعْبة طاعن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أو لو أنه تعلق بشُعْبة فى حصار عثمان من شعب الدار وقلت تقاتلوا على الدرهم والدينار وسفكوا الدماء وتركت الوجه الكريم لعلى بن أبى طالب خضيبا بالدماء ، وناولت يزيد بن معاوية قضيبا ليقرع السن – كما قيل – فى ثغر الحسين . لو أنه صنع شيئا من ذلك ثم لاذ بحفرة ابن تومرت وقبره لقد آن أن تسمع لقولى وتغفر لى خطيئاتى وتعفو عنى . ولم يلن له قلب عبد المؤمن بل ازداد قسوة وأمر بقتله . ولا يقلل من روعة هذه الرسالة أنه استوحاها من الرسالة الجدية لابن زيدون ، والحق أنه كان كاتبا بارعا وأن رسائله تعد فى الذروة من النثر المغربى فى مختلف عصوره .

(جـ) ابن[1] بطوطة

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد اللَّواتى الطنجى المشهور باسم ابن بطوطة ، وُلد فى طنجة سنة ٧٠٣ هـ/١٣٠٤ م لأسرة كانت تشتغل بالفقه والدراسات الدينية وكانت فى بسطة وسعة من العيش ، واهتم أبوه – وكان فقيها – بتربيته فحفظ القرآن ، ودفعه لدراسة الفقه المالكى واستوعب ما عند شيوخه فى نحو العشرين من عمره ، وطمحت نفسه لقضاء فريضة الحج ، فخرج من بلده فى الثانية والعشرين من سنه مع رفقة ، واتجه معها شرقا إلى الجزائر ونزل مدنها الشمالية ، وتنقل بين رفاق حتى تونس وفيها رأى الالتحاق بقافلة من قوافل الحجاج ، وعرف فيه فقهه فأقاموه قاضيا بينهم ، ونزلت القافلة الإسكندرية فطاف بمشاهدها وزار علماءها وعبَّادها وتعرَّف على ناسك زاهد يسمى « الشيخ خليفة » وقال له : إنى أراك تحب السياحة والجولان فى البلاد فأجابه : نعمْ . فقال له : « لابد لك – إن شاء الله – من زيارة أخى فريد الدين بالهند وأخى ركن الدين زكريا بالسند وأخى برهان الدين بالصين ، فإذا بلغتهم فأبلغهم منى السلام » فعجب ابن بطوطة من قوله وكأنما تنبأ له أنه سيصبح رحالة كبيرا يطوف بلدان العالم الإسلامى حتى أقصاها وأنه سيمد رحلاته إلى الهند والصين . وترك الإسكندرية ميمما وجهه نحو القاهرة ولم يذهب إليها مباشرة إذ طاف قبلها ببعض البلاد فى الوجه البحرى مثل دمنهور وفوَّة بالقرب من رشيد ودمياط والمحلة الكبرى . وفى فوة تعرف على شيخ صالح يسمى أبا عبد الله المرشدى ، وأكرمه وبات على سطح زاويته ، فرأى فى منامه حلما عجيبا : أنه على جناح طائر عظيم ، يطير به فى سَمْت القبلة يتيامن ثم

(١) انظر فى ابن بطوطة ورحلته النبوغ المغربى ١/٢٢٢ ورحلة ابن بطوطة للدكتور شاكر خصباك (طبع بغداد) وابن بطوطة ورحلاته : تحقيق ودراسة وتحليل للدكتور حسين مؤنس (طبع دار المعارف بالقاهرة) .

يشرِّق ثم يذهب فى ناحية الجنوب ثم يبعد فى طيرانه إلى ناحية الشرق وينزل فى أرض مظلمة خضراء ويتركه بها . ويقص حلمه على الشيخ ويطلب إليه تأويله ، فقال له : سوف تحج وتزور النبى ﷺ وتجول فى بلاد اليمن والعراق وبلاد الترك وبلاد الهند وتظل بها مدة طويلة .

وكان هذا التفسير لحلم ابن بطوطة وما حمله له الشيخ خليفة من السلام إلى إخوة له فى الهند والسند والصين إرهاصا ليصبح رحَّالة بل ليصبح أعظم رحالة عرفه العرب فى تاريخهم الوسيط . ونزل القاهرة والفسطاط ، ثم أخذ طريقه إلى الحج عن طريق الصعيد وعيذاب على البحر الأحمر وفيها رأى الطريق البحرى إلى جدَّة معطَّلا لخروج قبائل البجَّة على سلطان مصر محمد الناصر بن قلاوون ، فعاد إلى الفسطاط ، واتجه إلى صحراء سيناء وتجول فى بلاد الشام من بيت المقدس ومعان إلى حلب ، وخرج من الشام مع ركب من الحجاج إلى المدينة المنوَّرة فمكة ، واتجه بعد أداء فريضة الحج إلى العراق وغربى إيران ونزل فى النجف وواسط والبصرة وشيراز فى إيران وبغداد وبلدان الموصل . وحج حجته الثانية وأقام بمكة سنة ، ورأى أن يزور اليمن وطاف ببعض بلدانها وعبر البحر إلى أفريقيا الشرقية وزار الصومال وزيلع ومقدشو ، وعاد إلى الجزيرة العربية مارا بشواطئها الجنوبية وظفار وعمان ودخل الخليج العربى وبعض بلدانه . وحج حجته الثالثة واتجه بعدها إلى مصر ، ولم يلبث أن رحل إلى آسيا الصغرى حيث بلدان السلاجقة وأمراء الدولة العثمانية الأوائل ، وأبحر إلى شبه جزيرة القرم وكانت تابعة لسلطان مغول القفجاق محمد أوزبك وتجول فى بلاده وفى بلاد القوقاز والبلغار ، ورغب فى أن يدخل بلاد الظلمة (روسيا) وعدل عن ذلك . وأنس به السلطان محمد أوزبك ويعدُّه من أعاظم ملوك الدنيا ، وأرسله فى ركب مع زوجته بنت ملك الروم لزيارة أبيها فى القسطنطينية فتعرف على بلدان الدولة البيزنطية . ويرحل إلى خوارزم ، ويدخل سمرقند ، ويتجوَّل فى بلدان خراسان مثل بلخ وبخارى وبلاد أفغانستان مثل هراة ، ويدخل إلى الهند فى سنة ٧٣٤هـ/١٣٣٣م ويكرمه سلطان السند أو البنجاب محمد شاه ويوليه قضاء دهلى ويقيم بها ثمانى سنوات . وأرسله السلطان فى وفد بهدية إلى ملك الصين ، وأبحر إلى قاليقوط إحدى ثغور الهند فى الغرب ، وهبت عاصفة أغرقت المركب وأسرته والهدية ، ولم يرجع إلى السلطان ، ورحل إلى جزائر ذيبة المهل (الملديف) جنوبى الهند ، وتولَّى القضاء بها عاما وبعض عام ، وتركها إلى الصين عن طريق جزيرة سيلان والبنغال ، ويركب البحر وينزل سومطرة وجاوة ، ثم يتجه إلى الصين ويتجول فى بلدانها ، ويعود إلى سومطرة ويمر بإيران والعراق والشام ومصر ، ويبحر من عيذاب لقضاء العمرة . ويصمم على العودة إلى موطنه ، ويصل إلى تونس ويركب منها البحر إلى الجزائر ويمر بسردانية وبتلمسان ، ويصل إلى فاس سنة ٧٥٠ ويرحب به سلطانها أبو عنان ويلحقه بحاشيته . ولا يلبث أن يزور الأندلس ويتجول فى بلدان إمارة بنى

الأحمر بغرناطة ، ويعود منها عازما على زيارة السودان الغربى ، ويدخل الصحراء إليه سنة ٧٥٣ ويتجول فى بلدان مالى ويصل إلى تمبكتو على النيجر ، ويعود فى أواخر سنة ٧٥٤ إلى المغرب . وكان السلطان أبو عنان معجبا أشد الإعجاب بما يقصه عن رحلاته فأمر كاتبه ابن جُزَىّ أن يساعده فى كتابة رحلته التى سماها : « تحفة النظّار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » . ونجد ابن جُزَىّ يقول فى آخرها : « انتهى ما لخصته من تقييد الشيخ أبى عبد الله محمد بن بطوطة » وكان فراغه من هذا التلخيص فى شهر صفر سنة ٧٥٧ هـ/ فبراير ١٣٥٦ م . ويبدو أن ابن بطوطة كان قد قيد رحلته فى أسفار كثيرة وأن ابن جزى لخصها مما جعل بعض الباحثين يظن أنها من تحريره . وابن جزى نفسه يعترف بأن كل ماله إنما هو تلخيص واختصار لجوانب من تفاصيلها الكثيرة ، ولذلك نذهب إلى أنها مكتوبة فى جملتها بأسلوب ابن بطوطة نفسه ، ونعدُّهُ لذلك من كبار كتاب المغرب الأقصى . وهو لا يدخل بلدة إلا وصف سورها إن كان لها سور مثل الإسكندرية ودورها ومطاعم أهلها وملابسهم وأسواقها ومدارسها وعلماءها ونسّاكها وحكامها وعادات سكانها وتجاراتها وزروعها وعُمْلتها وكل ما يتصل بها ، وكيف لابن جزى بوصف ذلك وهو لم يشاهد شيئا منه . وكانت فيه نزعة دينية قوية فأطال الحديث عن الزوايا والنساك والأولياء وأصحاب الكرامات ، ونقتطف بعض ما جاء فى رحلته الضخمة ، فمن ذلك قوله عن مصر :

« أم البلاد ، وقرارة فرعون ذى الأوتاد ، ذات الأقاليم العريضة ، والبلاد الأريضة (ذات المزارع والرياض الجميلة) المتناهية فى كثرة العمارة ، المتباهية بالحسن والنضارة ، مجمع الوارد والصادر ، ومحطُّ رَحْل الضعيف والقادر ، بها ما شئت من عالم وجاهل ، وجادٍّ وهازل ، وحليم وسفيه ، ووضيع ونبيه ، وشريف ومشروف ، ومنكر ومعروف ، وتموج موج البحر بسكانها ، وتكاد تضيق بهم على سعة أماكنها ومكانها ، وشبابها يجدّ على طول العهد ، وكوكب تعديلها لا يبرح عن منزل السعد » . والسجع قليل فى الرحلة ، إذ لا يعدو المقدمة وكلمات قليلة تقال فى وصف بعض البلدان ، والأسلوب العام أسلوب مرسل طليق اختاره ليكون دقيقا وواضحا فى وصف مشاهداته .

ويقول عن أهل مصر إنهم « ذوو طرب وسرور ولهو » أما المدارس فلا يحيط أحد بها لكثرتها ، ويشيد بمارستان قلاوون وأن الواصف يعجز عن بيان محاسنه إذ أُعِدّ فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر ، ويقول إن مجباه (ما يجبى إليه وينفق عليه) ألف دينار كل يوم . ويقول إن الزوايا الخاصة بالزهاد والمتصوفة تكثر فى مصر كثرة مفرطة . وينزل آسيا الصغرى ويتجول فى بلدانها ويصف مشاهدها ومساجدها ومدارسها وحماماتها ويتحدث عن حكامها من السلاجقة والعثمانيين ، ويعجب فيها بنظام للفتوة يقوم به فتيان على حسن الضيافة وإيواء

الغريب . ووجدهم فى كل بلدة يتخذون لهم رئيسا كما يتخذون مقرًّا يتعاونون فيه على البر بالضيف وإكرامه ، وكان هذا النظام للفتوة هناك يسمَّى « الأُخيَّة » ويصفه قائلاً :

ذكرُ الأُخيَّة الفتيان : واحد الأخيَّة أخى على لفظ الأخ إذا أضافه المتكلم إلى نفسه ، وهم بجميع البلاد التركمانية الرومية ، فى كل بلد ومدينة وقرية ، ولا يوجد فى الدنيا مثلهم أشد احتفالا بالغرباء من الناس وأسرع إلى إطعام الطعام وقضاء الحوائج والأخذ على أيدى الظَّلمة . والأخى عندهم رجل يجتمع أهل صناعته وغيرهم من الشبان الأعزاب والمتجرِّدين ويقدمونه على أنفسهم ، وتلك هى الفتوة . ويبنى زاوية ويجعل فيها الفرش والسُّرُج وما يحتاج إليه من الآلات ، ويخدم أصحابه بالنهار فى طلب معايشهم ، ويأتون إليه بعد العصر بما يجتمع لهم ، فيشترون به الفواكه والطعام إلى غير ذلك مما ينفق فى الزاوية ، فإن ورد فى ذلك اليوم مسافرٌ على البلد أنزلوه عندهم . وكان ذلك ضيافته لديهم ، ولا يزال عندهم حتى ينصرف . وإن لم يرد وارد اجتمعوا على طعامهم ، فأكلوا وغنَّوا ورقصوا ، وانصرفوا إلى صناعتهم بالغدوّ (صباحا) وأتوا بعد العصر إلى مقدَّمهم بما اجتمع لهم ، ويسمَّون الفتيان ، ويسمى مقدمهم – كما ذكرنا – الأخى . ولم أر فى الدنيا أجمل أفعالا منهم ، ويشبههم فى أفعالهم أهل شيراز وأصفهان (فى غربى إيران) إلا أن هؤلاء أحبّ فى الوارد والصادر ، وأعظم إكراما وشفقة . وفى اليوم الثانى من يوم وصولنا .. أتى أحد هؤلاء الفتيان إلى الشيخ شهاب الدين الحموى (رفيق لابن بطوطة) وتكلم معه باللسان التركى ، ولم أكن يومئذ أفهمه (إذ تعلّمه فيما بعد) وكان عليه أثواب خَلَقة ، وعلى رأسه قلنسوة لِبْد (صوف) فقال لى الشيخ أتعلم ما يقول الرجل فقلت : لا أعلم ما قال ، فقال لى : إنه يدعوك إلى ضيافته أنت وأصحابك فعجبت منه وقلت له : نعم . فلما انصرف قلت للشيخ : هذا رجل ضعيف ولا قدرة له على تضييفنا ولا نريد أن نكلفه ، فضحك الشيخ ، وقال لى هذا أحد شيوخ الفتيان الأخيَّة ، وهو من الخرَّازين (إسكافى) وفيه كرم نفس وأصحابه نحو مائتين من أهل الصناعات قد قدَّموه على أنفسهم ، وبنوا زاوية للضيافة ، وما يجتمع لهم بالنهار ينفقونه بالليل . فلما صلَّيتُ المغرب عاد إلينا ذلك الرجل وذهبنا معه إلى زاويته ، فوجدناها زاوية حسنة مفروشة بالبُسط الرومية الحسان ، وبها الكثير من ثُرَيَّات الزجاج العراقى ، وفى المجلس خمسة من البياسيس ، والبيسوس شبه المنارة من النحاس ، وله أرجل ثلاث ، وفى وسطه أنبوبٌ للفتيلة ، ويُملأ من الشَّحْم المذاب ، وإلى جانبه آنية نحاس ملأى بالشحم وفيها مقراضٌ لإصلاح الفتيل ، وأحدهم موكَّل بها ، ويسمَّى عندهم الجراغجى . وقد اصطفَّ فى المجلس جماعة من الشبان ، لباسهم الأقبية وفى أرجلهم الأخفاف (جمع خفّ) وكل واحد منهم متحزم ، وعلى وسطه سكين فى طول ذراعين ، وعلى رءوسهم قلانس بيض من الصوف ، بأعلى كل قلنسوة قطعة موصولة بها فى

طول ذراع وعرض إصبعين ، فإذا استقرّ بهم المجلس نزع كل واحد منهم قلنسوته ووضعها بين يديه ، وتبقى على رأسه قلنسوة أخرى من الزردخانى (ضرب من الحرير) وسواه حسنة المنظر ، وفى وسط مجلسهم شبه مرتبة موضوعة للواردين . ولما استقرّ بنا المجلس عندهم أتوا بالطعام الكثير والفاكهة والحلواء ، ثم أخذوا فى الغناء والرقص فراقنا حالهم ، وطال عجبنا من سماحتهم وكرم أنفسهم ، وانصرفنا عنهم آخر الليل » .

وبهذا الأسلوب المرسل فى حبكة السرد ودقة الوصف تتميز كتابة ابن بطوطة فى رحلته ، ويقول إنه كان بعد ضيافته فى هذه الزاوية كلما نزل من بلاد الأناضول سأل عن الأخيَّة ، وأحيانا كانوا لا ينتظرون حتى يسأل عنهم ، بل يسرعون إليه ، وتتعارك جماعاتهم عليه . ويذكر صناعاتهم وحاكم كل بلدة ومن حوله من الفقهاء والعلماء وما منحه من الهدايا والصلات ، ودائما - كعادته فى كل بلدة نزلها - يذكر حكايات النسّاك ومن فيها من أصحاب الكرامات المسمون بالأولياء . وينتقل إلى شبه جزيرة القرم وبلدان مغول القفجاق وسلطانها : محمد أوزبك وذهابه لزيارته فى عاصمته « السرا » شمالى بحر خوارزم وكان معسكرا بجيشه قريبا منها ، وركب إليه مع حاكم شبه جزيرة القرم عربة تجرها الجياد « وعلى العربة شبه قبة من قضبان خشب مربوط بعضها إلى بعض بسيور جلد رقيق ، وهى خفيفة الحمل وتُكسَى باللبد (الصوف) أو الملف (الجوخ) ، وفيها طيقان مشبكة ويرى الذى بداخلها الناس ولا يرونه ، ويتقلب فيها كما يحب ، وينام ، ويأكل ، ويقرأ ، ويكتب وهو فى حال سيره » .

ووصل إلى معسكر السلطان وقال إنه يشبه مدينة عظيمة تسير بأهلها ، ففيه المساجد والأسواق والمطابخ ، وكل ذلك تحمله وتجره العربات . ودخل على السلطان محمد أوزبك فأكرمه . ويعده من أعاظم ملوك الدنيا ، ويصف مجلسه الذى كان يتخذه فى كل يوم جمعة بعد الصلاة يقول : « إنه يجلس فى قبة تسمى قبة الذهب ، مزينة بديعة ، وهى من قضبان خشب مكسوة بصفائح الذهب ، وفى وسطها سرير من خشب مكسو بصفائح الفضة المذهبة وقوائمه فضة خالصة ورءوسها مرصعة بالجواهر ، ويقعد السلطان على السرير ، وعلى يمينه زوجتان وكذلك على يساره ، وكلما جاءت إحداهن قام لها السلطان وأخذ بيدها حتى تصعد على السرير ، وهذا كله على أعين الناس دون احتجاب » . ويفيض فى الحديث عن كل زوجة وجواريها ، ومماليكها وما أهدينه . ويعرف السلطان رغبته فى زيارة بلدان البلغار فيرسل معه من يهديه الطريق ، وحاول أن يدخل فى إقليمي ويسوا ويورا (روسيا) فى شمال البلغار حتى المحيط المتجمد الشمالى ويسميها أرض الظُّلْمة . ويعدل عن ذلك لعظم المئونة . ومن طريف ما قاله عنها مما سمعه من الناس : أن السفر إليها لا يكون إلا فى عجلات صغار تجرُّها كلاب كبار ، فإن تلك المفازة فيها الجليد فلا يثبت فيها قدم الآدمى ولا حافر الدابة ، والكلاب

لها الأظفار فتثبت أقدامها في الجليد » . ويصف العجلات التي تجرها الكلاب ومسيرتها . فحتى ما يسمعه عن بعض الأقاليم يعرف كيف يقصُّه بدقائقه . وتزور إحدى زوجات محمد أوزبك أباها ملك القسطنطينية فيرسله في رفقتها يتجول في بلدان تلك الدولة ، ويعود إلى حاضرة السلطان ، وينوه بفقيه يسمى نعمان الدين الخوارزمي كان السلطان يزوره كل يوم جمعة فلا يقوم إليه ويقعد السلطان بين يديه ويتواضع إليه والشيخ يترفَّع عليه حتى إذا حضره المساكين والفقراء تواضع لهم وكلمهم بألطف كلام .

ويطوف ابن بطوطة ببلدان سلاطين المغول في التركستان ويمر ببلدان خراسان وأفغانستان إلى الهند ، وعيناه الواسعتان ترصد وتسجل كل ما بها من أنهار وغروس وأشجار وحبوب وفواكه . ويعرض سكانها بعاداتهم وحكامها وضيافتهم له . ويعجب لحرق الهندوس لموتاهم بالنار وتحريق النساء مع أزواجهنَّ حين يموتون وتقربهم إلى إلههم بالغرق في نهر الكنج المقدس ، ولا يكتفي برواية ذلك بل يعرض في تفصيل مشاهد من ذلك عرضا بديعا . ويحتفي به الأمراء والقضاة والفقهاء في بلاد الهند حتى يصل إلى دهلي (دلهي) ويصف سورها ومزاراتها وجامعها ويذكر أن به ثلاث عشرة قبة وأربعة من الصحون ، وفي صحنه الشمالي صومعة (مئذنة) لا نظير لها في بلاد الإسلام ورأسها من الرخام الخالص وتفاحاتها (رءوس أعمدتها) من الذهب الخالص وسلمها واسع بحيث تصعد فيه الفيلة . ويتحدث عن علماء دهلي ونسَّاكها وتاريخها منذ فتحها المسلمون وسلاطينها حتى سلطانها الأخير لأيامه محمد شاه ، كما يتحدث عن هذا السلطان وقصره ومجلسه وكثرة ما بخزائنه من الحلي والذهب ، ويقول إن سريره أو عرشه من الذهب الخالص وأن قوائمه مرصعة بالجواهر ، وأن طوله ثلاثة وعشرون شبرا ، وعرضه نصف ذلك ، ويطيل وصفه . ويخلع عليه الخلع السنيَّة وينعم عليه بوظيفة القضاء في عاصمته ، ويظل يتولاها ثماني سنوات كما مرَّ بنا . ويتحدث عن انتشار السحر في الهند ويذكر ما رآه من عجائب فيها . وينزل جزائر ذيبة المهل (الملديف) ويفصل القول عن سكانها وملابسهم وعاداتهم في الزواج وغير الزواج . ويتجه إلى الصين وينزل سومطرة أو بلاد الجاوة ويصف بعض أشجارها مثل اللبان والكافور والعود الهندي والقرنفل ، وفيها جميعا يقول :

« شجرة اللُّبان صغيرة تكون بقدر قامة الإنسان إلى ما دون ذلك وأغصانها كأغصان الخرشف (الخرشوف) وأوراقها صغار رقاق ، واللبان صمغية تكون في أغصانها . وأما شجرة الكافور فهي قصب كقصب بلادنا ، إلا أن الأنابيب منها أطول وأغلظ ، ويكون الكافور في داخل الأنابيب . وأما العود الهندي فشجره يشبه شجر البلوط إلا أن قشره رقيق ، وأوراقه كأوراق البلوط سواء ولا ثمر له . وأما أشجار القرنفل فهي ضخمة ، والمجلوب منها إلى بلادنا هو العيدان ، والذي يسميه أهل بلادنا نَوْر القرنفل فهو الذي يسقط من زهره وهو شبيه بزهر النارنج ، وثمر القرنفل هو المعروف في بلادنا بجوز الطيب ، رأيت ذلك كله وشاهدته » .

وينزل الصين ويقول : فى كل مدينة منها حى للمسلمين ينفردون فيه بسكناهم ومساجدهم ، ويقول إن لكل شخص من أهل الصين عكازًا يعتمد عليه فى المشى ، ويذكر أن الحرير عندهم كثير جدا وأنهم لا يتبايعون بالدينار والدرهم إنما بيعهم وشراؤهم بورق كل قطعة منه بقدر الكف مطبوعة بطابع السلطان (وهم بذلك أول من تعامل بأوراق نقدية) وينوه ببراعتهم فى التصوير ويطيل الحديث فى ذلك ، وقال إنهم يتخذون بيوتا لذوى العاهات . ويقص ما شاهده من عجائب هناك . ويعود من الصين إلى موطنه بعد أن أدّى فريضة الحج ، ويرحل رحلته الثانية إلى الأندلس ثم رحلته الثالثة إلى السودان الغربى على المحيط الأطلسى .

والرحلة تصور العالم الإسلامى فى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى أروع تصوير لا بقلم كاتب كبير فحسب بل بريشة فنان بارع وقد اهتم بها المستشرقون فنشروها مع ترجمتها للغاتهم كما نشروا منها قطعا أو أقساما مع ترجمتها والتعليق عليها .

(د) محمد[1] بن على الفَشْتالى

من قبيلة فَشْتالة التى كانت تنزل فى الشمال الغربى لمدينة فاس ، وهى قبيلة صنهاجية وقد ولد بها سنة ٩٥٦ هـ/١٥٤٩ م وتركها مبكرا للتزود من حلقات العلماء فى فاس ، وتفتحت موهبته الأدبية سريعا ، فكان شاعرا كاتبا وعمل فى دواوين الدولة السعدية ، وعرف المنصور الذهبى فضله ، فما زال يرقى به حتى أسند إليه رياسة القلم بديوانه ، واستعان فيها ببلديِّه ومواطنه عبد العزيز الفشتالى ، وهو يثنى عليه كثيرا فى كتابه : « مناهل الصفا » وكان المنصور الذهبى يأنس إليه ، ففسح له فى مجالسه الأدبية والعلمية وشارك فيما كان بها من مساجلات ، وكان ما يزال ينظم فيه مدائح بديعة فى مقدمتها مولدياته التى كان يلقيها فى احتفال المنصور بالمولد النبوى الشريف ، وفيه يقول أحمد بن القاضى فى كتابه : درة الحجال : « وزير القلم الأعلى الأديب البليغ الشهير الذكر بالمغرب ، وهو علم فى الفضيلة والسراوة[2] ومكارم الأخلاق وكرم النفس ، واسع الإيثار ، متين الحرمة ، عالى الهمة ، كاتب بليغ أديب شاعر ، حسن الخط ، فصيح اللسان ، مؤثر لأهل العلم والأدب » . ويذكره فى كتابه المنتقى مرارا بمثل قوله : « وزير القلم الأعلى ، وحائز القدح[3] ، المعلى ، الكاتب الأعظم ، والخِضَمّ المفخَّم ، الناظم الناثر ، وحائز قصبات السبق فى الدفاتر » . وكلفه المنصور الذهبى بسفارة إلى الخليفة العثمانى مراد بن السلطان سليم فأداها على خير وجه ، وتعرف فى أثناء ذلك على الخفاجى

---

(١) انظر فى ترجمة محمد بن على الفشتالى كتاب درة الحجال ١٩٠/٢ والمنتقى ٣٢٩/١ وريحانة الألبا للخفاجى ص ١٤٨ - ١٦١ والنبوغ المغربى ٢٧٥/١ لكنون وكتابه رسائل سعدية والوافى ٦٩٢/٣ .

(٢) السراوة : الشرف .

(٣) القدح المعلى : أكثر أقداح القمار نصيبا ويكنى به المكانة الرفيعة .

صاحب كتاب الريحانة وانعقدت بينهما صداقة مما جعل الخفاجي – وقد أعجب به – يترجم له في كتابه ، وفيه يقول : « وزير مولاى أحمد (المنصور) أديب فاس ، وريحانة فضلائها الأكياس[1] ، تقدم فيها متقلدا قلادة إنشائها ، فائقا برسائله على سائر أدبائها .. وله ماء شعر تشربه أفواه الأسماع ، ورياض منثور تغرِّد حمائم قوافيه بمطرب الأسجاع . ويحتفظ كتاب « رسائل سعدية » بكثير من رسائله إلى البلدان المغربية وباشوات الدولة العثمانية ووزرائها والجيش الجزائرى . ويقول الأستاذ كنون فى تقديمه لتلك الرسائل إن لمحمد بن على الفشتالى منها ١٨ فصلا ومكتوبا ، من ذلك رسالة إلى أهل فاس أهل الحضرة السعدية يخبرهم فيها بفتوح السودان سنة ٦٩٨ للهجرة قائلا[2] :

« أما بعد حمد الله الواسع الجود والعطاء ، المصرِّف الأقدار على حكم السرعة من إرادته والإبطاء ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد الذى سنَّ تجهيز البعوث لتدويخ الأقطار ، بتوالى تكاثف القبائل والقِطار[3] ، والرِّضا عن آله وصحبه الذين اقتفوا من ذلك أوضح سبيل ، واغتنموا نَشْر نسيمه البليل ، والدعاء لهذا الأمر الكريم (الفتح) بما يزيده عزًّا وظهورا ، ويجعله فى عين الوجود نورا ، فإنا كتبناه إليكم من حضرتنا العليَّة ، ومجمع المفاخر القريبة والقصيَّة : حمراء مُرَّاكُش ، حرسها الله . هذا وإنَّا ننهى إليكم – عرَّفكم الله عوارفَ آلائه الجِسام ، وأطلع عليكم أوجه البشائر واضحةَ القَسَام – بأنه لما انصبَّ عزمنا الميمَّن فى سالف التاريخ ، وتاقت هِمَمُنا العلية لتدويخ بلاد السودان بأتمِّ وجوه التدويخ ، وجَّهنا من عساكرنا الكثيفة ، ذات الأنفس الأبية المنيفة[4] ، جملةً يتكفَّل معها الإسعاد ، بكمال المراد ، ونُبذة نُشرت عليها من ألويتنا الظافرة كلُّ فَتْخاء[5] قاهرة ، أطارها اليُمْنُ كلَّ مطار ، ولجَّج بها الإقبال لُججَ القِفار ، تخوض آلاً[6] تتراكم أمواجه ، وتفتح بابًا طالما طُلْسِم رتاجه[7] ، فاقتحم العساكر أحياء وحِللا[8] وارتدى من المهابة وبُعد الصيت برودًا وحُلَلا ، حتى أدخل رِبْقة[9] طاعة هذه الإيالة[10] من الشعوب الصحراوية ، والقبائل الوَبَرِيَّة من أعاريب الكُراع[11] ، التى لم ترتض بولايته ولا طاعته ، جموعا كثيرة ينتهى التعداد بهم على حكم ما أدَّوه من الزكاة الشرعية لستة وأربعين ألف خَيْمة . وهذه الجملة بالنسبة إلى ما وراءها من القبائل العربية الوحشية بعضٌ من كلّ ، وجزء من جُلّ . وانتهى الغَوْصُ والإبعاد ، بما وجَّهناه من الأجناد ،

(١) الأكياس ، جمع كيس : الحصيف .
(٢) رسائل سعدية ص ١٩٢ .
(٣) القطار : قوافل الإبل على نسق منتظم .
(٤) المنيفة : المتسامية .
(٥) فتخاء : عقاب .
(٦) آلا : سرابا .
(٧) الرتاج : الباب العظيم .
(٨) الحلل جمع حلة : مجتمع البيوت والناس .
(٩) ربقة : حبل .
(١٠) الإيالة : إقليم من أرض الدولة .
(١١) الكراع : عدة الجيش من الخيل والسلاح .

بعد مَقْرَبةٍ من ثمانين مرحلةً فى المفاوز الصعبة المجاز إلى بلاد السودان ، والأنحاء التى جَنَا[1] طاعتها لهذه الإيالة – إن شاء الله – دان ، فتناهضت أجناسهم للدفاع ، بحكم التأليف والاجتماع ، بما ينيف[2] على أربعين ألف مقاتل ما بين حشود الأعراب وأخلاط الأتباع ، وجيوش السودان ، فانتفخ هِرُّهم ليَصُول ، وانتفض بُومُهم يشير للعِقبان بالنزول ، فما كان إلا اجتماع الفريقين ، وتدافع الجانبين . والغرض أن أنصار هذه المثابة وحُماتها قد مسَّهم النَّصَبُ بأوجه التأثير ، وأفنى جُلّ خيلهم مواصلة المسير ، حتى إنهم لم يتوفرّ من أعدادهم حين الالتحام ، مع الأشقياء أبناء حام ، سوى سبعمائة رام ، وقُرْب عشرين فارسا ، وكان كلهم بالمكافحة والمنازلة ممارسا ، فهبّ عليهم من رياح النصر كل صَبا ، واتخذوا الشهامة والجلاد سبيلا ومذهبا ، فخفقت الألوية العلويّة بالنَّصر والظَّفَر ، وانْبَتّ[3] – بحمد الله – سِلكُ انتظامهم وانتثر ، وأتى الحَيْنُ والأسرُ على جموعهم فى الحين ﴿ فقُطِعَ دابرُ القوم الذين ظلموا والحمدُ لله ربِّ العالمين ﴾ » .

وإنما ذكرنا هذه الرسالة بتمامها لتدل على أسلوب محمد بن على الفشتالى المسجع ، وأنه كان يمتلك ناصية اللغة بما يؤلف من الألفاظ المصقولة الرصينة ، كما كان يعنى أحيانا بالجناس والاستعارات الملائمة كاستعارة العقبان لجنود جيشه ، وعبر عن سلوكهم الصحراء الجنوبية بأنهم « فتحوا بابًا طالما طُلسم رتاجه ، فاقتحم العسكر أحياء وحِللا ، وارتدى من المهابة وبُعْد الصِّيت برودا وحُلَلاً » . ويقول عن أهل السودان الغربى فى محاولتهم منازلة جند المنصور : « انتفخ هِرُّهم وانتفض بومُهم يشير للعقبان (جنود المنصور) بالنزول » . ولعل فى هذه الاستعارات وما يماثلها فى الرسالة ما يدل على أن الفشتالى كان يمتلك ذهنا خصبا . ومن رسائله رسالة بلسان المنصور يعزى فيها رئيس وزراء الدولة العثمانية سنان باشا فى وفاة السلطان مراد خان ، وهى تستهل على هذه الصورة :

« الوزارة العظمى التى تُجال بأنظارها المسدَّدة قِداح التدابير الجلائل ، والمنزلة التى لها وفور الاختصاص من أُثْرة[4] الإيالة العثمانية بأوضح الدلائل ، والمكانة التى ضَعْضَعَتْ عروش عظماء المشركين وطأطأت رءوس رؤساء الكفار ، والقطب الذى عليه فى دولة بنى عثمان أعظم المدار ، الوزير الأجلّ ، الأعظم ، الأفخم ، الكبير ، الخطير ، الأشمخ ، الأرسخ ، الأطول ، الأكمل ، المعتبَر ، المشتهر ، الحظىّ ، السَّرِىّ[5] ، الأقرب ، الأنجب ، الأثير ، الشهير ، الأخصّ ، الأخلص ، الأسعد ، الأصعد ، الأرقى ، الأتقى ، الأظهر ، الأطهر ، المثيل ، الحفيل[6] ، سنان باشا أبقى الله حوزته[7] محروسة ، وربوعه بالمسرات مأنوسة ... هذا

(١) جنا : ثمر .
(٢) ينيف : يزيد .
(٣) انبتّ : انقطع .
(٤) أثرة : خلصاء .
(٥) السرى : الشريف .
(٦) المثيل : الفاضل . الحفيل : المحتفى به .
(٧) حوزته : دياره .

وقد طنَّ بهذه الأقطار ، نبأٌ فظيع التذكار ، فتّت الأكباد ، وأذكى[1] – على التنائى – لواعج الفؤاد . خَطْبٌ جلل ، ورُزءٌ فَلّ ظُبا[2] الصِّفاح والأسل ، ذلكم ما نزل به القضا ، وانتهى فيه الأمد وانقضى ، وهو انتقال السلطان الجليل الضخم ذى البَسْطة فى السلطان ، والملك الموطَّد بتمهيد الأركان : الخاقان[3] الأعظم ، والشاهق الأعصم ، السلطان مراد بن السلاطين الكبار .. وليس بمستنكر كونه – رحمه الله – لأهل التوحيد يدا ، ولهمم المسلمين مددا .. وإنا لله وإنا إليه راجعون من موارة الحفر منه بدرا طالعا ، وإغمادها سيفا كان فى حماية الدين قاطعا ... واللجأ فيه إلى الصبر الجميل ، والضَّراعة إلى الله فى الجزاء الجزيل ، علما أن لابقاء لمخلوق مع تهيّىء رواحل الليالى والأيام » .

وهذه الرسالة بدورها تصور مهارة محمد بن على الفشتالى فى صوغ السجع ، وقد نعت سنان باشا فى أوائلها بنعوت متوالية جعلها جميعها مسجوعة ، فكل نعت يقترن بأخيه ، فى سجعات متعاقبة تكثر فيها الجناسات كما تكثر الاستعارات . ومضى فى الرسالة بعدما اقتبسناه منها يهنىء سنان باشا بتولى السلطان محمد بن السلطان مراد كرسى السلطنة العظمى بعد أبيه ، فقد آسى[4] الدهر به » . وبين رسائله رسالة على لسان المنصور إلى بدر الدين القرافى شيخ المالكية فى مصر ، وكان كثيرون من طلاب الفقه المالكى وشيوخه فى المغرب يزورون القاهرة للاستماع إلى محاضراته ويحملون عنه مؤلفاته ، ومن قول الفشتالى فى نعوته التى جعلها مقدمة لرسالته إنه « العمدة الراسخة البناء فليس إلا فى باب نعم اشتغاله ، والفذ الذى ما جرى التنازع فى الفهوم الدقيقة من أعراف النقدة الشوامخ ، إلا جاءت آيات غَوْصه وتحصيله لشُبَه الجموع نواسخ » وقد تصنع لإدخال بعض مصطلحات نحوية فى هذه السجعات هى : باب نعم والاشتغال والتنازع والنواسخ . ونلتقى فى الرسالة بطرائف استعاراته ، ويذكر عن المنصور إقامته للرسوم الشرعية ، والشعائر المرعية ، وجميل الالتفات للمتفقهة فى الدين ولحملة الرواية فى حفظ سُنّة سيد المرسلين » . وحقا نهض المنصور بالمغرب الأقصى نهضة علمية وأدبية كبرى ، مما جعل حلقات العلماء تزخر بالدروس والطلاب . وتنتهى الرسالة بقول المنصور :

« وهؤلاء خدّام جنابنا العلىّ واردون على تلكم الديار برسم جلب ما لعلكم تستفرغون فيه الوُسْع من الكتب لخزائننا العلمية الحافلة .. وأما التشوق لموضوعكم (لشرحكم) على مختصر خليل فشىء لا يكيَّف ، ومعهود لا يحتاج أن يعرَّف ، وبودِّنا أن يكون من خزائننا الحافلة بحيث المراجعة والمعاهدة ، والحضور والمشاهدة » .

---

(١) أذكى : أوقد .
(٢) ظبا الصفاح والأسل : حد الرماح والسيوف .
(٣) الخاقان : لقب سلاطين الترك .
(٤) آسى : عزّى وواسى .

والمنصور فى هذه الخاتمة لرسالته يقول للقرافى شيخ المالكية فى مصر أنه مرسل له بعثة علمية لينتقى لها كتبا نفيسة ، مما ينبغى أن لا تخلو منها مكتبات فاس ، ويسأله أن يرسل إليه بمؤلفه أو بشرحه على مختصر خليل بن إسحق المصرى فى الفقه المالكى ، وكانت له شهرة مدوية فى البلاد المغربية . ولعل فى كل ما سبق ما يدل - بوضوح - على أن محمد بن على الفشتالى كان كاتبًا بارعًا ، وكانت وفاته سنة ١٠٢١ هـ/١٦١٣ م .

(هـ) محمد[1] بن الطيب العلمى

من الكتاب الشعراء فى أوائل عصر الدولة العلوية ، لا يعرف تاريخ مولده ، ولكن يعرف تاريخ وفاته إذ توجه إلى المشرق لأداء فريضة الحج ، وفى الطريق صعدت روحه إلى بارئها فى القاهرة سنة ١١٣٤ هـ/١٧٢١ م وهو تلميذ الشاعر ابن زاكور وحامل لواء الأدب المغربى بعده لا فى فاس مسقط رأسه وحدها بل فى المغرب الأقصى جميعه . ومثل لداته التحق بكتاتيب فاس لحفظ القرآن الكريم ، ثم أكبَّ على حلقات العلماء فى جامع القرويين ، وتفتحت موهبته الأدبيه مبكرا ، فنظم الشعر ، وأنشأ قصائد مديح للسلطان إسماعيل ، وطارت شهرته لا لما كان ينظم من أشعار فحسب ، فقد كان يجيد نظم المسمطات والموشحات كما كان يجيد التأليف الأدبى على نحو ما يتضح فى كتابه « الأنيس المطرب فيمن لقيه مؤلفه من أدباء المغرب » وقد عرض فيه اثنى عشر أديبا من معاصريه ، لعل أشهرهم أستاذه ابن زاكور ، وفيه يقول :

« وحيد البلاغة ، وفريد الصياغة ، الذى أرسخ فى أرض الفصاحة أقدامه ، وأكثر وثوبه على حل المشكلات وإقدامه ، فتصرف فى الإنشاء ، وعطف إنشاءه على الأخبار وأخباره على الإنشاء ، وقَرَع[2] الرجال ، فى ميادين الارتجال » . وله بجانب هذا الكتاب الطريف رسائل شخصية يزينها بسجعاته وما يختار لها من أشعار وبجناساته واستعاراته إذ كان أديب عصره غير منازَع ولا مزاحم ، وإحدى هذه الرسائل موجهة إلى صديقه محمد بن العربى الشرقى ، وفيها يقول :

« بعد ما تستحقه تلك السيادة ، الممنوحة بالحسنى وزيادة ، من السلام الذى طابت نفحاته ، وطالت غدواته وروحاته .. فإنه لما طال أمد الفراقِ ، وبلغت الروح التراقى وظُنَّ أنه الحَيْن وقيل : مَنْ راقٍ ، فكرت فيمن يفك من يد الأشواق أَسْرى ، ويجبر بين الأصحاء كسرى فقلت :

وبى منك ما لو كان بالشمس لم تَلُح   وبالبدر لم يطلع وبالليْل لم يَسْر

(١) انظر فى ترجمة ابن الطيب العلمى ورسائله ومقامته النبوغ المغربى ٣٢٤/١ و ٢٢١/٢ والوافى ٧٨٩/٣ والدكتور الأخضر ١٧٧ .

(٢) قرع الرجال : فاز عليهم .

فما عثرت بعد معاناة البَيْن ، ومعاتبة الدهر المفرِّق بين المحبَّين ، إلا على بعض درر من كلامك ، استُخْرجت من بحور مَددك بمداد أقلامك ، كنت ادَّخَرْتها عن القوم ، لمثل هذا اليوم :

تفقَّدْتها بعد السرورِ بكَوْنها وفى الليلة الظلماء يُفْتَقَدُ البدرُ

فما زالت تذكِّرنى أيام الوصال ، وتقطع من غرائب البين وتُخرسه إن صاح أوصال :

ذكرت بها بعد التفرُّق ما مضى زمانَ النَّقا والشيءُ بالشيء يُذْكَرُ

إلى أن استولت على يد الضَّياع ، وأعقبت لى ذلك الأمن بالارتياع ، فأصبحت من فراقك ملتاعا بلوعتين ، واحترقت بجمرتين ، والتدغت من جُحْر مرتين :

وكنت كذى رجلين رجلٍ مريضةٍ ورجـلٍ رماها الدهـرُ يوما فشلَّتِ

غير أن الآمال كانت تشوِّقنى[1] ، والليالى لكتابك تشوِّقنى ، فكنت أصدِّق فيك الأوهام ، وأعدّ حديثها من الإلهام :

صدَّقتُ وهمى فى الحديث ولم أقل خبرٌ رواه الوهــمُ وَهُو ضعيفُ »

وهو فى مطلع رسالته يقتبس من سورة يونس : (الحسنى وزيادة) كما يقتبس من سورة القيامة : ﴿إذا بلغت التراقى وقيل : من راق﴾ ، ويتأثر بالحديث النبوى : « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » ويتمثل بأبيات تتضح فيها رهافة ذوقه وبصره بالشعر العربى ودقة اختياره ، ولغة الرسالة وأساليبها تكتظ بالسلاسة والعذوبة ، مع ما يشيع فيها من الجناسات والطباقات والاستعارات . وكل ذلك يرفع من نثره وبلاغته فيه . ومن آثاره النثرية مقامة بديعة سماها « مقامة الحجام » رواها عن بعض الظرفاء وأنا أوجزها فى السطور التالية :

استهلَّها بأنه جلس يوما مع جماعة من الأحباب .. يتذاكرون ما مرَّ فى أيام الشباب ، وكان بينهم شاب حسن الصورة إلا أنَّ شعر شاربه طال ، واسترسل غاية الاسترسال ، فسألوه عن سبب طول شاربه ، فقال لهم : أنا أخبركم بخبر عجيب ، فقد صلَّيت يوما صلاة الاستخارة ، فوجدتنى مائلا إلى التجارة ، فقصدت مدينة سنجار ، وفتحت بها حانوتا بسوق التجار ، لبيع القماش ، والاستعانة به على المعاش ، وزيَّنت الدكان ، وكسوته الستائر على أربعة أركان . فحاول يوما دخول الحمام ، فوجد فى طريقه جماعة من النسوة بينهن فتاة جميلة ، فتبعتها حتى دخلت دارا أنيقة ، ورأى أمام الدار خياطا يخيط الثياب فى دكان . ويذكر الشاب أنه احتال على عقد صلة بينه وبين الخياط ، ونجح فى عقدها ، فأنبأه أن أباها خطيب البلد ، وهو كثير المال وليس له من أولاد سواها وخطبها كثيرون ، وردَّهم ولم يسمح لها بالزواج ، وتلطف

---

(١) تشوِّقنى : تجعلنى أتطلع وأطمح .

له الشاب حتى أنس به ، فدلَّه على عجوز مشهورة فى تزويج الفتيات ، ولقيته العجوز ، فوعدها بمال وتحف كثيرة إن هى نجحت فى وساطتها . وغابت عنه فترة وعادت إليه بعد شهر ، فأيأسته منها ، فقال لها إنى لا أريد منها سوى قُبْلَتَيْن ، وأعطاها من الذهب ما أرضاها ، فعادت إلى الوساطة عند أم الفتاة ، وأقنعتها بلقاء الشاب المتيم لابنتها ، واتفقا على أن يزورها فى صلاة إحدى الجمع وأبوها مشغول عنها فى المسجد . وفى يوم الجمعة المضروب دخل عند حجَّام ليستتم حسن مظهره ، فوجد الحجام شاربه طويلا فقصَّ أطرافه ، وبدلا من أن يعطى الشاب الحجام درهما أعطاه لارتباكه دينارا ، فطار صوابه ، وخرج وراءه ، ولازمه ولاصقه طامعا فى دنانيره حتى إذا دخل دار الفتاة ولول الحجَّام وصاح ولم يزل يصرخ ويستغيث ، ويقول ألا منجد ألا منجد ألا مغيث والعجوز راجفة والبنت واجفة[1] ومثلها الأم ، واجتمع الناس والحجام يصيح : يا سيداه ، يا مولاه ، وخرج الناس من صلاة الجمعة وتجمع الناس عند الدار ، ووصل الخبر إلى خطيب البلد فحضر ، وسأل الحجام ما الخبر ؟ فقال له إن سيدى دخل إلى هذه الدار ومعه كيسٌ فيه ألف دينار فطمعوا فيه فأدخلوه وقتلوه . ووجد الشاب فى الدار بئرا فرمى نفسه فيها ليختبىء عن عيون الناس ، ودخل الخطيب الدار ومعه الحجام يبحثان عن الشاب ، وعرف الحجام مخبأه فى البئر ، فسأل الخطيب أبو الفتاة الشاب عن سبب دخوله الدار ، فأجابه مموِّها عليه : دخلت لكى أسرق ، فَحُمل إلى الوالى على أقبح حال وأسوأ شان ، وأمر بسجنه ، وبقى فى الحبس سنة . وكان المساجين يعرضون كل عام على السلطان فى شهر رمضان لينظر فى أمرهم ، وعُرض عليه الشاب فسأله عن الأمر الذى حُبس من أجله ، فقال له ، إنها قضية أذكرها بين يديك لتحكم فيها ، وذكر له حكايته على وجهها الصحيح ، فأمر برد ماله كما أمر الخطيب أن يزوجه من ابنته ، ودفع له الصداق . وسلم الحجام للشاب فصلبه على باب داره . ثم قال : وأنا من هذا الحين لا أقص شاربى أبدا .

وقارن الأستاذ محمد بن تاويت بين عناصر هذه المقامة لابن الطيب العلمى وبعض عناصر المقامة السنجارية للحريرى ، ولاحظ كثيرًا من التشابه بين عناصر المقامتين حتى فى بعض العبارات والصيغ ، ونجد ابن الطيب العلمى يذكر عن بطلها أنه قصد مدينة سنجار بقصد التجارة ، وهى المدينة التى عقد عليها الحريرى مقامته السنجارية . ومقامة العلمى لا تدور على الشحاذة الأدبية مثل مقامة الحريرى . وقد أخلاها – كما ذكر الأستاذ ابن تاويت – من الألفاظ الغريبة الكثيرة التى استظهرها الحريرى فى مقامته ، وأجرى فيها روح الفكاهة مع السلاسة والعذوبة على نحو ما يبدو فى القطعة التالية المقتطفة من أوائلها :

---

(١) واجفة : مضطربة .

« اتفق لى فى بعض الأيام ضرورةٌ إلى دخول الحمام ، فوجدت فى طريقى جماعة من النسوان ، بينهن فتاة كأنها قضيب البان ، فلمحت من تحت الإزار معصمها وقد سطع صفاؤه ، وأبصرت من تحت النقاب جسمها وقد لمع ضياؤه ، فوقفت وقد جرى من الجفون الدم ، وعجزت عن نقل القدم ، ثم تبعتها من بعيد ، ولاحظتها إلى أين تريد ، فدخلت دارا يدل إتقان بابها ، على سعادة أربابها ، ونظرت فإذا بالقرب من ذلك المكان ، خيَّاط يخيط فى دكان ، وعنده من الصناع والأعوان ، ذوو أذقان ومُرْدان[1] ، صِنْوانٌ[2] وغير صنوان ، فقلت فى نفسى : مِنْ هذا الخياط أستفهم ، عمًّا علىَّ أبهم . فرجعت إلى دكانى ، ثانيا عنانى ، وأحضرت عِدَّةً من التفاصيل ، وجئت بها إلى حانوت الخياط بقصد التفصيل ، فجالسته وحاورته وآنسته ، وفصلت ذلك القماش ، وعجَّلت له من الأجرة ما يحصل به الانتعاش ، ففرح بحضورى ، واعتنى بأمورى ، ووَجدت عنده معرفة بالأدب ، وشكا إلىَّ من ضيق الحال والسَّغب[3] ، وأنشدنى لنفسه من شعره المستعذب :

أنا الخيَّاطُ لى رزقٌ ولكن أرى حالى من الإفلاس عِبْرَه
ذراعى فيه من فَقْرى بِقَصٌ ورزقى خارجٌ من عَيْن إبْرَه

فاستحسنت نظمه ، وحملت همَّه وسألته عن صُنَّاع دكانه ، وديار جيرانه ، فمازال يشير إلى كل دار ويشرح حالها ، ويعرِّفنى تفصيلها وإجمالها ، حتى أفضى الحديث إلى الدار التى أختارها ، وقصدى أن تتضح لى أخبارها ، فقال : هى دار خطيب البلد ، وهو رجل كثير المال قليل الولد ، مشهور بالتَّوْقرة الزائدة ، ولا له من الأولاد إلا ابنة واحدة ، وهى روحه التى بين جنبيه ، والسواد الذى فيه نور عينيه ، وقد منعها الأزواج ولم يسمح لها بالزواج » .

والمقامة تجرى بهذه الروح الفكهة التى ترسم الابتسامة على الشفاه ، وهى سجع خالص ، سجع قصير يحدث ضروبا من التلاؤم الصوتى بين العبارات ويحسِّن جرسها ووقعها فى الأسماع ، حتى لتنساب انسياب الجدول الرقراق المتدفق بالماء العَذْب القَراح .

(١) مردان : جمع أمرد : شاب .
(٢) صنوان : شقيقان أو متماثلان .
(٣) السغب : الجوع .

القسم الثالث

مـوريتانيا

الفصل الأول

الجغرافية والتاريخ

١

الجغرافية[1]

تقع موريتانيا فى الشمال الغربى من إفريقيا جنوبى المغرب الأقصى والجزائر ، وفى أقصى شمالها الشرقى الصحراء الغربية ، ويحاذيها فى الغرب المحيط الأطلسى ، ويشغل الشرق منها دولة مالى ، وتحاذيها فى الجنوب دولة السنغال واسمها تحريف لكلمة صنهاجة التى نزلت بها قبائلها البربرية وامتدت إلى نهر النيجر وشواطئه وإلى إقليم مالى .

وهى تشغل الجزء الغربى من الصحراء الكبرى التى تمتد حزامًا بين بلاد السودان والبلاد المغربية ، وتتناثر على رقعتها مناطق جبلية أشبه بهضاب متسعة ، وتلتقى فيها من حين إلى حين بآبار وواحات صغيرة ، وقد تُمْضى مائة كيلومتر دون أن نعثر على بئر أو ماء ، مما يجعل القوافل المارة بها فى حاجة إلى دليل يقودها لاسيما على الطرق التجارية الذاهبة إلى السودان والآيبة منه ، وسطحها رمال سائلة وكثبان متنقلة ، تنقلها الرياح والعواصف الشديدة من مكان إلى مكان ، وطُمرت – على مر العصور – كثير من القرى والبلدان ، والجو – وخاصة فى الصيف – شديد الحرارة ، ويعتدل فى المناطق الجبلية وعلى ساحل المحيط ، وتهب بها صيفا ريح السيروكو الحارّة والمحملة بالرمال ، والأمطار بها قليلة قلة شديدة حتى لتنعدم فى بعض الأنحاء . وقد تصبح الصحراء جافة جدا وقاحلة جدا كالمنطقة الجنوبية الشرقية بين آبار أروان وآبار أزواد ، وهما فى رمال كالحة لا نبات فيها ولا زرع ولا ضرع ، وهما محطتان على الطريق التجارى إلى تمبكتو وبلاد السودان . وحينما توجد آبار تنشأ قرى وبلدان يكثر فيها النخيل والكلأ ، ويزرع تحت النخيل فى الخريف الشعير والدُّخْن والذرة وأحيانا القمح والبطيخ . وتنمو بموريتانيا أشجار صحراوية مثل السِّدْر والطَّلْح .

وفى أقصى الشمال الغربى لموريتانيا مدينة الساقية الحمراء التى أُسِّسَتْ سنة ١٨٨٤ للميلاد ،

(١) انظر فى جغرافية موريتانيا كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان فى مواضع متعددة ورحلة ابن بطوطة فى أواخرها حيث وصف رحلة له إلى السودان الغربى وكتاب الوسيط فى تراجم أدباء شنقيط للأستاذ أحمد بن الأمين الشنقيطى

وفى الوسط إلى الغرب إقليم آدرار ، وهو جبال شامخة متصلة أشبه بهضبة كبيرة يسير الراكب فيها ستة أيام طولا وخمسة أيام عرضا ومن أهم مدن هذا الإقليم شنقيط وكانت العاصمة الثقافية لموريتانيا حتى نهاية القرن الماضى ، ويقال إنها شُيِّدت بواحة آبير فى القرن السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى ، وغلبت عليها الرمال فبنيت فى القرن الثامن الهجرى/الرابع عشر الميلادى . وكانت موريتانيا – من حينئذ – تسمى بلاد شنقيط ، ويسمى شعبها الشناقطة ، وسميت فى القرن الحاضر باسم « موريتانيا » وهو الاسم القديم الذى كان يطلقه الرومان عليها وعلى المغرب الأقصى . وتقع غربى شنقيط مدينة آطار التى بناها السماسدة فى القرن الماضى . وإلى الجنوب من شنقيط حصن أزكى ومدينة أودغشت اللذان اتخذهما المرابطون فى القرن الخامس الهجرى قاعدة لجيوشهما الناشرة للإسلام فى السنغال وغينيا ومالى . وفى الجنوب الشرقى من إقليم آدرار إقليم تكانت وهو مثله هضبة مرتفعة أو بعبارة أدق جبال متصلة عليها مدن وقرى أهمها مدينة تيججكة التى بنيت منذ ثلاثة قرون وهى كثيرة النخل والزروع ، ومن مدن الإقليم مدينة تيشيت فى منطقة رملية وعلى مقربة منها – كما يقول الحسن الوزان – رقعة صالحة للزراعةبها نخيل كثير ورقعة أخرى تزرع شعيرا ودُخنًا . والماشية نادرة والغنم الصحراوى كثير . ويشتغل أهلها بالتجارة وحمل عروضها أو بضائعها بين السودان والمغرب الأقصى ، وهى – إلى ذلك – كانت محطة مهمة للقوافل التجارية . وإلى الشمال الشرقى من شنقيط مدينة وادان وهى مبنية على مرتفعات صخرية وتشرف على واديين بهما نخل كثير ، وأهلها أصحاب سَبخة إجِّل فى الشرق المشهورة بمناجم الملح ومنها يُحْمَل إلى شنقيط وبلاد السودان . وحلَّت محل مدينة تغازَى التى كان يحمل الملح من مناجمها زمن ابن بطوطة فى القرن الثامن الهجرى ، ونزل بها فى رحلته إلى السودان وفيها يقول : « من عجائبها أن بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح وسقوفها من جلود الجمال ، ولا شجر بها ، إنما هى رمل فيه معدن الملح يحفر عليه فى الأرض فيوجد منه ألواح ضخام متراكبة كأنها قد نُحتت ووُضعت تحت الأرض يحمل البعير منها لوحين ، ويباع الحمل منه فى ولاته بعشرة مثاقيل ذهبا وفى مالى بثلاثين مثقالا ، ويُقطع قطعا يُتَبايع بها كما يتبايع بالذهب والفضة ، وقرية تغازَى يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبر ، ويقول الحسن الوزان إنه ليس لعمالها من أقوات إلا ما يُجْلَبُ لهم من تمبكتو فى السودان أو الدرعة فى المغرب الأقصى الواقعتين على مسافة عشرين يوما من تغازَى ، وماء آبارها مالح . وفى الجنوب الغربى من موريتانيا مدينة بوتليميت ، وهى عاصمتها الثقافية الآن لوجود معهد إسلامى بها وتشتهر الأنحاء فى الجنوب الغربى بما فيها من مناجم الحديد وهى

تدرّ على البلاد خيرا كثيرا . ومن أهم مدن الجنوب الشرقي مدينة ولاّته ، وكانت محطة مهمة للقوافل التجارية ، وكان بها حدائق نخيل وتنبت بقعتها الدخن وحبا مدورا أبيض اللون كما يقول الحسن الوزان ، وتعانى المنطقة – كما يقول – من ندرة اللحم ، وكان أهلها يقومون على إرشاد القوافل العابرة للصحراء وحمايتها حتى السودان وحتى المغرب الأقصى مما كان يدرّ عليهم خيرا كثيرا .

٢

التاريخ[1]

كانت قبائل صنهاجة الصحراوية تنزل من قديم فى الشطر الغربى من الصحراء الكبرى جنوبى الجزائر والمغرب الأقصى فاصلة بينهما وبين القبائل السودانية المدارية ، وكانت بعض هذه القبائل تنحدر حتى ضفاف نهر السنغال ، ونفس كلمة السنغال إنما هى تحريف لكلمة صنهاجة على لسان البرتغاليين حين نزلوا بسواحلها ، فسموها Senhagal ثم أصبحت Senegal. ويقول ابن أبى زرع إن صنهاجة الصحراوية تنقسم إلى سبعين قبيلة ، منها لمتونة وكدالة ومسوفة ولمطة وبنو وارث ومنداسة ، وفى كل قبيلة بطون وعشائر أكثر من أن تحصى . وكثير منهم لا يعرفون حرثا ولا زرعا ولا ثمارا ، وإنما أموالهم الأنعام ، وعيشهم اللحم واللبن ، وهم على مذهب أهل السنة والجماعة ، ويجاهدون فى السودان .

وظلت تلك القبائل تعيش فى الحزام الصحراوى الفاصل بين البلاد المغربية والسودان على أنعامها وألبانها ولحومها وصوفها وأوبارها متخذة منها الخيام ، وكانوا يضعون اللثام على رءوسهم ووجوههم شعارا لهم ، ولذلك سموا الملثمين . وأخذت أضواء الإسلام تنفذ إليهم منذ عهد عقبة بن نافع الفهرى وولايته على الديار المغربية (٥٠ – ٥٥ هـ) إذ أسلم على يديه منهم بنو وارث ، ومضوا يجاهدون السودانيين الغربيين واتسع اعتناق تلك القبائل للإسلام فى عهد موسى بن نصير (٨٦–٩٦هـ) ولما استولى عبد الرحمن بن حبيب على مقاليد الحكم فى البلاد المغربية (١٢٧–١٣٧هـ) عُنى بالطريق التجارى المار بقبائل صنهاجة

(١) انظر فى تاريخ موريتانيا المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب للبكرى وحديثه عن جارتها غانة وكتاب روض القرطاس لابن أبى زرع (طبع الرباط) ص ١٢٠ وتاريخ ابن خلدون (طبع بولاق) ١٨٢/٦ وحديث ابن حوقل عن السودان الغربى فى كتابه : « صورة الأرض » وراجع كتاب الحسن الوزان : « وصف إفريقيا » فى مواضع مختلفة ورحلة ابن بطوطة فى حديثه عن ولاته وكتاب مناهل الصفا للفشتالى ص ٥٨ وما بعدها . وكتاب الوسيط لابن الأمين الشنقيطى ، وإمبراطورية غانة الإسلامية وإمبراطورية مالى الإسلامية للدكتور إبراهيم طرخان .

غربى الصحراء الكبرى ، إذ حفر عليه من سجلماسة فى جنوبى المغرب الأقصى إلى بلاد السودان الغربى آبارًا للقوافل التجارية تنزل عندها وتأخذ كفايتها من الماء فى مسيرتها الصحراوية .

وأخذ الإسلام يتسرب سريعا إلى بلاد السودان الغربى عن طريق القبائل الصنهاجية فى موريتانيا والتجار المسلمين ، ويقول أبو عبد الله البكرى فى كتابه المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب إن بنى أمية أرسلوا جيشا لفتح بلاد السودان ، واستقرت ذرية منه فى بلاد غانة ، وكانت حينئذ تقع فى شرقى السنغال الحديثة وجنوبى مالى الحديثة أيضا ، وإذا صح ذلك فإن هذا الجيش حمل قديما إلى ديار السودان الغربى الدين الحنيف وبقى هناك من يدعو إليه ، ويتصل بذلك ما جاء فى صبح الأعشى من أن أهل غانة أسلموا فى أول الفتح . ونجد القبائل الصنهاجية – وخاصة لمتونة – تتجمع فى مدينة أُوْدَغَسْتْ جنوبى منطقة آدرار وتحدث فيها ما يشبه إمارة – ويسميها بعض جغرافيى العرب مملكة – ويذكر ابن أبى زرع من أمرائها أو شيوخها أو ملوكها – كما يقول – تيلوتان وكانت ولايته مسيرة ثلاثة أشهر فى مثلها كلها عامرة ، وكان يركب فى مائة ألف بعير ، وهو عدد ضخم من الإبل ، وكان فى زمن عبد الرحمن الداخل سلطان الأندلس (١٣٨ – ١٧٠ هـ) وطال عمره إلى أن توفى سنة ٢٢٢ هـ/٨٣٦ م وكانت أيام حكمه خمسا وستين سنة ، ودان له – كما يقول ابن أبى زرع – أزيد من عشرين ملكا من ملوك السودان . ولم يكونوا ملوكا بالمعنى الحقيقى لكلمة ملوك ، إذ لم تكن لهم حكومات ولا دساتير دول ، إنما كانوا زعماء لأقوامهم ، وربما كانوا شيوخ – أو سادة – قبائل ، وأكبر الظن أن فى هذا العدد من الزعماء مبالغة . وخلفه حفيده الأثير بن فطر ، فقام بأمر صنهاجة الصحراوية أو الموريتانية خمسا وستين سنة إلى أن توفى سنة ٢٨٧ هـ/٩٠٠ م وولى بعده ابنه تميم إلى أن توفى سنة ٣٠٦ هـ/٩١٨ م . واضطربت شئون صنهاجة الموريتانية بعده فترة ثم اجتمعت على يروتان بن وِنسبو بن نزار اللمتونى الأودغستى فملك الصحراء بأسرها على عهد عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ – ٣٥٠ هـ) وابنه المستنصر (٣٥٠ – ٣٦٥ هـ) وكان يركب – مثل تيلوتان فى مائة ألف بعير ، وكان حكمه مسيرة شهرين فى مثلها ودان له عشرون ملكا من ملوك السودان – مثل تيلوتان – يؤدون له الجزية ، وملك من بعده بنوه ثم افترقت كلمة الصنهاجيين ، وعظم أمر مملكة غانة واستولت على أودغست ، وكانت تموّن بلاد السودان بالملح الوارد إليها من تغازَى ومن أجله استولت عليها غانة .

وتتجمع صنهاجة تحت لواء الشيخ أو الأمير أبى عبد الله محمد بن تيفاوت المعروف باسم تاوشتا اللمتونى وكان من أهل الدين والفضل والصلاح والجهاد والحج ، وظل أميرا على صنهاجة الموريتانية مدة ثلاث سنوات إلى أن استشهد فى إحدى غزواته . وولى أمر صنهاجة

الموريتانية بعد تاوشتا اللمتونى صهره يحيى بن إبراهيم الكدالى ، وخرج فى سنة ٤٢٧ هـ/١٠٣٥ م لأداء فريضة الحج والزيارة النبوية فى رؤساء من قومه ، وفى عودته اجتمع فى القيروان بأبى عمران الفاسى شيخ المذهب المالكى بها المتوفى سنة ٤٣٠ هـ/١٠٣٨ م وعرّفه بما فى صنهاجة الصحراء الموريتانية من الجهل بشئون الدين الحنيف وتعاليمه ، وسأله أن يوجه معه أحد تلاميذه ليبصّرهم بأمور دينهم ، وعرض الشيخ رغبته على تلاميذه ، فلم يستجب منهم أحد ، فكتب له رسالة إلى فقيه من تلاميذه بمدينة سجلماسة جنوبى المغرب الأقصى هو محمد وجاج أو وقاق بن زلو اللمطى . وطلب إليه فى رسالته أن يعرض الأمر على طلابه ، لعل واحدا منهم يقبل المسيرة مع يحيى الكدالى ، وقبلها فقيه تقى ورع من تلاميذه هو عبد الله بن ياسين الجزولى .

ورجع يحيى الكدالى إلى قومه الصنهاجيين بعبد الله بن ياسين فأخذ يحفّظهم القرآن الكريم ويفقهم على تعاليم الدين الحنيف ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، فالتفوا حوله ، وبعد فترة ازورُّوا عنه ، وتوفّى حاميه يحيى الكدالى فأجمعوا على الانصراف عنه لما يأخذهم به من مشاق التكاليف الدينية . وأخذ يفكر فى تركهم والعودة إلى موطنه ، غير أن زعيما من لمتونة الصنهاجية الموريتانية هو يحيى بن عمر أشار عليه أن يعتزل معه للعبادة والنسك فى جزيرة على مقربة من مصب نهر السنغال ، ونزلاها معا ، ونزلها معهما سبعة من قبيلة كدالة الصنهاجية ، وبنى بها عبد الله بن ياسين رباطا للنسك ، وأخذ يلتحق به عشرات من أشراف صنهاجة ، كان يفقههم فى الدين ، حتى إذا بلغوا ألفا قال لهم : إن ألفا لن يُغْلبوا من قلة ، وقد تعيَّن علينا – أيها المرابطون – القيام بالحق والدعاء إليه ، وحمل الكافّة عليه ، وبذلك سماهم : المرابطين ، وغلب هذا الاسم على صنهاجة الصحراوية الموريتانية بجانب الاسم القديم : الملثمين ، وخرجوا معه ، وجعل أمرهم فى الحرب إلى الأمير يحيى بن عمر اللمتونى ، وقَتل هو ويحيى من استعصى على الحق من قبائل صنهاجة الموريتانية ، ومضيا فى سنة ٤٤٢ هـ/١٠٥٠ م يدعوان إلى الإسلام فى سودانيى التكرور وحوض السنغال الأدنى وما وراءه من بلاد السودان الغربى فى غانة وغير غانة . وفى سنة ٤٤٧ هـ/١٠٥٥ م كاتبهما فقهاء سجلماسة ودرعة جنوبى المغرب الأقصى وصلحاؤها كى ينقذا البلاد مما فيها من المنكرات ومن ظلم الولاة والحكام ، فاتجها بجيش جرار إليهم ، وتم لهما النصر ، وأزالا ما بالبلدتين من المنكرات وأسقطا ما كان بهما من المغارم والمكوس ، وجعلا عليهما عاملا أو واليا من لمتونة ، وعادا إلى صحراء موريتانيا وإلى جهاد الوثنيين فى بلاد السودان ، وتوفى الأمير يحيى بن عمر فى شهر المحرم سنة ٤٤٨ هـ/١٠٥٦ م وقدَّم الفقيه عبد الله بن ياسين أخاه أبا بكر بن عمر اللمتونى مكانه وقلده أمر الحرب .

وكان أبو بكر بن عمر بطلا مغوارا ، وكان صالحا متين الدين متورعا ، وسرعان ما تقدم بجيشه من آدرار وحصنى آزكى وأُوْدَغَست فى شهر ربيع الثانى سنة ثمان وأربعين وأربعمائة إلى بلاد السوس جنوبى المغرب الأقصى ، وأخذ يستولى على بلدانها وقضى فيها على قوم من الروافض يقال لهم البجلية نسبة إلى عبد الله البجلى الرافضى ، وكان قدم إلى السوس حين قدم عبيد الله المهدى الشيعى الإسماعيلى إلى إفريقيا ، وأشاع به مذهبه الرافضى ، وأخذت أجيال متعاقبة تتوارثه هناك إلى أن قاتلهم أبو بكر بن عمر وعبد الله بن ياسين وقُتل منهم خلق كثير ، ورجع من بقى منهم إلى السنة ورأى الجماعة . وتلك أولى حسنات أبى بكر بن عمر والشيخ عبد الله بن ياسين فى المغرب الأقصى ، وأخذا يتغلغلان فيه شمالا واستوليا على أغمات وإقليم حاحة سنة ٤٤٩ هـ/١٠٥٧ م كما استوليا على تادلة وإقليم دكالة ، وعرفا أن بساحلها على المحيط وساحل إقليم تامسنة قبائل برغواطة التى خرج بها عن جادة الدين الحنيف متنبئون ابتدعوا لهم شريعة ضالة كافرة - وتعاقبوا فيهم من قديم ، فقصدا إليها فى مدينة آسفى على المحيط بإقليم دكالة وفى مدن سلا وآزمور وآنفة (الدار البيضاء) فى ساحل إقليم تامسنة ، وأخذا ينازلانها منازلات ضارية ، وفى بعض المنازلات والوقائع استشهد الشيخ العظيم عبد الله بن ياسين سنة ٤٥١ هـ/١٠٥٩ م ، وبُنى مسجد على قبره . ومضى أبو بكر بن عمر يجاهد برغواطة ، حتى استأصل شأفتها ومحا دعوتها من المغرب الأقصى إلى غير رجعة . وتلك حسنة كبرى ثانية لأبى بكر بن عمر وصنهاجة موريتانيا . وبلغه سنة ٤٥٣ هـ/١٠٦١ م أن خلافا شديدا نشب فى صحراء موريتانيا بين قبيلتى لمتونة ومسوفة ، وخشى افتراق الكلمة ، فخرج إليهما واستعمل على المغرب الأقصى ابن عمه يوسف بن تاشفين . ومنذ ذلك الحين انقسمت دولة المرابطين قسمين : قسما شماليا وقسما جنوبيا ، وقاد القسم الشمالى يوسف بن تاشفين ، وسرعان ما أسس فى سنة ٤٥٤ هـ/١٠٦٢ م عاصمة دولته : مراكش ، وفى سنة ٤٧٤ هـ/١٠٨١ م استولى على مدينة تلمسان الجزائرية من أيدى بنى يعلى الخزريين ، وتوغّل شرقيها حتى مدينة الجزائر . واستصرخه بعض أمراء الطوائف فى الأندلس ، كى ينقذهم من براثن الإسبان الشماليين ، فجاز إليهم زقاق جبل طارق بجموع صنهاجة الصحراء الموريتانية ، وانتصر على الإسبان فى موقعة الزلاقة انتصارا حاسما سنة ٤٧٩ هـ/١٠٨٥ م ورأى من الضرورى القضاء على أمراء الطوائف حتى تعود إلى الأندلس وحدتها إزاء الأعداء المتربصين . وهذا الانتصار العظيم يعد حسنة كبرى ثالثة تضاف إلى صنهاجة الصحراء الموريتانية .

والقسم الجنوبى لدولة المرابطين ظل يقوده البطل المجاهد العظيم أبو بكر بن عمر الذى استطاع نشر الإسلام فى جميع أرجاء إفريقيا المدارية حتى أبواب إفريقيا الاستوائية وسياجها الضخم من الغابات الكثيفة ، وقد بدأ بالتكرور ومنطقة نهر السنغال الأدنى ، وانضموا إلى

جيشه فى حماس بالغ لنشر الإسلام فى ربوع السودان ، واستطاع الاستيلاء على غانة ونشر الإسلام فى أنحائها ، ويقال إن أميرها السوننكى أعلن إسلامه وأسلم معه كثيرون . وبالمثل نشر الإسلام فى أرجاء مالى وأرجاء صنغى فى حوض النيجر الأوسط ، وحقا كل تلك البلدان كان قد دخلها الإسلام على أيدى التجار والقبائل الصنهاجية قبل أبى بكر بن عمر ، ولكن كانت كثرة أهلها ما عدا التكرور وثنية ، أما أبو بكر بن عمر فإنه أحالها بلادا وشعوبا إسلامية إلى اليوم وإلى أبد الآبدين . وكل ذلك بفضل هذا البطل الصحراوى الموريتانى المخلص لدينه الذى كان يحكم كل هذه الأقطار من منطقة الأدرار فى موريتانيا متخذا آزكى وأَوْدَغَست قاعدتين كبيرتين لحملاته الحربية جنوبا وشرقا . وكل ذلك يحسب له ولصنهاجة موريتانيا كما يحسب لها ما أدته من خدمات جُلَّى فى الأندلس وحمايتها للإسلام هناك ضد أعدائه من نصارى الإسبان . وطبيعى أن تسيطر صنهاجة موريتانيا فى أثناء ذلك على طرق التجارة الرئيسية بين المغرب الأقصى وإفريقيا المدارية . واستشهد البطل العظيم أبو بكر بن عمر سنة ٤٨٠ هـ/١٠٨٧ م برمية سهم مسموم فى عودة له إلى الأدرار من غزوة مظفرة بعد أن أدى للإسلام خدمات جُلَّى وسَّع بها داره الإفريقية وعالمه الضخم .

وأبو بكر – دون ريب – هو صاحب الفضل فى أن جعل كل الشعوب الإفريقية التى استولى عليها شعوبا إسلامية ، ودخلت إليها مع الإسلام اللغة العربية ، وظلت لغة العبادة والثقافة والتجارة إلى اليوم ، ولم يستطع الاستعمار إزاحتها عن مكانتها . وعادت هذه الشعوب إلى الاستقلال عن دولة المرابطين وصنهاجة موريتانيا بعد وفاة أبى بكر سنة ٤٨٠ هـ/١٠٨٧ م ، وازدهرت من بينها مملكة غانة وظلت صاحبة السيادة والنفوذ فى كل البلاد والأراضى الواقعة بين نهر النيجر والمحيط الأطلسى وتبعها الشطر الجنوبى من موريتانيا ومدينة أودغست ونيمة وولاته ، وانتسب حكامها – كما يقول الإدريسى – إلى الحسن بن على بن أبى طالب . وكانت قبيلة الصوصو تنزل جنوبيها وتخضع لها وتدفع إليها الجزية إذ كانت وثنية ، ومازالت تقوى حتى استطاعت القضاء على غانة والاستيلاء على عاصمتها كومبى صالح شمالى ياماكو عاصمة مالى الحديثة سنة ٦٠٠ هـ/١٢٠٣ م وفرّ من العاصمة فريق من المسلمين مع الشيخ إسماعيل إلى مدينة ولاته فى الجنوب الشرقى لموريتانيا وأصبحت من أهم المراكز التجارية فى إفريقية الغربية . وبعد نحو ثلاثين عاما استطاع مارى جاطة بطل دولة مالى القومى وأهم حكامها أن يغزو بلاد الصوصو ويقضى عليهم . وامتدت دولته حتى شملت حوض نهر السنغال ونهر غينيا ومعظم حوض النيجر الأوسط والأعلى ، وفى أوائل عهد أحد أحفاده وهو منسا سليمان (٧٥٣ هـ/١٣٥٢ م – ٧٦٠ هـ/١٣٥٩ م) قام ابن بطوطة برحلته إلى السودان ، وكانت أول مدينة نزل بها فى موريتانيا مدينة تغازى ، ومر بنا حديثه عن مناجم الملح بها ، وعجب

من انخفاض ثمنه فى موطنه وارتفاعه فى بلاد السودان ، وكأنه لم يكن يعرف شدة حاجتهم إليه بسبب الحرارة القاسية فى ديارهم إذ يحفظ الماء فى الجسم فلا يتبخر سريعا ، وقال إن من يحفرون عليه عبيد قبيلة مسوفة الصنهاجية . ونزل بمدينة ولاتة ، ويذكر أن أكثر أهلها من قبيلة مسوفة ، وأنها كانت تتبع حينئذ سلطان مالى ، وأغلب الظن أن تبعيتها لمالى منذ عهد مارى جاطة (٦٢٨ هـ/١٢٣٠ م - ٦٥٢ هـ/١٢٥٥ م) الذى وسّع حدود دولته - كما أسلفنا - إلى أقصى حد جنوبا وشرقا وغربا وكانت « ولاته » تابعة لغانة ومثلها مدينتا نيمة وأوْدَغَست ، فطبيعى أن تدين جميعا له ولمالى بعده وحكامها التالين . ويذكر ابن بطوطة عن ولاته أنها شديدة الحر وبها يسيرُ نخيلاتٍ يزرعون فى ظلالها البطيخ ، ولحم الضان بها كثير وثياب أهلها ثياب مصرية حسان ، ويقول إنهم مسلمون يحافظون على الصلوات ومثلهم نساؤهم ولهن جمال فائق ، ويذكر أنه أقام بها نحو خمسين يوما وأن أهلها أكرموه وفى مقدمتهم قاضيها وأخ له مدرس . ولا نعود نسمع عن ولاته فى عهد دولة مالى ، وكانت قد أخذت فى الضعف بينما أخذت صنغى فى حوض النيجر الأوسط شرقى السنغال وغمبيا تقوى ، ولم تلبث أن استقلت عن مالى ، ثم أخذت تزداد قوة تدريجا فى القرن التاسع الهجرى ، وبلغت غاية قوتها فى عهد أسرة إسكيا واستولى « سُنّ على » ملكها على تمبكتو وأشعل فيها النيران سنة ٨٧٣ هـ/١٤٦٨ م مما جعل فقهاءها وفى مقدمتهم عمر بن محمد أقيت يفرّون منها إلى ولاته واستولت هذه الأسرة على كثير من بلدان مالى ومدّت سلطانها ونفوذها إلى ولاته وإقليمها فى موريتانيا ، وكان حكامها بعد سن على متمسكين بالإسلام ، مما زاد فى تعلق الناس بهم ، وخاصة بمحمد بن أبى بكر (٨٩٩ هـ/١٤٩٣ م - ٩٣٥ هـ/١٥٢٨ م) الذى اتخذ مدينة تومبكتو على النيجر عاصمة له ، واستكثر من بناء المساجد والزوايا ، واستقدم لها الفقهاء والعلماء لتعليم الناس القرآن والفقه وأمور دينهم ، وزار الحسن الوزان ولاته فى عهده وقال إنها تابعة للملك تومبكتو وتدفع له ضريبة محددة ، ومر بنا حديثه عنها فى جغرافية موريتانيا ، وقال إن كل تنظيم مدنى مجهول فى هذه المنطقة ، فلا قضاة ولا حكومة منظمة ، إذ كانت قبيلة مسوفة فيها لا تزال تعيش معيشة قبلية .

ويبدو أن دولة صنغى لم تكتف بولاء ولاته وأنها حاولت الاستيلاء على تغازى وما بها من مناجم الملح ، بل يقال إنها استولت عليها فعلا مما أغضب أحمد المنصور الذهبى سلطان الدولة السعدية فى المغرب الأقصى (٩٨٦-١٠١٢هـ) فصمم على منازلتها ، وأرسل إليها حملة سنة ٩٩٧هـ/١٥٧٩م فى عهد حاكمها إسكيا داود وتغلغلت الحملة فى بلاد السودان واضطر إسكيا داود أن يقبل التنازل عما بيده من بلاد موريتانيا والقبائل الصنهاجية ، وعادت الحملة بغنائم كثيرة وسمع بالحملة صاحب برنو شرقى صنغى وكأنما خشى على بلاده من الجيش السعدى ، فأرسل فى أواخر سنة ١٠٠٠ هـ/١٥٨٢ م بيعته للمنصور الذهبى مع هدية كبيرة

من فتيان العبيد والإماء ، وصمم المنصور على غزو صنغى واحتلال بلادها لما فيها من كنوز الذهب ومعادنه ، وأعدَّ لذلك جيشا جرارا بقيادة جوُذر الأندلسى ، والتقى الجيش بعد رحلة شاقة مضنية فى فيافى الصحراء وقفارها بجيش إسكيا إسحق بن داود واستطاع هزيمته فى موقعة فونديبى شمالى جاو ، ودخل المدينة فوجد أهلها غادروها واتجه جوُذر إلى تومبكتو العاصمة ، وأحس بخيبة أمل شديدة حين قيل له إن مناجم الذهب التى يقصدها لا تزال بعيدة جدا بُعْد المغرب الأقصى عن تمبكتو . وأرسل بذلك إلى المنصور فغضب وعزله عن قيادة الجيش وأرسل مكانه محمود زرجون ، ويقال إنهم استولوا من قصور إسكا إسحق بن داود على ما لا يحصى من الحلى والذهب وعاد الجيش محملا بغير قليل منهما ، مما أتاح للمنصور أن يبنى قصره « البديع » وينثر منه الكثير على الناس ، ولذلك سمى المنصور الذهبى .

وأهم ماعاد على موريتانيا من انتصار هذا الجيش المغربى الضخم أنه رفع يد دولة صنغى عن البلدان الموريتانية التى دانت لها ، وأكثر من ذلك أهمية أن المنصور رأى أن يرسل إلى بلاد موريتانيا والسودان رجالا كثيرين وخيلا من عرب المعقل وجشم أهل الشوكة والنجدة لحراسة ما استولى عليه جيشه من تلك الديار . ولبَّاه من عرب المعقل قبيلة حسان وغيرها ، ونزلت عشائر منها فى شنقيط ، وإليها ينسب إدْوعيش سكان تكانت وأبناء أحمد من دامان والترارزة فى الجنوب الغربى من موريتانيا ، وينسب إليها أيضا البرابيش سكان تيشيت وحكامها والأوداية ونزلوا بين وادان وولاته وكأن قبائل حسان تغلغلت فى كل بلدان موريتانيا ومناطقها ، وكان ذلك كسبًا كبيرًا لموريتانيا لأنهم عرب ، وأخذت تتعرب من حينئذ أى من أول القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى .

ومع أنهم استقروا فى مدن موريتانيا مع إخوانهم من القبائل الصنهاجية ، ولم يعودوا يسكنون فى خيام ، إنما يسكنون فى أكواخ ، ظلوا يعنون بتربية الإبل والخيل ، وظلوا يقودون حروبا مستمرة ، ويتسع أحمد بن الأمين الشنقيطى فى عرضها بكتابه الوسيط وتراجم أدباء شنقيط ، ونراه يقول عن حروب قبائل حسان إن الحرب أصل معهود بينهم فترى قبائلهم أو أقسامهم الكبيرة يحارب بعضها بعضا كما وقع بين إدوعيش سكان تكانت والترارزة سكان الجنوب الغربى إلى حدود السنغال ، وكما وقع بين إدوعيش وأبناء أحمد من دامان جيرانهم وكما وقع بين أحياء من عثمان سكان أدرار وإدوعيش ، وكما وقع بين الترارزة وأبناء عمومتهم البراكنة ، ويعرض لحروب الترارزة ، فيقول فى فاتحة عرضه : ما وقع بين الترارزة مع غيرهم لا يذكر ، بالنسبة لما وقع بين بعضهم وبعض ، وما يزال ابن الأمين الشنقيطى يعرض علينا حروب الموريتانيين وكيف أنها كانت تبدأ ضعيفة ، ثم تقوى وتستحكم بمرور الزمن . ولم تنج منها بلدة موريتانية ، ولا أفلت منها راغب فيها أوكاره ، وقد غلبت على حياتهم منذ القرن

الحادى عشر الهجرى ، بل فى رأينا منذ القرن العاشر ونزول قبائل حسان بينهم . ولعل ذلك ما حال فى موريتانيا بينها وبين قيام دولة فيها ، إذ لم تعمها وحدة بين قبائلها وسكان مدنها قبل القرن العشرين ، وكان لمدينة شنقيط فيها زعامة ولكنها لم تكن زعامة سياسية إنما كانت زعامة ثقافية . وظلت البلاد – منذ المنصور الذهبى – تستشعر شيئا من الولاء لدولة السعديين فى المغرب الأقصى ثم لدولة العلويين . ومازالت حياتها على النحو الذى قدمناه إلى أن داهمتها القوات الفرنسية سنة ١٩٠٣ للميلاد ووضعتها تحت الحماية ، وفى سنة ١٩٢٠ جعلتها مستعمرة فرنسية ، ومازال شعبها يجاهد الفرنسيين حتى أزاحهم عن دياره سنة ١٩٨٠ وأعلن قيام جمهورية موريتانية الإسلامية فى البلاد .

الفصل الثانى

المجتمع والثقافة

١

المجتمع[1]

(أ) صنهاجة وقبائل المعقل العربية

كان المجتمع فى موريتانيا يتألف من قبائل صنهاجة وعبيدهم من السودان ، وكان هؤلاء العبيد يقومون لهم بكثير من الأعمال فى الزراعة وحفر الآبار وسقى المزروعات وكذلك فى المراعى ورعى الأنعام ، ويقول ابن بطوطة فى رحلته إلى السودان ونزوله بتغازَى بلدة مناجم الملح إن عبيد قبيلة مسوفة الصنهاجية هم الذين يقومون باستخراجه من الأرض وإعداده لحمله إلى بلاد السودان . ونزل موريتانيا فى أواخر القرن التاسع وأوائل العاشر الهجرى كثيرون من قبائل المعقل الذين كانوا ينزلون بالقرب من مدينتى سجلماسة والدرعة فى المغرب الأقصى وخاصة قبائل حسان ، دفعهم المنصور الذهبى إلى الجنوب ليحموا فتوحه فى بلاد السودان واستقر كثيرون منهم فى موريتانيا مفضلين لها على بلاد السودان ، لأنها بسطحها الرملى الصحراوى تشبه البوادى التى كانوا يستوطنونها جنوبى المغرب الأقصى . وأخذ كثيرون منهم يؤثرون أرض المراعى يرعون فيها أنعامهم متنقلين فيها وراء الكلأ ، كما فى أرض تيرس الواسعة الواقعة غربى منطقة آدرار والممتدة جنوبا وغربا حتى المحيط الأطلسى ، وهى منطقة شديدة الخصوبة ، وهى قليلة المطر ، غير أنه قد يكثر فيها أحيانا بل ربما توالى ذلك فى سنوات متعاقبة ، ويسمونها سنوات الخصب ، وتسمن فيها أنعامهم وإبلهم ، حتى ليرفعون عن ضروعهم ما يشدونها به من نسيج الحبال ، خوفا عليها من أن تفسدها كثرة اللبن ولذلك يتركون الفُصْلان ترضع أمهاتها متى شاءت ودائما يتفقد الرعاة الضروع لحلبها ، وكثيرا ما يلقون باللبن على الأرض لعدم الحاجة إليه . ويكبر الفصيل سريعا حتى ليصبح صالحا للركوب فى سنة ولادته ، وبسبب هذا الخصب وغزارة المراعى فيه ربما ولدت الناقة لسنتين ونحوهما ، مما جعل الإبل فيها كثيرة ، حتى ليقولون إنها تنبت الإبل ، كما ينبت المطر النبات . وطبيعى

---

(١) انظر فى المجتمع الموريتانى كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان فى مواضع مختلفة وكذلك كتاب الوسيط فى تراجم أدباء شنقيط لأحمد بن الأمين الشنقيطى .

أن تكثر المراعى فى صحراء موريتانيا ، وكما نلقاها فى تبرس نلقاها فى منطقة تيشيت وفى الصحارى الممتدة بين وادان شرقى شنقيط وبين ولاته فى الجنوب الشرقى وأيضا فى منطقة الحوض غربيها .

(ب) الزروع والمراعى

وأقام كثيرون من قبائل المعقل وخاصة قبائل حسان والبرابيش وأودابة فى مدن موريتانيا ، وكانت قديما تشتمل على مسجد أو مساجد تتألف من أكواخ تبنى حول آبار فى وديان أشبه بواحات صغيرة . وأهم ما يزرعون فيها النخل ليقتاتوا من تموره ، وعادة يزرعون تحته الشعير وقد يزرعون الدُّخن والقمح ، ويقول الحسن الوزان عن تشيست إنه يوجد قربها رقعة صغيرة صالحة للزراعة ، زرعها أهلها بالنخيل ، ورقعة أخرى يزرعونها شعيرا ودخنا يقيمون بها أودهم ، ويقول عن وادان إنه لا ينبت فيها سوى النخيل ، ويزاول أهلها الصيد للحيوانات الوحشية مثل الوعل والنعام ، وبها بعض الماعز ، ويقول عن ولاته إن أرضها تنبت الدُّخن والذرة . ويقول أحمد بن الأمين عن شنقيط إن بها نخلا كثيرا ، وببعض جبالها مزارع يزرع فيها القمح والشعير والدخن واللوبيا ، وأهل منطقة أدرار عامة يزرعون القمح والشعير تحت النخل ، ويزرعون فى الأودية والرمال نوعا يسمى فُنْدى وهو بطيخ أبيض اللون وأخضر من أجود البطيخ ، ويصنعون من بذر الأبيض دقيقا يخلطونه بدقيق الدخن ويجعلون منه شبه العصيدة ، ويقول الشنقيطى عن مدينة تيججكة إنها على ضفة واد كثير النخل وفى شماليها مزارع للفُنْدى والدخن ، ويقول عن تكانت إنها كثيرة الأشجار الصحراوية ويعدد أشجارها . وتلك هى صورة الزروع فى موريتانيا ، وليس منها شىء يصدَّر إنما هى لمعيشة أهلها وما يسد حاجتهم من الطعام . وأهل المدن والزروع بذلك أحسن حالا من أهل المراعى والأنعام ، إذ ليس من عادتهم أكل الخبز أو هم غالبا لا يعرفونه ، إنما يعرفون حليب نوقهم ، ويقول الشنقيطى ربما يبلغ أحد الرعاة ستين عاما ولم يعرف الخبز ولا العصيدة فضلا عن أكلهما ، إنما يشرب اللبن أو يأكل التمر أو بعض لحوم الأنعام التى يرعاها .

(جـ) التجارة

من قديم أهم من الزروع والمراعى عند أهل موريتانيا التجارة مع أهل السودان . وأهم ما يتجرون به معهم الملح الذى كانوا يستخرجونه من مناجم تغازَى حتى القرن العاشر الهجرى ، وأخذوا — فيما بعد — يستخرجونه من آجِّل شرقى وادان ، ويكاد كل أهل موريتانيا يتجرون فيه لكثرة العائد منه ، ويتجر فيه أهل شنقيط ووادان وتيججكة وولاته والحوض وتكانت ، ويكاد يباع فى أعماق السودان بوزنه ذهبا . ومر بنا قول ابن بطوطة فى زمنه إن الحمل منه أى حمل البعير وهو — كما قال — لوحان بعشرة مثاقيل من الذهب فى تغازَى ، ووجده فى مالى

يباع بثلاثين مثقالا وقال إنه قد يباع فى مالى بأربعين مثقالا ، ومالى قريبة من تغازَى فما بالنا بما يباع به فى أراضى السودان البعيدة . وقال الشنقيطى إن كل ما عند أهل السودان من الخيل والثياب والزروع والعبيد كانوا يبيعونه – أو يبادلونه – بالملح . ومما يأتى به بائع الملح من هناك القماش المعروف بالأكحال وأردية يسمونها « ديماس وديسة » وبنائق والفولُ المعروف عند المصريين بفول السودان وعند أهل الشام بالفستق وعند أهل الحجاز باللوز الهندى . وهذه هى التجارة العامة فى موريتانيا وتليها التجارة فى الصمغ ، ويجنيه أهل القبلة من الأنحاء التى يكثر فيها القتاد أو الشوك وكذلك أهل الحوض . ولم يكن أهل موريتانيا يعرفون النقود فكانوا يتبادلون فى الكثير الأكثر القماش الذى يحتاجونه لملابسهم بالغنم ، وكان الثلاثون ذراعا من القماش تسمى باسم البيصة ، وهى الوحدة التى يرجعون إليها فى ثمن الأنعام والعبيد فيقولون مثلا هل تبيع هذا العبد أو ذلك البعير أو هذا الثور بعشر بيصات أو يقولون مثلا بكم أشترى بالبيصة من الغنم فيقال ثلاث أو أربع ونحو ذلك . وإذا كان البيع أو التبادل بين الأنعام بعضها وبعض فيقولون مثلا ثمن هذا البعير أربعة عجول من البقر أو ثمانية من الغنم .

وليس فى موريتانيا سوى صناعات أولية بسيطة ، وكان فيها حدادون بسطاء يصنعون الفئوس والخناجر وآلات الحراثة ، وكان بها دباغون يدبغون الفراء وجلود الأنعام ، وبعض النساء كن يَخِطن ما يصنع من الجلود ، وكان بينهم من يصنع أوانى الخشب ، وكل تلك صناعات يدوية أولية .

(د) حياة بدوية

لم يكن فى موريتانيا حكومات منظمة ، فقد كانوا لا يزالون يعيشون معيشة بدوية فى المدن التى أقاموها وسكنوها . ومثل قبائل البدو كان هناك سادة وشيوخ لعشائرهم يطيعونهم ، وكانت القبيلة أو البلدة تتخذ لها قاضيا ترجع إليه فى قضاياها ، وكانوا لا يرجعون إليه إلا فى المسائل الكبرى أو القضايا الكبرى كما إذا حدث قتل فكانوا يلجئون إليه للقصاص ، وحتى فى هذه القضية الكبرى كان سادة القبائل أو كما يسميهم الشنقيطى أمراء القبائل لا ينفذون الحكم ، أو يطيلون التنفيذ ليأخذوا الرشوة ، ويقول : « ربما أوعز الأمير إلى القاضى ليحكم بما يهوى » . وفى أحوال كثيرة لم يكن هناك قاض فكان المتنازعان يحتكمان إلى شخص ليستمع حججهما ، وقد يطلب من المدعى الشهود ، وتشترط العدالة فى الشاهد ، وإذا حَكم رضخ المدعى لحكمه إلا إذا أفتاه أحد العلماء بالخطأ فى الحكم ، وربما ظلت القضية سنوات حتى يتفق رأى العلماء فيها .

وكان الزواج عندهم – ولا يزال – على مذهب الإمام مالك لأنهم مالكية مثل بقية بلدان المغرب ، ومنهم من يأخذ الصداق كاملا ومنهم من يكتفى بنصفه ، ومنهم من لا يأخذه البتة ،

والجهاز بحسب العرف . وعلى وليّ الزوجة أن يقيم قبل بناء الزوج بها وليمة ، وتُحْمَلُ منها موائد إلى أقارب الزوج ، وتبعث الزوجة بتلك الموائد فى كل عيد ، وتبعث نساؤهم بموائد مماثلة إلى الزوجة ، لتسود المودة والمحبة بينهم جميعا .

٢

الثقافة(١)

(أ) نشاط دينى تعليمى كبير

من المعروف أن الإسلام لم يدخل شعبا ولا بلدًا إلا دفعهما دفعا إلى العلم والتعلُّم ، وقد كانت أول آيات نزلت منه على الرسول ﷺ ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم الذى علَّم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم﴾ وآيات قرآنية أخرى كثيرة تحض على العلم كما تحض عليه أحاديث نبوية متعددة .

ومعنى ذلك أن الإسلام والعلم متلازمان ، وأن العلم لا ينفك عنه أبدا ، وكان المسلمون الأولون بمجرد أن يفتحوا بلدا يقيمون فيه مسجدا ، ويقيمون بجانب المسجد كتّابا لتحفيظ القرآن الكريم للناشئة ، حتى إذا حفظ الناشئ القرآن ورتّله أو جوّده تحوّل إلى حلقة أحد العلماء فى المساجد يأخذ عنه الفقه والحديث والعلوم الإسلامية. كما يأخذ عنه العربية وقواعدها وآدابها من شعر ونثر . وكما يحدث ذلك فى المدن يحدث فى أحياء البدو وبصور مختلفة ، هيأت دائما كما هيأت صور التعليم فى المدن لظهور فقهاء يفقهون الدين الإسلامى وتعاليمه وما فرض من الصلاة والصيام والزكاة والحج وظهور نحاة ولغويين يحسنون العربية وقواعدها وتعليمها للناشئة .

وكل ذلك حدث فى موريتانيا مع انتشار الإسلام فى بلدانها وبين قبائلها البدوية منذ القرنين الثالث والرابع حين أصبحت هناك قبائل تعمل على نشر الدين الحنيف ، واتسع ذلك فى القرن الخامس الهجرى حين نزل الشيخ عبد الله بن ياسين فى قبائل لمتونة وأخواتها الصحراويات بموريتانيا : مسوفة وكدالة وجزولة ولمطة ، وسمّى أتباعه هناك المرابطين أى المجاهدين الذين رصدوا أنفسهم للجهاد فى سبيل الله وإعلاء كلمته ودينه ، ومضى مع يحيى بن عمر اللمتونى ثم مع أخيه أبى بكر يدعو أهل السودان الغربى – كما مرَّ بنا – إلى الإسلام ،

---

(١) انظر فى ثقافة موريتانيا وصف إفريقيا للحسن الوزان فى مواضع مختلفة من كتابه ، وراجع كتاب الوسيط فى تراجم أدباء شنقيط سواء فى التراجم أو فى حديثه عن التعليم والعلماء والطلبة ، وبالمثل راجع فصل مظاهر الثقافة العربية الإسلامية فى كتاب الشعر والشعراء فى موريتانيا للدكتور محمد المختار ولد اباه وكذلك كتابه دراسات فى تاريخ التشريع الإسلامى فى موريتانيا .

وتوفى – كما أسلفنا – فى جهاد برغواطة الضالة فى المغرب الأقصى وقضى عليها قضاء مبرما أبو بكر ، وعاد بشطر كبير من جيشه إلى قواعده بمنطقة أدرار فى موريتانيا وأخذ يعد حملاته إلى أنحاء السودان الغربى ، ودان له ودخل كثيرون من أهله فى الإسلام وتحولت كثرة من جيشه ، يعلمون أهل السودان الغربى شئون دينهم ، ويحفظونهم القرآن الكريم .

وذلك كان فضلا عظيما لصنهاجة موريتانيا ، وعاد كثيرون منهم إلى موريتانيا سوى من كانوا لا يزالون بها ، وفى كل بلدة وفى كل حى من أحياء القبائل البدوية كانت الناشئة تدوِّى – دوىَّ النَّحْل – بآى القرآن الكريم ، وكانوا – بعد ترتيله أو تجويده – يلتحقون ببعض العلماء ، ولكن ليس فى أيدينا شىء سجلوه عن التعليم فى ديارهم ، إنما تُلْتَقَطُ – منذ القرن السادس الهجرى – أخبار العلماء وأسماؤهم التقاطا ، كأن يقال إن غزو قبائل الصوصو لعاصمة غانة : كومبى صالح سنة ٦٠٠ هـ/١٢٠٤ م جعل الشيخ إسماعيل وبعض علمائها يفرّون منها مع فريق من المسلمين إلى ولاته ، مما أحالها مركزا تجاريا مهما وأحدث بها حركة علمية نشيطة ، ولا نعود نسمع عن ولاته أخبارا ، حتى إذا كانت سنة ٧٥٣ هـ/١٣٥٢ م زارها ابن بطوطة ونوَّه بإكرام أهلها وقاضيها له ، ونمضى إلى سنة ٨٧٣ هـ/١٤٦٨ م فيغزوسن على ملك صنغى تمبكتو ويشعل فيها النيران ويقتل خلقا كثيرا ، ويرحل منها فقهاؤها إلى مدينة ولاته وفى مقدمتهم عمر بن محمد أقيت وأولاده وكلهم أصبحوا فقهاء ، ولقى بها فقيهها ومحدثها الإمام الزمورى ، وأجازه كتاب الشفاء للقاضى عياض السبتى المتوفى سنة ٥٤٤ هـ/١١٤٩ م ، وسمعه منه معه وأجازه صهره الفقيه المختار النحوى المتوفى سنة ٩٢٢ هـ/١٥١٦ م . ويذكر الحفناوى فى كتابه تعريف الخلف برجال السلف فقيها من فقهائها هو عبد الله بن عمر المسوفى المولود سنة ٨٦٦هـ/١٤٦١م والمتوفى سنة ٩٢٩ هـ/١٥٢٢ م ويقول إنه كان غاية فى الزهد والورع . وكان يعاصره فى مدينة وادان الفقيه محمد بن أحمد بن أبى بكر الوادانى وله شرح على مختصر خليل فى مجلدين سماه « موهوب الجليل بشرح خليل » وكان حيا سنة ٩٣٣ هـ/١٥٢٦ م . ويذكرون عن مؤسس مدينة تشيت فى القرن السادس الهجرى الشريف عبد المؤمن أنه كان تلميذا للقاضى عياض ولابد أنه أسس فيها حركة علمية على عادة الفقهاء ، غير أنه ليس بين أيدينا شىء عنها وكذلك عن مثيلاتها فى شنقيط وغيرها من مدن موريتانيا فى القرن العاشر الهجرى وما قبله من القرون .

(ب) التعليم والطلاب والشيوخ

الأخبار عن الحركة العلمية فى موريتانيا إنما تأخذ فى النمو منذ القرن العاشر الهجرى حين تم تعربها بفضل قبائل المعقل العربية : حسان وغيرها ، ويسوق الشنقيطى فى كتابه تراجم أدباء شنقيط وكذلك الدكتور محمد المختار ولد إبَّاه فى كتاباته أخبارًا مختلفة عن تلك الحركة ،

فمن ذلك أنهم كانوا يختبرون الصبي إذا بلغ خمس سنوات من عمره في حفظ الأعداد الأولى من واحد إلى عشرة فإذا تعلمها وذكرها سريعا أخذوا في تعليمه الحروف الأبجدية ثم يعلمونه الحركات : الضمة أو الرفع والفتحة أو النصب والكسرة أو الجر ، ثم يحفظونه القرآن الكريم ، ويذكر الشنقيطي أن كثرة معلمي الصبية في هذه الدورة كُنَّ من النساء ، مما يدل على أن النساء في موريتانيا كن يتعلمن حتى يصبحن صالحات لتعليم الصبية . ويقول الحسن الوزان في حديثه عن مدينة تشيت إن « النساء هن اللائي يتعلمن ويقمن بدور معلمات المدرسة للفتيات والفتيان » وبعد حفظ الصبي القرآن وتعليمه الكتابة يبدأ في الالتحاق بشيخ ليتعلم على يديه بعض العلوم . والبيئات تختلف في نوع العلوم التي يبدأ الصبي بتعلمها في سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة ، بعد حفظ القرآن فأهل منطقتي آدرار وتكانت ومن حذا حذوهما يبدأون بتعليم الفقه على مذهب الإمام مالك في متن مختصر لعبد الرحمن الأخضري الجزائري ومنظومة لابن عاشر في الفقه ثم ينقلونه إلى دراسة رسالة ابن أبي زيد رئيس المالكية في القيروان والبلاد المغربية ، ثم يدرس مختصر خليل بن إسحق المالكي المصري وبعض شروحه . وبلدان أخرى يبدأ فيها الناشيء بدراسة بعض دواوين العرب والعقائد الأشعرية وتآليف السنوسي الجزائري في علم التوحيد ثم يقرءونه الفقه والنحو . وبلدان تبدأ بتعليم علوم البلاغة والمنطق .

ولم تكن هناك حكومة أو جهات تنفق على الطلبة والعلماء ، وكان الطلبة يؤمون – في أحيان كثيرة – علماء بعيدين عن أوطانهم ، فكيف يتعيش الطالب الموريتاني إذن ، يقول الشنقيطي إن أكثر الطلاب يأخذ الواحد منهم بقرة حلوبا أو بقرتين وربما ثلاثا ، وإذا كان الشيخ صاحب إبل أخذ الطالب ناقة أو ناقتين وربما ثلاثا ، ويتجمع الطلاب ساعة الحلب ويتناول كل منهم ما يكفيه من اللبن . ويتناوبون رعي بقرهم ونوقهم ، ويأخذ راعيها معه كتابه أو لوحه ، ويقرأ في الكتاب أو يحفظ ما في اللوح ، وبالمثل يتناوبون سقي نوقهم أو بقرهم . ومع هذه المشقة كان طلاب موريتانيا يقبلون على دروس العلماء الكبار . وكان العلماء – مثل الطلاب – لا ينفق عليهم أحد ما يستعينون به في حياتهم ومعيشتهم ، ولم يكن أحد من الطلاب يعطيهم شيئا نظير تعلمه ، بل على العكس كانوا يعطون المحتاجين من الطلاب بعض ما ينفقونه . ولم يكن في موريتانيا مدارس بالمعنى المعروف إنما كان فيها محاظر منتشرة في مدنها ومراعيها من ضفاف نهر السنغال إلى الساقية الحمراء غربا وفي الحوض جنوبا وفي الصحاري الشرقية حيث ترى شيخا بدويا كسائر البدو متقشفا في ملبسه بالمراعي وبالمثل في المدن ، وترى أمام بيته أو خيمته طائفة من الشبان كثيرة أو قليلة تسكن تحت الشجر أو تحت عريش من الخشب ، ومنذ الضحى يلتفون حول الشيخ ، وقد يدعوهم إلى بيته أو يلتقي بهم في مسجد ، وقد يلقي الدرس جالسا أو قائما ، وقد يلقيه خارج بيته والمسجد ماشيا ، وقد

يقرأ الطلاب نصا بعينه مع شيخهم . وقد يُقرئهم ويعلمهم أشتاتا ، وهو الغالب ، فالطالب يختار مادة قراءته حسب حاجته من فقه أو نحو أو بلاغة ، وترى الشيخ مثلا يدرس لعشرة من الطلاب ألفية ابن مالك وطالب يقرأ من أولها وثان من وسطها وثالث من أواخرها ويشرح لكل طالب ما يقرؤه ، وهكذا فى الفقه وغيره من العلوم . ومثلا ثانيا إذ يستمع الطلاب إلى شيخ يشرح نصا فى مختصر خليل فى الفقه ، إذا هو ينتقل إلى باب من ألفية ابن مالك ، ثم إلى درس فى علم التوحيد أو فى علم المنطق أو فى العروض ، وقد ينتقل من ذلك إلى شرح بعض أشعار الجاهليين أو الإسلاميين . وتعجب إذ ترى هذا الشيخ العالم يسوق فى الصباح بقرة إلى موضع للرعى ، والقدوم على عاتقه يقطع به أعوادا من الشجر ليبنى بها بئرا ، ويذهب إليه ليرى المكلفين بالعمل فيه ، ويعود - بعد ذلك - ليدرس لتلاميذه طوال النهار ، حتى إذا انتهى من صلاة العشاء ونام الناس أخذ يعنى بتصنيف كتاب له أو بالقراءة فى بعض الأمهات والأصول من الكتب .

(جـ) أمهات الكتب والمتون والشروح المتداولة

على سنة البلاد العربية جميعا حازت موريتانيا لنفسها كثيرا من أمهات الكتب ومتونها المشهورة وشروحها ، واعتمدوا فى كثير منها على أعمال الأندلسيين والمغاربة وبالمثل أعمال المصريين إذ كان بعض شبابها يتلقى العلم عن أساتذته فى البلاد المغربية والمصرية ، وطبيعى أن يكثر الواردون منهم على علماء فاس وغيرها من البلاد المغربية . وكان منتشرا فى مكتبات البلدان والقبائل فى القراءات كتاب التيسير فى القراءات السبع لأبى عمرو عثمان بن سعيد الدانى وقصيدة « حرز الأمانى فى القراءات » للشاطبى الضرير القاسم بن فيرُّه وهى ألف ومائة وسبعة وثلاثون بيتا ، ويقول ابن خلدون : « استوعب الشاطبى ما دوَّنه الدانى فى القراءات بقصيدته ، وعُنى الناس بحفظها وتلقينها للولدان المتعلمين ، وجرَى العمل على ذلك فى أمصار المغرب والأندلس » .

وكانوا يعتمدون فى التفسير كما يقول الدكتور محمد المختار - على كتاب التفسير الكبير لابن عطية الأندلسى قاضى المرية ، وهو من أهم الكتب فى التفسير وسماه الوجيز فى التفسير تواضعا وهو فى مجلدات ضخمة ، ويقول ابن خلدون إنه لخَّص فيه التفاسير المأثورة كلها وتحرَّى الأقرب منها إلى الصحة . وتداول تفسيره بعده أهل المغرب والأندلس . واعتمدوا أيضا على تفسير القرطبى المسمى « جامع أحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة وآى القرآن » وهو فى عشرين مجلدا سار فيه على نهج ابن عطية السنى .

وكانوا يتداولون فى الحديث النبوى كتب الصحاح الستة للبخارى ومسلم والترمذى وابن ماجة وأبى داود والنسائى ، ويقول الدكتور محمد المختار إن أهم محدث كانوا يعنون بكتبه

أبو الوليد الباجي الأندلسي ، وخاصة كتابه المنتقى فى شرح الموطأ وتخريجه لما فيه من الأحاديث ، ويذكر أن الموريتانيين عنوا عناية خاصة بكتابه وبشعره وأدبه .

وكانوا يعكفون فى الفقه المالكى على منظومة ابن عاشر ورسالة ابن أبى زيد القيروانى ومختصر خليل بن إسحق وشروحه ، وعنوا بدراسة كتابات أبى عمرو يوسف بن عبد البر الذى تعتز به المالكية وبكتاباته فى الفقه المالكى وفى مقدمتها التمهيد والاستذكار وكتاباته التاريخية وفى مقدمتها الاستيعاب فى تراجم الصحابة ، وبالمثل عنوا فى الفقه المالكى بكتابات ابن رشد الفقيه الكبير جد ابن رشد الفيلسوف وكتاباته الفقهية من مثل البيان والتحصيل ومقدماته على المدونة .

ومن كتب النحو التى كانوا يتداولونها متن الآجرومية لابن آجروم الصنهاجى ، وكان الأزهر فى مصر إلى عهد قريب يبدأ به دراسة النحو لطلابه ، وعنوا بألفية ابن مالك وشروحها وبكتابه لامية الأفعال ، وعنوا بألفية السيوطى المسماة الفريدة وبكتب نحوية مختلفة سيأتى ذكرها فى الترجمة لعلماء العربية .

وعنوا فى علم الكلام والتوحيد بالعقائد الأشعرية وكتابات السنوسى والجزائرية وإضاءة الدجُّنة للمقَّرى ، وكانوا يقرءون متن السلم للأخضرى فى المنطق . ودرسوا شرح الأعلم الشنتمرى للشعراء الستة : امرىء القيس والنابغة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة . وعرفوا أهم الكتب الأدبية ، وفى مقدمتها الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى والأمالى لأبى على القالى والكامل للمبرد وزهر الآداب للحصرى وبهجة المجالس لابن عبد البر وخزانة الأدب للبغدادى كما عرفوا دواوين كثيرين من الشعراء على مر العصور .

وهذا الحشد من المؤلفات التى كانت متداولة فى موريتانيا ، والتى عنى بإحصائها الدكتور محمد المختار فى مقدمات كتابه : « الشعر والشعراء فى موريتانيا » يدل بوضوح على أن موريتانيا — وإن لم تقم على شئونها قبل العصر الحديث دولة تنظم ثقافتها وحياتها العلمية — فإنها استطاعت بفضل عنايتها بالعلوم الإسلامية أن تصبح ذات ثقافة علمية قيمة وأن يصبح لها علماء فى مختلف فروع العلوم الإسلامية والعربية .

(د) أعلام العلماء فى موريتانيا

نتوقف قليلا لنعرض أعلام موريتانيا من العلماء ممن ترجم لهم الدكتور محمد المختار ترجمات مفصَّلة فى كتابه : « دراسات فى تاريخ التشريع الإسلامى فى موريتانيا » وسنعرضهم عرضًا تاريخيًّا موزعين على العلوم الإسلامية والعربية ونضم إليهم طائفة من العلماء المترجم لهم عند الشنقيطى فى القرن الثالث عشر الهجرى قبل العصر الحديث . ومن الصعب الدقة فى هذا

التوزيع لأن العلماء كانوا غالبا موسوعيين ، ولذلك كثيرا ما يقال عن العالم إنه فقيه محدث متكلم نحوى ، وتحار أى مجموعة من العلماء تضعه فيها ، أو يقال مثلا إنه جامع لأنواع العلوم من تفسير وحديث وفقه وأصول ونحو ولغة ، ومع ذلك سنحاول هذا التوزيع لتدل على أن النشاط كان متسعا فى مختلف العلوم .

(هـ) القراء والمفسرون والمحدثون والفقهاء

أول من يلقانا من علمائهم قراء الناشئة ويعدون بالعشرات إن لم يكن بالمئات من مثل محمد بن أبى بكر من ولاته المتوفى فى القرن الثانى عشر الهجرى وكان ملازما لإقراء الناشئة ، صوفى النزعة . ومن أئمة القراءات عبد الله بن أبى بكر التنواجيوى رحل إلى أحمد الحبيب اللمطى السجلماسى وقرأ عليه السبع وكان يدرس لطلابه الشاطبية ويفسرها لهم توفى سنة ١١٤٥ هـ/١٧٣٢ م ومن تلاميذه عمر بن أحمد الإيديلبى كان قارئا بالسبع ، توفى سنة ١١٥٢ هـ/١٧٣٩ م وظلت إمامة القراءات فى بيت التنواجيويين واشتهر بالإمامة فيها الشيخ أحمد بن محمد التنواجيوى المتوفى سنة ١٢١٠ هـ/١٧٩٥ م وكانت أكثر عبادته إقراء القرآن ، وقد أخذ القراءات السبع عن محمد بن عبد الله التنواجيوى .

ويذكر كثيرا عن هذا العالم أو ذاك أنه كان يفسر القرآن الكريم بجانب ما كان يلقى على طلابه من دروس فى الفقه أو فى النحو أو فى علم الكلام أو فيها جميعا ، وكثيرا ما يُذكر مع المحدثين أنهم كانوا يعنون بتفسير الذكر الحكيم ، واشتهر منذ النصف الأول من القرن الحادى عشر الهجرى محمد بن سعيد اليدالى الديمانى بتفسير قيم لكتاب الله العزيز فى مجلدين سماه « الذهب الإبريز على كتاب الله العزيز » . ويلقانا بعده المختار الكنتى وتفسيره للبسملة ولسورة الفاتحة .

ونلتقى بكثير من أئمة الحديث مثل محمد بن الحاج عثمان الجمانى فى النصف الأول من القرن الحادى عشر وهو تلميذ نور الدين الأجهورى شيخ المالكية فى مصر ، ومن أئمة المحدثين عمر بن محمد بن عبد الله المحجوبى المتوفى سنة ١٠٧٠ هـ/١٦٥٠ م وله فى صحيح البخارى سند يصله بمؤلفه وله مصنفات كثيرة منها مقدمة فى الفقه فأرجوزة فى علم الكلام ، ومنهم سيد عثمان بن عمر المتوفى سنة ١١٢٨ هـ/١٧١٦ م بولاته ، وكان يقرىء صحيحى البخارى ومسلم وموطأ مالك وفيها جميعا وفى كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضى عياض أجيز بروايتها جميعا من جلة العلماء فى مصر والمدينة المنورة وموريتانيا . ومنهم عمر بن باب وكان يقرأ صحيح البخارى فى المسجد وسنذكره بين النحاة . ومنهم محدث مدينة أروان أحمد بن البشير حامل روايات صحيحى البخارى ومسلم والشفاء ، وكان يضيف إلى الحديث

التفسير وقراءة نافع برواية قالون ، توفى سنة ١١٨٤ هـ/١٧٧١ م . ومنهم أحمد بن خليفة محدث شنقيط المتوفى سنة ١١٨٨ هـ/١٧٧٥ م وكان يقرىء صحيح البخارى وكتاب الشفاء للقاضى عياض .

وللفقه أعلام كثيرون من الفقهاء كانوا منبثين فى كل بلد وكل حىٍ من أحياء القبائل نذكر منهم الفقيه محمد الملقب بالتنبكتى المتوفى سنة ١٠٥٠ هـ/١٦٤١ م وكان قاضى مدينة ولاته وعالمها ، ومنهم أحمد بن القاسم الحاجى فقيه وادان وله شرح على مختصر خليل بن إسحق ، توفى سنة ١٠٨٦ هـ/١٦٧٦ م وحمل عنه تلميذه أحمد أبو الأوتاد مختصر خليل وشرحه إلى تشيت . ومنهم سيد أحمد الولى بن أبى بكر المحجوبى قاضى ولاته وإمامها ومدرسها وكان ماهرا فى التفسير والنحو ويحفظ مقامات الحريرى ، توفى سنة ١٠٩٥ هـ/١٦٨٤ م . ومنهم الفقيه محمد بن أبى بكر الغلاوى وكان عالما بالفقه والنحو مطلعا على دقائقهما بصيرا بالفتوى فى النوازل مطلعا على كتب الفقه المالكى المعتمدة ، وله رسالة فى علم الكلام باسم عقيدة التوحيد ، توفى سنة ١٠٩٨ هـ/١٦٨٧ م . ومنهم الفقيه محمد المختار ابن الأعمش وهو إمام كبير وتلاميذه كثيرون انبثوا فى أنحاء موريتانيا توفى سنة ١١٠٧ هـ/١٦٩٦ م . ومنهم الحسن بن أغبد فقيه تشيت ، درس وأفاد وأحيا بفتاويه سبيل الرشاد ، وكان يقال من فاته الحسن البصرى بمواعظه فعليه بالحسن اليوسى (المترجم له فى المغرب الأقصى) ومن فاته اليوسى فعليه بالحسن بن أغبد ، وكان إماما فى الفقه والحديث مستحضرا لهما مشاركا فيهما ، وكان قيما على مختصر خليل حسن الإقراء له ، وله منظومة فى مصطلح الحديث سماها روضة الأزهار وجعل عليها شرحا باسم قرة الأبصار ، وله منظومة أخرى فى التوحيد سوى فتاوى مفيدة ، توفى سنة ١١٢٣ هـ/١٧١١ م . ومنهم محمد بن أبى بكر المحجوبى الولاتى فقيه ابن فقيه ابن فقيه ثلاثة فى نسق وكان جامعا لأنواع العلوم من تفسير وحديث وفقه وأصول ونحو ولغة وله منظومة فى علم أصول الدين ، ولعلها فى التوحيد ، توفى سنة ١١٣٧ هـ/١٧٢٤ م . ومنهم أحمد ابن إند عبد الله بن على المحجوبى ، وإليه انتهت رياسة الفتوى والقضاء فى مدينة ولاته ، وله منظومة فى علم الكلام وأخرى فى الفرائض (المواريث) حجَّ فى ركب من أهله ، ولقى كبار العلماء وأخذ عنهم ، توفى سنة ١١٤٠ هـ/١٧٢٧ م . ومنهم سيد أحمد الشواف قاضى وادان كان فقيها محدثا وشيخا صالحا وله فتاوى فقهية ، وهو من تلاميذ الحسن بن أغبد فقيه تشيت ، توفى سنة ١١٤٠ هـ/١٧٢٧ م مثل سابقه . ومنهم الشيخ أحمد بن محمد الجمانى ، له فتاوى فقهية وهو أيضا تلميذ الحسن بن أغبد ، توفى سنة ١١٥١ هـ/١٧٣٨ م . ومنهم الشريف أحمد بن فاضل ، وهو من تلامذة الحسن بن أغبد ، وكان إماما عالما ، وكان المفزع إليه وإلى أخيه فى الفتيا ، وله ولأخيه فتاوى مجموعة ، توفى سنة ١١٥٣ هـ/١٧٤٠ م . ومنهم محمد بن الحسن بن أغبد كان يتقن الفقه والحديث والنحو فيقرىء طلابه رسالة ابن أبى زيد

الفقهية ومختصر خليل ويحدث بصحيح البخارى ويدرس ألفية ابن مالك وكانت له حلقة كبيرة يؤمها الطلاب فى تشيت ، وكان يدرس للرجال نهارًا وللنساء ليلا ، توفى سنة ١١٥٩ هـ/١٧٤٦ م . ومنهم الشريف حَمَى الله ابن الشريف أحمد الحسنى ، وكانت له فتاوى فقهية متداولة فى موريتانيا ، وله شرح منظومة الأوجلى فى التوحيد ونظم صغرى السنوسى فيه ، توفى سنة ١١٦٩ هـ/١٧٥٥ م . ومنهم إند عبد الله بن أحمد المحجوبى قاضى ولاته ، برع فى الفنون كلاما وفقها وأصولا ونحوا ومنطقا ، له فتاوى فقهية وشرح على لامية الزقاق فى مجلد ضخم ، توفى سنة ١١٧٢ هـ/١٧٥٩ م ومنهم سنبير قاضى أروان وكان بحرا فى الرواية والدراية توفى سنة ١١٨٠ هـ/١٧٦٧ م . ومنهم عمر الخطاط ، كان من الفقهاء البارعين ، وكان يقرىء الطلاب مختصر خليل قراءة تحقيق ، وكثر تلاميذه وطلابه حتى ربما بلغوا فى حلقته المائة ، توفى سنة ١١٩٦ هـ/١٧٨٢ م ومنهم عبد الله بن عبد الرحمن التشمشاوى الديمانى له شرح فى جزء على مختصر خليل فى الفقه المالكى سماه : « شفاء الغليل وراحة العليل على مختصر الشيخ خليل ، توفى سنة ١٢١٢ هـ/١٧٩٨ م . ومنهم عبد الله بن أحمد الغلاوى البكرى ، فقيه أهل الحوض ، وله منظومات علمية كثيرة ، توفى فى صدر القرن الثالث عشر الهجرى . ومنهم عبد الله بن إبراهيم بن الإمام العلوى فقيه تيججكه ، كان عالما فقيها محدثا أصوليا بيانيا مفتيا ومدرسا ، وله منظومات فى علم الحديث وفى علم البيان وأعجب به محمد بن عبد الله سلطان المغرب الأقصى فأهداه خزانة كتب كبيرة نفيسة جدا ، وحج واجتمع بعلماء القاهرة وسمع به محمد على والى مصر فأكرمه ، توفى سنة ١٢٣٣ هـ/١٨١٧ م . ويتكاثر الفقهاء فى القرن الثالث عشر الهجرى ومنهم باب بن أحمد بيب ، وله شرح على كتاب التحفة لابن عاصم ، وكان ابن فرحون انتهى فى ترجماته لفقهاء المالكية بكتابه الديباج عند القرن السابع فأكمل ترجمة نظرائهم من الفقهاء حتى القرن الثانى عشر الهجرى/الثامن عشر الميلادى ، توفى سنة ١٢٧٦ هـ/١٨٥٩ م وكان ابنه التجانى فقيها مثله درس عليه فى أول أمره وعلى والدته الصالحة العالمة خديجة بنت المختار بن عثمان ، وكان من أعاجيب الدهر فى الذكاء ، وكان عالما بفن السِّير والفقه والأصول والبيان والنحو والتصريف واللغة والمنطق ، وله نظم فى أزواج الرسول ﷺ وأولاده وله عليه شرح نفيس مجلد ، ونظم ورقات أبى المعالى إمام الحرمين فى علم الأصول ، توفى قبل أبيه بنحو عشرة أعوام . ومنهم الشيخ سيدِىّ الأبْيَرِىّ الكبير ، وكان عالما بالفقه والنحو ودقائقهما وله شرح على مختصر خليل باسم مرآة النظر فى وجوه خبايا المختصر ، وشرح ثان على باب الفرائض منه ، توفى سنة ١٢٨٤ هـ/١٨٦٧ م . ومنهم محمد بن محمد سالم المجلسى ، وله فى شرح مختصر خليل شرح باسم : لوامع الدرر فى هتك أستار المختصر ، توفى سنة ١٣٠٢ هـ/١٨٨٥ م .

(و) أعلام النحاة والمتكلمين

نستطيع أن نقول إن كل هؤلاء الفقهاء كانوا يتقنون العربية وقواعدها النحوية إتقانا حسناً ، وممن اشتهروا بعلم العربية وتعليمها المختار النحوى الذى رحل فرارا من سُنٍّ على حين استولى على تنبكتو مع صهره الفقيه المتقدم ذكره عمر بن محمد أقيت ونزل معه ومع أبنائه الفقهاء مدينة ولاته وظل بها يدرس النحو لطلابه إلى أن توفى سنة ٩٢٢ هـ/١٥١٦ م . وتزدهر الدراسات النحوية منذ القرن الحادى عشر الهجرى/السابع عشر الميلادى ونلتقى فى صدره بمحمد بابا بن محمد الأمين ، وله عدة مصنفات ، أهمها شرحه لألفية السيوطى فى النحو وسماه المنح الحميدة فى شرح الفريدة ، توفى سنة ١٠١٤ هـ/١٦٠٥ م . وممن نلتقى به بعده من النحاة فى آخر القرن وصدر القرن التالى أبو بكر الطفيل بن أحمد وكان نحويا فقيها منطقيا ونظم كتاب قطر النَّدَى فى النحو لابن هشام فى أربعمائة بيت ، توفى سنة ١١١٦ هـ/١٧٠٤ م وكان يعاصره محمد بن موسى بن إيجل علامه تشيت وكان فقيها نحويا لغويا أصوليا بيانيا عروضيا منطقيا ، وله فى النحو أوراقه المشهورة التى انتفع بها طلبة موريتانيا سماها : « كشف النقاب فى قواعد الإعراب » وشرحها ، وله فى علم المنطق كتاب : « رَتْق الحجر العَلِق فى أصول وفصول المنطق » توفى سنة ١١١٧ هـ/١٧٠٥ م . ومن نحاة القرن الثانى عشر منير بن حبيب الله ، له شرح مفيد على الخلاصة رتب فيه توضيح ابن هشام ، وكان يقرىء الألفية لابن مالك ، توفى سنة ١١٦٢ هـ/١٧٤٩ م . ومنهم أحمد بن أحمد بن الإمام كان فقيها نحويا لغويا محققا ، وكان يقرأ لطلابه ألفية ابن مالك قراءة تحقيق وتدقيق ، توفى سنة ١١٧٨ هـ/١٧٦٥ م . ومنهم الشريف المختار بن أحمد ين الإمام أحمد الإدريسى كان هو وأخواه من العلماء النجباء ، وكان يقرىء تلاميذه ألفية ابن مالك مستفيضا فى الشرح والتحقيق ، توفى سنة ١١٨٠ هـ/١٧٦٧ م ، ومنهم الإمام عمر مم الولاتى ، كان نحويا لغويا أديبا أخذ الناس عنه العربية وكان يقرىء طلابه الآجرومية وألفية ابن مالك ولاميته فى التصريف قراءة بحث وتحقيق ، كل مرة يزيد البحث فيها عن المرة السالفة ، توفى سنة ١٢٠١ هـ/١٧٨٧ م . ومنهم عبد الله بن الطالب أحمد الشنقيطى ، كان عارفا بأصول الدين قارئًا فائقًا فى العربية وعلوم البلاغة لا يبارى - كما يقولون - ولا يجارى ، له مؤلفات مختلفة فى القراءات السبع والفقه والحديث ، وله شرح على الكافية لابن الحاجب ومقدمة فى النحو للمبتدئين ، وشرح على الألفية ، وله شرح كبير وصغير لقصيدة بانت سعاد وشرح للامية العرب ، وشرح على نظم التلخيص للقزوينى وشروح أخرى كثيرة ، توفى سنة ١٢٠٩ هـ/١٧٩٥ م . ومنهم محمد بن أحمد بن الطالب الأمين كان نحويا لغويا عروضيا متكلما ، وكان يقرىء طلابه فى النحو الآجرومية وألفية ابن مالك ولامية الأفعال ، وكان يقرئهم فى العروض متن الخزرجية ، توفى سنة ١٢١٥ هـ/١٨٠١ م . ومنهم المختار بن بون العالم النحوى الكبير ، وكان العلماء

قبله لا يكادون يتجاوزون ما فى الألفية وشروحها فنظم لهم وألف كتبا مفيدة ذكر فيها لكل مسألة الشواهد من كلام العرب ، فذلّل لهم بذلك النحو وقواعده ، واستقدمته قبائل الزوايا لتعليم أبنائهم العربية ، وله مقدمة فى النحو ألفها للمبتدئين ، توفى حوالى سنة ١٢٢٠ هـ/١٨٠٦ م . وتعاقبت له مدرسة حتى نهاية هذا العصر قبل العصر الحديث وما فرض على موريتانيا من الحماية الفرنسية ، إذ تتلمذ له بُلاًّ البوحسنى الشقراوى ، وكان عالما مشهورا ونحويا كبيرا ، وهو أحد من تخرجوا على يديه ، ومن أهم تلاميذ بُلاًّ عبد الودود بن عبد أُلّ ، وهو – كما يقول الشنقيطى –نحوى شهير ، انفرد به من غير نكير ، أوضح للناس أسراره ، وأعلى مناره ، وبلغ فيه مبلغا لم يبلغه غيره ، وتخرج على يديه الحسن بن زين ، ويقول الشنقيطى له استدراك على لامية الأفعال لابن مالك ، وتخرج على يديه سيبويه البلاد ، يحظية بن عبد الودود ، توفى قريبا من سنة ١٣٢٠هـ/١٩٠٣م .

ومن العلوم التى اهتم بها العلماء فى موريتانيا علم الكلام أو التوحيد ويتردد فى نعت كثير من فقهائهم ونحاتهم أنهم كانوا متكلمين ، وممن ألف فى علم الكلام ميكرا محمد بن أحمد الحسانى المعقلى ، وله فيه شرح الصغرى للسنوسى ، توفى سنة ١٠٤٨ هـ/١٦٣٩ م . وكان عمر الولاتى الملقب بالخطاط أشعرىَّ العقيدة ، وكان مداوما على علم الكلام قراءة ونقلا وتعليما ، وكان يقول : لو علمتُ عقيدة من علم الكلام لا أعرفها وفى مصر من يعرفها لرحلت إليه حتى أتعلمها ، وكان يقرىء فيه كتب السنوسى ودليل القائد والجزائرية وإضاءة الدجنة للمقرى ، توفى سنة ١١٠٧ هـ/١٦٩٥ م . ومنهم الطالب الأمين بن الحبيب الخرشى كان غاية فى علم التوحيد ، يقرىء عقيدة السنوسى المعروفة بأم البراهين وعقيدته الصغرى وإضاءة الدجنّة ومنظومة الجزائرى ودليل القائد قراءة تحقيق توفى سنة ١١٦٦ هـ/١٧٥٣ م . ومن المتكلمين محمد بن يدفور قاضى تشيت ، وكان يقرىء طلابه عقائد السنوسى الخمس ودليل القائد وإضاءة الدجنّة وجوهرة التوحيد ، كما كان يقرئهم قراءة نافع وألفية ابن مالك وقطر الندى لابن هشام ، وتوفى سنة ١١٨٨ هـ/١٧٧٥ م . ومنهم الشيخ محمد بن عمر الخطاط الولاتى وطنا المالكى مذهبا الأشعرى اعتقادا الشاذلى طريقة ، أخذ العقيدة الأشعرية عن أبيه عمر والفقه والفرائض عن عبد الله بن أبى بكر الولاتى والمنطق والعروض عن محمد بن موسى بن إيجل الولاتى والحساب والفلك عن التقداسى ، وله مقدمة فى التوحيد سماها جوهرة الإرشاد ، توفى سنة ١١٩١ هـ/١٧٧٨ م .

ومرَّ ذكر المختار بن بون بين النحاة ، وله كتاب وسيلة السعادة فى علم التوحيد اختصر فيه تصانيف السنوسى الخمسة فى العقيدة مع بعض زيادات ، ويمكن أن يتخذ رمزا لكثير من علماء موريتانيا الموسوعيين ، فهو ينظم تلخيص القزوينى فى علوم البلاغة ، ومختصر

السنوسي في المنطق وجمع الجوامع في الأصول للسبكي . وكثيرون كانوا يعنون بعلم المنطق إذ يُعْرَف به الصحيح من غير الصحيح في التعريفات والأدلة والأقيسة ، وهو علم يوناني وضعه أرسطو ، ومنذ القرن الثاني الهجري تتدارسه البيئات العلمية العربية ، فطبيعي أن يعني به علماء موريتانيا . وبالمثل عنوا بعلوم البلاغة ، ونضرب مثلا ثانيا لهؤلاء العلماء الموسوعيين هو عبد الله بن محمد الشنقيطي ، فقد كان يقرىء تآليف السنوسي وإضاءة الدجنة في علم الكلام ، وتفسير القرآن ، وصحيح البخاري ، وجمع الجوامع في الأصول للسبكي والسلم في المنطق للأخضري ومختصر السنوسي في المنطق وتلخيص المفتاح في علوم البلاغة للسكاكي ، وله أجوبة فقهية ومشاركة في النحو والعروض وحظ من علمي الحساب والهندسة . ونَظَم كتاب التلخيص في البيان والمعاني للقزويني في نحو خمسمائة بيت وسماه نزهة المعاني في ظهور البيان والمعاني ، وله تأليف في المنطق ، توفي سنة ١١٤٣ هـ/١٧٣١ م .

وعنوا بالتاريخ ولأحمد البدوي اليعقوبي منظومة جيدة في غزوات الرسول ﷺ ، ومنظومة أخرى في أنساب العرب ، ويكثر عندهم مثل هذه المنظومات .

ولعل في كل ما أسلفت ما يصور بوضوح نشاط الحركة العلمية في موريتانيا على الرغم من أنه لم تكن هناك حكومة ترعى العلم وطلابه وعلماءه ، إذ تجردت له في كل بلدة وكل قبيلة صفوة من العلماء الأبرار درسته لشباب موريتانيا على مر الحقب والأزمنة .

الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

١

تعرُّب موريتانيا

أخذت العربية تغزو موريتانيا مبكرة على ألسنة بنى وارث الصنهاجيين منذ أسلموا على يد عقبة بن نافع (٥٠ هـ/٦٧١ م – ٥٥ هـ/٦٧٥ م) وأخذ الإسلام ينتشر بين الصنهاجيين فى صحراء موريتانيا لعهد موسى بن نصير (٨٦ هـ/٧٠٥ م – ٩٦ هـ/٧١٥ م) وأخذ يتسع انتشاره بين القبائل الصنهاجية الصحراوية فى القرون الهجرية الثانى والثالث والرابع . وكان يعتمد حينئذ على الصلوات الخمس وما يتلى فيها من القرآن ، وما يتلوه الشيوخ فى المساجد من القرآن الكريم والحديث النبوى .

وكانت القبائل الصنهاجية تعتنق الإسلام فى تلك القرون أو تأخذ فى اعتناقه ، غير أنها لم تتداول العربية فى لغتها اليومية ، إنما كانت تتداول لغتها البربرية ، حتى إذا كانت حركة عبدالله بن ياسين المارة منذ سنة ٤٣٠ هـ/١٠٣٨ م أخذت القبائل الصنهاجية تعرف شريعة الإسلام معرفة صحيحة ، وأخذت تتحول إلى قبائل مجاهدة أو مرابطة تنشر تعاليمه فى السودان الغربى المدارى ، وتحمل الجماعات المنحرفة الضالة فى المغرب الأقصى من مثل البجلية والبرغواطية على اتباع نهجه القويم ، حينئذ أصبحت القبائل الصنهاجية فى موريتانيا تمثل شعبا مسلما من شعوب العالم الإسلامى ، شعبا تُبْنَى فى جميع أركانه المساجد ، ويقوم فيها أئمة وعاظ وشيوخ يفقهون الناس على شئون دينهم ويحفظونهم بعض سور القرآن الكريم ، إن لم يكن القرآن جميعه ، كما يحفظونهم بعض الأحاديث النبوية .

وفى رأيى أن قلة من الصنهاجين الموريتانيين حفَّت بهؤلاء الشيوخ وعرفت العربية ، ولكن الكثرة الصنهاجية ظلت تتداول اللغة البربرية ، ويخفف من حدتها تلاوة القرآن فى المساجد ونزول بعض الشيوخ فى البلدان الموريتانية مثل نزول الشيخ إسماعيل – كما مر بنا – فى ولاته سنة ٦٠٠ هـ/١٢٠٣ م وقيام القضاة فيها على تنفيذ أحكام الشريعة مثل قاضى ولاته الذى أكرم ابن بطوطة حين نزل بلده سنة ٧٥٣ هـ/١٣٥٣ م ونوَّه بأخ له مدرس ، ويغزوسُنّ على تمبكتو ويشعل بها النيران سنة ٨٧٣ هـ/١٤٦٨ م فيفر فقهاؤها إلى ولاته وفى مقدمتهم الشيخ

عمر بن محمد أقيت مما أتاح لها أن تكون مركزًا لحركة علمية فى القرن العاشر الهجرى كما أتاح لأهلها فرصة واسعة للتعرب .

وبعد أكثر من قرن يرسل المنصور الذهبى السعدى حاكم المغرب الأقصى جيشا ضخما للاستيلاء على بلدان السودان الغربى كما أسلفنا ويفتتحها ويجنّد عرب المعقل فى جنوبى المغرب الأقصى والجزائر لحراسة فتوحه ، وتنزل حسان موريتانيا وتستقر فيها قبائلها فى أدراروتيرس والجنوب الغربى من موريتانيا ، وتنزل قبيلة البرابيش الحسانية فى مدينة تيشيت وقبيلة الأوداية الحسانية فى الصحارى الواقعة بين وادان وولاته . وهكذا تنتشر قبائل حسان العربية فى جميع موريتانيا ، ويتم بذلك تعربها كما تعرب المغرب فى منتصف القرن الخامس بالقبائل العربية من بنى سليم وهلال التى احتلّت دياره وأرجاءه ، غير أن لسانهم الفصيح كانت قد عمت فيه عامية حسانية عربية خالفت من بعض الوجوه لسان أجدادهم فى بعض الأوضاع والتصاريف لاختلاطهم قرونا متوالية بالبربر . وقد نشرت هذه القبائل لغتها الحسانية العامية فى موريتانيا ، وهى عامية عربية . ومن الطريف أنها تحتفظ بالمثنى بينما يسقط من عاميات أخرى كالعامية المصرية ، ولم تأخذ موريتانيا عنها هذه العامية العربية وحدها بل حملت عنها أيضا ما كانت تنظمه فى مواطنها من الملاحم والأناشيد والقصائد التى تشتمل على أغراض الشعر العربى من المدح والغزل والفخر والحماسة والهجاء والرثاء . وعلى هذا النحو تعربت موريتانيا تعربا حسانيا ، فالألفاظ هى الألفاظ العربية والأوزان هى الأوزان العربية . ومعنى ذلك أن القبائل الحسانية الموريتانية كانت لا تزال تحتفظ بميراثها من الألفاظ وأوزان الأشعار وأغراضها ، مما يدل دلالة قاطعة على أنها كانت لاتزال تحتفظ بسليقتها العربية التى توارثتها منذ مئات السنين ، وهى سليقة تشهد بأن هذه القبائل لاتزال قبائل شعر وقصيد كما كان آباؤهم الأولون . ومعروف أن الأمم إزاء الشعر تختلف ، فهناك أمم شاعرة ، ومنها الأمة العربية ، فهى أمة شعر وشعراء ، مهما اختلف عليها من الأعصار ومن الخطوب والأحداث ، ومهما ظلت على فصحاها أو تطور بها الزمن ، واستخدمت لغة عامية مشتقة من فصحاها ومتصلة بها اتصال الفرع بأصله ، وحقا دخلت فيها بموريتانيا بعض ألفاظ بربرية وخاصة مما يتصل بتربية الخيل والإبل والبقر والزراعة والرى ، غير أن ذلك لم يخرجها عن صورتها العربية .

وبذلك توارث سكان موريتانيا السليقة الشعرية العربية ، وعمل الإسلام فى أن تستتم العامية الموريتانية على ألسنة كثيرين الفصحى إذ دارت على ألسنتهم فى حفظ القرآن الكريم وتعلمه وفيما أكبوا عليه من العلوم الإسلامية ، وقد مضوا يتعلمون العربية ويتعمقون فى دراسة أشعارها الجاهلية على مر العصور . وكانت المرأة - كما مر بنا - هى التى تقوم على تعليم الناشئة حتى الثانية عشرة أو الثالثة عشرة سواء الذكور أو الإناث ، تعلمهم الكتابة والذكر الحكيم ،

مما جعل التعلم فى موريتانيا منذ القرن الحادى عشر الهجرى - وربما قبله - عاما فى البلدان والقبائل جميعها بحيث يقول الشنقيطى : « لا يوجد من بين قبائل الزوايا ذكر أو أنثى إلا يقرأ أو يكتب ، وإن وُجد فى قبيلة غير ذلك فإنه نادر بحيث لا يوجد فى المائة أكثر من واحد على تقدير وجوده » . وكأن الأمية تلاشت نهائيا فى قبائل الزوايا ، وهى إن لم تنحسر فى القبائل الموريتانية الأخرى نهائيا فإنها - هى والبلدان الموريتانية - كانت تسارع إلى التعلم ، يدل على ذلك فى مدينة ولاته مثلا أنها كانت مركزا كبيرًا من مراكز الثقافة العربية وأن علماءها كانوا كثيرين كثرة مفرطة ، وأخذت شنقيط وغيرها من مدن موريتانيا تزاحمها فى هذا المركز أو فى هذه المكانة .

ولعل فيما ذكرنا ما يدل بوضوح على أن التعرب فى موريتانيا كان آخذا فى النمو السريع منذ القرن الحادى عشر الهجرى ، بفضل من نزل فيها من قبائل حسان وما بثوّا فيها من الاستعداد للتعرب ، وبفضل إكباب أهلها على التعلم ، بحيث أصبح فيها كثرة من العلماء فى كل علم وكثرة مماثلة من شعراء الفصحى ، بل حتى يخيَّل إليك كأن الموريتانيين جميعا كانوا شعراء .

٢

شعراء المديح

أكثر من يوجَّه إليهم المديح فى موريتانيا السادة والشيوخ ، إذ يشكر الشاعر من يقدم إليه معروفا أو صنيعا مثنيا عليه ومادحا ، ويمدح التلاميذ شيوخهم مصورين ما يتحلون به من علم وخلق رفيعين ، كما يمدح الشيوخ زملاءهم منوهين بتعمقهم فى العلوم وخاصة العلوم الإسلامية ، وبأخلاقيتهم المثالية الرفيعة ، وكثيرا ما ينوه الشاعر بشعر زميله وتفوقه فيه ، وقد يمدحون قبيلة ذاكرين فضائلها ، وقد يمدحون أحد سلاطين الدولة العلوية فى المغرب الأقصى . ونعرض أطرافا من مدائحهم ، فمن ذلك مدح المأمون اليعقوبى المتوفى سنة ١٢٣٨ هـ/١٨٢٣ م للمجيدرى بن حبيب الله وكان من أعلام العلماء فى موريتانيا كما كان شاعرًا ، واتصل بالسلطان المغربى محمدين عبد الله (١١٧١ هـ/١٧٥٧ م - ١٢٠٤ هـ/١٧٨٩ م) ونال حظوة عنده ، وحين رحل إلى الحج أكرمه حاكم مصر ، وفى السلطان محمد يقول مشيرًا إلى منزلته منه : وكان يباحثه فى كثير من الأفكار العلمية ويحمد له آراءه ، كما أشار إلى حملة طائفة من معاصريه الموريتانيين عليه لإنكاره علم المنطق الأرسطاليسى والنهى عن دراسته[1] :

---

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا للدكتور محمد المختار ص ٢٢٣ .

بَلاه أميرُ المؤمنين محمدٌ وعاشره بالبحث حينًا من الدهرِ
وقد كان للإسلام بالنُصح راعيا وناهيك من ذى فِطْنَةٍ عالمٍ حَبْرِ
ولكن ببادى الرأى أو بإشاعةٍ تراماه عن قوسٍ طوائفُ ذا العَصْرِ
وما كان فى كلِّ العقائد لو دَرَوا يخالف أسلاف الأئمة فى فِتْرٍ[1]
تقفوا فانظروا فى نُكْرِهِ أعقائدٌ من الدين أم من منطقٍ سِيقَ للسَّبْرِ[2]
أبانَ السُّيوطى نهجهم فيه جملةً وللقُرْطُبِى مَن قبلهِ الأَخْذُ بالحَذْرِ

واليعقوبى ينوه بتكريم السلطان محمد بن عبدالله العلوى له ومعرفته بعلمه وفضله ، ويقول إنه عالم ذكى متعمق فى العلم ناصح للمسلمين ، ومن العجب أن ترميه جماعة — عن قوس واحدة — بأنه منحرف ، مع أنه متمسك كل التمسك بعقائد الدين لا يخالف أئمته السالفين فى قليل بل فى أقل القليل ، وكل ما فى الأمر أنه ينهى عن دراسة المنطق اليونانى ، وهى وجهة نظر يتفق معه فيها السيوطى المصرى والقرطبى الأندلسى . ويقول الشويعر أحد شعراء النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجرى فى مديح حُرَم بن عبد الجليل العلوى واسمه محمد[3] :

أمحمَّدٌ أم ليثُ غابٍ مقبلُ وجبينُه أم عارضٌ متهلِّلُ[4]
قاضى قضاةٍ قد نمتْه مشايخٌ يَسْمُو بِهِ حسبٌ ومجدٌ عُدْمُلُ[5]
سَهْلُ الجنابِ يلينُ ما لايَنْتَهُ وإذا يُسام الخسفَ ليثٌ مُشْبِلُ[6]
يا مَنْ سما فوقَ الكواكب مجدُهُ النَّجْمُ وانٍ والسِّماكُ الأَعْزلُ
إن الكمالَ إذا يفوزُ بهِ امرؤٌ فى هذه الدُّنيا فأنت الأَكملُ

ويشيد بحرم قاضى القضاة ، ويجعله ليث غاب شجاعة وضراوة ، كما يجعل جبينه سحابا متهللا كناية عن كرمه المدرار ، ويشيد بآبائه وحسبه ومجده القديم ، ويقول إنه سهل الجناب سخىٌّ ، وليِّن مع مَنْ يلاينه ، أما إذا سامه شخص خَسْفًا أو ظلما فإنه يصبح ليثا هصورا . ويذكر له أن مجده علا فوق الكواكب ، وأن النجم والسماك الجنوبى لا يلحقان شأوه ، وأنه إذا كان هناك شخص يفوز بنعت الكمال فأنت الأكمل الذى لا يبارى ولا يجارى . ويقول محمد مولود المباركى من شعراء القرن الثالث عشر الهجرى فى مديح محمد بن كمال[7] :

---

(1) الفتر : ما بين الإبهام والسبابة فى القياس .
(2) السبر : الاختبار .
(3) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٢٣٩ .
(4) عارض : سحاب ممطر .
(5) عدمل : قديم .
(6) سامه خسفا : أذله أو ظلمه . ليث مشبلٌ له أشبال وأولاد .
(7) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٢٧٢ .

يَلْقَى العُفَـاةَ بواضـحٍ متبلِّجٍ متبسِّـمٍ يَسْتبشـر استهـلالا[1]
واللهُ إذ قسم المكارم فى الوَرَى أوفى له من حظِّه المِكْيالا
لو واجه البدرَ المنير بوجهِهِ لغدا بـه البـدرُ المنـيرُ هلالا
أو قابل الشمسَ المضيئة بالضُّحىَ صَحْوًا لألبسَ وَجْهها أجْـلالا[2]
ولـو أنَّه وازنتـه بلدِاتِـه وزنـوا البعوض ووازنَ الأجبالا[3]
فتبـارك الله الذى أعطـاه ما يستوجب الإكـرامَ والإنفضـالا

ومحمد مولود يمجِّد فى محمد بن كمال كرمه الفياض الذى يجعله يلقى السائلين بوجه مشرق سمح مبتسم مستبشر . ويقول إن الله إذ قسم المكارم فى الناس وفىَّ له حظَّه منها . ويعمد إلى المبالغة فى مديحه ، فلو أنه واجه البدر المنير بوجهه لتصاغر أمامه وغدا هلالا ، ولو أنه قابل الشمس المضيئة ضحى والسماء مصحية لباءت منه بكسوف ما مثله كسوف ، ولو أنك قارنته بأترابه لغدوا كأنهم بعوض أمام جبل أو جبال ضخمة ، فتبارك الله الذى تفضل عليه بكل هذه العطايا والمنح الجزيلة . ويقول على بن ألاَّ من شعراء القرن الثالث عشر الهجرى فى مديح بنى شعبان[4] :

اليومَ أصبح قد تفرَّدَ بالعُـلا والمجـدِ سادتُنا بنـو شعْبانِ
النازلون من الثغور مَخوفَها والقائلـون هَلُمَّ للضيفـانِ
وإذا الأمور تعاظمتْ وتشابهتْ فصَلوا الخطاب بحكمةٍ وبيانِ
كم فيهمُ من ناشئٍ ذى بهجةٍ يُبْدِى دقيقَ الفهم بين معانى
حفظَ المسائل والعقائد فَرْعَها والأصلَ بعد فصاحـةِ الألحـانِ
وحَوَى حديث المصطفى بنصوصهِ وشروحـه ومعـانىَ القـرآنِ
قـومٌ إذا ما أَسْنتوا جـادوا كما جادتْ سواكبُ صَيِّبِ التَّهْتـانِ[5]

وهو يقول إن بنى شعبان تفردوا بالعلا والمجد والنزال الضارى فى الثغور المخوفة ، وهم ذوو الوجوه المستبشرة فى لقاء الضيفان ، وإذا الأمور ادلهمت وأشكلت نطقوا بفصل الخطاب فى حصافة وحكمة وبيان رائع ، وما أروع ناشئتهم ، فكم من ناشئ دقيق الفهم منهم ، حفظ مسائل الفقه والعقيدة فروعها وأصولها وحفظ حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم بنصوصه وشروحه كما حفظ معانى القرآن الكريم ، فما أعظمهم من قوم كرام وأى كرم إنهم إذا ما أجدبوا سنة استحالوا فى الجود غيثا مدرارا ، كما تجود مواكب السحب المتراكمة

---

(١) العفاة : السائلون – متبلج : مشرق .
(٢) أجلال : جمع جل : غطاء .
(٣) الأجبال : جمع جبل .
(٤) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٢٧٥ .
(٥) أسنتوا : أجدبوا . الصيب : السحاب الممطر .
التهتان : السائل بغزارة .

المتدفقة . ويمدح الشاعر محمد بن محمد العلوى السلطان العلوى عبد الرحمن ابن هشام (١٨٢٤ – ١٨٥٩ م) قائلا[1] :

خليفةُ مصبـــاح الهـــدى وحفيدُهُ ... ومحيى لعـــافى رَبْعــه المتقـــــادم[2]
غـــيورٌ على بيضـــــاء سنَّـــه الـــتى ... أُبيحتْ لها – لـولاه – كلُّ محـــــارمِ
أنام عيونَ النـــاس تحت عدالةٍ ... وَقَتْ رِجْلَ سارى الليل لَدْغَ الأراقم[3]
فأصبح ثَغْرُ الأرض سُوقًا وأصبحت ... مآسدُها مَرْعَى المخـاضِ السواهـم
حمـــاها – حمــاه الله – أن تستبيحها ... من اعدائهـــا دُهْم الدواهـى الدواهـم

وهو يقول إن سلطان المغرب الأقصى عبد الرحمن خليفة مصباح الهدى جده العظيم أعاد الحياة لدارس ربع الهدى القديم ، وإنه غيور على السنة التى لولاه لأبيحت لها كل المحارم . وقد شملت عدالته كل الرعية وعمَّها أمن واسع وقَى الناس لدغ الأفاعى الشرِّيرة ، حتى لأصبح ثغر الأرض الحربى سوقًا آمنة ، وأصبحت المآسد المخيفة بأسدها مرعى آمنا للنوق الحوامل ، وحمى الأرض جميعها – حماه الله – من سود الدواهى الغاشمة . ونلتقى بأخرة فى العصر بمحمد بن حنبل البوحسنى المتوفى سنة ١٣٠٢ هـ/١٨٨٥ م وقد أكثر من مديح الشيخ سيديًّا ، ومن قوله فيه بإحدى مدائحه[4] :

شيخٌ سَناهُ وصيتُه ونداهُ مِـ ... ـلْءُ الأيدِ والأبصار والآذانِ
شَيْخٌ تجرَّدَ للجميل فَدَأْبُهُ ... نَفْعُ الأنـام وطاعــةُ الرَّحْمَنِ
ولنعمَ مرتادُ الأرامل أنتمُ ... والشُّعْثِ والأيتـــام والضِّيفانِ
ولأنت أكرمُ ما حوتْ أقطارُها ... بل ما عليــه تعاقبَ الملوانِ
آلى الزمـــانُ أَلِيَّـــةً مبـرورةً ... أن لا يكون من الورَى لك ثانى

وابن حنبل يقول عن الشيخ سيديًّا إن نداه أوجوده ملء الأيدى وسناه أو ضوءه ملء الأبصار وصيته ملء الآذان ، وإنه تجرد لصنع الجميل فعادته نفع الناس بكرمه الفيَّاض وعبادة الرحمن ونسكه ، والأرامل ترتاد منزله وتتلمسه ، وكذلك أبناء السبيل الشعث المغبَرُّون والأيتام والضيوف الكثيرون . ويقول له إنك أكرم من احتوته أقطار الأرض وتعاقب عليه الليل والنهار . وأقسم الزمان قسما مبرورًا صادقًا أن ليس لك فى الناس ثان يبلغ مبلغك . ونتوقف قليلا للحديث عن ثلاثة من شعراء المديح .

(١) الوسيط فى تراجم أدباء شنقيط ص ٥٣ .
(٢) عافى : دارس .
(٣) الأراقم : الأفاعى .
(٤) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٢٦٨ .

ابن[1] رازكه

هو عبد الله بن محمد بن القاضى العلوى عبد الله المعروف باسم ابن رازكّة ، وهى أمه ، كان جده قاضى البراكنة الحسانيين ، ولد لأبيه فى أرض القبلة جنوبى موريتانيا ، وبها منشؤه ، وطمحت نفسه إلى التزود من العلوم ورحل فى تلقيها إلى شيوخها الأوائل حتى أتقن العربية والبيان والمنطق والهندسة كما أتقن الفقه والعلوم الإسلامية مما أتاح له أن يصبح قاضيا بموريتانيا ، وكان كثير الأسفار من القبلة موطنه إلى مكناسة فى المغرب الأقصى عاصمة السلطان العلوى النابه إسماعيل (١٠٨٢ هـ/١٦٧٢ م - ١١٣٩ هـ/١٧٢٧ م) وتوثقت عرى الصداقة بينه وبين ابنه محمد وكان عالما وشاعرا وولاه أبوه السوس ، وأعجب بابن رازكه ووسع له فى مجالسه كلما وفد عليه ، وأغدق عليه كثيرا من عطاياه ، إذ أهداه مكتبة نفيسة من كتب العلوم الإسلامية ومن دواوين الشعر العربى ، ولا ريب فى أنه كان لها أعمق الأثر فى ثقافة قبيلة ابن رازكه وثقافة موريتانيا عامة ، وأنشد الشنقيطى قصيدتين لابن رازكه فى مديح الأمير محمد بن إسماعيل وفى أولاها يقول :

فَتًى يستقلُّ البحرَ جودُ بَنانِهِ ... على حالة استكثارِ حاتمِ الرَّشْحا
وآياتُ علمٍ أخمدَ الجهلَ نورُها ... وغاياتُ جِدٍّ ليس تَطْلابُها مَزْحا
ورأىٌ يُريه اليومَ ما فى حَشَا غَدٍ ... ويكشفُ عنه من دُجَى ليلِهِ جُنْحَا[2]
وحَزْمٌ يهزُّ الراسياتِ ثباتُهُ ... وعَزْمٌ يحاكى الزَّنْدَ ماضيُه قَدْحا[3]
ولم تُذْعِن الأعداءُ مَحْضَ مودَّةٍ ... إليه ولكنْ إنما كرهوا القَرْحا[4]
مواصِلةٌ حبلَ الجهادِ جيادُهُ ... ووقفٌ على غَزْوِ العدا عَدْوُها ضَبْحا[5]
فلا زلتَ للإسلام عيدًا منغِّصًا ... تنغُّصَ حُسْناهُ السَّعانين والفِصْحا

وهو يصف الأمير محمد بن إسماعيل بالكرم الفياض حتى ليرى البحر جود بنانه قليلا بالنسبة إلى أعطياته على حين كان حاتم المشهور بجوده يستكثر الرشح ، مع دلائل علم راسخ أطفأ نوره الجهل فى المغرب الأقصى إلى غير رجعة ، ومع غايات جد جادة إلى أقصى حد ، ومع رأى يبصّره بما يأتى به الغد ، ويكشف له ما قد يكون حوله من ظلمات ، ومع حزم ثابت ثبوت الراسيات وعزم يحاكى سيفُه الماضى الزندَ بشراره المميت ، مما جعل الأعداء تذعن له وتذل خشية ما ينزل بها من القرح والجراح ، وإن جياده لتواصل الجهاد والعَدْو فى غزو الأعداء عدوا شديدا . ويدعو أن يظل محمد بن إسماعيل عيدا بهيجا للإسلام ومنغصا لأعياد

(١) انظر فى ترجمة ابن رازكه الوسيط للشنقيطى ص ١ - ٢٤ ، وص ٣٩٧ والشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٤٧ ، ٢٢٩ .

(٢) جنح الدجى هنا : جانبه .

(٣) الماضى : السيف القاطع . قدح الزند : ضرب حجريه بعضهما ببعض لاستخراج النار منه .

(٤) القرح : الجرح والهزيمة .

(٥) ضبحا : عدوا شديدا .

النصارى مثل عيد الشعانين الذى يسبق عيد الفصح بأسبوع . ويمدحه ابن رازكه فى القصيدة الثانية بمثل قوله :

هو الوارثُ الفضلَ النَّبيِّيَّ خالصًا ... من العلم والعليا ومن طيبِ مَحْتدِ[1]
ثمالُ اليتامى والأيامَى مُوَكَّلٌ ... بتفريج غَمَّاء الشَّجِى المتكَّدِ[2]
أغرُّ المُحَيَّا طاهرُ البشرِ طاهرُ الـ ... ـسَّجا يا كريمُ اليومِ والأمْسِ والغَدِ
حميدُ المساعى سار فى الرُّتَبِ العُلا ... من المجد سَيْرَ السابق المتَفرِّد
حَوَى شَرَف العلم الرفيع عِمادُهُ ... إلى شَرَف البيت الكريم المصمَّدِ[3]

ويقول محمد بن إسماعيل فى وصف تلك القصيدة :

عَروبٌ عروسُ الـزىِّ أندلسيَّـةٌ ... من الأدب الغَضِّ الذى روضُه نَدِى

وهو يمدحه بأنه علوى ورث الفضل النبوى من العلم والعلياء وشرف الأصل والنسب ، ويقول إنه غوث اليتامى والأيامى من النساء غير المتزوجات ، مفرج غَمِّ الحزين المملوء نكدا وهمًا ، أغر المحيا أى سمح الوجه مستبشر دائما طاهر الأخلاق والطباع كريم كرما متصلا فى أمسه ويومه وغده ، كل مساعيه تجلب له الحمد والثناء ، وإنه ليسير فى منازل المجد سير السابق المتفرد ، وقد تحلَّى بشرف العلم الرفيع مع شرف بيت النبوة الكريم وإنه ليقصده الناس لتحقيق حوائجهم وأمانيهم . ويذكر ابن رازكه فىأواخر قصيدته أنها عروس عربية جميلة من الشعر الناضر ، ويقول إنها أندلسية كشعر الأندلسيين المشهور بالروعة . ونشعر عند شعراء موريتانيا بهذه الصلة الوثيقة التى تربطهم بالأندلسيين لقربهم من الأندلس فردوس العرب المفقود الذى أبلى فيه أجدادهم من الصنهاجيين بلاء عظيما أيام المرابطين . ونكتفى بما أسلفنا من مديح بديع لابن رازكَه ، فقد اتضح لنا صوته وجمال شعره وما يتصف به من جزالة ونصاعة ، وسنعود إليه فى حديثنا عن الرثاء . توفى سنة ١١٤٤ هـ/١٧٣٢ م .

محمد[4] اليدالى الديمانى

من قبيلة ديمان إمام فى علوم الشريعة إذ له فيها تفسير قيم للقرآن الكريم سماه – كما أسلفنا – « الذهب الإبريز على كتاب الله العزيز » وهو فى مجلدين وله مصنفات أخرى فىّ سيرة الرسول ﷺ وآداب السلوك وتاريخ الزوايا المشغوف أهلها بالعلم وتعمير الأرض ، وله كتاب فى مناقب وليهم : ناصر الدين صاحب الفتوحات فى السنغال . وهو إلى ذلك كان شاعرا فذا من شعراء موريتانيا ، وكان صديقًا للقاضى ابن رازكه ، وفيه يقول :

---

(١) محتد : أصل .
(٢) ثمال: غوث . الأيامى هنا : النساء غير المتزوجات .
(٣) المصمد : المقصود لقضاء الحوائج .

(٤) انظر فى ترجمة اليدالى وشعره كتاب الوسيط ص ٢٢٣ والشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٤٩ ، ٢٣١ .

قاضى القُضاةِ سراجٌ لسُدْفة الجهل جالى[1]
وسيفُ حَقٍّ على أهـ ـل الزيــغ والإعتزال
بــه العلــومُ تحلَّت أبْهَى حُلَى وجِلال[2]
قد فــاز منها بما لم يَخْطِرْ لإنسٍ بِبــال
مقامــه فى الأعاريـ ـبِ والعقــائد عالى
وفى البلاغــة نظمًا وكلُّ سحــرٍ حــلالِ
وفى العلــوم جميعا وفى علــوم الأوالى

واليدالى يمدح ابن رازكه بأنه سراج منير جلا ظلمة الجهل وبدَّدها وأنه سيف حق فى قضائه وأحكامه على أهل الزيغ والضلال وفى آرائه السنية ضد الاعتزال والمعتزلة ، وقد ازدانت به العلوم ولبست أحلى حُلِيِّها وأبهى حُللها وثيابها إذ ظفر منها بما لم يخطر بذهن إنسان ، ومقامه فى أعراب موريتانيا وفى العقائد عال رفيع، وبالمثل فى الشعر الساحر الخلاب وفى العلوم جميعا وعلوم الأوائل من هندسة وغير هندسة. وأجابه ابن رازكه بقصيدة بارعة نوه فيها بحلّه للغوامض المشكلة فى الفقه وغير الفقه وأنه سيف أشعرى ماض فى ردوده على المعتزلة ، وكانت جماهير العلماء فى موريتانيا والمغرب جميعه تعتنق العقيدة الأشعرية. وكان اليدالى ينشد:

ليس من أخطأ الصوابَ بمُخْطٍ إنْ يَؤُبْ لا ولا عليه ملامَهْ
إنمـا المخطىء المسىءُ الذى إنْ وَضُحَ الحـقُّ لجَّ يَحْمى كلامـه

وهو يقول إن المخطىء هو من يتمادى فى خطئه ، أما من يرجع عنه فلا لوم عليه ولا تثريب ، إذ الرجوع إلى الحق فضيلة . ولليدالى فى مديح أحمد بن هيبة البركنى الحسانى قوله من قصيدة طويلة :

ورثتَ العـلا والعـزَّ والمجـدَ أحمدٌ وبذلَ النَّدَى عن هيبَ مفخرةِ العَصْرِ[3]
وإنك أسمــاهم علــوًّا ورفعــــةً بمنطقة الجَــوْزا ومنطقــةِ البَدْرِ
وأيامكــم خُضْرٌ جَنَيْنَــا ثمارهــا بأيدى المُنَى ما بين أوراقها الخُضْرِ
وقاك إلهُ العَرْشِ يا أحمدُ الرَّدَى وجُنِّبْتَ أنـواعَ المكــاره والضُّرِّ
وأولاك ربُّ النـــاس فى نَفْسِك المُنَى وآلِك والأولادِ والمـــالِ والعُمْــرِ

وهو يقول لأحمد بن هيبة إن العلا والعز والمجد والجود ورثتها جميعا عن أبيك مفخرة العصر ، وإنك أسمى العشيرة البركنيّة رفعة وعلوًّا فى منطقة برج الجوزاء الصاعد فى السماء ومنطقة البدر المنير ، وأيامكم خضر سعيدة جنينا ثمارها بأيدى المنى من بين أعوادها وأوراقها

(١) سدفة : ظلمة .
(٢) حلال هنا : جمع حلة : ثوب ضاف .
(٣) الندى : الكرم والجود .

الخضر ، ويدعو له أن يقيه إله الكون الهلاك وينحّى عنه أنواع المكاره والضر ، ويعطيه ما يتمناه في نفسه وآله وأولاده وماله وعمره. توفي سنة ١١٦٦ هـ/١٧٥٣ م وسنعود إليه في حديثنا عن الفخر والرثاء .

حُرْمُ[1] بن عبد الجليل العلوى

ويقال له أيضا حرمة الله وحرمة الرحمن ، ولد لأبيه في أرض القبلة ، وبها نشأته ، وشغف بالعلوم اللغوية والإسلامية وطلبها عند شيوخ مدينتي شنقيط وآطار . وهو من تلاميذ المختار ابن بون في العربية ، وكان يتقن مختلف العلوم ، وبه انتفع خلق كثير في النحو والفقه ، وكان شاعرا يؤثر في شعره الانسياب مع الطبع والسهولة في اللفظ ، على نحو ما نرى في قوله يمدح بُلاًّ الشقراوى الحسنى مشيدًا بعلمه وشعره :

إن بُلاًّ مشـايخٌ حـين تَعْـرو ... شاردات تفـوت أزكى العقـولِ
من فنـونٍ شتّى تُعَنّى المعـاني ... من عَويصِ المنقـول والمعقـولِ
يُسْعِفُ السائلين عنـه بما فيـ ... ـه لذى غُلَّـةٍ شفـاءُ الغليـلِ
إن يَسِرْ لانتساب مجدٍ رَعيـلٌ ... كان بُلاًّ دليـلَ ذاك الرَّعيلِ[2]
شعـرُه مطـربٌ حميَّـاهُ تَسْرِى ... في عظام الجليس مثلَ الشَّمُولِ[3]
ينفثُ الـدرَّ واليـواقيت إلا ... أن للـدُّرِّ قسـوةً في التَّليلِ[4]

وحرم يقول إن بُلاًّ ليس شيخا واحدا بل هو عصبة من المشايخ وفضله يبدو حين تلم شاردات من العلوم لا تستطيع أزكى العقول أن تفقه عويص المنقول والمعقول فيها ، فسرعان ما يشفي ظمأ السائلين بحلّه لعويصها وتذليله ، وما من سابقين يسيرون في ليل مدلهم إلى مجد إلا كان دليل هؤلاء السابقين ، وناهيك بشعره فهو شعر مطرب تسرى شدة تلاحينه في عظام السامع سريان الخمر في الجسد ، وإنه ليلفظ الدرر واليواقيت الممتعة لقارئه دون أى عناء . ويقول في مدح شعر الشويعر الحسنى :

معنـاهُ راقٍ راقَ حُسْنًا لفظُه ... للهِ فكـرٌ جـال فيـه ومِقْوَلُ[5]
يُسدِى ويُلْحِـم في البلاغـة حائكًا ... حُلَلاً يَتِيهُ بهـا القـريض ويَرْفُـلُ[6]

---

(١) انظر في ترجمة حرم وشعره كتاب الوسيط ص٢٤ والشعر والشعراء في موريتانيا ص ٥٨ ، ٢٣٦ - ٢٣٧ .
(٢) الرعيل : السابقون في الجماعة .
(٣) حمياه : شدته وسورته . الشمول : الخمر .
(٤) التليل : العنق .
(٥) مقول : لسان .
(٦) يسدى من السدا وهو الخيوط طولا ، ويلحم : من اللحمة وهي الخيوط عرضا . ويسدى ويلحم أى ينسج . يرفل : يجر ثوبه متبخترا .

أغناه عن تعب التعلُّـــم طَبْعُهُ ... إن العَوِيصَ لـه يهـــونُ وَيَسْهُلُ
إن البلاغة فى البليــغ غريزةٌ ... لا بالعـــلاج ينالهـــا المتطفِّـــلُ
هل مثـــلُ أخلاقِ الكريـــم تخلُّقٌ ... لا ، لا ، ولا كَحَلُ الجفُون تكحُّلُ[1]

وهو يقول إن معانى شعر الشويعر راقية وألفاظه رائقة ، ويشيد بفكره ولسانه ، ويقول إنه ينسج ويحوك فى شعره البليغ حللا يتيه بها الشعر عجبا ويجرُّها متبخترا ، وهو شاعر الطبع لا يتكلف فى شعره ، وعويصه يسهل عليه دون أى عناء . ويذكر أن بلاغة البليغ سليقة فيه وفطرة لا يوجدها التعلم ولا التكلف ، وفرق بعيد بين شعر الطبع وشعر التكلف والتصنع كالفرق بين الأخلاق الطبيعية والتخلق وكحل الجفون الطبيعى والتكحل ، وكأنه يعبر عن منهجه فى الشعر . توفى سنة ١٢٤٣هـ/١٨٢٨م وسنعود إليه فى شعر الفخر والحماسة .

٣

شعراء الفخر والهجاء

(أ) شعراء الفخر

الفخر فن شعرى قديم تغنى به الشاعر الجاهلى مصورا فيه مثاليته الخلقية من الشجاعة والكرم والنجدة والمروءة وما إلى ذلك من الصفات النبيلة ، كما تغنى بمكارم قبيلته ومحامدها وبأسها فى الحرب . وظل الشاعر العربى - بعد العصر الجاهلى - يفخر بأخلاقه وشيمه الرفيعة من الوفاء والحلم والصبر فى الشدائد والكرم ، ونما الشعر الحماسى فى الحروب الكثيرة التى اشتعلت بين العرب وأعدائهم على مر العصور . ونجده فى موريتانيا على ألسنة كثيرين ، فمن ذلك قول محمد اليدالى مفاخرا بقومه بنى ديمان الحسانيين[2] :

ونحن ديمانَ أقطابُ الرَّحَى وبَنُو ... ديمـــانَ خيرُ بنى حَسَّانَ أديانـا[3]
نحن اكتسينا المعالى والعُلا حُللاً ... حمـــرا ودُرًّا وياقوتـــًا ومَرْجـانـا
ونحن كنا على وَجْه العُلا غُرَرا ... وفـوق هـام النَّدى والعِزِّ تيجــانا[4]
وكانَ منزلُنا فوق السِّماك كما ... كنَّا على وجَنـات الدهـر خِيلانا[5]
حُزْنا المكارمَ والمجـد المؤثَّلَ والـ ... ـعلياءَ من سالف الدَّهْـرِ إلى الآنا[6]

(١) تخلق الشخص : ظهوره بخلق لا ينطوى عليه . الكحل : سواد الجفون خلقة .
(٢) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٣٤١ .
(٣) أقطاب الرحى : السيادة .
(٤) غررا جمع غرة: سادة مشهورين . الندى : الجود .
(٥) السماك : برج أو نجم - خيلان جمع خال : الحسنة على الوجنة .
(٦) المؤثل : الأصيل .

قلائدُ المجد فى أعناقنا نُظِمَتْ   عِقْدًا وكنا لعَيْنِ الدهــر إنْسانا[1]
لا يَبْلُغَنَّ مَدانــا مَــنْ يفاخرُنـــا   فضــلا وعلمــا وإيمــانًا وإحسانا

يقول إننا قبيلة ديمان أقطاب السيادة وخير قبائل بنى حسان تقوى وصلاحا ، وقد اكتسينا حلل المعالى والعلا وحليهما من در وياقوت ومرجان ، وارتسمنا على وجه العُلا غررا بيضاء مشرقة وفوق رءوس الجود تيجانا ، وكان منزلنا فوق نجم السماك فى أعلى عليين ، وارتسمنا على وجنات الدهر خيلانا وحسنات ، وحزنا المكارم والمجد الأصيل والعلياء إلى اليوم . وقد نظمت فى أعناقنا قلائد المجد ، وكنا – ومازلنا – إنسان عين الدهر وجوهرته الباصرة ، ولا أحد ممن يفاخروننا يبلغ مدانا تقوى وعلما وفضلا وإحسانا . وكرر هذا الفخر فى قصيدة همزية . ونلتقى بعده بالمختار بن بون وسنخصه بترجمة ، ويقول حرم بن عبد الجليل الذى سبقت ترجمته مفاخرا بقومه أهل شنقيط وقد انتصروا فى حرب على أهل وادان[2]

سَمَا للمعالى مَنْ تقدَّم منهمُ   ويَسْمُو على آثــاره مَنْ تأخَّرا
مآثِرُهم حَلْيُ الزمــان لو انَّه   على صورة الإنسان كان مصوَّرا
وكم من فَتىً منهم يروقُك علمهُ   ويهــزم من أنجــادِ وادانَ عَسْكرا
ويحمل فى إحدى يديه مهنَّدًا   طَرِيرًا وفى الأخرى كتابا مطرَّرا[3]
يحبُّ الـرَّدَى يــوم الوَغَى وكأنَّه   إذا مــاتَ فيـــه لا يزال معمَّرَا

وهو يقول إن جميع الرجال فى قومه شبانا وشيبا يسمون للمعالى وقد كثرت مآثرهم ، وإن الزمان ليتحلى بها ، ولو كان إنسانا لاتضحت مصورة على صدره ، وإن فتيانهم لعلماء يروقك فى السلم علم كل فتى منهم ، بينما هو فى الحرب بطل يهزم عسكرا من أبناء وادان . وتراه يحمل فى إحدى يديه سيفًا ماضيًا وفى اليد الأخرى كتابًا بهيًا . وإنه ليضحى بنفسه فى سبيل قبيلته ، حتى لكأنه يريد الموت فى الوغى من أجلها ، ومثله لا يموت بل يظل خالدا فى ذاكرة قومه . ويقول الأحول البوحسنى المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ/١٨٣٥ م فى الحروب التى وقعت بين قبيلته وبين العلويين إثر انتصار لهم فى بعض المواقع[4] :

همُ جَلبوا الحربَ العَوانَ فلم نزل   نُبيدُ ونُقْصى منهــمُ كلَّ جانبِ[5]
لدى مشهدٍ دارتْ رَحاهُ فجرَّعَتْ   صَنَاديدهم حَتْفًا مريرَ المشــاربِ[6]
وولَّوا سراعــًا مدبريــن كأنهم   بُغاثٌ تهاوَى من صقورٍ دواربِ[7]
وقَهْرًا طردناهم وخُضْنا حِمـاهمُ   وهِجْنا هُـومَ المغْـولاتِ النوادبِ

---

(١) إنسان العين : جوهرتها الباصرة .
(٢) الوسيط ص ٢٩ .
(٣) طريرا : ماضيا . مطررا : عليه بهاء ورونق .
(٤) الوسيط ص ٣١٠ .
(٥) الحرب العوان : المتجددة مرة بعد مرة .
(٦) دارت رحى الحرب : نشبت وحميت . صناديدهم جمع صنديد : شجاع مفرط فى الشجاعة .
(٧) بغاث : طائر صغير . تهاوى : طار مسرعا .

ألا إننا نَحْمى الحِمىَ ونحوطـُه ونزدادُ صبرا تحت كلِّ النـــوائبِ
ومَنْ شاءَ فلينظرْ عواقبَ معشَرٍ جَنَى حَرْبَنا يَزْجُرْهُ شُؤْمُ العـواقبِ

و يقول إن العلويين هم الذين جلبوا هذه الحرب التى لا تزال تتجدد حربا بعد حرب ، ولا نزال نقتل فيهم وننقصى بعض كتائبهم فى مواقع حامية الوطيس جرَّعت شجعانهم موتا مريرا ، فولُّوا مدبرين كأنهم بغاث طار مسرعا بعضه إثر بعض خوفا من صقور مدربة ، وقد هزمناهم قهرا وتغلغلنا فى حماهم وهجنا نساءهم وأعولن يندبنهم . وإننا لنحمى حمانا ونقيه ، وتزيدنا الحروب صبرا وشجاعة ، ومَنْ شاء فلينظر عواقب من تحاربهم ومدى ما جنته الحرب عليهم ، وإذن يزدجر لما يرى بعينه من شؤم العواقب . ويقول محمد بن الطلبة اليعقوبى المتوفى سنة ١٢٧٢ هـ/١٨٥٦ م مفاخرا ببنى عامر(١) :

وبنو عامرٍ همُ القوم كلُّ الـ ـقوم والـرَّأسُ والذُّرى والـرَّوابي
وبهـاليـلُ كالمصـابيح زُهْـرٌ من كهـولٍ جَحاجِحٍ وشبابِ(٢)
دينهُم حفظُ دينهـم وعُلاهم وعلـومِ الكتـاب والآدابِ
لا همُ يَفْرحـون للخـير إن مَـ ـسَّ ولا يَجْزعون عند المصـابِ
صحب اللّهُ جمعهـم وحباهـم بالرِّضـا عنهمُ وحُسْنِ المـآبِ
وسَقَى اللّهُ حيث أمّـوا وساروا من حَيَا المزن مُدْجِنات الذِّهابِ(٣) .

وبنو عامر – فى رأى محمد بن الطلبة – هم القوم ولا قوم سواهم وهم الرأس والقمم والكثبان العالية ، وهم سادة مشرقون كالمصابيح من كهول كرام وشباب ، دينهم حفظ عقيدتهم وعلاهم وعلوم القرآن الكريم والآداب ، لا يفرحون حين يصيبهم الخير ولا يجزعون حين تنزل بهم مصيبة ، ويدعو لله لهم أن يرضى عنهم فى اجتماعهم وتفرقهم وعند مآبهم وعودتهم ويسقى منازلهم ومسيرتهم من غيث السحب المتراكمة العظيمة . ويقول باب بن بيب المتوفى سنة ١٢٧٦ هـ/١٨٦٠ م مفتخرا(٤) .

ألوى بصبرك لاعجُ الأشـواقِ إن الأحبَّـة آذنـوا بفراقِ(٥)
يا مَنْ يسابقنى ويطلب عَثْرَتى إنى – لَعَمْرُكَ – سابقُ السُّبَّاقِ(٦)
وإذا المســائل أحجمتْ وتمنَّعتْ وأبتْ مشاكلُها على الحُـذَّاقِ(٧)

---

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٣٤٦ .
(٢) بهاليل : سادة كرام ، ومثلها جحاجح .
(٣) حيا المزن: مطر السحاب. الذهاب جمع ذِهْبة: السحابة.
(٤) الوسيط ص ٣٦ .
(٥) ألوى : ذهب . لاعج : واقد . آذنوا : أعلموا
(٦) عثرتى : خطئى .
(٧) أحجمت : نكصت وتمنعت .

أعملتُ سَيْفَ الفكر نحو عَوِيصها   فحَنتْ عليَّ خواضعَ الأعنــاقِ[1]
فتبـــوح لى بسرائـرٍ مكتومــةٍ   حتى عن الأسطـــار والأوراق

وهو يقول إن واقد الأشواق فى صدره ذهب بصبره ، فإن الأحبة على وشك الفراق . ويأخذ فى الفخر بنفسه ، فيقول لمن يسابقه وينافسه ويطلب عثرته وخطأه إنه سابق السباق ، وإن المسائل إذا استصعبت وتمنّعت مشاكلها على الحذاق فلم يستطيعوا لها حلا أعمل سيف فكره فى عويصها فجاءته خاضعة تبوح له بأسرارها المكتومة عن ظاهر المكتوب فى السطور والأوراق . ونتوقف للحديث عن شاعرين من شعراء الفخر .

المختار[2] بن بون

ولد ونشأ فى منطقة تجكانت الموريتانية ، وتتلمذ للمختار بن حبيب وأخذ كل ما عنده ، وكان يتعثر فى أول أمره ، ثم فتح الله عليه واشتهر بعلمه وخاصة فى العربية وجاءه الطلاب من كل فج ، وسمعت به قبيلة إديقب اليعقوبية ، وهى من أهم قبائل الزوايا فى مدارسة العلوم ، فطلبت إليه أن ينزل بها ليأخذ عنه طلابها علم النحو وعلم الكلام أو التوحيد ، وكان لا يجارَى فيهما ، وأقام عندهم مدة ، ثم حدثت بينه وبينهم مناظرات فى بعض العلوم كان يقودها تلميذه محمد المجيدرى ومولود بن أحمد وعادوا إلى استسماحه ، مستشهدين بقوله تعالى على لسان إخوة يوسف : ﴿تاللّهِ لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين﴾ فأجابهم بما أجاب به يوسف إخوته ، إذ قال ﴿لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين﴾ . وعاد إلى موطنه وانثال عليه الطلاب ، وكان رفيقا بهم يجود لهم بما يملك ، وكثروا فرحل بهم إلى بئر فى أرض تجكانت ، فشرعوا يبنون الأخصاص لسكناهم ، وكان لا يشتغل نهارا ولا ليلا إلا بتعليمهم . وله فى النحو منظومة تسمى الاحمرار جمع فيها بين ما ذكره ابن مالك فى الألفية وكتابه التسهيل وطبعت فى مصر ، وله فى النحو أيضا مقدمة ألّفها - كما مرَّ بنا - للمبتدئين ، وتكونت له فى النحو مدرسة أهم تلاميذه فيها بُلاًّ الشقراوى جعلناها خاتمة حديثنا عن علماء العربية بموريتانيا . وله من قصيدة يعتب فيها على قبيلة إد يقب اليعقوبية وتلميذه محمد المجيدرى ويفاخر بما أسدى إليه وإلى أبنائها من علم العربية قائلا :

فلا تنكرونى آلَ يعقوبَ واذْكروا   ليالىَ أجلو ما على النـــاس أظلما
وحين أُحلِّى منكــمُ كلَّ عاطــلٍ   بِدُرِّى وأسقى باردى كلَّ أَهْيَما[3]

(١) حنت : مالت وعطفت .

(٢) انظر فى ترجمة المختار بن بون وشعره كتاب الوسيط ص ٢٧٧ والشعر والشعراء فى موريتانيا ص٣٤٢ .

(٣) الأهيم : العطشان عطشا شديدا .

وهو يقول لهم لا تنكرونى بعد ما قدمت لكم من جميل واذكروا حَلِّى لطلابكم المشكلات التى استصعبت وانبهمت ، واذكروا ما زينت به من درر العلم أبناءكم وكيف أسقيتهم منه ما أطفئوا به ظمئهم إلى المعارف ، ويقول مفاخرا بقبيلته وقومه :

ونحن ركبٌ من الأشواف منتظمٌ أجلُّ ذا الخلق قدرا دون أدْنَانَا
نتلو كتابَ إلهِ العَرْش كلَّ مَسًا وكلَّ يومٍ ومَنْ نَلْقَى توقَّانا
ومن تكنْ همَّةُ الأقدار نُصْرَتَه لم تقدرِ النـاسُ أن تُوهى لـه شانا
وهِمَّةٌ دونها هـامُ السماء ومَنْ هِمَّتُهُ دونهـا هـامُ السَّما دَانـا[1]
وهَيْبَةٌ مُلِئَتْ منهـا القلوبُ فلو نظرتُ شَزْرًا إلى أقْصَى الوَرَى حَانا[2]
ولا يُنَهْنِهُنِى عن حاجـةٍ جـزعٌ ولا ألـينُ وإنْ ذو لُوثـةٍ لانـا[3]

وهو يفخر بقومه أو قبيلته فخرا مبالغا فيه إذ يجعل أعظم الناس قدرا دون أدنى شخص فيهم منزلة ومكانة ، ويقول إنهم مكبون على كتاب الله يتلونه مساء وكل يوم ، وينوه بشجاعتهم وأن القبائل تحذرهم وتتوقاهم ، ويذكر أن الأقدار دائما تنصرهم على أعدائهم ، ومن تنصره لا يستطيع أحد ولا قبيل أن يضعفا له شأنا وهم مهابون هيبة ملئت منها القلوب مخافة ، حتى إنه لو نظر إلى عدو مغضبا هلك خوفا وفزعا ، ولا يعتريه إزاء حاجة يريدها جزع ، وإنه صلب لا يلين ، إنما يلين الضعيف الواهن . توفى سنة ١٢٢٠ هـ/١٨٠٦ م وقبل بل قبل ذلك بسنوات .

محمد[4] بن سيدىَّ الأَبْيَيْرِىّ

كان أبوه سيدىَّ جوادا جودا عظيما إذ كان غيثا مدرارا ، وكان عالما تتلمذ لحرم بن عبد الجليل وبذَّ أقرانه ، وشغف بالتصوف فشد رحاله إلى الشيخ المختار الكنتى الصوفى ولازمه ستة أشهر ، توفى عقبها ، فلازم ابنه محمدا حتى برع فى التصوف ومعرفة طريقه . ويقول الشنقيطى عن محمد بن سيدىَّ إنه نشأ فى نعمة عظيمة ورعاية من والده جسيمة ، ويقول إنه العلامة الأريب اللغوى الأديب ، ويتوسع فى ترجمته إلى أكثر من عشرين صفحة ، ينشد فيها طرائف شعره ، ومما أنشده قصيدة له يسخر فيها ممن يردِّدون موضوعات الشعر القديمة وخاصة الوقوف بالأطلال والبكاء بالديار ونعت المرأة والخمر ويعيب عليهم كثرة السرقات الشعرية . ومن قصائده قصيدة يدعو فيها للجهاد ضد أعداء الإسلام المغيرين على السواحل الإفريقية

(١) دانَ : عزَّ .
(٢) شزرا هنا : مغضبا . حان : هلك .
(٣) ينهنهنى : يكفُّنى – لوثة : ضعف وحمق .
(٤) انظر فى ترجمة محمد بن سيدىَّ الوسيط للشنقيطى ص٢٤٣ والشعر والشعراء فى موريتانيا ص٥٧، ١٨٩ .

المغربية ، وكأنه كان يُعِدُّ شباب قومه لمنازلة فرنسا قبل فرضها الحماية على موريتانيا سنة ١٣٢٠ هـ/١٩٠٣ م وفيها يفخر بشجاعة قومه وحمايتهم للإسلام قائلا :

وفتيانٍ يـرون الضَّيْمَ صابا | وطعمَ الموت خُرْطوما عُقارا[1]
أحبُّوا المِلَّـةَ البَيْضا فكانوا | عليهـا من مُراودهـا غَيـارَا
بأيديهـم مذرَّبـةٌ طـوالٌ | تُرِى الأقـران أعمارًا قِصارا[2]
جموعٌ تهزم الأعداء قهرًا | فتتركهم جَدِيسًا أو وَبـارا[3]
بنصر الله واثقـةٌ يقينـا | فلا تخشى من الخلق الحِذارا
لهـا إعـلاءُ كِلْمتِهِ مـرامٌ | فلا غُنْمًا تـروم ولا افتخـارا

وهو يقول إن شباب قومه فتيان أشداء يرون الذل مرا لا يطاق شرابه ، أما الموت فى ميدان الحروب فيرونه لذيذا لذة الخمر أو أعظم لذة . وقد أحبوا الدين الحنيف حتى إنهم ليغارون عليه غيرة العاشق على معشوقته ، وإنهم لشجعان بواسل بأيديهم سيوف ماضية ، تُرِى الأقران أن أعمارهم قصار بما تقطع من رقابهم ، وإنهم لجموع تعوَّدوا النصر على أعدائهم حتى ليبيدوهم عن آخرهم فيصبحوا فى عداد الأمم البائدة مثل جديس ووبار ، ودائما يثقون فى نصر الله لا يخشون أحدا ، وقَصْدهم إعلاء كلمة الله ودينه القويم دائما ، ولا غنما يريدون ولا افتخارا . ويعرض فى قصيدة طويلة مذاكرته لزملاء أدباء يقفون على مذاهب الفقهاء المختلفة ومذهبى الأشعرى وإمام الحرمين الجوينى ومنازع الفرق الصوفية وأقوال الخليل وسيبويه والكوفيين وغيرهم فى النحو ، ويتدارسون شعراء الجاهلية الستة المشهورين : امرأ القيس وزهيرا والنابغة وعلقمة وطرفة وعنترة ، والمرقشين الأكبر والأصغر والأعشيين : أعشى قيس وأعشى باهلة والأعميين : بشارا وأبا العلاء ، وأبا نواس والمتنبى . وهى وثيقة مهمة بما كان يتدارسه الشباب الموريتانى من العلوم والشعر والشعراء جاهليين وإسلاميين وعباسيين ، ثم يقول مفاخرًا بشمائله :

ومَنْ يَكُ راغبًا فى القرب منى | يجـدْنى دون مـاء المُقْلتين
ومن يؤثرْ قِلاىَ فليس شىءٌ | يواصلُ بينـه أبـدا وبينى
ألاحظُ من خَليطى كلَّ زين | كما أُغْضِى لـه عن كـلِّ شَيْنِ
ولا أُصغى إلى العَوْراء حتى | يُـرَى أنِّى أصـمُّ المِسْمَعين[4]
وما جهلُ الجهـول بمستفزِّى | ومـالى بالدنيَّـة من يَدَيْـن

(١) الضيم : الهوان . الصاب : المر . الخرطوم والعقار : الخمر .
(٢) مذربة : من ذرب السيف والرمح : صار ماضيا .
(٣) جديس ووبار : قبيلتان من العرب البائدة .
(٤) العوراء : الكلمة السيئة . المسمعين مثنى مسمع : الأذن .

وهو يفخر بأن من يوده يجده أقرب إليه من ماء عينيه ، ومن يؤثر بغضه يقطع كل صلة تصله به ، ولا أرى من صديقي إلا ما يزينه وأتغاضى عن كل ما يشينه ، ولا أصغى إلى كلمة سيئة تقال عن أحد ، وأرى – حين تقال – كأنى أصم لا أسمع شيئا ، ولا تستفزنى حماقة الأحمق ولا أقترف عملا سيئا ولا خسيسا ذميما . وكان الشعر يتدفق على لسانه ، توفى سنة ١٢٨٦ هـ/١٨٧٠ م .

(ب) شعراء الهجاء .

الهجاء فن قديم منذ الجاهلية كانوا يصبونه على خصومهم وخصوم قبائلهم ، ولم يكد يسلم منه شريف فى الجاهلية ، لكثرة ما كان بين القبائل من حروب ومنافسات . وبمقدار شرف القبيلة وأمجادها ومآثر سادتها وفرسانها ومناقبهم يكون هجاؤها وما ينزل بها من سهامه ، واتصل هذا الهجاء فى الإسلام وطوال العصور ، والمظنون أنه كان كثيرا فى موريتانيا بسبب كثرة الحروب بين عشائرها وقبائلها واستخدامه سلاحا يغض من شأن القبيلة المعادية وسادتها وشيوخها . ويقول الدكتور محمد المختار إنه تجنب أن يكثر منه فى كتابه الشعر والشعراء فى موريتانيا خوفا من إثارة الحفيظة فى المجتمع الموريتانى المعاصر ولم يصرح بذلك الشنقيطى فى كتابه الوسيط فى تراجم أدباء شنقيط ، غير أنه – فيما يبدو – كان يرى رأى الدكتور محمد المختار ، ولذلك لم يأت منه إلا بأمثلة قليلة ، حتى عند شاعر هجّاء كبير من شعراء الجيل الأول فى صدر القرن الثانى عشر الهجرى هو المصطفى بن أبى محمد المشهور بلقب بوفمين[1] المجلسى ، يقول : « كان هجاء ما نجا منه أحد » ثم يذكر أنه هجا إيدا بلحسن بقصيدة طنانة مطلعها :

أيحسب أن لا يـزأر الأسَدُ الوَرْدُ ... ذئابٌ عَوَتْ لمـا تغافلتِ الأُسْدُ[2]

ومنها :

وعقلُ الذى منهـم يَشُدُّ عمامـةً ... كعقل الذى منهم يُشَدُّ له المَهْدُ[3]

ولا يضيف إليه أبياتا أخرى من القصيدة ، ويذكر الشنقيطى أنه نزل يوما عند قبيلة إتتاب فى موضع يقال له إنجول فلم يكرموه ولا اكترثوا به فقال يهجوهم :

دهرُ الدهارير لا أُقمتُ فيه لدى ... إتتابَ يومًا ولا بِقربِ إنجولِ[4]
يومُ الإقامة فيهم خلتُه ظمأً ... يومُ القيامة إذ يحكيه فى الطول
حتى تذكرتُ أنَّ النـــاس قاطبةً ... إذَنْ تُســالُ وأنـى غيرُ مسـئولِ .

(١) انظر ترجمته عند الشنقيطى ص ٣٤٨ .
(٢) الورد : الأشقر .
(٣) الذى يشد عمامة : الشيخ .
(٤) دهر الدهاير : أول الدهر فى الزمن الماضى .

وهو يقول إنه لن يقيم مدى الدهر عند قبيلة إتاب ومنازلها فى إنجول ، وقد أقام لديهم يوما خاله لطوله – وقد ظمىء فيه ظمئا شديدا – يوم القيامة ، وظنَّ أن الناس ذهبت تُسأل وبقى وحده . وقال فى إدَوَداى إحدى عشائر بنى ديمان – وقد نزل عندها – يهجوها :

يا رُبَّ ليلٍ بهيمٍ أَلْيَلٍ داجٍ قد بِتُّ فى ضَيْعةٍ لدى إدَوْداجِ[1]
حتى إذا ما دنا الإصبــاحُ نبَّهنى وَغْدٌ على لقمــةٍ فـى قَعْر مَجَّاجِ

وقلب الياء من قبيلة إدَوداج جيما محاكاة لبعض لغات العرب فى هذا القلب ، وهو يقول إنه بات فى ليل بهيم مظلم أشد الظلام بضيعة عند إدوداى ، حتى إذا اقترب الصباح نبهه وغد لئيم على لقمة غير سائغة فى قعر إناء يَمُجُّ ما فيه ويلفظه لسوئه .

ويسوق الشنقيطى للمأمون اليعقوبى المتوفى سنة ١٢٣٨ هـ/١٨٢٣ م مقطوعة من هجائه للمختار بن بون حين وقع الشقاق بين المختار وعصابة اليعقوبيين وصاروا جميعا يدًا واحدة عليه كما مرَّ فى ترجمته ، وله يقول موهِّنا علمه بمنطق أرسطو وبأحاديث الرسول[2] ﷺ :

أكثرتَ حَزَّك لــو دريتَ مَفْصِلَهُ فادْرِ المفاصلَ قبــل الحـزِّ واسْتَفِقِ[3]
ما الدينُ إلا الذى تَسْعَى لتوهنَهُ آىُ النبىِّ وآثــــارُ الهــدى العَبِقِ[4]
لا كلُّ خَبْطٍ عن اليونان مبتدَعٍ قد سُنَّ بين أصول الدين مُخْتَلَقِ
تَحْمِى قواعدَ رَسْطـــا ليسَ تحسبها دينـــًا لك الـــويلُ نَبِّهنــاك فاستفقِ
إن كنتَ تورد نَسْخًا أو معارضةً لذِى الأحاديثِ فاذكرْ ما ترى وسُقِ
وإن تكن قاصرا عن كونها ثبتَتْ فيما حوى شَرْحَه الحُفَّاظُ فى الـورقِ
فاعرفْ مقامك فى دَرْك العلــوم ولا تعرضْ لمن خاض فيها شاسع الشُّقَقِ[5]

وهو يصفه بأنه أكثر الحزَّ ولايصيب المفصل ، وينصحه أن يعرف المفاصل حتى يحسن الحزَّ ، ويقول له ما الدين إلاالذى تسعى فى توهينه من معجزات الرسول وآثار هداه العطر لا هذا المنطق المبتدع عن اليونان والذى تزجُّون به فى أصول الدين ودراساته ، لذلك تدافعون عن قواعد أرسطاليس المنطقية وتتخذونها دينا لكم وشعارا . ثم يقول إن كانت الأحاديث التى تذكرها وتدرسها للطلاب مكتوبة أو مروية فاذكر ذلك وسُقْ أسانيدها ، وإن كنت تعجز عن إثبات سندها فى كتب الأحاديث وشروحها فاعرف مقامك فى معرفة العلوم ولا تتعرض لمن تعمقها ووقف على نواحيها وجوانبها المختلفة . والمأمون تجاوز حده فى هذا الهجاء فلم يكن المختار بن بون ضعيف الأحاديث ولا كان واهن الدين ، وإعجابه بمنطق أرسطو لايشينه ، فقد كانت دراسته عامة فى جميع البيئات الإسلامية . ويصفه الشنقيطى فى ترجمته بأنه « تاج

(١) بهيم : مظلم . أليل : شديد الظلمة . داج : معتم .
(٢) الشنقيطى ص ٢١٧ .
(٣) المفصل : ملتقى كل عظمين فى الجسد .
(٤) العبق : العطر .
(٥) الشقق : جمع شقة : الناحية يريد أنه متوسع فى العلوم .

العلماء.. ولايوجد عالم بعده إلاوله عليه الفضل الجزيل بما استفاد من مصنفاته ، وتلقى من مستداته» .

٤

شعراء الرثاء

للرثاء عند العرب -منذ الجاهلية- ثلاث صور : صورة الندب وبكاء الميت والنواح عليه من ذوى القربى، وصورة التأبين ورسم فضائل الميت لبيان خسارة القبيلة أوالمجتمع فيه ، وصورة العزاء وبيان أن الموت كأس يتجرعه البشر جميعا ، فالكل ميت ولا بقاء لأحد ، وكثيرا ما تختلط هذه الصور فى المرثية الواحدة. وفى كل عصر وفى كل قطر تلقانا عشرات المراثى بل أحيانا مئاتها ، وهى كثيرة فى موريتانيا ، وقد عرض منها المرحوم الشنقيطى والدكتور محمد المختار عشرات ، ونعرض بعض أمثلة منها ، من ذلك قول ابن رازكه يرثى أعمر آكجيل التروزى[1] :

هو الموت عَضْبٌ لا تخون مضاربُهْ وحَوْضُ زُعافٍ كلُّ من عاش شاربُهْ[2]
وما الناس إلا واردوه فسابقٌ إليـه ومسبوقٌ تَخُبُّ نَجائبُـه[3]
يحبُّ الفتى إدراكَ ما هو راغبٌ ويدركه - لابُدَّ - ما هو راهِبُهْ
وكم لابسٍ ثوبَ الحياة فجاءَه على فَجْأَةٍ عادٍ من الموت سالبُه
وما صـان حَبْرًا علمُـه وكتابُـه ولا مَلكـا أعلامُـه وكتائبُـه

وهو يبدأ مرثيته بالعزاء ، فالموت سيف مصلت على رقبة كل إنسان ، لا تخونه مضاربه ، وحوض سم قاتل ، كلٌّ من عاش على ظهر الدنيا لابد شاربه ، والناس جميعا واردوه ، سابق إليه ومسبوق تعدو به ركائبه . ويتعلق الإنسان فى دنياه بما يرغب فى تحقيقه ويدركه الموت الذى يرهبه ، وكم من لابس لثوب الحياة يفجوه عادٍ من الموت يسلبه عنه ويخلعه . ولا يصون العالم الجليل منه علمه وكتبه ، ولا يصون الملك راياته وكتائبه . ويرثى القاضى أحمد بن يوسف البوحسنى ويقول فيه مؤبنا[4] :

فتانا ومفتينا المصيبُ وشَيْخنا ونِبْراسُنا فيما يهـمّ ويُسْدِفُ[5]
بصيرٌ بحلِّ المشكلات كأنما يُكاشَفُ عن أسرارها ثم يكشفُ
تملّك أطراف القضـاءِ وفِقْهَهُ وما هـو إلا مالكٌ أو مطرِّفُ[6]

---

(١) الوسيط للشنقيطى ص ١٥ .
(٢) عضب : سيف قاطع . زعاف : سم قاتل .
(٣) تخبّ : تعدو . نجائبه : ركائبه .
(٤) الوسيط ص ١٨ .
(٥) نبراس : مصباح . يسدف : يظلم .
(٦) مالك : الإمام مالك بن أنس . مطرف : قاضى صنعاء المشهور .

وهو يصفه بأنه المفتى المصيب والمصباح الذى يضىء ظلمات المشكلات العلمية ، وكأنما يُكْشَفُ له أسرارها ويكشفها للناس ، وقد امتلك فتاوى القضاء وفقهه فى أحكامه حتى لكأنه مالك مفتى المدينة أو مطرف قاضى صنعاء . ويقول محمد اليدالى الذى مرت ترجمته مؤبنا المختار بن الفاضل[1] :

لهفى على لَوْذَعِيٍّ ذى نَدًى وتُقًى وهيبةٍ تملأُ الأفكــارَ والحــدَقا[2]
وذى معــارفَ ربَّانيَّةٍ وهُــدًى وهمــةٍ علتِ العَيُّــوقَ والأفقا[3]
علْـمُ الحقيقــةِ والشريعـة اجتمعا لــه فأَضْحَى يُرَبِّى مَنْ بــه التحقا
وبحـرُ جودٍ وعلمٍ زاخرٍ وإذا ما مُعْتفوه أتــوه فــاض واندفقا[4]
شِعــارُه البِـرُّ والتقــوى ودَيْدَنُهُ رضا الإله ، خديمُ الضيف إن طرقا[5]

واليدالى يتحسر على موت ابن الفاضل ويقول إنه حاد الذكاء كريم صالح ، تملأ هيبته العيون والأذهان ، متصوف له معارف إلهية وهدى وعزيمة تعلو الأفق والنجوم ، وقد اجتمع فيه علم الشريعة والحقيقة الصوفية ، وبهما كان يربى تلاميذه ، وهو بحر زاخر للعلم والجود . وإذا ما أتاه سائلوه فاض عليهم بحر جوده وعلمه وتدفق من كل جانب ، شعاره الإحسان والتقوى ودأبه رضا الإله ، وإن ألم به ضيف كان خادمه : فرط جود وكرم . ويقول حرم بن عبد الجليل فى رثاء مولود بن أجفغ اليعقوبى[6] :

أتنعون مولودًا وما انقضَّ كوكبٌ ولا فــارق النــورُ الغزالةَ والبَدْرَا[7]
ولا زُلْزِلتْ زِلزالَها الأرضُ يَوْمَه وما أبدتِ الأشـراطُ آياتها الكبرى[8]
وما شغل الناسَ البُكا عن أمورهم كأنَّ صروف الدَّهر ما أحدثتْ أمرا[9]
لقد غَيَّبتْ مَنْ غابَ عند مغيبهِ فواضلُ شتَّى لا نُطيق لها حَصْرا
وطُوبَى لقبــرٍ أودعــوه عظامَــه فيــا ليت أنِّى كان صدرى لــه قــبرا

وحرم يندب صديقه مولودًا ويتفجَّع عليه ويبلغ من حزنه أنه يعجب كيف لم ينقضّ كوكب ولا فارق النور الشمس والقمر ولا زُلزلت الأرض ولا أُبدت الساعة أشراطها وعلاماتها الكبرى جزعا على موت مولود ، كما يعجب أن الناس لم يشغلهم البكا على الميت العظيم عن شئونهم ، كأن صروف الدهر ونوائبه ما أحدثت شيئا ، مع أنها غيبتْ من لا يستطيع أحد

---

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٢٩٤ .
(٢) لوذعى : عالم ذكى . ندى : كرم .
(٣) العيوق : نجم .
(٤) معتفوه : سائلوه وطالبو جوده .
(٥) ديدنه : دأبه وعادته .
(٦) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٢٩٦ .
(٧) الغزالة : الشمس .
(٨) الأشراط : علامات الساعة .
(٩) صروف الدهر : خطوبه ونوائبه .

إحصاء فواضله ، وطوبى لقبر أودعوه عظامه ، ويتمنى أن لو كان صدره له قبرا ، وهو بيت رائع . ويقول محمد العلوى المتوفى سنة ١٢٦٤ هـ/١٨٤٨ م – وكان شيخ طريقة وعالما فى الفقه والعربية والبلاغة – راثيا الشيخ محمدا الحافظ العلوى قائلا[١] :

سهرتْ جفونُك والمصاب مسهَّدُ ... يرثى لليلتك السليمُ الأرمَدُ[٢]
ورَثتْ لك الخنساءُ ، بعدُ متمِّمٌ ... ورثى لبيدٌ يوم فارقَ أربَدا
لمصيبةٍ صَدمتْ فؤادى صَدْمةً ... كادتْ بناتُ الجَوْف منها تَصْعَدُ
وجرى الدموعُ على الخدود كأنها ... نظمٌ جَرى من سِلْكه متبدِّدُ
وتصدَّعتْ كبِدى لها وكأنما ... بجوانحى منها حريقٌ موقَدُ
وإذا بكيتُ شَجًى عليه فإنه ... تبكى وتندبُه جموعٌ حُفَّدُ[٣]
ويكى عليهِ ليلُه ونهاره ... والصَّوْمُ يبكى والتهجُّد يَرْعُدُ
وبكتْ بقاعٌ كان يعبدُ ربَّه ... فيها فيركع ما يشاء ويسجدُ

وهو يقول إنه لم يغمض له جفن حين سمع المصاب ، وكأنما كل ندب وكل تفجع فى ميت كان فيه ، حتى لكأنه لُدغ مرات، وكأن تفجع الخنساء على أخيها صخر ، وندب متمم لأخيه مالك بن نويرة ، وبكاء لبيد لأخيه أربد، كل ذلك كان رثاءً حارًّا للمصيبة التى نزلت به وصدمته صدمة كادت أمعاؤه منها تصعد، وجرت دموعه على خدوده كأنها سلك ، تبددت حبَّاته ، وتشققت كبده ، وكأنما فى جوانحه حريق موقد . ويقول إن الجموع من حوله تبكيه ، ويبكى عليه ليله ونهاره ، وصومه نهارا وتهجده ليلا ، ويستمر يذكر أن كل شىء يبكيه ، تبكيه صلاته ووضوءه ومسجده والكتب والأقلام والدواة والمصحف وبقاع الحرمين الطاهرة ويعددها مكانا مكانا ، ثم يقول – كما فى البيت الأخير – إنه عَبد ربه فيها وركع وسجد له طويلا . والمرثية بديعة . ولمحمدو بن محمدى العلوى يرثى الشيخ مولود قال منشدا[٤] :

ما لراجى الخلودِ نَيْلُ الخلودِ ... إنَّ وِردَ المنونِ حَتْمُ الورودِ
أتطيبُ الحياة والشيخُ أمسى ... غَيَّبَتْه مغيَّباتُ اللُّحودِ
إنَّ مالى من اصطبارٍ تولَّى ... إذ تَوَلَّى إنسانُ عينِ الوجودِ
طودُ علمٍ يَنْحُوه كلُّ مُرِيدٍ ... من حِماه يفرُّ كلُّ مَرِيدٍ[٥]
وإذا سُدَّ بابُ علمٍ عويصٍ ... كان مفتاحَ بابه المسدودِ
عَلِم الأصلَ والفروعَ إلى أنْ ... ليس فى العلم يُبْتَغى من مزيد

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٣٠١ .
(٢) السليم : الملدوغ . الأرمد : من أصاب عينه الرمد .
(٣) حفد : حاشدة .
(٤) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٣١١ .
(٥) مريد : شيطان .

وهو يقول إن الخلود لا يناله أحد ، إذ كلٌّ وارد على حوض الموت مسلم روحه إلى ربه ، ويقول إن الحياة أصبحت لا تطيب وقد مات الشيخ وغيَّبْته اللحود ، وقد تولَّى عنى صبرى إذ فارقنى إنسان عين الوجود ، وهى مبالغة واضحة . ويذكر أنه طود علم كان يؤمه مريدون كثيرون ، ومن حماه وتقاه يفر الشيطان المريد ، وإذا سُدَّ باب علم عويص معقد كان مفتاح بابه المسدود فما يلبث أن يفتح على مصاريعه . وقد علم الأصول والفروع علما لا يلحقه فيه لاحق . وله مرثية أخرى فى محمد الدنبج التندغى . ويقول الشيخ سيديّا الكبير المتوفى سنة ١٢٨٤ هـ/١٨٦٨ م فى رثاء الشيخ الصوفى المختار الكنتى وزوجه الصالحة[1] :

جـادتْ سحائبُ رأفـة الـرحمـن بِهوامِلِ التكريـم والرُّضوان[2]
وبوصفِ محضِ الوُدِّ والزُّلْفَى عـلى جَدَثين حلَّ حشاهما الشيخانِ[3]
لاحـا وأحْـلاكُ الجهـالةِ فَحْمَةٌ وملابسُ البِدَعِ الجِداد مثانِ[4]
والدِّيـن منهـدمُ القواعدِ مُرْكَسٌ بأخامِص الطغيـان والعِصيانِ[5]
فغدا منـارُ الديـن بعـد تهـدمٍ ثبتَ الأسـاسِ مشيَّد الأركـان

وهو يدعو للشيخ وزوجته بأن تهمى عليهما سحائب رأفة الرحمن بمنهر التكريم والرضوان وبمحض الود والزلفى على قبريهما ، ويقول إنهما ظهرا ودياجى الجهالة فحمة ، وملابس البدع المحدثة لا تحصى ، والدين منهدم القواعد وعاليه مركسٌ بباطن أقدام الطغيان والعصيان ، فأصبح بفضلهما منارُ الدين راسخَ الأساس رفيع الأركان . ويقول محمد بن حنبل الحسنى فى رثاء الشيخ سيديًّا الكبير[6] المذكور آنفا :

أرى المِلَّةَ البيضاء جَلَّ مُصابُها ففاضتْ مآقيها وطـالَ انتحابُها[7]
وقاستْ بفقد الشيخ وَجْدَ مصابةٍ بواحدهـا لمـا تولَّى شبابُهـا
وأظلم وَجْهُ الأرضِ حتى كأنما تردَّت سـدادا غُوطهـا وحِدابُها[8]
وزُلْزِل أقطـارُ البلاد فأصبحتْ شواهقُهـا مهتزةٌ وهضابُهـا
وزُعْزِعَ آطـامُ الهـدى وحصونُه وقُوِّض فُسْطاط العـلا وقِبابُها[9]

وهو يقول إن وفاة الشيخ سيديًّا مصاب كبير لشريعة الدين الحنيف ، وكأنما قاستْ حزن سيدة فقدت واحدها أو ولدها الواحد ويقول إن وجه الأرض أظلم وارتدت رياضها

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٣١٦ .
(٢) هوامل : مسايل .
(٣) جدثين : قبرين .
(٤) مثان : تتكرر وتتردد .
(٥) مركسٌ : مضروب . أخامص جمع أخمص : باطن القدم .
(٦) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٣٢٣ .
(٧) الملة البيضاء : الدين الحنيف وشريعته .
(٨) غوطها : رياضها . حدابها : كثبانها .
(٩) الفسطاط : الخيمة الكبيرة .

وكثبانها مدادا أسود شديدا ، وزلزلت أنحاء البلاد واهتزت جبالها وهضابها وزعزعت منازل الهدى وحصونه وهدِّمت خيام العلا وقبابها . وهي مبالغات شديدة في الرثاء تعبيرا عن مدى الحزن الذي أصاب الشاعر والناس بوفاة هذا الشيخ الصوفي. ونتوقف قليلا إزاء أحد شعراء الرثاء .

باب[1] بن أحمد بيب العلوي

كان أبوه عالما فاضلا ناسكا مشارا إليه – كما يقول الشنقيطي – في بلده وجيله ، ملحوظا بعين التعظيم في معشره وقبيله . ويقول عن باب إنه العالم الأوحد الذي أغار ذكره وأنجد . ومرَّ بنا أنه أكمل كتاب الديباج في تراجم فقهاء المالكية من القرن الثامن الهجري حتى القرن الثاني عشر . ولما كُفَّ عمه – وكان قاضيا – أنابه عنه في قراءة الحديث للطلاب والناس حتى وفاته ، واشتد الخلاف بينه وبين ابن خاله حُرَم الذي مرت ترجمته في منسألة من مسائل الوقف ، وانضم إلى كل منهما طائفة من العلماء والشعراء ، وكان فقيها محدثا ناسكا . ويقول الشنقيطي عنه : قلما مات أحد ممن يشار إليه في قبيلته إلا رثاه ، توفي سنة ١٢٧٦ هـ/١٨٦٠ م . ومن قوله في رثاء عبد الله بن حرمة بن الصبار العلوي :

كان عبد الإله بَرًّا نقيًّا ... نَزِهَ النَّفْسِ طـاهرَ الأثـوابِ
صحب الصالحين وهْو صغيرٌ ... لم يَنَلْ منـه عنـوانُ الشبابِ
كان بَـرًّا بأمِّــه وأبيــهِ ... ورفيقا بجاره ذي الجَنـابِ[2]
وهْوَ في لَزبةِ الزمان ربيعٌ ... ذو جفـانٍ كأنهنَّ جوابي[3]
كلَّ يـومٍ تراه يدرسُ علمًا ... وهْو بالليـل قائـمُ المحـرابِ

يقول باب إن عبد الله كان صالحا تقيا نزيها عن الصغائر طاهر الأثواب ، صحب الصالحين ناشئا في شبابه ، وكان بارا بأمه وأبيه ورفيقا بجاره البعيد فضلا عن القريب . وفي أيام الشدة والجدب يصبح ربيعا للناس وتكتظ مائدته لهم بقصاع كالحياض مترعة بالطعام ، وفي كل يوم يدرس للطلاب والناس علما وفي الليل يخلص لربه مصليا في المحراب . ويقول في رثاء محمد بن أحمد الحسني :

(١) انظر في ترجمة باب وشعره الوسيط ص ٣٤ والشعر والشعراء في موريتانيا ص ٣٠٦ وما بعدها .

(٢) ذي الجناب : يريد البعيد .

(٣) لزبة : شدة . الجفان جمع جفنة : القصعة . الجوابي جمع جابية : الحوض .

فعلُ الجليلِ جميلٌ فارْضَ ما فَعَلا ... رَمَى بقلبك شَجْوًا أو رمى جَذَلا[1]
واذكُرْ مصيبةَ خيرِ الخلقِ تَسْلُ بها ... إذا عليك مُصابٌ معضِلٌ نَزَلا[2]
به تيتّم – إذ أَوْدَى – بنو حسنٍ ... يُتْمَ ابنِ يومين والعافون والنُزَلا[3]
لو ساعدتني القوافي ما تركتُ لمن ... يَرْثِي مقالا ولا يشفي ليَ الغُلَلا[4]

وباب يدعو للرضا بقضاء الله وكل ما ينزله بالإنسان من حزن أو فرح ، ويقول إن مصيبة الأمة فى خير الخلق رسولها الكريم يجعل كل فرد فيها يتعزّى بها عن كل ما ينزل به من مصاب فادح أو كا يقول شديد عسر . وقد أصاب باليتم من يعولهم من بنى حسن والسائلين والضيفان . ولو ساعدته القوافى ما ترك لراث أو نادب مقالا ، ومهما قال فلن يستطيع شفاء ما يكنه من حرارة الحزن عليه . ويقول فى رثاء زوجته مريم بنت محمد مولود :

هَمٌّ تأوَّبه من بعد ما هَجَعا ... قد بات منه يراعى النجمَ مُكْتَنِعا[5]
أضْحَى الفؤادُ به من لوعةٍ خَبِلاً ... والعَيْن تسكبُ من تَذْرافها دُفَعا
يَبكى على مريمٍ يوما وحَقٌّ له ... أن لا يزال عليها باكيا وَجِعا
يا ليلةً بِتُّها جَنْبَ المليحة لم ... أَهْنَأْ وقد نام عنى القومُ مضطجعا
حتى دعاها إلى المولى المهيمنِ ما ... يدعو الملوك ويدعو الأَعْصَمَ الصَّدَعا[6]
يا ربِّ مريمُ قد وافَتْكَ وافدةً ... فاجعلْ لها جَنَّةَ الفردوس مُرْتَبَعا

ومريم زوجة باب هصر الموت غصن شبابها فى سن الواحدة والعشرين وقد تركت ولديها فاطمة وأحمد وقلبه مشغوف بهما ، وهو يقول إن همًّا ظل يعاوده بعد هجوعه قليلا ، وظل سهران يراعى النجوم فى غروبها وكأنما أصابه لشدة لوعته خَبَل ، وعينه تذرف الدمع مدرارًا ، ويبكى على مريم بكاء حارًا ويتوجع وما كان عليه أشد من ليلتها الأخيرة وهو بجوار محبوبته يتجرع الحزن وقد نام الناس جميعا ، ودعاها إلى ربها الموت الذى يدعو الملوك والوعول والوحوش الفتيّة ، ويدعو لزوجته ربه أن يدخلها فراديس الجنان . ويستمر فى القصيدة ويدعو الله أن يلطف بولديها وأن تصلى عليها الملائكة وحاملو العرش والأنبياء والمسلمون فى صلاة الجمعة وحجاج بيت الله الحرام ، ويسترجع مستسلما للقضاء . والمرثية مؤثرة بالغة التأثير .

---

(١) شجوا : حزنا . جذلا : مسرة .
(٢) معضل : شديد أو لا يمكن البرء منه .
(٣) العافون : السائلون .
(٤) الغلل جمع غلة : حرارة العطش وتستعار لنار الوجد والحزن .
(٥) مكتنعا : مائلا إلى الغروب .
(٦) الأعصم الصدع : الوعل الفتىّ القوى .

الفصل الرابع

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل

قلما يخلو شعر شاعر موريتانى من أبيات ومقطوعات – وأحيانا قصائد – تصف تعلقه بفتاة فى شبابه ، غير أن شاعرا لم يعش لوصف الحب وتباريحه ، مثل شعراء الغزل العذرى فى عصر بنى أمية من أمثال قيس بن ذَريح وجميل أو مثل شعراء الغزل الصريح أمثال عمر بن أبى ربيعة والعَرْجى ، إنما هى خواطر تلم بالشاعر الموريتانى إزاء عاطفة الحب الخالدة فى الحياة الإنسانية . ودأب الشعراء على محاكاة أسلافهم من شعراء العرب فى التقديم لقصائدهم الطويلة بذكر الأطلال ووصف الأظعان وما يتخلل ذلك من النسيب . ولن نقف فى عرضنا للغزل الموريتانى عند هذا الجانب لأنه – فى واقعه – محاولة لمحاكاة القدماء وقلما حمل تصوير الموجدة الحقيقية إنما نعرض طائفة بديعة من أشعار الغزل التى انتخبها الدكتور محمد المختار ولد إباه فى كتابه الشعر والشعراء فى موريتانيا ، وممن أنشد له مقطوعات وقصائد طريفة فى الغزل محمد بن محمدى وله من قصيدة بارعة[١] :

فيمن أهيمُ بها لاموا ولو هاموا ... فيمن أهيمُ بها يوما لما لاموا
هام الفؤادُ بِمَنْ لولا ملاحتُها ... ماسُفِّهتْ من ذوى الأحْلام أحلامُ
تلك التى مِنْ لَماها مسَّنى لَمَمٌ ... بادٍ ومن سَقَم الأجفان أسقام[٢]
نـامَ الأخـلاَّءُ عن ليلى وأرَّقَنى ... شوقى وما صدق العُشَّاقُ إن ناموا
مَنْ لى بوصلٍ وإن كان الوصالُ بما ... تبديه فى سِنَةِ الوَسْنانِ أحلام
إن تمنع الوَصْلَ أيـامٌ لنـا فعَسَى ... أن تمنح الوصـلَ للمشتاقِ أيَّـامُ

وهو يقول إن من حولى يلومونى فى هيامى بصاحبتى ولو رأوا جمالها الفاتن يوما لهاموا بها مثلى وكفُّوا من لومهم ، وقد هام الفؤاد بها لحسنها ولولاه ما سُفِّهت عقول العقلاء الذين شغفوا بها حبا . وتلك هى التى مسَّنى من جمال شفتيها وفتنتها ما يشبه الجنون وأصابنى من سقم أجفانها ما لا يحد من الأسقام . ويعجب أن نام الأخلاء وهو مؤرَّق مسهَّد لأنه عاشق ،

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٩٦ .

(٢) لماها : سمرة شفتيها . لمم :طرف من الجنون أو شدة .

والعاشق لا يصدق فى عشقه إن نام . ويتمنى وصل صاحبته ، ويقول ما أشبهه بالأحلام يراها الوسنان فى نعاسه ، ويقول إن كانت أيام لنا لم تسمح بالوصال فعسى أيام أخرى تسمح باللقاء . وكان يعاصره محمد بن طلبة وسنفرد له ترجمة . ويقول المختار[1] بن محمد الحسنى من شعراء القرن الثالث عشر الهجرى :

شأنُ المحبين أن يبكوا وأن يقفوا ... بين المنازل فابكوا بينها وقِفُوا
ما فى البكاء بها عارٌ ولا سَرَفٌ ... بل البكاء على غير الهوى سَرَفُ
إن لم تكن عبراتُ العَيْن واكفةً ... فيها ففى أىِّ دارٍ بعدها تكِفُ[2]
والعينُ ما برحتْ من فَيْضِ عَبْرتها ... إنسانُها يختفى طورا وينكشف
تُصْمى القلوبَ بِسَهْمَىْ لحظها عَرَضًا ... إن القلوبَ لسهْمَىْ لحْظها هَدَفُ[3]

وهو يقول لصحبه إن عادة المحبين إذا ألموا بديار محبوباتهم أن يستوقفوا الركب ويبكوا فقفوا وابكوا فى منازل صاحبتى ، وإن لم تَسِلْ عبراتى ، ففى أى دار غير دارها تسيل وإن عبراتى لتهمى حتى ليختفى إنسان عينى وراءها تارة ، وتارة ينكشف ، وإنها لتصيب القلوب بسهام لحظها دون قصد حتى لكأن القلوب دائما لها هدف . ويقول محمد[4] بن حنبل الحسنى المتوفى سنة ١٣٠٢ هـ/١٨٨٥ م :

ابكِى الدمع وَاهجُرِى النومَ عينى ... صَرَمتْ حَبْلَ الوَصْلِ أُمُّ حكيم[5]
تلك مَن جرَّعتْ فؤادى كئوسًا ... من هواها تُبيتنى كالسَّليم[6]
لا تَظُنَّ الظنونَ أنَّ مقامى ... باليُنَيْبِع لاطِّلاب العلوم
بل لغَرْبيَّةٍ تهبُّ عَشيًّا ... بشَذاها فأشتفِى بالشَّميم
وأرى عينَ من رآها فأُطفى ... لَهبَ الوجد من حَشاىَ الكليم

وهو يطلب من عينه أن تسكب الدمع مدرارا وتهجر النوم هجرانا ، فقد قطعت أم حكيم ما كان بينها وبينه من وصل ، ويقول إنها جرعته كئوسا من حبها جعلته يبيت طوال الليل كالملدوغ . ويذكر أنه ينبغى أن لا يظن أحد أن مقامه فى جوارها بالينبوع من أجل طلب العلوم ، وكان شغوفا بها ، إنما هو من أجل استرواح الريح الغربية التى تحمل عطر أم حكيم فيشتفى بها أو ليرى عين من رآها فيطفىء نار الوجد المشتعلة فى حنايا أحشائه . ونتوقف قليلا إزاء بعض شعراء الغزل .

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ١٠٣ .
(٢) واكفة من وكفت تكف : تسيل .
(٣) تصمى : تصيب .
(٤) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ١٠٥ .
(٥) صرمت : قطعت .
(٦) السليم : الملدوغ .

الأحول[1] الحسني

هو عبد الله الأحول الحسنى ، كان حسن الأخلاق عالما باللغة ، ولما وقعت الحرب بين قومه وبين العلويين انحاز فيها إلى قومه وسلَّ معهم سيفه ، ونظم فيها أشعارا كثيرة ضد العلويين ، وما زال حاملا سلاحه حتى قتل فى إحدى معاركها سنة ١٢٥٠ هـ/١٨٣٥ م وأنشد له الشنقيطى والدكتور محمد المختار قصائد ومقطوعات غزلية مختلفة منها قوله :

شدُّوا المهارَى بأكوارٍ وأحْداجِ ... وأدلجوا تحت ليلٍ ألْيَلٍ داجِ[2]
فأصبحتْ دورُهم قَفْرا معطَّلةً ... تَبْكى دواعى هَديلٍ شَجْوُها شاجِ[3]
تلوح آثارُ من بانوا بمعهدها ... مثلَ البُرود وَشَتْها كفُّ نَسَّاجِ
فما علمتُ ولم أشعر بِبَيْنِهِمُ ... إلا بِجَوْنٍ من الغربانِ شحَّاجِ[4]
تبًّا لعِيسٍ نأتْ عنا بناعمةٍ ... غَيْداءَ ريَّانةِ الحِجْلَيْنِ مِغْناجِ[5]

والأحول يقول إن أهل صاحبته شدوا الإبل للرحيل ومعهن النساء فى الرحال والهوادج ، وساروا فى ليل شديد الظلام وأصبحت دورهم خالية يبكى فيها الهديل وحماماته بكاء يثير الوجد والشجن ، وآثارهم فى الديار وكأنها ثياب زيَّنها نساج بما فيها من رسوم وخطوط . وما أعلمنى ببينهم وبعدهم إلا نعيب غراب شديد السواد . ويقول هلاكًا لإبل بعدت عنا بحسناء ممتلئة الخلخالين ذات دلال يزيدها حسنًا ، ويقول :

أمستْ معاهدُ سُعْدَى باللِّوَى دُرُسَا ... من صَوْب وَدْق الغوادى بُكْرةً ومَسَا[6]
كم حاورتْنى بها حوراءُ آنسةٌ ... غرَّاءُ مَنْ حاورتْه منطقا أَنِسا[7]
ألهو بِسُعْدَى وسُعْدَى لا يُخَبِّبُها ... نَمُّ المريدين تَخْبيبا من الجُلَسَا[8]
بيضاءُ من مدَّ فيها العينُ فاقتبستْ ... تحت الدُّجى من سَناها أنكر القَبَسا
بل لورآها أهالى يوسفٍ قُطِعتْ ... منهم قلوبُ رجالٍ لا أكفُّ نِسا

وهو يقول إن ديار سعدى صاحبته أصبحت عافية من طول ما انسكب عليها من أمطار السحب صباحا ومساء ، ويذكر صاحبته اللطيفة الحسناء وأنسه بها وبأحاديثها حين كانت

---

(١) انظر فى ترجمة الأحول وشعره الشنقيطى ص٣٠٤ والدكتور محمد المختار ص ٨٤ وفى مواضع مختلفة .

(٢) المهارى : الإبل . الأكوار : الرحال . الأحداج : الهوادج . أدلجوا : ساروا ليلاً . أليل : شديد السواد .

(٣) هديل : ذكر الحمام . شجوها : حزنها . شاج : كثير الحزن .

(٤) بينهم : بُعدهم . جون : أسود . شحاج : يكثر من النعيب والصياح .

(٥) العيس : الإبل . غيداء : حسناء . ريانة الحجلين : ممتلئة الخلخالين . مغناج : ذات دلال .

(٦) درسا : عافية . ودق : مطر . الغوادى : السحب .

(٧) حوراء : ذات حور فى عينيها وجمال . غراء : بيضاء .

(٨) يخببها :يخدعها . المريدين : المعجبين .

تلهو معه غير آبهة بكلام المعجبين النمّامين ، ويقول إن من يرنو إليها طويلا يشعر كأنما قَبسَ من جمالها المضيىء ما يفوق قبس النار حسنا وجمالا بل لو رآها رجال النسوة اللائى قطعن أيديهن حين أبصروا جمال يوسف لقطعوا قلوبهم افتتانا بها . ويقول :

غَرَّاءُ لا يرقبُ الراءون وَجْنَتَها ... إلا ثَنَى النـورُ منهـم حِدَّةَ النَّظَرِ
لم تَدْرِ هل هىَ من شَذْرٍ مركَّبةٌ ... أم من صريف لُجَيْنٍ أم سنا قَمرِ(١)
كـلٌّ تلابسَ إلا أن يميِّزهـا ... من ذا ومن ذَيْن وَسْمُ الدَّلِّ والخفَرِ

فهى بيضاء لا يرمق المبصرون وجنتها النيِّرة إلا صرف نورها حدة النظر إليها لشدة سطوعه كسطوع ضوء الشمس . ويقول إن مبصرها لا يدرى هل هى مركبة من قطع ذهب أم من قطع فضة أم من ضوء قمر ، وكأنما كل ذلك يلتبس بها إلا ما تتميز به من الدلال والحياء اللذين يزيدانها حسنا وبهاء .

محمد(٢) بن الطلبة اليعقوبى

عشيرة اليعقوبيين أو قبيلتهم فى شنقيط ومراعى تيرس وريفها من سلالة عون بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، وامتاز اليعقوبيون بالتعمق فى العلوم الفقهية واللغوية ، وكانت لهم مدرسة تعنى بتدريس هذه العلوم ، فتوارثوا التدريس فيها كما توارثوا القضاء ، وكان أبو الشاعر وجده مدرسين ، فهو من بيت علم ، وعنى أبوه بتربيته ، وكان يُدَرِّس للطلاب حينئذ المعلقات السبع ودواوين الشعراء الستة : امرىء القيس وزهير والنابغة وطرفة وعنترة وعلقمة ، وديوان ذى الرمة . وأضاف إلى ذلك الطلاب النابهون من أمثال محمد بن الطلبة ديوان الشماخ والأعشى وغيرهما من القدماء . وتمثل ابن الطلبة الشعر الجاهلى والإسلامى تمثلا لانكاد نجد له نظيرا بين شعراء البلاد المغربية على الأقل إن لم يكن بين شعراء العربية عامة ، وتقرؤه وكأنك تقرأ لشعراء الجاهلية المفرطين فى استخدام الألفاظ الغريبة من مثل الحارث بن حلِّزة والشماخ وأضرابهما من الجاهليين . وهيَّأ لذلك عند محمد بن الطلبة وغيره من شعراء موريتانيا أن بيئتها كانت تشبه البيئة الجاهلية بصحاريها وبقبائلها الرُّحَّل وراء المراعى ومساقط الغيث ، وبإبلها وأنعامها الراعية وبآبارها الآجنة وفى كل بقعة فى المراعى نجد أطلالا وآثارا لمن أقاموا بها فترة ثم زايلوها . وكما يكثر الشاعر الجاهلى من قطع المفاوز على ناقته كذلك يكثر الشاعر الموريتانى مستمدا من واقع حيـاته الذى لا يختلف عن واقع حيـاة الجاهليين ، وكاد محمد بن الطلبة لا يترك موضعا

---

(١) شذر: قطع الذهب . صريف لجين : قطع فضه . سنا : ضوء .

(٢) انظر فى ترجمة محمد بن الطلبة الشنقيطى ص ٩٤ وقد أنشد فى كتابه معارضاته جميعا وكثيرا من شعره ، وراجع الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٩٠ وما بعدها .

فى تيرس ومراعيها وريفها إلا تغنى به . وتغنى طويلا بمسيرة الظعن ، وبين الظاعنات محبوبته ، كما تغنى طويلا بحيوانات الصحراء من إبل وخيل وبقر وظباء ونعام وأتن وحشية مع حمارها ، فالحياة الصحراوية الجاهلية بحذافيرها يتمثلها محمد بن الطلبة وغيره من شعراء موريتانيا ، وكأنما أراد أن يثبت مدى صحراويته فى شعره فاختار قصيدتين للشماخ والحميد بن ثور الصحابيين تكتظان بالغريب وبوصف الحياة الصحراوية وحيواناتها وظعنها وعارضهما معارضة رائعة . وبالمثل عارض قصيدة للأعشى ، ولن نسوق أمثلة لغزله من هذه القصائد لكثرة الغريب فيها ، إنما نسوق له أمثلة من غزلياته الأخرى منحِّين ما ينظمه ممتلئا بالألفاظ الصحراوية الآبدة ، فمن ذلك قوله مخاطبا محبوبته التى يسميها أم المؤمنين :

كيف التجلُّد لا تجلُّدَ بعدما ... شَطَّتْ بأمِّ المؤمنــين نَـواهــا[1]
عوجى قليلا ريثما أشكو الذى ... قد شفَّ نفسى منكمُ وبَــراها[2]
ما كان ضَرَّكِ لو رَدَدْتِ تحيَّةً ... فيها لنفسى – لو رددتِ – شِفاها
واهًا لما أبْدَى لنا يومَ النَّوَى ... منهــا الـوداعُ وقــلَّ منَّا واها[3]
يا ليت شعرى والفـــراقُ موكَّلٌ ... بالعاشقـين متى يكـــونُ لقاهـا

وهو يقول كيف التجلُّد للأسى والصبر بعدما أوغلت بها النَّوَى وبعد الدار ، ويتمنى لو كانت وقفت له قليلا ليشكو لها شفوف نفسه وضنا جسمه بحبها ، ويقول إنه حيَّاها ولم تحيِّه ولو حيته لشفت نفسه مما يضطرم فيها من الألم ، ويتفجع لوداعها يوم الفراق ويتحسر متمنيا لقاءها بعد هذا الفراق . ويقول :

لا القلبُ عن ذكر أمِّ المؤمنين سَلا ... ولا أرى عاذلاتي تتـرك العَــذلا[4]
بل لا أرى لوم من يَلْحو ومن عذلا ... إلا يزيدُ علىَّ الهــمَّ والخبَلا
ولا أرانى أرى رَسْما ولا طَللا ... إلا وساءلتُ عنها الرسم والطَّللا
هى التى أنــا لا أبْغِى بهــا بــدلاً ... ونَيْلِىَ الوصْــلَ منهــا نَيْلِىَ الأمــلا

فهو لن يسلو صاحبته مهما لامته اللائمات ، بل إن لوم من يلومه إنما يزيده هما وجنونا بحبها ، ويقول إنه لا يرى رسما ولا طللا إلا سأله عنها كأنما تملأ عليه جميع البقاع ، ويؤكد أنه لا يبغى بها بدلا لها إذ نيل وصلها نيل أمله فى دنياه . ويقول فيها :

(١) التجلد : الاحتمال فى صبر . النوى : الفراق والبعد .
(٢) عوجى : توقفى وميلى . براها : نحلها .
(٣) واها : كلمة تقال فى التفجع وفى العجب .
(٤) العذل : اللوم ، ومنه العاذلات .

إنَّ قلبي متيَّمٌ بالحسانِ من ذوات الأحساب من حسَّانِ
كلُّ بيضاءَ خَدْلةِ الساقِ رُودٍ تتثنّى كأنها غُصْنُ بانِ[1]
جعلتْ فوق نَحْرِها الشَّذْرَ والدرَّ وناطتْ قلائدَ المَرْجانِ[2]
غير أنّى ما إنْ وجدتُ كأُمِّ المؤمنين العَروبِ فى النّسوانِ[3]
ولها منطقٌ لو اصْغَى له الرُّهْبانُ أصْبَى مشايخَ الرُّهبانِ[4]

وهو يقول إن قلبه مشغوف بالحسان ذوات الحسب والنسب من قبيلة حسان الشنقيطية ، فكل فتاة بيضاء منها ممتلئة الساق شابة فاتنة تتمايل تمايل غصن البان على شجرته ، وفوق نحرها شذور الذهب واللؤلؤ وقلائده ، وفاتنتهن أم المؤمنين الجميلة ذات المنطق الجميل الذى لو أرهف الرهبان السمع إليه لأصباهم ومالوا إليها إعجابا . ولابن الطلبة وراء ذلك غزَليات كثيرة . وقد توفى سنة ١٢٧٢ هـ/١٨٥٦ م .

يقوى[5] الفاضلى

ذكر الدكتور محمد المختار فى كتابه الشعر والشعراء فى موريتانيا طائفة من الشعراء الغزلين فى القرن الثالث عشر الهجرى وما لهم من قصائد ومقطوعات غزلية مثل المجدد المجلسى والمأمون اليعقوبى ومحمد بن السالم والمختار بن محمد الحسنى والهادى العلوى ومحمد بن بابكر ، وقال من أفضلهم وأجودهم شعرا يقوى الفاضلى الذى ذكر عنه أنه توفى سنة ١٣٠٣هـ/ ١٨٨٦م وقال إنه شاعر رقيق مطبوع ، وأنشد له قصيدتين غزليتين ، وفى أولاهما يتغزل فى صاحبته سليمى منشدا :

زعمَ الجاهلون أنْ عهودًا كنَّ بينى وبَيْنها أنْساها
أو منحتُ الوداد غير سُلَيْمى لا ومَنْ زيَّن السَّما وبَنَاها
ما تغيَّرتُ لا ولكنْ عَدانى عن لِقاها أجلُّ مما عَداها[6]
ومهاوٍ تهابُ - إن نظرتْها - عَيْنُ مجتازها الجليدِ سُرَاها[7]
قد تجشّمتُ هولها أتخطَّى لسُلَيْمَى حتى دخلتُ حِماها

(١) خَدْلة الساق : ممتلئة . رود : شابة جميلة .
(٢) الشذر : قطع الذهب . الدر : اللآلىء . ناطت : علقت . المرجان : حجارة كريمة بيضاء وحمراء .
(٣) عروب : لطيفة .
(٤) أصبى:جعل مشايخ الرهبان تصابى وتتكلف الهوى.
(٥) انظر فى غزل يقوى الفاضلى الشعر والشعراء فى موريتانيا ص٩٩ ومابعدها وانظر فى وفاته وتاريخها ص٧٤.
(٦) عدانى : شغلنى .
(٧) مهاو : جمع مهوى يريد مفازات يسقط فيها الإنسان ويهلك الجليد القوى : المتحمل للمشقة بصبر . السرى : السير ليلا .

وهو يذكر أن من لا يعلمون مدى حبه لها ظنوا أنه نسي ما كان بينه وبينها من عهود أو أنه منح حبه لأخرى ويقسم بمن زين السماء بنجومها وكواكبها أنه ما نكث عهدا لها ولا تغير . إنما شغله عنها أخطر مما شغلها وما يقوم دون لقائها من مفازات مهلكة ، يهاب الجليد الجرىء الصابر السُّرى والسير فيها ليلا ، وقد تحمل هولها متخطيًا من مفازة إلى أخرى حتى دخل ديارها وحِماها ، يقول :

وتميُّزتُها فـدَلَّ عليهــا ... فى الدُّجَى طِيبُ نَشْرِها وبُرَاها[1]

فعلتْنى مهابــةٌ ووجــومٌ ... من لِقاها وما علانى عَلاهـا

وأشارتْ بأنَّ فى البيت ناسًا ... ينشرون الحـديث عَمَّنْ أتاهـا

قلتُ لأيًا وَصَلْتُ قالتْ تَنَحَّ ... قبـل دهيــاءَ مُعْضلٍ ألقاهـا[2]

وصفا بيننا الحديثُ وقالتْ ... لا تُعِدْ مِثْلها وألقتْ عصـاهـا[3]

ثم بِتْنَا بقيَّــةَ الليــل نلهــو ... بأحـاديثَ لا يُمَلُّ جَنــاهـا[4]

وهو يقول إنه بحث عن سليمى ودلَّه فى الليل طيب عطرها وأصوات أساورها وخلاخيلها ، ويذكر أنهما حينما تلاقيا علتهما مهابة ووجوم .وأشارت إليه أن فى البيت ناسا يذيعون الخبر عمن أتاها وتخشاهم ، فقال لها لقد تحملت مشاقَّ حتى وصلت إليك فقالت له : الزم ناحية لا تظهرك قبل أن ألقى داهية لا أستطيع النجاة منها ، ونازعها الحديث وصفًا بينهما وقالت له لا تكرر مثلها ، وباتا بقية الليل ينعمان بأحاديث شتّى . والقصيدة سلسة مثل هذا الحوار بينه وبين سليمى . ويقول فى قصيدته الثانية :

مغانٍ سقانى الدهرُ فيها على الظَّما ... كئوسَ المنى من كلِّ أحورَ أهيفا[5]

لعمرى لئنْ أمستْ عفاءً لفى الحشَا ... لها منزلٌ لم يَعْفُ قــطُّ وما عَفا

وناهــدةٍ تَجْلُــو أغــرَّ كأنما ... بِتِرْيَاقِهــا صبَّ المهيمـنُ قَرْقَفَا[6]

على وَجْنَتيهــا قد جـرى متحيِّرا ... ولَبَّتِها مــاءُ الملاحــة والصَّفـا[7]

يقول إنها مغان أو منازل طالما سقاه الدهر فيها – وهو ظامىء – كئوس المنى من كل بيضاء ضامرة الخصر فاتنة ، ويقسم إنها إن كانت قد عفت وأصبحت أطلالا فإن منزل صاحبته ودارها فى حشاه لا يعفو أبدا . ويصف صاحبته بأنها شابة تفترُّ عن ثغر مشرق وكأنما امتزج رضاب ريقها بخمر مسكرة ، ويقول إن رونق الملاحة والصفا يجرى مترقرقا على وجنتيها ولبَّتها الجميلة .

---

(١) نشرها : عطرها . البرى : الخلاخيل والأساور .

(٢) دهياء : داهية . معضل : شديدة .

(٣) ألقت عصاها : اطمأنت واستسلمت .

(٤) الجنى : الثمر الحلو .

(٥) أهيف : ضامر . ذكرَّ الصفة لضرورة الشعر .

(٦) ناهدة : شابة . أغر : أبيض يريد ثغرا أبيض . قرقف : خمر .

(٧) لبتها : موضع القلادة من الصدر .

٢

شعراء التصوف

عرفت موريتانيا التصوف كما عرفته الأقاليم الإسلامية جميعا ، وكان يشيع فيه مذهبان : مذهب فلسفي يؤمن أصحابه بالاتحاد مع الله والفناء فيه وأيضا بحلوله فيهم ، ومذهب سني يقف عند أداء الفرائض الدينية والنوافل والإخلاص العميق لله ومحبته محبة صادقة . وطبيعي أن لا يتعلق الموريتانيون بالمذهب الأول ، لأنهم لا يتفلسفون بل يعيشون معيشة أقرب إلى الفطرة ، فلم يعتنق المذهب الصوفي الفلسفي عندهم أحد ، ونفس معتنقيه في الأقاليم الإسلامية الأخرى كانوا دائما أفرادًا ولم يصبح موجة عامة في أي بيئة عربية ، إنما الذي أصبح له ذلك المذهب الصوفي السني ، وأخذت تظهر فيه طرق منذ القرن السادس الهجري ومن أهمها الطريقة القادرية لعبد القادر الجيلاني المتوفى سنة ٥٦١ هـ/١١٦٦ م وشاعت في المغرب ، ونجد شعراء موريتانيا يذكرونها ويشيدون بشيخها أحيانا . وأهم منها الطريقة الشاذلية المنسوبة إلى أبي الحسن الشاذلي المتوفى سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م وقد انتشر شيوخها في البلاد المغربية ، وكانت أكثر شيوعًا في موريتانيا من الطريقة القادرية ، وأوسع منهما جميعا الطريقة التيجانية المنسوبة إلى أحمد التيجاني المتوفى بفاس سنة ١٢٣٠ هـ/١٨١٥ م إذ يبدو أنها انتشرت في موريتانيا انتشارا واسعًا لكثرة من نجدهم من الشعراء يشيدون بها وبمؤسسها ويدافعون عنها دفاعًا حارًّا ، من ذلك قول محمد بن عبد الله العلوي منوها بطريقته وولايته(١) :

طالعْ جواهرَهُ واصحَبْ رسائلَهُ ... وما يبثُّ من الأنوار والحِكَمِ
تجدْ ولايتَــه لاحتْ معالمهـــا ... كما تُرَى في الدُّجَى نارٌ على علَمِ

وهو يشيد برسائل له في النزعة الصوفية ولعله يريد بجواهره وِرْده الذي يُقْرأ في الصباح ، وينوه بولايته التي شاعت له في الآفاق كما تشيع أضواء نار على قمة جبل عال . ويقول عبدالله بن أحمد دام ، وهو من أتباع طريقته مثل سالفه المعاصر له مدافعًا عنه ضد خصوم طريقته(٢) :

مَنْ كان في مذهب التيجانِ مُمْتَرِيًا ... فإنني لكمـــال الشيخ معتقــدُ
مَنْ ينظـرِ الكُتُبَ التي أفادَ بها ... ينظـرْ كلامَ محقٍّ كله رشَدُ
أما الذيـــن تعاطـــوا وِرْدَه فلقد ... أعيا على العــدِّ حَصْرًا منهمُ العَدَدُ

---

(١) الشنقيطي ص ٣٣ .

(٢) الشنقيطي ص ٢٨٩ .

فهو من المعتقدين فى إمامة أحمد التِّيجانى الصوفية وقطبيته ويقول إن من ينظر فى رسائله ومؤلفاته يعرف روعة كلامه وصدقه وتصوفه الحق ، ويذكر أن من اعتنقوا طريقته ويقرءون ورده يفوتهم العدّ والإحصاء . ويقول محمد بن عبد الجليل العلوى[1] :

إنا حماةُ طريقِ أحمدَ شيْخِنا ونجيبُ عنه المنكريـن ومَنْ جَفا
ونُعِدُّ للعادى عليه صوارمًا وأسودَ غابٍ فى الكريهةِ زُحَّفا[2]

وهو يذكر عن نفسه وشيخه التيجانى أنهم حماة طريقته يذودون عنها بالحجج الدامغة وبالسيوف القاطعة تحملها أسود غاب ضارية . ونقف قليلا بإزاء شيخين موريتانيين من شيوخ التصوف .

المختار[3] الكنتى

من ذرية عقبة بن نافع والى المغرب ومؤسس مدينة القيروان ، يقول الشنقيطى عنه : « كان من أفراد عصره علما وصلاحا ، ولم نر أحدًا يطعن فى ولايته سوى المختار بن بون كان يشدد النكير عليه لِما بلغه من أن الشيخ الكنتى يسلبه . ورجع عن ذلك وصارت بينهما مكاتبات وملاطفات ، ويقول الشنقيطى : « على أنه لا يوجد ولى إلا وتنكر عليه أشياء من العلماء » ومن نظر فى كتبه سواء كانت فى الحقائق الصوفية أو غيرها يتبين له فضله ، وفيه يقول محمد بن الأمين :

وأخرجه ذو العرش للناس نائبًا عن المصطفى والأمرُ فاشٍ وذائعُ
ويُرْضع من ثَدْى المعارف مَنْ أتى مُريـدا ولـم تُرْضِعْ كذاك المَراضعُ

وهو يقول إن الله أخرجه نائبا عن الرسول فى هداية الناس ، وهى مبالغة واضحة . ويذكر أنه يغذى مريديه الكثيرين الذين يأخذون العهود عليه من المعارف الربانية غذاء لا يماثله أى غذاء لشيخ من شيوخ الطرق الصوفية . وقد توفى سنة ١٢٢٦ هـ/١٨١٢ م . وله يدعو إلى العمل الصالح استعدادا للآخرة :

أيقظْ جفونَك إن القلبَ وَسْنانُ وصمِّمِ العزم إنَّ العـزم كسلانُ[4]
وجِدَّ شوقا إلى أُخْراك مُبْتدرا إن اللبيب إلى أُخـــراه حنّـــانُ[5]
واعملْ لدارٍ بها اللذّاتُ قاطبةً رَوْحٌ وراحٌ وراحاتٌ وريْحانُ
ظلٌّ ومـــاءٌ وأزهـــارٌ مفتّقةٌ عن الكمائم أشكـــالٌ وألـــوان
قيعانُ مسكٍ بهـا الأنهـارُ جاريةٌ خمرٌ ومـــاءٌ وماذِىٌّ وألبـــانُ[6]

---

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٢٧٨ .
(٢) صوارم : سيوف قاطعة .
(٣) انظر ترجمة المختار الكنتى وشعره فى الشنقيطى ص ٣٦١ والشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٣٩٠ .
(٤) وسنان : نائم .
(٥) حان : مشتاق .
(٦) ماذىّ : عسل مصفًى .

وهو يدعو النائمين عن العمل للآخرة أن يفتحوا عيونهم ويعزموا عزما صادقا على العمل لها والجد فيه فالعاقل من بادر إلى ذلك اشتياقا للآخرة ، وعمل لدار الخلد المشتملة على جميع اللذات من راحة وخمر ومسرات وريحان عطر ، وظل وماء جار وأزهار عبقة أشكال وألوان وقيعان مسك تجرى من تحتها الأنهار وخمر غير مسكرة وعسل مصفى وألبان ، ويسترسل فى وصف من بالجنة من الحور العين منشدا :

بيضٌ نَواعِمُ أبكارٌ منعّمةٌ ... تحار فيهن ألبابٌ وأذهانُ
يَرْفُلْنَ من سُندسِ الفِرْدَوْس فى حُلَلٍ ... من فوقها حُلَلٌ من تحتها بانُ[1]
نشأْنَ وسْطَ مقاصيرٍ مزخرفةٍ ... لم يَطْمِثْها بها إنسٌ ولا جانُ[2]
ريقٌ لذيذٌ وأنفاسٌ معطّرةٌ ... ومنطقٌ ساحرُ الألفاظ فتّانُ
مهورُهنّ صلاحٌ دائمٌ وتُقىً ... زهدٌ وصبرٌ وإخلاصٌ وإيمانُ

وهو يستمد فى وصفه للحور العين من سورة الرحمن فى القرآن الكريم ، فيقول إنهن بيض ناعماتٌ أبكار مترفات تحار فى جمالهنّ العقول والألباب يتبخترن فى حلل الفردوس السندسية ، وقد نشأن فى غرف مزخرفة ، لم يلامسهن إنس ولا جان ، ريقهن لذيذ ونَفْحهن شذى وعطر ، ويتحدثن حديثا ساحرا فتانا ، ومهورهن صلاح وتقى وزهد وتقشف وإخلاص لله ودينه الحنيف وإيمان صادق .

الشيخ سيديًا[3]

هو الشيخ سيديًّا (بتشديد الياء ومدّها) بن المختار بن الهيب التندغى الأَبْيَيْرِىّ ، يقول الشنقيطى : « هو العلَمُ الذى رُفع على أهل قطره ، واستظلّ به أهل دهره .. اشتغل فى شبابه بالعلوم وبرع فيها بملازمته لأستاذه حُرَم بن عبد الجليل العلوى . ولما تضلع من علمه شدّ الرحال إلى الشيخ المختار الكنتى بآزواد .. ولازمه ستة أشهر ، ثم مات الشيخ المختار فبقى عند ابنه محمد خليفته فى الطريق الصوفى ، ولازمه عشرين سنة حتى برع فى معرفة الطريق ، ورجع إلى قبيلته أولاد أَبْيَيْر فتلقوه بما هو أهله واعترفوا بفضله . ولم تزل فضائله تنمو حتى أذعنت له قبائل الزوايا وحسان وصار مثل الملك بينهم فلا يرد أمره ، وكان أهلا لذلك كرما وحلما وعلما ، ولم تزل الدنيا تنثال عليه . وجعلت العرب منزله فى أرض شنقيط حَرَمًا آمنا ،

(١) يرفلن : يتبخترن . بان : شجر يشبه به الحسان فى جمال القوام .
(٢) يطمثها : يمسسها .
(٣) انظر فى الشيخ سيديا الشنقيطى ص ٢٤٠ والشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٣٩١ وما بعدها وفى مواضع متفرقة .

ولم يكن يمضى عليه يوم إلا وعنده آلاف من الناس يطعمهم ويكسوهم ويقضى جميع حوائجهم ومآربهم .. وكان تلاميذه ومريدوه يحاولون أن يقلّل من هذا الكرم الفياض فلا يستمع إليهم إلى أن توفى سنة ١٢٨٤ هـ/١٨٦٨ م . وكان شاعرا بارعًا ، وله من قصيدة :

رفعتُ إلى مولاىَ جُلَّ شكيّتى وأمّلتُ نشْلى عنده من بَليّتى
بُليتُ وهل يُبْلَى مريدٌ بمثل ما بُليتُ به من خُبْثِ نَفْسٍ غَوِيّةِ
حجابٌ عَماها عن شهودِ صِفاتها بهِ حُجِبَتْ عن مشهدِ الأحَدِيَّةِ
لذلك أفنتْ جِدَّهــا واجتهادها ومَرْغَبَها فى الفانيــات الدَّنِيَّــةَ
صحتْ من سحاب الواردات سماؤها بعصفِ ريــاح الهاجسات الـرَّدِيَّةِ
مددتُ إليك الكفَّ يا خيرَ واهبٍ فلا تَحرِمِ الخيرَ المُفاضَ يُدَيَّتى[1]

وهو يقول إنه رفع شكواه إلى ربه ضارعا إليه أن ينقذه من بليته ، وهل يُبْلَى مريد محب ربه بمثل ماُبلِى به من نفس خبيثة ممعنة فى الغواية إمعانا حجبها عن مشهد الصوفى لأحديته واتحاده بربه ، ويقول إنها جعلت كل همها واجتهادها فى المتاع الفانى ، مما جعل الواردات الربانية تنحسر عن سمائها بهبوب رياح الخواطر الرديئة . ويضرع إلى ربه مادًّا كفّيه أن لا يحرم يده من خيره الذى يفيضه على عباده ، ويريد الخير الصوفى من النسك له والاتحاد به والفناء فيه . وله دعاء طويل يستهلّه بقوله :

يا واسعَ الرَّحَمــات يا فتَّاحُ يا مَنْ دُعــاه لبابه مفتــاحُ
يا بَرُّ يا رزّاقُ رزقُك شاملٌ تُغْذَى بــهِ الأرواح والأشبــاحُ
يا فارجَ الهــمَّ المُرِبَّ وكاشفا كَرْبِ العبيد إذا دعوك وباحوا[2]
فَرِّجْ كروبَ المسلمين جميعِهم وأغِثْ بمــا لهمُ بــه إصــلاحُ
أنت المغيثُ وأنت ذو الرُّحْمَى التى بنزولهـــا شِدَدُ الــوَرَى تنزاحُ[3]
تلك الأراضى وَهْدُهــا ونجادُهــا جُرُزٌ بهــا تتخافقُ الأرواحُ[4]

وهو يدعو ربه قائلا : اشملنى برحمتك الواسعة وافتح لى باب الرزق المغلق ، يا من يستجيب للداعين ،يا محسن ، يا رزاق رزقا شاملا للناس وغير الناس ، يا فارج الهم المقيم وكاشفا غم العبيد فرِّج كروب المسلمين وأغثهم بما يصلحهم ، فأنت المغيث الرحيم الذى برحمته تزول كل الشدائد . ويصور الشدائد فى شنقيط ومراعى تيرس وريفها ، فالأراضى منخفضاتها ومرتفعاتها أجدبت ، ولم يعد بها إلا رياح تهب يمينا وشمالا ويقول إن البهائم لا تجد ما ترعاه

(١) يديَّتى : تصغير يد .
(٢) المرب : المقيم .
(٣) شدد جمع شدة .
(٤) جرز : مجدبة . تتخافق : تضطرب . الأرواح : الرياح .

وأصبحت عِجافا مهزولات ،ويضرع إلى ربه طويلا أن يرسل على البلاد سحبا تتدفق بالأمطار ، فينبت الزرع ويمتلىء الضرع ، وتنشأ الرياض وتجود الأشجار ويَرْوَى الظمآن ويشبع الجائع ويعم رخاء لا يشوبه بؤس ولا شقاء .

٣

شعراء المدائح النبوية

بدأت هذه المدائح فى حياة الرسول ﷺ على لسان حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن زهير وأضرابهم ، وأخذت تتكاثر فى العصر العباسى على لسان أهل السنة مصورين فى الرسول المثل الأعلى للمسلم في تقواه ونسكه ودعوته لرسالته وجهاده العظيم فى نشرها ، وبالمثل على ألسنة الشيعة مرددين أن نوره المحمدى سرى فى أئمتهم .. وأخذ المتصوفة – منذ الحلاَّج – يشيعون فكرة الحقيقة المحمدية وأن الرسول ﷺ مبدأ الوجود الروحى للحياة البشرية ، بل مبدأ النور والوجود فى الكون . ويشيد المادحون له دائما بمعجزاته المبثوثة فى كتب السيرة النبوية وبمعجزته الكبرى الخالدة : القرآن الكريم . وعادة ينهون مدائحهم بالتماس الشفاعة منه يوم القيامة وأن يغفر الله لهم ذنوبهم . ومنذ نشط الشعر فى موريتانيا نرى شعراءها –مثل شعراء الأقطار الإسلامية– يتغنون بمديح الرسول ﷺ مصورين سيرته ومعددين مناقبه ومعجزاته الباهرة وجهاده الرائع فى نشر رسالته وجهاد أصحابه ، مع التوسل إليه في غفران ذنوبهم والشفاعة يوم العَرْض . وتكثر هذه المدائح فى الشعر الموريتانى ، ونختار بعض أمثلة مع الترجمة لبعض من برعوا فى نظمها ، فمن ذلك قول محمد بن عبد الرحمن الحسنى –من شعراء القرن الثانى عشر الهجرىّ – فى مديح الرسول ﷺ [1] :

فإن لم تكنْ لى خَيْمَةٌ حــول رَمْسِهِ ... فهذا هــواهُ فى فــؤادىَ خيَّمــا[2]
ويا ليتَ خَدِّى كان مَوْطِىءَ نَعْلِهِ ... وصدرى ضَرِيحًــا جامعا منه أعْظُما
وما مثلُــه البحــرُ الخِضَمُّ تكرُّمًا ... ولا كَثنايــاهُ البــــروقُ تبسُّما[3]
ولو قِسْتَهُ ضَوْءًا وجودا وجرأةً ... بشمسٍ وضرْغامٍ ووَبْلٍ متى هَمَى[4]
لكنتَ كمن قد شبَّه الشمسَ بالسُّهَا ... وبالطَّــلِّ وكَّافًــا وبالهِــرِّ ضَيْغما[5]

وهو يقول إن لم تكن لى خيمة أعيش فيها حول قبره فإن هواه خيَّم فى فؤادى واستقر به ، ويتمنى لو عاش فى زمنه وكان خده موطىء نعله وصدره قبرا لأعظمه العطرة ، ويقول

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ١٤٣ .
(٢) رمسه : قبره .
(٣) الخضم : الواسع الزاخر .
(٤) ضرغام : أسد . وبل : مطر غزير . همى : سال .
(٥) السها : كوكب صغير . طل : مطر قليل . وكاف : مطر منهمر . ضيغم : أسد .

إن البحر الواسع الزاخر لا يماثله كرما ولا البروق المضيئة تماثل ثناياه تبسما وإشراقا . ولو قاسه أحد بالشمس لكان كمن يقيس الشمس بنجم السُّها الضئيل ، ولو قاسه بالوبل والمطر الغزير لكان كمن يقيس الطَّلَّ بالغيث المنهمر ، ولو قاسه أيضا بأسد لكان كمن يقيس الهر بأسد شديد الضراوة . ولغالى بن المختارنال البوصادى – من شعراء النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجرى – مدحتان رائعتان فى الرسول يقول فى إحداهما[1] :

محمدٌ سيِّدُ الكوْنين سيِّدُ مَنْ يَمْشى على الأرض من حافٍ ومُنْتَعِلِ[2]
محمدٌ سيدُ الأقطـــارِ سيِّدُ مَنْ حاز العُلا من ذوى الأمصـارِ والنُّقَلِ[3]
مَنْ للعُصاةِ شفيعٌ للمُضَام حِمًى للمُسْنِتين ربيـعٌ كالحَيـا الهَطِـــلِ[4]
للمهتديـــن سَنـًا للمُرملـين غِـنًى عَـلاؤه فـوق كـلِّ المرسلين عَلِى[5]
بَدْرٌ حُــلاه بـه الآفـــاقُ حاليـــةٌ للمشتكـين مُنًى للمرسلـين وَلِـى[6]

وغالى يقول محمد سيد الدنيا والآخرة وسيد كل من يمشى على الأرض حافيا ومتنعلا وسيد الأقطار وسيد كل من حاز شرفا من البدو والحضر ، شفيع العصاة حمى لهم ، وللمجدبين ربيع كالغيث المنهمر ، وهو نور مشرق للمهتدين ، وغنى للفقراء المُعْوزين ، ومنى للمشتكين السائلين وسيد الأنبياء والمرسلين ، إنه بدرٌ ازدانت بأضوائه الآفاق ، وقد علا علاؤه وشرفه فوق كل المرسلين . وللأحول الحسنى مدائح متعددة للرسول ﷺ ، ومن قوله فى إحداها[7] :

قدوةُ الأنبياءِ قطبُ رَحَى الكَوْ نِ وإنسانُ مُقْلـــة الإيجـــادِ
وسراجُ الـــوَرَى المُنـيرُ المُحَيَّا وبشير الـوَرَى النذيرُ العبـــادِ
وكتــابٌ عليـــه أنزلـه اللـ ـهُ شفـــاءٌ ورحمـــةٌ للعبـــادِ
بشَّرَتْ آيُهُ وأنْذرتِ النَّـــا سَ بوعدِ الثـــوابِ والإيعادِ
وفنـــونٌ من البلاغـــة تُعْيى بلغاءَ الجـــوابِ فى كل نـــادِ

وهو يقول إن الرسول القدوة المثلى للأنبياء ومحور حركة الكون وإنسانُ عَيْن الإيجاد والخلق . وواضح أن هذا البيت الأول يستمد من فكرة الحقيقة المحمدية وأنه مبدأ الوجود وروحه ، ويقول إنه سراج البشرية ذو الوجه المنير ، وقد أرسله الله بشيرا ونذيرا للناس ، وأنزل عليه القرآن شفاء ورحمة لهم يبشرهم بثوابه وينذرهم بإيعاده أو عقابه ، وقد حوى من فنون البلاغة ما أعجز البلغاء فى كل ناد وجماعة عن معارضته والإتيان بمثله . ويقول محمدى العلوى مولدية نبوية بديعة ، منها قوله[8] :

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ١٥٠ وما بعدها .
(٢) الكونين : الدنيا والآخرة .
(٣) ذوو النقل : البدو الرحل .
(٤) المسنتين : المجدبين . الحيا : الغيث .
(٥) سنا : ضوء . للمرملين : للفقراء .
(٦) حالية : مزدانة . ولى : سيد .
(٧) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ١٦٥ .
(٨) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ١٧١ .

أهلا بشهر المَـــوْلدِ شهر العُلا والسُّؤْدَدُ شهـر النبىِّ أحْمَدِ
شهر ربيـعِ الأوَّلِ
أهلا بِشَهْرِ الهـادِى لمنهـج الرَّشـــادِ وقائـــدٍ وحـــادِ
إلى الطريقِ الأمْثَلِ
أهلا بليل اثْنَىْ عَشرْ فيـه ويومــهِ الأغرّ وطيبِ ذلك السَّحَرْ
ونـورِ أفْقهِ الجَلِى

والمدحة بديعة ، وهو يرحب بشهر المولد للنبى: شهر العلا والفخر والمجد ، شهر الحبيب المصطفى شهر مولده : ربيع الأول ، شهر الهادى إلى الرشاد والقائد والحادى إلى الطريق المستقيم . ويرحب بليلة ميلاد الرسول ليلة اليوم الأغر الشريف الثانى عشر ، وبما نشر سَحَرُها من طيب عطر ونور منتشر فى أفقه بل فى كل الآفاق . ويقول محمد بن الشيخ سيدىّ الأبَيْيِرى خليفة أبيه فى الطريقة الصوفية والمترجم له بين شعراء الفخر مدحة مولدية بارعة ، منها قوله[1]

أهلا بميلاد مولـودٍ بــه كملتْ بُشْرَى البشائـر للبـــادى وللْقرَوى
أكرِمْ بهــا ليلةً غَرَّاءَ ضاحيةً فيها يتيمــةُ سِمْط اللــؤْلؤ الُلأوَى[2]
أكرِمْ بها ليلةً غراء مظهرةً سِرَّ الوجود الذى فيه الوجودُ طُوِى
لولاه ما أُنْــزل الذكرُ الحكيـــمُ ولا الدِّينُ القويمُ ولا ما فى الصِّحاح رُوِى
ولا أقيمتْ من الإســــلام قاعـدةٌ ولا بدا فَضْــلُ سُنِّىٍّ على حَشَــوِى
ولا أبـــان بيـــانىٌّ معانِيَــــه ولا نَحَا النَّحْوَ نحْــوىٌّ ولا لُغَــوِى
لــولاه لم يَغْلِبِ الـرومَ الغِلابَ ولا ملـوكَ ساسـانَ تَيْمِىٌّ ولا عَـدَوِى

وهو يهلل لميلاد الرسول الذى به تمت بشرى البشائر لكل بدوى وحضرى ، ويقول ما أكرمها من ليلة شريفة مضيئة بيتيمةِ عقد اللؤلؤ الفريد المنتمى إلى لُؤَى بن غالب جدّ الرسول ، وما أشرفها من ليلة أظهرتْ سر الوجود ومبدأه الذى استمد منه الكون وجوده ، إنه العلة الأولى والسر الأول فى خلق الوجود ونشوء الكون ، وللرسول بذلك وجودان : وجود معنوى هو لب الوجود الكونى ووجود حسىّ مادىٌّ حين ولد ثم بعث للناس هاديا وسراجا منيرا . ويقول : لولاه ما أُنْزِل القرآن الكريم ولا الدين الحنيف أو شريعته القويمة ولا رُويت أحاديثه فى كتب الصحاح الستة : صحيح البخارى ومسلم وأبى داود والترمذى والنسائى وابن ماجة ، ولولاه ما أقيمت قاعدة للإسلام ولا عرف الناس فضل السُّنِّى على

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ١٨٩ .
(٢) ضاحية : مضيئة . اللأوى : نسبة إلى لؤى بن غالب جده صلى الله عليه وسلم .

الحشوى من أهل التجسيم والعقيدة الزائفة . ولولا بلاغة كتابه التى اهتدى بها البلغاء ما كان بليغ ، ولولا العلوم الكثيرة التى نشأت حوله ما كان نحوى ولا لغوى ، ولولا رسالته العظمى ما غلب الرومَ الأقوياء وملوكَ الفرس الساسانيين أبو بكر الصديق التيمى وعمر بن الخطاب العدوى . ويقول الشيخ محمد الشمشوى المتوفى سنة ١٢٩٢ هـ/١٨٧٦ م صادرا عن فكرة الحقيقة المحمدية[1] :

ألا قد أقرَّ الكونُ أنَّ محمدا ... لكلِّ فروعِ الفضلِ أصلٌ مقدَّمُ
فمنه استفاد الحسنَ كلُّ يتيمةٍ ... من الـدُّرِّ يُكْسَاها غزالٌ منعَّم
ومنه استفاد الضوءَ وجهُ غزالةٍ ... جَنَى الضوءَ منها زِبْرقانٌ ومِرْزَمُ[2]
ومنـه استفاد الأقحُـوانُ نضـارةً ... وحُسْنَ جَمـالِ الثَّغْـر إذ يتَبَسَّمُ

وهو يقول إن الكون أقرَّ بأن الرسول ﷺ أصل كل ما فى الكون من فروع الفضل والجمال . فمنه استفادت الحسنَ كلُّ درة يتيمة فى عقد على لبَّة سيدة جميلة منعمة ، ومنه استفادت الشمس ضوءها ، ومنه أخذ البدر ضوءه وكذلك نجوم المطر . ومن الرسول استفاد الأقحوان نضارته واستفاد كل ثغر لسيدة من جماله حين يتسَّم . ونكتفى بما قدمنا من أمثلة المديح النبوى الموريتانى ، ونقف قليلا عند نفر من مجيديه .

مولود[3] بن أحمد الجواد اليعقوبى

يقول الشنقيطى فيه « هو العلامة النحرير ، واللغوى الشهير ، أحد أعلام تلك البلاد ، وإليه المرجع وعلى أقواله الاعتماد .. من أكابر تلاميذ العلامة المختار بن بون » المترجم له بين شعراء الفخر ، ويقول الشنقيطى أيضا : « كان مدَّاحا لرسول الله ﷺ » ، ومن ذلك قصيدته المعروفة بالمرجانية ، وفيها يقول :

أزْكَى صلاةٍ وتسليمٍ على قمرٍ ... بدرٍ بـهِ قـد أنارَ اللّهُ أكوانَهْ
يارَبِّ صَلِّ عليـه دائمًا أبدًا ... ما حلَّ أعراضُ هذا الكونِ أعيانَه[4]
دينٌ حنيفٌ مَحَا الماحى به وعفا ... آثـارَ مَنْ كان فى خُسْرٍ وأديانَــه
أنت الذى أزلفَ الله الجنـــانَ لمن ... والَى وأبـــرز للعاديــه نيرانَه[5]
لو كان ذا الكونُ إنسانًا لكنت لـه ... طَرْفا ولو كانَ طَرْفًا كنت إنْسَانَه[6]
أنت السراجُ المنـير الَّلذْ أنـارَ بـه ... نـورُ السمواتِ والأرْضين أكوانه

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ١٩٦ .
(٢) الغزالة : الشمس . الزبرقان : البدر . المرزم : نجم من نجوم المطر .
(٣) انظر فى ترجمة مولود وأشعاره الشنقيطى ص ١٩٠ وما بعدها .
(٤) الأعيان : المحسوسات . أعراض جمع عرض : ما قام بغيره من الصفات كالطول والبياض .
(٥) أزلف : قرَّب وقدم .
(٦) الطرف : العين . إنسانها : سوادها المبصر .

وهو يصلى ويسلم على الرسول بدر الوجود الذى أنار الله به أرجاء كونه ، ويدعو الله أن يصلى عليه ما دام الكون قائما وما دامت الأعراض تتعلق بموجوداته . وينوه بالإسلام وأنه دين حنيف محا به الماحى (من أسماء الرسول) آثار الخسران والديانات الباطلة ، وقد قرب الله لمن والاه الجنان وأذاق أعداءَه العاصين نيرانه ، ولو كان الكون إنسانا لكان عينه المبصرة ، أو لو كان عينا لكان إنسانها الذى ترى به الدنيا . ويلخص فى البيت الأخير فكرة الحقيقة المحمدية وأنه مبدأ الوجود ونوره وكل نور فى السموات والأرض مستمد من سراجه ، فهو منبع كل نور . ويقول :

ما سُدَّ بابُ كريمٍ دون قارعِهِ	فاقْرَعْ تجدْ بابَ مُولِى الأَنْعُمِ انْفرجا
وارغبْ إلى ربِّكَ الأعلى ليجعلنا	مِمَّنْ على النهجِ نَهْجِ المصطفى دَرَجا[1]
نهجِ الذى أنزل الله الكتاب هُدًى	لنا عليه ولم يجعل لـه عِوَجًا[2]
منه استفادَ النَّبيّون النبوَّة إذ	مما لـه ما لهم منها قد اختلجا[3]
ألا طَرِبتُ ألا إنى طربتُ إلى	مَنْ حبُّه مع لحمى والدَّم امتزجا
مَنْ للنبيين مَنْ للرُّسْلِ أينَ لهم	مِنْ قابِ قوسين معراجٌ كما عرجا[4]

وهو يقول اقرعْ باب الربِّ الكريم المنعم تجده قد انفتح ، وادعه أن يجعلنا ممن سار على نهج المصطفى وكتابه الذى أنزله الله عليه ولم يجعل له عوجا ولا التواء ، ويقول متمثلا فكرة الحقيقة المحمدية إنه مبدأ الأنبياء ، منه استفادوا نبوتهم التى خالجتهم فى نفوسهم . ويذكر أن حب الرسول امتزج بلحمه ودمه ، ويقول إنه ليس للأنبياء والرسل معراجه الذى خَصَّه الله به . ويشير إلى ما جاء فى سورة النجم : ﴿فكان قاب قوسين أو أدنى﴾ .

محمد[5] بن محمد العلوى

يقول الشنقيطى عنه : « برع فى عنفوانه فى العلوم وصرف همته إلى نظم الشعر ، وبلغ صيته فى قطره مبلغا لم يبلغه أحد ممن عاصره » . ولما بلغ نحو الثلاثين من عمره عزم على الحج ، ومر بمراكش ومدح سلطانها عبد الرحمن العلوى (١٨٣٤ – ١٨٥٩ م) واحتفى به ، ثم توجه إلى الحرمين الشريفين فبدأ بالزيارة ثم قضى حجه ، وفى طريقه من مكة إلى جدة توفى ، يقول الشنقيطى : كان حيا بعد سنة ١٢٥٠ هـ/١٨٣٥ م ويقول الدكتور محمد المختار

(١) درج : مشى وسار .
(٢) عوجا : التواء وانحرافا واختلافا .
(٣) اختلج فى النفس : اضطربت به ، ومنه الخوالج .
(٤) قاب : قدر . عرج : صعد .
(٥) انظر فى ترجمة محمد بن محمد العلوى الشنقيطى ص ٤٧ والشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٥١ وفى مواضع متعددة .

إنه توفى سنة ١٢٧٢ هـ/١٨٥٦ م ويذكر الشنقيطى أن ديوانه مجلد ضخم ، وكان مدّاحا بارعا للرسول ﷺ ، وفى إحدى مدائحه يقول :

وجَّهتُ وَجْهى إلى خير الوَرَى وأرى ... لنفسى الفوزَ بالمطلوب والظَّفَرا
وجهتُ وجهى إلى مُغْنى الفقير ألا ... إنى لمعروفه من أفقرِ الفُقَرا
وجَّهت وَجْهى لذى الخُلقِ العظيمِ وذى الـ ... ـمجد الصميم عديم الشَّكل والنُظَرا
وجهت وجهى لمحمود المقام ومقـ ... ـصود الأنام إذا الخطبُ الجليلُ عَرَا
من آيهِ وكفى القرآنُ معجزةً ... ما كان من خارقٍ فى بدئه ظَهَرا
يكفيك أن إلـه العَرْشِ صوَّره ... كما يشاء ومنه صَوَّر الصُّوَرا

ويبدو أنه نظم القصيدة حين عزم على الحج والزيارة أو لعله كتبها فى طريقه إلى الزيارة ، وهو يقول : وجهت وجهى إلى خير البشرية ، وفى ذلك فوزى وظفرى بكل ما أطلب إذ وجهت وجهى إلى مغنى الفقير روحيا ، وإنى لمن أفقر الفقراء إلى معروفه . إنه صاحب الخلق الرفيع والمجد المؤثل عديم النظير ، صاحب المقام المحمود والمقصود فى نوازل الخطوب ، ومن معجزاته الباهرة القرآن ، المعجزة الخارقة . وصور الشاعر فى البيت الأخير صورة وجوده المادى الحقيقى التى صوره الله فيها صورة رفيعة ، وصورة وجوده المعنوى الذى صوَّر الله منه صور الموجودات ، وهو وجود يسبق خلق الكون وموجوداته . ويقوله فى مدحة مولدية :

إنسانُ عَيْن الكونِ غُرَّةُ وجههِ ... حاوى التفرُّد بالمقـام الأرفعِ
بابُ الإلـه ومصطفاه لسرِّهِ ... وسراجُ حجَّته الذى لم يُقْشَعِ[1]
من خصَّه بحُلَى الكمال إلهُه ... والكونُ واقعُ أمـرِه لـم يوقعِ
يا مولدَ الهادى لشهرِك نفحةٌ ... أَرِجَ الزمـانُ بنَشْرها المتضوِّعِ[2]
أكرمْ بمولدِ ذى الختـام بيَوْمِهِ ... وبشهرِه وبعامـهِ والموضـعِ

وهو يقول إن محمدا ﷺ إنسانُ عين الكون وغرَّة جبينه المشرقة صاحب المقام الأرفع الفريد عند ربه ، باب رضاه وغفرانه ومصطفاه لسره ورسالته وسراج شريعته الذى لم تنحسر أضواؤه أبدًا ، وقد خصه بالكمال الأسمى قبل حدوث الكون وخلقه . والشاعر بذلك يشير إلى حقيقته المحمدية الأزلية التى خُلقت قبل خلق الكون ووجوده . ويقول إن لشهر مولده نفحة روحية ، تعطر الزمان بشذاها الفائح ، فما أكرم مولد خاتم الرسل ، وما أعظم شهره وعامه وموضع مولده .

(١) يقشع هنا : تنحسر أضواؤه .
(٢) أرج الزمان : تعطَّر . نشرها : شذاها الطيب . المتضوع : الشديد الرائحة .

محمد[1] بن حنبل

يقول الشنقيطى فى ترجمته : « كان محمد هذا من العلماء الأعلام ، واشتهر فى اللغة . وكان نحويا وله اليد الطولى فى البيان . وكان حريصا على طلب العلم ، يقال إنه مكث سبع سنوات منقطعا لطلب اللغة » وأنشد الشنقيطى له قصيدة فى مديح الشيخ سيديا حضٌ فيها على طلب العلم ومدارسته حضًّا شديدا ، وله قصيدة يزرى فيها بأهل الجهل ومقصورة مدح بها الشيخ سيديا عارض بها مقصورة أبى صفوان الأسدى وما تصور من حيوانات الصحراء وطيرها وما تحمل من ألفاظ بدوية آبدة مما يدل على ثقافته الأدبية واللغوية الواسعة ، وأنشد له الدكتور محمد المختار نبوية طويلة فى نحو مائةٍ وثمانين بيتا ، وهى نبوية رائعة ، توفى سنة ١٣٠٢ هـ/١٨٨٥ م ومن قوله فيها مستمدا من فكرة الحقيقة المحمدية الأزلية :

طه الصُّراطُ المستقيـمُ محمدٌ ... تـاجُ الخلائق سيدُ الأبـرارِ
أصلُ الوجودِ وحِلْيةُ وعَتادُه ... ومُفيضُ بحر الجـود والأنـوارِ
نورُ السراجِ وكلُّ نَجمٍ طالعٍ ... من نـورِهِ والشمسِ والأقمـار
والحُورِ والوِلْدانِ فى غُرفاتها ... والدرُّ والياقـوتِ والأزهـارِ
والعَرْشِ والكرسىِّ والألواح والأ ... قلامِ والأفهـام والأبصـارِ
والمسكُ فى فاراتـهِ والندِّ فى ... أحقاقه والروض ذى الأنـوارِ[2]

وهو يقول إن طه هو محمد الصراط المستقيم الذى لا ينحرف أبدا تاج الخلائق سيد النسّاك . ويأخذ ابن حنبل فى ذكر حقيقته الأزلية ، فهو أصل الوجود وزينته وعُدّته ، ومفيض غيث كرمه وأضواء أنواره إنه أصل كل نور فى السراج وفى النجوم والكواكب والشمس والأقمار ، وأصل كل جمال فى حور الجنان وغلمانها وفى اللؤلؤ والياقوت والأزهار ، وأصل كل وجود فى العالم العلوى من عرشٍ وكرسىٍّ وألواح وأقلام وفى العالم السفلى من أفهام وأبصار وهو طيب المسك فى أوعيته وطيب النَّدِّ فى حِقاقه وشذا الأزهار فى روضها المونق .

ويستمر ابن حنبل فى نفس الفكرة قائلا :

وبهِ نَجَا فى الفُلْك نوحٌ وأهلُه ... ونَجَا الخليلُ من التهاب النَّارِ
وأقام آدمُ فى الجِنان وزوجـُه ... وبنوهما فى البَدْو والأمصـارِ
وبِيُمنِهِ قَبِلَ الإلـهُ متابَـهُ ... من بعد مَكْرِ الخادع الغرَّارِ[3]

---

(١) انظر فى ترجمة ابن حنبل الحسنى وأشعاره الشنقيطى ص ٣١١ والشعر والشعراء فى موريتانيا ص ١٧٨ وفى مواضع مختلفة .

(٢) فارات المسك : أوعيته .

(٣) الخادع الغرار : إبليس .

ونجا الذبيحُ بذبحه من بعد ما   أنحَى عليـــه بصـــارمٍ بتّـــارِ
وبه سَرَى موسى الكليمُ بقومه   وبه انفلاقُ الخِضْرِمِ الزخّار[1]

وهو بردُ الخلاص من كل ما نزل بالرسل إليه وكذلك كلُّ ما جرى على أيديهم من معجزات فهو سرُّ الوجود وكل ما فيه وكل ما حدث للأنبياء والرسل مستمد منه ، فبه نجا نوح ومن آمن به فى الفلك من الغرق ، ونجا إبراهيم الخليل من النار واستحالت بردا عليه وسلاما ، وبه كُرِّم آدم وزوجه بمقامهما فى الجنة وأغواه إبليس فقبل الله بيمنه توبته وأكرم ذريته فى البدو والحضر ، ونجا إسماعيل من ذبح أبيه إبراهيم ، وبيمنه سار موسى الكليم بقومه ليلا ، وانفلق له ولهم البحر الواسع الزاخر فكان كل فرق كالجبل العظيم وغرق فرعون ومن معه . وعلى هذا النحو يطيل ابن حنبل فى بيان الحقيقة المحمدية الأزلية ، فهو أصل كل موجود فى الكون وأصل كل نعمة أسبغت على الرسل بيمنه وفضله . ويتحدث عن القرآن معجزة الرسول الكبرى قائلا :

وأتَى بكلِّ مهيمنٍ ما إنْ تَفِي   لُسْنُ المنـــاطق منه بالمعشـــارِ[2]
آياتُ عيسى والكليمِ بِجَنْبِهِ   كالطَّـــلِّ جَنْبَ مُزَمْزِمٍ همّـــارِ[3]
سُوَرٌ كأشباه الرياض تضوَّعتْ   بشَذا العَبيرِ وجَوْنَةِ العطـــارِ[4]
وتناسقتْ ألفاظُها وتناسبتْ   آياتُهـــا كتناسب التِّقصـــار[5]
وطِوالُها كقِصارها وقصارُها   كالدرِّ يَبْرُزُ فى نحـــورِ جَـــوار

فالرسول ﷺ قد جاء بمعجز من القرآن الكريم ، لا يستطيع البلغاء الفصحاء الإتيان بسورة من مثله ، ومعجزات عيسى من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ومعجزات موسى كليم الله من انفلاق البحر كل هذه المعجزات لموسى وعيسى بجانب معجزة القرآن الخارقة التى ليس لها سابقة ولا لاحقة كالمطر القليل بجانب السحاب المرعد الذى تنهمر أمطاره ، سور كريمة مثل الرياض تفوح بشذى الطيب ووعائه لدى العطار ، وألفاظها متناسقة تناسق اللآلىء فى القلادة البديعة ، وطوالها مثل قصارها تشبه الدرر فى نحور الجوارى الفاتنات .

٤

الشعراء والشعر التعليمى

عرضنا فى كتاب العصر العباسى الأول كيف أن رقى الحياة العقلية حينذاك أدّى إلى استحداث فن الشعر التعليمى ، وكان من السابقين إليه أبان بن عبد الحميد بترجمة كتاب كليلة ودمنة عن الفارسية إلى العربية فى نحو ١٤ ألف بيت من الشعر المزدوج المنظوم من وزن الرجز وفيه

(١) الخضرم الزخار : البحر الواسع الطاغى موجه .
(٢) مهيمن : قاهر معجز . لسن المناطق : ألسنة البلغاء .
(٣) الطل : المطر القليل . مزمزم : سحاب ملىء بالرعد . همار : مدرار كثير المطر .
(٤) تضوعت : فاحت . شذا : عطر . العبير : الطيب . جونة : وعاء .
(٥) التقصار : القلادة .

تختلف القافية من بيت إلى بيت ، مع اتحاد الشطرين المتقابلين فيها بكل بيت ، ونظّم مزدوجات أخرى فى التاريخ والفقه . ومن حينئذ شاع هذا الفن الجديد فى العراق وإيران والبيئات الإسلامية المختلفة ، وتكاثرت منظوماته فى الأندلس والمغرب ، وتأخذ فى الظهور بموريتانيا فى القرن الثانى عشر الهجرى وسرعان ما تتكاثر كثرة مفرطة فى القرن الثالث عشر ، ومن أمثلتها فى أواخر القرن الثانى عشر نظم المجَيْدرى لما ورد عن العرب من كلمات على وزن فاعول ولامهاسين مثل طاووس وناقوس[1] . ونلتقى بالمختار بن بون المتوفى حول سنة ١٢٢٠ هـ/١٨٠٦ م وله فى النحو نظم سماه الاحمرار ذكر فيه من تسهيل ابن مالك ما لم يذكره فى الألفية ، ومزجه بها مزجا جيدا يدل على مهارة تامة[2] . وكان يعاصره عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوى المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ/١٨١٤ م وقد نظم كتاب جمع الجوامع فى أصول المذهب المالكى للسبكى وسمى نظمه مراقى السعود ، وألف شرحا لهذا النظم باسم نشر البنود يقول الشنقيطى : « لم يأت الزمان بمثله ، ولا جاد فيما مضى بشكله » وألف فى علم البيان نظمه « نَوْر الأقاح » ووضع له شرحا سماه « فيض الفتاح » جمع من فنون البلاغة الثلاثة : المعانى والبيان والبديع الدرّ الثمين ، ألغى فيه الغث وأخذ السمين ، وله فىَ مصطلح الحديث نظم سماه « طلعة الأنوار » وضع عليه شرحا[3] ولابنه محمد منظومة فى الأفعال جمع فيها ما فى التسهيل لابن مالك وما فى لاميته وما فى شرح بحرق اليمانى للامية ، وشرح المنظومة ، وهو عمل لغوى بارع ، ويقول الشنقيطى معبرا عن إعجابه بهذا العمل : ناهيك به[4] . ولعبد الله بن أحمد الغلاوى معاصر ابن الحاج وأحد أفراد زمنه فى العلم وأعلم من بأرض الحوض منظومات[5] متعددة ، منها منظومته لرسالة ابن أبى زيد القيروانى فى الفقه المالكى ، أنشد الشنقيطى من فاتحتها قوله :

ولم أكن جُذَيْلَ هذا الفنِّ ... وما علىَّ لَومةٌ لأنّى[6]
شُغلتُ بالنَّحْو وبالبيانِ ... و (إنّ هذان لساحران)

ويذكر الشنقيطى أنه نظم متْنا فى الفقه لعبد الرحمن الأخضرى الجزائرى صاحب متن السلم المشهور فى المنطق ، وبدأ نظمه بقوله :

عبدُ الإلهِ الشنقطىُّ يشترى ... بعقده المنظوم تِبْرَ الأَخْضَرى

وقال إنه نظم أيضا متن الخزرجية فى العروض ، واستهلَّ نظمه لهذا المتن بقوله :

الحمد لله على تخريجى ... مسائلَ العلوم بالتدريجِ

---

(١) الشنقيطى ص ٢١٥ .
(٢) الشنقيطى ص ٢٨٠ – ٢٨١ .
(٣) الشنقيطى ص ٣٨ – ٣٩ .
(٤) الشنقيطى ص ٨٣ .
(٥) انظر ترجمة الغلاوى عند الشنقيطى ص ٩١ وما بعدها.
(٦) جذيل : خبير .

ويبدو أن منظوماته العلمية كانت سائغة جيدة ، ويقول الشنقيطي إنه همّ بنظم مختصر خليل في الفقه ثم صرفه عن ذلك صارف[1] .

وللتجاني بن باب المتوفى حول سنة ١٢٦٠ هـ منظومة في أزواج النبي ﷺ وأولادهن منه وما لكريماته الطاهرات من بنين وبنات ، وله على هذه المنظومة كما يقول الشنقيطي شرح نفيس . وله أرجوزة نظم فيها ورقات الجويني إمام الحرمين في علم الأصول[2] . واشتهر أحمد البدوي المجلسي بمنظومتين[3] : منظومة في أنساب العرب سماها عمود النسب استهلها بقوله :

حمدًا لمن رفَع صيتَ العربِ وخصَّهم بين الأنام بالنبي

والمنظومة الثانية في غزوات الرسول ﷺ ، وينوه الشنقيطي بجودة نظمها وأنها تدل على تبحره في السيرة النبوية ، افتتحها بقوله :

حمدًا لمن أرسل خيرَ مُرْسَلِ لخير أمـــةٍ بخـــير المللِ
وأفضـلُ الصـلاة والسـلامِ على لُبـــاب صفوة الأنـــامِ

وأنشد له الشنقيطي قطعتين في غزوة الخندق وغزوة حنين . وممن أكثروا من الشعر التعليمي في النحو عبد[4] الودود بن عبد ألّ من نحاة النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري وشعرائه ، وله مقطوعة في مد المقصور استهلها بقوله :

ومدُّ مقصورٍ خلافُه اشْتَهَرْ وفَصَّـــلَ القرَّاءُ تفصيلا بَهَرْ

ومضى في المقطوعة يذكر تفصيله لأحكام مد المقصور ، ويقول الشنقيطي : « له قصيدة غزلية في المصادر الغريبة ، وما ترك مسألة عويصة في النحو إلا نظمها أسلس نظم وأتقنه ، وعلى شاكلته المختار بن ألمَّا ، يقول الشنقيطي : توفي بعد سنة ١٣١٠ هـ/١٨٩٣ م وله أنظام كثيرة في النحو[5] ، ومثلهما الحسن بن زين تلميذ عبد الودود المتوفى قريبا من ١٣٢٠ هـ/١٩٠٣ م يقول الشنقيطي : له استدراك على لامية الأفعال لابن مالك مزجه بها ولولا أنه كتبه بالحمرة لا لتبس بنظم ابن مالك ، وله أنظام كثيرة مفيدة ، وينشد بعض نظمه في مسائل نحوية[6] .

---

(١) الشنقيطي ص ٩٢ .
(٢) الشنقيطي ص ٧٠ .
(٣) انظر ترجمته في الشنقيطي ص ٣٥٠ .
(٤) انظر ترجمته في الشنقيطي ص ٣٧٤ .
(٥) الشنقيطي ص٢٣٩ .
(٦) الشنقيطي ص ٣٧٧ – ٣٧٨ .

القسم الرابع

السـودان

الفصل الأول

الجغرافية والتاريخ

١

الجغرافية(١)

السودان جنوبى مصر فى القارة الإفريقية ، ويمتد على جانبى نهر النيل من وادى حلفا عند خط عرض ٢٢° شمالا إلى خط عرض ٤٠-٣° إلى الجنوب ، وهى مسافة تقدر بحوالى ألفى ميل طولا وتبلغ المسافة من الشرق إلى الغرب نحو ألف ميل عرضا . وتبلغ مساحة السودان حوالى مليون ميل مربع ، وهو ثلاثة أقسام : السودان الشمالى الواقع بين وادى حلفا والخرطوم ، والسودان الأوسط الواقع بين الخرطوم وحوضى نهر السوباط وبحر الغزال ، والسودان الجنوبى الواقع بين هذين الحوضين والحوض الجنوبى لنهر النيل . وليس هناك حدود طبيعية بين السودان والكنغو ولا بينه وبين الحبشة ، واتفق على خطوط فاصلة بينه وبين القطرين جميعا .

والصحراء تطل على جانبى النيل فى السودان الشمالى وتتخللها تلال صخرية كثيرة ، أما فى السودان الأوسط جنوبى الخرطوم فتقل التلال ، ويصبح السطح أشبه بسهل ، ويمتد السهل شرقا حتى مرتفعات الحبشة وجنوبا شاملا السودان الجنوبى حتى هضبة البحيرات الاستوائية . ويرفد النيل من الحبشة نهران : نهر النيل الأزرق ويصب فيه مياهه بالقرب من الخرطوم ، ونهر عطبرة ويصب فيه شمالى مدينة الدامر حاملا ذخيرة كبيرة من الطمى . وأخصب أجزاء السودان أوسطه أو بعبارة أخرى السودان الأوسط ، ففى شرقيه حتى تلال الحبشة سهل طميىّ خصب يحتضنه النيل الأزرق من جهة والنيل الأبيض من جهة ثانية ، ويسمى أرض الجزيرة ، وتبلغ مساحته نحو مليون فدان وتجود فيه الحبوب والقطن . وغربى السودان الأوسط سهول رملية تمتد حتى مرتفعات كردفان بل حتى جبل مرة فى دارفور وما وراءه وأيضا حتى جبال النوبة وخط تقسيم المياه بين حوض النيل وحوض بحيرة تشاد . وهذا الغرب كله مراع واسعة يتجول فيه أهله صيفا وراء قطعانهم من الأنعام : الإبل والأغنام ويزرعون فى بعض البقاع الذرة والدخن ، ويعنى سكان جبال النوبة بالزراعة وخاصة زراعة القطن .

وفى الشرق الاقليم بين حوضى النيل الأزرق وعطبرة يسمى سهل البطانة وتكثر فيه التلال

---

(١) انظر فى جغرافية السودان كتاب السودان ووادى النيل للدكتور محمد عوض محمد والجغرافية البشرية للدكتور إبراهيم رزقانة ودائرة المعارف الإسلامية .

كلما اتجهنا شرقا حتى مدينة كسلا ، وعندها يظهر خط الجبال الذى يفصل بين نهاية سهل البطانة وبداية جبال إريتريا . وفى هذا السهل مراع واسعة ومناطق زراعية على شواطىء النيل ونهر عطبرة ويزرعون الحبوب والقطن .

وعلى شواطىء النيل فى السودان الشمالى تزرع الذرة ، وشرقى السودان الشمالى سهول تمتد شرقا حتى البحر الأحمر وشمالا حتى الصحراء الشرقية فى مصر ، وتسكنه قبائل مختلفة أهمها البجَّة وتكثر فيه المراعى ويعيش سكانه على الرحلة وراء أنعامهم من مرعى إلى مرعى . ويختلف فيه زمن نزول المطر ففى الصيف يسقط فى الداخل ، ويتزايد من الشمال إلى الجنوب ، وفى الشتاء يسقط على الساحل والتلال الشرقية . وأهل البجة الشماليون يسمون البشاريين ، وأكثر عملهم فى مناجم الذهب ، وأهل العشائر القريبة من ميناء بورسودان على البحر الأحمر يعمل كثيرون منهم فيها ، والعشائر النازلة بين كسلا وسنكات فى الطريق إلى بورسودان يعملون فى دلتا خور القاش حيث يزرعون القطن والذرة ، وأبناء عمومتهم النازلون على حدود إريتريا يزرعون القطن فى دلتا خور بركة عند طوكر .

والسودان الجنوبى الممتد جنوبى نهر السوباط وبحر الغزال تغطيه الحشائش والأدغال شمالا ، ويتحول فى الجنوب إلى مستنقعات تُغَطِّيها الغابات والبردى وحشائش مختلفة . وتؤثر هذه النباتات تأثيرا كبيرا على مياه النيل المنحدرة من بحيرة البرت إلى بحر الغزال إذ تفقد نحو نصفها بسبب سدود النباتات التى تعترض مسيرتها ، كما تعترض مسيرة بحر العرب المنحدرة مياهه شرقا إلى بحر الغزال . وتجرى فى هذه المنطقة روافد عديدة للنيل وترتفع بها بعض أجزاء يبنى عليها سكانها قراهم ويرعون أنعامهم ، ويزرعون بعض بقاعهم ، مع ملاحظة أن المستنقعات تكثر كثرة مفرطة فى أقصى الجنوب . وبجانب الزراعة أحيانا والمراعى يصيدون من المياه الأسماك ومن الغابات المجاورة بعض الحيوانات وخاصة فى الأنحاء الغربية .

والمناخ فى السودان الشمالى شديد الحرارة صيفا . وهى شدة تظل من شهر أبريل إلى شهر أكتوبر ، وتبلغ فى أكثر الأحيان ٤٠ °م ويزيد الجوَّ الحار قسوة وشدة ما تحمله رياح السودان المحلية المسماة بالهبوب من الرمال . والسودان الأوسط والجنوبى شديدا الحرارة أيضا إلا أن حرارتهما لا تبلغ فى الشدة مبلغ حرارة الإقليم الشمالى صيفا ، وأحرُّ شهور السودان الجنوبى شهور يناير وفبراير ، ثم يأخذ مطر الصيف فى النزول فيقلل درجة الحرارة تدريجا . ودرجة الحرارة فى دارفور أقل منها فى كردفان والخرطوم لأنها أكثر منهما ارتفاعا فوق مستوى سطح البحر . والمطر فى السودان الجنوبى غزير ، ويبدأ فصله هناك من شهر مارس ، ويأخذ فى الازدياد بالأشهر التالية ويبلغ الذروة فى شهرى يولية وأغسطس ، ثم يأخذ فى التناقص حتى شهر نوفمبر ، وأشهر ديسمبر ويناير وفبراير هناك أشهر الجفاف .

٢

التاريخ

(أ) السودان في العصور[١] القديمة

يرتبط السودان في تاريخه السحيق بمصر منذ عهد الأسرات الأولى لحضارة قدماء المصريين بعامل حِفاظ تلك الأسرات على الأمن في جنوبي مصر وعلى طريق التجارة . وفي أخبار الأسرة الرابعة أن سنفروقام بحملة في الجنوب ، لعلها كانت حملة تأديبية ، وتتجدد الصلات في عهد الدولة الوسطى بغرض السيطرة على أرض النوبة في الجنوب وأخذت هذه الصلات تتسع في عهد الدولة الحديثة إذ مدت سيطرتها إلى الشلال الرابع . وسميت الأراضي الممتدة إلى ذلك الشلال – منذ ذلك الحين – باسم أراضي النوبة وكانت قسمين شماليا وجنوبيا ومُصِّرت تماما في عهد تلك الدولة ، وسكن النوبة الجنوبية كوشيون طُبعوا بطوابع الحضارة المصرية كما تدل آثارهم المكتشفة في أراضيهم ، وكان الحاكم هناك يعد نائبا للملك مصر . ويدور الزمن دورات ويدخل الليبيون مصر ويطردون منها ، ويتسمى حكامهم باسم الملوك . وتلى ذلك حقبة غامضة لا نكاد نعرف عنها شيئا ، وتكونت حينئذ ثلاث دول نوبية : الأولى في الشمال وعاصمتها نوس وتسمى نوباديا بعد الشلال الأول والثانية في الوسط بإقليم دنقلة وتسمى مقرة . والثالثة جنوبي الخرطوم مباشرة وعاصمتها سوبا وتسمى عَلْوة .

ولما اضطهدت روما المسيحية المسيحيين في مصر فرّ كثيرون من معتنقي المسيحية إلى نوباديا دولة النوبة الشمالية ، وهناك أخذوا يدعون لدينهم المسيحي واعتنقه بعض النوبيين ، ولما أصبحت المسيحية في روما دين الدولة الرسمي في عهد قسطنطين سنة ٣١٢ للميلاد نشطت في نوباديا البعثات التبشيرية ، وممن اشتهروا بهذا النشاط التبشيري تيودور أسقف أسوان وفيلة ونزل نوباديا واختلط بالزعماء النوبيين فيها واعتنق كثير منهم الدين المسيحي كما اعتنقه كثير من أهل نوباديا .

واتسعت حركة التبشير للدين المسيحي في عهد الإمبراطور جوستنيان (٥١٧ – ٥٦٥ م) وكانت الكنيسة المصرية تنادى بالطبيعة الواحدة للمسيح ضد القائلين من كنيسة روما والقسطنطينية بأن للمسيح طبيعتين . وحاول جوستنيان أن يرسل بعثة إلى نوباديا للدعوة إلى عقيدته ، ووصلت إلى جزيرة فيلة مع أسقفها تيودور ، فجهزها ورافقها إلى نوباديا للدعوة إلى عقيدته وسارعت الكنيسة القبطية بإرسال بعثة للدعوة إلى عقيدتها برياسة جوليان ، ووصلت

---

(١) انظر في تاريخ السودان بالعصور القديمة كتاب السودان عبر القرون للدكتور مكي شبيكة (نشر وتوزيع دار الثقافة ببيروت) وانظر تاريخ السودان القديم والحديث لنعوم شقير والسودان في دائرة المعارف الإسلامية .

البعثة إلى جزيرة فيلة وجهزها ورافقها إلى نوباديا ونجحت البعثة فى مهمتها وأخفقت بعثة الإمبراطور جوستنيان ، وتوفى جوليان فعيّن مكانه أسقفا لبلاد النوبة لونجنيوس سنة ٥٦٩ للميلاد ، والتفوا حوله ، ودعاه ملك علوة فى الجنوب ، فذهب إليها وأصبحت مسيحية يعقوبية تدين بعقيدة مصر فى طبيعة المسيح الواحدة . وأخذت دولة مقرة تدخل بدورها فى المسيحية ، ويقال إنها اعتنقت أولا فكرة الطبيعتين فى المسيح ثم تركتها إلى فكرة الطبيعة الواحدة مثل نوباديا وعلوة ، ونظن أنها تأخرت فى التنصر بعد نوباديا وعلوة وأنها أخذت بعد ذلك فى التنصر تدريجا على مذهبهما اليعقوبى ، وأنها لم تبدأ تنصرها على مبدأ الطبيعتين كما يقال . ويبدو أن مملكة نوباديا ذابت فى مملكة المقرة ولم يعد هناك سوى مملكتين : مملكة مقرة ومملكة علوة ، وذلك إما قبيل الإسلام أو بعده بقليل .

(ب) السودان[1] فى العصور الإسلامية

ذكرنا فى حديثنا عن فتح العرب لدول المغرب الأقصى أنهم لم يكونوا غزاة فاتحين طلبا لمغانم مادية إنما كانوا دعاة للإسلام مجاهدين ، ونرى عبد الله بن سعد بن أبى سرح والى الخليفة عثمان على مصر بعد أن يتم له فتح ليبيا وتونس يوجه حملة إلى أرض النوبة سنة ٣١ هـ/٦٥١ م تتوغل حتى دنقلة عاصمة دولة المقرة واضطرت القائمين عليها إلى عقد معاهدة جاء فيها أن على أهل مقرة حفظ المسجد الذى بناه المسلمون بدنقلة وخدمته وإسراجه وأن لا يتعرضوا لمسلم يصلى فيه ، ويؤدوا لمصر سنويا ثلاثمائة وستين من شباب رقيقهم ذُكرانا وإناثا ، وتعهدت مصر بإمدادهم سنويا بكميات من الحبوب والملابس . وظلت علاقات الدول الإسلامية فى مصر بمملكة مقرة النوبية قائمة على أساس هذه المعاهدة نحو ستة قرون .

وكانت قبائل البجّة السودانية تنزل فى الصعيد بالصحراء شرقى أسوان إلى دهلك (مصوع) وقامت بغارات على أسوان فى عهد المأمون العباسى فأرسل إليهم حملة بقيادة عبد الله بن الجهم سنة ٢١٧ هـ/٨٤١ م وهزمهم وأملى عليهم معاهدة قبلوها ، فيها أن يؤدى ملك البجّة أو أميرهم خراجا سنويا : مائة من الإبل أو ثلاثمائة دينار وأن يحترم البجة الإسلام ولا يقتلوا مسلما . وأهم من ذلك « أن عليهم أن لا يهدموا شيئا من المساجد التى بناها المسلمون فى سائر بلادهم طولا وعرضا » مما يدل على أنه كان قد نزل بديارهم عرب مسلمون بنوا هذه المساجد ، وكانت قد نزلت بينهم -قبل هذا التاريخ فيما يبدو- قبائل أو بعبارة أدق جماعات

(١) انظر فى هذا الموضوع خطط المقريزى فى مواضع متعددة وكذلك مروج الذهب للمسعودى وتاريخ ابن خلدون والسودان عبر القرون للدكتور مكى شبيكة ص ٢٥ وما بعدها وكتاب دراسات سودانية للدكتور عبد المجيد عابدين (طبع جامعة الخرطوم) والإسلام والنوبة للدكتور مصطفى محمد مسعد وكتاب العربية فى السودان للشيخ عبد الله عبد الرحمن ودائرة المعارف الإسلامية .

من قبيلتى بَلِىّ وجُهَيْنة للرعى وللتجارة ولاستخراج الذهب فى منطقة العلاقى ، وعبرت البحر الأحمر جماعات من هوازن ونزلت فى إقليم البجة ثم رحلت إلى منطقة كسلا داخل السودان .
ونجد البجة فى عهد المتوكل تعود إلى العصيان وتحاول الاستيلاء على مناجم الذهب فى العلاقى من أيدى العرب ، ويرسل إليهم المتوكل جيشا سنة ٢٤٠ هـ/ ٨٥٤ م بقيادة محمد بن عبد الله القمى ويتغلب عليهم ، ويطلب ملكهم الصلح على أن لا يتعرض للعرب العاملين فى معدن الذهب ويدفع الخراج المفروض سنويا . ويزور بغداد وتبهره حضارتها .

وعندما استولى أحمد بن طولون على زمام الحكم بمصر سنة ٢٥٥ هـ/ ٨٦٨ م أرسل إلى بلاد البجة والنوبة حملة بقيادة أبى عبد الرحمن عبد الله بن عبد الحميد العمرى واشترك فيها كثير من قبيلتى ربيعة وجهينة ، ونزل كثير من جنوده فى النوبة وأرض البجة . ويذكر المسعودى الذى زار مصر سنة ٣٢٨ هـ/٩٤٠ م أن ربيعة اختلطت بالبجة فى أرض المناجم وأصبحوا أسرة أو قبيلة واحدة . ويذكر المقريزى أن ابن طولون جنّد من النوبيين أربعين ألفا ألحقهم بجيشه ، ولابد أنهم جميعا أسلموا أو لعل كثيرين منهم كانوا مسلمين قبل استخدامه لهم .

وبدون ريب هيأ نزول القبائل العربية الكثيرة فى البجة والنوبة لاعتناق كثيرين منهما الإسلام ، ومع ذلك ظلت الكثرة فى النوبة مسيحية . ويزور بلاد النوبة فى أوائل عهد الفاطميين ابن سليم الأسوانى ، ويروى المقريزى عنه أن المسلمين هناك معزّزون وفى حالة استقرار وأنّ كثيرين من النوبيين اعتنقوا الإسلام مع تمسكهم بلغاتهم وجهلهم للعربية . ويذكر ابن سليم أن المسلمين تغلغلوا فى الأراضى السودانية حتى علوة جنوبى الخرطوم ، واستطاعوا فى القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى أن يبنوا لهم مسجدا فى سوبا عاصمة علوة . وكانت أم الخليفة المستنصر الفاطمى فى القرن الحادى عشر الهجرى سودانية وبلغ المجندون من النوبة فى الجيش الفاطمى – بتشجيع منها – خمسين ألفا . وأصبح للعرب من بنى ربيعة – فى العهد الفاطمى – مساكن على وادى العلاقى الممتد من أسوان إلى عيذاب على البحر الأحمر وما به من مناجم الذهب ، وفى سنة ٤٧٠ هـ/١٠٧٧ م أعلن شيخهم دخوله فى طاعة الفاطميين فلقّبه الخليفة الفاطمى المستنصر بلقب كنز الدولة وعُرِفَ قومه بالكنوز ، ولما استولى الأيوبيون على صولجان الحكم فى مصر من أيدى الفاطميين انسحب عرب الكنوز من حدود أسوان إلى بلاد النوبة .
وكان ثغر عيذاب قد ازدهر منذ العصر الفاطمى بسبب احتلال حملة الصّليب لفلسطين وقيام مملكة بيت المقدس وتحوُّل الطريق الرئيسى لحجاج مصر والبلاد المغربية إليه .

وفى سنة ٦٧٠ هـ/١٢٧٢ م أغار النوبيون على ميناء عيذاب ونهبوا متاجره وقتلوا القاضى والوالى عليه من قبل مصر لعهد الظاهر بيبرس ، وأغاروا على أسوان ونهبوا أسواقها ، وأرسل بيبرس فى السنة التالية حملة إلى النوبة يقودها والى قوص ، ووصل إلى دنقلة وملك النوبة داود يفر أمامه . وجاء إلى القاهرة ابن أخته شكنده متظلما منه ، وانتهز الفرصة بيبرس ، فجهز له

جيشا مع بعض قواده ، ومضى الجيش حتى دنقلة ، ولقى داود وجماعته وهرب ، وتوج شكنده (إسكندر) ملكا على مقرة بنفوذ وقوة الجيش المصرى المملوكى مع إعلان أنه نائب للسلطان وعليه أن يرسل إليه نصف ما يجمعه من الضرائب والجزية على الشباب من غير المسلمين وكانت فى واقعها ضريبة دفاع ، وبذلك عُدَّ أهل مقرة المسيحين أهل ذمة . وتوفى شكنده سنة ٦٧٥ هـ/١٢٧٧ م وتولى بعده أمير من البيت المالك دون رجوع إلى السلطان قلاوون الذى خلف الظاهر بيبرس فأرسل إلى بلاد النوبة حملة قضت على الملك الجديد ، ونصبت سمامون ملكا على مقرة ونائبا لقلاوون بنفس شروط شكندة السالفة غير أن سمامون لم يلبث أن أظهر عدم إخلاصه وولائه لقلاوون ، فأرسل إليه حملة تأديبية بقيادة أيدمر والى قوص ، وهزم سمامون وفر إلى الجنوب وأقيم مكانه ابن أخته ورأى قلاوون أن يبقى معه المملوك أيدمر .

وبعد عودة الجيش المصرى المملوكى اضطر سمامون الملك الجديد نائبَ قلاوون وأيدمرَ إلى العودة إلى القاهرة فجهز قلاوون حملة كبيرة لمنازلة سمامون سنة ٦٨٧ هـ/١٢٨٩ م ووصل الجيش دنقلة ففرَّ سمامون أمامه متوغلا فى الجنوب ، وكان الملك الجديد توفى فى الطريق ، فنُصِّب ابن أخته بدنقلة ملكا على مقرة ، وبقيت هناك فرقة من الجيش المصرى مع أمير مملوكى . وعاد سمامون ثانية إلى دنقلة ، وقبض على الأمير المملوكى وأرسله ورجاله إلى القاهرة وقتل الملك الجديد ، وأرسل إلى قلاوون متعهدا له بأداء كل الالتزامات ، وقَبِلَ قلاوون منه ذلك وتوفى وخلفه ابنه خليل فامتنع سمامون عن أداء الجزية والضرائب ، وجهز له السلطان خليل حملة فرَّ أمامها من دنقلة ، ونُصِّب مكانه ملك جديد ، وكان الأمير عبد الله برشمبو لجأ إلى القاهرة واعتنق الإسلام ودخل فى ولاء محمد الناصر بن قلاوون ، وكان من الأسرة النوبية المالكة فرأى الناصر تعيينه نائبا له فى دنقلة وملكا مسلما عليها لأول مرة سنة ٧١٦ هـ/١٣١٦ م وأرسل معه حملة لتنفيذ ذلك ، وبذلك استولى على صولجان الحكم فى مقرة المسيحية أول ملك مسلم . ولم يلبث أن نازعه الملك شيخ ربيعة الملقب بكنز الدولة ، واستطاع القضاء عليه ، ونصَّب شيخ ربيعة نفسه ملكا على مقرة ، ودخلت معه إلى أرض النوبة قبائل عربية كثيرة عملت على نشر الإسلام فيها بحيث يأخذ المسيحيون هناك فى التضاؤل ، ولا يبقى منهم فى نهاية القرن التاسع الهجرى/الخامس عشر الميلادى إلا عدد قليل جدا . وتلك حسنة واضحة لاقتحام القبائل العربية لأرض النوبة ، وهذه الحسنة رافقها توزيع أراضى النوبة بين القبائل العربية وقيام إمارات كثيرة صغرى فيها مما قضى نهائيا على مملكة المقرة .

وكانت الحدود الشمالية لمملكة علوة الواقعة جنوبى مملكة مقرة تسمى الأبواب وكان يقوم عليها حاكم يسمى ملك الأبواب ، وخلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد كان يرسل لسلاطين المماليك بولائه ، وحين كان يعصى ملك مقرة هؤلاء السلاطين ويَفرُّ إلى الأبواب كان كثيرا ما يقبض عليه ويرسل به إليهم . ومنذ قامت فى دنقلة دولة إسلامية سنة ٧١٦ هـ/١٣١٦ م

أخذت تضعف صلات مملكة علوة بالكنيسة اليعقوبية فى الإسكندرية ، إذ قُطع الاتصال بينهما فلم يعد يأتيهم من الإسكندرية أساقفة ، وأهملت الطقوس الدينية وهُجرت الكنائس . ورافق ذلك انتشار القبائل العربية من مقرة إلى أراضى علوة وسهولها وتغلبهم عدديا على سكانها وامتزاجهم بهم ، كل ذلك أسرع بأهل علوة إلى اعتناق الإسلام : المسيحى منهم ومن كان لا يزال على دينه الوثنى .

ولم أتحدث عن الإسلام فى غربى السودان حتى الآن ، ومرَّ بنا فى حديثنا عن موريتانيا مدى نشر دولة المرابطين بقيادة أبى بكر للإسلام فى إفريقيا المدارية وتغلغله به إلى حوض النيجر وبلاد البرنو والكانم ، وكان ملوك الكانم من الطوارق الملثمين المسلمين وكانوا تجارا من قديم واستطاعوا أن يبسطوا سلطان دولتهم الإسلامية من بحيرة تشاد إلى غربى السودان وأرض النوبة ، وكان لتجارهم عمل عظيم فى نشر الدعوة الإسلامية غربى السودان ، وأهم من ذلك الكتلة الضخمة من قبيلة زوارة البربرية المسلمة التى كانت تنزل فى إقليم فزان ، إذ هاجرت إلى إقليمى واداى ودارفور غربى الخرطوم وهاجرت معها كتلة من عرب الشوا أو الشاوية أى رعاة الشاة ومنهم فى غربى السودان السلامات وخزام والجعادنة والمحاميد والدكاكير ، وهاجر بعدهم من فزان أولاد سليمان حين استولى الأتراك العثمانيون على ليبيا وكوَّن هؤلاء العرب ومن صحبهم من البربر مملكة إسلامية مبكرة فى إقليمى دارفور وواداى بين سنتى ٤٧٨ هـ/١٠٨٥ م و ٤٩١ هـ/١٠٩٧ م ومن سلاطين تلك المملكة سليمان وقد شملت سلطنته الكانم بجانب واداى وشطرا كبيرا من دارفور ، وورث عنه هذه السلطنة ابنه دونامة (٦٠٧ هـ/١٢١٠ م - ٦٢١ هـ/١٢٢٤ م) . وهذا بالإضافة إلى ما كان يمر بالسودان الغربى من حجاج إفريقيا المدارية . وكل ذلك عجل بانتشار الإسلام فيه .

وواضح من كل ما سبق أن الإسلام انتشر فى السودان تدريجا ، ويبدو أن انتشاره فى غربى السودان كان أسرع من انتشاره فى شرقيه وفى حوض نهر النيل السودانى نفسه ، ولم ينتشر - كما رأينا - بالسيف ، إنما انتشر بالموعظة والكلمة الطيبة .

٣

(جـ) دولة الفونج[١]

هى أول دولة إسلامية ذات نظم سياسية وإدارية تظهر فى السودان الأوسط قاعدتها

(١) انظر فى دولة الفونج مخطوطة كاتب الشونة فى تاريخ السلطنة السنارية والإدارة المصرية وكتاب السودان عبر القرون للدكتور مكى شبيكة وانظر تاريخ السودان القديم والحديث لنعوم شقير وكتاب قبائل من السودان الأوسط والسودان الغربى للدكتور عبد المجيد عابدين : فصل سقوط الممالك النوبية وقيام الفونج .

سنار على النيل الأزرق ، واختلفت الآراء فى أصل الفونج ، فقيل إنهم من إقليم البرنو دخلوا السودان من غربيه فى القرن الخامس عشر الميلادى ، وقيل هم من الشلوك القاطنين فى جزر النيل الأبيض ، وقيل هم من أعالى النيل الأزرق من إقليم فازوغلى ، وكانوا هم ينسبون أنفسهم إلى العرب ، ويقولون إنهم من نسل بعض بنى أمية الذين فروا من الشام أثناء مذابح العباسيين لأبناء أسرتهم فى أول استيلائهم على الحكم ، وكأنهم تغلغلوا فى الفرار حتى وصلوا إلى منطقة سنار على النيل الأزرق . وكانت العربية لغة دولتهم الرسمية ، وكانوا يكتبون بها وثائقهم وبذلك كانوا دولة عربية إسلامية ، وأول قيام تلك الدولة يؤرخ له بسنة ٩١٠ هـ/١٥٠٤ م وكان يرأسها ملك يسمى « عمارة دونقس » وكانت مملكة علوة فى سوبا قد تضعضعت ، فتحالف عمارة دونقس مع عبد الله جمّاع شيخ عرب القواسمة من جهينة وشيخ قبائل العبدلاّب ، وكان يسود المنطقة من التقاء النيلين الأبيض والأزرق مع الامتداد شمالا ، والتقى الحليفان مع قوات مملكة علوة وانتصرا عليها انتصارًا حاسما ، وفرت فلولها إلى كردفان والصحارى وذابوا فى سكان البلاد من المسلمين . وانتهت بذلك مملكة علوة واتخذ دونقس مدينة سنار عاصمة له ، وأصبح عبد الله جماع نائبا له فى الجزء الشمالى من الدولة . وحين استولى العثمانيون على مصر مدّوا حدودهم المصرية إلى مدينتى سواكن ومصوع على البحر الأحمر سنة ٩٢٧ هـ/١٥٢٠ م وأقاموا فيهما حاميتين . واستطاع عمارة دونقس أن يقنع العثمانيين بأنه ملك مسلم وسكان بلاده عرب مسلمون ولا مبرّر لأن يخشاهم العثمانيون .

ويخلف عمارة دونقس فى دولة الفونج ثلاثة ملوك لا يذكر لأحدهم عمل مهم ويخلفهم الملك دكين ودنايل سنة ٩٧٦ هـ/١٥٦٩ م وفيه يقول كاتب الشونة : « هو من أفخر ملوك الفونج ، رتب الدواوين أحسن ترتيب وجعل لها قوانين مضبوطة لا يتعداها أحد ، وجعل لكل جهة من جهات مملكته رئيسا (حاكما) معلوما وقنّن لمن عادته الجلوس بحضرته رتبا : الأعلى فالأعلى فى جلوسهم أمامه ، ومازال يُعْنَى بتمهيد دولته إلى أن توفاه الله تعالى سنة ٩٨٥ هـ . ويتعاقب بعده ملوك لا أهمية لهم ويخلفهم عدلان وداى سنة ١٠١٩ هـ/١٦١١ م ويذكر كاتب الشونة أنه حدثت فى عهده نهضة تعليمية وكان للشيخ عجيب رئيس عرب القواسمة والعبدلاب دور مهم فى تلك النهضة . ويبدو أنه ثار على عدلان وداى ، ونشبت معركة بين جيشه وجيش الفونج مات فيها وانهزم جيشه وفرت أسرته من عاصمته « قرّى » إلى دنقله ، وتوسط الشيخ الصالح إدريس ود الأرباب عند عدلان وداى فأقام العجيل أكبر أبناء الشيخ عجيب مكان أبيه شيخا أو أميرا على « قرّى » وعادت إليها أسرته .

وفى نفس السنة صمم الفونج على خلع ملكهم عدلان وولوا مكانه الملك بادى سيد القوم

وخلفه الملك رباط وفى عهده حدثت حرب مع الحبشة سنة ١٠٢٧ هـ/١٧١٨ م اكتفت فيها الحبشة بما استولت عليه من بعض الغنائم ، وولى بعده ابنه بادى أبو دقن سنة ١٠٥٤ هـ/١٧٤٥ م ويقول عنه كاتب الشونة : « هو من ذوى الشجاعة والكرم والهمم العالية ، وقد غزا النيل الأبيض وفتك بسكانه المعروفين بالشلوك وغزا جبال تقلى غربى النيل الأبيض بنحو مرحلتين ، وصالح ملكها على جزية سنوية جعلته تابعا لمملكة الفونج . وبنى بعاصمته سنار جامعا وقصرا لدواوين الحكومة ، وكان مكرما لأهل العلم ، وكان يرسل بهدايا إلى علماء الأزهر ونظمت فيه عدة مدائح وخاصة من الشيخ عمر المغربى الأزهرى وفيه يقول من قصيدة طويلة :

هو الملك المنصورُ بادى الذى له مدائحُ قد جلَّتْ عن العَدِّ والحَصْرِ

ودام حكمه نحو خمس وثلاثين سنة ، وخلفه ابن أخيه أونسة ود ناصر ، وفى عهده حدثت مجاعة ، وتم لقبائل الشايقية التى كانت تنزل فى شمالى السودان بمنطقة حلفا استقلالها عن العبدلاًب وبالتالى عن سنار ، وكانوا أهل بسالة وشجاعة ، وكانت تقدمهم فى الحرب امرأة فاقت فى الفروسية وفنون الحرب نظراءها من الرجال وكانت تسمى عديلة ، وهى التى حرضت ابنها عثمان على خلع طاعة ودعجيب أمير العبدلاًب ، ونشبت بينهما الحرب وانتصر عثمان ومنح ودعجيب الشايقية استقلالها . ونشطت فرنسا فى إرسال بعثات تبشيرية إلى الحبشة تريد أن تخرجها من مذهبها اليعقوبى القبطى فى المسيحية إلى مذهبها الكاثوليكى وباءت جميعا بالإخفاق الذريع لا فى الحبشة وحدها بل أيضا بين مسيحيىِّ سنار . وتتطور الظروف فى دولة الفونج ، ويستولى على صولجان الملك فيها بادى أبو شلوخ سنة ١١٣٧ هـ/١٧٢٤ م وتعود الحبشة إلى الشغب على حدود مملكة سنار ، وفى سنة ١١٥٧ هـ/١٧٤٤ م سار ياسوس إمبراطور الحبشة على رأس جيش متجها نحو مملكة سنار ، وأمر بحرق القرى السودانية وقتل الناس وأخذ إبلهم وأنعامهم ، وعسكر قسم كبير من الجيش الحبشى أمام سنار ولقيه جيشها وهزمه ، وكان الإمبراطور معسكرا مع بقية الجيش بعيدًا فلما بلغته الهزيمة آثر السلامة وعاد بجيشه إلى بلاده . ويقول كاتب الشونة فى حديثه عن هذه الحرب ونهايتها : « فرح الملك بادى وأهل سنار ووفوا بنذورهم وعملوا الموالد وذبحوا الذبائح وأقاموا ولائم ونشروا الحرير وزيَّنوا المسجد والسوق سبعة أيام وسمع سلطان الروم (الخليفة العثمانى) بذلك ففرح بنصرة الإسلام والدين » . ولم يحاول الأحباش بعد ذلك غزو السودان ودولة الفونج . وأخذت سياسة الملك بادى تسوء سوءًا شديدًا وغيَّر كثيرا من القوانين واستعان بأهل النوبة مفضلا لهم فى الوظائف العليا على الفونج ، وغضب الشعب غضبًا شديدًا ، غير أنه انتظر نتيجة حملة كردفان سنة ١١٦٠ هـ/١٧٤٧ م ونجحت الحملة وضمت كردفان إلى دولة الفونج ، وقرر الشعب وقادة الجيش خلع بادى وتولية ابنه ناصر ملكا بعده .

وأصبح ملوك الفونج – منذ هذا التاريخ – ألعوبة فى أيدى الوزراء من الهمج ، وكانوا جماعة أو قبيلا واضحا فى سنار : وكان منهم الوزير الأول لبادى أبى شلوخ ثم لابنه ناصر وهو الشيخ محمد أبو لكيلك ، أما جماعته وهم الهمج فيقال إنهم من الجعليين الذين كانوا ينزلون شمالى قبائل العبدلاب ، ويقال بل هم من أهل النوبة الذين أسكنهم الملك بادى أبو دقن فى قرى حول سنار وجعل منهم جنده وحرسه الخاص . والأصل الذى انحدر منه الشيخ محمد أبو لكيلك يرجع إلى جعلىٍّ ، تزوَّج من نساء الأبواب . وقد مكنته مجموعة أخواله الأبواب من الاحتفاظ بإدارة الحكم وتدبيره . وعُزل الملك ناصر وتولى أخوه إسماعيل ، وتوفى الشيخ محمد أبو لكيلك وتولى المشيخة بادى ود رجب ، وبدأ التنافس سريعا فى جماعة الهمج ، إذ أخذ غير واحد يستعين بمجموعته أو عشيرته ليستولى على الحكم ، وكثرت الانقسامات والحروب الأهلية فى الدولة إلى أن دخلت جيوش محمد على السودان سنة ١٢٣٦ هـ/١٨٢٠ م بقيادة ابنه إسماعيل كامل .

٤

محمد على والسودان – عهد إسماعيل

(أ) محمد على[١] والسودان

ترْجع بعض المغريات التى جعلت محمد على يفكر فى فتح السودان إلى ما سمعه عن شبابه من الإخلاص والطاعة وشدة البأس ، فتمنى لو أتيحت لجيشه كتيبه أو كتائب سودانية بدلا ممن فيه من الترك والأرنئوط والألبان . ومن أهم المغريات أن المماليك الذين اضطهدهم فى مصر وأوقع بهم فى مذبحة القلعة المشهورة فرَّ كثيرون منهم إلى السودان وخشى أن يكوِّنوا دولة هناك تحمل السلاح ضده ،فرأى أن يتعقبهم ويقضى عليهم قبل استفحال أمرهم . فأصدر قرارا إلى محمد بك لاظوغلى بتجهيز الحملة ، فجمع جيشا من المغاربة والأتراك والأرنئوط والألبان وعربان البوادى ، ورُحِّل الجيش إلى حلفا وعيَّن محمد على ابنه الثالث إسماعيل كامل قائدا له وعين معه مساعدين من كبار القواد . وسار الجيش فى أرض النوبة ، وطلب إلى قبائل الشايقية تسليم خيولهم وأسلحتهم فأبوا وقالوا إنهم يدفعون ضريبة أو إتاوة فقط ولكن لا يدفعون خيولهم واسلحتهم التى نشأوا يحملونها . وصمم إسماعيل كامل على حربهم ، وعلى الرغم من بسالتهم لم يستطيعوا الصمود لرصاص المدافع ، فاستسلمت طائفة منهم وطائفة ولَّتْ وجوهها

(١) انظر مخطوطة كاتب الشونة : تاريخ السلطنة السنارية والإدارة المصرية ، والسودان عبر القرون للدكتور مكى شبيكة ، وعصر محمد على لعبد الرحمن الرافعى ، وتاريخ السودان القديم والحديث لنعوم شقير ، ودائرة المعارف الإسلامية .

إلى مدينة شندى وفيها سلموا له ، وطمأنهم وأخذ فى استمالتهم حتى ارتضوا أن ينضموا إلى جيشه . وكان المماليك قد انسحبوا إلى شندى وآثر عدد منهم التسليم لإسماعيل كامل ، وفرت طائفة منهم إلى كردفان ومنها اتجهوا إلى ليبيا ، ولم يسمع عنهم بعد ذلك خبر . وطائفة اتجهت شرقا نحو الحجاز ، وانقطعت أخبارها . وسلّم له الشايقية وحكام دنقلة وبربر وشندى والجعليين . وواصل إسماعيل كامل زحفه حتى نزل فى مقر أم درمان الحالية ، وفيها وفد عليه أمير العبدلأب وسلّم له فى أوائل رمضان سنة ١٢٣٦هـ/١٨٢١م وهرب منه بعض الناس ولقيه آخرون أعطاهم الأمان لأنفسهم وكساهم ، وزحف إلى الجنوب ، وكان يهدى كل من لقيه من الحكام كسوة وسيفا ، ولقيه ملك الفونج فأمنه وكساه ودخل مدينة سنار فى الثانى عشر من رمضان . وبدون ريب كانت دولة سنار دولة عظيمة أدّت للإسلام والعروبة خدمات جليلة لمدة ثلاثة قرون ورثاها بعض الشعراء .

وكان إسماعيل كامل قائد الجيش وهو فى دنقله قد أعدّ حملة بقيادة محمد بك الدفتردار لفتح كردفان ولم يقبل حاكمها التسليم ، والتقى بجيش الدفتردار عند مدينة الأبيض ولم تصنع شيئا السيوف والحراب إزاء الأسلحة النارية ، واستسلمت إمارة كردفان . واستقر إسماعيل كامل فى سنار ، وأخذ يرسل بالسرايا وتأتيه بالغنائم والأسرى . وزار إبراهيم باشا أخاه إسماعيل كامل فى سنار ليُعدّ العدة معه لإرسال السودانيين إلى أبيه ، وعاد سريعًا . وفرض إسماعيل كامل ضرائب فادحة على السودانيين فغضبوا غضبًا شديدًا فاضطر إلى تخفيضها . وأحسّ بوخامة مناخ سنار فنزل واد مدنى وبنى بها ثكنات للجيش ومكاتب للحكومة ، وصمم إسماعيل – بعد غيابه عن القاهرة مدة سنتين – أن يعود إليها ، ومر فى عودته بنمر ملك شندى والجعليين ، وطلب منه أن يقدم إليه من الأنعام والنقود ما يبلغ نحو عشرين ألف جنيه ، وهو مبلغ تقصر عنه موارده أو هو مبلغ باهظ ، فلما راجعه قسا عليه ، فصمم نمر على الانتقام وأمر بوضع قصب جاف حول خيمته وأشعله وإسماعيل كامل نائم ، فمات بالاختناق سنة ١٢٣٩ هـ/١٨٢٣ م . وأعقبت ذلك حملات انتقامية للدفتردار قتل فيها آلاف غير من أُسِروا . وعين محمد على لإدارة السودان عثمان بك ونزل فى مكان الخرطوم الآن واتبع سياسة التنكيل بالسودانيين وماذنبهم ؟ ولكنه كان قصير النظر مثل الدفتردار ، وتوفى سريعا . وعين محمد على خورشيد أغا حاكما لإقليم سنار ، وكان عليه أن يرجع الثقةَ للحكومة وأن يعيد إلى السودان من فرّ إلى الحبشة ملتجئا ونجح فى تحقيق الغايتين ، واتبع فى سنار سياسة عمرانية رشيدة ، ورأى أن تبنى الزراعة فى السودان على الرى المستديم مثل مصر وطلب عمالا منها يجيدون صناعة السواقى وطلب عمالا آخرين لحفر الترع ، واستحضر من مصر أغراس بعض الأشجار المثمرة وشجع زراعة النيلة وقصب السكر ، وطلب كباشا من مصر لتحسين سلالة الضأن فى السودان . ورُقّى خورشيد إلى رتبة الميرميران ومنح لقب باشا . وبعد اثنى عشر عاما من حكمه

عاد إلى مصر وحزن السودانيون لعودته إذ عرفوا فيه الحاكم العادل الذى أنساهم سنين الدفتردار الدموية ويقول كاتب الشونة عن عودته : « تجهز بكامل ما لديه ونزل بالمراكب فصعب ذلك على الأهالى جميعا وصاروا عند وداعه يتباكون بالدموع » . وخلفه أحمد باشا أبو ودان وكان عهده استمرارا لعهد خورشيد وفيه يقول كاتب الشونة : « ضبط الحكومة أشد ضبط من غير إهمال ولا تفريط ، وأبطل ما كان من تعدى العساكر على الفلاحين فى تسخيرهم فى الأشغال وتسخير بهائمهم .. وبذلك ارتاحت الأهالى وزادت العمارة وكثر الخير وخصبت الأراضى ورخصت الأسعار حتى صار أردب الذرة بخمسة قروش وصارت أيامه أحسن من أيام سلفه ، وإن كانت أيام سلفه أيضا حسنة فى نفسها » . وتوفى أحمد باشا أبو ودان ، فرأى محمد على تقسيم السودان إلى مديريات وترجع كل مديرية رأسًا إلى مصر ، ويتعاون المديرون فى المصالح المشتركة ، وطلب إلى الحكومة العثمانية أن تضم مينائى مصوع وسواكن إلى السودان وأجابته إلى طلبه . ومنذ ولاية ابنه إسماعيل كامل كانت ترسل له جماعات ممن يؤسرون من السودانيين فى الجبال لضمها إلى الجيش . وتبين خطأ هذه السياسة إذ كان كثيرون منهم يموتون فى الطريق أو فى معسكرات مصر . وانتظمت الإدارة منذ ولاية خورشيد بما أخذ به هو ومن جاء بعده من سياسة عمرانية قويمة وتحسين الرى والزراعة وزيادة الإنتاج الحيوانى وجلب العمال المهرة من مصر لصناعة السواقى وحفر الترع .

وخلف عباس الأول بن طوسون جده محمد على سنة ١٨٤٨ وفى عهده أنشئت القنصليات فى الخرطوم ، ومع أنه أغلق فى مصر بعض المدارس أمر بفتح مدرسة كبيرة فى السودان وعين رفاعة الطهطاوى ناظرا لها . غير أن سعيدا حين خلفه أغلق هذه المدرسة ، وفى عهده أبطلت تجارة الرقيق السودانى نهائيا وزار السودان وأمر بإصلاح الأداة الحكومية فى جمع الضرائب وخفّفها ، ورأى أن تبقى كتائب الجند فى السودان وأن لا تسلط على الناس وأن يقف جمعها للضرائب ، وأمر بتنظيم المدن والشوارع وتشجيع السودانيين على إنشاء الحدائق فى منازلهم .

(ب) عهد إسماعيل[1] (١٨٦٣ - ١٨٧٩ م)

كان أول ما عمله إسماعيل تعيين موسى باشا حمدى حكمدارا للسودان وبذلك أعاد للحكم هناك نظام المركزية أيام خورشيد ، وأشرك العنصر السودانى فى الحكم فعين الشيخ أحمد أبو سن كبير قبيلة الشكرية مديرا للخرطوم وسنار وظل فى وظيفته إلى أن توفى بعد عشر سنوات وأظهر قدرة ممتازة برهنت على كفاءة السودانيين الإدارية ،وطالبه إسماعيل بمعاملة السكان بالعدل والعمل على ازدياد العمران فى السودان وتوسيع نطاق تجارته ، وأنشئت فى السودان

(١) انظر فى السودان لعهد إسماعيل كتاب السودان عبر القرون لمكى شبيكة وعصر إسماعيل لعبد الرحمن الرافعى وتاريخ السودان القديم والحديث لنعوم شقير .

زمن حكمدارية موسى حمدى خمس مدارس فى عواصم المديريات : بربر والخرطوم والأبيض وكسلا ودنقلة . وقد أمدت هذه المدارس النظامية الإدارة السودانية بحاجتها من الكتاب والمحاسبين وعمال التلغراف وأحدثت نهضة في الثقافة والأدب بعد أن كان العلم مقصورا على خلاوى القرآن ومجالس العلوم الشرعية . وأمر إسماعيل بالإنفاق على المساجد وكتاتيب القرآن وفرض رواتب شهرية لها . وعين إسماعيل جعفر مظهر حكمدارا للسودان وكان على معرفة واسعة بالعلوم الدينية والأدبية فكان يجتمع عنده العلماء والأدباء للحوار والمناقشة وشاع فى أيامه الشغف بالعلم والأدب ، وأخذ بعض الشعراء ينظمون قصائد كانت تنشر فى الوقائع المصرية ، وأمر إسماعيل بالتوسع فى نطاق السودان : فى دارفور وبحر الغزال وخط الاستواء . وتطورت الظروف فى بحر الغزال وعُيِّن الزبير السودانى مديرا له ، وساءت العلاقات بينه وبين الزريقات فحاربهم وانتصر عليهم سنة ١٢٩٠ هـ/١٨٧٤ م وفرَّ مشايخهم إلى سلطان دارفور فنازله الزبير وقتل فى إحدى المعارك ، ودخل الزبير عاصمته : الفاشر سنة ١٢٩٢ هـ/١٨٧٦ م وضمت دارفور إلى السودان ، وكان ذلك من الزبير عملا جليلا .

أما خط الأستواء فقد ارتبط مصيره بإنجليزيين أحدهما مكتشف مهم هو صموئيل بيكر مكتشف بحيرة ألبرت الاستوائية ، والثانى ضابط إنجليزى هو غوردون ، وكان صموئيل بيكر زار مصر فى أوائل سنة ١٢٨٠ هـ/١٨٦٩ م بمعية ولى عهد المملكة الإنجليزية ، فتعرف عليه إسماعيل واختاره للقيام بحملة على خط الاستواء وضمه لمصر ، وارتضى ذلك صموئيل بكير وحُرِّر معه عقد لمدة أربع سنوات براتب سنوى يبلغ نحو عشرة آلاف جنيه . وهى إحدى غلطات إسماعيل الكبرى أن يعهد إلى إنجليزى بفتح منطقة خط الاستواء ظانا أنه سيخدم مصر ، وأسرَّ صموئيل بيكر فى نفسه أن يخدم بلاده بجعل منطقة خط الاستواء مستعمرة بريطانية لو استطاع ، ووضع نصيب عينية تأليب السودانيين على مصر والمصريين ، وأنفقت الحملة ثمانمائة ألف من الجنيهات ، ولم تتم عملية الفتح والضم كما كان مظنونا ، وكل ما جنته مصر من الحملة طوال أربع سنوات تأسيس ثلاث محطات هناك فى غندوكرو وفاتيكو وفويرا ورفع أعلام مصرية عليها . وانتهى عقد بيكر وعاد إلى بلاده ، وبدلا من أن يعهد إسماعيل إلى مصرى أو سودانى بإتمام الفتح قدم إليه وزيره نوبار ضابطا إنجليزيا تعرف عليه فى السفارة الإنجليزية بالآستانة هو غوردون الذى خدم دولته فى حروب القرم وفى الصين ، فارتضاه إسماعيل ليتمم ما بدأه صموئيل بيكر فى منطقة خط الاستواء ، فنجح هناك فى تأسيس مجموعة من المحطات العسكرية ، وكان سياسيا ماكرا فجذب قلوب الناس إليه ، واضطر للدخول فى مناوشات مع أوغندة والبلدان المجاورة ، وأحسَّ بالإرهاق فعاد إلى مصر مصمما على عدم العودة إلى السودان ، غير أن إسماعيل أقنعه بإكمال مهمته ، فوعده برجوعه بعد زيارته لبلاده .

وكانت مصر استولت على سواكن ومصوع ودخلت كل المنطقة الشرقية فى السودان ،

وفى سنة ١٢٨٧ هـ/١٨٧٠ م وصل المصريون إلى حدود الحبشة فنشبت حرب بينهم وبين الحبشة وتوفى ملكها يوحنا بعد قليل واستولى المصريون على مرتفعات إرتريا فى سنتى ١٢٩١ هـ/١٨٧٥ م و ١٢٩٢ هـ/١٨٧٦ م وبذلك اتسعت إمبراطورية إسماعيل من البحر المتوسط إلى منطقة البحيرات فى أعالى النيل : ألبرت وفيكتوريا ومن سواحل البحر الأحمر وسواكن ومصوع وزيلع إلى دارفور شرقى بحيرة تشاد ، وبسطت حمايتها على خليج عدن وبوغاز باب المندب وعلى أوغندة ووصلت حدودها إلى المحيط الهندى ورأس جرفوس عليه . واعترفت إنجلترا بسلطان مصر على الصومال . ويعود غوردون ويلقى إسماعيل سنة ١٢٩٣ هـ/١٨٧٧ م بحضور وزيره شريف باشا ويجيبه إسماعيل إلى ما طلبه من تعيينه حكمدارًا عامًّا على السودان وأعطاه سلطات لم تعط لحكمدار قبله وينزل السودان ويبدأ بتفقد الشرق ، وفى مصوع جاءه خبر بالتمرد والعصيان فى إقليم دارفور وظل يعالج الأمور هناك فترة طويلة ، وشك فى إخلاص السودانيين وفكر فى الاستعانة بإنجليز وأوروبيين وهى فكرة خاطئة . وجاءه خبر تنازل إسماعيل صديقه عن الحكم وان ابنه « توفيق » خلفه ، فصمم على اعتزال العمل فى السودان ، إذ لن يظل متمتعا بما أتاح له إسماعيل من سلطات واسعة . ومن المؤكد أن الحكم المصرى للسودان الشقيق أتاح له تقدما فى العمران وزيادة فى الإنتاج واستغلال الثروة الزراعية والحيوانية وازدهارا فى التجارة مع تأسيس المدارس للتعليم المدنى ونشر المعارف العلمية الحديثة .

٥

حركة المهدى – خليفته عبد الله التعايشى

(أ) حركة[١] المهدى

المهدى هو محمد بن عبد الله ولد سنة ١٢٦٠ هـ/١٨٤٤ م لأب كان يعمل نجارا فى بناء السفن بمنطقة دنقلة ، وهاجر فى النيل جنوبا ونزل فى مدينة شندى وتركها إلى قرية شمالى أم درمان ، وتوفى . واحترف إخوة محمد مهنة أبيهم ، أما هو فكان يميل بفطرته نحو الدين ودخل خلوة حفظ فيها القرآن الكريم ، وبعد حفظه له التحق بشيخ أو بشيوخ يتعلم على أيديهم الفقه والتوحيد والنحو ويتلقن التصوف . وكان إخوته بعد وفاة والدهم نزلوا الخرطوم ونزلها معهم ، ولزم شيخا صوفيا من أتباع الطريقة السمانية وعنه تلقن تلك الطريقة ، وأخذ يميل إلى النسك والعزلة ، واعتزل سنة ١٢٨٦ هـ/ ١٨٧٠ م فى جزيرة أبا فى النيل الأبيض

(١) انظر فى تلك الحركة كتابى السودان عبر القرون والسودان فى قرن للدكتور مكى شبيكة وتاريخ السودان القديم والحديث لنعوم شقير ومصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال لعبد الرحمن الرافعى ودائرة المعارف الإسلامية .

وانصرف فى كهف بها على شاطىء النهر للنسك والعبادة ، واختلف مع شيخه الصوفى الشيخ محمد شريف إذ وجده يحتفل فى ختان أحد أبنائه بصور من اللهو لم يَسْتَسِغْها تصوفه ، وبحث عن شيخ آخر من أصحاب طريقته السمانية جدَّد عليه العهد . وكانت أسرته تذكر أنها من سلالة الرسول ﷺ فأخذ يكاتب مشايخ الطرق وبعض العلماء سرا بأنه المهدىّ المنتظر الذى بشَّر به الرسول ، وأعلن لهم أن الله خصَّه بذلك لنصرة الإسلام وأن النصر سيُلازمه ، وأخذ مريدوه من السودانيين يتكاثرون ويلتفون حوله ، ولما اتسعت دعوته أرسلت إليه الحكومة قوة إلى جزيرة أبا فاستطاع بمن معه من الدراويش أن يقهرها ورأى المهدى أن يخرج من تلك الجزيرة لأنها مكشوفة ولا تساعده على التحصن ضد القوة الكبيرة التى سترسلها الحكومة واتجه إلى منطقة تقلى فى كردفان ونزل فى جبل قدير واستقر به ، ووجَّه إليه مدير فاشودة قوة لقتاله وقضى عليها ، وعقب هذه الهزيمة لقوات الحكومة طلب رءوف باشا حاكم السودان إمدادات عسكرية من مصر وكان العرابيون يسيطرون على الوزارة ، فرأوا إرسال عبد القادر باشا حلمى ، وقبل وصوله تألف جيش بقيادة يوسف باشا الشلالى لمنازلة المهدى سنة ١٢٩٩ هـ/١٨٨٢ م فى مستقره بجبل قدير ، وهزم هذا الجيش مثل الحملتين السابقتين له ، وأكسبه هذا النصر أنصارا كثيرين ، وثار كثيرون معه فى الجزيرة ولكن الحكومة أخمدت ثوراتهم وأعاد إلى الجزيرة عبد القادر باشا حلمى الهدوء . وفى سنة ١٣٠٠ هـ/١٨٨٣ م هاجم مدينة الأبيِّض واستولى عليها واتخذها مقرا له ، وجاءه مريدون كثيرون من أنحاء السودان يريدون رؤية « ولى الله».

وكان الإنجليز قد احتلوا مصر فأرسلت حكومة الاحتلال عشرة آلاف جندى بقيادة هكس باشا الإنجليزى وهاجمت المهدى فى الأبيض وأبيدت إبادة تامة ، وغنم الأنصار أتباع المهدى غنائم كثيرة ، وأخذت الوفود تفد من جميع أنحاء السودان لمبايعة المهدى وأخذ النساء فى الأفراح وفى أعمالهن من احتطاب وغيره يتغنين بالمهدى ومناقبه ، واضطربت الحكومتان المصرية والإنجليزية ورأى الإنجليز جلاء المصريين عن الخرطوم . وفى ديسمبر سنة ١٨٨٣ للميلاد استسلم للمهدى الضابط النمساوى سلاتين باشا حاكم دارفور باسم الحكومة المصرية بعد أن ظل ينازل أتباعه سنة كاملة دون جدوى . وعادت إنجلترا للضغط على مصر بالجلاء عن السودان وأصرَّ شريف باشا على الاحتفاظ بالسودان ، واستقال فى أوائل يناير سنة ١٨٨٤ وخلفه نوبار باشا ، ورأت الحكومة فى إنجلترا أن غوردون هو الذى يمكنه إنقاذ الموقف وإجلاء الجنود المصريين عن السودان ، فقبل المهمة ظانا أنه يتمتع بشخصية شعبية فى السودان ونسى أنه أغضب كثيرين منهم لمكافحته تجارة الرقيق ، ولم يكن يتصور مدى الحماسة الدينية التى أشعلها المهدى فى نفوس السودانيين ، ووصل الخرطوم فى فبراير سنة ١٨٨٤ وأرسل توا إلى المهدى خطابا يعينه فيه ملكا على كردفان وأعلن فيه أنه يبيح تجارة الرقيق ، وأجابه

المهدى طالبا منه الاستسلام والدخول فى الإسلام بينما كان هو يفكر فى منح السودان استقلالا ذاتيا تحت نفوذ الحكم الإنجليزى ، وبدا أنه من غير الممكن الاتفاق بين الرجلين ، ونشبت مناوشات فى الشرق عطلت الطريق إلى ميناء سواكن على البحر الأحمر وأرسلت إنجلترا حملة بقيادة جراهام لم يكتب لها النجاح ، وسقطت مدينة بربر فى أيدى الأنصار أو المهديين ، وأرسلت إنجلترا حملة بقيادة ولسلى وتجمعت قوة مصرية إنجليزية فى أسوان وحلفا وأخذت طريقها فى النيل وهزمت بعض قوات المهدى فى المراكز الأمامية ، وأخذ المهدى يعدّ جيشه للاستيلاء على الخرطوم ، وشاعره الشيخ محمد عمر البنا ينشده قصيدته :

الحربُ صبرٌ واللقـاءُ ثباتُ والموتُ فى شأن الإله حياةُ

وتجمع أتباعه جنوبى طابية أم درمان فى أواخر أكتوبر سنة ١٨٨٤ للميلاد ولم يسرع المهدى فى فتح الخرطوم ورأى حصارها حتى تستسلم حقنا للدماء . وبلغ المهدى أن الحملة المصرية الإنجليزية وصلت المتمة فأمر بالهجوم على الخرطوم فى السادس والعشرين من يناير قبل وصولها ، ودخلها الأنصار من ثغرة فى طرف الاستحكامات على النيل الأبيض وفتكوا بالحامية ، وقتل غوردون فى قصره . ودان للمهدى السودان بجميع أرجائه ، وانتقل بمعسكره إلى أم درمان وأذعنت له دنقلة وأخذت الحاميات المصرية تستسلم وأعلن الإنجليز إخلاء السودان من جنودهم . وما وافى اليوم الرابع من رمضان سنة ١٣٠٢ هـ/ الخامس عشر من يونية سنة ١٨٨٥ م حتى أصابت المهدى حمى التيفوس ولم تمهله إذ توفى بعد أسبوع . وأثرت له تعاليم من شأنها أن تجعل لدعوته أسسا واضحة سنتحدث عنها فى الفصل المقبل وأثرت عنه بعض مواعظ مثل قوله : « إذا دخلتم فى الصلاة فادخلوها بالحضور والخشوع والخضوع والتذلل والابتهال والانكسار وانسكاب الدموع إن استطعتم مع توجه القلب إلى الله وقول لا عيش إلا فى دارك ولا نعيم إلا فى لقائك » .

(ب) عبد الله التعايشى[1] خليفة المهدى

استخلف المهدى – وهو يحتضر – عبد الله التعايشى يده المنى فى دعوته ، ونقل عاصمته إلى أم درمان : قلعة الخرطوم على الضفة اليسرى ، وكان قد هاجر إلى المهدى مبكرا وهو لا يزال فى جزيرة أبا وبايعه ، وأخذ المهدى يعتمد عليه فى الإدارة والتنفيذ ، فطبيعى أن يعهد إليه بخلافته ، وكان عماده على أهل الغرب وخاصة على قبيلته البقارة الذين نقلهم إلى أم درمان ، ومنهم ومن الجعليين نظم قوته العسكرية . وجعل فى أول الأمر شئون الحكم والإدارة فى أيدى أسرة المهدى وسُموُّ الأشراف ، وندب التعايشى ستة عشر قاضيا للحكم بين الناس

---

(١) انظر فى التعايشى وخلافته للمهدى كتاب السودان عبر القرون والسودان فى قرن للدكتور مكى شبيكة وتاريخ السودان القديم والحديث لنعوم شقير ومصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال لعبد الرحمن الرافعى .

بموجب الكتاب والسنة ، وقسم السودان إلى عمالات أو أقاليم ، وجعل على كل عمالة أو إقليم حاكما ، يسيطر على الجيش والإدارة ومع كل حاكم عدد من الموظفين يساعدونه فى أعماله الإدارية ، واستحالت العاصمة أم درمان من معسكر إلى مدينة كبيرة .

وكانت مصر قد استردت حاميتها من ميناء مصوع فاحتلها الإيطاليون واحتلوا أيضا إريتريا سنة ١٣٠٢ هـ/١٨٨٥ م وأسرع التعايشى وعين على مدينة القلابات عاملا ناوش الأحباش وقُتل فى إحدى المعارك ، ويرسل إليها قائده أبا عنجة على رأس جيش كبير يتألف من نحو ستين ألف جندى لقتال الحبشة ، ولقيه جيش حبشى بقيادة الرأس عدار ومُنى الأحباش بهزيمة قاصمة ، وتقدم المهديون إلى قُندر (غوندار) عاصمة الحبشة حينذاك وأحرقوها . ومنذ سنة ١٣٠٣ هـ/١٨٨٦ م أصبح بحر الغزال دون حاكم يشرف على شئونه ، وبالمثل مديرية خط الاستواء وكانت سقطت فى أيدى أتباع المهدى سنة ١٣٠٥ هـ/١٨٨٨ م وضمَّها الإنجليز إلى مستعمرتهم أوغنده . وصمم يوحنا إمبرطور الحبشة سنة ١٨٨٩ للميلاد على أن يغسل عن جيشه عار هزيمة سنة ١٨٨٦ فحشد جيشه جميعه وتقدم به إلى القلابات لحرب المهديين أو الأنصار ، والتقوا به ودارت الدوائر على جيشه وجرح فى المعركة جرحا مميتا وانسحب جيشه ووراءه الأنصار يقتلون ويأسرون ويستولون على غنائم لا تحصى من العبيد والجوارى والأسلحة والخيول وتاج الإمبراطور نفسه ، وهو نصر رفع الروح الحربية والمعنوية فى الأنصار إلى الذروة .

وصمم التعايشى على غزو مصر وإنقاذها من الاحتلال الإنجليزى وأعدَّ لذلك فى نفس السنة جيشا بقيادة عبد الرحمن النجومى ، وهو من الجعليين ، وسار إلى الشمال متجها إلى أسوان ومصر ولكن حامية وادى حلفا أنزلت بجيشه خسائر فادحة ، وزادتها فداحة وجسامة معركة توشكى بعدها بحيث قضى على الجيش السودانى قضاء نهائيا . وفى السنة نفسها انتشرت فى السودان مجاعة كبيرة ، وكان التعايشى محاطا بالأعداء من كل جانب فلم يستطع تموين البلاد من الخارج . وفى سنة ١٣٠٧ هـ/١٨٩٠ م أخضع التعايشى قبائل الشلوك أشجع القبائل السودانية الزنجية فى الجنوب ودخلت عاصمتها فاشودة فى طاعته ، وكان ذلك تعويضا له عن خسائره فى الشمال وفى المجاعة . واستطاعت قوة مصرية فى سنة ١٣٠٨ هـ/١٨٩١ م أن تهزم عثمان دقنة قائد التعايشى بالقرب من مدينة طوكر جنوبى سواكن واستردتها . وفى سنة ١٣١١ هـ/١٨٩٤ م استولى الإيطاليون على مدينة كسلا السودانية بالقرب من حدود إريتريا . ونشبت حرب بين إيطاليا مالكة مصوع وكسلا وبين الحبشة فى عهد إمبراطورها الجديد مَنَليك سنة ١٨٩٥ للميلاد وأنزل الأحباش بالإيطاليين هزيمة ساحقة فى غرة مارس سنة ١٨٩٦ عند مدينة عدوة ، وبذلك قضى على ما كان يتهدد أتباع التعايشى من خطر الطليان . غير أن خطرا أعظم أخذ يبدو فى الأفق ، فقد رؤى إنشاء خط حديدى من وادى حلفا إلى مدينة أبى حمد بين الشلالين الرابع والخامس يمكن استغلاله فى نقل الجيوش سنة

١٣١٣ هـ/١٨٩٦ م وصدرت الأوامر إلى سردار الجيش المصرى أو بعبارة أخرى قائده العام كتشنر لإعداد جيش لفتح السودان ، ومرَّ الجيش بوادى حلفا ، واسترجع مديرية دنقلة . واستراح الجيش ثم وصل إلى أبى حمد فى أغسطس سنة ١٨٩٧ للميلاد ، وفى هذه السنة استولى الجيش المصرى على كسلا ورفع هناك العلم المصرى ، وتقدم كتشنر بالجيش وانتصر فى معركة عند عطبرة فى أبريل سنة ١٨٩٨ للميلاد ، ومضى فى زحفه حتى أم درمان ونشبت معركة حامية الوطيس فى شهر سبتمبر دارت فيها الدوائر على الأنصار . واتجه التعايشى إلى الغرب يريد أن يحتمى به ، وظل أشهرا يعدّ العدة للقاء كتشنر ثانية ورفع كتشنر العلمين المصرى والأنجليزى على سراى الحكم فى الخرطوم ودارت موقعة بين التعايشى وبين بعض متعقبيه من جند كتشنر فى نوفمبر سنة ١٨٩٨ وتوفى . وبموته دانت البلاد للجيش الفاتح .

٦

الحكم[١] الثنائى المصرى الإنجليزى فى السودان

رأينا كتشنر بمجرد دخوله الخرطوم يرفع على سراى الحكم العلمين المصرى والإنجليزى ، وكان كرومر المندوب السامى البريطانى قد استطاع أن يقنع نوبار باشا فى يناير سنة ١٨٩٩ للميلاد بتوقيعه على وثيقة الحكم الثنائى المصرى الإنجليزى للسودان ، وعينت الوثيقة خط العرض ٢٢° شمالا حدا فاصلا بين مصر والسودان ، وأن يرفع العلمان المصرى والإنجليزى على جميع دور الحكومة وأن تكون الإدارتان العسكرية والمدنية بيد موظف ترشحه الحكومة البريطانية ويعينه خديوى مصر ، ويلقب بحاكم عموم السودان ولمنشوراته حكم القانون ولا يسمح لتمثيل قنصلى فى السودان إلا بموافقة الحكومة البريطانية ، ولا تمتد سلطة المحاكم المختلطة إلى أى جزء فى السودان . وواضح أن الحاكم العام يكون إنجليزيا وترشحه الحكومة الإنجليزية ، ومُنح سلطات كبيرة تجعله حاكما مستقلا . ورأى كرومر أن تكون مناصب المديرين والمفتشين للإنجليز ، أما المصريون فلهم إدارة المراكز والمأموريات . وربما كانت الحسنة الوحيدة فى هذه الاتفاقية أن السودان أعفى من الامتيازات الأجنبية . وعيِّن كتشنر أول حاكم عام للسودان وقد جمع من السودانيين تبرعات لإنشاء مدرسة ثانوية تسمى كلية ذكرى غوردون ، وبلغت التبرعات مائة ألف جنيه . وافتتحت المدرسة سنة ١٩٠٣ وأنشئت فيها أقسام متخصصة : قسم للشريعة الإسلامية لتخريج القضاة ، وقسم للمهندسين وقسم للمعلمين ، وظلت مصر تُعين السودان ماليا حتى سنة ١٩٠٤ ووُضعت نظم للشئون المالية والشئون الإدارية وللتعليم

---

(١) انظر السودان عبر القرون للدكتور مكى شبيكة وتاريخ السودان القديم الحديث لنعوم شقير وراجع فى استعادة السودان واتفاقية يناير سنة ١٨٩٩ كتاب مصر والسودان أوائل عهد الاحتلال للرافعى ودائرة المعارف الإسلامية .

والقضاء والمصالح الحكومية . وترك كتشنر السودان فى ديسمبر سنة ١٨٩٩ وخلفه ونجت حاكما عاما للسودان حتى سنة ١٣٣٤ هـ/١٩١٦ م ، وأنشىء – حسب الاتفاقية الثنائية – مجلس سنة ١٩١٠ باسم مجلس الحاكم العام . وعُنى الحكم الثنائى بالمواصلات والبرق (التلغراف) ومُدَّت سكة حديد من وادى حلفا إلى الخرطوم وأضيف خط إلى سنار والأبيض وخط من عطبرة إلى سواكن على البحر الأحمر وأنشىء خط ملاحة نهرى من الخرطوم إلى بحر الغزال ، ووضعت مشروعات رى كثيرة بعد الدراسة ، منها مشروع الجزيرة المشهور وجُرِّبت زراعة القطن ونجحت نجاحا كبيرا ، وأسست مدارس أولية فى المدن الكبرى ، وأنشئت ورش صناعية ، وكان يقوم بالتعليم فى هذه المدارس معلمون مصريون أكفاء ، وأنشئت مدارس لتخريج المعلمين .

وقامت بعض ثورات محلية فى الحرب العظمى وسرعان ما كانت تخمد ، وبالمثل ما حدث من بعض الثورات فى جبال النوبة . وتضطرب العلاقة بين على دينار سلطان دارفور والحكومة ويحمل السلاح ضد الحكومة ويتوفى برصاصة طائشة سنة ١٩١٦ وتضم دارفور إلى السودان نهائيا ويصبح تاريخها جزءا من تاريخ السودان . ومع الثورة المصرية سنة ١٩١٩ نشط الوعى القومى فى السودان للمطالبة بحقوقه ثم كان مقتل السير لى ستاك حاكم السودان وسر دار الجيش المصرى سنة ١٣٤٢ هـ/١٩٢٤ م وخرج الجيش المصرى – بضغط الإنجليز – من السودان فاندلعت هناك ثورة وطنية ضخمة تعد – بحق – بدء العصر الحديث فى السودان الشقيق .

الفصل الثانى

المجتمع السودانى – الثقافة

١

المجتمع[1] السودانى

رأينا فى الفصل الماضى كيف أن الإسلام أخذ ينتشر فى السودان وشرقيه تدريجا بفضل القبائل العربية الكثيرة التى نزلت فى حوض النيل جنوبى حلفا وفى شرقيه بقبائل البجّة واستغرق ذلك قرونا دخل فيها أهل النوبة فى الدين الحنيف وقامت فى دنقلة سنة ٧١٦ هـ/١٣١٦ م أول دولة إسلامية وأخذت صلة مملكة علوة جنوبى دنقلة بالكنيسة اليعقوبية فى الإسكندرية تتضاءل وأخذ أهلها يعتنقون الإسلام ، وكان انتشاره فى غربى السودان أسرع بفضل كثرة من نزله من قبيلة زوارة البربرية وعرب الشاوية رعاة الشاة وأيضا بفضل تجار البرنو والكانم ، وتكونت سريعا فى دارفور ووادى مملكة إسلامية أواخر القرن الخامس الهجرى .

وأخذ الإسلام ينتشر تدريجا فى مملكة علوة وفى جبال النوبة وعلى شاطىء النيل الأبيض وفى جنوبى السوباط وبحر الغزال ، ولا نصل إلى القرن العاشر الهجرى ، حتى يصبح السودان بلدا إسلاميا وإن ظلت به بعض الجيوب المسيحية والوثنية ، وتأسس سنة ٩١٠هـ/١٥٠٤م دولة الفونج الإسلامية فى مدينة سنار على النيل الأزرق وتنشر سلطانها على النيل الأبيض وعلى الجزيرة بينه وبين النيل الأزرق وعلى مملكة تقلى فى جبال النوبة .

(أ) نزعة صوفية عامة

عملت دولة الفونج على نهضة دينية واسعة ، وفسحت للتصوف وطرقه فى الانتشار بأنحائها وكان أول من حاول نشره فى ديارها الشيخ تاج الدين البهارى البغدادى وكان قد تعرف عليه بعض حجاج السودان فى أثناء حجه ، وأقنعه بالذهاب معه إلى سنار ونشر طريقته الصوفية بها ، وكان من أتباع الطريقة القادرية لعبد القادر الجيلانى الحسينى نسبا المتوفى ببغداد

---

(١) انظر فى المجتمع السودانى كتاب الطبقات لود ضيف الله وتاريخ الثقافة العربية فى السودان للدكتور عبد المجيد عابدين وكتاب الثقافة العربية وأثرها فى تماسك الوحدة القومية فى السودان المعاصر للدكتور محمد فوزى مصطفى عبد الرحمن وتاريخ السودان القديم والحديث لنعوم شقير والتربية فى السودان لعبد العزيز عبد المجيد والسودان عبر القرون للدكتور مكى شبيكة ومنشورات المهدى .

سنة ٥٦١ هـ/١١٦٥ م وله كتابان مطبوعان هما سر الأسرار والغُنْية لطالبى الحق ، وطريقته إحدى طريقتين صوفيتين سنيتين والثانية الطريقة الرفاعية للشيخ أحمد الرفاعى المتوفى سنة ٥٧٨ هـ/١١٨٢ م أشاعتهما بغداد فى العالم العربى ، ويقول ابن تغرى بردى عن الجيلانى إنه « أحد المشايخ الذين طنَّ ذكرهم فى الشرق والغرب » .

ونزل الشيخ تاج الدين البهارى البغدادى مدينة سنار حوالى سنة ٩٥٢ هـ/١٥٤٥ م وأخذ يدعو للطريقة الجيلانية ، وحظيت دعوته بنجاح كبير فى دولة الفونج وبخاصة فى أرض الجزيرة التى أقام بها سبع سنوات ، وجاءه السودانيون من كل مكان لينظمهم فى سلك الطريقة القادرية ، وأخذ العهد على كثيرين من أهمهم محمد الأمين بن عبد الصادق جد الصادقاب فى إقليم سوكى بين واد مدنى والقضارف والشيخ عجيب المانجلك جد العبدلأب وعبد الله دفع الله العركى جد العركيين وبان النقا الضرير جد اليعقوباب ويقال إن الشيخ البهارى قلَّده شعار الرياسة بعده فى دولة الفونج . وهؤلاء الأربعة سيطروا على السلطة الروحية وورَّثوها أبناءهم ، وارتحل الشيخ البهارى إلى تقلى وأدخل فى الطريقة عبد الله الحمال جد الشيخ حمد ولد الترابى مع جماعته . وتفرعت عن هذه الطريقة فى أواخر دولة الفونج الطريقة السمانية على يد الشيخ أحمد الطيب ود البشير المتوفى سنة ١٢٣٩ هـ/١٨٢٣ م . وكل هؤلاء وذرياتهم ظلوا قائمين على الطريقة القادرية ناشرين لها ومسيطرين على السلطة الروحية فى السودان إلى اليوم .

وبجانب الطريقة القادرية الصوفية عرف السودان فى دولة الفونج الطريقة الشاذلية الصوفية ويبدو أن معرفته بهذه الطريقة تسبق زمنيا قيام دولة الفونج . فقد نزله أحد أتباعها المغاربة — وهو حمد أبو دنانة زوج بنت الشيخ محمد بن سليمان الجزولى مؤلف دلائل الخيرات وداعية الطريقة الشاذلية فى المغرب منذ سنة ٨٤٩ هـ/١٤٤٥ م . ومعروف أن أبا الحسن الشاذلى مؤسس هذه الطريقة نزل مصر ودعا إلى طريقته وتبعه خلق كثير ، وتوفى سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م وظلت طريقته إحدى الطرق الصوفية السنية الأساسية فى مصر . ومن أهم دعاتها فى السودان أيام الفونج الشيخ خوجلى عبد الرحمن المحسى المتوفى سنة ١١١٥ هـ/١٧٤٣ م واشتهر بعده بالدعوة لها الشيخ حمد المجذوب المتوفى سنة ١١٩٠ هـ/١٧٧٦ م وكان قد زار مصر والحجاز وأسس للشاذلية فرعا فى مدينة الدامر شمالى الخرطوم وسميت طريقته باسم طريقة المجاذيب ، ومعروف أن الطريقة الشاذلية تقوم على التمسك بالكتاب والسنة والشريعة المحمدية بجانب النسك والعبادة وصدق القلب والشعور الباطنى الصوفى ، وهاجم الشاذلى بشدة حياة الخانقاهات والتسول التى كان يعيشها الدراويش الرُّحَّل . وبجانب هاتين الطريقتين كان بعض السودانيين يأخذون طريقتهم الصوفية عن حجازيين فى أثناء حجهم أو عن مصريين فى أثناء دراستهم بالأزهر وأحيانا عن بعض أهل تمبكتو كما حدث للشيخ خوجلى عبد الرحمن الشاذلى المذكور

آنفا ، وقد جمع بين التصوف وعلم الكلام والفقه ، أما التصوف فأخذه عن الشيخ أحمد التمبكتاوى نسبة إلى تمبكتو على النيجر الأوسط ، وأخذ علم الكلام عن الشيخ أرباب الخشن ، والفقه على الشيخ الزين بن صغيرون . وكان يلبث الثياب الفاخرة ، وعلى رأسه الطربوش الأحمر ، ويتعمّم بالشيشان الفاخرة ، ويتبخّر بالعود الهندى ويتعطّر ، ويجعل الزباد الحبشى فى لحيته وثيابه ، ويقول إنه يقتدى فى ذلك بشيخ طريقته أبى الحسن الشاذلى إظهارا لنعمة الله ، فقيل له إن القادرية : إنما يلبسون الجبب والمرقّعات فقال : ثيابى تقول للخلق : أنا غنية عنكم ، وثيابهم تقول لهم أنا مفتقرة إليكم .

وعمت فى زمن دولة الفونج (٩١٠ هـ/١٥٠٤ م – ١٢٣٦ هـ/١٨٢٠ م) النزعة الصوفية كل أنحاء السودان ، وبحق ما لاحظه الدكتور عبد العزيز عبد المجيد فى كتابه : « التربية فى السودان » من أن هذه النزعة كانت تعم حينئذ الحياة الدينية فى العالم الإسلامى وإنها « سيطرت على عقائد الناس وتفكيرهم وامتزجت بالدراسات الإسلامية ، وصار من العلماء من يعتقد أن علم الظاهر لابد له من علم الباطن بل إن منهم من اعتبر أن علم الباطن هو العلم الحقيقى » ومما يدل على ذلك بوضوح ما يذكره ود ضيف الله عن الشيخ عبد الله العركى فإنه بعد أن تفقه على الشيخ عبد الرحمن بن جابر ذهب إلى غابة الهلالية وشرع فى التدريس وذاع صيته ، وقدم فى أيامه الشيخ تاج الدين البهارى فحاول أن يدخله فى طريقته القادرية الصوفية ، فامتنع ، وحين رأى ما لأتباع الشيخ من مكانة تحركت فى نفسه الرغبة فى أن ينضم إلى الطريقة القادرية ، وكان الشيخ البهارى رحل إلى مكة فسافر إليه وأخذ عنه الطريق . ومن ذلك أن نجد الشيخ المسلمى الصغير بعد أن قرأ مختصر خليل فى الفقه المالكى وتفقه فى الدين رأى أن معرفته لا تتكامل إلا إذا دخل فى طريقة صوفية فذهب إلى الشيخ دفع الله العركى وقال له : « علمى ما نفعنى ، أتيتكم راغبا مددكم ، فسلكه فى الطريق وأدخله خلوة سبعة أيام ، وخرج منها « صوفيا » كاملا . ويذكر ود ضيف الله أيضا عن الشيخ أبى القاسم الوديانابى أنه تفقه على الشيخ صغيرون ، وسلك طريق الصوفية على الشيخ إدريس . ومن ذلك ما يقوله ود ضيف الله عن الشيخ محمد البنوفرى من أنه رحل إلى مصر ليقرأ على علمائها مختصر خليل ، وبعد عودته إلى السودان صحب فى التصوف الشيخ إدريس ود الأرباب . ويُكثر ود ضيف الله فى طبقاته من قوله عن هذا الصوفى أو ذاك إنه جمع بين الفقه والتصوف .

ومما رفع من شأن الطرق الصوفية وأصحابها فى نظر أهل السودان وجعلهم يلتفُّون حولهم التفافا لم ينله أحد من الفقهاء وعلماء الشريعة الإسلامية أنهم رأوهم لا يعملون حسابا لذوى السلطان ، إذ كانوا لا يأخذون رواتب منهم ، كما رأوهم يتفانون فى خدمة أتباعهم وخاصة فى أيام الضيق والعسر الشديد . ويعرض علينا ود ضيف الله فى كتابه الطبقات صورا متعددة

توضح مدى ما كان ينهض به الشيخ الصوفى لأتباعه حين تحدث مجاعة كمجاعة نجيع أم لحم سنة ١٠٩٥ هـ/١٦٨٤ م فإن شيوخ الصوفية فتحوا حينئذ لأتباعهم خلواتهم وقدموا لهم فيها الطعام ، وكان بعضهم يظل يقدم هذا الطعام حتى فى سنوات الخصب مثل الشيخ ود حسونه ، ويقول عنه ود ضيف الله ، إنه كان يعنى بالفقراء (أتباع المتصوفة) فى الخلوات فيذبح لكل خلوة من خلواته شاتين فى كل يوم ، وكان عدد خلواته إحدى عشرة وقيل بل ثلاث عشرة .

ورأى أهل السودان أن هؤلاء الشيوخ لا يهابون ذووى السلطان ، وإذا كان لأحد منهم شيئا عند حاكم طلب إلى شيخه الصوفى أن يقضيه له ويلبى طلبه وسرعان ما يقضيه له الحاكم ، ومن ذلك أن الشيخ حمد المجذوب صاحب الطريقة الشاذلية فى مدينة الدامر اشتهر بأنه كثير الشفاعة لأتباعه عند الملوك والسلاطين وكانوا لا يردون له شفاعة . وكان كثير من الحكام يهابون هؤلاء الشيوخ هيبة شديدة ، وبلغ الشيخ خوجلى من الهيبة فى نفوسهم مبلغا كبيرا ، حتى قيل إن أكابر العلماء والسلاطين إذا جلسوا بحضرته كانوا كالأطفال من هيبته ، لذلك كانوا لا يعصون له ولأمثاله طلبا . ويذكر ود ضيف الله عن الشيخ إدريس أنه دخل سنار مقر الملك للشفاعة فى مصالح أتباعه إحدى وسبعين مرة . ويقول ود ضيف الله عن الشيخ بدر بن سليمان العوضى إن قبائل العرب فى مدينة بربر وغيرها كانت لا ترد له شفاعة وكان له كرم وضيافة للوافدين .

وهذا وجه مهم من وجوه تعلق أهل السودان بالمتصوفة ، إذ كانوا يدافعون عن حقوقهم ويردون الظلم عنهم ويشفعون لهم ويغيثونهم كلما ألمت بهم كارثة ويفتحون خلواتهم لإيواء الضعفاء منهم وإطعامهم . لذلك تعلق أهل السودان بهم وأخذوا يدخلون أفواجا فى دعوة كل شيخ وطريقته وانتهاج ما تأمر به فى العبادة والتقوى . وكان يغلب أن يختار الشيخ قرية يجعلها مركزا لدعوته ويبنى فيها مسجدا وخلواته ، وما يلبث أن يلتفَّ به كثير من الأتباع ، ويأتيه الناس من القرى المجاورة ، كما حدث فى قرية العيلفون جنوبى الخرطوم فقد أسس بها الشيخ إدريس ود الأرباب مركز دعوته الصوفية ، وتوافد عليه الناس من كل فجٍّ سودانى ، وأصبحت بعد قليل بلدة كبيرة متسعة الرقعة آهلة بالسكان ممن جاءوا يأخذون عنه الطريقة القادرية . ومن ذلك ما حدث لقرية الدامر حين اتخذها الشيخ حمد المجذوب مركزا لدعوته الشاذلية ، فقد وفد إليه الناس من دارفور وكردفان وجميع أنحاء السودان ، ليأخذوا عنه تعاليم طريقته . وكثيرا ما يتوقف ود ضيف الله فى كتابه الطبقات ليقول لنا إن هذا الشيخ أو ذاك شُدَّت إليه الرجال وضُربت إليه آباط الإبل . ويذكرون عن حلقة الشيخ أرباب الخشن أنها كانت تشتمل على ألف طالب من الفونج إلى البرنو غربا . وأسهم بعض المشايخ فى توسيع دائرة جماعاتهم الصوفية مثل الشيخ عبد الله الحلنقى إذ يذكر ود ضيف الله عنه أنه كان يتنقل بين « أبو حراز »

وإقليم التاكا فى شرقى السودان ، وحظى عند العرب والفونج . وكان الشيخ ابو سرور الفضلى يتخذ مركز دعوته فى الحلفاية شمالى الخرطوم مدرسا العقائد فى خلواته ، ثم ينتقل إلى دارفور فى أقصى الغرب ويدرس فيها لطلابه أو مريديه ثم لا يلبث أن يهاجر إلى دار صليح .

ويذكرون عن الشيخ العبيد أنه كان يتخذ قريتين مركزًا لدعوته ، وفيهما بنى مسجدين وخلواتهما وهما : النخيرة وأم ضبان ، وكان يقيم فى الأولى فصلى الخريف والشتاء ثم ينتقل إلى أم ضبان وظل على هذه الحال إحدى وعشرين سنة . وكان للشيخ عبد الرحمن بن جابر ثلاثة مساجد : مسجد فى دار الشايقية ومسجد فى كورتى ومسجد فى الدفار ، وكان يقرىء فى كل مسجد أربعة شهور . وقد يرحل الشيخ بأهله وبعض مريديه من موطنه إلى موطن آخر لبثّ دعوته الصوفية فيه ، كما صنع الشيخ محمد بن دفع الله فى رحيله بأهله من أبيض ديرى شمالى الخرطوم إلى غابة رفاعة فى وسط إقليم الجزيرة ، وأقام بين عرب رفاعة سبع عشرة سنة .

(ب) المرأة ومكانتها فى التصوف

لم نعرض – حتى الآن – للمرأة السودانية وصلتها بالتصوف ، وكان لها غير قليل من المكانة الروحية والاجتماعية فى عهد الفونج ، ويذكر ود ضيف الله أن فاطمة بنت سالم كانت واسعة الثراء وكان عبيدها تجار الهند والريف . وكان النساء فى غربى السودان يشاركن الرجال فى جميع أحوالهم ماعدا الحروب ، وبالمثل فى قبيلة الرباطاب إذ كانت المرأة فيها تنوب عن الرجل فى التعزية ، وكان لها نفوذ واضح فى حفلات تنصيب الملوك بغربى السودان . ويدل بصفة عامة على ما كان للمرأة من سيادة فى الأسرة استمرار انتظام الانتساب إليها فابنها ينتسب إلى خاله يقول المقريزى عن البجة شرقى السودان إنهم يورثون ابن البنت وابن الأخت دون ولد الصلب ، وكان يفضَّل فى النوبة ابن الأخت على الابن فى وراثة الملك ، وتأثر بهم فى ذلك عرب جهينة حين اختلطوا بهم ، وكان ذلك شائعا فى بعض جهات دارفور وكردفان ، وهو بقية فى السودان من طور سيادة المرأة فى الأسرة إذ كان الرجل فى بدء الحياة الإنسانية معرضا للخطر لقيامه بصيد الحيوانات الوحشية وبالحرب وكانت هى المسئولة عن الأولاد ، وقد أبطل الإسلام نظام الأمومة ودعا إلى الأخذ بنظام الأبوة فى الانتساب والميراث قائلا : ﴿ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله﴾ .

ولعل فى ذلك كله ما يدل على ما كانت تحظى به المرأة فى عهد الفونج من مكانة اجتماعية ، ولذلك كان طبيعيا أن تحضر دروس العلماء وحلقات الشيوخ ، ويدل على عنايتها بذلك عناية كبيرة ما ذكره ود ضيف الله عن حلقة الشيخ حمد ود أمريُم من أن النساء اللائى كن يحضرنها وأخذ عليهن العهد وأصبحن من أتباعه كُنَّ أكثر من الرجال أضعافا مضاعفة ، وأكثرهن من

فزارة ، وهى قبائل كثيرة كانت تنتمى إلى جهينة . ويكفى هذا الخبر للدلالة على أن المرأة السودانية شاركت بقوة فى انتشار التصوف فى البلاد ، وكانت تحضر حلقات الذكر الصوفى ، وكثيرا ما كانت تقوم امرأة – كما يقول ود ضيف الله – فتنشد والرجال يذكرون الله على إنشادها وصوتها ، والنساء من خلفها وقوف يستمعن إليها وينظرن إلى أزواجهن وأقاربهن ، وقد ينشد رجل والنساء يسمعن إليه مثل الرجال .

(جـ) التصوف والتربية الخلقية والدينية

كان لكل طريقة صوفية « وِرْد » يقرؤه أتباعها صباحا ولها مجالس ذكر يجتمع له أتباعها على الأقل ليلة كل أسبوع . ويذكر الرجال الله فى صفين متقابلين ومنشد أو منشدة ينشدان أشعارا تزيد الذكر حماسة . وكان الشيخ يأخذ على من يريدون الانتماء إلى طريقته عهدا على أن يقوموا بأداء فرائض الإسلام ونوافله وعبادة الله والتمسك بتعاليم كتابه وسنة رسوله ومراقبته فى السر والعلن ومجاهدة النفس ودفعها إلى الفضيلة والعمل على كل خير . وبذلك كان التصوف نوعا من التربية الخلقية المثلى فضلا عن التربية الدينية . وكان بعض الشيوخ حين يأخذ العهد على التابع أو المريد الجديد يفصّل له المنهج الذى ينبغى أن يتقيّد به ولا يعدل عن أى واجب فيه ، ويعرض ود ضيف الله تفصيلا لمنهج العهد الذى كان يلزم به حمد ود أمريم أتباعه ومريديه يقول :

« كان يأمر كل من أتاه وتاب على يديه أن يصحح توبته بشروطها ، وهى الندم على ما فات من تضييع فرائض الله من مثل الصلاة والصيام والزكاة وغيرها مع الإخلاص لله تعالى فيما يفعل وترك الرياء والزنا والكبر والحسد والغيبة والنميمة والعُجْب ، ولا يسعى بقدميه فيما لا يحل له ، ولا يسمع بسمعه ما لا يحل له ، وينهاه عن مخالطة الخلق المغتصبين وأكل طعامهم وأكل طعام المستغرقين للذمم . ويقول إن ذلك هو السنة التى سنها رسول الله ﷺ . وكان يأمر كل من تاب على يديه أن لا يزوج ابنته – أو من تعهد له بزواجها – من فاسق أو آثم كالحلاّف بالطلاق والمغتصب وآكل الربا وغير ذلك . ونهى عن مخالطة الرجال مع النساء ، وأمر بغض البصر .. وكان إذا جاءه أحد لتلاوة القرآن يقول له لا تجوز لك قراءته وأنت جاهل بالفرائض وما فرضه الله عليك من أحكام الوضوء والصلاة . وكان يأمر كل من تاب على يديه وعنده مال مغصوب أن يتصدق به ، ويأمره بالصيام حتى يذهب اللحم الذى رُبِّىَ بالحرام ، ويأمر تارك الصلاة والصيام بقضاء جميع ما فاتهما . ويأمر تابعه بمواصلة ذوى الأرحام وأن لا يتكلف للأضياف بل يقدم لهم ما فضل من نفقته ونفقة عياله . وعلى مريده أن يصلى الأوقات الخمسة معه ويشترط ذلك على خدمه وعبيده ونسائه . وكان جيرانه شكر الله وعبد الكافى والفقيه محمد ولد كوريب من شدة متابعتهم له إن قال لهم : انقلوا الجبل فإنهم ينقلونه » .

وإنما ذكرنا هذا العهد كاملا لندل على ما أتاح التصوف لأهل السودان من تربية دينية وخلقية قويمة . وحقا لم تكن كل العهود تتشدد هذا التشدد ولكنها على كل حال كانت تلزم مريديها بسلوك ديني قويم فضلا عن الأوراد والأذكار كما كانت تلزمهم بسلوك خلقي واجتماعي سديد في العلاقات والمعاملات . وتسربت على ألسنة بعض شيوخ التصوف بعض ما كان يردده متصوفة بعض البلدان الإسلامية من مثل القطب والأوتاد والنجباء والنقباء ، وأيضا عن الولاية وكرامات الأولياء من المتصوفة ، ويحكي ود ضيف الله عن الشيخ إدريس ود الأرباب أنه قال : « درجات الأولياء ثلاثة : كبرى ووسطى وصغرى ، فالصغرى أن يطيروا في الهواء ويمشوا على وجه الماء وينطقوا بالمغيبات ، والوسطى أن يعطيه الله الدرجة الكونية إذا قال للشيء كن فيكون والكبرى درجة القطبانية » . وهي شعوذة ، وقد تكون قولا نُسب إلى الشيخ ولم يقله . ويردد ود ضيف الله في حديثه عن الصوفية ذكر الملامتية ، وهي فرقة صوفية خراسانية كانت تتستر — في زعمها — بفعل أشياء تغض من تصوفها وتجعل الناس يتلومونها وينكرون عليها ادعاء التصوف » . وهي فرقة ضالة ، ومن رحمة الله بأهل السودان أنه لم يظهر بينهم من اعتنق مبادىء هذه الفرقة سوى محمد الهميم الذي زاد في زواجه بالنساء على المقدار الشرعي المسموح به وهو أربع وليس ذلك فحسب فإنه جمع بين الأختين » وهو لا يعد بذلك من الملامتية إنما يعد خارجا على الإسلام وأحكامه وأوامره ونواهيه . وربما كان ما ذُكر عن إسماعيل صاحب الربابة من أنه كان من الملامتية صحيحا . على كل حال لم تشع مبادىء هذه الفرقة في التصوف السوداني وظل تصوفا سنيا منحرفا عن شعوذات المتصوفين المتأخرين ، وظل يغذي أهل السودان بتربية دينية وخلقية واجتماعية قويمة .

(د) طرق صوفية جديدة

تأخذ دولة الفونج في الضعف منذ أواسط القرن الثامن عشر الميلادي ويرى محمد علي خديو مصر الاستيلاء على السودان ويرسل إليه حملة سنة ١٢٣٦ هـ/١٨٢٠ م ويستولي عليه كما مر بنا في الفصل الماضي ، ويحول الجند قرية الخرطوم إلى مدينة كبيرة وتصبح عاصمة السودان في العهد العلوي وعرف محمد علي مدى ما للطرق الصوفية من سيطرة على الشعب السوداني وحياته ، فشجع الطرق الصوفية بمصر على نزول بعض دعاتها في السودان ، من ذلك تشجيعه أصحاب الطريقة السعدية ، وهي من فروع الطريقة الرفاعية البغدادية الناشئة في القرن السادس الهجري كما مرَّ بنا ، وشجع أصحاب الطريقة الرحمانية أو البدوية المنسوبة إلى أحمد البدوي وأصحاب الطريقة البرهانية المنسوبة إلى إبراهيم الدسوقي . واشتهرت بمكة حينئذ طريقة أحمد بن إدريس الفاسي المتوفى سنة ١٨٣٥ وأرسل إلى السودان قبل وفاته أحد أتباعه المسمى محمد عثمان الأميرغني ، وأخذ ينشر طريقة شيخه في السودان الشمالي من وادي حلفا

إلى دنقلة ، وتمّ له ذلك فرأى أن يذهب إلى كردفان ونجحت دعوته هناك . وشاعت فى السودان الطريقة السمانية . ويبدو أن دعاة صوفيين مختلفين نزلوا فى السودان أثناء القرن التاسع عشر للدعوة إلى طرقهم ، كما يقال إن الطريقة التيجانية دخلت مدينة بربر فى السودان على يد داعيتها محمد المختار .

ومن المؤكد أن هذه الطرق الصوفية وما تكوّن حول كل طريقة وشيخها من جماعات اتسعت لكثير من القبائل عملت على إضعاف العصبيات القبلية وأحلت محلها روابط الطرق الروحية الصوفية التى ربطت بقوة بين أفراد الشعب السودانى من عرب وغير عرب ، ونشرت الإسلام فيما بقى من جيوب وثنية بالسودان فى جبال النوبة ، وبدون ريب سادت روح الإخاء والمودة بين أبناء الطريقة الصوفية . وكانت هناك قرى تنتسب إلى شيخ واحد كقرية العيلفون التى كانت تنتسب إلى إدريس ود الأرباب ، وقد نزلها وسكنها لعهده سودانيون لا يحصون من الشرق والغرب ووادى النيل بل نجد مدينة تدين بطريقة الشاذلية الصوفية هى مدينة الدامر التى دعا فيها الشيخ حمد المجذوب إليها وجاءه مريدوه من دارفور وكردفان وجميع أنحاء السودان وأصبح سكان المدينة يتألفون من هؤلاء المريدين . ومعنى ذلك أن قيام الطرق الصوفية فى زمن دولة الفونج وانتشارها فى السودان من حينئذ عمل على إضعاف ما كان به من عصبيات قبلية ، وسادته روح صوفية عامة جمعت بين كل أفراد الطريقة الصوفية على البر والتعاون والرحمة والمودة . غير أنه مع مر الزمن أخذت هذه الطرق تتنافس وأخذت كل طريقة تزعم أنها خير من أختها وأنها هى وحدها التى تسير على الصراط المستقيم ، وانتهى ذلك بالطرق الصوفية إلى أن تصبح من عوامل الفرقة والتشتت بعد أن كانت –طويلا– من عوامل الألفة والوحدة .

(هـ) دعوة المهدى ومبادؤها الستة

لا نصل إلى سنة ١٨٧٠ للميلاد حتى يظهر المهدى محمد بن عبد الله فى جزيرة أبا فى النيل الأبيض كما مر بنا فى الفصل الماضى وأخذ يكاتب مشايخ الطرق وبعض العلماء بأنه المهدى المنتظر والتف الناس حوله واتسعت دعوته ، فأرسلت إليه الحكومة قوة فقهرها ، وترك جزيرة أبا ونزل فى جبل قدير بمنطقة تقلى ، ووجه إليه مدير فاشودة قوة فقضى عليها كما قضى على جيش بقيادة يوسف الشلالى ، وأتاحت له هذه الانتصارات أنصارا كثيرين ، ولم يلبث أن استولى على مدينة الأبيض سنة ١٣٠٠ هـ/١٨٨٣ م وتعاظم شأنه وكثر أنصاره وجاءوه من كل أنحاء السودان ، وأرسلت حكومة الاحتلال الإنجليزى لمصر قوة بقيادة أحد قوادها فأبيدت إبادة تامة ، واستسلم له سلاتين حاكم دارفور فى نفس السنة ، وحاصر الخرطوم ودخلتها جنوده فى أواخر يناير سنة ١٨٨٥ للميلاد واتخذ قرية أم درمان عاصمة ، ودان له السودان

جميعه ، وهاجر الناس إلى أم درمان من كل الأنحاء لمبايعته وإعلان اعتناق دعوته ، ولم يلبث أن توفى فى شهر يونية سنة ١٨٨٥ .

ونستطيع أن نتبين مبادىء دعوته من خلال منشوراته ، ومن أهم المبادىء التى دعا إليها أتباعه ومريديه الزهد فى متاع الدنيا وكان ينصّ على ذلك فى بيعة كل مبايع له ، إذ يقول فى بيعته : « بايعناك على زهد الدنيا وتركها والرضا بما عند الله » ويَشْرح هذا المبدأ مبينا أن عدم الأخذ به عند الملوك والأغنياء يشغلهم عن الدين والاهتداء بما جاء به الرسل ، يقول : « وأما الملوك والكبراء وأبناؤهم فصار شغلهم – عن الإنابة إلى الله والتلقى عن الرسل والمرشدين – بالجاه والمال والعز والثناء وحسن الصيت فلم يتركهم ذلك لأن يتنوروا بنور الحق لأن القلب صار ممتلئا بهذه الفانيات فلا محل فيه لقبول الباقيات ، وصار حرمانهم من الخير فيما يظنون أنه متعة لهم ، وإذا أراد الله بعبده خيرا فرغه من ذلك الخسيس » .

والمبدأ الثانى فى دعوة المهدى العمل بالدين والشريعة المحمدية والخضوع لأوامر الله ونواهيه وأداء فروض الدين ونوافله والإخلاص فى عبادته يقول فى منشوراته : « لا نعمة إلا نعمة الدين ، ولا كرم إلا كرم التقوى ، ولا حسب إلا لامتثال لأمر الله والتواضع حتى يكون الشخص بالنسبة إلى آحاد عباد الله كواحد منهم كما كانت حالة الصحابة .. فإن المؤمنين كاليدين تغسل إحداهما الأخرى » . وهذا المبدأ أهم مبادىء دعوته لأنه كان يريد إقامة مجتمع إسلامى كبير ، ويصرِّح بذلك لأتباعه ، بل دائما يكرره كقوله لهم : « إنى قد وليت عليكم بولاية الله ورسوله لإقامة الدين ، وجئتكم داعيا إلى الله ومبلغا عنه ما حملته إليكم : اتبِّعوا آثار من سلف من المهتدين السابقين على نهج سيدنا محمد ﷺ .. وإنما قصدنا منكم المعاونة فى تقويم الدين ، وإنى – فى ذلك – كواحد منكم » . والمهدى – بذلك – كان يريد أن ينشىء مجتمعًا إسلاميًا جديدًا على أساس قويم من الدين ، وكأن ثورته كانت ثورة إصلاح دينى لبناء دولة إسلامية كبرى تعود بالعالم الإسلامى إلى حياته الأولى : حياة التقوى والعبادة الصحيحة والأخوة فى الدين التى هى – فى رأى المهدى – أقوى من الأخوة فى الأبوين . ولم يقم المهدى فى دعوته أى اعتبار لشىء سوى الدين الحنيف ، فلا اعتبار لنزعة قومية ولا لنزعة عنصرية ، ومن أكبر الأدلة على ذلك أنه أرسل إلى الضباط الإنجليز وجنودهم منشورا يقول فيه : « إنكم إذا تدبرتم بعقولكم وتفرّستم فى قدرة خالقكم .. علمتم أن مخالفته شنيعة ، ولا ينبغى لكم إلا امتثال أمره واجتناب نهيه والهروب منه إليه .. فهيَّا إلى ذلك فإن أسلمتم فلكم أمان الله ورسوله وأمان العبد لله وتكونوا من ضمن أنصارنا » . فالمدار فى دولة المهدى إنما هو على التمسك بالدين ، ولا فرق بين عربى وغير عربى ولا بين سودانى وأوربى . ومما يدل على أن الأساس الدينى فى الدعوة كان كل شىء ما يقوله نعوم شقير فى الجزء الثالث من كتابه :

« تاريخ السودان القديم والحديث » . من أن المهدى جعل أتباعه مراتب بحسب تاريخ دخولهم فى دعوته الدينية واعتناقهم لها ، فالمرتبة الأولى لأنصاره الذين التفوا حوله قبل إعلانه المهدية ، وهم أبكاره ، والمرتبة الثانية لأنصاره الذين آزروه فى جزيرة أبا فى النيل الأبيض ، والمرتبة الثالثة لأنصاره الذين هاجروا إليه وهو فى جبل قدير بتقلى ، والمرتبة الرابعة لأنصاره الذين هاجروا إليه فى الأبيض ، ثم باقى الأنصار وهم أيضا طبقات بحسب أسبقيتهم فى اعتناق دعوته .

والمبدأ الثالث فى دعوة المهدى هو الأخذ بالبساطة فى الحياة ومطاعمها ومشاربها ونبذ ما أدخله التيار التركى والأوربى فى الحياة المادية الحضارية لأهل السودان فى العادات والمآكل والمشرب والملبس والأفراح والمآتم . وهذا المبدأ يتفق فى وضوح مع مبدأ الزهد والتقشف إزاء المتاع الدنيوى ، وقد أراد به أن يحمى البلاد من ترف الحضارات الأجنبية .

والمبدأ الرابع فى دعوة المهدى نبذ أتباعه لجميع الطرق الصوفية المنتشرة فى السودان ، وبذلك حلَّ كل الطرق الصوفية ببلاده ولم يعد لها شيوخ ولا أتباع ينتمون إليها ، ولا عاد بينها تنافس مقيت ، كل يزعم أن طريقته هى طريقة الهدى السديدة وأن الطريقة أو الطرق الأخرى ضالة انحرفت عن طريق الرشاد القويم ، وبذلك لم تعد فى السودان طريقة ولا دعوة دينية إلا دعوة المهدى وما وضعه لها من مبادىء .

ومبدأ خامس فى دعوة المهدى هو نبذ كتب النحل الدينية وكتب فقهاء المذاهب الأربعة المشهورين لأبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل وما بها من كثرة المسائل الفرعية ، مما لا يفيد فوائد مباشرة فى فهم أركان العقيدة الإسلامية ، وقد استحالت هذه الكتب على مر الزمن إلى مجلدات تلو مجلدات وشروح تلو شروح يغرق المسلم فى لججها وخضمها الزاخر ، ولا يكاد يتبين نور الدين ، إذ حجبوا عنه الكتاب والسنة ، وزجوا به فى هذا المحيط الواسع من كتب تعد بالآلاف تتناول مسائل متفرعة لا حدَّ لها ولا حصر ، ويقول من الواجب إهمالها ووضع مذهب اجتهادى جديد فى الفقه والعقيدة . ويشعر من يطلع على هذا المبدأ فى دعوة المهدى أنه ربما كان متأثرا فيه بدعوة المهدى ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين فى المغرب والأندلس إلى نبذ كتب المذاهب الفقهية الأربعة الكبرى لما بها من كثرة الفروع والعلل ، ولم يلبث خليفتاه يوسف بن عبد المؤمن وابنه يعقوب أن أحرقا أحمالا من هذه الكتب .

ومبدأ سادس هو دعوة المهدى إلى الهجرة إلى المواضع التى اتخذها مراكز لدعوته اقتداء بهجرة الرسول ﷺ وأصحابه ، وسمَّى أتباعه بالأنصار اقتداء بتسمية الرسول لأهل المدينة بالأنصار ، وحرَّم الطرق الصوفية كما أسلفنا وحرَّم على أنصاره أن يسموا أنفسهم الدراويش .

ويذكر الدكتور عبد المجيد عابدين طائفة كبيرة من السنن التى سنّها المهدى فى المجتمع السودانى ، فمن ذلك إبطال الرتب والألقاب الرسمية وغير الرسمية ، وأقام الحدود الشرعية على شارب الخمر والزانى والسارق ، وأبطل السحر وكتابة الأحجبة والصراخ على الميت ، وخفض قيمة المهر إلى عشرة ريالات وثوبين للبكر وخمسة ريالات وثوبين للثيِّب ، وجعل وليمة العرس طبقا من اللبن وآخر من البلح ، ومنع زيارة قبور الأولياء ، ووجَّه الناس إلى العناية بكتاب الله والسنة النبوية .

ودان له السودان جميعه فى يناير سنة ١٨٨٥ وأعلن الإنجليز إخلاءه ، وقُدِّرَ له أن يتوفى سريعا فى سن الحادية والأربعين بشهر يونية سنة ١٨٨٥ للميلاد فلم يرافق انتصارَه الكبيرَ ولا دعوتَه طويلا ، ولم يكن لخليفته التعايشى علمه فأخذت الدعوة المهدية تضعف وقاد كتشنر حملة مصرية فى أغسطس سنة ١٨٩٧ لفتح السودان واستطاعت فتحه والقضاء على التعايشى سنة ١٨٩٨ وقام فى السودان حكم ثنائى مصرى إنجليزى ، وعادت الطرق الصوفية إلى نشاطها قبل زمن المهدى بل ربما ازداد بعضها قوة ، وتحول أنصار المهدى إلى طائفة دينية كبيرة تواجه الطرق الصوفية .

٢

الثقافة[١]

(أ) كتاتيب – زوايا – مساجد

عرفت السودان مبكرة الكُتَّاب كما عرفته الأقاليم الإسلامية المختلفة فى كل قرية ومدينة وتجمُّع بدوى للمسلمين وقبائلهم التى نزلت السودان على مر العصور ، فكانت الكتاتيب تبنى ملحقة بالمساجد أو منفصلة أو يتخذ مسلم داره لتحفيظ القرآن الكريم الذى يعد حفظه أو على الأقل حفظ آيات كثيرة منه فريضة على كل مسلم ، ويطرد ذلك طوال الحقب الإسلامية . وعادة كان ذلك يستغرق من الصبى سبع سنوات أو تقل أو تزيد حسب قدرته على حفظ القرآن جميعه ، وكان يكتب كل يوم ما يمليه عليه الشيخ أو ما يكتبه من مصحف ، وبين يديه محبرة وعود رفيع مدبَّب يكتب به واجبه اليومى ؛ حتى إذا حفظه سمعه منه الشيخ ، وقد يسمع منه جزءًا مما حفظ من القرآن لتثبيته فى ذهنه .

(١) انظر فى الثقافة بالسودان طبقات ود ضيف الله وكتاب التربية فى السودان لعبد العزيز عبد المجيد وتاريخ الثقافة العربية فى السودان لعبد المجيد عابدين والثقافة العربية فى السودان المعاصر لمحمد فوزى مصطفى عبد الرحمن وتاريخ السودان القديم والحديث لنعوم شقير والسودان عبر القرون لمكى شبيكة ومناهج الألباب المصرية لرفاعة الطهطاوى .

وبجانب الكُتّاب كانت هناك خلوات صغرى أشبه بالكتاتيب ، وقد تكون ملحقة بالمسجد وقد تكون منفردة ، وهي أيضا لتحفيظ القرآن الكريم ، وقد يتخذها بعض المتصوفة للعبادة والنسك ، والأكثر أن تكون كتّابا ، وكانت الناشئة فى دارفور تذهب إلى الكتاتيب والخلوات فى الثلث الأخير من الليل ومعها حطب توقده ، وتأخذ فى قراءة القرآن وكتابته وحفظه على ضوء ناره ، كما يقول عمر التونسى فى الحديث عن دارفور برحلته إلى السودان ، لأن الناشئة هناك كانت تُشْغَلُ نهارا برعى الغنم والبقر .

وبعد حفظ الصبى للقرآن الكريم ينتقل إلى حلقات الدراسة بالمسجد أو بالزاوية ، وكانت الزاوية تعنى بجانب العلوم الدينية ، بدراسات التصوف وكتب الصوفية . أما المسجد فقلما يعنى بهذه الدراسات إنما يصب عنايته على علوم الشريعة وعلوم العربية وعلم الكلام والمنطق ، وعرفت السودان المسجد مبكرة ، إذ ينصّ عبدالله بن سعد بن أبى سرح فى معاهدته لأهل النوبة فى عهد الخليفة عثمان على وجود مسجد بديارهم وما يجب عليهم من رعايته وخدمته وإضاءته . وفى القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى بنى العرب القاطنون على النيل الأزرق مسجدا فى سوبا عاصمة علوة : المملكة المسيحية . ولابد أن مساجد كثيرة بُنيت مع انتشار الإسلام فى السودان وتغلغل القبائل العربية هناك . وكانت فى دارفور مساجد كثيرة ، إذ كان فى كل بلدة مسجد وقد يكون بها جامع ، وكانت الناشئة تتعلم فيه الكتابة وتتلو القرآن وتحفظه ، ولكل مسجد وجامع عالم يشرف على حفظ القرآن . ولَصْق المسجد والجامع خلوات للطلاب يحفظون فيها القرآن ويتعلمون أحيانا العلوم الشرعية ولكل مسجد وجامع مال من السلطان ينفق عليه وعلى طلابه وعلى عالمه ومدرسيه . والمسجد من قديم بجانب استخدامه لأداء الفرائض والنوافل كان يستخدم لنشر العلوم الدينية وعلوم العربية ، وكان الشيخ يجلس على رأس حلقة ، ويجلس التلاميذ من حوله فيما يشبه نصف دائرة . وليس هناك طريقة واحدة فى التعليم يلتزم بها الشيوخ فقد يملون من الذاكرة والطلاب يقيدون ما يملونه ، وقد يقرأ الشيخ – أو أحد طلابه – فقرة فى كتاب ثم يتناولها بالشرح والتوضيح ، وقد يلقى على طلابه محاضرة مكتوبة .

(ب) حركة علمية نشيطة فى عهد الفونج

تظهر فى السودان حركة علمية نشيطة طوال عهد دولة الفونج ، وقد أرّخ لها ود ضيف الله المتوفى سنة ١٢٢٤ هـ/١٨١٠ م فى كتابه الطبقات فى خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء فى السودان ، وفيه ترجم لأكثر من مائتين وخمسين من أعلام الشريعة والعربية والتصوف ، وذكرناه مرارا وتكرارا فى حديثنا عن المجتمع السودانى وما ساد فيه من نزعة صوفية ، وبالمثل يمدنا بمعلومات كثيرة عن الدراسات الدينية وما نزل

ديار السودان من علماء العالم الإسلامى ومن السودانيين الذين درسوا فى الأزهر بالقاهرة وفى مكة والمدينة .

وكانت الطريقة المتبعة لتخريج الطالب إذْنُ شيخه له برواية ما سمعه منه ، وقد يكتب إجازة له فى نهاية المصنف الذى أذن له بروايته ، وقد يفردها ، وكانت هذه الإجازة تقوم مقام الشهادة النهائية التى يظفر بها الطالب فى عصرنا . ويسوق ود ضيف الله صورة إجازة منحها الشيخ على الأجهورى شيخ الإسلام بالقاهرة للشيخ عبد الرحمن بن إبراهيم السودانى كتبها بخطه ، ويقول فيها بعد حمد الله والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم : « قرأ علىّ الشاب الفاضل والنحرير الكامل الشيخ عبد الرحمن بن إبراهيم الكباببى نسبا البربرى بلدا عقيدتى التى ألفتها فى أصول الدين والتصوف وشَرْحها قراءة جيدة نافعة إن شاء الله ، وحضر قراءتى فى مختصر العلامة الشيخ خليل فى فقه المالكية فى نحو نصف الكتاب المذكور قراءة بحث وتحقيق دلت على نباهته وفقهه بالكتاب المذكور . وقد استخرت الله وأجزته بما ذُكر وبجميع ما يجوز لى روايته بشرطه سائلا منه أن لا ينسانى من الدعاء بسعادة الدارين .. وكتب فى آخر ذى الحجة ختام سنة ثلاثين بعد الألف » . ويلى ذلك إمضاء الشيخ على بن محمد المدعو بزين بن عبد الرحمن الأجهورى المالكى .

وكان ملوك الفونج ونوابهم فى الولايات كالشيخ عجيب فى العبدلاّب وولاة علوة يغدقون على العلماء . ووثّق الملوك العلاقة بينهم وبين علماء الأزهر بما كانوا يرسلون إليهم من هدايا ، واشتهر الملك بادى الأول (١٠١٩ هـ/١٦١١ م - ١٠٢٤ هـ/١٦١٦) بكثرة ما كان يرسله إليهم من هدايا مع سفيره أحمد علوان ، وأهدوه بدورهم قصائد مديح متعددة ، أنشد منها نعوم شقير فى الجزء الثانى من كتابه « تاريخ السودان القديم والحديث » قصيدة للشيخ عمر المغربى . وكان الشيخ عجيب شديد العناية بالعلماء فى إمارته ، وتشجيعا لطلاب مشيخته وطلاب دولة الفونج والسودانيين عامة حبَّب إليهم أن يرحلوا فى طلب العلم إلى الأزهر ، وبنى لهم فيه رواقا بجانب رواق الشام ورواق المغاربة ، وبنى لهم رواقا آخر فى المدينة لينزلوا فيه ويأخذوا العلم عن الشيوخ هناك .

(جـ) سودانيون أزهريون وعلماء مصريون

تخرج فى الأزهر لعهد دولة الفونج سودانيون كثيرون ، ومن أعلامهم الشيخ محمود العركى فى سنار العاصمة ، وكان قد رحل إلى مصر واختلف إلى شيوخ الأزهر وخاصة الشيخ شمس الدين اللقانى إمام المالكية المتوفى بالقاهرة سنة ٩٣٥ وعمل بعد عودته على نشر المذهب المالكى فى دولة الفونج ، ويقول ود ضيف الله إنه اول من نشر علوم الدين فى أنحاء النيل الأبيض إذ لم يجد فيها مدرسة علم ولا قرآن . وكان الرجل يطلق زوجته ويتزوجها غيره فى

نفس اليوم بدون العدّة الشرعية ، فأبطل تلك العادة المحرمة ، وحمل الناس على حكم الشريعة وأن تنتظر المطلقة قبل زواجها الثانى حتى توفّى عدتها . وأنشأ الخلاوى لتحفيظ القرآن الكريم وتدريس علوم الدين ، وبذلك أشبهت الخلوة عنده مدرسة ، وكان له ما بين الخرطوم وأليس الكوة خمس عشرة خلوة أو مدرسة .

وممن تخرج فى الأزهر أولاد جابر الأربعة : إبراهيم وعبد الرحمن وإسماعيل وعبد الرحيم ، درسوا على الشيخ المالكى البنوفرى تلميذ عبد الرحمن الأجهورى ، وهو بدوره تلميذ شمس الدين اللقانى ، وكانوا أيضا من أسباب انتشار المذهب المالكى فى السودان ، وخاصة إبراهيم الذى نزل جزيرة ترنج ودرّس فيها مختصر خليل ورسالة ابن أبى زيد القيروانى فى الفقه المالكى ، ويقول ود ضيف الله إنه أول من دّرس مختصر خليل ببلاد الفونج وشُدّت إليه الرحال ، ومن تلاميذه أربعون صاروا أعلاما ، منهم الشيخ الزين ولد صغيرون . وصار كثير من تلامذته شيوخاً للإسلام فى بلدان مختلفة ، ويقول ود ضيف الله : فقهاء البلاد كلها إلى دار صليح تلامذته وتلامذة تلامذته ، ومن تلامذته المشهورين الشيخ أرباب الخشن ، وكان الطلبة فى حلقته يبلغون - كما يقول ود ضيف الله - ألف طالب ونيفا من دار مملكة الفونج إلى دار مملكة برنو على نهر النيجر . وممن تتلمذ للبنوفرى فى الأزهر أستاذ إبراهيم بن جابر المار ذكره الشيخ عبد الرحمن حموتو الخطيب ورفيقه الشيخ محمد سرحان ، ويذكر ود ضيف الله أنه كان يقول « محمد يصلح للتدريس لكونه يسأل عن تحقيق نصوص المتن ، وعبد الرحمن يصلح للفتوى لكونه يسأل عن معانى الشراح ويراجع آراءهم وفتاواهم . وممن تلقى العلم فى الأزهر من أعلام السودانيين الشيخ حمد المجذوب وكان فقيها صوفيا ، ومر بنا أنه نشر الطريقة الشاذلية فى مدينة الدامر ، وظلت أسرته تقوم بعده على الطريقة الشاذلية ودراسة العلوم الدينية .

ومن العلماء السودانيين الذين تخرّجوا فى الأزهر الشيخ عمار بن عبد الحفيظ ، عُنى بأن ينهل من حلقات شيوخ العربية الأزهريين ، وعاد إلى السودان وأخذ يدرس لطلابه - كما يقول ود ضيف الله - علوم النحو واللغة والمنطق ، وتتلمذ عليه سودانيون كثيرون كان لهم دور عظيم فى نشر علوم العربية والبلاغة فى أنحاء السودان ، منهم الشيخ عبدالله بن صابون الذى اشتهر ببراعته - كما يقول ود ضيف الله - فى النحو والصرف والمعانى والبيان والبديع وعلم العروض ، وكان شاعرا ماهرا ، ومثله زميله الشيخ على ولد شاقعى ، وكان مثله شاعرا مجيدا .

وكثيرون من علماء مصر البررة رحلوا إلى السودان لتعليم السودانيين شريعة الإسلام وممن ندب نفسه لهذه المهمة - كما يقول ود ضيف الله - محمد بن على بن قدم الكيمانى تلميذ الخطيب الشربينى إمام الشافعية بمصر المتوفى سنة ٩٧٧ هـ/١٥٧٠ م استوطن مدينة بربر إلى

أن توفى بها ، وقد درس عليه شيوخ كثيرون أخذوا عنه علم الفرائض والفقه الشافعي من مثل الشيخ عبدالله العركى والقاضى دشين الشافعى وإبراهيم بن عبودى الذى اشتهر ببراعته فى تدريسه لعلم الفرائض أو المواريث وفيه ألّفَ حاشيته المعروفة باسم الفرضية . ولم يكتب لفقه المذهب الشافعى أن يعم فى السودان ، إنما الذى عم فيه فقه المذهب المالكى للفقهاء المالكية الذين ذكرناهم ممن تلقوا المذهب عن أئمته فى مصر ، ولأن نزلاء السودان من الحجاز والكانم والبرنو وغربيهما ومن الليبيين والتونسيين والمغاربة فى حجهم وتجارتهم كانوا مالكية . فالمذهب المالكى هو الذى شاع وانتشر فقهاؤه بالسودان لعصر دولة الفونج .

ومن كبار فقهاء المالكية المصريين الأزهريين الذين رحلوا إلى السودان فى عصر الفونج الشيخ محمد القناوى تلميذ الزرقانى الإمام المالكى الكبير استوطن مدينة بربر بين ديار الشايقية فى الشمال ثم جزيرة سنار فى الجنوب لأوائل النصف الثانى من القرن العاشر الهجرى ، وبنى فيها مسجده ودرّس فيه رسالة ابن أبى زيد الفقيه القيروانى والعقائد (فى التوحيد) وعلم النحو وسائر العلوم ، وولى القضاء فنهض به فى عفة ونزاهة » ومن أحفاده الشيخ محمد إكداوى نزيل مدينة شندى جنوبى مدينتى بربر وعطبره ، وفيها درّس فى الفقه المالكى رسالة ابن أبى زيد القيروانى مثل جده ، ودرّس النحو وعلم الكلام وعلم الأصول والمنطق ، وكان يجتمع فى حلقته طلاب كثيرون . ومن فقهاء مصر المالكية هناك الشيخ حامد اللين وكان يشتغل بتدريس رسالة ابن أبى زيد القيروانى فى الفقة المالكى ، كما كان يشتغل بتدريس العقائد وعلم التوحيد ، وهو أول من أحضر شرح الزرقانى على مختصر خليل وبالمثل شرح الشبرخيتى المالكى على متن العشماوية .

ومن كبار العلماء المصريين الذين نزلوا السودان واستوطنوا مدينة بربر فيه الشيخ محمد المصرى الذى عنى بدراسة علم التوحيد أو علم الكلام حتى وفاته سنة ١٠٩٥ هـ/١٦٨٤ م وكان محمد بن يوسف السنوسى الجزائرى المتوفى سنة ٨٩٥ هـ/ ١٤٩٠ م ألف فى علم التوحيد أو الكلام ثلاثة أعمال : العقيدة الكبرى وشرحها والعقيدة الوسطى وشرحها والعقيدة الصغرى وشرحها ، وسيطرت هذه الأعمال فى مباحث علم التوحيد أو الكلام على الباحثين منذ وضعها لا فى الجزائر وحدها بل فى بلاد المغرب ومصر والعالم الإسلامى . وكان الشيخ محمد المصرى يدرس علم التوحيد للشباب السودانى من خلال هذه الأعمال ويفيض فى شرحها ، ويقول ود ضيف الله إن له كتبا شأنها أن تكتب بماء الذهب ، منها شرح للعقيدة الوسطى للسنوسى ، وشرح للعقيدة الصغرى ، وكان السنوسى قد اختصر الصغرى وسماها أم البراهين فشرحها . وكان الشاعر أحمد بن عبد الله الجزائرى فى عصر السنوسى ألف فى العقيدة قصيدة فشرحها وشاعت باسم الجزائرية ، ونجد محمدًا المصرى يشرحها أيضا – كما يقول ود ضيف الله –

ويشرح الأجرومية فى النحو . ولتلميذه الشيخ مكى النحوى الرباطابى شرحان على السنوسية : كبير وصغير .

وما حدث بين الطلاب السودانيين وانتظامهم فى الأزهر للتعليم وانتداب بعض خريجى الأزهر من المصريين أنفسهم لنشر الثقافة الدينية في ربوع السودان حدث ما يماثله أو يقرب منه بين السودان والحجاز ، فقد كان للسودانيين رواق في المدينة تنفق الدولة على من ينزل فيه للأخذ عن الشيوخ هناك ، وممن نزله من السودان الشيخ محمد بن عدلان الذى تتلمذ للشيخ عبدالله المغربى هناك ، وعاد إلى أرض الجزيرة فى السودان ، ودرّس للناس علم الكلام من خلال كتب السنوسى التى ذكرناها آنفا ، ويقول ود ضيف الله إن مدار علم الكلام فى دار الجزيرة أو إقليمها على طلبته وتلامذة طلبته . ويذكر ود ضيف الله عن شيخ سودانى يسمى عمار بن شايقى أنه قرأ في مكة علوم العربية . ويلم ود ضيف الله بأسماء علماء اليمن الذين نزلوا فى السودان واستوطنوه مثل الفقيهين حمد ولد زروق والشيخ جبارة . ويذكر ود ضيف الله طائفة من علماء المغرب الذين نزلوا فى السودان غير أنه لا يتوقف إزاءهم طويلا لنعرف ما الذى كانوا يدرّسونه للطلاب فيما عدا التلمسانى ، إذ يقول إنه درّس لطلابه علم الكلام وعلوم القرآن وتجويده وترتيله . ونظن ظنا أن التلمسانى كان أحد من أشاعوا قراءة ورش المصرى فى دارفور وكردفان ، إذ كانت مصر قد هجرتها من قديم وتمسكت بها البلاد المغربية والأندلس ، وشاعت فيما بعد بالسودان الغربى وبرنو والكانم ، فشيوعها فى السودان إنما هو عن طريق من نزلها من المغاربة أمثال التلمسانى .

وحرى بنا أن نذكر مؤرخين سودانيين مهمين هما ود ضيف الله أو محمد بن ضيف الله الجعلى المتوفى سنة ١٢٢٤ هـ/١٨١٠ م صاحب كتاب الطبقات فى خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء فى السودان وهو كتاب نفيس ترجم فيه - كما ذكرنا - لنحو مائتين وخمسين صوفيا وعالما وشاعرا فى عصر دولة الفونج بسنار ، ولأهميته طبع أكثر من مرة ، وعليه اعتمدت فى دراسة الحياة الصوفية والعلمية أيام الفونج وبالمثل الحياة الاجتماعية وخاصة عن المرأة . ويلى هذا المؤرخ وكتابه فى الأهمية كتاب الشيخ أحمد كاتب الشونة - والمراد بالشونة مخزن الغلال - وهو فى تاريخ السلطنة السنارية والإدارة المصرية ويبدو أنه كان موظفا فى تلك الإدارة ، فأرّخ لدولة الفونج فى سنار وللإدارة المصرية فى الخرطوم والسودان .

ولعل فى كل ما قدمت ما يدل على أن دولة الفونج أحدثت فى السودان نهضة علمية حقيقية كان عمادها القرآن الكريم وترتيله وقراءته وتفسيره والحديث النبوى والفقه وما يتصل به من علم الأصول والعربية بعلومها المختلفة . غير أن الدولة ضعفت فى عهدها الأخير مما أتاح لمحمد على ضم السودان إلى مصر ، واستحالت الخرطوم إلى مدينة كبيرة ، وأصبحت عاصمة

للبلاد ، وعرف أن السودانيين شعب متدين ويعتنق مناهج كثير من الطرق الصوفية ، فشجع أصحاب الطرق الصوفية بالقاهرة على النزول به ، وأرسل مع الجيش الذى وجَّه به إلى السودان ثلاثة من صفوة العلماء ، وهم القاضى محمد الأسيوطى الحنفى والشيخ أحمد البقلى الشافعى والشيخ أحمد السلاوى المالكى « ليكون - كما يقول الدكتور عبد العزيز عبد المجيد - لكل مذهب من المذاهب الفقهية الشائعة شيخ يشرف على شئونه ، وحتى لا يُجبَر معتنق مذهب (فقهى) على أن يلجأ فى الفتاوى والأحكام إلى شيخ من غير مذهبه » . وشجع محمد على علماء الأزهر على الهجرة إلى السودان خدمة للشريعة الإسلامية هناك ، وفتح أبواب الأزهر على مصاريعها للطلاب السودانيين ورُتبت لرواق السناريين جراية أو بعبارة أخرى خبز لهم ، وأنشىء رواق لأهل دنقلة ورواق لأهل دارفور ورواق لأهل صليح . وفى أواخر عهد محمد على سنة ١٨٤٧ للميلاد أنشىء الجامع العتيق بالخرطوم ، وأريد به أن يكون مثل الأزهر جامعا لأداء فرائض الصلاة ومعهدا دينيا كبيرا يدرِّس فيه جِلّة من العلماء ، وممن ألقى دروسه ومحاضراته الدينية فيه الشيخ إبراهيم عبد الدافع مفتى الديار السودانية والشيخ الأمين الضرير والشيخ شاكر المفتى والشيخ مصطفى السلاوى والسيد حسين المجدى والشريف المحروقى الشاذلى. ولابد أن نشير إلى أن مصر جعلت المذهب الحنفى للمذهب الرسمى للدولة وعلى رأس المحاكم الشرعية قاضياً حنفيا، وعادة يكون مصريا وظل ذلك فى عهد الفترة المهدوية وبعدها إلى سنة ١٩٤٧ للميلاد.

(د) التعليم المدنى الحديث وتوقفه

أخذت تنشأ فى عهد محمد على بالسودان مدن جديدة مثل الخرطوم وبعض مستشفيات ومنشئات عصرية ، وهاجر بعض الطلاب السودانيين إلى القاهرة ليلتحق بالمدارس والمعاهد الجديدة . ويذكر رفاعة الطهطاوى فى كتابه مناهج الألباب المصرية أن محمد على اختار طائفة من ناشئتهم أدخلهم فى المدارس المصرية ليتعلموا مبادىء العلوم ، ثم نقلهم إلى مكتب الزراعة ثم إلى مدرسة الألسن ، وكان قصده من ذلك أن يتذوقوا طعم المعارف التمدنية ، حتى إذا عادوا إلى السودان نشروها فى بلادهم . ويذكر الدكتور عبد العزيز عبد المجيد أن بعثة من الطلاب السودانيين تتألف من مائة طالب سافرو إلى مصر والتحقوا بمدرسة المبتديان .

وإذا صحَّ ذلك تكون مصر قد أخذت بيد السودان لتنهض فيه سريعا نهضة علمية مثل نهضتها ، ومع ذلك لا يذكر لمحمد على أنه أقام مدرسة نظامية فى السودان . وأول مدرسة تنشأ فيه أقامها خليفته عباس إذ أنشأ فيه مدرسة ابتدائية فى الخرطوم وجعل ناظرها رفاعة رافع الطهطاوى ، ونراه فى كتابه مناهج الألباب المصرية يشيد بالسودانيين وملكاتهم الخصبة وحسن استعدادهم للتمدن وللعلم والتعلم ، يقول :

« إن للسودانيين قابلية للتمدن الحقيقى لدقة أذهانهم ، فإن أكثرهم قبائل عربية ، يدل على

ذلك اشتغالهم بما ألفوه من العلوم الشرعية عن رغبة واجتهاد ، ولهم مآثر عظيمة فى حسن التعلم والتعليم حتى إن البلدة إذا كان بها عالم شهير يرحل إليه من البلاد المجاورة من طلبة العلم العدد الكثير والجم الغفير ، فيعينه أهل بلدته على ذلك بتوزيع الطلبة على البيوت بحسب الاستطاعة ، فكل واحد من الأهالى يخصه واحد أو اثنان ويقومون بشئونهم مدة التعلم والتعليم » . ويبدو أن هذه الطريقة كانت قديمة منذ عهد دولة الفونج .

وولى سعيد قصير النظر بعد عباس فأغلق المدرسة ، وتولى بعده إسماعيل سنة ١٢٧٩ هـ/١٨٦٣ م فعيَّن موسى باشا حمدى حكمدارا للسودان وأمره بإنشاء خمس مدارس فى عواصم المديريات : الخرطوم وبربر والأبيض وكسلا ودنقلة ، وفتحت كل مدرسة أبوابها لاستقبال مائة تلميذ كى يحصِّلوا – كما يقول الدكتور عبد العزيز عبد المجيد – العلوم والفنون النافعة ، وأنشئت مدرسة سادسة فى سواكن . وأخذت – بعد ذلك – بعض الإرساليات التبشيرية تنشىء مدارس لها فى الخرطوم . وكان لهذه المدارس جميعا أثر واسع فى نشر الثقافة الحديثة بالسودان ، إذ كانت تتأثر بالحضارة الغربية والأفكار الأوربية .

وليس كل ما بين هذا التعليم الحديث فى السودان وبين التعليم القديم فى الخلوات والزوايا والمساجد من فروق تأثره بما فى الغرب من حضارة وأفكار فإنه قام على مناهج محددة فى كل سنة لكل علم ، وعلى مقررات واضحة فى كل مادة مع العناية بتعلم لغة أجنبية ، بخلاف التعليم القديم ، فليس فيه مناهج محددة وليس فيه انتقال من صف إلى صف ، مما يقتضى تدرج التعليم ، بحيث يكون لكل علم فى كل سنة مادة علمية تتلاءم مع سن الناشىء من الوجهة التربوية السديدة .

وعيَّن إسماعيل جعفر مظهر بعد موسى حمدى حكمدارا سنة ١٨٧٣ ، وكان مثقفا ثقافة واسعة بالعلوم الدينية والأدبية ، فبثَّ فى مسائلها جميعا نشاطا واسعا ، إذ فتح مجالسه للعلماء والأدباء يتحاورون معه ويتحاور بعضهم مع بعض فى المسائل العلمية والأدبية ، وأحدث ذلك فى الخرطوم والسودان حركة علمية وأدبية خصبة وأخذ بعض الشعراء ينشرون قصائدهم فى الوقائع المصرية وكانت حينئذ جريدة مصر الكبرى . وبينما الحركة الثقافية الحديثة تنشط هذا النشاط وبينما المدارس الحديثة تخرِّج للإدارة السودانية كل ما تحتاج إليه من الكتاب والمحاسبين وعمال التلغراف والموانىء إذا المهدى يقوم بثورته التى مرت بنا فيغلق كل المدارس ، وينهى عن التعلق بأى صورة من صور الحضارة المادية الأوربية والتركية فى المآكل والملبس والأفراح والأحزان ، فأنصاره ينبغى أن يرفضوا كل ما دخل على حياتهم من حضارة الغرب والترك ويعودوا إلى حياة الفطرة الأولى الإسلامية الخالصة . وبذلك ظلت السودان فى أيامه منذ سنة

١٨٨١ وأيام خليفته التعايشى منذ سنة ١٨٨٥ حتى نهاية أيامه سنة ١٨٩٨ بعيدة عن كل تعليم حديث أو ثقافة حديثة تشوبها الحضارة الأوربية والتركية .

وبانتهاء العهد المهدوى وقيام الحكم الثنائى المصرى الإنجليزى فى السودان عادت الطرق الصوفية إلى نشاطها محاولة بكل ما تستطيع أن تسترد مكانتها التى كانت قد فقدتها . وأصبحت من حينئذ جماعة الأنصار المعتنقين للدعوة المهدية طائفة دينية تقف فى مواجهة الطوائف الصوفية . وعاد مع الطوائف الصوفية تعليم الخلوة والمسجد والزاوية والتحق بعض السودانيين بالتعليم الدينى فى الأزهر .

(هـ) إنشاء معهد دينى وعودة التعليم المدنى الحديث

أنشىء فى جامع أم درمان سنة ١٩٠١ معهد دينى لتدريس العلوم الدينية وعلوم العربية ، وفى سنة ١٩١٢ بُنى له مبنىً مستقل بجوار مسجد جديد بأم درمان ، ووُضعت له نظم ومناهج كنظم ومناهج الأزهر ، وجُعل التعليم فيه على ثلاث مراحل وكل مرحلة أربع سنوات ومع كل مرحلة شهادة ، وهى مرحلة أولى ومعها الشهادة الأولية ، ومرحلة وسطى أو ثانوية ومعها الشهادة الأهلية ، ومرحلة عليا ومعها الشهادة العالمية ، مثل الأزهر تماما ، وتفرعت من هذا المعهد معاهد أخرى فى المدن الرئيسية .

وكان لهذا المعهد أثر بعيد فى السودان إذ أخذ يزداد عدد خريجيه من حملة شهادة العالمية ، وعُيِّن كثيرون منهم مدرسين فى وزارة أو مصلحة المعارف وسَدّوا حاجة المدارس الأهلية إلى معلمين للناشئة يدرسون لهم الدين والعربية ، كما سدوا حاجة المديريات من المعلمين فى معاهدها الإقليمية . ولم يكن فى السودان من المدارس النظامية سنة ١٨٩٩ سوى مدرستين حكوميتين وبعض المدارس القروية ، فعمل الحكم الثنائى المصرى الإنجليزى الجديد على إنشاء مدارس أولية ووسطى فنية ، وتأخر إنشاء مدارس للبنات ، وفى سنة ١٩١١ افتتح الشيخ بابكر البدرى المربى السودانى الفاضل مدرسة للبنات فى منطقة رفاعة بالجزيرة ، وأدخل فيها كريماته واقتدت به بعض الأسر ، فأدخلت معهن كريماتهن ، وأخذت مدارس البنات تزداد ، حتى بلغت فى آخر هذا العصر سنة ١٩٢٣ خمسا . ومنذ أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحاضر أخذت الإرساليات التبشيرية تنشط فى فتح المدارس .

وكان أهم حدث فى التعليم المدنى إنشاء كلية غوردون ، وكان كتشنر أول حاكم عام للسودان جمع من السودانيين تبرعات لإنشاء كلية لذكرى غوردون وبلغت – كما أسلفنا – نحو مائة ألف جنيه ، ووضع الحجر الأساسى لها سنة ١٨٩٩ ورُوِّى – فى أول الأمر – أن لا يتعدى التدريس فيها المرحلة الابتدائية ، وافتتحت فى أكتوبر سنة ١٩٠٣ وتقدم لها مائة

وخمسون تلميذا بينهم من المصريين والشاميين ٥٨ والباقون سودانيون ، وفى سنة ١٩٠٥ أنشىء بها قسم ثانوى ، مدته أربع سنوات ، مع دراسات خاصة لتخريج المدرسين والمترجمين والمهندسين والقضاة الشرعيين .

وأخذت تنشأ في الخرطوم والسودان مدارس حكومية وغير حكومية تعنى بالتعليم الحديث وتزويد الطلاب السودانيين بتعلم اللغة الإنجليزية ، ويذكر الدكتور عبد المجيد عابدين عن محمد أحمد محجوب أحد الخريجين الأوائل من كلية غوردون قوله : « لم يكن بد من انتشار آداب اللغة الإنجليزية بين جمهرة المتعلمين من شباب السودان ، وساعد على ذلك نشاط المطبعة الإنجليزية وكثرة إنتاجها فى شتى الفنون والعلوم وفى كثير من أغراض الحياة العامة » .

ولابد أن نلاحظ أنه بجانب عمل المدارس وكلية غوردون فى نشر الثقافة الحديثة أخذ المعهد الدينى فى أم درمان يتسع بالثقافة الدينية الإسلامية ، وتخرج فيه كثيرون عنوا بالأدب العربى وإنماء دراسته فى السودان . ونشط الفكر السودانى بعامة وأخذت ترتسم أمامه مثل عليا فى الحياة والاجتماع ، وتأسس بأخرة من هذا العصر سنة ١٩١٨ بأم درمان ناد للخريجين يمثل الطبقة المثقفة فى السودان ، وأخذ الخطباء يعتلون منابره معبرين عن وعى جديد بشئون الأمة السودانية ومصالحها وشئون السياسة والفكر والثقافة ، وأخذ غير واحد ينادى بالإصلاح الاجتماعى والسياسى ، مما أعدَّ لثورة سنة ١٩٢٤ وهى – فى رأينا – تعد بدء العصر الحديث فى السودان .

الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

١

تعرُّب(١) السودان

عرف السودان الجنس العربى قبل الإسلام بعدة قرون عن طريق التبادل التجارى بين الجزيرة العربية والشاطئ الإفريقى ، ويُظَنُّ أن بعض ملوك حمير استولى على أجزاء من هذا الشاطئ أو من أرض الحبشة ، وتؤكد هجرة المسلمين فى بدء الدعوة الإسلامية من مكة إلى الحبشة أن أهل الحجاز كانوا يعرفون الشاطئ المقابل وسكانه من الحبشة والسودان . ولكن ليس هذا هو التعرب الذى نريده ، فنحن لا نريد معرفتهم بالجنس العربى ومتى بدأت ، إنما نريد تكلمهم بالعربية ومتى أصبحوا يُعَدّون شعبا عربيا ، ولم يحدث ذلك إلا بعد إسلامهم وبعد هجرة قبائل عربية كثيرة إليهم .

وكان أول احتكاك بين العرب المسلمين وأهل السودان فى عهد الخليفة عثمان إذ أرسل إليه واليه على مصر : عبد الله بن سعد بن أبى سرح سنة ٣١ هـ/٦٥١ م حملة تغلغلت فى مملكة مقرة الشمالية إلى عاصمتها دنقلة وكانت دولة مسيحية أدخلتها مصر قديما فى الدين المسيحى مثل مملكة علوة جنوبيها والحبشة. وانتصر الجيش المصرى انتصارا حاسما وعقدت بين مصر ومقرة معاهدة كان من بنودها صيانة المسجد الذى بناه المسلمون بدنقلة وخِدْمته وإضاءة السراج فيه ليلا . ونسمع عن عشائر من قبيلة بلِيّ وجهينة نزلت فى قبائل البجَّة شرقى السودان ، وبالمثل عبرت عشائر من هوازن البحر الأحمر إليها . ويحدث أن تُغير قبائل البجَّة على أسوان فى عهد المأمون فيرسل إليها حملة تقهرها وتعقد معها معاهدة تنصُّ على أن لا تهدم البجَّة شيئا من المساجد التى بناها المسلمون فى سائر ديارها طولا وعرضا . وبذلك فُتحت الأبواب على مصاريعها لنزول القبائل العربية بين أهل البجَّة ، ونزحت إليها عشائر كثيرة من قبيلة ربيعة

---

(١) انظر فى تعرب السودان ما كتبناه فى الفصل الأول عن السودان فى العصور الإسلامية ودولة الفونج ، وكتاب تاريخ الثقافة العربية فى السودان للدكتور عبد المجيد عابدين ص ٩ — ٢٦ وتاريخ السودان القديم والحديث لنعوم شقير ودائرة المعارف الإسلامية وكتاب العربية فى السودان للشيخ عبد الله عبد الرحمن الأمين ويعرض بالتفصيل دخول العرب فى السودان على مر التاريخ والطرق التى سلكوها إليه وما شاع فى السودان من العادات العربية وأمثال العرب ولغتهم .

عملت فى مناجم الذهب بوادى العلاقى الممتد من أسوان إلى عيذاب ، واستطاعوا أن يدخلوا فى الإسلام من البجة عشائر معروفة باسم الحدارب ، ويقول المسعودى هم وحدهم الفئة المسلمة فى البجة لزمنه سنة ٣٢٤ هـ/٩٣٥ م ويدل على كثرتهم أن أحد زعماء ربيعة هناك بشر بن إسحق كان يركب فى ثلاثة آلاف من ربيعة وأحلافها من مضر واليمن وثلاثين ألفا من مقاتلة البجّة وكلهم من الحدارب . وكانت لغة أهل البجة حاميًّة وتسمى التبداوية ، وكانوا ينتشرون من عيذاب إلى كسلا ، وأخذ الإسلام – ومعه العربية – ينتشر بينهم مع مر الزمن ، ودخلت لغتهم من العربية ألفاظ كثيرة ، ولا يزال بعض البجاويين وخاصة فى الغرب يحتفظون بالتبداوية مع تكلمهم بالعربية ، يقول نعوم شقير عن قاطنى « سواكن » من البجة إنهم يتكلمون البجاوية فى منازلهم ومجالسهم الخاصة، ولكنهم فى المجالس العامة يتكلمون العربية.

وظلت مملكة مقرة النوبية المسيحية تقاوم الإسلام والعروبة قرونا ، وتُغير على ميناء عيذاب المصرى وأسوان فى عهد الظاهر بيبرس ، فيرسل إليها حملة تأديبية ، وتتغلغل فى ديارها حتى دنقلة ، ويفرض عليها ولاءها لمصر وأن يكون ملكها نائبا فى النوبة عن بيبرس ، ويولّى عليها نائبا له ملكا مسيحيا من أهلها وتظل تحاول الاستقلال عن مصر فى عهد قلاوون وتتطور الظروف فى عهد ابنه الناصر ويولّى عليها سنة ٧١٦ هـ/١٣١٦ م ملكا مسلما من نفس الأسرة المالكة . وسرعان ما استولت على مملكة مقرة النوبية قبيلة ربيعة ونشرت بها الإسلام وبذلك انمحت مملكة النوبة المسيحية نهائيا ، وظلت مملكة علوة المسيحية جنوبيها تحاول مقاومة النفوذ الإسلامى إلى أن قضت عليها نهائيا دولة الفونج الإسلامية . ومعروف أن اللغة النوبية إحدى اللغات الحامية فى السودان . ولا يزال أهل بعض مناطقها يستخدمونها فى حياتهم اليومية ، ودخلها كثير من الألفاظ العربية حتى لتبلغ كما يقول الدكتور عبد المجيد عابدين ثلاثين فى المائة من مجموع ألفاظها وكانوا يستعملون معها العربية .

وعوامل متعددة جعلت غربى السودان يعتنق الإسلام ، منها نزول تجار مملكة البرنو والكانم الإسلامية فى أسواق دارفور وكردفان ، ومنها مرور حجاجهم بتلك المنطقة ورؤيتهم لهم وهم يفرشون سجاجيدهم ويصلون داعين الله أدعيات مختلفة ، ومنها هجرة كتلة ضخمة من قبيلة زوارة المغربية المسلمة ومن عرب الشاوية (رعاة الشاة) إلى إقليمى دارفور ووادای فى القرن الخامس الهجرى ، وقد كونوا مملكة إسلامية كبيرة ، كان من ملوكها الملك سليمان وشملت مملكته الكانم ووادای وشطرا كبيرا من دارفور . وكانت تسود فى الغرب لغات حامية وبربرية على ألسنة المهاجرين إلى الغرب من زوارة وعربية على ألسنة الشاوية ونوبية على ألسنة التنجور المهاجرين من دنقلة إلى دارفور . واختلف أهل الغرب ، منهم من يتكلم العربية إلى جانب لغته الأصلية : البربرية أو النوبية أو الحامية بجانب العربية ، ومنهم من يتكلم العربية وحدها مثل سكان قبيلة القمر إلا ما كان من جماعة أبى جوخة .

وواضح أننا لا نصل إلى القرن العاشر الهجرى إلا وقد أخذت أجزاء من السودان تتعرب نهائيا مثل حدارب البجة ، وأجزاء أخرى أخذت تضيف العربية إلى لغتها الأصلية كما فى البجة والنوبة وبعض جوانب الغرب فى دارفور ، ما عدا سكان قبيلة القمر فإنهم تكلموا العربية ونسوا لغتهم الأصلية . وتؤسس دولة الفونج فى سنار سنة ٩١٠ هـ/١٥٠٤ م وتعلن أنها دولة إسلامية فى نظمها السياسية والإدارية وأن العربية لغتها الرسمية وكتبت بها وثائقها ، وشجعت العلماء على تدريس الفقه والعلوم الإسلامية والعربية وأخذت تحدث نهضة علمية فى بلادها التى امتدت شمالا حتى الشلال الثالث وشرقا حتى حدود الحبشة والبحر الأحمر وغربا حتى بعض مناطق كردفان وجنوبا حتى منطقة نهر السوباط وبحر الغزال ، فكل هذه المناطق عمت فيها دولة عربية إسلامية – هى دولة الفونج – لمدة ثلاثة قرون ، بحيث نستطيع أن نقول إن السودان تعرَّب فى عهد هذه الدولة . ومرَّ بنا ما كان بها من طرق وتجمعات صوفية وما كان بها من نهضة ثقافية ، وتأسست فى جبال النوبا غربى السودان الأوسط مملكة تقلى سنة ٩٧٧ هـ/١٥٧٠ م وظلت إلى أواخر القرن التاسع عشر وقد عملت بقوة على إتاحة الفرصة للعناصر العربية بالتوغل فى الشمال الشرقى من تلك الجبال ، ووضعت نصب عينيها نشر الإسلام والعربية وشجعت القبائل العربية فى حوض النيل وشرقى السودان على الهجرة إليها . وتأسست فى دارفور سلطنة أسستها قبائل التنجور القادمة من بلاد النوبة وقبائل الكنجارة القادمة من إقليم بحيرة تشاد ، ويبدو أنهم كانوا من عرب الهلالية الذين اكتسحوا تونس فى القرن الخامس الهجرى إذ كانوا ينتسبون إلى أبى زيد الهلالى . وقامت هذه السلطنة سنة ١٠٤٦ هـ/١٦٣٧ م وظلت حتى سنة ١٢٩١ هـ/١٨٧٥ م وتبعتها واداى وبرنو فى عهد ملكها الأول سليمان سلونج ، وعملت هذه المملكة طوال عهدها على نشر الإسلام والعربية ، ومثلها كردفان . وكان بدوى أبو صفية يأتى ببعض أهل جبال النوبا إلى مدينة الأبيض ، فيحفظهم القرآن الكريم والضرورى من الفقه وعلم التوحيد ، ويعيدهم إلى بلادهم لنشر الإسلام .

ويمكن القول بأننا لا نصل إلى أواخر عهد دولة الفونج فى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى إلا وقد تعرَّب السودان ، ما عدا بعض الجبال الشاهقة المنعزلة التى لم يتح للقبائل العربية الاختلاط بسكانها مثل جبل مرة فى أقصى الغرب وما عدا سكان قبيلة الأمرأر من قبائل البجة بجوار الحبشة لوعورة المسالك إليها مما جعلها تتأخر فى التعرب بالقياس إلى أخواتها من قبائل البجة . ووصل التعرب إلى بيئة الغابات فى الجنوب عن طريق بعض القبائل العربية مثل البقارة فى كردفان وبنى سليم عند كاكا على النيل الأبيض ، ولهم فضل تعرب الشلك ومثل اختلاط عرب الزريقات بقبائل الدينكا فى بحر العرب . وأكثر أجزاء هذا التعرب كانت تستخدم لغاتها المحلية بجانب العربية ، وأخذ هذا التعرب يستقر ويتسع مع مر الزمن طوال القرن التاسع عشر .

٢

شعراء المديح

من يقرأ كتاب الطبقات لودضيف الله يعرف أن الشعراء كانوا يكثرون من مديح ملوك الفونج منذ قامت دولتهم فى سنار ، غير أن مدائحهم لم تكن من الجودة بحيث نستطيع عرض نماذج كثيرة منها ، ونجد الشيخ الصوفى فرح ودتكتوك المتوفى سنة ١٠١٧ هـ/١٦٠٩ م بعد قيام دولتهم بنحو قرن ينعى على الشعراء فى عهده وقوفهم المتكرر على أبواب ملوك الفونج أو سلاطينهم يستمنحونهم الهبات والعطايا قائلا(١) :

يا واقفًا عند أبواب السلاطين ... ارفقْ بنفسك من همٍّ وتحزينِ

إن كنت تطلب عزًّا لافناء له ... فلا تقفْ عند أبواب السلاطين

خَلِّ الملوك بدنياهم وما جمعوا ... وقم بدينك من فــرضٍ ومَسْنونِ

اسْتَغْنِ بالله عن دنيا الملوك كما اسْـ ... ـتَغْنى الملوك بدنياهــم عن الدِّين

والشيخ فرح ود تكتوك ينهى الشعراء عن الوقوف بأبواب السلاطين انتظارا لأعطياتهم ويقول لهم : رفقا بأنفسكم وما تحمِّلونها من هم الانتظار لتلك الأعطيات ، ومن يطلب العز الخالد لا يقف بتلك الأبواب إنما يقف بباب ربه ، تاركا للملوك دنياهم وما جمعوا مع أداء فروض دينه ونوافله ، مستغنيا بالله وما يرزقه عن دنيا الملوك كما استغنوا هم بدنياهم ومتاعها عن الدين . وقد أخذ شعر المديح يكثر فى السودان منذ القرن التاسع عشر الميلادى ، وكان لثورة المهدى الحظ الأوفر فيه ، فقد حقق للسودان استقلالا وانتصارات متعددة وكأنما أعاد إليها الروح التى كانت فقدتها وجعلها تشعر بشخصيتها فى عمق ، مما جعل كثيرين من الشعراء يتغنون بمديحه وانتصارات جيوشه بائين فى ذلك غير قليل من الحماسة الملتهبة مشيرين إلى دعوته الدينية وأنه يأخذ فيها بهدى القرآن والسنة النبوية من مثل قول عبد الغنى السلاوى قاضى دنقلة(٢) :

ما هَدْيُه غير الكتاب وسنَّةٍ ... والتاركون لذاكَ هم كُفَراءُ

أجْلَى الصَّدا وأزاح أنواع الرَّدَى ... وسمتْ به فوق السَّما علياءُ

أمستْ بهِ آثــارُ طَهَ ونورُها ... يعلو ولا يعلو عليه سناءُ

فالمجــدُ فيــه مؤثَّلٌ والفضل مِنْـ ... ـه مؤمَّلٌ والنــاس فيــه سواءُ

---

(١) انظر طبقات ود ضيف الله (طبع صديق) ص ١٥ وشعراء السودان جمع سعد ميخائيل (طبع القاهرة) ص ٢٦٠ .

(٢) نفثات اليراع فى الأدب والتاريخ والاجتماع لمحمد عبد الرحيم (طبع الخرطوم) ص ٨٣ وانظر شعراء الوطنية للدكتور صلاح الدين المليك (طبع دار جامعة الخرطوم ، ص ٢٣٢ .

وهو يقول إن دعوته قائمة على الأخذ بالكتاب والسنة النبوية ، ومن يرفض دعوته يكون كافرا ويصفه بأنه نَحَّى الصدأ والكدرة عن وجه الحياة فى السودان ونَحَّى أنواع الهلاك والبوار ، ويقول إن عليايه علت به فوق السموات السبع ، وأمست آثار طه تتعالى ولا يعلو عليها سناء ولا نور ، ويذكر أن مجده أصيل والفضل منه مؤمل يشترك فيه السودانيون جميعا ، وسنترجم عما قليل لشاعرين من شعراء المهدى هما : حسين زهراء ومحمد عمر البنا . وكان قائد جيش الأنصار عثمان دقنة فى شرقى البلاد بمدينة هندوب قرب مدينة سواكن ومعه فرق كبيرة من الجيش فبلغ التعايشى خليفة المهدى أن جيشا إنجليزيا يتقدم نحو سواكن ليفاجىء عثمان دقنة فى هندوب ، فكتب إلى عثمان دقنة يأمره بالانسحاب من المدينة لاستدراج العدو إلى شعاب الجبال ، ومباغتته هناك ، ونكل عثمان دقنة بالجيش الإنجليزى فى هشيم ، وفى ذلك يقول محمد الطاهر المجذوب كاتبه فى قصيدة حماسية[1] :

هنـدوب تعـرف صَبْرنا	كيف ارتكَبْنا للمصاعبْ
وهَشيمُ تشهـدُ عزمنـا	كيف ادَّرَعْنَا للمصـائب
يا طالمـا صدنا بها	صَيْدَ الغَضَنْفَرِ للثعـالب[2]
نَحْمِى لديـنِ الله بـل	فى شأنهِ نَلْقَى المعـاطبْ[3]
متوسـلين إليـه بالـ	ـمهدىِّ وِجْهة كلِّ راغب
وخليفةِ المهـدىِّ عَبْـ	ـدِ الله مفتـاح المطـالب

وهو يقول إن « هندوب » تعرف صبرنا فى الحرب وكيف نعد العدة لها ، وتلك « هشيم » تشهد عزمنا المصمم وكيف أخذنا أهبتنا للحرب ، وكانت حربا ضارية صاد جيشنا فيها الأعداء صيد الأسد للثعالب . وإننا لنَحْمِى للدفاع عن دين الله معرِّضين أنفسنا للموت من دونه ، متوسلين لإلهنا بإمامنا المهدى وخليفته عبد الله التعايشى مفتاح كل مطلب للشعب السودانى .
ويمدح المضوى عبد الرحمن الزبيرَ باشا حاكم بحر الغزال للخديوى إسماعيل ، وكان قد نزل القاهرة بعد ثورة المهدى ، وكان من أنصارها وأرادت حكومة مصر محاكمته فتوسط له الزبير باشا فعُفى عنه ، فامتدحه بقصيدة يقول فيها[4] :

هو فخر سنَّارَ الذى عظمتْ بهِ	وجَدَاه عمَّ بها جميـع السَّاحِ[5]
وتواضعتْ عظماؤها لعـلاه إذ	علمـوا بمـا أوتى من الفتَّاح
من فطنـةٍ ونزاهـةٍ وشـهامةٍ	وشجاعـةٍ فى الغـارة المِلْحاح

(١) نفثات اليراع ص ٩٣ وانظر شعراء الوطنية فى السودان ص ٩٠ .
(٢) الغضنفر : الأسد .
(٣) المعاطب : المهالك .
(٤) نفثات اليراع ص ٩٧ . وشعراء الوطنية فى السودان ص ٣٣٨ .
(٥) جداه : عطاؤه .

يحنـــو على مسكينهـم بتعطُّفٍ ويسـدُّ ثُلْمهمُ يَخفض جَنَـــاحِ
فلذا تراهـم يلهجـــون بذكرهِ لا يطربـــون بغير هذا الـرَّاحِ[1]
فالله يبقيـــه ويجعـــل سَعْيَـــه في كل ما يهوى قَرِينَ نجـــاحِ

والمضوى يقول إن الزبير فخر « سنار » الذى أتاح لها عظمة ومجدا ، والذى عمَّ جوده بها جميع الساحات ، ويذكر أن عظماءها تواضعوا له لما أسبغ الله عليه من نعم : فطنة ونزاهة ومروءة . وإنه ليسد ثلمهم وكل ما ينزل بهم من خطوب مع تواضع شديد ، ولذلك يولعون بذكره ولا يطربون إلا لترداد اسمه وكأنه خمر مسكرة لهم . ويدعو له بطول العمر وأن يوفق فى كل ما يسعى إليه مقترنا بالنجاح المنشود . ويمدح عبد الرحمن شوقى السيد على الميرغنى ، وكان فيما يبدو رئيس الطائفة الميرغنية الصوفية – قائلا[2] :

بكم – آلَ طَـهَ ما حييتُ – متيَّمٌ وفيكَ مديحى دون غيرك يا عَلِى
ومَنْ ذا يَرَى فى العمر وجهك مرَّةً تَقَرُّ بـــه عينـاه يومًا وتَمْتَلِى
فيسلو هَـــوَى آلِ النبـىِّ ، وحبُّهـــم جرى فيه مجرى الروح فى كل مفصلِ
وإنك للإســـلام ركــــنٌ ومَوْئِـــلٌ لتحفظه يـا خيرَ ركـنٍ ومَــوْئِلِ
ورثتَ كريم المجـد عن أكرم الـوَرَى ونـــورَ الهُـــدَى عن وجهـــه المتهلِّلِ

وهو يقول إننى متيمٌ صبابة بحب آل طه ، حبا يتعمقنى طوال حياتى ، وإنى لأقصر عليك – لهذا النسب الكريم – مديحى ، وإن من يرى وجهك فى حياته مرة تَقَرُّ به عيناه وتمتلىء فرحا ولا يستطيع سلوا عن حب آل النبى ، وكيف يسلوهم وحبهم يسرى فيه مسرى الروح فى أعطاف الجسد ومفاصله ، وإنك لركن للإسلام وحصن لتصونه ، يا خير ركن له وحصن ، وقد ورثت عظيم المجد عن أعظم الورى محمد ، وورثت نور الهدى عن وجهه المتهلل المضيىء . ونتوقف قليلا لنترجم لشاعرى المهدى : حسين زهراء ومحمد عمر البنا .

الشيخ حسين[3] زهراء

وُلد الشيخ حسين إبراهيم زهراء حوالى سنة ١٢٤٨ هـ/١٨٣٣ م بقرية وادى شعير فى المسلمية جنوبى الخرطوم بنحو ١٥٠ كيلومترا لأبوين عباسيين ، وتوفى سنة ١٣١٣ هـ/١٨٩٥ م . عُنى أبوه بتعليمه لما لاحظ من فطنته وذكائه ، وبعد حفظه للقرآن الكريم أخذ ينهل من حلقات علماء الدين. وفى نحو العشرين من عمره رحل إلى القاهرة والتحق بالأزهر ، وظل فيه سبع سنوات مكبا على حلقات شيوخه ، حتى إذا اكتمل زاده العلمى عاد

(١) الراح : الخمر .
(٢) شعراء السودان لسعد ميخائيل (طبع القاهرة) . ص ٢٠٢ .
(٣) انظر فى ترجمة الشيخ حسين زهراء نفثات اليراع ص ٨٩ وشعراء السودان ص ٦ وشعراء الوطنية ص٦٥ ر ٣٢٢ وما بعدها .

إلى موطنه ، والتف حوله كثير من الطلاب السودانيين يفيدون من علمه . ولما قام المهدى بثورته ظل فترة ينتظر مصيرها ، حتى إذا انتصر المهدى على حملة هكس باشا الإنجليزى فى الأبيض وأبادها وفد عليه ، فقابله بغير قليل من الحفاوة إلا أنه لم يسارع إلى تعيينه فى وظيفة من وظائف دولته الكبرى ، فنظم قصيدة همزية طويلة بها تلميحات إلى ما ينبغى على المهدى من عناية بالعلماء من أمثاله وإسناد الوظائف المهمة إليهم . ويبدو أن المهدى لم يعجبه منه هذا التلميح ، وقدم إليه مدائح أخرى ، وظل غاضًّا بصره عنه . حتى إذا تولى بعده رياسة الدعوة المهدية خليفته عبد الله التعايشى استقدمه وعهد إليه بتدريس مادتى الحديث النبوى وعلم الفرائض (المواريث) . وخلت وظيفة قاضى القضاة فعينه فيها ولقبه بلقب قاضى الإسلام ، وكان يُحق الحق لا يبالى بأحد ، فعرضت عليه قضية ومعها فتوى تهم الخليفة التعايشى ، فحكم فيها بالحق الذى يقتضيه الشرع . وعزله التعايشى فنظم فيه قصيدة هجاء فسجنه ، ويقال إنه منع عنه الأكل والشرب فتوفى صبرا . وكان شاعرا بارعا ، وقصيدته الهمزية فى مديح المهدى طويلة ، ومن تلويحاته فيها له بما ينبغى فى دولته من تقديم العلماء قوله فى تضاعيفها :

برح الخفا ما الحقُّ فيه خفاءُ ... وتوالتِ الآيـــاتُ والأنبـــاءُ
بالآية الكبرى التى بظهورها ... كمل الرِّضا وانجابت الأسْواء[1]
مهدىُّ ربِّ العَرْشِ مُنْتَظَرُ الوَرَى ... والَى الولى والأكرمـــون وراءُ
علماءَ أمةِ أحمدٍ ناشَدْتكم ... ردُّوا جوابىَ إنكم علمـــاءُ
أرْضَى وترضون الضلالَ بُعَيْدَ ما ... ظهر الهُدَى وانجـــابَ عنه قَذَاءُ
ويخيبُ ظنى فيكمُ وعشيرتى ... أنتـــم ويقمع جمْعنا الغُربـــاءُ[2]
جَهْلُ الـولاة أمـــات دينَ محمَّدٍ ... وأُهَيْلُه ماتـــوا وهـم أحيـــاءُ

وهو يهلل لظهور الحق وتوالى العلامات والأنباء بظهور الآية الكبرى المتجسدة فى المهدى والتى كمل للشعب السودانى بها الرضا وانزاحت الأسواء والشرور ، فقد أظهر رب العرش المهدى منتظَر الأمة السودانية . ولا يلبث فى الشطر الثانى أن يقول إنه يقدِّم من بادروا إلى بيعته ، بينما يؤخر الفضلاء ويبعدهم وراءهم ، ويناشد علماء الأمة أترضون هذا الضلال ، بعدما اتضح الهدى وانحسرت الأقذاء عنه ، ويخيب ظنى فيكم ويقهرنا الغرباء ، ويتمادى الولاة فى جهلهم . ويتساءل ثانية أماتت شريعة محمد وأهلها من العلماء وهم أحياء . والقصيدة تحمل حملة عنيفة على المهدى وأوليائه وأنصاره الذين يقربهم قربى رفيعة . ويمدحه بقصيدة عينية يقول فيها :

---

(١) أسواء جمع سوء

(٢) يقمع : يقهر .

عمادُ الهدى أُسُّ الجَدَا معدمُ العِدَا   بَدا وإليه الناسُ فى الأرض نُجّعُ[1]
مَلاكٌ أساطينُ الخلافة كفوُها الـ   مُعَدُّ لها الحصنُ الحصينُ المنّعُ
إمامُ الهُدَى الهادى لكلٍّ ومرشدٌ   بهامتـه التـاجُ النفيسُ المرصّعُ
بهِ أخبرتْ من قبلُ وقتَ ظهـوره   صحـاحٌ رواها هِبْرِزِىٌّ ومُوضِعُ[2]

وهو يقول إن المهدى العماد الذى يقوم عليه الهدى وأس العطاء ومميت الأعداء ، ظهر والناس يطلبونه هو وعطاياه ، إنه ملاك ، ونعم الكفء المعد لأعمدة الخلافة والحصن الحصين ، إمام الهدى الهادى المرشد لكل الناس ، وإن رأسه ليزدان بتاج الهدى النفيس المرصَّع . ويبالغ حسين زهراء مبالغة مفرطة إذ يقول إن أحاديث صحاحا بشَّرت به قبل ظهوره ، رواها محدث مقدام مسرع فى خطاه . ويمدحه بقصيدة دالية ، وفيها ينشد :

الأمـر جِدٌّ والخطـوبُ جِدادُ   وجنـودُ مهدىُّ الوَرَى أمجـادُ
حربٌ بمحراب الهدى من بأسِه   بِشَباتِهـا تتزلـزل الأطْـوادُ[3]
لِمْ لا وأملاكُ السموات العُلا   فى جيش مهدىُّ الوَرَى أجنادُ
للحق جاء وللمنـاكر قاتـلٌ   وعلى الفِعال من المقـال مـزاد

والقصيدة حماسية ، وبدأها حسين الزهراء بأن الأمر جد والخطوب متجددة وجند المهدى أمجاد أبطال ، وإن حربا يقودها المهدى من محراب الهدى لتتزلزل لها الجبال ، إذ ليس جندها من أسود السودان الأشداء فحسب ، فإن الملائكة من السموات الرفيعة تشترك معهم فى الحرب تؤيدهم وتنصرهم ، ولا عجب فقد جاء المهدى لإقرار الحق وإزالة كل منكر ، وإن فعاله لأعظم من أن يحيط بها مقال .

الشيخ محمد[4] عمر البنا

ولد الشيخ محمد عمر البنا فى رفاعة بإقليم الجزيرة سنة ١٢٦٤ هـ/١٨٤٨ م وتوفى سنة ١٣٣٦ هـ/١٩١٨ م وحاول الاشتغال بالتجارة فى مطالع شبابه وخسرت تجارته ، فتركها إلى حلقات الشيوخ ينهل منها ، وفى الثالثة والعشرين من عمره رحل إلى القاهرة واختلف إلى دروس شيوخه مدة غير قليلة ، وعاد إلى موطنه . ولما قام المهدى بدعوته هاجر إليه وبايعه وأخلص فى بيعته ، وامتدحه وأصبح شاعره وشاعر دعوته ، ولزمه ولزم خليفته عبد الله

(١) نجع جمع ناجع : طالب الكلأ .
(٢) هبرزى: شجاع مقدام. موضع : مسرع فى خطاه .
(٣) الأطواد : الجبال .
(٤) انظر فى ترجمة الشيخ محمد عمر البنا وشعره نفثات اليراع ص ١٠٠ وشعراء السودان ص ٢٧٣ وكتاب الشعر الحديث فى السودان للدكتور محمد إبراهيم الشوش ص ٣٠ وما بعدها وفى مواضع مختلفة (نشر معهد الدراسات العربية العالية بالجامعة العربية) وشعراء الوطنية فى السودان طبع دار جامعة الخرطوم ص ٨٨ و ٣١٧ وما بعدها .

التعايشي ، وقرَّبه منه ، وجعله بمنزلة مستشار له ، ولما انتهى عهد التعايشي والدعوة المهدية عيَّنته الحكومة الثنائية قاضيا ثم مفتشا للمحاكم الشرعية إلى أن لبَّى نداء ربه . وكان شاعرا مجيدا ، بل كان أبرع شعراء السودان فى زمنه ، ويتميز بأسلوب جزل رصين ، وشعره فى المهدى والدعوة المهدية يكتظ بحماسة قوية على نحو ما نرى فى تائيته التى طارت شهرتها ، وهو يستهلها بقوله :

الحربُ صَبْرٌ واللقاءُ ثباتُ ... والموتُ فى شأن الإلهِ حياةُ
والجبنُ عارٌ والشجاعةُ هيبةٌ ... للمرء ما اقترنتْ بها العزماتُ
والصبر عند البأسِ مكرمةٌ ومقـ ... ـدامُ الرجال تهابُه الوقعاتُ
والفخر كلُّ الفخر بيعُ النَّفْس للـ ... ـه العليِّ وأجرُها الجنَّاتُ
إن الجهاد فضيلةٌ مرضيَّةٌ ... شهدتْ بِمُحْكَم أجرِها الآياتُ
قد حاز هذا الافتخارَ جميعَه ... صَحْبُ الإمام السادةُ القاداتُ

وهو يقول لأنصار المهدى محمسا لهم : الحرب صبر واللقاء ثبات واستماتة ، وإنها لحرب عظيمة فى نصرة دين الله ، والجبن والقعود عنها عار لا يماثله عار ، وما أعظم الشجاعة المقترنة بالعزيمة وما أعظم الصبر حتى الموت ، بل إن الموت ليهاب شجعانَ الرجال ، وإن بيع النفس لله العلى فخر لا يماثله فخر لعظم الأجر من الجنات ونعيمها الخالد ، إنها ليست حربا بل جهادا فى سبيل الله ودينه الحنيف الذى نزل القرآن الكريم بمحكم أجره وثوابه من مثل قوله : ﴿ولا تحسبن الذين قُتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون فَرِحين بما آتاهم الله من فضله﴾ ويقول إن هذا الفخر جميعه حازه صحب المهدى وقواده . ويشيد بجهادهم فى نشر الدعوة المهدية منشدا :

قومٌ إذا حَمِىَ الوطيسُ رأيتهم ... شُمَّ الجبال ، وللضعيف حماةُ
ولباسُهم سَرْدُ الحديد وبأسهم ... شهدتْ به يوم اللّقا الغاراتُ
وخَلوقُهم صَدَأُ الدروع ، لحزمهم ... قتلُ الأعادى عندهم عاداتُ
فى السِّلْم تلقاهمْ ركوعًا سُجَّدًا ... أثَرُ السجودِ عليهمُ وسِماتُ
وتخالُهم يوم الجِلاد ضراغمًا ... أُسْدٌ وأَسَلُ رماحهم غاباتُ
ركبوا الجيادَ وغادروا شِلْوَ العِدَا ... رزقَ النُّسور ولحمُهم أقواتُ
والأرض سالتْ بالدماء وما بها ... غيرُ الجماجم والشعور نباتُ

فهم قوم بواسل إذا دارت رحا الحرب رأيتهم جبالا شاهقة لا ينالها أحد ، وهم مع ذلك حماة لكل ضعيف يأخذون بيده ، لباسهم دروع متينة النسج ، والغارات تشهد بشجاعتهم الخارقة ، وليس لهم طيب إلا صدأ الدروع ، مع اكتمال حزم فى قتل الأعادى والتنكيل بهم .

أما فى السلم فدائما راكعون ساجدون لله وعلى وجوههم أثر السجود وعلاماته . ويوم النزال تظنهم أسدا وقد بدت رماحهم الطويلة فوقهم وكأنها غابة ضخمة . ويقول إنهم يبادرون إلى الحرب فيركبون خيولهم ، وما هى إلا ساعات يغادرون بعدها ساحة الحرب وقد خلفوا للنسور طعامها من لحوم أعدائهم ، وتسيل الأرض بدمائهم وكأنما أنبتت جماجم ورءوسا لكثرة القتلى . ويشيد البنا عقب ذلك بانتصاراتهم وإعلائهم لكلمة الله وإرضائهم لرسوله وقمعهم لأعدائهم ، ويحث المهدى على غزو الخرطوم وإخراج الغواة المفسدين منها ضاربا له المثل بجهاد الرسول والصحابة ضد العتاة الظالمين ، ويهنىء الشهداء من جيشه ، فالحور العين تنتظر لقاءهم فرحا بهم ، والجنات تزينت لقدومهم . والقصيدة شعلة من الحماسة الملتهبة . وللبنا قصيدة يمتدح بها عثمان دقنه قائد جيش المهديين فى شرقى السودان ، وفيها يصور بسالة جنوده منشدا :

بعثتْ لهم هممُ الجهاد ملابسَ النَّصـر العزيزِ يمدُّه التصويبُ
وأمدَّهم جيشُ الملائك ناشرا رايـاتِ نَصْرٍ للبلاد تجوبُ
فسيوفهم مسلولةٌ ورماحهم مسنونةٌ وعدوُّهم مرعوبُ
وعدوُّهم دَوْمًا يَغَصُّ بريقهِ والرعبُ منهم للقلوب يُذيبُ
إن نوزلوا كانوا الليوثَ معاركًا أو غولبوا فعدوّهم مغلوبُ
أو حوربوا فالرُّعْبُ من أعوانهم دَوْمـًا وعَقْلُ عِداتهم مسلوبُ

وهو يقول : كأنما همم الجهاد القعساء أرسلت إليهم ملابس النصر ترافقها إصابة الأهداف ، بل لقد زوَّدهم جيش الملائكة برايات نصر تنشرها فى البلاد ، وسيوفهم مسلولة من أغمادها ورماحهم مسنونة قاطعة ، وأعداؤهم غاصُّون بريقهم من شدة رعبهم ، بل ليكاد الرعب يذيب قلوبهم . وإن نوزلوا فى معركة كانوا أسودا وإن غولبوا غلبوا وقهروا الأعداء قهرا ، أو حوربوا كان الرعب من أنصارهم دائما ، ودائما كان عقل أعدائهم مسلوبا من هول حربهم ونزالهم الضارى .

٣

شعراء الفخر والحماسة

مرت بنا أشعار حماسية زمن الدعوة المهدية لمحمد الطاهر المجذوب ومحمد عمر البنا ، ونلتقى بالشاعر يحيى السلاوى السودانى يرحل إلى مصر للمشاركة فى الثورة العرابية ، وسنفرد له ترجمة عما قليل ، نعرض فيها له قصيدة حماسية . وتلقانا عند عثمان هاشم حماسية بديعة فى حرب مصطفى كمال لليونان وإخراجهم على وجوههم مدحورين من الأناضول ، وسنخصه

بترجمة ، ولغير شاعر سودانى فخر حماسىّ ، وهو يتخذ صورا متعددة ، من ذلك فخر الشخص بنفسه وآبائه مثل قول عبد الله الكرذى المولود سنة ١٣٠١ هـ/١٨٨٤ م[1] :

إنّى ابنُ أنثى حُرَّةٍ عربيةٍ   آباؤها بِيضُ الوجــوه فُحولُ[2]
إنّى عريقٌ فى النِّجار وأبلجٌ   فى بُرْده كــرمٌ يكــاد يسيل[3]
تنميه للحىِّ اللَّقاح عشيرةٌ   وأبٌ وقــورٌ ماجــدٌ بُهْلــول[4]
وأنا امرؤٌ زَيْنُ المحافلِ شاعرٌ   لى هِــزةٌ نحــو السّماح تميلُ
هتَفَتْ بذكرى فى البلاد قصائدى   وشَدَا بهــنَّ على الغصون هَديل

وهو يفتخر بأن أمه عربية وأن آباءه بيض الوجوه فائقون لأعمالهم الجليلة وأنه عريق فى أصله مشرق الوجه ، غيث مدرار ، يكاد الكرم يسيل من برده ، يُنْسب فى عشيرته لحىٍّ لم يدنْ للملوكِ أبدًا ، وأبوه وقور ماجد سيد ، وإنه لزين المحافل شاعر يهتز للشيم الكريمة من سماحة وغير سماحة ، وقد شاع ذكره فى البلاد لقصائده البديعة ، وغنى بها على الغصون هديل الحمام وكأنه يرددها فى تلاحينه . ويقول على أرباب مفاخرا بنفسه فيما يقدم لوطنه[5] :

إذا أنا لم أرفعْ إلى المجد موطنى   فلا ساعدى يوما علته مناكبُهْ
أقومىَ إنْ مِتُّ اذكرونى فإنما   حياتىَ وَقْفٌ للعــلا ومراكبه
ومالىَ مقسـومٌ لكلِّ عشيرتى   وصدرىَ رَحْبٌ لا تضيقُ جوانبه
ولا أنا فعَّالٌ لشىءٍ يَشينني   ولستُ بعــذَّالٍ لخِلِّى أعاتبه
هل الخيرُ إلا أن تقــوم بواجبٍ   تســاعد مسكينــا ويُعْطَى رغائِبُهْ

وهو يقول إنه حرىّ به الموت إن لم يعش ليرفع من مجد وطنه وشأنه ، وحرىّ بقومه أن يذكروه حين يموت ، فحياته كانت وقفا للعلا وأسبابه . ويذكر أن لكل فرد فى عشيرته حظا فى ماله ، وأنه حليم لا يضيق صدره بشىء ، مكرم لنفسه لا يعمل شيئا يشينه ، ومكرم لصديقه فلا يلومه ولا يعتب عليه فى شىء ، ويقول إن الخير كل الخير أن تؤدى واجبا فتساعد مسكينا ، وتحقق له بعض رغائبه وأمانيه . ويفاخر عبد الرحمن شوقى بجدوده فى الزمان القديم[6] :

---

(١) شعراء السودان ص ١٨٣ .
(٢) بيض الوجوه كناية عن حسن أفعالهم . فحول : متفوقون .
(٣) النجار : الأصل . أبلج : مشرق الوجه
(٤) قوم لقاح : لم يدينوا للملوك . بهلول : سيد كريم .
(٥) شعراء السودان ص ٢٤٣ .
(٦) نفثات اليراع ص ١٨٣ .

زمانٌ تولَّى كان فيه جدُودنا ليوثا يقودون الخميسَ العَرَمْرَما[1]
إذا ابتسموا فالخُلْد فى بَسماتهم وإن عَبَسُوا فالكونُ صار جهنَّما
وإن عصروا عُودَ الزمان أطاعهم ولان لهم عاصيه حتى تقوَّما
وإن ضربوا دُكُّوا القِلاع بعزمهم وأوْمَـوْا إلى بنيانهــا فتهدَّمـا
شموسُ سمـاء المجد أيان أشرقوا بدورُ الدياجى حيث كانوا وأنجما
لقد نصروا الدين الحنيف وسدَّدوا إلى الكفر سهما فى الفؤاد مصمِّما
وساسوا فما جاروا ولا تبعوا هَوًى ولا حمَّلوا النَّفْسَ الضعيفةَ مَغْرَما
إلى أن دعـا داعى الـرَّدى فتتابعوا نجوما هوتْ فالكـونُ أصبحَ مظلما

وهو يصور المجد التاريخى العظيم لأمتنا العربية فى الأزمنة الغابرة ، ذاكرًا أن زمانا مضى كان جدودنا فيه أُسدا ضارية ، إذا رضوا وابتسموا فكأنما فُتحت أبواب الجنان ، وإذا عبسوا ونازلوا قوما فقد أصبح الكون نارا حامية ، وإن عصروا عود الزمان انعصر لهم ، وإن عصا قوَّموه حتى ينعصر ، وإن ضربوا دُكّت القلاع بعزمهم الجبار ، بل لو أشاروا إلى بنيانها لخرَّ منقضًا . هم شموس سماء المجد فى كل مكان يحلون فيه وبدور الدياجى فى كل بقعة ينزلونها ونجوم ساطعة ، وطالما نصروا الدين الحنيف وسددوا إلى صدور الكفر وأفئدته سهاما مصمية . وساسوا الأمم والشعوب سياسة عادلة لا تميل مع الهوى ، مليئة بالرحمة للضعفاء فلا تحمِّلهم مغرما ، ودار بهم الزمان دورات إلى أن دعاهم داعى الموت فتتابعوا نجوما تهاوت وأصبح الكون مظلما . وينشد الشيخ محمد سعيد العباسى حماسية فى الحرب الطرابلسية الإيطالية سنة ١٣٣٠هـ/١٩١٢م ، وقد انتصر الطرابلسيون فى بعض المواقع ، وفيها يقول[2] :

يـروم بنو روما طرابُلُسًا وقد غزوها بجيش ضاقَ ذَرْعًا به القَفْرُ[3]
أثاروا وَغًى دارتْ رَحاها عليهمُ وراموا بها فخرًا ففاتهمُ الفَخْرُ
أعدُّوا لها من عُدَّة الحرب كلَّ ما يضيق به التعدادُ والبَرُّ والبحر
وقد زعموا أنْ سوف ينجح سَعْيُهم ولكنــه زعم الأضاليل والهَذْرُ
أبيدوا فكانوا عبرةَ النـــاس بعدهم وحلَّـق فى آثــــار موتاهمُ النَّسْرُ

وهو يقول إن أبناء روما قصدوا طرابلس بجيش كثيف ضاق به القفر وُسْعًا ، ودارت رحا حرب ضارية أراد بها الطليان فخرا ففاتهم ، مع ما أعدوا للحرب من عدة وأسلحة لا يحيط بها العد والإحصاء ولا البر والبحر ، وزعموا أن نصرهم قريب وهو زعم أضاليل وهذيان فقد

(١) الخميس العرمرم : الجيش الكثيف الكثير .

(٢) شعراء السودان ص ٢٨٨ وكتاب محمد سعيد العباسى للدكتور أحمد عبد الله سامى (طبع الخرطوم) ص ٢٣٩ وانظر ديوانه .

(٣) ذرعا : وسعا .

أبيدوا عن آخرهم ، وأصبحوا عبرة وموعظة لكل معتد أثيم ، وحلقت فوق جثثهم النسور وانقضّت عليها انقضاضا . ويقول مفاخرا بشيمه الرفيعة وأجداده[1] :

أَلْقَى بِصَبْرِى حُسامَ الحادثاتِ ولى ... عزمٌ أَصدُّ به ما قد يلاقينى
ولا أَتوق لحالٍ لا تُلائمُها ... حالى ولا منزلُ اللذّاتِ يُلْهينى
ولستُ أرضى من الدنيا وإن عظمتْ ... إلا الذى بجميل الذكر يرضينى
وكيف أقبلُ أسبابَ الهوانِ ولى ... آباءُ صِدْقٍ من الغُرِّ الميامينِ[2]
النازلين على حكم العلا أبدًا ... مَنْ زيَّنوا الكَون منهم أىَّ تزيينِ
من كل أروعَ فى أكتاده لِبَدٌ ... كالليث ، واللَّيْثُ لا يُغضى على هُونِ[3]

والعباسى يقول إنه يتدرع أو يتسلّح بصبر أمام جسام الحادثات فلا تنال منه ، ويصد بعزمه القوى ما يلقاه من خطوب ، ولا يتشوق لحال لا تتفق وحاله ، ومنزل اللذات لا يلهيه ، بل يكف نفسه عنه ، ولا يرضيه من دنياه إلا الذكر الجميل والعمل الحميد ولا يقبل هوانا وكيف يقبل هوانا أو ضيما ، وآباؤه آباء صدق من المشهورين ميمونى النقيبة الذين لا ينزلون أبدا إلا على حكم العلا وقد ازدان بهم الكون زينة رفيعة ، من كل شجاع على كاهله لبد كأنه ليث حقيقى ، والليث لا يغمض عينه ولا يستطيع الصبر على هوان وضيم . وحرىّ بنا أن نترجم الآن ليحيى السلاوى السودانى وعثمان هاشم .

الشيخ يحيى[4] السلاوى السودانى

ولد الشيخ يحيى السلاوى السودانى بالخرطوم حوالى سنة ١٢٦٢ هـ/١٨٤٦ م وهو ابن عبد الغنى السلاوى قاضى دنقلة الذى مر فى شعراء المديح أنه كان من شعراء المهدى وذكرنا له أبياتا من قصيدة فى مديحه هناك ، وكان ابنه يحيى شاعرا مثله ، ونراه حين نشبت ثورة عرابى بمصر سنة ١٢٩٨ هـ/١٨٨١ م يطلب من مدير دنقلة ترحيله إلى مصر ، ويرفض طلبه ، فيبرق إلى محمد رءوف باشا حاكم السودان البيتين التاليين :

مولاىَ عزَّ ترحُّلى ... وغدوتُ مقصوصَ الجناحْ
فأَرِشْ جَناحى مثلما ... عوَّدْتنيه ولا جُناحْ .

فأبرق رءوف باشا إلى مدير دنقلة بترحيله على نفقة الحكومة إلى مصر ، وبمجرد أن نزلها اندمج فى الثورة ، وعرف أحمد عرابى أنه شاعر فطلب إليه أن ينظم قصيدة لطبعها ونشرها

---

(١) شعراء السودان ص ٢٩٣ ونفثات اليراع ص ١٣٩ وكتاب محمد سعيد العباسى ص ١٢٩ وما بعدها وانظر ديوانه .
(٢) الغر : المشاهير . الميامين : المباركين .
(٣) أكتاده جمع كتد : مجتمع الكتفين .
(٤) انظر فى ترجمة يحيى السلاوى وقصيدته نفثات اليراع ص ٨٣ وشعراء الوطنية فى السودان ص ٢٨ ، ٢٩٩ .

فى أرجاء مصر . ويقول محمد عبد الرحيم فى ترجمته له بكتابه نفثات اليراع إنه نظم – تلبية لعرابى – قصيدة بائية من تسعة وتسعين بيتا عثرنا على طائفة من أبياتها ، وبلغ من اهتمام عرابى والشعب المصرى بها أن طُبعت بماء الذهب وبيعت فى شوارع القاهرة ، وكان ثمن النسخة منها جنيها ذهبا ، وبلغ ما عثر عليه محمد عبد الرحيم منها خمسة وأربعين بيتا وهى أشبه بمنشور ثورى وهو يستهلها بقوله :

شُغِل العِدَا بتشتُتِ الأحزابِ والله ناصرُنـا بسيفِ عرابى
والقطرُ فيه من الرجال كفاءةً للحادثات فهمْ أولـو الألبـاب
وحميَّةُ الإسلام تقضى بالوفا حتما على كلِّ امـرئٍ أوّابِ[1]
ومحبَّـةُ الوطـن العزيز تحثُّهم والفَلْجُ إذنْ باتِّبـاع صـوابِ
والمشركون خواسرٌ فى سعيهم هُزِموا وقد نكصوا على الأعقابِ[2]

والشيخ يحيى يقول إن الإنجليز شغلوا بتشتت جندهم ، وسماهم الأحزاب أسوة بغزوة كفار قريش والعرب المسماة غزوة الأحزاب ، ويقول إن الله ناصرنا بسيف الحق : سيف أحمد عرابى ، والقطر ملىء برجال أكفاء لهؤلاء الأعداء ، وهم مملوءون حمية للإسلام ، تأمر كل مسلم أواب متبتل لربه بالوفاء لدينه الحنيف والدفاع عنه بالروح ، وأيضا مملوءون محبة للوطن تحثهم على الدفاع عنه وهو دفاع سينتهى إلى النصر المبين ، وقد نصرنا فعلا فى بعض المواقع ، وهو إذنْ وبشرى بالنصر التام وإن الإنجليز لخاسرون فى حربهم إذ هُزموا ورجعوا ناكصين على أعقابهم . ويمضى قائلا :

هيَّا بنا يا أهل مصرَ إلى الرِّضا والفوزِ فى العُقْبى بغير حسـابِ
أنتم أولو الهمم التى بسهامها كم مـن عـدوٍّ آبَ شرَّ إيـابِ
لا تشغلنَّكم الحيـاةُ فإنها ذلٌّ لمن يَرْضَى بهتك جَنـابِ
ولقد نرى إخواننـا فى حالـةٍ تحتـاجُ للأعـوان والأصحـابِ

وهو يهيب بأهل مصر أن يؤيدوا عرابى ويشتركوا فى حرب الإنجليز طلبا للفوز فى الآخرة ويقول إنكم أولو الهمم المصممة ، وما أكثر ما نكلتم بأعداء بلدكم حتى آبوا شر مآب ، ولا تشغلنكم الحياة عن واجبكم فى الدفاع المستميت عن بلدكم ، وإنه لذل لأى أمة ما مثله ذل أن ترضى بهتك العدو لأى ناحية من نواحيها ، وإن إخواننا من الجنود وقادتهم لفى حاجة إلى العون المادى والحربى ، ويذكر بعض الشخصيات التى ناصرت عرابى وأمدته بعون قيم .

(١) أواب هنا : متبتل إلى ربه .
(٢) نكصوا على الأعقاب : رجعوا عما كانوا اعتزموه .

والقصيدة وثيقة مهمة فى موقف الشعب من ثورة عرابى وتأييده له فى حربه ضد الإنجليز الغاشمين . ويقول محمد عبد الرحيم : لما دخل اللورد ولسلى بجيشه الإنجليزى إلى القاهرة وأخذت الحكومة تقبض على دعاة الثورة لجأ الشاعر يحيى إلى السيد محمد سر الختم الميرغنى ، فساعده على السفر إلى الآستانة ، وهناك عُيِّن مفتشا للغة العربية فى وزارة المعارف التركية .

عثمان[1] هاشم

ولد فى مدينة بربر أواخر سنة ١٨٩٨ للميلاد ، وهو من الأسرة الهاشمية السودانية التى شاركت بقوة فى العلوم الإسلامية ، وهى تنتسب إلى العباس بن عبد المطلب ، ومن أعلامها أبو القاسم هاشم شيخ علماء السودان ومؤسس المعهد العلمى الدينى بأم درمان سنة ١٩١٢ والطيب أحمد هاشم مفتى السودان . بدأ حياته الدراسية بالاختلاف إلى كتَّاب لحفظ القرآن الكريم ، وتركه قبل أن يتمه للالتحاق بمدرسة مدينة بربر الابتدائية ، ومنها تحول إلى القسم الابتدائى فى كلية غوردون وتخرج فيه وعمل فى الحكومة السودانية موظفا منذ سنة ١٩١٥ . وشُغف بالشعر العربى مبكرا فأكبَّ على دواوينه واستيقظت فيه الموهبة الشعرية سريعا ، وتظم فى موضوعات مختلفة جمع منها سعد ميخائيل باقة بديعة حين ألف كتابه شعراء السودان سنة ١٩٢٣ منها قصيدة حماسية فى بطل الأناضول مصطفى كمال أتاتورك ، وكان الحلفاء بعد الحرب العظمى الأولى فى هذا القرن أغروا اليونان باحتلال أزمير وشطر كبير من الأناضول ، واستحال الشعب التركى إلى عصابات مسلحة تقاوم هذا الاحتلال وانضمت إليها قوات نظامية ، وقاد المقاومة سنة ١٩٢١ مصطفى كمال ، وأخذ الترك يسحقون اليونان سحقا ، حتى اضطر من بقى منهم إلى خروجهم من الأناضول جميعه فى سبتمبر سنة ١٩٢٢ وعادت تركيا – بفضل مصطفى كمال – إلى الظهور ببطولتها الحربية القديمة ، وحيَّاه عثمان هاشم بقصيدة رائعة ، يقول له فى مطلعها :

ضربتَ بسيف الحقِّ فاندكَّ باطلُ ... وجئتَ بما لم تستطعْه الأوائلُ
ودافعتَ عن دين النبىِّ محمَّدٍ ... ولم تَثْنِ منك العــزمَ تلك القنــابلُ
غضبتَ لدين الله لما رأيتَه ... تُمَدُّ لـــه من كلِّ حَـدْبٍ غوائل[1]
فلما توسَّطتَ الأناضول صِحْتَ فى ... بنيه ألا هُبُّوا دفاعًا وناضلوا
فلبَّتْك من أبناء عثمانَ عصبةٌ ... لها فى صميم الترك مجدٌ ونائلُ
وهاجوا غِضابا كالأســود وأقسموا ... بأن يَصْدُقوا بالفعــل ما أنت قائل

وهو يقول لمصطفى كمال : ضربت جند اليونان بسيف الحق فاندكَّ حصن باطلهم واحتلالهم الأثيم ، ودافعت عن دين سيد الخلق محمد ، لا تثنيك قنابل الأعداء ، إذ غضبت للدين الحنيف

---

(١) انظر فى ترجمة عثمان هاشم وشعره شعراء السودان ص ٢١٤ .

غضبة ضارية ، فقد رأيت دواهي كثيرة تحيط به من كل حَدَب وطريق . ولما توسطت الأناضول صرخت في أهله : هبُّوا وناضلوا عن حماكم ، ولبَّاك من أبناء الترك عصبة ذات مجد وعطاء عظيم ، وهاجت هياجَ الأسود تدافع عن عرينها . ويخاطب مصطفى كمال مصورا بلاء الترك في الحرب إلى أن أحرزوا النصر النهائي العظيم قائلا :

أحاطَ بكَ الأعداءُ حتى كأنهم خِضَمٌّ عظيمٌ لم يَبِنْ منه ساحلُ
وكم سفكوا منكم دماءً بريئةً وكم سفحتْ للدَّمْعِ منكم أراملُ
وما هدَّ هذا منكَ حزمًا عزمته وكيف تهدُّ الراسياتِ المعاولُ
فسَقْيًا لأقوامٍ سَقَوا بِدمائهم ثَرَى وَطنٍ مُدَّتْ إليه الحبائلُ[2]
وذادوا عن الدين الحنيفِ بغيرةٍ كأن صدور القومِ منها مَراجلُ[3]
هنيئًا لكَ النَّصْرُ المبين وليتني بجيشكَ جنديٌّ تطوَّع باسلُ

ويقول عثمان هاشم إن جنود اليونان كانوا كثيرين حتى كأنهم بحر زاخر لا تبين له سواحل ، وكم أراقوا من دماء الترك الطاهرة ، وكم بكت منهم أرامل فقدن أزواجهن ، وما هدَّ ذلك منك شيئا من حزمك وعزمك ، وحقا لا تهدُّ المعاول الراسيات الشامخة . ويدعو الله لهم بالسقيا والرعاية جزاء لدمائهم التي سقوا بها ثرى وطنهم المفدَّى ، وقد مُدَّت إليهم مصايد المكر والغدر ، ودافعوا عن الدين الحنيف بغيرة وحمية ، حتى كأن صدورهم مواقد مشتعلة من شدة الغضب . ويمضي عثمان هاشم في قصيدته ويختمها بتهنئة حارة لمصطفى كمال بنصره المبين ، ويتمنى لو كان جنديا باسلا في جيشه ، ونال حظا من شرف هذا النصر العظيم . ويقول مفاخرا بقومه :

إني لمن معشرٍ طابتْ أصولهمُ فطاب فَرْعُهمُ والنَّسْلُ والنَّسَبُ
إن نابكَ الدهرُ فاستنجدتَهم نَجدوا أو مسَّكَ الضُّرُّ فاستنهضْتَهم وثبوا
غُرٌّ جحاجحةٌ شُمٌّ غطارفةٌ صِيدٌ جهابذةٌ بل سادةٌ نُجُبُ[4]

يشير إلى أنه من معشر شريف – إذ هو سليل العباس بن عبد المطلب – معشر طابت أصولهم فطابت فروعهم وطاب نسلهم وذريتهم ، وطاب النسب والانتماء إليهم ، إن أصابك الدهر بنائبة أو كارثة واستنجدتهم نجدوك بكل ما يستطيعون ، وإن مسك ضر واستنهضتهم

(١) الحدب : ما ارتفع وغلظ من الأرض . غوائل جمع غائلة : الداهية .
(٢) الحبائل جمع حبالة : المصيدة .
(٣) مراجل جمع مرجل : القِدر . يريد أنها تغلي غليان القدر .
(٤) غر : مشهورون . جحاجحة جمع جحجاح : السيد السمح الكريم . شم جمع أشم : المترفع . غطارفة جمع غطريف : السيد . صيد جمع أصيد : المزهو بنفسه . جهابذة جمع جهبذ : المجرب . نجب جمع نجيب : فاضل .

للدفاع عنك وثبوا إليك سراعا ، وهم مشهورون سمحاء كرام مترفعون سادة مزهوون بأمجادهم أصحاب فراسة ، بل هم سادة فضلاء . وللشاعر مقطوعة ثانية في الفخر يقول فيها عن قومه :

قومٌ لقد طابتْ سرائرُهم فلم ... تَرَ غيرَ بَذْلِ نَدًى وبَسْطِ كفوفِ
هم أفضلُ العربِ الكرام عشيرةً ... وأعـزُّ أنسابًا وشُمُّ أنـوفِ[1]
وهمُ الشموسُ إذا الحوادثُ أظلمتْ ... وهم البـدورُ بنـورها المعروفِ

وهو يقول إن قومه قد طابت سرائرهم ودخائلهم ، وهم غيوث مدرارة في الجود والكرم . وهم أفضل العرب عشيرة ، إذ هم من عشيرة الرسول ﷺ ، لذلك كانوا أعزَّ أنسابًا وشُمَّ أنوف مترفعين ، وإذا أظلمت الدنيا كانوا شموسها المنيرة وبدورها المضيئة .

٤

شعراء الرثاء

(أ) رثاء الأفراد

يأخذ رثاء الأفراد في الشعر العربي أشكالا ثلاثة هي الندب والتأبين والعزاء ، والندب عادة للأقارب وخاصة الأبناء ويمتلىء بالتفجع عليهم والتحسر والحزن الممض ، والتأبين لشخصيات القبيلة والأمة لبيان فضائلهم وأعمالهم وخسارة المجتمع فيهم ، والعزاء لبيان أن الموت من سنن الحياة وأنه لا يبقى على أحد سيد ومسود . وقد يجمع الشاعر بين هذه الأشكال الثلاثة أو يفرد مرثيته لشكل أو شكلين ، ولكل أمة عربية مراثيها ، وخاصة لرجالاتها المهمين ، وقد مرت بنا دعوة المهدى ، وهو أهم الشخصيات السودانية في القرن الماضى ، وقد حقق للسودان استقلاله في سنوات معدودات ، ولبىَّ سريعا نداء ربه وهو في الحادية والأربعين من عمره ، وبكته السودان وبكاه شعراؤها وفي مقدمتهم الشيخ إبراهيم شريف الدولابى الكردفانى ، ويستهل مرثيته بقوله[2] :

كيف التئامُ فـؤادىَ المفطـورِ ... ورُقُوءُ دَمْعِ محاجرى المفجورِ[3]
أم كيف ينفكُّ الضَّنا عن مُهْجَةٍ ... أحشاؤها تَصْلَى على التَّنُّورِ[4]
أسفٌ على المهدىِّ من مَهْدِ الصِّبا ... قد كان معصومًا عن المحظورِ
فَتحَ الفتوحَ ودمَّر الكفَّار في ... كلِّ البـلاد بجيشهِ المنصورِ
هو مجمعُ البحرين : بحرِ شريعةٍ ... طـامٍ وبحـرِ حقيقةٍ مَسْجورِ[5]

وهو يقول إن فؤاده انفطر وانشق حزنا لموت المهدى ولن يرقأ أو يجف دمعه المتفجر ،

---

(١) شم أنوف : متعالون مترفعون .
(٢) انظر القصيدة في شعراء السودان ص ٢٧ وشعراء الوطنية ص ٣٣٦ .
(٣) المفطور : المنشق . رقوء : انقطاع .
(٤) التنور : الموقد .
(٥) مسجور : مملوء .

ولن ينفكَّ الضنا عن مهجته ، وكأنما تصلى أحشاؤها وتحترق على تنور مشتعل ، ويأسف على المهدى ويقول إنه كان معصوما عن المحظور المحرم منذ صغره ، ودمَّر جيشه الجيوش التى لقيته . وينعته بأنه كان مجمعا لبحر الشريعة الطامى الزاخر وبحر الحقيقة الإلهية المملوء نُسُكا . ويمضى الشاعر فى مرثيته منشدا :

قد كانَ قَوَّامَ الدُّجَى متبتِّلاً ... متواصلَ الإحسان غيرَ فَخـورِ
طلْقَ المحيَّا خاشعا متواضعا ... كهفَ الفقير وجابـرَ المكسـور
لا يبتغى جاهًا ولا مالاً ولا ... عزَّ الملوك ولا ارتفاعَ الدورِ
تبكى المساجدُ والمحاربُ فَقْده ... ومواطـنُ الأذكـار والتذكـير
يا طيبَ أرضٍ ضمَّ جِسْمَك تُرْبُها ... تُزْرِى بعَـرْف المِسْك والكـافورِ

وهو يصف المهدى بأنه كان نوَّام الليل مصليا متبتلا لربه ، مواصل الإحسان للفقراء والمساكين دون أى فخر أو مَنٍّ ، طلق المحيا بشوشًا خاشعا متواضعا ، كهفا للفقير وملجأ وجابرا للمكسور ، لا يفكر فى جاه ولا فى مال ولا فى عز الملوك وحياتهم المترفة ولا فى القصور المشيَّدة ، وبكته المساجد والمحارب وبقاع أذكاره وتذكيره ، وما أطيب الأرض التى ضمت جسده ، إن شذاها يزرى بشذا الطيب من المسك والكافور . ويبكى المهدىَّ الشيخ محمد الطاهر المجذوب بمرثية يفتتحها بقوله[1] :

دَهَتْنا دواهٍ يَضْرِسُ القلبَ نابُهـا ... ويوقد فى الأحشـاء نارا منابُها[2]
غداةَ نَعَى الناعـون مهديَّنا الذى ... به مِلَّةُ الإسـلام جَـلَّ مُصابُهـا
إمامُ الهدى المهدىُّ أفْضَلُ مَنْ دَعَا ... إلى الله مفتاحُ النجاة وبابُها
ألا قد أُصِبْنا إذ عَدِمْنا حَبِيبنا ... وضاقتْ بنا الأرضُ الوسيعُ رحابُها
لِيَبْكِ لـه الديـنُ الحنيفُ ومِلَّـةٌ ... أبـانَ هُداهـا حين تَمَّ خَرابُهـا

والشيخ المجذوب يقول إنه نزلت بهم دواه يعض نابها القلب ويوقد منابها فى الأحشاء نارا غداة نعى الناعون المهدى الذى جَلَّ مصاب الدين الحنيف فيه ، إنه إمام الهدى ومفتاح النجاة من النار وبابها ، ولقد أُصِبْنا فى حبيبنا وضاقت بنا الأرض الفسيحة الواسعة الرحاب ، ألا فليبكه الإسلام وملة أوضح هداها بعد أن خربت خرابا لا آخر له . ويكثر رثاء الشعراء لآبائهم فى السودان ، من ذلك قول القاضى أحمد المرضى المولود سنة ١٨٨٤ للميلاد فى رثاء أبيه[3] :

---

(١) نفثات اليراع ص ٩٤ وشعراء السودان ص ٣١١ وشعراء الوطنية ص ٢٣١ .
(٢) يضرس : يعض .
(٣) نفثات اليراع ص ١٥٠ .

لقد آن أنْ أبكى وأغرِى البواكيا وأنظمَ من حَبِّ الدموع المراثيا
وأصبغَ عَبْراتى دمًا ليس ناضبًا يخدُّ خدودى مُتْرَعًا والأماقِيا[1]
أبى ما أبى حرٌّ كريمٌ وذو وفًا وما كان ذا وجهين وَغْلاً مُدَاجيا[2]
أمينٌ على سرِّ الأخلاء حافظٌ وكان لإخوان الصفاء مواسيا
تبوأَ مهدَ العزِّ من نَشْأة الصِّبا وشبَّ على هام المكارم ساميا

والمرضى يقول إنه حان أن يبكى ويغرى الباكيات بالبكاء وينظم من درر الدموع عقود المراثى ويصبغ عبراته بالدم الذى لا ينضب ولا يجفّ ، بل يشق الخدود وآماق العيون شقوقا ملأى به . ويذوه بأبيه فهو حر كريم وفىّ ، وما كان يوما ذا وجهين نَذْلا منافقا ، بل كان دائما أمينا على سر إخوانه : إخوان الصفاء مواسيا لهم ، نزل مهد العز وأقام به منذ صباه ، وشبَّ على رءوس المكارم ساميا سموا متصلا . ويبكى الشاعر الشيخ عبد الله البنا أباه الشيخ محمد بن عمر البنا مفتش المحاكم الشرعية الذى ترجمنا له بين شعراء المديح بمرثية مؤثرة ، وفيها يقول[3] :

عَيْنُ الكمالِ لهول يومك تَذْرِفُ والمجد يَرْعُدُ والشريعةُ تَرْجُفُ
رفَّاعَ ألويةِ العلاء أرى العُلا مهجورةً طرقاتُها تتلهَّف
كشَّافَ غَمَّاءِ المظالم بالهدى حارَ الهدى لما ثَوَى مَنْ يُنْصِفُ
يا قومُ حامى السَّرْح أقصده الرَّدَى بكُوا لـه بدم القلوب ونَزِّفوا
حجبوا السَّناءَ عن النواظر حينما هالوا عليك من التراب وأسرفوا

وهو يقول لأبيه إن عين الكمال تذرف الدمع مدرارا لهول يوم موتك ، والمجد يرعد رهبة والشريعة ترجف فزعا لموتك ، ويخاطبه : يا رافع ألوية العلاء والشرف أرى العلا هُجِرت طرقاتها وتلفت متلهفة لو تراك . ويا كاشف غمة المظالم فى القضاء بنور هداك حار الهدى لما مات من ينصف المظلومين . ويلتفت الشاعر إلى قومه فيقول لهم إن الموت طعَن حامى الحمى طعنة نافذة فابكوا له بدم القلوب حتى تنزفوه وتفنوه ، ولقد حجبوا ضياءك عن العيون حين هالوا عليك التراب وأكثروا منه . وكان يعاصر هذا الشاعر محمد سعيد العباسى ، وأنشد له صاحب كتاب الشعراء فى السودان طائفة غير قليلة من المراثى .

(١) ناضبا : نافدا . يخد : يشق .
(٢) وغلا : نذلا . مداجيا : منافقا
(٣) ديوان البنا ١/١٦٥ .

الشيخ محمد[1] سعيد العباسي

ولد بالكوة على النيل الأبيض جنوبى الخرطوم لأبيه محمد شريف شيخ الطريقة السمانية سنة ١٢٩٨ هـ/١٨٨١ م وعُنى بتربيته منذ نعومة أظفاره ، فأقرأه القرآن الكريم على مشايخ مهمين ، وحفظه ، فألحقه بأربعة شيوخ من علماء السودان لتعليمه العربية والعروض ، هم الشيوخ : عيسى الدولابى وإبراهيم الركابى ومحمد بدوى وأحمد العاقب الرطانى ، ولما أصبح كتشنر حاكما للسودان أشار على أبيه أن يلحقه بالمدرسة الحربية المصرية ، وسافر إليها سنة ١٨٩٩ للميلاد وظل بها سنتين فى تلك المدرسة ، وتوثقت العلاقة بينه وبين أستاذ اللغة العربية الشيخ عثمان زناتى ، وتفتحت موهبته الشعرية حينئذ وأخذ ينظم بعض أشعار كان يعجب بها أستاذه ويشجعه ، وأحسَّ بحنين شديد لبلاده وبواديه التى كان يرتادها فى غربى السودان ، وقطع دراسته وعاد إلى موطنه يجوب بواديه متمتعا بمناظرها ويصفها فى شعره مرارا وصف المفتون بها ، وبحق لاحظ الدكتور عبد المجيد عابدين فى كتابه تاريخ الثقافة العربية فى السودان – وكذلك الدكتور محمد إبراهيم الشوش فى كتابه الشعر الحديث فى السودان – تأثيرها العميق فى شعره . وقد ظل وفيا لمصر بارا ومحبا ، وشعره يكتظ بها وبالعواطف الوطنية والقومية والجوانب الاجتماعية . وجميع هذه الموضوعات عند العباسى اتسعت بعد ثورة سنة ١٩٢٤ التى نجعلها فاتحة العصر الحديث فى السودان ونهاية للعصر الذى نؤرخ فيه للشعر السودانى ، وقد انتقلت إلى الشاعر رياسة الطريقة السمانية الصوفية منذ وفاة أبيه سنة ١٣٢٥ هـ/١٩٠٨ م وهو جانب صوفى جدير بتتبعه ودراسته عنده . ويعد أهم شعراء هذا العصر الذى نؤرخ له من حيث دقة الخيال وجمال الصياغة . ومن قوله فى رثاء أبيه :

إن الليالى ذوات الغَدْرِ راعيةٌ ... ختالةٌ ونفوسُ الناس مَرْعاها[2]
وكان عهدى بها تسطو على مهلٍ ... واليوم صالتْ بيمناها ويُسْراها
بالسيِّدِ السَّنَدِ بن السيد السَّند الـ ... ـراقى سماءَ فخارٍ عزَّ مَرْقاها
يمحِّض الرشد للغاوى ويوضح من ... مناهج الحق للقُصَّاد أهداها
أزالَ عن مشكلات العلم منطقُه ... براقعَ الوهم عن زاهى مُحيَّاها
وإنْ تكلَّم فى علم السلوك له ... فيه عباراتُ ذَوْقٍ ما أُحَيْلاها

وهو يقول إن الليالى الغدارة الخادعة دائما ترعى نفوس الناس نفسا بعد نفس ، ويذكر

(١) انظر الشيخ محمد سعيد العباسى وترجمته وشعره فى شعراء السودان ص ٢٨٥ ونفثات اليراع ص ١٣٥ وتاريخ الثقافة العربية فى السودان للدكتور عبد المجيد عابدين ص ٢٠٩ وكتاب محمد سعيد العباسى للدكتور أحمد عبد الله سامى (طبع دار الإرشاد بالخرطوم) وكتاب الشعر والشعراء فى السودان لأحمد أبو سعد ص ٤٤ وما بعدها والفصل الثالث فى كتاب الشعر الحديث فى السودان : الحلقة الأولى : للدكتور محمد إبراهيم الشوش . وللعباسى ديوان ضخم باسم ديوان العباسى مطبوع بمصر .

(٢) ختالة : غدارة .

أن عهده بها تبطش على مهل ، ويراها اليوم تصول يسراها ويمناها على أبيه الذى كان سندا يعتمد عليه ، والذى صعد إلى سماء فخر يصعب الصعود إليها ، ويقول إنه كان يسدى النصح للضال عن الهدى ويوضح طريق الحق لقصاده الكثيرين الذين يبغون منه الرشاد ، وكان يرفع حجب الوهم عن مشكلات العلم ووجه الصواب الزاهي . أما فى التصوف والتقى فكانت له عبارات محكمة حلوة . ويبكى طائفة من آبائه منشدا :

أولاك آبـــائى الذيـن بِطَوْلهـم ... طالتْ يدى وسموتُ مَنْ ساماني[1]
أولاك هم بَصر الكمال وسَمْعُه ... وهمُ لأهــل الفضــل كالعنــوانِ
بمعــارفٍ وعـوارفٍ قُدْسيَّةٍ ... كالشمس لا تَخْفَى على إنسانِ
هم صيَّروا نهج الهداية واضحًا ... للطــالبين قَصيِّهـــم والــدَّانى
نظــروا إلى الدنيـــا بعين بصيرةٍ ... فتحوَّلوا عن ذا الوجــود الفــانى

والعباسى يذكر أن هؤلاء الآباء الذين رثاهم بفضلهم علا شأنه وسما على من ساماه وفاخره ، ويقول إنهم بصر الكمال وسمعه ، وهم كالعنوان لأهل الفضل بمعارفهم العلمية وعوارفهم القدسية وهم كالشمس لا يخفى فضلهم على أحد ، وقد صيَّروا طريق الهداية واضحا للناس البعيد منهم والقريب وقد نظروا إلى دنياهم بعين بصيرة فازدروها وتحولوا عن دار الفانية إلى دار الخلود . ويقول فى رثاء أستاذه الشيخ محمد البدوى مؤبنا :

كشف النقابَ عن العلوم فزفَّها ... خَوْدًا تفــوقُ على الحسان الخُرَّدِ[2]
مَنْ للعلوم جميعها ولِفقْه ما ... لِكَ والحديثِ صحيحِـــه والمُسْنَدِ
وبيانهـــا وبديعهـــا وأصـــولها ... فى منطـــقٍ وعويصهـــا المتعقِّدِ
إنى أُعَزِّى كل أمة أحمدٍ ... بمصيبة الحَبْرِ الإمـــــام محمـــدِ
وعليكِ يا دُنْيا السلامُ فقد خَوَتْ ... شمسُ الكمال وغاب بَدْرُ السؤدد[3]

وهو يوضح مدى الخسارة العلمية فى أستاذه فقد رفع الحجاب عن العلوم وزفها إلى تلاميذه كفتاة جميلة تفوق فى جمالها الحسان المتلألئات الفاتنات ، ويقول مَنْ يحل محله للفقه والحديث النبوى ولعلوم البيان والبديع والأصول وتذليل العويص والمشكل فيها . ويعزى الأمة الإسلامية فى مصيبتها به ، ويقول : على الدنيا السلام فقد هوت شمس الكمال وغاب بدر المجد والشرف .

(ب) رثاء المدن

عرف الشعر العربى رثاء المدن منذ رمى عبد الله بن طاهر قائد المأمون بغداد بالمجانيق

---

(١) طول : فضل : طالت : علت وارتفعت . ساماه : فاخره.

(٢) الخود : الفتاة الجميلة . الخرد جمع خريدة : اللؤلؤة والمرأة الفاتنة .

(٣) خوى : هوى وسقط .

واشتعلت بها النيران والحرائق فقد رثاها غير شاعر ، ورثى ابن الرومى البصرة حين نكل بها الزنج ، وأكثر الأندلسيون من رثاء مدنهم حين سقوطها فى حجور الإسبان ، ورثى ابن رشيق وابن شرف القيروان حين أغارت عليها قبائل الأعراب من بنى هلال وسليم فى أواسط القرن الخامس الهجرى وخربتها . ولم يحدث شىء من ذلك لمدينة فى السودان ، إنما حدثت أحيانا أمطار وسيول هدمت مبانى بعض المدن وأصبحت كثرة أهلها فى العراء سوى من مات منهم وجرفته السيول . ومدينتان حدثت لهما هذه النكبة المروعة هما عطبرة وأم دومان . وكانت نكبة عطبرة سنة ١٩٢١ للميلاد أشد هولا ، فقد انقضّت بها كثرة من المنازل ، وعمّ البؤس كثيرا من الأسر ، وممن رثاها مستصرخا للناس أن يمدوا أهلها بالعون والمساعدات عبد الله كردى ، وفيها يقول[1] :

يا آلَ عَطْبرةٍ تعهَّد حيَّكم ... وَبْلٌ بسارية الدموعِ هَطُولُ[2]
جَرف المنازلَ ثم طوَّح بعضَها ... فإذا بها فوق الفضاء طُلُولُ
لَهْفى على دورٍ هَوَى بنيانُها ... بالأمس فيه لساكنيه حلولُ
لهفى على تلك العروش فإنها ... طاحتْ وأقْوَى رَبْعُها المأهول[3]
لهفى على مالٍ غريقٍ ربُّه ... متجلِّدٌ وفؤادُه متبولُ[4]
يا معشر الكرماء هل من رحمةٍ ... إنَّ الضعيف لفضلكم موكول
إن تُنْفقوا فالفضل لا يُنسَى لكم ... أبدا ويحمدُكم عليه الجيلُ
والله يَجْزيكم ومن يُجْزَى غدًا ... عن صالحٍ فصنيعُه مقبول

وهو يقول لأهل عطبرة إن منازلكم تعهدها ونزل بها خطب عظيم إذ ظلت ساريات الليل وسحبه تصب عليها سيول المطر التى جرفتها ، وطوّحت بها فى الفضاء من حولها ، وأصبحت تلك المنازل طلولا خربة ، بعد أن كانت عامرة بأهلها . واحسرتاه على تلك الدور التى خر بنيانها وتلك العروش التى تداعت وأقفرت من سكانها ، والأموال التى غرقت فى السيول أمام أعين أصحابها ، وهم متجلدون ذاهلون . ويسترحم الكرام لهؤلاء الضعفاء البؤساء ، ويقول لهم إن كل ماتواسونهم به وتنفقونه لن يُنسَى لكم أبدا ، وسيظل هذا الجيل يحفظه لكم ويحمدكم عليه ، والله يجزيكم خير الجزاء لهذا العمل البارّ الذى لا شك فى أنه عمل صالح ، وسيتقبّله الله منكم . وتنزل بأم دورمان سيول كاسحة ويرثيها مدثّر اليوشى ، ومن قوله[5] .

(١) شعراء السودان ص ١٨١ .
(٢) وبل :مطر . سارية السحابة ليلا . هطول : شديد الانصباب .
(٣) طاحت : ترامت : أقوى : أقفر
(٤) متبول : مذهول .
(٥) شعراء السودان ص ٢٣٨

هَمرَ الرُّكامُ فسامَ أزهارَ الرُّبى خَسْفًا وعـاثَ بروضةٍ ووهـادِ[1]
تُذْرى الدماءَ على الخدود أراملٌ يندبـن خشـيةَ ضيعةِ الأولادِ[2]
عَبَس الزمانُ بوجههم فأذاقهم ما لم يُذقه مكبَّلَ الأصفـادِ[3]
مَنْ ذا يُسَـرِّى همَّهم ويريحهـم من نقمةٍ طرقَتْهُمُ وعَـوادى[4]
فالغيثُ قد أخطا وما يدرى أبا لأرض السويَّـةِ سـال أم بالوادى
لكنَّـه حُمَّ القضـاءُ لتعلموا أن الحيـاة معونةٌ وأيادى[5]

ومدثر يذكر أن ركام المطر انهمر انهمارا شديدا فأنزل بأزهار الربى خسفا وهوانا وعاث فسادا بالرياض والوهاد ، وسالت دموع الأرامل دماء على خدودها يندبن ويبكين خوفا من ضيعة الأولاد . ويقول إن الزمان عبس وتجهم فى وجوههم فأذاقهم من ضنك العيش ما لم يذقه المكبّل بالأغلال ، ويهتف الشاعر فى الناس : من ذا يزيل همومهم ويريحهم من عذاب هذه الكارثة التى نزلت بهم ومن عوادى الدهر ونوائبه ، ويذكر أن الغيث أخطأ ، وسقط دون أن يدرى أيسقط على أم درمان أو على واد من الوديان ، ويهتف فى قومه : لقد حُمَّ القضاء وقُدِّر ، لتعلموا أن الحياة معونة ومنن سابغة ، فواجب عليكم أن تسعفوا أهل أم درمان أشقَّاءكم ، وتعينوهم بالمنن والنعم الوافرة .

(١) ركام المطر : ما تراكم منه . سامه خسفا : أنزل به هوانا .
(٢) تذرى : تُسيل .
(٣) عبس : تجهم . مكبَّل : من كبله أى قيده . الأصفاد : الأغلال والقيود .
(٤) يسرى : يزيل . عوادى : نوائب الزمن وكوارثه .
(٥) حم : قضى وقدر .

الفصل الرابع

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل العفيف

مر بنا في الجزء الخاص بالعصر الإسلامي أن الغزل حينئذ كان نوعين : نوعا ماديا صريحا ونوعا عذريا عفيفا ، وشاع النوع الأول في المدن التي تحضرت على لسان عمر بن أبي ربيعة وأضرابه ، بينما شاع النوع الثاني في بوادي نجد والحجاز وعلى لسان فقهاء المدينة من أمثال عبد الرحمن بن أبي عمار الجشمي . ولم يعرف السودان النوع الأول الصريح الذي يصور جمال المرأة المادي وحب الشاعر الحضري وأحاسيسه وصدوره فيه أحيانا عن الغريزة النوعية ، إنما عرف الغزل العذري النقي الطاهر على لسان بعض شيوخه وألسنة شبابه ، لأن حياتهم كانت تقوم دائما على الخلق الكريم ومثالية الإسلام السامية . ونسوق بعض أمثلة توضح ذلك ، مع ملاحظة أن كثيرا من هذا الغزل كان ينظم في فواتح قصائد المديح وغيره أسوة بالشعراء القدماء ، على نحو ما نجد عند الشيخ عمر الأزهري المتوفى سنة ١٩١٥ للميلاد في افتتاحه لنبوياته كقوله في مطلع إحداها[(١)] :

بادٍ هواهُ وزائدٌ خفقانُه ... صَبٌّ تفرَّق بالنَّوى أَخْدانُه[(٢)]

قد خانَه حسنُ التصبُّر بعدما ... بانوا ووفَّتْ بالبُكا أجفانُه

عجبا لربعٍ باللِّوَى لعبتْ بهِ ... أيدى النَّوَى فتفرَّقتْ سكَّانُه

ياظاعنا يطوى الفَلا رفقًا فإنَّ ... الرَّكب ضَلَّ من السُّرَى وخَدانُه[(٣)]

وقفوا المطيَّ ولو كلمْحَةِ ناظرٍ ... نعسى المعنَّى تنطفى نيرانُه

وارحمْ محبًّا صَدْرُه ضاقت بهِ ... أسرارُه وتزايدتْ أشجانُه

وهو يذكر أن علامات الهوى من الشحوب والضَّنا واضحة عليه وخفقان قلبه مفرط ، إنه محب ، شُتِّتَ النوى والبعاد أصدقاءه ، ولم يعد يستطيع صبرا بعد نأيهم وفراقهم وقد انهمرت الدموع من أجفانه ، ويعجب لعبث أيدى الفراق بسكان ربع باللِّوى : ربع الحبيبة ، ويهتف بالراحل مع ركبه يطوى الفيافي أن يرفق به فإن الركب ضل في الليل بسيره السريع ،

(١) شعراء السودان ص ٢٥٢ .

(٢) أخدانه جمع خدن : الصديق .

(٣) الوخدان : ضرب من سير الابل السريع

ويقول له قف المطيّ ولو لحة ليتملّى بجمال صاحبته ، عسى نيران الحب المشتعلة فى فؤاده تنطفىء ، ويسأله الرحمة بمحب ازدحمت فى صدره أسرار الهوى وشجونه . وللشيخ محمد عمر البنا في صدر مدحة قوله متغزلا[1] :

أبـدًا يـؤرّقنى عَبيرُ شَذاكِ ويزيدنـى قلقا دوامُ جَفـاكِ
ويردّنى من حالة العقلا إلى حال الخبال تذلّلى وإباكِ
ويزيدنا طربًا وحسنَ مسرّةٍ برقٌ تألق من ضياء سَناكِ
يا ربّةَ الحُسْنِ الذى فَتَن الوَرَى أكذا يكون جزاءُ مَنْ يَهْواكِ
عذّبْتِنى بالصّدِّ والهجـران ما ذنبى سوى أنى أرومُ لِقـاكِ

والشيخ محمد عمر البنا يقول إنه دائما مؤرّق ، يؤرقه طيب عطر صاحبته وانتشاره ، ويزيده قلقا وحيرة دوام جفائها ، ويكاد يختبل عقله من كثرة تذلله لها وشدة إبائها ، وإنه ليسره ويطربه شعاع برق يتألق من ضياء نورها ، ويضرع لها قائلا : ياربّة الحسن الذى فتنت به الناس أهكذا تجزين من يحبك ، لقد عذّبتنى بالصد والهجران ولا ذنب لى سوى أنى أريد لقاءك لأروى الظمأ الحار إلى هذا اللقاء . ويلقانا معاصره الشيخ أبو القاسم أحمد هاشم وسنفرد له ترجمة ، ويقول الشيخ مجذوب جلال الدين المدرس بالقسم الثانوى بكلية غردون متغزلا[2] :

ملكَ النُّهَى والملكُ بعضُ صفاتِه رِيمٌ أغنُّ يَتيـــه بين لِداتـــهِ[3]
رَشأٌ شَدَا فَزِعا لأنى رُعْته إذ جئتـــه وذُعِرْتُ من لفتاتـــهِ[4]
نشوانُ من خَمْرِ الدَّلال حسبتُه هاروتَ كلُّ السحر فى لحظاتِهِ
وسَنانُ كامـلُ يقظـةٍ لكنـــه كسرَ الجفونَ لكسْر قلب دعاتِهِ
كسلانُ أنشطُ من رأيتَ إذا أحـ ـسَّ بهائـــمٍ متعشّـق لصفاتـــه
ضَمّتْ جوانحـــه اللطيفةُ صَخْرةً هى قلبـــه هيهـــات لينُ صَفاتِهِ[5]
يا نَرْجِسًا يَسْقى لـروض خدودهِ كَفْكِفْ لنجنى الـوردَ من ثمراتـه

والشيخ مجذوب يقول عن صاحبته إنها ظبى فى صوته غُنّة يتيه دلالا وجمالا بين لداته ، إنها ظبى لايزال صغيرا ، ترنّم بصوته فزعا لأنه خاف حين رآنى ، وذُعرت من كثرة لفتاته ، وحسبته منتشيا من خمر الدلال كأنه هاروت وكل السحر فى لحظاته . ويُرَى كأنه وسنان لفتور عينية وهو كامل اليقظة ، وكأنما كَسَر جفونه – كما يقول – لكسر قلوب محبيه ، ويظن أن به كسلا وهو أنشط ما يكون إذا رأى صبًّا عاشقا له ، وقد ضم بين جوانحه قلبا كأنه

(١) شعراء السودان ص ٢٨١ .
(٢) شعراء السودان ص ٢٦٥ .
(٣) ريم : ظبى . أغن : بصوته غنة . لداته : أترابه .
(٤) رشأ : ظبى صغير . شدا : ترنم .
(٥) الصفاة :حجر أملس عريض .

صخرة أو صفاة أو حجر لا يلين أبدا . ويُذْرى الدّمع كأنما يريد أن يسقى روض خدوده ، ويقول له قف الدمع لنجنى الورد من روض الخدود البديع . ويقول صالح[1] عبد القادر :

وغـزالٍ همتُ فيــهِ أسْهَرَ العيـنَ وناما
ما كفاه الهجرُ حتى حرَم العيـنَ المناما
هو عمدا نكث العَهْـ ـدَ ولم يَرْعَ الذّماما
لا تلوموا ذا شجونٍ سنّ للنـاس الغراما
كلما نـاح اشتياقـًا علَّـم النَّـوْحَ الحماما

وصالح عبد القادر هام بغزال أسهره ، وكأنما لم يكفه الهجران ، فحرم عينيه النوم ، وقد نقض العهد ولم يرع الذمام والميثاق ، ويقول لقومه لا تلوموا محبا شرع للناس سنن الحب وكلما ناح اشتياقا وولعا وهياما خُيِّل إلى سامعه كأنما هو الذى علم الحمام النوح والعويل .

ويقول عثمان هاشم متغزلا[2] :

يا ظَبْيُ هل لأسير لَحْظِك فادى أم لافكَاكَ لـه من الأصْفـادِ[3]
جَرَّدت من لَحْظَيْك عَضْبًا فاتكا وهززتـه ففتكتَ بالآسـادِ[4]
نلتَ المنى فى الحسن أنت ولم أَنَلْ من طيب وَصْلك بُغْيتى ومرادى
لولا الحياءُ لقادنى لك فى الدُّجَى شوقٌ أذاب حُشاشتى وفؤادى[5]

وهو يسأل صاحبته هل يوجد من يفدى أسيرا لعينيك الجميلتين أم لا خلاص له من أغلال هذا الأسر وقيوده ، ويقول : لقد سللت من عينيك سيفا قاطعا ، وفتكت بالأسد الشجاع ، ولقد نلت فى الحسن كل ما تمنيت ، ولم أنل شيئا من طيب وصلك ، ولولا حيائى لقادنى إليك فى الليل شوق أذاب منى الحشاشة والفؤاد . ويقول الشيخ محمد سعيد العباسى[6] :

بالله يا حُلْوَ اللّما مالك تجفو مُغْرَمَا[7]
صددتَ عنى ظالمًا أفديك يا من ظَلما
هلا ذكرتَ يا رَشَا عَيْشًا تَقضَّى بالحِمَى
رفقا بصبٍّ راح يَهْـ ـوَى طَيْفَكَ المسلِّما
إن شامَ من نحوكُمُ برقا أقـام مأتما[8]
ويكتم الوَجْـدَ وكم يَغْلِبُـه أنْ يُكَتَما

(١) شعراء السودان ص ١٤٩ .
(٢) شعراء السودان ص ٢٢١ .
(٣) الأصفاد : الأغلال .
(٤) جردت: سللت. عضبا: سيفاحادا .فاتكا : قاطعا .
(٥) حشاشتى : بقية روحى .
(٦) نفثات اليراع ص ١٣٦ وشعراء السودان ص ٢٩٥ وكتاب محمد سعيد العباسى ص ١٩٧ وراجع ديوانه .
(٧) اللما : سمرة فى الشفة .
(٨) شام : رأى .

والغزل عذب رقيق رقة مفرطة ، وهو يستهله باستحلافه لحلو اللما أو سمرة الشفة ماله يجفو صبًّا مغرما به . ومع أنه يصد عنه ظالما يفديه بروحه ، ويذكِّره بعيش وأيام مرت بالحمى ، ويقول له : ارفق بصبٍّ ، لم يعد له إلا طيفك فى الحلم يهواه ، وإن رأى برقا لمع من أفقكم ندب وبكى طويلا ، ويكتم الوجد والهيام وكم يغلبه كتمانه . ويمضى فى القصيدة منشدا :

لله محبـــوبٌ رأى	حبَّـــةَ قلبى فـرَمَى
أعـيذهُ من جائـرٍ	حكَّمْتُـــهُ فاحتكما(1)
لقيتُـــه فى أربــعٍ	بيضٍ كأمثـال الدُّما
شابهنَ أزهــار الرَّبيـ	ـع وحكين الأنجمـا
وقفــتُ فاستسقيتُـــه	وشدَّ ما بى مِنْ ظَما
جاء بمــاءٍ قلت هـل	حاجةُ مثلى منك ما(2)

وهو يشكو محبوبه لربه فقد أبصر سويداء قلبه وفؤاده فرماه ، ويعيذه أن يكون ظالما فقد حكَّمه فتصرف حسب هواه ومشيئته . ويقول إنه لقيها فى أربع جميلات من حولها كأمثال الدُّمَى البديعة ، شابَهْنَ أزهار الربيع العاطرة والأنجم الساطعة ، وطلب منها جرعة ماء تشفى ظمأه ، وجاءته بالماء ، فقال لها مداعبا :وهل حاجة الصبِّ المغرم مثلى منك إلى ماء ؟ ! . وهو يسترسل فى القصيدة من هذا الحب للفتاة إلى حبه لمصر التى قضى فيها فترة من شبابه ، فملكت عليه ذات نفسه ، وظل يمجِّدها ويتغنى بها غناء حارا طوال حياته فى أشعاره وقصائده الرائعة . ونتوقف قليلا لنترجم للشيخ الجليل أبى القاسم أحمد هاشم ، ونعرض بعض غزلياته العفيفة الطاهرة .

الشيخ أبو القاسم(3) أحمد هاشم وغزله العذرى العفيف

ولد فى « برى » إحدى ضواحى الخرطوم سنة ١٢٨٧ هـ/١٨٦١ م وهو من بيت شيوخ دين وقضاة ينتمون إلى العباس بن عبد المطلب ، وألحقه أبوه الشيخ أحمد هاشم بقرَّاء حفَّظوه القرآن الكريم ، وحفظه وهو فى العاشرة من عمره ، وانتقل أبوه إلى بربر قاضيا لمديريَّتها ، وألحقه بمدرستها ، حتى إذا اشتد عوده قليلا أخذ يدرس العلوم الدينية واللغوية على أستاذه الشيخ محمد الخير عبد الله ، ثم على أستاذه الحسنى السيد حسين المجدى الأزهرى ، وعليه درس النحو وكتاب جمع الجوامع فى الأصول . حتى إذا نضج علميا عُيِّن مدرسا بجامع بربر واستولى عليها المهدى ففرَّ به منه واتخذه كاتبا له ، وبالمثل اتخذه خليفته عبدالله التعايشى ،

---

(1) احتكم هنا : تصرَّف كما يشاء .

(2) ما : ماء .

(3) انظر فى ترجمة أبى القاسم وشعره شعراء السودان ص ٣١ وما بعدها والشعر الحديث فى السودان للدكتور الشوش ص ١٧.

حتى إذا سقطت الدعوة المهدية وقام الحكم الثنائى المصرى الإنجليزى بالسودان عُيّن قاضيا لمدينة سنار سنة ١٨٩٩ للميلاد . وفى سنة ١٩٠٦ نقل إلى مديرية النيل الأزرق قاضيا ، ولمكانته العلمية وسيرته الحميدة عين سنة ١٩١٢ شيخا لعلماء السودان ، وأقنع الحكومة ببناء مسجد جديد فى أم درمان وبناء معهد دينى يلحق به ، وكان المعهد قد أنشىء منذ سنة ١٩٠١ فى جامع أم درمان لتدريس العلوم الدينية ، فجعل له مبنى مستقلا ، وجعل نظام التدريس فيه مثل نظام الأزهر ، فالطلاب يختلفون فيه إلى ثلاث مراحل ، كل مرحلة أربع سنوات ، وفى السنة الأخيرة ينالون شهادة العالمية ، وكان ذلك عملا جليلا للشيخ أبى القاسم ، إذ بدأ به نهضة علمية دينية فى السودان ، وظل يتعهده نحو عشرين عاما إلى وفاته . وكان شاعرا بارعا ، وله غزليات عذرية عفيفة تارة يفردها وتارة يجعلها مقدمة لمدائحه النبوية ، ومن مقدماته لإحدى تلك المدائح قوله :

ليلى بدتْ لما أضـاءَ الكوكبُ ... فمحتْ ضيَاهُ وزال عنا الغَيْهَبُ[1]
واستقبلتْ قمـرَ الزمـان فناله ... من حسنها الكَلَفُ الذى لا يذهب[2]
وتفـرَّدت فى حُسْنهـا ودلالهـا ... وحوتْ من الأوصاف ما يُسْتَغرب
فتزاحمتْ عشاقُ حسنٍ جمالهـا ... كـلٌّ لحسن وِصالهـا يتطلَّب
والعشق صعبٌ لا يطيـقُ صُروفَـه ... إلا الـذى لعذابـه يَسْتعـذِبُ

والشيخ أبو القاسم يقول لما بدا ضياء وجه ليلى محا ضياء الكوكب لأنه أشد منه سطوعا ، واستقبلت القمر فناله من حسنها — خفرا وحياءً — غضون لا تفارق وجهه أبدا . ويقول إنها انفردت بحسنها ودلالها وحوت من أوصاف الجمال ما يخال مستغربا ، فتزاحمت عشاقها وكلٌّ يتمنى الوصال ، والعشق — بحق — صعب ، ولا يطيق أحواله وآلامه إلا من يجد عذابه مستعذبا حلوا . ويقول متغزلا :

فتورٌ بَجفْنَىْ من أحبُّ سبانى ... وتوريدُ خدَّيه استطـار جَنـانى[4]
ورقَّة خَصْرٍ واحتشامُ شمائلٍ ... حكمن بأسْرِى واسْتَنَّ هـوانى
وإن الهوى العُذْرِىَّ أيْسَرُ حاله ... توقُّـدُ نـيرانٍ بغير دخـانِ
وإنِّىَ مذ عُلِّقْتُ ليلى بخاطرى ... جفيتُ منامى وافتقدتُ الأمانى
سلاها فهل قلبى سلاها وهل جرى ... حـديثٌ سـواها فى فمى ولسـانى

وهو يذكر أن الفتور بجفنى محبوبته أسره ، وتوريد خديها أذهله وأطار عقله ، وبالمثل رقة الخصر وحسن الخلال ، كل ذلك حكم عليه بالأسر واستنَّ هوانه . وما أشد الهوى العذرى

---

(١) الغيهب : الظلام .
(٢) كلف القمر : ما يُرى على سطحه من بعض التغيرات .
(٤) استطار : أطار ، أذهل . الجنان : العقل .

إن أيسر أحواله توقد نيرانه فى الصدر والفؤاد ، وإنه مذ أحبَّ ليلى جفاه النوم وفقد كل أمانيه إلا أمنية وصالها ، واسألاها هل سلاها قلبى وهل نطق فمى ولسانى بحديث سواها ، إنها كل شغلى فى الحياة . ويقول :

بسمتْ عن دُرِّ ثَغْرٍ مستبينْ … منَع البـدرَ ضياه أن يبينْ
وبدتْ للورد فى خدٍّ نَضيـ … ـرٍ فراح الوردُ مصفرَّ الجبين
وأمالتْ قدَّها فالبانُ فى … خجلةٍ يَضْحك منها الياسمين
ورمتْ باللَّحْظِ منهـا فأصا … بتْ به حَبَّ قلوب العاشقين
فتراهم من جِراحات اللوا … حظ ما بين قتيـلٍ وطعين
هكذا مَنْ يعشق الخُودَ الحسا … نَ يَذُقْ مرَّ الهوى عَذْبًا مَعِين(١)
وكـأن الله قد صـوَّرهـا … من هوى الأنفسِ لا ماءٍ وطين

فصاحبته أو محبوبته بسمت عن لآلىء ثغر واضح منع ضياء البدر أن يبين ، وبدا للورد خدها الناضر فصار مصفرَّ الجبين حياء وخجلا ، وأمالت قدها الممشوق فخجل شجر البان المشهور بقدِّه الجميل خجلا يَضْحك منه الياسمين ، ورمت بسهام لحظها فأصابت به أفئدة العاشقين ، فتراهم من جراح السهام ما بين قتيل وجريح طعين . وهكذا من يعشق الفاتنات الحسان يذق مر الهوى ، ويصبح فى فمه عذبا سائغا ، وكأن الله صورها من هوى الأنفس ومحبتها لا من ماء وطين كغيرها من البشر ، إنها ملاك إنسى . ويقول متغزلا :

تجنَّى على مقتولـه وتجرَّمـا … أشأنُ غزالِ الحسن أن يُهْدِر الدَّما
وما حيلتى والقلبُ أسْرُ لحاظها … ومهمـا رنتْ مـال الضمـير مسلِّما
فإن أقبلتْ فالجنَّـة الخُلْدُ نُزْلُـهُ … وإن أعرضَتْ قد حَلَّ نُـزْلا جَهنَّما(٢)
فكيف خلاصى يا رفاقى ودَأْبُها الـ … ـصُّدودُ ورُكْن الصَّبْر منى تهدَّما
وإن قلتُ إنى صادق الوُدِّ والوفا … تقول ألا مُتْ فى صدودى متيَّما
وجِئْتُ لأنى لم أجد مِنْ عَنَا الهوى … خلاصا فألجو أو إلى الوصل سُلَّما
وحسبىَ أن أحْظَى بطيفِ خيالهـا … إذا هى لـم تسمح بوصلى تكرُّمـا

والشيخ أبو القاسم يذكر أن صاحبته تجنت على قتيلها بسهام عينيها ، وهل ذلك شأن الغزال الجميل أن يهدر الدماء ، ويقول ما حيلتى وقد أسرت القلب بلحاظها ، والضمير دائما مسلِّم لها مستسلم ، وإن هى أقبلت أحسَّ القلب كأنه فى منزل من منازل الجنة ، وإن هى أعرضت أحسَّ كأنه فى منزل من منازل الجحيم ، فكيف خلاصه ودأبها دائما الصدود

(١) معين : سائغ .
(٢) نزلا : منزلا .

والهجران وقد تهدم منه ركن الصبر الجميل ؟ . وإن قال لها ضارعا إني صادق الحب والوفا قالت له : مت في هجراني متيما بي عاشقا ، وحارَ لأنه لم يجد خلاصا من شقائه بحبها ولا طريقا إلى وصالها ، ويعود إلى نفسه قائلا : حسبي أن أحظى بطيف خيالها في الحلم ، مادامت لا تسمح بوصلها كرما وعطفا على العاشق الولهان . وغزليات الشيخ أبي القاسم – كما رأينا – سلسة عذبة . وهي غزليات حب عذري عفيف تقي سامٍ ، في لغة سهلة وموسيقى وافرة حلوة .

٢

شعراء النقد العنيف والشكوى من الزمن

أخذ الشباب السوداني الطامح في الربع الأول من القرن الحاضر يشعر شعورًا عميقًا بالآلام التي تعيشها أمته وأثقالها ، واقترن ذلك في نفسه بيأس من أن تتحقق آماله ، وبذلك اجتمع عليه الإحساس بمرارة حياته ، والإحساس بمرارة حياة أمته ، أما مرارة حياته فقد عبر عنها الشاعر السوداني بشكوى طويلة من الزمن ، وأما مرارة حياة أمته فقد عبر عنها بنقد صارخ صوَّر فيه قعودها عن المطالبة بحقوقها ، وهو تارة يعرض على الشباب مجد آبائه الأولين لعله يحاكيهم ويسترد شيئا من مجدهم ، وتارة ثانية يعرض عليه عيوبه الاجتماعية والأخلاقية كي يتخلَّص منها ويسترد كرامته ومكانته الخليقة به ، وممن يتردد على لسانهم اللونان من النقد والشكوى من الزمن محمود أنيس المولود سنة ١٨٩٣ للميلاد ، إذ ينشد في حفل للمولد النبوي سنة ١٣٤٠هـ/١٩٢٢م قوله في مدحة نبوية[1] :

زُرِعَ الجفاءُ بنا وأثمر غرسهُ ... فتنافر الأبنـاء والآبـاءُ
وتفاخرتْ بالموبقات صغارُنا ... وشيوخُنا فَهزاَ بنا الأعداءُ
وتسايلتْ منا النفوسُ حزينةً ... جَرْحَى ونال جميعَنا الإعياءُ
واهًا على الإسـلام ماذا نابـه ... وهْو الشفاءُ ومـا سواه شفاء

وهو يقول إن الجفاء غُرس بيننا جميعا وتنافرنا حتى لقد تنافر الأبناء والآباء ، وأعجب العجب أن يفاخر الشباب والشيوخ باقتراف المحرمات مما جعل الأعداء تهزأ بنا هزءًا شديدًا ، وإننا ليشملنا حزن بالغ حتى لكأننا جرحى ، بل لقد نالنا جميعا الإعياء ، فواحسرتا على الإسلام ماذا أصابه ، وهو الشفاء والبلسم لكل النفوس . وعلى نفس هذه القيثارة يقول عبد الرحمن شوقي في ذكرى الهجرة بالسنة التالية[2] :

(1) شعراء السودان ص ٣٢٥ . وراجع حديث الدكتور الشوش عن الشاعر في كتابه الشعر الحديث في السودان .
(2) نفثات اليراع ص ١٨٤ وشعراء السودان ص ٢٠٤

تبيتُ على الهمِّ الممضِّ نفوسُنا ... وتمشى على جَمْرٍ من الذل أَضْرِما
نِنامُ ومِلءُ العين همٌّ وحسرةٌ ... وأعيُنُنا حزنـاً تفيض لنـا دمـا
فياليت شعرى هل أرى النيل جاريا ... طليقـا كدمعى إذ يسيل مُعَنْدما[1]
وهل سأرى يومًا عن الغاب أُسْدَهُ ... تذودُ إذا ما الليـل فى الغـاب أظلما
وهل يُرْتَجَى الإصلاحُ والشعب نائمٌ ... وهـل يبلـغ الآمـالَ من كان نائما
ولِـمْ لا أرى ما بيننا غير صامتٍ ... وقـد آن للأحجـار أن تتكلّمـا

ونفس عبد الرحمن شوقى ونفوس أمثاله من أبناء وطنه تبيت مسهدة على هم مؤلم غاية الألم ، وكأنما إذا مشت تمشى على جمر مشتعل من الذل ، وإذا ناموا ينامون وعيونهم ملأى بالهموم والحسرات على وطنهم مكتظة حزنا لا بالدموع ولكن بدماء القلوب والأفئدة . ويتساءل هل سيرى أهل النيل طلقاء من الأسر ، والنيل يجرى محملا بذهب الطَّمْى الأحمر كعادته ، وهل سيذود أسد الغاب عن عرينه الذى خيَّم عليه الظلام . وغمره اليأس ، فالشعب نائم ، والنائم لا يبلغ أملا من آماله ، ويعجب لصمت من حوله من أهل السودان بينما توشك الأحجار الخرساء على النطق بآمال الشعب وأمانيه . ويصرخ فى قصيدة ثانية[2] :

مضى زمـانٌ وقلبى ممتـلئٌ ألمًا ... وفى فؤادى أسىً كالنـار مضطرما
حزنـا على أمـةٍ بالنيل نائمـةٍ ... تشكو الأُوَار وأخشى أن تموت ظَما

فقد مر به زمان طويل وقلبه مكتظ بالألم وفؤاده ملىء بلواعج أسى مشتعل كالنار الحامية حزنا على أمته النائمة فى وديان النيل تشكو حرارة العطش ولهبه المتقد ، ويشفق لها الشاعر شفقة حزينة إذ يخشى عليها من الموت ظمأ والماء مدّ أيديها وتحت أبصارها . ومثل هذا النقد العنيف كثير فى الشعر السودانى وسنترجم فيه للشيخ عبدالله محمد عمر البنا بعد قليل . ويقول الشيخ حسيب داعيا عناصر الأمة السودانية إلى وقف ما بينها من تناحر شديد[3] :

الإتحـادُ هو الحيـاةُ وإنمـا ... موتُ الشعوب تفرُّق الأفـرادِ
كم أمةٍ نهضتْ به فتمتعت ... بحياتها من بعد ما استعبادِ
ولكم ترَى من قُوَّةٍ وممالكٍ ... نزل الشقاقُ بها لشرِّ مِهادِ
تلك الشعوبُ تروم جَمْع شتاتها ... وهنـا نَبيع الجمعَ بالآحـادِ
إنى سئمتُ النُّصْحَ غيرَ مؤثّـرٍ ... وعتابَ قـومٍ فى سِنات رُقـادِ

وهو يدعو قومه السودانيين إلى الاتحاد ، ويقول إن الشعوب لا تحيا بدونه إذ بدونه تفقد حياتها وتموت إلى الأبد ، وكم من أمة نهضت بالاتحاد فاستمتعت بحياتها لتخلصها من نير

(1) معندما : دما أحمر .
(2) نفثات اليراع ص ١٨٧ وشعراء السودان ص ٢٠٤ .
(3) شعراء السودان ص١٢٣ وانظر ترجمته عند الدكتور الشوش فى كتابه الشعر الحديث فى السودان ص ١١٥ .

الاستعباد ، وكم من ممالك حدث بين أهلها الشقاق فوقعت فى شر أعمالها ، ولذلك تعمل جميع الشعوب على الاتحاد الدائم بين أبنائها ، بينما نحن ننقسم ونتفرق . ولقد سئمت تقديم نصحى لأمتى إذ أراه غير مؤثر ، وكأنى أنصح وأعاتب قومًا نياما . ويقول شاكيا من الزمن وهمومه وتناوبها له همًّا من وراء هم[1] :

أَلِفَ الهمومَ برغمه وأَلِفْتُهُ ... فَغَدا بوادٍ والسُّرورُ بوادِى
لا تستقرُّ رِكابُهُ فى بلدةٍ ... حتى ينادى بالرحيل مُنادِى
وكأننى كرةٌ ودهرى لاعبٌ ... يرمى بها الحَدَثانِ باستبدادِ
ليصيبها بى بل بها ليصيبنى ... والدهر أرمى لاعبٍ ومُعادِ
لكنه مهما ارتقى لا يرتقى ... لينال من صبرى بِذا الإسآدِ[2]
إن شاب رأسى بالخطوب فلم يَشِبْ ... عزمى الفتىُّ ولا ذكىُّ فؤادى

وكان الشيخ حسين ، قد وُظِّف كاتبا فى المحاكم الشرعية ، وكان رؤساؤه ينقلونه من محكمة إلى أخرى فى أنحاء السودان . وهو يقول إنه أصبح – منذ توظف – تربا للهموم يألفها وتألفه ، وفارقه السرور ، وكأنما غدا بواد والسرور بواد آخر . ويشكو من كثرة تنقلاته فى وظيفته ، فلا يكاد يستقر فى بلدة حتى يؤمر بمبارحتها إلى بلدة أخرى ، وكأنما أصبح كرة يلعب بها الزمان ، ويرمى بالنوائب والأحداث ليصيبها بى ، بل ليصيبنى بها ، والدهر أرمى لاعب ومُعادٍ ، ولكنه مهما صنع ومهما رمانى ليلا أو نهارًا فلن ينال من صبرى ، وحتى لو شاب رأسى لما ينزل بى من خطوب فلن يشيب عزمى القوى ولا فؤادى الذكى . وله قصيدة يشكو فيها من مرتبه الضئيل ساخرا ، وفيها يقول مخاطبا لمرتبه[3] :

أمرتبى مالى أرا ... ك قصرْتَ عن نَيْل المرادْ
أشكوك أم أشكو إليـ ... ـك نوازلَ المحن الشِّداد
الجَيْبُ خالٍ أبيضٌ ... وبياضُه عين السَّواد
إن رمتُ صبرا عزَّنى ... وأمضَّنى طولُ السُّهاد[4]
أو رُمْتُ قَرْضًا ردَّنى ... عنه الحياءُ من العبادْ
أو هكذا حظُّ الألَى ... طلبوا المعالى بالمِدادْ

وهو يذكر لمرتبه أنه لا يكفيه لنيل المراد المطلوب ، ولا يدرى أيشكوه أم يشكو إليه ما ينزل به من المحن الصعاب ، فجيبه خال أبيض ليس فيه أى نقود وهو بياض فى الظاهر لكنه فى حقيقته أشد من السواد ، وإن طلبت صبرا عزنى ولم أستطعه ، أو فكرت فى قرض ردّنى

(١) شعراء السودان ص ١٢٤ .
(٢) الإسآد : السير ليلا ويريد نزول الهموم به .
(٣) شعراء السودان ص ١١٨ .
(٤) عزنى : قهرنى . أمضنى : آلمنى .

الحياء عن طلبه من الناس . ونتوقف لنترجم للشيخ عبد الله البنا أحد شعراء النقد العنيف لأمته ، ولصالح عبد القادر المشارك فى النقد العنيف والشكوى من الزمن .

الشيخ عبد الله[1] البنا

هو نجل الشاعر الشيخ محمد عمر البنا المترجم له بين شعراء المديح ، رزق به سنة ١٣٠٨ هـ/١٨٩١ م وحفظ القرآن الكريم فى بيته ، ثم انتظم فى مدرسة رفاعة الأولية ، وتخرج فيها فالتحق بقسم المعلمين فى كلية غردون وتخرج فيه سنة ١٩١٢ واشتغل مدرسا بالكلية فترة ثم عمل فى مدرسة أم درمان . ويقول الأستاذ على الملك محقق ديوانه : « آخر عهده أنه كان رئيس شعبة اللغة العربية فى المدارس العليا » . وقد تفتحت ملكته الشعرية مبكرة ، وسرعان ما تألق اسمه مع علمين فى الشعر هما محمد سعيد العباسى وعبد الله عبد الرحمن وهم شعراء أفذاذ وتسنمّ الثلاثة ذروة الشعر السودانى فى النصف الأول من القرن الحالى ، ولكل منهم ديوان منشور يدل على شاعرية فذة . وكما تقيدنا فى الشاعر الشيخ محمد سعيد العباسى بما نشر من شعره قبل نهاية هذا العصر الذى نؤرخ له حتى سنة ١٩٢٤ للميلاد كذلك سنصنع بالشيخ عبد الله البنا مع أن له فرائد كثيرة مثل زميليه بعد هذا العصر .ومن أروع ما أنشده له صاحب شعراء السودان ومحمد عبد الرحيم فى كتابه نفثات اليراع قصيدته[2] فى ذكرى الهجرة النبوية التى دوّت شهرتها ، وهى فى مخاطبة الهلال الذى أهلّ ليلة رأس السنة الهجرية ، وله يقول :

ياذا الهلال عن الدنيا أو الدينِ	حَدِّثْ فإن حديثا منك يَشْفينى
خَــبِّرْ عن الأعْصُرِ الأولى لتضحكنى	فــإن أخبـــــار هـذا العصرِ تُبكينى

وهو يسأل الهلال أن يحدثه عن الدين أو الدنيا حتى يشفى نفسه من آلامها إزاء السودان وشعبه وأحواله ، وحتى يدخل السرور على نفسه المكلومة الباكية من أخبار السودان وأبنائه . ويرفع أمام أبصار السودانيين سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وعمر الفاروق ودمشق وبغداد وخلفائهما الذين أتاحوا للإسلام والعروبة مجدا عظيما ، لعل شيئا من سيرتهم يعود ، ويظهر من يحقق للأمة السودانية أو للأمة العربية عامة شيئا من هذا المجد ، ويتجه بالخطاب إلى الشعب السودانى منشدا :

---

(١) انظر فى ترجمة الشيخ عبدالله البنا وشعره كتاب شعراء السودان ص ١٥٧ وكتاب نفثات اليراع ص١٢٩ وكتاب الشعر الحديث فى السودان للدكتور محمد إبراهيم الشوش ص ٥١ وفى مواضع مختلفة وكتاب تاريخ الثقافة العربية فى السودان فى مواضع متعددة (انظر الفهرس) . وله ديوان باسم ديوان البنا (طبع الخرطوم) .

(٢) انظر القصيدة أيضا فى كتاب شعراء الوطنية فى السودان ص ٣٤١ والديوان ٦٤/١ .

إحصاء فواضله ، وطوبى لقبر أودعوه عظامه ، ويتمنى أن لو كان صدره له قبرا ، وهو بيت رائع . ويقول محمد العلوى المتوفى سنة ١٢٦٤ هـ/١٨٤٨ م – وكان شيخ طريقة وعالما فى الفقه والعربية والبلاغة – راثيا الشيخ محمدا الحافظ العلوى قائلا(١) :

سهرتْ جفونُك والمصاب مسهِّدُ ... يرثـى لليلتك السليـمُ الأرمَدُ(٢)
ورَثتْ لك الخنساءُ ، بعدُ متمِّمٌ ... ورثى لبيدٌ يوم فارقَ أربَدا
لمصيبةٍ صَدمتْ فؤادى صَدْمةً ... كادتْ بناتُ الجَوْف منها تَصْعَدُ
وجرى الدموعُ على الخدود كأنها ... نظمٌ جَرى من سِلْكه متبدِّدُ
وتصدَّعتْ كِبدى لهـا وكأنمـا ... بجوانحى منهـا حريـقٌ موقَدُ
وإذا بكيتُ شَجًى عليه فإنه ... تبكى وتندبُـه جمـوعٌ حُفَّدُ(٣)
وبكى عليـهِ ليلُـه ونهـاره ... والصَّوْمُ يبكى والتهجُّد يَرْعُدُ
وبكتْ بقاعٌ كان يعبـدُ ربَّـه ... فيهـا فيركـع ما يشـاء ويسجدُ

وهو يقول إنه لم يغمض له جفن حين سمع المصاب ، وكأنما كل ندب وكل تفجع فى ميت كان فيه ، حتى لكأنه لُدغ مرات، وكأن تفجع الخنساء على أخيها صخر ، وندب متمم لأخيه مالك بن نويرة ، وبكاء لبيد لأخيه أربد، كل ذلك كان رثاءًا حارًّا للمصيبة التى نزلت به وصدمته صدمة كادت أمعاؤه منها تصعد، وجرت دموعه على خدوده كأنها سلك ، تبددت حبّاته ، وتشققت كبده ، وكأنما فى جوانحه حريق موقد . ويقول إن الجموع من حوله تبكيه ، ويبكى عليه ليله ونهاره ، وصومه نهارا وتهجده ليلا ، ويستمر يذكر أن كل شىء يبكيه ، تبكيه صلاته ووضوءه ومسجده والكتب والأقلام والدواة والمصحف وبقاع الحرمين الطاهرة ويعددها مكانا مكانا ، ثم يقول – كما فى البيت الأخير – إنه عَبد ربه فيها وركع وسجد له طويلا . والمرثية بديعة . والمحمدو بن محمدى العلوى يرثى الشيخ مولود فال منشدا(٤) :

ما لراجى الخلودِ نَيْلُ الخلودِ ... إنَّ وِردَ المنـونِ خَتْمُ الـورودِ
أتطيبُ الحياة والشيخُ أمسى ... غَيَّبَتْه مغيَّبـاتُ اللُّحـودِ
إنَّ مالى من اصطبارٍ تولَّى ... إذ تَوَلَّى إنسـانُ عينِ الوجـودِ
طودُ علمٍ يَنْحُوه كلُّ مُريدٍ ... من حِمـاه يفـرُّ كلُّ مَرِيدِ(٥)
وإذا سُدَّ بابُ علمٍ عويصٍ ... كان مفتـاحَ بابِـه المسدودِ
عَلِم الأصـلَ والفـروعَ إلى أنْ ... ليس فى العلـم يَبْتَغى من مزيـد

---

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٣٠١ .
(٢) السليم : الملدوغ . الأرمد : من أصاب عينه الرمد .
(٣) حفد : حاشدة .
(٤) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٣١١ .
(٥) مريد : شيطان .

الكريمة من العلاء والشرف والعلم ، وينصرفوا عن الملاهي والمفاسد ، ويؤدوا واجباتهم الدينية من الفروض والسنن ، حتى تصبح حياة الشعب عزيزة كريمة ، وحتى يشعر كل غنى بواجبه من عون أخيه الفقير ، وحتى لا يقعد القوى عن قيامه بواجبه لأمته ، وحتى لا ينقبض سودانى عن بيان رأيه السديد فى كل ما يعود على الأمة السودانية بالخير . وينشد له صاحب كتاب الشعر فى السودان قصيدة[1] طويلة بعنوان : دمعة على اللغة العربية ، وهو فيها يعرض ازدهارها وعلماءها وشعراءها النابهين ورجالاتها فى العصور الماضية ، ويطيل فى بكائها وعويله على ما صارت إليه فى العصر الحاضر من ضيم شديد ، ويرد ذلك إلى ما أصاب أبناءها من النوم والهوان ، يقول :

أطلتُ عَتْبِى على الأيام حين جَنَتْ ... عليكِ فاستلبتْ أبهى مزاياكِ
ولـو أجابتْ لقالتْ إنهم نفرٌ ... ناموا فحالتْ بما ناموا سجاياكِ
ولو أجابت لقالتْ إن قومكِ قد ... رضوا الهوان فطالتْ فيه سُكناكِ
لو قَـدَّروكِ لعادتْ فيكِ ناضرةً ... روحُ الحيـــاة وسَرَّ الكونَ محياكِ

وهو يقول للغة العربية التى يبكيها فى قصيدته إنه أطال عتابه على الأيام لما جنت عليها وسلبتها بلاغتها الرائعة ، ويقول إن الأيام لو أجابت على هذه التهمة لتعللت بأن أبناءها ناموا على النهوض بها فتغيرت روعتها البيانية ، بل لتعللت بأنهم رضوا الهوان ، فطال سكناها له معهم ، ولو قدَّروها فى عصرنا حق قدرها لعادت روح الحياة فى أعطاف جسمها ناضرة ، وسرَّ الكونَ عودتُها إلى الحياة . والشاعر بذلك يستثير قومه للنهوض بالعربية ، فينعتهم بالنوم والهوان كى يثوروا غضبا ويحققوا للعربية كل ما يمكن من ازدهار ورونق وبهاء . وللشاعر نبويات متعددة منها نبوية طويلة شطر فيها بردة البوصيرى ، وله أيضا شعر اجتماعى كثير .

صالح[2] عبد القادر

لا نعرف شيئا عن نشأته ، غير أنه درس فى كلية غردون ، مثل كثير من الشعراء المعاصرين له ، وعكف فيها على قراءة كتب الأدب ودواوين الشعر واستيقظت فيه ملكة الشعر ، وتخرج فيها وعمل موظفا بالبريد . وتغلب على أشعاره مسحة الحزن والشكوى ، ويقول محمد عبد الرحيم إنه كان دائما فى صراع مع الأيام ، يعانى من نكد العيش . ويقول الأستاذ مصطفى طيب الأسماء إنه ممن شُرِّدوا وسُجنوا فى سبيل الوطنية، واعتُقل بمصر متهما بالاشتراك فى قتل

(١) انظر القصيدة فى ديوان البنا ٩٦/١ .

(٢) انظر فى ترجمة صالح عبد القادر وشعره نفثات اليراع ص ١٥٣ ، وشعراء السودان ص ١٤٧ ، والشعر الحديث فى السودان للدكتور محمد إبراهيم الشوش ص ١١٠ وكتاب دور الأدب فى النضال الوطنى فى السودان لمصطفى طيب الأسماء ص ٣١ .

السيرلى ستاك : حاكم السودان وسردار الجيش المصرى هناك ، وثبتت براءته فُردَّت إليه حريته . وشعره يتوزع بين نقد عنيف لأمته وشكوى صارخة من الزمن ، ومن النوع الأول قوله فى قومه : أهل السودان :

قومٌ قيامُ الفضل بين صدورهم كقيام هـودٍ بين أمـةِ هودِ
لا يشعرون بما أَلمَّ بشعبهم فكأنما قُـدُّوا من الجُلْمود(۱)
ومن الحجارة ما يلين وإنهم لا يعبأون بقـارص التنديد(۲)
يا أمةً غفلتْ وطـالَ جُمودها ماذا كسبتِ بغفلـةٍ وجمـودِ

وهو يبالغ فى استثارته لأمته فيقول إن قومه لا يمكن أن يؤتى الفضل ثماره بينهم فمثله فيهم كمثل هود فى قومه لا يشعرون أى شعور بما حل بهم من هوان ، وكأنما خلقوا من صخر ، ومن الصخر والحجارة ما يلين أما هم فلا يلينون ولا يحفلون بأى تنديد مهما كان شديدا عنيفا ، ويقول إنهم أحالوا دنيانا شقاءً وأغلالا ، ويهتف بأمته ضَجِرًا غاضبا ناعتا لها بالغفلة والجمود . ودائما كان يشكو من الزمن وما ينزل به من الكوارث والخطوب ، وإنه ليصرخ :

ألا هل معينٌ أو مواسٍ فأشتكى إليه همومًا بثُّ عفوا لها مُلْقَى
إلى الدَّهر أشكو وهْوَ عنىَ معرضٌ أصمُّ فلم يسمعْ ولم يحسن النُّطْقَا
صموتٌ ويقضى كلَّ ما لا أريدُه فيا بئسَ ما يَقْضِى ويا شرَّ ما أَلْقَى
وأسأله سلمًا فيَشْهَرُ سَيْفه فيا دهرُ ما أقسى ويا بؤس ما أَبقى
تحملتُ طفلا منك كلَّ عظيمةٍ وما العدلُ أنى بعد ذا عَلْقَمًا أُسْقَى
وتطلـبُ منى أن أغــيِّر مَبْدئِــى فيا بُعْدَ مطلوبٍ بِهِ طارتِ العَنْقا(۳)

وهو يتمنى معينًا له أو مواسيا ليشتكى إليه هموما ثقالا باتت جاثمة على صدره ، ويقول إنه يشكو إلى الدهر ، والدهر معرض عنه كأنه أصم لا يسمع ولا ينطق ، صامت ويقضى بكل ما لا أريده ، فذمًّا لما يقضى به ويا شر ما ألقى من الآلام الطوال ، وأضرع إليه أن يسالمنى فيشهر سيفه ويسلُّه لحربى ، فما أقساه ويا بؤس ما أبقاه منى وقد تحملت كوارثه فى طفولتى وليس عدلا أن يظل ينهكنى ويسقينى علقما مرا . ويطلب إليه الدهر أن يغير مبادئه حتى يجد عونا من بعض أصحاب الأمر والجاه ، فيقول إن ذلك مستحيل ، ويا بُعْدَ هذا الطلب الذى طارت به العنقاء إلى غير مآب . ويعود إلى الشكوى من الدهر منشدا :

---

(۱) قدوا : خُلقوا .
(۲) قارص : لادغ .
(۳) العنقا : العنقاء : طائر أسطورى .

لا تَلُمْني فتكن مُتَّهِمي   إن عقلي لم يكن متَّهما
ولُمِ الدهرَ على تقصيره   أخطأ الدهرُ وعمدًا ظلما
أبدا والله لا أعذره   طالما جار وحَقِّي هضَما[1]
وطَواني في زواياه التي   ضيَّعتْ ناسًا ووارتْ أمما
ولكم أزعجني منتقما   ولكم وجَّه نحوي تُهَمَا

وهو يخاطب صاحبه وقد رأى ما عليه من بؤس قائلا : لا تلمني ولا تتهمني فإن عقلي كما عهدته لا يأتي ما يتَّهم به ، ولُم الدهر على تقصيره في حقي ، فقد أخطأ في ظلمي عمدا ولا أعذره فطالما ظلمني وطالما نقصني حقي وطواني في زواياه المظلمة التي طالما طوى فيها ناسا وأخفى أمما ، ولكم أزعجني بما يصب عليَّ من انتقامه الشديد ، ولكم وجَّه إليَّ تهما ظالمة . ويتجه إلى قومه يريد أن يدفعهم إلى تلافي ما حدث لهم منشدا :

مَنْ لقومي ؟ إنهم قد أهملوا   ما بَنَى آباؤهم فانهدما
غلب اليأسُ عليهم إنهم   ضَعُفوا رأيا فزلُّوا قدَما
يا بني قومي أفيقوا إنكم   ما خُلقتم لتعيشوا غنما
ولقد يحزنني أني أرى   رأيكم مختلفا منقسما
فأفيقوا – يغفر الله لكم –   واطلبوا العليا وجاروا الأمما

وهو يتساءل من ينبه قومي إنهم أهملوا ما شاده آباؤهم فانهدم ، وغلب عليهم اليأس من تحقيق آمالهم ، إذ ضعفوا رأيا فزلت بهم الأقدام ، ويقول يا بني قومي أفيقوا من غفلتكم فإنكم ما خلقتم لتعيشوا غنما تتحكم فيكم الأمم ، وإنه لتحزنني فرقتكم وانقسامكم شيعا ، فأفيقوا من هذا الهم الثقيل واتحدوا واطلبوا العلياء والمجد ، وجاروا الأمم الناهضة في حياتها العاملة النشيطة .

٣

شعراء التصوف

كان التصوف شائعا منتشرا في العالم العربي منذ أن ظهرت طرق التصوف السني في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي ، وأخذت تتكاثر تلك الطرق بعد ذلك ، وكان طبيعيا أن يعم التصوف في السودان منذ القرن العاشر الهجري ، إذ كثر فيه بناء الخلايا الخاصة بالصوفية وكثر دعاة التصوف وخاصة دعاة الطريقتين : القادرية التي أسسها ببغداد عبد القادر

(١) هضم : نقص .

الجيلاني المتوفى سنة ٥٦١ هـ/١١٦٥ م والشاذلية لأبي الحسن الشاذلي التونسي المتوفى بمصر سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م ويقال – كما أسلفنا – إن الذى أدخل الطريقة القادرية إلى السودان الشيخ تاج الدين البهارى البغدادى . إذ نزل السودان فى النصف الثانى من القرن العاشر الهجرى ودعا إلى تلك الطريقة وكثر أتباعه ، وشاعت بجانب الطريقة الصوفية القادرية الطريقة الشاذلية ، ويبدو أنها سبقت الطريقة القادرية فى النزول بالسودان عن طريق بعض المغاربة النازلين فيه وطريق برنو وأيضا عن طريق مصر لأنها كانت شائعة بها شيوعا شديدا ، وألفت أسرة المجاذيب لها فرعا مهما فى مدينة الدامر . ويخيل إلى الإنسان أنه لم يكن فى السودان أحد طوال عصر الفونج إلا ينتسب إلى إحدى الطريقتين . وقد أفضنا فى الحديث عن تلك الطريقتين فى صدر عرضنا للمجتمع السودانى . وأيضا عن اتساع النزعة الصوفية فيه ، وقد دعا شعراؤهم دعوة واسعة إلى الزهد والتقشف ورفض متاع الدنيا انتظارًا لمتاع الآخرة ، ويقول الشيخ فرح تكتوك المار ذكره والمتوفى بعصر الفونج كما أسلفنا[1] :

كم دودةٍ فى عميق الأرض فى جُحُـرٍ ... يأتى لها رزقُها فى الوقت والحين
ألا الزَمِ العلم والتَّقْوَى وما نتجتْ ... من الثمـــار تَفُزْ بالخـــرَّد العِيــن
مَنْ باع دينًا بدنيا واستعزَّ بها ... كأنما بـــاع فِرْدَوْســًا بسِجِّين[2]
ولقمةٌ من طعـام البُرِّ تُشبعنى ... وجرعةٌ من قليل المــاء ترويني
وقطعةٌ مـن قليـــل الثـــوب تَستُرنى ... إن متُّ تكفِننى أو عشتُ تكسونى

فالله يرزق كل خلقه حتى الدود فى أعماق الأرض فلا تحملْ هما لجلب رزقٍ والزم التقوى وعبادةَ ربك تظفر فى الآخرة بالحور جميلات العيون ، وما أشقى من يبيع متاع الآخرة بمتاع الدنيا إنه يبيع فردوسا بواد من وديان جهنم وما متاع الدنيا ؟ إن لقمة من خبز القمح تشبع الشاعر وترويه جرعة من قليل الماء ، وتكفيه قطعة من قماش تستر جسمه ، إن مات كفّنته ، وإن عاش كسته . ومرَّ بنا فى كتاب الأندلس أن للزاهد أبى إسحق الإلبيرى قصيدة ختم أبياتها بلفظ الجلالة . ويبدو أن صوفيا سودانيا رأى أن يحاكيه فى هذا الصنيع ، فنظم مقطوعة ختمها بلفظ الجلالة أنشدها ودّ ضيف الله فى طبقاته من مثل قوله[3] :

اللهُ لى عُدَّةٌ فى كل نائبةٍ ... أقول فى كل حالٍ حَسْبِيَ اللهُ
إلى متى أنت فى لهوٍ وفى لعبٍ ... فما مقالُك فيما يعلم الله
إن الذنوب التى قدمتها كُتِبتْ ... إن كنت ناسيَها لـم ينسها الله

(١) شعراء السودان ص ٢٦١ .

(٢) سجين : واد فى جهنم .

(٣) طبقات ود ضيف الله ص ١٥٨ .

وهو يتخذ الله عدة في كل نائبة . وكلما نزلت به كارثة قال حسبي الله ، ويخاطب نفسه إلى متى هو في لعب ولهو منصرفا عن تقوى الله الذى يعلم كل ذنوبه إذ كتبها الملكان الرقيبان عليه ، وكأنه يستحث نفسه على الرجوع إلى تقوى ربه والانصراف عن اللهو واللعب إلى النسك والعبادة . وتكثر عند المتصوفة في عصر الفونج مثل هذه المعارضات لقصائد النساك ، وقد عارضوا ابن الفارض المصرى فى بعض قصائده الصوفية ، من ذلك معارضة الشيخ الصوفى موسى لتائيته المشهورة قائلا[1] :

سلامٌ على قومٍ إذا ذُكر اسمهم تهتَّكُ أستارٌ إليهم برَجْفةِ
تلألأتِ الأنوارُ من نحو خالقى بوقتِ قيامى أو جلوسى بخلوةِ

وهى لا تلحق تائية ابن الفارض فى روعة الصياغة والمعانى الصوفية ، ولكنها على كل حال تدل على نزعة صوفية قوية عند الشيخ موسى وإن لم يغمسها فى نور الشهود والفناء فى الذات العلية مثل ابن الفارض . واستمر تشطير الأبيات لأئمة الصوفية طويلا ، من ذلك ما أنشده صاحب كتاب الشعراء فى السودان من تشطير على الشامى السودانى لبعض أبيات لابن الفارض ، منها قوله :

(إنْ كان منزلتى فى الحب عندكُمُ) نحولُ جسمى وآلامى وإيلامى
أو أن يكون جزا روحى التى زهقتْ (ما قد رأيتُ فقد ضيَّعْتُ أيامى)
(أمنيةٌ ظفرتْ روحى بها زمنًا) حتى تركتُ مقامى بين أقوامى
كانت بأيـــامِ صَفْوٍ إذ حلتْ فخلَتْ (واليـــومَ أحسبها أضْغاثُ أحـلامِ)

وهو يقول إن كانت منزلتى فى الحب الإلهى لا تزيد عن نحول وآلام متصلة ، أو يكون هكذا جزاء روحى التى بلغت الحلقوم فقد ضيعت أيامى . وإنها لأمنية فازت بها روحى زمنا حتى نسيت قومى ، وهو زمن كانت أيامه أيام صفو وهناءة ، أياما حلوة مضت واليوم أحسبها أضغاث أحلام . ويقول الشيخ محمد سعيد العباسى متبتلا لربه[2] :

يا ربِّ أنت حمايتى فتولَّنى يا ربِّ أنت من النَّوائبِ مَفْزعى
جُدْ لى – وزيِّنْ ظاهِرى – بعوارفٍ وبباطنى نـورَ المعــارف أَوْدِعِ
واقبلْ شكايةَ فاقتى وتطلُّبى لنَداك وارحمْ ذِلَّتى وتوجعى
أنا عبدُ سوءٍ أوثقتْه ذنوبُه أنـا لائذٌ بحِمى الرَّحــاب الأوسعِ
إن لـم تكن لى من ذنـــوبٍ أثقلتْ ظَهْرى فما أقــوى ، وأفقرَ مرتعى[3]

(١) طبقات ود ضيف الله ص ١٥٤ وتاريخ الثقافة العربية فى السودان ص ١٩١ .

(٢) شعراء السودان ص ٣١٠ وراجع كتاب محمد سعيد العباسى للدكتور أحمد عبد الله سامى ص ٥٣ وديوان العباسى .

(٣) مرتعى : معيشتى .

وهو يضرع إلى ربه قائلا أنت حمايتى فاحمنى ، وأنت ملجئى من النوائب فأغثنى وجُدْ لى بإحسان منك أزيِّن به ظاهرى ، وأودع بدخائلى نور المعارف ، واقْبَلْ شكوى حاجتى لكرمك الفياض ، وارحم ذلى وتوجعى لرأفتك ، إنى عبد سوء من عبادك المذنبين وأنا لائذ بحمى ساحتك الواسعة ، وإن لم تكن لى وملجئى من هذه الذنوب الثقيلة فما أفقر مرتعى ومعيشتى . وعارض الشيخ محمد الطاهر المجذوب يائية ابن الفارض المشهورة بقصيدة استهلها بقوله[1] :

زائرى فى الطيف هل من عودةٍ   تَحْىَ منها مهجتى بل أصْغَرَىَّ

والأصغران : القلب، واللسان . وللشيخ محمد سعيد العباسى تخميس لبيتين للشبلى الصوفى على هذا النمط :

هواىَ أنت وهل فى ذاك من حرجٍ   أنتم ملاذى وأنتم فى الدُّجى سُرُجى
يا سادةً قويتْ فى حبِّكم حُجَجِى
(لا أبرح الباب حتى تُصْلحوا عِوَجِى   وتقبلونى على عيبى ونُقْصانى)
قلبى بكم يا سَراةَ الحىِّ فى شَغَفٍ   دمعى بعهدِ ربوع الظاعنين وَفِى
بالله عطفا على صَبٍّ لكم دَنِفٍ
(فإن رضيتم فيا عزِّى ويا شَرَفى   وإنْ أبيتم فمن أرجو لعصيانى)

والتخميس محكم ، وشطور العباسى الستة متداخلة فى بيتى الشبلى بدقة ، إذ كان بارعا فى صوغ شعره وأبياته .

٤

شعراء المدائح النبوية

تغنى كثيرون من شعراء السودان بمدائح الرسول ﷺ ، مثلهم فى ذلك مثل الشعراء فى جميع بلدان الوطن العربى ، إذ هو المثل الرفيع لكل مسلم فى تقواه وعبادته لربه وورعه . وقد أخذت هذه المدائح تتكاثر بالسودان منذ القرن الثالث عشر الهجرى/التاسع عشر الميلادى حتى لينظم بعض الشعراء دواوين كاملة فى المديح النبوى مثل محمد عثمان الميرغنى وديوانه : « النور البراق فى مدح النبى المصداق » والسيد أحمد بن إدريس وديوانه : « رياض المديح » والشيخ أبى القاسم أحمد هاشم وديوانه : « روض الصفا فى مديح المصطفى » . ونلتقى عند الشيخ الأمين الضرير المتوفى سنة ١٣٠٢ هـ/١٨٨٥ م بمدحة نبوية ورَّى فيها بسور القرآن الكريم

(١) تاريخ الثقافة العربية فى السودان ص ١٩١ .

على غرار مدحة نبوية لابن جابر الأندلسي ، أنشدنا منها قطعة فى ترجمته بكتابنا عن الأندلس ، ويقول الشيخ الأمين الضرير فى فواتح مدحته[1] :

ما للنساء كمثل المصطفى ولدٌ إذ منه مائدةُ الأنعــام والعُقــلا
أعرافُه المسك والأنفال وافرةٌ لمن به توبــةٌ كى تُذْهبَ الوجَلا[2]
به ليونسَ أنسٌ ثم هودٌ هدى ويوسفٌ حسنُه من أجلــه كملا

والأبيات تذكر بالترتيب سور النساء والمائدة والأنعام فى البيت الأول وسور الأعراف والأنفال والتوبة فى البيت الثانى وسور يونس وهود ويوسف فى البيت الثالث ، واسم السورة يلتحم بمعناه فى البيت ، والأعراف جمع عرف بمعنى المعروف والأنفال العطايا ، وهما اسما السورتين بعد الأنعام ، وتتوالى السور بترتيب المصحف . ويختم القصيدة بالصلاة على الرسول ﷺ . وللشيخ أبى القاسم أحمد هاشم المترجم له فى شعراء الغزل العذرى مدحة نبوية بديعة يقول فيها[3] :

أحمدٌ ولأنت أكــرمُ مرسـلٍ وأحــقُّ من بمديحـــه يُتَقَرَّبُ
أحمدٌ ما أنت إلا رحمـــةٌ وبشارةٌ ، لك كلُّ خيرٍ يُنْسَبُ
يا بنَ العوالى الشُّمِّ من مُضَرٍ ويا سِرَّ الوجود لك الفِناء الأرحبُ
يا سيدى يا خاتَم الرسل الكرا م ومَنْ إليك الملتجا والمهربُ
مدحتْك آياتُ الكتابِ ونَوَّهتْ بفضائلٍ عن دَرْك غيرك تُحْجَبُ
كلُّ الكمــال فأنت غايـــةُ حَدِّه ما نــال ما قد نلتَـــه متقرِّبُ

والشيخ أبو القاسم يخاطب الرسول قائلا إنه أحق مرسل يتقرب المسلم بمديحه إلى ربه ، وقد أرسله رحمة وبشرى لعباده ، وإليه ينسب كل خير ، إنه ابن السادة العظام من مضر ، وسر الوجود جميعه ، وله المجد الأرحب ، إنه خاتم الرسل الكرام والملجأ لكل خائف فزع ، وقد مدحته آيات القرآن بمثل (وإنك لعلى خلق عظيم) ونوهت له بفضائل دون غيره ، إنه عين الكمال وغايته ومنتهاه ، ولم ينل أحد من ربه ما نال من فضله . والمدحة بديعة ولم يترجم له صاحب نفثات اليراع ولم ينشد له صاحب شعراء السودان سوى هذه المدحة مع أن له ديوانا جميعه مدائح نبوية باسم « روض الصفا فى مدح المصطفى » كما أسلفنا . وكان يعاصره

(١) شعراء السودان ص ٢٢ .
(٢) الوجل : الخوف .
(٣) شعراء السودان ص ٣٣ .

الشيخ عمر الأزهرى وأنشد له صاحب الشعراء فى السودان ثلاث مدائح نبوية ، وسنفرد له ترجمة . وللشيخ إبراهيم هاشم مدحتان نبويتان يقول فى إحداهما[1] :

هــذا محمــدٌ الذى ملأ البلاد هُدىً وجادْ
وهــو الموصِّــل للطريـــق المستقيـم وللسَّداد
وهــو المبشِّر والمحـــذِّر والمحــرِّض للجهــاد
وهو الموصِّل للسَّلا مة فى القيامة والمعادْ
والله أعْلَى ذكــــره وأذاعه فى كل نــادْ

وهو يقول إن هدى محمد ﷺ ملأ البلاد ومازال يجود ويفيض ، وهو الموصل لطريق السعادة فى الدنيا والآخرة ، طريق الرشد والسداد ، وهو المبشر بنعيم الله والمحذر من عذابه وجحيمه والمحرض للجهاد فى سبيله ، وهو الموصل للأمن والسلامة يوم القيامة وفى الحياة الآخرة ، وقد أعلى الله ذكره ، ونشره فى كل ناد بين الناس أجمعين . ويلقانا الشيخ عبد الله عبد الرحمن ، وسنترجم له عما قليل . ويقول عثمان هاشم فى الاحتفال بليلة الميلاد النبوى سنة ١٣٣٩ هـ/١٩٢١ م منشدا[2] :

بجلالِ ذكـرك تَفْخر الأعـوامُ وبحسنِ يـومك تَزْدهى الأيــامُ
يا ليلةَ الميلاد حَسْبُكِ مفخرا نــورٌ عليه من النبىِّ تمامُ
ضاءتْ به الدنيا وأزهَر نورُها بالمسلمـين وأُشـرق الإســلام
شرفًا بأحمدَ خيرِ مَنْ وطىء الثَّرَى وله على السَّبع الطِّباق مقامُ
لولاك يا بنَ الأكرمـين لما اهتدتْ تلك الشعـوبُ ولا استقام نظـامُ

وهو يحيِّى ليلة ميلاد الرسول ﷺ ، ويقول لها إن الأعوام تفخر بذكرك وتتيه بيومك الأيام وحسبك مفخرا وزهوا وعظمة ما رافق الرسول فى مولده من النور العظيم . أضاءت به الدنيا وعظم نورها بالمسلمين وأشرق الإسلام وتبلَّج فى الآفاق نوره ، شرفا لا يماثله شرف بالرسول العظيم خير إنسان وطىء الثرى وقد صعد به ربه وأتاح له فى معراجه مقاما فوق السموات السبع ، ولولاه ما اهتدت الشعوب الإسلامية ولا استقام لها ملك ولا حكم ولا نظام . ويبكى فى مدحته الإسلام مقارنا بين ماضيه وحاضره وما أصاب أقوامه وشعوبه من التخاذل . ويعود إلى تحية العام الهجرى فى قصيدة ثانية باكيا الإسلام والمسلمين وما عمَّ بينهم من عداء وأحقاد ، ويهتف[3] :

(١) شعراء السودان ص ٥٩ .
(٢) شعراء السودان ص ٢١٧ .
(٣) شعراء السودان ص ٢٢٩ .

غَدتْ ملَّةُ الإسلام تبكى تأسُّفًا ... كأن لم يكن فوق البسيطة مسلمُ
تنــوح على أيامهــا وشبابهــا ... فيبكى لها البيتُ العتيقُ وزَمْزَمُ
لقد عمل الأعداءُ كيدًا لسَحْقها ... فهــا هى بين القــوم نهبٌ مقسَّم
تذكَّرتِ الصِّدِّيقَ إبَّــانَ مجدهــا ... فبلَّلها سَحٌّ من الدمــعِ مُسْجم[1]
تنادى بصوتٍ يَقْطع القلبَ حسرةً ... دراكِ أبــا حفصٍ فقد كدتُ أُعْدَمُ

وملة الإسلام تبكى متحسرة ، كأن لم يبق فوق الأرض مسلم ، تنوح على أيامها الماضية وشباب مجدها الغابر،ويبكى لها المسجد الحرام وبئر زمزم ، فقد اجتمع أعداؤها على الكيد لها، وتلك ديارها نهب مقسم بينهم . وتذكرتْ أبا بكر الصديق العظيم فى أوائل مجدها وعزتها وذرفت الدمع مدرارا، وتعْول بصوت محزون منادية الفاروق عمر بن الخطاب أدركْنى قبل أن يفتك بى الأعداء. وللشيخ مدثِّر البوشى المولود سنة١٩٠٣ للميلاد مدحة نبوية بديعة ، استهلها بنقد عنيف لشعبه السودانى ، يريد أن يدفعه إلى العمل والعلم على هدى الشريعة المحمدية،وينشد[2] :

اللَّهُ أكبرُ هذا يــومُ مولدِهِ ... فالكونُ مبتهجٌ من نوره الحسنِ
حُيِّيتِ يا ليلــةَ الميــلاد مشرقةً ... على الربوع بوجهٍ ساطع الزَّيَنِ
حُيِّيت يا ليلــة الميــلاد جالبةً ... لِلبِشْر مذهبــةً للهمِّ والحــزنِ
حُيِّيتِ يا ليلة الميلاد كم رقصتْ ... فيكِ النفوسُ فحاكتْ مائسَ الغصُنِ
حييتِ يا ليلة الميلاد إن لنا ... فخرا بتجديد ذكرى خيرِ مؤتمَنِ
هــو النبىُّ الذى عمَّت فواضلــهُ ... كلَّ الوجود كَصَوْب العــارض الهَتِنِ

والشيخ مدثر يكبِّر معظما يوم مولد الرسول الذى عمت الكونَ بهجتُه من نوره الوضاء ، ويحيِّى ليلة ميلاده التى استحالت على الآفاق ليلة مضيئة بوجه مشرق مزدان بالأضواء والأنوار ، وقد جلبت البشر والسرور ومحت الهم والحزن ، ويقول كم رقصت فيها النفوس طربا محاكية الغصون المختالة ، وإن لنا فيها لفخرا عظيما بتمجيد ذكرى خير الرسل ، إنه النبى الذى عمَّت أفضاله كل الوجود كما يعم مطر السحاب الهاطل أطباق الأرض . وللشيخ مدثر همْزية اختصر بها السيرة النبوية فى ١٢٣ بيتا[3] .

الشيخ عمر[4] الأزهرى

هو الشيخ عمر بن عبد الله الأزهرى ، من ذرية عقيل بن أبى طالب ، ولد سنة ١٢٧٠ هـ/ ١٨٥٣ م وتوفى سنة ١٣٣٣ هـ/١٩١٥ م رُزق به أبوه الصوفى من أعمال القطارف جنوبى

(١) سح : سيل . مسجم دائم السيلان .
(٢) شعراء السودان ص ٣٣٦ .
(٣) أنشد هذه الهمزية صاحب نفثات اليراع ص ١٧٥ .
(٤) انظر فى ترجمة الشيخ عمر الأزهرى ومدائحه النبوية كتاب الشعراء فى السودان ص ٢٤٩ وراجع نفثات اليراع ص ٩٨ وكتاب الشعر الحديث فى السودان للدكتور الشوش فى حديثه عن المديح النبوى وشعراء الوطنية فى السودان ص ٣١٠ وما بعدها .

نهر عطبرة رافد النيل ، وعنى به أبوه ، فحفظ القرآن الكريم ، وبعد حفظه درس على شيوخ مختلفين علوم الفقه واللغة العربية . وفى سن العشرين رحل إلى القاهرة واختلف إلى حلقات شيوخ الأزهر ينهل منها ما شاء ، حتى ثقف العلوم الدينية وعلوم العربية ثقافة جيدة ، وعاد إلى موطنه وفيه عُنى بتدريس الفقه والنحو وعلوم البلاغة ، وتقلد منصب القضاء فى عهد الدعوة المهدية وأقرّته دولة الحكم الثنائى فى منصبه. وكان عالما جليلا وشاعرا مجيد ، وأنشد له صاحب الشعراء فى السودان ثلاث مدائح نبوية ، وفى إحداها يقول عن الرسول منوها به ومشيدا :

المنتقى المبعوث من بين الورى ... للخلق طرًّا إنْسُهُ أوجانُهْ
لولاه ما كان الوجودُ ولم يكن ... مُلْكٌ ولا مَلِكٌ ولا أعوانه
حتى ولم يَكُ آدمٌ كلاًّ ولا ... شيثٌ ولا نوحٌ ولا طوفانه
ونَجَا الخليلُ بجاهــه من نـار نَمْـ ... ـرودٍ لعمــرى إذ جفـا خِلاَّنــه

وهو يصف الرسول بأنه المختار المبعوث لهداية الخلق جميعا من الإنس والجنّ ، ويستضىء بشعاع ممن نوّهوا قبله بالحقيقة المحمدية وأن الرسول علة الوجود ، فيقول لولاه ما كان الوجود ولا دول ولا ملوك ولا كان آدم ولا شيث ولا نوح وطوفانه . وبجاهه نجا إبراهيم الخليل من نار نمرود واستحالت بردا وسلاما . ويمضى فى القصيدة قائلا : بجاهه نجا كليم الله موسى من فرعون وهامانه ، وباسمه دعا ذو النون ربه فى ظلمات البحار فاستجاب له ، وبالمثل استجاب لأيوب وكشف عنه ما به من ضُرّ ، فهو سِرُّ الوجود الذى لولاه ما خرجت الدنيا من العدم ، وهو مبدأ الأنبياء والرسل ومنتهاهم وكل ما حدث لهم من معجزات فبفضله الأزلى ، ويقول الشيخ عمر فى نفس القصيدة :

جُمِعَتْ خِصالُ المرسَلين له كما ... جَمَعَ الذى فى كُتْبِهم فُرْقـانُهْ
كم قد عفا عمَّن أساء وكم هَدَى ... من ضلَّ عن طرُق الهدى تِبْيانُه
يمشى ويَكْنِسُ دارَه ويَخِيط ثَـوْ ... بًا قد عفـا والصفــح ذلك شأنُــهْ
يا من علا فوق الطباق ومن عَلا الـ ... ـرُّسُلَ الكــرام هو المكينُ مكانه
يـا سيدَ الثَّقلــين يا مُجْلِى الصَّــدَا ... يا عينَ هذا الكـــونِ بل إنسانُــهْ

وهو يقول إن كل الخصال الفاضلة للرسل جمعت له كما جمع قرآنه كل ما فى الكتب السماوية قبله . ومن صفاته الكبرى العفو وكم هدى أناسا كانوا ضالين ببيانه الرائع ، وإنه مثال للتواضع كما حكى كتّاب السيرة وقالوا إنه كان أحيانا يكنس داره ويخيط ثوبه ، وكان دأبه الصفح والعفو والغفران ، ويقول إنه علا فى معراجه فوق السموات السبع وعلا الرسل وسما فوقهم ، إنه سيد الإنس من الجن ، وإنه يجلو الصَّدا وكل غشاوة ، وهو عين الكون

بل بإنسانه الذى به يبصر . وهذه المدحة أروع مِدَحِه الثلاث ، وهو فى المدحتين الأخريين يعنى ببيان معجزات الرسول التى ترددها كتب السيرة .

الشيخ عبد[1] الله عبد الرحمن

ولد فى جزيرة توتى المواجهة للخرطوم سنة ١٣٠٩ هـ/١٨٩٢ م لأبيه القاضى عبد الرحمن بن الأمين الضرير شيخ علماء السودان وكان شاعرا مجيدا ومرت بنا مدحة نبوية بديعة له ، وعني به أبوه ، فوجهه لحفظ القرآن الكريم وأتمه سنة ١٣٢١ هـ / ١٩٠٣ م ولزم أباه فى تنقله قاضيا شرعيا بأبى حمد ودنقلة والقطينة ، وكان أهم أساتذته إذ درس عليه العربية والفقه وعلم التوحيد أو الكلام . والتحق بكلية غوردون سنة ١٣٢٣ هـ / ١٩٠٦ م بقسم المعلمين والقضاة . وتخرج فيه سنة ١٣٢٨ هـ / ١٩١١ م وعُيِّن مدرسا للغة العربية بالمدارس الثانوية فى وزارة المعارف السودانية . وتفتحت ملكته الشعرية مبكرة وما هى إلا سنوات حتى اشتهر ، ومن فرائده نونية فى وصف الطبيعة السودانية استهلها بقوله :

كم للطبيعة فى السـودان مِنْ فِتَنٍ ‌ ‌ ‌ وكم لأطيـارها من سِحْرِ ألحانِ

وقد نظمها سنة ١٩٣٤ بعد هذا العصر الذى نؤرخ له ، وهو أحد ثلاثة أفذاذ من الشعراء السودانيين تعاصروا فى النصف الأول من القرن العشرين ، وكانت لهم شهره مدوية فى عالم الشعر السودانى هو ومحمد سعيد العباسى وعبد الله البنا ، ولهم جميعا شعر وطنى واجتماعى كثير ، وكل منهم خليق بدراسة مستقلة . ويقول صاحب كتاب شعراء السودان : « له فى المدائح النبوية الباع الطويل والقدح المعلى » وأنشد له نبوية ألقاها سنة ١٣٤١هـ/ ١٩٢٣م فى حفل المولد النبوى ، وفيها يقول :

نبىٌّ كان للدنيـــا جمـــالا ‌ ‌ ‌ وذخــرا للعديـــم وللغنــىّ
نبىٌّ قد يُجير على الليـالى ‌ ‌ ‌ إذا ما جُنَّ بالأمــر الفَرِىِّ[2]
لعمرُك ما النبىُّ - فدتْك نفسى - ‌ ‌ ‌ بمنطلــقِ اللســان على البَذِىِّ
ولا هَلِعٌ تزعزعــه خطـوبٌ ‌ ‌ ‌ ولا مُهـدِى الملامـــة للمسىِّ
ولكـن قد عرفنــاه رءوفــا ‌ ‌ ‌ يـردُّ عوادىَ الدهـــرِ العَتِىِّ[3]

فالنبى ﷺ كان جمالا لا يماثله جمال وكنزا ماديا للفقير ومعنويا للغنى ، وكان يجير على الليالى إذا ما جاءت بالخطوب الخطيرة ، وكان عف اللسان حتى مع البذىء المذموم ، ولم

---

(١) انظر فى ترجمة الشيخ عبد الله عبد الرحمن وشعره نفثات اليراع ص١١٥ وكتاب الشعراء فى السودان ص ١٨٧ وكتاب الشعر الحديث فى السودان للدكتور محمد إبراهيم الشوش ص ٦٤ ومابعدها وفى مواضع مختلفة وكتاب الشعر والشعراء فى السودان لأحمد أبوسعد (طبع دارالمعارف بيروت) ص٣٣. وكتاب تاريخ الثقافة العربية فى السودان للدكتور عبد المجيد عابدين (انظر الفهرس) وله ديوان منشور من قديم .

(٢) الفرى : المختلق ويريد الخطير .

(٣) عوادى الدهر : نوائبه . العتىّ : الجبار .

يكن جَزِعا تعصف به الخطوب الخطيرة ، وكان رقيق الحسّ حتى لا يلوم المسىء على إساءته ، وكانت الرأفة والرحمة ملءَ فؤاده ، وكان يعرف كيف يرد كوارث الدهر الجبار . ولا يلبث أن يقول فى الرسول الكريم :

وهُوْ أصلُ الوجودِ بلا مِراءٍ ... وهُوْ سُرّ الحياة لكل حَىّ
أتى بالملّــة السمحاءِ يدعــو ... إلى الأخــلاق والشّرْع السَّوِىّ
وأقسِمُ مــا سحــابٌ مكفهرٌّ ... كأن بريقـــه قسمــاتُ مَىّ[1]
يروِّى الأرض من غَوْرٍ ونَجْدٍ ... بأجــودَ من بَنــان الهاشمىّ
وما أسدٌ لـه بالغــاب زأْرٌ ... يُصِمّ الأُذْنَ من فَـرْط الـدوىّ
بأشجعَ منــه فى الهيجــاء قَلْبًا ... إذا برقتْ شبـــاةُ السَّمْهَرِىّ[2]

والشيخ عبد الله يستلهم فى البيت الأول فكرة الحقيقة المحمدية وأن الرسول ﷺ الأصل الأزلىُّ للوجود قبل نشأته وكل حياة لموجود فى الكون مستمدة منه . ويصف الشاعر الدين الحنيف بأنه دين سمح وأن شرعه شرع سوىّ عادل لا إفراط فيه ولا تفريط ، ويقسم أن السحاب المعتم لكثرة أمطاره وبريقه الذى يشبه قسمات وجه « مى » فى ضيائه ، المروّى للأرض فى وديانها وأنجادها أو مرتفعاتها العالية ليس هذا السحاب أكرم من بنان الرسول الفائضة بالجود ، وليس الأسد الغضنفر الذى يزأر فى غابه زئيرا يصمُّ دويه الأذن بأشجع من الرسول إذا حميت الحرب . وللشاعر مدحة نبوية دالية أنشد منها صاحب كتاب الشعراء فى السودان مقدمتها الغزلية وقوله فى وصف معجزة القرآن الخالدة :

مَثانى حارت الشعراء فيها ... وردَّتْ كلَّ جبَّارٍ عنيدِ
متى ما يَتْلها أحـــدٌ بنــادٍ ... يقـول المُنتدَى هل من مزيدِ

والمثانى يريد بها آيات القرآن الكريم لأنها تعاد فى ألسنة حفاظها . ويقول إن الشعراء حارت فى روعتها البلاغية وبُهت كل جبار معاند للرسول ورسالته ، وحين يتلوها أحد بنادٍ يشدُّ إليها انتباه الناس ويطلبون المزيد منها لبلاغتها الرفيعة المعجزة .

(١) المكفهر : الأسود المعتم . (٢) شباة السمهرى : حد السيف .

فهرس الكتاب

الصفحة

القسم الثاني : المغرب الأقصى

الصفحة

الصفحة

القسم الثالث : موريتانيا

الصفحة

القسم الرابع : السودان

الصفحة

كتب للمؤلف مطبوعة بالدار

فى الدراسات القرآنية

- الوجيز فى تفسير القرآن الكريم
  الطبعة الأولى ١٠٥٢ صفحة
- سورة الرحمن وسور قصار
  عرض ودراسة الطبعة الرابعة ٤٠٤ صفحات

فى تاريخ الأدب العربى

- العصر الجاهلى
  الطبعة السابعة عشرة ٤٣٦ صفحة
- العصر الإسلامى
  الطبعة الرابعة عشرة ٤٦١ صفحة
- العصر العباسى الأول
  الطبعة الثالثة عشرة ٥٧٦ صفحة
- العصر العباسى الثانى
  الطبعة التاسعة ٦٥٧ صفحة
- عصر الدول والإمارات
  الجزيرة العربية – العراق – إيران
  الطبعة الثالثة ٦٨٨ صفحة
- عصر الدول والإمارات
  الشام الطبعة الثالثة ٣٥٦ صفحة
- عصر الدول والإمارات
  مصر الطبعة الثالثة ٥٠٠ صفحة
- عصر الدول والإمارات
  الأندلس الطبعة الثانية ٥٥٢ صفحة
- عصر الدول والإمارات
  ليبيا – تونس – صقلية
  الطبعة الأولى ٤٤٦ صفحة
- عصر الدول والإمارات
  الجزائر – المغرب الأقصى – موريتانيا – السودان
  الطبعة الأولى

فى مكتبة الدراسات الأدبية

- الفن ومذاهبه فى الشعر العربى
  الطبعة الثانية عشرة ٥٢٤ صفحة
- الفن ومذاهبه فى النثر العربى
  الطبعة الحادية عشرة ٤٠٠ صفحة
- التطور والتجديد فى الشعر الأموى
  الطبعة العاشرة ٣٤٠ صفحة
- دراسات فى الشعر العربى المعاصر
  الطبعة التاسعة ٢٩٢ صفحة
- شوقى شاعر العصر الحديث
  الطبعة الثالثة عشرة ٢٨٦ صفحة
- الأدب العربى المعاصر فى مصر
  الطبعة العاشرة ٣٠٨ صفحة
- البارودى رائد الشعر الحديث
  الطبعة العاشرة ٣٠٨ صفحة
- الشعر والغناء فى المدينة ومكة لعصر بنى أمية
  الطبعة الخامسة ٣٣٦ صفحة
- البحث الأدبى :
  طبيعته – مناهجه – أصوله – مصادره
  الطبعة السادسة ٢٧٨ صفحة
- الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور
  الطبعة الثانية ٢٥٦ صفحة
- فى التراث والشعر واللغة
  الطبعة الأولى ٢٧٦ صفحة

فى الدراسات النقدية

- فى النقد الأدبى
  الطبعة الثامنة ٢٥٠ صفحة

● فصول فى الشعر ونقده
الطبعة الثالثة ٣٦٨ صفحة

فى الدراسات البلاغية واللغوية

●البلاغة : تطور وتاريخ
الطبعة التاسعة ٣٨٠ صفحة

●المدارس النحوية
الطبعة السابعة ٣٧٦ صفحة

●تجديد النحو
الطبعة الرابعة ٢٨٢ صفحة

●تيسير النحو التعليمي قديمًا وحديثًا مع نهج تجديده
الطبعة الثانية ٢٠٨ صفحة

●تيسيرات لغوية
الطبعة الأولى ٢٠٠ صفحة

●تحريفات العامية للفصحى
الطبعة الأولى ٢٠٣ صفحة

فى مجموعة نوابغ الفكر العربى

●ابن زيدون
الطبعة الحادية عشرة ١٢٤ صفحة

فى مجموعة فنون الأدب العربى

●الرثاء
الطبعة الرابعة ١١٢ صفحة

●المقامة
الطبعة الخامسة ١٠٨ صفحات

●النقد
الطبعة الخامسة ١١٢ صفحة

●الترجمة الشخصية
الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة

●الرحلات
الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة

فى التراث المحقق

●المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد
الجزء الأول - الطبعة الرابعة ٤٦٨ صفحة
الجزء الثانى - الطبعة الرابعة ٥٧٢ صفحة

●كتاب السبعة فى القراءات لابن مجاهد
الطبعة الثالثة ٧٨٨ صفحة

●كتاب الرد على النحاة
الطبعة الثالثة ١٥٢ صفحة

●الدرر فى اختصار المغازى والسير لابن عبد البر
الطبعة الثالثة ٣٥٦ صفحة

فى سلسلة « اقرأ »

●العقاد — الطبعة الخامسة

●البطولة فى الشعر العربى — الطبعة الثانية

●الفكاهة فى مصر — الطبعة الثانية

●معى (١) — الطبعة الثانية

●معى (٢) — الطبعة الأولى

١ / ٩٢ / ٢٣٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

Tārīkh Al-Adab Al-'Arabī

10

Dr. SHAWQĪ DAYF

'Asr
Al Dewal wa'l Imārāt

DAR AL-MAAREF